أخبار اليوم
قطاع الثقافة
والكتب والمكتبات

تفسير الشعراوي

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله كما علمنا أن نحمده، وصلى الله وسلم على رحمته وخاتم رسله سيدنا محمد "وبعد" ..

فهذا حصاد عمري العلمي، وحصيلة جهادي الاجتهادي شرفني فيه أني عشت كتاب الله، وتطلعت للاستقبال فيه الله ولعلي أكون قد وفيت حقه إيماني، وأديت واجب عرفاني وأسأل الله سبحانه أن تكون خواطري هذه مفتاح خواطر من يأتي بعدي، وكتاب الله لا تنقضي عجائبه حتى يرث الله الأرض ومن عليها، وحينئذ نعلم من الله ما ادخره لمن هداه.

وحسبنا الله ونعم الوكيل.

محمد متولي الشعراوي

بسم الله الرحمن الرحيم

مدخل ..

بسم الله الرحمن الرحيم .. والحمد لله رب العالمين ..
والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ..

خواطرى حول القرآن الكريم لا تعنى تفسيرا للقرآن .. وانما هى هبات صفائية .. تخطر على قلب مؤمن فى آية أو بضع آيات .. ولو أن القرآن من الممكن أن يفسر .. لكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أولى الناس بتفسيره .. لأنه عليه نزل وبه انفعل وله بلّغ وبه علم وعمل .. وله ظهرت معجزاته . ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم .. اكتفى أن يبين للناس على قدر حاجتهم من العبادة التى تبين لهم أحكام التكليف فى القرآن الكريم وهى افعل ولا تفعل .. تلك الأحكام التى يثاب عليها الانسان ان فعلها ، ويعاقب ان تركها .. هذه هى أسس العبادة لله سبحانه وتعالى .. التى أنزلها فى القرآن الكريم كمنهج لحياة البشر على الأرض .. أما الاسرار المكتنزة فى القرآن حول الوجود ، فقد اكتفى رسول الله صلى الله عليه وسلم بما علم منها .. لأنها بمقياس العقل فى هذا الوقت لم تكن العقول تستطيع أن تتقبلها ، وكان طرح هذه الموضوعات سيثير جدلا يفسد قضية الدين ، ويجعل الناس ينصرفون عن فهم منهج الله فى العبادة الى جدل حول قضايا لن يصلوا فيها الى شىء .

والقرآن لم يأت ليعلمنا أسرار الكون ، ولكنه جاء بأحكام التكليف واضحة وأسرار الوجود مكتنزة .. حتى تتقدم الحضارات ويتسع فهم العقل البشرى .. فيكشف الله سبحانه وتعالى من أسرار الكون ما يجعلنا أكثر فهما لعطاءات القرآن

لأسرار الوجود ، فكلما تقدم الزمن وكشف الله للانسان عن سر جديد فى الكون ظهر اعجاز فى القرآن . . لأن الله سبحانه وتعالى قد أشار الى هذه الآيات الكونية فى كتابه العزيز . . وقد تكون الاشارة الى آية واحدة أو بضع آيات . . ولكن هذه الآية أو الآيات تعطينا اعجازا لا يستطيع العلم أن يصل الى دقته .

والقرآن الكريم حمل معه وقت نزوله معجزات . . تدل على صدق البلاغ عن الله سبحانه وتعالى . . وعن صدق رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم . . وكانت أول معجزة أن القرآن كلام الله . . فيه من عطاء الله ما تحبه النفس البشرية ويستميلها . .

انه يخاطب ملكات خفية فى النفس لا نعرفها نحن ولكن يعرفها الله سبحانه وتعالى خالق الانسان وهو أعلم به . . هذه الملكات تنفعل حين تسمع القرآن فتلين القلوب ويدخل الايمان اليها . . ولقد تنبه الكفار الى تأثير القرآن الكريم فى النفس البشرية . . تأثيرا لا يستطيع أن يفسره أحد . . ولكنه يجذب النفس الى طريق الايمان ويدخل الرحمة فى القلوب .

لذلك كان أئمة الكفر يخافون أكثر ما يخافون . . من سماع الكفار للقرآن . . ويحاولون منع ذلك بأى وسيلة . . ويعتدون على من يتلو القرآن . . ولو أن هذا القرآن لم يكن كلام الله الذى وضع فيه من الأسرار ما يخاطب ملكات خفية فى النفس البشرية . . ما اهتم أئمة الكفر أن يستمع أحد للقرآن أو لا يستمع . . ولكن شعورهم بما يفعله كلام الله . . جعلهم لا يمنعون سماع القرآن فقط . . بل قالوا كما يروى لنا القرآن الكريم :

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾

(سورة فصلت)

وهكذا نعرف أنه حتى أهل الكفر كانوا لا يمنعون سماع القرآن فقط . . بل يطلبون من أنصارهم أن يلغوا فيه ، ومعناها (يشوشرون عليه) . ولا يمكن أن يكون هذا هو مسلكهم وتلك هى طريقتهم الا خوفا مما يفعله القرآن فى كسب النفس البشرية الى الايمان . . إن مجرد تلاوته تجذب النفس الكافرة الى منهج الله .

ولو نأخذ مثلا قصة اسلام عمر بن الخطاب رضى الله عنه . . نجد أنه علم أن اخته فاطمة وزوجها ابن عمه سعيد بن زيد قد أسلما . . فأسرع اليهما ليبطش بهما وحاول أن يفتك بسعيد بن زيد . . فلما تدخلت زوجته فاطمة لحمايته . . ضربها حتى سال منها الدم . . وعندما رأى عمر الدم يسيل من وجه أخته فاطمة . . رق قلبه وحدث فى قلبه انفعال بالرحمة بدلا من انفعال الايذاء . . فخرج العناد من قلبه وملأه الصفاء . . فطلب من أخته صحيفة القرآن التى كانا يقرآن منها . . وقرأ من أول سورة طه ثم قال ؛ ما أحسن هذا الكلام وأكرمه . . ثم أسرع الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلن اسلامه . . ولذلك فانه اذا خرج العناد والكفر من القلب . . واستمع الانسان بصفاء الى القرآن دخل الايمان الى قلبه .

لقد سمع عمر بن الخطاب رضى الله عنه القرآن قبل ذلك ولم يسلم . . ولكنه عندما رأى الدم يسيل على وجه أخته وتبدل انفعال الايذاء فى قلبه بانفعال الرحمة . . استقبل القرآن بنفس صافية فامتلأ قلبه بالايمان وأسرع الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلن اسلامه .

ولذلك كان الكفار يحاولون إهاجة مشاعر الكفر فى القلوب حتى لا يدخلها القرآن . . لانه لكى تستقبل الايمان يجب ان تخلص قلبك من الكفر أولا .

وهكذا نرى أن القرآن الكريم لأنه كلام الله . . فان له تأثيرا خاصا فى النفس البشرية . . حتى ان الكفار كانوا يسترقون سماع القرآن من وراء بعضهم البعض . . وكانوا يقولون إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة . . وان أعلاه لمثمر . . وإن اسفله لمغدق . . وانه يعلو ولا يعلى عليه . . وكان هذا أول اعجاز لأن القرآن الكريم هو كلام الله تبارك وتعالى .

ولقد وقف الصحابة والمؤمنون الذين عاصروا رسول الله صلى الله عليه وسلم عند عطاء القرآن وقت نزوله فيما استطاعت عقولهم أن تطيقه من اسرار الكون . . ومن اسرار القرآن الكريم . . فلم نجد صحابيا سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن معنى آيات الكون فى القرآن . . أو عن عطاءات القرآن فى اللغة . . فمثلا لم يسأل أحد عن معنى « ألم » . . أو « عسق » . . أو « حم » . . مع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يستقبل كثيرين يؤمنون بكتاب الله . . وكثيرين يكفرون بما أنزل الله . . وكان هؤلاء الكفار يريدون أن يقيموا الحجة ضد رسول الله صلى الله عليه

وسلم وضد القرآن الكريم .. لم نسمع أن أحدا منهم .. وهم قوم بلغاء فصحاء عندهم اللغة ملكة وموهبة وليست صناعة .. لم نسمع أحدا من الكفار قال ماذا تعنى « ألم » .. أو « حم » .. أو « عسق » .

كيف يمر الكافر على فواتح السور هذه ولا يجد فيها ما يستطيع أن يواجه به رسول الله صلى الله عليه وسلم ويجادله .. لقد كانت هذه هى فرصتهم فى المجادلة .. ولاشك أن عدم استخدام الكفار لفواتح السور هذه .. دليل على أنهم انفعلوا بها وان لم يؤمنوا بها .. ولم يجدوا فيها ما يمكن أن يستخدموه لهدم القرآن أو التشكيك فيه .. ولو أن هذه الحروف فى فواتح السور كانت تخدم هدفهم .. لقالوا للناس وجاهروا بذلك .

رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ وهو الذى عليه القرآن نزل ـ فسر وبين كل ما يتعلق بالتكليف الايمانى .. وترك ما يتعلق بغير التكليف للاجيال القادمة .. ويمر الزمن ويتيح الله لعباده من أسرار آياته فى الأرض ما يشاء .. فيكون عطاء القرآن متساويا مع قدرة العقول .. لماذا ؟ لأن الرسالات التى سبقت الاسلام كانت محدودة الزمان والمكان .. أما القرآن الكريم فزمنه حتى يوم القيامة .. ولذلك فلابد أن يقدم إعجازا لكل جيل .. ليظل القرآن معجزة فى كل عصر .

والقرآن نزل يتحدى العرب فى اللغة والبلاغة .. ولكن لأنه دين للناس جميعا .. فلابد أن يتحدى غير العرب فيما نبغوا فيه .. ولذلك نزل متحديا لغير العرب وقت نزوله .. فقد حدثت حرب بين الروم والفرس وقت نزول القرآن .. وكانت الروم والفرس تمثلان فى عصرنا الولايات المتحدة الامريكية والاتحاد السوفيتى .. كانا أعظم وأقوى دولتين فى ذلك العصر .. وحدثت الحرب بينهما وانهزم الروم .. واذا بالقرآن ينزل بقوله تعالى :

﴿ الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ ﴾

(سورة الروم)

لو أن هذا القرآن من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فما الذى يجعله يدخل فى قضية كهذه ؟ لم يطلب أحد منه أن يدخل فيها . . وكيف يغامر رسول الله صلى الله عليه وسلم . فى كلام متعبد بتلاوته إلى يوم القيامة لايتغير ولايتبدل . . بإعلان نتيجة معركة ستحدث بعد سنين . . وماذا كان يمكن أن يحدث لقضية الدين كله لو أن الحرب حدثت وانتصر الفرس مرة أخرى . . أو أن الحرب لم تحدث وتوصل الطرفان إلى صلح ؟ إنها كانت ستضيع قضية الدين كله . . ولكن لأن الله سبحانه وتعالى هو القائل وهو الفاعل جاءت هذه الآية كمعجزة لغير العرب وقت نزول القرآن . . وحدثت المعركة فعلا وانتصر فيا الروم كما أخبر القرآن الكريم .

ولكن القرآن لم ينزل معجزة لفترة محدودة . . بل هو معجزة حتى قيام الساعة . . والقرآن هو كلام الله ، والكون هو خلق الله . . ولذلك جاء القرآن يعطى إعجازا لكل جيل فيما نبغوا فيه . . اذا أخذنا العلوم الحديثة التى اكتشفت فى القرن العشرين وأصبحت حقائق علمية . . نجد أن القرآن الكريم قد أشار اليها باعجاز مذهل . . بحيث أن اللفظ لا يتصادم مع العقول وقت نزول القرآن . . ولا يتصادم معها بعد تقدم العلم واكتشاف آيات الله فى الارض . . ولايقدر على هذا الاعجاز المذهل الا الله سبحانه وتعالى . . اقرأ مثلا قول الحق تبارك سبحانه وتعالى :

﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧ ﴾

(سورة ق)

والمد معناه البسط . . وعندما نزل القرآن الكريم بقوله تعالى : « والأرض مددناها » . . لم يكن هذا يمثل مشكلة . . للعقول التى عاصرها نزول القرآن الكريم . فالناس ترى أن الأرض ممدودة . . والقرآن الكريم يقول : « والأرض مددناها » . . وتقدم العلم وعرف الناس أن الأرض كروية . . وانطلق الانسان الى الفضاء ورأى الأرض على هيئة كرة . . هنا أحست بعض العقول بأن هناك تصادمات بين القرآن الكريم والعلم . . نقول لهم أقال الله سبحانه وتعالى أى أرض تلك المبسوطة أو الممدودة ؟ . . لم يقل ولكنه قال الأرض على اطلاقها . . أى كل مكان على الأرض ترى فيه الأرض امامك مبسوطة .

اذا نزلت فى القطب الشمالى تراها مبسوطة . . واذا كنت فى القطب الجنوبى تراها

مبسوطة . . وعند خط الاستواء تراها مبسوطة . . واذا سرت من نقطة على الأرض وظللت تسير الى هذه النقطة فالأرض أمامك دائما مبسوطة . . ولا يمكن أن يحدث هذا أبدا الا اذا كانت الأرض كروية . . فلو أن الأرض مثلثة أو مربعة أو مسدسة . . أو على أى شكل هندسى آخر . . لوصلت فيها الى حافة ليس بعدها شىء . . ولكن لكى تكون الأرض مبسوطة أمامك فى أى مكان تسير فيه لابد أن تكون على هيئة كرة .

هذا الاعجاز الذى يتفق مع قدرات العقول . . وقت نزول القرآن الكريم . . فاذا تقدم العلم ووصل الى حقيقة لما كان يعتقده الناس . . تجد أن آيات القرآن تتفق مع الحقيقة العلمية اتفاقا مذهلا . . ولا يقدر على ذلك الا الله سبحانه وتعالى .

ولو أن النبى صلى الله عليه وسلم تعرض لهذه الآيات الكونية تعرضا لا يتناسب مع استعدادات العقول وقت نزول القرآن . . فانه ربما صرف العقول عن أساسيات الدين الى جدل فى أسرار كون لا يستطيع العقل أن يستوعبها أو يفهمها . . ولكن الحق تبارك وتعالى ترك فى الكون أشياء لوثبات العقول فى العلم . . بحيث كلما تقدم العلم وجد خيطا يربط بين آيات الله فى الكون وآياته فى القرآن الكريم . . ولو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم فسر كونيات القرآن وقت نزوله لجمد القرآن . . لأنه لا أحد منا يستطيع أن يفسر بعد تفسير رسول الله صلى الله عليه وسلم . . وبذلك يكون عطاء القرآن قد جمد . . ولكن ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم للتفسير أتاح الفرصة لعطاءات متجددة للقرآن الكريم الى قيام الساعة . . وهكذا كان المنع هو عين العطاء . . وهذه معجزة أخرى من اعجاز القرآن الكريم .

كلمة قرآن ساعة تسمعها تفهم أنه يقرأ . . قرآن مصدر قرأ مثل غفر غفرانا . . ولكن بعد نزول القرآن الكريم أصبح لفظ قرآن اسما بكلام موحى به من الله سبحانه وتعالى لرسول الله صلى الله عليه وسلم بقصد التحدى . . ويسميه الله تبارك وتعالى كتابا . . اذن هو قرآن اذا أخذنا أنه يقرأ . . وهو كتاب اذا أخذنا أنه يكتب . . والقراءة تستلزم حافظا والكتابة لا تستلزم حافظا . . فالانسان حين يقرأ من كتاب ليس محتاجا إلى الحفظ ، ولذلك فللقرآن وسيلتان من وسائل التلاوة . يحفظ فى الصدور ويسجل فى السطور . . بحيث تستطيع فى أى وقت أن تقرأ من الكتاب .

وحين بدأ تدوين القرآن الكريم كتابة كان لا يكتب منه آية الا اذا كانت مكتوبة على جذوع النخل أو الجلود . . أو أى وسيلة أخرى من وسائل الكتابة فى عصر نزول القرآن . . وزيادة على أن الآية تكون مكتوبة . . كان لابد أن يكون هناك اثنان على الأقل من الصحابة الحافظين لها . . إلا آية واحدة لم توجد مكتوبة بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا عند حافظ واحد فقط وكان القياس يقتضى ألا تكتب هذه الآية . . وهى قوله سبحانه وتعالى :

﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ ﴾

(سورة الأحزاب)

ولكن أنظر الى الخواطر الايمانية يقذفها الحق سبحانه وتعالى فى قلوب المؤمنين ليكمل منهجه . . هذه الآية لم يوجد من يحفظها الا خزيمة بن ثابت ، وعندما ثار الجدل حول تدوينها ، ذكر قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : (من شهد له خزيمة فحسبه) (١) .

عن زيد بن ثابت قال : لما نسخنا المصحف فقدت آية من سورة الأحزاب كنت اسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرؤها لم أجدها مع أحد الا مع خزيمة بن ثابت الأنصارى رضى الله عنه الذى جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم شهادته بشهادة رجلين (من المؤمنين رجال . .) .

وكان الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم قد أعطى خزيمة بن ثابت وحده نصاب شهادة رجلين . . وهذه لها قصة . . ان رسول الله صلى الله عليه وسلم ابتاع فرسا من أعرابى . . فاستتبعه النبى صلى الله عليه وسلم ليقضيه ثمن فرسه أى ليعطيه ثمن الفرس . . فأسرع رسول الله صلى الله عليه وسلم المشى . . وأبطأ الأعرابى . .

فطفق رجال (أى أخذ رجال) يعترضون الأعرابى ليساوموه فى الفرس دون أن يعرفوا

---

(١) رواه البخارى وأحمد والنسائى والترمذى وقال : حسن صحيح .

أن النبى صلى الله عليه وسلم قد ابتاعه .. فنادى الأعرابى الرسول عليه الصلاة والسلام فقال : ان كنت مبتاعا هذا الفرس والا بعته .. أى هل تريد شراء الفرس أو أبيعه ؟

فقال النبى صلى الله عليه وسلم : أوليس ابتعته منك ؟.. فقال الأعرابى ما بعتكه (أى ما بعته لك).. فقال النبى صلى الله عليه وسلم : بلى قد ابتعته منك .. فقال الأعرابى هلم شهيدا .. أى ائتنى بشاهد .. فقال خزيمة بن ثابت أنا أشهد أنك بايعته (أى بعته له) .

وبعد أن انصرف الناس .. أقبل النبى صلى الله عليه وسلم على خزيمة .. فقال : بم تشهد ؟.. (أى كيف شهدت على هذا) .. ولم تكن موجودا وقت المبايعة بينى وبين الأعرابى. فقال خزيمة : بتصديقك يا رسول الله .. (أى هل تصدقك فى كل ما تأتينا به من خبر السماء ونكذبك فى هذه ؟.. فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم شهادة خزيمة بشهادة رجلين .. فأخذت شهادته بشهادة رجلين وتم تدوين الآية .. وكان خزيمة يدعى ذو الشهادتين .. لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم اجاز شهادته بشهادتين (١)

واذا أردنا أن نعَرف القرآن .. فانه لابد أن يخرج عن مقاييس البشر .. فالناس حين يُعَرفون الأشياء يقولون : حده كذا .. ورسمه كذا .. الى آخره .. ولكنا كى نعَرف القرآن الكريم نقول ان القرآن هو ابتداء من قوله تعالى :

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ﴾

(فاتحة الكتاب)

الىَ أن نصل الى قوله جل جلاله :

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴿٦﴾ ﴾

(سورة الناس)

---

(١) سير اعلام النبلاء . الجزء الثانى . ص ٤٨٦ واسناده صحيح

أى أنه من أول سورة الفاتحة . . الى آخر سورة الناس . . على أن نستعيذ بالله من الشيطان الرجيم . . قبل أن نقرأ أى آية من القرآن . . كما علمنا الحق سبحانه وتعالى فى قوله :

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ ﴾

(سورة النحل)

لكن العلماء ارادوا التخفيف على الناس فى تعريف القرآن الكريم . . فقالوا هو كلام الله . . نَزَّلَهُ على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم بقصد التحدى والاعجاز ليبين للناس منهج الله . والقرآن يتفق مع المناهج التى سبقته ، ولكنه يضيف عليها ويصحح ما حذف منها لأنه موحى به من الله . . فالتوراة والانجيل والزبور من الله . . ولكنها تحمل المنهج فقط . . اما القرآن الكريم . . فهو المنهج والمعجزة الدالة على صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم . .

التوراة كانت منهج موسى وكانت معجزته العصا . . والانجيل منهج عيسى ومعجزته ابراء الاكمه والابرص باذن الله . . اذن بالنسبة للرسل السابقين . . كانت المعجزة شيئا والمنهج شيئا آخر ، ولكن القرآن تميز أنه المنهج والمعجزة معا . . ذلك ان المناهج التى ارسلها الله على الرسل السابقين انزلها على نية تغييرها . .

ولكن القرآن الكريم . . نزل على نية الثبات الى يوم القيامة . ولذلك كان لابد ان يؤيد المنهج بالمعجزة حتى يستطيع اى واحد من اتباع محمد عليه الصلاة والسلام ان يقول محمد رسول الله وتلك معجزته . . ولكن معجزات الرسل السابقين حدثت وانتهت . . لأنها معجزات حسية . . من رآها آمن بها . . ومن لم يرها فهو غير مقصود بها . لأنها حدثت لتثبيت المؤمنين . . الذين يتبعون الرسول . . فمعجزة عيسى عليه السلام لا يمكن ان تعود الان من جديد . . وعصا موسى التى شقت البحر لايستطيع اتباع موسى ان يأتوا بها الان ليقولوا هذه معجزته . .

اذن فالرسل السابقون لرسول الله صلى الله عليه وسلم كان لكل منهم منهج ومعجزة . ولكن كليهما منفصل عن الآخر . . فالمنهج عين المعجزة حالة مفقودة فى الرسالات كلها . . ولكنها فى رسالة محمد صلى الله عليه وسلم امر موجود يمكن ان

يشار اليه فى اى وقت من الاوقات . .

ونظرة واحدة فيما قال الله سبحانه وتعالى فى كونيات الحياة التى اتيحت للعقل البشرى فى القرن العشرين . . نجد أن القرآن الكريم يشير اليها لأن العمر فى الرسالة القرآنية الى ان تقوم الساعة . . ومادام الى ان تقوم الساعة . . يظل القرآن معجزة حتى قيام الساعة . . ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾

(سورة فصلت)

أى أن القرآن له عطاءان فى الاعجاز . . العطاء الاول آيات فى الافاق ، وهذه هى الآيات الكونية . . والعطاء الثانى « آيات فى أنفسهم » وهذه هى الآيات التى تتعلق بأسرار الجسد البشرى . . وقول الحق : « حتى يتبين لهم انه الحق » أى أن القرآن هو الحق . . ولذلك يمكن ان نقول ان آيات الكون ستأتى موافقة لآيات القرآن الكريم . . اى ان الله سبحانه وتعالى وضع فى القرآن الكريم من آيات الكون وأسراره وعن الجسد البشرى وتكوينه آيات يمكن أن يعطيها المؤمنين وغير المؤمنين . .

ولقد اعطى الله تبارك وتعالى من آيات الكون المؤمنين . . فبرع المسلمون الاوائل فى العلوم . . مثل جابر بن حيان الذى وضع اساس علم الكيمياء . . وابن سينا الذى وضع اساس علم الطب والفلك والرياضيات . . وابن النفيس الذى اكتشف الدورة الدموية ووصفها وصفا علميا دقيقا . . وابن الهيثم الذى برع فى الرياضيات والطبيعيات والطب . وكان أول من شرح تركيب العين وكيف تعمل وأبو القاسم الذى نبغ فى العمليات الجراحية وغيرها .

ثم أعطى الله سبحانه من آيات الكون غير المؤمنين مما نشهده الآن من نهضة علمية فى دول الغرب . . وذلك يفسر قوله تبارك وتعالى :

« حتى يتبين لهم انه الحق » أى أن آيات الكون . . ستجعل المنكرين للقرآن

الكريم يعترفون انه الحق . . ذلك ان المؤمن يعرف ان القرآن هو الحق . . ولكن المنكر للاسلام يكشف الله له آيةفى امر معجز . . يبين له ان هذا الدين حق . ولقد حدث اخيرا فى مؤتمرات الاعجاز العلمى للقرآن الكريم ان اعلن عدد من العلماء اعتناقهم للدين الاسلامى .

واذا أردنا ان نعرف شيئا عن معجزة القرآن فانظر ماذا قال عن الكون وكروية الارض ودورانها حول نفسها . . وما يحدث فى اعماق البحار وغير ذلك مما لم يكتشف الا فى القرن العشرين . . واذا اردنا ان نعرف الاعجاز فى القرآن فى قوله «وفى انفسهم» فلننظر الى مراحل تكوين الجنين ومراكز الاعصاب فى الجسد البشرى وتكوين الاذن والعين وغير ذلك من اعجاز لا يمكن ان يتحدث عنه بهذه الدقة إلا خالقه . . وهذا ما شهد به علماء نبغوا فى علومهم بينما هم منكرون للاسلام وللقرآن ! وهذه الحقائق العلمية التى أشار اليها القرآن الكريم لا يستطيع أحد أن ينكرها الآن لانها اصبحت ثابتة الوجود .

والقرآن حين يتحدى فإنه لا يمكن أن يأتى بمعجزة لا يعرف عنها الخلق شيئا . . فأنت لاتتحدى كسيحا فى سرعة المشى . . ولا شيخا كبيرا ضعيفا فى حمل الاثقال . . ولكنك اذا تحديت فلابد ان تتحدى مجموعة من الناس فيما نبغوا فيه . .

ولذلك اذا قلنا ان القرآن جاء يتحدى العرب فى اعجاز الاسلوب واللغة . . فهذه شهادة للعرب انهم نبغوا فى دنيا الكلمة . . وهنا عندما يغلبهم القرآن ويعجزهم يكون هذا هو التحدى . . تحد فيما نبغوا وتفوقوا فيه . . ولذلك كان لابد ان يكون العرب عندهم نبوغ فطرى فى الكلمة . . ويكون الاداء الجيد المميز للكلمة مالوفا لديهم شعرا ونثرا وخطابة .

وحين جاء القرآن الكريم يتحدى غير العرب . . تحداهم فى آيات الكون والخلق ولذلك نجد مثلا قول الحق سبحانه وتعالى عن اصحاب النار :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴿٥٦﴾ ﴾

(سورة النساء)

هذه الآية الكريمة عندما نزلت فهمت بأنه كلما احترقت الجلود تجددت ، وعندما توصل العلم الحديث الى ان مراكز الاعصاب موجودة تحت الجلد مباشرة بحيث انه اذا احترق الجلد ضاع الاحساس بالألم ، كانت هذه معجزة جديدة للدنيا كلها فى عصرنا . . يريد بعض الناس ان يتخذ العلم إلها من دون الله . وهكذا كان الاعجاز المتجدد الذى يجعل القرآن معجزة خالدة . . وهذا دليل جديد على ان القرآن من عند الله وانه كلام الله .

نأتى بعد ذلك الى معجزة اخرى فى اختيار رسول الله عليه الصلاة والسلام واعداده للرسالة . . اننا إذا تتبعنا حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم نجد ان الله تبارك وتعالى اختاره أميا لا يقرأ ولا يكتب ، ومع ذلك أجرى عليه معجزات كلها تنطق بصدق رسالته صلى الله عليه وسلم . . أولها انه لم يشتهر عليه الصلاة والسلام انه نبغ فى شعر أو نثر مثل قس بن ساعدة وأكثم بن صيفى . . ومن هنا كان حظ رسول الله صلى الله عليه وسلم من البلاغه حظا عاديا دون نبوغ .

ومع ذلك فقد جاءت رسالته عليه الصلاة والسلام تتحدى قومه فى البلاغه وفى اللغة . ولو انه صلى الله عليه وسلم كان مشهورا بالشعر او النثر او الخطابة لقالوا ان القرآن عبقرية ادائية لمواهب كانت موجودة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ الصغر . . ومواهب الناس عادة تظهر قبل سن العشرين او الثلاثين اذا كانت الموهبة متأخرة ، ولكنها لا تظهر فجأة على الانسان فى سن الاربعين ، ولا توجد عبقرية تتأخر أبدا حتى الاربعين . . ولكن الناس فوجئوا بان محمداً عليه الصلاة والسلام الذى ما خطب وما كتب وما قال شعرا يأتى بقرآن يعجز عنه أشهر البلغاء . . واكثرهم موهبة فى فن الكلام . . من اين اتى بهذا الكلام المعجز الذى تحدى به الانس والجن وهو فى هذه السن ؟!

بعض الناس يدعون ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان عنده الاعجاز اللغوى . . وأخفاه عن الناس حتى سن الاربعين وبعد ذلك اظهره . . نقول ان هذا الكلام لا يتفق مع العقل . . لأننا نعيش فى عالم أغيار يموت الناس فيه قبل سن العشرين وقبل سن الثلاثين وقبل سن الاربعين . . فمن الذى اخبر محمدا عليه الصلاة والسلام انه لن يموت قبل سن الاربعين حتى يكتم هذه العبقرية الى هذه السن . . لقد مات أبوه وهو فى بطن امه . . وماتت امه وهو طفل صغير . . هذه

المقدمات لايمكن ان توحى الى محمد عليه الصلاة والسلام ان يكتم عبقريته عن الناس حتى يصل الى هذه السن ، لأن أباه وأمه قد ماتا وهو طفل صغير .

ولذلك عندما جاء الكفار وطلبوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يغير القرآن كما يروى لنا القرآن الكريم فى قوله تعالى :

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ ﴾

(سورة يونس)

ولو أن هذا القرآن من عند محمد عليه الصلاة والسلام ربما بدله حتى يؤمن من كفر ، ولكن الحق سبحانه وتعالى يعلم رسوله صلى الله عليه وسلم ليرد عليهم بالحجة البالغة :

﴿ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة يونس)

الله سبحانه وتعالى يعلم رسوله الكريم أن يرد على الكفار انه عاش معهم أربعين سنة قبل الرسالة . . لم يشتهر بينهم بالخطابة والشعر أو البلاغة . . فلو أنهم فكروا بعقولهم لعرفوا ان هذا القرآن ليس من عند رسول الله ، بل من عند الله . ثم من هذا الذى ينسب اليه الكمال فيرفضه ؟ . . ويقول هذا ليس من عندى . . مع ان الناس تدعى كمالات الغير . . فكم من انسان رأى اعجاب الناس بعمل من الاعمال . . لم يعرف صاحبه فنسبه الى نفسه . . بل ان الناس تتصارع على نسب

الأشياء الجيدة لنفسها . . وكم رأينا نزاعا أمام القضاء بين أشخاص مختلفين كل منهم يدعى ملكيته لعمل جيد .

ثم تأتى لفتة أخرى : رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى لم يقرأ ولم يكتب . . هل يمكن أن تكون له ثلاثة أساليب متميزة تختلف بعضها عن بعض تماما . . وهى أسلوب القرآن الكريم وأسلوب الاحاديث القدسية وأسلوب الاحاديث النبوية . . لا توجد عبقرية فى الدنيا من يوم ان خلقت الى يومنا هذا لها ثلاثة أساليب لكل منها طابع مميز لا يتشابه مع الآخر . . كيف يمكن أن يفرق رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يتكلم بين القرآن والحديث القدسى والحديث النبوى . . بحيث يعطى كلا منها طابعا وأسلوبا يميزه عن الأخر . .

ان لكل شخص أسلوبه الذى يتميز به . . . وأنت اذا كنت مطلعا فى علوم اللغة والأدب . . فبمجرد أن تقرأ الكلام تقول هذا كلام فلان ، لأن لكل شخص منا أسلوبا يميزه . . فكيف استطاع رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقسم كلامه . . فيقول هذا قرآن وهذا حديث قدسى وهذا حديث نبوى .

إذن فاختلاف القرآن الكريم والأحاديث القدسية والاحاديث النبوية . . أكبر دليل على ان القرآن والاحاديث القدسية ليست من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم . . لأن الشخصية الأسلوبية لأى انسان هى شخصية مميزة . . ولا يمكن أن ينفعل أحد بأحداث الحياة . . فيكتب كل مرة بأسلوب مختلف تماما عن الأسلوب الآخر . . أو يكتب اليوم بأسلوب وغدا بأسلوب وبعد غد بأسلوب . . ثم يعود بعد ذلك الى الأسلوب الأول . . انه اذا قرأ أحدهم القرآن نقول هذا قرآن ، وان تلا أحدهم حديثا قدسيا نقول هذا حديث قدسى . . واذا قال أحدهم حديثا نبويا قلنا حديث نبوى . . ولكل انسان منا شخصية اسلوبية واحدة . . اذا حاول ان يخرج منها فانها تغلبه . . والفروق الهائلة فى الأساليب بين القرآن والاحاديث القدسية والاحاديث النبوية أكبر دليل على صدق رسالة محمد عليه الصلاة والسلام .

واحتار الكفار ماذا يفعلون . . ولم يجدوا ثغرة من منطق ينفذون منها . . فماذا

قالوا ؟ . . قالوا ساحر !! وكان الرد ببساطة ان المسحور ليست له ارادة مع الساحر . . بحيث يستطيع دفع السحر عن نفسه ، وأن الساحر يسحر من أمامه رغما عن إرادتهم . . فاذا كان محمد صلى الله عليه وسلم ساحرا فلماذا لم يسحركم انتم حتى تؤمنوا به . . وبأى شيء رددتم السحر عن انفسكم ؟ .

ان ادعاءكم هذا يكذب حجتكم لأن كونكم الآن جالسين تقولون ساحر . . فمعنى ذلك انه لم يسحركم . . ولو كان ساحرا حقيقيا لأجبركم بسحره على أن تتبعوه. وقالوا مجنون . . نقول لهم ان الجنون عمل بغير رتابة . بمعنى أنك لا تستطيع أن تتنبأ بما يفعله المجنون فى اللحظة القادمة . فقد يجلس يتحدث معك وبعد دقيقة واحدة يضربك . . وتجده يبكى وبعد ثوان قليلة يضحك . . ورد الله تبارك وتعالى عليهم :

﴿ نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾

(سورة القلم)

والشهادة من الله بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم على خلق عظيم . . لا تتصادم مع ما يعرفه الكفار عنه قبل الرسالة . . فهو بشهادتهم كان معروفا بالصدق والأمانة والخلق الحسن وكانوا يلقبونه بالأمين . . وكانوا يأمنونه على أموالهم وكل شيء له قيمة . . ولتعرف كيف يتناقض الكفار مع انفسهم نقول لهم كيف تأتمنون انسانا مجنونا على أغلى ما تمتلكون . . هل هذا يتمشى مع العقل . . أيذهب الانسان بأغلى ما عنده ويضعه عند رجل مجنون ؟ . . طبعا مستحيل لا يمكن ان يكون المجنون على خلق عظيم .

وقالوا شاعر وكاهن . . فرد القرآن الكريم بقوله تبارك تعالى :

﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾

(سورة الحاقة)

وقولهم شاعر مردود عليه . . بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يقل شعرا فى حياته . . والمواهب لا تأتى فجأة بل لابد ان تصقلها التجربة والخطأ . . تماما كالذى يقود السيارة . . عندما يبدأ لابد ان يكون معه انسان يعرف قيادة السيارة . . ويعلمه فيخطىء ويصيب . . ثم بعد ذلك يقود السيارة آليا . .

ورسول الله صلى الله عليه وسلم ما كانت عنده ملكة الشعر ولا دربه أحد عليه . . أما قولهم كاهن فالانسان ينسى بمرور الوقت ، لذلك قيل اذا كنت كذوبا فكن ذكورا .

واذا أردنا ان نعرف الحقيقة فأننا نسأل الانسان على فترات . . فإن كان كاذبا فانه يتخبط فى أقواله . . ورسول الله صلى الله عليه وهو أمى لا يقرأ ولا يكتب . . كان ينزل عليه الوحى بالآيات فيتلوها على أصحابه . . ثم يؤذن للصلاة بعد ذلك بساعات . . فيتلو رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الصلاة . . الآيات التى نزلت عليه دون ان يتغير منها حرف واحد . . ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى :

« قليلا ما تذكرون » . . لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لو كان يأتى بالقرآن من عنده لنسى ولغير وبدل . . لان الذاكرة لا يمكن ان تستوعب بنفس الالفاظ ماقالته . ولو انك جئت بانسان وطلبت منه ان يتحدث فى موضوع معين وسجلته له . . ثم طلبت منه ان يعيد بعد نصف ساعة ما قاله . . لا يمكن أن يأتى بنفس الكلام أو بنفس الالفاظ أو بنفس الترتيب .

والحق سبحانه وتعالى يعطى رسله منهجه بالوحى . . ويكون عطاؤه غيبا لأن الله غيب . . فالله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾

(سورة الشورى)

ذلك لأن التكوين البشرى لا يمكن أن يستقبل من الله مباشرة . . والوحى اعلام

بخفاء ، ولكى نقرب المعنى من الاذهان . . نقول انك لو كنت لا تريد ان تقابل ضيفا ثقيلا فانك تتفق مع خادمك على اشارة معينة . . فاذا جاء وأخبرك أمام الحاضرين بأن فلانا وصل . . تعطيه اشارة فلا يدخله الى المنزل . . هذه الاشارة المتفق عليها . . لا يفهمها أحد من الحاضرين ولا يعرف معناها . .

هذا هو معنى الوحى اعلام بخفاء . . لا يفهمه أحد الا الموحِى ومن يوحَى اليه . . والوحى مادام اعلاما بخفاء فانه يقتضى موحِيا . . وموحَى اليه وموحَى به . .

ولقد أوحى الله للرسل وأوحى الى غير الرسل . . فأوحى للملائكة والى أم موسى والى الحواريين وللنحل وللأرض . . وهناك وحى من الشيطان لأوليائه هذا هو الوحى اللغوى . . أما الوحى الشرعى فيكون وحيا من الله لرسله . وكان وحى الله لموسى عليه السلام ان كلمه من وراء حجاب . . وكان وحى الحق جل جلاله الى رسول الله صلى الله عليه وسلم . . بأن أرسل له جبريل عليه السلام . . ويجىء الملك بالوحى فيسمع رسول الله عليه الصلاة والسلام صلصلة الجرس تنبيها . . ويتم اللقاء بين جبريل والرسول فتتغير كيماويات جسد الرسول . . حتى انه حينما جاءه الوحى لامست ركبته الشريفة ركبة صحابى كان يجلس بجواره فأحس كأنها جبل . . واذا كان رسول الله صلى عليه وسلم راكبا الناقة . . فتنام أو تبرك الناقة على الارض ولا تستطيع السير . . وكانت لفتة اخرى من الله تبارك وتعالى . . انه لا تناقض مطلقا بين القرآن وبين العلم . . فاذا جاءت نظرية علمية تناقض القرآن الكريم . . فالقرآن على حق والنظرية باطلة . . وهناك نظريات أخفاها الله سبحانه وتعالى عنا . . ولكن اخفاءه لها لا يضرنا بشىء .

فالشمس ينتفع بها كل الناس ولا يعلم حقيقتها أحد . . وكذلك بعض الظواهر الكونية الاخرى . . فكل ما أخفاه الله عنا هو جهل لا يضر ولا يقلل انتفاعنا بالكون . .

والقرآن كلام الله لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . . ولقد حمل منهج الله للبشر ليحمى حركة الانسان الاختيارية فى الكون . . ومادام الانسان يلتزم فى حياته بالقرآن الكريم فانه يستمتع بالجمال فى الكون . . اما اذا خالفه فيكون الانسان قد سعى الى شقائه . ولقد ظهرت الداءات والامراض فى المجتمعات عندما خالف

الانسان منهج السماء ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ ﴿٨٢﴾ ﴾

(سورة الاسراء)

لماذا قدم الله سبحانه وتعالى الشفاء على الرحمة . . لأن الرحمة تقى الناس من أى شر قادم . . ولكن لابد من الشفاء أولا . . وعندما نزل القرآن كانت الامراض والداءات تملأ المجتمعات . . الظلم وأكل حقوق الناس واستعباد الانسان للانسان وغير ذلك من أمراض المجتمع . . فجاء الاسلام أولا ليشفى هذه الامراض اذا اتبع منهجه . . ثم بعد ذلك تأتى الرحمة وتمنع عودة هذه الداءات . فاذا حدثت غفلة عن منهج الله . . جاءت الداءات والامراض . . فاذا عدت الى صيدلية القرآن تأخذ منها الدواء يتم الشفاء .

﴿ أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾

طلب الله سبحانه وتعالى من كل مؤمن أن يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم . . قبل أن يقرأ القرآن . . إذن فالاستعاذة هى أول التقاء . . بين المؤمن وبين بداية قراءته للقرآن الكريم والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ ﴾

(سورة النحل)

وواضح أن الآية الكريمة . . تطلب منا الاستعاذة بالله من الشيطان قبل أن نقرأ القرآن . . ذلك أن كل مخلوق إذا اتجه إلى خالقه واستعاذ به يكون هو الأقوى برغم ضعفه وهو الغالب برغم عدم قدرته . . لأن الله عندما يكون معك . تكون قدرتك وقوتك فوق كل قدرة وأعلى من كل قوة . . لأنك جعلت الله سبحانه وتعالى فى جانبك . ونحن حين نقرأ القرآن لابد أن نصفى جهاز استقبالنا لحسن استقبال كلام الله . وفى هذه الحالة لا نفعل ذلك بقدراتنا نحن ولا بقوتنا . . ولكن بالاستعانة بقوة وقدرة الله . . لماذا ؟ لأن معوقات المنهج عند الإنسان المؤمن إنما هى من عمل الشيطان .

وابليس يأتى دائما من الباب الذى يرى فيه المنهج ضعيفا . . فاذا وجد انسانا متشددا فى ناحية يأتى له من ناحية اخرى . فلو أن العبد المؤمن متشدد فى الصلاة . . يحافظ عليها ويؤديها فى أوقاتها ، جاءه ابليس من ناحية المال . يوسوس له بألا يخرج الزكاة لأنها ستؤدى به الى الفقر . ويوسوس له أن يأكل حقوق الناس . . مدخلا السرور الى نفسه بالوهم بأنه سيصبح غنيا آمنا مطمئنا على غده . . وهذا كذب .

والحقيقة هى التى رواها لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال : (ما نقص مال من صدقة) [١] والصدقة هى التى تكثر المال وتضع فيه البركة فيزداد وينمو . . والمال هو مال الله ينتقل من يد الى يد فى الدنيا . . ثم يموت الانسان ويتركه . . ولكن ابليس يستغل غفلة الناس عن هذه الحقيقة ليدفعهم الى المال الحرام . . فاذا كان الانسان متشددا من ناحية المال . . جاءه من ناحية المرأة فيظل يزين له امرأة خليعة . . يوسوس له حتى يسقط فى الزنا . . وإن كان قويا فى هذه النواحى كلها . . زين له ابليس الخمر أو مجلس السوء أو النميمة . . المهم أن ابليس يظل يدور حول نقط الضعف فى الانسان ليسقطه فى المعصية .

ولذلك فإن الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم ، إنما تجعل الله سبحانه وتعالى يقوى نقط الضعف فيك . فلا يستطيع الشيطان أن ينفذ اليك وأنت تقرأ القرآن ليضع فى رأسك هواجس تلهيك عن هذه القراءة . . ذلك أن عطاء الله فى القرآن الكريم يساوى بين جميع الخلق . . فعطاء القرآن متساو ولكن كل انسان يأخذ على قدر ايمانه . . فالقرآن يُقرأ والناس تسمع . ولكن هل يتقبل الجميع القرآن تقبلا متساويا ؟ نقول لا . . فقد قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة محمد)

أى أن القرآن لم يؤثر فيهم . . ولكنه أثر فى المؤمنين الذين استمعوا اليه مصداقا لقوله جل جلاله :

﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۚ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ ﴾

(سورة فصلت)

---

(١) رواه احمد ومسلم والترمذى عن أبى هريرة ، وتتمة الحديث : «وما زاد الله عبدا بعفو إلا عزا ، وماتواضع أحد لله إلا رفعه» .

فالقرآن عطاؤه للجميع ولكن المهم من يستقبله . . وكيف يستقبله عندما يتلى عليه . . والله سبحانه وتعالى يريدنا عندما نقرأ القرآن . . أن نبعد الشيطان عن أنفسنا قبل أن يبعدنا هو عن منهج الله وعن آياته . . وبما أننا لانرى الشيطان وهو يرانا . . ولانعرف أين هو بينما هو يعرف اين نحن . . مصداقا لقوله تبارك وتعالى :

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

فلابد من أن نستعيذ بقوة تستطيع أن تقهر الشيطان وتدمره . الله سبحانه وتعالى طلب منا أن نستعيذ به وأن نلجأ اليه . لأنه هو القادر على أن يحمينا . . ويصفى قلوبنا ونفوسنا من همزات الشياطين . فيحسن استقبالنا للقرآن الكريم . . لأنه اذا صفيت نفسك لاستقبال القرآن . . فإن آياته الكريمة تمس قلبك ونفسك وتكون لك هدى ونورا .

والشيطان قد قضى الله سبحانه وتعالى فى أمره . فطرده من رحمته وجعله رجيما مبعدا . . والشيطان يعرف أن مصيره النار . ويعتقد أن آدم هو السبب . . لأن بداية المعصية كانت رفض ابليس طاعة أمر الله فى السجود لآدم . . وقال كما يروى لنا القرآن الكريم .

﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَۖ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ﴿١٢﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

وكانت معصية ابليس فى القمة . . لأنه رد الأمر على الآمر . . وقال لن اطيع ولن

أسجد لآدم لأنى خير منه . . هو من طين وأنا من نار . . فكأنه لم يرض بحكم الله سبحانه وتعالى وأراد أن يعدله . وهذه معصية فى القمة . . جعلت الله تبارك وتعالى يطرد ابليس من رحمته . . ويصفه بأنه رجيم . . وذلك حتى نعرف أن مصيره النار وأن الله لن يغفر له .

وبدأ ابليس بغواية آدم عليه السلام . . فآدم عاش فى جنة تعطيه مقومات حياته بلا تعب وبلا عمل . . وكان فى الجنة ألوف الأشجار تعطى كل الثمرات وهى حلال لآدم وحواء يأكلان منها مايشاءان . . ماعدا شجرة واحدة حرمها الله عليهما . . وكانت هذه الشجرة هى بداية الخطيئة . . بدأ ابليس يغرى آدم وحواء على المعصية . . كيف ؟ . . حاول اقناعهما بأن عدم الأكل من هذه الشجرة . . سيحرمهما من خير كبير . . واقرأ قول القرآن الكريم :

﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

وفى إغواء آخر :

﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ ﴾

(سورة طه)

وهكذا نعرف أن إبليس يأتى للانسان من أكثر من زاوية . . لذلك كانت الزاوية الأولى هى أن هذه الشجرة من يأكل منها . . يكون ملكا أو يكون خالدا . . وكان الاغواء الثانى ان هذه الشجرة تعطى لمن يأكل منها بجانب الخلود مُلْكاً لا ينتهى .

إذن فإبليس يصور للإنسان . . أن ما منعه الله عنه هو الخير . . وأنه لو عصى فسيحصل على المال والنفوذ . . لقد أكل آدم وحواء من الشجرة . فلم يخلدا ولم يأت لهما مُلك لا ينتهى . بل ظهرت عوراتهما وعرفا أن إبليس كان كاذبا . . وأن الله

سبحانه وتعالى بمنهجه وما ينهانا عنه انما كان يريد لهما الخير .

ولكن الشيطان يأتى ويزين للانسان طريق الباطل . . ولو أن آدم كان قد حكم عقله لعرف كذب وسوسة ابليس . . فأبليس كما يدعى كان يدل آدم على شجرة الخلد . . ولو أن هذه الشجرة كانت تعطى الخلد فعلا . . لما طلب ابليس من الله تبارك وتعالى أن يبقى على حياته الى يوم القيامة . . بل لأكل من الشجرة ونال الخلد .

ولكن ابليس دخل من ناحية الغفلة فى النفس البشرية ليوقع آدم فى المعصية . . وهو يدخل الى أبناء آدم من ناحية الغفلة أيضا . ولو أن أبناء آدم حكموا عقولهم وهم يعرفون أن هناك عداوة مسبقة بين آدم وابليس . . وأن ابليس طلب من الله سبحانه وتعالى أن يبقيه الى يوم القيامة لينتقم من آدم وأولاده بإغوائهم على المعصية . . لو تنبهنا الى ذلك لأخذنا حذرنا . . وعندما تنكشف وسوسة الشيطان فانه يهرب .

ابليس دخل الى ناحية الغواية بأن أقسم بعزة الله . . وأن الله عزيز لا يحتاج لخلقه . ولا يضره سبحانه وتعالى من كفر . ولا يزيد شيئا فى ملكه من آمن . . استغل عزة الله فى استغنائه عن خلقه . فقال كما يروى لنا القرآن الكريم .

﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾

(سورة ص)

ولكن الحق تبارك وتعالى . أخبرنا أنه طرد ابليس من رحمته وسماه رجيما . حتى نعرف جميعا أنه لن يدخل فى رحمة الله أبدا .

ابليس دخل الى غواية بنى آدم بعزة الله سبحانه وتعالى عن خلقه . . فلو أن الله اراد خلقه جميعا مهديين . . ما استطاع ابليس أن يتقدم ناحية واحد منهم . . واقرأ قوله سبحانه :

﴿ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴿٤﴾ ﴾

(سورة الشعراء)

اذن الله سبحانه وتعالى . . هو الذى أعطى للانسان حق الاختيار ولو شاء لجعله مقهورا على الطاعة كباقى الخلق . . من نقطة الاختيار هذه . وقوله تبارك وتعالى :

﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ ﴾

(سورة الكهف)

إذن فالله سبحانه وتعالى . بَيَّن لنا طريق الهدى وطريق المعصية . . ثم ترك لنا ان نختار طاعة الله ورحمته . . أو معصية الله وعذابه . . ولم يعطنا الحق تبارك وتعالى هذا الاختيار الا فى فترة محدودة هى حياتنا فى الدنيا . . فعندما يحتضر الانسان تحمد بشريته . . ويصبح لا اختيار له . كما أن الله جل جلاله لم يعطنا الاختيار فى كل أحداث الدنيا . . بل أعطاه لنا فى المنهج فقط فى الطاعة أو المعصية .

ولكى نتقى الشيطان فى حياتنا . شرح لنا القرآن الكريم كيف سيغوى ابليس بنى آدم . . واقرأ القرآن الكريم :

﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

أى أن ابليس لا يجتهد فى اغواء من باع نفسه للمعصية . . وانطلق يخالف كل ما أمر به الله . . فالنفس الأمارة بالسوء لها شيطانها . . وهى ليست محتاجة الى اغواء لأنها تأمر صاحبها بالسوء . . ولذلك فإن ابليس لا يذهب الى الخمارات وبيوت الدعارة . ويبذل جهدا فى اغواء من يجلسون فيها . . لأن كل من ذهب الى هذه الاماكن . . هو من شياطين الانس . . ولكن ابليس يذهب الى مهابط الطاعة وأماكن العبادة . . هؤلاء يبذل معهم كل جهده وكل حيله ليصرفهم عن عبادة الله ، ولذلك لابد أن نتنبه الى أن ابليس لم يقل لأقعدن لهم على الطريق المعوج . .

فالطريق المعوج بطبيعته يتبع الشيطان . . فإبليس يريد أهل الطاعة . . يزين لهم المعصية ويغريهم بالمال الحرام .

القرآن الكريم يقول :

﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

هذه هى جهات الغواية التى يأتى منها ابليس . . من بين أيديهم أى من أمامهم وهذه هى الجهة الاولى . ومن خلفهم اى من ورائهم وهذه هى الجهة الثانية . . وعن أيمانهم أى من اليمين وهذه هى الجهة الثالثة . . وعن شمائلهم أى من الشمال وهذه هى الجهة الرابعة . . وكلنا نعلم أن الجهات ست وليست أربعا . . فما هما الجهتان اللتان لا يأتى منهما الشيطان ؟ . . هما فوق وتحت . . هرب ابليس من هاتين الجهتين بالذات . . ولم يقل سآتى لهم من فوقهم أو من تحتهم ، لأنه يعلم أن الجهة العليا تمثل الفوقية الالهية . . وأن الجهة السفلى تمثل العبودية البشرية حينما يسجد الانسان لله . . ولذلك ابتعد ابليس عن هاتين الجهتين تماما .

ومن العجيب أنك اذا نظرت الى أبواق الالحاد فى كل عصر . . تجدها تأتى من الجهات التى يأتى منها الشيطان . . يقولون تقدمى جهة الامام . . ورجعى جهة الخلف ويمينى جهة اليمين ويسارى جهة اليسار . . نقول لهم نحن لسنا فى أى جهة من هذه الجهات . لا تقدميين ندعو الى التحلل والفجور . . ولا رجعيين نقول هذا ما وجدنا عليه آباءنا . ولا يساريين ننكر الدين ونناصر الكفر . . ولا يمينيين نؤمن بالرأسمالية واستغلال الانسان . . ولكننا أمة محمدية فوقية . كل أمورنا من الله . ومادامت أمورنا من الله سبحانه وتعالى . . فنحن لا نخضع لمساو لنا . ولكننا نخضع لله العلى القدير . . ومادمت تخضع لأعلى منك . فلا ذلة أبدا بل عزة ورفعة . مصداقا لقوله تبارك وتعالى :

﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ ﴾

(سورة المنافقون)

ونحن أمة محمدية فوقية .. نعلن عبوديتنا وخضوعنا لله .. ونتبع منهج السماء .. ولذلك فقد تميزنا عن البشر جميعا لأن كل انسان فى الدنيا لا يخضع لله سبحانه وتعالى ولا يأخذ منهجه عنه فهو خاضع لمنهج بشرى وضعه مساو له من البشر .. والنفس البشرية لها هوى تريد أن تحققه . لذلك فهى تضع المنهج الذى يمكنها من أن تتميز به على الناس .. المنهج الذى تستفيد منه هى وحدها .. وقد يكون المنهج من وضع مجموعة أفراد أو طبقة .. نقول أن مناهجهم لفائدتهم .. ولكن الله سبحانه وتعالى يضع منهجه ليعطيك خيرا .. لا ليأخذ منك الخير ، لأنه جل جلاله مصدر الخير كله . وهو ليس محتاجا لما تملك ولا ما يملك كل البشر . اذن العدل والخير والعزة هى منهج السماء .. فالله لا يأخذ منك ولكن يعطيك . ولا يذلك ولكن يعزك .

على أن هناك لفتة .. لابد ان ننتبه اليها . فهذه الفوقية هى التى جعلت الله سبحانه وتعالى يختار أمة أمية .. ليجعل فيها آخر صلة للسماء بالارض . ويختار من هذه الأمة رسولا أميا .. أى كما ولدته امه . لم يأخذ ثقافة من مساويه .. لم يتثقف على الشرق أو على الغرب . ولم يقرأ لفلان فيتأثر به .. او لفيلسوف فيتبعه . ولكن الذى علمه هو الله جل جلاله .

اذن فالأمية شرف لرسول الله صلى الله عليه وسلم .. لأنها تؤكد أن كل ما جاء به هو من الله سبحانه وتعالى . ولذلك فكل ما يأتى به معجزة لأنه من وحى السماء .. فلو أن القرآن نزل على أمة متحضرة كالفرس أو الروم .. أو على نبى غير أمىّ .. قد قرأ كتب الفلاسفة والعلماء من الشرق والغرب .. لقيل أن « القرآن التقاء حضارات وهبات عقل واصلاحات ليقود الناس حركة حياتهم » ولكن لا . هى أمة أمية ـ ورسول أمى .. تأكيدا لصلتها بالسماء .. وأن ما جاء به محمد عليه الصلاة والسلام . لا دخل لبشر ولا ثقافة ولا حضارة به . وهو ليس من معطيات عقول البشر .. ولكنه من الحق تبارك وتعالى .. ليصبح محمدٌ صلى الله عليه وسلم وهو الرسول الأمى معلما للبشرية كلها . وهكذا نعرف أن الشيطان لايستطيع أن يقترب من مكان صعود الصلاة وصالح الاعمال الى السماء.ومن مكان الخضوع والعبودية لله سبحانه وتعالى .

وقد أصرَّ الشيطان على غواية الانسان .. حتى لا يكون هو العاصى الوحيد .

فمادام عصى وطرد من رحمة الله لماذا يكون هو العاصى الوحيد ؟ . . لماذالايكون الكل عاصيا ؟ . . واذا كانت معصية الشيطان بسبب عدم السجود لآدم . فلماذا لايأخذ أولاد آدم معه الى النار ؟ انتقاما منهم ومن أبيهم . بعض الناس يقول . . ابليس عصى وآدم عصى . والله سبحانه وتعالى طرد ابليس من رحمته وغفر لآدم . . نقول ان هناك فرقاً بين معصية ومعصية . معصية ابليس كانت معصية فى القمة . . ترد الأمر على الآمر . تقول لا . . لن أسجد ولن أطيع لأننى من نار وهو من طين . . فكأنه رد الأمر على الآمر . . أما آدم فقال : يارب أمرك الحق . . وقولك الحق ومنهجك الحق . . ولكنى ضعيف لم استطع أن أحمل نفسى على الطاعة . . فسامح ضعفى يارب ، ولذلك شرع له الله سبحانه وتعالى التوبة . وعلمه كلمات ليتوب عليه .

إذن فهناك فرق بين معصيتين . معصية تقول لن أطيع لأننى خير منه . . ومعصية يعترف فيها العبد بالخطأ والضعف ويتجه الى الله طالبا التوبة والغفران . وبرغم أن الله سبحانه وتعالى قد أبلغنا فى القرآن الكريم أن الشيطان عدو لنا . . فى قوله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ﴾

(سورة فاطر)

فإن الانسان لايحتاط . . ولذلك فى كل مرة نقرأ فيها القرآن . . يريد الله سبحانه وتعالى . . أن نستعيذ به من الشيطان الرجيم . . حتى إذا كان الشيطان قد مسنا أو غلبنا فى حدث من احداث الحياة . . فإن الله سبحانه وتعالى يبعده عنا ونحن نقرأ القرآن . . حتى تصفو قلوبنا ونكون قد أبعدنا الشيطان . . وما حاول أن يوسوسه لنا ليبعدنا عن المنهج .

عندما نستعيذ بالله من الشيطان الرجيم . . فهناك مستعاذ به وهو الله تبارك وتعالى من الشيطان . . والشيطان من خلق الله وأنت من خلق الله . فمن الممكن ان ينفرد خلق لله بخلق لله ، ويكون القوى بقوته . أما إذا التحم احدهما بخالقه فالثانى لايقدر عليه . وأنت إذا تركت نفسك للشيطان . . انفرد بك . ولذلك تستعيذ بالله الذى خلقك وخلق الشيطان . . فيعينك عليه . . ولذلك حين تجد قوما مؤمنين وقوما كافرين . . إن ظل المؤمنون موصولين بربهم . لا يهزمهم الكفار

أبدا . . فاذا بعدوا عن منهج الله . . يهزمهم الكفار . . لانه فى هذه الحالة يكون القتال بين فئتين ابتعدتا عن الله . . اذن فعندما ينفرد خلق بخلق . . فالقوى هو الذى يغلب . أما إذا احتمى خلق بخالقهم . فلا يقدر عليهم أحد . البشر يقدر على البشر إذا بعدت الفئتان عن الله . . فإن كانت الفئتان معتصمتين بالله . . فلن يتقاتلا .

والحق تبارك وتعالى . . يريدك حين تقرأ القرآن . أن تصفِّى جهاز استقبالك تصفية تضمن حسن استقبالك للقرآن . . بأن تبعد عنك نزع الشيطان . . حينئذ تستقبل القرآن بصفاء . . وتأخذ منه كل عطاء . فاذا استعذت بالله من الشيطان الرجيم . تكون فى جانب الله فلا يأتيك الشيطان أبدا . . ولذلك سيأتى الشيطان يوم القيامة ليقول لمن أغواهم كما يروى لنا القرآن الكريم :

﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ .

(سورة ابراهيم)

اذن فالشيطان ليس له سلطان على الانسان أن يقهره على فعل لا يريده . . أى ليس له سلطان القهر . وليس له سلطان على أن يقنع الانسان بالمعصية . . وهذا اسمه سلطان الحجة . . فالسلطان نوعان . . قهر لمن لايريد الفعل . واقناع يجعلك تقبل الفعل وأنت راض . . الشيطان ليس له سلطان القهر على عمل لا نريده . وليس له سلطان الحجة . . ليقنعنا بأن نفعل ما لا نريد أن نفعله . . ولكن المسألة ان وسوسة الشيطان . . وجدت هوى فى نفوسنا فتبعناه .

والله سبحانه وتعالى يريد أن يمنع عنا هذه الوسوسة . . ونحن نقرأ القرآن . . ولكن الحق سبحانه وتعالى هو الذى خلق الشيطان . . وهو الذى أعطاه القدرة على أن يوسوس للانسان . . لماذا ؟ . . لأنه لو أن الطاعة وجدت بدون مقاوم . .

لا تظهر حرارة الايمان . . ولا قوة الاقبال على التكليف . . وانما عندما يوجد إغراء وإلحاح فى الاغراء . . وأنت متمسك بالطاعة . فذلك دليل على قوة الايمان . . تماما كما أنك لا تعرف قوة أمانة موظف إلا إذا أغريته برشوة . فلو أنه لو لم يتعرض لهذا الاغراء . . فلن تختبر أمانته أبدا . ولكن إذا تعرض للاغراء . . وتمسك بأمانته ونزاهته فهذه هى الامانة . .

والله سبحانه وتعالى أعطانا الاختيار لأنه يريد من خلقه من يطيعه وهو قادر على معصيته . . ويؤمن به وهو قادر على عدم الايمان . . لأن هذه تثبت صفة المحبوبية لله . الخلق المقهور لله يأتى له قهرا . . لا يقدر على المعصية . . وهذا يثبت القهر والجبروت لله . . ولكن الحق سبحانه وتعالى أراد خلقا يأتيه عن حب . . وقد يكون هذا الحب من أجل عطاء الله فى الآخرة ونعيمه وجنته . فلا يضن الله على عباده بها . . وقد يكون عن حب لذات الله . لذلك يقول بعض اهل الصفاء فى معنى الآية الكريمة :

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾ ﴾

(سورة الكهف)

يقولون إن الجنة أحد . . لأن الحق سبحانه وتعالى قال «من كان يريد لقاء ربه» . . أى الأُنس بلقاء الله . . فان كنت تعمل للذات وليس للعطاءات . . فانك تكون فى أُنس الله يوم القيامة . . والذى عمل للجنة سيأخذها . . والذى عمل لما هو فوق الجنة يأخذه .

أو لم يخلق الله تعالى جنة ونارا ، أما كان اهلا لأن يعبد ؟! ولقد قالت رابعة العدوية : «اللهم إن كنت تعلم أنى أعبدك طمعا فى جنتك فاحرمنى منها ، وإن كنت تعلم أنى أعبدك خوفا من نارك فارسلنى فيها ، أنا أعبدك لأنك تستحق أن تُعبد» .

والحق سبحانه وتعالى : يريدك عندما تقرأ القرآن . . أن تصفى نفسك له سبحانه وتعالى . وهو جل جلاله يعلم مكائد الشيطان ومداخله الى النفس البشرية . وأنه سيوسوس لك ما يفسد عليك فطرتك الايمانية . . فيأتى القرآن على فطرة

فسدت . فلا يحدث استقبال لفيوضاته على النفس البشرية . . ولكن اذا استعذت بالله ، فقد استعذت بخالق . . فلا يجرؤ الخلق على الاقتراب منك . ولذلك إن أردت من جهاز استقبالك أن يكون صالحا لصفاءات الارسال ، سامعا لكلام الله . . لأن الله هو الذى يتكلم . . فالقرآن ليس كلام القارىء له . ولكنه كلام الله سبحانه وتعالى . . ولذلك قال سيدنا جعفر الصادق رضى الله عنه . . وكان أكثر آل بيت رسول الله معرفة بأسرار القرآن الكريم . . ان مفزعات الحياة عند الانسان . . الخوف والغم والهم والضر وزوال النعمة . . قال عجبت لمن خاف ولم يفزع الى قول الله سبحانه وتعالى : حسبنا الله ونعم الوكيل . فقد سمعت الله بعدها يقول : «فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء» وعجبت لمن ابتلى بالضر ولم يفزع الى قول الله سبحانه وتعالى «إنى مسنى الضر وانت ارحم الراحمين» فقد سمعت الله بعدها يقول : «فاستجبنا له فكشفنا مابه من ضر» . وعجبت لمن ابتلى بالغم كيف لم يفزع الى قول الله تعالى «لا إله إلا أنت سبحانك انى كنت من الظالمين» فقد سمعت الله بعدها يقول : «فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين» . وعجبت لمن أضير . . ولم يفزع لقول الله سبحانه وتعالى : «وأفوض أمرى الى الله إن الله بصير بالعباد» . . فقد سمعت الله تعالى بعدها يقول : «فوقاه الله سيئات مامكروا» .

وأنت مادمت فى معية خالقك لا يجرؤ الشيطان أن يذهب إليك أبدا . .

وحين كان رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غار ثور ومعه أبو بكر الصديق رضى الله عنه يوم الهجرة . . والكفار عند مدخل الغار بسلاحهم . . ماذا قال أبو بكر رضى الله عنه ؟ قال لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا . . وهذا واقع لا يكذب إلا بصفاء ايمانى . . ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لصاحبه : ماظنك باثنين الله ثالثهما . . وهو ماتشير اليه الآية الكريمة بقوله تعالى :

﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾

(سورة التوبة)

اذن فرسول الله صلى الله عليه وسلم .. ومعه أبو بكر رضى الله عنه كلاهما فى معية الله . ولكن هل كونهما فى معية الله . رد على قول أبى بكر : لو نظر احدهم تحت قدميه لرآنا . . نقول نعم . . لأنهما فى معية الله ـ والله لا تدركه الأبصار ـ فلا تدرك رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبا بكر الأبصار كذلك ماداما فى معية الله .

سورة الفاتحة (١)

مكية

بسم الله الرحمن الرحيم ١

القرآن الكريم منذ اللحظة التى نزل فيها نزل مقرونا بسم الله سبحانه وتعالى ـ ولذلك حينما نتلوه فإننا نبدأ البداية نفسها التى أرادها الله تبارك وتعالى ـ وهى أن تكون البداية بسم الله . وأول الكلمات التى نطق بها الوحى لمحمد صلى الله عليه وسلم كانت «اقرأ باسم ربك الذى خلق» . وهكذا كانت بداية نزول القرآن الكريم ليمارس مهمته فى الكون . . هى بسم الله . ونحن الآن حينما نقرأ القرآن نبدأ نفس البداية .

ولقد كان محمد عليه الصلاة والسلام فى غار حراء حينما جاءه جبريل وكان أول لقاء بين الملك الذى يحمل الوحى بالقرآن . . وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم قول الحق تبارك وتعالى : «اقرأ».

واقرأ تتطلب ان يكون الانسان . . إما حافظا لشىء يحفظه ، أو أمامه شىء مكتوب ليقرأه . . ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كان حافظا لشىء يقرؤه . . وما كان أمامه كتاب ليقرأ منه . . وحتى لو كان أمامه كتاب فهو أمىّ لا يقرأ ولا يكتب .

وعندما قال جبريل : «اقرأ» . . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أنا بقارىء . . وكان الرسول عليه الصلاة والسلام منطقيا مع قدراته . وتردد القول ثلاث مرات . . جبريل عليه السلام بوحى من الله سبحانه وتعالى يقول للرسول : «اقرأ» ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ما أنا بقارىء . . ولقد أخذ خصوم الاسلام هذه النقطة . . وقالوا كيف يقول الله لرسوله اقرأ ويرد الرسول ما أنا بقارىء .

نقول إن الله تبارك وتعالى . . كان يتحدث بقدراته التى تقول للشىء كن فيكون ،

بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يتحدث ببشريته التى تقول أنه لايستطيع أن يقرأ كلمة واحدة ، ولكن قدرة الله هى التى ستأخذ هذا النبى الذى لايقرأ ولايكتب لتجعله معلما . للبشرية كلها الى يوم القيامة . . لأن كل البشر يعلمهم بشر . . ولكن محمدا صلى الله عليه وسلم سيعلمه الله سبحانه وتعالى . ليكون معلما لأكبر علماء البشر . . يأخذون عنه العلم والمعرفة . لذلك جاء الجواب من الله سبحانه وتعالى :

﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ﴾

(سورة العلق)

أى أن الله سبحانه وتعالى . الذى خلق من عدم . سيجعلك تقرأ على الناس ما يعجز علماء الدنيا وحضارات الدنيا على أن يأتوا بمثله . . وسيكون ماتقرؤه وأنت النبى الأمىّ اعجازا . . ليس لهؤلاء الذين سيسمعونه منك فقط لحظة نزوله . ولكن للدنيا كلها وليس فى الوقت الذى ينزل فيه فقط ، ولكن حتى قيام الساعة ، ولذلك قال جل جلاله :

﴿ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ ﴾

(سورة العلق)

أى أن الذى ستقرؤه يا محمد . . سيظل معلما للانسانية كلها الى نهاية الدنيا على الأرض . . ولأن المعلم هو الله سبحانه وتعالى قال : «اقرأ وربك الأكرم» مستخدما صيغة المبالغة . فهناك كريم وأكرم . . فأنت حين تتعلم من بشر فهذا دليل على كرم الله جل جلاله . . لأنه يسر لك العلم على يد بشر مثلك . . اما اذا كان الله هو الذى سيعلمك . . يكون «أكرم» . . لأن ربك قد رفعك درجة عالية ليعلمك هو سبحانه وتعالى . .

والحق يريد أن يلفتنا الى أن محمدا عليه الصلاة والسلام لا يقرأ القرآن لأنه تعلم القراءة ، ولكنه يقرؤه باسم الله ، ومادام بسم الله . . فلا يهم أن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم تعلم من بشر أو لم يتعلم . لأن الذى علمه هو الله . . وعلمه

فوق مستوى البشرية كلها .

على أننا نبدأ ايضا تلاوة القرآن بسم الله . . لأن الله تبارك وتعالى هو الذى أنزله لنا . . ويسر لنا أن نعرفه ونتلوه . . فالأمر لله علما وقدرة ومعرفة . . واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة يونس)

لذلك أنت تقرأ القرآن باسم الله لأنه جل جلاله هو الذى يسره لك كلاما وتنزيلا وقراءة . . ولكن هل نحن مطالبون أن نبدأ فقط تلاوة القرآن بسم الله ؟ . . . إننا مطالبون أن نبدأ كل عمل باسم الله . لأننا لابد أن نحترم عطاء الله فى كونه . فحين نزرع الارض مثلا . . لابد أن نبدأ بسم الله . . لأننا لم نخلق الأرض التى نحرثها . . ولا خلقنا البذرة التى نبذرها . ولا انزلنا الماء من السماء لينمو الزرع .

ان الفلاح الذى يمسك الفأس ويرمى البذرة قد يكون أجهل الناس بعناصر الارض ومحتويات البذرة وما يفعله الماء فى التربة لينمو الزرع . . إن كل مايفعله الانسان هو أنه يعمل فكره المخلوق من الله فى المادة المخلوقة من الله . . بالطاقة التى أوجدها الله فى أجسادنا ليتم الزرع .

والانسان لا قدرة له على إرغام الأرض لتعطيه الثمار . . ولا قدرة له على خلق الحبة لتنمو وتصبح شجرة . ولا سلطان له على إنزال الماء من السماء . . فكأنه حين يبدأ العمل باسم الله ، يبدؤه باسم الله الذى سخر له الأرض . . وسخر له الحب ، وسخر له الماء ، وكلها لا قدرة له عليها . . ولا تدخل فى طاقته ولا فى استطاعته . . فكأنه يعلن أنه يدخل على هذه الأشياء جميعا باسم من سخرها له . .

والله تبارك وتعالى سخر لنا الكون جميعا وأعطانا الدليل على ذلك . فلا تعتقد أن لك قدرة أو ذاتية فى هذا الكون . . ولا تعتقد ان الاسباب والقوانين فى الكون لها ذاتية . بل هى تعمل بقدرة خالقها. الذى إن شاء أجراها وإن شاء أوقفها .

الجمل الضخم والفيل الهائل المستأنس قد يقودهما طفل صغير فيطيعانه . ولكن الحية صغيرة الحجم لايقوى أى انسان على أن يستأنسها . ولو كنا نفعل ذلك بقدراتنا . . لكان استئناس الحية أو الثعبان سهلا لصغر حجمها . . ولكن الله سبحانه وتعالى أراد أن يجعلها مثلا لنعلم أنه بقدراته هو قد أخضع لنا ما شاء ، ولم يخضع لنا ما شاء . . ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾

(سورة يس)

وهكذا نعرف أن خضوع هذه الأنعام لنا هو بتسخير الله لها وليس بقدرتنا .

يأتى الله سبحانه وتعالى الى أرض ينزل عليها المطر بغزارة . والعلماء يقولون إن هذا يحدث بقوانين الكون . فيلفتنا الله تبارك وتعالى الى خطأ هذا الكلام . بأن تأتى مواسم جفاف لا تسقط فيها حبة مطر واحدة لنعلم أن المطر لا يسقط بقوانين الكون ولكن بإرادة خالق الكون . . فاذا كانت القوانين وحدها تعمل فمن الذى عطلها ؟ ولكن إرادة الخالق فوق القوانين ان شاءت جعلتها تعمل وإن شاءت جعلتها لا تعمل . . اذن فكل شىء فى الكون باسم الله . . هو الذى سخر وأعطى . . وهو الذى يمنح ويمنع . حتى فى الأمور التى للانسان فيها نوع من الاختيار . . واقرأ قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ﴾

(سورة الشورى)

والاصل فى الذرية أنها تأتى من اجتماع الذكر والانثى . . هذا هو القانون . . ولكن القوانين لاتعمل الا بأمر الله . . لذلك يتزوج الرجل والمرأة ولا تأتى الذرية لأنه ليس القانون هو الذى يخلق . . ولكنها ارادة خالق القانون . . ان شاء جعله

يعمل . . وان شاء يبطل عمله . . والله سبحانه وتعالى لاتحكمه القوانين ولكنه هو الذى يحكمها .

وكما أن الله سبحانه وتعالى قادر على ان يجعل القوانين تفعل او لا تفعل . . فهو قادر على ان يخرق القوانين . . خذ مثلا قصة زكريا عليه السلام . . كان يكفل مريم ويأتيها بكل ماتحتاج إليه . . ودخل عليها ليجد عندها مالم يحضره لها . .

وسألها وهى القديسة العابدة الملازمة لمحرابها . .

﴿ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ ﴿٣٧﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

الحق سبحانه وتعالى يعطينا هذه الصورة . . مع أن مريم بسلوكها وعبادتها وتقواها فوق كل الشبهات . . ولكن لنعرف أن الذى يفسد الكون . . هو عدم السؤال عن مصدر الأشياء التى تتناسب مع قدرات من يحصل عليها . .
الأم ترى الأب ينفق ما لا يتناسب مع مرتبه . . وترى الابنة ترتدى ما هو أكبر كثيرا من مرتبها أو مصروفها . . ولو سألت الأم الأب أو الابنة من أين لك هذا ؟ لما فسد المجتمع . . ولكن الفساد يأتى من أننا نغمض أعيننا عن المال الحرام .
بماذا ردت مريم عليها السلام ؟

﴿ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿٣٧﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

اذن فطلاقة قدرة الله لا يحكمها قانون . . لقد لفتت مريم زكريا عليهما السلام الى طلاقة القدرة . . فدعا زكريا ربه فى قضية لا تنفع فيها الا طلاقة القدرة . . فهو رجل عجوز وامرأته عجوز وعاقر ويريد ولدا . . هذه قضية ضد قوانين الكون . . لأن الانجاب لا يتم الا وقت الشباب ، فإذا كبر الرجل وكبرت المرأة لا ينجبان . . فما بالك اذا كانت الزوجة أساسا عاقرا . . لم تنجب وهى شابة وزوجها شاب . .

فكيف تنجب وهى عجوز وزوجها عجوز . . هذه مسألة ضد القوانين التى تحكم البشر . . ولكن الله وحده القادر على أن يأتى بالقانون وضده . . ولذلك شاء أن يرزق زكريا بالولد وكان . . ورزق زكريا بابنه يحيى .

اذن كل شيء فى هذا الكون باسم الله . . يتم باسم الله وبإذن من الله . . الكون تحكمه الأسباب نعم ولكن ارادة الله فوق كل الأسباب .

أنت حين تبدأ كل شيء باسم الله . . كأنك تجعل الله فى جانبك يعينك . . ومن رحمة الله سبحانه وتعالى أنه علمنا أن نبدأ كل شيء باسم الله . . لأن الله هو الاسم الجامع لصفات الكمال سبحانه وتعالى . . والفعل عادة يحتاج الى صفات متعددة . . فأنت حين تبدأ عملا تحتاج الى قدرة الله والى قوته والى عونه والى رحمته . . فلو أن الله سبحانه وتعالى لم يخبرنا بالاسم الجامع لكل الصفات . . كان علينا أن نحدد الصفات التى نحتاج إليها . . كأن نقول باسم الله القوى وباسم الله الرازق وباسم الله المجيب وباسم الله القادر وباسم الله النافع . . إلى غير ذلك من الأسماء والصفات التى نريد أن نستعين بها . . ولكن الله تبارك وتعالى جعلنا نقول : بسم الله بسم الله بسم الله الجامع لكل هذه الصفات .

على أننا لابد أن نقف هنا عند الذين لا يبدأون أعمالهم بسم الله وإنما يريدون الجزاء المادى وحده . . إنسان غير مؤمن لا يبدأ عمله باسم الله . . وإنسان مؤمن يبدأ كل عمل وفى باله الله . . كلاهما يأخذ من الدنيا لأن الله رب للجميع . . له عطاء ربوبية لكل خلقه الذين استدعاهم للحياة . . ولكن الدنيا ليست هى الحياة الحقيقية للإنسان . . بل الحياة الحقيقية هى الآخرة . . الذى فى باله الدنيا وحدها يأخذ بقدر عطاء الربوبية . . بقدر عطاء الله فى الدنيا . . والذى فى باله الله يأخذ بقدر عطاء الله فى الدنيا والآخرة . . ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١﴾ ﴾

(سورة سبأ)

لأن المؤمن يحمد الله على نعمه فى الدنيا . . ثم يحمده عندما ينجيه من النار والعذاب ويدخله الجنة فى الآخرة . . فلله الحمد فى الدنيا والآخرة .

ورسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« كل أمر ذى بال لا يبدأ فيه بباسم الله الرحمن الرحيم أقطع »[1]

ومعنى أقطع أى مقطوع الذنب أو الذيل . . أى عمل ناقص فيه شيء ضائع . . لانك حين لا تبدأ العمل باسم الله قد يصادفك الغرور والطغيان بأنك أنت الذى سخرت ما فى الكون ليخدمك وينفعل لك . . وحين لا تبدأ العمل باسم الله . . فليس لك عليه جزاء فى الآخرة فتكون قد أخذت عطاءه فى الدنيا . . وبترت أو قطعت عطاءه فى الآخرة . . فاذا كنت تريد عطاء الدنيا والآخرة . فأقبل على كل عمل باسم الله . . قبل أن تأكل قل باسم الله لأنه هو الذى خلق لك هذا الطعام ورزقك به . . عندما تدخل الامتحان قل بسم الله فيعينك على النجاح . . عندما تدخل الى بيتك قل باسم الله لانه هو الذى يسر لك هذا البيت . . عندما تتزوج قل باسم الله لانه هو الذى خلق هذه الزوجة وأباحها لك . . فى كل عمل تفعله ابدأه باسم الله . . لأنها تمنعك من أى عمل يغضب الله سبحانه وتعالى . . فأنت لا تستطيع أن تبدأ عملا يغضب الله باسم الله . . اذا أردت أن تسرق أو أن تشرب الخمر . . أو أن تفعل عملا يغضب الله . . وتذكرت بسم الله . . فإنك ستمتنع عنه . . ستستحى أن تبدأ عملا باسم الله يغضب الله . . وهكذا ستكون أعمالك كلها فيما أباحه الله .

الله تبارك وتعالى حين نبدأ قراءة كلامه باسم الله . . فنحن نقرأ هذا الكلام لأنه من الله . . والله هو الاله المعبود فى كونه . . ومعنى معبود أنه يطاع فيما يأمر به . . ولا نقدم على ما نهى عنه . . فكأنك تستقبل القرآن الكريم بعطاء الله فى العبادة . . وبطاعته فى افعل ولا تفعل . . وهذا هو المقصود أن تبدأ قراءة القرآن باسم الله الذى آمنت به ربا وإلها . . والذى عاهدته على أن تطيعه فيما أمر وفيما نهى . . والذى بموجب عبادتك لله سبحانه وتعالى تقرأ كتابه لتعمل بما فيه . . والذى خلق وأوجد ويحيى ويميت وله الأمر فى الدنيا والآخرة . . والذى ستقف أمامه يوم القيامة

---

(١) رواه السيوطى فى الجامع الصغير ، وعزاه لعبد القادر الرهاوى فى أول كتاب (الاربعين) عن ابى هريرة باسناد حسن ورواه ابن كثير فى تفسيره بلفظ «فهو اجذم» .

ليحاسبك أحسنت أم أسأت . . فالبداية من الله والنهاية الى الله سبحانه وتعالى .

بعض الناس يتساءل كيف أبدأ بسم الله . . وقد عصيت وقد خالفت . . نقول اياك أن تستحى أن تقرأ القرآن . . وأن تبدأ بسم الله اذا كنت قد عصيت . . ولذلك أعطانا الله سبحانه وتعالى الحيثية التى نبدأ بها قراءة القرآن فجعلنا نبدؤه باسم الله الرحمن الرحيم . . فالله سبحانه وتعالى لا يتخلى عن العاصى . . بل يفتح له باب التوبة ويحثه عليها . . ويطلب منه أن يتوب وأن يعود الى الله . . فيغفر له ذنبه ، لأن الله رحمن رحيم . . فلا تقل أننى أستحى أن أبدأ باسم الله لأننى عصيته . . فالله سبحانه وتعالى يطلب من كل عاص أن يعود الى حظيرة الايمان وهو رحمن رحيم . . فاذا قلت كيف أقول باسم الله وقد وقعت فى معصية أمس . . نقول لك قل باسم الله الرحمن الرحيم . . فرحمة الله تسع كل ذنوب خلقه . . وهو سبحانه وتعالى الذى يغفر الذنوب جميعا .

والرحمة والرحمن والرحيم . . مشتق منها الرحم الذى هو مكان الجنين فى بطن أمه . . هذا المكان الذى يأتيه فيه الرزق . . بلا حول ولا قوة . . ويجد فيه كل مايحتاج إليه نموه ميسرا . . رزقا من الله سبحانه وتعالى بلا تعب ولا مقابل . . انظر الى حنو الأم على ابنها وحنانها عليه . . وتجاوزها عن سيئاته وفرحته بعودته اليها . . ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى فى حديث قدسى .

« أنا الرحمن خلقت الرحم وشققت لها اسما من اسمى فمن وصلها وصلته ، ومن قطعها قطعته »(١)

الله سبحانه وتعالى يريد أن نتذكر دائما أنه يحنو علينا ويرزقنا . . ويفتح لنا أبواب التوبة بابا بعد آخر . . ونعصى فلا يأخذنا بذنوبنا ولا يحرمنا من نعمه . . ولا يهلكنا بما فعلنا . ولذلك فنحن نبدأ تلاوة القرآن الكريم بسم الله الرحمن الرحيم . . لنتذكر دائما أبواب الرحمة المفتوحة لنا . . نرفع أيدينا الى السماء . . ونقول يارب رحمتك . . تجاوز عن ذنوبنا وسيئاتنا . وبذلك يظل قارىء القرآن متصلا بأبواب رحمة الله . . كلما ابتعد عن المنهج أسرع ليعود اليه . . فمادام الله رحمانا ورحيما لا تغلق أبواب الرحمة أبدا . .

---

(١) رواه أحمد والبخارى وأبوداود والترمذى .

على أننا نلاحظ أن الرحمن والرحيم من صيغ المبالغة . . يقال راحم ورحمن ورحيم . . اذا قيل راحم فيه صفة الرحمة . . واذا قيل رحمن تكون مبالغة فى الصفة . . واذا قيل رحيم تكون مبالغة فى الصفة . . والله سبحانه وتعالى رحمن الدنيا ورحيم الآخرة . .

صفات الله سبحانه وتعالى لا تتأرجح بين القوة والضعف . . وإياكم أن تفهموا أن الله تأتيه الصفات مرة قليلة ومرة كثيرة . بل هى صفات الكمال المطلق . . ولكن الذى يتغير هو متعلقات هذه الصفات . . اقرأ قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴿٤٠﴾ ﴾

(سورة النساء)

هذه الآية الكريمة . . نفت الظلم عن الله سبحانه وتعالى ، ثم تأتى الآية الكريمة بقول الله جل جلاله :

﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ ﴾

(سورة فصلت)

نلاحظ هنا استخدام صيغة المبالغة . . « ظلام » . . أى شديد الظلم . . وقول الحق سبحانه وتعالى : « ليس بظلام » . . لا تنفى الظلم ولكنها تنفى المبالغة فى الظلم ، تنفى أن يظلم ولو مثقال ذرة . . نقول انك لم تفهم المعنى . . ان الله لا يظلم أحدا . . الآية الأولى نفت الظلم عن الحق تبارك وتعالى ولو مثقال ذرة بالنسبة للعبد . . والآية الثانية لم تقل للعبد ولكنها قالت للعبيد . . والعبيد هم كل خلق الله . . فلو اصاب كل واحد منهم أقل من ذرة من الظلم مع هذه الاعداد الهائلة . . فإن الظلم يكون كثيراً جداً ، ولو أنه قليل فى كميته لأن عدد من سيصاب به هائل . . ولذلك فإن الآية الاولى نفت الظلم عن الله سبحانه وتعالى . والآية الثانية نفت الظلم أيضا عن الله تبارك وتعالى . . ولكن صيغة المبالغة استخدمت لكثرة عدد الذين تنطبق عليهم الآية الكريمة .

نأتى بعد ذلك الى رحمن ورحيم . . رحمن فى الدنيا لكثرة عدد الذين يشملهم الله سبحانه وتعالى برحمته . . فرحمة الله فى الدنيا تشمل المؤمن والعاصى والكافر . . يعطيهم الله مقومات حياتهم ولا يؤاخذهم بذنوبهم ، يرزق من آمن به ومن لم يؤمن به ، ويعفو عن كثير . . اذن عدد الذين تشملهم رحمة الله فى الدنيا هم كل خلقه . بصرف النظر عن ايمانهم أو عدم ايمانهم .

ولكن فى الآخرة الله رحيم بالمؤمنين فقط . . فالكفار والمشركون مطرودون من رحمة الله . . اذن الذين تشملهم رحمة الله فى الآخرة . . أقل عددا من الذين تشملهم رحمة الله فى الدنيا . . فمن أين تأتى المبالغة ؟ . . تأتى المبالغة فى العطاء وفى الخلود فى العطاء . . فنعم الله فى الآخرة اكبر كثيراً منها فى الدنيا . . المبالغة هنا بكثرة النعم وخلودها . . فكأن المبالغة فى الدنيا بعمومية العطاء ، والمبالغة فى الآخرة بخصوصية العطاء للمؤمن وكثرة النعم والخلود فيها .

ولقد اختلف عدد العلماء حول بسم الله الرحمن الرحيم . . وهى موجودة فى ١١٣ سورة من القرآن الكريم هل هى من آيات السور نفسها . . بمعنى أن كل سورة تبدأ « بسم الله الرحمن الرحيم » تحسب البداية على أنها الآية الأولى من السورة ، أم انها حسبت فقط فى فاتحة الكتاب ، ثم بعد ذلك تعتبر فواصل بين السور . .

وقال العلماء أن «بسم الله الرحمن الرحيم» آية من آيات القرآن الكريم . . ولكنها ليست آية من كل سورة ماعدا فاتحة الكتاب فهى آية من الفاتحة . . وهناك سورة واحدة فى القرآن الكريم لاتبدأ بـ«بسم الله الرحمن الرحيم» وهى سورة التوبة وتكررت بسم الله الرحمن الرحيم فى الآية ٣٠ من سورة النمل فى قوله تعالى :

﴿ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَـٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ ﴾

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾

فاتحة الكتاب هى أم الكتاب ، لا تصلح الصلاة بدونها، فأنت فى كل ركعة تستطيع ان تقرأ آية من القرآن الكريم ، تختلف عن الآية التى قرأتها فى الركعة السابقة ، وتختلف عن الآيات التى قرأتها فى صلواتك . . ولكن إذا لم تقرأ الفاتحة فسدت الصلاة ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من صلى صلاة لم يقرأ فيها أم القرآن فهى خداج ثلاثا غير تام»[١] أى غير صالحة .

فالفاتحة أم الكتاب التى لاتصلح الصلاة بدونها ، والله سبحانه وتعالى يقول فى حديث قدسى : «قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين ولعبدى ما سأل . . فإذا قال العبد الحمد لله رب العالمين.قال الله عز وجل حمدنى عبدى . فإذا قال : الرحمن الرحيم ، قال الله عز وجل : أثنى على عبدى. فإذا قال مالك يوم الدين ، قال الله عز وجل: مجدنى عبدى . . فإذا قال إياك نعبد وإياك نستعين ، قال الله عز وجل هذا بينى وبين عبدى ولعبدى ما سأل . . وإذا قال : « اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين » قال الله عز وجل : هذا لعبدى ولعبدى ما سأل[٢] .

وعلينا أن نتنبه ونحن نقرأ هذا الحديث القدسى ان الله تعالى يقول : قسمت الصلاة بينى وبين عبدى ، ولم يقل قسمت الفاتحة بينى وبين عبدى ، ففاتحة الكتاب هى أساس الصلاة ، وهى أم الكتاب .

نلاحظ ان هناك ثلاثة أسماء لله قد تكررت فى بسم الله الرحمن الرحيم ، وفى فاتحة الكتاب ، وهذه الاسماء هى : الله . والرحمن الرحيم . نقول انه ليس هناك تكرار

---

(١) رواه مسلم فى صحيحه بسنده عن أبى هريرة

(٢) رواه احمد ومسلم وأبوداود والترمذى والنسائى وابن ماجه وابن حيان عن أبى هريرة .

فى القرآن الكريم ، وإذا تكرر اللفظ يكون معناه فى كل مرة مختلفا عن معناه فى المرة السابقة ، لأن المتكلم هو الله سبحانه وتعالى . . ولذلك فهو يضع اللفظ فى مكانه الصحيح ، وفى معناه الصحيح . .

قولنا : «بسم الله الرحمن الرحيم» هو استعانة بقدرة الله حين نبدأ فعل الأشياء . . إذن فلفظ الجلالة «الله» فى بسم الله ، معناه الاستعانة بقدرات الله سبحانه وتعالى وصفاته . لتكون عونا لنا على مانفعل . ولكن إذا قلنا : الحمد لله . . فهى شكر لله على ما فعل لنا . ذلك اننا لانستطيع ان نقدم الشكر لله إلا إذا استخدمنا لفظ الجلالة . الجامع لكل صفات الله تعالى . لأننا نحمده على كل صفاته ورحمته بنا حتى لانقول باسم القهار وباسم الوهاب وباسم الكريم ، وباسم الرحمن . . نقول الحمد لله على كمال صفاته ، فيشمل الحمد كمال الصفات كلها .

وهناك فرق بين « بسم الله » الذى نستعين به على ما لا قدرة لنا عليه . . لأن الله هو الذى سخر كل ما فى هذا الكون ، وجعله يخدمنا ، وبين «الحمد لله» فإن لفظ الجلالة إنما جاء هنا لنحمد الله على ما فعل لنا . فكأن «بسم الله فى البسملة» طلب العون من الله بكل كمال صفاته . . وكأن الحمد لله فى الفاتحة تقديم الشكر لله بكل كمال صفاته .

و«الرحمن الرحيم» فى البسملة لها معنى غير «الرحمن الرحيم» فى الفاتحة ، ففى البسملة هى تذكرنا برحمة الله سبحانه وتعالى وغفرانه حتى لانستحى ولانهاب أن نستعين باسم الله ان كنا قد فعلنا معصية . . فالله سبحانه وتعالى يريدنا أن نستعين باسمه دائما فى كل اعمالنا . فإذا سقط واحد منا فى معصية ، قال كيف استعين باسم الله ، وقد عصيته ؟ نقول له ادخل عليه سبحانه وتعالى من باب الرحمة . . فيغفر لك وتستعين به فيجيبك .

وانت حين تسقط فى معصية تستعيذ برحمة الله من عدله ، لأن عدل الله لايترك صغيرة ولا كبيرة إلا احصاها .

وأقرأ قول الله تعالى :

﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ ﴾

(سورة الكهف)

ولولا رحمة الله التى سبقت عدله . ما بقى للناس نعمة وما عاش أحد على ظهر الأرض . . فالله جل جلاله يقول :

﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ ﴾

(سورة النحل)

فالانسان خلق ضعيفا ، وخلق هلوعا . ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «لا يدخل أحدكم الجنة بعمله إلا أن يتغمده الله برحمته ، قالوا : حتى أنت يارسول الله قال : حتى أنا» .

فذنوب الانسان فى الدنيا كثيرة . . إذا حكم فقد يظلم . وإذا ظن فقد يسىء . . وإذا تحدث فقد يكذب . . وإذا شهد فقد يبتعد عن الحق . . وإذا تكلم فقد يغتاب .

هذه ذنوب نرتكبها بدرجات متفاوتة . ولا يمكن لأحد منا ان ينسب الكمال لنفسه حتى الذين يبذلون اقصى جهدهم فى الطاعة لا يصلون الى الكمال ، فالكمال لله وحده . ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «كل بنى آدم خطاء وخير الخطائين التوابون»(١) .

---

(١) رواه أحمد فى مسنده والترمذى وابن ماجه والحاكم عن أنس رضى الله عنه .

ويصف الله سبحانه وتعالى الانسان فى القرآن الكريم :

﴿ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ ﴾

(سورة ابراهيم)

ولذلك أراد الحق سبحانه وتعالى ألا تمنعنا المعصية عن ان ندخل الى كل عمل باسم الله . . فعلمنا ان نقول : «بسم الله الرحمن الرحيم» لكى نعرف أن الباب مفتوح للاستعانة بالله . وأن المعصية لا تمنعنا من الاستعانة فى كل عمل باسم الله . . لأنه رحمن رحيم ، فيكون الله قد أزال وحشتك من المعصية فى الاستعانة به سبحانه وتعالى .

ولكن الرحمن الرحيم فى الفاتحة مقترنة برب العالمين ، الذى أوجدك من عدم . . وأمدك بنعم لا تعد ولا تحصى . انت تحمده على هذه النعم التى أخذتها برحمة الله سبحانه وتعالى فى ربوبيته ، ذلك أن الربوبية ليس فيها من القسوة بقدر مافيها من رحمة .

والله سبحانه وتعالى رب للمؤمن والكافر ، فهو الذى استدعاهم جميعا الى الوجود . ولذلك فإنه يعطيهم من النعم برحمته . . وليس بما يستحقون . . فالشمس تشرق على المؤمن والكافر . . ولا تحجب أشعتها عن الكافر وتعطيها للمؤمن فقط ،

والمطر ينزل على من يعبدون الله . ومن يعبدون أوثانا من دون الله . والهواء يتنفسه من قال لا إله إلا الله ومن لم يقلها .

وكل النعم التى هى من عطاء الربوبية لله هى فى الدنيا لخلقه جميعا ، وهذه رحمة . . فالله رب الجميع من أطاعه ومن عصاه . وهذه رحمة ، والله قابل للتوبة ، وهذه رحمة . .

إذن ففى الفاتحة تأتى «الرحمن الرحيم» بمعنى رحمة الله فى ربوبيته لخلقه ، فهو يمهل العاصى ويفتح ابواب التوبة لكل من يلجأ اليه .

وقد جعل الله رحمته تسبق غضبه . وهذه رحمة تستوجب الشكر . فمعنى «الرحمن

الرحيم» فى البسملة يختلف عنها فى الفاتحة . فإذا انتقلنا بعد ذلك الى قوله تعالى :

«الحمد لله رب العالمين» فالله محمود لذاته ومحمود لصفاته ، ومحمود لنعمه ، ومحمود لرحمته ، ومحمود لمنهجه ، ومحمود لقضائه ، الله محمود قبل ان يخلق من يحمده . ومن رحمة الله سبحانه وتعالى أنه جعل الشكر له فى كلمتين اثنتين هما : الحمد لله .

والعجيب أنك حين تشكر بشرا على جميل فعله تظل ساعات وساعات . . تعد كلمات الشكر والثناء ، وتحذف وتضيف وتأخذ رأى الناس .حتى تصل الى قصيدة أو خطاب ملىء بالثناء والشكر . ولكن الله سبحانه وتعالى جلت قدرته وعظمته نعمه لا تعد ولا تحصى ، علمنا ان نشكره فى كلمتين اثنتين هما : الحمد لله . .

ولعلنا نفهم ان المبالغة فى الشكر للبشر مكروهة لأنها تصيب الانسان بالغرور والنفاق وتزيد العاصى فى معاصيه . . فلنقلل من الشكر والثناء للبشر . . لأننا نشكر الله لعظيم نعمه علينا بكلمتين هما : الحمد لله ، ومن رحمة الله سبحانه وتعالى أنه علمنا صيغة الحمد . فلو أنه تركها دون أن يحددها بكلمتين . . لكان من الصعب على البشر أن يجدوا الصيغة المناسبة ليحمدوا الله على هذا الكمال الالهى . . فمهما أوتى الناس من بلاغة وقدرة على التعبير . فهم عاجزون عن أن يصلوا الى صيغة الحمد التى تليق بجلال المنعم . . فكيف نحمد الله والعقل عاجز أن يدرك قدرته أو يحصى نعمه أو يحيط برحمته ؟ ورسول الله صلى الله عليه وسلم أعطانا صورة العجز البشرى عن حمد كمال الالوهية لله ، فقال : «لا أحصى ثناء عليك انت كما أثنيت على نفسك» .

وكلمتا الحمد لله ، ساوى الله بهما بين البشر جميعا ، فلو أنه ترك الحمد بلا تحديد ، لتفاوتت درجات الحمد بين الناس بتفاوت قدراتهم على التعبير . فهذا أمى لا يقرأ ولا يكتب لا يستطيع أن يجد الكلمات التى يحمد بها الله . وهذا عالم له قدرة على التعبير يستطيع ان يأتى بصيغة الحمد بما أوتى من علم وبلاغة . وهكذا تتفاوت درجات البشر فى الحمد . . طبقا لقدرتهم فى منازل الدنيا .

ولكن الحق تبارك وتعالى شاء عدله أن يسوى بين عباده جميعا فى صيغة الحمد له . . فيعلمنا فى أول كلماته فى القرآن الكريم . . أن نقول «الحمد لله» ليعطى

الفرصة المتساوية لكل عبيده بحيث يستوى المتعلم وغير المتعلم فى عطاء الحمد ومن أوتى البلاغة ومن لا يحسن الكلام .

ولذلك فإننا نحمد الله سبحانه وتعالى على أنه علمنا كيف نحمده وليظل العبد دائما حامدا . ويظل الله دائما محمودا . . فالله سبحانه وتعالى قبل أن يخلقنا خلق لنا موجبات الحمد من النعم ، فخلق لنا السموات والارض وأوجد لنا الماء والهواء . ووضع فى الأرض أقواتها الى يوم القيامة . . وهذه نعمة يستحق الحمد عليها لأنه جل جلاله جعل النعمة تسبق الوجود الانسانى ، فعندما خلق الانسان كانت النعمة موجودة تستقبله . بل ان الله جل جلاله قبل أن يخلق آدم أبا البشر جميعا سبقته الجنة التى عاش فيها لايتعب ولا يشقى . فقد خلق فوجد ما يأكله وما يشربه وما يقيم حياته وما يتمتع به موجودا وجاهزا ومعدا قبل الخلق . . وحينما نزل آدم وحواء الى الأرض كانت النعمة قد سبقتهما . فوجدا ما يأكلانه ومايشربانه ، وما يقيم حياتهما . . ولو أن النعمة لم تسبق الوجود الانسانى وخلقت بعده لهلك الانسان وهو ينتظر مجىء النعمة .

بل ان العطاء الالهى للانسان يعطيه النعمة بمجرد أن يخلق فى رحم أمه فيجد رحما مستعدا لاستقباله وغذاء يكفيه طول مدة الحمل . فاذا خرج الى الدنيا يضع الله فى صدر أمه لبنا ينزل وقت أن يجوع ويمتنع وقت أن يشبع . وينتهى تماما عندما تتوقف فترة الرضاعة . ويجد أبا وأما يوفران له مقومات حياته حتى يستطيع

أن يعول نفسه . . وكل هذا يحدث قبل انْ يصل الانسان الى مرحلة التكليف وقبل أن يستطيع ان ينطق : «الحمد الله» .

وهكذا نرى أن النعمة تسبق الْمُنْعَمَ عليه دائما . . فالانسانَ حيث يقول «الحمد لله» فلأن موجبات الحمد ـ وهى النعمة ـ موجودة فى الكون قبل الوجود الانسانى .

والله سبحانه وتعالى خلق لنا فى هذا الكون أشياء تعطى الانسان بغير قدرة منه ودون خضوع له ، والانسان عاجز عن أن يقدم لنفسه هذه النعم التى يقدمها الحق تبارك وتعالى له بلا جهد . فالشمس تعطى الدفء والحياة للارض بلا مقابل وبلا

فعل من البشر ، والمطر ينزل من السماء دون ان يكون لك جهد فيه أو قدرة على إنزاله . والهواء موجود حولك فى كل مكان تتنفس منه دون جهد منك ولا قدرة . والأرض تعطيك الثمر بمجرد أن تبذر فيها الحب وتسقيه . فالزرع ينبت بقدرة الله . . والليل والنهار يتعاقبان حتى تستطيع أن تنام لترتاح ، وأن تسعى لحياتك . . لا أنت أتيت بضوء النهار . . ولا أنت الذى صنعت ظلمة الليل ، ولكنك تأخذ الراحة فى الليل والعمل فى النهار بقدرة الله دون ان تفعل شيئا .

كل هذه الاشياء لم يخلقها الانسان ، ولكنه خلق ليجدها فى الكون تعطيه بلا مقابل ولا جهد منه . ألا تستحق أن نقول الحمد لله على نعمة تسخير الكون لخدمة الانسان ؟ إنها تقتضى وجوب الحمد .

وآيات الله سبحانه وتعالى فى كونه تستوجب الحمد . . فالحياة التى وهبها الله لنا ، والآيات التى أودعها فى كونه لتدلنا على أن لهذا الكون خالقاً عظيماً . فالكون بشمسه وقمره ونجومه وأرضه وكل ما فيه مما يفوق قدرة الانسان . . ولا يستطيع أحد أن يدعيه لنفسه . فلا أحد مهما بلغ علمه يستطيع أن يدعى أنه خلق الشمس أو أوجد النجوم أو وضع الأرض أو وضع قوانين الكون أو أعطى الأرض غلافها الجوى . . أو خلق نفسه أو خلق غيره .

هذه الآيات كلها أعطتنا الدليل على وجود قوة عظمى . هى التى أوجدت وهى التى خلقت . . وهذه الآيات ليست ساكنة ، لتجعلنا فى سكونها ننساها ، بل هى متحركة لتلفتنا الى خالق هذا الكون العظيم .

فالشمس تشرق فى الصباح فتذكرنا باعجاز الخلق ، وتغيب فى المساء لتذكرنا بعظمة الخالق . . وتعاقب الليل والنهار يحدث أمامنا كل يوم علنا نلتفت ونفيق . والمطر ينزل من السماء ليذكرنا بألوهية من أنزله . . والزرع يخرج من الأرض يسقى بماء واحد . ومع ذلك فإن كل نوع له لون وله شكل وله مذاق وله رائحة . . وله تكوين يختلف عن الآخر ، ويأتى الحصاد فيختفى الثمر والزرع . . ويأتى موسم الزراعة فيعود من جديد .

كل شىء فى هذا الكون متحرك ليذكرنا اذا نسينا . ويعلمنا أن هناك خالقاً عظيماً .

ونستطيع أن نمضى فى ذلك بلا نهاية فنعم الله لاتعد ولا تحصى . . وكل واحدة منها تدلنا على وجود الحق سبحانه وتعالى وتعطينا الدليل الايمانى على ان لهذا الكون خالقاً مبدعاً . . وانه لا أحد يستطيع أن يدعى أنه خلق الكون أو خلق ما فيه . . فالقضية محسومة لله . . و«الحمد لله» لأنه وضع فى نفوسنا الإيمان الفطرى ثم أيده بإيمان عقلى بآياته فى كونه .

بل إن كل شىء فى هذا الكون يقتضى الحمد ، ومع ذلك فإن الانسان يمتدح الوجود وينسى الموجود !! انت حين ترى جوهرة جميلة مثلا أو زهرة غاية فى الإبداع . . أو أى خلق من خلق الله يشيع فى نفسك الجمال تمتدح هذا الخلق . . فتقول ما أجمل هذه الزهرة أو هذه الجوهرة أو هذا المخلوق . . ولكن المخلوق الذى امتدحته ، لم يعط صفة الجمال لنفسه . . فالزهرة لا دخل لها أن تكون جميلة أو غير جميلة ، والجوهرة لا دخل لها فى عظمة خلقها . . وكل شىء فى هذا الكون لم يضع الجمال لنفسه وانما الذى وضع الجمال فيه هو الله سبحانه وتعالى ، فلا نخلط ونمدح المخلوق وننسى الخالق . . بل قل الحمد لله الذى أوجد فى الكون ما يذكرنا بعظمة الخالق ودقة الخلق .

ومنهج الله سبحانه وتعالى يقتضى منا الحمد . . لان الله أنزل منهجه ليرينا طريق الخير ويبعدنا عن طريق الشر .

فمنهج الله الذى أنزله على رسله قد عرفنا ان الله تبارك وتعالى هو الذى خلق لنا هذا الكون وخلقنا . . فدقة الخلق وعظمته تدلنا على أن هناك خالقاً عظيماً . . ولكنها لا تستطيع أن تقول لنا من هو ، ولا ماذا يريد منا . ولذلك أرسل الله رسله ، ليقولوا لنا إن الذى خلق هذا الكون وخلقنا هو الله تبارك وتعالى وهذا يستوجب الحمد .

ومنهج الله بين لنا ماذا يريد الحق منا وكيف نعبده . . وهذا يستوجب الحمد . ومنهج الله جل جلاله أعطانا الطريق وشرع لنا اسلوب حياتنا تشريعاً حقاً . . فالله تبارك وتعالى لا يفرق بين أحد منا . . ولا يفضل أحدا على احد إلا بالتقوى ، فكلنا خلق متساوون أمام الله جل جلاله . .

إذن فشريعة الحق وقول الحق ، وقضاء الحق ، هو من الله ، أما تشريعات

الناس فلها هوى تميز بعضا عن بعض . . وتأخذ حقوق بعض لتعطيها للآخرين ، لذلك نجد فى كل منهج بشرى ظلما بشريا .

فالدول الشيوعية أعضاء اللجنة المركزية فيها هم أصحاب النعمة والترف . بينما الشعب كله فى شقاء . . لأن هؤلاء الذين شرعوا اتبعوا هواهم . ووضعوا مصالحهم فوق كل مصلحة . .

وكذلك فى الدول الرأسمالية . أصحاب رأس المال يأخذون كل الخير . ولكن الله سبحانه وتعالى حين نزل لنا المنهج قضى بالعدل بين الناس . . وأعطى كل ذى حق حقه . وعلمنا كيف تستقيم الحياة على الأرض عندما تكون بعيدة عن الهوى البشرى خاضعة لعدل الله ، وهذا يوجب الحمد .

والحق سبحانه وتعالى ، يستحق منا الحمد لأنه لا يأخذ منا ولكنه يعطينا . فالبشر فى كل عصر يحاولون استغلال البشر . . لأنهم يطمعون لما فى ايديهم من ثروات وأموال ، ولكن الله سبحانة وتعالى لا يحتاج الى ما فى أيدينا ، إنه يعطينا ولا يأخذ منا ، عنده خزائن كل شىء مصداقا لقوله جل جلاله :

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ ﴾

(سورة الحجر)

فالله سبحانه وتعالى دائم العطاء لخلقه ، والخلق يأخذون دائما من نعم الله ، فكأن العبودية لله تعطيك ولا تأخذ منك وهذا يستوجب الحمد . .

والله سبحانه وتعالى فى عطائه يحب أن يطلب منه الانسان ، وأن يدعوه وان يستعين به ، وهذا يوجب الحمد لأنه يقينا الذل فى الدنيا . فأنت إن طلبت شيئا من صاحب نفوذ ، فلابد ان يحدد لك موعدا أو وقت الحديث ومدة المقابلة وقد يضيق بك فيقف لينهى اللقاء . . ولكن الله سبحانه وتعالى بابه مفتوح دائما . . فأنت بين يديه عندما تريد وترفع يديك الى السماء وتدعو وقتما تحب وتسأل الله ما تشاء فيعطيك ما تريده إن كان خيرا لك . . ويمنع عنك ما تريده ان كان شرا لك .

والله سبحانه وتعالى يطلب منك ان تدعوه وان تسأله فيقول :

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾

(سورة غافر)

ويقول سبحانه وتعالى :

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾

(سورة البقرة)

والله سبحانه وتعالى يعرف ما فى نفسك ، ولذلك فإنه يعطيك دون أن تسأل .
واقرأ الحديث القدسى :
يقول رب العزة :

(من شغله ذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين)[1]

والله سبحانه وتعالى عطاؤه لا ينفد وخزائنه لا تفرغ ، فكلما سألته جل جلاله كان لديه المزيد ، ومهما سألته فإنه لا شيء عزيز على الله سبحانه وتعالى ، إذا أراد أن يحققه لك . .

واقرأ قول الشاعر :

حسب نفسى عزا بأننى عبد
يحتفى بى بلا مواعيد رب
هو فى قدسه الاعز ولكن
أنا القى متى وأين أحب

---

(١) رواه البخارى والبزار والبيهقى عن ابن عمر .

اذن عطاء الله سبحانه وتعالى يستوجب الحمد .. ومنعه العطاء يستوجب الحمد .

ووجود الله سبحانه وتعالى الواجب الوجود يستوجب الحمد .. فالله يستحق الحمد لذاته ، ولولا عدل الله لبغى الناس فى الارض وظلموا ، ولكن يد الله تبارك وتعالى حين تبطش بالظالم تجعله عبرة .. فيخاف الناس الظلم .. وكل من أفلت من عقاب الدنيا على معاصيه وظلمه واستبداده سيلقى الله فى الاخرة ليوفيه حسابه .. وهذا يوجب الحمد .. أن يعرف المظلوم أنه سينال جزاءه فتهدأ نفسه ويطمئن قلبه ان هناك يوما سيرى فيه ظالمه وهو يعذب فى النار .. فلا تصيبه الحسرة ، ويخف احساسه بمرارة الظلم حين يعرف ان الله قائم على كونه لن يفلت من عدله أحد .

وعندما نقول « الحمد لله » فنحن نعبر عن انفعالات متعددة .. هى فى مجموعها تحمل العبودية والحب والثناء والشكر والعرفان .. وكثير من الانفعالات التى تملأ النفس عندما تقول « الحمد الله » كلها تحمل الثناء العاجز عن الشكر لكمال الله وعطائه .. هذه الانفعالات تأتى من النفس وتستقر فى القلب .. ثم تفيض من الجوارح على الكون كله ..

فالحمد ليس ألفاظا تردد باللسان ولكنها تمر أولا على العقل ليعى معنى النعم .. ثم بعد ذلك تستقر فى القلب فينفعل بها .. وتنتقل الى الجوارح فأقوم واصلى لله شاكرا ويهتز جسدى كله وتفيض الدمعة من عينى .. وينتقل هذا الانفعال كله الى من حولى .

ونفسر ذلك قليلا .. هب اننى فى أزمة أو كرب أو شىء سيؤدى الى فضيحة .. وجاءنى من يفرج كربى فيعطينى مالا أو يفتح لى طريقا .. أول شىء اننى سأعقل هذا الجميل فأقول انه يستحق الشكر .. ثم ينزل هذا المعنى الى قلبى فيهتز القلب الى صانع هذا الجميل .. ثم تنفعل جوارحى لأترجم هذه العاطفة إلى عمل يرضيه على جميل صنعه . ثم أحدث الناس عن جميله وكرمه فيسارعون إلى الالتجاء اليه .. فتتسع دائرة الحمد وتنزل النعم على الناس .. فيمرون بنفس ماحدث لى فتتسع دائرة الشكر والحمد ..

والحمد لله تعطينا المزيد من نعم الله مصداقا لقوله تبارك وتعالى :

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ ﴾

(سورة ابراهيم)

وهكذا نعرف ان الشكر على النعمة يعطينا مزيدا من النعمة . . فنشكر عليها فتعطينا المزيد وهكذا يظل الحمد دائما والنعمة دائمة . . اننا لو استعرضنا حياتنا كلها فكل حركة فيها تقتضى الحمد ، عندما ننام ويأخذ الله سبحانه وتعالى أرواحنا ، ثم يردها الينا عندما نستيقظ ، فإن هذا يوجب الحمد ، فالله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾

(سورة الزمر)

وهكذا فإن مجرد استيقاظنا من النوم ، وان الله سبحانه وتعالى رد علينا أرواحنا ، وهذا الرد يستوجب الحمد ، فإذا قمنا من السرير فالله سبحانه وتعالى هو الذى يعطينا القدرة على الحركة ، ولولا عطاؤه ما استطعنا ان نقوم . . وهذا يستوجب الحمد . . فإذا تناولنا افطارنا فالله هيأ لنا طعاما من فضله ، فهو الذى خلقه ، وهو الذى انبته ، وهو الذى رزقنا به ، وهذا يستوجب الحمد . .

فإذا نزلنا الى الطريق يسر الله لنا ما ينقلنا الى مقر اعمالنا وسخره لنا ، سواء كنا نملك سيارة او نستخدم وسائل المواصلات ، فله الحمد ، واذا تحدثنا مع الناس فالله سبحانه وتعالى هو الذى اعطى السنتنا القدرة على النطق ولو شاء لجعلها خرساء لا تنطق . . وهذا يستوجب الحمد ، فإذا ذهبنا الى أعمالنا ، فالله يسر لنا عملا نرتزق منه لنأكل حلالا . . وهذا يستوجب الحمد . .

واذا عدنا الى بيوتنا فالله سخر لنا زوجاتنا ورزقنا بأولادنا وهذا يستوجب الحمد .

اذن فكل حركة حياة فى الدنيا من الانسان تستوجب الحمد . . ولهذا لابد ان يكون الانسان حامدا دائما . . بل ان الانسان يجب ان يحمد الله على اى مكروه أصابه ؛ لأنه قد يكون الشىء الذى يعتبره شرا هو عينه الخير . فالله تعالى يقول :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾ ﴾

(سورة النساء)

اذن فأنت تحمد الله لأن قضاءه خير . . سواء أحببت القضاء أو كرهته فإنه خير لك . . لأنك لا تعلم والله سبحانه وتعالى يعلم .

وهكذا من موجبات الحمد ان تقول الحمد لله على كل ما يحدث لك فى دنياك . فأنت بذلك ترد الامر الى الله الذى خلقك . . فهو أعلم بما هو خير لك .

فاتحة الكتاب تبدأ بالحمد لله رب العالمين . . لماذا قال الله سبحانه وتعالى رب العالمين ؟ نقول إن «الحمد لله» تعنى حمد الألوهية . فكلمة الله تعنى المعبود بحق . . فالعبادة تكليف والتكليف يأتى من الله لعبيده . . فكأن الحمد اولا لله . . ثم يقتضى بعد ذلك أن يكون الحمد لربوبية الله على ايجادنا من عدم وامدادنا من عدم . . لأن المتفضل بالنعم قد يكون محمودا عند كل الناس . . لكن التكليف يكون شاقا على بعض الناس . . ولو علم الناس قيمة التكليف فى الحياة . . لحمدوا الله أن كلفهم بافعل ولا تفعل . . لأنه ضمن عدم تصادم حركة حياتهم . . فتمضى حركة الحياة متساندة منسجمة . اذن فالنعمة الاولى هى أن المعبود ابلغنا منهج عبادته ، والنعمة الثانية أنه رب العالمين .

فى الحياة الدنيا هناك المطيع والعاصى ، والمؤمن وغير المؤمن . . والذين يدخلون فى عطاء الالوهية هم المؤمنون . . أما عطاء الربوبية فيشمل الجميع . . ونحن نحمد الله على عطاء ألوهيته ، ونحمد الله على عطاء ربوبيته ، لأنه الذى خلق ، ولأنه رب العالمين . . الكون كله لا يخرج عن حكمه . . فليطمئن الناس فى الدنيا ان

النعم مستمرة لهم بعطاء ربوبيته .. فلا الشمس تستطيع أن تغيب وتقول لن أشرق ، ولا النجوم تستطيع أن تصطدم بعضها ببعض فى الكون ، ولا الأرض تستطيع أن تمنع إنبات الزرع .. ولا الغلاف الجوى يستطيع أن يبتعد عن الأرض فيختنق الناس جميعا ..

اذن فالله سبحانه وتعالى يريد ان يطمئن عباده انه رب لكل مافى الكون فلا تستطيع اى قوى تخدم الانسان ان تمتنع عن خدمته .. لأن الله سبحانه وتعالى مسيطر على كونه وعلى كل ماخلق .. انه رب العالمين وهذه توجب الحمد .. ان يهيىء الله سبحانه وتعالى للانسان مايخدمه ، بل جعله سيدا فى كونه .. ولذلك فإن الانسان المؤمن لا يخاف الغد .. وكيف يخافه والله رب العالمين . اذا لم يكن عنده طعام فهو واثق ان الله سيرزقه لأنه رب العالمين .. واذا صادفته ازمة فقلبه مطمئن

الى ان الله سيفرج الازمة ويزيل الكرب لأنه رب العالمين .. واذا اصابته نعمة ذكر الله فشكره عليها لانه رب العالمين الذى انعم عليه .

فالحق سبحانه وتعالى يحمد على انه رب العالمين .. لا شىء فى كونه يخرج عن مراده الفعلى .. اما عطاء الالوهية فجزاؤه فى الاخرة .. فالدنيا دار اختبار للايمان ، والاخرة دار الجزاء .. ومن الناس من لايعبد الله .. هؤلاء متساوون فى عطاء الربوبيه مع المؤمنين فى الدنيا .. ولكن فى الآخرة يكون عطاء الالوهية للمؤمنين وحدهم .. فنعم الله لأصحاب الجنة ، وعطاءات الله لمن آمن .. واقرأ قوله تبارك وتعالى .

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

على ان الحمد لله ليس فى الدنيا فقط .. بل هو فى الدنيا والاخرة .. الله محمود دائما .. فى الدنيا بعطاء ربوبيته لكل خلقه .. وعطاء الوهيته لمن آمن به وفى الاخرة بعطائه للمؤمنين من عباده .. واقرأ قوله جل جلاله :

﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾﴾

(سورة الزمر)

وقوله تعالى :

﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾﴾

(سورة يونس)

فاذا انتقلنا الى قوله تعالى : «الرحمن الرحيم» فمن موجبات الحمد أن الله سبحانه وتعالى رحمن رحيم . . يعطى نعمه فى الدنيا لكل عباده عطاء ربوبيه ، وعطاء الربوبيه للمؤمن والكافر . . وعطاء الربوبية لا ينقطع الا عندما يموت الانسان . .

والله لا يحجب نعمه عن عبيده فى الدنيا . . ونعم الله لاتعد ولا تحصى.ومع كل التقدم فى الآلات الحاسبة والعقول الالكترونية وغير ذلك فإننا لم نجد أحدا يتقدم ويقول انا سأحصى نعم الله . . لأن موجبات الاحصاء ان تكون قادرا عليه . . فانت لا تقبل على عد شىء الا اذا كان فى قدرتك ان تحصيه . . ولكن مادام ذلك خارج قدرتك وطاقاتك فانك لا تقبل عليه . . ولذلك لن يقبل احد حتى يوم القيامة على احصاء نعم الله تبارك وتعالى لان احدا لايمكن ان يحصيها .

ولابد ان نلتفت الى ان الكون كله يضيق بالانسان ، وان العالم المقهور الذى يخدمنا بحكم القهر والتسخير يضيق حين يرى العاصين . . لان المقهور مستقيم على منهج الله قهرا . . فحين يرى كل مقهور الانسان الذى هو فى خدمته عاصيا يضيق .

واقرأ الحديث القدسى لتعرف شيئا عن رحمة الله بعباده . . يقول الله عز وجل : ما من يوم تطلع شمسه إلا وتنادى السماء تقول يارب إئذن لى أن أسقط كسفا على ابن آدم ؛ فقد طعم خيرك ومنع شكرك وتقول البحار يارب إئذن لى أن أغرق ابن آدم فقد طعم خيرك ومنع شكرك . وتقول الجبال يارب إئذن لى أن أطبق على ابن آدم فقد طعم خيرك ومنع شكرك . فيقول الله تعالى : دعوهم دعوهم لو خلقتموهم

لرحمتموهم انهم عبادى فإن تابوا إلى فأنا حبيبهم ، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم » رواه الإمام أحمد بن حنبل فى مسنده » .

تلك تجليات صفة الرحمن وصفة الرحيم . . وكيف ضمنت لنا بقاء كل مايخدمنا فى هذا الكون مع معصية الانسان . . انها كلها تخدمنا بعطاء الربوبية وتبقى فى خدمتنا بتسخير الله لها لانه رحمن رحيم . .

بعض الناس قد يتساءل هل تتكلم الارض والسماء وغيرها من المخلوقات فى عالم الجماد والنبات والحيوان ؟ نقول نعم ان لها لغة لا نعرفها نحن وانما يعرفها خالقها . . بدليل انه منذ الخلق الاول ابلغنا الحق تبارك وتعالى ان هناك لغة لكل هذه المخلوقات . . واقرأ قوله جل جلاله :

﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ۖ قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ ﴾

(سورة فصلت)

إذن فالأرض والسماء فهمت كلتاهما عن الله . . وقالت له سبحانه وتعالى « أتينا طائعين » ألم يُعَلِّمْ الله سليمان منطق الطير ولغة النمل ؟ ألم تسبح الجبال مع داود ؟ إذن كل خلق الله له إدراكات مناسبة . . بل له عواطف . . فعندما تكلم الله سبحانه وتعالى عن قوم فرعون . . قال :

﴿ كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَـٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَـٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

(سورة الدخان)

اذن فالسماوات والارض لهما انفعال . . انفعال يصل الى مرحلة البكاء . . فهما لم تبكيا على فرعون وقومه . . ولكنهما تبكيان حزنا عندما يفارقهما الانسان المؤمن المصلى المطبق لمنهج الله . . ولقد قال على بن ابى طالب رضى الله عنه : (اذا مات المؤمن

بكى عليه موضعان موضع فى الارض وموضع فى السماء .. اما الموضع فى الارض فهو مكان مصلاه الذى اسعده وهو يصلى فيه . واما الموضع فى السماء فهو مصعد عمله الطيب) .

مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾

إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾

اذا كانت كل نعم الله تستحق الحمد.. فإن «مالك يوم الدين» تستحق الحمد الكبير.. لأنه لو لم يوجد يوم للحساب، لنجا الذى ملأ الدنيا شروراً. دون أن يجازى على ما فعل.. ولكان الذى التزم بالتكليف والعبادة وحرم نفسه من متع دنيوية كثيرة أرضاء لله قد شقى فى الحياة الدنيا.. ولكن لأن الله تبارك وتعالى هو «مالك يوم الدين».. أعطى الاتزان للوجود كله.. هذه الملكية ليوم الدين هى التى حمت الضعيف والمظلوم وأبقت الحق فى كون الله.. إن الذى منع الدنيا أن تتحول إلى غابة يفتك فيها القوى بالضعيف والظالم بالمظلوم هو أن هناك اخرة وحسابا، وأن الله سبحانه وتعالى هو الذى سيحاسب خلقه.

والإنسان المستقيم استقامته تنفع غيره؛ لأنه يخشى الله ويعطى كل ذى حق حقه ويعفو ويسامح.. إذن كل من حوله قد استفاد من خلقه الكريم ومن وقوفه مع الحق والعدل..

أما الأنسان العاصى فيشقى به المجتمع لأنه لا احد يسلم من شره ولا احد الا يصيبه ظلمه.. ولذلك فإن «مالك يوم الدين» هى الميزان.. تعرف أنت ان الذى يفسد فى الأرض تنتظره الآخره.. لن يفلت مهما كانت قوته ونفوذه، فتطمئن اطمئنانا كاملاً إلى أن عدل الله سينال كل ظالم.

على أن «مالك يوم الدين» لها قراءتان.. «مالك يوم الدين».. وملك يوم الدين. والقراءتان صحيحتان.. والله تبارك وتعالى وصف نفسه فى القرآن الكريم بأنه: «مالك يوم الدين».. ومالك الشيء هو المتصرف فيه وحده.. ليس هناك دخل لأى فرد آخر.. أنا أملك عباءتى.. وأملك متاعى، وأملك منزلى، وانا المتصرف فى هذا كله أحكم فيه بما أراه..

فمالك يوم الدين.. معناها أن الله سبحانه وتعالى سيصرف أمور العباد فى ذلك اليوم بدون أسباب.. وأن كل شيء سيأتى من الله مباشرة.. دون ان يستطيع أحد أن يتدخل ولو ظاهراً..

ففى الدنيا يعطى الله الملك ظاهرا لبعض الناس.. ولكن فى يوم القيامة ليس هناك ظاهر.. فالامر مباشر من الله سبحانه وتعالى.. ولذلك يقول الله فى وصف يوم الدين:

﴿ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ﴿٩﴾ ﴾

(سورة الانفطار)

فكأن الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان فى الدنيا لتمضى به الحياة.. ولكن فى الآخرة لا توجد أسباب. الملك فى ظاهر الدنيا من الله يهبه لمن يشاء.. واقرأ قوله تعالى:

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

ولعل قوله تعالى: «تنزع» تلفتنا إلى أن أحدا فى الدنيا لايريد ان يترك الملك.. ولكن الملك يجب ان ينتزع منه انتزاعابالرغمعن ارادته.. والله هو الذى ينزع الملك ممن يشاء..

وهنا نتساءل هل الملك فى الدنيا والاخرة ليس لله؟.. نقول الأمر فى كل وقت لله.. ولكن الله تبارك وتعالى استخلف بعض خلقه أو مكنهم من الملك فى الارض.. ولذلك نجد فى القرآن الكريم قوله تعالى:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ ﴾

(سورة البقرة)

والذى حاج ابراهيم فى ربه كافر منكر للألوهية . . ومع ذلك فإنه لم يأخذ الملك بذاته . . بل الله جل جلاله هو الذى اتاه الملك . . اذن الله تبارك وتعالى هو الذى استخلف بعض خلقه ومكنهم من ملك فى الارض ظاهريا . . ومعنى ذلك انه ملك ظاهر للناس فقط . . أن بشرا أصبح ملكا . . ولكن الملك ليس نابعا من ذات من يملك . . ولكنه نابع من أمر الله . . ولو كان نابعا من ذاتية من يملك لبقى له ولم ينزع منه . . والملك الظاهر يمتحن فيه العباد ، فيحاسبهم الله يوم القيامة . . كيف تصرفوا؟ وماذا فعلوا؟ . . ويمتحن فيه الناس هل سكتوا على الحاكم الظالم؟ . . وهل استحبوا المعصية ؟ أو أنهم وقفوا مع الحق ضد الظلم ؟ . . والله سبحانه وتعالى لايمتحن الناس ليعلم المصلح من المفسد . . ولكنه يمتحنهم ليكونوا شهداء على أنفسهم . . حتى لايأتى واحد منهم يوم القيامة ويقول : يارب لو أنك أعطيتنى الملك لاتبعت طريق الحق وطبقت منهجك .

وهنا يأتى سؤال . . اذا كان الله سبحانه وتعالى يعلم كل شىء فلماذا الامتحان؟ . . نقول اننا اذا أردنا ان نضرب مثلا يقرب ذلك الى الأذهان . . ولله المثل الاعلى . . نجد ان الجامعات فى كل انحاء الدنيا تقيم الامتحانات لطلابها . . فهل اساتذة الجامعة الذين علموا هؤلاء الطلاب يجهلون ما يعرفه الطالب ويريدون ان يحصلوا منه على العلم ؟ . . طبعا لا . . ولكن ذلك يحدث حتى اذا رسب الطالب فى الامتحان . . وجاء يجادل واجهوه بإجابته فيسكت . . ولو لم يعقد الامتحان لادعى كل طالب انه يستحق مرتبة الشرف .

اذا قال الحق تبارك وتعالى : «مالك يوم الدين» . . أى الذى يملك هذا اليوم وحده يتصرف فيه كما يشاء . . واذا قيل : «ملك يوم الدين» . . فتصرفه أعلى من المالك لأن المالك لايتصرف إلّا فى ملكه . . ولكن الملك يتصرف فى ملكه وملك غيره . . فيستطيع أن يصدر قوانين بمصادرة أو تأميم مايملكه غيره .

الذين قالوا : «مالك يوم الدين» اثبتوا لله سبحانه وتعالى انه مالك هذا اليوم يتصرف فيه كما يشاء دون تدخل من احد ولو ظاهرا : والذين يقرأون ملك . . يقولون ان الله سبحانه وتعالى فى ذلك اليوم يقضى فى امر خلقه حتى الذين مَلَّكَهُم فى الدنيا ظاهرا . . ونحن نقول عندما يأتى يوم القيامة لا مالك ولا ملك الا الله .

الله تبارك وتعالى يريد ان يطمئن عباده.. انهم اذا كانوا قد ابتلوا بمالك او ملك يطغى عليهم فيوم القيامة لا مالك ولا ملك الا الله جل جلاله.. عندما تقول مالك او ملك يوم الدين.. هناك يوم وهناك الدين.. اليوم عندنا من شروق الشمس الى شروق الشمس.. هذا مانسميه فلكيا يوما.. واليوم فى معناه ظرف زمان تقع فيه الاحداث.. والمفسرون يقولون: «مالك يوم الدين» اى مالك أمور الدين لأن ظرف الزمان لا يملك.. نقول ان هذا بمقاييس ملكية البشر، فنحن لانملك الزمن.. الماضى لانستطيع ان نعيده، والمستقبل لانستطيع ان نأتى به.. ولكن الله تبارك وتعالى هو خالق الزمان.. والله جل جلاله لايحده زمان ولا مكان.. كذلك قوله تعالى: «مالك يوم الدين» لايحده زمان ولا مكان.. واقرأ قوله سبحانه:

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾﴾

(سورة الحج)

وقوله تعالى:

﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾﴾

(سورة المعارج)

واذا تأملنا هاتين الايتين نعرف معنى اليوم عند الله تبارك وتعالى.. ذلك ان الله جل جلاله هو خالق الزمن.. ولذلك فانه يستطيع ان يخلق يوما مقداره ساعة.. ويوما كأيام الدنيا مقداره أربع وعشرون ساعة.. ويوما مقداره الف سنة.. ويوما مقداره خمسون الف سنة ويوما مقداره مليون سنة.. فذلك خاضع لمشيئة الله.

ويوم الدين موجود فى علم الله سبحانه وتعالى. بأحداثه كلها بجنته وناره.. وكل الخلق الذين سيحاسبون فيه.. وعندما يريد ان يكون ذلك اليوم ويخرج من علمه جل جلاله الى علم خلقه.. سواء كانوا من الملائكة او من البشر أو الجان يقول: كن.. فالله وحده هو خالق هذا اليوم.. وهو وحده الذى يحدد كل أبعاده.. واليوم نحن نحدده ظاهرا بانه اربع وعشرون ساعة.. ونحدده بأنه الليل والنهار.. ولكن الحقيقة أن الليل والنهار موجودان دائما على الارض.. فعندما تتحرك الارض، كل

حركة هى نهاية نهار فى منطقة وبداية نهار فى منطقة اخرى.. وبداية ليل فى منطقة ونهاية ليل فى منطقة اخرى.. ولذلك فى كل لحظة ينتهى يوم ويبدأ يوم.. وهكذا فإن الكرة الارضية لو اخذتها بنظرة شاملة لاينتهى عليها نهار أبدا.. ولا ينتهى عنها ليل أبدا.. إذن فاليوم نسبى بالنسبة لكل بقعة فى الارض.. ولكنه فى الحقيقة دائم الوجود على كل الكرة الارضية.

والله سبحانه وتعالى يريد أن يطمئن عباده.. أنهم إذا أصابهم ظلم فى الدنيا.. فإن هناك يوما لاظلم فيه.. وهذا اليوم الامر فيه لله وحده بدون أسباب.. فكل انسان لو لم يدركه العدل والقصاص فى الدنيا فإن الآخرة تنتظره.. والذى أتبع منهج الله وقيد حركته فى الحياة يخبره الله سبحانه وتعالى ان هناك يوما سيأخذ فيه أجره.. وعظمة الآخرة أنها تعطيك الجنة.. نعيم لايفوتك ولاتفوته.

ولقد دخل أحد الاشخاص على رجل من الصالحين.. وقال له: أريد أن أعرف.. أأنا من أهل الدنيا أم من أهل الآخرة؟.. فقال له الرجل الصالح.. ان الله أرحم بعباده، فلم يجعل موازينهم فى أيدى أمثالهم.. فميزان كل انسان فى يد نفسه.. لماذا؟.. لأنك تستطيع أن تغش الناس ولكنك لا تغش نفسك.. ميزانك فى يديك.. تستطيع أن تعرف أأنت من أهل الدنيا أم من أهل الآخرة.

قال الرجل كيف ذلك؟. فرد العبد الصالح: اذا دخل عليك من يعطيك مالا.. ودخل عليك من يأخذ منك صدقه.. فبأيهما تفرح؟.. فسكت الرجل.. فقال العبد الصالح: اذا كنت تفرح بمن يعطيك مالا فأنت من اهل الدنيا.. واذا كنت تفرح بمن يأخذ منك صدقة فأنت من أهل الآخرة.. فإن الانسان يفرح بمن يقدم له ما يحبه.. فالذى يعطينى مالا يعطينى الدنيا.. والذى يأخذ منى صدقة يعطينى الآخرة.. فإن كنت من أهل الآخرة.. فافرح بمن يأخذ منك صدقة.. أكثر من فرحك بمن يعطيك مالا.

ولذلك كان بعض الصالحين اذا دخل عليه من يريد صدقة يقول مرحبا بمن جاء يحمل حسناتى الى الآخرة بغير أجر.. ويستقبله بالفرحة والترحاب.

قول الحق سبحانه وتعالى : « مالك يوم الدين » . . هى قضية ضخمة من قضايا العقائد . . لأنها تعطينا أن البداية من الله ، والنهاية الى الله جل جلاله . . وبما أننا جميعا سنلقى الله ، فلابد أن نعمل لهذا اليوم . . ولذلك فإن المؤمن لا يفعل شيئا فى حياته الا وفى باله الله . . وأنه سيحاسبه يوم القيامة . . ولكن غير المؤمن يفعل ما يفعل وليس فى باله الله . . وعن هؤلاء يقول الحق سبحانه :

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَـٰلُهُمْ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ ﴾

(سورة النور)

وهكذا من يفعل شيئا وليس فى باله الله . .فسيفاجأ يوم القيامة بأن الله تبارك وتعالى الذى لم يكن فى باله موجود وانه جل جلاله هو الذى سيحاسبه .

وقوله تعالى : « مالك يوم الدين » هى أساس الدين . . لأن الذى لا يؤمن بالآخرة يفعل ما يشاء . . فمادام يعتقد انه ليس هناك آخره وليس هناك حساب . . فمم يخاف ؟ . . ومن أجل مَنْ يقيد حركته فى الحياة . .

ان الدين كله بكل طاعاته وكل منهجه قائم على أن هناك حسابا فى الآخرة . . وأن هناك يوما نقف فيه جميعا أمام الله سبحانه وتعالى . . ليحاسب المخطىء ويثيب الطائع . . هذا هو الحكم فى كل تصرفاتنا الايمانية . . فلو لم يكن هناك يوم نحاسب فيه . . فلماذا نصلى ؟ . . ولماذا نصوم ؟ . . ولماذا نتصدق ؟ . .

ان كل حركة من حركات منهج السماء قائمة على اساس ذلك اليوم الذى لن يفلت منه أحد . . والذى يجب علينا جميعا أن نستعد له . . ان الله سبحانه وتعالى سمى هذا اليوم بالنسبة للمؤمنين يوم الفوز العظيم . . والذى يجعلنا نتحمل كل ما نكره ونجاهد فى سبيل الله لنستشهد . . وننفق اموالنا لنعين الفقراء والمساكين . . كل هذا أساسه أن هناك يوما سنقف فيه بين يدى الله . . والله تبارك وتعالى سماه يوم الدين . . لأنه اليوم الذى سيحاسب فيه كل انسان على دينه عمل به أم ضيعه . . فمن آمن واتبع الدين سيكافأ بالخلود فى الجنة . . ومن أنكر الدين وأنكر منهج الله سيجازى بالخلود فى النار . .

ومن عدل الله سبحانه وتعالى ان هناك يوما للحساب . . لأن بعض الناس الذين ظلموا وبغوا فى الأرض ربما يفلتون من عقاب الدنيا . . هل هؤلاء الذين أفلتوا فى الدنيا من العقاب هل يفلتون من عدل الله ؟ أبدا لن يفلتوا . بل إنهم انتقلوا من عقاب محدود الى عقاب خالد . . وافلتوا من العقاب بقدرة البشر فى الدنيا . . الى عقاب بقدرة الله تبارك وتعالى فى الآخرة . . ولذلك لابد من وجود يوم يعيد الميزان . . فيعاقب فيه كل من أفسد فى الارض وأفلت من العقاب . . بل إن الله سبحانه وتعالى يجعل انسانا يفلت من عقاب الدنيا . . فلا تعتقد أن هذا خير له بل انه شر له . . لانه أفلت من عقاب محدود الى عقاب أبدى .

والحمد الكبير لله بأنه « مالك يوم الدين » . . وهو وحده الذى سيقضى بين خلقه . فالله سبحانه وتعالى يعامل خلقه جميعا معاملة متساوية . . وأساس التقوى هو يوم الدين .

وقبل ان نتكلم عن قول الحق تبارك وتعالى : « إياك نعبد واياك نستعين » . . لابد أن نتحدث عن قضية مهمة . . فهناك نوعان من الرؤية . . الرؤية العينية أى بالعين . . والرؤية الايمانية أى بالقلب . . وكلاهما مختلف عن الآخر . . رؤية العين هى أن يكون الشىء أمامك تراه بعينيك ، وهذه ليس فيها قضية ايمان . . فلا تقول أننى أومن أننى أراك أمامى لانك ترانى فعلا . . مادمت ترانى فهذا يقين . . ولكن الرؤية الايمانية هى أن تؤمن كأنك ترى ما هو غيب أمامك . . وتكون هذه الرؤية أكثر يقينا من رؤية العين . . لأنها رؤية إيمان ورؤية بصيرة . . وهذه قضية مهمة جدا . .

وقد روى عمر بن الخطاب قال :

بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم اذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر . لا يرى عليه أثر السفر . ولا يعرفه منا أحد . حتى جلس الى النبى صلى الله عليه وسلم . فأسند ركبتيه الى ركبتيه . ووضع كفيه على فخذيه قال : يا محمد أخبرنى عن الاسلام ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الاسلام أن تشهد أن لا اله الا الله . وأن محمدا رسول الله . وتقيم الصلاة . وتؤتى الزكاة . وتصوم رمضان . وتحج البيت ان استطعت اليه سبيلا قال : صدقت . فعجبنا له يسأله ويصدقه .

قال : فاخبرنى عن الايمان

قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر .
وتؤمن بالقدر ؛ خيره وشره

قال : صدقت . قال : فأخبرنى عن الاحسان ، قال :
أن تعبد الله كأنك تراه . فان لم تكن تراه فانه يراك

قال : فأخبرنى عن الساعة

قال : ما المسئول عنها بأعلم من السائل

قال : فأخبرنى عن أماراتها

قال : أن تلد الأمة ربتها . وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون فى البنيان .

قال : ثم انطلق فلبثت مليا . . ثم قال لى النبى صلى الله عليه وسلم :
يا عمر أتدرى من السائل ؟

قلت : الله ورسوله أعلم

قال : فإنه جبريل اتاكم يعلمكم دينكم (١)

قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك) . . هو بيان للرؤية الايمانية فى النفس المؤمنة . . فالانسان حينما يؤمن ، لابد أن يأخذ كل قضاياه برؤية ايمانية . . حتى اذا قرأ آية عن الجنة فكأنه يرى أهل الجنة وهم ينعمون . . واذا قرأ آية عن أهل النار اقشعر بدنه . . وكأنه يرى أهل النار وهم يعذبون .

---

(١) رواه مسلم

ذات يوم شاهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أحد صحابته وكان اسمه الحارث . . فقال له :

كيف أصبحت يا حارث ؟

فقال : أصبحت مؤمنا حقا

قال الرسول : فانظر ما تقول . فإن لكل قول حقيقة . فما حقيقة ايمانك ؟

قال الحارث : عزفت نفسى عن الدنيا . فأسهرت ليلى . وأظمأت نهارى . وكأنى أنظر إلى عرش ربى بارزا . وكأنى أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها . وكأنى أنظر إلى أهل النار يتضاغون فيها . (يتصايحون فيها) .

قال النبى « يا حارث عرفت فالزم » (١)

ولذلك نجد أن الحق سبحانه وتعالى وهو يخاطب الرسول صلى الله عليه وسلم . . يقول :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ ﴾

(سورة الفيل)

يأخذ بعض المستشرقين هذه الآية فى محاولة للطعن فى القرآن الكريم . . فقوله تعالى : « ألم تر » . . ورسول الله صلى الله عليه وسلم ولد فى عام الفيل . . انه لم ير لأنه كان طفلا عمره أيام أو شهور ، لو قال الله سبحانه وتعالى ألم تعلم لقلنا علم من غيره . . فالعلم تحصل عليه انت او يعطيه لك من عَلِمَهُ . . اى يعلمك

---

(١) رواه الطبرانى فى الكبير ، وأبو نعيم فى الحلية ، ورواه بنحوه : البيهقى وأبوهلال العسكرى فى الأمثال ، وابن النجار فى التاريخ . وللحديث شواهد ترقى به الى درجة الحسن ، وقد رواه البيهقى فى الزهد عن الحارث بن مالك قال : أتيت نبى الله صلى الله عليه وسلم وقد أخذ رداءه فَلَبَّبَهُ فوضعه تحت رأسه فسلمت عليه فقال لى : كيف أنت يا حارث ؟ فقلت : رجل من المؤمنين ، فقال : انظر ماذا تقول ؟ قال : قلت نعم رجل من المؤمنين حقا .

فاستوى صلى الله عليه وسلم جالسا ثم قال : لكل شىء حقيقة . . فما حقيقة ذلك ؟ قال : قلت : عزفت نفسى عن الدنيا فأسهرت ليلى ، وأخصمت نهارى وكأنى أنظر الى عرش ربى كأنى أريت أهل الجنة يتزاورون فيها ، وكأنى اسمع عواء أهل النار فيها . . فقال : عرفت فالزم ، عبدا نور الله قلبه بالايمان .

غيرك من البشر . . ولكن الله سبحانه وتعالى قال : « ألم تر » . .

نقول ان هذه قضية من قضايا الايمان . . فما يقوله الله سبحانه وتعالى هو رؤية صادقة بالنسبة للانسان المؤمن . . فالقرآن هو كلام متعبد بتلاوته حتى قيام الساعة . . وقول الله : « ألم تر » . . معناها ان الرؤية مستمرة لكل مؤمن بالله يقرأ هذه الآية . . فما دام الله تبارك وتعالى قال : « ألم تر » . . فأنت ترى بإيمانك ما تعجز عينك عن أن تراه . . هذه هى الرؤية الايمانية ، وهى أصدق من رؤية العين . . لأن العين قد تخدع صاحبها ولكن القلب المؤمن لا يخدع صاحبه أبدا . .

على أن هناك ما يسمونه ضمير الغائب . . اذا قلت زيد حضر . . فهو موجود أمامك . . ولكن إذا قلت قابلت زيدا . . فكأن زيداً غائب عنك ساعة قلت هذه الجملة . . قابلته ولكنه ليس موجوداً معك ساعة الحديث . .

اذن فهناك حاضر وغائب ومتكلم . . الغائب هو من ليس موجوداً أو لا نراه وقت الحديث . . والحاضر هو الموجود وقت الحديث . . والمتكلم هو الذى يتحدث . وقضايا العقيدة كلها ليس فيها مشاهدة ، ولكن الايمان بما هو غيب عنا يعطينا الرؤية الايمانية التى هى كما قلنا أقوى من رؤية البصر .

فالله سبحانه وتعالى حين يقول «الحمد لله رب العالمين» . . «الله» غيب «ورب العالمين» غيب . . «والرحمن الرحيم» . . «غيب» . . و«مالك يوم الدين» غيب . . وكان السياق اللغوى يقتضى أن يقال إياه نعبد . ولكن الله سبحانه وتعالى غير السياق ونقله من الغائب الى الحاضر . . وقال : «إياك نعبد» فانتقل الغيب الى حضور المخاطب . . فلم يقل إياه نعبد . . ولكنه قال : «اياك نعبد» . . فأصبحت رؤية يقين ايمانى .

فأنت فى حضرة الله سبحانه وتعالى الذى غمرك بالنعم ، وهذه تراها وتحيط بك لأنه «رب العالمين» . . وجعلك تطمئن الى قضائه لأنه «الرحمن الرحيم» أى أن ربوبيته جل جلاله ليست ربوبية جبروت بل هى ربوبية «الرحمن الرحيم» فإذا لم

تحمده وتؤمن به بفضل نعمه التى تحسها وتعيش فيها . فاحذر من مخالفة منهجه لأنه «مالك يوم الدين» .

حين يستحضر الحق سبحانه وتعالى ذاته بكل هذه الصفات . . التى فيها فضائل الألوهية ، ونعم الربوبية . . والرحمة التى تمحو الذنوب والرهبة من لقائه يوم القيامة تكون قد انتقلت من صفات الغيب الى محضر الشهود . . استحضرت جلال الألوهية لله وفيوضات رحمته . . ونعمه التى لا تحد وقيوميته يوم القيامة . .

عندما تقرأ قوله تعالى : «اياك نعبد» فالعبارة هنا تفيد الخصوصية . . بمعنى أننى اذا قلت لانسان اننى سأقابلك ، قد أقابله وحده ، وقد أقابله مع جمع من الناس . ولكن اذا قلت اياك سأقابل . . فمعنى ذلك ان المقابلة ستكون خاصة . .

الحق سبحانه وتعالى حين قال : «إياك نعبد» قصر العبادة على ذاته الكريمة . . لأنه لو قال نعبدك وحدك فهى لاتؤدى المعنى نفسه ؛ لأنك قد تقول نعبدك وحدك ومعك كذا وكذا . ولكن اذا قلت «اياك نعبد» وقدمت إياك . . تكون قد حسمت الأمر بأن العبادة لله وحده فلا يجوز العطف عليها . . فالعبادة خضوع لله سبحانه وتعالى بمنهجه افعل ولا تفعل . . ولذلك جعل الصلاة أساس العبادة ، والسجود هو منتهى الخضوع لله لأنك تأتى بوجهك الذى هو أكرم شىء فيك وتضعه على الأرض عند موضع القدم . فيكون هذا هو منتهى الخضوع لله . . ويتم هذا امام الناس جميعا فى الصلاة . لإعلان خضوعك لله امام البشر جميعا .

ويستوى فى العبودية الغنى والفقير والكبير والصغير . . حتى يطرد كل منا الكبر والاستعلاء من قلبه امام الناس جميعا فيساوى الحق جل جلاله بين عباده فى الخضوع له وفى اعلان هذا الخضوع .

وقول الحق سبحانه وتعالى : «إياك نعبد» تنفى العبودية لغير الله . . أى لانعبد غير الله ولايعطف عليها أبدا . . اذن «إياك نعبد» أعطت تخصيص العبادة لله وحده لا إله غيره ولا معبود سواه . . وعلينا أن نلتفت الى قوله تبارك وتعالى :

﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

(سورة الانبياء)

وهكذا فإننا عندما نقول «الحمد لله» فإننا نستحضر موجبات الحمد وهى نعم الله ظاهرة وباطنة .. وحين نقول «رب العالمين» نستحضر نعم الربوبية فى خلقه وإخضاع كونه .. وحين نستحضر «الرحمن الرحيم» فاننا نستحضر الرحمة والمغفرة ومقابلة الاساءة بالاحسان وفتح باب التوبة .. وحين نستحضر : «مالك يوم الدين» نستحضر يوم الحساب وكيف أن الله تبارك وتعالى سيجازيك على أعمالك .. فإذا استحضرنا هذا كله نقول : «إياك نعبد» أى أننا نعبد الله وحده .. اذن عرفنا المطلوب منا وهو العبادة .

وهنا نتوقف قليلا لنتحدث عما يطلقون عليه فى اللغة «العلة والمعلول» إذا أراد ابنك ان ينجح فى الامتحان فإنه لابد أن يذاكر .. وعلة المذاكرة هى النجاح .. فكأن النجاح ولد فى ذهنى اولا بكل ما يحققه لى من ميزات ومستقبل مضمون وغير ذلك مما أريده وأسعى اليه .

إذن فالدافع قبل الواقع .. أى أنك استحضرت النجاح فى ذهنك .. ثم بعد ذلك ذاكرت لتجعل النجاح حقيقة واقعة . وأنت إذا أردت مثلا أن تسافر الى مكان ما فالسيارة سبب يحقق لك ما تريد وقطع الطريق سبب آخر . ولكن الدافع الذى جعلنى أنزل من بيتى واركب السيارة وأقطع الطريق هو انني أريد أن أسافر الى الاسكندرية مثلا .. الدافع هنا وهو الوصول الى الاسكندرية .. هو الذى وجد فى ذهنى أولا ثم بعد ذلك فعلت كل ما فعلته لتحقيقه .

والله سبحانه وتعالى خلقنا فى الحياة لنعبده .. مصداقا لقوله تبارك وتعالى :

﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾

(سورة الذاريات)

إذن فعلّة الخلق هى العبادة .. ولقد تم الخلق لتتحقق العبادة وتصبح واقعا .. ولكن «العلة والمعلول» لاتنطبق على أفعال الله سبحانه وتعالى .. نقول ليس هناك علة تعود على الله جل جلاله بالفائدة . لأن الله تبارك وتعالى غنى عن العالمين .. ولكن العلة تعود على الخلق بالفائدة ؛ فالله سبحانه وتعالى خلقنا لنعبده . ولكن علة الخلق ليس لأن هذه العبادة ستزيد شيئا فى ملكه .. وانما عبادتنا تعود علينا

نحن بالخير فى الدنيا والآخرة . .

ان أفعال الله لاتعلل ، والمأمور بالعبادة هو الذى سينتفع بها .

ولكن هل العبادة هى الجلوس فى المساجد والتسبيح أو أنها منهج يشمل الحياة كلها . . فى بيتك وفى عملك وفى السعى فى الارض ؟ . . ولو أراد الله سبحانه وتعالى من عباده الصلاة والتسبيح فقط لما خلقهم مختارين بل خلقهم مقهورين لعبادته ككل ما خلق ما عدا الانس والجن . . والله تبارك وتعالى له صفة القهر . . من هنا فانه يستطيع أن يجعل من يشاء مقهورا على عبادته . . مصداقا لقوله جل جلاله :

﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝٣ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ۝٤ ﴾

(سورة الشعراء)

فلو أراد الله ان يخضعنا لمنهجه قهراً . لا يستطيع أحد أن يشذ عن طاعته . . وقد أعطانا الله الدليل على ذلك بأن فى أجسادنا وفى أحداث الدنيا ما نحن مقهورون عليه . . فالجسد مقهور لله فى أشياء كثيرة . القلب ينبض ويتوقف بأمر الله دون ارادة منا . . والمعدة تهضم الطعام ونحن لاندرى عنها شيئا . . والدورة الدموية فى اجسادنا لا ارادة لنا فيها . . وأشياء كثيرة فى الجسد البشرى كلها مقهورة لله سبحانه وتعالى . . وليس لإرادتنا دخل فى عملها . . ومايقع علىّ فى الحياة الدنيا من أحداث أنا مقهور فيه . . لا أستطيع أن أمنعه من الحدوث . . فلا استطيع أن أمنع سيارة أن تصدمنى . . ولا طائرة أن تحترق بى . . ولا كل ما يقع على من أقدار الله فى الدنيا . .

اذن فمنطقة الاختيار فى حياتى محددة . . لا أستطيع أن أتحكم فى يوم مولدى . . ولا فيمن هو أبى ومن هى أمى . . ولا فى شكلى هل أنا طويل أو قصير ؟ جميل أو قبيح أو غير ذلك . اذن فمنطقة الاختيار فى الحياة هى المنهج أن أفعل أو لا أفعل . الله سبحانه وتعالى له من كل خلقه عبادة القهر . . ولكنه يريد من الانس والجن عبادة المحبوبية . . ولذلك خلقنا ولنا اختيار فى أن نأتيه أو لا نأتيه . . فى أن نطيعه أو نعصيه . فى أن نؤمن به أو لا نؤمن .

فإذا كنت تحب الله فأنت تأتيه عن اختيار . تتنازل عما يغضبه حبا فيه ، وتفعل ما يطلبه حبا فيه وليس قهرا . . فاذا تخليت عن اختيارك الى مرادات الله فى منهجه . . تكون قد حققت عبادة المحبوبية لله تبارك وتعالى . . وتكون قد اصبحت من عباد الله وليس من عبيد الله . . فكلنا عبيد لله سبحانه وتعالى ، والعبيد متساوون فيما يقهرون عليه . ولكن العباد الذين يتنازلون عن منطقة الاختيار لمراد الله فى التكليف . . ولذلك فإن الحق جل جلاله . . يفرق فى القرآن الكريم بين العباد والعبيد . . يقول تعالى :

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾

(سورة البقرة)

ويقول سبحانه وتعالى :

﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾

(سورة الفرقان)

وهكذا نرى أن الله سبحانه وتعالى أعطى أوصاف المؤمنين وسماهم عبادا . . ولكن عندما يتحدث عن البشر جميعا يقول عبيد . . مصداقا لقوله تعالى :

﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

ولكن قد يقول قائل : ان الله تبارك وتعالى يقول فى كتابه العزيز :

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة الفرقان)

الحديث هنا عن العاصين والضالين . ولكن الله سبحانه وتعالى قال عنهم عباد . نقول إن هذا فى الاخرة . . وفى الآخرة كلنا عباد لأننا مقهورون لطاعة الله الواحد المعبود تبارك وتعالى . . لأن الاختيار البشري ينتهى ساعة الاحتضار . . ونصبح جميعا عباداً لله مقهورين على طاعته لا اختيار لنا فى شيء .

والله سبحانه وتعالى قد أعطى الانسان اختياره فى الحياة الدنيا فى العبودية فلم يقهره فى شيء ولايلزم غير المؤمن به بأى تكليف . . بل إن المؤمن هو الذى يلزم نفسه بالتكليف وبمنهج الله فيدخل فى عقد ايمانى مع الله تبارك وتعالى . . ولذلك نجد أن الله جل جلاله لايخاطب الناس جميعا فى التكليف . . وانما يخاطب الذين آمنوا فقط فيقول :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣ ﴾

(سورة البقرة)

ويقول سبحانه :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٣ ﴾

(سورة البقرة)

أى أن الله جل جلاله لايكلف إلا المؤمن الذى يدخل فى عقد ايمانى مع الله .

وسيد المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم عندما نضعه فى معيار العبادية يكون القمة . فهو صلى الله عليه وسلم الذى حقق العبادية المرادة لله من خلق الله كما يحبها الله . .

اذن فالذى يقول غاية الخلق كله محمد عليه الصلاة والسلام نقول ان هذا صحيح ، لأنه صلى الله عليه وسلم حقق العبادية المثلى المطلوبة من الله تبارك وتعالى . . والتى هى علة الخلق . . وهكذا نعرف المقامات العالية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عند خالقه .

والله تبارك وتعالى قرن العبادة له وحده بالاستعانة به سبحانه . . فقال جل جلاله : «إياك نعبد وإياك نستعين» أى لانعبد سواك ولا نستعين إلا بك . والاستعانة بالله سبحانه وتعالى تخرجك عن ذل الدنيا فأنت حين تستعين بغير الله فإنك تستعين ببشر مهما بلغ نفوذه وقوته فكلها فى حدود بشريته . .

ولأننا نعيش فى عالم أغيار فإن القوى يمكن أن يصبح ضعيفا . . وصاحب النفوذ يمكن أن يصبح فى لحظة واحدة طريداً شريداً لا نفوذ له . . ولو لم يحدث هذا . فقد يموت ذلك الذى تستعين به فلا تجد احدا يعينك .

ويريد الله تبارك وتعالى أن يحرر المؤمن من ذل الدنيا . . فيطلب منه أن يستعين بالحى الذى لا يموت . . وبالقوى الذى لا يضعف ، وبالقاهر الذى لايخرج عن أمره أحد . . واذا استعنت بالله سبحانه وتعالى كان الله جل جلاله بجانبك . وهو وحده الذى يستطيع أن يحول ضعفك الى قوة وَذُلك الى عز . . والمؤمن دائما يواجه قوى أكبر منه ذلك أن الذين يحاربون منهج الله يكونون من الأقوياء ذوى النفوذ الذين يحبون أن يستعبدوا غيرهم . . فالمؤمن سيدخل معهم فى صراع . . ولذلك فإن الحق يحض عباده المؤمنين بأنه معهم فى الصراع بين الحق والباطل . . وقوله تعالى :«وإياك نستعين» مثل : «إياك نعبد» . . أى نستعين بك وحدك وهى دستور الحركة فى الحياة . . لأن استعان معناها طلب المعونة ، أى أن الانسان استنفد أسبابه ولكنها خذلته . . حينئذ لابد أن يتذكر أن له ربا لا يعبد سواه . لن يتخلى عنه بل يستعين به . . وحين تتخلى الأسباب فهناك رب الأسباب وهو موجود دائما . . لا يغفل عن شىء ولا تفوته همسة فى الكون . . ولذلك فإن المؤمن يتجه دائما الى السماء . . والله سبحانه وتعالى يكون معه .

﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾ ﴾

بعد أن آمنت بالله سبحانه وتعالى إلها وربا . . واستحضرت عطاء الألوهية ونعم الربوبية وفيوضات رحمة الله على خلقه . وأعلنت أنه لا إله إلا الله . وقولك : «إياك نعبد» أى أن العبادة لله تبارك وتعالى لانشرك به شيئا ولا نعبد إلا إياه . . وأعلنت انك ستستعين بالله وحده بقولك : «إياك نستعين» . فانك قد أصبحت من عباد الله . ويعلمك الله سبحانه وتعالى الدعاء الذى يتمناه كل مؤمن . . ومادمت من عباد الله ، فإن الله جل جلاله سيستجيب لك . . مصداقا لقوله سبحانه :

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾

(سورة البقرة)

والمؤمن لا يطلب الدنيا أبدا . . لماذا ؟ . . لأن الحياة الحقيقية للانسان فى الآخرة . فيها الحياة الأبدية والنعيم الذى لايفارقك ولاتفارقه . فالمؤمن لا يطلب مثلا أن يرزقه الله مالا كثيراً ولا أن يمتلك عمارة مثلا . . لأنه يعلم أن كل هذا وقتى وزائل . . ولكنه يطلب ما ينجيه من النار ويوصله الى الجنة . .

ومن رحمة الله تبارك وتعالى أنه علمنا ما نطلب . . وهذا يستوجب الحمد لله . . وأول ما يطلب المؤمن هو الهداية والصراط المستقيم : «إهدنا الصراط المستقيم»

والهداية نوعان : هداية دلالة وهداية معونة . هداية الدلالة هى للناس جميعا . . وهداية المعونة هى للمؤمنين فقط المتبعين لمنهج الله . والله سبحانه وتعالى هدى كل عباده هداية دلالة أى دلهم على طريق الخير وبينه لهم . . فمن أراد أن يتبع طريق الخير اتبعه . . ومن أراد ألا يتبعه تركه الله لما أراد . .

هذه الهداية العامة هى أساس البلاغ عن الله . فقد بين لنا الله تبارك وتعالى فى منهجه بافعل ولا تفعل ما يرضيه وما يغضبه . . وأوضح لنا الطريق الذى نتبعه لنهتدى . والطريق الذى لو سلكناه حق علينا غضب الله وسخطه . . ولكن هل كل من بين له الله سبحانه وتعالى طريق الهداية اهتدى ؟ . . نقول لا . . واقرأ قوله جل جلاله :

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾﴾

(سورة فصلت)

اذن هناك من لا يأخذ طريق الهداية بالاختيار الذى أعطاه الله له . . فلو أن الله سبحانه وتعالى أرادنا جميعا مهديين .. مااستطاع واحد من خلقه أن يخرج على مشيئته . ولكنه جل جلاله خلقنا مختارين لنأتيه عن حب ورغبة بدلا من أن يقهرنا على الطاعة . . ما الذى يحدث للذين اتبعوا طريق الهداية والذين لم يتبعوه وخالفوا مراد الله الشرعى فى كونه ؟

الذين اتبعوا طريق الهداية يعينهم الله سبحانه وتعالى عليه ويحببهم فى الايمان والتقوى ويحببهم فى طاعته . . واقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾﴾

(سورة محمد)

أى أن كل من يتخذ طريق الهداية يعينه الله عليه . . ويزيده تقوى وحبا فى الدين . . أما الذين إذا جاءهم الهدى ابتعدوا عن منهج الله وخالفوه . . فإن الله تبارك وتعالى يتخلى عنهم ويتركهم فى ضلالهم . واقرأ قوله تعالى :

﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾﴾

(سورة الزخرف)

والله سبحانه وتعالى قد بين لنا المحرومين من هداية المعونة على الايمان وهم ثلاثة كما بَيَّنَهُم لنا فى القرآن الكريم:

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾

(سورة النحل)

﴿ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾

(سورة المائدة)

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ ﴾

(سورة البقرة)

اذن فالمطرودون من هداية الله فى المعونة على الايمان هم الكافرون والفاسقون والظالمون . . الحق سبحانه وتعالى يقول : « اهدنا الصراط المستقيم » ما هو الصراط ؟ . . إنه الطريق الموصلة الى الغاية . ولماذا نص على أنه الصراط المستقيم . لأن الله سبحانه وتعالى وضع لنا فى منهجه الطريق المستقيم . . وهو أقصر الطرق الى تحقيق الغاية . . فأقصر طريق بين نقطتين هو الطريق المستقيم . ولذلك إذا كنت تقصد مكانا فأقصر طريق تسلكه هو الطريق الذى لا اعوجاج فيه ولكنه مستقيم تماما . .

ولا تحسب ان البعد عن الطريق المستقيم يبدأ باعوجاج كبير . بل باعوجاج صغير جدا ولكنه ينتهى الى بُعد كبير . .

ويكفى أن تراقب قضبان السكة الحديد . . عندما يبدأ القطار فى اتخاذ طريق غير الذى كان يسلكه فهو لاينحرف فى أول الأمر إلا بضعة ملليمترات . . أى أن أول التحويلة ضيق جدا وكلما مشيت اتسع الفرق وازداد اتساعا . بحيث عند النهاية تجد أن الطريق الذى مشيت فيه يبعد عن الطريق الأول عشرات الكيلو مترات وربما مئات الكيلو مترات . . إذن فأى انحراف مهما كان بسيطا يبعدك عن الطريق المستقيم بعدا كبيرا . . ولذلك فإن الدعاء : «اهدنا الصراط المستقيم» أى الطريق الذى ليس فيه إعوجاج ولو بضعة ملليمترات . . الطريق الذى ليس فيه مخالفة تبعدنا عن طريق الله المستقيم .

لذلك فإن الانسان المؤمن يطلب من الله سبحانه وتعالى أن يهديه الى أقصر الطرق للوصول الى الغاية . . وماهى الغاية ؟ انها الجنة والنعيم فى الآخرة . . ولذلك نقول يارب اهدنا وأعنا على أن نسلك الطريق المستقيم وهو طريق المنهج ليوصلنا الى الجنة دون أن يكون فيه أى اعوجاج يبعدنا عنها .

ولقد قال الله سبحانه وتعالى فى حديث قدسى . انه اذا قال العبد : «اهدنا الصراط المستقيم» يقول جل جلاله : هذا لعبدى ولعبدى ما سأل .

يقول الحق تبارك وتعالى : «صراط الذين انعمت عليهم» ما معنى «الذين أنعمت عليهم» ؟ . . اقرأ الآية الكريمة :

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾

(سورة النساء)

وأنت حين تقرأ الآية الكريمة فأنت تطلب من الله تبارك وتعالى أن تكون مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين . . أى أنك تطلب من الله جل جلاله أن يجعلك تسلك نفس الطريق الذى سلكه هؤلاء لتكون معهم فى الآخرة . . فكأنك تطلب الدرجة العالية فى الجنة . . لأن كل من ذكرناهم لهم مقام عال فى جنة النعيم . . وهكذا فإن الطلب من الله سبحانه وتعالى هو أن يجعلك تسلك الطريق الذى لا اعوجاج فيه . والذى يوصلك فى أسرع وقت الى الدرجة العالية فى الآخرة .

وعندما نعرف ان الله سبحانه وتعالى قال : (هذا لعبدى ولعبدى ما سأل) . . تعرف أن الاستجابة تعطيك الحياة العالية فى الآخرة وتمتعك بنعيم الله . ليس بقدرات البشر كما يحدث فى الدنيا . . ولكن بقدرة الله تبارك وتعالى . . واذاكانت نعم الدنيا لا تعد ولا تحصى . . فكيف بنعم الآخرة ؟ لقد قال الله سبحانه وتعالى عنها :

﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾ ﴾

(سورة ق)

أى أنه ليس كل ما تطلبه فقط ستجده أمامك بمجرد وروده على خاطرك ـ ولكن مهما طلبت من النعم ومهما تمنيت فالله جل جلاله عنده مزيد . . ولذلك فانه يعطيك كل ما تشاء ويزيد عليه بما لم تطلب ولا تعرف من النعم . . وهذا تشبيه فقط ليقرب الله تبارك وتعالى صورة النعيم الى أذهاننا ، ولكن الجنة فيها ما لاعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

وبما أن المعانى لابد أن توجد أولا فى العقل ثم يأتى اللفظ المعبر عنها . . فكل شىء لا نعرفه لاتوجد فى لغتنا ألفاظ تعبر عنه . فنحن لم نعرف اسم التليفزيون مثلا إلا بعد أن أخترع وصار له مفهوم محدد . تماما كما لم نعرف اسم الطائرة قبل أن يتم اختراعها . . فالشىء يوجد أولا ثم بعد ذلك يوضع اللفظ المعبر عنه . ولذلك فإن مجامع اللغات فى العالم تجتمع بين فترة واخرى . لتضع أسماء لأشياء جديدة اخترعت وعرفت مهمتها . .

ومادام ذلك هو القاعدة اللغوية ، فإنه لاتوجد الفاظ فى لغة البشر تعبر عن النعيم الذى سيعيشه اهل الجنة لأنه لم تره عين ولم تسمع به أذن ولا خطر على القلب . . ولذلك فإن كل مانقرؤه فى القرآن الكريم يقرب لنا الصورة فقط . ولكنه لا يعطينا حقيقة ما هو موجود . ولذلك نجد الله سبحانه وتعالى حين يتحدث عن الجنة فى

القرآن الكريم يقول :

﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَـٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَـٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَـٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّـٰرِبِينَ وَأَنْهَـٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَـٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾ ﴾

(سورة محمد)

أى أن هذا ليس حقيقة الجنة ولكنها مثل فقط يقرب ذلك الى الاذهان . . لأنه لا توجد ألفاظ فى لغات البشر يمكن أن تعطينا حقيقة مافى الجنة .

وقوله تعالى : «غير المغضوب عليهم» . . أى غير الذين غضبت عليهم يارب من الذين عصوا . ومنعت عنهم هداية الاعانة . . الذين عرفوا المنهج فخالفوه وارتكبوا كل ما حرمه الله فاستحقوا غضبه .

ومعنى غير «المغضوب عليهم» أى يارب لاتيسر لنا الطريق الذى نستحق به غضبك . كما استحقه أولئك الذين غيروا وبدلوا فى منهج الله ليأخذوا سلطة زمنية فى الحياة الدنيا وليأكلوا اموال الناس بالباطل . .

وقد وردت كلمة «المغضوب عليهم» فى القرآن الكريم فى قوله تعالى :

﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّـٰغُوتَ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ ﴾

(سورة المائدة)

وهذه الآيات نزلت فى بنى اسرائيل .

وقول الله تعالى : «ولا الضالين» هناك الضال والمُضِل . . الضال هو الذى ضل الطريق فاتخذ منهجا غير منهج الله . . ومشى فى الضلالة بعيدا عن الهدى وعن دين الله . . ويقال ضل الطريق أى مشى فيه وهو لايعرف السبيل الى ما يريد أن يصل اليه . . أى أنه تاه فى الدنيا فأصبح وليا للشيطان وابتعد عن طريق الله المستقيم . . هذا هو الضال . . ولكن المضل هو من لم يكتف بأنه ابتعد عن منهج الله وسار فى الحياة على غير هدى . . بل يحاول أن يأخذ غيره الى الضلالة . . يغرى الناس بالكفر وعدم اتباع المنهج والبعد عن طريق الله . . وكل واحد من العاصين يأتى يوم القيامة يحمل ذنوبه . . الا المضل فانه يحمل ذنوبه وذنوب من اضلهم . مصداقا لقوله سبحانه :

﴿ لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

(سورة النحل)

أىْ أنك وأنت تقرأ الفاتحة تستعيذ بالله أن تكون من الذين ضلوا . . ولكن الحق سبحانه وتعالى لم يأت هنا بالمضلين . نقول انك لكى تكون مضلا لابد أن تكون ضالا أولا . . فالاستعاذة من الضلال هنا تشمل الاثنين . لأنك مادمت قد استعذت من أن تكون ضالا فلن تكون مضلا أبدا .

بقى أن نتكلم عن ختم فاتحة الكتاب . بقولنا آمين أسوة برسول الله صلى الله عليه وسلم الذى علمه جبريل عليه السلام أن يقول بعد قراءة الفاتحة آمين ، فهى من كلام جبريل لرسول الله صلى الله عليه وسلم وليست كلمة من القرآن .

وكلمة آمين معناها استجب يارب فيما دعوناك به من قولنا : «اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين انعمت عليهم» أى أن الدعاء هنا له شىء مطلوب تحقيقه . وآمين دعاء لتحقيق المطلوب . . وكلمة آمين اختلف العلماء فيها . . أهى عربية أم غير عربية .

وهنا يثور سؤال . . كيف تدخل كلمة غير عربية فى قرآن حكم الله بأنه عربى . . ؟ نقول أن ورود كلمة ليست من أصل عربى فى القرآن الكريم لاينفى

أن القرآن كله عربى . بمعنى أنه اذا خوطب به العرب فهموه . . وهناك الفاظ دخلت فى لغة العرب قبل أن ينزل القرآن . . ولكنها دارت على الألسن بحيث أصبحت عربية وألفتها الاذان العربية . .

فليس المراد بالعربى هو أصل اللغة العربية وحدها . . وانما المراد أن القرآن نزل باللغة التى لها شيوع على ألسنة العرب . ومادام اللفظ قد شاع على اللسان قولا وفى الآذان سمعا . فإن الأجيال التى تستقبله لا تفرق بينه وبين غيره من الكلمات التى هى من أصل عربى . . فاللفظ الجديد أصبح عربيا بالاستعمال وعند نزول القرآن كانت الكلمة شائعة شيوع الكلمة العربية .

واللغة ألفاظ يصطلح على معانيها . بحيث اذا أطلق اللفظ فهم المعنى . واللغة التى نتكلمها لا تخرج عن اسم وفعل وحرف . . الاسم كلمة والفعل كلمة والحرف كلمة . . والكلمة لها معنى فى ذاتها ولكن هل هذا المعنى مستقل فى الفهم أو غير مستقل . . اذا قلت محمد مثلا فهمت الشخص الذى سمى بهذا الاسم فصار له معنى مستقل . . واذا قلت كتب فهمت أنه قد جمع الحروف لتقرأ على هيئة كتابة . . ولكن اذا قلت ماذا وهى حرف فليس هناك معنى مستقل . . واذا قلت « فى » دَلَّتْ على الظرفية ولكنها لم تدلنا على معنى مستقل . بل لابد ان تقول الماء فى الكوب . . أو فلان على الفرس . . غير المستقل فى الفهم نسميه حرفا لايظهر معناه إلا بضم شىء له . . والفعل يحتاج الى زمن ، ولكن الاسم لايحتاج الى زمن . .

اذن الاسم هو مادل على معنى مستقل بالفهم وليس الزمن جزءا منه . . والفعل مادل على فعل مستقل بالفهم والزمن جزء منه . . والحرف دل على معنى غير مستقل . . ما هى علامة الفعل هى أنك تستطيع أن تسند اليه تاء الفاعل . . أى تقول كتبت والفاعل هو المتكلم . . ولكن الاسم لا يضاف اليه تاء الفاعل فلا تقول محمدت . . اذا رأيت شيئا يدل على الفعل أى يحتاج الى زمن . . ولكنه لا يقبل تاء الفاعل فانه يكون اسم على فعل .

آمين من هذا النوع ليست فعلا فهى اسم مدلوله مدلول الفعل . . معناه استجب . . فأنت حين تسمع كلمة «آه» انها اسم لفعل بمعنى اتوجع . . وساعة

تقول «أف» اسم فعل بمعنى اتضجر . . وآمين اسم فعل بمعنى استجب . . ولكنك تقولها مرة وأنت القارىء ، وتقولها مرة وأنت السامع . فساعة تقرأ الفاتحة تقول آمين . . أى أنا دعوت يارب فاستجب دعائى . . لأنك لشدة تعلقك بما دعوت من الهداية فانك لاتكتفى بقول اهدنا ولكن تطلب من الله الاستجابة . واذا كنت تصلى فى جماعة فأنت تسمع الامام وهو يقرأ الفاتحة . . ثم تقول آمين.لأن المأموم أحد الداعين . . الذى دعا هو الامام ، وعندما قلت آمين فأنت شريك فى الدعاء . . ولذلك فعندما دعا موسى عليه السلام أن يطمس الله على اموال قوم فرعون ويهلكهم قال الله لموسى :

﴿ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾

(سورة يونس)

أى أن الخطاب من الله سبحانه وتعالى موجهٌ الى موسى وهارون . ولكن موسى عليه السلام هو الذى دعا . . وهارون أمن على دعوة موسى فأصبح مشاركا فى الدعاء .

سورة البقرة (٢)

مدنية

نأتى بعد فاتحة الكتاب إلى سورة البقرة . . وهى التى تلى الفاتحة فى ترتيب المصحف الشريف . . واذا نظرنا إلى اسم السورة وجدنا أنه لابد أن يثير انتباهنا . . لأن القرآن الكريم نزل فى بيئة عربية . ولم تكن البقرة وقت نزول القرآن الكريم حيوانا معروفا أو من الانعام التى يعرفها العرب فى ذلك الوقت .

نقول إن اسم السورة قد أخذ من قضية أساسية فى الدين وهى الإيمان بالبعث . . والإيمان بالبعث هو أساس الدين . . فمن لا يؤمن بالآخرة والبعث والحساب يفعل ما يشاء فى الدنيا دون أى وازع . لأنه مادام ليس هناك بعث تصبح الدنيا غابة . . ويصبح الدين بلا مفهوم . . لأن أساس العبادة هو أن الحياة الحقيقية فى الآخرة . . وأن الدنيا هى دار إختبار ودار أغيار . . أما الآخرة فهى دار نعيم مقيم . ففى الدنيا إما أن نفارق النعمة وإما تفارقك . . تفارقها بالموت . . أو تفارقك بأن تزول عنك . أما الحياة التى لا تفارقك فيها النعمة ولا تفارقها فهى الآخرة . . لذلك فإن كل عمل المؤمن فى الدنيا مقصود به الجزاء فى الآخرة .

ومنهج الله فى الأرض يقودك الى الجنة إن طبقته ، والى النار والعياذ بالله إن خالفته . . اذن فقضية الايمان كلها مبنية على الايمان بالبعث . وسورة البقرة فيها تجربة حدثت مع بنى اسرائيل . . ورأوا البعث وهم مازالوا فى الدنيا ؛ حين بعث الله سبحانه وتعالى قتيلا لينطق باسم قاتله . . ثم مات بعد ذلك .

والقصة أن رجلا من بنى اسرائيل . . كان ثريا يملك المال الكثير ولم يكن له ولد يرثه . . فتآمر عليه ابن أخيه فقتله ليلا ثم أخذ الجثة وألقاها فى مكان قريب من إحدى القرى المجاورة ليتهم أهل هذه القرية بقتله . . وصحا أهل القرية ليجدوا جثة القتيل على باب قريتهم . . واتهموا فيه وقالوا لم نقتله . وقال أقارب القتيل بل أنتم الذين قتلتموه . واحتدم الخلاف وذهبوا الى موسى عليه السلام . وقالوا ان الخلاف قد احتدم . . فاسأل لنا ربك أن يكشف لنا عن القاتل . . وجاءت القصة

فى سورة البقرة فى قوله تعالى :

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ ۖ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾

(سورة البقرة)

وهكذا نرى أن الله سبحانه وتعالى أمر بنى اسرائيل أن يذبحوا البقرة ، ولو أنهم ذبحوا أية بقرة وأخذوا بعضا منها ليضربوا به القتيل . لعادت الحياة اليه ونطق باسم قاتله . . ولكنهم بدلا من أن يستقبلوا أوامر الله سبحانه وتعالى بالتنفيذ . . استقبلوها أولا بعدم التصديق . . و : «قالوا أتتخذنا هزوا» وظلوا يشددون على انفسهم بطلب أوصاف البقرة حتى جاء الايضاح من الحق تبارك وتعالى بعمر البقرة ولونها وكل مايخصها .

وكان لهذا حكمة عند الله سبحانه وتعالى لخدمة قضية ايمانية اخرى . . وقد كان هناك رجل صالح من بنى اسرائيل . . يتحرى الدقة فى كسبه ولا يرضى إلا بالحلال . وكان رجلا يبتغى وجه الله فى كل ما يفعل . . وعندما حضرته الوفاة كانت ثروته هى بقرة صغيرة وكان ابنه طفلا . . واحتار الرجل من يوصى على هذه البقرة التى هى كل ثروته التى تركها لابنه وزوجته . . واتجه الى الله سبحانه وتعالى وقال اللهم انى استودعتك هذه البقرة فاحفظها لابنى حتى يكبر . لأنه لم يجد أمينا على

ابنه إلا يد الله سبحانه وتعالى . ثم قال لزوجته إنى لم أجد يدا آمن من يد ربى استودعته البقرة الصغيرة . . وسألته زوجته أين البقرة ؟ قال أطلقتها فى المراعى . . ثم أسلم الروح . .

وكبر الابن فحكت له أمه ماحدث . فقال الابن وأين اجد البقرة لأستردها ؟ قالت الأم لقد استودع ابوك البقرة عند خالق الكون . فقل انى أتوكل على الله وابحث عنها . . فقال الابن اللهم رب ابراهيم ويعقوب رد علىّ ما استودعك أبى . ثم انطلق الى الحقل فوجد البقرة . . وكانت هذه هى البقرة التى ذكرت أوصافها لبنى اسرائيل . . فذهبوا ليشتروها فقال الأبن لن أبيعها إلا بملء جلدها ذهبا فدفعوا له . .

وهكذا نجد أن صلاح الأب يجعل الله حفيظا على اولاده يرعاهم وييسر لهم أمورهم . وقد أوضح الله تعالى هذه الحقيقة فى سورة الكهف . . عندما جاء العبد الصالح وبنى الجدار ليحفظ كنز يتيمين كان أبوهما صالحا . . واقرأ قول الحق سبحانه :

﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَـٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَـٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾

(سورة الكهف)

وهكذا كانت الحكمة الإلهية أن الرجل الصالح الذى استودع كل ما كان يملك عند الله . . بارك الله له فيه ووجد ابنه عندما يبلغ سن الشباب ثروة كبيرة .

وعندما ذبحوا البقرة . ضربوا ببعضها القتيل كما أمرهم الله سبحانه وتعالى فإذا به يبعث وينطق اسم قاتله ثم يموت مرة اخرى . . وهكذا سميت السورة باسم سورة البقرة إثباتا لقضية اساسية فى الدين وهى قضية الايمان بالبعث .

وأما بداية القرآن بسورة مدنية بدلا من سورة مكية . . فنقول إنه يجب أن نفهم أولا ما هو مكى وما هو مدنى . فمكة والمدينة مكانان مقدسان . . الأول شهد بداية

النبوة وبداية نزول القرآن على النبى صلى الله عليه وسلم . . والثانى كان مهجر رسول الله صلى الله عليه وسلم . فعندما نقول مكى ومدنى فى القرآن الكريم ، لابد أن نلاحظ عدة أشياء . . أولا الحدث الذى نزلت من أجله الآية . . وثانيا مكان الحدث وثالثا الزمان الذى نزلت فيه ، فكل فعل له زمن يقع فيه ومكان يحدث فيه . وفاعل.ومن يقع عليه الفعل . . وسبب للحدوث وقدرة على الفعل . .

وبالنسبة لنزول القرآن الكريم . . الفاعل هو الله سبحانه وتعالى . . والذى نزل عليه القرآن هو رسول الله صلى الله عليه وسلم . . والمكان هو إما مكة وإما المدينة . . فنزول القرآن الكريم له زمان ومكان وسبب نزول ، والقرآن هو هداية البشر الى منهج الله . . والله سبحانه وتعالى وضع فى القرآن الكريم دستورا سماويا لكل رسالات الله للبشر . . فبنزول القرآن الكريم اكتملت الرسالات السماوية . وجاء الدين الخاتم الذى يظل دستورا للدنيا حتى يوم القيامة . . فجاء القرآن الكريم بقصة خلق السموات والأرض وقصة خلق الانسان . . وجاء بقصص الرسل والأنبياء الذين سبقوا نزول القرآن الكريم وصحح مازيف منها وعدَّل ما حُرف منها لتأتى صادقة فيما أبلغ به الرسل عن الله . وتأتى ناسخة لكل ما عبثت به أيدى البشر فى الرسالات السابقة على نزول القرآن . . وتأتى مصحّحة لكل كلام بشرىّ أضيف الى منهج الله ونسب اليه زورا وبهتانا . . وتأتى بما كتمه أهل الديانات القديمة وأحبار اليهود ورهبان النصارى عن الناس . .

إنه يفضح كل تحريف أو كتم أو اخفاء أو تزييف أو اضافة بشرية لدين الله فى الرسالات السابقة . ويزيد عليه من منهج الله ليصبح القرآن الكريم المنهج الكامل المتكامل لعبادة الله فى الأرض . . ويتضمن منهج السماء منذ عهد آدم الى قيام الساعة .

ولقد اختلف العلماء حول بعض الآيات وهل هى مكية أو مدنية .

فالذين أخذوا بعنصر الزمان مقياسا قالوا إن كل سورة من القرآن الكريم نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الهجرة تعتبر مدنية . . حتى ولو نزلت فى مكة . . والذين اتخذوا مقياس المكان قالوا ان كل سورة نزلت فى مكة فهى مكية ، وكل سورة نزلت فى المدينة فهى مدنية ، وذلك بصرف النظر عن أنها نزلت قبل الهجرة أو بعدها . . ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نزلت عليه سور فى مكة بعد الهجرة .

ونحن نقول إنه لاخلاف بين علماء المسلمين كما حاول البعض أن يصوره . بل انْ كل فريق أخذ الموضوع من زاوية معينة . . بعضهم نظر الى زاوية المكان ، وبعضهم نظر الى زاوية الزمان . ولم يختلف العلماء فى سور القرآن الكريم ذاته أو آياته .

عندما ننظر الى سورة البقرة نجد أنها من أوائل السور التى نزلت بالمدينة . . ففيها الطابع المدنى والطابع المكى . . الطابع المكى فى سور القرآن الكريم هو التركيز على العقيدة . . ذلك أن الآيات والسور المكية نزلت ورسول الله صلى الله عليه وسلم يواجه الوثنيين عبدة الأصنام ، والكفار الذين لا يؤمنون بدين وعدداً من أهل الكتاب الذين ضعفت صلتهم بالسماء لأنهم نسوا ما قاله رسلهم فحرفوه . . وكان لابد للقرآن أن يواجه هؤلاء جميعا ويبين لهم أنهم على باطل وأنهم يعبدون الهة لاتنفع ولاتضر . . بل آلهة مصنوعة من أدنى أجناس الأرض وهى الحجارة . . بينما الله سبحانه وتعالى ميز الانسان وجعله خليفة فى هذا الكون .

وكان لابد للقرآن ان يخبرهم أن هناك بعثا بعد الموت . . وأن هناك جنة وناراً وان الحياة الحقيقية ليست الدنيا ولكنها الآخرة . . وكان لابد أن يحذرهم من عذاب الله . ومن يوم سيلقونه فيه ولايستطيع أحد منهم هربا من ذلك اليوم العظيم . . وكان لابد أن يلفتهم الى آيات الله فى الكون الدالة على أنه الموجد والخالق . . وأن يواجه ما يأتى به أحبار اليهود من أسئلة ظاهرها الاستفهام ، وحقيقتها محاولة الطعن فى الاسلام .

وكانوا يظنون أنه ربما يأتى محمد عليه الصلاة والسلام بشىء من عنده فيخطىء . . فجاء القرآن ليساوى بين البشرية كلها . . فلا فضل لغنى لماله ولاقلة لفقير فى الأجر . . بل الناس امام الله سواسية كأسنان المشط .

كان هذا هو اساس الدعوة فى مكة . . ايمان بأنه لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . وتثبيت للمؤمنين فى الفترة التى كانوا فيها قلة وكانوا فيها ضعفاء وكانوا أذلة .

وتثبيت الايمان كان يقتضى تذكيرهم دائما بأن الله معهم . . وإن ماتوا شهداء دخلوا الجنة بلا حساب . وإن ماتوا على دين الاسلام دخلوا الجنة . ومن يبقى منهم على كفره عُذب فى النار ، وأن كل مشقة فى سبيل الله لها أجر فى الآخرة حتى يتحملوا المشقة والإيذاء وهم صابرون .

واذا انتقلنا بعد ذلك الى مجتمع المدينة . . فهناك صورة أخرى ووجه فيها الاسلام بالكفار وعبدة الاوثان ومزورى التوراة من اليهود وعدو جديد هم المنافقون . . وقد كانت هناك عداوة جاهلة فى مكة ، أما فى المدينة فقد ووجه الاسلام بعداوة عالمة .. وهم المنافقون . . فلم يكن هناك نفاق فى مكة ، فالضعيف والمضْطَهَدُ لا يُنَافِق . . فمنذا الذى كان يدعى فى مكة أنه مؤمن وهو كافر . . ليكون عرضة للعذاب والإيذاء والاضطهاد . ولكن فى المدينة عندما قوى الاسلام وكانت له دولة ظهر فى المجتمع النفاق . واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾

(سورة التوبة)

وهكذا واجه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المدينة عداوة من لون جديد . . ليخوض صراعا مع المنافقين واليهود . . وبجانب التوحيد والرد على المنافقين واليهود كان هناك المجتمع الاسلامى . . وكانت هناك مهمة تربية هذا المجتمع لكى ينهض بالدعوة ، وكانت هناك دولة وكانت هناك غزوات ، وكان هناك أحكام بافعل ولاتفعل .

كل هذا لم يكن موجودا فى مكة ، فقد اقتضى نزول القرآن الكريم فى مكة أن تكون آياته فى معظمها عن العقيدة وعن الجنة والنار ، وعن الأجر الذى ينتظر المؤمنين فى الآخرة ، وعن العذاب الذى ينتظر الكفار .

وكانت الآيات فى المدينة عن الأحكام والمجتمع الاسلامى والمعاملات وكيفية اتقاء المنافقين . وان كانت الآيات فى المدينة لم تهمل العقيدة بل أكدتها . . وعندما جاء جبريل عليه السلام ليرتب المصحف مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الترتيب الذى نعرفه الآن . . كان الاسلام قد انتشر واعتنقه كثيرون . لذلك كانت المهمة الأولى أن يعرف هؤلاء المسلمون أحكام دينهم . . وما يجب أن يفعلوه وألا يفعلوه .

يريد الله سبحانه وتعالى أن يعلم المسلمين الذين آمنوا بأنه لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله . . يريد أن يعلمهم أحكام دينهم . فالعقيدة موجودة وبقى أن نعمل ونطبق المنهج فى إفعل ولا تفعل .

ولقد جاءت سورة البقرة متضمنة التعريف بقوة الاسلام .. وبحكمة القرآن وبعلم الله سبحانه وتعالى الى رسوله صلى الله عليه وسلم ، واشتملت على قصة خلق الانسان الأول آدم عليه السلام . وقصة ابراهيم فى بحثه عن الايمان وقصة بناء الكعبة الشريفة .. وركزت على اليهود باعتبارهم أشد الناس عداوة للاسلام .. واقرأ قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ ﴿٨٢﴾ ﴾

(سورة المائدة)

جاءت سورة البقرة ببعض التكاليف الايمانية .. فتحدثت عن الصوم والحج والخمر والربا وأكل اموال الناس والزواج والطلاق والرضاع .. كما حددت صور التعامل بالمال فى المجتمع الاسلامى .. وما كان الاسلام ليتعرض لهذه الأحكام فى مكة .. لأنه لم يكن هناك المجتمع الاسلامى الذى يتطلبها .

الٓمٓ ﴿١﴾

بدأت سورة البقرة بقوله تعالى : «ألم» . . وهذه الحروف حروف مقطعة . . ومعنى مقطعة أن كل حرف ينطق بمفرده . لأن الحروف لها أسماء ولها مسميات . . فالناس حين يتكلمون ينطقون بمسمى الحرف وليس باسمه . . فعندما تقول كتب تنطق بمسميات الحروف . فاذا أردت أن تنطق باسمائها . تقول كاف وتاء وباء . . ولايمكن أن ينطق بأسماء الحروف إلا من تعلم ودرس ، أما ذلك الذى لم يتعلم فقد ينطق بمسميات الحروف ولكنه لاينطق بأسمائها ، ولعل هذه أول ما يلفتنا . فرسول الله صلى الله عليه وسلم كان أميا لا يقرأ ولا يكتب ولذلك لم يكن يعرف شيئا عن أسماء الحروف . فإذا جاء ونطق بأسماء الحروف يكون هذا إعجازاً من الله سبحانه وتعالى . . بأن هذا القرآن موحى به الى محمد صلى الله عليه وسلم . . ولو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم درس وتعلم لكان شيئا عاديا أن ينطق باسماء الحروف . ولكن تعالَ الى أى أمى لم يتعلم . . انه يستطيع أن ينطق بمسميات الحروف . . يقول الكتاب وكوب وغير ذلك . . فاذا طلبت منه أن ينطق باسماء الحروف فانه لايستطيع أن يقول لك . ان كلمة كتاب مكونة من الكاف والتاء والألف والباء . . وتكون هذه الحروف دالة على صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم فى البلاغ عن ربه . وأن هذا القرآن موحى به من الله سبحانه وتعالى .

ونجد فى فواتح السور التى تبدأ باسماء الحروف . تنطق الحروف بأسمائها وتجد الكلمة نفسها فى آية أخرى تنطق بمسياتها .فألم فى أول سورة البقرة نطقتها باسماء الحروف الف لام ميم . بينما تنطقها بمسميات الحروف فى شرح السورة فى قوله تعالى :

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ ﴾

(سورة الشرح)

وفى سورة الفيل فى قوله تعالى :

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١﴾

(سورة الفيل)

ما الذى جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم . . ينطق «ألم» فى سورة البقرة بأسماء الحروف . . وينطقها فى سورتى الشرح والفيل بمسميات الحروف . لابد أن رسول الله عليه الصلاة والسلام سمعها من الله كما نقلها جبريل عليه السلام اليه هكذا . اذن فالقرآن أصله السماع لا يجوز أن تقرأه إلا بعد أن تسمعه . لتعرف أن هذه تُقرأ ألف لام ميم والثانية تقرأ ألم . . مع أن الكتابة واحدة فى الاثنين . . ولذلك لابد أن تستمع الى فقيه يقرأ القرآن قبل أن تتلوه . . والذى يتعب الناس أنهم لم يجلسوا الى فقيه ولا استمعوا الى قارىء . . ثم بعد ذلك يريدون أن يقرأوا القرآن كأى كتاب . نقول لا . . القرآن له تميز خاص . . انه ليس كأى كتاب تقرؤه . . لأنه مرة يأتى باسم الحرف . ومرة يأتى بمسميات الحرف . وأنت لايمكن ان تعرف هذا إلا إذا استمعت لقارىء يقرأ القرآن .

والقرآن مبنى على الوصل دائما وليس على الوقف ، فاذا قرآت فى آخر سورة يونس مثلا : «وهو خير الحاكمين» لاتجد النون عليها سكون بل تجد عليها فتحة ، موصولة بقول الله سبحانه وتعالى بسم الله الرحمن الرحيم . ولو كانت غير موصولة لوجدت عليها سكونا .

اذن فكل آيات القرآن الكريم مبنية على الوصل . . ما عدا فواتح السور المكونة من حروف فهى مبنية على الوقف . . فلا تقرأ فى أول سورة البقرة : «ألم» والميم عليها ضمة . بل تقرأ ألفا عليها سكون ولاما عليها سكون وميما عليها سكون . اذن كل حرف منفرد بوقف . مع أن الوقف لايوجد فى ختام السور ولا فى القرآن الكريم كله .

وهناك سور فى القرآن الكريم بدأت بحرف واحد مثل قوله تعالى :

﴿صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝١﴾

(سورة ص)

﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١﴾

(سورة القلم)

ونلاحظ أن الحرف ليس آية مستقلة . بينما «ألم» فى سورة البقرة آية مستقلة . و : «حم» . و : «عسق» آية مستقلة مع أنها كلها حروف مقطعة . وهناك سور تبدأ بآية من خمسة حروف مثل «كهيعص» فى سورة مريم . . وهناك سور تبدأ بأربعة حروف . مثل «ألمص» فى سورة «الأعراف» . وهناك سور تبدأ بأربعة حروف وهى ليست آية مستقلة مثل «ألمر» فى سورة «الرعد» متصلة بما بعدها . . بينما تجد سورة تبدأ بحرفين هما آية مستقلة مثل : «يس» فى سورة يس . و«حم» فى سورة غافر وفصلت . . و : «طس» فى سورة النمل . وكلها ليست موصولة بالآية التى بعدها . . وهذا يدلنا على أن الحروف فى فواتح السور لا تسير على قاعدة محددة .

«ألم» مكونة من ثلاثة حروف تجدها فى ست سور مستقلة . . فهى آية فى البقرة وآل عمران والعنكبوت والروم والسجدة ولقمان . و«الر» ثلاثة حروف ولكنها ليست آية مستقلة . بل جزء من الآية فى أربع سور هى : يونس ويوسف وهود وابراهيم . . و : «ألمص» من أربعة حروف وهى آية مستقلة فى سورة « الأعراف » و« المر » أربعة حروف ، ولكنها ليست آية مستقلة فى سورة الرعد إذن فالمسألة ليست قانونا يعمم ، ولكنها خصوصية فى كل حرب من الحروف

واذا سألت ما هو معنى هذه الحروف ؟ . . نقول أن السؤال فى أصله خطأ . . لأن الحرف لا يسأل عن معناه فى اللغة إلا إن كان حرف معنى . . والحروف نوعان : حرف مَبْنَى وحرف معنى . حرف المبنى لا معنى له إلا للدلالة على الصوت فقط . . أما حروف المعانى فهى مثل فى . ومن . . وعلى . . (فى) تدل على الظرفية . . و(مِنْ) تدل على الابتداء و(الى) تدل على الانتهاء . . و(على) تدل على الاستعلاء . . هذه كلها حروف معنى .

واذا كانت الحروف فى أوائل السور فى القرآن الكريم قد خرجت عن قاعدة الوصل لأنها مبنية على السكون لابد أن يكون لذلك حكمة . . أولا لنعرف قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من قرأ حرفا من كتاب الله فله به حَسَنَةٌ والحَسَنَةُ

بعَشْر أمْثَالها ، لا أقولُ ألم حرف ولكن ألفٌ حرْفٌ ولاَمٌ حرف ومِيمٌ حرف»[١] .

ولذلك ذكرت فى القرآن كحروف استقلالية لنعرف ونحن نتعبد بتلاوة القرآن الكريم أننا نأخذ حسنة على كل حرف . فإذا قرأنا بسم الله الرحمن الرحيم . يكون لنا بالباء حسنة وبالسين حسنة وبالميم حسنة فيكون لنا ثلاث حسنات بكلمة واحدة من القرآن الكريم . والحسنة بعشر أمثالها . وحينما نقرأ «ألم» ونحن لا نفهم معناها نعرف أن ثواب القرآن على كل حرف نقرؤه سواء فهمناه أم لم نفهمه . . وقد يضع الله سبحانه وتعالى من أسراره فى هذه الحروف التى لانفهمها ثوابا وأجرا لانعرفه .

ويريدنا بقراءتها أن نحصل على هذا الأجر . .

والقرآن الكريم ليس اعجازا فى البلاغة فقط . ولكنه يحوى اعجازا فى كل ما يمكن للعقل البشرى أن يحوم حوله . فكل مفكر متدبر فى كلام الله يجد اعجازا فى القرآن الكريم . فالذى درس البلاغة رأى الاعجاز البلاغى ، والذى تعلم الطب وجد إعجازا طبيا فى القرآن الكريم . وعالم النباتات رأى اعجازا فى آيات القرآن الكريم ، وكذلك عالم الفلك . .

واذا أراد انسان منا أن يعرف معنى هذه الحروف فلا نأخذها على قدر بشريتنا . . ولكن نأخذها على قدر مراد الله فيها . . وقدراتنا تتفاوت وأفهامنا قاصرة . فكل منا يملك مِفْتاحاً من مفاتيح الفهم كل على قدر علمه . . هذا مفتاح بسيط يفتح مرة واحدة وآخر يدور مرتين . . وآخر يدور ثلاث مرات وهكذا . . ولكن من عنده العلم يملك كل المفاتيح ، أو يملك المفتاح الذى يفتح كل الأبواب . .

ونحن لايصح أن نجهد أذهاننا لفهم هذه الحروف . فحياة البشر تقتضى منا فى بعض الأحيان أن نضع كلمات لا معنى لها بالنسبة لغيرنا . . وان كانت تمثل اشياء ضرورية بالنسبة لنا . تماما ككلمة السر التى تستخدمها الجيوش لا معنى لها اذا سمعتها . ولكن بالنسبة لمن وضعها يكون ثمنها الحياة أو الموت . . فخذ كلمات الله التى تفهمها بمعانيها . . وخذ الحروف التى لاتفهمها بمرادات الله فيها . فالله سبحانه وتعالى شاء أن يبقى معناها فى الغيب عنده .

---

(١) رواه الترمذى فى أبواب فضائل القرآن .

والقرآن الكريم لا يؤخذ على نسق واحد حتى نتنبه ونحن نتلوه أو نكتبه . لذلك تجد مثلا بسم الله الرحمن الرحيم مكتوبة بدون ألف بين الباء والسين . ومرة تجدها مكتوبة بالألف فى قوله تعالى :

﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ ﴾

(سورة العلق)

وكلمة تبارك مرة تكتب بالألف ومرة بغير الألف . . ولو أن المسألة رتابة فى كتابة القرآن لجاءت كلها على نظام واحد . ولكنها جاءت بهذه الطريقة لتكون كتابة القرآن معجزة وألفاظه معجزة .

ونحن نقول للذين يتساءلون عن الحكمة فى بداية بعض السور بحروف . . نقول إن لذلك حكمة عند الله فهمناها أو لم نفهمها . . والقرآن نزل على أمة عربية فيها المؤمن والكافر . . ومع ذلك لم نسمع أحداً يطعن فى الأحرف التى بدأت بها السور . وهذا دليل على أنهم فهموها بملكاتهم العربية . . ولو أنهم لم يفهموها لطعنوا فيها .

وأنا انصح من يقرأ القرآن الكريم للتعبد .. ألا يشغل نفسه بالتفكير فى المعنى . أما الذى يقرأ القرآن ليستنبط منه فليقف عند اللفظ والمعنى . . فاذا قرأت القرآن لتتعبد فاقرأه بسر الله فيه . . ولو جلست تبحث عن المعنى . . تكون قد حددت معنى القرآن الكريم بمعلوماتك أنت . وتكون قد أخذت المعنى ناقصا نقص فكر البشر . . ولكن اقرأ القرآن بسر الله فيه .

إننا لو بحثنا معنى كل لفظ فى القرآن الكريم فقد أخرجنا الأمى وكل من لم يدرس اللغة العربية دراسة متعمقة من قراءة القرآن . ولكنك تجد أميا لم يقرأ كلمة واحدة ومع ذلك يحفظ القرآن كله . فاذا قلت كيف ؟ نقول لك بسر الله فيه .

والكلام وسيلة افهام وفهم بين المتكلم والسامع . المتكلم هو الذى بيده البداية ، والسامع يفاجأ بالكلام لأنه لا يعلم مقدما ماذا سيقول المتكلم . . وقد يكون ذهن السامع مشغولا بشىء آخر . . فلا يستوعب أول الكلمات . . ولذلك قد تنبهه بحروف أو بأصوات لا مهمة لها إلا التنبية للكلام الذى سيأتى بعدها .

وإذا كنا لانفهم هذه الحروف . فوسائل الفهم والاعجاز فى القرآن الكريم لاتنتهى ، لأن القرآن كلام الله . والكلام صفة من صفات المتكلم . . ولذلك لايستطيع فهم بشرى أن يصل الى منتهى معانى القرآن الكريم ، إنما يتقرب منها . لأن كلام الله صفة من صفاته . . وصفة فيها كمال بلا نهاية .

فإذا قلت إنك قد عرفت كل معنى للقرآن الكريم . . فإنك تكون قد حددت معنى كلام الله بعلمك . . ولذلك جاءت هذه الحروف إعجازا لك . حتى تعرف إنك لاتستطيع أن تحدد معانى القرآن بعلمك . .

ان عدم فهم الانسان لاشياء لايمنع انتفاعه بها . . فالريفى مثلا ينتفع بالكهرباء والتليفزيون وما يذاع بالقمر الصناعى وهو لايعرف عن أى منها شيئا . فلماذا لايكون الله تبارك وتعالى قد أعطانا هذه الحروف نأخذ فائدتها ونستفيد من اسرارها ويتنزل الله بها علينا بما أودع فيها من فضل سواء أفهم العبد المؤمن معنى هذه الحروف أو لم يفهمها .

وعطاء الله سبحانه وتعالى وحكمته فوق قدرة فهم البشر . . ولو أراد الانسان أن يحوم بفكره وخواطره حول معانى هذه الحروف لوجد فيها كل يوم شيئا جديدا.لقد خاض العلماء فى البحث كثيرا . . وكل عالم أخذ منها على قدر صفائه ، ولايدعى أحد العلماء أن ذلك هو الحق المراد من هذه الحروف . . بل كل منهم يقول والله أعلم بمراده . ولذلك نجد عالما يقول (ألر) و(حم) و(ن) وهى حروف من فواتح السور تكون اسم الرحمن . . نقول إن هذا لايمكن ان يمثل فهما عاما لحروف بداية بعض سور القرآن . . ولكن ما الذى يتعبكم أو يرهقكم فى محاولة ايجاد معان لهذه الحروف ؟! . .

لو أن الله سبحانه وتعالى الذى أنزل القرآن يريد أن يفهمنا معانيها . . لأوردها بمعنى مباشر أو أوضح لنا المعنى . فمثلا أحد العلماء يقول إن معنى (ألم) هو أنا الله اسمع وأرى . . نقول لهذا العالم لو أن الله أراد ذلك فما المانع من أن يورده بشكل مباشر لنفهمه جميعا . . لابد أن يكون هناك سر فى هذه الحروف . . وهذا السر هو من أسرار الله التى يريدنا أن ننتفع بقراءتها دون أن نفهمها . .

ولابد أن نعرف أنه كما أن للبصر حدوداً . وللأذن حدوداً وللمس والشم والتذوق حدوداً ، فكذلك عقل الانسان له حدود يتسع لها فى المعرفة . . وحدود فوق قدرات

العقل لايصل اليها .

والانسان حينما يقرأ القرآن والحروف الموجودة فى أوائل بعض السور يقول إن هذا امر خارج عن قدرة عقلى . . وليس ذلك حجراً أو سَدّاً لباب اجتهاد . . لأننا إن لم ندرك فإن علينا أن نعترف بحدود قدراتنا أمام قدرات خالقنا سبحانه وتعالى التى هى بلا حدود .

وفى الايمان هناك ما يمكن فهمه وما لايمكن فهمه . . فتحريم أكل لحم الخنزير أو شرب الخمر لاننتظر حتى نعرف حكمته لنمتنع عنه . ولكننا نمتنع عنه بإيمان أنه مادام الله قد حرمه فقد أصبح حراما .

ولذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : «ما عرفتم من محكمه فاعملوا به ، وما لم تدركوا فآمنوا به»[1] .

والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾ ﴾

(سورة ال عمران)

اذن فعدم فهمنا للمتشابه لايمنع أن نستفيد من سر وضعه الله فى كتابه . . ونحن نستفيد من أسرار الله فى كتابه فهمناها أم لم نفهمها .

---

(١) (الطبقات الكبرى لابن سعد) .

﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ﴾

فى الآية الثانية من سورة البقرة وصف الله سبحانه وتعالى القرآن الكريم بأنه الكتاب . وكلمة (قرآن) معناها أنه يُقرأ ، وكلمة (كتاب) معناها أنه لايحفظ فقط فى الصدور ، ولكن يُدوّن فى السطور ، ويبقى محفوظاً الى يوم القيامة ، والقول بأنه الكتاب ، تمييز له عن كل كتب الدنيا ، وتمييز له عن كل الكتب السماوية التى نزلت قبل ذلك ، فالقرآن هو الكتاب الجامع لكل احكام السماء ، منذ بداية الرسالات حتى يوم القيامة ، وهذا تأكيد لارتفاع شأن القرآن وتفرده وسماويته ودليل على وحدانية الخالق ، فمنذ فجر التاريخ ، نزلت على الأمم السابقة كتب تحمل منهج السماء ، ولكن كل كتاب وكل رسالة نزلت موقوتة ، فى زمانها ومكانها ، تؤدى مهمتها لفترة محددة وتجاه قوم مُحدَّدين .

فرسالة نوح عليه السلام كانت لقومه ، وكذلك ابراهيم ولوط وشعيب وصالح عليهم السلام . . كل هذه رسالات كان لها وقت محدود ، تمارس مهمتها فى الحياة ، حتى يأتى الكتاب وهو القرآن الكريم الجامع لمنهج الله سبحانه وتعالى . ولذلك بُشر فى الكتب السماوية التى نزلت قبل بعثة محمد عليه الصلاة والسلام بأن هناك رسولا سيأتى ، وأنه يحمل الرسالة الخاتمة للعالم ، وعلى كل الذين يصدقون بمنهج السماء أن يتبعوه . . وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ﴾

(من الآية ١٥٧ سورة الاعراف)

والقرآن هو الكتاب ، لأنه لن يصل اليه أى تحريف أو تبديل ، فرسالات السماء السابقة ائتمن الله البشر عليها ، فنسوا بعضها ، ومالم ينسوه حرفوه ، وأضافوا اليه

من كلام البشر ، مانسبوه الى الله سبحانه وتعالى ظلما وبهتانا ، ولكن القرآن الكريم محفوظ من الخالق الاعلى ، مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩ ﴾

(سورة الحجر)

ومعنى ذلك ألا يرتاب انسان فى هذا الكتاب ، لأن كل ما فيه من منهج الله محفوظ منذ لحظة نزوله الى قيام الساعة بقدرة الله سبحانه وتعالى .

يقول الحق جل جلاله : «لا ريب فيه هدى للمتقين» .

والإعجاز الموجود فى القرآن الكريم هو فى الأسلوب وفى حقائق القرآن وفى الآيات وفيما رُوِىَ لنا من قصص الأنبياء السابقين ، وفيما صحح من التوراة والانجيل ، وفيما أتى به من علم لم تكن تعلمه البشرية ولازالت حتى الآن لا تعلمه ، كل ذلك يجعل القرآن لاريب فيه ، لأنه لو اجتمعت الإنس والجن ما استطاعوا أن يأتوا بآية واحدة من آيات القرآن ، ولذلك كلما تأملنا فى القرآن وفى أسلوبه ، وجدنا أنه بحق لاريب فيه ، لأنه لا أحد يستطيع أن يأتى بآية ، فما بالك بقرآن .

فهذا الكتاب ارتفع فوق كل الكتب ، وفوق مدارك البشر ، يوضح آيات الكون ، وآيات المنهج ، وله فى كل عصر معجزات . إن كلمة الكتاب التى وصف الله سبحانه وتعالى بها القرآن تمييزا له عن كل الكتب السابقة ، تلفتنا الى معان كثيرة ، تحدد لنا بعض أساسيات المنهج التى جاء هذا الكتاب ليبلغنا بها . وأول هذه الأساسيات ، أن نزول هذا الكتاب ، يستوجب الحمد لله سبحانه وتعالى . واقرأ فى سورة الكهف :

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۝١ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۝٢ ﴾

(سورة الكهف)

ويلفت الله سبحانه وتعالى عبادة الى أن إنزاله القرآن على رسوله صلى الله عليه وسلم يستوجب الحمد من البشر جميعا ، لأن فيه منهج السماء ، وفيه الرحمة من الله لعباده ، وفيه البشارة بالجنة والطريق اليها ، وفيه التحذير من النار وما يقود اليها ، وهذا التحذير أو الإنذار هو رحمة من الله تعالى لخلقه . لأنه لو لم ينذرهم لفعلوا ما يستوجب العذاب ، ويجعلهم يخلدون فى عذاب اليم . ولكن الكتاب الذى جاء ليلفتهم الى ما يغضب الله ، حتى يتجنبوه ، إنما جاء برحمة تستوجب الحمد ، لأنها أرتنا جميعاً ، الطريق الى النجاة من النار ، ولو لم ينزل الله سبحانه وتعالى الكتاب ، ما عرف الناس المنهج الذى يقودهم الى الجنة ، وما استحق احد منهم رضا الله ونعيمه فى الآخرة .

وفى سورة الكهف ، نجد تأكيداً آخر . . ان كتاب الله ، وهو القرآن الكريم لن يستطيع بشر أن يبدل منه كلمة واحدة ، واقرأ قوله جل جلاله :

﴿ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ ﴾

(سورة الكهف)

ويبين الله سبحانه وتعالى لنا ان هذا الكتاب ، جاء لنفع الناس ، ولنفع العباد ، وأن الله ليس محتاجاً لخلقه ، فهو قادر على أن يقهر من يشاء على الطاعة ، ولايمكن لخلق من خلق الله أن يخرج فى كون الله عن مرادات الله ، واقرأ قوله سبحانه وتعالى :

﴿ طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾ ﴾

(سورة الشعراء)

ويأتى الله سبحانه وتعالى بالقسم الذى يلفتنا الى أن كل كلمة فى القرآن هى من

عند الله ، كما ابلغها جبريل عليه السلام لمحمد صلى الله عليه وسلم فى قوله سبحانه :

﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَـٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾

(سورة الواقعة)

ثم يلفتنا الحق سبحانه وتعالى الى ذلك الكتاب الذى هو منهج للانسان على الأرض ، فبعد أن بين لنا جل جلاله ، بمالايدع مجالا للشك أن الكتاب منزل من عنده ، وأنه يصحح الكتب السابقة كالتوراة ، والانجيل والتى أئتمن الله عليها البشر ، فحرفوها وبدلوها ، وهذا التحريف أبطل مهمة المنهج الإلهى بالنسبة لهذه الكتب ، فجاء الكتاب الذى لم يصل اليه تحريف ولاتبديل ، ليبقى منهجاً لله ، الى ان تقوم الساعة . أول ما جاء به هذا الكتب هو إيمان القمة ، بأنه لا إله إلا الله الواحد الأحد . . والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

وهكذا نعرف ان الكتاب نزل ليؤكد لنا ، ان الله واحد أحد ، لاشريك له ، وأن القرآن يشتمل على كل ما تضمنته الشرائع السماوية من توراة وانجيل ، وغيرها من الكتب .

فالقرآن نزل ليفرق بين الحق الذى جاءت به الكتب السابقة ،وبين الباطل الذى أضافه أولئك الذين ائتمنوا عليها .

ثم يحدد الحق تبارك وتعالى لنا مهمتنا فى أن هذا الكتاب مطلوب أن نبلغه للناس جميعاً ، واقرأ قوله سبحانه :

﴿ الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢ ﴾

(سورة الأعراف)

فالخطاب هنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكل خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى القرآن الكريم ، يتضمن خطابا لأمته جميعاً ، فالرسول صلى الله عليه وسلم كلف بأن يبلغ الكتاب للناس ، ونحن مكلفون بأن نتبع المنهج نفسه ونبلغ ما جاء فى القرآن للناس حتى يكون الحساب عدلا ، وأنهم قد بلغوا منهج الله ، ثم كفروا به أو تركوه ، اذن فإبلاغ الكتاب من المهمات الأساسية التى حددها الله سبحانه وتعالى بالنسبة للقرآن .

والكتاب فيه رد على حجج الكفار وأباطيلهم.واقرأ قول الله تبارك وتعالى :

﴿ الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ۝١ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ أَنۡ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ عِندَ رَبِّهِمۡۗ قَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٞ مُّبِينٌ ۝٢ ﴾

(سورة يونس)

وفى هذه الآيات الكريمة : يلفتنا الله سبحانه وتعالى إلى حقيقتين . . الحقيقة الأولى هى أن الكفار يتخذون من بشرية الرسول حُجة بأن هذا الكتاب ليس من عند الله . وكان الرد هو : أن كل الرسل السابقين كانوا بشراً ، فما هو العجب فى أن يكون محمد صلى الله عليه وسلم رسولاً بشراً . واللفتة الثانية هى ان هذا القرآن مكتوب بالحروف نفسها التى خلقها الله لنا لنكتب بها ، ومع ذلك فإن القرآن الكريم نزل مستخدماً لهذه الحروف التى يعرفها الناس جميعاً ، معجزاً فى ألا يستطيع

الانس والجن ، مجتمعين أن يأتوا بسورة واحدة منه . ثم يلفتنا الحق سبحانه وتعالى لفتة اخرى الى أن هذا الكتاب محكم الآيات ، ثم بينه الله لعباده ، واقرأ قوله جل جلاله فى سورة هود :

﴿ الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ ۝٢ ﴾

(سورة هود)

هذه هى بعض الآيات فى القرآن الكريم ، التى أراد الله سبحانه وتعالى أن يلفتنا فيها الى معنى الكتاب ، فآياته من عند الله الحكيم الخبير ، وكل آية فيها اعجاز مُتحدًى به الإنس والجن ، وهذا الكتاب لابد أن يبلغ للناس جميعاً ، فالكتاب ينذرهم ألا يعبدوا إلا الله ، ليكون الحساب عدلا فى الآخرة ، فمن أنذر وأطاع كان له الجنة ، ومن عصى كانت له النار والعياذ بالله .

ثم يلفتنا الله الى ان هذا الكتاب فيه قصص الأنبياء السابقين منذ آدم عليه السلام ، يقول جل جلاله :

﴿ الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٢ نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ۝٣ ﴾

(سورة يوسف)

وهكذا نجد أن القرآن الكريم ، قد جاء ليقص علينا أحسن القصص بالنسبة للأنبياء السابقين ، والأحداث التى وقعت فى الماضى ، ولم يأت القرآن بهذه القصص للتسلية أو للترفيه ، وانما جاء بها للموعظة ولتكون عبرة ايمانية ، ذلك أن القصص القرآنى يتكرر فى كل زمان ومكان . ففرعون هو كل حاكم طغى فى الأرض ، ونصب نفسه إلها ، وقارون هو كل من أنعم الله عليه فنسب النعمة الى نفسه ، وتكبر وعصى

الله ، وقصة يوسف هى قصة كل اخوة حقدوا على أخ لهم ، وتآمروا عليه ، وأهل الكهف هم كل فتية آمنوا بربهم ، فنشر الله لهم من رحمته فى الدنيا والآخرة ، ماعدا قصة واحدة هى قصة مريم وعيسى عليهما السلام ، فهى معجزة لن تتكرر ولذلك عرف الله سبحانه وتعالى ابطالها ، فقال عيسى بن مريم وقال مريم ابنة عمران .

والكتاب الذى أنزله الله سبحانه وتعالى فيه لفتة الى آيات الله فى كونه . واقرأ قوله تعالى :

﴿ الٓمٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَاۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّىۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ ﴾

(سورة الرعد)

وهكذا بين لنا الله فى الكتاب آياته فى الكون ولفتنا اليها ، فالسماء مرفوعة بغير عمد نراها ، والشمس والقمر مسخران لخدمة الانسان ، وهذه كلها آيات لايستطيع أحد من خلق الله أن يدعيها لنفسه أو لغيره ، فلا يوجد حتى يوم القيامة من يستطيع ان يدعى انه رفع السماء بغير عمد ، أو أنه خلق الشمس والقمر وسخرهما لخدمة الانسان . ولو تدبر الناس فى آيات الكون لآمنوا ولكنهم فى غفلة عن هذه الآيات . ثم يحدد الحق سبحانه وتعالى مهمة هذا الكتاب وكيف أنه رحمة للناس جميعاً ، فيقول جل جلاله :

﴿ الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ ﴾

(سورة ابراهيم)

. أى أن مهمة هذا الكتاب هى أن يخرج الناس من ظلمات الجهل والكفر والشرك الى نور الايمان ، لأن كل كافر مشرك تحيط به ظلمات ، يرى الآيات فلا يبصرها ، ويعرف أن هناك حساباً وآخرة ولكنه ينكرهما ، ولايرى إلا الحياة الدنيا القصيرة غير المأمونة فى كل شىء ، فى العمر والرزق والمتعة ، ولو تطلع الى نور الايمان ، لرأى الآخرة وما فيها من نعيم أبدى ولَعَمِلَ من أجلها ، ولكن لأنه تحيط به الظلمات لايرى . . والطريقُ لأن يرى هو هذا الكتاب ، القرآن الكريم لأنه يخرج الناس إذا قرأوه من ظلمات الجهل والكفر الى نور الحقيقة واليقين . وبين الحق سبحانه وتعالى أن الذين يلتفتون الى الدنيا وحدها ، هم كالأنعام التى تأكل وتشرب ، بل ان الانعام افضل منهم ، لأن الانعام تقوم بمهمتها فى الحياة ، بينما هم لايقومون بمهمة العبادة ، فيقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ۝ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ۝ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝ ﴾

(سورة الحجر)

هكذا يخبرنا الحق أن آيات كتابه الكريم ومنهجه لا تؤخذ بالتمنى ، ولكن لابد أن يعمل بها ، وأن الذين كفروا فى تمتعهم بالحياة الدنيا لايرتفعون فوق مرتبة الأنعام ، وأنهم يتعلقون بأمل كاذب فى أن النعيم فى الدنيا فقط ، ولكن الحقيقة غير ذلك وسوف يعلمون .

وهكذا بعد أن تعرضنا بإيجاز لبعض الآيات التى ورد فيها ذكر الكتاب انه كتاب يبصرنا بقضية القمة فى العقيدة وهى أنه لا إله إلا الله وأن محمداً صلى الله عليه وسلم رسول الله ، وهو بهذا يخرج الناس من الظلمات الى النور .

وأن يلفتهم الى آيات الكون . . وأن يعرفوا أن هناك آخرة ونعيماً أبدياً وشقاء أبدياً ، وأن يقيم الدليل والحجة على الكافرين ، وأن قوله تعالى : «ذلك الكتاب» يحمل معنى التفوق الكامل الشامل على كل ما سبقه من كتب . وأنه سيظل كذلك حتى قيام الساعة ولذلك وصفه الحق تبارك وتعالى بأنه «كتاب» ليكون دليلا على الكمال .

ولابد أن نعرف أن ذلك ليست كلمة واحدة . . وانما هى ثلاث كلمات . . «ذا» اسم اشارة . . «واللام» تدل على الابتعاد ورفعة شأن القرآن الكريم ، و«ك» لمخاطبة الناس جميعا بأن القرآن الكريم له عمومية الرسالة الى يوم القيامة .

ونحن عندما نقرأ سورة البقرة نستطيع أن نقرأ آيتها الثانية بطريقتين . . الطريقة الأولى أن نقول «ألم ذلك الكتاب لاريب فيه» ثم نصمت قليلا ونضيف : «هدى للمتقين» والطريقة الثانية أن نقول : «ألم ذلك الكتاب لاريب» ثم نصمت قليلا ونضيف : فيه هدى للمتقين» وكلتا الطريقتين توضح لنا معنى لاريب أى لاشك . . أو نفى للشك وجزم مطلق أنه كتاب حكيم منزل من الخالق الأعلى . وحتى نفهم المنطلق الذى نأخذ منه قضايا الدين ، والتى سيكون دستورنا فى الحياة ، فلابد ان نعرف ما هو الهدى ومن هم المتقون ؟ الهدى هو الدلالة على طريق يوصلك الى ما تطلبه . فالاشارات التى تدل المسافر على الطريق هى هدى له لانها تبين له الطريق الذى يوصله الى المكان الذى يقصده . . والهدى يتطلب هاديا ومهديا وغاية تريد أن تحققه . فاذا لم يكن هناك غاية أو هدف فلا معنى لوجود الهدى لأنك لاتريد أن تصل الى شىء . . وبالتالى لاتريد من أحد أن يدلك على طريق .

إذن لابد أن نوجد الغاية أولا ثم نبحث عمن يوصلنا اليها .

وهنا نتساءل من الذى يحدد الهدف ويحدد لك الطريق للوصول اليه ؟ اذا اخذنا بواقع حياة الناس فإن الذى يحدد لك الهدف لابد أن تكون واثقا من حكمته . . والذى يحدد لك الطريق لابد أن يكون له من العلم مايستطيع به أن يدلك على أقصر الطرق لتصل الى ماتريد .

فاذا نظرنا الى الناس فى الدنيا نجد أنهم يحددون مطلوبات حياتهم ويحددون الطريق الذى يحقق هذه المطلوبات . . فالذى يريد أن يبنى بيتا مثلا يأتى بمهندس يضع له الرسم ، ولكن الرسم قد يكون قاصرا على أن يحقق الغاية المطلوبة فيظل يغير ويبدل فيه . ثم يأتى مهندس على مستوى أعلى فيضع تصوراً جديداً للمسألة كلها . . وهكذا يكون الهدف متغيرا وليس ثابتا .

وعند التنفيذ قد لاتوجد المواد المطلوبة فنغير ونبدل لنأتى بغيرها ثم فوق ذلك كله قد تأتى قوة أعلى فتوقف التنفيذ أو تمنعه . إذن فأهداف الناس متغيرة تحكمها ظروف

حياتهم وقدراتهم . . والغايات التى يطلبونها لاتتحقق لقصور علم البشر وامكاناته .
اذن فكلنا محتاجون الى كامل العلم والحكمة ليرسم لنا طرق حياتنا . . وأن يكون قادرا على كل شيء ، ومالكا لكل شيء ، والكون خاضعا لارادته حتى نعرف يقينا أن ما نريده سيتحقق ، وأن الطريق الذى سنسلكه سيوصلنا الى ما نريده . وينبهنا الله سبحانه وتعالى الى هذه القضية فيقول :

﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ﴾

(من الآية ١٢٠ سورة البقرة)

ان الله يريد أن يلفت خلقه الى انهم إذا أرادوا أن يصلوا الى الهدف الثابت الذى لا يتغير فليأخذوه عن الله . وإذا أرادوا أن يتبعوا الطريق الذى لاتوجد فيه أى عقبات أو متغيرات . . فليأخذوا طريقهم عن الله تبارك وتعالى . . إنك اذا اردت باقيا . . فخذ من الباقى ، واذا أردت ثابتا . . فخذ من الثابت . ولذلك كانت قوانين البشر فى تحديد أهدافهم فى الحياة وطريقة الوصول اليها قاصرة . . علمت أشياء وغابت عنها أشياء . . ومن هنا فهى تتغير وتتبدل كل فترة من الزمان .

ذلك أن من وضع القوانين من البشر له هدف يريد أن يحققه ، ولكن الله جل جلاله لا هوى له . . فإذا أردت أن تحقق سعادة فى حياتك ، وأن تعيش آمنا مطمئنا . . فخذ الهدف عن الله ، وخذ الطريق عن الله . فإن ذلك ينجيك من قلق متغيرات الحياة التى تتغير وتتبدل . والله قد حدد لخلقه ولكل ما فى كونه أقصر طريق لبلوغ الكون سعادته . والذين لا يأخذون هذا الطريق يتعبون أنفسهم ويتعبون مجتمعهم ولا يحققون شيئا .

اذن فالهدف يحققه الله لك ، والطريق يبينه الله لك . . وما عليك إلا أن تجعل مراداتك فى الحياة خاضعة لما يريده الله .

ويقول الله سبحانه وتعالى : «هدى للمتقين» . . مامعنى المتقين ؟ متقين جمع متق . والاتقاء من الوقاية . . والوقاية هى الاحتراس والبعد عن الشر . . لذلك

يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ﴾

(من الآية ٦ سورة التحريم)

أى اعملوا بينكم وبين النار وقاية . احترسوا من أن تقعوا فيها . . ومن عجيب أمر هذه التقوى أنك تجد الحق سبحانه وتعالى يقول فى القرآن الكريم ـ والقرآن كله كلام الله ـ «إتقوا الله» ويقول : «اتقوا النار» . كيف نأخذ سلوكا واحدا تجاه الحق سبحانه وتعالى وتجاه النار التى سيعذب فيها الكافرون ؟!

الله تعالى يقول : «اتقوا النار» . أى لاتفعلوا مايغضب الله حتى لا تعذبوا فى النار . . فكأنك قد جعلت بينك وبين النار وقاية بأن تركت المعاصى وفعلت الخير .

وقوله تعالى : «اتقوا الله» كيف نتقيه بينما نحن نطلب من الله كل النعم وكل الخير دائما. كيف يمكن أن يتم هذا ؟ ،وكيف نتقى من نحب ؟ .

نقول ان لله سبحانه وتعالى صفات جلال وصفات جمال . . صفات الجلال تجدها فى القهار والجبار والمذل . . والمنتقم . والضار . كل هذا من متعلقات صفات الجلال . . بل إن النار من متعلقات صفات الجلال .

أما صفات الجمال فهى الغفار والرحيم وكل الصفات التى تتنزل بها رحمات الله وعطاءاته على خلقه . فاذا كنت تقى نفسك من النار ـ وهى من متعلقات صفات الجلال ـ لابد أن تقى نفسك من صفات الجلال كلها . لأنه قد يكون من متعلقاتها ما هو أشد عذابا وايلاما من النار . . فكأن الحق سبحانه وتعالى حين يقول : «اتقوا النار» . و: **«اتقوا الله» يعنى أن نتقى غضب الله** الذى يؤدى بنا الى أن نتقى كل صفات جلاله . . ونجعل بيننا وبينها وقاية . فمن اتقى صفات جلال الله أخذ صفات جماله . . ولذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(اذا كانت آخر ليلة من رمضان تجلى الجبار بالمغفرة)[١]

وكان المنطق يقتضى أن يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم (تجلى الرحمن بالمغفرة) ولكن مادامت هناك ذنوب ، فالمقام لصفة الجبار الذى يعذب خلقه بذنوبهم . فكأن صفة الغفار تشفع عند صفة الجبار . . وصفة الجبار مقامها للعاصين ، فتأتى صفة الغفار لتشفع عندها ، فيغفر الله للعاصين ذنوبهم ، وجمال المقابلة هنا حينما يتجلى الجبار بجبروته بالمغفرة فساعة تأتى كلمة جبار . . يشعر الانسان بالفزع والخوف والرعب . لكن عندما تسمع (تجلى الجبار بالمغفرة) فإن السعادة تدخل الى قلبك . لأنك تعرف أن صاحب العقوبة وهو قادر عليها قد غفر لك . والنار ليست آمرة ولا فاعلة بذاتها ولكنها مأمورة . اذن فاستعذ منها بالآمر أو بصفات الجمال فى الآمر .

يقول الحق سبحانه وتعالى «هدى للمتقين» ولقد قلنا ان الهدى هدى الله . . لأنه هو الذى حدد الغاية من الخلق ودلنا على الطريق الموصل اليها . فكون الله هو الذى حدد المطلوب ودلنا على الطريق اليه فهذه قمة النعمة . . لانه لم يترك لنا أن نحدد غايتنا ولا الطريق اليها . فرحمنا بذلك مما سنتعرض له من شقاء فى أن نخطىء ونصيب بسبب علمنا القاصر ، فنشقى وندخل فى تجارب ، ونمشى فى طرق ثم نكتشف أننا قد ضللنا الطريق فنتجه الى طريق آخر فيكون اضل وأشقى .

وهكذا نتخبط دون أن نصل الى شىء . . وأراد سبحانه أن يجنبنا هذا كله فأنزل القرآن الكريم . . كتابا فيه هداية للناس وفيه دلالة على أقصر الطرق لكى نتقى عذاب الله وغضبه .

والله سبحانه وتعالى قال : «هدى للمتقين» أى أن هذا القرآن هدى للجميع . . فالذى يريد أن يتقى عذاب الله وغضبه يجد فيه الطريق الذى يحدد له هذه الغاية . . فالهدى من الحق تبارك وتعالى للناس جميعا . ثم خص من آمن به بهدى آخر ، وهو أن يعينه على الطاعة .

---

(١)كنز العمال ، وفى حديث آخر : (. . اذا كان آخر ليلة غفر الله لهم جميعا . فقال رجل من القوم : أهى ليلة القدر؟ فقال : لا . . ألم تر إلى العمال يعملون فإذا فرغوا من أعمالهم وُفُّوا أجورهم) رواه البيهقى .

اذن فهناك هدى من الله لكل خلقه وهو أن يدلهم سبحانه وتعالى ويبين لهم الطريق المستقيم . هذا هو هدى الدلالة ، وهو أن يدل الله خلقه جميعا على الطريق الى طاعته وجنته . واقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾

(من الآية ١٧ سورة فصلت)

اذن الحق سبحانه وتعالى دلهم على طريق الهداية . . ولكنهم أحبوا طريق الغواية والمعصية واتبعوه . . هذه هداية الدلالة . . أما هداية المعونة ففى قوله سبحانه :

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة محمد)

وهذه هى دلالة المعونة . . وهى لا تحق إلا لمن آمن بالله واتبع منهجه وأقبل على هداية الدلالة وعمل بها . . والله سبحانه وتعالى لايعين من يرفض هداية الدلالة ، بل يتركه يضل ويشقى . . ونحن حين نقرأ القرآن الكريم نجد أن **الله تبارك** وتعالى : يقول لنبيه ورسوله صلى الله عليه وسلم :

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾

(من الآية ٥٦ سورة القصص)

وهكذا نفى الله سبحانه وتعالى عن رسوله صلى الله عليه وسلم أن يكون هاديا لمن أحب . . ولكن الحق يقول لرسوله صلى الله عليه وسلم :

﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾

(من الآية ٥٢ سورة الشورى)

فكيف يأتى هذا الاختلاف مع أن القائل هو الله .

نقول : عندما تسمع هذه الايات اعلم أن الجهة منفكة . . يعنى ما نفى غير ما أثبت . . ففى غزوة بدر مثلا أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم حفنة من الحصى قذفها فى وجه جيش قريش . يأتى القرآن الكريم الى هذه الواقعة فيقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾

(من الآية ١٧ سورة الأنفال)

نفى للحدث وإثباته فى الآية نفسها . كيف رمى رسول الله صلى الله عليه وسلم . . مع أن الله تبارك وتعالى قال : «ومارميت» ؟! نقول إنه فى هذه الآية الجهة منفكة . الذى رمى هو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن الذى أوصل الحصى الى كل جيش قريش لتصيب كل مقاتل فيهم هى قدرة الله سبحانه وتعالى . فما كان لرمية رسول الله صلى الله عليه وسلم حفنة من الحصى يمكن أن تصل الى كل جيش الكفار ، ولكن قدرة الله هى التى جعلت هذا الحصى يصيب كل جندى فى الجيش .

أما قول الحق سبحانه وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم : «وإنك لتهدى الى صراط مستقيم» .

فهى هداية دلالة . أى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بتبليغه للقرآن وبيانه لمنهج الله قد دل الناس كل الناس على الطريق المستقيم وبينه لهم . وقوله تبارك وتعالى : «إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء» . . أى إنك لا توصل الهداية الى القلوب لأن الله سبحانه وتعالى هو الذى يهدى القلوب ويزيدها هدى وإيمانا . ولذلك أطلقها الله تبارك وتعالى قضية ايمانية عامة فى قوله : «قل ان الهدى هدى الله» فالقرآن الكريم يحمل هداية الدلالة للذين يريدون أن يجعلوا بينهم وبين غضب الله وعذابه وقاية .

﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ ﴾

بعد أن بيَّن الله سبحانه وتعالى لنا أن هذا الكتاب ـ وهو القرآن الكريم ـ « هدى للمتقين » . . أى أنَّ فيه المنهج والطريق لكل من يريد أن يجعل بينه وبين غضب الله وقاية . . أراد أن يعرفنا صفات هؤلاء المتقين ومن هم . . وأول صفة هى قوله تعالى : « الذين يؤمنون بالغيب » . .

ما هو الغيب الذى جعله الله أول مرتبة فى الهدى . . وفى الوقاية من النار ومن غضب الله ؟ . .

الغيب هو كل ما غاب عن مدركات الحس . فالأشياء المحسة التى نراها ونلمسها لا يختلف فيها أحد . . ولذلك يقال ليس مع العين أين . . لأن ما تراه لا تريد عليه دليلا . . ولكن الغيب لا تدركه الحواس . . إنما يدرك بغيرها . .

ومن الدلالة على دقة التعريف أنهم قالوا أن هناك خمس حواس ظاهرة هى : السمع والبصر والشم والذوق واللمس . . ولكن هناك أشياء تدرك بغير هذه الحواس . .

لنفرض أن أمامنا حقيبتين . . الشكل نفسه والحجم نفسه . هل تستطيع بحواسك الظاهرة أن تدرك أيهما أثقل من الأخرى ؟ . هل تستطيع الحواس الخمس أن تقول لك أى الحقيبتين أثقل ؟ . . لا . . لابد أن تحمل واحدة منهما ثم تحمل الأخرى لتعرف أيهما أثقل . .

بأى شىء أدركت هذا الثقل ؟ . . بحاسة العضل . . لأن عضلاتك أُجهدت عندما حملت احدى الحقيبتين ، ولم تجهد عندما حملت الثانية . . فعرفت بالدقة أيهما أثقل ، لاتقل باللمس ؛ لأنك لو لمست احداهما ثم لمست الأخرى لاتعرف أيهما

أثقل . . إذن فهناك حاسة العضل التى تقيس بها ثقل الأشياء . .

ولنفرض أنك دخلت محلا لبيع القماش ، وأمامك نوعان من قماش واحد . . ولكن أحدهما أرق من الآخر . . بمجرد أن تضع القماشين بين أناملك تدرك أن أحدهما رقيق والآخر أكثر سمكا . . بأى حاسة أدركت هذا ؟ ليس بحاسة اللمس ولكن بحاسة البينة وحكمها لا يخطىء . .

وعندما تشعر بالجوع . . بأى حاسة أدركت أنك جوعان ؟ . . ليس بالحواس الظاهرة . . وكذلك عندما تظمأ . . ما هى الحاسة التى أدركت بها أنك محتاج الى الماء . . وعندما تكون نائما . . أى حاسة تلك التى توقظك من النوم . . لا أحد يعرف . .

اذن هناك ملكات فى النفس وهى الحواس الظاهرة . . وهناك ادراكات فى النفس . . وهى حواس لا يعلمها إلا خالقها . . لذلك عندما يأتى العلماء ليضعوا تعريفا للنفس البشرية نقول لهم : ماذا تعرفون عن هذه النفس ؟! . . انكم لا تعلمون إلا ظاهرا من الحياة الدنيا . . ولكن هناك أشياء داخل النفس لا تعرفونها . . هناك ادراكات لا يعلم عنها الانسان شيئا ، وهى ادراكات كثيرة ومتعددة . . لذلك يخطىء من يقول إن ما لا يدرك بالحواس البشرية الظاهرة هو غيب . . لأن هناك ملكات وادراكات متعددة تعمل بغير علم منا .

لو أعطى لطالب تمرين هندسى فحله وأتى بالجواب . . هل نقول أنه عَلِمَ غيبا ؟ . . لأن حل التمرين كان غيبا عنه ثم وصل اليه . . لا . . لأن هناك مقدمات وقوانين أوصلته الى هذا الحل . . والغيب بلا مقدمات ولا قوانين تؤدى اليه ، وهل عندما تعلن الأرصاد الجوية أن غدا يوم مطير شديد الرياح . . أتكون قد عَلِمَت غيبا ؟ . . لا . . لأنها أخذت المقدمات ووصلت بها الى نتائج وهذا ليس غيباً . .

واذا جاء أحد من الدجالين وقال لك ان ما سرق منك عند فلان . . أيكون قد علم الغيب ؟ . . لا . . لأنه يشترط فى الغيب ألا يكون معلوما لمثلك . . وما سرق منك معلوم لمثلك . . فالسارق والذى بيعت له المسروقات يعرفان من الذى سرق ، وما الذى حدث . . والشرطة تستطيع بالمقدمات والبصمات والبحث أن تصل الى السارق ومن اشترى المسروقات . . وإذا جاءك دجال من الذين يسخرون الجن . .

والمعروف أن الجن مستورعنا يمتاز بخفة الحركة وسرعتها . . والله سبحانه وتعالى يقول عن الشيطان :

﴿ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾

(من الآية ٢٧ سورة الأعراف)

فقد يكون هذا المستعان به من الجن قد رأى شيئا . . أو انتقل من مكان إلى آخر . . فيعرف شيئا لا تعرفه أنت . . هذا لا يكون غيباً لأنك جهلته ، ولكن غيرك يعلمه بقوانينه التى خلقها الله له . . والعلماء الذين يكتشفون أسرار الكون . . أيقال إنهم أطلعوا على الغيب ؟ . . لا . . لأن هؤلاء العلماء اكتشفوا موجوداً له مقدمات فوصلوا الى هذه النتائج فهو ليس غيبا .

ولكن ما هو الغيب ؟ . .

هو الشيء الذى ليس له مقدمات ولا يمكن أن يصل اليه علم خَلْقٍ من خلق الله حتى الملائكة . . واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى حينما عَلَّمَ آدمَ الاسماء كلها وعرضهم على الملائكة قال جل جلاله :

﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

(سورة البقرة)

والجن أيضا لا يعلم الغيب . . ولذلك عندما مات سليمان عليه السلام . . وكان الله سبحانه وتعالى قد سَخَّرَ له الجن لم تعلم الجن بموته إلا عندما أكلت دابة الأرض

عصاه .. واقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾ ﴾

(سورة سبأ)

إذن فالغيب هو ما لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى .. واقرأ قول الحق جل جلاله :

﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ ﴾

(سورة الجن)

وهكذا فإن الرسل لا يعلمون الغيب .. ولكن الله سبحانه وتعالى يعلمهم بما يشاء من الغيب ويكون هذا معجزة لهم ولمن اتبعوهم .

وقمة الغيب هى الايمان بالله سبحانه وتعالى .. والايمان بملائكته وكتبه ورسله والايمان باليوم الآخر .. كل هذه أمور غيبية ، وحينما يخبرنا الله تبارك وتعالى عن ملائكته ونحن لا نراهم .. نقول مادام الله قد أخبرنا بهم فنحن نؤمن بوجودهم .. وإذا أخبرنا الحق سبحانه وتعالى عن اليوم الآخر .. فمادام الله قد أخبرنا فنحن نؤمن باليوم الآخر .. لأن الذى أخبرنا به هو الله جل جلاله .. آمنت به أنه اله .. واستخدمت فى هذا الايمان الدليل العقلى الذى جعلنى أؤمن بأن لهذا الكون إلهاً وخالقاً .. وما يأتينى عن الله حيثية الايمان به أن الله سبحانه وتعالى هو القائل .

ولابد أن نعرف أن وجود الشيء مختلف تماما عن ادراك هذا الشيء .. فأنت لك روح فى جسدك تهبك الحياة .. أرأيتها ؟.. أسمعتها ؟.. أذقتها ؟.. أشممتها ؟.. ألمستها ؟.. الجواب طبعا لا .. فبأى وسيلة من وسائل الادراك تدرك أن لك روحا فى جسدك ؟ بأثرها فى إحياء الجسد ..

إذن فقد عرفت الروح بأثرها ، والروح مخلوق لله . . فكيف تريد وأنت عاجز أن تدرك مخلوقا فى جسدك وذاتك وهو الروح بآثارها . . ان تدرك الله سبحانه وتعالى بحواسك .

ونحن اذا آمنا بالقمة الغيبية وهو الله جل جلاله . . فلابد أن نؤمن بكل ما يخبرنا عنه وان لم نَرَه . . ولقد أراد الله تبارك وتعالى رحمة بعقولنا أن يقرب لنا قضية الغيب فأعطانا من الكون المادى أدلة على أن وجود الشىء ، وادراك هذا الوجود شيآن منفصلان تماما . .

فالجراثيم مثلا موجودة فى الكون تؤدى مهمتها منذ بداية الخلق . . وكان الناس يشاهدون آثار الأمراض فى أجسادهم من ارتفاع فى الحرارة وحمى وغير ذلك وهم لا يعرفون السبب . . فلما ارتقى العلم وأذن الله لخلقه أن يروا هذا الوجود للجراثيم . . جعل الله العقول قادرة على أن تكتشف المجهر . . الذى يعطينا الصورة مكبرة . . لأن العين قدرتها البصرية أقل من أن تدرك هذه المخلوقات الدقيقة . . فلما اكتشف العلم المجهر . . استطعنا أن نرى هذا الجراثيم . . ونعرف أن لها دورة حياة وتكاثر إلى غير مايكشفه الله لنا من علم كلما تقدم الزمن . .

إن عدم قدرتنا على رؤية أى شىء لا يعنى أنه غير موجود . . ولكن آلة الإدراك - وهى البصر - عاجزة عن أن تراه ، لأنه غاية فى الصغر . . فاذا جئت بالمجهر كبر لك هذا الميكروب ليدخل فى نطاق وسيلة رؤيتك وهى العين . . ورؤيتنا للجراثيم والميكروبات ليست دليلا على أنها خلقت ساعة رأيناها . . بل هى موجودة تؤدى مهمتها . . سواء رأيناها أو لم نرها .

فلو حدثنا أحد عن الميكروبات والجراثيم قبل أن نراها رؤية العين . . هل كنا نصدق ؟ . . والله سبحانه وتعالى ترك بعض خلقه غير مدرك فى زمنه لبعض حقائق الكون ليرتقى الانسان ويدرك بعد ذلك . . وكان المفروض أنه يزداد ايمانا . . عندما يدرك وليعرف الخلق بالدليل المادى أن ما هو غيب عنهم موجود وان كنا لا نراه . .

والله تبارك وتعالى قد أعطانا من آياته فى الكون **مايجعلنا** ندرك أن لهذا الكون خالقا . . فالشمس والقمر والنجوم والأرض والانسان والحيوان والجماد لا يستطيع أحد أن يدعى انه خلقهم . . ولا أحد يمكن أن يدعى أنه خلق نفسه أو غيره . .

ولا يمكن لهذا الكون بهذا النظام الدقيق أن يوجد مصادفة ؛ لأن المصادفات أحداث غير مرتبة أو غير منظمة . . ولو وجد هذا الكون مصادفة لتصادمت الشمس والقمر والنجوم والأرض ولاختل الليل والنهار . .

ولكن كل ما فى الكون من آيات يؤكد لنا أن هناك قوة هائلة هى التى خلقت ونظمت وأبدعت . . فإذا جاءنا رسول يبلغنا أن الله سبحانه وتعالى هو الذى خلق هذا الكون فلابد أن نصدقه .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : « ويقيمون الصلاة » . . والصلاة هى إدامة ولاء العبودية للحق تبارك وتعالى وهى لا تسقط عن الانسان أبدا . . فالانسان يصلى وهو واقف ، فإن لم يستطع يصلى وهو جالس . فإن لم يستطع ، فيصلى وهو راقد . . ولا تسقط الصلاة عن الانسان من ساعة التكليف إلى ساعة الوفاة كل يوم خمس مرات . .

ويقول الحق تبارك وتعالى : « ومما رزقناهم ينفقون » . . وحين نتكلم عن الرزق يظن كثير من الناس أن الرزق هو المال . . نقول له لا . . الرزق هو ما ينتفع به . فالقوة رزق ، والعلم رزق ، والحكمة رزق ، والتواضع رزق . . وكل ما فيه حركة للحياة رزق . . فإن لم يكن عندك مال لتنفق منه فعندك عافية تعمل بها لتحصل على المال . . وتتصدق بها على العاجز المريض . . وان كان عندك حلم . . فإنك تنفقه بأن تقى الأحمق من تصرفات قد تؤذى المجتمع وتؤذيك . . وان كان عندك علم انفقه لتعلم الجاهل . . وهكذا نرى : « ومما رزقناهم ينفقون » تستوعب جميع حركة الحياة .

﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ ﴾

الحق سبحانه وتعالى فى هذه الآية الكريمة يعطينا صفات أخرى من صفات المؤمنين .. فبعد أن ابلغنا أن من صفات المؤمنين الايمان بالغيب واقامة الصلاة والانفاق مما رزقهم الله .. يأتى بعد ذلك الى صفات أخرى ..

فهؤلاء المؤمنون هم : (الذين يؤمنون بما انزل اليك) أى بالقرآن الكريم الذىُ انزله الله سبحانه وتعالى .. و« بما أنزل من قبلك » وهذه لم تأت فى وصف المؤمنين إلا فى القرآن الكريم .. ذلك أن الاسلام عندما جاء كان عليه أن يواجه صنفين من الناس .. الصنف الأول هم الكفار وهم لا يؤمنون بالله ولا برسول مبلغ عن الله .. وكان هناك صنف آخر من الناس .. هم أهل الكتاب يؤمنون بالله ويؤمنون برسل عن الله وكتب عن الله ..

والاسلام واجه الصنفين .. لأن أهل الكتاب ربما ظنوا أنهم على صلة بالله .. يؤمنون به ويتلقون منه كتبا ويتبعون رسلا وهذا فى نظرهم كاف .. نقول لا .. فالاسلام جاء ليؤمن به الكافر ، ويؤمن به أهل الكتاب ، ويكون الدين كله لله ..

والله سبحانه وتعالى فى كتبه التى أنزلها أخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن اسمه وأوصافه .. وطلب من أهل الكتاب الذين سيدركون رسالته صلى الله عليه وسلم أن يؤمنوا به ..

ولقد أعطى الله جل جلاله أوصاف رسول الله صلى الله عليه وسلم لأهل الكتاب حتى إنهم كانوا يعرفونه كما يعرفون أبناءهم .. بل كانت معرفتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم وزمنه وأوصافه معرفة يقينية .. وكان يهود المدينة يقولون للكفار .. أَطَلَّ زمن رسول سنؤمن به ونقتلكم قتل عاد وإرم .. فلما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا أول من حاربه وأنكر نبوته .. فأوصاف رسول الله عليه الصلاة

والسلام موجودة فى التوراة والانجيل . . ولذلك كان أهل الكتاب ينذرون الكفار بأنهم سيؤمنون بالرسول الجديد ويسودون به العرب . . واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَـٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾

(سورة البقرة)

أى أن رسالة محمد صلى الله عليه وسلم لم تكن مفاجئة لأهل الكتاب بل كانوا ينتظرونها . . كانوا يؤكدون أنهم سيؤمنون بها كما تأمرهم به كتبهم . . ولكنهم رفضوا الايمان وانكروا الرسالة عندما جاء زمنها . .

ثم يقول سبحانه وتعالى : « وبالآخرة هم يوقنون » ونلاحظ هنا أن كلمة (وبالآخرة) قد جاءت . . لأنك اذا تصفحت التوراة التى هى كتاب اليهود ، أو قرأت التلمود لا تجد شيئا عن اليوم الآخر . . فقد أخذوا الأمر المادى فقط من كتبهم . . والله تبارك وتعالى أكد الايمان باليوم الآخر حتى عرف الذين يقولون آمنا بالله وكتبه ورسله ولا يلتفتون الى اليوم الآخر أنهم ليسوا بمؤمنين . . فلو لم يجىء هذا الوصف فى القرآن الكريم ربما قالوا إن الاسلام موافق لما عندنا . . ولكن الله جل جلاله يريد تصوير الايمان تصويرا كماليا بأن الايمان بالله قمة ابتداء والايمان باليوم الآخر قمة انتهاء . . فمن لم يؤمن بالآخرة وأنه سيلقى الله وسيحاسبه . . وأن هناك جنة ينعم فيها المؤمن ، ونارا يعذب فيها الكافر يكون ايمانه ناقصا . . ويكون قد اقترب من الكافر الذى جعل الدنيا غايته وهدفه . .

فالمؤمن يتبع منهج الله فى الدنيا ليستحق نعيم الله فى الآخرة . . فلو أن الآخرة لم تكن موجودة ، لكان الكافر أكثر حظا من المؤمن فى الحياة . . لأنه أخذ من الدنيا ما يشتهيه ولم يقيد نفسه بمنهج ، بل أطلق لشهواته العنان . . بينما المؤمن قَيَّدَ حركته فى الحياة طبقا لمنهج الله وتعب فى سبيل ذلك . ثم يموت الاثنان وليس بعد ذلك شىء . . فيكون الكافر هو الفائز بنعم الدنيا وشهواتها . والمؤمن لا يأخذ شيئا . والأمر هنا لا يستقيم بالنسبة لقضية الايمان . . ولذلك كان الايمان بالله قمة الايمان بداية والايمان بالآخرة قمة الايمان نهاية .

﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥ ﴾

قوله تعالى : (أولئك) اشارة الى الذين تنطبق عليهم كل الصفات التى يبينها الله سبحانه وتعالى فى الآيتين السابقتين . . فأولئك الذين تنطبق عليهم هذه الصفات وصلوا الى الهدى أى الى الطريق الموصل للإيمان . . ووصلوا إلى الفلاح ، وهو الهدف من الإيمان . .

وقوله تعالى : « أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون » تشمل الجميع . .

ولكن لماذا استخدم الله تبارك وتعالى « أولئك » مرتين ؟ تلك من بلاغة القرآن الكريم ، ولماذا دمج الخبرين بعضهما مع بعض ؟ حتى نعرف أنه ليس فى الاسلام إيمانان بل إيمان واحد يترتب عليه جزاء واحد . . وسيلته الهدى ، وغايته الفلاح . . ولو نظر الى التكليفات التى هى الهدى الموصلة الى الغاية نجد أن الله سبحانه وتعالى رفع المهتدى على الهدى . . لنعرف أن الهدى لم يأت ليقيد حركتك فى الحياة ويستذلك ، وانما جاء ليرفعك . .

إن السطحيّين يعتقدون أن الهدى يقيد حركة الانسان فى الحياة ويمنعه من تحقيق شهواته العاجلة . . ولكن الهدى فى الحقيقة يرفع الانسان ويحفظه من الضرر ، ومن غضب الله ، ومن افساد المجتمع الذى سيكون هو أول من يعانى منه . . لذلك قال تبارك وتعالى : « على هدى » . .

و (على) تفيد الاستعلاء . فاذا قلت أنت على الجواد فإنك تعلوه . . كأن المهتدى حين يلزم نفسه بالمنهج لا يذل . . ولكنه يرتفع الى الهدى ويصبح الهدى يأخذه من خير الى خير . . وذلك بعكس الضلالة التى تأخذ الانسان الى أسفل . .

ولذلك حين تقرأ فى القرآن الكريم قوله تعالى :

﴿ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة سبأ)

ترى ما يفيد الارتفاع والعلو فى الهداية ، وما يفيد الانخفاض والنزول فى الضلالة ؛ وإنما كان العلوّ فى الهدى . . لأن المنهج قَيَّدَ حركة حياتك اعزازا لك لعلوك وسمو مقامك فى أنك لا تأخذ من بشر تشريعا . . ولا تأخذ من ذاتك حركة . . وإنما يرتفع بك لتتلقى عن الله سبحانه وتعالى . . وهذا علو كبير . . ولكن عند الضلال قال : « فى ضلال » . . و (فى) تدل على الظرفية المحيطة . .وهو كما وصفه الله سبحانه وتعالى فى آية أخرى بقوله جل جلاله :

﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ ﴾

(سورة البقرة)

أحاطت به الخطيئة . . أى لا يستطيع أن يفلت منها لأنه مظروف فى الضلال . . ومادامت الخطيئة محيطة به فلا يجد منفذا لأنها تحكمه . . وما دامت تحكمه فلا يمكن أن يصل إلى هدى مطلقا . . فالحق سبحانه وتعالى حينما قال : « أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون » . . اختار لفظا عليه دلالة دنيوية تقرب المعنى الى السامع . .

ما هو الفلاح ؟ . . المعنى العام هو الفوز والْمُفْلِحُ هو الفائز . ومعنى الآية الكريمة أولئك هم الفائزون وقال : « هم المفلحون » . . لأن الفلاح مأخوذ من شق الأرض للبذر . . ومنه سُمِّىَ الفلاح الذى صفته شق الأرض ورمى البذور فيها . .

والحق سبحانه تعالى جاء بهذا اللفظ بالنسبة للآخرة لأنه يريد أن يأتى لنا مع الشىء بدليله . . وهناك فرق بين أمر غيبى عنا لا نعرفه . . وأمر غيبى يستدل عليه بمشهود . .

فالدين يقيد حريتك فى الحياة فى أن تفعل ولا تفعل . . ومنهج الله جاء ليقول لك إفعل كذا ولا تفعل كذا . وكثير من الناس يظن أن ذلك تقييد لحركة حياة المؤمن واثقال عليه . . لأنه أخذ منه حرية حركته فقيدها . .

ان الله تبارك وتعالى حين يقول لك لا تفعل . . معناها عند السطحيين أنه ضيق عليك ما تريد أن تفعل . . وحين يقول لك افعل . . معناها يكون قد ضيق عليك فى شيء لا تريد أن تفعله . فمثلا : حين يطلب منك الزكاة . . فالزكاة فى ظاهرها نقص المال ، وإن كانت فى حقيقتها بركة ونماء . . ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (ما نقصت صدقة من مال ، وما زاد الله عبدا بعفو إلا عزا ، وما تواضع أحد لله إلا رفعه)(١) .

فالحق سبحانه وتعالى اذا قيد حركتك فى الحياة . . لا تظن أن هذا تضييق عليك . . بل ان هذا لفائدتك . . لأنه لم يأمرك وحدك ، ولكن الأمر للناس جميعا حين يقول جل جلاله : لا تسرق . . فقد قالها للناس جميعا ولذلك تكون أنت الرابح . . لأنه قيدك وأنت فرد من أن تسرق من غيرك . . ولكنه قيد ملايين الناس من أن يسرقوا منك . . اذن فالله لم يضيق عليك ، ولكنه حمى مالك من الناس كل الناس . . قيدك وأنت فرد أن تسرق من مال غيرك ، وقيد ملايين أن يسرقوا من مالك . . فمن الفائز ؟ . . أنت طبعا . .

وقوله تعالى : « أولئك هم المفلحون » (المفلحون) من مادة فلح . . فاذا كانت الأرض صماء فحينما نشقها ونبذرها تعطى محصولا عظيما ، العملية أخذناها أبا عن جد . فالأرض حين تشق وتبذر تُعطى محصولا وافرا . . واذا كانت هذه العملية أخذت أبا عن جد . . يأتى السؤال من الذى علم آدم البذر والزرع ؟ . . نقول علمه الله سبحانه وتعالى كما علمه الأسماء . . وكما علمه ما يمكنه به أن يباشر مهمته فى الأرض . .

والحق جل جلاله لم يكن يترك آدم فى حياته على الأرض دون أن يعلمه ما يضمن استمرار حياته وحياة أولاده . . يعلمه على الأقل بدايات . . ثم بعد ذلك تتطور هذه البدايات بما يكشفه الله من علمه لخلقه . . وبعد ذلك جاءت القرون المتقدمة

---

(١) رواه أحمد ، ومسلم ، والترمذى عن أبى هريرة .

فاستطعنا أن نستخدم آلات حديثة متطورة تقوم بعملية الحرث والبذر . .

ولكن الحقيقة الثابتة التى لم تتغير منذ بداية الكون ولن تتغير حتى نهايته . . هى أن مهمة الانسان أن يحرث ويضع البذرة فى الأرض ويسقيها . . أما نمو الزرع نفسه فلا دخل للانسان فيه . . وكذلك الثمر الذى ينتجه لا عمل للإنسان فيه . .

ولقد نبهنا الله تبارك وتعالى الى هذه الحقيقة حتى لا نغتر بحركتنا فى الحياة ونقول إننا نحن الذين نزرع . . واقرأ قول الحق جل جلاله فى سورة الواقعة :

﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾

(سورة الواقعة)

وهكذا ظلت مهمة الفلاحة فى الأرض مقصورة على الحرث والسقى والبذر ، وحينما تلقى الحبة فى الأرض يخلق الله فى داخلها الغذاء الذى يكفيها حتى تستطيع أن تأخذ غذاءها من الأرض . . واذا جئت بحبة وبللتها تجد أنها قد نبت لها ساق وجذور . . من أين جاء هذا النمو ؟ . من تكوين الحبة نفسه ، والله تبارك وتعالى قد قدر فى كل حبة من الغذاء ما يكفيها حتى تستطيع أن تتغذى من الأرض . . وعلى قدر كمية الغذاء المطلوبة يكون حجم الحبة . . وحين تضعها فى الأرض فإنها تبدأ أولا بأن تغذى نفسها . . بحيث ينبت لها ساق وجذور وورقتان تتنفس منهما . . كل هذا لا دخل لك فيه ولا عمل لك فيه . . وتبدأ الحبة تأخذ غذاءها من الأرض والهواء . . لتنمو حتى تصبح شجرة كبيرة تنتج الثمر من نوع البذرة نفسه .

ومن هنا جاءت كلمة (المفلحون) . . ليعطينا الحق جل جلاله من الأمور المادية المشهودة ما يعين عقولنا المحدودة على فهم الغيب . . فيشبه التكليف وجزاءه فى الآخرة بالبذرة والفلاحة . . أولا لأنك حين ترمى بذرة فى الأرض تعطيك بذورا كثيرة . .

واقرأ قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ﴾

(سورة البقرة)

واذا كانت الأرض وهى المخلوقة من الله تهبك أضعاف أضعاف ما أعطيتها . . فكيف بالخالق ؟ . . وكم يضاعف لك من الثواب فى الطاعة ؟ . . هذا هو السبب فى أن الحق تبارك وتعالى يقول : « وأولئك هم المفلحون » . . حتى يلفتنا بمادة الفلاحة . . وهى شيء موجود نراه ونشهده كل يوم .

وكما أن التكليف يأخذ منك أشياء ليضاعفها لك . . كذلك الأرض أخذت منك حبة ولم تعطك مثل ما أخذت ، بل أعطتك بالحبة سبعمائة حبة . . وهكذا نستطيع أن نصل بشيء مشهود يُفَصِّلُ لنا شيئا غيبيا .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ ﴾

وبعد ان تحدث الحق سبحانه وتعالى عن المؤمنين وصفاتهم . . وجزائهم فى الآخرة ومايتظرهم من خير كبير . . اراد ان يعطينا تبارك وتعالى الصورة المقابلة وهم الكافرون . . وبين لنا ان الايمان جاء ليهيمن على الجميع يحقق لهم الخير فى الدنيا والآخرة . . فلابد ان يكون هناك شر يحاربه الايمان . . ولولا وجود هذا الشر . . أكان هناك ضرورة للايمان . . إن الانسان المؤمن يقى نفسه ومجتمعه وعالمه من شرور يأتى بها الكفر . .

والكافرون قسمان . . قسم كفر بالله اولا ثم استمع الى كلام الله . . واستقبله بفطرته السليمة فاستجاب وآمن . . وصنف آخر مستفيد من الكفر ومن الطغيان ومن الظلم ومن اكل حقوق الناس وغير ذلك . . وهذا الصنف يعرف ان الايمان اذا جاء فانه سيسلبه جاها دنيويا ومكاسب يحققها ظلما وعدوانا . .

اذن الذين يقفون امام الايمان هم المستفيدون من الكفر . . ولكن ماذا عن الذين كانوا كفارا واستقبلوا دين الله استقبالا صحيحا . .

هؤلاء قد تتفتح قلوبهم فيؤمنون . والكفر معناه الستر . . ومعنى كَفَرَ (أى) سَتَرَ . . وكفر بالله اى ستر وجود الله جل جلاله . . والذى يستر لابد ان يستر موجودا ، لأن الستر طارىء على الوجود . . والاصل فى الكون هو الايمان بالله . . وجاء الكفار يحاولون ستر وجود الله . فكأن الاصل هو الايمان ثم طرأت الغفلة على الناس فستروا وجود الله سبحانه وتعالى . . ليبقوا على سلطانهم او سيطرتهم او استغلالهم او استعلائهم على غيرهم من البشر . .

ولفظ الكفر فى ذاته يدل على ان الايمان سبق ثم بعد ذلك جاء الكفر . . كيف ؟ . .

لأن الخلق الاول وهو آدم الذى خلقه الله بيديه . . ونفخ فيه من روحه وأسجد له الملائكه . . وعلمه الاسماء كلها . .

سجود الملائكه وتعليم الاسماء أمر مشهدى بالنسبة لآدم . . والكفر ساعتها لم يكن موجودا . . وكان المفروض ان ادم بعد ان نزل الى الارض واستقر فيها . . يلقن ابناءه منهج عبادة الله لأنه نزل ومعه المنهج فى (افعل ولا تفعل) وكان على ابناء آدم ان يلقنوا ابناءهم المنهج وهكذا . .

ولكن بمرور الزمن جاءت الغفله فى أن الايمان يقيد حركة الناس فى الكون . . فبدأ كل من يريد ان يخضع حياته لشهوة بلاقيود يتخذ طريق الكفر . . والعاقل حين يسمع كلمة كفر . . يجب عليه ان يتنبه الى ان معناها ستر لموجود واجب الوجود . . فكيف يكفر الانسان ويشارك فى ستر ماهو موجود . . لذلك تجد ان الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾ ﴾

(سورة البقرة)

وهكذا يأتى هذا السؤال . . ولا يستطيع الكافر له جوابا !! لأن الله هو الذى خلقه وأوجده . . ولايستطيع احد منا ان يدعى انه خلق نفسه او خلق غيره . . فالوجود بالذات دليل على قضية الايمان . . ولذلك يسألهم الحق تبارك وتعالى كيف تكفرون بالله وتسترون وجود من خلقكم ؟ . .

والخلق قضية محسومة لله سبحانه وتعالى لايستطيع احد ان يدعيها . . فلا يمكن ان يدعى أحد أنه خلق نفسه . . قضية انك موجود توجب الايمان بالله سبحانه وتعالى الذى اوجدك . . انه عين الاستدلال على الله . . واذا نظر الانسان حوله

فوجد كل مافى الكون مسخرا لخدمته والاشياء تستجيب له فظن بمرور الزمن ان له سيطرة على هذا الكون . . ولذلك عاش وفى ذهنه قوة الاسباب . . يأخذ الاسباب وهو فاعلها فيجدها قد اعطته واستجابت له . . ولم يلتفت الى خالق الاسباب الذى خلق لها قوانينها فجعلها تستجيب للانسان . . وقد اشار الحق تبارك وتعالى الى ذلك فى قوله جل جلاله :

﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧ ﴾

(سورة العلق)

ذلك ان الانسان يحرث الارض فتعطيه الثمر . . فيعتقد انه هو الذى اخضع الارض ووضع لها قوانينها لتعطيه مايريد . . يضغط على زر الكهرباء فينير المكان فيعتقد انه هو الذى اوجد هذه الكهرباء ! يركب الطائرة . . وتسير به فى الجو فيعتقد انه هو الذى جعلها تطير . . وينسى الخصائص التى وضعها الله سبحانه وتعالى فى الغلاف الجوى ليستطيع ان يحمل هذه الطائرة . . يفتح التليفزيون ويرى أمامه احداث العالم فيعتقد ان ذلك قد حدث بقدرته هو . . وينسى ان الله تبارك وتعالى وضع فى الغلاف الجوى خصائص جعلته ينقل الصوت والصورة من اقصى الدنيا الى اقصاها فى ثوان معدودة . . وهكذا كل ماحولنا يظن الانسان انه اخضعه بذاته . . بينما كل هذا مسخر من الله سبحانه وتعالى لخدمة الانسان . . وهو الذى خلق ووضع القوانين . . نقول له انك لو فهمت معنى ذاتية الاشياء ماحدثتك نفسك بذلك . . الشىء الذاتى هو ما كان بذاتك لايتغير ولا يتخلف ابدا . . انما الامر الذى ليس بذاتك هو الذى يتغير . .

واذا نظرت الى ذاتيتك تلك التى اغرتك واطغتك . . ستفهم ان كلمة ذاتية هى ألا تكون محتاجا إلى غيرك بل كل شىء من نفسك . . وانت فى حياتك كلها ليس لك ذاتية ؛ لأن كل شىء حولك متغير بدون ارادتك . . وانت طفل محتاج إلى أبيك فى بدء حياتك . . فاذا كبرت وأصبح لك قوة واستجابت الاحداث لك فإنك لا تستطيع ان تجعل فترة الشباب والفتوة هذه تبقى . . فالزمن يملك ولكن لفترة محدودة . . فاذا وصلت الى مرحلة الشيخوخة فستحتاج الى من يأخذ بيدك ويعينك . . ربما علي ادق حاجاتك وهى الطعام والشراب . .

إذن فأنت تبدأ بالطفولة محتاجا إلى غيرك . . وتنتهى بالشيخوخة محتاجا إلى غيرك . . وحتى عندما تكون فى شبابك قد يصيبك مرض يقعدك عن الحركة . . فاذا كانت لك ذات حقيقية فادفع هذا المرض عنك وقل لن امرض . . انك لا تستطيع . .

الله سبحانه وتعالى اوجد هذه المتغيرات حتى ينتهى الغرور من الانسان نفسه . . ويعرف انه قوى قادر بما اخضع الله له من قوانين الكون . . لنعلم اننا جميعا محتاجون الى القادر ، وهو الله سبحانه وتعالى ، وان الله غنى بذاته عن كل خلقه . . يغير ولا يتغير . . يميت وهو دائم الوجود . . يجعل من بعد قوة ضعفا وهو القوى دائما . . ماعند الناس ينفد وما عنده تبارك وتعالى لاينفد أبداً . . هو الله فى السموات والارض .

اذن فليست لك ذاتية حتى تدعى انك اخضعت الكون بقدراتك . . لانه ليس لك قدرة ان تبقى على حال واحد وتجعله لايتبدل ولا يتغير . . فكيف تكفر بالله تبارك وتعالى وتستر وجوده . . كل مافى الكون ومافى نفسك شاهد ودليل على وجود الحق سبحانه وتعالى . .

قلنا ان الكافرين صنفان . . صنف كفر بالله وعندما جاء الهدى حكم عقله وعرف الحق فآمن . . والصنف الآخر مستفيد من الكفر . . ولذلك فهو متشبث به مهما جاءه من الايمان والادلة الايمانية فإنه يعاند ويكفر . . لانه يريد ان يحتفظ بسلطاته الدنيوية ونفوذه القائم على الظلم والطغيان . . ولا يقبل ان يُجَرَّدَ منهما ولو بالحق . . هذا الصنف هو الذى قال عنه الله تبارك وتعالى : « إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لايؤمنون »

إنهم لم يكفروا لأن بلاغا عن الله سبحانه وتعالى لم يصلهم . . ولم يكفروا لأنهم فى حاجة الى ان يلفتهم رسول او نبى الى منهج الله . . هؤلاء اتخذوا الكفر صناعة ومنهج حياة . . فهم مستفيدون من الكفر لأنه جعلهم سادة ولانهم متميزون عن غيرهم بالباطل . . ولانهم لو جاء الايمان الذى يساوى بين الناس جميعا ويرفض الظلم ، لأصبحوا اشخاصا عاديين غير مميزين فى اى شىء . .

هذا الكافر الذى اتخذ الكفر طريقا لجاه الدنيا وزخرفها . .سواء أنذرته أم لم تنذره فانه لن يؤمن . . انه يريد الدنيا التى يعيش فيها . . بل ان هؤلاء هم الذين يقاومون الدين ويحاربون كل من آمن . . لأنهم يعرفون ان الايمان سيسلبهم مميزات كثيرة . . ولذلك فإن عدم ايمانهم ليس عن ان منهج الايمان لم يبلغهم . . او ان أحدا لم يلفتهم الى ايات الله فى الارض . . ولكن لأن حياتهم قائمة ومبنية على الكفر .

﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾ ﴾

وكما اعطانا الحق سبحانه وتعالى اوصاف المؤمنين يعطينا صفات الكافرين . . وقد يتساءل بعض الناس اذا كان هذا هو حكم الله على الكافرين ؟ فلماذا يطلب رسول الله صلى الله عليه وسلم الايمان منهم وقد ختم الله على قلوبهم ؟! ومعنى الختم على القلب هو حكم بألاّ يخرج من القلب ما فيه من الكفر . . ولا يدخل اليه الايمان . .

نقول ان الله سبحانه وتعالى غنى عن العالمين . . فان استغنى بعض خلقه عن الايمان واختاروا الكفر . . فان الله يساعده على الاستغناء ولا يعينه على العودة الى الايمان . . ولذلك فان الحق سبحانه وتعالى يقول فى حديث قدسى :

« انا عند ظن عبدى بى وانا معه حين يذكرنى . . فإن ذكرنى فى نفسه ، ذكرته فى نفسى ، وان ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منه ، وان اقترب الى شبرا تقربت اليه ذراعا ، وان اقترب الى ذراعا اقتربت اليه باعا وان اتانى يمشى اتيته هرولة » (١)

وقد وضح الحديث القدسى ان الله تبارك وتعالى يعين المؤمنين على الايمان ، وان الله جل جلاله كما يعين المؤمنين على الايمان . . فانه لايهمه ان يأتى العبد الى الايمان أو لا يأتى . . ولذلك نجد القرآن دقيقا ومحكما بأن من كفروا قد اختاروا الكفر بإرادتهم.واختيارهم للكفر كان اولا قبل ان يختم الله على قلوبهم . . والخالق جل جلاله اغنى الشركاء عن الشرك . . ومن اشرك به فإنه فى غنى عنه .

ان الذين كفروا . . اى ستروا الايمان بالله ورسوله . . هؤلاء يختم الله بكفرهم على آلات الادراك كلها . . القلب والسمع والبصر . والقلب أداة ادارك غير ظاهرة . . وقد قدم الله القلب على السمع والبصر فى تلك الآية لانه يريد ان يعلمنا

---

(١) رواه الامام مسلم فى صحيحه فى كتاب الذكر والدعاء

منافذ الادراك . . وفى القرآن الكريم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾

(سورة النحل)

وهكذا يعلمنا الله ان منافذ العلم فى الانسان هى السمع والابصار والافئدة . . ولكن فى الاية الكريمة التى نحن بصددها قدم الله القلوب على السمع والابصار . . ان الله يعلم انهم اختاروا الكفر . . وكان هذا الاختيار قبل ان يختم الله على قلوبهم . . والختم على القلوب . . معناه انه لايدخلها ادراك جديد ولايخرج منها ادراك قديم . . ومهما رأت العين أو سمعت الأذن . . فلا فائدة من ذلك لأن هذه القلوب مختومة بخاتم الله بعد ان اختار اصحابها الكفر واصروا عليه . . وفى ذلك يصفهم الحق جل جلاله :

﴿ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

(سورة البقرة)

ولكن لماذا فقدوا كل ادوات الادراك هذه ؟ . . لأن الغشاوة التفت حول القلوب الكافرة ، فجعلت العيون عاجزة عن تأمل آيات الله . . والسمع غير قادر على التلقى من رسول الله صلى الله عليه وسلم . .

اذن فهؤلاء الذين اختاروا الكفر واصروا عليه وكفروا بالله برغم رسالاته ورسله وقرآنه . . ماذا يفعل الله بهم ؟ انه يتخلى عنهم.ولأنه سبحانه وتعالى غنى عن العالمين فإنه ييسر لهم الطريق الذى مشوا فيه ويعينهم عليه . . وأقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ ﴾

(سورة الزخرف)

ويقول جل جلاله :

﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ ﴾

(سورة الشعراء)

ومن عظمة علم الله تبارك وتعالى أنه يعلم المؤمن ويعلم الكافر . . دون أن يكون جل جلاله تدخل فى اختيارهم . . فعندما بعث الله سبحانه وتعالى نوحا عليه السلام . . ودعا نوح إلى منهج الله تسعمائة وخمسين عاما . وقبل أن يأتى الطوفان علم الله سبحانه وتعالى أنه لن يؤمن بنوح عليه السلام إلا من آمن فعلا . . فطلب الله تبارك وتعالى من نوح أن يبنى السفينة لينجو المؤمنون من الطوفان . . وأقرأ قوله جل جلاله :

﴿ وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾
وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾

(سورة هود)

وهكذا نرى أنه من عظمة علم الله سبحانه وتعالى . . أنه يعلم من سيصر على الكفر وأنه سيموت كافرا . . وإذا كانت هذه هى الحقيقة فلماذا يطلب الله تبارك وتعالى من رسوله صلى الله عليه وسلم أن يبلغهم بالمنهج وبالقرآن ؟ . . ليكونوا شهداء على أنفسهم يوم القيامة . . فلا يأتى هؤلاء الناس يوم المشهد العظيم ويجادلون بالباطل . . أنه لو بلغهم الهدى ودعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم لآمنوا . . ولكن لماذا يختم الله جل جلاله على قلوبهم ؟ . . لأن القلب هو مكان العقائد . . ولذلك فإن القضية تناقش فى العقل فاذا انتهت مناقشتها واقتنع بها الانسان تماما فانها تستقر فى القلب ولا تعود الى الذهن مرة أخرى وتصبح عقيدة وايمانا . . والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾

(من الآية ٤٦ سورة الحج)

واذا عمى القلب عن قضية الايمان . . فلا عين ترى آيات الايمان . . ولا أذن تسمع كلام الله . . وهؤلاء الذين اختاروا الكفر على الايمان لهم فى الآخرة عذاب عظيم . . ولقد وصف الله سبحانه وتعالى العذاب بأنه أليم . . وبأنه مهين . . وبأنه عظيم . . العذاب الأليم هو الذى يسبب ألما شديدا . . والعذاب المهين هو الذى يأتى لاولئك الذين رفعهم الله فى الدنيا . . وأحيانا تكون الاهانة أشد إيلاما للنفس من ألم العذاب نفسه . . أولئك الذين كانوا أئمة الكفر فى الدنيا . . يأتى بهم الله تبارك وتعالى يوم القيامة أمام من اتبعوهم فيهينهم . . أما العذاب العظيم فإنه منسوب الى قدرة الله سبحانه وتعالى . . لأنه بقدرات البشر تكون القوة محدودة . . أما بقدرات الله جل جلاله تكون القوة بلا حدود . . لأن كل فعل يتناسب مع فاعله . . وقدرة الله سبحانه وتعالى عظيمة فى كل فعل . . وبما أن العذاب من الله جل جلاله فانه يكون عذابا عظيما .

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ ﴾

الناس فى الحياة الدنيا على ثلاثة احوال : إما مؤمن ، وإما كافر ، وإما منافق .

والله سبحانه وتعالى فى بداية القرآن الكريم فى سورة البقرة . . اراد ان يعطينا وصف البشر جميعا بالنسبة للمنهج وأنهم ثلاث فئات : الفئة الأولى هم المؤمنون ، عَرَّفنا الله سبحانه وتعالى صفاتهم فى ثلاث آيات ، فى قوله تعالى :

«الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْناهم يُنْفِقُونَ والَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِل مِنْ قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ»

والفئة الثانية هم الكفار ، وعرفنا الله سبحانه وتعالى صفاتهم فى آيتين فى قوله تعالى :

«إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِم وَعَلى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غَشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ»

وجاء للمنافقين فعرف صفاتهم فى ثلاث عشرة آية متتابعة ، لماذا . . ؟ لخطورتهم على الدين ، فالذى يهدم الدين هو المنافق ، اما الكافر فنحن نتقيه ونحذره ، لأنه يعلن كفره .

إن المنافق ، يتظاهر امامك بالايمان ، ولكنه يبطن الشر والكفر ، وقد تحسبه مؤمنا ، فتطلعه على اسرارك ، فيتخذها سلاحا لطعن الدين . . وقد خلق الله فى الانسان ملكات متعددة ، ولكى يعيش الانسان فى سلام مع نفسه ، لابد ان تكون ملكاته منسجمة وغير متناقضة .

فالمؤمن ملكاته منسجمة ، لأنه اعتقد بقلبه فى الايمان ونطق لسانه بما يعتقد ، فلا تناقض بين ملكاته ابداً . .

والكافر قد يقال انه يعيش فى سلام مع نفسه ، فقد رفض الايمان وانكره بقلبه ولسانه ينطق بذلك ، ولكن الذى فقد السلام مع ملكاته هو المنافق ، انه فقد السلام مع مجتمعه وفقد السلام مع نفسه ، فهو يقول بلسانه ، ما لا يعتقد قلبه ، يظهر غير ما يبطن ، ويقول غير ما يعتقد ، ويخشى ان يكشفه الناس ، فيعيش فى خوف عميق ، وهو يعتقد أن ذلك شيء مؤقت سينتهى .

ولكن هذا التناقض يبقى معه الى آخر يوم له فى الدنيا ، ثم ينتقل معه الى الآخرة ، فينقض عليه ، ليقوده الى النار ، واقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

(سورة فصلت)

إذن كل ملكاتهم انقضت عليهم فى الاخرة ، فالسلام الذى كانوا يتمنونه لم يحققوه لا فى حياتهم ولا فى آخرتهم ، فلسان المنافق يشهد عليه ، ويداه تشهدان عليه ، ورجلاه تشهدان عليه ، والجلود تشهد عليه ، فماذا بقى له ؟

بينه وبين ربه تناقض ، وبينه وبين نفسه تناقض ، وبينه وبين مجتمعه تناقض ، وبينه وبين آخرته تناقض . وبينه وبين الكافرين تناقض . يقول لسانه ما ليس فى قلبه ، بماذا وصف الحق سبحانه وتعالى المنافقين ؟ قال تعالى :

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ ﴾

(سورة البقرة)

هذه اول صفات المنافقين فى القرآن الكريم ، يعلنون الايمان وفى قلوبهم الكفر ، ولذلك فإن ايمانهم كله تظاهر ، اذا ذهبوا للصلاة لا تكتب لهم ، لأنهم يتظاهرون بها ، ولا يؤدونها عن ايمان ، واذا ادوا الزكاة ، فإنها تكون عليهم حسرة ، لأنهم ينفقونها وهم لها كارهون ، لأنها فى زعمهم نقص من مالهم . لا يأخذون عليها ثوابا

فى الاخرة ، واذا قتل واحد منهم فى غزوة ، انتابهم الحزن ، والأسى ، لأنهم اهدروا حياتهم ولم يقدموها فى سبيل الله .

وهكذا يكون كل ما يفعلونه شقاء بالنسبة لهم .

اما المؤمن فحين يصلى او يؤدى الزكاة او يستشهد فى سبيل الله فهو يرجو الجنة ، وأما المنافقون فإنهم يفعلون كل هذا ، وهم لا يرجون شيئا . . فكأنهم بنفاقهم قد حكم عليهم الله سبحانه وتعالى بالشقاء فى الدنيا والآخرة ، فلا هم فى الدنيا لهم متعة المؤمن فيما يفعل فى سبيل الله ، ولاهم فى الاخرة لهم ثواب المؤمن فيما يرجو من الله .

﴿ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ٩ ﴾

وتأتى الصفة الثانية من صفات المنافقين ، وهى صفة تدل على غفلتهم وحمق تفكيرهم ، فإنهم يحسبون انهم بنفاقهم يخدعون الله سبحانه وتعالى ، وهل يستطيع بشر ان يخدع رب العالمين ؟

ان الله عليم بكل شيء ، عليم بما نخفى وما نعلن ، عليم بالسر وماهو اخفى من السر ، وهل يوجد ماهو اخفى من السر ؟ نقول نعم ، السر هو ما اسررت به لغيرك ، فكأنه يعلمه اثنان ، انت ومن اسررت اليه . ولكن ما هو اخفى من السر ، ما تبقيه فى نفسك ولاتخبر به احدا ، انه يظل فى قلبك لا تسر به لانسان ، والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَإِن تَجۡهَرۡ بِٱلۡقَوۡلِ فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى ٧ ﴾

(سورة طه)

فلا يوجد مخلوق ، يستطيع ان يخدع خالقه ، ولكنهم من غفلتهم ، يحسبون انهم يستطيعون خداع الله جل جلاله . وفى تصرفهم هذا لا يكون هناك سلام بينهم وبين الله . بل يكون هناك مقت وغضب .

وهم فى خداعهم يحسبون ايضا انهم يخدعون الذين آمنوا ، بأنهم يقولون امامهم غير ما يبطنون ، ولكن هذا الخداع شقاء عليهم ، لأنهم يعيشون فى خوف مستمر ، وهم دائما فى قلق او خوف من ان يكشفهم المؤمنون ، او يستمعوا اليهم فى مجالسهم الخاصة ، وهم يتحدثون بالكفر ويسخرون من الايمان ، ولذلك اذا تحدثوا لابد ان يتأكدوا اولا من ان احدا من المؤمنين لا يسمعهم ، ويتأكدوا ثانيا من ان احدا من

المؤمنين لن يدخل عليهم وهم يتحدثون ، والخوف يملأ قلوبهم ايضا ، وهم مع المؤمنين ، فكل واحد منهم يخشى ان تفلت منه كلمة ، تفضح نفاقه وكفره .

وهكذا فلا سلام بينهم وبين المؤمنين . . والحقيقة انهم لايخدعون الا انفسهم . فالله سبحانه وتعالى ، يعلم نفاقهم ، والمؤمنون قد يعلمون هذا النفاق ، فإن لم يعلموه ، فإن الله يخبرهم به ،واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾ ﴾

(سورة محمد)

ألم يأت المنافقون الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ليشهدوا انه رسول الله ففضحهم الله امام رسوله وانزل قوله تعالى :

﴿ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾ ﴾

(سورة المنافقون)

جاء المنافقون الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يشهدون بصدق رسالته ، والله سبحانه وتعالى يعلم ان هذه الشهادة حق وصدق ، لانه جل جلاله ، يعلم ان رسوله صلى الله عليه وسلم ، صادق الرسالة ،ولكنه فى الوقت نفسه يشهد بأن المنافقون كاذبون . كيف ؟

كيف يتفق كلام الله مع ما قاله المنافقون ثم يكونون كاذبين ؟

نقول : لأن المنافقين قالوا بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم ، فهم شهدوا بألسنتهم فقط ان محمدا صلى الله عليه وسلم رسول الله ولكن قلوبهم منكرة لذلك ، مكذبة به ، ولذلك فإن ما قاله المنافقون رغم انه حقيقة الا انهم يكذبون ، ويقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم ، لأن الصدق هو أن يوافق الكلام حقيقة مافى القلب ،

وهؤلاء كذبوا ، لأنهم فى شهادتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكونوا يعبرون عن واقع فى قلوبهم ، بل قلوبهم تُكَذِّبُ ما يقولون . .

وهناك آيات كثيرة فى القرآن الكريم يفضح الله سبحانه وتعالى فيها المنافقين وينبىء رسوله صلى الله عليه وسلم بما يضمرونه فى قلوبهم ، اذن فخداعهم للمؤمنين ، رغم انه خداع بشر لبشر ، الا انه أحيانا تفلت السنتهم ، فتعرف حقيقتهم ، واذا لم يفلت اللسان ، جاء البيان من الله سبحانه وتعالى ليفضحهم ، وتكون حصيلة هذا كله ، انهم لا يخدعون احدا ، فالله يعلم سرهم وجهرهم ، فمرة يعين الله المؤمنين عليهم فيكشفونهم ، ومرة تفلت السنة المنافقين فيكشفون انفسهم .

اذن فسلوك المنافق ، لايخدع به الا نفسه ، وهو الخاسر فى الدنيا والاخرة ، عندما يؤدى عملا ايمانيا ، فالله يعلم انه نفاق ، وعندما يحاول ان يخدع المؤمنين ، ينكشف ، والنتيجة انهم يعتقدون بأنهم حققوا لأنفسهم نفعا ، بينما هم لم يحققوا لأنفسهم الا الخسران المبين .

﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ ﴾

فالله سبحانه وتعالى، شبه مافى قلوب المنافقين بأنه مرض ، والمرض اولا يورث السقم ، فكأن قلوبهم لا تملك الصحة الايمانية التى تحيى القلب فتجعله قويا شابا ، ولكنها قلوب مريضة ، لماذا كانت مريضة ؟ لقد أتعبها النفاق وأتعبها التنافر مع كل ماحولها ، واحست انها تعيش حياة ملؤها الكذب ، فاضطراب القلب ، جعله مريضا ، ولايمكن ان يشفى الا بإذن الله ، وعلاجه هو الايمان الحقيقى الصادق ، ذلك الذى يعطيه الشفاء ، والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ ﴾

(سورة الاسراء)

اذن فالايمان والقرآن هما شفاء القلوب ، كلاهما بعيد عن قلوب هؤلاء المنافقين ، فكأن المرض يزداد فى قلوبهم مع الزمن ، والله سبحانه وتعالى ـ بنفاقهم وكفرهم ـ يزيدهم مرضا . وهذه هى الصفة الثالثة للمنافقين . . انهم اصحاب قلوب مريضة سقيمة ، لا يدخلها نور الايمان ، ولذلك فهى قلوب ضعيفة ، ليس فيها القوة اللازمة لمعرفة الحق.وهى قلوب خائفة من كل ماحولها ، مرتعبة فى كل خطواتها ، مضطربة بين ما فى القلب وما على اللسان ، والمريض لا يقوى على شىء وكذلك هذه القلوب لا تقوى على قول الحق ، ولا تقوى على الصدق ، ولا ترى ماحولها ، تلك الرؤية التى تتناسب وتتفق مع فطرة الايمان ، التى وضعها الله تعالى فى القلوب ، ولذلك اذا دخل المنافقون فى معركة فى صفوف جيش المسلمين . . فأول مايبحثون عنه هو الهرب من المعركة ، يبحثون عن مخبأ يختفون فيه ، او مكان لايراهم فيه

احد ، والله سبحانه وتعالى يصفهم بقوله :

﴿ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾

(سورة التوبة)

لماذا ؟ لأنهم اصحاب قلوب مريضة ، لا تقوى على شيء ، ومرضها يجعلها تهرب من كل شيء ، وتختفى . وليت الامر يقتصر عند هذا الحد ، ولكن ينتظرهم فى الاخرة عذاب أليم ، غير العذاب الذى عانوه من قلوبهم المريضة فى الدنيا ، فبما كانوا يكذبون على الله وعلى رسوله ، ينتظرهم فى الاخرة عذاب أليم اشد من عذاب الكافرين ، والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ﴾

(من الآية ١٤٥ سورة النساء)

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ ﴾

الفساد فى الارض هو ان تعمد الى الصالح فتفسده ، واقل ما يطلب منك فى الدنيا ، ان تدع الصالح لصلاحه ، ولا تتدخل فيه لتفسده ، فإن شئت ان ترتقى ايمانيا ، تأت للصالح ، وتزد من صلاحه ، فإن جئت للصالح وافسدته فقد افسدت فسادين ، لأن الله سبحانه وتعالى ، اصلح لك مقومات حياتك فى الكون ، فلم تتركها على الصلاح الذى خلقت به ، وكان تركها فى حد ذاته ، بعدا عن الفساد ، بل جئت اليها ، وهى صالحة بخلق الله لها فأفسدتها ، فأنت لم تستقبل النعمة الممنوحة لك من الله ، بأن تتركها تؤدى مهمتها فى الحياة ، ولم تزد فى مهمتها صلاحا ، ولكنك جئت الى هذه المهمة فأفسدتها . . فلو ان هناك بئرا يشرب منها الناس ، فهذه نعمة لضرورة حياتهم ، تستطيع انت بأسباب الله فى كون الله ان تأتى وتصلحها ، بأن تبطن جدرانها بالحجارة ، حتى تمنع انهيار الرمال داخلها ، او ان تأتى بحبل واناء حتى تعين الناس على الوصول الى مياهها ، ولكنك اذا جئت وردمتها تكون قد افسدت الصالح فى الحياة .

وهكذا المنافقون . . انزل الله تعالى منهجا للحياة الطيبة للانسان على الارض ، وهؤلاء المنافقون بذلوا كل مافى جهدهم لإفساد هذا المنهج ، بأن تآمروا ضده وادعوا أنهم مؤمنون به ليطعنوا الاسلام من داخله .

ولقد تنبه أعداء الاسلام ، الى ان هذا الدين القوى الحق ، لا يمكن ان يتأثر بطعنات الكفر ، بل يواجهها ويتغلب عليها . فما قامت معركة بين حق وباطل الا انتصر الحق ، ولقد حاول اعداء الاسلام ان يواجهوه سنوات طويلة ، ولكنهم عجزوا ، ثم تنبهوا الى أن هذا الدين لايمكن ان يهزم الا من داخله ، وان استخدام المنافقين فى الافساد ، هو الطريقة الحقيقية لتفريق المسلمين ، فانطلقوا الى المسلمين اسما ليتخذوا منهم الحربة التى يوجهونها ضد الاسلام ، وظهرت مذاهب

واختلافات ، وما اسموه العلمانية واليسارية وغير ذلك ، كل هذا قام به المنافقون فى الاسلام وغلفوه بغلاف اسلامى ، ليفسدوا فى الارض ويحاربوا منهج الله .

واذا لفت المؤمنون نظرهم الى أنهم يفسدون فى الارض ، وطلبوا منهم ان يمتنعوا عن الافساد ، ادعوا انهم لايفسدون ولكنهم يصلحون ، واى صلاح فى عدم اتباع منهج الله والخروج عليه بأى حجة من الحجج ؟

﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

وهكذا يعطينا الله سبحانه وتعالى حكمه عليهم بأنهم كما أنهم يخدعون أنفسهم ولا يشعرون ويحسبون أنهم يخدعون الله سبحانه وتعالى والمؤمنين . كذلك فإنهم يفسدون فى الأرض ويدعون أنهم مصلحون، ولكنهم فى الحقيقة مفسدون، لماذا؟ . . لأن فى قلوبهم كفراً وعداء لمنهج الله، فلو قاموا بأى عمل يكون ظاهره الاصلاح، فحقيقته هى الإفساد، تماماً كما ينطقون بألسنتهم بما ليس فى قلوبهم.

والكون لايصلح الا بمنهج الله، فالله سبحانه وتعالى هو الذى خلق، وهو الذى أوجد، وهو أدرى بصنعته وبما يفسدها وبما يصلحها، لأنه هو الصانع، ولايوجد من يعلم سر ما يصلح صنعته أكثر من صانعها.

ونحن فى المنهج الدنيوى إذا أردنا إصلاح شىء اتجهنا لصانعه ؛ فهو الذى يستطيع أن يدلنا على الإصلاح الحقيقى لهذا الشىء ، فإذا لم يكن صانعه موجودا فى البلدة نفسها اتجهنا إلى من دربهم الصانع على الاصلاح ، أو إلى مايسمونه «الكتالوج»

الذى يبين لنا طريق الاصلاح، وبدون هذا لا نصلح، بل نفسد، والعجيب أننا نتبع هذه الطريقة فى حياتنا الدنيوية، ثم نأتى إلى الانسان والكون، فبدلاً من أن نتجه إلى صانعه وخالقه لنأخذ عنه منهج الاصلاح، وهو ادرى بصنعته، نتجه إلى خلق الله يضعون لنا المناهج التى تفسد، وظاهرها الاصلاح لكنها تزيد الأمور سوءا

والغريب أننا نسمى هذا فلاحا، ونسميه تقدما. ولكن لماذا لانتجه الى الصانع أو الخالق، الذى أوجد وخلق؟ هو سبحانه وتعالى أدرى بخلقه وبما يصلحهم وما يفسدهم .

ومادام الحق سبحانه وتعالى، قد حكم على المنافقين، بأنهم هم المفسدون فذلك حكم يقينى ، وكل من يحاول أن يغير من منهج الله، أو يعطل تطبيقه بحجة الاصلاح، فهو مفسد وإن كان لايشعر بذلك، لأنه لو اراد اصلاحا لاتجه الى ما يصلح الكون، وهو المنهج السماوى الذى أنزله خالق هذا الكون وصانعه، وهذا المنهج موجود وَمُبَلَّغٌ ولا يخفى على احد.

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ ﴾

والسفهاء فى قصد المنافقين هم الفقراء، ولكن ما معنى السفه فى اللغة: السفه معناه الطيش والحمق والخفة فى تناول الأمور، فهل تنطبق صفة السفيه على المؤمنين. الذين آمنوا بالله ، أو أنها تنطبق على أولئك الذين لم يؤمنوا بالله ؟ إذا كنتم تعتقدون أن الذين آمنوا هم السفهاء فلماذا تدعون الايمان كذبا، لتكونوا سفهاء؟ لاشك ان هناك تناقضاً موجوداً فى كل تصرفات المنافقين.

فالرسول صلى الله عليه وسلم يدعوهم للإيمان، والمسلمون يدعونهم للايمان ، ولكنهم يصفون الذين آمنوا بأنهم سفهاء أى فقراء لا يملكون شيئا، لأن سادة قريش لم يؤمنوا. . وهم يدعون أن الذين آمنوا، تصرفوا تصرفا أحمق، طائشاً، ولكن الغفلة هى المرض الذى يملأ قلوبهم لايجعلهم ينتبهون إلى حقيقة مهمة ، وهى أنهم يتظاهرون بالايمان، ويدعون الايمان ثم يصفون المؤمنين بالسفهاء، اذا كان هؤلاء سفهاء كما تدعون. فهل تتظاهرون بالايمان لتصبحوا سفهاء مثلهم ؟!

إن المنطق لا يستقيم ويدل على سفاهة عقول المنافقين، انَّ هذه العقول. لم تتنبه إلى أنها حينما وصفت المسلمين بالسفهاء، قد أدانت نفسها، لأن المنافقين يدعون أنهم مؤمنون، إذن فكل تصرفات المنافقين فيها تناقض. تناقض مع العقل والمنطق، هذا التناقض يأتى من تناقض ملكات النفس بعضها مع بعض . . فاللسان يكذب القلب. والعمل يكذب العقيدة . والتظاهر بالايمان يحملهم مشقة الايمان ولايعطيهم شيئا من ثوابه. ولو كان لهم عقول، لتنبهوا الى هذا كله، ولكنهم لايشعرون وهم يمضون فى هذا الطريق، طريق النفاق، إنهم يجسدون السفاهة بعينها، بكل ما تحمله من حمق واستخفاف، وعدم التنبه إلى الحقيقة، والرعونة التى يتصرفون بها، والله سبحانه وتعالى حين وصفهم بالسفهاء، كان وصفا دقيقاً، لحالتهم وطريقة حياتهم.

﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

وهكذا يرينا الحق سبحانه، أن كل منافق له أكثر من حياة يحرص عليها، والحياة لكى تستقيم يجب ان تكون حياة واحدة منسجمة بعضها مع بعض ، ولكن انظر الى هؤلاء . . مع المؤمنين يقولون آمنا، ويتخذون حياة الايمان ظاهرا، اى انهم يمثلون حياة الايمان، كما يقوم الممثل على المسرح بتمثيل دور شخصية غير شخصيته تماماً . . حياتهم كلها افتعال وتناقض، فإذا بعدوا عن الذين آمنوا ، يقول الحق تبارك وتعالى: «واذا خلوا الى شياطينهم» .

وانظر الى دقة الأداء القرآنى، الشيطان هو الدس الخفى، الحق ظاهر وواضح، اما منهج الشيطان وتآمره فيحدث فى الخفاء لأنه باطل والنفس لاتخجل من حق أبدا، ولكنها تخشى وتخاف وتحاول أن تخفى الباطل .

ولنضرب لذلك مثلا بسيطا ، رجل يجلس مع زوجته فى منزله ، وطرق الباب طارق ، ماذا يحدث ؟ يقوم الرجل بكل اطمئنان ، ويفتح الباب ليرى من الطارق ، فإن وجده صديقاً او قريبا أكرمه ورحب به وأصر على ان يدخل ليضيفه . وتقوم الزوجة بإعداد الطعام أو الشراب الذى سيقدم للضيف ، نأخذ هذه الحالة نفسها إذا كان الانسان مع زوجة غيره فى شقته وطرق الباب طارق ، يحدث ارتباك عنيف ، ويبحث الرجل عن مكان يخفى فيه المرأة التى معه ، أو يبحث عن باب خفى ليخرجها منه ، او يحاول ان يطفىء الأنوار ويمنع الاصوات لعل الطارق يحس أنه لا يوجد أحد فى المكان فينصرف ، وقبل ان يُخْرِجَ تلك المرأة المحرمة عليه ، فإنه يفتح الباب بحرص ، وينظر يمينا ويسارا ليتأكد هل يراه احد ، وعندما لا يجد احدا يسرع بدفع المرأة الى الخارج ، لانها إثم يريد أن يتخلص منه ، واذا نزل ليوصلها يمشى بعيدا عنها ، ويظل يرقب الطريق ، ليتأكد من أن احدا لم يره ، وعندما يركبان السيارة ينطلقان بأقصى سرعة .

هذا هو الفرق بين منهج الايمان، ومنهج الشيطان، الحادثة واحدة، ولكن الذى اختلف هو الحلال والحرام. انظر كيف يتصرف الناس فى الحلال . . فى النور . . فى الامان، وكيف يتصرفون فى الحرام ومنهج الشيطان فى الظلام وفى الخفية ويحرصون على الا يراهم أحد، ومن هنا تأتى دقة التعبير القرآنى . . «واذا خلو إلى شياطينهم» .

إن منهج الشيطان يحتاج الى خلوة، الى مكان لايراك فيه احد، ولا يسمعك فيه أحد، لان العلن فى منهج الشيطان يكون فضيحة، ولذلك تجد غير المستقيم يحاول جاهدا ان يستر حركته فى عدم الاستقامة، ومحاولته ان يستتر هى شهادة منه بأن ما يفعله جريمة وقبح، ولايصح ان يعلمه احد عنه، ومادام لا يصح ان يراه أحد فى مكان ما، فاعلم أنه يحس ان ما يفعله فى هذا المكان هو من عمل الشيطان الذى لايقره الله، ولايرضى عنه .

ولابد أن نعلم ان القيم، هى القيم، حتى عند المنحرف، وقوله تعالى: «واذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا» معناها أنهم عندما يتظاهرون بالايمان يأخذون جانب العلن، بل ربما افتعلوه، وكان المفروض ان يكون المقابل عندما يخلون الى شياطينهم ان يقولوا: لم نؤمن.

وهناك فى اللغة جملة اسمية وجملة فعلية، الجملة الفعلية، تدل على التجدد، والجملة الاسمية تدل على الثبوت، فالمنافقون مع المؤمنين يقولون آمنا، ايمانهم غير ثابت، متذبذب، وعندما يلقون الكافرين، لو قالوا لم نؤمن، لأخذت صفة الثبات، ولكنهم فى الفترة بين لقائهم بالمؤمنين، ولقائهم بالكافرين، الكفر متجدد، لذلك قالوا: «إنا معكم إنما نحن مستهزئون» .

﴿ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ ﴾

ان هؤلاء المنافقين قوم لا حول لهم ولا قوة ، ولكن الله سبحانه وتعالى، وهو القادر القوى حينما يستهزىء بهم يكون الاستهزاء أليماً، وإذا كان المنافق، قد أظهر بلسانه ماليس فى قلبه، فإن الله سبحانه وتعالى يعامله بمثل فعله، فإذا كان له ظاهر وباطن، يعامله فى ظاهر الدنيا، معاملة المسلمين، وفى الآخرة يوم تبلى السرائر يجعله فى الدرك الأسفل من النار، لا يسويه بالكافر لأن ذنب المنافق أشد.

«الله يستهزىء بهم» والاستهزاء هو السخرية ، فهم يأتون يوم القيامة محاولين أن يتمسكوا بالظاهر، فيظهر الله سبحانه وتعالى لهم باطنهم . والحق سبحانه وتعالى يقول:

﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ ﴾

(سورة الهمزة)

والهمزة هو الذى يسخر من الناس ولو بالاشارة . .

يرى انسانا مصابا بعاهة فى قدمه، يمشى وهو يعرج فيحاول ان يقلده بطريقة تثير السخرية، اما بالاشارة وإما بالكلام، وهناك همز وهمزه . . الهمز الاستهزاء والسخرية من الناس، علامة عدم الايمان، لاننا كلنا مخلوقون من إله واحد، فهذه الصفة التى سخرت فيها من انسان اعرج مثلا، لا عمل له فيها، ولا حول له ولا قوة . . والانسان لم يصنع نفسه، والحقيقة أنك تسخر من صنع الله، والذى يسخر من خلق الله انسان غبى لانه سخر من خلق الله فى عيب، ولم يقدر ما تفضل الله به عليه، كما انه سخر من عيب ولم يفطن الى ان الحق سبحانه وتعالى قد اعطى ذلك

الانسان خصالا ومميزات ربما لم يعطها له، والله سبحانه وتعالى يقول:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ ﴾

(من الآية ١١ سورة الحجرات)

ان مجموع كل انسان، يساوى مجموع كل انسان آخر، وذلك هو عدل الله، فإذا كنت احسن من انسان فى شيء فابحث عن النقص فيك. فإن استهزأت بمؤمن فى شيء، فالاستهزاء غير مفصول عن صنعة الله، إذن فمن المنطق عندما قالوا: «انما نحن مستهزئون» أن يرد الله عليهم «الله يستهزىء بهم ويمدهم فى طغيانهم يعمهون» اى يزيدهم فى هذا الطغيان، لان المد هو أن تزيد الشيء، ولكن مرة تزيد فى الشيء من ذاته، ومرة تزيد عليه من غيره، قد تأتى بخيط وتفرده إلى آخره، وقد تصله بخيط اخر، فتكون مددته من غيره، فالله يزيدهم فى طغيانهم.

وقوله تعالى «يعمهون» العمه يختلف عن العمى، والخلاف فى الحرف الاخير، العمى عمى البصر، والعمه عمى البصيرة، ويعمهون أى يتخبطون، لان العمه ينشأ عنه التخبط سواء التخبط الحسى، من عمى البصر، او التخبط فى القيم ومنهج الحياة من عمى البصيرة. والله تعالى يقول: « فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور » فكأنما العمى المادى، قد لايكون، ولكن يكون هناك عمى البصيرة، واقرأ قوله تعالى:

﴿ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرٗا ١٢٥ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ ١٢٦ ﴾

(سورة طه)

فكأن عمى البصيرة فى الدنيا، يعمى بصر الانسان، عن رؤية آيات الله فى كونه، ويعميه عن الايمان والمنهج . .

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ١٦ ﴾

يعطينا الحق سبحانه وتعالى صفة أخرى من صفات المنافقين، فيصفهم بأنهم الذين اشتروا الضلالة بالهدى. ومادام هناك شراء، فهناك صفقة، والصفقة، تتطلب مشتريا وبائعا، وقد كانت السلعة فى الماضى تشترى بسلعة اخرى، اما الان فإن كل شىء يشترى بالمال، ماذا اشتروا؟

ان هؤلاء المنافقين اشتروا الضلالة، واشتروها بأى ثمن ؟! . . اشتروها بالهدى! الباء فى اللغة تدخل على المتروك، عندما تشترى شيئا تترك ثمنه، إذن كأن هؤلاء قد تركوا الهدى واشتروا الضلالة، ولكن هل كان معهم هدى ساعة الصفقة؟.

ان الحال يقتضى ان يكون معهم هدى، كأن يهتدى انسان ثم يجد أن الهدى لا يحقق له النفع الدنيوى الذى يطلبه فيتركه ليشترى به الضلال ليحقق به مايريد، والهدى الذى كان معهم، قد يكون هدى الفطرة ، فكأن هؤلاء كان يمكنهم ان يختاروا الهدى فاختاروا الضلالة.

والله سبحانه وتعالى يهدى كل الناس، هدى دلالة، فمن اختار الهدى يزده . واقرأ قوله تعالى:

﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ ﴾

(من الآية ١٧ سورة فصلت)

وقول الحق «فما ربحت تجارتهم» التجارة بيع وشراء، الشارى مستهلك ، والبائع قد يكون منتجا، او وسيطا بين المنتج والمستهلك . ما حظ البائع من البيع والشراء؟ ان يكسب فاذا ماكسب قيل ربحت تجارته . واذا لم يكسب ولم يخسر، أو اذا خسر ولم يكسب، ففى الحالين لايحقق ربحا ، ونقول ما ربحت تجارته . .

فقوله تعالى «فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين» يدل على انهم خسروا كل شيء لانهم لم يربحوا، فكأنهم لم يحققوا شيئا له فائدة، وخسروا الهدى، اى خسروا الربح ورأس المال. ماربحت تجارتهم ربما يكونون لم يكسبوا ولم يخسروا، ولكن هم قدموا الهدى ثمنا للضلال فلم يربحوا وضاع منهم الهدى، اى رأس مالهم..

ونفسيه المنافق اذا اردت ان تحددها، فهو انسان بلا كرامة، بلا رجولة لايستطيع المواجهة ، بلا قوة، يحاول ان يمكر فى الخفاء، ولذلك تكون صورته حقيرة امام نفسه، حتى لو استطاع ان يخفى عيوبه عن الناس، فيكفى انه كاذب أمام نفسه لتكون صورته حقيرة امام نفسه، وفى ذلك يقول الشاعر :

اذا أنا لم آت الدنية خشية
من الناس كان الناس اكرم من نفسى
كفى المرء عارا ان يرى عيب نفسه
وان كان فى كُنٍّ عن الجن والانس

فالمهم رأيك فى نفسك.. والتمزق الذى عند المنافق انه يريد ان يخفى عيوبه عن الناس.

﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

يريد الحق سبحانه وتعالى ان يقرب صفات التمزق فى المنافقين الى فهمنا، ولذلك فهو يضرب لنا الامثال، والامثال جمع مثل وهو الشبيه الذى يقرب لنا المعنى ويعطينا الحكمة ، والأمثال باب من الأبواب العريقة فى الادب العربى .

فالمثل أن تأتى بالشىء الذى حدث وقيل فيه قولة موجزة ومعبرة، رأى الناس أن يأخذوا هذه المقولة لكل حالة مشابهة .

ولنضرب مثلا لذلك، ملك من الملوك، اراد ان يخطب فتاة من فتيات العرب، فأرسل خاطبة اسمها عصام لترى هذه العروس وتسأل عنها وتخبره، فلما عادت قال لها ماوراءك ياعصام ؟ اى بماذا جئت من اخبار، قالت: له ابدى المخض عن الزبد. المخض هو ان تأتى باللبن الحليب وتخضه فى القربة حتى ينفصل الزبد عن اللبن، فصار الاثنان ـ السؤال والجواب ـ يضربان مثلا. تأتى لمن يجيئك تنتظر منه اخبارا فتقول له: ما وراءك ياعصام.

ولايكون اسمه «عصام» . .ولم ترسله لاستطلاع أخبار ، بينما تريد أن تسمع ما عنده من أخبار .

وحينما تريد مثلا . . أن تصور تنافر القلوب . . وكيف أنها اذا تنافرت لا تلتئم أبدا . . ويريد الشاعر أن يقرب هذا المعنى فيقول :

ان القلوب اذا تنافر ودها
مثل الزجاجة كسرها لا يشعب (أى لا يجبر)

وساعة تنكسر الزجاجة لا تستطيع اصلاحها . . ولكى يسهل هذا المعنى عليك وتفهمه فى يسر وسهولة . . فإنك لا تستطيع أن تصور أو تشاهد معركة بين قلبين . . لأن هذه مسألة غيبية . . فتأتى بشىء مشاهد وتضرب به المثل . . وبذلك يكون المعنى قد قرب . . لأنك شبهته بشىء محسوس . . تستطيع أن تفهمه وتشاهده . .

ولقد استخدم الله سبحانه وتعالى الامثال فى القرآن الكريم فى أكثر من موضع . . ليقترب من اذهاننا معنى الغيبيات التى لا نعرفها ولا نشاهدها . . ولذلك ضرب لنا الأمثال فى قمة الايمان . . وحدانية الله سبحانه وتعالى . . وضرب لنا المثل بنوره جل جلاله . . الذى لا نشهده وهو غيب عنا . . وضرب لنا الأمثال بالنسبة للكفار والمنافقين . . لنعرف فساد عقيدتهم ونتنبه لها . . وضرب لنا الأمثال فيما يمكن أن يفعله الكفر بالنعمة . . والطغيان فى الحق . . وغير ذلك من الأمثال . . قال الله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ ﴾

(سورة الاسراء)

وقد ضرب الله جل جلاله لنا الأمثال فى الدنيا وفى الآخرة ، وفى دقة الخلق . . وقمة الإيمان . . ومع ذلك فإن الناس منصرفون عن حكمة هذه الامثال . . كافرون بها . . مع أن الحق تبارك وتعالى . . ضربها لنا لتقرب لنا المعنى . . تشبيها بماديات نراها فى حياتنا الدنيا . . وكان المفروض ان تزيد هذه الأمثال الناس ايمانا . . لأنها تقرب لهم معانى غائبة عنهم . . ولكنهم بدلا من ذلك ازدادوا كفرا !!

ولابد قبل أن نتعرض للآية الكريمة : « مثلهم كمثل الذى استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون » . . أن نتحدث عن بعض الأمثال التى ضُربت فى القرآن الكريم . . لنرى كيف أن الله سبحانه وتعالى حدثنا عن قضايا غيبية بمحسات دنيوية :

ضرب الله تبارك وتعالى لنا مثلا بالقمة الايمانية . . وهى انه لا إله إلا الله . . وكيف أن هذه رحمة من الله سبحانه وتعالى . . يجب أن نسجد له شكرا عليها . . لأن فيها وقاية لنا من شقاء . . ومع ذلك فإن الله تبارك وتعالى يريد بعباده الرحمة ،

ولكن بعض الناس يريد أن يشقى نفسه فيشرك بالله جل جلاله .. وبدلا من أن يأخذ طريق الايمان الميسر .. يأخذ طريق الكفر والنفاق والشرك بالله الذى يملك كل شيء فى الدنيا والآخرة .. يقول الحق جل جلاله :

﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾

(سورة الزمر)

بهذه الصورة المحسة التى نراها .. ولا يختلف فيها اثنان .. يريد الله تبارك وتعالى أن يقرب الى اذهاننا صورة العابد لله وحده ، وصورة المشرك بالله .. ويعطينا المثل فى عبد مملوك لشركاء .. رجل مملوك لعشرة مثلا .. وليس هؤلاء الشركاء العشرة متفقين .. بل هم متشاكسون أى أنهم مختلفون .. ورجل آخر مملوك لسيد واحد .. أيهما يكون مستريحا يعيش فى رحمة ؟ .. طبعا المملوك لسيد واحد فى نعمة ورحمة .. لأنه يتبع أمرا واحدا ونهيا واحدا .. ويطيع ربا واحدا .. ويطلب رضا سيد واحد .. أما ذلك الذى يملكه شركاء حتى لو كانوا متفقين .. فسيكون لكل واحد منهم أمر ونهى .. ولكل واحد منهم طلب .. فما بالك اذا كانوا مختلفين ؟ أحد الشركاء يقول له تعالَ .. والآخر يقول له لا تأت ، وأحد الشركاء يأمره بأمر ، والآخر يأمره بأمر مناقض .. ويحتار أيهما يرضى وأيهما يغضب ؟ .. وهكذا تكون حياته شقاء وتناقضا ..

إن الله سبحانه وتعالى يريد أن يقرب لنا الصورة .. فى قضية هى قمة اليقين .. وهى الايمان بالواحد الأحد .. يريدنا أن نلمس هذه الصورة .. بمثل نراه ونشهده .. وأن نرى فيض الله برحمته على عباده .. ويمضى الحق سبحانه ليلفتنا إلى أن نفكر قليلا فى مثل يضربه لنا فى القرآن الكريم :

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾ ﴾

(سورة النحل)

فالحق تبارك وتعالى فى هذه الآية الكريمة .. يطلب منا أن نفكر فى مثل مادى محسوس .. أيهما خير؟.. أذلك الصنم الذى يعبده الكفار وهو لا يأتى لهم بخير أبدا .. لأنه لا يستطيع ان ينفع نفسه فكيف يأتى بالخير لغيره .. بل هو عبء على من يتخذونه إلها .. فإنهم يجب ان يضعوه وأن يحملوه من مكان إلى آخر اذا أرادوا تغيير المعبد أو الرحيل .. واذا سقط فتهشمت اجزاء منه .. فإنه يجب أن يصلحوها ..

اذن فزيادة على انه لا يأتى لهم بخير .. فإنه عبء عليهم يكلفهم مشقة .. ويحتاج منهم الى عناية ورعاية ..

أعبادة مثل هذا الصنم خير؟ أم عبادة الله سبحانه الذى منه كل الخير وكل النعم .. والذى يأمر بالعدل .. فلا يفضل أحدا من عباده على أحد .. والذى يعطى لعباده الصراط المستقيم .. الذى لا اعوجاج فيه .. والموصل الى الجنة فى الآخرة .. ان الله سبحانه وتعالى يشرح بهذا المثل غباء فكر المشركين الذين يعبدون الأصنام ويتركون عبادة الله تبارك وتعالى .

وهكذا يعطينا هذان المثلان توضيحا لقضية الوحدانية والألوهية .. ثم يأتى الله سبحانه وتعالى بمثل آخر .. يضرب لنا مثلا لنوره .. هذا النور الإلهى الذى يضىء الدنيا والآخرة .. فيضىء القلوب المؤمنة .. إنه يريد أن يضرب لنا مثلا لهذا النور بشىء مادى محس .. فيقول جل جلاله :

﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ ﴾

(سورة النور)

كأن الله سبحانه وتعالى .. يريدنا أن نعرف بتشبيه محس .. أن مثل نوره كمشكاة .. والمشكاة هى (الطاقة) .. وهى فجوة فى الحائط بالبيت الريفى .. ونحن نضع المصباح فى هذه الطاقة .. اذن المصباح ليس فى الحجرة كلها .. ولكن نوره مركز فى هذه الطاقة فيكون قويا فى هذا الحيز الضيق .. ولكن المصباح فى زجاجة .. تحفظه من الهواء من كل جانب .. فيكون الضوء أقوى .. صافيا لا دخان فيه .. كما أن الزجاج يعكس الأشعة فيزيد تركيزه .. والزجاجة غير عادية ولكنها : « كوكب درى » .. أى هى مضيئة بذاتها وكأنها كوكب .. ووقودها من شجرة مباركة يملؤها النور لا شرقية ولا غربية .. أى يملؤها النور من الوسط ويخرج صافيا .. والزيت مضىء بذاته دون أن تَمَسَّهُ النار .. فهى نور على نور .. أيكون جزء من هذه المشكاة ذات المساحة الصغيرة مظلما ؟ .. أم تكون كلها مليئة بالنور القوى ؟ .

وهذا ليس نور الله تبارك وتعالى عن التشبيه والوصف ، ولكنه مثل فقط للتقريب إلى الأذهان .. فكأن نور الله يضىء كل ركن وكل بقعة .. ولا يترك مكانا مظلما .. فهو نور على نور ..

ولقد أراد أحد الشعراء[١] أن يمدح الخليفة[٢] وكانت العادة أن يشبه الخليفة .. بالأشخاص البارزين ذوى الصفات الحسنة .. فقال :

إقدام عمرو فى سماحة حاتم
فى حلم أحنف فى ذكاء إياس

وكل هؤلاء الذين ضرب بهم الشاعر المثل كانوا مشهورين بهذه الصفات .. فعمرو كان مشهورا بالاقدام والشجاعة .. وحاتم كان مشهورا بالسماحة .. وأحنف يضرب به المثل فى الحلم .. وإياس شعلة فى الذكاء .. وهنا قام أحد الحاضرين[٣] وقال : الأمير أكبر فى كل شىء ممن شبهته بهم .. فقال أبوتمام على الفور :

لا تنكروا ضَرْبى لَه مَنْ دُونَهُ
مثلاً شَرُودًا فى النَّدَى والباسِ

(١) هو أبو تمام
(٢) هو احمد بن المعتصم
(٣) هو يعقوب بن اسحاق الكندى .

فـالـلهُ قَـدْ ضَـربَ الأقـلَّ لِـنـورِه
مـثـلا مـن المِـشـكـاةِ والـنّـبْراسِ (١)

فأعجب أحمد بن المعتصم والحاضرون من ذكائه وأمر بأن تضاعف جائزته .
والله سبحانه وتعالى . . يضرب لنا المثل بما سيشهده المؤمنون فى الجنة . . فيقول جل جلاله :

﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَـٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَـٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَـٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّـٰرِبِينَ وَأَنْهَـٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ﴾

(من الآية ١٥ سورة محمد)

هذه ليست الجنة . . ولكن هذا مثل يقرب الله سبحانه وتعالى لنا به الصورة بأشياء موجودة فى حياتنا . . لأنه لا يمكن لعقول البشر أن تستوعب اكثر من هذا . . والجنة فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . . ومن هنا فإنه لا توجد اسماء فى الحياة تعبر عما فى الجنة . . واقرأ قوله تعالى :

﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة السجدة)

فإذا كانت النفس لا تعلم . . فلا توجد ألفاظ تعبر عما يوجد فى الجنة . . والمثل متى شاع استعماله بين الناس سمى مثلا . . فأنت اذا رأيت شخصا مغترا بقوته . . وتريد ان تفهمه أنك أقوى منه تقول له . . إن كنت ريحا فقد لاقيت إعصارا . . ولا توجد ريح ولا إعصار فيما يحدث بينكما . . وإنما المراد المعنى دون التقيد بمدلول الألفاظ .

فالحق سبحانه وتعالى . . يريد أن يعطينا صورة . . عما فى داخل قلوب المنافقين . . من اضطراب وذبذبة وتردد فى استقبال منهج الله . . وفى الوقت نفسه

(١) من ديوان أبى تمام بشرح الخطيب التبريزى .

ما يجرى فى القلوب غيب عنا . . وأراد الله أن يقرب هذا المعنى الينا . . فقال : «مثلهم كمثل الذى استوقد نارا » . . أى حاول أن يوقد نارا . . والذى يحاول أن يوقد نارا . . لابد أن له هدفا . . والهدف قد يكون الدفء وقد يكون الطهى . . وقد يكون الضوء وقد يكون غير ذلك . . المهم أن يكون هناك هدف لايقاد النار . .

يقول الحق سبحانه وتعالى : « فلما اضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون » . . ذلك انهم فى الحيرة التى تملأ قلوبهم . . كانوا قد سمعوا من اليهود أن زمن نبى جديد قد أتى . . فقرروا أن يؤمنوا به . . ولكن ايمانهم لم يكن عن رغبة فى الايمان . . ولكنه كان عن محاولة للحصول على أمان دنيوى . . لأن اليهود كانوا يتوعدونهم ويقولون أتى زمن نبى سنؤمن به ونقتلكم به قتل عاد وإرم . . فأراد هؤلاء المنافقون أن يتقوا هذا القتل الذى يتوعدهم به اليهود . . فتصوروا أنهم اذا أعلنوا أنهم آمنوا بهذا النبى نفاقا أن يحصلوا على الأمن . .

إن الحق سبحانه وتعالى يعطينا هذه الصورة . . انهم اوقدوا هذه النار . . لتعطيهم نورا يريهم طريق الايمان . . وعندما جاء هذا النور بدلا من أن يأخذوا نور الايمان انصرفوا عنه . . وعندما حدث ذلك ذهب الله بنورهم . . فلم يبق فى قلوبهم شىء من نور الايمان . . فهم الذين طلبوا نور الايمان أولا . . فلما استجاب الله لهم انصرفوا عنه . . فكأن الفساد فى ذاتهم . . وكأنهم هم الذين بدأوا بالفساد . . وساعة فعلوا ذلك ذهب الله بنور الايمان من قلوبهم .

ونلاحظ هنا دقة التعبير القرآنى . . فى قوله تعالى : « ذهب الله بنورهم » ولم يقل ذهب الله بضوئهم . . مع أنهم أوقدوا النار ليحصلوا على الضوء . . فما هو الفرق بين الضوء والنور ؟ . . اذا قرأنا قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا ﴾

(من الآية ٥ سورة يونس)

نجد أن الضوء أقوى من النور . . والضوء لا يأتى إلا من اشعاع ذاتى . . فالشمس ذاتية الإضاءة . . ولكن القمر يستقبل الضوء ويعكس النور . . وقبل أن

تشرق الشمس تجد فى الكون نورا . . ولكن الضوء يأتى بعد شروق الشمس . . فلو أن الحق تبارك وتعالى قال ذهب الله بضوئهم . . لكان المعنى انه سبحانه ذهب بما يعكس النور . . ولكنه أبقى لهم النور . . ولكن قوله تعالى : « ذهب الله بنورهم » . . معناها أنه لم يبق لهم ضوءا ولا نورا . . فكأن قلوبهم يملؤها الظلام . . ولذلك قال الله بعدها ؛ « وتركهم فى ظلمات لا يبصرون » . . لنعلم انه لا يوجد فى قلوبهم أى نور ولا ضوء ايمانى . . كل هذا حدث بظلمهم هم وانصرافهم عن نور الله . .

ونلاحظ هنا أن الحق سبحانه وتعالى . . لم يقل وتركهم فى ظلام . . بل قال : « فى ظلمات » . . أى انها ظلمات متراكمة . . ظلمات مركبة لا يستطيعون الخروج منها أبدا . .

من أين جاءت هذه الظلمات ؟ . . جاءت لأنهم طلبوا الدنيا ولم يطلبوا الآخرة . . وعندما جاءهم نور الايمان انصرفوا عنه فصرف الله قلوبهم . .

مثلا اذا أخذنا قصة زعيم المنافقين عبدالله بن أُبَىٍّ ، نرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل المدينة واهلها يستعدون لتتويج عبدالله بن ابى ملكا عليها . . وعندما وصل رسول الله صلى الله عليه وسلم انصرف الناس عن عبدالله بن أبى الى استقبال الرسول عليه الصلاة والسلام . . فوصول الرسول عليه الصلاة والسلام ضيع على عبدالله بن أبى الْمُلْك . . ولقد كان من الممكن أن يؤمن . . وأن يلتمس النور من رسول الله صلى الله عليه وسلم . . ولو آمن حينئذ ربما أعطى فى الآخرة ملكا دائما . . يفوق الملك الذى كان سيحصل عليه فى الدنيا . . ولكن لأن فى قلبه الدنيا وليس الدين . . ولأنه يريد رفعة فى الدنيا . . ولا يريد جنة فى الآخرة ، فقد ملأ الحقد قلبه فكان ظلمة . . وملأ الحسد قلبه فكان ظلمة . . وملأت الحسرة قلبه فكانت ظلمة . . وملأت الكراهية والبغضاء قلبه فكانت ظلمة . . اذن هى ظلمات متعددة . .

وهكذا فى قلب كل منافق ظلمات متعددة . . ظلمة الحقد على المؤمنين وظلمة الكراهية لهم . . وظلمة تمنى هزيمة الايمان . . وظلمة تمنى أن يصيبهم سوء وشر . . وظلمة التمزق والألم من الجهد الذى يبذله للتظاهر بالايمان وفى قلوبهم الكفر . . كل

هذه ظلمات .. ولكن لا تحاول ان تأخذها بمقاييس عقلك .. والمفروض أن المثل هنا لتقريب المعنى .. لأنك اذا قرأت قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ ﴾

(سورة الاسراء)

كيف يكون الحجاب مستورا ؟ .. مع أن الحجاب هو الساتر الذى يستر شيئا عن شيء .. ولكن الحق سبحانه وتعالى يريدنا أن نفهم .. انه برغم أن الحجاب يستر شيئا عن شيء ، فإن الحجاب نفسه مستور لا نراه .. وبعض العلماء يقولون : إن مستورا اسم مفعول .. وهو فى معنى اسم الفاعل ساتر .. نقول لا .. واقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾ ﴾

(سورة مريم)

مأتيا اسم مفعول واسم الفاعل آتى .. ويقول البعض وضع اسم المفعول مكان اسم الفاعل .. نقول انك لم تفهم .. هل وعد الله يلح فى طلب العبد .. أم أن العبد يلح فى طلبه بعمله فكأنه ذاهب إليه .. والموعود هو المستفيد وليس الوعد ..

اذن من دقة القرآن الكريم .. انه يريد أن ينبهنا إلى ان الموعود هو الذى يسعى للقاء الوعد .. وليس الوعد هو الذى يطلب لقاء الموعود فيستخدم اسم الفاعل .

فحين يقول الحق سبحانه وتعالى : « وتركهم فى ظلمات لا يبصرون » .. نفى النور عنهم .. والنور لا علاقة له بالسمع ولا بالشم ولا باللمس .. ولكنه قانون البصر ..

وانظر الى دقة التعبير القرآنى .. اذا امتنع النور امتنع البصر .. أى ان العين لا تبصر بذاتها .. ولكنها تبصر بانعكاس النور على الاشياء ثم انعكاسه على العين ..

واقرأ قوله تعالى :

﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً ﴾

(من الآية ١٢ سورة الاسراء)

فكأن الذى يجعل العين تبصر هو الضوء أو النور . . فإذا ضاع النور ضاع الابصار . . ولذلك فأنت لا تبصر الأشياء فى الظلام . . وهذه معجزة قرآنية اكتشفها العلم بعد نزول القرآن .

﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

فالحق سبحانه وتعالى .. بعد أن أخبرنا أنه بظلم هؤلاء المنافقين لأنفسهم .. ذهب بنور الايمان من قلوبهم فهم لايبصرون آيات الله .. أراد أن يلفتنا الى أنه ليس البصر وحده هو الذى ذهب .. ولكن كل حواسهم تعطلت .. فالسمع تعطل فهم صم .. والنطق تعطل فهم بكم .. والبصر تعطل فهم عمى .. وهذه هى آلات الادراك فى الانسان .. واقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾

(سورة النحل)

إذن كونهم فى ظلمات لايبصرون معناها أنها قد تعطلت وسائل الإدراك الأخرى ؛ فآذانهم صُمَّت فهى لاتسمع منهج الحق ، وألسنتهم تعطلت عن نقل ما فى قلوبهم وأبصارهم لاترى آيات الله فى الكون إذن فآلات إدراكهم لهدى الله معطلة عندهم ..

وقوله تعالى : « فهم لايرجعون » .. أى لن تعود اليهم هذه الوسائل ليدركوا نور الله فى كونه .. الادراك غير موجود عندهم .. ولذلك فلا تطمعوا أن يرجعوا الى منهج الايمان أبدا .. لقد فسدت فى قلوبهم العقيدة .. فلم يفرقوا بين ضر عاجل وما هو نفع آجل .. نور الهداية كان سيجعلهم يبصرون الطريق الى الله .. حتى يسيروا على بينة ولا يتعثروا .. ولكنهم حينما جاءهم النور رفضوه وانصرفوا عنه .. فكأنهم انصرفوا عن كل مايهديهم الى طريق الله !!.

فالله سبحانه وتعالى فى هذه الآية الكريمة .. أعطانا وصفا آخر من صفات المنافقين هو أن ادوات الادراك التى خلقها الله جل جلاله معطلة عندهم .. ولذلك فان الاصرار على هدايتهم وبذل الجهد معهم لن يأتى بنتيجة .. لان الله تبارك وتعالى بنفاقهم وظلمهم عطل وسائل الهداية التى كان من الممكن أن يعودوا بها الى طريق الحق .

﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ ﴾

وقول الحق سبحانه وتعالى : « أو كصيب من السماء » .. الصيب هو المطر .. والله تبارك وتعالى ينزل الماء فتقوم به الحياة .. مصداقا لقوله جل جلاله :

﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة الانبياء)

ومن البديهى أننا نعرف أن إنزال المطر .. هو من قدرة الله سبحانه وتعالى وحده .. ذلك أن عملية المطر فيها خلق بحساب .. وفيها عمليات تتم كل يوم بحساب أيضا .. وفيها عوامل لايقدر عليها الا الله سبحانه وتعالى .. فمسألة المطر أعدت الأرض لها حين الخلق .. فكانت ثلاثة ارباع الارض من الماء والربع من اليابسة .. لماذا ؟ من حِكَمِ الله فى هذا الخلق ان تكون عملية البخر سهلة وممكنة .. ذلك أنه كلما اتسع سطح الماء يكون البخر أسهل .. واذا ضاق السطح تكون عملية البخر أصعب .. فاذا جئنا بكوب مملوء بالماء ووضعناه فى حجرة مغلقة يوما .. ثم عدنا اليه نجد أن حجم الماء نقص بمقدار سنتيمتر أو أقل .. فاذا أخذنا الماء الذى فى هذا الكوب وقذفناه فى الحجرة .. فإنه يختفى فى فترة قصيرة .. لماذا ؟ .؛ لأن سطح الماء اصبح واسعا فتمت عملية البخر بسرعة .

والله سبحانه وتعالى حين خلق الارض .. وضع فى الخلق حكمة المطر فى أن تكون مساحة الماء واسعة لتتم عملية البخر بسهولة .. وجعل أشعة الشمس هى التى تقوم بعملية البخر من سطح الماء .. وتم ذلك بحساب دقيق .. حتى لاتغرق الامطار الأرض أو يحدث فيها جفاف .. ثم سخر الريح لتدفع السحاب الى حيث يريد الله أن ينزل المطر .. وقمم الجبال البارده ليصطدم بها السحاب فينزل

المطر . . كل هذا بحساب دقيق فى الخلق وفى كل مراحل المطر . .
ومادام الماء هو الذى به الحياة على الأرض . . فقد ضرب الله لنا به المثل كما ضرب لنا المثل بالنار وضوئها . . فكلها أمثلة مادية لتقرب الى عقولنا ما هو غيب عنا . . فالماء يعطينا الحياة . .

لكن هؤلاء المنافقين . لم يلتفوا الى هذا الخير . الذى ينزل عليهم من السماء من غير تعب او جهد منهم . بل التفتوا الى أشياء ثانوية ، كان من المفروض ان يرحبوا بها لانها مقدمات خير لهم . فالمطر قبل أن ينزل من السماء لابد أن يكون هناك شىء من الظلمة فى السحاب الذى يأتى بالمطر . فيحجب أشعة الشمس ان كنا نهارا . ويخفى نور القمر والنجوم ان كنا ليلا . هذه الظلمة مقدمات الخير والماء . .
إنهم لم يلتفتوا الى الخير الذى ملأ الله به سبحانه وتعالى الارض . بل التفتوا الى الظلمة فنفروا من الخير . . كذلك صوت الرعد ونور البرق . الرعد يستقبله الانسان بالأذن وهى آلة السمع . والبرق تستقبله العين . . وصوت الرعد قوى ، أقوى من طاقة الاذن . ولذلك عندما يسمعه الانسان يفزع ، ويحاول ان يمنع استقبال الاذن له ، بأن يضع أنامله فى أذنيه .

وهؤلاء المنافقون لم يضعوا الأنامل . ولكن كما قال الله سبحانه وتعالى : « يجعلون أصابعهم فى آذانهم » ولم يقل أناملهم . وذلك مبالغة فى تصوير تأثير الرعد عليهم . فكأنهم من خوفهم وذعرهم يحاول كل واحد منهم أن يدخل كل اصبعه فى اذنه . ليحميه من هذا الصوت المخيف . فكأنهم يبالغون فى خوفهم من الرعد .

ونلاحظ هنا أن الحديث ليس عن فرد واحد ، ولكن عن كثيرين . . لأنه سبحانه وتعالى يقول « أصابعهم » نقول ان الأمر لجماعة يعنى أمراً لكل فرد فيها ، فاذا قال المدرس للتلاميذ أخرجوا أقلامكم ، فمعنى ذلك ان كل تلميذ يخرج قلمه . . واذا قال رئيس الجماعة اركبوا سياراتكم ، فمعنى ذلك أن كل واحد يركب سيارته . . لذلك فان معنى « يجعلون أصابعهم فى آذانهم » ان كل واحد منهم يضع اصبعيه فى أذنيه . .

لماذا يفعلون ذلك ؟! انهم يفعلونه خوفا من الموت . لان الرعد والبرق يصاحبهما الصواعق احيانا ، ولذلك فإنهم من مبالغتهم فى الخوف يحس كل واحد منهم ان

صاعقة ستقتله . . فكأنهم يستقبلون نعمة الله سبحانه وتعالى بغير حقيقتها . . هم لايرون النعمة الحقيقية فى ان هذا المطر يأتى لهم بعوامل استمرار الحياة . ولكنهم يأخذون الظاهر فى البرق والرعد . وكذلك المنافقون . . لايستطيع الواحد منهم ان يصبر على شهوات نفسه ونزواتها . . انه يريد ذلك العاجل ولاينظر الى الخير الحقيقى الذى وعد الله به عباده المؤمنين فى الآخرة . . وهو ينظر الى التكاليف كأنها شدة ومسألة تحمل النفس بعض المشاق . ويغفل عن حقيقة جزاء التكاليف فى الآخرة . وكيف انها ستوفر لهم النعيم الدائم . . تماما كما ينظر الانسان الى المطر على أنه ظلمة ورعد وبرق ، وينسى انه بدون هذا المطر من المستحيل ان تستمر حياته . .

هم يأخذون هذه الظواهر على أنها كل شىء . بينما هى فى الحقيقة تأتى لوقت قصير وتختفى ، فهى قصيرة كالحياة الدنيا ، وقتية . ولكن نظرتهم اليها وقتية ومادية لانهم لايؤمنون الا بالدنيا وغفلوا عن الآخرة . . غفلوا عن ذلك الماء التى يبقى فترة طويلة ، وتنبهوا الى تلك الظواهر الوقتية التى تأتى مع المطر فخافوا منها وكان خوفهم منها يجعلهم لايحسون بما فى المطر من خير . والمنافقون يريدون ان يأخذوا خير الاسلام دون ان يقوموا بواجبات هذا الدين !!

ثم يلفتنا الحق سبحانه وتعالى الى قضية هامة . وهى ان خوفهم من زوال متع الدنيا ونفوذها لن يفعل لهم شيئا . لان الله محيط بالكافرين . . والاحاطة معناها السيطرة التامة على الشىء بحيث لايكون امامه وسيلة للافلات ، وقدرة الله سبحانه وتعالى محيطة بالكافرين وغير الكافرين . .

اذن عدم التفاتهم للنفع الحقيقى ، وهو منهج الله ، لايعطيهم قدرة الافلات من قدرة الله سبحانه وتعالى فى الدنيا والآخرة .

﴿ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ ﴾

ان الله سبحانه وتعالى يريد ان يلفتنا الى آن البرق الذى هو وقتى وزمنه قليل . هو الذى يسترعى انتباههم. ولو آمنوا لأضاء نور الايمان والاسلام طريقهم . ولكن قلوبهم مملوءة بظلمات الكفر فلايرون طريق النور . . والبرق يخطف أبصارهم ، أى يأخذها دون ارادتهم . فالخطف يعنى أن الذى يخطف لاينتظر الاذن ، والذى يتم الخطف منه لايملك القدرة على منع الخاطف . والخطف غير الغصب . فالغصب ان تأخذ الشىء برغم صاحبه .

ولكن . . ما الفرق بين الأخذ والخطف والغصب ؟ . الأخذ ان تطلب الشىء من صاحبه فيعطيه لك . او تستأذنه . اى تأخذ الشىء بإذن صاحبه . والخطف أن تأخذه دون ارادة صاحبه ودون ان يستطيع منعك .

والغصب أن تأخذ الشىء رغم ارادة صاحبه باستخدام القوة أو غير ذلك بحيث يصبح عاجزا عن منعك من أخذ هذا الشى .

ولنضرب لذلك مثلا ولله المثل الاعلى . اذا دخل طفل على محل للحلوى وخطف قطعة منها ، يكون صاحب المحل لاقدرة له على الخاطف لأن الحدث فوق قدرات المخطوف منه ، فهو بعيد وغير متوقع للشىء ، فلا يستطيع منع الخطف . . أما الغصب فهو ان يكون صاحب المحل متنبها ولكنه لايملك القدرة على منع مايحدث ، وإذا حاول أن يقاوم فإن الذى سيأخذ الشىء بالرغم عنه لابد أن يكون أقوى منه . أى أن قوة الْمُغْتَصِب ، تكون اقوى من الْمُغْتَصَب منه .

وقوله تعالى : « يكاد البرق يخطف ابصارهم » .

لابد ان نتنبه الى قوله تعالى « يكاد » اى يكاد او يقترب البرق من ان يخطف

أبصارهم . وليس للانسان القدرة أن يمنع هذا البرق من أن يأخذ انتباه البصر .

وقوله تعالى « كلما اضاء لهم مشوا فيه » .

أى أنهم يمشون على قدر النور الدنيوى . الذى يعطيه لهم البرق . فلا نور فى قلوبهم . ولذلك اذا أظلم عليهم توقفوا ، **لأنه لانور لهم** .

وقوله تعالى « ولوشاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم » .

يدعى بعض المستشرقين ان ذلك يتعارض مع الاية الكريمة التى تقول « صم بكم عمى فهم لايرجعون » كيف يكونون صما بكما عميا . . أى أن منافذ الادارك عندهم لاتعمل ، ونحنُ هنا نتحدث عن العمى الايمانى ، ثم يقول تبارك وتعالى « ولوشاء الله لذهب بسمعهم وابصارهم » مع انهم صم وبكم وعمى ؟ . .

نقول ان قول الحق سبحانه وتعالى : « صم بكم عمى » أى لايرون آيات الله ويقين الايمان ، ولايسمعون آيات القرآن ويعقلونها . . اذن فوسائل ادراكهم للمعنويات تتعطل . ولكن وسائل ادراكهم بالنسبة للمحسات تبقى كما هى . فالمنافق الذى لايؤمن بيوم القيامة ، لايرى ذلك العذاب الذى ينتظره فى الآخرة .

ولو شاء الله سبحانه وتعالى ان يذهب بسمعهم وأبصارهم . بالنسبة للاشياء المحسة . لاستطاع لانه قادر على كل شيء ، ولكنه سبحانه وتعالى لم يشأ ذلك . حتى لايأتوا مجادلين فى الآخرة ، من انهم لو كان لهم بصر لرأوا آيات الله . ولو كان لهم سمع لتدبروا القرآن . فأبقى الله لهم أبصارهم واسماعهم . لتكون حجة عليهم ، بأن لهم بصرا ولكنهم انصرفوا عن آيات الله الى الاشياء التى تأتيهم بفائدة عاجلة فى الدنيا مهما جاءت بغضب الله . وأن لهم سمعا يسمعون به كل شيء من خطط المؤامرات على الاسلام . وضرب الايمان وغير ذلك . فاذا تليت عليهم آيات الله فانهم لايسمعونها . وفى ذلك يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ﴾

(من الآية ١٦ سورة محمد)

أى أنهم يسمعون ولايعقلون ولايدخل النور الى قلوبهم ، فكأنهم صم عن آيات الله لايسمعونها.

والحق سبحانه وتعالى يريد ان يعطينا مثل المنافقين بأنهم لايلتفتون الى القيم الحقيقية فى الحياة . ولكنهم يأخذون ظاهرها فقط . يريدون النفع العاجل ، وظلمات قلوبهم . لاتجعلهم يرون نور الايمان . وانما يبهرهم بريق الدنيا مع أنه زائل ووقتى . فيخطف أبصارهم . ولأنه لانور فى قلوبهم، فاذا ذهبت عنهم الدنيا ، تحيط بهم الظلمات من كل مكان لانهم لايؤمنون بالآخرة . مع أن الله سبحانه وتعالى لوشاء لذهب بسمعهم وأبصارهم ، لأنهم لايستخدمونها الاستخدام الايمانى المطلوب . والمفروض ان وسائل الادراك هذه . تزيدنا ايمانا . . ولكن هؤلاء لايرون الا متاع الدنيا . ولايسمعون الا وسوسة الشيطان ، فالمهمة الايمانية لوسائل الادراك توقفت ، وكأن هذه الوسائل غير موجودة .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

بعد أن حدثنا الله سبحانه وتعالى عن صفات المنافقين فى ثلاث عشرة آية واعطانا أوصافهم الظاهرة . وأعطانا أمثلة لما يحدث فى قلوبهم كى يعرفهم المؤمنون ظاهرا وباطنا . ويحذروهم ولا يأمنوا لهم . بين لنا كيف أن المنافقين لم يكفروا بالله كإله فقط . ويستروا وجوده ، ولكن كفروا به كرب .والرب عطاؤه مكفول لكل من خلق مؤمنهم وكافرهم ، فهو سبحانه وتعالى الذى استدعاهم للوجود وخلقهم . ولذلك فانه سبحانه يضمن لهم رزقهم وحياتهم .

والله سبحانه وتعالى لايحرم خلقا من خلقه من عطاء ربوبيته فى الدنيا . فالشمس تشرق على المؤمن والكافر . والمطر ينزل على من قال لا اله الا الله ومن ستر وجوده تعالى : والهواء يتنفس به ذلك الذى يقيم الصلاة والذى لم يركع ركعة فى حياته . . والطعام يأكله الذى يحب الله والذى يكفر بنعم الله . . ذلك أن هذه عطاءات ربوبية يعطيها الله تعالى لكل خلقه فى الدنيا . .

اما عطاءات الألوهية ، فهى للمؤمنين فى الدنيا والآخرة .

فالله سبحانه وتعالى يلفت انتباه خلقه الى أن عطاء الربوبية من الله سبحانه وتعالى لهم يكفى ليؤمنوا بالله ويعبدوه .

والحق سبحانه وتعالى حينما يخاطب الناس فى القرآن الكريم ، ذلك الكتاب الذى لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فلابد أن يكون الخطاب للناس فى كل زمان ومكان . منذ نزول القرآن الكريم الى يوم القيامة .

وخطاب الله سبحانه وتعالى خاص بقضية الإيمان فى القمة ، وهى الخضوع لإله واحد لا شريك له .

وقوله تعالى : « الذى خلقكم والذين من قبلكم » معناه أن من مقتضيات العبادة أن الله هو خالق الناس جميعا . وليس فى قضية الخلق كما قلنا شبهة ؛ لأنه لا أحد يستطيع أن يدعى أنه خلق نفسه ، أو خلق هذا الكون ، بل إن الحق سبحانه وتعالى يطلب منا أن نحترم السببية المباشرة فى وجودنا ؛ فالأب والأم هنا سبب فى وجود الإنسان . فنجد الله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ ﴾

(سورة الاسراء)

وهكذا نرى أن الحق قد احترم السببية فى الموجد ، مع أنه سبحانه وتعالى الموجد الذى خلق كل شىء . ولكن الله يحترم عمل الانسان . مع أنه سبب فقط ، فالمال هو مال الله ، يعطيه لمن يشاء . لكننا نجد الحق سبحانه وتعالى وهو يحث على الصدقة يقول :

﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾

(من الآية ٢٤٥ سورة البقرة)

فكأنه سبحانه احترم عمل الانسان فى الحصول على المال ، رغم أن المال مال الله . فقال وهو الخالق الأعظم : «من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا» وهكذا تتجلى رحمة الحق بالخلق .

الله يقول : «ولعلكم تتقون» نتقى ماذا ؟ نتقى صفات الجلال فى الله . فالله سبحانه وتعالى له صفات جلال وصفات جمال ، صفات الجلال هى «الجبار والقهار

والمتكبر والقوى والقادر والمقتدر والضار» وغيرها من صفات الجلال .

فالله سبحانه وتعالى يريدنا أن نجعل بيننا وبين صفات الجلال وقاية حتى لانغضب الله ، فيعاملنا بمتعلقات صفات جلاله ، وأن نتمسك بصفات جمال الله : الرحيم الودود ، الغفار ، التواب ، فاذا نجحنا فى ذلك كان لنا نجاة من النار التى هى أحد جنود الله ، ومتعلقات جلاله .

على اننا لابد أن نتنبه الى أن الله سبحانه وتعالى حينما يقول «ياأيها الناس» إنما يخاطب كل الناس ، فإذا أراد الحق سبحانه وتعالى مخاطبة المؤمنين قال : «ياأيها الذين آمنوا» أى ياأيها الذين آمنتم بالله إلها ، ودخلتم معه فى عقد إيمانى .

﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

فبعد أن بين لنا الحق سبحانه وتعالى أن عطاء ربوبيته الذى يعطيه لخلقه جميعا ، المؤمن والكافر ، كان يكفى لكى يؤمن الناس ، كل الناس . . أخذ يبين لنا آيات من عطاء الربوبية . ويلفتنا اليها لعل من لم يؤمن عندما يقرأ هذه الآيات يدخل الايمان فى قلبه . فيلفتنا الله سبحانه وتعالى الى خلق الأرض فى قوله تعالى :

«الذى جعل لكم الأرض فراشا»

والأرض هى المكان الذى يعيش فيه الناس ولايستطيع احد ان يدعى أنه خلق الأرض أو أوجدها . اذن فهى آية ربوبية لاتحتاج لكى نتنبه اليها الى جهد عقلى . لأنها بديهات محسومة لله سبحانه وتعالى . وقوله تعالى : «فراشا» توحى بأنه أعد الأرض إعداداً مريحاً للبشر . كما تفرش على الارض شيئا ، تجلس عليه أو تنام عليه ، فيكون فراشا يريحك .

ونحن نتوارث الأرض جيلا بعد جيل . وهى تصلح لحياتنا جميعاً .

ومنذ أن خلقت الارض الى يوم القيامة . ستظل فراشا للانسان .

قد يقول بعض الناس أنك إذا نمت على الأرض فقد تكون غير مريحة تحتك فيها حصى أو غير ذلك مما يضايقك . نقول ان الانسان الأول كان ينام عليها مستريحا . . إذن فضرورة النوم ممكنة على الأرض .

وعندما تقدمت الحضارة وزادت الرفاهية ظلت الأرض فراشاً رغم ماوجد عليها من أشياء لينة . فكأنَّ الله تعالى . قد اعدها لنا اعداداً يتناسب مع كل جيل . فكل

جيل رفه فى العيش بسبب تقدم الحضارة كشف الله سبحانه من العلم ما يطوع له الأرض ويجعلها فراشاً .

ونلاحظ ان الله سبحانه وتعالى فى آية أخرى يقول :

﴿ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا ﴾

(من الآية ١٠ سورة الزخرف)

والمهد هو فراش الطفل ، ولابد ان يكون مريحا لأن الطفل إذا وجد فى الفراش أى شىء يتعبه فإنه لا يملك الامكانات التى تجعله يريحه ، ولذلك تمهد الأم لطفلها مكان نومه ، حتى ينام نوماً مريحاً . ولكن الذى يمهد الأرض لكل خلقه هو الله سبحانه وتعالى . يجعلها فراشاً لعباده . واذا قرآت قوله تعالى :

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ﴾

(من الآية ١٥ سورة الملك)

فإن معنى ذلك أن الحق سبحانه جعل الأرض مطيعة للإنسان ، تعطيه كل ما يحتاج إليه .

ويأتى الحق سبحانه وتعالى الى السماء فيقول : «والسماء بناءً» والبناء يفيد المتانة والتماسك . أى أن السماء ـ وهى فوقك ـ لانرى شيئا يحملها حتى لاتسقط عليك . إنها سقف متماسك متين . . ويؤكد الحق هذا المعنى بقوله تعالى :

﴿ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ﴾

(من الآية ٦٥ سورة الحج)

وفى أية اخرى يقول :

﴿ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ﴾

(من الآية ٣٢ سورة الانبياء)

والهدف من هذه الآيات كلها . أن نطمئن ونحن نعيش على الأرض أن السماء لن تتساقط علينا لأن الله يحفظها .

إذن من آيات الحق سبحانه وتعالى فى الأرض أنه جعلها فراشاً أى ممهدة ومريحة لحياة الانسان . وحفظ السماء بقدرته جل جلاله ، فهى ثابتة فى مكانها ، لاتهدد سكان الأرض وتفزعهم ، بأنها قد تسقط عليهم ، ثم جاء بآية اخرى :

«وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم»

فكأن الحق سبحانه وتعالى وضع فى الأرض وسائل استبقاء الحياة . فلم يترك الإنسان على الأرض دون أن يوفر له وسائل استمرار حياته . فالمطر ينزل من السماء ، والسماء هى كل ماعلاك فأظلك . فينبت به الزرع والثمر ، وهذا رزق لنا ، والناس تختلف فى مسألة الرزق . والرزق هو ماينتفع به ، وليس هو ما تحصل عليه.فقد تربح مالاً وافراً ولكنك لاتنفقه ولاتستفيد منه فلا يكون هذا رزقك ولكنه رزق غيرك ، وانت تظل حارساً عليه ، لا تنفق منه قرشاً واحداً ، حتى توصله الى صاحبه . والرزق فى نظر معظم الناس هو المال ، قال عليه الصلاة والسلام :

« يقول ابن ادم مالى مالى . . وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما اكلت فأفنيت ، ولبست فأبليت ، أو تصدقت فأمضيت»[1]

هذا هو رزق المال . وهو جزء من الرزق . ولكن هناك رزق الصحة . ورزق الولد . ورزق فى الطعام . ورزق فى البركة . وكل نعمة من الله سبحانه وتعالى هى رزق وليس المال وحده .

فالحق سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا بهذه الآية الكريمة الى أن نفكر قليلاً ، فيمن خلق هذا الكون . لنعرف أنه قبل أن يخلق الانسان خلق له عناصر بقائه . ولكن هذا الاعداد لم يتوقف عند الحياة المادية . بل ان الله كما أعد لنا مقومات حياتنا المادية

---

(١) رواه البخارى ومسلم وأبوداود والترمذى والنسائى ورواه احمد وهذه رواية مسلم بسنده عن مُطَرِّف عن أبيه .

أعد لنا مقومات حياتنا الروحية ، أو القيم فى الوجود . وإذا قرأت فى سورة الرحمن قوله تعالى :

﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤ ﴾

(سورة الرحمن)

لوجدت القرآن يعطينا قيم الحياة ، التى بدونهاتصبح الدنيا كلها لاقيمة لها . لأن الدنيا امتحان أو اختبار لحياة قادمة فى الآخرة . فإذا لم تأخذها بمهمتها فى أنها الطريق الذى يوصلك الى الجنة . أهدرت قيمتها تماماً .

ولم تعد الدنيا تعطيك شيئاً إلا العذاب فى الآخرة .

وقد ربط الحق سبحانه وتعالى الرزق فى هذه الآية بالسماء فقال سبحانه :

«فأخرج به من الثمرات رزقا لكم»

ليلفتنا الى أن الرزق ، لا يأتى إلا من أعلى ، وضرب الله سبحانه وتعالى المثل بالماء لانه رزق مباشر محسوس منا ، والماء ينزل من السماء فى أنقى صوره مقطراً . كل ما يأتينا من السماء . فيه علو . ينزل ليزيد حياة القيم ارتقاءً ، عملية لو أراد البشر أن يقوموا بها ما استطاعوا لأنها كانت ستتكلف ملايين الجنيهات ، لتعطينا ماءً لا يكفى أسرة واحدة . ولكن الله سبحانه وتعالى أنزل من السماء ماءً فى أنقى صوره لينبت به الثمرات ، التى تضمن استمرار الحياة فى هذا الكون .

وبعد أن نفهم هذه النعم كلها . والاعجاز الذى فيها ونستوعبها يقول الحق تبارك وتعالى : «فلا تجعلوا لله اندادا وانتم تعلمون»

«أندادا» جمع نِدّ ، والند هو النظير أو الشبيه . وأى عقل فيه ذرّة من فكر يبتعد عن مثل هذا ، فلا يجعل لله تعالى شبيهاً ولا نظيراً ولا يُشَبِّهُ بالله تعالى أحداً . فالله واحد فى قدرته ، واحد فى قوته ، واحد فى خلقه . واحد فى ذاته ، وواحد فى صفاته .

ولاتوجد مقارنة بين صفات الحق سبحانه وتعالى وصفات الخلق . والله خلق لكل منا عقلاً يفكر به ، لو عرضت هذه المسألة على العقل لرفضها تماماً ، لأنها لا تتفق مع عقل أو منطق ، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

«وأنتم تعلمون»

أى تعرفون هذا جيداً بعقولكم لأن طبيعة العقل ترفض هذا تماماً .

فمنذا الذى يستطيع أن يدعى أنه خلقكم والذين من قبلكم ؟! **ومنذا الذى** يستطيع أن يدعى ولو كذبا ، أنه هو الذى جعل الأرض فراشاً ، وجعل السماء سقفاً محفوظاً ، أو أنزل المطر وأنبت الزرع ؟ لا أحد . إذن فأنتم تعلمون أن العقل كله لله وحده ، ومادام لايوجد معارض ولايمكن أن يوجد . فالقضية محسومة للحق تبارك وتعالى .

والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ ﴾

(من الآية ١٦٥ سورة البقرة)

لماذا اتخذ هؤلاء الناس لله تعالى **أنداداً** ؟ لأنهم يريدون دينا بلا منهج . يريدون ان يرضوا فطرة الإيمان التى خلقها الله فيهم . وفى الوقت نفسه يتبعون شهواتهم . عندما فكروا فى هذا وجدوا أن أحسن طريقة هى أن يختاروا إلهاً بلا منهج ، لا يطلب منهم شيئاً ، ولذلك كل دعوة منحرفة تجد أنها تبيح ما حرم الله ، وتحل الانسان من كل التكاليف الايمانية كالصلاة والزكاة والجهاد وغيرها .

أما الذين آمنوا . فإنهم يعرفون أن الله سبحانه وتعالى إنما وضع منهجه لصالح الانسان : فالله لا يستفيد من صلاتنا ولا من زكاتنا . ولا من منهج الايمان شيئاً ، ولكننا نحن الذين نستفيد من رحمة الله . ومن نعم الله ومن جنته فى الآخرة .

ولأن الذين آمنوا يعرفون هذا فإنهم يحبون الله حبا شديداً ، والذين كفروا رغم

كل مايدعون فإنهم ساعة العسرة يلجأون الى الله سبحانه وتعالى باعتباره وحده الملجأ والملاذ . واقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ﴾

(من الآية ١٢ سورة يونس)

لماذا لم يستدع الأنداد ؟ لأن الانسان لايغش نفسه أبداً فى ساعة الخطر ، ولأن هؤلاء يعرفون بعقولهم أنه لايمكن أن يوجد لله أنداد . ولكنه يتخذهم لأغراض دنيوية . فإذا جاء الخطر . يلجأ الى الله سبحانه وتعالى . لأنه يعلم يقينا أنه وحده الذى يكشف الضر ، فحلاق الصحة الذى يعالج الناس دجلا . إذا مرض ابنه اسرع به الى الطبيب لأنه يغش الناس . ولكنه لا يمكن أن يغش نفسه .

ولقد كان الاصمعى واقفاً عند الكعبة ، فسمع اعرابياً يدعو ويقول :

«يارب أنت تعلم أنى عاصيك وكان من حقك على ألا أدعوك وأنا عاص . ولكنى أعلم أنه لا إله إلا أنت فلمن أذهب . «فقال الأصمعى : يا هذا إن الله يغفر لك لحسن مسألتك» .

﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾

بعد أن بين الحق سبحانه وتعالى لنا أن هؤلاء الذين يتخذون من دون الله انداداً لا يعتمدون على منطق ولا عقل . ولكنهم يعتمدون على شهوات دنيوية عاجلة . أراد أن يأتى بالتحدى بالنسبة للقرآن الكريم ـ المعجزة الخالدة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ـ حتى يثبت لهم أن الله سبحانه وتعالى إذا كان قد جعل خلق الكون إعجازاً محسا . . فإن القرآن منهج معجز إعجازاً قيماً . . قال الله جل جلاله :

« وان كنتم فى ريب » الخطاب هنا لكل كافر ومنافق غير مؤمن ، لأن الذين آمنوا بالله ورسوله ليس فى قلوبهم ريب ، بل هم يؤمنون بأن القرآن موحى به من الله ، مبلغ الى محمد صلى الله عليه وسلم بالوحى المنزل من السماء .

والريب : هو الشك . وقوله تعالى : « إن كنتم فى ريب » أى إن كنتم فى شك . من أين يأتى هذا الشك والمعجزة تحيط بالقرآن وبرسوله صلى الله عليه وسلم ؟ ما هى مبررات الشك ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم لايقرأ ولا يكتب ولم يعرف بالبلاغة والشعر بين قومه حتى يستطيع أن يأتى من عنده بهذا الكلام المعجز الذى لم يستطع فطاحل شعراء العرب الذين تمرسوا فى البلاغة واللغة ان يأتوا بآية من مثله . هذه واحدة . والثانية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يكذب أبداً ولم يعرف عنه كذب قبل تكليفه بالرسالة بل كانوا يلقبونه صلى الله عليه وسلم بالصادق الأمين . والذين كانوا يلقبون رسول الله صلى الله عليه وسلم هم الذين اتهموه بأن هذا القرآن ليس من عند الله . ايصدق رسول الله عليه الصلاة والسلام مع الناس . ويكذب على الله ؟! . . هذا مستحيل .

الكلام الذى جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو القرآن لم يكن احد ليستطيع أن يأتى به من فطاحل علماء البلاغة العرب . والعلم الذى نزل فى القرآن

الكريم . لم يكن يعرفه بشر فى ذلك الوقت . فكيف جاء النبى الأمى بهذا الكلام المعجز . وبهذا العلم الذى لا يعلمه البشر ؟! لو جلس الى معلم اوقرأ كتب الحضارات القديمة . لقالوا ربما استنبط منها ، ولكنه لم يفعل ذلك .

فمن أين دخل الريب الى قلوبهم ؟ لاشك أنه دخل من باب الباطل . والباطل لا حجة له . وبلاشك لقد فضحوا انفسهم بأنهم لايرتابون فى القرآن ولكنهم كانوا يريدونه أن ينزل على سيد من سادة قريش . واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾

(سورة الزخرف)

وهؤلاء المرتابون لم يجدوا حجة يواجهون بها القرآن ، فقالوا ساحر ، وهل للمسحور إرادة مع الساحر ؟ إذا كان ساحرا فلماذا لم يسحركم أنتم ؟ وقالوا مجنون . والمجنون يتصرف بلا منطق . . يضحك بلا سبب . ويبكى بلا سبب . ويضرب الناس بلا سبب . ولذلك رد الحق سبحانه عليهم بقوله تعالى :

﴿ نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾

(سورة القلم)

فهل يكون المجنون على خلق عظيم ؟ إذن فأسباب الريب كلها أو الأسباب التى تثير الشك غير موجودة . وغير متوافرة . ولايوجد سبب حقيقى واحد يجعلهم يشكون فى أن القرآن ليس من عند الله . ولكنهم هم القائلون كما يروى لنا الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾

(سورة الانفال)

إذن فكل أسباب الشك غير موجودة وأسباب اليقين هى الموجودة ومع ذلك ارتابوا وشكوا . وقوله سبحانه وتعالى :

«مما نزلنا على عبدنا»

فالقرآن الكريم وجد فى اللوح المحفوظ قبل أن يخلق الانسان ، وعندما جاء وقت مباشرته لمهمته فى الكون نزل من اللوح المحفوظ الى السماء الدنيا دفعة واحدة ثم انزله الله سبحانه وتعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم بقدر ما احتاجت اليه المناسبات والأحداث .

اذن فقوله «نزلنا» أى نزل من اللوح المحفوظ الى السماء الدنيا دفعة واحدة . وقوله تعالى «أنزل» أى أنزله آيات على محمد صلى الله عليه وسلم بحسب اقتضاء الأحداث والمناسبات .

الحق سبحانه وتعالى يقول : «على عبدنا» وهذه محتاجة الى وقفة . فالله جل جلاله . له عبيد وله عباد . كل خلق الله فى كونه عبيد لله سبحانه وتعالى . لايستطيعون الخروج عن مشيئة الله أو إرادته . هؤلاء هم العبيد . ولكن العباد هم الذين اتحدت مراداتهم مع مايريده الله سبحانه وتعالى . . تخلوا عن اختيارهم الدنيوى ، ليصبحوا طائعين لله باختيارهم ، أى أنهم تساووا مع المقهورين فى أنهم اختاروا منهج الله وتركوا أى اختيار يخالفه .

هؤلاء هم العباد ، وإذا قرأت القرآن الكريم تجد أن الله سبحانه وتعالى يشير الى العباد بأنهم الصالحون من البشر فيقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾

(سورة البقرة)

هذا ليس لكل خلق الله ، ولكنه للعباد . الذين إذا قال الله تعالى لهم افعلوا فعلوا وإذا قال الله لاتفعلوا لم يفعلوا . أى أنهم لايخالفون ـ بقدرتهم على الاختيار ـ منهج الله سبحانه وتعالى . ولذلك فى الجهاد لا يقول الحق سبحانه وتعالى عن المجاهدين أنهم عبيد . بل يقول جل جلاله :

﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ﴾

(سورة الاسراء)

وبعض المستشرقين الذين يحاولون الطعن فى القرآن الكريم يقولون ان كلمة عباد قد جاءت فى وصف غير المؤمن فى قوله تعالى :

﴿ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ﴾ (من الآية ١٧ سورة الفرقان)

نقول : انكم لم تفهموا أن هذا ساعة الحساب فى الآخرة ، وفى الآخرة كلنا عباد لأننا كلنا مقهورون فلا اختيار لأحد فى الآخرة وإنما الاختيار البشرى ينتهى ساعة الاحتضار ، ثم يصبح الانسان بعد ذلك مقهوراً .

فنحن جميعا فى الآخرة عباد ولكن الفرق بين العبيد والعباد هو فى الحياة الدنيا فقط . والعبودية هى ارقى مراتب القرب من الله تعالى . لأنك تأتى الى الله طائعاً . منفذاً للمنهج باختيارك . ولقد عرض على رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكون ملكاً رسولاً ، أو عبداً رسولا . فاختار أن يكون عبداً رسولا . وإذا أردنا أن نعرف معنى العبودية نقرأ فى سورة الإسراء :

﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ ﴾

(من الآية ١ سورة الأسراء)

لنرى أنه فى أعلى درجات الانعام من الله سبحانه وتعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم فى المعجزة الكبرى التى لم تحدث لبشر قبله صلى الله عليه وسلم سواء كان رسولاً أو غير رسول ، ولن تحدث لبشر بعده . . ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صعد الى السموات السبع بالروح وبالجسد ثم عاد الى الأرض . وتجاوز رسول الله صلى الله عليه وسلم منزلة جبريل فتجاوز سدرة المنتهى وهى المكان الذى ينتهى اليه علم خلق الله من البشر والملائكة المقربين .

وبشرية الرسول اخذت جدلاً كبيرا منذ بدأت الرسالات السماوية . وحتى عصرنا هذا . واقرأ قوله تعالى :

﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا ﴾

(من الآية ٢٧ سورة هود)

وقوله تعالى :

﴿ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ ﴾

(سورة القمر)

وقوله تعالى :

﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ ﴾

(سورة الاسراء)

وقوله تعالى :

﴿ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾

(سورة المؤمنون)

إذن فبشرية الرسول اتخذت حجة للذين لا يريدون أن يؤمنوا والرسول مبلغ عن الله . ولابد أن يكون من جنس القوم الذين أرسل اليهم . ولابد أن يكون قد عاش

بينهم فترة قبل الرسالة واشتهر بالأمانة والصدق حتى لايكذبوه . وفى الوقت نفسه هو قدوة . ولذلك لابد أن يكون من جنس قومه . لانه سيطبق المنهج عمليا أمامهم . ولو كان من جنس آخر لقالوا لانطيق ما كلفتنا به يارب . لأن هذا رسول الله مخلوق من غير مادتنا . ومقهور على الطاعة .

إذن فبشرية الرسول حتمية . وكل من يحاول أن يعطى الرسول صفة غير البشرية . إنما يحاول أن ينقص من كمالات رسالات الله ، والله سبحانه وتعالى ليس عاجزاً ، عن أن يحول البشر الى ملائكة واقرأ قوله تعالى :

﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾

(سورة الزخرف)

إذن فبشرية الرسول هى من تمام الرسالة .

ثم يأتى التحدى من الله سبحانه وتعالى «فأتوا بسورة من مثله» والمطلوب أن يأتى العرب بسورة من مثل ما جاء به القرآن الكريم .

الشهود الذين يطلب الله دعوتهم هم شهود ضعفاء . شهود من البشر وليست شهادة من الله بالغيب .

والله سبحانه وتعالى وضع فى هذه الآية معظم الشكوك لنفحصها ، ولنصل فيما بعد ذلك الى جوهر الاعجاز القرآنى .

والحق سبحانه وتعالى تدرج فى التحدى مع الكافرين . فطلب منهم أن يأتوا بمثل القرآن ، ثم طلب عشر سور من مثله . ثم تدرج فى التحدى فطلب سورة واحدة . والنزول فى التحدى من القرآن كله إلى عشر سور . الى سورة واحدة . دليل ضد من تحداهم . فلا يستطيعون ان يأتوا بمثل القرآن ، فيقول : إذن فأتوا بعشر سور . فلا يستطيعون ويصبح موقفهم مدعاة للسخرية . فيقول : فأتوا بسورة . وهذا منتهى الاستهانة بالذين تحداهم الله سبحانه وتعالى وإثباتاً لأنهم لا يقدرون على شىء .

وكلمة بمثل . معناها أن الحق سبحانه وتعالى يطلب المثيل ولا يطلب نص القرآن وهذا إمعان وزيادة فى إظهار عجز القوم الذين لا يؤمنون بالله ويشككون فى القرآن . وقوله تعالى : «وادعو شهداءكم» .

معناه أن الله سبحانه وتعالى زيادة فى التحدى يطالبهم بأن يأتوا هم بالشهداء ويعرضوا عليهم الآية ليحكم هؤلاء الشهود إذا كان ما جاءوا به مثل القرآن أم لا . أليس هذا اظهار منتهى القوة لله سبحانه وتعالى لأنه لم يشترط شهداء من الملائكة ولاشهداء من الذين اشتهر عنهم الصدق . وانهم يشهدون بالحق . بل ترك الحق سبحانه لهم أن يأتوا بالشهداء وهؤلاء الشهداء لن يستطيعوا أن يشهدوا أن كلام هؤلاء المشككين يماثل سورة من القرآن .

الله سبحانه وتعالى طلب منهم أن يأتوا بأى شهداء متحيزين لهم . وأطلقها سبحانه وتعالى على كل أجناس الأرض فقال : «من دون الله إن كنتم صادقين» ولكن إياكم أن تقولوا يشهد الله بأن ما جئنا به مثل القرآن . لأنكم تكونون قد كذبتم على الله وادعيتم شيئا لم يقله سبحانه وتعالى .

ولكن ما معنى قوله تعالى : «ان كنتم صادقين» صادقين فى ماذا ؟ وما هو الصدق ؟ الصدق يقابل الكذب ، والصدق والكذب ، كل منهما نسبى . كلنا يعلم أن هناك كلاماً غير مفيد ، فإذا قلت محمد وسَكَتَّ فمن يسمعك سيسألك ، ماذا تقصد بقولك محمد ؟ وسؤاله دليل على أنه لم يستفد شيئاً ، ولكنه لو سألك من عندك ؟ وأجبت محمد فكأنك تخبره بأن عندك محمداً وهذه كلمة واحدة لكنك فهمتها بالمعنى الذى اخذته من كلام السائل . إذن فلا تقل كلمة واحدة ولكن قل كلاماً مفيداً . إذن فالكلام المفيد هو الذى يسكت السامع عليه .

وكل متكلم قبل أن ينطق بالكلام يكون عنده نسبة ذهنية لما سيقول ، يعبر عنها بنسبة كلامية . ولكن هناك نسبة خارجية لما يقول تمثل الواقع .

أى أنك لو قلت محمد مجتهد فلابد أن يكون هناك شخص اسمه محمد . ولابد أن يكون مجتهداً فعلاً . لتتطابق النسبة الكلامية . مع النسبة الواقعية . فاذا لم يكن هناك شخص اسمه محمد . أو كان هناك شخص اسمه محمد ولكنه ليس مجتهداً ،

فإن النسبة الكلامية تخالف النسبة الواقعية .

والصدق أن تتطابق النسبة الكلامية والنسبة الواقعية . «والكذب» ألا تتطابق النسبة الكلامية مع النسبة الواقعية . . هذا المفهوم ضرورة لعرض معنى الآية الكريمة .

إذن فقوله تعالى «صادقين» أى أن تتطابق النسب الكلامية التى ستقولونها مع نسبة واقعية تستطيعون أن تدللوا عليها . فإن لم يحدث ذلك فأنتم كاذبون .
فالله سبحانه وتعالى يريد منكم الدليل على صدقكم .

﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾

بعد أن تحدث الله سبحانه وتعالى عن الأدلة التى يستند اليها المشككون فى القرآن الكريم . وهى أدلة لاتستند الى عقل ولا الى منطق . تحداهم بأن يأتوا بسورة مثل القرآن ، وأن يستعينوا بمن يريدون من دون الله ، لأن القرآن كلام الله ، والله سبحانه هو القائل . وبما أنهم يحاولون التشكيك فى أن القرآن كلام الله . وأنه منزل من عند الله ، فليستعينوا بمن يريدون ليأتوا بآية من مثله ، لأن التحدى هنا لايمكن أن يتم إلا إذا استعانوا بجميع القوى ما عدا الله سبحانه وتعالى .

ثم يأتى الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك بالنتيجة قبل أن يتم التحدى . لأن الله سبحانه وتعالى يعلم أنهم لن يفعلوا ولن يستطيعوا .

إن قوله سبحانه : «فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا» معناه أنه حكم عليهم بالفشل وقت نزول القرآن وبعد نزول القرآن الى يوم القيامة . لأن الله لايخفى عن علمه شىء . فهو بكل شىء عليم . وكلمة «لم تفعلوا» عندما تأتى قد تثير الشك . فنحن نعرف ان مجىء ان الشرطية يثير الشك . . لأن الأمر لكى يتحقق يتعلق بشرط . وانت إن قلت إن ذاكرت تنجح ، ففى المسألة شك . . أما إذا قلت كقول الحق «إذا جاء نصر الله والفتح» فمعنى ذلك أن نصر الله آت لامحالة .

و«إن» حرف و«إذا» ظرف ، وكل حدث يحتاج إلى مكان وزمن . فإذا جئت باداة الشرط فمعنى ذلك أنك تقربها من عنصر تكوين الفعل والحدث . فإذا أردت ان تعبر عن شىء سيتحقق تقول إذا ، وإذا اردت أن تشكك فيه تقول «إن» والله سبحانه وتعالى قال «فإن لم تفعلوا» ولأن الفعل ممكن الحدوث أراد أن يرجح الجانب المانع فقال «ولن تفعلوا» هذا أمر اختيارى . فإذا تكلمت عن أمر اختيارى ثم حكمت أنه

لن يحدث . فكأن قدرتك هى التى منعته من الفعل . فلا يقال أنك قهرته على ألا يفعل. لا. علمت أنه لن يفعل . فاستعداداته لايمكن ان تمكنه من الفعل .

وهذه أمور ضمن اخبارات القرآن الكريم فى القضايا الغيبية التى أخبر عنها ، فعندما يقول الله سبحانه وتعالى «وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم» معناه أنهم مصدقون ولكن السنتهم لا تعترف بذلك . وقوله تعالى «فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا» معناه أن الشك مفتعل فى نفوسهم ؛هم لا يريدون أن يؤمنوا ولذلك يأتون بسبب مفعتل لعدم الايمان . لقد استقر فكرهم على أنهم لا يؤمنون ، ومادام هذا هو ماقررتموه . فإنكم ستظلون تبحثون عن أسباب ملفقة لعدم الايمان .

وقوله تعالى : « فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة » .

الحق سبحانه وتعالى يريد هنا ان يلفتنا الى صورة اخرى عن عجز هؤلاء الكفار . فهم بحثوا عن أعذار ، ليبرروا بها عدم ايمانهم وتظاهروا بأنهم يشكون فى القرآن الكريم . يقول لهم : لو كانت لكم قدرة وذاتية فعلا فامنعوا انفسكم من دخول النار يوم القيامة . كما منعتم انفسكم من الايمان فى الدنيا .

وهذا وعيد من الله . لقد أعطاهم ذاتية الاختيار فى الدنيا ولم يختاروا قهراً بل اختاروا عدم الايمان بمشيئة الاختيار التى أعطاها الله لهم . ولكن هناك وقت ليس فيه اختيار وهو الآخرة فحاولوا ان تتقوا فى الآخرة عذاب النار يوم القيامة . ولكن لن يكون لأحد اختيار . فالله سبحانه وتعالى يقول فى ذلك اليوم:

﴿ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾

(من الآية ١٦ سورة غافر)

ويقول جل جلاله :

﴿ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾ ﴾

(سورة الانفطار)

فإرادتكم التى منعتكم من الايمان . . لن تقيكم يومئذ من عذاب النار .
واقرأ قوله تعالى :

﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ ﴾

(سورة الأنبياء)

لماذا هم ومايعبدون ؟ لأن العابد يرتجى نفع المعبود . فكأنهما عندما يرى كل منهما الآخر فى العذاب . تكون الحسرة أشد . ولذلك فإن الحجارة والأصنام التى يعبدونها ستكون معهم فى النار يوم القيامة . وليس هذا عقاباً للأحجار والأصنام . لأنها خلق مقهور لله مسبح له ، ولكن هذه الاصنام والأحجار تكون راضية وهى تحرق الذين كفروا بالله . وتقول : «عبدونا ونحن أعبد لله من المستغفرين بالأسحار» .

وقوله تعالى : «اعدت للكافرين» الله سبحانه وتعالى يخبرهم وهم فى الدنيا ، ان النار أعدت للكافرين . وقوله تعالى النار اعدت للكافرين تطمين غاية الاطمئنان للمؤمن . وإرهاب غاية الإرهاب للكافر . . وقوله تعالى «أعدت» معناها أنها موجودة فعلاً وإن لم نكن نراها . وأنها مخلوقة وإن كانت محجوبة عنا .

ورسول الله صلى الله عليه وسلم قال :
« عرضت علىّ الجنة ولو شئت أن آتيكم منها بقطاف لفعلت » .

وهذا دليل على أنها موجودة فعلاً .

والمؤمن حينما يعلم أن الجنة موجودة فعلاً وأن الايمان سيقوده اليها فإنه يحس بالسعادة ويشتاق للجنة . فإذا سمع قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾ ﴾

(سورة المؤمنون)

ساعة تقرأ هذه الآية الكريمة تعرف أن الله سبحانه وتعالى سيجعلك فى الجنة

تأخذ ما كان لغيرك . لأن الميراث يأتيك من غيرك . وقد سبق علم الله سبحانه وتعالى خلق الناس جميعاً . وقبل أن يخلق أعد لكل خلقه مقعداً فى النار ومقعداً فى الجنة . الذين سيدخلون النار خالدين فيها ، مقاعدهم فى الجنة ستكون خالية ، فيأتى الله سبحانه وتعالى يعطيها للمؤمنين ليرثوها فوق مقاعدهم ومنازلهم فى الجنة . والحق سبحانه عندما يقول : «اعدت» فهى موجودة فعلاً .

﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

وبعد أن بين الله سبحانه وتعالى لنا مصير الكافرين الذين يشككون فى القرآن ليتخذوا من ذلك عذراً لعدم الايمان . قال : إذا كنتم قد اخترتم عدم الايمان ، بما أعطيتكم من اختيار فى الدنيا ، فإنكم فى الآخرة لن تستطيعوا ان تتقوا النار . ولن تكون لكم إرادة .

ثم يأتى الحق تبارك وتعالى بالصورة المقابلة . والقرآن الكريم إذا ذكرت الجنة يأتى الله بعدها بالصورة المقابلة وهى العذاب بالنار.وإذا ذكرت النار بعذابها ولهيبها ذكرت بعدها الجنة . وهذه الصورة المتقابلة لها تأثير على دفع الايمان فى النفوس . فإذا قرأ الانسان سورة للعذاب ثم جاء بعدها النعيم فإنه يعرف أنه قد فاز مرتين . فالذى يزحزح عن النار ولايدخلها يكون ذلك فوزاً ونعمة ، فإذا دخل الجنة تكون نعمة أخرى . ولذلك فإن الله تعالى يقول :

﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ ﴾

(من الآية ١٨٥ سورة آل عمران)

ولم يقل سبحانه ومن أدخل الجنة فقد فاز . لأن مجرد أن تزحزح عن النار فوز عظيم . . وفى الآخرة. وبعد الحساب يضرب الصراط فوق جهنم ، ويعبر من فوقه المؤمنون والكافرون . فالمؤمنون يجتازون الصراط المستقيم كل حسب عمله منهم من يمر بسرعة البرق . ومنهم من يمر اكثر بطأً وهكذا ، والكافرون يسقطون فى النار . .

ولكن لماذا يمر المؤمنون فوق الصراط . والله سبحانه وتعالى قال :

﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ ﴾

(سورة مريم)

لأن مجرد رؤية المؤمنين لجهنم نعمة كبرى ، فحين يرون العذاب الرهيب الذى أنجاهم الايمان منه يحس كل منهم بنعمة الله عليه . أنه أنجاه من هذا العذاب . وأهل النار وأهل الجنة يرى بعضهم بعضاً . فأهل الجنة حينما يرون اهل النار يحسون بعظيم نعمة الله عليهم . إذ أنجاهم منها ، وأهل النار حين يرون أهل الجنة يحسون بعظيم غضب الله عليهم ان حرمهم من نعيمه ، فكأن هذه الرؤية نعيم لأهل الجنة وزيادة فى العذاب لأهل النار . . والله سبحانه وتعالى يقول :

«وبشر» والبشارة هى الاخبار بشىء سار قادم لم يأت وقته بعد . فأنت إذا بشرت إنساناً بشىء أعلنته بشىء سار قادم . والبشارة هنا جاءت بعد الوعيد للكافرين .

والإنذار هو اخبار بأمر مخيف . لم يأت وقته بعد .

ولكن البشارة تأتى أحيانا فى القرآن الكريم ويقصد بها الكفار . واقرأ قوله تعالى :

﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ ﴾

(سورة الجاثية)

البشارة هنا تهكمية من الله سبحانه وتعالى. فالحق تبارك وتعالى يريد أن يزيد عذاب الكفار ، فعندما يسمعون كلمة «فبشرهم» يعتقدون أنهم سيسمعون خبراً ساراً ، فيأتى بعدها العذاب الأليم ليزيدهم غما على غم .

يقول الحق سبحانه وتعالى : « وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات » .

البشرى هنا إعلام بخير قادم للمؤمنين ، والايمان هو الرصيد القلبى للسلوك . لأن من يؤمن بقضية يعمل من أجلها ، التلميذ يذاكر لأنه مؤمن أنه سينجح ، وكل عمل سلوكى لابد أن يوجد من ينبوع عقيدى . والايمان أن تنسجم حركة الحياة مع مافى القلب وفق مراد الله سبحانه وتعالى : ونظام الحياة لا يقوم إلا على إيمان . . فكأن العمل الصالح ينبوعه الايمان . ولذلك يقول القرآن الكريم :

﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ﴾

(سورة العصر)

وفى آية اخرى :

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝٣٣ ﴾

(سورة فصلت)

ولكن هل يكفى الاعلان عن كونى من المسلمين ؟ لا بل لابد ان يقترن هذا الاعلان بالعمل بمرادات الله سبحانه وتعالى

الحق سبحانه وتعالى يُريدُ أن يلفتنا . . الى أن قولنا « لا اله الا الله محمد رسول الله » . . لابد أن يصاحبه عمل بمنهج الاسلام . . ذلك أن نطقنا بالشهادة لا يزيد فى ملك الله شيئا . . فالله تبارك وتعالى شهد بوحدانية ألوهيته لنفسه ، وهذه شهادة الذات للذات . . ثم شهد الملائكة شهادة مشهد لأنهم يرونه سبحانه وتعالى . . ثم شهد أولو العلم شهادة دليل بما فتح عليهم الله جل جلاله من علم . . وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١٨ ﴾

(سورة آل عمران)

ولكن الحق سبحانه وتعالى يريد من المؤمنين أن يعملوا بالمنهج .. لماذا ؟.. حتى لاتتعاند حركة الحياة بل تتساند .. وما دامت حركة الحياة مستقيمة .. فإنها تصبح حياة متساندة وقوية .. وعندما انتشر الاسلام فى بقاع الأرض لم يكن الهدف أن يؤمن الناس فقط لمجرد الايمان .. ولكن لابد أن تنسجم حركة الحياة مع منهج الاسلام .. فإذا ابتعدت حركة الحياة عن المنهج .. حينئذ لا يخدم قضية الدين أن يؤمن الناس أو لا يؤمنوا .. ولذلك لابد أن ينص على الإيمان والعمل الصالح .. « والذين آمنوا وعملوا الصالحات » .. والصالحات هى جمع صالحة .. والصالحة هى الأمر المستقيم مع المنهج ، وضدها الفساد .. وحين يستقبل الإنسان الوجود .. فان أقل الصالحات هو أن يترك الصالح على صلاحه أو يزيده صلاحا .

الحق تبارك وتعالى يبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات بجنات تجرى من تحتها الأنهار .. والجنات جمع جنة ، وهى جمع لأنها كثيرة ومتنوعة .. وهناك درجات فى كل جنة أكثر من الدنيا .. واقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْـَٔاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾ ﴾

(سورة الاسراء)

الجنات نفسها متنوعة .. فهناك جنات الفردوس ، وجنات عدن ، وجنات نعيم .. وهناك دار الخلد ، ودار السلام ، وجنة المأوى .. وهناك عِلِّيُون الذى هو أعلى وأفضل الجنات .. وأعلى ما فيها التمتع برؤية الحق تبارك وتعالى .. وهو نعيم يعلو كثيرا عن أى نعيم فى الطعام والشراب فى الدنيا ..

والطعام والشراب بالنسبة لأهل الجنة لا يكون عن جوع أو ظمأ .. وإنما عن مجرد الرغبة والتمتع . والله جل جلاله فى هذه الآية يَعِدُ بأمرٍ غيبى .. ولذلك فإنه لكى يقرب المعنى الى ذهن البشر .. لابد من استخدام ألفاظ مشهودة وموجودة .. أى عن واقع نشهده . واقرأ ، قوله تبارك وتعالى :

﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة السجدة)

إذن ما هو موجود فى الجنة لا تعلمه نفس فى الدنيا . . ولا يوجد لفظ فى اللغة يعبر عنه . . ولا ملكة من ملكات المعرفة كالسمع والنظر قد رأته . . ولذلك استخدم الحق تبارك وتعالى الألفاظ التى تتناسب مع عقولنا وإداركنا . . فقال تعالى : « جنات تجرى من تحتها الأنهار » . .

على أن هناك آيات أخرى تقول : « تجرى تحتها الأنهار » ما الفرق بين الاثنين . . تجرى تحتها الأنهار . . أى أن نبع الماء من مكان بعيد وهو يمر من تحتها . . أما قوله تعالى : « من تحتها الأنهار » فكأن الأنهار تنبع تحتها . . حتى لا يخاف انسان من أن الماء الذى يأتى من بعيد يقطع عنه أو يجف . . وهذه زيادة لاطمئنان المؤمنين أن نعيم الجنة باق وخالد . .

وما دام هناك ماء فهناك خضرة ومنظر جميل ولا بُدّ أَنْ يكون هناك ثمر . . وفى قوله تعالى : « كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذى رزقنا من قبل وأتوا به متشابها » . . حديث عن ثمر الجنة . . وثمر الجنة يختلف عن ثمر الدنيا . . إنك فى الدنيا لابد أن تذهب الى الثمرة وتأتى بها أو يأتيك غيرك بها . . ولكن فى الجنة الثمر هو الذى يأتى اليك . . بمجرد أن تشتهيه تجده فى يدك . . وتعتقد أن هناك تشابها بين ثمر الدنيا وثمر الجنة . . ولكن الثمر فى الجنة ليس كثمر الدنيا لا فى طعمه ولا فى رائحته . . وإنما يرى أهل الجنة ثمرها ويتحدثون يقولون ربما تكون هذه الثمرة هى ثمرة المانجو أو التين الذى أكلناه فى الدنيا . . ولكنها فى الحقيقة تختلف تماما . . قد يكون الشكل متشابها ولكن الطعم وكل شىء مختلف . .

فى الدنيا كل طعام له فضلات يخرجها الانسان . . ولكن فى الآخرة لا يوجد للطعام فضلات بل ان الانسان يأكل كما يشاء دون أن يحتاج إلى إخراج فضلات ، وذلك لاختلاف ثمار الدنيا عن الآخرة فى التكوين . .

اذن ففى الجنة الأنهار مختلفة والثمار مختلفة . . والجنة يكون الرزق فيها من الله سبحانه وتعالى الذى يقول « للشىء كن فيكون » . . ولا أحد يقوم بعمل .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى : «ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون»

الزوجة هى متعة الإنسان فى الدنيا إن كانت صالحة . . والمنغصة عليه إن كانت غير صالحة . . وهناك منغصات تستطيع أن تضعها المرأة فى حياة زوجها تجعله شقيا فى حياته . . كأن تكون سليطة اللسان أو دائمة الشجار . . أو لا تعطى اهتماما لزوجها أو تحاول اثارته بأن تجعله يشك فيها . . أما فى الآخرة فتزول كل هذه المنغصات وتزول بأمر الله . فالزوجة فى الآخرة مطهرة من كل ما يكرهه الزوج فيها ، وما لم يحبه فى الدنيا يختفى . فالمؤمنون فى الآخرة مطهرون من كل نقائص الدنيا ومتاعبها وأولها الغل والحقد . . واقرأ قوله جل جلاله :

﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾

(سورة الحجر)

فمقاييس الدنيا ستختفى وكل شىء تكرهه فى الدنيا لن تجده فى الآخرة . . فإذا كان أى شىء قد نغص حياتك فى الدنيا فإنه سيختفى فى الآخرة . . والحق تبارك وتعالى ضرب المثل بالزوجات لأن الزوجة هى متعة زوجها فى الدنيا . . وهى التى تستطيع أن تحيل حياته الى نعيم أو جحيم . .

وقوله تعالى : « وهم فيها خالدون » . . أى لا موت فى الآخرة ولن يكون فى الآخرة وجود للموت أبدا ، وإنما فيها الخلود الدائم إما فى الجنة وإما فى النار .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾

بعد أن تحدث الحق تبارك وتعالى عن الجنة .. وأعطانا مثلا يقرب لنا صور النعيم الهائلة التى سينعم بها الإنسان فى الجنة .. أراد أن يوضح لنا المنهج الايمانى الذى يجب أن يسلكه كل مؤمن .. ذلك أن الله سبحانه وتعالى لا يكلف كافرا بعبادته .. ولكن الانسان الذى ارتضى دخول الايمان بالله جل جلاله قد دخل فى عقد إيمانى مع الله تبارك وتعالى .. وما دام قد دخل العقد الايمانى فانه يتلقى عن الله منهجه فى افعل ولا تفعل .. وهذا المنهج عليه أن يطبقه دون أن يتساءل عن الحكمة فى كل شىء .. ذلك أن الايمان هو إيمان بالغيب .. فاذا كان الشىء نفسه غائبا عنا فكيف نريد ان نعرف حكمته ..

إن حكمة أى تكليف ايمانى هى : انه صادر من الله سبحانه وتعالى ، ومادام صادرا من الله فهو لم يصدر من مُساوٍ لك كى تناقشه ، ولكنه صادر من إله وجبت عليك له الطاعة لأنه اله وأنت له عابد .. فيكفى أن الله سبحانه وتعالى قال افعل حتى نفعل .. ويكفى أنه قال لا تفعل حتى لا نفعل ..

الحكمة غائبة عنك .. ولكن صدور الأمر من الله هو الحكمة ، وهو الموجب للطاعة .. فأنا أصلى لأن الله فرض الصلاة ، ولا أصلى كنوع من الرياضة .. وأنا أتوضأ لأن الله تبارك وتعالى أمرنا بالوضوء قبل الصلاة .. ولكننى لا أتوضأ كنوع من النظافة .. وأنا أصوم لأن الله أمرنى بالصوم .. ولا أصوم حتى أشعر بجوع الفقير .. لأنه لو كانت الصلاة رياضة لا ستبدلناها بالرياضة فى الملاعب .. ولو أن الوضوء كان نظافة لقمنا بالاستحمام قبل كل صلاة .. ولو أن الصوم كان لنشعر بالجوع ما وجب على الفقير أن يصوم لأنه يعرف معنى الجوع ..

اذن فكل تكاليف من الله نفعلها لأن الله شرعها ولا نفعلها لأى شىء آخر . . وكل ما يأتينا من الله من قرآن نستقبله على أنه كلام الله ولا نستقبله بأى صيغة أخرى . . ذلك هو الايمان الذى يريد الله منا أن نتمسك به ، وأن يكون هو سلوك حياتنا .

تلك مقدمة كان لابد منها اذا أردنا أن نعرف معنى الآية الكريمة : « إن الله لا يستحيى ان يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها » وعندما ضرب الله مثلا بالبعوضة . . استقبله الكفار بالمعنى الدنيوى دون أن يفطنوا للمعنى الحقيقى . . قالوا كيف يضرب الله مثلا بالبعوضة ذلك المخلوق الضعيف . . الذى يكفى أن تضربه بأى شىء أو بكفك فيموت ؟ . لماذا لم يضرب الله تبارك وتعالى مثلا بالفيل الذى هو ضخم الجثة شديدة القوة . . أو بالأسد الذى هو أقوى من الإنسان وضرب لنا مثلا بالبعوضة فقالوا : « ماذا أراد الله بهذا مثلا » . . ولم يفطنوا الى أن هذه البعوضة دقيقة الحجم خلقها معجزة . . لأن فى هذا الحجم الدقيق وضع الله سبحانه وتعالى كل الأجهزة اللازمة لها فى حياتها . . فلها عينان ولها خرطوم دقيق جدا ولكنه يستطيع أن يخرق جلد الانسان . . ويخرق الأوعية الدموية التى تحت الجلد ليمتص دم الانسان . .

والبعوضة لها أرجل ولها أجنحة ولها دورة تناسلية ولها كل ما يلزم لحياتها . . كل هذا فى هذا الحجم الدقيق . . كلما دق الشىء احتاج الى دقة خلق أكبر . .

ونحن نشاهد فى حياتنا البشرية أنه مثلا عندما اخترع الانسان الساعة . . كان حجمها ضخما جدا لدرجة أنها تحتاج الى مكان كبير . . وكلما تقدمت الحضارة وارتقى الانسان فى صناعته وحضارته وتقدمه ، أصبح الحجم دقيقا وصغيرا ، وهكذا أخذت صناعة الساعات تدق . . حتى أصبح من الممكن صنع ساعة فى حجم الخاتم أو أقل . . وعندما بدأ اختراع المذياع أو الراديو كان حجمه كبيرا . . والآن أصبح فى غاية الدقة لدرجة انك تستطيع أن تضعه فى جيبك أو أقل من ذلك . . وفى كل الصناعات عندما ترتقى . . يصغر حجمها لأن ذلك محتاج الى صناعة ماهر والى تقدم علمى . .

وهكذا حين ضرب الله مثلا بالبعوضة وما فوقها . . أى بما هو أقل منها حجما . . فإنه تبارك وتعالى أراد أن يلفتنا الى دقة الخلق . . فكلما لطف الشىء وصغر حجمه

احتاج الى دقة الخلق . . ولكن الكفار لم يأخذوا المعنى على هذا النحو وإنما أخذوه بالمعنى الدنيوى البسيط الذى لايمثل الحقيقة .

فالله سبحانه وتعالى حينما ضرب هذا المثل . . استقبله المؤمنون بأنه كلام الله . . واستقبلوه بمنطق الايمان بالله فصدقوا به سواء فهموه أم لم يفهموه . . لأن المؤمن يصدق كل ما يجىء من عند الله سواء عرف الحكمة أو لم يعلمها . . واقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿ وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾

(سورة الاعراف)

إن كل مصدق بالقرآن لا يطلب تأويله أو الحكمة فى آياته . . ولذلك قال الكافرون : « ماذا أراد الله بهذا مثلا » ويأتى رد الحق تبارك وتعالى : « يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا وما يضل به الا الفاسقين » . . ومن هم الفاسقون ؟ . . هم الذين

ينقضون عهد الله . . أول شىء فى الفسق أن ينقض الفاسق عهده . . ويقال فسقت الرطبة أى بعدت القشرة عن الثمر . . فعندما تكون الثمرة أو البلحة حمراء تكون القشرة ملتصقه بالثمرة بحيث لا تستطيع أن تنزعها منها . . فاذا أصبحت الثمرة

أو البلحة رطبا تسود قشرتها وتبتعد عن الثمرة بحيث تستطيع أن تنزعها عنها بسهولة . . هذا هو الفاسق المبتعد عن منهج الله . . ينسلخ عنه بسهولة ويسر ، لأنه غير ملتصق به . . وعندما تبتعد عن منهج الله فإنك لا ترتبط بأوامره ونواهيه . .

فلا تؤدى الصلاة مثلا وتفعل ما نهى الله عنه لأنك فسقت عن دينه . . والذى أوجد الفسق هو أن الانسان خلق مختارا . . قادرا على أن يفعل أو لا يفعل . . وبهذا الاختيار أفسد الانسان نظام الكون . . فكل شيء ليس للانسان اختيار فيه تراه يؤدى مهمته بدقة عالية كالشمس والقمر والنجوم والأرض . . كلها تتبع نظاما دقيقا لا يختل لأنها مقهورة . . ولو أن الإنسان لم يخلق مختارا . . لكان من المستحيل أن يفسق . . وان يبتعد عن منهج الله ويفسد فى الأرض . . ولكن هذا الاختيار هو أساس الفساد كله .

﴿ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾

بعد أن شرح الله لنا مفهوم الايمان . فى أننا نتلقى عن الله وننفذ الحكم ولو لم نعرف الحكمة . فكل ما يأتى من الله نأخذه بمنطق الايمان ، وهو أن الله الذى قال . وليس بمنطق الكفر والتشكك . فكل شيء عن الله حكمته أنه صادر عن الحق سبحانه وتعالى .

وأخبرنا الحق تبارك وتعالى أن الفاسقين هم المبتعدون عن منهج الله . وأراد الحق أن يبين لنا صفات الفاسقين . فحددها فى ثلاث صفات .. اولا : الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه . . ثانيا الذين يقطعون ما أمر الله به أن يوصل . ثالثا : الذين يفسدون فى الأرض . ثم حدد لنا الحق تبارك وتعالى حكمهم فقال : أولئك هم الخاسرون . والخسران الذى وصلوا اليه هو من عملهم . لأنهم تركوا المنهج وبدأوا يشرعون لأنفسهم بهوى النفس . ولذلك يقول الحق جل جلاله عنهم :

﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة البقرة)

إذن هم الذين اختاروا ، وهم الذين اشتروا الضلالة ودفعوا ثمنها من هدى الله . فكأنهم عقدوا صفقة خاسرة . لأن هدى الله هو الذى يقودنا الى الحياة الخالدة والنعيم الذى لا يزول .

والحق سبحانه وتعالى يعطينا الصورة فى قوله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ﴾

(سورة التوبة)

إذن فالمؤمنون باعوا لله سبحانه وتعالى أموالهم وأنفسهم ، وكانوا صادقين فى عهدهم . أما الكفار والمنافقون ، فقد باعوا هدى الله ، واشتروا به ضلال الدنيا . فالحق سبحانه وتعالى ذكر لنا أول صفات الفاسقين أنهم لا عهد لهم . ليس بينهم وبين الناس فقط . ولكن لا عهد لهم مع الله ايضا . وكلما عاهدوا الله عهدا نقضوه . والله يحب الوفاء بالعهد . ولذلك يقول جل جلاله :

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ ﴾

(سورة الاسراء)

ويقول تعالى :

﴿ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

ما هو العهد الموثق الذى أخذه الله على عباده فنقضوه ؟ انه الايمان الأول . الايمان

الفطرى الموجود فى كل منا . فالله سبحانه وتعالى أخذ من البشر جميعا عهدا ، فوفى به بعضهم ونقضه بعضهم .

والله سبحانه وتعالى ذكر لنا فى القرآن الكريم . أن هناك عهدا موثقا بينه وبين ذرية آدم . فقال جل جلاله :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

وهكذا أخذ الله عهدا على ذرية آدم بأن يؤمنوا به وأشهدهم أنه ربهم . وجاءت الغفلة إلى القلوب بمرور الوقت . فنقضوا العهد واتخذوا آلهة من دون الله . اذن أول صفات الفاسقين أنهم نقضوا عهد الله . والذى ينقض عهدا مع بشر ، فسلوكه هذا لا يقبله الحق سبحانه وتعالى حتى مع الكفار وغير المؤمنين.واقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ ﴾

(سورة التوبة)

وهكذا نرى أن الحق تبارك وتعالى حين أعلن براءته وبراءة رسوله صلى الله عليه وسلم وبراءة المؤمنين من كل كافر مشرك فى قضية ايمانية كبرى . حرم الله فيها على الكفار والمنافقين أن يقتربوا من بيته الحرام فى مكة ، احترم جل جلاله العهد . حتى مع المشركين . وطلب من المؤمنين أن يوفوا به . فاذا كان هذا هو المسلك الايمانى مع كل كافر ومشرك إن كنت قد عاهدته عهدا فأوف به الى مدته . فكيف بالمشركين وقد عاهدوا الخالق الأعظم . ثم ينقضون عهده الموثق . انهم قد خانوا منهج الله وعهده . واذا لم يكن لهم عهد مع الله سبحانه وتعالى فهل يكون لهم عهد مع خلق الله ؟!

اذن فالفاسقون أول صفاتهم انه لا عهد لهم مع خالقهم ولا عهد لهم مع الناس . ولذلك لا نأمن لهم أبدا .

ثم تأتى بعد ذلك الصفة الثانية للفاسقين فى قوله تعالى :
« ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل » وما أمر الله به أن يوصل هو صلة الرحم . فقد أمرنا الله تعالى بأن نصل أرحامنا . فنحن كلنا أولاد آدم . والرسول صلى الله عليه وسلم يقول فى حجة الوداع « كلكم لآدم وآدم من تراب ».

وهكذا نرى أن هناك روابط انسانية يلفتنا الله سبحانه وتعالى اليها . وهذه الروابط .. تبدأ بالأسرة ثم تتسع لتشمل القرية أو الحى . ثم تتسع لتشمل الدولة والمجتمع ، ثم تتسع لتشمل المؤمنين جميعا ، ثم تتسع لتشمل العالم كله . هذه هى الأخوة الانسانية التى يريد الحق تبارك وتعالى أن يلفتنا اليها .

ولكن اللفتة هنا لا تقتصر على الناحية الانسانية ، بل تسجل أن ما فعلوه معصية . ومخالفة لأمر الله تعالى . فالله أمر بأن نصل الرحم . وجاء هؤلاء وخالفوا وعصوا ما أمر الله به . وقطعوا هذه الصلة . اذن فالمسألة فيها مخالفة لمنهج ، وعصيان لأمر من أوامر الله سبحانه وتعالى . فصلة الرحم توجد نوعا من التكافل الاجتماعى بين البشر . فاذا حدث لشخص مصيبة . . أسرع أقاربه يقفون معه فى محنته . ويحاول كل منهم أن يخفف عنه . هذا التلاحم بين الأسرة يجعلها قوية فى مواجهة الأحداث . ولا يحس واحد منها بالضياع فى هذا الكون ، لأنه متماسك مع أسرته ، متماسك مع حيه أو قريته . وهكذا يختفى الحقد من المجتمع . ويختفى التفكك الاسرى . .

ولعلنا اذا نظرنا الى المجتمعات الغربية التى يعتريها تفكك الأسرة . نجد أن كل واحد منهم قد ضل طريقه وانحرف لأنه أحس بالضياع . فانحرف الى المخدرات أو الى الخمر أو الى الزنا وغير ذلك من الرذائل التى نراها . جيل ضائع . من الذى أضاعه ؟ عدم صلة الرحم .

واذا تحدثنا عن الانحرفات التى نراها بين الشباب اليوم فلا نلوم الشباب ، ولكن نلوم الآباء والأمهات الذين تركوا أولادهم وبناتهم وأهدروا صلة الرحم . فشب جيل يعانى من عقد نفسية لا حدود لها ، ان الابن الذى يفقد جو الاسرة . يفقد ميزان

حياته . والله سبحانه وتعالى يريد المؤمنين متضامنين متحابين خالين من كل العقد التى تحطم الحياة . اذن فعدم صلة الرحم تضيع اجيالا بأكملها .

ونأتى بعد ذلك الى الصفة الثالثة من صفات الفاسقين بقوله تعالى : « ويفسدون فى الأرض » . نقول : كل ما فى الكون مخلوق على نظام : « قَدَّرَ فَهَدَى) أى كل شىء له هدى لابد أن يتبعه . ولكن الانسان جاء فى مجال الاختيار وأفسد قضية الصلاح فى الكون .

ومن رحمة الله أنه جعل فى كونه خلقا يعمل مقهورا . ليضبط حركة الكون الأعلى . فالشمس والنجوم والأرض وكل الكون ماعدا الانس والجان . يسير وفق نظام دقيق . لماذا ؟ لأنه يسير بلا اختيار له . والحق جل جلاله أخبرنا بأنه لكى يعتدل ميزان حياتنا . فلنحكم أنفسنا بمنهج الله . كما أن الكون المقهور محكوم بمنهج الله . فليس معنى الاختيار الانسانى أن نبتعد عن منهج الله . لأن الله له صفة القهر . فهو يستطيع أن يخلقنا مقهورين ، ولكنه أعطانا الاختيار حتى نأتيه عن حب . وليس عن قهر . فأنت تحب الشهوات ولكنك تحب الله أكثر . فتقيد نفسك بمنهج الله . اذن فالاختيار لم يُعْطَ لنا لِنُفْسِدَ فى الأرض . ولكنه أُعْطى لنا . لنأتى الله سبحانه وتعالى طائعين ولسنا مقهورين .

ولذلك فكل منا مختار فى أن يؤمن أولا يؤمن . وهذا الاختيار يثبت محبوبية الله سبحانه وتعالى فى قلوبنا . ولكن الانسان بدلا من أن يأخذ الاختيار ليأتى الله عن حب . فينال الجزاء الأعظم . أخذه ليفسد فى الأرض . .

والفساد أن تنقل مجال افعل ولا تفعل . فتضع هذه مكان هذه . فينقلب الميزان . أى أنك فيما قال الله فيه افعل . لا تفعل ، وفيما قال لا تفعل . تفعل . .

فتكون قد جعلت ميزان حياتك معكوسا . لماذا ؟ لأننا غير محكومين بقاعدة كلية تنظم حياة الناس . فكل واحد سيضع قاعدة له . وكل واحد لن يفعل ما عليه . فيحدث تصادم فى الحياة . وكل فساد يشكل قبحا فى الوجود . فهب انك تسير فى الطريق . وترى عمارة مبنية حديثا . قد تسربت المياه من مواسيرها . عندما ترى ذلك تتأذى . لأن هناك قبحا فى الوجود . فى عدم امانة انسان فى عمله . اذن فحين يفسد

عامل واحد . بعدم الاخلاص فى عمله . يفقد الكون نعمة يحبها الله . فى أن ترى الشىء الجميل . فتقول : الله . .

فكل انسان غير أمين فى عمله . يفسد فى الكون . وكل انسان غير أمين فى خلقه يفسد فى الكون . ويعتدى على حرمات الآخرين وأموالهم . وهذا يجعل الكون قبيحا ، فلا يوجد انسان يأمن على عرضه وماله . . .

لقد أراد المعتدى أن يحقق ما ينفع به نفسه عاجلا . ولكنه أحدث فسادا فى الكون . كذلك عندما يغش التاجر الناس . وعندما يكتسب الانسان المال بالنهب والسرقة . فيفتح الله عليه أسوأ مصارف المال فى الوجود . فهو أخذ الحسرة بالفساد فى الأرض .

والفساد فى الأرض أن تخرج الشىء عن حد اعتداله . فتسرف فى شهواتك وتسرف فى أطماعك . وتسرف فى عقابك للناس . وتسرف باعتدائك على حقوق الغير . والفساد فى الأرض . أن يوجد منهج مطبق غير منهج الله .

إن غياب منهج الله معناه أن يصبح كل منا عبد أهوائه . واذا صارت الأمور حسب أهواء الناس . جاءت لهم حركة الحياة بالشقاء والشر بدلا من السعادة والأمن . ان ما نراه اليوم من شكوى الناس علامة على الفساد .

لأن معناها أن الناس تعانى ولا أحد يتحرك . ليرفع أسباب هذه الشكوى . ولن يستقيم أمر هذا الوجود ، ويتخلص من الفساد الا اذا حكمنا منهج لا هوى له . والذى لا هوى له هو خالق البشر . واضع ميزان الكون .

وأول مظاهر الفساد . أن يوكل الأمر الى غير أهله . لأنه اذا أعطى الأمر الى غير أهله فانتظر الساعة . كما يقول الرسول صلى الله عليه وسلم :
« اذا وسد الأمر الى غير أهله فانتظر الساعة » (١)

---

(١) رواه البخارى عن أبى هريرة .

لماذا ؟ لأن المجتمع ـ حينئذ ـ يكون مبنيا على النفاق واختلال الأمور ، لا على الاتقان والاخلاص . فالذى يجيد النفاق هو الذى يصل الى الدرجات العلا ، والذى يتقن عمله لا يصل الى شىء . وتكون النتيجة أن مجموعة من المنافقين الجهلة هم الذين يسيرون الأمور بدون علم . والفساد فى الأرض هو أن يضيع الحق . ويضيع القيم . ويصبح المجتمع غابة . كل انسان يريد أن يحقق هواه بصرف النظر عن حقوق الاخرين . ويحس من يعمل ولا يصل الى حقه .. أنه لا فائدة من العمل ، فيتحول المجتمع كله الى مجموعة من غير المنتجين .

والفساد فى الأرض هو أن نجعل عقولنا هى الحاكمة . فلا نتأمل فى ميزان الكون الذى خلقه الله ، وانما نمضى بعقولنا نخطط . . فنقطع الأشجار ونرمى مخلفات المصانع فى الأنهار فنفسدها . ونأتى بالكيماويات السامة نرش بها الزرع أو مجارى المياه والأنهار كما يحدث الآن فنملؤه سُما ثم نأكله ثم نجد التلوث قد ملأ الكون . وطبقة الأوزون قد أصابها ضرر واضح يعرض حياة البشر على الأرض لأخطار كبيرة . وتفسد مياه الأنهار . ولا تصبح صالحة للشرب ولا للرى . ويضيع الخير من الدنيا بالتدريج . والفساد فى الأرض . هو ان ينتشر الظلم . وتصبح الحياة سلسلة لا تنتهى من الشقاء . والفساد فى الأرض هو أن تضيع الأمانة . فتفسد المعاملات بين الناس . وتضيع الحقوق .

هذه هى بعض أوجه الفساد فى الأرض . والله سبحانه وتعالى قد وضع قانونا كليا ، هو منهجه ليتعامل به الناس . ولكن الناس تركوه . ومشوا يتخبطون فى ظلام الجهل . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« من استعمل رجلا من عصابة ، وفيهم من هو أرضى لله منه ، فقد خان الله ورسوله والمؤمنين » (١)

وهكذا يكون مدى حرص الاسلام على استقامة أمور الناس .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : « أولئك هم الخاسرون »

خسروا ماذا ؟ خسروا دنياهم وآخرتهم وخسروا أنفسهم . لأن الانسان له حياتان . . حياة قصيرة فى الدنيا مليئة بالمتاعب . وحياة طويلة خالدة فى الآخرة .

---

(١) رواه الحاكم عن ابن عباس .

والذى يبيع الحياة الأبدية ونعيمها وخلودها بحياة الدنيا التى لا يضمن فيها شيئا ، يكون من الخاسرين . . فعمر الانسان قد يكون يوما أو شهرا أو عاما . والحياة الدنيا مهما طالت فهى قصيرة . ومهما أعطت فهو قليل . فالذى يبيع آخرته بهذه الدنيا ، أيكون رابحا أم خاسرا ؟ طبعا يكون خاسرا . لأنه اشترى مالا يساوى بنعيم الله كله . .

واذا كان الانسان قد نسى الله سبحانه وتعالى وهو لاقيه حتما . ثم يبعث يوم القيامة ليجده أمامه . فيوفيه حسابه . أيكون قد كسب أم خسر ؟! . . طبعا يكون خاسرا . لأنه أوجب على نفسه عذاب الله . وأوجب على نفسه عقاب الله .

ان قوله تعالى : « الخاسرون » تدل على أن الصفقة انتهت وضاع كل شيء لأن نتيجتها كانت الخسران ، وليس الخسران موقوتا ، ولا هو خسران يمكن أن يعوض فى الصفقة القادمة . بل هو خسران أبدى ، والندم عليها سيكون شديدا . واقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴿٤٠﴾ ﴾

(سورة النبأ)

لماذا يتمنى الكافر أن يكون ترابا ؟ لهول العذاب الذى يراه أمامه . وهول الخسران الذى تعرض له . وهذا دليل على شدة الندم . يوم لا ينفع الندم . على أنه سبحانه وتعالى تحدث فى هذه الآية عن الخاسرين . ولكنه جل جلاله . تحدث فى آية اخرى عن الأخسرين . فقال تعالى :

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ﴾

(سورة الكهف)

إذن فهناك خاسر . وهناك من هو أخسر منه . والأخسر هو الذى كفر بالله جل جلاله . وبيوم القيامة . واعتقد أن حياته فى الدنيا فقط . ولم يكن الله فى باله وهو يعمل أى عمل ، بل كانت الدنيا هى التى تشغله . ثم فوجىء بالحق سبحانه وتعالى يوم القيامة . ولم يحتسب له أية حسنة ، لأنه كان يقصد بحسناته الحياة الدنيا . فلا يوجد له رصيد فى الآخرة .

والعجيب أنك ترى الناس . يعدون للحياة الدنيا اعدادا قويا . فيرسلون أولادهم الى مدارس لغات . ويتحملون فى ذلك مالا يطيقون . ثم يدفعونهم الى الجامعات . أو الى الدراسة فى الخارج . هم فى ذلك يعدونهم لمستقبل مظنون . وليس يقينا . لأن الانسان يمكن أن يموت وهو شاب . فيضيع كل ما أنفقوه من أجله . ويمكن أن ينحرف فى آخر مراحل دراسته . فلا يحصل على شىء . ويمكن أن يتم هذا الاعداد كله ، ثم بعد ذلك يرتكب جريمة يقضى فيها بقية عمره فى السجن . فيضيع عمره .

ولكن اليقين الذى لاشك فيه هو اننا جميعا سنلاقى الله سبحانه وتعالى يوم القيامة . وسيحاسبنا على أعمالنا . ومع أن هذا يقين ، فإن كثيرا من الناس لا يلتفتون اليه . يسعون للمستقبل المظنون . ولا يحس واحد منهم بيقين الآخرة . فتجد قليلا من الآباء هم الذين يبذلون جهدا لحمل أبنائهم على الصلاة وعبادة الله والأمانة وكل ما يقربهم الى الله . . انهم ينسون النعيم الحقيقى . ويجرون وراء الزائل فتكون النتيجة عليهم وبالا فى الآخرة .

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

كيف فى اللغة للسؤال عن الحال . والحق سبحانه وتعالى أوردها فى هذه الآية الكريمة ليس بغرض الاستفهام ، ولكن لطلب تفسير أمر عجيب ما كان يجب أن يحدث . وبعد كل ما رواه الحق سبحانه وتعالى فى آيات سابقة من أدلة دامغة عن خلق السموات والأرض وخلق الناس . . أدلة لا يستطيع أحد أن ينكرها أو يخطئها . . فكيف بعد هذه الادلة الواضحة تكفرون بالله ؟ . . كفركم لاحجة لكم فيه ولا منطق . . والسؤال يكون مرة للتوبيخ . . كأن تقول لرجل كيف تسب أباك ؟ أو للتعجب من شىء قد فعله وما كان يجب ان يفعله . . وكلاهما متلاقيان . سواء كان القصد التوبيخ او التعجب فالقصد واحد . . فهذا ما كان يجب ان يصح منك . ثم يأتى الحق سبحانه وتعالى بأدلة اخرى لا يستطيع أحد أن ينكرها او يكذب بها . . فيقول جل جلاله : « وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُميتكم » .

وهكذا ينتقل الكلام الى اصل الحياة والموت . فبعد ان بين الحق سبحانه وتعالى . . ماذا يفعل الكافرون والفاسقون والمنافقون من افساد فى الأرض . . وقطع لما أمر الله سبحانه وتعالى به أن يوصل . . صعد الجدل الى حديث عن الحياة والموت . وقوله تعالى « كنتم **أمواتا** فأحياكم » قضية لا تحتمل الجدل . . ربما استطاعوا المجادلة فى مسألة عدم اتباع المنهج ، أو قطع ما أمر الله به ان يوصل . .

ولكن قضية الحياة والموت لا يمكن لأحد أن يجادل فيها . فالله سبحانه وتعالى خلقنا من عدم . . ولم يدع أحد قط أنه خلق الناس أو خلق نفسه . . وعندما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال للناس ان الذى خلقكم هو الله . . لم يستطع أحد أن يكذبه ولن يستطيع . . ذلك أننا كنا فعلا غير موجودين فى الدنيا . . والله سبحانه وتعالى هو الذى أوجدنا واعطانا الحياة . .

وقوله تعالى : « ثم يميتكم » . فان أحدا لايشك فى أنه سيموت . . الموت مقدر على الناس جميعا . . والخلق من العدم واقع بالدليل . . والموت واقع بالحس والمشاهدة . .

إن قضية الموت هى سبيلنا لمواجهة أى ملحد . . فإن قالوا إن العقل كاف لادارة الحياة . . وانه لا يوجد شىء اسمه غيب . . قلنا : الذى تحكم فى الخلق ايجادا ، هو الذى يتحكم فيه موتا . . والحياة الدنيا هى مرحلة بين قوسين . . القوس الأول هو أن الله يخلقنا ويوجدنا . . وتمضى رحلة الحياة الى القوس الثانى . . الذى تخمد فيه بشريتنا وتتوقف حياتنا وهو الموت . أى أننا فى رحلة الحياة من الله واليه . .

اذن فحركة الحياة الدنيا هى بداية من الله بالخلق ونهاية بالموت . .

إنهم عندما تحدثوا عن اطفال الانابيب . . وهى عملية لعلاج العقم أكثر من اى شىء آخر . . ولكنهم صوروها تصويرا جاهليا . . وكل ما يحدث أنهم يأخذون بويضة من رحم الأم التى يكون المهبل عندها مسدودا أو لا يسمح بالتلقيح الطبيعى . . يأخذون هذه البويضة من رحم الأم . . ويخصبونها بالحيوانات المنوية للزوج . . ثم يزرعونها فى رحم الأم .

إنهم أخذوا من خلق الله وهى بويضة الأم والحيوان المنوى من الرجل . . وكل ما يفعلونه هو عملية التلقيح ومع ذلك يسمونه اطفال الانابيب . . كأن الانبوبة يمكن ان تخلق طفلا !! والحقيقة غير ذلك . . فبويضة الأم ، والحيوان المنوى للرجل هما من خلق الله . . وهم لم يخلقوا شيئا . . أننا نقول لهم : اذا كنتم تملكون الموت والحياة فامنعوا انسانا واحدا أن يموت . . بدلا من انفاق ألوف الجنيهات فى معالجة عقم قد ينجح أو لا ينجح . . ابقوا واحدا على قيد الحياة . . ولن يستطيعوا . .

إن الموت أمر حسى مشاهد . . ولذلك فمن رحمة الله بالعقل البشرى بالنسبة للأحداث الغيبية أن الله سبحانه وتعالى قربها لنا بشىء مشاهد . . كيف ؟ . . عندما ينظر الانسان الى نفسه وهو حى . . لا يعرف كيف أحياه الله وكيف خلقه . . الله سبحانه وتعالى ذكر لنا غيب الخلق فى القرآن الكريم فقال جل جلاله أنه خلق الانسان من تراب ومن طين ومن حمأ مسنون ثم نفخ فيه من روحه . .

واقرأ قول الحق سبحانه :

﴿ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ﴾

(من الآية ٥ سورة الحج)

وقوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾

(سورة المؤمنون)

وقوله تعالى :

﴿ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴾

(من الآية ١١ سورة الصافات)

وقوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ ﴾

(سورة الحجر)

وقوله تعالى :

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾

(سورة ص)

فالحق تبارك وتعالى أخبرنا عن مرحلة فى الخلق لم نشهدها .. ولكن الموت شيء مشهود لنا جميعا .. ومادام مشهودا لنا ، يأتى الحق سبحانه وتعالى به كدليل على مراحل الخلق التى لم نشهدها .. فالموت نقض للحياة .. والحياة اخبرنا الله تبارك وتعالى بأطوارها .. ولكنها غيب لم نشهده ..

ولكن الذى خلق قال أنا خلقتك من تراب .. من طين.من حمأ مسنون.من صلصال كالفخار .. فالماء وضع على تراب فأصبح طينا .. والطين تركناه فتغير لونه وأصبح صلصالا .. الصلصال .. جف فأصبح حمأ مسنونا ، ثم نحته فى صورة انسان ونفخ الحق سبحانه وتعالى فيه الروح فأصبح بشرا .. ثم يأتى الموت وهو نقض للحياة .. ونقض كل شيء يأتى على عكس بنائه ..

بناء العمارة يبدأ من اسفل الى أعلى .. وهدمها يبدأ من اعلى الى أسفل .. ولذلك فان آخر مرحلة من رحلة ما .. هى أول خطوة فى طريق العودة .. فاذا كنت مسافرا الى الاسكندرية .. فأول مكان فى طريق العودة هو آخر مكان وصلت اليه .

أول شيء يخرج من الجسد هو الروح وهو آخر ما دخل فيه .. ثم بعد ذلك يتصلب الجسد ويصبح كالحمأ المسنون .. ثم يتعفن فيصبح كالصلصال .. ثم يتبخر الماء الذى فيه فيعود ترابا .. وهكذا يكون الموت نقض صورة الحياة .. متفقا مع المراحل التى بينها لنا الحق سبحانه وتعالى ..

وقوله تعالى : « ثم اليه ترجعون » .. أى أن الله تبارك وتعالى يبعثكم ليحاسبكم .. لقد حاول الكفار والملحدون واصحاب الفلسفة المادية ان ينكروا قضية البعث .. وهم فى هذا لم يأتوا بجديد .. بل جاءوا بالكلام نفسه الذى قاله أصحاب الجاهلية الأولى .. واقرأ قوله تعالى عما يقوله اصحاب الجاهلية الأولى :

﴿ وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة الجاثية)

وامنية الكافر والمسرف على نفسه .. الا يكون هناك بعث أو حساب .. والذين يتعجبون من ذلك نقول لهم : ان الله سبحانه وتعالى الذى أوجدكم من عدم

يستطيع أن يعيدكم وقد كنتم موجودين .. يقول جل جلاله :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ﴾

(سورة الروم)

فإيجاد ما كان موجودا أسهل من الايجاد من عدم على غير مثال موجود .. والله سبحانه وتعالى يرد على الكفار فيقول سبحانه :

﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ﴾

(سورة يس)

وهكذا فإن البعث أهون على الله من بداية الخلق .. وكل شيء مكتوب عند الله سبحانه وتعالى فى كتاب مبين .. وما أخذته الارض من جسد الانسان ترده يوم القيامة .. ليعود من جديد .

وخلق السموات والأرض أكبر من خلق الانسان .. واقرأ قوله وتعالى :

﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾

(سورة غافر)

وقول الله سبحانه وتعالى : « ثم اليه ترجعون » .. هو اطمئنان لمن آمن .. ومادمنا اليه نرجع ومنه بدأنا .. فالحياة بدايتها من الله ونهايتها الى الله .. فلنجعلها هى نفسها لله .. ولابد أن نلتفت الى ان الله تبارك وتعالى أخفى عنا الموت زمانا ومكانا وسببا وعمرا .. لم يخفه ليحجبه ، وانما أخفاه حتى نتوقعه فى كل لحظة .. وهذا اعلام واسع بالموت حتى يسرع الناس الى العمل الصالح .. والى المثوبة.لأنه

لا يوجد عمر متيقن فى الدنيا . . فلا الصغير آمن على عمره . . ولا الشاب آمن على عمره . . ولا الكهل آمن على عمره . . ولذلك يجب أن يسارع كل منا فى الخيرات . . حتى لا يفاجئه الموت . . فيموت وهو عاص . .

ونلاحظ أن قصة الحياة جاء الله بها فى آية واحدة . والرجوع الى الله ـ وهو يقين بالنسبة للمؤمنين ـ يلزمهم بالمنهج ، فيعيشون من حلال . والتزامهم هذا هو الذى يقودهم الى طريق الجنة . ويطمئنهم على اولادهم بعد أن يرحل الآباء من الدنيا .

فعمل الرجل الصالح ينعكس على أولاده من بعده . واقرأ قوله سبحانه وتعالى :

﴿ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ ﴾

(سورة النساء)

اذن فصاحب الالتزام بالمنهج ، يطمئن الى لقاء ربه ويطمئن الى جزائه ، والذى لا يؤمن بالآخرة أخذ من الله الحياة فأفناها فيما لا ينفع . ثم بعد ذلك لا يجد شيئا الا الحساب والنار . . واقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ ﴾

(سورة النور)

أى أن الكافر سيفاجأ فى الآخرة بالله الذى لم يكن فى باله انه سيحاسبه على ما فعل . . وقوله تعالى « واليه ترجعون » تقرأ قراءتان . بضمة على التاء . ومرة بفتحة على التاء . الاولى معناها . أننا نُجْبَرُ على الرجوع . فلا يكون الرجوع الى الله تعالى بإرادتنا ، وهذا ينطبق على الكفار الذين يتمنون عدم الرجوع الى الله . أما الثانية « ترجعون » فهذه فيها ارادة . وهى تنطبق على المؤمنين لأنهم يتمنون الرجوع الى الله .

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾ ﴾

يذكرنا الله سبحانه وتعالى فى هذه الآية أنه هو الذى خلق ما فى الأرض جميعا . وقد جاءت هذه الآية بعد قوله تعالى : « فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون » لتلفتنا الى أن ما فى الأرض كله ملك لله جل جلاله ، وأننا لا نملك شيئا الا ملكية مؤقته . وأن ما لنا فى الدنيا سيصير لغيرنا . وهكذا .

والحق سبحانه وتعالى حين خلق الحياة وقال « كنتم أمواتا فأحياكم » كأن الحياة تحتاج الى امداد من الخالق للمخلوق حتى يمكن أن تستمر . فلابد لكى تستمر الحياة أن يستمر الامداد بالنعم . ولكن النعم تظل طوال فترة الحياة ، وعند الموت تنتهى علاقة الانسان بنعم الدنيا . ولذلك لابد أن يتنبه الانسان الى أن الأشياء مسخرة له فى الدنيا لتخدمه . وأن هذا التسخير ليس بقدرات أحد . ولكن بقدرة الله سبحانه وتعالى . والانسان لا يدرى كيف تم الخلق . ولا ماهى مراحله الا أن يخبرنا الله سبحانه وتعالى بها . فهو جل جلاله يقول :

﴿ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ ﴾

(سورة الكهف)

ومادامو لم يشهدوا خلق السموات والارض ولا خلق أنفسهم . فلابد أن نأخذ ذلك عن الله ما ينبئنا به الله عن خلق السموات والأرض وعن خلقنا هو الحقيقة . وما يأتينا عن غير الله سبحانه وتعالى فهو ضلال وزيف . ونحن الآن نجد بحوثا

كثيرة عن كيفية السموات والأرض وخلق الانسان . وكلها لن تصل الى حقيقة . بل ستظل نظريات بلا دليل . ولذلك قال الله سبحانه وتعالى : « وما كنت متخذ المضلين عضدا » أى أن هناك من سيأتى ويضل . ويقول هكذا تم خلق السموات والأرض ، وهكذا خلق الانسان . هؤلاء المضلون الذين جاءوا بأشياء هى من علم الله وحده . جاءوا تثبيتا لمنهج الايمان . فلو لم يأت هؤلاء المضلون ، ولو لم يقولوا خلقت الأرض بطريقة كذا والسماء بطريقة كذا . لقلنا ان الله تعالى قد اخبرنا فى كتابه العزيز أن هناك من سيأتى ويضل فى خلق الكون وخلق الانسان ولكن كونهم أتوا . فهذا دليل على صدق القرآن الذى أنبأنا بمجيئهم قبل أن يأتوا بقرون .

والاستفادة من الشىء لا تقتضى معرفة أسراره . . فنحن مثلا نستخدم الكهرباء مع أننا لا نعرف ما هى ؟ وكذلك نعيش على الارض ونستفيد بكل ظواهرها وكل ما سخره الله لنا . وعدم علمنا بسر الخلق والايجاد لا يحرمنا هذه الفائدة . فهو علم لا ينفع وجهل لا يضر . والكون مسخر لخدمة الانسان . والتسخير معناه التذليل ولا تتمرد ظواهر الكون على الانسان . واذا كانت هناك ظواهر فى الكون تتمرد بقَدَر الله . مثل الفيضانات والبراكين والكوارث الطبيعية . نقول ان ذلك **يحدث** ليلفتنا الحق سبحانه وتعالى الى أن كل ما فى الكون لا يخدمنا بذاتنا . ولا بسيطرتنا عليه ، وانما يخدمنا بأمر الله له ، والا لو كانت المخلوقات تخدمك بذاتك . فاقدر عليها حينما تتمرد على خدمتك . وكل ما فى الكون خاضع لطلاقة قدرة الله . حتى الاسباب والمسببات خاضعة أيضا لطلاقة القدرة الآلهية . فالاسباب والمسببات فى الكون لا تخرج عن ارادة الله .

لذلك اذا تمرد الماء بالطوفان . وتمردت الرياح بالعاصفة . وتمردت الأرض بالزلازل والبراكين . فما ذلك الا ليعرف الانسان أنه ليس بقدرته أن يسيطر على الكون الذى يعيش فيه . واقرأ قوله سبحانه وتعالى :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾

(سورة يس)

والانسان عاجز عن أن يخضع حيوانا الا بتذليل الله له . . ومن العجيب انك ترى الحيوانات تدرك ما لايدركه الانسان فى الكون . فهى تحس بالزلزال قبل أن يقع . وتخرج من مكان الزلزال هاربة . بينما الانسان لا يستطيع بعقله أن يفهم ما سيحدث .

والحق سبحانه وتعالى فى قوله : « خلق لكم ما فى الأرض جميعا » يستوعب كل أجناس الأرض . ولذلك فإن الانسان لا يستطيع أن يوجد شيئا الا من موجود . أى أن الانسان لم يستحدث شيئا فى الكون . فأنت اذا أخذت حبة القمح . من أين جئنا بها ؟ من محصول العام الماضى . . ومحصول العام الماضى . من أين جاء ؟ . . من محصول العام الذى قبله . وهكذا يظل تسلسل الأشياء حتى تصل الى حبة القمح الاولى.من أين جاءت ؟ جاءت بالخلق المباشر من الله . وكذلك كل ثمار الأرض اذا أعدتها للثمرة الأولى فهى بالخلق المباشر من الله سبحانه وتعالى . فاذا حاولت أن تصل الى أصل وجود الانسان . ستجد بالمنطق والعقل .. أن بداية الخلق هى من ذكر وأنثى . خُلقا بالخلق المباشر من الله .لأنك أنت من ابيك وأبوك من جدك . وجدك من ابيه . وهكذا تمضى حتى تصل الى خلق الانسان الاول . فنجد انه لابد أن يكون خلقا مباشرا من الله سبحانه وتعالى . وما ينطبق على الانسان ينطبق على الحيوان وعلى النبات وعلى الجماد . فكل شىء اذا رددته لأصله تجد أنه لابد أن يبدأ بخلق مباشر من الله سبحانه وتعالى .

بعض الناس يتساءل عن الرقى والحضارة وهذه الاختراعات الجديدة . أليس للانسان فيها خلق ؟ . . نقول فيها خلق من موجود . والله سبحانه وتعالى كشف من علمه للبشر ما يستطيعون باستخدام المواد التى خلقها الله فى الارض أن يرتقوا ويصنعوا أشياء جديدة . ولكننا لم نجد ولم نسمع عن انسان خلق مادة من عدم .

الله سبحانه وتعالى هو الذى خلق كل ما فى هذا الكون من عدم . ثم بعد ذلك تكاثرت المخلوقات بقوانين سخرها الله سبحانه وتعالى لها . ولكن كل هذا التطور راجع الى أن الله خلق المخلوقات وأعطاها خاصية التناسل والتزاوج لتستمر الحياة جيلا بعد جيل . وكل خلق الله الذى تراه فى الكون الآن قد وضع الله سبحانه وتعالى فيه من قوانين الأسباب ما يعطيه استمرارية الحياة من جيل الى جيل حتى ينتهى الكون . فاذا قال لك انسان : أنا أزرع بذكائى وعلمى . فقل له : أنت تأتى

بالبذرة التى خلقها الله . وتضعها فى الأرض المخلوقة لله . وينزل الله سبحانه وتعالى الماء عليها من السماء . وتنبت بقدرة الله الذى وضع فيها غذاءها وطريقة انباتها . اذن فكل ما يحدث أنك تحرث الأرض . وترمى البذرة . يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾

(سورة الواقعة)

صحيح أن الانسان يقوم بحرث الارض ورمى البذرة . وربما تعهد الزرع بالعناية والرى . ولكن ليس فى كل ما يفعله مهمة خلق . بل ان الله سبحانه وتعالى هو خالق كل شىء . ولو كنت تزرع بقدرتك فأت ببذرة من غير خلق الله . وأرض لم يخلقها الله . وماء لم ينزله الله من السماء . وطبعا لن تستطيع . . ولكن ما هو مصدر الأشياء التى استحدثت ؟

نقول إن هناك فرقا بين وجود الشىء بالقوة . وجوده بالفعل . . فالنخلة مثلا حبة كانت موجودة بالقوة . كانت نواة . ثم زرعت فأصبحت موجودة بالفعل . وأنت لا عمل لك فى الحالتين فلا أنت بقوتك خلقت النواة ـ التى هى البذرة ـ ولا أنت بفعلك جعلت النواة تكبر . لتصير نخلة بالفعل . على أن هناك أشياء مطمورة فى الكون . خلقها الله سبحانه وتعالى مع بداية الخلق . ثم تركها مطمورة فى الكون . حتى كشفها الله لمن يبحث عن اسراره فى كونه .

وكل كشف له ميلاد . اذا أخذنا مثلا ما تحت الثرى . أو الكنوز الموجودة تحت سطح الارض . لقد ظلت مطمورة حتى هدى الله الانسان اليها . وعلمه كيف يستخرجها . فالانسان لم يخترع مثلا أو يوجد البترول او المعادن . ولكنها كلها كانت مطمورة فى الكون حتى جاء الوقت الذى يجب أن تؤدى فيه دورها فى الحياة . فدلنا الحق عليها ، فليس معنى أن الشىء كان غائبا عنا أنه لم يكن موجودا . أو أنه وجد لحظة اكتشافنا له . فالشىء الحادث الآن ، والشىء الذى سيحدث بعد سنوات . . خلق الله سبحانه وتعالى كل عناصره . وأودعها فى الأرض لحظة الخلق . والانسان بما يكشف الله له من علم يستطيع تركيب هذه العناصر . ولكنه لا يستطيع خلقها أو ايجادها . والحق سبحانه وتعالى يقول : « ثم استوى إلى السماء » .

حينما يقول الله جل جلاله . استوى . . يجب ان نفهم كل شيء متعلق بذات الله على أنه سبحانه ليس كمثله شيء . فالله استوى والملوك تستوى على عروشها . وانت تستوى على كرسيك . ولكن لأننا محكومون بقضية « ليس كمثله شيء » لابد أن نعرف أن استواء الله سبحانه وتعالى ليس كمثله شيء.والله حى . وأنت حى . هل حياتك كحياته ؟ والله سبحانه وتعالى يعلم وأنت تعلم.هل علمك كعلمه ؟ والله سبحانه وتعالى يقدر . وأنت تقدر . هل قدرتك كقدرته . طبعا لا . فعندما تأتى الى « استوى » فلا تحاول أن تفهمها ابدا بالمفهوم البشرى . . فالله سبحانه وتعالى يعلم ما فى الأرض وما فى السماء . وهو سبحانه يعلم المكان بكل ذراته . والموجودين فى هذا المكان او المكين . بكل ذراته . وأنت تعرف ظاهر الأمر . . والله سبحانه وتعالى يعلم غيب السموات والأرض حتى يوم القيامة . وبعد يوم القيامة اذن فهو جل جلاله . ليس كمثله شيء . ولا يمكن أن تحيط أنت بعقلك بفعل يتعلق بذات الله سبحانه وتعالى . فعقلك قاصر عن أن يدرك ذلك . لذلك قل سبحان الله . ليس كمثله شيء فى كل فعل يتصل بذات الله . . « استوى الى السماء » هذا الكلام هو كلام الله . فالمتحدث هو الله عز وجل .

بعض الناس يقولون تلقينا القرآن وحفظناه . نقول لهم ان الذى حفظ القرآن هو الله سبحانه وتعالى . ومادام قد حفظ كلامه فهو جل جلاله يعلم أن الوجود كله لن يتعارض مع القرآن الكريم . . والله سبحانه وتعالى حفظ القرآن ليكون حجة له على الناس.ومادام الله جل جلاله هو الخالق . وهو القائل . فلا توجد حقيقة فى الكون كله تتصادم مع القرآن الكريم . . واقرأ قوله سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾

(سورة الحجر)

وهذا من عظمة الله أن حفظ كلامه ليكون حجة على الناس . والله سبحانه وتعالى وجدت صفاته قبل أن توجد متعلقات هذه الصفات . فهو جل جلاله . خلق لأنه خالق . كأن صفة الخلق وجدت أولا . والا كيف خلق أول خلقه . ان لم يكن سبحانه وتعالى خالقا ؟

والله سبحانه وتعالى رزاق . قبل أن يوجد من يرزقه . والا فبأى قدرة رزق الله

أول خلقه ؟ والله سبحانه وتعالى خلق هذا الكون بكمال صفاته . وشهد أنه لا اله الا هو قبل أن يشهد اى من خلق الله أنه لا اله الا الله . واقرأ قوله تعالى :

﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ ﴾

(من الآية ١٨ سورة آل عمران)

فالله سبحانه وتعالى شهد أنه لا اله الا هو قبل أن يوجد أحد من خلقه يشهد بوحدانية ألوهيته . شهد أنه لا اله الا هو قبل أن يخلق الملائكة . ليشهدوا شهادة مشهد بأنه لا اله الا الله . وأولوا العلم شهادة علم . فكأن شهادة الذات للذات . فى قوله تعالى « شهد الله أنه لا اله الا هو » هى التى يعتد بها ، وهى أقوى الشهادات ؛ فالله ليس محتاجا مِن خلقه إلى امتداد الشهادة .

الله سبحانه وتعالى : بعد أن خلق الأرض وخلق السماء واستتب له الأمر . قال « وهو بكل شيء عليم » أى لا تغيب ذرة من ملكه عن علمه . فهو عليم بكل ذرات الأرض وكل ذرات الناس . وكل ذرات الكون . والكون كله لا يفعل الا باذنه ومراده . واقرأ قوله تعالى :

﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة لقمان)

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

بعد أن أخبرنا الحق سبحانه وتعالى . أنه خلق جميع ما فى الكون . أراد أن يخبرنا عمن خلقه لعمارة هذا الكون . فكأن القصة التى بدأ الله سبحانه وتعالى بها قصص القرآن كانت هى قصة آدم أول الخلق . ولقد وردت هذه القصة فى القرآن الكريم كثيرا لتدلنا لماذا أخبرنا الحق سبحانه وتعالى بهذه القصة ؟ وجاءت لتدلنا أيضا على صدق البلاغ عن الله . واقرأ قوله تعالى :

﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ﴾

(من الآية ١٣ سورة الكهف)

كلمة الحق التى جاءت هنا لتدلنا على أن هناك قصصا . ولكن بغير حق . والله سبحانه وتعالى أراد أن يخرج قصصه عن دائرة القصص التى يتداولها الناس أو قصص التاريخ لإمكان مخالفتها الواقع وتأتى بغير حق . وهناك قصص تروى فى الدنيا ولا واقع لها ، بل هى من قبيل الخيال .

وكلمة قصة . مأخوذة من قص الأثر . بمعنى أن يتبع قصاص الأثر فى الصحراء الآثار التى يشاهدها على الرمال حتى يصل الى مراده . عندما يصل الى نهاية الأثر . . ومادمنا قد عرفنا ان الله يقص الحق . نعرف أن قصص القرآن الكريم كلها أحداث وقعت فعلا . ولكل قصة فى القرآن عبرة . او شىء مهم يريد الحق سبحانه وتعالى أن يلفتنا اليه . فمرة تكون القصة لتثبيت النبى صلى الله عليه وسلم وتثبيت

المؤمنين : واقرأ قوله تعالى :

﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾

(من الآية ١٢٠ سورة هود)

فكل قصة تثبت فؤاد الرسول والمؤمنين فى المواقف التى تزلزلهم فيها الأحداث . وقصص القرآن ليست لقتل الوقت . ولكن الهدف الأسمى للقصة هو تثبيت ونفع حركة الحياة الايمانية . ولو نظرنا إلى قصص القرآن الكريم نجد أنها تتحدث عن أشياء مضت وأصبحت تاريخا . والتاريخ يربط الأحداث بأزمانها . وقد يكون التاريخ لشخص لا لحدث . ولكن الشخص حدث من أحداث الدنيا . ولو قرأت تاريخ كل حدث لوجدت أنه يعبر عن وجهة نظر راويه . فكل قصص التاريخ كتبت من وجهات نظر من رووها . ولذلك . فالقصة الواحدة تختلف باختلاف الراوى .

ولكن قصص القرآن الكريم. هو القصص الحق . . والعبرة فى قصص القرآن الكريم أنها تنقل لنا أحداثا فى التاريخ . تتكرر على مر الزمن . ففرعون مثلا هو كل حاكم يريد أن يُعْبَدَ فى الأرض . وأهل الكهف مثلا هى قصة كل فئة مؤمنة هربت من طغيان الكفر وانعزلت لتعبد الله . وقصة يوسف عليه السلام هى قصة كل اخوة نزغ الشيطان بينهم فجعلهم يحقدون على بعضهم . وقصة ذى القرنين هى قصة كل حاكم مصلح أعطاه الله سبحانه الأسباب فى الدنيا ومكنه فى الأرض . فعمل بمنهج الله وبما يرضى الله . وقصة صالح هى قصة كل قوم طلبوا معجزة من الله . فحققها لهم فكفروا بها . وقصة شعيب عليه السلام .. هى قصة كل قوم سرقوا فى الميزان والمكيال .

وهكذا كل قصص القرآن . قصص تتكرر فى كل زمان . حتى فى الوقت الذى نعيش فيه تجد فيه أكثر من فرعون . وأكثر من أهل كهف يفرون بدينهم . وأكثر من قارون يعبد المال والذهب . . ويحسب أنه استغنى عن الله . ولذلك جاءت شخصيات قصص القرآن مجهلة الا قصة واحدة هى قصة عيسى بن مريم ومريم ابنة عمران . لماذا ؟ لأنها معجزة لن تتكرر . ولذلك عرفها الله لنا فقال « مريم ابنة عمران » وقال « عيسى بن مريم » حتى لا يلتبس الأمر . وتدعى أى امرأة انها حملت

بدون رجل . مثل مريم . نقول : لا . معجزة مريم لن تتكرر . ولذلك حددها الله تعالى بالاسم . فقال : عيسى بن مريم .ومريم ابنة عمران . . اما باقى قصص القرآن الكريم فقد جاءت مجهلة . فلم يقل لنا الله تعالى من هو فرعون موسى.ولا من هم أهل الكهف ولا من هو ذو القرنين ولا من هو صاحب الجنتين . الى آخر ما جاء فى القرآن الكريم . لانه ليس المقصود بهذه القصص شخصا بعينه . لا تتكرر القصة مع غيره ، وبعض الناس يشغلون أنفسهم بمن هو فرعون موسى ؟ ومن هو ذو القرنين . . . الخ نقول لهم لن تصلوا الى شيء لأن الله سبحانه وتعالى قد روى لنا القصة دون توضيح للأشخاص . لنعرف أنه ليس المقصود شخصا بعينه . ولكن المقصود هو الحكمة من القصة .

والقصص فى القرآن لا ترد مكررة . وقد يأتى بعض منها فى آيات . وبعض منها فى آيات أخرى . ولكن اللقطة مختلفة . تعطينا فى كل آية معلومة جديدة . بحيث انك اذا جمعت كل الآيات التى ذكرت فى القرآن الكريم . تجد أمامك قصة كاملة متكاملة . كل آية تضيف شيئا جديدا .

وأكبر القصص فى القرآن الكريم . قصة موسى عليه السلام . ويذكرنا القرآن الكريم بها دائما لأن أحداثها تعالج قصة أسوأ البشر فى التاريخ . وفى كل مناسبة يذكرنا الله بلقطة من حياة هؤلاء . واقرأ قوله تعالى :

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ ﴾

(الآية ٧ سورة القصص)

وفى آية أخرى يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ﴾

(الآيتان ٣٨ ، ٣٩ سورة طه)

والفهم السطحى يظن أن هذا تكرار ونقول لا . فقوله تعالى : « وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم » .

هذه اللقطة تدل على ان الله سبحانه وتعالى يعد أم موسى اعدادا إيمانيا للحدث . ولكن عند وقوع الحدث تتغير القصة على نمط سريع « أن أقذفيه فى التابوت » فاقذفيه فى اليم فليلقه اليم بالساحل » . كلام يناسب لحظة وقوع الحدث . . فالآية الأولى .. بينت لنا أن أم موسى أرضعته قبل أن تضعه فى التابوت . وأنها ستلقيه فى اليم عندما يحدث خطر وتخاف عليه من القتل . وفيه تطمين لها . الا تخاف ولا تحزن . لأن الله منجيه . وفيها بشارتان : أن الله سيرده لأمه . وأن الله قد اختاره رسولا .

نأتى الى الآية الثانية التى تكمل لنا هذه اللقطة فتقول « اقذفيه فى التابوت » هنا نعرف ان أم موسى ستلقيه فى تابوت ، وهو ما لم يذكر فى الآية السابقة . ثم بعد ذلك نعلم أن الله سبحانه وتعالى أصدر أمره الى الماء أن يلقى التابوت الى الساحل . وهذا ما لم يرد فى الآية السابقة . ونعرف ايضا ان الذى سيأخذه وهو فرعون . ستكون بينهما عداوة متبادلة . . وهكذا نرى أن آيتى القصة . يكمل بعضهما بعضا . وليس هناك تكرار . والله سبحانه وتعالى فى الآية الثانية يريد أن يثبت أنه ستكون هناك عداوة متبادلة بين موسى وفرعون . . كما أثبتت عداوة فرعون لله جل جلاله ولموسى ، فقال : « عدو لى وعدو له » ولكن العداوة لا تستقر الا اذا كانت متبادلة . فتأتى آية ثالثة لتكمل الصورة .. فى قوله تعالى :

﴿ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾

(من الآية ٨ سورة القصص)

وهكذا بينت لنا الآية الكريمة كيف أن العداوة بين فرعون وموسى ستستقر حتى يقضى على فرعون . لأنه اذا كان انسان عدوا لك . وانت تقابل العداوة بالاحسان . تخمد العداوة بعد قليل . اذن هذه الأيات ليست تكرارا ولكنها آيات تكمل القصة.. وتعطينا الصورة الكاملة المتكاملة .

ولكن لماذا لم تأت قصة موسى متكاملة كقصة يوسف ؟ لأن الله سبحانه وتعالى

يريد أن يثبت بها نبينا عليه الصلاة والسلام والمؤمنين . فتأتى هنا لقطة وهنا لقطة . لتؤدى ما هو مطلوب من التثبيت بما لا يخل . . لأن الآيات تعطينا القصة متكاملة .

وهكذا قصة آدم . جاءت لنا فى آيات متعددة ؛ لتعطينا فى مجموعها قصة كاملة . وفى الوقت نفسه كل آية لها حكمة يحتاج اليها التوقيت الذى نزلت فيه . . فالله سبحانه وتعالى يروى لنا بداية الخلق ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « كلكم بنو آدم وآدم خلق من تراب »[1] .

والحق سبحانه وتعالى يريد أن يعرفنا كيف بدأ الخلق . وقصة عداوة إبليس لآدم وذريته . . فتكلم الله سبحانه وتعالى عن أول البشر . عرفنا اسمه . وهو آدم عليه السلام . وتكلم عن المادة التى خلق منها . وتكلم عن المنهج الذى وضعه لآدم . وحدثنا عن النقاش الذى دار مع الملائكة . كما أخبرنا بأن آدم سيكون خليفة فى الأرض . وأنه علمه الاسماء كلها ليقود حركة حياته . وعلمنا منطق علم الأشياء . وعلم مسمياتها . وحدثنا عن الحوار الذى حدث بين ابليس أمام ربه حينما أبى السجود . وبين لنا حجة ابليس فى الامتناع عن السجود ، وخطة ابليس ومدخله الى قلوب المؤمنين بالاغواء والوسوسة وغير ذلك .

اذن فهناك اشياء كثيرة تتعرض لها قصة آدم ، ولو أن بشرا يريد أن يؤرخ لآدم ما استطاع أن يأتى بكل هذه اللقطات . ولكن الحق سبحانه وتعالى جعل كل لقطة تأتى للتثبيت .

والآية الكريمة التى نحن بصددها لم تأت فى الاعراف ولا فى الحجر ولا فى الاسراء ولا فى الكهف ولا فى طه . وبهذا نعرف أنه ليس هناك تكرار . . فالله سبحانه وتعالى أخبر ملائكته أنه جاعل فى الأرض خليفة . هنا لابد لنا من وقفة . أخلق أدم كفرد . أم خلقه الله وكل ذريته مطمورة فيه الى يوم القيامة ، اذا قرأنا القرآن الكريم نجد أن الله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ ﴾

(من الآية ١١ سورة الأعراف)

---

(١) رواه البزار عن حذيفة بإسناد حسن .

الخطاب هنا للجمع . لآدم وذريته . فكأنه سبحانه وتعالى يشير الى أن الأصل الأول للخلق آدم ، وهو مطمور فيه صفات المخلوقين من ذريته الى أن تقوم الساعة وراثة . أى أنه ساعة خلق آدم .. كان فيه الذرات التى سيأخذ منها الخلق كله . هذا عن هذا .. حتى قيام الساعة .

ولقد قلتُ إن كل واحد منا فيه ذرة أو جزىء من آدم ، فأولاد آدم أخذوا منه والجيل الذى بعدهم أخذ من الميكروب الحي الذى أودعه آدم فى اولاده . والذين بعدهم أخذوا أيضا من الجزىء الحى الذى خلِق فى الاصل مع آدم . وكذلك الذين بعدهم . والذين بعدهم . والحياة لابد أن تكون حلقة متصلة . كل منا يأخذ من الذى قبله ويعطى الذى بعده . ولو كان هناك حلقة مفقودة . لتوقفت الحياة . كأن يموت الرجل قبل أن يتزوج . فلا تكون له ذرية من بعده . تتوقف حلقة الحياة . فكون حلقة الحياة مستمرة . دليل أنها حياة متصلة . لم تتوقف . ومادامت الحياة من عهد آدم الى يومنا هذا متصلة . فلابد أن يكون فى كل منا ذرة من آدم الذى هو بداية الحياة وأصلها . وانتقلت بعده الحياة فى حلقات متصلة الى يومنا هذا وستظل الى يوم القيامة .

فأنا الآن حى . لاننى نشأت من ميكروب حى من أبى . وأبى أخذ حياته من ميكروب حى من أبيه . وهكذا حتى تصل الى آدم ، اذن فأنت مخلوق من جزىء حى فيه الحياة لم تتوقف منذ آدم الى يومنا هذا . ولو توقفت لما كان لك وجود .
اذن فحياة الذين يعيشون الآن موصولة بآدم . لم يطرأ عليها موت . والذين سيعيشون وقت قيام الساعة حياتهم أيضا موصولة بآدم أول الخلق . والحق سبحانه وتعالى . حين أمر الملائكة بالسجود لآدم . فإنهم سجدوا لآدم ولذريته الى أن تقوم الساعة . وذرية آدم كانت مطمورة فى ظهره . وشهدت الخلق الأول . اذن فقول الحق سبحانه وتعالى : « لقد خلقناكم ثم صورناكم » فيه جزئية جديدة لقصة الخلق .

وقوله تعالى : « وإذ قال ربك للملائكة » أى أن الله سبحانه وتعالى يطلب من سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام أن يقول انه عند خلق آدم . خلقه خليفة فى الارض . والكلام هنا لا يعنى أن الله سبحانه وتعالى يستشير أحدا فى الخلق . بدليل

انه قال « انى جاعل » إذن فهو أمر مفروغ منه . ولكنه اعلام للملائكة . . والله سبحانه وتعالى . عندما يحدث الملائكة عن ذلك فلأن لهم مع آدم مهمة . فهناك المدبرات أمرا . والحفظة الكرام . وغيرهم من الملائكة الذين سيكلفهم الحق سبحانه وتعالى بمهام متعددة تتصل بحياة هذا المخلوق الجديد . فكان الاعلام . لأن للملائكة عملا مع هذا الخليفة .

قد يقول بعض الناس . ان حياة الانسان على الأرض تخضع لقوانين ونواميس . نقول ما يدريك أن وراء كل ناموس ملكا ؟

ولكن هذا الخليفة سيخلف من ؟ قد يخلف بعضه بعضا . فى هذه الحالة يكون هنا اعلام من الله بأن كل انسان سيموت ويخلفه غيره . فلو كانوا جميعا سيعيشون ما خلف بعضهم بعضا . وقد يكون الانسان خليفة لجنس آخر . ولكن الله سبحانه وتعالى .. نفى أن يخلف الانسان جنسا آخر . واقرأ قوله جل جلاله :

﴿ ... إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾ ﴾

(سورة ابراهيم)

والخلق الجديد هو من نوع الخلق نفسه الذى أهلكه الله . والله سبحانه وتعالى يخبرنا أن البشر سيخلفون بعضهم الى يوم القيامة . . فيقول جل جلاله :

﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ ﴾

(سورة مريم)

ولكن هذا يطلق عليه خَلْفٌ . ولا يطلق عليه خليفة . والشاعر يقول :

ذهب الذين يعاش فى اكنافهم

وبقيت فى خلف كجلد الأجرب

ولكن الله جعل الملائكة يسجدون لآدم ساعة الخلق وجعل الكون مسخرا له

فكأنه خليفة الله فى أرضه . أمده بعطاء الأسباب . فخضع الكون له بإرادة الله . وليس بإرادة الانسان . والله سبحانه وتعالى يقول فى حديث قدسى : « يا بن آدم تفرغ لعبادتى أملأ صدرك غنى وأسد فقرك . . وإلا تفعل ملأت يدك شغلا ولم أسُدّ فقرك » (١)

اذن كلمة خليفة . تأخذ عدة معان . .

ماذا قالت الملائكة : « قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك » .

كيف عرف الملائكة ذلك ؟ لابد أن هناك حالة قبلها قاسوا عليها . أو أنهم ظنوا أن آدم سيطغى فى الأرض . ولكن كلمة سفك وكلمة دم . كيف عرفتهما الملائكة وهى لم تحدث بعد ؟ لابد أنهم عرفوها من حياة سابقة . والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ ﴾

(سورة الحجر)

فكأن الجن قد خلق قبل الانسان . وقوله تعالى : « انى أعلم ما لا تعلمون » . معنى ذلك أن علمك أيها المخلوق مناسب لمخلوقيتك . أما علم الله سبحانه وتعالى .. فهو أزلى لانهائى . ولكن هل قال الملائكة حين أخبرهم الله بخلق آدم ذلك علنا أم أسروه فى أنفسهم ؟ سواء قالوه أم أسروه . فقد علمه الله . لأنه يعلم ما يسرون وما يعلنون . وانه يعلم السر وأخفى . فما هو السر . وما هو الأخفى من السر ؟ السر هو ما أسررته الى غيرك . فما أسر به الى غيرى . فهو السر . وما أخفيه فى صدرى ولا يطلع عليه أحد . هو أخفى من السر . فلا يقال أسررت الا اذا بحت به لغيرى . أما ما أخفيه فى صدرى . فلا يعلمه أحد الا الله . فهذا هو ما أخفى من السر .

وعندما يقول الحق سبحانه وتعالى : « إنى أعلم ما لا تعلمون » أراد أن يعطى القضية بعدها الحقيقى. وقد حكى القرآن الكريم قول الملائكة : « ونحن نسبح

---

(١) (رواه أحمد والترمذى وابن ماجه والحاكم عن أبى هريرة) .

بحمدك ونقدس لك » .

والتسبيح هو التنزيه عما لا يليق بذات المنزه . والتقديس هو التطهير . . مأخوذ من الْقَدَس وهو الدلو الذى كانوا يتطهرون به . ولذلك نحن نقول سُبّوح قُدوس . سُبّوح أى مُنزه عن كل ما لا يليق بجلاله . وقدوس . أى مُطَهَّرْ . . التسبيح يحتاج الى مُسبِّح . والى ما نسبحه . والملائكة قالوا : « سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا » .

وهذا تسبيح وتنزيه لله سبحانه وتعالى . . والتسبيح والتنزيه لا يكونان إلا للكمال المطلق الذى لا تشوبه أية شائبة . . والكمال المطلق هو لله سبحانه وتعالى وحده . لذلك صرف الله ألسنة خلقه عن أن يقولوا كلمة سبحانك لغير الله تعالى . فلا تسمع فى حياتك أن إنسانا قال لبشر سبحانك . وهكذا صرفت السنة الخلق عن أن تسبح لغير الله سبحانه وتعالى . وقول الملائكة : « ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك » كأن نقول سبحان الله وبحمده . ومعناها تنزيه لله سبحانه وتعالى فى ذاته.. فلا تشبّه بذات . وفى صفاته . فلا تشبّه بصفات وفى افعاله . فلا تشبه بأفعال . . ولكن ما معنى كلمة وبحمده ؟ معناها أننا ننزهك ونحمدك . أى يارب تنزيهنا لك نعمة . ولذلك فانى أحمدك على أنك أعطيتنى القدرة لأنزهك . . والتقديس هو تطهير الله سبحانه وتعالى من كل الأغيار . ولأنك ياربى قدوس طاهر . لا يليق أن يرفع اليك الا طاهر . ولا يليق أن يصدر عمن خلقته بيديك الاطاهر . .

إنه عرّفنا معنى نسبح بحمدك ونقدس لك . ثم أراد الله بحكمته أن يرد على الملائكة فقال : « انى أعلم مالا تعلمون » ولم يطلقها هكذا . ولكنه سبحانه أتى بالقضية التى تؤكد صدق الواقع . .

﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَـٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ ﴾

فالحق سبحانه وتعالى . رد على الملائكة بهذه الآية الكريمة . لأنه علم آدم الاسماء كلها . . وكلمة كلها تفيد الاحاطة . ومعنى الاحاطة معرفة كل شيء عن هذه الأسماء .

هنا يتبادر سؤال : هل عَلّم الله سبحانه وتعالى آدم الأسماء منذ ساعة الخلق الى قيام الساعة مادام الحق سبحانه وتعالى يقول كلها . فما هو حكم تلك الأسماء التى هى لمخترعات ستأتى بعد خلق آدم بقرون طويلة ؟

نقول إن الله سبحانه وتعالى . حين علم آدم الأسماء وميزه على الملائكة يكون قد أعطى ذلك الأدنى عنصرا ميزه عن المخلوق من عنصر أعلى . فآدم مخلوق من طين . والملائكة مخلوقون من نور . وقدرات البشر لا تستطيع أن تعطى الأدنى شيئا أكثر من الأعلى . ولكن الله سبحانه وتعالى وحده هو الذى يعطى ذلك ليذكرنا أن ما نأخذه ليس بقدراتنا ولكن بقدرته هو سبحانه . ولذلك تجد سليمان وهو ملك ونبى.. أعطاه الله تعالى ملكا لا ينبغى لأحد من بعده . وميزه عن خلقه . يأتى الهدهد ليقول لسليمان : « احطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين » .

كيف يحيط الهدهد وهو طائر ضعيف محدود بما لم يحط به سليمان وهو الملك النبى الذى حكم الانس والجن ؟ لأن الله سبحانه وتعالى .. يكره الغرور من خلقه . ولذلك يأتى بآية تميز الأدنى عن الأعلى ليعلموا جميعا أن كل قدراتهم ليست بذاتهم . وانما هى من الله . فيأتى موسى وهو الرسول والنبى ..فيتعلم من الخضر وهو العبد الصالح ما لم يكن يعلمه .

وقد خلق الله سبحانه المسميات وان كنا لا نعرف وجودها وجعل الملائكة تتلقى أسماء هذه المسميات من آدم . وان البعض يتساءل عن وسيلة تعليم الخالق الأكرم لآدم عليه السلام . وتعليم الخالق يختلف عن تعليم الخلق . لأن الخالق يعلم الهاما . يقذف فى قلب آدم أسماء المسميات كلها لكل ما فى الكون من أسماء المخلوقات . .

اذن فالمشهد الأول . لآدم مع الملائكة . كان قد تم ايجاد كل المسميات وألهمها الله لآدم . بدليل أن الملائكة لم تتعرف على هذه المسميات . بينما عرفها آدم . وهنا لابد لنا من وقفة . ان الكلام هو ناتج السمع . واللغة ناتج البيئة ، والله سبحانه وتعالى علم آدم الأسماء . وهذا العلم لا يمكن أن يأتى الا اذا كان آدم قد سمع من الله سبحانه وتعالى .. ثم نطق . فأنت اذا أتيت بطفل عربى .. وتركته فى لندن مثلا .. فتراه يتكلم الانجليزية بطلاقة .. ولا يفهم كلمة واحدة من اللغة العربية . والعكس صحيح . اذا أتيت بطفل انجليزى . وتركته فى بلد عربى . يتكلم العربية .. ولا يعلم شيئا عن الانجليزية . اذن فاللغة ليست وراثة ولا جنسا ولابيئة . ولكنها محاكاة يسمعها الانسان فينطق بها . واذا لم يسمع الانسان شيئا وكان أصم فانه لا يستطيع النطق بحرف واحد . فاذا كان آدم قد نطق بهذه الأسماء . فلابد أنه سمع من الله سبحانه وتعالى . .

والعجيب ان الطريقة التى علم الله سبحانه وتعالى آدم بها . هى الطريقة نفسها التى تتبعها البشرية الى يومنا هذا . فأنت لا تعلم الطفل بأن تقص عليه الأفعال . ولكن لابد أن يبدأ تعليمه بالأسماء والمسميات . تقول له : هذا كوب . وهذا جبل وهذا بحر . وهذه شمس . وهذا قمر . وبعد أن يتعلم المسميات . يستطيع أن يعرف الأفعال . ويتقدم فى التعليم بعد ذلك . .

وهكذا نتعرف على النشأة الاولى للكلام . وطلاقة قدرة الله سبحانه وتعالى علمت آدم الأسماء .

وهنا نتوقف لنجيب عن سؤالين : الأول : اذا كان الله سبحانه وتعالى قد علم آدم الأسماء كلها . فهل كان فيها أسماء ما سيستجد من مخترعات فى العالم ؟ نقول : إنه حتى لو تعلم آدم الأسماء التى يحتاج اليها فى أولويات الوجود

ويستخدمها فى متطلبات حياته على الأرض . فاذا جد جديد ، فإن أولاد آدم يستخدمون هذه الأسماء من المقدمات والأسماء التى تعلموها . فما يجد فى الوجود من أسماء . تدخل على اللغة . لم تأت من فراغ . وانما جاءت من اللغة التى تنطق بها وتكتب بها .

كذلك كل شىء فى هذا الكون . لو أعدته الآن الى أصله . تجد أن أصله من الله . فلو أعدت البشرية الى أصلها لابد أن تصل الى أن الانسان الاول خلقه الله سبحانه وتعالى . ولو اعدت العلم الى أصله . وكل علم يحتاج الى معلم . نقول لك.. من الذى علم المعلم الأول . أليس من البديهى أن العلم بدأ بمعلم علمه الله سبحانه وتعالى . وكان هذا هو المعلم الأول . . اذن فالذى علم الأسماء لآدم هو الله سبحانه وتعالى . وهو علمها لاولاده . وأولاده علموها لأولادهم وهكذا . .

يأتى السؤال الثانى : اذا كان الله هو المعلم للكلام . فلماذا اختلفت اللغات على الأرض وأصبح هناك ألوان من اللغات والألسنة ؟

نقول ان تنوع فترات التاريخ وانتشار الانسان على الارض جعل كل مجموعة من البشر تقترب من بعضها لتكون لها لغة واحدة . وكل لغة موجودة مأخوذة من لغة قديمة . فالفرنسية والانجليزية والايطالية . مأخوذة من اللاتينية . والعبرية والسريالية لها علاقة باللغة العربية . واللهجات التى يتكلم بها العالم العربى صاحب اللغة الواحدة ، تختلف . . حتى أن لهجة الجزائر او المغرب مثلا . تجدها مختلفة عن اللهجة المصرية أو السودانية . ولكننا إذا تكلمنا باللغة العربية فَهِمَ بعضنا بعضا ، ولغة هؤلاء جميعا فى الأصل هى لغة القرآن . وهى العربية . ولكن فى فترات الوهن التاريخى الذى مر على العرب انعزلت البلاد العربية بعضها عن بعض ومضى كل مجتمع يأخذ اللغة كمظهر اجتماعى . فيسقط التفاهم بين اللهجات المختلفة .

وهكذا علم الله سبحانه وتعالى آدم الأسماء كلها . ثم عرضهم على الملائكة وقال لهم « أنبئونى بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين » ؟ أى أن الله سبحانه وتعالى كرم آدم فى العلم . وأعطاه علما لم يعطه للملائكة . ثم جعل آدم هو الذى يعلمهم أسماء مسميات لم يعرفوها . وهذا دليل على طلاقة قدرة الله سبحانه وتعالى . يفعل

ما يشاء فى كونه . وكما قلنا ان تمييز الأدنى عن الأعلى . لا يتم الا بفعل الله وحده .

ولكى نقرب هذا الى العقول : هب ان انسانا ضعيفا يريد أن يحمل حملا ثقيلا . . لا يقدر . واذا كان هناك انسان قوى يعينه فانه لا يستطيع أن يعطيه من قوته ليحمل هذا الحمل . ولكن يعينه بأن يحمل عنه . أما الذى يستطيع أن يجعل هذا الضعيف قويا يمكنه أن يحمل هذا الحمل الثقيل فهو الله سبحانه وتعالى . . فالانسان لا يستطيع أن يعطى انسانا آخر من قوته . ولكن الله وحده هو القادر على أن يجعل الضعيف قويا والقوى ضعيفا .

وقوله تعالى : « ان كنتم صادقين » وهل يكذب الملائكة ؟ ان الملائكة خلق من نور يسبحون الله . ويفعلون ما يؤمرون . . نقول ان قوله تعالى « ان كنتم صادقين » فيما قستم عليه الأحداث . أو فيما قلتموه ضربا بالغيب .

ولو أن الملائكة قاسوا حكمهم على حكم جنس آخر كان فى الأرض كالجن مثلا الذين خلقوا قبل الانسان . . يقول الحق تعالى انكم أخطأتم فى قياسكم هذا . أو ان كنتم صادقين فيما تنبأتم به من غيب ؛ فلا يعلم الغيب الا الله تعالى . فالقياسان جانبهما التوفيق .

وليس هذا طعنا فى الملائكة . ولكنه تصحيح لهم . وتعريف لنا بأن الملائكة لا يعلمون الغيب . ولذلك فهم حينما قاسوا أو حكموا على غيب .. جانبهم التوفيق . لأن الله وحده هو علام الغيوب . والذى دفع الملائكة الى أن يقولوا أو يبطنوا هذا الكلام هو حبهم الشديد لله تعالى . . وكراهيتهم لإفساد فى كونه .

﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾﴾

هذه الآية الكريمة . توضح لنا ان الله سبحانه وتعالى هو المعلم الأول فى الكون . واذا كان لكل علم معلم . فإن المعلم الأول لابد أن يكون هو الله سبحانه وتعالى . واذا كنا نشاهد فى عصرنا ألوانا من العلوم . . فهذه العلوم من تفاعل العقل الذى وهبه الله تعالى للانسان . من المواد التى وضعها الله تعالى فى الكون . بالمنطق والعلم الذى علمه الله للانسان .

ان كل الاختراعات والابتكارات أخذت وجودها من مقدمات كانت سابقة عليها . فالماء مثلا كان موجودا منذ الازل . والشمس كطاقة تبخر الماء لتصنع منه سحابا . فاذا استخدم الانسان الطاقة الحرارية فى تبخير الماء واستخدم البخار كطاقة ، فهناك قفزة حضارية فى العلوم اسمها عصر البخار ، وهو الذى كانت تسير به القطارات والآلات فى المصانع . وغير ذلك .

إن هذا التقدم فى العلم ، إنما هو نابع من وجود العلم والطاقة ، وزاد عليهما القدرة العقلية للانسان الممنوحة له من الخالق ، التى جعلته يفكر فى استخدام الطاقة الناتجة من البخار ، فاذا توصل الانسان لمراقبة شجرة ساقطة وهى تتدحرج إلى الأرض لأن جذعها اسطوانى . فانه أخذ من نظام هذه الشجرة ما يصنع منه العجلة التى كانت تطورا هاما فى تاريخ العلم . .

اذن فساق الشجرة الاسطوانية هو الذى أعطى للانسان فكرة العجلة ، فاذا طور الانسان استخدام البخار وصنع قطارا يسير بالبخار . فهذا التطوير هو ابن للعلم

السابق عن قدرة الطاقة الناتجة عن تبخير الماء . وكيفية صناعة العجلة . . فكل علم نابع من علم سابق . . يترابط مع امكانات وهبها الله سبحانه وتعالى للانسان . ولذلك عندما جاء الاسلام ليعرض العلم التجريبى أو المادى . جاء ليلفتنا الى آيات الخالق فى الكون . وطلب منا أن نتأمل فى هذه الآيات . . ونعمل فيها العقل والادراك . واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾

(سورة يوسف)

وهكذا يلفتنا الله جل جلاله الى آياته التى فى السموات والارض لنعمل فيها العقل والادراك ، لتستنبط منها ما يعطينا الحضارة . . ان القرآن يطالبنا بأن نواصل العلم الذى علمه الله لآدم . واذا كان تاريخ العلوم يحمل لنا أخبارا عن قوم لم يكونوا مؤمنين ومع هذا سبقونا فى العلم والاستنباط ، فكان الواجب علينا نحن المؤمنين أن نتأمل آيات الله تعالى فى الأرض . فنيوتن ـ الذى لاحظ قوة جاذبية الأرض ـ كان يراقب تفاحة تسقط من أعلى الشجرة وتصطدم بالأرض . فتوصل الى قانون الجاذبية .

واذا أردنا أن نأخذ لمحة من علم الله الذى علمه لنا . فيكفى أن ننظر الى النواة . ففى هذه النواة الصغيرة نخلة كاملة . متى وضعت النواة فى الأرض . نمت النخلة . وأصبح لها وجود .

ولكى نوضح هذا كله نقول إن كل علم مبنى على نظريات . النظرية الاولى تؤدى الى الثانية . والثانية تؤدى الى الثالثة . وهكذا . . ولكن بداية كل هذه العلوم لم تبدأ بنظرية ، ولكنها بدأت بما يسمونه البديهيات . أى الأشياء التى لا تحتاج الى دليل . إنها الاشياء التى خلقها الله فى الكون . وعلى هذه البديهيات بنيت النظريات الواحدة بعد الأخرى . حتى اذا أردت أن تعيدها الى أصلها ، فإنك تصل فى نهاية الأمر الى أن العلم الأول من الله سبحانه وتعالى ، فالمعلم الاول علمه الله . والثمرة الأولى خلقها الله . وكل اكتشافات الانسان منذ بداية الحياة وحتى قيام الساعة موجودة بالقوة . مثل النواة التى فيها النخلة . تنتظر التأمل والعمل . لتصبح اكتشافا بالفعل . والله سبحانه وتعالى وهو المعلم الاول.. وضع فى كونه من العلم الكثير .

ويحضرنى قول الشاعر احمد شوقى حين قال :

سبحانك اللهم خير معلم ... علمت بالقلم القرون الأولى
أرسلت بالتوارة موسى مرشدا ... وابن البتول فعلم الانجيلا
وفجرت ينبوع البيان محمدا ... فسقى الحديث وناول التنزيلا

وكان شوقى يصوغ فى ابياته أن كل علم هو منسوب الى الله وحده . . وهكذا يتضح لنا . أن قول الملائكة : « سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم » يتضمن الاعتراف بأن العلم كله مرجعه الى الله . فالله سبحانه وتعالى هو مصدر العلم والحكمة . وقوله سبحانه وتعالى : « العليم الحكيم » العليم أى الذى يعلم كل شىء خافيا كان أو ظاهرا . والعلم كله منه . وأما الحكمة فتطلق فى الأصل على قطعة الحديد التى توضع فى فم الفرس لتلجمه حتى يمكن للراكب أن يتحكم فيه . ذلك أن الحصان حيوان مدلل شارد . يحتاج الى ترويض . وقطعة الحديد التى توضع فى فمه تجعله أكثر طاعة لصاحبه . وكأن اطلاق صفة الحكيم على الخالق سبحانه وتعالى هو أنه جل جلاله يحكم المخلوقات حتى لا تسير بغير هدى . ودون دراية .

والحكمة أن يوضع هدف لكل حركة لتنسجم الحركات بعضها مع بعض ، ويصير الكون محكوما بالحق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . والحكيم العليم . هو الذى يضع لكل كائن إطاره وحدوده . والحكمة هى أن يؤدى كل شىء ما هو مطلوب منه ببراعة . والحكمة فى الفقة هى أن تستنبط الحكم السليم . والحكمة فى الشعر أن تزن الكلمات على المفاعيل . والحكمة فى الطب أن تعرف تشخيص المرض والدواء الذى يعالجه . والحكمة فى الهندسة أن تصمم المستشفى طبقا لاحتياجات المريض والطبيب وأجهزة العلاج ومخازن الأدوية وغير ذلك . أو فى تصميم المنزل للسكن المريح . وحكمة بناء منزل مثلا تختلف عن حكمة بناء قصر أو مكان للعمل .

والكون كله مخلوق من قبل حكيم عليم . وضع الخالق سبحانه وتعالى فيه كل شىء فى موضعه ليؤدى مهمته . ووصف الله تعالى بأنه حكيم يتطلب أن يكون عليما . لأن علمه هو الذى يجعله يصنع كل شىء بحكمة . وقد أعطى الله سبحانه

وتعالى لكل خلقه من العلم على قدر حاجته ، فليس من طبيعة الملائكة أن يعرفوا ماذا سيفعل ذلك الانسان الذى سيستخلفه الله فى الارض . ولكنهم موجودون لمهمة أخرى . . وميز الله الانسان بالعقل ليستكشف من آيات الله فى الكون على قدر حاجة حياته . والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ ﴾

(سورة الأعلى)

إذن فكل شىء خلق بقدر . وكل مخلوق ميسر لما هداه الله له . .

﴿ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

فالحق سبحانه وتعالى أراد أن يرد على ملاحظة الملائكة بالنسبة لخلق آدم وخلافته فى الأرض ، وأن الله سبحانه وتعالى فى حكمته ما يخفى عليهم . ولذلك فهم لم يدركوا هذه الحكمة . وقبل أن يخلق الله آدم ويجعله خليفة فى الأرض . . كان على علم بكل ما سيحدث من آدم وذريته حتى قيام الساعة . وبعد قيام الساعة ، أما الملائكة . فهم لم يكونوا على علم بذلك . لأن هذا ليس عملهم . وكما قلنا : كل ميسر لما خلق له . ولذلك أراد الحق سبحانه وتعالى أن يعطى للملائكة الصورة بأنكم قد حكمتم على آدم إما من تجربة لجنس آخر عاش فى الارض ، وإما من ضرب بالغيب . والمقياسان غير صحيحين . ولذلك ميز الله سبحانه فى هذه اللحظة آدم على الملائكة فعلمه أسماء المسميات كلها ، ثم طلب من الملائكة أن يخبروه بهذه الأسماء . ولكنهم قالوا : ان العلم من الله وحده . وبما أن الله تعالى لم يعلمهم الأسماء فإنهم لا يعرفونها. فطلب الله من آدم أن يخبرهم بأسماء هذه المسميات فأخبرهم بها . ولكنه لم يخبرهم بها بذاته ولامن قانونه . ولا بعلم علمه وحده . ولكنه أخبرهم بتعليم الله سبحانه وتعالى له . وفى ذلك يقول الله تعالى :

﴿ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ ﴾

(من الآية ٧٦ سورة يوسف)

إذن فَعِلْمُ آدم للأسماء كان بمشيئة الله سبحانه وتعالى . وهذه المشيئة وحدها هى التى جعلت آدم فى ذلك الوقت يعلم ما لا تعلمه الملائكة . . وهنا رد الحق سبحانه وتعالى على قول الملائكة بأن آدم سيفسد فى الأرض . فذكرهم الله تعالى بقوله :

« ألم أقل لكم أنى أعلم غيب السموات والأرض » اى ان الله سبحانه وتعالى وحده هو الذى يعلم الغيب . والغيب هنا هو الغيب المطلق . فهناك غيب نسبى . قد تسرق حافظة نقودى مثلا وأنا لا أعلم من الذى سرقها فهو غيب عنى . ولكنه معلوم للذى سرق ، وللذى سهل له طريقة السرقة بأن حرس له الطريق حتى يسرق دون أن يفاجئه أحد . وقد يكون قد صدر قرار هام بالنسبة لى كترقية أو فصل أو حكم . لم يصلنى . فأنا لا أعلمه . ولكن الذى وقع القرار أو الحكم يعلمه .

هذا الغيب النسبى . لا يعتبر غيبا . ولكن الغيب المطلق هو الذى ليس له مقدمات تنبىء عما سيحدث . . هذا الغيب الذى يفاجئك . ويفاجىء كل من حولك بلا مقدمات . . هذا الغيب لا يعلمه الا الله وحده . وقوله تعالى : « وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون » . . تعطينا هنا وقفة . هل الملائكة قالوا لله سبحانه وتعالى : « اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك » هل قالها الملائكة فعلا وجهرا ، أم أنهم قالوها فى أنفسهم ولم ينطقوا بها . . قوله تعالى « وما كنتم تكتمون » تعطينا إشارة الى أن الملائكة ربما قالوا هذا سرا . ولم يبدوه ، وعلى أية حال . سواء قالوه جهرا . أو قالوه سرا . فقد علمه الله . لأن الله جل جلاله .. بكل شىء محيط . ولا نريد لهذه النقطة ان تثير جدلا .. لماذا ؟ لأنه فى الحالتين .. سواء فى الجهر أو فى الكتمان .. فإن الموقف يتساوى عند علم الله سبحانه وتعالى .. فلا داعى للجدل لأنه لاخلاف .

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾

أصدر الله تعالى أمره للملائكة ليسجدوا لآدم . وهذه القضية أخذت جدلا طويلا . قال بعض الناس : كيف يسجد الملائكة لغير الله ؟ والسجود لله وحده . وقال آخرون : هل معنى سجود الملائكة لآدم أنهم عبدوه ؟ وقالت فئة أخرى : السجود لغير الله لا يجوز تحت أى ظرف من الظروف . نقول لهؤلاء : انكم لم تدركوا المعنى ، فالله سبحانه وتعالى بعد أن ميز آدم على الملائكة بعلم الأسماء . . طلب منهم أن يسجدوا لآدم ، وهنا لابد أن نعرف أن السجود لآدم . . هو إطاعة لأمر الله . . وليست عبادة لآدم . فالله سبحانه وتعالى هو الذى أمر الملائكة بالسجود . ولم يأمرهم بذلك آدم . ولا يحق له أن يأمرهم . فالأمر بالسجود هنا من الله سبحانه وتعالى ، من أطاعه كان عابدا . ومن لم يطعه كان عاصيا . ومن رد الأمر على الآمر كان كافرا .

ولكى نفهم معنى العبادة نقول : ان العبادة هى طاعة أوامر الله . واجتناب نواهيه . فما قال لى الله : افعل . فإنى أفعل . وما قال : لا تفعل . فإننى لا أفعل . . لأن العبادة هى طاعة مخلوق لخالقه فى أوامره ونواهيه . ولذلك عندما نذهب الى الحج فاننا نقبل الحجر الأسود فى الكعبة ، ونرجم الحجر الذى يمثل ابليس فى منى . نقبل حجرا ونرجم حجرا . . هذا هو معنى عبادة الله واتباع منهجه . كما أمرنا نفعل . لا شىء مقدس عندنا .. الا أمر الله ومنهجه . الملائكة هنا لم يسجدوا لآدم . ولكنهم سجدوا لأمر الله بالسجود لآدم . وفرق كبير بين السجود لشىء ، وبين السجود لأمر الله . السجود لأمر الله سبحانه وتعالى . . لا يعتبر خروجا على المنهج ، لأن الأساس هو طاعة الله . وهل سجد كل الملائكة لآدم ؟ لا . وإنما

سجد لآدم الملائكة الذين لهم مهمة معه ، وتلك المهمة قد اوضحها الله سبحانه وتعالى فى قوله :

﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

(سورة الانفطار)

وقوله سبحانه :

﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ ﴾

(سورة ق)

وقوله سبحانه :

﴿ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴿٥﴾ ﴾

(سورة النازعات)

اذن هناك من الملائكة من سيسجل على الانسان أعماله . وكل قول يقوله وكل فعل يفعله . بل ويكتبون هذه الافعال . ومنهم من يحفظه من الشياطين ، ومنهم من ينفذ أقدار الله فى الأرض . هؤلاء جميعا لهم مهمة مع الانسان . ولكن الأمر بالسجود لم يشمل اولئك الملائكة العالين من حملة العرش وحراس السماء وغيرهم ممن ليست لهم مهمة مع الانسان . ولذلك عندما رفض ابليس السجود . قال له الله تعالى :

﴿ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾

(سورة ص)

قوله تعالى . . كنت من العالين ـ أى أنك كنت من الملائكة العالين . . الذين لم يشملهم أمر السجود . إذن فأمر السجود لآدم . . كأمر الله لنا بالسجود الى القبلة فى الصلاة . فنحن لا نسجد للقبلة ذاتها . . ولكننا نسجد لأمر الله بالسجود الى القبلة . . سجد الملائكة الذين شملهم أمر السجود لأمر الله سبحانه وتعالى . . ولكن ابليس رفض أن يسجد . وعصى أمر الله .

بعض الناس يقولون : أن ابليس لم يكن من الذين أمرهم الله تعالى بالسجود . لأن الأمر شمل الملائكة وحدهم . . وإبليس ليس ملكا . ولكنه من الجن . كما يروى لنا القرآن الكريم فى قوله تعالى :

﴿ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ﴾

(من الآية ٥٠ سورة الكهف)

ونقول : ان كون إبليس من الجن هو الذى جعله يعصى أمر الله بالسجود . فلو أن ابليس كان من الملائكة ـ وهم مقهورون على الطاعة ـ كان لابد أن يطيع أمر الله ويسجد . ولكن كونه من الجن الذين لهم اختيار فى أن يطيعوا وأن يعصوا فذلك الذى مكنه أن يعصى أمر السجود . ولذلك فإن الذين يأخذون من الآية الكريمة ان إبليس كان من الجن . بأنه لم يشمله أمر السجود . نقول لهم : ان الحق سبحانه وتعالى قد اخبرنا عن جنس إبليس حتى نفهم من أى باب الى المعصية دخل . . ذلك أنه دخل من باب الاختيار الممنوح للانس والجن فى الحياة الدنيا وحدها ، ولو أراد الله سبحانه وتعالى أن يكون إبليس مقهورا على الطاعة ما كان يستطيع أن يعصى . ولكن معصيته جاءت من أنه خلق مختارا . . والاختيار هو الباب الذى دخل منه الى المعصية . هذه حقيقة يجب أن نفهمها . ولذلك يرد الحق سبحانه وتعالى على كل من سيخطر بباله ان امر السجود لم يشمل ابليس لكونه من الجن لقوله سبحانه وتعالى :

﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾

(من الآية ١٢ سورة الأعراف)

وكان كفر إبليس وخلوده فى النار أنه رد الأمر على الآمر . وقال :

﴿ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾

(من الآية ٦١ سورة الاسراء)

وقد كان وجود إبليس مع الأعلى منه وهم الملائكة . مبررا أكبر للسجود .

فمادام قد صدر الأمر الى الأعلى بالسجود فإنه ينطبق على الأدنى .

وقد كان ابليس كما جاء فى الأثر يسمى طاووس الملائكة . . وكان يزهو بخيلاء بينهم . . وهذه الخيلاء أو الكبر هو الذى جعله يقع فى المعصية ، ولأن ابليس خلق مختارا . فقد كان مزهوا باختياره لطاعة الله . . قبل ان يقوده غروره الى الكفر والمعصية . ولذلك لم يكد يصدر الأمر من الله بالسجود لآدم . حتى امتنع ابليس تكبرا منه . . ولم يجاهد نفسه على طاعة الله . . فمعصية إبليس هى معصية فى القمة . لأنه رد الأمر على الآمر وظن أنه خير من آدم . . ولم يلتزم بطاعة الله ، ومضى غروره يقوده من معصية الى أخرى . فطرده الله من رحمته وجعله رجيما . ولما عرف إبليس أنه طرد من رحمة الله طلب من الله سبحانه وتعالى أن يبقية الى يوم الدين ، وأقسم إبليس بعزة الله أن يغرى بنى آدم . . حدد الأماكن التى يأتى منها الاغواء . فقال :

﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

نلاحظ هنا أن الجهات بالنسبة للانسان ستة . اليمين والشمال . والامام والخلف وأعلى وأسفل ، ولكن ابليس لم يذكر الا أربعة فقط . أما الجهتان الأخيرتان وهما الأعلى والاسفل . فلا يستطيع ابليس أن يقترب منهما . أما الأسفل فهو مكان السجود والخضوع لله . وأما الأعلى فهو مكان صعود الصلاة والدعاء . وهذان المكانان لا يستطيع ابليس أن يقترب منهما .

وهكذا نرى أن إبليس لم يمتنع عن السجود فقط . وإنما رد الأمر على الآمر . وهذا أول الكفر . ثم بعد ذلك مضى فى غيه فتوعد آدم وذريته بأن يضلهم عن سبيل الله

﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾

بعد أن خلق الله سبحانه وتعالى آدم وأمر الملائكة ان تسجد له وحدث كفر ابليس ومعصيته أراد الله جل جلاله أن يمارس آدم مهمته على الأرض . ولكنه قبل أن يمارس مهمته أدخله الله فى تجربة عملية عن المنهج الذى سيتبعه الانسان فى الأرض ، وعن الغواية التى سيتعرض لها من ابليس . فالله سبحانه وتعالى رحمة منه لم يشأ أن يبدأ آدم مهمته فى الوجود على أساس نظرى ، لأن هناك فرقا بين الكلام النظرى والتجربة .

قد يقال لك شيء وتوافق عليه من الناحية النظرية ولكن عندما يأتى الفعل فانك لا تفعل شيئا . اذن فالفترة التى عاش فيها آدم فى الجنة كانت تطبيقا عمليا لمنهج العبودية ، حتى اذا ما خرج الى مهمته لم يخرج بمبدأ نظرى ، بل خرج بمنهج عملى تعرض فيه لا فعل ولا تفعل . والحلال والحرام ، واغواء الشيطان والمعصية . ثم بعد ذلك يتعلم كيف يتوب ويستغفر ويعود الى الله. وليعرف بنو آدم أن الله لا يغلق بابه فى وجه العاصى ، وانما يفتح له باب التوبة . والله سبحانه وتعالى أسكن آدم الجنة . وبعض الناس يقول : أنها جنة الخلد التى سيدخل فيها المؤمنون فى الآخرة . وبعضهم قال : لولا أن آدم عصى لكنا نعيش فى الجنة . نقول لهم لا . . جنة الآخرة هى للآخرة ولا يعيش فيها انسان فترة من الوقت ثم بعد ذلك يطرد منها بل هى كما أخبرنا الله تعالى جنة الخلد . . كل من دخلها عاش فى نعيم أبدى .

إذن فما هى الجنة التى عاش فيها آدم وحواء ؟ هذه الجنة هى جنة التجربة أو المكان الذى تمت فيه تجربة تطبيق المنهج . ونحن اذا قرأنا القرآن الكريم نجد أن الحق سبحانه وتعالى قد اطلق لفظ الجنة على جنات الأرض . والجنة تأتى من لفظ

« جن » وهو الستر ، ذلك أن فيها أشجارا كثيفة تستر من يعيش فيها فلا يراه أحد . وفيها ثمرات تعطيه استمرار الحياة فلا يحتاج إلى أن يخرج منها . ونجد فى القرآن الكريم قوله تعالى :

﴿ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

(سورة القلم)

وهذه قصة الاخوة الذين كانوا يملكون جنة من جنان الأرض فمنعوا حق الفقير والمسكين واليتيم ، فذهب الله بثمر الجنة كلها وأحرق أشجارها . وهناك فى سورة الكهف قصة صاحب الجنتين : فى قوله تعالى :

﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ ﴾

(سورة الكهف)

وهى قصة ذلك الرجل الذى أعطاه الله جنتين . . فبدلا من ان يشكر الله تعالى على نعمه . . كفر وأنكر البعث والحساب . وفى سورة سبأ اقرأ قوله تعالى عن أهل سبأ الذين هداهم الله وبين لهم الطريق المستقيم ولكنهم فضلوا الكفر. واقرإ قوله تبارك وتعالى :

﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة سبأ)

وهكذا نرى أن الحق سبحانه وتعالى فى القرآن الكريم قد أطلق لفظ الجنة على جنات الدنيا ، ولم يقصره على جنة الآخرة .

إذن فآدم حين قال له الله سبحانه وتعالى :

﴿ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ ﴾

(من الآية ١٩ سورة الأعراف)

فهى ليست جنة الخلد وانما هى جنة سيمارس فيها تجربة تطبيق المنهج . ولذلك لا يقال : كيف دخل ابليس الجنة بعد أن عصى وكفر ، لأن هذه ليست جنة الخلد ولابد أن تنتبه الى ذلك جيدا حتى لا يقال ان معصية آدم هى التى أخرجت البشر من الجنة . لأن الله تعالى قبل أن يخلق آدم حدد مهمته فقال :

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾

(من الآية ٣٠ سورة البقرة)

فآدم مخلوق للخلافة فى الأرض ومن صلح من ذريته يدخل جنة الخلد فى الآخرة ، ومن دخل جنة الخلد عاش فى النعيم خالدا .

والحق سبحانه وتعالى يقول : « وكلا منها رغدا حيث شئتما » فالله سبحانه وتعالى أمد الجنة التى سكنها آدم وحواء بكل ما يضمن استمرار حياتهما ، تماما كما خلق كل النعم التى تضمن استمرار حياة آدم وذريته فى الأرض قبل أن تبدأ الحياة البشرية على الأرض . فالله سبحانه وتعالى له عطاء ربوبية فهو الذى خلق . وهو الذى أوجد من عدم ، ولذلك فقد ضمن لخلقه ما يعطيهم استمرار الحياة على الأرض من ماء وهواء وطعام ونعم لا تعد ولا تحصى فكأن الله تعالى قد أمد الجنة التى سكن فيها آدم وزوجته بكل عوامل استمرار حياتهما قبل أن يسكناها . كما أمد الأرض بكل وسائل استمرار حياة الانسان قبل أن ينزل آدم اليها . اذن فقوله تعالى : « ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة »

هذه فترة التدريب على تطبيق المنهج . والسكن هو المكان الذى يرتاح فيه الانسان ويرجع اليه دائما . فأنت قد تسافر فترات ، وكل الدول التى تمر بها خلال

سفرك لا تعتبر سكنا الى أن تعود الى بيتك ، فهذا هو السكن والرجل يكد ويتعب فى الحياة وأينما ذهب فإنه يعود مرة أخرى الى المكان الذى يسكنه ليستريح فيه

وقوله تعالى : « ولا تقربا هذه الشجرة » هو استكمال للمنهج . فهناك أمر ونهى افعل ولا تفعل : « اسكن أنت وزوجك الجنة » أمر : « وكلا منها رغدا » أمر ، « ولا تقربا هذه الشجرة » نهى وهذا أول منهج يعلم الانسان الطاعة لله سبحانه وتعالى والامتناع عما نهى عنه ، وكل رسائل السماء ومناهج الله فى الأرض أمر ونهى.. إفعل كذا ولا تفعل كذا .

وهكذا فان الحق سبحانه وتعالى ضمن لآدم الحياة ، وليست الحياة فقط ولكن رغدا . أى مباحا وبلا تعب وعن سعة وبدون مشقة.كما أننا نلاحظ هنا أن المباح كثير والممنوع قليل . فكل ما فى الجنة من الطعام والشراب مباح لآدم ، ولا قيد إلا على شىء واحد..شجرة واحدة من بين ألوف الأشجار التى كانت موجودة فى الجنة .. شجرة واحدة فقط هى الممنوعة .

واذا نظرت الى منهج السماء الى الأرض تجد أن الله سبحانه وتعالى قد أباح فيه نعما لا تحصى ولا تعد وقيد فيه أقل القليل .. فالذى نهانا الله عنه بالنسبة لنعم الأرض هو أقل القليل ، كما كان فى جنة آدم شجرة واحدة والمباح بعد ذلك كثير.واذا أخذنا ألفاظ العبارات نجد أن الله سبحانه وتعالى ساعة يقول : « قلنا يا آدم » أتى بضمير (نا) ضمير الجمع ، لأن الله واحد أحد ، ولكنهم يسمونها : نون الكبرياء ونون العظمة .

اذن فكل حدث يأتى فيه الحق تبارك وتعالى بنون الكبرياء ونون التعظيم . لأن كل فعل من الأفعال يحتاج الى صفات متعددة حتى يتم. فأنت اذا أردت أن تفعل شيئا فانه يقتضى منك قوة ويقتضى منك علما ويقتضى منك قدرة ويقتضى منك حكمة .. إذن فهناك صفات كثيرة موجودة يقتضيها الفعل .

ولكن حين يتكلم الحق سبحانه وتعالى عن شهادة التوحيد يقول « إننى أنا الله » ولا يقول : إنما نحن الله .. لأنه جل جلاله . يريد توحيدا . ففى موقع التوحيد

يأتى بضمير الافراد واحد أحد . . أما فى صدر الاحداث . فيأتى بضمير الكبرياء والعظمة . واقرأ قوله تعالى :

﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾

(سورة الذاريات)

وعندما اراد الحق تبارك وتعالى أن يمتدح ابراهيم قال : « ان ابراهيم كان أُمّة » ما معنى أُمّة ؟ أى جامعا لصفات الخير التى لا تجتمع فى فرد ولكنها تجتمع فى أمة . فالأمة تجتمع فيها صفات الخير . . هذا متميز بالصدق ، وذلك بالشجاعة . وهذا بالحلم . فأراد الحق سبحانه وتعالى أن يقول ان ابراهيم كان أمة أى أنه كان جامعا لصفات الخير .

وفى قوله « قلنا يا آدم » آدم اسم علم على المسمى الذى هو أول خلق الله من البشر « واسكن » تحتاج الى عنصرين : الهدوء والاطمئنان . . هذا هو معنى اسكن . توفير الهدوء والاطمئنان ، ومنه أخذ اسم السكن . وكلمة المسكن وأطلق على الزوجة . . واذا فقد المكان الذى تسكن فيه عنصرا من هذين العنصرين وهما الهدوء والطمأنينة لا يقال عليه مسكن . والزوجة سميت سكنا كما جاء فى قوله تعالى :

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾

(من الآية ٢١ سورة الروم)

لأن الهدوء والرحمة والبركة تتوافر فى الزوجة الصالحة . والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ﴾

(من الآية ١٠٣ سورة التوبة)

أى راحة واطمئنانا ورحمة . فالانسان يريد فى بيته أن تكون الحياة فيه مريحة له من عناء العمل وصخب الحياة . ويقول الحق سبحانه وتعالى : « اسكن انت وزوجك » وكان من الممكن أن يقول اسكن وزوجك لأن الفاعل فى فعل الامر دائما مستتر . ولكنه سبحانه قال : اسكن انت وزوجك . . واياك أن تظن أن أنت هو فاعل الفعل اسكن . ولكنه ضمير جاء ليفصل بين اسكن وبين زوجك حتى لا يعطف الاسم على الفعل .

أننا لابد أن نلاحظ أن كلمة زوج تطلق على الفرد ومعه مثله . ولذلك لم يأت بتاء التأنيث . . اسكن أنت وزوجتك . لأن الأمر التكليفى من الله . سواء فيه الذكر والانثى . واقرأ قوله تعالى :

﴿ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾

(من الآية ٤٠ سورة غافر)

إذن فهما متساويان فى هذه الناحية . هذه الجنة ماذا وفر الله سبحانه وتعالى لآدم وزوجه فيها ؟ اقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ ﴾

(سورة طه)

هذه عناصر الحياة التى وفرها الله لآدم وزوجه فى جنة التجربة الايمانية العملية على التكليف . وهكذا نرى من الأوصاف التى أعطاها الله سبحانه وتعالى لنا لهذه الجنة أنها ليست جنة الآخرة . لأنه أولا فيها تكليف . فى قوله تعالى : « ولا تقربا هذه الشجرة » وجنة الآخرة لا تكليف فيها ، والحق تبارك وتعالى أباح لآدم وحواء أن يأكلا كما يشاءان من الجنة . والجنة فيها أصناف كثيرة متعددة . ولذلك قال : « حيث شئتما »

وأنت لا تستطيع أن تقدم لانسان صنفا أو صنفين وتقول له كل ما شئت . لأنه لا يوجد أمامه الا مجال ضيق للاختيار ، كما أن قلة عدد الأصناف تجعل النفس تمل . ولذلك لابد أن يكون هناك أصناف متعددة وكثيرة .

ثم جاء النهى . فى قوله تعالى : « ولا تقربا هذه الشجرة » أى لا تقتربا من مكانها . ولكن لماذا لم يقل الحق سبحانه وتعالى ولا تأكلا من هذه الشجرة ؟ . لأن الله جل جلاله رحمة بآدم وزوجه كان لا يريدهما أن يقعا فى غواية المعصية . فلو أنه قال : ولا تأكلا من هذه الشجرة لكان مباحا لهما أن يقتربا منها فتجذبهما بجمال منظرها ويقتربا من ثمارها فتفتنهما برائحتها العذبة ولونها الجذاب . حينئذ يحدث الاغواء . وتمتد أيديهما تحت هذا الاغراء الى الشجرة ليأكلا منها .

ولكن الله تعالى يعلم أن النفس البشرية اذا حرم عليها شىء ولم تحم حوله كان ذلك أدعى ألا تفعله . فالله تعالى حين حرم الخمر لم يقل حرمت عليكم الخمر والا كنا جلسنا فى مجالس الخمر ومع الذين يشربونها . أو نتاجر فيها وهذا كله اغراء بشرب الخمر . . ولكنه قال :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾

(سورة المائدة)

هذا النص الكريم قد جعلنا نبتعد عن الاماكن التى فيها الخمور . فلا نجلس مع من يشربونها ، ولا نتاجر فيها حتى لا نقع فى المعصية . فاذا رأيت مكانا فيه خمر فابتعد عنه فى الحال . حتى لا يغريك منظر الخمر وشاربها بأن تفعل مثله . والحق جل جلاله يقول فى المحرمات : « لا تقربوا » واجتنبوا . . أى لا تحوموا حولها . لأنها اذا كانت غائبة عنك فلا تخطر على بالك فلا تقع فيها . ولذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم :

(إنَّ الْحَلاَلَ بَيِّنٌ والْحَرَامَ بَيِّنٌ وبينهما أمور مشتبهات لايعلمهن كثير من الناس فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام كالراعى يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه.ألا وإن لكل مَلِكٍ حِمى حمى الله محارمه) (١)

---

(١) (رواه البخارى ومسلم عن النعمان بن بشير) .

ولقد كان بعض الناس يقبلون على شرب الخمر ويقولون انه لم يرد فيها تحريم صريح.. فلم تأت مسبوقة بكلمة حرمت .. نقول ان كلمة اجتنبوا . أشد من التحريم . فقوله تعالى : « اجتنبوا الرجس من الأوثان » معناه ألا تنظر حتى الى الصنم . واجتناب الخمر ألا تقع عينك عليها ..

وقد اختلف الناس فى نوع هذه الشجرة . وهل هى شجرة تفاح أو تين أو عنب أو غير ذلك . ونحن نقول : ليس هذا هو المقصود . ولكن المقصود هو التحريم . لأن منهج الله سبحانه وتعالى يحلل أشياء . ويحرم أشياء .

وقوله تعالى : « فتكونا من الظالمين » الظلم هو الجور والتعدى على حقوق الغير . والظالم هو من أخذ فوق ما يستحقه بغير حق . والظلم يقتضى ظالما ومظلوما . وموضوعا للظلم . فكل حق ـ سواء كان ماديا أو معنويا ـ يعتدى عليه انسان بدون حق فقد حمل ظلما . حتى الانسان انه أحيانا يظلم نفسه . واقرأ قوله تعالى :

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ ﴾

(من الآية ١٣٥ سورة آل عمران)

كيف يظلم الانسان نفسه ؟ قد يظلم الانسان غيره . ولكنه لا يظلم نفسه أبدا لانه يريد أن يعطيها كل ما تشتهيه . وهذا هو عين الظلم للنفس . لانه أعطاها شهوة عاجلة فى الدنيا . ربما استمرت ساعات . وحرمها من نعيم أبدى فى الآخرة . فكأنه ظلمها بأن أعطاها عذابا أليما فى الآخرة مقابل متعة زائلة لا تدوم .. وهناك من يبيع دينه بدنياه . ولكن أظلم الناس لنفسه من يبيع دينه . بدنيا غيره . يشهد زورا . ليرضى رئيسا . أو يتقرب لمسئول . أو يرتكب جريمة .. اذن قوله تعالى : « فتكونا من الظالمين » أى من الذين ظلموا أنفسهم بمعصية الله .

﴿ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ ﴾

بعد أن أسكن الله سبحانه وتعالى آدم وزوجه فى الجنة . وأخبرهما بما هو حلال وما هو حرام . بدأ الشيطان مهمته . مهمة عداوته الرهيبة لآدم وذريته . والحق سبحانه يقول : « فأزلهما الشيطان » أى أن الشيطان باشر مهمته فأوقعهما فى الزلة . وهى العثرة أو الكبوة . كيف حدث ذلك والله تعالى قد نصح آدم وزوجه ألا يتبعا الشيطان . وأبلغه أنه عدو لهما . فى قوله تعالى :

﴿ ... إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ ﴾

(سورة طه)

اذن فالعداوة معلنة ومسبقة . ولنفرض أنها غير معلنة . ألم يشهد آدم الموقف الذى عصى فيه ابليس أمر الله ولم يسجد لآدم ؟ ألم يعرف مدى تكبر ابليس عليه . فى قوله « أنا خير منه » وقوله « أأسجد لمن خلقت طينا » كل هذا كان ينبغى أن ينبه آدم الى أن ابليس لن يأتى له بخير أبدا . .

والحق سبحانه وتعالى لم يكتف بالدلالات الطبيعية التى نشأت عن موقف ابليس فى رفضه السجود . بل أخبر آدم ان الشيطان عدو له ولزوجه . . يقول الحق سبحانه وتعالى : « فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه » من ماذا أخرجهما ؟ من العيش الرغيد . واسع النعمة فى الجنة . ومن الهدوء والاطمئنان فى أن رزقهما يأتيهما بلا تعب . ولذلك سيأتى الحق فى آية اخرى ويقول : « فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى »

وهنا لابد أن نتساءل : لماذا لم يقل فتشقيا ؟

ان هذه لفتة من الحق سبحانه وتعالى .. الى مهمة المرأة ومهمة الرجل فى الحياة . فمهمة المرأة أن تكون سكنا لزوجها عندما يعود الى بيته . تذهب تعبه وشقاءه . أما مهمة الرجل فهى العمل حتى يوفر الطعام والمسكن لزوجته وأولاده . والعمل تعب وحركة .

وهكذا لفتنا الحق تبارك وتعالى إلى أن مهمة الرجل أن يكدح ويشقى . ثم يأتى الى أهله فتكون السكينة والراحة والاطمئنان .

اذا كانت هذه هى الحقيقة . فلماذا يأتى العالم ليغير هذا النظام ؟

نقول ان العالم هو الذى يتعب نفسه . ويتعب الدنيا . فعمل المرأة شقاء لها . فمهمتها هى البيت . وليس عندها وقت لأى شيء آخر . فاذا عملت فذلك على حساب أولادها وبيتها وزوجها .. ومن هنا ينشأ الشقاء فى المجتمع . فيضيع الأولاد . ويهرب الزوج الى مكان فيه امرأة تعطيه السكن الذى يحتاج إليه . وينتهى المجتمع الى فوضى ..

وكان يجب على آدم أن يتنبه الى أن إبليس يعتبره السبب فى طرده من رحمة الله . فلا يقبل منه نصيحة ولا كلاما ويحتاط .. كيف أزل الشيطان آدم وزوجه ؟ لقد شرح الله سبحانه وتعالى لنا هذا ولكن ليس فى سورة البقرة وإنما فى أية أخرى .. فقال تعالى :

﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾

(سورة الاعراف)

اذن فابليس قال كاذبا أن من يأكل من هذه الشجرة يصبح ملكا . ويصبح خالدا لا يموت .. ووسوسة الشيطان تتم بكلام كاذب لتزيين المعصية ، والشيطان لا يهمه أى معصية ارتكبت . وانما يريدك عاصيا على أى وجه . ولكن النفس عندما توسوس

لك بالمعصية ، تريد شيئا بذاته . وهذا هو الفرق بين وسوسة الشيطان . ووسوسة النفس . فالشيطان يريدك عاصيا بأى ذنب . فان امتنعت فى ناحية أتاك من ناحية أخرى . فقد قال لآدم : هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى » ولكن هذه المحاولة لم تفلح . فقال لهما : « مانهاكما ربكما عن هذه الشجرة الا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين » وفات على آدم أنه لو كان هذا صحيحا .. لأكل إبليس من الشجرة .. ولم يطلب من الحق سبحانه وتعالى ان يمهله الى يوم الدين . .

ما الذى اسقط آدم فى المعصية ؟ انها الغفلة أو النسيان . والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ ﴾

(سورة طه)

وهل النسيان معصية . حتى يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴾

(من الآية ١٢١ سورة طه)

نعم النسيان كان معصية فى الأمم السابقة . لذلك يقول النبى صلى الله عليه وسلم « رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه »(١)

ونسى وعصى . تؤدى معنى واحدا . .

وقوله تعالى :

﴿ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ ﴾

(سورة الاعراف)

---

(١) (رواه الطبرانى عن ثوبان) .

هذا الهبوط هو بداية نزول الانسان الى الأرض ليباشر مهمته فى الدنيا . ومادام الحق سبحانه وتعالى قال : « ولكم فى الارض مستقر ومتاع الى حين » . فهى اذن حياة موقوته على قدر وقتها ، وعلى قدر حجمها . .

والذين يقولون بأنه لابد من وجود بشر نسميه مخلِّصا . ليفدى العالم بصلبه أو بغير ذلك من الخطيئة التى ارتكبها آدم . نقول له : انك لم تفهم عن الله شيئا ، لأن القصة هى هنا خطأ قد حدث وصُوب . وفرق بين الخطأ والخطيئة . فالخطأ يصوب . ولكن الخطيئة يعاقب عليها .

وآدم أخطأ وصوب الله له . وتلقى من ربه كلمات فتاب عليه . اذن لا توجد خطيئة بعد أن علمه الله التوبة وتاب الى الله . ثم ماذا فعل آدم . حتى نقول نخلص العالم من خطيئة آدم . انه أكل من الشجرة . وهل خطايا العالم كلها أكل ؟!

من الذى أوجد القتل وسفك الدماء ، والزنا والاغتصاب والنميمة والغيبة ؟

لو أن كلامهم صحيح لكان لابد ألا توجد خطيئة على الأرض مادام قد وجد المخلِص الذى فدى العالم من الخطيئة . ولكن الخطيئة باقية . ومن الذى قال ان الخطيئة تورث . حتى يرث العالم كله خطيئة آدم ؟! . والله سبحانه وتعالى يقول : « ولا تزر وازرة وزر أخرى » . .

وقول الحق سبحانه وتعالى « وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو » العداوة هنا بين الشيطان والانسان . والعداوة أيضا بين شياطين الانس والمؤمنين ، هذه العداوة التى تؤدى بنا الى نشاط وتنبه . فالمستشرقون يعادون الاسلام . ولكن معاداتهم هذه تعطينا نشاطا لكى نبحث ونطلع حتى نرد عليهم . وجنود الشيطان من الانس يعادون المؤمنين . وعداواتهم هذه تعطينا مناعة ألا نخطئ ولا نغفل . فأنت مادام لك عدو .. فحاول أن تتفوق عليه بكل السبل .

ولعل الحضارة الانسانية لا ترتقى بسرعة قدر ارتقائها وقت الحروب . ففيها يحاول كل خصم ان يتغلب على خصمه . وتجند كل القوى للتفوق علميا على الدول الأخرى . هذه الارتقاءات والاختراعات . قد تكون للتدمير والقتل . ولكن بعد أن تنتهى الحرب توجه الى ارتقاءات الانسان فى الأرض . فتفتيت الذرة وصلوا اليه فى

الحروب . والصواريخ التى وصل الانسان بها الى القمر كانت نتيجة حرب ، والارتقاءات العلمية المختلفة التى تمت فى أمريكا والاتحاد السوفيتى كان اساسها عداء كل معسكر للآخر .

وقوله تعالى « اهبطوا بعضكم لبعض عدو » . . الهبوط قد يكون من مكان أعلى الى مكان أسفل . وقد يكون الهبوط معنويا . بأن تقول هذا الانسان هبط فى نظرى منذ فعل كذا . هو لم يهبط من مكان أعلى الى مكان أسفل .

ولكنه هبط فى قيمته . والمسافات لا تعنى قربا أو بعدا . فقد يكون انسان يجلس الى جوارك وأنت بعيد عنه لا تحس به . وقد يكون هناك انسان بعيد عنك بمئات الأميال ولكنه قريب الى قلبك أكثر من ذلك الجالس الى جوارك . وسواء كان الهبوط ماديا أو معنويا . فانه حدث ليباشر آدم مهمته على الأرض . . والعداوة بين الايمان والكفر مستمرة .

وهكذا بعد معصية آدم . هبط هو وحواء من الجنة ليمارسا حياتهما على الأرض . . وقوله تعالى « اهبطوا » معناه أن آدم وحواء وابليس هبطوا الى الأرض بعد أن تمت التجربة الايمانية .

لقد بين الله تعالى لآدم عمليا ان ابليس عدو له . لا يريد له الخير . وأنه كاذب فى كل ما يعد به الانسان . وقد حدد الله الحياة الدنيا بأنها حياة موقوتة . قدراتها محدودة . ومتاعها محدود . . فى قوله تعالى :
« ولكم فى الأرض مستقر ومتاع الى حين » .

أى لا أحد سيبقى فى الأرض إلا بمقدار ماقدر الله له من عمر ثم يموت . وبهذا حذر الله آدم وذريته من أن يتخذوا من الحياة هدفاً لأن متاعها قليل ، وأمدها قصير .

﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾

نزل آدم وحواء الى الارض ليمارسا مهمتهما فى الكون . وقبل أن يبدآ هذه المهمة . جعلهما الله سبحانه وتعالى يمران بتجربة عملية بالنسبة لتطبيق المنهج وبالنسبة لاغواء الشيطان . وحذرهما بأن الشيطان عدو لهما . . كان لابد بعد أن وقعت المعصية أن يشرع الله تعالى التوبة رحمة بعباده . ذلك أن تشريع التوبة ليس رحمة بالعاصى وحده ، ولكنه رحمة بالمجتمع كله . فالانسان اذا عصى وعرف أنه .. لاتوبة له وأنه محكوم عليه بالخلود فى النار . يتمادى فى اجرامه . لأنه مادام لا أمل له فى النجاة من عذاب الآخرة . فانه يتمادى فى المعصية . لأنه لا أمل فى الغفران أو التوبة . .

من الذى سيعانى فى هذه الحالة ؟ انه المجتمع الذى يعيش فيه ذلك العاصى . وسيكون المؤمنون أكثر الناس معاناة لأنهم أهل خير وتسامح . ولأن الله سبحانه وتعالى .. أمرهم بالعفو . والصفح . واقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾

(سورة النور)

وقوله تعالى :

﴿ وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ ﴾

(من الآية ٢٣٧ سورة البقرة)

وهناك آيات كثيرة فى القرآن الكريم تحث المؤمنين على العفو . ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : أوصانى ربى بتسع أوصيكم بها :

« اوصانى بالاخلاص فى السر وفى العلانية.والقصد فى الغنى والفقر وأن اعفو عمن ظلمنى ، وأعطى من حرمنى ، وأصل من قطعنى ، وأن يكون صمتى فكرا ونطقى ذكرا ، ونظرى عبرا »(١)

فالتوبة لو لم تشرع لعانى المجتمع كله . وخاصة المؤمنين الذين أمروا أن يقابلوا العدوان بالصفح والظلم بالعفو . ولذلك كان تشريع التوبة من الله سبحانه وتعالى . رحمة بالناس كلهم .

والله جل جلاله شرع التوبة أولا . ثم بعد أن شرعها تاب العاصى . ثم بعد ذلك يقبل الله التوبة او لا يقبلها تبعا لمشيئته . واقرأ قوله تعالى :

﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

(من الآية ١١٨ سورة التوبة)

آدم تلقى من ربه كلمات فتاب عليه . أتوجد خطيئة بعد توبة آدم وقبول الله سبحانه وتعالى هذه التوبة ؟ ان بعض الناس يقول ان آدم قد عصى وتاب الله عليه . وابليس قد عصى فجعله الله خالدا فى النار . نقول : انكم لم تفهموا ماذا فعل آدم ؟ أكل من الشجرة المحرمة . وعندما علم أنه أخطأ وعصى . لم يصر على المعصية . ولم يرد الأمر على الآمر . ولكنه قال يارب أمرك ومنهجك حق . ولكننى لم

---

(١) (رواه رزين) .

اقدر على نفسى فسامحنى .

اعترف أدم بذنبه . واعترف بضعفه . واعترف بأن المنهج حق . وطلب التوبة من الله سبحانه وتعالى . ولكن ابليس رد الأمر على الآمر . قال : « أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين » وقال « لأقعدن لهم صراطك المستقيم » وقال : « فبعزتك لأغوينهم اجمعين الا عبادك منهم المخلصين » وقال : « لأحتنكن ذريته الا قليلا » فإبليس هنا رد الأمر على الآمر . لم يعترف بذنبه . ويقول يارب غلبنى ضعفى . وأنت الحق وقولك الحق . ولكنه رد الامر على الله تعالى وعاند وقال سأفعل كذا وسأفعل كذا . وهذا كفر بالله .

إياك أن ترد الأمر على الله سبحانه وتعالى . فاذا كنت لا تصلى . فلا تقل وما فائدة الصلاة . واذا لم تكن تزكى . فلا تقل تشريع الزكاة ظلم للقادرين . واذا كنت لا تطبق شرع الله . فلا تقل ان هذه الشريعة لم تعد تناسب العصر الحديث . فانك بذلك تكون قد كفرت والعياذ بالله . ولكن قل ياربى ان فرض الصلاة حق . وفرض الزكاة حق . وتطبيق الشريعة حق . ولكننى لا أقدر على نفسى . فارحم ضعفى يارب العالمين . ان فعلت ذلك . تكن عاصيا فقط .

إن الفرق بين معصية آدم ومعصية ابليس . أن آدم اعترف بمعصيته وذنبه . ولكن ابليس رد الأمر على الآمر . فيكون آدم قد عصى ، وابليس قد كفر والعياذ بالله .
ويقول الحق سبحانه وتعالى : « فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه » هذه الكلمات التى تلقاها آدم . أراد العلماء أن يحصروها . ما هذه الكلمات ؟ هل هى قول آدم كما جاء فى قوله تعالى :

﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾

(سورة الاعراف)

هذه الآية الكريمة . دلتنا على أن ذنب أدم لم يكن من ذنوب الاستكبار . ولكن من ذنوب الغفلة . . بينما كان ذنب ابليس من ذنوب الاستكبار على أمر الله . ولكن آدم عندما عصى حدث منه انكسار .

فقال : ياربى امرك بألا أقرب الشجرة حق . ولكنى لم أقدر على نفسى . فآدم أقر بحق الله فى التشريع . بينما ابليس اعترض على هذا الأمر وقال :
« أأسجد لمن خلقت طينا »

الكلمات التى تلقاها آدم من الله سبحانه وتعالى قد تكون : « ربنا ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين » وقد تكون : . . اللهم لا اله الا أنت سبحانك ربى وبحمدك . انى ظلمت نفسى ظلما كثيرا فاغفر لى يا خير الغافرين . . أو اقبل توبتى يا خير التوابين . . أو قال : سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله . . المهم أن الله سبحانه وتعالى قد أوحى لآدم بكلمات يتقرب بها اليه . سواء كانت هذه الآية الكريمة أو كلمات أخرى .

لو نظرنا الى تعليم الله آدم لكلمات ليتوب عليه . لوجدنا مبدأ مهما فى حياة المجتمع . لأن الله سبحانه وتعالى كما قلنا . . لو لم يشرع التوبة ولو لم يبشرنا بأنه سيقبلها . لكان الذى يذنب ذنبا واحدا لا يرجع عن المعصية أبدا . وكان العالم كله سيعانى . .

والله سبحانه وتعالى خلقنا مختارين ولم يخلقنا مقهورين . القهر يثبت صفة القدرة لله ، ولكن الله سبحانه وتعالى يريد منا أن نأتى عن حب وليس عن قهر . ولذلك خلقنا مختارين . وجعل لنا طاقة تستطيع أن تعصى وأن تطيع . ومادام هناك اختيار.. فالانسان يختار هذه أو تلك . .

إن الله لم يخلق بشرا يختارون الخير على طول الخط . وبشرا يختارون الشر فى كل وقت . فهناك من الخيرين من يقع فى الشر مرة ، وهناك من الشريرين من يعمل الخير مرة . فالعبد ليس مخلوقا أن يختار خيرا مطلقا . أو أن يختار شرا مطلقا . . ولذلك فأحيانا ننسى أو نسهو . أو نعصى . ومادام العبد معرضا للخطيئة . فالله سبحانه وتعالى شرع التوبة . حتى لا ييأس العبد من رحمة الله ، ويتوب ليرجع الى الله . وقد جاء فى الحكمة : « رب معصية أورثت ذلا وانكسارا . خير من طاعة أورثت عزا واستكبارا » .

وهكذا عندما نزل آدم ليباشر مهمته فى الحياة . لم يكن يحمل أى خطيئة على كتفيه . . فقد أخطأ وعلمه الله تعالى كلمات التوبة . فتاب فتقبل الله توبته . .

وقوله سبحانه وتعالى : « انه هو التواب الرحيم » . . كلمة تواب تدل على أن الله تعالى لا يأخذ عباده بذنب واحد . لأنه سبحانه وتعالى حتى لو تاب عن ذنب واحد لكل عبد من عباده كان توابا . والمبالغة فى الصفة تأتى من ناحتين . اولا أن الامر يتكرر عدة مرات من عدد قليل من الاشخاص . أو من شخص واحد . او أن الأمر يقع مرة واحدة ولكن من اشخاص كثيرين . .

فاذا قلت مثلا : فلان أكول ، قد يكون أكولا لانه يأكل كمية كبيرة من الطعام . فيسمى أكولا . . إنه لا يتجاوز طعامه فى عدد مراته وجبات الطعام العادى للانسان . ولكنه يأكل كمية كبيرة . فنسميه اكولا . فيأكل مثلا عشرة ارغفة فى الافطار ومثلها فى الغداء ومثلها فى العشاء .

وقد يكون الانسان اكولا اذا تكرر الفعل نفسه . . كأن يأكل كميات الطعام العادية ولكنه يأكل فى اليوم خمس عشرة مرة مثلا . . فالله سبحانه وتعالى تواب لأن خلقه كثيرون . فلو اخطأ كل واحد منهم مرة . يكون عدد ذنوبهم التى سيتوب الله عليها كمية هائلة . فاذا وجد من يذنب عدة مرات فى اليوم . فان الله تعالى . يكون توابا عنه ايضا اذا تاب واتجه اليه . .

اذن مرة تأتى المبالغة . فى الحدث وان كان الذى يقوم به شخص واحد . ومرة تأتى المبالغة فى الحدث لأن من يقوم به أفراد متعددون . .

إذن فآدم أذنب ذنبا واحدا . يقتضى أن يكون الله تائبا . ولكن ذرية آدم من بعده سيكونون خلقا كثيرا . . فتأتى المبالغة من ناحية العدد . .

وقوله تعالى : « انه هو التواب الرحيم » سيدنا عمر جاءته امرأة تصيح وتصرخ لأن ابنها ضبط سارقا . وقالت لعمر ما سرق ابنى الا هذه المرة . فقال لها عمر : الله ارحم بعبده من أن يأخذه من أول مرة . لابد أنه سرق من قبل . .

وانا أتحدى أن يوجد مجرم يضبط من أول مرة .

كلمة تواب تدل على أنه يضبط بعد مرتين أو ثلاث، فالله يستر عبده مرة ومرة . ولكن اذا ازداد وتمادى فى المعصية . يوقفه الله عند حده . وهذا هو معنى تواب .

والحق سبحانه وتعالى . تواب برحمته .. لأن هناك من يعفو ويظل يمن عليك بالعفو . حتى أن المعفو عنه يقول : ليتك عاقبتنى ولم تمن على بالعفو كل ساعة . لكن الحق سبحانه وتعالى . تواب رحيم . يتوب على العبد . ويرحمه فيمحو عنه ذنوبه .

﴿ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾

يقول الحق سبحانه وتعالى فى هذه الآية : « قلنا اهبطوا منها جميعا » وفى سورة طه يقول جل جلاله « قال اهبطا منها جميعا » عندما خاطب الله سبحانه وتعالى بصورة الجمع . كان الخطاب لكل ذرية آدم المطمورة فى ظهره . أمرالهم جميعا بالهبوط . آدم وحواء والذرية . لأن كل واحد منا . الى أن تقوم الساعة فيه جزىء من آدم . ولذلك لابد أن نلتفت الى قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ ﴾

(من الآية ١١ سورة الأعراف)

نلاحظ هنا أن الخطاب بصيغة الجمع ، فلم يقل الحق سبحانه وتعالى . لقد خلقتك ثم صورتك ثم قلت للملائكة اسجدوا لآدم ، فكأن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا الى أنه ساعة الخلق كان كل ذرية آدم مطمورين فى ظهره . خلقهم جميعا ثم صورهم جميعا . ثم طلب من الملائكة السجود لادم . فهل نحن كنا موجودين ؟ نعم كنا موجودين فى آدم . ولذلك فإن الحق سبحانه وتعالى يقول : « اهبطوا » لنعرف أن هذا الخطاب موجه الى آدم وذريته جميعا الى يوم القيامة .

ومرة يقول « اهبطا منها جميعا » لأن هنا بداية تحمل المسئولية بالنسبة لآدم . فى هذه اللحظة وهى لحظة الهبوط فى الأرض . سيبدأ منهج الله مهمته فى الحياة . ومادام هناك منهج وتطبيق فردى . تكون المسئولية فردية . ولا يأتى الجمع هنا .

فالحق سبحانه وتعالى يقول : « اهبطا منها جميعا » نلاحظ أن أمر الهبوط هنا

بالمثنى . ثم يقول تبارك وتعالى جميعا . . جمع . . نقول أنه مادامت بداية التكليف . فهناك طرفان سيواجه بعضهما البعض . الطرف الأول . هو آدم وزوجه . والطرف الثانى هو ابليس . فهم ثلاثة ولكنهم فى معركة الايمان . فريقان فقط . آدم وحواء وذريتهما فريق .والشيطان فريق آخر . فكأن الله تعالى يريد أن يلفتنا الى أن هذا الهبوط يتعلق بالمنهج وتطبيقه فى الأرض . وفى المنهج آدم وحواء حريصان على الطاعة . وابليس حريص على أن يقودهما الى المعصية .

وفى قوله تعالى : « فإما يأتينكم منى هدى » نلاحظ أن الله سبحانه وتعالى بعد أن مر آدم بالتجربة ووقع فى المعصية ، علمه الله تعالى كلمات التوبة . ونصحه أنه اذا غفل يتوب . والله سبحانه وتعالى . . سيقبل توبته . .

اذن فالحق سبحانه وتعالى يريد من أدم وحواء ان يسكنا الأرض . ويبدآ مهمتهما فى الحياة . والله يدلهما على الخير . مصداقا لقوله تعالى : « فإما يأتينكم منى هدى » . . وهدى لها معنيان . . هى بمعنى الدلالة على الخير . أو الدلالة على الطريق الموصلة للخير . وهناك هدى وهو الاعانة على الايمان والزيادة فيه.واقرأ قوله تعالى :

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة محمد)

الهدى هنا فى الأيَة الكريمة.. بمعنى الدلالة على طريق الخير . ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى : « فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

ما هو الخوف وما هو الحزن ؟ الخوف أن تتوقع شرا مقبلا لا قدرة لك على دفعه فتخاف منه . . والحزن أن يفوتك شىء تحبه وتتمناه .

والحق سبحانه وتعالى يقول فى هذه الآية : من مشى فى طريق الايمان الذى دللته عليه . وأنزلته فى منهجى . فلا خوف عليهم . أى أنه لا خير سيفوتهم فيحزنوا عليه . لأن كل الخير فى منهج الله . فالذى يتبع المنهج لا يخاف حدوث شىء أبدا .

وهذه تعطينا قضية مهمة فى المجتمع . الذى لم يرتكب أية مخالفة .. هل يناله خوف ؟ أبدا . . ولكن من يرتكب مخالفة تجده دائما خائفا خشية أن ينكشف أمره .. ويفاجأ بشر لا قدرة له على دفعه .

إن الانسان المستقيم لا يعيش الخوف . لأن الخوف أمران . اما ذنب أنا سبب فيه . والسائر على الطريق المستقيم لم يفعل شيئا يخاف انكشافه . واما أمر لا دخل لى فيه . يجريه على خالقى . وهذا لابد أن يكون لحكمة . قد ادركها . وقد لا أدركها ولكنى اتقبلها . فالذى يتبع هدى الله . لا يخاف ولا يحزن . لأنه لم يذنب . ولم يخرق قانونا . ولم يغش بشرا . أو يخفى جريمة . فلا يخاف شيئا ، ولو قابله حدث مفاجىء ، فقلبه مطمئن . والذين يتبعون الله . لا يخافون . ولايخاف عليهم . . وقوله تعالى : « ولا هم يحزنون » لأن الذى يعيش طائعا لمنهج الله.. ليس هناك شىء يجعله يحزن . ذلك أن ارادته فى هذه الحالة تخضع لارادة خالقه . فكل ما يحدث له من الله هو خير . حتى ولو كان يبدو على السطح غير ذلك . ملكاته منسجمة وهو فى سلام مع الكون ومع نفسه . والكون لا يسمع منه الا التسبيح والطاعة والصلاة . وكلها رحمة . فهو فى سلام مع نفسه . وفى سلام مع ربه . وفى سلام مع المجتمع .

إن المجتمع دائما يسعد بالانسان المؤمن الذى لا يفسد فى الأرض . بل يفعل كل خير . فالمؤمن نفحة جمال تشع فى الكون . ونعمة حسن ورضا مع كل الناس . ومادام الانسان كذلك . فلن يفقد ما يسره أبدا . فإن اصابته أحداث ..أجراها الله عليه .. لا يقابلها الا بالشكر . وان كان لا يعرف حكمتها . . واياك أن تعترض على الله فى حكم .

ولذلك يقول : احمدك ربى على كل قضائك وجميع قدرك . حمد الرضا بحكمك واليقين بحكمتك . .

والانسان ينفعل للأحداث . ولكن هناك فرق بين الانفعال للاحداث وحدها وبين الانفعال للاحداث مع حكمة مجريها . ولذلك فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمنا الدقة حينما قال : (إن العين تدمع والقلب يحزن ولا نقول الا ما يرضى ربنا وإنّا بفراقك يا ابراهيم لمحزونون) (١)

---

(١) رواه البخارى ومسلم وابن ماجه وأحمد وهذا لفظ البخارى .

انظروا الى الايمان وهو يستقبل الاحداث . . العين تدمع . ولا يكون القلب قاسيا مثل الحجر ، لكن فيه حنان . والقلب يخشع لله . مقدرا حكمته وارادته . .

والله سبحانه وتعالى لا يريدنا أن نستقبل الأحداث بالحزن وحده . ولكن بالحزن مع الايمان . فالله لا يمنعك أن تحزن . ولكن عليك ألا تفصل الحدث عن مجريه وحكمته فيه . . ولذلك حين تذهب الى طبيب العظام .. فيكسر لك عظامك لكى يصلحها . هل يفعل لك خيرا أو شرا ؟ طبعا يفعل لك خيرا . وان كان ذلك يؤلمك .

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾

الحق سبحانه وتعالى بعد أن أعلمنا أن آدم حين يهبط الى الارض سيتلقى من الله منهجا لحركة حياته . من اتبعه خرج من حياته الخوف والحزن . وأصبح آمنا فى الدنيا والآخرة . أراد الله تعالى أن يعطينا الصورة المقابلة . فالحكم فى الآية السابقة كان عن الذين اهتدوا . والحكم فى هذه الآية عن الذين كفروا . يقول الحق تبارك وتعالى . . « والذين كفروا وكذبوا بآياتنا » والكفر كما بينا هو محاولة ستر وجود الله واجب الوجود.ومحاولة ستر هذا الوجود هو اعلان بأن الله تعالى موجود . فأنت لا تحاول أن تستر شيئا الا اذا كان له وجود أولا . .

إن الشىء الذى لا وجود له لا يحتاج إلى ستر ؛ لأنه ليس موجودا فى عقولنا . وعقولنا لاتفهم ولاتسع إلا ماهو موجود . توجد الصورة الذهنية أولا . . ثم بعد ذلك يوجدالاسم أو الصورة الكلامية . ولذلك إذا حدثك إنسان عن شىء ليس له وجود فأنت لاتفهمه . ولاتستطيع أن تعيه إلا إذا شبه لك بموجود . كأن يقال لك : مثل هذا الجبل أو مثل هذه البحيرة . أو مثل قرص الشمس أو غير ذلك حتى تستطيع أن تفهم . فأنت لاتفهم غير موجود إلا إذا شبه بموجود .

وكل شىء لابد أن يكون قد وجد أولا . ثم بعد ذلك تجتمع مجامع اللغة فى العالم لتبحث عن لفظ يعبر عنه بعد أن وجد فى الصورة الذهنية . فلم يكن هناك اسم للصاروخ مثلا قبل أن يوجد الصاروخ . ولا لسفينة الفضاء قبل ان تخترع . ولا لأشعة الليزر قبل أن تكتشف . اذن فكل هذا وجد أولا . ووضع له الاسم بعد ذلك .

الذين كفروا يحاولون ستر وجود الله . وستر وجود الله سبحانه وتعالى هو اثبات لوجوده . لأنك لا تستر شيئا غير موجود . وهكذا يكون الكفر مثبتا للايمان .

وعقلك لا يستطيع أن يفهم الاسم الا اذا وجد المعنى فى عقلك . وأنت لا تجد لغة من لغات العالم . ليس فيها اسم الله سبحانه وتعالى . بل ان الله جل جلاله ـ وهو غيب عنا ـ اذا ذكر اسمه فهمه الصغير والكبير . والجاهل والعالم . والذى طاف الدنيا . والذى لم يخرج من بيته . كل هؤلاء يفهمون الله بفطرة الإيمان التى وضعها فى قلوبنا جميعا .

اذن الذين كفروا يحاولون ستر وجود الله سبحانه وتعالى . . وقوله تعالى : « وكذبوا بآياتنا » والآية هى الشىء العجيب اللافت . فهناك فى الكون آيات كونية مثل الشمس والقمر والنجوم والارض . والجبال والبحار وغير ذلك . هذه تسمى آيات . شىء فوق قدرة البشر خلقها الله سبحانه وتعالى لتكون آية فى كونه وتخدم الانسان .

وهناك الآيات وهى المعجزات . عندما يرسل الله رسولا أو نبيا الى قومه فإنه سبحانه يخرق له قوانين الكون ليثبت لقومه أنه نبى مرسل من عند الله سبحانه وتعالى . وهذه الآيات مقصود بها من شهدها . لأنها تأتى لتثبيت المؤمنين بالرسل . وهم يمرون بأزمة يحتاجون فيها الى التثبيت . ودلالة على صدق رسالة النبى لقومه . . وتطلق الآيات على آيات القرآن الكريم . كلام الله المعجز الذى وضع فيه سبحانه وتعالى ما يثبت صدق الرسالة . الى يوم الدين .

يحدثنا الله سبحانه فى آياته . عن كيفية خلق الانسان . وعن منهج السماء للارض وغير ذلك .

والذين كذبوا بآيات الله . هم الكافرون . وهم المشركون . وهم الذين يرفضون الاسلام . ويحاربون الدين . هؤلاء جميعا . حدد لنا الله تعالى مصيرهم . ولكن هل التكذيب عدم قدرة على الفهم ؟ نقول أحيانا يكون التكذيب متعمدا مثلما حدث لآل فرعون عندما أصابهم الله بآفات وامراض وبالعذاب الاصغر حتى يؤمنوا . ولكنهم رغم يقينهم بأن هذه الآيات من الله سبحانه وتعالى . لم يعترفوا

بها .. ويقول الحق جل جلاله .

﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾

(من الآية ١٤ سورة النمل)

والآيات فى الكون كثيرة . لو أننا التفتنا اليها لآمَنَّا .. فهى ليست محتاجة الى فكر . بل ان الله تعالى ، رحمة بنا جعلها ظاهرة . ليدركها الناس . كل الناس . ولكن البعض رغم ذلك يكذب بآيات الله . وهؤلاء هم الذين يريدون أن يتبعوا هوى النفس . والحق سبحانه وتعالى جمع الكافرين والمكذبين بآيات الله فى عقاب واحد .. وقال جل جلاله : « اولئك اصحاب النار » والصاحب هو الذى يألف صاحبه . ويحب أن يجلس معه . ويقضى أجمل أوقاته . فكان قوله تعالى: أصحاب النار . دليل على عشق النار لهم . فهى تفرح بهم ، عندما يدخلونها . كما يفرح الصديق بصديقه . ولا تريد أن تفارقهم أبدا .. ولذلك اقرأ قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ ﴾

(سورة ق)

وهكذا نرى مدى العشق ، بين النار والكافرين . ان النار تصاحبهم فى كل مكان . وهى ليست مصاحبة كريهة بالنسبة للنار . ولكنها مصاحبة تحبها النار . فالنار حين تحرق كل كافر وآثم ومنافق تكون سعيدة . لأنها تعاقب الذين كفروا بمنهج الله وكذبوا بآياته فى الحياة الدنيا .. وكذلك الحال بالنسبة للجنة . فإن الجنة أيضا تحب مصاحبة كل من آمن بالله واخلص له العبادة وطبق منهجه .. واقرأ قوله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾

(سورة هود)

أى أن الجنة تصاحب المؤمنين . وتحبهم وتلازمهم . مثلما تصاحب النار الكافرين والمكذبين . . وكما أن النار تكون سعيدة وهى تحرق الكافر . فالجنة تكون سعيدة وهى تمتع المؤمن . . ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : « هم فيها خالدون » أى أن العذاب فيها دائم . لا يتغير ولا يفتر . ولا يخفف . بل هو مستمر الى الأبد . . واقرأ قوله سبحانه وتعالى :

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾

(سورة البقرة)

وهكذا نعرف ان الله سبحانه وتعالى قد انزل المنهج الى الارض مع آدم ، وأن آدم . نزل الى الأرض ومعه الهدى ليطبق أول منهج للسماء على الأرض . فكأن الله سبحانه وتعالى لم يترك الانسان لحظة واحدة على الأرض دون أن يعطيه المنهج الذى يبين له طريق الهدى وطريق الضلال . ومع المنهج شرعت التوبة . وشرع قبول التوبة حتى لا ييأس الانسان . ولا يحس أنه اذا أخطأ أو نسى أصبح مصيره جهنم . بل يحس ان أبواب السماء مفتوحة له دائما . وان الله الذى خلقه رحيم به . اذا أخطأ فتح له أبواب التوبة وغفر له ذنوبه . حتى يحس كل انسان برعاية الله سبحانه وتعالى له وهو على الأرض . من أول بداية الحياة .

فالمنهج موجود لمن يريد أن يؤمن . والتوبة قائمة لكل من يخطىء .

وحذر الله سبحانه وتعالى آدم وذريته أنه من يطع ويؤمن يعش الحياة الطيبة فى الدنيا والآخرة . ومن يكفر ويكذب . فإن مصيره عذاب أبدى .

لقد عرف الله آدم بعدوه ابليس . وطلب منه أن يحذره . فماذا فعل بنو آدم ؟ هل استقبلوا منهج الله بالطاعة أو بالمعصية ؟ وهل تمسكوا بتعاليم الله . أو تركوها وراء ظهورهم ؟

﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٤٠﴾ ﴾

بعد أن قص الله علينا قصة الخلق وكيف بدأت بأدم ، وعداوة ابليس لآدم وسببها . قص علينا التجربة الأولى للمنهج فى إحدى الجنات ، وكيف أن آدم تعرض للتجربة فأغواه الشيطان وعصى . ثم نزل الى الأرض مسلحا بمنهج الله . ومحميا بالتوبة من أن يطغى . بدأت مهمة آدم على الأرض . .

ان الحق سبحانه وتعالى أراد أن يعرض علينا موكب الرسالات وكيف استقبل بنو آدم منهج الله بالكفر والعصيان . فاختار جل جلاله قصة بنى اسرائيل لأنها أكثر القصص معجزات ، وأنبياء بنى اسرائيل من أكثر الانبياء الذين ارسلوا لأمة واحدة وليس معنى هذا أنهم مفضلون . ولكن لأنهم كانوا أكثر الأمم عصيانا وآثاما فكانوا أكثرها أنبياء . كانوا كلما خرجوا من معجزة انحرفوا . فتأتيهم معجزة أخرى . فينحرفون . وهكذا حكم الله عليهم لظلمهم أن يتفرقوا فى الأرض ثم يتجمعوا مرة أخرى فى مكان واحد . ليذوقوا العذاب والنكال جزاء لهم على معصيتهم وكفرهم . ولذلك أخذت قصة بنى اسرائيل ذلك الحجم الضخم فى كتاب الله . وفى تثبيت رسول الله صلى الله عليه وسلم . فموسى عليه السلام الذى ارسله الله الى بنى اسرائيل من اولى العزم من الرسل . ولذلك فانك تجد فيه تربية اولا . وتربية ثانيا . . ولابد أن نلتفت الى قول الحق سبحانه وتعالى : يا بنى اسرائيل » فالحق جل جلاله . حين يريد أن ينادى البشر جميعا يقول : « يابنى آدم » واقرأ قوله تعالى :

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ ﴾

(من الآية ٣١ سورة الأعراف)

وقوله سبحانه :

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ﴾

(من الآية ١١ سورة الأعراف)

لماذا يخاطبنا الله تعالى بقوله : يابنى آدم ؟ لأنه يريد أن يذكرنا بنعمة علينا منذ بداية الخلق . لأن هذه النعم تخص آدم وذريته . فالله تعالى خلق آدم بيديه . وأمر الملائكة أن تسجد له . وأعد له كونا مليئا بكل مايضمن استمرار حياته . ليس بالضروريات فقط . ولكن بالكماليات . ثم دربه الحق على ما سيتعرض له من اغواء الشيطان . وأفهمه أن الشيطان عدو له . ثم علمه كلمات التوبة . ليتوب عليه . وأمده بنعم لا تعد ولا تحصى .

فالله سبحانه وتعالى يريد أن يذكرنا بكل ذلك حتى نخجل من أن نرتكب معصية بعد كل هذا التكريم للانسان . فاذا تذكرنا نعم الله علينا .. فاننا نخجل أن نقابل هذه النعم بالمعصية .

وقد علمنا الله سبحانه وتعالى علما ميزنا الله تعالى فيه عن ملائكته . لذا كان يجب أن نظل شاكرين عابدين طوال حياتنا فى هذه الدنيا .

لكننا نلاحظ ان الحق سبحانه وتعالى بدأ هذه الآية الكريمة بقوله : « يا بنى اسرائيل » لماذا ؟ ومن هو اسرائيل ؟

اسرائيل مأخوذه من كلمتين : اسر و إيل . . (اسر) يعنى عبد مصطفى أو مختار . (وإيل) معناها الله فى العبرانية . فيكون معنى الكلمة صفوة الله . والاصطفاء هنا ليعقوب وليس لذريته . .

فاذا نظرنا الى اسرائيل الذى هو يعقوب كيف أخذ هذا الاسم . نجد أنه أخذ الاسم لأنه ابتلى من الله بلاء كبيرا . استحق به أن يكون صفيا لله . وعندما ينادى الله تعالى قوم موسى بقوله : يا بنى اسرائيل . فانه يريد أن يذكرهم بمنزلة اسرائيل عند الله . ما واجهه من بلاء . وما تحمله فى حياته . فاذكروا ما وصاكم به حين

حضرته الوفاة . . واقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ ﴾

(سورة البقرة)

ثم يأتى بعد ذلك قول يعقوب . . واقرأ قوله تعالى :

﴿ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾

(من الآية ١٣٢ سورة البقرة)

تلك هى الوصية التى وصى بها يعقوب بنيه . . فيها علم وفيها عظة . علم بأن الله اله واحد . لاشريك له . وأن الدين هو الاسلام . وعظة وتذكير بأن الله اختار لهم الدين . فليحرصوا عليه حتى الموت .

ولقد جاءت هذه الوصية حين حضر يعقوب الموت . وساعة الموت يكون الانسان صادقا مع نفسه . وصادقا مع ربه . وصادقا مع ذريته . فكأنه سبحانه وتعالى حينما يقول : « يابنى اسرائيل » يريد أن يذكرهم باسرائيل وهو يعقوب وكيف تحمل وظل صابرا . ووصيته لهم ساعة الموت .

إن الله سبحانه وتعالى يذكر الأبناء بفضله على الآباء علهم يتعظون أو يخجلون من المعصية تماما كما يكون هناك عبد صالح اسرف أبناؤه على أنفسهم .

فيقال لهم :

ألا تخجلون ؟ أنتم أبناء فلان الرجل الصالح . لا يصح أن ترتكبوا ما يغضب الله . . . « يابنى اسرائيل »

اسرائيل هو يعقوب ابن اسحاق . واسحاق ابن ابراهيم . وابراهيم انجب اسحاق واسماعيل . . ورسولنا صلى الله عليه وسلم من ذرية اسماعيل . والله سبحانه وتعالى يقول : « يابنى اسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم » ولكن الله سبحانه وتعالى حين يخاطب المسلمين لا يقول اذكروا نعمة الله . وانما يقول : « اذكروا الله » لأن بنى اسرائيل ماديون ودنيويون .

فكأن الحق سبحانه وتعالى يقول لهم : ما دمتم ماديين ودنيويين . فاذكروا نعمة الله المادية عليكم .

ولكننا نحن المسلمين أمة غير مادية .

وهناك فرق بين أن يكون الانسان مع النعمة . وأن يكون مع المنعم . الماديون يحبون النعمة . وغير الماديين يحبون المنعم . ويعيشون فى معيته . ولذلك . فخطاب المسلمين : « اذكروا الله » لأننا نحن مع المنعم . بينما خطابه سبحانه لبنى اسرائيل : « اذكروا نعمة الله »

والحديث القدسى يقول : « أنا أهل أن اتقى فلا يجعل معى إله ، فمن اتقى ان يجعل معى الها كان أهلا أن أغفر له » (١)

فالله سبحانه وتعالى واجب العبادة . ولو لم يخلق الجنة والنار . . ولذلك فان المؤمنين هم أهل الابتلاء من الله . لماذا ؟ لأن الابتلاء منه نعمة . والله سبحانه وتعالى يباهى بعباده ملائكته . ويقول : انهم يعبدوننى لذاتى . فتقول الملائكة : بل يعبدونك لنعمتك عليهم . فيقول سبحانه لهم : سأقبضها عنهم ولا يزالون يحبوننى . . ومن عبادى من أحب دعاءهم . فأنا أبتليهم حتى يقولوا يارب . لأن أصواتهم يحبها الله سبحانه وتعالى . ولذلك اذا ابتلى عبدا فى صحته مثلا . وسلب منه نعمة العافية . ترى الجاهل هو الذي ينظر الى هذا نظرة عدم الرضا . وأما المتعمق فينظر الى قول الله فى الحديث القدسى : ان الله عز وجل يقول يوم القيامة : « يا بن آدم مرضت فلم تعدنى قال : يارب وكيف أعودك وأنت رب العالمين ؟ قال : أما علمت أن عبدى فلانا مرض فلم تعده . أما علمت أنك لو عدته لوجدتنى

---

(١) رواه الترمذى وابن ماجه من حديث الحباب ورواه النسائى .

عنده » [٢] فلو فقد المؤمن نعمة العافية . . فلا ييأس فان الله تعالى يريده ان يعيش مع المنعم . . وأنه طوال فترة مرضه فى معية الله تعالى . ولذلك حين يقول الحق تبارك وتعالى : « يابنى اسرائيل اذكروا نعمتى التى انعمت عليكم » معناها . ان لم تكونوا مؤمنين لذاتى . فاستحيوا أن ترتكبوا المعصية بنعمتى التى أنعمت عليكم. ولقد جاءت النعمة هنا لأن بنى اسرائيل يعبدون الله من أجل نعمه .

«اذكروا نعمتى » الذكر هو الحفظ من النسيان ، لأن روتين الحياة يجعلنا ننسى المسبب للنعم . فالشمس تطلع كل يوم . كم منا يتذكر أنها لا تطلع الا بإذن الله فيشكره . والمطر ينزل كل فترة . من منا يتذكر أن المطر ينزله الله . فيشكره. فالذكر يكون باللسان وبالقلب . والله سبحانه وتعالى غيب مستور عنا . وعظمته أنه مستور . ولكن نعم الله سبحانه تدلنا عليه . . فبالذكر يكون فى بالنا دائما . وبنعمه يكون ذكره وشكره دائما .

والحق سبحانه وتعالى طلب من بنى اسرائيل أن يذكروا النعمة التى انعمها عليهم فقط . وكان يجب عليهم أن يطيعوا الله فيذكروا المنعم . لأن ذكر الله سبحانه وتعالى يجعلك فى ركن ركين . لا يصل اليك مكروه ولا شر .

إن ذكر الله المنعم يعطينا حركة الحياة فى كل شىء . فذكر الله يوجد فى القلوب الخشوع . ويقلل من المعاصى وينتفع الناس كل الناس به ، ويجعل حركة الحياة مستقيمة . وحين يقول الحق سبحانه وتعالى . « اذكروا نعمتى » معناها اذكرونى حتى بالنعمة التى أنعمت عليكم . وقوله تعالى : « وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم » العهد هو الميثاق. واقرأ قوله سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ ﴾

(سورة طه)

اذن فالعهد أمر موثق بين العبد وربه . ما هو العهد الذى يريد الله من بنى

(٢) رواه مسلم عن أبى هريرة .

اسرائيل أن يوفوا به ليفى الله بعهده لهم ؟

نقول : اما أن يكون عهد الفطرة . وعهد الفطرة كما قلنا أن نؤمن بالله ونشكره على نعمه . وكما قلنا اذا هبط الانسان فى مكان ليس فيه أحد . ثم نام وقام فوجد مائدة حافلة بالنعم أمامه . ألا يسأل نفسه : من صنع هذا ؟ لو أنه فكر قليلا لعرف أنه لابد أن يكون لها من صانع . خصوصا أن الخلق هنا فوق قدرات البشر . فاذا أرسل الله سبحانه وتعالى رسولا يقول إن الله هو الذى خلق وأوجد . ولم يوجد مدع ولا معارض نظرا لأن ايجاد هذه النعم فوق قدرة البشر . تكون القضية محسومة لله سبحانه وتعالى .

اذن فذكر الله وشكره واجب بالفطرة السلمية ، لا يحتاج الى تعقيدات وفلسفات . والوفاء بعهد الله أن نعبده ونشكره هو فطرة الايمان لما اعطاه لنا من نعم . على أن الحق سبحانه وتعالى نجده يقول :

﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ﴾

(من الآية ٤٠ سورة البقرة)

وفى آية اخرى :

﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ ﴾

(من الاية ١٥٢ سورة البقرة)

وفى آية ثالثة :

﴿ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾

(من الآية ٧ سورة محمد)

ما هى هذه القضية التى يريد الحق سبحانه وتعالى أن ينبهنا اليها فى هذه الآيات الكريمة ؟الله سبحانه وتعالى يريد أن نعرف أنه قد وضع فى يدنا مفتاح الجنة . ففى يد كل واحد منا مفتاح الطريق الذى يقوده الى الجنة او الى النار . ولذلك اذا وفيت بالعهد أوفى الله . واذا ذكرت الله ذكرك . واذا نصرت الله نصرك . .

والحديث القدسى يقول : وإن تقرب الىَّ شبرا تقربت اليه ذراعا وان تقرب الىَّ ذراعا تقربت اليه باعا وان أتانى يمشى أتيته هرولة »(١)

هكذا يريد الحق سبحانه وتعالى أن ينبهنا أن المفتاح فى يدنا نحن . فإذا بدأنا بالطاعة . فإن عطاء الله بلا حدود . واذا تقربنا الى الله تقرب الينا . واذا بعدنا عنه نادانا . هذا هو ايمان الفطرة

هل هذا هو العهد المقصود من الله سبحانه فى قوله : « أوفوا بعهدى أوف بعهدكم » أو هو العهد الذى اخذه الله على الانبياء ليبلغوا أقوامهم بأنهم اذا جاء رسول مصدّق لما معهم فلابد أن يؤمنوا به وينصروه ؟ فالحق سبحانه وتعالى أخذ على الانبياء جميعا العهد لرسول الاسلام سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم . . أو هو العهد الذى أخذه الله بواسطة موسى عليه السلام على علماء بنى اسرائيل الذين تلقوا التوراة ولقنوها وكتبوها وحفظوها . عهد بألا يكتموا منها شيئا . . واقرأ قوله تعالى :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

والهدف من هذا العهد . ألا يكتموا ما ورد عن الاسلام فى التوراة . وألا يخفوا صفات رسول الله صلى الله عليه وسلم التى جاءت بها . . والله سبحانه وتعالى قد أعطى صفات رسوله محمد صلى الله عليه وسلم فى التوراة وفى الانجيل . . واقرأ قوله تعالى :

﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾

(سورة البقرة)

---

(١) رواه البخارى فى كتاب التوحيد ورواه مسلم والترمذى .

ولقد جاء القرآن الكريم . مصدقا لما نزل من التوراة . وعرف بنو اسرائيل أنفسهم صدق ما نزل فى القرآن . ولكنهم كفروا لأن رسول الله لم يكن من قومهم . . وقد كان أهل الكتاب من توراة وانجيل يعرفون أن رسالة رسول الله هى الرسالة الخاتمة . وانه لابد أن يؤمن به قوم كل نبى . هل هذا هو العهد الذى يوجب على كافة الأمم الايمان برسالة محمد صلى الله عليه وسلم ونصرته ان أدركوه . وان لم يدركوه فالمسئولية على أبنائهم واحفادهم أن ينصروه ويؤمنوا به متى أدركوه . ان كانت هى عهد ايمان الفطرة ، او كانت هى عهد الايمان برسول الله صلى الله عليه وسلم فكلاهما وارد .

وقوله تعالى : « أوف بعهدكم » أى بما وعدتكم من جنة النعيم فى الآخرة . فالله سبحانه وتعالى بعد نزول الاسلام اختص برحمته الذين آمنوا بمحمد عليه الصلاة والسلام . وكل من لم يؤمن بهذا الدين لا عهد له عند الله .

واقرأ قوله تبارك وتعالى عندما أخذت الرجفة موسى وقومه وطلب موسى من الله سبحانه وتعالى الرحمة . قال تعالى :

﴿ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ ۖ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾

(سورة الاعراف)

فالحق سبحانه وتعالى يذكر بنى اسرائيل فى هذه الآية الكريمة . بالعهد الذى أخذه عليهم . وينذرهم أن رحمته هى للمؤمنين برسول الله صلى الله عليه وسلم متى جاءت رسالته . .

وقوله تعالى : « وإياى فارهبون » أى أنه لا توجد قوة ولا قدرة فى الكون الا قوة الله سبحانه وتعالى . ولذلك فاتقوا يوما ستلاقون فيه الله ويحاسبكم . وهو سبحانه وتعالى قهار جبار . ولا نجاة من عذابه لمن لم يؤمن .

﴿ وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ ﴾

بعد أن ذَكَّرَ الله سبحانه وتعالى بنى اسرائيل بالعهود التى قطعوها على انفسهم سواء بعدم التبديل والتغيير فى التوراة . لإخفاء أشياء واضافة أشياء . وذكرهم بعهدهم بالنسبة للايمان برسول الله صلى الله عليه وسلم الذى ذكر الله سبحانه وتعالى أوصافه فى التوراة . حتى أن الحَبْرَ اليهودى ابن سلام كان يقول لقومه فى المدينة : لقد عرفته حين رأيته كمعرفتى لابنى ومعرفتى لمحمد أشد . أى أنه كان يُذَكِّرُ قومه . أن أوصاف الرسول صلى الله عليه وسلم الموجودة فى التوراة . لا تجعلهم يخطئونه . قال الحق تبارك وتعالى : « وامنوا بما انزلت مصدقا لما معكم » . لأن القرآن مصدق للتوراة . والقصد هنا التوراة الحقيقية قبل أن يحرفوها . فالقرآن ليس موافقا لما معهم من المحرف أو المبدل من التوراة . بل هو موافق للتوراة التى لا زيف فيها .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى : « ولا تكونوا أول كافر به » . . ولقد قلنا ان اليهود لم يكونوا أول كافر بمحمد صلى الله عليه وسلم . وانما كانت قريش قد كفرت به فى مكة . المقصود فى هذه الآية الكريمة أول كافر به من أهل الكتاب . لماذا ؟ لأن قريشا لا صلة لها بمنهج السماء . ولا هى تعرف شيئا عن الكتب السابقة . ولكن أحبار اليهود كانوا يعرفون صدق الرسالة . وكانوا يستفتحون برسول الله صلى الله عليه وسلم على أهل المدينة ويقولون : « جاء زمن رسول سنؤمن به ونقتلكم قتل عاد وإرم » . ولما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بدلا من أن يسارعوا بالايمان به . كانوا أول كافر به .

والله سبحانه وتعالى لم يفاجىء اهل الكتاب بمجىء محمد صلى الله عليه وسلم . وانما نبههم الى ذلك فى التوراة والانجيل . ولذلك كان يجب ان يكونوا أول المؤمنين وليس أول الكافرين . لأن الذى جاء يعرفونه . .

وقوله تعالى : « ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا » : الحق سبحانه وتعالى حينما يتحدث عن الصفقة الايمانية . يستخدم كلمة الشراء وكلمة البيع وكلمة التجارة.اقرأ قوله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ﴾

(من الاية ١١١ سورة التوبة)

وفى أية أخرى يقول :

﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ﴾

(من الآيتان ١٠ ، ١١ سورة الصف)

ان الحق سبحان وتعالى .. استعمل كلمة الصفقة والشراء والبيع بعد ذلك . فى قوله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ﴾

(من الآية ٩ سورة الجمعة)

ونعلم أن التجارة هى وساطة بين المنتج والمستهلك . . المنتج يريد أن يبيع انتاجه . والمستهلك محتاج الى هذا الانتاج . والربح عملية تطول فترة ..وتقصر فترة مع عملية تحرك السلعة والاقبال عليها ان كان سريعا أو بطيئا . وعملية الاتجار استخدمها الله سبحانه وتعالى ليبين لنا أنها أقصر طريق الى النفع . فالتجارة تقوم على يد الانسان . يشترى السلعة ويبيعها . ولكنها مع الله سيأخذ منك بعضا من حرية نفسك . ليعطيك أخلد وأوسع منها .

وكما قلنا : لو قارنا بين الدنيا بعمرها المحدود ـ عمر كل واحد منا ـ كم سنة ؟ خمسين . . ستين . . سبعين !! نجد أن الدنيا مهما طالت .. ستنتهى .والانسان العاقل هو الذى يضحى بالفترة الموقوته والمنتهية ليكون له حظ فى الفترة الخالدة .

وبذلك تكون هذه الصفقة رابحة .

ان النعيم فى الدنيا على قدر قدرات البشر . والنعيم فى الآخرة على قدر قدرات الله سبحانه وتعالى . يأتى الانسان ليقول : لماذا أضيق على نفسى فى الدنيا ؟ لماذا لا أتمتع ؟ نقول له : لا . . إن الذى ستناله من العذاب والعقاب فى الآخرة لا يساوى ما أخذته من الدنيا . . اذن الصفقة خاسرة . أنت اشتريت زائلا . ودفعته ثمنا لنعيم خالد . .

والله سبحانه وتعالى يقول لليهود : « ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا » أى لا تدفعوا الآيات الايمانية التى أعطيت لكم لتأخذوا مقابلها ثمنا قليلا . . وعندما يأخذ الانسان أقل مما يعطى .. فذلك قلب للصفقة . والقلب تأتى منه الخسارة دائما . .

وكأن الآية تقول : تدفعون آيات الله التى تكون منهجه المتكامل لتأخذوا عرضا من أعراض الدنيا . قيمته قليلة ووقته قصير . هذا قلب للصفقة .

ولذلك جاء الأداء القرآنى مقابلا لهذا القلب . ففى الصفقات . . الاثمان دائما تدفع والسلعة تؤخذ . ولكن فى هذه الحالة التى تتحدث عنها الآية فى قوله تعالى « ولاتشتروا باياتى ثمنا قليلا » قد جعلت الثمن الذى يجب أن يكون مدفوعا جعلته مشترى وهذا هو الحمق والخطأ .

الله يقول « ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا » أى لا تقلبوا الصفقة . . الشىء الذى كان يجب أن تضحوا به لا تجعلوه ثمنا . لأنك فى هذه الحالة تكون قد جعلت الثمن سلعة . مادمت ستشترى الآيات بالثمن . . فقد جعلت آيات الله ثمنا لتحصل على مكاسب دنيوية. وليتك جعلتها ثمنا غاليا . بل جعلتها ثمنا رخيصا .

لقد تنكرت لعهدك مع الله ليبقى لك مالك أو مركزك !! أما اذا ضحى الانسان بشىء من متع الدنيا .. ليأخذ متع الآخرة الباقية .. فتكون هذه هى الصفقة الرابحة . ذلك لأن الانسان فى الدنيا ينعم على قدر تصوره للنعيم . ولكنه فى الآخرة ينعم على قدر تصور الله سبحانه وتعالى فى النعيم .

بعض الذين لا يريدون أن يحملوا أنفسهم على منهج الله يستعجلون مكاسب الصفقة . استعجالا أحمق . انهم يريدون المتعة حراما أو حلالا . . نقول لكل واحد منهم : ان كنت مؤمنا بالآخرة : أو غير مؤمن فالصفقة خاسرة . . لأنك فى كلتا الحالتين ستعذب فى النار . . فكأنك اشتريت بإيمانك ودينك متعة زائلة . وجعلت الكفر ومعصية الله هما الثمن فقلبت الآية ، وجعلت الشىء الذى كان يجب أن يشترى بمنهج الله وهو نعيم الآخرة يباع .. ويباع بماذا ؟ بنعيم زائل ! وعندما يأخذ الانسان أقل مما يعطى .. يكون هذا قلبا للصفقة .

فكأن الآية تقول : انكم تدفعون آيات الله وما تعطيكم من خَيْرَىْ الدنيا والآخرة لتأخذوا عرضا زائلا من أعراض الدنيا وثمنه قليل . والثمن يكون دائما من الأعيان كالذهب والفضة وغيرهما .. وهى ليست سلعة . فهب أن معك كنز قارون ذهبا . وأنت فى مكان منعزل وجائع . ألا تعطى هذا الكنز لمن سيعطيك رغيفا .. حتى لا تموت من الجوع ؟ ولذلك يجب ألا يكون المال غاية أو سلعة . فإن جعلته غاية يكون معك المال الكثير .. ولا تشترى به شيئا لأن المال غايتك . فيفسد المجتمع .

إن المال عبد مخلص . ولكنه سيد ردىء . هو عبدك حين تنفقه . ولكن حين تخزنه وتتكالب عليه يشقيك ويمرضك . لأنك أصبحت له خادما .

والآية الكريمة .. تعطينا فكرة عن اليهود لأن محور حياتهم وحركتهم هو المال والذهب . فالله سبحانه وتعالى حرم الربا لأن المال فى الربا يصبح سلعة . فالمائة تأخذ بمائة وخمسين مثلا . . وهذا يفسد المجتمع ، لانه من المفروض أن يزيد المال بالعمل . فإذا أصبحت زيادة المال بدون عمل . فسدت حركة الحياة . وزاد الفقير فقرا . وزاد الغنى غنى . وهذا ما نراه فى العالم اليوم .

فالدول الفقيرة تزداد فقرا لأنها تقترض المال وتتراكم عليها فوائده حتى تكون الفائدة أكثر من الدين نفسه . وكلما مر الوقت . زادت الفوائد . فيتضاعف الدين . ويستحيل التسديد . والدول الغنية تزداد غنى ، لأنها تدفع القرض وتسترده بأضعاف قيمته .

واذا قال الله سبحانه وتعالى : « ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا » يجب ألا نفهم أنه

يمكن شراء آيات الله بثمن أعلى . . لا . لأنه مهما ارتفع الثمن وعلا سيكون قليلا . وقليلا جدا . لأنه يقابل آيات الله . وآيات الله لا تقدر بثمن . فالصفقة خاسرة مهما كانت قيمتها .

وقول الحق تبارك وتعالى : « وإياى فاتقون » وفى الآية السابقة قال : « وإياى فارهبون » وهى وعيد . ولكن « اياى فاتقون » واقع . فقوله تعالى : « وإياى فارهبون » هى وعيد وتحذير لما سيأتى فى الآخرة . ولكن « وإياى فاتقون » يعنى اتقوا صفات الجلال من الله تعالى . وصفات الجلال هى التى تتعلق ببطش الله وعذابه . ومن هذه الصفات الجبار والقهار والمتكبر والقادر والمنتقم والمذل . وغيرها من صفات الجلال .

الله سبحانه وتعالى يقول : « اتقوا الله » ويقول « اتقوا النار » كيف ؟ نقول إن الله سبحانه وتعالى يريدنا أن نجعل بيننا وبين النار ـ وهى أحد جنود العذاب لله سبحانه وتعالى ـ وقاية . ويريدنا أن نجعل بيننا وبين عذاب النار وقاية . ويريدنا أيضا . . أن نجعل بيننا وبين صفات الجلال فى الله وقاية . فقوله تعالى : « وإياى فاتقون » اى اجعلوا بينكم وبين صفات الجلال فى الله وقاية . حتى لا يصيبكم عذاب عظيم . وكيف نجعل بيننا وبين صفات الجلال فى الله وقاية ؟ أن تكون أعمالنا فى الدنيا وفقا لمنهج الله سبحانه وتعالى . اذن فالتقوى مطلوبة فى الدنيا . .

﴿ وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾

بعد أن حذر الحق سبحانه وتعالى اليهود من أن يبيعوا دينهم بثمن قليل وهو المال أو النفوذ الدنيوى . قال تعالى : « ولا تلبسوا الحق بالباطل » مادة تلبس . مأخوذة من اللباس الذى نرتديه . واللبس هو التغطية أو التعمية بأن نخفى الحق ولا نظهره . فاللباس تغليف للجسم يستره فلا يبين تفصيلاته . .

والحق هو القضية الثابتة المقدرة التى لا تتغير . فلنفرض أننا شهدنا شيئا يقع . ثم روى كل منا ما حدث . اذا كنا صادقين لن يكون حديثنا الا مطابقا للحقيقة . ولكن اذا كان هناك من يحاول تغيير الحقيقة فيكون لكل منا رواية . وهكذا فالحق ثابت لا يتغير .

فى التوراة آيات لم يحرفها اليهود .. وآيات محرفة . كل الآيات التى تتعلق برسول الله صلى الله عليه وسلم ووصفه ..وأنه النبى الخاتم ..حرفها اليهود . والآيات التى لا تتعلق برسول الله صلى الله عليه وسلم لم يحرفوها . . فكأنهم خلطوا الحق بالباطل . . ما الذى جعلهم يدخلون الباطل ويحاولون اخفاء الحقائق ؟ المصلحة الأولى : ليشتروا بآيات الله ثمنا قليلا . . والباطل هو ما لا واقع له . ولذلك فان أبواب الباطل متعددة .

وباب الحق واحد . فالله سبحانه وتعالى يريد أن يبلغنا أن اليهود قد وضعوا فى التوراة باطلا لم يأمر به الله . وكتموا الحقيقة عن رسالة محمد صلى الله عليه وسلم . ولكن هل فعلوا ذلك عن طريق الخطأ أو السهو أو النسيان ؟ لا بل فعلوه وهم

يعلمون . نأتى مثلا الى قول الحق تبارك وتعالى لليهود :

﴿ وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَـٰيَـٰكُمْ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

(من الآية ٥٨ سورة البقرة)

وحطة أى حط عنا يارب ذنوبنا . يأتى اليهود ويغيرون قول الله . فبدلا من أن يقولوا حطة . يقولوا حنطة . من يسمع هذا اللفظ قد لا يتنبه ويعتقد أنهم قالوا ما أمرهم الله به . مع أن الواقع أنهم حرفوه . ولذلك عندما كانوا يأتون الى رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يقولون : راعنا ليا بألسنتهم . وكان المفروض أن يقولوا راعينا . . ولكنهم قالوا راعنا من الرعونة . . والله تعالى نبه المؤمنين برسوله صلى الله عليه وسلم ألا يقولوا مثلهم . فقال جل جلاله : « لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا » .

أى اتركوا هذه الكلمة نهائيا ، هذا لبس الحق بالباطل . اذن فاليهود ألبسوا الحق بالباطل . والانسان لا يلبس الحق بالباطل . . إلا اذا كان لا يستطيع مواجهة الحق . لأن عدم القدرة على مواجهة الحق ضعف نَفِرُّ منه الى الباطل ، لأن الحق يتعب صاحبه .. والانسان لا يستطيع أن يَحْمل نفسه على الحق .

وقوله تعالى : « وتكتموا الحق وأنتم تعلمون » أى أنهم يفعلون ذلك عن عمد وليس عن جهل . فقد يكتم الانسان حقا وهو لا يعلم أنه الحق. ولكن اذا كنت تعلمه فتلك هى النكبة لأنك تخفيه عامدا متعمدا . أو وأنتم تعلمون . قد يكون معناها أن اليهود ـ وهم أهل كتاب ـ يعلمون ما سيصيبهم فى الآخرة من العذاب الأليم .. بسبب اخفائهم الحق . فهم لا يجهلون ماذا سيحدث فى الآخرة . ولكنهم يقدمون على عملهم مع علمهم أنه خطأ فيكون العذاب حقا .

﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾

اقامة الصلاة معروفة . وهى تبدأ بالتكبير وتختم بالتسليم . بشرائطها من عناصر القيام والركوع والسجود . ولكن الحق يقول « وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين » إما انه يريد منهم أن ينضموا الى موكب الايمان الجامع لأن صلاتهم لم يكن فيها ركوع . اذن فهو يريدهم أن يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم . ولا يظنوا أن ايمانهم بموسى عليه السلام يعفيهم من أن يكونوا خاضعين لما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم . ويقولون ديننا كافينا . انما جاء الاسلام لمن لا دين له وهم الكفار والمشركون . . فيقول لهم : « اركعوا مع الراكعين » .

ان الحق سبحانه وتعالى يريد أن يلفتهم الى أن صلاتهم لن تقبل منهم إلا أن يكون فيها ركوع . وصلاة اليهود ليس فيها ركوع . . وان كان فيها سجود ، وفى كلتا الحالتين فإن الحق سبحانه وتعالى يلفتهم الى ضرورة الايمان برسول الله صلى الله عليه وسلم .

الحق سبحانه وتعالى حينما قال : (ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا) يريد أن يلفتهم الى أن العكس هو المطلوب وانهم كان يجب أن يشتروا الايمان ويختاروا الصفقة الرابحة . ولن يحدث ذلك الا اذا آمنوا بالرسول الخاتم محمد صلى الله عليه وسلم .. فهذا هو الطريق الوحيد لرضا الله سبحانه وتعالى .

الله سبحانه وتعالى يريد أن يهدم تكبرهم على الدين الجديد فأمرهم بالصلاة كما يصلى المسلمون . وبالزكاة كما يزكى المسلمون . فلا يعتقدون أن ايمانهم بموسى والتوراة سيقبل منهم بعد أن جاء الرسول الجديد الذى أمروا ان يؤمنوا به . بل ان ايمانهم بموسى والتوراة . لو كانوا مؤمنين بهما حقا . . يستوجب هذا الايمان عليهم أن

يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم . لأن التوراة تأمرهم بذلك . فكأن عدم ايمانهم بمحمد صلى الله عليه سلم كفر بالتوراة ونقض لتعاليمها .

والصلاة كما قلنا .. استحضار العبد وقفته بين يدى ربه . وحينما يقف العبد بين يدى الله .. لابد أن يزول كل ما فى نفسه من كبرياء . ويدخل بدلا منه الخشوع والخضوع والذلة لله . والمتكبر غافل عن رؤية ربه الذى يقف أمامه . انما عدم ايمانهم بهذا النبى . والوقوف بين يدى الله للصلاة كما يجب ان تؤدى ، وكما فرضها الله تعالى من فوق سبع سماوات . انما هو رفض للخضوع لأوامر الله .

وبعد ذلك تأتى الزكاة . لأن العبد المؤمن . لابد أن يوجه حركة حياته الى عمل نافع يتسع له ولمن لا يقدر على الحركة فى الحياة . والله سبحانه وتعالى حينما يطالبنا بالسعى فى الارض لا يطالبنا أن يكون ذلك على قدر احتياجاتنا فقط ، بل يطالبنا أن يكون تحركنا اكثر من حاجة حياتنا . حتى يتسع هذا التحرك ليشمل حياة غير القادر على حركة الحياة . فيتسع المجتمع للجميع . ويزول منه الحقد والحسد ، وتصفى النفوس . .

﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾﴾

بعد أن لفت الله انظار اليهود . الى ان عدم ايمانهم بالاسلام هو كفر بالتوراة . . لأن تعاليم التوراة تآمرهم أن يؤمنوا بالرسول الجديد . وقد أعطوا أوصاف رسول الله صلى الله عليه وسلم .. وزمنه فى التوراة . وأمروا أن يؤمنوا به . قال تبارك وتعالى : « أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم » لقد كان اليهود يبشرون بمجىء رسول جديد . ويعلنون أنهم سيؤمنون به . فلما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يكن من قومهم كفروا به . لأنهم كانوا يريدون أن تكون السطوة لهم . بأن يأتى الرسول الجديد منهم . فلما جاء من العرب .. عرفوا أن سطوتهم ستنزول . وأن سيادتهم الاقتصادية ستنتهى . فكفروا بالرسول وبرسالته .

ولابد أن ننبه الى أنه اذا كانت هذه الآيات قد نزلت فى اليهود . فليس معناها أنها تنطبق عليهم وحدهم . بل هى تنطبق على أهل الكتاب جميعا . وغير المؤمنين . فالعبرة ليست بخصوص الموضوع . ولكن العبرة بعموم السبب .

ان الكلام منطبق هنا حتى على المسلمين الذين يشترون بآيات الله ثمنا قليلا وهؤلاء هم خطباء الفتنة الذين رآهم رسول الله صلى الله عليه وسلم . تقرض شفاهم بمقارض من نار . فسأل : من هؤلاء يا جبريل : فقال خطباء الفتنة . انهم الذين يزينون لكل ظالم ظلمه . ويجعلون دين الله فى خدمة أهواء البشر . وكان الأصل أن تخضع أهواء البشر لدين الله . وهؤلاء هم الذين يحاولون ـ تحت شعار التجديد ـ أن يجعلوا للناس حجة فى أن يتحللوا من منهج الله . فهم يبررون ما يقع . ولا يتدبرون حساب الآخرة .

إن علماء الدين الذين يحملون منهج الله ليس من عملهم تبرير ما يقع من غيرهم . ومنهج الله لا يمكن أن يخضع أبدا لأهواء البشر . وعلى الذين يفعلون ذلك أن يتوبوا ويرجعوا الى الله . ويحاولوا استدراك ما وقع منهم . لأن الرجوع الى الحق خير من التمادى فى الباطل .

وقول الحق سبحانه وتعالى : « أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم » يعطينا منهجا آخر من مناهج الدعاة . لأن الذى يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويحمل منهج الله .. يريد أن يخرج من لا يؤمن من حركة الباطل التى ألفها . واخراج غير المؤمن من حركة الباطل أمر شاق على نفسه . لأنه خروج عن الذى اعتاده . وبُعد عما ألفه . واعتراف أنه كان على باطل لذلك فهو يكون مفتوح العينين على من بين له طريق الايمان ليرى هل يطبق ذلك على نفسه أم لا ؟ أيطبق الناهى عن المنكر ما يقوله ؟ فاذا طبقه عرف أنه صادق فى الدعوة . واذا لم يطبقه كان ذلك عذرا ليعود الى الباطل الذى كان يسيطر على حركة حياته .

إن الدين كلمة تقال . وسلوك يفعل . فاذا انفصلت الكلمة عن السلوك ضاعت الدعوة . فالله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣ ﴾

(سورة الصف)

لماذا . . ؟ لأن من يراك تفعل ما تنهاه عنه يعرف أنك مخادع وغشاش . وما لم ترتضه أنت كسلوك لنفسك . لا يمكن أن تبشر به غيرك . لذلك نقرأ فى القرآن الكريم :

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ۝٢١ ﴾

(سورة الاحزاب)

فمنهج الدين وحده لا يكفى .. الا بالتطبيق . ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يأمر أصحابه بأمر الا كان أسبقهم اليه ، فكان المسلمون يأخذون عنه القدوة قولا وعملا ، وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه . حين يريد أن يقنن أمرا فى الاسلام يأتى بأهله وأقاربه ويقول لهم : لقد بدا لى أن آمر بكذا وكذا ، والذى نفسى بيده من خالف منكم لأجعلنه نكالا للمسلمين . وكان عمر بن الخطاب بهذا يقفل أبواب الفتنة ، لأنه يعلم من أين تأتى . .

وفى الدعوة الاسلامية .. لابد أن يكون العلماء قدوة لينصلح أمر الناس . ففى كل علوم الدنيا القدوة ليست مطلوبة . الا فى الدين . فأنت اذا ذُكِرَ لك عالم كيمياء بارع . وقيل لك أنه يتناول الخمر . أو يفعل كذا . تقول مالى وسلوكه . أنا آخذ عنه علم الكيمياء لأنه بارع فى ذلك . ولكن لا شأن لى بسلوكه . وكذلك كل علماء الأرض . ماعدا عالم الدين . فاذا كان هناك عالم يبصرك بالطريق المستقيم . وتتلقى عنه علوم دينك ثم بعد ذلك تعرف أنه يشرب الخمر أو يسرق . أتستمع له ؟ أبدا . انه يهبط من نظرك فى الحال . ولا تحب أن تسمعه . ولا تجلس فى مجلسه . مهما كان علمه . فستقول له كفاك دجلا . .

وهكذا فان عالم الدين لابد أن يكون قدوة . فلا ينهى عن منكر ويفعله . أو يأمر بمعروف وهو لا ينفذه . فالناس كلهم مفتحة اعينهم لما يصنع . والاسلام قبل أن ينتشر بالمنهج العلمى . . انتشر بالمنهج السلوكى . وأكبر عدد من المسلمين اعتنق هذا الدين من أسوة سلوكية قادته اليه . فالذين نشروا الاسلام فى الصين.. كان أغلبهم من التجار الذين تخلقوا بأخلاق الاسلام . فجذبوا حولهم الكثيرين . فاعتنقوا الاسلام . ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾

(سورة فصلت)

فالشرط الأول هو الدعوة الى الله . والشرط الثانى العمل الصالح . وقوله « اننى من المسلمين » لم ينسب الفضل لنفسه أو لذاته . ولكنه نسب الفضل الى الاسلام . ولكن قولوا لى : أى فائدة أن نقول أننا مسلمون ونعمل بعمل غير المسلمين ؟

اذن فقوله تعالى : « اتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم » يذكر الله بأن اليهود يقولون مالا يفعلون . ولو كانوا يؤمنون حقا بالتوراة لآمنوا برسول الله صلى الله عليه وسلم وبالاسلام . لان ذلك أمر فى التوراة . ولكنهم نسوا أنفسهم . فهم أول مخالف للتوراة . لأنهم لم يتبعوها . . وهم يتلون كتابهم الذى يأمرهم بالايمان الجديد .

ومع أنهم متأكدون من صدق رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم . الا أنهم لا يؤمنون . ولو كان عندهم ذرة من العقل لآمنوا بما يطلبه منهم كتابهم الذى يتلونه . ولكنهم لا يفكرون بعقولهم ، وانما يريدون علوا فى الأرض . والآية ـ كما قلنا ـ لا تنطبق على اليهود وحدهم . بل على كل من يسلك هذا السلوك . .

﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾

بعد أن بين الحق سبحانه وتعالى أن الايمان قدوة . وبعد أن لفتنا الى أن التوراة تطالب اليهود . بأن يؤمنوا بمحمد عليه الصلاة والسلام . يطلب الله سبحانه وتعالى الاستعانة بالصبر والصلاة . ومعنى الاستعانة بالصبر أن هناك أحداثا شاقة ستقع . وأن المسألة لن تكون سهلة . بل تحتاج الى جهد . فالصبر معناه حمل النفس على أمر صعب . وهم ماداموا قد تعودوا على شراء آيات الله بثمن قليل .. لأنهم قلبوا الصفقة . فجعلوا آيات الله ثمنا لمتع الدنيا . واشتروا بها متعهم وملذاتهم . وبعد أن تعودوا على الربا وغيره من وسائل الكسب الحرام . لابد أن يستعينوا بالصبر اذا أرادوا العودة الى طريق الايمان .

وكما قلنا فإن المسألة ليست بخصوصية الموضوع ولكن بعموم السبب . فانها موجهة للجميع . فكل مؤمن يدخل منهج الايمان محتاج الى الاستعانة بالصبر ليحمل نفسه على مشقة المنهج وتكاليفه . وليمنع نفسه عن الشهوات التى حرمها الله سبحانه وتعالى .

والصبر فى الآية الكريمة فسره بعض العلماء بأنه الصيام ، فكأن الله تعالى يأمرهم أن يجوعوا ويصبروا على ألم الجوع . ومشقة الايمان والصلاة كما قلنا خشوع وخضوع وذلة لله .. تنهى استكبارهم بأن يؤمنوا بدين لم ينزل على أحد من احبار اليهود . والحق سبحانه وتعالى يقول : « وانها لكبيرة الا على الخاشعين »

ويطلب الحق فى قوله : « واستعينوا بالصبر والصلاة » الاستعانة بشيئين هما الصبر

والصلاة . وكان سياق الآية يقتضى أن يقال : « وانهما » لكن القرآن قال : « وانها لكبيرة » فهل المقصود واحدة منهما . الصلاة فقط . أم الصبر ؟

نقول انه عندما يأتى أمران منضمان الى بعضهما لا تستقيم الامور الا بهما معا .. يكونان علاجا واحدا . . واقرأ قوله تعالى :

﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ ﴾

(سورة التوبة)

فقال يرضوه ولم يقل يرضوها . التفسير السابق نفسه نفهمه : ليس لله حق ولرسوله حق . ولكن الله ورسوله يلتقيان على حق واحد . وكذلك قوله تعالى :

﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا ﴾

(من الآية ١١ سورة الجمعة)

وكان المفروض أن يقال اليهما . ولكن التجارة واللهو لهما عمل واحد . هو شغل المؤمنين عن العبادة والذكر : « واستيعنوا بالصبر والصلاة » لأن العلاج فى الصبر مع الصلاة . والصبر كبير أن تتحمله النفس . وكذلك الصلاة . لأنهما يأخذان من حركة حياة الانسان . والصبر هنا مطلوب ليصبروا على ما يمتنعون عنه من نعيم الدنيا وزخرفها . والصلاة تحارب الاستكبار فى النفس . فكأن الوصفة الايمانية لا تتجزأ . فلا يتم الصبر بلا صلاة ، ولا تتقن الصلاة الا بالصبر .

وقوله تعالى : (إلا على الخاشعين) . . ما معنى الخشوع ؟ الخشوع هو الخضوع لمن ترى أنه فوقك بلا منازع . فالناس يتفاوتون فى القيم والمواهب . وكل واحد يحاول أن يفاخر بعلوه ومواهبه . ويقول : أنا خير من فلان . أو أنت خير من فلان . اذن فمن الممكن أن يستكبر الانسان بما عنده . ولكن الانسان يخضع لمن كانت له حاجة عنده . لأنه لو تكبر عليه أتعبه فى دنياه . ولذلك أعطى الله سبحانه وتعالى للناس المواهب على الشيوع والخشوع على الشيوع . فكل انسان منا محتاج للآخر . هذا خشوع على الشيوع . وكل انسان منا مميز بما لا يقدر عليه غيره . هذه مواهب

على الشيوع . هذا فى البشر ، أما بالنسبة لله سبحانه فإنه خشوع لمن خلق ووهب وأوجد .

والخشوع يجعل الانسان يستحضر عظمة الحق سبحانه ويعرف ضآلة قيمته أمام الحق سبحانه وتعالى ومدى عجزه أمام خالق هذا الكون . ويعلم أن كل ما عنده يمكن أن يذهب به الله تعالى فى لحظة . . ذلك أننا نعيش فى عالم الأغيار . ولذلك فلنخضع للذى لا يتغير . لأن كل ما يحصل عليه الانسان هو من الله وليس من ذاته . والذين يغترون بوجود الأسباب نقول لهم : اعبدوا واخشعوا لواهب الأسباب وخالقها . لأن الأسباب لا تعمل بذاتها . والله سبحانه وتعالى يجعل الأيام دولا . . أى متداولة بين الناس . انسان يفاخر بقوته . يأتى من هو أقوى منه فيهزمه . انسان يفاخر بماله . يضيع هذا المال فى لحظة . . واقرأ قوله تعالى :

﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

ولذلك لابد أن نفهم . أن الانسان الذى يستعلى بالاسباب سيأتى وقت لا تعطيه الأسباب . فالانسان اذا بلغ فى عينه وأعين الناس مرتبة الكمال . اغتر بنفسه . نقول له : لا تغتر بكمالات نفسك . فإن كانت موجودة الآن . فستتغير غدا . . فالخشوع لا يكون الا لله . والحق سبحانه وتعالى يقول : « وانها لكبيرة إلا على الخاشعين » من هم الخاشعون ؟ الخاشع هو الطائع لله . الممتنع عن المحرمات . الصابر على الأقدار . الذى يعلم يقينا داخل نفسه أن الأمر لله وحده . وليس لأى قوة أخرى . . فيخشع لمن خلقه وخلق هذا الكون له .

﴿ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾

بعد ان أوضح لنا الحق سبحانه وتعالى ان الصبر والصلاة كبيرة إلا على كل من خشع قلبه لله . فهو يقبل عليها بحب وايمان ورغبة . أراد ان يعرفنا من هم الخاشعون . فقال جل جلاله : (الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم) .

ما هو الظن ؟ سبق ان تحدثنا عن النسب . وقلنا هناك نسبة أنا جازم بها والواقع يصدقها . عندما أقول مثلا : محمد مجتهد . فاذا كان هناك شخص اسمه محمد ومجتهد . أكون قد جزمت بواقع . فهذه نسبة مجزوم بها بشرط ان أستطيع أن أدلل على صدق ما أقول . فإذا كنت جازما بالنسبة على صدق ما أقول.. فهذا تقليد . مثلما يقول ابنك البالغ من العمر ست سنوات مثلا : لا إله إلا الله محمد رسول الله . ولكن عقله الصغير لا يستطيع ان يدلل على ذلك . وانما هو يقلد أباه أو مدرسيه . .

فاذا كنت جازما بالشيء وهو ليس له وجود فى الواقع . فهذا هو الجهل . والجاهل شر من الأمى . لأن الجاهل مؤمن بقضية لا واقع لها . ويدافع عنها . أما الأمى .. فهو لا يعلم . ومتى علم فانه يؤمن . ولذلك لابد بالنسبة للجاهل ان تخرج الباطل من قلبه أولا . ليدخل الحق . واذا كانت القضية غير مجزوم بها ومتساوية فى النفى والوجود فإن ذلك يكون شكا . فإن رجحت إحدى الكفتين على الأخرى يكون ذلك ظنا . والحق سبحانه وتعالى يقول : « الذين يظنون » ولم يقل : الذين تيقنوا انهم ملاقوا ربهم . . لماذا لم يستخدم الحق تعالى لفظ اليقين وأبدله بالظن ؟ لان مجرد الظن انك ملاق الله سبحانه وتعالى .. كاف ان يجعلك تلتزم بالمنهج . فما بالك اذا كنت متيقنا . فمجرد الظن يكفى .

واذا أردنا ان نضرب لذلك مثلا ـ ولله المثل الأعلى ـ نقول : هب انك سائر فى طريق . وجاء شخص يخبرك ان هذا الطريق فيه لصوص وقطاع طرق . فمجرد

هذا الكلام يجعلك لا تمشى فى هذا الطريق إلا اذا كنت مسلحا ومعك شخص أو اثنان . فأنت تفعل ذلك للاحتياط . اذن فمجرد الظن دفعنا للاحتياط . . اذن فقوله تعالى : « يظنون انهم ملاقوا ربهم » فمجرد ان القضية راجحة . هذا يكفى لاتباع منهج الله . فتقى نفسك من عذاب عظيم .

ويقول المعرّى فى آخر حياته :

زعم المنجّم والطبيب كلاهما ... لا تحشر الأجساد قلتُ اليكما
ان صحّ قولكما فلسْت بخاسرٍ ... أو صحّ قولى فالخسارُ عليكما

فكل مكذب بالآخرة خاسر . والنفس البشرية لابد ان تحتاط للقاء الله . وان تعترف ان هناك حشرًا وتعمل لذلك .

والحق سبحانه وتعالى يقول : « الذين يظنون انهم ملاقوا ربهم وأنهم اليه راجعون » والرجوع الى الله سبحانه وتعالى أمر يقينى . فمادمت قد جئت الى الدنيا مخلوقا من الله فأنت ـ لا محالة ـ سترجع اليه . وهذا اليوم يجب أن نحتاط له . حيطة كبرى . وان نترقبه . لانه يوم عظيم . . والحق سبحانه يقول :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ۝١ يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ ۝٢ ﴾

(سورة الحج)

ويقول جل جلاله :

﴿ فَكَيۡفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرۡتُمۡ يَوۡمٗا يَجۡعَلُ ٱلۡوِلۡدَٰنَ شِيبًا ۝١٧ ﴾

(سورة المزمل)

اذا كان هذا حالنا يوم القيامة ، فكيف لا يكفى مجرد الظن لان نتمسك بمنهج الله . ونحن نحتاط لأحداث دنيوية لا تساوى شيئا بالنسبة لأهوال يوم القيامة . ان الظن هنا بأننا سنلاقى الله تعالى يكفى لان نعمل له ألف حساب .

﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾

يدعى بعض الناس ان هناك تكرارا . للآيات السبع التى سبق فيها تذكير بنى اسرائيل . نقول : لا.لم تتكرر هذه الآيات .. وهى قوله تعالى :

﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٤٤﴾ وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَأَنَّهُمۡ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾

(سورة البقرة)

هذه الآيات السبع كلها تذكر بنى اسرائيل . برسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم . والذى جاء وصف صفاته وزمنه فى التوراة ولتذكيرهم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم . هو نعمة اليهم والى الناس جميعا . واذا كان الله قد فضل بنى اسرائيل بأن أرسل اليهم رسلا . فليس معنى ذلك ان ينكروا نعمة الله عليهم بالرسول

الخاتم . وبما ان أوصاف رسول الله صلى الله عليه وسلم قد ذكرت فى التوراة وطلب منهم ان يؤمنوا به وينصروه فان عدم ايمانهم به هو كفر بالتوراة . كما ان الانجيل بشر بمحمد صلى الله عليه وسلم وطلب منهم ان يؤمنوا به . فعدم ايمانهم به كفر بالانجيل .

وقوله تعالى : « اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم » أى اذكروا اننى جعلت فى كتابكم ما يثبت صدق محمد صلى الله عليه وسلم فى نبوته . والمعنى اذكروا نعمتى بأنى فضلتكم على العالمين ممن عاصروكم وقت نزول رسالة موسى . وجعلت منكم الأنبياء .

ومادام الحق سبحانه وتعالى .. قد فضلهم على العالمين .. فكيف يمّن عليهم ؟ نقول المّن هنا لشدة النكاية بهم . فالله سبحانه وتعالى . لشدة معصيتهم وكفرهم جعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت .
واقرأ قوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ ﴾

(سورة البقرة)

وقوله تعالى :

﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّـٰغُوتَ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ ﴾

(سورة المائدة)

فالله سبحانه وتعالى يبين لنا كيف كفر بنوا اسرائيل بأنبيائهم وقتلوهم . رغم ان الله تعالى أعطاهم خيرا كثيرا .. لكنهم نكثوا العهد .. فاستحقوا العذاب . فهم لم

يجعلوا نعمة الله عليهم سببا فى اخلاصهم والايمان به سبحانه وتصديق منهجه . وتصديق الرسول الخاتم الذى ذكر عندهم فى التوراة . كان يجب ان يؤمنوا بالله وان يذكروا نعمه الكثيرة التى تفضل بها عليهم .

والحق يريد ان يلفتنا الى انه مادام قد أنعم عليهم .. فلا يظنون انهم غير مطالبين بالايمان بمحمد عليه الصلاة والسلام . انما كان لابد ان يفهموا ان رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء ليصحح لهم كتابهم . ويوضح لهم الطريق الصحيح . . فكان يجب عليهم ان ينصروه . والنعمة لا يمكن ان تستمر مع الكفر بها . وحتى لا نظن ان الله سبحانه وتعالى قد قسا عليهم بأن جعلهم أمما متفرقة فى الأرض كلها . ثم بعد ذلك يجمعون فى وطن واحد ليقتلوا . . واقرأ قوله تعالى :

﴿ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ ﴾

(من الآية ١٠٤ سورة الأسراء)

أى أرض تلك التى طلب الله سبحانه وتعالى من بنى اسرائيل ان يسكنوها ؟ مادام الحق سبحانه وتعالى قال : « اسكنوا الارض » فهى الأرض كل الأرض . وهل تكون الأرض كلها وطنا لليهود . طبعا لا . ولكن الحق سبحانه كتب عليهم ان يتفرقوا فى الأرض . فلا تكون لهم دولة الا عندما يشاء الله ان يجمعهم فى مكان واحد . ثم يسلط عليهم عباده المؤمنين . والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ ﴾

(سورة الاسراء)

هذه هى المرة الأولى التى انتصر فيها المسلمون على اليهود . يقول الحق سبحانه

وتعالى . « ثم رددنا لكم الكرة عليهم » ومادام الحق سبحانه وتعالى قال عليهم فهى على المسلمين . لأنهم هم الذين انتصروا على اليهود . وقوله تعالى : « وأمددناكم بأموال وبنين » معناها انهم ينتصرون على المسلمين وهذا ما هو حادث الآن ، وما شاهدناه وما نشاهده فى الفترة الأخيرة . أى ان المدد والقوة تأتيهم من الخارج وليس من ذاتهم .

ونحن نرى ان اسرائيل قائمة على جلب المهاجرين اليهود من الدول الأخرى . وجلب الأموال والمساعدات من الدول الأخرى ايضا.أى أن كل هذا يأتيهم بمدد من الخارج . واسرائيل لا تستطيع ان تعيش الا بالمهاجرين اليها . وبالمعونات التى تأتيها . فالمدد لابد أن يأتى من الخارج . اذا كانت هناك معركة وطلب قائد المدد .. فمعناه أنه يريد رجالا يأتونه من خارج أرض المعركة ليصبحوا مددا وقوة لهذا الجيش . وقوله تعالى : « وجعلناكم أكثر نفيرا » النفير هو الصوت العالى الذى يجذب الانتباه . ونحن نرى الآن ان اسرائيل تسيطر على وسائل الاعلام والدعاية فى العالم . وان صوتها عال ومسموع . . ويقول الحق سبحانه وتعالى : « فاذا جاء وعد الآخرة ليسوءوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة » . . ومعنى هذا أن المسجد الأقصى سيضيع من المسلمين ويصبح تحت حكم اليهود فيأتى المسلمون ويحاربونهم ويدخلون المسجد كما دخلوه أول مرة فى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه . ويقول الله تعالى : « فاذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفا » واللفيف هو الجمع غير المتجانس . الذى يتنافر مع نفسه ومع من حوله . وبما ان الله سبحانه وتعالى قد قضى ان يحدث قتال بين اليهود وبين المسلمين .. يستعيد فيه المسلمون المسجد الأقصى . فكان لابد ان يجمعهم فى مكان واحد . لانهم لو بقوا كجاليات متفرقة فى كل دول العالم ومعزولة عن المجتمعات التى يعيشون فيها لاقتضى ذلك ان يحارب المسلمون العالم كله . ولكن الله سبحانه وتعالى سيأتى بهم من كل دولة الى المكان الذى فيه بيت المقدس حتى يمكن ان يحاربهم المسلمون ، وان يدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة .

فالحق سبحانه وتعالى يذكر بنى اسرائيل بنعمه عليهم . وبمعاصيهم وكفرهم حتى لا يقول أحد إن الله سبحانه كان قاسيا عليهم لأنهم هم الذين كفروا . وهم الذين عصوا وأفسدوا فى الأرض . فاستحقوا هذا العقاب من الله سبحانه وتعالى .

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾﴾

قوله تعالى : « واتقوا يوما » يذكرهم بهذا اليوم . وهو يوم القيامة الذى لا ينفع الانسان فيه إلا عمله . ويطلب الحق سبحانه وتعالى منهم ان يجعلوا بينهم وبين صفات الجلال لله تعالى فى ذلك اليوم وقاية .

ان هناك آية أخرى تقول :

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾

(سورة البقرة)

وهذه الآية وردت مرتين . وصدر الآيتين متفق . ولكن الآية الأولى تقول : « ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون » والآية الثانية : « ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة ولا هم ينصرون » هل هذا تكرار ؟ نقول لا . والمسألة تحتاج الى فهم . فالآيتان متفقتان فى مطلعهما : فى قوله تعالى : « واتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيئا » .

ففى الآية الأولى قدم الشفاعة وقال : لا يقبل . والثانية أخر الشفاعة وقال لا تنفع . الشفاعة فى الآية الأولى مقدمة . والعدل متأخر ، وفى الآية الثانية العدل مقدم والشفاعة مؤخرة . . وفى الآية الأولى لا يقبل منها شفاعة . وفى الآية الثانية .. لا تنفعها شفاعة.والمقصود بقوله تعالى : « اتقوا يوما » هو يوم القيامة الذى قال عنه سبحانه وتعالى :

﴿ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾ ﴾

(سورة الانفطار)

وقوله تعالى :

« لا تجزى نفس عن نفس شيئا » كم نفسا هنا ؟ انهما اثنتان . نفس عن نفس . هناك نفس أولى ونفس ثانية . فما هى النفس الأولى ؟ النفس الأولى هى الجازية . والنفس الثانية . . هى المجزى عنها . . ومادام هناك نفسان فقوله تعالى : « لا تقبل منها شفاعة » هل من النفس الأولى أو الثانية ؟

اذا نظرت الى المعنى فالمعنى انه سيأتى انسان صالح فى يوم القيامة ويقول يارب أنا سألجزى عن فلان أو أغنى عن فلان أو أقضى حق فلان . النفس الأولى أى النفس الجازية تحاول ان تتحمل عن النفس المجزى عنها .

ولكى نقرب المعنى ولله المثل الأعلى نفترض ان حاكما غضب على أحد من الناس وقرر ان ينتقم منه أبشع انتقام . يأتى صديق لهذا الحاكم ويحاول ان يجزى عن المغضوب عليه . فبما لهذا الرجل من منزله عند الحاكم يحاول ان يشفع للطرف الثالث . وفى هذه الحالة اما ان يقبل شفاعته أو لا يقبلها . فاذا لم يقبل شفاعته فانه سيقول للحاكم أنا سأسدد ما عليه . . أى سيدفع عنه فدية ، ولا يتم ذلك إلا اذا فسدت الشفاعة .

فاذا كانت المسألة فى يوم القيامة ومع الله سبحانه وتعالى . يأتى انسان صالح ليشفع عند الله تبارك وتعالى لانسان أسرف على نفسه . فلابد ان يكون هذا الانسان المشفع من الصالحين حتى تقبل شفاعته عند الحق جل جلاله . واقرأ قوله سبحانه :

﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾

(من الآية ٢٥٥ سورة البقرة)

وقوله تعالى :

﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

(سورة الانبياء)

والانسان الصالح يحاول ان يشفع لمن أسرف على نفسه فلا تقبل شفاعته ولا يؤخذ منه عدل ولا يسمح لها بأى مساومة أخرى . اذن لا يتكلم عن العدل فى الجزاء إلا اذا فشلت الشفاعة .

هنا الضمير يعود الى النفس الجازية . أى التى تتقدم للشفاعة عند الله . فيقول الحق سبحانه وتعالى : « لا يقبل منها شفاعة » فلا يقبل منها أى مساومة أخرى . ويقول سبحانه : « ولا يؤخذ منها عدل » . وهذا ترتيب طبيعى للاحداث .

فى الآية الثانية يتحدث الله تبارك وتعالى عن النفس المجزى عنها قبل ان تستشفع بغيرها وتطلب منه ان يشفع لها . لابد ان تكون قد ضاقت حيلها وعزت عليها الأسباب . فيضطر ان يذهب لغيره . وفى هذا اعتراف بعجزه . فيقول يارب ماذا أفعل حتى أكفر عن ذنوبى فلا يقبل منه . فيذهب الى من تقبل منهم الشفاعة فلا تقبل شفاعتهم .

واذا أردنا ان نضرب لذلك مثلا من القرآن الكريم فاقرأ قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ .

(سورة السجدة)

هؤلاء هم الذين يطلبون العدل من الله . بأن يعيدهم الى الدنيا ليكفروا عن سيئاتهم . ويعملوا عملا صالحا ينجيهم من العذاب . ذلك ان الحسنات يذهبن السيئات . .

فماذا كان رد الحق سبحانه وتعالى عليهم . قال جل جلاله :

﴿ فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

(سورة السجدة)

فهم عرضوا ان يكفروا عن سيئاتهم . بأن طلبوا العودة الى الدنيا ليعملوا صالحا . فلم يقبل الله سبحانه وتعالى منهم هذا العرض . اقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ ۚ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾

(سورة الاعراف)

لقد طلب هؤلاء الشفاعة أولا ولم تقبل . فدخلوا فى حد آخر وهو العدل فلم يؤخذ مصداقا لقوله تعالى : « لا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل » . . وهكذا نرى الاختلاف فى الآيتين . فليس هناك تكرار فى القرآن الكريم . .

ولكن الآية التى نحن بصددها تتعلق بالنفس الجازية . أو التى تريد أن تشفع لمن أسرف على نفسه : « فلا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل » . والآية الثانية : « لا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة » . أى ان الضمير هنا عائد على النفس المجزى عنها . فهى تقدم العدل أولا : « ارجعنا نعمل صالحا » فلا يقبل منها ، فتبحث عن شفعاء فلا تجد ولا تنفعها شفاعة .

وهذه الآيات التى أوردناها من القرآن الكريم كلها تتعلق بيوم القيامة . على ان هناك مثلا آخر فى قوله تعالى :

﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾

(من الآية ١٥١ سورة الانعام)

والآية الثانية فى قوله سبحانه :

﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾

(سورة الاسراء)

يقول بعض الناس ان « نرزقكم » فى الآية الأولى « ونرزقهم » فى الآية الثانية من جمال الاسلوب . نقول لا . قوله تعالى : « ولا تقتلوا أولادكم من املاق » أى من فقر موجود . ومادام الفقر موجودا فالانسان لا يريد أولادا ليزداد فقره . ولذلك قال له الحق سبحانه وتعالى : « نحن نرزقكم واياهم » . أى ان مجىء الأولاد لن يزيدكم فقرا . لأن لكم رزقكم ولهم رزقهم . وليس معنى ان لهم رزقهم ان ذلك سينقص من رزقكم . فللأب رزق وللولد رزق . أما فى الآية الثانية : « ولا تقتلوا أولادكم خشية املاق » فكأن الفقر غير موجود . ولكنه يخشى ان رزق بأولاد يأته الفقر . يقول له الحق : « نحن نرزقهم واياكم » . أى ان رزقهم سيأتيهم قبل رزقكم .

فعندما تقرأ قول الله سبحانه وتعالى : « اتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيئا » مكررة فى الآيتين لا تظن ان هذا تكرار . لأن احداهما ختامها : « لا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل » . والثانية : « لا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة » . فالضمير مختلف فى الحالتين . مرة يرجع الى النفس الجازية فقدم الشفاعة وأخر العدل . ولكن فى النفس المجزى عنها يتقدم العدل وبعد ذلك الشفاعة .

الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ﴾

(من الآية ٣٣ سورة لقمان)

أى ان الانسان لا يمكن ان يجزى عن انسان مهما بلغت قرابته . . لا يجزى الولد عن أمه أو أبيه . أو يجزى الوالد عن أولاده . واقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ ﴾

(سورة عبس)

وقول الحق سبحانه وتعالى : « لا يقبل منها عدل » : « لا يؤخذ منها عدل » . العدل هو المقابل . كأن يقول المسرف على نفسه يارب فعلت كذا وأسرفت على نفسى فأعدنى الى الدنيا أعمل صالحا . وكلمة العدل مرة تأتى بكسر العين وهى مقابل الشىء من جنسه . أى ان يعدل القماش قماش مثله ويعدل الذهب ذهب مثله . وعدل بفتح العين مقابل الشىء ولكن من غير جنسه . والعدل معناه الحق والعدل لا يكون إلا بين خصمين . ومعناه الانصاف ومعناه الحق . والحق هو الشىء الثابت الذى لا يتغير . وانك لا تتحيز لجهة على حساب جهة أخرى . ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما كان يجلس مع أصحابه يوزع نظره الى كل الجالسين .. حتى لا يقال انه مهتم بواحد منهم عن الآخر .

ولابد ان نعرف ما هى النفس . كلمة النفس اذا وردت فى القرآن الكريم . فافهم ان لها علاقة بالروح . حينما تتصل الروح بالمادة وتعطيها الحياة توجد النفس . المادة وحدها قبل ان تتصل بها الروح تكون مقهورة ومنقادة مسبحة لله . فلا تقل الحياة الروحية والحياة المادية . لان الروح مسبحة والمادة مسبحة . ولكن عندما تلتقى الروح بالمادة وتبدأ الحياة وتتحرك الشهوات يبدأ الخلل . والموت يترتب عليه خروج الروح من الجسد . الروح تذهب الى عالمها التسخيرى . والمادة تذهب الى عالمها التسخيرى . وذلك يجعلنا نفهم قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

(سورة النور)

لماذا تشهد ؟ لانها لم تعد مسخرة للانسان تتبع أوامره فى الطاعة والمعصية . فحواسك مسخرة لك بأمر الله فى الحياة الدنيا وهى مسبحة وعابدة . فاذا أطاعتك فى معصية فانها تلعنك لانك أجبرتها على المعصية فتأتى يوم القيامة وتشهد عليك . والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ ﴾

(سورة الشمس)

ولقد شاع عند الناس لفظ الحياة المادية والحياة الروحية . لان الحياة الروحية تختلف عن الروح التى فى جسدك . وهى تنطبق على الملائكة مصداقا لقوله تعالى :

﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣ ﴾

(سورة الشعراء)

وقوله جل جلاله :

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾

(من الآية ٥٢ سورة الشورى)

هذه هى الروح التى فيها النقاء والصفاء . وقوله تعالى : « ولا هم ينصرون » . أى ان الله سبحانه وتعالى اذا اقضى عليهم العذاب لا يستطيع أحد نصرهم أو وقف عذابهم . لا يمكن ان يحدث هذا . لان الأمر كله لله .

﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ ﴾

بعد أن حذر الله سبحانه وتعالى بنى اسرائيل من يوم لا تنفع فيه الشفاعة . أراد أن يذكرهم بفضله عليهم وبنعمه . قوله تعالى : « إذ » هى ظرف لشىء.وسبق أن قلنا أن الظرف نوعان . لأن كل حدث من الأحداث يحتاج الى زمان يقع فيه والى مكان يقع فيه . وعندما أقول لك إجلس مكانك . هذا الظرف يراد به المكان . وعندما يخاطب الله عز وجل عباده : أذكر اذ فعلت كذا . أى اذكر وقت أن فعلت كذا ظرف زمان . وقول الحق تبارك وتعالى : « وإذ نجيناكم » أى اذكروا الوقت الذى نجاكم فيه من فرعون .

والآية التى نحن بصددها وردت ثلاث مرات فى القرآن الكريم . قوله تعالى

﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ ﴾

(سورة البقرة)

﴿ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ ﴾

(من الآية ١٤١ سورة الأعراف)

وقوله جل جلاله فى سورة إبراهيم :

﴿ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ﴾

(من الآية ٦ سورة ابراهيم)

الاختلاف بين الأولى والثانية هو قوله تعالى فى الآية الأولى : « يذبحون أبناءكم » . وفى الثانية : (يقتلون أبناءكم). « ونجينا » فى الآية الأولى : « وأنجينا » فى الآية الثانية . ما الفرق بين نجينا وأنجينا ؟ هذا هو الخلاف الذى يستحق أن تتوقف عنده . . فى سورة البقرة : « وإذ نجيناكم من آل فرعون » . . الكلام هنا من الله . أما فى سورة ابراهيم فنجد « أذكروا نعمة الله عليكم إذ أنجاكم » .

الكلام هنا كلام موسى عليه السلام . ما الفرق بين كلام الله سبحانه وتعالى وكلام موسى ؟ . .

ان كلام موسى يحكى عن كلام الله.ان الله سبحانه وتعالى حين يمتن على عباده يمتن عليهم بقمم النعمة ، ولا يمتن بالنعم الصغيرة . والله تبارك وتعالى حين امتن على بنى اسرائيل قال : « نجيناكم من آل فرعون يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم » . ولم يتكلم عن العذاب الذى كان يلاقيه قوم موسى من آل فرعون . انهم كانوا يأخذونهم أجراء فى الأرض ليحرثوا وفى الجبال لينحتوا الحجر وفى المنازل ليخدموا . ومن ليس له عمل يفرضون عليه الجزية . ولذلك كان اليهود يمكرون ويسيرون بملابس قديمة حتى يتهاون فرعون فى أخذ الجزية منهم . وهذا معنى قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ ﴾

(من الآية ٦١ سورة البقرة)

أى أنهم يتمسكنون ويظهرون الذلة حتى لا يدفعوا الجزية . ولكن الحق سبحانه وتعالى لم يمتن عليهم بأنه أنجاهم من كل هذا العذاب . بل يمتن عليهم بقمة النعمة . وهى نجاة الابناء من الذبح واستحياء النساء . لأنهم فى هذه الحالة ستستذل نساؤهم ورجالهم . فالمرأة لا تجد رجلا يحميها وتنحرف .

كلمة نجَّى وكلمة أنجى بينهما فرق كبير . كلمة نجَّى تكون وقت نزول العذاب . وكلمة أنجى يمنع عنهم العذاب . الأولى للتخليص من العذاب والثانية يبعد عنهم عذاب فرعون نهائيا . ففضل الله عليهم كان على مرحلتين . مرحلة انه خلصهم من عذاب واقع عليهم . والمرحلة الثانية أنه أبعدهم عن آل فرعون فمنع عنهم العذاب .

قوله تعالى : « يسومونكم سوء العذاب » ما هو السوء ؟ انه المشتمل على الوان شتى من العذاب كالجلد والسخرة والعمل بالاشغال الشاقة . ما معنى يسوم ؟ يقال سام فلان خصمه أى أذله وأعنته وأرهقه . وسام مأخذوة من سام الماشيه تركها ترعى . لذلك سميت بالسام اى المتروكة . وعندما يقال إن فرعون يسوم بنى اسرائيل سوء العذاب . معناها أن كل حياتهم ذل وعذاب . . فتجد أن الله سبحانه وتعالى عندما يتكلم عن حكام مصر من الفراعنة يتكلم عن فراعنة قدماء كانوا فى عهد عاد وعهد ثمود . واقرأ قوله تعالى :

﴿ وَٱلْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝٤ هَلْ فِي
ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ۝٥ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧
ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَادِ ۝٨ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ
ذِي ٱلْأَوْتَادِ ۝١٠ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِي ٱلْبِلَادِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ۝١٢ ﴾

(سورة الفجر)

أى أن الله تبارك وتعالى جاء بحضارة الفراعنة وقدماء المصريين بعد عاد وثمود . وهذا دليل على أن حضارة عاد وثمود قديمه . والله سبحانه وتعالى وصف عادا بأنها التى لم يخلق مثلها فى البلاد . أى أنها حضارة أرقى من حضارة قدماء المصريين .
قد يتساءل بعض الناس كيف يصف الله سبحانه وتعالى عادا بأنها التى لم يخلق مثلها فى البلاد . مع أنه يوجد الآن حضارات متقدمة كثيرة .

نقول إن الله قد كشف لنا حضارة الفراعنة وآثارهم . ولكنه أخفى عنا حضارة

عاد . ولقد وجدنا فى حضارة الفراعنة أشياء لم نصل اليها حتى الآن . مثل براعتهم فى تحنيط الموتى والمحافظة على الجثث . وبناء الأهرامات وغير ذلك . وبما أن حضارة عاد كانت أرقى من حضارة الفراعنة . فإنها تكون قد وصلت إلى أسرار ما زالت خافية على العالم حتى الآن . ولكنا لا نعرف شيئا عنها ، لأن الله لم يكشف لنا آثارها .

ولقد تحدث الحق تبارك وتعالى عن الفراعنة باسم فرعون . وتكلم عنهم فى أيام موسى باسم آل فرعون . ولكن الزمن الذى كان بين عهدى يوسف وموسى لم يسم ملك مصر فرعون ، انما سماه العزيز الذى هو رئيس الوزراء ورئيسه الملك . وقال الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ ﴾

(من الآية ٥٠ سورة يوسف)

اذن فالحاكم أيام يوسف كان يسمى ملكا ولم يسم فرعون . بينما حكام مصر قبل يوسف وبعده كانوا يلقبون بفرعون . ذلك لأنه قبل عهد يوسف عليه السلام حكم مصر الهكسوس أهل بنى اسرائيل . فقد أغاروا على مصر وانتصروا على الفراعنة . وحكموا مصر سنوات حتى تجمع الفراعنة وطردوهم منها .

والغريب أن هذه القصة لم تعرف الا بعد اكتشاف حجر رشيد ، وفك رموز اللغة الهيروغليفية . وكان ملوك الهكسوس من الرعاة الذين استعمروا مصر فترة . ولذلك نرى فى قصة يوسف عليه السلام قول الله سبحانه وتعالى : « وقال الملك أئتونى به ».

وهكذا نعلم أن القرآن الكريم قد روى بدقة قصة كل حاكم فى زمنه . وصف الفراعنة بأنهم الفراعنة . ثم جاء الهكسوس فلم يكن هناك فرعون ولكن كان هناك ملك . وعندما جاء موسى كان الفراعنة قد عادوا لحكم مصر . فاذا كان هذا الأمر لم نعرفه الا فى مطلع القرن الخامس . عندما اكتشف الفرنسيون حجر رشيد ، ولكن القرآن أرخ له التاريخ الصحيح منذ أربعة عشر قرنا . وهذه معجزة تنضم لمعجزات

كبيرة فى القرآن الكريم عن شىء كان مجهولا وقت نزول القرآن وأصبح معلوما الآن . لنجد أن القرآن جاء به فى وضعه الصحيح والسليم .

بعد أن تحدثنا عن الفرق بين نجيناكم وأنجيناكم . نتحدث عن الفرق بين « يذبحون أبناءكم » . و « يقتلون أبناءكم » . . الذبح غير القتل . . الذبح لابد فيه من اراقة دماء . والذبح عادة يتم بقطع الشرايين عند الرقبة ، ولكن القتل قد يكون بالذبح أو بغيره كالخنق والإغراق . كل هذا قتل ليس شرطا فيه أن تسفك الدماء .

والحق سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلى أن فرعون حينما أراد أن ينتقم من ذرية بنى اسرائيل انتقم منهم انتقامين . . انتقاما لأنهم كانوا حلفاء للهكسوس وساعدوهم على احتلال مصر . ولذلك فان ملك الهكسوس اتخذ يوسف وزيرا . فكأن الهكسوس كانوا موالين لبنى اسرائيل . وعندما انتصر الفراعنة انتقموا من بنى اسرائيل بكل وسائل الانتقام . قتلوهم وأحرقوا عليهم بيوتهم .

أما مسألة الذبح فى قوله تعالى : « يذبحون أبناءكم » فلقد رأى فرعون نارا هبت من ناحية بيت المقدس فأحرقت كل المصريين ولم ينج منها غير بنى اسرائيل . فلما طلب فرعون تأويل الرؤيا . قال له الكهان يخرج من ذرية اسرائيل ولد يكون على يده نهاية ملكك . فأمر القوابل (الدايات) بذبح كل مولود ذكر من ذرية بنى اسرائيل . ولكن قوم فرعون الذين تعودوا السلطة قالوا لفرعون : ان بنى اسرائيل يوشك أن ينقرضوا وهم يقومون بالخدمات لهم . فجعل الذبح سنة والسنة الثانية يبقون على المواليد الذكور.وهارون ولد فى السنة التى لم يكن فيها ذبح فنجا . وموسى ولد فى السنة التى فيها ذبح فحدث ما حدث .

اذن سبب الذبح هو خوف فرعون من ضياع ملكه . وفرض الذبح حتى يتأكد قوم فرعون من موت المولود . ولو فعلوه بأى طريقة أخرى كأن القوه من فوق جبل أو ضربوه بحجر غليظ . أو طعنوه بسيف أو برمح قد ينجو من الموت . ولكن الذبح يجعلهم يتأكدون من موته فى الحال فلا ينجو أحد .

والحق يقول : « يسومونكم سوء العذاب يذبحون ابناءكم ويستحيون نساءكم » . كلمة الابن تطلق على الذكر ، ولكن الولد يطلق على الذكر والانثى . ولذلك كان

الذبح للذكور فقط . أما النساء فكانوا يتركونهن أحياء .

ولكن لماذا لم يقل الحق تبارك وتعالى يذبحون أبناءكم ويستحيون بناتكم بدلا من قوله يستحيون نساءكم . الحق سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا الى أن الفكرة من هذا هو ابقاء عنصر الأنوثة يتمتع بهن آل فرعون . لذلك لم يقل بنات ولكنه قال نساء . أى أنهم يريدونهن للمتعة وذلك للتنكيل ببنى اسرائيل . ولا يقتل رجولة الرجل الا انه يرى الفاحشة تصنع فى نسائه .

والحق سبحانه وتعالى يقول : « وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم » . ما هو البلاء ؟ بعض الناس يقول إن البلاء هو الشر . ولكن الله تبارك وتعالى يقول : « ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون »

اذن هناك بلاء بالخير وبلاء بالشر . والبلاء كلمة لا تخيف . أما الذى يخيف هو نتيجة هذا البلاء . لأن البلاء هو امتحان أو اختبار . إن أديته ونجحت فيه كان خيرا لك . وان لم تؤده كان وبالا عليك . والحق سبحانه وتعالى يقول فى خليله ابراهيم :

﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ ﴾

(من الآية ١٢٤ سورة البقرة)

فإبراهيم نجح فى الامتحان ، والبلاء جاء لبنى اسرائيل من جهتين . . بلاء الشر بتعذيبهم وتقتيلهم وذبح أبنائهم . وبلاء الخير بانجائهم من آل فرعون . ولقد نجح بنو اسرائيل فى البلاء الأول . وصبروا على العذاب والقهر وكان بلاء عظيما . وفى البلاء الثانى فعلوا أشياء سنتعرض لها فى حينها .

﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾

مرة ثانية تأتى « وإذ ». ويأتى الانجاء وسيلة . هذه الوسيلة ذكرتها الآية الكريمة . فقد خرج موسى وقومه وكانوا ستمائة ألف كما تقول الروايات . وعرف فرعون بخروجهم فخرج وراءهم على رأس جيش من ألف ألف (مليون). عندما رآهم قوم موسى كما يروى لنا القرآن الكريم :

﴿ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ﴾

(من الآية ١٢٩ سورة الأعراف)

وقال لهم موسى كما جاء فى الكتاب العزيز :

﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾

(من الآية ١٢٩ سورة الأعراف)

وعندما جاء قوم فرعون بعددهم الضخم يقاومون قوم موسى وتراءى الجمعان أى انهم رأوهم رؤية العين قال قوم موسى « انا لمدركون »

وهذا كلام منطقى . فأمامهم البحر ووراءهم فرعون وجنوده . ولكن حين تخرج الأحداث من نطاق الأسباب الى قدرة المسبب فهى لا تخضع لأسباب الكون . ولذلك قال لهم موسى بملء فمه :

« كلا ان معى ربى سيهدين ».

وبذلك نقل المسألة من الأسباب الى المسبب تبارك وتعالى . فبمنطق الأحداث يكون فرعون وجنوده سيدركونهم . ولكن بمنطق الحق سبحانه وتعالى فانه سيهيىء لهم طريق النجاة .

وأوحى الله سبحانه وتعالى الى موسى بان يضرب بعصاه البحر فانفرق . وهكذا توقف قانون الماء وهو الاستطراق والسيولة . وانفرق البحر وأصبح كل جزء منه كالجبل . ذرات الماء تماسكت مع بعضها البعض لتكون جبلين كبيرين بينهما يابس يمر منه بنو اسرائيل .

هذا هو معنى قوله تعالى : « واذ فرقنا بكم البحر » والفرق هو الفصل بين شيئين . . واذا كان البحر قد انشق . . فأين ذهب الطين المبتل فى قاع البحر ؟ . . قالوا ان الله ارسل ريحا مرت عليه فجففته . ولذلك قال الحق جل جلاله : « طريقا فى البحر يبسا »

ويقال انه حين كان موسى وقومه يعبرون البحر سألوا عن بقية اخوانهم . فقال لهم موسى انهم فى طرق أخرى موازية لطريقنا . قالوا نريد أن نطمئن عليهم . فرفع موسى يده الى السماء وقال اللهم أعِنِّى على اخلاقهم السيئة . فأوحى الله الى موسى أن يضرب بعصاه الحواجز فانفتحت طاقة بين كل ممر . فكانوا يرون بعضهم بعضا .

وعندما رأى موسى عليه السلام فرعون وجيشه يتجهون الى البحر ليعبروه . اراد أن يضرب البحر ليعود الى السيولة . فلا يلحق بهم آل فرعون . ولكن الله أوحى اليه :

﴿ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

(سورة الدخان)

أى اترك البحر على ما هو عليه . حتى يتبعكم قوم فرعون . ظانين أنهم قادرون

على أن يسلكوا نفس الطريق ويمشوا فيه . وحينما يكون أولهم قريبا من شاطئكم واخرهم عند الشاطىء الآخر . أعيد الماء الى استطراقه . فأكون قد أنجيت وأهلكت بالسبب الواحد . فالحق سبحانه وتعالى يريد أن يمن على بنى اسرائيل بانه انجاهم من العذاب واهلك عدوهم . فكان العطاء عطاءين . عطاء ايجاب بأن انجاهم. وعطاء سلب بأن أهلك عدوهم .

وقوله تعالى : « وانتم تنظرون » فى هذه الآية لم يتحدث الحق جل جلاله عن فرعون . وانما حدث عن اغراق آل فرعون . لماذا ؟ لأن آل فرعون هم الذين أعانوه على جبروته وبطشه وطغيانه . هم الأداة التى استخدمها لتعذيب بنى اسرائيل .

والله سبحانه وتعالى أراد أن يرى بنو اسرائيل آل فرعون وهم يغرقون فوقفوا يشاهدونهم . وأنت حين ترى مصرع عدوك . تشعر بالمرارة التى فى قلبك تزول . « وانتم تنظرون » تحتمل معنى آخر . أى ينظر بعضكم الى بعض وانتم غير مصدقين أنكم نجوتم من هذا البلاء العظيم . وفى نفس الوقت تطمئنون وانتم تشاهدونهم. وهم يغرقون دون أن ينجو منهم أحد حتى لا يدخل فى قلوبكم الشك . انه ربما نجى بعضهم وسيعودون بجيش ليتبعوكم .

﴿وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾﴾

قول الحق سبحانه وتعالى «وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة» هذا الوعد كان لإعطاء موسى المنهج ، فحينما كلّم الله سبحانه وتعالى موسى بجانب الطور. . كان هذا لإبلاغ موسى عليه السلام أنه رسول من رب العالمين ـ وأنه أرسله ليخلص بنى اسرائيل من طغيان فرعون وعذابه . . وأنه سيمده بآيات ومعجزات . . حتى يقتنع فرعون وقومه أن موسى رسول من الله تبارك وتعالى . . بعد تكليف موسى بالرسالة وذهابه الى فرعون . . وما حدث مع السحره ثم نجاة موسى وقومه . . بأن شق الله جل جلاله لهم البحر . . هذا فى وقت لم يكن المنهج قد نزل بعد . . ولذلك بمجرد أن نجىَّ الله سبحانه وتعالى موسى وقومه وأغرق فرعون . . كان لابد أن يتم ابلاغ موسى بالمنهج . وكان الوعد يشمل أربعين ليلة . . هذه الليالى الأربعون حددت كثلاثين أولا . . ثم أتمها الحق سبحانه وتعالى بعشر أخرى . . واقرأ قوله سبحانه وتعالى :

﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾

(من الآية ١٤٢ سورة الأعراف)

وعندما يتكلم الدين عن الزمن يتكلم دائما بالليلة . . والسبب فى ذلك أنك لاتستطيع أن تحدد الزمن بدقة بالنهار . . الشمس تشرق وتغرب ثم تعود لتشرق . . فاذا نظرت الى قرص الشمس . . لايمكن أن تحدد فى أى وقت من الشهر نحن . . هل فى أوله أو فى وسطه أو فى آخره . . ولكن اذا جاء الليل بمجرد أن تنظر الى القمر تستطيع أن تحدد الزمن . فإذا كان القمر هلالا فنحن فى أوائل

الشهر .. وإذا كان بدرا فنحن فى وسطه وهكذا ..

إن هناك مقاييس دقيقة بالنسبة للقمر وقياس الزمن فى عرف الناس ؛ الانسان العادى يستطيع أن يحدد لك الزمن بالتقريب بالليالى .. ويقول لك البدوى فى الصحراء ، هذا القمر ابن كذا ليلة .

وفى منطق الدين نحسب كل شيء بدخول الليل .. فهذه ليلة الأول من شهر رمضان نصلى فيها التراويح .. وليلة العيد لا تصلى فيها التراويح .. وليلة النصف من شعبان .. وليلة الاسراء والمعراج ..

وفى كل مقاييس الدين الليل لا يتبع النهار إلا فى شيء واحد هو يوم عرفه .. فلا نقول ليلة عرفه وانما نقول يوم عرفه .. اذن الليلة هى ابتداء الزمن فى الدين .. والزمن عند الله مدته اثنا عشر شهرا للعام الواحد .. السنة الميلادية تختلف عن السنة الهجرية .. والسبب فى ذلك أن الله سبحانه وتعالى وزع رحمته على كونه .. فلو أن المواقيت الدينية سارت على مواقيت الشمس .. لجاء رمضان مثلا فى شهر محدد لا يتغير .. يصومه الناس صيفا فى مناطق محددة . وشتاء فى مناطق محددة ولا يختلف أبدا .. فيظل رمضان يأتى فى الصيف والحر دائما بالنسبة لبعض الناس .. وفى الشتاء والبرد دائما بالنسبة لبعض الناس ..

ولكن لأن السنة الهجرية تقوم على حساب الهلال .. فمعنى ذلك أن كل نفحات الله فى كونه تأتى فى كل الفصول والازمان .. فتجد رمضان فى الصيف والشتاء .. وكذلك وقفة عرفات وكذلك كل المناسبات الدينية الطيبة .. لأن السنة الهجرية تنقص أحد عشر يوما عن السنة الميلادية .. والفرق سنة كل ثلاث وثلاثين سنة .

والحق سبحانه يقول : «ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون» .

يريد أن يمحص بنى اسرائيل .. ويبين لنا كفرهم بنعم الله . فالله نجاهم من آل فرعون .. ولم يكادوا يعبرون البحر حتى رأوا قوما يعبدون الأصنام .. فقالوا كما يروى لنا القرآن الكريم :

﴿ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ﴾ (من الآية ١٣٨ الاعراف)

حدث هذا بمجرد خروجهم من البحر سالمين . . موسى عليه السلام أخذ النقباء وذهب لميقات ربه . وترك أخاه هارون مع بنى اسرائيل . . وبنو اسرائيل عندما كانوا فى مصر . . وكانوا يخدمون نساء آل فرعون . . أخذوا منهن بعض الحلى والذهب خلسة . . ومع أن فرعون وقومه متمردون على الله تبارك وتعالى . . فإن هذا لا يبرر سرقة حلى نسائهم . . فنحن لا نكافىء من عصى الله فينا بأن نعصى الله فيه . . ونصبح متساويين معهم فى المعصية . . ولكن نكافىء من عصى الله فينا بأن نطيع الله فيه . .

وأبو الدرداء رضى الله عنه حينما بلغه أن شخصا سبه . . بعث له كتابا قال فيه . . يا أخى لا تسرف فى شتمنا . . واجعل للصلح موضعا فإنا لا نكافىء من عصى الله فينا بأكثر من أن نطيع الله فيه . . بنو اسرائيل سرقوا بعض حلى نساء آل فرعون . . فجعلها الله فتنة لإغوائهم . . وزين لهم الشيطان أن يصنعوا منها عجلا يعبدونه . . صنعه لهم موسى السامرى الذى رباه جبريل . . فأخذ الحلى وصهرها ليجعلها فى صورة عجل له خوار . . وقال لهم هذا الهكم واله موسى .

اتعرف لماذا فتنهم الله سبحانه وتعالى بالعجل ؟

لأن الذهب المصنوع منه العجل من أصل حرام . . والحرام لا يأتى منه خير مطلقا . . ولابد أن نأخذ العبرة من هذه الواقعة . . وهى ان الحرام ينقلب على صاحبه شراً ووبالا ، إن كان طعامك حراما يدخل فى تكوين خلاياك ويصبح فى جسدك الحرام . . فاذا دخل الحرام الى الجسد يميل فعلك الى الحرام . . فالحرام يؤرق الجسد ويسوقه الى المعاصى . .

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيبا ، وإن الله تعالى أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال تعالى : «ياأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا» وقال تعالى : ياأيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله ان كنتم إياه تعبدون ، ثم ذكر ، الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه الى السماء يارب يارب ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذى بالحرام فأنّى يستجاب لذلك»(١) .

---

(١) رواه احمد ومسلم والترمذى

وقد حصل لبنى اسرائيل الشىء نفسه وسرقوا ذهب آل فرعون فانقلب عليهم ظلما ، وقال الله تعالى عنهم : « ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون » .

وعد الله لموسى كما قال أهل العلم كان ثلاثين ليلة . . إتمام الثلاثين ليلة يؤتيه ما وعد . . وكلمة وعد هى الإخبار بشىء سار . والوعيد هى الإخبار بشىء سيىء . . فإذا سمعت وعدا فاعرف أنَّ ماسيجىء بعدها خير . وإذا سمعت وعيدا تعرف أن مابعدها شر ، إلا آية واحدة وهى قوله سبحانه وتعالى :

﴿ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾

(من الآية ٧٢ سورة الحج)

فهل الوعد هنا بخير أو المعنى اختلف ؟ . . نقول : إن كانت النار موعودا فهى شر . . وإن كانت النار هى الموعودة والكفار هم الموعود بهم فهى خير للنار ؛ لأن النار تفرح بتعذيب الكافرين من عباد الله . . ونعرف هذا الفرح من قوله تعالى :

﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ ﴾

(سورة ق)

ولا يستزيد الانسان إلا من شىء يحبه . . والنار ـ ككل شىء مسخر ـ مسبحة لله تكره العصاة . . ولكنها غير مأمورة بحرقهم فى الدنيا . . ولكن فى الآخرة تكون سعيدة وهى تحرق العصاة والكافرين .

﴿ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾

الله سبحانه وتعالى يمن على بنى اسرائيل مرة اخرى . . مع أنهم ارتكبوا ذنبا من ذنوب القمة . . ومع ذلك عفا الله عنهم لأنه يريد أن يستبقى عنصر الخير للناس . . يريد أن يعلم خلقه أنه رب رحيم . يفتح أبواب التوبة للواحد بعد الآخر . . لتمحو خلايا الشر فى النفس البشرية . .

إن الانسان حين يذنب ذنبا ينفلت من قضية الايمان . . ولو لم تشرع التوبة والعفو من الله لزاد الناس فى معاصيهم وغرقوا فيها . . لانه إذا لم تكن هناك توبة وكان الذنب الواحد يؤدى الى النار . . والعقاب سينال الانسان فإنه يتمادى فى المعصية . وهذا ما لا يريده الله سبحانه وتعالى لعباده . . وفى الحديث الشريف :

لَلَّهُ أفرحُ بتوبةِ عبدِه مِن أحدِكم سَقَطَ على بعيره وقد أضلَّه فى أرضٍ فلاةٍ»(١)

معنى الحديث . . رجل معه بعير يحمل ماله وطعامه وشرابه وكل ما يملكه.هذا البعير تاه فى صحراء جرداء . . بحث عنه صاحبه فلم يجده . . لقد فقده وفقد معه كل مقومات حياته . . ثم ينظر فيراه أمامه . . كيف تكون فرحته ؟ . . طبعا بلا حدود .هكذا تكون فرحة الله تعالى بتوبة عبده المؤمن بل أشد من ذلك .

ان الله تبارك وتعالى حين يفتح باب التوبة . يريد لحركة العالم أن تسير . . هب ان نفسا غفلت مرة . . أو قادتها شهوتها مرة الى معصية . أو وسوس الشيطان لها كما حدث مع آدم وحواء . لو لم تكن هناك توبة ومغفرة . . لا نقلب

(١) رواه البخارى ومسلم

كل هؤلاء الى شياطين .. بل إن اعمال الخير تأتى من الذين أسرفوا على أنفسهم .. فهؤلاء يحسنون كثيرا ويفعلون الخير كثيرا .. مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴾

(من الآية ١١٤ سورة هود)

وقوله جل جلاله :

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾

(من الآية ١٠٣ سورة التوبة)

إذن فكون الله سبحانه وتعالى يتوب على بنى اسرائيل مع أنهم كفروا بالقمة فى عبادة العجل .. فذلك لأن الله يريد استبقاء الخير فى كونه .. ولقد عبد بنو اسرائيل العجل قبل أن ينزل عليهم المنهج وهو التوراة .. ولكن هل بعد أن أنزل عليهم المنهج والتوراة تابوا وأصلحوا أو استمروا فى معصيتهم وعنادهم ؟

﴿ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾

الحق سبحانه وتعالى يذكر بنى اسرائيل هنا . . أنه بعد أن أراهم من المعجزات الكثير . ونجاهم من آل فرعون وشق لهم البحر ـ كان لابد أن يؤمنوا ايمانا حقيقيا لا يشوبه أى نوع من التردد . . ذلك لأنهم رأوا وشهدوا . . وكانت شهادتهم عين يقين . أى شهدوا بأعينهم ماذا حدث . .

ولكن هل استطاعت هذه المشاهدة أن تمحو من قلوبهم النفاق والكفر ؟ . . لا . . لقد ظلوا معاندين طوال تاريخهم . لم يأخذوا أى شيء بسهولة . .

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يحذر أمته من أن يكونوا كبنى إسرائيل ويكونوا قوما شددوا فشدد الله عليهم . . وكان ذلك بالنسبة لقصة البقرة . . التى أمروا أن يذبحوها ليعرفوا من القاتل فى جريمة قتل كادت تثير حروبا بينهم . . فأخذوا يسألون ما هى وما لونها الى آخر ما سنتحدث عنه . . عندما نأتى الى الآيات الكريمة الخاصة بهذه الواقعة . فلو ذبحوا أى بقرة لكفتهم . . لأنه يكفى أن يقول لهم الله سبحانه وتعالى إذبحوا بقرة فيذبحوا أى بقرة . وعدم التحديد يكون أسهل عليهم . . ولكنهم سألوا وظلوا يسألون فشدد عليهم . . بتحديد بقرة معينة بذاتها . . ولذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم (ذَرُونى ما تَرَكْتُكُمْ فإنما هلكَ من قبلِكُم بكثرةِ سؤالِهِمْ واختلافِهِمْ على انبيائِهِم فإذا أمرتُكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم وإذا نَهَيْتُكُم عن شيء فدعُوه)[1] .

والله سبحانه وتعالى فى قوله : « وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان » . كأن إتيان موسى الكتاب والفرقان . . نعمة يجب أن يذكرها قومه . . وأن يستقبلوا منهج الله

(١) رواه مسلم

على أنه نعمة . . فلا يأخذ الانسان التكليف الالهى من زاوية ما يقيد حركته ولا ما يعطيه له . . ذلك أن الله حين حرم عليك السرقة . . حرم على الناس جميعا أن يسرقوك . . فاذا أخذمنك حريتك أن تسرق . . فقد أخذ من الناس كل الناس حريتهم أن يسرقوا مالك . . وهذه حماية كبيرة لك .

ما هو الكتاب . . وما هو الفرقان ؟ . . الكتاب هو التوراة . . هو الذى يبين المنهج . . والفرقان هو الأشياء التى يفرق الله فيها بين الحق والباطل . . فكأن الفرقان تطلق مرة على التوراة . . لانها تفرق بين الحق والباطل . وتطلق ايضا على كل ما يفرق بين الحق والباطل . . ولذلك سمى يوم بدر يوم الفرقان . . لأنه فرق بين الحق والباطل . . فكأن منهج الله وكتابه يبين لنا أين الحق وأين الباطل ويفرق بينهما .

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ ﴾

يذكّر الله تبارك وتعالى بنى إسرائيل بقصة عبادة العجل . وهى قصة مخالفة خطيرة لمنهج الله ومخالفة فى القمة . . عبادة الله وحده . والذى حدث ان موسى عليه السلام ذهب لميقات الله ومعه نقباء قومه ليتلقى المنهج والتوراة . . وأخبره الله سبحانه وتعالى أن قومه قد ضلوا وعبدوا غير الله . . وعاد موسى وهو فى قمة الغضب . وامسك بأخيه هارون يجره من رأسه ولحيته . . ويقول له لقد اخلفتك عليهم لكيلا يضلوا ، فقال هارون عليه السلام :

﴿ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾ ﴾

(سورة طه)

فتنة عبادة العجل حدثت بسبب السامرى . . والسامرى اسمه موسى السامرى ولدته أمه فى الصحراء وماتت فكفله جبريل ورباه . . وكان جبريل عليه السلام يأتيه على حصان . . يحمل له مايحتاج إليه من طعام وشراب ، وكان موسى السامرى يرى حصان جبريل ، كلما مشى على الأرض وقع منه تراب فتخضر وتنبت الأرض بعد هذا التراب . وأيقن أن فى حافر الحصان سرًّا . . فأخذ قبضة من أثر الحصان ووضعها فى العجل المصنوع من الذهب . فأخذ يحدث خوارا كأنه حى . .

ولا تتعجب من أن صاحب الفتنة يجد معونة من الأسباب حتى يفتن بها الناس . . لأن الله تبارك وتعالى يريد أن يمتحن خلقه . والذى يحمل دعوة الحق

لابد أن يهيئه الله سبحانه وتعالى تهيئة خاصة . ورسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن ينتقل الى المدينة . . تعرض هو والمسلمون لا بتلاءات كثيرة . . ولقد جاء حدث الاسراء والمعراج لرسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن تخلت عنه أسباب الدنيا فى مكة وذهب الى الطائف يدعو أهلها فسلطوا عليه غلمانهم وسفهاءهم فقذفوه بالحجارة حتى أدموا قدميه الشريفتين . . ورفع يديه الى السماء بالدعاء المأثور :

«اللهم اليك اشكو ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس» . .

وليس هذا على الرسول وحده بل والمؤمنين معه . . حتى أن مصعب بن عمير فتى قريش المدلل . . الذى كان عنده من الملابس والأموال والعبيد ما لا يعد ولا يحصى رئى بعد اسلامه وهو يرتدى جلد حمار وذلك حتى يختبر الحق سبحانه وتعالى فى قلب مصعب بن عمير حبه للإيمان . . هل يحب الدنيا أكثر أو يحب الله ورسوله أكثر . . حتى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم . كان يقول للصحابة انظروا كيف فعل الايمان بصاحبكم .

والله تبارك وتعالى لابد ان يمحص ويختبر أولئك الذين سيحملون دعوته الى الدنيا كلها . . لابد أن يكونوا صابرين على البلاء . أقوياء امام خصوم الدعوة . . مستعدين لتحمل المتاعب والآلام . . لأن هذا هو دليل الصدق فى الايمان . .

ولذلك تجد كل دعوة ضلال تأتى بالفائدة لأصحابها . . دعوة الشيوعية يستفيد منها أعضاء اللجنة المركزية . . أما الشعب فإنه يرتدى ملابس رخيصه . . ويسكن فى بيوت ضيقة . أما السادة الذين ينفقون بلا حساب فهم أعضاء اللجنة المركزية . . هذه دعوة الباطل . . وعكس ذلك دعوة الحق . . صاحب الدعوة هو الذى يدفع أولا ويضحى أولا . لا ينتفع بما يقول بل على العكس يضحى فى سبيل ما يقول . . اذن الباطل يأتى بالخير لصاحب الدعوة . فإذا رأيت دعوة تغدق على أتباعها فاعلم أنها دعوة باطل . . لولا أنها أعطت بسخاء ما تبعها أحد .

والآية الكريمة التى نحن بصددها هى تقريع من موسى عليه السلام لقومه . . الذين نجاهم الله من آل فرعون وأهلك عدوهم فاتخذوا العجل إلها . . ومتى

حدث ذلك ؟ فى الوقت الذى كان موسى فيه قد ذهب لميقات ربه ليأتى بالمنهج . . والذين اتخذوا العجل إلها . . هل ظلموا الله سبحانه وتعالى أو ظلموا انفسهم ؟ . . ظلموا أنفسهم لأنهم أوردوها مورد التهلكة دون أن يستفيدوا شيئا . . والظالم على أنواع . . ظالم فى شىء أعلى أى فى القمة . . وظالم فى مطلوب القمة . . الظالم فى القمة هو الذى يجعل الله شريكا ولذلك قال الله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾

(من الآية ١٣ سورة لقمان)

وعلاقة الشرك بالظلم أنك جئت بمن لم يخلق ومن لم يرزق شريكا لمن خلق ورزق . . وذلك الذى جعلته إلها كيف يعبد ؟ . . العبادة طاعة العابد للمعبود . . فماذا قال لكم هذا العجل الذى عبدتموه من دون الله أن تفعلوا . . لذلك فأنتم ظالمون ظلم القمة . . والظلم الآخر هو الظلم فيما شرعت القمة . . بأن اخذتم حقوق الناس واستبحتموها . . فى كلتا الحالتين لا يقع الظلم على الله سبحانه وتعالى ولكن على نفسك. لماذا ؟ . . لأنك آمنت بالله أو لم تؤمن . سيظل هو الله القوى القادر العزيز . لن يُنْقصَ إيمانك أو عدم إيمانك من ملكه شيئا . ثم تأتى يوم القيامة فيعذبك . فكأن الظلم وقع عليك . . وإذا أخذت حقوق الناس فقد تتمتع بها أياما أو أسابيع أو سنوات ثم تموت وتتركها وتأخذ العذاب . فكأنك ظلمت نفسك ولم تأخذ شيئا . . لذلك يقول الحق جل جلاله :

﴿ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

(من الآية ٥٧ سورة البقرة)

وظلم الناس يعود على أنفسهم . . لأنه لا أحد من خلق الله يستطيع أن يظلم الله سبحانه وتعالى . . وقوله سبحانه «فتوبوا الى بارئكم» . . الحق تبارك وتعالى قال فى الآية السابقة «عفونا عنكم» ثم يقول فى هذه الآية «فتوبوا الى بارئكم» .. لأن التوبة هى أصل المغفرة . أنت تتوب عن فعلك للذنب وتعتزم ألا تعود لمثله أبدا ويقبل الله توبتك ويعفو عنك . .

وقد كان من الممكن أن يأخذهم الله بهذا الذنب ويهلكهم كما حدث بالنسبة للأمم السابقة . . أما وقد شرع الله لهم أن يتوبوا . فهذا فضل من الله وعفو . . ثم يقول الحق تبارك وتعالى : «فاقتلوا أنفسكم» . . فانظروا الى دقة التكليف ودقة الحيثية فى قوله تعالى : «فتوبوا الى بارئكم فاقتلوا انفسكم» الله سبحانه وتعالى يقول لهم . . أنا لم أغلب عليكم خالقا خلقكم أو آخذكم منه . . ولكن أنا الذى خلقتكم . ولكن الخالق شىء والبارىء شىء آخر . . خلق أى أوجد الشىء من عدم . . والبارىء أى سَوَّاهُ على هيئة مستقيمة وعلى أحسن تقويم . . ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ ﴾

(سورة الأعلى)

ومن هنا نعرف أن الخلق شىء والتسوية شىء آخر . . بارئكم مأخوذة من برىء السهم . . وبرىء السهم يحتاج الى دقة وبراعة .

وقوله تعالى : « فاقتلوا أنفسكم » لأن الذى خلقك وسواك كفرت به وعبدت سواه . فكأنك فى هذه الحالة لابد ان تعيد له الحياة التى وهبها لك . . وعندما نزل حكم الله تبارك وتعالى . . جعل موسى بنى اسرائيل يقفون صفوفا . وقال لهم ان الذى لم يعبد العجل يقتل من عبده . . ولكنهم حين وقفوا للتنفيذ . كان الواحد منهم يجد ابن عمه وأخاه وذوى رحمه أمامه فيشق عليه التنفيذ . . فرحمهم الله بان بعث ضبابا يسترهم حتى لايجدوا مشقة فى تنفيذ القتل . . وقيل أنهم قتلوا من أنفسهم سبعين ألفا .

وعندما حدث ذلك أستصرخ موسى وهارون ربهما . . وقالا البكية البكية . أى أبكوا عسى أن يعفو الله عنهم . ووقفوا يبكون أمام حائط المبكى فرحمهم الله . .

وقوله تعالى : «فاقتلوا انفسكم» لأن هذه الأنفس بشهوتها وعصيانها . . هى التى جعلتهم يتمردون على المنهج . .

إن التشريع هنا بالقتل هو كفارة الذنب . لأن الذى عبد العجل واتخذ إلها آخر غير الله . كونه يقدم نفسه ليقتل فهذا اعتراف منه بأن العجل الذى كان يعبده

باطل .. وهو بذلك يعيد نفسه التى تمردت على منهج الله الى العبادة الصحيحة .. وهذا أقسى أنواع الكفارة .. وهو أن يقتل نفسه اثباتا لإيمانه .. بأنه لا إله إلا الله وندما على ما فعل واعلانا لذلك .. فكأن القتل هنا شهادة صادقة للعودة الى الايمان .

وقوله تعالى «ذلكم خير لكم عند بارئكم» .. أى أن هذه التوبة هى أصدق أنواع التوبة .. وهى خير لأنها تنجيكم من عذاب الآخرة .. وقوله سبحانه «فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم» . التوبة الأولى أنه شرع لكم الكفارة .. والتوبة الثانية عندما تقبل منكم توبتكم .. وعفا عنكم عفوا أبديا .

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾﴾

بعد أن تاب الله على قوم موسى بعد عبادتهم للعجل . . عادوا مرة أخرى الى عنادهم وماديتهم . فهم كانوا يريدون إلها ماديا . . إلها يرونه ولكن الاله من عظمته أنه غيب لا تدركه الأبصار . . واقرأ قوله تعالى :

﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾

(سورة الأنعام)

فكون الله سبحانه وتعالى فوق إدراك البشر . . هذا من عظمته جل جلاله . . ولكن اليهود الذين لا يؤمنون إلا بالشيء المادى المحس . . لاتتسع عقولهم ولا قلوبهم الى أن الله سبحانه تعالى فوق المادة وفوق الأبصار . . وهذه النظرة المادية نظرة حمقاء . . والله تبارك وتعالى قد لفتنا الى قضية رؤيته جهرا فى الدنيا . . بقوله تعالى :

﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾

(سورة الذاريات)

أى أن الله جل جلاله وضع دليل القمة على وجود الله الذى لا تدركه الأبصار . وضع هذ الدليل فى نفس كل واحد منا . وهى الروح الموجودة فى الجسد . . والانسان مخلوق من مادة نفخت فيها الروح فدبت فيها الحياه والحركة والحس . . اذن كل ما فى جسدك من حياه . . ليس راجعا الى المادة التى تراها

أمامك . . وإنما يرجع الى الروح التى لا تستطيع أن تدركها إلا بآثارها . . فاذا خرجت الروح ذهبت الحياة وأصبح الجسد رمة .

اذا كانت هذه الروح التى فى جسدك . . والتى تعطيك الحياة لا تستطيع أن تدركها مع أنها موجودة داخلك . . فكيف تريد أن تدرك الله سبحانه وتعالى . . كان يجب أولا أن تسأل الله أن يجعلك تدرك الروح التى فى جسدك . . ولكن الله سبحانه وتعالى قال إنها من أمر الله . . واقرأ قوله جل جلاله :

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾

(سورة الأسراء)

اذا كانت هذه الروح هى مخلوقة لله لا تدركها . . فكيف تطمع أن ترى خالقها . . وانظر الى دقة الأداء القرآنى فى قوله سبحانه . «حتى نرى الله جهرة » . . فكلمة نرى تطلق ويراد بها العلم . مثلا :

﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ﴾

(من الآية ٤٣ سورة الفرقان)

أى أعلمت . . ولكن جاءت كلمة جهرة لتنفى العلم فقط وتطالب بالرؤية مجهورة واضحة يدركونها بحواسهم . وهذا دليل على أنهم متمسكون بالمادية التى هى قوام حياتهم . . نقول لهؤلاء إن سؤالكم يتسم بالغباء . . فأنتم حين تطلبون أن تروا الله جهرة . والمفروض أن الله تبارك وتعالى له مدلول عندكم . . ولذلك تطلبون رؤيته لتقارنوا المدلول على الموجود . . ذلك لو كانت القضية أصلا أن تعرفوا أن الله موجود أو غير موجود . . والذى شجعهم على أن يقولوا ما قالوا . . طلب موسى عليه السلام من الله سبحانه وتعالى أن يراه . واقرأ قوله تعالى :

﴿ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ ﴾

(من الاية ١٤٣ سورة الأعراف)

ولابد أن نعرف أن قضية رؤية الله فى الدنيا محسومة . . وأنه لا سبيل الى ذلك والانسان فى جسده البشرى . . لأن هذا الجسد له قوانين فى ادراكاته . . ولكن يوم القيامة نكون خلقا بقوانين تختلف . . ففى الدنيا لابد أن تخرج مخلفات الطعام من اجسادنا . وفى الآخرة لا مخلفات . وفى الدنيا يحكمنا الزمن . . وفى الآخرة لا زمن. إذ يظل الانسان شبابا دائما . . إذن فهناك تغيير . .

المقاييس هنا غير المقاييس يوم القيامة فى الدنيا باعدادك وجسدك لايمكن أن ترى الله . وفى الآخرة يسمح إعدادك وجسدك بأن يتجلى عليك الله سبحانه وتعالى . . وهذا قمة النعيم فى الآخرة . أنت الآن تعيش فى أثار قدرة الله . . وفى الآخرة تعيش عيشة الناظر الى الله تبارك وتعالى . . وفى ذلك يقول الحق جل جلاله :

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾

(سورة القيامة)

والانسان فى الدنيا قد اخترع الات مكنته من أن يرى ما لا يراه بعينه المجردة يرى الاشياء الدقيقة بواسطة الميكرسكوب . والاشياء البعيدة بواسطة التلسكوب . . فاذا كان عمل الانسان فى الدنيا جعله يبصر ما لم يكن يبصره . . فما بالك بقدرة الله فى الآخرة . . وإذا كان الانسان عندما يضعف نظره . يطلب منه الطبيب استعمال نظارة . . فاذا ذهب الى طبيب أمهر . . اجرى له عملية جراحية فى عينه يستغنى بها عن النظارة ويرى بدونها . . فما بالكم بإعداد الحق للخلق وبقدرة الله التى لاحدود لها فى أن يعيد خلق العين بحيث تستطيع أن تتمتع بوجهه الكريم .

ولقد حسم الله تبارك وتعالى المسألة مع موسى عليه السلام بأن أراه العجز البشرى . . لأن الجبل بقوته وجبروته لم يستطع احتمال نور الله فجعله دكا . . وكأن الله يريد أن يفهم موسى . . أن الله تبارك وتعالى حجب عنه رؤيته رحمة منه . لأنه إذا كان هذا قد حدث للجبل فماذا كان يمكن أن يحدث بالنسبة لموسى . إذا كان موسى قد صعق برؤية المتجلى عليه . . فكيف لو رأى المتجلِّى ؟ . .

والانسان حين يعجز عن إدراك شىء فى الدنيا لأنه مخلوق بهذه الامكانات

يكون العجز عن الادراك ادراكا لأن العجز عن الادراك هو فى عظمة الله سبحانه وتعالى . . وقوم موسى حينما طلبوا منه أن يروا الله جهرة أخذتهم الصاعقة وهم ينظرون . . عندما اجترأوا هذا الاجتراء على الله أخذتهم الصاعقة . . والصاعقة إما نار تأتى وإما عذاب ينزل . . المهم أنه بلاء يعمهم . . والصاعقة قد أصابت موسى .

﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾

فالحق سبحانه وتعالى يكمل لنا قصة الذين قالوا «ارنا الله جهرة فاخذتهم الصاعقة» . موسى عليه السلام أصيب بالصاعقة أيضا . . عندما طلب أن ينظر الى الله . ولكن هناك فرق بين الحالتين . . الله تبارك وتعالى يقول :

﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾

(من الآية ١٤٣ سورة الأعراف)

ولكن الأمر لم يكن كذلك مع قوم موسى . فمع موسى قال الله سبحانه وتعالى : «فلما أفاق» أى أن الصاعقة أصابته بنوع من الاغماء . . ولكن مع قوم موسى . قال : «ثم بعثناكم من بعد موتكم» . . فكأن قوم موسى ماتوا فعلا من الصاعقة . . فموسى أفاق من تلقاء نفسه . . أما أولئك الذين أصابتهم الصاعقة من قومه . . فقد ماتوا ثم بعثوا لعلهم يشكرون .

﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾﴾

فالله سبحانه وتعالى يريد أن يمتن على بنى اسرائيل بنعمه ومعجزاته . . ويرينا أنه برغم كل هذه النعم عاش بنو اسرائيل فى عنادهم وتعنتهم ، بعد أن طلب بنو اسرائيل أن يروا الله جهرة فقتلتهم الصاعقة . . ثم بعثهم الله تبارك وتعالى لعلهم يشكرون . . ذكر لنا الحق جل جلاله نعما أخرى من نعمه على بنى اسرائيل . . وقال اذكروا إذ كنتم فى الصحراء وليس فيها ظل تحتمون به من حرارة الشمس القاسية . . وليس فيها مكان تستظلون فيه ، لأنه لا ماء ولا نبات فى الصحراء . . فظلل الله سبحانه وتعالى عليكم بالغمام . . أى جاء الغمام رحمة من الله سبحانه وتعالى . . ثم بعد ذلك جاء المن والسلوى . .

والمن نقط حمراء تتجمع على أوراق الشجر بين الفجر وطلوع الشمس . وهى موجودة حتى الآن فى العراق . . وفى الصباح الباكر يأتى الناس بالملاءات البيضاء ويفرشونها تحت الشجر . . ثم يهزون الشجر بعنف فتسقط القطرات الموجودة على ورق الشجر فوق الملاءات . . فيجمعونها وتصبح من اشهى أنواع الحلويات . فيها طعم القشدة وحلاوة عسل النحل . . وهى نوع من الحلوى اللذيذة المغذية سهلة الهضم سريعة الامتصاص فى الجسم . والله سبحانه وتعالى جعله بالنسبة لهم وقود حياتهم . . وهم فى الصحراء يعطيهم الطاقة . أما السلوى فهى طير من السماء ويقال انه السمان . . يأتيهم فى جماعات كبيرة لايعرفون مصدرها . . ويبقى على الارض حتى يمسكوا به ويذبحوه ويأكلوه .

فالله تبارك وتعالى قد رزقهم بهذا الرزق الطيب من غمام يقيهم حرارة الشمس ، ومَنّ يعطيهم وقود الحركة . وسَلْوىَ كغذاء لهم ، وكل هذا يأتيهم من

السماء دونما تعب منهم . . ولكنهم لعدم ايمانهم بالغيبيات يريدون الأمر المادى وهم يخافون أن ينقطع المَنُّ والسلْوى عنهم يوما ما فماذا يفعلون ؟

لو كانوا مؤمنين حقا لقالوا : إن الذى رزقنا بالمن والسلوى لن يضيعنا . . ولكن الحق جل جلاله ينزل لهم طعامهم يوميا من السماء وهم بدلا من أن يقابلوا هذه النعمة بالشكر قابلوها بالجحود .

وقوله تعالى : «وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون» فالحق سبحانه وتعالى يتحدث للمرة الثالثة عن ظلم قوم موسى . . ففى المرة الأولى قال «وانتم ظالمون» . وفى الآية الثانية قال : «ظلمتم أنفسكم» . . وفى هذه الآية قال : «وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون» . .

ولقد سبق أن قلت انه لا أحد يستطيع أن يظلم الله لأن الله سبحانه وتعالى باق بقدرته وقوته وعظمته . . لا يقلل منها لو كفر أهل الأرض جميعا ولايزيد فيها لو آمن اهل الارض كلهم . فقدرة الله باقية وكلمته ماضية . . ولكن نحن الذين نظلم أنفسنا . . بأن نوردها مورد التهلكة والعذاب الذى لا نجاة منه دون أن نعطيها شيئا . .

إن الدنيا كما قلنا عالم أغيار . والنعمة التى أنت فيها زائلة عنك . إما أن تتركها بالموت أو تتركك هى وتزول عنك . . وتخرج من الدنيا تحمل اعمالك فقط . . كل شىء زال وبقيت ذنوبك تحملها الى الآخرة . . ولذلك فإن كل من عصى الله وتمرد على دينه قد ظلم نفسه لأنه قادها الى العذاب الأبدى طمعا فى نفوذ أو مال زال بعد فترة قصيرة ولم يدم . . فكأنه ظلمها بأن حرمها من نعيم أبدى واعطاها شهوة قصيرة عاجلة » .

﴿ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾

من هذه الآية الكريمة نعرف أن بنى اسرائيل رفضوا رزق السماء من المن والسلوى مع أنه كان رزقا عاليا . . عاليا فى الجودة لأنه طعام حلو نقى شهى ينزل لهم من السماء مباشرة ، وعاليا فى الكثرة من أنه كان يأتيهم بلا عمل وبلا تعب وبكميات هائلة تكفيهم وتزيد . . وطلبوا من موسى طعام الأرض الذى يزرعونه بأيديهم ويرونه أمامهم كل يوم فقد كانوا يخافون أن يستيقظوا يوما فلا يجدون المن والسلوى . الحق سبحانه وتعالى يكمل لنا القصة فى آية قادمة :

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ ﴾

(من الآية ٦١ سورة البقرة)

فالله سبحانه وتعالى مازال يمتن على بنى اسرائيل بنعمه وكيف قابلوها بالجحود . . فيذكرهم بإنجائهم من عذاب آل فرعون . . ويذكرهم بالبحر الذى انشق لهم فمشوا فيه ثم انقض الماء بعد ذلك على آل فرعون فأغرقهم . . ويذكرهم كيف أنهم عبدوا العجل بعد ذلك . . وكان من الممكن أن يهلكهم الله بذنوبهم . كما أهلك الأمم السابقة ولكنه عفا عنهم . . ثم يذكرهم بفضله عليهم بأن أعطاهم الكتاب الذى يفرق بين الحق والباطل . . ويذكرهم بأنهم طلبوا أن يروا الله جهرة . . فصعقوا وماتوا ثم بعثهم الله.ويذكرهم كيف ظللهم بالغمام

من حرارة الشمس المحرقة .. ورزقهم بالمن والسلوى .. ثم يذكرهم بأنهم طلبوا طعام الأرض فاستجاب لهم .

فى هذه الآية يقول الحق تبارك وتعالى : « فكلوا منها حيث شئتم رغدا » . وفى آية أخرى يقول : « رغدا حيث شئتم ».الفرق فى المعنى أن قوله تعالى : « حيث شئتم رغداً » تدل على أن هناك أصنافاً كثيرة من الطعام .
«ورغداً حيث شئتم» يكون هناك صنف واحد والناس جائعون فيقبلون على الطعام .. عندما يقول الحق جل جلاله : كلوا رغداً يكون المخاطب هنا نوعين : إنسان غير جائع ولذلك تعد له ألوانا متعددة من الطعام لتغريه على الأكل .. فتقدم فى هذه الحالة «حيث شئتم» فيقال : «فكلوا منها حيث شئتم رغداً .. فاذا كان الانسان جوعان يرضى بأى طعام .. فيقال رغدا حيث شئتم .

إن المسألة فى القرآن الكريم ليست تقديما وتأخيرا فى الألفاظ .. ولكن المعنى لا يستقيم بدون هذا التغيير .. قوله تعالى «ادخلوا هذه القرية» .. والقرية هى هنا بيت المقدس أو فلسطين أو الأردن .. الحق تبارك وتعالى يقول : «وادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين» ..

والحق جل جلاله حين خاطبهم بين لنا أنهم لم يكونوا فى حالة جوع شديد بحيث يأكلون أى شىء فقال : «فكلوا منها حيث شئتم رغداً» أى ستجدون فيها ألوانا كثيرة من الطعام تغريكم على الأكل ولو لم تكونوا جائعين . وقوله تعالى : «وادخلوا الباب سجداً» .. أى ادخلوا الباب وأنتم فى منتهى الخضوع .. «وقولوا حطة» أى حط عنا ذنوبنا يارب .. غير أنهم حتى فى الأمر يغيرون مضمونه .. ويلبسون الحق بالباطل .. وهذه خاصية فيهم .. ولذلك دخلوا الباب وهم غير ساجدين .. دخلوه زاحفين على ظهورهم .. مع أن ما أمرهم الله به أقل مشقة مما فعلوه .. فكأن المخالفة لم تأت من أن أوامر الله شاقة .. ولكنها أتت من الرغبة فى مخالفة أمر الخالق وبدلا من أن يقولوا حطة . أى حط عنا يارب ذنوبنا قالوا حنطة والحنطة هى القمح .. ليطوعوا اللفظ لأغراضهم .. فكأن المسألة ليست عدم قدرة على الطاعة ولكن رغبة فى المخالفة .

ومع ان الحق تبارك وتعالى وعدهم بالمغفرة والرحمة والزيادة للمحسنين ..

فإنهم خالفوا وعصوا . . وقوله تعالى : «وسنزيد المحسنين» يأتى فى الآية الكريمة :

﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾

(من الآية ٢٦ سورة يونس)

أى لهم اجر مثل ما فعلوا أضعافا مضاعفة . . وما هى الزيادة ؟

أن يروا الله يوم القيامة . هذه هى الزيادة التى ليس لها نظير فى الدنيا .

﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾

الله سبحانه وتعالى يشرح لنا فى هذه الآية الكريمة كيف أن اليهود قوم معصية برغم نعم الله عليهم . . فلو أن الله سبحانه وتعالى كلفهم تكليفا لم يستطيعوه ؛ لأنه شاق عليهم فربما كان لهم عذرهم . . ولكن الله تبارك وتعالى لا يكلف إلا بما هو فى طاقة الانسان أو أقل منها . . فيقول جل جلاله :

﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ ﴾

(من الآية ٢٨٦ سورة البقرة)

والله تبارك وتعالى لم يكلف بنى اسرائيل بأن يدخلوا هذه القرية التى يقال: إنها القدس ويقال أنها قرية فى فلسطين أو قرية فى الاردن . . إلا بناء على طلبهم هم . فهم الذين طلبوا من موسى أن يدعو الله لهم أن يدخلوا واديا فيه زرع . . ليأكلوا مما تنتج الأرض ويطمئنوا على طعامهم . . لأنهم يخافون أن يأتى يوم.. لاينزل عليهم المن والسلوى من السماء . . فلما استجاب الله لدعواهم وقال لهم ادخلوا الباب خاشعين . وقولوا يارب حط عنا ذنوبنا . . بدل بنو اسرائيل القول فبدلا من أن يقولوا حطة قالوا حنطة . . وبدلوا طريقة الدخول فبدلا من أن يدخلوا ساجدين دخلوا على ظهورهم زاحفين . . وكان هذا رغبة فى المخالفة . . فأصابهم الله بعذاب من السماء بما كانوا يفسقون.. أى يبتعدون عن منهج الله ولا يطبقونه . رغبة فى المخالفة وإصرارا على العناد .

﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾﴾

ومعناها : اذكر اذ استسقى موسى لقومه . . وهذه وردت كما بينا فى عدة آيات فى قوله تعالى :

﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ﴾

(من الآية ١٤١ سورة الاعراف)

وقول سبحانه :

﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾

(من الآية ٥١ سورة البقرة)

وقوله جل جلاله :

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾

(من الآية ٥٥ سورة البقرة)

وقلنا أن هذه كلها نعم امتن الله بها على بنى اسرائيل وهو سبحانه وتعالى يذكرهم بها . إما مباشرة وإما على لسان موسى عليه السلام . والحق يريد أن يذكر بنى اسرائيل حينما تاهوا فى الصحراء أنه أظلهم بالغمام . . وسقاهم حين

طلبوا السقيا . . ولقد وصلت ندرة الماء عند بنى اسرائيل لدرجة أنهم لم يجدوا ما يشربونه . . لأن الانسان يبدأ الجفاف عنده لعدم وجود ماء يسقى به زرعه . . ثم يقل الماء فلا يجد ما يسقى به أنعامه . . ثم يقل الماء فلا يجد ما يشربه . . وهذا هو قمة الجفاف أو الجدب . .

وموسى عليه السلام طلب السقيا من الله تبارك وتعالى . . ولا تطلب السقيا من الله إلا إذا كانت الأسباب قد نفدت . . وانتهت آخر نقطة من الماء عندهم ؛ فالماء مصدر الحياة ينزله الله من السماء . . وينزله نقيا طاهرا صالحا للشرب والرى والزرع وسقيا الأنعام . .

والحق سبحانه وتعالى جعل ثلاثة أرباع الأرض ماء والربع يابسا . . حتى تكون مساحة سطح الماء المعرضة للتبخر بواسطة اشعة الشمس كبيرة جدا فتسهل عملية البخر ؛ فانك اذا جئت بكوب ماء وتركته فى حجرة مغلقة لمدة يومين أو ثلاثة . ثم عدت تجده ناقصا قيراطا أو قيراطين . ولكن إذا أمسكت ما فى الكوب من ماء وألقيته على أرض الحجرة . . فإنه يجف قبل أن تغادرها . . لماذا ؟ . . لأن مساحة سطح الماء هنا كبيرة . . ولذلك يتم البخر بسرعة ولا يستغرق وقتا .

هذه هى النظرية نفسها التى تتم فى الكون . الله تبارك وتعالى جعل سطح الماء ثلاثة أرباع الأرض ليتم البخر فى سرعة وسهولة . . فيتكون السحاب وينزل المطر نأخذ منه مانحتاج اليه ، والباقى يكون ينابيع فى الأرض ، مصداقا لقوله تبارك وتعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾

(من الآية ٢١ سورة الزمر)

هذه الينابيع تذهب الى أماكن لا يصلها المطر . ليشرب منها الناس مِمّا نُسميه الآبار أو المياه الجوفية . . وتشرب منها انعامهم . . فإذا حدث جفاف يخرج الناس رجالا ونساء وصبيانا وشيوخا . يتضرعون الى الله ليمطرهم بالماء . . ونحن اذا توسلنا بأطفالنا الرضع وبالضعفاء يمطرنا الله .

وبعض الناس يقولون ان المطر ينزل بقوانين علمية ثابتة . . يصعد البخار من البحار ويصبح سحابا فى طبقات الجو العليا ثم ينزل مطرا . . تلك هى القوانين الثابتة لنزوله .

وأن السحاب لابد أن يكون ارتفاعه عدد كذا من الأمتار . . ليصل الى برودة الجو التى تجعله ينزل مطرا . ولابد أن يكون السحاب ملقحا . . نقول ان هذا كله مرتبط بمتغيرات . فالريح تهب أو لا تهب . وتحمل السحاب الى منطقة عالية باردة ولا تحمله وغير ذلك . .

إذن فكل ثابت محمول على متغير . . قد تعرف أنت القوانين الثابتة . . ولكن القوانين المتغيرة لايمكن أن تتنبأ بما ستفعل ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة الجن)

إذن فعوامل سقوط المطر لاتخضع لقوانين ثابتة . ولكن المتغير هو العامل الحاسم . ليسوق السحاب الى المناطق الباردة والى الارتفاع المطلوب . . ولابد أن نتنبه الى ان هناك قوانين ثابتة فى الكون وقوانين تتغير . . وأن القانون المتغير هو الذى يحدث التغيير .

وقوله تعالى : «وإذ استسقى موسى لقومه» . . تدل على أن هناك مُستسقى بفتح القاف وأن هناك مستسقى بكسر القاف . . مستسقى بكسر القاف أى ضارع الى الله لينزل المطر . . أما المستسقى بفتح القاف فهو الله سبحانه وتعالى الذى ينزل المطر . .

إن هذا الموقف خاص بالله تبارك وتعالى فلا توجد مخازن للمياه وليس هناك ماء فى الأرض . . من أنهار أو آبار أو عيون ولاملجأ الا الله . . فلابد من التوسل لله تبارك وتعالى :

عن أنس رضى الله عنه أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان إذا قحطوا استسقى بالعباس بن عبدالمطلب رضى الله عنه فقال : اللهم إنا كنا نتوسل اليك

بنبينا صلى الله عليه وسلم فتسقينا ، وإنا نتوسل اليك بعم نبينا فاسقنا قال : فيُسقون»[١]

بعض الناس يقولون هذا دليل على أن الميت لا يستعان به . . بدليل أن عمر ابن الخطاب رضى الله عنه لم يتوسل برسول الله صلى الله عليه وسلم بعد موته ، وإنما توسل بعم رسول الله . . نقول وبمن توسل عمر ؟ . . أتوسل بالعباس أم بعم رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ . . توسل بالرسول ، وبذلك أخذنا الحجة أن الوسيلة ليست مقصورة على رسول الله صلى الله عليه وسلم . . وإنما تتعدى الى أقاربه . .

وهنا يأتى سؤال لماذا نقل الأمر من رسول الله عليه الصلاة والسلام الى عم الرسول ؟ . . نقول لأن رسول الله قد انتقل ولا ينتفع الآن بالماء . . ولكن عمه العباس هو الحى الذى ينتفع بالماء . . لذلك كان التوسل بعم رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولم يكن منطقيا أن يتوسلوا برسول الله عليه الصلاة والسلام وهو ميت لا يحتاج الى الماء . . والذين أرادوا أن يأخذوا التوسل بذوى الجاه . . نقول لهم أن الحديث ضدكم وليس معكم . . لأنه أثبت أن التوسل جائز بمن ينتسب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

لابد أن نتحدث كيف أن الحق سبحانه وتعالى بعد أن قابل بنو اسرائيل النعمة بالجحود والنكران فكيف يسقيهم ؟ . . نقول إنها النبوة الرحيمة التى كانت السبب فى تنزل الرحمة تلو الرحمة على بنى اسرائيل . . وكان طمع موسى فى رحمة الله بلا حدود . . ولذلك فإن الدعوات كانت تتوالى من موسى عليه السلام لقومه . . وكانت الاستجابة من الله تأتى .

كان من المفروض لاستكمال المعنى أن يقال وإذا استسقى موسى ربه لقومه فقال يارب اسقهم . . ولكن هذه لم تأت حذفت وجاء بعدها الاجابة : «وإذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر» . . إذن قوله يارب اسق قومى واستجابة الله له محذوفة لأنها مفهومة . . ولذلك جاء القرآن باللفتات الأساسية وترك اللفتات المفهومة لذكاء الناس . . تماما كما جاء فى سورة النمل:الهدهد ذهب ورأى ملكة بلقيس وعرشها . وعاد الى سليمان وأخبره . فطلب سليمان من الهدهد

---

(١) رواه البخارى .

أن يلقى الى ملكة سبأ وقومها كتابا وقال :

﴿ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ ﴾

(سورة النمل)

فسليمان أمر الهدهد أن يلقى كتابا الى بلقيس وقومها . . والآية التى بعدها جاءت بقوله تعالى : قالت «ياأيها الملأ إنى أُلقى الىَّ كتاب كريم» كل التفاصيل حذفت من أن الهدهد أخذ الكتاب وطار الى ملكة سبأ وألقى الكتاب أمام عرشها . . والتقطت بلقيس ملكة سبأ الكتاب وقرأته . . ودعت قومها وبدأت تروى اليهم قصة الكتاب . . كل هذا حُذف لأنه مفهوم .

قال موسى يارب اسق قومى . . والله سبحانه وتعالى قال له:إن أردت الماء لقومك . . كل هذا محذوف . . وتأتى الآية الكريمة : «فقلنا اضرب بعصاك الحجر» .

«اضرب بعصاك الحجر» لنا معها وقفة . . الانسان حين يستسقى الله .. يطلب منه أن ينزل عليه مطرا من السماء ، والحق تبارك وتعالى كان قادرا على أن ينزل على بنى اسرائيل مطرا من السماء . ولكن الله جل جلاله أراد المعجزة . . فقال سأمدكم بماء ولكن من جنس ما منعكم الماء وهو الحجر الموجود تحت أرجلكم . . لن أعطيكم ماء من السماء . . ولكن الله سبحانه وتعالى أراد أن يُرِى بنى اسرائيل مدى الإعجاز . . فأعطاهم الماء من الحجر الذى تحت أرجلهم .

ولكن من الذى يتأثر بالضرب : الحجر أم العصا ؟ . . العصا هى التى تتأثر وتتحطم والحجر لا يحدث فيه شيء . . ولكن الله سبحانه وتعالى أراد بضربة واحدة من العصا أن ينفلق الحجر . . ولذلك يقول الشاعر :

أيا هازئاً من صنوف القدرْ
بنفسك تعنف لا بالقدرْ
ويا ضاربا صخرةً بالعصا
ضربْتَ العصا أم ضربْتَ الحجرْ

إن انفجار الماء من ضربة العصا دليل على أن العصا أشارت فقط الى الصخرة فتفجر منها الماء . . وحتى لو كانت العصا من حديد . . هل تكون قادرة على ان تجعل الماء ينبع من الحجر ؟

فالحق سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا الى أنه كان من الممكن أن ينزل الماء من السماء . . ولكن الله أرادها نعمة مركبة . . ليعلموا أنه يستطيع أن يأتى بالماء من الحجر الصلب . . وأن نبع الماء من متعلقات «كن» .

هنا لابد أن ننظر الى تعنت بنى اسرائيل.قالوا لموسى هب أننا فى مكان لا حجر فيه . من أين ينبع الماء ؟ . . لابد أن نأخذ معنا الحجر حتى اذا عطشنا نضرب الحجر بالعصا . . ونسوا أن هناك ما يتم بالأسباب وما يتم بكلمة «كن» . . ولذلك تجد مثلا كبار الأطباء يحتارون فى علاج مريض . . ثم يشفى على يد طبيب ناشىء حديث التخرج . . هل هذا الطبيب الناشىء يعرف أكثر من أساتذته الذين علموه ؟ . . الجواب طبعا لا .

إن التلميذ لا يتفوق على استاذه الذى علمه فليس العلاج بالأسباب وحدها ولكن بقدرة المسبب . . ولذلك جاء موعد الشفاء على يد هذا الطبيب الناشىء . . فكشف الله له الداء وألهمه الدواء .

يقول الحق سبحانه وتعالى : «فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا» لماذا اثنتا عشرة عينا . لأن اليهود كانوا يعيشون حياة انعزال . كل مجموعة منهم كانت تسمى «سبطا» لها شيخ مثل شيخ القبيلة . . والحق تبارك وتعالى يقول : «قد علم كل أناس مشربهم» أى كل سبط أو مجموعة ذهبت لمشرب . . نبعت العيون من الحجر وامتدت متشعبة الى الأسباط جميعا كل فى مكانه . . فإذا ما أخذوا حاجتهم ضرب موسى الحجر فيجف . ولذلك نعرف أن الحجر كان يعطيهم الماء على قدر الحاجة وكانت الجهة السفلى من الحجر الملامسة للأرض . . والجهة العليا التى ضرب عليها بالعصا لم ينبع منها شىء ، أما باقى الجهات الأربع فقد نبع منها كل منها ثلاثة ينابيع .

وهناك شىء فى اللغة يسمونه اللفظ المشترك . . وهو الذى يستخدم فى معانٍ متعددة . . فاذا قلت سقى القوم دوابهم من العين . . العين هنا عين الماء . . واذا قلت أرسل الأمير عيونه فى المدينة يعنى أرسل جنوده . . وإذا قلت اشتريته

بعين أى بذهب . . وإذا قلت نظر الى بعينه شذرا أى ببصره . . إذن كلمة عين تستخدم فى أشياء متعددة . . ومعناها هنا عين الماء الجارية .

قوله تعالى : «قد علم كل أناس مشربهم» أى أن كل سبط عرف مكانه الذى يلزمه . . حتى لايضيع من كل منهم الماء . . ولكن الانسان حينما يكون مضطرا يلتزم بما يطلبه الله منه ويكون ملتزما بالاداء ، فاذا فرج الله كربه وعادت اليه النعمة يعود الى طغيانه . . ولذلك يقول الحق جل جلاله فيها : «كلوا واشربوا من رزق الله ولاتعثوا فى الأرض مفسدين» أى لا يكون شكركم على النعمة بالافساد فى الأرض . . واقرأ قوله تعالى :

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾﴾

(سورة سبأ)

هنا نرى أن أهل سبأ رزقهم الله فأعرضوا عن شكره . . كانوا يتيهون بالسد الذى يحفظ لهم مياه الأمطار . . ويمدهم بما يحتاجون إليه منها طوال العام ، وأخذوا يتفاخرون بعلمهم ونسوا الله الذى علمهم . . فكان هذا السد هو النكبة أو الكارثة التى أهلكت زرعهم . . كذلك حدث لبنى اسرائيل،قيل لهم : «كلوا واشربوا من رزق الله ولاتعثوا فى الأرض مفسدين» فأفسدوا فى الأرض ونسوا نعمة الله فنزل بهم العذاب .

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ۚ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾ ﴾

هذه الآية الكريمة أيضا من آيات التذكير بنعم الله سبحانه وتعالى على موسى وعلى بنى إسرائيل .. وكنا قد تعرضنا لمعنى طعام واحد عند ذكر المن والسلوى .. وقلنا أن تكرار نزول المن والسلوى كل يوم جعل الطعام لونا واحدا .. وكلمة واحد هى أول العدد .. فإذا إنضم إليه مثله يصير اثنين .. وإذا إنضم إليه مثله يصبح ثلاثة .. إذن فأصل العدد هو الواحد .. والواحد يدل على وحدة الفرد ولا يدل على وحدانية .. فإذا قلنا الله واحد فإن ذلك يعنى أنه ليس كمثله أحد .. ولكنه لا يعنى أنه ليس مكونا من أجزاء .. فأنت لست واحدًا ولست أحدًا لانك مكون من أجزاء ـ كما أن هناك من يشبهونك .. والشمس فى مجموعتنا واحدة ولكنها ليست أحدًا لأنها مكونة من أجزاء وتتفاعل .. والله سبحانه وتعالى واحد ليس كمثله شىء .. وأحد ليس مكونا من أجزاء .. ولذلك من أسمائه الحسنى الواحد الأحد .. ولا نقول أن الاسم مكرر فهذه تعنى الفردية ، وهذه تنفى التجزئة .

وقوله تعالى : « لن نصبر على طعام واحد » .. نلاحظ هنا أن الطعام وُصف بأنه واحد رغم أنه مكون من صنفين هما المن والسلوى .. ولكنه واحد لرتابة نزوله .. الطعام كان يأتيهم من السماء .. ولكن تعنتهم مع الله جعلهم لا يصبرون عليه فقالوا ما يدرينا لعله لا يأتى .. نريد طعاما نزرعه بأيدينا ويكون طوال الوقت أمام عيوننا .. وكأن هذه المعجزات كلها ليست كافية .. لتعطيهم الثقة فى استمرار رزق الله .. إنهم يريدون أن يروا .. ألم يقولوا لموسى : « أرنا الله جهرة » ..

ماذا طلبوا ؟ . . قالوا : « فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض » . . « ادع لنا ربك » أى أطلب من الله . . ولأن الدعاء لون من الطلب فإنك حين تتوجه إلى الله طالبا أن يعطيك . . فإنك تدعو بذلة الداعى أمام عزة المدعو . . والطلب إن كان من أدنى إلى أعلى قيل دعاء . . ومن مساوٍ إلى مساوٍ قيل طلب . . ومن اعلى إلى أدنى قيل أمر . .

لقد طلب بنو إسرائيل من موسى أن يدعو الله سبحانه وتعالى أن يخرج لهم أطعمة مما تنبت الأرض . . وعددوا ألوان الأطعمة المطلوبة . . وقالوا : « من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها » . . ولكنها كلها أصناف تدل على أن من يأكلها هم من صنف العبيد . . والمعروف أن آل فرعون إستعبدوا بنى إسرائيل . . ويبدو أن بنى إسرائيل أحبوا حياة العبودية واستطعموها . .

الحق تبارك وتعالى كان يريد أن يرفع قدرهم فنزل عليهم المن والسلوى . . ولكنهم فضلوا طعام العبيد . . والبقل ليس مقصودًا به البقول فحسب . . ولكنه كل نبات لا ساق له مثل الخس والفجل والكرات والجرجير . . والقثاء هو القتة صنف من الخيار . . والفوم هو القمح أو الثوم.والعدس والبصل معروفان . . والله سبحانه وتعالى قبل أن يجيبهم أراد أن يؤنبهم : فقال « أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير » . .

عندما نسمع كلمة استبدال فاعلم أن الباء تدخل على المتروك . . تقول إشتريت الثوب بدرهم . . يكون معنى ذلك إنك أخذت الثوب وتركت الدرهم .

قوله تعالى : « الذى هو أدنى بالذى هو خير » . . أى انهم تركوا الذى هو خير وهو المن والسلوى . . وأخذوا الذى هو أدنى . . والدنو هنا لا يعنى الدناءة . . لأن ما تنتجه الأرض من نعم الله لا يمكن أن يوصف بالدناءه . . ولكن الله تبارك وتعالى يخلق بالأسباب ويخلق بالأمر المباشر . . ما يخلقه الله بالأمر المباشر منه بكلمة « كن » . . يكون خيرا مما جاء بالأسباب . . لأن الخلق المباشر لا صفة لك فيه . . عطاء خالص من الله . . أما الخلق بالأسباب فقد يكون لك دور فيه . . كأن تحرث الأرض أو تبذر البذور . . ما جاء خالصا من الله بدون أسبابك يقترب

من عطاء الآخرة التى يعطى الله فيها بلا أسباب ولكن بكلمة « كن » . . ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ ﴾

(سورة طه)

فالله تبارك وتعالى يصف رزق الدنيا بأنه فتنة . . ويصف رزق الآخرة بأنه خير منه . . مع أن رزق الدنيا والآخرة ، وكل رزق فى هذا الوجود حتى الرزق الحرام هو من الله جل جلاله . . فلا رازق إلا الله ولكن الذى يجعل الرزق حراما هو إستعجال الناس عليه فيأخذونه بطريق حرام . . ولو صبروا لجاءهم حلالا . .

نقول إن الله سبحانه وتعالى هو الذى يرزق . . ولكنه سمى رزقا فتنة وسمى رزقا خيرا منه . . ذلك أن الرزق من الله بدون أسباب أعلى وأفضل منزلة من الرزق الذى يتم بالأسباب . .

إذن الحق سبحانه وتعالى حين يقول : « أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير » . . يكون المعنى أتستبدلون الذى هو رزق مباشر من الله تبارك وتعالى . . وهو المن والسلوى يأتيكم « بكن » قريب من رزق الآخرة بما هو أقل منه درجة وهو رزق الأسباب فى الدنيا . . ولم يجب بنو إسرائيل على هذا التأنيب . . وقال لهم الحق سبحانه وتعالى : « اهبطوا مصرا فإن لكم ما سألتم » . . ولا يقال لهم ذلك إلا لأنهم أصروا على الطلب برغم أن الحق جل جلاله بين لهم أن ما ينزله إليهم خير مما يطلبونه . .

نلاحظ هنا أن مصر جاءت منوّنةً . . ولكن كلمة مصر حين ترد فى القرآن الكريم لاترد منونة . . ومن شرف مصر أنها ذكرت اكثر من مرة فى القرآن الكريم . . نلاحظ أن مصر حينما يقصد بها وادى النيل لا تأتى أبدا منونة وإقرأ قوله تعالى :

﴿ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا ﴾

(من الآية ٨٧ سورة يونس)

وقوله جل جلاله :

﴿ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ ﴾

(من الآية ٥١ سورة الزخرف)

وقوله سبحانه :

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِي ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِي مَثْوَىٰهُ ﴾

(من الآية ٢١ سورة يوسف)

وقوله تبارك وتعالى :

﴿ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾

(من الآية ٩٩ سورة يوسف)

كلمة مصر ذكرت فى الآيات الأربع السابقة بغير تنوين . . ولكن فى الآية التى نحن بصددها : « اهبطوا مصرًا » بالتنوين . . هل مصر هذه هى مصر الواردة فى الآيات المشار إليها ؟ . . نقول لا . . لأن الشىء الممنوع من الصرف للعلمية والتأنيث . . إذا كان لبقعة أو مكان . . مرة تلحظ أنه بقعة فيبقى مؤنثًا . . ومرة تلحظ أنه مكان فيكون مذكرا . . فإن كان بقعةً فهو علم ممنوع من الصرف . . وإن كان مكانا تكون فيه علمية وليس فيه تأنيث . . ومرة تكون هناك علمية وأهمية ولكن الله صرفها فى القرآن الكريم . . كلمات نوح ولوط وشعيب ومحمد وهود . .

كل هذه الأسماء كان مفروضا أن تمنع من الصرف ولكنها صرفت . . فقيل فى القرآن الكريم نوحا ولوطا وشعيبا ومحمدا وهودا . . إذن فهل من الممكن أن تكون مصر التى جاءت فى قوله تعالى : « اهبطوا مصرا فإن لكم ما سألتم » هى مصر التى عاشوا فيها وسط حكم فرعون . . قوله تعالى : « اهبطوا مصرا » من

الممكن أن يكون المعنى أى مصر من الأمصار . . ومن الممكن أن تكون مصر التى عاش فيها فرعون . . وكلمة مصر تطلق على كل مكان له مفتى وأمير وقاض . . وهى مأخوذة من الاقتطاع . . لأنه مكان يقطع إمتداد الأرض الخلاء . . ولكن الثابت فى القرآن الكريم . . ان مصر التى لم تنون هى علم على مصر التى نعيش فيها . . أما مصرًا التى خضعت للتنوين فهى تعنى كل وادٍ فيه زرع . .

وقوله تعالى : « وضربت عليهم الذلة والمسكنة » . . الذلة هى المشقة التى تؤدى إلى الإنكسار . . ويمكن أن ترفع عنك بأن تكون فى حمى غيرك فيعزك بأن يقول إنك فى حماه . . والله سبحانه وتعالى يقول عن بنى إسرائيل :

﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾

(من الآية ١١٢ سورة آل عمران)

حبل من الله كما حدث عندما عاهدهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المدينة . . وعاشوا فى حمى العهد . . إذن بحبل من الله أى على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم أو المؤمنين به . . وبحبل من الناس أى فى حماية دولة قوية كالولايات المتحدة الأمريكية . . إذا عاهدتهم عزوا وإن تركتهم ذلوا . .

وقوله تعالى : « وضربت عليهم الذلة » ضربت أى طبعت طبعة قوية بضربة قوية تجعل الكتابة بارزة على النقود . . ولذلك يقال ضربت فى مصر . . أى أعدت بضربة قوية أذلتهم وبقيت بارزة لا يستطيعون محوها . . أما المسكنة فهى إنكسار فى الهيئة .

أهل الكتاب كانوا يدفعون الجزية والجزية كانت تؤخذ من الأغنياء . . وكانوا يلبسون الملابس القذرة . . ويقفون فى موقف الذل والخزى حتى لا يدفعوا الجزية .

وقوله تعالى : « وباءوا بغضب من الله » . . أى غضب الله عليهم بذنوبهم وعصيانهم . حتى أصبح الغضب ـ من كثرة عصيانهم ـ كأنه سمة من سماتهم

لماذا ؟ : « ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق » أى انهم كانوا يكفرون بالنعم ولا يشكرون . . ويكفرون بالآيات ويشترون بها ثمنا قليلا . . ولم يكتفوا بذلك بل كانوا يقتلون أنبياء الله بغير حق . .

الأنبياء غير الرسل . . والأنبياء أسوة سلوكية ولكنهم لا يأتون بمنهج جديد . . أما الرسل فهم أنبياء بأنهم أسوة سلوكية ورسل لأنهم جاءوا بمنهج جديد . . ولذلك كل رسول نبى وليس كل نبى رسولا . والله سبحانه وتعالى يعصم أنبياءه ورسله من الخطيئة . . ولكنه يعصم رسله من القتل فلا يقدر عليهم أعداؤهم . . فمجىء الأنبياء ضرورة . . لأنهم نماذج سلوكية تسهل على الناس التزامهم بالمنهج ، وبنو إسرائيل بعث الله لهم أنبياء ليقتدوا بهم فقتلوهم . . لماذا ؟ . . لأنهم فضحوا كذبهم وفسقهم وعدم التزامهم بالمنهج . . ولذلك تجد الكافر والعاصى وغير الملتزم يغار ويكره الملتزم بمنهج الله . . ويحاول إزالته عن طريقه ولو بالقتل . . إذن فغضب الله عليهم من عصيانهم واعتدائهم على الأنبياء وما ارتكبوه من آثام .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾

بعد أن تحدث الحق سبحانه وتعالى عن بنى إسرائيل وكيف كفروا بنعمه .. أراد أن يعرض لنا حساب الأمم التى سبقت أمم رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم القيامة ، ولقد وردت هذه الآية فى سورة المائدة ولكن بخلاف يسير من التقديم والتأخير .. ففى سورة المائدة :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّـٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ ﴾

(من الآية ٦٩ سورة المائدة)

أى أنه فى سورة المائدة تقدمت الصابئون على النصارى .. واختلف الإعْراب فبينما فى البقرة و« الصابئين » .. وفى المائدة و« الصابئون » .. وردت آية أخرى فى سورة الحج :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة الحج)

الآيات الثلاث تبدو متشابهة .. إلا أنَّ هناك خلافات كثيرة .. ما هو سبب التكرار الموجود فى الآيات .. وتقديم الصابئين مرة وتأخيرها .. ومع تقديمها رفعت وتغير الإعراب .. وفى الآيتين الأوليين (البقرة والمائدة) تأتى : « من آمن

بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .. أما فى الآية التى فى سورة الحج فقد زاد فيها : « المجوس والذين أشركوا » .. واختلف فيها الخبر .. فقال الله سبحانه وتعالى : « إن الله يفصل بينهم يوم القيامة » .

عندما خلق الله آدم وأنزله ليعمر الأرض أنزل معه الهدى .. وإقرأ قوله تعالى :

﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾

(من الآية ١٢٣ سورة طه)

مفروض أن آدم أبلغ المنهج لأولاده .. وهؤلاء أبلغوه لأولادهم وهكذا .. وتشغل الناس الحياة وتطرأ عليهم الغفلة .. ويصيبهم طمع الدنيا وجشعها ويتبعون شهواتهم .. فكان لابد من رحمة الله لخلقه أن يأتى الرسل ليذكروا وينذروا ويبشروا ..

الآية الكريمة تقول : « إن الذين آمنوا » .. أى إيمان الفطرة الذى نزل مع آدم إلى الأرض .. وبعد ذلك جاءت أديان كفر الناس بها فأبيدوا من على الأرض .. كقوم نوح ولوط وفرعون وغيرهم .. وجاءت أديان لها أتباع حتى الآن كاليهودية والنصرانية والصابئية ، والله سبحانه وتعالى يريد أن يجمع كل ماسبق فى رسالة محمد عليه الصلاة والسلام .. ورسول الله صلى الله عليه وسلم جاء لتصفية الوضع الايمانى فى الأرض ..

إذن الذين آمنوا أولا سواء مع آدم أو مع الرسل .. الذين جاءوا بعده لمعالجة الداءات التى وقعت .. ثم الذين تسموا باليهود والذين تسموا بالنصارى والذين تسموا بالصابئة .. فالله تبارك وتعالى يريد أن يبلغهم لقد انتهى كل هذا .. فمن آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون .. فكأن رسالته عليه الصلاة والسلام جاءت لتصفية كل الأديان السابقة .. وكل إنسان فى الكون مطالب بأن يؤمن بمحمد عليه الصلاة والسلام .. فقد دعى الناس كلهم إلى الايمان برسالته .. ولو بقى إنسان من عهد آدم أو من عهد إدريس أو من

عهد نوح أو إبراهيم أو هود . . وأولئك الذين نسبوا إلى اليهودية وإلى النصرانية وإلى الصابئية . . كل هؤلاء مطالبون بالايمان بمحمد صلى الله عليه وسلم والتصديق بدين الاسلام . . فالاسلام يمسح العقائد السابقة فى الأرض . . ويجعلها مركزة فى دين واحد . . الذين آمنوا بهذا الدين : « لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » . . والذين لم يؤمنوا لهم خوف وعليهم حزن . . وهذا إعلان بوحدة دين جديد . . ينتظم فيه كل من فى الأرض إلى أن تقوم الساعة . . أما أولئك الذين ظلوا على ما هم عليه . . ولم يؤمنوا بالدين الجديد . . لا يفصل الله بينهم إلا يوم القيامة . . ولذلك فإن الآية التى تضمنت الحساب والفصل يوم القيامة . . جاء فيها كل من لم يؤمن بدين محمد عليه الصلاة والسلام . . بما فيهم المجوس والذين أشركوا .

والحق تبارك وتعالى أراد أن يرفع الظن . . عمن تبع دينا سبق الاسلام وبقى عليه بعد الاسلام . . وهو يظن أن هذا الدين نافعه . . نقول له أن الحق سبحانه وتعالى قد حسم هذه القضية فى قوله تعالى :

﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾

(من الآية ٨٥ سورة آل عمران)

وقوله جل جلاله :

﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾

(من الآية ١٩ سورة آل عمران)

إذن التصفية النهائية لموكب الإيمان والرسالات فى الوجود حسمت . . فالذى آمن بمحمد عليه الصلاة والسلام . . لا يخاف ولا يحزن يوم القيامة . . والذى لم يؤمن يقول الله تبارك وتعالى له « إن الله يفصل بينهم يوم القيامة » . . إذن الذين آمنوا هم الذين ورثوا الإيمان من عهد آدم . . والذين هادوا هم أتباع موسى عليه السلام . . وجاء الإسم من قولهم : « إنا هدنا إليك » ـ أى عدنا إليك . . والنصارى جمع نصرانى وهم منسوبون إلى الناصرة البلدة التى ولد فيها عيسى عليه

السلام .. أو من قول الحواريين نحن أنصار الله فى قوله تعالى :

﴿ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

أما الصابئة فقد اختلف العلماء فيهم .. قال بعضهم هم أتباع نوح ولكنهم غيروا بعده وعبدوا من دون الله الوسائط فى الكون كالشمس والقمر والكواكب .. أو الصابئة هم الذين انتقلوا من الدين الذى كان يعاصرهم إلى الدين الجديد .. أو هم جماعة من العقلاء قالوا ما عليه قومنا لا يقنع العقل .. كيف نعبد هذه الأصنام ونحن نصنعها ونصلحها ؟ .. فامتنعوا عن عبادة أصنام العرب .. فقالوا عنهم إنهم صبئوا عن دينٍ أبائهم .. أى تركوه وآمنوا بالدين الجديد .. وأيا كان المراد بالصابئين فهم كلٌ من مال عن دينه إلى دين آخر .

أننا نلاحظ أن الله سبحانه وتعالى .. جاء بالصابئين فى سورة البقرة متأخرة ومنصوبة .. وفى سورة المائدة متقدمةً ومرفوعةً .. نقول هذا الكلام يدخل فى قواعد النحو .. الآية تقول : « إن الذين آمنوا » .. نحن نعرف أنَّ (إنَّ) تنصب الإسم وترفع الخبر .. فالذين مبنى لأنه إسم موصول فى محل نصب إسم لأن : « والذين هادوا » معطوف على الذين آمنوا يكون منصوبًا أيضا .. والنصارى معطوف أيضا على إسم إن .. والصابئين معطوف أيضا ومنصوب بالياء لأنه جمع مذكر سالم ..

نأتى إلى قوله تعالى : « من آمن بالله واليوم الآخر » . هذه مستقيمة فى سورة البقرة إعرابا وترتيبا .. والصابئين تأخرت عن النصارى لأنهم فرقة قليلة .. لا تمثل جمهرة كثيرة كالنصارى .. ولكن فى آية المائدة تقدمت الصابئون وبالرفع فى قوله تعالى : « إن الذين آمنوا والذين هادوا » .. الذين آمنوا إسم إن والذين هادوا معطوف .. و« الصابئون » كان القياس إعرابيا أن يقال والصابئين .. وبعدها النصارى معطوفة .. ولكن كلمة (الصابئون) توسطت بين اليهود وبين

النصارى . . وكسر إعرابها بشكل لا يقتضيه الظاهر . . وللعرب إذن مرهفة لغويا . . فمتى سمع الصابئين التى جاءت معطوفة على إسم إن تأتى بالرفع يلتفت لفتة قسرية ليعرف السبب . .

حين تولى أبا جعفر المنصور الخلافة . . وقف على المنبر ولحن لحنة أى أخطأ فى نطق كلمة . . وكان هناك إعرابى يجلس فآذت أذنيه . . وأخطأ المنصور للمرة الثانية فحرك الإعرابى أذنيه باستغراب . . وعندما أخطأ للمرة الثالثة قام الإعرابى وقال . . أشهد أنك وليت هذا الأمر بقضاء وقدر . . أى انك لا تستحق هذا . . هذا هو اللحن إذا سمعه العربى هز اذنيه . . فإذا جاء لفظ مرفوعا والمفروض أن يكون منصوبا . . فإن ذلك يجعله يتنبه أن الله له حكمة وعلة . . فما هى العلة ؟ . .

الذين آمنوا أمرهم مفهوم والذين هادوا أمرهم مفهوم والنصارى أمرهم مفهوم . . أما الصابئون فهؤلاء لم يكونوا تابعين لدين . . ولكنهم سلكوا طريقا مخالفا . . فجاءت هذه الآية لتلفتنا أن هذه التصفية تشمل الصابئين أيضا . . فقدمتها ورفعتها لتلفت إليها الآذان بقوة . . فالله سبحانه وتعالى يعطف الإيمان على العمل لذلك يقول دائما : « آمن وعمل صالحا » . . لأن الإيمان إن لم يقترن بعمل فلا فائدة منه . . والله يريد الإيمان أن يسيطر على حركة الحياة بالعمل الصالح . . فيأمر كل مؤمن بصالح العمل وهؤلاء لا خوف عليهم فى الدنيا ولا هم يحزنون فى الآخرة .

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾

يمتنُّ الله سبحانه وتعالى مرة أخرى على بنى إسرائيل بالنعم التى أنعم بها عليهم ويذكرهم بجحودهم بها . . ولكننا نلاحظ أن القرآن الكريم حينما يتكلم عن اليهود . . يتكلم عنهم بالخطاب المباشر . . فهل الذين عاصروا نزول القرآن وهم الذين أخذ الله تبارك وتعالى عليهم الميثاق . . هؤلاء مخاطبون بمراد آبائهم وأجدادهم الذين عاصروا موسى عليه السلام .

نقول انه كان المطلوب من كل جد أو أب أن يبلغ ذريته ما انتهت إليه قضية الإيمان . . فحين يمتن الله عليهم أنه أهلك أهل فرعون وأنقذهم . . يمتن عليهم لأنه أنقذ آباءهم من التذبيح . . ولولا أنه أنقذهم ما جاء هؤلاء اليهود المعاصرون لرسول الله صلى الله عليه وسلم . . فهم كانوا مطمورين فى ظهور آبائهم . . ولكى ينقذهم الله كان لابد أن تستمر حلقة الحياة متصلة . . فمتى انتهت حياة الأب قبل أن يتزوج وينجب انتهت فى اللحظة نفسها حياة ذريته . . الشىء نفسه ينطبق على قول الحق سبحانه وتعالى : « وإذا استسقى موسى لقومه » . . إمتنان على اليهود المعاصرين لنزول القرآن . . لأنه سبحانه وتعالى لو لم ينقذ آباءهم من الموت عطشا لماتوا بلا ذرية .

إذن كل إمتنان على اليهود فى عهد موسى هو إمتنان على ذريته فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم . . والحق سبحانه وتعالى أخذ على اليهود الميثاق القديم . . ولولا هذا الميثاق ما آمنوا ولا آمنت ذريتهم .

وقوله تعالى : « ورفعنا فوقكم الطور » . . أى ان الله تبارك وتعالى يذكرهم

بأنهم بعد أن نجوا وأغرق الله فرعون وقومه ذهب موسى لميقات ربه ليتلقى عنه التوراة . . فعبد بنو اسرائيل العجل . وعندما عاد موسى بالتوراة وبالألواح . . وجدوا فى تعاليمها مشقة عليهم . . وقالوا نحن لا نطيق هذا التكليف وفكروا ألا يلتزموا به وألا يقبلوه .

التكليف هو من مكلف هو الله سبحانه وتعالى . . وهم يقولون إن الله كلفهم ما لا يطيقون . . مع أن الله جل جلاله لا يكلف نفسا إلا وسعها . . هذا هو المبدأ الإيمانى الذى وضعه الحق جل جلاله . . يظن بعض الناس أن معنى الآية الكريمة :

﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾

(من الآية ٢٨٦ سورة البقرة)

يظنون أننا نضع أنفسنا حكما على تكليف الله . . فإن كنا نعتقد أننا نقدر على هذا التكليف نقل هو من الله وإن كنا نعتقد أننا لا نقدر عليه بحكمنا نحن . . نقل الله لم يكلفنا بهذا لأنه فوق طاقتنا . . ولكن الحكم الصحيح هل كلفك الله بهذا الأمر أو لم يكلفك ؟ إن كان الله قد كلفك فهو عليم بأن ذلك فى وسعك ؛ لأن الله لا يكلف نفسا إلا وسعها . . ونحن نسمع الآن صيحات تقول أن العصر لم يعد يحتمل . . وان ظروف الدنيا وسرعة الحركة فيها وسرعة الأحداث هى تبرير أنه ليس فى وسعنا أن نؤدى بعض التكاليف . . ربما كان هذا التكليف فى الوسع فى الماضى عندما كانت الحياة بسيطة وحركتها بطيئة ومشكلاتها محدودة .

نقول لمن يردّد هذا الكلام : إن الذى كلفك قديما هو الله سبحانه وتعالى. إنه يعلم أن فى وسعك أن تؤدى التكليف وقت نزوله . . وبعد آلاف السنين من نزوله وحتى قيام الساعة . . والدليل على ذلك أن هناك من يقوم بالتكليف ويتطوع بأكثر منه ليدخل فى باب الإحسان ؛ فهناك من يصلى الفروض وهى التكليف . . وهناك من يزيد عليها السنن . . وهناك من يقوم الليل . . فيظل يتقرب الى الله تبارك وتعالى بالتطوع من جنس ما فرض . . وهناك من يصوم رمضان ومن يتطوع ويصوم أوائل الشهور العربية . . أو كل اثنين وخميس على

مدار العام أو فى شهرى رجب وشعبان . . وهناك من يحج مرة ومن يحج مرات . . وهناك من يلتزم بحدود الزكاة ومن يتصدق بأكثر منها .

إذن كل التكاليف التى كلفنا الله بها فى وسعنا وأقل من وسعنا . . ولا يقال ان العصر قد اختلف ، فنحن الذين نعيش هذا العصر . . بكل ما فيه من متغيرات نقوم بالتكاليف ونزيد عليها دون أى مشقة . والله سبحانه وتعالى رفع فوق بنى إسرائيل الطور رحمة بهم . . تماما كما يمسك الطبيب المشرط ليزيل صديداً تكوَّن داخل الجسد . . لأن الجسد لا يصح بغير هذا .

لذلك عندما أراد الله سبحانه وتعالى أن يصيب بفضله ورحمته بنى إسرائيل رغم أنوفهم . . رفع فوقهم جبل الطور الموجود فى سيناء . . وقال لهم تقبلوا التكليف أو أطبق عليكم الجبل . . تماما كما أهلك الله تبارك وتعالى الذين كفروا ورفضوا الإيمان وقاوموا الرسل الذين من قبلهم . . قد يقول البعض إن الله سبحانه وتعالى أرغم اليهود على تكليف وهو القائل :

﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ ﴾

(من الآية ٢٥٦ سورة البقرة)

وقوله تعالى :

﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الكهف)

نقول إن الله جل جلاله لم يرغم أحدا على التكليف . . ولكنه رحمة منه خيرهم بين التكليف وبين عذاب يصيبهم فيهلكهم . . وهذا العذاب هو أن يُطْبِقَ عليهم جبل الطور . . إذن المسألة ليس فيها إجبار ولكن فيها تخيير . . وقد خُيِّرَ الذين من قبلهم بين الإيمان والهلاك فلم يصدقوا حتى أصابهم الهلاك . . ولكن حينما رأى بنو إسرائيل الجبل فوقهم خشعوا ساجدين على الأرض . . وسجودهم دليل

على أنهم قبلوا المنهج . . ولكنهم كانوا وهم ساجدون ينظرون إلى الجبل فوقهم خشية أن يطبق عليهم . . ولذلك تجد سجود اليهود حتى اليوم على جهة من الوجه . . بينما الجهة الأخرى تنظر إلى أعلى وكان ذلك خوفا من أن ينقض الجبل عليهم . . ولو سألت يهوديا لماذا تسجد بهذه الطريقة يقول لك أحمل التوراة ويهتز منتفضا . . نقول انهم اهتزوا ساعة أن رفع الله جبل الطور فوقهم . . فكانوا فى كل صلاة يأخذون الوضع نفسه ، والذين شهدوهم من أولادهم وذريتهم . . اعتقدوا أنها شرط من شروط السجود عندهم . . ولذلك أصبح سجودهم على جانب من الوجه . . ونظرهم إلى شيء أعلاهم يخافون منه . . أى أن الصورة التى حدثت لهم ساعة رفع جبل الطور لازالوا باقين عليها حتى الآن .

فى هذه الآية الكريمة يقول الحق تبارك وتعالى : « وإذ رفعنا فوقكم الطور . . » وفى آية أخرى يقول المولى جل جلاله فى نفس ما حدث :

﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

« نتقنا » كأن الجبل وتد فى الأرض ونريد أن نخلعه . . فنحركه يمينا ويسارا حتى يمكن أن يخرج من الأرض . . هذه الحركة والزحزحة والجذب هى النتق . . والجبل كالوتد تماما يحتاج إلى هز وزعزعة وجذب حتى يخرج من مكانه . . وهذه الصورة عندما حدثت خشعوا وسجدوا وتقبلوا المنهج .

يقول الحق سبحانه وتعالى : « خذوا ما آتيناكم بقوة » . . الأخذ عادة مقابل للعطاء . . أنت تأخذ من معطٍ . . والتكليف أخذ من الله حتى تعطى به حركة صلاح فى الكون . . إذن كل أخذ لابد أن يأتى منه عطاء ؛ فأنت تأخذ من الجيل الذى سبقك وتعطى للجيل الذى يليك . . ولكنك لا تعطيه كما هو ، ولكن لابد أن تضيف عليه. وهذه الإضافة هى التى تصنع الحضارات .

وقوله تعالى : « بقوة » . . أى لا تأخذوا التكليف بتخاذل . . والإنسان عادة

يأخذ بقوة ما هو نافع له . . ولذلك فطبيعة مناهج الله أن تؤخذ بقوة وبيقين . . لتعطى خيرا كثيرا بقوة وبيقين . . وإذا أخذت منهج الله بقوة فقد ائتمنت عليه وان صدرك قد انشرح وتريد أن تأخذ أكثر . . لذلك تجد فى القرآن الكريم يسألونك عن كذا . . دليل على أنهم عشقوا التكليف وعلموا أنه نافع فهم يريدون زيادة النفع .

ومادام الحق سبحانه وتعالى قال : « خذوا ما آتيناكم بقوة » . . فقد عشقوا التكليف ولم يعد شاقا على أنفسهم .

وقوله تعالى : « واذكروا ما فيه لعلكم تتقون » . . إذكروا ما فيه أى ما فى المنهج وأنه يعالج كل قضايا الحياة واعرفوا حكم هذه القضايا . . « لعلكم تتقون » أى تطيعون الله وتتقون عقابه وعذابه يوم القيامة .

﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٤﴾﴾

بعد أن بيّن الحق سبحانه وتعالى لنا كيف أمر اليهود بأن يتذكروا المنهج ولا ينسوه .. وكان مجرد تذكرهم للمنهج يجعلهم يؤمنون بالإسلام وبرسول الله صلى الله عليه وسلم لأنه مكتوب عندهم فى التوراه ومذكورة أوصافه .. ماذا فعل اليهود ؟

يقول الحق تبارك وتعالى :«ثم توليتم من بعد ذلك» ..أى أعرضتم عن منهج الله ونسيتموه ولم تلتفتوا إليه .. « ولولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين » ما هو الفضل وماهى الرحمة ؟ الفضل هو الزيادة عما تستحق .. يقال لك هذا حقك وهذا فضل منى أى زيادة على حقك ..

عن عائشة رضى الله عنها عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : (سدّدوا وقاربوا وأبشروا فإنه لا يُدْخِلُ أحداً الجنةَ عملهُ قالوا : ولا أنت يا رسولَ الله ؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله بمغفرة ورحمة)[1] .

فإذا تساءلت كيف يتم هذا ؟ وكيف أنه لا أحد يدخل الجنة بعمله ؟ نقول نعم لأن عمل الدنيا كله لا يساوى نعمة من نعم الله على خلقه ؛ فأنت تذكرت العمل ولم تتذكر الفضل .. وكل من يدخل الجنة فبفضل الله سبحانه وتعالى .. حتى الشهداء الذين أعطوا حياتهم وهى كل ما يملكون فى هذه الدنيا .. يقول الحق سبحانه وتعالى عنهم :

---

(١) « رواه البخارى ومسلم وأحمد وابن ماجه والدارمىّ » .

﴿ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

فإذا كان هؤلاء الشهداء وهم فى أعلى مراتب الجنة قد دخلوا الجنة بفضل الله . . فما بالك بمن هم أقل منهم أجرا . . والله سبحانه وتعالى له فضل على عباده جميعا . . وإقرأ قوله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾

(من الآية ٢٤٣ سورة البقرة)

أما الرحمة فهى التى فتحت طريق التوبة لغفران الذنوب.والله سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلى أنه لولا هذا الفضل لبنى إسرائيل . . ولولا أنه فتح لهم باب الرحمة والمغفرة ليعودوا مرة أخرى إلى ميثاقهم ومنهجهم . . لولا هذا لكانوا من الخاسرين الذين أصابهم خسران مبين فى الدنيا والآخره . . ولكن الله تبارك وتعالى بفضل منه ورحمة قد قادهم إلى الدين الذى حفظه الله سبحانه وتعالى بقدرته من أى تحريف . . فرفع عنهم عبء حفظ الكتاب . . وما ينتج عن ذلك من حمل ثقيل فى الدنيا . . ورحمهم برسول الله صلى الله عليه وسلم الذى أرسله رحمة للعالمين . . مصداقا لقوله تبارك وتعالى :

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾

(سورة الأنبياء)

وأعطاهم فضل هذا الدين الخاتم الذى حسم قضية الإيمان فى هذا الكون . . ومع هذه الرحمة وهذا الفضل . . بأن نزل إليهم فى التوراة أوصاف رسول الله صلى الله عليه وسلم وموعد بعثه . . فتح لهم بابا حتى لا يصبحوا من الخاسرين . . ولكنهم تركوا هذا الباب كما تولوا عن دينهم .

﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ ﴾

بعد أن بين الله جل جلاله لنا كيف أنه فتح باب الفضل والرحمة لليهود فتركوه .. أراد أن يبين لنا بعض الذى فعلوه فى مخالفة أوامر الله والتحايل عليها .. والله تبارك وتعالى له أوامر فى الدين وأوامر تتعلق بشئون الدنيا .. وهو لا يحب أن نأخذ أى أمر له يتعلق بالدين أو بالدنيا مأخذ عدم الجد .. أو نفضل أمرا على أمر .. ولذلك تجد فى سورة الجمعة مثلا قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾

(سورة الجمعة)

هذان أمران أحدهما فى الدين والثانى يتعلق بالدنيا .. وكلاهما من منهج الله .. فالله لا يريدك أن تتاجر وتعمل وقت الصلاة .. ولا أن تترك عملك بلا داع وتبقى فى المسجد بعد الصلاة .. إذا نودى للصلاة فإلى المسجد .. وإذا قضيت الصلاة فإلى السعى للرزق .. وهناك يومان فى الأسبوع ذكرا فى القرآن بالإسم وهما يوما الجمعة والسبت .. بينما أيام الأسبوع سبعة ، خمسة أيام منها لم تذكر فى القرآن بالإسم .. وهى الأحد والإثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس .. الجمعة هى عيد المسلمين الذى شرع فيه إجتماعهم فى المساجد وأداء صلاة الجماعة .. ونلاحظ أن يوم الجمعة لم يأخذ اشتقاقه من العدد .. فأيام الأسبوع

نسبت إلى الأعداد فيما عدا الجمعة والسبت . لذلك تجد الأحد منسوب الى واحد والإثنين منسوب إلى إثنين . . والثلاثاء منسوب إلى ثلاثة والأربعاء منسوب إلى أربعة والخميس منسوب إلى خمسة . .

كان المفروض أن ينسب يوم الجمعة إلى ستة ولكنه لم ينسب . . لماذا ؟ لأنه اليوم الذى اجتمع فيه للكون نظام وجوده . . فسماه الله تبارك وتعالى الجمعة وجعله لنا عيدا . . والعيد هو اجتماع كل الكون فى هذا اليوم ، إجتماع نعمة الله فى إيجاد الكون وتمامها فى ذلك اليوم . . فالمؤمنون بالله يجتمعون اجتماع حفاوة بتمام خلق الكون لهم . . والسبت . . الباء والتاء تفيد معنى القطع . . وسبت ويسبت سبتا إذا إنقطع عمله . . ونلاحظ أن خلق السموات والأرض تم فى ستة أيام مصداقا لقوله تعالى :

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾

(من الآية ٤ سورة الحديد)

وكان تمام الخلق يوم الجمعة . . وفى اليوم السابع وهو يوم السبت . . كان كل شىء قد إستقر وفرغ من خلق الكون . . ولذلك له سبات أى أن هذا اليوم يسمى سباتا . . لأن فيه سكون الحركة بعد تمام الخلق . . فلما أراد اليهود يوما للراحة أعطاهم الله يوم السبت وأراد الحق تبارك وتعالى أن يبتليهم فى هذا اليوم والإبتلاء هو إمتحانهم فقد كانوا يعيشون على البحر وعملهم كان صيد السمك . . وكان الإبتلاء فى هذا اليوم حيث حرم الله عليهم فيه العمل وجعل الحيتان التى يصطادونها تأتى إليهم وقد بدت أشرعتها وكانوا يبحثون عنها طوال الإسبوع وربما لا يجدونها . . وفى يوم السبت جاءتهم ظاهرة على سطح الماء تسعى إليهم لتفتنهم . . وإقرأ قوله سبحانه وتعالى :

﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

وهكذا يمتلئ سطح البحر بالأسماك والحيتان يوم السبت .. فإذا جاء صباح الأحد اختفت بعيدا وهم يريدون أن يجعلوا السبت عيدا لهم لا يفعلون فيه أى شيء .. ولكنهم فى الوقت نفسه يريدون أن يحصلوا على هذه الأسماك والحيتان .. صنعوا شيئا اسمه الحياض العميقة ليحتالوا بها على أمر الله بعدم العمل فى هذا اليوم .. وفى الوقت نفسه يحصلون على الأسماك .. هذه الحياض يدخلها السمك بسهولة .. ولأنها عميقة لا يستطيع الخروج منها ويتركونه يبيت الليل وفى الصباح يصطادونه .. وكان هذا تحايلا منهم على مخالفة أمر الله .. والله سبحانه وتعالى لا يحب من يحتال فى شيء من أوامره .

ويقول الله تعالى : « ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم فى السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين » .. وهذه قصة مشهورة عند اليهود ومتواترة .. يعلمها الأجداد للآباء والآباء للأحفاد .. وهى ليست جديدة عليهم وإن كان المخاطبون هم اليهود المعاصرين لرسول الله صلى الله عليه وسلم .. ولذلك عندما نسمع : « ولقد علمتم » أى لقد عرفتم ومعنى ذلك أن القصة عندكم معروفة .. وكأنها من قصص التراث التى يتناقلونها ..

وقوله تعالى : « الذين اعتدوا منكم فى السبت » .. المفعول هنا واحد هنا حيلة مذكورة انهم اعتدوا على أمر الله بالراحة يوم السبت .. هم حقيقة لم يصطادوا يوم السبت .. ولكنهم تحايلوا على الممنوع بنصب الفخاخ للحيتان والأسماك .. وكانوا فى ذلك أغبياء .. وقد كان الممنوع أن يأخذوا السمك فى حيازتهم بالصيد يوم السبت .. ولكنهم أخذوه فى حيازتهم بالحيلة والفخاخ .. وقوله تعالى : « اعتدوا » أى تجاوزوا حدود الله المرسومة لهم .. وعادة حين يحرم الله شيئا يأتى بعد التحريم قوله تعالى :

﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ﴾

(من الآية ١٨٧ سورة البقرة)

لأنه يريد أن يمنعك من الإغراء .. حتى لا تقع فى المعصية فيقول لك لا تقترب .. ولكن بنى اسرائيل اعتدوا على حكم الله متظاهرين بالطاعة وهم عاصون .. وحسبوا أنهم يستطيعون خداع الله بأنهم طائعون مع أنهم

عاصون .. وصدر حكم الله عليهم : « فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين » .

وعادة أنك لا تأمر إنسانا أمرا إلا إذا كان فى قدرته أن يفعله .. الأمر هنا أن يكونوا قردة . فهل يستطيعون تنفيذه ؟ وأن يغيروا خلقتهم إلى قردة .. إنه أمر فى مقدرة الله وحده فكيف يقول لهم كونوا قردة ؟

نقول إن الأمر نفسه هنا هو الذى يستطيع أن يجعلهم قردة .. وهذا الأمر يسمى أمرًا تسخيريًا ولم يقل لهم كونوا قردة ليكونوا هم بإرادتهم قردة .. ولكنه سبحانه بمجرد أن قال كونوا قردة كانوا .. وهذا يدلنا على انصياع المأمور للأمر وهو غير مختار .. ولو كان لا يريد ذلك ولا يلزم أن يكونوا قد سمعوا قول الله أو قال لهم .. لأنه لو كان المطلوب منهم تنفيذ ما سمعوه ربما كان ذلك لازما .. ولكن بمجرد صدور الأمر وقبل أن يتنبهوا أو يعلموا شيئا كانوا قردة .

ولقد اختلف العلماء كيْفَ تحول هؤلاء اليهود إلى قردة ؟ كيف مسخوا ؟ قال بعضهم لقد تم المسخ وهم لا يدرون .. فلما وجدوا أنفسهم قد تحولوا إلى خلق أقل من الإنسان .. لم يأكلوا ولم يشربوا حتى ماتوا .. وقال بعض العلماء ان الإنسان إذا مسخ فإنه لا يتناسل ، ولذلك فبمجرد مسخهم لم يتناسلوا حتى انقرضوا .. ولماذا لم يتناسلوا ؟ لأن الله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾

(من الآية ١٦٤ سورة الأنعام)

ولو انهم تناسلوا .. لتحمل الأبناء وزر آبائهم .. وهذا مرفوض عند الله .. إذن فمن رحمة الله أنهم لا يأكلون ولا يشربون ولا يتناسلون .. ويبقون فترة ثم ينقرضون بالأمراض والأوبئة وهذا ما حدث لهم .

قد يقول بعض الناس لو أنهم مسخوا قردة .. فمن أين جاء اليهود الموجودون الآن ؟ نقول لهم أنه لم يكن كل اليهود عاصين .. ولكن كان منهم أقلية هى التى عصت ومسخت .. وبقيت الأكثرية ليصل نسلها إلينا اليوم .. وقد قال علماء

آخرون أن هناك آية فى سورة المائدة تقول :

﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ ﴾

(سورة المائدة)

إذن هذه قضية قوم غضب الله عليهم ومسخهم قردة وخنازير وعبدة الطاغوت . . ولقد أخبرنا الله جل جلاله أن اليهود مسخوا قردة . . ولكنه لم يقل لنا أنهم مسخوا خنازير . . فهل مسخوا قردة ؟ ثم بعد ذلك إزداد غضب الله عليهم ومسخوا خنازير ؟ وهل نقلهم الله من إنسانية إلى بهيمية فى القيم والإرادة والخلقة ؟

نقول علينا أولا أن ننظر إلى البهيمية التى نقلهم الله إليها . . نجد أن القردة هى الحيوان الوحيد المفضوح العورة دائما . . وإن عورته لها لون مميز عن جسده . . وأنه لا يتأدب إلا بالعصا . . واليهود كذلك لم يقبلوا المنهج إلا عندما رفع فوقهم جبل الطور . . وما هم فيه الآن ليس مسخ خلقه ولكن مسخ خلق . . والخنازير لا يغارون على أنثاهم وهذه لازمة موجودة فى اليهود . . وعبدة الطاغوت . . الطاغوت هو كل إنسان تجاوز الحد فى البغى والظلم . . وعباد الطاغوت هم الطائعون لكل ظالم يعينونه على ظلمه وهم كذلك .

إذن فعملية المسخ هذه سواء تمت مرة واحدة أو على مرتين مسألة شكلية . . ولكن الله سبحانه وتعالى أعطانا فى الآية التى ذكرناها فى سورة المائدة سمات اليهود الأخلاقية . . فكأنهم مسخوا خلقة ومسخوا أخلاقا .

﴿ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾

يريد الله تبارك وتعالى أن يلفتنا إلى أنه بعد أن جعل المسخة الخلقية والأخلاقية لليهود : « وجعلناها نكالا لما بين يديها » أى ما معها : « وما خلفها » أى ما بعدها : « والنكال » هو العقوبة الشديدة . . والعقوبة لابد أن تنشأ عن تجريم أولا . . هذا هو المبدأ الإسلامى والمبدأ القانونى . . فرجال القانون يقولون لا عقوبة إلا بتجريم ولا تجريم إلا بنص . . قبل أن تعاقب لابد إن تقول ان هذا الفعل جريمة عقوبتها كذا وكذا . . وفى هذه الحالة عندما يرتكبها أى إنسان يكون مستحقا للعقوبة . . ومادام هذا هو الموقف فلابد من تشريع .

والتشريع ليس معناه إن الله شرع العقوبة . . ولكن معناه محاولة منع الجريمة بالتخويف حتى لا يفعلها أحد . . فإذا تمت الجريمة فلابد من توقيع العقوبة . . لأن توقيعها عبرة للغير ومنع له من ارتكابها . . وهذا الزجر يسمى نكولا ومنها النكول فى اليمين أى الرجوع فيه .

إذن قوله تعالى : « فجعلناها نكالا » . . أى جعلناها زجرا وعقابا قويا . . حتى لا يعود أحد من بنى إسرائيل إلى مثل هذه المخالفة : « ونكالا لما بين يديها » . . أى عقوبة حين يرويها الذين عاصروها تكفى لكيلا يقتربوا من هذه المعصية أبدا . . وتكون لهم موعظة لا ينسونها : « وما خلفها » يعنى جعلناها تتوارثها الأجيال من بنى إسرائيل جيلا بعد جيل . . كما بيننا الأب يحكى لابنه حتى لا يعود أحد فى المستقبل إلى مثل هذا العمل من شدة العقوبة : « وموعظة للمتقين » . . أى موعظة لكل الناس الذين سيبلغهم الله تبارك وتعالى بما حدث من بنى إسرائيل وما عاقبهم به . . حتى يقوا أنفسهم شر العذاب يوم القيامة الذى

سيكون فيه ألوان أشد كثيرا من هذا العذاب . . على أننا لابد أن نلفت الإنتباه إلى أن مبدأ أنه لا عقوبة إلا بتجريم ولا تجريم إلا بنص هو مبدأ إلهى . . ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾

(من الآية ١٥ سورة الإسراء)

أى يأتى الرسول أولا ليجرم هذه الأفعال . . فإن ارتكبها أحد من خلق الله حقت عليه العقوبة . . ومن هنا فإن كل ما يقال عن قوانين بأثر رجعى مخالف لشريعة الله تبارك وتعالى وعدله . . فلا يوجد فى عدالة السماء ما يقال عنه أثر رجعى .

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾﴾

تعرضنا إلى هذه الآية الكريمة فى بداية سورة البقرة . . لأن السورة سميت بهذا الإسم . . ونلاحظ هنا أن الله سبحانه وتعالى أتى بحرف : « وإذ » . . يعنى واذكروا : « وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة » . . ولم يقل لماذا أمرهم بأن يذبحوا البقرة . . ولابد أن نقرأ الآيات إلى آخر القصة لنعرف السبب فى قوله تعالى :

﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾

(سورة البقرة)

والمفروض فى كل الأمور أن الأمر تسبقه علته . . ولكن هذه عظمة القرآن الكريم . . لأن السؤال عن العلة أولا معناه أن الأمر صادر من مساو لك . . فإذا قال لك إنسان إفعل كذا . . تسأله لماذا حتى أطيع الأمر وأنفذه . . إذن الأمر من المساوى هو الذى تسأل عن علته . . ولكن الأمر من غير المساوى . . كأمر الأب لإبنه والطبيب لمريضه والقائد لجنوده . . مثل هذا الأمر لا يسأل عن علته قبل تنفيذه . . لأن الذى أصدره أحكم من الذى صدر إليه الأمر . . ولو أن كل مكلف من الله أقبل على الأمر يسأل عن علته أولا . . فيكون قد فعل الأمر بعلته.فكأنه قد فعله من أجل العلة . . ومن هنا يزول الإيمان . . ويستوى أن يكون الإنسان مؤمنا أو غير مؤمن . . ويكون تنفيذ الأمر بلا ثواب من الله . .

إن الإيمان يجعل المؤمن يتلقى الأمر من الله طائعا . . عرف علته أو لم يعرف . . ويقوم بتنفيذه لأنه صادر من الله . . ولذلك فإن تنفيذ أى أمر إيمانى يتم لأن الأمر صادر من الله . . وكل تكليف يأتى . . علة حدوثه هى الإيمان بالله . . ولذلك فإن الحق سبحانه وتعالى يبدأ كل تكليف بقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا » . . أى يا من آمنت بالله ربا وإلها وخالقا . . خذ عن الله وافعل لأنك آمنت بمن أمرك .

فى هذه الآيات التى نحن بصددها أراد الله تعالى أن يبين لنا ذلك . فجاء بالأمر بذبح البقرة أولا . . وبالعلة فى الآيات التى روت لنا علة القصة . . وأنت حين تعبد الله فكل ما تفعله هو طاعة لله سبحانه وتعالى . . سواء عرفت العلة أو لم تعرفها ؛ فأنت تؤدى الصلاة لأن الله تبارك وتعالى أمرك بأن تصلى . . فلو أديت الصلاة على انها رياضة أو انها وسيلة للاستيقاظ المبكر . . أو أنها حركات لازمة لليونة المفاصل فإن صلاتك تكون بلا ثواب ولا أجر . . إن أردت الرياضة فاذهب إلى أحد النوادى وليدربك أحد المدربين لتكون الرياضة على أصولها . . وأن أردت اللياقة البدنية فهناك ألف طريقة لذلك . . وإن أردت عبادة الله كما أمرك الله فلتكن صلاتك التى فرضها الله عليك لأن الله فرضها . . وكذلك كل العبادات الأخرى . .

الصوم ليس شعورا بإحساس الجائع . . ولا هو طريقة لعمل الرجيم ولكنه عباده . . إن لم تصم تنفيذا لأمر الله بالصوم فلا ثواب لك . . وإن جعلت للصيام أى سبب إلا العبادة فإنه صيام لا يقبله الله . . والله أغنى الشركاء عن الشرك . . فمن أشرك معه أحدا ترك الله عمله لمن أشركه . . وكذلك كل العبادات .

هذا هو المفهوم الإيمانى الذى أراد الله سبحانه وتعالى أن يلفتنا إليه فى قصة بقرة بنى إسرائيل . . ولذلك لم يأت بالعلة أو السبب أولا . . بل أتى بالقصة ثم أخبرنا سبحانه فى آخرها عن السبب . . وسواء أخبرنا الله عن السبب أو لم يخبرنا فهذا لا يغير فى إيماننا بحقيقة ما حدث . . وإن القصة لها حكمة وإن خفيت علينا فهى موجوده .

قوله تعالى : « إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة » . . أعطى الله تبارك وتعالى

الأمر أولا ليختبر قوة إيمان بنى إسرائيل . . ومدى قيامهم بتنفيذ التكليف دون تلكؤ أو تمهل . . ولكنهم بدلا من أن يفعلوا ذلك أخذوا فى المساومة والتباطؤ : « وإذ قال موسى لقومه » . . كلمة قوم تطلق على الرجال فقط . . ولذلك يقول القرآن الكريم :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ ﴾

(من الآية ١١ سورة الحجرات)

إذن قوم هم الرجال . . لأنهم يقومون على شئون أسرهم ونسائهم . . ولذلك يقول الشاعر العربى :

وما أدرى ولست أخال أدرى
أَقَوْمٌ آل حصنٍ أم نساءُ

فالقوامة للرجال . . والمرأة حياتها مبنية على الستر فى بيتها . . والرجال يقومون لها بما تحتاج اليه من شئون . . والمفروض أن المرأة سكن لزوجها وبيتها وأولادها وهى فى هذا لها مهمة أكبر من مهمة الرجال . . قوله تعالى : « إن الله يأمركم » . . الأمر طلب فعل.وإذا كان الآمر أعلى من المأمور نسميه أمرا . . وإذا كان مساويا له نسميه إلتماسا . . وإذا كان إلى أعلى نسميه رجاء ودعاء . . على أننا لابد أن نلتفت إلى قوله تعالى على لسان زكريا :

﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥۖ قَالَ رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةٗ طَيِّبَةًۖ ﴾

(من الآية ٣٨ سورة آل عمران)

هل هذا أمر من زكريا ؟ طبعا لا . لأنه دعاء والدعاء رجاء من الأدنى إلى الأعلى . . قوله تعالى : « الله يأمركم » . . لو أن إنسانا يعقل أدنى عقل ثم يطلب منه أن يذبح بقرة . . أهذه تحتاج إلى إيضاح ؟ لو كانوا ذبحوا بقرة لكان كل شىء قد تم دون أى جهد . . فمادام الله قد طلب منهم أن يذبحوا بقرة . . فكل

ما عليهم هو التنفيذ . .

ولكن أنظر إلى الغباء حتى فى السؤال . . إنهم يريدون أن يفعلوا أى شىء لإبطال التكليف . . لقد قالوا لموسى نبيهم إنك تهزأ بنا . . أى أنهم استنكروا أن يكلفهم الله تبارك وتعالى بذبح بقرة على إطلاقها دون تحديد . . فاتهموا موسى انه يهزأ بهم . . كأنهم يرون أن المسألة صعبة على الله سبحانه وتعالى . . لا يمكن أن تحل بمجرد ذبح بقرة . . وعندما سمع موسى كلامهم ذهل . . فهل هناك نبى يهزأ بتكليف من تكليفات الله تبارك وتعالى . . أينقل نبى الله لهم أمرا من أوامر الله جل جلاله على سبيل الهزل ؟

هنا عرف موسى أن هؤلاء اليهود هم جاهلون . . جاهلون بربهم وبرسولهم وجاهلون بآخرتهم . . وأنهم يحاولون أن يأخذوا كل شىء بمقاييسهم وليس بمقاييس الله سبحانه وتعالى . . فاتجه إلى السماء يستعيذ بالله من هؤلاء الجاهلين . . الذين يأتيهم اليسر فيريدونه عسرا . ويأتيهم السهل فيريدونه صعبا . . ويطلبون من الله أن يعنتهم وأن يشدد عليهم وأن يجعل كل شىء فى حياتهم صعبا وشاقا .

﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ ۖ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾﴾

وكان سؤالهم يبين نقص درجة الإيمان عندهم .. لم يقولوا ادع لنا ربنا .. بل قالوا إدع لنا ربك ، وكأنه رب موسى وحده .. ولقد تكررت هذه الطريقة فى كلام بنى إسرائيل عدة مرات .. حتى إنهم قالوا كما يروى لنا القرآن الكريم :

﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾

(من الآية ٢٤ سورة المائدة)

ولقد استمر الحوار بينهم وبين موسى فترة طويلة .. يوجهون السؤال لموسى فيدعو الله فيأتيه الجواب من الله تبارك وتعالى .. فبدلا من أن ينفذوا الأمر وتنتهى المسألة يوجهون سؤالا آخر .. فيدعو موسى ربه فيأتيه الجواب ، ويؤدى الجواب إلى سؤال فى غير محله منهم .. ثم يقطع الحق سبحانه وتعالى عليهم أسباب الجدل .. بأن يعطيهم أوصافا لبقرة لا تنطبق إلا على بقرة واحدة فقط .. فكأنهم شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم ..

نأتى إلى أسئلة بنى إسرائيل .. يقول الحق سبحانه وتعالى : « قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هى » .. سؤال لا معنى له ولا محل .. لأن الله تبارك وتعالى قال لهم إنها بقرة .. ولم يقل مثلا إنها حيوان على إطلاقه فلم يكن هناك محل للسؤال .. فجاء الحق تبارك وتعالى يقول لهم : « إنها بقرة لا فارض ولا بكر » .. الفارض فى اللغة هو الواسع والمراد به بقرة غير مسنة .. ولكن ما العلاقة بين سن البقرة وبين الواسع ؟ البقرة تتعرض للحمل كثيرا وأساسا هى للبن وللإنجاب .. ومادامت قد تعرضت للحمل كثيرا يكون مكان اللبن فيها فى

اتساع . . أى أن بطنها يزداد اتساعا مع كل حمل جديد . . وعندما يكون بطن البقرة واسعا يعرف عنها أنها مسنة وولدت كثيرا وصارت فارضا .

وكلمة « بكر » لها معانٍ متعددة منها أنه لم يطأها فحل . . ومنها أنها بكر ولدت مرة واحدة . . ومنها أنها ولدت مرارا ولكن لم يظهر ذلك عليها لأنها صغيرة السن .

وقوله تعالى : « عوان بين ذلك » . . يعنى وسط بين هذه الأوصاف كلها . . الحق بعد ذلك يقرعهم فيقول : « فافعلوا ما تؤمرون » . . يعنى كفاكم مجادلة ونفذوا أمر الله واذبحوا البقرة . . ولكنهم لم يسكنوا انهم يريدون أن يحاوروا . . ولذلك غيروا صيغة السؤال .

﴿ قَالُوا ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾

بحثوا عن سؤال آخر : مالونها ؟ كأن الله تبارك وتعالى حين حدثهم عن السن فتحوا الأبواب ليسألوا ما لونها ؟ مع انه سبحانه وتعالى قال لهم : « فافعلوا ما تؤمرون » . . فلم يفعلوا بل سألوا ما لونها ؟ « قال إنه يقول إنها بقرة صفراء » والصفرة لون من الألوان . . ثم قال جل جلاله : « فاقع لونها » . . يعنى صفرة شديدة . . ثم قال : « تسر الناظرين » . . يعنى أن كل من ينظر إليها يُسر لنضارتها ونظافتها وحسن مظهرها وتناسق جسدها . .

وصف البقرة بأنها صفراء هذا لون معروف . . وفى الألوان لا يمكن أن تحدد لونا إلا برؤيته . . ولذلك فإن المحسَّات فى الألوان لابد أن تسبق معرفتها وبعد ذلك تأتى باللون المطلوب . . لذلك لا يقال صفراء فقط لأنك لا تستطيع تحديده ؛ لأن اللون الأصفر له درجات لا نهاية لها . . ومزج الألوان يعطيك عدداً لا نهائيا من درجاتها . . ولذلك فإن المشتغلين بدهان المنازل لا يستطيعون أن يقوموا بدهان شقة بلون إلا إذا قام بعمل مزيج اللون كله مرة واحدة . . حتى يخرج الدهان كله بدرجة واحدة من اللون . . ولكن إذا طلبت منه أن يدهن الشقة باللون نفسه . . بشرط أن يدهن حجرة واحدة كل يوم فإنه لايستطيع . . فإذا سمعت صفراء يأتى اللون الأصفر إلى ذهنك . . فإذا سمعت "فاقع" فكل لون من الألوان له وصف يناسبه يعطينا دقة اللون المطلوب . . "فاقع" أى شديد الصفرة .

أظن أن المسألة قد أصبحت واضحة . . إنها بقرة لونها أصفر فاقع تسر الناظرين . . وكان من المفروض أن يكتفى بنو إسرائيل بذلك ولكنهم عادوا إلى السؤال مرة أخرى .

﴿قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾﴾

وبرغم أن ما قيل لبنى إسرائيل . . واضح تمام الوضوح عن البقرة . . وعمرها وشكلها ولونها ومنظرها . . فإن الله سبحانه وتعالى أراد أن يؤدبهم فجعلهم ينظرون إلى البقر . . وهذا يقول هذه هى والآخر يقول لا بل هى فى مكان كذا . . والثالث يقول لا بل هى فى موقع كذا . . وعادوا إلى موسى يسألونه أن يعود إلى ربه ليبين لهم لأن البقر تشابه عليهم . . وهنا ذكروا الله الذى نسوه ولم ينفذوا أمره منذ أن قال لهم اذبحوا بقرة ثم قال لهم : « افعلوا ما تؤمرون » . . فطلبوا منه الهداية بعد أن تاهوا وضاعوا بسبب عنادهم وجدلهم . . وجاء الجواب من الله سبحانه وتعالى .

﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾﴾

«بقرة لا ذلول» . . البقرة الذلول هى البقرة المروضة الممرنة تؤدى مهمتها بلا تعب . . تماما مثل الخيل المروضة التى لاتتعب راكبها لأنها تم ترويضها . . وسيدنا اسماعيل هو أول من روض الخيل وساسها . . وقال الله سبحانه وتعالى لهم أول وصف للبقرة أنها ليست مروضة . . لا أحد قادها ولا قامت بعمل . . إنها انطلقت على طبيعتها وعلى سجيتها فى الحقول بدون قائد . . «تثير الأرض» أى لم تستخدم فى حراثة الأرض أو فلاحتها . . «ولا تسقى الحرث» . . أى لم تستخدم فى ادارة السواقى لسقية الزرع . . «مسلمة لا شية فيها» أى خالية من العيوب لا أذنها مثقوبة . ولا فيها أى علامة من العلامات التى يميز الناس أبقارهم بها . . ولا رجلها عرجاء ، خالية من البقع والألوان غير اللون الأصفر الفاقع . . وكلمة «لا شية فيها» . . أى لا شىء فيها .

والمتأمل فى وصف البقرة كما جاء فى الآيات يرى الصعوبة والتشدد فى اختيار أوصافها . . كأن الحق تبارك وتعالى يريد أن يجازيهم على أعمالهم . . ولم يجد بنو اسرائيل إلا بقرة واحدة تنطبق عليها هذه المواصفات فقالوا «الآن جئت بالحق» كأن ما قاله موسى قبل ذلك كان خارجا عن نطاق الحق . وذبحوا البقرة ولكن عن كره منهم . . لأنهم كانوا حريصين على ألا يذبحوها ، حرصهم على عدم تنفيذ المنهج . هم يريدون أن يماطلوا الله سبحانه وتعالى . . والله يقول لنا أن سمة المؤمنين ان يسارعوا الى تنفيذ تكاليفه . . واقرأ قوله تعالى :

﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ (سورة آل عمران)

وهذه السرعة من المؤمنين فى تنفيذ التكاليف . . دليل على عشق التكليف . . لانك تسارع لتفعل مايطلبه منك من تحبه . . وقوله تعالى : «وما كادوا يفعلون» . . يدلنا على أنهم حاولوا الابطاء فى التنفيذ والتلكؤ .

اننا لابد أن نلتفت الى أن تباطؤ بنى اسرائيل فى التنفيذ خدم قضية ايمانية أخرى . . فالبقرة التى طلبها الله منهم بسبب عدم قيامهم بتنفيذ الأمر فور صدوره لهم بقرة نادرة لا تتكرر . . والمواصفات التى أعطيت لهم فى النهاية . . لم تكن تنطبق إلا على بقرة واحدة ليتحكم صاحبها فى ثمنها ويبيعها بأغلى الأسعار . .

والقصة أنه كان هناك فى بنى اسرائيل رجل صالح . . يتحرى الحلال فى الرزق والصدق فى القول والايمان الحقيقى بالله . وعندما حضرته الوفاة كان عنده عجلة وكان له زوجة وابنهما الصغير . . ماذا يفعل وهو لا يملك سوى العجلة . اتجه الى الله وقال : اللهم إنى استودعك هذه العجلة لولدى ، ثم أطلقها فى المراعى . . لم يوصِّ عليها أحداً ولكن استودعها الله . استودعها يد الله الأمينة على كل شىء . . ثم قال لامرأته إنى لا أملك إلا هذه العجلة ولا آمن عليها إلا الله . . ولقد اطلقتها فى المراعى . .

وعندما كبر الولد قالت له أمه: إن أباك قد ترك لك وديعة عند الله وهى عجلة . . فقال يا أمى وأين أجدها ؟ . . قالت كن كأبيك هو توكل واستودع ، وأنت توكل واسترد . . فقال الولد: اللهم رب ابراهيم ورب موسى . . رد الى ما استودعه أبى عندك . . فاذا بالعجلة تأتى اليه وقد أصبحت بقرة فأخذها ليريها لأمه . . وبينما هو سائر رآه بنو اسرائيل . فقالوا ان هذه البقرة هى التى طلبها الرب . . وذهبوا الى صاحب البقرة وطلبوا شراءها فقال بكم . . قالوا بثلاثة دنانير . . فذهب ليستشير أمه فخافوا أن ترفض وعرضوا عليه ستة دنانير . . قالت أمه لا . . لا تباع . . فقال الابن لن أبيعها إلا بملء جلدها ذهبا ، فدفعوا له ماأراد . . وهكذا نجد صلاح الأب يجعل الله حفيظا على أولاده يرعاهم وييسر لهم أمورهم .

﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾﴾

قصة القتيل هى أن رجلا ثريا من بنى اسرائيل لم يكن له ولد يرثه . . وكان له أقارب كل منهم يريد أن يستأثر بأموال هذا الرجل . . والمال والذهب هما حياة بنى اسرائيل . . فتآمر على هذا الرجل الثرى ابن أخيه فقتله ليرثه ويستولى على أمواله . . ولكنه أراد أن يبعد التهمة عن نفسه فحمل الجثة وألقاها على باب قرية مجاورة ليتهم اهلها بقتل الثرى . . وفى الصباح قام اهل القرية ووجدوا جثة الثرى امام قريتهم . . ووجدوه غريبا عن القرية فسألوا من هو ؟ حتى وصلوا الى ابن اخيه . . فتجمع أهل القتيل واتهموهم بقتله . . وكان أشدهم تحمسا فى الاتهام القاتل ابن أخيه . .

وقوله تعالى «إدارأتم فيها» الدرأ هو الشيء حين يجيء اليك وكل واحد ينفيه عن نفسه . . إدارأتم أى ان كلا منكم يريد أن يدفع الجريمة عن نفسه فكل واحد يقول لست أنا . .

وليس من الضرورى أن يتهم أحدا آخر غيره . . المهم أن يدفعها عن نفسه .

ولقد حاول أهل القريتين . . قرية القتيل ، والقرية التى وجدت أمامها الجثة . أن يدفع كل منهما شبهة الجريمة عن نفسه وربما يتهم بها الآخر . . ولم يكن هناك دليل دامغ يرجح اتهاما محددا . بل كانت الادلة ضائعة ولذلك استحال توجيه اتهام لشخص دون آخر أو لقرية دون أخرى .

وكان التشريع فى ذلك الوقت ينص على أنه إذا وجد قتيل على باب قرية ولم

يستدل على قاتله . . فإن قرية القتيل وأهله يأخذون خمسين رجلا من أعيان القرية التى وجدت بجوارها الجثة . . فيلقوا اليمين بأنهم ما قتلوه . . ولا علموا قاتله . . وإذا كان الأعيان والأكابر أقل من خمسين رجلا . . تكررت الأيمان حتى تصير خمسين يمينا . . فيحلفون أنهم ما قتلوه ولا يعرفون قاتله . . عندها يتحمل بيت المال دية القتيل . .

ولكن الله كان يريد شيئا آخر . . يريد أن يرد بهذه الجريمة على جحود بنى اسرائيل باليوم الآخر . . ويجعل الميت يقف امامهم وينطق اسم قاتله . . ويجعلهم يرون البعث وهم أحياء . . ولذلك قال سبحانه وتعالى : «والله مخرج ما كنتم تكتمون» . . أى أن بنى اسرائيل أو أولئك الذين ارتكبوا الجريمة دبروها على أن تبقى فى طى الكتمان فلا يعلم احد عنها شيئا . . ولذلك جاء الشاب وقتل عمه دون أن يراه أحد . . ثم حمل الجثة خفية فى ظلام الليل وخرج بها فلم يلتفت أحد اليه . . ثم ذهب الى قرية مجاورة وألقى بالجثة على باب القرية وأهلها نائمون وانصرف عائدا . .

كانت كل هذه الخطوات فى رأيه ستجعل الجريمة غامضة لا تنكشف ابدا ولا يعرف سرها أحد . ولكن الله تبارك وتعالى أراد غير ذلك . . أراد أن يكشف الجريمة بطريقة لاتحتمل الجدل ، وفى نفس الوقت يرد على جحود بنى اسرائيل للبعث . . بأن يريهم البعث وهم أحياء .

﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾

احتدم الخلاف بين بنى اسرائيل وكادت تحدث فتنة كبيرة . . فقرروا أن يلجأوا الى موسى عليه السلام ليطلب من الله تبارك وتعالى أن يكشف لهم لغز هذه الجريمة ويدلهم على القاتل . . وجاء الأمر من الله سبحانه وتعالى أن اذبحوا البقرة ولو ذبحوا بقرة أية بقرة لانتهت المشكلة . . ولكنهم ظلوا يقولون ما لونها وما شكلها الى آخر ماروويناه . . حتى وصلوا الى البقرة التى كان قد استودعها الرجل الصالح عند الله حتى يكبر ابنه فاشتروها وذبحوها . . فأمرهم الله أن يضربوه ببعضها . أى أن يضربوا القتيل بجزء من البقرة المذبوحة بعد أن سال دمها وماتت . .

وانظر الى العظمة فى القصة . جزء من ميت يُضرب به ميت فيحيا . . اذن المسألة أعدها الحق بصورة لا تجعلهم يشكون أبدا . . فلو أن الله احياه بدون أن يضرب بجزء من البقرة . لقالوا لم يكن قد مات ، كانت فيه حياه ثم أفاق بعد اغماءة . ولكن الله أمرهم أن يذبحوا بقرة حتى تموت ليعطيهم درسا ايمانيا بقدرة الله وهم الماديون الذين لا يؤمنون إلا بالماديات . . وأن يأخذوا جزءاً أو أجزاء منها وأن يضربوا به القتيل فيحيا وينطق باسم قاتله ويميته الله بعد ذلك . .

يقول الحق جل جلاله . . «كذلك يحيى الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون» ليرى بنو اسرائيل وهم على قيد الحياة كيف يحيى الله الموتى وليعرفوا أن الانسان لا يبقى حيا بأسباب الحياه . . ولكن بارادة مسبب الحياه فى أن يقول «كن فيكون» .

﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾

لماذا ذكر الحق سبحانه وتعالى القلب ووصفه بأنه يقسو ولم يقل نفوسكم - لأن القلب هو موضع الرقة والرحمة والعطف . . وإذا ما جعلنا القلب كثير الذكر لله فانه يمتلىء رحمة وعطفا . . والقلب هو العضو الذى يحسم مشاكل الحياه . . فإذا كان القلب يعمر باليقين والايمان . . فكل جارحة تكون فيها خميرة الايمان .

وحتى نعرف قوة وقدرة وسعة القلب على الايمان واحتوائه أوضح الله تعالى هذا المعنى فى كتابه العزيز حيث يقول :

﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ ﴾

(سورة الزمر)

وهكذا نرى أن الجلود تقشعر من هول الوعيد بالنار . . ومجرد قراءة ما ذكره القرآن عنها . . وبعد ذلك تأتى الرحمة ، وفى هذه الحالة لا تلين الجلود فقط ولكن لابد أن تلين القلوب لأنها هى التى تعطى اللمحة الايمانية لكل جوارح الجسد . .

ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

«ألا وإن فى الجسد مضغطة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد

الجسد كله ألا وهى القلب»[١]

إذن فالقلب هو منبع اليقين ومصب الايمان ، وكما أن الايمان فى القلب فإن القسوة والكفر فى القلب . . فالقلب حينما ينسى ذكر الله يقسو . . لماذا ؟ . . لأنه يعتقد أنه ليس هناك إلا الحياة الدنيا والا المادة فيحاول أن يحصل منها على أقصى ما يستطيع وبأى طريقة فلا تأتى إلا بالظلم والطغيان وأخذ حقوق الضعفاء ، ثم لايفرط فيها أبدا لأنها هى منتهى حياته فلا شىء بعدها .

انه يجد انسانا يموت امامه من الجوع ولايعطيه رغيفا . . وإذا خرج الايمان من القلب خرجت منه الرحمة وخرج منه كل ايمان الجوارح . . فلمحة الايمان التى فى اليد تخرج فتمتد اليد الى السرقة والحرام . . ولمحة الايمان التى فى العين تخرج فتنظر العين الى كل ماحرم الله . ولمحة الايمان التى فى القدم تخرج فلا تمشى القدم الى المسجد أبدا ولكنها تمشى الى الخمارة والى السرقة . . لأنه كما قلنا القلب مخزن الايمان فى الجسم .

ويشبه الحق تبارك وتعالى قسوة قلوبهم فيقول : «فهى كالحجارة أو أشد قسوة» . . الحجارة هى الشىء القاسى الذى تدركه حواسنا ومألوف لنا ومألوف لبنى اسرائيل ايضا . . لأن لهم مع الحجارة شوطا كبيرا عندما تاهوا فى الصحراء . . وعندما عطشوا وكان موسى يضرب لهم الحجر بعصاه .

الله تبارك وتعالى لفتهم الى أن المفروض أن تكون قلوبهم لينة ورفيقة حتى ولو كانت فى قسوة الحجارة . . ولكن قلوبهم تجاوزت هذه القسوة فلم تصبح فى شدة الحجارة وقسوتها بل هى أشد .

ولكن كيف تكون القلوب أشد قسوة من الحجارة . . لا تنظر الى لينونة مادة القلوب ولكن انظر الى ادائها لمهمتها .

الجبل قسوته مطلوبة لأن هذه مهمته أن يكون وتداً للأرض صلبا قويا ، ولكن هذه القسوة ليست مطلوبة من القلب وليست مهمته . . أما قلوب بنى اسرائيل فهى أشد قسوة من الجبل . . والمطلوب فى القلوب اللين ، وفى الحجارة

---

(١) رواه البخارى ومسلم .

القسوة . . فكل صفة مخلوقة لمخلوق ومطلوبة لمهمة . . فالخطاف مثلا أعوج . . هذا العوج يجعله يؤدى مهمته على الوجه الأكمل . . فعوج الخطاف استقامة لمهمته . . وحين تفسد القلوب وتخرج عن مهمتها تكون أقسى من الحجارة . . وتكون على العكس تماما من مهمتها . .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ ﴾

(من الآية ٧٤ سورة البقرة)

هنا يذكرهم الله لما رأوه من الرحمة الموجودة فى الحجارة . . عندما ضرب موسى الحجر بالعصا فانفجرت منه العيون . وذلك مثل حسى شهدوه . يقول لهم الحق جل جلاله : ان الرحمة تصيب الحجارة فيتفجر منها الانهار ويخرج منها الماء ويقول سبحانه : «وان منها لما يهبط من خشية الله» . .

اذن فالحجارة يصيبها اللين والرحمة فيخرج منها الماء . ولكن قلوبكم اذا قست لا يصيبها لين ولا رحمة فلا تلين أبدا ولا تخشع أبدا . والله سبحانه وتعالى نزل عليكم التوراة وأعطاكم من فضله ورحمته وستره ومغفرته الكثير . . كان المفروض أن تلين قلوبكم لذكر الله .

ولكن ما الفرق بين تفجر الانهار من الحجارة وبين تشققها ليخرج منها الماء ؟ عندما تتفجر الحجارة يخرج منها الماء . نحن نذهب الى مكان الماء لنأخذ حاجتنا . . ولكن عندما تتفجر منها الأنهار فالماء هو الذى يأتى الينا ونحن فى أماكننا . . وفرق بين عطاء تذهب اليه وعطاء يأتى اليك . . أما هبوط الحجر من خشية الله فذلك حدث عندما تجلى الله للجبل فجعله دكا . واقرأ قوله تعالى :

﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ ﴾

(من الآية ١٤٣ سورة الأعراف)

يذكرهم الحق سبحانه كيف أن الجبل حين تجلى الله له هبط وانهار من خشية الله . وهكذا لايعطيهم الأمثلة مما وقع لغيرهم ، ولكن يعطيهم الأمثلة مما وقع لهم .

وقوله تعالى : «وما الله بغافل عما تعملون» أى تذكروا ان الله سبحانه وتعالى لا يغيب عنه شيء وأن كل ما تعملونه يعرفه وأنكم ملاقونه يوم القيامة ومحتاجون إلى رحمته ومغفرته ، فلا تجعلوا قلوبكم تقسو حتى لايطردكم الله من رحمته كما خلت قلوبكم من ذكره .

﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾

يعطينا الحق تبارك وتعالى هنا الحكمة . . فيما رواه لنا عن بنى إسرائيل وعن قصصهم . لأنهم سيكون لهم دور مع المسلمين فى المدينة ، ثم فى بيت المقدس ، ثم فى المسجد الأقصى . . فهو يروى لنا كيف أتعبوا نبيهم وكيف عصوا ربهم . وكيف قابلوا النعمة بالمعصية والرحمة بالجحود . واذا كان هذا موقفهم يا محمد مع الله ومع نبيهم . . فلا تطمع أن يؤمنوا لك ولا أن يدخلوا فى الاسلام ، مع أنهم عندهم التوراة تدعوهم الى الايمان بمحمد عليه الصلاة والسلام . .

هذه الآيات تحمل أعظم تعزية للرسول الكريم . وتطالبه ألا يحزن على عدم ايمان اليهود به لأنه عليه البلاغ فقط ؛ ولكن حرص رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن يؤمن كل أهل الأرض يهود ونصارى وكفاراً ، ليس معناه أنه لم يفهم مهمته ، ولكن معناه أنه أدرك حلاوة التكليف من ربه ، بحيث يريد أن يهدى كل خلق الله فى الأرض . . فيطمئنه الله ويقول له لا تعتقد أنهم سيؤمنون لك. وليس معنى عدم ايمانهم أنك لست صادقا . . فتكذيبهم لك لا ينبغى أن يؤثر فيك . . فلا تطمع يا محمد أن يؤمنوا لك . .

ما هو الطمع ؟ . . الطمع هو رغبة النفس فى شىء غير حقها وإن كان محبوبا لها . . والأصل فى الانسان العاقل ألا يطمع إلا فى حقه . . والانسان أحيانا يريد أن يرفه حياته ويعيش مترفا ولكن بحركة حياته كما هى . نقول له إذا أردت أن تتوسع فى ترفك فلابد أن تتوسع فى حركة حياتك ؛ لأنك لو أترفت معتمدا على حركة حياة غيرك فسيفسد ميزان حركة الحياة فى الأرض ، أى إن كنت تريد أن تعيش حياة متزنة فعش على قدر حركة حياتك ؛ لأنك إن فعلت غير ذلك تسرق وترتش وتفسد . فإن كان عندك طمع فليكن فيما تقدر عليه .

إذن فكلمة «افتطمعون» هنا تحدد أنه يجب ألا نطمع إلا فيما نقدر عليه . هؤلاء اليهود هل نقدر على أن نجعلهم يؤمنون ؟ يقول الله تبارك وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم . . هذا أمر زائد على ما كلفت به . . لأن عليك البلاغ ، وحتى لو كان محببا الى نفسك . . فإن مقدماتهم مع الله لا تعطيك الأمل فى أنك ستصل الى النتيجة التى ترجوها . .

وهذه الآية فيها تسرية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عما سيلاقيه مع اليهود . وتعطيه الشحنة الايمانيةالتى تجعله يقابل عدم ايمان هؤلاء بقوة وعزيمة . . لأنه كان يتوقعه فلا يحزن ولا تذهب نفسه حسرات ، لأن الله تبارك وتعالى قد وضع فى نفسه التوقع لما سيحدث منهم . . فإذا جاء تصرفهم وفق ما سيحدث . . يكون ذلك أمرا محتملا من النفس . .

والحق سبحانه وتعالى يقول : «وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله» انظر إلى الأمانة والدقة . . فريق منهم ليس كلهم . . هذا هو ما استنبط منه العالم نظرية صيانة الاحتمال . . وهى عدم التعميم بحيث تقول انهم جميعا كذا . لابد أن تضع احتمالا فى أن شخصا ما سيؤمن أو سيشذ أو سيخالف . . هنا فريق من اهل الكتاب عرفوا صفات رسول الله صلى الله عليه وسلم من التوراة والانجيل . . وعندما بعث آمنوا به ، وهؤلاء لم يحرفوا كلام الله . لو أن القرآن جاء بالحكم عاما لتغيرت نظرة الكافرين للاسلام . . ولقالوا لقد قال عنا هذا الدين اننا حرفنا كتاب الله ولكننا لم نحرفه ونحن ننتظر رسوله . . فكأن هذا الحكم غير دقيق . . ولابد أن شيئا ما خطأ . . لأن الله الذى نزل هذا القرآن لا يخفى عليه شىء ويعرف ما فى قلوبنا جميعا . . ولكن لأن الآية الكريمة تقول ان فريقا منهم كانوا يسمعون كلام الله ثم يحرفونه . . الكلام بلا تعميم ومنطبق بدقة على كل حال . .

والحق جل جلاله يقول : «ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون» . . هذه معصية مركبة سمعوا كلام الله وعقلوه وعرفوا العقوبة على المعصية ثم بعد ذلك حرفوه . . لقد قرأوه فى التوراة وقرأوا وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى انهم يعرفونه كأبنائهم . . ثم حرفوا كلام الله وهم يعلمون . . ومعنى التحريف تغيير معنى الكلمة . . كانوا يقولون السَّأم عليكم بدلا من السلام عليكم . . ولم يتوقف الأمر عند التحريف بل تعداه الى أن جاءوا بكلام من عندهم وقالوا انه من التوراة .

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾﴾

هذه صور من صور نفاق اليهود . والناس مقسمون إلى ثلاث : مؤمنون وكافرون ومنافقون . . المؤمن انسجم مع نفسه ومع الكون الذى يعيش فيه . . والكافر انسجم مع نفسه ولم ينسجم مع الكون ، والكون يلعنه . . والمنافق لا انسجم مع نفسه ولا انسجم مع الكون ، والآية تعطينا صورة من صور النفاق وكيف لا ينسجم المنافق مع نفسه ولا مع الكون . . فهو يقول ما لا يؤمن به . . وفى داخل نفسه يؤمن بما لا يقول . والكون كله يلعنه ، وفى الآخرة هو فى الدرك الأسفل من النار . وهذه الآية تتشابه مع آية تحدثنا عنها فى أول هذه السورة . . وهى قوله تعالى :

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴿١٤﴾﴾

(سورة البقرة)

فى الآية الأولى كان الدور لليهود ، وكان هناك منافقون من غير اليهود وشياطينهم من اليهود . . وهنا الدور من اليهود والمنافقين من اليهود . الحق سبحانه وتعالى يقول : «واذا لقوا الذين امنوا قالوا آمنا» وهل الايمان كلام ؟ . . الايمان يقين فى القلب وليس كلاما باللسان . . والاستدلال على الايمان بالسلوك فلا يوجد انسان يسلك سبيل المؤمنين نفاقا أو رياء . . يقول آمنت نفاقا ولكن سلوكه لا يكون سلوك المؤمن . . ولذلك كان سلوكهم هو الذى يفضحهم . يقول تعالى : وإذا خلا بعضهم الى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم» . .

وفى سورة أخرى يقول الحق :

﴿ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ﴾

(من الآية ١١٩ سورة آل عمران)

وفى سورة المائدة يقول سبحانه :

﴿ وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِۦ ﴾

(من الآية ٦١ سورة المائدة)

هنا أربع صور من صور المنافقين . . كلها فيها التظاهر بإيمان كاذب . . فى الآية الأولى «واذا خلوا الى شياطينهم قالوا إنا معكم» وفى الآية الثانية : «إذا خلا بعضهم الى بعض قالوا اتحدثونهم بما فتح الله عليكم» . وفى الآية الثالثة : «عضوا عليكم الأنامل من الغيظ» . وفى الآية الرابعة : «وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به» .

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما بعث كان اليهود يقولون للمؤمنين هذا هو نبيكم موجود عندنا فى التوراة أوصافه كذا . . حينئذ كان أحبار اليهود ينهونهم عن ذلك ويقولون لهم : «أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم» فكأنهم علموا صفات رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكنهم أرادوا أن يخفوها . . إن الغريب أنهم يقولون : «بما فتح الله عليكم» . وإذا كان هذا فتحا من الله فلا فضل لهم فيه . . ولو أراد الله لهم الفتح لآمنت القلوب . .

قوله تعالى : « ليحاجوكم به عند ربكم » يدل على أن اليهود المنافقين والكفار وكل خلق الأرض يعلمون انهم من خلق الله ، وان الله هو الذى خلقهم . . وماداموا يعلمون ذلك فلماذا يكفرون بخالقهم ؟ «ليحاجوكم به» أى لتكون حجتهم عليكم قوية عند الله . . ولكنهم لم يقولوا عند الله بل قالوا «عند ربكم» والمحاجة معناها أن يلتقى فريقان لكل منهما وجهة نظر مختلفة . وتقام بينهما مناظرة

يدلى فيها كل فريق بحجته . واقرأ قوله تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ ﴾

(من الآية ٢٥٨ سورة البقرة)

هذه هى المناظرة التى حدثت بين ابراهيم عليه السلام والنمرود الذى آتاه الله الملك . . ماذا قال ابراهيم ؟

﴿ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾

(من الآية ٢٥٨ سورة البقرة)

هذه كانت حجة ابراهيم فى الدعوة الى الله ، فرد عليه النمرود بحجة مزيفة . قال أنا أحيى وأميت . . ثم جاء بواحد من جنوده وقال لحراسه اقتلوه . . فلما اتجهوا اليه قال اتركوه . . ثم التفت الى ابراهيم :

﴿ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ﴾

(من الآية ٢٥٨ سورة البقرة)

جدل عقيم لأن هذا الذى أمر النمرود بقتله . كان حيا وحياته من الله . . والنمرود حين قال اقتلوه لم يمته ولكنه أمر بقتله . . وفرق بين الموت والقتل . . القتل أن تهدم بنية الجسد فتخرج الروح منه لأنه لا يصلح لإقامتها . . والموت أن تخرج الروح من الجسد والبنية سليمة لم تهدم . . الذى يميت هو الله وحده ، ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ﴾

(من الآية ١٤٤ سورة آل عمران)

والنمرود لو قتل هذا الرجل ما كان يستطيع أن يعيده الى الحياة . . ولكن ابراهيم عليه السلام . . لم يكن يريد أن يدخل فى مثل هذا الجدل العقيم . .

الذى فيه مقارعة الحجة بالحجة يمكن فيه الجدال ولو زيفا .. ولذلك جاء بالحجة البالغة التى لا يستطيع النمرود ان يجادل فيها :

﴿ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

(من الآية ٢٥٨ سورة البقرة)

هذا هو معنى الحاجّة .. كل طرف يأتى بحجته ، وما داموا يحاجونكم عند ربكم وهم يعتقدون أن القضية لن تمر أمام الله بسلام لأنه رب الجميع وسينصف المظلوم من الظالم .. اذا كانت هذه هى الحقيقة فهل أنتم تعملون لمصلحة أنفسكم ؟ الجواب لا .. لو كنتم تعلمون الصواب ما كنتم وقعتم فى هذا الخطأ فهذا ليس فتحا ..

وقوله تعالى : «أفلا تعقلون» ختام منطقى للآية .. لأن من يتصرف تصرفهم ويقول كلامهم لا يكون عنده عقل .. الذى يقول «ليحاجوكم عند ربكم» يكون مؤمنا بأن له ربا ، ثم لا يؤمن بهذا الاله ولا يخافه لا يمكن أن يتصف بالعقل .

﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾﴾

يبين الله لنا بأنه يعلم امرهم وما يفعلون . لقد ظنوا أن الله غافل عندما خلا بعضهم إلى بعض وقالوا : « أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم» . . الله علم وسمع . . وعندما يلاقى المنافقون المؤمنين ويقولون آمنا . . «واذا خلو عضوا عليكم الأنامل من الغيظ» هذا انفعال حركى ليس فيه كلام يقال ولكن فيه واقع يرى . . ومع ذلك فهو ليس سرا .

ما هو السر وما هو العلن ؟ . . الأمر المعلن هو الذى يخرج منك الى من عنده آله السماع ليسمعك . . والأمر المعلن يخرج منك الى من عنده آله الرؤية ليراك . . فإن كان حركة بلا صوت فهذا عدته العين . . وان كان بصوت فعدته الأذن . . هذه وسائل الادراك الأصلية . .

وقوله تعالى «يعلم مايسرون وما يعلنون» ألم يكن أولى أن يقول سبحانه يعلم ما يعلنون وما يسرون . . وإذا كان يعلم ما نسر أفلا يعلم ما نعلن ؟ . . لاشك انه يعلم . . ولكنها دقة فى البلاغة القرآنية ؛ ذلك أن المتكلم هو الله سبحانه .

ونحن نعلم أن الله غيب . . وغيب يعنى مستور عن حواسنا . . ومادام الله غيبا فهو يعلم الغيب المستور . . ربما كان العلن الظاهر له قوانين أخرى . . فمثلا إذا كان هناك شخص فى المنزل ، ثم يقول «أنا اعلم ما فى المنزل وما هو خارج المنزل . . لو قال أنا أعلم ما فى المنزل لقلنا له أنت داخله فلا غرابة فى ذلك . . ولكنك مستور عما فى الخارج فكيف تعلمه ؟

ومادام الله غيبا فقوله ما يسرون أقرب لغيبه . وما يعلنون هى التى تحتاج وقفة . لا تظنوا أن الله تبارك وتعالى لأنه غيب لا يعلم إلا ما هو مستور وخفى فقط . . لا . . إنه يعلم المشهود والغائب . . إذن فالمناسب لأن الله غيب عن ابصارنا وكوننا لا ندركه أن يقول ما يسرون أولا . .

ما معنى ما يسرون ؟ . . السر هو ما لم تهمس به الى غيرك . . لأن همسك للغير بالشىء لم يعد سرا . . ولكن السر هو ما تسره فى نفسك ولا تهمس به لأحد من الناس . . وإذا كان السر هو ما تسره فى نفسك ، فالعلن هو ما تجاهر به . ويكون علنا مادام قد علمه اثنان . . والعلن عند الناس واضح والسر عندهم خفى . . والله سبحانه وتعالى حين يخبرنا أنه غيب . . فليس معنى ذلك أنه لا يعلم إلا غيبا . إنه يعلم السر والعلن . . والله جل جلاله يقول فى القرآن الكريم :

﴿ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَىٰ ﴾

(من الآية ٧ سورة طه)

فإذا كان السر هو ما تخفيه فى نفسك وله واقع داخلك . . «ما هو أخفى» هو أن الله يعلم أنك ستفعله قبل أن تفعله . ويعلم أنه سيحدث منك قبل أن يحدث منك .

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾﴾

الله سبحانه وتعالى لازال يتحدث عن أهل الكتاب . . فبعد أن بين لنا الذين يقولون : « أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم » . . انتقل سبحانه وتعالى الى طائفة أخرى وهم من أسماهم بالأميين . . وأصح قول فى الأمى هو أنه كما ولدته أمه . . أى لم يعلم شيئا من ثقافة وعلم فى الوجود منذ لحظة نزوله من بطن أمه . ولذلك فإن الأمى على إطلاقه هو الذى لا يكتسب شيئا من ثقافة الوجود حوله ، بصرف النظر عن أن يقال كما ولدته أمه . . لأن الشائع فى المجتمعات أن الذى يعلم هم الخاصة لا العامة . . وعلى أية حال فالمعانى كلها ملتقية فى تعريف الأمى .

قوله تعالى : « ومنهم أميون » . . تلاحظ أن هناك معسكرات من الأميين واجهت الدعوة الاسلامية . . فالمعسكر الأول كان المشركون فى مكة ، والمعسكر الثانى كان أهل الكتاب فى المدينة . وأهل الكتاب تطلق على أتباع موسى وأتباع المسيح . . ولكن فى الجزيرة العربية كان هناك عدد لا يذكر من النصارى . . وكان هناك مجتمع . والمقصود من قوله تعالى : « ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أمانى » هم اليهود الذين كان لهم مجتمع فى المدينة . . ومادام الحق سبحانه وتعالى قال : « ومنهم أميون » . . معنى هذا أنه لابد أن يكون هناك منهم غير أميين . . وهؤلاء هم الذين سيأتى قول الله تعالى عنهم فى الآية التالية :

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ﴾

(من الآية ٧٩ سورة البقرة)

هنا قسّم الله تبارك وتعالى اليهود إلى أقسام . . منهم قسم أُمّى لا يعرفون

الكتاب وما يقوله لهم أحبارهم هو الذى يعرفونه فقط .. وهؤلاء ربما لو كانوا يعلمون ما فى التوراة .. من صفات رسول الله صلى الله عليه وسلم لآمنوا به .. والكتاب هنا يقصد به التوراة .. والله سبحانه وتعالى لم ينف عنهم مطلق العلم .. ولكنه نفى خصوصية العلم ، لأنه قال لا يعلمون إلا أمانى .. فكأن الأمانى يعلمونها من الكتاب .

ولكن ما الأمانى ؟.. إنها تطلق مرة بدون تشديد الياء ومرة بتشديد الياء .. فإن كانت بالتخفيف تكون جمع أمنية .. وإن كانت بالتشديد تكون جمع أمنية بالتشديد على الياء .. الأمنية تجدها فى القرآن الكريم فى قوله تعالى :

﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾

(من الآية ١٢٣ سورة النساء)

هذا بالنسبة للجمع . أما بالنسبة للمفرد .. فى قوله تعالى :

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾

(من الآية ٥٢ سورة الحج)

ما هى الأمنية ؟.. الأمنية هى الشىء الذى يحب الانسان أن يحدث ولكن حدوثه مستحيل .. إذن لن يحدث ولن يكون له وجود .. ولذلك قالوا إن من معانى التمنى اختلاق الأشياء .. الشاعر الذى قال :

أَلا لَيْتَ الشَّبابَ يعودُ يوماً
فَأُخْبِرُهُ بما فَعَلَ المَشِيبُ

هل الشباب يمكن أن يعود ؟.. طبعا مستحيل .. هذا شىء لن يحدث .. والشاعر الذى قال :

لَيْتَ الكواكِبَ تَدْنُو لى فَأَنْظِمَها
عُقُودَ مَدْحٍ فَما أَرْضَى لَكُمْ كَلِمِ

هل النجوم ستنزل من السماء وتأتى إلى هذا الشاعر . . ينظمها أبيات شعر إلى حبيبته . . إذن من معانى التمنى الكذب والاختلاق . ولقد فسر بعض المستشرقين قول الله تبارك وتعالى : « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى (أى قرأ) : « ألقى الشيطان فى أمنيته » (أى فى قراءته) . . وطبعا الشيطان لن يلقى فى قراءة الرسول إلا كذبا وإفتراء وكفرا . . إقرأ قوله سبحانه :

﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ ﴾

(سورة النجم)

قال أعداء الإسلام مادام قد ذكر فى القرآن أسماء الغرانيق . . وهى الأصنام التى كان يعبدها الكفار . . ومنها اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى . . إذن فشفاعة هذه الأصنام ترتجى فى الآخرة . . وهذا كلام لا ينسجم مع منطق الدين كله الذى يدعو لعبادة الله وحده . . وخرج المستشرقون من ذلك بأن الدين فعلا يدعو لعبادة الله وحده . . إذن فيكون الشيطان قد ألقى فى أمنيته فيما يقوله رسول الله . . ثم أحكم الله سبحانه آياته فقال تعالى :

﴿ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ﴾

(من الآية ٢٣ سورة النجم)

وهم يريدون بذلك أن يشككوا . . فى أنه من الممكن أن يلقى الشيطان بعض أفكاره فى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم . . ولكن الله سبحانه ينسخ ما يلقى الشيطان ويحكم آياته .

إن الله جل جلاله لم يترك وحيه لعبث الشيطان . . ولذلك سنبحث الآية بعيدا عن كل ما قيل . . نقول لو أنك تنبهت إلى قول الله تعالى : (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى) لو قلنا تمنى بمعنى قرأ ، ثم أن الله ينسخ ما يلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته . . إذن هو سبحانه لن يترك رسوله

يخطئ .. وبذلك ضمنا أن كل ما ينتهى إليه الرسول صواب .. وأن كل ما وصلنا عن الرسول محكم .. فنطمئن إلى أنه ليس هناك شىء يمكن أن يلقيه الشيطان فى تمنى الرسول ويصلنا دون أن ينسخ .

فإذا قلنا : إن الله ينسخ مايلقى الشيطان فما الذى جعلكم تعرفون ماألقاه الشيطان مادام رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يقل لكم إلا المحكم .. ثم من هو الرسول ؟ بَشَرٌ أُوحِىَ إليه بمنهج من السماء وأمر بتبليغه .. ومن هو النبى ؟.. بشر أوحى إليه بمنهج . ولم يؤمر بتبليغه .. ومادام لم يؤمر بتبليغه يكون خاصا بهذا النبى .. ويكون النبى قدوة سلوكية .. لأنه يطبق منهج الرسول الذى قبله فهو لم يأت بجديد .

الآية الكريمة جاءت بكلمتى رسول أو نبى .. إذا كان معنى أمنية الشيطان مستقيما بالنسبة للرسول فهو غير مستقيم بالنسبة للنبى .. لأن النبى لا يقرأ شيئا ، ومادام النبى ذكر فى الآية الكريمة فلابد أن يكون للتمنى معنى آخر غير القراءة .. لأن النبى لم يأت بكلام يقرؤه على الناس .. فكأنه سيقرأ كلاما محكما ليس فيه أمنية الشيطان أى قراءته .

إن التمنى لا يأتى بمعنى قراءة الشيطان .. وأمنية الرسول والنبى أن ينجحا فى مهمتهما .. فالرسول كمبلغ لمنهج الله، النبى كأسوة سلوكية .. المعنى هنا يختلف .. الرسول أمنيته أن يبلغ منهج الله .. والشيطان يحاول أن ينزع المنهج من قلوب الناس .. هذا هو المعنى .. والله سبحانه وتعالى حين يحكم آياته ينصر الإيمان ليسود منهج الله فى الأرض وتنتظم حركة الناس .. هذا هو المعنى .

وكلمة تمنى فى هذه الآية الكريمة بمعنى أن الرسول أو النبى يحب أن يسود منهجه الأرض .. والشيطان يلقى العراقيل والله يحكم آياته وينصر الحق . ويجب أن نفهم الآية على هذا المعنى .. بهذا ينتفى تماما ما يدعيه المستشرقون من أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما كان يقرأ ما يوحى إليه يستطيع الشيطان أن يتدخل ويضع كلاما فى الوحى .. مستحيل .

وقوله تعالى : « ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أمانى » .. معناها أنه يأتى

قوم لا يعرفون شيئا عن الكتاب إلا ظنا . . فيصدقهم هؤلاء الأميون دون علم . . وكأن الله سبحانه يريد أن يلفتنا إلى أن كثيرا من المذاهب الدينية فى الأرض ينشأ عن المبلغين لها . . فهناك أناس يأتمنون آخرين ليقولوا لهم ما إنتهت إليه الأحكام الدينية . . فيأتى الأمى أو غير المثقف يسأل عالما عن حكم من الأحكام الشرعية . . ثم يأخذ منه الحكم ويطبقه دون أن يناقشه . . لأن علمه قد إنتهى عند السؤال عن الفتوى . . والحق سبحانه وتعالى كما يقول :

﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾

(من الآية ١٦٤ سورة الأنعام)

أى لا يحمل أحدا ذنب أحد يوم القيامة . . فيقول تعالى :

﴿ لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ ﴾

(من الآية ٢٥ سورة النحل)

بعض الناس يظن أن الآيتين بينهما تعارض . . نقول لا . . من يرتكب إثما يحاسب عليه . . ومن يضل غيره بفتوى غير صحيحة يحل له بها ما حرم الله . . فإنه يحمل معاصيه ومعاصى من أضل . . فيكون له وزر لأنه ضل،ووزر لأنه أضل غيره . . بل وأكثر من ذلك . . فإنرسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

(من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا)(١) .

ولابد أن ننتبه إلى خطورة الفتوى فى الدين بغير علم . . الفتوى فى الدنيا أقصى ما يمكن أن تؤدى اليه هو أن تجعلك تخسر صفقة . . لكن الفتوى فى الدين ستدوم عمرا طويلا . .

---

(١) (رواه أحمد ومسلم أن أبى هريرة)

الحق تبارك وتعالى يقول : « إن هم إلا يظنون » . . والظن كما قلنا هو نسبة راجحة ولكن غير مؤكدة . . وإذا كان التمنى كما ورد فى اللغة هو القراءة . . فهؤلاء الأمّيون لا يعلمون الكتاب إلا قراءة لسان بلا فهم . . ولذلك قال الله سبحانه وتعالى عن اليهود :

﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ﴾

(من الآية ٥ سورة الجمعة)

وهكذا نرى أن هناك صنفا يحمل التوراة وهو لا يعرف عنها شيئا . . والله جل جلاله قال إن مثله كالحمار . . ولكن أقل من الحمار ، لأن الحمار مهمته أن يحمل الأثقال . . ولكن الإنسان ليست مهمته أن يحمل ما يجهل . . ولكن لابد أن يقرأ الكتاب ويعلم المطلوب منه .

﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾

هذه الآية الكريمة جاءت فى القسم الثانى من اليهود وهو المقابل للأميين . . وهم إما أميون لا يعلمون الكتاب . . وإما يعلمون ولكنهم يغيرون فيه ويكتبونه بأيديهم ويقولون هذا من عند الله . ولذلك توعدهم الله تبارك وتعالى فقال : ويل لهم ، وبدأ الآية بالوعيد بالجزاء مباشرة . نلاحظ أن كلمة ويل فى اللغة تستعمل معها كلمتى ويح وويس . . وكلها تعنى الهلاك والعذاب . . وتستعمل للتحسر على غفلة الإنسان عن العذاب . . وإقرأ قوله تعالى :

﴿ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ﴾

(من الآية ٤٩ سورة الكهف)

وقوله جل جلاله :

﴿ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا ﴾

(من الآية ٩٧ سورة الأنبياء)

هذه الويلات تعنى الحسرة وقت رؤية العذاب . . وقيل إن الويل وَادٍ فى جهنم يهوى الإنسان فيه أربعين خريفا والعياذ بالله . . والحق تبارك وتعالى ينذر الذين يكتبون الكتاب بأيديهم أن عذابهم يوم القيامة سيكون مضاعفا . . لأن كل من ارتكب إثما نتيجة لتزييفهم للكتاب سيكونون شركاء وسيحملون عذابهم معهم يوم القيامة ، وسيكون عذابهم مضاعفا أضعافا كثيرة .

يقول الحق سبحانه وتعالى : « فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم » . . ألم يكن يكفى أن يقول الحق فويل للذين يكتبون الكتاب ويكون المعنى مفهوما . . يكتبون الكتاب بماذا ؟ بأيديهم . . نقول لا . . لأن الفعل قد يتم بالأمر وقد يتم بالفعل . . رئيس الدولة مثلا يتصل بأحد وزرائه ويقول له ألم أكتب إليك كتابا بكذا فلماذا لم تنفذه ؟ هو لم يكتب هذا الكتاب بيده ولكنهم كتبوه بأمره ، ورؤساء الدول نادرا ما يكتبون كتبا بأيديهم .

إن الله سبحانه وتعالى يريد هنا أن يبين لنا مدى تعمد هؤلاء للإثم . . فهم لا يكتفون مثلا بأن يقولوا لغيرهم إكتبوا . . ولكن لإهتمامهم بتزييف كلام الله سبحانه وتزويره يقومون بذلك بأيديهم ليتأكدوا بأن الأمر قد تم كما يريدون تماما . . فليست المسألة نزوة عابرة . . ولكنها مع سبق الإصرار والترصد . . وهم يريدون بذلك أن يشتروا ثمنا قليلا ، هو المال أو ما يسمى بالسلطة الزمنية . . يحكمون ويكون لهم نفوذ وسلطان .

ولقد كان أهل الكتاب فى الماضى إذا اختلفوا فى شىء . . ذهبوا إلى الكهان والرهبان وغيرهم ليقضوا بينهم . . لماذا ؟ لأن الناس حين يختلفون يريدون أن يستتروا وراء ما يحفظ كبرياءهم إن كانوا مخطئين . . يعنى لا أنهزم امامه ولا ينهزم أمامى . . وإنما يقولون ارتضينا حكم فلان . . فإذا كنا سنلجأ إلى تشريع السماء ليحكم بيننا . . لا يكون هناك غالب ومغلوب أو منهزم ومنتصر . . ذلك حين أخضع أنا وأنت لحكم الله يكون كل منا راضيا بنتيجة هذا الحكم .

ولكن رجال الدين اليهودى والمسيحى أخذوا يصدرون فتاوى متناقضة . . كل منهم حسب مصلحته وهواه . . ولذلك تضاربت الأحكام فى القضايا المتشابهة . . لأنه لم يعد الحكم بالعدل . . بل أصبح الحكم خاضعا لأهواء ومصالح وقضايا البشر . . وحين يكتبون الكتاب بأيديهم ويقولون هذا من عند الله . . . إنما يريدون أن يخلعوا على المكتوب قداسة تجعل الإنسان يأخذه بلا مناقشة . . وبذلك يكونون هم المشرعين باسم الله ، ويكتبون ما يريدون ويسجلونه كتابة ، وحين أحس أهل الكتاب بتضارب حكم الدين بما أضافه الرهبان والأحبار ، بدأوا يطلبون تحرير الحكم من سلطة الكنيسة .

ولكن لماذا يكتب هؤلاء الناس الكتاب بأيديهم ويقولون هذا من عند الله ؟! .. الحق سبحانه وتعالى يقول : « ليشتروا به ثمنا قليلا » .. وقد قلنا إن الإنسان لا يشترى الثمن .. ولكنه يدفع الثمن ويشترى السلعة .. ولكنك هنا تدفع لتأخذ ثمنا .. تدفع من منهج الله وحكم الله فتغيره وتبدله لتأخذ ثمنا موقوتا .. والله سبحانه وتعالى يعطيك فى الآخرة الكثير ولكنك تبيعه بالقليل .. وكل ثمن مهما بلغ تأخذه مقابل منهج الله يعتبر ثمنا قليلا .

والحق سبحانه وتعالى يقول : « فويل لهم مما كتبت أيديهم » .. الآية الكريمة بدأت بقوله تعالى : « فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم » .. ثم جاء قوله تعالى : « فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون » .. فساعة الكتابة لها ويل وعذاب .. وساعة بيع الصفقة لها ويل وعذاب .. والذى يكسبونه هو ويل وعذاب .

لقد انتشرت هذه المسألة فى كتابة صكوك الغفران التى كانت تباع فى الكنائس لمن يدفع أكثر . والحق سبحانه وتعالى يقول : « وويل لهم مما يكسبون » .. وكلمة كسب تدل على عمل من أعمال جوارحك يجلب لك خيرا أو نفعا .. وهناك كسب وهناك اكتسب .. كسب تأتى بالشىء النافع ، واكتسب تأتى بالشىء الضار .. ولكن فى هذه الآية الكريمة الحق سبحانه وتعالى قال : « وويل لهم مما يكسبون » .. وفى آية ثانية قال : « بلى من كسب سيئة» .

فلماذا تم هذا الإستخدام ؟ نقول إن هذا ليس كسبا طبيعيا ، إنما هو افتعال فى الكسب .. أى اكتساب .. ولابد أن نفهم إنه بالنسبة لجوارح الإنسان .. فإن هناك القول والفعل والعمل .. بعض الناس يعتقد إن هناك القول والعمل .. نقول لا .. هناك قول هو عمل اللسان .. وفعل هو عمل الجوارح الأخرى غير اللسان .. وعمل وهو أن يوافق القول الفعل .. لذلك فإن الله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٣ ﴾

(سورة الصف)

إذن هناك قول وفعل وعمل .. والإنسان إذا استخدم جوارحه استخداما سليما يفعل ما هو صالح له .. فإذا انتقل إلى ما هو غير صالح إلى ما يغضب الله فإن جوارحه لاتفعل ولكنها تفتعل .. تتصادم ملكاتها بعضها مع بعض والإنسان وهو يفتح الخزانة ليأخذ من ماله يكون مطمئنا لا يخاف شيئا .. والإنسان حين يفتح خزانة غيره يكون مضطربا وتصرفاته كلها افتعال .. والإنسان مع زوجته منسجم فى هيئة طبيعية ، بعكس ما يكون فى وضع مخالف .. إنها حالة إفتعال .. وكل من يكسب شيئا حراما إفتعله .. ولذلك يقال عنه اكتسب .. إلا إذا تمرس وأصبح الحرام لا يهزه ، أو ممن نقول عنهم معتادو الإجرام .. فى هذه الحالة يفعل الشىء بلا افتعال لأنه اعتاد عليه .. هؤلاء الذين وصلوا إلى الحد الذى يكتبون فيه بأيديهم ويقولون من عند الله .. أصبح الإثم لا يهزهم ، ولذلك توعدهم الله بالعذاب مرتين فى آية واحدة .

﴿وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾﴾

هنا يكشف الله سبحانه وتعالى فكر هؤلاء الناس . . لقد زين لهم الشيطان الباطل فجعلهم يعتقدون أنهم كسبوا فعلا وأنهم أخذوا المال والجاه الدنيوى وفازوا به . . لأنهم لن يعذبوا فى الآخرة إلا عذابا خفيفا قصيرا . . ولذلك يفضح الله تبارك وتعالى مايقولونه بعضهم مع بعض . . ماذا قالوا ؟ : « قالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودة »

المس يعنى اللمس الخفيف أو اقتراب شىء من شىء . . ولكن لا يحس أحدهما بالآخر إلا إحساسا خفيفا لا يكاد يذكر . . فإذا أتيت إلى إنسان ووضعت أنا مِلَكَ على يده يقال مسست . . ولكنك لم تستطع بهذا المس أن تحس بحرارة يده أو نعومة جلده . . ولكن اللمس يعطيك إحساسا بما تلمس : « قالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودة » وهكذا أخذوا أقل الأقل فى العذاب . . ثم أقل الأقل فى الزمن فقالوا أياما معدودة . . الشىء إذا قيل عن معدود فهو قليل . . أما الشىء الذى لا يحصى فهو الكثير . . ولذلك حين يتحدث الله عن نعمه يقول سبحانه :

﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ﴾

(من الآية ١٨ سورة النحل)

فمجرد الإقبال على العد معناه أن الشىء يمكن إحصاؤه . . فإن لم يكن ممكنا لا يُقبل أحد على عده ، ولا نرى من حاول عدَّ حبات الرمال أو ذرات الماء فى البحار . . نِعَمُ الله سبحانه وتعالى ظاهرة وخفية لا يمكن أن تحصى ، ولذلك

لا يُقبل أحد على إحصائها . . وإذا سمعت كلمة « أياما معدودة » فأعلم إنها أيام قليلة . . ولذلك نرى فى سورة يوسف قول الحق جل جلاله :

﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ ﴾

(من الآية ٢٠ سورة يوسف)

قولهم لن تمسنا النار إلا أياما معدودة . . دليل على غبائهم لأن مدة المس لا تكون إلا لحظة . . ولكنها أمانى وضعها الشيطان فى عقولهم ليأتى الرد من الله فى قوله سبحانه : « قل أتخذتم عند الله عهدا فلن يخلف الله عهده » أى إذا كان ذلك وعدًا من الله ، فالله لا يخلف وعده . والله يأمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم لستم أنتم الذين تحكمون وتقررون ماذا سيفعل الله سبحانه وتعالى بكم . . بل هو جل جلاله الذى يحكم . . فإن كان قد أعطاكم عهدا فالله لا يخلف وعده .

وقوله تعالى : « أم تقولون على الله ما لا تعلمون » . . هنا أدب النبوة والخلق العظيم لرسول الله صلى الله عليه وسلم . . فبدلا من أن يقول لهم أتفترون على الله أو أتكذبون على الله . . أو أتختلقون على الله ما لم يقله . . قال : « أم تقولون على الله ما لا تعلمون » إن الذى يختلق الكلام يعلم أنه مختلق . . إنه أول من يعلم كذب ما يقول ، وقد يكون له حجة ويقنع من أمامه فيصدقه ، ولكنه يظل يعلم إن ما قاله مختلق رغم أنهم صدقوه . . ولذلك فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إلىّ فلعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضى له على نحو ما أسمع فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هى قطعة من النار فليأخذها أو ليتركها)[1] .

إذن مختلق الشىء يعرف إن هذا الشىء مختلق . وهؤلاء اليهود هم أول من يعلم إن قولهم . . « لن تمسنا النار إلا أياما معدودة » قول مختلق . . ولكن لمن يقولون على الله ما هو إفتراء وكذب ؟ يقولون للأميين الذين لا يعرفون الكتاب .

---

(١) (رواه مالك وأحمد والبخارى ومسلم)

﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ ﴾

أراد الله سبحانه وتعالى أن يوضح كذبهم . . فجاء القرآن قائلا : « بلى » وهى حرف جواب مثل نعم تماما . . ولكن « بلى » حرف جواب فى النفى . . يعنى ينفى الذى قبله . . هم قالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودة ورسول الله سألهم هل اتخذوا عند الله عهدا أو يقولون على الله ما لا يعلمون ، فجاء القرآن ليقول : « بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » . . بداية الجواب ببلى تنفى ما قالوا . . لأن بلى تأتى بعد النفى . . ونعم تأتى بعد الاجابة . . فإذا قال إنسان ليس لك عندى شىء وقلت نعم ، فمعناها أنه صحيح أنك ليس لك عندى شىء . . أما إذا قلت بلى ، فمعنى ذلك أن لك عندى شيئا أو أشياء . . ولذلك بعد قولهم « لن تمسنا النار إلا أياما معدودة » . . لو جاء بعدها نعم ، لكان قولهم صحيحا ، ولكن بلى نفت . . وجاء الكلام بعدها مؤكدا النفى :

« من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » هم قالوا لن تمسنا النار . . قال لن تمسكم فقط بل أنتم فيها خالدون . . وقوله تعالى : « أصحاب النار » . . الصحبة تقتضى نوعا من الملازمة فيها تجاذب المتصاحبين . . ومعنى ذلك أنه سيكون هناك تجاذب بينهم وبين النار . .

هنا نلاحظ أن الحق سبحانه وتعالى قال : « بلى من كسب سيئة » . . وكان السياق يقتضى أن يقال اكتسب . . ولكن لأنهم ظنوا أنهم كسبوا . . كما بينا فى الآية السابقة . . وقوله تعالى : « وأحاطت به خطيئته » . . احاطة بحيث

لا يوجد منفذ للإفلات من الخطيئة لأنها محيطة به . وأنسب تفسير لقوله تعالى : « كسب سيئة وأحاطت به خطيئته » . . أن المراد الشرك . . لأن الشرك هو الذى يحيط بالإنسان ولا مغفرة فيه . . والله تعالى يقول :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾

(من الآية ٤٨ سورة النساء)

ولذلك فهؤلاء لم يكونوا عصاة فقط . . ولكنهم كانوا كافرين مشركين . والدليل قوله تعالى : « هم فيها خالدون » . . وأصحاب الصغائر أو الكبائر الذين يتوبون منها لا يخلدون فى النار . . ولكن المشرك بالله والكافر به هم الخالدون فى النار . . وكل من لم يؤمن بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم كافر . . لأن الله سبحانه وتعالى قال :

﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

ولذلك قلت هناك فرق بين . . الإنسان الذى يرتكب معصية لأنه لا يقدر على نفسه فيندم ويتوب . . وبين إنسان يفرح بالمعصية . . ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ ﴾

(من الآية ١٧ سورة النساء)

وهناك من يندم على المعصية وهذا له توبة . . وهناك من يفرح بالمعصية وهذا يزداد معصية .

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨٢﴾﴾

عندما يذكر الله سبحانه وتعالى فى القرآن الكريم .. العذاب والنار، يأتى بالمقابل وهو النعيم والجنة .. ذلك أن المقابلة ترينا الفرق .. وتعطى للمؤمن إحساسا بالسعادة .. لأنه زحزح عن عذاب الآخرة ، وليس هذا فقط .. بل دخل الجنة ليقيم خالدا فى النعيم .. ولذلك يقول سبحانه :

﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾

(من الآية ١٨٥ سورة آل عمران)

إذن الفوز فى الآخرة ليس على درجة واحدة ولكن على درجتين .. أولى درجات الفوز أن يزحزح الإنسان عن النار ولو إلى الأعراف وهذا فوز عظيم .. يكفى انك تمر على الصراط المضروب فوق النار وترى ما فيها من ألوان العذاب ، ثم بعد ذلك تنجو من هذا الهول كله .. يكفى ذلك ليكون فوزا عظيما .. لأن الكافر فى هذه اللحظة يتمنى لو كان ترابا حتى لا يدخل النار .. فمرور المؤمن فوق الصراط ورؤيته للنار نعمة لأنه يحس بما نجا منه .. فإذا تجاوز النار ودخل إلى الجنة لينعم فيها نعيما خالدا كان هذا فوزًا آخر .. ولذلك حرص الله تبارك وتعالى أن يعطينا المرحلتين . فلم يقل : من زحزح عن النار فاز .. ولم يقل من أدخل الجنة فاز .. بل قال « فمن زُحْزِحَ عن النارِ وأُدخِلَ الجَنَّةَ فقد فاز » .. وجاءت هذه الآية الكريمة بعد آيات العذاب لتعطينا المقارنة .

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾﴾

أخذ الله سبحانه وتعالى على بنى إسرائيل ثمانية أشياء : الميثاق . . وهو العهد الموثق المربوط ربطا دقيقا وهو عهد الفطرة أو عهد الذر . . مصداقا لقوله تعالى :

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾

(من الآية ١٧٢ سورة الأعراف)

وهناك عهد آخر أخذه سبحانه وتعالى على رسله جميعا . . أن يبشروا برسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم . . ويطلبوا من أتباعهم أن يؤمنوا به عند بعثه . . أو ألا يكتموا ما فى كتبهم والا يغيروه . . والميثاق هو كل شىء فيه تكليف من الله . . ذلك أنك تدخل فى عقد إيمانى مع الله سبحانه وتعالى بأن تفعل ما يأمر به وتترك ما نهى عنه . . هذا هو الميثاق . . كلمة الميثاق وردت فى القرآن الكريم بوصف غليظ . . فى علاقة الرجل بالمرأة . . قال سبحانه وتعالى :

﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾﴾

(سورة النساء)

نقول نعم لأن هذا الميثاق سيحل للمرأة أشياء لا تكون إلا به . . أشياء لا تحل لأبيها أو لأخيها أو أى إنسان عدا زوجها . . والرجل إذا دخل على ابنته وكانت ساقها مكشوفة تسارع بتغطيته . . فإذا دخل عليها زوجها فلا شىء عليها . . إذن هو ميثاق غليظ لأنه دخل مناطق العورة وأباح العورة للزوج والزوجة . . ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾

(من الآية ١٨٧ سورة البقرة)

إن كلا منهما يغطى ويخفى ويستر عورة الآخر . . والأب لا يفرح من انتقال ولاية ابنته إلى غيره . . إلا انتقال هذه الولاية لزوجها . . ويشعر بالقلق عندما تكبر الفتاة ولا تتزوج .

الحق يقول : « وإذ أخذنا ميثاق بنى إسرائيل لا تعبدون إلا الله » هذا الميثاق شمل ثلاثة شروط : « لا تعبدون إلا الله » . . أى تعبدون الله وحده . . وتؤمنون بالتوراة وبموسى نبيا . . لماذا ؟ لأن عبادة الله وحده هى قمة الإيمان . . ولكن لا تحدد أنت منهج عبادته سبحانه . . بل الذى يحدد منهج العبادة هو المعبود وليس العابد . . لابد أن تتخذ المنهج المنزل من الله وهو التوراة وتؤمن به . . ثم بعد ذلك تؤمن بموسى نبيا . . لأنه هو الذى نزلت عليه التوراة . . وهو الذى سيبين لك طريق العبادة الصحيحة . وبدون هذه الشروط الثلاثة لا تستقيم عبادة بنى إسرائيل . .

وقوله تعالى : « وبالوالدين إحسانا » لأنهما السبب المباشر فى وجودك . . ربياك وأنت صغير ، ورعياك ، وقوله تعالى : « إحسانا » معناه زيادة على المفروض . لأنك قد تؤدى الشىء بالقدر المفروض منك . . فالذى يؤدى الصلاة مثلا بقدر الغرض يكون قد أدى . . أما الذى يصلى النوافل ويقوم الليل يكون قد دخل فى مجال الإحسان . . أى عطاؤه أكثر من المفروض . . والله تبارك وتعالى يقول :

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ

ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ ﴾

(سورة الذاريات)

وهكذا نرى أن الإحسان زيادة على المفروض فى الصلاة والتسبيح والصدقة . والله تبارك وتعالى يريد منك أن تعطى لوالديك أكثر من المفروض أو من الواجب عليك . .

وقوله تعالى : « وذوى القربى » . . يحدد الله لنا فيها المرتبة الثانية بالنسبة للإحسان . . فالله جل جلاله أوصانا أن نحسن لوالدينا ونرعى أقاربنا . . ولو أن كل واحد منا قام بهذه العملية ما وجد محتاج أو فقير أو مسكين فى المجتمع . . والله يريد مجتمعا لا فقر فيه ولا حقد . . وهذا لا يتأتى إلا بالتراحم والإحسان للوالدين والأقارب . . فيكون لكل محتاج فى المجتمع من يكفله . .

يقول الله سبحانه : « واليتامى » . . واليتيم هو من فقد أباه وهو طفل لم يبلغ مبلغ الرجال . . هذا فى الإنسان . . أما فى الحيوان فإن اليتيم من فقد أمه . . لأن الأمومة فى الحيوان هى الملازمة للطفل ، ولأن الأب غير معروف فى الحيوان ولكن الأم معروفة . . اليتيم الذى فقد أباه فقد من يعوله ومن يسعى من أجله ومن يدافع عنه . . والله سبحانه وتعالى جعل الأم هى التى تربى وترعى . . والأب يكافح من أجل توفير إحتياجات الأسرة . . ولكن الحال إنقلب الآن ولذلك يقول شوقى رحمه الله :

لَيْسَ الْيَتِيمُ مَنِ انْتَهَى أَبَوَاهُ مِنْ
هَمِّ الْحَيَاةِ وَخَلَّفَاهُ ذَلِيلاَ
إِنَّ الْيَتِيمَ هُوَ الَّذِى تَلْقَى لَهُ
أُمًّا تَخَلَّتْ أَوْ أَباً مَشْغُولاَ

إن اليتيم يكون منكسرا لأنه فقد والده فأصبح لا نصير له . . فإذا رأينا فى المجتمع الإسلامى أن كل يتيم يرعاه رعاية الأب كل رجال المجتمع . . فذلك

يجعل الأب لا يخشى أن يترك إبنه بعد وفاته .. إذن فرعاية المجتمع لليتيم تضمن أولا حماية حقه ، لأنه إذا كان يتيما وله مال فإن الناس كلهم يطمعون فى ماله ، لأنه لا يقدر أن يحميه .. هذه واحده .. والثانية أن هذا التكافل يُذهب الحقد من المجتمع ويجعل كل إنسان مطمئنا على أولاده ..

وقوله سبحانه وتعالى : « والمساكين » .. فى الماضى كنا نقول إن المساكين هم الذين لا يملكون شيئا على الإطلاق ليقيموا به حياتهم .. إلى أن نزلت الآية الكريمة فى سورة الكهف :

﴿ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ ﴾

(من الآية ٧٩ سورة الكهف)

فعرفنا أن المسكين قد يملك .. ولكنه لا يملك ما يكفيه .. وهذا نوع من التكافل الإجتماعى لابد أن يكون موجودا فى المجتمع .. حتى يتكافل المجتمع كله .. فأنت إن كنت فقيرا أو مسكينا ويأتيك من رجل غنى ما يعينك على حياتك .. فإنك ستتمنى له الخير لأن هذا الخير يصيبك .. ولكن إذا كان هذا الغنى لا يعطيك شيئا .. هو يزداد غنى وأنت تزداد فقرا .. تكون النتيجة أن حقده يزداد عليك ..

ويقول الحق سبحانه وتعالى : « وقولوا للناس حُسْنا » .. كلمة حسنا بضم الحاء ترد بمعنى حسن بفتح الحاء .. والحسن هو ما حسنه الشرع .. ذلك أن العلماء اختلفوا : هل الحسن هو ماحسَّنه الشرع أو ماحسنه العقل ؟ نقول : ما حسنه العقل مما لم يرد فيه نص من تحسين الشرع .. لأن العقل قد يختلف فى الشىء الواحد .. هذا يعتبره حسنا وهذا يعتبره قبيحا .. والله تبارك وتعالى يقول :

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ ﴾

(من الآية ١٢٥سورة النحل)

هذا هو معنى قوله تعالى : « وقولوا للناس حسنا » .. ثم جاء قوله جل

جلاله : « وأقيموا الصلاة » وقد تكلمنا عن معنى إقامة الصلاة وما يجعلها مقبولة عند الله . وهناك فرق بين أن تقول صلوا . . وبين أن تقول أقيموا الصلاة . . أقيموا الصلاة معناها صلّ ولكن صلاة على مستواها الذى يطلب منك . . وإقامة الصلاة كما قلنا هى الركن الذى لا يسقط أبدا عن الإنسان . .

ويقول الحق : « وآتوا الزكاة » . . بالنسبة للزكاة عندما يقول الله سبحانه : « وذوى القربى واليتامى والمساكين » . . نقول أن الأقارب واليتامى والمساكين لهم حق فى الزكاة ماداموا فقراء . . لنحس جميعا أننا نعيش فى بيئة إيمانية متكاملة متكافلة . . يحاول كل منا أن يعاون الآخر . . فالزكاة فى الأساس تعطى للفقير ولو لم يكن يتيما أو قريبا . . فإن لكل فقير حقوقا ورعاية . . فإذا كان هناك فقراء أقارب أو يتامى يصبح لهم حقان . . حق القريب وحق الفقير . .

وإن كان يتيما فله حق اليتيم وحق الفقير . . بعد أن ذكر الحق سبحانه وتعالى عناصر الميثاق الثمانية . . قال : « ثم توليتم » . . تولى يعنى أعرض أو لم يُطِعْ أو لم يستمع . . يقول الحق سبحانه : « ثم توليتم إلا قليلا منكم وأنتم معرضون » . . هذا هو واقع تاريخ بنى إسرائيل . . لأن بعضهم تولى ولم يطع الميثاق وبعضهم أطاع . .

إن القرآن لم يشن حملة على اليهود ، وإنما شن حملة على المخالفين منهم . ولذلك احترم الواقع وقال : « إلا قليلا » . . وهذا يقال عنه بالنسبة للبشر قانون صيانة الاحتمال . .

إن الحق جل جلاله يتكلم بإنصاف الخالق للمخلوق . . لذلك لم يقل « ثم توليتم » بل قال إلا قليلا . « توليتم » يعنى أعرضتم ، ولكن الله تبارك وتعالى يقول : « ثم توليتم إلا قليلا منكم وأنتم معرضون » نريد أن نأخذ الدقة الأدائية . . إذا أردنا أن نفسر تولىّ . . فمعناها أعرض أو رفض الأمر . . ولكن الدقة لو نظرنا للقرآن لوجدنا أنه حين يلتقى المؤمن بالكافر فى معركة . . فالله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ١٦ سورة الأنفال)

إذن فالتولى هو الإعراض . . والحق سبحانه وتعالى فى هذه الآية الكريمة بين لنا أن الإعراض يتم بنوايا مختلفة . . المقاتل يوم الزحف يعرض أو يتولى ليس بنية الهرب من المعركة . . ولكن بنية أن يذهب ليقاتل فى مكان آخر أو يعاون إخوانه الذين تكاثر عليهم الأعداء . . هذا إعراض ولكن ليس بنية الهرب من المعركة . . ولكن بنية القتال بشكل أنسب للنصر . .

نفرض أن إنسانا مدين لك رأيته وهو قادم فى الطريق فتوليت عنه . . أنت لم تعرض عنه كرها . . ولكن رحمة لأنك لا تريد المساس بكرامته . . إذن هناك تولٍّ أو إعراض ليس بنية الإعراض . والله سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلى أن هؤلاء اليهود تولوا بنية الإعراض ، ولم يتولوا بأى نية أخرى . . أى أنهم أعرضوا وهم متعمدون أن يعرضوا . . وليس لهدف آخر .

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾﴾

قلنا ساعة تسمع « إذ » فأعلم أن معناها أذكر . . وقلنا إن الميثاق هو العهد الموثق . . وقوله تعالى : « لا تسفكون دماءكم » . . والله تبارك وتعالى ذكر قبل ذلك فى الميثاق عبادة الله وحده . . وبالوالدين إحسانا وذى القربى واليتامى والمساكين . . وقولوا للناس حسنا وأقيموا الصلاة إلى آخر ما جاء فى الآية الكريمة . . وكلها أوامر أى وكلها افعل . . إستكمالا للميثاق . . يقول الله فى هذه الآية الكريمة ما لا تفعل . . فالعبادة كما قلنا هى إطاعة الأوامر والامتناع عن النواهى . . أو ما نهى عنه الميثاق :

« لا تسفكون دماءكم » ومعناها لا يسفك كل واحد منكم دم أخيه . . لا يسفك بعضكم دم بعض . ولكن لماذا قال الله : « دماءكم » ؟ لأنه بعد ذلك يقول : « ولا تخرجون أنفسكم من دياركم » . . الحكم الإيمانى يخاطب الجماعة الإيمانية على أنها وحدة واحدة . . لذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(مثل المؤمنين فى توادهم وتعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا شتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى)[1] .

فكأن المجتمع الإيمانى وحدة واحدة . . والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً﴾

(من الآية ٦١ سورة النور)

(رواه البخارى)

ولكن إذا كنت أنا الداخل فكيف أسلم على نفسى ؟ كأن الله يخاطب المؤمنين على أساس أنهم وحدة واحدة . . وعلى هذا الأساس يقول سبحانه : « لا تسفكون دماءكم » . . أى لا تقتلوا أنفسكم . . السفك معناه حب الدم . . « ودماءكم » هو السائل الموجود فى الجسم اللازم للحياة . . وقوله تعالى : « ولا تخرجوا أنفسكم من دياركم » يعنى لا يخرج بعضكم بعضا من ديارهم . . ثم ربط المؤمنين من بنى إسرائيل بقوله تعالى : « ثم أقررتم وأنتم تشهدون » . . أقررتم أى اعترفتم : « وأنتم تشهدون » الشهادة هى الإخبار بمشاهد . . والقاضى يسأل الشهود لأنهم رأوا الحادث فيروون ما شاهدوا . . وأنت حين تروى ما شاهدت . . فكأن الذين سمعوا أصبح ما وقع مشهودا وواقعا لديهم . . وشاهد الزور يغير المواقع .

الحق سبحانه وتعالى يخاطب اليهود المعاصرين لرسول الله صلى الله عليه وسلم . . ويذكرهم بما كان من آبائهم الأولين . . وموقفهم من أخذ الميثاق حين رفع فوقهم جبل الطور وهى مسألة معروفة . . والقرآن يريد أن يقول لهم إنكم غيرتم وبدلتم فيما تعرفون . . فالذى جاء على هواكم طبقتموه . . والذى لم يأت على هواكم لم تطبقوه .

﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾﴾

يخاطب الحق جل جلاله اليهود ليفضحهم لأنهم طبقوا من التوراة ماكان على هواهم .. ولم يطبقوا مالم يعجبهم ويقول لهم : « أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض » . إنه يذكرهم بأنهم وافقوا على الميثاق وأقروه .

ولقد نزلت هذه الآية عندما زنت امرأة يهودية وأرادوا ألا يقيموا عليها الحد بالرجم .. فقالوا نذهب إلى محمد ظانين انه سيعفيهم من الحد الموجود فى كتابهم .. أو أنه لا يعلم ما فى كتابهم .. فلما ذهبوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لهم هذا الحكم موجود عندكم فى التوراة .. قالوا عندنا فى التوراة أن نلطخ وجه الزانى والزانية بالقذارة ونطوف به على الناس .. قال لهم رسول الله لا .. عندكم آية الرجم موجودة فى التوراة فانصرفوا .. فكأنهم حين يحسبون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سيخفف حدا من حدود الله .. يذهبون إليه ليستفتوه .

والحق سبحانه وتعالى يقول : « ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم » .. أى بعد أن أخذ عليكم الميثاق ألا تفعلوا .. تقتلون أنفسكم .. يقتل بعضكم بعضا ، أو أن من قتل سيقتل . فكأنه هو الذى قتل نفسه .. والحق سبحانه قال : « ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم » .. لماذا جاء بكلمة هؤلاء هذه ؟ لإنها إشارة للتنبيه لكى نلتفت إلى الحكم .

وقوله تعالى : « وتخرجون فريقا منكم من ديارهم » وحذرهم بقوله : « ولا تخرجون أنفسكم من دياركم » .. وجاء هذا فى الميثاق . ما هو الحكم الذى

يريد الحق تبارك وتعالى أن يلفتنا إليه ؟ نقول إن رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما هاجر إلى المدينة إنتقل من دار شرك إلى دار إيمان . . ومعنى دار إيمان أن هناك مؤمنين سبقوا . . فهناك من آمن من أهل المدينة . . لقد هاجر المسلمون قبل ذلك إلى الحبشة ولكنها كانت هجرة إلى دار أمن وليست دار إيمان . . ولكن حين حدثت بيعة العقبة وجاء جماعة من المدينة وعاهدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وآمنوا به . . أرسل معهم الرسول مصعب بن عمير ليعلمهم دينهم . . وجاءت هجرة الرسول عليه الصلاة والسلام على خميرة إيمانية موجودة . . لما جاء الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة أفسد على اليهود خطة حياتهم . . فاليهود كانوا ممثلين فى بنى قينقاع وبنى النضير وبنى قريظة . . وكان هناك فى المدينة الأوس والخزرج . . وبينهما حروب دائمة قبل أن يأتى الإسلام . . فاليهود قسموا أنفسهم إلى قوم مع الأوس وقوم مع الخزرج حتى يضمنوا إستمرار العداوة . . فكلما هدأ القتال أهاجوا أحد المعسكرين على الآخر ليعود القتال من جديد . . وهم كذلك حتى الآن وهذه طبيعتهم .

إن الذى صنع الشيوعية يهودى ، والذى صنع الرأسمالية يهودى . . والذى يحرك العداوة بين المعسكرين يهودى . . وكان بنو النضير وبنو قينقاع مع الخزرج وبنو قريظة مع الأوس . . فإذا إشتبك الأوس والخزرج كان مع كل منهم حلفاؤه من اليهود . عندما تنتهى المعركة ماذا كان يحدث ؟ إن المأسورين من بنى النضير وبنى قينقاع يقوم بنو قريظة بالمساعدة فى فك أسرهم . . مع انهم هم المتسببون فى هذا الأسر . . فاذا إنتصرت الأوس وأخذوا أسرى من الخزرج ومن حلفائهم اليهود . . يأتى اليهود ويعملون على إطلاق سراح الأسرى اليهود . . لأن عندهم نصًا انه إذا وجد أسير من بنى إسرائيل فلابد من فك أسره .

والحق سبحانه وتعالى يقول لهم إن أعمالكم فى أن يحارب بعضكم بعضا وأن تسفكوا دماءكم . . لا تتفق مع الميثاق الذى أخذه الله عليكم بل هى مصالح دنيوية . . تقتلون أنفسكم والله نهاكم عن هذا : « وتخرجون فريقا منكم من ديارهم » والله نهاكم عن هذا : « تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان وإن يأتوكم أسارى تفادوهم وهو محرم عليكم إخراجهم » . . وهذا ما كان يحدث فى المدينة فى الحروب بين الأوس والخزرج كما بينا . . والأسارى جمع أسير وهى على غير قياسها ، لأن القياس فيها أسرى . . ولذلك نرى فى آية أخرى أنه يأتى قول الله

سبحانه وتعالى :

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾

(من الآية ٦٧ سورة الأنفال)

ولكن القرآن أتى بها أسارى . . واللغة أحيانا تأتى على غير ما يقتضيه قياسها لتلفتك إلى معنى من المعانى . . فكسلان تجمع كسالى.والكسلان هو هابط الحركة . . الأسير أيضا أنت قيدت حركته . . فكأن جمع أسير على أسارى إشارة إلى تقييد الحركة . . القرآن الكريم جاء بأسارى وأسرى . . ولكنه حين استخدم أسارى أراد أن يلفتنا إلى تقييد الحركة مثل كسالى . . ومعنى وجود الأسرى أن حربا وقعت . .لحرب تقتضى الالتقاء والالتحام . . ويكون كل واحد منهم يريد أن يقتل عدوه .

كلمة الأسر هذه أخذت من أجل تهدئة سعار اللقاء . . فكأن الله أراد أن يحمى القوم من شراسة نفوسهم وقت الحرب فقال لهم إستأسروهم . . لا تقتلوهم إلا إذا كنتم مضطرين للقتل . . ولكن خذوهم أسرى وفى هذا مصلحة لكم لأنكم ستأخذون منهم الفدية . . وهذا تشريع من ضمن تشريعات الرحمة . . لأنه لو لم يكن الأسر مباحا . . لكان لابد إذا إلتقى مقاتلان أن يقتل أحدهما الآخر . . لذلك يقال خذه أسيرا إلا إذا كان وجوده خطرًا على حياتك .

وقول الحق تبارك وتعالى : « وإن يأتوكم أسارى تفادوهم وهو محرم عليكم إخراجهم » . . كانت كل طائفة من اليهود مع حليفتها من الأوس أو الخزرج . . وكانت تخرج المغلوب من دياره وتأخذ الديار . . وبعد أن تنتهى الحرب يفادوهم . . أى يأخذون منهم الفدية ليعيدوا إليهم ديارهم وأولادهم .
لماذا يقسم اليهود أنفسهم هذه القسمة . . إنها ليست تقسيمة إيمانية ولكنها تقسيمة مصلحة دنيوية . . لماذا ؟ لأنه ليس من المعقول وأنتم أهل كتاب . . ثم تقسمون أنفسكم قسما مع الأوس وقسما مع الخزرج . . ويكون بينكم إثم وعدوان .

وقوله تعالى : « تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان » . . تظاهرون عليهم.أى

تعاونون عليهم وأنتم أهل دين واحد : « بالإثم » .. والإثم هو الشيء الخبيث الذى يستحى منه الناس : « والعدوان » .. أى التعدى بشراسة .. وقوله تعالى : « وأن يأتوكم أسارى تفادوهم وهو محرم عليكم إخراجهم » .. إى تخرجوهم من ديارهم وتأخذوا الفدية لترجعوها إليهم .

ثم يقول الله تبارك وتعالى : « أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض » .. أى تأخذون القضية على أساس المصلحة الدنيوية .. وتقسمون أنفسكم مع الأوس أو الخزرج .. تفعلون ذلك وأنتم مؤمنون بإله ورسول وكتاب .. مستحيل أن يكون دينكم أو نبيكم قد أمركم بهذا .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :« فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلاخزى فى الحياة الدنيا » أى إنكم فعلتم ذلك وخالفتم لتصلوا إلى مجد دنيوى ولكنكم لم تصلوا إليه .. سيصيبكم الله بخزى فى الدنيا .. أى أن الجزاء لن يتأخر إلى الآخرة بل سيأتيكم خزى وهو الهوان والذل فى الدنيا .. وماذا فى الآخرة ؟ يقول الله تعالى : « ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب » الخزى فى الدنيا أصابهم على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين .. وأخرج بنو قينقاع من ديارهم فى المدينة .. كذلك ذبح بنو قريظة بعد أن خانوا العهد وخانوا رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين .. وهكذا لا يؤخر الله سبحانه وتعالى جزاء بعض الذنوب إلى الآخرة .. وجزاء الظلم فى الدنيا لايؤجل إلى الآخرة ، لأن المظلوم لابد أن يرى مصرع ظالميه حتى يعتدل نظام الكون .. ويعرف الناس أن الله موجود وأنه سبحانه لكل ظالم بالمرصاد .. اليهود أتاهم خزى الدنيا سريعا : « يوم القيامة يردون إلى أشد العذاب » .

قد يتساءل الناس ألا يكفيهم الخزى فى الدنيا عن عذاب الآخرة ؟ نقول لا .. لأن الخزى لم ينلهم فى الدنيا حدا .. ولم يكن نتيجة إقامة حدود الله عليهم .. فالخزى حين ينال الإنسان كحد من حدود الله يعفيه من عذاب الآخرة .. فالذى سرق وقطعت يده والذى زنا ورجم .. هؤلاء نالهم عذاب من حدود الله فلا يحاسبون فى الآخرة .. أما الظالمون فالأمر يختلف .. لذلك فإننا نجد إناسا من الذين ارتكبوا إثما فى الدنيا يلحون على إقامة الحد عليهم لينجوا من عذاب الآخرة .. مع انه لم يرهم أحد أو يعلم بهم أحد أو يشهد عليهم أحد ..

حتى لا يأتى واحد ليقول : لماذا لا يعفى الظالمون الذين أصابهم خزى فى الدنيا من عذاب الآخرة ؟ نقول إنهم فى خزى الدنيا لم يحاسبوا عن جرائمهم . . أصابهم ضر وعذاب . . ولكن أشد العذاب ينتظرهم فى الآخرة . . وما أهون عذاب الدنيا الذى هو بقدرة البشر بالنسبة لعذاب الآخرة الذى هو بقدرة الله سبحانه وتعالى ، كما أن هذه الدنيا تنتهى فيها حياة الإنسان بالموت ، أما الآخرة فلا موت فيها بل خلود فى العذاب .

ثم يقول الحق جل جلاله : « وما الله بغافل عما تعملون » . . أى لا تحسب ان الله سبحانه وتعالى يغفل عن شىء فى كونه فهو لا تأخذه سنة نوم . . وهو بكل شىء محيط .

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾﴾

ويذكر لنا الله سبحانه وتعالى سبب خيبة هؤلاء وضلالهم لأنهم اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة .. جعلوا الآخرة ثمنا لنزواتهم ونفوذهم فى الدنيا .. هم نظروا إلى الدنيا فقط .. ونظرة الإنسان إلى الدنيا ومقارنتها بالآخرة تجعلك تطلب فى كل ما تفعله ثواب الآخرة .. فالدنيا عمرك فيها محدود .. ولا تقل عمر الدنيا مليون أو مليونان أو ثلاثة ملايين سنة .. عمر الدنيا بالنسبة لك هو مدة بقائك فيها .. فإذا خرجت من الدنيا انتهت بالنسبة لك .. والخروج من الدنيا بالموت .. والموت لا أسباب له ولذلك فإن الإسلام لا يجعل الدنيا هدفا لأن عمرنا فيها مظنون .. هناك من يموت فى بطن أمه .. ومن يعيش ساعة أو ساعات ، ومن يعيش إلى أرذل العمر .. إذن فاتجه إلى الآخرة ، ففيها النعيم الدائم والحياة بلا موت والمتعة على قدرات الله .. ولكن خيبة هؤلاء أنهم إشتروا الدنيا بالآخرة .. ولذلك يقول الحق عنهم : « فلا يخفف عنم العذاب ولا هم ينصرون » .. لا يخفف عنهم العذاب أى يجب ألا يأمنوا أن العذاب فى الآخرة سيخفف عنهم .. او ستقل درجته أو تنقص مدته .. أو سيأتى يوما ولا يأتى يوما وقوله : « ولا هم ينصرون » .. النصرة تأتى على معنيين .. تأتى بمعنى انه لا يغلب .. وتأتى بمعنى أن هناك قوة تنتصر له أى تنصره .. كونه يغلب .. الله سبحانه وتعالى غالب على أمره فلا أحد يملك لنفسه نفعا ولا ضرا .. ولكن الله يملك النفع والضر لكل خلقه .. ويملك تبارك وتعالى أن يقهر خلقه على ما يشاء .. ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

﴿قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾

(من الآية ١٨٨ سورة الأعراف)

أما مسألة أن ينصره أحد .. فمن الذى يستطيع أن ينصر أحدا من الله .. وإقرأ قوله سبحانه وتعالى عن نوح عليه السلام :

﴿ وَيَـٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة هود)

يقول الحق سبحانه وتعالى : « فلا يخفف عنهم العذاب » .. أمر لم يقع بعد بل سيقع مستقبلا .. يتحدث الله سبحانه وتعالى عنه بلهجة المضارع .. نقول إن كل أحداث الكون وما سيقع منها هو عند الله تم وانتهى وقضى فيه .. لذلك نجد فى القرآن الكريم قوله سبحانه :

﴿ أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾

(من الآية ١ سورة النحل)

أتى فعل ماض .. ولا تستعجلوه مستقبل .. كيف يقول الله سبحانه وتعالى أتى ثم يقول لا تستعجلوه ؟ إنه مستقبل بالنسبة لنا .. أما بالنسبة لله تبارك وتعالى فمادام قد قال أتى .. فمعنى ذلك أنه حدث .. فلا أحد يملك أن يمنع أمرا من أمور الله من الحدوث .. فالعذاب آت لهم آت .. ولا يخفف عنهم لأن أحدا لا يملك تخفيفه .

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾﴾

بعد أن بينّ الحق سبحانه وتعالى لنا ما فعله اليهود مع نبيهم موسى عليه السلام .. أراد أن يبين لنا ما فعله بنو إسرائيل بعد نبيهم موسى .. وأراد أن يبين لنا موقفهم من رسول جاءهم منهم .. ولقد جاء لبنى إسرائيل رسل كثيرون لأن مخالفاتهم للمنهج كانت كثيرة .. ولكن الآيةَ الكريمة ذكرت عيسى عليه السلام .. لأن الديانتين الكبيرتين اللتين سبقتا الإسلام هما اليهودية والنصرانية .. ولكن لابد أن نعرف أنه قبل مجيء عيسى .. وبين رسالة موسى ورسالة عيسى عليهما السلام رسل كثيرون .. منهم داود وسليمان وزكريا ويحيى وغيرهم .. فكأنه فى كل فترة كان بنو إسرائيل يبتعدون عن الدين .. ويرتكبون المخالفات وتنتشر بينهم المعصية .. فيرسل اللهُ رسولا يعدل ميزانَ حركة حياتهم .. ومع ذلك يعودون مرة أخرى إلى معصيتهم وفسقهم .. فيبعث اللهُ رسولا جديدًا .. ليزيل الباطل وهوى النفس من المجتمع ويطبق شرع الله .. ولكنهم بعده يعودون مرة أخرى إلى المعصية والكفر .

وقال اللهُ سبحانه وتعالى : « ولقد أتينا موسى الكتابَ » والقائلُ هو اللهُ جل جلاله .. والكتابُ هو التوراةُ : « وقفينا من بعده بالرسلِ » .. واللهُ تبارك وتعالى بين لنا موقفَ بنى إسرائيل من موسى .. وموقِفَهُم من رسولِ الله صلى اللهُ عليه وسلم خاتمِ الأنبياءِ والمرسلين .. ولكنه لم يبين لنا موقفَهُم من الرسلِ الذين جاءوا بعد موسى حتى عيسى ابن مريم .

الحقُ سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا .. إلى أنه لم يترك الأمر لبنى إسرائيل بعد موسى .. أن يعملوا بالكتاب الذى أرسل معه فقط .. ولكنه أتبع ذلك بالرسل .. حين تسمع « قفينا » .. أى اتبعنا بعضهم بعضا .. كل يخلف الذى سبقه.« وقفينا »

مشتقة من قفا . . وقفا الشيء خلفه . . وتقول قفوت فلاناً أى سرت خلفه قريباً منه .

إن الحق يريد أن نلتفت إلى أن رسالةَ موسى لم تقف عند موسى وكتابه . . ولكنه سبحانه أرسل رسلاً وأنبياءَ ليذكروا وينبهوا . . ولقد قلنا إن كثرةَ الأنبياءِ لبنى إسرائيلَ ليست شهادة لهم ولكنها شهادة عليهم . . إنهم يتفاخرون أنهم أكثرُ الأممِ أنبياءً . . ويعتبرون ذلك ميزة لهم ولكنهم لم يفهموا . . فكثرة الأنبياء والرسل دلالةَ على كثرة فساد الأمة ، لأن الرسلِ إنما يجيئون لتخليص البشريةِ من فساد وأمراض وإنقاذها من الشقاء . . وكلما كثُرَ الرسلُ والأنبياءُ دل ذلك على أن القومَ قد انحرفوا بمجرد ذهابِ الرسولِ عنهم ، ولذلك كان لابد من رسول جديد . . تماما كما يكون المريض فى حالةٍ خطرةٍ فيكثر أطباؤه بلا فائدةٍ . . وليقطع اللهُ سبحانه وتعالى عليهم الحجةَ يومَ القيامةِ . . لم يترك لهم فترةً من غفلةٍ . . بل كانت الرسلُ تأتيهم واحدا بعد الآخر على فتراتٍ قريبةٍ .

وإذا نظرنا إلى يوشع وأشمويه وشمعون . وداود وسليمان وشعيب وأرميا . وحزقيل وإلياس واليسع ويونس وزكريا ويحيى . . نرى موكبًا طويلاً جاء بعد موسى . . حتى إنه لم تمرِ فترةٌ ليس فيها نبى أو رسول . . وحتى نفرقَ بين النبىِ والرسولِ . . نقول النبىُ مرسلٌ والرسولُ مرسلٌ . . كلاهما مرسلٌ من اللهِ . . ولكن النبىَ لا يأتى بتشريعٍ جديدٍ . . وإنما هو مرسلٌ على منهجِ الرسولِ الذى سَبَقَهُ . . وإقرأ قولَهُ سبحانه :

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾

(من الآية ٥٢ سورة الحج)

إذن فالنبى مرسل أيضاً . . ولكنه أسوةٌ سلوكيةٌ لتطبيقِ منهجِ الرسولِ الذى سبقه .

وهل اللهُ سبحانه وتعالى قص علينا قصص كل الرسل والأنبياء الذين أرسلهم ؟ إقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾﴾

(سورة النساء)

إذن هناك رسلٌ وأنبياء أرسلوا إلى بنى إسرائيل لم نعرفهم .. لأن الله لم يقصص علينا نبأهم .. ولكن الآية الكريمة التى نحن بصددها لم تذكر إلا عيسى عليه السلام .. باعتباره من أكثر الرسل أتباعا .. والله تبارك وتعالى حينما أرسل عيسى أيده بالآيات والبينات التى تثبت صدقَ بلاغه عن اللهِ .. ولذلك قال جل جلاله : « وآتينا عيسى ابنَ مريمَ البيناتِ وأيدناه بروحِ القُدُس » .. وعيسى ابنُ مريمَ عليه السلام جاء ليرد على المادية التى سيطرت على بنى إسرائيل .. وجعلتهم لا يعترفون إلا بالشىء المادى المحسوس .. فعقولهم وقلوبهم أغلقت من ناحية الغيب .. حتى إنهم قالوا لموسى : « أرنا اللَّهَ جهرةً » .. وحين جاءهم المن والسلوى رزقاً من الله .. خافوا أن ينقطع عنهم لأنه رزقٌ غيبىّ فطلبوا نبات الأرض .. لذلك كان لابد أن يأتى رسول كل حياته ومنهجه أمور غيبية .. مولده أمر غيبى ، وموته أمر غيبى ورفعه أمر غيبى ومعجزاته أمور غيبية حتى ينقلهم من طغيان المادية إلى صفاء الروحانية .

لقد كان أول أمره أن يأتى عن غير طريق التكاثر المادىّ .. أى الذى يتم بين الناس عن طريق رجل وأنثى وحيوان منوىّ .. واللهُ سبحانه وتعالى أراد أن يخلع من أذهان بنى إسرائيل ان الأسباب المادية تحكمه .. وإنما هو الذى يحكم السبب . هو الذى يخلق الأسباب ومتى قال : « كن » كان .. بصرف النظر عن المادية المألوفة فى الكون .. وفى قضية الخلق أراد الله جل جلاله للعقول أن تفهم أن مشيئته هى السبب وهى الفاعلة .. وإقرأ قوله سبحانه :

﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾

(سورة الشورى)

فكأن الله سبحانه وتعالى جعل الذكورة والأنوثة هما السبب فى الإنجاب . . ولكنه جعل طلاقة القدرة مهيمنة على الأسباب . . فيأتى رجل وامرأة ويتزوجان ولكنهما لا ينجبان . . فكأن الأسباب نفسها عاجزة عن أن تفعل شيئا إلا بإرادة المسبب .

والله سبحانه وتعالى يقول : « وآتينا عيسى ابنَ مريمَ البيناتِ وأيدناه بروحِ القُدُسِ » . . لماذا قال الحق تبارك وتعالى : « وأيدناه بروحِ القُدُسِ » . . ألم يكن باقى الرسل والأنبياء مؤيدين بروح القدس ؟

نقول : لقد ذكر هنا تأييد عيسى بروح القدس لأن الروح ستشيع فى كل أمر له . . ميلاداً ومعجزةً وموتاً . . والروحُ القدس هو جبريل عليه السلام لم يكن يفارقه أبدا . . لقد جاء عيسى عليه السلام على غير مألوف الناس وطبيعة البشر مما جعله معرضاً دائماً للهجوم . . ولذلك لابد أن يكون الوحى فى صحبته لا يفارقه . . ليجعل من مهابته على القوم ما يرد الناس عنه . . وعندما يتحدث القرآن انه رفع إلى السماء . . اختلف العلماء هل رفع إلى السماء حيا ؟ أو مات ثم رفع إلى السماء ؟ نقول : لو أننا عرفنا أنه رُفع حيا أو مات فما الذى يتغير فى منهجنا ؟ لاشىء . . وعندما يقال إنه شىء عجيب أن يرفع إنسان إلى السماء ، ويظل هذه الفترة ثم يموت . . نقول إن عيسى ابنَ مريمَ لم يتبرأ من الوفاة . . إنه سيُتَوَفَّى كما يُتَوَفَّى سائر البشر . . ولكن هل كان ميلاده طبيعياً ؟ الاجابة لا . . إذن فلماذا تتعجب إذا كانت وفاته غير طبيعية ؟ لقد خلق من أم بدون أب . . فإذا حدث أنه رفع إلى السماء حياً وسينزل إلى الأرض فما العجب فى ذلك ؟ ألم يصعد رسولنا صلى الله عليه وسلم إلى السماء حياً ؟ ثم نزل لنا بعد ذلك إلى الأرض حياً ؟ لقد حدث هذا لمحمدٍ عليه الصلاة والسلام . . إذن فالمبدأ موجود . . فلماذا تستبعد صعود عيسى ثم نزوله فى آخر الزمان ؟ والفرق بين محمدٍ صلى الله عليه وسلم وعيسى هو أن محمداً لم يمكث طويلاً فى السماء ، بينما عيسى بقى . . والخلاف على الفترة لا ينقض المبدأ .

عن إبن المسيب أنه سمع أبا هريرة رضى الله عنه يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (والذى نفسى بيده ليوشكن أن ينزل فيكم إبن مريم صلى الله عليه وسلم حكما مقسطا فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويفيض المال حتى لا يقبله أحد)[1] .

---

(١) رواه البخارى فى المظالم ومسلم فى الإيمان وأبو داود فى الملاحم والترمذى فى الفتن وإبن ماجه فى الفتن ورواه أحمد فى المسند .

وهذا الحديث موجود فى صحيح البخارى .. فقد جعله الله مثلا لبنى إسرائيل .. وإقرأ قوله سبحانه :

﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾ ﴾

(سورة الزخرف)

قوله تعالى : « وأتينا عيسى ابنَ مريمَ البيناتِ » .. البينات هى المعجزات مثل إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله وغير ذلك من المعجزات .. وهى الأمور البينة الواضحة على صدق رسالته .

لكننا إذا تأملنا فى هذه المعجزات .. نجد أن بعضها نسبت لقدرة الله كإحياء الموتى جاء بعدها بإذن الله .. وبعضها نسبها إلى معجزته كرسول .. ومعروف انه كرسول يؤيده اللهُ بمعجزات تخرق قوانين الكون .. ولكن هناك فرق بين معجزة تعطى كشفاً للرسول .. وبين معجزة لابد أن تتم كل مرة من الله مباشرة .. وإقرأ الآية الكريمة :

﴿ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

وهكذا نرى فى الآية الكريمة أنه بينما كان إخبار عيسى لما يأكل الناس وما يدخرون فى بيوتهم كشفاً من الله .. كان إحياء الموتى فى كل مرة بإذن الله .. وليس كشفا ولا معجزة ذاتية لعيسى عليه السلام .. إن كل رسول كان مؤيداً بروح القدس وهو جبريل عليه السلام .. ولكن الله أيد عيسى بروح القدس دائما معه .. وهذا معنى قوله تعالى : « وأيدناه بروحِ القُدُسِ » .. وأيدناه مشتقة من القوة ومعناها قويناه

بروح القدس فى كل أمر من الأمور . . وكلمة روح تأتى على معنيين . . المعنى الأول ما يدخل الجسم فيعطيه الحركة والحياة . . وهناك روح أخرى هى روح القيم تجعل الحركة نافعة ومفيدة . . ولذلك سمى الحق سبحانه وتعالى القرآن بالروح . . وإقرأ قوله تعالى :

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾

(من الآية ٥٢ سورة الشورى)

والقرآن روح . . من لا يعمل به تكون حركة حياته بلا قيم . . إذن كل ما يتصل بالمنهج فهو روح . . والقدس هذه الكلمة تأتى مرة بضم القاف وتسكين الدال . . ومرة بضم القاف وضم الدال . . وكلا اللفظين صحيح وهى تفيد الطهر والتنزه عن كل ما يعيب ويشين . . والقدس يعنى المطهر عن كل شائبة .

قوله تبارك وتعالى : أفكلما جاءكم رسولٌ بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم » قوله تعالى : « أفكلما » . . هناك عطف وهناك استفهام ، وهى تعنى أكفرتم ، وكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم . . أى إن اليهود جعلوا أنفسهم مشرعين من دون الله . . وهم يريدون أن يشرعوا لرسلهم . . فإذا جاء الرسول بما يخالف هواهم كذَّبوه أو قتلوه .

وقوله تعالى : « بما لا تهوى أنفسكم » . . هناك هَوَى بالفتحة على الواو وهَوِىَ بالكسرة على الواو . . هَوَى بالفتحة على الواو بمعنى سقط إلى أسفل . . وهَوِىَ بالكسرة على الواو معناه أحب وأشتهى . . اللفظان ملتقيان . . الأول معناه الهبوط ، والثانى حب الشهوة والهوى يؤدى إلى الهبوط . . ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى حينما يشرع يقول (تَعَالَوْا) ومعناها إرتفعوا من موقعكم الهابط . . إذن فالمنهج جاء ليعصمنا من السقوط . . ورسول الله صلى الله عليه وسلم . . يعطينا هذا المعنى ، وكيف ان الدين يعصمنا من أن نهوى ونسقط فى جهنم يقول :

(إنما مثلى ومثل أمتى كمثل رجل استوقد نارًا فجعلت الدواب والفراش يقعْن فيه فأنا آخذ بحجزكم وأنتم موحمون فيه)[1] .

---

(١) رواه مسلم فى الزهد ، وإبن ماجه فى الزهد . ورواه أحمد .

ومعنى آخذ بحجزكم أى آخذ بكم .. وكأننا نقبل على النار ونحن نشتهيها باتباعنا شهوتنا .. ورسول الله بمنهج الله يحاول أن ينقذنا منها .. ولكن رب نفسٍ عشقت مصرعها .. والحق تبارك وتعالى يقول :

﴿ أَسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾

(من الآية ٨٧ سورة البقرة)

معنى استكبرتم أى أعطيتم لأنفسكم كبرا لستم أهلا له .. إدعيتم أنكم كبارٌ ولستم كبارًا .. ولكن هل المشرع مساو لك حتى تتكبر على منهجه ؟ طبعا لا .. قوله تعالى : « ففريقا كذبتم » .. والكذب كلام يخالف الواقع .. أى أنكم اتهمتم الرسل بأنهم يقولون كلاما يخالف الواقع . لأنه يخالف ما تشتهيه أنفسكم .. وقوله تعالى : « وفريقا تقتلون » .. التكذيب مسألة منكرة .. ولكن القتل أمر بشع .. وحين ترى إنسانا يتخلص من خصمه بالقتل فاعلم أنها شهادة بضعفه أمام خصمه .. وإن طاقته وحياته لا تطيق وجود الخصم .. ولو انه رجلٌ مكتمل الرجولة لما تأثر بوجود خصمه .. ولكن لأنه ضعيف أمامه قتله ..

قوله تعالى : « وفريقا تقتلون » .. مثل نبى الله يحيى ونبى الله زكريا .. وهناك قصص وروايات تناولت قصة سالومى .. وهى قصة راقصة جميلة أرادت إغراء يحيى عليه السلام فرفض أن يخضع لإغرائها .. فجعلت مهرها أن يأتوها برأسه .. وفعلا قتلوه وجاءوها برأسه على صينية من الفضة .

﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾

الله سبحانه وتعالى يذكر لنا كيف برر بنو إسرائيل عدم إيمانهم وقتلهم الأنبياء وكل ما حدث منهم .. فماذا قالوا ؟ لقد قالوا « قلوبنا غلف » والغلف مأخوذ من الغلاف والتغليف .. وهناك غلْف بسكون اللام ، وغلُف بضم اللام .. مثل كتاب وكتب « قلوبنا غلف » أى مغلفة وفيها من العلم ما يكفيها ويزيد ، فكأنهم يقولون إننا لسنا فى حاجة إلى كلام الرسل .. أو « قلوبنا غلف » أى مغلفة ومطبوع عليها .. أى ان الله طبع على قلوبهم وختم عليها حتى لا ينفذ إليها شعاع من الهدى .. ولا يخرج منها شعاع من الكفر ..

إذا كان الله سبحانه وتعالى قد فعل هذا .. ألم تسألوا أنفسكم لماذا ؟ ما هو السبب ؟ والحق تبارك وتعالى يرد عليهم فيقول : « بل لعنهم اللهُ بكفرهم فقليلا ما يؤمنون » : لفظ « بل » يؤكد لنا أن كلامهم غير صحيح .. فهم ليس عندهم كفاية من العلم بحيث لا يحتاجون إلى منهج الرسل .. ولكنهم ملعونون ومطرودون من رحمة الله .. فلا تنفذ إشعاعات النور ولا الهداية إلى قلوبهم .. ولكن ذلك ليس لأن الله ختم عليها بلا سبب .. ولكنه جزاء على أنهم جاءهم النور والهدى .. فصدوه بالكفر أولا .. ولذلك فإنهم أصبحوا مطرودين من رحمة الله .. لأن من يصد الإيمان بالكفر يطرد من رحمة الله ، ولا ينفذ إلى قلبه شعاع من أشعة الإيمان .

وهنا يجب أن نتنبه إلى أن الله سبحانه وتعالى لم يبدأهم باللعنة . وبعض الناس الذين يريدون أن يهربوا من مسئولية الكفر ــ علها تنجيهم من العذاب يوم القيامة ــ يقولون إن الله سبحانه وتعالى قال :

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ (من الآية ٨ سورة فاطر)

تلك هى حجة الكافرين الذين يظنون انها ستنجيهم من العذاب يوم القيامة . . إنهم يريدون أن يقولوا إن الله يضل من يشاء . . ومادام اللهُ قد شاء أن يضلنى فما ذنبى أنا ؟ وهل أستطيع أن أمنع مشيئة الله . . نقول له : إن الله إذا قيد أمرا من الأمور المطلقة فيجب أن نلجأ إلى التقييد . . والله تبارك وتعالى يقول :

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾

(من الآية ٣٧ سورة التوبة)

« ويقول سبحانه :

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

(من الآية ١٩ سورة التوبة)

ويقول جل جلاله :

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾

(من الآية ٢٤ سورة التوبة)

والحق سبحانه وتعالى أخبرنا أنه منع إعانته للهداية عن ثلاثة أنواع من الناس . . الكافرين والظالمين والفاسقين . . ولكن هل هو سبحانه وتعالى منع معونة الهداية أولا ؟ أم أنهم هم الذين ارتكبوا من الضلال ما جعلهم لا يستحقون هداية الله ؟! إنسان واجه الله بالكفر . . كفر بالله . . رفض أن يستمع لآيات الله ورسله . . ورفض أن يتأمل فى كون الله . . ورفض أن يتأمل فى خلقه هو نفسه ومن الذى خلقه . . ورفض أن يتأمل فى خلق السموات والأرض . . كل هذا رفضه تماما . . ومضى يصنع لنفسه طريق الضلال ويشرع لنفسه الكفر . . لأنه فعل ذلك أولا . . ولأنه بدأ بالكفر برغم أن الله سبحانه وتعالى وضع له فى الكون وفى نفسه آيات تجعله يؤمن بالله ، وبرغم ذلك رفض . هو الذى بدأ والله سبحانه وتعالى ختم على قلبه .

الإنسان الظالم يظلم الناس ولا يخشى الله .. يذكرونه بقدرة الله وقوة الله فلا يلتفت .. يختم الله على قلبه .. كذلك الإنسان الفاسق الذى لا يترك منكرا إلا فعله .. ولا إثما إلا ارتكبه .. ولا معصية إلا أسرع إليها .. لا يهديه الله .. أكنت تريد أن يبدأ هؤلاء الناس بالكفر والظلم والفسوق ويصرون عليه ثم يهديهم الله ؟ يهديهم قهرا أو قسرًا ، والله سبحانه وتعالى خلقنا مختارين ؟ طبعا لا .. ذلك يضيع الاختيار البشرى فى أن يطيع الإنسان أو يعصى .

والحق تبارك وتعالى أثبت طلاقة قدرته فيما نحن مقهورون فيه .. فى أجسادنا التى تعمل أعضاؤها الداخلية بقهر من الله سبحانه وتعالى وليس بإرادة منا كالقلب والتنفس والدورة الدموية .. والمعدة والأمعاء والكبد .. كل هذا وغيره مقهور لله جل جلاله .. لا نستطيع أن نأمره ليفعل فيفعل .. وأن نأمره ألا يفعل فلا يفعل .. وأثبت الله سبحانه وتعالى طلاقة قدرته فيما يقع علينا من أحداث فى الكون .. فهذا يمرض ، وهذا تدهمه سيارة ، وهذا يقع عليه حجر .. وهذا يسقط ، وهذا يعتدى عليه إنسان .. كل الأشياء التى تقع عليك لا دخل لك فيها ولا تستطيع أن تمنعها .. بقى ذلك الذى يقع منك وأهمه تطبيق منهج الله فى افعل ولا تفعل .. هذا لك اختيار فيه .

إن الله سبحانه وتعالى أوجد لك هذا الاختيار حتى يكون الحساب فى الآخرة عدلا .. فإذا اخترت الكفر لا يجبرك الله على الإيمان .. وإذا اخترت الظلم لا يجبرك الله على العدل .. وإذا اخترت الفسوق لا يجبرك الله على الطاعة .. إنه يحترم اختيارك لأنه أعطاك هذا الاختيار ليحاسبك عليه يوم القيامة .

لقد أثبت الله لنفسه طلاقة القدرة بأنه يهدى من يشاء ويضل من يشاء . ولكنه سبحانه قال إنه لا يهدى القوم الكافرين ولا القوم الظالمين ولا القوم الفاسقين .. فمن يرد أن يخرج من هداية الله فليكفر أو يظلم أو يفسق .. ويكون فى هذه الحالة هو الذى اختار فحق عليه عقاب الله .. لذلك فقد قال الكافرون من بنى إسرائيل إن الله ختم على قلوبهم فهم لا يهتدون ، ولكنهم هم الذين اختاروا هذا الطريق ومشوا فيه .. فاختاروا عدم الهداية ..

لقد أثارت هذه القضية جدلا كبيراً بين العلماء ولكنها فى الحقيقة لا تستحق هذا

الجدل . . فالله سبحانه وتعالى قال : « بل لعنهم اللهُ بكفرهم » . . واللعن هو الطرد والإبعاد من رحمة الله . . ويتم ذلك بقدرة الله سبحانه وتعالى . . لأن الطرد يتناسب مع قوة الطارد .

فمثلا . . إبنك الصغير يطرد حجرا أمامه تكون قوة الطرد متناسبة مع سنه وقوته . . والأكبر أشد فأشد . . فإذا كان الطارد هو الله سبحانه وتعالى فلا يكون هناك مقدارٌ لقوة اللعن والطرد يعرفه العقل البشرى .

قوله تعالى : « بل لعنهم اللهُ بكفرهم » . . أى طردهم الله بسبب كفرهم . . والله تبارك وتعالى لا يتودد للناس لكى يؤمنوا . . ولا يريد للرسل أن يتعبوا أنفسهم فى حمل الناس على الإيمان . . إنما وظيفة الرسول هى البلاغ حتى يكون الحساب حقا وعدلا . . وإقرأ قوله جل جلاله :

﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝٣ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَـٰقُهُمْ لَهَا خَـٰضِعِينَ ۝٤ ﴾

(سورة الشعراء)

أى انهم لا يستطيعون ألا يؤمنوا إذا أردناهم مؤمنين قهرا . . ولكننا نريدهم مؤمنين اختيارا . . وإيمان العبد هو الذى ينتفع به . . فالله لا ينتفع بإيمان البشر . . وقولنا لا إله إلا الله لا يسند عرش الله . . قلناها أو لم نقلها فلا إله إلا الله . . ولكننا نقولها لتشهد علينا يوم القيامة . . نقولها لتنجينا من أهوال يوم القيامة ومن غضب الله . .

وقوله تعالى : « بكفرهم » يعطينا قضية مهمة هى : أنه تبارك وتعالى أغنى الشركاء عن الشرك . فمن يشرك معه أحدا فهو لمن أشرك . . لذلك يقول الحق جل جلاله فى الحديث القدسى :

(أنا أغنى الشركاءِ عن الشِّركِ من عَمِلَ عملا أَشْرَكَ فيه معى غيرى تركْتُهُ وشِركَه)[1] .

---

(١) رواه مسلم .

وشهادة الله سبحانه وتعالى لنفسه بالألوهية .. هى شهادة الذات للذات .. وذلك فى قوله تعالى :

﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾

(من الآية ١٨ سورة آل عمران)

فالله سبحانه وتعالى قبل أن يخلق خلقا يشهدون أنه لا إله إلا الله .. شهد لنفسه بالألوهية .. ولنقرأ الآية الكريمة :

﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ ﴾

(من الآية ١٨ سورة آل عمران)

والله سبحانه وتعالى شهد لنفسه شهادة الذات للذات. والملائكة شهدوا بالمشاهدة .. وأولو العلم بالدليل .. والحق تبارك وتعالى يقول : « فقليلا ما يؤمنون » .. عندما تقول قليلا ما يحدث كذا ، فإنك تقصد به هنا صيانة الإحتمال ، لأنه من الممكن أن يثوب واحد منهم إلى رشده ويؤمن .. فيبقى الله الباب مفتوحا لهؤلاء . ولذلك نجد الذين أسرفوا على أنفسهم فى شبابهم قد يأتون فى آخر عمرهم ويتوبون .. فى ظاهر الأمر انهم أسرفوا على أنفسهم .. ولكنهم عندما تابوا واعترفوا بخطاياهم وعادوا إلى طريق الحق تقبل الله إيمانهم .. لذلك يقول الله جل جلاله : « فقليلاً ما يؤمنون » أى أن الأغلبية تظل على كفرها .. والقلة هى التى تعود إلى الإيمان .

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾

بعد أن بين لنا الله سبحانه وتعالى . . أن بنى إسرائيل قالوا إن قلوبهم غلف لا يدخلها شعاع من الهدى أو الإيمان . . أراد تبارك وتعالى أن يعطينا صورة أخرى لكفرهم بأنه أنزل كتابا مصدقا لما معهم ومع ذلك كفروا به . . ولو كان هذا الكتاب مختلفا عن الذى معهم لقلنا إن المسألة فيها خلاف . . ولكنهم كانوا قبل أن يأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وينزل عليه القرآن كانوا يؤمنون بالرسول والكتاب الذى ذكر عندهم فى التوراة . . وكانوا يقولون لأهل المدينة . . أهل زمن رسول سنؤمن به ونتبعه ونقتلكم قتل عاد وإرم .

ولقد كان اليهود يعيشون فى المدينة . . وكان معهم الأوس والخزرج وعندما تحدث بينهم خصومات كانوا يهددونهم بالرسول القادم . . فلما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم كفروا به وبما أنزل عليه من القرآن .

واليهود فى كفرهم كانوا أحد أسباب نصرة رسول الله صلى الله عليه وسلم . . لأن الأوس والخزرج عندما بعث الرسول عليه الصلاة والسلام قالوا هذا النبى الذى يهددنا به اليهود وأسرعوا يبايعونه . . فكأن اليهود سخرهم الله لنصرة الإسلام وهم لا يشعرون .

والرسول عليه الصلاة والسلام كان يذهب إلى الناس فى الطائف . . وينتظر القبائل عند قدومها إلى مكة فى موسم الحج ليعرض عليهم الدعوة فيصدونه ويضطهدونه . . وعندما شاء الله أن تنتشر دعوة الإسلام جاء الناس إلى مكة ومعهم الأوس والخزرج إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يذهب هو إليهم ،

وأعلنوا مبايعته والإيمان برسالته ونشر دعوته . . دون أن يطلب عليه الصلاة والسلام منهم ذلك . . ثم دعوه ليعيش بينهم فى دار الإيمان . . كل هذا تم عندما شاء الله أن ينصر الإسلام بالهجرة إلى المدينة وينصره بمن إتبعوه .

ويقول الحق تبارك وتعالى : « وكانوا من قبلُ يستفتحون على الذين كفروا» . . أى أنهم قبل أن يأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يستفتحون بأنه قد أطل زمن رسول سنؤمن به ونتبعه . . فلما جاء الرسول كذبوه وكفروا برسالته .

وقوله تعالى : « على الذين كفروا » . . أى كفار المدينة من الأوس والخزرج الذين لم يكونوا أسلموا بعد . . لأن الرسول لم يأت . . الحق سبحانه وتعالى يعطينا تمام الصورة فى قوله تعالى : « فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين » .

وهكذا نرى أن بنى إسرائيل فيهم جحود مركب جاءهم الرسول الذى انتظروه وبشروا به . . ولكن أخذهم الكبر رغم أنهم موقنون بمجىء الرسول الجديد وأوصافه موجودة عندهم فى التوراة إلاّ أنهم رفضوا أن يؤمنوا فاستحقوا بذلك لعنة الله . . واللعنة كما قلنا هى الطرد من رحمة الله .

﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾﴾

عندما رفض اليهود الإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم وطردهم الله من رحمته .. بين لنا أنهم : « بئسما اشتروا به أنفسهم » .. وكلمة إشترى سبق الحديث عنها وقلنا إننا عادة ندفع الثمن ونأخذ السلعة التى نريدها .. ولكن الكافرين قلبوا هذا رأسا على عقب وجعلوا الثمن سلعة .. على أننا لابد أن نتحدث أولا عن الفرق بين شرى واشترى .. شَرَى بمعنى باع .. وإقرأ قوله عز وجل :

﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾

(سورة يوسف)

ومعنى الآية الكريمة انهم باعوه بثمن قليل .. واشترى يعنى ابتاع .. ولكن اشترى قد تأتى بمعنى شرى .. لأنك فى بعض الأحيان تكون محتاجا إلى سلعة ومعك مال .. وتذهب وتشترى السلعة بمالك وهذا هو الوضع السليم .. ولكن لنفرض أنك احتجت لسلعة ضرورية كالدواء مثلا .. وليس عندك المال ولكن عندك سلعة أخرى كأن يكون عندك ساعة أو قلم فاخر .. فتذهب إلى الصيدلية وتعطى الرجل سلعة مقابل سلعة .. أصبح الثمن فى هذه الحالة مشترى .. إذن فمرة يكون البيع مشترى ومرة يكون مبيعًا ..

والحق تبارك وتعالى يقول : « بئسما اشتروا به أنفسهم » .. وكأنما يعيرهم بأنهم يدعون الذكاء والفطنة .. ويؤمنون بالمادية وأساسها البيع والشراء .. لو كانوا حقيقة يتقنون هذا لعرفوا أنهم قد أتموا صفقة خاسرة .. الصفقة الرابحة

كانت أن يشتروا أنفسهم مقابل التصديق بما أنزل الله على محمد صلى الله عليه وسلم .. ولكنهم باعوا أنفسهم واشتروا الكفر فخسروا الصفقة لأنهم أخذوا الخزى فى الدنيا والعذاب فى الآخرة .. والله سبحانه وتعالى يجعل بعض العذاب فى الدنيا ليستقيم ميزان الأمور حتى عند من لم يؤمن بالآخرة .. فعندما يرى ذلك من لا يؤمن بالآخرة عذابا دنيويا يقع على ظالم .. يخاف من الظلم ويبتعد عنه حتى لا يصيبه عذاب الدنيا ويعرف أن فى الدنيا مقاييس فى الثواب والعقاب .. وحتى لا ينتشر فى الأرض فساد من لا يؤمن بالله ولا بالآخرة .. وضع الحق تبارك وتعالى قصاصا فى الدنيا .. واقرأ قوله جل جلاله :

﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾

(سورة البقرة)

والله سبحانه وتعالى فى قصاصه يلفت المؤمن وغير المؤمن إلى عقوبة الحياة الدنيا .. فيأتى للمرابى الذى يمتص دماء الناس ويصيبه بكارثة لا يجد بعدها ما ينفقه .. ولذلك نحن نقول يارب إن القوم غرهم حلمك واستبطأوا آخرتك فخذهم ببعض ذنوبهم أخذ عزيز مقتدر حتى يعتدل الميزان .

والله تبارك وتعالى جعل مصارع الظالمين والباغين والمتجبرين فى الدنيا .. جعلها الله عبرة لمن لايعتبر بمنهج الله . فتجد إنسانا ابتعد عن دينه وأقبلت عليه الدنيا بنعيمها ومجدها وشهرتها ثم تجده فى آخر أيامه يعيش على صدقات المحسنين .. وتجد امرأة غرها المال فانطلقت تجمعه من كل مكان حلالا أو حراما وأعطتها الدنيا بسخاء .. وفى آخر أيامها تزول عنها الدنيا فلا تجد ثمن الدواء .. وتموت فيجمع لها الناس مصاريف جنازتها .. كل هذه الأحداث وغيرها عبرة للناس .. ولذلك فهى تحدث على رؤوس الأشهاد .. يعرفها عدد كبير من الناس .. إما لأنها تنشر فى الصحف وإما أنها تذاع بين أهل الحى فيتناقلونها .. المهم أنها تكون مشهورة .

وتجد مثلا أن اليهود الذين كانوا زعماء المدينة تجار الحرب والسلاح .. ينتهى بهم الحال أن يطردوا من ديارهم وتؤخذ أموالهم وتسبى نساؤهم .. أليس هذا خزيا ؟

قوله تعالى : « أن يكفروا بما أنزل اللهُ بغيا » . . البغى تجاوز الحد ، والله جعل لكل شيء حدا مَنْ تجاوزه بَغَى . . والحدود التى وضعها الله سبحانه هى أحكام . . ومرة تكون أوامر ومرة تكون نواهى. ولذلك يقول الحق بالنسبة للأوامر :

﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ﴾

(من الآية ٢٢٩ سورة البقرة)

ويقول تعالى بالنسبة للنواهى :

﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ﴾

(من الآية ١٨٧ سورة البقرة)

ولكن ما سبب بغيهم ؟ . . بغيهم حسد على رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تأتى إليه الرسالة . . وعلى العرب أن يكون الرسول منهم . . واليهود اعتقدوا لكثرة أنبيائهم أنهم الذين ورثوا رسالات الله إلى الأرض . . وعندما جاءت التوراة والإنجيل يبشران برسول خاتم قالوا إنه منا . . الرسالة والنبوة لن تخرج عنا فنحن شعب الله المختار . . ولذلك كانوا يعلنون أنهم سيتبعون النبى القادم وينصرونه . . ولكنهم فوجئوا بأنه ليس منهم . . حينئذ ملأهم الكبر والحسد وقالوا ما دام ليس منا فلن نتبعه بل سنحاربه . . لقد خلعت منهم الرسالات لأنهم ليسوا أهلا لها . . وكان لابد أن يعاقبهم الله على كفرهم ومعصيتهم ويجعل الرسالة فى أمة غيرهم . . والله تبارك وتعالى يقول :

﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة فاطر)

لقد اختبرهم الله فى رسالات متعددة ولكنهم كما قرأنا فى الآيات السابقة . . كذبوا فريقا من الأنبياء . ومن لم يكذبوه قتلوه . . لذلك كان لابد أن ينزع الله منهم هذه الرسالات ويجعلها فى أمة غيرهم . . لتكون أمة العرب فيها ختام رسالات السماء إلى الأرض . . ولذلك بغوا .

وقوله تعالى : « بغيًا أن ينزل اللهُ من فضله على من يشاءُ من عباده » . . ومن هنا نعرف أن الرسالات واختيار الرسل . . فضل من الله يختص به من يشاء . . والله سبحانه حين يطلق أيدينا ويملكنا الأسباب . . فإننا لا نخرج عن مشيئته بل نخضع لها . . ونعرف أنه لا ذاتية فى هذا الكون . . وذلك حتى لا يغتر الإنسان بنفسه . . فإن بطل العالم فى لعبة معينة هو قمة الكمالات البشرية فى هذه اللعبة . . ولكن هذه الكمالات ليست ذاتية فيه لأن غيره يمكن أن يتغلب عليه . . ولأنه قد يصيبه أى عائق يجعله لا يصلح للبطولة . . وعلى كل حال فإن بطولته لا تدوم . . لأنها ليست ذاتية فيه ومَنْ وهبها له وهو الله سيهبها لغيره متى شاءَ . . ولذلك لابد أن يعلم الإنسان أن الكمال البشرى متغير لا يدوم لأحد . . وأن كل من يبلغ القمة ينحدر بعد ذلك لأننا فى عالم أغيار . . ولابد لكل من علا أن ينزل . . فالكمال لله وحده . . والله سبحانه يحرس كماله بذاته .

إذن اليهود حسدوا رسول الله . . حسدوا نزول القرآن على العربِ . . والحق سبحانه يقول : « فباءوا بغضبٍ على غضب وللكافرين عذابٌ مهينٌ » . . والله جل جلاله يخبرنا أنه غضبٌ عليهم مرتين .

الغضب الأول أنهم لم ينفذوا ما جاء فى التوراة فغضب الله عليهم . . والغضب الثانى حين جاءهم رسول مذكور عندهم فى التوراة ومطلوب منهم أن يؤمنوا به فكفروا به . . وكان المفروض أن يؤمنوا حتى يرضى الله عنهم . . ولذلك غضب الله عليهم مرة أخرى عندما كفروا برسول الله صلى الله عليه وسلم . .

وقوله تعالى : « وللكافرين عذابٌ مهينٌ » . . العذاب فى القرآن الكريم وُصِفَ بأنه أليم . . وَوُصِفَ بأنه عظيم وَوُصِفَ بأنه مهين . . أليم أى شديد الألم يصيب من يعذب بألم شديد . . ولكن لنفرض أن الذى يعذب يتجلد . . ويحاول ألا يظهر الألم حتى لا يشمت فيه الناس . . يأتيه الله بعذاب عظيم لا يقدر على احتماله . . ذلك أن عظمة العذاب تجعله لا يستطيع أن يحتمل . . فإذا كان الإنسان من الذين تزعموا الكفر فى الدنيا . . ووقفوا أمام دين الله يحاربونه وتزعموا قومهم . . يأتيهم الله تبارك وتعالى بعذاب مهين . . ويكون هذا أكثر إيلاما للنفس من الألم . . تماما كما تأتى لرجل هو أقوى مَنْ فى المنطقة يخافه الناس جميعا ثم تضربه بيدك وتسقطه على الأرض . . تكون فى هذه الحالة قد أهنته أمام

الناس . . فلا يستطيع بعد ذلك أن يتجبر أو يتكبر على واحد منهم . . ويكون هذا أشد إيلاما للنفس من ألم العذاب نفسه ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ ﴾

(سورة مريم)

وقوله جل جلاله :

﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ ﴾

(سورة الدخان)

ذلك هو العذاب المهين .

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾﴾

يبين لنا الحق سبحانه وتعالى موقف اليهود . . من عدم الإيمان برسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم . . مع أنهم أومروا بذلك فى التوراة . . فيقول جل جلاله : « وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل اللهُ » أى إذا دعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يؤمنوا بالإسلام وأن يؤمنوا بالقرآن رفضوا ذلك « وقالوا نؤمن بما أنزل علينا » أى نؤمن بالتوراة ونكفر بما وراءه ، أى بما نزل بعده .

ونحن نعرف أن الكفر هو الستر . . ولو أن محمدا صلى الله عليه وسلم جاء يناقض ماعندهم ربما قالوا : جاء ليهدم ديننا ولذلك نكفر به . . ولكنه جاء بالحق مصدقا لما معهم .

إذن حين يكفرون بالقرآن يكفرون أيضا بالتوراة . . لأن القرآن يصدق ما جاء فى التوراة .

وهنا يقيم الله تبارك وتعالى عليهم الحجة البالغة . . إن كفركم هذا وسلوكك ضد كل نبى جاءكم . . ولو أنكم تستقبلون الإيمان حقيقة بصدر رحب . . فقولوا لنا لِمَ قتلتم أنبياء الله ؟ . . ولذلك يقول الحق : « فَلِمَ تقتلون أنبياءَ اللهِ من قبلُ » . . هل هناك فى كتابكم التوراة أن تقتلوا أولياء الله . . كأن الحق سبحانه وتعالى قد أخذ الحجة من قولهم : « نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه » . . إذا كان هذا صحيحا وانكم تؤمنون بما أنزل عليكم فهاتوا لنا مما أنزل إليكم وهى التوراة ما يبيح لكم قتل الأنبياء إن كنتم مؤمنين بالتوراة . . وطبعا لم يستطيعوا ردا لأنهم كفروا بما أنزل عليهم . . فهم كاذبون فى قولهم نؤمن بما أنزل

علينا . . لأن ما ينزل عليهم لم يأمرهم بقتل الأنبياء . . فكأنهم كفروا بما أنزل عليهم . . وكفروا بما أنزل على محمد عليه الصلاة والسلام .

والقرآن يأتينا بالحجة البالغة التى تخرس أفواه الكافرين وتؤكد أنهم عاجزون غير قادرين على الحجة في المناقشة . . وهنا لابد أن نتنبه الى قوله تعالى : « فَلِمَ تقتلون أنبياءَ اللهِ من قبلُ » . . قوله تعالى : « من قبلُ » طمأنة لرسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أن قتلهم الأنبياء انتهى ، وفى الوقت نفسه قضاء على آمال اليهود فى أن يقتلوا محمدا عليه الصلاة والسلام . . والله يريد نزع الخوف من قلوب المؤمنين على رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن ما جرى للرسل السابقين من بنى إسرائيل لن يجرى على رسول الله صلى الله عليه وسلم . . وبذلك قطع القرآن خط الرجعة على كل من يريد أذى لرسول الله صلى الله عليه وسلم . . لأن ذلك كان عهدا وانتهى . . وأنهم لو تآمروا على قتله عليه الصلاة والسلام فلن يفلحوا ولن يصلوا إلى هدفهم .

واليهود بعد نزول هذه الآية الكريمة لم يتراجعوا عن تآمرهم ولن يكفوا عن بغيهم فى قتل الرسل والأنبياء . . فحاولوا قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر من مرة . . مرة وهو فى حيهم ألقوا فوقه حجرا ولكن جبريل عليه السلام أنذره فتحرك رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكانه قبل إلقاء الحجر . . ومرة دسوا له السم ، ومحاولات أخرى فشلت كلها .

إذن فقوله تعالى « من قبل » معناها . . إن كنتم تفكرون فى التخلص من محمد صلى الله عليه وسلم بقتله كما فعلتم فى أنبيائكم نقل لكم : إنكم لن تستطيعوا أن تقتلوه .

ولقد كانت هذه الآية كافية لإلقاء اليأس فى نفوسهم حتى يكفوا عن أسلوبهم فى قتل الأنبياء ولكنهم ظلوا فى محاولاتهم ، وفى الوقت نفسه كانت الآية تثبيتا لرسول الله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين . بأن اليهود مهما تآمروا فلن يمكنهم الله من شىء . . وقوله تعالى : « إن كنتم مؤمنين » . . أى بما أنزل إليكم .

﴿وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾﴾

بعد أن بين لنا الله سبحانه وتعالى رفضهم للإيمان بما أنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم .. بحجة أنهم يؤمنون بما أنزل إليهم فقط .. أوضح لنا أن هذه الحجة كاذبة وأنهم فى طبيعتهم الكفر والإلحاد .. فقال سبحانه : « ولقد جاءكم موسى بالبيناتِ » .. أى أن موسى عليه السلام أيده الله ببينات ومعجزات كثيرة كانت تكفى لتملأ قلوبكم بالإيمان وتجعلكم لا تعبدون إلا الله .. فلقد شق لكم البحر ومررتم فيه وأنتم تنظرون وترون .. أى أن المعجزة لم تكن غيبا عنكم بل حدثت أمامكم ورأيتموها .. ولكنكم بمجرد أن تجاوزتم البحر وذهب موسى للقاء الله .. بمجرد أن حدث ذلك اتخذتم العجل إلها من دون الله وعبدتموه .. فكيف تدعون أنكم آمنتم بما أنزل إليكم .. لو كنتم قد آمنتم به ما كنتم اتخذتم العجل إلهًا .

والحق تبارك وتعالى يريد أن ينقض حجتهم فى أنهم يؤمنون بما أنزل إليهم .. ويرينا أنهم ما آمنوا حتى بما أنزل إليهم .. فجاء بحكاية قتل الأنبياء .. ولو أنهم كانوا مؤمنين حقا بما أنزل إليهم فليأتوا بما يبيح لهم قتل أنبيائهم ولكنهم كاذبون .. أما الحجة الثانية فهى إن كنتم تؤمنون بما أنزل إليكم .. فقولوا لنا كيف وقد جاءكم موسى بالآيات الواضحة من العصا التى تحولت إلى حية واليد البيضاء من غير سوء والبحر الذى شققناه لكم لتنجوا من قوم فرعون .. والقتيل الذى أحياه الله أمامكم بعد أن ضربتموه ببعض البقرة التى ذبحتموها .. آيات كثيرة ولكن بمجرد أن تركككم موسى وذهب للقاء ربه عبدتم العجل .

إذن فقولكم نؤمن بما أنزل إلينا غير صحيح .. فلا أنتم مؤمنون بما أنزل إليكم ولا أنتم مؤمنون بما أنزل من بعدكم .. وكل هذه حجج الهدف منها عدم الإيمان أصلا .

وقوله تعالى : « ثم اتخذتم العجلَ من بعده وأنتم ظالمون » . . واتخاذ العجل فى ذاته ليس معصية إذا اتخذته للحرث أو للذبح لتأكل لحمه . . ولكن المعصية هى اتخاذ العجل معبودا . . وقوله تعالى : « إتخذتم العجل » . . أى أن ذلك أمر مشهود لم تعبدوا العجل سرا بل عبدتموه جهرا ، ولذلك فهو أمر ليس محتاجا إلى شهود ولا إلى شهادة لأنه حدث علنا وأمام الناس كلهم . . وذكر حكاية العجل هذه ليشعروا بذنبهم فى حق الله . . كأن يرتكب الإنسان خطأ ثم يمر عليه وقت . . وكلما أردنا أن نؤنبه ذكرناه بما فعل . . وقوله تعالى : « وأنتم ظالمون » . . أى ظالمون فى إيمانكم . . ظالمون فى حق الله بكفركم به .

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾

بعد أن ذَكَّرهم الله سبحانه وتعالى بكفرهم بعبادتهم للعجل . . وكان هذا نوعا من التأنيب الشديد والتذكير بالكفر . . أراد أن يؤنبهم مرة أخرى وأن يُذَكِّرَهُم أنهم آمنوا خوفا من وقوع جبل الطور عليهم . . ولم يكن الجبل سيقع عليهم . . لأن الله لا يقهر أحدا على الإيمان . . ولكنهم بمجرد أن رأوا جبل الطور فوقهم آمنوا . . مثلهم كالطفل الذى وصف له الطبيب دواء مراليشفى .ولذلك فإن رَفْعَ الله سبحانه وتعالى لجبل الطور فوقهم ليأخذوا الميثاق والمنهج . . لا يقال إنه فعل ذلك إرغاما لكى يؤمنوا . . إنه إرغام المحب . . يريد الله من خلقه ألا يعيشوا بلا منهج سماوى فرفع فوقهم جبل الطور إظهارا لقوته وقدرته تبارك وتعالى حتى إذا استشعروا هذه القوة الهائلة وما يمكن أن تفعله لهم وبهم آمنوا . . فكأنهم حين أحسوا بقدرة الله آمنوا . . تماما كالطفل الصغير يفتح فمه لتناول الدواء المر وهو كاره . . ولكن هل أعطيته الدواء كرها فيه أو أعطيته له قمة فى الحب والاشفاق عليه ؟

الله سبحانه وتعالى يريد أن يلفتهم إلى أنه لم يترك حيلة من الحيل حتى يتلقى بنو إسرائيل منهج الله الصحيح . . نقول إنه لم يترك حيلة إلا فعلها . . لكن غريزة الاستكبار والعناد منعتهم ان يستمروا على الإيمان . . تماما كما يقال للأب إن الدواء مر لم يحقق الشفاء وطفلك مريض . . فيقول وماذا أفعل أكثر من ذلك أرغمته على شرب الدواء المر ولكنه لم يشف .

وقول الله تعالى : « ميثاقكم » . هل الميثاق منهم أو هو ميثاق الله ؟ . طبعا هو ميثاق الله . . ولكن الله جل جلاله خاطبهم بقوله : « مبثاقكم » لأنهم أصبحوا طرفا فى العقد . . وماداموا قد أصبحوا طرفا أصبح ميثاقهم . . ولابد أن نؤمن أن رفع

جبل الطور فوق اليهود لم يكن لإجبارهم لأخذ الميثاق منهم حتى لا يقال انهم أجبروا على ذلك . . هم اتبعوا موسى قبل أن يرفع فوقهم جبل الطور . . فلابد أنهم أخذوا منهجه باختيارهم وطبقوه باختيارهم لأن الله سبحانه وتعالى لم يبق الطور مرفوعا فوق رءوسهم أينما كانوا طوال حياتهم حتى يقال أنهم أجبروا . . فلو أنهم أجبروا لحظة وجود جبل الطور فوقهم . . فإنهم بعد أن انتهت هذه المعجزة لم يكن هناك ما يجبرهم على تطبيق المنهج . . ولكن المسألة أن الله تبارك وتعالى . . حينما يرى من عباده مخالفة فإنه قد يخيفهم . . وقد يأخذهم بالعذاب الأصغر علهم يعودون إلى إيمانهم . . وهذا يأتى من حب الله لعباده لأنه يريدهم مؤمنين . .

ولكن اليهود قوم ماديون لا يؤمنون إلا بالمادة والله تبارك وتعالى أراد أن يريهم آية مادية علّ قلوبهم تخشع وتعود إلى ذكر الله . . وليس فى هذا إجبار لأنه كما قلنا إنه عندما انتهت المعجزة كان يمكنهم أن يعودوا إلى المعصية . . ولكنها آية تدفع إلى الإيمان . . وقوله تعالى : (خذوا ما آتيناكم بقوة) لأن ما يؤخذ بقوة يعطى بقوة . . والأخذ بقوة يدل على عشق الآخذ للمأخوذ . . وما دام المؤمن يعشق المنهج فإنه سيؤدى مطلوباته بقوة . . فالإنسان دائما عندما يأخذ شيئا لا يحبه فإنه يأخذه بفتور وتهاون .

قوله تعالى : « واسمعوا قالوا سمعنا وعصينا » . . القول هو عمل اللسان والفعل للجوارح كلها ما عدا اللسان . . هناك قول وفعل وعمل . . القول أن تنطق بلسانك والفعل أن تقوم جوارحك بالتنفيذ . . والعمل أن يطابق القول الفعل . . هم : « قالوا سمعنا وعصينا » هم سمعوا ما قاله لهم الله سبحانه وتعالى وعصوه . . ولكن (عصينا) على أى شىء معطوفة ؟ . . إنها ليست معطوفة على « سمعنا » . . ولكنها معطوفة على (قالوا) . . قالوا سمعنا فى القول وفى الفعل عصينا . . وليس معنى ذلك أنهم قالوا بلسانهم عصينا فى الفعل . . فالمشكلة جاءت من عطف عصينا على سمعنا . . فتحسب أنهم قالوا الكلمتين . . لا . . هم قالوا سمعنا ولكنهم لم ينفذوا فلم يفعلوا. والله سبحانه وتعالى يريدهم أن يسمعوا سماع طاعة لا سماع تجرد أى مجرد سماع . . ولكنهم سمعوا ولم يفعلوا شيئا فكأن عدم فعلهم معصية .

قوله تعالى : « وأُشربوا فى قلوبهم العجلَ » . الحق تبارك وتعالى يريد أن يصور لنا ماديتهم . . فالحب أمر معنوى وليس أمرًا ماديًا لأنه غير محسوس . . وكان التعبير

يقتضى أن يقال وأشربوا حب العجل .. ولكن الذى يتكلم هو الله .. يريد أن يعطينا الصورة الواضحة الكاملة فى أنهم أشربوا العجل ذاته أى دخل العجل إلى قلوبهم .

لكن كيف يمكن أن يدخل العجل فى هذا الحيز الضيق وهو القلب .. الله سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا الى الشيوع فى كل شىء بكلمة أُشْرِبُوا .. لأنها وصف لشرب الماء والماء يتغلغل فى كل الجسم .. والصورة تعرب عن تغلغل المادية فى قلوب بنى إسرائيل حتى كأن العجل دخل فى قلوبهم وتغلغل كما يدخل الماء فى الجسم مع أن القلب لا تدخله الماديات .

ويقول الحق جل جلاله : « وأُشربوا فى قلوبهم العجلَ بكفرهم » .. كأن الكفر هو الذى أسقاهم العجل .. هم كفروا أولا .. وبكفرهم دخل العجل إلى قلوبهم وختم عليها .. وقوله تعالى : « قل بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين » .. هم قالوا نؤمن بما أنزل علينا ولا نؤمن بما جاء بعده .. قل هل إيمانكم يأمركم بهذا ؟ .. وهذا أسلوب تهكم من القرآن الكريم عليهم .. مثل قوله تعالى :

﴿ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾

(من الآية ٥٦ سورة النمل)

هل الطهر والطهارة مبرر لإخراج آل لوط من القرية ؟ .. طبعا لا .. ولكنه أسلوب تهكم واستنكار .. والحق أن إيمانهم لا يأمرهم بهذا بل يأمرهم بالإيمان برسالة محمد صلى الله عليه وسلم .. وإقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ

عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾

(سورة الأعراف)

هذا هو مايأمرهم به إيمانهم . . أن يؤمنوا بالنبى الأمى محمد عليه الصلاة والسلام . . والله تبارك وتعالى يعلم ما يأمرهم به الإيمان لأنه منه جل جلاله . . ولذلك عندما يحاولون خداع الله . . يتهكم الله سبحانه وتعالى عليهم ويقول لهم : « بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين » .

وقوله تعالى : « إن كنتم مؤمنين » دليل على أنهم ليسوا مؤمنين . . ولكن لازال فى قلوبهم الشرك والكفر أو العجل الذى عبدوه .

﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾﴾

والله سبحانه وتعالى يريد أن يفضح اليهود . . ويبين إن إيمانهم غير صحيح وأنهم عدلوا وبدلوا واشتروا بآيات الله ثمنا قليلا . . وهو سبحانه يريدنا أن نعرف ان هؤلاء اليهود . . لم يفعلوا ذلك عن جهل ولا هم خدعوا بل هم يعلمون أنهم غيروا وبدلوا . . ويعرفون انهم جاءوا بكلام ونسبوه إلى الله سبحانه وتعالى زورا وبهتانا . . ولذلك يطلب من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يفضحهم أمام الناس ويبين كذبهم بالدليل القاطع . . فيقول : «قل إن كانت لكم الدارُ الآخرةُ» : « قل » موجهة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أى قل لهم يا محمد . . ولا يقال هذا الكلام إلا إذا كان اليهود قد قالوا إن لهم : « الدار الآخرة عند الله خالصة ».

الشيء الخالص هو الصافى بلا معكر أو شريك . أى الشيء الذى لك بمفردك لا يشاركك فيه أحد ولا ينازعك فيه أحد . . فالله سبحانه وتعالى يقول لرسوله صلى الله عليه وسلم:إن كانت الآخرة لهم وحدهم عند الله لا يشاركهم فيها أحد . . فكان الواجب عليهم أن يتمنوا الموت ليذهبوا إلى نعيم خالد . . فمادامت لهم الدار الآخرة وما داموا موقنين من دخول الجنة وحدهم . . فما الذى يجعلهم يبقون فى الدنيا . . ألا يتمنون الموت كما تمنى المسلمون الشهادة ليدخلوا الجنة . . وليست هذه هى الافتراءات الوحيدة من اليهود على الله سبحانه وتعالى . . وإقرأ قوله جل جلاله :

﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾

(من الآية ١١١ سورة البقرة)

من الذى قال ؟ اليهود قالوا عن أنفسهم لن يدخل الجنة إلا من كان هودا ،

والنصارى قالوا عن أنفسهم لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانيا . . كل منهم قال عن نفسه إن الجنة خاصة به . ولقد شكل قولهم هذا لنا لغزا فى العقائد . . من الذى سيدخل الجنة وحده . . اليهود أم النصارى ؟ نقول : إن الله سبحانه وتعالى أجاب عن هذا السؤال بقوله جل جلاله :

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ ﴾

(من الآية ١١٣ سورة البقرة)

وهذا أصدق قول قالته اليهود وقالته النصارى بعضهم لبعض . فاليهود ليسوا على شىء والنصارى ليسوا على شىء . . وكلاهما صادق فى مقولته عن الآخر . . فى الآية الكريمة التى نحن بصددها . . اليهود قالوا إن الدار الآخرة خالصة لهم . . سنصدقهم ونقول لهم لماذا لا يتعجلون ويتمنون الموت . . فالمفروض أنهم يشتاقون للآخرة مادامت خالصة لهم . . ولذلك قال الله تبارك وتعالى : « فتمنوا الموت إن كنتم صادقين » . . ولكنها أمانٍ كاذبة عند اليهود وعند النصارى . . واقرأ قوله سبحانه :

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ ﴾

(سورة المائدة)

إذن هم يتوهمون أنهم مهما فعلوا من ذنوب فإن الله لن يعذبهم يوم القيامة . . ولكن عدل الله يأبى ذلك . . كيف يعذب بشرا بذنوبهم ثم لا يعذب اليهود بما اقترفوا من ذنوب . . بل يدخلهم الجنة فى الآخرة . . وكيف يجعل الله سبحانه وتعالى الجنة فى الآخرة لليهود وحدهم . . وهو قدكتب رحمته لأتباع محمد صلى الله عليه وسلم والمؤمنين برسالة الإسلام . . وأبلغ اليهود والنصارى بذلك فى كتبهم . . وإقرأ قوله سبحانه وتعالى :

﴿ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ ۖ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ ﴾

(الآية ١٥٦ ومن الآية ١٥٧ سورة الأعراف)

إذا كانت هذه هى الحقيقة الموجودة فى كتبهم . . والحق تبارك وتعالى يقول :

﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

فكيف يَدَّعِى اليهود أن الدار الآخرة خالصة لهم يوم القيامة ؟ ولكن الحق جل جلاله يفضح كذبهم ويؤكد لنا ان ما يقولونه هم أول من يعرف إنه كذب .

﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾﴾

إنهم لن يتمنوا الموت أبدا بل يخافوه . . والله تبارك وتعالى حين أنزل هذه الآية . . وضع قضية الإيمان كله فى يد اليهود . . بحيث يستطيعون إن أرادوا أن يشككوا فى هذا الدين . . كيف ؟ ألم يكن من الممكن عندما نزلت هذه الآية أن يأتى عدد من اليهود ويقولوا ليتنا نموت . . نحن نتمنى الموت يا محمد .فإدع لنا ربك يميتنا . . ألم يكن من الممكن أن يقولوا هذا ؟ ولو نفاقا . . ولو رياءً ليهدموا هذا الدين . . ولكن حتى هذه لم يقولوها ولم تخطر على بالهم . . أنظر إلى الإعجاز القرآنى فى قوله سبحانه : « ولن يتمنوه » .

لقد حكم الله سبحانه حكما نهائيا فى أمر إختيارى لعدو يعادى الإسلام . . وقال إن هذا العدو وهم اليهود لن يتمنوا الموت . . وكان من الممكن أن يفطنوا لهذا التحدى . . ويقولوا بل نحن نتمنى الموت ونطلبه من الله . . ولكن حتى هذه لم تخطر على بالهم ؛ لأن الله تبارك وتعالى إذا حكم فى أمر اختيارى فهو يسلب من أعداء الدين تلك الخواطر التى يمكن أن يستخدموها فى هدم الدين . . فلا تخطر على بالهم أبدا مثلما تحداهم الله سبحانه من قبل فى قوله تعالى :

﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ۚ﴾

(من الآية ١٤٢ سورة البقرة)

ولقد نزلت هذه الآية الكريمة قبل أن يقولوا . . بدليل إستخدام حرف السين فى قوله : « سيقولُ » . . ووصفهم الله جل جلاله بالسفهاء . . ومع ذلك فقد قالوا . . ولو أن عقولهم تنبهت لسكتوا ولم يقولوا شيئا . . وكان فى ذلك تحدٍ للقرآن

الكريم .. كانوا سيقولون لقد قال الله سبحانه وتعالى : « سيقولُ السفهاءُ من الناسِ » .. ولكن أحدا لم يقل شيئا فأين هم هؤلاء السفهاء ولماذا لم يقولوا ؟ وكان هذا يعتبر تحديا للقرآن الكريم فى أمر يملكون فيه حرية الاختيار .. ولكن لأن الله هو القائل والله هو الفاعل .. لم يخطر ذلك على بالهم أبدا ، وقالوا بالفعل .

فى الآية الكريمة التى نحن بصددها .. تحداهم القرآن أن يتمنوا الموت ولم يتمنوه .. وكان الكلام المنطقى مادامت الدار الآخرة خالصة لهم .. والله تحداهم أن يتمنوا الموت إن كانوا صادقين لتمنوه .. ليذهبوا إلى نعيم أبدى .. ولكن الحق حكم مسبقا ان ذلك لن يحدث منهم .. لماذا ؟ لأنهم كاذبون ويعلمون أنهم كاذبون .. لذلك فهم يهربون من الموت ولا يتمنونه .

إنظروا مثلا إلى العشرة المبشرين بالجنة .. عمار بن ياسر فى الحرب فى حنين .. كان ينشد وهو يستشهد .. الآن ألقى الأحبة محمدا وصحبه .. كان سعيداً لأنه أصيب وكان يعرف وهو يستشهد انه ذاهب إلى الجنة عند محمد صلى الله عليه وسلم وصحابته .. هكذا تكون الثقة فى الجزاء والبشرى بالجنة .. وعبدالله بن رواحه كان يحارب وهو ينشد ويقول :

يا حبذا الجنة واقترابها ... طيبة وبارد شرابها

والإمام على رضى الله عنه يدخل معركة حنين ويرتدى غلالة ليس لها دروع .. لا ترد سهما ولا طعنة رمح .. حتى إن إبنه الحسن يقول له : يا أبى ليست هذه لباس حرب .. فيرد على كرم الله وجهه : يا بنى إن أباك لا يبالى أسقط على الموت أم سقط الموت عليه .. وسيدنا حذيفة بن اليمان ينشد وهو يحتضر .. حبيب جاء على ناقة لا ربح من ندم .. إذن الذين يثقون بآخرتهم يحبون الموت .

وفى غزوة بدر سأل أحد الصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم .. يا رسول الله أليس بينى وبين الجنة إلا أن أقاتل هؤلاء فيقتلونى .. فيجيب رسول الله صلى الله عليه وسلم نعم .. وكان فى يد الصحابى تمرات يمضغها .. فيستبطىء أن يبقى بعيدا عن الجنة حتى يأكل التمرات فيلقيها من يده ويدخل المعركة ويستشهد .

هؤلاء هم الذين يثقون بما عند الله فى الآخرة .. ولكن اليهود عندما تحداهم

القرآن الكريم بقوله لهم : « فتمنوا الموتَ إن كنتم صادقين » . . سكتوا ولم يجيبوا . . ولو تمنوا الموت لانقطع نفس الواحد منهم وهو يبلع ريقه فماتوا جميعا . . قد يقول قائل وهل التمنى باللسان ؟ ربما تمنوا بالقلب . . نقول ما هو التمنى ؟ نقول إن التمنى هو أن تقول لشىء محبوب عندك ليته يحدث.فهو قول . . وهب انه عمل قلبى فلو أنهم تمنوا بقلوبهم لأطلع الله عليها وأماتهم فى الحال . . ولكن مادام الحق تبارك وتعالى قال : « ولن يتمنوْه أبدا » . . فهم لن يتمنوْه سواء كان باللسان أو بالقلب . . لأن الادعاء منهم بأن لهم الجنة عند الله خالصة أشبه بقولهم الذى يرويه لنا القرآن فى قوله سبحانه :

﴿ وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾

(سورة البقرة)

وقوله تعالى : « بما قدمت أيديهم » . . أى ان أعمالهم السيئة تجعلهم يخافون الموت . . أما صاحب الأعمال الصالحة فهو يسعد بالموت . . ولذلك نسمع ان فلانا حين مات كان وجهه أشبه بالبدر لأن عمله صالح . . فساعة الموت يعرف فيها الإنسان يقينا انه ميت . . فالإنسان إذا مرض يأمل فى الشفاء ويستبعد الموت . . ولكن ساعة الغرغرة يتأكد الإنسان انه ميت ويستعرض حياته فى شريط عاجل . . فإن كان عمله صالحا تنبسط أساريره ويفرح لأنه سينعم فى الآخرة نعيما خالدا . . لانه فى هذه الساعة والروح تغادر الجسد يعرف الإنسان مصيره إما إلى الجنة وإما إلى النار . . وتتسلمه إما ملائكة الرحمة وإما ملائكة العذاب . . فالذى أطاع الله يستبشر بملائكة الرحمة . . والذى عصى وفعل ما يغضب الله يستعرض شريط أعماله . . فيجده شريط سوء وهو مقبل على الله . . وليست هناك فرصة للتوبة أو لتغيير أعماله . . عندما يرى مصيره إلى النار تنقبض أساريره وتقبض روحه على هذه الهيئة . . فيقال فلان مات وهو أسود الوجه منقبض الأسارير .

إذن فالذى أساء فى دنياه لا يتمنى الموت أبدا . . أما صاحب العمل الصالح فإنه يستبشر بلقاء الله .

ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن تمنى الموت فقال :

(لَا يَتَمَنَّيَنَّ أحدُكم الموتَ ولا يدعو به من قَبلِ أن يَأْتِيَه إلا أن يكون قد وَثِقَ بعملِه)(١) .

نقول إن تمنى الموت المنهى عنه هو تمنى اليأس وتمنى الاحتجاج على المصائب . . يعنى يتمنى الموت لأنه لا يستطيع أن يتحمل قدر الله فى مصيبة حدثت له . . أو يتمناه احتجاجا على أقدار الله فى حياته . . هذا هو تمنى الموت المنهى عنه . . أما صاحب العمل الصالح فمستحب له أن يتمنى لقاء الله . . وإقرأ قوله تعالى فى آخر سورة يوسف :

﴿ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ﴾

(سورة يوسف)

وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم أى لا تتمنوا الموت جزعا مما يصيبكم من قدر الله . . ولكن إصبروا على قدر الله . . وقوله تعالى : « واللهُ عليمٌ بالظالمين » . . لأن الله عليم بظلمهم ومعصيتهم . . هذا الظلم والمعصية هو الذى يجعلهم يخافون الموت ولا يتمنونه .

---

(١) رواه أحمد فى المسند عن أبى هريرة .

﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾

الحق سبحانه وتعالى بعد أن فضح كذبهم . . فى انهم لا يمكن أن يتمنوا الموت لأنهم ظالمون . . ومادامو ظالمين فالموت أمر مخيف بالنسبة لهم . . وهم أحرص الناس على الحياة . . حتى إن حرصهم يفوق حرص الذين أشركوا . . فالمشرك حريص على الحياة لأنه يعتقد ان الدنيا هى الغاية . . واليهود أشد حرصا على الحياة من المشركين لانهم يخافون الموت لسوء أعمالهم السابقة . . لذلك كلما طالت حياتهم ظنوا انهم بعيدون عن عذاب الآخرةِ . . الحياة لا تجعلهم يواجهون العذاب ولذلك فهم يفرحون بها .

إن اليهود لا يبالون أن يعيشوا فى ذلة أو فى مسكنة . . أو أى نوع من أنواع الحياة . . المهم انهم يعيشون أى حياة . . ولكن لماذا هم حريصون على الحياة أكثر من المشركين ؟ لأن المشرك لا آخرة له فالدنيا هى كل همه وكل حياته . . لذلك يتمنى أن تطول حياته بأى ثمن وبأى شكل . . لأنه يعتقد ان بعد ذلك لا شىء . . ولا يعرف ان بعد ذلك العذاب . . واليهود أحرص من المشركين على حياتهم .

وقوله تعالى : « يودُ أحدُهم لو يعمَّرُ ألفَ سنة » . . الود هو الحب . . أى انهم يحبون أن يعيشوا ألف سنة أو أكثر . . ولكن هب انه عاش ألف سنة أو حتى أكثر من ذلك . . أيزحزحه هذا عن العذاب ؟ لا . . طول العمر لا يغير النهاية .

فمادامت النهاية هى الموت.يتساوى من عاش سنوات قليلة ومن عاش ألوف

السنين . . قوله تعالى : « يعمر » بفتح العين وتشديد الميم يقال عنها إنها مبنية للمجهول دائما . . ولا ينفع أن يقال يعمر بكسر الميم . . فالعمر ليس بيد أحد ولكنه بيد الله . . فالله هو الذى يعطى العمر وهو الذى ينهيه . . وبما ان العمر ليس ملكا لإنسان فهو مبنى للمجهول . .

والعمر هو السن الذى يقطعه الإنسان بين ميلاده ووفاته . . ومادة الكلمة مأخوذة من العمار لأن الجسد تعمره الحياة . وعندما تنتهى يصبح الجسد أشلاء وخرابا . . قوله تعالى : « ألف سنة » . . لماذا ذكرت الألف ؟ لأنها هى نهاية ما كان العرب يعرفونه من الحساب. ولذلك فإن الرجل الذى أسر فى الحرب أخت كسرى فقالت كم تأخذ وتتركنى ؟ قال ألف درهم . . قالوا له بكم فديتها ؟ قال بألف . . قالوا لو طلبت أكثر من ألف لكانوا أعطوك . . قال والله لو عرفت شيئا فوق الألف لقلته . . فالألف كانت نهاية العدد عند العرب . . ولذلك كانوا يقولون ألف ألف ولم يقولوا مليونا . .

وقوله تعالى : « وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر » . . معناها انه لو عاش ألف سنة أو أكثر فلن يهرب من العذاب . وقوله تعالى : « والله بصير بما يعملون » . . أى يعرف ما يعملونه وسيعذبهم به سواء عاشوا ألف سنة أو أكثر أو أقل .

﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾﴾

الله تبارك وتعالى أراد أن يلفتنا إلى أن اليهود لم يقتلوا الأنبياء ويحرفوا التوراة ويشتروا بآيات الله جاه الدنيا فقط . . ولكنهم عادوا الملائكة أيضا . . بل إنهم أضمروا العداوة لأقرب الملائكة إلى الله الذى نزل بوحى القرآن وهو جبريل عليه السلام . . وانهم قالوا جبريل عدو لنا .

الخطاب هنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم . . ولقد جلس ابن جوريا أحد أحبار اليهود مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له من الذى ينزل عليك بالوحى ؟ فقال رسول الله عليه الصلاة والسلام جبريل . . فقال اليهودى لو كان غيره لآمنا بك . . جبريل عدونا لأنه ينزل دائما بالخسف والعذاب . . ولكن ميكائيل ينزل بالرحمة والغيث والخصب . . وأيضا هو عدوهم لأنهم اعتقدوا أن بيت المقدس سيخربه رجل اسمه بختنصر، فأرسل اليهود إليه من يقتله . . فلقى اليهودى غلاما صغيرا وسأله الغلام ماذا تريد ؟ قال إنى أريد أن أقتل بختنصر لأنه عندنا فى التوراة هو الذى سيخرب بيت المقدس . . فقال الغلام إن يكن مقدرا أن يخرب هذا الرجل بيت المقدس فلن تقدر عليه . . لأن المقدر نافذ سواء رضينا أم لم نرض . . وإن لم يكن مقدرا فلماذا تقتله ؟ أى ان الطفل قال له إذا كان الله قد قضى فى الكتاب أن بختنصر سيخرب بيت المقدس . . فلا أحد يستطيع أن يمنع قضاء الله . . ولن تقدر عليه لتقتله وتمنع تخريب بيت المقدس على يديه . . وإن كان هذا غير صحيح فلماذا تقتل نفسا بغير ذنب . . فعاد اليهودى دون أن يقتل بختنصر . . وعندما رجع إلى قومه قالوا له إن جبريل هو الذى تمثل لك فى صورة طفل وأقنعك ألا تقتل هذا الرجل .

ويروى أن سيدنا عمر بن الخطاب كان له أرض فى أعلى المدينة . . وكان حين يذهب إليها يمر على مدارس اليهود ويجلس إليهم . . وظن اليهود ان مجلس عمر معهم إنما يعبر عن حبه لهم . . فقالوا له إننا نحبك ونحترمك ونطمع فيك . . ففهم عمر مرادهم فقال والله ما جالستكم حبا فيكم . . ولكنى أحببت أن أزداد تصورا لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأعلم عنه ما فى كتابكم . . فقالوا له ومن يخبر محمدا بأخبارنا وأسرارنا ؟ فقال عمر إنه جبريل ينزل عليه من السماء بأخباركم . . قالوا هو عدونا . . فقال عمر كيف منزلته من الله ؟ قالوا إنه يجلس عن يمين الله وميكائيل يجلس عن يسار الله . . فقال عمر مادام الأمر كما قلتم فليس أحدهما عدوًا للآخر لأنهما عند الله فى منزلة واحدة . . فمن كان عدواً لأحدهما فهو عدو لله . . فلن تشفع لكم عداوتكم لجبريل ومحبتكم لميكائيل لأن منزلتهما عند الله عالية .

إن عداوتهم لجبريل عليه السلام تؤكد ماديتهم . . فهم يقيسون الأمر على البشر . . إن الذى يجلس على يمين السيد ومن يجلس على يساره يتنافسان على المنزلة عنده . . ولكن هذا فى دنيا البشر . . ولكن عند الملائكة لا شىء من هذا . . الله عنده ما يجعله يعطى لمن يريد المنزلة العالية دون أن ينقص من الآخر . . ثم إن الله سبحانه وتعالى اسمه الحق . . وما ينزل به جبريل حق وما ينزل به ميكائيل حق . . والحق لا يخاصم الحق . . وقال لهم عمر أنتم أشدّ كفرا من الحمير . . ثم ذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يكد الرسول يراه حتى قال له وافقك ربك يا عمر . . وتنزل قول الله تبارك وتعالى : « قل مَنْ كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدقا لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين » فقال عمر يا رسول الله . . إنى بعد ذلك فى إيمانى لأصلب من الجبل .

إذن فقولهم ميكائيل حبيبنا وجبريل عدونا من الماديات ، والله تبارك وتعالى يقول لرسوله صلى الله عليه وسلم . . إنهم يُعَادُون جبريل لأنه نزل على قلبك بإذن الله . . ومادام نزل من عند الله على قلبك . . فلا شأن لهم بهذا . . وهو مصدق لما بين يديهم من التوراة . . وهو هدى وبشرى للمؤمنين . . فأى عنصر من هذه العناصر تنكرونه على جبريل . . إن عداوتكم لجبريل عداوة لله سبحانه وتعالى .

﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾﴾

وهكذا أعطى الله سبحانه وتعالى الحكْم . . فقال إن العداوة للرسل . . مثل العداوة للملائكة . . مثل العداوة لجبريل وميكائيل . . مثل العداوة لله.ولقد جاء الحق سبحانه وتعالى بالملائكة ككل . . ثم ذكر جبريل وميكائيل بالاسم .

إن المسألة ليست مجزأة ولكنها قضية واحدة . . فمن كان عدوا للملائكة وجبريل وميكائيل ورسل الله . . فهو أولا وأخيرا عدو لله . . لأنه لا انقسام بينهم فكلهم دائرون حول الحق . . والحق الواحد لا عدوان فيه . . وإنما العدوان ينشأ من تصادم الأهواء والشهوات.وهذا يحدث فى أمور الدنيا .

والآية الكريمة أثبتت وحدة الحق بين الله وملائكته ورسله وجبريل وميكائيل . . ومن يعادى واحدا من هؤلاء يعاديهم جميعا وهو عدو لله سبحانه . . واليهود أعداء الله لأنهم كفروا به . . وأعداء الرسل لأنهم كذبوهم وقتلوا بعضهم .

وهكذا فالحق سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلى وحدة الحق فى الدين . . مصدره هو الله جل جلاله . . ورسوله من الملائكة هو جبريل . . ورسله من البشر هم الرسل والأنبياء الذين بعثهم الله . . وميكائيل ينزل بالخير والخصب لأن الإيمان أصل وجود الحياة . . فمن كان عدوا للملائكة والرسل وجبريل وميكائيل فهو كافر . . لأن الآية لم تقل إن العداوة لهؤلاء هى مجرد عداوة . . وإنما حَكَمَ الله عليهم بأنهم كافرون . . الله سبحانه وتعالى لم يخبر محمدا صلى الله عليه وسلم بهذا الحكم فقط ، وإنما أمره بأن يعلنه حتى يعرفه الناس جميعا ويعرفوا ان اليهود كافرون .

﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾﴾

إنتقل الله سبحانه وتعالى بعد ذلك إلى تأكيد صدق رسالة محمد عليه الصلاة والسلام .. وان الآيات فيها واضحة بحيث إن كل إنسان يعقل ويريد الإيمان يؤمن بها .. ولكن الذين يريدون الفسق والفجور .. هم هؤلاء الذين لا يؤمنون .. ما معنى الآيات البينات ؟ إن الآية هى الأمر العجيب .. وهو عجيب لأنه معجز .. والآيات معجزات للرسول تدل على صدق بلاغه عن الله .. وهى كذلك الآيات فى القرآن الكريم .. وبينات معناها أنها أمور واضحة لايختلف عليها ولا تحتاج إلى بيان : « وما يكفر بها إلا الفاسقون » .. والفسق هو الخروج عن الطاعة وهى مأخوذة من الرطبة .. البلح قبل أن يصبح رطبا لا تستطيع أن تنزع قشرته ولكن عندما يصبح رطبة تجد أن القشرة تبتعد عن الثمرة فيقال فسقت الرطبة .. ولذلك من يخرج عن منهج الله يقال له فاسق .

والمعنى ان الآيات التى أيد بها اللهُ سبحانه وتعالى محمدًا عليه الصلاة والسلام ظاهرة أمام الكفار ليست محتاجة إلى دليل .. فرسول الله صلى الله عليه وسلم الذى لم يقرأ كلمة فى حياته .. يأتى بهذا القرآن المعجز لفظا ومعنى .. هذه معجزة ظاهره لا تحتاج إلى دليل .. ورسول الله صلى الله عليه وسلم الذى لا تغريه الدنيا كلها .. ليترك هذا الدين مهما أعطوه .. دليل على انه صاحب مبدأ ورسالة من السماء .. ورسول الله صلى الله عليه وسلم الذى يخبر بقرآن موحى من السماء عن نتيجة حرب ستقع بعد تسع سنوات .. ويخبر الكفار والمنافقين بما فى قلوبهم ويفضحهم .. ويتنبأ بأحداث قادمة وبقوانين الكون .. وغير ذلك مما احتواه القرآن المعجز من كل أنواع الإعجاز علميا وفلكيا وكونيا .. كل هذه آيات بينات يتحدى القرآن بها الكفار .. كلها آيات واضحة لا يمكن أن

يكفر بها إلا الذى يريد أن يخرج عن منهج الله ، ويفعل ما تهواه نفسه . .

إن الإعجاز فى الكون وفى القرآن وفى رسول الله صلى الله عليه وسلم . . كل هذا لا يحتاج إلا لمجرد فكر محايد . . لنعرف ان هذا القرآن هو من عند الله ملىء بالمعجزات لغة وعلما . . وإنه سيظل معجزة لكل جيل له عطاء جديد .

﴿ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهۡدٗا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٠٠ ﴾

بعد أن بين الحق سبحانه وتعالى أن الدين الاسلامى ، وكتابه القرآن فيه من الآيات الواضحة مايجعل الإيمان به لايحتاج إلا إلى وقفة مع العقل مما يجعل موقف العداء الذى يقفه اليهود من الاسلام منافيا لكل العهود التى أخذت عليهم ، منافيا للإيمان الفطرى ، ومنافيا لأنهم عاهدوا الله ألا يكتموا ماجاء فى التوراة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومنافيا لعهدهم أن يؤمنوا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومنافيا لما طلب منهم موسى أن يؤمنوا بالإسلام عندما يأتى الرسول ، مصداقا لقوله تعالى :

﴿ وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم مِّن كِتَٰبٖ وَحِكۡمَةٖ ثُمَّ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مُّصَدِّقٞ لِّمَا مَعَكُمۡ لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ قَالَ ءَأَقۡرَرۡتُمۡ وَأَخَذۡتُمۡ عَلَىٰ ذَٰلِكُمۡ إِصۡرِيۖ قَالُوٓاْ أَقۡرَرۡنَاۚ قَالَ فَٱشۡهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ٨١ ﴾

(سورة آل عمران)

وهكذا نعرف أن موسى عليه السلام الذى أُخذ عليه الميثاق قد أبلغه إلى بنى إسرائيل ، وأن بنى إسرائيل كانوا يعرفون هذا الميثاق جيدًا عند بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانت عندهم أوصاف دقيقة للرسول عليه الصلاة والسلام . . ولكنهم نقضوه كما نقضوا كثيرا من المواثيق . . منها عهدهم بعدم العمل فى السبت ، وكيف تحايلوا على أمر الله بأن صنعوا مصايد للأسماك تدخل فيها ولا تستطيع الخروج وهذا تحايل على أمر الله ، ثم كان ميثاقهم فى الإيمان بالله إلها واحدًا أحدا ، ثم عبدوا

العجل.. وكان قولهم لموسى عليه السلام بعد أن أمرهم الله بدخول واد فيه زرع ...لأنهم أرادوا أن يأكلوا من نبات الأرض بدلا من المن والسلوى التى كانت تأتيهم من السماء .. قالوا لموسى : « فاذهب أنت وربك فقاتلا انا ها هنا قاعدون » .. وغير ذلك الكثير من المواثيق بالنسبة للحرب والأسرى والعبادة ، حتى عندما رفع الله تبارك وتعالى جبل الطور فوقهم ودخل فى قلوبهم الرعب وظنوا أنه واقع عليهم ، ولم يكن هذا إلا ظنا وليس حقيقة .. لأن الله تبارك وتعالى يقول : « وظنوا أنه واقع بهم » .. وبمجرد ابتعادهم عن جبل الطور نقضوا الميثاق .

ثم نقضوا عهدهم وميثاقهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما هاجر إلى المدينة وذلك فى غزوة الخندق .. وعندما أرادوا أن يفتحوا طريقا للكفار ليضربوا جيوش المؤمنين من الخلف .

قوله تعالى « نبذه فريق منهم » قلنا إن هذا يسمى قانون صيانة الاحتمال .. لأن منهم من صان المواثيق .. ومنهم من صدق ما عاهد الله عليه .. ومنهم مثلا من كان يريد أن يعتنق الدين الجديد ويؤمن بمحمد عليه الصلاة والسلام .

إذن فليسوا كلهم حتى لا يقال هذا على مطلق اليهود .. لأن فيهم أناسا لم ينقضوا العهد .. ويريد الله تبارك وتعالى أن يفتح الباب أمام أولئك الذين يريدون الإيمان ، حتى لا يقولوا لقد حكم الله علينا حكما مطلقا ونحن نريد أن نؤمن ونحافظ على العهد ، ولكن هؤلاء الذين حافظوا على العهد كانوا قلة .. ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى : « بل أكثرهم لا يؤمنون » .. أى أن الفريق الناقض للعهد .. الناقض للإيمان هم الأكثرية من بنى إسرائيل .

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾

بعد أن تحدث الله سبحانه وتعالى عن اليهود الذين نقضوا المواثيق الخاصة بالإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم ونقضوها وهم يعلمون . . قال الله سبحانه : « ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم » . . أى أن ما جاء فى القرآن مصدق لما جاء فى التوراة . . لأن القرآن من عند الله والتوراة من عند الله . . ولكن التوراة حرفوها وكتموا بعضها وغيروا وبدلوا فيها فأخفوا ما يريدون إخفاءه . . لذلك جاء القرآن الكريم ليظهر ما أخفوه ويؤكد ما لم يخفوه ولم يتلاعبوا فيه .

وقوله تعالى : « نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم » . . قلنا إن هناك كتابا نبذوه أولا وهو التوراة . . ولما جاءهم الكتاب الخاتم وهو القرآن الكريم نبذوه هو الآخر وراء ظهورهم . . ما معنى نبذه ؟ . . المعنى طرحه بعيدا عنه . . إذن ما فى كتابهم من صفات رسول الله صلى الله عليه وسلم نبذوه بعيدا . . ومن التبشير بمجىء رسول الله عليه الصلاة والسلام نبذوه هو الآخر . . لأنهم كانوا يستفتحون على الذين كفروا ويقولون أتى زمن نبى سنؤمن به ونقتلكم قتل عاد وإرم .

وقوله تعالى : « نبذ فريقٌ » . . يعنى نبذ جماعة وبقيت جماعة أخرى لم تنبذ الكتاب . . بدليل أن ابن سلام وهو أحد أحبار اليهود صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم وآمن به . . وكعب الأحبار مخيريق أسلم . . فلو أن القرآن عمم ولم يقل فريق لقيل إنه غير منصف لهؤلاء الذين آمنوا .

وقوله تعالى : « وراء ظهورهم » . . النبذ قد يكون أمامك . . وكونه أمامك

فأنت تراه دائما ، وربما يغريك بالإقبال عليه ، ولكنهم نبذوه وراء ظهورهم أى جعلوه وراءهم حتى ينسوه تماما ولا يلتفتوا إليه .

وقوله تعالى : « كأنهم لا يعلمون » . . أى يتظاهرون بأنهم لا يعلمون ببشارة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأوصافه . . وقوله تعالى : « كأنهم » . . دليل على أنهم يعلمون ذلك علم يقين . . لأنهم لو كانوا لا يعلمون . . لقال الحق سبحانه : « نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم » وهم لا يعلمون . . إذن هم يعلمون يقينا ولكنهم تظاهروا بعدم العلم . . ولابد أن نتنبه إلى أن نبذ يمكن أن يأتى مقابلها فتقول نبذ كذا واتبع كذا . . وهم نبذوا كتاب الله ولكن ماذا اتبعوا ؟

﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ۚ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾

يخبرنا الحق تبارك وتعالى أن فريقا من اليهود نبذوا كتاب الله واتبعوا ما تتلو الشياطين .. لأن النبذ يقابله الإتباع .. واتبعوا يعنى اقتدوا وجعلوا طريقهم فى الاهتداء هو ما تتلوه الشياطين على ملك سليمان .. وكان السياق يقتضى أن يقال ما تلته الشياطين على ملك سليمان .. ولكن الله سبحانه وتعالى يريدنا أن نفهم أن هذا الاتباع مستمر حتى الآن كأنهم لم يحددوا المسألة بزمن معين .

إنه حتى هذه اللحظة هناك من اليهود من يتبع ما تلته الشياطين على ملك سليمان ، ونظرا لأن المعاصرين من اليهود قد رضوا وأخذوا من فعل أسلافهم الذين اتبعوا الشياطين فكأنهم فعلوا .

الحق سبحانه يقول : « واتبعوا ما تتلو الشياطينُ » ولكن الشياطين تلت وانتهت .. واستحضار اليهود لما كانت تتلوه الشياطين حتى الآن دليل على أنهم يؤمنون به ويصدقونه .. الشياطين هم العصاة من الجن .. والجن فيهم العاصون والطائعون والمؤمنون .. وإقرأ قوله تعالى :

﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾﴾

(سورة الجن)

وقوله سبحانه عن الجن :

﴿ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ ﴾

(من الآية ١٤ سورة الجن)

إذن الجن فيهم المؤمن والكافر . . والمؤمنون من الجن فيهم الطائع والعاصى . . والشياطين هم مردة الجن المتمردون على منهج الله . . وكل متمرد على منهج الله نسميه شيطانا . . سواء كان من الجن أو من الإنس . . ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَـٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ﴾

(من الآية ١١٢ سورة الأنعام)

إذن فالشياطين هم المتمردون على منهج الله . . قوله تعالى : « واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان » . . يعنى ما كانت تتلو الشياطين أيام ملك سليمان . .

ولكن ما هى قصة ملك سليمان والشياطين ؟ . الشياطين كانوا قبل مجىء رسول الله صلى لله عليه وسلم كان الله قد مكنهم من قدرة الاستماع إلى أوامر السماء وهى نازلة إلى الأرض . . وكانوا يستمعون للأوامر تلقى من الملائكة وينقلونها إلى أئمة الكفر ويزيدون عليها بعض الأكاذيب والخرافات . . فبعضها يكون على حق والأكثر على باطل . . ولذلك قال الله تبارك وتعالى :

﴿ وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَـٰدِلُوكُمْ ﴾

(من الآية ١٢١ سورة الإنعام)

وكان الشياطين قبل نزول القرآن يسترقون السمع ، ولكن عند بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إمتنع ذلك كله ، حتى لا يضع الشياطين خرافاتهم فى منهج

رسول الله صلى الله عليه وسلم أو فى القرآن . . ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ ﴾

(سورة الجن)

أى أن الشياطين كانت لها مقاعد فى السماء تقعد فيها لتستمع الى ما ينزل من السماء إلى الأرض ليتم تنفيذه . . ولكن عند نزول القرآن أرسل الله سبحانه وتعالى الشهب ـ وهى النجوم المحترقة ـ فعندما تحاول الشياطين الاستماع إلى ما ينزل من السماء ينزل عليهم شهاب يحرقهم . . ولذلك فإن عامة الناس حين يرون شهابا يحترق فى السماء بسرعة يقولون : سهم الله فى عدو الدين . . كأن المسألة فى أذهان الناس وجعلتهم يقولون : سهم الله فى عدو الدين . . الذى هو الشيطان .

وإقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ ﴾

﴿ وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ ﴾

(سورة الجن)

أى أن الأمر إختلط على الشياطين لأنهم لم يعودوا يستطيعون استراق السمع . . ولذلك لم يعرفوا هل الذى ينزل من السماء خير أو شر ؟ . . أنظر الى دقة الأداء القرآنى فى قوله تعالى : « وأنا لمسنا السماءَ » . . كأنهم صعدوا حتى بلغوا السماء لدرجة أنها أصبحت قريبة لهم حتى كادوا يلمسونها . . فالله تبارك وتعالى فى هذه الحالة ـ وهى اتباع اليهود لما تتلو الشياطين على ملك سليمان من السحر والتعاويذ والأشياء التى تضر ولا تفيد ـ أراد أن يبرىء سليمان من هذا كله . . فقال جل جلاله : « وما كفر سليمان » . .

وكان المنطق يقتضى أن يخص الله سبحانه وتعالى حكاية الشياطين قبل أن يبرىء سليمان من الكفر الذى أرادوا أن ينشروه . . ولكن الله أراد أن ينفى تهمة الكفر عن

سليمان ويثبتها لكل من اتبع الشياطين فقال جل جلاله : « وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا » .

إذن الشياطين هم الذين نشروا الكفر . . وكيف كفر الشياطينُ وبماذا أغروا أتباعهم بالكفر ؟ . . يقول الله سبحانه وتعالى : « ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ولقد علموا لمن اشتراه ماله فى الآخرة من خلاق » .

ما قصة كل هذا ؟ . . اليهود نبذوا عهد الله واتبعوا ما تتلو الشياطين أيام سليمان ، وأرادوا أن ينسبوا كل شيء فى عهد سليمان على أنه سحر وعمل شياطين ، وهكذا أراد اليهود أن يوهموا الناس أن منهج سليمان هو من السحر ومن الشياطين . والحق سبحانه وتعالى أراد أن يبرىء سليمان من هذه الكذبة . . سليمان عليه السلام حين جاءته النبوة طلب من الله سبحانه وتعالى أن يعطيه ملكا لا يعطيه لأحد من بعده . . وإقرأ قوله تعالى :

﴿ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَـٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ ﴾

(سورة ص)

وهكذا أعطى سليمان الملك على الإنس والجن ومخلوقات الله كالريح والطير وغير ذلك . . حين أخذ سليمان الملك كان الشياطين يملأون الأرض كفرًا بالسحر وكتبه . فأخذ سليمان كل كتب السحر وقيل أنه دفنها تحت عرشه . . وحين مات سليمان وعثرت الشياطين على مخبأ كتب السحر أخرجتها وأذاعتها بين الناس . . وقال أولياؤهم من أحبار اليهود إن هذه الكتب من السحر هى التى كان سليمان يسيطر بها على الإنس والجن ، وأنها كانت منهجه ، وأشاعوها بين الناس . . فأراد الله سبحانه

وتعالى أن يبرىء سليمان من هذه التهمة ومن أنه حكم بالسحر ونشر الكفر . . قال جل جلاله : « وما كفر سليمانُ ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناسَ السحرَ » .

ما هو السحر ؟ . . الكلمة مشتقة من سحر وهو آخر ساعات الليل وأول طلوع النهار . . حيث يختلط الظلام بالضوء ويصبح كل شيء غير واضح . . هكذا السحر شيء يخيل إليك أنه واقع وهو ليس بواقع . . إنه قائم على شيئين . . سحر العين لترى ما ليس واقعا على أنه حقيقة . . ولكنه لا يغير طبيعة الأشياء . . ولذلك قال الله تبارك وتعالى فى سحرة فرعون :

﴿ سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٖ ﴾

(من الآية ١١٦ سورة الأعراف)

إذن فالساحر يسيطر على عين المسحور ليرى ما ليس واقعا وما ليس حقيقة . . وتصبح عين المسحور خاضعة لإرادة الساحر . . ولذلك فالسحر تخيل وليس حقيقة . . وإقرأ قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ قَالَ بَلۡ أَلۡقُواْۖ فَإِذَا حِبَالُهُمۡ وَعِصِيُّهُمۡ يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ أَنَّهَا تَسۡعَىٰ ﴿٦٦﴾ ﴾

(سورة طه)

إذن ما دام الله سبحانه وتعالى قال : « يخيل إليه » . . فهى لا تسعى . . إذن فالسحر تخيل . . وما الدليل على أن السحر تخيل ؟ . . الدليل هو المواجهة التى حدثت بين موسى وسحرة فرعون . . ذلك أن الساحر يسحر أعين الناس ولكن عينيه لا يسحرهما أحد . . حينما جاء السحرة وموسى . . إقرأ قوله سبحانه :

﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلۡ أَلۡقُواْۖ فَإِذَا حِبَالُهُمۡ وَعِصِيُّهُمۡ يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ أَنَّهَا تَسۡعَىٰ ﴿٦٦﴾ ﴾

(سورة طه)

عندما ألقى السحرة حبالهم وعصيهم خُيِّل للموجودين إنها حيات تسعى . . ولكن هل خيل للسحرة إنها حيات ؟ طبعا لا . . لأن أحدا لم يسحر أعين السحرة . . ولذلك ظل ما ألقوه فى أعينهم حبالا وعِصِيًّا . . حين ألقى موسى عصاه وإقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ ﴾

(سورة طه)

هنا تظهر حقيقة السحر . . لماذا سجد السحرة ؟ لأن حبالهم وعصيهم ظلت كما هى حبالا وعصيا . . ذلك ان أحدا لم يسحر أعينهم . . ولكن عندما ألقى موسى عصاه تحولت إلى حية حقيقية . . فعرفوا ان هذا ليس سحرا ولكنها معجزة من الله سبحانه وتعالى . . لماذا ؟ لأن السحر لا يغير طبيعة الأشياء ، وهم تأكدوا أن عصا موسى قد تحولت إلى حية . . ولكن حبالهم وعصيهم ظلت كما هى وإن كان قد خيل إلى الناس أنها تحولت إلى حيات .

إذن فالسحر تخيل والساحر يرى الشىء على حقيقته لذلك فإنه لا يخاف . . بينما المسحورون الذين هم الناس يتخيلون ان الشىء قد تغيرت طبيعته . . ولذلك سجد السحرة لأنهم عرفوا أن معجزة موسى ليست سحرا . . ولكنها شىء فوق طاقة البشر .

السحر إذن تخيل والشياطين لهم قدرة التشكل بأى صورة من الصور ، ونحن لا نستطيع أن ندرك الشيطان على صورته الحقيقية ، ولكنه إذا تشكل نستطيع أن نراه فى صورة مادية . . فإذا تشكل فى صورة إنسان رأيناه إنسانا ، وإذا تشكل فى صورة حيوان رأيناه حيوانا ، وفى هذه الحالة تحكمه الصورة . . فإذا تشكل كإنسان وأطلقت عليه الرصاص مات ، وإذا تشكل فى صورة حيوان ودهمته بسيارتك مات ، ذلك لأن الصورة تحكمه بقانونها . . وهذا هو السر فى إنه لا يبقى فى تشكله إلا لمحة ثم يختفى فى ثوان . . لماذا ؟ لانه يخشى ممن يراه فى هذه الصورة أن يقتله خصوصا ان قانون التشكل يحكمه . . ولذلك فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين تشكل له الشيطان فى صورة إنسان قال :

(ولقد هممت أن أربطه فى سارية المسجد ليتفرج عليه صبيان المدينة ولكنى تذكرت قوَل أخى سليمان : « رب هب لى مُلْكاً لا ينبغى لأحد من بعدى » . فتركته) الحديث لم يُخَرَّجْ .

ومن رحمة الله بنا انه اذا تشكل الشيطان فإن الصورة تحكمه . . وإلا لكانوا فزعونا وجعلوا حياتنا جحيما . . فالله سبحانه وتعالى جعل الكون يقوم على التوازن حتى لا يطغى أحد على أحد . . بمعنى أننا لو كنا فى قرية وكلنا لا نملك سلاحا وجد التوازن . . فإذا ملك أحدنا سلاحا وادعى انه يفعل ذلك ليدافع عن أهل القرية ، ثم بعد ذلك استغل السلاح ليسيطر على أهل القرية ويفرض عليهم إتاوات وغير ذلك ، يكون التوازن قد اختل وهذا مالا يقبله الله .

السحر يؤدى لاختلال التوازن فى الكون . . لأن الساحر يستعين بقوة أعلى فى عنصرها من الإنسان وهو الشيطان وهو مخلوق من نار خفيف الحركة قادر على التشكل وغير ذلك . . الإنسان عندما يطلب ويتعلم كيف يسخر الجن . . يدعى أنه يفعل ذلك لينشر الخير فى الكون ، ولكنها ليست حقيقة . . لأن هذا يغريه على الطغيان . . والذى يخل بأمن العالم هو عدم التكافؤ بين الناس . . إنسان يستطيع أن يطغى فإذا لم يقف أمامه المجتمع كله إختل التوازن فى المجتمع . والله سبحانه وتعالى يريد تكافؤ الفرص ليحفظ أمن وسلامة الكون . . ولذلك يقول لنا لا تطغوا وتستعينوا بالشياطين فى الطغيان حتى لا تفسدوا أمن الكون .

ولكن الله جل جلاله شاءت حكمته أن يضع فى الكون ما يجعل كل مخلوق لا يغتر بذاتيته . . ولا يحسب انه هو الذى حقق لنفسه العلو فى الأرض . . ولقد كانت معصية إبليس فى انه رفض أن يسجد لآدم. إنه قال :

﴿ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾

(من الآية ١٢ سورة الأعراف)

إذن فقد أخذ عنصر الخلق ليدخل الكبر إلى نفسه فيعصى ، ولذلك أراد الله سبحانه وتعالى أن يعلم البشر من القوانين ، ما يجعل هذا الأعلى فى العنصر ـ وهو الشيطان ـ يخضع للأدنى وهو الإنسان ، حتى يعرف كل خلق الله أنه إن ميزهم الله فى عنصر من العناصر ، فإن هذا ليس بإرادتهم ولا ميزة لهم . . ولكنه بمشيئة الله

سبحانه وتعالى . . فأرسل الملكين ببابل هاروت وماروت ليعلما الناس السحر . الذى يخضع الأعلى عنصراً للأدنى .

واقرأ قوله سبحانه : « وما كفر سليمانُ ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناسَ السحر وما أنزل على الملكين ببابَل هاروتَ وماروتَ وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر » . . فالله تبارك وتعالى أرسل الملكين هاروت وماروت ليعلما الناس السحر . . ولقد رويت عن هذين الملكين قصص كثيرة . . ولكن مادام الله سبحانه وتعالى قد أرسل ملكين ليعلما الناس السحر . . فمعنى ذلك أن السحر علم يستعين فيه الإنسان بالشياطين . . وقيل إن الملائكة قالوا عن خلق آدم كما يروى لنا القرآن الكريم :

﴿ قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة البقرة)

حينئذ طلب الحق جل جلاله من الملائكة . . أن يختاروا ملكين ليهبطا إلى الأرض لينظروا ماذا يفعلان ؟ فاختاروا هاروت وماروت . . وعندما نزلا إلى الأرض فتنتهما امرأة فارتكبا الكبائر . هذه القصة برغم وجودها فى بعض كتب التفسير ليست صحيحة . . لأن الملائكة بحكم خلقهم لا يعصون الله . . ولأنه من تمام الإيمان أن يؤدى المخلوق كل ما كُلِّف به من الله جل جلاله . . وهذان الملكان كلفا بأن يعلما الناس السحر . . وأن يحذرا بأن السحر فتنة تؤدى إلى الكفر وقد فعلا ذلك . . والفتنة هى الإمتحان . . ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى : « وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله » . . إذن فهذان الملكان حذرا الناس من أن ما يعلمانه من السحر فتنة تؤدى إلى الكفر . . وإنها لا تنفع إلا فى الشر وفى التفريق بين الزوج وزوجه . . وإن ضررها لا يقع إلا بإذن الله . . فليس هناك أى قوى فى هذا الكون خارجة عن مشيئة الله سبحانه وتعالى . .

ثم يأتى قول الحق تبارك وتعالى : « ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ولقد علموا لمن اشتراه ماله فى الآخرة من خلاق ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا

يعلمون » . . ان الله سبحانه وتعالى يخبرنا أن تعلم السحر يضر ولا ينفع . . فهو لا يجلب نفعا أبدا حتى لمن يشتغل به . فتجد من يشتغل بالسحر يعتمد فى رزقه على غيره من البشر فهم أفضل منه . . وهو يظل طوال اليوم يبحث عن إنسان يغريه بأنه يستطيع أن يفعل له أشياء ليأخذ منه مالا ، وتجد شكله غير طبيعى وحياته غير مستقرة وأولاده منحرفين . وكل من يعمل بالسحر يموت فقيرا لا يملك شيئا وتصيبه الأمراض المستعصية ، ويصبح عبرة فى آخر حياته .

إذن فالسحر لا يأتى إلا بالضرر ثم بالفقر ثم بلعنة الله فى آخر حياة الساحر . . والذى يشتغل بالسحر يموت كافرا ولا يكون له فى الآخرة إلا النار . . ولذلك قد اشتروا أنفسهم بأسوأ الأشياء لو كانوا يعلمون ذلك . . لأنهم لم يأخذوا شيئا إلا الضر . . ولم يفعلوا شيئا إلا التفريق بين الناس . . وهم لا يستطيعون أن يضروا أحدا إلا بإذن الله .

والله سبحانه وتعالى إذا كانت حكمته قد اقتضت أن يكون السحر من فتن الدنيا وابتلاءاتها . . فإنه سبحانه قد حكم على كل من يعمل بالسحر بأنه كافر . . ولذلك لا يجب أن يتعلم الإنسان السحر أو يقرأ عنه . . لأنه وقت تعلمه قد يقول سأفعل الخير ثم يستخدمه فى الشر . . كما ان الشياطين التى يستعين بها الساحر غالبا ما تنقلب عليه لتذيقه وبال أمره وتكون شرا عليه وعلى أولاده . . واقرأ قوله سبحانه وتعالى :

﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ ﴾

(سورة الجن)

أى أن الذى يستعين بالجن ينقلب عليه ويذيقه ألوانا من العذاب . .

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾﴾

يفتح الله جل جلاله أمام عباده أبواب التوبة والرحمة . . لقد بين لهم أن السحر كفر ، وان من يقوم به يبعث كافرا يوم القيامة ويخلد فى النار . . وقال لهم سبحانه وتعالى لو أنهم امتنعوا عن تعلم السحر ليمتازوا به على من سواهم إمتيازا فى الضرر والإيذاء . . لكان ذلك خيرا لهم عند الله تبارك وتعالى . . لأن الملكين اللذين نزلا لتعليم السحر قال الله سبحانه عنهما : « وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر » .

إذن فممارسة السحر كفر . فلو انهم آمنوا بهذه القضية وبأنهم يدخلون فى الكفر ، واتقوا الله لكان ذلك ثوابا لهم عند الله وخيرًا فى الدنيا والآخرة . . ولكن ما هى المثوبة ؟ هى الثواب على العمل الصالح . . يقابلها العقوبة وهى العقاب على العمل السيىء . . وهى مشتقة من ثاب أى رجع . . ولذلك يسمى المبلغ عن الإمام فى الصلاة المثوب . . لأن الإمام يقول الله أكبر فيرددها المبلغ عن الإمام بصوت عال حتى يسمعها المصلون الذين لا يصلهم صوت الإمام . . وهذا إسمه التثويب . . أى إعادة ما يقوله الإمام لتزداد فرصة الذين لم يسمعوا ما قاله الإمام . . وكما قلنا فهى مأخوذة من ثاب أى رجع . . لأن الإنسان عندما يعمل صالحا يرجع عليه عمله الصالح بالخير . . فلا تعتقد أن العمل الصالح يخرج منك ولا يعود . . ولكنه لابد أن يعود عليك بالخير .

وإذا نظرنا إلى دقة التعبير القرآنى : « لمثوبة من عند الله خير » . نجد أن كلمة مثوبة مأخوذة من نفس معنى كلمة ثوب وجمعه ثياب . . وكان الناس قديما يأخذون أصواف الأغنام ليصنعوا منها ملابسهم . . فيأتى الرجل بما عنده من غنم ويجز صوفها

ثم يعطيه لآخر ليغزله وينسجه ثوبا ويعيده إلى صاحبه . . فكأن ما أرسله من الصوف رد إليه كثوب . . ولذلك سميت مثوبة لأن الخير يعود إليك لتنتفع به نفعا عاليا . . وكذلك الثواب عن العمل الصالح يرتد إليك بالنفع العالى .

إذن فكلمة ثوب جاء منها الثواب ، والله سبحانه وتعالى علمنا أن الثوب لستر العورة . . والعمل الصالح يستر الأمراض المعنوية والنفسية فى الإنسان . . وفى ذلك يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾

(من الآية ٢٦ سورة الأعراف)

فكأن هناك لباسين أحدهما لستر العورة . . والثانى لستر الإنسان من العذاب . . ولباس التقوى خير من لباس ستر العورة . . قوله تعالى : « لمثوبة من عند الله خير » . . انظر إلى المثوبة التى تأتى من عند الله . . إذا كان الثوب يأتيك من عند من صنعه جميلا مزركشا وله ألوان مبهجة . . إذا كان هذا ما يصنعه لك بشر فما بالك بالثواب الذى يأتيك من عند الله . إنه قمة الجمال . فالله هو القادر على أن يرد الثواب بقدراته سبحانه فيكون الرد عاليا وعاليا جدا ، بحيث يضاعف الثواب مرات ومرات .

على أننا لابد أن نتنبه الى قول الله تعالى : « ولو أنهم آمنوا واتقوا » قلنا معنى اتقوا انهم جعلوا بينهم وبين صفات الجلال فى الله وقاية . . ولذلك قلنا إن بعض الناس يتساءل . . كيف يقول الله تبارك وتعالى : « إتقوا الله » . . ويقول جل جلاله : « إتقوا النار » . . نقول إن معنى اتقوا الله أى اجعلوا بينكم وبين صفات الجلال فى الله وقاية : « واتقوا النار » . . أى اجعلوا بينكم وبين عذاب النار وقاية . . لأن النار من متعلقات صفات الجلال . . لذلك فإن قوله : « اتقوا الله » . . تساوى : « اتقوا النار » . . والحق تبارك وتعالى حينما قال : « اتقوا » أطلقها عامة . . والحذف هنا المراد به التعميم . . والله سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلى أن السحرة لو آمنوا بأن تعلم السحر فتنة تؤدى إلى الكفر . . واتقوا الله وخافوا عذابه فى الآخرة لكان ذلك خيراً لهم . . لذلك قال جل جلاله : « لمثوبة من عند الله خير » . .

وساعة تسمع كلمة خير تأتى إلى الذهن كلمة شر . . لأن الخير يقابله الشر . . ولكن فى بعض الأحيان كلمة خير لايقابلها شر . ولكن يقابلها خير أقل . وكلمة

خير هى الوحيدة فى اللغة العربية التى يساوى الإسم فيها أفعل التفضيل . . فأنت تقول هذا فاضل وهذا مفضول عليه . . كلمة خير إسم تفضيل فيقال ذلك خير من كذا . . أى واحد منهما يعطى أكثر من الآخر . . وكلمة خير إذا لم يأت مقابلها أى خير من كذا يكون مقابلها شر . . فإذا قلت فلان خير من فلان . . فكلاهما إشترك فى الخير ولكن بدرجة مختلفة . . والخير هو ما يأتى لك بالنفع . . ولكن مقياس النفع يختلف باختلاف الناس . . واحد ينظر إلى النفع العاجل وآخر ينظر إلى النفع الآجل . . وفى ظاهر الأمر كل منهما أراد خيرا .

وإذا أردنا أن نقرب ذلك إلى الأذهان فلنقل إن هناك أخوين أحدهما يستيقظ مبكراً ليذهب إلى مدرسته والثانى ينام حتى الضحى ، ويخرج من البيت ليجلس على المقهى . . الأول يحب الخير لنفسه والثانى يحب الخير لنفسه والخلاف فى تقييم الخير . . الكسول يحب الخير العاجل فيعطى نفسه حظها من النوم والترفيه وعدم العمل . . والمجتهد يحب الخير الآجل لنفسه لذلك يتعب ويشقى سنوات الدراسة حتى يرتاح بعد ذلك ويحقق مستقبلا مرموقا .

الفلاح الذى يزرع ويذهب إلى حقله فى الصباح الباكر ويروى ويبذر الحب ويشقى ، يأتيه فى آخر العام محصول وافر وخير كثير . . والفلاح الذى يجلس على المقهى طول النهار أعطى نفسه خير الراحة ، ولكن ساعة الحصاد يحصد الندم .

إذن كل الناس يحبون الخير ولكن نظرتهم ومقاييسهم تختلف . . فمنهم من يريد متعة اليوم ، ومنهم من يعمل لأجل متعة الغد . . والله تبارك وتعالى حين يأمرنا بالخير . . قد يكون الخير متعبا للجسد والنفس . . ولكن النهاية متاع أبدى فى جنة الخلد . إذن فالخير الحقيقى هو ما جاء به الشرع . . لماذا ؟ لأن الخير هو ما ليس بعده بعد . . فأنت تولد ثم تكبر ثم تتخرج فى الجامعة . . ثم تصبح فى أعلى المناصب ثم تموت ثم تبعث ثم تدخل الجنة . . وبعدها لا شىء إلا الخلود فى النعيم .

قوله تعالى : « لو كانوا يعلمون » . . الله ينفى عنهم العلم بينما فى الآية السابقة أثبت لهم العلم فى قوله تعالى : « ولقد علموا لمن اشتراه ماله فى الآخرة من خلاق » . . نقول إن العلم الذى لا يخضع حركة الإنسان له فكأنه لم يعلم شيئا . .

لأن هذا العلم سيكون حجة على صاحبه يوم القيامة وليته لم يعلمه .. واقرأ قول الشاعر :

رُزِقُوا وما رُزِقُوا سَماحَ يد
فكأنهم رُزِقُوا وما رُزِقُوا
خُلِقُوا وما خُلِقُوا لمكرُمَةٍ
فكأنهم خُلِقُوا وما خُلِقُوا

فكأن العلم لم يثبت لك لأنك لم تنتفع به .. والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

(من الآية ٦ سورة الروم)

(يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا ..) وهكذا نفى الله عن الناس العلم الحقيقى .. وأثبت لهم العلم الدنيوى الظاهر .. وقوله جل جلاله :

﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥﴾ ﴾

(سورة الجمعة)

أى أنهم حملوا التوراة علما ولكنهم لم يحملوها منهجا وعملا .. وهؤلاء السحرة علموا أنَّ مَنْ يمارس السحر يكفر .. ومع ذلك لم يعملوا بما عملوا .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا ۗ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾﴾

هذا نداء للمؤمنين .. لأن الآية الكريمة تبدأ : « يا أيها الذين آمنوا » .. وعندما ينادى الحق المؤمنين بقوله : « يا أيها الذين آمنوا » .. نعرف أن الإيمان هنا هو سبب التكليف .. فالله لا يكلف كافرا أو غير مؤمن .. ولا يأمر بتكليف إلا لمن آمنوا .. فمادام العبد قد آمن فقد أصبحت مسئولية حركته فى الحياة عند ربه .. ولذلك يوحى إليه بمنهج الحياة .. أما الكافر فلا يكلفه الله بشىء .

إذن قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا » .. أمر لمن آمن بالله ورضى به إلها ومشرعا .. قوله : « يا أيها الذين آمنوا » .. نداء للمؤمنين وقوله : « لا تقولوا راعنا » .. نهى .. وكأن راعنا كانت مقولة عندهم يريد الله أن ينهاهم عنها .. والإيمان يلزمهم أن يستمعوا إلى نهى الله .

ما معنى راعنا ؟ نحن نقول فى لغتنا الدارجة (راعينا) .. يعنى إحفظنا وراقبنا وخذ بيدنا وكلها مأخوذة من مادة الرعاية والراعى . ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

(كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته).[1]

وأصل المادة مأخوذة من راعى الغنم .. لأن راعى الغنم لابد أن يتجه بها إلى الأماكن التى فيها العشب والماء .. أى إلى أماكن الرعى .. وأن يكون حارسا عليها حتى لا تشرد واحدة أو تضل فتفتك بها ذئاب الصحارى .. وأن يوفر لها الراحة حتى

(١) رواه أحمد والبخارى ومسلم وأبو داود والترمذى عن ابن عمر .

لا تتعب وتنفق فى الطريق . . ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (كنتُ أرعى الغنم على قراريط لأهل مكة).[١]

ولكن لماذا استبدل الحق سبحانه وتعالى كلمة راعنا بكلمة انظرنا ؟ إن عند اليهود فى العبرانية والسريانية كلمة راعنا ومعناها الرعونة . . ولذلك كانوا إذا سمعوا من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم كلمة راعنا . . اتخذوها وسيلة للسباب بالنسبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم . . والمسلمون لا يدرون شيئا . . لذلك أمر الله سبحانه وتعالى المؤمنين أن يتركوا هذه الكلمة . . حتى لا يجد اليهود وسيلة لستر سبابهم ، وأمرهم بأن يقولوا :انظرنا .

ثم قال الحق سبحانه وتعالى : « واسمعوا » . . والله هنا يشير إلى الفرق بين اليهود والمؤمنين . . فاليهود قالوا سمعنا وعصينا ، ولكن الله يقول للمؤمنين إسمعوا سماع طاعة وسماع تنفيذ .

سعد بن معاذ سمع واحدا من اليهود يقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم ـ راعنا ـ وسعد كان من أحبار اليهود ويعرف لغتهم ـ فلما سمع ما قاله فهم مراده . فذهب إلى اليهودى وقال له لو سمعتها منك مرة أخرى لضربت عنقك . . وقال اليهودى أو لستم تقولونها لنبيكم ؟ أهى حرام علينا وحلال لكم ؟ فنزلت الآية الكريمة تقول :«لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا » . . ولو تأملنا كلمة (راعنا) وكلمة (انظرنا) لوجدنا المعنى واحدا . . ولكن (انظرنا) تؤدى المعنى وليس لها نظير فى لغة اليهود التى تعنى الإساءة لرسول الله صلى الله عليه وسلم . . وقوله تعالى : « وللكافرين عذاب أليم » . . أى من يقولون راعنا إساءةً لرسول الله صلى الله عليه وسلم لهم عذاب إليم .

---

(١) رواه البخارى .

﴿ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾ ﴾

ثم كشف الحق سبحانه وتعالى للمؤمنين العداوة التى يكنها لهم أهل الكتاب من اليهود والمشركين .. الذين كفروا لأنهم رفضوا الإيمان بمحمد عليه الصلاة والسلام .. فيلفتهم إلى أن اليهود والمشركين يكرهون الخير للمؤمنين .. فتشككوا فى كل أمر يأتى منهم ، واعلموا أنهم لا يريدون لكم خيرا .. قوله تعالى : « ما يود » .. أى ما يحب ، والود معناه ميل القلب إلى من يحبه .. والود يختلف عن المعروف .. أنت تصنع معروفا فيمن تحب ومن لا تحب .. ولكنك لا تود إلا من تحب .. لذلك قال الله تبارك وتعالى :

﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ ﴾

(من الآية ٢٢ سورة المجادلة)

ثم بعد ذلك يأتى الحق سبحانه وتعالى ليقول عن الوالدين :

﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ ﴾

(من الآية ١٥ سورة لقمان)

يقول بعض المستشرقين إن هناك تناقضا بين الآيتين .. كيف أن الله سبحانه وتعالى يقول : لا توادوا من يحارب الله ورسوله .. ثم يأتى ويقول إذا حاول أبواك أن

يجعلاك تشرك بالله فصاحبهما فى الدنيا معروفا . . وطبعا الوالدان اللذان يحاولان دفع ابنهما إلى الكفر إنما يحاربان الله ورسوله . . كيف يتم هذا التناقض ؟.

نقول إنكم لم تفهموا المعنى . . إن الإنسان يصنع المعروف فيمن يحب ومن لا يحب كما قلنا . . فقد تجد إنسانا فى ضيق وتعطيه مبلغا من المال كمعروف . . دون أن يكون بينك وبينه أى صلة . . أما الود فلا يكون إلا مع من تحب .

إذن : « ما يود » معناها حب القلب . . أى أن قلوب اليهود والنصارى والمشركين لا تحب لكم الخير . . إنهم يكرهون أن ينزل عليكم خير من ربكم . . بل هم فى الحقيقة لا يريدون أن ينزل عليكم من ربكم أى شىء مما يسمى خيرا . . والخير هو وحى الله ومنهجه ونبوة رسول صلى الله عليه وسلم .

وقوله تعالى : « من خير » . . أى من أى شىء مما يسمى خير . . فأنت حين تذهب إلى إنسان وتطلب منه مالا يقول لك ما عندى مال . . أى لا أملك مالا ، ولكنه قد يملك جنيها أو جنيهين . . ولا يعتبر هذا مالا يمكن أن يوفى بما تريده . . وتذهب إلى رجل آخر لنفس الغرض تقول أريد مالا . . يقول لك ما عندى من مال . . أى ليس عندى ولا قرش واحد ، ما عندى أى مبلغ مما يقال له مال حتى ولو كان عدة قروش . والله سبحانه وتعالى يريدنا أن نفهم أن أهل الكتاب والكفار والمشركين . . مشتركون فى كراهيتهم للمؤمنين . . حتى إنهم لا يريدون أن ينزل عليكم أى شىء من ربكم مما يطلق عليه خير .

وقوله تعالى : « من ربكم » . . تدل على المصدر الذى يأتى منه الخير من الله . . فكأنهم لا يحبون أن ينزل على المؤمنين خير من الله . . وهو المنهج والرسالة . ثم يقول الحق تبارك وتعالى : « والله يختص برحمته من يشاء » . . أى أن الخير لا يخضع لرغبة الكافرين وأمانيهم . . والله ينزل الخير لمن يشاء . . والله قد قسم بين الناس أمور حياتهم الدنيوية . . فكيف يطلب الكافرون أن يخضع الله منهجه لإرادتهم ؟ واقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ

بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾

(سورة الزخرف)

اعترض الكفار على نزول القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم وقالوا لو نزل على رجل من القريتين عظيم . . فيرد عليهم الله سبحانه وتعالى . . أنتم لا تقسمون رحمة الله ولكن الله يقسم بينكم حياتكم فى الدنيا .

الحق تبارك وتعالى فى الآية التى نحن بصددها يقول : « والله يختص برحمته من يشاء » . . ساعة تقرأ كلمة يختص تفهم أن شيئا خصص لشىء دون غيره . . يعنى أننى خصصت فلانا بهذا الشىء : « والله يختص برحمته من يشاء » . . أى يعطى الرحمة لمن يشاء لكى يؤدى مهمته أو ينزل رحمته على من يشاء ، فليس لهؤلاء الكفار أن يتحكموا فى مشيئة الله ، وحسدهم وكراهيتهم للمؤمنين لا يعطيهم حق التحكم فى رحمة الله . . ولذلك أراد الله أن يرد عليهم بأن هذا الدين سينتشر ويزداد المؤمنون به . . وسيفتح الله به أقطارا ودولا . . وسيدخل الناس فيه أفواجا وسيظهره على الدين كله .

ولو تأملنا أسباب انتصار أى عدو على من يعاديه لوجدنا إنها إما اسباب ظاهرة واضحة وإما مكر وخداع . . بحيث يظهر العدو لعدوه أنه يحبه ويكيد له فى الخفاء حتى يتمكن منه فيقتله . . ولقد هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة سرا . . لماذا ؟ لأن الله أراد أن يقول لقريش لن تقدروا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ولو بالمكر والخداع والتبييت . . هم بيتوا الفتية ليقتلوه . . وجاءوا من كل قبيلة بفتى ليضيع دمه بين القبائل . . وخرج صلى الله عليه وسلم ووضع التراب على رءوس الفتية . . الله أرادهم أن يعرفوا انهم لن يقدروا على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمكر والتبييت والخداع ولا بالعداء الظاهر .

قوله تعالى : « والله ذو الفضل العظيم » . . الفضل هو الأمر الزائد عن حاجتك الضرورية . . ولذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : (من كان معه فضل ظهر فَلْيَعُدْ به على من لا ظهر له ومن كان معه فضل زاد فليعد به على من لا زاد له)[1] .

---

(١) رواه مسلم فى اللقطة وأبو داود فى الزكاة وأحمد فى المسند .

وفضل مال أى مال زائد على حاجته . هذا عن الفضل بالنسبة للبشر . أما بالنسبة لله سبحانه وتعالى فإن كل ما فى كون الله الآن وفى الآخرة هو فضل لله لأنه زائد على حاجته ؛ فالله غير محتاج لخلقه ولا لكل نعمه التى سبقت والتى ستأتى . ولذلك قال : « والله ذو الفضل العظيم » . . أى ذو الفضل الهائل الزائد على حاجته ؛ لأنه ربما يكون عندى فضل ، ولكننى أبقيه لأننى سأحتاج إليه مستقبلا . والفضل الحقيقى هو الذى من عند الله . لذلك فإن الله سبحانه وتعالى هو ذو الفضل العظيم ؛ لأنه غير محتاج إلى كل خلقه أو كونه ؛ لأن الله سبحانه كان قبل أن يوجد شىء ، وسيكون بعد ألا يوجد شىء . وهذا مايسمى بالفضل العظيم .

﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ ﴾

ولكن ماهو السبب ؟ السبب أن أهل الكتاب والمشركين لايريدون خيرا للمؤمنين فى دينهم ؛ لأنهم أحسوا أن ماجاء به محمد صلى الله عليه وسلم فى زمنه خير مما جاء به موسى وبقى إلى زمن محمد صلى الله عليه وسلم . . وخير مما جاء به عيسى فى زمن محمد صلى الله عليه وسلم . وليس معنى ذلك أننا نحاول أن ننقص ما جاء به الرسل السابقون . . لكننا نؤكد أن الرسل السابقين جاءوا فى أزمانهم بخير ما وُجد فى هذه الأزمان . . فكل رسالة من الرسالات التى سبقت رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم . . جاءت لقوم محدّدين ولزمن محدّد . . ثم جاء نبى جديد لينسخ ما فى الرسالة السابقة لقوم محددين وزمن محدد . . واقرأ قول عيسى عليه السلام حينما بعث إلى بنى إسرائيل كما يروى لنا القرآن الكريم :

﴿ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

فكأن عيسى عليه السلام جاء لينسخ بعض أحكام التوراة . . ويحل لبنى إسرائيل بعض ما حرمه الله عليهم . . ورسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الرسول الخاتم أعطى الخير كله ؛ لأن دينه للعالمين وباق إلى يوم القيامة .

وهكذا نرى ان المؤمنين بالرسل كلما جاء رسول جديد كانوا ينتقلون من خير إلى خير . . وفيما تتفق فيه الرسالات كانوا ينتقلون إلى مثل هذا الخير . . وذلك فيما

يتعلق بالعقائد ، وإلى زيادة فى الخير فيما يتعلق بمنهج الحياة . . هناك فى رسالات السماء كلها أمور مشتركة لا فرق فيها بين رسول ورسول وهى قضية الإيمان بإله واحد أحد له الكمال المطلق . . سبحانه فى ذاته ، وسبحانه فى صفاته ، وسبحانه فى أفعاله . . كل ذلك قدر الرسالات فيه مشترك . . ولكن الحياة فى تطورها توجد فيها قضايا لم تكن موجودة ولا مواجهة فى العصر الذى سبق . . فإذا قلنا إن رسالة بقيمتها العقائدية تبقى . . فإنها لا تستطيع أن تواجه قضايا الحياة التى ستأتى بها العصور التى بعدها فيما عدا الإسلام . . لأنه جاء دينا خاتما لا يتغير ولا يتبدل إلى يوم القيامة . . على أننا نجد من يقول وماذا عن قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ ﴾

(سورة الشورى)

نقول إن هذا يأتى فى شىء واحد . . يتعلق بالأمر الثابت فى رسالات السماء وهو قضية قمة العقيدة والإيمان بالله الواحد . . أما فيما يتعلق بقضايا الحياة فإننا نجد أحكاما فى هذه الحركة حسب ما طرأ عليها من توسعات . . ولذلك عندما جاء محمد صلى الله عليه وسلم أعطى أشياء يعالج بها قضايا لم تكن موجودة فى عهد الرسل السابقين .

يقول الله تبارك وتعالى : « ما ننسخ من آية أو ننسها » . . كلمة ننسخ معناها نزيل آية كانت موجودة ونأتى بآية أخرى بدلا منها . . كما يقال نسخت الشمس الظل . . أى أن الظل كان موجودا وجاءت الشمس فمحته وحلت هى مكانه . . ويقال نسخت الكتاب أى نقلته إلى صور متعددة ، ونسخ الشيب الشباب أى أصبح الشاب شيخا . .

وقوله تعالى « ننسها » لها معان متعددة . . قد يعنى ذلك أن الله يجعل الإنسان يسهو ويغفل عنها . . فتضيع من ذاكرته أو يتركها إلى غيرها . . والعلماء إختلفوا فى

هذه المسألة . . وكان هذا الاختلاف لأن أحدهم يلحظ ملحظا وغيره يلحظ ملحظا آخر وكلاهما يريد الحق . .

نأتى للنسخ فى القرآن الكريم . . قوم قالوا لا نسخ فى القرآن أبدا . . لماذا ؟ لأن النسخ بداء على الله . . ما معنى البداء ؟ هو أن تأتى بحكم ثم يأتى التطبيق فيثبت قصور الحكم عن مواجهة القضية فيعدل الحكم . . وهذا محال بالنسبة لله سبحانه وتعالى . . نقول لهم طبعا هذا المعنى مرفوض ومحال أن يطلق على الله تبارك وتعالى . . ولكننا نقول إن النسخ ليس بداء ، وإنما هو إزالة الحكم والمجىء بحكم آخر . . ونقول لهم ساعة حكم الله الحكم أولا فهو سبحانه يعلم ان هذا الحكم له وقت محدود ينتهى فيه ثم يحل مكانه حكم جديد . . ولكن الظرف والمعالجة يقتضيان أن يحدث ذلك بالتدريج . . وليس معنى ذلك أن الله سبحانه قد حكم بشىء ثم جاء واقع آخر أثبت أن الحكم قاصر فعدل الله عن الحكم . . إن هذا غير صحيح .

لماذا . . لأنه ساعة حكم الله أولا كان يعلم أن الحكم له زمن أو يطبق لفترة . . ثم بعد ذلك ينسخ أو يبدل بحكم آخر . إذن فالمشرع الذى وضع هذا الحكم وضعه على أساس انه سينتهى وسيحل محله حكم جديد . .

وليس هذا كواقع البشر . . فأحكام البشر وقوانينهم تعدل لأن واقع التطبيق يثبت قصور الحكم عن مواجهة قضايا الواقع . . لأنه ساعة وضع الناس الحكم علموا أشياء وخفيت عنهم أشياء . . فجاء الواقع ليظهر ما خفى وأصبح الحكم لابد أن ينسخ أو يعدل . . ولكن الأمر مع الله سبحانه وتعالى ليس كذلك . . أمر الله جعل الحكم موقوتا ساعة جاء الحكم الأول .

مثلا حين وجه الله المسلمين إلى بيت المقدس . . أكانت القضية عند الله أن القبلة ستبقى إلى بيت المقدس طالما وجد الإسلام وإلى يوم القيامة ؟ ثم بدا له سبحانه وتعالى أن يوجه المسلمين إلى الكعبة ؟ لا . . لم تكن هذه هى الصورة . . ولكن كان فى شرع الله أن يتوجه المسلمون أولا إلى بيت المقدس فترة ثم بعد ذلك يتوجهون إلى الكعبة إلى يوم القيامة .

إذن فالواقع لم يضطر المشرع إلى أن يعدل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة . .

وإنما كان فى علمه وفى شرعه أنه سيغير القبلة بعد فترة إلى الكعبة . . ولعل لذلك هدفا إيمانيا فى أن العلة فى الأمور هى انها من الله ؛ فالاتجاه إلى بيت المقدس أو الاتجاه إلى الكعبة لا يكلف المؤمنين جهدا إيمانيا إضافيا . . ولا يضع عليهم تكاليف جديدة . فالجهد نفسه الذى أبذله للاتجاه إلى الشرق أبذله للاتجاه إلى الغرب . ولكن الاختبار الإيمانى أن تكون علة الأمر أنه صادر من الله . . فإذا قال الله اتجه إلى بيت المقدس إتجهنا . . فإذا قال اتجه إلى الكعبة اتجهنا . . ولا قدسية لشىء فى ذاته . . ولكن القدسية لأمر الله فيه .

والله تبارك وتعالى حين أمر الملائكة أن يسجدوا لآدم لم يسجدوا لذات آدم ولكنهم سجدوا لأمر الله بالسجود لآدم . والله سبحانه وتعالى اختار الكعبة المشرفة بيتا ومسجدا له فى الأرض . . واتخذت الكعبة مقامها العالى عند المسلمين ليس لأنها بقعة فى مكان ما جاءها إبراهيم والأنبياء وحج إليها الناس ، ولكن مقامها جاء من انها هى بيت الله باختيار الله لها . . وكل مساجد الأرض هى بيوت الله باختيار خلق الله . . ولكن المسجد الوحيد الذى هو بيت الله باختيار الله هو الكعبة . . ولذلك كان لابد لكل المساجد التى هى باختيار خلق الله . . أن تتجه إلى المسجد الذى هو باختيار الله . . ولكن العلة الإيمانية الكبرى هى أن نؤمن أن صدور الأمر من الله هو الحيثية لاتباع هذا الأمر دون أن نبحث عن أسبابه الدنيوية .

فإذا قال الله سبحانه وتعالى الصلاة خمس مرات فى اليوم . . فدون أن نبحث عن السبب أو نقول لماذا خمسة ؟ فلننقص منها . . دون أن نفعل ذلك نصلى خمس مرات فى اليوم والسبب ان الله قال ، وهكذا الزكاة ، وهكذا الصوم وهكذا الحج . . كلها تتم طاعة لله . . وهكذا تغيير القبلة تم اختباراً للطاعة الإيمانية لله . . فالله موجود فى كل مكان . . فلا يأتى أحد ليقول لماذا الكعبة ؟ وهل الله ليس موجودًا إلا فى الكعبة ؟ نقول لا إنه موجود فى كل مكان . . ولكنه أمرنا أن نتجه إلى الكعبة . . ونحن لا نتجه إليها لأننا نعتقد ان الله تبارك وتعالى موجود فى هذا المكان فقط . . ولكن طاعة لأمر الله الذى أمرنا أن تكون قبلتنا إلى الكعبة .

ولعل تغيير القبلة يعطينا فلسفة نسخ الآيات . . لماذا ؟ لأنه لم توجد أية ظروف أو تجد وقائع ، أو تظهر أشياء كانت خفية تجعل الاتجاه إلى بيت المقدس صعبا أو محوطا بالمشاكل أو غير ذلك ، ولكن تغيير القبلة جاء هنا لأن الله سبحانه وتعالى شاء أن يتوجه المسلمون إلى بيت المقدس فترة ثم يتوجهوا إلى الكعبة إلى يوم القيامة .

إذن فكل آية نسخت كان فى علم الله سبحانه وتعالى أنها ستطبق لفترة معينة ثم بعد ذلك ستعدل .. وكان كل من الحكم الذى سينسخ ، والوقت الذى سيستغرقه ، والحكم الذى سيأتى بعده معلوما عند الله تبارك وتعالى ومقررا منذ الأزل وقبل بداية الكون .. وأيضا فإن الله أراد أن يلفتنا بالتوجه إلى بيت المقدس أولا .. لأن الاسلام دين يشمل كل الأديان ، وأن بيت المقدس سيصبح من مقدسات الإسلام .. وأنه لا يمكن لأحد أن يدعى ان المسلمين لن يكون لهم شأن فى بيت المقدس ، لذلك أسرى الله سبحانه وتعالى برسوله صلى الله عليه وسلم من مكة إلى بيت المقدس .. ليثبت ان لبيت المقدس قداسة فى الإسلام وإنه من المقدسات عند الله .. ومن هنا كان التوجه إلى بيت المقدس كقبلة أولى ، ثم نسخ الله القبلة إلى الكعبة .. فالحق جل جلاله يقول : « ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها » .. أى أن النسخ يكون إما أن يأتى الله سبحانه وتعالى بخير من هذه الآية أو يأتى بمثلها .. وهل الآية المنسوخة كان هناك خير منها ولم ينزله الله ؟ نقول لا .. المعنى ان الآية المنسوخة كانت خيراً فى زمانها .. والحكم الثانى كان زيادة فى الخير بعد فترة من الزمن .. كلاهما خير فى زمنه وفى أحكامه .. والله تبارك وتعالى أنزل الآية الكريمة :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

ولكن من يستطيع أن يتقى الله حق تقاته .. ذلك صعب على المسلمين .. ولذلك عندما نزلت الآية قالوا ليس منا من يستطيع أن يتقى الله حق تقاته .. فنزلت الآية الكريمة :

﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ وَٱسۡمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيۡرًا لِّأَنفُسِكُمۡۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة التغابن)

الذى يتقى الله حق تقاته خير ، أم الذى يتقى الله ما استطاع ؟ طبعا حق تقاته خير من قدر الاستطاعة .. ولكن الله سبحانه وتعالى يقول : « نأت بخير منها » ..

نقول إنك لم تفهم عن الله . . « اتقوا الله حق تقاته » فى الآية الأولى أو « فاتقوا الله ما استطعتم » فى الآية الثانية . . أى الحالتين أحسن ؟ نقول إن العبرة بالنتيجة . . عندما تريد أن تقيم شيئا لابد أن تبحث عن نتيجته أولا .

ولنقرب المعنى للأذهان سنضرب مثلا ولله المثل الأعلى . . نفرض إن هناك تاجرا يبيع السلع بربح خمسين فى المائة . . ثم جاء تاجر آخر يبيع نفس السلع بربح خمسة عشر فى المائة . . ماذا يحدث ؟ سيقبل الناس طبعا على ذلك الذى يبيع السلع بربح خمسة عشر فى المائة ويشترون منه كل ما يريدون ، والتاجر الذى يبيع السلع بربح خمسين فى المائة يحقق ربحا أكبر . . ولكن الذى يبيع بربح خمسة عشر فى المائة يحقق ربحا أقل ولكن بزيادة الكمية المبيعة . . يكون الربح فى النهاية أكبر .

والذى يطبق الآية الكريمة : « اتقوا الله حق تقاته » يحقق خيرا أكبر فى عمله . . ولكنه لا يستطيع أن يتقى الله حق تقاته إلا فى أعمال محدودة جدا .

إذن الخير هنا أكبر ولكن العمل الذى تنطبق عليه الآية محدود .

أما قوله تعالى : « فاتقوا الله ما استطعتم » فإنه قد حدد التقوى بقدر الاستطاعة . . ولذلك تكون الأعمال المقبولة كثيرة وإن كان الأجر عليها أقل .

عندما نأتى إلى النتيجة العامة . . أعمال أجرها أعلى ولكنها قليلة ومحدودة جدا . . وأعمال أجرها أقل ولكنها كثيرة . . أيهما فيه الخير ؟ طبعا الأعمال الكثيرة ذات الأجر الأقل فى مجموعها تفوق الأعمال القليلة ذات الأجر المرتفع .

إذن فقد نسخت هذه الآية بما هو خير منها . . رغم أن الظاهر لا يبدو كذلك ، لأن اتقاء الله حق تقاته خير من اتقاء الله قدر الاستطاعة . . ولكن فى المحصلة العامة الخير فى الآية التى نصت على الاستطاعة . .

نأتى بعد ذلك إلى قوله تعالى : « أو مِثْلِهَا » . . هنا توقف بعض العلماء : قد يكون مفهوما أن ينسخ الله آية بخير منها ، ولكن ما هى الحكمة فى ان ينسخها بمثلها ؟ إذا كانت الآية التى نسخت مثل الآية التى جاءت . . فلماذا تم النسخ ؟

نقول إننا إذا ضربنا مثلا لذلك فهو مثل تغيير القبلة . . ان الله تبارك وتعالى حين أمر المسلمين بالتوجه إلى الكعبة بدلا من بيت المقدس نسخ آية بمثلها . . لأن التوجه إلى الكعبة لا يكلف المؤمن أية مشقة أو زيادة فى التكليف . . فالإنسان يتوجه ناحية اليمين أو إلى اليسار أو إلى الأمام أو إلى الخلف وهو نفس الجهد . . والله سبحانه وتعالى كما قلنا موجود . . وهنا تبرز الطاعة الإيمانية التى تحدثنا عنها وأن هناك أفعالا نقوم بها لأن الله قال . . وهذه تأتى فى العبادات لأن العبادة هى طاعة عابد لأمر معبود . . والله تبارك وتعالى يريد أن نثبت العبودية له عن حب واختيار . . فإن قال افعلوا كذا فعلنا . . وإن قال لا تفعلوا لا نفعل . . والعلة فى هذا أننا نريد اختياراً أن نجعل مراداتنا فى الكون خاضعة لمرادات الله سبحانه وتعالى . . إذن مثلها لم تأت بلا حكمة بل جاءت لحكمة عالية .

والحق سبحانه وتعالى يقول : « أو نُنْسِهَا » ما معنى ننسها ؟ قال بعض العلماء إن النسخ والنسيان شيء واحد . . ولكن ساعة قال الله الحكم الأول كان فى إرادته ومشيئته وعلمه أن يأتى حكم آخر بعد مدة . . ساعة جاء الحكم الأول ترك الحكم الثانى فى مشيئته قدرا من الزمن حتى يأتى موعد نزوله .

إذن فساعة يأتى الحكم الأول . . يكون الحكم مرجأ ولكنه فى علم الله . ينتظر انقضاء وقت الحكم الأول : « ما ننسخ من آية » هى الآية المنسوخة أو التى سيتم عدم العمل بها : « أو ننسها » . . أى لا يبلغها الله للرسول والمؤمنين عن طريق الوحى مع انها موجودة فى علمه سبحانه . . ويجب أن نتنبه إلى أن النسخ لا يحدث فى شيئين :

الأول: أمور العقائد فلا تنسخ آية آية أخرى فى أمر العقيدة . . فالعقائد ثابتة لا تتغير منذ عهد آدم حتى يوم القيامة . . فالله سبحانه واحد أحد لا تغيير ولا تبديل ، والغيب قائم ، والآخرة قادمة والملائكة يقومون بمهامهم . . وكل ما يتعلق بأمور العقيدة لا ينسخ أبدا . .

والثانى: الإخبار من الله عندما يعطينا الله تبارك وتعالى آية فيها خبر لا ينسخها بآية جديدة . . لأن الإخبار هو الإبلاغ بشيء واقع . . والحق سبحانه وتعالى إخباره لنا بما حدث لا ينسخ لأنه بلاغ صدق من الله . . فلا تروى لنا حادثة الفيل ثم تنسخ

بعد ذلك وتروى بتفاصيل أخرى لأنها أبلغت كما وقعت .. إذن لا نسخ فى العقائد والإخبار عن الله .. ولكن النسخ يكون فى التكليف .. مثل قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾

(سورة الأنفال)

كأن المقياس ساعة نزول هذه الآية أن الواحد من المؤمنين يقابل عشرة من الكفار ويغلبهم .. ولكن كانت هذه عملية شاقة على المؤمنين .. ولذلك نسخها الله ليعطينا على قدر طاقتنا .. فنزلت الآية الكريمة :

﴿ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾

(سورة الأنفال)

والحق سبحانه وتعالى علم أن المؤمنين فيهم ضعف .. لذلك لن يستطيع الواحد منهم أن يقاتل عشرة ويغلبهم .. فنقلها إلى خير يسير يقدر عليه المؤمنون بحيث يغلب المؤمن الواحد اثنين من الكفار .. وهذا حكم لا يدخل فى العقيدة ولا فى الإخبار .. وفى أول نزول القرآن كانت المرأة إذا زنت وشهد عليها أربعة يمسكونها فى البيت لا تخرج منه حتى تموت .. واقرأ قوله تعالى :

﴿ وَٱلَّٰتِى يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾ ﴾

(سورة النساء)

وبعد أن شاع الإسلام وامتلأت النفوس بالإيمان . . نزل تشريع جديد هو الرجم أو الجلد . . ساعة نزل الحكم الأول بحبسهن كان الحكم الثانى فى علم الله . . وهذا ما نفهمه من قوله تعالى : « أو يجعل الله لهن سبيلا » . . وقوله سبحانه :

﴿ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ﴾

(من الآية ١٠٩ سورة البقرة)

وقوله تعالى حتى يأتى الله بأمره . . كأن هناك حكما أو أمرا فى علم الله سيأتى ليعدل الحكم الموجود . . إذن الله حين أبلغنا بالحكم الأول أعطانا فكرة . . ان هذا الحكم ليس نهائيا وأن حكما جديدا سينزل . . بعد أن تتدرب النفوس على مراد الله من الحكم الأول . . ومن عظمة الله أن مشيئته اقتضت فى الميراث أن يعطى الوالدين اللذين بلغا أرذل العمر فقال جل جلاله :

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ ﴾

(سورة البقرة)

وهكذا جعلها فى أول الأمر وصية ولم تكن ميراثا . . لماذا ؟ لإن الإنسان إن مات فهو الحلقة الموصولة بأبيه . . أما أبناؤه فحلقة أخرى . . ولما استقرت الأحكام فى النفوس وأقبلت على تنفيذ ما أمر به الله . . جعل سبحانه المسألة فرضا . . فيستوفى الحكم . ويقول جل جلاله :

﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ

ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾

(سورة النساء)

وهكذا بعد أن كان نصيب الوالدين فى تركة الإبن وصية . . إن شاء أوصى بها وإن شاء لم يوص أصبحت فرضا . . وقوله تعالى : « ألم تعلم أن الله على كل شىء قدير » . . أى كل شىء يدخل فى إرادة الله وقدرته سبحانه . . إذا قلنا إذا جاء الله بحكم لعصر فهذا هو قمة الخير . . لأنه إذا عُدل الحكم بعد أن أدى مهمته فى عصره ، فإن الحكم الجديد الذى يأتى هو قمة الخير أيضا . . لأن الله على كل شىء قدير ، يواجه كل عصر بقمة الخير للموجودين فيه . . ولذلك فمن عظمة الله انه لم يأت بالحكم خبرا من عنده ولكنه أشرك فيه المخاطب . . فلم يقل سبحانه « إن الله على كل شىء قدير » . . ولكنه قال : « ألم تعلم أن الله على كل شىء قدير » . . لأنه واثق أن كل من يسمع سيقول نعم . . وهذا ما يعرف بالاستفهام الإنكارى أو التقريرى .

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾﴾

وبعد أن بين الله سبحانه وتعالى لنا أن هناك آيات نسخت فى القرآن . . أراد أن يوضح لنا أنه سبحانه له طلاقة القدرة فى كونه يفعل ما يشاء . . ولذلك بدأ الآية الكريمة : « ألم تعلم » . . وهذا التعبير يسمى الاستفهام الاستنكارى أو التقريرى . . لأن السامع لا يجد إلا جوابا واحدا بأنه يقر ما قاله الله تبارك وتعالى . . ويقول نعم يا رب أنت الحق وقولك الحق .

قوله تعالى : « ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض » . . الملك يقتضى مالكا ويقتضى مملوكا . . ويقتضى قدرة على استمرار هذا الملك وعدم زواله . . فكأن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يبين لنا أنه يقدر ويملك المقدرة . . والإنسان ليست له قدرة التملك ولا المقدرة على استبقاء ما يملكه . . والإنسان لا يملك الفعل فى الكون . . إن أراد مثلا أن يبنى عمارة قد لا يجد الأرض . . فإن وجد الأرض قد لا يجد العامل الذى يبنى . . فإن وجده قد لا يجد مواد البناء . . فإن وجد هذا كله قد تأتى الحكومة أو الدولة وتمنع البناء على هذه الأرض . . أو أن تكون الأرض ملكا لإنسان آخر فتقام القضايا ولا يتم البناء .

والحق سبحانه وتعالى يقول : « ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض » . . أى أن كل شىء فى الوجود هو ملك لله وهو يتصرف بقدرته فيما يملك . . ولذلك عندما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة . . كان اليهود يملكون المال ولهم معرفة ببعض العلم الدنيوى لذلك سادوا المدينة . . وبدأوا يمكرون برسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين . . والله تبارك وتعالى طمأن رسوله بأن طلاقة القدرة فى الكون هى لله وحده . . وأنه إذا كان لهم ملك فإنه لا يدوم لأن الله ينزع الملك ممن

يشاء ويعطيه لمن يشاء . . ولذلك حينما يأتى يوم القيامة ويُهلك الله الأرض ومن عليها . . يقول سبحانه :

﴿ لِمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ﴾

(من الآية ١٦ سورة غافر)

ويرد جل جلاله بشهادة الذات للذات فيقول :

﴿ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾

(من الآية ١٦ سورة غافر)

ومادام الله هو المالك وحده . . فإنه يستطيع أن ينزع من اليهود وغيرهم ومن الدنيا كلها ما يملكونه . . ويحدثنا العلماء أن العسَسَ وهم الجنود الذين يسيرون ليلا لتفقد أحوال الناس وجدوا شخصا يسير ليلا . . فلما تقدموا منه جرى فجروا وراءه إلى أن وصل إلى مكان خرب ليستتر فيه . . تقدم العسس وأمسكوا به وإذا بهم يجدون جثة قتيل فى المكان . . فقالوا له أنت القاتل لأنك جريت حين رأيتنا ولأنك موجود الآن فى المكان الذى فيه جثة القتيل . . فأخذوه ليحاكموه فقال لهم أمهلونى لأصلى ركعتين لله . . فأمهلوه فصلى ثم رفع يديه إلى السماء وقال اللهم إنك تعلم أنه لا شاهد على براءتى إلا أنت . . وأنت أمرتنا ألا نكتم الشهادة فأسألك ذلك فى نفسك . . فبينما هم كذلك إذ أقبل رجل فقال . . أنا قاتل هذا القتيل وأنا أقر بجريمتى . . فتعجب الناس وقالوا لماذا تقر بجريمتك ولم يرك أحد ولم يتهمك أحد . . فقال لهم والله ما أقررت إنما جاء هاتف فأجرى لسانى بما قلت . . فلما أقر القاتل بما فعل وقام ولى المقتول وهو أبوه فقال . . اللهم إنى أشهدك إنى قد أعفيت قاتل ابنى من دينه وقصاصه .

انظر إلى طلاقة قدرة الحق سبحانه وتعالى . . القاتل أراد أن يختفى ولكن أنظر إلى دقة السؤال من السائل أو المتهم البرىء . . وقد صلى ركعتين لله . . لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم علمنا أنه إذا حزبنا أمر قمنا إلى الصلاة فليس أمامنا إلا هذا الباب . . وبعد أن صلى سأل الله أنت أمرتنا ألا نكتم الشهادة ولا يشهد ببراءتى أحد إلا أنت فأسألك ذلك فى نفسك وبعد ذلك كان ما كان .

وهذه القصة تدلنا على أننا فى قبضة الله . . أردنا أو لم نرد . . بأسباب أو بغير أسباب . . لماذا ؟ . . لأن الله له ملك السموات والأرض وهو على كل شىء قدير . . وقوله تعالى : « وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير » . . الولى هو من يواليك ويحبك . . والنصير هو الذى عنده القدرة على أن ينصرك وقد يكون النصير غير الولى . . الحق تبارك وتعالى يقول أنا لكم ولىٌّ ونصير أى محب وأنصركم على من يعاديكم .

﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُم كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾﴾

ثم ينقل الحق جل جلاله المسلمين بعد أن بين لهم أنه وليهم ونصيرهم . . ينقلهم الى سلوك أهل الكتاب من اليهود مع رسلهم حتى يتفادوا مثل هذا السلوك فيقول جل جلاله : « أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل » . . الحق يقول للمؤمنين أم تريدون أن تسألوا رسول الله كما سأل اليهود موسى . . ولم يشأ الحق أن يشبه المسلمين باليهود فقال : « كما سُئِلَ موسى من قبل » . . وكان من الممكن أن يقول أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سأل اليهود موسى . . ولكن الله لم يرد أن يشبه اليهود بالمؤمنين برسول الله صلى الله عليه وسلم . . وهذا تكريم من الله للمؤمنين بأن ينزههم أن يتشبهوا باليهود . . وقد سأل اليهود موسى عليه السلام وقالوا كما يروى لنا القرآن الكريم :

﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾﴾

(سورة النساء)

وقد سأل أهل الكتاب والكفار رسول الله صلى الله عليه وسلم كما يروى لنا القرآن الكريم :

﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾﴾

(سورة الإسراء)

﴿ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَـٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

الله تبارك وتعالى يهيب بالمؤمنين أن يسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم .. كما سأله أهل الكتاب والكفار ويقول لهم ان اليهود قد سألوا موسى أكبر من ذلك .. فبعد أن رأوا المعجزات وشق الله البحر لهم .. وعبروا البحر وهم يشاهدون المعجزة فلم تكن خافية عنهم .. بل كانت ظاهرة لهم واضحة .. دالة دلالة دامغة على وجود الله سبحانه وتعالى وعلى عظيم قدراته .. ورغم هذا فإن اليهود قالوا لموسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة .. أى لم تكفهم هذه المعجزات .. وكأنما كانوا بماديتهم يريدون أن يروا فى حياتهم الدنيوية من لا تدركه الأبصار .. وبمجرد أن عبروا البحر أرادوا أن يجعل لهم موسى صنما يعبدونه وعبدوا العجل رغم كل الآيات التى شاهدوها .

وقوله تعالى : « ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل » .. قلنا ان الباء فى قوله تعالى : « بالإيمان » تدخل دائما على المتروك .. كأن تقول اشتريت هذا بكذا درهم .. يعنى تركت الدراهم وأخذت البضاعة .. ومعناها أن الكفر مأخوذ والإيمان متروك .. فقد أخذ اليهود الكفر وتركوا الإيمان حين قالوا لموسى : « أرنا الله جهرة » .. وقوله سبحانه : « فقد ضل سواء السبيل » .

ما هو الضلال ؟.. هو أن تسلك سبيلا لا يؤدى بك إلى غايتك .. « وسواء السبيل » .. السواء هو الوسط .. و« سواء السبيل » .. هو وسط الطريق .. والله تبارك وتعالى يقول :

﴿ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ ﴾

(سورة الصافات)

أى فى وسط الجحيم . . أى أنه يكون بعيدا عن الحافتين بعدًا متساويًا . . وسواء الطريق هو وسطه . . والسبيل أو الطريق كان قبل استخدام التكنولوجيا الحديثة تكون أطرافه وعرة من جنس الأرض قبل أن تمهد . . أى لا تصلح للسير . . ولذلك فإن السير فى وسط الطريق يبعدك عن المتاعب والصعوبات.ويريد الله من المؤمنين به أن يسيروا فى الطريق الممهد أو فى وسط الطريق لأنه أكثر أمانا لهم . . فهم فيه لن يضلوا يمينا ولا يسارا بل يسيروا على منهج الله والإيمان . . وطريق الإيمان دائما ممهد لا يقودهم إلى الكفر .

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾﴾

هذه الآية الكريمة تتناول أحداثا وقعت بعد غزوة أحد . . وفى غزوة أحد طلب رسول الله صلى الله عليه وسلم . . من الرماة ألا يغادروا مواقعهم عند سفح الجبل سواء انتصر المسلمون أو انهزموا . . فلما بدأت بوادر النصر طمع الرماة فى الغنائم . . فخالفوا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فهزمهم الله . . ولكن الكفار لم يحققوا نصرا لأن النصر هو أن تحتل أرضا وتبقى .

هؤلاء الكفار بعد المعركة انطلقوا عائدين إلى مكة . . حتى ان المسلمين عندما خرجوا للقائهم فى اليوم التالى لم يجدوا أحدًا . . يهود المدينة استغلوا هذا الحدث . . وعندما التقوا بحذيفة بن اليمان وطارق وغيرهما . . قالوا لهم إن كنتم مؤمنين حقا لماذا إنهزمتم فارجعوا إلى ديننا واتركوا دين محمد . . فقال لهم حذيفة ماذا يقول دينكم فى نقض العهد ؟ . . يقصد ما تقوله التوراة فى نقض اليهود ولعهودهم مع الله ومع موسى . . ثم قال أنا لن أنقض عهدى مع محمد ما حييت . . أما عمار فقال . . لقد آمنت بالله ربا وآمنت بمحمد رسولا وآمنت بالكتاب إماما وآمنت بالكعبة قبلة وآمنت بالمؤمنين إخوة وسأظل على هذا ما حييت .

وبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قاله حذيفة وطارق بن ياسر فسر بذلك ولكن اليهود كانوا يستغلون ما حدث فى أحد ليهزوا العقيدة الإيمانية فى قلوب المسلمين كما استغلوا تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة ليهزوا الإيمان فى القلوب وقالوا إذا كانت القبلة تجاه بيت المقدس باطلة فلماذا اتجهتم إليها ، وإذا كانت صحيحة فلماذا تركتموها ، فنزل قول الله تعالى : « ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم » .

انظر إلى دقة التعبير القرآنى فى قوله تعالى : « من أهل الكتاب » . . فكأن بعضهم فقط هم الذين كانوا يحاولون رد المؤمنين عن دينهم . . ولكن كانت هناك قلة تفكر فى الإيمان بمحمد عليه الصلاة والسلام . . ولو أن الله جل جلاله حكم على كل أهل الكتاب لسد الطريق أمام هذه القلة أن يؤمنوا . . أى أن أهل الكتاب من اليهود يحبون أن يردوكم عن دينكم وهؤلاء هم الكثرة . . لأن الله تعالى قال : « ود كثير من أهل الكتاب » .

وقوله تعالى : « من بعد إيمانكم كفارا » . . كفارا بماذا ؟ . . بما آمنتم به أو بما يطلبه منكم دينكم . . وهم لا يفعلون ذلك عن مبدأ أو عقيدة أو لصالحكم ولكن : « حسدا من عند أنفسهم » . . فدينهم يأمرهم بعكس ذلك . . يأمرهم أن يؤمنوا برسالة محمد صلى الله عليه وسلم . . ولذلك فهم لا ينفذون ماتأمرهم به التوراة حينما يرفضون الإيمان بالإسلام . . والذى يدعوهم إلى أن يحاولوا ردكم عن دينكم هو الحسد . . والحسد هو تمنى زوال النعمة عمن تكره . . وقوله تعالى : « حسدا من عند أنفسهم » . . أى هذه المسألة من ذواتهم لأنهم يحسدون المسلمين على نعمة الإيمان . . ويتمنون زوال هذه النعمة . . التى جعلت من المسلمين إخوانا متحابين متكاتفين مترابطين . . بينما هم شيع وأحزاب . . وهناك حسد يكون من منطق الدين وهذا مباح . . ولذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« لا حسد إلا فى اثنتين رجل آتاه الله مالا فَسُلِّط على هلكته فى الحق ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضى بها ويعلمها الناس »[1] .

فكأن الحسد حرام فى غير هاتين الحالتين . . فكأن هؤلاء اليهود يحسدون المسلمين على دينهم . . وهذا الحسد من عند أنفسهم لا تقره التوراة ولا كتبهم . . وقوله سبحانه : « من بعد ما تبين لهم أنه الحق » . . أى بعد ما تأكدوا من التوراة من شخصية رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنه النبى الخاتم .

وقوله تعالى : « فاعفوا واصفحوا حتى يأتى الله بأمره » . . ما هو العفو وما هو الصفح ؟ . . يقال عفت الريح الأثر أى مسحته وأزالته . . فالإنسان حين

---

(١) رواه البخارى فى العلم ومسلم فى قصر الصلاة وابن ماجة فى الزكاة وأحمد فى مسنده .

يمشى على الرمال تترك قدمه أثرا فتأتى الريح وتعفو الأثر أى تزيله . . ولذلك فإن العفو أن تمحو من نفسك أثر أى إساءة وكأنه لم يحدث شيء . . والصفح يعنى طى صفحات هذا الموضوع لا تجعله فى بالك ولا تجعله يشغلك . . وقوله تعالى : « حتى يأتى الله بأمره » . . أن هذا الوضع بالنسبة لليهود وما يفعلونه فى المؤمنين لن يستمر لأن الله سبحانه قد أعد لهم أمرا ولكن هذا الأمر لم يأت وقته ولا أوانه . . وعندما يأتى سيتغير كل شيء . . لذلك يقول الله للمؤمنين لن تظلوا هكذا . . بل يوم تأخذونهم فيه بجرائمهم ولن يكون هذا اليوم بعيدا . . عندما يقول الله سبحانه : « حتى يأتى الله بأمره » . . فلابد أن أمر الله آت . . لأن هذه قضية تتعلق بجوهر الإيمان كله . . فلا يقال أبدا حتى يأتى الله بأمره ثم لا يجىء هذا الأمر . . بل أمر الله بلاشك نافذ وسينصركم عليهم . . وقوله تعالى : « إن الله على كل شيء قدير » . . أن الله له طلاقة القدرة فى ملكه . . ولذلك إذا قال أنه سيأتى بأمر فسيتحقق هذا الأمر حتما وسيتم . . ولا توجد قدرة فى هذا الكون إلا قدرة الله سبحانه . . ولا قوة إلا قوته جل جلاله . . ولا فعل إلا ما أراد .

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾﴾

بعدأن بين الله سبحانه وتعالى أن أقصى أمانى أهل الكتاب أن يردونا كفارا ، وأن هذا حسدا منهم.أراد الله تبارك وتعالى أن يبين لنا ما الذى يكرهه أهل الكتاب . . وقال إن الذى يتعبهم ميزان العدل والحق الذى نتبعه . . منهج الله سبحانه وتعالى . . ولذلك يأمر الله المؤمنين أن يثبتوا ويتمسكوا بالإيمان ، وأن يقبلوا على التكليف فهذا أحسن رد عليهم . . والتكاليف التى جاء بها الإسلام منها تكليفات لا تتطلب إلا وقتًا من الزمن وقليلا من الفعل كشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت لمن إستطاع إليه سبيلا .

إن شهادة لا إله الا الله تقال مرة فى العمر . . والزكاة والصوم مرة كل عام . . والحج للمستطيع مرة فى العمر . . ولكن هناك من العبادات ما يتكرر كل يوم ليعطى المؤمن شحنة اليقين والإيمان ويأخذه من دنياه بالله أكبر خمس مرات فى اليوم . . وهذه هى العبادة التى لا تسقط أبدا . . والإنسان سليم والإنسان مريض . . فالمؤمن يستطيع أن يصلى واقفا وأن يصلى جالسا وأن يصلى راقدا . . وأن يجرى مراسم الصلاة على قلبه . . لذلك كانت هذه أول عبادة تذكر فى قوله تعالى : « وأقيموا الصلاة » أى والتفتوا إلى نداءات ربكم للصلاة . . وعندما يرتفع صوت المؤذن بقوله الله أكبر فهذه دعوة للإقبال على الله . . إقبال فى ساعة معلومة لتقفوا أمامه سبحانه وتعالى وتكونوا فى حضرته يعطيكم الله المدد . . ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم (إذا حزبه أمر صلى)[1] .

ومعنى حزبه أمر . . أى ضاقت به أسبابه فلم يجد مخرجا ولا طريقا إلا أن يلجأ

---

(١) رواه أحمد وأبو داود عن حذيفة وفى رواية : كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة .

إلى الله . . إذا حدث هذا يتوضأ الإنسان ويصلى ركعتين غير الفريضة . . ثم يدعو ما يشاء فيفرج الله كربه . . إذن : « فأقيموا الصلاة » هى الرد المناسب على كل محاولاتهم ليسلبوكم دينكم . . ذلك أن هذا التكليف المقرر لإعلان الولاء الإيمانى لله كل يوم خمس مرات . . نترك كل ما فى الدنيا ونتجه إلى الله بالصلاة . . إنها عماد الدين وأساسه .

وقوله تعالى : « وآتوا الزكاة » . . ايتاء الزكاة لا يحدث إلا إذا كان لديهم ما هو زائد عن حاجتك . . فكأن الله سبحانه وتعالى يريدنا أن نضرب فى الأرض لنكسب حاجتنا وحاجة من نعول ونزيد . . وبذلك يخرج المسلمون من سيطرة اليهود الإقتصادية التى يستذلون بها المسلمين .

فالمؤمن حين يأتى الزكاة معناه أن حركته اتسعت لتشمل حاجته وحاجة غيره . . ولذلك حتى الفقير يجد فى الزائد فى أموال المسلمين ما يكفى حاجته . . فلا يذهب إلى اليهودى ليقترض بالربا . . ولذلك فالله سبحانه وتعالى يريد أن يتكامل المسلمون . . بحيث تكفى أموالهم غنيهم وفقيرهم والقادر على العمل منهم وغير القادر.والله تبارك وتعالى يزيد أموال المسلمين بأكثر مما يخرج منها من زكاة . . ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(ما نقصت صدقة من مال وما زاد الله عبدا بعفو إلا عزا وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله)[1] .

وقد سميت « الزكاة » لأنها فى ظاهرها نقص وفى حقيقتها زيادة . . والربا ظاهره زيادة وحقيقته نقص . . وفى ذلك يقول الله جل جلاله :

﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَـٰتِ ﴾

(من الآية ٢٧٦ سورة البقرة)

ثم يقول الحق سبحانه : وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله » . . إذن لابد أن يطمئن المؤمن لأن حركة حياته هى ثواب وأجر عند الله تبارك وتعالى . . فإذا

---

(١) رواه أحمد ومسلم والترمذى عن أبى هريرة .

صلى فله أجر وإذا زكى فله أجر ، وإذا تصدق فله أجر ، وإذا صام فله أجر ، وإذا حج فله أجر ، كل ما يفعله من منهج الله له أجر ، وليس أجرا بقدر العمل،بل أضعاف العمل . . وإقرأ قوله تعالى :

﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ﴾

(سورة البقرة)

وهكذا نعرف أن كل حركة فى منهج الله ليس فقط لها أجر عند الله سبحانه وتعالى . . ولكنه أجر مضاعف أضعافا مضاعفة . . وهو أجر ليس بقدرات البشر ولكنه بقدرة الله سبحانه . . ولذلك فهو ليس مضاعفا فقط فى عدد المرات ولكنه مضاعف فى القدرة أيضا . . فكأن كل إنسان غير مؤمن لا أجر له فى الآخرة . . وإذا أعطى فى الدنيا يُعطى عطاء المثل . . ولكن المؤمن وحده له عطاء الآخرة أضعافا مضاعفة . . وهو عطاء ليس زائلا كعطاء الدنيا ولكنه باق وخالد .

والخير الذى تفعله لن تدخره عندك أو عند من قد ينكره . . ويقول لا شىء لك عندى.ولكن الله سيدخره لك . . فانظر إلى الإطمئنان والعمل فى يد الله الأمينة ، وفى مشيئته التى لا يغفل عنها شىء ، وفى قدرته التى تضاعف أضعافا مضاعفة . . وتجده فى الوقت الذى تكون فى أحوج اللحظات إليه وهو وقت الحساب .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى : « والله بما تعملون بصير » . . أى لا تعتقد أن هناك شيئا يخفى على الله ، أو أن أحدا يستطيع أن يخدع الله ، فالله سبحانه وتعالى بصير بكل شىء . . ليس بالظاهر منك فقط . . ولكن بما تخفيه فى نفسك ولا تطلع عليه أحدا من خلق الله ، إنه يعلم كل شىء واقرأ قوله سبحانه وتعالى :

﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ﴾ (سورة إبراهيم)

وهكذا نطمئن إلى أن الله بصير بكل شىء ، وانظر إلى قوله جل جلاله : « يعملون » لتفهم أهمية العمل .

﴿ وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ ﴾

بعد أن بين الحق تبارك وتعالى كيف أن كل عمل فى منهج الله له أجر ، وأجر باق وثابت ومضاعف عند الله ومحفوظ بقدرة الله سبحانه . . أراد أن يرد على ادعاءات اليهود والنصارى الذين يحاولون أن يثيروا اليأس فى قلوب المؤمنين بالكذب والإحباط علهم ينصرفون عن الإسلام . . لذلك فقد أبلغنا الله سبحانه بما افتروه .

وإقرأ قوله تعالى : « وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى » . . وفى هذه الآية الكريمة يظهر التناقض بين أقوال اليهود والنصارى . . ولقد أوردنا كيف أن اليهود قد قالوا « لن يدخل الجنة إلا من كان هودا » . . وقالت النصارى : « لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانيا » . . والله سبحانه وتعالى يفضح التناقض فى آية ستأتى فى قوله تبارك وتعالى :

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ ﴾

(من الآية ١١٣ سورة البقرة)

ومعنى ذلك أنهم تناقضوا فى أقوالهم ، فقالت النصارى:إنهم سيدخلون الجنة وحدهم ، وقالت اليهود القول نفسه . ثم قالوا : لن يدخل الجنة إلا من كان يهوديا أو نصرانيا . . ثم قالت اليهود ليست النصارى على شىء وقالت النصارى ليست اليهود على شىء .

ويقول الناس إذا كنت كذوبا فكن ذكورا ، ذلك أن الذى يكذب تتناقض أقواله لأنه ينسى مادام قد قال غير الحقيقة ، ولذلك تجد أن المحقق أو القاضى يظل يسأل

المتهم أسئلة مختلفة .. حتى تتناقض أقواله فيعرف أنه يكذب .. فأنت إذا رويت الواقعة كما حدثت فإنك ترويها مائة مرة دون أى خلاف فى التفاصيل. ولكنك إذا كذبت تتناقض مع نفسك .. والله سبحانه وتعالى يقول : « تلك أمانيهم » .. ما هى الأمانى ؟.. هى أن تعلق نفسك بأمنية وليس لهذه الأمنية سند من الواقع يوصلك إلى تحقيق هذه الأمنية .. ولكن إذا كان التمنى قائما على عمل يوصلك إلى تحقيق الأمنية فهذا شيء آخر .

بعض الناس يقول التمنى وإن لم يتحقق فإنه يروح عن النفس .. فقد ترتاح النفس عندما تتعلق بأمل كاذب وتعيش أياما فى نوع من السعادة وإن كانت سعادة وهمية .. نقول إن الصدمة التى ستلحق بالإنسان بعد ذلك ستدمره .. ولذلك لا يكون فى الكذب أبدا راحة .. فأحلام اليقظة لا تتحقق لأنها لا تقوم على أرضية من الواقع وهى لا تعطى الإنسان إلا نوعا من بعد عن الحقيقة .. ولذلك يقول الشاعر :

مُنَى إنْ تَكُنْ حقاً تَكُنْ أَحْسَنَ المُنَى وَإلاّ فَقَدْ عِشْنَا بِهَا زَمَنًا رَغْدَا

يعنى الأمانى لو كانت حقيقة أو تستند إلى الحقيقة فإنها أحسن الأمانى لأنها تعيش معك.. فإن لم تكن حقيقة يقول الشاعر :

فقد عشنا بها زمنا رغدا

أمانى من ليلى حسان كأنما سقتنا بها ليلى على ظمأ بردا

وقوله تعالى : « تلك أمانيهم » تبين لنا أن الأمانى هى مطامع الحمقى لأنها لا تتحقق .. والحق سبحانه يقول : « قل هاتوا برهانكم » .. ما هو البرهان ؟.. البرهان هو الدليل .. ولا تطلب البرهان إلا من إنسان وقعت معه فى جدال واختلفت وجهات النظر بينك وبينه .. ولا تطلب البرهان إلا إذا كنت متأكداً أن محدثك كاذب .. وأنه لن يجد الدليل على ما يدعيه .

هب أن شخصا ادعى أن عليك مالا له .. وطلب منك أن تعيده إليه وأنت لم تأخذ منه مالا .. فى هذه الحالة تطلب منه تقديم الدليل .. (فالكمبيالة) التى

كتبتها له أو الشيك أو إيصال الأمانة . . وأضعف الإيمان أن تطلب منه شهودا على أنك أخذت منه المال . . ولكن قبل أن تطالبه بالدليل . . يجب أن تكون واثقا من نفسك وأنه فعلا يكذب وأنك لم تأخذ منه شيئا .

إذن فقول الحق سبحانه : « هاتوا برهانكم » . . كلام من الله يؤكد أنهم كاذبون . . وأنهم لو أرادوا أن يأتوا بالدليل . . فلن يجدوا فى كتب الله ولا فى كلام رسله مايؤكد مايدعونه ، وإن أضافوه يكن هذا افتراء على الله ويكن هناك الدليل الدامغ على أن هذا ليس من كلام الله ولكنه من إفتراءاتهم .

إذن فليس هناك برهان على ما يقولونه . . ولو كان هناك برهان ولو كان فى هذا الكلام ولو جزءا من الحقيقة . . ما كان الله سبحانه وتعالى يطالبهم بالدليل .

إذن لا تقول هاتوا برهانكم إلا إذا كنت واثقا أنه لا برهان على ما يقولون ؛ لأنك رددت الأمر إليه فيما يدعيه . . وهو يحب أن يثبته ويفعل كل شىء فى سبيل الحصول على برهان . . ولا يمكن أن يقول الله : « هاتوا برهانكم » . . إلا وهو سبحانه يعلم أنهم يكذبون . . ولذلك قال : « إن كنتم صادقين » . . أى إن كنتم واثقين من أن ما تقولونه صحيح ؛ لأن الله يعرف يقينا انكم تكذبون .

﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾

بعد أن بين لنا الله تبارك وتعالى كذب اليهود وطالبهم بالدليل على ما قالوه من أنه لن يدخل الجنة إلا اليهود والنصارى جاء بحقيقة القضية ليخبرنا جل جلاله من الذى سيدخل الجنة .. فقال : « بلى » .. وعندما تقرأ : « بلى » اعلم انها حرف جواب ولابد أن يسبقها كلام ونفى .. فساعة يقول لك إنسان ليس لى عليك دين .. إذا قلت له نعم فقد صدقت أنه ليس عليه دين .. ولكن إذا قلت بلى فذلك يعنى أن عليه دينا وأنه كاذب فيما قاله .. إذن بلى تأتى جوابا لتثبت نفى ما تقدم .

هم قالوا « لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى » .. عندما يقول الله لهم بلى فمعنى ذلك أن هذا الكلام غير صحيح .. وأنه سيدخلها غير هؤلاء .. وليس معنى أنه سيدخلها غير اليهود والنصارى .. أن كل يهودى وكل نصرانى سيدخل الجنة .. لأن الله سبحانه وتعالى قد حكم حينما جاء الإسلام بأن الذى لا يسلم لا يدخل الجنة .. واقرأ قوله جل جلاله :

﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾

(سورة آل عمران)

لماذا لم يقل الله سبحانه وتعالى .. أنه لن يدخلها اليهود ولا النصارى .. لأن القرآن أزلى .. ما معنى أزلى ؟ .. أى أنه يعالج القضايا منذ بداية الخلق وحتى يوم القيامة .. فالقرآن كلام الله تبارك وتعالى .. فلو أنه قال لن يدخل الجنة إلا من آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم لكان فى هذا تجاوزٌ .. لأن هناك من آمن بموسى وقت رسالته وعاصره واتبعه وحسن دينه ومات قبل أن يدرك محمدا عليه الصلاة

والسلام . . فهل هذا لا يدخل الجنة ويجازى بحسن عمله . . وهناك من النصارى من آمن بعيسى وقت حياته . . وعاصره ونفذ تعاليمه ومنهجه ثم مات قبل أن يُبْعَثَ محمدٌ عليه الصلاة والسلام . . أهذا لن يدخل الجنة ؟ . . لا . . يدخل وتكون منزلته حسب عمله ويجازى بأحسن الجزاء . . ولكن بعد أن بعث محمد صلى الله عليه وسلم وجاء الإسلام ونزل القرآن ، فكل من لم يؤمن برسول الله صلى الله عليه وسلم لن يدخل الجنة . . بل ولن يراها . . ولذلك جاء كلام الله دقيقا لم يظلم أحدا من خلقه .

إذن فقوله تعالى : « بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن » . . أى لا يدخل الجنة إلا من أسلم وجهه لله وهو محسن . . فقد يسلم واحد وجهه لله ويكون منافقا يظهر غير ما يبطن . . نقول إن المنافقين لم يكونوا محسنين ولكنهم كانوا مسيئين . . لأن لهم شخصيتين شخصية مؤمنة أمام الناس وشخصية كافرة فى الحقيقة أو فى قلوبهم .

قوله تعالى : « من أسلم وجهه لله » تدلنا على أن كل شىء أسلم لله لأن الوجه هو أشرف شىء فى الإنسان . . فيه التمييز وفيه السمة وفيه التشخص وهو أعلى ما فى الجسم . . وحينما عرفوا الإنسان قالوا حيوان ناطق أى حيوان مفكر . . وقال بعضهم حيوان مستوى القامة يعنى قامته مرفوعة . . والقامة المرفوعة على بقية الجسم هى الوجه . . والإنسان مرفوع على بقية أجناس الأرض . . إذن هو مرفوع على بقية الأجناس ووجهه مرفوع عليه . . فإذا أسلم وجهه لله يكون قد أسلم أشرف شىء فيه لله . . ولذلك قيل . . أقرب ما يكون العبد لربه وهو ساجد . . لماذا ؟ . . لأنه جاء بالوجه الذى رفعه الله به وكرمه . . وجعله مساويا لقدميه ليستوى أكمل شىء فيه بأدنى شىء . . فلم يبق عنده شىء يختال به على الله .

الحق سبحانه وتعالى يقول : « فله أجره عند ربه » . . كلمة «أجره عند ربه » . . دلت على أن الله لم يجعلنا مقهورين . . ولكنه كلفنا وجعلنا مختارين أن نفعل أو لا نفعل . . فإن فعلنا فلنا أجر . . ولأن التكليف من الله سبحانه وتعالى فالمنطقى أن يكون الأجر عند الله . . وألا يوجد خوف أو حزن . . لأن الخوف يكون من شىء سيقع . . والحزن يأتى على شىء قد وقع . . ولا هذه ولا تلك تحدث عندما يكون أجرنا عند الله .

ان الإنسان حين يكون له حق عند مساويه . . فربما يخاف أن ينكر المساوى هذا الحق أو يطمع فيه ، أو يحتاج إليه فيدعى عدم أحقيته فيه ، ولكن الله سبحانه وتعالى غنى عن العالمين . . ولذلك فهو لا يطمع فيما فى أيدينا من خير لأنه من عنده . . ولا يطمع فيما معنا من مال لأن عنده خزائن السموات والأرض .

الله سبحانه لا ينكر حقا من حقوقنا لأنه يعطينا من فضله ويزيدنا . . ولذلك فإن ما عند الله لا خوف عليه بل هو يضاعَف ويزداد . . وما عند الله لا حزن عليه . . لأن الإنسان يحزن إذا فاته خير . . ولكن ما عند الله باق لا يفوتك ولا تفوته . . فلا يوجد شيء عند الله سبحانه وتعالى تحزن عليه لأنه فات . . ولذلك كان قول الحق سبحانه وتعالى : « ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » . . أدق ما يمكن أن يقال عن حالة المؤمنين فى الآخرة . . أنهم يكونون فرحين بما عند الله لا خوف عندهم ولا حزن .

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾

نقول إن أصدق ما قاله اليهود والنصارى . . هو أن كل طائفة منهم اتهمت الأخرى بأنها ليست على شيء . . فقال اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء . . والعجيب إن الطائفتين أهل كتاب . . اليهود أهل كتاب والنصارى أهل كتاب . . ومع ذلك كل منهما يتهم الآخر بأنه لا إيمان له وبذلك تساوى مع المشركين .

الذين يقولون إن أهل الكتاب ليسوا على شيء . . أى ان المشركين يقولون اليهود ليسوا على شيء والنصارى ليسوا على شيء . . واليهود يقولون المشركون ليسوا على شيء والنصارى ليسوا على شيء . . ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : « كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم » . . وبذلك أصبح لدينا ثلاث طوائف يواجهون الدعوة الإسلامية . . طائفة لا تؤمن بمنهج سماوى ولا برسالة إلهية وهؤلاء هم المشركون . . وطائفتان لهم إيمان ورسل وكتب هم اليهود والنصارى . . ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى : « كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم » . . أى الذين لا يعلمون دينا ولا يعلمون إلها ولا يعلمون أى شيء عن منهج السماء . . اتحدوا فى القول مع اليهود والنصارى وأصبح قولهم واحدا .

وكان المفروض أن يتميز أهل الكتاب الذين لهم صلة بالسماء وكتب نزلت من الله ورسل جاءتهم للهداية . . كان من المفروض أن يتميزوا على المشركين . . ولكن تساوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون . . وهذا معنى قوله تعالى : « كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم » . . ومادامت الطوائف الثلاث قالوا على بعضهم نفس القول . . يكون حجم الخلاف بينهم كبيرا وليس صغيرا . . لأن كل واحد منهم يتهم الآخر انه لا دين له .

هذا الخلاف الكبير من الذى يحكم فيه ؟ لا يحكم فيه إلا الله . . فهو الذى يعلم كل شىء . . وهو سبحانه القادر على أن يفصل بينهم بالحق . . ومتى يكون موعد هذا الفصل أو الحكم ؟ أهو فى الدنيا ؟ لا . . فالدنيا دار اختبار وليست دار حساب ولا محاسبة ولا فصل فى قضايا الإيمان . . ولذلك فإن الحكم بينهم يتم يوم القيامة وعلى مشهد من خلق الله جميعا .

والحق سبحانه وتعالى يقول : « فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون » . . ومعنى الحكم هنا ليس هو بيان المخطىء من المصيب فالطوائف الثلاث مخطئة . . والطوائف الثلاث فى إنكارها للإسلام قد خرجت عن إطار الإيمان . . ويأتى الحكم يوم القيامة ليبين ذلك ويواجه المخالفين بالعذاب .

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ ﴾

فالحق جل جلاله بعد أن بين لنا موقف اليهود والنصارى والمشركين من بعضهم البعض ومن الإسلام ، وكيف ان هذه الطوائف الثلاث تواجه الإسلام بعداء و يواجه بعضها البعض باتهامات . . فكل طائفة منها تتهم الأخرى انها على باطل . . أراد أن يحذرهم تبارك وتعالى من الحرب ضد الإسلام ومحاربة هذا الدين فقال : « ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه » . . مساجد الله هى الأماكن التى يتم فيها السجود لله . . والسجود علامة الخضوع وعلامة العبودية كما بينا . . لأنك تضع أشرف شيء فيك وهو وجهك على الأرض خضوعا لله وخشوعا له .

قبل الإسلام كان لا يمكن أن يصلى أتباع أى دين إلا فى مكان خاص بدينهم . . مكان مخصص لا تجوز الصلاة إلا فيه . . ثم جاء الله بالإسلام فجعل الأرض كلها مسجدا وجعلها طهورا . . ومعنى ان تكون الأرض كلها مسجدا هو توسيع على عباد الله فى مكان التقائهم بربهم وفى أماكن عبادتهم له حتى يمكن أن تلتقى بالله فى أى مكان وفى أى زمان . . لأنه لا يحدد لك مكانا معينا لا تصح الصلاة إلا فيه . . وأنت إذا أردت أن تصلى ركعتين لله بخلاف الفرض . . مثل صلاة الشكر أو صلاة الاستخارة أو صلاة الخوف . . أو أى صلاة من السنن التى علمها لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم . . فإنك تستطيع أن تؤديها فى أى وقت . . فكأنك تلتقى بالله سبحانه أين ومتى تحب .

ومادام الله تبارك وتعالى أنعم على رسوله صلى الله عليه وسلم وعلى أمته بأن جعل لهم الأرض مسجدا طهورا فإنما يريد أن يوسع دائرة التقاء العباد بربهم . .

ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

(أُعطيتُ خمسا لم يُعطَهُن أحد من الأنبياء قبلى . نُصرْتُ بالرعب مسيرةَ شهر ، وجُعِلَتْ لِىَ الأرضُ مسجدا وطهورا فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل وأُحِلَّتْ لِىَ الغنائمُ ولم تحل لأحدٍ قبلى وأُعْطِيتُ الشفاعةَ وكان النبى يُبْعَثُ إلى قومه خاصة وَبُعِثْتُ إلى الناسِ عامة)[1] .

ولكن لماذا خص الله أمة محمد بهذه النعمة ؟ لأن الإسلام جاء على موعد مع ارتقاءات العقل وطموحات الدنيا . . كلما ارتقى العقل فى علوم الدنيا كشف قوانين وتغلب على عقبات . . وجاء بمبتكرات ومخترعات تفتن عقول الناس . . وتجذبهم بعيدا عن الدين فيعبدون الأسباب بدلا من خالق الأسباب .

يريد الحق تبارك وتعالى أن يجعل عبادتهم له ميسرة دائما حتى يعصمهم من هذه الفتنة . . وهو جل جلاله يريدنا حين نرى التليفزيون مثلا ينقل الأحداث من أقصى الأرض إلى أقصاها ومن القمر إلى الأرض فى نفس لحظة حدوثها . . أن نسجد لله على نعمه التى كشف لنا عنها فى أى مكان نكون فيه . . فخصائص الغلاف الجوى موجودة فى الكون منذ خلق الله السموات والأرض . . لم يضعها أحد من خلق الله فى كون الله هذه الأيام . . ولكنها خلقت مع خلق الكون . . وشاء الله ألا ندرك وجودها ونستخدمها إلا هذه الأيام . . فلابد أن نسجد لله شكرا على نعمه التى كشفت لنا أسرارا فى الكون لم نكن نعرفها . . وهذه الأسرار تبين لنا دقة الخلق وتقربنا إلى قضايا الغيب .

فإذا قيل لنا أن يوم القيامة سيقف خلق الله جميعا وهم يشاهدون الحساب . . وإن كل واحد منهم سيرى الحساب لحظة حدوثه . . لا نتعجب ونقول هذا مستحيل . . لأن أحداث العالم الهامة نراها الآن كلها لحظة حدوثها ونحن فى منتهى الراحة . . ونحن جالسون فى منازلنا أمام التليفزيون . . أى اننا نراها جميعا فى وقت واحد دون جهد . . فإذا كانت هذه هى قدرات البشر للبشر . . فكيف بقدرات خالق البشر للبشر ؟ .

---

(١) رواه البخارى ومسلم والترمذى عن جابر

عندما نرى أسرار قوانين الله فى كونه . . لابد أن نسجد لعظمة الخالق سبحانه وتعالى ، الذى وضع كل هذا العلم والإعجاز فى الكون . . وهذا السجود يقتضى أن تكون الأرض كلها مساجد حتى يمكنك وأنت فى مكانك أن تسجد لله شكرا . . ولا تضطر للذهاب إلى مكان آخر قد يكون بعيدا أو الطريق إليه شاقا فينسيك هذا شكر الله والسجود له . . فالله سبحانه وتعالى شاء أن يوسع على المؤمنين برسول الله صلى الله عليه وسلم دائرة الالتقاء بربهم ؛ لأن هناك أشياء ستأتى الرسالة المحمدية فى موعد كشفها لخلق الله . . وكلما انكشف سر من أسرار الوجود إغتر الإنسان بنفسه . . ومادام الغرور قد دخل إلى النفس البشرية . . فلابد أن يجعل الله فى الكون ما يعدل هذا الغرور .

لقد كانت الأمور عكس ذلك قبل بعثة محمد صلى الله عليه وسلم . . كانت الأمور فطرية فإذا امتنعت الأمطار ونضبت العيون والآبار . . لم يكن أمامهم إلا أن يتوجهوا إلى السماء بصلاة الاستسقاء . . وكذلك فى كل أمر يصعب عليهم مواجهته . . ولكن الآن بعد أن كشف الله لخلقه عن بعض أسراره فى كونه . . أصبحت هناك أكثر من وسيلة يواجه بها الإنسان عددا من أزمات الكون . . هذه الوسائل قد جعلت البشر يعتقدون انهم قادرون على حل مشكلاتهم . . بعيدا عن الله سبحانه وتعالى وبجهودهم الخاصة . . فبدأ الاعتماد على الخلق بدلا من الإعتماد على الحق . . ولذلك نزل قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ ۚ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ ﴾

(الآية ٣٥ ومن الآية ٣٦ سورة النور)

ما هى هذه البيوت التى يرى فيها الناس نور الله تبارك وتعالى ؟ هى المساجد . . فَعُمَّارُ المساجد وزوارها الدائمون على الصلاة فيها هم الذين يرون نور الله . . فإذا أتى قوم يجترئون عليها ويمنعون أن يذكر اسم الله فيها . . فمعنى ذلك ان المؤمنين القائمين على هذه المساجد ضعفاء الإيمان ضعفاء الدين تجرأ عليهم أعداؤهم . . لأنهم لو كانوا أقوياء ما كان يجرؤ عدوهم على أن يمنع ذكر اسم الله فى مساجد الله . . أو أن يسعى إلى خرابها فتهدم ولا تقام فيها صلاة الجمعة . . ولكن ساعة يوجد من يخرب بيتا من بيوت الله . . يهب الناس لمنعه والضرب على يده يكون الإيمان قويا . . فإن تركوه فقد هان المؤمنون على عدوهم . . لماذا ؟ لأن الكافر الذى يريد أن يطفىء مكان إشعاع نور الله لخلقه . . يعيش فى حركة الشر فى الوجود التى تقوى وتشتد كلما استطاع غير المؤمنين أن يمنعوا ذكر اسم الله فى بيته وأن يخربوه .

وقول الحق سبحانه وتعالى : « أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين » . . أى ان هؤلاء الكفار ما كان يصح لهم أن يدخلوا مساجد الله إلا خائفين أن يفتك بهم المؤمنون من أصحاب المسجد والمصلين فيه . . فإذا كانوا قد دخلوا غير خائفين . . فمعنى ذلك أن وازع الإيمان فى نفوس المؤمنين قد ضعف .

قوله تعالى : « ومن أظلم » . . معناه انه لا يوجد أحد أظلم من ذلك الذى يمنع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه . . أى ان هذا هو الظلم العظيم . . ظلم القمة . . وقوله تعالى : « وسعى فى خرابها » . . أى فى إزالتها أو بقائها غير صالحة لأداء العبادة . . والسعى فى خراب المسجد هو هدمه .

ويختم الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله : « لهم فى الدنيا خزى ولهم فى الآخرة عذاب عظيم » . . أى لن يتركهم الله فى الدنيا ولا فى الآخرة . . بل يصيبهم فى الدنيا خزى . . والخزى هو الشىء القبيح الذى تكره أن يراك عليه الناس . . قوله تعالى : « لهم فى الدنيا خزى » . . هذا مظهر غيرة الله على بيوته . . وانظر إلى ما أذاقهم الله فى الدنيا بالنسبة ليهود المدينة الذين كانوا يسعون فى خراب مساجد الله . . لقد أخذت أموالهم وطردوا من ديارهم . . هذا حدث . . وهذا معنى قوله تعالى الخزى فى الدنيا . . أما فى الآخرة فإن أعداء الله سيحاسبون

حسابا عسيرا لتطاولهم على مساجد الله سبحانه ، ولكن فى الوقت نفسه فإن المؤمنين الذين سكتوا على هذا وتخاذلوا عن نصرة دين الله والدفاع عن بيوت الله . . سيكون لهم أيضا عذاب أليم .

انى أحذر كل مؤمن أن يتخاذل أو يضعف أمام أولئك الذين يحاولون أن يمنعوا ذكر الله فى مساجده . . لأنه فى هذه الحالة يكون مرتكبا لذنبهم نفسه وربما أكثر . . ولا يتركه الله يوم القيامة بل يسوقه إلى النار .

﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾

بعد أن بين الله سبحانه وتعالى جزاء الذين يخربون مساجد الله ويهدمونها . . ويمنعون أن يذكر فيها اسمه والعذاب الذى ينتظرهم فى الآخرة أراد أن يذكرنا بأن تنفيذ هذا على مستوى تام وكامل عملية مستحيلة لأن الأرض كلها مساجد . . وتخريبها معناه أن تخرب الأرض كلها . . ولأن الله تبارك وتعالى موجود فى كل مكان فأينما كنتم فستجدون الله مقبلا عليكم بالتجليات .

وقوله تعالى : « فثم وجه الله » . . أى هناك وجه الله . . وقوله تعالى : « والله واسع عليم » . . أى لا تضيقوا بمكان التقاءاتكم بربكم ؛ لأن الله واسع موجود فى كل مكان فى هذا الكون وفى كل مكان خارج هذا الكون . . ولكن إذا قال الله سبحانه وتعالى : « ولله المشرق والمغرب » لا يعنى تحديد جهة الشرق أو جهة الغرب فقط . . ولكنه يتعداها إلى كل الجهات شرقها وغربها . . شمالها وجنوبها والشمال الشرقى والجنوب الغربى وكل جهة تفكر فيها .

ولكن لماذا ذكرت الآية الشرق والغرب فقط ؟ لأن بعد ذلك كل الجهات تحدد بشروق الشمس وغروبها . . فهناك شمال شرقى وجنوب شرقى وشمال غربى وجنوب غربى . . كما إن الشرق والغرب معروف بالفطرة عند الناس . . فلا أحد يجهل من أين تشرق الشمس ولا إلى أين تغرب . فأنت كل يوم ترى شروقا وترى غروبا.

الله سبحانه وتعالى حين يقول : « ولله المشرق والمغرب » فليس معناها حصر الملكية لهاتين الجهتين ولكنه ما يعرف بالاختصاص بالتقديم . . كما تقول بالقلم

كتبت وبالسيارة أتيت . . أى ان الكتابة هى خصوص القلم والاتيان خصوص السيارة . . وهذا ما يعرف بالاختصاص . . فهذا مختص بكذا وليس لغيره شىء فيه . . ولذلك فإن معنى : « ولله المشرق والمغرب » . . ان الملكية لله سبحانه وتعالى لا يشاركه فيها أحد . . وتغيير القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة ليس معناه ان الله تبارك وتعالى فى بيت المقدس والاتجاه بعد ذلك إلى الكعبة ليس معناه ان الله جل جلاله فى الكعبة .

إن توحيد القبلة ليس معناه أكثر من أن يكون للمسلمين اتجاه واحد فى الصلاة . . وذلك دليل على وحدة الهدف . . فيجب أن تفرق بين اتجاه فى الصلاة واتجاه فى غير الصلاة . . اتجاه فى الصلاة نكون جميعا متجهين إلى مكان محدد إختاره الله لنا لنتجه إليه فى الصلاة . . والناس تصلى فى جميع أنحاء العالم متجهة إلى الكعبة . . الكعبة مكانها واحد لا يتغير . . ولكن اتجاهنا إليها من بقاع الأرض هو الذى يتغير . . فواحد يتجه شمالا وواحد يتجه جنوبا وواحد يتجه شرقا وواحد يتجه غربا . . كل منا يتجه اتجاها مختلفا حسب البقعة التى يوجد عليها من الأرض . . ولكننا جميعا نتجه إلى الكعبة رغم اختلاف وجهاتنا إلا اننا نلتقى فى اتجاهنا إلى مكان واحد .

الله جل جلاله يريدنا أن نعرف اننا إذا قلنا : «ولله المشرقُ » فلا نظن ان المشرق إتجاه واحد بل إن المشرق يختلف باختلاف المكان . . فكل مكان فى الأرض له مشرق وله مغرب . . فإذا أشرقت الشمس فى مكان فإنها فى نفس الوقت تغرب فى مكان آخر . . تشرق عندى وتغرب عند غيرى . . وبعد دقيقة تشرق عند قوم وتغرب عند آخرين . . فإذا نظرت إلى الشرق وإلى الغرب بالنسبة لشروق الشمس الظاهرى وغروبها . . تجد ان المشرق والمغرب لا ينتهيان من على سطح الأرض . . فى كل دقيقة شروق وغروب .

وقوله تعالى : « إن الله واسع عليم » . . أى يتسع لكل ملكه لا يشغله شىء عن شىء . . ولذلك عندما سئل الإمام على كرم الله وجهه . . كيف يحاسب الله الناس جميعا فى وقت واحد ؟ قال كما يرزقهم جميعا فى وقت واحد . .

إذن فالله لا يشغله شىء عن شىء . . ولا يحتاج فى عمله إلى شىء . . إنما عمله « كن فيكون » .

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴿١١٦﴾﴾

بعد أن بين الله سبحانه وتعالى ان له كل شيء فى الكون لا يشغله شيء عن شيء . . أراد أن يرد على الذين حاولوا أن يجعلوا لله معينا فى ملكه . . الذين قالوا إتخذ الله ولدًا . . الله تبارك وتعالى رد عليهم انه لماذا يتخذ ولدا وله ما فى السموات والأرض كل له قانتون . . وجاء الرد مركزا فى ثلاث نقاط . . قوله تعالى : « سبحانه » أى تنزه وتعالى أن يكون له ولد . . وقوله تعالى : « له ما فى السموات والأرض » . . فإذا كان هذا ملكه وإذا كان الكون كله من خلقه وخاضعا له فما حاجته للولد ؟

وقوله سبحانه : « كل له قانتون » . . أى كل من فى السموات والأرض عابدون لله جل جلاله مقرون بألوهيته .

قضية إن لله سبحانه وتعالى ولداً جاءت فى القرآن الكريم تسع عشرة مرة ومعها الرد عليها . . ولأنها قضية فى قمة العقيدة فقد تكررت وتكرر الرد عليها مرة بعد أخرى . . وإذا نظرت للذين قالوا ذلك تجد ان هناك أقوالا متعددة . . هناك قول قاله المشركون . . واقرأ القرآن الكريم :

﴿أَلَا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾﴾

(سورة الصافات)

وقول اليهود كما يروى لنا القرآن :

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾

(من الآية ٣٠ سورة التوبة)

وقول النصارى :

﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾

(من الآية ٣٠ سورة التوبة)

ثم فى قصة خلق عيسى عليه السلام من مريم بدون رجل . . الله سبحانه وتعالى يقول :

﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَـٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَـٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾

(سورة مريم)

والله سبحانه وتعالى يريدنا أن نعرف إن هذا إدعاء خطير مستقبح مستنكر وممقوت . . لقد عالجت سورة مريم المسألة علاجا واسعا . . علاجا اشترك فيه انفعال كل أجناس الكون غير الإنسان . . إنفعال السموات والأرض والجبال وغيرها من خلق الله التى تلعن كل من قال ذلك . . بل وتكاد شعورا منها بفداحة الجريمة أن تنفطر السماء أى تسقط قطعا صغيرة . . وتنشق الأرض أى تتمزق . . وتخر الجبال أى تسقط كتراب . . كل هذا من هول ما قيل ومن كذب ما قيل . . لأن هذا الادعاء إفتراء على الله . ولقد جاءت كل هذه الآيات فى سورة مريم التى أعطتنا معجزة خلق عيسى . . كما وردت القضية فى عدة سور أخرى .

والسؤال هنا ما هى الشبهة التى جعلتهم يقولون ولد الله ؟ ما الذى جعلهم يلجأون إلى هذا الافتراء ؟ القرآن يقول عن عيسى بن مريم . . كلمة الله ألقاها إلى مريم . . نقول لهم كلنا كلمة « كن » .

لماذا فتنتم فى عيسى ابن مريم هذه الفتنة ؟ والله سبحانه وتعالى يشرح المسألة فيقول :

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

قوله كمثل آدم لمجرد مجاراة الخصم . . ولكن المعجزة فى آدم أقوى منها فى عيسى عليه السلام . . أنتم فتنتم فى عيسى لأن عنصر الأبوة ممتنع . . وآدم امتنع فيه عنصر الأبوة والأمومة . . إذن فالمعجزة أقوى . . وكان الأولى أن تفتنوا بآدم بدل أن تفتنوا بعيسى . . ومن العجيب انكم لم تذكروا الفتنة فى آدم وذكرتم الفتنة فيما فيه عنصر غائب من عنصرين غائبين فى آدم . . وكان من الواجب أن تنسبوا هذه القضية إلى آدم ولكنكم لم تفعلوا .

ورسول الله صلى الله عليه وسلم . . قال له الله إن القضية ليست قضية إنكار ولكنها قضية كاذبة . . واقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾

(سورة الزخرف)

أى لن يضير الله سبحانه وتعالى أن يكون له ولد . . ولكنه جل جلاله لم يتخذ ولدا . . فلا يمكن أن يعبد الناس شيئا لم يكن لله . . وإنما ابتدعوه واختلقوه . .

الله جل جلاله يقول : « وقالوا اتخذ الله ولدا سبحانه بل له ما فى السموات والأرض » . . قوله تعالى : « بل له ما فى السموات والأرض » تعطى الله سبحانه وتعالى الملكية لكل ما فى الكون . . والملكية تنافى الولدية . . لماذا ؟ لأن الملكية معناها أن كل ما فى الكون من خلق الله . . كل شىء هو خالقه بدون معارض . .

ومادام هو خالقه وموجده . . فلا يمكن أن يكون هذا الشيء جزءا منه . . لأن الذى يخلق شيئا يكون فاعلا . . والفاعل له مفعول . . والمفعول لا يكون منه أبدا . . هل رأيت واحدا صنع صنعة منه ؟ الذى يصنع سيارة مثلا . . هل صنعها من لحمه أو من لحم البشر ؟ وكذلك الطائرة والكرسى والساعة والتليفزيون . . هل هذه المصنوعات من جنس الذى صنعها ؟ طبعا لا .

إذن مادام ملكية . . فلا يقال إنها من نفس جنس صانعها . . ولا يقال إن الفاعل أوجد من جنسه . . لأن الفاعل لا يوجد من جنسه أبدا . . كل فاعل يوجد شيئا أقل منه . . فقول الله : « سبحانه » . . أى تنزيه له تبارك وتعالى . . لماذا ؟ لأن الولد يتخذ لاستبقاء حياة والده التى لا يضمنها له واقع الكون . . فهو يحمل اسمه بعد أن يموت ويرث أملاكه . . إذن هو من أجل بقاء نوعه . . والذى يريد بقاء النوع لا يكفيه أن يكون له ولد واحد .

لو فرضنا جدلا إن له ولدًا واحدًا فالمفروض ان هذا الولد يكون له و . . ولكننا لم نر أولادا لمن زعموا انه ابن الله . . وعندما وقبلما يوجد الولد ماذا كان الله سبحانه وتعالى يفعل وهو بدون ولد ؟ وماذا استجد على الله وعلى كونه بعد أن اتخذ ولدا كما يزعمون . . لم يتغير شيء فى الوجود . . إذن إن وجود ولد بالنسبة للإله لم يعطه مظهرا من مظاهر القوة . . لأن الكون قبل أن يوجد الولد المزعوم وبعده لم يتغير فيه شيء .

إذن فما سبب اتخاذ الولد ؟ معونة ؟ الله لا تضعف قوته . . ضمان للحياة ؟ الله حياته أزلية . . هو الذى خلق الحياة وهو الذى يهبها وهو حى لا يموت . . فما هى حاجته لأى ضمان للحياة ؟ الحق سبحانه وتعالى تنفعل له الأشياء . . أى انه قادر على إبراز الشيء بمقتضى حكمه . . وهو جل جلاله له كمال الصفات أزلا . . وبكمال صفاته خلق هذا الكون وأوجده . . لذلك فهو ليس فى حاجة إلى أحد من خلقه . . لأنه ساعة خلق كانت له كل صفات القدرة على الخلق . . بل قبل أن يخلق كانت له كل صفات الخالق وبهذه الصفات خلق . . والله سبحانه وتعالى كان خالقا قبل أن يخلق أحدا من خلقه . . وكان رزاقا قبل أن يوجد من يرزقه . . وكان قهارا قبل أن يوجد من يقهره . . وكان توابا قبل أن يوجد من يتوب عليه . . وبهذه الصفات أوجد وخلق ورزق وقهر وتاب على خلقه .

إذن كل هذا الكون لم يضف صفة من صفات الكمال إلى الله . . بل إن الله بكمال صفاته هو الذى أوجد .ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى فى حديث قدسى :

(يا عبادي لَوْ أَنَّ أولَكُم وَآخِرَكُم وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فى صعيدٍ واحدٍ ، فسألونى ، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إنسان مَسْألته ما نقص ذلك مِنْ ملكى شيئا إلا كما يَنْقُصُ المِخيطُ إذا غُمس فى البحر . .)[1] .

ثم إذا كان لله سبحانه وتعالى زوجة وولد . . فمن الذى وجد أولا ؟ . . إذا كان الله سبحانه وتعالى قد وجد أولا . . ثم بعد ذلك أوجد الزوجة والولد فهو خالق وهما مخلوقان . . وإن كان كل منهم قد أوجد نفسه فهم ثلاثة آلهة وليسوا إلها واحدا . . إذن فالولد إما أن يكون مخلوقا أو يكون إلها . . والكمال الأول لله لم يزده الولد شيئا . . ومن هنا يصبح وجوده لا قيمة له . . وحين يعرض الحق تبارك وتعالى هذه القضية يعرضها عرضا واسعا فى كثير من سور القرآن الكريم وأولها سورة مريم فى قوله تعالى :

﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ ﴾

(سورة مريم)

إنه سبحانه منزه عن التماثل مع خلقه . . لا بالذات ولا بالصفات ولا بالأفعال . . كل شىء تراه فى الوجود . . الله منزه عنه . . وكل شىء يخطر على بالك فالله غير ذلك . . قوله تعالى : « له ما فى السموات والأرض » . . فتلك قضية تناقض اتخاذ الولد لأن كل ما فى السموات والأرض خاضع لله . .

قوله تعالى : « كل له قانتون » . . أى خاضعون ، وهذا يؤكد لنا أن كون الله فى قبضة الله خاضع مستجيب اختيارا أو قهرا لأمر الله .

---

(١) رواه مسلم فى البر ، ورواه أحمد .

﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾﴾

بعد أن بين الله تبارك وتعالى . . أن قولهم اتخذ الله ولدا هو افتراء على الله . . أراد الحق أن يلفتنا إلى بعض من قدراته . . فقال جل جلاله : « بديع السموات والأرض » . . أى خلق السموات والأرض وكل ما فيها من خلق على غير مثال سابق . . أى لم يكن هناك سماء أو أرض أو ملائكة أو جن أو إنسان . . ثم جاء الله سبحانه وتعالى وأوجد متشابها لهم فى شكل أو حجم أو قدرة . . أى أنه سبحانه لم يلجأ إلى ما نسميه نحن بالقالب .

إن الذى يصنع كوب الماء يصنع أولا قالبا يصب فيه خام الزجاج المنصهر . . فتخرج فى النهاية أكواب متشابهة . . وكل صناعة لغير الله تتم على أساس صنع القالب أولا ثم بعد ذلك يبدأ الإنتاج . . ولذلك فإن التكلفة الحقيقية هى فى إعداد القالب الجيد الذى يعطينا صورة لما نريد . . والذى يخبز رغيفا مثلا قد لا يستخدم قالبا ولكنه يقلد شيئا سبق . . فشكل الرغيف وخامته سبق أن تم وهو يقوم بتقليدهما فى كل مرة . . ولكنه لا يستطيع أن يعطى التماثل فى الميزان أو الشكل أو الاستدارة . . بل هناك اختلاف فى التقليد ولا يوجد كمال فى الصناعة .

وحين خلق الله جل جلاله الخلق من آدم إلى أن تقوم الساعة . . جعل الخلق متشابهين فى كل شىء . . فى تكوين الجسم وفى شكله فى الرأس والقدمين واليدين والعينين . . وغير ذلك من أعضاء الجسم . . تماثلا دقيقا فى الشكل وفى الوظائف . . بحيث يؤدى كل عضو مهمته فى الحياة . . ولكن هذا التماثل لم يتم على قالب وإنما تم بكلمة كن . . ورغم التشابه فى الخلق فكل منا مختلف عن الآخر اختلافا يجعلك قادرا على تمييزه بالعلم والعين . . فبالعلم كل منا له بصمة أصبع وبصمة صوت يمكن

أن يميزها خبراء التسجيل . . وبصمة رائحة قد لا نميزها نحن ولكن تميزها الكلاب المدربة . . فتشم الشيء ثم تسرع فتدلنا على صاحبه ولو كان بين ألف من البشر . . وبصمة شفرة تجعل الجسد يعرف بعضه بعضا . . فإن جئت بخلية من جسد آخر لفظها . وإن جئت بخلية من الجسد نفسه اتحد معها وعالج جراحها .

وإذا كان هذا بعض ما وصل إليه العلم . . فإن هناك الكثير مما قد نصل إليه ليؤكد لنا أنه رغم تشابه بلايين الأشخاص . . فإن لكل واحد ما يميزه وحده ولا يتكرر مع خلق الله كلهم . . وهذا هو الإعجاز فى الخلق ودليل على طلاقة قدرة الله فى كونه .

والله سبحانه وتعالى يعطينا المعنى العام فى القرآن الكريم بأن هذا من آياته وأنه لم يحدث مصادفة ولم يأت بطريق غير مخطط بل هو معد بقدرة الله سبحانه . . فيقول جل جلاله :

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾

(سورة الروم)

هذا الاختلاف يمثل لنا طلاقة قدرة الله سبحانه فى الخلق على غير مثال . . فكل مخلوق يختلف عمن قبله وعمن بعده وعمن حوله . . مع أنهم فى الشكل العام متماثلون . . ولو أنك جمعت الناس كلهم منذ عهد آدم إلى يوم القيامة تجدهم فى صورة واحدة . . وكل واحد منهم مختلف عن الآخر . . فلا يوجد بشران من خلق الله كل منهما طبق الأصل من الآخر . . هذه دقة الصنع وهذا ما نفهمه من قوله تعالى : « بديع » . . والدقة تعطى الحكمة . . والإبراز فى صور متعددة يعطى القدرة . . ولذلك بعد أن نموت وتتبعثر عناصرنا فى التراب يجمعنا الله يوم القيامة . . والإعجاز فى هذا الجمع هو أن كل انسان سيبعث من عناصره نفسها وصورته نفسها وهيئته نفسها التى كان عليها فى الدنيا . ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴿٤﴾ ﴾

(سورة ق)

إذن الله سبحانه وتعالى بطلاقة قدرته فى الإيجاد قد خلقنا . . وبطلاقة قدرته فى إعادة الخلق يحيينا بعد الموت . . بشكلنا ولحمنا وصفاتنا وكل ذرة فينا . . هل هناك دقة بعد ذلك ؟ .

لو أننا أتينا بأدق الصناع وأمهرهم وقلنا له : اصنع لنا شيئا تجيده . فلما صنعه قلنا له : اصنع مثله . إنه لايمكن أن يصنع نموذجا مثله بالمواصفات نفسها ؛ لأنه يفتقد المقاييس الدقيقة التى تمده بالمواصفات نفسها التى صنعها . إنه يستطيع أن يعطينا نموذجا متشابها ولكن ليس مثل ماصنع تماما . لكن الله سبحانه وتعالى يتوفى خلقه وساعة القيامة أو ساعة بعثهم يعيدهم بمكوناتهم نفسها التى كانوا عليها دون زيادة أو نقص . وذلك لأنه الله جل جلاله لايخلق وفق قوالب معينة ، وإنما يقول للشىء : كن فيكون .

تقول الآية الكريمة « بديع السموات والأرض إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون » .

« وكن » وردت كثيرا فى القرآن الكريم . . وفى اللغة شيء يسمى المشترك . . اللفظ يكون واحدا ومعانيه تختلف حسب السياق . . فمثلا كلمة قضى لها معانى متعددة ولها معنى يجمع كل معانيها . . مرة يأتى بها الحق بمعنى فرغ أو انتهى . . فى قوله تعالى :

﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ﴾

(من الاية ٢٠٠ سورة البقرة)

ومعناها إذا انتهيتم من مناسك الحج . . ومرة يقول سبحانه :

﴿ فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾

(من الاية ٧٢ سورة طه)

والمعنى إفعل ما تريد . . وفى آية أخرى يقول الله تعالى :

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾

(من الآية ٣٦ سورة الأحزاب)

والمعنى هنا أنه إذا قال الله شيئا لا يترك للمؤمنين حق الاختيار . . ومرة يصور الله جل جلاله الكفار فى الآخرة وهم فى النار يريدون أن يستريحوا من العذاب بالموت .

واقرأ قوله سبحانه :

﴿ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾

(سورة الزخرف)

لِيَقْضِ علينا هنا معناها يميتنا . . ومعنى آخر فى قوله تعالى :

﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ﴾

(من الآية ٢٢ سورة ابراهيم)

أى لما انتهى الأمر ووقع الجزاء . . وفى موقع آخر قوله سبحانه :

﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة القصص)

قضى الأجل هنا بمعنى أتم الأجل وفى قوله تعالى :

﴿ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾

(من الآية ٥٤ سورة يونس)

أى حكم وفصل بينهم .. وقوله جل جلاله :

﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ ﴾

(من الآية ٤ سورة الإسراء)

بمعنى أعلمنا بنى إسرائيل فى كتابهم .. إذن « قضى » لها معان متعددة يحددها السياق .. ولكن هناك معنى تلتقى فيه كل المعانى .. وهو قضى أى حكم وهذا هو المعنى الأم .

إذن معنى قوله تعالى : « إذا قضى أمرا » .. أى إذا حكم بحكم فإنه يكون .. على أننا يجب أن نلاحظ قول الحق: « وإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن » .. معنى يقول له أن الأمر موجود عنده .. موجود فى علمه .. ولكنه لم يصل إلى علمنا .. أى أنه ليس أمرا جديدا .. لأنه مادام الله سبحانه وتعالى قال : « يقول له » .. كأنه جل جلاله يخاطب موجودا .. ولكن هذا الموجود ليس فى علمنا ولا نعلم عنه شيئا .. وإنما هو موجود فى علم الله سبحانه وتعالى .. ولذلك قيل أن لله أمورًا يبديها ولا يبتديها .. إنها موجودة عنده لأن الأقلام رُفِعَتْ ، والصحف جفت .. ولكنه يبديها لنا نحن الذين لا نعلمها فنعلمها .

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾﴾

الحق سبحانه وتعالى حين قال : « الذين لا يعلمون » .. أى لا يعلمون عن كتاب الله شيئا لأنهم كفار .. وهؤلاء سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكلمهم الله .. ومعنى أن يكلمهم الله أن يسمعوا كلاما من الله سبحانه .. كما سمع موسى كلام الله .

وماذا كانوا يريدون من كلام الله تبارك وتعالى .. أكانوا يريدون أن يقول لهم الله إنه أرسل محمداً رسولا ليبلغهم بمنهج السماء .. وكأن كل المعجزات التى أيد الله بها رسوله صلى الله عليه وسلم ـ وعلى رأسها القرآن الكريم ـ لم تكن كافية لاقناعهم .. مع أن القرآن كلام معجز وقد أتى به رسول أمى .. سألوه عن أشياء حدثت فأوحى الله بها إليه بالتفصيل .. جاء القرآن ليتحدى فى أحداث المستقبل وفى أسرار النفس البشرية .. وكان ذلك يكفيهم لو انهم استخدموا عقولهم ولكنهم أرادوا العناد كلما جاءتهم آية كذبوا بها وطلبوا آية أخرى .. والله سبحانه وتعالى قد أبلغنا أنه لا يمكن لطبيعة البشر أن تتلقى عن الله مباشرة .. واقرأ قوله سبحانه :

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾

(من الآية ٥١ سورة الشورى)

إذن فالبشر حتى المصطفى من الله والمؤهل للتلقى عن الله .. لا يكلمه الله إلا وحيا أو إلهامَ خاطرٍ أو من وراء حجاب كما كلم موسى .. أو يرسل رسولا مبلغا للناس لمنهج الله .. أما الاتصال المباشر فهو أمر تمنعه بشرية الخلق .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى : « أو تأتينا آية » .. والآيات التى يطلبها الكفار ويأتى بها الله سبحانه وتعالى ويحققها لهم .. لا يؤمنون بها بل يزدادون كفرا وعنادا .. والله جل جلاله يقول :

﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْآيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ ﴾

(من الآية ٥٩ سورة الإسراء)

إذن فالآيات التى يطلبها الكفار ليؤمنوا لا تجعلهم يؤمنون .. ولكن يزدادون كفرا حتى ولو علموا يقينا أن هذه الآيات من عند الله سبحانه وتعالى كما حدث لآل فرعون .. واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى :.

﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ ﴾

(سورة النمل)

وهكذا فإن طلبهم أن يكلمهم الله أو تأتيهم آية كان من باب العناد والكفر .. والحق سبحانه يقول : « كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم » .. فبنو إسرائيل قالوا لموسى أرنا الله جهرة .. الذين لا يعلمون قالوا لولا يكلمنا الله .. ولكن الذين قالوا أرنا الله جهرة كانوا يعلمون لأنهم كانوا يؤمنون بالتوراة .. فتساوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون .. لذلك قال الله تبارك وتعالى : « تشابهت قلوبهم » .. أى قلوب أولئك الذين كانوا خاضعين للمنهج والذين لا يخضعون لمنهج قد تشابهت بمنطق واحد .

ولو أن الذين لا يعلمون قالوا ولم يقل الذين يعلمون لهان الأمر . . وقلنا جهلهم هو الذى أوحى إليهم بما قالوا . . ولكن ما عذر الذين علموا وعندهم كتاب أن يقولوا أرنا الله جهرة . . إذن فهناك شيء مشترك بينهم تشابهت قلوبهم فى الهوى . . إن مصدر كل حركة سلوكية أو حركة جارحة إنما هو القلب الذى تصدر عنه دوافع الحركة . . ومادام القلب غير خالص لله فيستوى الذى يعلم والذى لا يعلم .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : « قد بينا الآيات لقوم يوقنون » . . ما هو اليقين ؟ هو استقرار القضية فى القلب استقراراً لا يحتمل شكا ولا زلزلة . . ولا يمكن أن تخرج القضية مرة أخرى إلى العقل . . لتناقش من جديد لأنه أصبح يقينا . . واليقين يأتى من إخبار من تثق به وتصبح أخباره يقينا . . فإذا قال الله قال اليقين . . وإذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم فكلامه حق . . ولذلك من مصداقية الإيمان أن سيدنا أبا بكر رضى الله عنه . . عندما قيل له إن صاحبك يقول إنه صُعد به إلى السماء السابعة وذهب إلى بيت المقدس فى ليلة واحدة . . قال إن كان قد قال فقد صدق .

إن اليقين عنده نشأ من إخبار من يثق فيه وهذا نسميه علم يقين . . وقد يرتقى الأمر ليصير عين يقين . . عندما ترى الشيء بعينك بعد أن حُدثت عن رؤية غيرك له . . ثم تدخل فى حقيقة الشيء فيصبح حق يقين . . إذن اليقين علم إذا جاء عن إخبار من تثق به . . وعين يقين إذا كان الأمر قد شوهد مشاهدة العين . . وحق يقين هو أن تدخل فى حقيقة الشيء . . والله سبحانه وتعالى يشرح هذا فى قوله تعالى :

﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ﴾

(سورة التكاثر)

هذه هى المرحلة الأولى أن يأتينا علم اليقين من الله سبحانه وتعالى . . ثم تأتى المرحلة الثانية فى قوله تبارك وتعالى :

﴿ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧ ﴾ (سورة التكاثر)

أى أنتم ستشاهدون جهنم بأعينكم يوم القيامة . . هذا علم يقين وعين يقين . . يأتى بعد ذلك حق اليقين فى قوله تعالى :

﴿ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ ﴾

(سورة الواقعة)

والمؤمن عافاه الله من أن يعاين النار كحق يقين . . إنه سيراها وهو يمر على الصراط . . ولكن الكافر هو الذى سيصلاها حقيقة يقين . . ولقد قال أهل الكتاب لأنبيائهم ما يوافق قول غير المؤمنين . . فاليهود قالوا لموسى : « لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة » . . والمسيحيون قالوا لعيسى : « هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء » قال : «اتقوا الله إن كنتم مؤمنين » . . وهكذا شجع المؤمنون بالكتاب غير المؤمنين بأن يطلبوا رؤية الله ويطلبوا المعجزات المادية .

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾ ﴾

هنا لابد أن نلتفت إلى أن الله سبحانه وتعالى حينما يخبرنا عن قضية من فعله . يأتى دائما بنون العظمة التى نسميها نون المتكلم . . ونلاحظ أن نون العظمة يستخدمها رؤساء الدول والملوك ويقولون نحن فلان أمرنا بما هو آت . . فكأن العظمة فى الإنسان سخرت المواهب المختلفة لتنفيذ القرار الذى يصدره رئيس الدولة . . فيشترك فى تنفيذه الشرطة والقضاء والدولة والقوات المسلحة إذا كان قرار حرب . . تشترك مواهب متعددة من جماعات مختلفة تتكاتف لتنفيذ القرار . . والله تبارك وتعالى عنده الكمال المطلق . . كل ما هو لازم للتنفيذ من صفات الله سبحانه وتعالى . . فإذا تحدث الله جل جلاله عن فعل يحتاج إلى كمال المواهب من الله تبارك وتعالى وتعالى يقول « إنا » :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾

(سورة الحج)

ولكن حين يتكلم الله عن ألوهيته وحده وعن عبادته وحده يستخدم ضمير المفرد . . مثل قوله سبحانه :

﴿ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾ ﴾

(سورة طه)

ولا يقول فاعبدنا . . إذن ففى كل فعل يأتى الله سبحانه بنون العظمة . . وفى كل أمر يتعلق بالعبادة والتوحيد يأتى بالمفرد . . وذلك حتى نفهم أن الفعل من الله ليس وليد قدرته وحدها . . ولا علمه وحده ولا حكمته وحدها ولا رحمته وحدها . . وإنما كل فعل من أفعال الله تكاملت فيه صفات الكمال المطلق لله .

إن نون العظمة تأتى لتلفتنا إلى هذه الحقيقة لتبرز للعقل تكامل الصفات فى الله . . لأنك قد تقدر ولا تعلم . . وقد تعلم ولا تقدر ، وقد تعلم وتغيب عنك الحكمة . إذن فتكامل الصفات مطلوب .

قوله تعالى : « إنا أرسلناك بالحق » يعنى بعثناك بالحق رسولا . . والحق هو الشىء الثابت الذى لا يتغير ولا يتناقض . . فإذا رأيت حدثا أمامك ثم طلب منك أن تحكى ما رأيت رويت ما حدث . . فإذا طلب منك بعد فترة أن ترويه مرة أخرى فإنك ترويه بنفس التفاصيل . . أما إذا كنت تكذب فستتناقض فى أقوالك . . ولذلك قيل إن كنت كذوبا فكن ذكورا .

إن الحق لا يتناقض ولا يتغير . . ومادام رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أرسل بالحق . . فإنَّ عليه أن يبلغه للناس وسيبقى الحق حقا إلى يوم القيامة .

وقوله تعالى : « بشيرا ونذيرا » . . البشارة هى إخبار بشىء يسرك زمنه قادم . . والإنذار هو الإخبار بشىء يسوؤك زمنه قادم ربما استطعت أن تتلافاه . . بشير بماذا ؟ ونذير بماذا ؟ يبشر من آمن بنعيم الجنة وينذر الكافر بعذاب النار . . والبشرى والإنذار يقتضيان منهجا يبلغ . . من آمن به كان بشارة له.ومن لا يؤمن كان إنذارا له .

ثم يقول الحق جل جلاله : « ولا تُسأل عن أصحاب الجحيم » . . أى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس مسئولا عن الذين سيلقون بأنفسهم فى النار والعذاب . إنه ليس مسئولا عن هداهم وإنما عليه البلاغ . . واقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ ﴾

(سورة الكهف)

ويقول جل جلاله :

﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝٣ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ۝٤ ﴾

(سورة الشعراء)

فالله سبحانه وتعالى لو أرادنا أن نؤمن قسرا وقهرا . . ما استطاع واحد من الخلق أن يكفر . . ولكنه تبارك وتعالى يريد أن نأتيه بقلوب تحبه وليس بقلوب مقهورة على الإيمان . . إن الله سبحانه وتعالى خلق الناس مختارين أن يؤمنوا أو لا يؤمنوا . . وليس لرسول أن يرغم الناس على الإيمان بالقهر . . لأن الله لو أراد لقهر كل خلقه .

أما أصحاب الجحيم فهم أهل النار . والجحيم مأخوذة من الجموح . . وجمحت النار يعنى اضطربت ، وعندما ترى النار متأججة يقال جمحت النار . . أى أصبح لهيبها مضاعفا بحيث يلتهم كل ما يصل إليها فلا تخمد أبدا .

والحق سبحانه وتعالى يريد أن يطمئن رسوله صلى الله عليه وسلم . . أنه لا يجب أن ينشغل قلبه بالذين كفروا لأنه قد أنذرهم . . وهذا ما عليه ، وهذه مهمته التى كلفه الله بها .

﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ﴾

كان اليهود يدخلون على رسول الله صلى الله عليه وسلم مدخل لؤم وكيد فيقولون هادنا ، أى قل لنا ما فى كتابنا حتى ننظر إذا كنا نتبعك أم لا . . يريد الله تبارك وتعالى أن يقطع على اليهود سبيل الكيد والمكر برسول الله صلى الله عليه وسلم . . بأنه لا اليهود ولا النصارى سيتبعون ملتك . . وإنما هم يريدون أن تتبع أنت ملتهم . . أنت تريد أن يكونوا معك وهم يطمعون أن تكون معهم . . فقال الله سبحانه : « ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم » . .

نلاحظ هنا تكرار النفى وذلك حتى نفهم أن رضا اليهود غير رضا النصارى . . ولو قال الحق تبارك وتعالى ، ولن ترضى عنك اليهود والنصارى بدون لا . . لكان معنى ذلك انهم مجتمعون على رضا واحد أو متفقون . . ولكنهم مختلفون بدليل أن الله تعالى قال :

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ ﴾

(من الآية ١١٣ سورة البقرة)

إذن فلا يصح أن يقال فلن ترضى عنك اليهود والنصارى . . والله سبحانه وتعالى يريد أن يقول لن ترضى عنك اليهود ولن ترضى عنك النصارى . . وإنك لو صادفت رضا اليهود فلن ترضى عنك النصارى . . وإن صادفت رضا النصارى فلن ترضى عنك اليهود . .

ثم يقول الحق سبحانه : « حتى تتبع ملتهم » . . والملة هى الدين وسميت بالملة لأنك تميل إليها حتى ولو كانت باطلا . . والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦ ﴾

(سورة الكافرون)

فجعل لهم دينا وهم كافرون ومشركون . . ولكن ما الذى يعصمنا من أن نتبع ملة اليهود أو ملة النصارى . . الحق جل جلاله يقول :

﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ٧٣ سورة آل عمران)

فاليهود حرفوا فى ملتهم والنصارى حرفوا فيها . . ورسول الله صلى الله عليه وسلم معه هدى الله . . والهدى هو ما يوصلك إلى الغاية من أقصر طريق . . أو هو الطريق المستقيم باعتباره أقصر الطرق إلى الغاية . . وهدى الله طريق واحد ، أما هدى البشر فكل واحد له هدى ينبع من هواه .

ومن هنا فإنها طرق متشعبة ومتعددة توصلك إلى الضلال . . ولكن الهدى الذى يوصل للحق هو هدى واحد . . هدى الله عز وجل .

وقوله تعالى : « ولئن اتبعت أهواءهم » إشارة من الله سبحانه وتعالى إلى أن ملة اليهود وملة النصارى أهواء بشرية . . والأهواء جمع هوى . . والهوى هو ما تريده النفس باطلا بعيدا عن الحق . . لذلك يقول الله جل جلاله : « ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم مالك من الله من ولى ولا نصير » . .

والله تبارك وتعالى يقول لرسوله لو اتبعت الطريق المعوج الملىء بالشهوات بغير حق . . سواء كان طريق اليهود أو طريق النصارى بعدما جاءك من الله من الهدى فليس لك من الله من ولى يتولى أمرك ويحفظك ولا نصير ينصرك .

وهذا الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم يجب أن نقف معه وقفة لنتأمل كيف يخاطب الله رسوله صلى الله عليه وسلم الذى اصطفاه . . فالله حين يوجه هذا الخطاب لمحمد عليه الصلاة والسلام . . فالمراد به أمة رسول الله صلى الله عليه وسلم أتباع رسول الله الذين سيأتون من بعده . . وهم الذين يمكن أن تميل قلوبهم إلى اليهود والنصارى . . أما الرسول فقد عصمه الله من أن يتبعهم .

والله سبحانه وتعالى يريدنا أن نعلم يقينا أن ما لم يقبله من رسوله عليه الصلاة والسلام . . لا يمكن أن يقبله من أحد من أمته مهما علا شأنه . . وذلك حتى لا يأتى بعد رسول الله من يدعى العلم . . ويقول نتبع ملة اليهود أو النصارى لنجذبهم إلينا . . نقول له لا ما لم يقبله الله من حبيبه ورسوله لا يقبله من أحد .

إن ضرب المثل هنا برسول الله صلى الله عليه وسلم مقصود به أن اتباع ملة اليهود أو النصارى مرفوض تماما تحت أى ظرف من الظروف ، لقد ضرب الله سبحانه المثل برسوله حتى يقطع على المغرضين أى طريق للعبث بهذا الدين بحجة التقارب مع اليهود والنصارى .

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾ ﴾

بعد أن بين الله سبحانه وتعالى أن اليهود والنصارى قد حرفوا كتبهم ، أراد أن يبين أن هناك من اليهود والنصارى من لم يحرفوا فى كتبهم . . وأن هؤلاء يؤمنون بمحمد عليه الصلاة والسلام وبرسالته . . لأنهم يعرفونه من التوراة والإنجيل .

ولو أن الله سبحانه لم يذكر هذه الآية لقال الذين يقرأون التوراة والإنجيل على حقيقتيهما . . ويفكرون فى الإيمان برسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم . . لقالوا كيف تكون هذه الحملة على كل اليهود وكل النصارى ونحن نعتزم الإيمان بالإسلام . . وهذا ما يقال عنه قانون الاحتمال . . أى أن هناك عددا مهما قل من اليهود أو النصارى يفكرون فى اعتناق الإسلام باعتباره دين الحق . . وقد كان هناك جماعة من اليهود عددهم أربعون قادمون من سيناء مع جعفر بن أبى طالب ليشهدوا أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم انهم قرأوا التوراة غير المحرفة وآمنوا برسالته . . وأراد الله أن يكرمهم ويكرم كل من سيؤمن من أهل الكتاب . . فقال جل جلاله :

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ ﴾

(من الآية ١٢١ سورة البقرة)

أى يتلونه كما أنزل بغير تحريف ولا تبديل . . فيعرفون الحقائق صافية غير مخلوطة بهوى البشر . . ولا بالتحريف الذى هو نقل شىء من حق إلى باطل .

يقول الله تبارك وتعالى : « أولئك يؤمنون به ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون » . . ونلاحظ أن القرآن الكريم يأتى دائما بالمقارنة . . ليكرم المؤمنين ويلقى الحسرة فى نفوس المكذبين . . لأن المقارنة دائما تظهر الفارق بين الشيئين .

إن الله سبحانه يريد أن يعلم الذين آتاهم الله الكتاب فلم يحرفوه وآمنوا به . . ليصلوا إلى النعمة التى ستقودهم إلى النعيم الأبدى . . وهى نعمة الإسلام والإيمان . . مقابل الذين يحرفون التوراة والإنجيل فمصيرهم الخسران المبين والخلود فى النار .

﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٢٢ ﴾

لو رجعنا إلى ما قلناه عندما تعرضنا للآية (٤٠) من سورة البقرة . . وقوله تعالى : « يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأوفوا بعهدى أوفِ بعهدكم وإياى فارهبون » . . فالحق سبحانه وتعالى لم ينه الجولة مع بنى إسرائيل قبل أن يذكرهم بما بدأهم به . . إنه سبحانه لا ينهى الكلام معهم فى هذه الجولة . . إلا بعد أن يذكرهم تذكيرا نهائيا بنعمه عليهم وتفضيله لهم على كثير من خلقه . . ومن أكبر مظاهر هذا التفضيل . . الآية الموجودة فى التوراة تبشر بمحمد عليه الصلاة والسلام وذلك تفضيل كبير .

التذكير بالنعمة هنا وبالفضل هو تقريع لبنى إسرائيل أنهم لم يؤمنوا برسول الله صلى الله عليه وسلم مع انه مذكور عندهم فى التوراة . . وكان يجب أن يأخذوا هذا الذكر بقوة ويسارعوا للإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم لأنه تفضيل كبير من الله سبحانه وتعالى لهم . . والله جل جلاله قال حين أخذت اليهود الرجفة . . وطلب موسى عليه السلام من ربه الرحمة . . قال كما يروى لنا القرآن الكريم :

﴿ وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ١٥٦ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ

فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ
عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾

(سورة الأعراف)

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾

هذه الآية الكريمة تشابهت مع الآية ٤٨ من سورة البقرة . . التى يقول فيها الله تبارك وتعالى :

« واتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون » .

نقول إن هذا التشابه ظاهرى . . ولكن كل آية تؤدى معنى مستقلا . . ففى الآية ٤٨ قال الحق سبحانه : « لا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل » . . وفى الآية التى نحن بصددها قال : « لا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة » . . لماذا ؟ لأن قوله تعالى « لا تجزى نفس عن نفس شيئا » . . لو أردنا النفس الأولى فالسياق يناسبها فى الآية الأولى . . ولو أردنا النفس الثانية فالسياق يناسبها فى الآية الثانية التى نحن بصددها . . فكأن معنا نفسين إحداهما جازية والثانية مجزى عنها . . الجازية هى التى تشفع . . فأول شىء يقبل منها هو الشفاعة . . فإن لم تقبل شفاعتها تقول أنا أتحمل العدل . . أى أخذ الفدية أو ما يقابل الذنب . . ولكن النفس المجزى عنها أول ما تقدم هو العدل أو الفداء . . فإذا لم يقبل منها تبحث عن شفيع . . ولقد تحدثنا عن ذلك بالتفصيل عند تعرضنا للآية ٤٨ من سورة البقرة .

﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾

يأتى الحق سبحانه وتعالى إلى قصة إبراهيم عليه السلام .. ليصفى الجدل والتشكيك الذى أحدثه اليهود عند تغيير القبلة .. واتجاه المسلمين إلى الكعبة المشرفة بدلا من بيت المقدس .. كذلك الجدل الذى أثاره اليهود بأنهم شعب الله المختار وأنه لا يأتى نبى إلا منهم .

يريد الله تبارك وتعالى أن يبين صلة العرب بإبراهيم وصلتهم بالبيت .. فيقول الحق جل جلاله : « وإذ ابتلى إبراهيم ربه » .. ومعناها اذكر إذا ابتلى الله إبراهيم .. واذ هنا ظرف وهناك فرق بينها وبين إذا الشرطية فى قوله تعالى :

﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾﴾

(سورة النصر)

إذا هنا ظرف ولكنه يدل على الشرط .. أما إذ فهى ظرف فقط .. وقوله تعالى : « وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن » .. معناها اذكر وقت أن ابتلى الله إبراهيم بكلمات .

ما معنى الابتلاء ؟ الناس يظنون أنه شر ولكنه فى الحقيقة ليس كذلك .. لأن الابتلاء هو إمتحان إن نجحنا فيه فهو خير وإن رسبنا فيه فهو شر .. فالابتلاء ليس شرا ولكنه مقياس لاختبار الخير والشر . الذى ابتلى هو الله سبحانه .. هو

الرب . . والرب معناه المربى الذى يأخذ من يربيه بأساليب تؤهله إلى الكمال المطلوب منه . . ومن أساس التربية أن يمتحن المربى من يربيه ليعلم هل نجح فى التربية أم لا ؟ والابتلاء هنا بكلمات والكلمات جمع كلمة . . والكلمة قد تطلق على الجملة مثل قوله تعالى :

﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۝ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۝﴾

(سورة الكهف)

إذن فالكلمة قد تطلق على الجملة وقد تطلق على المفرد . . كأن تقول مثلا محمد وتسكت . . وفى هذه الحالة لا تكون جملة مفيدة . . والكلمة المرادة فى هذه الآية هى التكليف من الله .

قوله سبحانه إفعل ولا تفعل . . فكأن التكليف من الله مجرد كلمة وأنت تؤدى مطلوبها أو لا تؤديه . . وقد اختلف العلماء حول الكلمات التى تلقاها إبراهيم من ربه . . نقول لهم ان هذه الكلمات لابد أن تناسب مقام إبراهيم أبى الأنبياء . . إنها ابتلاء يجعله أهلا لحمل الرسالة . . أى لابد أن يكون الابتلاء كبيرًا . . ولقد قال العلماء إن الابتلاءات كانت عشرة وقالوا أربعين منها عشرة فى سورة التوبة وهى قوله تعالى :

﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ﴾

(من الآية ١١٢ سورة التوبة)

وهذه رواية عبدالله بن عباس . . وعشرة ثانية فى سورة المؤمنون . فى قوله سبحانه :

﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ ﴾

(سورة المؤمنون)

وبعد ذلك قال : « أولئك هم الوارثون » .

وفى سورة الأحزاب يذكر منهم قوله جل جلاله :

﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ ﴾

(سورة الأحزاب)

وفى سورة المعارج يقول :

﴿ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ

رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ
حَافِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾
فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ
وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٣٢﴾ وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ
يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾

(سورة المعارج)

نخرج من هذا الجدل ، بأن نقول إن الله ابتلى إبراهيم بكلمات تكليفية افعل كذا ولا تفعل كذا . . وابتلاه بأن القِى فى النار وهو حى فلم يجزع ولم يتراجع ولم يتجه إلا لله وكانت قمة الابتلاء أن يذبح ابنه .

وكون إبراهيم أدى جميع التكليفات بعشق وحب وزاد عليه من جنسها . . وكونه يلقى فى النار ولا يبالى يأتيه جبريل فيقول ألك حاجة فيرد إبراهيم أما إليك فلا . . وأما إلى الله فعلمه بحالى يغنيه عن سؤالى . . وكونه وهو شيخ كبير يبتلى بذبح ابنه الوحيد فيطيع بنفس مطمئنة ورضا بقدر الله . . يقول الحق :

﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴿٣٧﴾ ﴾

(سورة النجم)

أى وَفَّى كل ما طلب منه وأداه بعشق للمنهج ولابتلاءات الله . . لقد نجح إبراهيم عليه السلام فى كل ما ابتلى به أو اختبر به . . والله كان أعز عليه من أهله ومن نفسه ومن ولده . . ماذا كافأه الله به ؟ قال :

﴿ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾

(من الآية ١٢٤ سورة البقرة)

أى أن الحق تبارك وتعالى أئتمنه أن يكون إماما للبشر . . والله سبحانه كان يعلم وفاء إبراهيم ولكنه اختبره لنعرف نحن البشر كيف يصطفى الله تعالى عباده المقربين وكيف يكونون أئمة يتولون قيادة الأمور . . استقبل إبراهيم هذه البشرى من الله وقال كما يروى لنا القرآن الكريم :

﴿ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي ﴾

(من الآية ١٢٤ سورة البقرة)

ما هى الذرية ؟ هى النسل الذى يأتى والولد الذى يجىء . . لأنه يحب إستطراق الخير على أولاده وأحفاده وهذه طبيعة البشر ، فهم يعطون ثمرة حركتهم وعملهم فى الحياة لأولادهم وأحفادهم وهم مسرورون . . ولذلك أراد إبراهيم أن ينقل الإمامية إلى أولاده وأحفاده . . حتى لا يحرموا من القيم الإيمانية تحرس حياتهم وتؤدى بهم إلى نعيم لا يزول . . ولكن الله سبحانه وتعالى يرد على إبراهيم بقضية إيمانية أيضا هى تقريع لليهود . . الذين تركوا القيم وعبدوا المادة فيقول جل جلاله :

﴿ لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

(من الآية ١٢٤ سورة البقرة)

فكأن إبراهيم بأعماله قد وصل إلى الإمامية . . ولكن هذا لا ينتقل إلا للصالحين من عباده العابدين المسبحين .

وقول الحق سبحانه : « لا ينال عهدى الظالمين » مقصود به اليهود الذين باعوا قيمهم الإيمانية بالمادة ، وهو استقراء للغيب أنه سيأتى من ذرية إبراهيم من سيفسق ويظلم .

ومن العجائب أن موسى وهارون عليهما السلام كانا رسولين . . الرسول الأصيل موسى وهارون جاء ليشد أزره لأنه فصيح اللسان . . وشاءت إرادة الله سبحانه أن تستمر الرسالة فى ذرية هارون وليس فى ذرية موسى . . والرسالة ليست ميراثا . .

وقوله تعالى « لا ينال عهدى الظالمين » . . فكأن عهد الله هو الذى يجذب صاحبه أى هو الفاعل . . نأتى بعد ذلك إلى مسألة الجنس والدم واللون . . بنوة الأنبياء غير بنوة الناس كلهم فالأنبياء اصطفاؤهم اصطفاء قيم وأبناؤهم هم الذين يأخذون منهم هذه القيم وليسوا الذين يأخذون الجنس والدم واللون . . ولو رجعنا إلى قصة نوح عليه السلام حين غرق ابنه . . رفع يديه إلى السماء وقال :

﴿ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي ﴾

(من الآية ٤٥ سورة هود)

فرد عليه الحق سبحانه وتعالى فقال :

﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ ﴾

(من الآية ٤٦ سورة هود)

إن أهل النبوة هم الذين يأخذون القيم عن الأنبياء . . ولولا أن الحق سبحانه قال لنا « إنه عمل غير صالح » . . لاعتقدنا أنه ربما جاء من رجل آخر أو غير ذلك . . ولكن الله يريدنا أن نعرف أن عدم نسبة ابن نوح إلى أبيه بسبب « إنه عمل غير صالح » .

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾﴾

وضّحت لنا الآية التى سبقت أن اليهود قد انتفت صلتهم بإبراهيم عليه السلام .. بعد أن تركوا القيم والدين واتجهوا إلى ماديات الحياة .. أنتم تدعون انكم أفضل شعوب الأرض لأنكم من ذرية إسحق بن إبراهيم والعرب لهم هذه الأفضلية والشرف لأنهم من ذرية إسماعيل بن إبراهيم .. إذن فأنتم غير مفضلين عليهم .. فإذا انتقلنا إلى قصة بيت المقدس وتحويل القبلة إلى الكعبة .. نقول إن ذلك مكتوب منذ بداية الخلق أن تكون الكعبة قبلة كل من يعبد الله .

الحق سبحانه وتعالى يقول : « وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا » .. تأمل كلمة البيت وكلمة مثابة .. بيت مأخوذ من البيتوتة وهو المأوى الذى تأوى إليه وتسكن فيه وتستريح وتكون فيه زوجتك وأولادك .. ولذلك سميت الكعبة بيتا لأنها هى المكان الذى يستريح إليه كل خلق الله .. ومثابة يعنى مرجعا تذهب إليه وتعود .. ولذلك فإن الذى يذهب إلى بيت الله الحرام مرة يحب أن يرجع مرات ومرات .. إذن فهو مثابة له لأنه ذاق حلاوة وجوده فى بيت ربه .. وأتحدى أن يوجد شخص فى بيت الله الحرام يشغل ذهنه غير ذكر الله وكلامه وقرآنه وصلاته .. تنظر إلى الكعبة فيذهب كل ما فى صدرك من ضيق وهم وحزن ولا تتذكر أولادك ولا شئون دنياك ولو ظلت جاذبية بيت الله فى قلوب الناس مستمرة لتركوا كل شئون دنياهم ليبقوا بجوار البيت .. ولذلك كان عمر بن الخطاب حريصا على أن يعود الناس إلى أوطانهم وأولادهم بعد انتهاء مناسك الحج مباشرة ..

ومن رحمة الحق سبحانه أن الدنيا تختفى من عقل الحاج وقلبه .. لأن الجحيج فى

بيت ربهم . . وكلما كربهم شيء أو همهم شيء توجهوا إلى ربهم وهم فى بيته فيذهب عنهم الهم والكرب . . ولذلك فإن الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة إبراهيم)

أفئدة وليست أجساما وتهوى أى يلقون أنفسهم إلى البيت . . والحج هو الركن الوحيد الذى يحتال الناس ليؤدوه . . حتى غير المستطيع يشق على نفسه ليؤدى الفريضة . . والذى يؤديه مرة ويسقط عنه التكليف يريد أن يؤديه مرة أخرى ومرات .

إن من الخير أن تترك الناس يثوبون إلى بيت الله . . ليمحو الله سبحانه ما فى صدورهم من ضيق وهموم مشكلات الحياة .

وقوله تعالى : « مثابة للناس وأمنا » . . أمنا يعنى يؤمّن الناس فيه . . العرب حتى بعد أن تحللوا من دين إسماعيل وعبدوا الأصنام كانوا يؤمنون حجاج بيت الله الحرام . . يلقى أحدهم قاتل أبيه فى بيت الله فلا يتعرض له إلا عندما يخرج .

والله سبحانه وتعالى يضع من التشريعات ما يريح الناس من تقاتلهم ويحفظ لهم كبرياءهم فيأتى إلى مكان ويجعله آمنا . . ويأتى إلى شهر ويجعله آمنا لا قتال فيه لعلهم حين يذوقون السلام والصفاء يمتنعون عن القتال .

والكلام عن هذه الآية يسوقنا إلى توضيح الفرق بين أن يخبرنا الله أن البيت آمن وأن يطلب منا جعله آمنا . . إنه سبحانه لا يخبرنا بأن البيت آمن ولكن يطلب منا أن نؤمّن من فيه . . الذى يطيع ربه يؤمن من فى البيت والذى لا يطيعه لا يؤمنه . . عندما يحدث هياج من جماعة فى الحرم اتخذته ستاراً لتحقيق أهدافها . . هل يتعارض هذا مع قوله تعالى : « مثابة للناس وأمنا » . . نقول لا . .

إن الله لم يعط لنا هذا كخبر ولكن كتشريع . . إن أطعنا الله نفذنا هذا التشريع وإن لم نطعه لا ننفذه .

وقوله تعالى : « واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى » . . وهنا نقف قليلا فهناك مَقام بفتح الميم ومُقام بضم الميم . . قوله تعالى :

﴿ يَٰٓأَهۡلَ يَثۡرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمۡ ﴾

(من الآية ١٣ سورة الأحزاب)

مَقام بفتح الميم إسم لمكان من قام . . ومُقام بضم الميم إسم لمكان من أقام . . فإذا نظرت إلى الإقامة فقل مُقام بضم الميم . . وإذا نظرت إلى مكان القيام فقل مقام بفتح الميم . . إذن فقوله تعالى : « واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى » بفتح الميم إسم المكان الذى قام إبراهيم فيه ليرفع القواعد من البيت ويوجد فيه الحجر الذى وقف إبراهيم عليه وهو يرفع القواعد .

ولكن لماذا أمرنا الله بأن نتخذ من مقام إبراهيم مصلى ؟ لأنهم كانوا يتحرجون عن الصلاة فيه . . فالذى يصلى خلف المقام يكون الحجر بينه وبين الكعبة . . وكان المسلمون يتحرجون أن يكون بينهم وبين الكعبة شيء فيخلون من الصلاة ذلك المكان الذى فيه مقام إبراهيم . . ولذلك قال سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ألا نتخذ من مقام إبراهيم مصلى ؟ وسؤال عمر ينبع من الحرص على عدم الصلاة وبينه وبين الكعبة عائق وهم لا يريدون ذلك . . ولما رأى عمر مكانا فى البيت ليس فيه صلاة يصنع فجوة بين المصلين أراد أن تعم الصلاة كل البيت . . فنزلت الآية الكريمة : « واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى » .

وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد أمرنا أن نتخذ من مقام إبراهيم مصلى . . فكأنه جل جلاله أقر وجود مكان إبراهيم فى مكانه فاصلا بين المصلين خلفه وبين الكعبة . . وذلك لأن مقام إبراهيم له قصة تتصل بالعبادة وإتمامها على الوجه الأكمل ، والمقام سيعطينا حيثية الإتمام لأن الله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ ﴾

(من الآية ٩٧ سورة آل عمران)

إذن هناك آيات واضحة يريدنا الله سبحانه أن نراها ونتفهمها . . فمقام إبراهيم هو مكان قيامه عندما أمره الله برفع القواعد من البيت . . والترتيب الزمنى للأحداث هو أن البيت وُجد أولا . . ثم بعد ذلك رفعت القواعد ووضع الحجر الأسود فى موقعه وقد وضعه إبراهيم عليه السلام . .

إن الله سبحانه وتعالى لا يريد أن يعطينا التاريخ بقدر ما يريد أن يعطينا العبرة ؛ فقصة بناء البيت وقع فيها خلاف بين العلماء . . متى بنى البيت ؟ بعض العلماء جعلوا بداية البناء أيام إبراهيم وبعضهم يرى أنه من عهد آدم وفريق ثالث يقول إنه من قبل آدم . . وإذا حكمنا المنطق والعقل وقرأنا قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ ﴾

(سورة البقرة)

نسأل ما الرفع أولا ؟ هو الصعود والاعلاء ، فكل بناء له طول وله عرض وله إرتفاع . . ومادامت مهمة إبراهيم هى رفع القواعد فكأن هناك طولا وعرضا للبيت وإن إبراهيم سيحدد البعد الثالث وهو الارتفاع . . إن البيت كان موجودا قبل إبراهيم . . ثم جاء الطوفان الذى غمر الأرض فى عهد نوح فأخفى معالمه . . فأراد الله سبحانه وتعالى أن يظهره ويبين مكانه للناس .

والكعبة ليست هى البيت ولكنها هى المكين الذى يدلنا على مكان البيت . . إذن فالذين فهموا من قوله تعالى : « وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت » . . بمعنى ان إبراهيم هو الذى بنى البيت . . نقول لهم ان البيت كان موجودا قبل إبراهيم وأن مهمة إبراهيم اقتصرت على رفع القواعد لإظهار مكان البيت للناس . . ودليلنا على ذلك أنه الآن وقد إرتفع البناء حول الكعبة . . من يصلى على السطح لا يسجد للكعبة ولكنه يسجد لجوّ الكعبة . . ومن يصلى فى الدور الأسفل يصلى أيضا للكعبة لأن المكان غير المكين .

ولعل أكبر دليل على ذلك من القرآن الكريم . . أن إبراهيم حين أخذ هاجر وابنها

إسماعيل وتركهما فى بيت الله الحرام ولم يكن قد بنى الكعبة فى ذلك الوقت . . ذكر البيت واقرأ قول الحق تبارك وتعالى فى دعاء إبراهيم وهو يترك هاجر وطفلها الرضيع :

﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة إبراهيم)

يعنى أن البيت كان موجودا وإسماعيل طفل رضيع . . ولكن القواعد من البيت قد أقيمت بعد أن أصبح إسماعيل شابا يافعا يستطيع أن يعاون أباه فى بناء الكعبة . . إذن فمكان بيت الله الحرام كان موجودا قبل أن يبنى إبراهيم عليه السلام الكعبة . . ولكن مكان البيت لم يكن ظاهرا للناس ، ولذلك بين الله سبحانه وتعالى لإبراهيم مكان البيت حتى يضع له العلامة التى تدل الناس عليه . . واقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿ وَإِذۡ بَوَّأۡنَا لِإِبۡرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلۡبَيۡتِ أَن لَّا تُشۡرِكۡ بِي شَيۡـٔٗا ﴾

(من الآية ٢٦ سورة الحج)

إن كثيرا من المفسرين يخفى عليهم حقيقة ما جاء فى القرآن . والمفروض أننا حين نتعرض لقضية بناء البيت لابد أن نستعرض جميع الآيات التى وردت فى القرآن الكريم حول هذه القصة . . ومنها قوله تبارك وتعالى :

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكٗا وَهُدٗى لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

والكلام هنا عن البيت. والقول إنه وضع للناس. والناس هم آدم وذريته حتى تقوم الساعة . . وعلى ذلك لابد أن نفهم أن البيت مادام وضع للناس فالناس لم يضعوه . . ولكن الله سبحانه وتعالى هو الذى وضعه وحدده ، وعدل الله يأبى إلا أن يوجد البيت قبل أن يخلق آدم . ولذلك فإن الملائكة هم الذين وضعوه بأمر الله وحيث أراد الله لبيته أن يوضع . . والله مع نزول آدم إلى الأرض شرع التوبة وأعد هذا البيت ليتوب الناس فيه إلى ربهم وليقيموا الصلاة ويتعبدوا فيه .

وعندما أراد إبراهيم أن يقيم القواعد من البيت كان يكفى أن يقيمها على قدر طول قامته ولكنه أتى بالحجر ليزيد القواعد بمقدار ارتفاع الحجر . . ويريد الله سبحانه وتعالى بمقام إبراهيم واتخاذه مصلى أن يلفتنا إلى أن الإنسان المؤمن لابد أن يعشق التكليف . . فلا يؤديه شكلا ولكن يؤديه بحب ويتحايل ليزيد تطوعا من جنس ما فرض الله عليه .

إن الحجر الموجود فى مقام إبراهيم إنما هو دليل على عشقه عليه السلام لتكاليف ربه ومحاولته أن يزيد عليها . وإن الحجر الذى كان يقف عليه ابراهيم به حفر على شكل قدميه . . وهما بين قائل أن الحجر لان تحت قدمى إبراهيم من خشية الله . . وبين قائل إن إبراهيم هو الذى قام بحفر مكان فى الحجر على هيئة قدميه . . حتى إذا وقف عليه ورفع يده إلى أعلى ما يمكن ليعلى القواعد من البيت كان توازنه محفوظا . .

وقوله تعالى : « طهرا بيتى » دليل على أن البيت زالت معالمه تماما وأصبح مثل سائر الأرض فذبحت فيه الذبائح وألقيت المخلفات ، فأمر الله سبحانه وتعالى أن يطهر هو وإسماعيل البيت من كل هذا الدنس ويجعله مكانا لثلاث طوائف : « الطائفين » وهذه مأخوذة من الطواف وهو الدوران حول الشىء . . ولذلك يسمون شرطة الحراسة بالليل طوافة لأنهم يطوفون فى الشوارع فى أثناء الليل . والله جل جلاله يقول :

﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ ﴾

(سورة القلم)

وهذه هى قصة الحديقة التى منع أولاد الرجل الصالح بعد وفاته حق الفقراء والمساكين فيها فأرسل الله سبحانه من طاف بها . . أى مشى فى كل جزء منها فأحرق أشجارها . . فالطائف هو الذى يطوف . . « والعاكفين » هم المقيمون « والركع السجود » هم المصلون فتطهير البيت للطواف به والإقامة والصلاة فيه . . وهو مطهر أيضا لأنه سيكون قبلة للمسلمين لكل راكع أو ساجد فى الأرض حتى قيام الساعة .

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ ﴾

يقول الحق سبحانه وتعالى : « وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا » . . ومادام الله قد جعله أمنا فما هى جدوى دعوة إبراهيم أن تكون مكة بلدا آمنا . . نقول إذا رأيت طلبا لموجود فاعلم أن القصد منه هو دوام بقاء ذلك الموجود . . فكأن إبراهيم يطلب من الله سبحانه وتعالى أن يديم نعمة الأمن فى البيت . . ذلك لأنك عندما تقرأ قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ ﴾

(سورة النساء)

هو خاطبهم بلفظ الإيمان ثم طلب منهم أن يؤمنوا . . كيف ؟ نقول إن الله سبحانه يأمرهم أن يستمروا ويداوموا على الإيمان . . ولذلك فإن كل مطلوب لموجود هو طلبٌ لاستمرار هذا الموجود .

وقول إبراهيم : « رب اجعل هذا بلداً آمنا » . . أى يارب إذا كنت قد جعلت هذا البيت آمنا من قبل فأمنه حتى قيام الساعة . . ليكون كل من يدخل إليه آمنا لأنه

موجود فى واد غير ذى زرع . . وكانت الناس فى الماضى تخاف أن تذهب إليه لعدم وجود الأمان فى الطريق . . أو آمنا أى أن يديم الله على كل من يدخله نعمة الإيمان .

وقوله تعالى : « اجعل هذا بلدا آمنا » تكررت فى آية أخرى تقول : « اجعل هذا البلد آمنا » . . فمرة جاء بها نكرة ومرة جاء بها معرفة . . نقول إن إبراهيم حين قال : « رب اجعل هذا البلد آمنا » . . طلب من الله شيئين . . أن يجعل هذا المكان بلدا وأن يجعله آمنا .

ما معنى أن يجعله بلدا ؟ هناك أسماء تؤخذ من المحسات . . فكلمة غصب تعنى سلخ الجلد عن الشاة وكأن من يأخذ شيئا من إنسان غصبا كأنه يسلخه منه بينما هو متمسك به .

كلمة بلد حين تسمعها تنصرف إلى المدينة . . والبلد هو البقعة تنشأ فى الجلد فتميزه عن باقى الجلد كأن تكون هناك بقعة بيضاء فى الوجه أو الذراعين فتكون البقعة التى ظهرت مميزة ببياض اللون . . والمكان إذا لم يكن فيه مساكن ومبان فيكون مستويا بالأرض لا تستطيع أن تميزه بسهولة . . فإذا أقمت فيه مبانى جعلت فيه علامة تميزه عن باقى الأرض المحيطة به .

وقوله تعالى : « وارزق أهله من الثمرات » . . هذه من مستلزمات الأمن لأنه مادام هناك رزق وثمرات تكون مقومات الحياة موجودة فيبقى الناس فى هذا البلد . . ولكن إبراهيم قال : « وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم » فكأنه طلب الرزق للمؤمنين وحدهم . . لماذا ؟ لأنه حينما قال له الله :

﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾

(من الآية ١٢٤ سورة البقرة)

قال إبراهيم :

﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾

(من الآية ١٢٤ سورة البقرة)

قال الله سبحانه :

﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

(من الآية ١٢٤ سورة البقرة)

فخشى إبراهيم وهو يطلب لمن سيقيمون فى مكة أن تكون إستجابة الله سبحانه كالاستجابة السابقة . . كأن يقال له لا ينال رزق الله الظالمون. فاستدرك إبراهيم وقال : « وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم » . . ولكن الله سبحانه أراد أن يلفت إبراهيم إلى أن عطاء الألوهية ليس كعطاء الربوبية . . فإمامة الناس عطاء ألوهية لا يناله إلا المؤمن ، أما الرزق فهو عطاء ربوبية يناله المؤمن والكافر. لأن الله هو الذى استدعانا جميعا إلى الحياة وكفل لنا جميعا رزقنا . . وكأن الحق سبحانه حين قال : « لا ينال عهدى الظالمين » . . كان يتحدث عن قيم المنهج التى لا تعطى إلا للمؤمن ولكن الرزق يعطى للمؤمن والكافر . . لذلك قال الله سبحانه : « ومن كفر » . . وفى هذا تصحيح مفاهيم بالنسبة لإبراهيم ليعرف أن كل من استدعاه الله تعالى للحياة له رزقه مؤمنا كان أو كافرا. والخير فى الدنيا على الشيوع . فمادام الله قد استدعاك فإنه ضمن لك رزقك .

إن الله لم يقل للشمس أشرقى على أرض المؤمن فقط ، ولم يقل للهواء لا يتنفسك ظالم وإنما أعطى نعمة استبقاء الحياة واستمرارها لكل من خلق آمن أو كفر . . ولكن من كفر قال عنه الله سبحانه وتعالى : « ومن كفر فأمتعه قليلا » . . التمتع هو شىء يحبه الإنسان ويتمنى دوامه وتكراره .

وقوله تعالى : « فأمتعه » دليل على دوام متعته ، أى له المتعة فى الدنيا. ولكل نعمة متعة ، فالطعام له متعة والشراب له متعة والجنس له متعة . . إذن التمتع فى الدنيا بأشياء متعددة . ولكن الله تبارك وتعالى وصفه بأنه قليل . . لأن المتعة فى الدنيا مهما بلغت وتعدّدت ألوانها فهى قليلة .

وإقرأ قوله تعالى : « ثم اضطره إلى عذاب النار » . . ومعنى أضطره أنه لا اختيار له فى الآخرة ، فكأن الإنسان له اختيار فى الحياة الدنيا يأخذ هذا ويترك هذا ولكن فى الآخرة ليس له اختيار . . فلا يستطيع وهو من أهل النار مثلا أن يختار الجنة بل إن أعضاءه المسخرة لخدمته فى الحياة الدنيا والتى يأمرها بالمعصية فتفعل ، لا ولاية له عليها فى الآخرة وهذا معنى قوله سبحانه :

﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

(سورة النور)

أى أن الجوارح التى كانت تطيع الكافر فى المعاصى فى الدنيا لا تطيعه يوم القيامة ؛ فاللسان الذى كان ينطق كلمة الكفر والعياذ بالله يأتى يوم القيامة يشهد على صاحبه . . والقدم التى كانت تمشى إلى أماكن الخمر واللهو والفسوق تشهد على صاحبها ، واليد التى كانت تقتل وتسرق تشهد على صاحبها.وقوله : « أضطره » معناه إن الإنسان يفقد إختياره فى الآخرة ثم ينتهى إلى النار وإلى العذاب الشديد مصداقا لقوله تعالى : « ثم اضطره إلى عذاب النار وبئس المصير » . . أى أن الله سبحانه وتعالى يحذر الكافرين بأن لهم النار والعذاب فى الآخرة ليس على اختيار منهم ولكن وهم مقهورون .

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾

يقول الله سبحانه وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم اذكر عندما كان إبراهيم يرفع القواعد من البيت . . وجاءت « يرفع » هنا فعلا مضارعا لِتصويرِ الحدث الآن وفى المستقبل .

ولكن هل يرفع إبراهيم القواعد من البيت الآن ؟ أم انه رفع وانتهى ؟ طبعا هو رفع وانتهى ، ولكن الله سبحانه وتعالى يريد أن يستحضر حالة إبراهيم وإسماعيل وهما يرفعان القواعد من البيت . . والله يريد من المؤمنين أن يتصوروا عملية الرفع ، فلم يكن إبراهيم يملك سلما حتى يرفعه ويقف فوقه ، ولم يكن يملك « سقالة » . . ولكن غياب هذه النعم لم يمنع إبراهيم من أن يتحايل ويأتى بالحجر .

إن الله يريد منا ألا ننسى هذه العملية ، وإبراهيم وابنه إسماعيل يذهبان للبحث عن حجر ، ولابد أن يكون الحجر خفيف الوزن ليستطيعا أن يحملاه إلى مكان البناء . . ثم يقف إبراهيم على الحجر وإسماعيل يناوله الأحجار الأخرى التى سيتم بها رفع القواعد من البيت . ورغم المشقة التى يتحملها الإثنان .. هما سعيدان . . وكل ما يطلبانه من الله هو أن يتقبل منهما . والقبول والمقابلة والاستقبال كلها من مادة مواجهة . . أى أنهما يسألان الله فى موقف المعرض عن عمله ، إنهما لا يريدان إلا الثواب : « تقبل منا » أى أعطنا الثواب عما نعمله لأجلك وتنفيذا لأمرك .

وقوله تعالى : « إنك أنت السميع العليم » . . أى أنت يارب السميع الذى تسمع دعاءنا وتسمع ما نقول . . « والعليم » . . العليم بنيتنا ومدى إخلاصنا

لك . . وإننا نفعل هذا العمل ابتغاء لوجهك ولا نقصد غيرك . . ذلك أن الأعمال بالنيات ، وقد يعمل رجلان عملا واحدا.أحدهما يثاب لأنه يعمله إرضاء لله وتقربا منه والآخر لا يثاب لانه يفعله من أجل الدنيا .

والله سبحانه وتعالى عليم بالنية فإن كان العمل خالصا لله تقبله ، وإذا لم يكن خالصا لوجهه لا يتقبله . . ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

(إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله ، فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه)[1] . إذن فالعمل إن لم يكن خالصا لله فلا ثواب عليه .

(١) أخرجه البخارى ومسلم وأبو داود والنسائى والترمذى وابن ماجة وأبو نعيم فى الحلية والدارقطنى بألفاظ مختلفة .

﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾﴾

هناك فرق بين أن تُكَلَّفَ بشيء فتفعله بحب ، وأن تفعل شكلية التكليف وتخرج من عملك خروج الذى ألقى عن كاهله عبء التكليف . . فى هذه الآية الكريمة دعاء إبراهيم وابنه إسماعيل وكانا يقولان يارب أنت أمرتنا أن نرفع القواعد من البيت وقد فعلنا ما أمرتنا . . وليس معنى ذلك أننا اكتفينا بتكليفك لنا لأننا نريد أن نذوق حلاوة التكليف منك مرات ومرات . . « ربنا واجعلنا مسلمين لك » نسلم كل أمورنا إليك .

إن الإنسان لا يمكن أن ينتهى من تكليف ليطلب تكليفا غيره إلا إذا كان قد عشق حلاوة التكليف ووجد فيه استمتاعا . . ولا يجد الإنسان استمتاعا فى التكليف إلا إذا استحضر الجزاء عليه . . كلما عمل شيئا استحضر النعيم الذى ينتظره على هذا العمل فطلب المزيد .

إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام بمجرد أن فرغا من رفع القواعد من البيت قالا : « ربنا واجعلنا مسلمين لك » ولم يكتفيا بذلك بل أرادا امتداد حلاوة التكليف إلى ذريتهما من بعدهما . . فيقولان : « ومن ذريتنا أمة مسلمة » . . ليتصل أمد منهج الله فى الأرض ويستمر التكليف من ذرية إلى ذرية إلى يوم القيامة . . ثم يقولان : « وأرنا مناسكنا » . . أى بين لنا يارب ما تريده منا . بين لنا كيف نعبدك وكيف نتقرب إليك . . والمناسك هى الأمور التى يريد الله سبحانه وتعالى أن نعبده بها .

وقوله : « وأرنا مناسكنا » ترينا أن إبراهيم يرغب فى فتح أبواب التكليف على

نفسه ، لأنه لا يرى فى كل تكليف إلا تطهيرا للنفس وخيرا للذرية ونعيما فى الآخرة . . ولذلك يقول كما يروى لنا الحق : « وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم » . . وتب علينا ليس ضروريا أن نفهمها على أنها توبة من المعصية . . وأن إبراهيم وإسماعيل وقعا فى المعصية فيريدان التوبة إلى الله . . وإنما لأنهما علما أن من سيأتى بعدهما سيقع فى الذنب فطلبا التوبة لذريتهما . . ومن أين عَلِما ؟ عندما قال الله سبحانه وتعالى لإبراهيم : « ومن كفر فأمتعه قليلا ثم اضطره إلى عذاب النار وبئس المصير » . .

لقد طلبا من الله تبارك وتعالى التوبة والرحمة لذريتهما . . والله يحب التوبة من عباده وهو سبحانه أفرح بتوبة عبده المؤمن من احدكم وقع على بعيره وقد أضله فى فلاة . . لأن المعصية عندما تأخذ الإنسان من منهج الله لتعطيه نفعا عاجلا فإن حلاوة الإيمان ـ إن كان مؤمنا ـ ستجذبه مرة أخرى إلى الإيمان بعيدا عن المعاصى . . ولذلك قيل إن انتفعت بالتوبة وندمت على ما فعلت فإن الله لا يغفر لك ذنوبك فقط ولكن يبدل سيئاتك حسنات . . وقلنا ان تشريع التوبة كان وقاية للمجتمع كله من أذى وشر كبير . . لأنه لو كان الذنب الواحد يجعلك خالدا فى النار ولا توبة بعده لتجبر العصاة وازدادوا شرا . . ولأصيب المجتمع كله بشرورهم ولَيَئِسَ الناس من آخرتهم لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

(كل بنى آدم خطاء وخير الخطائين التوابون)[1] .

لذلك فمن رحمة الله سبحانه أنه شرع لنا التوبة ليرحمنا من شراسة الأذى والمعصية .

---

(١) أخرجه الترمذى وابن ماجه والدارمى فى سننه والحاكم فى مستدركه .

﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ ﴾

دعا إبراهيم عليه السلام الله سبحانه وتعالى ليتم نعمته على ذريته ويزيد رحمته على عباده . . بأن يرسل لهم رسولا يبلغهم منهج السماء حتى لا تحدث فترة ظلام فى الأرض تنتشر فيها المعصية والفساد والكفر ويعبد الناس فيها الأصنام كما حدث قبل إبراهيم .

كلمة « رسولا منهم » ترد على اليهود الذين أحزنهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم من العرب ، وأن الرسالة كان يجب أن تكون فيهم . . ونحن نقول لهم ان جدنا وجدكم إبراهيم وأنتم من ذرية يعقوب بن اسحق.ومحمد صلى الله عليه وسلم من ذرية إسماعيل بن إبراهيم وأخ لإسحاق . . ولا حجة لما تدعونه من أن الله فَضّلَكم واختاركم على سائر الشعوب . . إنما أراد الحق سبحانه وتعالى أن يسلب منكم النبوة لأنكم ظلمتم فى الأرض وعهد الله لا يناله الظالمون .

أراد الحق تبارك وتعالى أن يقول لهم ان هذا النبى من نسل إبراهيم وانه ينتمى إلى إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام .

قوله تعالى : « يتلو عليهم آياتك » . . أى آيات القرآن الكريم .

وقوله تعالى : « ويعلمهم الكتاب والحكمة » . . يجب أن نعرف أن هناك فرقا بين التلاوة وبين التعليم . فالتلاوة هى أن تقرأ القرآن ، أما التعليم فهو أن تعرف معناها وما جاءت به لتطبقه وتعرف من أين جاءت . . وإذا كان الكتاب هو القرآن الكريم

فإن الحكمة هى أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم التى قال الحق سبحانه وتعالى فيها فى خطابه لزوجات النبى :

﴿ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ﴾

(من الآية ٣٤ سورة الأحزاب)

وقوله تعالى : « ويزكيهم » أى ويطهرهم ويقودهم إلى طريق الخير وتمام الإيمان .

وقوله جل جلاله : « إنك أنت العزيز الحكيم » . . أى العزيز الذى لا يغلب لجبروته ولا يسأله أحد . . « والحكيم » الذى لا يصدر منه الشىء إلا بحكمة بالغة .

﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ ۚ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٠﴾﴾

ماملة إبراهيم ؟ إنها عبادة الله وحده لاشريك له وعشق التكاليف ؛ فإبراهيم وَفَّى كل ما كلفه به الله وزاد عليه . . وقابل الابتلاء بالطاعة والصبر . . فعندما ابتلاه الله بذبح ابنه الوحيد لم يتردد وكان يؤدى التكاليف بعشق ويحاول أن يستبقى المنهج السليم فى ذريته .

قوله تعالى : « ومن يرغب » يعنى يعرض ويرفض . ويقال رغب فى كذا أى أحبه وأراده . ورغب عن كذا أى صَدَّ عنه وأعرض . . والذين يصدُّون عن ملة إبراهيم ويرفضونها هؤلاء هم السفهاء الجهلة ، لذلك قال عنهم الله سبحانه وتعالى : « إلا من سفه نفسه » . . دليل على ضعف الرأى وعدم التفرقة بين النافع والضار . . فعندما يكون هناك من ورثوا مالاً وهم غير ناضجى العقل لا يتفق عقلهم مع سنهم نسميهم السفهاء . . والسفيه هو من لم ينضج رأيه ولذلك تنقل قوامته على ماله إلى ولى أو وصى ؛ لأنه بِسَفَهِهِ غيرُ قادر على أن ينفق المال فيما ينفع . .

والقرآن الكريم يعالج هذه المسألة علاجا دقيقا فيقول :

﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٥﴾﴾

(سورة النساء)

نلاحظ أن الحق سبحانه وتعالى سمى أموال السفهاء بأموال الولى ولم يعتبرها مال السفيه لأنه ليس أهلا للقيام عليها . . وجعل هذه الأموال تحت إشراف شخص آخر أكثر نضجا وحكمة .

وقوله تعالى : « أموالكم » ليكون الولى أو الوصى حريصا عليها كَمالِهِ أو أكثر ولكن هو قيم فقط . . فإذا بلغ الإنسان سن الرشد أو شفى السفيه من سفاهته يرد إليه ماله ليتصرف فيه .

ونحن نرى عددا من الأبناء يرفعون قضايا على آبائهم وأمهاتهم يتهمونهم فيها بالسفه لأنهم لا يحسنون التصرف فى أموالهم . . ثم يأخذون هذه الأموال ويبعثرونها هم . . والذى يجب أن يعلمه كل من يقوم بهذه العملية أنه لا حق له فى إنفاق المال وتبذيره لحسابه الخاص ، ولكنّ هناك حكمين:إما أن يكون الشخص فقيرا فله أن يأكل بالمعروف . . وإما أن يكون غنيا فيجعل عمله فى الولاية لله لا يتقاضى عنه شيئا . . أما أن يأخذ المال ويبعثره على نفسه وشهواته وعلى زوجته وأولاده فهذا مرفوض ويحاسب عليه . . والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾

(من الآية ٦ سورة النساء)

إذن الذى يعرض عن ملة إبراهيم هو سفيه لا يملك عقلا يميز بين الضار والنافع .

ويقول الله سبحانه وتعالى : « ولقد اصطفيناه فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين » . . اصطفاه فى الدنيا بالمنهج وبأن جعله إماما وبالابتلاء . . وكثير من الناس يظن ان ارتفاع مقامات بعضهم فى أمور الدنيا هو اصطفاء من الله لهم بأن أعطاهم زخرف الحياة الدنيا ويكون هذا مبررا لأن يعتقدوا أن لهم منزلة عالية فى الآخرة . . نقول لا ، فمنازل الدنيا لا علاقة لها بالآخرة . ولذلك قال الله تبارك وتعالى : « ولقد اصطفيناه فى الدنيا » . . وأضاف : « وإنه فى الآخرة لمن الصالحين » . . لنعلم أن إبراهيم عليه السلام له منزلة عالية فى الدنيا ونعيم فى الآخرة أى الاثنين معا .

﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾﴾

والله سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلى أنه قال لإبراهيم أسلم فقال أسلمت . . إذن فمطلوب الحق سبحانه وتعالى من عبده أن يسلم إليه . . ولم يقل الحق أسلم إلىّ لأنها مفهومة . ولم يقل أسلم لربك لأن الإسلام لا يكون إلا لله .لأنه هو سبحانه المأمون علينا . . على أن إبراهيم عليه السلام قال فى رده : « أسلمت لرب العالمين » .

ومعنى ذلك أنه لن يكون وحده فى الكون.لأنه إذا أسلم لله الذى سخر له ما فى السموات والأرض . . يكون قد انسجم مع الكون المخلوق من الله للإنسان . . ومَنْ أكثرُ نضجاً فى العقل ممن يُسلم وجهه لله سبحانه . . لأنه يكون بذلك قد أسلمه إلى عزيز حكيم قوى لا يقهر ، قادر لا تنتهى قدرته . . غالب لا يغلب ، رزاق لا يأتى الرزق إلا منه . فكأنه أسلم وجهه للخير كله .

والدين عند الله سبحانه وتعالى منذ عهد آدم إلى يوم القيامة هو إسلام الوجه لله ، ولماذا الوجه ؟ لأن الوجه أشرف شىء فى الإنسان يعتز به ويعتبره سمة من سمات كرامته وعزته . . ولذلك فنحن حين نريد منتهى الخضوع لله فى الصلاة نضع جباهنا ووجوهنا على الأرض . . وهذا منتهى الخشوع والخضوع أن تضع أشرف ما فيك وهو وجهك على الأرض إعلانا لخضوعك لله سبحانه وتعالى .

والله جل جلاله يريد من الإنسان أن يسلم قيادته لله . . بأن يجعل اختياراته فى الدنيا لما يريده الله تبارك وتعالى . . فإذا تحدث لا يكذب ، لأن الله يحب الصدق ،

وإذا كلف بشيء يفعله لأن التكليف فى صالحنا ولا يستفيد الله منه شيئا . . وإذا قال الله تعالى تصدق بمالك أسرع يتصدق بماله ليرد له أضعافا مضاعفة فى الآخرة وبقدرة الله .

وهكذا نرى أن الخير كله للإنسان هو أن يجعل مراداته فى الحياة الدنيا طبقا لما أراده الله . . وفى هذه الحالة يكون قد انسجم مع الكون كله وتجد أن الكون يخدمه ويعطيه وهو سعيد .

أما من يسلم وجهه لغير الله فقد اعتمد على قوى يمكن أن يضعف ، وعلى غنى يمكن أن يفتقر . . وعلى موجود يمكن أن يموت ويصبح لا وجود له . ولذلك فهو فى هذه الحالة يتصف بالسفاهة لأنه اعتمد على الضار وترك النافع .

﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾

عندما تقرأ كلمة وصى فاعلم أن الوصية تأتى لحمل الإنسان على شىء نافع فى آخر وقت لك فى الدنيا ، . لأن آخر ساعات الإنسان فى الدنيا إن كان قد عاش فيها يغش الناس جميعا فساعة يحتضر لا يغش نفسه أبدا ولا يغش أحدا من الناس لماذا ؟ لأنه يحس إنه مقبل على الله سبحانه فيقول كلمة الحق .

النصح أو الوصية هى عظة تحب أن يستمسك بها من تنصحه وتقولها له مخلصا فى آخر لحظة من لحظات حياته . . ولذلك سيأتى الله سبحانه وتعالى ليبين لنا ذلك فى قوله :

﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى﴾

(من الآية ١٣٣ سورة البقرة)

وهكذا يريد الله سبحانه أن يبين لنا أن الوصية دائما تكون لمن تحب . . وأن حب الإنسان لأولاده أكيد سواء أكان هذا الإنسان مؤمنا أم كافرا . . ونحن لا نتمنى أن يكون فى الدنيا من هو أحسن منا إلا أبناءنا ونعمل على ذلك ليكون لهم الخير كله .

وصّى إبراهيم بنيه، ويعقوب وصى بنيه . . وكانت الوصية « يا بنى إن الله اصطفى لكم الدين » إذن فالوصية لم تكن أمرا من عند إبراهيم ولا أمرا من عند يعقوب.ولكن كانت أمرا إختاره الله للناس فلم يجد إبراهيم ولا يعقوب أن يوصيا

أولادهما إلا بما اختاره الله . . فكأن إبراهيم ائتمن الله على نفسه فنفذ التكاليف وائتمنه على أولاده فأراد منهم أن يتمسكوا بما اختاره لهم الله .

قوله تعالى : « ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب » . . إبراهيم هو الأب الكبير وابنه اسحق وابن اسحق يعقوب . . ويعقوب هو الأب المباشر لليهود . . ويعقوب وصاهم كما يروى لنا القرآن الكريم : « يا بَنِيَّ إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتُنَّ إلا وأنتم مسلمون » .

أنت لا تنهى إنسانا عن أمر إلا إذا كان فى امكانه أن يتجنبه ولا تأمره به إلا إذا كان فى إمكانه أن ينفذه . . فهل يملك أولاد يعقوب أن يموتوا وهم مسلمون ؟ والموت لا يملكه أحد . . إنه يأتى فى أى وقت فجأة . . ولكن مادام يعقوب قد وصى بنيه : « لا تموتن إلا وأنتم مسلمون » فالمعنى لا تفارقوا الإسلام لحظة حتى لا يفاجئكم الموت إلا وأنتم مسلمون .

والله سبحانه وتعالى أخفى موعد الموت ومكانه وسببه . . ليكون هذا إعلاما به ويتوقعه الناس فى أى سن وفى أى مكان وفى أى زمان . . ولذلك قد نلتمس العافية فى أشياء يكون الموت فيها . . والشاعر يقول :

إن نام عنك فكل طب نافع
أو لم ينم فالطب من أسبابه

أى إن لم يكن قد جاء الأجل ، فالطب ينفعك ويكون من أسباب الشفاء . . أما إذا جاء الأجل فيكون الطب سببا فى الموت ، كأن تذهب لإجراء عملية جراحية فتكون سبب موتك . . فالإنسان لابد أن يتمسك بالإسلام وبالمنهج ولا يغفل عنه أبدا . . حتى لا يأتيه الموت فى غفلته فيموت غير مسلم ..والعياذ بالله .

﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾

هذا خطاب من يعقوب ينطبق ويمس اليهود المعاصرين لنزول القرآن الكريم .. يعقوب قال لأبنائه ماذا تعبدون من بعدى : « قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحق إلها واحدا ونحن له مسلمون » ..

هذا إقرار من الأسباط أبناء يعقوب بأنهم مسلمون وأن آباءهم مسلمون .. وتأمل دقة الأداء القرآنى فى قوله تعالى : « نعبد إلهك وإله آبائك » .. فكأنه لم يحدث بعد موت إبراهيم وحين كان يعقوب يموت لم يحدث أن تغير المعبود وهو الله سبحانه وتعالى الواحد .. ولذلك قالوا كما يروى لنا القرآن الكريم : « إلها واحدا » .. وسنأخذ من هذه الآية لقطة تفيدنا فى أشياء كثيرة لأن القرآن سيتعرض فى قصة إبراهيم انه تحدث مع أبيه فى شئون العقيدة .. فقال كما يروى لنا القرآن الكريم :

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾﴾

(سورة الانعام)

ونحن نعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم من سلالة إسماعيل ابن إبراهيم .. والرسول عليه الصلاة والسلام قال :

(أنا سيد ولد آدم)[١] .

فإذا كان آزرُ أبو إبراهيم كافراً وعابداً للأصنام . . فكيف تصح سلسلة النسب الشريف ؟ نقول إنه لو أن القرآن قال « وإذ قال إبراهيم لأبيه » وسكت لكان المعنى أن المخاطب هو أبو إبراهيم . . ولكن قول الله : « لأبيه آزر » . . جاءت لحكمة . لأنه ساعة يذكر اسم الأب يكون ليس هو الأب ولكن العم . . فأنت إذا دخلت منزلا وقابلك أحد الأطفال تقول له هل أبوك موجود ولا تقول أبوك فلان لأنه معروف بحيث لن يخطىء الطفل فيه . . ولكن إذا كنت تقصد العم فإنك تسأل الطفل هل أبوك فلان موجود ؟ فأنت فى هذه الحالة تقصد العم ولا تقصد الأب . . لأن العم فى منزلة الأب خصوصا إذا كان الأب متوفيا .

إذن قول الحق سبحانه وتعالى : « لأبيه آزر » بذكر الاسم فمعناه لعمه آزر . . فإذا قال إنسان هل هناك دليل على ذلك ؟ نقول نعم هناك دليل من القرآن فى هذه الآية الكريمة : « أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى قالوا نعبد إلهك وإله أبائك » . . والآباء جمع أب ، ثم حدد الله تبارك وتعالى الآباء ، إبراهيم وهو الجد يطلق عليه أب . . وإسماعيل وهو العم يطلق عليه أب واسحق وهو أبو يعقوب وجاء إسماعيل قبل إسحق .

إذن ففى هذه الآية جمع أب من ثلاثة هم إبراهيم وإسماعيل وإسحق . . ويعقوب الذى حضره الموت هو ابن اسحق ، ولكن أولاد يعقوب لما خاطبوا آباهم قالوا أباءك ثم جاءوا بأسمائهم بالتحديد . . وهم إبراهيم الجد وإسماعيل العم واسحق أبو يعقوب وأطلقوا عليهم جميعا لقب الأب . . فكأن إسماعيل أطلق عليه الأب وهو العم وإبراهيم أطلق عليه الأب وهو الجد وإسحق أطلق عليه الأب وهو الأب . . فإذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(أنا أشرف الناس حسباً ولا فخر)[٢] .

---

(١) أخرجه الإمام مسلم .

(٢) أخرجه الديلمى فى مسند الفردوس .

يقول بعض الناس كيف ذلك ووالد إبراهيم كان غير مسلم . . ورسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

(أنا سيد ولد آدم)[١] .

فإذا قال أحدهم كيف هذا وأبو إبراهيم عليه السلام كان مشركا عابدا للأصنام . . نقول له لم يكن آزر أبا لإبراهيم وإنما كان عمه ، ولذلك قال القرآن الكريم « لأبيه آزر » وجاء بالاسم يريد به الأبوة غير الحقيقية . . فأبوة إبراهيم وأبوة اسحق معلومة لأولاد يعقوب . . ولكن إسماعيل كان مقيما فى مكة بعيدا عنهم ، فلماذا جاء اسمه بين إبراهيم وإسحق ؟ نقول جاء بالترتيب الزمنى لأن إسماعيل أكبر من اسحق بأربعة عشر عاما . .

وكونه وصف الثلاثة بأنهم آباء . . إشارة لنا من الله سبحانه وتعالى أن لفظ الأب يطلق على العم . .

والله تبارك وتعالى يريدنا أن نتنبه لمعنى كلمة آزر . . ويريد أن يلفتنا أيضا إلى أن تعدد البلاغ عن الله لا يعنى تعدد الآلهة . . لذلك قال سبحانه : « إلها واحدا » . .

---

(١) أخرجه الإمام مسلم .

﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾ ﴾

وقوله تعالى : « خلت » أى انفردت.وخلا فلان بفلان أى انفرد به . . وخلا المكان من نزيله أى أصبح المكان منفردا ، والنزيل منفردا ولا علاقة لأحدهما بالآخر . . الله تبارك وتعالى يقول :

﴿ وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴾

(من الآية ١٤ سورة البقرة)

أى إنفردوا هم وشياطينهم ولم يعد فى المكان غيرهم ؛ ولقد قلنا إن كل حدث لابد أن يكون له محدث ، ولا حدث يوجد بذاته ، وكل حدث يحتاج إلى زمان ويحتاج إلى مكان . . فإذا قال الحق تبارك وتعالى : « تلك أمة قد خلت » فمعناه إنه إنقضى زمانها وإنفرد عن زمانكم .

والمقصود بقوله تعالى : « تلك أمة قد خلت » أى انتهى زمانها . . وتلك إسم إشارة لمؤنث مخاطب وأمة هى المشار إليه،والخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم ولعامة المسلمين . . والله سبحانه وتعالى حين يقول : « تلك أمة » فكأنها مميزة بوحدة عقيدتها ووحدة إيمانها حتى أصبحت شيئا واحدا . . ولذلك لابد أن يخاطبها بالوحدة . . وإقرأ قوله تعالى :

﴿ إِنَّ هَـٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ ﴾

(سورة الانبياء)

وتلك هنا إشارة لأمة إبراهيم وإسماعيل واسحق ويعقوب . . هم جماعة كثيرة لهم عقيدة واحدة .

وقوله تعالى : « لها ما كسبت ولكم ما كسبتم » . . أى تلك جماعة على دين واحد تحاسب عما فعلته كما ستحاسبون أنتم على ما فعلتم . . ولكن الله سبحانه وتعالى يقول :

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾

(من الآية ١٢٠ سورة النحل)

وإبراهيم فرد وليس جماعة ؟ نقول نعم إن إبراهيم فرد ولكن اجتمعت فيه من خصال الخير ومواهب الكمال ما لا يجتمع إلا فى أمة .

وقوله تعالى : « قد خلت » يراد بها إفهام اليهود ألا ينسبوا أنفسهم إلى إبراهيم نسبا كاذبا لأن نسب الأنبياء ليس نسبا دمويا أو جنسيا أو انتماء . . وإنما نسب منهج واتباع . . فكأن الحق يقول لليهود لن ينفعكم أن تكونوا من سلالة إبراهيم ولا اسحق ولا يعقوب . . لأن نسب النبوة هو نسب إيمانى فيه اتباع للمنهج والعقيدة . . ولا يشفع هذا النسب يوم القيامة لأن لكل واحد عمله .

قوله تعالى : « لها ما كسبت ولكم ما كسبتم » . . الكسب يؤخذ على الخير والاكتساب يؤخذ فى الشر لأن الشر فيه افتعال .

اننا لابد أن نلتفت ونتنبه إلى آيات القرآن الكريم حتى نستطيع أن نرد على أولئك الذين يحاولون الطعن فى القرآن . . فلا يوجد معنى لآية تهدمها آية أخرى ولكن يوجد عدم فهم .

يأتى بعض المستشرقين ليقول هناك آية فى القرآن تؤكد أن الله سبحانه وتعالى يعطى بالأنساب وذلك فى قوله جل جلاله :

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ

عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ ﴾

(من الآية ٢١ سورة الطور)

الأبناء مؤمنون ، وقوله تعالى : « ألحقنا بهم ذريتهم » كلمة ألحقنا تأتى عندما تلحق ناقصا بكامل . . فإذا كان الاثنان مؤمنين فكأنك تزيد درجة الأبناء إكراما لآبائهم المؤمنين . . نقول إن الإيمان شىء والعمل بمقتضى الإيمان شىء آخر . . الأب والذرية مؤمنون ولكن الآباء تفانوا فى العمل والأبناء ربما قصروا قليلا . . ولكن هنا رفع درجة بالنسبة للمؤمنين أى لابد أن يكون الأب والذرية مؤمنين . . ولكن غير المؤمنين مبعدون ليس لهم علاقة بآبائهم انقطعت الصلة بينهم بسبب الإيمان والكفر . . فالآباء لهم أعمال حسنة كثيرة . . والأبناء لهم أعمال حسنة أقل . . ينزل الله الأبناء فى الجنة مع آبائهم لأن الإيمان واحد .

وقوله تعالى : « وما ألتناهم » أى أنقصناهم من عملهم من شىء . . إذن فالآباء والذرية مأخوذون بإيمانهم ، والله بفضله يلحق الأبناء بالآباء .

قوله تعالى : « لها ما كسبت ولكم ما كسبتم » . . هذه عملية الإيمان فى العقيدة . . قد يقول البعض إن الله تبارك وتعالى يقول :

﴿ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾

(من الآية ٢١ سورة الطور)

ويقول سبحانه :

﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ ﴾

(سورة النجم)

فكيف يأخذ الأبناء جزاء بدون سعى ؟ نقول افهموا النصوص جيدا . قوله تعالى : « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » تحدد العدل ولكنها لا تحدد الفضل الذى يعطيه الله سبحانه لمن شاء من عباده ، وهذا يعطى بلا حساب . . ثم من الذى قال

إن هذا ليس من سعيهم ؟ إن إلحاق الأبناء المؤمنين بالمنزلة العالية لآبائهم تكريم لعمل الآباء وليس زيادة لعمل الأبناء .

ولقد روى لنا العلماء أن ولدا كان مؤمنا طائعا عابدا وأبوه كان مسرفا على نفسه . . فلما مات الأب حزن عليه ابنه ولكنه رأى أن أباه جالس فوق رأسه ومعه واحدة من الحور العين تؤنسه . . فتعجب الإبن كيف ينال أبوه هذه المكافأة وقد كان مسرفا على نفسه فسأله : كيف وصلت لهذه المنزلة ؟ فقال الأب أى منزلة . . قال الابن أن تكون معك واحدة من الحور العين . . فقال الأب وهل فهمت انها نعيم لى . . قال الابن نعم . . فقال الأب:لا،أنا عقوبة لها . . الله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾

(سورة يونس)

إذن أنت فى الآخرة ستفرح بفضل الله ورحمته أكثر من فرحك بعملك الصالح . . مصداقا لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(سددوا وقاربوا وأبشروا فإنه لن يُدْخِلَ الجنة أحداً عَمَلُه ، قالوا ولا أنت يا رسول الله قال ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله منه برحمته)[1] .

ربما يأتى أحد ويقول الصلاة على الميت ما هو القصد الشرعى منها . . إن كانت تفيده فستكون الفائدة زيادة على عمله . . وإن لم تكن تعطيه أكثر من عمله فما فائدتها ؟.

نقول مادام الشرع كلفنا بها فلها فائدة . وهل تظن أن الصلاة على الميت ليست من عمله ؟ هى داخلة فى عمله لأنه مؤمن وإيمانه هو الذى دفعك للصلاة عليه . . والذى تدعو له بالخير وبالرحمة وبالمغفرة ويتقبلها الله . . أيقال انه أخذ غير عمله ؟ لا،إنك لم تدع له إلا بعد أن أصابك الخير منه . . ولكنك لا تدعو مثلا

---

(١) أخرجه الشيخان والإمام أحمد فى مسنده .

لإنسان أخذ بيدك إلى خمارة أو إلى فاحشة أو إلى منكر . . بل تدعو لمن أعطاك خيرا فإن استجاب الله لك فهو من عمله . .

الله سبحانه وتعالى يقول إن ما كان يعمله من سبقكم من الأمم لا تسألون عنه . . وإن كنتم تدعون ان إبراهيم كان يهوديا أو نصرانيا نقل لكم أنتم لن تسألوا عما كان يعمل إبراهيم ولكن عليكم أنفسكم . . السؤال يكون عن عملكم .

﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾﴾

عندما تأتى ـ قالوا ـ فمعناها إن الذين قالوا جماعة . . الذين قالوا هم اليهود والنصارى.ولكن كلا منهم قال قولا مختلفا عن الآخر . . قالت اليهود كونوا هودا. وقالت النصارى كونوا نصارى . .

ونحن عندنا عناصر ثلاثة : اليهود والنصارى والمشركون.ويقابل كل هؤلاء المؤمنون . . « وقالوا كونوا » من المقصود بالخطاب ؟ المؤمنين . . أو قد يكون المعنى وقالت اليهود للمؤمنين والمشركين والنصارى كونوا هودا . . وقالت النصارى لليهود والمشركين والمؤمنين كونوا نصارى . . لأن كل واحد منهما لا يرى الخير إلا فى نفسه . . ولكن الإسلام جاء وأخذ من اليهودية موسى وتوراته الصحيحة،وأخذ من المسيحية عيسى وإنجيله الصحيح . . وكل ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم .

ومعنى ذلك ان الإسلام أخذ وحدة الصفقة الإيمانية المعقوده بين الله سبحانه وبين كل مؤمن . . ولذلك تجد فى القرآن الكريم قوله تعالى :

﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ﴾

(من الآية ٢٨٥ سورة البقرة)

ونلاحظ أن المشركين لم يدخلوا فى القول لأنهم ليسوا أهل كتاب .

قوله تعالى : « بل ملة إبراهيم حنيفا » . . أى رد عليهم ، والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم بأننى سأكون تابعا لدين إبراهيم وهو الحنيفية . . وهم لا يمكن أن يخالفوا فى إبراهيم فاليهود اعتبروه نبيا من أنبيائهم . . والنصارى اعتبروه نبيا من أنبيائهم ولم ينفوا عنه النبوة ولكن كلا منهم أراد أن ينسبه لنفسه .

ما معنى حنيفا ؟ إن الاشتقاقات اللفظية لابد أن يكون لها علاقة بالمعنى اللغوى . . الحنف ميل فى القدمين أن تميل قدم إلى أخرى . . هو تقوس فى القدمين فتميل القدم اليمنى إلى اليسار أو اليسرى إلى اليمين هذا هو الحنف . . ولكن كيف يؤتى بلفظ يدل على العوج ويجعله رمزا للصراط المستقيم ؟.

لقد قلنا إن الرسل لا يأتون إلا عندما تعم الغفلة منهج الله . . لأنه مادام وجد من أتباع الرسول من يدعو إلى منهجه ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر يكون هناك خير .

النفس البشرية لها ألوان . . فهناك النفس اللوامة تصنع شرا مرة فيأتى من داخل النفس ما يستنكر هذا الشر فتعود إلى الخير . . ولكن هناك النفس الأمارة بالسوء وهى التى لا تعيش إلا فى الشر تأمر به وتغرى الآخرين بفعله . . إذا فسد المجتمع وأصبحت النفوس أمارة بالسوء ينطبق عليها قول الحق سبحانه :

﴿ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ﴾

(من الآية ٧٩ سورة المائدة)

تتدخل السماء برسول يعالج اعوجاج المجتمع . . ولكن الله تبارك وتعالى وضع عنصر الخيرية فى أمة محمد صلى الله عليه وسلم إلى قيام الساعة .

قال تعالى :

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

إذن فقد ائتمن الله تبارك وتعالى أمة محمد على المنهج .. ومادام فيها من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر فلن يأتى رسول بعد محمد صلى الله عليه وسلم .

نعود إلى قوله تعالى حنيفا .. قلنا إن الحنف هو الاعوجاج .. ونقول إن الاعوجاج عن المعوج اعتدال .. والرسل لا يأتون إلا بعد اعوجاج كامل فى المجتمع .. ليصرفوا الناس عن الاعوجاج القائم فيميلون إلى الاعتدال .. لأن مخالفة الاعوجاج اعتدال ..

وقوله تعالى : « حنيفا » تذكرنا بنعمة الله على الوجود كله لأنه يصحح غفلة البشر عن منهج الله ويأخذ الناس من الاعوجاج الموجود إلى الاعتدال .. والهداية عند اليهود والنصارى مفهومها تحقيق شهوات نفوسهم لأن بشرا يهدى بشرا .. والله سبحانه وتعالى قال :

﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾

(من الآية ١٢٠ سورة البقرة)

ولقد تعايش رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المدينة مع اليهود ولكنهم حاربوه ولم يرضوا عنه .. وإبراهيم عليه السلام كان مؤمنا حقا ولم يكن مشركا ..

﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٦﴾

هذه الآية الكريمة تعطينا تفسيرا لقوله تعالى : « ملة إبراهيم » . . إيمان بالله وحده لا شريك له . . إيمان بما أنزل إلينا وهو القرآن وما أنزل لإبراهيم وإسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى أى التوراة وما أوتى عيسى أى الإنجيل وما أوتى النبيون بالإجمال . . فالبلاغ الصحيح عن الله منذ عهد آدم حتى الآن هو وحدة العقيدة بأنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له . . ووحدة الكون بأن الله هو الخالق وهو المدبر وكل شيء يخرج عن الألوهية لله الواحد الأحد . . وأن كل شيء يخرج عن ذلك يكون من تحريف الديانات السابقة هو افتراء على الله سبحانه لا نقبله .

قوله تعالى : « قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا » وهو القرآن الكريم.ولا يمكن أن يعطف عليه ما يصطدم معه . . ولذلك فإن ما أنزل على إبراهيم وإسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط هذه ملة إبراهيم . . وهذا يؤكد لنا أن ملة إبراهيم من وحى الله إليه . . والرسالات كلها كما قلنا تدعو لعبادة الله الواحد الأحد الذى لا شريك له .

وقوله تعالى : « ونحن له مسلمون » . . أى ان إبراهيم كان مسلما وكل الأنبياء كانوا مسلمين وكل ما يخالف ذلك من صنع البشر . . ومعنى الإسلام أن هناك مسلما ومسلما إليه وهو الله عز وجل.ونحن نسلم له فى العبودية ـ سبحانه-وفى اتباع

منهجه . . والإنسان لا يسلم وجهه إلا لمن هو أقدر منه وأعلم منه وأقوى منه ولمن لا هوى له . . فإن تشككت فى أحد العناصر فإسلامك ليس حقيقة وإنما تخيل . . وأنت لا تسلم زمامك لله سبحانه وتعالى إلا وأنت متأكد أن قدراته سبحانه فوق قدرات المخلوقين جميعا ، وأنه سبحانه غنى عن العالمين ، ولذلك فإنه غير محتاج إلى ما فى يدك بل هو يعطيك جل جلاله من الخير والنعم ولا يوجد إلا الوجود الأعلى لتسلم وجهك له .

﴿ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ ﴾

نقول إن السؤال الذى يطرح نفسه بالنسبة لهذه الاية . . هل لما آمنا به مثل حتى يؤمنوا به ؟ إنك لكى تؤمن لابد أن تقول لا إله إلا الله محمد رسول الله . . فهل إذا قالها أحد بعدك يكون قال ما قلته أم مثل ما قلته ؟ يكون قال مثل ما قلت.أى إننى حين أعلن إيمانى وآخذ الشهادة التى قلتها أنت أكون قد قلت مثلها لأن ما نطقت به لا يفارقك أنت . . ولكنى إذا صنعت شيئا وقلت لغيرى إصنع مثله،هو سيصنع شيئا جديدا ولن يصنع ما صنعته أنا .

الشىء نفسه حين تقول لى : تصدق بمثل ماتصدق به فلان . لن تكون الصدقة هى المال نفسه بل تكون مثله . نقول لمن يردد هذا الكلام : إنك لم تفهم المعنى إيمانهم أن يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله وإيمان غيرهم أن يقولوا مثل هذه العبارة أى أن يعلنوا إيمانهم مثلنا بالله ورسوله . . فالمثل هنا يرتبط بالشهادة وكل من آمن بالإسلام نطق بالشهادتين مثل من سبقوه فى الإيمان . فالمثلية هنا فى العبارة وإيمانهم هو أن يقولوا مثل ما قلنا .

يقول الحق تبارك وتعالى : « فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا » أى اهتدوا إلى الحق . . « وإن تولوا فإنما هم فى شقاق » وتولوا يعنى أعرضوا . وشقاق يعنى خلافا معكم وخلافا مع بعضهم البعض ؛ فلكل منهم وجهة نظر يدعيها،وهداية اخترعها . . حتى إذا التقوا فى الكفر فلن يلتقوا فى أسباب الكفر كل واحد إتخذ سببا ولذلك اختلفوا . . والشقاق من المشقة والنزاع والمشاجرة ، والشق هو الفرقة بين شيئين .

وقوله تعالى : « فسيكفيكهم الله » أى لا تلتفت إلى معاركهم ولا إلى حوارهم فالله يكفيك بكل الوسائل عمن سواه وإقرأ قوله سبحانه :

﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ ﴾

(سورة الزمر)

الله سبحانه وتعالى يقول لنبيه صلى الله عليه وسلم إذا حاول اليهود والنصارى والمنافقون أن يكيدوا لك ويؤذوك والمؤمنين ، فالله سبحانه وتعالى يكفيك لأنه عليم سميع بصير لا يخفى عليه شيء . . ولقد حاول اليهود قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر من مرة وحاولوا إيذاءه بالسحر فأبطل الله كيدهم وأظهر ما خفى منه وأطلع رسوله عليه . . فمهما استخدموا من وسائل ظاهرة أو خفية فسيكفيك الله شرها ولذلك قال تعالى : «فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم » . . أى سميع بما يقال ، عليم بما يدبرونه . بل يعلم ما فى صدورهم قبل أن ينطقوا به . . فلا تعتقد أن شيئا يفوت على الله سبحانه أو يفلت منه . إن كل حركة قبل أن تحدث يعلمها سبحانه ، وكل كيد قبل أن يتم هو محبطه . فإذا كان الله سبحانه وتعالى معك فماذا تخشى ؟ وممن تخاف ؟ ومن ذا الذى يستطيع أن يصل إليك ؟ . وأنت معك خالق هذا الكون ومدبره الذى لا يخفى عليه شيء فى السموات ولا فى الأرض . . عليم بكل ما سيحدث حتى يوم القيامة وبعد يوم القيامة . . ومادام معك القوى الذى لا يضعف أبدا والحى الذى لا يموت أبدا والعليم بكل شيء فلا تخش أحدا لأنك فى أمان الله سبحانه .

﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾﴾

ما هى الصبغة ؟ الصبغة هى إدخال لون على شىء بحيث يغيره بلون آخر . . تصبغ الشىء أحمر أو أزرق أو أى لون تختاره . والصبغ ينفذ فى المصبوغ خاصة إذا كان المصبوغ له شعيرات مسام كالقطن أو الصوف . . ولذلك فإن الألياف الصناعية لا يمكن أن تصبغ لماذا ؟ لأن شعرة القطن أو الصوف أشبه بالأنبوبة فى تركيبها .

وإذا جئنا بقنديل من الزيت ووضعنا فيه فتيلا من القطن بحيث يكون رأس الفتيل فى الزيت ثم تشعله من أعلاه نجد أن الزيت يسرى فى الأنابيب ويشعل الفتيل . . فإذا جربنا هذا فى الألياف الصناعية فلا يمكن أن يسرى فيها الزيت وإنما النار تأكل الألياف لأنه ليس فيها أنابيب شعرية كالقطن والصوف . . ولذلك تجد الألياف الصناعية سهلة فى الغسيل لأن العرق لا يدخل فى مسامها بينما الملابس القطنية تحتاج لجهد كبير لأن مسامها مشبعة بالعرق والتراب .

إذن الصبغة لابد أن تتدخل مادتها فى مسام القماش . . أما الطلاء فهو مختلف . إنه طبقة خارجية تستطيع أن تزيلها . . ولذلك فإن الذين يفتون فى طلاء الأظافر بالنسبة للسيدات ويقولون إنه مثل الحناء نقول لهم لا . . الحناء صبغة تتخلل المادة الحية وتبقى حتى يذهب الجلد بها أى لا تستطيع أن تزيلها عندما تريد . . ولكن الطلاء يمكن أن تزيله فى أى وقت ولو بعد إتمامه بلحظات . . إذن فطلاء الأظافر ليس صبغة .

قوله سبحانه : « صبغة الله » فكأن الإيمان بالله وملة إبراهيم وما أنزل الله على

رسله هى الصبغة الإلهية التى تتغلغل فى الجسد البشرى . . ولماذا كلمة صبغة ؟ حتى نعرف أن الإيمان يتخلل جسدك كله . . إنه ليس صبغة من خارج جسمك ولكنها صبغة جعلها الله فى خلايا القلب موجودة فيه ساعة الخلق . . ولذلك فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

(كل مولود يولد على الفطرة حتى يعرب عنه لسانه فأبواه يهوّدانه أو ينصرانه أو يمجسانه)[1] .

فكأن الإيمان صبغة موجودة بالفطرة . . إنها صبغة الله . . فإن كان أبواه مسلمين ظل على الفطرة.وإن كان أبواه من اليهود أو النصارى يهودانه أو ينصرانه أى يأخذانه ويضعانه فى ماء ويقولون صبغناه بماء المعمودية . . هذا هو معنى صبغة الله .

ويريد الحق سبحانه أن يبين لنا ذلك بأن يجعل من آيات قدرته اختلاف ألواننا . . هذا الاختلاف فى اللون من صبغة الله . . إختلاف ألوان البشر ليس طلاء وإنما فى ذات التكوين . فيكون هذا أبيض وهذا أسمر وهذا أصفر وهذا أحمر ، هذه هى صبغة الله . . وما يفعلونه من تعميد للطفل لا يعطى صبغة.لأن الإيمان والدين لا يأتى من خارج الإنسان وإنما يأتى من داخله . . ولذلك فإن الإيمان يهز كل أعضاء الجسد البشرى.واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ ﴾

(سورة الزمر)

هذا هو التأثير الذى يضعه الله فى القلوب . . أمر داخلى وليس خارجيا . . أما إيمان غير المسلمين فهو طلاء خارجى وليس صبغة لأنهم تركوا صبغة الله . . ونقول لهم : لا.هذا الطلاء من عندكم أنتم ، أما ديننا فهو صبغة الله . .

---

(١) أخرجه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والطبرانى فى الكبير والبيهقى فى سننه .

وقوله تعالى : « ومن أحسن من الله صبغة » . . استفهام لا يمكن أن يكذبوه ولكن الجواب يأتى على وفق ما يريده السائل سبحانه من أنه لا يوجد من هو أحسن من الله صبغة .

وقوله تعالى : « ونحن له عابدون » أى مطيعون لأوامره والعابد هو من يطيع أوامر الله ويجتنب ما نهى عنه .

والأوامر دائما تأتى بأمر فيه مشقة يطلب منك أن تفعله والنهى يأتى عن أمر محبب إلى نفسك هناك مشقة أن تتركه . . ذلك ان الإنسان يريد النفع العاجل ، النفع السطحى ، والله سبحانه وتعالى يوجهنا إلى النفع الحقيقى . . النفع العاجل يعطيك لذة عاجلة ويمنعك نعيما دائما فى الآخرة وتمتعا بقدرات الله سبحانه وتعالى . .

وأنت حين تسمع المؤذن ولا تقوم للصلاة لأنها ثقيلة على نفسك قد أعطيت نفسك لذة عاجلة كأن تشغل نفسك بالحديث مع شخص أو بلعب الطاولة أو بغير ذلك . . وتترك ذلك النفع الحقيقى الذى يقودك إلى الجنة . . ولذلك قال الله سبحانه :

﴿ إِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ ﴾

(من الآيتين ٤٥ ـ ٤٦ سورة البقرة)

إذن العبادة أمر ونهى . . أمر يشق على نفسك فتستثقله ، ونهى عن شىء محبب إلى نفسك يعطيك لذة عاجلة ولذلك تريد أن تفعله . .

إذن فقوله تعالى : « ونحن له عابدون » . . أى مطيعون لأوامره لأننا آمنا بالآمر إلها وربا يعبد . . فإذا آمنت حبب الله إليك فعل الأشياء التى كنت تستثقلها وسهل عليك الامتناع عن الأشياء التى تحبها لأنها تعطيك لذة عاجلة . . هذه هى صبغة الله التى تعطينا العبادة . . واقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ

إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾

(سورة الحجرات)

وهكذا فإن الله سبحانه وتعالى بصبغة الإيمان يحبب إلينا الخير ويجعلنا نبغض الشر . . لا عن رياء ونفاق خارج النفس كالطلاء ولكن كالصبغة التى تتخلل الشىء وتصبح هى وهو شيئا واحدا لا يفترقان . .

﴿ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ ﴾

تحديد الأمر بِقُلْ إيقاظ لمهمة التكليف عند رسول الله صلى الله عليه وسلم . . والله سبحانه وتعالى حين يقول لرسوله عليه الصلاة والسلام ـ قل ـ كان يكفى أن يقول ما يريده سبحانه . . فأنت إذا قلت لابنك اذهب إلى أخيك وقل له أبوك يأمرك بكذا فيذهب الولد ويقول هذا الكلام دون أن يقول كلمة قل . . ولكن خطاب الله لرسوله صلى الله عليه وسلم بكلمة قل تلفتنا إلى أن هذا الأمر ليس من عنده ولكنه من عند الله سبحانه ، ومهمة الرسول هى البلاغ .

إن تكرار كلمة « قل » فى الآيات هى نسبة الكلام المقول إلى عظمة قائله الأول وهو الله تبارك وتعالى . . فالكلام ليس من عند رسول الله ولكن قائله هو الله جل جلاله .

قوله تعالى : « قل أتحاجوننا فى الله وهو ربنا وربكم » . . المحاجة معناها حوار بالحجة ، كل من المتحاورين يأتى بالحجة التى تؤيد رأيه أو وجهة نظره . . وإذا قرأت قوله تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ ﴾

(من الآية ٢٥٨ سورة البقرة)

أى قال كل منهما حجته . . ولابد أن يكونا خصمين كل منهما يعاند رأيه الرأى

الآخر وكل يحاول أن يأتى بالحجة التى تثبت صدق كلامه فيرد عليه خصمه بالحجة التى تهدم هذا الكلام وهكذا .

قوله تعالى : « أتحاجوننا فى الله وهو ربنا وربكم » . . ومادام الله رب الجميع كان من المنطق أن نلتقى لأنه ربى وربكم حظنا منه سواء . . ولكن مادامت قد قامت الحجة بيننا فأحدنا على باطل . . واقرأ قوله سبحانه :

﴿ وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة الشورى)

والمحاجة لا يمكن أن تقوم بين حق وحق وإنما تقوم بين حق وباطل وبين باطل وباطل . . لأن هناك حقا واحدا ولكن هناك مائة طريق إلى الباطل . . فمادامت المحاجة قد قامت بيننا وبينكم ونحن على حق فلابد أنكم على باطل . . وليحسم الحق سبحانه وتعالى هذه المسألة ويمنع الجدل والجدال قال سبحانه : « ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن له مخلصون » . . أى لا نريد جدلا لأن الجدل لن يفيد شيئا . . نحن لنا أعمالنا وأنتم لكم أعمالكم وكل عمل سيجازى صاحبه عليه بمدى إخلاصه لله . . ونحن أخلصنا العبادة لله وحده وأنتم اتجهتم بعبادتكم إلى ما تحبه أهواؤكم .

إن الله سبحانه وتعالى الذى هو ربنا وربكم لا يفضل أحدا على أحد إلا بالعمل الصالح المخلص لوجه الله . . ولذلك فنحن نضع الإخلاص أولا وقد يكون العمل واحدا أمام الناس . . هذا يأخذ به ثوابا وذلك يأخذ به وزرا وعذابا فالمهم هو أن يكون العمل خالصا لله .

قد يقول إنسان إن الإخلاص فى العمل والعمل مكانه القلب . . ومادام الإنسان لا يؤذى أحدا ولا يفعل منكرا فليس من الضرورى أن يصلى مادامت النية خالصة . . نقول إن المسألة ليست نيات فقط ولكنها أعمال ونيات . . ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

(إنما الأعمال بالنياتِ)[١] .

فلابد من عمل بعد النية . . لأن النية تنتفع بها وحدك والعمل يعود على الناس . . فإذا كان فى نيتك أن تتصدق وتصدقت انتفع الفقراء بمالك . . ولكن إذا لم يكن فى نيتك فعل الخير وفعلته لتحصل على سمعة أو لترضى بشرا انتفع الفقراء بمالك ولن تنتفع أنت بثواب هذا المال . . والله سبحانه وتعالى يريد أن يقترن عملك بنية الإخلاص لله . . والعمل حركة فى الحياة.والنية هى التى تعطى الثواب لصاحبه أو تمنع عنه الثواب ولذلك يقول الله جل جلاله :

﴿ إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾ ﴾

(سورة البقرة)

فالله سبحانه وتعالى يريدنا أن نتصدق . . والفقير سينتفع بالصدقة سواء كانت نيتك أن يقال عنك رجل الخير المتصدق . . أو أن يقال عنك رجل البر والتقوى أو أن تخفى صدقتك . . فالعمل يفعل فينتفع به الناس سواء أردت أم لم ترد .

أنت إذا قررت أن تبنى عمارة ، النية هنا هى التملك.ولكن انتفع ألوف الناس بهذا العمل ابتداء من الذى باع لك قطعة الأرض والذى أعد لك الرسم الهندسى وعمال الحفر والذى وضع الأساس ومن قام بالبناء وغيرهم وغيرهم . . هؤلاء انتفعوا من عملك برزق لهم . . سواء أكان فى بالك الله أم لم يكن فى بالك الله فقد انتفعوا .

إذن فكل عمل فيه نفع للناس أردت أو لم ترد . . ولكن الله لا يجزى على الأعمال باطلاقها وإنما يجزى على النيات باخلاصها . . فإن كان عملك خالصا لله جزاك الله عليه . . وإن كان عملك لهدف آخر فلا جزاء لك عند الله لأنه سبحانه أغنى الشركاء عن الشرك .

إن الذين يتعجبون من أن إنسانا كافرا قدم كشفاً هاماً للبشرية ولكنه لم يكن مؤمنا بالله . . يتعجبون أيعذب فى النار ؟ نقول نعم لأنه عمل وليس فى قلبه الله . . ولذلك يجازى فى الحياة الدنيا ، فتقام له التماثيل ويطلق اسمه على الميادين ويخلد اسمه فى الدنيا التى عمل من أجلها . . ولكن مادام ليس فى نيته الله فلا جزاء له عند الله .

(١)أخرجه البخارى ومسلم وأبو داود والنسائى والترمذى وابن ماجه وأبو نعيم فى الحلية والدارقطنى بألفاظ مختلفة .

﴿ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ ﴾

اليهود والنصارى إدعوا أن الأنبياء السابقين لموسى وعيسى كانوا يهودا أو نصارى . فاليهود ادعوا أنهم كانوا يهودا . والنصارى ادعوا أنهم كانوا نصارى ، الله سبحانه وتعالى يرد عليهم بقوله : « قل أأنتم أعلم أم الله » .

والسؤال هنا لا يوجد له إلا رد واحد لأنهم لن يستطيعوا أن يقولوا نحن أعلم من الله . . وقلنا إنه إذا طرح سؤال فى القرآن الكريم فلابد أن يكون جوابه مؤيدا بما يريده الحق سبحانه وتعالى ولا يوجد له إلا جواب واحد . . ولذلك فإن قوله تعالى : « أأنتم أعلم أم الله » . . والله لاشك أعلم وهذا واقع .

إذن فكأن الله بالسؤال قد أخبر عن القضية . . ولكن يلاحظ فى هذه الآية الكريمة ذكر إبراهيم وإسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط . . وفى ذكر إسماعيل دائما مع اسحق ويعقوب يدل على وحدة البلاغ الإيمانى عن الله ؛ لأن إسماعيل كان فى أمة العرب واسحق ويعقوب كانا فى بنى إسرائيل .

والحق سبحانه وتعالى يتحدث عن وحدة المصدر الإيمانى لخلقه ؛ لأنه لا علاقة أن يكون إسماعيل للعرب واسحق لغير العرب بوحدة المنهج الإلهى.ولذلك تقرأ قول الحق تعالى :

﴿قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾

(من الآية ١٣٣ سورة البقرة)

والله الذى بعث إسماعيل هو الله الذى بعث اسحق إله واحد أحد .. ومادام الإله واحداً فالمنهج الإيمانى لابد أن يكون واحدا .. فإذا حدث خلاف فالخلاف من البشر الذين يحرفون المنهج ليحققوا شهوات ومكاسب لهم .. وكل نفس لها ما كسبت فلن ينفعكم نسبكم إليهم ولن يضيف إليكم شيئا فى الآخرة .. إن كانوا مؤمنين فلن ينفعكم أن تكفروا وأن تقولوا نحن ننتسب إلى إبراهيم وإسماعيل واسحق .. وإن كانوا غير ذلك فلا يضركم شيئا .

﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾ ﴾

بعض الناس يقول إن هذه الآية مكررة فقد تقدمتها آية تقول :

﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾ ﴾

(سورة البقرة)

بعض السطحيين يقولون إن فى هاتين الآيتين تكرارا . . نقول إنك لم تفهم المعنى . . الآية الأولى تقول لليهود إن نسبكم إلى إبراهيم واسحق لن يشفع لكم عند الله بما حرفتموه وغيرتموه فى التوراة . . وبما تفعلونه من غير ما شرع الله. فاعلموا أن عملكم هو الذى ستحاسبون عليه وليس نسبكم .

أما فى الآية التى نحن بصددها فقد قالوا إن إبراهيم وإسماعيل واسحق كانوا هودا أو نصارى . . الله تبارك وتعالى لا يجادلهم وإنما يقول لهم لنفرض ـ وهذا فرض غير

صحيح - إن إبراهيم وإسماعيل واسحق كانوا هودا أو نصارى فهذا لن يكون عذرا لكم . . لأن لهم ما كسبوا ولكم ما كسبتم ، فلا تأخذوا ذلك حجة على الله يوم القيامة . . ولا تقولوا إننا كنا نحسب أن إبراهيم وإسماعيل واسحق كانوا هودا أو نصارى أى كانوا على غير دين الإسلام لأن هذه حجة غير مقبولة . . وهل أنتم أعلم أم الله سبحانه الذى يشهد بأنهم كانوا مسلمين .

إياك أن تقول إن هناك تكراراً . . فإن السياق فى الآية الأولى يقول لا شفاعة لكم يوم القيامة فى نسبكم إلى إبراهيم وإسماعيل واسحق . . والسياق فى الآية الثانية يقول لا حجة لكم يوم القيامة فى قولكم إنهم كانوا هودا أو نصارى . . فلن ينفعكم نسبكم إليهم ولن يقبل الله حجتكم . . وهكذا فإن المعنى مختلف تماما يمس موقفين مختلفين يوم القيامة .

﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾﴾

هذه الآية نزلت لتصفى مسألة توجه محمد صلى الله عليه وسلم والمؤمنين إلى الكعبة بدلا من بيت المقدس .. وهذا أول نسخ فى القرآن الكريم .. يريد الله سبحانه وتعالى أن يعطيه العناية اللائقة ؛ لأنه سيكون مثار تشكيك وجدل عنيف من كل من يعادى الإسلام ؛ فكفار قريش سيأخذون منه ذريعة للتشكيك وكذلك المنافقون واليهود .

الله تبارك وتعالى يريد أن يحدد المسألة قبل أن تتم هذه التشكيكات .. فيقول جل جلاله : « سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها » .. حرف السين هنا يؤكد إنهم لم يقولوا بعد .. ولذلك قال سبحانه : « سيقول السفهاء » فقبل ان يتم تحويل القبلة قال الحق تعالى:إن هذه العملية ستحدث هزة عنيفة يستغلها المشككون .

وبرغم أن الله سبحانه وتعالى قال : « سيقول السفهاء » .. أى أنهم لم يقولوها إلا بعد أن نزلت هذه الآية .. مما يدل على أنهم سفهاء حقا ؛ لأن الله جل جلاله أخبر رسوله صلى الله عليه وسلم فى قرآن يتلى ويصلى به ولا يتغير ولا يتبدل إلى يوم القيامة .. قال : « سيقول السفهاء من الناس » .. فلو أنهم امتنعوا عن القول ولم يعلقوا على تحويل القبلة لكان ذلك تشكيكا فى القرآن الكريم .. لأنهم فى هذه الحالة كانوا يستطيعون أن يقولوا:إن قرآنا أنزله الله على رسوله صلى الله عليه وسلم لا يتغير ولا يتبدل إلى يوم القيامة .. قال : « سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم » .. ولم يقل أحد شيئا ..

ولكن لأنهم سفهاء فعلا . . والسفه جهل وحمق وطيش قالوها . . فكانوا وهم الكافرون بالقرآن الذين يريدون هدم هذا الدين من المثبتين للإيمان الذين تشهد أعمالهم بصدق القرآن.لأن الله سبحانه قال : « سيقول السفهاء » وهم قالوا فعلا . . ولقد قال كفار مكة عن الكعبة إنها بيتنا وبيت أبائنا وليست بيت الله . . فصرف الله رسوله فى أول الإسلام ووجهه إلى بيت المقدس . . وعندئذ قال اليهود:يسفه ديننا ويتبع قبلتنا . . والله سبحانه وتعالى أراد أن يحتوى الإسلام كل دين قبله فتكون القداسة للكل . . ولذلك أسرى برسوله صلى الله عليه وسلم من مكة إلى بيت المقدس . . حتى يدخل بيت المقدس فى مقدسات الإسلام لأنه أصبح محتوى فى الإسلام .

ولم يشأ الله أن يجعل القبلة إلى الكعبة أول الأمر لأنهم كانوا يقدسونها على أنها بيت العرب وكانوا يضعون فيها أصنامهم . . ووضع الأصنام فى الكعبة شهادة بأن لها قداسة فى ذاتها . . فالقداسة لم تأت بأصنامهم بل هم أرادوا أن يحموا هذه الأصنام فوضعوها فى الكعبة . . لماذا لم يضعوها فى مكان آخر ؟ لأن الكعبة مقدسة بدون أصنام .

والله سبحانه وتعالى حين قال : « سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها » . . وَلاّهُ يعنى حرفه ورده . . والقبلة التى كانوا عليها هى بيت المقدس . . وهنا يأتى الحق برد جامع هو أن أوامر الله الإيمانية لا ترتبط بالعلة . . إنما علة التنفيذ فيما يأمرنا الله سبحانه به جل جلاله أن الله هو الأمر . . ولو أن الحق تبارك وتعالى بين لنا السبب أو العلة فى تغيير القبلة لما كان الأمر امتحانا للإيمان فى القلوب . . لأن الإيمان والعبادة هى طاعة معبود فيما يأمر وما ينهى . . يقول لك الله عظم هذا الحجر وهو الحجر الأسود الموجود فى الكعبة وتعظمه بالاستلام والتقبيل . . ويقول لك : ارجم هذا الحجر الذى يرمز إلى إبليس فترجمه بالحصى ، ولايقول الله سبحانه لماذا ؟ لأنه لو قال لماذا ضاع الايمان هنا وأصبح الأمر مسألة اقناع واقتناع .

فأنا حين أقول لك لا تأكل هذا لأنه مر وكل هذا لأنه حلو يكون السبب واضحا . . ولكن الله تبارك وتعالى يقول لك كل هذا ولا تأكل هذا . . فإن أكلت مما حرمه تكون آثما.وإن امتنعت تكون طائعا وتثاب .

إذن العلة الإيمانية هى أن الأمر صادر من الله سبحانه . . ولو أنك امتنعت عن

شرب الخمر لأنها ضارة بالصحة أو تفسد الكبد فلا ثواب لك ، ولو امتنعت عن أكل لحم الخنزير لأن فيه كمية كبيرة من الكولسترول وله مضار كثيرة فلا ثواب لك . . ولكنك لو امتنعت عن شرب الخمر وأكل لحم الخنزير لأن الله حرمهما . . فهذه هى العبادة وهذا هو الثواب .

الله سبحانه وتعالى أراد أن يرد على هؤلاء السفهاء فقال : « قل لله المشرق والمغرب يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم » . . أى انك إذا اتجهت إلى بيت المقدس أو اتجهت إلى الكعبة أو اتجهت إلى أى مكان فى هذا الكون فالله موجود فيه . . فبيت المقدس ليس له خصوصية بذاته ، والكعبة ليس لها خصوصية بذاتها . . ولكن أمر الله تبارك وتعالى هو الذى يعطيهما هذه الخصوصية . . فإذا اتجهنا إلى بيت المقدس فنحن نتجه إليه طاعة لأمر الله . . فإذا قال الله سبحانه اتجهوا إلى الكعبة اتجهنا إليها طاعة لأمر الله .

قوله تعالى : « يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم » . . الصراط هو الطريق المستقيم لا التواء فيه بحيث يكون أقرب المسافات إلى الهدف.والله سبحانه وجهنا لبيت المقدس فهو صراط مستقيم نتبعه . . وجهنا إلى الكعبة فهو صراط مستقيم نتبعه . . فالأمر لله .

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾﴾

ساعة ترى كذلك فهناك تشبيه . . الحق سبحانه وتعالى يريدنا أن نتنبه إلى نعمته فى أنه جعلنا أمة وسطا . . فكل ما يشرعه الله يدخل فى باب النعم على المؤمنين . . وإذا كان الاتجاه إلى الكعبة هو إختبار لليقين الإيمانى فى نفوس المسلمين . . فإنه سبحانه جعلنا أمة وسطا نعمة منه ، ومادمنا وسطا فلابد أن هناك أطرافا حتى يتحدد الوسط . . هذا طرف ثم الوسط ثم طرف آخر . . ووسط الشيء منتصفه أو ما بين الطرفين .

ولكن ما معنى أمة وسطا ؟ وسط فى الإيمان والعقيدة.فهناك من أنكروا وجود الإله الحق . . وهناك من اسرفوا فعددوا الآلهة . . هذا الطرف مخطىء وهذا الطرف مخطىء . . أما نحن المسلمين فقلنا لا إله إلا الله وحده لا شريك له واحد أحد . . وهذه بديهية من بديهيات هذا الكون . . لأن الله تبارك وتعالى خلق الكون وخلق كل ما فيه وقال سبحانه إنه خلق . . ولم يأت ولن يأتى من يدعى الخلق . . إذن فالدعوى خالصة لله تبارك وتعالى . . ولو كان فى هذا الكون آلهة متعددة لادعى كل واحد منهم الخلق . . ولذلك فإن الله جل جلاله يقول :

﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ﴾

(من الآية ٩١ سورة المؤمنون)

أى لتنازع الخلق ولاضطرب الكون . . فالإسلام دين وسط بين الإلحاد وتعدد الآلهة . . على أن هناك أناساً يسرفون فى المادية ويهملون القيم الروحية . . وأناساً يهملون المادة ويؤمنون بالقيم الروحية وحدها .

واقع الحياة أن الماديين يفتنون الروحانيين لأن عندهم المال والقوة . . الإسلام جاء وسطا فيه المادة والروح . . وإياك أن تقول ان الروح أحسن من المادة أو المادة أحسن من الروح . . فالمادة وحدها والروح وحدها مسخرة وعابدة ومسبحة لله تعالى . . لكن حين تختلط المادة بالروح فإنه توجد النفس ، والنفس هى التى لها اختيار تطيع أو تعصى . . تعبد أو تكفر والعياذ بالله .

الله سبحانه يريد من المؤمنين أن يعيشوا مادية الحياة بقيم السماء . . وهذه وسطية الإسلام ، لم يأخذ الروح وحدها ولا المادة وحدها . . وإنما أوجد مادية الحياة محروسة بقيم السماء . . فحين يخبرنا الله سبحانه أنه سيجعلنا أمة وسطا تجمع خير الطرفين نعرف أن الدين جاء ليعصم البشر من أهواء البشر .

الله تبارك وتعالى يريدنا أن نبحث فى ماديات الكون بما يخلق التقدم والرفاهية والقوة للبشرية . . فما هو مادى معملى لا يختلف البشر فيه . . لكن ما يدخل فيه أهواء البشر ستضع السماء لكم قانونه . . فإذا عشتم بالأهواء ستشقون . . وإذا عشتم بنظريات السماء ستسعدون .

قد يتساءل البعض هل الشيوعية التى جاءت منذ أكثر من نصف قرن ارتقت بشعوبها أم لا ؟ نقول انظروا إليها الآن لقد بنت ما ادعته من ارتقاءات على الكذب والزيف . . ثم تراجعت ثم انهارت تماما . . وكما انهارت الشيوعية ستنهار الرأسمالية لأنهما طرفان متناقضان إنما نحن أمة وسطا . . ولذلك أعطانا الله سبحانه خيرى الدنيا والآخرة .

الحق سبحانه يقول : « لتكونوا شهداء على الناس » . . أى أن الحجة ستكون لكم فى المستقبل . . وسيضطر العالم إلى الرجوع إلى ما يقننه دينكم . . والله تبارك وتعالى قال : « أمة وسطا » ولم يقل الوسط بكسر الواو أى المنتصف حتى لا يقال إن هؤلاء الرأسماليين والشيوعيين سيتراجعون إلى الحق تماما . . ولكن بعضهم سيميل

قليلا إلى هذه الناحية أو تلك بحيث يتم اللقاء . . ولذلك عندما يقولون نأخذ أموال الأغنياء ونوزعها على الفقراء . . نقول لهم وعندما يأتى فقير فى المستقبل . . من أين تعطيه بعد أن قضيت على الأغنياء ؟.

وقد سمعت من شخص له تجربة فى السياسة والحكم . . قال إن الذى كان يعمل معى وأضاع ماله كله على الخمر والقمار والنساء كان أحسن منى . . لأننى احتفظت بأموالى ونميتها فقالوا إنك إقطاعى وصادروها . . بينما ذلك الذى أسرف لم يفعلوا به شيئا . . قلت إن الله سبحانه وتعالى يريد منك أن تنمى مالك . . لأنك إن لم تنمه ودفعت عنه زكاة ٢/٢٪ فالمال يفنى خلال أربعين سنة . . ولكن إذا نميت مالك وجاءوا إلى ناتج عملك وأخذوه بدعوى أنك إقطاعى فإنهم يقضون على العمل فى المجتمع . . لأنه إذا كنت ستأخذ ناتج عمله بدون حق فلماذا يعمل ؟ إن الإسلام جاء ليزيد مجال حركة الحياة ويضمن مال المتحرك . . ليأخذ من ماله زكاة ويعين غير القادر حتى لا يحقد على المجتمع . . هذا وسط .

وقوله تعالى : « لتكونوا شهداء على الناس » . . فكأن الله سبحانه وتعالى أخبرنا أنه ستحدث فى الكون معركة لن يفصل فيها إلا شهادة هذه الأمة . . فاليمين أو الرأسمالية على خطأ ، والشيوعية على خطأ . . أما منهج الله الذى وضع الموازين القسط للكون ولحياة الانسان فهو الصواب . . ثم يخبرنا الحق تبارك وتعالى ان الرسول صلى الله عليه وسلم سيكون شهيدا علينا . . هل كان عملنا وتحركنا مطابقا لما أنزله على رسوله صلى الله عليه وسلم وبلغه الرسول عليه الصلاة والسلام لنا ؟ أم أننا اتبعنا أهواءنا وانحرفنا عن المنهج .

الرسول صلى الله عليه وسلم سيكون شهيداً علينا فى هذه النقطة . . تلك الآية وإن كانت قد بشرت الأمة الوسط بأن العالم سيعود إلى حكمها، فذلك لا يمكن أن يحدث إلا إذا سادت شهادة الحق والعدل فيها :

وقوله تعالى : « وما جعلنا القبلة التى كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه » . . هذه عودة إلى تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة . . الله تبارك وتعالى لا يفضل اتجاها على اتجاه . . ولذلك فإن الذين يتجهون إلى الكعبة ستختلف اتجاهاتهم حسب موقع بلادهم من الكعبة . . هذا يتجه إلى الشرق، وهذا يتجه إلى الشمال الشرقى . . وهذا يتجه إلى الجنوب الغربى .

إنه ليس هناك عند الله اتجاه مفضل على اتجاه . . ولكن تغيير القبلة جعله الله سبحانه اختبارا إيمانيا ليس علم معرفة ولكن علم مشهد . . لأن الله سبحانه وتعالى يعلم . . ولكنه جل جلاله يريد أن يكون الإنسان شهيدا على نفسه يوم القيامة . . ولكنه اختبار إيمانى ليعلم الله مدى إيمانكم ومن سيطيع الرسول فيما جاءه من الله ومن سينقلب على عقبيه . . فكأن أمر تحويل القبلة سيحدث هزة إيمانية عنيفة فى المسلمين أنفسهم . . فيعلم الله من يستمر فى إيمانه واتباعه لرسول الله . . ومن سيرفض ويتحول عن دين الإسلام .

وقوله تعالى : « وإن كانت لكبيرة إلاّ على الذين هدى الله » . . والله يريد هنا العلم الذى سيكون شهيدا على الناس يوم القيامة . . وعملية الابتلاء أو الاختبار فى تغيير القبلة عملية شاقة . . إلا على المؤمنين الذين يرحبون بكل تكليف . . لأنهم يعرفون أن الإيمان هو الطاعة ولا ينظرون إلى علة الأشياء .

ولكن الكفار والمنافقين واليهود لم يتركوا عملية تحويل القبلة تمر هكذا فقالوا : إن كانت القبلة هى الكعبة فقد ضاعت صلاتكم أيام اتجهتم إلى بيت المقدس . . وإن كانت القبلة هى بيت المقدس فستضيع صلاتكم وأنتم متجهون إلى الكعبة .

نقول لهم لا تعزلوا الحكم عن زمنه . . قبلة بيت المقدس كانت فى زمنها والكعبة تأتى فى زمنها . . لا هذه اعتدت على هذه ولا هذه اعتدت على هذه . . ولقد مات أناس من المؤمنين وهم يصلون إلى بيت المقدس فقام المشككون وقالوا صلاتهم غير مقبولة . . ورد الله سبحانه بقوله : « وما كان الله ليضيع إيمانكم » . . لأن الذين ماتوا وهم يصلون إلى بيت المقدس كانوا مطيعين لله مؤمنين به فلا يضيع الله إيمانهم .

وقوله تعالى : « إن الله بالناس لرءوف رحيم » . . أى تذكروا انكم تؤمنون برب رءوف لا يريد بكم مشقة . . رحيم يمنع البلاء عنكم .

﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾﴾

نحن نعلم أن « قد » للتحقيق . . و « نرى » . . فعل مضارع مما يدل على أن الحدث فى زمن التكلم . . الحق سبحانه وتعالى يعطينا صورة لرسول الله صلى الله عليه وسلم . . أنه يحب ويشتاق أن يتجه إلى الكعبة بدلا من بيت المقدس . . وكان عليه الصلاة والسلام قد اعتاد أن يأتيه الوحى من علو . . فكأنه صلى الله عليه وسلم كان يتجه ببصره إلى السماء مكان إيتاء الوحى . . ولا يتأتى ذلك إلا إذا كان قلبه متعلقا بأن يأتيه الوحى بتغيير القبلة . . فكأن هذا أمر شغله .

إن الله سبحانه يحيط رسوله صلى الله عليه وسلم بأنه قد رأى تقلب وجه رسوله الكريم فى السماء وأجابه ليتجه إلى القبلة التى يرضاها . . فهل معنى ذلك أن القبلة التى كان عليها الرسول صلى الله عليه وسلم وهى بيت المقدس لم يكن راضيا عنها ؟ نقول لا . . وإنما الرضا دائما يتعلق بالعاطفة ، وهناك فرق بين حب العاطفة وحب العقل . . ولذلك لا يقول أحد إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن راضيا عن قبلة بيت المقدس . . وإنما كان يتجه إلى بيت المقدس وفى قلبه عاطفة تتجه إلى الكعبة . . هذا يدل على الطاعة والالتزام

الله يقول لرسوله عليه الصلاة والسلام : « فلنولينك قبلة ترضاها » أى تحبها بعاطفتك . . ورسول الله عليه الصلاة والسلام كان يتطلع إلى هذا التغيير،فكأن عواطفه صلى الله عليه وسلم اتجهت لتضع مقدمات التحويل .

قال الله تعالى : « فول وجهك شطر المسجد الحرام » . . والمراد بالوجه هو الذات كلها وكلمة شطر معناها الجهة ، والشطر معناه النصف . . وكلا المعنيين صحيح لأنه حين يوجد الإنسان فى مكان يصبح مركزاً لدائرة ينتهى بشىء اسمه الأفق وهو مدى البصر . . وما يخيل إليك عنده أن السماء انطبقت على الأرض .

إن كل إنسان منا له دائرة على حسب نظره فإذا ارتفع الإنسان تتسع الدائرة . . وإذا كان بصره ضعيفا يكون أفقه أقل ، ويكون هو فى وسط دائرة نصفها أمامه ونصفها خلفه .

إذن الذى يقول الشطر هو النصف صحيح والذى يقول ان الشطر هو الجهة صحيح .

وقوله تعالى : « فول وجهك شطر المسجد الحرام » . . أى اجعل وجهك جهة المسجد الحرام أو إجعل المسجد الحرام فى نصف الدائرة التى أمامك . . وفى الزمن الماضى كانت العبادات تتم فى أماكن خاصة . . إلى أن جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعل الله له الأرض كلها مسجدا .

إن المسجد هو مكان السجود ونظراً لأن السجود هو منتهى الخضوع لله فسمى المكان الذى نصلى فيه مسجدا . . ولكن هناك فرق بين مكان تسجد فيه ومكان تجعله مقصورا على الصلاة لله ولاتزاول فيه شيئا آخر . المسجد مخصص للصلاة والعبادة . . أما المكان الذى تسجد فيه وتزاول حركة حياتك فلا يسمى مسجداً إلا ساعة تسجد فيه . . والكعبة بيت الله . باختيار الله وجميع مساجد الأرض بيوت الله باختيار خلق الله . . ولذلك كان بيت الله باختيار الله قبلة لبيوت الله باختيار خلق الله .

وقوله تعالى : « وحيثما كنتم » يعنى أينما كنتم . . « فولوا وجوهكم شطره » . . لأن الآية نزلت وهم فى مسجد بنى سلمة بالمدينة فتحول المسلمون إلى المسجد الحرام . . وحتى لا يعتقد أحد أن التحويل فى هذا المسجد فقط وفى الوقت الذى نزلت فيه الآية فقط قال تعالى : « وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره » . .

وقوله جل جلاله : « وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم وما الله

بغافل عما يعملون » . . أى أن الذين أوتوا الكتاب ويحاولون التشكيك فى اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم . . يعلمون أن رسول الله هو الرسول الخاتم ويعرفون أوصافه التى ذكرت فى التوراة والإنجيل . . ويعلمون أنه صاحب القبلتين . . ولو لم يتجه الرسول صلى الله عليه وسلم من بيت المقدس إلى الكعبة . . لقالوا إن التوراة والإنجيل تقولان إن الرسول الخاتم محمداً صلى الله عليه وسلم يصلى إلى قبلتين فلماذا لم تتحقق ؟ ولكان هذا أدعى إلى التشكيك .

إذن فالذين أوتوا الكتاب يعلمون أنه الحق من ربهم . . لأنه فى التوراة أن الرسول الذى سيجىء وسيتجه إلى بيت المقدس ثم يتجه إلى البيت الحرام . . فكأن هذا التحويل بالنسبة لأهل الكتاب تثبيت لإيمانهم بالرسول عليه الصلاة والسلام وليس سببا فى زعزعة اليقين .

وقوله تعالى : « وما الله بغافل عما يعملون » . . يريد الحق تبارك وتعالى أن يطمئن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تشكيكهم لا يقدم ولا يؤخر . . فموقفهم ليس لطلب الحجة ولكن للمكابرة . . فهم لا يريدون حجة ولا دليلا إيمانيا . . ولكنهم يريدون المكابرة .

﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ ۚ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٥﴾

اتباع القبلة مظهر إيمانى فى الدين ، فمادمت آمنت بدينك فاتبع قبلتك . . لا أؤمن بدينك لا أتبع قبلتك .

وقوله تعالى : « ولئن أتيت » ساعة تسمع « ولئن » واو ولام وإن . . هذا قسم . فكأن الحق تبارك وتعالى أقسم أنه لو أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل الكتاب بكل آية ما آمنوا بدينه ولا اتبعوا قبلته . . لماذا ؟ لأنهم لا يبحثون عن دليل ولا يريدون الاقتناع بصحة الدين الجديد . . ولو كانوا يريدون دليلا أو اقتناعا لوجدوه فى كتبهم التى أنبأتهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنه النبى الخاتم وأعطتهم أوصافه . . فكأن الدليل عندهم ولكنهم يأخذون الأمر سفها وعنادا ومكابرة .

وقوله تعالى : « وما أنت بتابع قبلتهم » . . فكأنه حين جاءت الآية بتغيير القبلة أعلمنا الله أن المسلمين لن يعودوا مرة أخرى إلى الاتجاه نحو بيت المقدس ولن يحولهم الله إلى جهة ثالثة . . ولكى يعلمنا الله سبحانه وتعالى أن اليهود والنصارى سيكونون فى جانب ونحن سنكون فى جانب آخر . . وأنه ليس هناك التقاء بيننا وبينهم.قال سبحانه : « وما بعضهم بتابع قبلة بعض » . . فالخلاف فى القبلة مستمر إلى يوم القيامة .

وقول الحق : « ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذاً لمن الظالمين » . . حين يخاطب اللهُ سبحانه وتعالى رسوله وحبيبه محمداً صلى الله عليه وسلم بهذه الآية . . وهو يعلم أن محمدا الرسول المعصوم لا يمكن أن يتبع أهواءهم . . نقول إن المقصود بهذه الآية هى أمة محمد صلى الله عليه وسلم .

إن الله يخاطب أمته فى شخصه قائلا : « ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذاً لمن الظالمين » . . ما هى أهواء أهل الكتاب ؟ هى أن يهادنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أو يقول إن ما حرفوه فى كتبهم أنزله الله . . وهكذا يجعل هوى نفوسهم أمراً متبعا . . فكأن الله سبحانه وتعالى يريد أن يلفت أمة محمد عليه الصلاة والسلام . . إلى أن كل من يتبع أهواء أهل الكتاب وما حرفوه سيكون من الظالمين مهما كانت درجته من الإيمان . . وإذا كان الله تبارك وتعالى لن يقبل هذا من رسوله وحبيبه فكيف يقبله من أى فرد من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ؟

إن الخطاب هنا يمس قمة من قمم الإيمان التى تفسد العقيدة كلها . . والله سبحانه وتعالى يريدنا أن نعرف انه لا يتسامح فيها ولا يقبلها حتى لو حدثت من رسوله ولو انها لن تحدث . . ولكن لنعرف أنها مرفوضة تماما من الله على أى مستوى من مستويات الإيمان حتى فى مستوى القمة فتبتعد أمة محمد عن مثل هذا الفعل تماما .

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ﴾

الله تبارك وتعالى يقول إن الذين جاءهم الكتاب قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرفونه . . يعرفون ماذا ؟ هل يعرفون أمر تحويل القبلة ؟ أم يعرفون أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعثه ورسالته التى يحاولون أن يشككوا فيها ؟ الله سبحانه وتعالى يشرح لنا ذلك فى قوله تعالى :

﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾

(سورة البقرة)

فكأن اليهود والنصارى يعرفون رسالة محمد صلى الله عليه وسلم . . ومكتوب فى التوراة والإنجيل أنه الحق ومطلوب منهم أن يؤمنوا به . . إن كعب الأحبار كان جالسا وعمر بن الخطاب رضى الله عنه كان موجودا فسأله عمر أكنتم تعرفونه يا كعب ؟ أى أكنتم تعرفون محمداً صلى الله عليه وسلم ورسالته وأوصافه ؟ فقال كعب وهو من أحبار اليهود . . أعرفه كمعرفتى لابنى ، ومعرفتى لمحمد أشد . . فلما سألوه لماذا ؟ قال لأن ابنى أخاف أن تكون امرأتى خانتنى فيه أما محمد (صلى الله عليه وسلم) فأوصافه مذكورة بالدقة فى التوراة بحيث لا نخطئه .

إذن فأهل الكتاب يعرفون رسول الله صلى الله عليه وسلم ويعرفون زمنه ورسالته . . والذين أسلموا منهم وآمنوا فعلوا ذلك عن اقتناع ، أما الذين لم يؤمنوا

وكفروا بما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم عرفوا ولكنهم كتموا ما يعرفونه . . ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى عنهم : « وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون » . . وساعة تقول كتم الشيء..فكأن الشيء بطبيعته كان يجب أن يبرز وينتشر . . والحق بطبيعته لابد أن يبرز وينتشر ولكن إنكار الحق وكتمه يحتاج إلى مجهود .

إن الذين يحققون فى القضايا الدقيقة يحاولون أن يمنعوا القوة أن تكتم الحق . . فيجعلون من يحققون معه لا ينام حتى تنهار قواه فينطق بالحقيقة . . لأن النطق بالحق لا يحتاج إلى مجهود ، أما كتم الحق فهو الذى يحتاج إلى مجهود وقوة ، وعدم النطق بالحق عملية شاقة . . ولكن الله سبحانه وتعالى يقول : « ليكتمون الحق وهم يعلمون » . . أى أنهم ليسوا جاهلين ولكنهم على علم بالحقيقة . . والحق من الله فهل يستطيع هؤلاء كتمانه ؟ طبعا لا ، لابد أن يظهر . . فإذا انتشر الكذب والباطل فهو كالألم الذى يحدث فى الجسد . . الناس تكره الألم ولكن الألم من جنود الشفاء لأنه يجعلك تحس أن هناك شيئا أصابه مرض فتتجه إليه بأسباب العافية .

إن أخطر الأمراض هى التى لا يصاحبها ألم ولا تحس بها إلا بعد أن يكون قد فات وقت العلاج . . والحق دائما غالب على أمره ولذلك لا توجد معركة بين حقين . . أما الباطل فتوجد معركة بين باطل وباطل.وبين حق وباطل.لأنه لا يوجد إلا حق واحد أما الباطل فكثير . .

والمعارك بين الحق والباطل تنتهى بهزيمة الباطل بسرعة . . ولكن الذى يطول هو معركة بين باطلين . . ولذلك فإن معارك العصر الحديث تطول وتتعب الدنيا . . فمعارك الحرب العالمية الثانية مثلا لازالت آثارها ممتدة حتى الآن فى الحرب الباردة وغير ذلك من الحروب الصغيرة . . ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

(لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به)[1].

---

(١) أخرجه الديلمى فى مسند الفردوس .

﴿ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ ﴾

الحق من الله سبحانه وتعالى . . ومادام من الله فلا تكونن من الذين يشكون فى أن الحق سينتصر . . ولكن الحق لابد من قوة تحميه . . وكما يقول الشاعر :

السيف إن يزهى بجوهره
وليس يعمل إلا فى يدى بطل

فما فائدة أن يكون معك سيف بتار . . دون أن توجد اليد القوية التى ستضرب به . . ونحن غالبا نكون مضيعين للحق لأننا لا نوفر له القوة التى ينتصر بها .

وقوله تعالى : « فلا تكونن من الممترين » . . الممترى هو الذى يشك فى حدوث الشىء . . والشك معناه أنه ليست هناك نسبة تتغلب على نسبة . . أى أن الاحتمالين متساويان . . ولكن الحق من الله ولا توجد نسبة تقابله . . ولذلك لا يجب أن نشك ولا ندخل فى جدل عقيم حول انتصار الحق .

﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ ﴾

شاء الله سبحانه أن يجعل الإنسان مختارا . . ومن هنا فإن له الاختيار فى أن يؤمن أو لا يؤمن . . أن ينصر الحق أو ينصر الباطل . . أن يفعل الخير أو يفعل الشر . . كل هذه إختبارات شاء الله أن يعطيها للإنسان فى الدنيا بحيث يستطيع أن يفعل أو لا يفعل . . ولكن هذا لن يبقى إلى الأبد.إن هذا الاختيار موجود فى الحياة الدنيا .

ولكن بشرية الإنسان تنتهى ساعة الاحتضار فعند مواجهة الموت ونهاية العمر يصبح الإنسان مقهورا وليس مختارا . . فهو لا يملك شيئا لنفسه ولا يستطيع أن يقول لن أموت الآن . . انتهت بشريته وسيطرته على نفسه حتى أعضاؤه تشهد عليه . . ففى الحياة الدنيا كل واحد يختار الوجهة التى يتجه إليها ، هذا يختار الكفر وهذا يختار الإيمان . . هذا يختار الطاعة وهذا يختار المعصية ، فمادام للانسان اختيار فكل واحد له وجهة مختلفة عن الآخر . . والذى يهديه الله يتجه إلى الخيرات وكأنه يتسابق إليها . . لماذا ؟ لأنه لا يعرف متى يموت ولذلك كلما تسابق إلى خير كان ذلك حسنة أضافها لرصيده .

إن المطلوب من المؤمنين فى الحياة الدنيا أن يتسابقوا إلى الخيرات قبل أن يأتيهم الأجل ولا يحسب واحد منهم أنه سيفلت من الله . . لأنه كما يقول عز وجل : « أينما تكونوا يأت بكم اللهُ جميعا » . . أى أنه ليس هناك مكان تستطيعون أن تختفوا فيه عن علم الله تبارك وتعالى بل هو يعرف أماكنكم جميعا واحدا واحدا وسيأتى بكم جميعا مصداقا لقوله تعالى :

﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ ﴾

(سورة الكهف)

وقوله سبحانه :

﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ ﴾

(سورة الذاريات)

أى أن الحق جل جلاله يريدنا أن نعرف يقينا أننا لا نستطيع أن نفر من علمه . ولا من قدره ولا من عذابه . . وأن الطريق الوحيد المفتوح أمامنا هو أن نفر إلى الله . . وانه لا منجاة من الله إلا إليه . . ولذلك لا يظن كافر أو عاص أنه سيفلت من الله . . ولا يظن أنه لن يكون موجودا يوم القيامة أو أنه لن يحاسب أو أنه يستطيع أن يختفى .

إن غرور الدنيا قد يركب بعض الناس فيظنون أنهم فى منعة من الله وأنهم لن يلاقوه . . نقول لهم إنكم ستفاجأون فى الآخرة حين تعرفون أن الحساب حق والجنة حق والنار حق.ستفاجأون بما سيحدث لكم . . ومن لم يؤمن ولم يسارع إلى الخير سيلقى الخزى والعذاب الأليم . . إن الله ينصحنا أن نؤمن وأن نسارع فى الخيرات لننجوا من عذابه ، ويقول لنا لن يفلت واحد منكم ولا ذرة من ذرات جسده من الوقوف بين يدى الله للحساب . . ولذلك ختم الله هذه الآية الكريمة بقوله : « إن الله على كل شىء قدير » . . أى أن الله سبحانه وتعالى لا يعجزه شىء ولا يخرج عن طاعته شىء . . إنه سبحانه على كل شىء قدير .

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾﴾

لابد أن نتأمل كم مرة أكد القرآن الكريم قضية تحويل القبلة . . أكدها ثلاث مرات متقاربة . . لأن تحويل القبلة أحدث هزة عنيفة فى نفوس المؤمنين . . والحق سبحانه وتعالى يريد أن يُذهب هذا الأثر ويؤكد تحويل القبلة تأكيدا إيمانيا .

لقد جاء بثلاث آيات التى هى أقل الجمع . . واحدة للمتجه إلى الكعبة وهو داخل المسجد . . والثانية للمتجه وهو خارج المسجد . . والثالثة للمتجه من الجهات جميعا .

قوله تعالى : « ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام » . . هو رد على المنافقين واليهود والنصارى الذين حاولوا التشكيك فى الإسلام . . بأن واجهوا المسلمين بقضية تغيير القبلة . . على أساس انها قضية ما كان يجب أن تتم لأنه ليس فيها زيادة فى التكليف ولا مشقة زائدة تزيد ثواب المؤمن . . فالجهد الذى يبذله المؤمن فى الاتجاه إلى المسجد الأقصى هو نفس الجهد الذى يبذله فى الاتجاه إلى البيت الحرام . . فأنت إذا اتجهت فى صلاتك يمينا أو شمالا أو شرقا أو غربا فإن ذلك لا يضيف إليك مشقة. فما هو سبب التغيير ؟.

نقول لهم إن هذه ليست حجة للتشكيك فى تحويل القبلة لأن الاتجاه إلى المسجد الحرام هو طاعة لأمر الله . . ومادام الله سبحانه وتعالى قد قال فعلينا أن نطيع طاعة إيمانية . . يقول المولى جل جلاله : « وإنه للحق من ربك وما الله بغافل عما تعملون » . . أى أن ما فعلتموه من تحويل القبلة هو حق جاءكم من الله تبارك وتعالى . . والله عز وجل ليس غافلا عن عملكم بحيث تكونون قد اتجهتم إلى البيت الحرام. بل الله يعلم ما تبدون وما تكتمون . . فاطمئنوا انكم على الحق وولوا وجوهكم تجاه المسجد الحرام . . واعلموا أن الله سبحانه محيط بكم فى كل ما تعملون .

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾

الحق تبارك وتعالى يؤكد لرسوله صلى الله عليه وسلم أن يتوجه هو والمسلمون إلى المسجد الحرام .. سواء كانوا فى المدينة أو فى خارج المدينة أو فى أى مكان على الأرض .. وتلك هى قبلتهم فى كل صلاة بصرف النظر عن المكان الذى يصلون فيه .

وقوله تعالى : « لئلا يكون للناس عليكم حجة » .. الناس هنا المقصود بهم المنافقون واليهود والنصارى .. حجة فى ماذا ؟ لأن المسلمين كانوا يتجهون إلى بيت المقدس فاتجهوا إلى المسجد الحرام .. وليس لبيت المقدس قدسية فى ذاته ولا للمسجد الحرام قدسية فى ذاته كما قلنا .. ولكن نحن نطيع الأمر من الأمر الأعلى وهو الله .. إن الله تبارك وتعالى أطلق على المنافقين واليهود والنصارى كلمة (ظلموا) ووصفهم بأنهم الذين ظلموا .. فمن هو الظالم ؟ الظالم هو من ينكر الحق أو يغير وجهته.أو ينقل الحق إلى باطل والباطل إلى حق .. والظلم هو تجاوز الحد وكأنه سبحانه وصفهم بأنهم قد تجاوزوا الحق وأنكروه يقول سبحانه : « فلا تخشَوْهم » أى لا تخشوا الذين ظلموا : « واخشونى ولأتم نعمتى عليكم ولعلكم تهتدون » .. أى أن الخشية لله وحده والمؤمن لا يخشى بشرا .. لأنه يعلم أن القوة لله جميعا .. ولذلك فإنه يقدم على كل عمل بقلب لا يهاب أحدا إلا الحق .

وقوله سبحانه : « ولأتم نعمتى عليكم ولعلكم تهتدون » .. تمام النعمة هو

الإيمان.وتمام النعمة هو تنفيذ مطلوبات الإيمان . . فإذا هدانا الله للإيمان فهذا من تمام نعمه علينا . ولكى يكون الإيمان صحيحا ومقبولا فلابد أن أؤدى مطالبه والمداومة على تنفيذ تكليفات الله لنا ، فلا نجعل التكليف ينقطع . لأن التكليف نعمة بغيرها لا تصلح حياتنا ولا تتوالى نعم التكليف من الله سبحانه وتعالى إلا إذا أقبلنا على منهج الله بعشق . . وأنت حينما تأتى إلى المنهج قد يكون شاقا ، ولكن إذا تذكرت ثواب كل طاعة فإنك ستخشع وتعشق التكليف . . لأنك تعرف العمل الصالح بثوابه والعمل فى المعصية بعقابه . . ولذلك قال الله تبارك وتعالى :

﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾

(سورة البقرة)

إذن الخاشعون هم الذين يقرنون الطاعة بالثواب والمعصية بالعقاب والعذاب ، لأن الذى ينصرف عن الطاعة لمشقتها عزل الطاعة عن الثواب فأصبحت ثقيلة ، والذى يذهب إلى المعصية عزل المعصية عن العقاب فأصبحت سهلة . . فمن تمام النعمة أن يديم الله علينا فعل مطلوبات الإيمان . . ولذلك فى حجة الوداع نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم الآية الكريمة :

﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ﴾

(من الآية ٣ سورة المائدة)

وكان ذلك إخبارا بتمام رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن الأحكام التكليفية قد انتهت . . ولكن الذين يستثقلون التكليف تجدهم يقولون لك لقد عم الفساد والله لا يكلف نفسا إلا وسعها . . كأنه يحكم بأن هذا فى وسعه وهذا ليس فى وسعه وعلى ضوئه يأخذ التكليف . . نقول له أكَلَّفَ الله أم لم يُكلِّف ، إن كان قد كَلَّف فيكون التكليف فى وسعك . . لأنه سبحانه حين يجد مشقة يأمر بالتخفيف مثل إباحة قصر الصلاة للمسافر وإباحة الإفطار فى رمضان للمريض والمسافر فهو سبحانه قد حدد ما فى وسعك .

قوله تعالى : « ولعلكم تهتدون » . . الهداية هى الطريق المستقيم الموصل إلى الغاية وهو أقصر الطرق ، وغاية هذه الحياة هى أن تصل إلى نعيم الآخرة . . الله أعطاك فى الدنيا الأسباب لتحكم حركة حياتك ولكن هذه ليست غاية الحياة . . بل الغاية أن نذهب إلى حياة بلا أسباب وهذه هى عظمة قدرة الله سبحانه وتعالى . . والله جل جلاله يأتى ليعلمنا فى الآخرة انه خلقنا لنعيش فى الدنيا بالأسباب وفى الآخرة لنعيش فى كنفه بلا أسباب .

إذن قوله تعالى : «ولعلكم تهتدون» . . أى لعلكم تنتبهون وتعرفون الغاية المطلوبة منكم . . ولا يظن أحدكم أن الحياة الدنيا هى الغاية أو هى النهاية أو هى الهدف . . فيعمل من أجل الدنيا فيأخذ منها ما يستطيع حلالا أو حراما باعتبارها المتعة الوحيدة المخلوقة له . . نقول لا ، إنه فى هذه الحالة يكون قد ضل ولم يهتد لأنه لو اهتدى لعرف أن الحياة الحقيقية للإنسان هى فى الآخرة.ولعرف أن نعيم الآخرة الذى لا تفوته ولا يفوتك . . يجب أن يكون هدفنا فى الحياة الدنيا فنعمل ما نستطيع لنصل إلى النعيم بلا أسباب فى الجنة .

﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ ﴾

الله جل جلاله بعد أن حدثنا عن الهداية إلى منهجه وإلى طريقه . حدثنا عن نعمته علينا بإرسال رسول يتلو علينا آيات الله.ورسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذى ستأتى على يديه قمة النعم وهو القرآن والدين الخاتم .

قوله تعالى : « رسولا منكم » أى ليس من جنس آخر.ولكنه صلى الله عليه وسلم رسول منكم تعرفونه قبل أن يكلف بالرسالة وقبل أن يأتى بالحجة . . لماذا ؟ لأنه معروف بالخلق العظيم وبالقول الكريم والأمانة وبكل ما يزيد الإنسان رفعة وعلوا واحتراما . . إن أول من آمن برسول الله صلى الله عليه وسلم هم أولئك الذين يعرفونه أكثر من غيرهم . . كأبى بكر الصديق وزوجته صلى الله عليه وسلم السيدة خديجة وابن عمه على بن أبى طالب . . هؤلاء آمنوا دون أن يطلبوا دليلا لأنهم أخذوا الإيمان من معرفتهم برسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يكلف بالرسالة . . فهم لم يعرفوا عنه كذبا قط.فقالوا إن الذى لا يكذب على الناس لا يمكن أن يكذب على الله فآمنوا . . فالله سبحانه وتعالى من رحمته أنه أرسل إليهم رسولا منهم أميا ليعلمه ربه . . . ولذلك قال الحق تبارك وتعالى :

﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾

(سورة التوبة)

الحق سبحانه يقول : « يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم » . . الآيات هى القرآن الكريم والتزكية هى التطهير ولابد أن يكون هناك دنس ليطهرهم منه . . فطهرهم من عبادة الأصنام ومن وأد البنات والخمر والميسر والربا . . ومعنى التزكية أيضا سلب الضار فكأنه جاءهم بالنفع وسلب منهم الضر .

وقوله تعالى : « ويعلمكم الكتاب والحكمة » . . الكتاب على إطلاقه ينصرف إلى القرآن الكريم.والحكمة هى وضع الشىء فى موضعه . . والكتاب يعطيك التكليف إما أن يأمرك بشىء وإما أن ينهاك عن شىء .

إذن فهى دائرة بين الفعل والترك . . والحكمة أن تفعل الفعل الذى يحقق لك خيرا ويمنع عنك الشر.وهى مأخوذة من الحكمة أو الحديدة التى توضع فى فم الجواد لتحكم حركته فى السير والوقوف ، وتصبح كل حركة تؤدى الغرض منها والحكمة أيضا هى أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم مصداقا لقوله تعالى :

﴿ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ﴾

(من الآية ٣٤ سورة الاحزاب)

وقوله سبحانه : « ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون » لأنكم أمة أمية.فإن بهرتكم الدنيا بحضارتها فستبهرونهم بالإشعاعات الإيمانية التى تجعلكم متفوقين عليهم . . فكل ما يأتيكم من السماء هو فوق كل حضارات الأرض . . لذلك يقول عمر بن الخطاب رضى الله عنه : ما عمر لولا الإسلام .

﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾

قوله تعالى : « فاذكرونى » أى كل هذه النعم والفضل عليكم يجب ألا تنسوها . . أن تعيشوا دائما فى ذكر من أنعم عليكم . . فالله سبحانه وتعالى يريد من عباده الذكر وهم كلما ذكروه سبحانه وشكروه شكرهم وزادهم . . والله سبحانه وتعالى يقول فى حديث قدسى :

[أنا عند حسن ظن عبدى بى وأنا معه إذا ذكرنى ، فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، وإن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منه ، وأن تقرب إلىّ بشبر تقربت إليه ذراعاً وإن تقرب إلى ذراعاً تقربت إليه باعاً وإن أتانى يمشى أتيته هرولة][1] .

هذه هى رغبة الكريم فى أن يعطى بشرط أن نكون أهلا للعطاء لأنه يريد أن يعطيك أكثر وأكثر . . فقوله تعالى : « اذكرونى » أى اذكروا الله فى كل شىء . فى نعمه . فى عطائه . فى ستره . فى رحمته . فى توبته . يقول بعض الصالحين : سمعت فيمن سمع عن حبيبى رسول الله صلى الله عليه وسلم انك إذا ما أقبلت على شرب الماء فقسمه ثلاثا . . أول جرعة قل باسم الله واشربها ، ثم قل الحمد لله وابدأ شرب الجرعة الثانية وقل باسم الله وبعد الانتهاء منها قل الحمد لله . . ثم قل باسم الله واشرب الجرعة الثالثة واختمها بقولك الحمد لله . فمادام هذا الماء فى جوفك فلن تحدثك ذرة من جسدك بمعصية الله . جربها يوما فى نفسك وقل باسم الله واشرب ، وقل الحمدلله وكررها ثلاث مرات فإنك تكون قد استقبلت النعمة بذكر المنعم وأبعدت عن نفسك حولك وقوتك ، وأنهيت النعمة بحمد الله . ولكن لماذا الماء ؟ لأن الماء فى الجوف أشبع من أى شىء آخر .

---

(١) أخرجه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى وابن ماجه وأحمد فى مسنده بألفاظ مختلفة .

قوله تعالى : « وأشكروا لى ولا تكفرون » الشكر على النعمة يجعل الله سبحانه وتعالى يزيدك منها. واقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾

(من الآية ٧ سورة إبراهيم)

وشكر الله يذهب الغرور عن نفسك فلا تفتنك الأسباب وتقول أوتيته على علم منى . « ولا تكفرون » أى لا تستروا نعم الله بل اجعلوها دائما على ألسنتكم . . فإن كل نعمة من نعم الله لو استقبلت بقولك « ماشاء الله لا قوة إلا بالله » لا ترى فى النعمة مكروها أبدا لأنك حصنت النعمة بسياج المنعم . . أعطيت لله حقه فى نعمته فإن لم تفعل وتركتها كأنها منك وأنت موجدها ونسيت المنعم وهو الله سبحانه وتعالى فإن النعمة تتركك .

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾

الله سبحانه وتعالى يطالبنا أن نستعين بالصبر والصلاة . . على ماذا ؟ على كل ما يطلبه منا الله . . على تكليفاته ومنهجه نستعين على ذلك بالصبر والصلاة . . ولكن لماذا الصبر ؟ لأن الصبر هو منع النفس من الجزع من أى شىء يحدث وهو يأخذ ألوانا شتى حسب تسامى الناس فى العبادة . .

فمثلا سئل الإمام على رضى الله عنه عن حق الجار ؟ قال : تعلمون أنك لا تؤذيه ؟ قالوا نعم . . قال وأن تصبر على أذاه . . فكأنه ليس مطلوبا منك فقط ألا تؤذى جارك بل تصبر على أذاه . . والصبر هو الذى يعينك على أن تفعل ما أمرك الله به ولا تفعل ما نهاك الله عنه .

إن الله منعك من أشياء هى من شهوات النفس وأمرك بأشياء فيها مشقة وهذه محتاجة إلى الصبر . . وأنت أن أخذت منهج الله تعبداً ستأخذه فيها بعد عادة.يقول أحد الصالحين فى دعائه : اللهم إنى أسالك ألا تكلنى إلى نفسى فإنى أخشى يارب ألا تثبتنى على الطاعة لأننى أصبحت أشتهيها فسبحانك أمرتنا أن نحارب شهواتنا . . أنظر إلى الطاعة من كثرة حب الله أصبحت مرغوبة محببة إلى النفس . . رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول لبلال ساعة الأذان :

(أرحنا بها يا بلال) .

ولم يقل كما يقول بعض الناس والعياذ بالله أرحنا منها ؛ ذلك أن هناك من يقول

لك:أن الصلاة تكون على كتفى مثل الجبل وأرتاح ، نقول له أنت ترتاح بها ولا ترتاح منها .؟. لأنك وقفت بين يدى الله المكلف ، ومادام الإنسان واقفا أمام ربه فكل أمر شاق يصبح سهلا .

يقول أحد العابدين : أنا لا أواجه الله بعبوديتى ولكن أواجهه بربوبيته فأرتاح لأنه ربى ورب العالمين . . الذى له أب يعينه لا يحمل هما فمابالك بالذى له رب يعينه وينصره .

قول الحق سبحانه : « إن الله مع الصابرين » أى أنه يطلب منك أن تواجه الحياة فى معية الله ؛ فأنت لو واجهت المشكلات فى معية من تثق فى قوته تواجه الأمور بشجاعة فما بالك إذا كنت فى معية الله وكل شىء فى الوجود خاضع لله ، أيجرؤ شىء أن يقف أمامك وأنت مع الله ؟

إن الأحداث لا تملأ الخلق بالفزع والهلع إلا ساعة الانفلات من حضانة ربهم . . وإنما من يعيش فى حضانة ربه لا يجرؤ عليه الشيطان فالشيطان خناس . . ما معنى خناس ؟ إذا سهوت عن الله اجترأ عليك وإذا ذكرت الله خنس وضعف؛فهو لا قوة له . . وهو لا يدخل مع الله سبحانه وتعالى فى معركة ، وإنما يدخل مع خلق الله الذين ينسون الله ويبتعدون عنه يقول القرآن الكريم :

﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾

(سورة ص)

ومادام الله سبحانه وتعالى مع الصابرين فلابد أن نعشق الصبر . . وكيف لا نعشق ما يجعل الله معنا ؟ يقول الحق جل جلاله فى الحديث القدسى :

[يا بن آدم مرضت فلم تعدنى قال : يارب وكيف أعودك وأنت رب العالمين؟ قال : أما علمت أن عبدى فلاناً مرض فلم تعده ؟ أما علمت أنك لو عدته لوجدتنى عنده][1] ؟ يقول بعض الصالحين : اللهم إنى أستحى أن أسألك الشفاء والعافية

---

(١) أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه .

حتى لا يكون ذلك زهدا فى معيتى لك . . إذن لابد أن نعشق الصبر لأنه يجعلنا دائما فى معية الله .

الله سبحانه وتعالى يقول : « إن الله مع الصابرين » . . ونحن نريد أن يكون الله سبحانه معنا دائما . . إن هذه الآية لا تجعل الإنسان ييأس مهما لقى فى حركة حياته من المشقة .

﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ ۚ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾﴾

الحق جل جلاله يعلم أن أحداث الإيمان وخصوم الإيمان سيواجهون المسلمين بمشقة عنيفة . . لا تهددهم فى أموالهم فقط ولكن تهددهم فى نفوسهم ، فأراد الله عز وجل أن يعطى المؤمنين مناعة ضد هذه الأحداث . . وأوصاهم بالصبر والصلاة يواجهون بها كل حدث يهزهم بعنف . . قال لهم إن المسألة قد تصل إلى القتل . . إلى الاستشهاد فى سبيل الله. وأراد أن يطمئنهم بأن الشهادة هى أعلى مرتبة إيمانية يستطيع الإنسان المؤمن أن يصل إليها فى الدنيا فقال سبحانه : « ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات » .

إن القتل هو أشد ما يمكن أن يقع على الإنسان . . فأنت تصاب فى مالك أو فى ولدك أو فى رزقك أو فى صحتك ، أما أن تصاب فى نفسك فتقتل فهذه هى المصيبة الكبرى . . والله سبحانه وتعالى سَمَّى الموتَ مصيبة. واقرأ قوله تعالى :

﴿إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُم مُّصِيبَةُ الْمَوْتِ﴾

(من الآية ١٠٦ سورة المائدة)

الله تبارك وتعالى أراد أن يفهم المؤمنون أن الذى يقتل فى سبيل الله لا يموت . . وإنما يعطيه الله لونا جديدا من الحياة فيه من النعم ما لا يعد ولا يحصى. يقول جل جلاله : « ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون » .

ما هو مظهر الحياة التى يعيشونها ؟ الحياة عندنا مظهرها الحركة ، والذى قتل فى سبيل الله ما هى حركته ؟ حركته بالنسبة لغير المؤمنين خصوم الإسلام والإيمان بأنه لن يسلب منه الحياة . . لأنه سيذهب إلى حياة أسعد والموت ينقله إلى خير مما هو فيه . . فإذا كان الكفار قد قتلوه فهم لم يسلبوه شيئا وإنما نقلوه إلى نعمة أكبر مما كان يعيش فيها . . أما بالنسبة للمؤمنين فإنه سيحمى لهم منهج الله ليصل إليهم إلى أن تقوم الساعة .

إن كل المعارك التى يستشهد فيها المؤمنون إنما هى سلسلة متصلة لحماية حركة الإيمان فى الوجود . . وعظمة الحياة ليست فى أن أتحرك أنا ولكن أن أجعل مَن بعدى يتحرك . . والمؤمن حين يستشهد يبقى أثره فى الوجود لكل حركة من متحرك بعده . . فكل حركة لحماية الإيمان تستشهد به وبما فعله وتأخذ من سلوكه الإيمانى دافعا لتقاتل وتستشهد.فكأن الحركة متصلة والعملية متصلة . . أما الكافر فإن الحياة تنتهى عنده بالموت ولكن تنتظره حياة أخرى حينما يبعث الله الناس جميعا ثم يأتى بالموت فيموت . . وحين يموت الموت تصبح الحياة بلا موت إما فى الجنة وإما فى النار .

الله سبحانه وتعالى يريدنا أن نعلم أن من يقتل فى سبيل الله هو حى عند ربه ينتقل من الحياة الدنيا إلى الحياة الآخرة مباشرة . . ولا يكتب عليه الموت فى حياة البرزخ حتى يوم القيامة مثل من يموت ميتة طبيعية ولا يموت شهيدا . . ولأن هذه الحياة حياة الشهداء أخفى الله سبحانه عنا تفاصيلها لأنها من حياة الآخرة . . وهى غيب عنا قال تبارك وتعالى : « ولكن لا تشعرون » . . ومادمنا لا نشعر بها فلابد أن تكون حياة أعلى من حياتنا الدنيوية .

الذى استشهد فى عرف الناس سلب نفسه الحياة ولكنه فى عرف الله أخذ حياة جديدة . . ونحن حين نفتح قبر أحد الشهداء نجد جسده كما هو فنقول إنه ميت أمامنا . . لابد أن تتنبه إنك لحظة فتحت عليه انتقل من عالم الغيب إلى عالم الشهادة والله سبحانه قال : « أحياء عند ربهم » ولم يقل أحياء فى عالم الشهادة . . فهو حى مادام فى عالم الغيب ولكن أن تفتح وتكشف تجده جسدا فى قبره لأنه انتقل من عالم الغيب إلى عالم الشهادة . . أما كيف ؟ قلنا إن الغيب ليس فيه كيف . . لذلك لن تعرف وليس مطلوبا منك أن تعرف .

إننا حين نجرى عملية جراحية لمريض يعطيه الطبيب (البنج) لكى يفقده الوعى والحس ولكن لا يعطيه له ليموت ثم يبدأ يجرى العملية فلا يشعر المريض بشىء من الألم .

فالمادة لا تحس لأنها هى التى أجريت عليها العملية والجسد لازال فيه الحياة من نبض وتنفس ولكنه لا يحس . . ولكن النفس الواعية التى غابت هى التى تحس بالألم .

أنت عندما يكون هناك ألم فى جسدك وتنام ينقطع الإحساس بالألم فكأن الألم ليس مسألة عضوية ولكنه مرتبط بالوعى . . فعند النوم تنتقل إلى عالم آخر قوانينه مختلفة . . والعلماء فحصوا مخ الإنسان وهو نائم فوجدوا انه لا يستطيع أن يعمل أكثر من سبع ثوان يرى فيها رؤيا يظل يحكيها ساعات . . فإذا قال الحق تبارك وتعالى : « إنهم أحياء عند ربهم » . . فلابد أن نأخذ هذه الحياة على أنها بقدرات الله ومن عنده . . والله عز وجل أراد أن يقرب لنا مسألة البعث والقيامة مثل مسألة النوم .

واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ﴾

(من الآية ٤٢ سورة الزمر)

فكأن الحق جل جلاله يعطى الشهداء حياة دائمة خالدة لأنهم ماتوا فى سبيله . . ومادام تعالى قال : « لا تشعرون » فلا تحاول أن تدركها بشعورك وحسك لأنك لن تدركها على أن الشهيد لابد أن يقتل فى سبيل الله وليس لأى غرض دنيوى . . وإنما لتكون كلمة الله هى العليا .

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾

نعرف أن مجرد الابتلاء ليس شرا ، ولكن الشر هو أن تسقط فى الابتلاء ، فكل ابتلاء هو اختبار وامتحان ، ولم يقل أحد : إن الامتحانات شر ، إنها تصير شراً من وجهة نظر الذى لم يتحمل مشاق العمل للوصول إلى النجاح ، أما الذى بذل الجهد وفاز بالمركز الأول ، فالامتحانات خير بالنسبة له ، إذن فقوله الحق : « ولنبلونكم » أى سنصنع لكم امتحاناً يصفى البطولة للعقيدة الجديدة .

والحق سبحانه قد ذكر لنا قبل هذه الآية قمة الابتلاءات ؛ وهى أن ينال الإنسان الاستشهاد فى سبيل الله ، وذكر ثواب الشهيد ، وهو البقاء على هيئة من الحياة عند ربه ، وكان ذلك مقدمة للابتلاءات الأقل ، فقمة الابتلاء ـ فى حدود إدراكنا ـ هى فقد الحياة ، وأراد الحق أن يعطى المؤمنين مناعة فيما دون الحياة ، مناعة من الخوف والجوع ونقص الأموال والأنفس والثمرات . وكل ما دون حياة الفرد هو أمر ترفى بالنسبة لفقد الحياة نفسها ، فمن لم يفقد حياته ، فستأتى له ابتلاءات فيما دون حياته وهى ابتلاءات الخوف والجوع ونقص الأموال ، ونقص فى عدد الإخوة المؤمنين ، وكذلك نقص فى الثمرات ، وكل هذه أشياء يحبها الإنسان ، ويأتى التكليف ليطلب من المؤمن أن يترك بعضا مما يحب ، وتلك الابتلاءات تدخل فى نطاق بقاء التكليف .

وأول تلك الابتلاءات هو الخوف ، والخوف هو انزعاج النفس وعدم اطمئنانها من توقع شىء ضار ، فالنفس لها ملكات متعددة ، وعندما يصيبها الخوف ، فهى تعانى من عدم الانسجام ، والخوف خَوَرٌ لا ضرورة له ، لأنك إذا كنت تريد أن تؤمِّن نفسك من أمر يُخيفك ، فأنت تحتاج إلى أن تجتهد بأسبابك لتعوق هذا الذى يُخيفك ، أما إن استسلمت للانزعاج ، فلن تستطيع مواجهة الأمر المخيف بكل

ملكاتك ، لأنك ستواجهه ببعض من الملكات الخائرة المضطربة . بينما أنت تحتاج إلى استقرار الملكات النفسية ساعة الخوف ؛ حتى تستطيع أن تمد نفسك بما يؤمنك من هذا الخوف . أما إن زاد انزعاجك عن الحد ، فأنت بذلك تكون قد أعنت مصدر الخوف على نفسك ؛ لأنك لن تواجه الأمر بجميع قواك ، ولا بجميع تفكيرك .

إذن فالذى يخاف من الخوف ؛ نقول له : أنت مُعين لمصدر الخوف على نفسك ، وخوفك وانزعاجك لن يمنع الخوف ، ولذلك لابد لك من أن تنشغل بما يمنع الأمر المخوف ، ودع الأمر المخوف إلى أن يقع ، فلا تعش فى فزعه قبل أن يأتيك ، فآفة الناس أنهم يعيشون فى المصائب قبل وقوعها ، وهم بذلك يطيلون على أنفسهم أمد المصائب . إن المصيبة قد تأتى ـ مثلا ـ بعد شهر ، فلماذا تطيل من عمر المصيبة بالتوجس منها والرهبة من مواجهتها ؟ إنك لو تركتها إلى أن تقع ؛ تكون قد قصرت مسافتها . ولك أن تعرف أن الحق سبحانه وتعالى ساعة تأتى المصيبة فهو برحمته يُنزِل معها اللطف ، فكأنك إن عشت فى المصيبة قبل أن تقع ، فأنت تعيش فى المصيبة وحدها معزولة عن اللطف المصاحب لها ، لكن لو ظللت صابراً محتسباً قادراً على مواجهة أى أمر صعب ، فأنت لن تعيش فى المصيبة بدون اللطف .

لقد كانت الدعوة إلى الله بالإسلام مازالت وليدة ، لذلك كان لابد من إعداد القدوة المؤمنة إعداداً قوياً ، وكان الخوف متوقعاً ، لأن خصوم الدعوة يكيدون لها ويُبيتون ، وهذا هو الابتلاء . وما المراد من المؤمن حين يواجه ابتلاء الخوف ؟ إن عليه أن يجعل من الخوف ذريعة لاستكمال الأسباب التى تمنع وقوع الأمر المخوف ، فإن صنع ذلك يكون قد نجح فى هذا الابتلاء .

ونأتى إلى الابتلاء الثانى فى هذه الآية الكريمة ، وهو الجوع . إن الجوع شهوة غالبة إلى الطعام ، وهو ضرورى لاستبقاء الحياة ، ومن رحمة الحق سبحانه وتعالى بالإنسان أن ضمن له فى ذاته غذاء يدخره من وقت رخائه لينفعه وقت شدته . فالإنسان يحتفظ بالغذاء الزائد على صورة شحم ولحم ، وحين يجوع ولا يجد طعاماً ، فهو يأخذ من هذا الشحم ، فإذا انتهى الشحم ، فهو يأخذ من اللحم ، وإذا انتهى اللحم ،

يأخذ الجسم غذاءه من العظم ، من أجل أن يستبقى الإنسان الحياة .

والإنسان مكون من أجهزة متعددة ، وسيد هذه الأجهزة المخ ، ومادامت الحياة موجودة فى خلايا المخ فإن كل شىء فيك جاهز للعمل ، لكن إذا ماتت هذه الخلايا ، انتهى كل شىء ، وذلك هو السبب فى أن يقال : إن فلاناً مات ثم أعطوه دواء معينا فعادت إليه الحياة . إنهم يتناسون الحقيقة العلمية المؤكدة ، وهى أن الحياة لا تغادر الإنسان إلا إذا توقف المخ عن العمل ، ولذلك فهناك إنسان قد يتوقف قلبه فيعالجه الأطباء بصدمة كهربية تعيد تشغيل القلب ، أو يشقون الصدر لتدليك القلب . لكن إذا ماتت خلايا المخ فهذا هو الموت . فأجهزة الجسم كلها فى خدمة ذلك السيد وهو المخ .

ومن العجيب أنك تجد سيد الإنسان ـ وهو المخ ـ فى قمته ، والحيوانات كذلك مخها فى قمتها ، أما النبات فسيده فى جذوره ، فالورق يذبل أولا ، ثم تجف الأغصان الرفيعة ، ثم الجذع ، ويجف الجذر فى النهاية عندما لا يأتيه بعض الماء ، وعندما يأتى بعض الماء إلى الجذور فى الوقت المناسب فهى تعود إلى الاخضرار ، وتنمو وتعود إليها الحياة ، وكذلك المخ فى الإنسان ، فساعة ينهى الإنسان مخزونه من شحمه ومن لحمه ويتغذى على العظام ، فإنقاذه يأتى من إيصال الغذاء إلى المخ . ولذلك قالت المرأة العربية التى لم تكن تعرف التشريح : « نحن مرت علينا سنون ، سنة أذابت الشحم ، وسنة مَحَقَتْ اللحم ، وسنة محت العظم » .

ويجب أن نفهم أن الجوع يُحسِّن لنا كل رزق فى الحياة ؛ فإنك إن كنت جوعان صار كل طعام شهياً ، والذى يرغم الناس على إعداد ألوان مختلفة من الأطعمة ؛ إنما هو عدم الجوع ؛ فالإنسان يريد أن يُشهِّى لنفسه ليأكل ، لكنه لو كان جوعان لكفاه أى طعام ، ولذلك قالوا : « طعام الجائع هنىء وفراش المتعب وطىء » . فساعة يكون الإنسان متعبا فهو ينام على أرض خشنة ؛ ويستغرق فى النوم ، وإن لم يكن الإنسان متعبا ، فهو يظل يتقلب فى الفراش حتى ولو كان من الديباج .

إذن فابتلاء الجوع هو أن تصبر على الضرورى من الطعام الذى يقيم لك

الحياة ، وأنت تأكله كوقود لحركة الحياة ، ولا تأكله التذاذا ، وحين يقتات الإنسان ليضمن لنفسه وقود الحياة فأى طعام يكفيه . ولذلك شرع الله الصوم لنصبر على أذى الجوع ، لأن المؤمنين قد تضطرهم معركة ما لأن يعيشوا فيها ساعات طويلة دون طعام ، فإن لم يكونوا مدربين على تحمل قسط من الجوع فسيخورون ويتعبون .

إذن فالحق سبحانه وتعالى يريد أن يعد المؤمن إعدادا كافيا كاملا ، فالمؤمن يواجه الخوف فيستعد ، ويواجه الجوع فيأخذ من قوت الحياة بقدر الضرورة .

ولذلك تجد أن المجتمعات تواجه متاعب الاقتصاد بالتقشف ، ولكن بعض المجتمعات لا تستطيع ذلك ، فتجد الناس فى تلك المجتمعات لا تتقشف ، ولهذا نقول لمن يعيش حياة الترف : أنت لا تعد نفسك الإعداد اللازم لمواجهة تقلبات الزمن .

وأقول كما قال إبراهيم بن أدهم :

وإذا غلا شيء عليَّ تركته فيكون أرخص ما يكون إذا غلا

إن أى شيء إذا غلا سعره ، لا يشتريه ، ويتركه ، فيكون أرخص شيء ، لأنه لن يدفع فيه مالا ليشتريه .

وأما الابتلاء الثالث وهو نقص الأموال فمصدره أن المؤمنين سينشغلون عن حياتهم بأمر الدعوة ، وإذا ما شغلوا عن حركة الحياة لمواجهة العدو فسيضطرون إلى التضحية بحركة الحياة التى تنتج المال ولذلك تنقص الأموال ، لأن حركتهم فى الحياة توجهت إلى مقاومة خصوم الله . وكذلك سيواجهون العدو مقاتلين ؛ وقد يستشهد منهم عدد . وأخيرا يواجهون نقص الثمرات ، والثمرات هى الغاية من كل عمل .

والحق سبحانه وتعالى حين يعدنا هذا الإعداد ، فإذا نجحنا فيه تكون لنا البشرى ، لأننا صبرنا على كل هذه المنغصات: صبر على الخوف ، وصبر على

الجوع ، وصبر على نقص الأموال ، وصبر على نقص الأنفس ، وصبر على نقص الثمرات .

إذن فالمهم أن ينجح المؤمن فى كل هذه الابتلاءات ؛ حتى يواجه الحياة صلبا ؛ ويواجه الحياة قويا . ويعلم أن الحياة معبر ، ولا يشغله المعبر عن الغاية ؛ ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦ ﴾

والمصيبة هى الأمر الذى ينال الإنسان منه المشقة والألم ، وهى مأخوذة من إصابة الهدف . والمؤمن يستقبل المصيبة واثقا أنها على قدر إيلامها يكون الثواب عليها ، ولذلك عندما فرح الكفار بما يصيب المسلمين فى بعض المعارك ، أنزل الله ذلك القول الحق للمؤمنين :

﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا ﴾

(من الآية ٥١ سورة التوبة)

أى قولوا أيها المؤمنون لهؤلاء الحمقى من الكافرين: إنه لن يحدث لنا إلا ما كتبه الله .

وعندما نتأمل قوله الحق : « ما كتب الله لنا » أى أن المسألة ستكون لحسابنا ، وسنأخذ عليها حسن الثواب من الله ، ولم يقل الحق : كتب الله علينا؛ لأنها لو كانت كذلك لكان معناها أنها جزاء وعقاب من الله .

وأى أمر يصيب الإنسان ، إما أن يكون له دخل فيه ، وعند ذلك لا يصح أن

يجزع لأنه هو الذى جاء بالأمر المؤلم لنفسه ، وإما أن تكون مصيبة لا دخل له بها ، وحدثت له من غيره مثلا ، وعند ذلك عليه أن يبحث عن سببها : أعدلا أم ظلما ؟ إن كانت عدلا فهى قد جبرت الذنب ، وإن كانت ظلما فسوف يقتص الله له ممن ظلمه . وعلى هذا فالمؤمن فى كلتا الحالتين رابح .

إذن فالمؤمن يستقبل كل مصيبة متوقعا أن يأتى له منها خير . وعلى كل مؤمن أن يقيم نفسه تقييما حقيقيا ، « هل لى على الله حق ؟ أنا مملوك لله وليس لى حق عنده ، فما يجريه على فهو يجريه فى ملكه هو » . ومن لا يعجبه ذلك فليتأب على أى مصيبة ؛ ويقول لها : « لا تصيبينى » ، ولن تستطيع درء أى مصيبة ـ ومادمنا لا نستطيع أن نمنع وقوع المصائب والأحداث ، فلنقبلها ـ كمؤمنين ـ لأن الحق سبحانه وتعالى يريد بنسبتنا إليه أن يعزنا ويكرمنا . إنه يدعونا أن نقول : « إنا لله وإنا إليه راجعون » . إننا بهذا القول ننسب ملكيتنا إلى الله ونقبل ما حدث لنا . ولابد لنا هنا أن نأتى بمثال ـ ولله المثل الأعلى ـ هل رأيت إنسانا يفسد ملكه ؟ أبداً .

إن صاحب الملك يعمل كل ما يؤدى إلى الصلاح فى ملكه ، وإن رأى الناس فى ظاهر الأمر أنه فساد ، فما بالنا بالله سبحانه وتعالى ونحن ملك له ، وهو سبحانه لا يُعرِّض ملكه أبداً للضرر ، وإنما يقيمه على الحكمة والصلاح .

« إنا لله وإنا إليه راجعون » أى نحن مملوكون لله ، ونحن راجعون إليه ، وحتى إن كان فى مصائب الدنيا ظلم لنا وقع علينا من إنسان،فسوف نأخذ ثواب ما ظُلمنا فيه عند الرجوع إلى الله ، إذن فنحن لله ابتداء بالملكية ، ونحن لله نهاية فى المرجع ؛ وهو سبحانه ملك القوسين ؛ الابتداء والانتهاء ، ولذلك علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عند أى مصيبة تصيب الإنسان أن يسترجع ؛ أى أن يقول : « إنا لله وإنا إليه راجعون » . وزادنا أيضا أن نقول : « اللهم اجرنى فى مصيبتى واخلف لى خيرا منها » إنك إذا ما قلتها عند أى مصيبة تصيبك فلابد أن تجد فيما يأتى بعدها خيراً منها ، وحتى إن نسى الإنسان أن يقول ذلك عند وقوع المصيبة ، ثم تذكرها وقالها فله جزاؤها ، كأنه قالها ساعة المصيبة .

وهناك قصة عن أم سلمة رضى الله عنها ؛ حين مات أبو سلمة زوجها ـ وكان ملء السمع والبصر ـ وجزعت عليه أم سلمة ، فقيل لها قولى : ما علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قالت : وما علمكم ؟ قالوا : « إنا لله وإنا إليه راجعون ، اللهم اجرنى فى مصيبتى واخلف لى خيرا منها » فقالت ما قيل لها ، فإذا بها بعد انقضاء عدتها يذهب إليها النبى خاطبا ، فقيل لها : أوجد خير من أبى سلمة أم لم يوجد ؟ قالت : ما كنت لأتسامى ـ أى أتوقع ـ مثل هذا الموقف » .

فإذن ، كل مصيبة يتعرض لها الإنسان يجب أن يقول عندها : « إنا لله وإنا إليه راجعون ، اللهم اجرنى فى مصيبتى واخلف لى خيرا منها »[1] .

وماذا يكون حال الذين يقولون هذا الدعاء ؟. ها هو ذا الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾

فلننظر إلى غاية الغايات التى يدربنا الله عليها لنحمل الدعوة ، ولنحمى منهج الحق ، ولنهدم دولة المبطلين ، هذه غاية ؛ لكنها ليست الغاية النهائية ، فالغاية النهائية أننا نفعل ذلك لنأخذ رحمات الله وبركاته فى الآخرة .

إذن ، فالغاية النهائية فى كل إيمان وفى كل عمل هى ابتغاء مرضاة الله ورحمته . وكما قال المرحوم الشيخ سيد قطب رحمة الله عليه : إياك أن يشغلك عن صلوات الله وتحياته وبركاته شىء ولو انتصار العقيدة نفسه .

---

(١) هذا الحديث أخرجه الإمام مسلم وأوله:(ما من عبد تصيبه مصيبة فيقول:إنا لله وإنا إليه راجعون . .) الحديث

كأن انتصار العقيدة وسيلة لتنال بها الصلوات والرحمة من ربك ، فكل شيء ما عدا ذلك وسيلة تسلم إلى غاية ، وغاية المؤمن أن يكون من الذين يشملهم قول الله :

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾

(سورة البقرة)

ونحن نعرف أن الصلاة فى اللغة هى الدعاء ، للناس صلاة ، وللملائكة صلاة ، ولله صلاة ، فهو القائل :

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ ﴾

(من الآية ٤٣ سورة الأحزاب)

وكلنا نعيش برحمات الله ، حتى الكافر يعيش على الأرض برحمة الله ، ويأخذ أسباب حياته برحمة الله ، والنعم والخيرات التى يعيش عليها تأتيه بسبب رحمة الله ، والمؤمن يأخذ نعم الدنيا برحمة الله ويزيد الله له بالبركة والاطمئنان ، والاطمئنان نعمة كبرى ، فمن يعش فى هذه الحياة وهو مطمئن إلى غاية أفضل من هذه الحياة ، فهذا لون عظيم من الاطمئنان .

فالصلاة من الله عطاء الرحمة والبركة .

والصلاة من الملائكة استغفار .

والصلاة من المؤمنين دعاء .

والدعاء حين تدعوه لمحمد صلى الله عليه وسلم بالخير وبالرحمة وبالبركة هو دعاء لك ، لماذا ؟ لأن كل منزلة ينالها رسول الله عائدة لأمته وللعالم أجمع .

فمن الذى يشفع عند الله فى يوم الحشر ليعجل الله بالفصل بين الخلائق ؟ . إنه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

إذن فكل خير يناله رسول الله صلى الله عليه وسلم هو خير لأمته ، فإذا دعوت له فكأنك تدعو لنفسك إنك عندما تصلى عليه مرة يصلى الله عليك عشراً . أليس فى ذلك خير لك ؟

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾

(سورة البقرة)

والمهتدون هم الذين التزموا الطريق الموصل للغاية ، والغاية هى صلوات من ربهم ورحمة ، وأنت الآن متمتع بنعم الله بأسباب الله ، وعند الله فى الآخرة سوف تتمتع بإذن الله بنعم الله وبلقاء الله .

بعد ذلك يقول الحق :

﴿ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ ﴾

والصفا والمروة جبلان صغيران ، يعرفهما الذين زاروا الأماكن المقدسة ، والذين لم يذهبوا ؛ أسأل الله أن يروهما عين اليقين ، وحين يرونهما يكون هذا علم اليقين . وهذان الجبلان كانت سيدتنا هاجر أم إسماعيل قد ترددت بينهما لتطلب الماء لولدها ، بعد أن تركهما إبراهيم عليه السلام عند بيت الله الحرام .

وبالله عليك ، فبماذا تفكر امرأة عندما يتركها زوجها مع رضيعها فى مكان

لا طعام فيه ولا ماء ؟

هنا قالت هاجر قولتها المشهورة :
- إلى مَن تكلنا ؟ آلله أمرك بذلك ؟

فقال سيدنا إبراهيم : نعم . فقالت : إذن لن يضيعنا ، لقد استغنت بالخالق عن المخلوق ، ولم تنطق مثل هذا القول إلا بوحى من المسبب ، وهذه أول قضية إيمانية مع ملاحظة الأرضية الإيمانية التى وجدت عليها ، حينما دعا إبراهيم عليه السلام ربه قائلا :

﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة إبراهيم)

وإذا قرأت « غير ذى زرع » فاعلم أنه غير ذى ماء ، فحيث يوجد الماء ؛ يوجد الزرع ، فالماء هو الأصل الأصيل فى استبقاء الحياة ، وعندما يغيب الماء عن أم ووليدها ، فماذا يكون حالهما ؟

لقد عطش ولدها وأرادت أن تبحث عن نبع ماء أو طير ينزل فى مكان لتعلم أن فيه ماء ، أو ترى قافلة تسير ومعها ماء ؛ لذلك خرجت إلى أعلى مكان وتركت الوادى ، وصعدت إلى أعلى جبل الصفا فلم تجد شيئا ، فنظرت إلى الجهة الأخرى ؛ إلى المروة ، وصعدت عليها فلم تجد شيئا . وظلت تتردد بين الصفا والمروة سبعة أشواط . ولنا أن نتصور حالتها ، امرأة فى مثل سنها ، وفى مثل وحدتها ، وفى مثل عدم وجود ماء عندها ، ولابد أنها عطشت كما عطش وليدها ، وعندما بلغ منها الجهد ، انتهت محاولاتها ، وعادت إلى حيث يوجد الوليد .

ولو أن سعيها بين الصفا والمروة أجدى ، فرأت ماء لقلنا : إن السعى وحده قد جاء لها بالماء ، لكنها هى التى قالت من قبل : « إذن لن يضيعنا » ، وهى بهذا القول قد ارتبطت بالمسبِّب لا بالسبب ، فلو أنه أعطاها بالسبب المباشر وهو بحثها عن

الماء لما كان عندها حجة على صدقها فى قولها : « إذن لن يضيعنا » . ويريد الحق أن ينتهى سعيها سبع مرات بلا نتيجة ، وتعود إلى وليدها ؛ فتجد الماء عند قدم الوليد . وهكذا صدقت هاجر فى يقينها ، عندما وثقت أن الله لن يضيعها ، وأراد الله أن يقول لها : نعم لن أضيعك ، وليس بسعيك ؛ ولكن بقدم طفلك الرضيع ؛ يضرب بها الأرض ، فينبع منها الماء . وضرب الوليد للأرض بقدمه سبب غير فاعل فى العادة ، لكن الله أراده سببا حتى يستبقى السببية ولو لم تؤد إلى الغرض .

وحين وجدت هاجر الماء عند قدم رضيعها أيقنت حقا أن الله لم يضيعها . وظل السعى شعيرة من شعائر الحج إلى بيت الله الحرام ، استدامة لإيمان المرء بالمسبب وعدم إهماله للسبب ، وحتى يقبل الإنسان على كل عمل وهو يؤمن بالمسبب . ولذلك يجب أن نفرق بين التوكل والتواكل . إن التوكل عمل قلب وليس عمل جوارح ، والتواكل تعطيل عمل جوارح . ليس فى الإسلام تواكل ، إنما الجوارح تعمل والقلوب تتوكل . هكذا كان توكل هاجر ، لقد عملت وتوكلت على الله ؛ فرزقها الله بما تريد بأهون الأسباب ، وهى ضربة قدم الوليد للأرض ، وبقيت تلك المسألة شعيرة من شعائر الحج وهى سبعة أشواط بين الصفا والمروة .

وعندما غفل الناس عن عبادة الله ، ودخلت عبادة الأصنام فى الجزيرة العربية ، أوجدوا على جبل الصفا صنما أسموه « إسافا » وعلى المروة صنما أسموه « نائلة » . وكانوا يترددون بين إساف ونائلة ، لا بين الصفا والمروة ، لقد نقلوا العبادة من خالصية التوحيد إلى شائبية الوثنية .

فلما جاء الإسلام أراد الله ألا يوجه المسلمين فى صلاتهم إلى البيت المحرم إلا بعد أن يطهر البيت ويجعله خالصا لله ، فلما ذهب بعض المؤمنين إلى الكعبة تحرجوا أن يسعوا بين الصفا والمروة ؛ لأن « إسافا » و« نائلة » فوق الجبلين ، فكأنهم أرادوا أن يقطعوا كل صلتهم بعادات الجاهلية ، واستكبر إيمانهم أن يترددوا بين « إساف » و« نائلة » ، فأنزل الله قوله الحق :

« إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن

يطوف بهما ومن تطوع خيرا فإن الله شاكر عليم » ، أى لا تتحرجوا فى هذا الأمر ، لأنكم ستسعون بين الصفا والمروة ؛ لا بين إساف ونائلة كما كان يفعل المشركون الوثنيون ، إذن فالعمل هنا كان بالنية .

لقد كانت نية السعى الأولى عند هاجر هى الإيمان بالله والأخذ بالأسباب ، لكن الوثنية قلبت قمة الإيمان إلى حضيض الكفر ، وكان لابد أن يستعيد المسلمون نية الإيمان الأولى عند زيارة البيت المحرم بالسعى بين الصفا والمروة ، فنحن فى الإسلام نرضخ لأمر الآمر ، قال لنا : « قبلوا الحجر الأسود » ، وفى الوقت نفسه أمرنا أن نرجم الحجر الذى يرمز إلى إبليس ، هكذا تكون العبرة بالنية ؛ وليس بشكل العمل ، وتكون العبرة فى إطاعة أمر الله . وكأن الحق بهذه الآية يقول للمؤمنين : إن المشركين عبدوا « إسافا » و« نائلة » ، لكن أنتم اطرحوا المسألة من بالكم ، واذهبوا إلى الصفا والمروة ، فالصفا والمروة من شعائر الله ، وليستا من شعائر الوثنية ، ولكن ضلال المشركين هو الذى خلع عليهما الوثنية فى إساف وفى نائلة . لقد أراد الوثنيون بوضع « إساف » على الصفا « ونائلة » على المروة أن يأخذوا صفة التقديس للأوثان ، فلولا أن الصفا والمروة من المقدسات سابقا لما وضعوا عليهما أحجارهم ولما جاءوا بأصنامهم ليضعوها على الكعبة ، هذا دليل على أن قداسة هذه الأماكن أسبق من أصنامهم ، لقد حموا وثنيتهم بوضع « إساف » و« نائلة » على الصفا والمروة .

وبعد أن بين الحق للمؤمنين أن الصفا والمروة من شعائر الله ، ينبه على أن المكين - ساكن المكان - لا ينجس المكان ، بدليل أن الإيمان عندما كُتِبَتْ له الغلبة ، كسر الأصنام وأزالها من الكعبة وأصبح البيت طاهرا ، وعندما كان المؤمنون يتحرجون عن أن يفعلوا فعلا من أفعال الجاهلية طمأنهم الحق سبحانه وتعالى ، وقال لهم : « إن الصفا والمروة من شعائر الله » .

وكلمة « صفا » معناها الحجر الأملس ، وأصبح كذلك من كثرة الملامسين له على مر الزمان ، وقيل : إن الصفا منسوبة إلى اصطفاء آدم ، وقيل : إن المروة منسوبة إلى المرأة التى هى حواء ، لكنه كلام يقال لا نتوقف عنده كثيرا ، لأنه علم لا ينفع

وجهل لا يضر ، فالمهم بالنسبة لنا أنه مكان ترددت بينه هاجر وهى تطلب الماء لابنها ، إن الحق جعل السعى بينهما من شعائر الله ، والشعائر هى معالم العبادة ، وتطلق دائما على المعالم المكانية ، ويقال : هذا مطاف ، وهذا مسعى ، وهذا مرمى الجمرات ، وهذا المشعر الحرام .

إن كلمة « المشعر » تعنى المكان الذى له عبادة مخصوصة ، وبما أن الصفا والمروة مكانان فقد جاء وصفهما بأنهما « من شعائر الله » . « فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما » كأن الحج والعمرة لهما شىء يجعلهما فى مقام الفرضية ولهما شىء آخر يجعلهما فى مقام التطوع ، فإن أدى المسلم الحج والعمرة مرة يكون قد أدى الفرض ، وهذا لا يمنع من أن تكرار الحج والعمرة هو تطوع مقبول بإذن الله ، له شكر من الله .

وساعة نقول : « لا جناح عليك أن تفعل كذا » فمعنى ذلك أنك إن فعلت فلا إثم عليك ، لكن ليس خطأ فى أن تفعل ، وليس فرضا فى أن تفعل ، وهذا ما جعل بعض الناس يقولون : إن السعى بين الصفا والمروة ليس ركنا من أركان الحج ، ونقول لهؤلاء : هذه آية جاءت لسبب ، وهو أنهم كانوا يتحرجون من الطواف فى مكان يطوف فيه المشركون فقال لهم : « فلا جناح عليه أن يطوف بهما » .

إن نفى الجناح لا يعنى أنك إن لم تفعل يصح ، لا ، إنه سبحانه يرد على حالة كانوا يتحرجون منها ، وقوله تعالى : « يطوف بهما » يستدعى منا وقفة ، إن الحاج أو المعتمر يسعى بين الصفا والمروة ، فلماذا وصف الحق هذا السعى بـ « يطوف بهما » ؟

لكى نعرف ذلك لابد أن نوضح معنى « طاف » و« جال » و« دار » . إن « طاف » تعنى « دار حول الشىء » ، فما هى الدورة التى بين الصفا والمروة ؛ حتى يسميها الحق طوافا ؟ . إن الدائر حول الدائرة يبدأ من أى نقطة منها كبداية ، لتكون تلك النقطة نهاية ، فكل طواف حول دائرة تجد فيه أن كل بداية فيها تعتبر نهاية ، وكل نهاية تعتبر بداية ، وأى حركة من وإلى شىء واحد يصنع دائرة .

وصحيح أن من يسعى بين الصفا والمروة لا يدور ، ولكنه سيذهب من الصفا إلى المروة ثم ينقلب عائدا إلى الصفا ، ثم منها إلى المروة ، وهكذا يصير الأمر طوافا . ومثال آخر من حياتنا اليومية ، إن الشرطى الذى يطوف لحراسة الشوارع والمنازل بالليل ، قد يلف المدينة كلها ، ويمكن أن يلف شارعاً واحداً هو مكان حراسته ، هذا الدوران فى الشارع من أوله إلى آخره عدة مرات يسمى طوافا بينهما ، وهكذا نفهم معنى « يطوف بهما » ، أى يمشى بينهما عدة مرات من بداية إلى نهاية .

وهكذا نجد أن السعى بين الصفا والمروة هو جزء من شعائر الحج والعمرة . ونجد أن الفرضية فى الحج والعمرة أساسية ، والتطوع بتكرار الحج والعمرة هو خير . « ومن تطوع خيرا فإن الله شاكر عليم » وهذا القول يقتضى أن نفهم أن الشاكر أصابته نعمة من المشكور ، فما الذى أصاب الحق هنا من تكرار الحج ؟ .

إن المؤمن عندما يؤدى ما افترضه الله عليه فهو يؤدى الفرض ، لكن عندما يزيد بالتطوع حبا فى النسك ذاته فهذه زيادة يشكره الله عليها ، إذن فالشكر من الله عز وجل يفيد أن نعمة ستجىء ، والحق سبحانه وتعالى حين يفترض على عبد كذا من الفروض يلتزم العبد بذلك ، فإذا زاد العبد من جنس ما افترضه الله عليه ، فقد دل ذلك على حبه وعشقه للتكليف من الله ، وإذا ما أحب وعشق التكليف من الله بدون أن يطلبه الله منه ويلزمه به بل حببه إليه ، فهو يستحق أن يشكره الله عليه ، وشكر الله للعبد هو عطاء بلا نهاية .
ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾

والحق سبحانه حين يعرض هذه القضية ، يبين لنا موقف الجزاء من الذين يكتمون ما أنزل الله ، لقد كتم بعض من أهل الكتاب البينات التى أنزلها الله فى الكتاب الذى معهم ، بينات تثبت صدق محمد صلى الله عليه وسلم فى نبوته ، وهذا الكتمان سيورث شرورا ، وكلما نال العالم شر من كتمانهم فسيلعنهم ، واللعن هو الطرد والإبعاد من رحمة الله .

والحق سبحانه وتعالى ينبه المؤمنين بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم إلى أن هذا الجزاء من الطرد ومن اللعن ليس مقصورا على هؤلاء ، وإنما ينسحب ويشمل كل من يكتم ما أنزل الله من البينات ، إذن فذلك فيه واقع مما حدث من أهل الكتاب ، وفيه ـ أيضا ـ تحذير للذين يؤمنون بالإسلام أن يكتموا بينات الله ؛ وإلا صاروا إلى ما صار إليه هؤلاء ، وهو اللعن .

وكلمة « اللعن » وردت فى القرآن إحدى وأربعين مرة ، وساعة تأتى للعذاب تكون للطرد والإبعاد بغضب ، وهو الخلود فى النار ، وساعة يكون الطرد إبعاد تأديب ، فلا يوجد بغضب ، لأن المؤدب لا يغضب على من يؤدبه ، وإنما يغضب لمن يؤدبه .

وعندما يحدث الطرد من بعد غضب ، فذلك دليل على أنه ليس من بعد ذلك رجعة ، فالإنسان إذا ترك لشىء صامت ليعذب به كالنار ، يقول لنفسه : « ربما جاء من يرق لحالى ويعطف على فيخرجنى من النار » ، إنه يقول ذلك لنفسه : لأن الذى يعذب به صامت لا عاطفة له ، لكن ما المخرج إذا كانت اللعنة من الله والملائكة والناس ؟ كما يقول الحق فى آية أخرى :

﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

ويتضح لنا هنا أن لعنة الله تكون فى الدنيا وفى الآخرة ، ويلعنهم اللاعنون من الناس ، وفى الآية التى نحن بصدد خواطرنا فيها نجد أن اللعنة أشمل ، لأن

« اللاعنون » تضم الناس وغير الناس من الكائنات الأخرى ، كأنَ كل من فى الوجود يشترك فى لعنهم ، وعلى سبيل المثال ، إذا حبس الله الماء عن قوم لعصيانهم ، فالنبات يلعنهم لأنه حُرم من الماء ، وتلعنهم الحيوانات لأنها حُرمت من الماء ، وتلعنهم الأمكنة لأنهم خالفوا ما عليه الأمكنة من التسبيح لله . أما لعنة الآخرة حيث لا رى لنبات أو حيوان ؛ فسيكون اللعن لهم صادرا من الله والملائكة والناس أجمعين . والناس هم بنو آدم إلى أن تقوم الساعة ، وهؤلاء منهم كافر ومنهم مؤمن ، كيف - إذن - يوجد اللعن ممن كفر مع أنه هو أيضا ملعون ؟

نقول : نحن فى الدنيا نجد من يخدع غيره فى دين الله ، وهناك من ينخدع ، فإذا ما انجلت الأمور فى الآخرة ، وانفضح الخادعون ، وأسقط فى يد المخدوعين ، فهنا يتبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ، يتبرأ الخادع من المخدوع ، ويتبرأ المخدوع من الخادع ، وكلما دخلت أمة من المخدوعين إلى النار لعنت الأمة التى خدعتها ، وكلما دخلت أمة خادعة إلى النار ، فإنها تلعن الذين استسلموا للخديعة ، يتبادلون اللعن . يقول الحق :

﴿ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ ﴾

(من الآية ١٦٦ سورة البقرة)

ويقول أيضا :

﴿ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ﴾

(من الآية ٣٨ سورة الأعراف)

إذن فاللعنة موجودة بين الكافرين بعضهم لبعض ، كما هى موجودة فى الدنيا أيضا ، فالذين يكفرون بمنهج الله وينحرفون ويظلمون ، هؤلاء يتلقون اللعنة من أهل منهج الله ، ويتلقون اللعنة من المظلومين منهم ، ثم يأتى لهم موقف آخر ، يأتى لهم من يظلمهم ، فيلعنونه ويلعنهم ، وهكذا يلعنهم الناس أجمعون .

واللعن بطرد وغضب وزجر يختلف عن اللعن التأديبى الذى يأخذ صيغة الإبعاد ، كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم مع المتخلفين فى غزوة تبوك ، وغزوة تبوك كانوا يسمونها غزوة العسرة ، لأنها جاءت فى مشقة من كل جهاتها ، لبعد المكان بين تبوك والمدينة ، ومشقة أخرى من نقص الدواب التى تحمل المقاتلين ، فقد كان كل عشرة من المقاتلين يتناوبون على دابة واحدة ، ومشقة وعسرة فى الزاد ، حتى أنهم كانوا يأكلون التمر بدوده ، وكانوا[1] يأكلون الشحم والدهن والإهالة الزنخة ، وعسرة فى الماء حتى أنهم كانوا يذبحون البعير ليشربوا من فرثه وكرشه الماء ، وعسرة فى الجو القائظ الشديد الحرارة ، كانت كل الظروف صعبة وقاسية وتحتم ألا يخرج للغزوة إلا الصادق فى يقينه .

لقد كانت تلك الغزوة اختبارا وابتلاء للايمانية فى نفوس الناس . ولذلك فإن بعضهم استسلم لحديث النفس فى أن يظل بالمدينة ، وقال واحد منهم : « أظل ظليل وراحة ورسول الله صلى الله عليه وسلم فى القيظ ؟! والله لا يكون هذا أبدا » ، ثم قام وتبع جيش المؤمنين ، وآخر عنده بستان فيه ظلال وثمار ؛ فنظر إلى بستانه وقال : « أأنت الذى منعتنى أن أكون فى ركاب رسول الله ؟! والله لا تكون منكى بعد الآن ، وأنت لله فى سبيل الله » ، وثالث جلس فى بيته وأمامه زوجته الجميلة وحوله أشجار وزروع ، فقال : « أأجلس فى ظل ورطب وماء وامرأة حسناء ورسول الله فى حَمارة القيظ ، والله لا يكون هذا أبدا» وامتطى حصانه إلى الصحراء لينضم لجيش المسلمين .

وعندما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم منتصرا اعتذر له من لم يشاركوه رحلة النصر بأنهم كانوا لا يملكون وسائل الحرب من دواب ودروع وسيوف ونبال ، فقبل رسول الله علانيتهم وترك سرائرهم لله ، إلا ثلاثة صدقوا وقالوا : « يارسول الله ما كنا أغنى منا ساعة امتنعنا عن الذهاب معك فعندنا عدة الحرب والدواب » .

---

(١) إن هذا أمر نجده الآن فى تدريب الفرق الخاصة فى الجيوش ، إنهم يعودونهم ويدربونهم على أكل وشرب مايجدونه من طعام أو شراب يحفظ حياتهم ، إذ قد يحدث ما يمنع إمدادهم بالطعام أو الشراب ، وذلك استبقاء لحياتهم ودفاعا عن أوطانهم .

لقد أمر رسولَ الله الناس ألا يكلموهم ولا يتعاملوا معهم ، واستكان اثنان منهم وظلا فى بيتهما ، وهما هلال بن أمية ، ومرارة بن الربيع ، أما كعب بن مالك فكان يخرج ويلقى الناس فلا يكلمه أحد ، ويذهب للصلاة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ويسارق النظر إلى النبى ويسلم عليه ، لكن رسول الله لا يرد ، ويغض طرفه ويعرض عنه ، حتى أن كعباً يقول : « فأنظر هل حرك رسول الله شفتيه برد السلام أم لا ؟ » .

لماذا كل ذلك ؟ . لقد أرادها النبى صلى الله عليه وسلم وسيلة إيضاح لكيفية إبعاد التأديب . وضاقت الدنيا على الثلاثة ، وذهب كعب إلى ابن عمه أبى قتادة وتسلق عليه الحائط ، لأنه يعلم أنه لو طرق الباب فلن يفتح له . ورغم تسلق الحائط إلا أن ابن العم أعرض عنه ، فقال راجيا:« أنشدك الله ، أنشدك الله ، أنشدك الله » كل ذلك وابن عمه لا يرد عليه ، ثم قال له : « تعلم أنى أحب رسول الله » . فلم يرد عليه ابن العم وظل يتوسل سائلا عن موعد العفو ، فقال أبوقتادة : « الله ورسوله أعلم » .

فلما مضت أربعون ليلة على هذا الإبعاد ، فإذا برسول الله صلى الله عليه وسلم يُصَعِّدُ التأديب فيطلب من الرجال الثلاثة ـ من خلال رسول أرسله إليهم ـ ألا يقربوا نساءهم . لقد دخل العزل إلى دائرة جديدة هى دائرة المجتمع الخاص حيث الرجل وامرأته ، فقال كعب لرسول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أطلق زوجتى » ؟ . قال الرسول : « بل لا تقربها » . وقال قوم لكعب : اذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أو فلتذهب امرأتك لتستأذنه فى أن تظل معك لتخدمك ؛ فقد استأذنت امرأة هلال بن أمية رسول الله ؛ فأذن لها أن تخدم زوجها . فقال كعب : والله لا أفعل ، لأن امرأة هلال حينما ذهبت إلى رسول الله قال لها : « لا يقربنك » فقالت : « يا رسول الله والله إن هلالا ما به حركة لشىء » فأذن لها أن تظل لتخدمه . لكنى رجل شاب وأخاف أن استأذن رسول الله فلا يعطينى هذا الحق .

هكذا كان إبعاد التأديب ، وليس بالطرد الكامل من حظيرة الإيمان ، بدليل أن

رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل من يتلقوْن التأديب أهلا لأوامر يلقيها عليهم ، ثم جاءت البشرى بالإفراج بعد عشرة أيام عندما أنزل الحق قوله :

﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾

(سورة التوبة)

وهكذا لم يقفل الحق الباب بل جعله مفتوحا أمام الإنسان ، حتى لمن كفر ، وحتى لمن كتم ، فلا يظن أن سابق كفره أو كتمانه أو تراخيه عن نصرة الحق سيغلق أمامه الباب ، أو يحول بينه وبين ربه ، لذلك يقول الحق :

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ ﴾

أى أعلنوا التوبة وهى أمر ذاتى ، وأصلحوا بمقدار ما أفسدوا ، وبينوا للناس بمقدار ماكتموا ، إذن شرط التوبة أن يعود كل حق لصاحبه ، فالذى كتم شيئا عليه أن يبينه ، فالكتمان لا يؤثر فقط فى العلاقة بين العبد والرب ، ولكنه يضر العباد ، والحق سبحانه حين يفتح باب التوبة للعبد يقول :

﴿ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْۚ ﴾

(من الآية ١١٨ سورة التوبة)

ومادة « تاب » تعنى الرجوع إلى الله ، فعندما يتوب العبد فهو يعود إلى ربه طالبا المغفرة عن العصيان والذنب ، وعندما يتوب الله على عبد ، فذلك يعنى أن الله قبل توبته ، فبعد أن كان مقدرا له أن يُعذب فإن الله يعفو عنه فلا يُعذِبهُ ، إذن فالتوبة كلها رجوع إلى الله ، وحين تُقدم التوبة من الله على التوبة من العباد فى قوله : « تاب عليهم ليتوبوا » ، فمعنى ذلك أن الحق شرع التوبة وقننها ليفتح باب الرجوع إليه ، فهناك ثلاث مراحل للتوبة :

المرحلة الأولى : هى أن الله شرع التوبة .
المرحلة الثانية : هى أن يتوب العبد .
المرحلة الثالثة : أن يقبل الله التوبة .
وكلها تعنى الرجوع عن المعصية والذنب .

إذن فأى إنسان يذنب ذنبا لابد أن يصلح هذا الذنب من جنس مافعل ، فإن فعل ذنبا سرا فيكفيه أن يتوب سرا ، أما إن كسر حدود الله علنا ، فنقول له : لا يستقيم أبدا أن تعصى الله علنا أمام الناس وتكون أسوة سيئة لأناس تجعلهم يتجرأون ويكسرون حدود الله ثم تتوب بينك وبين الله سرا ، لابد أن تكون توبتك علنا ، ولذلك فالمثل العامى يقول : « تضربنى فى شارع وتصالحنى فى حارة » .

إن الذى يكسر حدا من حدود الله أمام الناس نقول له : لابد أن تعلن توبتك أمام الناس جميعا ، ولذلك نحن ندرأ الحدود بالشبهات ، لكن الذى يتباهى بأنه ارتكب الذنب لا نتركه ، مثلا الذى شهد عليه أربعة بأنه ارتكب ذنبا من الكبائر كالزنى ، لقد ظل يفعل الذنب باشتهتار إلى أن شهد عليه أربعة ، هل يعقل أن نقول له : ندرأها بالشبهات ؟. لا . هو كسر الحد علنا فوجبت معاقبته بإقامة الحد .

وأما الذين تابوا وأصلحوا ما أفسدوه وَبَيَّنوا للناس ما كتموه فجزاؤهم توبة من الله .

ومن لطف الله بالإنسان أن شرع التوبة حتى يشعر الناس بالذنب ، وجعلها من

فعل التائب ؛ ومن فعل قابل التوبة ، وهو الله سبحانه فقال : « تابوا » و« أتوب » ، كل ذلك حتى لا يستشعر الانسان عندما يرتكب ذنبا ويتوب أنها مسألة مستعصية ، إن الحق يقول : « فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم » إنه سبحانه يتوب على من تاب عن الذنب ويتوب عن المذنبين جميعا ، فهو تعالى « تواب » وهى كلمة تعنى المبالغة فى الصفة .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ ﴾

إنهم الذين أصروا على عدم التوبة فكان جزاؤهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين . ويضيف سبحانه :

﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾ ﴾

وساعة يأتى الحق فى عذاب الكافرين ويتكلم عن النار عذابا وعن الزمان خلودا ثم يُصَعِّد الخلود بالأبدية ، فنحن نعرف بذلك أن هناك عذابًا فى النار ، وخلوداً فيها ، وأبدية . ولأن رحمة الله سبقت غضبه فى التقنين العذابى ، لم يذكر الخلود فى النار أبداً إلا فى سورة الجن ، قال :

﴿ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴾

(من الآية ٢٣ سورة الجن)

ومادام فيه مقيد ، فإن كل مطلق من التأبيد يُحمل عليه ، وكون الحق لم يأت بكلمة « أبداً » عند ذكر العذاب ، فهذا دليل على أن رحمته سبقت غضبه حتى فى تقنين العذاب ، وهناك إشكال يَرِدُ فى سطحية الفهم فحين يقول الحق :

﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾ ﴾

(سورة هود)

فإنّ الحق يتحدث عن يوم الحشر ، وعن البشر شقيهم وسعيدهم ، فالذين شقوا ففى النار لهم فيها زفير وشهيق ، ولنا أن نتخيل صورة التنفس داخل النار وسط جوها المكفهر باللهب . إن الإنسان يتنفس ليستروح بالهواء ؛ فكيف يأخذه من النار ؟. إن فى ذلك عذابًا عظيمًا . وأهل النار خالدون فيها مادامت السماوات والأرض .

ويتساءل السطحيون « إن الله يضع الذين شقوا فى النار مادامت السماوات والأرض ، ويقول القول نفسه عن الذين سعدوا بالجنة » ونقول لهم : السماوات والأرض الآن ؛ تختلف عن السماوات والأرض فى الآخرة ، إن السماوات والأرض فى الدنيا هى أسباب ومعاش ، أما فى الآخرة فنحن لا نأكل بالأسباب ، إنما بالمسبب ، نحن نحيا فى الآخرة بكلمة « كن » ، ولا نعيش بأسباب الحرث والزرع والمطر . إن الحق يبدل السماوات والأرض فى اليوم الآخر ، واقرأ إن شئت قول الحق :

﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ﴾

(من الآية ٤٨ سورة إبراهيم)

ومن هذا القول نفهم أن المقصود هو السماوات والأرض المبدلة . ونلحظ أن الحق جاء فى أمر خلود الأشقياء بالمشيئة فقال : « إلا ما شاء ربك » ، فكأن خلود الأشقياء فى النار تنقضه وتضع نهاية له مشيئة الله؛لأن الأشقياء ليسوا هم الكفار فحسب ، بل منهم بعض المؤمنين العصاة ، وهؤلاء المؤمنون العصاة الأشقياء سيدخلون النار على قدر حظهم من المعاصى ، وساعة تقوم الساعة ويأتى الجزاء يدخلون النار ويأخذون جزاءهم ، لكن بعد أخذ الجزاء يخرجون ، إذن ، فسينتهى الخلود من آخر الزمن ، فيكون المعنى : « إلا ما شاء ربك » أن يستمروا فى النار إلى وقت محدد .

أما بالنسبة للجنة . فالاستثناء يكون من البدء ، لماذا ؟ لأن المؤمن الذى عصى الله لن يدخل الجنة من البداية ، وإنما سيقضى فترة فى النار ثم يدخل الجنة ، إذن فالخلود فى الجنة بالنسبة له قد نَقَصَ من أوليته . أما الشقى فالخلود فى النار نقص من آخريته ، إذن « إلا ما شاء ربك » ؛ تعنى أن المؤمن العاصى لن يدخل الجنة من بدء الآخرة . إذن « إلا » هنا جاء لاستثناء الزمن من أوله بالنسبة للسعداء ، أو استثناء الزمن من آخره بالنسبة للعصاة الأشقياء ، ولذلك لا تجد تناقضا ، ذلك التناقض الذى تصنعه سطحية الفهم .

أما قوله الحق : « لا يخفف عنهم العذاب » فهو أن الإنسان عندما يُعذب بشىء فإن تكرار العذاب عليه ربما يجعله يألف العذاب ، لكن الواقع يقول:إن العذاب يشتد عليه ، فالتخفيف لا علاقة له بالزمن ، وقوله الحق : « ولا هم ينظرون » نعرف منه أن الإنظار هو الإمهال ، والمعنى أنهم لا يؤخرون عن عذابهم ؛ أو لا ينظرون بمعنى لا يُنظر إليهم . وهناك آية تفيد هذا المعنى فى قوله تعالى :

﴿ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ ﴾

(من الآية ٧٧ سورة آل عمران)

لأن النظر يعطى شيئا من الحنان ، ولماذا قال : لا يُنْظَرون ؟ . لأنك قد تتجه ناحيته فتنظره دون قصد ، بتلقائية . ولكن النظرة لا تتجه عطفا عليه ، وهو سبحانه

لا ينظر إليهم أساسا ، لأن النظرة قد توحى بلون من الشفقة ، بذلك تكون لا ينظرون ؛ أى لا يُنظر إليهم أبداً ، فكأنهم أهملوا إهمالا تاماً .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ ﴾

وتلك هى قضية الحق الأساسية ، و« إلهكم » يعنى أن المعبود إله واحد ، فالواقع أن الإله الحق موجود قبل أن يوجد الكفر .

و« لا إله إلا هو » هذه قضية ثانية ، لأن غفلة الناس هى التى جعلت بعضا من نفوس الناس تلتفت إلى آلهة أخرى .

وقوله الحق أنه سبحانه: « إله واحد » أى ليس له ثان ، والفارق بين « واحد » و« أحد » هو أن « واحد » تعنى ليس له ثان ، و« أحد » يعنى ليس مركباً ولا مكوناً من أجزاء ، ولذلك فالله لا يمكن أن نصفه بأنه « كُلّ » أو « كُلّى » لأن « كل » يقابلها « جزء » ، و« كلى » يقابلها « جزئى » ، و« كل » هو أن يجتمع من أجزاء . والله متفرد بالوحدانية ، وسبحانه المنزه عن كل شىء وله المثل الأعلى ، وأضرب هذا المثل للتقريب لا للتشبيه ، إن الكرسى « كل » مكون من خشب ومسامير وغراء وطلاء ، فهل يمكن أن نطلق على الخشب أنه « كرسى » أو على المسامير أو على الغراء أو على الطلاء ؟ . لا . إذن كل جزء لا يطلق على « الكل » ، بل الكل ينشأ من اجتماع الأجزاء .

و« الكلى » يُطلق على أشياء كثيرة ؛ لكن كل شىء منها يحقق الكلى ، فكلمة « إنسان » نقول عنها « كلى » ؛ جزئياتها محمد وزيد وبكر وعمر وخالد ، فنقول :

زيد إنسان ، وهو قول صحيح ، ونقول عمر إنسان وذلك قول صحيح .

والله سبحانه وتعالى لا هو «كلى» لأنه واحد ، ولا هو «كل» لأنه أحد .

إن القضية الأساسية فى الدين هى «وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو» والقرآن لا ينفى ويقول : «لا إله إلا هو» إلا حين توجد غفلة تعطى الألوهية لغير الله ، أو تعطى الألوهية لله ولشركاء معه ، إن القرآن ينفى ذلك ويقول : «لا إله إلا هو الرحمن الرحيم» وليس هناك شىء غير الله إلا نعمة منه سبحانه أو مُنعَم عليه .

إن ما دون الله إما نعمة وإما منعم عليه بالنعمة ، وهذه كلها نفح الرحمن ، ونفح الرحيم . ومادام كل شىء ماعدا الله إما نعمة وإما منعم عليه فلا توصف النعمة بأنها إله ، ولا يقال فى المنعم عليه:إنه إله ، لأن المُنعم عليه معناه أن غيره أفاض عليه نعمه ، لأن النعمة موهوبة ، والمُنعَم عليه موهوب إليه ، فإذا كانت هبة أو موهوبة إليه فلا يصح أن تكون إلها ، لكن الذين يُفتنون إنما يُفتنون فى الأسباب ، والحق سبحانه وتعالى هو المسبب لكل الأسباب .

وبعد ذلك يلفتنا الحق سبحانه إلى خدمة هذه القضية فيدعونا أن ننظر فى الكون ونتأمل فى النعمة الموجودة لنا ، وبعد ذلك فأنت يا من أنعم الله عليه بهذه النعمة إن وجدت أحدا يدعيها لنفسه فأعطها واتركها له وانسب النعم إلى موجدها وهو الله ، وإياك أن تشرك فى نعمة الله أحداً غيره ، لأن الله يقول : فى الحديث القدسى :

«أنا أغنى الشركاء عن الشرك فمن عمل عملا أشرك فيه غيرى تركته وشركه»[1] .

ويلفتنا الحق إلى الكون ، فيقول :

---

(١) حديث قدسى أخرجه مسلم وابن ماجه.

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ
وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ
مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا
مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ
بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾

إن الله سبحانه برحمته خلق الإنسان منعماً عليه ، وخلق كل ما فى الكون نعمة له ، ويلفتنا إلى الدليل على هذه القضية بالكون نفسه . ويحدد مظاهر فى الكون لم يدّع أحد أنه خلقها وأوجدها ، فإذا ما جاء الناس الذين لا يؤمنون بالإله الواحد يزحزحون الألوهية إلى سواه نقول لهم : هذا الكون العجيب الذى يتمثل فى الأرض ويتمثل فى السماء ، ويتمثل فى اختلاف الليل والنهار ، ويتمثل فى الفلك التى تجرى فى البحر ، ويتمثل فى ما أنزل الله من السماء من ماء ، ويتمثل فى السحاب المسخر بين السماء والأرض ؛ كل هذه الآيات ـ أى الأمور العجيبة ـ . . تلفت إلى أن موجدها أعظم منها .

إنه سبحانه يريد أن ينبه العقل إلى أن يستقبل نعمة الوجود فى ذاته وفى الكون المسخر له ليستنبط من هذه الآيات العجيبة صدق الله فى قوله : « . . وإلهكم إله واحد » ، لأنه ليس من المعقول أن يخلق غير الله كل ذلك الخلق ثم يسكت عنه ! ، فضلا عن أن أحداً لم يدع أنه خلقها ، ومادام لم يدع أحدٌ ذلك ، وأنت أيها الإنسان لم تخلقها ، ورغم الكفر والعناد لم يدع أحد هذه القضية قط ، إذن سيظل الملك لله وحده إلى أن يقول أحدٌ:أنا لى الملك ، ولم يوجد إلى الآن من يجرؤ على هذه الكلمة ، وهذا دليل على أن الله واحد أحد . إن الحق سبحانه يقول :

﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾

(سورة غافر)

لماذا ؟ . لأن الناس من الأرض قد خُلقوا ، وبما فى الأرض عاشوا ، فالأصل هو أن خلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس ؛ فالناس أبناء الأرض ، واقتياتهم منها وبقاء حياتهم عليها . ومن المعقول أن الحق سبحانه قد خلق ما يخلق منه الإنسان قبل أن يخلق الإنسان ، وحتى يعيش ذلك الإنسان أمده الله بجنس ما خُلِق منه . واذكروا جيدا أننا قلنا إن الله حين يعرض قضية الخلق للإنسان ؛ فهو سبحانه يعرضها عرضا فيه مناعة ضد أى قضية أخرى تناقضها . ولذلك يقول لنا:إن خلق السموات والأرض وخلقكم هو أمر غيبى ، ومادام أمرا غيبيا فلا رائى له ولا مشاهد له إلا الذى خلقه ، فخذوا علم الخلق منه ، ولذلك قال سبحانه وتعالى :

﴿ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ ﴾

(سورة الكهف)

فيجب أن نحذر هؤلاء المضللين الذين يحاولون إضلالنا بقضايا ليست حقيقية ، فالحق قد علم أزلا بأنه سيوجد قوم يقولون:إن السماء والأرض خلقتا بطريقة كذا ، والانسان خلق بأسلوب كذا ، وعندما نسمع هؤلاء نقول : هؤلاء هم المضللون ، وقد نبهنا الله أزلا إليهم .

إذن ، فوجود المضللين هو عين الدليل على صدق الله ، هؤلاء الذين قالوا:الأرض كانت جزءا من الشمس وانفصلت عنها ، والإنسان أصله قرد ، لأنه لو لم يوجد مضللون لقلنا : « أين يارب ما قلت عنهم إنهم مضللون ؟ » .

وحينما يعرض الله سبحانه وتعالى أنه خلقنا من الأرض ؛ وجعل اقتياتنا منها ، فإن العلم يأتى ـ حتى من الكافرين بالله ـ ليؤيد هذه القضية . فحينما حللوا الإنسان ؛ وجدوه مكونا من ستة عشر عنصرا ، وحللوا الطين الذى يأتى منه الزرع

والخصوبة فوجدوه ستة عشر عنصرا أيضا تتطابق مع عناصر الإنسان ، أولها الأكسجين وآخرها المنجنيز . وعلى ذلك فالحق عندما يقول : أنا خلقت الإنسان من طين . نقول له : صدقت يا رب فقد جعلت اقتياتنا مما يخرج من الطين .

إذن فمسألة خلق السماوات والأرض يجب أن يبدأ منها التعجب ، وأنت أيها الإنسان يجب أن تفطن إلى ما خُلق لك لتستدل على خالقك ، ولتؤمن ولتشهد أنه إله واحد ، وإن حاول أحد إضلالك وقال لك:هناك إله آخر ، فقل : لا إله إلا هو سبحانه .

وحين يتكلم الحق عن الانسان فهو سبحانه يتكلم عن مكين فى الكون ، وهذا المكين فى الكون يحتاج إلى شيئين : إلى زمان ، وإلى مكان . والمكان للإنسان هو الأرض التى يسير عليها والسماء التى تظلله ، والزمان هو ما ينشأ من الليل وما ينشأ من النهار ، ولذلك يريد الحق سبحانه أن يعطينا العبرة فى اختلاف الليل والنهار . ومعنى اختلاف الليل والنهار أن كلا منهما يأتى خلف الآخر ، النهار يأتى خلف الليل ، والليل يأتى خلف النهار .

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ ﴾

(سورة الفرقان)

فاختلاف الليل والنهار يعنى ألا يكون النهار سرمدا أى دائما لا ينقطع ، ولا يكون الليل كذلك سرمدا ، ولذلك فإن هناك آيات أخرى يمتن فيها الحق علينا بهذه النعمة فيقول :

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ

ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾

(سورة القصص)

إذن فأنت أيها المتحرك فى الكون ينطبق عليك ما ينطبق على كل متحرك ، لابد لك من سكون بقدر حركتك ، ولذلك انقسم الزمان إلى ليل تسكن فيه ، وإلى نهار تتحرك فيه ، ولذلك يقول الحق :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا ﴾

(من الآية ٤٧ سورة الفرقان)

ويعلم سبحانه أزلا أنه لا يمكن أن يكون الليل ـ أى وقت الراحة ـ سباتا لكل الناس ، بل لابد من أناس يقومون بأمور تقتضى اليقظة بالليل ، ولهؤلاء يقول سبحانه :

﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾

(من الآية ٢٣ سورة الروم)

إنه يعطى فرصة لهؤلاء الذين تظل عيونهم ساهرة طوال الليل ليستريحوا بالنهار .
إذن فمن عظمة الحق أنه جعل الزمان خلفة ، فلو كان الليل سرمدا والنهار سرمدا لفسدت الحياة ، ولذلك نجد أن الحق أقسم بقوله :

﴿ وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ ﴾

(سورة الضحى)

فالضحى محل الحركة والكدح ، والليل محل السكون ، ولابد أن يوجد الاثنان معا . والحق سبحانه يقول : « إن فى اختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر » وكلمة « فلك » يستوى فيها المفرد والجمع ، كقوله عن سفينة نوح :

« واصنع الفلك بأعيننا » . يعنى يصنع سفينة واحدة أما الفلك التى تجرى فهى كل الفلك . وكيف يكون جريان الفلك فى الماء آية ؟ . إن الإنسان يدرك أن الماء لو لم يكن على هذه السيولة ، لما استطاعت المراكب أو الفلك الإبحار فوقه ، بل لابد أن يكون الماء سائلا حتى تستطيع أن تجرى فوقها الفلك ، وقبل اختراع آلات البخار كانت هذه الفلك تجرى فى البحر بقوة الرياح ، لماذا ؟ . لأن المائية تنقسم قسمين :

- مائية أنهار .
- ومائية بحار .

ومياه الأنهار تجرى دائما من أعلى إلى أسفل ناحية المصب ، ولذلك فمن المعقول أن نسلم جريان السفينة فيها إلى مجرى الماء ، ولكن إذا كنا نريد أن نسيرها عكس جريان الماء ؛ فلابد من الريح ليساعدنا على ذلك ، ونحن نأخذ كلمة الريح على أنها الهواء . ولكن الريح هى القوة ؛ لأن الله سبحانه يقول :

﴿ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾

(من الآية ٤٦ سورة الأنفال)

يعنى قوتكم ، أى أن النزاع إنما ينتج عنه تبديد القوة ، وكانت الريح قوة ظاهرة ، وعندما توصل الإنسان إلى اختراع آلة البخار وتم تشغيل السفن به ، استغنى الإنسان عن تشغيل السفن بالريح . وهكذا نعرف أن كلمة « الريح » تؤخذ على أنها الرياح ، وتؤخذ أيضا على أنها مطلق القوة ، وتؤخذ ثالثا على معنى الرائحة .

والقرآن يوضح لنا ذلك ، فعند استخدام معنى الريح كمطلق القوة نجد القرآن يقول :

﴿ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ﴾

(من الآية ٣٣ سورة الشورى)

أى أن الله حين يشاء يعطل القوة المحركة لأى شىء فهو سبحانه يفعل . أما عن معنى الريح كرائحة فنحن نجده فى قوله الحق :

﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ﴾

(من الآية ٩٤ سورة يوسف)

إن يعقوب والد يوسف عليهما السلام كان يملك حاسة شم قوية ، فعندما خرجت القافلة من مصر ، قال والده : إنى أشم رائحة يوسف . وفى الريف نحن نسمع من يقول : « سأنتقم من فلان ولا أجعل له ريحة فى الأرض » ، ويقصد أنه لن يجعل له أثرا فى الأرض ، ولماذا استخدم هنا كلمة الرائحة ؟. لقد ثبت حديثا فقط أن الرائحة هى أبقى الآثار بالنسبة إلى الكائن الحى ، بدليل أن الذين عندهم حاسة الشم قوية من الكائنات كالكلاب البوليسية يستدلون برائحة الجانى على مكان وجوده ، كأن الجانى يترك أثرا لرائحته فى مكان الجريمة ، وكل ما هو مطلوب أن يوجد من له حاسة شم قوية ليستدل عليه .

والحق سبحانه وتعالى أعطانا العقل ، ولكنه أبقى لبعض منا ولغير العاقل ما لا تستطيع أغلبيتنا أن تصل إليه ، وأصبح الكلب الذى هو حيوان بهيم أعجم يستدل على أشياء لا نستطيع نحن أن نستدل عليها ، لأنه لايزال فى عالم الحس فقط ، بينما الإنسان أخذ جانبا من عالم الحس . وجانبا من العقل .

وقوله الحق : « وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها » فهل يعنى هذا القول أن الماء فى السماء ؟. لا . إن الماء أصله فى الأرض ، لكن ماء الأرض الثابت لا ينفع لرينا ولا لرى زرعنا إنه ملح أجاج مُرٌّ ، والذى يوجد على الأرض منه هو مخزون فقط ، ولذلك وضع الله له المواد الكيماوية التى تجعله لا يفسد ولا تتغير صفاته وطبيعته ، ثم تتسع رقعة الماء على قدر اليابس ثلاث مرات ، لماذا ؟. لأن الله يريد أن تتسع صفحة الماء اتساعا يجعل للبخر مصادر كبيرة واسعة ، هذا البخر هو عملية التقطير الإلهى .

إن انزال الماء من السماء هو الذى نراه على هيئة المطر ، لكن تسبق نزوله مراحل متعددة هى بخر وتكثيف وتلقيح الرياح للسحاب وغيرها . وتلك المراحل المتعددة اهتدينا إليها مؤخرا ، بدليل أننا حاولنا تقليد هذه الدورة ، بأن نبخر الماء المالح ونكثفه لنستخرج ماء مقطرا ، لكن ذلك له تكاليفه المالية العالية ، فكوب واحد من الماء المقطر يستغرق وقتا ويستلزم جهدا وتكاليف بينما المعمل الإلهى يدر لنا ماء غدقا لا حصر لكمياته ، إن هذا المعمل يعمل ونحن لا ندرى .

إن الدورة المائية تبدأ بصعود البخار من الماء ، وبعد ذلك يصادف منطقة باردة فينزل ماء عذبا . ومن دقة الخالق الحكيم سبحانه أن جعل منسوب الماء العذب دائما أعلى من منسوب الماء المالح ، فلو كان منسوب المالح أعلى من العذب فسيطغى عليه ويفسده ، ولا نجد ماء نشربه ، لكن الخالق الحكيم جعل منسوب المياه العذبة فى الأنهار أعلى من ماء البحار والمحيطات حتى ينساب الماء من النهر إلى البحر ؛ وذلك لا يسبب ضررا .

فالحق سبحانه وتعالى يعلمنا أنه أنزل من السماء ماء ، كيف ينزل هذا الماء ؟ . هذا ما عرفناه مؤخرا ، وبالماء العذب يُحيى الله الأرض بعد موتها ، وماهو الموت ؟ إن الموت هو ذهاب الحركة ، كذلك الأرض عندما تجف فلا تبقى لها حركة ، ونحن لا نستطيع بحواسنا أن ندرك حركة الأرض أثناء نمو النبات ، لكن الله عز وجل يؤكد ذلك فى قوله :

﴿ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ﴾

(من الآية ٥ سورة الحج)

فالأرض عندما ينزل عليها المطر تنتفخ قشرتها ، وتطفو تلك القشرة على سطح الأرض ، ثم ماذا يحدث ؟ .

﴿ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾

(من الآية ٥ سورة الحج)

وهذا هو معنى قوله تعالى : « فأحيا به الأرض بعد موتها » . ثم تمضى الآية « وبث فيها من كل دابة » أى نشر فيها كل ما يدب على الأرض ، و« تصريف الرياح » ومعنى التصريف هو التحويل والتغيير ، أى توجيه الرياح إلى نواح مختلفة سواء إلى الشمال أو الجنوب أو الشرق أو الغرب ، وهذا الاختلاف لم يجعل للهواء مساراً رتيباً ، وعندما نتأمل عملية الاستطراق فى الهواء نجد أنها تعطى اعتدالا مزاجيا للهواء ، فمرة يأتى من ناحية حارة ؛ ليهب على المناطق الباردة ، ومرة يأتى من المناطق الباردة ؛ فيهب على المناطق الحارة ، وهذا التصريف نعمة من نعم الله ، فلو كانت الرياح ثابتة لصارت مرهقة للبشر .

ونحن نسمع عن أسماء الرياح مثل الصبا والدابور ، وريح الشمال ، وريح الجنوب ، والنكباء ، والزعزع ، والصرصر ، وساعة تسمع كلمة « رياح » بصيغة الجمع ، فلنعلم أنها للخير ، وإن جاءت « ريح » بصيغة المفرد فلنعلم أنها ريح عقيم ضارة . مثل قوله الحق : « بريح صرصر عاتية » ، لكن هذه القاعدة كسرتها آية واحدة فى قوله تعالى :

﴿ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ ﴾

(من الآية ٢٢ سورة يونس)

لماذا ؟ . لأن الريح لو اختلفت على السفينة لكانت كارثة ؛ فكان لابد أن تأتى الرياح إلى السفينة من اتجاه واحد ، ولذلك لم يترك الله كلمة « ريح » مطلقة ، وإنما وصفها بأنها ريح طيبة . وفى قول آخر يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ ﴾

(من الآية ٢٢ سورة يونس)

إنه سبحانه يلفتنا إلى قدرته ، حتى لا يعتقد أحد أن الله خلق الخلق وخلق لهم قانونا ثم تخلى عن حكمهم ، لا ، إنه سبحانه هو ما يزال قيوم السماوات والأرض وله مطلق القدرة .

« والسحاب المسخر بين السماء والأرض » .

والتسخير معناه حمل الشيء على حركة مطلوبة منه لا اختيار له فيها ، والله يسخر السحاب لأنه يريده أن يمطر هنا ، فيأتى مسخر الرياح فيسوقه إلى حيث يريد الله ، وأنت قد تنتفع بمطر ينزل من سحابة فى غير مكانك ، ونحن ننتفع ـ فى مصر ـ بماء النيل برغم أن المطر ينزل فى جنوب السودان ، وفى هضاب الحبشة ، ولو اقتصرنا على الماء الذى ينزل من سماء مصر لكنا قد هلكنا عطشا ، وهذا يؤكد معنى قوله تعالى :

﴿ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ ﴾

(من الآية ٥٧ سورة الأعراف)

إن السحاب يسير مسخرًا إلى غاية مطلوبة منه ولا إرادة له فيها . ويختم الحق الآية بقوله:« لآيات لقوم يعقلون » أى أنها عجائب لقوم يعقلون . وحين يقول الحق: « لقوم يعقلون » فكأنه ينبه المَلَكَة المفكرة العاقلة فى الإنسان . وحين يخاطبك مخاطب ؛ وينبه فيك الملكة العاقلة ؛ فاعلم أن ما يخبر به ينتهى عقلك إليه بمجرد أن تفكر ، وإلاّ لو لم يكن الأمر كذلك ؛ ما كانت هناك ضرورة أن يذكر لك كلمة العقل .

والقرآن الكريم دائما يقول : « يتفكرون » ، و « يعقلون » و« يتدبرون » و « يتذكرون » وكل ذلك معناه أنهم لو فكروا ، ولو عقلوا ، ولو تدبروا ، ولو تذكروا ؛ لانتهوا إلى الحقيقة التى يريدها الله . والحق سبحانه وتعالى ينبه المسلم دائما لأن يستقبل الأمور بعقله وبفكره وبتدبره وبتذكره ، لأنه سبحانه يعلم أن الإنسان إذا فكر أو عقل أو تذكر أو تدبر فسوف ينتهى إلى ذات القضية .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ ﴾

الند هو الشبيه والنظير ، والكافر هو من يجعل لله شبيها ونظيرا ، والمشركون لا يخلون الله عن الألوهية ، إنما يشركون معه غيره أندادا ، وهم يحبون هؤلاء الأنداد كحبهم لله ، أو يُحبونهم كحُبكم أنتم لله ، فكما يُحب المؤمن ربه ؛ يحب الكافر إلهه الذى اتخذه معبوداً . « والذين آمنوا أشد حبا لله » لماذا ؟ . لأن هذا هو الحب الذى لا يختلف عليه أحد ، ولكن حُب هؤلاء المشركين للآلهة المتعددة المزيفة يختلف ؛ فعندما يمس المشرك الضر يضرع إلى الله وليس إلى الآلهة المزيفة ، مصداقا لقوله تعالى :

﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا ﴾

(من الآية ١٢ سورة يونس)

إن المشرك يكتشف بفطرته كذبه على نفسه فى مسألة اتخاذه أندادا لله ، ولذلك ، إذا عزت عليه الأسباب ، ووقع فى مأزق فهو لا يخدع نفسه ويقول : يا صنم أنجدنى . وإنما يقول : « يارب أنقذنى » . أما المؤمن فهو لا يغير حُبه لله أبداً ،

٨٨٨

المؤمن يحب ربه فى السراء والضراء ، وعلى ذلك يكون الذين آمنوا أشد حباً لله ، لأنهم لا ينسونه ، لا فى الرخاء ولا فى الشدة ، لكن الكافرين لا يعرفون الله الحق إلا فى الشدائد ، فإذا مرت المسألة فإنهم يسلكون كما يصف القرآن سلوك كل كافر منهم :

﴿ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ﴾

(من الآية ١٢ سورة يونس)

﴿ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴾

(من الآية ٨ سورة الزمر)

إنهم ينسون الله ، ويعودون إلى تقديس الأنداد المزيفة ، وهم بذلك يظلمون أنفسهم . « ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعا وأن الله شديد العذاب » ، ويفاجأ هؤلاء المشركون بأمر عجيب لم يكن فى حسبانهم ، هم آمنوا بأنداد ويأتون يوم القيامة ليروا تلك الأنداد وهى وقود للنار تعذبهم ، ولو لم تأت معهم حجارة الأصنام التى كانوا يعبدونها لقالوا : « إن الحجارة ستنجدنا من هذا العذاب » . وها هو ذا الحق سبحانه يبين لهم : أن الحجارة ليست معكم فى العذاب فقط ، بل هى وقود النار التى تعذبون بها ، مصداقا لقوله تعالى :

﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾

(من الآية ٩٨ سورة الأنبياء)

وكذلك قوله الحق عن النار :

﴿ وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة البقرة)

وبذلك ينقطع عن الكافرين المشركين كل أمل فى أن تنقذهم آلهتهم المزيفة . « إذ يرون العذاب » أى يرون العذاب حق اليقين ، وقد سبق أن أُخبروا به ، لكنهم لم يؤمنوا باليوم الآخر ؛ لكن لو صدقوا بيوم القيامة وآمنوا لكفاهم أن يروا العذاب عين اليقين ، ويختم الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله : « أن القوة لله جميعا وأن الله شديد العذاب » أى أنهم ساعة يرون العذاب حق اليقين سيدركون عندها أن القوة لله وأنه شديد العقاب .

ثم يبين الحق سبحانه وتعالى ماذا سيكون حالهم عندما يرون العذاب ، فيقول :

﴿ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ ﴾

إن كل من زين الكفر والعصيان لغيره سيتبرأ من كل من زَيَّنَ لهم معصية الله والشرك به ، حتى الشيطان ؛ العُمدة فى إغوائهم سيتبرأ منهم ، وسيقول ساعتها :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ ﴾

(من الآية ٢٢ سورة إبراهيم)

فلن يستطيع الشيطان أن ينقذ أحدا من المشركين ، ولن يصرخ فيأتى له المشركون لإنقاذه ، وإن صرخ المشركون ؛ فلن يأتى لهم الشيطان لينقذهم ، وسيتبرأ كل منهم من الآخر ، وسيتبرأ الكافرون من كل من زين لهم الشرك بالله ، أو سيقول الكافرون لمن زينوا لهم الشرك بالله : « نحن أبرياء منكم ولا علاقة لنا بكم » . وجاءت الآية بالذين اتبعوا أولا لأنهم المفتون فيهم ، ثم جاءت بالذين اتُّبِعُوا من بعد ذلك ، إنهم يرون العذاب وتتقطع بهم الأسباب ، وأصبحت كل نفس بما كسبت رهينة ، والشيطان نفسه يعترف بأنه لم يكن صاحب سلطان إلا بأن دعاهم ، فمن استجاب له ، جىء به إلى هذا المصير ، والسلطان إما أن يكون سلطان حُجة ، وإما سلطان قهر ، ولم يكن للشيطان سلطان قهر على الكافرين ، ولم يكن له إلا عمل واحد بلا سلطان ، وهو أن دعاهم إلى الشرك بالله ؛ فاستجابوا له . فماذا يحدث عندما تتقطع بهم الأسباب ؟ إن الحق سبحانه يقول :

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾ ﴾

إن تبرؤ الذين اتُّبِعُوا من الذين اتَّبِعُوا لن ينفعهم ، وتمنيهم أن تكون لهم كرّة ـ أى عودة ـ ليتبرأوا منهم لن يجدى ، ويُريهم الله أعمالهم ـ التى سبقت ـ حسرات عليهم . ولا تكون الحسرة إلا إذا أصيب الإنسان بمصيبة لا منأى من النجاة منها ، « وما هم بخارجين من النار » أى لن ينفعهم ندمهم على ما سبق من أعمالهم السيئة ، ولن يجدى هذا الندم فى إخراجهم من النار . ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ ﴾

إن من رحمة الله عز وجل على عباده أنه لم يقصر الخطاب على الذين آمنوا ؛ وإنما وسع الدائرة لتشمل المؤمنين وغيرهم ؛ فقال : « يا أيها الناس » فكأنه خلق ما فى الأرض جميعا للناس جميعا ، وهذا ما قلنا عنه : إنه عطاء الربوبية لكل البشر ، من آمن منهم ومن لم يؤمن ، فهو سبحانه خلق كل الخلق ، مؤمنهم وكافرهم ، ومادام قد خلقهم واستدعاهم إلى الوجود فهو يوجه الخطاب لهم جميعا ؛ مؤمنهم وكافرهم ؛ وكأن الخطاب يقول للكافرين : حتى ولو لم تؤمنوا بالله ، فخذوا من المؤمنين الأشياء الحلال واستعملوها لأنها تفيدكم فى دنياكم ؛ وإن لم تؤمنوا بالله ، لأن من مصلحتكم أن تأكلوا الحلال الطيب ، فالله لم يحرم إلا كل ضار ، ولم يحلل إلا كل طيب .

هنا موقف يقفه كثير من الذين أسرفوا على أنفسهم ، ويحبون أن تكون قضية الدين وقضية التحريم وقضية التحليل ، قضايا كاذبة ؛ لأنه لا ينجيهم أمام أنفسهم إلا أن يجدوا أشياء يكذبون بها الدين ، لأنهم لم يستطيعوا أن يحملوا أنفسهم على مطلوبات الله ، فلما لم يستطيعوا ذلك لم يجدوا منفذا لهم إلا أن يقولوا : إن قضايا الدين كاذبة بما فيها التحليل والتحريم . إنهم يقولون : مادام الله قد حرم شيئا ؛ فلماذا خلقه فى الكون ؟.

كأنهم يعتقدون أن كل مخلوق فى الأرض قد خُلق ليؤكل ، وما علموا أن لكل مخلوق فى الأرض مهمة ، فهم الآن يمسكون الحيات والثعابين ليستخلصوا منها السموم ؛ حتى يقتلوا بها الميكروبات التى تقتل الإنسان ، وكانوا قبل اكتشاف فائدة السم فى الثعبان يتساءلون « وما فائدة خلق مثل هذه الثعابين ؟» . فلما أحوجهم الله وألجأهم إلى أن يستفيدوا بما فى الثعابين من سم ؛ ليجعلوه علاجا أدركوا

حكمة الله من خلق هذه الأنواع ، لقد خلقها لا لنأكلها ، وإنما لنعالج بها .

فأنت إذا رأيت شيئا محرما لا تقل لماذا خلقه الله ، لأنك لا تعرف ما هى مهمته ، فليست مهمة كل مخلوق أن يأكله الإنسان ، إنما لكل مخلوق مهمة قد لا تشعر بأدائها فى الكون .

وهذه مسألة نستعملها نحن فى ذوات نفوسنا ، على سبيل المثال ؛ عندما يأتى الصيف ونخشى على ملابسنا الصوفية من الحشرات ؛ فنأتى لها بما يقتل الحشرات ، وهو « النفتالين » ، ونحذر أبناءنا من عدم الاقتراب منه وأكله . إن « النفتالين » لا يؤكل ، ولكنه مفيد فى قتل الحشرات الضارة .
كذلك « الفينيك » نشتريه ونضعه فى زجاجة فى المنزل لنطهر به أى مكان ملوث ،

ونحذر الأطفال منه لأنه ضار لهم ، ولكنه نافع فى تطهير المنزل من الحشرات ، وكذلك المخلوقات التى لا نعرف حكمة خلقها ، لقد خلقها الله لمهمة خاصة بها ، فلا تنقل شيئا من مهمته إلى مهمة أخرى .

وإذا كان الإنسان لم يدرك حتى الآن فائدة بعض المخلوقات ، فما أكثر ما يجهل ، وهو يكتشف كل يوم سرا من أسرار مخلوقات الله .

وعلى سبيل المثال ، كانوا ينظرون إلى نوع من السمك لا يتجاوز حجمه عقلة الاصبع ؛ ولا يكبر أبدا ، واحتاروا فى فائدته ، وعندما ذهبنا للسعودية ورأينا الأماكن التى نأخذ منها الماء الذى قد يفسد ، ووجدنا هذا النوع من السمك بكثرة ، فسألناهم عن حقيقة هذا السمك ، فقالوا : إنه لا يكبر ويظل على هذا الحجم ، ومهمته تنقية المياه فى الأماكن التى لا يقوم الإنسان بتنقيتها . وجربنا حقيقة ما قالوا ؛ فألقينا بعضا من مخلفات الطعام ؛ فوجدنا هذه الأسماك تخرج من حيث لا ندرى وتلقف هذه البقايا ؛ ولا تتركها حتى تنهيها .

هكذا يخلق الحى القيوم مخلوقات لتحفظ مخلوقات أخرى ، هو سبحانه يقول للإنسان : لا تأكل هذا وكل ذاك ؛ لحكمة قد لا نعرفها .

مثال آخر ، الطائر المعروف بأبى قردان صديق الفلاح ، كانت وظيفته فى الحياة أن

يأكل الحشرات والديدان عند رى الأرض ، ومنذ أن اختفى هذا الطائر بتأثير المبيدات ؛ استفحل خطر الديدان على الزرع وبخاصة دودة القطن . إنها معادلة إلهية مركبة تركيبا دقيقا . وكذلك الذباب ، يتساءل بعض الناس « ما حكمة وجوده فى الحياة ؟ » وهم لا يعرفون أن الذباب يؤدى للإنسان دورا هاما هو أكل القاذورات وما بها من أمراض ، ولو تحصن الناس بالنظافة لما جاءهم الذباب .

إذن ، فكل شىء فى الوجود مرتب ترتيبا دقيقا ، إنه ترتيب خالق عليم حكيم ، ومادام الحكيم هو الذى خلق ؛ فلا يعترض أحدٌ ويقول لماذا خلق كذا وكذا ؟ ، لأن لكل مخلوق دوراً يؤديه فى الكون .

ولذلك ينبه الخالق الناس ـ مؤمنهم وكافرهم ـ بأن يأكلوا الحلال الطيب من الأرض ، وهو يقول للكافر ؛ إنك إن تعقلت الأمور ؛ لوجدت أن كل ما أمرتك به هو لصالحك ، وحتى لو لم تؤمن فأنا أدلك على ما ينفع ، فلا تأكل إلا الحلال الطيب ، وانظر إلى المؤمنين بماذا سُمح لهم من طعام وَكُلْ مثلهم .
وقد أثبت الواقع والتاريخ ؛ أن الكافرين يلجأون إلى منهج الله فى بعض الأقضية ؛ ليحلوا مشاكل حياتهم ، لا بدين الله كدين ، ولكن بأوامر الله كنظام ، فلو كانَ عند الكافرين بالله حكمة حتى فيما يتعلق بشئون دنياهم ؛ لأخذوا ما أمر الله به المؤمنين واتبعوه .

والمثال على ذلك ؛ عندما يحرم الحق سبحانه وتعالى لحم الميتة ، أى التى ماتت ولم تُذبح ، إن لحمها ضار بالصحة ، لأن أوعية الدم فى الحيوان وفى كل كائن حى هى وعاءان ! إما أوردة وإما شرايين ، والدم قبل أن يذهب إلى الكلى أو الرئة يكون دما فاسدا ، ونحن عندما نذبح الحيوان يسيل منه الدم الفاسد وغير الفاسد ويخرج ، ويصير اللحم خالصا ، لكن الحيوان الذى لم يذبح ؛ لم يذك ، يعنى لم يُطَهّر من فساد الدم ، وهو ضار للإنسان .

والحق سبحانه وتعالى عندما يقول : « يا أيها الناس » فكأنه يدعو غير المؤمنين : لو عقلتم ، لوجب أن تحتاطوا إلى حياتكم بألا تأكلوا إلا حلالا أحله الله للمؤمنين . « ولا تتبعوا خطوات الشيطان » . أى لا تسيروا وراء الشيطان ، فالخطوة هى المسافة بين القدمين عند المشى ، أى بين النقلة والنقلة ، ولا تجعلوا الشيطان قائدكم ؛ لأن

الشيطان عداوته لكم مسبقة ، ويجب أن تحتاطوا بسوء الظن فيه ؛ فهو الذي عصى ربه ؛ ولا يصح أن يطاع فى أى أمر ، « إنه لكم عدو مبين » وعداوة الشيطان للإنسان قديمة من أيام آدم . ويقول الحق عن أوامر الشيطان :

﴿ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾

والسوء هو كل ذنب لا حد فيه ، مثل الغيبة أو النميمة ، والفحشاء هى كل ذنب فيه حد وفيه عقوبة . والشيطان يأمركم أن تقولوا على الله ما تجهلون .
ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾

وهذه الآية تعالج قضية خطيرة فى المجتمع الإسلامى ، قضية تقليد الناس

لعادات آبائهم . والتقليد هو نشأة طبيعية فى الإنسان ، لأن الإنسان حين يخرج للوجود مُمداً بطاقة الحياة ؛ فهذه الطاقة تريد أن تتحرك ؛ وحركتها تأتى دائما وفق ما ترى من حركة السابق لها ، فالطفل الصغير لا يعرف أن يده تتناول أشياء إلا إذا رأى فى البيئة المحيطة به إنسانا يفعل ذلك ، وحين يريد الطفل أن يتحرك ، فهو يقلد حركة الذين حوله ، ولذلك تجد الأطفال دائما يقلدون آباءهم فى معظم حركاتهم ، وحين يوجد الأطفال مع أجيال متعاقبة تمثل أعماراً مختلفة ، فإن الطفل الصغير يقلد فى حركته البدائية خليطا من حركات هذه الأجيال ، فهو يقلد جده ، ويقلد جدته ، ويقلد أباه وأمه ، وإخوته ؛ فتنشأ حركات مختلطة تمثل الأجيال كلها .

ولذلك فاندماج الطفل فى أسرة مكونة من آباء وأجداد ، تمثل فى الإنسان طبيعة الحياة المتصلة بمنهج الحركة فى الأرض وبمنهج السماء ؛ لأن الطفل حين يعيش مع أبيه فقط ، قد يجده مشغولا فى حركة الحياة التى ربما شدته عن قيم الحياة أو عن منهج السماء ؛ لكنه حين يرى أبا لأبيه ؛ هو جده قد فرغ من حركة الحياة ، واتجه إلى منهج القيم ؛ لأنه قريب عهد فيما يظن بلقاء الله ، فإن كان لا يصلى فى شبابه فهو يصلى الآن ، وإن كان لا يفعل الطاعات سابقا ؛ أصبح يفعلها الآن ، وهكذا يرى الطفل حركة الحياة الجامحة فى الدنيا والتلهف عليها من أبيه ، ويجد الإقبال على القيم والعبادات من جده ، ولذلك تجده ربما عاون جده على الطاعة ؛ فساعة يسمع الطفل المؤذن يقول : « الله أكبر » ، فهو يعرف أن جده يريد أن يصلى ؛ فيذهب هو ويأتى بالسجادة ويفرشها لجده ؛ ويقف مقلدا جده ، وإن كانت بنتا ، فنحن نجدها تقلد أمها أو جدتها وتضع الغطاء على رأسها لتصلى ، إذن ، فاندماج الأجيال يعطى الخير من الحركتين ، حركة مادية الحياة وحركة قيم منهج السماء ، ولذلك يمتن الحق علينا قائلا :

﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً ﴾

(من الآية ٧٢ سورة النحل)

إذن ، فتقليد الأجيال اللاحقة للأجيال السابقة أمر تقتضيه طبيعة الوجود . وحين يدعو الله الناس أن يتبعوا ما ينزله على الرسل فهو ينهاهم أن يتبعوا تقليد

الآباء فى كل حركاتهم ، لأنه قد تكون حركة الآباء قد اختلت بالغفلة عن المنهج أو بنسيان المنهج ، لذلك يدعونا ويأمرنا سبحانه : أن ننخلع عن هذه الأشياء ونتبع ما أنزل الله ، ولا نهبط إلى مستوى الأرض ، لأن عادات ومنهج الأرض قد تتغير ، ولكن منهج السماء دائما لا يتغير ، فاتبعوا ما أنزل الله .

والناس حين يحتجون يقولون : بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا . وتلك قضية تبريرية فى الوجود ، ولو كان ذلك حقا وصدقا ، ومطابقا للواقع ، لما كرر الله الرسالات بعد أن علم آدم كل المنهج الذى يريد ؛ لأننا لو كنا نتبع ما ألفينا عليه آباءنا . لكان أبناء آدم سيتبعون ما كان يفعله آدم ، وأبناء أبناء آدم يتبعون آباءهم ، وهكذا يظل منهج السماء موجوداً متوارثاً فلا تغيير فيه .

إذن فما الذى اقتضى أن يتغير منهج السماء ؟

إن هذا دليل على أن الناس قد غيروا المنهج ، ولذلك فقولهم : « نتبع ما ألفينا عليه آباءنا » هى قضية مكذوبة ، لأنهم لو اتبعوا ما وجدوا عليه آباءهم ؛ لظل منهج الله فى الأرض مضيئا غير متأثر بغفلة الناس ولا متأثرا بانحرافات أهل الأرض عن منهج السماء . وهو تبرير يكشف أن ما وجدوا عليه آباءهم يوافق أهواءهم .

وقوله الحق : « اتبعوا » أى اجعلوا ما أنزل عليكم من السماء متبوعا وكونوا تابعين لهذا المنهج ؛ لا تابعين لسواه ؛ لأن ما سوى منهج السماء هو منهج من صناعة أهل الأرض ، وهو منهج غير مأمون ، وقولهم : « ما ألفينا عليه آباءنا » أى ما وجدنا عليه آباءنا ، وما تفتحت عليه عيوننا فوجدناه حركة تُحتذى وتُقتدى .

والحق يبين لهم أن هذا كلام خاطىء ، وكلام تبريرى وأنتم غير صادقين فيه ، وعدم الصدق يتضح فى أنكم لو كنتم متبعين لمنهج السماء ؛ لما تغير المنهج ، هذا أولا ، أما ثانيا ، فأنتم فى كثير من الأشياء تختلفون عن آبائكم ، فحين تكون للأبناء شخصية وذاتية فإننا نجد الأبناء حريصين على الاختلاف ، ونجد أجيالا متفسخة ، فالأب يريد شيئا والابن يريد شيئا آخر ، لذلك لا يصح أن يقولوا:« بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا » ؛ لأنه لو صح ذلك لما اختلف منهج الله على الأرض لكن المنهج اختلف لدخول أهواء البشر ، ومع ذلك نرى بعضا من الخلاف فى سلوك الأبناء عن الآباء ، ونقبل ذلك ونقول : هذا بحكم تغيير واختلاف الأجيال ، أى أن الأبناء أصبحت

لهم ذاتية . ولذلك فالقول باتباع الأبناء للآباء كذب لا يمثل الواقع

والحق سبحانه وتعالى يرد على هذه القضية لأنها قضية تبريرية لا دليل لها من صدق ، ولا برهان لها من واقع . ويقول سبحانه : « أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون » أى أيتبعون ما وجدوا عليه آباءهم حتى ولو كان آباؤهم لا يعقلون ولا يهتدون ؟ .

إذن ، الرد جاء من ناحيتين ، من ناحية التعقل ، ومن ناحية الاهتداء ، وكل من التعقل والاهتداء منفى عن الآباء فى هذه الآية ، فأنتم تتبعونهم اتباعا بلا تفكير ، اتباعا أعمى . والإنسان لا يطيع طاعة عمياء إلا لمن يتيقن صدق بصيرته النافذة المطلقة ، وهذه لا يمكن أن تتأتى من بشر إلى بشر ، فالطاعة المطلقة لا تصح أن تكون لشىء إلا لمنهج السماء ، وحين تكون طاعة عمياء لمن تثق ببصره الشافى الكافى الحكيم ؛ فهى طاعة مبصرة وبصيرة فى آن واحد . لأنك تحمى نفسك من خطأ بصرك ، وخطأ بصيرتك ، وتلتزم فى التبعية بمن تعتقد أن بصره وبصيرته لا يخطئان أبدا ، عندها لا تكون طاعة عمياء .

إذن . فالحق سبحانه وتعالى ينبههم إلى أنه لا يصح أن تقولوا : إنكم تتبعون ما وجدتم عليه آباءكم ؛ لأنه يجوز أن يكون آباؤكم لا يعقلون ، ويجوز أن يكونوا غير مهتدين . لو كان آباؤكم لهم عقل أو لهم اهتداء ، عند ذلك يكون اتباعكم لهم أمرا سليما ، لا لأنكم اتبعتم آباءكم ، ولكن لأنكم اتبعتم المعقول والهدى .

وهكذا نجد أن قضية التقليد هى أمر مزعوم ، لأنك لا تقلد مساويك أبدا ؛ ولكنك تتبع من تعتقد أنه أحكم منك ، ومادام مساويا لك فلا يصح أن تقلده فى كل حركة . بل يجب أن تعرض الحركة على ذهنك ، ولذلك فتكليف الله لعباده لم ينشأ إلا بعد اكتمال العقل بالبلوغ . فهو سبحانه لا يأخذ العقل على غرة قبل أن ينضج ؛ بل لا يكلف الله عبدا إلا إذا نضج عقله ؛ ولا يكلفه إن لم يوجد له عقلا ، ولا يكلفه إن لم تكن قوته وراء عقله ؛ فإن كان الإنسان سليم القوة والعقل فإن تكليفه يكون تاما ، فسبحانه لا يكلف إلا صاحب العقل الناضج والذى لديه قدرة تمكنه من تنفيذ ما اهتدى إليه عقله ، أى غير مُكره .

فالذى يكلف الإنسانَ بمقتضى هذه الأشياء هو عالم أن العقل إن وجد ناضجا بلا إكراه فلابد أن يهتدى إلى قضية الحق .

إن الحق سبحانه لم يكلف الإنسان إلا بعد أن تكتمل كل ملكات نفسه ، لأن آخر مَلَكَة تتكون فى الإنسان هى مَلَكَة الغريزة ، أى أن يكون صالحا للإنجاب ، وصالحا لأن تمتد به الحياة . وقلنا من قبل : إن الثمرة التى نأكلها لا تصبح ثمرة شهية ناضجة إلا بعد أن تؤدى مهمتها الأولى ؛ فمهمتها ليست فى أن يأكلها الإنسان فقط . إنما أن توجد منها بذرة صالحة لامتداد الحياة ، وعندما توجد البذرة يكون أكل الثمرة صالحا ، كذلك الإنسان ؛ لا يكون صالحا لامتداد الحياة إلا بعد البلوغ أو فى سن البلوغ ، وسبحانه وتعالى جعل لهذه الغريزة سعارا ؛ لأن الحياة التى ستأتى من خلالها لها تبعات أولاد ومشقات ، فلو لم يربطها الله بهذه اللذة لانصرف عنها كثير من الناس ، لكنه سبحانه يربطها باللذة حتى يوجد امتداد الحياة بدافع عنيف وقوى من الإنسان .

فالحق سبحانه لا يفاجىء الإنسان بتكليف إلا بعد أن يُعِده إعدادا كاملا ، لأنه لو كلفه قبل أن ينضج غريزيا ، وقبل أن تصبح له قدرة على استبقاء النوع ، لقال الإنسان : إن الله كلفنى قبل أن يُوجد فىَّ ذلك ، عندئذ لا يكون التعاقد الإيمانى صحيحا .

ولذلك يؤخر الحق تكليفه لعباده حتى يكتمل لهم نضج العقل ونضج الغريزة معا ، وحتى يدخل الإنسان فى التكليف بكل مقوماته ، وبكل غرائزه ، وانفعالاته ؛ حتى إذا تعاقد إيمانيا ؛ فإن عليه أن يلتزم بتعاقده .

إذن فالحق سبحانه وتعالى يريد أن يُربِّى فى الإنسان ذاتيته من فور أن يصبح صالحا لاستبقاء النوع فى غيره ، ومادامت قد أصبحت له ذاتية مكتملة ، فالحق يريد أن يُنهى عنه التبعية لغيره ، عند ذلك لا يقولن أحد : « أفعل مثل فعل أبى » . لكن هناك من قالوا : « نتبع ما ألفينا عليه آباءنا » ، لماذا يتبعون آباءهم فى المنهج الباطل ، ولا يتبعونهم فى باقى أمور الدنيا ، وفى الملابس ، وفى الأكل ، وفى كل مناحى الحياة ؟ .

إذن فلا شيء قد جعلهم يتبعون ما وجدوا عليه آباءهم إلا لأنهم وجدوا فيه مايوافق هواهم ، بدليل أنهم انسلخوا عن تبعيتهم لآبائهم فى أشياء رأوها فى سلوك الآباء وخالفوهم فيها ، ومادامو قد خالفوهم فى أشياء كثيرة ؛ فلماذا يتبعونهم فى الدين الزائف ؟.

إن الله يريد أن يخلص الإنسان من إسار هذا الاتباع ، ويلفت العباد . تعقلوا يا من أصبحت لكم ذاتية ، وليعلم كل منكم أنه بنضج العقل يجب أن يصل إلى الهداية إلى الخالق الواحد الأحد ، فإن كنت قد التحمت بأبيك فى أول الأمر لأنه يعولك ويمدك ، فهذا الأب هو مجرد سبب أراده الله لك ، ولكن الله هو خالقك ، وهو الذى أنزل المنهج الذى يجب أن تلتحم به لتصير حياتك إلى نماء وخير .
وهو سبحانه يقول :

﴿ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ﴾

(من الآية ٣٣ سورة لقمان)

إن الحق سبحانه وتعالى يفصل لنا هذا الأمر بدقة ، فإذا كان الآباء لا يعقلون ؛ فماذا عن موقف الأبناء ؟. إن على الأبناء أن يصلحوا أنفسهم بمنهج الحق .
وقد وردت فى سورة المائدة آية أخرى بالمعنى نفسه ولكن بخلاف فى اللفظ ، فهنا فى سورة البقرة يقول الحق : « وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله » . وفى آية سورة المائدة يقول الحق :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾

(سورة المائدة)

وبين الآيتين اتفاق واختلاف ، فقوله الحق هنا : « اتبعوا ما أنزل الله » وهى تعنى أن نمعن النظر وأن نطبق منهج الله . وآية سورة المائدة « تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول » هذا هو الخلاف الأول .

والخلاف الثانى فى الآيتين هو فى جوابهم على كلام الحق ، ففى هذه السورة - سورة البقرة - قالوا : « بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا » وهذا القول فيه مؤاخذة لهم . لكنهم فى سورة المائدة قالوا : « حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا » ، وهذه تعنى أنهم اكتفوا بما عندهم ؛ ونفوا اتباع منهج السماء ، وهذا الموقف أقوى وأشد نفيا ، لذلك نجد أن الحق لم يخاطبهم فى هذه الآية بـ « اتبعوا » بل قال لهم : « تعالوا » أى ارتفعوا من حضيض ما عندكم إلى الإيمان بمنهج السماء . ومادمتم قد قلتم : حسبنا بملء الفم ؛ فهذا يعنى أنكم اكتفيتم بما أنتم عليه .

وكلمة « حسبنا » فيها بحث لطيف ؛ لأن من يقول هذه الكلمة قد حَسبَ كلامه واكتفى ، وكلمة الحساب تدل على الدقة ، والحساب يفيد العدد والأرقام . فقولهم : « حَسْبُنَا » تعنى أنهم حسبوا الأمر واكتفوا به ونجد كل ورود لهذه الكلمة فى القرآن يفيد أنها مرة تأتى لحساب الرقم المادى ، ومرة تأتى لحساب الإدراك الظنى .

فالحق يقول :

﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ ﴾

(سورة العنكبوت)

ومعناها : هل ظن الناس أن يتركوا دون اختبار لإيمانهم ؟. هذا حساب ليس بالرقم ، وإنما حساب بالفكر ، والحساب بالفكر يمكن أن يخطىء ، ولذلك نسميه الظن .

والحق سبحانه يقول :

﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ ﴾

(سورة المؤمنون)

إذن ، فكلمة « حساب » تأتى مرة بمعنى الشىء المحسوب والمعدود ،ومرة تأتى فى

المعنويات ، ونعرفها بالفعل ، فإذا قلت : حَسَبَ يَحسِب ؛ فالمعنى عَدَّ . وإذا قلت : حَسِبَ يَحسَب ؛ فهى للظن .

وفيه ماضٍ وفيه مضارع ، إن كنت تريد العد الرقمى الذى لا يختلف فيه أحد تقول : « حَسَبَ بفتح السين فى الماضى وبكسرها فى المضارع يَحسِب » . وإن أردت بها حسبان الظن الذى يحدث فيه خلل تقول : « حَسِبَ » بالكسر، والمضارع « يَحْسَبُ » بالفتح .

وعندما يتكلم الحق سبحانه وتعالى عن حساب الآخرة ، فمعنى ذلك أنه شيء محسوب ، لكن إذا بولغ فى المحسوب يكون حسبانا ، وكما نقول : « غفر غفراً » و« شكر شكراً » ، يمكن أن نقول : « غفر غفراناً » و « شكر شكراناً » . كذلك « حسب حسباناً » ، والحسبان هو الحساب الدقيق جدا الذى لا يخطىء أبداً .
ولذلك يأتى الحق سبحانه وتعالى بكلمة « حسبان » فى الأمور الدقيقة التى خلقت بقدر ونظام دقيق ؛ إن اختل فيها شيء يحدث خلل فى الكون ، فيقول :

﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥ ﴾

(سورة الرحمن)

أى أن الكون يسير بنظام دقيق جدا ؛ لا يختل أبدا ، لأنه لو حدث أدنى خلل فى أداء الشمس والقمر لوظيفتيهما ؛ فنظام الكون يفسد . لذلك لم يقل الحق : « الشمس والقمر بحساب » ، وإنما قال : « بحسبان » وبعد ذلك فيه فرق بين « الحسبان » و« المحسوب بالحسبان » ؛ والحق سبحانه وتعالى حينما يقول :

﴿ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ﴾

(من الآية ٩٦ سورة الأنعام)

لم يقل : بحسبان ، لأنها هى فى ذاتها حساب وليست محسوبة ، أى أن حسابها آلى .

وتأتى الكلمة بصورة أخرى فى سورة الكهف فى قوله تعالى :

﴿ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾

(من الآية ٤٠ سورة الكهف)

المعنى هنا شيء للعقاب على قدر الظلم .تماما هذه هى مادة الحساب . .
وقولهم : « حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا » فى ظاهرها أبلغ من قولهم : « نتبع ما ألفينا عليه آباءنا » لكن كل من اللفظين مناسب للسياق الذى جاء فيه ، فـ « اتبعوا » يناسبها « نتبع ما ألفينا » وقوله تعالى : « وإذا قيل لهم تعالوا » يناسبها قولهم : « حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا » ؛ يعنى كافينا ما عندنا ولا نريد شيئا غيره .

ومن هنا نفهم لماذا جاء الحق فى آية البقرة بقوله : « اتبعوا » ، وفى آية المائدة : « تعالوا » ، وجاء جوابهم فى سورة البقرة : « بل نتبع » ، وفى سورة المائدة : « حسبنا » .

وهناك خلاف ثالث فى الآيتين : ففى آية البقرة قال : « أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا » . وفى آية المائدة قال ؛ « أو لو كان آباؤهم لا يعلمون » . الخلاف فى « لا يعقلون » و لا يعلمون » .

وما الفرق بين « يعقلون » و« يعلمون » ؟ .
إن « يعقلون » تعنى ما ينشأ عن فكرهم وتدبرهم للأمور ، لكن هناك أناس لا يعرفون كيف يعقلون ، ولذلك يأخذون القضايا مسلماً بها كعلم من غيرهم الذى عقل .

إذن فالذى يعلم أقل منزلة من الذى يعقل ، لأن الذى عقل هو إنسان قد استنبط ، وأما الذى علم فقد أخذ علم غيره . وعلى سبيل المثال ، فالأمى الذى أخذ حكما من الأحكام هو قد علمه من غيره ، لكنه لم يتعقله ، إذن فنفى العلم عن

شخص أبلغ من نفى التعقل ؛ لأن معنى « لا يعلم » أى أنه ليس لديه شىء من علم غيره أو علمه .

وعندما يقول الحق سبحانه : « لا يعقلون شيئا » فمعنى ذلك أنه من المحتمل أن يعلموا ، لكن عندما يقول : « لا يعلمون » فمعناه أنهم لا يعقلون ولا يعلمون ، وهذا يناسب ردهم . فعندما قالوا : « بل نتبع » فكان وصفهم بـ« لايعقلون » . وعندما قالوا : « حسبنا » وصفهم بأنهم « لا يعلمون » كالحيوانات تماما .

نخلص مما سبق أن هناك ثلاث ملحوظات على الآيتين :

فى الآية الأولى قال : « اتبعوا » ، وكان الرد منهم « نتبع ما ألفينا » والرد على الرد « أَوَ لَوْ كان آباؤهم لا يعقلون شيئا » .

وفى الآية الثانية قال : « تعالوا »، وكان الرد منهم « حسبنا » ، فكان الرد عليهم « أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا » .

وهكذا نرى أن كلا من الآيتين منسجمة ، ولا يقولن أحد : إن آية جاءت بأسلوب ، والأخرى بأسلوب آخر ، فكلّ آية جاءت على أسلوبها يتطلبها فهى الأبلغ ، فكل آية فى القرآن منسجمة كلماتها مع جملها ومع سياقها .

وقوله تعالى : « وإذا قيل لهم » مبنية للمفعول ليتضمن كل قول جاء على لسان أى رسول من الله من بدء الرسالات ، فهى ليست قضية اليوم فقط إنما هى قضية قيلت من قبل ذلك . إن المعنى هو : إذا قيل لهم من أى رسول ، اتبعوا ما أنزل الله قالوا : « بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون » .

ويختم الحق الآية فى سورة البقرة بقوله : « ولا يهتدون » . وكذلك كان ختام آية المائدة : « ولا يهتدون »؛ لنعلم أن هدى السماء لا يختلف بين عقل وعلم ، فالأولى جاءت بعد قوله تعالى : « أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون » والثانية جاءت فى ختام قوله تعالى : « أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون » وذلك للدلالة على أن هدى السماء لا يختلف بين من يعقلون ومن يعلمون .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾

والذى ينعق هو الذى يُصَوِّتُ ويصرح للبهائم ، وهو الراعى ، إذن ، فكلمة ينعق أعطتنا صورة راع يرعى بهائم . وكان هذا الصياح من الراعى ليلفت الماشية المرعية لتسير خلفه ، وهو لا يقول لها ما يريده أن تفعله ، وإنما ينبهها بالصوت إلى ما يريد ، ويسير أمامها لتسير خلفه إلى المرعى أو إلى نبع الماء ، فالنداء لفتة ودعاء فقط ، لكن ما يراد من الدعاء يصير أمرا حركيا تراه الماشية . فكأن الماشية المرعية لا تفهم من الراعى إلا النداء والدعاء ، إنما دعاء ونداء لماذا ؟ فهى لا تعرف الهدف منه ، إلا بأن يسلك الراعى أمامها بما يرشدها . وهكذا نفهم أن هناك « راعيا » ، و« ماشية » ، و« صوتا من الراعى » وهو مجرد دعاء ونداء .

مقابل هؤلاء الثلاثة فى قضيتنا هو الرسول حين يدعو فيكون هو « الراعى » ويدعو من ؟ ، يدعو « الرعية » الذين هم الناس .

وبماذا يدعو الرعية ؟ . أيناديها فقط لتأتيه ، أم يناديها لتأتيه ويأمرها بأشياء ؟ .

إنه يأمرها باتباع منهج السماء .

وهذا هو الفارق بين الراعى فى الماشية والراعى فى الآدميين .

فعندما يأتى الرسول ويقول : « يا قوم إنى لكم رسول ، وإنى لكم نذير » ، فهذا هو الدعاء ، ومضمون ذلك الدعاء هو « اعبدوا الله » .

« انظروا فى السماوات والأرض » ، « افعلوا كذا من أوامر وانتهوا عن تلك النواهى » ، هذا ما يريده الرسول .

إذن فالرسول يشترك مع الراعى فى الدعاء والنداء ، وهم اشتركوا مع المَرْعِىّ فى أنهم لم يفهموا إلا الدعاء والنداء فقط ، وفى الاستجابة هم « صم بكم عمى » ، فالمدعو به لم يسمعوه ، وكأنهم اشتركوا مع الحيوان فى أنهم لا يستمعون إلا للدعاء والنداء ، إنما المدعو به ومضمون النداء هم لا يعقلونه ولا يفهمونه . وبكم لا ينطقون بمطلوب الدعوة وهو « شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله » ، وليس عندهم عقل يدير حركة العيون لينظروا فى ملكوت السماوات والأرض ليظهر لهم وجه الحق فى هذه المسألة .

إذن فمثل الذين كفروا بالرسول كمثل الماشية مع الراعى ، فهم لا يسمعون إلا مجرد الدعاء ، كما أن الماشية تسمع الراعى ولا تعقل ، مع الفارق ؛ لأن الدواب ليس مطلوبا منها أن ترد على من يناديها . ولا تسمع غير ذلك من المدعو به لذا كان الكافرون شر الدواب .

وقول الحق : « صُم » أى مصابون بالصمم ؛ وهو آفة تمنع الأذن من أداء مهمتها . و« بُكم » أى مصابون بآفة تصيب اللسان ؛ فتمنعه من أداء مهمته ، إلا أن السبب فى الصمم سبب إيجابى ، لأن هناك شيئا قد سَد منفذ السمع فلا تسمع ، وبسبب الصمم فهم بكم ، والبكم هو عجز اللسان عن الكلام ، لأن الإنسان إن لم يسمع فهو لن يتكلم . ولذلك فإن الإنسان إذا وُجد فى بيئة عربية فهو يتكلم اللغة العربية ، وإذا نشأ الإنسان فى بيئة إنجليزية فهو يتكلم لغة إنجليزية . وهبْ أنك قد نشأت فى بيئة تتكلم العربية ثم لم تسمع كلمة من كلماتها هل تتكلم بها ؟ لا . إذن . فاللسان ينطق بما تسمعه الأذن ، فإذا لم تسمع الأذن لا يتكلم اللسان . والصمم يسبق البكم ، ولذلك فالبَكم هو آفة سلبية ، وتجد أن اللسان يتحرك ويُصوّت أصواتاً لا مدلول لها ولا مفهوم . فهل نفهم من قوله تعالى عنهم : « صُم » أنهم مصابون بالصمم ؟ . لا . إن الحق يقول : لقد جعلت الأذن لتسمع السماع المفيد ؛ فكأنها معطلة لا تسمع شيئا . وكذلك اللسان أوجدته ليتكلم الكلام المفيد ، بحيث من لا يتكلم به كأنه أبكم ، والعقل أوجدته ليفكر به ؛ فإذا لم يفكر تفكيرا سليما منطقيا ، فكأن صاحبه لا عقل له . فالأصم حقيقة خير من الذى يملك حاسة السمع ولا يفهم بها ، لأن الأصم له عذره ، والأبكم كذلك ، والمجنون أيضا له عذره ، فليت هؤلاء الكفار كانوا كذلك ، لقد صموا آذانهم عن سماع الدعوة ، وهم بُكم عن النطق بما ينجيهم بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وهم عمى عن

النظر فى آيات الكون ، فلو أن عندهم بصرا لنظروا فى الكون كما قال الله تعالى :

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

فلو أنهم نظروا فى خلق السماوات والأرض ؛ لاهتدوا بفطرتهم إلى أن لهذا الوجود المتقن المحكم صانعا قد صنعه ، لكنهم لا يعقلون ، لأن عملية العقل تنشأ بعد أن تسمع ، وبعد اكتمال الحواس ، ولذلك فالإنسان فى تكوينه الأول حركى حسّى ، يرى ويسمع ويتذوق ثم تتكون عنده من بعد ذلك القضايا العقلية .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ ﴾

وهذا خطاب من الله للذين آمنوا بأن يأكلوا من الطيبات ، وقد سبق فى الآية ١٦٨ خطاب مماثل فى الموضوع نفسه ؛ ولكن للناس جميعا وهو قوله تعالى : « يا أيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالا طيبا » . وقلنا : إن الحق سبحانه وتعالى ساعة يخاطب الناس جميعا ، فهو يلفتهم إلى قضية الإيمان ، ولكن حين يخاطب المؤمنين فهو يعطيهم أحكام الإيمان ، فالله لا يكلف بحكم إلا من آمن به ، أما من لم يؤمن به ، فلا يكلفه بأى حكم ، لأن الإيمان التزام . ومادمت قد التزمت بأنه إله حكيم ؛ فخذ منه أحكام دينك .

وعدل الله اقتضى ألا يكلف إلا من يؤمن ، وهذا على خلاف مألوف البشر ، لأن تكليفات القادة من البشر للبشر تكون لمن يرضى بقيادتهم ومن لم يرض ، وإذا كان للقائد من البشر قوة ، فإنه يستخدمها لإرغام من يوجدون تحت ولايته على تنفيذ ما يقول .

وخطاب الله للمؤمنين هنا جاء بقوله : « كلوا من طيبات مارزقناكم » ، ذلك أن المؤمن يتيقن تماما بأن الله هو الخالق وهو الذى يرزق . ويذيل الآية الكريمة بقوله : « واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون » ، فشكر العبد المؤمن للرب الخالق واجب ، مادام العبد المؤمن يختص الله بالعبادة .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾ ﴾

ونجد أن استخدام « الموت » يأتى فى كلمات منوّعة ، ففيه : « مَيِّت » و« مَيْتَة » ، و« ميّتة » ومثال ذلك ما يقوله الحق :

﴿ فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ ﴾

(من الآية ٩ سورة فاطر)

و« الميّت » بتشديد الياء هو من ينتهى أمره إلى الموت وإن كان حيا ، فكل واحد منا يقال له أنت ميّت ، أى مصيره إلى الموت ، ولذلك يخاطب الله رسوله :

﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

(سورة الزمر)

إذن فكلمة « مَيّت » معناها أنك ستموت ، رغم أنك الآن حى .

لكن عندما نقول : « مَيْت » ، بتسكين الياء ، فمعناها مات بالفعل ، وفى الشعر العربى جاء :

وما المَيْت إلا مَن إلى القبر يُحمَل .

والحق سبحانه وتعالى يقول : « إنما حرم عليكم الميتة والدم » ، ولو قال : « الميِّتة » بتشديد الياء ، لقلنا : إن كل شىء سيموت يصير محرما ، لكن كلام الله هنا عن المَيْتة ـ بالياء الساكنة ـ وهى الميتة بالفعل ، وهى التى خرجت روحها حتفا ؛ لأنَّه فيه خروج الروح إزهاقا بمعنى أن تذبحه فيموت ؛ لكن هناك مخلوقات تموت حتف أنفها ، وساعة تموت الحيوانات حتف أنفها تُحتَبس فيها خلاصة الأغذية التى تناولتها وهى الموجودة بالدم ؛ وهذا الدم فيه أشياء ضارة كثيرة ، ففى الدم مواد ضارة فاسدة استخلصتها أجهزة الجسم وهو حى ، وكانت فى طريقها إلى الخروج منه ، فإذا ما ذبحناه ؛ سال كل الدم الفاسد والسليم ، ولأن درء المفسدة مقدم على جلب المصلحة ، فإننا نضحى بالدم السليم مع الدم الفاسد . وهذا الدم يختزنه الجسم عندما يموت ، وتظل بداخله الأشياء الضارة فيصبح اللحم مملوءا بالمواد الضارة التى تصيب الإنسان بالأمراض . ونظرة بسيطة إلى دجاجتين ، إحداهما مذبوحة أريق دمها ، والأخرى منخنقة أى لم يرق دمها ، فإننا نجد اختلافا ظاهرا فى اللون ، حتى لو قمنا بطهى هذه وتلك فسنجد اختلافا فى الطعم ، سنجد طعم الدجاجة المذبوحة مقبولا ، وسنجد طعم الدجاجة الميتة غير مقبول ، وكان الذين لا يؤمنون بإله أو بمنهج يقومون بذبح الحيوانات قبل أكلها ، لماذا ؟ لقد هدتهم تجاربهم إلى أن هذه عملية فيها مصلحة ، وإن لم يعرفوا طريقة الذبح الإسلامية .

وحين يحرم الله « الميتة » فليس هناك أحد منا مطالب أن يجيب عن الله ؛ لماذا حرم الميتة ؟، لأنه يكفينا أن الله قال : إنها حرام ، ومادام الذى رزقك قال لك : لا تأكل هذه ؛ فقد أخرجها من رزقية النفعية المباشرة ، ولو لم يكن فيها ضرر نعلمه ، هو سبحانه قد قال : لا تأكلها ، فلا تأكلها ، لأنه هو الذى رزق ، وهو الذى خلقك ، وهو الذى يأمرك بألا تأكلها ، فليس من حقك بعد ذلك أن تسأل لماذا حرمها على؟.

وهب أننا لم نهتد الى حكمة التحريم ، ولم نعرف الأذى الذى يصيب الإنسان من أكل الميتة ؟ هل كان الناس يقفون عند الأمر حتى تبدو علته ، أم كانوا ينفذون أوامر الله بلا تفكير؟ لقد استمع المؤمنون لأوامر الحق ونفذوها دون تردد .

إذن ، فمادام الله يخاطبنا ، فبمقتضى حيثية الإيمان يجب أن نتقبل عنه الحكم ، وعلة قبول الحكم هى صدوره من الذى حكم . أما أن نعرف علة الحكم ، فهذه عملية إيناس للعقل ، وتطمين على أن الله لم يكلفنا بأمر إلا وفيه نفع لنا ، والمؤمن لا يصح أن يجعل إيمانه رهناً بمعرفة العلة .

إن الحق يقول : « إنما حرم عليكم الميتة » والآية صريحة فى أن كل ميتة حرام ، ومادامت ميتة فقد كان فيها حياة وروح ثم خرجت ، لكننا نأكل السمك وهو ميت ، وذلك تخصيص من السّنة لعموم القرآن ، فقد قال صلى الله عليه وسلم :

« أحل لكم ميتتان : السمك والجراد ، ودمان ؛ الكبد والطحال »[1] .

لماذا هذا الاستثناء فى التحليل ؟ لأن للعرف فى تحديد ألفاظ الشارع مدخلاً ، فإذا حلفت ألا تأكل لحماً وأكلت سمكا فهل تحنث ؟. لا تحنث ، ويمينك صادقة ؛ رغم أن الله وصف السمك بأنه لحم طرىٌّ ، إلا أن العرف ساعة يُطلق اللحم لم يدخل فيه السمك .

إذن ، فالعرف له اعتبار ، لذلك فالزمخشرى صاحب الكشاف يقول فى هذه المسألة : « لو حلفت ألا تأكل اللحم وأكلت السمك فإجماع العلماء على أنك لم تحنث

---

(١) هذا الحديث أخرجه الشافعى وأحمد وابن ماجه والدارقطنى والحاكم والبيهقى عن ابن عمر مرفوعا وموقوفا .

فى يمينك » . وضرب مثلا آخر فقال : لو حلفت بأن تركب دابة ، والكافر قد أسماه الله دابة فقال : « إن شر الدواب عند الله الذين كفروا » فهل يجوز ركوب الكافر ؟ . لا يجوز فكان مقتضى الآية أنه يصح لك أن تركبه وعلق على ذلك قائلا : صحيح أن الدابة هى كل ما يدب على الأرض ، إلا أن العرف خصها بذوات الأربع .

لهذا كان للعرف مدخل فى مسائل التحليل والتحريم . فإذا قال قائل : إن الله حرم الميتة ، والسمك والجراد ميتة فلماذا نأكلها ؟ . نرد عليه : إن العرف جرى على أن السمك والجراد ليسا لحماً ، بدليل قولهم : « إذا كثر الجراد أرخص اللحم » ، وذلك يعنى أن الجراد ليس من اللحم .

أما بالنسبة للسمك ، فالسمك لم يكن كالميتة التى حرمها الله لأن الميتة المحرمة هى كل ما يذبح ويسيل دمه ، والسمك لا نفس سائلة له أى لا دم له . والجراد أيضا لا دم فيه ، إذن ، فتحليل أكله وهو ميت إنما جاء بسبب عدم وجود نفس سائلة يترتب عليها انتقال ما يضر من داخله إلى الإنسان ، وكذلك الكبد والطحال أيضا ليسا بدم ؛ فالدم له سيولة ، والكبد والطحال لحم متجمد متماسك ، خلاصة دم تكوّن منه عضو الكبد وعضو الطحال .

إذن ، السنة لها دور بيان فى التحليل والتحريم ، وقوله الحق : « إنّما حرم عليكم الميتة والدم » يعنى أنه سبحانه قد حرمها لأجل بقاء الدم فى الميتة وعدم سيلانه ، ومن باب أولى ؛ كان تحريم الدم أمراً واجباً . وحرم الحق « لحم الخنزير » وقلنا إن علة الإقبال على الحكم هو أمر الله به ، فإذا أثبت الزمن صدق القضية الإيمانية فى التحليل ؛ فذلك موضوع يؤكد عملية الإيمان ، لكن لو انتظرنا وأجلنا تنفيذ حكم الله حتى نتأكد من علة التحريم ؛ لكُنّا نؤمن بالعلماء والاكتشافات العلمية قبل أن نؤمن بالله . لأننا إن انتظرنا حتى يقول العلماء كلمتهم ؛ فقد اعتبرنا العلماء آمن علينا من الله . وهل يوجد مخلوق آمن على مخلوق من الخالق ؟ .

إن ذلك مستحيل . إذن فالمؤمن من يأخذ كل حكم صادر من الله ، وهو متيقن أن الله لا يأمره إلا بشىء نافع له ، وفى الحقيقة فالشىء الضار غير ضار فى ذاته ، فقد ينفع فى أشياء أخرى . ونضرب هذا المثل ـ ولله المثل الأعلى ـ فأنت ساعة تعاقب ابنك بأمر من الأمور ، فتحرمه من المصروف أو تحرمه من أكلة شهية ، فإن ذلك العقاب ليس ضاراً فى ذاته ، إنما إغراقك إياه بما يحب ويطلب ، مع سيره فى

طريق لا ترتضيه ، هو دعوة للابن أن يستمر فى فعل ما لا ترتضيه . إن عدم تربية الابن بالثواب والعقاب هو أمر ضار .

ولذلك نقول للذين يريدون أن يوجدوا علة لكل مُحَرَّم : أنتم لم تفطنوا إلى تحريم التأديب ، فهناك تحريم لأمر لأنه ضار ، وهناك تحريم لأمر آخر لأنك تريد أن تحرمه تأديباً له ، وأنت لا يصح منك أن تجعل عملية التأديب فى القيم دون عملية الإصلاح فى المادة البدنية . والحق سبحانه وتعالى أرحم بخلقه من الأب بابنه ، وهو قد حرم بعضاً من طيبات الحياة على بنى إسرائيل للتأديب ، فقال عز وجل :

﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ﴾

(من الآية ١٦٠ سورة النساء)

فالحق حرم عليهم الطيبات كتأديب لهم على ظلمهم لأنفسهم . إذن ، ساعة ترى تحريماً فلا تنظر إلى تحريم الشىء الضار ، لكن انظر أيضا إلى أن هناك تحريماً من أجل التأديب ، لأن إباحة بعض من الطيبات لهؤلاء مع كونهم مخالفين للمنهج هو إغراء لهم بأن يكونوا مخالفين دائماً ، ظالمين لأنفسهم .

فالحق قد منع ما يضر الإنسان فى بدنه ، ومنع أيضا بعضا من الطيبات على بعض المخالفين كتأديب لهم . وبالنسبة لتحريم الخنزير ، فقد شاءت إرادة الله عز وجل أن يكشف لخلقه سر التحريم ، فأثبت العلماء أن هناك أمراضاً فى الخنزير لم تكن معروفة قبل ذلك ، وتبين لهم خطورتها مثل الدودة الشريطية ، وإذا كان الحق سبحانه وتعالى قد كشف لهم سراً واحداً هو الدودة الشريطية ، فربما هنا أسرار أخرى أخطر من الدودة الشريطية .

ويحرم الحق أيضا « وما أهل به لغير الله » والإهلال هو رفع الصوت ، ولذلك يقال : هلل أى رفع صوته بلا إله إلا الله ، ويُسمى الهلال هلالاً ؛ لأننا ساعة نراه نهلل ونقول : « الله أكبر ، ربى وربك الله » وساعة يولد الولد ، ويخرج من بطن أمه يتنبه إلى حياته وإلى ذاتية وجوده بعد أن كان ملتحماً بذاتية أمه فهو يصرخ ، إنه يبدأ حياته بالصراخ ، ولذلك فالذين ينتظرون مولد الطفل عندما يستمعون لصرخته يطمئنون .

ولذلك يقول الشاعر :

لما تؤذن الدنيا به من صروفها يكون بكاء الطفل ساعة يولد

كأن الوليد يقبل على شيء فيه نكد ، ولا يلتفت إلى ما فى اتساع الدنيا ورغد العيش فيها . وإلا فما يبكيه وإنها لأوسع مما كان فيه وأرغد ؟. فكأن صرخة الوليد هى صرخة الانتقال من رحم الأم إلى مواجهة الحياة .

كانت حياة الطفل فى بطن أمه رتيبة وغذاؤه من الحبل السرى ، لكنه ساعة ينفصل من أمه تنقطع صلته بجهاز تحضير الغذاء فى رحم الأم ، وفقد المدد الغذائى فى لحظة خروجه من بطن أمه ولم يأته مدد الرضاعة بعد ؛ فالرضاعة من مدد الدنيا ، ولا يأخذها الطفل إلا إذا أخذ أقل نسبة من الهواء ليدير الرئة ، ولذلك يحرص الأطباء فى أن ينزل الوليد من جهة رأسه دائماً ، لأنه لو نزل من ناحية رجليه ورأسه مازال بالداخل ، فإن أنفاسه تكون محبوسة فى بطن أمه ، ويكاد يموت ، ولذلك يكشفون الآن على الأم ليعرفوا وضع الجنين ، ويقوم الطبيب بإجراء الجراحة القيصرية حرصا على حياة الوليد ، وأول شيء يقوم به الطبيب بعد ميلاد الطفل هو أن يُسلك منافذ الهواء إلى أنفه ، وبعد ذلك يعالج بقية الأعضاء .

إنها صرخة الغريزة ، تماماً مثل ما تسهو أُمه عنه وجاء موعد رضعته فهو يصرخ . وهكذا نعرف أن الإهلال هو رفع الصوت ، وقوله الحق : « وما أهل به لغير الله » يعنى هو رفع الصوت لحظة الذبح ، والذبح نوعان : ذبح لنفعك لتأكل ويأكل غيرك ، وذبح قربى لله . وما أهل به لله ، هو ذبح قربى لله ، أما « ما أهل به لغير الله » فهو الذبح لمنفعة الإنسان فقط ، وتقرباً إلى أصنامهم وأوثانهم وما يعبدونه من دون الله .

ومادام الله هو الذى أعطى الحيوانات وسخرها لنا من أجل أن نأكلها ؛ فعلينا أن نذكر المنعم ، وأن تكون القربى لله وحده هى القصد الأول . ولذلك فالمؤمنون يتقربون ويأكلون ، أما الكفار فيأكلون ولا يتقربون لله وإنما يذبحون ويتقربون إلى آلهتهم .

والحق سبحانه وتعالى حينما شرع ، فتشريعه يضع الاحتمالات ، وليس كالمشرعين من البشر الذين تضطرهم أحداث الحياة بعد التشريع إلى أن يغيروا ما شرعوا ؛ لأنه

حدثت أقضية بعد تطبيق التشريع لم تكن فى بالهم ساعة شرعوا ، وذلك لقصور علمهم عما يحدث فى الكون من القضايا التى تضطرهم وتلجئهم إلى أن يعدلوا القانون . فتعديل أى قانون بشرى معناه حدوث أقضية لا يوجد لها تكييف فى القانون عند التطبيق ؛ فيلجأ المشرعون إلى تعديل القانون ، ليضعوا فيه ما يتسع لهذه الأقضية .

ولكن الحق سبحانه وتعالى ساعة قنن .. فهويقنن تقنينا يحمل فى طياته كل ما يمكن أن يستجد من أقضية دون حاجة إلى تعديل، ولأن الإسلام جاء منهاجاً خاتماً ولا منهج للسماء بعده ، لذلك كان متضمنا كافة الاحتمالات . لقد كان من المعقول تعديل التقنينات عندما كانت الرسل تتوالى ، لكن عندما ختم الله رسالات السماء بمحمد صلى الله عليه وسلم ، كان لابد أن تكون التشريعات التى أنزلها الله على رسوله تحمل فى ذاتها ضمانات تكفل ذلك .

إذن ، فالضرورات التى اقتضت المشرع الوضعى أن يعدل قانوناً غفل عن جزئياته ساعة وضعه الأول ، مثل هذه الأمور لا توجد فى تشريعات السماء ، لأن الله يعلم الأقضية التى تجىء .

وهب أن الضرورة التى تستلزم التعديل لم تكن موجودة ، وبعد ذلك جدت ضرورات ، أكان الحق يميت خلقه لأنه قال : لا تأكلوا الميتة ؟ عندئذ كنا سنقول : ما هذه الحكاية ؟ صحيح الميتة ستضر ، وإنما المخمصة والمجاعة ستميت ، فلماذا لا نتحمل أكل ما يضر بدلاً من أن نمتنع عن الأكل فنموت من الجوع ؟

إذن فهى عدالة الحق التى قالت : « فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه » فالإضطرار له شرط هو : « غير باغ ولا عاد » . وغير باغ يعنى غير متجاوز الحد ، فيأخذ على قدر حاجته الضرورية ، مثلاً ، لا يقول : إن الله أحل الميتة لمثل ما أنا عليه من الاضطرار ويملأ بطنه منها ، لا ، إن عليه أن يأخذ على قدر استبقاء الحياة . ولا يظنن أن ذلك يصبح حلالاً ؛ بل يقول : إن هذا حرام أبيح للاضطرار .

وأيضا لابد أن نلحظ قيمة الحقوق المتعلقة بالآخرين ، هب أن إنساناً يملك فنجان ماء لا يكفيه إلا ليروى حلقه ، وبعد ذلك جاء شخص آخر مضطر وقوى وضربه ليأخذ منه هذا الفنجان . نقول لهذا المعتدى : لا تعتد لأن للملكية سبقاً ،

فإن اتسعت لكما كمية الماء معاً فأهلاً وسهلاً ، وإن لم تتسع ، فصاحب الملكية أولى بالماء ، ولا يقولن هذا الآخر : « أنا مضطر لأن آخذها منه » . إن اضطراره سيدفع عنه المضرة ويوقعها فى غيره .

إذن ، فالمقاييس عند الضرورة تظل كما هى ، فلابد من احترام الحق والسبق ، ولا يصح أن نتجاوز بالضرورة قدرها ، هذا معنى قوله : « فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه » ، وقوله الحق : « فلا إثم عليه » يدل على أن المسألة فيها إثم أباحها الله عز وجل للضرورة ؛ وذلك حتى لا نحلها تحليلاً دائماً ، فإذا مازالت الضرورة عُدنا إلى أصل الحكم .

ويختم الحق الآية بقوله : « إن الله غفور رحيم » ونتساءل : ما علاقة « غفور رحيم » بهذه الآية ؛ إن المغفرة والرحمة تقتضيان ذنوباً ، وما سبق كله هو قول الحق وتشريعه ، وتحريم الميتة إلا عند الضرورة هو كلام الحق ، والمضطر حين يأخذ منها على قدر الضرورة فإنما هو إباحة من الحق ، فلا ذنب ـ إذن ـ يقتضى تذييل الآية بقوله : « إن الله غفور رحيم » ؟ .

ونقول : إذا كان الله يغفر مع الذنب ، أفلا يغفر مع الضرورة التى شرع لها الحكم ، إن المنطق يقول : إن الله يغفر الذنب الذى يحدث بلا مناسبة تستدعيه ، أفلا يغفر للمضطر الذى أجبرته الظروف على أكل الميتة ؟ . إن الله غفور فى الأصل ، أفلا يغفر لمن أعطاه رخصة ؟ إذن فهو غفور رحيم ، ولن يكتب على المضطر ذنباً من جراء اضطراره . إن رحمة الله التى تغفر للعاصى الذى اجترأ على الحق بلا مناسبة ، هو سبحانه الذى كتب المغفرة لمن اضطر وكسر قاعدة التحريم عند الاضطرار .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ ﴾

إن الحق سبحانه وتعالى ينزل بوساطة رسله على خلقه ليحكم المنهج حركة الحياة للناس وعلى الناس ، إنه يحكم للناس أى لمصالحهم ، ويحكم على الناس إن فوتوا المصالح ، لأن الذى يُفَوّت مصلحة لسواه عنده ، لابد أن يلحظ أن غيره سيفوّت عليه مصلحة عنده .

إذن ، فمن الإنصاف فى التشريع أن تجعل له وعليه ، فكل « تكليف عليه » يقابله « تكليف له » ، لأنه إن كان له حق ، فحقه واجب على سواه ، ومادام حقه واجباً على ما سواه ، فلزم أن يكون حق غيره واجباً عليه ؛ وإلا فمن أين يأخذ صاحب الحق حقه ؟

والحق سبحانه وتعالى حين ينزل المنهج يبلغه الرسل ويحمله أولو العلم ؛ ليبلغوه للناس . فالذين يكتمون ما أنزل الله إنما يصادمون منهج السماء . ومصادمة منهج السماء من خلق الله لا تتأتى إلا من إنسان يريد أن ينتفع بباطل الحياة ؛ ليأكل حق الناس . فحين يكتمون ما أنزل الله ، فقد أصبحوا عوائق لمنهج الله الذى جاء ليسيطر على حركة الحياة .

وما نفعهم فى ذلك ؟ . لابد أن يوجد نفع لهم ، هذا النفع لهم هو الثمن القليل ، مثل « الرشا » ، أو الأشياء التى كانوا يأخذونها من أتباعهم ليجعلوا أحكام الله على مقتضى شهوات الناس .

فالله يبين لهم : أن الشيء لا يُثمن إلا بتثمين من يعلم حقيقته ، وأنتم تُثَمّنون منهج الله ، ولا يصح أن يُثَمِّن منهج الله إلا الله . ولذلك يجب أن يكون الثمن الذى وضعه الله لتطبيق المنهج ثمنا مربحا مقنعا لكم ، فإن أخذتم ثمنا على كتمان منهج الله وأرضيتم الناس بتقنين يوافق أهواءهم وشهواتهم ، فقد خسرتم فى الصفقة ؛ لأن ذلك الثمن مهما علا بالتقدير البشرى ، فهو ثمن قليل وعمره قصير .

والأثمان عادة تبدأ من أول شيء يتعلق بحياة الإنسان هو قوام حياته من مأكل ومشرب ، لذلك قال الله سبحانه وتعالى : « أولئك ما يأكلون فى بطونهم إلا النار » وإذا كانوا يأكلون فى بطونهم ناراً فكيف يكون استيعاب النار لكل تلك البطون ؟

لأن المؤمن كما قال الرسول يأكل فى معى واحد ، والكافر يأكل فى سبعة أمعاء ، أى أن الكافر لا يأكل إلا تلذذاً بالطعام ؛ فهو يريد أن يتلذذ به دائما حتى يضيق بطنه بما يدخل فيه . لكن المؤمن يأخذ من الطعام بقدر قوام الحياة ، فسيد الخلق محمد ابن عبدالله صلى الله عليه وسلم يقول فى الحديث الشريف :

« حسب ابن آدم لقيمات يقمن أوده »[1]

إذن فالأكل عند المؤمن هو لمقومات الحياة وكوقود للحركة ، ولكن الكافر يأخذ الأكل كأنه متعة ذاتية . والحق يقول : « أولئك ما يأكلون فى بطونهم إلا النار » يعنى كما أرادوا امتلاء بطونهم شهوة ولذة ، فكذلك يجعل الله العذاب لهم من جنس ما فعلوه بالثمن القليل الذى أخذوه ، فهم أخذوا ليملأوا بطونهم من خبيث ما أخذوا وسيملأ الله بطونهم ناراً ، جزاء وفاقا لما فعلوا ، وهذا لون من العقاب المادى يتبعه لون آخر من العقاب هو « ولا يكلمهم الله » أى أن الحق ينصرف عنهم يوم لا أنس للخلق إلا بوجه الحق .

---

(١) هذا الحديث أخرجه المنذرى فى الترغيب والترهيب والزبيدى فى إتحاف السادة المتقين والقرطبى فى تفسيره والكحال فى الأحكام النبوية فى الصناعة الطبية .

ونحن حين نقرأ كلمة « لا يكلم فلان فلاناً » نستشعر منها الغضب ؛ لأن الكلام فى البشر هو وسيلة الأنس ، فإذا ما امتنع إنسان عن كلام إنسان ، فكأنه يبغضه ويكرهه . إذن « لا يكلمهم الله » معناها أنه يبغضهم ، وحسبك بصدود الله عن خلقه عقابا وعذابا . لقد والاهم بالنعمة وبعد ذلك يصد عنهم . ويقول قائل : كيف نقرأ هنا أن الحق لا يكلمهم ، وهو سبحانه القائل :

﴿ قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ ﴾

(سورة المؤمنون)

نقول : صحيح أنه سبحانه يقول لهم : « لا تكلمون » ولكن الكلام حين ينفى من الله فالمقصود به هو كلام الحنان وكلام الرحمة وكلام الإيناس واللطف ، أما كلام العقوبة فهو اللعنة . إذن « لايكلمهم الله » أى لا يكلمهم الحق وصلا للأنس . ولذلك حين يؤنس الله بعض خلقه يطيل معهم الكلام . ومثال ذلك عندما جاء موسى لميقات ربه ، ماذا قال الله له ؟

قال عز وجل :

﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة طه)

فهل معنى هذا السؤال أن الله يستفهم من موسى عما بيده ؟ . إنه سؤال الإيناس فى الكلام حتى يخلع موسى من دوامة المهابة .

وضربنا مثلا لذلك ـ ولله المثل الأعلى ـ حينما يذهب شخص إلى بيت صديقه ليزوره ، فيأتى ولده الصغير ومعه لعبة ، فيقول الضيف للطفل : ما الذى معك ؟ إن الضيف يرى اللعبة فى يد الطفل ، لكن كلامه مع الطفل هو للإيناس . وعندما جاء

كلام الله بالإيناس لموسى قال له :

﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة طه)

كان يكفى موسى أن يقول : عصا ، وتنتهى إجابته عن السؤال ، ولو قال موسى : عصا ، لكان ذلك منه عدم استيعاب لتقدير إيناس الله له بالكلام ، لكن سيدنا موسى عليه السلام انتهز سؤال الله له ليطيل الأنس بالله فيقول :

﴿ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ ﴾

(سورة طه)

تأمل التطويل فى إجابة موسى . إنّ كلمة « هى » زائدة ، و« أتوكأ عليها » زائدة أى غير محتاج إليها فى إفادة المعنى ، و« أهش بها على غنمى » تطويل أكثر » و« لى فيها مآرب أخرى » رغبة منه فى إطالة الحديث أكثر .

إذن فكلام الله والنظر إليه سبحانه أفضل النعم التى ينعم الله بها على المؤمنين يوم القيامة .

فإذا كان الله سيمنع عن الكافرين وسائل التكريم المادى فلا يكلمهم ، فهذه مسألة صعبة . « لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم » وبعد أن يحرمهم من الكلام والاستئناس بحضرته ؛ ولا يطهرهم من الخبائث التى ارتكبوها ؛ ولا يجعلهم أهلا لقربه ، بعد ذلك يعذبهم عذاباً شديداً ؛ كَأنَ فيه عذابا سابقا ؛ ثم يأتى العذاب الأشد ، لأنهم لابد أن يلاقوا عذاباً مضاعفاً ، لأنهم كتموا منهج الله عن خلق الله ، فتسببوا فى إضلال الخلق ، فعليهم وزر ضلالهم وأوزار فوق أوزارهم لأنهم أضلوا سواهم .

ومسألة كلام الله للناس أخبرنا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال :

« ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولا ينظر إليهم ولهم عذاب أليم : شيخ زانٍ ، وملك كذاب ، وعائل مستكبر »(١)

ما سر حرمان هؤلاء من كلام الله وتزكيته والنظر إليهم ؟ إن الشيخ الزانى يرتكب إثماً ، لا ضرورة له لأنه لا يعانى من سعار المراهقة . والملك الذى يكذب ، إنما يكذب على قوم هم رعيته ، والكذب خوف من الحق ، فَمِمَّنْ يخاف الملك إذا كان الناس تحت حكمه ؟ . وعائل الأسرة عندما يصيبه الكِبْرُ وهو فقير ، سيسبب له هذا الكِبْرُ الكثير من المتاعب ويضيق عليه سبل الرخاء وسبل العيش ويجعله فى شقاء من العيلة ، فإن أراد أحد مساعدته فسيكون الكبر والإستعلاء على الناس حائلاً بينه وبين مساعدته ، وهذا هو معنى « لا يكلمهم ولا يزكيهم » ، فما معنى « لا ينظر إليهم »؟ إن النظر شراكِ العطف ، ولذلك يقطع الحق عنهم باب الرحمة والعطف من الأصل ، وهو النظر إليهم ، ويُذيِّل الحق الآية الكريمة بقوله : « ولهم عذاب أليم » أى مؤلم ، وعندما تسمع صيغة « فعيل » فنحن نأخذها بمعنى فاعل أو مفعول ، لذلك نفهم « اليم » على أنه مؤلم .

ثم يقول الحق :

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡعَذَابَ بِٱلۡمَغۡفِرَةِۚ فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾ ﴾

يذكر الله لنا حيثية الحكم عليهم ؛ ولماذا لا يكلمهم ؛ ولماذا لا يزكيهم ، ولماذا يكون لهم فى الآخرة عذاب أليم ؟ إنّهم قد بدلوا الضلالة بالهدى ؛ والعذاب

---

(١) (اخرجه الإمامُ مسلم فى صحيحه والثانى عن أبى هريره رضى الله عنه .

بالمغفرة . وعندما ترى فظاعة العقاب فلا تستهوله ، ولكن انظر إلى فظاعة الجُرم . إن الناس حين يفصلون الجريمة عن العقاب فهم يعطفون على المجرم ؛ لأنهم لا يرون المجرم إلا حالة عقابه ومحاكمته ونسوا جريمته ، ولذلك فساعة ترى عقوبة ما وتستفظعها ؛ فعليك استحضار الجرم الذى أوجب تلك العقوبة . ولذلك نجد الناس غالباً ما يعطفون على كل المجرمين الذين يحاكمون وتصدر عليهم عقوبات صارمة ، لأن الجريمة مرّ عليها وقت طويل ، ولم نرها ، وآثارها وتبعاتها إنتهت . ولم يبق إلا المجرم ؛ فيعطفون عليه ، ولذلك فمن الخطأ أن تطول الإجراءات فى المحاكمات ، بل لابد من محاكمة المجرم من فور وقوع الجريمة وهى ساخنة ؛ حتى لا يعطف عليه الجمهور ، لأن تعطيف قلب الجمهور عليه يجعل العقوبة قاسية .

« أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى » ونعرف أن « الباء » تدخل على المتروك ، فالضلالة هنا أُخِذَتْ وترك الهدى ، واستبدلوا العذاب بالمغفرة ، وماداموا قد أخذوا الضلالة بدلا من الهدى ، والعذاب بدلا من المغفرة ، فالعدالة أن يأخذوا العذاب الأليم .

وبعد ذلك يقول الحق : « فما أصبرهم على النار » هذا تبشيع للعقاب حتى يُنَفِّر منه الناس . ويريد منا الله أن نتعجب ، كيف يجوز للضال أن يترك الهدى ويأخذ الضلال ، وبعد ذلك تكون النتيجة أن يأخذ العذاب ويترك المغفرة . فما الذى يعطيه الأمل فى أن يصبر على النار ؟ ، هل عنده صبر إلى هذا الحد يجعله يقبل على الذنب الذى يدفعه إلى النار ؟ . وما الذى جعله يصبر على هذا العذاب ؟ أعنده قوة تُصَبِّره على النار ؟ وما هذه القوة ؟ .

وكأن الحق يقول : أنت غير مدرك لما ينتظرك من الجزاء وإلا ما الذى يصبرك على هذه النار ؟ إنك تتمادى فى طغيانك وضلالك ، وتنسى أن النار ستكون من نصيبك ؛ فإذا كنت متيقناً أن النار من نصيبك ؛ فكيف أخذت أماناً من صبرك على النار . فالنار أمر لا يصبر عليه إنسان أبداً .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾ ﴾

وذلك إشارة إلى ما تقدم ، وما تقدم هو الضلالة التى أخذوها وتركوا الهدى ، والعذاب الذى أخذوه بدلاً من المغفرة ، ونار يعذبون فيها ، وقد صبروا عليها ، إنها ثلاثة أشياء ملتقية ؛ العذاب ، والضلالة ، والنار .

فالضلال هو السبب الأصيل فى العذاب ، فإذا قال الله : عاقبتهم بكذا لأنهم ضلوا ، فذلك صحيح ، وإذا قال : فعلت فيهم ذلك لأنهم استحقوا العذاب ، فهو صادق ، والعذاب كحكم عام يكون بالنار .

إذن ، عندما يقول الحق : بالنار أو بالعذاب أو بالضلال فمرجعها جميعا واحد ، يقال عنه : « ذلك » . « ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق » والذى يغير الكتاب ويكتمه إنما يكره الحق . « وإن الذين اختلفوا فى الكتاب لفى شقاق بعيد » . إنها هوة واسعة يسقطون فيها ، فالشقاق فى القيم المنهجية السماوية هو هوة كبيرة ، فلو كان الخلاف فى أمور مادية لأمكن للبشر أن يتحملوها فيما بينهم ، ولكانت مسألة سهلة . ولكن الخلاف فى أمر قيمى لا يقدر البشر على أن يصلحوه فيما بينهم ، من هنا فإن شقة الخلاف واسعة ، ولا يقوى على حلها إلا الله ، ولذلك قال سبحانه :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ ﴾

(من الآية ٣ سورة الزمر)

﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ
ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ
وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ
وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ
ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ
وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ
صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾

وعندما جاء الأمر من الحق سبحانه وتعالى بتحويل القبلة إلى الكعبة واتجاه المسلمين فى صلواتهم إليها بعد أن كانوا يصلون ووجهتهم إلى بيت المقدس ، عند ذلك حدثت بلبلة ، وصار لكل أتباع ملة قبلة خاصة : فالمسلمون يتجهون إلى الكعبة ، واليهود يتجهون إلى بيت المقدس ، والنصارى يتجهون إلى المشرق .

وهذه الآية تؤكد أن الخلاف ليس فى مسألة اتجاه الصلاة ، وقبل تحويل القبلة كان كل من يصلى يتجه إلى مُتجه ، وتغيير المتجه ليس فيه مشقة .

والحق سبحانه وتعالى يقول لهم : لا تجعلوا أمر الاتجاه إلى الكعبة هو كل البر ؛ لأن هذا الأمر لا مشقة فيه ؛ فلا مشقة فى توجه المسلمين إلى الكعبة بعد أن كانوا متوجهين إلى بيت المقدس ، إنما المسألة هى امتثال لأمر الآمر ، فالبر إذن ليس فى

الأمور السهلة التى لا مشقة فيها ، وإنما فى الخير الواسع الكثير ، ويشمل الإيمان ، ويشمل التقوى ، ويشمل الصدق ، ويشمل الطاعة ، ويشمل الإحسان ، وكل وجوه الخير تدخل فى كلمة « البر » . فالبر معناه كبير واسع ، ومادام معناه متسعاً هكذا فكل ناحية منه تحتاج إلى مشقة .

وانظروا إلى مطلوب البر ، ومتعلقات البر التى تتطلب منكم المشقة ، ولا تختلفوا فى المسألة السهلة اليسيرة التى لا يوجد فيها أدنى تعب مثل مسألة تغيير اتجاه القبلة ، فإن كنتم تعتقدون أن ذلك هو البر نقول لكم : لا ، البر له مسئوليات تختلف ، إن مُتعلق البر هو أن يُختبر صدق الإيمان ، ويظهر الإيثار لمطلوب الله على الراحة ، ويتطلب من المؤمن أن يقبل على الطاعة وإن شقّت عليه ، ويتطلب أن يمتنع المسلم عن المعاصى ؛ وأن يعرف أن للمعاصى لذة عاجلة ، لكن عقابها كبير ، كل ذلك هو من مطلوبات البر والإيمان ، فلا تجعلوا مسألة التوجه إلى الكعبة أو إلى بيت المقدس ، أو إلى المشرق هو المشكلة ؛ لأن وجوهكم ستتولى إلى جهة ما وإن لم تُؤمَروا . والبر كما نعلم هو الخير الواسع الذى يشمل كل وجوه الجمال فى الكون . يقول الحق : « ولكن البر من ءَامَنَ » .

ولماذا جعل الله الحديث عن البر حديثا عن ذات مجسدة ؛ برغم أن البر معنى ؟ . إن الحق يجسد المعنى وهو البر فى ذات العبد الذى آمن لأنه سبحانه حينما يريد أن يؤكد معنى من المعانى يجعل الذات مجسدة فيه . وعلى سبيل المثال ـ ولله المثل الأعلى ـ عندما نقول : «فلان عادل» ، أى نحن نصفه بما يحقق للسامع أنه رجل يعرف العدل. ولكن عندما نقول : « فلان عدل » فكأنه هو العدل ذاته ، وكذلك عندما نقول : « فلان صادق » فمعنى ذلك أنه صاحب ذات اتصفت بالصدق ، ومن الممكن للذات أن تنفصل عن الصدق يوما ، ولكن حين نقول : « فلان صدق » فمعنى ذلك أن الصدق قد امتزج به فلا ينحل عنه أبدا ، أو أن الحق يريد أن يقول لنا : لكن صاحب البر هو من آمن بالله ، أو يقول : « ولكن البر هو بر من آمن بالله » ، أو أن الإخبار بالذات « من آمن » عن الصفة « البر » دليل على امتزاج الذات فى الصفة امتزاجا لا تتخلى عنه أبدا فكأن البر قد تجسد فيهم .

وكل هذه الأقوال يتسع لها النص القرآنى الكريم .

والحق يقول : « ولكن البر من آمَن بالله » هذه بداية الإيمان ، ويأتى بعد ذلك بنهاية الإيمان وهو ضرورة الإيمان بـ « اليوم الآخر » ، إن بداية القوس هى الإيمان بالله وطرفه الأخير الإيمان باليوم الآخر .

وهنا نتساءل : وكيف يأتى الإيمان باليوم الآخر ؟

نقول : يأتى الإيمان باليوم الآخر بأن تؤمن بالله ثم تؤمن بما يخبرك به الله ، فلا تقل : أنا جعلتهما فى صف واحد ، بل الإيمان بالله أولا ، وبعد ذلك الايمان بما أخبرنى به الله ، وقد أخبر سبحانه : أن هناك يوماً آخر ، فصدقت ما أخبر به . وتأتى مسألة الإيمان بالملائكة فيقول الحق : « والملائكة » فكيف نؤمن بخلق من خلق الله لا نراه ؟

إننا مادمنا قد آمنا بالقمة ، وهى الإيمان بالله ، والله أخبرنا بأن هناك ملائكة ، وحتى لو كان وجود الملائكة غيبيا فنحن نؤمن بها ؛ لأن الذى أخبر بها هو الله ، وكذلك نؤمن بالجن برغم أننا لا نراه ، وكل ما يتعلق بالغيبيات هو إخبار ممن آمنت به ؛ لذلك تؤمن بها .

والمسائل الإيمانية كلها غيبية ، ولا تقول فى الأمر الحسى : « إننى آمنت به » ، إنما تقول : « آمنت » فى الأمر الغيبى ؛ لأنه أمر غيبى لا تأنس به الحواس والإدراكات ، وتريد أن تجعله عقيدة ، والعقيدة هى أمر يُعقد فلا ينحل أبدا ، ولأنه أمر غيبى فربما ينفلت منا ؛ لأنه لو كان أمرا مشهديا لما غفل عنه الإنسان أبدا ؛ لأن مشهديته ستجعلك تتذكره ، إنما هو أمر غيبى ، ويسمى عقيدة ، أى أمراً معقوداً لا يُحل أبدا .

والقمة العقدية هى أن تؤمن بالله ، ثم تؤمن بما يخبرك به الله من غيبيات لا دليل لك عليها إلا أن الله قال بها ، فإن رأيت فى متعلقات الإيمان أمورا محسة فاعلم أن

الجهة فى الإيمان منفكة ؛ لأنه سيأتى ذكر الملائكة واليوم الآخر وكلاهما غيب ، وبعد ذلك سيذكر الكتاب والنبيين ، وهما محسوسان .

صحيح أن الكتاب أمر محس والنبيين كذلك ، لكننا لم نحس أن الله أنزل الكتاب ، وأن الله بعث النبيين . ونحن لم نكن على قيد الحياة وقت نزول الكتاب ولا وقت بعث النبى ، وجاء إيماننا لأننا صدقنا أن الله أنزل وحيا على محمد صلى الله عليه وسلم ، هذا الوحى نزل بالكتاب ، وأن الله اختار محمدا صلى الله عليه وسلم ليكون مبلغا لهذ الوحى ، وكل هذه أمور غيبية لم نرها .

والغيبيات هى أرضية الحركة الإيمانية ؛ أو أساس الإيمان .

وبعد ذلك تنتقل الآية من الحديث عن الأمر العقدى ، لتبين لنا أن البر مكون من أمور عقدية هى أساس لأمور حركية ، والأمور الحركية هى المقصودة من كل تدين . فالحق سبحانه لا يعنيه أن يؤمن به أحد ، ولا يعنيه أن تؤمن بملائكته ، وكتبه ورسله ، لكن الأمر الذى يريده الله هو أن تنتظم حركة الحياة فى الأرض بمنهج الله ، ولذلك ينتقل الحديث إلى الأمر المادى فيقول : « وآتى المال على حبه » كأن الإنسان قد ملك المال وبعد ذلك « آتاه » . وعندما تقول : « آتيت » فهى تعنى أعطيت ، وهى تختلف عن « أتيت » التى تعنى « جئت » .

وما هو المال ؟ إن المال هو كل ما يتمول إلا أننا نصرفه إلى شىء يمكن أن يأتى بكل متمول وأسميناه بالنقد . وأصبحت له الغلبة ؛ لأننا نشترى بالنقد كل شىء ، لكن المعنى الأصلى للمال هو كل ما يتمول ، وكيف يجىء المال لك أو لى أو لأى إنسان ؟ . أَخَرَجَ أحد منا من بطن أمه وهو يملك شيئا ؟ . لا .

إن ما يملكه الإنسان يأتى إما من متحرك فى الحياة قبلك إن كان والدك أو جدك ، وإما من حركتك أنت .

إذن لا يقال : « آتى المال » إلا إذا ثبتت له حركة ذاتية يصير بها متمولا ، أو ورث

عن متمول ، والمتمول هو الذى يتحرك فى الحياة حركة قد تكون لنفسه ، وإن اتسعت حركته فستكون لأبنائه ، وإن اتسعت أكثر فستكون لأحفاده .

والحق يقول : « وآتى المال على حبه » وكلمة الحب مصدر ، والمصدر أحيانا يضاف إلى فاعله ، وأحيانا يضاف إلى المفعول الواقع عليه ، مثلا كلمة « ضرب » نحن نقول : ضرب زيد عُمَرَ ، وهكذا نجد ضاربا هو « زيد » ومضروبا هو « عمَر » . وإذا قيل : « أعجبنى ضَرْبُ زيدٍ » . إن قلت : « لعمر » عرفنا الضارب والمضروب ، وإن سكت عند قولك : أعجبنى ضرب زيد » فهى تحتمل معنيين ، الضرب الصادر من زيد ، أو الضرب الواقع على زيد . فساعة تأتى بالمصدر ويضاف إلى شىء فيصح أن يضاف إلى فاعله وأن يضاف إلى مفعوله .

« وآتى المال على حبه » يمكن أن نفهمها على أكثر من معنى : يمكننا أن نفهمها على أنه يعطى المال وهو يحب المال ، ويحتمل أن نفهمها على أنه يؤتى المال لأنه يحب أن يعطى مما يحبه من المال عملا بقول الله تعالى « لن تنالوا البر حتى تنفقوا ما تحبُون » . . وهى تحتمل المعنيين . ويمكن أن تُصَعِّد المعنى فيصير « وآتى المال على حب الإيتاء أى الإعطاء » أى يُحب الإعطاء وترتاح نفسه للإعطاء ، ومن الممكن تصعيدها تصعيدا آخر يشمل كل ما سبق فيصبح المعنى : وآتى المال على حب الله الذى شرع له ذلك ، وكل هذه المعانى محتملة .

والحق يقول :

﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ ﴾

(سورة الإنسان)

ويقول سبحانه أيضا :

﴿ لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾

(من الآية ٩٢ سورة آل عمران)

وتعطينا كل هذه الآيات وضوح الفرق بين الملكية ، وبين حب المملوك ، فمن الممكن أن تكون لديك أشياء كثيرة أنت مالكها ، ولكن ليس كل ما تملكه تحبه ، فعندما تؤتى المال فمن المحتمل أن تكون قد نزعته من ملكيتك وأنت لا تحبه . وبذلك أخرجته من ملكيتك فقط ، وإما أن تكون محبا للشيء الذى تعطيه لغيرك ، وبذلك تكون قد أخرجته من ملكيتك ، ومن حبك له .

وإما أن يكون المال الذى فى يدك مجرد أداة لك ولغيرك وليس له مكانة فى قلبك ، ولذلك يقول الشاعر :

لا أبالى توفير مالى لدهرى
منفقا فيه فى رخاء وبأس
إن يكن فى يدى وليس بقلبى
فهو ملكى وليس يملك نفسى

إن قوله الحق : « آتى المال على حبه » تعطينا إما منزلة إخراجه من الملك وإما منزلة إخراجه من القلب الذى يحبه . ولذلك يعيب الحق على جماعة من الناس يريدون العمل على طاعة الله ، لكنهم لا ينفقون لله إلا مما يكرهون . ويقول الله فى حقهم « ويجعلون لله ما يكرهون » .

ولكن لمن يكون ذلك المال الذى ينطبق عليه القول : « وآتى المال على حبه » ؟ .

إنه ، لـ « ذوى القربى » ألا ترون إنسانا له حركة فى الحياة قد اتسعت لنفسه ، ثم نرى قرباه الذين لا يقدرون على الحركة محتاجين ، كيف تكون حالة نفسيته إذن ؟ . لابد أن تكون نفسية متعبة ؛ لأن المفروض فى الإنسان المؤمن أن يجعل كل الناس قرباه ، ونذكر فى هذا المقام قصة معاوية عندما كان أميرا للمسلمين ، ودخل عليه الحاجب وهو يقول : يا أمير المؤمنين رجل بالباب يدعى أنه « أخوك » ، فقال معاوية : أبلغ بك الأمر ألا تعرف إخوتى ؟ أدخله .

فلما دخل الرجل قال له معاوية : أى إخوتى أنت ؟
قال : أخوك من آدم .
فماذا قال معاوية : ؟.
قال : رحمٌ مقطوعة ، والله لأكونن أول من وصلها . وأكرمه .

فإذا كان الانسان لا يستطيع أن يصل قرباه من الناس كافة ، ألا يستطيع أن يصل خاصة أقاربه ؟. كيف يستطيب المؤمن ـ إذن ـ نعيم الحياة وهو يجد أقاربه محتاجين ، حتى لو نظرنا بعيدا عن الدين والإنسانية ، ألا تستحق المسألة أن يجود الإنسان بما عنده على أهله ؟.

وفى دائرة الإيمان حين يجعل الله حركة الحياة فى التكافل دوائر ، فهو سبحانه يريد أن يوزع خير المجتمع على المجتمع ؛ لأنه سبحانه حينما أراد استبقاء النوع شرع لنا طهر الالتقاء بين الرجل والمرأة بعقد علنى وشهود ، لماذا ؟. لأن الثمرة من الزواج هى الأبناء التى ستأتى بقطاع جديد من البشر فى الكون ، وهذا القطاع لابد أن يكون محسوبا على الرجل أمام الناس ، وإن لم يرع الرجل فى أبنائه حق الله يلمه الناس على ذلك لأنهم أبناؤه .

ولذلك عندما نرى شخصا يخفى زواجه ، كأن يتزوج زواجا عرفيا مثلا نقول له : أنت تريد أن تأتى بثمرة منك ثم تنكرها ، فيأتى أبناء غير محسوبين عليك . ولذلك فلنكن على ثقة من أن كل مشرد فى الأرض نراه هو نتيجة لخطيئة إما معلنة ، وإما لا يقدر على إعلانها رجل لم يتحمل مسئولية علاقته بالمرأة ، ولا يهمل رجل ولدا منسوبا له إلا إذا تشكك فى نسبه إليه ، وهذا ما يجعله ينكر نسبه .

إذن فعملية الطهر التى أرادها الله سبحانه وتعالى فى الالتقاءات بين الرجل والمرأة ، إنما أرادها سبحانه لأنه يشرع لبناء أجيال جديدة ، ينشأ منها مجتمع المستقبل ، وقبل أن يوجد هؤلاء الأبناء لابد أن يكون لهم رصيد وأساس يتحملهم ، فجعل الله لنا الأولاد والأحفاد ، ويوصى الله الأبناء على الوالدين قبل ذلك ، ثم

تتسع الدائرة للقرابة القريبة .

وهات واحدا واصنع له هذه الدائرة ، وهات آخر واصنع له الدائرة نفسها ، وثالثا واصنع له دائرته ، واصنع إحصاء للقادرين وحدد دوائرهم العائلية ، ستجد كل إنسان فى الكون يدخل فى دائرة من هذه الدوائر ، فإن رأيت عوجا فاعلم أن مركز الدائرة قد تخلى عن محيط الدائرة .

والله سبحانه وتعالى يقول : « وآتى المال على حبه ذوى القربى » ، تأمل - إذن - الحث على البر تجد أن أول ما جاء فيه هو إيتاء ذوى القربى؛ لأن لهم مكانة خاصة؛ وعندما يؤتى كل منا قرباه ويحملهم على فائض ماله وفائض حركته فلن يوجد محتاج ، وإذا وُجِدَ المحتاج فسيكون نزراً يسيراً ، وتتسع له الزكاة الواجبة .

أو كما قال بعض العلماء : المقصود بذوى القربى هم قربى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقولون ذلك ؛ لأن فى القرآن آية تقول :

﴿ لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾

(من الآية ٢٣ سورة الشورى)

ولماذا قربى رسول الله ؟

لأنهم ليس لهم حق فى الزكاة ؛ حتى يبرأ المبلغ عن الله من أى نفع يعود عليه ، أو يعود على آله ، لذلك منع الله عنهم أى حق فى الزكاة . وكأن الله يريد أن يقول لنا : لا يصح أن تجعلوا الناس الذين رفعهم الله وكرمهم عن أخذ الزكاة التى يأخذها أى فقير منكم ممنوعين من أخذ كل شىء ، فلابد أن تتخذوهم أقارب لكم بحيث لا تجعلونهم محتاجين .

وعلى فرض أن الآية تريد قُربانا نقول : « النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم»، فقرباه وآله أولى من قربانا وأهلنا .

وبعد ذلك جاء الله بقوله : « واليتامى » ، ونعرف أن اليتيم هو من فقد أباه ولم يبلغ مبلغ الرجال . واليتيم فى الإنسان غير اليتيم فى الحيوان ؛ فاليتيم فى الحيوان هو من فقد أمه ، ولكن اليتيم فى الإنسان هو من فقد أباه . واليتيم لا يكون له وصى إلا إذا كان عنده شىء من مال ، عندئذ يكون هناك وصى لإدارة أمور اليتيم . ولذلك جاء الحق بالأمر بإعطاء المال على حبه لليتامى ، ولم يقل:« لذوى اليتامى » . فربما كان هناك يتيم ضائع لا يتقدم أحد للوصاية عليه ، وليس عنده ما يستحق الوصاية ؛ لذلك فعلينا أن نؤتى اليتيم من مال الله حتى ندخل فى صفات البر ، أو نعطى للوصى على اليتيم لينفق عليه إن كان له وصى .

وكذلك نؤتى المال للمساكين ، والمسكين مأخوذة من السكون ، وهو الإنسان الذى لا قدرة له على الحركة ، كأن استخذاءه وذله فى الحياة منعاه من الحركة .

واختلف الفقهاء حول من هو الفقير ، ومن هو المسكين ، قال بعضهم : إن الفقير هو من لا يملك شيئا ، والمسكين يملك ما لا يكفيه ، أى يملك شيئا دون ما يحتاجه ، وقال البعض الآخر : إن الفقير هو الذى يملك ما هو دون حاجته ، والمسكين من لا يملك .

وعلى كل حال فقد شاءت حكمة الله عز وجل أن يجعل للفقير نصيبا من البر . وللمسكين أيضا نصيبا كالآخر ، والخلاف بين العلماء لا يؤدى إلى منع أحدهما من المال ، لأن كُلًّا منهما ـ المسكين والفقير ـ يستحق من مال الله . وعلى ذلك فالخلاف لا طائل من ورائه .

وكذلك نؤتى المال لابن السبيل ، والسبيل هو الطريق ، وابن السبيل هو ابن الطريق ، وعادة ما يُنسب الإنسان إلى مكانه أو إلى بلده ، فإذا قيل ابن السبيل ، فذلك يعنى أنه ليس له مكان يأوى إليه إلا الطريق ، فهو رجل منقطع ، وقد يكون ابن سبيل ذا مال فى مكانه ، إلا أن الطريق قطعه عن ماله وباعد بينه وبين ما يملك ، أو يكون ذا مال وسرق منه ماله ، فهو منقطع .

ولماذا جعل الله نصيبا من البر لابن السبيل ؟ . لقد جعل الله نصيبا من المال لابن السبيل حتى يفهم المؤمن أن تكافله الإيمانى متعدٍ إلى بيئة وجوده ، فحين يوجد فى مكان وينتقل إلى مكان آخر يكون فى بيئة إيمانية متكافلة .

ونؤتى المال أيضا للسائلين أى الذين يضعون أنفسهم موضع السؤال ، أعط من يسألك ولو كان على فرس ؛ لأنك لا تعرف لماذا يسأل ، إن بعضاً من الناس يبررون الشُّح فيقولون : إن كثيرا من السائلين هم قوم محترفون للسؤال ، ونقول لهم : مادام قد سأل انتهت المسألة ، وعمدتنا فى ذلك قوله صلى الله عليه وسلم :

« أعطوا السائل وإن جاء على ظهر فرس »(١)

ومادام قد عرض نفسه للسؤال فأعطه ولا تتردد .

قد تظن أنه يحمل حقيبة ممتلئة بالخبز ، أو يخفى المال بعيداً . وأقول : قد يكون عنده خبز لكنّه لا يكفى أولاده ، وقد يخفى المال الذى لا يكفيه ، ولن تخسر شيئاً من إعطائه ، فلأن تخطىء فى العطاء ، خير من أن تصيب فى المنع .

ونؤتى المال أيضاً لمن هم « فى الرقاب » وكلمة « رقبة » تُطلق فى الأصل اللغوى على أصل العنق ، وليس على العنق نفسه . وتطلق كلمة الرقبة على الذات كلها ، أى الإنسان فى حد ذاته ، لماذا ؟ لأن حياة الإنسان يمكن أن تملكها من الرقبة ، فتستطيع أن تمسك إنساناً من رقبته وتتحكم فيه وتضغط عليه ضغطاً تمنع تنفسه إلى أن يموت ، لذلك تطلق الرقبة ويراد بها الشخص ذاته ، وفى ذلك يقول القرآن :

﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ ﴾

(سورة البلد)

أى فك الأسير ، إذن « فى الرقاب » تعنى فك أسر العبد ، ويمكن لصاحب البر أن

---

(١) هذا الحديث أخرجه ابن عدى فى الكامل عن أبى هريرة رضى الله عنه وهو ضعيف .

يشترى العبيد ويعتقهم ، أو يسهم فى فك رقابهم فذلك لون من ألوان تصفية الرق ، وفى تصفية الرِّق هناك شىء اسمه التدبير ، وشىء اسمه المكاتبه

هب أن عبداً يخدمك وبعد ذلك ترى أنه أخلص فى خدمتك ، فثمناً لإخلاصه فى خدمتك مدة طويلة قررت أن تُدَبِّره بعد موتك ، أى تعطيه حريته فيصبح حراً بعد موتك ، فكأنك علقت عبوديته على مدى حياتك ، وبعد انتهاء حياتك يصبح مدبراً أى حراً ، ولا يدخل فى تركتك ، ولا يُورَث .

وقد تكاتبه على مال فتقول له : يا عبد أنا أكاتبك على مائة جنيه ، وأطلق حركتك لتتصرف أنت وتضرب فى الحياة وتكسب وتأتى لى بالمائة جنيه ، ثم أطلق سراحك ، وفى هذه الحالة فإن على أهل البر أن يعاونوا هذا المُكاتب ليؤدى مال الكتابة حتى يفك رقبته من الأسر .

ومن البر أيضا إقامة الصلاة ، كأن المعنى : « ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة » ونعرف أن معنى إقامة الصلاة هى أداء الصلاة فى أوقاتها على الوجه المطلوب شرعاً .

ومن البر أن نؤتى الزكاة ، فكأن كل ما سبق « وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين فى الرقاب » لا علاقة لها بالزكاة ، إن كل ذلك هو برّ آخر غير المطلوب للزكاة ، لأن الزكاة لو كانت تدخل فيما سبق لما كان الله كرَّرها فى الآية .

هذه أوجه البر التى ذكرتها الآية من إيتاء ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، وكل ذلك لمن أراد أن يدخل فى مقام الإحسان ، فمقام الإحسان كما نعرف هو أن تلزم نفسك بشىء لم يفرضه الله عليك ، إنما تحس أنت بفرح الله بك ورضاه عنك فيقبله الله منك .

راجع أصله وخرّج أحاديثه الدكتور أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .

ولذلك عندما سُئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل فى المال حق غير الزكاة ؟ ذكر هذه الآية :

﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾

(من سورة البقرة)

إذن فتلك أوجه البر المطلوبة ، والزكاة أيضا مطلوبة . ففى مصرف الزكاة لا يوجد ذوو القربى ولا اليتامى . صحيح أن فى مصارف الزكاة إعطاء المسكين وابن السبيل ، لكن فى البر هناك أشياء غير موجودة فى الزكاة ، فكأنك إن أردت أن تفتح لنفسك باب البر مع الله ، فوسع دائرة الإنفاق ، وستجد أن البر قد أخذ حيزاً كبيراً من الإنفاق ، لأن المنفق مستخلف عن الله . فالله هو الذى استدعى الإنسان إلى الوجود ، ومادام هو المستدعى إلى الوجود فهو سبحانه مكلف بإطعامه ، وأنت إذا أنفقت على المحتاج الذى استدعاه الله للوجود فإنك تتودد إلى الله بمساعدة المحتاجين من خلقه دون أن يلزمك به الله ، ولذلك يقول الله عز وجل :

﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ﴾

(من الآية ٢٤٥ سورة البقرة)

إذا كان هو سبحانه الذى أعطى المال ، فكيف يقول : أقرضنى ؟ . نعم ، لأنه سبحانه لا يرجع فيما وهبه لك من نعمة المال ، إن المال الذى لك هو هبة من الله ، ولكن إن احتاجه أخ مسلم فهو لا يقول لك « أعطه من عندك أو اقرضه من

عندك » ، إنمايقول لك : « أقرضنى أنا ، لأنى أنا الذى أوجدته فى الكون ورزقه مطلوب منى » ، فكأنك حين تعطيه تقرض الله ، وهذا معنى قوله : « من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسناً » . إنه سبحانه وتعالى متفضل بالنعمة ثم يسألك أن تقرضه هو .

ولنضرب على ذلك مثلاً من أمر الدنيا ـ وسبحانه وتعالى منزه عن كل مثل وله المثل الأعلى ـ هب أنك محتاج وفى ضائقة مالية ، وعندك أولاد ولهم مبالغ مدخرة مما كنت تعطيهم من مال فتقول لهم أقرضونى ما معكم من مال ؛ وسأرده لكم عندما تمر الضائقة . كأنك لم ترجع فى هبتك وما أعطيته لهم من مال ، إنما اقترضته منهم ، كذلك يفعل الله سبحانه وتعالى .

وكذلك لنا عبرة وعظة من السيدة فاطمة رضى الله عنها عندما دخل عليها سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فرآها ممسكة بدرهم ، والدرهم يعلوه الصدأ وأخذت تجلوه ، فسألها أبوها : ما تصنعين يا فاطمة ؟ قالت : أجلو درهما . قال : لماذا ؟ قالت : لأنى نويت أن اتصدق به ، قال : وما دمت تتصدقين به فلماذا تجلينه ؟ قالت : لأنى أعلم أنه يقع فى يد الله قبل أن يقع فى يد المحتاج .

ومن البر أيضا أن يفى الإنسان بالعهد ، فالحق يقول : « والموفون بعهدهم إذا عاهدوا » . وما معنى العهد ؟ . إن هناك عهداً ، وهناك عقد . والعهد يوجد من طرفين تعاهدا على كذا ، لكن قد يستطيع أحدهما العطاء ولا يستطيع الآخر الرد . والعقد يوجد بين طرفين أيضاً ، أحدهما يعطى ويأخذ ، والآخر يعطى ويأخذ .

ومن البر أن تكون من « الصابرين فى البأساء والضراء » . ولنا أن نلحظ أن الحق جاء بـ « الموفون بعهدهم » مرفوعة لأنها معطوفة على خبر لكنَّ البر ، فلماذا جاء « بالصابرين » منصوبة ؟ فماذا يعنى كسر الإعراب ؟ إن الأذن العربية اعتادت على النطق السليم الفصيح فإذا كان الكلام من بليغ نقول : لَمْ يكسر الإعراب هنا إلا لينبهنى إلى أن شيئاً يجب أن يُفهم ، لأن الذى يتكلم بليغ ومادام بليغاً وقال قبلها :

« والموفون » ثم قال : « والصابرين » فلابد أن يكون هناك سبب ، ما هو السبب ؟ .

إن كل ما سبق مطيةُ الوصول إليه هو الصبر ، إيتاء المال على حبه ذوى القربى و . . و . . ولذلك أراد الله أن ينبه إلى مزية الصبر فكسر عنده الإعراب ، وكسر الإعراب يقتضى أن نأتى له بفعل يناسبه فجاء قوله تعالى : « والصابرين » وكأن معناها : وأخص الصابرين ، وأمدح الصابرين .

إذن كسر الإعراب هنا غرضه تنبيه الآذان إلى أن شيئاً جديداً استحق أن يُخالف عنده الإعراب . لأن الصبر هو مطية كل هذه الأفعال ، فالذى يقدر فى الصبر على نفسه بإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة . وإيتاء المال على حبه هو الذى فاز وظفر ، إذن كل ذلك امتحان للصبر . ومن هنا خص الله « الصابرين » بإعراب مخالف حتى نفهم أنه منصوب على المدح ، أو على الاختصاص .

ولماذا خص الله الصابرين بالمدح ؟ .

لأن التكليفات كلها تعطى مشقات على النفس ، ولا يستطيع تحمل هذه المشقات إلا من يقدر على الصبر . ومادام قد قدر على الصبر فكل ذلك يهون . ومن هنا خص الله الصبر بهذه الميزة .

والمهم أن الآية جاءت بالصابرين بعد « والموفون » حتى تكون النقلة ملحوظة ومتيقنة ، بأن الإعراب فيما سبق «والصابرين » تقديرى معطوف أى هو معطوف على خبر « ولكن البر من آمن بالله » . . فجاءت « والموفون » مرفوعة لنفهم أنها معطوفة على خبر « ولكن » ، ثم جاء ما بعدها « والصابرين » منصوبة ، حتى نلحظ الفرق بين المعنيين ، ولو جاءت مرفوعة مثل ما قبلها فربما مرت علينا ولم نلحظها . « والصابرين فى البأساء والضراء » البأساء هو البؤس والفقر ، وهذا فى الأحوال ، نقول : فلان حاله بائس . « والضراء » هى الألم والوجع والمرض ، وهى تصيب البدن والجسد . « وحين البأس » أى حين الحرب عندما يلتقى المقاتل بالعدو ويصبر ويصمد ليقاتل .

إذن صفة الصبر تناولت ثلاثة أمور : فى البأساء ، أى فى الفقر ، وفى المرض ، وفى الحرب مع العدو ، صابر فى كل هذه الأمور .

ولذلك جاء فى الحديث الشريف :

« ما من مصيبة تصيب المسلم إلا كَفَّرَ الله بها عنه حتى الشوكة يُشاكها »[1]

ويقول الحق عن الذين دخلوا إلى رحاب البر : « أولئك الذين صدقوا » فـ « من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا » .

ماذا تعنى صدقوا ؟ الصدق هو مطابقة النسبة الكلامية للواقع الفعلى . وأولئك صدقوا فى إعلان إيمانهم ، وواقع حركتهم فى الحياة ، وصدق قولهم : « لا إله إلا الله محمد رسول الله » .

إذن فصدق إيمانك متوقف على أن تكون حركة حياتك مناسبة لمقتضيات إيمانك . فإن آمنت وأسلمت وجاءت حركة حياتك مناقضة لإعلان إسلامك ، نقول : أنت غير صادق ، ولكن إذا وُجدت صفات الإيمان فى إنسان نقول له : لقد صدقت فى إيمانك ، لأن حركة حياتك انسجمت مع واقعك الإيمانى . وما أكثر الناس الذين يقولون ولا يفعلون ، وهم منسوبون إلى الإسلام بالكلام .

وما نتيجة صدق المؤمنين ؟ يجيبنا الحق بوصفهم : « أولئك هم المتقون » . وساعة تسمع كلمة « متقون » أو « اتقوا » . فذلك يعنى أنهم جعلوا وقاية بينهم وبين شىء ، ولا يُطلب منك أن تجعل وقاية بينك وبين شىء إلا إن كنت لا تتحمل هذا الشىء .

---

(١) رواه البخارى فى كتاب المرضى .

ومثل ذلك قوله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا ﴾

(من الآية ٦ سورة التحريم)

أى اجعلوا بينكم وبين النار حاجزا . وقلنا : إن من العجب أن كلمة « اتقوا » تأتى إلى الشىء الذى هو « اتقوا النار » وتأتى إلى « اتقوا الله » ، كيف يكون التقوى فى متناقضين ؟

نعم : لأن معنى اتقوا النار ، أى اجعلوا بينكم وبينها وقاية ، وهل النار فاعلة بذاتها أم بتسليط الله لها على العاصى ؟ إنها فاعلة بتسليط الله لها على العاصى . إذن اتقوا الله معناها اتقوا متعلق صفات الجلال من الله ، لأن لله صفات جمال وصفات جلال فاجعلوا بينكم وبين صفات الجلال من الله وقاية ، لأنكم لا تتحملون غضب الله ، ولا قهر الله ، ولا بطش الله ، فاجعلوا بينكم وبين صفات جلاله وقاية ، ومن آثار صفات جلاله النار . فالمسألة متساوية ولا تناقض فيها .

وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٧٨﴾ ﴾

وساعة ينادى الله « يأيها الذين آمنوا » فهذا النداء هو حيثية الحكم الذى سيأتى ، ومعنى هذا القول : أنا لم أكلفكم اقتحاما على إرادتكم ؛ أو على اختياركم ، وإنما كلفتكم لأنكم دخلتم إلى من باب الإيمان بى ، ومادمتم قد آمنتم بى فاسمعوا منى التكليف .

فالله لم يكلف من لم يؤمن به ، ومادام الله لا يكلف إلا من آمن به فإيمانك به جعلك شريكا فى العقد ، فإن كتب عليك شيئا فأنت شريك فى الكتابة ، لأنك لو لم تؤمن لما كتب ، فكأن الصفقة انعقدت ، ومادامت الصفقة قد انعقدت فأنت شريك فى التكليف ، ولذلك يقول الله : « كُتب » بضم الكاف . ولم يقل « كَتب » بفتح الكاف . وتلحظ الفرق جليا فى الأشياء التى للإنسان دخل فيها ، فهو سبحانه يقول :

﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ﴾

(من الآية ٢١ سورة المجادلة)

إنه سبحانه هنا الذى كتب ، لأنه لا شريك له . عندما تقرأ « كُتب عليكم » فافهم أن فيها إلزاما ومشقة ، وهى على عكس « كَتب لكم » مثل قوله تعالى :

﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا ﴾

(من الآية ٥١ سورة التوبة)

إن « كَتب لنا » تشعرنا أن الشىء لمصلحتنا . وفى ظاهر الأمر يبدو أن القصاص مكتوب عليك ، وساعة يكتب عليك القصاص وأنت قاتل فيكون ولى المقتول مكتوبًا له القصاص ، إذن كل « عليك » مقابلها « لك » ، وأنت عرضة أن تكون قاتلا أو مقتولا . فإن كنت مقتولا فالله كتب لك . وإن كنت قاتلا فقد كتب الله عليك . لأن الذى « لى » لابد أن يكون « على » غيرى ، والذى « علىّ » لابد أن يكون « لغيرى » . فالتشريع لا يُشرع لفرد واحد وإنما يشرع للناس أجمعين .

عندما يقول : « كُتب عليكم القصاص » ، ثم يقول فى الآية التى بعدها : « ولكم فى القصاص حياة » ، فهو سبحانه قد جاء بـ « لكم » ، و« عليكم » . « عليكم » للقاتل ، و« لكم » لولى المقتول . فالتشريع عادل لأنه لم يأت لأحد على حساب أحد ، والعقود دائما تراعى مصلحة الطرفين . « ياأيها الذين آمنوا كُتب عليكم القصاص فى القتلى الحر بالحر » .

من هو الحر ؟ الحر ضد العبد وهو غير مملوك الرقبة ، والحر من كل شىء هو أكرم ما فيه ، ويقال : حر المال يعنى أكرم ما فى المال . و« الحر » فى الإنسان هو من لا يحكم رقبتَه أحد . و« الحر » من البقول هو ما يؤكل غير ناضج ، أى غير مطبوخ على النار ، كالفستق واللوز .

والحق سبحانه يقول : « الحر بالحر » ، وظاهر النص أن الحر لا يُقتل بالعبد ، لأنه سبحانه يقول : « الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى » ، لكن ماذا يحدث لو أن عبداً قتل حراً ، أو قتلت امرأة رجلاً ؛ هل نقتلهما أم لا ؟

إن الحق يضع لمسألة الثأر الضوابط ، وهو سبحانه لم يُشَرِّعْ أن الحر لا يُقتل إلا بالحر ، وإنما مقصد الآية أن الحر يُقتل إن قتل حراً ، والعبد يُقتل إن قتل عبداً ، والأنثى مقابل الأنثى ، هذا هو إتمام المعادلة ، فجزاء القاتل من جنس ما قتل ، لا أن يتعداه القتل إلى من هو أفضل منه . إن الحق سبحانه وتعالى يواجه بذلك التشريع فى القصاص قضية كانت قائمة بين القبائل ، حيث كان هناك قتل للانتقام والثأر .

ففى الزمن الجاهلى كانت إذا نشأت معركة بين قبيلتين ، فمن الطبيعى أن يوجد قتلى وضحايا لهذا الاقتتال ، فإذا قُتل عبد من قبيلة أصرت القبيلة التى تملك هذا العبد أن تُصَعِّد الثأر فتأخذ به حراً ، وكذلك إذا قُتلت فى تلك الحرب أنثى ، فإن قبيلتها تُصعد الثأر فتأخذ بها ذكراً .

والحق سبحانه وتعالى أراد أن يحسم قضية الثأر حسماً تدريجيا ، لذلك جاء بهذا

الأمر « الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى » . إذن فالحق هنا يواجه قضية تصعيدية فى الأخذ بالثأر ، ويضع منهجاً يحسم هذه المغالاة فى الثأر .

وفى صعيد مصر ، مازلنا نعانى من الغفلة فى تطبيق شريعة الله ، فحين يُقتل رجل من قوم فهم لا يثأرون من القاتل ، وإنما يذهبون إلى أكبر رأس فى عائلة القاتل ليقتلوه . فالذين يأخذون الثأر يريدون النكاية الأشد ، وقد يجعلون فداء المقتول عشرة من العائلة الأخرى ، وقد يمثلون بجثثهم ليتشفوا ، وكل ذلك غير ملائم للقصاص . وفى أيام الجاهلية كانوا يغالون فى الثأر ، والحق سبحانه وتعالى يبلغ البشرية جمعاء بأن هذه المغالاة فى الثأر تجعل نيران العداوة لا تخمد أبدا . لذلك فالحق يرد أمر الثأر إلى حده الأدنى ، فإذا قتلت قبيلة عبداً فلا يصح أن تصعد القبيلة الأخرى الأمر فتأخذ بالعبد حراً .

إذن فالحق يشرع أمراً يخص تلك الحروب الجماعية القديمة ، وما كان يحدث فيها من قتل جماعى ، وما ينتج عنها بعد ذلك من مغالاة فى الثأر ، وهذا هو التشريع التدريجى ، وقضى سبحانه أن يرد أمر الثأر إلى الحد الأدنى منه ، فإذا قتلت قبيلة عبداً فلا يصح أن تُصَعِّد القبيلة الأخرى الثأر بأن تقتل حراً . والحق يشرع بعد ذلك أن القاتل فى الأحوال العادية يتم القصاص منه بالقتل له أو بالدية . فقد جاءت آية أخرى يقول فيها الحق :

﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾

(سورة المائدة)

وهكذا يصبح القصاص فى قتل النفس يتم بنفس أخرى ، فلا تفرقة بين العبد أو الحر أو الأنثى ، بل مطلق نفس بمطلق نفس . وهاهو ذا الحق سبحانه وتعالى يواجه

بتقنين تشريع القصاص قضية يريد أن يميت فيها لدد الثأر وحنق الحقد . فساعة تسمع كلمة قصاص وقتل ، فمعنى ذلك أن النفس مشحونة بالبغضاء والكراهية ، ويريد أن يصفى الضغن والحقد الثأرى من نفوس المؤمنين . إن الحق جل وعلا يعطى لولى الدم الحق فى أن يقتل أو أن يعفو ، وحين يعطى الله لولى الدم الحق فى أن يقتل ، فإن أمر حياة القاتل يصبح بيد ولى الدم ، فإن عفا ولى الدم لا يكون العفو بتقنين ، وإنما بسماحة نفس ، وهكذا يمتص الحق الغضب والغيظ .

وبعد ذلك يرقق الله قلب ولى الدم فيقول : « فمن عفى له من أخيه شىء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان » .

وإذا تأملنا قوله : « فمن عفى له من أخيه » فلنلاحظ النقلة من غليان الدم إلى العفو . ثم المبالغة فى التحنن ، كأنه يقول : لا تنس الأخوة الإيمانية « فمن عفى له من أخيه شىء فاتباع بالمعروف » .

وساعة يقول الحق كلمة « أخ » فانظر هل هذا الأخ اشترك فى الأب ؟ مثل قوله تعالى : « وجاء إخوة يوسف » . ثم يرتقى بالنسب الإيمانى إلى مرتبة الأخوة الإيمانية ، فيقول : « إنما المؤمنون إخوة » يعنى إياكم أن تجعلوا التقاء النسب المادى دون التقائكم فى القيم العقائدية .

والأصل فى الأخ أن يشترك فى الأب مثل : « وجاء إخوة يوسف » ، فإن كانوا إخوة من غير الأب يسمهم إخوانًا ، فإن ارتقوا فى الإيمان يسمهم إخوة . وعندما وصفهم بأنهم إخوان قال : « واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا » . لقد كانت بينهم حروب وبغضاء وشقاق ، لم يصفهم بأنهم إخوة ؛ لأنهم لازالوا فى الشحناء ، فوصفهم بأنهم إخوان ، وبعد أن يختمر الإيمان فى نفوسهم يصبحون إخوة .

ولننظر فى غزوة بدر ، هاهو ذا مصعب بن عمير ، كان فتى قريش المدلل والمنعَّم الذى كانت تفوح منه رائحة العطر وملابسه من حرير ؛ كان ذلك قبل إسلامه ،

وتغير كل ذلك عندما دخل فى الإسلام ، فقد أخرجه الإيمان من هذا النعيم إلى بؤس المؤمنين الأولين لدرجة أنه كان يلبس جلد حيوان ويراه رسول الله فى هذا الضنك فيقول : « أنظروا كيف فعل الإيمان بصاحبكم » .

وعندما جاءت معركة بدر التقى مع أخيه « أبى عزيز » الذى ظل على دين قريش ، والتقى الإثنان فى المعركة ، مصعب فى معكسر المؤمنين ، وأبو عزيز فى جيش المشركين . وأثناء المعركة رأى أخاه أبا عزيز أسيراً مع أبى اليسر وهو من الأنصار ؛ فالتفت مصعب إلى أبى اليسر ، وقال : يا أبا اليسر اشدد على أسيرك فإن أمه غنية وستفديه بمال كثير .

فالتفت إليه أبو عزيز وقال : يا أخى أهذه وصاتك بأخيك ؟ قال مصعب : لا لست أخى وإنما أخى هذا . وأشار إلى أبى اليسر . لقد انتهى نسب الدم وأصبح نسب الإيمان هو الأصل ، وأصبح مصعب أخاً لأبى اليسر فى الإيمان ، وانقطعت صلته بشقيقه فى النسب لأنه ظل مشركاً .

وقوله تعالى : « فمن عفى له من أخيه شىء » كأنه يحث ولى الدم على أن يعفو ولا ينسى أخوة الإيمان . صحيح أنه ولى للمقتول ؛ لأنه من لحمته ونسبه ، ولكن الله أراد أن يجعل أخوة الإيمان فوق أخوة الدم . « فمن عفى له من أخيه شىء فاتباع بالمعروف » .

وقد أورد الحق الأخوة هنا لترقيق المشاعر ، لينبه أهل القاتل والقتيل معاً أن القتل لا يعنى أن الأخوة الإيمانية انتهت ، لا . إن على المؤمنين أن يضعوا فى اعتبارهم أن أخوة الإيمان قد تفتر رابطتها . وحين يتذكر أولياء الدم أخوة الإيمان ، فإن العفو يصبح قريباً من نفوسهم . ولنا أن نلاحظ أن الحق يرفعنا إلى مراتب التسامى ، فيذكرنا أن عفو واحد من أولياء الدم يقتضى أن تسود قضية العفو ، . فلا يقتل القاتل .

وبعد ذلك لننظر إلى دقة الحق فى تصفية غضب القلوب حين يضع الدية مكان

القصاص بالقتل . إن الدية التى سيأخذها أولياء الدم من القاتل قد تكون مؤجلة الأداء ، فقد يقدر القاتل أو أهله على الأداء العاجل ، لذلك فعلى الذى يتحمل الدية أن يؤديها ، وعلى أهل القتيل أن يتقبلوا ذلك بالمعروف ، وأن تؤدى الدية من أهل القاتل أو من القاتل نفسه بإحسان .

وقوله الحق : « عُفِىَ له من أخيه شىء » ، « شىء » تدل على أن أولياء المقتول إن عفا واحد منهم فهو عفو بشىء واحد ، وليس له أن يقتص بعد ذلك ، وتنتهى المسألة ويحقن الدم ، ولم يرد الله أن يضع نصا بتحريم القصاص ، ولكن أراد أن يعطى ولى الدم الحق فى أن يَقْتُل ، وحين يصبح له الحق فى أن يَقْتُل ؛ فقد أصبحت المسألة فى يده ، فإن عفا ، تصبح حياة القاتل ثمرة من ثمرات إحسانه ، وإن عاش القاتل ، لا يترك هذا فى نفس صاحب الدم بغضاء ، بل إن القاتل سيتحبب إليه لأنه أحسن إليه ووهبه حياته .

لكن لو ظل النص على قصاص أهل القتيل من القاتل فقط ولم يتعده إلى العفو لظلت العقدة فى القلب .

والثارات الموجودة فى المجتمعات المعاصرة سببها أننا لم نُمكن ولى الدم من القاتل ، بدليل أنه إذا ما قدر قاتل على نفسه وذهب إلى أهل القتيل ودخل عليهم بيتهم ، وبالغ فى طلب العفو منهم ، وأخذ كفنه معه وقال لهم : جئتكم لتقتصوا منى ، وهذا كفنى معى فاصنعوا بى ما شئتم ، لم يحدث قط أن أهل قتيل غدروا بقاتل ، بل المألوف والمعتاد أن يعفوا عنه ، لماذا ؟

لأنهم تمكنوا منه وأصبحت حياته بين أيديهم ، وفى العادة تنقلب العداوة إلى مودة . فيظل القاتل مدينا بحياته للذين عفوا عنه . والذين يعرفون ذلك من أبناء القاتل يرون أن حياة أبيهم هبة وهبها لهم أولياء القتيل وأقرباؤه ، يرون أن عفو أهل القتيل هو الذى نَجّا حياة قريبهم ، وهكذا تتسع الدائرة ، وتنقلب المسألة من عداوة إلى ود .

﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾

(من الآية ٣٤ سورة فصلت)

ولو لم يشرع الله القصاص لأصبحت المسألة فوضى . لكنه يشرعه ، ثم يتلطف ليجعل أمر إنهاء القصاص فضلا من ولى الدم ويحببه لنا ويقول : « فمن عُفِىَ له من أخيه يشىء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان » .

وهل من المعقول أن تكون الدية إحساناً ؟ لتتذكر أن القائل هنا هو الله ، وكلامه قرآن ، والدقة فى القرآن بلا حدود . إن الحق ينبه إلى أن أولياء الدم إذا ما قبلوا الدية ؛ فمعنى ذلك أن أهل القتيل قد أسقطوا القصاص عن القاتل ؛ وأنهم وهبوه حق الحياة ، لذلك فإن هذا الأمر يجب أن يُرد بتحية أو مكرمة أحسن منه .

كأن الحق لا يريد من أولياء الدم أن يرهقوا القاتل أو أهله فى الاقتضاء ، كما يريد أن يؤدى القاتل أو أهله الدية بأسلوب يرتفع إلى مرتبة العفو الذى ناله القاتل . وفى ذلك الأمر تخفيف عما جاء بالتوراة ؛ ففى التوراة لم تكن هناك دية يفتدى القاتل بها نفسه ، بل كان القصاص فى التوراة بأسلوب واحد هو قتل إنسان مقابل إنسان آخر . وفى الإنجيل لا دية ولا قتل : لأن هناك مبدأ أراد أن يتسامى به أتباع عيسى عليه السلام على اليهود الذين انغمسوا فى المادية . لقد جاء عيسى عليه السلام رسولاً إلى بنى إسرائيل لعله يستل من قلوبهم المادية ، فجاء بمبدأ : « من صفعك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر » .

ولكن الإسلام قد جاء ديناً عاماً جامعاً شاملاً ، فيثير فى النفس التسامى ، ويضع الحقوق فى نصابها ، فأبقى القصاص ، وترك للفضل مجالاً . لذلك يقول الحق عن الدية : « ذلك تخفيف من ربكم ورحمة ، فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم » . وما وجه الاعتداء بعد تقرير الدية والعفو ؟

كان بعض من أهل القبائل إذا قُتل منهم واحد يشيعون أنهم عفوا وصفحوا وقبلوا

الدية حتى إذا خرج القاتل من مخبئه مطمئناً ، عندئذ يقتلونه . والحق يقرر أن هذا الأمر هو اعتداء ، ومن يعتدى بعد أن يُسقط حق القتل ويأخذ الدية فله عذاب أليم . وحكم الله هنا فى العذاب الأليم ، نفهمه على أن المعتدى بقتل من أعلن العفو عنه لا يُقبل منه دية ويستحق القتل عقاباً ، ولا يرفع الله عنه عذاب الدنيا أو الآخرة .

إن الحق يرفع العقاب والعذاب عن القاتل إذا قبل القصاص ونفذ فيه ، أو إذا عفى عنه إلى الدية وأداها . ولكن الحق لا يقبل سوى استخدام الفرص التى أعطاها الحق للخلق ليرتفعوا فى علاقاتهم . إن الحق لا يقبل أن يتستر أهل قتيل وراء العفو ، ليقتلوا القاتل بعد أن أعلنوا العفو عنه فذلك عبث بما أراده الحق منهجا بين العباد .

ولذلك يقول الحق :

﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾

وهنا نلاحظ أن النسق القرآنى يأتى مرة فيقول : « ياأيها الذين آمنوا كتب عليكم » . ويأتى هنا ليقول النسق القرآنى : « ولكم فى القصاص » .

التشريع الدقيق المحكم يأتى بواجبات وبحقوق ؛ فلا واجبَ بغير حق ، ولا حق بغير واجب ، وحتى نعرف سمو التشريع مطلوب من كل مؤمن أن ينظر إلى ما يجب عليه من تكاليف ، ويقرنه بما له من حقوق ، ولسوف يكتشف المؤمن أنه فى ضوء منهج الله قد نال مطلق العدالة .

إن المشرع هو الله ، وهو رب الناس جميعا ، ولذلك فلا يوجد واحد من المؤمنين أولى بالله من المؤمنين الآخرين . إن التكليف الإيمانى يمنع الظلم ، ويعيد الحق ، ويحمى ويصون للإنسان المال والعرض . ومن عادة الإنسان أن يجادل فى حقوقه ويريدها كاملة ، ويحاول أن يقلل من واجباته ، ولكن الإنسان المؤمن هو الذى يعطى الواجب تماما فينال حقوقه تامة ، لذلك يقول الحق :

﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾

(سورة البقرة)

إن القصاص مكتوب على القاتل والمقتول وولى الدم . فإذا علم القاتل أن الله قد قرر القصاص فإن هذا يفرض عليه أن يسلم نفسه ، وعلى أهله ألا يخفوه بعيداً عن أعين الناس ؛ لأن القاتل عليه أن يتحمل مسئولية ما فعل ، وحين يجد القاتل نفسه محوطاً بمجتمع مؤمن يرفض القتل فإنه يرتدع ولا يقتل ، إذن ففى القصاص حياة ؛ لأن الذى يرغب فى أن يقتل يمكنه أن يرتدع عندما يعرف أن هناك من سيقتص منه ، وأن هناك من لا يقبل المداراة عليه .

ونأتى بعد ذلك للذين يتشدقون ويقولون : إن القصاص وحشية وإهدار لآدمية الإنسان ، ونسألهم : لماذا أخذتكم الغيرة لأن إنسانا يُقتص منه بحق وقد قتل غيره بالباطل ؟ ما الذى يحزنك عليه ؟

إن العقوبة حين شرعها الله لم يشرعها لتقع ، وإنما شرعها لتمنع . ونحن حين نقتص من القاتل نحمى سائر أفراد المجتمع من أن يوجد بينهم قاتل لا يحترم حياة الآخرين ، وفى الوقت نفسه نحمى هذا الفوضوى من نفسه ؛ لأنه سيفكر ألف مرة قبل أن يرتكب جريمة .

إذن فالقصاص من القاتل عبرة لغيره ، وحماية لسائر أفراد المجتمع ولذلك يقول الحق سبحانه : « ولكم فى القصاص حياة » . إن الحق يريد أن يحذرنا أن تأخذنا الأريحية الكاذبة ، والإنسانية الرعناء ، والعطف الأحمق ، فنقول : نمنع القصاص .

كيف نغضب لمعاقبة قاتل بحق ، ولا نتحرك لمقتل برىء ؟ إن الحق حين يشرع القصاص كأنه يقول : إياك أن تقتل أحداً لأنك ستُقتل إن قتلته ، وفى ذلك عصمة لنفوس الناس من القتل . إن فى تشريع القصاص استبقاء لحياتكم ؛ لأنكم حين تعرفون أنكم عندما تقتلون بريئا وستقتلون بفعلكم فسوف تمتنعون عن القتل ، فكأنكم حقنتم دماءكم . وذلك هو التشريع العالى العادل .

وفى القصاص حياة ؛ لأن كل واحد عليه القصاص ، وكل واحد له القصاص ، إنه التشريع الذى يخاطب أصحاب العقول وأولى الألباب الذين يعرفون الجوهر المراد من الأشياء والأحكام ، أما غير أولى الألباب فهم الذين يجادلون فى الأمور دون أن يعرفوا الجوهر منها ، فلولا القصاص لما ارتدع أحد ، ولولا القصاص لغرقت البشرية فى الوحشية . إن الحكمة من تقنين العقوبة ألا تقع الجريمة وبذلك يمكن أن تتوارى الجريمة مع العقوبة ويتوازن الحق مع الواجب .

إن المتدبر لأمر الكون يجد أن التوازن فى هذه الدنيا على سبيل المثال فى السنوات الماضية يأتى من وجود قوتين عظميين كلتاهما تخشى الأخرى وكلتاهما تختلف مع الأخرى ، وفى هذا الاختلاف حياة لغيرهما من الشعوب ، لأنهما لو اتفقتا على الباطل لتهدمت أركان دولتيهما ، وكان فى ذلك دمار العالم ، واستعباد لبقية الشعوب .

وإذا كان كل نظام من نظم العالم يحمل للآخر الحقد والكراهية والبغضاء ويريد أن يسيطر بنظامه لكنه يخشى قوة النظام الآخر ، لهذا نجد فى ذلك الخوف المتبادل حماية لحياة الآخرين ، وفرصة للمؤمنين أن يأخذوا بأسباب الرقى العلمى ليقدموا للدنيا أسلوباً لائقاً بحياة الإنسان على الأرض فى ضوء منهج الله . وعندما حدث اندثار لقوة من القوتين هى الاتحاد السوفيتى ، فإن الولايات المتحدة تبحث الآن عن نقيض لها ؛ لأنها تعلم أن الحياة دون نقيض فى مستوى قوتها ، قد يجرىء الصغار عليها .

إن الخوف من العقوبة هو الذى يصنع التوازن بين معسكرات العالم ، والخوف من العقوبة هو الذى يصنع التوازن فى الأفراد أيضا .

إن عدل الرحمن هو الذى فرض علينا أن نتعامل مع الجريمة بالعقاب عليها وأن يشاهد هذا العقاب آخرون ليرتدعوا .

فهاهو ذا الحق فى جريمة الزنى على سبيل المثال يؤكد ضرورة أن يشاهد العقاب طائفة من الناس ليرتدعوا . إن التشديد مطلوب فى التحرى الدقيق فى أمر حدوث الزنى ؛ لأن عدم دقة التحرى يصيب الناس بالقلق ويسبب ارتباكا وشكا فى الأنساب ، والتشديد جاء أيضاً فى العقوبة فى قول الحق :

﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ﴾

(سورة النور)

إن الذى يجترىء على حقوق الناس يجترىء أيضا على حقوق الله ، ولذلك فمقتضى إيثار الإيمان هو إرضاء الله لا إرضاء الناس . وفى إنزال العقاب بالمعتدى خضوع لمنهج الله ، وفى رؤية هذا العقاب من قبل الآخرين هو نشر لفكرة أن المعتدى ينال عقاباً ، ولذلك شرع الحق العقاب والعلانية فيه ليستقر التوازن فى النفس البشرية .

وبعد ذلك يأتى الحق سبحانه وتعالى ليعالج قضية اجتماعية أخرى . إن الحق بعد أن عالج قضية إزهاق الحياة ينتقل بنا إلى قضية أخرى من أقضية الحياة ، إنها قضية الموت الطبيعى . كأن الحق بعد أن أوضح لنا علاج قضية الموت بالجريمة يريد أن يوضح لنا بعضاً من متعلقات الموت حتفا من غير سبب مزهق للروح . إن الحق يعالج فى الآية القادمة بعضاً من الأمور المتعلقة بالموت ليحقق التوازن الاقتصادى فى المجتمع كما حقق بالآية السابقة التوازن العقابى والجنائى فى المجتمع . يقول الحق :

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ ﴾

والحق كما أوضحت من قبل لا يقتحم على العباد أمورهم ولكنه يعرض عليهم أمر الإيمان به ، فإن آمنوا فهذا الإيمان يقتضى الموافقة على منهجه ، ولذلك فالمؤمن يشترك بعقيدته فى الإيمان بما كتب الله عليه . إن المؤمن هو من ارتضى الله إلهاً ومشرعاً ، فحين يكتب الله على المؤمن أمراً ، فالمؤمن قد اشترك فى كتابة هذا الأمر بمجرد إعلانه للإيمان . أما الكافر بالحق فلم يقتحم الله عليه اختياره للكفر ، لذلك لم يكتب عليه الحق إلا أمراً واحداً هو العذاب فى الآخرة .

فالله لا يكلف إلا من آمن به وأحبه وآمن بكل صفات الجلال والكمال فيه . ولذلك فالتكليف الإيمانى شرف خص به الله المحبين المؤمنين به ، ولو فطن الكفار إلى أن الله أهملهم لأنهم لم يؤمنوا به لسارعوا إلى الإيمان ، ولرأوا اعتزاز كل مؤمن بتكليف الله له . إن المؤمن يرى التكليف خضوعا لمشيئة الله . والخضوع لمشيئة الله يعنى الحب . ومادام الحب قد قام بين العبد والرب فإن الحق يريد أن يديم هذا الحب ، لذلك كانت التكاليف هى مواصلة للحب بين العبد والرب .

إن العبد يحب الرب بالإيمان ، والرب يحب العبد بالتكليف ، والتكليف مرتبة أعلى من إيمان العبد ، فإيمان العبد بالله لا ينفع الله ، ولكن تكاليف الله للعبد ينتفع بها العبد . إن المؤمن عليه أن يفطن إلى عزة التكليف من الله ، فليس التكليف ذلاً ينزله الحق بعباده المؤمنين ، إنما هو عزة يريدها الله لعباده المؤمنين ، هكذا قول الحق : « كتب عليكم » إنها أمر مشترك بين العبد والرب . إن الكتابة هنا أمر مشترك بين الحق الذى أنزل التكليف وبين العبد الذى آمن بالتكليف .

والحق يورد هنا أمراً يخص الوصية فيقول سبحانه :

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ ﴾

(سورة البقرة)

وهنا نجد شرطين : الشرط الأول : يبدأ بـ « إذا » وهى للأمر المتحقق وهو حدوث الفعل . والموت أمر حتمى بالنسبة لكل عبد ، لذلك جاء الحق بهذا الأمر بشرط هو « إذا » ، فهى أداة لشرط وظرف لحدث . والموت هو أمر محقق إلا أن أحداً لا يعرف ميعاده .

والشرط الثانى يبدأ بـ « إن » وهى أداة شرط نقولها فى الأمرالذى يحتمل الشك ؛ فقد يترك الإنسان بعد الموت ثروة وقد لا يترك شيئا ، ولذلك فإن الحق يأمر العبد بالوصية خيراً له لماذا ؟ لأن الحق يريد أن يشرع للاستطراق الجماعى ، فبعد أن يوصى الحق عباده بأن يضربوا فى الحياة ضرباً يوسع رزقهم ليتسع لهم ، ويفيض عن حاجتهم ، فهذا الفائض هو الخير ، والخير فى هذا المجال يختلف من إنسان لآخر ومن زمن لآخر .

فعندما كان يترك العبد عشرة جنيهات فى الزمن القديم كان لهذا المبلغ قيمة ، أما عندما يترك عبد آخر ألف جنيه فى هذه الأيام فقد تكون محسوبة عند البعض بأنها قليل من الخير ، إذن فالخير يُقدر فى كل أمر بزمانه ، ولذلك لم يربطه الله برقم . إننا فى مصر ـ مثلاً ـ كنا نصرف الجنيه الورقى بجنيه من الذهب ويفيض منه قرشان ونصف قرش ؛ أما الآن فالجنيه الذهبى يساوى أكثر من مائتين وخمسين جنيها ؛ لأن رصيد الجنيه المصرى فى الزمن القديم كان عالياً . أما الآن فالنقد المتداول قد فاق الرصيد الذهبى ، لذلك صار الجنيه الذهبى أغلى بكثير جداً من الجنيه الورقى .

ولأن الإله الحق يريد بالناس الخير لم يحدد قدر الخير أو قيمته ، وعندما يحضر الموت الإنسان الذى عنده فائض من الخير لابد أن يوصى من هذا الخير . ولنا أن

نلحظ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد نهى عن انتظار لحظة الموت ليقول الإنسان وصيته ، أو ليبلغ أسرته بالديون التى عليه ، لأن الإنسان لحظة الموت قد لا يفكر فى مثل هذه الأمور . ولذلك فعلينا أن نفهم أن الحق ينبهنا إلى أن يكتب الإنسان ما له وما عليه فى أثناء حياته . فيقول ويكتب وصيته التى تنفذ من بعد حياته . يقول المؤمن : إذا حضرنى الموت فلوالدى كذا وللأقربين كذا .

أى أن المؤمن مأمور بأن يكتب وصيته وهو صحيح ، ولا ينتظر وقت حدوث الموت ليقول هذه الوصية . والحق يوصى بالخير لمن ؟ « للوالدين والأقربين بالمعروف حقاً على المتقين » . والحق يعلم عن عباده أنهم يلتفتون إلى أبنائهم وقد يهملون الوالدين ، لأن الناس تنظر إلى الآباء والأمهات كمودعين للحياة ، على الرغم من أن الوالدين هما سبب إيجاد الأبناء فى الحياة ، لذلك يوصى الحق عباده المؤمنين بأن يخصصوا نصيبا من الخير للآباء والأمهات وأيضاً للأقارب . وهو سبحانه يريد أن يحمى ضعيفين هما : الوالدان والأقرباء .

وقد جاء هذا الحكم قبل تشريع الميراث ، فالناس قبل تشريع الميراث كانوا يعطون كل ما يملكون لأولادهم ، فأراد الله أن يخرجهم من إعطاء أولادهم كل شىء وحرمان الوالدين والأقربين . وقد حدد الله من بعد ذلك نصيب الوالدين فى الميراث ، أما الأقربون فقد ترك الحق لعباده تقرير أمرهم فى الوصية . وقد يكون الوالدان من الكفار ، لذلك لا يرثان من الابن ، ولكن الحق يقول :

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَـٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ﴾

(سورة لقمان)

إن الحق يذكر عباده بفضله عليهم ، وأيضاً بفضل الوالدين ، ولكن إن كان الوالدان مشركين بالله فلا طاعة لهما فى هذا الشرك ، ولكن هناك الأمر بمصاحبتهما فى الحياة بالمعروف واتباع طريق المؤمنين الحاملين للمنهج الحق . لذلك فالإنسان المؤمن يستطيع أن يوصى بشىء من الخير فى وصيته للأبوين حتى ولو كانا من الكافرين ، ونحن نعرف أن حدود الوصية هى ثلث ما يملكه الإنسان والباقى للميراث الشرعى . أما إذا كانا من المؤمنين فنحن نتبع الحديث النبوى الكريم : « لا وصية لوارث »[١] .

وفى الوصية يدخل إذن الأقرباء الضعفاء غير الوارثين ، هذا هو المقصود من الاستطراق الاجتماعى . والحق حين ينبه عباده إلى الوصية فى أثناء الحياة بالأقربين الضعفاء ، يريد أن يدرك العباد أن عليهم مسئولية تجاه هؤلاء . ومن الخير أن يعمل الإنسان فى الحياة ويضرب فى الأرض ويسعى للرزق الحلال ويترك ورثته أغنياء بدلاً من أن يكونوا عالة على أحد .

عن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه قال : « جاء النبى صلى الله عليه وسلم يعودنى ، وأنا بمكة ، قال : يرحم الله بن عفراء ، قلت : يا رسول الله أوصى بمالى كله ؟ قال : لا.قلت : فالشطر ؟ قال : لا . قلت الثلث ؟ قال : فالثلث ، والثلث كثير ، إنك إن تدع ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس »[٢] . وإذا رزق الله الإنسان بالعمل خيراً كثيراً فإياك أيها الإنسان أن تقصر هذا الخير على من يرثك .

لماذا ؟ لأنك إن قصرت شيئاً على من يرثك فقد تُصادف فى حياتك من لا يرث وله شبهة القربى منك ، وهو فى حاجة إلى من يساعده على أمر معاشه فإذا لم تساعده يحقد عليك وعلى كل نعمة وهبها الله لك ، ولكن حين يعلم هذا القريب أن النعمة التى وهبها الله لك قد يناله منها شىء ولو بالوصية وليس بالتقنين الإرثى هذا القريب يملأه الفرح بالنعمة التى وهبها الله لك .

---

(١) رواه البيهقى فى سننه والدارقطنى عن جابر .

(٢) رواه البخارى ومسلم وأحمد والنسائى .

ولذلك قال الحق :

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ ﴾

(من سورة البقرة)

إن الحق يريد أن يلفت العباد إلى الأقرباء غير الوارثين بعد أن أدخل الآباء والأمهات فى الميراث . إن الإنسان حين يكون قريباً لميت ترك خيراً ، وخص الميت هذا القريب ببعض من الخير فى الوصية ، هذا القريب تمتلىء بالخير نفسه فيتعلم ألا يحبس الخير عن الضعفاء ، وهكذا يستطرق الحب وتقوم وشائج المودة .

والحق يفترض ـ وهو الأعلم بنفوس عباده ـ أن الموصى قد لا يكون على حق والوارث قد يكون على حق ، لذلك احتاط التشريع لهذه الحالة ؛ لأن الموصَى له حين يأخذ حظه من الوصية سينقص من نصيب الوارث ، ولذلك يريد الحق سبحانه وتعالى أن يعصم الأطراف كلها ، إنه يحمى الذى وصى ، والموصى له ، والوارث ومن هنا يقول الحق :

﴿ فَمَن بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾ ﴾

ونحن نعرف أنه فى زمن نزول القرآن كانت الوصية شفاهة ، ولم تكن الكتابة منتشرة ، ولذلك أتى الحق بالجانب المشترك فى الموصى والموصى له والوارث وهو جانب القول ؛ فقد كان القول هو الأداة الواضحة فى ذلك الزمن القديم ، ولم تكن هناك وسائل معاصرة كالشهر العقارى لتوثيق الوصية ، لذلك كان تبديل وصية الميت

إثما على الذى يُبدل فيها .

إن الموصى قد برئت ذمته ، أما ذمة الموصى له والوارث فهى التى تستحق أن تنتبه إلى أن الله يعلم خفايا الصدور وهو السميع العليم . ويريد الحق أن يصلح العلاقة بين الوارث والموصى له ، لذلك يقول الحق :

﴿ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾ ﴾

إن الحق يريد العدل للجميع فإذا كانت الوصية زائغة عن العدل وعن الصراط المستقيم وكان فيها حرمان للفقير وزيادة فى ثراء الغنى أو ترك للأقربين ، فهذا ضياع للاستطراق الذى أراده الله ، فإذا جاء من يسعى فى سبيل الخير ليرد الوصية للصواب فلا إثم عليه فى التغيير الذى يحدثه فى الوصية ليبدلها على الوجه الصحيح لها الذى يرتضيه الله ؛ لأن الله غفور رحيم .

وقد يخاف الإنسان من صاحب الوصية أن يكون جنفاً ، والجنف يفسر بأنه الحيف والجور ، وقد يخلق الله الإنسان بجنف أى على هيئة يكون جانب منه أوطى من الجانب الآخر ، ونحن نعرف من علماء التشريح أن كل نصف فى الإنسان مختلف عن النصف الآخر وقد يكون ذلك واضحا فى بعض الخلق ، وقد لا يكون واضحا إلا للمدقق الفاحص .

والإنسان قد لا يكون له خيار فى أن يكون أجنف ، ولكن الإثم يأتى باختيار الإنسان ـ أى أن يعلم الإنسان الذنب ومع ذلك يرتكبه ـ إذن فمن خاف من موص جنفاً أى حيفاً وظلماً من غير تعمد فهذا أمر لا خيار للموصى فيه ، فإصلاح ذلك الحيف والظلم فيه خير للموصى . أما إذا كان صاحب الوصية قد تعمد أن يكون آثما

فإصلاح ذلك الإثم أمر واجب . وهذه هى دقة التشريع القرآنى الذى يشحذ كل ملكات الإنسان لتتلقى العدل الكامل .

والحق عالج قضية التشريع للبشر فى أمر القصاص باستثماره كل ملكات الخير فى الإنسان حين قال : « فمن عفى له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف » . إنه ليس تشريعا جافاً كتشريع البشر . إنه تشريع من الخالق الرحيم العليم بخبايا البشر . ويستثير الحق فى البشر كل نوازع الخير ، ويعالج كذلك قضية تبديل الوصية التى وصى بها الميت بنفسه ، فمن خالف الوصية التى أقيمت على عدالة فله عقاب .

أما الذى يتدخل لإصلاح أمر الوصية بما يحقق النجاة للميت من الجنف أى الحيف غير المقصود ولكنه يسبب ألماً ، أو يصلح من أمر وصية فيها إثم فهذا أمر يريده الله ولا إثم فيه ويحقق الله به المغفرة والرحمة . وهكذا يعلمنا الحق أن الذى يسمع أو يقرأ وصية فلا بد أن يقيسها على منطق الحق والعدل وتشريع الله ، فإن كان فيه مخالفة فلا بد أن يراجع صاحبها . ولنا أن نلحظ أن الحق قد عبر عن إحساس الإنسان بالخوف من وقوع الظلم بغير قصد أو بقصد حين قال : « فمن خاف من موص جنفاً أو إثماً فأصلح بينهم فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم » .

إن كلمة « خاف » عندما تأتى فى هذا الموضع تدل على الوحدة الإيمانية فى نفوس المسلمين . إن المؤمن الذى يتصدى لإصلاح من هذا النوع قد يكون غير وارث ، ولا هو من الموصى لهم ، ولا هو الموصى ، إنما هو مجرد شاهد ، وهذه الشهادة تجعله يسعى إلى التكافل الإيمانى ؛ فكل قضية تمس المؤمن إنما تمس كل المؤمنين ، فإن حدث جنف فهذا يثير الخوف فى المؤمن لأن نتيجته قد تصيب غيره من المؤمنين ولو بغير قصد ، وهكذا نرى الوحدة الإيمانية . إن الإيمان يمزج المؤمنين بعضهم ببعض حتى يصيروا كالجسد الواحد إن اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى .

ولهذا فعندما يتدخل المؤمن الذى لا مصلحة مباشرة له فى أمر الإرث أو الوصية ليصلح من هذا الأمر فإن الحق يثيبه بخير الجزاء .

والحق سبحانه قال : « فمن خاف من موص جنفاً أو إثماً فأصلح بينهم فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم » ، وهذا القول يلفتنا إلى أن الإنسان إذا ما عزم على اتخاذ أمر فى مسألة الوصية فعليه أن يستشير من حوله ، وأن يستقبل كل مشورة من أهل العلم والحكمة ، وذلك حتى لا تنشأ الضغائن بعد أن يبرم أمر الوصية إبراماً نهائياً . أى بعد وفاته ، والحق قد وضع الاحتياطات اللازمة لإصلاح أمر الوصية إن جاء بها ما يورث المشاكل ؛ لأن الحق يريد أن يتكاتف المؤمنون فى وحدة إيمانية ، لذلك فلابد من معالجة الانحراف بالوقاية منه وقبل أن يقع . ولذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها فكان الذين فى أسفلها إذا استقوا من الماء مرّوا على من فوقهم فقالوا لو أننا خرقنا فى نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا ، وإن أخذوا على أيديهم نجوْا ونجوْا جميعا »[1].

والحديث الشريف يضرب المثل على ضرورة التآزر والتواصى بين المؤمنين حماية لهم . فهؤلاء قوم اقتسموا سفينة بالقرعة ، والاستهام هو قرعة لا هوى لها ، وسكن بعضهم أسفل السفينة حسب ما جاء من نتيجة الاستهام ، وسكن بعضهم أعلى السفينة . لكن الذين سكنوا أسفل السفينة أرادوا بعضا من الماء ، واقترح بعضهم أن يخرقوا السفينة للحصول على الماء ، وبرروا ذلك بأن مثل هذا الأمر لن يؤذى من يسكنون فى النصف الأعلى من السفينة ، ولو أنهم فعلوا ذلك ، ولم يمنعهم الذين يسكنون فى النصف الأعلى من السفينة لغرقوا جميعا ، لكن لو تدخل الذين يسكنون فى النصف الأعلى من السفينة لمنعوا الغرق ، وكذلك حدود الله ، فعلى المؤمنين أن يتكاتفوا بالتواصى فى تطبيقها ، فلا يقولن أحد : « إن ما يحدث من الآخرين لا شأن لى به » لأن أمر المسلمين يهم كل مسلم ، ولذلك جاءت آية قال فيها سيدنا أبو بكر رضى الله عنه : « هناك آية تقرأونها على غير وجهها » أى تفهمونها على غير معناها . والآية هى قول الحق :

---

(١) رواه البخارى والترمذى ورواه أحمد فى مسنده عن النعمان بن بشير .

﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ ﴾

(سورة الأنفال)

ويقول شيخنا « حسنين مخلوف » مفتى الديار المصرية الأسبق فى شرح هذه الآية : أى احذروا ابتلاء الله فى محَن قد تنزل بكم ، تعم المسىء وغيرهم ، كالبلاء والقحط والغلاء ، وتسلط الجبابرة وغير ذلك ، والمراد تحذير من الذنوب التى هى أسباب الابتلاء ، كإقرار المنكرات والبدع والرضا بها ، والمداهنة فى الأمر بالمعروف ، وافتراق الكلمة فى الحق ، وتعطيل الحدود ، وفشو المعاصى ، ونحو ذلك . وفيما رواه البخارى : عندما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ويل للعرب من شر قد اقترب . . . » فقيل له : أَنَهلَك وفينا الصالحون ؟ قال : « نعم إذا كثر الخبث »[1] .

إذن فلا يعتقد مسلم أنه غير مسئول عن الفساد الذى يستشرى فى المجتمع ، بل عليه أن يُحذر وأن يُنبه . ولذلك نجد أن حكمة الحق قد فرضت الدية على العاقلة ، أى على أهل القاتل ، لأنهم قد يرون هذا القاتل وهو يمارس الفساد ابتداء ، فلم يردعه أحد منهم ، لكنهم لو ضربوا على يده من البداية لما جاءهم الغرم بدفع الدية ، لذلك فعندما تسمع قول الله عز وجل : « فمن خاف من موص جنفاً » إياك أن تقول : لا شأن لى بهذا الأمر لا ، إن الأمر يخصك وعليك أن تحاول الإصلاح بين الموصى له ، وبين الورثة . وقوله الحق : « فلا إثم عليه » يعنى عدم إدخاله فى دائرة الذين يبدلون القول والتى تناولناها بالخواطر قبل هذه الآية ، بل لك ثواب على تدخلك ؛ فأنت لم تبدل حقا بباطل ، بل تزحزح باطلاً لتؤسس حقاً ، وبذلك تُرَطبُ قلب الوارث على ما نقص منه ، وتقيم ميزان العدل بالنصيحة ، وتُسخى نفسه ليقبل الوصية بعد تعديلها بما يرضى شريعة الله . إن الله يريد إقامة ميزان العدل وأن يتأكد الاستطراق الصفائى بين المؤمنين فلا تورث الوصية شروراً .

---

(١) رواه البخارى فى صحيحه فى الفتن .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ ﴾

والحق سبحانه يبدأ هذه الاية الكريمة بترقيق الحكم الصادر بالتكليف القادم وهو الصيام فكأنه يقول : « يا من آمنتم بى واحببتمونى لقد كتبت عليكم الصيام » . وعندما يأتى الحكم ممن آمنت به فأنت تثق أنه يخصك بتكليف تأتى منه فائدة لك . وأضرب هذا المثل ـ ولله المثل الأعلى ـ هب أنك تُخاطب ابنك فى أمر فيه مشقة ، لكن نتائجه مفيدة ، فأنت لا تقول له : « يا ابنى افعل كذا » لكنك تقول له : « يا بُنَىَّ افعل كذا » وكأنك تقول له : « يا صغيرى لا تأخذ العمل الذى أكلفك به بما فيه من مشقة بمقاييس عقلك غير الناضج ، ولكن خذ هذا التكليف بمقاييس عقل وتجربة والدك » .

والمؤمنون يأخذون خطاب الحق لهم بـ « يا أيها الذين آمنوا » بمقياس المحبة لكل ما يأتى منه سبحانه من تكليف حتى وإن كان فيه مشقة ، والمؤمنون بقبولهم للإيمان إنما يكونون مع الحق فى التعاقد الإيمانى ، وهو سبحانه لم يكتب الصيام على من لا يؤمن به ؛ لأنه لا يدخل فى دائرة التعاقد الإيمانى وسيلقى سعيرا . والصيام هو لون من الإمساك ؛ لأن معنى « صام » هو « أمسك » والحق يقول :

﴿ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا ﴾

(من الآية ٢٦ سورة مريم)

وهذا إمساك عن الكلام . إذن فالصوم : معناه الإمساك ، لكن الصوم التشريعى يعنى الصوم عن شهوتى البطن والفرج من الفجر وحتى الغروب . ومبدأ

الصوم لا يختلف من زمن إلى آخر ، فقد كان الصيام الركن التعبدى موجوداً فى الديانات السابقة على الإسلام ، لكنه كان إما إمساكا مطلقا عن الطعام . وإما إمساكا عن ألوان معينة من الطعام كصيام النصارى ، فالصيام إذن هو منهج لتربية الإنسان فى الأديان ، وإن اختلفت الأيام عدداً ، وإن اختلفت كيفية الصوم ويذيل الحق الآية الكريمة بقوله : « لعلكم تتقون » . ونعرف أن معنى التقوى هو أن نجعل بيننا وبين صفات الجلال وقاية ، وأن نتقى بطش الله ، ونتقى النار وهى من آثار صفات الجلال . وقوله الحق : « لعلكم تتقون » أى أن نهذب ونشذب سلوكنا فنبتعد عن المعاصى ، والمعاصى فى النفس إنما تنشأ من شرهِ ماديتها إلى أمر ما . والصيام كما نعلم يضعف شِرَّةَ المادية وحدتها وتسلطها فى الجسد ، ولذلك يقول صلى الله عليه وسلم للشباب المراهق وغيره :

« يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء »[1] .

وكأن الصوم يشذب شِرَّةَ المادية فى الجسم الشاب . وإن تقليل الطعام يعنى تقليل وقود المادة ، فيقل السعار الذى يدفع الإنسان لارتكاب المعاصى . والصيام فى رمضان يعطى الإنسان الاستقامة لمدة شهر ، ويلحظ الإنسان حلاوة الاستقامة فيستمر بها بعد رمضان . والحق لا يطلب منك الاستقامة فى رمضان فقط ، إنما هو سبحانه قد اصطفى رمضان كزمن تتدرب فيه على الاستقامة لتشيع من بعد ذلك فى كل حياتك ؛ لأن اصطفاء الله لزمان أو اصطفاء الله لمكان أو لإنسان ليس لتدليل الزمان ، ولا لتدليل المكان ، ولا لتدليل الإنسان ، وإنما يريد الله من اصطفائه لرسول أن يشيع أثر اصطفاء الرسول فى كل الناس . ولذلك نجد تاريخ الرسل مليئا بالمشقة والتعب ، وهذا دليل على أن مشقة الرسالة يتحملها الرسول وتعبها يقع عليه هو . فالله لم يصطفه ليدلله ، وإنما اصطفاه ليجعله أسوة .

وكذلك يصطفى الله من الزمان أياما لا ليدللها على بقية الأزمنة ، ولكن لأنه سبحانه وتعالى يريد أن يشيع اصطفاء هذا الزمان فى كل الأزمنة ، كاصطفائه لأيام

---

(١) رواه البخارى ومسلم والنسائى وابن ماجه وأحمد والبيهقى .

رمضان ، والحق سبحانه وتعالى يصطفى الأمكنة ليشيع اصطفاؤها فى كل الأمكنة .

وعندما نسمع من يقول : « زرت مكة والمدينة وذقت حلاوة الشفافية والإشراق والتنوير ، ونسيت كل شىء » . إن من يقول ذلك يظن أنه يمدح المكان ، وينسى أن المكان يفرح عندما يشيع اصطفاؤه فى بقية الأمكنة ؛ فأنت إذا ذهبت إلى مكة لتزور البيت الحرام ، وإذا ذهبت إلى المدينة لتزور رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلماذا لا تتذكر فى كل الأمكنة أن الله موجود فى كل الوجود ، وأن قيامك بأركان الإسلام وسلوك الإسلام هو تقرب من الله ومن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

صحيح إن تعبدك وأنت فى جوار بيت الله ، يتميز بالدقة وحسن النية . كأنك وأنت فى جوار بيت الله وفى حضرة رسول الله تستحى أن تفعل معصية . وساعة تسمع « الله أكبر » تنهض للصلاة وتخشع ، ولا تؤذى أحداً ، إذن لماذا لا يشيع هذا السلوك منك فى كل وقت وفى كل مكان ؟ إنك تستطيع أن تستحضر النية التعبدية فى أى مكان ، وستجد الصفاء النفسى العالى .

إذن فحين يصطفى الله زماناً أو مكاناً أو يصطفى إنساناً إنما يشاء الحق سبحانه وتعالى أن يشيع اصطفاء الإنسان فى كل الناس ، واصطفاء المكان فى كل الأمكنة ، واصطفاء الزمان فى كل الأزمنة ، ولذلك أتعجب عندما أجد الناس تستقبل رمضان بالتسبيح وبآيات القرآن وبعد أن ينتهى رمضان ينسون ذلك . وأقول هل جاء رمضان ليحرس لنا الدين ، أم أن رمضان يجىء ليدربنا على أن نعيش بخلق الصفاء فى كل الأزمنة ؟

وقوله الحق : « كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم » يدلنا على أن المسلمين ليسوا بدعاً فى مسألة الصوم ، بل سبقهم أناس من قبل إلى الصيام وإن اختلفت شكلية الصوم . وساعة يقول الحق : « كتب عليكم الصيام » فهذا تقرير للمبدأ ، مبدأ الصوم ، ويُفَصِّلُ الحق سبحانه المبدأ من بعد ذلك فيقول :

﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾﴾

وكلمة « أياما » تدل على الزمن وتأتى مجملة ، وقوله الحق عن تلك الأيام : إنها « معدودات » يعنى أنها أيام قليلة ومعروفة . ومن بعد ذلك يوضح الحق لنا مدة الصيام فيقول :

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾﴾

إذن فمدة الصيام هى شهر رمضان ، ولأنه سبحانه العليم بالضرورات التى تطرأ

على هذا التكليف فهو يشرع لهذه الضرورات ، وتشريع الله لرخص الضرورة إعلام لنا بأنه لا يصح مطلقاً لأى إنسان أن يخرج عن إطار الضرورة التى شرعها الله ، فبعض من الذين يتفلسفون من السطحيين يحبون أن يزينوا لأنفسهم الضرورات التى تبيح لهم الخروج عن شرع الله ، ويقول الواحد منهم :

﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾

(من الآية ٢٨٦ سورة البقرة)

ونقول : إنك تفهم وتحدد الوُسعَ على قدر عقلك ثم تقيس التكليف عليه ، برغم أن الذى خلقك هو الذى يُكلف ويعلم أنك تَسَعُ التكليف ، وهو سبحانه لا يكلف إلا بما فى وسعك ؛ بدليل أن المشرع سبحانه يعطى الرخصة عندما يكون التكليف ليس فى الوسع . ولنر رحمة الحق وهو يقول : « فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر » ، وكلمة « مريضاً » كلمة عامة ، وأنت فيها حجة على نفسك وبأمر طبيب مسلم حاذق يقول لك : « إن صمت فأنت تتعب » والمرض مشقته مزمنة فى بعض الأحيان ، ولذلك تلزم الفدية بإطعام مسكين .

وكذلك يرخص الله لك عندما تكون « على سفر » . وكلمة « سفر » هذه مأخوذة من المادة التى تفيد الظهور والانكشاف ، ومثال ذلك قولنا : « أسفر الصبح » . وكلمة « سفر » تفيد الانتقال من مكان تقيم فيه إلى مكان جديد ، وكأنك كلما مشيت خطوة تنكشف لك أشياء جديدة ، والمكان الذى تنتقل إليه هو جديد بالنسبة لك ، حتى ولو كنت قد اعتدت أن تسافر إليه ؛ لأنه يصير فى كل مرة جديدا لما ينشأ عنه من ظروف عدم استقرار فى الزمن ، صحيح أن شيئاً من المبانى والشوارع لم يتغير ، ولكن الذى يتغير هو الظروف التى تقابلها ، وصحيح أن ظروف السفر فى زماننا قد اختلفت عن السفر من قديم الزمان .

إن المشقة فى الانتقال قديماً كانت عالية ، ولكن لنقارن سفر الأمس مع سفر اليوم من ناحية الإقامة . وستجد أن سفر الآن بإقامة الآن فيه مشقة ، ومن العجب أن الذين يناقشون هذه الرخصة يناقشونها ليمنعوا الرخصة ، ونقول لهم : اعلموا أن

تشريع الله للرخص ينقلها إلى حكم شرعى مطلوب ؛ وفى ذلك يروى لنا جابر ابن عبدالله رضى الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سفر فرأى زحامًا ورجلاً قد ظلّل عليه فقال : « ما هذا » فقالوا : صائم فقال : « ليس من البر الصوم فى السفر »[١] .

وعندما تقرأ النص القرآنى تجده يقول : « فمن كان منكم مريضاً أو على سفر ، فعدة من أيام أخر » أى أن مجرد وجود فى السفر يقتضى الفطر والقضاء فى أيام أخر ، ومعنى ذلك أن الله لا يقبل منك الصيام ، صحيح أنه سبحانه لم يقل لك : « افطر » ولكن مجرد أن تكون مريضاً مرضاً مؤقتا أو مسافراً فعليك الصوم فى عدة أيام أخر وأنت لن تشرع لنفسك .

ولنا فى رسول الله أسوة حسنة فقد نهى عن صوم يوم عيد الفطر ، لأن عيد الفطر سُمى كذلك ، لأنه يحقق بهجة المشاركة بنهاية الصوم واجتياز الاختبار ، فلا يصح فيه الصوم ، والصوم فى أول أيام العيد إثم ، لكن الصوم فى ثانى أيام العيد جائز ، لحديث عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم « نهى عن صيام يومين : يوم الفطر ويوم الأضحى »[٢] .

وقد يقول قائل : ولكن الصيام فى رمضان يختلف عن الصوم فى أيام أخر ؛ لأن رمضان هو الشهر الذى أنزل فيه القرآن . وأقول : إن الصوم هو الذى يتشرف بمجيئه فى شهر القرآن ، ثم إن الذى أنزل القرآن وفرض الصوم فى رمضان هو سبحانه الذى وَهَب الترخيص بالفطر للمريض أو المسافر ونقله إلى أيام أخر فى غير رمضان ، وسبحانه لا يعجز عن أن يهب الأيام الأخر نفسها التجليات الصفائية التى يهبها للعبد الصائم فى رمضان . إن الحق سبحانه حين شرع الصوم فى رمضان إنما أراد أن يشيع الزمن الضيق ـ زمن رمضان ـ فى الزمن المتسع وهو مدار العام . ونحن نصوم رمضان فى الصيف ونصومه فى الشتاء وفى الخريف والربيع ، إذن فرمضان يمر على كل العام .

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب الصوم .

(٢) رواه مسلم .

ويقول الحق : « وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين » والطوق هو القدرة ، فيطيقونه أى يدخل فى قدرتهم وفى قولهم ، والفدية هى إطعام مسكين .

ويتساءل الإنسان : كيف يطيق الإنسان الصوم ثم يؤذن له بالفطر مقابل فدية هى إطعام مسكين ؟ وأقول : إن هذه الآية دلت على أن فريضة الصوم قد جاءت بتدرج ، كما تدرج الحق فى قضية الميراث ، فجعل الأمر بالوصية ، وبعد ذلك نقلها إلى الثابت بالتوريث ؛ كذلك أراد الله أن يُخرج أمة محمد صلى الله عليه وسلم من دائرة أنهم لا يصومون إلى أن يصوموا صياما يُخَيِّرهُم فيه لأنهم كانوا لا يصومون ثم جاء الأمر بعد ذلك بصيام لا خيار فيه ، فكأن الصوم قد فرض أولا باختيار ، وبعد أن اعتاد المسلمون وألفُوا الصوم جاء القول الحق : « فمن شهد منكم الشهر فليصمه » وفى هذه الآية لم يذكر الحق الفدية أو غيرها . إذن كانت فرضية الصوم أولا اختيارية بقوله الحق : « وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين » ، ثم جاء القرار الارتقائى ، فصار الصوم فريضة محددة المدة وهى شهر رمضان « شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه » وبذلك انتهت مسألة الفدية بالنسبة لمن يطيق الصوم ، أما الذى لا يطيق أصلا بأن يكون مريضاً أو شيخاً ، فإن قال الأطباء المسلمون : إن هذا مرض « لا يُرجى شفاؤه » نقول له : أنت لن تصوم أياما أخر وعليك أن تفدى .

لقد جاء تشريع الصوم تدريجيا ككثير من التشريعات التى تتعلق بنقل المكلفين من إلف العادات ، كالخمر مثلا والميسر والميراث ، وهذه أمور أراد الله أن يتدرج فيها . ويقول قائل : مادام فرض الصيام كان اختياريا فلماذا قال الحق بعد الحديث عن الفدية « فمن تطوع خيراً فهو خير له » ؟

وأقول : عندما كان الصوم اختياريا كان لابد أيضا من فتح باب الخير والاجتهاد فيه ، فمن صام وأطعم مسكينا فهذا أمر مقبول منه ، ومن صام وأطعم مسكينين ، فذاك أمر أكثر قبولا . ومن يدخل مع الله من غير حساب يؤتيه الله من غير حساب ، ومن يدخل على الله بحساب ، يعطيه الحق بحساب ، وقول الحق : « وأن تصوموا خير لكم » هو خطوة فى الطريق لتأكيد فرضية الصيام ، وقد تأكد ذلك الفرض بقوله الحق : « فمن شهد منكم الشهر فليصمه » ولم يأت فى هذه الآية بقوله : « وأن

تصوموا خير لكم » لأن المسألة قد انتقلت من الاختيار إلى الفرض .

إذن فالصيام هو منهج لتربية الإنسان ، وكان موجوداً قبل أن يبعث الحق سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعندما جاء الرسول صلى الله عليه وسلم دخل الصوم على المسلمين اختيارياً فى البداية ، ثم فريضة من بعد ذلك . وقد شرع الله الصوم فى الإسلام بداية بأيام معدودة ثم شرح لنا الأيام المعدودة بشهر رمضان .

والذى يطمئن إليه خاطرى أن الله بدأ مشروعية الصوم بالأيام المعدودة ، ثلاثة أيام من كل شهر وهو اليوم العاشر والعشرون ، والثلاثون من أيام الشهر ، كانت تلك هى الأيام المعدودة التى شرع الله فيها أن نصوم ؛ وكان الإنسان مخيراً فى تلك الأيام المعدودة : إن كان مطيقا للصوم أن يصوم أو أن يفتدى ، أما حين شرع الله الصوم فى رمضان فقد أصبح الصوم فريضة تعبدية وركنا من أركان الإسلام ، وبعد ذلك جاءنا الاستثناء للمريض والمسافر .

إذن لنا أن نلحظ أن الصوم فى الإسلام كان على مرحلتين : المرحلة الأولى : أن الله سبحانه وتعالى شرع صيام أيام معدودة ، وقد شرحنا أحكامها ، والمرحلة الثانية هى تشريع الصوم فى زمن محدود . . شهر رمضان ، والعلماء الذين ذهبوا إلى جواز رفض إفطار المريض وإفطار المسافر لأنهم لم يرغبوا أن يردوا حكمة الله فى التشريع ، أقول لهم : إن الحق سبحانه وتعالى حين يرخص لابد أن تكون له حكمة أعلى من مستوى تفكيرنا ، وأن الذى يؤكد هذا أن الحق سبحانه وتعالى قال : « فمن كان منكم مريضا أو على سفر » .

الحكم هنا هو الصوم عدة أيام أخر ، ولم يقل فمن أفطر فعليه عدة من أيام أخر ، أى أن صوم المريض والمسافر قد انتقل إلى وقت الإقامة بعد السفر ، والشفاء من المرض ، فالذين قالوا من العلماء : هى رخصة ، إن شاء الإنسان فعلها وإن شاء تركها ، لابد أن يقدر فى النص القرآنى « فمن كان منكم مريضا أو على سفر » ، فأفطر ، « فعدة من أيام أخر » . ونقول : ما لا يحتاج إلى تأويل فى النص أولى فى الفهم مما يحتاج إلى تأويل ، وليكن أدبنا فى التعبير ليس أدب ذوق ، بل أدب طاعة ؛ لأن الطاعة فوق الأدب .

إذن فالذين يقولون هذا لا يلحظون أن الله يريد أن يخفف عنا ، ثم ما الذى يمنعنا أن نفهم أن الحق سبحانه وتعالى أراد للمريض وللمسافر رخصة واضحة ، فجعل صيام أى منهما فى عدة من الأيام الأخر . فإن صام فى رمضان وهو مريض أو على سفر فليس له صيام ، أى أن صيامه لا يعتد به ولا يقبل منه ، وهذا ما أرتاح إليه ، ولكن علينا أن ندخل فى اعتبارنا أن المراد من المرض والسفر هنا ، هو ما يخرج مجموع ملكات الإنسان عن سويّتها .

وما معنى كلمة « شهر » التى جاءت فى قوله : « فمن شهد منكم الشهر فليصمه »؟ . إن كلمة « شهر » مأخوذة من الإعلام والإظهار ، وما زلنا نستخدمها فى الصفقات فنقول مثلا : لقد سجلنا البيع فى « الشهر العقارى » أى نحن نُعْلِمُ الشهر العقارى بوجود صفقة ، حتى لا يأتى بعد ذلك وجود صفقة على صفقة ، فكلمة « شهر » معناها الإعلام والإظهار ، وسُميت الفترة الزمنية « شهراً » لماذا ؟ لأن لها علامة تُظهرها ، ونحن نعرف أننا لا نستطيع أن نعرف الشهر عن طريق الشمس ؛ فالشمس هى سمة لمعرفة تحديد اليوم ، فاليوم من مشرق الشمس إلى مشرق آخر وله ليل ونهار .

ولكن الشمس ليست فيها علامة مميزة سطحية ظاهرة واضحة تحدد لنا بدء الشهر ، إنما القمر هو الذى يحدد تلك السمة والعلامة بالهلال الذى يأتى فى أول الشهر ، ويظهر هكذا كالعرجون القديم ، إذن فالهلال جاء لتمييز الشهر ، والشمس لتمييز النهار ، ونحن نحتاج لهما معا فى تحديد الزمن .

إن الحق سبحانه وتعالى يربط الأعمال العبادية بآيات كونية ظاهرة التى هى الهلال ، وبعد ذلك نأخذ من الشمس اليوم فقط ؛ لأن الهلال لا يعطيك اليوم ، فكأن ظهور الهلال على شكل خاص بعدما يأتى المحاق وينتهى ، فميلاد الهلال بداية إعلام وإعلان وإظهار أن الشهر قد بدأ ، ولذلك تبدأ العبادات منذ الليلة الأولى فى رمضان ؛ لأن العلامة ـ الهلال ـ مرتبطة بالليل ، فنحن نستطلع الهلال فى المغرب ، فإن رأيناه نقل شهر رمضان بدأ . ولم تختلف هذه المسألة لأن النهار لا يسبق الليل ، إلا فى عبادة واحدة وهى الوقوف بعرفة ، فالليل الذى يجىء بعدها هو الملحق بيوم عرفة .

وكلمة « رمضان » مأخوذة من مادة (الراء ـ والميم ـ والضاد) ، وكلها تدل على

الحرارة وتدل على القيظ « ورمض الإنسان » أى حرّ جوفه من شدة العطش ، و« الرمضاء » أى الرمل الحار ، وعندما يقال : « رمضت الماشية » أى أن الحر أصاب خُفها فلم تعد تقوى أن تضع رجلها على الأرض ، إذن فرمضان مأخوذ من الحر ومن القيظ ، وكأن الناس حينما أرادوا أن يضعوا أسماء للشهور جاءت التسمية لرمضان فى وقت كان حاراً ، فسموه رمضان كما أنهم ساعة سموا مثلا « ربيعاً الأول وربيعاً الآخر » كان الزمن متفقاً مع وجود الربيع ، وعندما سموا جمادى الأولى وجمادى الآخرة » كان الماء يَجْمُد فى هذه الأيام .

فكأنهم لاحظوا الأوصاف فى الشهور ساعة التسمية ، ثم دار الزمن العربى الخاص المحدد بالشهورالقمرية فى الزمن العام للشمس . فجاء رمضان فى صيف ، وجاء فى خريف ، لكن ساعة التسمية كان الوقت حاراً .

وهب أن إنسانا جاءه ولد جميل الشكل ، فسماه « جميلاً » . وبعد ذلك مرض والعياذ بالله بمرض الجدرى فشوه وجهه ، فيكون الاسم قد لوحظ ساعة التسمية ، وإن طرأ عليه فيما بعد ذلك ما يناقض هذه التسمية ، وكأن الحق سبحانه وتعالى حينما هيأ للعقول البشرية الواضعة للألفاظ أن يضعوا لهذا الشهر ذلك الاسم ، دل على المشقة التى تعترى الصائم فى شهر رمضان ، وبعد ذلك يعطى له سبحانه منزلة تؤكد لماذا سُمى ، إنه الشهر الذى أنزل فيه القرآن ، والقرآن إنما جاء منهج هداية للقيم ، والصوم امتناع عن الاقتيات ، فمنزلة الشهر الكريم أنه يربى البدن ويربى النفس ، فناسب أن يوجد التشريع فى تربية البدن وتربية القيم مع الزمن الذى جاء فيه القرآن بالقيم ، « شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن » . وإذا سمعت « أنزل فيه القرآن » فافهم أن هناك كلمات « أنزل » و«نَزّلَ » و« نزل » ، فإذا سمعت كلمة « أنزل » تجدها منسوبة إلى الله دائما :

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١ ﴾

(سورة القدر)

أما فى كلمة « نَزَلَ » فهو سبحانه يقول :

﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣ ﴾

(سورة الشعراء)

وقال الحق :

﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾

(من الآية ٤ سورة القدر)

إذن فكلمة « أنزل » مقصورة على الله ، إنما كلمة « نَزَّلَ » تأتى من الملائكة ، و« نَزَلَ » تأتى من الروح الأمين الذى هو « جبريل » ، فكأن كلمة « أنزل » بهمزة التعدية ، عدت القرآن من وجوده مسطوراً فى اللوح المحفوظ إلى أن يبرز إلى الوجود الإنسانى ليباشر مهمته .

وكلمة « نَزَلَ » و« نَزَّلَ » نفهمهما أن الحق أنزل القرآن من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا مناسباً للأحداث ومناسباً للظروف ، فكان الإنزال فى رمضان جاء مرة واحدة ، والناس الذين يهاجموننا يقولون كيف تقولون : إن رمضان أنزل فيه القرآن مع أنكم تشيعون القرآن فى كل زمن ، فينزل هنا وينزل هناك وقد نزل فى مدة الرسالة المحمدية ؟

نقول لهم : نحن لم نقل إنه « نزل » ولكننا قلنا « أنزل » ، فأنزل : تعدى من العِلم الأعلى إلى أن يباشر مهمته فى الوجود . وحين يباشر مهمته فى الوجود ينزل منه « النَّجْم » ـ يعنى القسط القرآنى ـ موافقا للحدث الأرضى ليجىء الحكم وقت حاجتك ، فيستقر فى الأرض ، إنما لو جاءنا القرآن مكتملاً مرة واحدة فقد يجوز أن يكون عندنا الحكم ولا نعرفه ، لكن حينما لا يجىء الحكم إلا ساعة نحتاجه ، فهو يستقر فى نفوسنا .

وأضرب هذاالمثل ـ ولله المثل الأعلى ـ أنت مثلاً تريد أن تُجهز صيدلية للطوارىء فى المنزل ، وأنت تضع فيها كل ما يخص الطوارىء التى تتخيلها ، ومن الجائز أن يكون عندك الدواء لكنك لست فى حاجة له ، أما ساعة تحتاج الدواء وتذهب لتصرف تذكرة الطبيب من الصيدلية ، عندئذ لا يحدث لبس ولا اختلاط ، فكذلك حين يُريد الله حكماً من الأحكام ليعالج قضية من قضايا الوجود فهو لا ينتظر حتى ينزل فيه حكم من الملأ الأعلى من اللوح المحفوظ ، إنما الحكم موجود فى السماء الدنيا ، فيقول للملائكة : تنزلوا به ، وجبريل ينزل فى أى وقت شاء له الحق أن

ينزل من أوقات البعثة المحمدية ، أو الوقت الذى أراد الله سبحانه وتعالى أن يوجد فيه الحكم الذى يغطى قضية من القضايا .

إذن فحينما يوجد من يريد أن يشككنا نقول له : لا .
نحن نملك لغة عربية دقيقة ، وعندنا فرق بين « أنزل » و « نَزَّل » و« نزل » . ولذلك فكلمة « نزل » تأتى للكتاب ، وتأتى للنازل بالكتاب يقول تعالى :

﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ ﴾

(سورة الشعراء)

ويقول سبحانه :

﴿ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ﴾

(من الآية ١٠٥ سورة الاسراء)

وكان بعض من المشركين قد تساءلوا ؛ لماذا لم ينزل القرآن جملة واحدة ؟ . وانظر إلى الدقة فى الهيئة التى أراد الله بها نزول القرآن فقد قال الحق :

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾

(سورة الفرقان)

وعندما نتأمل قول الحق : « كذلك » فهى تعنى أنه سبحانه أنزل القرآن على الهيئة التى نزل بها لزوماً لتثبيت فؤاد رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ، ولو نزل مرة واحدة لكان تكليفاً واحداً ، وأحداث الدعوة شتى وكل لحظة تحتاج إلى تثبيت . فحين يأتى الحدث ينزل نَجْمٌ قرآنى فيعطى به الحق تثبيتا للنبى صلى الله عليه وسلم ، وأضرب مثلا بسيطا ـ ولله المثل الأعلى والمنزه عن كل تشبيه ـ أن ابناً لك يريد حُلة

جديدة أتحضرها له مرة واحدة ، فتصادفه فرحة واحدة ، أم تحضر له فى يوم ربطة العنق واليوم الذى يليه تحضر له القميص الجديد ، ثم تحضر له « البدلة » ؟ ، إذن فكل شىء يأتى له وقع وفرحة .

والحق ينزل القرآن منجما لماذا ؟ « لنثبت به فؤادك » ومعنى « لنثبت به فؤادك » أى أنك ستتعرض لمنغصات شتى ، وهذه المنغصات الشتى كل منها يحتاج إلى تَرْبِيتٍ عليك وتهدئة لك ، فيأتى القسط القرآنى ليفعل ذلك وينير أمامك الطريق . « كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلاً » أى لم نأت به مرة واحدة بل جعلناه مرتباً على حسب ما يقتضيه من أحداث . حتى يتم العمل بكل قسط ، ويهضمه المؤمن ثم نأتى بقسط آخر . ولنلحظ دقة الحق فى قوله عن القرآن :

﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ﴾

(سورة الفرقان)

إن الكفار لهم اعتراضات ، ويحتاجون إلى أمثلة ، فلو أنه نزل جملة واحدة لأهدرَتْ هذه القضية ، وكذلك حين يسأل المؤمنون يقول القرآن : يسئلونك عن كذا وعن كذا ، ولو شاء الله أن يُنزل القرآن دفعة واحدة ، فكيف كان يغطى هذه المسألة ؟ فماداموا سوف يسألون فلينتظر حتى يسألوا ثم تأتى الإجابة بعد ذلك .

إذن فهذا هو معنى « أنزل » أى أنه أُنزل من اللوح المحفوظ ، ليباشر مهمته فى الوجود ، وبعد ذلك نزل به جبريل ، أو تتنزل به الملائكة على حسب الأحداث التى جاء القرآن ليغطيها .

ويقول الحق : « أُنزل فيه القرآن هدى للناس » . ونعرف أن كلمة « هدى » معناها : الشىء الموصل للغاية بأقصر طريق ، فحين تضع إشارات فى الطريق الملتبسة ، فمعنى ذلك أننا نريد للسالك أن يصل إلى الطريق بأيسر جهد ، و« هدى » تدل على علامات لنهتدى بها يضعها الخالق سبحانه ، لأنه لو تركها للخلق ليضعوها لاختلفت الأهواء ، وعلى فرض أننا سنسلم بأنهم لا هوى لهم ويلتمسون الحق ، وعقولهم ناضجة ، سنسلم بكل ذلك ، ونتركهم كى يضعوا المعالم ، ونتساءل : وماذا عن الذى يضع تلك العلامات ، وبماذا يهتدى ؟ .

إذن فلابد أن يوجد له هدى من قبل أن يكون له عقل يفكر به ، كما أن الذى يضع هذاالهدى لابد ألا ينتفع به ، وعلى ذلك فالله سبحانه أغنى الأغنياء عن الخلق ولن ينتفع بأى شيء من العباد ، أما البشر فلو وضعوا « هدى » فالواضع سينتفع به ، ورأينا ذلك رأى العين ؛ فالذى يريد أن يأخذ مال الأغنياء ويغتنى يخترع المذهب الشيوعى ، والذى يريد أن يمتص عرق الغير يضع مذهب الرأسمالية ، مذاهب نابعة من الهوى ، ولا يمكن أن يُبرأ أحد من فلاسفة المذاهب نفسه من الهوى : الرأسمالى يقنن فيميل لهوى نفسه ، الشيوعى يميل لنفسه ، ونحن نريد مَن يُشرع لنا دون أن ينتفع بما شرع ، ولا يوجد من تتطابق معه هذه المواصفات إلا الحق سبحانه وتعالى فهو الذى يشرع فقط ، وهو الذى يشرع لفائدة الخلق فقط .

والذى يدلك على ذلك أنك تجد تشريعات البشر تأتى لتنقض تشريعات أخرى ، لأن البشر على فرض أنهم عالمون فقد يغيب عنهم أشياء كثيرة ، برغم أن الذى يضع التشريع يحاول أن يضع أمامه كل التصورات المستقبلية ، ولذلك نجد التعديلات تجرى دائما على التشريعات البشرية ؛ لأن المشرع غاب عنه وقت التشريع حكم لم يكن فى باله ، وأحداث الحياة جاءت فلفتته إليه ، فيقول : التشريع فيه نقص ولم يعد ملائماً ، نعدله .

إذن فنحن نريد فى من يضع الهدى والمنهج الذى يسير عليه الناس بجانب عدم الانتفاع بالمنهج لابد أيضا أن يكون عالما بكل الجزئيات التى قد يأتى بها المستقبل ، وهذا لا يتأتى إلا فى إله عليم حكيم ، ولذلك قال تعالى :

﴿ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾

(من الآية ١٥٣ سورة الأنعام)

ستتبعون السبل ، هذا له هوى ، وهذا له هوى ، فتوجد القوانين الوضعية التى تبددنا كلنا فى الأرض ، لأننا نتبع أهواءنا التى تتغير ولا نتبع منهج من ليس له نفع فى هذه المسألة ، ولذلك أقول : افطنوا جيداً إلى أن الهدى الحق الذى لا أعترض عليه هو هدى الله ، « هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان » . والقرآن فى جملته « هدى » والفرقان هو أن يضع فارقاً فى أمور يلتبس فيها الحق بالباطل ، فيأتى التنزيل الحكيم ليفرق بين الحق والباطل .

ويقول الحق : « فمن شهد منكم الشهر فليصمه ومن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر » ، وحين تجد تعقيباً على قضية فافهم أن من شهد منكم الشهر فليصمه ولابد أن تقدر من شهد الشهر فليصمه إن كان غير مريض ، وإن كان غير مسافر ، لابد من هذا مادام الحق قد جاء بالحكم .

و« شهد » هذه تنقسم قسمين : « فمن شهد » أي من حضر الشهر وأدركه وهو غير مريض وغير مسافر أى مقيم ، « ومن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » . ونريد أن نفهم النص بعقلية من يستقبل الكلام من إله حكيم ، إن قول الله : « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » .

تعقيب على ماذا ؟ تعقيب على أنه أعفى المريض وأعفى المسافر من الصيام ، فكأن الله يريد بكم اليسر ، فكأنك لو خالفت ذلك لأردت الله معسراً لا ميسراً والله لا يمكن أن يكون كذلك ، بل أنت الذى تكون معسراً على نفسك ، فإن كان الصوم له قداسة عندك ، ولا تريد أن تكون أسوة فلا تفطر أمام الناس ، والتزم بقول الله : « فعدة من أيام أخر » لأنك لو جنحت إلى ذلك لجعلت الحكم فى نطاق التعسير ، فنقول لك : لا ، إن الله يريد بك اليسر ، فهل أنت مع العبادة أم أنت مع المعبود ؟ أنت مع المعبود بطبيعة الإيمان .

ومثال آخر نجده فى حياتنا : هناك من يأتى ليؤذن ثم بعد الأذان يجهر بقول : « الصلام والسلام عليك يا سيدى يا رسول الله » يقول : إن هذا حب لرسول الله ، لكن هل أنت تحب الرسول إلا بما شرع ؟ إنه قد قال : (إذا سمعتم النداء فقولوا مثلما يقول المؤذن ثم صلوا على)[1] فقد سمح الرسول صلى الله عليه وسلم لمن يؤذن ولمن يسمع أن يصلى عليه فى السر ، لا أن يأتى بصوت الأذان الأصيل وبلهجة الأذان الأصيلة ونصلى على النبى ، لأن الناس قد يختلط عليها ، وقد يفهم بعضهم أن ذلك من أصول الأذان . إننى أقول لمن يفعل ذلك : يا أخى ، ألا توجد صلاة مقبولة على النبى إلا المجهور بها ؟ لا ، إن لك أن تصلى على النبى ، لكن فى سرك .

---

(١) هذا الحديث أخرجه الإمامان البخارى ومسلم ، وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه والإمام أحمد فى مسنده عن أبى سعيد الخدرى .

وكذلك إن جاء من يفطر فى رمضان لأنه مريض أو على سفر ، نقول له : استتر ، حتى لا تكون أسوة سيئة ؛ لأن الناس لا تعرف أنك مريض أو على سفر ، استتر كى لا يقول الناس : إن مسلماً أفطر . ويقول الحق : « ولتكملوا العدة » فمعناها كى لا تفوتكم أيام من الصيام .

انظروا إلى دقة الأداء القرآنى فى قوله : « ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون » . إن العبادة التى نفهم أن فيها مشقة هى الصيام وبعد ذلك تكبرون الله ؛ لأن الحق سبحانه عالم أن عبده حين ينصاع لحكم أراده الله وفيه مشقة عليه مثل الصوم ويتحمله ، وعندما يشعر بأنه قد انتهى منه إنه سبحانه عالم بأن العبد سيجد فى نفسه إشراقاً يستحق أن يشكر الله الذى كلفه بالصوم ووفقه إلى أدائه ؛ لأن معنى « ولتكبروا الله » يعنى أن تقول:« الله أكبر » وأن تشكره على العبادة التى كنت تعتقد أنها تضنيك ، لكنك وجدت فيها تجليات وإشراقات ، فتقول : الله أكبر من كل ذلك ، الله أكبر ؛ لأنه حين يمنعنى يعطينى ، وسبحانه يعطى حتى فى المنع ؛ فأنت تأخذ مقومات حياة ويعطيك فى رمضان ما هو أكثر من مقومات الحياة وهو الإشراقات التى تتجلى لك ، وتذوق حلاوة التكليف وإن كان قد فوت عليك الاستمتاع بنعمة فإنه أعطاك نعمة أكثر منها .

وبعد ذلك فالنسق القرآنى ليس نسقاً من صنع بشر ، فنحن نجد أن نسق البشر يقسم الكتاب أبواباً وفصولاً ومواد كلها مع بعضها ، ويُفصل كل باب بفصوله ومواده ، وبعد ذلك ينتقل لباب آخر ، لكن الله لا يريد الدين أبواباً ، وإنما يريد الدين وحدة متكاتفة فى بناء ذلك الإنسان ، فيأتى بعد قوله:« ولتكبروا الله » بـ « ولعلكم تشكرون » ومعنى ذلك أنكم سترون ما يجعلكم تنطقون بـ « الله أكبر » ؛ لأن الله أسدى إليكم جميلاً ، وساعة يوجد الصفاء بين « العابد » وهو الإنسان و« المعبود » وهو الرب ، ويثق العابد بأن المعبود لم يكلفه إلا بما يعود عليه بالخير ، هنا يحسن العبد ظنه بربه ، فيلجأ إليه فى كل شىء ، ويسأله عن كل شىء ، ولذلك جاء هنا قول الحق :

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾

ومادمت قد ذقت حلاوة ما أعطاك الحق من إشراقات صفائية فى الصيام فأنت ستتجه إلى شكره سبحانه ، وهذا يناسب أن يرد عليك الحق فيقول : « وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب » ونلحظ أن « إذا » جاءت ، ولم تأت « إن » فالحق يؤكد لك أنك بعدما ترى هذه الحلاوة ستشكر الله ؛ لأنه سبحانه يقول فى الحديث القدسى :

« ثلاثة لا ترد دعوتهم ، الصائم حتى يفطر ، والإمام العادل ، ودعوة المظلوم ، يرفعها الله فوق الغمام وتفتح لها أبواب السماء ، ويقول الرب : وعزتى لأنصرنك ولو بعد حين »[1] .

فمادام سبحانه سيجيب الدعوة ، وأنت قد تكون من العامة لا إمامة لك ، وكذلك لست مظلوماً ، إذن تبقى دعوة الصائم . وعندما تقرأ فى كتاب الله كلمة « سأل » ستجد أن مادة السؤال بالنسبة للقرآن وردت وفى جوابها « قل » .

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾

(من الآية ٢١٩ سورة البقرة)

وقوله :

﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾

(من الآية ٢١٩ سورة البقرة)

---

(١) هذا الحديث أخرجه الترمذى وابن ماجة والإمام أحمد فى مسنده عن أبى هريرة .

وقوله :

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ ﴾

(من الآية ٢١٥ سورة البقرة)

وكل « يسألونك » يأتى فى جوابها « قل » إلا آية واحدة جاءت فيها « فقل » بالفاء ، وهى قول الحق :

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى ﴾

(من الآية ١٠٥ سورة طه)

انظر إلى الدقة الأدائية : الأولى « قل » ، وهذه « فقل » ، فكأن « يسألونك عن الخمر والميسر » يؤكد أن السؤال قد وقع بالفعل ، ولكن قوله: « يسألونك عن الجبال » ، فالسؤال هذا ستتعرض له ، فكأن الله أجاب عن أسئلة وقعت بالفعل فقال : « قل » ، والسؤال الذى سيأتى من بعد ذلك جاء وجاءت إجابته بـ « فقل » أى أعطاه جواباً مسبقاً ، إذن ففيه فرق بين جواب عن سؤال حدث ، وبين جواب عن سؤال سوف يحدث ، ليدلك على أن أحداً لن يفاجىء الله بسؤال ، « ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفاً » .

لكن نحن الآن أمام آية جاء فيها سؤال وكانت الإجابة مباشرة : « وإذا سألك عبادى عنى » . فلم يقل : فقل: إنى قريب ؛ لأن قوله: « قل » هو عملية تطيل القرب ، ويريد الله أن يجعل القرب فى الجواب عن السؤال بدون وساطة « وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب » . لقد جعل الله الجواب منه لعباده مباشرة ، وإن كان الذى سيبلغ الجواب هو رسوله صلى الله عليه وسلم ، وهذه لها قصة : لقد سألوا رسول الله : أقريب ربك فنناجيه أم بعيد فنناديه ؟

لأن عادة البعيد أن يُنادى ، أما القريب فيُناجى ، ولكى يبين لهم القرب ، حذف كلمة « قل » ، فجاء قول الحق: « وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب » وما فائدة ذلك

القرب ؟ إن الحق يقول : « أجيب دعوة الداع إذا دعان » ولكن ما الشروط اللازمة لذلك ؟

لقد قال الحق : « وإذا سألك عبادى » ونعرف أن فيه فرقا بين « عبيد » و« عباد » ، صحيح أن مفرد كل منهما « عبد » ، لكن هناك « عبيد » و« عباد » ، وكل من فى الأرض عبيد لله ، ولكن ليس كل من فى الأرض عباداً لله ، لماذا ؟

لأن العبيد هم الذين يُقهرون فى الوجود كغيرهم بأشياء ، وهناك من يختارون التمرد على الحق ، لقد أخذوا اختيارهم تمرداً ، لكن العبد هم الذين اختاروا الانقياد لله فى كل الأمور . إنهم منقادون مع الجميع فى أن واحدا لا يتحكم متى يولد ، ولا متى يموت ، ولا كيف يوجد ، لكن العباد يمتازون بأن الأمر الذى جعل الله لهم فيه اختياراً قالوا : صحيح يارب أنت جعلت لنا الاختيار ، وقد اخترنا منهجك ، ولم نترك هَوانا ليحكم فينا ، أنت قلت سبحانك : « افعل كذا » و« لا تفعل كذا » ونحن قبلنا التكليف منك يارب .

ولا يقول لك ربك:« افعل » إلا إذا كنت صالحاً للفعل ولعدم الفعل . ولا يقول لك:« لا تفعل » إلا إذا كنت صالحاً لهذه ولهذه . إذن فكلمة « افعل » و« لاتفعل » تدخل فى الأمور الاختيارية ، والحق قد قال « افعل » و« لاتفعل » ثم ترك أشياء لا يقول لك فيها « افعل » و« لا تفعل » ، فتكون حراً فى أن تفعلها أو لا تفعلها ، اسمها « منطقة الاختيار المباح » ، فهناك اختيار قُيِّدَ بالتكليف بافعل ولا تفعل ، واختيار بقى لك أن تفعله أو لا تفعله ولا يترتب عليه ضرر ؛ فالذى أخذ الاختيار وقال : يارب أنت وهبتنى الاختيار ، ولكننى تركت لك يا واهب الاختيار أن توجه هذا الاختيار كما تحب ، أنا سأتنازل عن اختيارى ، وما تقول لى : « افعل » سأفعله ، والذى تقول لى : « لا تفعله » لن أفعله .

إذن فالعباد هم الذين أخذوا منطقة الاختيار ، وسلموها لمن خلق فيهم الاختيار ، وقالوا لله : وإن كنت مختاراً إلا أننى أمنتك على نفسى . إن العباد هم الذين ردوا أمر الاختيار إلى من وهب الاختيار ويصفهم الحق بقوله :

﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿٦٣﴾ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴿٦٤﴾ ﴾

(سورة الفرقان)

هؤلاء هم عباد الرحمن ، ولذلك يقول الحق للشيطان فى شأنهم :

﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾

(من الآية ٤٢ سورة الحجر)

إذن فللشيطان سلطان على مطلق عبيد ؛ لأنه يدخل عليهم من باب الاختيار ، ولم تأت كلمة « عبادى » لغير هؤلاء إلا حين تقوم الساعة ، ويحاسب الحق الذين أضلوا العباد فيقول :

﴿ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي ﴾

(من الآية ١٧ سورة الفرقان)

ساعة تقوم الساعة لا يوجد الاختيار ويصير الكل عباداً ؛ حتى الكفرة لم يعد لهم اختيار . وحين يقول الحق : « وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان » فالعباد الذين التزموا لله بالمنهج الإيمانى لن يسألوا الله إلا بشىء لا يتنافى مع الإيمان وتكاليفه .

والحق يقول : « فليستجيبوا لى » ؛ لأن الدعاء يطلب جواباً ، ومادمت تطلب إجابة الدعاء فتأدب مع ربك ؛ فهو سبحانه قد دعاك إلى منهجه فاستجب له إن كنت تحب أن يستجيب الله لك « فليستجيبوا لى » ، وبعد ذلك يتكلم الحق سبحانه وتعالى فى كلمة « الداع » ولا يتركها مطلقة ، فيقول : « إذا دعان » فكأن كلمة « دعا » تأتى ويدعو بها الإنسان ، وربما اتجه بالدعوة إلى غير القادر على الإجابة ، ومثال ذلك قول الحق :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ﴾

(من الآية ١٩٤ سورة الأعراف)

وقوله الحق :

﴿ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ ﴾

(من الآية ١٤ سورة فاطر)

فكأن الداعى قد يأخذ صفة يدعو بها غير مؤهل للإجابة ، والحق هنا قال : « أجيب دعوة الداع إذا دعان » أما إذا ذهب فدعا غير قادر على الوفاء فالله ليس مسئولا عن إجابة دعوته .

إن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يعلمنا أن الإنسان يدعو بالخير لنفسه ، وأنت لا تستطيع أن تحدد هذا الخير ؛ لأنك قد تنظر إلى شيء على أنه الخير وهو شر ، ومادمت تدعو فأنت تظن أن ذلك هو الخير ، إذن فملحظية الأصل فى الدعاء هى أنك تحب الخير ، ولكنك قد تخطىء الطريق إلى فهم الخير أو الوسيلة إلى الخير ، أنت تحب الخير لا جدال ، لذلك تكون إجابة ربك إلى دعائك هى أن يمنع إجابة دعوتك إن كانت لا تصادف الخير بالنسبة لك ، ولذلك يجب ألا تفهم أنك حين لا تجاب دعوتك كما رجوت وطلبت أن الله لم يستجب لك فتقول : لماذا لم يستجب الله لى ؟ . لا لقد استجاب لك ، ولكنه نحّى عنك حمق الدعوة أو ما تجهل بأنه شر لك . فالذى تدعوه هو حكيم ؛ فيقول: « أنا سأعطيك الخير ، والخير الذى أعلمه أنا فوق الخير الذى تعلمه أنت ، ولذلك فمن الخير لك ألا تُجاب إلى هذه الدعوة .

وأضرب هذا المثل ـ ولله المثل الأعلى ـ : قد يطلب منك ابنك الصغير أن تشترى له مسدسا ، وهو يظن أن مسألة المسدس خير ، لكنك تؤخر طلبه وتقول له : فيما بعد سأشترى لك المسدس إن شاء الله ، وتماطل ولا تأتيه بالمسدس ، فهل عدم مجيئك بالمسدس له على وفق ما رأى هو منع للخير عنه ؟

إن منعك للمسدس عنه فيه فائدة وصيانة وخير للابن .

إذن فالخير يكون دائما على مقدار الحكمة فى تناول الأمور ، وأنت تمنع المسدس عن ابنك ، لأنك قدرت أنه طفل ويلهو مع رفاقه وقد يتعرض لأشياء تخرجه عن طوره وقد يتسبب فى أن يؤذيه أحد ، وقد يؤذى هو أحداً بمثل هذا المسدس .

وكذلك يكون حظك من الدعاء لا يُستجاب لأن ذلك قد يرهقك أنت . والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَيَدْعُ ٱلْإِنسَـٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

ولذلك يقول سبحانه :

﴿ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَـٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة الأنبياء)

والعلماء يقولون : إن الدعاء إن قصدت به الذلة والعبودية يكون جميلا ، أما الإجابة فهى إرادة الله ، وأنت إن قدرت حظك من الدعاء فى الإجابة عليه فأنت لا تُقدر الأمر . إن حظك من الدعاء هو العبادة والذلة لله ؛ لأنك لا تدعو إلا إذا اعتقدت أن أسبابك كبشر لا تقدر على هذه ، ولذلك سألت من يقدر عليها ، وسألت من يملك ، ولذلك يقول الله فى الحديث القدسى :

«من شغله ذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين »[1] .

ولنتعلم ما علّمَهُ رسول الله لعائشة أم المؤمنين . لقد سألت رسول الله إذا صادفت

---

(١) أخرجه البخارى فى تاريخه .

ليلة القدر فقالت : إن أدركتنى هذه الليلة بماذا أدعو ؟

أنظروا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقد علّم أم المؤمنين عائشة أن تدعو بمقاييس الخير الواسع فقال لها : « قولى : اللهم إنك تحب العفو فاعف عنى »[١] . ولا يوجد جمال أحسن من العفو ، ولا يوجد خير أحسن من العفو ، فلا أقول : أعطنى ، أعطنى ؛ لأن هذا قد ينطبق عليه قول الحق :

﴿ وَيَدْعُ ٱلْإِنسَـٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

فمن يقول : لقد دعوت ربى فلم يستجب لى ، نقول له : لا تكن قليل الفطنة فمن الخير لك أنك لا تُجاب إلى ماطلبت فالله يعطيك الخير فى الوقت الذى يريده .

وبعد ذلك يترك الحق لبعض قضايا الوجود فى المجتمع أن تجيبك إلى شىء ثم يتبين لك منه الشر ، لتعلم أن قبض إجابته عنك كان هو عين الخير ، ولذلك فإن الدعاء له شروط ، فالرسول صلى الله عليه وسلم يدعونا إلى الطيب من الرزق .

فقد جاء فى الحديث الشريف عن أبى هريرة قوله : « ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يده إلى السماء : يارب يارب ومطعمه حرام وملبسه حرام وغُذِىَ بالحرام فأنّى يستجاب له »[٢] . إن الرسول يكشف أمامنا كيف يفسد جهاز الإنسان الذى يدعو ، لذلك فعدم إجابة الدعوة إما لأن جهاز الدعوة جهاز فاسد ، وإما لأنك دعوت بشىء تظن أن فيه الخير لك لكن الله يعلم أنه ليس كذلك ، ولهذا يأخذ بيدك إلى مجال حكمته ، ويمنع عنك الأمر الذى يحمل لك الشر .

وشىء آخر ، قد يحجب عنك الإجابة ، لأنه إن أعطاك ما تحب فقد أعطاك فى خير الدنيا الفانية ، وهو يحبك فيُبقى لك الإجابة إلى خير الباقية ، وهذه ارتقاءات

---

(١) هذا لفظ الترمذى ، وقال حديث حسن صحيح ، وأخرجه الحاكم فى مستدركه ، وقال صحيح على شرط الشيخين .

(٢) رواه مسلم فى صحيحه .

لا ينالها إلا الخاصة ، وهناك ارتقاءات أخرى تتمثل فى أنه مادام الدعاء فيه ذلة وخضوع فقد يطبق الله عليك ما جاء فى الحديث القدسى : « ينزل الله تعالى فى السماء الدنيا فيقول : من يدعونى فأستجيب له أو يسألنى فأعطيه ؟ ثم يقول : من يقرض غير عديم ولا ظلوم »(١).

ولأن الإنسان مرتبط بمسائل يحبها ، فمادامت لم تأت فهو يقول دائما يارب . وهذا الدعاء يحب الله أن يسمعه من مثل هذا العبد فيقول : إن من عبادى من أحب دعاءهم فأنا أبتليهم ليقولوا : يارب . إن الإنسان المؤمن لا يجعل حظه من الدعاء أن يجاب ، إنما حظه من الدعاء ما قاله الحق :

﴿ قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ﴾

(من الآية ٧٧ سورة الفرقان)

إن معنى الربوبية والمربوبية أن تقول دائما : « يارب » . وأضرب هذا المثل ـ ولله المثل الأعلى ـ الأب قد يعطى ابنه مصروف اليد كل شهر ، والابن يأخذ مصروف اليد الشهرى ويغيب طوال الشهر ولا يحرص على رؤية والده . لكن الأب حين يعطى مصروف اليد كل يوم ، فالابن ينتظر والده ، وعندما يتأخر الوالد قليلا فإن الابن يقف لينتظر والده على الباب ؛ لقد ربط الأب ابنه بالحاجة ليأنس برؤياه .

والحق سبحانه يضع شرطا للاستجابة للدعاء ، وهو أن يستجيب العبدلله سبحانه وتعالى فيما دعاه إليه . عندئذ سيكون العباد أهلا للدعاء ، ولذلك قال الحق فى الحديث القدسى : « من شغله ذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين »(٢) .

ومثال ذلك سيدنا إبراهيم عليه السلام حين ألقى فى النار ، قال له جبريل : ألك حاجة ؟. لم ينف أن له حاجة ، فلا يوجد استكبار على البلوى ، ولكنه قال

---

(١) رواه مسلم وأبو داود والترمذى .
(٢) رواه البخارى فى تاريخه .

لجبريل : أما إليك فلا ، صحيح أن له حاجة إنما ليست لجبريل ، لأنه يعلم جيدا أن نجاته من النار المطبوعة على أن تحرق وقد ألقى فيها ، هى عملية ليست لخلق أن يتحكم فيها ولكنها قدرة لا يملكها إلا من خلق النار . فقال لجبريل : أما إليك فلا ، وعلمه بحالى يغنى عن سؤالى . لذلك جاء الأمر من الحق :

﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ ﴾

(سورة الأنبياء)

ولنتعلم من الإمام على كرم الله وجهه حين دخل عليه إنسان يعوده وهو مريض فوجده يتأوه ، فقال له : أتتأوه وأنت أبو الحسن . قال : أنا لا أشجع على الله .

إذن فقوله : « وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى » تعنى ضرورة الاستجابة للمنهج ، « وليؤمنوا بى » أى أن يؤمنوا به سبحانه إلها حكيما . وليس كل من يسأل يستجاب له بسؤاله نفسه ؛ لأن الألوهية تقتضى الحكمة التى تعطى كل صاحب دعوة خيراً يناسب الداعى ، لا بمقاييسه هو ولكن بمقاييس من يجيب الدعوة .

ويذيل الحق الآية بقوله : « لعلهم يرشدون » فما معنى « يرشدون » ؟ إنه يعنى الوصول إلى طريق الخير وإلى طريق الصواب . وهذه الآية جاءت بعد آية « شهر رمضان الذى أنزل فيه القران هدى للناس » كى تبين لنا أن الصفائية فى الصيام تجعل الصائم أهلاً للدعاء ، وقد لا يكون حظك من هذا الدعاء الإجابة ، وإنما يكون حظك فيه العبادة ، ولكى يبين لنا الحق بعض التكليفات الإلهية للبشر فهو يأتى بهذه الآية التى يبيّن بها ما يحل لنا فى رمضان .

يقول الحق :

﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ
لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ
أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ
وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ
ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ
إِلَى ٱلَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَـٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَـٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَـٰجِدِ ۗ
تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ
لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾ ﴾

بعد أن أورد لنا الحق آداب الدعاء ومزجها وأدخلها فى الصوم ، يشرح لنا سبحانه آداب التعامل بين الزوجين فى أثناء الصيام ، ويأتى هذا التداخل والامتزاج بين الموضوعات المختلفة فى القرآن لنفهم منه أن الدين وحدة متكاتفة تخاطب كل الملكات الإنسانية ، ولا يريد سبحانه أن تظهر أو تطغى ملكة على ملكة أبدا .

يقول الحق : « أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم » وساعة تسمع « أحل لكم » فكأن ما يأتى بالتحليل كان محرماً من قبل . والذى أحله الله فى هذا القول كان المحرم عينه فى الصيام ، لأن الصيام إمساك بالنهار عن شهوة البطن وشهوة الفرج ، فكأنه قبل أن تنزل هذه الآية كان الرفث إلى النساء فى ليل الصيام حراماً ، فقد كان الصيام فى بدايته إمساكا عن الطعام من قبل الفجر إلى لحظة الغروب ، ولا اقتراب بين الزوجين فى الليل أو النهار . فكان الرفث فى ليلة الصيام محرماً . وكان يحرم

عليهم الطعام والشراب بعد صلاة العشاء وبعد النوم حتى يفطروا .

وجاء رجل وقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ذهبت فلم أجد أهلى قد أعدوا لى طعاما ، فنمت ، فاستيقظت يا رسول الله فعلمت أنى لا أقدر أن آكل ولذلك فأنا أعانى من التعب ، فأحل الله مسألتين : المسألة الأولى هى : الرفث إلى النساء فى الليل ، والمسألة الثانية قوله الحق : « وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر » أى كلوا واشربوا إلى الفجر حتى ولو حصل منكم نوم ، وهذه رخصة جديدة لكل المسلمين مثلها مثل الرخصة الأولى التى جاءت للمسافر أو المريض ، كانت الرخصة الأولى بخصوص مشقة الصوم على المسافر أو المريض ، أما الرخصة الجديدة فهى عامة لكل مسلم وهى تعميق لمفهوم الحكم .

وقد ترك الحق هذا الترخيص مؤجلا بعض الشىء لكى يدرك كل مسلم مدى التخفيف ، لأنه قد سبق له أن تعرض إلى زلة المخالفة ، ورفعها الله عنه ، وانظر للآية القرآنية وهى تقول : « هن لباس لكم وأنتم لباس لهن علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم » .

كلمة « تختانون أنفسكم » هذه تعلمنا أن الإنسان لم يقو على الصوم كل الوقت عن شهوة الفرج ، فعندما تركك تختان نفسك ، ثم أنزل لك الترخيص ، هنا تشعر بفضل الله عليك .

إذن فبعض الرخص التى يرخص الله لعباده فى التكاليف : رخصة تأتى مع التشريع ، ورخصة تخفيفية تأتى بعد أن يجىء التشريع ، لينبه الحق أنه لو لم يفعل ذلك لتعرضتم للخيانة والحرج « علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم » وانظر الشجاعة فى أن عمر رضى الله عنه ، يذهب إلى النبى ويقول له : أنا يا رسول الله ذهبت كما يذهب الشاب ، والذى جاع أيضا يقول للرسول عليه الصلاة والسلام:إنه جاع ، وجاء التشريع ليناسب كل المواقف ، فنمسك نهاراً عن شهوتى البطن والفرج ، وليلاً أحل الله لنا شهوتى البطن والفرج ، وهذا التخفيف إنما جاء بعد وقوع الاختيان ليدلنا على رحمة الله فى أنه قدر ظرف الإنسان ، « أحل لكم ليلة

الصيام الرفث إلى نسائكم » ، و« الرفث » هو الاستمتاع بالمرأة ، سواء كان مقدمات أو جماعًا . . « هن لباس لكم وأنتم لباس لهن » .

والحق سبحانه وتعالى يريد أن يعطينا عملية التحام الرجل والمرأة بكلمة الله ، و« اللباس » هو الذى يوضع على الجسم للستر ، فكأن المرأة لباس للرجل والرجل لباس للمرأة واللباس أول مدلولاته ستر العورة . فكأن الرجل لباس للمرأة أى يستر عورتها ، والمرأة تستر عورته ، فكأنها عملية تبادلية ، فهذا يحدث فى الواقع فهما يلتفان فى ثوب واحد ، ولذلك يقول : « باشروهن » أى هات البشرة على البشرة .

إذن فالحق سبحانه وتعالى يريد أن يعلمنا أن المرأة لباس ساتر للرجل ، والرجل لباس ساتر للمرأة ، ويريد الحق سبحانه وتعالى أن يظل هذا اللباس ستراً بحيث لا يفضح شيئا من الزوجين عند الآخرين . ولذلك فالنبى عليه الصلاة والسلام يحذرنا أن يحدث بين الرجل وأهله شيء بالليل وبعد ذلك تقول به المرأة نهاراً ، أو يقول به الرجل ، فهذا الشيء محكوم بقضية الستر المتبادل .

« هن لباس لكم وأنتم لباس لهن » . ومادام هن لباس لكم وأنتم لباس لهن ، فيكون من رحمة التشريع بالإنسان وقد ضَمَّ الرجلَ والمرأة لباس واحد وبعد ذلك نطلب منهما أن يمتنعا عن التواصل .

إذن فقوله : « تختانون أنفسكم » كان مسألة حتمية طبيعية ، ولذلك قال الحق بعدها : « فتاب عليكم » ومعنى « تاب عليكم » هو إخبار من الله بأنه تاب ، وحين يخبر الله بأنه تاب ، أى شرع لهم التوبة ، والتوبة كما نعرف تأتى على ثلاث مراحل : يشرع الله التوبة أولا ، ثم تتوب أنت ثانيا ، ثم يقبل الله التوبة ثالثاً ، « وعفا عنكم » لأنه مادام قد جعل هذه العملية لحكمة إبراز سمو التشريع فى التخفيف ، فيكون القصد أن تقع هنا وأن يكون العفو منه ـ سبحانه ـ .

ويقول الحق : « فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم » فلم يشأ أن يترك المباشرة على عنانها فقال : أنت فى المباشرة لابد أن تتذكر ما كتبه الله ، وما كتبه الله

هو الإعفاف بهذا اللقاء والإنجاب ، فالمرأة تقصد إعفاف الرجل حتى لا تمتد عينه إلى امرأة أخرى ، وهو يقصد أيضاً بهذه العملية أن يعفها حتى لا تنظر إلى غيره ، والله يريد الإعفاف فى تلك المسألة لينشأ الطفل من هذا اللقاء على أرض صلبة من الطهر والنقاء .

وحتى لا يتشكك الرجل فى بضع منه هم أبناؤه ، والحق سبحانه يريد طهارة الإنسان ، فكل نسل يجب أن يكون محسوباً على من استمتع ، وبعد الاستمتاع ، عليه أن يتحمل التبعة ، فلا يصح لمسلم أن يستمتع ويتحمل سواه تبعة ذلك ، فالمسلم يأخذ كل أمر بحقه . « فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم » أى ما كتب الله من أن الزواج للإعفاف والإنجاب . وفى ذلك طهارة لكل أفراد المجتمع . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم :

« وفى بضع أحدكم صدقة . قالوا يا رسول الله : أيأتى أحدنا شهوته ويكون له أجر ؟ قال : أرأيتم لو وضعها فى حرام أكان عليه فيها وزر ؟ فكذلك إذا وضعها فى الحلال كان له أجر »[1].

ويتابع الحق : « وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود » أى إلى أن يتضح لكم الفجر الصادق . وكان هناك على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أذانان للفجر ، كان بلال يؤذن بليل ، أى ومازال الليل موجوداً ، وكان ابن أم مكتوم يؤذن فى اللحظة الأولى من الفجر ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فإن سمعتم أذان ابن أم مكتوم فأمسكوا » . لكن أحد الصحابة وهو عدى بن حاتم قال : أنا جعلت بجوارى خيطاً أبيض وخيطاً أسود ، وأظل آكل حتى أتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود . فقال له : إنك لعريض القفا (أى قليل الفطنة) فالمراد هنا بياض النهار وسواد الليل .

ويتابع الحق : « ثم أتموا الصيام إلى الليل ولا تباشروهن وأنتم عاكفون فى المساجد » . لقد كانوا يفهمون أن المباشرة فى الليل حسب ما شرع الله لا تفسد

---

(١) رواه مسلم وأبو داود ، وأحمد .

الصوم . ولكن كان لابد من وضع آداب للسلوك داخل المسجد أو لآداب سنة الاعتكاف التى سنها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى العشر الأواخر من رمضان . لهذا أوضح الحق أن حلال المباشرة بين الرجل وزوجته هو لغير المعتكف وفى غير ليل رمضان . أما المعتكف فى المسجد فذلك الأمر لا يحل له ، ومعنى الاعتكاف هو أن تحصر حركتك فى زمن ما على وجودك فى مكان ما ، ولذلك يقولون : « فلان معتكف هذه الأيام » أى حبس حركته فى زمن ما فى مكان ما ، وليس معنى ذلك أن الاعتكاف مقصور على العشر الأواخر من رمضان فقط ، ولكن للمسلم أن يعتكف فى بيت الله فى أى وقت .

واختلف العلماء فى الاعتكاف ، بعضهم اشترط أن يكون المرء صائماً حين يعتكف ، واشترطوا أيضا أن يكون الاعتكاف لمدة معينة ، وأن يكون بالمسجد ، وقالوا : إن أردت الاعتكاف ، فاحصر حركتك فى مكان هو بيت الله .

وكثير من العلماء يقولون : إنك إذا دخلت المسجد تأخذ ثواب الاعتكاف مادمت قد نويت سنة الاعتكاف ؛ بشرط ألا تتكلم فى أى أمر من أمور الدنيا ؛ لأنك جئت من حركتك المطلقة فى الأرض إلى بيت الله فى تلك اللحظة ، فاجعل لحظاتك لله . ولذلك حينما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلاً ينشد ضالَّته فى المسجد ـ أى شيئا قد ضاع منه ـ فقال له : « لا ردها الله عليك فإن المساجد لم تبن لهذا »[1] .

لماذا ؟ لأن المسجد مكان للعبادة ، ولذلك أقول لمن يحدثنى فى المسجد بأى شىء يتعلق بحركة الحياة : « أبشر بأنها لن تنفع » ؛ لأنك دخلت المسجد للعبادة فقط ، إن لحظة دخولك المسجد هى لحظة جئت فيها لتقترب من ربك وتناجيه ، وتعيش فى حضن عنايته ، فلماذا تأتى بالدنيا معك ؟ وليكن لنا فى أحد الصحابة قدوة حسنة ؛ كان يقول : كنا نخلع أمر الدنيا مع نعالنا . وزاد صحابى آخر فقال له : وزد يا أخى أننا نترك أقدارنا مع نعالنا .

انظر إلى الدقة ، إن الصحابى المتبع لا يخلع الدنيا مع نعله فقط على باب المسجد ، ولكن يخلع أيضاً قدره فى الدنيا . فيمكن أن تأخذك الدنيا ساعات اليوم

---

(١) رواه أحمد ومسلم وأبوداود والنسائى وابن ماجه .

الكثيرة ، والمسجد لن يأخذ منك إلا الوقت القليل ، فضع قدرك مع نعلك خارج المسجد ، وادخل بلا قدر إلا قدر إيمانك بالله . واجلس فى المكان الذى تجده خالياً ، فلا تتخط الرقاب لتصل إلى مكان معين فى المسجد . فأنت تدخل بعبودية لله وقد يأتى مجلسك بجانب من يخدمك ، والصغير يقعد بجانب الكبير ، ولا تلحظ لك قدراً إلا قدرك عند الله .

إن النبى صلى الله عليه وسلم كان يجلس حيث ينتهى به المجلس . أى عندما يجد مكاناً له ، وهذا خلاف زماننا حيث يحجز إنسان مكاناً لإنسان آخر بالسجادة ، وقد يدخل إنسان ليتخطى الرقاب ، ويجلس فى الصف الأول وهو لا يعلم أن الله قد صف الصفوف قبل أن يأتى هو إلى المسجد . ومادمنا سنترك أقدارنا فلا تقل أين سأجلس وبجوار من ؟ بل اجلس حيث ينتهى بك المجلس ولا تتخط الرقاب . وانو الاعتكاف ولا تتكلم فى أى أمر من أمور الدنيا حتى لا تدخل فى دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم بألا يبارك الله لك فى الضالة التى تنشدها وتطلبها .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعتكف فى المسجد فى العشر الأواخر من رمضان ، فهل معنى ذلك أن الاعتكاف لا يصح إلا فى المساجد ؟ لا ؛ إن الاعتكاف يصح فى أى مكان ، ولكن الاعتكاف بالمسجد هو الاعتكاف الكامل ؛ لأنك تأخذ فيه بالزمان والمكان معا .

« ولا تباشروهن وأنتم عاكفون فى المساجد تلك حدود الله فلا تقربوها » ومعنى « الحد » هو الفاصل المانع من اختلاط شىء بشىء ، وحدود الله هى محارمه . والرسول صلى الله عليه وسلم يقول :

« . . ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام كراع يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه ، ألا إن لكل ملك حمى ، ألا وإن حمى الله تعالى فى أرضه محارمه » (١) .

إذن فالمحارم هى التى يضع الله لها حداً فلا نتعداه . ولنا أن نلحظ أنه ساعة ينهى

---

(١) هذا الحديث أخرجه الامام البخارى ومسلم وأبوداود والترمذى والنسائى وابن ماجه عن النعمان بن بشير وهو هنا جزء من الحديث .

الله عن شيء فهو يقول : « فلا تقربوها » وساعة يأمر بأمر يقول سبحانه : « فلا تعتدوها » . وفى ذلك رحمة من الله بك أيّها المكلف .

فلا تجعل امرأتك تأتيك وأنت فى معتكفك ؛ فقد تكون جميلة ، صحيح أنك لا تنوى أن تفعل أى شيء ، لكن عليك ألا تقرب أسباب النواهى ، ومثال ذلك تحريم الخمر لقد أمر الحق باجتنابها أى ألا تقرب حتى مكان الخمر ؛ لأن الاقتراب قد يُزين لك أمر احتسائها ، إذن فلكى تمنع نفسك من تلك المحرمات فعليك ألا تقرب النواهى . وفى الأوامر عليك ألا تتعداها .

ويذيل الحق الآية بقوله : « كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون » . والآيات هى العجائب ، وكل آية هى شيء عجيب لافت ، لذلك نقول : هذه آية فى الحسن ، وتلك آية فى الجمال ، وقد تُطلق الآية أيضا على السمة ؛ لأن السمة أو العلامة هى التى تلفتنا إلى الشيء ، فيكون ما جاء بالآية داخلا فى معنى قوله الحق : « تلك حدود الله فلا تقربوها كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون » .

ولقد أوضحت هذه الآية والآيات السابقة عليها ، تشريعات الصيام والاستثناء من التشريع رفعا للحظر ودفعا للمشقة بعد أن تقع ، وكل ذلك ليستوفى التشريع كل مطلوبات الله من المُشَرَّع له . وحين يأخذ كل إنسان ذلك البيان الوافى من ربه ويسيطر به على حركة حياته فى ضوء منهج الله يكون قد اتقى . والتقوى - كما نعلم - ليست للنار فقط ، ولكنها اتقاء لكل مشاكل الحياة ؛ فالذى يجعل الحياة مليئة بالمشاكل هو أننا نأخذ بالقوانين التى نسنها لأنفسنا ونعمل بها ، ولكن إذا أخذنا تقنين الله لنا فمعنى ذلك أننا نتقى المشاكل . ولذلك يقول الحق :

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾

(من الآية ١٢٤ سورة طه)

أى أن حياته تمتلىء بالهموم والمشاكل ، لأنه يخالف منهج الله . وإذا لم تنشأ المشاكل مع المخالفات لقال الناس : خالفنا منهج الله وفلحنا ، لذلك كان لابد أن توجد المشاكل لتنبهنا أن منهج الله يجب أن يسيطر . وحين يتمسك الناس بمنهج

الله ، لن تأتى لهم المشاكل بإذن الله .

وانظر إلى دقة الأداء القرآنى فى ترتيب الأحكام بعضها على بعض ، فالإنسان المخلوق لله فى الأرض المسخرة له بكل ما فيها ، له حياة يجب أن يحافظ عليها . وتبقى الحياة ببقاء الرزق فى الاقتيات من مأكل ومشرب ، وكذلك يبقى النوع الإنسانى بالتزاوج . وتكلم الله فى رزق الاقتيات ، فجعله للناس جميعا عندما قال :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا ﴾

(من الآية ١٦٨ سورة البقرة)

وتكلم سبحانه مخاطباً المؤمنين فى شأن هذا الرزق ، فقال :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ﴾

(من الآية ١٧٢ سورة البقرة)

وبعد ذلك شاء الله أن يديم على المؤمنين به قضية التكليف فحرَّم عليهم الطعام والشراب والنكاح فى أيام رمضان ، وهى حلال فى غير رمضان ، وأحلها الله فى ليل رمضان . وإذا كان قد أرشد أن كل حركة فى الحياة هدفها بقاء الحياة ، وإذا كان بناء الحياة يتوقف على الطعام ؛ وهو أمر ضرورى لكل إنسان ، وإذا كانت الحياة تمتد وتتوالى باستبقاء النوع ، فيبلغ الرجل وينضج ويصير أهلاً للإخصاب ، وتبلغ المرأة وتنضج وتصير أهلاً للحمل ، فإذا كانت كل المسائل السابقة لازمة للجميع ، فلابد من تشريع ينظم كل ذلك .

إن التشريع يسمح لك أن تأكل مما تملك ، أو تأكل مما لا مالك له ، كنبات الأرض غير المملوكة لأحد ، إلا أنك قبل أن تأكل لابد أن تنظر فى الطعام لتعرف هل هو مما أحل الله أم لا ؟ والتشريع لا يسمح لك أن تأكل من نبات الأرض المملوك لغيرك ، ويحرم عليك أن تصطاد حيوانات مملوكة لغيرك ، فالتشريع يحترم الجهد

الذى تحرك به مالك الأرض ليزرع النبات أو ليُربى الحيوان ، فلا تقل : إن ذلك النبات فى الأرض وأنا آكل منه ، أو أن ذلك حيوان موجود أمامى وأنا اصطدته .

إن الحق يضع التشريع لينظم الحركة فى المال المملوك للغير بعد أن نظم الحركة فى المال غير المملوك والطعام غير المملوك ، فإذا سبقك إلى المال غير المملوك أو الطعام غير المملوك إنسان ، أو تحرك إنسان بحركة فى الوجود فاستنبط مالاً صارت هناك قضية أخرى لا تتعلق بذات المأكول ، ولكن بملكية المأكول ، فقد بيّن الله سبحانه : أن كل عمليات اقتياتك فى الحياة عملية لا يمكن أن تستقل بها أنت ، فلابد من اختلاط حركة الآخرين معك ، فأنت لا تأكل إلا مما يكون فى أيديهم ، وهم لا يأكلون إلا مما يكون فى يدك .

فالفلاح مثلاً يبذر البذر ، ولكنّه يحتاج إلى الصانع الذى يصنع له الفأس ، ويصنع له المحراث ، ويصنع له الساقية ، والذى يصنع ذلك يحتاج إلى من يعلمه ، ويحضر له المواد الخام ، إذن فلو سلسلت الأشياء التى توصلك إلى الطعام لوجدت حركات الكون كلها تخدم هذه المسألة . وهكذا نجد أن الآكل من المال المتداول أمر شائع بين البشر ، ويريد الله أن يضبطه بنظام فقال سبحانه :

﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾ ﴾

ومادامت أموالى فلماذا لا آكلها ؟ إن الأمر هنا للجميع ، والأموال مضافة للجميع ، فالمال ساعة يكون ملكا لى ، فهو فى الوقت نفسه يكون مالاً ينتفع به الغير .

إذن فهو أمر شائع عند الجميع ، لكن ما الذى يحكم حركة تداوله ؟ إن الذى يحكم حركة تداوله هو الحق الثابت الذى لا يتغير ، ولا يحكمه الباطل . وما معنى الباطل ، والحق ؟ إن الباطل هو الزائل ، وهو الذى لا يدوم ، وهو الذاهب . والحق هو الثابت الذى لا يتغير فلا تأكل بالباطل ، أى لا تأكل مما يملكه غيرك إلا بحق أثبته الله بحكم : فلا تسرق ، ولا تغتصب ، ولا تخطف ، ولا ترتش ، ولا تكن خائناً فى الأمانة التى أنت موكل بها ، فكل ذلك إن حدث تكن قد أكلت المال بالباطل .

وحين تأكل بالباطل فلن تستطيع أنت شخصياً أن تعفى غيرك مما أبحته لنفسك ، وسيأكل غيرك بالباطل أيضاً . ومادمت تأكل بالباطل وغيرك يأكل بالباطل ، هنا يصير الناس جميعا نهباً للناس جميعا . لكن حين يُحكَم الإنسان بقضية الحق فأنت لا تأخذ إلا بالحق ، ويجب على الغير ألا يعطيك إلا بالحق ، وبذلك تخضع حركة الحياة كلها لقانون ينظم الحق الثابت الذى لا يتغير ، لماذا ؟ لأن الباطل قد يكون له علو ، لكن ليس له استقرار ، فالحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة الرعد)

وساعة ترى مطراً ينزل فى مسيلٍ ووادٍ ، فأنت تجد هذا المطر قد كنس كل القش والقاذورات وجرفها فطفت فوق الماء ولها رغوة ، وكذلك فأنت عندما تدخل الحديد فى النار تجده يسيل ويخرج منه الخبث ، ويطفو الخبث فوق السطح ، وهكذا نجد أن طفو الشىء وعلوه على السطح لا يعنى أنه حق ، إنه سبحانه يعطينا من الأمور المُحسة ما نستطيع أن نميز من خلاله الأمور المعنوية ، وهكذا ترى أن الباطل قد يطفو ويعلو

إلا انه لا يدوم ، بل ينتهى ، والمثل العامى يقول : « يفور ويغور » .

إن الله يريد أن تكون حركة حياتنا نظيفة شريفة ، حركة كريمة فلا يدخل فى بطنك إلا ما عرقت من أجله ، ويأخذ كل إنسان حقه . وقبل أن يفكر الإنسان فى أن يأكل عليه أن يتحرك ليأكل ، لا أن ينتظر ثمرة حركة الآخرين ، لماذا ؟ لأن هذا الكسل يشيع الفوضى فى الحياة . وحين نرى إنساناً لا يعمل ويعيش فى راحة ويأكل من عمل غيره فإن هذا الإنسان يصبح مثلاً يحتذى به الآخرون فيقنع الناس جميعاً بالسكون عن الحركة ويعيشون عالة على الآخرين . ويترتب على ذلك توقف حركة الحياة ، وهذا باطل زائل ، وبه تنتهى ثمار حركة المتحرك ، وهنا يجوع الكل .

إن الحق يريد للإنسان أن يتحرك ليشبع حاجته من طعام وشراب ومأوى ، وبذلك تستمر دورة الحياة . إنه سبحانه يريد أن يضمن لنا شرف الحركة فى الحياة بمعنى أن تكون لك حركة فى كل شىء تنتفع به ؛ لأن حركتك لن يقتصر نفعها عليك ، ولكنها سلسلة متدافعة من الحركات المختلفة ، وحين تشيع أنت شرف الحركة فالكل سيتحرك نحو هذا الشرف ، لكن الباطل يتحقق بعكس ذلك ، فأنت حين تأكل من حركة الآخرين تشيع الفوضى فى الكون .

وعلى هذا فالحركة الحلال لا يكفى فيها أن تتحرك فقط ، ولكن يجب أن تنظر إلى شرف الحركة بألا تكون فى الباطل ، لأن الذى يسرق إنما يتحرك فى سرقته ، ولكن حركته فى غير شرف وهى حركة حرام . إذن كل مسروق فى الوجود نتيجة حركة باطلة ، وكذلك الغصب ، والتدليس ، والغش ، وعدم الأمانة فى العمل ، والخيانة فى الوديعة ، وإنكار الأمانة ، كل ذلك باطل ، وكل حركة فى غير ما شرع الله باطل ، حتى المعونة على حركة فى غير ما شرع الله ، كل ذلك باطل .

ويقول لنا الحق سبحانه : «ولاتأكلوا أموالكم بينكم بالباطل » أى إياكم أن تأكلوها بالباطل ثم تدلوا بها إلى الحكام ليبرروا لكم أن هذا الباطل هو حق لكم . فهناك أناس كثيرون يرون فى فعل الحاكم مبرراً لأن يفعلوا مثله ، وهذا أمر خاطىء ؛ لأن كل إنسان مسئول عن حركته . .

لا تقل إن الحاكم قد شرع أعمالاً وتُلقى عليه تبعة أفعالك ؛ ومثال ذلك تلك الأشياء التى نقول عليها إنها فنون جميلة من رقص وغناء وخلاعة ، هل إباحة الحكومات لها وعدم منعها لها هل ذلك يجعلها حلالاً ؟ لا ؛ لأن هناك فرقاً بين الديانة المدنية والديانة الربانية . ولذلك تجد أن الفساد إنما ينشأ فى الحياة من مثل هذا السلوك .

إن الذين يشتغلون بعملٍ لا يقره الله فهم يأكلون أموالهم بالباطل ، ويُدخلون فى بطون أولادهم الأبرياء مالاً باطلاً ، وعلى الذين يأكلون من مثل هذه الأشياء أن يتنبهوا جيداً إلى أن الذى يعولهم ، إنما أدخل عليهم أشياء من هذا الحرام والباطل ، وعليهم أن يذكروا ربهم وأن يقولوا : لا لن نأكل من هذا المصدر ؛ لأنه مصدر حرام وباطل ، ونحن قد خلقنا الله وهو سبحانه متكفل برزقنا .

وأنا أسمع كثيراً ممن يقولون : إن هذه الأعمال الباطلة أصبحت مسائل حياة ، ترتبت الحياة عليها ولم نعد نستطيع الاستغناء عنها . وأقول لهم : لا ، إن عليكم أن ترتبوا حياتكم من جديد على عملٍ حلال ، وإذا أصر واحد على أن يعمل عملاً غير حلال ليعول من هو تحته ، فعلى المُعال أن يقف منه موقفا يرده ، ويصر على ألا يأكل من باطل .

وتصوروا ماذا يحدث عندما يرفض ابن أن يأكل من عمل أمه التى ترقص مثلا أو تغنى ، أو عمل والده إذا علم أنه يعمل بالباطل ؟ المسألة ستكون قاسية على الأب أو الأم نفسيهما .

إن الذين يقولون : إن هذا رزقنا ولا رزق لنا سواه ، أقول لهم : إن الله سبحانه وتعالى يرزق من يشاء بغير حساب ، ولا يظن إنسان أن عمله هو الذى سيرزقه ، إنما يرزقه الله بسبب هذا العمل : فإن انتقل من عمل باطل إلى عمل آخر حلال فلن يضن الله عليه بعمل حق ورزق حلال ليقتات منه .

وقد عالج الحق سبحانه وتعالى هذه القضية حينما أراد أن يحرم بيت الله فى مكة

على المشركين ، لقد كان هناك أناس يعيشون على ما يأتى به المشركون فى موسم الحج ، وكان أهل مكة يبيعون فى هذا الموسم الاقتصادى كل شىء للمشركين الذين يأتون للبيت ، وحين يُحَرِّم الله على المشرك أن يذهب إلى البيت الحرام فماذا يكون موقف هؤلاء ؟

إن أول ما يخطر على البال هو الظن القائل : « من أين يعيشون » ؟ ولنتأمل القضية التى يريد الله أن ترسخ فى نفس كل مؤمن . قال الحق :

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا ﴾

(من الآية ٢٨ من سورة التوبة)

ثم يأتى للقضية التى تشغل بال الناس فيقول :

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ﴾

(من الآية ٢٨ سورة التوبة)

وهكذا نرى أن هذه القضية لم تخف على الله فلا يقولن أحدٌ إن العمل الباطل الحرام هو مصدر رزقى ، ولن أستطيع العيش لو تركته سواء كان تلحيناً أو عزفًا أو تأليفًا للأغانى الخليعة ، أو الرقص ، أو نحت تماثيل . نقول له : لا ، لا تجعل هذا مصدراً لرزقك والله يقول لك : « وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله » . وأنت عندما تتقى الله ، فهو سبحانه يجعل لك مخرجا . « ومن يتق الله يجعل له مخرجا . ويرزقه من حيث لا يحتسب » ، وعليك أن تترك كل عمل فيه معصية لله وانظر إلى يد الله الممدوة لك بخيره .

إذن فقول الله : « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل » تنبيه للناس ألا يُدخلوا فى بطونهم وبطون من يعُولون إلا مالاً من حق ، ومالاً بحركة شريفة ؛ نظيفة ، وليكن سند المؤمن دائماً قول الحق :

﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾

(من الآية ٢، من ٣ سورة الطلاق)

ولنا أن نعرف أن من أكل بباطل جاع بحق ، أى أن الله يبتليه بمرض يجعله لا يأكل من الحلال الطيب ، فتجد إنسانا يمتلك أموالاً ويستطيع أن يأكل من كل ما فى الكون من مطعم ومشرب ، ولكن الأطباء يحرمون عليه الأكل من أطعمة متعددة لأن أكلها وبال وخطر على صحته ، وتكون النعمة أمامه وملك يديه ، ولكنه لا يستطيع أن يأكل منها بحق . وفى الوقت نفسه يتمتع بالنعمة أولاده وخدمه وحاشيته وكل من يعولهم ، مثل هذا الإنسان نقول له : لابد أنك أخذت شيئا بالباطل فحرمك الله من الحق .

ومن هنا نقول : « من أكل بباطل جاع بحق » . وكذلك نقول : « من استغل وسيلة فى باطل أراه الله قبحها بحق » ، فالذى ظلم الناس بقوته وبعضلاته المفتولة لابد أن يأتى عليه يوم يصبح ضعيفا .

والمرأة التى تهز وسطها برشاقة لابد أن يأتى عليها يوم يتيبس وسطها فلا تصبح قادرة على الحركة ، والتى تخايل الناس بجمال عيونها فى اليمين والشمال لابد أن يأتيها يوم وتعمى فلا ترى أحدا ، وينفر الناس من دمامتها .

إن كل من أكل بباطل سيجوع بحق ، وكل من استغل وسيلة بباطل أراه الله قبحها بحق ، واكتب قائمة أمامك لمن تعرفهم ، واستعرض حياة كل من استغل شيئاً مما خلقه الله فى إشاعة انحراف ما أو جعله وسيلة لباطل لابد أن يُريه الله باطلاً فيه .

وأنا أريد الناس أن يعملوا قائمة لكل المنحرفين عن منهج الله ، ويتأملوا مسيرة حياتهم ، وكل منا يعرف جيرانه وزملاءه من أين يأكلون ؟ ومن أين يكتسبون ؟ ليتأمل حياتهم ويعرف أعمال الحلال والحرام ويجعل حياتهم عبرة له ولأولاده ، كيف كانوا ؟ وإلى أى شىء أصبحوا ؟ ثم ينظر خواتيم هؤلاء كيف وصلت .

ومن حبنا لهؤلاء الناس نقول لهم : تداركوا أمر أنفسكم فلن تخدعوا الله فى أنكم تجمعون المال الحرام ، وبعد ذلك تخرجون منه الصدقات ، إن الله لن يقبل منكم عملكم هذا ؛ لأن الله طيب لا يقبل إلا الطيب .

ونحن نسمع عن كثير من المنحرفين فى الحياة يذهبون للحج ، ويقيمون مساجد ويتصدقون ، وكل ذلك بأموال مصدرها حرام ، ولهؤلاء نقول : إن الله غنى عن عبادتكم ، وعن صدقاتكم الحرام ، وننصحهم بأن الله لا ينتظر منكم بناء بيوت له من حرام أو التصدق على عباده من مال مكتسب بغير حلال ، لكنه سبحانه يريد منكم استقامة على المنهج .

وحين نتأمل الآية نجد فيها عجباً ، يقول الله عز وجل : « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام » لقد ذكر الحق الحكام فى الآية ؛ لأن الحاكم هو الذى يقنن ويعطى مشروعية للمال ولو كان باطلاً ، وقوله سبحانه : « تدلوا » مأخوذة من « أدلى » ، ونحن ندلى الدلو لرفع الماء من البئر و« دَلاَه » : أى أخرج الدلو ، أما « أدلى » : فمعناها « أنزل الدلو » . ولذلك فى قصة الشيطان الذى يغوى الإنسان قال الحق :

﴿ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا ﴾

(من الآية ٢٢ سورة الأعراف)

« وتدلوا بها إلى الحكام » أى ترشوا الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالباطل ، ومن العجيب أن هذا النص بعينه هو نص الرشوة . والرشوة مأخوذة من الرِّشاء ، والرِّشاء هو الحبل الذى يعلق فيه الدَّلو ، فأدلى ودَلاَ فى الرشوة . ولماذا يدلون بها إلى الحكام ؟ إنهم يفعلون ذلك حتى يعطيهم الحكام التشريع التقنينى لأكل أموال الناس بالباطل ، وذلك عندما نكون محكومين بقوانين البشر ، لكن حينما نكون محكومين بقوانين الله فالحاكم لا يبيح مثل هذا الفعل .

ولذلك وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا المبدأ فقال : « إنما أنا بشر وإنه يأتينى الخصم فلعل بعضكم أن يكون أبلغ من بعض ، فأحب أنه صادق فأقضى له

بذلك ، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هى قطعة من النار فليأخذها أو ليتركها »[١] . إن الذى يقول ذلك هو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو المعصوم ؛ إنه يحذر من أن يحاول أحد أن يبالغ فى قوة الحجة ليأخذ بها حقاً ليس له .

إذن فحين يُقنن الفساد فذلك نتيجة أن الحاكم يقر ذلك ، ويأخذ الإنسان حكم الحاكم كأمر نهائى ، مثال ذلك : بعض من الحكام لم يحرموا الربا ، ويتعامل به الناس بدعوى أن الحكومات تحلله ، فلا حرج عليهم . ومثل هذا الفهم غير صحيح ؛ لأن الحكومات لا يصح أن تحلل ما حرمه الله ، وإن حللت ذلك فعلى المؤمن أن يحتاط وأن يعرف أنه والحكام محكومون بقانون إلهى ، وإن لم تقنن الحكومات الحلال من أجل سلطتها الزمنية فعلى المؤمن ألا يخرج عن تعاليم دينه .

وإذا نظرنا إلى أى فساد فى الكون ، فى أى مظهر من مظاهر الفساد فسنجد أن سببه هو أكل المال بالباطل ، ولذلك لم يترك الحق سبحانه وتعالى تلك المسائل غائبة ، وإنما جعلها من الأشياء المشاهدة . وأنت إن أردت أن تعرف خلق أى عصر ، واستقامته الدينية وأمانته فى تصريف الحركة فانظر إلى المعمار فى أى عصر من العصور ، انظر إلى المبانى ومن خلالها تستطيع أن تُقَيم أخلاق العصر . إنك إن نظرت إلى عملية البناء الآن تجد فيها استغلال المال ، وعدم أمانة المنفذ ، وخيانة العامل ، وكل هذه الجوانب تراها فى المعمار . لننظر مثلا إلى مجمع التحرير ولنسترجع تاريخ بنائه ، ولنقرنه بمبنى هيئة البريد أو دار القضاء العالى وما بنى فى عهدهما .

ولننظر إلى المبانى والإنشاءات التى نسمع عنها وتنهار فوق سكانها ولنقارنها بمبنى هيئة البريد أو دار القضاء العالى ، سنجد أن المبانى القديمة قامت على الذمة والأمانة ، أما المبانى التى تنهار على سكانها فى زماننا أو تعانى من تلف وصلات الصرف الصحى فيها ، تلك المبانى قامت على غش الممول الشره الطامع ، والمهندس المدلس الذى صمم أو أشرف على البناء أو الذى تسلم المبنى وأقر صلاحيته ، ومروراً بالعامل الخائن ، وتكون النتيجة ضحايا أبرياء لا ذنب لهم ، ينهار عليهم المبنى

---

(١) رواه البخارى .

ويخرجون جثثا من تحت الأنقاض ، إن كل ذلك سببه أكل المال بالباطل . ولقد نظر الشاعر أحمد شوقى فى هذه المسألة ، وجعل الأخلاق والدين من المبادىء فقال :

وليس بعامر بنيان قوم إذا أخلاقهم كانت خرابا

وأنا أقترح على الدولة أن تعد سجلا محفوظا لكل عمارة يتم بناؤها ، ويُحفظ فى هذا السجل اسم مموّلها ، والمهندس الذى أشرف على بنائها ، وكذلك أسماء عمال البناء ، وعمال التشطيب ، والأعمال الصحية والكهربائية وكافة العمال الذين شاركوا فى بنائها . ويُحفظ كل ذلك فى ملف خاص بالعمارة ، وعندما يحدث أى شىء يأتون بهؤلاء ، كل فى تخصصه ويحاسبونهم على ما قصروا فيه من عمل ، وإلا فإن أرواح الناس ستذهب سدى ؛ فكل إنسان منا له فرصة فى هذه الحياة وعليه ألا يطغى على نصيب غيره .

وهب أننا نأخذ سلعة « بطابور » حتى لا يتقدم أحد على دور الآخر ، وقد جاء الأول فى « الطابور » من الساعة السابعة صباحاً وأخذ دوره ، وجاء آخر متأخرا بعد أن نام واستراح ثم قضى جميع مصالحه وذهب للجمعية ووجد الصف طويلا ، فنظر حوله إلى شخص يتخطى هذا « الطابور » ؛ وأعطاه مبلغا من المال سهل له قضاء حاجته ، مثل هذا الإنسان تعدى على حقوق كل الواقفين فى « الطابور » .

وقد يقول : أنا أخذت مثلما يأخذون ، نقول له : لا ؛ لقد أخذت زمن غيرك ، ولا يصح أن تأتى آخر الناس وتأخذ حق الشخص الذى وقف فى « الطابور » من السابعة صباحا . إن حقك مرتبط بزمنك ، فلا تعتد على وقت الآخرين الذين هم أضعف منك قدرة أو مالاً .

إن الحق يقول : « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون » . والفريق هو الجماعة المعزولة من جماعة أكثر عدداً ، فإذا ما انفصلت جماعة صغيرة عن أناس بهذه الجماعة تُسمى فريقاً .

والإثم الأصل فيه ـ ولو لم يكن هناك دين ـ أن تفعل ما تُعاب عليه وتُذم ، وكذلك تُعاب عليه وتُذم من ناحية الدين ، وفوق ذلك تعاقب فى الآخرة . وما هو مقياس الحق والباطل ؟ إن المقياس الذى ينجيك من الباطل هو أن تقبل لنفسك ما تقبله للطرف الآخر فى أية صفقة أو معاملة ؛ لأنك لا ترضى لنفسك إلا ما تعلم أن فيه نفعًا لك .

ثم ينتقل الحق سبحانه وتعالى إلى قضية يعالج فيها أمراً واجه الدعوة الإسلامية ، والدعوة الإسلامية إنما جاءت لتخلع المؤمنين بالله من واقع فى الحياة كان كله أو أغلبه باطلاً ، ولكنهم اعتادوه وألفوه أو استفاد أناس من ذلك الباطل ، ذلك أن الباطل لا يستمر إلا إذا كان هناك من يستفيدون منه . وجاء الإسلام ليخلص الناس من هذه الأشياء الباطلة . فالحق لم يشأ أن يعلمنا أن كل أحوال الناس غارقة فى الشرور ، بل كانت هناك أمور أقرها الإسلام كما هى ، فالإسلام لم يغير لمجرد التغيير ، ولكنه واجه الأمور الضارة بالحياة التى لا يستفيد منها إلا أهل الباطل .

مثال ذلك كان العرف السائد فى الدية أنها مائة من الإبل يدفعها أهل القاتل ، وقد أبقاها الإسلام كما هى . وحينما استقبل المسلمون الإيمان بالله ، فهم قد استقبلوا أحكامه وأرادوا أن يبنوا حياتهم على نظام إسلامى جديد طاهر ، حتى الشىء الذى كانوا يعملونه فى الجاهلية كانوا يسألون عن حكمه ؛ لأنهم لا يريدون أن يصنعوه على عادة ما كان يُصنع ، بل على نية القربى إلى الله بالامتثال ، إذن فهم عشقوا التكليف ، وعلموا أن الله لم يكلفهم إلا بالنافع،وعندما تقرأ « يسئلونك » فى القرآن فاعلم أنها من هذا النوع ، مثل ذلك قوله تعالى :

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ﴾

(من الآية ٢١٩ سورة البقرة)

وقوله تعالى :

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى ﴾

(من الآية ٢٢٢ سورة البقرة)

وقوله تعالى :

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ﴾

(من الآية ٢٢٠ سورة البقرة)

وقوله تعالى :

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ﴾

(من الآية ٢١٥ سورة البقرة)

وقوله تعالى :

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ﴾

(من الآية ٨٣ سورة الكهف)

وقوله تعالى :

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾

(من الآية ١ سورة الأنفال)

إذن فكل سؤال معناه أنهم أرادوا أن يبنوا حياتهم على نظام إسلامى ، حتى الشىء الذى لم يغيره الإسلام أرادوا أن يعرفوه ويصنعوه على أنه حكم الإسلام لا على حكم العادة .

والسؤال الذى نحن بصدده يعالج قضية كونية . وعندما يسأل المسلمون عن قضية كونية فذلك دليل على أنهم التفتوا إلى كون الله التفاتا دينياً آخر ، لقد وجدوا الشمس تشرق كل يوم ولا تتغير ، أما القمر الذى يطلع فى الليل فهو الذى يتغير ، إنه يبدأ فى أول الشهر صغيراً ثم يكبر حتى يصبح بدراً ، وبعد ذلك يبدأ فى التناقص حتى يعود إلى ما كان عليه ، لقد لفت نظرهم ما يحدث للقمر ولا يحدث من الشمس ، فسألوا النبى صلى الله عليه وسلم ، أو أن بعضاً من اليهود أرادوا إحراج المسلمين فقالوا لهم : « اسألوا رسولكم عن الهلال كيف يبدأ صغيراً ثم يكبر حتى

يصير بدراً ثم يعود لدورته مرة أخرى حتى يغرب ليلتين لا نراه فيهما » ، وهذا السؤال سجله القرآن فى قوله تعالى :

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾ ﴾

الأهلة جمع هلال ، وسمى هلالاً لأن الإنسان ساعة يراه يهل ، أى يرفع صوته بالتهليل . ويجيب الحق سبحانه وتعالى الجواب الذى يحمل كل التفاصيل عن القمر ، وهو الكوكب الذى خضع لنشاطات العقل حتى يكتشفه ، والعرب القدامى لم يكونوا يعلمون شيئاً عن ذلك القمر ، ولكنهم كانوا يؤرخون به ، وعلمهم به لم يزد على حدود انتفاعهم به . ولم يصلوا إلى الترف العقلى الذى يتأملون به آيات الله فى الكون ، فكل آيات الكون يُنتفع بها ثم ينشط العقل بعد ذلك ، فنعرف السبب ، وقد لا ينشط العقل فتظل الفائدة هى الفائدة .

وأراد الحق سبحانه أن يلفتنا لمبدأ هام ، وهو أن يعلمنا كيف نستفيد من الآيات الكونية مثل القمر ، لا يكفى ظهوره واختفاؤه ، وتغير حجمه ، لأن هذه لن يتسع لها العقل ، بل نستفيد منه كميقات ، ونستخدمه لقياس الزمن . فإذا كنا ونحن نعيش فى القرن العشرين ، لم يعرف العلماء سبباً لظواهر القمر ، فكيف كان حال الذين سألوا عنها منذ أربعة عشر قرناً ؟

قال العلماء المعاصرون فى تفسيراتهم مثلاً : إن الشمس مثل حجم الأرض مليونا

وربع مليون مرة ، والقمر أصغر من الأرض ، وعندما تأتى الأرض بين الشمس والقمر برغم حجم الشمس الهائل فإن الأرض تحجب جزءاً من القمر ، هذا الجزء المحجوب بقدر تدوير القوس المحجوب من الأرض ويصبح هذا الجزء من القمر مظلماً .

إن القمر وجوده ثابت لكن الأرض عندما توجد بينه وبين الشمس فهى التى تحجب عنه ضوء الشمس ، ويكبر جحم نوره كلما تزحزحت الأرض بعيداً عنه . وعندما تنزاح الأرض بعيداً عنه كلية يظهر فى السماء بدراً كاملاً ، ثم تعود الأرض بعد ذلك لتحجب عنه جزءاً من الشمس ، ويزداد ذلك يوماً بعد يوم ، فينقص ضوء الشمس المنعكس عليه تبعاً لذلك ، فيقل تدريجياً حتى تأتى الأرض بينه وبين الشمس فلا يظهر منه شيء .

ونقول نحن : إننا عندما لا نرى القمر لا فى الليل ولا فى النهار برغم أنه موجود فى مكانه ، نقول : إنه مستور فى ظل الأرض ، لذلك لا نراه . وهذه الظاهرة لا تحدث للشمس لأن جرم الشمس كبير جداً . وعندما يحدث فإن الأثر يكون قليلا ، ويسمى بالكسوف .

وعندما التفت العرب للكون قالوا : ما بال الهلال يصبح هكذا ثم يكبر حتى يصير بدراً ، فقال الحق عز وجل : « قل هى مواقيت للناس والحج » إنهم هم يسألون عن الأهلة ودورتها ، فقطع الله عليهم خيط تفكيرهم وأعطاهم الخلاصة والنتيجة ، فقال : « قل هى مواقيت للناس والحج » . إن هذا الأمر هو الذى يستطيع العقل فى ذلك الزمان أن يعرفه ، أما ما وراء ذلك فانتظروا حتى يكشف الزمن عنه ، وجهلكم به لا يقلل من نفعكم .

لقد كانت كل إجابة لأى سؤال فى ذلك الزمان تحتوى على ما يتسع العقل لإدراكه ساعة التشريع ، أما بقية الإجابة فالحق يتركها للزمن . ولا يعطينا إلا ما يفيد التشريع ، مثال ذلك : كانوا قديما يقولون : الأرض كرة وأثبت لنا العلم أنها كذلك ، ورأيناها بالأقمار الصناعية وانتهت القضية .

وعندما سأل العرب عن الأهلة أخبرنا الحق بأنها مواقيت ، والمواقيت جمع ميقات ، والميقات من الوقت ، والوقت هو الزمن ، ونعرف أن كل حدث من الأحداث يحتاج إلى زمن وإلى مكان . إذن فالزمان والمكان مرتبطان بالحدث ، فلا يوجد زمان ولا مكان إلا إذا وجد حدث .

والذى يقول : كيف كان الزمن قبل أن يخلق الله الخلق ؟ . نقول له : الزمن وُجد للحادث وهو المخلوقات والله قديم ، ومادام الله قديما وليس حادثا فلا زمان ولا مكان ، لا تقل متى ولا أين ؛ لأن متى وأين مخلوقة . وكيف نعرف الوقت ؟ نحن نعرف الوقت بأنه مقدار من الزمن ، لمقدار من الحركة ولمقدار من الفعل .

وأين المكان فى هذا التعريف ؟ إن الزمان يتحكم أحياناً فى المكان ، فيكون الزمان هو الأصل ، والمكان طارىء عليه ، ومرة أخرى يكون المكان هو الأصل ، والزمان هو الطارىء عليه ، ومرة ثالثة يتلازم الاثنان الزمان والمكان .

ونحن فى مصر إذا أردنا الحج فإننا نبدأ الإحرام عند رابغ ، ونُسمى رابغ ميقات أهل مصر أى هى المكان الذى لا يتجاوزه من مر عليه إلا وهو محرم .

إذن فالميقات قد أطلق على مكان هو رابغ ، ومن فور وصول الإنسان المصرى إلى رابغ بغية الحج يحرم ، سواء كان الوقت صباحاً أو ظهراً أو عصراً أو مغرباً .

ولكن عندما نبدأ فى الصوم فإن الزمن يصبح هو الأصل فى صومك فى أى مكان تذهب إليه ، إن الزمان هو الذى يحدد مواعيد الصوم : فى طنطا أو لندن أو فى طوكيو ، وهكذا نعرف كيف يكون الزمن ميقاتاً .

إذن فمرة يكون الزمن هو المتحكم فى الميقات والمكان طارىء عليه ، ومرة يكون المكان هو الذى يتحكم فى الميقات ، والزمن طارىء عليه ، ومرة يتحكم الزمان والمكان معاً فى الفعل مثل يوم عرفة .

وهكذا نعرف معنى « مواقيت للناس » ، فنحن بالهلال نعرف بدء شهر رمضان ، ونعرف به عيد الفطر ، وكذلك موسم الحج وعدة المرأة ، والأشهر الحرم ، إن كل هذه الأمور إنما نعرفها بالمواقيت . وشاء الحق أن يجعل الهلال هو أسلوب تعريفنا تلك الأمور وجعل الشمس لتدلنا على اليوم فقط ، وإن كان لها عمل آخر فى البروج التى يتعلق بها حالة الطقس والجو ، والزراعة ، ولذلك قال :

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا ﴾

(من الآية ٥ سورة يونس)

وانظر إلى الدقة فى الأداء وكيف يشرح الحق للإنسان ماهية النور ، وماهية الضوء . إن الشمس مضيئة بذاتها ، أما القمر فهو منير ؛ لأن ضوءه من غيره ؛ فهو مثل قطعة الحجر اللامعة التى تنعكس عليها أشعة الشمس فتعطينا نورا . إن القمر منير بضوء غيره ، ولذلك يقول الحق فى آية أخرى :

﴿ وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴾

(من الآية ٦١ سورة الفرقان)

والسراج فى هذه الآية هو الشمس التى فيها حرارة ، وجعلها الحق ذات بروج ، أما القمر فله منازل وهو منير بضوء غيره ؛ وفى ذلك يقول الحق :

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ ﴾

(من الآية ٥ سورة يونس)

إذن فعدد السنين وحسابها يأتى من القمر ، وفى زماننا إذا أرادوا أن يضبطوا المعايير الزمنية فهم يقيمونها بحساب القمر ؛ فقد وجدوا أن الحساب بالقمر أضبط من الحساب بالشمس ؛ فالحساب بالشمس يختل يوماً كل عدد من السنين .

ولنفهم الفرق بين منازل القمر وبروج الشمس . إن البروج هى أسماء من اللغة السريانية ، وهو : برج الحمل ، والثور ، والجوزاء ، والسرطان ، والعذراء ، والأسد ، والميزان ، والعقرب ، والقوس ، والجدى ، والدلو ، والحوت ، وعددها اثنا عشر برجا هذه هى أبراج الشمس ، ويتعلق بها مواعيد الزرع والطقس والجو ، ويجب أن نفهم أن لله فى البروج أسراراً ، بدليل أن الحق سبحانه وتعالى جعلها قَسَماً حين يقول : « والسماء ذات البروج » .

ولذلك تجد أن التوقيت فى الشمس لا يختلف ؛ فالشهور التى تأتى فى البرد ، والتى تأتى فى الحر هى هى ، وكذلك التى تأتى فى الخريف ، والربيع ، وبين السنة الشمسية والسنة القمرية أحد عشر يوما ، والسنة القمرية هى التى تستخدم فى التحديد التاريخى للشهور العربية ونعرف بداية كل شهر بالهلال :

﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا ﴾

(من الآية ٣٦ سورة التوبة)

ولذلك كانت تكاليف العبادة محسوبة بالقمر حتى تسيح المنازل القمرية فى البروج الشمسية ، فيأتى التكليف فى كل جو وطقس من أجواء السنة ، فلا تصوم رمضان فى صيف دائم ، ولا فى شتاء دائم ، ولكن يُقَلِّبُ الله مواعيد العبادات على سائر أيام السنة ، والذين يعيشون فى المناطق الباردة مثلاً لو كان الحج ثابتا فى موسم الصيف لما استطاعوا أن يؤدوا الفريضة ، ولكن يدور موسم الحج فى سائر الشهور فعندما يأتى الحج فى الشتاء ييسر لهم مهمة أداء الفريضة فى مناخ قريب من مناخ بلادهم .

وهكذا نجد أن حكمة الله اقتضت أن تدور مواقيت العبادات على سائر أيام السنة حتى يستطيع كل الناس حسب ظروفهم المناخية أن يؤدوا العبادات بلا مشقة . إذن فالمنازل شائعة فى البروج ، وهذا سبب قول بعض العلماء : إن ليلة القدر تمر دائرة فى كل ليالى السنة ، وذلك حسب سياحة المنازل فى البروج .

إذن فهناك بروج للشمس ، ومنازل للقمر ، ومواقع للنجوم ، ومواقع النجوم

هى التى يقسم بها الله سبحانه فى قوله :

﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ ﴾

(سورة الواقعة)

ولعل وقتا يأتى يكشف الله فيه للبشرية أثر مواقع النجوم على حياة الخلق وذلك عندما تتهيأ النفوس لذلك وتقدر العقول على استيعابه . إذن كل شىء فى الكون له نظام : للشمس بروج ، وللقمر منازل ، وللنجوم مواقع . وكل أسرار الكون ونواميسه ونظامه فى هذه المخلوقات ، وقد أعطانا الله من أسرار الأهلة أنها مواقيت للناس والحج . وعندما تكلم سبحانه عن الحج أراد أن يعطينا حكماً متعلقاً به ؛ فقد كانت هناك قبائل من العرب تعرف بالحمس ، هؤلاء الحمس كانوا متشددين فى دينهم ومتحمسين له ، ومنهم كانت قريش ، وكنانة ، وخثعم ، وجشم ، وبنو صعصاع بن عامر . وكان إذا حج الفرد من هؤلاء لا يدخل بيته من الباب ؛ لأنه أشعث أغبر من أثر أداء مناسك الحج . ويحاول أن يدخل بيته على غير عادته ، لذلك كان يدخل من ظهر البيت ، وكان ذلك تشدداً منهم ، لم يرد الله أن يُشرَعه . حتى لا يطلع على شىء يكرهه فى زوجه أو أهله . وأراد سبحانه عندما ذكر مناسك الحج فى القرآن أن ينفى المناسك من هذه العادة المألوفة عند العرب فقال :

« وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها واتقوا الله لعلكم تفلحون » أى لا تجعلوا المسائل شكلية ، فنحن نريد أصل البر وهو الشىء الحسن النافع .

والملاحظ أن كلمة « البر » فى هذه الآية جاءت مرفوعة ، لأن موقعها من الإعراب هو « اسم ليس » وهى تختلف عن كلمة « البر » التى جاءت من قبل فى قوله تعالى : « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب » التى جاءت منصوبة ؛ لأن موقعها من الإعراب هو « خبر مقدم لليس » . حاول المستشرقون أن يأخذوا هذا الاختلاف فى الرفع والنصب على القرآن الكريم . ونقول لهم : أنتم قليلو الفطنة والمعرفة باللغة العربية ، فماذا نفعل لكم ؟. يصح أن نجعل الخبر مبتدأ فنقول :

« زيد مجتهد » ، هذا إذا كنا نعلم زيداً ونجهل صفته ، فجعلنا زيداً مبتدأ ، ومجتهداً خبراً . لكن إذا كنا نعرف إنسانا مجتهداً ولا نعرف من هو ؛ فإننا نقول : « المجتهد زيد » .

إذن فمرة يكون الاسم معروفاً لك فتلحق به الوصف ، ومرة تجهل الاسم وتعرف الوصف فتلحق الاسم بالوصف . وهذا سر اختلاف الرفع والنصب فى كلمة « البر » فى كل من الآيتين . ونقول للمستشرقين : إن لكل كلمة فى القرآن ترتيبًا ومعنى ، فلا تتناولوا القرآن بالجهل ، ثم تثيروا الإشكالات التى لا تقلل من قيمة الكتاب ولكنها تكشف جهلكم .

ثم ما هو « البر » ؟ قلنا : إن البر هو الشىء الحسن النافع . ولو ترك الله لنا تحديد « البر » لاختلفت قدرة كل منا على فهم الحسن والنافع باختلاف عقولنا ؛ فأنت ترى هذا « حسناً » ؛ وذاك يرى شيئا آخر ، وثالث يرى عكس ما تراه ، لذلك يخلع الله يدنا من بيان معنى البر ، ويحدد لنا سبحانه مواصفات الحسن النافع ، فما من واحد ينحرف ويميل إلى شىء إلا وهو يعتقد أنه هو الحسن النافع ، ولذلك يقول الحق : « ولكن البر من اتقى واتوا البيوت من أبوابها » .

إن هذا يدلنا على أن كل غاية لها طريق يوصل إليها ، فاذهب إلى الغاية من الطريق الذى يوصل إليها . ويتبع الحق قوله عن البر : « واتقوا الله لعلكم تفلحون » . لاتزال كلمة التقوى هى الشائعة فى هذه السورة ، وكل حكم يعقبه السبب من تشريعه وهو التقوى .

ونعرف أن معنى التقوى هو أن تتقى معضلات الحياة ، ومشكلاتها بأن تلتزم منهج الله . وساعة ترى منهج الله وتطبقه فأنت اتقيت المشكلات ، أما من يعرض عن تقوى الله فإن الحق يقول عن مصيره :

﴿ فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾

(من الآية ١٤٤ سورة طه)

ولا يظن أحد أن التقوى هى اتقاء النار ، لا ، إنها أعم من ذلك ، إنها اتقاء المشكلات والمخاطر التى تنشأ من مخالفة منهج الله . وليعلم الإنسان أن كل مخالفة ارتكبها لابد أن يمر عليها يوم تُرتكب فيه هذه المخالفة كما ارتكبها فى غيره ، فمن لا يحب أن تُجرى فيه المخالفات فعليه ألا يرتكب المخالفات فى غيره .

وبعد ذلك ينتقل الحق إلى قضية أخرى ، وهذه القضية الأخرى هى التى تميز الأمة الإسلامية بخصوصية فريدة ؛ لأنه سبحانه قد أوجد وفطر هذه الأمة على منهاج قويم لم تظفر به أمة من قبل ، وهذه الخصوصية هى أن الله قد أمن أمة محمد على أن تؤدب الخارجين على منهج الله ؛ فقديماً كانت السماء هى التى تُؤدب هؤلاء الخارجين عن المنهج . كان الرسول يشرح ويبلغ المنهج ، فإن خالفه الناس تتدخل السماء وتعاقبهم ، إما بصاعقة ، وإما بعذاب ، وإما بفيضان ، وإما بأى وسيلة . ولم يكن الرسل مكلفين بحمل وقسر الناس على المنهج . وحين سأل بنو إسرائيل ربهم أن يقاتلوا ، لم يكن قتالهم من أجل الدين مصداقا للآية الكريمة :

﴿ قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ﴾

(من الآية ٢٤٦ سورة البقرة)

علة القتال ـ إذن ـ أنهم أُخرجوا من بيوتهم وأُجبروا على ترك أولادهم ، فهم عندما سألوا القتال لم يسألوه للدفاع عن العقيدة ، وإنما لأنهم أخرجوا من ديارهم وأولادهم .

أما أمة محمد صلى الله عليه وسلم فهى التى أمنها الله على أن يكون فى يدها الميزان ، وليس هذا الميزان ميزان تسلط ، وإنما هو ميزان يحمى كرامة الإنسان بأن يصون له حرية اختياره بالعقل الذى خلقه الله ، فلا إكراه فى الإيمان بالله . وقد شرع الله القتال لأمة محمد لا ليفرض به دينا ، ولكن ليحمى اختيارك فى أن تختار الدين الذى ترتضيه . وهو يمنع سدود الطغيان التى تحول دونك ودون أن تكون حراً مختاراً فى أن تقبل التكليف .

ولذلك فالذين يحاولون أن يلصقوا بالإسلام تهمة أنه انتشر بالسيف نقول لهم :

إن حججهم ساقطة واهية ، وكذلك قولهم : إن الإسلام عندما يفرض الجزية فكأنه جاء لجباية الأموال ، نقول لهؤلاء : جزية على من ؟ جزية على غير المؤمن ، ومادام قد فرضت عليه جزية فمعنى ذلك أنه أباح له أن يكون غير مؤمن ، لو كان الإسلام يُكره الناس على اعتناقه لما كان هناك من نأخذ عليه جزية . إذن فالإسلام لم يُكرهه ، وإنما حماه من القوة التى تسيطر عليه حتى لا يُكرهه أحد على ترك دينه ، وهو حر بعد ذلك فى أن يسلم أو لا يسلم . وكأن الذين ينتقدون الإسلام يدافعون عنه ؛ فسهامهم قد ارتدت إليهم .

وهنا تساؤل قد يثور : إذا كان الأمر كذلك فلماذا كانت حروب المسلمين ؟ نقول : إن حروب الإسلام كانت لمواجهة الذين يفرضون العقائد الباطلة على غيرهم ، وجاء الإسلام ليقول لهؤلاء : ارفعوا أيديكم عن الناس واجعلوهم أحراراً فى أن يختاروا الدين المناسب . ولماذا تركهم الإسلام أحراراً ؟ لأنه واثق أن الإنسان مادام على حريته فى أن يختار فلا يمكن أن يجد إلا الحق واضحا فى الإسلام . ولذلك فكثير من الناس الذين يقرأون قوله تعالى :

﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ ﴾

(من الاية ٢٥٦ سورة البقرة)

لا يفطنون إلى أن العلة واضحة فى قوله ـ سبحانه ـ من الآية نفسها « قد تبين الرشد من الغى » . إذن فالمسألة واضحة لماذا نُكره الناس وقد وضح أمامهم الحق والباطل ؟ نحن فقط نمنع الذين يفرضون عقائدهم الباطلة على الناس ؛ فأنت تستطيع أن تُكره القالب ، لكن لا تستطيع أن تُكره القلب . ونحن نريد أن ينبع الإيمان من القلب ، ولهذا يقول الحق لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم :

﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ۝٣ إِن نَّشَأۡ نُنَزِّلۡ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةٗ فَظَلَّتۡ أَعۡنَٰقُهُمۡ لَهَا خَٰضِعِينَ ۝٤ ﴾

(سورة الشعراء)

إن الله لا يريد أعناقاً ، لو كان يريد أعناقاً لما استطاع أحد أن يخرج عن قدره

ـ سبحانه ـ من يُريد الله أن يبتليه بمرض أو موت فلن ينجو من قدره . إن الحق يريد إيمان قلوب لا رضوخ قوالب . فالذى يجبر الآخرين على الإيمان بالكرباج لن يتبعه أحد ، وهو نفسه غير مؤمن بما يفرضه على الناس . ولو كان مؤمنا به لما فرضه على الناس بالقسر ؛ إنّهم سيقبلونه عن طواعية واختيار عندما يتبّين لهم أنه الحق المناسب لصلاح حياتهم .

ونحن نلتفت حولنا فنجد أن النظم والحكومات التى تفرض مبادئها بالسوط والقهر تتساقط تباعاً ، فعندما تتخلى هذه الحكومات عن السوط والبطش فإن الشعوب تتخلى عن تلك الأفكار . والقرآن هنا يعالج هذه المسألة عندما يتحدث عن القتال وتشريع القتال ، الأمر الذى اختص به الحق أمة الإسلام . وهو سبحانه لم يأذن بالقتال خلال فترة الدعوة المكية التى استمرت ثلاثة عشر عاماً ، ثم أذن به بعد الهجرة إلى المدينة . وقد كان من الضرورى أن يتأخر أمر القتال ؛ لأن الحق أراد أولاً أن يلتفت المسلمون إلى اتباع المنهج حتى يكونوا لغيرهم قدوة ، ويروْا فيهم أسوة حسنة ، لذلك قال الحق :

﴿ فَٱعْفُواْ وَٱصْفَحُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ﴾

(من الآية ١٠٩ سورة البقرة)

وقال سبحانه أيضاً :

﴿ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ ﴾

(من الآية ٤٨ سورة الأحزاب)

لماذا كل هذا التدرج ؟ لأن الحق سبحانه وتعالى علم أن الدعوة للإسلام ستدخل البيوت العربية ، فسيضم البيت الواحد كافراً بالله ومؤمناً بالله ، ولو أنه سبحانه وتعالى شرع القتال من البداية لصار فى كل بيت معركة .

ثم إن الحق سبحانه وتعالى يعلم أن تلك القبائل العربية بها كثير من خفة وطيش وسفه ؛ وكانوا يقتتلون لأتفه الأسباب ؛ فمن أجل ناقة ضربها كليب بسهم فى ضرعها فماتت اشتعلت الحرب أربعين سنة . وفى ذلك يقول الشاعر عند الحفيظة

والغضب :

قـوم إذا الشر أبـدى ـ نـاجـذيـه لهم ـ
طـاروا إلـيـه زرافـات ووحـدانـا

والثانى يقول :

لا يسـألـون أخـاهـم حـين يندبهـم
فى النـائبـات عـلى مـا قـال بـرهـانـا

أى أنهم لا يسألون أخاهم : « لماذا نحارب ؟» ، وإنما يحاربون بلا سبب ولأى سبب ، فالحمية الرعناء تدفعهم للقتال بلا سبب . وفى مقابل ذلك كانت عندهم نخوة للحق ، فعندما يرون شخصا قد ظلمه غيره ؛ تأخذهم النخوة ، ويأخذون على يد الظالم ، وأراد الحق سبحانه وتعالى أن يهيج فيهم النخوة حين يرون الضعاف من المسلمين مستضعفين ، وقد عزلهم بعض من القوم فى شِعب أبى طالب وجوعوهم وقاطعوهم حتى اجتمع الخمسة العظام فى مكة وقالوا : « كيف نقبل أن نأكل ونشرب ونأتى نساءنا وبنو هاشم وبنو المطلب محصورون فى الشِعب لا يأكلون ولا يشربون ولا يتبايعون » .

لقد كانوا كفاراً ، وبرغم ذلك وقفوا موقفاً عظيماً وقالوا : هاتوا الصحيفة التى تعاهدنا فيها على أن نقاطع بنى هاشم وبنى المطلب ونقطعها ؛ واتفقوا على ذلك . وكانوا خمسة من سادات مكة هم : هشام بن عمرو ، وزهير بن أبى أمية ، وأبو البخترى بن هاشم ، وزمعة ابن الأسود ، والمطعِم بن عدى . وكانوا قادة النخوة التى أنهت مقاطعة المسلمين . هكذا نرى أن العرب كانوا يتسمون بالحمية الرعناء وتقابلها النخوة فى الحق .

ويعلم الحق سبحانه وتعالى أن نقل أمة العرب مما اعتادته ليس أمراً سهلاً ، لذلك أخذهم برفق الهَوَادة . والذين يقولون : لماذا لم يحارب المسلمون أعداءهم من أول وهلة ولماذا لم يقتلوا صناديد الكفر فى مكة ؟

نقول لهم : إنّ كثيراً من الذين كنتم ترون قتالهم فى بداية الدعوة الإسلامية هم الذين نشروا راية الإسلام من بعد ذلك ، ومثال ذلك خالد بن الوليد ، الذى كان قائداً مغواراً فى صفوف المشركين ، وقاتل المسلمين فى أول حياته ، ثم هداه الله للإسلام وأصبح سيف الله المسلول ، ماذا لو قتل هذا القائد الفذ على أيدى المسلمين ؟ كان مثل هذا الفعل سيتسبب فى حرمان المسلمين من موهبته ، تلك الموهبة التى أسهمت فى معظم الفتوحات الإسلامية فى الشام والعراق .

إذن شاءت حكمة الله أن يستبقى أمثال خالد وهم خصوم للإسلام فى بدء الدعوة لأن الله قد أعد لهم دوراً يخدمون به الإسلام . والذين نالوا من الإسلام أولا هم الذين ستبقى عندهم الحرارة حتى يعملوا عملاً يغفر الله لهم به ما قد سبق .
انظر إلى عكرمة بن أبى جهل كان شوكة فى ظهر المسلمين فى بداية الدعوة ، ثم أسلم وأبلى بلاء حسناً ، ولما أصيب فى موقعة اليرموك وأوشكت روحه أن تصعد إلى خالقها نظر إلى قائده خالد بن الوليد وقال : أهذه ميتة تُرضى عنى رسول الله ؟ . كأنه كان يعلم أن رسول الله كان قد غضب عليه قبل أن يسلم .

وعمرو بن العاص داهية المسلمين الذى لولاه مافُتحت مصر . فقد كسب بدهائه أهل مصر فامتنعوا عن قتاله ، وناظرهم بعد ذلك حتى استل حقدهم على المسلمين ، وأبان لهم أن رسول صلى الله عليه وسلم قال موصيا بهم « استوصوا بالقبطيين خيرا لأن لهم رحما وذمة » وفوق هذا فقد أرسله النبى صلى الله عليه وسلم الى بعض العرب يستنفرهم إلى الاسلام .

إذن فمن رحمة الله أنه لم يشأ تشريع القتال من البداية ، وإلا لكنا فقدنا كثيراً من قادة الإسلام العظام الذين حملوا لواء الدعوة الإسلامية فيما بعد ، وكل إنسان استبقاه الإسلام وهو خصم وعدو للإسلام ، قدر الله له بعد الإسلام دوراً يخدم به الدين الخاتم .

من هنا نفهم الحكمة من تأخير القتال فى الإسلام ، لأن الله أراد أن يمحص ويختبر ، وألا يدخل هذا الدين إلا من يتحمل متاعب هذا الدين ، ومشاقه لأنه

سيكون مأموناً على مجد أمة ، وعلى منهج سماء ، وتلك أمور لا يصلح لها أى واحد من الناس .

وقد كان من الممكن أن ينصر الله دينه من أول وهلة دون تدخل من المسلمين ، وكان معنى ذلك أن الناس سيتساوون فى الإيمان أولهم وآخرهم ، ولكن شاءت إرادته سبحانه وتعالى أن يجعل لهذا الدين رجالاً يفدونه بأرواحهم وأموالهم لينالوا الشهادة ويرتفعوا إلى مصاف النبيين . لذلك جاء الأمر بالقتال متأخراً وبالتدريج ؛ لقد جاء الأمر بالقتال فى أول مرحلة بقول الله تعالى :

﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ ﴾

وسبب نزول هذه الآية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم اشتاق هو وصحابته إلى البيت الحرام ، وأرادوا أن يعتمروا ، فجاءوا فى ذى القعدة من السنة السادسة من الهجرة . وأرادو أن يؤدوا العمرة . فلما ذهبوا وكانوا فى مكان اسمه الحديبية ، ووقفت أمامهم قريش وقالت : لا يمكن أن يدخل محمدٌ وأصحابه مكة .

وقامت مفاوضات بين الطرفين ، ورضى رسول الله بعدها أن يرجع هذا العام على أن يأتى فى العام القادم ، وتُخلى لهم مكة ثلاثة أيام فى شهر ذى القعدة .

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم قد بشر أصحابه بأنهم سيدخلون المسجد الحرام محلقين ومقصرين ، وشاع ذلك الخبر ، وفرح به المسلمون وسعدوا ، ثم فوجئوا بمفاوضاتٍ رسول الله ورجوعه على بعد نحو عشرين كيلو متراً من مكة . وحزن الصحابة . حتى عمر بن الخطاب رضى الله عنه غضب وقال للنبى صلى الله

عليه وسلم : ألست رسول الله ؟ ألست على الحق ؟ فرد عليه سيدنا أبو بكر قائلا : الزم غرزك يا عمر إنه لرسول الله .

وقد أظهرت هذه الواقعة موقفا لأم المؤمنين أم سلمة رضى الله عنها ، وهو موقف يعبر عن الحنان والرحمة والمشورة اللينة الهينة . فحينما دخل عليها رسول الله وقال لها : هلك المسلمون يا أم سلمة ، أمرتهم فلم يمتثلوا .

فانظر إلى مهمة الزوجة عندما يعود إليها زوجها مهموماً ، هنا تتجلى وظيفتها فى السكن ، قالت أم سلمة : اعذرهم يا رسول الله ؛ إنهم مكروبون . كانت نفوسهم مشتاقة لأن يدخلوا بيت الله الحرام محلقين ومقصرين ، ثم حرموا منها وهم على بعد أميال منها ، اعمد إلى ما أمرك الله فافعله ولا تُكلم أحداً ، فإن رأوك فعلت ، علموا أن ذلك عزيمة .

وأخذ رسول الله بنصيحة أم سلمة ، وصنع ما أمره به الله ، وتبعه كل المسلمين ، وانتهت المسألة . وقبل أن يرجعوا للمدينة لم يشأ الله أن يطيل على الذين انتقدوا الموقف حتى لا يظل الشرخ فى نفوس المؤمنين ، وتلك عملية نفسية شاقة ، لذلك لم يُطل الله عليهم السبب ، وجاء بالعلة قائلا لهم : ما يحزنكم فى أن ترجعوا إلى المدينة ؛ أنتم لكم إخوان مؤمنون فى مكة وقد أخفوا إيمانهم وهم مندسون بين الكفار ، فلو أنكم دخلتم ، وقاتلوكم ، ستقاتلون الجميع مؤمنين وكافرين ، فتقتلون إخوانا لكم ، فلو كان هؤلاء الإخوان المؤمنون متميزين فى جانب من مكة لأذنت لكم بقتال المشركين ؛ كما تريدون. واقرأ قول الله تعالى :

﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ

كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾

(سورة الفتح)

بعد نزول الآية عرف المسلمون أن الامتناع كان لعلة ولحكمة ، فلما جاءوا فى العام التالى قال الله لهم :

﴿ ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ﴾

(من الآية ١٩٤ سورة البقرة)

وكان الحق يطمئنهم ، فالذين صدوكم فى ذى القعدة من ذلك العام ستقابلونهم وستدخلون فى ذى القعدة من العام القادم . وخاف المسلمون إن جاءوا فى العام المقبل أن تنقض قريش العهد وتقاتلهم ، ونزل قول الحق :

﴿ وَقَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ ﴾

(سورة البقرة)

وعندما نتأمل قوله تعالى : « وقاتلوا فى سبيل الله » فإننا نجد أن الحق سبحانه يؤكد على كلمة « فى سبيل الله » لأنه يريد أن يضع حداً لجبروت البشر ، ولابد أن تكون نية القتال فى سبيل الله لا أن يكون القتال بنية الاستعلاء والجبروت والطغيان . فلا قتال من أجل الجاه ، أو المال أو لضمان سوق اقتصادى ، وإنما القتال لإعلاء كلمة الله ، ونصرة دين الله ، هذا هو غرض القتال فى الإسلام .

« وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين » . والحق ينهى عن الاعتداء ، أى لا يقاتل مسلم من لم يقاتله ولا يعتدى .

وهب أن قريشا هى التى قاتلت ، ولكن أناساً كالنساء والصبيان والعجزة لم يقاتلوا المسلمين مع أنهم فى جانب من قاتل ، لذلك لا يجوز قتالهم ، نعم على قدر الفعل يكون رد الفعل . لماذا ؟ لأن فى قتال النساء والعجزة اعتداء ، وهو سبحانه لا يحب المعتدين . لكن قتال المؤمنين إنما يكون لرد العدوان ، لا بداية عدوان .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿١٩١﴾ ﴾

ونحن نسمع كلمة « ثقافة » ، وكلمة « ثِقاف » ، والثقافة هي يسر التعلم ، أو أن تلم بطرف من الأشياء المتعددة ، وبذلك يصبح فلان مثقفاً أى لديه كمٌّ من المعلومات ، ويعرف بعض الشيء عن كل شيء ، ثم يتخصص فى فرع من فروع المعرفة فيعرف كل شيء عن شيء واحد .

كل هذه المعانى مأخوذة من الأمور المحسة ، والتثقيف عند العرب هو تقويم الغصن ، فقد كان العرب يأخذون أغصان الشجر ليجعلوها رماحاً وعِصِيّاً ، والغصن قد يكون معوجاً أو به نتوء ، فكان العربى يثقفه ، أى يزيل زوائده واعوجاجه ، ثم يأتى بالثقاف وهو قطعة من الحديد المعقوف ليقوم بها المعوج من الأغصان كما يفعل عامل التسليح بحديد البناء .

كأن المُثَقِّف هو الذى يعدل من شيء معوج فى الكون ؛ فهو يعرف هذه وتلك ، وأصبح ذا تقويم سليم . وهكذا نجد أن معانى اللغة وألفاظها مشتقة من المحسات التى أمامنا . وقوله : « ثقفتموهم » أى « وجدتموهم » ، فثقف الشيء أى وجده .

والحق يقول :

﴿ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم ﴾

(من الآية ٥٧ سورة الأنفال)

أى شردهم حيث تجدهم . ويقول الحق : « واقتلوهم حيث ثقفتموهم » أى لا تقولوا إنهم أخرجوكم من هنا ، وإنما أخرجوهم من حيث أخرجوكم ، أى من أى مكان أنتم فيه ، وعند ذلك لن تكونوا معتدين . وقوله تعالى : « وأخرجوهم من حيث أخرجوكم » يذكرنا بمنطق مشابه فى آية أخرى منها قوله تعالى :

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ ﴾

(من الآية ١٢٦ سورة النحل)

وقوله تعالى :

﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾

(من الآية ٤٠ سورة الشورى)

وعندما نبحث فى ثنايا هذه النصوص « وجزاء سيئة سيئة مثلها » قد يرد هذا الخاطر : أخذت حقى ممن أساء إلىّ ، وانتقمت منه بعمل يماثل العمل الذى فعله معى ، هل يقال : إننى فعلت سيئة ؟

وحتى نفهم المسألة نقول : الحق سبحانه وتعالى يأتى فىّ بعض الأحايين بلفظ « المشاكلة » وهى ذكر الشىء بلفظ غيره لوقوعه فى صحبته ، ومثل ذلك قوله : « ومكروا ومكر الله » ، إن الله لا يمكر ، وإنما اللفظ جاء للمشاكلة ، أو أن اللفظ الكريم قد جاء فى استيفاء حقك بكلمة « سيئة مثلها » لينبهك إلى أن استيفاء حقك بمثل ما صنع بك يعتبر سيئة إذا ما وازناه بالصفح والعفو عن المسىء ، يشير إلى ذلك سبحانه فى نهاية هذه الآية بقوله : « فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين » وبمثل ذلك كان ختام الآية السابقة « ولئن صبرتم لهو خير للصابرين » .

ويقول الحق : « والفتنة أشد من القتل » ، والفتنة مأخوذة من الأمر الحسى ، فصائغ الذهب يأخذ قطعة الذهب فيضعها فى النار فتنصهر ، فإذا ما كان يشوبها معدن غريب عن الذهب فهو يخرج ويبقى الذهب خالصا ، فكأن الفتنة ابتلاء واختبار ، وقد فعل المشركون ما هو أسوأ من القتل ، فقد حاولوا من قبل أن يفتنوا المؤمنين فى دينهم بالتعذيب ، فخرج المؤمنون فراراً بدينهم .

والحق يأمر المسلمين فى قتالهم مع أهل الشرك أن يراعوا حرمة البيت الحرام ، فلا ينتهكوها بالقتال إلا إذا قاتلهم أهل الشرك .

وهكذا نجد أن أول أمر بالقتال إنما جاء لصد العدوان ، وأراد الحق سبحانه وتعالى أن يسقط من أيدى خصوم الإسلام ورقة قد يلعبون بها مع المسلمين ، فهم يعلمون أن المؤمنين بالإسلام سيحترمون الأشهر الحرم ويحترمون المكان الحرام ويحترمون الإحرام فلا يقاتلون ؛ وربما أغرى ذلك خصوم الإسلام ألا يقاتلوا المسلمين إلا فى الأشهر الحرم ، ويظنون أن المسلمين قد يتهيبون أن يقاتلوهم ، فأراد الحق سبحانه وتعالى أن يشرع لهم ما يناسب مثل هذا الأمر فأذن لهم فى القتال ، فإن قاتلوكم فى الشهر الحرام فقاتلوهم فى الشهر الحرام ، وإن قاتلوكم فى المكان الحرام فقاتلوهم فى المكان الحرام ، وإن قاتلوكم وأنتم حُرم فقاتلوهم ؛ لأن الحرمات قصاص .

إذن أسقط الحق الورقة من أيدى الكافرين . إن الحق سبحانه وتعالى يعلل ذلك بأنه وإن كان القتال فى الشهر الحرام وفى المكان الحرام وفى حال الإحرام صعبًا وشديدًا فالفتنة فى دين الله أشد من القتل ، لأن الفتنة إنما جاءتْ لِتُفسد على الناس دينهم ، صحيح أنها لا تعوق الناس عن أن يتدينوا ، ولكنها تفتن الذين تدينوا ، وقد حاولوا إجبار المسلمين الأوائل بالتعذيب حتى يرتدوا عن الدين ، وكان ذلك أشد من القتل لأنها فتنة فى الدين .

إن الله هو الذى شرع الشهر الحرام فكيف يُفتن المؤمنون عن دين الله ويُحملون على الشرك به ثم تقولون بعد ذلك إننا فى الشهر الحرام ؟ إن الشهر الحرام لم يكن حراماً إلا لأن الله هو الذى حرمه ، فالفتنة فى الله شرك وهو أشد من أن نقاتل فى الشهر الحرام ، ولذلك فلاداعى أن يتحرج أحد من القتال فى الشهر الحرام عندما يفتن فى دينه . وحينئذ نعلم أن القتال إنما جاء دفاعا .

وبعد ذلك هل يظل القتال دفاعا كما يريد خصوم الإسلام أن يجعلوه دفاعا عَمّن آمن فقط ؟ أو كما يريد الذين يحاولون أن يدفعوا عن الإسلام أنه دين قتال

ويقولون : لا ، الإسلام إنما جاء بقتال الدفاع فقط . نقول لهؤلاء : قتال الدفاع عمن ؟ هل دفاع عمن آمن فقط ؟ أم عن مطلق إنسان نريد أن ندفع عنه ما يؤثر فى اختيار دينه ؟

هو دفاع أيضا ، وسنسميه دفاعا ، ولكنه دفاع عمن آمن ، ندفع عنه من يعتدى عليه ، وأيضا عَمَّنْ لم يؤمن ندفع عنه من يؤثر عليه فى اختيار دينه لنحمى له اختياره ، لا لنحمله على الدين ، ولكن لنجعله حراً فى الاختيار ؛ فالقوى التى تفرض على الناس دينا نزيحها من الطريق ، ونعلن دعوة الإسلام ، فمن وقف أمام هذه الدعوة نحاربه ؛ لأنه يفسد على الناس اختيار دينهم ، وفى هذا أيضاً دفاع .

« ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه » لأنكم أحرى وأجدر أن تحترموا تحريم الله للمسجد الحرام ، لكن إذا هم اجترأوا على القتال فى المسجد الحرام فقد أباح سبحانه لكم أيها المسلمون أن تقاتلوهم عند المسجد الحرام ماداموا قد قاتلوكم فيه . « فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين . فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم » . وما أسمى هذا الدين .

إننا لا نؤاخذهم بعد أن انتهوا إلى الإيمان بما قدمت أيديهم من الاجتراء على أهل الإيمان ماداموا قد آمنوا ، ولذلك نرى عمر بن الخطاب وقد مر على قاتل أخيه زيد ابن الخطاب : وأشار رجل وقال : هذا قاتل زيد . فقال عمر : وماذا أصنع به وقد أسلم ؟ لقد عصم الإسلام دمه .

لقد انتهت المسألة بإسلامه ، فالإيمان بالله أعز على المؤمن من دمه ومن نفسه ، وحين يؤمن فقد انتهت الخصومة . وهذا وحشى قاتل حمزة ، يقابله رسول الله صلى الله عليه وسلم وكل ما يصنعه رسول الله هو أن يزوى وجهه عنه ، لكنه لا يقتله ولا يثأر منه . وهند زوجة أبى سفيان التى أكلت كبد حمزة ، أسلمت وانتهت فعلتها بإسلامها . إذن فالإسلام ليس دين حقد ولا ثأر ولا تصفية حسابات ، فإذا كان الدم يغلى فى مواجهة الكفر ، فإن إيمان الكافر بالإسلام يعطيه السلامة ، هذا هو الدين .

﴿ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ ﴾

أى ماداموا قد كفوا عما يصنعون من الفتنة بالدعوة والشرك بالله وَزُجِروا بالدين الآمر فانزجروا عن الكفر ، بعدها لا شيء لنا عندهم ؛ لأن الله غفور رحيم ، فلا يصح أن يشيع فى نفوسنا الحقد على ما فعلوه بنا قديما ، بل نحتسب ذلك عند الله ، وماداموا قد آمنوا فذلك يكفينا . والحق سبحانه وتعالى بعد أن أعطانا مراحل القتال ودوافعه قال :

﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ﴾

وعرفنا أن الفتنة ابتلاء واختبار والحق يقول :

﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ ﴾

(سورة العنكبوت)

إن الحق يختبر الإيمان بالفتنة ، ويرى الذين يُعلنون الإيمان هل يصبرون على ما فيه من ابتلاءات أم لا ؟ فلو كان دخول الإسلام لا يترتب عليه دخول فى حرب أو قتال ولا يترتب عليه استشهاد بعض المؤمنين لكان الأمر مغريا لكثير من الناس بالدخول فى الإسلام ، لكن الله جعل لهم الفتنة فى أن يُهزَموا ويُقتل منهم عدد من الشهداء ، وذلك حتى لا يدخل الدين إلا الصفوة التى تحمل كرامة الدعوة ، وتتولى حماية الأرض من الفساد ، فلابد أن يكون المؤمنون هم خلاصة الناس .

لذلك قال سبحانه : « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة » . معنى أن يكون الدين لله ، أى تخرجوهم من ديانة أنفسهم أو من الديانات التى فرضها الطغيان عليهم ، وعندما نأخذهم من ديانات الطغيان ، ومن الديانات التى زينها الناس إلى ديانات الخالق فهذه مسألة حسنة بالنسبة لهم ، وتلك مهمة سامية . كأنك بهذه المهمة السامية تريد أن ترشد العقل الإنسانى وتصرفه وتمنعه من أن يَدِينَ لمساو له ؛ إلى أن يدين لمن خلقه . وعلى صاحب مثل هذا العقل أن يشكر من يوجهه إلى هذا الصواب . ولذلك يُجلى الحق سبحانه وتعالى هذه الحقيقة فيقول على لسان الرسول :

﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ ﴾

(سورة الفرقان)

فكأننا لو نظرنا إلى عمل الرسول بالنسبة إلينا بمنظار الاقتصاد لوجب أن يكون له أجر ، لأنه يقدم المنفعة لنا ، وبرغم ما قدمه من منفعة فهو لا يأخذ أجراً ؛ لأنه زاهد فى الأجر ؛ فإنه يعلم أن الأجر من المساوى له قليل مهما عظم وهو يريد الأجر ممن خلقه ، وهذا طمع فى الأعلى ؛ لأنه لا يعطى الأجر على الإيمان إلا الله سبحانه وتعالى ، وهو الذى يعطى بلا حدود .

ويختم الحق هذه الآية الكريمة بقوله : « فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين » أى أنهم إذا انتهوا إلى عدم قتالكم ، فأنتم لن تعتدوا عليهم ، بل ستردون عدوان الظالم منهم . والظالم حين يعتدى يظن أنه لن يقدر عليه أحد ، والحق يطلب منا أن نقول له : بل نقدر عليك ، ونعتدى عليك بمثل ما اعتديت علينا ويعطينا الحق حيثية ذلك فيقول :

﴿ ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَـٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ

وَاعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾

والمقصود هو أنه إذا ما قاتلوكم فى الشهر الحرام فقاتلوهم فى الشهر الحرام ، فإذا ما اعتدوا على حرمة زمان فالقصاص يكون فى زمان مثله ، وإن اعتدوا فى حرمة مكان يكن القصاص بحرمة مكان مثله ، وإذا كان الاعتداء بحرمة إحرام ، يكون الرد بحرمة إحرام مثله ؛ لأن القصاص هو أن تأخذ للمظلوم مثل ما فعل الظالم .

إن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يخفف وقع الأمر على المؤمنين الذين رُدوا عام الحديبية فى ذى القعدة سنة ست من الهجرة وأعادهم المشركون إلى المدينة ، فاقتص الله منهم بأن أعادهم فى ذى القعدة فى العام القابل فى السنة السابعة من الهجرة ، فإن كانوا قد مُنعوا فى الشهر الحرام فقد أراد الله أن يعودوا لزيارة البيت فى الشهر الحرام فى الزمان نفسه .

وقوله الحق : « والحرمات قصاص » يقتضى منا أن نسأل : كيف يكون ذلك ؟ وما هو الشيء الحرام ؟ إن الشيء الحرام هو ما يُحظر هتكه ، والشيء الحلال هو المُطلق والمأذون فيه . فهل يعنى ذلك أن الذى يقوم بعمل حرام نقتص منه بعمل مماثل ؟

هل إذا زنى رجل بامرأة نقول له نقتص منك بالزنى فيك ؟ لا . إن القصاص فى الحرمات لا يكون إلا فى المأذون به وكذلك إذا سرق منى إنسان مالاً وليس لدى بينة ، لكنى مقتنع بأنه هو الذى سرق هل أقتص منه بأن أسرق منه ؟ لا ، إن القصاص إنما يكون فى الأمر المعروف الواضح ، أما الأمر المختفى فلا يمكن أن نقتص منه بمثل ما فعل .

لكن هب أن أحد الأقارب ممن تجب نفقتهم عليك وامتنعت أنت عن النفقة على هذا الإنسان ، وهذا أمر محرم عليك ، ومادام الأمر علنيا فله أن يأخذ من مالك فيأكل وتكون المسألة قصاصاً . وهب أن زوجتك تشتكى من بخلك وتقصيرك ، كما

اشتكت هند زوجة أبى سفيان لرسول الله صلى الله عليه وسلم من بخل زوجها فقال لها : خذى من ماله بالمعروف مايكفيك وولدك .

ومثال آخر ، هب أن ضيفاً بمنزلك ورفضت أن تكرمه ، وانتهز فرصة بعدك عن المكان الذى يجلس فيه ثم تناول شيئا وأكله . لا يكون تعديا عليك ما لم يكن داخلا فى محرم آخر ، وبعد ذلك يترك الحق لولى الأمر تنظيم هذه الأمور حتى لا تصير المسائل إلى الفوضى .

وقوله الحق : « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » يدعونا إلى اليقظة حتى لا يخدعنا أحد ويدعى الإيمان وهو يريد الانتقام ، ويجب أن نتمثل قول الشاعر :

إن عادت العقرب عدنا لها
وكانت النعل لها حاضرة

ويختم الحق الآية الكريمة بقوله : « واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين » أى لا تظنوا أن الله مَلَّكَكُم فيهم شيئاً ، بل أنتم وهم مملوكون جميعا لله . ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا ۛ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾ ﴾

وهذه الآية جاءت بعد آيات القتال ، ومعناها : أعدوا أنفسكم للقتال فى سبيل الله .

وقوله الحق : « ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة » تقتضى منا أن نعرف أن كلمة

« تهلكة » على وزن تَفْعُله ولا نظير لها فى اللغة العربية إلا هذا اللفظ ، لا يوجد على وزن تَفْعُله فى اللغة العربية سوى كلمة « تَهْلُكَة » ، والتهلكة هى الهلاك ، والهلاك هو خروج الشيء عن حال إصلاحه بحيث لا يُدرى أين يذهب ، ومثال ذلك هلاك الإنسان يكون بخروج روحه . والحق يقول :

﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ﴾

(من الآية٤٢ سورة الأنفال)

فالهلاك ضد الحياة ، وعلى الإنسان أن يعرف أن الحياة ليست هى الحس والحركة التى نراها ، إنما حياة كل شيء بحساب معين فحياة الحيوان لها قانونها ، وحياة النبات لها قانونها ، وحياة الجماد لها قانونها ، بدليل أن الحق سبحانه وتعالى جعل « يهلك » أمام « يحيى » وهو سبحانه القائل :

﴿ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾

(من الآية ٨٨ سورة القصص)

فلسنا نحن فقط الذين يهلكون ، ولا الحيوانات ، ولا النباتات وإنما كل شيء بما فيه الجماد ، كأن الجماد يهلك مثلنا ، ومادام يهلك فله حياة ولكن ليست مثل حياتنا ، وإنما حياة بقانونه هو ، فكل شيء مخلوق لمهمة يؤديها ، فهذه هى حياته .

وقوله الحق : « ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة » يكشف لنا بعضاً من روائع الأداء البيانى فى القرآن ؛ ففى الجملة الواحدة تعطيك الشيء ومقابل الشيء ، وهذا أمر لا نجده فى أساليب البشر ؛ فالحق فى هذه الآية يقول لنا : « أنفقوا فى سبيل الله » أى أنفقوا فى الجهاد ، كما يقول بعدها : « ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة » لماذا ؟ لأن الإنفاق هو إخراج المال إلى الغير الذى يؤدى لك مهمة تفيد فى الإعداد لسبيل الله ، كصناعة الأسلحة أو الإمدادات التموينية ، أو تجهيز مبانٍ وحصون ، هذه أوجه إنفاق المال .

والحق يقول : « ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة » . وكلمة « ألقى » تفيد أن هناك

شيئاً عاليا وشيئا أسفل منه ، فكأن الله يقول : لا تلقوا بأنفسكم إلى التهلكة ، وهل سيلقى الواحد منا نفسه إلى التهلكة ، أو أن يلقى نفسه فى التهلكة بين عدوه ؟ لا ، إن اليد المغلولة عن الإنفاق فى سبيل الله هى التى تُلقى بصاحبها إلى التهلكة ؛ لأنه إن امتنع عن ذلك اجترأ العدو عليه ، ومادام العدو قد اجترأ على المؤمنين فسوف يفتنهم فى دينهم ، وإذا فتنهم فى دينهم فقد هلكوا . إذن فالاستعداد للحرب أنفى للحرب ، وعندما يراك العدو قويّاً فهو يهابك ويتراجع عن قتالك .

والحق سبحانه ـ كما يريد منا فى تشريع القتال أن نقاتل ـ يأمرنا أن نزن أمر القتال وزناً دقيقاً بحسم ، فلا تأخذنا الأريحية الكاذبة ولا الحمية الرعناء ، فيكون المعنى : ولا تقبلوا على القتال إلا إن كان غالب الظن أنكم ستنتصرون ، فحزم الإقدام قد يطلب منك أن تقيس الأمور بدقة ، فالشجاعة قد تقتضى منك أن تحجم وتمتنع عن القتال فى بعض الأحيان ، لتنتصر من بعد ذلك ساعة يكمل الإعداد له .

والمعنى الأول يجعلك تنفق فى سبيل الله ولا تلقى بيدك إلى التهلكة بترك القتال . والمعنى الثانى أى لا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة بأن تقبلوا على القتال بلا داع أو بلا إعداد كافٍ . إن الحق يريد من المؤمنين أن يزنوا المسائل وزناً يجعلهم لا يتركون الجهاد فيهلكوا ؛ لأن خصمهم سيجترىء عليهم ، ولا يحببهم فى أن يلقوا بأيديهم إلى القتال لمجرد الرغبة فى القتال دون الاستعداد له . وهذا هو الحزم الإيمانى ، إنها جملة واحدة أعطتنا عدة معان .

ويذيل الحق الآية الكريمة بقوله : « وأحسنوا إن الله يحب المحسنين » الحق يقول : « وأحسنوا » . والإحسان كما علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أن تعبد الله ـ أى تطيع أوامره ـ كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك »[1] .

مشكلة الناس هذه الأيام أنهم يتشبهون بـ« فإنه يراك » ، فعملوا الدوائر التليفزيونية المغلقة فى المحلات الكبرى حتى تتم مراقبة سير العمل فى أرجاء المحل ، هذه فعل البشر . لكن انظر إلى تسامى الإيمان ، إنه يأمرك أنت أن ترى الله ،

---

(١) جزء من حديث أخرجه الشيخان .

فلا تؤد العمل أداء شكلياً يرفع عنك العتب ، بل عليك أن تؤدى العمل بقصد الإحسان فى العمل .

والإحسان فى كل شىء هو إتقانه إتقاناً بحيث يصنع الإنسان لغيره ما يحب أن يصنعه غيره له ، ولو تعامل الناس على هذا الأساس لامتازت كل الصناعات ، لكن إذا ساد الغش فأنت تغش غيرك ، وغيرك يغشك ، وبعد ذلك كلنا نجأر بالشكوى ، وعلينا إذن أن نحسن فى كل شىء : مثلا نحسن فى الإنفاق ، ولن نحسن فى الإنفاق إلا إذا أحسنا فى الكدح الذى يأتى بثمرة ما ننفق ؛ لأن الكدح ثمرته مال ، ولا إنفاق إلا بمال ، فتخرج من عائد كدحك لتصرفه فى المناسب من الأمور .

ودائرة الإحسان لا تقتصر على القتال فقط ، فالأمر هنا عام ، ولا تعتقد أنه أمر فى زاوية من زوايا الدين جاءت لتخدم جزئية من جزئيات الحياة ، إنما كل زاوية من زوايا الدين جاءت لتخدم كل جزئيات الحياة ، فالإحسان إذا كان بالمال فهذا يقتضى أن يحسن الإنسان الحركة فى الأرض ، ويعمل عملاً يكفيه ويكفى من يعول ، ثم يفيض لديه ما يحسن به .

إذا لم يتوافر المال ، فعليك أن تُحسن بجاهك وتشفع لغيرك ، والجاه قد قومه الإسلام أى جعل له قيمة ، فعلى صاحب الجاه أن يشفع بجاهه ليساعد أصحاب الحقوق فى الحصول على حقوقهم،وعلى الوجيه أيضا أن يأخذ الضعيف فى جواره ويحميه من عسف وظلم القوى ، وعليه بجاهه أن يقيم العدل فى البيئة التى يعيش فيها .

والوجاهة تعنى أن يكون للإنسان احترام أو وزن أو تقدير ، وهذه الأشياء لها مسبقات فى إحسان الشخص ، لا يأخذها بلا سبب ، إنما سبقها عمل جعل له وجاهة عند الناس . فالناس فى العادة لا يحترمون إلا من يكون له لون من الفضل عليهم ، فكأنه احترام مدفوع الثمن ، وليس احتراما مجانياً . وقد يكون الإحسان بالعلم . أو بفضل القوة ، بإعانة الضعيف . أو بإكساب الخبرة للآخرين . أو بتفريج كربة عن مسلم .

إذن وجوه الإحسان فى الأشياء كثيرة ، وكلها تخدم قضية الإيمان . وعندما يرى الكافر المؤمنين وكل واحد منهم يحسن عمله فإن ذلك يغريه بالإيمان . وإذا سألنا : ما الذى زهد دنيانا المعاصرة فى ديننا ؟ فسوف نجد أن العالم ينظر إلى دين الله من خلال حركة المسلمين ، وهى حركة غير إسلامية فى غالبيتها . صحيح أن بعضاً من عقلاء الغرب وفلاسفته لا يأخذون الدين من حركة المسلمين ، وهذا منتهى العدالة منهم لأنه ربما كان بعض المسلمين غير ملتزم بدينه ، فلا يأخذ أحد الإسلام منه لمجرد أنه مسلم .

وأتباع الديانات الأخرى يعرفون أن هناك أفعالاً جرمها دينهم . ومادام هناك أفعال جرمها الدين وسن لها عقوبة فذلك دليل على أنها قد تقع ، فأنت عندما ترى شخصاً ينتسب إلى الإسلام ويسرق ، هل تقول : إن المسلمين لصوص . لا ، إن عليك أن تنظر إلى تشريعات الإسلام هل جرمت السارق أو لم تجرمه ؟ فلا يقولن أحد : انظر إلى حال المسلمين ، ولكن لننظر إلى قوانين الإسلام ، لأن الله قدر على البشر أن يقوموا بالأفعال حسنها وسيئها ، ولذلك أثاب على العمل الصالح وعاقب على العمل السيىء .

والعقلاء والمفكرون يأخذون الدين من مبادىء الدين نفسه ، ولا يأخذونه من سلوك الناس ، فقد يجوز أن تقع عين المراقب على مُخالف فى مسألة يحرمها الدين ، فلا تأخذ الفعل الخاطىء على أنه الإسلام ، وإنما خذه على أنه خارج على الإسلام .

وساعة يرانا العالم محسنين فى كل شىء فنحن نعطيهم الأسوة التى كان عليها أجدادنا ، وجعلت الإسلام يمتد ذلك المد الخرافى الأسطورى حتى وصل فى نصف قرن إلى آخر الدنيا فى الشرق ، وإلى آخرها فى الغرب ، وبعد ذلك ينحسر سياسياً عن الأرض ، ولكن يظل كدين ، وبقى من الإسلام هذا النظام الذى يجذب له الناس . إن الإسلام له مناعة فى خميرته الذاتية إنه يحمل مقومات بقائه وصلاحيته ، وهو الذى يجذب غير المسلمين له فيؤمنون به ، وليس المسلمون هم الذين يجذبون الناس للإسلام .

ولذلك أقول : لو أن التمثيل السياسى للأمم الإسلامية فى البلاد غير الإسلامية

المتحضرة قد أخذ بمبادىء الإسلام لكان أسوة حسنة . وانظر إلى عاصمة واحدة من عواصم الدول الغربية تجد فيها أكثر من ثلاث وستين سفارة إسلامية ، وكل سفارة يعمل فيها جهاز يزيد على العشرين ، هب أن هؤلاء كانوا أسوة إسلامية فى السلوك والمعاملات فى عاصمة غير إسلامية ، حينئذ يجد أهل ذلك البلد جالية إسلامية ملتزمة ولم تفتنها زخارف المدنية : لا يشربون الخمر ، ولا يراقصون ، ولا يترددون على الأماكن السيئة السمعة ، ولا تتبرج نساؤهم ، بالله ألا يلفت النظر سلوكُ هؤلاء ؟

لكن ما يحدث ـ للأسف ـ هو أن أهل الغرب ـ على باطلهم ـ غلبوا بنى الإسلام ـ على حقهم ـ وأخذوهم إلى تحللهم ، وهذا الاتباع الأعمى يجعل الغربيين يقولون : لو كان فى الإسلام مناعة لحفظ أبناءه من الوقوع فيما وقعنا فيه .

إذن الإحسان من المسلمين أكبر دعاية ودعوة إلى دين الإسلام . إن الحق يقول : « إن الله يحب المحسنين » والحب كما نعرفه هو ميل قلب المحب إلى المحبوب ، وذلك الأمر يكون بالنسبة للبشر ، لكن بالنسبة للحق هو تودد الخالق بالرحمة والكرامة على المخلوق ، والحق سبحانه وتعالى يحب من عباده أن يكونوا على خُلقه ، فكما أن الله أحسن كل شىء خلقه « الذى أحسن كل شىء خلقه » يريد من عباده وقد تفضل عليهم بالعقل المفكر فيخطط ، وبالطاقات فتبرز التفكير إلى عمل يريد الحق منا أن يكون رائدنا فى كل عمل أن نحسنه ؛ حتى نكون متخلقين بأخلاق الله ، فتشيع كلمة « الله » هذا اللفظ الكريم الذى يستقبل به الإنسان كل جميل فى أى صنعة فيقول : « الله » .

إذن تشيع كلمة « الله » نغمة فى الوجود تعليقا على كل شىء حسن ، حتى الذى لا يؤمن بذلك الإله يقول أيضا : « الله » ، كأن الفطرة التى فطر الله الناس عليها تنطق بأن كل حسن يجب أن يُنسب إلى الله سواء كان الله هو الذى فعل مباشرة كالأسباب والكونيات والنواميس ، أو خلق الذى فعل الحسن ، فكل الأمور تؤول إلى الله .

ولو علم الذين لا يحسنون أعمالهم بماذا يحرمون الوجود لتحسروا على أنفسهم ،

وليتهم يحرمون الوجود من كلمة « الله » ، ولكنهم يجعلون مكان « الله » كلمة خبيثة فيشيعون القبح فى الوجود ، وحين يشيع القبح فى الوجود يكون الإنسان فى عمومه هو الخاسر .

فقول الله : « إن الله يحب المحسنين » تشجيع لكل من يلى عملاً أن يحسنه ليكون على أخلاق الله . وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ۖ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾ ﴾

والنسق القرآنى نسق عجيب ، فأنتم تذكرون أنه تكلم عن الصيام . ورمضان يأتى قبل أشهر الحج ، فكان طبيعياً أن يتكلم عن الحج بعد أن تكلم عن رمضان وعن الأهلة وعن جعل الأهلة مواقيت للناس والحج كما أن هناك شيئاً آخر يستدعى أن يتكلم فى الحج وهو الكلام عن القتال فى الأشهر الحرم ، وعن البيت الحرام فقد قال سبحانه :

﴿ وَلَا تُقَـٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِيهِ ﴾

(من الآية ١٩١ سورة البقرة)

إذن فالكلام عن الحج يأتى فى سياقه الطبيعى . وحين يقول الله : « وأتموا الحج والعمرة لله » نفهم منه أن الأمر بإتمام الشىء لا يكون إلا إذا جاء الأمر بفرض هذا الفعل ، فكأنك بدأت فى العمل بعد التشريع به ، ويريد منك سبحانه ألاّ تحج فقط ، ولكن يريد منك أن تتمه وتجعله تامّاً مستوفياً لكل مطلوبات المشرع له .

وساعة يقول الحق : « وأتموا الحج والعمرة» لقائل أن يقول : إن الحج شىء والعمرة شىء آخر ، بدليل عطفها عليه ، والعطف يقتضى المغايرة كما يقتضى المشاركة ، فإن وُجدَت مشاركة ولم توجد مغايرة فلا يصح العطف ، بل لابد أن يوجد مشاركة ومغايرة . والمشاركة بين الحج والعمرة أن كليهما نسك وعباده ، وأما المغايرة فهى أن للحج زمنًا مخصوصًا ويشترط فيه الوقوف بعرفة ، وأما العمرة فلا زمن لها ولا وقفة فيها بعرفة .

ولكن الحق سبحانه وتعالى يقول فى مشروعية الحج :

﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾

(من الآية ٩٧ سورة آل عمران)

ولم يأت فى تلك الآية بذكر العمرة ، ومنها نعرف أن الحج شىء والعمرة شىء آخر ، والمفروض علينا هو الحج . ولذلك أقول دائما لابد لنا أن نأخذ القرآن جملة واحدة ، ونأتى بكل الآيات التى تتعلق بالموضوع لنفهم المقصود تماماً ، فحين يقول الحق فى قرآنه أيضا : « وأتمو الحج والعمرة لله » نعرف من ذلك أن العمرة غير الحج ، وحين تقرأ قول الله فى سورة براءة :

﴿ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ ﴾

(من الآية ٣ سورة التوبة)

نعرف أن هناك حجًّا أكبر ، وحجًّا ثانيا كبيراً . ولذلك فآية « ولله على الناس حج البيت » جاءت بالبيت المحرم ، وهو القدر المشترك فى الحج والعمرة . ونعرف أن الحج الأكبر هو الحج الذى يقف فيه المسلم بعرفة ؛ لأن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : « الحج عرفة »[1] . وهو الحج الأكبر ؛ لأن الحشد على عرفة يكون كبيراً ، وهو يأتى فى زمن مخصوص ويُشترط فيه الوقوف بعرفة .

إذن قوله تعالى : « ولله على الناس حج البيت » الحج هو القصد إلى مُعظَّم وهو « حج البيت » ، أما العمرة فهى الحج الكبير وزمانها شائع فى كل السنة ، والقاصدون للبيت يتوزعون على العام كله . وذلك قد ثبت بالتشريع بقوله سبحانه : « ولله على الناس حج البيت » . ومادام جاء بالأمر المشترك فى قوله : حج البيت فهو يريد الحج الأكبر والحج الكبير .

والحق سبحانه وتعالى يخاطب عباده ويعلم أن بعض الناس سيقبلون على العبادات إقبالاً شكلياً ، وقد يقبلون على العبادة لأغراض أخرى غير العبادة ، فكان لابد أن يبين القصد من الحج والعمرة ، وأن المطلوب هو إتمامها ، ولابد أن يكون القصد لله لا لشىء آخر ، لا ليقال « الحاج فلان » ، أو ليشترى سلعاً رخيصة ويبيعها بأغلى من ثمنها بعد عودته .

ونحن نعلم أن الحج هو العبادة الوحيدة التى يستمر اقترانها بفاعلها ، فمثلاً لا يقال: « المصلى فلان » ولا « المزكى فلان » ، فإن كان الحاج حريصاً على هذا اللقب ، وهو دافعه من وراء عبادته فلابد ألا يخرج بعبادته عن غرضها المشروعة من أجله . إن الحق يقول : « وأتموا الحج والعمرة لله » . وكلمة « لله » تخدمنا فى قضايا متعددة ، فما هى هذه القضايا ؟

إن المسلم عندما يريد أن يحج لله فلا يصح أن يحج إلا بمال شرع الله وسائله . كثير من الناس حسين يسمعون الحديث الشريف :

---

(١) رواه أحمد وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه .

« من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه »[١] .

يعتقدون أن الإنسان له أن يرتكب ما يشاء من معاص ومظالم ، ثم يظن أن حجة واحدة تُسقط عنه كل ذنوبه ، نقول لهؤلاء : أولاً : لابد أن تكون الحجة لله ، وثانياً : أن تكون من مال حلال ، ومادامت لله ومن مال حلال فلابد أن نعرف ما هى الذنوب التى تسقط عنه بعد الحج ، فليست كل الذنوب تسقط ، وإنما الذنوب المتعلقة بالله سبحانه وتعالى ؛ لأن الذنب المتعلق بالله أنت لم تظلم الله به ، لكن ظلمت نفسك ، ولكن الذنب المتعلق بالبشر فيه إساءة لهم أو انتقاص من حقوقهم ، وبالتالى فإن ظلم العباد لا يسقط إلا برد حقوق العباد .

ونعرف أن العمرة هى قصد البيت الحرام فى مطلق زمان من العام ، والحج قصد البيت فى خصوص زمان من العام ، ويقول بعض العلماء : إن هذا تكليف وذاك تكليف ، فهل يجوز أداؤهما معاً ، أم كل تكليف يؤدى بمعزل عن الآخر ؟.

وبعضهم تناول ملحظيات الفضل والحسن ، فالذى يقول : إن الإفراد بالحج أحسن ، فذلك لأنه خص كل نُسك بسفرة ، والذى يقول : يؤديهما معاً ويحرم بالحج والعمرة معاً بإحرام واحد ، فيذهب أولاً ويأتى بنسك العمرة ، ثم يظل على إحرامه إلى أن يخرج إلى الحج ، وفى هذه الحالة يكون قد قرن الأمرين معا ؛ أى أداهما بإحرام واحد وهذا ما يفضله بعض من العلماء ؛ لأن الله علم أن العبد قد أدى نُسكين بإحرام واحد ، وهناك إنسان متمتع أى يؤدى العمرة ، ثم يتحلل منها ، وبعد ذلك يأتى قبل الحج ليحرم بالحج ، وهذا اسمه التمتع ، وهو متمتع لأنه تحلل من الإحرام ، ومن العلماء من يقول : إن التمتع أحسن لأنه فصل بين أمرين بما أخرجه عن العادة ، أحرم ثم تحلل ثم أحرم .

إذن كل عالم له ملحظ ، فكأن الله لا يريد أن يضيق على خلقه فى أداء نُسك على أى لون من الألوان . وقد احتاط المشرع سبحانه وتعالى عند التكليف ، واحترم كل الظروف سواء كانت الظروف التى قد تقع من غير غريم وهو القدريات ، أو تقع من

---

(١) رواه البخارى والنسائى وابن ماجه وأحمد عن أبى هريرة .

غريم ، وهى التى لها أسباب أخرى فقال : « فإن أحصرتم فما استيسر من الهدى » .

وأحصرتم تعنى مُنِعْتُم . وهناك « حصر » وهى للقدريات ، وهناك « أحصر » وتكون بفعل فاعل مثل تدخل العدو كما حوصر رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عام الحديبية ، وقيل له لا تدخل مكة هذا العام ، لذلك فالحق سبحانه وتعالى يخفف عنا وكأنه يقول لنا : أنا لا أهدر تهيؤ العباد ، ولا نيتهم ولا استعدادهم ولا إحرامهم ؛ فإن أُحْصِروا « فما استيسر من الهدى » والهدى هو ما يتم ذبحه تقربا إلى الله ، وكفارة عما حدث .

ثم يقول بعد ذلك : « ولا تحلقوا رءوسكم حتى يبلغ الهدى محله » أى إلى أن يبلغ المكان المخصص لذلك ، هذا إن كنت سائق الهدى ، أما إن لم تكن سائق الهدى فليس ضروريا أن تذبحه ، ويكفى أن تكلف أحداً يذبحه لك ، وقوله الحق : « فمن تمتع بالعمرة إلى الحج فما اتيسر من الهدى » تعنى أنه يصح أن يذبح الإنسان الهدى قبل عرفة ، ويصح أن نؤخره ليوم النحر ، ويصح أن يذبحه بعد ذلك كله .

« فما استيسر من الهدى » تعنى أيضا إن كان الحصول على الهدى سهلاً ، سواء لسهولة دفع ثمنه ، أو لسهولة شرائه ، فقد توجد الأثمان ولا يوجد المُثَمَّن . « والهدى » هو ما يُهدى للحرم ، أو ما يهدى الإنسان إلى طريق الرشاد ، والمعنى مأخوذ من الهُدى ، وهو الغاية الموصلة للمطلوب .

وقوله تعالى : « ولاتحلقوا رءوسكم حتى يبلغ الهدى محله فمن كان منكم مريضا أو به أذى من رأسه ففدية » فالمريض الذى لا يستطيع أن يذبح الهدى وعنده أذى من رأسه كالصحابى الذى كان فى رأسه قمل ، وكان يسبب له ألما ، فقال له رسول الله : « احلق رأسك وصم ثلاثة أيام أو أطعم ستة مساكين أو أنسك بشاة »[1] .

إنها تشريعات متعاقبة وكل تشريع له مناسبة ، فكما شرع لمن أحصر ما استيسر

---

(١) رواه البخارى ومسلم .

من الهدى ، كذلك شرع لمن حلق رأسه لمرض أو كان به أذى من رأسه ، شرع له ثلاثة أشياء : صيام أو صدقة أو نسك .

والمتأمل لهذه الأشياء الثلاثة يجد أنها مرتبة ترتيبا تصاعدياً . فالصيام هو أمر لا يتعدى النفع المباشر فيه إلى الغير ، والصدقة عبادة يتعدى النفع فيها للغير ، ولكن بقدر محدود لأنها إطعام ستة أفراد مثلاً ، والنسك هو ذبيحة ، ولحمها ينتفع به جمع كبير من الناس .

فانظر إلى الترقى فى النفع ، إما صوم ثلاثة أيام ، وإما إطعام ستة مساكين ، وإما ذبح ذبيحة أى شاة . إن هذا تصعيد من الأضعف للأقوى كل بحسب طاقته ومقدرته .

والحق سبحانه وتعالى ساعة يشرع كفارات معينة فذلك من أجل مراعاة العمليات المطلوبة فى الحج ، والمناسبة لظروف وحالة المسلم ، فأباح له فى حالة التمتع مثلا أن يقسم الصوم إلى مرحلتين : ثلاثة أيام فى الحج ، وسبعة إذا رجعتم . إنه الترقى فى التشريعات ، واختيار للأيسر الذى يجعل المؤمن يخرج من المأزق الذى هو فيه .

« فمن كان منكم مريضاً أو به أذى من رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك فإذا أمنتم فمن تمتع بالعمرة إلى الحج فما استيسر من الهدى فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام فى الحج وسبعة إذا رجعتم » .

وكلمة « فمن لم يجد » معناها أنه لا يملك ، وهذا الذى لا يملك نقول له : لا تفعل كما يفعل كثير من الناس قبل أن يطوفوا ، إن بعضهم يذهب للسوق ويشترى الهدايا ، وبعد ذلك ساعة وجوب الهدى عليه يقول : ليس معى ولذلك سأصوم . هنا نقول له : ألم يكن ثمن تلك الهدايا يصلح لشراء الهدى ؟

إنه لأمر غريب أن تجد الحاج يشترى هدايا لا حصر لها ، ساعات وأجهزة كهربائية ويملأ حقائبه ، ثم يقول لا أجد ما أشترى به الهدى . أليس ذلك غشاً

وخداعاً ؟ إن من يفعل ذلك يغش نفسه .

إذن قوله تعالى : « فمن لم يجد » يعنى لا يجد حقا ، لا من تنفد أمواله فى الهدايا ، ثم يصبح صفر اليدين ، ولذلك فالذين يحسنون أداء النسك لا يشترون هداياهم إلا بعد تمام أداء المطلوب فى النسك ، وإن بقى معهم مال اشتروا على قدر ما معهم .

والذين ينفقون أموالهم فى شراء الهدايا ثم يأتون عند «فما استيسر من الهدى» ويقولون ليس معنا ثمن الهدى وسنصوم ، الغريب أنهم لا يتذكرون الصوم إلا عند عودتهم ، ألم يكن الأفضل للواحد منهم أن يصوم من البداية ، من لحظة أن يعرف أنه لا يملك ثمن الهدى ويدخل فى الإحرام للعمرة ؟

إن المفروض أن يبدأ فى صوم الثلاثة أيام حتى يكون عذره مسبقاً وليس لاحقاً ، وبعض العلماء أباح صوم أيام التشريق ، وأيام التشريق الثلاثة هى التى تلى يوم العيد لأنهم كانوا « يشرقون اللحم » أى يبسطونه فى الشمس ليجف ويقدد . وبعد ذلك عندما ينتهى من أداء المناسك إما أن يصوم السبعة الأيام فى الطريق وهو عائد ، أو عندما يصل لمنزله ، إن له أن يختار ما يناسبه « فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام فى الحج وسبعة إذا رجعتم تلك عشرة كاملة » ومعروف أن « ثلاثة » و« سبعة » تساوى « عشرة » ، وذلك حتى لا يظن الناس أن المقصود إما صوم ثلاثة أيام وإمّا سبعة أيام ، لذلك قال : « عشرة كاملة » حتى لا يلتبس الفهم .

وربما أراد الحق سبحانه وتعالى أن ينبهنا إلى أن الصائم سيصوم عشرة أيام فهى كاملة بالنسبة لأداء النسك . وليس الذابح بأفضل من الصائم ، فمادام لم يجد ثمن الهدى وصام العشرة الأيام ، فله الأجر والثواب كمن وجد وذبح . فإياك أن تظن أن الصيام قد يُنقصُ الأجر أو هو أقل من الذبح .

ويقول الحق : « ذلك لمن لم يكن أهله حاضرى المسجد الحرام » . وهذا التشريع مقصود به من لم يكن أهله مقيمين بمكة . ونعرف أن حدود المسجد الحرام هى اثنا عشر ميلا ، والمقيم داخل هذه المسافة لا يلزمه ذبح ولا صوم ، لماذا ؟ بعض العلماء

قال : لأن المقيمين حول المسجد الحرام طوافهم دائم فيغنيهم عن العمرة ، فإن حج لا يدخل فى هذا التشريع .

ويختم الحق هذه الآية بقوله : « واتقوا الله واعلموا أن الله شديد العقاب » . كيف يقول الحق : إنه شديد العقاب فى التيسيرات التى شرعها ؟ أى : إياكم أن تغشوا فى هذه التيسيرات ، فليس من المعقول أو من المقبول أن ندلس شيئاً فيها ، لذلك حذرنا سبحانه من الغش فى هذه المناسك بقوله : « واعلموا أن الله شديد العقاب » .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾ ﴾

ولنا أن نلحظ أن الحق قال فى الصوم : « شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن » ولم يذكر شهور الحج : شوالاً وذا القعدة وعشرةً من ذى الحجة كما ذكر رمضان ، لأن التشريع فى رمضان خاص به فلابد أن يعين زمنه ، لكن الحج كان معروفاً عند العرب قبل الإسلام ، ويعلمون شهوره وكل شىء عنه ؛ فالأمر غير محتاج لذكر أسماء الشهور الخاصة به ، والشهور المعلومة هى : شوال وذو القعدة وعشرة أيام من ذى الحجة وتنتهى بوقفة عرفات وبأيام منى ، وشهر الحج لا يستغرق منه سوى عشرة أيام ، ومع ذلك ضمه لشوال وذى القعدة ، لأن بعض الشهر يدخل فى الشهر .

وكلمة « معلومات » تعطينا الحكمة من عدم ذكر أسماء شهور الحج ، لأنها كانت معلومة عندهم .

« فمن فرض فيهن الحج » والفرض ليس من الإنسان إنما الفرض من الله الذى فرض الحج ركنا ، وأنت إن ألزمت به نفسك نية وفعلاً ، وشرعت ونويت الحج فى الزمن المخصوص للحج تكون قد فرضت على نفسك الحج لهذا الموسم الذى تختاره وهو ملزم لك . وقوله سبحانه : « فرض » يدل على أنك تلتزم بالحج وإن كان مندوباً . أى غير مفروض .

« فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج » . والرفث للسان ، وللعين . وللجوارح الأخرى رفث ، كلها تلتقى فى عملية الجماع ومقدماته ، ورفث اللسان فى الحج أن يذكر مسألة الجماع ، ورفث العين أن ينظر إلى المرأة بشهوة . فالرفث هو كل ما يتأتى مقدمة للجماع ، أو هو الجماع أو ما يتصل به بالكلمة أو بالنظرة ، أو بالفعل .

والرفث وإن أُبيح فى غير الحج فهو محرم فى الحج ، أما الفسوق فهو محرم فى الحج وفى غير الحج ، فكأن الله ينبه إلى أنه وإن جاز أن يحدث من المسلم فسوق فى غير الحج ، فليس من الأدب أن يكون المسلم فى بيت الله ويحدث ذلك الفسوق منه ، إنّ الفسوق محرم فى كل وقت ، والحق ينبه هنا المسرف على نفسه ، وعليه أن يتذكر إن كان قد فسق بعيداً عن بيت الله فليستح أن يعصى الله فى بيت الله ؛ فالذاهب إلى بيت الله يبغى تكفير الذنوب عن نفسه ، فهل يُعقل أن يرتكب فيه ذنوبًا ؟ لابد أن تستحى أيها المسلم وأنت فى بيت الله ، واعلم أن هذا المكان هو المكان الوحيد الذى يُحاسب فيه على مجرد الإرادة .

يقول الله عز وجل :

﴿ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾

(من الآية ٢٥ سورة الحج)

إذن الرفث حلال فى مواضع ، لكنه يَحْرُمُ فى البيت الحرام ، ولكن الفسوق ممتنع فى كل وقت ، وامتناعه أشد فى البيت الحرام .

والجدال وإن كان مباحا فى غير الحج فلا يصح أن يوجد فى الحج . ولنا أن نعرف أن مرتبة الجدال دون مرتبة الفسوق ، ودون مرتبة العصيان ، والرسول قال : « من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه »[1] لم يقل : « ولم يجادل » إن بشرية الرسول تراعى ظروف المسلمين ، فمن المحتمل أن يصدر جدال من الحاج نتيجة فعل استثاره ، فكأن عدم ذكر الجدال فى الحديث فسحة للمؤمن ولكن لا يصح أن نتمادى فيها .

والجدال ممكن فى غير الحج بدليل :

﴿ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ ﴾

(من الآية ١٢٥ سورة النحل)

إنما الحج لا جدال فيه .

والجدل هو أن يلف كل واحد من الطرفين على الآخر ليطوقه بالحجة . ثم انظر إلى تقدير الحق لظروف البشر وعواطف البشر والاعتراف بها والتقنين لأمر واقع معترف به ، فالحج يُخرج الإنسانَ من وطنه ومن مكان أهله ، ومن ماله ، ومما أَلِفَ واعتاد من حياة . وحين يخرج الإنسان هذا الخروج فقد تضيق أخلاق الناس ؛ لأنهم جميعاً يعيشون عيشة غير طبيعية ؛ فهناك من ينام فى غرفة مشتركة مع ناس لا يعرفهم ، وهناك أسرة تنام فى شقة مشتركة ليس فيها إلا دورة مياه واحدة ، ومن الجائز أن يرغب أحد الأفراد فى قضاء حاجته فى وقت قضاء حاجة شخص آخر ، وحين تكون هذه المسألة موجودة لا رأى لإنسان ، ولذلك يقال : « لا رأى لحاقن » أى لا رأى لمحصور . . أى لمن يريد قضاء حاجته من بول ، وكذلك الشأن فى الحاقب وهو الذى يحتبس غائطه لأنها مسألة تُخِل توازن الإنسان .

---

(١) رواه أحمد ، والبخارى ، والنسائى وابن ماجه .

إذن فالحياة فى الحج غير طبيعية ، وظروف الناس غير طبيعية ، لذلك يحذرنا الحق من الدخول فى جدل ؛ لأنه ربما كان الضيق من تغيير نظام الحياة سبباً فى إساءة معاملة الآخرين ، والحق يريد أن يمنع هذا الضيق من أن يؤثر فى علاقتنا بالآخرين . وقد أثبتت التجربة أن من يذهبون للحج فى جماعة إما أن يعودوا متحابين جداً ، وإما أعداء ألداء .

ولذلك يطلب إلينا الحق أن يصبر كل إنسان على ما يراه من عادات غيره فى أثناء الحج ، وليحتسب خروجه عن عاداته وعن رتابة أموره وعن أنسه بأهله يحتسب ذلك عند الله ، وليشتغل بأنس الله ، وليتحمل فى جانبه كل شىء ، ويكفى أنه فى بيت الله وفى ضيافته .

والحق سبحانه وتعالى يقول : « وما تفعلوا من خير يعلمه الله وتزودوا فإن خير الزاد التقوى » . فبعد أن نهانا الحق بقوله : « فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج » وتلك أمور سلبية وهى أفعال على الإنسان أن يمتنع عنها ، وهنا يتبع الحق الأفعال السلبية بالأمر بالأفعال الإيجابية ، أفعال الخير التى يعلمها الله .

إن الله يريد أن نجمع فى العبادة بين أمرين ، سلب وإيجاب ، سلب ما قال عن الرفث والفسوق والجدال ، ويريد أن نوجب ونوجد فعلا . « وما تفعلوا من خير يعلمه الله » . وما هو ذلك الخير ؟ إنها الأمور المقابلة للمسائل المنهى عنها ، فإذا كان الإنسان لا يرفث فى الحج فمطلوب منه أن يعف فى كلامه وفى نظرته وفى أسلوبه وفى علاقته بامرأته الحلال له ، فيمتنع عنها مادام محرمًا ويُطلب منه أن يفعل ما يقابل الفسوق ، من بر وخير .

وفى الجدال نجد أن مقابله هو الكلام بالرفق والأدب واللين وبحلاوة الأسلوب وبالعطف على الناس ، هذا هو المقصود بقوله : « وما تفعلوا من خير يعلمه الله » . وكلمة مِنْ فى قوله « من خير » للابتداء ، كأن الله سبحانه وتعالى يريد منك أن تصنع خيراً وهو سبحانه يرى أقل شىء من الخير ؛ ولذلك قال : « يعلمه الله » . فكأنه خير لا يراه أحد ؛ فالخير الظاهر يراه كل الناس ، والتعبير بـ «يعلمه الله » أى الخير

مهما صغر ، ومهما قل فإن الله يعلمه ، وكثير من الخيرات تكون هواجس بالنية ، ويجازى الله على الخير بالجزاء الذى يناسبه .

وقول الحق : « وتزودوا » والزاد : هو ما يأخذه المسافر ليتقوى به على سفره ، وكان هذا أمراً مألوفا عند العرب قديما ؛ لأن المكان الذى يذهبون إليه ليس فيه طعام . وكل هذه الظروف تغيرت الآن ، وكذلك تغيرت عادات الناس التى كانت تذهب إلى هناك . كانت الناس قديماً تذهب إلى الحج ومعها أكفانها ، ومعها ملح طعامها ، ومعها الخيط والإبرة ، فلم يكن فى مكة والمدينة ما يكفى الناس ، وأصبح الناس يذهبون الآن إلى هناك ليأتوا بكماليات الحياة ، وأصبحت لا تجد غرابة فى أن فلانا جاء من الحج ومعه كذا وكذا . كأن الحق سبحانه وتعالى جعل من كل ذلك إيذانا بأنه أخبر قديما يوم كان الوادى غير ذى زرع فقال :

﴿ يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾

(من الآية ٥٧ سورة القصص)

وانظر إلى دقة الأداء القرآنى فى قوله : « يجبى » ومعناها يؤخذ بالقوة وليس باختيار من يذهب به ، فكأن من يذهب بالثمرات بكل ألوانها إلى هناك مرغم أن يذهب بها ، وهو رزق من عند الله ، وليس من يد الناس .

وهذا تصديق لقوله تعالى :

﴿ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة إبراهيم)

وقوله الحق : « وتزودوا » مأخوذة ـ كما عرفنا ـ من الزيادة ، والزاد هو طعام المسافر ، ومن يدخر شيئا لسفر فهو فائض وزائد عن استهلاك إقامته ، ويأخذه حتى يكفيه مئونة السؤال أو الاستشراف إلى السؤال ؛ لأن الحج ذلة عبودية ، وذلة العبودية يريدها الله له وحده . فمن لا يكون عنده مئونة سفره فربما يذل لشخص آخر ، ويطلب منه أن يعطيه طعاما ، والله لا يريد من الحاج أن يذل لأحد ، ولذلك

يطلب منه أن يتزود بقدر حاجته حتى يكفى نفسه ، وتظل ذلته سليمة لربه ، فلا يسأل غير ربه ، ولا يستشرف للسؤال من الخلق ، ومن يسأل أو يستشرف فقد أخذ شيئا من ذلته المفروض أن تكون خالصة فى هذه المرحلة لله وهو يوجهها للناس ، والله يريدها له خالصة .

وإن لم يعط الناس السائل والمستشرف للسؤال فربما سرق أو نهب قدر حاجته ، وتتحول رحلته من قصد البر إلى الشر . وكان بعض أهل اليمن يخرجون إلى الحج بلا زاد ويقولون : « نحن متوكلون ، أنذهب إلى بيت الله ولا يطعمنا ؟» . ثم تضطرهم الظروف لأن يسرقوا ، وهذا سبب وجود النهب والسرقة فى الحج . إن إلحاح الجوع قد يدفع الإنسان لأن ينهب ويسرق ليسد حاجته .

ومن هنا أراد الحق سبحانه وتعالى أن يقطع على النفس البشرية هذا الشر فقال : « وتزودوا » إنه أمر من الله بالتزود فى هذه الرحلة التى ينقطع فيها الإنسان عن ماله وعن أهله وعن أحبابه وعن معارفه ، ويقول سبحانه : « فإن خير الزاد التقوى » ونعرف أن الزاد هو ما تَقِى به نفسك من الجوع والعطش ، وإذا كان التزود فيه خير لاستبقاء حياتك الفانية ، فما بالك بالحياة الأبدية التى لا فناء فيها ، ألا تحتاج إلى زاد أكبر ؟ فكأن الزاد فى الرحلة الفانية يعلمك أن تتزود للرحلة الباقية .

إذن فقوله : « فإن خير الزاد التقوى » يشمل زاد الدنيا والآخرة . والله سبحانه وتعالى يذكرنا بالأمور المُحَسّة وينقلنا منها إلى الأمور المعنوية ، ولكن إذا نظرت بعمق وصدق وحق وجدت الأمور المعنوية أقوى من الأمور الحسية . ولذلك نلاحظ فى قوله سبحانه وتعالى :

﴿ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ﴾

(من الآية ٢٦ سورة الأعراف)

هذا أمر حسى . ويفيدنا ويزيدنا سبحانه « ريشاً » إنه ـ سبحانه ـ لا يوارى السوءة فقط ، وإنما زاد الأمر إلى الكماليات التى يتزين بها ، وهذه الكماليات هى الريش ، أى ما يتزين به الإنسان ، ثم قال الحق :

﴿ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾

(من الآية ٢٦ سورة الأعراف)

أى أنعمت عليكم باللباس والريش ، ولكن هناك ما هو خير منهما وهو « لباس التقوى » . فإن كنت تعتقد فى اللباس الحسى أنه سَترَ عورتك ووقاك حراً وبرداً وتزينت بالريش منه فافهم أن هذا أمر حسى ، ولكن الأمر الأفضل هو لباس التقوى ، لماذا ؟ لأن مفضوح الآخرة شر من مفضوح الدنيا .

إذن فقوله : « وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون يا أولى الألباب » . يعنى أن الحق يريد منك أن تتزود للرحلة زاداً يمنعك عن السؤال والاستشراف أو النهب أو الغصب ، واحذر أن يدخل فيه شىء مما حرم الله ، ولكن تزودك فى دائرة : « واتقون يا أولى الألباب » أى يا أصحاب العقول ، ولا ينبه الله الناس إلى ما فيهم من عقل إلا وهو يريد منهم أن يُحَكِّمُوا عقولهم فى القضية ، لأنه جل شأنه يريد منك أن تُحَكِّمَ عقلك ، فإن حَكَمْتَ عقلك فى القضية فسيكون حُكْمُ العقل فى صف أمر الله .

ولما كان الله ـ سبحانه ـ بسعة لطفه ورحمته ـ يريد فى هذه الشعيرة المقدسة والرحلة المباركة أن يتعاون الناس ، أذِنَ لجماعةٍ من الحجاج أن تقوم على خدمة الآخرين تيسيراً لهم . ومن العجيب أن الذين يقومون بخدمة الحجاج يُرخصُ الله لهم فى الحج أن ينفروا قبل غيرهم ؟ لأن تلك مصلحة ضرورية . فهب أن الناس جميعا امتنعوا عن خدمة بعضهم بعضا فمن الذى يقوم بمصالح الناس ؟ إذن لابد أن يذهب أناس وحظهم العمل لخدمة الحجاج ،والله ـ سبحانه وتعالى ـ بين ذلك ووضحه بقوله :

﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ

فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ ۖ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ ﴿١٩٨﴾

« ليس عليكم جناح » أى لا إثم عليكم ولا حرج « أن تبتغوا فضلاً من ربكم » أى أن تتكسبوا فى الحج وهو نسك عبادى ، والمكسب الذى يأتى فيه هو فضل من الله . وقديماً كانوا يقولون : فيه « حاج » ، وفيه « داجّ » ، واحدة بالحاء وواحدة بالدال ، « فالداجّ » هو الذى يذهب إلى الأراضى المقدسة للتجارة فقط ، ونقول له : لا مانع أن تذهب لتحج وتتاجر ؛ لأنك ستيسر أمراً ؛ لأننا إن منعناه فمن الذى يقوم بأمر الحجيج ؟

ولماذا قال الحق : « تبتغوا فضلاً من ربكم » ولم يقل رزقاً ؟ . لقد أوضح الحق فى الآية التى قبلها : ألاّ تذهبوا إلاّ ومعكم زادكم . إذن أنت لا تريد زاداً بعملك هذا ، أى لا تذهب إلى الحج لتأكل من التجارة ، إنما تذهب ومعك زادك وما تأتى به هو زائد عن حاجتك ويكون فضلاً من الله سبحانه وتعالى ، وهو جل شأنه يريد منك ألاّ يكون فى عملك المباح حرجٌ ؛ فنفى الجناح عنه ؛ فأنت قد جئت ومعك الأكل والشرب ويكفيك أن تأخذ الربح المعقول ، فلا يكون فيه شائبة ظلم كالاستغلال لحاجة الحجيج ، لذلك أسماه « فضلاً » يعنى أمرا زائداً على الحاجة .

وكل ابتغاء الرزق وابتغاء الفضل لا يصح أن يغيب عن ذهن مبتغى الرزق والفضل ، فكله من عند الله . إياك أن تقول : قوة أسباب ، وإياك أن تقول : ذكاء أو احتياط ، فلا شىء من ذلك كله ؛ لأن الرزق كله من الله هو فضل من الله . ولا ضرر عليك أن تبتغى الفضل من الرب ؛ لأنه هو الخالق وهو المربى . ونحن مربوبون له ، فلا غضاضة أن تطلب الفضل من الله .

ثم يقول الحق بعد ذلك : « فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر

الحرام » . وأنت حين تملأ كأسا عن آخرها فهى تفيض بالزائد على جوانبها ، إذن فالفائض معناه شيء افترق عن الموجود للزيادة .

قوله : « فإذا أفضتم من عرفات » تدل على أن الله قد حكم بأن عرفات ستمتلىء امتلاء ، وكل من يخرج منها كأنه فائض عن العدد المحدد لها . وهذا حكم من الله فى الحج . وأنت إذا ما شهدت المشهد ـ كتبه الله للمسلمين جميعاً . إن شاء الله ـ سترى هذه المسألة ، فكأن إناءً قد امتلأ ، وذلك يفيض منه . ولا تدرى من أين يأتى الحجيج ولا إلى أين يذهبون . ومن ينظر من يطوفون بالبيت يظن أنهم كتل بشرية ، وكذلك إذا فاض الحجيج فى مساء يوم عرفة يخيل إليك عندما تنظر إليهم أنه لا فارق بينهم ؛ ولذلك يقال : سالت عليه شعاب الحى كأنها سيل .

وقال الشاعر :

فسالت عليه شعاب الحى حين دعا
أصحابه بوجوه كالدنانير

وقال آخر :

ولما قضينا من منىً كل حاجة
ومسّح بالأركان من هو ماسح
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا
وسالت بأعناق المطى الأباطح

أى كأنه سيل متدفق ، هكذا تماما تكون الإفاضة من عرفات . وعندما تتأمل الناس المتوجهين إلى « مزدلفة » تتعجب أين كان كل هذا الجمع ؟ ترى الوديان يسير فيها الناس والمركبات كأنهم السيل ولا تستطيع أن تفرق شخصاً من مجموعة ، وفى موقف الحجيج إفاضتان : إفاضة من عرفات ، ثم إفاضة ثانية بينتها الآية التى بعدها يقول ـ سبحانه ـ :

﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٩٩﴾﴾

وعرفات ننطقها بمنطوقين : مرة نقول « عرفات » كما وردت فى هذه الآية ، ومرة ننطقها « عرفة » كما فى قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « الحج عرفة »[1] . وعرفات جمع ، وعرفة مفرد .

هذه الكلمة أصبحت علماً على المكان الفسيح الذى يجتمع فيه الحجيج فى التاسع من ذى الحجة ، ولا تظن أنها جبل ، فإذا سمعت : « جبل عرفات » كما يقول الناس فافهم أن المقصود هو الجبل المنسوب إلى عرفات . وليست عرفات فى ذاتها ، ولذلك تجد أناساً كثيرين يظنون أنهم إن لم يصعدوا الجبل المسمى بجبل الرحمة الذى عند الصخرات التى وقف عليها رسول الله فى حجة الوداع فكأن الإنسان منهم لم يحج . نقول لهم : لا . الوقوف يكون فى الوادى ، والجبل المجاور للوادى أسميناه جبل عرفات ، فالجبل هو المنسوب لعرفات وليس الوادى هو المنسوب للجبل .

وأصل كلمة عرفة وردت فيها أقوال كثيرة . وهناك فرق بين الاسم يكون وصفاً ثم يصير اسماً . وبين أن يكون عَلَماً من أول الأمر . وقلنا : إنه إذا سميت العَلَم من أول الأمر فلا ضرورة أن يكون فيه معنى اللفظ ؛ فقد تسمى واحداً شقياً بـ« سعيد » ، وتُسمى زنجية بـ« قمر » ، وهذا لا يُسمى « وصفا » وإنما يُسمى عَلَماً إلا أن الناس حين يسمون يتفاءلون بالأصل ، فيقال : أسَمِّى ابنى « سعيداً » تفاؤلا بأن يكون « سعيداً » ، وعندما تكون بنتاً فقد تعطيها اسماً مخالفاً لحالها ، فقد تكون دميمة وتسميها « جميلة » تفاؤلاً بالاسم . هنا يكون أخذ العلم للتفاؤل . والعرب عندما كانوا يسمون الأسماء كانوا يتفاءلون بها . مثلاً كانوا يسمون « صخراً » ليتفاءلوا به أمام الأعداء . ويسمون « كلبا » حتى لا يجرؤ عليه أحد .

---

(١) رواه أحمد وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه والحاكم والبيهقى .

وقيل لعربى : إنكم تحسنون أسماء عبيدكم فتقولون « سعيداً » و« سعداً » و« فضلاً » ، وتسيئون أسماء أبنائكم ؛ تسمونهم : « مُرة » ، « كلباً » ، « صخراً » قال العربى : نعم ؛ لأننا نسمى أبناءنا لأعدائنا ليكونوا فى نحورهم ، ونسمى عبيدنا لنا . وكلمة « عرفة » هى الآن علم على مكان ، لكن سبب تسميتها فيه خلاف : قيل : لأن آدم هبط فى مكان وحواء هبطت فى مكان ، وظل كلاهما يبحث عن الآخر حتى تلاقيا فى هذا المكان ، فسُمى « عرفة » .

والحديث عن آدم وحواء يقتضينا أن نبحث عن سبب تفرقهما الذى جعل كلا منهما يبحث عن الآخر ، إذا كان الله عز وجل خلقهما ليكونا زوجين فلماذا فرقهما ؟ . لك أن تتصور حال آدم وهو مخلوق فى عالم غريب واسع بمفرده ، وينظر حوله فلا يجد بشراً مثله ، بالله ألا يشتاق لإنسان يؤنس وحدته ؟ .

وماذا يكون حاله عندما يرى إنساناً ؟ . لاشك أنه سيقابله باشتياق شديد . من أجل هذا فرق الله بينهما وجعل كلًّا منهما يبحث عن إنسان يؤنس وحشته ، ولو ظل كل منهما بجوار الآخر فربما كان الأمر عادياً . وهكذا أراد الله لكل من آدم وحواء أن يشتاق كل منهما للآخر ، فأبعدهما عن بعضهما ثم تلاقيا بعد طول بعاد ، فكان الشوق للقاء . وبعد اللقاء تأتى المودة والرحمة والألفة والسكن ، وهو مطلوب الحياة لزوجين . وهناك قول آخر بخصوص تسمية عرفات : إن سيدنا آدم قالت له الملائكة وهو فى ذلك المكان : اعرف ذنبك وتب إلى ربك فقال :

﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾

(من الآية ٢٣ سورة الأعراف)

فيكون بذلك قد عرف زلته وعرف كيف يتوب . أو حينما أراد الله أن يُعَلِّم إبراهيم عليه السلام ، وهو الذى دعا ربَّه أن يجعل أفئدة الناس وقلوبهم تميل وتهوى هذا المكان . إنّ إبراهيم رأى فى المنام أن يذبح ابنه . وتلك مسألة شاقة من ثلاثة وجوه : المشقة الأولى أنها رؤيا وليست وحياً . والمشقة الثانية أنه ابنه الوحيد ، والمشقة الثالثة أنه هو الذى سيذبحه .

إنها ثلاث مشقات صعاب ، وليس من المعقول أن تمر هذه المسألة على أبى الأنبياء بيسر وسهولة ، بل لابد أنه تحدّث فيها كثيراً بينه وبين نفسه ، هل هى رؤيا أم ماذا ؟ . ومن هنا سُمى اليوم الذى قبل يوم عرفة بيوم التروية . وعندما تأكد سيدنا إبراهيم بأن رؤيا الأنبياء حق عرف أنه لابد أن ينفذ ما رأى . والمكان الذى عرف فيه حقيقة الرؤيا سُمى عرفة . أو أنه حين جاءت له الرؤيا بذبح ابنه فالشيطان لم يدع مثل هذه الفرصة تمر ، وكان لابد أن يدخل ليوسوس لإبراهيم . أليس هو القائل :

﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾

(من الآية ١٦ سورة الأعراف)

فعندما تمثل الشيطان لإبراهيم رجمه بالحصى سبعا فى المرة الأولى ، ثم عاوده مرة أخرى فرجمه سبعاً ، وجاءه فى الثالثة فرجمه سبعاً ، بعدها لم يأت له ثانية ، فجرى إبراهيم مخافة أن يلاحقه ، ولذلك سُمى المكان بالمزدلفة ، والمزدلف هو المسرع ، ويسمى « ذا المجاز » أى أنه اجتاز المزدلفة ، ويكون قد عرف المسألة عند عرفة .

أو أن جبريل كان يعرفه المناسك فى هذا المكان ، فيقول له : عرفتَ ؟ فيرد إبراهيم : « عرفتُ » . أو أن الإنسان يعرف فيها ربه فى آخر ما شرع له من أركان ، فكل منا عرف الأركان : هذا عرف ، وذاك عرف ، وثالث ، ورابع ، وهكذا فيكون كلنا : عرفات ، ويصبح المكان عبودية لله . اشترك فيها جميع الحجاج .

« فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام » . والمشعر الحرام فى مزدلفة : « فاذكروا الله » معناها أن الله يَسّر لكم هذه الرحلة الشاقة ، وجاء بكم آمّين وقاصدين بيت الله الحرام ، ثم تعودون مغفورا لكم ، وهى مسألة تستحق أن تذكروا الله بالشكر والعرفان .

« واذكروه كما هداكم » ؛ لأن هدايته لكم وتعليمكم أقصر طريق يوصل إلى الخير هو تحية من الله لخلقه ، والتحية يجب أن يُرَدّ عليها ، فكما هداكم اذكروه . « وإن كنتم من قبله لمن الضالين » ؛ لأنهم طالما حجوا كثيراً ، فى الجاهلية ، فأنتم كنتم تحجون بضلال ، والآن تحجون بهدى . « ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس » .

قوله ; « ثم » تدل على أنه لابد من الوقوف بعرفة أو المبيت فى مزدلفة ؛ لأن « ثُمَّ » تدل على البعدية ببطء والتعقيب بتمهل .

إذن قوله : « ثم أفيضوا » حجة لمن قال : إنه لابد من المبيت فى مزدلفة . وهذه الآية نزلت لأن قريشاً كانت ترى نفسها أهل الحرم فلا يُطالبون أبداً بما يُطالب به سائر الناس ، ولذلك لا يذهبون مع الناس إلى عرفات ، والله يريد بالحج المساواة بين الناس ، ولذلك قال النبى فى حجة الوداع : « كلكم بنو آدم وآدم خلق من تراب ، لينتهين قوم يفتخرون بآبائهم أو ليكونن أهون على الله من الجعلان »[1] فلابد أن ينسخ الله مسلك قريش فقال : « ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس » يعنى لا تميز لكم ولا تفرقة بين المسلمين .

وبعض المفسرين يقول : إن معنى « من حيث أفاض الناس » المقصود به من حيث أفاض إبراهيم ، بمعنى أن سيدنا إبراهيم عليه السلام قد رسم مناسك الحج كلها بعد أن علمها الله له ، فالناس وإن كانوا جمعاً إلا أن المراد بكلمة « الناس » هو إبراهيم . ولا نستغرب أن يكون معنى : « الناس » هو « إبراهيم » لأن الله وصفه بأنه « أمة » . وكلمة الناس تُطلق على الإنسان الذى يجمع خصائص متعددة ؛ ولذلك قال الله عز وجل عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم :

﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾

(من الآية ٥٤ سورة النساء)

لقد وصف الحق رسول الله صلى الله عليه وسلم بالناس . والرجل الذى ذهب للمؤمنين يخبرهم باستعداد المشركين لقتالهم نزل فيه قوله تعالى : « الذين قال لهم الناس » إنه إنسان واحد ومع ذلك وصفه الله بالناس ، كأنه بتنبيهه للمسلمين يكون جمع كل صفات الخير فى الناس .

« واستغفروا الله إن الله غفور رحيم » إنّ الحق سبحانه وتعالى يعلم أن بنى آدم

---

(١) رواه البزار عن حذيفة . والجعلان دويبة مهينة .

لا يمكن لهم أن يراعوا حقوقه كما يجب أن تُراعى ، فلا بد أن تفلت منهم أشياء ، وهو سبحانه وتعالى يعلم ذلك ؛ لأنه خالقهم ، فأمرهم ـ جلّت حكمته ـ أن يستغفروه ؛ ليكفروا عن سيئاتهم .

﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ﴿٢٠٠﴾ ﴾

ونعرف أن « قضى » تأتى بمعان متعددة ، والعمدة فى هذه المعانى فصل الأمر بالحكمة ، قد يُفصل الأمر بحكمة لأنه فرغ منه أداء « فإذا قضيتم » أى إذا فرغتم من مناسككم ، هذه واحدة . وقد يكون لأنك فصلت الأمر بخبر يقين مثل قوله الحق :

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴾

(من الآية ٢٣ سورة الإسراء)

وقد يكون « قضى » بمعنى حكم حكما لازمًا كما تقول : قضى القاضى . إذن فكلها تدور حول معنى : فصل بحكمة . « فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله » . أى إذا فرغتم من مناسككم ، والمناسك هى الأماكن لعبادة ما ، فعرفات مكان للموقف ، و« مزدلفة » مكان للمشعر الحرام يبيت فيه الحجاج . و« منى » منسك للمبيت أيضا ، إذن كل مكان فيه عبادة يُسمى « منسكا » .

وقوله سبحانه : « فاذكروا الله » أى فلايزال ذكر الله دائما واردًا فى الآيات ، كأنك

حين تُوفق إلى أداء شيء إياك أن تغتر ، بل اذكر ربك الذى شرع لك ثم وفقك وأعانك . وكأن الحق يريد أن يضع نهاية لما تعودت عليه العرب فى ذلك الزمان ، فقديما كانوا يحجون ، فإذا ما اجتمعت القبائل فى منى ، كانت كل قبيلة تقف بشاعرها أو بخطيبها ليعدد مآثره ومآثر آبائه ، وما كان لهم من مفاخر فى الجاهلية ، ويحملون الديات ، ويحملون الحمالات ، ويطعمون الطعام ، ويفعلون غير ذلك من العادات ، فأراد الله سبحانه وتعالى أن ينهى فيهم هذه العادة التى هى التفاخر بالآباء وبأعمالهم فقال : « فاذكروا الله كذكركم آباءكم » والذكر معناه توجيه الفكر إلى شيء غير موجود ساعة تأتى به ، ولا يمكن أن يذكر الإنسان من أحداث الماضى إلا الحدث الذى له الأثر النافع فيه ، وعلى مقدار الأثر النافع يكون الذكر .

وكانوا قديما يطعمون الطعام ، والذى يطعم الطعام يؤدى مهمة فى مثل هذه البلاد البُدائية ـ أى البدوية ـ وكان من المبالغة فى الجفنات أن بعضهم كالمطعم بن عدى مثلاً كانت له جفنة يحكى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يستظل بها ساعة الهجير . والجفنة هى الوعاء الذى يوضع فيه الطعام ، فتأمل الجفنة كيف تكون ؟!

ويحملون الحمالات ، بمعنى أنه إذا قامت قبيلة على قبيلة وقتلت منها خلقاً كثيراً يتطوع منهم ذو الحسب وذو المروءة وذو الشهامة وذو النجدة فيحمل كل هذه الآثار فى ماله . والديات هى التى يتطوع بدفعها أهل الشهامة منهم إذا ما قتل قاتل قتيلا ، ولا يقدر على أن يعطى ديته ، وكانت كل تلك الأعمال هى المفاخر .

أراد الحق سبحانه وتعالى أن يردهم فى كل شيء إلى ذاته ، فقال لهم : أنتم تذكرون آباءكم ؛ لأنهم كانوا يفعلون كذا وكذا ، وآباؤكم يفتخرون بآبائهم ، انقلوها وسلسلوها إلى خالق كل الآباء وكل البشر ، فكل ما يجرى من خير على يد الآباء مرده إلى الله ، فإن ذكرتم آباءكم لما قدموه من خير ، فاذكروا من أمدهم بذلك الخير .

وهو يريد منهم أن يذكروا الله كذكرهم آباءهم ، أو أشد ذكرا ؛ لأن كل كائن إنما يستحق من الذكر على مقدار ما قدم من الخير ، ولن تجد كل الخير إلا لله ، إذن لابد أن نذكر الله .

وأيضا فإن الإسلام أراد أن ينهى التفاخر بالآباء ليجعل الفخر ذاتيا فى نفس المؤمن ، أى فخرا من عمل جليل نابع وحاصل من الشخص نفسه ؛ ولذلك يقولون فى أمثال هؤلاء الذين يفخرون بأسلافهم إنهم : « عظاميون » أى منسوبون إلى مجد صنعه من صاروا عظاما تضمها القبور ، والله يريدنا أن نكون ذاتيين فى مفاخرنا ، أى أن نفخر بما نفعل نحن ، لا بما فعل آباؤنا ، فالآباء أفضوا إلى ما قدموا ، ويريد الله أن يأخذ الإنسان ذاتية إيمانية تكليفية . ومن يريد أن يفتخر فليفتخر بنفسه ، ولذلك يقول الشاعر :

لا تكونوا عظاميين مفخرة
ماضيهم عامر فى حاضر خرب
لا ينفع الحسب الموروث من قدم
إلا ذوى همة غاروا على الحسب
والعود من مثمر إن لم يلد ثمراً
عَدّوه مهما سَمَا أصلاً من الحطب

فالنبات الذى ليس له ثمرة ، يعتبره الناس مجرد حطب ، ويريد الحق أن ينبه فى المؤمن ذاتية تفعل ، وليس ذاتية تفتخر بأنه كان وكان ، بل على كل إنسان أن يقدم ما يفتخر به :

ليس الفتى من يقول كان أبى
إن الفتى من يقول هأنذا

وعندما كان العرب يتفاخر بعضهم على بعض يقول أحدهم للآخر : يا أخى أنت تفتخر علىّ بماذا ؟

فيرد عليه الثانى : أفتخر عليك بآبائى وأجدادى .

فيرد الأول : اذكر جيدا أن مجد آبائك انتهى بك ، ومجد آبائى بدأ بى ، ولماذا لا أجعل لآبائى الفخر بأنهم أنجبونى ؟

وفى ذلك يقول أحدهم :

قالوا أبو الصقر من شيبان قلت لهم
كلا لعمرى ولكن منه شيبانُ
وكَمْ أبٍ قد علا بابن ذُرَا شَرَفٍ
كما عَلتْ برسول الله عدنانُ

ومادام القوم يفتخرون بحى منهم ، فهم يلتحمون بمن يعطيهم المدد ليكونوا شيئا باقيا ومؤثرا فى الوجود ، وليس بذلك الشىء المحدود المتمثل فى أنه يطعم الطعام ، ويحمل الحمالات ويؤدى الديات ، وإنما يكون بحمل رسالة الإنسانية العالمية .

« فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكرا » . لأن ذكركم الله سيصلكم بالمدد منه ، ويعطيكم المعونة لتكونوا أهلا لقيادة حركة الحياة فى الأرض ، فتوطدوا فيها الأمن والسلام والرحمة والعدل ، وهذا هو ما يجب أن يكون مجالا للفخر .

وبعد ذلك يلفتنا الحق فيما يأتى إلى أن الإنسان إذا ما قضى المناسك كان أهلا لأن يضرع إلى الله ، ويسأل الله بما يحب أن يسأله ، والسؤال لله يختلف باختلاف همة السائلين ، وكانوا لا يسألون الله إلا قائلين : يارب أعطنى إبلاً ، يارب أعطنى غنماً ، يارب أعطنى بقراً ، يارب أعطنى حائطاً ـ أى بستاناً ـ ، يارب كما أعطيت أبى أعطنى .

ولم يكن فى بالهم إلا الأمورالمادية ، وأراد الله أن يجعلهم يرتفعون بالمسألة لله ، وأن يُصَعِّدُوها إلى شىء أخلد وأبقى وأنفع ، ومن هنا تأتى المزية الإيمانية ، فإذا كنتم ستسألون الله متاعا من متاع الدنيا فما الفارق بينكم وبين أهل الجاهلية ؟

ذلك ما نفهمه من قول الله عز وجل فى ختام هذه الآية : « فمن الناس من يقول ربنا ءاتنا فى الدنيا وما له فى الآخرة من خلاق » . فالعبد حين يؤدى مناسكه لله يجد نفسه أهلا لأن يسأل الله ، ومادمت قد وجدت نفسك أهلا لأن تسأل الله فاسأل الله بخير باق ؛ لأن الإنسان إنما يُصَعدُ حاجته إلى المسئول على مقدار مكانة المسئول ومنزلته ؛ فقد تذهب لشخص تطلب منه عشرة قروش ، وقد تذهب لآخر أغنى من

الأول فتقول له : أعطنى جنيها ، ولثالث : تطلب منه عشرة جنيهات ، إنك تطلب على قدر همة كل منهم فى الإجابة على سؤالك .

إذن مادام العباد بعد أداء المناسك فى موقف سؤال لله فليُصَعِّدُوا مسألتهم لله وليطلبوا منه النافع أبداً ، ولا ينحطوا بالسؤال إلى الأمور الدنيوية الفانية البحتة . « فمن الناس من يقول ربنا آتنا فى الدنيا وما له فى الآخر من خلاق » إن العبد قد لا يريد من دعائه لله إلا الدنيا ، ولا حظ ولا نصيب له فى الآخرة ، ومثل هذا الإنسان يكون ساقط الهمة ؛ لأنه طلب شيئاً فى الدنيا الفانية ، ويريد الله أن نُصَعِّد همتنا الإيمانية ، ولذلك يتبعها بقوله الحق :

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ ﴾

ولماذا لم ننس الدنيا هنا ؟ لأنها هى المزرعة للآخرة . وقوله سبحانه : « آتنا فى الدنيا حسنة » اختلف فيها العلماء ؛ بعضهم ضيقها وقال : إن حسنة الدنيا هى المرأة الصالحة . وقال عن حسنة الآخرة إنها الجنة . ومنهم من قال : إن حسنة الدنيا هى العلم ؛ لأن عليه يُبْنَى العمل ، وفى حسنة الآخرة قال : إنها المغفرة ؛ لأنها أم المطالب .

ومن استعراض أقوال العلماء نجدهم يتفقون على أن حسنة الآخرة هى ما يؤدى إلى الجنة مغفرة ورحمة ، لكنهم اختلفوا فى حسنة الدنيا . أقول : لماذا لا نجعل حسنة الدنيا أعم وأشمل فنقول : يارب أعطنا كل ما يُحَسِّنُ الدنيا عندك لعبدك .

ويذيل الحق هذه الآية بقوله : « وقنا عذاب النار » وسبحانه وتعالى حين يَمْتَنُّ على عباده يمتن عليهم بأن زحزحهم عن النار وأدخلهم الجنة ، كأن مجرد الزحزحة عن

النار نعيم ، فإذا ما أدخل الجنة بعد الزحزحة عن النار فكأنه أنعم على الإنسان بنعمتين ؛ لأنه سبحانه قال :

﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾

(من الآية ٧١ سورة مريم)

ومعناها أن كل إنسان سيرى النار إما وهو فى طريقه للجنة ، فيقول : الحمد لله ، الإيمان أنجانى من هذه النار وعذابها . فهو عندما يرى النار وبشاعة منظرها يحمد الله على نعمة الإسلام . التى أنجته من النار . فإذا ما دخل الجنة ورأى نعيمها يحمد الله مرة ثانية . وكذلك يرى النار مَن هو مِن أهل الأعراف أى لا فى النار ولا فى الجنة ، يقول الحق :

﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾

(من الآية ١٨٥ سورة آل عمران)

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا ۚ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾ ﴾

والنصيب هو الحظ ، وأما « مما كسبوا » فنعرف من قبل أن فيه « كسب » وفيه « اكتساب » . والاكتساب فيه افتعال ، إنما الكسب هو أمر عادى ، ولذلك تجد أن الاكتساب لا يكون إلا فى الشر ؛ كأن الذى يفعل الشر يتكلف فيه ، لكن من يفعل الخير فذلك أمر طبيعى من الإنسان . والمقصود بـ « مما كسبوا » هنا هو الكسب من استيفاء أعمالهم التى فعلوها فى الحج إحراماً ، وتلبية . وطوافاً ، وسعياً ، وذهاباً إلى « منى » ، وذهاباً إلى « عرفات » ووقوفاً بها ، وإفاضة إلى « مزدلفة » ، ورمياً للجمار فى « منى » ، وطواف إفاضة ، وكل هذا كسب للإنسان الذى نال شرف الحج .

وعندما نقرأ : « والله سريع الحساب » فلنفهم أن السرعة هى أن يقل الزمن عن الحدث ، فبدلا من أن يأخذ الحدث منك ساعة ، قد تنهيه فى نصف ساعة ، وكل حدث له زمن ، والحدث حين يكون له زمن وتريد أن تقلل زمن الحدث فلا بد أن تسرع فيه حتى تنجزه فى أقل وقت . وتقليل الزمن يقتضى سرعة الحركة فى الفعل ، وذلك فى الأفعال العلاجية التى تحتاج مُعَالجة ، وعملاً من الإنسان ، لكن سبحانه يفعل بـ « كُن » ولا يحتاج عمله إلى علاج ، وبالتالى لا يحتاج إلى زمن ، إذن فهو سريع الحساب ؛ لأنه لا يحتاج إلى زمن ، ولأنه لا يشغله شأن عن شأن ، وهذا هو الفرق بين قدرة الواحد سبحانه وقدرة الحادث ؛ لأن الحادث عندما يؤدى عملاً ، فهذا العمل يشغله عن غيره من الأعمال ، فلا يستطيع أن يؤدى عمليتين فى وقت واحد ، لكن الواحد الأحد لا يشغله فعل عن فعل ، وبالتالى يفعل ما يريد وقتما يريد ولكل من يريد .

ولذلك سُئل الإمام على بن أبى طالب : كيف يحاسب الله الخلائق جميعاً فى لحظة واحدة ؟. فقال : « كما يرزقهم فى ساعة واحدة » . فهو سبحانه الذى يرزقهم ، وكما يرزقهم يحاسبهم . ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ ﴾

ونلاحظ أن ذكر الله أمر شائع فى جميع المناسك ، و« فى أيام معدودات » أى فى أيام التشريق . فى اليوم التاسع نكون فى عرفة وليلة العاشر نبيت فيها بـ « مزدلفة » ، ثم بعد ذلك نفيض من حيث أفاض الناس ، نذهب لرمى جمرة العقبة ، وبعضنا يذهب ليطوف طواف الإفاضة وينهى مناسكه ، أو قد يذهب ليذبح ويتحلل التحلل

الأصغر ، إن لم يكن معه امرأة ، وإن طاف فهو يتحلل التحلل الأكبر . أما الأيام المعدودات أى أيام التشريق فهى الأيام الثلاثة بعد يوم النحر . وقد سميت بذلك نسبة إلى الشروق ، والشروق خاص بالشمس ، كانوا قديماً إذا ما ذبحوا ذبائحهم أخذوا اللحم وشرقوه ، أى عرضوه لمطلع الشمس كلون من الحفظ ، ومن هنا سميت هذه الأيام بأيام التشريق . وعندما نسمع قوله : « فى أيام معدودات » نفهم منها أنها فوق يومين .

وبعد ذلك يقول الحق : « فمن تعجل فى يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه لمن اتقى » . قول الحق سبحانه وتعالى : « فى أيام معدودات » ثم قوله : « فمن تعجل فى يومين » يدل على أن كلمة « أيام » تطلق على الجمع وهو الأكثر من يومين ، أى ثلاثة أيام ، لكن الحق سبحانه وتعالى جعل للقيام بيومين حكم القيام بالثلاثة ، فإن تعجلت فى يومين فلا إثم عليك ومن قضى ثلاثة أيام فلا إثم عليه كيف يكون ذلك ؟ .

لأن المسألة ليست زمناً ، ولكنها استحضار نية تعبدية ، فقد تجلس ثلاثة أيام وأنت غير مستحضر النية التعبدية ؛ لذلك قال سبحانه : « لمن اتقى » ، فإياك أن تقارن الأفعال بزمنها ، وإنما هى بإخلاص النية والتقوى فيها .

ويذيل الحق الآية بالقول الكريم : « واتقوا الله واعلموا أنكم إليه تحشرون » . وقد جاء سبحانه وتعالى بكلمة « تحشرون » لتناسب زحمة الحج ؛ لأنه كما حشركم هذا الحشر وأنتم لكم اختيار ، هو سبحانه القادر أن يحشركم وليس لكم اختيار . فإذا كنت قد ذهبت باختيارك إلى هذاالحشر البشرى الكبير فى الحج فاعرف أن الذى كلفك بأن تذهب باختيارك لتشارك فى هذا الاجتماع الحاشد هو القادر على أن يأتى بك وقد سُلب منك الاختيار . ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا

وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾
وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ
ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾

يريد الحق سبحانه وتعالى أن يضع أمامنا قضية وجودية ، وهذه القضية الوجودية هى أن كل عمل له ظاهر وله باطن . ومن الجائز أن تتقن الظاهر وتدلس على الناس فى الباطن ، فإذا كان الناس لهم مع بعضهم ظاهر وباطن . فمن مصلحة الإنسان أن ينتمى هو والناس جميعاً إلى عالم يعرف فيه كل إنسان أن هناك إلهاً حكيماً يعرف كل شىء عنا جميعاً .

فإذا كان عندك شىء لا أعلمه ، وأنا عندى شىء أنت لا تعلمه كيف تسير مصالحنا ؟ ولذلك فمن ضروريات حياتنا أن نؤمن معا بإله يطلع على سرائرنا جميعاً ، وهذا ما يجعلنا نلزم الأدب . ولذلك قيل : « إن عَمِّيَتْ على قضاء الأرض فلن تعمى على قضاء السماء » .

إذن فقضاء السماء وعلم الله بالغيب مسألة يجب أن نحمده عليها ، لأنه هو الذى سيحمى كل واحد منا من غيره . وعندما ستر الله غيبنا فذلك نعمة يجب أن نشكره عليها ؛ لأن النفوس متقلبة . فلو علمت ما فى نفسى عليك فى لحظة قد لا يسرك . . وقد لا تنساه أبدا ويظل رأيك فىّ سيئاً ، لكن الظنون والآراء تمر عندى وعندك وتنتهى . ولو اطلع كل منا على غيب الآخر لكانت الحياة مرهقة ، والقول المأثور يذكر ذلك : « لو تكاشفتم ما تدافنتم » .

إذن فمن رحمة الله ومن أكبر نعمه على خلقه أن ستر غيب خلقه عن خلقه . والحق يحذرنا ممن قال فيهم : « ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا » أى الذين يظهرون من خير خلاف ما يبطنون من شر ، ولذلك صور الشاعر هذه المسألة فقال :

على الذم بتنا مجمعين وحالنا
من الخوف حال المجمعين على الحمد

أى لو تكاشفنا لقلنا كلنا ذماً ، إنما كلنا مداحون حين يلقى بعضنا بعضا كل يقول بلسانه ما ليس فى قلبه . و« يعجبك قوله » فهل الممنوع أن يعجبك القول ؟ لا ، يعجبنى القول ولكن فى غير الحياة الدنيا ، فالقول الذى يعجب هو ما يتعلق بأمر الحياة الآخرة الباقية ليضمن لنا الخير عند من يملك كل الخير .

وكفى بالذى يسمع من مادح له مدحاً ، والمادح نفسه يُضمر فى قلبه كرهاً له ، وكفى بذلك شهادة تغفيل للممدوح ، بأنه يقول بينه وبين نفسه : « إن الممدوح غبى ؛ لأنى أمدحه وهو مصدق مدحى له » . إن الله سبحانه وتعالى ينبهنا إلى ضرورة أن يكون المسلم يقظا وفطناً ، ومن يقول لنا كلاماً يعجبنا فى الحياة الدنيا نتهمه بأن كلامه ليس حسنا ؛ لأن خير الكلام هو ما يكون فى الأمر الباقى .

ولذلك عندما أرسل خليفةُ المسلمين للإمام جعفر الصادق يقول له : ـ لماذا لاتغشانا ـ أى لا تزورنا ـ كما يغشانا الناس ؟ فكتب الإمام جعفر الصادق للخليفة يقول : أما بعد فليس عندى من الدنيا ما أخاف عليه ، وليس عندك من الآخرة ما أرجوك له . وكأنه يريد أن يقول له اتركنا وحالنا ؛ أنت محتاج لمن يجلس معك ويمدحك ، وأنت لا تعلم أن أول أناس لهم رأى سيىء فيك هم من يمدحونك .

« ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا » وهذه الآية نزلت فى الأخنس ابن شريق الثقفى واسمه أبىّ ولقب بالأخنس لأنه خنس ورجع يوم بدر فلم يقاتل المسلمين مع قريش واعتذر لهم بأن العير قد نجت من المسلمين وعادت إليهم ، وكان ساعة يقابل رسول الله صلى الله عليه وسلم يظهر إسلامه ويلين القول للرسول ويدعى أنه يحبه،ولكنه بعد أن خرج من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم مرّ بزرع وحُمُر لقوم من المسلمين فأحرق الزرع وقتل الحُمُر . والآية وإن نزلت فى الأخنس فهى تشمل كل مُنافق .

« ويشهد الله على ما فى قلبه وهو ألد الخصام » لا تقولوا : « الله يشهد » ، وإنما

هاتوا شهداءكم ليشهدوا على صدق قولكم ؛ لأن معنى « الله يشهد » هو إخبار منك بأن الله يشهد لك . وأنت كاذب فى هذه ، وتريد أن تضفى المصداقية على كذبك بإقحام الله فى المسألة .

وساعة تسمع واحدا يقول لك : أُشهِدُ الله على أنى كذا ، فقل له : هذا إخبار منك بأن الله يشهد ، وأنت قد تكذب فى هذا الخبر ، أنا أفضل أن يشهد اثنان من البشر ولا نقحم الله فى هذه الشهادة . « ويشهد الله على ما فى قلبه وهو ألد الخصام » وألد الخصام هو الفاسق فى معصيته ، ويقال : فلان عنده لدد أى له فسق فى خصومته ، ويجادل بالباطل . ولذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « إنّ أبغض الرجال إلى الله هو الألد الخصم »[1] .

يعنى المجادل بالباطل الذى عنده قسوة فى المعصية ، فهو عاصٍ وفى الوقت نفسه قاسٍ فى معصيته . ولماذا هو ألد الخصام ؟ لأن الذى يجابهك بالأمر يجعلك تحتاط له ، أما الذى يقابلك بنفاق فهو الذى يريد أن يخدعك ، وهذا عنف فى الخصومة ، فالخصم الواضح أفضل لأنه يواجهك بما فى باطنه ، لكن إذا جابهت الذى يُبطِن خصومته ويظهر محبته يكون قاسيا عليك فى خصومته ؛ لأنه يريد أن يخدعك ويُبَيِّت لك .

« وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها » و« تولى » : انصرف أى يقول لك ما يعجبك ، فإذا تولى عنك نقل المسألة إلى الحقيقة بإظهار ما كان يخفيه ، ويحتمل المعنى أنه إذا تولى شيئا آخر ، من الولاية ، ففيه « تَولّى » من التَّولّى وهو الانصراف والإعراض ، وفيه « تَولّى » من الولاية .

« وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل » كانت الأرض بدون تدخل البشر مخلوقة على هيئة الصلاح ، والفساد أمر طارىء من البشر . ونعرف أن الفساد لم يطرأ على أى أمر إلا وللإنسان فيه دخل .

---

(١) رواه البخارى ، ومعنى « الألد الخصم » : الأشد فى خصومته .

لماذا اشتكينا أزمة قوت ولم نشتك أزمة هواء ؟ لأن الهواء لا تدخل للإنسان فيه ، وبمقدار تدخل الإنسان يكون الفساد . لقد تدخلنا قليلاً فى المياه فجاء فى ذلك فساد ، فلم نحسن نقلها فى مواسير جيدة فوصلت لنا ملوثة ، أو زاد عليها الكلور أو نقص . وبقدر ما يكون التدخل يكون الإفساد ، أما فى الزمن القديم فقد كان الإنسان يذهب إلى مصدر الماء المباشر فى الآبار ويأخذ الماء الطبيعى الذى خلقه الله بلا تدخل من الإنسان ولم يكن تلوث أو غيره .

إذن على مقدار وجود الإنسان فى حركة الحياة غير المُرشّدة بالإيمان بالله ينشأ الفساد ، ولذلك كان لابد له من منهج سماوى للإنسان . والكائنات غير الإنسان ليس لها منهج وهى مخلوقة بالغريزة وتؤدى مهمتها فقط ؛ فالدابة لم تمتنع يوماً عن ركوبك عليها ، ولم تمتنع أن تحمل عليها أثقالك ، أو تستعين بها فى الحرث ، أو الرى ، حتى عندما تذبحها لا تمتنع عليك ، لماذا ؟ لأنها مخلوقة بالغريزة التى تؤدى بها الحركة النافعة بدون اختيار منها . وإذا امتنعت فى وقت فإنما يكون ذلك لأمر طارىء كمرض مثلا .

لكن الذى له اختيار لابد أن يكون له منهج يقول له : افعل هذه ولا تفعل تلك . فإن استقام مع المنهج فى « افعل » و« لا تفعل » سارت حياته بشكل متوازن ، لكن إذا لم يستقم تفسد الحياة . وهذا ما نفهمه من قوله تعالى : « وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها » ، كأن الإفساد هو الذى يحتاج إلى عمل ، اترك الطبيعة والمخلوقات كما هى تجدها تعمل فى انضباط وكمال على ما يرام .

إذن فالفساد طارىء من الإنسان الذى يحيا بلا منهج لأنه « إذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها » فكأن الأصل فى الأرض وما فيها جاء على هيئة الصلاح ، فإن لم تزد الصالح صلاحاً فلا تحاول أن تفسده . قال تعالى :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

(سورة البقرة)

ومن هنا نفهم أنهم ظنوا أن الأرض تحتاج إلى حركتهم لإصلاحها ، برغم أن الأرض بدون حركتهم صالحة ؛ لأنهم لا يتحركون بمنهج الله .

إذن هذه الآية نفهم منها أن الإنسان إذا « تولى » بمعنى رجع أو تولى ولاية سعى فى الأرض ليفسد فيها ؛ فكأن الفساد فى الأرض أمر طارىء وينتج من سعى الإنسان على غير منهج من الله . ومادام للإنسان اختيار فيجب أن يكون له منهج أعلى منه يصون ذلك الاختيار ، فإن لم يكن له منهج وسار على هواه فهو مفسد لا محالة .

وانظر إلى غباء الذى يفسد فى الأرض ، هل يظن أنه هو وحده الذى سيستفيد فى الأرض ، فأباح لنفسه أن يفسد فى الأرض لغيره ؟ إنه ينسى الحقيقة ، فكما يُفسد لغيره ، فغيره يفسد له ، فمن الخاسر ؟ كلنا سنخسر إذن .

﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ﴾

(من الآية ٢٠٥ سورة البقرة)

والحرث له معنيان : فمرة يُطلق على الزرع ، ومرة يطلق على النساء ، المعنى الأول ورد فى قوله تعالى :

﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ ﴾

(من الآية ٧٨ سورة الأنبياء)

فالحرث فى الآية معناه : الزرع ، والزرع ناتج عن إثارة الأرض وإهاجتها . وعملك ياأيها الإنسان أن تهيج الأرض وتثيرها ، وتأتى بالبذر الذى خلقه الله فى الأرض التى خلقها الله ، وتسقيها بالماء الذى خلقه الله ، وتكبر فى الهواء الذى خلقه الله ، ولذلك يلفتنا وينبهنا الحق ـ سبحانه ـ فيقول :

﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾

(سورة الواقعة)

والمعنى الثانى : يُطلق الحرث على المرأة فى قوله تعالى :

﴿ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ ﴾

(من الآية ٢٢٣ سورة البقرة)

وإذا كان حرث الزرع هدفه إيجاد النبات فكذلك المرأة حتى تلد الأولاد . ويقول سبحانه وتعالى :

﴿ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ﴾

(من الآية ٢٢٣ سورة البقرة)

وأراد المتحللون الإباحيون أن يُطلقوا إتيان المرأة فى جميع جسدها ، ونقول لهم : لاحظوا قوله : « حرثكم » والحرث محل الإنبات ، فالإتيان يكون فى محل الإنبات فقط ، لا تفهمها تعميماً وإنما هى تخصيص . ويتابع الحق وصف الذى يقول القول الحسن ، ولكنه يسعى فى الأرض بالفساد فيقول : « ويهلك الحرث والنسل » . والنسل هو الأنجال والذرية .

ويذيل الحق الآية : « والله لا يحب الفساد » أى أن الحق يريد منكم إن لم تدخلوا بطاقة الله التى خلقها لكم فكراً وعطاء ، فعلى الأقل اتركوا المسألة كما خلقها الله ؛ لأن الله لا يحب أن تفسدوا فيما خلقه صالحاً فى ذاته .

وما سبق فى هذه الآية هو مجرد صورة من صور استقبال الدعوة الإسلامية فى أول عهدها ، من الذين كانوا ينافقون واقعها القوى ، فيأتون بأقوال تُعجب ، وبأفعال تعجب من يُنَافَق . ونعرف أن النفاق كان دليلا على قوة المسلمين ، ولذلك لم ينشأ النفاق فى مكة ، وإنما نشأ فى المدينة . فقد قال الحق :

﴿ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ ﴾

(من الآية ١٠١ سورة التوبة)

وربما يتساءل إنسان : وكيف تظهر هذه الظاهرة فى البيئة الإيمانية القوية فى المدينة ؟ ونقول : لأن الإسلام فى مكة كان ضعيفاً ، والضعيف لا ينافقه أحد ، والإسلام فى المدينة أصبح قوياً ، والقوى هو الذى ينافقه الناس .

إذن فوجود النفاق فى المدينة كان ظاهرة صحية تدل على أن الإيمان أصبح قويا بحيث يدعيه من ليس عنده إسلام . وهؤلاء كانوا يقولون قولاً حسناً جميلاً ، وقد يفعلون أمام من ينافقونه فعلاً يُعجب من يراهم أو يسمعهم ، ولكنهم لا يثبتون على الحق ، فإذا ما تولوا ، أى اختفوا عن أنظار من ينافقونه رجعوا إلى أصلهم الكفرى ، أو إذا ائتمنوا على شىء فهم يسعون فى الأرض فساداً .

والآية هنا تتعرض لشىء يدل على فطنة المؤمنين ، إنّ الآية فضحت من نافق . وكان الأخنس عمدة فى النفاق ، وفضيحة المنافق بهذه الصورة ، تدل على أن وراء محمد صلى الله عليه وسلم ووراء المؤمنين بمحمد ، ربًّا يخبرهم بمن يدلس عليهم ، وأيضا ينبههم لضرورة أن تكون لهم فطنة بدليل قول الحق :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ ﴾

ولا يقال له اتق الله إلا إذا كان قد عرف أنه منافق ، وماداموا قد قالوا له ذلك فهذا دليل على أن فطنتهم لم يجز عليها هذا النفاق . ونفهم من هذه الآية أن المؤمن كَيِّس فطن ، ولابد أن ينظر إلى الأشياء بمعيار اليقظة العقلية ، ولا يدع نفسه لمجرد الصفاء الربانى ليعطيه القضية ، بل يريد الله أن يكون لكل مؤمن ذاتية وكياسة .

« وإذا قيل له اتق الله » فكأن المظهر الذى يقول أو يفعل به ، ينافى التقوى ؛ لأنه قول معجب لا ينسجم مع باطن غير معجب ، صحيح أنه يصلى فى الصف الأول ،

ويتحمس لقضايا الدين ، ويقول القول الجميل الذى يعجب النبى صلى الله عليه وسلم ويعجب المؤمنين ، لكنه سلوك وقول صادر عن نية فاسدة . ومعنى « اتق الله » أى ليكن ظاهرك موافقا لباطنك ، فلا يكفى أن تقول قولا يُعجب ، ولا يكفى أن تفعل فعلاً يروق الغير ؛ لأن الله يحب أن يكون القول منسجما مع الفعل ، وأن يكون فعل الجوارح منسجما مع نيات القلب .

إذن فالمؤمن لابد وأن تكون عنده فطنة ، وذكاء ، وألْـمعِيَّة ، ويرى تصرفات المقابل ، فلا يأخذ بظاهر الأمر . ولا بمعسول القول ولا بالفعل ، إن لم يصادف فيه انسجام فعل مع انسجام نية . ولا يكتفى بأن يعرف ذلك وإنما لابد أن يقول للمنافق حقيقة ما يراه حتى يقصر على المنافق أمد النفاق ، لأنه عندما يقول له : « اتق الله » يفهم المنافق أن نفاقه قد انكشف ، ولعله بعد ذلك يرتدع عن النفاق ، وفى ذلك رحمة من المؤمن بالمنافق . وكل من يرى ويلمح بذكائه نفاقاً من أحد هنا يقول له : « اتق الله » فالمراد أن يفضح نفاقه ويقول له : « اتق الله » . فإذا قال له واحد : « اتق الله » وقال له آخر : « اتق الله » ، وثالث ، ورابع ، فسيعرف تماما أن نفاقه قد انكشف ، ولم يعد كلامه يعجب الناس .

« وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم » ، وتقييد العزة بالإثم هنا يفيد أن العزة قد تكون بغير إثم ، ومادام الله قد قال : « أخذته العزة بالإثم » ، فهناك إذن عزة بغير إثم . نعم ، لأن العزة مطلوبة للمؤمن والله عز وجل حكم بالعزة لنفسه وللرسول وللمؤمنين :

﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾

(من الآية ٨ سورة المنافقون)

وهذه عزة بالحق وليست بالإثم . وما الفرق بين العزة بالحق وبين العزة بالإثم ؟ ولنستعرض القرآن الكريم لنعرف الفرق . ألم يقل سحرة فرعون : فيما حكاه الله عنهم :

﴿ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة الشعراء)

هذه عزة بالإثم وبالكذب . وكذلك قوله تعالى :

﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝٢ ﴾

(سورة ص)

وهى عزة كاذبة أيضا أما قوله عز وجل :

﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٨٠ ﴾

(سورة الصافات)

فتلك هى العزة الحقيقية ، إذن فالعزة هى القوة التى تَغْلِبُ ، ولا يَغْلِبها أحد . أما العزة بالإثم فهى أنفة الكبرياء المقرونة بالذنب والمعصية . والحق سبحانه وتعالى يقول لكل من يريد هذا اللون من العزة بالإثم : إن كانت عندك عزة فلن يقوى عليك أحد ، ولكن يا سحرة فرعون يا من قلتم بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون ، أنتم الذين خررتم سُجَّدًا لموسى وقلتم :

﴿ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٤٧ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۝٤٨ ﴾

(سورة الشعراء)

ولم تنفعكم عزة فرعون ؛ لأنها عزة بالإثم ، لقد جاءت العزة بالحق فغلبت العزة بالإثم . لذلك يبين لنا الحق سبحانه وتعالى أن العزة حتى لا تكون بالإثم ، يجب أن تكون على الكافر بالله ، وتكون ذلة على المؤمن بالله .

﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾

(من الآية ٥٤ سورة المائدة)

وكذلك قوله الحق :

﴿ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الفتح)

وهذا دليل العزة بالحق ، وعلامتها أنها ساعة تغلب تكون فى منتهى الانكسار . ولنا القدوة فى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو الذى خرج من مكة لأنه لم يستطع أن يحمى الضعفاء من المؤمنين ، وبعد ذلك يعود إلى مكة فاتحاً بنصر الله ، ويدخل مكة ورأسه ينحنى من التواضع لله حتى يكاد أن يمس قربوس[1] سرج دابته ، تلك هى القوة ، وهى على عكس العزة بالإثم التى إن غلبت تطغى ، إنما العزة بالحق إن غلبت تتواضع .

« وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم » أى أن الأنفة والكبرياء مقرونة بالإثم ، والإثم هو المخالف للمأمور به من الحق سبحانه وتعالى ، « فحسبه جهنم ولبئس المهاد » . أى عزة هذه التى تقود فى النهاية إلى النار ؟ إنها ليست عزة ، ولكنها ذلة ، فلا خير فى عمل بعده النار ، ولا شر فى شر بعده الجنة . فإن أردت أن تكون عزيزًا فتأمل عاقبتك وإلى أين ستذهب ؟

« فحسبه » أى يكفيه هذا فضيحة لعزته بالإثم ، وأما كلمة « مهاد » فمعناها شىء ممهد ومُوطأ ، أى مريح فى الجلوس والسير والإقامة . ولذلك يسمون فراش الطفل المهد . وهل المهاد بهذه الصورة يناسب العذاب ؟ نعم يناسبه تماما ؛ لأن الذى يجلس فى المهاد لا إرادة له فى أن يخرج منه ، كالطفل فلا قوة له فى أن يغادر فراشه . إذن فهو قد فقد إرادته وسيطرته على أبعاضه . فإن كان المهاد بهذه الصورة فى النار فهو بئس المهاد . هذا لون من الناس وفى المقابل يعطينا ـ سبحانه ـ لوناً آخر من الناس فيقول سبحانه :

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾ ﴾

---

(١) القربوس هو الجزء المرتفع المقوس من السرج .

والله سبحانه وتعالى ساعة يستعمل كلمة « يشرى » يجب أن نلاحظ أنها من الأفعال التى تستخدم فى الشىء ومقابله ، فـ«شرى » يعنى أيضا « باع » . إذن ، كلمة « شرى » لها معنيان ، واقرأ إن شئت فى سورة يوسف قوله تعالى :

﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ ﴾

(من الآية ٢٠ سورة يوسف)

أى باعوه بثمن رخيص . وتأتى أيضا بمعنى اشترى ، فالشاعر العربى القديم عنترة ابن شداد يقول : فخاض غمارها وشرى وباعا .

إذن « شرى » لغة ، تُستعمل فى معنيين : إما أن تكون بمعنى « باع » ، وإما أن تكون بمعنى « اشترى » ، والسياق والقرينة هما اللذان يحددان المعنى المقصود منها . فقول عنترة : « شرى وباع » نفهم أن المقصود من « شرى » هنا هو « اشترى » ؛ لأنها مقابل « باع » ، وقوله تعالى :

﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ ﴾

(من الآية ٢٠ سورة يوسف)

يوضحه سياق الآية بأنهم باعوه . وهذا من عظمة اللغة العربية ، إنها لغة تريد أناساً يستقبلون اللفظ بعقل ، ويجعلون السياق يتحكم فى فهمهم للمعانى .

« ومن الناس من يشرى نفسه » ونفهم « يشرى » هنا بمعنى يبيع نفسه ، والذى يبيع نفسه هو الذى يفقدها بمقابل . والإنسان عندما يفقد نفسه فهو يضحى بها ، وعندما تكون التضحية ابتغاء مرضاة الله فهى الشهادة فى سبيله عز وجل ، كأنه باع نفسه وأخذ مقابلها مرضاة الله . ومثل ذلك قوله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ ﴾

(من الآية ١١١ سورة التوبة)

إن الحق يعطيهم الجنة مقابل أنفسهم وأموالهم . إذن فقوله : « ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله » يعنى باع نفسه وأخذ الجنة مقابلاً لها ، هذا إذا كان معنى « يشرى » هو باع .

وماذا يكون المعنى إذا كانت بمعنى اشترى ؟ هنا نفهم أنه اشترى نفسه بمعنى أنه ضحى بكل شىء فى سبيل أن تَسلم نفسه الإيمانية . ومن العجب أن هذه الآية قيل فى سبب نزولها ما يؤكد أنها تحتمل المعنيين ، معنى « باع » ومعنى « اشترى » فها هو ذا أبو يحيى الذى هو صهيب بن سنان الرومى كان فى مكة ، وقد كبر سنه ، وأسلم وأراد أن يهاجر ، فقال له الكفار : لقد جئت مكة فقيراً وآويناك إلى جوارنا وأنت الآن ذو مال كثير ، وتريد أن تهاجر بمالك .

فقال لهم : أإذا خليت بينكم وبين مالى أأنتم تاركونى ؟

قالوا : نعم .

قال : تضمنون لى راحلة ونفقة إلى أن أذهب إلى المدينة ؟

قالوا : لك هذا .

إنه قد شرى نفسه بهذا السلوك واستبقاها إيمانياً بثروته ، فلما ذهب إلى المدينة لقيه أبو بكر وعمر فقالا له : ربح البيع يا أبا يحيى .

قال : وأربح الله كل تجارتكم .

وقال له سيدنا أبو بكر وسيدنا عمر : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبرنا أن جبريل أخبره بقصتك،ويروى أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال له : ربح البيع أبا يحيى . إذن معنى الآية وفق هذه القصة : أنه اشترى نفسه بماله ، وسياق الآية يتفق مع المعنى نفسه . وهذه من فوائد الأداء القرآنى حيث اللفظ الواحد يخدم معنيين متقابلين .

ولكن إذا كان المعنى أنه باعها فلذلك قصة أخرى ، ففى غزوة بدر ، وهى أول غزوة فى الإسلام ، وكان صناديد قريش قد جمعوا أنفسهم لمحاربة المسلمين فى هذه الغزوة ، وتمكن المسلمون من قتل بعض هؤلاء الصناديد ، وأسروا منهم كثيرين أيضا ، وكان ممن قتلوا فى هذه الغزوة واحد من صناديد قريش هو أبو عقبة الحارث

ابن عامر والذى قتله هو صحابى اسمه خبيب بن عدى الأنصارى الأوسى ، وهو من قبيلة الأوس بالمدينة ، وبعد ذلك مكر بعض الكفار فأرسلوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا : يا رسول الله ، إننا قد أسلمنا ، ونريد أن ترسل إلينا قوما ليعلمونا الإسلام . فأرسل لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عشرة من أصحابه ليعلموهم القرآن ، فغدر الكافرون بهؤلاء العشرة فقتلوهم إلا خبيب بن عدى ، استطاع أن يفر بحياته ومعه صحابى آخر اسمه زيد بن الدَّثِنّة ، لكن خبيباً وقع فى الأسر وعرف الذين أسروه أنه هو الذى قتل أبا عقبة الحارث فى غزوة بدر ، فباعوه لابن أبى عقبة ليقتله مقابل أبيه ، فلم يشأ أن يقتله وإنما صلبه حيّاً ، فلما تركه مصلوباً على الخشبة ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فى المدينة : من ينزل خبيباً عن خشبته وله الجنة ؟

قال الزبير : أنا يا رسول الله .
وقال المقداد : وأنا معه يا رسول الله .

فذهبا إلى مكة فوجدا خبيباً على الخشبة وقد مات وحوله أربعون من قريش يحرسونه ، فانتهزا منهم غفلتهم وذهبا إلى الخشبة وانتزعا خبيباً وأخذاه ، فلما أفاق القوم لم يجدوا خبيباً فقاموا يتتبعون الأثر ليلحقوا بمن خطفوه ، فرآهم الزبير ، فألقى خبيباً على الأرض ، ثم نظر إليه فإذا بالأرض تبتلعه فسمى بليع الأرض . وبعد ذلك التفت إليهم ونزع عمامته التى كان يتخفى وراءها وقال : أنا الزبير بن العوام ، أمى صفية بنت عبدالمطلب ، وصاحبى المقداد ، فإن شئتم فاضلتكم ـ يعنى يفاخر كل منا بنفسه ـ وإن شئتم نازلتكم ـ يعنى قاتلتكم ـ وإن شئتم فانصرفوا ، فقالوا : ننصرف ، وانصرفوا ، فلما ذهب الزبير والمقداد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بشرهم بالجنة التى صار إليها خبيب .

إذن فقد باع خبيب نفسه بالجنة . وعلى ذلك فإن ذهبت بسبب نزول الآية إلى أبى يحيى صهيب بن سنان الرومى تكون « شرى » بمعنى اشترى ، وإن ذهبت بسبب النزول إلى خبيب فتكون بمعنى : باع . وهكذا نجد أن اللفظ الواحد فى القرآن الكريم يحتمل أكثر من واقع .

وخبيب بن عدى هذا قالت فيه ماويّة ابنة الرجل الذى اشتراه ليعطيه لعقبة ليقتله مقابل أبيه ، قالت : والله لقد رأيت خبيبا يأكل قطفا من العنب كرأس الإنسان ! ووالله ما فى مكة حائط ـ بستان ـ ولا عنب وإنما هو رزق ساقه الله له .

ولما جاءوا ليقتلوه قال : أنظرونى أُصَلِّ ركعتين . فصلى ركعتين ونظر إلى القوم وقال : والله لولا أنى أخاف أن تقولوا إنه زاد فى الصلاة لكى نبطىء بقتله لزدت . وقال قبل أن يقتلوه : اللهم أحصهم عدداً ، واقتلهم بدداً ، ولا تبق منهم أحداً . ثم هتف وقال :

ولست أبالى حين أقتل مسلماً
على أى جنب كان فى الله مصرعى

وكان ذلك آخر ما قاله .

ويقول الحق : « والله رءوف بالعباد » وما العلاقة بين ما سبق وبين رءوف بالعباد ؟ مادام الله رءوفاً بالعباد فلم يشأ الله أن يجعل ذلك أمراً كلياً فى كل مسلم ، وإنما جعلها فلتات لتثبت صدق القضية الإيمانية ، لأنه لا يريد أن يضحى كل المسلمين بأنفسهم ، وإنما يريد أن يستبقى منا أناسا يحملون الدعوة .

وبعد أن عرض الحق سبحانه وتعالى أصناف الناس الذين يستقبلون الدعوة كفراً ونفاقاً ، ومن يقابلهم ممن يستقبلونها إيمانا خالصا ، نادى جميع المؤمنين فقال :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ ﴾

تبدأ الآية بنداء الذين آمنوا بالله وكأنه يقول لهم : يامَن آمنتم بى استمعوا

لحديثى . فلم يكلف الله من لم يؤمن به وإنما خاطب الذين أحبوه وآمنوا به ، وماداموا قد أحبوا الله فلا بد أن يتجه كل مؤمن إلى من يحبه ؛ لأن الله لن يعطيه إلا مايسعده .

إذن فالتكليف من الله إسعادٌ لمن أحب ، « يا أيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة » ، وكلمة « فى » تُفيد الظرفية ، ومعنى الظرفية أن شيئا يحتوى شيئا ، مثال ذلك الكوب الذى يحتوى الماء فنقول : « الماء فى الكوب » ، وكذلك المسجد يحتوى المصلين فنقول : « المصلون فى المسجد » .

والظرفية تدل على إحاطة الظرف بالمظروف ، ومادام الظرف قد أحاط بالمظروف إذن فلا جهة يفلت منها المظروف من الظرف . ولذلك يعطينا الحق سبحانه وتعالى صورة التمكن من مسألة الظرفية عندما يقول :

﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ ﴾

(من الآية ٧١ سورة طه)

إن الصلب دائماً يكون على شىء ، وتشاء الآية الكريمة أن تشرح لنا كيف يمكن أن يكون الصلب متمكناً من المصلوب . فأنت إذا أردت أن تصلب شيئاً على شىء فأنت تربطه على المصلوب عليه ، فإذا ما بالغت فى ربطه كأنك أدخلت المصلوب داخل المصلوب عليه .

ومثال ذلك ، هات عود كبريت وضعه على إصبعك ثم اربطه بخيط ربطا جيداً ، ستلاحظ أن العود قد غاص فى جلدك . والحق يقول : « ادخلوا فى السلم كافة » والسِّلْم والسَّلْمُ والسَّلَم هو الإسلام ، فالمادة كلها واحدة ؛ لأن السلم ضد الحرب ، والإسلام جاء لينهى الحرب بينك وبين الكون الذى تعيش فيه لصالحك ولصالح الكون ولتكون فى سلام مع الله وفى سلام مع الكون ، وفى سلام مع الناس . وفى سلام مع نفسك .

قوله : « ادخلوا فى السلم » معناه حتى يكتنفكم السلم . إن الله هو الإله الخالق

للكون ولابد أن تعيشوا فى سلام معه ؛ لأنكم لا تؤمنون إلا به إلهاً واحداً . فيجب علينا أن نعيش مع الأرض والسماء والكون فى سلام ؛ لأن الكون الخاضع المقهور المسخر الذى لا يملك أن يخرج عما رُسم له يعمل لخدمتك ولا يعاندك .

والإنسان حين يكون طائعاً يُسَرّ به كل شىء فى الوجود ؛ لأن الوجود طائع ومُسَبِّح ، فساعة يجد الإنسانَ مُسبِّحاً مثله يُسَرّ به لأنه فى سلام مع الكون . وأنت فى سلام مع نفسك ؛ لأن لك إرادة ، وهذه الإرادة قَهَرَ اللهُ لها كلَّ جوارحك ، والذى تريده من أي عضو يفعله لك ، لكن هل يرضى أى عضو عمّا تأمره به ؟ تلك مسألة أخرى ، مثلاً ، لسانك ينفعل بإرادتك ، فتقول به : « لا إله إلا الله » وقال به غيرنا من المشركين غير ذلك ، وأشركوا مع الله بشراً وغير بشر يعبدونهم . وقال الملحدون بألسنتهم والعياذ بالله : « لا إله فى الكون » ولم يعص اللسان أحداً من هؤلاء لأنه مقهور لإرادتهم .

وتنتهى إرادة الإنسان على لسانه وعلى جميع جوارحه يوم القيامة فيشهد عليه كما تشهد عليه سائر أعضائه : الأرجل ، والأيدى ، والعيون ، والآذان ، وكل عضو يُقر بما كان يفعل به ، لأنه لا سيطرة للإنسان على تلك الأبعاض فى هذا اليوم . إنما السيطرة كلها للخالق الأعلى .

« لمن المُلك اليوم لله الواحد القهار » . والحق حين ينادى المؤمنين بأن يدخلوا فى السلم كافة فالمعنى يحتمل أيضا أن الحق سبحانه وتعالى يخاطب المسلمين ألا يأخذوا بعضاً من الدين ، ويتركوا البعض الآخر ، فيقول لهم : خذوا الإسلام كُله وطبقوه كاملاً ؛ لأن الإسلام يمثل بناء له أسس معلومة ، وقواعد واضحة ، فلا يحاول أحد أن يأخذ شيئاً من حكم بعيداً عن حكم آخر ، وإلا لحدث الخلل .

وعلى سبيل المثال قد تجد خلافاً بين الزوج والزوجة ، وقد يؤدى الخلاف إلى معارك وطلاق ، وبعد ذلك نجد من يتهم الإسلام بأنه أعطى الرجل سيفاً مسلطاً على المرأة . ونقول لهم : ولماذا تتهمون الإسلام ؟ هل دَخَلْتَ على الزواج بمنطق الإسلام ؟ . إن كنت قد دخلت على الزواج بمنطق الإسلام فستجد القواعد المنظمة

والتى تحفظ للمرأة كرامتها ، ولكن هناك من يدخل على الزواج بغير منطق الإسلام ، فلما وقع فى الأزمة راح ينادى الإسلام . هل اختار الرجل من تشاركه حياته بمقياس الدين ؟ وهل وضع نصب عينيه شروط اختيار الزوجة الصالحة التى جاءت فى الحديث الشريف :

عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « تنكح المرأة لأربع : لمالها ، ولحسبها ، ولجمالها ، ولدينها ، فاظفر بذات الدين تربت يداك »[1] .

هل فضّل الرجل ذات الدين على سواها ؟ أم فضّل مقياساً آخر ؟ . وعندما جاء رجل ليخطب ابنة من أبيها هل وضع الأب مقاييس الإسلام فى الاعتبار عند موافقته على هذا الزواج ؟ هل فضلتم من ترضون دينه وخُلُقه ؟ أم تركتم تلك القواعد . أنت تركت قواعد الإسلام فلماذا تلوم الإسلام عند سوء النتائج والعواقب ؟ .

إنك إن أردت أن تحاسب فلابد أن تأخذ كل أمورك بمقاييس الإسلام ، ثم تصرّف بما يناسب الإسلام . فإن كنت كذلك فالإسلام يحميك من كل شىء . فالإسلام يساند القُوَى فى الكون ويساند القُوَى فى النفس بحيث تعيش فى سلام ولا تتعاند ؛ لأن كل ذلك يقابله الحرب . والحرب إنما تنشأ من تعاند القوى ، فتتعاند قوى نفسك فى حرب مع نفسك ، وتتعاند قوى البشر فى حرب البشر مع البشر ، وتتعاند قواك مع قوى الكون الأخرى ، فأنت تعاند الطبيعة وتعاند مع الحق سبحانه وتعالى .

إذن فالتعاند ينشأ منه الحرب ، والحرب لا تنشأ إلا إذا اختلفت الأهواء . وأهواء البشر لا يمكن أن تلتقى إلا عندما تكون محروسة بقيم من لا هوى له ، ولذلك يقول الله عز وجل :

﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾

(من الآية ٧١ سورة المؤمنون)

---

(١)رواه البخارى ومسلم وأبو داود والنسائى وابن ماجه .

لماذا ؟. دعك من الكون الأصم حولك ، أو دعك من الكون الذى لا اختيار له فى أن يفعل أو ينفعل لك ؛ فهو فاعل أو منفعل لك بدون اختيار منه ، ولكن انظر إلى البشر من جنسك ، فما الذى يجعل هوى إنسان يسيطر على أهواء غيره ؟.

ما الذى زاده ذلك الإنسان حتى تكون أنت تابعاً له ؟ أو يكون هو تابعاً لك ؟. وفى قانون التبعية لا يمكن إلا أن يكون التابع مؤمناً بأن المتبوع أعلى منه ، ولا يمكن لبشر أن توجد عنده هذه الفوقية أبداً . لذلك لابد للبشر جميعاً أن يكونوا تبعاً لقوة آمنوا بأنها فوقهم جميعاً . فحين نؤمن ندخل فى السلم ، ولا يوجد تعاند بين أى قوة وقوة أخرى ؛ لأنى لست خاضعاً لك ، وأنت لست خاضعا لى ، وأنا وأنت مسلمون لقوة أعلى منى ومنك ، ويُشترط فى القوة التى نتبعها طائعين ألا يكون لها مصلحة فيما تشرع .

إن المشرعين من البشر يراعون مصالحهم حين يشرعون ، فمشرع الشيوعية يضع تشريعه ضد الرأسمالية ، ومشرع الرأسمالية يضع تشريعه ضد الشيوعية ، لكن عندما يكون المشرع غير منتفع بما يشرع ، فهذا هو تشريع الحق سبحانه وتعالى .

وحين ندخل فى الإسلام ندخل جميعاً لا يشذ منا أحد ، ذلك معنى « ادخلوا فى السلم كافة » ، هذا معنى وارد ، وهناك معنى آخر وارد أيضا وهو ادخلوا فى السلم أى الإسلام بجميع تكاليفه بحيث لا تتركوا تكليفاً يشذ منكم .

وحين يأتى المعنى الأول فلأننا لو لم ندخل فى السلم جميعاً لشقى الذين يُسلمون بالذين لا يُسلمون ؛ لأن الذى يُسلم سيهذب سلوكه بالنسبة للآخرين ، ويكون نفع المسلم لسواه ، ويشقى المسلم بعدم إسلام من لم يسلم ، فمن مصلحتنا جميعاً أن نكون جميعاً مسلمين . والذين لا يدركون هذه الحقيقة يفسرون قول الله تعالى :

﴿ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ﴾

(من الآية ١٠٥ سورة المائدة)

على غير ظاهرها ، فمن ضِمْن هدايتكم أن تُبَصّروُا من لم يؤمنِ بأن يؤمن ؛ لأن

مصلحتكم أن تسلموا جميعاً ، فإذا أسلمت أنت فسيعود إسلامك على الغير ؛ لأن سلوكك سيصبح مستقيماً مهذباً ، والذى لم يسلم سيصبح سلوكه غير مستقيم وغير مهذب ، وستشقى أنت به . إذن فمن مصلحتك أن تقضى وقتاً طويلاً وتتحمل عناءً كبيراً فى أن تدعو غيرك ليدخل فى الإسلام . وإياك أن تقول : إن ذلك يضيع عليك فرص الحياة . لا إنه يضمن لك فرص الحياة ، ولن يضيع وقتك لأنك ستحمى نفسك من شرور غير المسلم .

وأذكر جيداً أننا حين تكلمنا فى فاتحة الكتاب قلنا : إن الله يُعلمنا أن نقول : « إياك نعبد » فكلنا يارب نعبدك وسنسعد جميعنا بذلك ، واهدنا كلنا يارب ؛ لأنك إن هديتنى وحدى فسيستمتع غيرى بهدايتك لى ، وأنا سوف أشقى بضلاله . فمن مصلحتنا جميعاً أن نكون مهديين جميعاً .

هذا على معنى « ادخلوا فى السلم كافة » أى جميعا . أما معنى قوله تعالى: « لا يضركم من ضلَّ إذا اهتديتم » أى لا تتحملون أوزار ضلالهم إذا أمرتم بالمعروف ونهيتم عن المنكر . أما المعنى الثانى فادخلوا فى الإسلام بحيث لا يشذ منكم أحد . ويأخذ شيئا وبعضا من الإسلام ويترك بعضا منه ، فأنت تريد أن تبنى حياتك . ورسول الله صلى الله عليه وسلم شرح أن للإسلام أسساً هى الأركان الخمسة ، وإياك أن تأخذ ثلاثة أركان وتترك ركنين ؛ لأن هندسة الإسلام مبنية على خمسة أركان .

وقد قال لى أحد المهندسين : إننا نستطيع أن ننشىء بنياناً على ثلاثة أركان أو على أربعة أو على خمسة . فقلت له : ولكن حين تجعل البنيان على أربعة أركان ، وتوزع الأحمال والأثقال على أربعة أسس ، هل يمكنك حين تُنشىء أن تجعلها ثلاثة أركان فقط ؟. قال : لا .

قلت : إذن فالبناء إنما ينشأ من البداية على الأسس التى تريدها ، ولذلك فأنت توزع القوى على ثلاثة أو أربعة أو خمسة من البداية . والله سبحانه وتعالى شاء أن يجعل أسس الإسلام خمسة ، وبعد ذلك يُبْنَى الإسلام ، وحين يبنى الإسلام فإياك أن

تأخذ لبنة من الإسلام دون لبنة ، بل يُؤخذ الإسلام كله ، فالضرر الواقع فى العالم الإسلامى إنما هو ناتج من التلفيقات التى تحدث فى العالم المسلم . تلك التلفيقات التى تحاول أن تأخذ بعضاً من الإسلام وتترك بعضا ، وهذا هو السبب فى التعب والضرر ؛ لأن الإسلام لابد أن يؤخذ كله مرة واحدة . إذن « ادخلوا فى السلم كافة » يعنى إياكم أن تتركوا حكماً من الأحكام . إن الذى يتعب المنتسبين إلى الدين الآن أننا نريد أن نلفق حياة إسلامية فى بلاد تأخذ قوانينها من بلاد غير إسلامية .

إذن حتى ننجح فى حياتنا ، فلابد أن نأخذ الإسلام كله . وللأسف فإن كثيراً من حكام البلاد المسلمة لا يأخذون من الإسلام إلا آخر قول الله تعالى : « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » إنهم يأخذون « أولى الأمر منكم » ويتركون « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول » .

وأقول : لماذا تأخذون الأخيرة وتتركون ما قبلها ؟ إن الله لم يجعل لولى الأمر طاعة مستقلة بل قال : « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر » ليدل على أن طاعة ولى الأمر من باطن طاعة الله وطاعة الرسول . فنحن لا نريد تلفيقاً فى الإسلام ، خذوه كاملاً ، تستريحوا أنتم ونسترح نحن معكم .

إن الحق سبحانه وتعالى يريد بدعوتنا إلى دخول الإسلام أن يعصم الناس من فتنة اختلاف أهوائهم فخفف ورفع عن خلقه ما يمكن أن يختلفوا فيه ، وتركهم أحراراً فى أن يزاولوا مهمة استنباط أسرار الله فى وجوده بالعلم التجريبى كما يحبون ، فإن أرادوا رقياً فليُعْمِلُوا عقولهم المخلوقة لله ؛ فى الكون المخلوق لله ، بالطاقة المخلوقة لله ؛ ليسعدوا أنفسهم ويدفعوها إلى الرقى ، وإن انتهى أحد منهم إلى قضية كونية ، واكتشف سراً من الأسرار فى الكون فهو لن يقدم للناس جديداً فى المنهج ، وسيأخذ الناس هذا الجديد ولا يعارضونه .

إذن فمن الممكن أن يستنبط العلماء بعضاً من أسرار قضايا الكون المادية بوساطة العلم التجريبى ، وهى أمور سيتفق عليها الناس ، ولكن البشر يمكن أن يختلفوا فى الأمور النابعة من أهوائهم ؛ لأن لكل واحد هوى ، وكل واحد يريد أن يتبع هواه

ولا يتبع هوى الآخرين ، والحق سبحانه يريد أن يعصمنا من الأهواء لذلك قال لنا : « ادخلوا فى السلم كافة » أى ادخلوا فى كل صور الإسلام ، حتى لا يأتى تناقض الأهواء فى المجتمع .

وكن أيها المؤمن فى سلم مع نفسك فلا يتناقض لسانك مع ما فى قلبك ، فلا تكن مؤمن اللسان كافر القلب . كن منسجما مع نفسك حتى لا تعانى من صراع الملكات . وأيضا كن داخلا فى السلام مع الكون الذى تعيش فيه ، مع السماء ، مع الأرض ، مع الحيوان ، مع النبات . كن فى سلم مع كل تلك المخلوقات لأنها مخلوقة مسخرة طائعة لله ، فلا تشذ أنت لتغضبها وتُحْفِظها عليك .

كن منسجما مع الزمن أيضا ؛ لأن الزمن الذى يحدث فيه منك ما يخالف منهج الله سيلعنك هو والمكان ، وإذا أردت أن تشيع سلامك فى الكون فعليك كما علمك الرسول صلى الله عليه وسلم أن تسالم كل الكون ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يشيع السلام فى الزمان والمكان ، وعلى سبيل المثال كان صلى الله عليه وسلم أكثر الناس صياما فى شعبان ، ولما سأله الصحابة عن هذا أخبرهم أن شعبان شهر يهمله الناس لأنه بين رجب ، ـ وهو من الأشهر الحرم الأربعة ـ وبين رمضان ، فأحب أن يحيى ذلك الشهر الذى يغفل عنه الناس ، فكأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أراد أن يسعد الزمان بأن يشيع فيه لونا من العبادة فلا يجعله أقل من الأزمنة الأخرى .

كذلك الأمكنة تريد أن تسعد بك ، فكل الأماكن تسعد بذكر الله فيها . والحق ـ سبحانه ـ بعد أن أمرنا جميعا بالدخول فى السلم بافعل ولا تفعل ، حذرنا من اتباع الشيطان لأنه هو الذى يعمل على إبعادنا عن منهج الله فقال جل شأنه :

﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾

(من الآية ٢٠٨ سورة البقرة)

ولماذا لا نتبع خطوات الشيطان ؟ لأن عداوته للإنسان عداوة مسبقة ، وقف من

آدم هذا الموقف ، وبعد ذلك أقسم بعزة الله أن يغويكم جميعا ، وإذا كان الحق سبحانه وتعالى قد حكى لنا القصة فكأنه أعطانا المناعة ، أى أن الشيطان لم يفاجئنا . وإنما وضع الحق أمامنا قصة الشيطان مع آدم واضحة جلية ليعطينا المناعة ، بدليل أننا حين نريد أن نصون أجسامنا نجعل لأنفسنا مناعة قبل أن يأتى المرض ، نُطعم أنفسنا ضد شلل الأطفال ، وضد الكوليرا ، وضد كذا ، وكذا ، فكأن الله سبحانه وتعالى يذكر قصة الشيطان مع أبينا آدم ليقول لنا : لاحظوا أن عداوته مسبقة .

ومادام له معكم عداوة مسبقة فلن يأخذكم على غرة ؛ لأن الله نبهكم لتلك المسألة مع الخلق الأول . والشيطان عندما يُذكر فى القرآن يراد به مرة عاصى الجن ، لأن طائع الجن مثل طائع البشر تماما ، ومرة يريد به شياطين الإنس . إذن من الجن شياطين ، ومن الإنس شياطين .

وحتى تستطيع أن تفرق بين ما يزينه الشيطان وبين ما تزينه لك نفسك ، فإن رأيت نفسك مصرا على معصية من لون واحد فاعلم أن السبب هو نفسك ، لأن النفس تريدك عاصيا من لون يشبع نقصا فيها فهى تصر عليه : إنسان يحب المال فتتسلط عليه نفسه من جهة المال ، وإنسان آخر يحب الجنس فتتسلط عليه نفسه من جهة النساء ، وثالث يحب الفخر والمديح فتتسلط عليه نفسه من جهة من ينافقه . لكن الشيطان لا يصر على معصية بعينها ، فإن رآك قد امتنعت عن معصية فهو يزين لك معصية أخرى ؛ لأنه يريدك عاصيا على أية جهة .

والحق يحذرنا « ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين » . وليس هناك عداوة أوضح من عداوة الشيطان بعد أن وقف من آدم وقال ما أورده الحق على لسانه :

﴿ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾

(من الآية ٨٢ ، ٨٣ سورة ص)

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾﴾

والزّلة هى المعصية ، وهى مأخوذة من « زال » ، وزال الشىء أى خرج عن استقامته ، فكأن كل شيء له استقامة ، والخروج عنه يعتبر زللا ، والزلل : هو الذنوب والمعاصى التى تخالف بها المنهج المستقيم .

« من بعد ما جاءتكم البينات » إنه سبحانه يوضح لنا أنه لا عذر لكم مطلقا فى أن تزلوا ؛ لأننى بينت لكم كل شىء ، ولم أترككم إلى عقولكم ، ومن المنطقى أن تستعملوا عقولكم استعمالا صحيحا لتديروا حركة الكون الذى استخلفتكم فيه ، ومع ذلك ، إن أصابتكم الغفلة فأنا أرسل الرسل . ولذلك قال سبحانه :

﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾

(من الآية ١٥ سورة الإسراء)

لقد رحم الله الخلق بإرسال الرسل ليبينوا للإنسان الطريق الصحيح من الطريق المعوج . والحق سبحانه وتعالى يترك بعض الأشياء للبشر ليأتوا بفكر من عندهم ثم يرتضى الإسلام ما جاءوا به ليعلمنا أن العقل إذا ما كان طبيعيا ومنطقيا فهو قادر على أن يهتدى إلى الحكم بذاته . وفى تاريخ الإسلام نجد أن سيدنا عمر قد رأى أشياء واقترح بعضا من الاقتراحات ، ووافق عليها الرسول صلى الله عليه وسلم ، ثم ينزل القرآن على وفق ما قال عمر ، وقد يتساءل أحد قائلا : ألم يكن النبى صلى الله عليه وسلم أولى ؟

نقول : لو كانت تلك الآراء قد جاءت من النبى صلى الله عليه وسلم لما كان فيها غرابة ؛ لأن النبى صلى الله عليه وسلم معصوم ويوحى إليه ، لكن الله يريد أن يقول

لنا : إن العقل الفطرى عندما يصفو فهو يستطيع أن يهتدى للحكم الصحيح ، وإن لم يكن هناك حكم قد نزل من السماء . ولذلك تستفز أحكام سيدنا عمر عدداً كبيراً من المستشرقين ويقولون : أليس عندكم سوى عمر ؟ لماذا لا تقولون محمدا ؟

نقول لهم : لقد تربى عمر فى مدرسة النبى صلى الله عليه وسلم ، فما يقوله هو ، إنما قد أخذه عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وقد أقر عمر بذلك وقال : « ما عمر لولا الإسلام » ، ونحن نستشهد بعمر لأنه بشر وليس رسولاً ، ويسرى عليه ما يسرى على البشر ، فلا يوحى إليه ولم يكن معصوما .

إذن كأن الحق أراد أن يُقَرِّب لنا القدرة على الاستنباط والفهم فنكون جميعا عمر ؛ لأن عمر بالفطرة كان يهتدى إلى الصواب ، ويقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم : « نفعل كذا » ، فينزل الوحى موافقا لرأيه ، فكأن الله لم يكلفنا شططا ، إنما جاء تكليفه ليحمى العقول من أهواء النفس التى تطمس العقول ، فآفة الرأى الهوى ، ولولا وجود الأهواء لكانت الآراء كلها متفقة .

وقديما أعطوا لنا مثلا بالمرأة التى جمعت الصيف والشتاء فى ليلة واحدة ، فقد زوجت ابنها وابنتها ، وعاش الأربعة معها فى حجرة واحدة ، ابنها معه زوجته ، وابنتها معها زوجها ، والمرأة معهم ، تنام نوما قليلا وتذهب لابنتها توصيها : « دفئى زوجك وأرضيه » فالجو بارد ، وتذهب لابنها وتقول : « ابعد عن زوجتك فالدنيا حر » .

إن المكان واحد ، والليل واحد ، لكن المرأة جعلته صيفاً وشتاء فى وقت واحد والسبب هو هوى النفس . والله ـ سبحانه ـ يبيّن لنا ذلك فى قوله :

﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾

(من الآية ٧١ سورة المؤمنون)

إذن فالحق سبحانه وتعالى يعصمنا حين يُشَرِّع لنا ، فالبشر يضيقون ذرعا بتقنينات أنفسهم لأنفسهم ، فيحاولون أن يخففوا من خطأ التقنين البشرى ، فيقننوا أشياء

يعدلون بها ما عندهم ، ولو نظرت إلى ما عدلوه من قوانين لوجدته تعديلا يلتقى مع الإسلام أو يقترب من الإسلام .

لقد سألونى فى أمريكا : لماذا لم يظهر الإسلام فوق كل العقائد برغم أنكم تقولون : إن الله يقول فى كتابه : « ليظهره على الدين كله » . ومع ذلك لم يظهر دينكم على كل الأديان ، ولم يزل كثير من الناس غير مسلمين سواء كانوا يهودا أو نصارى أو بلا دين ؟

قلت : لو فطنتم إلى قول الله : « ولو كره الكافرون » و« لو كره المشركون » لدلكم ذلك على أن ظهور الإسلام قد تم مع وجود كفار ، وظهوره مع وجود مشركين ، وإلا لو ظهر ولا شىء معه فممن يُكرَه ؟ إن العقيدة التى يكرهها أهل الكفر هى التى تعزز وجود الإسلام . إذن « ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون » يدل على أن ظهور الإسلام يعنى وجود كافر ووجود مشرك كلاهما سيكون موجودا وسيكرهان انتشار الدين .

وعندما نرى أحداث الحياة تضطر البلاد الغربية عندما يجدون خطأ تقنينهم فيحاولون أن يعدلوا فى التقنينات فلا يجدون تعديلا إلا أن يذهبوا إلى أحكام الإسلام ، لكنهم لم يذهبوا إليه كدين إنما ذهبوا إليه كنظام ، إن رجوعهم إلى الإسلام لدليل وتأكيد على صحة وسلامة أحكام الإسلام ، لأنهم لو أخذوا تلك الأحكام كأحكام دين لقال غيرهم : قوم تعصبوا لدين آمنوا به فنفذوا أحكامه . ولكنهم برغم كرههم للدين، اضطروا لأن يأخذوا بتعاليمه ، فكأنه لا حل عندهم إلا الأخذ بما ذهب إليه الإسلام .

إذن قول الله : « ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون » قوة لنظام الإسلام ، لا لتؤمن به وإنما تضطر أن تلجأ إليه ، وكانوا فى إيطاليا ـ على سبيل المثال ـ يعيبون على الإسلام الطلاق ويعتبرونه انتقاصا لحقوق المرأة ، ولكن ظروف الحياة والمشكلات الأسرية اضطرتهم لإباحة الطلاق ، فهل قننوه لأن الإسلام قال به ؟ لا ، ولكن لأنهم وجدوا أن حل مشكلاتهم لا يأتى إلا منه .

وفى أمريكا عندما شنوا حملة شعواء على تناول الخمور ، هل حاربوها لأن الإسلام حرمها ؟ لا ، ولكن لأن واقع الحياة الصحية طلب منهم ذلك . إذن « ولو كره الكافرون » ، « ولو كره المشركون » : معناهما أنهم سيلجأون إلى نظام الإسلام ليحل قضاياهم . فإن لم يأخذوه كدين فسوف يأخذونه نظاما .

« فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البينات فاعلموا أن الله عزيز حكيم » أى إياكم أن تظنوا أنكم بزللكم أخذتم حظوظ أنفسكم من الله ، فإن مرجعكم إلى الله وهو عزيز وعزته سبحانه هى أنه يَغلب ولا يُغلب ، فهو يدبر أمورنا برحمة وحكمة . ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾ ﴾

أى ماذا ينتظرون ؟ هل ينتظرون أن تداهمهم الأمور ويجدوا أنفسهم فى كون وإن أخذ زخرفه فهو يتحول إلى هشيم تذروه الرياح ، ويصير الإنسان أمام لحظة الحساب .

وقوله : « هل ينظرون » مأخوذة من النظر . والنظر هو طلب الإدراك لشىء مطلق . وطلب الإدراك لأى شىء بأى شىء يُسمى نظرا . ومثال ذلك أننا نقول لأى إنسان يتكلم فى أى مسألة معنوية : أليس عندك نظر ؟ أى هل تملك قوة الإدراك أم لا ؟

إذن فالنظر هو طلب الإدراك للشىء ، فإن طلبت أن ترى فهو النظر بالعين ، وإن طلبت أن تعرف وتعلم ؛ فهو النظر بالفكر وبالقلب . وأحيانا يُطلق النظر على الانتظار ، وهو طلب إدراك ما يتوقع .

و« هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله » ، يعنى هل ينتظرون إلا أن تأتيهم الساعة وتفاجئهم فى الزمن الخاص ؟ لأنها لن تفاجىء أحدا فى الزمن العام ، فسوف يكون لها آيات صغرى وآيات كبرى ، ومعنى أن لها آيات صغرى وكبرى ، أن ذلك دليل على أن الله يمهلنا لنتدارك أنفسنا ، فلايزال فاتحا لباب التوبة ما لم تطلع الشمس من مغربها .

وساعة نسمع قوله تعالى : « هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله » نقول : ما الذى يؤجل دخولهم فى الإسلام كافة ؟ ما الذى ينتظرونه ؟ تماما كأن تقول لشخص أمامك : ماذا تنتظر ؟ كذلك الحق يحثنا على الدخول فى السلم كافة وإلا فماذا تنتظرون ؟

و« إلا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام والملائكة » ساعة تقول : « يأتيهم الله » أو « جاء ربك » أو يأتى سبحانه بمثل فى القرآن مما نعرفه فى المخلوقين من الإتيان والمجىء وكالوجه واليد ، فلتأخذه فى إطار « ليس كمثله شىء » فالله موجود وأنت موجود ، فهل وجودك كوجوده ؟ لا .

إن الله حى وأنت حى ، أحياتك كحياته ؟ لا . والله سميع وأنت سميع ، أسمعك كسمعه ؟ لا . والله بصير وأنت بصير ، أبصرك كبصره ؟ لا . وما دمت تعتقد أن له صفات مثلها فيك ، فلتأخذها بالنسبة لله فى إطار « ليس كمثله شىء » .

والذين يفسرون المقصود بوجه الله أنه ذاته ، وبيده يعنى قدرته ، و« يد الله فوق أيديهم » ، يعنى قدرته فوق قدرتهم . نقول لهم : لماذا هذه التفسيرات ؟ إننا لو أخذناه كما قال الحق عن نفسه ولكن فى إطار « ليس كمثله شىء » نكون قد سلمنا من الخطأ . . لاشبهناه بخلقه ، ولا عطلنا نصًا عن معناه .

ولذلك يقول المحققون : إنك تؤمن بالله كما أعطاك صورة الإيمان به لكن فى إطار لا يختلف عنه عمًا فى أنه « ليس كمثله شىء » ، وإن أمكن أن تتصور أى شىء فربك على خلاف ما تتصور ، لأن ما خطر ببالك فإن الله سبحانه على خلاف ذلك ،

فبال الإنسان لا يخطر عليه إلا الصور المعلومة له ، ومادامت صورا معلومة فهى فى خلق الله وهو سبحانه لا يشبه خلقه .

إن ساعة يتجلى الحق ، سيفاجىء الذين تصوروا الله على أية صورة ، أنه سبحانه على غير ما تصوروا وسيأتيهم الله بحقيقة لم تكن فى رءوسهم أبداً ؛ لأنه لو كانت صورة الحق فى بال البشر لكان معنى ذلك أنهم أصبحوا قادرين على تصوره ، وهو القادر لا ينقلب مقدوراً عليه أبداً ، ومن عظمته أن العقل لا يستطيع أن يتصوره مادياً . ولذلك ضرب الله لنا مثلاً يقرِّب لنا المسألة ، فقال :

﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

(سورة الذاريات)

إن الروح الموجودة فى مملكة جسمنا والتى إذا خرجت من إنسان صار جيفة ، وعاد بعد ذلك إلى عناصر تتحلل وأبخرة تتصاعد ، هذه الروح التى فى داخل كل منا لم يستطع أحد تصورها ، أو تحديد مكانها أو شكلها ، هذه الروح المخلوقة لله لم نستطع أن نتصورها ، فكيف نستطيع أن نتصور الخالق الأعظم ؟

« هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله » يعنى بما لم يكن فى حسبانهم . هل ينتظرون حتى يروا ذلك الكون المنسق البديع قد اندثر ، والكون كله تبعثر ، والشمس كورت ، والنجوم انكدرت ، وكل شىء فى الوجود تغير ، وبعد ذلك يفاجأون بأنهم أمام ربهم . فماذا ينتظرون ؟ .

إذن يجب أن ينتهزوا الفرصة قبل أن يأتى ذلك الأمر ، وقبل أن تفلت الفرصة من أيديهم ويُنهى أمد رجوعهم إلى الله . لماذا يسوفون فى أن يدخلوا فى السلم كافة ؟ ما الذى ينتظرونه ؟ أينتظرون أن يتغير الله ؟ أو أن يتغير منهج الله ؟ إن ذلك لن يحدث .

ونؤكد مرة أخرى أننا عندما نسمع شيئاً يتعلق بالحق فيما يكون مثله فى البشر فلنأخذه فى إطار « ليس كمثله شىء » . فكما أنك آمنت بأن لله ذاتاً لا كالذوات ،

فيجب أن تعلم أن لله صفات ليست كالصفات ، وأن لله أفعالاً ليست كالأفعال ، فلا تجعل ذات الله مخالفة لذوات الناس ؛ ثم تأتى فى الصفات التى قال الله فيها عن نفسه وتجعلها مثل صفات الناس ، فإذا كان الله يجىء ؛ فلا تتصور مجيئه أنه سيترك مكاناً إلى مكان ، فهو سبحانه يكون فى مكان بما لا يخلو عنه مكان ، تلك هى العظمة .

فإذا قيل : « إلا أن يأتيهم الله » فلا تظن أن إتيانه كإتيانك ؛ لأن ذاته ليست كذاتك ، ولأن الناس فى اختلاف درجاتهم تختلف أفعالهم ، فإذا كان الناس يختلفون فى الأفعال باختلاف منازلهم ، وفى الصفات باختلاف منازلهم ، فالحق منزه عن كل شىء وكل تصور ، ولنأخذ كل شىء يتعلق به فى إطار « ليس كمثله شىء » ؛ ففعْل ربك يختلف عن فعلك . وإياك أن تُخضع فعله لقانون فعلك ؛ لأن فعلك يحتاج إلى علاج وإلى زمن يختلف باختلاف طاقتك وباختلاف قدرتك ، والله لا يفعل الأشياء بعلاج بحيث تأخذ منه زمناً ولكنه يقول : « كن فيكون » .

كأن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يعطينا صورة عن الإنجاز الذى لا دخل لاختيار البشر فى أن يخالفوا فيه فيقول : ساعة يجىء الأمر انخلعت كل قدرة لمخلوق عن ذلك الأمر وأصبح الأمر لله وحده .

و« فى ظلل من الغمام » . فيه شىء يظلك وفيه شىء تستظل به ، والشىء الذى يظلك لا يكون لك ولاية عليه فى أن يظلك إلّا أن ترى أين ظله وتذهب إليه ، وشىء آخر تستطيع أنت التصرف فيه كالمظلة تفتحها فى أى مكان تريد . وكلمة « ظلل » معناها أنها تستر عنك مصدر الضوء ؛ ولذلك حينما أراد الحق سبحانه وتعالى أن يصور لنا ذلك قال :

﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ ﴾

(من الآية ٣٢ سورة لقمان)

أى جاءهم الفزع الأكبر كالظلة محيطاً بهم ، فكأن الله يريد أن يخبرنا أن الكون سيندثر كله وسيأتيك الأمر المفزع ، الأمر المفجع ، والمؤمن كان يتوقعه ، وسيدخل

عليه برداً وسلاماً ؛ لأنه ما آمن من أجله ، لكن الكافر سيصاب بالفزع الأكبر ؛ لأنه فوجىء بشىء لم يكن فى حسابه .

وقارن بين مجىء الأمر لمن يؤمله ، وبين مجىء الأمر لمن لا يؤمله . إن الحق سبحانه وتعالى قال : ساعة تجىء هذه الظلل والملائكة فقد قضى الأمر . وعندما تسمع « قضى الأمر » فاعلم أن المراد أن الفرصة أفلتت من أيدى الناس ، فمن لم يرجع إلى ربه قبل الآن فليست له فرصة أن يرجع . ومثال ذلك ما قاله الحق فى قصة نوح :

﴿ وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة هود)

أى انتهى كل شىء ، ولم يعد للناس قدرة على أن يرجعوا عما كانوا فيه،فالله يقول : ماذا تنتظرون ؟ هل تنتظرون حتى يأتيكم هذا اليوم ؟ لابد أن تنتهزوا الفرصة لترجعوا إلى ربكم قبل أن تفلت منكم فرصة العودة . «وإلى الله تَرجع الأمور» ، ومرة تأتى « وإلى الله تُرجع الأمور » .

وفيه فرق بين « تَرجع الأمور » بفتح التاء وبين « تُرجع الأمور » بضم التاء . فكأن الأمور مندفعة بذاتها ، ومرة تساق إلى الله . إن الراغب سيرجع إلى ربه بنفسه ؛ لأنه ذاهب إلى الخير الذى ينتظره ، أما غير الراغب والذى كان لا يرجو لقاء ربه فَسَيُرجَع بالرغم عنه ، تأتى قوة أخرى تُرجعه ، فمن لم يجىء رغَباً يأتى رهَباً . ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ سَلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ ۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢١١﴾ ﴾

فكأن الله لم يحمل على بنى إسرائيل ويريد منهم أن يقروا على أنفسهم بما أكرمهم به الله من خير سابق ؛ فساعة تقول : « اسأل فلاناً عما فعلته معه » ، كأنك لا تأمر بالسؤال إلا عن ثقة ، وأنه لن يجد جواباً إلا ما يؤيد قولك . والحق يبلغ رسوله صلى الله عليه وسلم أن يسأل بنى إسرائيل عن الخير السابق الذى غمرهم به وهو سبحانه عليم أنهم لن يستطيعوا مع لددهم أن يتكلموا إلا بما يوافق القضية التى يقولها الحق وتصبح حجة عليهم .

والحق سبحانه وتعالى يقول : « سل بنى إسرائيل كم آتيناهم » ساعة تسمع « كم » فى مقام كهذا فافهم أنها كناية عن الإخبار عن الأمر الكثير بخلافِ « كم » التى تريد بها الاستفهام . وأنت تقول : « كم فعلت كذا مع فلان » و« كم صنعت معه معروفاً » و« كم تهاونت معه » و« كم أكرمته » . لذلك فعندما تسمع « كم » هذه فاعرف أن معناها الكمية الكثيرة التى يُكنى بها على أن عددها لا يُحصى .

« سل بنى إسرائيل كم آتيناهم من آية بينة » إن الحق يريد أن يضرب لنا مثلاً كمثل إنسان يأكل خيرك وينكر معروفك ، ويشكوك إلى إنسان ، فترد أنت لم ينقل لك الشكوى : سله ماذا قدمت له من جميل ، أنا لن أتكلم بل سأجعله هو يتكلم . وأنت لا تقول ذلك إلا وأنت على ثقة من أنه لا يستطيع أن يغير شيئاً .

ألم يفلق لهم البحر ؟. ألم يجعل عصا موسى حية ؟ ألم يظللهم الله بالغمام ؟ ألم يعطهم الله المن والسلوى ؟ كل ذلك أعطاه الله لهم ؛ فلم يشكروا نعمة الله ، فحل عليهم غضبه ؛ أخذهم بالسنين والجوع وأخذهم بالقمل والضفادع والدم ، كل ذلك فعله الله معهم . . وحين يقول الحق لرسوله : « سل بنى إسرائيل » فالقول منسحب على أمة رسول الله صلى الله عليه وسلم . فإذا جاءك واحد منهم فاسأله : كم آيةٍ أعطاها الله لكم فأنكرتموها ، وتلكأتم . وتعنّتم . « كم آتيناهم من آية بينة » إن « كم » تدل على الكمية الكبيرة ، و« من آية » : معناها الأمر العجيب . و« بينة » تعنى الأمر الواضح الذى لا يمكن أن يغفل عنه أحد .

« سل بنى إسرائيل كم آتيناهم من آية بينة ، ومن يبدل نعمة الله من بعد ما جاءته

فإن الله شديد العقاب » . وكيف يبدل الإنسان نعمة الله ؟ . إن نعمة الله حين تصيب خلقاً فالواجب عليهم أن يستقبلوها بالشكران ، ومعنى الشكران هو نسبتها إلى واهبها والاستحياء أن يعصوا من أنعم عليهم بها . فإذا استقبل الناس النعمة بغير ذلك فقد بُدّلت . ولذلك يقول الحق فى آية أخرى : « ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً » وما داموا قد بدلوها كفراً ، فيكون الكفر هو الذى جاء مكان الإيمان . إذن كان المطلوب أن يقابلوا النعمة بالإيمان ، بالازدياد فى التقرب إلى الله ، لكنهم بدلوا النعمة بالكفر .

« ومن يبدل نعمة الله من بعد ما جاءته فإن الله شديد العقاب » قد نفهم أن معنى « شديد العقاب » هو أمر يتعلق بالآخرة ، ولعل أناساً يستبطئون الآخرة ، أو أناساً غير مؤمنين بالآخرة ، فلو كان الأمر بالعقاب يقتصر على عقاب الآخرة لشقى الناس بمن لا يؤمنون بالآخرة . . أو يستبطئونها لأن هؤلاء يعيثون فى الأرض فساداً ؛ لأنهم لا يخافون الآخرة ولا يؤمنون بها ، أو أنها لا تخطر ببالهم .

فالذى يؤمن بأن هناك آخرة تأتى وسيكون فيها حساب ، هو الذى سيكون سلوكه على مقتضى ذلك الإيمان . أما الذى لا يؤمن أن هناك يوماً آخر فالدنيا تشقى به . فإذا لم يعجل الله بلون من العقوبة للذين لا يؤمنون بالآخرة أو الذين يستبطئون الآخرة لشقى الناس بهؤلاء الذين لا يؤمنون أو يسبتطئون .

وكل جماعة لا تقبل على منهج الله ، ويبدلون نعمة الله كفراً لابد أن يكون لله فيهم عقاب عاجل ، وذلك ليعلم الناس أن من لم يرتدع إيماناً وخوفاً من اليوم الآخر فعليه أن يرتدع مخافة أن يأتيه العقاب فى الدنيا . فالظالم إذا علم أن ظالماً مثله لقى عقابه وحسابه فى الدنيا فسيخاف أن يَظلم ؛ وإن لم يكن مؤمناً بالآخرة ، لأنه سيتأكد أن الحساب واقع لا محالة . ولذلك لا يؤجل الله العقاب كله إلى الآخرة ولكن ينزل بعضا منه فى الدنيا . ويقول الحق فى الذين يبدلون نعمة الله كفراً :

﴿ وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ ﴾

(سورة إبراهيم)

هذه عقوبة الآخرة،ولن يتركهم الله فى الدنيا دون أن ينالهم العقاب .

وحتى الذين يظلمون ويتعسفون مع أنهم مسلمون لا يتركهم الله بلا عقاب فى الدنيا حتى يأتيهم يوم القيامة بل لابد أن يجىء لهم من واقع دنياهم ما يخيف الناس من هذه الخواتيم حتى تستقيم حركة الحياة بين الناس جميعا ، وإلا فسيكون الشقاء واقعا على الناس من هؤلاء ومن الذين لا يؤمنون بعقاب الآخرة .

وكان بعض الصالحين يقول : « اللهم إن القوم قد استبطأوا آخرتك وغرهم حلمك فخذهم أخذ عزيز مقتدر » ؛ لأنه سبحانه لو ترك عقابهم للآخرة لفسدوا وكانوا فتنة لغيرهم من المؤمنين . ولذلك شاء الله أن يجعل فى منهج الإيمان تجريماً وعقوبة تقع فى الدنيا ، لماذا ؟ حتى لا يستشرى فساد من يشك فى أمر الآخرة . وشدة عقاب الله لا يجعلها فى الآخرة فقط ، بل جعلها فى الدنيا أيضا ؛ ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ ﴾

(سورة طه)

ثم يقول سبحانه وتعالى :

﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾ ﴾

يريد الحق سبحانه وتعالى أن يبين واقع الإنسان فى الكون ، هذا الواقع الذى يدل

على أنه سيد ذلك الكون ، ومعنى ذلك أن كل الأجناس تخدمه . وقد عرفنا أن الجماد يخدم النبات ، والجماد والنبات يخدمان الحيوان ، والجماد والنبات والحيوان تخدم الإنسان ، فالإنسان سيد هذه الأجناس .

وكان مقتضى العقل أن يبحث هذا السيد عن جنس أعلى منه ، فكما كانت الأجناس التى دونه فى خدمته ، فلابد أن يكون هذا الجنس الأعلى يناسب سيادته ، ولن يجد شيئا فى الوجود أبدا أعلى من الجنس الذى ينتسب إليه ، لذلك كان المفروض أن يقول الإنسان : أنا أريد جنسا ينبهنى عن نفسى ؛ فأنا فى أشد الاحتياج إليه . فإذا جاء الرسل وقالوا : إن الذى أعلى منك أيها الإنسان هو الله وليس كمثله شيء وتعالى عن كل الأجناس . كان يجب على الإنسان أن يقول : مرحبا ؛ لأن معرفة الله تحل له اللغز . والرسل إنما جاءوا ليحلوا للإنسان لغزاً يبحث عنه ، وكان على الإنسان أن يفرح بمجيء الرسل ، وخصوصاً أن الله عز وجل لا يريد خدمة منه ، إن الإنسان هو الذى يحتاج لعبادة الله ليسخر له الكائنات ، ويعبده ليعزه . إذن فالمؤمن بين أمرين : بين خادمٍ له مسخر وهو من دونه من الجماد والنبات والحيوان ، ومعطٍ متفضلٍ عليه مُختارٍ وهو أعلى منه . إنه هو الله .

فمن يأخذ واحدة ويترك واحدة فقد أخذ الأدنى وترك الأعلى ، فيقول له الحق : خذ الأعلى . فإذا كنت سعيداً بعطاء المخلوقات الأدنى منك ، وتحب أن تستزيد منها فكيف لا تستزيد ممن هو أعلى منك ؟ . إنه الله .

والحق عندما يقول : « زين للذين كفروا الحياة الدنيا » فهو يريد أن يلفتنا إلى أن مقاييس الكافرين مقاييس هابطة نازلة ؛ لأن الذى زُين لهم هو الأمر الأدنى . ومن خيبة التقدير أن يأخذ الإنسان الأمر الأدنى ويفضله على الأعلى . وكلمة « زُيِّن » عندما تأتى فى القرآن تكون مبنية لما لم يسم فاعله مثل قوله تعالى :

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ ﴾

(من الآية ١٤ سورة آل عمران)

هناك « زين للناس » وفى آية البقرة التى نحن بصددها « زين للذين كفروا » لماذا قال الحق هناك : « زين للناس » ولماذا قال هنا : « زين للذين كفروا » ؟ لقد قال الحق ذلك لأن الذين كفروا ليس عندهم إلا الحياة الدنيا ، فالأعلى لا يؤمنون به ، ولكن فى مسألة الناس عامة عندما يقول الله عز وجل : « زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب » فهو سبحانه يقول للناس : خذوا الحياة على قدرها،وزُينت يعنى حُسنت . فمن الذى حسنها ؟ لقد حسنها الله عز وجل . فكيف تنسى الذى حسنها لك ، وجعلها جميلة وجعلها تحت تصرفك ؟

كان يجب أن تأخذها وسيلة للإيمان بمن رزقك إياها ، وكلما ترى شيئا جميلا فى الوجود تقول : « سبحان الله » ، وتزداد إيمانا بالله ، أما أن تأخذ المسألة وتعزلها عمن خلقها فذلك هو المقياس النازل .

أو أن الله سبحانه وتعالى هو الذى زينها بأن جعل فى الناس غرائز تميل إلى ما تعطيه هذه الحياة الدنيا ، ونقول : هل أعطى سبحانه الغرائز ولم يعط منهجا لتعلية هذه الغرائز ؟ لا ، لقد أعطى الغرائز وأعطى المنهج لتعلية الغرائز ، فلا تأخذ هذه وتترك تلك . ولذلك يقول الحق :

﴿ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ ﴾

(من الآية ٤٦ سورة الكهف)

والحق عندما يقول : « زين للذين كفروا الحياة الدنيا » فهو يفضح من يعتقدون أنه لا حياة بعد هذه الحياة ، ونقول لهم : هذا مقياس نازل ، وميزان غير دقيق ، ودليل على الحمق ؛ لأنكم ذهبتم إلى الأدنى وتركتم الأعلى . ومن العجيب أنكم فعلتم ذلك ثم يكون بينكم وبين من اختار الأعلى هذه المفارقات . أنتم فى الأدنى ، وتسخرون من الذين التفتوا إلى الأعلى ، إن الحق يقول : « ويسخرون من الذين آمنوا » . لماذا يسخرون منهم ؟

راجع أصله وخرّج أحاديثه الدكتور أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .

لأن الذين آمنوا ملتزمون ، ومادام الإنسان ملتزما فسيعوق نفسه عن حركات الوجود التى تأتيه من غير حل ، لكن هؤلاء قد انطلقوا بكل قواهم وملكاتهم إلى ما يزين لهم من الحياة .

لذلك تجد إنساناً يعيش فى مستوى دخله الحلال ، ولا يملك إلا حُلَّةً واحدة «بدلة» ، وإنساناً آخر يسرق غيره ، فتجد الثانى الذى يعيش على أموال غيره حسن المظهر والهندام وعندما يلتقى الاثنان تجد الذى ينهب يسخر من الذى يعيش على الحلال ، لماذا ؟ لأنه يعتبر نفسه فى مقياس أعلى منه ، يرى نفسه حسن الهندام و« الشياكة » فيحسم الحق هذه المسألة ويقول : «و الذين اتقوا فوقهم يوم القيامة » . لماذا يوم القيامة ، أليسوا فوقهم الآن ؟

إن الحق سبحانه وتعالى يتحدث عن المنظور المرئى للناس ؛ لأنهم لا ينظرون إلى الراحة النفسية وهى انسجام ملكات الإنسان حينما يذهب لينام ، ولم يجرب على نفسه سقطة دينية ولا سقطة خلقية ، ولا يؤذى أحدًا ، ولا يرتشى ، ولا ينم ولا يغتاب ، كيف يكون حاله عندما يستعرض أفعال يومه قبل نومه ؟ لابد أن يكون فى سعادة لا تقدر بمال الدنيا .

ولذلك لم يدخل الله هذا الإحساس فى المقارنة ، وإنما أدخل المسألة التى لا يقدر عليها أحد . « والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة » . ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُواْ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾

(سورة المطففين)

ثم يقول الحق بعد ذلك :

﴿ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

(سورة المطففين)

أى هل عرفنا أن نجازيهم ؟ نقول : نعم يارب . خصوصا أن ضحك الآخرة ليس بعده بكاء .

« والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة » ولنلاحظ أن الحق سبحانه وتعالى خالف الأسلوب فى هذه الآية، لقد كان المفروض أن يقول : والذين آمنوا فوقهم . لكنه قال : « والذين اتقوا فوقهم » لأنه قد يؤخذ الإيمان على انه اسم ، فقد شاع عنك أنك مؤمن ، فأنت بهذا الوصف لا يكفى لتنال به المرتبة السامية إلا إذا كانت أفعالك تؤدى بك إلى التقوى .

فلا تقل : « أنا مؤمن » ويقول غيرك : « أنا مؤمن » ، ويصبح المؤمنون مليارا من البشر فى العالم ، نقول لهؤلاء : أنتم لن تأخذوا الإيمان بالاسم وإنما تأخذون الإيمان بالالتزام بمنهج السماء . ولذلك لم يقل الله : « والذين آمنوا فوقهم يوم القيامة » وإنما قال : « والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة » ليعزل الاسم عن الوصف . ويذيل الحق الآية بالقول الكريم : « والله يرزق من يشاء بغير حساب » . ما هو الرزق ؟ الرزق عند القوم : هو كل ما ينتفع به ؛ فكل شىء تنتفع به هو رزق . وطبقا لهذا التعريف فاللصوص يعتبرون الحرام رزقا ، ولكنه رزق حرام .

والناس يقصرون كلمة الرزق على شىء واحد يشغل بالهم دائما وهو « المال » نقول لهم : لا ، إن الرزق هو كل ما يُنتفع به ؛ فكل شىء يكون مجاله الانتفاع يدخل فى الرزق : علمك رزق ، وخُلُقُك رزق ، وجاهك رزق ، وكل شىء تنتفع به هو رزق . ساعة تقول : إن كل ذلك رزق تأخذ قول الله :

﴿ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ﴾

(من الآية ٧١ سورة النحل)

كأن الله يريد من خلقه استطراق أرزاقهم على غيرهم ، وكل إنسان متميز وتزيد عنده حاجة عليه أن يردها على الناس ، لكن الناس لا تفهم الرزق إلا على أنه مال ، ولا يفهمون أنه يطلق على كل شيء ينتفعون به .

إذا كان الأمر كذلك فما معنى « يرزق من يشاء بغير حساب » كلمة « بغير حساب » لابد أن نفهمها على أن الحساب يقتضى مُحاسِب ، ومُحَاسَب ، ومُحَاسَب عليه . وعلى هذا يكون « بغير حساب » ممن ولمن وفى ماذا ؟

إنه رزق بغير حساب من الله ؛ فقد يرزقك الله على قدر سعيك . وربما أكثر ، وهو يرزق بغير حساب ، لأنه لا توجد سلطة أعلى منه تقول له : لماذا أعطيت فلانا أكثر مما يستحق .

وهو يرزق بغير حساب ؛ لأن خزائنه لا تنفد . ويرزق بغير حساب ؛ لأنه لا يحكمه قانون ، وإنما يعطى بطلاقة القدرة . إنه جل وعلا يعطى للكافر حتى تتعجب أنت وتقول : يعطى الكافر ولا يعطى المؤمن لماذا ؟

إذا استطاع أحد أن يحاسبه فليسأله لماذا يفعل ذلك ؟ إنه يعطى مقابلا للحسنة سبعمائة ضعف بغير حساب . إن الحساب إنما يأتى عندما تأخذ معدوداً ، فإذا أخذت مثلا مائة من ألف فأنت طرحت معدودًا من معدود فلابد أن ينقص ، وعندما تراه ينقص فأنت تخاف من العطاء . لكن الله بخلاف ذلك ، إنه يعطى معدوداً من غير معدود .

إذن ساعة تقرأ « بغير حساب » فقل إن الحساب إن كان واقعا من الله على الغير ، فهو لا يعطى على قدر العمل بل يزيد ، ولن يحاسب نفسه ولن يُحاسبه أحد .

﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ﴾

(من الآية ٩٦ سورة النحل)

إذن « يرزق من يشاء بغير حساب » تجعل كل إنسان يلزم أدبه إن رأى غيره قد

رُزق أكثر منه ؛ لأنه لا يعلم حكمة الله فيها . وهناك أناس كثيرون عندما يعطيهم الله نعمة يقولون : « ربنا أكرمنا » ، وعندما يسلبهم النعمة يقولون : « ربنا أهاننا » ، وفى ذلك يقول سبحانه وتعالى :

﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة الفجر)

كلا . مخطىء أنت يا مَن اعتبرت النعمة إكراما من الله ، وأنت مخطىء أيضاً يا مَن اعتبرت سلب النعمة إهانة من الله ؛ إن النعمة لا تكون إكراما من الله إلا إذا وفقك الله فى حسن التصرف فى هذه النعمة ، ولا تكون النعمة إهانة إلا إذا لم يوفقك الله فى أداء حق النعمة ، وحق النعمة فى كل حال يكون بشكر المنعم ، وعدم الانشغال بها عمن رزقك إياها .

ونحب أن نفهم ـ أيضا ـ أنّ قول الله سبحانه وتعالى : « والله يرزق من يشاء بغير حساب » ينسحب على معنى آخر ، وهو أنه ـ سبحانه ـ لا يحب أن تُقَدِّرَ أنت رزقك بحساب حركة عملك فقط ؛ فحساب حركة عملك قد يخطىء . مثال ذلك الفلاح الذى يزرع ويقدر رزقه فيما يُنْتَجُ من الأرض ، وربما جاءت آفة تذهب بكل شىء كما نلاحظ ونشاهد ، ويصبح رزق الفلاح فى ذلك الوقت من مكان آخر لم يدخل فى حسابه أبداً .

ولهذا فإن على الإنسان أن يعمل فى الأسباب ، ولكنه لا يأخذ حسابا من الأسباب ، ويظن أن ذلك هو رزقه ؛ لأن الرزق قد يأتى من طريق لم يدخل فى حسابك ولا فى حساباتك ، وقال الحق فى ذلك :

﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾

(من الآيتين ٢ ، ٣ سورة الطلاق)

وبعد ذلك يقول لنا الحق سبحانه وتعالى فى آية أخرى ما يوضح لنا ويبين قضية العقيدة وموكب الرسالات فى الأرض ، بداية وتسلسلاً وتتابعا فى رسل متعاقبين ، فقال الحق سبحانه وتعالى :

﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾ ﴾

ولقائل أن يقول : إذا كان الناس أمة واحدة ، وقد رتب الله بعث وإرسال النبيين على كونهم أمة واحدة ؛ فمن أين إذن جاء الخلاف إلى حياة الناس ؟ ونقول : لابد أن تُحمل هذه الآية المجملة على آية أخرى مفصلة فى قوله تعالى :

﴿ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ ﴾

(سورة يونس)

لابد لنا إذن أن نأخذ هذه الآية فى ظل آية سورة يونس ؛ فالحق سبحانه وتعالى ساعة يخاطب العقل البشرى يريد أن يخاطبه خطابا يوقظ فيه عقله وفكره حتى يستقبل

كلام الله بجماع تفكيره ، وأن يكون القرآن كله حاضراً فى ذهنك ، ويخدم بعضه بعضا .

« كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين » . فقبل بعث الله النبيين كان الناس أمة واحدة يتبعون آدم ، وقد بلغ الحق آدم المنهج بعد أن اجتباه وهداه ، وعلم آدم أبناءه منهج الله ، فظل الناس من أبنائه على إيمان بعقيدة واحدة ، ولم ينشأ عندهم ما يوجب اختلاف أهوائهم ، فالعالم كان واسعاً، وكانت القلة السكانية فيه هى آدم وأولاده فقط ، وكان خير العالم يتسع للموجودين جميعا . إذن لا تطاحن على شىء ، ومن يريد شيئاً يأخذه ، وكانت الملكية مشاعة للجميع ؛ لأنه لم تكن هناك ملكية لأحد ؛ فمن يريد أن يبنى بيتا فله أن يبنيه ولو على عشرين فدانا ، ومن يريد أن يأكل فاكهة أو يأخذ ثمرا من أى بستان فله أن يأخذ ما يريد .

والمثال على ذلك فى حياتنا اليومية ، هناك رب الأسرة الذى يأتى بعشرين كيلو برتقالاً ويتركها أمام أولاده ، وكل طفل يريد برتقالة أو أكثر فهو يأخذ ما يريد بلا حرج ، لكن لو اشترى رب البيت كيلو برتقالاً واحداً فكل طفل يأخذ برتقالة واحدة فقط .

إذن كان الناس أمة واحدة ، أى لم توجد الأطماع ، ولم يوجد حب الاستئثار بالمنافع مما يجعلهم يختلفون . إذن فأساس الاختلاف هو الطمع فى متاع الدنيا ، ومن هنا ينشأ الهوى .

وكان من المفروض فى آدم عليه السلام بعد أن بلغه الله المنهج أن يبلغه لأولاده ، وأن يتقبل أبناؤه المنهج ، ولكن بعض أولاده تمرد على المنهج ، ونشأ حب الاستئثار من ضيق المُسْتَأثر والمنتفع به ، ومن هنا نشأت الخلافات . ولنا فى قصة هابيل وقابيل ما يوضح ذلك :

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾

(سورة المائدة)

ونعرف أن آدم وحواء هما أصل الوجود ، حواء تلد توأمين فى كل مرة ، وأراد آدم أن يزاوجهم فكيف تكون المزاوجة وهم جميعا أبناؤه وأبناء عصر واحد ؟ وكل منهم يعرف أن الذى أمامه هو أخوه .

لقد واجه الشرع تلك المشكلة فى ذلك الوقت ، واعتبر أن البعد هو بعد البطن ، أى أن الذى يولد مع أخيه فى بطن واحد فهو أخوه ، أما الذى وُلد بعده أو قبله فكأنه ليس أخاه ، لذلك كان آدم وحواء يبادلان زواج الأبناء حسب ابتعاد البطون ، وكان الغرض من هذا التباعد أن تكون المرأة وكأنها أجنبية عن أخيها .

روى عن ابن عباس وابن مسعود رضى الله عنهما : « أن آدم كان يزوج ذكر كل بطن بأنثى الآخر ، وأن هابيل أراد أن يتزوج أخت قابيل وكان أكبر من هابيل وأخت قابيل أحسن فأراد قابيل أن يستأثر بها على أخيه،وأمره آدم عليه السلام أن يزوجه إياها فأبى ، فأمرهما أن يقربا قربانا فقرب هابيل جذعة سمينة وكان صاحب غنم ، وقرب قابيل حزمة من زرع من ردىء زرعه فنزلت نارٌ فأكلت قربان هابيل،وتركت قربان قابيل فغضب وقال : لأقتلنك حتى لا تنكح أختى ، فقال : « إنما يتقبل الله من المتقين » .

إذن ، كان ميلاد أول خلاف بين البشر حينما تنافس اثنان للاستئثار بمنفعة ما ، وكان هذا مثالا واضحا لما يمكن أن يحدث عندما تضيق المنافع عن الأطماع .

« كان الناس أمة واحدة » لكنهم اختلفوا لحظة الاستئثار بالمنافع ، وأصبح لكل إنسان هوى . ولو شاء الله أن يجعل منهجه لآدم منهجا دائما إلى أن تقوم الساعة لفعل . لكنه سبحانه برحمته يعلم أنه خلقنا ، ويعلم أننا نعقل مرة ونسهو مرة ، ونلتزم مرة ، ونهمل مرة أخرى ، فشاء الله أن يواصل لخلقه مواكب الرسل . ولذلك يأتى قوله الحق : « فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين » . ومهمة « التبشير والإنذار » هى أن يتذكر الناس أن هناك جنة وناراً ، ولذلك يبشر كل رسول مَن آمن مِن قومه بالجنة ، وينذر مَن كفر مِن هؤلاء القوم بالنار . ويذكرنا الحق سبحانه بأنه أشهدنا على أنفسنا على وحدانيته فقال :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

يخبر سبحانه أنه استخرج ذرية آدم من أصلابهم شاهدين على أنفسهم أن الله ربهم ومليكهم ، وأنه لا إله إلا هو كما أنه فطرهم على ذلك . ثم بعد أن أخرجهم إلى الوجود من آدم جاء للخلق الأول وهو آدم وأعطاه المنهج وكانت الأهواء غير موجودة ، فظل المنهج مطبقا بين بنى آدم . وبعد ذلك تعددت الأهواء ، وتعدد الأهواء إنما ينشأ عن الاستئثار بالمنافع ، وذلك بسبب الخوف من استئثار الغير ، فنشأ حب الذات . ولما كانت المنافع لا تتسع لأطماع الناس فقد استشرى حب الاستئثار والتملك .

ونجد هذه المسألة واضحة حينما تتوافر السلع وتغمر الأسواق . وتستطيع أن تشترى أى سلعة فى أى وقت تحب ، وتجدها متوافرة ، عند ذلك لا توجد أزمة ، لكن الأزمة تنشأ عندما تقل الكميات المعروضة من السلع عن حاجة الناس ، فيتكالب الناس على الاستئثار بها . وهكذا نعرف أن المنافع عندما توجد ، وتكون دون الأطماع هنا تتولد المشكلات .

ومن رحمة الحق سبحانه وتعالى بالخلق ، ومن تمام علمه سبحانه بضعف البشر أمام أهوائهم وأمام استئثارهم بالمنافع ، أرسل الرسل إلى البشر ليبشروا ولينذروا . « وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات » فكأن الحق لم يشأ أن يترك البشر ليختلفوا ، وإنما الغفلة من الناس هى التى أوجدت هذا الاختلاف . « من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم » ومن هذا القول الحكيم نعرف أن الاختلاف لا ينشأ إلا من إرادة البغى ، والبغى هو أن يريد الإنسان أن يأخذ غير حقه . ومادام كل

منا يريد أن يأخذ غير حقه فلا بد أن ينشأ البغض .

« فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه » أى أن الله يهدى الذين آمنوا من كل قوم بالرسول الذى جاء مبشرا ومنذرا وحاملا منهج الحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه . وبذلك يظل المنهج سائداً إلى أن تمضى فترة طويلة تغفل فيها النفوس ، وتبدأ من خلالها المطامع ويحدث النسيان لمنهج الله ، وتنشأ الأهواء ، فيرسل الله الرسل ليعيدوا الناس إلى المنهج القويم ، واستمر هذا الأمر حتى جاءت رسالة الإسلام خاتمة وبعث الله سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم للدنيا كافة ، وبذلك ضمن لنا الحق سبحانه وتعالى ألا ينشأ خلاف فى الأصل ؛ لأننا لو كنا سنختلف فى أصل العقيدة لجرى علينا ما جرى على الأمم السابقة . هم اختلفوا فأرسل الله لهم رسلا مبشرين ومنذرين ، لكن أمة محمد صلى الله عليه وسلم أراد الحق لها منهجا واضحا يحميها من الاختلاف فى أصل العقيدة . وإن اختلف الناس من أمة محمد صلى الله عليه وسلم فعليهم أن يسترشدوا بالمنهج الحق المتمثل فى القرآن والسنة .

ونعرف أن من مميزاته صلى الله عليه وسلم أنه خاتم الأنبياء بحق ، ولن تجد فى الموكب الرسالى رسولا أوكل له الله أن ينشىء حكما جديدا لم ينزل فى كتاب الله إلا سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم . لقد أعطى الله سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم التفويض فى أن يشرع عن الله ؛ فى ظل عصمة الله له فقد قال سبحانه :

﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾

(من الآية ٧ سورة الحشر)

إنه أمر واضح للمؤمنين بأن يأتمروا بأمر الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ، لأن ما يأمرهم به فيه الصلاح والخير ، وأن ينتهوا عما ينهاهم عنه ؛ لأنه صلى الله عليه وسلم إنما ينهى عن الأمور التى ليس فيها خير لأمة المسلمين . ويأمر الحق جل وعلا جماعة المسلمين بطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم لأنها من طاعة الله ، فيقول جل وعلا :

﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾ ﴾

(سورة النساء)

وهكذا نرى أن طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم من طاعة الله ، ومن يعرض عن طاعته فله العقاب فى الآخرة . ويؤكد الحق سبحانه على طاعته وطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم فيقول :

﴿ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

هكذا نعرف أن طاعة الرحمن تستوجب طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم . إذن فقد فوض الله رسوله أن يُشَرِّع للبشر . وهو ـ عليه الصلاة والسلام ـ ما ينطق عن الهوى .

وميزة أخرى لأمة المسلمين هى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ترك لنا حق الاجتهاد فى المسائل التى لم يأت فيها نص من القرآن ولا من السنة،أو ورد فيها نص ولكنه يحتمل أكثر من معنىً،ومعنى ذلك أن الحق سبحانه قد أمِنَ أمة محمد عليه الصلاة والسلام بأن تصل بالاجتهاد لما يحسم أى خلاف ، وأن أى اختلاف لن يصل إلى الجوهر . فلو علم الله أزلا أننا سوف نختلفَ اختلافا فى صحيح العقيدة لكان قد أرسل لنا رسلاً .

ونحن نجد كل الاختلافات بين طوائف المسلمين لا تخرج عن إطار فهم نصوص القرآن أو أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكل مسلم يريد أن يستقى دليله من الكتاب والسنة .

ومعنى ذلك أننا لم نترك الأصل ، ولكن كل منا يريد أن يأخذ الحكم الصحيح . بل إننا نجد أن بعضا من المسلمين الذين لم يجدوا دليلهم من القرآن والسنة قد حاولوا أن يضعوا حديثا ينسبونه إلى رسول الله ليبنوا عليه الحكم الذى يريدونه .

وهؤلاء مأواهم النار ؛ لأنهم نطقوا بلسان رسول الله صلى الله عليه وسلم ما لم يقله الرسول الكريم لقد كذبوا عليه ، ومن كذب عليه متعمدا فليتبوأ مقعده من النار .

إذن فكلنا نلتقى حول القرآن والسنة النبوية ، أين المشكلة إذن ؟ المشكلة هى أن يكون الناس أذكياء وعلى علم حتى يعرفوا هل المأخوذ من القرآن مقبول أو غير مقبول ؟ وهل الأحاديث المستند إليها بمقاييس الجرح والتعديل موجودة أو لا ؟

إذن فحصافة الاجتهاد والرأى عند أمة محمد صلى الله عليه وسلم جعلتهم مأمونين على كل شيء فى المنهج . وأن الخلاف فيما بينهم لم يصل إلى ما وصلت إليه الأمم السابقة ، ولكن عليهم أن ينتبهوا ويرتقوا حتى يميزوا الأمور التى تكون من غير معطيات القرآن ، ثم يريد قوم أن يحملوها على القرآن .

إن عليهم ألا يفسروا القرآن حسب أهوائهم بل حسب ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ـ حتى يكون هواهم تبعا لما جاء به ـ وعلينا أن نتنبه إلى أن الله قد أمِنَ أمة محمد صلى الله عليه وسلم على القرآن وعلى رسالة الإسلام ، والقرآن ورسالة الإسلام لن يصيبهما التغيير أو التحريف ، وكل ما هو مطلوب أن يكون المؤمنون أهل دقة وفطنة ، فإذا أراد إنسان أن يستغل أية سلطة زمنية أو أن يجيء بحديث موضوع ليروج لباطله فعلى المسلمين أن يكشفوا سوء مقصد هذا الإنسان .

فنحن نفهم أن الله شاء بالإسلام حياة القيم ، كما شاء بالماء حياة المادة ، والماء حتى يظل ماء فلا بد أن يظل بلا طعم ولا لون ولا رائحة ، فإذا أردت أن تجعل له طعمًا خرج عن خاصيته ؛ ربما أصبح مشروبا أو عصيراً أو غير ذلك ، وقد يحب بعض الناس نوعا من العصير ، لكن كل الناس يحبون الماء ؛ لأن به تُصان الحياة ، فإذا رأيت ديناً قد تلون بجماعة أو بهيئة أو بشكل فاعلم أن ذلك خارج عن نطاق الإسلام . وكل جماعة تريد أن تصبغ دين الله بلون إنما يخرجونه عن طبيعته الأصلية ، ولذلك نجد أمتنا فى مصر قد صانت علوم الإسلام بالأزهر الشريف وكل عالم من علماء الإسلام فى أى بقعة من بقاع الأرض مدين للأزهر الشريف. ونجد أننا نحب آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن لا نجد عندنا متشيعا واحدا ،

وفى الوقت نفسه لا نجد واحداً يكره أبا بكر وعمر ، وهذا هو الإسلام الذى لا يتلون ؛ لأنه إسلام الفطرة .

﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ﴾

(من الآية ١٣٨ سورة البقرة)

فالذين يحاولون فى أى زمان من الأزمنة أن يصبغوا الدين بشكل أو بطقوس أو بلون أو برسوم أو هيئة خاصة نقول لهم : أنتم تريدون أن تُخرجوا الإسلام عن عموميته الفطرية التى أرادها الله له ، ولابد أن تقفوا عند حد الفطرة الإسلامية ، ولا تلونوا الإسلام هذا التلوين . وبذلك نحقق قول الله : « فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم » ونعرف أن الهداية معناها الأمر الموصل للغاية ، وحين ترد الهداية من الله سبحانه وتعالى فعلينا أن نفهم أن الهداية من الله ترد على معنيين : المعنى الأول هو الدلالة على الطريق الموصل ، والمعنى الثانى هو المعونة .

وضربت من قبل المثل بشرطى المرور الذى يدلك على الطريق الموصل إلى الغاية التى تريدها ، فإن احترمت كلامه ونفذته فهو يعطى لك شيئاً من المعونة ، بأن يسير معك أو يوصلك إلى المكان الذى تريد . فما بالنا بالحق سبحانه وتعالى وله المثل الأعلى ؟ إنه يهدى الجميع بمعنى يدلهم ، فالذين آمنوا به وأحبوه يهديهم هداية أخرى ، وهى أن يعينهم على ما أقاموا نفوسهم فيه . وبعضنا يدخله العجب عندما يسمع قول الحق :

﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

(سورة فصلت)

بعضنا يتعجب متسائلا : كيف يقول سبحانه : إنه هداهم ، ثم استحبوا العمى على الهدى ؟ ونقول : إن « هداهم » جاءت هنا بمعنى « دلهم » لكنهم استحبوا

العمى على الهدى ، أما الذين استجابوا لهداية الدلالة وآمنوا فقد أعانهم الله وأنجاهم ، لأنهم عرفوا تقواه سبحانه .

ونحن نسمع بعض الناس يقولون : مادام الله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم فما ذنب الذى لم يهتد ؟ نقول : إن الحق يهدى من شاء إلى صراط مستقيم ؛ أى يبين الطريق إلى الهداية ، فمن يأخذ بهداية الدلالة يزده الله بهداية المعونة وييسر له ذلك الأمر . ونحن نعلم أن الله نفى الهداية عن رسوله صلى الله عليه وسلم فى آية ، وأثبتها له فى آية أخرى برغم أنه فعل واحد لفاعل واحد . قال الحق نافيا الهداية عن الرسول صلى الله عليه وسلم :

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾

(من الآية ٥٦ سورة القصص)

والحق يذكر للرسول صلى الله عليه وسلم الهداية فى موضع آخر فيقول له :

﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾

(من الآية ٥٢ سورة الشورى)

ومن هنا نفهم أن الهداية نوعان : هداية الدلالة ، فهو « يهدى » أى يدل الناس على طريق الخير . وهناك هداية أخرى معنوية ، وهى من الله ولا دخل للرسول صلى الله عليه وسلم فيها ، وهى هداية المعونة .

إذن قوله تعالى : « وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم » معناها : أنك تدل على الصراط المستقيم ، ولكن الله هو الذى يعين على هذه الهداية . « والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم » فعلينا أن نستحضر الآيات التى شاء الله أن يهدى فيها مؤمنا وألاّ يهدى آخر . ويقول الحق ـ سبحانه ـ :

﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾

(من الآية ٢٦٤ سورة البقرة)

معنى ذلك أن الله لا يهدى إلا الذين آمنوا به . وهدايته للمؤمنين تكون بمعونتهم على الاستمرار فى الهداية ؛ فالكل قد جاءته هداية الدلالة ولكن الحق يختص المؤمنين بهداية المعونة . والحق يقول فى ذلك :

﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾

(سورة التوبة)

إن الحق يوضح لنا المقارنة بين الذى يؤسس بنيان حياته على تقوى من الله ابتغاء الخير والجنة ، وهو الذى جاءته هداية الدلالة فاتبعها ، فجاءته هداية المعونة من الله . وبين ذلك الذى يؤسس بنيان حياته على حرف واد متصدع آيل للسقوط فسقط به البنيان فى نار جهنم ، إنه الذى جاءته هداية الدلالة فتجاهلها ، فلم تصله هداية المعونة ، ذلك هو الظالم المنافق الذى يريد السوء بالمؤمنين . والحق تبارك وتعالى يقول :

﴿ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾

(سورة التوبة)

إن الحق يبلغ رسوله أنه مهما استغفر للمنافقين الذين يُظهرون الإسلام ، ويبطنون الكفر فلن يغفر الله لهم ، لماذا ؟ لأن هداية الدلالة قد جاءت لهم فادعوا أنهم مؤمنون بها ، ولم تصلهم هداية المعونة ؛ لأنهم يكفرون بالله ورسوله ، والله لا يهدى مثل هؤلاء القوم الفاسقين الخارجين بقلوبهم عن منهج الله . وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ

ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾

أى أظننتم أنكم تدخلون الجنة بدون ابتلاءات تحدث لكم ؟ إن الحق سبحانه ينفى هذا الظن ويقول : ليس الأمر كذلك ، بل لابد من تحمل تبعات الإيمان ، فلو كان الإيمان بالقول لكان الأمر سهلا ، لكن الذى يُصَعبُ الإيمان هو العمل ، أى حمل النفس على منهج الإيمان . لقد استكبر بعض من الذين عاصروا محمداً صلى الله عليه وسلم أن يقولوا : « لا إله إلا الله » لأنهم فهموا مطلوبها ؛ لأن الأمر لو اقتصر على مجرد كلمة تقال بلا رصيد من عمل يؤيدها ، لكان أسهل عليهم أن يقولوها ، لكنهم كانوا لا يقولون إلا الكلمة بحقها ، ولذلك أيقنوا تماما أنهم لو قالوا : « لا إله إلا الله » لانتهت كل معتقداتهم السابقة ، لكنهم لم يقولوها ؛ لأنهم أبوْا وامتنعوا عن القيام بحقها وأداء مطلوبها .

إن الحق يقول : « أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء » فما العلاقة بين هذه الآية وما سبق من الآيات ؟ لقد كان الحديث عن بنى إسرائيل الذين حسبوا أنهم يدخلون الجنة بدون أن يبتلوا ، وصارت لهم أهواء يحرفون بها المنهج . أما أمة رسول الله صلى الله عليه وسلم فعليهم أن يستعدوا للابتلاء ، وأن يعرفوا كيف يتحملون الصعاب .

ونحن نعرف فى النحو أن هناك أدوات نفى وجزم . ومن أدوات النفى « لم » و« لما » فعندما نقول : « لم يحضر زيد » فهذا حديث فى الماضى ، ومن الجائز أن يحضر الآن . ولكن إذا قلت : « لما يحضر زيد » فالنفى مستمر حتى الآن ، أى أنه لم يأت حتى ساعة الكلام لكن حضوره ومجيئه متوقع . ولذلك يقول الحق :

﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ ﴾

(من الآية ١٤ سورة الحجرات)

وعندما سمع الأعراب ذلك قالوا : نحمد الله ، فمازال هناك أمل أن نؤمن . لقد أراد الله أن يكون الأعراب صادقين مع أنفسهم ، وقد نزلت هذه الآية كما يقول بعض المفسرين فى قوم من بنى أسد ، جاءوا إلى المدينة فى سنة جدب ، وأعلنوا الشهادة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا : « لا إله إلا الله محمد رسول الله » ، وكانوا يطلبون الصدقة ، ويحاولون أن يمنوا على الرسول صلى الله عليه وسلم بأنهم لم يقاتلوه كما فعل غيرهم ، فجاءت هذه الآية لتوضح أن الإيمان درجة أرقى من إظهار الإسلام لكن ذلك لا يعنى أنهم منافقون ، ولذلك يوضح القرآن الكريم أن إظهار الإسلام لا يعنى الإيمان ؛ لأن الإيمان عملية قلبية .

لقد أعلنوا الخضوع لله ، وأرادوا أن يقوموا بأعمال المسلمين نفسها لكن ليس هذا هو كل الإيمان . وهم قالوا : « آمنا » فقال الحق لهم : لا لم تؤمنوا وكونوا صادقين مع أنفسكم فالإيمان عملية قلبية ، ولا يقال إنك آمنت ؛ لأنها مسألة فى قلبك ، ولكن قل أسلمت ، أى خضعت وفعلت مثلما يفعل المؤمنون ، فهل فعلت ذلك عن إيمان أو غير إيمان ، إن ذلك موضوع آخر .

هنا تقول الآية : « أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم » أى لا يمكن أن تدخلوا الجنة إلا إذا جاءكم من الابتلاء مثل من سبقكم من الأمم ولابد أن تُفتنوا وأن تُمحصوا ببأساء وضراء ، ومن يثبت بعد ذلك فهو يستحق أن يدخل الجنة ، فلا تظنوا أنكم أمة متميزة عن غيركم فى أمر الاختبار ، فأنتم لن تدخلوا الجنة بلا ابتلاء ، بل على العكس سيكون لكم الابتلاء على قدر النعماء .

أنتم ستأخذون مكانة عالية فى الأمم ولذلك لابد أن يكون ابتلاؤكم على قدر مكانتكم ، فإن كنتم ذوى مكانة عالية وستحملون الرسالة الخاتمة وتنساحون فى

الدنيا فلا بد أن يكون ابتلاؤكم على قدر عظمة مسئوليتكم ومهمتكم .

« ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا » إن قول الله: « ولما » يفيد بأن ما حدث للذين من قبلهم من ابتلاء عليهم سيقع على المؤمنين مثله .

وعندما نتأمل قوله الحق : « وزلزلوا » فأنت تكتشف خاصية فريدة فى اللغة العربية ، هذه الخاصية هى تعبير الصوت عن واقعية الحركة ، فكلمة « زلزلوا » أصلها زلزلة ، وهذه الكلمة لها مقطعان هما « زل ، زل » . و« زل » : أى سقط عن مكانه ، أو وقع من مكانه ، والثانية لها المعنى نفسه أيضاً ، أى وقع من مكانه ، فالكلمة تعطينا معنى الوقوع المتكرر : وقوع أول ، ووقوع ثانٍ ، والوقوع الثانى ليس امتداداً للوقوع الأول ؛ ولكنه فى اتجاه معاكس ، فلو كانت فى اتجاه واحد لجاءت رتيبة ، إن الزلة الثانية تأتى عكس الزلة الأولى فى الاتجاه ، فكأنها سقوط جهة اليمين مرة ، وجهة الشمال مرة أخرى .

ومثل ذلك « الخلخلة » أى حركة فى اتجاهين معاكسين « خَلّ » الأولى جهة اليمين ، و« خَلّ » الثانية جهة اليسار ، وبهذا تستمر الخلخلة .

وهكذا « الزلزلة » تحمل داخلها تغير الاتجاه الذى يُسمى فى الحركة بالقصور الذاتى . والمثال على ذلك هو ما يحدث للإنسان عندما يكون راكباً سيارة ، وبعد ذلك يأتى قائد السيارة فيعوقها بالكابح « الفرامل » بقوة ، عندئذ يندفع الراكب للأمام مرة ، ثم للخلف مرة أخرى ، وربما تكسر زجاج السيارة الأمامى حسب قوة الاندفاع ؛ ما الذى تسبب فى هذا الاندفاع ؟ إن السبب هو أن جسم الراكب كان مهيأ لأن يسير للأمام ؛ والسائق أوقف السيارة والراكب لازال مهيأً للسير للأمام ، فهو يرتج ، وقد يصطدم بأجزاء السيارة الداخلية عند وقوفها فجأة . وعملية « الزلزلة » مثل ذلك تماماً ، ففيها يصاب الشىء بالارتجاج للأمام والخلف ، أو لليمين واليسار ، وفى أى جهتين متعاكستين .

و« زلزلوا » يعنى أصابتهم الفاجعة الكبرى ، الملهية ، المتكررة ، وهى لا تتكرر

على نمط واحد ، إنما يتعدد تكرارها ، فمرة يأخذها الإيمان ، ثم تأخذها المصائب والأحداث ، وتتكرر المسألة حتى يقول الرسول صلى الله عليه وسلم والذين آمنوا معه : « متى نصر الله » ؟

ويأتى بعده القول : « ألا إن نصر الله قريب » فهل يتساءلون أولاً ، ثم يثوبون إلى رشدهم ويردون على أنفسهم « ألا إن نصر الله قريب » أم أن ذلك إيضاح بأن المسألة تتأرجح بين « متى نصر الله » وبين « ألا إن نصر الله قريب » ؟ .

لقد بلغ الموقف فى عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم من الاختيار والابتلاء إلى القمة ، ومع ذلك واصل الرسول صلى الله عليه وسلم والذين معه الاستمساك بالإيمان . لقد مستهم البأساء والضراء وزلزلوا ، أى أصابتهم رجفة عنيفة هزتهم ، حتى وصل الأمر من أثر هذه الهزة أن « يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب » .

إن مجىء الأسلوب بهذا الشكل « متى نصر الله » يعنى استبطاء مجىء النصر أولا ، ثم التبشير من بعد ذلك فى قوله الحق : « ألا إن نصر الله قريب » . ولم يكن ذلك للشك والارتياب فيه . وهذا الاستبطاء ، ثم التبشير كان من ضمن الزلزلة الكبيرة ، فقد اختلطت الأفكار : أناس يقولون : « متى نصر الله » فإذا بصوت آخر من المعركة يرد عليهم قائلاً : « ألا إن نصر الله قريب » .

وسياق الآية يقتضى أن الذين قالوا : « متى نصر الله » هم الصحابة ، وأن الذى قال : « ألا إن نصر الله قريب » هو رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم ينتقل الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك إلى قضية أخرى ، هذه القضية شاعت فى هذه الصورة وهى ظاهرة سؤال المؤمنين عن الأشياء ، وهى ظاهرة إيمانية صحية ، وكان فى استطاعة المؤمنين ألا يسألوا عن أشياء لم يأت فيها تكليف إيمانى خوفاً من أن يكون فى الإجابة عنها تقييد للحركة ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« ذرونى ما تركتكم ، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على

أنبيائهم ، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه »[١] .

ورغم ذلك كانوا يسألون عن أدق تفاصيل الحياة ، وكانت هذه الظاهرة تؤكد أنهم عشقوا التكليف من الله ؛ فهم يريدون أن يبنوا كل تصرفاتهم بناءً إسلاميا ، ويريدون أن يسألوا عن حكم الإسلام فى كل عمل ليعملوا على أساسه . يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾ ﴾

والسؤال ورد من عمرو بن الجموح وكان شيخا كبيرا فقال : يا رسول الله ، إن مالى كثير فبماذا أتصدق ، وعلى من أنفق ؟ ولم يكن يسأل لنفسه فقط ، بل كان يترجم عن مشاعر غيره أيضا ، ولذلك جاءت الإجابة عامة لا تخص السائل وحده ولكنها تشمل كل المؤمنين .

والسؤال عن « ماذا ينفقون » ؛ فكأن الشيء المُنْفَق هو الذى يسألون عنه ، والإنفاق ـ كما نعرف ـ يتطلب فاعلاً هو المُنفِق ؛ والشيء المُنفَق ـ هو المال ـ ؛ ومنفَقاً عليه . وهم قد سألوا عن ماذا ينفقون ، فكأن أمر الإنفاق أمر مُسَلَّمٌ به ، لكنهم يريدون أن يعرفوا ماذا ينفقون ؟ فيأتى السؤال على هذا الوجه ويجىء الجواب حاملا الإجابة عن ذلك الوجه وعن أمر زائد .

---

(١) هذا الحديث أخرجه الإمام مسلم والنسائى وابن ماجه والإمام أحمد فى مسنده عن أبى هريرة .

يقول الحق : « يسألونك ماذا ينفقون » هذا هو السؤال ، والجواب « قل ما أنفقتكم من خير فللوالدين » . إن الظاهر السطحى يظن أن السؤال هو فقط عن ماذا ينفقون ؟ وأن الجواب جاء عن المنفق عليه . نقول : لا ، لماذا نسيت قوله الحق : إن الإنفاق يجب أن يكون من « خير » فالمال المُنفق منه لا بد أن يتصف بأنه جاء من مصدر خير .

وبعد ذلك زاد وبيّن أنه : مادمتم تعتقدون أن الإنفاق واجب فعليكم أن تعلموا ما هو الشيء الذى تنفقونه ، ومن الذى يستحق أن يُنفَقَ عليه . « قل ما أنفقتم من خير » . والخير هو الشيء الحسن النافع . والمُنفَق عليه هو دوائر الذى يُنْفِق ؛ لأن الله يريد أن يُحَمِّل المؤمن دوائره الخاصة ، حتى تلتحم الدوائر مع بعضها فيكون قد حمّل المجتمع على كل المجتمع ، لأنه سبحانه حين يُحَمِّلنى أسرتى ووالدى والأقربين ، فهذه صيانة للأهل ، وكل واحد منا له والدان وأقربون ، ودائرتى أنا تشمل والدىّ وأقاربى ، ثم تشيع فى أمر آخر ؛ فى اليتامى والمساكين .

وهات كل واحد واحسب دوائره من الوالدين والأقربين وما يكون حوله من اليتامى والمساكين فستجد الدوائر المتماسكة قد شملت كل المحتاجين ، ويكون المجتمع قد حمل بعضه بعضا ، ولا يوجد بعد ذلك إلا العاجز عن العمل . وعرفنا أن السائل هو « عمرو بن الجموح » ، وكانت له قصة عجيبة ؛ كان أعرج ، والأعرج معذور من الله فى الجهاد ، فليس على الأعمى حرج ، ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج .

وأراد الرسول صلى الله عليه وسلم أن يخرج فى غزوة فجاءه عمرو بن الجموح وقال : يا رسول الله لا تحرمنى من الجهاد فإن أبنائى يحرموننى من الخروج لعرجتى . قال له النبى صلى الله عليه وسلم : إن الله قد عذرك فيمن عذر . قال : ولكنى يا رسول الله أحب أن أطأ بعرجتى الجنة .

هذا هو من سأل عن ماذا ينفقون ، فجاءت الإجابة من الحق : « قل ما أنفقتم من خير » أى ما أخرجتم من مال ؛ لأن الإنفاق يعنى الإخراج ، والخير هنا هو

المال ، والإنفاق يقتضى إخراج المال عن ملكية الإنسان ببيع أو هبة أو صلة ، وأصل كلمة «الإنفاق» مأخوذ من « نفقت السوق » أى راجت ؛ لأن السوق تقوم على البضاعة ، وحين تأتى إلى السوق ولا تجد سلعاً فذلك يعنى أن السوق رائجة ، ولكن عندما تجد البضائع مكدسة بالسوق فذلك يعنى أن السوق لازالت قائمة .

إذن فمعنى « نفقت السوق » أى ذهبت كل البضائع كما تذهب الحياة من الدابة ، فعندما نقول : نفقت الدابة ، أى ماتت . وأوجه الإنفاق بيّنها ـ سبحانه ـ فى قوله : « فللوالدين ، والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل » . فهل كل يتيم محتاج ؟ ربما يكون اليتيم قد ورث المال لكن علينا أن نفهم أنّ المسألة ليست هى سد حاجة محتاج فقط ، ولكنها الوقوف بجانب ضعيف فى أى زاوية من زوايا الضعف ؛ لأن الطفل عندما يكون يتيماً ولديه مال ، ثم يراك تعطف عليه فهو يشعر أن أباه لم يمت ؛ لأن أبوته باقية فى إخوانه المؤمنين ، وبعد ذلك لا يشب على الحسد لأولادٍ آباؤهم موجودون ، لكن حين يرى اليتيم كل أب مشغولا بأبنائه عن أيتام مات أبوهم ، هنا يظهر فيه الحقد ، وتتربى فيه غريزة الاعتراض على القدر ، فيقول « لماذا أكون أنا الذى مات والدى ؟» ، ولكن حين يرى الناس جميعا آباءه ، ويصلونه بالبسمة والود والترحاب والمعونة فلسوف يشعر أن من له أب واحد يتركه الناس اعتماداً على وجود أبيه ، لكن حينما يموت أبوه فإن الناس تلتفت إليه بالمودة والمحبة ، ويترتب على ذلك أن تشيع المحبة فى المجتمع الإسلامى والألفة والرضا بقدر الله ، ولا يعترض أحد على وفاة أبيه ، فإن كان القدر قد أخذ أباه فقد ترك له آباء متعددين .

ولو علم الذين يرفضون المودة والعطف على اليتيم لأن والده ترك له ما يكفيه ، لو علموا ما يترتب على هذا التعاطف من نفع معنوى لتنافسوا على التعاطف معه ؛ فليست المسألة مسألة حاجة مادية ، وإنما هى حاجة معنوية .

وأنا أقول دائما : يجب أن نربى فى الناشئة أن الله لا يأخذ أحداً من خلقه وفى الأرض حاجة إليه ؛ وارقبوا هذا الأمر فيمن حولكم تجدوا واحداً وقد تُوفى وترك أولاداً صغاراً فيحزن أهله ومعارفه ؛ لأنه ترك أولاده صغارا ، وينسون الأمر من بعد ذلك ، وتمر فترة من الزمن ويفاجأ الناس بأن أولاد ذلك الرجل قد صاروا سادة

الحى ، وكأن والدهم كان محبسا على رزقهم ، فحينما انتهى الأب فتح الله على الأبناء صنابير الرزق ، وذلك حتى لا يُفتَن إنسان فى سبب .

وبعد الإنفاق على اليتامى نجد الإنفاق يكون على المساكين وابن السبيل ، وقد عرفنا أن المسكين هو المحتاج وابن السبيل هو المنقطع عن أهله وماله . ويختم الحق هذه الآية بقوله : « وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم » . إن الله يريد أن يرد الطبع البشرى إلى قضية هى : إياك أن تطلب جزاء الخير الذى تفعله مع هؤلاء من أحد من الخلق ، ولكن اطلبه من الله ، وإياك أن تحاول أن يعلم الناس عنك أنك مُنفق على الأقارب واليتامى وابن السبيل ؛ لأن الذين تريدهم أن يعلموا لا يقدرون لك على جزاء ، وعلمهم لن يزيدك شيئا ، وحسبك أنْ يعلم الله الذى أعطاك ، والذى أعطيت مما استخلفك فيه ابتغاء مرضاته . فحين ينفق الناس لمرضاة الناس ، يلقون من بعد ذلك النكران والجحود فيكون من أعطى قد خسر ما أنفق ، واستبقى الشر ممن أنفقه عليهم .

ولو أن الإنسان المسلم قصد بالإنفاق وعمل الخير مرضاة الخالق الأعلى عز وجل لاستبقى ما أنفق من حسنات وثواب ليوم القيامة ، ولسخر الله له قلوب من تصدق عليهم بالمحبة والوفاء بالمعروف ، وهذه عدالة من الله تتجلى فى أنه يفعل مع المرائين ذلك ؛ لأنهم يعطون وفى بالهم أنهم أعطوا له ، ولو أعطوا الله لما أنكر الآخذ جميل العطاء . أنت أعطيته لمرضاته هو ، فكأن الله يقول لك : سأتركك له ليجازيك ولهذا كان المتصدق فى السر من السبعة الذين يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله فمنهم :

« . . ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه »[1] وهذا هو الأفضل فى صدقة التطوع ، وأما الزكاة الواجبة فإعلانها أفضل ، وكذلك الحال بالنسبة للصلاة فالفريضة تكون إعلانها أفضل ، والنافلة يكون إسرارها أفضل .

لكن لو عملت وفى بالك الله فستجد أثر العطاء فى وفاء مَن أخذ . فإياكم أن

---

(١) رواه مسلم عن أبى هريرة .

تحاولوا ولو من طرف خفىّ أن يعلم الناس أنكم تفعلون الخير . وبعد ذلك يرجع الحق إلى قضية سبق أن عالجها فى قوله تعالى : « ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه » يرجع الحق إلى القتال فيتكلم عن المبدأ العام فى القتال فيقول :

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ ﴾

إن كراهية القتال هى قضية فطرية يقولها الذى خلق الإنسان فهو سبحانه لا يعالج الأمر علاجا سوفسطائيا ، بمعنى أن يقول : وماذا فى القتال ؟ لا ، إن الخالق يقول : أعلم أن القتال مكروه . وحتى إذا ما أصابك فيه ما تكره فأنت قد علمت أن الذى شرعه يُقدر ذلك . ولو لم يقل الحق إن القتال كره : لفهم الناس أن الله يصور لهم الأمر العسير يسيرا .

إن الله عز وجل يقول للذين آمنوا : اعلموا أنكم مقبلون على مشقات ، وعلى متاعب ، وعلى أن تتركوا أموالكم ، وعلى أن تتركوا لذتكم وتمتعكم . ولذلك نجد كبار الساسة الذين برعوا فى السياسة ونجحوا فى قيادة مجتمعاتهم كانوا لا يحبون لشعوبهم أن تخوض المعارك إلا مضطرين ، فإذا ما اضطروا فهم يوضحون لجندهم أنهم يدرأون بالقتال ما هو أكثر شرا من القتال ، ومعنى ذلك أنهم يعبئون النفس الإنسانية حتى تواجه الموقف بجماع قواها ، وبجميع ملكاتها ، وكل إرادتها .

والحق سبحانه وتعالى يقول : « كتب عليكم القتال وهو كره لكم » إنه سبحانه يقول لنا : أعلم أن القتال كره لكم ولكن أردت أن أشيع فيكم قضية ، هذه القضية هى ألا تحكموا فى القضايا الكبيرة فى حدود علمكم ؛ لأن علمكم دائما ناقص ، بل

خذوا القضايا من خلال علمى أنا ؛ لأننى قد أشرع مكروها ، ولكن يأتى منه الخير . وقد ترون حبا فى شىء ويأتى منه الشر . ولذلك ينبهنا الحق إلى أن كثيرا من الأمور المحبوبة عندنا يأتى منها الشر ، فيقول الواحد منا : « كنت أتوقع الخير من هذا الأمر ، لكن الشر هو ما جاءنى منه » .

وهناك أمور أخرى نظن أن الشر يأتى منها ، لكنها تأتى بالخير . ولذلك يترك الحق فلتات فى المجتمع حتى يتأكد الناس أن الله سبحانه وتعالى لا يُجرى أمور الخير على مقتضيات ومقاييس علم العباد ، إنما يُجرى الحكم على مقتضى ومقاييس وعلم رب العباد . ولننظر إلى ما رواه الحق مثلا للناس على ذلك :

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ ﴾

(سورة الكهف)

إن موسى عليه السلام يسير مع فتاه إلى مجمع البحرين ، ويقال : إنه ملتقى بحرين فى جهة المشرق ، وكان معهما طعام هو حوت مملوح يأكلان منه ، لكن السفر والمشقة أنساهما الحوت وانطلق الحوت بآية من آيات الله إلى البحر ، وعندما وصل موسى إلى مجمع البحرين طلب من فتاه أن يأتى بالطعام بعد طول التعب ، لكن الفتى يقول لموسى : إنه نسى الحوت ، ولم ينسه إياه إلا الشيطان . وإن الحوت اتخذ طريقه إلى البحر ، فقال موسى : إن هذا ما كنا نطلبه علامة على وصولنا إلى غايتنا وهى مجمع البحرين ، أى أمر الحوت وفقده هو الذى نطلب ، فإن الرجل الذى جئنا من أجله هناك فى هذا المكان ، وارتد موسى والغلام على آثارهما مرة أخرى .

فما الذى يحدث ؟ يلتقى موسى عليه السلام بالعبد الصالح الخضر ، وهو ولى من أولياء الله ، علمه الله العلم الربانى الذى يهبه الله لعباده المتقين كثمرة للإخلاص والتقوى . ويطلب موسى عليه السلام من العبد الربانى سيدنا الخضر عليه السلام أن يتعلم منه بعض الرشد . لكن العبد الربانى الذى وهبه الله من العلم ما يفوق استيعاب القدرة البشرية يقول لموسى عليه السلام :

﴿ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ ﴾

(سورة الكهف)

لقد كان موسى على علم سابق بأن ضياع الحوت هو مسألة فى ظاهرها شر لكن فى باطنها خير ؛ لأن ذلك هو السبيل والعلامة التى يعرف بها موسى كيف يلتقى بالعبد الصالح . ويستمر السياق نفسه فى قصة موسى والعبد الصالح ، قصة ظاهرها الشر وباطنها الخير ، سواء فى قصة السفينة التى خرقها أو الغلام الذى قتله ، أو الجدار الذى أقامه .

لقد كان علم العبد الصالح علما ربانيا ، لذلك أراد موسى أن يتعلم بعضا من هذا العلم لكن العبد الصالح ينبه موسى عليه السلام أن ما قد يراه هو فوق طاقة الصبر ؛ لأن الذى قد يراه موسى من أفعال إنما قد يرى فيها شرًّا ظاهرًا ، لكن فى باطنها كل الخير .

وقَبِل موسى عليه السلام أن يقف موقف المتعلم بأدب مع العالم الذى وهبه الله العلم الربانى . ويشترط العبد الربانى على موسى ألا يسأل إلا بعد أن يحدثه العبد الربانى عن الأسباب . ويلتقى موسى والعبد الربانى بسفينة فيصعدان عليها ، ويخرق العبد الربانى السفينة ، فيقول موسى :

﴿ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴾

(من الآية ٧١ سورة الكهف)

فيرد العبد الصالح :

﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ ﴾

(سورة الكهف)

ويتذكر موسى أنه وعد العبد الصالح بالصبر ، لكن ما الذى يفعله موسى وقد وجد العبد الصالح يخرق سفينة تحملهم في البحر ؟ إنه أمر شاق على النفس . لذلك يقول موسى :

﴿ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾ ﴾

(سورة الكهف)

إن موسى يعود إلى وعده للعبد الصالح ، ويطلب منه فقط ألا يكلفه بأمور تفوق قدرته . وينطلق العبد الصالح ومعه موسى عليه السلام ، فيجد العبد الصالح غلاما فيقتله ، فيقول موسى :

﴿ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا ﴾

(من الآية ٧٤ سورة الكهف)

ويُذكر العبد الصالح موسى أنه لن يستطيع الصبر معه ، ويعتذر موسى عما لا يعلم . ويمر العبد الصالح ومعه موسى بقرية فطلبا من أهل القرية الضيافة ، لكن أهل القرية يرفضون الضيافة ، ويجد العبد الصالح جدارا مائلا يكاد يسقط فيبدأ فى بنائه ، فيقول موسى :

﴿ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(من الآية ٧٧ سورة الكهف)

ويكون الفراق بين العبد الصالح وموسى . ويخبر العبد الصالح موسى بما لم يعلمه ولم يصبر عليه . إن خرق السفينة كان لإنقاذ أصحابها من اغتصابها منهم ؛ لأن هناك ملكا كان يأخذ كل سفينة صالحة غصبًا ، فأراد أن يعيبها ليتركها الملك لهؤلاء المساكين .

وقتل الغلام كان رحمة بأبويه المؤمنين ، كان هذا الابن سيجلب لهما الطغيان والكفر ، وأراد الله أن يبدله خيراً منه .

وأن الجدار الذى أقامه كان فوق كنز ، وكان ليتيمين من هذه القرية وكان والد الغلامين صالحاً ، لذلك كان لابد من إعادة بناء الجدار حتى يبلغ الغلامان أشدهما ويستخرجا الكنز ويقول العبد الصالح عن كل هذه الأعمال :

﴿ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾

(من الآية ٨٢ سورة الكهف)

إن العبد الصالح لا ينسب هذا العمل الربانى لنفسه ، ولكن ينسبه إلى الخالق الذى علمه . إذن فالحق يطلق بعضاً من قضايا الكون حتى لا يظن الإنسان أن الخير دائما فيما يحب ، وأن الشر فيما يكره ، ولذلك يقول سبحانه : « وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم » فإن كان القتال كرها لكم ، فلعل فيه خيرًا لكم . وبمناسبة ذكر الكُره نوضح أن هناك « كَره » و« كُره » . إن « الكَره » بفتح الكاف : هو الشيء المكروه الذى تُحمل وتُكْرَهُ على فعله ، أما « الكُره » بضم الكاف فهو الشيء الشاق .

وقد يكون الشيء مكروها وهو غير شاق ، وقد يكون شاقا ولكن غير مكروه . والحق يقول : « كتب عليكم القتال وهو كُره لكم » . ولنلاحظ أن الحق دائما حينما يشرع فهو يقول : « كُتبَ » ولا يقول : « كَتبت » ذلك حتى نفهم أن الله لن يشرع إلا لمن آمن به ؛ فهو سبحانه لم يكتب على الكافر أى تكاليف ، وهل يكون من المنطقى أن يكلف الله من آمن به ويترك الكافر بلا تكليف ؟

نعم ، إنه أمر منطقى ؛ لأن التكليف خير ، وقد ينظر بعض الناس إلى التكليف من زاوية أنه مُقيِّد ، نقول لهم : لو كان التكليف الإيمانى يقيد لكلف الله به الكافر ، ولكن الله لا يكلف إلا من يحبه ، إنه سبحانه لا يأمر إلا بالخير ، ثم إن الله لا يكلف إلا من آمن به ؛ لأن العبد المؤمن مع ربه فى عقد الإيمان .

إذن فالله حين يقول : « كُتب » فمعنى ذلك أنه سبحانه يقصد أنه لم يقتحم على أحد حركة اختياره الموهوبة له ، والله سبحانه وتعالى قد ترك للناس حرية الاختيار فى أن يؤمنوا أو لا يؤمنوا . ومن آمن عن اختيار وطواعية فقد دخل مع الله فى عقد إيمان ، وبمقتضى هذا العقد كتب الله عليه التكاليف . ومن هذه التكاليف القتال ، فقال سبحانه : « كُتب عليكم القتال » .

وقوله : « عليكم » يعنى أن القتال ساعة يكتب لا يبدو من ظاهر أمره إلا المشقة ، فجاءت « عليكم » لتناسب الأمر . وبعد انتهاء القتال إذا انتصرنا فنحن نأخذ الغنائم ، وإذا انهزمنا واستشهدنا فلنا الجنة .

ويعبر الحق عن ظاهر الأمر فى القتال فيقول عنه : « وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم » . إنها قضية عامة كما قلنا . لذلك فعلينا أن نرد الأمر إلى من يعلمه ، « والله يعلم وأنتم لا تعلمون » فكل أمر علينا أن نرده إلى حكمة الله الذى أجراه ؛ لأنه هو الذى يعلم .

وهناك قصة من التراث الإنسانى تحكى قضية رجل من الصين ، وكان الرجل يملك مكانا متسعا وفيه خيل كثيرة ، وكان من ضمن الخيل حصان يحبه . وحدث أن هام ذلك الحصان فى المراعى ولم يعد ، فحزن عليه ، فجاء الناس ليعزوه فى فقد الحصان ، فابتسم وقال لهم : ومن أدراكم أن ذلك شر لتعزونى فيه ؟

وبعد مدة فوجىء الرجل بالجواد ومعه قطيع من الجياد يجره خلفه ، فلما رأى الناس ذلك جاءوا ليهنئوه ، فقال لهم : وما أدراكم أن ذلك خير ، فسكت الناس عن التهنئة . وبعد ذلك جاء ابنه ليركب الجواد فانطلق به ، وسقط الولد من فوق الحصان فانكسرت ساقه ، فجاء الناس مرة أخرى ليواسوا الرجل فقال لهم : ومن أدراكم أن ذلك شر ؟

وبعد ذلك قامت حرب فجمعت الحكومة كل شباب البلدة ليقاتلوا العدو ، وتركوا هذا الابن ؛ لأن ساقه مكسورة ، فجاءوا يهنئونه ، فقال لهم : ومن أدراكم

أن ذلك خير؟ فعلينا ألا نأخذ كل قضية بظاهرها ، إن كانت خيرا أو شرا ؛ لكن علينا أن نأخذ كل قضية من قضايا الحياة فى ضوء قول الحق :

﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾

(من الآية ٢٣ سورة الحديد)

والحق هو القائل : « والله يعلم وأنتم لا تعلمون » . ولله المثل الأعلى ، سبق لنا أن ضربنا المثل من قبل بالرجل الحنون الذى يحب ولده الوحيد ويرجو بقاءه فى الدنيا ، لذلك عندما يمرض الابن فالأب يعطيه الدواء المر ، وساعة يعطيه الجرعة فالابن يكره الدواء ولكنه خير له . بعد ذلك يتحدث الحق سبحانه وتعالى عن سؤال آخر يقول فيه :

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ ۚ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۖ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢١٧﴾ ﴾

والسؤال هنا ليس عن الشهر الحرام ؛ لأنه كان معروفا عندهم من أيام الجاهلية ، ولكن السؤال عن القتال فى الشهر الحرام ، فما جدوى السؤال إذن ؟ إنه سؤال استفزازى ، والمسألة لها قصة . ونعرف أن للسنة اثنى عشر شهراً ، وقد جعل الله فيها أربعة أشهر حرم : شهر واحد فرد وهو رجب ، وثلاثة سرد ، وهى ذو القعدة وذو الحجة ، والمحرم . ومعنى أشهر حرم أى أن القتال محرم فيها .

لقد علم الله كبرياء الخلق على الخلق ، لذلك جعل الله لخلقه ساترا يحمى كبرياءهم ، ومن هذه السنن التى سنها الله هى حرمة القتال فى الأشهر الحرم ، والأماكن الحرم ، فيجوز أن الحرب تضر المحارب ، لكن كبرياءه أمام عدوه يمنعه من وقف القتال ، فيستمر فى الحرب مهما كان الثمن ، فيأتى الحق سبحانه وتعالى ويقول للمتحاربين : ارفعوا أيديكم فى هذه الشهور لأنى حرمت فيها القتال . وربما كان المحاربون أنفسهم يتمنون من أعماقهم أن يتدخل أحد ليوقف الحرب ، ولكن كبرياءهم يمنعهم من التراجع ، وعندما يتدخل حكم السماء سيجد كل من الطرفين حجة ليتراجع مع حفاظه على ماء الوجه . وكذلك جعل الله أماكن محرمة ، يحرم فيها القتال حتى يقول الناس إن الله هو الذى حرمها ، وتكون لهم ستاراً يحمى كبرياءهم .

إذن فالحق سبحانه وتعالى الذى خلق الإنسان أراد أن يصون الإنسان حتى يحقن الدماء ، فإذا ظل الناس ثلاثة أشهر بلا حرب ، ثم شهراً آخر ، فنعموا فى هذه الفترة بالسلام والراحة والهدوء ، فربما يألفون السلام ، ولا يفكرون فى الحرب مرة أخرى ، لكن لو استمرت الحرب بلا توقف لظل سُعَار الحرب فى نفوسهم ، وهذه هى ميزة الأشهر الحرم .

والأشهر الحرم حُرُمٌ فى الزمان والمكان ؛ لأن الزمان والمكان هما ظرف الأحداث ، فكل حدث يحتاج زمانا ومكانا . وعندما يُحرم الزمان ويُحرم المكان فكل من طرفى القتال يأخذ فرصة للهدوء .

إن الحق سبحانه وتعالى يعرض هنا قضية أراد بها خصوم الإسلام من كفار قريش

واليهود أن يثيروها ؛ فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يرسل بعض السرايا للاستطلاع ، والسرية هى عدد محدود من المقاتلين ، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأرسل سرية على رأسها عبدالله بن جحش الأسدى ابن عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأرسل معه ثمانية أفراد ، وجعله أميرا عليهم ، وأعطاه كتابا وأمره ألا يفتحه إلا بعد مسيرة يومين ، وذلك حتى لا يعلم أحد أين تذهب السرية ، وفى ذلك احتياط فى إخفاء الخبر .

فلما سارت السرية ليلتين فتح عبدالله الكتاب وقرأه فإذا به : اذهب إلى « بطن نخلة » وهو مكان بين مكة والطائف واستطلع عيرقريش ، ولا تُكره أحدا ممن معك على أن يسير مرغما ، بمعنى أن يكون لكل فرد فى السرية حرية الحركة ، فمن يفضل عدم السير فى السرية فله هذا الحق .

وبينما هم فى الطريق ضل بعير لسعد بن أبى وقاص وعقبة بن غَزْوان ، وذهبا يبحثان عن البعير ، وبقى ستة مقاتلين مع عبدالله ، وذهب الستة إلى « بطن نخلة » فوجدوا « عمرو بن الحضرمى » ومعه ثلاثة على عير لقريش ، فدخلوا معهم فى معركة ، وكان هذا اليوم فى ظنهم هو آخر جمادى الآخرة ، لكن تبين لهم فيما بعد أنه أول رجب أى أنه أحد أيام شهر حرام .

وقتل المسلمون ابن الحضرمى ، قتله واقد بن عبدالله من أصحاب عبدالله ابن جحش ، وأسروا اثنين ممن معه ، وفر واحد ، فلما حدث هذا ، وتبين لهم أنهم فعلوا ذلك فى أول رجب ، عند ذلك اعتبروا أن قتالهم وغنائمهم مخالفة لحرمة شهر رجب .

وثارت المسألة أخذا وردًّا بين المسلمين قبل أن تتحدث فيها قريش حيث قالوا : إن محمداً يدعى أنه يحترم المقدسات ويحترم الأشهر الحرم ، ومع ذلك قاتل فى الأشهر الحرم ، وسفك دمنا ، وأخذ أموالنا ، وأسر الرجال . فامتنع رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الغنائم والأسرى حتى يفصل الله فى القضية فنزل حكم السماء فى القضية بهذا القول الحكيم :

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾ ﴾

(سورة البقرة)

نحن مُسلِّمون أن القتال فى الشهر الحرام أمر كبير ، ولكن انظروا يا كفار قريش إلى ما صنعتم مع عبادنا وقارنوا بين كِبْر هذا وكِبْر ذاك . أنتم تقولون : إن القتال فى الشهر الحرام مسألة كبيرة ، ولكن صدكم عن سبيل الله وكفركم به ، ومنعكم المسلمين من المسجد الحرام ، وإخراج أهل مكة منها أكبر عند الله من القتال فى الشهر الحرام ، فلا تفعلوا ما هو أكبر من القتال فى الشهر الحرام ، ثم تأخذكم الغيرة على الحرمات .

فكأن الحق أراد أن يضع قضية واضحة هى : لا تأخذوا من جزئيات التدين أشياء وتتحصنوا فيها خلف كلمة حق وأنتم تريدون الباطل فالواقع يعرض الأشياء ، ونحن نقول : نعم إن القتال فى الشهر الحرام كبير . ولكن يا كفار قريش اعلموا أن فتنة المؤمنين فى دينهم وصدهم عن طريق الله ، وكفركم به ـ سبحانه ـ وإهداركم حرمة البيت الحرام بما تصنعون فيه من عبادة غير الله ، وإخراجكم أهله منه ، إن هذه الأمور الآثمة هى عند الله أكبر جرما وأشد إثما من القتال فى الأشهر الحرم لاسترداد المسلمين بعض حقهم لديكم .

ولهذا يرد الحق سهام المشركين فى نحورهم « ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا » أى إياكم أن تعتقدوا أنهم سيحترمون الشهر الحرام ولا المكان الحرام ، بل «ولايزالون يقاتلونكم » أى وسيصرون ، ويداومون على قتالكم

« حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا » .

وتأمل قوله : « إن استطاعوا » إن معناها تحدٍ لهم بأنهم لن يستطيعوا أبدا فـ « إنْ » تأتى دائما فى الأمر المشكوك فيه . ويتبع الحق « ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » سيظلون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا . ثم يختم الحق الآية بقضية يقول فيها : « ومن يرتدد منكم عن دينه » هذه الآية يقابلها آية أخرى يقول الحق فيها :

﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾

(من الآية ٥ سورة المائدة)

وإذا قارنّا بين الآيتين نجد أن الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها قد ورد فيها قوله : « فيمت وهو كافر » وفى سورة المائدة لم يرد هذا وإنما ورد قوله : « ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله » وقد اختلف العلماء فى المسألة اختلافات جميلة . ولكنهم اتفقوا أوّلا على أن أى إنسان يرتد عن الإسلام ثم يموت مرتداً فقد حبطت أعماله . ولكن اختلافهم تركز فيما لو رجع وآمن مرة ثانية ، أى لم يمت وهو كافر ، بل رجع فآمن بعد ردته ، فهل حبط عمله أم لم يحبط ؟.

وللإمام الشافعى رأى يقول : إن الذى يرتد عن الدين تحبط أعماله إن مات على الكفر ، أما إن عاد وأسلم مرة أخرى فإن أعماله التى كانت قبل الارتداد تكون محسوبة له . والإمام أبو حنيفة له رأى مختلف فهو يقول : لا ، إن آية سورة المائدة ليس فيها « فيمت وهو كافر » وعليه فإننا نُحملها على آية سورة البقرة التى ذكر فيها ذلك من باب حمل المطلق على المقيد ، وعلى ذلك فالذى يكفر بعد إيمانه عمله محبط سواء رجع إلى الإيمان بعد ذلك أو لم يرجع ، فلا يحتسب له عمل .

أين موضوع الخلاف إذن ؟ . هب أن إنساناً آمن وأدى فريضة الحج ثم لا قدر الله كفر وارتد ، ثم رجع فآمن أتظل له الحجة التى قام بها قبل الكفر أم تحبط ويطلب منه حج جديد ؟ هذه هى نقطة الخلاف . فالشافعى يرى أنه لا يُحبط عمله مادام قد

رَجع إلى الإيمان لأن الله قال : « فيمت وهو كافر » فمعنى ذلك أنه إن لم يمت على الكفر فإن عمله لا يحبط . ولكن لا يأخذ ثوابا على ذلك الحج الذى سبق له أن أداه ، لقد التفت الإمام الشافعى رضى الله عنه إلى شىء قد يغفل عنه كثير من الناس ، وهو أن الحج ركن من أركان الإسلام ، فالذى لا يحج وهو قادر على الحج فالله يعاقبه على تقصيره ، والذى حج لا يعاقب ويأخذ ثواب فعله .

فكأن الأعمال التى طلبها الحق سبحانه وتعالى إن لم تفعلها وكانت فى استطاعتك عوقبت ، وإن فعلتها يمر عملك بمرحلتين ، المرحلة الأولى هى ألا تُعاقب ، والمرحلة الثانية هى أن تُثاب على الفعل . فالشافعى قال : إن الشخص إذا فعل فعلاً يُثاب عليه الإنسان ، ثم كفر ، ثم عاد إلى الإسلام فهو لا يُعاقب ، ولكنه لا يُثاب . أما الإمام أبو حنيفة فقد قال : إنه لا عبرة بعمله الذى سبق الردة مصداقا لقوله تعالى : « حبطت أعمالهم » أى أُبْطِلَت وزالت ، وكأنها لم تكن .

إنّ القرآن استخدم هنا كلمة « حبط » ، وهى تُستخدم تعبيراً عن الأمر المحسوس ، فيقال : « حبطت الماشية » أى أصابها مرض اسمه الحُباط ، لأنها تأكل لونا من الطعام تنتفخ به ، وعندما تنتفخ فقد تموت . والنبى عليه الصلاة والسلام يقول : « إن مما ينبت الربيع ما يقتل حبطاً أو يلم »[1] .

إنه صلى الله عليه وسلم يحذرنا من أن الخير قد يندس فيه شر ، مثلما يحدث فى الربيع الذى ينبت فيه من النبات الذى يعجب الماشية فتأكله فيأتيها مرض « الحُباط » ، فتنتفخ ثم تموت ، أو « يلم » أى توشك أن تموت ، وكذلك الأعمال التى فعلها الكفار تصبح ظاهرة مثل انتفاخ البطن ، وكل هذه العمليات الباطلة ستحبط كما تحبط الماشية التى أكلت هذا اللون من الخضر ، ثم انتفخت فيظن المشاهد لها أنها سِمنة ؛ وبعد ذلك يفاجأ بأنه مرض . لقد أعطانا الله من هذا القول المعنى المحسوس لتشابه الصورتين ؛ فالماشية عندما تحبط تبدو وكأنها نمت وسمنت ، لكنه نمو غير طبيعى إنه ليس شحماً أو لحما ، لكنه ورم ، كذلك عمل الذين كفروا ؛ عمل حابط ، وإن بدا أنهم قد قاموا بأعمال ضخمة فى ظاهرها أنها طيبة وحسنة .

---

(١) رواه البخارى والترمذى وابن ماجه .

ويقول بعض الناس : وهل يُعقل أن الكفار الذين صنعوا إنجازات قد استفادت منها البشرية ، هل من المعقول أن تصير أعمالهم إلى هذا المصير ؟ . لقد اكتشفوا علاجا لأمراض مستعصية وخففوا آلام الناس ، وصنعوا الآلات المريحة والنافعة . ونقول لأصحاب مثل هذا الرأى : مهلاً ، فهناك قضية يجب أن نتفق عليها وهى أن الذى يعمل عملاً ؛ فهو يطلب الأجر ممن عمل له ، فهل كان هؤلاء يعملون وفى بالهم الله أم فى بالهم الإنسانية والمجد والشهرة ؟ . لقد أعطتهم الإنسانية المجد والشهرة ، وماداموا قد نالوا هذا الأجر فى الدنيا فليس لهم أن ينتظروا أجراً فى الآخرة . لذلك يقول الحق :

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَـٰلُهُمْ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ ﴾

(سورة النور)

إن الكافر يظن أن أعماله صالحة نافعة لكنها فى الآخرة كالسراب الذى يراه الإنسان فى الصحراء فيظنه ماء ، ويجد نفسه فى الآخرة أمام لحظة الحساب فيوفيه الله حسابه بالعقاب ، وليس لهم من جزاء إلا النار ، وينطبق عليهم ما ينطبق على كل الكافرين بالله ، وهو «و أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » .

هذا وإن الحق سبحانه وتعالى يوضح حقيقة الأمر للمؤمنين به وبرسوله صلى الله عليه وسلم حتى يعطيهم مناعة إيمانية ضد آمال الكافرين فى الإضرار بالمؤمنين ، فيعلمنا أنهم لن يدخروا وسعا حتى يردوكم عن دينكم ؛ لأن منهج الله دائما لا يخيف إلا المبطلين ؛ فالإنسان السوى الذى يريد أن يعايش العالم فى سلام ويأخذ من الخير على قدر حركته فى الوجود لا ترهقه سيادة مبادىء الإسلام ، إنما تُرهق مبادىء الإسلام هؤلاء الذين يريدون أن يسرقوا عرق وكدّ غيرهم وهم يبذلون كل الجهد ويستخدمون كافة الأساليب التى تصرف المسلمين عن دينهم ، ولكن هل يُمكّنهم الله من ذلك ؟ لا ؛ فلا يزال هناك أمل فى الخير إن تمسكت أمة الإسلام بالمنهج الحق .

إنه سبحانه يعطى المناعة للمؤمنين ، والمناعة ـ كما نعرف ـ هى أن تنقل للسليم

ميكروب المرض بعد إضعافه ، وبذلك تأخذ أجهزة جسمه فرصة لأن تنتصر على هذا الميكروب ؛ لذلك قال الحق : « ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم » . إن الخلاف الجوهرى بين المؤمن والكافر ، هو أن المؤمن إنما يعمل العمل الصالح وفى نيته أن المكافىء هو الله ، وهو يتجه بنية خالصة فى كل عمل . ويأخذ بأسباب الله فى العلم لينتفع به غيره من الناس ؛ فتكون الفائدة عميمة وعظيمة ، وعلى المؤمن أن يكون سباقاً إلى الاكتشاف والاختراع ونهضة العالم المسلم ، وأن يكون المؤمن العالم منارة تشع بضوء الإيمان أمام الناس ، لا أن يترك غيره من الكافرين يصلون إلى المكتشفات العلمية وهو متواكل كسلان .

إن على المؤمن أن يأخذ بأسباب الله فى الحياة ؛ لأن الإسلام هو دين ودنيا ، وهو دين العلم والتقدم ، ويضمن لمن يعمل بمنهجه سعادة الدنيا وسعادة الآخرة . وإذا كان المؤمن يستمتع بإنتاج يصنعه الكافر فليعلم أن الكافر إنما أخذ أجره مُسخراً ممن عمل له ، أما المؤمن فحين يتفوق فى الصناعة والزراعة والعلم والاكتشاف فهو يأخذ الأجر فى الدنيا وفى الآخرة ؛ لأن الذى يعطى هنا هو الله .

أما عمل الكافر فهو عمل من مسخر كالمطايا وكالجماد والنبات والحيوان المسخرة لخدمة الإنسان . وإذا كان الله قد ميز المؤمن على الكافر بالأجر فى الدنيا وحسن الثواب فى الآخرة ، ألا يليق بالمؤمن أن يسبق الكافر فى تنمية المجتمع الإسلامى ، وأن يكون بعمله منارة هداية لمن حوله ؟! ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾ ﴾

إن الآية قد عددت ثلاثة أصناف : الصنف الأول هم الذين آمنوا ، والصنف

الثانى هم الذين هاجروا ، والصنف الثالث هم الذين جاهدوا . إن الذين آمنوا إيماناً خالصاً لوجه الله ، وهاجروا لنصرة الدين ، وجاهدوا من أجل أن تعلو كلمة الإسلام هؤلاء قد فعلوا كل ذلك وهم يرجون رحمة الله . ولقائل أن يقول : أليست الرحمة مسألة متيقنة عندهم ؟

ونقول : ليس للعبد عند الله أمر متيقن ؛ لأنك قد لا تفطن إلى بعض ذنوبك التى لم تُحسن التوبة منها ، ولا التوبة عنها . وعليك أن تضع ذلك فى بالك دائماً ، وأن تتيقن من استحضار نية الإخلاص لله فى كل عمل تقوم به ؛ فقد تحدثك نفسك بشىء قد يفسد عليك عملك ، وكذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو سيد الخلق وسيد الموصولين بربهم يقول : « اللهم إنى أعوذ بك من علم لا ينفع وعمل لا يُرفع ودعاء لايُسمع »[1] .

إن الرسول الكريم وهو سيد المحتسبين فى كل أعماله يعلمنا أن النفس قد تخالط صاحبها بشىء يفسد الطاعة . وعلى المسلم أن يظل فى محل الرجاء . والمؤمن الذى يثق فى ربه لا يقول : إن على الله واجباً أن يعمل لى كذا ؛ لأن أصل عبادتك لله سبق أن دُفع ثمنها ، وما تناله من بعد ذلك هو فضل من الله عليك ، مدفوع ثمنها لك إيجاداً من عدم وإمداداً من عُدْم ، ومدفوع ثمنها بأن متعك الله بكل هذه الأشياء ، فلو قارنت بين ما طلبه الله منك ـ على فرض أنك لا تستفيد منه ـ فقد أفدت مما قدم لك أوّلا ، وكل خير يأتيك من بعد ذلك هو من فضل الله عليك ، والفضل يُرجى ولا يُتيقن .

وعظمة الحق سبحانه وتعالى فى أنك تدعوه خوفاً وطمعاً . ويقول هذا المثل ـ ولله المثل الأعلى ـ إن من عظمتك أمام والدك أنك تجد لك أباً تخاف منه ، وترغب أن يحقق لك بعضاً من أحلامك ، ولو اختلت واحدة من الاثنتين لاختلت الأبوة والبنوة .

كذلك عظمة الرب يُرغب ويُرهب : إن رغبت فيه ولم ترهبه فأنت ناقص

(١) رواه أحمد والحاكم وابن حبان عن أنس .

الإيمان ، وإن رهبت ولم ترغب فإيمانك ناقص أيضاً ، لذلك لابد من تلازم الاثنتين : الرهبة والرغبة . ولو تبصّر الإنسان ما فرضه الله عليه من تكاليف إيمانية لوجد أنه يفيد من هذه التكاليف أضعافاً مضاعفة . فكل ما يجازى به الله عباده إنّما هو الفضل ، وهو الزيادة . وكل رزق للإنسان إنما هو محض الفضل . ومحض الفضل يُرجى ولا يُتيقن .

وها هو ذا الحق يقول :

﴿ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

إن الدنيا كلها مسخرة تحت قهر الرحمن ومشيئته وتسخيره ، وله تمام التصرف فى كل الكائنات وهو الخالق البديع ، لذلك فليدع الإنسان الله بخشوع وخضوع فى السر والعلانية ، والحق لا يحب مَن يعتدى بالقول أو الرياء أو الإيذاء .

إن الإيمان يجب أن يكون خالصا لله ، فلا يفسد الإنسان الأرض بالشرك أو المعصية ؛ لأن الحق قد وضع المنهج الحق لصلاح الدنيا وهو القرآن ، ورسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورحمة الله قريبة من المطيعين للحق جل وعلا .

إن عظمة الرب فى أنه يُرغب ويُرهب ؛ إن رغبت فيه ولم ترهبه فعملك غير مقبول ، وإن رهبته ولم ترغب فعملك غير مقبول . إن الرغب والرهب مطلوبان معاً ، لذلك فالمؤمن المجاهد فى سبيل الله يرجو رحمة الله .

والحق يقول : « أولئك يرجون رحمة الله » ، ما هى الرحمة ؟ الرحمة ألا تبتلى بالألم من أول الأمر ، والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾

(من الآية ٨٢ سورة الإسراء)

الشفاء هو أن تكون مصابا بداء ويبرئك الله منه ، لكن الرحمة ، هى ألا يأتى الداء أصلا « والله غفور رحيم » .

والله سبحانه وتعالى يعلم عن عباده أن أحداً منهم قد لا يبرأ من أن يكون له ذنب . فلو حاسبنا بالمعايير المضبوطة تماما فلسوف يتعب الإنسان منا ، ولذلك أحب أن أقول ـ دائما ـ مع إخوانى هذا الدعاء : « اللهم بالفضل لا بالعدل وبالإحسان لا بالميزان وبالجبر لا بالحساب » . أى عاملنا بالفضل لا بالعدل ، وبإحسانك لا بالميزان ، لأن الميزان يتعبنا .

ولقد علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن دخول الجنة لا يكون بالأعمال وحدها ، ولكن بفضل الله ورحمته ومغفرته . إن الرسول الكريم يقول :

« لن يدخل أحدكم الجنة بعمله . فقالوا : ولا أنت يا رسول الله ، قال : ولا أنا حتى يتغمدنى الله برحمته »[1] .

إذن فالمؤمن يرجو الله ولا يشترط على الله ، إن المؤمن يتجه بعمله خالصا لله يرجو التقبل والمغفرة والرحمة ، وكل ذلك من فضل الله . ويأتى الحق لسؤال آخر :

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ ﴾

---

(١) رواه أحمد والبخارى ومسلم والبيهقى .

والخمر ـ كما نعرف ـ مأخوذة من الستر ، ويقال : « دخل فلان فى خمرة » أى فى أيكة من الأشجار ملتفة فاختبأ فيها . و« الخِمار » هو القناع الذى ترتديه المسلمة لستر رأسها ، وهو مأخوذ أيضا من نفس المادة . و« خامره الأمر » أى خالطه . وكل هذه المعانى مأخوذة من عملية الستر . و« الميسر » مأخوذ من اليسر ؛ لأنه يظهر للناس بمكاسب يسيرة بلا تعب .

الخمر والميسر من الأمور التى كانت معروفة فى الجاهلية . والإسلام حين جاء ليواجه نُظُما جاهلية واجه العقيدة بلا هوادة ، ولم يجابهها ويواجهها على مراحل بل أزالها من أول الأمر ، ورفع راية « لا إله إلا الله محمد رسول الله » ، ثم جاء الإسلام فى الأمور التى تُعتبر من العادات فبدأ يهونها ؛ لأن الناس كانت تألفها ، لذلك أخذها بشىء من الرفق والهوادة . وكان هذا من حكمة الشرع ، فلم يجعل الأحكام فى أول الأمر عملية قسرية فقد يترتب عليها الخلل فى المجتمع وفى الوجود كله ، وإنما أخذ الأمور بالهوادة .

وإذا كانت الخمرة مأخوذة من الستر ، فماذا تستر ؟ إنها تستر العقل بدليل أن من يتعاطاها يغيب عن وعيه . ولا يريد الله سبحانه وتعالى للإنسان الذى كرمه الله بالعقل أن يأتى للشىء الذى كرمه به ويُسَيِّر به أمور الخلافة فى الأرض ويستره ويغيِّبه ، لأن من يفعل ذلك فكأنه رد على الله النعمة التى أكرمه بها ، وهذا هو الحمق .

ثم إن كل الذين يتعاطون الخمر يبررون فعلهم بأنهم يريدون أن ينسوا هموم الدنيا ، ونسأل هؤلاء : وهل نسيان الهموم يمنع مصادرها ؟ لا ، ولذلك فالإسلام يطلب منك أن تعيش همومك لتواجهها بجماع عقلك ، فإذا كانت هناك هموم ومشكلات فالإسلام لا يريد منك أن تنساها ، لا ، بل لابد أن توظف عقلك فى مواجهتها ، ومادام المطلوب منك أن تواجه المشكلات بعقلك فلا تأتى لمركز إدارة الأمور الحياتية وهو العقل،والذى يعينك على مواجهة المشكلات وتقهره بتغييبه عن العمل .

وهل النسيان يمنع المصائب ؟ إن الذى يمنع المصائب هو أن تحاول بجماع فكرك أن

تجد السبيل للخروج منها ، فإذا كان الأمر ليس فى استطاعتك فمن الحمق أن تفكر فيه ؛ لأن الله يريد منك أن تريح عقلك فى مثل هذه الأمور ، وإن كان الأمر له حل وفى استطاعتك حله ، فأنت تحتاج للعقل بكامل قوته .

والحق سبحانه وتعالى يرشدنا فى هذه القضية بحكمة الحكيم ، ويعطينا عطاء لنحكم نحن فى الأمر قبل أن يطلب منا . إنه ـ سبحانه ـ يمتن علينا ويقول :

﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾

(من الآية ٦٧ سورة النحل)

فعندما ذكر الله « سَكَراً » مر عليها بلا تعليق . وعندما قال : « رزقاً » وصفه بأنه « حسناً » . فكان يجب أن نتنبه إلى أن الله يمهد لموقف الإسلام من الخمر ؛ فهو لم يصف « السكر » بأى وصف ، وجعل للرزق وصفا هو الحسن ؛ فالناس عندما يستخرجون من هذه الثمرات سكراً ، فهم قد أخرجوها عن الرزق الحسن ، لأن هناك فرقا بين أن تأخذ من العنب غذاءً وبين أن تخمره فتفسده وتجعله ساتراً للعقل .

وبعد ذلك فهناك فرق بين تشريع ونصح . فعندما تنصح شخصا فأنت تقول له : سأدلك على طريق الخير وأنت حر فى أن تسير فيه أو لا تسير . وعندما تشرع وتضع الحكم ، فأنت تأمر هذا الشخص أو ذاك بأن يفعل الأمر ولا شىء سواه .

والحق سبحانه وتعالى عندما قال : « يسألونك عن الخمر والميسر » ، ذكر لنا المفاسد وترك لنا الحكم عليها ، قال سبحانه مُبَلِّغاً رسوله : « قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس » ولو لم يقل « ومنافع للناس » لاستغرب الناس وقالوا : نحن نأخذ من الخمر منافع ، ونكتسب منها ، وننسى بها همومنا ، كانت هذه هى المنافع بالنسبة لهم ، لكن الحق يوضح أن إثمهما أكبر من نفعهما ، أى أن العائد من وراء تعاطيهما أقل من الضرر الحادث منهما ، وهذا تقييم عادل ، فلم تكن المسألة قد دخلت فى نطاق التحريم ، لأنها مازالت فى منطقة النصح والإرشاد .

وقوله تعالى : « وإثمهما أكبر من نفعهما » يجعل فيهما نوعا من الذنب ، لقد كان

التدرج فى الحكم أمراً مطلوبا لأنه سبحانه يعالج أمراً بإلف العادة ، فيمهد سبحانه ليخرجه عن العادة . والعادة شيء يقود إلى الاعتياد ؛ بحيث إذا مر وقت ولم يأت ما تعوّدَتْ عليه نفسيتُك ودمك يحدث لك اضطراب . ومادامت المسألة تقود إلى الاعتياد ، فالأفضل أن تسد الباب من أوله وتمنع الاعتياد .

لقد كانت بداية الحكم فى أمر الخمر أن أحداً من المسلمين شرب الخمر قبل أن تُحرم نهائياً ، وجاء ليصلى ، فقال : « قل يا أيها الكافرون أعبد ما تعبدون » وبعدها نزل تأديب الحق بقوله :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ ﴾

(من الآية ٤٣ سورة النساء)

وفى ذلك تدريب لمن اعتاد على الخمر ألا يقربها ؛ فالإنسان الذى يصلى صدر عليه الحكم ألا يقرب الصلاة وهو سكران ، فمتى يمتنع إذن ؟ إنه يصحو من نومه فلا يقرب الخمر حتى يصلى الصبح ، ويقترب الظهر فيستعد للصلاة ، ثم العصر بعد ذلك ، ويليه المغرب فالعشاء ، أى لن يصبح عنده وقت ليشرب فى الأوقات التى ينتظر فيها الصلاة ، إذن فلا تصبح عنده فرصة إلا فى آخر الليل ، فإذا ما جاء الليل يشرب له كأساً ثم يغط فى نومه . ويكون الوقت الذى امتنع فيه عن الخمر أطول من الوقت الذى يتعاطى فيه الخمر .

ولما بدأ تعودهم على الخمر يتزعزع ، حدثت بعض الخلافات والمشكلات التى دفعتهم لأن يطلبوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يوضح لهم حكماً فاصلاً فى الخمر فنزل قوله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝٩٠ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ

ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾

(سورة المائدة)

فقالوا : انتهينا يارب .

إذن فالحق سبحانه وتعالى أراد بتحريم الخمر أن يحفظ على الإنسان عقله ؛ لأن العقل هو مناط التكليف للإنسان ، وهو متاط الاختيار بين البدائل ، فأراد الحق أن يصون للإنسان تلك النعمة .

إن هدف الدين فى المقام الأول سلامة الضرورات الخمس التى لا يستغنى عنها الإنسان : سلامة النفس ، وسلامة العرض ، وسلامة المال ، وسلامة العقل ، وسلامة الدين . وكل التشريعات تدور حول سلامة هذه الضرورات الخمس ، ولو نظرت إلى هذه الضرورات تجد أن الحفاظ عليها يبدأ من سلامة العقل ، فسلامة العقل تجعله يفكر فى دينه . وسلامة العقل تجعله يفكر فى حركة الحياة . وسلامة العقل تجعله يحتاط لصيانة العرض .

إذن فالعقل هو أساس العملية التكليفية التى تدور حولها هذه المسألة ، والحق سبحانه وتعالى يريد ألا يخمر الإنسان عقله بأى شىء مُسكر . حتى لا يحدث عدوان على هذه الضرورات الخمس .

وقد جمع الله فى هذه الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها بين الخمر والميسر ، وهو جل وعلا يريد أن يحمى غفلة الناس . فلعب الميسر يتمثل فى صورته البسيطة فى اثنين يجلسان أمام بعضهما البعض ، وكل واحد منهما حريص على أن يأخذ ما فى جيب الآخر ، فأى أخوة تبقى بين هؤلاء ؟ إن كلاً منهما حريص على أن يعيد الآخر إلى منزله خاوى الجيوب فأى أخوة تكون بين الاثنين ؟

ومن العجيب أنك ترى الذين يلعبون الميسر فى صورة الأصحاب ، ويحرص كل منهما على لقاء الآخر ، فأى خيبة فى هذه الصداقة ؟!

ومن العجيب أن يقر كل من الطرفين صاحبه على فعله ، يأخذ ماله ويبقى على صداقته ، والعجب الأكبر هو التدليس والسرقة بين الذين يتعودون على لعب الميسر . ولو لاحظت حياة هؤلاء الذين يلعبون الميسر تجدهم ينفقون ويبذرون بلا احتياط ولا ينتفعون أبداً بما يصل أيديهم من مال مهما كان كثيراً ، لماذا ؟

لأن المال حين يُكتسب بيسر ، يُصرف منه بلا احتياط ، هذا هو حال من يكسب ، أما بالنسبة للخاسر فتجده يعيش فى الحسرة والألم على ما فقد ، وتجده فى فقر دائم ، وربما اضطر إلى التضحية بعرضه وشرفه ، إن لم يبع ملابسه ، وأعز ما يملك ، ويحدث كل ذلك بأمانٍ زائفة ، وآمال كاذبة يزينها الشيطان للطرفين ؛ الذى كسب والذى خسر ، فالذى كسب يتمنى زيادة ما معه من مال أكثر وأكثر ، والذى خسر يأمل أن يسترد ما خسره ويكسب .

وعندما يتعود الإنسان أن يكسب بدون حركة فكل شىء يهون عليه ، ويعتاد أن يعيش على الكسب السهل الرخيص ، وحين لا يجد من يستغفله ليلعب معه ربما سرق أو اختلس . وهذا هو حال الذين يلعبون الميسر ؛ إنهم أصحاب الرذائل فى المجتمع ، فهم الذين يرتشون ويسرقون ويعربدون ، ولا أخلاق عندهم وليس لهم صاحب ولا صديق ، وبيوتهم منهارة ، وأسرهم مفككة ، وعليهم اللعنة حتى فى هيئتهم وهندامهم .

ولذلك قال الحق : « يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما » ومادام الإثم أكبر من النفع ، فقد رجح جانب الإثم . هذا فى العملية الذاتية ، أما فى العملية الزمنية فقد قال سبحانه :

﴿ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ ﴾

(من الآية ٤٣ سورة النساء)

وبعد ذلك أنهى ـ سبحانه ـ المسألة تماما بقوله الحق :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ

ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾

(سورة المائدة)

ثم تمضى الآية إلى سؤال آخر هو « ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو » إنه السؤال نفسه من عمرو بن الجموح وكان الجواب عليه من قبلُ هو « قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل » وهنا جواب بشكل وصورة أخرى « قل العفو » والعفو معناه الزيادة وفى ذلك يقول الحق ـ سبحانه وتعالى ـ :

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

إن الله ـ جلت قدرته ـ يحذر وينذر لعل الناس تتذكر وتعتبر ، إنه ـ سبحانه ـ لم يرسل نبيًّا إلى قومٍ فقابلوه بالتكذيب والنكران إلاّ أخذهم وابتلاهم بالفقر والبؤس والمرض والضر لعلهم يتوبون إلى ربهم ويتذلّلون له ـ سبحانه ـ ليرفع عنهم ما ابتلاهم به ، ثم لما لم يرجعوا ويقلعوا عما هم فيه من الكفر والعناد اختبرهم وامتحنهم بالنعم ؛ بالخصب والثراء والعافية والرخاء حتى كثروا وزادت أموالهم وخيراتهم ، وقالوا ـ وهم فى ظل تلك النعم ـ : إن ما يصيبنا من سراء وضراء وخير وشر إنما هو سنة الكون ، وعادة الدهر ، فأسلافنا وآباؤنا كان يعتريهم مثل ما يصيبنا ، ولما أصروا على كفرهم باغتهم الله بالعذاب ، وأنزل بهم العقاب المفاجىء . قلبهم الله بين الشدة والرخاء ، وعالجهم بالضر واليسر ، حتى لا تكون لهم حجة على الله،ولما ظهرت خسة طبعهم وأقاموا على باطلهم أخذهم الله أخذ عزيز مقتدر . ولنتأمل قوله تعالى فى ذلك :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ

مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

أى لم نعجل بعقابهم بل تركناهم فتمادوا فى المعصية حتى إذا فرحوا بما أوتوا من النعمة والثروة وكثرة العدد ، « أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون » أى يائسون من رحمة الله أو نادمون متحسرون ، ولا ينفعهم الندم حينئذ . فقد فاتت الفرصة وضيّعوها على أنفسهم .

إن الحق ينزل هذا الأمر كعقاب وبه تكون النقلة صعبة ، إنهم يتمادون فيعاقبهم الحق عقابا صاعقا ، كالذى يرفع كائنا فى الفضاء ثم يتركه ليهوى على الأرض ، والعفو هنا يمكن أن يكون بمعنى أنهم ازدادوا فى الطغيان . وهناك معنى آخر للعفو ، فقد يأتى بمعنى الترك :

﴿ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ ﴾

(من الآية ١٧٨ سورة البقرة)

أى فمن ترك له أخوه شيئا فليأخذه . إذن فالعفو تارة يكون بمعنى الزيادة ، وتارة أخرى يكون بمعنى الترك ، والحق هنا يقول : « ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو » أى أن الإنفاق إنما يكون من الزائد عن الحاجة ، فيكون معنى العفو هنا هو الزائد أو المتروك ، وهكذا نرى أن العفو واحد فى كلا الأمرين ، فلا تظن أن المعانى تتضارب ؛ لأن بها يتحقق المعنى المقصود فى النهاية . فالعفو هو الزيادة ، والعفو أيضا يؤخذ بمعنى الصفح .

إذن فالإنفاق من الزائد عن الحاجة يحقق الصفح ويحقق الرفاهية فى المجتمع . فالذى يزرع أرضا وينتج ما يكفيه هو وعياله ويزيد ، فهل يترك ما يزيد عن حاجته ليفسد أم ينفق منه على قريبه أو جاره المحتاج ؟ أيهما أقرب إلى العقل والمنطق ؟ وكان ذلك قبل أن يشرع الحق الزكاة بنظامها المعروف . وما سر تبديلها من عفو إلى زكاة ؟

لأن الحق أراد أن يقدر حركة المتحرك ، فجعل حركته تخفف عنه ولا تثقل عليه . لأن حركة المتحرك تنفع المتحرك ، أراد المتحرك أو لم يرد ؛ ولذلك نجد « زكاة الركاز » وهى الزكاة المفروضة على ما يوجد فى باطن الأرض من ثروات كالمعادن النفيسة والبترول وغيرها ، لقد جعل الحق نصاب تلك الزكاة عشرين فى المائة ، أى الخمس بينما الذى يحرث الأرض ويبذر فيها الحب ويتركها حتى ينزل المطر فتنمو ، فنصاب الزكاة هو العشر على ما أنتجته زراعته .

وأما الذى يزرع على ماء الرى فعليه نصف العشر . والذى يتاجر كل يوم ويتعب فيذهب للمنتج يشترى منه ، ثم يوفر السلعة على البائع فيشتريها ، هذا نقول له : عليك اثنان ونصف فى المائة (٢,٥٪) فقط .

إذن فالزكاة متناسبة مع الحركة والجهد ، كأن الحق يحمى الحركة الإنسانية من حمق التقنين البشرى . إن المتحرك القوى يدفعه الله ليزيد من حركته لينتفع المجتمع ، وأوكل الله للحاكم الذى يتبع منهج الإسلام أن يأخذ من الأثرياء ما يقيم به كرامة الفقراء . إنْ بَخِلَ الأغنياء بفضل الله عليهم ، ولم ينفقوا على الفقراء من رزق الله ؛ فالمنهج الحق يحمى المال من فساد الطمع ، ومن فساد الكسل ، ويريد الحياة مستقيمة وآمنة للناس .

فالذى ينفق من ماله على أهله يحيا وهو آمن . وكذلك **من ينفق على أهله وتوابعه** فتزداد دائرة الأمان ، وهكذا لقد حمى الله بالزكاة طموح البشر من حمق التقنين من البشر ، **فالمقنن** من البشر يأتى للمتحرك أكثر ويزيد عليه الأعباء ، نقول له : إن هذا المتحرك إن لم يقصد أن ينفع المجتمع فالمجتمع سينتفع بجهده بالرغم عنه ؛ فالإنسان الذى يملك مالا يُلقى الله خاطرا فى باله ، فيقول : « ماذا لو بنيت عمارة من عشرة أدوار ، وفى كل دور أربع شقق » ويحسب كم تعطيه تلك العمارة من عائد كل شهر . إن هذا الرجل لم يكن فى باله إلا أن يربح ، فنتركه يفكر فى الربح ، وعندما نراقب الفائدة التى ستعود على المجتمع منه فسنجد الفائدة تعود على المجتمع من هذا العمل ، ولنا أن نحسب كم فردا سوف يعمل فى بناء تلك العمارة الجديدة ؟ ابتداء من البنائين ومرورا بالنجارين والحدادين والمبيضين والسباكين وغيرهم .

إن كل طبقات المجتمع الفقيرة تكون قد أفادت واستفادت من مال هذا الرجل قبل أن يدخل جيبه مليم واحد ؛ لقد ألقى الله فى نفسه خاطراً ، فأخرج كل ما فى جيبه ، وألقاه فى جيوب الآخرين قبل أن توجد له عمارة . وهكذا يحمى الله حركة المتحرك لأن حركته ستفيد سواه قصد إلى ذلك أو لم يقصد .

أما إذا قلنا له : سنأخذ ما يزيد عن حاجتك قسرا فلا بد أن يقول لنفسه : « سأجعل حركتى على قدر حاجتى ولا أزيد إلا قليلا » . والحق عز وجل لا يريد أن يشيع هذا المنطق بين الناس ، ولكن يريد لهم أن يتحركوا فى الحياة بالجدية والحلال ، وكلما تكثر حركتهم تقل الزكاة المفروضة عليهم ، لأن الحركة لا يستفيد منها صاحبها فقط ولكن يستفيد منها المجتمع ، فبعضه يسكن ، وآخر يزرع ، وثالث يعمل ، وخير للإنسان أن يأكل من عمل يديه من أن يأكل من صدقات الناس وزكاتهم .

عن المقدام بن معديكرب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ما أكل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يده،وإن نبى الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده »[1] .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾ ﴾

إن الحق يبدأ هذه الآية بقوله : « فى الدنيا والآخرة » وكأنه يقول لنا : إياكم أن

(١) رواه أحمد والبخارى .

تعتقدوا أن كل تكليف من الله جزاؤه فى الآخرة فقط ، أبدا.إن الجزاء سيصيبكم فى الدنيا أيضا .

وتأمل سيرة المستقيمين الملتزمين بمنهج دينهم ومنهج الأخلاق فى حياتهم تجدهم قد أخذوا جزاءهم فى الدنيا رضا وسعادة وأمنا حتى أنك تجد الناس تتساءل : كيف ربى فلان أولاده ،وكيف علمهم برغم أن مرتبه بسيط ؟

هم لا يعلمون أن يد الله معه بالبركة فى كل حركات حياته . فلا تظن أن الجزاء مقصور على الآخرة فقط ، بل يعجل الله بالجزاء فى الدنيا ، أما الآخرة فهى زيادة ، ونحن نأخذ متاع الآخرة بفضل الله . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لن يدخل أحدكم الجنة بعمله ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ، قال : ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمته »(١) .

وأحب أن يتأمل كل منا أحوال الناس المستقيمين فى منهج الحياة ، ويرى كيف يعيشون وكيف ينفقون على أولادهم ، ويتأمل البِشْر والرضا الذى يتمتعون به ، وكيف تخلو حياتهم من المشاكل والعقد النفسية .

وكأنه سبحانه وتعالى يلفتنا إلى أن كل ما جاء فى المنهج القويم ، إنما جاء لينظم لنا حركة الحياة ويخرجنا من أهواء النفوس .

ونقول بعد أن استكمل الحق الكلام عن الحج وهو الركن الخامس من أركان الإسلام ، بين لنا صنفين من المجتمع : أما الصنف الأول فهو الصنف المنافق الذى لا ينسجم منطقه مع واقع قلبه ونفسه :

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ

(١) أخرجه الإمام البخارى ومسلم والإمام أحمد فى مسنده والبيهقى وغيرهم بروايات مختلفة .

وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ ﴾

(سورة البقرة)

وليت هذا الصنف حين يتنبه إلى ذلك يرتدع ويرجع ، لا ، إنه إذا قيل له من ناصح محب مشفق : « اتق الله » أخذته العزة بالإثم !! . والصنف الآخر فى المجتمع هو من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله ، ويتمثل ذلك فى أنه إما أن يبيع نفسه فى القتال فيكون شهيداً ، وإما أن يستبقيها استبقاءً يكون فيه الخير لمنهج الله . فقال سبحانه :

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾ ﴾

(سورة البقرة)

ثم تكلم الحق عن الدخول فى السلم كافة ، والدخول فى السلم أى الإسلام يطلب منا أن ندخل جميعاً فى كل أنواع السلم فى الحياة ، سلم مع نفسك فلا تتعارض ملكاتك ، فلا تقول قولاً يناقض قلبك ، وسِلمٌ مع المجتمع الذى تعيش فيه ، وسلم مع الكون الذى يخدمك جماداً ونباتاً وحيواناً ، وسلم مع أمتك التى تعيش فيها ، فقال سبحانه :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ ﴾

(سورة البقرة)

كل ذلك يدلنا على أن الحق حين خلق الخلق ، وضع لهم المنهج الذى يضمن لهم السلامة والأمن فى كل أطوار هذه الحياة ، فإن رأيت خللاً أو اضطراباً فى الكون ، أو رأيت خوفاً أو قلقاً فاعلم أن منهجاً من مناهج الإسلام قد عُطل . والحق سبحانه وتعالى حينما يأمرنا أن ندخل فى السلم كافة فهو سبحانه يحذرنا أننا إن زللنا عن المنهج فإن الله عزيز حكيم فلا يغلبه أحد ، ولا يقدر عليه أحد ، فهو القادر القوى الذى يُجرى كل شىء بحكمة ، فلا تظنوا أنكم بذلك تسيئون إلى الله بالزلل عن منهجه ، وإنما تسيئون إلى أنفسكم وإلى أبناء جنسكم ؛ لأن الله لا يُغلب .

وينبهنا الحق سبحانه تنبيها آخر ، إنه يلفتنا إلى أننا لا نملك أمر الساعة ، فالساعة تأتى بغتة ومفاجئة ، صاخة طامة ، مرجفة مزلزلة . فاحذروا أن تصيبكم هذه الرجفة وأنتم فى غفلة عنها . وكل ذلك لندخل أيضا فى السلام فى اليوم الآخر ، وكأن الحق سبحانه يلفتنا إلى أن كلمات القرآن ليست مجرد كلمات نظرية ، ولكنها كلمات الحكيم الخبير التى حكمت تاريخ الأمم التى سبقت دعوة محمد صلى الله عليه وسلم .

فكم من آيات أرسلها الحق إلى بنى إسرائيل فتلكأوا وكان منهم ما كان ، وشقوا هم ، وشقى بهم المجتمع ، إذن فالكلام ليس كلاماً نظرياً . ويريد الله لنا أن ننظر بعمق إلى أمور الحياة ، وألا ننظر إلى سطحيات الأمور ، فيجب ألا تخدعنا زينة الحياة الدنيا عن الحياة الآخرة ؛ لأن الحياة الدنيا أَمَدُها قصير ، وعلينا أن نقيس عمر الدنيا بأعمارنا منها ، وأعمارنا فيها قصيرة ؛ لأن منا من يموت كبيراً ومنا من يموت صغيراً .

ويبين لنا الحق سبحانه أنه لم يترك خلقه هملاً ، وإنما أرسل لهم رسُلاً يبينون لهم منهج الله ، فكان الناس أمة واحدة مجتمعة على الحق إلى أن تحركت الأهواء فى نفوسهم ، ومع ذلك رحمهم الله فلم يسلمهم إلى الأهواء ، بل استمر موكب الرسالات فى البشر ، وكلما غلبتهم الأهواءوطمّ الفساد ، أرسل الحق برحمته رسولاً لينبه إلى أن جاء الرسول الخاتم الذى ميزه الله بخلود منهجه ، وجعل القيم فى أمته . وصارت الأمة المحمدية هى حاملة أمانة حراسة المنهج الذى يصون حركة الحياة فى الأرض ؛ لأن الحق سبحانه لم يأمن أمة سواها ، ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء .

ثم نبهنا الله من بعد ذلك إلى أن نهاية الإنسان إلى نعيم الله فى الجنة لن يأتى سهلاً ميسوراً ، بل هو طريق محفوف بالمكاره ، فيجب أن تنبهوا أنفسكم وتروضوها وتدربوها على تحمل هذه المكاره ، وتوطنوها على تحملها لتلك المشاق . كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (حُفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات)[1] .

---

(١) رواه أحمد ومسلم والترمذى عن أنس .

ويمتن الحق من بعد ذلك على خلقه أنه أهدى للإنسان الخليفة فى الأرض عقلاً يفكر به ، وطاقة تنفذ تخطيط العقل ، وكوناً مادياً أمامه يتفاعل معه فى الحركة : فالعقل يخطط ، والطاقة تنفذ فى المادة المخلوقة المسخرة لله . إذن فكل أدوات الحركة موجودة لله ، وليس لك أيها الإنسان أن تخلق شيئاً فيها إلا أن تُوجه طاقات مخلوقة للعمل فى مادة مخلوقة ، فأنت لا توجد شيئا .

وبعد ذلك يطلب الحق منك أيها المسلم أن تحافظ على حركة الحياة ، بأن تقدر للعاجز عن هذه الحركة نصيباً من حركتك ؛ لذلك فعليك أن تتحرك فى الحياة حركة تسعك ، وتسع من تعول ، وتسع العاجز عن الحركة . وبذلك تؤمّن السماء كل عاجز عن الحركة بحركة المتحركين من إخوانه المؤمنين ، وهو سبحانه يطمئنك بأنك إذا فعلت ذلك وأَمَّنْتَ العاجز ، فهو ـ جل وعلا ـ يؤمنك حين يطرأ عليك العجز .

لقد جعل الله سبحانه حالة الحياة دولاً بين الناس ، فلا يوجد قوم قادرون دائماً ولا قوم عاجزون دائماً ، بل يجعل الحق من القادرين بالأمس عاجزين اليوم ؛ ومن العاجزين بالأمس قادرين اليوم ؛ حتى تتوزع الحركة فى الوجود . وحتى يعلم كل منا أن الله يطلب منك حين تقدر ؛ ليعطيك حين تعجز . لذلك طلب منا أن ننفق ، والنفقة على الغير لا تتأتى إلا بعد استيفاء الإنسان ضروريات حياته ، فكأن الحق يقول لك : إن عليك أن تتحرك فى الحياة حركة تسعك وتسع أن تنفق على من تعول ، وإلا لو تحركت حركة على قدرك فقد لا تجد ما تنفقه .

وبعد ذلك يكلفنا سبحانه بأن كل مؤمن عليه أن يأخذ مسئولية الإنفاق على الدائرة القريبة منه ؛ ليتحمل كل موجود فى الحياة مسئولية قطاع من المجتمع مربوط به رباطا نَسَبِيًا ؛ كالوالدين والأقربين . وأن نجعل الضعفاء من الأيتام مشاعاً على المجتمع مطلوبين من الجميع . سواءٌ كانت تربطهم بنا قرابة أو لا تربطنا بهم قرابة ، فهم جميعا أقاربنا ؛ لأن الله كلفنا بأن نرعاهم .

ولكن هل يمكن أن يستقر منهج الله دون أن يعاديه أحد ؟ طبعاً لا ؛ لذلك ينبهنا الحق إلى أننا سنجد أقواماً لا يسعدهم أن يطبق منهج الله فى الوجود ؛ لأنهم

لا يعيشون إلا على مظالم الناس ، هؤلاء قوم سيسوؤهم أن يُطبق منهج الله ، فلتنتبهوا لهؤلاء ؛ ولذلك فرض الحق سبحانه القتال حتى نمنع الفتنة بالكفر من الأرض ؛ لأن الكفر يعدد الآلهة فى الكون وسيتبع كل إنسان الهوى ، ويصبح إلهه هواه وستتعدد الآلهة بتعدد الأهواء ، ولذلك كتب الله على المؤمنين القتال وقال : « وهو كُره لكم » ، كل ذلك ليضمن لنا الغاية التى يريدها ، وهى الدخول فى السلم والسلام والإسلام كافة . وبعد ذلك يطلب منا أن نجاهد بأموالنا وأنفسنا وأن نهجر أوطاننا وأهلنا إن احتاجت إلى ذلك الحركة الإيمانية فقال :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾ ﴾

(سورة البقرة)

ويلفتنا الحق بعد ذلك إلى قمة الجهاز التخطيطى فى الإنسان ليحميه ويجعله جهازاً سليماً قادراً على التخطيط بصفاء وحكمة وقوة ، وهو العقل ، ويلفتنا بضرورة أن نمنع عن العقل كل ما يخمره أى يستره عن الحركة نمنع عنه الخمر لماذا ؟ ليظل العقل كما يريده الله أداة الاختيار بين البدائل .

ومادام العقل هو الذى يخطط للطاقة الموجودة فى الإنسان لتعمل فى المادة الموجودة فى الكون،فيجب أن يظل هذا العقل المخطط سليماً، فلا يحاول الإنسان أن يستره، ولا يقل أحد : « إنى أستره من فرط زيادة المشكلات » ، لا : لأن المشكلات لا تريد عقلاً واحداً منك فقط ، ولكنها تريد عقلين ، فلا تأتى للعقل الواحد لتطمسه بالخمر ، فمواجهة المشكلات تقتضى أن نخطط تخطيطاً قوياً .

وبعد ذلك يحذرنا الحق أن نأخذ من حركة الآخرين بغير عرق وبغير جهد ، فيحذرنا من الميسر وهو الرزق السهل ، والتحذير من الميسر إنما جاء ليضمن لكل إنسان أن يتحرك فى الحياة حركة سليمة لا خداع فيها . وكأن كل ما تقدم هو من إشراقات قوله الحق : « فى الدنيا والآخرة » ومن بعد ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

(من الآية ٢٢٠ سورة البقرة)

ونعرف أن اليتامى قد لا يدخلون فى دائرة المحتاجين لكن الله ينبهنا إلى أن المسألة فى اليتيم ليست مسألة احتياج إلى الاقتيات ، ولكنه فى حاجة إلى أن نعوضه بالتكافل الإيمانى عما فقده من الأب ، وذلك يمنع عنه الحقد على الأطفال الذين لم يمت آباؤهم . وحين يجد اليتيم أن كل المؤمنين آباء له فيشعر بالتكافل الذى يعوضه حنان الأب ولا يعانى من نظرة الأسى التى ينظر بها إلى أقرانه المتميزين عليه بوجود آبائهم ، وبذلك نخلع منه الحقد .

وكان المسلمون القدامى يخلطون أموالهم بأموال اليتامى ليسهلوا على أنفسهم ، وعلى أمر حركة اليتيم مئونة العمل ، فلو أن يتيماً دخل تحت وصاية إنسان ، وأراد هذا الإنسان أن يجعل لليتيم القاصر حياة مستقلة وإدارة مستقلة ومسلكاً مستقلاً فى الحياة لشق ذلك على نفس الرجل ، ولذلك أذن الله أن يخلط الوصى ماله بمال اليتيم ، وأن يجعل حركة هذا المال من حركة ماله ، بما لا يوجد عند الوصى مشقة . ولما نزل قوله تعالى :

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾

(من الآية ١٥٢ من سورة الأنعام)

وتحرج الناس ، وتساءلوا كيف يعاملون اليتيم خصوصا أن الحق سبحانه وتعالى قال :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ ﴾

(من الآية ١٠ سورة النساء)

وكف الناس أيديهم عن أمر اليتامى ، وأراد الحق سبحانه وتعالى أن يسهل

الأمر ، فأنزل القول الحق : « قل إصلاح لهم خير وإن تخالطوهم فإخوانكم » والمخالطة تكون على أساس أن اليتامى إخوانكم واحذروا جيدا أن يكون فى هذا الخلط شيء لا يكون فيه إصلاح لليتيم .

وإياكم أن تفهموا أن الشكلية الاجتماعية تكفى الوصى فى أن يكون مشرفاً على مال اليتيم دون حساب ؛ لأن الله يعلم المفسد من المصلح . فلا يحاول أحد أن يقول أمام الناس : إنه قد فتح بيته لليتيم وإنه يرعى اليتيم بينما الأمر على غير ذلك ؛ لأن الله يعلم المفسد من المصلح .

ويقول الحق : « ولو شاء الله لأعنتكم » والإعنات هو أن توقع غيرك وتدخله فى أمر فيه مشقة،فلو لم يبح الله لكم مخالطتهم لأصابتكم مشقة فيسر الله للمؤمنين من الأوصياء أن يخالطوا اليتامى ، ومعنى المخالطة : هو أن يُوحِّد الوصى حركة اليتيم مع حركته ، وأن يوحد معاش اليتيم مع معاشه ، بدلاً من أن يكون لليتيم عل سبيل المثال أدوات طعام مستقلة ، وقد كان هذا هو الحاصل .

وكان يفسد ما يتبقى من الطعام ؛ فلم تكن هناك وسائل صيانة وحفظ الأطعمة مثل الثلاجات ، وكان ذلك ضرراً باليتيم ، وضرراً أيضا بمن يشرف عليه . لكن حين قال : « وإن تخالطوهم » ، فكان ذلك توفيرا للمشقة على الأوصياء . فالمخالطة هى المعاشرة التى لا يتعثر فيه التمييز .

وقد درسنا فى طفولتنا درسا بعنوان « الخلط والمزج » فالخلط هو أن تخلط على سبيل المثال حبوب الفول مع حبوب العدس ، أو حبوب الأرز مع حبات البندق .

وعندما تأتى لتمييز صنف من آخر ، فأنت تستطيع ذلك ، وتستطيع أن تفصل الصنفين بعضا عن بعض بالغربال ؛ ولذلك فالمخالطة تكون بين الحبوب ونحوها .

أما المزج فهو فى السوائل . والحق سبحانه يرشدنا أن نخالط اليتامى لا أن نمزج مالهم بمالنا ؛ لأن اليتيم سيصل يوما إلى سن الرشد ، وسيكون على الوصى أن يفصل ماله عن مال اليتيم .

ويتابع الحق : « والله يعلم المفسد من المصلح » لأن الوصى قد يدعى أمام الناس أنه يرعى حق اليتيم ، وأنه يقوم بمصالحه ويحترم ماله ،لكن الأمر قد يختلف فى النية وهو سبحانه لم يكل الأمر إلى ظواهر فهم المجتمع لسلوك الوصى مع اليتيم وعن المخالطة ، بل نسب ذلك كله إلى رقابته سبحانه ، وذلك حتى يحتاط الإنسان ويعرف أن رقابة الله فوق كل رقابة ، ولو شاء الحق لأعنت الأوصياء وجعلهم يعملون لليتيم وحده ، ويفصلون بين حياة اليتيم وحياتهم ومعاشهم . وفى ذلك مشقة شديدة على النفس . وحتى نفهم معنى العنت بدقة فلنقرأ قول الحق سبحانه :

﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾

(سورة التوبة)

لقد جاءكم أيها المؤمنون رسول منكم ، عربى ومن قريش يبلغكم رسالة الله سبحانه وتعالى . يحرص عليكم كيلا تقعوا فى مشقة أو تعيشوا فى ضنك الكفر ، حريص على أن تكونوا من المهتدين . فالرسول صلى الله عليه وسلم لم يأت من جنس الملائكة ، ولكن جاء من جنس البشر ، فلا يقولن أحد : إنه لا يصلح أسوة لى . إنه نشأ فى مكة التى تعيش بها قريش ، وتاريخه معروف لقومه : بدليل أنهم خلعوا عليه أول الأوصاف المطلوبة والواجبة للرسالة وهى الأمانة ، فالحق جاء به من البشر وليس بغريب عليهم ، وبمجرد أن أخبر بالوحى وجد أناسا آمنوا به قبل أن يقرأ قرآنا ، وقبل أن يأتيهم بتحدٍ .

فعندما جاءه المَلَكُ جبريلُ عليه السلام فى غار حراء ، فقال:اقرأ . قال : ما أنا بقارىء . فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد ، [أى ضمنى وعصرنى،والحكمة فيه شغله عن الالتفات ليكون قلبه حاضراً] ثم أرسلنى فقال : اقرأ ، قلت : ما أنا

بقارىء فأخذنى فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى وقال : اقرأ . فقلت : ما أنا بقارىء . فأخذنى الثالثة فغطنى ثم أرسلنى فقال : « اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم » فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجف فؤاده فدخل على خديجة بنت خويلد رضى الله عنها فقال لها : « زملونى . زملونى » . فزملوه حتى ذهب عنه الرَّوْعُ ، فقال لخديجة وأخبرها الخبر : « لقد خشيت على نفسى » لكن خديجة رضى الله عنها بحسن استنباطها تقول : « كلا والله لا يخزيك الله أبدا إنك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق »[١] .

إن خديجة رضوان الله عليها تستنبط أن من فيه هذه الخصال إنما هو مهيأ للرسالة .

﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ﴾

(من الآية ١٢٨ سورة التوبة)

أى محب لكم يشق عليه ويتعبه ما يشق عليكم ويتعبكم ؛ ولذلك كان الرسول صلى الله عليه وسلم مشغولا بأمته . ويروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أمتى . أمتى . أمتى » .

والحق سبحانه وتعالى يعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مشغول بأمته .

عن عبدالله بن عمرو بن العاص أن النبى صلى الله عليه وسلم تلا قول الله عز وجل فى إبراهيم « رب إنهن أضللن كثيرا من الناس فمن تبعنى فإنه منى . . الآية » . وقال عيسى عليه السلام : « إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم » فرفع يديه وقال : اللهم أمتى أمتى وبكى . فقال الله عز وجل : « يا جبريل اذهب إلى محمد وربك أعلم فسله ما يبكيك.فأتاه جبريل عليه الصلاة والسلام فسأله فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قال وهو أعلم فقال الله :يا جبريل اذهب إلى محمد فقل : إنا سنرضيك فى أمتك ولا نسوؤك »[٢] .

---

(١) رواه البخارى باب كيف كان بدء الوحى .
(٢) رواه مسلم .

إننا عندما نتأمل دقة الجواب النبوى نعرف أن الرسول الكريم مشغول بأمته ، ولكنه ينظر إلى نفسه على أنه أخ لكل مؤمن . والأخ قد يتغير على أخيه ؛ لذلك لم يشأ الرسول الكريم أن يُخرج أمر المسلمين من يد الله ورحمته وهو الخالق الكريم إلى أمره هو صلى الله عليه وسلم .

إن الرسول يعرف أن الله أرحم بخلقه من أى إنسان ، حتى الرسول نفسه . نقول ذلك فى معرض حديثنا عن العنت الذى يمكن أن يصاحب الإنسان إن لم يرع حق الله فى مال اليتيم ؛ لأن الله عزيز حكيم ، وهو الحق الذى يَغلب ولا يَغلبه أحد . ونرى فى قول الحق : « إن الله عزيز حكيم » أن صفة العزة متآزرة بصفة الحكمة .

وبعد ذلك يدخل معنا الحق سبحانه وتعالى فى مسألة جديدة لو نظرنا إليها لوجدناها أساس أى حركة فى الحياة وفى المجتمع ، إنها مسألة الزواج . ويريد سبحانه أن يضمن الاستقرار والسعادة للكائن الذى كرمه وجعله خليفة فى الأرض ، وجعل كل الأجناس مسخرة لخدمته .

إن الحق يريد أن يصدر ذلك الكائن عن ينبوع منهجى واحد ؛ لأن الأهواء المتضاربة هى التى تفسد حركة الحياة ، فأراد أن يصدر المجموع الإنسانى كله عن ينبوع عقدى واحد ، وأراد أن يحمى ذلك الينبوع من أن يتعثر بتعدد النزعات والأهواء ، لذلك ينبهنا الحق إلى هذا الموقف . إنه سبحانه يريد سلامة الوعاء الذى سيوجد ذلك الإنسان ، من بعد الزواج ، فبالزواج ينجب الإنسان وتستمر الحياة بالتكاثر . ولذلك لا بد من الدقة فى اختيار الينبوع الذى يأتى منه النسل ، فهو سبحانه يقول :

﴿ وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ

يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ
يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ
وَيُبَيِّنُ ءَايَـٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾

إن الحق يقول : « ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن » ، وهذه أول لبنة فى بناء الأسرة وبناء المجتمع ، لأنها لو لم تكن مؤمنة ، فماذا سوف يحدث ؟ إنها ستشرف على تربية الطفل الوليد إشرافا يتناسب مع إشراكها ، وأنت مهمتك كأب ومربٍ لن تتأتى إلا بعد مدة طويلة تكون فيها المسائل قد غُرست فى الوليد ، فإياك أنْ يكون الرجل مؤمنا والمرأة مشركة ؛ لأن هذا يخل بنظام الأسرة فعمل الأم مع الولد يؤثر فى أوليات تكوينه إنه يؤثر فى قيمه ، وتكوين أخلاقه . وهذا أمر يبدأ من لحظة أن يرى ويعى ، والطفل يقضى سنواته الأولى فى حضن أمه ، وبعد ذلك يكبر ؛ فيكون فى حضن أبيه ، فإذا كانت الأم مشركة والأب مؤمنا فإن الإيمان لن يلحقه إلا بعد أن يكون الشرك قد أخذ منه وتمكن وتسلط عليه .

ونعرف أن الطفولة فى الإنسان هى أطول أعمار الطفولة فى الكائنات كلها ، فهناك طفولة تمكث ساعتين اثنتين مثل طفولة الذباب ، وهناك طفولة أخرى تستغرق شهراً ، وأطول طفولة إنما تكون فى الإنسان ؛ لأن هذه الطفولة مناسبة للمهمة التى سيقوم بها الإنسان ، كل الطفولات التى قبلها طفولات لها مهمة سهلة جدا ، إنما الإنسان هو الذى ستأتى منه القيم ، لهذا كانت طفولته طويلة ؛ إنها تستمر حتى فترة بلوغ الحلم . والحق هو القائل :

﴿ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَـٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ
يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ ﴾

(سورة النور)

فكأن الطفل يظل طفلاً إلى أن يبلغ الحلم ، فكم سنة إذن ستمر على الطفل ؟ وكم سنة سوف يتغذى هذا الطفل من ينابيع الشرك إن كانت أمه مشركة ؟ إنها فترة طويلة لا يمكن له من بعد ذلك أن يكون مؤمنا غير مضطرب الملكات . وإن صلح مثل هذا الإنسان أن يكون مؤمنا فسيقوم إيمانه على القهر والقسر والولاية للأب ، وسيكون مثل هذا الإيمان عملية شكلية ليست مرتكزة ولا معتمدة على أساس صادق .

ونحن نعرف أن الثمرات التى ننعم نحن بأكلها لا يكون نضجها إلا حين تنضج البذرة التى تتكوّن منها شجرة جديدة ، وقبل ذلك تكون مجرد فاكهة فِجة وليس لها طعم . وقد أراد الحق أن ينبهنا إلى هذا الأمر ليحرص الإنسان على أن يستبقى الثمرة إلى أن تنضج ويصير لها بذور .

إن المرأة لا تكون ثمرة طيبة إلا إذا أنجبت مثلها ولداً صالحا نافعا ، يريد الحق للنشء أن يكون غير مضطرب الإيمان ؛ لذلك يقول : « ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن » أى إياكم أن تنخدعوا بالمعايير الهابطة النازلة ، وعلى كلّ منكم أن يأخذ حكم الله : « ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم » لأن إعجاب الإنسان بالمرأة بصرف النظر عن الإيمان سيكون إعجابا قصير العمر .

إن عمر الاستمتاع بالجمال الحسى للمرأة إن جمعنا لحظاته فلن يزيد مجموعه عن شهر من مجموع سنوات الزواج . فكل أسبوع يتم لقاء قد يستغرق دقائق وبعدها يذبل الجمال ، وتبقى القيم هى المتحكمة ، ونحن نجد المرأة حين تتزوج ، ثم يبطىء الحمل فإنها تعانى من القلق وكذلك أهلها .

إن الرجل إن كان قد تزوجها للوسامة والقسامة والقوام والعينين ، فهذا كله سيبرد ويهدأ بعد فترة ، ثم توجد مقاييس أخرى لاستبقاء الحياة ، وعندما يلتفت إليها الإنسان ولا يجدها فهو يغرق فى الندم ؛ لأنها لم تكن فى باله وقت أن اختار .

لذلك تريد المرأة أن تُمكن لنفسها بأن يكون عندها ولد لتربط الرجل بها ، وحتى

يقول المجتمع : « عليك أن تتحملها من أجل الأولاد » ! فالرجل بعد الزواج يريد قيما أخرى غير القيم الحسية التى كانت ناشئة أولا ، لذلك يحذرنا الله قائلا : « ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمنّ » . وجاء قوله « حتى يؤمنّ » لأن الإسلام يَجُبُّ ما قبله مادامت قد آمنت فقد انتهت المسألة .

وانظروا إلى دقة قوله سبحانه : « ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن ولأمة مؤمنة خير من مشركة » أى إنّ الأمة المسلمة خير من حرة مشركة ، « ولو أعجبتكم » لقد جاء قول الحق هنا بمقاييس الإعجاب الحسى . ليلفتنا إلى أننا لا يصح أن نهمل مقاييس خالدة ونأخذ مقاييس بائدة وزائلة .

ثم يقول الحق : « ولا تُنكحوا المشركين حتى يؤمنوا » وهذا هو النظير فى الخطاب وهو ليس متقابلاً فهو لم يخاطب المؤمنات ألا ينكحن المشركين ، إنما قال : « ولا تُنكحوا المشركين حتى يؤمنوا » وتلك دقة فى الأداء هنا ؛ لأن الرجل له الولاية فى أن يُنْكح ، فيأمره بقوله له : لا تُنكح ، لكن المرأة ليس لها ولاية أن تُنكح نفسها . فنحن نعرف القاعدة الشرعية التى تقول:« لا نكاح إلا بولى » ، وهو لم يوجه حديثه للنساء ؛ لأن المرأة تتحكم فيها عاطفتها لكن وليها ينظر للأمر من مجموعة زوايا أخرى تحكم الموقف .

صحيح أننا نستأذن الفتاة البكر كى نضمن أن عاطفتهاليست مصدودة عن هذا الزواج ، لكن الأب أو ولى الأمر الرجل يقيس المسائل بمقاييس أخرى ، فلو تركنا للفتاة مقياسها لتهدم الزواج بمجرد هدوء العاطفة ، وساعة تأتى المقاييس العقلية الأخرى فلن تجد ذلك الزواج مناسباً لها فتفشل الحياة الزوجية . لذلك يطالبنا الإسلام أن نستشير المرأة ، كى لا نأتيها بواحد تكرهه ، ولكن الذى يزوجها إلى ذلك الرجل هو وليها ؛ لأن له المقاييس العقلية والاجتماعية والخلقية التى قد لا تنظر إليها الفتاة ؛ فقد يبهرها فى الشاب قوامه وحسن شكله وجاذبية حديثه ، لكن عندما تدخل المسألة فى حركة الحياة ودوامتها قد تجده إنساناً غير جدير بها .

ولكى تكون المسألة مزيجا من عاطفة بنت ، وعقل أب ،وخبرة أم ، كان لابد من

استشارة الفتاة ، وأن يستنير الأب برأى الأم ، ثم يقول الأب رأيه أخيراً ، وكل زواج يأتى بهذا الأسلوب فهو زواج يحالفه التوفيق ، لأن المعايير كلها مشتركة ، لا يوجد معيار قد اختل ؛ فالأب بنى حكما على أساس موافقة الابنة ، أما إذا رفضت الفتاة وكانت معايير الأب صحيحة ، لكن الابنة ليس لها تقبل لهذا الرجل ؛ لذلك فلا يصح أن يتم هذا الزواج .

وكثير من الزيجات قد فشلت لأننا لم نجد من يطبق منهج الله فى الدخول إلى الزواج . وحين لا يطبقون منهج الله فى الدخول إلى الزواج ثم يُقَابَلون بالفشل ، فهم يصرخون منادين قواعد الإسلام لتنقذهم .

ونقول لهم : وهل دخلتم الزواج على دين الله ؟ إنكم مادمتم قد دخلتم الزواج بآرائكم المعزولة عن منهج الله فلتحلوا المسألة بآرائكم . فالدين ليس مسئولاً إلا عمّن يدخل بمقاييسه ، لكن أن تدخل على الزواج بغير مقاييس الله ثم تريد من الله أو من القائمين على أمر الله أن يحلوا لك المشاكل فذلك ظلم منك لنفسك وللقائمين على أمر الله . وإن لم تحدث مثل هذه المشكلات لكنا قد اتهمنا منهج الله . ولقلنا : قد تركنا منهج الله وسعدنا فى حياتنا . لذلك كان لابد أن تقع المشكلات .

إذن فقول الحق سبحانه وتعالى : « ولاتُنكحوا المشركات حتى يؤمن » هذه قضية لها سبب ، لكن العبرة فيها بعموم موضوعها لا بخصوص سببها ، لقد كان السبب فيها هو ما رُوِىَ أنه كان هناك صحابى اسمه مرثد بن أبى مرثد الغنوى بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكة ليخرج منها ناسا من المسلمين . وكان يهوى إمرأة فى الجاهلية اسمها « عناق » وكانت تحبه ، وساعة رأته أرادت أن تخلو به فقال لها : ويحك إن الإسلام قد حال بيننا ، فقالت له : تزوجنى ، فقال لها : أتزوجك لكن بعد أن أستأمر وأستأذن النبىّ صلى الله عليه وسلم ، فلما استأمره نزل قوله تعالى : « ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم » .

وقيل إن قوله تعالى: « ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم » نزلت فى خنساء[1] وليدة سوداء كانت لحذيفة بن اليمان ، فقال لها حذيفة: يا خنساء قد ذكرت

(١) الخنس : انخفاض فى قصبة الأنف مع ارتفاع قليل فى طرف الأنف .

فى الملأ الأعلى مع سوادك ودمامتك وأنزل الله ذكرك فى كتابه ، فأعتقها حذيفة وتزوجها .

ويتابع الحق فيقول : « ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم » . إن المقاييس واحدة فى اختيار شريك الحياة ، إنها الرغبة فى بناء الحياة الأسرية على أساس من الخير ، وغاية كل شىء هى التى تحدد قيمته ، وليست الوسيلة هى التى تحدد قيمة الشىء ، فقد تسير فى سبيل وطريق خطر وغايته فيها خير ، وقد تسير فى سبيل مفروش بالورود والرياحين وغايته شر ، ولذلك يقول الحق : « أولئك يدعون إلى النار والله يدعو إلى الجنة والمغفرة بإذنه ويبين آياته للناس لعلهم يتذكرون » . والذين يدعون إلى النار هم أهل الشرك . أما الله فهو يدعو إلى الجنة ، والمغفرة تأتى بإذن الله أى بتيسير الله وتوفيقه . ونعرف جميعاً الحكمة التى قالها الإمام « على » كرم الله وجهه : لا خير فى خير بعده النار ، ولا شر فى شر بعده الجنة .

وقوله الحق ؛ « لعلهم يتذكرون » ترد كثيراً ، هذا التذكر ماذا يفعل ؟ إن التذكر يُشعرك بأن القضية كانت معلومة والغفلة هى التى طرأت ، لكن الغفلة إذا تنبهت إليها ، فهى تذكرك ما كنت قد نسيته من قبل ، لكن إن طالت الغفلة ، ونُسى الأصل فهذه هى الطامة ، التى تنطمس بها المسألة .

إذن فالتذكر يشمل مراحل : المرحلة الأولى : أن تعرف إن لم تكن تعرف ، أو تعلم إن كنت تجهل ، والمرحلة الثانية : هى أن تتذكر إن كنت ناسياً ، أو توائم بين ما تعلم وبين ما تعمل ؛ فالتذكر يوحى لك بأن توائم ما بين معرفتك وسلوكك حتى لا تقع فى الجهل ، والجهل معناه أن تعلم ما يناقض الحقيقة . لقد أراد الله أن يصون الإنسان الذى اختار الإيمان عندما حرم عليه الزواج بواحدة من أهل الشرك .

إن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يضمن لمن جعله خليفة فى الأرض عقيدة واحدة يصدر عنها السلوك الإنسانى ؛ لأن العقائد إن توزعت حسب الأهواء فسيتوزع السلوك حسب الأهواء . وحين يتوزع السلوك تتعاند حركة الحياة ولا تتساند .

فيريد الحق سبحانه وتعالى أن يضمن وحدة العقيدة بدون مؤثر يؤثر فيها ؛ فشرط فى بناء اللبنة الأولى للأسرة ألاّ ينكح مؤمن مشركة ؛ لأن المشركة فى مثل هذه الحالة ستتولى حضانة الطفل لمدة طويلة هى ـ كما قلنا ـ أطول أعمار الطفولة فى الكائن الحى . ولو كان الأب مؤمناً والأم مشركة فالأب سيكون مشغولاً بحركة الحياة فتتأصل عن طريق الأم معظم القيم التى تتناقض مع الإيمان .

وأراد الحق سبحانه وتعالى أيضا ألا تتزوج المؤمنة مشركاً ؛ لأنها بحكم زواجها من مشرك ستنتقل إليه وإلى بيئته المشركة وإلى أسرته . وسينشأ طفلها الوليد فى بيئة شركية فتتأصل فيه الأشياء القيمية التى تناقض الإيمان . ويريد الحق سبحانه وتعالى بهذه الصيانة ، أى بعدم زواج المؤمن من مشركة ، وبعدم زواج المؤمنة من مشرك ، أن يحمى الحاضن الأول للطفولة . وحين يحمى الحاضن الأول للطفولة يكون الينبوع الأول الذى يصدر عنه تربية عقيدة الطفل ينبوعا واحداً ، فلا يتذبذب بين عقائد متعددة . لذلك جاء قول الحق :

﴿ وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾ ﴾

(سورة البقرة)

كل ذلك حتى يصون الحق البيئة التى ينشأ فيها الوليد الجديد . وعلينا أن نفهم أن الحق سبحانه وتعالى رخص للمؤمنين فى أن ينكحوا أهل الكتاب بقوله الحق :

﴿ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن

قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَـٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَـٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٥﴾ ﴾

(سورة المائدة)

وقد وقف العلماء من مسألة ترخيص الحق للمؤمنين فى أن يتزوجوا من أهل الكتاب موقفين : الموقف الأول : هو موقف مانع ؛ لأن بعض العلماء رأى أن أهل الكتاب قد ينحرفون فى معتقداتهم إلى ما يجعلهم فى الشرك ، وقالوا : وهل هناك شرك أكثر من أن تُدعى الربوبية لبشر ؟ والموقف الثانى : أجاز بعض العلماء أن يتزوج الإنسان من كتابية ويجب عليه أن يسألها أهى تدين بألوهية أحد من البشر أم تدين بالله الواحد القهار ؟ فإن كانت المسألة مجرد الخلاف فى الرسول فالأمر يهون ، أما إن كانت تؤمن بألوهية أحد من البشر بجانب الله فقد دخلت فى الشرك وعلى المؤمن أن يحتاط .

وإذا كان للرجل الولاية وله أن يتزوج بكتابية فهو غالباً ما ينقلها إلى بيئته هو وستكون البيئة المؤثرة واحدة ، ووجود الولاية للأب مع الوجود فى البيئة الإيمانية سيؤثر ويخفف من تأثير الأم الكتابية على أولادها ، وإن كان على الانسان أن يتيقظ إلى أنّ هناك مسالك تتلطف وتتسلل ناحية الشرك ، فمن الخير أن يبتعد المسلم عن ذلك ، وأن يتزوج ويعصم ويعفّ فتاة مسلمة .

وحين يحمى الحق سبحانه وتعالى الحضانة الأولى للطفل فهو يريد أن يربى فى الطفل عدم التوزع ، وعدم التمزق ، وعدم التنافر بين ملكاته . وحين نضمن للطفل التواجد والنشأة فى بيئة متآلفة فهو ينشأ طفلاً سوياً . والإسلام يريد أن يحافظ على سويَّة هذا الطفل . ويقول بعض الناس : ولماذا لا نوجد محاضن جماعية ؟ وكأنهم بذلك يريدون أن يحلوا الإشكال .

نقول لهم : إن الإشكال لم يحل عند الذين فعلوا ذلك من قبلنا ، ولذلك فعندما نقرأ مؤلفاتهم مثل كتاب « أطفال بلا أسر » فسنجد أن الطفولة عندهم معذبة . ولماذا

نذهب بعيداً ؟ إننا عندما نتتبع كيفية النشأة الجماعية للأطفال فى إسرائيل فالبحوث العلمية تؤكد على أن الأطفال يعيشون فى بؤس رهيب لدرجة أن التبول اللا إرادى ينتشر بينهم حتى سن الشباب .

وكيف يغيب عن بالنا أن الطفل يظل حتى تصل سنه إلى عامين أو أكثر وهو يطلب ألا يشاركه فى أمه أحد ، حتى وإن كان أخاً له فهو يغار منه فما بالك بأطفال متعددين تقوم امرأة ليست أمهم برعايتهم ؟ ولا يغنى عن حنان الأم حنانُ مائة مربية ؛ فليس للمربيات جميعاً قلب الأم التى ولدت الطفل ، فالحنان الذى تعطيه الأم ليس حناناً شكلياً ولا وظيفياً ، ولكنه طبيعة حياة خلقها الله لتعطى العطاء الصحيح ، لذلك لابد من إعطاء الطفل فترة يشعر فيها بأن أمه التى ولدته له وحده ، ولا يشاركه فيها أحد حتى لو كان أخاً له ، وتمر عليه فترة بعد أن يخرج من مهد الطفولة الأولى إلى الشارع ليجد حركة الحياة ، ويجد القائمين على حركة الحياة هم الرجال وآباء أمثاله من الأطفال فيحب بعد ذلك أن يُنسب إلى أب له كيان معروف فى المجتمع الخارجى .

فمن مقومات تكوين الطفل أن يشعر أن له أمّاً لا يشاركه فيها أحد ، وأنّ له أباً لا يشاركه فيه أحد . وإن شاركه فيهما أحدٌ فهم إخوته ويضمهم ويشملهم جميعا حنان الأم ورعاية الأب . لقد اعترف أهل العلم بتربية الأطفال أن احتياج الطفل لأمه هو احتياج هام وأساسى للتربية لمدة عامين وبضعة من الشهور ، والحق تبارك وتعالى حين أنزل على رسوله قبل أربعة عشر قرناً من الآن ؛ القول الحكيم الصادق بين هذه الحقيقة واضحة فى أجلى صورها :

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ ﴾

(سورة الأحقاف)

إن الأم هى الحاضنة الطبيعية للطفل كما أرادها الحق . إذن ، فالحق يريد أن يحمى اللبنة الأولى فى تكوين المجتمع وهى الأسرة فى البناء العَقَدى من أن تتأثر بالشرك ، ويريد أن يحفظ للأسرة كياناً سليماً .

ويعالج الحق بعد ذلك قضية التواصل مع المرأة أثناء فترة الحيض فيأتى التشريع ليقنن هذه المسألة لأن الإسلام جاء وفى الجو الاجتماعى تياران :

تيار يرى أن الحائض هى امرأة تعانى من قذارة ، لذلك لا يمكن للزوج أن يأكل معها أو يسكن معها أو يعاشرها أو يعيش معها فى بيت واحد وكذلك أبناؤه . وتيار آخر يرى المرأة فى فترة الحيض امرأة عادية لا فرق بينها وبين كونها غير حائض أى تباشر حياتها الزوجية مع زوجها دون تحوط أو تحفظ . كان الحال ـ إذن ـ متأرجحا بين الإفراط والتفريط ، فجاء الإسلام ليضع حداً لهذه المسألة فيقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ ﴾

حين تقرأ « هو أذى » فقد أخذت الحكم ممن يُؤمنُ على الأحكام ، ولا تناقش المسألة ، ومهما قال الطب من تفسيرات وتعليلات وأسباب نقل له : لا ، الذى خلق قال : « هو أذى » . والمحيض يطلق على الدم ، ويراد به ـ أيضا ـ مكان الحيض ، ويراد به زمان الحيض .

وقوله الحق عن المحيض إنه أذى يهيىء الذهن لأن يتلقى حكما فى هذا الأذى ، وبذلك يستعد الذهن للخطر الذى سيأتى به الحكم . وقد جاء الحكم بالحظر والمنع بعد أن سبقت حيثيته .

إن الحق سبحانه وتعالى وهو الخالق أراد أن تكون عملية الحيض فى المرأة عملية كيماوية ضرورية لحياتها وحياة الإنجاب . وأمر الرجال أن يعتزلوا النساء وهن حوائض ؛ لأن المحيض أذى لهم . لكن هل دم الحيض أذى للرجال أو للنساء ؟ إنه أذى للرجال والنساء معا ؛ لأن الآية أطلقت الأذى ، ولم تحدد من المقصود به . والذى يدل على ذلك أن الحيض يعطى قذارة للرجل فى مكان حساس هو موضع الإنزال عنده ، فإذا وصلت إليه الميكروبات تصيبه بأمراض خطيرة .

والذى يحدث أن الحق قد خلق رحم المرأة وفى مبيضيها عدد محدد معروف له وحده سبحانه وتعالى من البويضات ، وعندما يفرز أحد المبيضين البويضة فقد لا يتم تلقيح البويضة ، فإن بطانة الرحم المكون من أنسجة دموية تقل فيها نسبة الهرمونات التى كانت تثبت بطانة الرحم ، وعندما تقل نسبة الهرمونات يحدث الحيض .

والحيض هو دم يحتوى على أنسجة غير حية ، وتصبح منطقة المهبل والرحم فى حالة تهيج ، لأن منطقة المهبل والرحم حساسة جدا لنمو الميكروبات المسببة للالتهابات سواء للمرأة ، أو للرجل إنْ جامع زوجته فى فترة الحيض . والحيض يصيب المرأة بأذى فى قوتها وجسدها ؛ بدليل أن الله رخص لها ألا تصوم وألاّ تصلى . إذن فالمسألة منهكة ومتعبة لها ، فلا يجوز أن يرهقها الرجل بأكثر مما هى عليه .

إذن فقوله تعالى : « هو أذى » تعميم بأن الأذى يصيب الرجل والمرأة. وبعد ذلك بيّن الحق أن كلمة « أذى » حيثية تتطلب حكما يرد ، إما بالإباحة وإما بالحظر ، ومادام هو أذى فلا بد أن يكون حظراً .

يقول عز وجل : « فاعتزلوا النساء فى المحيض ولا تقربوهن » والذى يقول : إنّ المحيض هو مكان الحيض يبنى قوله بأن المحرم هو المباشرة الجنسية ، لكن ما فوق

السرة وما فوق الملابس فهو مباح ، فقوله الحق : « ولا تقربوهن » أى لا تأتوهن فى المكان الذى يأتى منه الأذى وهو دم الحيض . « حتى يطهرن فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله ».و« يطهرن » من الطهور مصدر طَهَر يطهر ، وعندما نتأمل قوله : « فإذا تطهرن » نجد أنه لم يقل : « فإذا طهرن » ، فما الفرق بين « طهر » و« تطهر » ؟

إنّ « يطهرن » معناها امتنع عنهن الحيض ، و« تطهرن » يعنى اغتسلن من الحيض ؛ ولذلك نشأ خلاف بين العلماء ، هل بمجرد انتهاء مدة الحيض وانقطاع الدم يمكن أن يباشر الرجل زوجته ، أم لا بد من الانتظار حتى تتطهر المرأة بالاغتسال ؟.

وخروجا من الخلاف نقول : إن قوله الحق : « تطهرن » يعنى اغتسلن فلا مباشرة قبل الاغتسال . ومن عجائب ألفاظ القرآن أن الكلمات تؤثر فى استنباط الحكم ، ومثال ذلك قوله تعالى :

﴿ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَـٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾

(سورة الواقعة)

ما المقصود إذن ؟ هل المقصود أن القرآن لا يمسكه إلا الملائكة الذين طهرهم الله من الخبث ، أو أن للبشر أيضا حق الإمساك بالمصحف لأنهم يتطهرون ؟ بعض العلماء قال : إن المسألة لابد أن ندخلها فى عموم الطهارة ، فيكون معنى « إلا المطهرون » أى الذين طهرهم مَن شرع لهم التطهير ؛ ولذلك فالمسلم حين يغتسل أو يتوضأ يكون قد حدث له أمران : التطهر والطهر .

فالتطهر بالفعل هو الوضوء أو الاغتسال ، والطهر بتشريع الله ، فكما أن الله طهر الملائكة أصلا فقد طهرنا معشر الإنس تشريعا ، وبذلك نفهم الآية على إطلاقها ونرفع الخلاف . وقول الحق فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها : « حتى يَطْهُرن » أى حتى يأذن الله لهن بالطهر ، ثم يغتسلن استجابة لتشريع الله لهن بالتطهر . « فأتوهن من حيث أمركم الله » يعنى فى الأماكن الحلال .

« إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين » وأراد الحق تبارك وتعالى أن يدخل عليك أنسا ، فكما أنه طلب منك أن تتطهر ماديا فهو سبحانه قبل أيضاً منك أن تتطهر معنويا بالتوبة ، لذلك جاء بالأمر حسيا ومعنويا . وبعد ذلك جاء الحق سبحانه وتعالى بحكم جديد ، هذا الحكم ينهى إشكالا أثاره اليهود .

وقد كان اليهود يثيرون أن الرجل إذا أتى امرأته من خلف ولو فى قُبلها ـ بضم القاف ـ جاء الولد أحول . و« القُبل » هو مكان الإتيان ، وليس معناه الإتيان فى الدبر والعياذ بالله كما كان يفعل قوم لوط . ولمّا كان هذا الإشكال الذى أثاره اليهود لا أساس له من الصحة فقد أراد الحق أن يرد على هذه المسألة فقال :

﴿ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾ ﴾

إن الحق سبحانه وتعالى يفسح المجال للتمتع للرجل والمرأة على أى وجه من الأوجه شريطة أن يتم الإتيان فى محل الإنبات . وقد جاء الحق بكلمة « حرث » هنا ليوضح أن الحرث يكون فى مكان الإنبات . « فأتوا حرثكم » وما هو الحرث ؟ الحرث مكان استنبات النبات ، وقد قال تعالى :

﴿ وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ﴾

(من الآية ٢٠٥ سورة البقرة)

فأتوا المرأة فى مكان الزرع ، زرع الولد ، أما المكان الذى لا ينبت منه الولد فلا تقربوه . وبعض الناس فهموا خطأ أن قوله : « فأتوا حرثكم أنّى شئتم » معناها إتيان المرأة فى أى مكان ، وذلك خطأ ؛ لأن قوله : « نساؤكم حرث لكم » يعنى محل

استنبات الزرع ، والزرع بالنسبة للمرأة والرجل هو الولد ، فأتها فى المكان الذى ينجب الولد على أى جهة شئت .

ويتابع الحق : « وقدموا لأنفسكم » أى إياك أن تأخذ المسألة على أنها استمتاع جنسى فحسب ، إنما يريد الحق سبحانه وتعالى بهذه اللذة الجنسية أن يحمى متاعب ما ينشأ من هذه اللذة ؛ لأن الذرية التى ستأتى من أثر اللقاء الجنسى سيكون لها متاعب وتكاليف ، فلو لم يربطها الله سبحانه وتعالى بهذه اللذة لزهد الناس فى الجماع .

ومن هنا يربط الحق سبحانه وتعالى بين كدح الآباء وشقائهم فى تربية أولادهم بلذة الشهوة الجنسية حتى يضمن بقاء النوع الإنسانى . ومع هذا يحذرنا الحق أن نعتبر هذه اللذة الجنسية هى الأصل فى إتيان النساء فقال : « وقدموا لأنفسكم » ، يعنى انظروا جيدا إلى هذه المسألة على ألا تكون هى الغاية ، بل هى وسيلة ، فلا تقلبوا الوسيلة إلى الغاية ، « وقدموا لأنفسكم » أى ادخروا لأنفسكم شيئا ينفعكم فى الأيام المقبلة .

إذن فالأصل فى العملية الجنسية الإنجاب.« وقدموا لأنفسكم » أى لا تأخذوا المتاع اللحظى العاجل على أنه هو الغاية بل خذوه لما هو آت . وكيف نقدم لأنفسنا ؟ أو ماذا نفعل ؟ حتى لا نشقى بمن يأتى ، وعليك أن تتبين هذه العملية فقدم لنفسك شيئا يريحك ، وافعل ما علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم . . ساعة تأتى لهذه النعمة وتقترب من زوجتك لابد أن تسمى الله وتقول : « اللهم جنبنى الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنى » ، وعندما يأتى المسلم أهله وينشأ وليده فلن يكون للشيطان عليه دخل . وقال بعض العلماء : لا يمكن أن يؤثر فيه سحر ، لماذا كل ذلك ؟.

لأنك ساعة استنبته أى زرعته ، ذكرت المُنْبِتَ وهو الله عز وجل . ومادمت ذكرت المنبت الخالق فقد جعلت لابنك حصانة أبدية . وعلى عكس ذلك ينشأ الطفل الذى ينسى والده الله عندما يباشر أهله فيقع أولاده فريسة للشياطين .

« وقدموا لأنفسكم » أى قدموا لها ما يريحكم وما يطيل أمد حياتكم وأعمالكم فى

الحياة ؛ لأنك عندما تقبل على المسألة بنية إنجاب الولد ، وتذكر الله وتستعيذ من الشيطان فينعم عليك الخالق بالولد الصالح ، هذا الولد يدعو لك ، ويعلم أولاده أن يدعوا لك ، وأولاد أولاده يدعون لك ، وتظل المسألة مسلسلة فلا ينقطع عملك إلى أن تقوم الساعة ، وهنا تكون قدمت لنفسك أفضل ما يكون التقديم .

وهب أنك رُزقت المولود ثم مات ففجعت به واسترجعت واحتسبته عند ربك ، إنك تكون قد قدمته ، ليغلق عليك بابا من أبواب النيران . إذن فكل أمر لابد أن تذكرفيه « وقدموا لأنفسكم » .

ويقول الحق : « واتقوا الله واعلموا أنكم ملاقوه وبشر المؤمنين » معنى « اتقوا الله » أى إياكم أن تغضبوا ربكم فى أى عمل من هذه الأعمال ، وكن أيها المسلم فى هذه التقوى على يقين من أنك ملاقى الله ، ولا تشك فى هذا اللقاء أبداً . ومادمت ستتقى الله وتكون على يقين أنك تلاقيه لم يبق لك إلا أن تُبشَّر بالجنة . وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾ ﴾

وفى الآية ثلاثة أشياء : أولا : أن تبروا ، أى أن تفعلوا البر . والبر قد يكرهه الإنسان لأنه شاق على النفس . ثانيا : أن تتقوا ، أى أن تتجنبوا المعاصى ، والتقوى تكون أيضا شاقة فى بعض الأحيان . ثالثا : أن تصلحوا بين الناس ، أى أن تصلحوا ذات البيْن ، وقد يكون فى الإصلاح بين الناس مئونة وذلك بعد أن تمتنعوا أن تجعلوا الله عرضة للقسم .

وحين يقول الحق : « ولا تجعلوا الله عرضة لأيْمانكم » فالعرضة هى الحجاب ،

وهى ما يعترض بين شيئين ، « وعرضة » هى ـ أيضا ـ الأمر الصالح لكل شىء ، فيقال : « فلان عرضة لكل المهمات » . أى صالح. والعرضة ـ كما عرفنا ـ هى ما اعترض بين شيئين ، كأن يضع الإنسان يده على عينيه فلا يرى الضوء ، هنا تكون اليد « عُرضة » بين عينى الإنسان والشمس . إن الإنسان يحجب بذلك عن نفسه الضوء .

كأن الحق يقول : « أنا لا أريد أن تجعلوا اليمين عرضة بين الإنسان وفعل الخير والبر والتقوى » . فعندما يطلب منك واحد أن تبر من أساء إليك فقد تقول : « أنا أقسمت ألا أبر هذا الإنسان » إنك بذلك جعلت اليمين بالله مانعاً بينك وبين البر .

ويريد الحق بذلك القول أن ينبهنا إلى أن القسم به لا يجوز فى منع البر أو صلة الرحم أو إصلاح بين الناس . . ومن حلف على شىء فرأى غيره خيرا منه فليفعل الخير وليكفر عن يمينه،لماذا ؟ لأن المؤمن عندما يحلف على ألا يفعل خيراً فهو يضع الله مانعاً بينه وبين الخير ، وبذلك يكون قد ناقض المؤمن نفسه بأن جعل المانع هو الحلف بالله . إن الله هو صاحب الأمر بالبر والتقوى والإصلاح بين الناس . لذلك فالحق يقول : « ولاتجعلوا الله عُرضة لأيمانكم » . أى أن الحق يريد أن يحمى عمليات البر والتقوى والإصلاح بين الناس .

إنك إن حلفت أيها المؤمن ألا تفعل هذه العمليات،فالحق يريد لك أن تحنث فى هذا القسم وأن تفعل البر والتقوى والإصلاح بين الناس حتى لا تتناقض مع تشريع الله . ونحن عندما نجد المجتمع وقد صنع فيه كل فرد البر ، واتقى فيه كل إنسان المعاصى ، ورأى فيه كل إنسان نزاعاً بين جماعتين فأصلح هذا النزاع ، أليس هذا دخولا فى السلم كافة . إذن فالحق يريد أن يستبقى للناس ينابيع الخير وألا يسدوها أمام أنفسهم .

إن الحق هو الآمر بألا يجعل المؤمن اليمين مانعاً بين الإنسان والبر ، أو بين الإنسان والتقوى ، أو بين الإنسان والإصلاح بين الناس . ويتساهل الإسلام فى

مسألة التراجع والحنث فى البر فيقول السلف الصالح : « لا حنث خير من البر »-إذن فالمجتمع الذى فيه صنع البر ، وتقوى المعاصى ، والصلح بين المتخاصمين يدخل فى إطار :

﴿ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً ﴾

(من الآية ٢٠٨ سورة البقرة)

والإنسان قد يتعلل بأى سبب حتى يبتعد عن البر أو التقوى أو الإصلاح بين الناس ، بل يعمل شيئاً يريحه ويخلع عليه أنه ممتثل لأمر الله ، ولنضرب لذلك مثلا . سيدنا أبو بكر الصديق رضى الله عنه بعد أن جاء مسطح بن أثاثة واشترك مع من خاضوا فى الإفك الذى اتهموا فيه أم المؤمنين السيدة عائشة رضى الله عنها .

وخلاصة الأمر أن عائشة رضى الله عنها زوجة رسول الله صلى الله عليه وسلم . كانت قد خرجت مع الرسول الكريم فى غزوة « بنى المصطلق » وكان الأمر بالحجاب قد نزل ، لذلك خرجت عائشة رضى الله عنها فى هودج .

وقام الرسول بغزوته وحان وقت العودة . وفقدت عائشة عقداً لها . وكانت رضى الله عنها خفيفة الوزن ؛ لأن الطعام فى تلك الأيام كان قليلا . راحت عائشة رضى الله عنها تبحث عن عقدها المفقود ، وعندما حملوا هودج عائشة رضى الله عنها لم يفطنوا أن عائشة ليست به . ووجدت عائشة عقدها المفقود ، وكان جيش رسول الله قدابتعد عنها . وظنت أنهم سيفتقدونها فيرجعون إليها . وكان خلف الجيش صفوان ابن المعطل السلمى وعرفته عائشة وأناخ راحلته وعادت عائشة إلى المدينة . ودار حديث الإفك بوساطة عبدالله بن أبَىّ بن سلول رأس النفاق .

وكان الغم والحزن يصيبان السيدة عائشة طوال مدة كبيرة وأوضح الحق كذب هذا الحديث . وذاع ما ذاع عن أم المؤمنين عائشة وهى زوجة رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن تكون بنت أبى بكر . وأبو بكر صِدِّيق رسول الله صلى الله عليه وسلم

ولو أن غير عائشة حدث لها ما حدث لعائشة لكان موقف أبى بكر هو موقفه عندما جاء قريبه مسطح بن أثاثة واشترك فى حديث الإفك مع من اشتركوا ثم يبرىء الله عائشة وينزل القول الذى يثبت براءة أم المؤمنين فى حديث الإفك ، وحين يبرئها الله يأتى أبو بكر وكان ينفق على مسطح فيقطع عنه النفقة ويقول : « والله لا أنفق عليه أبداً » لماذا ؟ لأنه اشترك فى حديث الإفك . والمسألة فى ظاهرها ورع . لذلك سيمتنع عن النفقة على مسطح بن أثاثة لأن مسطحاً خاض فى الإفك . لكن انظر إلى مقاييس الكمال والجمال والفضائل عند الله فقد أوضح الحق أن هذا طريق ، وذاك طريق آخر ، فيقول سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾

(سورة النور)

فإذا كنت تحب أن يغفر الله لك ، أفلا تغفر لمن فعل معك سيئة ؟ . ومادمت تريد أن يغفر الله لك فاغفر للناس خطأهم . قالها الحق عز وجل لأبى بكر ؛ لأنه وقف موقفاً من رجل خاض فى الإفك مع من خاض ومع ذلك يبلغه أن ذلك لا يصح .

قوله تعالى : « ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم أن تبروا » لا تقل:إنى حلفت بالله على ألا أفعل ذلك الخير،لا . افعله فالله يرضى لك أن تحنث وتكفر عن يمينك .

« ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم أن تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس والله سميع عليم » . إن الله عز وجل يبلغنا : أنا لا أريد أن تجعلوا الحلف بى عُرضة ، يعنى حاجزاً أو مانعاً عن فعل الخير . مثلاً لو طُلب منك أن تبر شخصاً أساء إليك فلا تقل : حلفت ألا أبرّ به لأنه لا يستحق ، عندها تكون قد جعلت اليمين بالله مانعاً للبر . وكأن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يقول لك : لا ، أنا متجاوز عن اليمين بى ؛ إن حلفت ألا تبر أو لا تتقى أو لا تصل رحماً أو لا تصلح بين اثنين ، أنا تسامحت فى اليمين .

والحديث يقول : (من حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها فليأت الذى هو خير وليكفر عن يمينه)[١] وهكذا يحمى الله سبحانه وتعالى فعل البر ويحمى التقوى ويحمى عمليات الإصلاح بين الناس ، ولو كنت قد حلفت بالله ألا تفعلها،لماذا ؟ لأنك عندما تحلف بالله ألا تفعل ، وتجعل الله سبحانه وتعالى هو المانع ، فقد ناقضت التشريع نفسه ؛ لأن الله هو الآمر بالبر والإصلاح والتقوى ، فلا تجعل يمين البشر مانعا من تنفيذ منهج رب البشر .

« ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم أن تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس » إن حلفت على ترك واجب وجب أن ترجع فى اليمين . احنث فيه وكفر عنه ، والحكم نفسه يسرى على الذى يمنع ممتلكاته كالدابة أو الماكينة أو السيارة من انتفاع الناس بها بحجة أنه حلف ألا يعيرها لأحد ، وذلك أمر يحدث كثيراً فى الأرياف .

ويختم الحق سبحانه وتعالى الآية بالقول الكريم : « والله سميع عليم » . إنه سبحانه سميع باليمين الذى حلفته ، وعليم بنيتك إن كانت خيراً أو شراً فلا تتخذ اليمين حجة لأن تمنع البر والتقوى والإصلاح . والحق سبحانه وتعالى عندما يتكلم عن اليمين يعطينا أصلاً من أصول اعتبار اليمين هل هو يمين حقا أو لغو ، ومن رحمة الله أنه سبحانه وتعالى لم يأخذ إلا باليمين الذى عُقد القلب عليه ، أى الذى يقصد صاحبه ألا يحنث فيه ، أما لغو اليمين فقد تجاوز الله عنه .

مثلاً ، الأَيْمان الدارجة على ألسنة الناس كقولهم : « والله لو لم تفعل كذا لفعلت معك كذا » ، « والله سأزورك » ، « والله ما كان قصدى » أو الحلف بناءً على الظن ؛ كأن تحلف بقولك : « والله حدث هذا » وأنت غير متأكد من تمام حدوثه ، لكن ليس فى مقصدك الكذب .

أما اليمين الغموس فهى الحلف والقسم الذى تعرف كذبه وتحلف بعكس ما تعرف ، كأن تكون قد شاهدت واحداً يسرق أو يقتل وتحلف بالله أنه لم يسرق أو لم يقتل . من أجل ذلك كله يحسم الله سبحانه وتعالى هذه القضية بقوله :

---

(١) هذا الحديث أخرجه الإمام مسلم والترمذى والإمام أحمد فى مسنده عن أبى هريرة .

﴿ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾ ﴾

وكان من المناسب أن تأتى هذه الآية بعد كل ما سبق لأنه سبحانه أوضح لنا اليمين التى لا تقع وكأنه قال لنا : ارجعوا فيها واحنثوا وسأقبل رجوعكم فى مقابل أن تبروا وتتقوا وتصلحوا ، فإذا كان قد قبل تراجعنا عن هذا اليمين فلأن له مقابلا فى فعل الخير . وقوله الحق : « بما كسبت قلوبكم » هو المعنى نفسه لقوله تعالى :

﴿ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ ﴾

(من الآية ٨٩ سورة المائدة)

أى الشىء المعقود فى النفس والذى رسخ داخل نفسك ، لكن الشىء الذى يمر على اللسان فلا يؤاخذنا الله به . « لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم » والأيمان جمع يمين ، واليمين : هو الحلف أو القسم ، وسمى يمينا ؛ لأنهم كانوا قديماً إذا تحالفوا ضرب كل امرىء منهم يمينه على يمين صاحبه ، وذلك لأن اليمين هى الجارحة الفاعلة .

وبالمناسبة ، فالجارحة الفاعلة إياك أن تظن أنها تفعل بالرياضة والتدريب ، وإنما هى تفعل بالخلق أى كما خلقها الله ، فهى مجبرة على الفعل حسب خلقتها .

ولذلك عندما تجد إنسانا ويده اليمنى لا تعمل ويزاول أعماله بيده اليسرى فلا تحاول أن تجعله يستخدم اليمنى بدلا من اليسرى ؛ لأن محاولتك عبث لن يجدى ؛ لأن السبب فى أنه يستخدم اليسرى بدلا من اليمنى سبب خلقى ، فالجهاز الخاص بالتحكم فى الحركة فى المخ هو الذى يقر هذا الأمر : إن كان مخلوقا فى النصف الأيمن من المخ كانت اليد اليمنى هى الفاعلة ، وإن كان مخلوقا فى النصف

الأيسر من المخ فاليد اليسرى هى التى تعمل .

لذلك تجد الذى يكتب بيده اليسرى يتقن الكتابة بها أفضل من الذى يكتب باليمنى فى بعض الأحيان ، ومن هنا نقول : إنه من الخطأ أن تحاول تغيير سلوك الذى يعمل بيده اليسرى بدلا من اليمنى ؛ لأن ذلك عبث لن يصل لنتيجة .

وأحيانا تجد الجهاز المتحكم فى حركة اليدين موجودا فى منتصف ووسط المخ فيرسل حركات متوازنة لليد اليمنى واليد اليسرى معا ، ولذلك تجد شخصا يكتب بيديه اليمنى واليسرى معا بالسرعة نفسها وبالإتقان نفسه ، ويؤدى بهما الأعمال بتلقائية عادية ، ولله فى خلقه شئون ، فهو يعطينا الدليل على أنه لا تحكمه قواعد ، فهو قادر على أن يجعل اليد اليمنى تعمل ، وقادر على أن يجعل اليد اليسرى تعمل ، أو يجعلهما يعملان معا بالقوة نفسها ، أو يجعل كلتا اليدين غير قابلتين للعمل . إنها ليست عملية آلية خارجة عن إرادة الله ، بل كل شىء خاضع لإرادته سبحانه .

« لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم » المقصود به الحلف ، والحلف من معانيه التقوية ، وهى مأخوذة من الحِلْف ، وهو أن يتحالف الناس على عمل ما . ونحن عندما نتحالف على عمل فنحن نقسم العمل بيننا ، وعندما نفعل ذلك يسهل علينا جميعا أن نفعله .

« لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم والله غفور حليم » والكسب عملية إرادية . لأنك ساعة تقسم بالله دون أن تقصد فهو لا يؤاخذك ، وهذا دليل على أن الله واسع حليم . ويقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك :

﴿ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ ﴾

يؤلون : أى يحلفون ألا يقربوا أزواجهن فى العملية المخصوصة ، ويريد الرجل أحيانا أن يؤدب زوجته فيهجرها فى الفراش بلا يمين ، وبدون أن يحلف . وبعض الناس لا يستطيعون أن يمتنعوا عن نسائهم من تلقاء أنفسهم ، فيحلفون ألا يقربوهن حتى يكون اليمين مانعا ومشجعا له على ذلك . وكان هذا الأمر مألوفا عند العرب قبل الإسلام .

كان الرجل يمتنع عن معاشرة زوجته فى الفراش أى فترة من الزمن يريدها ، وبعضهم كان يحلف ألا يقرب زوجته زمنا محدداً ، وقبل أن ينتهى هذا الزمن يحلف يمينا آخر ليزيد المدة فترة أخرى ، وهكذا حتى أصبحت المسألة عملية إذلال للمرأة ، وإعضالا لها ، وامتناعا عن أداء حقها فى المعاشرة الزوجية . وكان ذلك إهدارًا لحق الزوجة فى الاستمتاع بزوجها .

ويريد الحق سبحانه وتعالى أن ينهى هذه المسألة ، وهو سبحانه لا ينهيها لحساب طرف على طرف ، وإنما بعدل الخالق الحكيم الرحيم بعباده . وكان من الممكن أن يحرمها ويحرمها نهائيا ويمنع الناس منها . لكنه سبحانه عليم بخفايا وطبيعة النفوس البشرية ، فقد ترى امرأة أن تستغل إقبال الرجل عليها ، إما لجمال فيها أو لتوقد شهوة الرجل ، فتحاول أن تستذله ؛ لذلك أعطى الله للرجل الحق فى أن يمتنع عن زوجته أربعة أشهر ، أمّا أكثر من ذلك فالمرأة لا تطيق أن يمتنع زوجها عنها .

« للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر فإن فاءوا فإن الله غفور رحيم » والإسلام يريد أن يبنى الحياة الزوجية على أساس واقعى لا على أفكار مجنحة ومجحفة لا تثبت أمام الواقع ، فهو يعترف بالميول فيعليها ولكن لا يهدمها ، ويعترف بالغرائز فلا يكتمها ولكن يضبطها .

وهناك فرق بين الضبط والكبت ؛ فإن الكبت يترك الفرصة للداء ليستشرى خفيا حتى يتفجر فى نوازع النفس الإنسانية تفجرا على غير ميعاد وبدون احتياط ، لكن الانضباط يعترف بالغريزة ويعترف بالميول ، ويحاول فقط أن يهديها ولا يهدمها . ويخضع البشر فى كل أعمالهم لهذه النظرية حتى فى صناعتهم ، فالذين يصنعون

المراجل البخارية مثلا يجعلون فى تلك المراجل التى يمكن أن يضغط فيها الغاز ضغطا فيفجرها يجعلون لها متنفسا حتى يمكن أن يخفف الضغط الزائد إن وُجد ، وقد يصممون داخلها نظاما آليا لا يتدخل فيه العقل بل تحكم الآلة نفسها .

والحق سبحانه وتعالى وضع نظاما واضحا فى خلقه الذين خلقهم ، وشرع لهم تكوين الأسرة على أساس سليم . وبنى الإسلام هذا النظام أولا على سلامة العقيدة ونصاعتها ووحدتها حتى لا تتوزع المؤثرات فى مكونات الأسرة ، لذلك منع المسلم من أن يتزوج من مشركة ، وحرم على المسلمة أن تتزوج مشركا . وبعد ذلك علمنا معنى الالتقاء الغريزى بين الزوجين . ولقد أراد الحق سبحانه وتعالى ألا يطلق العِنان للغريزة فى كل زمان التواجد الزوجى ، فجعل المحيض فترة يحرم فيها الجماع وقال :

﴿ فَٱعْتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ﴾

(من الآية ٢٢٢ سورة البقرة)

وهكذا يضبط الحق العلاقة الجنسية بين الزوجين ضبطا سليما نظيفا .

الحق سبحانه وتعالى يعلُم أن النفس البشرية ذات أغيار ؛ لأن الإنسان حادث له بداية ونهاية ، وكل ما يكون حادثا لابد أن يطرأ عليه تغيير . فإذا ما التقى الرجل بالمرأة . كان لابد من أن يتحدد هذا اللقاء على ضوء من منهج الله ؛ لأن اللقاء إن تم على منهج البشر وعواطفهم كان المصير إلى الفشل ؛ لأن مناهج البشر متغيرة وموقوتة ، ولذلك يجب أن يكون لقاء الرجل بالمرأة على ضوء معايير الله .

فالله يعلم أن للنفس نوازع ومتغيرات ، ومن الجائز جدا أن يحدث خلاف بين الزوجين ، فيجعل الله سبحانه وتعالى متنفسا يتنفس فيه الزوج للتأديب الذى ينشد التهذيب والإبقاء ، فشرع للرجل إن رأى فى امرأته إذلالا له بجمالها وبحسنها ، وقد يكون رجل له مزاج خاص ورغبة جامحة فى هذه العملية ؛ لذلك شرع الله له فترة من الفترات أن يحلف ألا يقرب امرأته ، ولم يجعل الله تلك الفترة مطلقة ، إنما قيدها بالحلف حتى يكون الأمر مضبوطا .

راجع أصله وخرج أحاديثه الدكتور أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .

فالحق يريد العلاج لا القسوة . فلو لم يكن الرجل مضبوطا بيمين فقد يُغير رأيه بأن يأتى زوجته ، ولذلك قال الحق : « للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر » أى إنّ لك أيها الزوج أن تحلف ألا تقرب زوجتك أربعة أشهر لكن إن زادت المدة على أربعة أشهر فهى لن تكون تأديبا بل إضرارا . والخالق عز وجل يريد أن يؤدب لا أن يضر . فإذا ما تجاوزت المدة يكون الزوج متعديا ولا حق له .

إن الحق سبحانه وتعالى هو خالق الميول والعواطف والغرائز ويقنن لها التقنين السليم . إنه عز وجل يترك لنا ما يدلنا على ذلك ، ففى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، يمر عمر فى جوف الليل فيسمع امرأة تقول الأبيات المشهورة :

تطاول هذا الليل واسود جانبه
وأرقنى إلا خليل ألاعبه
فوالله لولا الله تخشى عواقبه
لزلزل من هذا السرير جوانبه

معنى ذلك أن المرأة تعانى من الوحشة إلى الرجل ، وتوشك المعاناة أن تدفعها إلى سلوك غير قويم ، لكن تقوى الله هى التى تمنعها من الانحراف . ومن الجائز أن نتساءل كيف سمع عمر هذه المرأة وهو يسير فى الشارع ، وأقول : إن المرأة التى تأتى عندها هذه الأحاسيس تترنم فى سكون الليل ، وعندما يسكن الليل لا تكون فيه ضجة فيسهل سماع ما يقال داخل البيوت ، ألم يسمع عمر كلام المرأة التى تجادل ابنتها فى غش اللبن ؟

ولما سمع الفاروق كلام هذه المرأة التى تعانى من وحشة إلى الرجل ، ذهب بفطرته السليمة والمعيَّته المشرقة إلى ابنته حفصة أم المؤمنين رضى الله عنها ، وقال لها : كم تصبر المرأة على بعد الرجل ؟ فقالت : من ستة شهور إلى أربعة أشهر .

فسن عمر سنةً أصبحت دستورا فيما بعد ، وهى ألا يبعد جندى من جنود المسلمين عن أهله أربعة أشهر . إذن فقول الحق سبحانه وتعالى : « للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر » سبق حادثة عمر ، ثم ترك الحق لواقع الحياة أن يبين لنا

صدق ما قننه لنا ، ويأتى عمر ليستنبط الحكم من واقع الحياة .

« فإن فاءوا » أى فإن رجع الرجل ، وأراد أن يقترب من زوجته قبل مضى الأربعة أشهر ؛ فللرجل أن يكفر عن يمينه وتنتهى المسألة . ولكن إذا مرت الشهور الأربعة وتجاوزت المقاطعة مدتها يؤمر الزوج بالرجوع عن اليمين أو بالطلاق ، فإن امتنع الزوج طلقها الحاكم ، وقال بعض الفقهاء : إنّ مضى مدة الأربعة أشهر دون أن يرجع ويفىء يجعلها مطلقة طلقة واحدة بائنة . ولذلك يقول الحق :

﴿ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾ ﴾

واختلف العلماء ؛ هل تطلق الزوجة طلقة بائنة أو طلقة رجعية ؟ ومعنى « طلاق رجعى » مأخوذ من اللفظ نفسه ، أى أن الزوج له الحق أن يراجع امرأته دون إذن منها أو رضاً . أما الطلاق البائن فإنه لا عودة إلا إذا عَقَد عليها عقدا جديدا بمهر جديد .

والطلقة فى الإيلاء بينونة صغرى وهى التى تحتاج إلى عقد ومهر جديدين ، هذا إذا لم يسبق طلاقان . والبينونة الكبرى وهى التى توصف بأنها ذات الثلاث ، فالزوجة فيها تطلق ثلاث مرات ، فلا يصح أن يعيدها الزوج إلا إذا تزوجت زوجا غيره ، وعاشت معه حياة زوجية كاملة ، ثم طلقها لأى سبب من الأسباب ، وبعد ذلك يحق لزوجها القديم أن يراجعها ويعيدها إليه بعقد ومهر جديدين ، لكن بعد أن يكتوى بغيرة زواجها من رجل آخر . والحق سبحانه وتعالى يعرض هذه المسألة فيقول :

﴿ لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَاءُو فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾ ﴾

(سورة البقرة)

فالإسلام دين واقعى يعطى الزوج المسلم أشياء تنفس عن غضبه ، وأشياء تمكنه من أن يؤدب زوجته ، ولكن الإسلام لا يحب أن يتمادى الرجل فى التأديب . وإذا تمادى وتجاوز الأربعة الأشهر نقول له : لابد أن يوجد حد فاصل .

وبعد ذلك ينتقل الحق سبحانه وتعالى فى التكليف إلى أن يتكلم عن الطلاق وقد تكلم من قبل عن الزواج والإيلاء حتى وصل الطلاق .

وعندما نتأمل موقف الإسلام من الطلاق نجده يتكلم كلاما واقعيا يناسب الميول الإنسانية ؛ لأننا مادمنا أغيارا فمن الممكن أن يطرأ على حياة الزوجين أحداث أو مشاعر لم تكن فى الحسبان ساعة الزواج . ويجوز أن يكون الإنسان فى ساعة الزواج مدفوعا بحرارة ملكة واحدة ، وبعد ذلك عندما يجىء واقع الحياة تتملكه ملكات متعددة ، وقد تسيطر عليه المسألة الجنسية ، وتدفعه للزواج ، وفى سبيل إرضاء شهوته الجنسية قد يهمل بقية ملكات نفسه ، فإذا ما دخل واقع الزواج وهدأت شِرّة وحرارة غرائز الإنسان تتنبه نفس الإنسان إلى مقاييس أخرى يريد أن يراها فى زوجته فلا يجدها ويتساءل ما الذى أخفاها عنه ؟

أخفاها سعار وعرامة النظرة الجنسية ، فقد نظر للمرأة قبل الزواج من زاوية واحدة ، ولم ينظر لباقى الجوانب . مثلا قد يجد الزوج أن أخلاق الزوجة تتنافر مع أخلاقه ، وقد يجد تفكيرها وثقافتها تتنافر مع تفكيره وثقافته ، وربما وجد عدم التوافق العاطفى بينه وبينها ولم يحدث تآلف نفسى بينهما ، والعواطف ـ كما نعلم ـ ليس لها قوانين .

فمن الجائز أن يكون الرجل غير قادر على الاكتفاء بوليمة جنسية واحدة ، فهو لذلك لا يبنى حياته على طهر ، وإنما يريد من امرأته أن تكون طاهرة عفيفة فى حياتها معه ، بينما يعطى لنفسه الحرية فى أن يعدد ولائمه الجنسية مع أكثر من امرأة ، وربما يحدث العكس ، وذلك أن يجد الرجل أنّ امرأة واحدة تكفيه ، لكن المرأة تريد أكثر من رجل .

وقد يكون الرجل طاهر الأسلوب فى الحياة ، وتكون زوجته راغبة فى أن يأتيها بالمال

من أى طريق ، فيختلفان . وقد تكون المرأة طاهرة الأسلوب فى الحياة فلا ترضى أن يتكسب زوجها من مال حرام .

من هنا يأتى الشقاق ، إن الشقاق يأتى عندما يريد أحد الزوجين أن تكون حياتهما نظيفة طاهرة ، مستقيمة ، ولا يرى الآخر ذلك . مثل هذه الصورة موجودة فى الواقع حولنا ، فكم من بيوت تشقى عندما تختفى الوحدة الأسرية ، وتختلف نظرة أحد الزوجين للأمور عن الآخر .

وهذا هو سبب الشقاق الذى يحدث بين الزوجين عندما لا يكتفى أحد الزوجين بصاحبه . ولو اتفق رجل وامرأته على العفاف ، والطهر ، والخيرية لاستقامت أمور حياتهما . ولذلك يأتى الإسلام بتشريعاته السامية لتناسب كل ظروف الحياة فيقول الحق سبحانه :

﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا ۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾ ﴾

الآية كلها تتضمن أحكاماً تكليفية ، والحكم التكليفى الأول هو : « والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء » ولنا أن نلحظ أن الحكم لم يرد بصيغة الأمر ولكن جاء فى صيغة الخبر ، فقال : « والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء » ، وحين يريد الحق سبحانه وتعالى حكماً لازما لا يأتى له بصيغة الأمر الإنشائى ، ولكن يأتى له

بصيغة الخبر ، هذا آكد وأوثق للأمر كيف ؟

معنى ذلك أن الحق سبحانه وتعالى حين يأمر فالأمر يصادف من المؤمنين به امتثالاً ، ويُطبق الامتثال فى كل الجزئيات حتى لا تشذ عنه حالة من الحالات فصار واقعا يُحكى وليس تكليفا يُطلب ، ومادام قد أصبح الأمر واقعا يُحكى فكأن المسألة أصبحت تاريخا يُروى هو : « والمطلقات يتربص بأنفسهن ثلاثة قروء » . ويجوز أن نأخذ الآية على معنى آخر هو أن الله قد قال : « والمطلقات يتربصن بأنفسهن » فيكون كلاماً خبرياً .

وقلنا إن الكلام الخبرى يحتمل الصدق والكذب ، إن الله قد قال ذلك فمن أراد أن يصدق كلام الله فلينفذ الحكم ، ومن أراد أن يبارز الله بالتكذيب ولا يصدقه فلا ينفذ الحكم ، ويرى فى نفسه آية عدم التصديق وهى الخسران المبين ، أليس ذلك أكثر إلزاما من غيره ؟ ومثل ذلك قوله تعالى :

﴿ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾ ﴾

(سورة النور)

إن هذا وإن كان كلاما خبريا لكنه تشريع إنشائى يحتمل أن تطيع وأن تعصى ، ولكن الله يطلب منا أن تكون القضية هكذا « الخبيثات للخبيثين » يعنى أن ربكم يريد أن تكون « الخبيثات للخبيثين » وأن تكون « الطيبات للطيبين » وليس معنى ذلك أن الواقع لابد أن يكون كما جاء فى الآية ، إنما الواقع يكون كذلك لو نفذنا كلام الله وسيختلف إذا عصينا الله وتمردنا على شرعه . والمعنى نفسه فى قوله تعالى :

﴿ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ ﴾

(من الآية ٩٧ سورة آل عمران)

أى اجعلوا من يدخل البيت الحرام آمناً . ويحتمل أن يعصى أحد الله فلا يجعل البيت الحرام آمناً . إذن فقوله الحق : « والمطلقات يتربص بأنفسهن ثلاثة قروء » هو

حكم تكليفى يستحق النفاذ لمن يؤمن بالله ، وقوله : « يتربصن » أى ينتظرن ، واللفظ هنا يناسب المقام تماما ، فالمتربصة هى المطلقة ، ومعنى مطلقة أنها مزهود فيها ، وتتربص وتنتظر انتهاء عدتها حتى ترد اعتبارها بصلاحيتها للزواج من زوج آخر . ولم ينته القول الكريم بقوله : « يتربصن » وإنما قال : « يتربصن بأنفسهن » مع أن المتربصة هى نفسها المطلقة ؛ ذلك لأن النفس الواعية المكلفة والنفس الأمارة بالسوء تكونان فى صراع على الوقت وهو « ثلاثة قروء » ، « وقروء » جمع « قرء » وهو إما الحيضة وإمّا الطهر الذى بين الحيضتين . وقوله الحق سبحانه وتعالى : « ثلاثة قروء » ما المقصود به ؟

هل هو الحيضة أو الطهر ؟ إن المقصود به الطهر ؛ لأنه قال : « ثلاثة » بالتاء ، ونحن نعرف أن التاء تأتى مع المذكر ، ولا تأتى مع المؤنث ، و« الحيضة » مؤنثة و« الطهر » مذكر ، إذن ، « ثلاثة قروء » هى ثلاثة أطهار متواليات . والعلة هى استبراء الرحم وإعطاء مهلة للزوجين فى أن يراجعا نفسيهما ، فربما بعد الطهر الأول أو الثانى يشتاق أحدهما للآخر ، فتعود المسائل لما كانت عليه ، لكن إذا مرت ثلاثة أطهار فلا أمل ولا رجاء فى الرجوع .

ثم يقول الحق بعد ذلك : « ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله فى أرحامهن » وما معنى الخلق ؟ الخلق هو إيجاد شىء كان معدوماً ، وهذا الشىء الذى كان معدوما إما أن يكون حملاً وإما أن يكون حيضا ، وللحامل عدة جاءت فى قوله الحق .

﴿ وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾

(من الآية ٤ سورة الطلاق)

أما المرأة الحائل وهى التى بدون حمل ، فعدتها أن تحيض وتطهر ثلاث مرات . وهناك حالة ثالثة هى :

﴿ وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمْ يَحِضْنَ ﴾

(من الآية ٤ من سورة الطلاق)

أى أن المرأة التى انقطعت عنها الدورة الشهرية فعدتها « ثلاثة أشهر » الحكم نفسه للصغيرة التى لم تحض بعد ، أى عدتها ثلاثة أشهر . إذن فنظام العدة له حالات :

- إن كانت غير حامل فعدتها ثلاثة قروء أى ثلاثة أطهار إن كانت ممن يحضن .
- إن كانت حاملا فعدتها أن تضع حملها .
- وإن لم تكن حاملا وقد بلغت سن اليأس ولم تعد تحيض ، أو كانت صغيرة لم تصل لسن الحيض ، هذه وتلك عدتها ثلاثة أشهر .

وقوله تعالى : « ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله فى أرحامهن » يدل على أن المرأة لها شهادتها لنفسها فى الأمر الذى يخصها ولا يطلع عليه سواها . وهى التى تقرر المسألة بنفسها ، فتقول : أنا حامل أو لا ، وعليها ألا تكتم ذلك ، فقد يجوز أن تكون حاملاوبعد ذلك تكتم ما فى بطنها حتى لا تنتظر طول مدة الحمل وتتزوج رجلاً آخر فينسب الولد لغير أبيه ، فغالبا ما يستمر الحمل تسعة أشهر ولكن فيه استثناء ، فهناك حمل مدته سبعة شهور ، وأحيانا ستة شهور . وقد تتزوج المرأة المطلقة بعد ثلاثة شهور وتدعى أنها حامل من الزوج الجديد وأن حملها لم يستمر سوى سبعة أشهر أو ستة أشهر .

وبعضنا يعرف قصة الحامل فى ستة شهور ، فقد جاءوا بامرأة لسيدنا عثمان رضى الله عنه لأنها ولدت لستة أشهر ، فأراد أن يقيم عليها حد الزنى ، فتدخل الإمام على ابن أبى طالب وقال : كيف تقيم عليها الحد لأنها ولدت لستة أشهر ، ألم تقرأ قول الحق سبحانه وتعالى ؟ قال عثمان : وماذا قال الحق فى ذلك ؟ فقرأ الإمام على قول الله :

﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ﴾

(من الآية ٢٣٣ سورة البقرة)

أى أنها ترضع الوليد لمدة أربعة وعشرين شهراً ، وفى آية أخرى قال الحق :

﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ﴾

(من الآية ١٥ سورة الأحقاف)

فإذا أخذنا من الآية الأولى أربعة وعشرين شهرا وهى مدة الرضاع وطرحناها من الثلاثين شهرا التى تجمع بين الحمل والرضاع فى الآية الثانية فهمنا أن الحمل قد يكون ستة أشهر . هنا قال سيدنا عثمان متعجبا : والله ما فطنت لهذا .

إذن فحمل الستة الشهور أمر ممكن ، ومن هنا نفهم الحكمة فى قوله تعالى : « ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله فى أرحامهن » ، حتى لا تدعى المرأة أنها ليست حاملا وتتزوج رجلا آخر وتنسب إليه ولدًا ليس من صلبه ويترتب على ذلك أكثر من إشكال ، منها ألا يرث الولد من الأب الأول ، وأن محارمه لم تعد محرمة عليه ، فأخته من أبيه لم تعد أخته ، وكذلك عماته وخالاته وتنقلب الموازين ، هذا من جانب الأب الأصلى .

أما من جانب الزوج الثانى فالطفل يكتسب حقوقا غير مشروعة له ، سيرث منه ، وتصبح محارم الرجل الثانى محارمه فيدخل عليهن بلا حق ويرى عوراتهن ، وتحدث تداخلات غير مشروعة .

إذن فقوله الحق : « ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله فى أرحامهن » هو قول يريد به الحق أن تقوم الحياة على طهر وعلى شرف وعلى عفاف ، ولا يعتدى أحد على حقوق الآخر . هذا بالنسبة للحمل . فكيف يكون الحال بالنسبة للحيض ؟

أيضا لا يحل لها أن تكتم حيضها لتطيل زمن العدة مع زوجها . ويقول الحق : « إن كن يؤمن بالله واليوم الآخر » . فما علاقة الإيمان هنا بالحكم الشرعى ؟ إنها علاقة وثيقة ؛ لأن الحمل أو الحيض مسائل خفية لا يحكمها قانون ظاهر ، إنما الذى يحكمها هو عملية الإيمان ، ولذلك قيل : « الغيب لا يحرسه إلا غيب » ومادام الشىء غائباً فلن يحرسه إلا الغيب الأعلى وهو الله تعالى .

ويتابع الحق : « وبعولتهن أحق بردهن فى ذلك » والبعل هو الزوج ، وهو الرب والسيد والمالك ، وفى أثناء فترة التربص يكون الزوج أحق برد زوجته إلى عصمته ، وقوله تعالى : « وبعولتهن أحق بردهن » هل يعنى ذلك أن هناك أناساً يمكن أن

يشاركوا الزوج فى الرد ؟ لأن الحق جاء بكلمة « أحق » وفى ظاهرها تعطى الحق لغير الأزواج أن يراجعوا ؟ لا ، إنما المقصود هو أنه لا حق لأحد هنا إلاللزوج ، فالرد خلال العدة من حق الزوج ، فليس للزوجة أن تقول : لا ، وليس لولى الزوجة أن يقول : لا . فالزوج إذا أراد مراجعة زوجته وأبت وامتنعت هى وجب إيثار وتقديم رغبته على رغبتها ،وكان هو أحق منها ، ولا ينظر إلى قولها ، فإنه ليس لها فى هذا الأمر حق فقد رضيت به أولا . أما إذا انتهت العدة فالصورة تختلف ، لابد من الولى ، ولابد من عقد ومهر جديدين واشتراط موافقة الزوجة .

« وبعولتهن أحق بردهن فى ذلك إن أرادوا إصلاحاً » هذا إن أرادوا إصلاحاً . والإرادة عمل غيبى ، فكأنها تهديد للزوجين ، إن التشريع يجيز لهما العودة ، لكن إذا كان الزوج يريد أن يردها ليوقع بها الضرر لسبب فى نفسه فالدين يقول له : لا ، ليس لك ذلك . وإن كان القضاء يجيز له ردها ، إلا أن الله يحرم عليه ذلك الظلم . إن من حق الزوج أن يرد زوجته رداً شرعياً للعفة والإحصان ولغرض الزوجية لا لشىء آخر ، أما غير ذلك كالإضرار بها والانتقام منها فلا يجيز له الدين ذلك .

أما قضائياً فالقضاء يعطيه الحق فى ردها ولا يستطيع أحد أن يقف أمامه مهما كانت الأسباب الكامنة فى نفسه ، لكن عليه أن يتحمل وزر ذلك العمل . ويتابع الحق: « ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف » أى أن للزوجة مثل ما للزوج ، لكن ما الذى لهن وما الذى عليهن ؟

المثلية هنا فى الجنس ، فكل منهما له حق على الآخر حسب طبيعته ، الزوج يقدم للزوجة بعضاً من خدمات ، والزوجة تقدم له خدمات مقابلة ؛ لأن الحياة الزوجية مبنية على توزيع المسئوليات ، إن الرجل عليه مسئوليات تقتضيها طبيعته كرجل ، والمرأة عليها مسئوليات تحتمها طبيعتها كأنثى . والرجل مطالب بالكدح والسعى من أجل الإنفاق . والمرأة مطالبة بأن توفر للرجل البيت المناسب ليسكن إليها عندما يعود من مهمته فى الحياة . ولذلك يقول الله عز وجل :

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً

﴿ وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

(سورة الروم)

والسكن إلى شيء هو نقيض التحرك ، ومعنى « لتسكنوا إليها » أى إنكم تتحركون من أجل الرزق طوال النهار ثم تعودون للراحة عند زوجاتكم ، فالرجل عليه الحركة ، والمرأة عليها أن تهيىء له حسن الإقامة ، وجمال العشرة وحنان وعطف المعاملة . فالمسئوليات موزعة توزيعاً عادلاً ، فهناك حق لك هو واجب على غيرك ، وهناك حق لغيرك وهو واجب عليك .

ويقول الحق : « وللرجال عليهن درجة » وهى درجة الولاية والقوامة . ودرجة الولاية تعطينا مفهوما أعم وأشمل ، فكل اجتماع لابد له من قَيِّم ، والقوامة مسئولية وليست تسلطاً ، والذى يأخذ القوامة فرصة للتسلط والتحكم فهو يخرج بها عن غرضها ؛ فالأصل فى القوامة أنها مسئولية لتنظيم الحركة فى الحياة .

ولا غضاضة على الرجل أن يأتمر بأمر المرأة فيما يتعلق برسالتها كامرأة وفى مجالات خدمتها ، أى فى الشئون النسائية ، فكما أن للرجل مجاله ، فللمرأة مجالها أيضاً . والدرجة التى من أجلها رُفِعَ الرجل هى أنه قوام أعلى فى الحركة الدنيوية ، وهذه القوامة تقتضى أن ينفق الرجل على المرأة تطبيقاً لقول الحق :

﴿ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ﴾

(من الآية ٣٤ سورة النساء)

إذن فالإنفاق واجب الرجل ومسئوليته ، وليعلم أن الله عزيز لا يحب أن يستذل رجل امرأة هى مخلوق لله ، والله حكيم قادر على أن يقتص للمرأة لو فهم الرجل أن درجته فوق المرأة هى للاستبداد ، أو فهمت المرأة أن وجودها مع الرجل هى منة منها عليه ، فلا استذلال فى الزواج ؛ لأن الزواج أساسه المودة والمعروف . ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ ۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖ ۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَأۡخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ شَيۡـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَا فِيمَا ٱفۡتَدَتۡ بِهِۦ ۗ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعۡتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ ﴾

هنا يتحدث الحق سبحانه وتعالى عن الطلاق بعد أن تحدث عن المطلقة فى عدتها وكيفية ردها ومراجعتها ، إنه سبحانه يتحدث عن الطلاق فى حد ذاته . والطلاق مأخوذ من الانطلاق والتحرر ، فكأنه حل عقدة كانت موجودة وهى عقدة النكاح ، وعقدة النكاح هى العقدة التى جعلها الله عقداً مغلظاً وهى الميثاق الغليظ ، فقال تعالى :

﴿ وَأَخَذۡنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴾

(من الآية ٢١ سورة النساء)

إنه ميثاق غليظ لأنه أباح للزوجين عورات الآخر ، فى حين أنه لم يقل عن الإيمان إنه ميثاق غليظ ، قال عنه : « ميثاق » فقط ، فكأن ميثاق الزواج أغلظ من ميثاق الإيمان . والحق سبحانه وتعالى يريد أن يربى فى الناس حل المشكلات بأيسر الطرق . لذلك شرع لنا أن نحل عقدة النكاح ، ونهاية العقدة ليست كبدايتها ، ليست جذرية ، فبداية النكاح كانت أمراً جذريا ، أخذناه بإيجاب وقبول وشهود . وأنت حين تدخل فى الأمر تدخله وأنت دارس لتبعاته وظروفه ، لكن الأمر فى عملية الطلاق يختلف ؛ فالرجل لا يملك أغيار نفسه ، فربما يكون السبب فيها هيناً أو لشىء

كان يمكن أن يمر بغير الطلاق ؛ فيشاء الحق سبحانه وتعالى أن يجعل للناس أناة وروية فى حل العقدة فقال : « الطلاق مرتان » يعنى مرة ومرة ، ولقائل أن يقول : كيف يكون مرتين ، ونحن نقول ثلاثة ؟ وقد سأل رجلٌ رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال يا رسول الله قال الله تعالى : « الطلاق مرتان » فلم صار ثلاثا ؟

فقال صلى الله عليه وسلم مبتسماً : « فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان » . فكأن معنى « الطلاق مرتان » ، أى أن لك فى مجال اختيارك طلقتين للمرأة ، إنما الثالثة ليست لك ، لماذا ؟ لأنها من بعد ذلك ستكون هناك بينونة كبرى ولن تصبح مسألة عودتها إليك من حقك ، وإنما هذه المرأة قد أصبحت من حق رجل آخر . .

﴿ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ ﴾

(من الآية ٢٣٠ سورة البقرة)

أما قول الرجل لزوجته أنت « طالق ثلاثاً » يُعتبر ثلاث طلقات أم لا ؟ نقول : إن الزمن شرط أساسى فى وقوع الطلاق ، يطلق الرجل زوجته مرة ، ثم تمضى فترة من الزمن ، ويطلقها مرة أخرى فتصبح طلقة ثانية ، وتمضى أيضا فترة من الزمن وبعد ذلك نصل لقوله : « فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان » ولذلك فالآية نصها واضح وصريح فى أن الطلاق بالثلاث فى لفظ واحد لا يوقع ثلاث طلقات ، وإنما هى طلقة واحدة ، صحيح أن سيدنا عمر رضى الله عنه جعلها ثلاث طلقات ؛ لأن الناس استسهلوا المسألة ، فرأى أن يشدد عليهم ليكفوا ، لكنهم لم يكفوا ، وبذلك نعود لأصل التشريع كما جاء فى القرآن وهو « الطلاق مرتان » .

وحكمة توزيع الطلاق على المرات الثلاث لا فى العبارة الواحدة ، أن الحق سبحانه يعطى فرصة للتراجع . وإعطاء الفرصة لا يأتى فى نفس واحد وفى جلسة واحدة . إن الرجل الذى يقول لزوجته : أنت طالق ثلاثاً لم يأخذ الفرصة ليراجع نفسه ولو اعتبرنا قولته هذه ثلاث طلقات لتهدمت الحياة الزوجية بكلمة . ولكن عظمة التشريع فى أن الحق سبحانه وزع الطلاق على مرات حتى يراجع الإنسان نفسه ، فربما أخطأ فى المرة الأولى ، فيمسك فى المرة الثانية ويندم . وساعة تجد التشريع يوزع أمراً يجوز أن يحدث ويجوز ألا يحدث ، فلا بد من وجود فاصل زمنى

بين كل مرة . وبعض المتشدقين يريدون أن يبرروا للناس تهجمهم على منهج الله فيقولون : إن الله حكم بأن تعدد الزوجات لا يمكن أن يتم فقال :

﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾

(من الآية ١٢٩ سورة النساء)

ويقولون : إنّ الله اشترط فى التعدد العدل ، ثم حكم بأننا لن نستطيع أن نعدل بين الزوجات مهما حرصنا ، فكأنه رجع فى التشريع ، هذا منطقهم . ونقول لهم : أكملوا قراءة الآية تفهموا المعنى ، إن الحق يقول : « ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم » ثم فرع على النفى فقال :

﴿ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ ﴾

(من الآية ١٢٩ سورة النساء)

ومادام النفى قد فُرِّع عليه فقد انتفى ، فالأمر كما يقولون : نفى النفى إثبات . أن الاستطاعة ثابتة وباقية وكان قوله تعالى:« فلا تميلوا كل الميل » إشارة إليها . وكذلك الأمر هنا « الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أوتسريح بإحسان » . فمادام قد قال : « فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان » وقال:« الطلاق مرتان » أى أن لكل فعل زمناً ، فذلك يتناسب مع حلقات التأديب والتهذيب ، وإلا فالطلاق الثلاث بكلمة واحدة فى زمن واحد ، يكون عملية قسرية واحدة ، وليس فيها تأديب أو إصلاح أو تهذيب ، وفى هذه المسألة يقول الحق : « ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً » لأن المفروض فى الزوج أن يدفع المهر نظير استمتاعه بالبضع ، فإذا ما حدث الطلاق لا يحل للمطلق أن يأخذ من مهره شيئاً ، لكن الحق استثنى فى المسألة فقال : « إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله فإن خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به » .

فكأن الحق سبحانه وتعالى أراد أن يجعل للمرأة مخرجاً إن أريد بها الضرر وهى لا تقبل هذا الضرر . فيأتى الحق ويشرع : مادام قد خافا ألا يقيما حدود الله ، فقد أذن لها أن افتدى نفسك أيتها المرأة بشىء من مال،ويكره أن يزيد على المهر إلّا إذا كان ذلك ناشئا عن نشوز منها ومخالفة للزوج فلا كراهة إذن فى الزيادة على المهر .

وقد جاء الواقع مطابقاً لما شرع الله عندما وقعت حادثة « جميلة » أخت « عبدالله ابن أبى » حينما كانت زوجة لعبدالله بن قيس ، فقد ذهبت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالت : « أنا لا أتهمه فى دينه ولا خلقه ولكن لا أحب الكفر فى الإسلام » وهى تقصد أنها عاشت معه وهى تبغضه ، لذلك لن تؤدى حقه وذلك هو كفر العشير أى إنكار حق الزوج وترك طاعته .

وهى قد قالت:إنها لا تتهمه لا فى دينه ولا فى خلقه لتعبر بذلك عن معانٍ عاطفية أخرى ، فأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعلم منها ذلك ، فقالت : لقد رفعت الخباء فوجدته فى عدة رجال فرأيته أشدهم سواداً وأقصرهم قامة وأقبحهم وجها ، فقال لها صلى الله عليه وسلم : « أتردين حديقته » ؟ فقالت : وإن شاء زدته ، فقال صلى الله عليه وسلم : لا حاجة لنا بالزيادة ، ولكن رُدِّى عليه حديقته .

ويُسمى هذا الأمر بالخلع ، أى أن تخلع المرأة نفسها من زوجها الذى تخاف ألا تؤدى له حقاً من حقوق الزوجية ، إنها تخلع نفسها منه بمال حتى لا يصيبه ضرر ، فقد يريد أن يتزوج بأخرى وهو محتاج إلى ما قدم من مهر لمن تريد أن تخلع نفسها منه . ويتابع الحق سبحانه : « ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئا » وهذا الشىء هو الذى قال عنه الله فى مكان آخر :

﴿ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا ﴾

(من الآية ٢٠ سورة النساء)

ويتابع الحق الآية بقوله : « إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله » والمقصود هنا هما الزوجان ، ومن بعد ذلك تأتى مسئولية أولياء أمر الزوجين والمجتمع الذى يهمه أمرهما فى قوله : « فإن خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون » .

وحدود الله هى ما شرعه الله لعباده حداً مانعاً بين الحل والحرمة . وحدود الله إما أن ترد بعد المناهى ، وإما أن ترد بعد الأوامر ، فإن وردت بعد الأوامر فإنه يقول :

« تلك حدود الله فلا تعتدوها » أى آخر غايتكم هنا ، ولا تتعدوا الحد ، ولكن إن جاءت بعد النواهى يقول : « تلك حدود الله فلا تقربوها » ، لأن الحق يريد أن يمنع النفس من تأثير المحرمات على النفس ، فتلح عليها أن تفعل ، فإن كنت بعيداً عنها فالأفضل أن تظل بعيداً .

وانظر جيداً فيما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الحلال بيّن وإن الحرام بين وبينهما أمور مشبهات فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام كالراعى يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه ، ألا وإن لكل ملك حمى ، ألا وإن حمى الله فى أرضه محارمه »[1] .

ومادامت الحدود تشمل مناهى الله وتشمل أوامر الله فكل شىء مأمور به وكل شىء منهى عنه يجب أن يظل فى مجاله من الفعل فى « افعل » ومن النهى فى « لا تفعل » . وإذا انتقل نظام (افعل) إلى دائرة (لا تفعل) وانتقل ما يدخل فى دائرة « لا تفعل » إلى دائرة « افعل » ، هنا يختل نظام الكون ، ومادام نظام الكون أصابه الخلل فقد حدث الظلم ؛ فالظلم هو أن تنقل حق إنسان وتعطيه لإنسان آخر ، وتشريع الطلاق حد من حدود الله ، فإن حاولت أن تأتى بأمر لا يناسب ما أمر الله به فى تنظيم اجتماعى فقد نقلت المأمور به إلى حيز المنهى عنه ، وبذلك تُحْدِثُ ظلماً .

والحق سبحانه وتعالى حينما يعالج قضايا المجتمع يعالجها علاجاً يمنع وقوع المجتمع فى الأمراض والآفات ، والبشر إن أحسنًا الظن بهم فى أنهم يشرعون للخير وللمصلحة ، فهم يشرعون على قدر علمهم بالأشياء ، لكننا لا نأمن أن يجهلوا شيئاً يحدث ولا يعرفوه ، فهم شرّعوا لِمَا عرفوا ، وإذا شرعوا لما عرفوا وفوجئوا بأشياء لم يعرفوها ماذا يكون الموقف ؟ إن كانوا مخلصين بحق داسوا على كبرياء غرورهم التشريعى وقالوا: نُعَدِّل ما شرعنا ، وإن ظلوا فى غلوائهم فمن الذى يشقى ؟ إن المجتمع هو الذى يشقى بعنادهم .

---

(١) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه .

والحق سبحانه وتعالى لا يتهم الناس جميعاً فى أن منهم من لا يريد الخير ، ولكنْ هناك فرق بين أن تريد خيراً وألاّ تقدر على الخير . أنت شرعت على قدر قدرتك وعلمك . ونعرف جميعاً أن شقاء التجارب فى القوانين الاجتماعية النظرية تقع على المجتمع .

ونعرف جيداً أن هناك فرقاً بين العلم التجريبى المعملى والكلام النظرى الأهوائى ؛ فالعلم التجريبى يشقى به صاحب التجربة ، إن العَالِم يكد ويتعب فى معمله وهوالذى يشقى ويضحى بوقته وبماله وبصحته ويعيش فى ذهول عن كل شىء إلا تجربته التى هو بصددها ، فإذا ما انتهى إلى قضية اكتشافية فالذى يسعد باكتشافه هو المجتمع . لكن الأمر يختلف فى الأشياء النظرية ؛ لأن الذى يشقى بأخطاء المقننين من البشر هو المجتمع ، إلى أن يجىء مقنن يعطف على المجتمع ويعدل خطأ من سبقه .

أما الحق سبحانه وتعالى فقد جاءنا بتشريع يحمى البشر من الشقاء ، فالله ـ سبحانه ـ يتركنا فى العالم المادى التجريبى أحراراً . ادخلو المعمل وستنتهون إلى أشياء قد تتفقون عليها ، لكن إياكم واختلافات الأهواء ؛ لذلك تولى الله عز وجل تشريع ما تختلف فيه الأهواء ، حتى يضمن أن المجتمع لا يشقى بالخطأ من المشرعين ، لفترة من الزمن إلى أن يجىء مشرع آخر ويعدل للناس ما أخطأ فيه غيره .

لذلك نجد فى عالمنا المعاصر الكثير من القضايا النابعة من الهوى ، ويتمسك الناس فيها بأهوائهم ، ثم تضغط عليهم الأحداث ضغطا لا يستطيعون بعدها أن يضعوا رءوسهم فى الرمال ، بل لابد أن يواجهوها ، فإذا ما واجهوها فإنهم لا يجدون حلاً لها إلا بما شرعه الإسلام ، ونجد أنهم التقوا مع تشريعات الإسلام .

إن بعضاً من الكارهين للإسلام يقولون : أنتم تقولون عن دينكم : إنه جاء ليظهر على كل الأديان ، مرة يقول القرآن :

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ ﴾

(سورة الفتح)

ومرة يقول القرآن :

﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾ ﴾

(سورة الصف)

ويستمر هؤلاء الكارهون للإسلام فى قولهم ويضيفون : إن إسلامكم لم يظهر على الدين كله حتى الآن بدليل أن هناك الملايين لم يدخلوا الإسلام ؟ ونقول لهم : أو يظهر على الدين كله بأن يؤمن الناس بالإسلام جميعاً ،لا ، لو فطنوا إلى قول الله : « ولو كره الكافرون » لعلموا أن إظهار الإسلام على الدين لابد أن يلازمه وجود كافرين كارهين ، ومادام الإسلام موجوداً مع كافرين كارهين ، فهو لن يظهر كدين ، ولكنه يظهر عليهم ـ أى يغلبهم ـ كنظام يضطرون إليه ليحلوا مشكلات مجتمعاتهم الكافرة ، فسيأخذون من أنظمة وقوانين الإسلام وهم كارهون ، ولذلك نجدهم يستقون قوانينهم وإصلاحاتهم الاجتماعية من تعاليم الإسلام .

ولو كانوا سيأخذونه كدين لما قال الحق : « ولو كره الكافرون » أو « ولو كره المشركون » لأنهم عندما يعتنقونه كدين فلن يبقى كاره أو مشرك . لكن حين يقول سبحانه : « ولو كره الكافرون » و« ولو كره المشركون » فذلك يعنى : أن اطمئنوا يا من آمنتم بمحمد صلى الله عليه وسلم وأخذتم الإسلام ديناً ، إن تجارب الحياة ستأتى لتثبت لدى الجاحدين صدق دينكم ، وصدق الله فى تقنينه لكم ، وسيضطر الكافرون والمشركون إلى كثير من قضايا إسلامكم ليأخذوها كنظام يحلون به مشاكلهم رغم عنادهم وإصرارهم على أن يكونوا ضد الإسلام .

وضربنا على ذلك مثلاً بما حدث فى إيطاليا التى بها الفاتيكان قبلة الكاثوليك الروحية ؛ فقد اضطروا لأن يشرعوا قوانين تبيح الطلاق ، وحدث مثل ذلك فى أسبانيا وغيرها من الدول . انظر كيف تراجعوا فى مبادىء كانوا يعيبونها على الإسلام ! لقد اضطرتهم ظروف الحياة لأن يقننوا إباحة الطلاق تقنيناً بشرياً لا بتقنين إلهى . ومثل هذه الأحداث تبين لنا مدى ثقتنا فى ديننا ، وأن مشكلات البشرية فى بلاد الكفر والشرك لن يحلها إلا الإسلام ، فإن لم يأخذوه كدين فسيضطرون إلى أخذه كنظام .

ومن شرف الإسلام ألا يأخذوه كدين ؛ لأنهم لو آمنوا به لكانت أفعالهم وقوانينهم تطبيقا للإسلام من قوم مسلمين ، ولكن أن يظلوا كارهين للإسلام ثم يأخذوا من مبادىء الدين الذى يكرهونه ما يصلح مجتمعاتهم الفاسدة فذلك الفخر الأكبر للإسلام . إن هذا هو مفهوم قول الحق : « ولو كره الكافرون » و« ولو كره المشركون » وإذا ما جاء لك أحد فى هذه المسألة فقل له : من شرف الإسلام أن يظل فى الدنيا مشرك ، وأن يظل فى الدنيا هؤلاء الكفار ثم يرغموا ليحلوا مسائل مجتمعاتهم بقضايا الإسلام ، والإسلام يفخر بأنه سبقهم منذ أربعة عشر قرناً إلى ما يلهثون وراءه الآن بعد مضى كل هذا الزمن . ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ ۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۗ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾ ﴾

وسبق أن قال الحق : « الطلاق مرتان » وبعدها قال : « فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان » . وهنا يتحدث الحق عن التسريح بقوله : « فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجاً غيره » . وذلك حتى يبين لنا أنه إن وصلت الأمور بين

الزوجين إلى مرحلة اللا عودة فلابد من درس قاس ؛ فلا يمكن أن يرجع كل منهما للآخر بسهولة . لقد أمهلهما الله بتشريع البينونة الصغرى التى يعقبها مهر وعقد جديدان فلم يرتدعا ، فكان لابد من البينونة الكبرى ، وهى أن تتزوج المرأة بزوج آخر وتجرب حياة زوجية أخرى . وبذلك يكون الدرس قاسياً .

وقد يأخذ بعض الرجال المسألة بصورة شكلية ، فيتزوج المرأة المطلقة ثلاثاً زواجاً كامل الشروط من عقد وشهود ومهر ، لكن لا يترتب على الزواج معاشرة جنسية بينهما ، وذلك هو « المحلل » الذى نسمع عنه وهو ما لم يقره الإسلام .

فمن تزوج على أنه محلل ومن وافقت على ذلك المحلل فليعلما أن ذلك حرام على الاثنين ، فليس فى الإسلام محلل ، ومن يدخل بنية المحلل لا تجوز له الزوجة ، وليس له حقوق عليها ، وفى الوقت نفسه لو طلقها ذلك الرجل لا يجوز لها الرجوع لزوجها السابق ، لأن المحلل لم يكن زوجاً وإنما هو تمثيل زوج ، والتمثيل لا يُثبت فى الواقع شيئاً . ولذلك قال الحق : « فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجاً غيره » .

والمقصود هنا النكاح الطبيعى الذى ساقت إليه الظروف دون افتعال ولا قصد للتحليل . وعندما يطلقها ذلك الرجل لظروف خارجة عن الإرادة وهى استحالة العشرة ، وليس لأسباب متفق عليها ، عندئذ يمكن للزوج السابق أن يتزوج المرأة التى كانت فى عصمته وطلقها من قبل ثلاث مرات .

« فإن طلقها فلا جناح عليهما أن يتراجعا إن ظنا أن يقيما حدود الله وتلك حدود الله يبينها لقوم يعلمون » أى أن يغلب على الظن أن المسائل التى كانت مثار خلاف فيما مضى قد انتهت ووصل الاثنان إلى درجة من التعقل والاحترام المتبادل ، وأخذا درساً من التجربة تجعل كلا منهما يرضى بصاحبه . وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ

سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا ۚ وَمَن يَفْعَلْ
ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ۚ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا ۚ وَاذْكُرُوا
نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ
يَعِظُكُم بِهِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾

ولنلاحظ قوله : « وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن » ونسأل : هل إذا بلغت الأجل وانتهت العدة ، هل يوجد بعدها إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان ؟، هل يوجد إلا التسريح ؟. إن هناك آية بعد ذلك تقول :

﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ﴾

(من الآية ٢٣٢ من سورة البقرة)

إذن نحن أمام آيتين كل منهما تبدأ بقوله : « وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن » . لكن تكملة الآية الأولى هو : « فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف » وتكملة الآية الثانية هو : « فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن » . ما سر هذا الاختلاف إذن ؟

نقول : إن البلوغ يأتى بمعنيين ، المعنى الأول : أن يأتى البلوغ بمعنى المقاربة مثل قوله تعالى : « إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم » . أى عندما تقارب القيام إلى الصلاة فافعل ذلك . والمعنى الثانى : يطلق البلوغ على الوصول الحقيقى والفعلى . إن الإنسان عندما يكون مسافرا بالطائرة ويهبط فى بلد الوصول فهو يلاحظ أن الطيار يعلن أنه قد وصل إلى البلد الفلانى . إذن مرة يطلق البلوغ على القرب ومرة أخرى يطلق على البلوغ الحقيقى .

وفى الآية الأولى « وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف » هنا طلق الرجل زوجته لكن عدتها لم تنته بل قاربت على الانتهاء قربا يمكنه أن يسرحها أو يمسكها بإحسان ، وأصبح للزوج قدر من زمن العدة يبيح له أن يمسك أو يسرح ، لكنه زمن قليل . إن الحق يريد أن يتمسك الزوج بالإبقاء إلى آخر لحظة ويستبقى أسباب الالتقاء وعدم الانفصال حتى آخر لحظة ، وهذه علة التعبير بقوله : « فبلغن أجلهن » أى قاربن بلوغ الأجل . إن الحق يريدنا أن نتمسك باستبقاء الحياة الزوجية إلى آخر فرصة تتسع للإمساك ، فهى لحظة قد ينطق فيها الرجل بكلمة يترتب عليها إما طلاق ، وإما عودة الحياة الزوجية .

أما الآية الثانية وهى قوله تعالى : « وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن » فالله سبحانه وتعالى يريد أن يحصر مناقشة الأسباب فى الانفصال أو الاستمرار بين الزوج والزوجة فقط فلا تتعدى إلى غير الزوج والزوجة ؛ لأن بين الاثنين من الأسباب ما قد تجعل الواحد منهما يُلين جانبه للآخر .

لكن إذا ما دخل طرف ثالث ليست عنده هذه فسوف تكبر فى نفسه الخصومة ولا توجد عنده الحاجة فلا يبقى على عشرة الزوجين . فإذا ما دخل الأب أو الأخ أو الأم فى النزاع فسوف تشتعل الخصومة ، وكل منهم لا يشعر بإحساس كل من الزوجين للآخر ، ولا بليونة الزوج لزوجته ، ولا بمهادنة الزوجة لزوجها ، فهذه مسائل عاطفية ونفسية لا توجد إلا بين الزوج والزوجة ، أما الأطراف الخارجية فلا يربطها بالزوج ولا بالزوجة إلا صلة القرابة . ومن هنا فإن حرص تلك الأطراف الخارجية على بقاء عشرة الزوجين لا يكون مثل حرص كل من الزوجين على التمسك بالآخر .

ولذلك يجب أن نفهم أن كل مشكلة تحدث بين زوج وزوجته ولا يتدخل فيها أحد تنتهى بسرعة بدون أم أو أب أو أخ ، ذلك لأنه تدخل طرفٍ خارجى لا يكون مالكا للدوافع العاطفية والنفسية التى بين الزوجين ، أما الزوجان فقد تكفى نظرة واحدة من أحدهما للآخر لأن تعيد الأمور إلى مجاريها . فقد يُعجب الرجل بجمال

المرأة ويشتاق إليها ، فينسى كل شيء . وقد ترى المرأة فى الرجل أمراً لا تحب أن تفقده منه فتنسى ما حدث بينهما ، وهكذا .

لكن أين ذلك من أمها وأمه ، أو أبيها وأبيه ؟ ليس بين هؤلاء وبين الزوجين أسرار وعواطف ومعاشرة وغير ذلك .

ولهذا فأنا أنصح دائما بأن يظل الخلاف محصوراً بين الزوج والزوجة ؛ لأن الله قد جعل بينهما سيالا عاطفيا . والسيال العاطفى قد يسيل إلى نزوع ورغبة فى شيء ما ، وربما تكون هذه الرغبة هى التى تصلح وتجعل كلا من الطرفين يتنازل عن الخصومة والطلاق . ولذلك شاءت إرادة الله عز وجل ألا يطلق الرجل زوجته وهى حائض ، لماذا ؟

لأن المرأة فى فترة الحيض لا يكون لزوجها رغبة فيها ، وربما ينفر منها ، لكن يريد الحق عز وجل ألا يطلق الرجل زوجته إلا فى طهر لم يسبق له أن عاشرها فيه معاشرة الزوج زوجته وبعد أن تغتسل من الحيض ، وذلك حتى لا يطلقها إلا وهو فى أشد الأوقات رغبة لها .

إذن فالحق سبحانه وتعالى يريد أن تكون الخلافات بين الزوج والزوجة فى إطار الحياة الزوجية ، حتى يحفظهما سياج المحبة والمودة والرحمة . لكن تدخل الأطراف الأخرى يحطم هذا السياج ، أياً كان الطرف أما أو أبا أو أخا .

ويقول الحق : « ولا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا » أى لا تبق أيها الرجل على الحياة الزوجية من أجل الإضرار بالمرأة وإذلالها ، ومعنى الضرار أنك تصنع شيئا فى ظاهره أنك تريد الخير وفى الباطن تريد الشر . ولذلك أطلق اللفظ على « مسجد الضرار » فظاهر بنائه أنه مسجد بنى للصلاة فيه ، وفى الباطن كان الهدف منه هو الكفر والتفريق بين المؤمنين . وكذلك الضرار فى الزواج ؛ يقول الرجل أنا لا أريد طلاقها وسأعيدها لبيتها ، يقول ذلك ويُبيت فى نفسه أن يعيدها ليذلها وينتقم منها ، وذلك لا يقره الإسلام ؛ بل وينهى عنه .

إن الحق عز وجل يحذر من مثل هذا السلوك فيقول : « ولا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا ، ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه » فإياك أن تظن أنك حين تعتدى على زوجتك بعد أن تراجعها أنك ظلمتها هى ، لا ، إنما أنت تظلم نفسك ؛ لأنك حين تعتدى على إنسان فقد جعلت ربه فى جانبه ، فإن دعا عليك قبِل الله دعوته ، وبذلك تحرم نفسك من رضا الله عنك ، فهل هناك ظلم أكثر من الظلم الذى يأتيك بسخط الله عليك .

ويتابع الحق سبحانه وتعالى : « ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه ولا تتخذوا آيات الله هزوا » أى خذوا نظام الله على أنه نظام جاء ليحكم حركة الحياة حكما بلا مراوغة وبلا تحليق فى خيال كاذب ، إنما هو أمر واقعى ، فلا يصح أن يهزأ أحد بما أنزله الله من أنظمة تصون حياة وكرامة الإنسان رجلا كان أو امرأة .

« واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به » ونعمة الله عليهم التى يذكرهم الله بها فى معرض الحديث عن الطلاق هى أنه ـ سبحانه ـ يلفتهم إلى ما كانوا عليه قبل أن يشرع لهم أين كان حظ المرأة فى الجاهلية فى أمور الزواج والطلاق ، وما أصبحت عليه بعد نزول القرآن ؟ لقد صارت حقوقها مصونة بالقرآن .

إن الحق عز وجل يمتن على المؤمنين ليلفت نظرهم إلى حالتهم قبل الإسلام ؛ فقد كان الرجل يطلق امرأته ويعيدها ، ثم يطلقها ويعيدها ولو ألف مرة دون ضابط أو رابط . وكان يحرم عليها المعاشرة الزوجية شهوراً ويتركها تتعذب بلوعة البعد عنه ، ولا تستطيع أن تتكلم .

وكانت المرأة إذا مات زوجها تنفى من المجتمع فلا تظهر أبدا ولا تخرج من بيتها وكأنها جرثومة ، وقبل ذلك كله كانت مصدر عار لأبيها ، فكان يقتلها قبل أن تصل إلى سن البلوغ بدعوى الحرص على عرضه وشرفه .

باختصار كان الزواج أقرب إلى المهازل منه إلى الجد ، فجاء الإسلام ، فحسم

الأمور حتى لا تكون فوضى بلا ضوابط وبلا قوانين . فاذكروا أيها المؤمنون نعمة الله عليكم بالإسلام ، وانظروا إلى ما أنعم به عليكم من نظام أسرى يلهث العالم شرقه وغربه ليصل إلى مثله .

كنتم أمة بلا حضارة وبلا ثقافة ، تعبدون الأصنام وتقيمون الحرب وتشعلونها بينكم على أتفه الأسباب وأدونها ، وتجهلون القراءة والكتابة ، ثم ينزل الله عليكم هذا التشريع الراقى الناضج الذى لم تصل إليه أية حضارة حتى الآن . ألَا تذكرون هذه النعمة التى أنتم فيها بفضل من الله ؟ لذلك قال سبحانه : « واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به » والكتاب هو القرآن ، والحكمة هى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم . ويختتم الحق تلك الآية الكريمة بقوله : « واتقوا الله واعلموا أن الله بكل شىء عليم » .

فإياكم أن تتهموا دينكم بأنه قد فاته شىء من التشريع لكم ، فكل تشريع جاهز فى الإسلام ، لأن الله عليم بما تكون عليه أحوال الناس ، فلا يستدرك كون الله فى الواقع على ما شرع الله فى كتابه ، لأنه سبحانه خالق الكون ومنزل التشريع . وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾ ﴾

«فبلغن أجلهن » هنا أى فانتهت العدة ، ولم يستنفد الزوج مرات الطلاق ، ولم يعد للزوج حق فى أن يراجعها إلا بعد عقد ومهر جديدين . هب أن الزوج أراد أن

يعيد زوجته إلى عصمته مرة أخرى ، وهنا قد يتدخل أهل اللدد والخصومة من الأقارب ، ويقفون فى وجه إتمام الزواج ، والزوجان ربما كان كل منهما يميل إلى الآخر ، وبينهما سيال عاطفى ونفسى لا يعلمه أحد ، لكن الذين دخلوا فى الخصومة من الأهل يقفون فى وجه عودة الأمور إلى مجاريها ، خوفا من تكرار ما حدث أو لأسباب أخرى ، ونقول لهؤلاء : مادام الزوجان قد تراضيا على العودة فلا يصح أن يقف أحد فى طريق عودة الأمور إلى ما كانت عليه .

وقوله الحق : « فلا تعضلوهن » نعرف منه أن العضل هو المنع ، والكلام للأهل والأقارب وكل من يهمه مصلحة الطرفين من أهل المشورة الحسنة . و« أن ينكحن أزواجهن » أى الذين طلقوهن أولا .

والمعنى : لا تمنعوا الأزواج أن يعيدوا إلى عصمتهم زوجاتهم اللائى طلقوهن من قبل . وليعلم الأهل الذين يصرون على منع بناتهم من العودة لأزواجهن أنهم بالتمادى فى الخصومة يمنعون فائدة التدرج فى الطلاق التى أراد ا حكمة الله .

إن حكمة التشريع فى جعل الطلاق مرة ، ومرتين هى أن من لم يصلح فى المرة الأولى قد يصلح فى المرة الثانية ، وإذا كان الله العليم بنفوس البشر قد شرع لهم أن يطلقوا مرة ومرتين ، وأعطى فسحة من الوقت لمن أخطأ فى المرة الأولى ألا يخطىء فى الثانية ، لذلك فلا يصح أن يقف أحد حجر عثرة أمام إعادة الحياة الزوجية من جديد .

وقوله الحق : « أن ينكحن أزواجهن » ونلحظ هنا أن الحق سبحانه وتعالى ينسب النكاح للنسوة ، فقال : « ينكحن » وهذا يقتضى رضاء المرأة عن العودة للزوج فلا يمكن أن يطلقها أولا ثم لا يكون لها رأى فى العودة إليه .

« إذا تراضوا بينهم بالمعروف » ومادامو تراضوا ورأوا أن عودة كل منهما للآخر أفضل ، فليبتعد أهل السوء الذين يقفون فى وجه رضا الطرفين ، وليتركوا الحلال يعود إلى مجاريه . « ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر ذلكم أزكى

لكم وأطهر » إن هذا تشريع ربكم وهو موعظة لكم يا من تؤمنون بالله ربا حكيما مشرعا وعالما بنوازع الخير فى نفوس البشر .

وكلمة « وأطهر » تلفتنا إلى حرمة الوقوف فى وجه المرأة التى تريد أن ترجع لزوجها الذى طلقها ثم انتهت العدة ، وأراد هو أن يتزوجها من جديد ، إن الحق يبلغنا : لا تقفوا فى وجه رغبتهما فى العودة لأى سبب كان ، لماذا يارب ؟

وتأتى الإجابة فى قوله الحق : « والله يعلم وأنتم لا تعلمون » تأمل جمال السياق القرآنى وكيف خدم قوله تعالى : « والله يعلم وأنتم لا تعلمون » المعنى الذى تريده الآيات . إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون أن فى عودة الأمور لمجاريها بين الزوجين أزكى وأطهر . ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾ ﴾

انظر إلى عظمة الإسلام ها هو ذا الحق سبحانه يتكلم عن إرضاع الوالدات لأولادهن بعد عملية الطلاق ، فالطلاق يورث الشقاق بين الرجل والمرأة ، والحق

سبحانه وتعالى ينظر للمسألة نظرة الرحيم العليم بعباده ، فيريد أن يحمى الثمرة التى نتجت من الزواج قبل أن يحدث الشقاق بين الأبوين ، فيبلغنا : لا تجعلوا شقاقكم وخلافكم وطلاقكم مصدر تعاسة للطفل البرىء الرضيع .

وهذا كلام عن المطلقات اللاتى تركن بيوت أزواجهن ، لأن الله يقول بعد ذلك : « وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف » ومادامت الآية تحدثت عن « رزقهن وكسوتهن » فذلك يعنى أن المرأة ووليدها بعيدة عن الرجل ، لأنها لو كانت معه لكان رزق الوليد وكسوته أمرا مفروغا منه . والحق سبحانه يفرض هنا حقا للرضيع ، وأمه لم تكن تستحقه لولا الرضاع . وبعض الناس فهموا خطأ أن الرزق والكسوة للزوجات عموما ونقول لهم : لا . إن الرزق والكسوة هنا للمطلقات اللاتى يرضعن فقط .

ويريد الحق سبحانه أن يجعل هذا الحق أمرا مفروغا منه ، فشرع حق الطفل فى أن يتكفله والده بالرزق والكسوة حتى يكون الأمر معلوما لديه حال الطلاق .

وقوله تعالى : « والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين » نلحظ فيه أنه لم يأت بصيغة الأمر فلم يقل : يا والدات أرضعن ، لأن الأمر عرضة لأن يطاع وأن يعصى ، لكن الله أظهر المسألة فى أسلوب خبرى على أنها أمر واقع طبيعى ولا يخالف .

ويقول الحق : « وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن » ولنتأمل عظمة الأداء القرآنى فى قوله:« وعلى المولود له » إنه لم يقل:« وعلى الوالد » ، وجاء بـ « المولود له » ليكلفه بالتبعات فى الرزق والكسوة ، لأن مسئولية الإنفاق على المولود هى مسئولية الوالد وليست مسئولية الأم ، وهى قد حملت وولدت وأرضعت والولد يُنسب للأب فى النهاية. يقول الشاعر :

فإنّما أمهات الناس أوعية
مستوعادت وللآباء أبناء

ومادام المولود منسوباً للرجل الأب ، فعلى الأب رزقه وكسوته هو وعليه أيضا رزق

وكسوة أمه التى ترضعه بالمعروف المتعارف عليه بما لا يسبب إجحافاً وظلما للأب فى كثرة الإنفاق ، ويقول الحق : « **لا تكلف نفس إلا وسعها** » هنا الحديث عن الأم والأب . فلا يصح أن ترهق المطلقة والد الرضيع بما هو فوق طاقته ، وعليها أن تكتفى بالمعقول من النفقة .

ويتابع الحق : « لا تضار والدة بولدها ولا مولود له بولده » ولازال الحق يُذكرُ الأب بأن المولود له هو ، وعليه ألا يضر والدة الطفل بمنع الإنفاق على ابنه ، وألا يتركها تتكفف الناس من أجل رزقه وكسوته ، وفى الوقت نفسه يُذَكرُ الأم : لا تجعلى رضيعك مصدر إضرار لأبيه بكثرة الإلحاح فى طلب الرزق والكسوة .

إنه عز وجل يضع لنا الإطار الدقيق الذى يكفل للطفل حقوقه ، فهناك فرق بين رضيع ينعم بدفء الحياة بين أبوين متعاشرين ، ووجوده بين أبوين غير متعاشرين .

والحق سبحانه وتعالى يعطينا لفتة أخرى هى أن والد المولود قد يموت فإذا ما مات الوالد فمن الذى ينفق على الوليد الذى فى رعاية أمه المطلقة ؟ هنا يأتينا قول الحق بالجواب السريع : « وعلى الوارث مثل ذلك » .

إن الحق يقرر مسئولية الإنفاق على من يرث والد الرضيع ، صحيح أن الرضيع سيرث فى والده ، لكن رعاية الوليد اليتيم هى مسئولية من يرث الوصاية وتكون له الولاية على أموال الأب إن مات . وهكذا يضمن الله عز وجل حق الرضيع عند المولود له وهو أبوه إذا كان حيا ، وعند من يرث الأب إذا تُوفى .

وبذلك يكون الله عز وجل قد شَرَّع لصيانة أسلوب حياة الطفل فى حال وجود أبويه ، وشرع له فى حال طلاق أبويه وأبوه حيٌّ ، وشرع له فى حال طلاق أبويه ووفاة أبيه . ويتابع الحق : « فإن أرادا فصالا عن تراضٍ منهما وتشاور فلا جناح عليهما » .

انظر إلى الرحمة فى الإسلام ؛ فطلاق الرجل لزوجته لا يعنى أن ما كان بينهما قد

انتهى ، ويضيع الأولاد ويشقون بسب الطلاق ، فقوله تعالى : « عن تراضٍ منهما وتشاور » دليل على أن هناك قضية مشتركة مازالت بين الطرفين وهى ما يتصل برعاية الأولاد ، وهذه القضية المشتركة لابد أن يُلاحظ فيها حق الأولاد فى عاطفة الأمومة ، وحقهم فى عاطفة الأبوة ، حتى ينشأ الولد وهو غير محروم من حنان الأم أو الأب ، وإن اختلفا حتى الطلاق .

إن عليهما أن يلتقيا بالتشاور والتراضى فى مسألة تربية الأولاد حتى يشعروا بحنان الأبوين ، ويكبر الأولاد دون آلام نفسية ، ويفهمون أن أمهم تقدر ظروفهم ، وكذلك والدهم وبرغم وجود الشقاق والخلاف بينهما فقد اتفقا على مصلحة الأولاد بتراضٍ وتشاور .

إن ما يحدث فى كثير من حالات الطلاق من تجاهل للأولاد بعد الطلاق هى مسألة خطيرة ؛ لأنها تترك رواسب وآثارا سلبية عميقة فى نفوس الأولاد ، ويترتب عليها شقاؤهم وربما تشريدهم فى الحياة . وما ذنب أولاد كان الكبار هم السبب المباشر فى مجيئهم للحياة ؟ أليس من الأفضل أن يوفر الآباء لهم الظروف النفسية والحياتية التى تكفل لهم النشأة الكريمة ؟ إن منهج الله أمامنا فلماذا لا نطبقه لنسعد به وتسعد به الأجيال القادمة ؟

والحق سبحانه وتعالى قال فى أول الآية : « والوالدت يرضعن أولادهن حولين كاملين » لكن ماذا يكون الحال إن نشأت ظروف تقلل من فترة الرضاعة عن العامين ، أو نشأت ظروف خاصة جعلت فترة الرضاعة أطول من العامين ؟ هنا يقول الحق : « فإن أرادا فصالا عن تراض منهما وتشاور فلا جناح عليهما » .

إنه جل وعلا يبين لنا أن الفصال أى الفطام يجب أن يكون عن تراض وتشاور بين الوالدين ولا جناح عليهما فى ذلك . ويقول الحق : « وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم فلا جناح عليكم إذا سلمتم ما آتيتم بالمعروف » ، و« أن تسترضعوا أولادكم » أى أن تأتوا للطفل بمرضعة ، فإن أردتم ذلك فلا لوم عليكم فى ذلك .

إن المطلق حين يوكل إلى الأم أن ترضع وليدها فالطفل يأخذ من حنان الأم

الموجود لديها بالفطرة ، لكن هب أن الأم ليست لديها القدرة على الإرضاع أو أن ظروفها لا تسعفها على أن ترضعه لضعف فى صحتها أو قوتها،عند ذلك فالوالد مُطالب أن يأتى لابنه بمرضعة ، وهذه المرضعة التى ترضع الوليد تحتاج إلى أن يعطيها الأب ما يُسخِّيها ويجعلها تقبل على إرضاع الولد بأمانة ، والإشراف عليه بصدق .

ويختم الحق هذه الآية الكريمة بقوله : « واتقوا الله واعلموا أن الله بما تعملون بصير » ، إن الحق يحذر أن يأخذ أحد أحكامه ويدعى بظاهر الأمر تطبيقها ، لكنه غير حريص على روح هذه الأحكام ، مثال ذلك الأب الذى يريد أن يدلس على المجتمع ، فعندما يرى الأب مرضعة ابنه أمام الناس فهو يدعى أنه ينفق عليها ، ويعطيها أجرها كاملا ، ويقابلها بالحفاوة والتكريم بينما الواقع يخالف ذلك .

إن الله يحذر من يفعل ذلك : أنت لا تعامل المجتمع وإنما تعامل الله « والله بما تعملون بصير » . ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾ ﴾

والعدة ـ كما عرفنا ـ هى الفترة الزمنية التى شرعها الله بعد زواج انتهى بطلاق أو بوفاة الزوج . والعدة إما أن تكون بعد طلاق ، وإما بعد وفاة زوج ، فإن كانت العدة بعد طلاق فمدتها ثلاثة قروء ، والقرء ـ كما عرفنا ـ هو الحيضة أو الطهر ، فإن كانت المطلقة صغيرة لم تحض بعد أو كانت كبيرة تعدت سن الحيض فالعدة تنقلب من القروء إلى الأشهر وتصبح « ثلاثة أشهر » .

وعرفنا أن من حق الزوج أن يراجع زوجته بينه وبين نفسه دون تدخل الزوجة أو ولى أمرها،له ذلك فى أثناء فترة العدة فى الطلاق الرجعى ، فإن انتهت عدتها فقد سقط حقه فى مراجعة الزوجة بنفسه ، وله أن يراجعها ، ولكن بمهر وعقد جديدين مادام قد بقى له حق أى لم يستنفد مرات الطلاق .

وقد قلنا : إن تعدت الطلقات اثنتين وأصبحت هناك طلقة ثالثة فلا بد من زوج آخر يتزوجها بالطريقة الطبيعية لا بقصد أن يحللها للزوج الأول . وأما عدة المتوفى عنها زوجها فقد عرفنا أن القرآن ينص على أنها تتربص بنفسها أربعة أشهر وعشرا ، هذا إن لم تكن حاملا ، فإن كانت حاملا فعدتها أبعد الأجلين ، فإن كان الأجل الأبعد هو أربعة أشهر وعشرا فتلك عدتها ، وإن كان الأجل الأبعد هو الحمل فعدتها أن ينتهى الحمل . لكن أليس من الجائز أن يموت زوجها وهى فى الشهر التاسع من الحمل فتلد قبل أن يدفن ؟ وهل يعنى ذلك أن عدتها انتهت ؟ لا ، إنها تنتهى بأبعد الأجلين وهو فى هذه الحالة مرور أربعة أشهر وعشرا ، وإن قال بعض الفقهاء:إن عدة الحامل بوضع الحمل .

لكن إذا لم يكن زوجها متوفًى عنها فعدتها أن تضع حملها ، وإن شاءت أن تتزوج بعد ذلك فلها ذلك ولو بعد لحظة . وبعض الناس يفسرون الحكمة من جعل عدة المتوفى عنها زوجها أربعة أشهر وعشرا ، فيقولون : لأنها إن كانت حاملا بذكر فسيظهر حملها عندما يتحرك بعد ثلاثة أشهر ، وإن كانت حاملا بأنثى فستتحرك بعد أربعة أشهر ونعطيها مهلة عشر ليالٍ .

ونقول لهم : جزاكم الله خيرا على تفسيركم ، لكن العدة هنا ليست لاستبراء الرحم ؛ لأنها لو كانت لاستبراء الرحم لانتهت عدة المرأة بمجرد ولادتها . ولو كان الأمر للتأكد من وجود حمل أو عدمه ، لكانت عدتها ثلاث حيضات إن كانت من ذوات الحيض ، وإن كانت من غير ذوات الحيض لصغر أو لكبر سن لكانت عدتها ثلاثة أشهر . لكن الله اختصها بأربعة أشهر وعشر وفاءً لحق زوجها عليها وإكراما لحياتها الزوجية .

إذن فالله عز وجل جعل المتوفى عنها زوجها تتربص أقصى مدة يمكن أن تصبر عليها

المرأة . فالمرأة ساعة تكون متوفى عنها زوجها لا تخرج من بيتها ولا تتزين ولا تلقى أحداً وفاءً للزوج ، فإذا انتهت عدتها أى مضت عليها الأربعة الأشهر والعشرة ، « فلا جناح عليكم فيما فعلن فى أنفسهن » وهو يعنى أن تتزين فى بيتها وتخرج دون إبداء زينة وأن يتقدم لها من يريد خطبتها . وقوله تعالى : « أربعة أشهر وعشرا » والمقصود بهذه المدة أربعة أشهر وعشر ليال .

وهنا لفتة تشريعية إيمانية تدل على استطراق كل حكم شرعى فى جميع المكلفين وإن لم يكن الحكم ماسا لهم ؛ فالمتوفى عنها زوجها تربصت أربعة أشهر وعشرا وبلغتها فى مدة العدة ، وكان من حكم الله عليها ألا تتزين وألا تكتحل وألا تخرج من بيتها وفاءً لحق زوجها فإذا بلغت الأجل وانتهى قال : « فلا جناح عليكم فيما فعلن فى أنفسهن » ، ولم يقل : فلا جناح عليهن .

لقد وجه الخطاب هنا للرجال ؛ لأن كل مؤمن له ولاية على كل مؤمنة ، فإذا رأى فى سلوكها أو أسلوب عنايتها بنفسها ما ينافى العدة فله أن يتدخل . مثلا إذا رآها تتزين قال لها أو أرسل إليها من يقول لها : لماذا تتزينين ؟ إن قول الله : « فلا جناح عليكم » يجعل للرجال قوامة على المتوفى عنها زوجها ، فلا يقولون : لا دخل لنا ؛ لأن الحكم الإيمانى حكم مستطرق فى كل مؤمن وعلى كل مؤمن . فالحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ﴾

(من الآية ٣ سورة العصر)

إن قوله الحق : « تواصوا » لا يعنى أن قوما خُصوا بأنهم يُوصون غيرهم وقوما آخرين يُوصيهم غيرهُم ، بل كل واحد منا موصٍ فى وقت ؛ وموصىً من غيره فى وقت آخر ، هذا هو معنى « وتواصوا » .

فإذا رأيت فى غيرك ضعفا فى أى ناحية من نواحى أحكام الله ، فلك أن توصيه . وكذلك إن رأى غيرُك فيك ضعفا فى أى ناحية من النواحى فله أن يوصيك ، وعندما نتواصى جميعا لا يبقى لمؤمن بيننا خطأ ظاهر .

إذن فالآية لا تَخُصُ بالوصاية جماعة دون أخرى إنما الكل يتواصون ، لأن الأغيار البشرية تتناوب الناس أجمعين . فأنت فى فترة ضعفى رقيب على ، فتوصينى . وأنا فى فترة ضعفك رقيب عليك ، فأوصيك . ولذلك جاء قول الحق : « فلا جناح عليكم » إنه سبحانه لم يوجه الخطاب للنساء ، ولكن خاطب به المؤمنين ولم يخص بالخطاب أولياء أمور النساء فحسب وإنما ترك الحكم للجميع حتى لا يقول أحد : لا علاقة لى بالمرأة التى توفى عنها زوجها ولتفعل ما تشاء . إن لها أن تتزين بالمتعارف عليه إسلاميا فى الزينة ، ولها أن تتجمل فى حدود ما أذن الله لها فيه .

ويختتم الحق هذه الآية بقوله : « والله بما تعملون خبير » أى والله أعلم بما فى نفسها وبما فى نيتها . وهب أنها فعلت أى فعل على غير مرأى من أحد فلا تعتقد أن المجتمع وإن لم يشهد منها ذلك أن المسألة انتهت ، لا ، إنّ الله عليم بما تفعل وإن لم يطلع عليها أحد من الناس .

إن الحق سبحانه وتعالى قد حمى بكل التشريعات السابقة حق الزوج حتى تنتهى العدة ، وحق المتوفى عنها زوجها فى أثناء العدة ، وحمى أيضا بكل التشريعات كرامة المرأة . وجعل المرأة حرما لا يقترب منه أحد يخدش حجابها ، إنّ عليها عدة محسوبة فى هذا الوقت لرجل آخر ، فلا يحق لأحد أن يقترب منها .

لماذا ؟ لأن المرأة خاصة إذا كانت مطلقة قد تتملكها رغبة فى أن تثأر لنفسها ولكرامتها ، وربما تعجلت التزوج ، وربما كانت مسائل الافتراق أو الخلاف ناشئة عن اندساس رغبة راغب فيها ، وبمجرد أن يتم طلاقها وتعيش فترة العدة فقد يحوم حولها الراغبون فيها ، أو تستشرف هى من ناحيتها من تراه صالحا كزوج لها . ولذلك يفرض الحق سياجا من الزمن ويجعل العدة كمنطقة حرام ليحمى المرأة حماية موضوعية لا شكلية .

التشريع ـ لإنه من إله رحيم ـ لا يهدر عواطف النفس البشرية : لا من ناحية الذى يرغب فى أن يتزوج ، ولا من ناحية المرأة التى تستشرف أن تتزوج ، فيعالج هذه المسألة بدقة وبحزم وبحسم معا فيقول ـ جل شأنه ـ :

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾﴾

و« عرضتم » مأخوذة من التعريض . والتعريض : هو أن تدل على شيء لا بما يؤديه نصا ، ولكن تعرض به تلميحا .

إن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يجعل للعواطف تنفيسا من هذه الناحية ، والتنفيس ليس مجرد تعبير عن العاطفة ، ولكنه رعاية للمصلحة ، فمن الجائز أنه لو حرم التعريض لكان فى ذلك ضياع فرصة الزواج للمرأة ، أو قد يفوت ـ هذا المنع ـ الفرصة على من يطلبها من الرجال ؛ لذلك يضع الحق القواعد التى تفرض على الرجل والمرأة معا أدب الاحتياط ، وكأنه يقول لنا : أنا أمنعكم أن تخطبوا فى العدة أو تقولوا كلاما صريحا وواضحا فيها ، لكن لا مانع من التلميح من بعيد .

مثلا يثنى الرجل على المرأة ؛ ويعدد محاسنها بكلام لا يعد خروجا على آداب الإسلام مثل هذا الكلام هو تلميح وتعريض ، وفائدته أنه يعبر عما فى نفس قائله تجاه المطلقة فتعرف رأيه فيها ، ولو لم يقل ذلك فربما سبقه أحد إليها وقطع عليه السبيل لإنفاذ ما فى نفسه ، ومنعه من أن يتقدم لخطبتها بعد انتهاء العدة ، وقد يدفعه ذلك لأن يفكر تفكيرا آخر للتعبير بأسلوب وشكل خاطىء .

إذن فالتعريض له فائدة فى أنه يُعرف المطلقة رأى فلان فيها حتى إن جاءها غيره لا توافق عليه مباشرة . وهكذا نرى قبساً من رحمة الحق سبحانه وتعالى بنا ، بأن جعل العدة كمنطقة حرام تحمى المرأة ، وجعل التعريض فرصة للتعبير عن العاطفة التى تؤسس مصلحة من بعد ذلك .

إن الحق يقول : « ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء » والخطبة مأخوذة من مادة « الخاء » و« الطاء » و« الباء » وتدل على أمور تشترك فى عدة معالم : منها خُطبة بضم الخاء ، ومنها خَطْب وهو الأمر العظيم ، ومنها المعنى الذى نحن بصدده وهو الخطبة بكسر الخاء . وكل هذه المعالم تدل على أن هناك الأمر العظيم الذى يُعالج ، فالخطب أمر عظيم يهز الكيان ، وكذلك الخُطبة لا يلقيها الخطيب إلا فى أمر ذى بال ، فيعظ المجتمع بأمر ضرورى .

والخِطبة كذلك أمر عظيم ؛ لأنه أمر فاصل بين حياتين : حياة الانطلاق ، وحياة التقيد بأسرة وبنظام . وكلها معان مشتركة فى أمر ذى بال ، وأمر خطير . وهو سبحانه وتعالى يقول : « ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء أو أكننتم فى أنفسكم » أى لا جناح عليكم أن وضعتم فى أنفسكم أمرا يخفى على المرأة ، وللمسلم أن يكنن ويخفى فى نفسه ما يشاء ، ولكن ما الذى يُدرى ويعلم المطلقة أنها فى بالك يا من أسررت أمرها فى نفسك ؟ إنك لابد أن تلمح وأن تعرض بأسلوب يليق باحترام المرأة .

ويقول الحق : « علم الله أنكم ستذكرونهن » ، إن الذى خلقك يعلم أنها مادامت فى بالك ، ومات زوجها عنها أو طلقها فقد أصبحت أملا بالنسبة لك ، فلو أنه ضيق عليك لعوق عواطفك ، ولضاعت منك الفرصة لأن تتخذها زوجة من بعد ذلك ، ولهذا أباح الحقُّ التعريضَ حتى لا يقع أحدكم فى المحظور وهو « لا تواعدوهن سرا » بأن تأخذوا عليهن العهد ألا يتزوجن غيركم ، أو يقول لها : تزوجينى. بل عليه أن يعرض ولا يفصح ولا يصرح. إن المواعدة فى السر أمر منهى عنه، لكن المسموح به هو التعريض بأدب ، « إلا أن تقولوا قولا معروفا » كأن يقول : « يا سعادة من ستكون له زوجة مثلك » . ومثل ذلك من الثناء الذى يُطرب المرأة .

ونعلم جميعا أن المرأة فى مثل حال المطلقة أو المتوفى عنها زوجها تملك شفافية وألمعية تلتقط بها معنى الكلام ومراده .

ويتابع الحق : « ولا تعزموا عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله » وهكذا نرى أن مجرد العزم الأكيد أمر نهى عنه . والعزم مقدم على الفعل فإذا نهى عنه كان النهى عن الفعل أقوى وأشد وأنهى ، فلك أن تنوى الزواج منها وتتوكل على الله ، لكن لا تجعله أمرا مفروغا منه ، إلا بعد أن تتم عدتها ، فإن بلغ الكتاب أجله وانتهت عدتها فاعزموا عقدة النكاح . فكأن عقدة النكاح تمر بثلاث مراحل :

المرحلة الأولى : وهى التعريض أى التلميح .
والمرحلة الثانية : هى العزم الذى لا يصح ولا يستقيم أن يتم إلا بعد انتهاء فترة العدة .
والمرحلة الثالثة : هى العقد .

والمقصود بهذه المراحل أن يأخذ كل طرف فرصته للتفكير العميق فى هذا الأمر الجاد ، فإن كان التفكير قد هدى إلى العزم فإن للإنسان أن يعقد بعد انتهاء العدة ، وإن كان التفكير قد اهتدى إلى الابتعاد وصرف النظر عن مثل هذا الأمر فللإنسان ما يريد .

ويريد الحق من هذه المراحل أن يعطى الفرصة فى التراجع إن اكتشف أحد الطرفين فى الآخر أمرا لا يعجبه . وكل هذه الخطوات تدل على أن العقد لا يكون إلا بعزم ، فلا يوجد عقد دون عزم ، إن الحق يريد من المسلم ألا يقدم على عقدة النكاح إلا بعد عزم . والعزم معناه التصميم على أنك تريد الزواج بحق الزواج وبكل مسئولياته ، وبكل مهر الزواج ، ومشروعيته ، وإعفافه ؛ فالزواج بدون أرضية العزم مصيره الفشل .

ومعنى العزم : أن تفكر فى المسألة بعمق وروية فى نفسك حتى تستقر على رأى أكيد ، ثم لك أن تقبل على الزواج على أنه أمر له ديمومة وبقاء لا مجرد شهوة طارئة ليست لها أرضية من عزيمة النفس عليها .

ولذلك فإن الزواج القائم على غير رويّة ، والمعلق على أسباب مؤقتة كقضاء الشهوة لا يستمر ولا ينجح . ومثل ذلك زواج المتعة ؛ فالعلة فى تحريم زواج المتعة أن المقدم عليه لا يريد به الاستمرار فى الحياة الزوجية ، ومادام لا يقصد منه الديمومة فمعناه أنه هدف للمتعة الطارئة .

والذين يبيحون زواج المتعة مصابون فى تفكيرهم ؛ لأنهم يتناسون عنصر الإقبال بديمومة على الزواج ، فما الداعى لأن تقيد زواجك بمدة ؟ إن النكاح الأصيل لا يُقيد بمثل هذه المدة . وتأمل حمق هؤلاء لتعلم أن المسألة ليست مسألة زواج ، إنما المسألة هى تبرير زنى ، وإلا لماذا يشترط فى زواج المتعة أن يتزوجها لمدة شهر أو أكثر ؟

إن الإنسان حين يشترط تقييد الزواج بمدة فذلك دليل على غباء تفكيره وسوء نيته ؛ لأن الزواج الأصيل هو الذى يدخل فيه بديمومة ، وقد ينهيه بعد ساعة إن وجد أن الأمر يستحق ذلك ، ولن يعترض أحد على مثل هذا السلوك ، فلماذا تقيد نفسك بمدة ؟ إن المتزوج للمتعة يستخدم الذكاء فى غير محله ، قد يكون ذكيا فى ناحية ولكنه قليل الفطنة فى ناحية أخرى .

إن على الإنسان أن يدخل على الزواج بعزيمة بعد تفكير عميق وروية ثم ينفذ العزم إلى عقد . حذار أن تضع فى نفسك مثل هذا الزواج المربوط على مطامع وأهداف فى نفسك كعدم الديمومة أو لهدف المتعة فقط ، فكل ما يفكر فيه بعض الناس من أطماع شهوانية ودنيوية هى أطماع زائلة . اصرف كل هذه الأفكار عنك ؛ لأنك إن أردت شيئاً غير الديمومة فى الزواج ، وإرادة الإعفاف ؛ فالله سبحانه وتعالى يعلمه وسيرد تفكيرك نقمة عليك فاحذره .

إن الله سبحانه لا يحذر الإنسانَ من شىء إلا إذا كان مما يغضبه سبحانه . لذلك يذيل الحق هذه الآية الكريمة بقوله : « واعلموا أن الله يعلم ما فى أنفسكم فاحذروه واعلموا أن الله غفور حليم » . وهو سبحانه يعلم ضعف النفس البشرية وأنها قد تضعف فى بعض الأحيان ، فإن كان قد حدث منها شىء فالله يعطيها الفرصة فى أن يتوب صاحبها لأنه سبحانه هو الغفور الحليم . وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾﴾

نحن نلاحظ أن الكلام فيما تقدم كان عن الطلاق للمدخول بها ، أو عن المرأة التى دخل بها زوجها ومات عنها . ولكن قد تحدث بعض من المسائل تستوجب الطلاق لامرأة غير مدخول بها . وتأتى هذه الآية لتتحدث عن المرأة غير المدخول بها ، وهى إما أن يكون الزوج لم يفرض لها صداقاً ، وإما أن يكون قد فرض لها صداقاً .

والطلاق قبل الدخول له حكمان : فُرضت فى العقد فريضة ، أو لم تفرض فيه فريضة ، فكأن عدم فرض المهر ليس شرطاً فى النكاح ، بل إذا تزوجته ولم يفرض فى هذا الزواج مهر فقد ثبت لها مهر المثل والعقد صحيح . ودليل ذلك أن الله سبحانه وتعالى يقول : « لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسوهن أو تفرضوا لهن فريضة » ومعنى ذلك أنها كانت زوجة ولم يحدث دخول للزوج بها .

ولنا أن نسأل ما هو المس ؟ ونقول : فيه مس ، وفيه لمس ، وفيه ملامسة . فالإنسان قد يمس شيئاً ، ولكن الماس لا يتأثر بالممسوس ، أى لم يدرك طبيعته أو حاله هل هو خشن أو ناعم ؟ دافىء أو بارد ، وإلى غير ذلك .

أما اللمس فلابد من الإحساس بالشىء الملموس ، أما الملامسة فهى حدوث التداخل بين الشيئين . إذن فعندنا ثلاث مراحل : الأولى هى : مس . والثانية : لمس . والثالثة : ملامسة . كلمة « المس » هنا دلت على الدخول والوطء ، وهى أخف من اللمس ، وأيسر من أن يقول : لامستم أو باشرتم ، ونحن نأخذ هذا

المعنى ؛ لأن هناك سياقا قرآنيا فى مكان آخر قد جاء ليكون نصا فى معنى ، ولذلك نستطيع من سياقه أن نفهم المعنى المقصود بكلمة « المس » هنا ، فقد قالت السيدة مريم :

﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾

(من الآية ٢٠ سورة مريم) .

إن القرآن الكريم يوضح على لسان سيدتنا مريم أن أحداً من البشر لم يتصل بها ذلك الاتصال الذى ينشأ عنه غلام ، والتعبير فى منتهى الدقة ، ولأن الأمر فيه تعرض لعورة وأسرار ؛ لذلك جاء القرآن بأخف لفظ فى وصف تلك المسألة وهو المس ، وكأن الله سبحانه وتعالى يريد أن يثبت لها إعفافاً حتى فى اللفظ ، فنفى مجرد مس البشر لها ، وليس الملامسة أو المباشرة برغم أن المقصود باللفظ هو المباشرة ؛ لأن الآية بصدد إثبات عفة مريم .

ولنتأمل أدب القرآن فى تناول المسألة فى الآية التى نحن بصددها ؛ فكأن الحق سبحانه وتعالى يعبر عن اللفظ بنهاية مدلوله وبأخف التعبير .

والحق يقول : « أو تفرضوا لهن فريضة » وتعرف أن « أو » عندما ترد فى الكلام بين شيئين فهى تعنى « إما هذا وإما ذاك » ، فهل تُفرض لهن فريضة مقابل المس ؟ . إن الأصل المقابل فى « ما لم تمسوهن » هو أن تمسوهن . ومقابل « تفرضوا لهن فريضة » هو : أن لا تفرضوا لهن فريضة . كأن الحق عز وجل يقول : لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسوهن سواء فرضتم لهن فريضة أو لم تفرضوا لهن فريضة . وهكذا يحرص الأسلوب القرآنى على تنبيه الذهن فى ملاحظة المعانى .

ولنا أن نلاحظ أن الحق قد جاء بكلمة « إن » فى احتمال وقوع الطلاق ، و« إن » ـ كما نعرف ـ تُستخدم للشك ، فكأن الله عز وجل لا يريد أن يكون الطلاق مجترءاً عليه ومحققاً ، فلم يأت بـ« إذا » ، بل جعلها فى مقام الشك حتى تُعزز الآية قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « أبغض الحلال إلى الله الطلاق »[1] .

---

(١) رواه أبو داود والبيهقى والحاكم عن ابن عمر .

ثم يقول الحق عز وجل بعد ذلك : « ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره » أى إنّك إذا طلقت المرأة قبل الدخول ، ولم تفرض لها فريضة فأعطها متعة . وقال العلماء فى قيمة المتعة : إنها ما يوازى نصف مهر مثيلاتها من النساء ؛ لأنه كان من المفروض أن تأخذ نصف المهر ، ومادام لم يُحدّد لها مهرٌ فلها مثل نصف مهر مثيلاتها من النساء . ويقول الحق : « على الموسع قدره وعلى المقتر قدره » أى ينبغى أن تكون المتعة فى حدود تناسب حالة الزوج ؛ فالموسع الغنى : عليه أن يعطى ما يليق بعطاء الله له ، والمقتر الفقير : عليه أن يعطى فى حدود طاقته .

وقول القرآن : « الموسع » مشتق من « أوسع » واسم الفاعل « موسع » واسم المفعول « مُوسع عليه » ، فأى اسم من هؤلاء يطلق على الزوج ؟ إن نظرت إلى أن الرزق من الحق فهو « موسع عليه » ، وإن نظرت إلى أن الحق يطلب منك أن توسع حركة حياتك ليأتيك رزقك ، وعلى قدر توسيعها يكون اتساع الله لك ، فهو « موسع » .

إذن فالموسع : هوالذى أوسع على نفسه بتوسيع حركة أسبابه فى الحياة . والإقتار هو الإقلال ، وعلى قدر السعة وعلى قدر الإقتار تكون المتعة . والحق سبحانه وتعالى حينما يطلب حكماً تكليفياً لا يقصد إنفاذ الحكم على المطلوب منه فحسب ، ولكنه يوزع المسئولية فى الحق الإيمانى العام ؛ فقوله : « ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره » يعنى إذا وُجد من لا يفعل حكم الله فلا بد أن تتكاتفوا على إنفاذ أمر الله فى أن يمتع كل واحد طلق زوجته قبل أن يدخل بها . والجمع فى الأمر وهو قوله : « ومتعوهن » دليل على تكاتف الأمة فى إنفاذ حكم الله . وبعد ذلك قال :

﴿ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَاْ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ ﴾

وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾

أى مادام لم يدخل بها ولم يتمتع بها فلا تأخذ المهر كله ، إنما يكون لها النصف من المهر . ولنعلم أن هناك فرقاً بين أن يوجد الحكم بقانون العدل ، وبين أن يُنظر فى الحكم ناحية الفضل ، وأحكى هذه الواقعة لنتعلم منها :

ذهب اثنان إلى رجل ليحكم بينهما فقالا : احكم بيننا بالعدل . قال : أتحبون أن أحكم بينكما بالعدل ؟ أم بما هو خير من العدل ؟ فقالا : وهل يُوجد خير من العدل ؟ قال : نعم . الفضل .

إن العدل يعطى كل ذى حق حقه ، ولكن الفضل يجعل صاحب الحق يتنازل عن حقه أو عن بعض حقه . إذن فالتشريع حين يضع موازين العدل لا يريد أن يُحرم النبع الإيمانى من أريحية الفضل ؛ فهو يعطيك العدل ، ولكنه سبحانه يقول بعد ذلك : « ولا تنسوا الفضل بينكم » ؛ فالعدل وحده قد يكون شاقاً وتبقى البغضاء فى النفوس ، ولكن عملية الفضل تنهى المشاحة والمخاصمة والبغضاء .

والمشاحة إنما تأتى عندما أظن أنى صاحب الحق ، وأنت تظن أنك صاحب الحق ، ومن الجائز أن تأتى ظروف تزين لى فهمى ، وتأتى لك ظروف تزين لك فهمك ، فحين نتمسك بقضية العدل لن نصل إلى مبلغ التراضى فى النفوس البشرية . ولكن إذا جئنا للفضل تراضينا وانتهينا .

والحق سبحانه وتعالى يقول : « وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن » أى من قبل أن تدخلوا بهن « وقد فرضتم لهن فريضة » يعنى سميتم المهر « فنصف ما فرضتم إلا أن يعفون » والمقصود بـ « يعفون » هو الزوجة المطلقة .

إن بعض الجهلة يقولون والعياذ بالله : إن القرآن فيه لحن . وظنوا أن الصحيح فى اللغة أن يأتى القول : إلا أن يعفوا بدلا من « إلا أن يعفون » . وهذا اللون

من الجهل لا يفرق بين « واو الفعل » و« واو الجمع » إنها هنا « واو الفعل » فقول الحق : « إلا أن يعفون » مأخوذة من الفعل « عفا » و« يعفو » .

وهكذا نفهم أن للزوجة أن تعفو عن نصف مهرها وتتنازل عنه لزوجها. ويتابع الحق: « أو يعفو الذى بيده عقدة النكاح » والمقصود به الزوج وليس الولى ، لأن سياق الآية يُفهم منه أن المقصود به هو الزوج ، مع أن بعض المفسرين قالوا : إنه ولى الزوجة . ولنا أن نعرف أن الولى ليس له أن يعفو فى مسألة مهر المرأة ؛ لأن المهر من حق الزوجة ، فهو أصل مال ، وأصل رزق فى حياة الناس ؛ لأنه نظير التمتع بالبضع .

ولذلك تجد بعض الناس لا يصنعون شيئاً بصداق المرأة ، ويدخرونه لها بحيث إذا مرض واحد اشترت له من هذا الصداق ولو قرص اسبرين مثلا ؛ لأنه علاج من رزق حلال ، فقد يجعل الله فيه الشفاء . فالمرأة تحتفظ بصداقها الحلال لمثل هذه المناسبات لتصنع به شيئا يجعل الله فيه خيراً ، لأنه من رزق حلال لا غش فيه ولا تدليس .

وأرد على المفسرين الذين نادوا بأن ولى الزوجة هو الذى يعفو وأقول : لماذا يأتى الله بحكم تتنازل فيه المرأة عن حقها وأن تعفو عن النصف ، والرجل لا يكون أريحياً ليعفو عن النصف ؟ لماذا تجعل السماء الغرم كله على المرأة ؟ هل من المنطقى أن تعفو النساء أو يعفو الذى بيده عقد النكاح يعنى أولياء الزوجة ، فنجعل العفو يأتى من الزوجة ومن أوليائها ؛ أى من جهة واحدة ؟

إن علينا أن نحسن الفهم لسياق الفضل الذى قال الله فيه : « ولا تنسوا الفضل بينكم » ، إن التقابل فى العفو يكون بين الاثنين ، بين الرجل والمرأة ، ونفهم منه المقصود بقوله تعالى : « أو يعفوَ الذى بيده عقدة النكاح » أنه هو الزوج ، فكما أن للمرأة أن تعفوَ عن النصف المستحق لها فللزوج أن يعفو أيضا عن النصف المستحق له .

ويقول الحق : « وأن تعفوا أقرب للتقوى » ؛ لأن من الجائز جدا أن يظن أحد الطرفين أنه مظلوم ، وإن أخذ النصف الذى يستحقه . لكن إذا لم يأخذ شيئا فذلك أقرب للتقوى وأسلم للنفوس . ولنا أن نتذكر دائما فى مثل هذه المواقف قول الحق :

« ولا تنسوا الفضل بينكم » فحتى فى مقام الخلاف الذى يؤدى إلى أن يفترق رجل عن امرأة لم يدخل بها يقول الله : « ولا تنسوا الفضل بينكم » أى لا تجعلوها خصومة وثأراً وأحقاداً ، واعلموا أن الحق سبحانه يجعل من بعض الأشياء أسبابا مقدورة لمقدور لم نعلمه . وهذه المسألة تجعل الإنسان لا يعتقد أن أسبابه هى الفاعلة وحدها .

ومثال ذلك : قد نجد رجلا قد أعجب بواحدة رآها فتزوجها ، أو واحدة أخرى رآها شاب ولم تعجبه ، ثم جاء لها واحد آخر فأعجب بها ، معنى ذلك أن الله عز وجل كتب لها القبول ساعة رأت الشاب أهلاً لها ورآها هى أهلاً له . ولذلك كان الفلاحون قديما يقولون : لا تحزن عندما يأتى واحد ليخطب ابنتك ولا تعجبه ؛ لأنه مكتوب على جبهة كل فتاة:أيها الرجال عفوا ـ بكسر العين وتشديد الفاء ـ عن نساء الرجال ؛ فهى ليست له ، ولذلك فليس هذا الرجل من نصيبها . وعلينا ألا نهمل أسباب القدر فى هذه الأمور ؛ لأن هذا أدعى أن نحفظ النفس البشرية من الأحقاد والضغائن .

ويختم الحق الآية بقوله : « إن الله بما تعملون بصير » إنه سبحانه يعلم ما فى الصدور وما وراء كل سلوك . وبعد ذلك تأتى آية لتثبت قضية إيمانية ، هذه القضية الإيمانية هى أن تكاليف الإسلام كلها تكاليف مجتمعة ، فلا تستطيع أن تفصل تكليفا عن تكليف ، فلا تقل : « هذا فرض تعبدى » و« هذا مبدأ مصلحيّ » و« هذا أمر جنائى » ، لا . إن كل قضية مأمور بها من الحق هى قضية إيمانية تُكَوِّنُ مع غيرها منهجا متكاملا .

فبعد أن تكلم الحق سبحانه وتعالى عن الطلاق يقول :

﴿ حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَآ أَمِنتُمْ

فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾

ثم يعود إلى الأسرة وإلى المتوفى عنها زوجها فيقول :

﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِى مَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾ ﴾

(سورة البقرة)

إذن فالحق سبحانه وتعالى فصَلَ بآية : « حافظوا على الصلوات . . » بين قضية واحدة هى قضية الفراق بين الزوجين وقسمها قسمين ، وأدخل بينهما الحديث عن الصلاة ، وذلك لينبهنا إلى وحدة التكاليف الإيمانية ، ونظرا لأن الحق يتكلم هنا عن أشياء كل مظاهرها إما شقاق اختيارى بالطلاق ، وإما افتراق قدرى بالوفاة ، فأراد الله سبحانه وتعالى أن يدخل الإنسان فى العملية التعبدية التى تصله بالله الذى شرع الطلاق والصلاة وقدر الوفاة .

ولماذا اختار الله الصلاة دون سائر العبادات لتقطع سياق الكلام عن تشريع الطلاق والفراق ؟ لأن الصلاة هى التى تهب المؤمنين الاطمئنان ، إن كانت أمور الزواج والطلاق حزبتهم وأهمتهم فى شقاق الاختيار فى الطلاقات التى وقعت أو عناء الافتراق بالوفاة . ولن يربط على قلوبهم إلا أن يقوموا لربهم ليؤدوا الصلاة ، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أول من يفعل ذلك ، كان إذا ما حزبه أمر قام إلى الصلاة .

إن المؤمن يذهب إلى الخالق الذى أجرى له أسباب الزواج والطلاق والفراق ؛

ليسأله أن يخفف عنه الهم والحزن . ومادام المؤمن قد اختار الذهاب إلى من يُجرى الأقدار فله أن يعرف أن الله الذى أجرى تلك الأقدار عليه لم يتركها بلا أحكام ، بل وضع لكل أمر حكما مناسبا ، وما على المؤمن إلا أن يأخذ الأمور القدرية برضا ثم يذهب إلى الله قانتا وخاشعا ومصليا . لأن المسألة مسألة الطلاق أو الوفاة فيها فزع وفراق اختيار أو فراق الموت القدرى .

ويأتى قوله تعالى : « حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى » فنفهم أن المقصود فى الآية هى الصلوات الخمس ، فما المقصود بالصلاة الوسطى ؟

ساعة يأتى خاص وعام مثل قوله تعالى :

﴿ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿٢٨﴾ ﴾

(سورة نوح)

فكم مرة دخل الأب والأم هنا ؟ لقد دخلوا فى قوله تعالى : «اغفر لى ولوالدى » ، وفى قوله : « ولمن دخل بيتى » ، وفى قوله : « وللمؤمنين والمؤمنات » ، أى دخلوا ثلاث مرات .

إذن فإيجاد عام بعد خاص ، يعنى أن يدخل الخاص فى العام فيتكرر الأمر بالنسبة للخاص تكراراً يناسب خصوصيته .

وقوله تعالى : « حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى » تفهم ذلك المعنى . فإذا سألنا : ما معنى حافظوا ؟ الجواب ـ إذن ـ يقتضى أن نفهم أن عندنا « حفظا » يقابل « النسيان » ، و« حفظا » يقابله « التضييع » ، والاثنان يلتقيان ، فالذى حفظ شيئا ونسيه فإنه قد ضيعه . والذى حفظ مالا ثم بدده ، لقد ضيعه أيضاً ، إذن كلها معانٍ تلتقى فى فقد الشىء ، فالحفظ معناه أن تضمن بقاء شىء كان عندك ؛ فإذا ما حفظت آية فى القرآن فلا بد أن تحفظها فى نفسك ، ولو أنعم الله عليك بمال فلا بد أن تحافظ عليه .

وقوله : « حافظوا على الصلوات » معناه لا تضيعوها . ويُحتمل أيضاً معنى آخر هو أنكم قد ذقتم حلاوة الصلاة فى القرب من معية ربكم ، وذلك أجدر وأولى أن تتمسكوا بها أكثر ، وذلك القول يسرى على الصلوات الخمس التى نعرفها .

قوله تعالى : « والصلاة الوسطى » ذكر للخاص بعد العام ، فكأن الله أمر بالمحافظة على ذلك الخاص مرتين ، مرة فى دائرة العموم ومرة أخرى أفردها الله بالخصوص . وما العلة هنا فى تفرد الصلاة الوسطى بالخصوص ؟ إن « وسطى » هى تأنيث « أوسط » ، والأوسط والوسطى هى الأمر بين شيئين على الاعتدال ، أى أن الطرفين متساويان ، ولا يكون الطرفان متساويين فى العدد ـ وهى الصلوات الخمس ـ إلا إذا كانت الصلوات وتراً ؛ أى مفردة ؛ لأنها لو كانت زوجية لما عرفنا الوسطى فيها ، ومادام المقصود هو وسط الخمس ، فهى الصلاة الثالثة التى يسبقها صلاتان ويعقبها صلاتان ، هذا إن لاحظت العدد ، باعتبار ترتيب الأول والثانى والثالث والرابع والخامس .

وإذا كان الاعتبار بفرضية الصلاة فإن أول صلاة فرضها الله عز وجل هى صلاة الظهر ، هذا أول فرض ، وبعده العصر ، فالمغرب ، فالعشاء ، فالفجر . فإن أخذت الوسطى بالتشريع فهى صلاة المغرب وهذا رأى يقول به كثير من العلماء .

وإن أخذت الوسطى بحسب عدد ركعات الصلاة فستجد أن هناك صلاة قوامها ركعتان هى صلاة الفجر وصلاة من أربع ركعات هى صلاة الظهر والعصر والعشاء ، وصلاة من ثلاث ركعات هى صلاة المغرب . والوسط فيها هى الصلاة الثلاثية ، وهى وسط بين الزوجية والرباعية فتكون هى صلاة المغرب أيضا . وإن أخذتها بالنسبة للنهار فالصبح أول النهار والظهر بعده ثم العصر والمغرب والعشاء ، فالوسطى هى العصر .

وإن أخذتها على أنها الوسط بين الجهرية والسرية فيحتمل أن تكون هى صلاة الصبح أو صلاة المغرب ؛ لأن الصلوات السرية هى الظهر والعصر ، والجهرية هى المغرب والعشاء والفجر . وبين العشاء والظهر تأتى صلاة الصبح ، أو صلاة المغرب باعتبار أنها تأتى بين الظهر والعصر من ناحية ، والعشاء والصبح من ناحية أخرى .

وإن أخذتها لأن الملائكة تجتمع فيها فهى فى طرفى النهار والليل فذلك يعنى صلاة العصر أو صلاة الصبح . إذن ، فالوسط يأتى من الاعتبار الذى تُحسب به إن كان عدداً أو تشريعا ، أو عدد ركعات ، أو سرية أو جهرية أو بحسب نزول ملائكة ا ر والليل ، وكل اعتبار من هؤلاء له حكم .

ولماذا أخفى الله ذكرها عنا ؟ نقول : أخفاها لينتبه كل منا ويعرف أن هناك فرقا بين الشىء لذاته ، والشىء الذى يُبهم فى سواه ؛ ليكون كل شىء هو الشىء فيؤدى ذلك إلى المحافظة على جميع الصلوات .

فما دامت الصلاة الوسطى تصلح لأن تكون الصبح والظهر والعصر والمغرب والعشاء فذلك أدعى للمحافظة على الصلوات جميعا . فإبهام الشىء إنما جاء لإشاعة بيانه . ولذلك أبهم الله ليلة القدر للعلة نفسها وللسبب نفسه ، فبدل أن تكون ليلة قدر واحدة أصبحت ليالى أقدار .

كذلك قوله تعالى : « حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى » أى على الصلوات الخمس بصفة عامة وكل صلاة تنفرد بصفة خاصة . ويريد الحق سبحانه أن نقوم لكل صلاة ونحن قانتون ، والأمر الواضح هو « وقوموا لله قانتين » وأصل القنوت فى اللغة هو المداومة على الشىء ، وقد حض وحث القرآن الكريم على ديمومة طاعة الله ولزوم الخشوع والخضوع ، ونرى ذلك فى قول الحق الكريم :

﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾ ﴾

(سورة الزمر)

إن الحق سبحانه يبلغ رسوله صلى الله عليه وسلم ليبلغنا نحن المسلمين المؤمنين برسالته أن نقارن بين الذى يخشع لله فى أثناء الليل فيقضيه قائما وساجدا يرجو رحمة ربه ، وبين الذى يدعو ربه فى الضراء وينساه فى السراء ، هل يستوى الذين يعلمون حقوق الله فيطيعوه ويوحدوه والذين لا يعلمون فيتركوا النظر والتبصر فى أدلة قدرات

الله ؟ إن السبيل إلى ذكر الله هو تجديد الصلة به والوقوف بين يديه مقيمين للصلاة .

ونحن نتلقى الأمر بإقامة الصلاة حتى فى أثناء القتال ، لذلك شرع لنا صلاة الخوف ، فالقتال هو المسألة التى تخرج الإنسان عن طريق أمنه ، فيقول سبحانه : « فإن خفتم فرجالا أو ركبانا » ، إننا حتى فى أثناء القتال والخوف لا ننسى ذكر الله ؛ لأننا أحوج ما نكون إلى الله أثناء مواجهتنا للعدو ، ولذلك لا يصح أن نجعل السبب الذى يوجب أن نكون مع الله مبررا لأن ننسى الله .

وكذلك المريض ، مادام مريضاً فهو مع معية الله ، فلا يصح أن ينقطع عن الصلاة ؛ لأنه لا عذر لتاركها ، حتى المريض إن لم يستطع أن يصلى واقفا صلى قاعدا ، فإن لم يستطع قاعدا ؛ فليصل مضطجعا ، ويستمر معه الأمر حتى لو اضطر للصلاة برموش عينيه . كذلك إن خفتم من عدوكم صلوا رجالا ، يعنى سائرين على أرجلكم أو ركبانا و« رجالا » جمع « راجل » أى يمشى على قدميه ، ومثال ذلك قوله الحق :

﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ ﴾

(سورة الحج)

لقد كان الناس يؤدون فريضة الحج سيرا على الأقدام أو ركبانا على إبل يضمرها السفر من كل مكان بعيد . إذن فالراجل هو من يمشى على قدميه . والأرجل مخلوقة لتحمل بنى الإنسان : الواقف منهم ، وتقوم بتحريك المتحرك منهم ، فإن كان الإنسان واقفا حملته رجلاه ، وإن كان ماشيا فإن رجليه تتحركان . والمقصود هنا أن الصلاة واجبة على المؤمنين سائرين على أقدامهم أو ركبانا .

هذه المسألة قد فصلها الحق سبحانه وتعالى فى صلاة الخوف بأن قسم المسلمين قسمين : قسما يصلى مع النبى عليه الصلاة والسلام فى الركعة الأولى ، ثم يتمون الصلاة وحدهم ويأتى القسم الآخر ليأتم بالرسول فى الركعة التى بعدها حتى تنتهى الصلاة بالنسبة للرسول صلى الله عليه وسلم ، وينتظرهم حتى يفرغوا من صلاتهم ويسلم بهم ، فيكون الفريق الأول أخذ فضل البدء مع الرسول ، والفريق الآخر أخذ فضل الانتهاء من الصلاة مع الرسول صلى الله عليه وسلم . وكان ذلك فى غزوة ذات الرقاع

فكلٌ من الفرقتين كانت تقف فى وجه العدو للحراسة فى أثناء صلاة الفرقة الأخرى .

ولى رأى فى هذه المسألة هو أن صلاة الخوف بالصور التى ذكرها الفقهاء إنما كانت للمعارك التى يكون فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه لا يصح أن يكون هناك جيش يصلى خلف النبى صلى الله عليه وسلم ويحرم الباقى من أن يصلى خلفه ، لذلك جعل الله بركة الصلاة مع رسول الله للقسمين .

لكن حينما انتقل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى فمن الممكن أن يكون للواقفين أمام العدو إمام وللآخرين إمام ، إذن كان تقسيم الصلاة وراء الإمام فى صلاة الخوف إنما كان لأن الإمام هو الإمام الأعلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يشأ الله أن يحجب قوما عن الصلاة مع رسول الله عن قوم آخرين ، فقسم الصلاة الواحدة بينهم . لكن فى وقتنا الحالى الذى انتظمت فيه المسائل ، وصار كل الناس على سواء ، ولم يعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فينا ، لذلك يصح أن تُصلى كل جماعة بإمام خاص بهم .

وقوله الحق : « فإن خفتم فرجالا أو ركبانا » نفهم منه أن الصلاة لا تسقط حتى عند لقاء العدو ، فإذا حان وقت الصلاة فعلى المؤمن أن يصليها إذا استطاع فإن لم يستطع فليكبر تكبيرتين[1] ويتابع الحق فيقول : « فاذكروا الله كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون » أى اذكروا الله على أنه علمكم الأشياء التى لم تكونوا تعلمونها ، فلو لم يعلمكم فماذا كنتم تصنعون ؟

وبعد ذلك يعود الحق لسياق الحديث عن المتوفى عنها زوجها فيقول :

﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ

(١) أنظر تفسير القرطبى للآية الكريمة رقم ٢٣٩ - سورة البقرة .

فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾

فى آية سابقة قال الحق :

﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾ ﴾

(سورة البقرة)

إذن نحن أمام حكمين للذين يتوفون ويذرون أزواجا ، حكم أن تتربص بنفسها أربعة أشهر وعشرا ، وحكم آخر بأن للزوج حين تحضره الوفاة أو أسبابها أو مقدماتها أن ينصح ويوصى بأن تظل الزوجة فى بيته حولا كاملا لا تُهاج ، وتكون الأربعة الأشهر والعشر فريضة وبقية الحول والعام وصية ، إن شاءت أخذتها وإن شاءت عدلت عنها .

« والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا وصية » هذه وصية من الزوج عندما تحضره الوفاة .

إذن فالمتوفى عنها زوجها بين حكمين : حكم لازم وهو فرض عليها بأن تظل أربعة أشهر وعشرا ، وحكم بأن يوصى الزوج بأن تظل حولا كاملا لا تُهاج إلا أن تخرج من نفسها . و« غير إخراج » أى لا يخرجها أحد . « فإن خرجن فلا جناح عليكم فيما فعلن فى أنفسهن من معروف والله عزيز حكيم » . إن لها الخيار أن تظل عاما حسب وصية زوجها ، ولها الخيار فى أن تخرج بعد الأربعة الأشهر والعشر .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ ﴾

إن لكل المطلقات فى أى صورة من الصور متاعا ، ولكنه سبحانه قد بين المتاع فى كل واحدة بدليل أنه أوضح لنا : إن لم تفرضوا لهن فريضة فقال : « ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره » . وإن كنتم فرضتم لها مهرًا فنصف ما فرضتم ، فكأن الله قد جعل لكل حالة حكما يناسبها ، ولكل مطلقة متعة بالقدر الذى قاله سبحانه . وعندما نتأمل قول الحق من بعد ذلك :

﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾ ﴾

فنحن نعرف مما سبق أن الآيات هى الأمور العجيبة ، والحق سبحانه وتعالى حين ينبه العقل إلى استقبال حكم بالتعقل يكون العقل المحض لو وجه فكره إلى دراسة أسباب هذا الموضوع فلن ينتهى إلا إلى هذا الحكم . ولذلك تجد أن الحق سبحانه وتعالى يترك لبعض المشادات فى التعامل والثارات فى الخصومة أن تخرج عن حكم ما شرع الله فى أى شىء من الأشياء التى تقدمت ، ثم يصيب المجتمع شر من المخالفة ، وكأنه بذلك يؤكد حكمته فى تشريع ما شرع . وإلا لو لم تحدث من المخالفات شرور لقال الناس : إنه لا داعى للتشريع . ولتركوا التشريع دون أن يصيبهم شر .

إذن فحين لا نلتزم بالتشريع فالمنطق والكمال الكونى أن تحدث الشرور ؛ لأنه لو لم تحدث الشرور لاتهم الناس منهج الله وقالوا : إننا لم نلتزم يارب بمنهجك ، ومع ذلك لا شرور عندنا . فكأن الشرور التى نجدها فى المجتمع تلفتنا إلى صدق الله وكمال حكمته فى تحديد منهجه . وهكذا يكون المخالفون لمنهج الله مؤيدين لمنهج الله . وبعد ذلك ينتقل الحديث إلى علاج قضية إيمانية وهو أن الله حين يقدر قدرا لا يمكن لمخلوق أن يفلت من هذا القدر ، يقول سبحانه :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ ﴾

بعد أن تكلم الحق سبحانه وتعالى على ما يتعلق بالأسرة المسلمة فى حالة علاج الفراق فى الزواج إما بالطلاق وإما بالوفاة ، أراد الحق سبحانه وتعالى للأمة الإسلامية أن تعرف أن أحداً لن يفر من قدر الله إلا إلى قدر الله ، فالأمة الإسلامية هى الأمة التى أمنها على حمل رسالة ومنهج السماء إلى الأرض إلى أن تقوم الساعة ، فلم يعد محمد صلى الله عليه وسلم يأتى ولا نبى يُبعث . ولا بد لمثل هذه الأمة أن تُربى تربية تناسب مهمتها التى حملها الله إياها . ولا بد أن يضع الحق سبحانه وتعالى بين يدى هذه الأمة كل ما لاقته وصادفته مواكب الرسل فى الأمم السابقة ليأخذوا العبرة من المواقف ويتمثلوا المنهج لا من نظريات تُتلى ولكن من واقع قد دُرس ووقع فى المجتمع .

أراد الحق سبحانه وتعالى أن يلفتنا إلى أساس المسألة وهو أنه سبحانه واهب الحياة ولا أحد غيره ، وواهب الحياة هو الذى يأخذها . ولم يضع لهبة الحياة سبباً عند

الناس . وإنما هو سبحانه الذى يحيى ويميت . وفى الحياة والموت استبقاء للنوع الإنسانى ، ولكن استبقاء حياة الأفراد إنما ينشأ بالقوت الذى ينشأ من التمول .

ويعالج الحق هذه المسألة بواقع سبق أن عاشه موسى عليه السلام مع قومه وهم بنو إسرائيل ، ونعرف أن قصة موسى مع قومه قد أخذت أوسع قصص القرآن ؛ لأنها الأمة التى أتعبت الرسل ، وأتعبت الأنبياء ، وكان لا بد أن يعرض الحق هذا الأمر برمته على أمة محمد صلى الله عليه وسلم من واقع ما حدث ، فقال سبحانه : « ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت » . ونعرف من هذا القول أن علة الخروج إنما كانت مخافة أن يموتوا . أما عن سبب هذا الموت فلم تتعرض له الآيات ، وإن تعرض المفسرون له وقالوا كلاما طويلاً ، فمنهم من قال : إنهم خرجوا هربا من وباء يحل بالبلد خشية أن يموتوا ، وبعضهم قال : إنهم خرجوا فِراراً من عدو قد سُلط عليهم ليستأصلهم ، المهم أنهم أرادوا أن يفروا خوفا من الموت .

إذن فالقرآن يعالج تلك المسألة من الزاوية التى تهم ، ولكن ما هو السبب ولماذا الخروج ؟ فذلك أمر لا يهم ؛ لأن القرآن لا يعطى تاريخا ، فلم يقل متى كانت الوقائع ولا زمنها ، ولا على يد من كان هذا ، ولا يحدد أشخاص القضية ، كل ذلك لا يهتم به القرآن . والذين يتعبون أنفسهم فى البحث عن تفاصيل تلك الأمور فى القصص القرآنى إنما يحاولون أن يربطوا الأشياء بزمن مخصوص ، ومكان مخصوص ، وأشخاص مخصوصة .

ونقول لهم : إن القرآن لو أراد ذلك لفعل ، ولو كان ذلك له أصل فى العبرة والعظة لبيّنه الحق لنا ، وأنتم تريدون إضعاف مدلول القصة بتلك التفاصيل ؛ لأن مدلول القصة إن تحدد زمنها ، فربما قيل : إن الزمان الذى حدثت فيه كان يحتمل أن تحدث تلك المسألة والزمن الآن لم يعد يحتملها ، وربما قيل : إن هذا المكان الذى وقعت فيه يحتمل حدوثها ، إنما الأمكنة الأخرى لا تحتمل . وكذلك لو حددها بشخصيات معينة لقيل : إنّ القصص لا يمكن أن تحدث إلا على يد هذه الشخصيات ؛ لأنها فلتات فى الكون لا تتكرر .

إن الله حين يبهم فى قصة ما عناصر الزمان والمكان والأشخاص وعمومية الأمكنة إنه ـ سبحانه ـ يعطى لها حياة فى كل زمان وفى كل مكان وحياة مع كل شخص ، ولا يستطيع أحد أن يقول : إنها مشخصة . وأضرب دائما هذا المثل بالذين يحاولون أن يعرفوا زمن أهل الكهف ومكان أهل الكهف وأسماء أهل الكهف وكلب أهل الكهف . نقول لهؤلاء : أنتم لا تثرون القصة ، لأنكم عندما تحددون لها زمانا ومكانا وأشخاصا فسيقال : إنها لا تنفع إلا للزمان الذى وقعت فيه .

ولذلك إذا أراد الحق أن يبهم فقد أبهم ليعمم ، وإن أراد أن يحدد فهو يشخِّص . ومثال ذلك قوله تعالى :

﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾

(سورة التحريم)

لم يحدد الحق هنا اسم أى امرأة من هاتين المرأتين ، بل ذكر فقط الأمر المهم وهو أن كلا منهما كانت زوجة لرسول كريم ، ومع ذلك لم يستطع نوح عليه السلام أن يستلب العقيدة الكافرة من زوجته ، ولم يستطع لوط عليه السلام أن يستلب العقيدة الكافرة من زوجته ، بل كانت كل من المرأتين تتآمر ضد زوجها ـ وهو الرسول ـ مع قومها ، لذلك كان مصير كل منهما النار ، والعبرة من القصة أن اختيار العقيدة هو أمر متروك للإنسان ، فحرية العقيدة أساس واضح من أسس المنهج .

وأيضا قال سبحانه فى امرأة فرعون :

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ ﴾

(سورة التحريم)

لم يذكر اسمها ؛ لأنه لا يهمنا فى المسألة ، المهم أنها امرأة من ادّعى الألوهية ،

ومع ذلك لم يستطع أن يقنع امرأته بأنه إله . لكن حينما أراد أن يشخص قال فى مريم عليها السلام :

﴿ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾ ﴾

(سورة التحريم)

لقد ذكرها الحق وذكر اسم والدها ، ذلك لأن الحدث الذى حدث لها لن يتكرر فى امرأة أخرى . فالذين يحاولون أن يُقَوّوا القصة بذكر تفاصيلها نقول لهم : أنتم تُفقرون القصة ؛ فالمهم هو أن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يقول : إنهم خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت . ونريد أن نقف موقفا لغويا عند قول الحق : « ألم تر » .

أنت تقول لإنسان : « ألم تر » يعنى ألم ير بعينيه ، وبالله هل رسول الله صلى الله عليه وسلم وهل المؤمنون معه والمؤمنون بعده إلى أن تقوم الساعة رأوا هذه المسألة ؟ لا . لقد وصلتهم بوسيلة السماع وليس بالرؤية . ونحن نعلم أن الرؤية تكون بالعين ، والسماع يكون بالأذن ، والتذوق يكون باللسان ، والشم يكون بالأنف ، واللمس يكون باليد ، إن هذه هى الوسائل التى تعطى للعقل إدراكا وإحساسا لكى يعطى معنويات ، وفى ذلك اقرأ قوله تعالى :

﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾

(سورة النحل)

إذن فوسيلة العلم تأتى من الحواس ، وسيدة الحواس هى العين ؛ لأنه من الممكن أن تسمع شيئا من واحدٍ بتجربته هو ، لكن عندما ترى أنت بنفسك فتكون التجربة خاصة بك ، ولذلك يقال : « ليس مَن رأى كمن سمع » ، فإذا أراد الحق أن يقول : ألم تعلم يا من أخاطبك بالقرآن خبر هؤلاء القوم ؟ فهو سبحانه يأتى بها على هذه الصورة : « ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم » ويعنى ألم تعلم والعلم هنا بأى وسيلة ؟ بالسمع .

ولماذا لم يختصر سبحانه المسافة ويقول : « ألم تسمع » بدلا من « ألم تر » ؟ . إنه فى قوله : « ألم تر » يخبرك بشىء سابق عن وجودك أو بشىء متأخر عن وجودك ، فعليك أن تستقبله استقبالك لما رأيته ؛ لأن الله الذى خلق الحواس هو ـ سبحانه ـ أصدق من الحواس ، ولذلك جاء قوله تعالى فى سورة الفيل :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴿١﴾ ﴾

(سورة الفيل)

إننا نعرف أن النبى صلى الله عليه وسلم ولد فى عام الفيل ولم ير هذه الحادثة فكيف يقول الله له ألم تر ؟ إن المعنى من ذلك هو « ألم تعلم » ؟ « ألم تسمع منى » ولم يقل « ألم تسمع » ؟ لكى يؤكد له أنه سيقول له حدثا هو لم يره ولكن الحق سيخبره به ، وإخبار الحق له كأنه يراه . فكأن الله يقول : إن هذه مسألة مفروغ منها وساعة أخبرك بها فكأنك رأيتها .

ونحن نسمع فى حياتنا قول الناس : إن فلانا ألمعى . ومعنى ذلك أنه يحدثك حديثا كأنه رأى أو سمع .

الألمعى الذى يظن بك الظن كأن قد رأى وقد سمعا

ويحدثنا الحق عن هؤلاء القوم فيقول : « ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم » . إنه سبحانه يخبرنا بأن الأمر الذى يفرون منه لاحِق بهم ، لأنه لا يَحتاط من قدر الله أحد ، لذلك أماتهم الله ثم أحياهم ليتعظوا . ولو أخر الله الإحياء إلى يوم البعث فلن تؤثر العبرة ؛ لأنه بعد يوم القيامة لا اعتبار ولا تكليف ، وكل ذلك لا قيمة له .

وقوله تعالى : « حذر الموت » بيان لعلة الخروج ، فأراد الحق سبحانه وتعالى أن يبين لهم أن هذه قضية لا ينفع فيها الحذر ، أنتم خرجتم خوفا من الموت سأميتكم ، والذى كنتم تطلبونه بعد الموت سأحدث لكم غيره ، لذلك أحياهم إحياءً آخر حتى يتحسروا ، ويأخذوا أجلهم المكتوب « ثم أحياهم » حتى يبين لكم أن أمر الموت بيده

سبحانه سواءً كان خوفهم من الموت نابعا من أعدائهم أو من وباء وطاعون ، فالأمر فى جوهره لا يختلف ، ولو أن الآية ذكرت أنهم خرجوا خوفا من وباء ما كنا فهمنا منها احتمال خروجهم خوفا من أعدائهم . إذن إبهام السبب المباشر فى القصة أعطاها ثراءً .

قوله تعالى : « وهم ألوف » يبين لنا مدى الخيبة والغباء الذى كانوا فيه ، لأنهم كيف يخرجون خائفين من الأعداء وهم ألوف مؤلفة . ولم يظهر واحد من هؤلاء الألوف ليقول لهم : إن الموت والحياة بيد الله . « ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا » .

وساعة تأمر مأمورا منك بأمر فلا بد أن يكون عندك طلاقة قدرة أن تفعل ، وهل إذا قلت لأحد : مت ، سيموت ؟ إذا أمات نفسه فقد قتلها ، وفرق كبير بين الموت والقتل . إنما الموت يأتى بلا سبب من الميت ، ولكن القتل ربما يكون بسبب الانتحار أو بأى وسيلة أخرى ، المهم أنه قتل للنفس وليس موتا .

ويوضح لنا الحق الفرق بين القتل والموت حين يقول :

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

ولقد جاءت هذه الآية فى مجال استخلاص العبر من هزيمة أُحد حين شاع بين المسلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قتل ، ففكر بعض منهم فى الارتداد ، وجاء قول الحق سبحانه موضحا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو نبى سبقه رسل جاءوا بالمنهج ، والأمة المسلمة التى أمنها الله على تمام المنهج لا يصح أن يهتز الإيمان فيها بموت الرسول الكريم ؛ لأن من ينقلب ويرتد فلن يضر الله شيئا ، إنما الجزاء سيكون للشاكرين العارفين فضل منهج الله .

ولنا أن نعرف أن الحق سبحانه جاء بالموت كمقابل للقتل ، وأوضح فى الآية

التالية أمر الموت حين قال :

﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَـٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۖ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

إذن فأمر الموت مرهون بمشيئة الله وطلاقة قدرته وتحديده لكل أجل بوقت معلوم لا يتقدم ولا يتأخر ، وسيلقى كل إنسان نتيجة عمله،فمن عمل للدنيا فقط نال جزاءه فيها ، ومن عمل للآخرة فسيجزيه الله فى دنياه وآخرته .

لذلك يصدر الأمر من الحق بقوله : « فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم » فلم يكن بإرادتهم أن يصنعوا موتهم ، أو أمر عودتهم إلى الحياة ، لكنه أمر تسخيرى . إنهم يموتون بطلاقة قدرته المتمثلة فى « كن فيكون » . ويعودون إلى الحياة بتمام طلاقة القدرة المتمثلة فى « كن فيكون » . فليس لهم رأى فى مسألة الموت أو العودة للحياة ، إنه أمر تسخيرى ، كما قال الحق من قبل للأرض والسماء :

﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ۖ قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ ﴾

(سورة فصلت)

لقد شاءت قدرته أن يخلق السماء على هيئة دخان فوُجدت ، وخلقه للسماوات والأرض على وفق إرادته وهو هين عليه بمنزلة ما يقال للشىء احضر راضيا أو كارها ، فيسمع الأمر ويطيعه . وهذه أمور تسخيرية من الخالق الأكرم ، وليس للمخلوق من سماوات وأرض وما بينهما إلا الامتثال للأمر التسخيرى من الخالق عز وجل . فعندما يقول الحق سبحانه : « موتوا ثم أحياهم » فهذا أمر تسخيرى بالموت ، وأمر تسخيرى بعودتهم إلى الحياة .

وأليس الموت هو ما خافوه وفروا منه واحتاطوا بالهرب منه ؟ نعم ، لكن لا أحد

بقادر على أن يحتاط على قدر الله ؛ لأن الحق أراد لهم أن يعرفوا أن أحداً لا يفر من قدر الله إلا لقدر الله . ولذلك فسيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه عندما أراد للناس ألا تذهب إلى أرض فيها الطاعون . قالوا له :

ـ أتفر من قدر الله ؟
قال عمر : نعم : نِفرُّ من قدر الله إلى قدر الله .

إن ذلك يجعل الإنسان فى تسليم مطلق بكل جوارحه لله . صحيح على الإنسان أن يحتاط ، ولكن القدر الذى يريده الله سوف ينفذ . والمؤمن يأخذ بالأسباب ، ويسلم أمره إلى الله .

وقد يقول قائل : لماذا لم يترك الله هؤلاء القوم من بنى إسرائيل ليموتوا وإلى أن يأتى البعث يوم القيامة ليحاسبهم ؟

وأقول : لقد أراد الحق سبحانه بالأمر التسخيرى بالإحياء ثانية أن توجد العبرة والعظة ، ولتظل ماثلة أمام أعين الخلق ومحفوظة فى أكرم كتاب حفظه الله منهجا للناس وهو القرآن الكريم . إن الحق أراد بالأمر عظة واعتبارا وتجربة يموتون بأمر تسخيرى ، ويعودون إلى الحياة بأمر تسخيرى آخر ، ثم يعيشون الحياة المقدرة لهم ويموتون بعدها حتف أنوفهم ، ولتظل عبرة ماثلة أمام كل مؤمن حق ، فلا يخاف الموت فى سبيل الله .

لقد أراد الله بهذه التجربة أن نستخدم قضية الجهاد فى سبيل الله ، فلا يظن ظان أن القتال هو الذى يسبب الموت ، إنما أمر الموت والحياة بيد واهب الحياة . وهاهو ذا قول خالد بن الوليد على فراش الموت باقيا ليعرفه كل مؤمن بالله :

ـ لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها وما فى جسدى شبر إلا وفيه ضربة بسيف أو طعنه برمح ، وهأنذا أموت على فراشى كما يموت العَيْر ، فلا نامت أعين الجبناء .

إذن فأمر الحياة والموت ليس مرهونا بقتال أو غيره ، إنما هو محدد بمشيئة الله .

ولننظر إلى تذييل الآية حين يقول الحق : «إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون » . وما الفضل ؟ إنه أن تتلقى عطاءً يزيد على حاجتك . والحق سبحانه وتعالى لا يعطى الناس فقط على قدر حاجتهم إنما يعطيهم ما هو أكثر من حاجتهم . إذن فلو مات هؤلاء القوم الذين خرجوا من ديارهم خوفا من وباء أو عدو لكان هذا الموت فضلا من عند الله ؛ لأنهم لو ماتوا بالوباء لماتوا شهداء ، وهذا فضل من الله . ولو ماتوا فى لقاء عدو وحاربوا فى سبيل الله لنالوا الشهادة أيضا ، وذلك فضل من الله .

لماذا يكون مثل هذا الموت فضلا من الله ؟ لأننا جميعا سوف نموت ، فإن مات الإنسان استشهادا فى سبيله فهذا عطاء زائد . لكن أكثر الناس لا يشكرون ؛ لأنهم لا يعلمون مدى النعمة فيما يجريه الحق سبحانه وتعالى عليهم من أمور ؛ لأن الناس لو علمت مدى النعمة فيما يجريه الحق عليهم من أحداث بما فيها الإحياء والإماتة ، لشكروا الله على كل ما يجريه عليهم ، فالحق سبحانه وتعالى لا يجرى على البشر ، وهم من صنعته إلا ما يصلح هذه الصنعة ، وإلا ماهو خير لهذه الصنعة .

لقد استبقى الحق سبحانه هذه العبرة بما أجراه على بعض من بنى إسرائيل لنرى أن القتال فى سبيل الله هو من نعم الله على العباد ، فلا مهرب من قضاء الله . وهاهو ذا الشاعر العربى يقول :

ألا أيها الزاجرى أحضر الوغى وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدى
فإن كنت لا تسطيع دفع منيتى فدعنى أبادرها بما ملكت يدى

إن الشاعر يسأل من يوجه له الدعوة لا إلى القتال ، ولكن إلى الاستمتاع بملذات الحياة قائلا : مادمت لا تملك لى خلوداً فى هذه الحياة ولا أنت بقادر على رد الموت عنى فدعنى أقاتل فى سبيل الله بما تملكه يداى .

وبعد الحديث عن محاولة هرب بعض من بنى إسرائيل من قدر الله فأجرى عليهم الموت تسخيراً وأعادهم إلى الحياة تسخيرا ، وهذا درس واضح للمؤمنين الذين سيأتى

إليهم الأمر بالقتال فى سبيل الله . فلا تبالوا أيها المؤمنون إن كان القتال يجلب لكم الموت ؛ لأن الموت يأتى فى أى وقت. بعد ذلك يقول الحق :

﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ ﴾

إنه الأمر الواضح بالقتال فى سبيل الله دون مخافة للموت . لماذا ؟ لأن واهب الحياة وكاتب الأجل سميع عليم ، سميع بأقوال من يقاتل وعليم بنواياه .

وكان الجهاد قديما عبئا ثقيلا على المجاهد ؛ لأنه كان يتحمل نفقة نفسه ويتحمل المركبة ـ حصانا أو جملا ـ ويتحمل سلاحه ، كان كل مجاهد يُعِدّ عدته للحرب ، فكان ولا بد إذا سمح لنفسه أن تموت فمن باب أولى أن يسمح بماله ، وأن يجهز عدته للحرب ، وعلى ذلك كان القتال بالنفس والمال أمراً ضروريا .

وقوله تعالى : « وقاتلوا فى سبيل الله » أى قاتلوا بأنفسكم ثم عرج إلى الأموال فقال :

﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافًا كَثِيرَةً وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾ ﴾

ساعة تسمع « يقرض الله » فذلك أمر عظيم ؛ لأنك عندما تقرض إنسانا فكأنك تقرض الله ، ولكن المسألة لا تكون واضحة ، لماذا ؟ لأن ذلك الإنسان سيستفيد استفادة مباشرة ، لكن عندما تنفق فى سبيل الله فليس هناك إنسان بعينه تعطيه ، وإنما أنت تعطى المعنى العام فى قضية التدين ، وتعاملك فيها يكون مع الله . كأنك تقرض الله حين تنفق من مالك لتعد نفسك للحرب .

والحق سبحانه وتعالى يريد أن ينبهنا بكلمة القرض على أنه يطلب منا عملية ليست سهلة على النفس البشرية ، وهو سبحانه يعلم بما طبع عليه النفوس . والقرض فى اللغة معناه قضم الشيء بالناب ، وهو سبحانه وتعالى يعلم أن عملية الإقراض هى مسألة صعبة ، وحتى يبين للناس أنه يعلم صعوبتها جاء بقوله : « يقرض » ، إنه المقدر لصعوبتها ، ويقدر الجزاء على قدر الصعوبة .

« من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا » . وما هو القرض الحسن ؟ وهل إذا أقرضت عبداً من عباد الله لا يكون القرض حسنا ؟

أولا إذا أقرضت عبداً من عباد الله فكأنك أقرضت الله ، صحيح أنت تعطى الإنسان ما ييسر له الفرج فى موقف متأزم ، وصحيح أيضا أنك فى عملية الجهاد لا تعطى إنسانا بعينه وإنما تعطى الله مباشرة ، وهو سبحانه يبلغنا : أن من يقرض عبادى فكأنه أقرضنى . كيف ؟ لأن الله هو الذى استدعى كل عبد له للوجود ، فإذا احتاج العبد فإن حاجته مطلوبة لرزقه فى الدنيا ، فإذا أعطى العبد لأخيه المحتاج فكأنه يقرض الله المتكفل برزق ذلك المحتاج .

وقوله تعالى : « يقرض الله » تدلنا على أن القرض لا يضيع ؛ لأن القرض شيء تخرجه من مالك على أمل أن تستعيده ، وهو سبحانه وتعالى يطمئنك على أنه هو الذى سيقترض منك ، وأنه سيرد ما اقترضه ، لكن ليس فى صورة ما قدمت وإنما فى صورة مستثمرة أضعافا مضاعفة ، إن الأصل محفوظ ومستثمر ، ولذلك يقول : « من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة » ، إنها أضعاف كثيرة بمقاييس الله عز وجل لا بمقاييسنا كبشر .

والتعبير بالقرض الحسن هنا يدلنا على أن مصدر المال الذى تقرض منه لا بد أن يكون من حلال ، ولذلك قيل للمرأة التى تتصدق من مال الزنا : « ليتها لم تزن ولم تتصدق » .

وقيل: إن القرض ثوابه أعظم من الصدقة ، مع أن الصدقة يجود فيها الإنسان بالشىء كله ، فى حين أن القرض هو دين يسترجعه صاحبه ، لأنّ الألم فى إخراج الصدقة يكون لمرة واحدة فأنت تخرجها وتفقد الأمل فيها ، لكن القرض تتعلق نفسك به ، فكلما صبرت مرة أتتك حسنة ، كما أن المتصدق عليه قد يكون غير محتاج ، ولكن المقترض لا يكون إلا محتاجا .

والقرض من المال الذى لديك يجعل المال يتناقص ، لذلك فالله يعطيك أضعافا مضاعفة نتيجة هذا القرض ، وذلك مناسب تماما لقوله تعالى : « يقبض ويبسط » التى جاء بها فى قوله تعالى : « والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون » أى ساعة تذهب إليه ويأخذ كل منا حقه بالحساب أى أن المال الذى تقرض منه ينقص فى ظاهر الأمر ولكن الله ـ سبحانه ـ يزيده ويبسطه أضعافا مضاعفة وفى الآخرة يكون الجزاء جزيلا .

ثم ينتقل الله عز وجل إلى قضية أخرى يستهلها بقوله سبحانه : « ألم تر » تأكيدا للخبر الذى سيأتى بعدها على أنه أمر واقع وقوع الشىء المرئى ، يقول سبحانه :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا

مِن دِيَـٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟
إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾

إن الحق سبحانه يبلغنا بوسيلة السماع عنه ، وعلينا أن نتلقى ذلك الأمر كأننا نراه بالعين ، فماذا نرى ؟ « ألم تر إلى الملأ » ، ما معنى الملأ ؟ هي من ملأ يعنى ازدحم الإناء ، ولم يعد فيه مكان يتحمل زائداً . وأن الظرف قد شُغل بالمظروف شغلا لم يعد يتسع لسواه . وكلمة « ملأ » تُطلق على أشراف القوم . وأشراف القوم كأنهم هم الذين يملأون حياة الوجود حولهم ولا يستطيع غيرهم أن يزاحمهم . و« الملأ » من أشراف الوجوه والقوم يجلسون للتشاور .

« ألم تر إلى الملأ من بنى إسرائيل من بعد موسى » أى ألم يأتك خبر وجوه القوم وأشرافهم من بعد موسى عليه السلام مثلا فى عصر « يوشع » أو « حزقيل أو شمويل » أو أى واحد منهم ، ولا يعنينا ذلك لأن القرآن لا يذكر فى أى عهد كانوا ، المهم أنهم كانوا بعد موسى عليه السلام . « إذ قالوا لنبى لهم ابعث لنا ملكا نقاتل فى سبيل الله » .

لقد اجتمع أشراف بنى إسرائيل للتشاور ثم ذهبوا إلى النبى الذى كان معاصرا لهم وقالوا له : ابعث لنا ملكا . ونفهم من ذلك أنه لم يكن لهم ملك . وماذا نستفيد من ذكر وجود نبى لهم وعدم وجود ملك لهم ؟

نفهم من ذلك أن النبوة كانت تشرف على نفاذ الأعمال ولا تباشر الأعمال ، وأما الملك فهو الذى يباشر الأعمال . ولو كانت النبوة تباشر أعمالا لما طلبوا من نبيهم أن يبعث لهم ملكا . وسبب ذلك أن الذى يباشر عرضة للكراهية من كثير من الناس وعرضة أن يفشل فى تصريف بعض الأمور ، فبدلا من أن يوجهوا الفشل للقمة العليا ، ينقلون ذلك لمن هو أقل وهو الملك . ولذلك طلبوا من النبى أن يأتى بملك يعيد تصريف الأمور فتكون النبوة مرجعا للحق ، ولا تكون موطنا للوم فى أى شىء .

الحق سبحانه وتعالى يبلغنا أنه قال لنبى بنى إسرائيل :

أنتم الذين طلبتم القتال وأنتم الملأ ـ أى أشراف القوم ـ وأتيتم بالعلة الموجبة للقتال وهى أنكم أخرجتم من دياركم وأبنائكم أى بلغ بكم الهوان أنه لم تعد لكم ديار ، وبلغ بكم الهوان أنه لم يعد لكم أبناء بعد أن أسرهم عدوكم . إذن علة طلب القتال موجودة ، ومع ذلك قال لهم النبى : « هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا » لقد أوضح لهم نبيهم الشرط وقال : إننى أخاف أن آتى لكم بملك كى تقاتلوا فى سبيل الله ، وبعد ذلك يفرض الله عليكم القتال ، وعندما نأتى للأمر الواقع لا نجد لكم عزما على القتال وتتخاذلون .

لكنهم قالوا : « وما لنا ألا نقاتل فى سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا » . . انظر إلى الدقة فى قولهم : « فى سبيل الله » وتعليق ذلك السبيل على أنهم أخرجوا من ديارهم وأبنائهم ! لقد أرادوا أن يقلبوا المسألة وأن يقولوا : إن القتال فى سبيل الله بعد أن عضتهم التجربة فيما يحبون من الديار والأبناء ، إذن فالله هو الملجأ فى كل أمر ، وقبل سبحانه منهم قولهم ، واعتبر قتالهم فى سبيله .

وكان إخراجهم من ديارهم أمرا معقولا ، لكن كيف يخرجون من أبنائهم ؟ ربما كانوا قد تركوا أبناءهم للعدو ، وربما أخذهم العدو أسرى . لكنهم هم الذين أخرجوا من ديارهم ، وينطبق عليهم فى علاقتهم بالأبناء قول الشاعر :

إذا ترحلت عن قوم وقد قدروا ألا تفارقهم فالراحلون هم

وانظر إلى التمحيص ، إنهم ملأ من بنى إسرائيل وذهبوا إلى نبى وقالوا له : ابعث لنا ملكا حتى يجعلوها حربا مشروعة ليقاتلوا فى سبيل الله ، وقال لهم النبى ما قال وردوا عليه هم : « وما لنا ألا نقاتل فى سبيل الله » يعنى وكيف لا نقاتل فى سبيل الله ؟

وجاء لهم الأمر بالقتال فى قوله تعالى : « فلما كتب عليهم القتال تولوا » إن قوله : « كتب » لأنهم هم الذين طلبوا تشريع القتال فجعلهم الله داخلين فى العقد فجاء

التعبير بـ« كُتِبِ » ولم يأت بـ « كَتَبَ » ، ومع ذلك تولوا أى أعرضوا عن القتال .

لقد كان لنبيهم حق فى أن يتشكك فى قدرتهم على القتال ، ويقول لهم : « هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا » . ولكن هل أعرضوا جميعا عن القتال ؟ لا ؛ فقد كان فيهم من ينطبق عليه قول الشاعر :

إن الذى جعل الحقيقة علقماً لم يخل من أهل الحقيقة جيلاً

لقد كان منهم من لم يعرض عن التكليف بالقتال لكنهم قلة ، وهذا تمهيد مطلوب ، حتى إذا انحسرت الجمهرة ، وانفض الجمع من حولك إياك أن تقول : « إنى قليل » ؛ لأن المقاييس ليست بكثرة الجمع ، ولكن بنصرة الحق سبحانه وتعالى .

وقد يكون عدوك كثيرا لكن ليس له رصيد من ألوهية عالية ، وقد تكون فى قلة من العدد ، لكنْ لك رصيد من ألوهية عالية ، وهذا ما يريد الحق أن يلفتنا إليه بقوله : « فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلا » . كلمة « إلا قليلا » جاءت لتخدم قضية ، لذلك جاء فى آخر القصة قوله تعالى :

﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ٢٤٩ سورة البقرة)

أى أن الغلبة تأتى بإذن الله ، إذن فالشىء المرئى واحد ، لكن وجهة نظر الرائين فيه تختلف على قدر رصيدهم الإيمانى . أنت ترى زهرة جميلة ، والرؤية قدر مشترك عند الجميع ، وراها غيرك ، أعجبتك أنت وحافظت عليها وتركتها زينة لك ولغيرك ، بينما رآها إنسان آخر فقطفها ولم يبال مِلْكُ مَن هى ، وهكذا تعرف أن العمل النزوعى يختلف من شخص لآخر ، فالعدو قد يكون كثيراً أمامنا ونحن قلة ، وكلنا رأى العدو كثيراً ورأى نفسه قليلاً ، لكن المواجيد تختلف . أنا سأحسب نفسى ومعى ربى ، وغيرى رآهم كثيرين وقال : لا نقدر عليهم ؛ لأنه أخرج ربه من الحساب .

« فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلا منهم والله عليم بالظالمين » إذن فالتولى ظلم للنفس ؛ لأن الظلم فى أبسط معانيه أن تنقل الحق لغير صاحبه ، وأنت أخرجت من ديارك وظللت على هذا الحال ، إذن فقد ظلمت نفسك ، وظلمت أولادك الذين خرجوا منك ، ولم تستردهم ، وفوق ذلك كله ظلمت قضيتك الدينية .

إذن فالجماعة الذين تولوا كانوا ظالمين لأنفسهم ولأهليهم ولمجتمعهم وللقضية العقدية . وقوله الحق : « والله عليم بالظالمين » هو إشارة على أن الله مطلع على هؤلاء الذين تخاذلوا سرا ، وأرادوا أن يقتلوا الروح المعنوية للناس وهم الذين يطلق عليهم فى هذا العصر « الطابور الخامس » الذين يفتتون الروح المعنوية دون أن يراهم أحد ولكن الله يعرفهم .

لقد طلب هؤلاء القوم من بنى إسرائيل من نبيهم أن يبعث لهم ملكا ، وكان يكفى النبى المرسل إليهم أن يختار لهم الملك ليقاتلوا تحت رايته ، لكنهم يزيدون فى التلكؤ واللجاجة ويريدون أن ينقلوا الأمر نقلة ليست من قضايا الدين .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ
مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ
مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ
عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى
مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ ﴾

هم الذين طلبوا من نبيهم أن يبعث لهم ملكا . وكان يكفى ـ إذن ـ أن يختار نبيهم شخصا ويوليه الملك عليهم . لكن نبيهم أراد أن يغرس الاحترام منهم فى المبعوث كملك لهم . لقد قال لهم : « إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا » . والنبى القائل ذلك ينتمى إليهم ، وهو منهم ، وعندما طلبوا منه أن يبعث لهم ملكا كانوا يعلمون أنه مأمون على ذلك .

ويتجلى أدب النبوة فى التلقى ، فقال : « إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا » . إنه يريد أن يطمئنهم على أن مسألة اختيار طالوت كملك ليست منه ؛ لأنه بشر مثلهم ، وهو يريد أن ينحى قضيته البشرية عن هذا الموضوع ، فقال : « إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا » . فماذا كان ردهم ؟ « قالوا أنَّى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال » . وهذه بداية التلكؤ واللجاجة ونقل الأمر إلى مسألة ليست من قضايا الدين .

إنهم يريدون الوجاهة والغنى . وكان يجب عليهم أن يأخذوا المسألة على أن الملك جاء لصالحهم ، لأنهم هم الذين طلبوه ليقودهم فى الحرب . إذن فأمر اختيار الملك كان لهم ولصالحهم ، فلماذا يتصورون أن الاختيار كان ضدهم وليس لمصلحتهم ؟

شىء آخر نفهمه من قولهم : « أنَّى يكون له الملك علينا » ، إن طالوت هذا لم يكن من الشخصيات المشار إليها ، فمن العادة حين يَحزُب الأمر فى جماعة من الجماعات أن تفكر فيمن يقود ، فعادة ما يكون هناك عدد من الشخصيات اللامعة التى يدور التفكير حولها ، وتظن الجماعة أنه من الممكن أن يقع على واحد منهم الاختيار ، وكان اختيار السماء لطالوت على عكس ما توقعت تلك الجماعة . لقد جاء طالوت من غمار القوم بدليل أنهم قالوا : « أنَّى يكون له الملك » أى لم يؤت الملك من قبل .

ولقد كانوا ينتمون إلى نسلين : نسل أخذ النبوة وهو نسل بنيامين ، ونسل أخذ الملوكية وهو نسل لاوى بن يعقوب . فلما قال لهم : « إن الله بعث لكم طالوت ملكا » ، بدأوا يبحثون عن صحيفة النسب الخاصة به فلم يجدوه منتميا لا لهذا ولا لذاك ، ولذلك قالوا : « أنَّى يكون له الملك علينا » . وهذا يدلنا على أن الناس

حين يريدون وضعا من الأوضاع لا يريدون الرجل المناسب للموقف ، ولكن يريدون الرجل المناسب لنفوسهم ، بدليل قولهم : « أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه » .

وهل الملك يأتى غطرسة أو كبرياء ؟ ومادام طالوت رجلا من غمار الناس فالحق سبحانه وتعالى يريد أن يضع قضية كل مؤمن وهى أنك حين تريد الاختيار فإياك أن يغشك حسب أو نسب أو جاه ، ولكن اختر الأصلح من أهل الخبرة لا من أهل الثقة . لقد تناسوا أن القضية التى طلبوها من نبيهم تحتاج إلى صفتين : رجل جسيم ورجل عليم ، والله اختار لهم طالوت رجلا جسيما وعليما معا .

وعندما نتأمل سياق الآيات فإننا نجد أن الله قال لهم فى البداية : « بعث لكم » حتى لا يحرج أحدا منهم فى أن طالوت أفضل منه ، ولكن عندما حدث لجاج قال لهم : « إن الله اصطفاه عليكم » وهو بهذا القول يؤكد إنه لا يوجد فيكم من أهل البسطة والجسامة من يتمتع بصفة العلم . وكذلك لا يوجد من أهل العلم فيكم من يتمتع بالبسطة والجسامة « إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة فى العلم والجسم » . وكان يجب أن يستقبلوا اصطفاء الله طالوت للملك بالقبول والرضى فما بالك وقد زاده بسطة فى العلم والجسم ؟

والبسطة فى العلم والجسم هى المؤهلات التى تناسب المهمة التى أرادوا من أجلها ملكا لهم . ولذلك يقول الحق : « والله يؤتى ملكه من يشاء » وكأن الحق يقول لهم : لا تظنوا أنكم أنتم الذين ترشحون لنا الملك المناسب ، يكفيكم أنكم طلبتم أن أرسل لكم ملكا فاتركونى بمقاييسى أختر الملك المناسب .

ويختم الحق الآية بقوله : « والله واسع عليم » أى عنده لكل مقام مقال ، ولكل موقع رجل ، وهو سبحانه عليم بمن يصلح لهذه المهمة . ومن يصلح لتلك ، لا عن ضيق أو قلة رجال ، ولكن عن سعة وعلم .

لقد استقبلوا هذا الاختيار الإلهى باللجاج ، واللجاج نوع من العناد ولا ينهيه

إلا الأمر المشهدى المرئى الذى يلزم بالحجة ، لذلك كان لا بد من مجىء معجزة . لذلك يأتى قوله الحق :

﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ ﴾

لقد أرسل الحق مع الملك طالوت آية تبرهن على أنه ملك من اختيار الله فقال لهم نبيهم : « إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت » أى إنّ العلامة الدالة على ملكه هى « أن يأتيكم التابوت » وهذا القول نستدل منه على أن التابوت كان غائبا ومفقودا ، وأنه أمر معروف لديهم وهناك تلهف منهم على مجيئه .

وما هو التابوت ؟ إن التابوت قد ورد فى القرآن فى موضعين : أحدهما فى الآية التى نحن بصددها الآن ، والموضع الآخر فى قوله تعالى :

﴿ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾ ﴾

(سورة طه)

إذن فالتابوت نعرفه من أيام قصة موسى وهو رضيع ، عندما خافت عليه أمه ؛

فأوحى لها الله : «فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم » فهل هو التابوت نفسه الذى تتحدث عنه الآيات التى نحن بصددها ؟

غالب الظن أنه هو ؛ لأنه مادام جاء به على إطلاقه فهو التابوت المعروف ، وكأن المسألة التى نجا بها موسى لها تاريخ مع موسى وفرعون ومع نبيهم ومع طالوت . وهذه عملية نأخذ منها أن الآثار التى ترتبط بالأحداث الجسيمة فى تاريخ العقيدة يجب أن نعنى بها ، ولا نقول إنها كفريات ووثنيات ؛ لأن لها ارتباطا بأمر عقدى ، وبمسائل تاريخية ، وارتباطا بالمقدسات . انظر إلى التابوت الذى فيه بقية مما ترك آل موسى وآل هارون وتحمله الملائكة . إن هذا دليل على أنه شىء كبير ومهم .

إذن فالآثار التى لها مساس وارتباط بأحداث العقيدة وأحداث النبوة ، هذه الآثار مهمة للإيمان ، وكأنّ القرآن يقول : اتركوها كما هى ، وخذوا منها عظة وعبرة ؛ لأنها تذكركم بأشياء مقدسة . لقد كان التابوت مفقودا ، وذلك دليل على أن عدوا غلب على البلاد التى سكنوها ، والعدو عندما يغير على بلاد يحاول أولا طمس المقدسات التى تربط البلاد بالعقيدة . فإذا كان التابوت مقدسا عندهم بهذا الشكل ، كان لابد أن يأخذه الأعداء . وهؤلاء الأعداء هم الذين أخرجوهم من ديارهم وهم ألوف حذر الموت . وإذا كانوا قد أخرجوهم من ديارهم فمن باب أولى أنهم أجبروهم على ترك التابوت .

والله سبحانه وتعالى يطمئنهم بأن آية الملك لطالوت هى مجىء التابوت الذى تتلهفون عليه ، وترتبط به مقدساتكم . « أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم » فكأن الاستقرار النفسى سيأتيكم مع هذا التابوت ؛ لأن الإنسان حين يجد التابوت الذى نجا به نبى ، وفيه الأشياء التى سنعرفها فيما بعد ، إن الإنسان يستروح صلته بالسماء ، وهى صلة مادية تجعل النفس تستريح .

وعلى سبيل المثال تأمل مشاعرك عندما يقال لك : « هذا هو المصحف الذى كان يقرأ فيه سيدنا عثمان » . إنه مصحف مثل أى مصحف آخر ، ولكن ميزته أنه كان يقرأ فيه سيدنا عثمان ؛ إنك تستريح نفسيا عندما تراه . وأيضا حين تذهب إلى دار

الخلافة فى تركيا ، ويقال لك : « هذا هو السيف الذى كان يحارب به الإمام على » . فتنظر إلى السيف ، وتجد أن وزنه وثقله يساوى عشرة سيوف ، وتتعجب كيف كان يحمله سيدنا على كرم الله وجهه وكيف كان يحارب به ؟

وكذلك عندما يقال لك : « هذه شعرة من شعر رسول الله صلى الله عليه وسلم أو المكحلة التى كان يكتحل بها » ، لاشك أن مثل هذه المشاهد ستترك إشراقًا وطمأنينة فى نفسك . وعندما يراها إنسان به بعض الشكوك والمخاوف فإن العقيدة تستقر فى نفسه .

ومن هذا كله أقول : إن ولاة الأمر يجب ألا يعتبروا مقدسات الأشياء ضربا من الشركيات والوثنيات ، بل يجب أن يولوها عناية ورعاية ويبرزوها للناس ؛ لتكون مصدر سكينة وأمن نفس للناس ، وعليهم أن ينصحوا الناس بألا يفتنوا بها ، ولكن عليهم أن يتركوها لتذكرنا بأمر يتصل بعقيدتنا وبنبينا .

وانظر إلى حديث القرآن عن التابوت . إن الحق سبحانه لم يقل : إن التابوت سيأتى كاملا ، ولم يقل كذلك إنه التابوت الذى وُضع فيه موسى ، وإنما قال : « فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون » كأن آل موسى وهارون قد حافظوا على آثار أنبيائهم ، وأيضا قوله تعالى : « تحمله الملائكة » يؤكد لنا أنه لاشك أن الأثر الذى تحمله الملائكة لابد أن يكون شيئا عظيما يوجب العناية الفائقة « إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت » .

ونلحظ فى قوله : « أن يأتيكم التابوت » أنه سبحانه قد نسب الإتيان إلى التابوت ، فهل كان من ضمن العلامة أن يأتيهم التابوت وهم جالسون ينتظرون ، ولأن التابوت تحمله الملائكة فلن يراهم القوم لأنهم كائنات غير مرئية ، فلن يراهم أحد وإنما سيرى القوم التابوت آتياً إليهم ، ولذلك أسند الحق أمر المجىء للتابوت .

وهذا المشهد يخلع القلوب ويجعل أصحاب أشد القلوب قساوة يخرون سجدا ويقولون « يا طالوت أنت الملك ، ولن نختلف عليك » . ونريد الآن أن نعرف

الأشياء التى يمكن لآل موسى أن يحافظوا عليها من آثار موسى عليه السلام ، والآثار التى يحافظ عليها آل هارون من هارون عليه السلام .

قال بعض الناس إنها عصا موسى ، وهى الأثر الذى تبقى من آل موسى ، وذلك أمر معقول ؛ لأنها أداة من أدوات معجزة موسى عليه السلام . ألم تكن هى المعجزة التى انقلبت حية تسعى وابتلعت بسرعة ما صنعه السحرة ؟ إن مثل هذه الأداة المعجزة لا يمكن أن يهملها موسى ، أو يهملها المؤمنون به بعد ما حدث منها . وليس من المعقول أن يفرط آل موسى فى عصا تكلم الله فيها وقال :

﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا ﴾

(الآية ١٧ ، من الآية ١٨ سورة طه)

إن هناك قصة طويلة استغرقها الحديث عن هذه العصا ، فكيف يفرط فيها موسى وقومه بسهولة ؟ لاشك أنهم حافظوا عليها ، وقدسوها ، وجعلوها من أمجادهم .

ويرينا الحق سبحانه وتعالى أن هؤلاء القوم أهل لجاج وأهل جدل وأهل تلكؤ ، فهم لا يؤمنون بالأمور إلا إذا كانت حسية كالتابوت الذى يأتيهم وحدهم ، صحيحا تحمله الملائكة ، لكنهم لا يرون الملائكة ؛ وإنما رأوا التابوت يسير إليهم ، « أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين » وليس هناك آيات أعجب من مجىء التابوت حتى يثبت صدق النبى فى أن الله قد بعث طالوت ملكا ، فإن لم يؤمنوا بهذه المسألة فعليهم أن يراجعوا إيمانهم .

والسياق القرآنى يدل على أن الله بهتهم بالحجة ، وبهتهم بالآية ، وبهتهم بالقرآن ، بدليل أنه حذف ما كان يجب أن يقال وهو : فقبلوا طالوت ملكا . ونظم طالوت الحرب فقام وقسم الجنود ورتبهم ، وكل هذه التفاصيل لم تذكرها الآيات . والحق يقول بعد ذلك :

﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم
بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ
مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا
مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟
لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ
يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ
غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ ﴾

الفصل هو أن تعزل شيئا عن شيء آخر ، ومثل ذلك قوله تعالى :

﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ﴾

(من الآية ٩٤ سورة يوسف)

« فصلت العير » أى غادرت مصر وخرجت منه . ونحن نستخدم كلمة « فصل » فى تبويب الكتب ، ونقصد به قدرًا من المعلومات المترابطة التى تكون وحدة واحدة ، وعندما تنضم الفصول مع بعضها فى الكتب تصير أبواباً ، وعندما تنظم الأبواب الموضوعة فى مجال علم واحد مع بعضها نقول عنها : هذا « كتاب » .

ونحن نستخدم كلمة « فصل » فى وصف مجموعة من التلاميذ المتقاربين فى العمر والمستوى الدراسى ونقسمهم إلى فصل أول وثانٍ وثالث ، على حسب سعة الفصول وعدد التلاميذ . وهكذا نفهم معنى قول الحق : « فلما فصل طالوت بالجنود » أى

فصلهم عن بقية غير المقاتلين ، وقسمهم إلى جماعات مرتبة ، وكل جماعة لها مهمة .

وكلمة « جنود » هى جمع « جند » وهى مفردة لكنها تدل على جماعة ، وأصل الكلمة من « جَنَد » وهى الأرض الغليظة الصلبة القوية ، ونظرا لأن الجنود مفروض فيهم الغلظة والقوة فقد أطلق عليهم لفظ : جُنْد . وبرغم أن كلمة « جند » مفرد ؛ إلا أنها تدل على القوم مثل « رهط » و «طائفة » ويسمونها اسم جمع . « فلما فصل طالوت بالجنود قال إن الله مبتليكم بنهر » أى عندما خرج إلى مكان إقامة الجيش بدأ فى مباشرة أولى مهماته كملك ، لقد أراد أن يختبرهم ، فهم قوم وقفوا ضد تعيينه ملكا ، لذلك أراد أن يدخل الحكم على أرض صلبة . فقال لهم عن الحق : « إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس منى ومن لم يطعمه فإنه منى إلا من اغترف غرفة بيده فشربوا منه إلا قليلا منهم » .

لقد أوضح لهم : أنتم مقبلون على مهمة لله فى سبيل الله ، وهو سبحانه الذى سيجرى عليكم الاختبار ، ولست أنا لأن الاختبار يكون على قدر المهمة ؛ أنا مشرف فقط على تنفيذ الأمر ، والله مبتليكم بنهر من يشرب منه فليس منا إلا من اغترف غرفة بيده .

وساعة تسمع كلمة « مبتليكم » فلا تفسرها على أنها مصيبة ، ولكن فسرها على أنها اختبار ، قد ينجح من يدخله وقد يفشل . والاختبار هنا بنهر . ومادام كان الاختبار بنهر فلا بد أن لهذه الكلمة موقعا وأثرا نفسيا عندهم ، لا بد أنهم كانوا عِطاشًا ، وإلا لو لم يكونوا عِطاشًا لما كان النهر ابتلاء . « إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس منى » .

إنهم عطاش ، وساعة يُرى الماء فسيقبلون عليه بنهم شربا ورياً ، ومع ذلك يختبر الحق صلابتهم فيطالبهم بأن يمتنعوا عن الشرب منه ، لقد جاء الاختبار فى منعهم مما تصبو إليه نفوسهم . « فمن شرب منه فليس منى » لماذا ؟

لأنهم ساعة يرون ما يحبونه ويشتهونه فسيندفعون إليه وينسون أمر الله . ومن ينس

أمر الله ويفضل نفسه ، فهو غير مأمون أن يكون فى جند الله . لكن الذى يرى الماء ويمتنع عنه وهو فى حاجة إليه ، فهو صابر قادر على نفسه ، وسيكون من جند الله ؛ لأنه آثر مطلوب الله على مطلوب بطنه ، وهو أهل لأن يُبتلى .

ومع ذلك لم يَقْسُ الله فى الابتلاء ، فأباح ما يفك العطش ولم يحرمهم منه نهائيا . « إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس منى ومن لم يطعمه فإنه منى إلا من اغترف غرفة بيده » لقد سمح لهم بغرفة يد تسد الرمق وتستبقى الحياة ، أباح لهم ما تقتضيه الضرورة . لكن ما صلة هذا الابتلاء بالعملية التى سيقبلون عليها ؟

إن العملية الحربية التى سيدخلونها سيقابلون فيها الويل وسيعرضون لنفاد الزاد ، وهم أيضا عرضة لأن يحاصرهم عدوهم ، وعلى الإنسان المقاتل فى مثل هذه الأمور أن يقوى على شهوته ويأخذ من زاده ومائه على قدر ضرورة استبقاء الحياة ، لذلك تكفى غرفة واحدة لاستبقاء الحياة . كأن التدريب هنا ضرورة للمهمة . فهل فعلوا ذلك ؟

يأتينا الخبر من الحق « فشربوا منه إلا قليلا منهم » . وهكذا تتم التصفية ، ففى البداية سبق لهم أن تولوا وأعرضوا عن القتال إلا قليلا ، وهنا امتنع عن الشرب قليل من القليل ، وهذه غرابيل الاصطفاء أو مصافى الاختبار ، فقد يقوى واحد على نصف المشقة ، ويقوى آخر على ثلث المشقة ، ويقوى ثالث على ربعها . لقد بقى منهم القليل ، لكنه القليل الذى يصلح للمهمة ؛ إنّه الذى ظل على الإيمان .

وانظر كيف تكون مصافى الابتلاء فى الجهاد فى سبيل الله ؟ حتى لا يحمل راية الجهاد إلا المأمون عليها الذى يعرف حقها . « فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده » أى عندما عبروا النهر واجتازوا كل الاختبارات السابقة قال بعضهم : « لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده » لقد خاف بعض منهم من الاختبار الأخير ، ولكن الذين آمنوا بالله لم يخافوا ، ويقول الحق : « قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين » .

لقد اختلفت المواجيد وإن اتحدت المرائى . فالذين جاوزوا النهر انقسموا قسمين ، قسم رأى جالوت وجنوده ، والقسم الآخر رأوه أيضا ، ولم ينقسموا عند الرؤية لكنهم انقسموا عند المواجيد التابعة للرؤية ، فقسم خاف وقسم لم يخف ، والذين خافوا قالوا : « لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده » لقد وجد الخوف من جالوت وجنوده فى نفوسهم فقالوا : « لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده » ، لقد مروا بثلاث مراحل ؛ المرحلة الأولى : هى إدراك لجالوت وجنوده ، والثانية : هى وجدان متوجس من قوة جالوت وجنوده ، والأخيرة : هى نزوع إلى الخوف من جالوت وجنوده ، لكن القسم الذى لم يخف رأوا المشهد أيضا وجاء فيهم قول الله : « قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله » .

كأنهم أدخلوا ربهم فى حسابهم فاستهانوا بعدوهم ، لكن الفئة السابقة عزلت نفسها عن ربها فرأوا أنفسهم قلة فخافوا . لقد كان مجرد ظن الفئة المؤمنة أنهم ملاقو الله قد جعل لهم هذه العقيدة ، وإذا كان هذا حال مجرد الظن فما بالك باليقين ؟ « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين » . ونعرف أن هناك معارك يفوز فيها الأقدر على الصبر ، ودليلنا على ذلك قول الحق :

﴿ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ ﴾

(آل عمران)

هذا هو الوعد لكن إذا صبرتم كم يكون المدد ؟ يقول الحق :

﴿ بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾

(آل عمران)

فكأن البدء بثلاثة آلاف لمساندة أهل الإيمان ويزيد العدد فى المدد إلى خمسة آلاف إن صبروا واتقوا . إذن فالمدد يأتى على قدر الصبر ؛ لأن حنان القدرة الإلهية عليك

يزداد ساعة يجدك تتحمل المشقة فيحن عليك ويعطيك جزءا أكبر . فالله يريد من عبده أن يستنفد أسباب قوته الخاصة ، وحين تستنفد الأسباب برجولة وثبات ، تأتيك معونة الله ، ويقول الله لملائكته : هذا يستحق أن يعان فأعينوه . ولذلك جاء قوله الحق على ألسنة المؤمنين : « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين » . ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ ﴾

هذه هى الشحنة الإيمانية لمن يريد أن يواجه عدوه فهو ينادى قائلا : « ربنا » إنه لم يقل : يا الله ، بل يقول : « ربنا » ؛ لأن الرب هو الذى يتولى التربية والعطاء ، بينما مطلوب « الله » هو العبودية والتكاليف ؛ لذلك ينادى المؤمن ربه فى الموقف الصعب « ياربنا » أى يا من خلقتنا وتتولانا وتمدنا بالأسباب ، قال المؤمنون مع طالوت : « ربنا أفرغ علينا صبرا » .

وعندما نتأمل كلمة « أفرغ علينا صبرا » تفيدنا أنهم طلبوا أن يملأ الله قلوبهم بالصبر ويكون أثر الصبر تثبيت الأقدام « وثبت أقدامنا » حتى يواجهوا العدو بإيمان ، وعند نهاية الصبر وتثبيت الأقدام يأتى نصر الله للمؤمنين على القوم الكافرين ، وتأتى النتيجة للعزم الإيمانى والقتال فى قوله الحق :

﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ

ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا
دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ
وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾

إن الحق يبلغنا أنه قد نصر المؤمنين به . ويجيء الحق بكلمة « هزموهم » وهي تدل على فرار من كان يجب أن يكون مهاجما . والمحارب يجب أن يكون مهاجما كارا دائما ، فحين يلجأ إلى أن يفر ، هنا نتوقف لنتبين أمره ، هل هذا الفرار تحرفا لقتال وانعطافا وميلا إلى موقف آخر هو أصلح للقتال فيه ؟ لو كان الأمر كذلك فلا تكون الهزيمة ، لكن إذا كان الفِرار لغير كَرٍ ومخادعة للعدو بل كان للخوف هنا تكون الهزيمة .

وقول الله : « فهزموهم بإذن الله » يدل على أن جنود جالوت لم يُقتلوا كلهم ، ولكن الذين قُتلوا هم أئمة الكفر فيهم ، بدليل قوله بعد ذلك : « وقتل داود جالوت » . وجالوت هو زعيم جيش الكفار الذى هرب ، فطارده داود وقتله . ولأول مرة يظهر لنا اسم « داود » فى هذه القصة الطويلة ، وهو اسم لم يكن عندنا فكرة عنه من قبل ، وستأتى الفكرة عنه بعد هذه القصة فى قوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ
ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾

(سورة سبأ)

إذن فبداية داود جاءت من هذه المعركة بعد قتل جالوت ، وكان « داود » أخاً لعشرة وهو أصغرهم ، وقال النبى للقوم : إن من يدخل المعركة ضد جالوت لا بد أن يأتى درع موسى على مقاسه ، وهنا استعرض والد « داود » الدرع على جميع أبنائه ، فلم يأت على مقاس أى واحد منهم إلا على أصغرهم ، وهو « داود » . جاء الدرع على مقاسه ، ودخل « داود » المعركة فقتل جالوت قائد المشركين ، وشاءت

حكمة الله أن يكون أصغر المؤمنين هو الذى يقتل كبير جيش المشركين .

كانت هذه المعركة بداية تاريخ داود ، وقد جاءت له هذه المعركة بالفتح العظيم ، ثم أنعم الله عليه بالملك والحكمة وجعل الجبال والطير تردد وترجع معه تسبيح الله وتنزيهه ، كل ذلك نتيجة قتل جالوت . وأحب داود الدرع وصار أمله أن يعلمه الله صناعة الدروع ، ولذلك لم يتخذ صنعة فى حياته إلا عمل الدروع . وجعل الله له الحديد ليناً ليصنع منه ما يشاء كما جاء فى قوله تعالى :

﴿ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ﴾

(من الآية ٨٠ سورة الأنبياء)

وهذا دليل على أن الإنسان يحب الشىء الذى له صلة برفعة شأنه . ولقد كان قتل جالوت هو البداية لداود . « وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين » إن الحق يأتى هنا بقضية كونية فى الوجود ، وهى أن الحرب ضرورة اجتماعية ، وأن الحق يدفع الناس بالناس . وأنه لولا وجود قوة أمام قوة لفسد العالم ؛ فلو سيطرت قوة واحدة فى الكون لفسد .

فالذى يعمر الكون هو أن توجد فيه قوى متكافئة ؛ قوة تقابلها قوة أخرى . ولذلك نجد العالم دائما محروسا بالقوتين العظميين ، ولو كانت قوة واحدة لعم الضلال . ولو تأملنا التاريخ منذ القدم لوجدنا هذه الثنائية فى القوى تحفظ الاستقرار فى العالم .

فى بداية الإسلام كانت الدولتان العظميان هما الفرس فى الشرق ، والروم فى الغرب . والآن سقطت قوة روسيا من كفة ميزان العالم ، وتتسابق ألمانيا واليابان ليوازنا قوة أمريكا .

راجع أصله وخرج أحاديثه الدكتور أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .

إن قول الله تعالى : « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض » جاء تعقيبا على قصة الصراع بين بنى إسرائيل وبين أعدائهم الذين أخرجوهم من ديارهم وعندما نتأمل هذه القصة من بدايتها نجد أنهم طلبوا أولا من الله الإذن بالقتال . وبعث الله لهم ملكا ليقاتلوا تحت رايته ؛ وكانت علامة هذا الملك فى الصدق أن يأتى الله بالتابوت . ثم جاءت قضية اجتماعية ينتهى إليها الناس عادة بحكيم الرأى ولو بدون الوحى ، وهى أن الإنسان إذا ما أقبل على أمر يجب أن يعد له إعداداً بالأسباب البشرية ، حتى إذا ما استوفى إعداده كل الأسباب لجأ إلى معونة الله ، لأن الأسباب ـ كما قلنا ـ هى من يد الله ، فلا ترد أنت يد الله بأسبابها ، لتطلب معونة الله بذاته ، بل خذ الأسباب أولا لأنها من يد ربك .

ويعلمنا الحق أيضا أن من الأسباب تمحيص الذين يدافعون عن الحق تمحيصا يبين لنا قوة ثباتهم فى الاختبار الإيمانى ؛ لأن الإنسان قد يقول قولا بلسانه ؛ ولكنه حين يتعرض للفعل تحدثه نفسه بألا يوفى ، وقد نجح قلة من القوم فى الابتلاءات المتعددة . وفعلا دارت المعركة ؛ وهزم هؤلاء المؤمنون أعداءهم ، وانتصر داود بقتل جالوت .

إذن فتلك قضية دفع الله فيها أناسا بأناس ، ويطلقها الحق سبحانه قضية عامة « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض » أى لولا أن الله دفع بالقلة المؤمنة الكثرة من عدوهم لفسدت الأرض ، فالدفع هو الرد عن المراد ، فإذا كان المراد للناس أن يوجد شر ، فإن الله يدفعه . إذن فالله يدفع ولكن بأيدى خلقه ، كما قال سبحانه :

﴿ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ ﴾

(سورة التوبة)

إنه دفع الله المؤمنين ليقاتلوا الكافرين ، ويعذب الحق الكافرين بأيدى المؤمنين . وعندما نتأمل القول الحكيم : «ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض»

فإننا نجد مقدمة سابقة تمهد لهذا القول ، لقد أُخرجوا من ديارهم وأبنائهم ، فكان هذا هو مبرر القتال . وتجد آية أخرى أيضا تقول :

﴿ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ﴾

(سورة الحج)

والسياق مختلف فى الآيتين ، السياق الذى يأتى فى سورة البقرة عن أناس يحاربون بالفعل ، والسياق الذى يأتى فى سورة الحج عن أناس مؤمنين برسول الله صلى الله عليه وسلم خرجوا وهم المستضعفون من مكة لينضموا إلى إخوتهم المؤمنين فى دار الإيمان ليعيدوا الكرة ، ويدخلوا مكة فاتحين .

صحيح أننا نجد وحدة جامعة بين الآيتين . وهو الخروج من الديار . إذن فمرة يكون الدفاع بأن تَفِرَّ لِتَكِرّ . . أى أن تخرج من ديار الكفر مهاجرا لتجمع أمر نفسك أنت ومن معك وتعود إلى بلدك مقاتلا فاتحا ، ومرة يكون الدفاع بأن تقاتل بالفعل ، فالآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها هنا تفيد أنهم قاتلوا بالفعل ، والآية الثانية تفيد أنهم خرجوا من مكة ليرجعوا إليها فاتحين ، فالخروج نفسه نوع من الدفع ، لماذا ؟ لأن المسلمين الأوائل لو مكثوا فى مكة فربما أفناهم خصومهم فلا يبقى للإسلام خميرة ، فذهبوا إلى المدينة وكوّنوا الدولة الإسلامية ثم عادوا منتصرين فاتحين :

﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾ ﴾

(سورة النصر)

إن السياق فى الآيتين واحد ولكن النتيجة تختلف ، هنا يقول الحق : « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض » لماذا تفسد الأرض ؟ لأن معنى دفاع الناس بعضهم ببعض أن هناك أناسًا ألفُوا الفساد ، ويقابلهم أناس خرجوا على مَن أَلِفَ الفساد ليردوهم إلى الصلاح . ويعطينا الحق سبحانه وتعالى فى الآية الثانية السبب فيقول :

﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴾

(من الآية ٤٠ سورة الحج)

والصوامع هى ما يقابل الآن الدير للنصارى وكانوا يتعبدون لله فيها ، لأن فيه متعبدًا عَمِلَ بالتكليف العام ؛ ومتعبدًا آخر قد ألزم نفسه بشىء فوق ما كلفه الله به . فالذين يعبدون الله بهذه الطريقة يجلسون فى أماكن بعيدة عن الناس يسمونها الصوامع ، وهى تشبه الدير الآن . والمعنى العام فى التعبد للنصارى هو التعبد فى الكنائس وهو المقصود بالبِيَع ، والمعنى الخاص هو التعبد فى الصوامع .

إذن « لهدمت صوامع » هذه لخاصة المتدينين ، وكنائس أو بيع لعامة المتدينين . وقول الحق : « وصلوات » ، من صالوت ، وهى مكان العبادة لليهود ، و« مساجد » وهى مساجد المسلمين .

إن قوله تعالى : «لفسدت الأرض » فى هذه الآية ، وقوله تعالى هناك « لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد » أى أنه ستفسد الأرض إذا لم تقم الصوامع والبيع والصلوات والمساجد ؛ لأنها هى التى تربط المخلوق بالخالق . ومادامت تلك الأماكن هى التى تربط المخلوق بالخالق فإن هدمت . . يكون الناس على غير ذكر لربهم وتفتنهم أسباب الدنيا .

فالأديرة والكنائس والصوامع ـ حين كانت ـ والمساجد الآن هى حارسة القيم فى الوجود ، لأنها تذكرك دائما بالعبودية وتمنع عنك الغرور ، وهى من السجود الذى هو منتهى الخضوع للرب ، نخضع بها لله خمس مرات فى اليوم والليلة ؛ فإن كان عند العبد شىء من الغرور لا بد أن يذوب ، ويعرف العبد أن الكون كله فضل من الله على العباد ؛ فلا يدخلك أيها المسلم شىء من الغرور . فإذا لم يدخلك شىء من الغرور أستعملت أسباب الله فى مطلوبات الله . أما أن تأخذ أنت أسباب الله فى غير مطلوبات الله فهذه قحة منك . فإذا كان الله قد أقدر يدك على الحركة فلماذا تعصى الله بها وتضرب بها الناس ؟ والله أقدر لسانك على الكلام ، فلماذا تؤذى غيرك

بالكلمة ؟ إن الله قد أعطاك النعمة فلا تستعملها فى المعصية .

قال الله تعالى فى هذه الآية : « لفسدت الأرض » وشرح ذلك فى قوله تعالى : « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا » فهذه الأماكن هى التى تبقى أصول القيم فى التدين . « وأصول القيم فى التدين » غير « كل القيم فى التدين » ، ولذلك نحن قلنا : إن الحق سبحانه وتعالى جعل للإسلام خمسة أركان ، وهى التى بُنى عليها الإسلام . ولا بد أن نقيم بنيان الإسلام على هذه الأركان الخمسة ، فلا تقل : إن الإسلام هو هذه الأركان الخمسة ، لا ؛ لأن الإسلام مبنى عليها.فقط فهى الأعمدة أو الأسس التى بنى عليها الإسلام . فأنت حين تضع أساسا لمنزل وتقيم الأعمدة فهذا المنزل لا يصلح بذلك للسكن ، بل لا بد أن تقيم بقية البنيان ، إذن فالإسلام مبنى على هذه الأسس .

والحق سبحانه وتعال يوضح ذلك فيأمر بالمحافظة على أماكن هذه القيم ؛ لأن المساجد ـ ونحن نتكلم بالعرف الإسلامى ـ هى ملتقى فيوضات الحق النورانية على خلقه ، فالذى يريد فيض الحق بنوره يذهب إلى المسجد . إذن لكيلا تفسد الأرض لا بد أن توجد أماكن العبادة هذه ، فمرة جاء الحق بالنتيجة ومرة جاء بالسبب .

ولماذا يدفع الله الناس بعضهم ببعض ؟ لأن هناك أناسًا يريدون الشر وأناسًا يريدون الخير ، فمن يريد الشر يدفع من يريد الخير ، وإذا وقعت المعركة بهذا الوصف فإن يد الله لا تتخلى عن الجانب المؤمن الباحث عن الخير ، فهو سبحانه القائل :

﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾

(من الآية ٤٠ سورة الحج)

أى إن المعركة لا تطول . ولذلك قلنا سابقا : إن المعارك التى نراها فى الكون لا نجد فيها معركة بين حقين ؛ لأنه لا يوجد فى الوجود حقان ، فالحق واحد ، فلا يقولن أحد : إنه على حق وخصمه على حق . لا ، إن هناك حقًا واحدًا فقط . والمعركة ـ إن وجدت ـ توجد بين حق وباطل ، أو بين باطل وباطل . والمعركة بين

الحق والباطل لا تطول ؛ لأن الباطل زهوق . والذى يطول من المعارك هى المعارك بين الباطل والباطل ؛ فليس أحدهما أولى بأن ينصره الله . فهذا على فساد وذاك على فساد ، وسبحانه يدك هذا الفساد بذاك الفساد . وحين يندك هذا الفساد بذاك الفساد ، فجناحا الفساد فى الكون ينتهيان . ويأتى من بعد ذلك أناس ليس عندهم فساد ويعمرون الكون .

والمعارك التى تدور فى أى مكان تجد أن هذا الطرف له هوى والاخر له هوًى مختلف . ولا يقف الله فى أى جانب منهما ؛ لأنه ليس هناك جانب أحق بالله من الآخر ؛ لذلك يتركهم يصطرع بعضهم مع بعض ، ومادام الحق قد تركهم لبعضهم البعض فلا بد أن تطول المعركة . ولو كان الله فى بال جانب منهم لوقف سبحانه فى جانبه . وكذلك نرى فى معارك العصر الحديث أن المعركة تطول وتطول ؛ لأننا لا نجد القسم الثالث الذى جاء فى قوله سبحانه :

﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ ﴾

(سورة الحجرات)

إن الحق سبحانه وتعالى يأمر عند اقتتال طائفتين من المؤمنين أن يصلح بينهما قوم مؤمنون ، فإن تعدت إحداهما على الأخرى ، ورفضت الصلح فالحق يأمر المؤمنين بأن يقاتلوا الفئة التى تتعدى إلى أن ترجع إلى حكم الله ، فإن رجعت إلى حكم الله فالإصلاح بين الفئتين يكون بالإنصاف ؛ لأن الله يحب العادلين المنصفين .

ونحن نجد الباطل يتقاتل مع الباطل ؛ لذلك لا نجد من يصلح بين الباطلين ، بل نجد أهواءً تتعارك ، وكل جانب ينفخ فى الطائفة التى تناسب هواه .

وهذه هى الخيبة فى الكون المعاصر ؛ إن المعارك تطول لأنه ليس فى بال المتقاتلين

شيء جامع، ولو كان فى بالهم شيء جامع، لما حدثت الحرب . وماداموا قد غفلوا عن هذا الشيء الجامع ، فمن المفروض أن تتدخل الفئة القادرة على الإصلاح ، ولكن حتى هؤلاء لم يدخلوا للإصلاح ، وهذا معناه أن الخيبة فى العالم كله . وسيظل العالم فى خيبة إلى أن يرعووا ويرتدعوا . إنهم يطيلون على أنفسهم أمد التجربة وسيظلون فى هذه الخيبة حتى يفطنوا إلى أنه لا سبيل إلى أن تنتهى هذه المشاكل إلا أن يرجعوا جميعاً عن أهوائهم إلى مراد خالقهم .

« ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض » ، نعم تفسد الأرض فيما جعل الله للإنسان يداً فيه ، أما الشيء الذى لم يجعل الله للإنسان يداً فيه فستظل النواميس كما هى لا يؤثر فيها أحد ، فلا أحد يؤثر فى الشمس أو القمر أو الهواء أو المطر ، إنما الفساد جاء فيما للإنسان فيه يد .

انظر إلى الكون ، إنك تجد المسائل التى لا دخل للإنسان فيها مستقيمة على أحسن ما يكون ، وإنما يأتى الفساد من النواحى التى تدخل فيها الإنسان بغير منهج الله . ولو أن الإنسان دخل فيها بمنهج الله لاستقامت الأمور كما استقامت النواميس العليا تماما .

فى سورة الرحمن قوله تعالى :

﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ ﴾

(سورة الرحمن)

ومادام الحق قد رفع السماء ووضع الميزان ، فالسماء لا تقع على الأرض والنظام محكم تماما ، الشمس تطلع من الشرق وتغرب فى الغرب ، والقمر والنجوم تسير فى منتهى الدقة والإبداع ، لأنه لا دخل لأحد من البشر فيه . فإن أردتم أن تصلح حياتكم ، وأن تستقيم أموركم كما استقامت هندسة السماء والأرض فخذوا الميزان من السماء فى أعمالكم ، واتبعوا القول الحق :

﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ

بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ﴿٩﴾ ﴾

(سورة الرحمن)

ومادمتم قد رأيتم أن الأمور الموجودة التى تسير بنظام لا تتحكمون فيه تعمل باستقامة وترون أن الفساد قد جاء من ناحية الأمور التى دخلتم فيها ، فلماذا لا نتبع منهج الله فى الأمور التى لنا دخل فيها ؟ إنك إن عملت فى الحياة بمنهج الله الذى خلق الحياة فإن أمورك تستقيم لك كما استقامت الأمور العليا فى الكون . واحفظ جيداً قوله تعالى :

﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴿٨﴾ ﴾

(سورة الرحمن)

ليحفظ كل منا هذا القول لنعرف أن الأمور العليا موزونة لأن يد الإنسان لا تدخل فيها . إن السماء لا تقع على الأرض لأنها محكومة بنظام محكم تماما .

والأرض لا تدور بعيدا عن فلكها ؛ لأن خالقها قد قدر لها النظام المحكم تماما . ولهذا يقول الحق سبحانه عن نظام الكواكب فى الكون :

﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾

(سورة يس)

إنه نظام دقيق محكم لأنه لا دخل للإنسان فيه . اصنعوا ميزاناً فى كل الأمور التى لكم فيها اختيار حتى لا تطغوا فى الميزان .

ومادام الله سبحانه وتعالى قد خلق الإنسان ومنحه الاختيار ، وبعض الناس اختار مذهباً ، والبعض الآخر اختار مذهبا مضادا ، وكلٌّ من المذهبين خارج عن منهج الله ، فالحق سبحانه وتعالى يترك الفئتين للتقاتل والتناحر . ولأنه سبحانه ذو رحمة على العالمين ، يبقى عناصر الخير فى الوجود ، لعل أحداً يرى ويتنبه ويتلفت

ويذهب ليأخذها . فعندما تطغى جماعة يأتى لهم الحق بجماعة يردونهم ، حتى تبقى عناصر الخير فى الوجود لعل إنساناً يأتى ليأخذ عنصراً منها يحرك به حياته ، وصاحب الخير إنما يأتى من فضل الله على العالمين . ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾ ﴾

ونعرف أن « تلك » إشارة يخاطب الله بها رسوله صلى الله عليه وسلم ، ويشير إلى الآيات التى سبقت والتى تدل على عظمة الحق وقيومته ، فقد قال الحق من قبل :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ ﴾

(سورة البقرة)

وساعة طلبوا أن يقاتلوا ، وأن يبعث لهم ملكاً ، وبعثه لهم ، وبعث لهم التابوت فيه سكينة ، أليست هذه آيات أخرى ؟ ومن بعد ذلك أراد الحق أن يأتى مقتل جالوت العملاق الضخم على يد داود الصبى الصغير . أليست هذه آية ؟ وآية أخرى هى أن جماعة قليلة ـ بإقرارهم ـ حيث قالوا : « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله » هذه الجماعة القليلة تدخل المعركة وتهزم الكثرة ، أليست هذه آية ؟

وهل الرسول صلى الله عليه وسلم كان يعرف الآيات التى سبقت رسالته ؟ لا ، ولكنها من إخبار الله له مع إقرار الجميع ، وخاصة الذين كفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم ؛ بأنه لا قرأ ولا كتب ولا جلس إلى معلم ، ولا أحد قال له شيئا ؛ حتى الرحلة التى ذهب فيها للتجارة كان يصحبه فيها أناس غيره ، ولو كانوا قد رأوه جالسا إلى أحد يعلمه شيئا ؛ لأذاعوا أن محمداً قد جلس مع فلان ، وتعلم منه كذا

وكذا . ولكن هذا لم يقله أحد ؛ لأنه لم يحدث أصلا ، ولذلك كان إخباره صلى الله عليه وسلم بما يعلمونه هم عندهم هو بعضا من أسرار معجزته ، إنه قد عرف الأخبار السابقة رغم أنه لم يقرأ ولم يكتب ولم يتلق علما من أحد . وقد تماحك بعض المشركين وقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يجلس إلى فتى عند المروة يعلمه هذه الأخبار ، فنزل القول الحق يدحض هذا الافتراء :

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾

(سورة النحل)

لقد أثبت الحق أنها حجة باطلة ، وزعم كاذب من ناحيتهم . لأن الذى ادّعوا أنه علم الرسول كان أعجميا . ويقول الحق سبحانه لمحمد صلى الله عليه وسلم : « تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق » . إن كلمة « آيات الله » تعنى الأشياء العجيبة ، و« نتلوها » أى نجعل كلمة بعد كلمة ، وهى من « ولى » أى جاء بعده بلا فاصل . « نتلوها عليك بالحق » والحق هو الشىء الذى وقع موقعه حيث لا يتغير عنه ، فلا يتضارب أبدا .

فهب أن حادثة وقعت أمامك ، ثم سُئلت عنها ألف مرة فى طيلة حياتك ستجد أن جوابك لن يختلف عليها أبدا ؛ لأنك تحكى واقعا رأيته ، لكن لو كانت الحكاية كذبا ؛ فستجد أن روايتك لها فى المرة الثانية تتغير ؛ لأنك لا تذكر ماذا قلت فى المرة الأولى ؛ لأنك لا تحكى عن واقع يأخذك وتلتزم به ، وكذلك الحق لا يتغير ، ولا يتضارب ، ولا يتعارض .

« تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق » ومادام الحق سبحانه هو الذى يقولها ، فسيقولها لك حقيقة ، وعندئذ يعرف الآخرون أنك عرفت ما عندهم مما يخفونه فى كتبهم يقوله بعضهم لبعض ، هنا يعرفون أنك من المرسلين ، ولذلك نحن نجد فى « ماكانات القرآن » التى يقول فيها تعالى : « ما كُنت » ، « ما كُنت » ، و« ما كنت » ومثل قوله الحق :

﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾

(سورة القصص)

أى ما كنت يا محمد حاضرا مع موسى فى المكان الغربى من الجبل حين عهد الله إليه بأمر الرسالة ، ولم تكن معاصرا لموسى ولا شاهداً تبليغه للرسالة فكيف يكذبك قومك وأنت تتلو عليهم أنباء السابقين ؟ ومثال ذلك قوله الحق :

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

إن الذى رواه القرآن لك يا محمد من الأخبار الجليلة عمن اصطفاهم الله هى من الغيب الذى أوحى الله به إليك . وما كنت حاضراً معهم وهم يقترعون بالسهام ليعلم بالقرعة من يقوم بشئون مريم ، وما كنت معهم وهم يختصمون فى نيل هذا الشرف النبيل . ومثال ذلك قوله الحق سبحانه :

﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾

(سورة القصص)

أى ما كنت أيها الرسول حاضراً فى جانب الطور حين نادينا موسى لما أتى الميقات وكلمه ربه وناجاه ، ولكن الله أعلمك بهذا عن طريق الوحى رحمة بك وبأمتك ، ولتبلغه لقوم لم يأتهم رسول من قبلك لعلهم يتذكرون ويؤمنون . ومثال ذلك قوله الحق :

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ

إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾

(سورة الشورى)

إن القرآن هو وحى منزل من عند الله ، يُعرِّف المؤمنين النور إلى الهداية وتكاليف الحق ، ويهدى من اختار الهدى ، وإنك يا محمد لتدعو بهذا القرآن إلى صراط مستقيم . إن كل « ما كنت » فى القرآن الكريم هى دليل على أن ما أخبرك به جبريل رسولا من عند الله إليك ، وحاملا للوحى من الله هو الحق ؛ فتعلمه أنت يا محمد بطريقة خاصة وعلى نهج مخصوص ، رغم أنك لم تقرأ كتابا ولم تجلس إلى معلم . وما تخبرهم به من آيات هى موافقة لما معهم ، وكان من الواجب أن يقولوا إن الذى علمك هذا هو الله سبحانه وتعالى ، وكان يجب أن يقروا ويشهدوا بأنك من المرسلين . وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ
وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ۚ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ
وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ
مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟
فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟
وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾

إن الحق سبحانه وتعالى يشير إلى الرسل بقوله : « تلك الرسل » و« الرسل » هى جمع لمفرد هو « رسول » . والرسول هو المكلف بالرسالة . والرسالة هى الجملة من الكلام التى تحمل معنى إلى هدف . ومادام الرسل جماعة فلماذا لم يقل الحق « هؤلاء

الرسل » وقال « تلك الرسل » ؟ ذلك ليدلك القرآن الكريم على أن الرسل مهما اختلفوا فهم مرسلون من قبل إله واحد وبمنهج واحد . وكما عرفنا من قبل أن الإشارة بـ « تلك » هى إشارة لأمر بعيد . فعندما نشير إلى شىء قريب فإننا نقول : « ذَا » ، وعندما نستخدم صيغة الإشارة مع الخطاب نقول : « ذاك » . وعندما نشير إلى مؤنث فنقول : « تِ » وعندما نشير إلى خطاب مؤنث نقول : « تيك » . و« اللام » كما عرفنا هنا للبعد أو للمنزلة العالية .

إذن فقوله الحق : « تلك الرسل » هو إشارة إلى الرسل الذين يَعْلَمُهُم سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام ، أو الرسل الذين تقدموا فى السياق القرآنى . والسياق القرآنى الذى تقدم تحدث عن موسى عليه السلام ، وعن عيسى عليه السلام ، وتكلم السياق عن أولى العزم من الرسل .

إن أردت الترتيب القرآنى هنا ، فهو يشير إلى الذى تقدم فى هذه السورة ، وإن أردت ترتيب النزول تكون الإشارة إلى من عَلِمَهُ الرسول من الرسل السابقين ، والمناسبة هنا أن الحق قد ختم الآية السابقة بقوله هناك : « وإنك لمن المرسلين » ، ولما كانت « وإنك لمن المرسلين » تفيد بعضيته صلى الله عليه وسلم لكلية عامة ، كأنه يقول : إياكم أن تظنوا أنهم ماداموا قد اتفقوا فى أنهم مرسلون أو أنهم رسل الله ، أنهم أيضا متساوون فى المنزلة، لا ، بل كل واحد منهم له منزلته العامة فى الفضليّة والخاصة فى التفضيل . إنهم جميعا رسل من عند الله ، ولكن الحق يعطى كل واحد منهم منزلة خاصة فى التفضيل .

فلما كان قول الله : « وإنك لمن المرسلين » يؤكد لنا أن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم من بين الرسل فلا تأخذ هذا الأمر على أساس أن كل الرسل متساوون فى المكانة ، وتقول إنهم متماثلون فى الفضل . لا . إن الله قد فضل بعضهم على بعض .

وما هو التفضيل ؟

إن التفضيل هو أن تأتى للغير وتعطيه ميزة ، وعندما تعطى له مزية عمن سواه قد

يقول لك إنسان ما « هذه محاباة » ، لذلك نقول لمن يقول ذلك : الزم الدقة ، ولتعرف أن التفضيل هو إيثار الغير بمزية بدافع الحكمة ، أما المحاباة فهى إيثار الغير بمزية بدافع الهوى والشهوة ، فمثلا إذا أردنا أن نختار أحداً من الناس لمنصب كبير ، فنحن نختار عددا من الشخصيات التى يمكن أن تنطبق عليهم المواصفات ونقول : « هذا يصلح ، وهذا يصلح ، وهذا يصلح » و« هذا فيه ميزات عن ذاك » وهكذا ، فإن نظرنا إليهم وقيمناهم بدافع الحكمة والكفاءة فهذا هو التفضيل ، ولكن إن اخترنا واحداً لأنه قريب أو صهر أو غير ذلك فهذا هو الهوى والمحاباة .

إن التفضيل هو أن تؤثر وتعطى مزية ولكن لحكمة ، وأما المحاباة فهى أن تؤثر وتعطى مزية ، ولكن لهوى فى نفسك . فمثلا هب أنك اشتريت قاربا بخاريا وركبته أنت وابنك الصغير ، ومعك سائق القارب البخارى ، وأراد ابنك الصغير أن يسوق القارب البخارى ، وجلس مكان السائق وأخذ يسوق . ولكن جاءت أمواج عالية واضطرب البحر فنهضت أنت مسرعا وأخذت الولد وأمرت السائق أن يتولى القيادة ، وهنا قد يصرخ الولد ، فهل هذه محاباة منك للسائق؟ لا، فلو كانت محاباة لكانت لابنك ، لكنك أنت قد آثرت السائق لحكمة تعرفها وهى أنه أعلم بالقيادة من الولد الصغير . إذن إذا نظرت إلى حيثية الإيثار وحيثية التمييز لحكمة فهذا هو التفضيل ، ولكن فى المحاباة يكون الهوى هو الحاكم .

وكل أعمال الحق سبحانه وتعالى تصدر عن حكمة ؛ لأنه سبحانه ليس له هوى ولا شهوة ، فكلنا جميعا بالنسبة إليه سواء . إذن هو سبحانه حين يعطى مزية أو يعطى خيرا أو يعطى فضلية ، يكون القصد فيها إلى حكمة ما .

وحينما قال الحق : « وإنك لمن المرسلين » جاء بعدها بالقول الكريم : « تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض » وأعطانا نماذج التفضيل فقال : « منهم من كلم الله » . وساعة تسمع « منهم من كلم الله » يأتى فى الذهن مباشرة موسى عليه السلام ، وإلا فالله جل وعلا قد كلم الملائكة .

وبعد ذلك يقول الحق : « ورفع بعضهم درجات » . ثم قال : « وآتينا عيسى ابن

مريم البينات » إنه سبحانه قد حدد أولا موسى عليه السلام بالوصف الغالب فقال : « كلم الله » وكذلك حدد سيدنا عيسى عليه السلام بأنه قد وهبه الآيات البينات . وبين موسى عليه السلام وعيسى عليه السلام قال الحق « ورفع بعضهم درجات » والخطاب فى الآيات لمحمد عليه الصلاة والسلام . إذن ففيه كلام عن الغير لمخاطب هو محمد صلى الله عليه وسلم .

وساعة يأتى التشخيص بالاسم أو بالوصف الغالب ، فقد حدد المراد بالقضية ، ولكن ساعة أن يأتى بالوصف ويترك لفطنة السامع أن يرد الوصف إلى صاحبه فكأنه من المفهوم أنه لا ينطبق قوله : « ورفعنا بعضهم درجات » بحق إلا على محمد صلى الله عليه وسلم وحده . وجاء بها سبحانه فى الوسط بين موسى عليه السلام وعيسى عليه السلام ، مع أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يأت فى الوسط ، وإنما جاء آخر الأنبياء ، ولكنك تجد أن منهجه صلى الله عليه وسلم هو الوسط . فاليهودية قد أسرفت فى المادية بلا روحانية ، والنصرانية قد أسرفت فى الروحانية بلا مادية ، والعالم يحتاج إلى وسطية بين المادية والروحية ، فجاء محمد صلى الله عليه وسلم ، فكأن محمداً صلى الله عليه وسلم قطب الميزان فى قضية الوجود .

وإذا أردنا أن نعرف مناطات التفضيل ، فإننا نجد رسولا يرسله الله إلى قريته مثل سيدنا لوط مثلا ، وهناك رسول محدود الرسالة أو عمر رسالته محدود ، ولَكِنْ هناك رسول واحد قيل له : أنت مرسل للإنس والجن ، ولكل من يوجد من الإنس والجن إلى أن تقوم الساعة إنّه هو محمد صلى الله عليه وسلم .

فإذا كان التفضيل هو مجال العمل فهو لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وإذا نظرنا إلى المعجزات التى أنزلها الله لرسله ليثبتوا للناس صدق بلاغهم عن ربهم ، نجد أن كل المعجزات قد جاءت معجزات كونية ، أى معجزات مادية حسية الذى يراها يؤمن بها ، فالذى رأى عصا موسى وهى تضرب البحر فانفلق ، هذه معجزة مادية آمن بها قوم موسى ، والذى رأى عيسى عليه السلام يبرىء الأكمه والأبرص فقد شهد المعجزة المادية وآمن بها ، ولكن هل لهذه المعجزات الآن وجود غير الخبر عنها ؟ لا ليس لها وجود .

لكنْ محمد صلى الله عليه وسلم حينما يشاء الله أن يأتيه بالمعجزة لا يأتى له بمعجزة من جنس المحَسات[١] التى تحدث مرة وتنتهى ، إنه سبحانه قد بعث محمداً صلى الله عليه وسلم إلى أن تقوم الساعة ، فرسالته غير محدودة ، ولابد أن تكون معجزته صلى الله عليه وسلم غير محسة وإنما تكون معقولة ؛ لأن العقل هو القدر المشترك عند الجميع ، لذلك كانت معجزته القرآن . ويستطيع كل واحد الآن أن يقول : محمد رسول الله وتلك معجزته .

إن معجزة رسولنا صلى الله عليه وسلم هى واقع محسوس . وفى مناط التطبيق للمنهج نجد أن الرسل ما جاءوا ليشرعوا ، إنما كانوا ينقلون الأحكام عن الله ، وليس لهم أن يشرعوا ، أما الرسول محمد صلى الله عليه وسلم فهو الرسول الوحيد الذى قال الله له :

﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ ﴾

(من الآية ٧ سورة الحشر)

فهو صلى الله عليه وسلم قد اختصه الله بالتشريع أيضا ، أليست هذه مزية ؟ إن المراد من المنهج السماوى هو وضع القوانين التى تحكم حركة الحياة فى الخلافة فى الأرض ، وتلك القوانين نوعان : نوع جاء من الله ، وفى هذا نجد أن كل الرسل فيه سواء ، ولكنْ هناك نوع ثانٍ من القوانين فوض الله فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يضع من التشريع ليلائم ما يرى ، وهذا تفضيل للرسول صلى الله عليه وسلم .

إذن حين يقول الله تعالى : « ورفع بعضهم درجات » فهذا لا ينطبق إلا على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم . وهذه أكثر من التصريح بالاسم . وأضرب هنا المثل ـ ولله المثل الأعلى ـ أنت أعطيت لولدك قلما عاديا ، ولولدك الثانى قلما مرتفع القيمة ، ولولدك الثالث ساعة ، أما الولد الرابع فاشتريت له هدية غالية جدا ، ثم تأتى للأولاد وتقول لهم : أنا اشتريت لفلان قلما جافا ، ولفلان قلم حبر ، واشتريت لفلان ساعة ، وبعضهم اشتريت له هدية ثمينة . فـ « بعضهم » هذا قد عُرف بأنه الابن الرابع الذى لم تذكر اسمه ، فيكون قد تعين وتحدد .

---

١ ـ علماً بأن رسول الله ﷺ كانت له معجزات حسية كبيرة انظر كتاب : الفرقان . . . لابن تيمية .

« تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله » وحين تقول كلم الله إياك أن تغفل عن قضية كلية تحكم كل وصف لله يوجد فى البشر ، فأنا أتكلم والله يتكلم ، لكن أكلامه سبحانه مثل كلامى ؟ إن كنت تعتقد أن وجودى مثل وجوده فاجعل كلامى ككلامه ، وإن كان وجودى ليس كوجوده فكيف يكون كلامى ككلامه ؟

ربما يقول أحد : إن الكلام صوت وأحبال صوتية وغير ذلك ، نقول له : لا ، أنت لا تأخذ ما يخص الله سبحانه إلا فى إطار « ليس كمثله شىء » ونحن نأخذ كل وصف يرد عن الله بواسطة الله ، ولا نضع وصفا من عندنا ، وبعد ذلك لا نقارنه بوصف للبشر . فلله حياة ولك حياة . لكن أحياة أى منا كحياته سبحانه ؟ لا ، إن حياته ذاتية ، وحياة كل منا موهوبة مسلوبة ، فليست مثل حياته .

وعندما يقول الحق :

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ ﴾

(سورة السجدة)

فهل جلوس الحق كجلوس الخلق ؟ أو هل يكون كرسى الخالق ككرسى المخلوق ؟ طبعا لا . ونحن المؤمنين نأخذ كل صفة عن الله فى نطاق التنزيه : سبحان الله وليس كمثله شىء ، فليس استواء الله مثل استواء البشر ، وليس جلوس الحق مثل جلوس الإنسان .

ونضرب هذا المثل ـ ولله المثل الأعلى من قبل ومن بعد ـ هب أن صاحبا لك دعاك لتأكل عنده ، ثم دعاك أحد كبراء القوم لتأكل عنده ، لا بد أنك تجد الطعام متفاوتا فى جودته وأصنافه بين كل مائدة من موائد من دعوك ، فإذا كان البشر أنفسهم تتفاوت بينهم الأمور الوصفية تبعا لمقاماتهم وقدراتهم وإمكاناتهم ، فإذا ما ترقيت بالصفة إلى خالق كل الأشياء أيقنت أنه سبحانه مُنزه عن كل من سواه ، وليس كمثله شىء .

إذن « كلم الله » تعنى أنه أعلم رسوله بأى وسيلة من وسائل الإعلام . « منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس » والحق سبحانه وتعالى يؤكد دائما فى الكلام عن سيدنا عيسى ـ أنّ عيسى ابن مريم مؤيد بروح القدس ـ ؛ لأن المسائل التى تعرض لها سيدنا عيسى تتطلب أن تكون روح القدس دائما معه ، ولذلك يقول الحق سبحانه عنه :

﴿ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا ﴿٣٣﴾ ﴾

(سورة مريم)

ففى الميلاد سيدنا عيسى تعرض لمشكلة ؛ لأنه ولد على غير طريقة ميلاد الناس ، واتهمت فيها أمه ، وجاء القرآن فنزهها ، وبرأها ، ووضع الأمر فى نصابه الحق ، وأيضا فى موته عندما أرادوا أن يقتلوه .

وحين ننظر إلى الرسل نجد أن مقتضى أن يرسل الله رسلاً إلى العالم هو أنه سبحانه قد خلق الخلق غير مكرهين على فعل ، ولا مسخرين كما تسخر بقية الأجناس فى الكون ، ودونه مباشرة الحيوان الذى ينقص عنه العقل ، وبعد الحيوان يأتى جنس النبات الذى ينقص عنه الحس والحركة ، وبعد ذلك الجماد الذى ينقص عن النبات ، تلك هى أجناس الوجود . والإنسان هو سيد هذه الأجناس . والسيادة جاءت له من ناحية أن الأجناس كلها مسخرة لخدمته لا بالاختيار ، ولكن بالقهر والقسر .

فالشمس لم تجئ مرة لتقول : لم يعد الخلق يعجبوننى لذلك لن أشرق لهم اليوم ، ولا الهواء امتنع عن أن يهب ، ولا المطر امتنع عن أن ينزل ، ولا الأرض امتنعت عن أن تعطى النبات عناصر غذائه ، إن الإنسان يركب الدابة ويسيرها كما يحب وكما يريد ، لا شىء يتأبى أبدا على الإنسان . وأنت أيها الإنسان الجنس الوحيد الذى وهبك الله الاختيار لتمارس مهمتك فى الوجود ، فإن شئت فعلت كذا ، وإن شئت لم تفعل كذا .

ولكن الله لم يدعك هكذا على إطلاقك ، بل إنّ فيه أموراً تصير برغم أنفك وأنت

مسخر فيها ، لا تستطيع ـ مثلا ـ أن تتحكم فى يوم ميلادك ، ولا فى يوم وفاتك ، ولا فيما ينزل عليك من الأحداث الخارجة عنك ، ولا فيما يدور من الحركة فى بدنك ، كل ذلك أنت مسخر فيه فلا تنفلت من قبضة ربك . ولكنك مختار فى أشياء .

ونعرف أنه سبحانه وتعالى قهر أجناساً على أن تكون كما يريد ، وكما يحب ، وتلك صفة القدرة ؛ لأن صفة القهر تفيد السيطرة . فإذا ما ترك جنسا يختار أن يؤمن ، ويختار ألا يؤمن ، وإن آمن يختار أن يطيع ويختار أن يعصى ، فهذه تثبت المحبوبية لله سبحانه وتعالى لمن اختار وآثر طاعة الله على المعصية .

ونحن نعرف أن القهر يخضع القوالب لكنه لا يخضع القلب . فأنت تستطيع أن تهدد إنسانا بمسدس وتقول له : « اسجد لى » فيسجد لك ، لكنك لا تستطيع أن تقول له ـ وهو تحت التهديد ـ « أحبنى » . فالحق سبحانه وتعالى يترك لنا الإيمان بالاختيار ، ويترك لنا الطاعة والمعصية اختياراً ، ليعلم من يأتيه حباً ومن يأتيه قهرا .

والعالم كله يأتى لله قهرا . وأنت أيها الإنسان فى ذاتك أشياء أنت مقهور فيها . ومن هنا ثبتت لله تعالى القدرة . وبقى أن تثبت له الحب . والعبد الصالح هو الذى يطيعه عن حب . ونحن قد سبق لنا أن ضربنا مثلا ـ ولله المثل الأعلى ـ وقلنا إن إنسانا عنده خادمان واحد اسمه سعد والآخر اسمه سعيد ، سعد قيده صاحبه بحبل ويَجُرُّه قائلا : « ياسعد » فهل لسعد ألا يجىء ؟ لا . لكن صاحب العبدين ترك لسعيد الحرية ، وعندما يناديه فهو يأتيه .

إذن ، أيهما يحبه ، الذى جاء بالحبل أم الذى جاء بالمحبة ؟ إذن ، فمن كرامة الإنسان أن يثبت لله صفة المحبة إن آمن بالله ؛ لأنه سبحانه وتعالى لو شاء أن يهدى الناس جميعا ما استطاع أى واحد منهم أن يكفر به ، ولو شاء أن يكون مطاعا دائما ما استطاع واحد أن يعصيه أبداً . ولذلك قلنا : إن إبليس كان عالما حينما قال أمام الله تعالى :

﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾

(من الآية ٨٢ سورة ص)

أقسم الشيطان لله بعزته سبحانه عن خلقه ، وكأنه قال : أنت يارب لو كنت تحتاج عبادك فأنا لا أستطيع أن آخذهم ، ولكن لأنك عزيز عليهم ، إن أرادوا أن يؤمنوا آمنوا ، وإن أرادوا ألا يؤمنوا لم يؤمنوا ؛ فهذا هو المدخل الذى سأدخل منه . ولذلك استثنى الشيطان بعضا من العباد لأنه لن يستطيع أن يجد لوسوسته لديهم مدخلا :

﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾

(سورة ص)

أى إن الذى يريد الله أن يستخلصه لنفسه فلن يستطيع الشيطان أن يقترب منه . إذن فإبليس ليس داخلا فى معركة مع الله تعالى ، ولكنه فى معركة معنا نحن . ولقد أوضح الحق ذلك حين جاء على لسان إبليس فى القرآن :

﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾

(سورة ص)

إذن لو أراد الله أن نكون طائعين جميعا ، أيستطيع واحد أن يعصى ؟ لا يستطيع . ولو أرادنا مؤمنين جميعا ، أيستطيع واحد أن يكفر ؟ لا يستطيع . إنما شاء الله تعالى لبعض الأمور والأفعال أن يتركها لاختيارك ؛ لأنه يريد أن يعرف من الذى يأتيه طوعا وليظل العبد بين الخوف والرجاء ؛ ولذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : (لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بجنته أحد ، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من جنته أحد)[1] .

ولهذا فإن مطلوب الارتفاع الإيمانى ، والارتفاع اليقينى أن تحب الله لذات الله . وهو سبحانه يجرى عليك من الأحداث ما يشاء ، وتظل تحبه فيباهى الله بك الملائكة فتقول الملائكة : يارب يحبك لنعمتك عليه فيقول لهم : وأسلب نعمتى ولايزال يحبنى ، ويسلب الحق النعمة لكن العبد لايزال يحب الله ، فهو يحب الله ولا يحب نعمته لأنه سبحانه ذات تُحَب لذاتها بصرف النظر عن أنه يعطينا النعم .

---

(١) رواه مسلم بسنده عن أبى هريرة .

إذن الحق سبحانه وتعالى قد أرسل الرسل يحملون منهج الله لمن يريد أن يعلن حبه لله ، وأن يكون خليفة فى الأرض بحق ، وأن يُصلح فى الكون ولا يفسده . ونعرف أن الإصلاح له مرتبتان : أن تترك الصالح بطبيعته فلا تفسده ، أو أن تزيد الصالح صلاحا . فلا تأتى على عين الماء التى تتدفق للناس وتردمها ، ولكنك تتركها على صلاحها إن لم تستطع أن تزيدها إصلاحا . وقد تستطيع أن تزيد عين الماء صلاحا ؛ فبدلا من أن يذهب الناس متعبين إلى العين ويحملون منها الماء ، قد تصنع لهم مضخة عالية لها خزان ترفع إليه الماء وتمد « المواسير » وتوصل المياه إلى منازلهم . فأنت بذلك تزيد الأمر الصالح صلاحا ، وهذه خلافة وعمارة فى الوجود . فإن لم تستطع أن تزيد الصالح صلاحا فجنبنا شر إفسادك ، ودع الحال كما هى عليه ، واقعد كما أنت عالة فى الكون .

ولو أن الإنسان كان منصفا فى الكون لسأل نفسه : من الذى اهتدى إلى صناعة الرغيف الذى نأكله الآن ؟ وسيعرف أنه قد أخذ تجارب الناس من أول آدم حتى وصل إلى صناعة هذا الرغيف ، فهناك إنسان زرع القمح ، وهناك إنسان آخر هداه الله أن يطحن هذا القمح ، وهو سبحانه هدى الإنسان أن يصنع منخلا ليفصل الدقيق عن النخالة ، ثم هداه أن يعجن الدقيق حتى يجد له طعما أفضل . ولاشك أنه ترك مرة قطعة من العجين ثم شُغل عنها بأى شاغل أو بأى سبب ثم رجع لها مرة أخرى فوجدها متخمرة ، فلما خبزها خرج له العيش أفضل طعما ، إنه سبحانه قدر فهدى ، وإلا كيف تأتى هذه التجربة الطويلة ؟

ومثال آخر : إن الإنسان حين ينظف ثوبه ، لو أنه استعرض أعمال من سبقوه فى هذا الموضوع منذ آدم ، لعلم أن كل واحد سبقه فى الوجود أعطاه مرحلة من النفعية إلى أن وصل للغسالة الكهربائية التى تغسل له بدون تعب ، كل هذه الأشياء جاءت له بهدايات من الله .

وقد قلت مرة : لماذا طبخت الناس « الكوسة » ولم تطبخ « الخيار » ؟ إن هذه دليل على أن هناك تجارب كثيرة مرت على الإنسان حتى يميز طعم الكوسة المطبوخة عن الخيار ، وكذلك طبخ الناس الملوخية ولم يطبخوا النعناع ، مع أن النعناع أحسن

منها ، حدث ذلك ؛ لأن هناك تجارب وصلتنا بأن النعناع لا يُستساغ طعمه مطبوخا .

وأنت لو نظرت إلى أى شىء تستفيد به اليوم ، وقدرت الأعمال التى تداولته من يوم أن وُجد ، ستجد أن الحق قد قدر لكل إنسان عملاً ومجالاً ، وظل يخدمك أنت . ومادمت قد خُدمتَ بهؤلاء الناس كلهم من أول آدم وحتى اليوم ، فلا بد أن تنظر لترى ماذا ستقدم لمن يأتى من بعدك ، فلا تكن كسولاً فى الحياة ؛ تأخذ خير غيرك كله فى الوجود ، وبعد ذلك لا تعطى أى شىء ، بل لا بد أن يكون لك عطاء ، فكما أخذت من بيئتك لا بد أن تعطى هذه البيئة ، ولو لم يوجد هذا لما ارتقت الحياة ؛ لأن معنى ارتقاء الحياة أن إنساناً أخذ خبرة من سبقوه ، وحاول أن يزيد عليها ، أى أن يأخذ أكبر ثمرة بأقل مجهود .

فلو قدر الناس جهد الإنسان الذى ابتكر « العجلة » مثلا التى تسير عليها السيارة لكان عليهم أن يستغفروا الله له بمقدار ما أراحهم ، فبعد أن كان الإنسان يحمل على أكتافه قصارى ما يحمل ، وَفَّر عليه مَن اخترع هذا أن يحمل ويتعب ، وجعله يحمل أكبر كمية وينقلها بأقل مجهود .

إذن لا بد أن تنظر إلى النعم التى تستفيد بها الآن وترى كم مرحلة مرت بها ، وهل صنعها الناس هكذا أم تعبوا وكدوا واجتهدوا منذ بدء الوجود على الأرض ، وعرف الإنسان جيلا بعد جيل كيفية تطوير تلك الأشياء ، وقد يحدث خطأ فى مرحلة معينة فيبدأ الإصلاح أو التحسن وهكذا . فأنت عندما تجد أن العالم قدم لك كل هذه المنتجات ، لا بد أن تسأل نفسك : ما الذى ستقدمه أنت لهذا العالم ، وبذلك تظل الحلقة الإنسانية مرتقية ومتصلة .

والحق سبحانه وتعالى يرسل الرسل ويضع المنهج : « افعل كذا » و« لا تفعل كذا » ، حتى تستقيم حياة الناس على الأرض ، لكن الناس غلبت عليهم الغفلة عن أمر المنهج ؛ ولذلك تظهر فى الوجود فسادات بقدر الغفلة ، وعندما يزداد الفساد يبعث الحق سبحانه رسولا جديدا يذكرهم بالمنهج مرة أخرى ، وعندما يأتى الرسول

يؤمن به بعض من الناس ويحاربون معه ، وينتصر الرسول وتستقر مبادىء الله فى الأرض ، ثم تمر فترة وتأتى الغفلة فيحدث الخلاف ، فهناك أناس يتمسكون بمنهج الله ، وأناس يفرطون فى هذا المنهج ، ويحدث الخلاف وتقوم المعارك .

ولو كان الحق سبحانه وتعالى يريد الكون بلا معارك بين حق وباطل لجعل الحق مسيطرا سيطرة تسخير . لكن الله تعالى أعطانا تمكينا ، وأعطانا اختيارا ؛ لذلك نجد من ينشأ مؤمنا ، ومن ينشأ كافرا ، نجد الطائع ، ونجد العاصى ، هذا فريق ، وهذا فريق . وإياك أن تفهم أن وجود الكافرين فى الأرض ، أو وجود العصاة فى الكون دليل على أنهم غير داخلين فى حوزة الله ، لا . بل إن الله تعالى هو الذى أعطاهم هذا الاختيار ، ولو شاء الله أن يجعل الناس أمة واحدة لما استطاع إنسان أن يخرج على مراد الله .

وفى الآية التى نحن بصددها جاء الحق بأولى العزم من الرسل : سيدنا موسى عليه السلام ، ورسول الله صلى الله عليه سلم ، وسيدنا عيسى عليه السلام وبعد ذلك يقول سبحانه :

﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾

(من الآية ٢٥٣ سورة البقرة)

إذن ما الذى جعل الناس تقتتل فيما بينها ؟ إنه الاختلاف بين الناس ، لقد اختلفوا فاقتتلوا . لكن ألا يمكن أن يكونوا قد اختلفوا ولم يقتتلوا ؟ إن ذلك لو حدث لكان إجماعا على الفساد . والحق سبحانه لا يريد أن يحدث هذا الإجماع على الفساد ، فإن لم يسيطر الخير على أمور البشر فلا أقل من أن يظل عنصر الخير موجودا ، ويأتى واحد ليجد عنصر الخير وينميه .

إن الحق سبحانه لا يمحو فى أزمنة الباطل معالم الخير والأفعال الحسنة ، بل يستبقى ـ سبحانه ـ معالم الخير والأفعال الحسنة ليذهب إليها أى إنسان يريد الخير ، وقد يكون الخير ضعيفا ، ولكن الله لا يمحوه ؛ لأنه يعطى به دفعة جديدة لمؤمنين جدد يرفعون راية الحق ، وإن بدأوا ضعفاء . ولذلك نجد الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم يقول : (لولا عباد لله ركع وصبية رُضّع وبهائم رتع لصب عليكم العذاب صبا »[1] .

إن الرسول صلى الله عليه وسلم ينبهنا ألا ننظر إلى الضعفاء على أنهم عالة وأننا أقوياء لمجرد أنهم يعيشون فى أكنافنا . بل قد يكونون سياج لطف ورحمة كما فى الحديث السابق .

إن الله سبحانه وتعالى رفع عنا العذاب من أجل وجود الضعفاء بيننا ، لأن فى الضعاف يوجد شيء من الخير ، ولتظل فى الوجود خلية من الخير حتى إذا ما أراد الوجود أن يفيق إلى الرشد فإنه سيجد من الخير ما يرشده . إذن لولا الاقتتال لعم الفساد ، وانتهت المسألة . لكن الناس اختلفت فمنهم من آمن ، ومنهم من كفر ، « ولو شاء الله ما اقتتلوا » أى لظلوا على منهج واحد من الكفر أو من الفساد ، لكن الله يفعل ما يريد . وفى الاقتتال ـ كما نعرف ـ هناك تضحيات بالنفس ، وتضحيات من أجل أن تظل القيم السماوية على الأرض .

وتقتضى التضحية إما أن يجود الإنسان بنفسه وإما أن يجود بماله ، ولذلك فمن المناسب هنا أن نتكلم عن النفقة وهى الجود بالمال ، وخاصة أنه فى الزمن القديم كان المقاتل هو الذى يجهز عدة قتاله : فرسه ، رمحه ، سيفه ، سهامه ، لذلك فهو يحتاج إلى إنفاق ، ويتكلم الحق عن هذه المسألة لأن الأمر بصدد استبقاء خلية الإيمان المصورة فى المنهج السماوى الذى جاء به الرسل ؛ ليظل هذا المنهج فى الأرض حتى يفيء إليه الناس إن صدمهم الشر أو صدمهم الباطل فيقول :

---

(١) رواه الطبرانى فى الكبير والبيهقى فى السنن الكبرى .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾ ﴾

ونحن نعرف أن كل نداء من الحق يبدأ بقوله تعالى : « ياأيها الذين آمنوا » إنما يدل على أن ما يأتى من بعد هذا القول هو تكليف لمن آمن بالله ، وليس تكليفا للناس على إطلاقهم ؛ لأن الله لا يكلف من كفر به ، إنما يكلف الله من آمن به ، ومن اجتاز ذلك وأصبح فى اليقين الإيمانى فهو أهل لمخاطبة الله له ، فكأنه يجد فى القول الربانى نداء يقول له : يا من آمن بى إلها حكيما قادرا مشرعا لك ، أنا أريد منك أن تفعل هذا الأمر .

إذن الإيمان بالله هو حيثية كل حكم ، فأنت تفعل ذلك لماذا ؟ لا تقل:لأن حكمته كذا وكذا . لا . ولكن قل:لأن الله الذى آمنت به أمرنى بهذه الأفعال ، سواء فهمت الحكمة منها أو لم تفهمها ، بل ربما كان إقبالك على أمر أمرك الله به وأنت لا تفهم له حكمة أشد فى الإيمان من تنفيذك لأمر تعرف حكمته .

ولو أن إنسانا قال له الطبيب : إن الخمر التى تشربها تفسد كبدك وتعمل فيك كذا وكذا ، وبعد ذلك امتنع عن الخمر ، صحيح أن امتناعه عن الخمر صادف طاعة لله ، لكن هل هو امتنع لأن الله قال ؟ لا ، لم يمتنع لأن الله قال ، ولكنه امتنع لأن الطبيب قال ، فإيمانه بالطبيب أكثر من إيمانه برب الطبيب . أما المؤمن فيقول : أنا لا أشرب الخمر ؛ لأن الله قد حرمها ، ولماذا أنتظر حتى يقول لى الطبيب : إن كبدك سيضيع بسبب الخمر ، فالرحمة هى ألا يجىء الداء .

إن الحق يقول : « يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم » أى أنا لا أطلب منكم

أن تنفقوا على ، ولكن أنفقوا من رزقى عليكم ؛ لأن الرزق يأتى من حركة الإنسان ، وحركة الإنسان تحتاج طاقة تتحرك فى شىء أو مادة ، وهذه الحركة تأتى على ترتيب فكر ، وهذا الفكر رتبه من خلقه ، والجوارح التى تنفعل ، واليد التى تتحرك ، والرِّجل التى تمشى خلقها الله ، والمادة التى تفعل بها مخلوقة لله . وسنأخذ الزارع نموذجا ، نجد أن الأرض التى فيها العناصر مخلوقة لله ، إذن فالإنسان يعمل بالعقل الذى خلقه الله ، ويخطط بالجوارح التى خلقها الله لتأتى له بالطاقة التى يعمل بها فى المادة التى خلقها الله لتعطى للإنسان خيرها . . فأى شىء للإنسان إذن ؟

ومع ذلك إن حصل للإنسان خير من هذا كله فهو سبحانه لا يقول:« إنه لى » بل أمنحه لك أيها الإنسان،ولكن أعطنى حقى فيه ، وحقى لن آخذه لى ولكن هو لأخيك المسكين ، والحق يقول :

﴿ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ ﴾

(سورة الذاريات)

وإياك أن تقول : وما دخلى أنا بالمسكين ؟ عليك أن تعلم أنّ المسكنة عَرَض ، والعرض من الممكن أن يلحق بك أنت . فلا تُقدِّر أنك معطٍ دائما ، ولكن قدر أنك ربما حدث لك ما يجعلك تأخذ لاَ أنْ تعطى . الحق يقول لك:أعط المسكين وأنت غنى ؛ لأنه سبحانه سيقول للناس:أن يعطوك وأنت فقير ، فقدِّر حكم الله ساعة يُطلب منك ، ليحميك ساعة أن يُطلب لك ، وبذلك تتوازن المسألة .

ومع أنه سبحانه هو الذى يرزق ، فهو يريد منكم أيها العباد أن تتعاونوا وأن يحب بعضكم بعضا ، حتى تُمحى الضغائن من قلوبكم ؛ لأن الإنسان الضعيف ـ ضعفا طبيعيا وليس ضعف التسول أو الكسل أو الاحتراف ، بل ضعف عدم القدرة على العمل ـ هو مسئولية المؤمنين ، فسبحانه وتعالى يجعل القوى مسئولا أن يساعدك وأنت ضعيف .

وأنت حين ترى ـ وأنت ضعيف لا تقدر ـ الأقوياء الذين قدروا لم ينسوك ، وذكروك بما عندهم ، عندئذ تعلم أنك فى بيئة متساندة تحب لك الخير ، فإن رأيت

نعمة تنالك إن عجزت فأنت لا تحسدها أبداً ، ولا تحقد على معطيها ، بل تتمنى من حلاوة وقعها فى نفسك ـ لأنها جاءتك عن حاجة ـ تتمنى لو أن الله قدرك لتردها ، فيكون المجتمع مجتمعا متكافلا متضامنا .

فحين يقول الله تعالى : « أنفقوا مما رزقناكم » فأنتم لا تتبرعون لذات الله بل تنفقون مما رزقكم ، ومن فضل الله عليكم أنه احترم أثر عملكم ونسبه لكم حتى وإن احتاج أخوك ، فهو سبحانه يقول :

﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ ۖ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾ ﴾

(سورة البقرة)

إن الحق سبحانه قد اعتبر النفقة فى سبيل الله هى قرض من العبد للرب الخالق الوهاب لكل رزق . وحتى نفهم معنى النفقة أقول : قد قلنا من قبل : إن الكلمة مأخوذة من مادة « النون والفاء والقاف » ، ويقال:نفقت السوق أى انتهت بسرعة وتم تبادل البضائع فيها بالأثمان المقررة لها ، ونحن نعرف أن التجارة تعنى مقايضة بين سلع وأثمان . والسلعة هى ما يستفاد بها مباشرة . والثمن ما لا يستفاد به مباشرة .

فعندما تكون جائعا أيغنيك أن يكون عندك جبل من ذهب ؟ إن هذا الجبل من الذهب أنت لا تستفيد منه مباشرة ، أما فائدتك من رغيف الخبز فهى استفادة مباشرة ، وكذلك كوب الماء الممتلىء ، تستفيد منه مباشرة ، والملابس التى ترتديها أنت تستفيد منها مباشرة . إذن فالذى يستفاد منه مباشرة اسمه سلعة ، والذى لا يستفاد منه مباشرة نسميه ثمناً . ولذلك يقول لنا الحق إنذارا وتحذيرا من الاعتزاز بالمال :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ ۗ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾ ﴾

(سورة البقرة)

إن الحق سبحانه ينبهنا أن ننفق من رزقه لنا من قبل أن يأتى اليوم الاخر الذى لا بيع فيه ؛ أى لا مجال فيه لاستبدال أثمان بسلع أو العكس ، وأيضا لا يكون فى هذا اليوم « خُلة » ، ومعنى « خلة » هى الود الخالص ، وهى العلاقة التى تقوم بين اثنين فيصير كل منهما موصولا بالآخر بالمحبة ؛ لأن كُلًّا منكما منفصل عن الآخر ، وإن ربطت بينكما العاطفة وفى الآخرة سيكون كل إنسان مشغولا بأمر نفسه .

إن اليوم الآخر ليس فيه بيع ولا شراء ولا فيه خلة ولا شفاعة ، وهذه هى المنافذ التى يمكن للإنسان أن يستند عليها . فأنت لا تملك ثمنا تشترى به ، ولا يملك غيرك سلعة فى الآخرة ، إذن فهذا الباب قد سد . وكذلك لا يوجد خلة أو شفاعة ، والشفاعة هذه مأذون فيها . إن كانت ممن أذن له الله أن يشفع فهى فى يد الله ، ومعنى « شفيع » مأخوذة من الشفع والوتر . الوتر واحد والشفع اثنان ، فكأن الشفيع يضم صوته لصوت لنقضى هذه الحاجة عند فلان . فيتشفع الإنسان بإنسان له جاه عند المشفوع عنده حتى ينفذ له ما يطلب . ولكن هذه الوسائل فى الآخرة غير موجودة . فلا بيع ولا خلة ولا شفاعة ؛ فأنتم إذا أنفقتم اتقيتم ذلك اليوم ، فانتهزوا الفرصة من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة .

وهذه هى أبواب النجاة المظنونة عند البشر التى تُغلق فى هذا اليوم العظيم . وكأن الحق سبحانه وتعالى يقول : أنا لم أفوت فرصة على خلقى ؛ خلقى هم الذين ظلموا أنفسهم ووقفوا أنفسهم هذا الموقف ، فأنا لم أظلمهم . لذلك يذيل الحق الآية بقوله : « والكافرون هم الظالمون » .

وبعد أن تكلم الله سبحانه وتعالى عن الرسل ، وعن الاختلاف ، وعن القتال لتثبيت منهج الحق ، وعن الإنفاق ، يوضح لنا التصور الإيمانى الصحيح الذى فى ضوئه جاءت كل هذه المسائل . فقد جاء موكب الرسالات كلها من أجل هذا المنهج فقال سبحانه :

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ
لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ
إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ
بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ ﴾

ونقف بالتأمل الآن عند قوله الحق : « الله لا إله إلا هو » . إن كلمة « الله » هى عَلَمٌ على واجب الوجود . وعندما نقول : « الله » فإن الذهن ينصرف إلى الذات الواجبة الوجود .

ما معنى « واجبة الوجود » ؟ إن الوجود قسمان : قسم واجب ، وقسم ممكن . والقسم الواجب هو الضرورى الذى يجب أن يكون موجودا ، والحق سبحانه وتعالى حين أعلمنا باسمه « الله » أعطانا فكرة على أن كلمة « الله » هذه يتحدى بها ـ سبحانه ـ أن يُسمى بها سواه . ولو كنا جميعا مؤمنين لكان احترامنا لهذا التحدى نابعا من الإيمان . ولكنْ هناك كافرون بالله ومتمردون وملحدون يقولون : « الله خرافة » ، ومع ذلك هل يجرؤ واحد من هؤلاء أن يسمى نفسه « الله » ؟

لم يفعل أحد هذا ؛ لأن الله تحدى بذلك ، فلم يجرؤ واحد أن يدخل فى هذه التجربة . وعدم جرأة الكفار والملاحدة فى أن يدخلوا فى هذه التجربة دليل على أن كفرهم غير وطيد فى نفوسهم ، فلو كان كفرهم صحيحا لقالوا : سنسمى ونرى ما يحدث ، ولكن هذا لم يحدث .

إذن « الله » عَلَم واجب الوجود المتصف بكل صفات الكمال . وبعد ذلك جاء

بالقضية الأساسية وهى قوله تعالى : « لا إله إلا هو » وهنا نجد النفى ونجد الإثبات ، النفى فى « لا إله » ، والإثبات فى « إلا هو » . والنفى تخلية والإثبات تحلية . خلى سبحانه نفسه من وجود الشريك له ثم أثبت لنا وحدانيته . و« لا إله إلا هو » أى لا معبود بحق إلا الله . ونعرف أن بعضا من البشر فى فترات الغفلة قد عبدوا أصناما وعبدوا الكواكب . ولكن هل كانت آلهة بحق أم بباطل ؟ لقد كانت آلهة بباطل . ودليل صدق هذه القضية التى هى « لا إله إلا الله » ، أى لا معبود إلا الله أن أحدا من تلك الآلهة لم يعترض على صدق هذه القضية . إذن فهذا الكلام هو حق وصدق .

وإن ادعى أحد غير ذلك ، نقول له : إن الله قد أخبرنا أنه لا معبود بحق غيره ؛ لأنه هو الذى خلق وهو الذى رزق ، وقال:أنا الذى خلقت . إن كان هذا الكلام صحيحا فهو صادق فيه ، فلا نعبد إلا هو . وإن كان هذا الكلام غير صحيح ، وأن أحدا غيره هو الذى خلق هذا الكون فأين هذا الأحد الذى خلق ، ثم ترك من لم يخلق ليأخذ الكون منه ويقول : « أنا الذى خلق الكون » ؟ إنه أمر من اثنين ، الأمر الأول : هو أنه ليس هناك إله غيره . فالقضية ـ إذن ـ منتهية . والأمر الآخر : هو أنه لو كان هناك آلهة أخرى ، وبعد ذلك جاء واحد وقال : « أنا الإله وليس هناك إله إلا أنا » . فأين هذه الآلهة الأخرى ؟ ألم تعلم بهذه الحكاية ؟

إن كانوا لم يعلموا بها ، فهم لا يصلحون أن يكونوا آلهة ، وإن كانوا قد علموا فلماذا لم يقولوا : لا . نحن الآلهة ، وهذا الكلام كذب ؟ وكما بعث الله رسلا بمعجزات كان عليهم أن يبعثوا رسولا بمعجزات . فصاحب الدعوة إذا ادّعاها ولم يوجد معارض له ، تثبت الدعوى إلى أن يوجد مُنازِع .

إذن كلمة « لا إله إلا الله » معها دليل الصدق ؛ لأنه إما أن يكون هذا الكلام حقا وصدقا فتنتهى المسألة ، وإن لم يكن حقا فأين الإله الذى خلق والذى يجب أن يُعبد بعد أن سمع من جاء ليأخذ منه هذه القضية ؟ وبعد ذلك لا نسمع له حسا ولا حركة ، ولا يتكلم ، ولا نعلم عنه شيئا ، فما هو شأنه ؟ إما أنه لم يعلم فلا يصلح أن يكون إلها ؛ لأنه لو كان قد علم ولم يرد فليست له قوة . ولذلك ربنا

سبحانه يأتى بهذه القضية من ناحية أخرى فيقول :

﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

فلو كان عند تلك الآلهة المزعومة مظاهر قوة لذهبوا إلى الله سبحانه وتعالى وأنكروا ألوهيته ، ولو كان هناك إله غير الله لحدثت معركة بين الآلهة ، ولكن هذا لم يحدث . فالكلمة « لا إله إلا الله » صدق فى ذاتها حتى عند من ينكرها ، والدليل فيها هو عدم وجود المنازع لهذه الدعوى ؛ لأنه إن لم يوجد منازع فقد ثبت أنه سبحانه لا إله إلا الله . وإن وجد المنازع نقول : أين هو ؟

وأضرب هذا المثل ـ ولله المثل الأعلى ـ هب أننا فى اجتماع ، وبعد ذلك وجدنا حافظة نقود ، فعرضناها على الموجودين ، فلم نجد لها صاحبا ، ثم جاء واحد كان معنا وخرج ، وقال : يا قوم بينما كنت أجلس معكم ضاعت حافظة نقودى . ولما لم يدعها واحد منا لنفسه فهى إذن حافظته هو .

إذن « لا إله إلا الله » هى قضية تمتلىء بالصدق والحق ، والله هو المعبود الذى يُتَوَجّه إليه بالعبادة ، والعبادة هى الطاعة . فمعنى عابد أى طائع ، وكل طاعة تقتضى أمرا وتقتضى نهيا ، ومادامت العبادة تقتضى أمرا وتقتضى نهيا ، فلا بد أن يكوّن المأمور والمنهى صالحا أن يفعل وصالحا ألاّ يفعل . فعندما نقول له : افعل كذا كمنهج إيمان ، فهو صالح لئلا يفعل . وعندما نقول له : لا تفعل فهو صالح لأن يفعل ، وإلا لو لم يكن صالحا ألا يفعل أيقول له « افعل » ؟ لا ، لا يقول له ذلك . ولو كان صالحا ألا يفعل أيقول له « لاتفعل » ؟ إن ذلك غير ممكن .

إذن لا بد أن يكون صالحا لهذه وتلك وإلا لكان الأمر والنهى عبثا ولا طائل من ورائهما . لذلك عندما أرادوا أن يقصروا الإسلام فى العبادات الطقسية التى هى شهادة لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، والصلاة ، والصوم ، والزكاة ،

والحج ، قالوا : هل هذا هو كل الإسلام ، وقالوا : إنه دين يعتمد على المظاهر فقط ، قلنا لهم : لا ، إن الإسلام هو كل حركة فى الحياة تناسب خلافة الإنسان فى الأرض ؛ لأن الله يقول فى كتابه الكريم :

﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾

(من الآية ٦١ من سورة هود)

« واستعمركم فيها » أى طلب منكم أن تعمروها ، فكل حركة فى الحياة تؤدى إلى عمار الأرض فهى من العبادة ، فلا تأخذ العبادة على أنها صوم وصلاة فقط ؛ لأن الصوم والصلاة وغيرهما هى الأركان التى ستقوم عليها حركة الحياة التى سَيُبنى عليها الإسلام ، فلو جعلت الإسلام هو هذه الأركان فقط لجعلت الإسلام أساسا بدون مبنى ، فهذه هى الأركان التى يُبنى عليها الإسلام ، فإذن الإسلام هو كل ما يناسب خلافة الإنسان فى الأرض يبين ذلك ويؤكده قول الله تعالى :

﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾

(من الآية ٦١ من سورة هود)

ويخرج إلينا أناس يقولون : نحن ليس لنا إلا أن نعبد ولا نعمل . ونقول لأى منهم : كم تأخذ الصلاة منك فى اليوم ؟ ساعة مثلا . والزكاة كم تأخذ منك فى العام يوما واحدا فى العام ؟ والصوم كم يأخذ منك من وقت ؟ نهار أيام شهر واحد . وفريضة الحج أتأخذ منك أكثر من رحلة واحدة فى عمرك ؟ فبالله عليك ماذا تفعل فى الباقى من عمرك من بعد ذلك وهو كثير ؟ إنك لا تأخذ أكثر من ساعة فى اليوم للصلاة ، ولا تأخذ أكثر من يوم فى السنة لإخراج الزكاة،وتقضى شهرا فى السنة تصوم نهاره . وتحج مرة واحدة فى عمرك ، فماذا تفعل فى بقية الزمان ، ستأكل وتلبس ، ستطلب رغيف الخبز للطعام فمن الذى سيصنعه لك ؟ إن هذا الرغيف يمر بمراحل حتى يصير لقمة تأكلها . ويحتاج إلى أكثر من علم وأكثر من حركة وأكثر من طاقة .

إن المحل الذى يبيعه فقط ولا يخبزه يحتاج إلى واجهة من زجاج أو غيره ، ولا بد أن يعمل فيه من يذهب بعربته إلى المخبز ليحمل الخبز ، وينقله إلى المحل ويبيعه ،

وإذا نظرت إلى الفرن فسوف تجد مراحل عدة من تسليم وتسلم للدقيق ، ثم إلى العجين ، وإلى النار التى توقد بالمازوت ، ويقوم بذلك عمال يحتاجون لمن يخطط لهم ، وقبل ذلك كان الدقيق مجرد حبوب ، وتم طحنها لتصير دقيقا ، وهناك مهندسون يديرون الماكينات التى تطحن ، ويعملون على صيانتها ، وبعد ذلك الأرض التى نبت فيها القمح وكيف تم حرثها ، وتهيئتها للزراعة ، وريها ، وتسميدها ، وزرعها ، وحصدها ، وكيف دُرِسَ القشر والسنابل ، وكيف تتم تذريته من بعد ذلك ، لفصل الحبوب عن التبن ، وتعبئة الحبوب ، إلى غير ذلك ؟

انظر كم من الجهد أخذ رغيف الخبز الذى تأكله ، وكم من الطاقات وكم رجالٍ للعمل ، فكيف تستسيغ لنفسك أن يصنعوه لك ، وأنت فقط جالس لتصلى وتصوم ؟ لا ، إياك أن تأخذ عمل غيرك دون جهد منك .

مثال آخر ، أنت تلبس جلبابا ، كم أخذ هذا الجلباب من غزل ونسج وخيط ؟ إذن فلا تقعد ، وتنتفع بحركة المتحرك فى الحياة ، وتقول:أنا مخلوق للعبادة فقط ، فليست هذه هى العبادة ، ولكن العبادة هى أن تطيع الله فى كل ما أمر ، وأن تنتهى عن كل ما نهى فى إطار قوله تعالى : « هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها » إن كل عمل يعتبر عبادة ، وإلا ستكون « تنبلاً » فى الوجود . والإيمان الحق يقتضى منك أن تنتفع بعملك ولا تعتمد على عمل غيرك .

إن الحق سبحانه وتعالى قد استخلفنا فى الأرض من أجل أن نعمرها . ومن حسن العبادة أن نتقن كل عمل وبذلك لا نقيم أركان الإسلام فقط ، ولكن نقيم الأركان والبنيان معا . ونكون قد أدينا مسئولية الإيمان ، وطابق كل فعل من أفعالنا قولنا: « لا إله إلا الله » .

ولقد عرفنا أن كلمة « الله » هى علَم على واجب الوجود ، وهى الاسم الذى اختاره الله لنفسه وأعلمنا به ، ولله أسماء كثيرة كما روى فى الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين سأل الله بكل اسم هو له أنزله فى كتابه أو علمه أحدًا من خلقه ـ أى خصّه به ـ أو استأثر به فى علم الغيب عنده ، فلا تظنن أن أسماء الله هى

كلها هذه الأسماء التى نعرفها ، ولكن هذه الأسماء هى التى أذن الله سبحانه وتعالى بأن نعلمها .

ومن الجائز ، أو من لفظ الحديث نعلم أن الله قد يُعلّم بعضا من خلقه أسماء له ، ويستأثر لنفسه بأسماء سنعرفها يوم القيامة حين نلقاه ، وحين نتكلم عن الأسماء الأخرى نجد أنها ملحوظ فيها الصفة ، ولكنها صارت أسماء لأنها الصفة الغالبة ، فإذا قيل:« قادر » نجد أننا نستخدم هذه الكلمة لوصف واحد من البشر ، ولكن « القادر » إذا أطلق انصرف إلى القادر الأعلى وهو الله . وكذلك « السميع » ، و« البصير » . و« العليم » .

إننا نجد أن بعضا من أسماء الله سبحانه وتعالى له مقابل ، ومن أسماء الله الحسنى ما لاتجد له مقابلا . فإذا قيل « المحيى » تجد « المميت » ، و« المعز » تجد « المذل » ، لأنها صفة يظهر أثرها فى الغير ، فهو مميت لغيره ، ومعزّ لغيره ، ومذل لغيره ، لكن الصفة إن لم يوجد لها مقابل نسميها صفة ذات ، فهو « حى » ولا نأتى بالمقابل إنما « مُحيى » نأتى بالمقابل وهو « المميت » ، فهذه اسمها صفة فعل . فصفات الفعل يتصف بها وبمقابلها لأنها فى الغير . لكن صفة الذات لا يتصف إلا بها .

وحينما قال الحق : « الله » فهو سبحانه يريد أن يعطينا بعض تجليات الله فى أسمائه ، فقال : « الله لا إله إلا هو » ليحقق لنا صفة التوحيد ، ويجب أن نعلم أن « إلا » هنا ليست أداة استثناء ، لأنها لو كانت أداة استثناء فكأنك تنفى أن توجد آلهة ويكون الله من ضمن هذه الآلهة التى نفيتها وذلك غير صحيح.وإنما المراد أنه لا آلهة أبداً غير الله فهو واحد لا شريك له ، وأنه لا معبود بحق إلا هو فكلمة « إلّا » ليست للاستثناء وإنما هى بمعنى غير ، أى لا إله غير الله .

وقد عرفنا أن هذه القضية معها دليلها ، وإلا فلو كان هناك إله آخر لقال لنا:إنه موجود . لكن لا إله إلا هو سبحانه أبلغنا « الله لا إله إلا هو » . وأعجبنى ما قاله الدكتور عبدالوهاب عزام ـ رحمة الله عليه ـ وكان متأثرا بالشاعر الباكستانى « إقبال » ، كان للشاعر إقبال شيء اسمه « المثانى » ، أى أن يقول بيتين من الشعر فى

معنى ، وبيتين من الشعر فى معنى ، وكان يغلب على شعر إقبال الفلسفة الإسلامية والفكر الإسلامى ، وقد تأثر الدكتور عبدالوهاب عزام بشعر إقبال فجعل له مثانى أيضا يناظر فيها « إقبال » ، فيقول :

إنما التوحيد إيجاب وسلب وفيهما للنفس عزم ومضاء

وقوله : « إنما التوحيد إيجاب وسلب » هو قول متأثر بالقضية الكهربية . فيقول : إنما التوحيد إيجاب وسلب فيهما للنفس عزم ومضاء . فأنت عندما تقول : « لا إله » ، فـ« لا » للنفى ، وعندما تكمل قولك:« إلا الله » فـ« إلا » للإثبات ، ويكمل الدكتور عزام قوله : لا وإلّا قوة قاهرة . فهما فى القلب قطبا الكهرباء كأن الكهرباء تأتى بأنك تسلب وتوجب . فالإيجاب فى « إلا » والسلب فى « لا » . ومادام فيه إيجاب وسلب ، إذن ففيه شرارة كهرباء .

« الله لا إله إلا هو الحىّ القيوم » ، و« الحىّ » هو أول صفة يجب أن تكون لذلك الإله ، لأن القدرة بعد الحياة ، والعلم بعد الحياة . فكل صفة لابد أن تأتى بعدها فى الذكر وإلا فليست صفة من صفات الله أسبق من صفة ولا متقدمة عليها فكلها قديمة لا أول لها ، فلو كان عدماً فكيف تأتى الصفات على العدم ؟، وكلمة « حىّ » عندما نسمعها نقول : ما هو الحىّ ؟. إن الفلاسفة قد احتاروا فى تفسيرها . فمنهم من قال : الحىّ هو الذى يكون على صفة تجعله مُدْرِكاً إن وُجِدَ ما يُدْرَكْ .

كأن الفيلسوف الذى قال ذلك : يعنى بالحياة حياتنا نحن ، وما دوننا كأنه ليس فيه إدراك . ونقول لصاحب هذا الرأى : لا ، إن أردت الحياة بالمعنى الواسع الدقيق فلا بد أن تقول : الحياة هى أن يكون الشىء على الصفة التى تبقى صلاحيته لمهمته ، هذا هو ما يجب أن يكون عليه التعريف ، فـ« الحىّ » : هو الذى يكون على صفة تُبقى له صلاحيته لمهمته ، مثال ذلك النبات ، مادمت تجده ينمو ، إذن ففيه حياة تُبقى له صلاحية مهمته . فلو قُطِعَ لانتهت الصلاحية . ومثل الإنسان عندما يموت تنتهى صلاحيته لمهمته ، والعناصر الجامدة عندما تأتى مع بعضها تتفاعل ، هذا التفاعل فرع وجود الحياة ، لكنها حياة مناسبة لها وليست مثل حياتنا .

أنت مثلاً ترى « الزلط » الناعم الأملس ، تجده على مقدار واحد ؟ لا ، إن أشكاله مختلفة ، وهذا دليل على أن هناك مراحل للحجر الواحد منها ، ولو استمرت تلك الأحجار فى بيئتها الطبيعية فلاشك أن هذه الكبيرة تتفتت يوماً وتصير صغيرة ثم تكبر مرة أخرى ، لكن الإنسان حين يستخدم هذه الحجارة ليضعها على سبيل المثال بين القضبان التى تسير عليها القطارات فهذه الأحجار تكون قد خرجت من بيئتها . ومن حكمة الله أنه لا يوجد شىء تنتهى جدواه أبداً ، بل هو سبحانه يهيىء لكل شىء مهمة أخرى .

إذن فكل كائن يكون على صفة تُبقى له صلاحيته لمهمة ، وتكون له حياة مناسبة لتلك المهمة . نحن لا نأتى بهذاالكلام من عندنا ، ولكننا نأتى بهذا الكلام لأننا نقرأ القرآن بإمعان وتدبر ، ونقول : ماذا يقابل الحياة فى القرآن ؟ إنه الهلاك بدليل أن الله قال :

﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ﴾

(من الآية ٤٢ سورة الأنفال)

إذن فالحياة مقابلة للهلاك . و« الحىّ » غير هالك . والهالك لا يكون حياً ، ويقول تعالى فى الآخرة :

﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾

(من الآية ٨٨ سورة القصص)

ومعنى ذلك أن كل الأجناس من أعلاها إلى أدناها ، سواء الإنسان ، أو الملائكة ، أو الحيوان أو النبات ، كلها ستكون هالكة ، ومادام كل شىء سيهلك يوم القيامة فكأنه لم يكن هالكاً قبل ذلك ، وله حياة مناسبة له . أليست الحجارة شيئاً ، وستدخل فى الهلاك يوم القيامة ؟ . إذن فهى قبل ذلك غير هالكة . لكننا نحن البشر لا نفطن إلى ذلك ونفهم الحياة فقط على أنها الحس والحركة الظاهرة . مع أن العلماء قد أثبتوا أنه حتى الذرة فيها دوران ، ولها حياة . وأنت عندما تنظر بالمجهر على ورقة من النبات ، وترى ما بها من خضر وخلايا ، وتشاهد العمليات التى تحدث بها ، وتقول : هذه حياة أرقى من حياتنا ، وأدق منها .

إذن فكل شيء له حياة ، وإياك أن تظن أنك أنت الذى تهلكها ، فعندما تأتى بحجر وتدقه أو تضعه فى الفرن لتصنع الجير ؛ إياك أن تقول:إنك أذهبت من الأحجار الحياة المناسبة لها ، أنت فقط قد حولت مهمتها من حجر صلب ، وصارت لها مهمة أخرى ، فالمسائل تتسلسل إلى أن يصير لكل شيء فى الوجود حياة تناسب المهمة التى يصلح لها .

وانظر إلى مهمة الحق ، ما شكلها ؟ إنها الحياة العليا ، وهو الحى الأعلى وحى لا تُسلب منه الحياة ، لأن أحدا لم يعطه الحياة ، بل حياته سبحانه ذاتية ، فهذا هو الحى على إطلاقه .

إذن فالحى على إطلاقه هو الله والحق سبحانه وتعالى قال : « الله لا إله إلا هو الحىّ » وأثر صفة هذه موجود فى كل الصفات الأخرى فقال : « القيوم » . والقيوم هو صفة مبالغة فى قائم . ومثلها قولنا : « الله غفور » لكن ألا يوجد غافر ؟ يوجد غافر ، لكن « غفور » هى صفة مبالغة .

وقد يقول قائل : هل صفات الله فيها صفة قوية وأخرى ضعيفة ؟ . نقول : لا ، فصفات الله لا يصح أن توصف بالضعف أو بالقوة ، صفات الله نظام واحد . وحتى نفهم ذلك فلنضرب هذا المثل ـ ولله المثل الأعلى ـ نحن نقول : كلنا نأكل كى نستبقى حياتنا ، فكل واحد منا « آكل » ، لكن عندما نقول : فلان أكول ، فمعنى ذلك أنه أخذ صفة الأكل التى كلنا شركة فيها وزاد فيها فنقول عليه:« أكّال » أو « أكول » .

من أى ناحية تأتى هذه الزيادة ؟ قد تأتى الزيادة من أنك تأكل فى العادة رغيفا ، وهو يأكل رغيفين أو ثلاثة ، إذن فالحدث له فى الأكل أثر كبير ، فنقول عليه : أكول . وقد يأكل معك رغيفا فى الوجبة الواحدة ، لكنه يأكل خمس وجبات بدلا من ثلاث وجبات ؛ فيكون أيضا أكولا ، إذن فـ « أكول » إما مبالغة فى الحدث نفسه وإما بتكرار الحدث .

ونحن ننظر إلى صفات الله ونقول:إنها لا تحتمل القوة والضعف فى ذات الحدث ،

إنما فى تكررها بالنسبة للمخلوقين جميعاً ، فالله غافر لهذا ، وغافر لذاك ، وغافر لكل عاص يتوب ، إذن فالحدث يتكرر ، فيكون « غفوراً » و« غفّارا » . وهذا ما يحل لنا الإشكال فى كثير من الأمور ، فعندما يقول سبحانه :

﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾

(من الآية ٤٦ سورة فصلت)

فنحن هنا نجد قضية لغوية تقول : إنك إذا جئت بصيغة المبالغة ، وأثبتها ، تكون الصيغة الأخرى الأقل منها ثابتة بالضرورة ، مثال ذلك عندما نقول : فلان « علّام » أو « عالم » ، فمادمت أثبت له الصفة القوية ؛ تكون الصفة الضعيفة موجودة ، لكن إذا نفيت الصفة المبالغ فيها قد تكون الصفة الأخرى موجودة ، فهو ليس « علامة » لكنه قد يكون « علاماً » أو « عالما » ، فإذا قلت : فلان « علامة » فقد أثبت له الأدنى أيضاً ، فيكون « علّاما » و« عالما » . لكن إذا نفيت عنه « علامة » انتفى عنه الباقى ؟ لا ، إذن فنفى الأكثر لا ينفى الأقل .

لكن إذا أُثبت الأكثر ثبت الأقل ، وإذا نفيت الأكثر فلن ينتفى الأقل ، فإذا قلت : الله ليس بظلام للعبيد ، نفيت الأكثر . صحيح أنهّ غير مبالغ فى الظلم ، فهل يمكن أن يكون ظالماً ؟ على حسب ما قلنا : إذا نفينا الأكثر لا ينتفى الأقل نقول : لا ، لأننا هنا يجب أن نأخذ القضية الأولى فى أن المبالغة فى الحدث والمبالغة فى الفعل تأتى مرة فى ذات الحدث ، ومرة فى تكرار الحدث ، والحق سبحانه لو أراد أن يظلم هذا ويظلم هذا ، فقد تكرر الحدث ؛ فيكون معاذ الله ـ ظلّاماً ، ولذلك لم يقل : بظلّام للعبد ، بل قال : بظلّام للعبيد .

إذن فهذا العبد يحتاج ظالماً ، والعبد الآخر يحتاج ظالماً ، وذاك يحتاج ظالماً ! فعندما يظلم كل هؤلاء يكون ظلاماً ، ولذلك نفاها سبحانه وقال : « وما ربك بظلام للعبيد » .

والحق هنا يقول : « قيوم » وهذه صفة مبالغة من قائم ، فالأصل فيها : القائم على أمر بيته ، والقائم على أمر رعيته ، والقائم على أمر المدرسة ، والقائم على أمر

هذه الإدارة ، ومعنى قائم على أمرها : أنه متولى شئونها ، فكأن القيام هو مظهر الإشراف . فنحن لا نقول : « قاعد على إدارتها » . وعندما نقول « قيوم » فمعناها أنه أوسع فى القيام . كيف جاء هذا الاتساع ؟. لأن القائم قد يكون قائماً بغيره ، لكن حين يكون قائما بذاته ، وغيره يستمد قيامه منه ، فهو قائم على كل نفس وهو سبحانه القائل :

﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ ﴾

(سورة الرعد)

إن المشركين قد بلغوا السفه فى جحودهم فجعلوا لله شركاء فى العبادة ، فهل يستطيع أحد أن يبلغ تلك المرتبة العالية ، مرتبة خلق العالم والقيام على كل أمر فيه ، صغر أو كبر ؟. إنه الحافظ المراقب لكل نفس ، العالم بكل ما خفي وظهر ، وهذه الأوثان لا تضر ولا تنفع ، فكيف تتوهمون يا من أشركتم بالله له نداً ، إن الحق مُنزه عن ذلك بقيامه على كل نفس وكل الخلق . لكن أهل الضلال أغواهم ضلالهم فلم يعد لهم هاد بعد الله .

إن الحق سبحانه قائم بذاته ، وقائم على غيره . والغير إن كان قائما إنما يستمد منه القيام . فلابد أن يكون « قيوماً » ، ومن قيومته أنه « لا تأخذه سنة ولا نوم » ، وقيل فى كتب العلم : إن قوم بنى إسرائيل سألوا موسى عليه السلام : أينام ربنا ؟.

فأوحى الله إليه : أن آت بزجاجتين وضعهما فى يد إنسان ، ودعه إلى أن ينام ، ثم انظر الجواب . فلما وضع فى يده الزجاجتين ونام . انكسرت الزجاجتان فقال : هو كذلك ، هو قائم على أمر السماء والأرض ، ولو كانت تأخذه سنة أو نوم لتحطمت الدنيا .

وهو سبحانه « لا تأخذه سنة ولا نوم » . و« السنة » هى أول ما يأتى من

النعاس ؛ أى النوم الخفيف، فالواحد منا يكون جالساً ثم يغفو، لكن النوم هو « السُبات العميق » ، فلما قال : « لا تأخذه سنة » قالوا : إنه يتغلب على النوم الخفيف لكن ؛ هل يقدر على مقاومة النوم العميق ؟. فقال الحق عن نفسه : « لا تأخذه سنة ولا نوم » . وعرفنا أن السنة هى : النعاس الذى يأتى فى أول النوم ، ومظهرها يبدو أولاً فى العين وفى الجفن ، فعندما يذهب إنسان فى النوم ؛ فإن أثر ذلك يظهر فى عينيه ، ولذلك يقولون : إن العين هى الجارحة التى يمكن أن تعرف بها أحوال الإنسان ، وقد اكتشفوا فى عصرنا الحديث أن الشرايين لا يمكن أن يعرفوا حالتها بالضبط إلا من العين . فالفتور الذى يأتى فى العين أولاً هو السنة أو مقدمات النوم ونسميه : النعاس .

«لا تأخذه سنة ولا نوم » أتريدون تطميناً من إله لمألوه ، ومن معبود لعابد ، ومن خالق لمخلوق أكثر من أنه يقول للعابد المخلوق : « نم أنت ملء جفونك ، واسترح ؛ لأن ربك لا ينام » . ماذا تريد أكثر من هذا ؟ هو سبحانه يعلم أنه خلقك ، وأنك تحتاج إلى النوم ، وأثناء نومك فهناك أجهزة فى جسمك تعمل . أإذا نمت وقف قلبك ؟ أإذا نمت انقطع نفَسك ؟ أإذا نمت وقفت معدتك من حركتها الدودية التى تهضم ؟ أإذا نمت توقفت أمعاؤك عن امتصاص المادة الغذائية ؟ لا ، بل كل شىء فى دولابك يقوم بعمله . فمن الذى يُشرف على هذه العمليات لو كان ربك نائما ؟

إذن فأنت تنام وهو لا ينام . وبالله هل هذه عبودية تُذلّنا أو تُعزنا ؟ إنها عبودية تُعزنا ؛ فالذى نعبده يقول : ناموا أنتم ؛ لأننى لا تأخذنى سنة ولا نوم . وإياك أن تفهم أنه لا تأخذه سنة ولا نوم ، وأن شيئا فى كونه يخرج على مراده ، لا ؛ لأن كل ما فى السموات والأرض له ، فلا شىء ولا أحد يخرج عن قدرته . ولذلك يقول الحق : « له ما فى السموات وما فى الأرض » .

ويتابع سبحانه بقوله : « من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه » إنّه سبحانه وتعالى يوضح : أنا أعطيتك الراحة فى الدنيا ، وحتى الكافر جعلته يتنعم بنعمى ، ولم أجعل الأسباب تضن عليه ، وأعطيته مادام قد اجتهد فى تلك الأسباب مما يدل على أننى ليس عندى محاباة ، قلت للأسباب : يا أسباب من يُحسنك يأخذك ولو كان

كافرا بى . لكنه سيأتى يوم القيامة وليس للكافر إلا العذاب ، لأنه مادام قد عمل فى الدنيا وأحسن عملا فقد أخذ جزاءه ، فإياكم أن تظنوا كما قالوا : « هؤلاء شفعاؤنا عند الله »، وجاء فيهم قول الحق :

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

(سورة يونس)

إن هؤلاء الذين افتروا على الله بالشرك به ، واتخذوا أصناما باطلة لا تضرهم ولا تنفعهم . يقولون عن هذه الأصنام : إنها تشفع لهم عند الله فى الآخرة ، ويأمر الحق سبحانه رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم أن يبلغ المشركين : قل لهم يا محمد : هل تخبرون الله بشريك لا يعلم الله له وجودا فى السموات ولا فى الأرض ، وهو الخالق لكل ما فى السموات والأرض ومُنزه سبحانه عن أن يكون له شريك فى المُلك .

لقد أرادوا أن يخلوا بقضية التوحيد ويجعلوا لله شركاء ويقولوا : إن هؤلاء الشركاء هم الذين سيشفعون لنا عند الله . فيقول الحق سبحانه : إن الشفاعة لا يمكن أن تكون عندى إلا لمن أذنت له أن يشفع . إن الشفاعة ليست حقا لأحد . ولكنها عطاء من الله ، لذلك يقول : « من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه » .

ويقول الحق : « يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم » . ساعة يتعرض العلماء إلى : « مابين أيديهم وما خلفهم » يشرحون لنا أن ما بين اليدين أى ما أمامك ، وما خلفك أى ما وراءك ، وما بين يدى الإنسان يكون : مواجها لآلة الإدراك الرائدة وهى العين ، فهو أمر يُشهد .

والذى فى الخلف يكون غيبا لا يراه ، كأن ما بين اليد يراد به المشهود والذى فى الخلف يراد به الغيب ، فهو « يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم » أى يعلم مشهدهم

وغيبهم ، ويطلق « ما بين اليد » إطلاقا آخر . إننا قد نسأل عمّا بين يديك . هل هو مواجه لك أو غير مواجه ؟ فلو كان أمامك بشر ، فهل هم قادمون إليك أو راحلون عنك ؟

إنهم إن كانوا راحلين عنك فقد سبقوك وقد جئت أنت من بعدهم ، ومن وراءك سيأتى من بعدك . أى أن الحق سبحانه يخبرنا أنه يعلم الماضى والمستقبل . فمرة يعلم الحق ما بين أيديهم ، أى العالم المشهود ويسمونه « عالم الملك » ، وما خلفهم أى الغيب ، ويسمونه « عالم الملكوت » . إنه يعلم المشهود لهم والخفى عنهم . وكما يقول الحق :

﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

إن عند الله علم جميع الغيب ويحيط علمه بكل شىء ، ولا تخفى عليه خافية . إنها إحاطة من كل ناحية . « يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء » . إنه الحق يعلم مطلق العلم . وكون الحق يعلم فإن ذلك لا ينفى أن يكون غيره يعلم أيضا ، لكن علم البشر هو بعض علم موهوب من الخالق لعباده .

فعندما يقول واحد : أنا أقول الشعر . فهل منع ذلك القول أحداً آخر من أن يقول الشعر ؟ لا . إنه لم يقل : ما يقول الشعر إلا أنا .

ويقول سبحانه : « ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء » ، و« العلم » هو الصفة التى تعلم الأشياء على وفق ما هى عليه ، هذا هو العلم . وصفة الله وعلمه أعظم من أن يحاط بها ، لأنها لو أحيطت لحددت ، وكمالات الله لا تحدد ، مثلما ترى شيئا يعجبك فتقول : هذه قدرة الله ، هل هى قدرة الله أو مقدور الله ؟ إنها مقدور الله أى أثر القدرة ، فعندما يقول : « ولا يحيطون بشىء من علمه » أى من معلومه .

« ويحيطون » هى دقة فى الأداء ، لأنك قد تدرك معلوما من جهة وتجهله من جهات ، فأوضح سبحانه : أنك لا تقدر أن تحيط بعلم الله أو قدرته ؛ لأن معنى الإحاطة أنك تعرف كل شيء ، مثل المحيط على الدائرة ، لكن ذلك لا يمنع أن نعلم جزئية ما ، ونحن نعلم بما آتانا الله من قوانين الاستنباط ، فهناك مقدمات نستنبط منها نتائج ، مثل الطالب الذى يحل مسألة جبر ، أو تمرين هندسة ، أيعلم هذا الطالب غيبا ؟ لا ، ولكنه يأخذ مقدمات موضوعة له ويصل إلى نتائج معروفة سلفا لأستاذه . وأنت لا تحيط بعلم إلا بما شاء لك الله أن تحيط ، « لا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء » .

وقول الله : « إلا بما شاء » هو إذن منه سبحانه بأنه سيتفضل على خلقه بأن يشاء لهم أن يعلموا شيئا من معلومه ، وكان هذا المعلوم خفيا عنهم ومستورا فى أسرار الكون ، ثم يأذن الله للسر أن ينكشف ، وكل شيء اكتشفه العقل البشرى ، كان مطمورا فى علم الغيب وكان سرا من أسرار الله ، وبعد ذلك أذن الله للسر أن ينكشف فعرفناه ، بمشيئته سبحانه . فكل سر فى الكون له ميلاد كالإنسان تماما ، أى أن له ميعادا يظهر فيه ، وهذا الميعاد يسمى مولد السر . لقد كان هذا السر موجودا وكان العالم يستفيد منه وإن لم يعلمه . لقد كنا نحن نستفيد ـ على سبيل المثال ـ من قانون الجاذبية ولم نكن نعلم قانون الجاذبية ، وكذلك النسبية كنا نستفيد منها ولم نكن نعلمها ، وهذا ما يبينه لنا الحق فى موضع آخر من القرآن الكريم ، قال تعالى :

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾

(سورة فصلت)

مادام قال سبحانه : « سنريهم » ، فهذا يعنى أنه سبحانه سيولد لنا أسراراً جديدة ، وهذا الميلاد ليس إيجادًا وإنما هو إظهار ، ولذلك يقول الناس عن الأسرار العلمية:إنها اكتشافات جديدة ، لقد تأدبوا فى القول مع أن كثيرا منهم غير متدينين ، قالوا : اكتشفنا كذا ، كأن ما اكتشفوه كان موجودا وهم لا يقصدون هذا الأدب . إنما هى جاءت كذلك ، أما المؤمنون فيقولون : لقد أذن الله لذلك السر أن يولد .

وقوله : « لا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء » فيه تحد واضح . فحتى إذا اجتمع البشر مع بعضهم البعض فلن يحيطوا بشيء إلا بإذنه . وهذا تحدٍ للكل ، حين يشاء سبحانه أن يوجد إظهار سر فى الوجود ، فهذا السر يولد ، وقد يكون إظهار السر موافقا لبحث الناس مثل العالم الذى يجلس فى معمله ليجرب فى العناصر والتفاعلات ، ويهتدى لهذه وهذه ، إنه يتعب كثيرا كى يعرف بعضا من الأسرار ، ونحن لا ندرى بتعبه وجهده إلا يوم أن يكتشف سره .

لقد أخذ المقدمات التى وضعها الله فى الكون حتى إذا تتبعناها نصل إلى سره ، مثلما نريد أن نصل إلى الولد فنتزوج حتى يأتى ، وقد يأذن الله مرارا كثيرة أن يولد السر بدون أن يشتغل الخلق بمقدماته ، لكن ميعاد ميلاد السر قد جاء ولم ينشغل العلماء بمقدماته ؛ فيخرجه الله لأى مخترع كنتيجة لخطأ فى تجربة ما .

وعندما نبحث فى تاريخ معظم الاكتشافات نجدها كذلك ، لقد جاءت مصادفة ، فهناك عالم يبحث فى مجال ما ، فتخرج له حقيقة أخرى كانت مخفية عنا جميعا . لقد جاء ميعاد ميلادها على غير بحث من الخلق ، فجاء الله بها فى طريق آخر لغيرها ، وفى بعض الأحيان يوفق الله عالما يبحث المقدمات ويكشف له السر الذى يبحث عنه .

إذن ، فـ « لا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء » تعنى أن الإنسان قد يصادف السر بالبحث ، ومرة يأتى سر آخر فى مجال البحث عن غيره ، فالله لا يضن بكشف السر حتى لو لم يشتغلوا به ونسميها نحن ـ مصادفة ـ إنّ كل شيء يجرى فى الكون إنما يجرى بمقدار ، وهذا هو الذى يفرق لنا بين معرفة غيب كان موجودا وله مقدمات فى كون الله نستطيع أن نصل إليه بها ، وشيء مستور عند الله ليست له مقدمات ؛ إن شاء سبحانه أعطاه من عنده تفضلا ؛ من باب فضل الجود لا بذل المجهود وهو سبحانه يفيضه فى « المصادفة » هنا ويفيضه فيما لا مقدمات له على بعض أصفيائه من خلقه ، ليعلم الناس جميعا أن لله فيوضات على بعض عبيده الذين وَالاَهُمُ الله بمحبته وإشراقاته وتجليه .

لكن هل هذا يعنى أن باستطاعتنا أن نعرف كل الغيب ؟ لا ، فالغيب قسمان :

غيب جعل الله له فى كونه مقدمات ، إن استعملناها نصل إليه ، ككثير من الاكتشافات ، وإذا شاء الله أن يولد سر ما ولم نبحث عنه فهو يعطيه لنا « مصادفة » من باب فيض الجود لا بذل المجهود . ونوع آخر من الغيب ليست له مقدمات ، وهذا ما استأثر الله بعلمه إلا أنه قد يفيض به على بعض خلقه كما يقول سبحانه :

﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ ﴾

(سورة الجن)

إن الله هو عالم الغيب فلا يُطلع أحدا من خلقه على غيبه إلا من ارتضاه واصطفاه من البشر ، لذلك فلا أحد يستطيع أن يتعلم هذا اللون من الغيب . ولذلك فلا يوجد من يفتح دكانا لعلم الغيب يذهب إليه الإنسان ليسأله عن الغيب . إن الحق يقول :

﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

وهو سبحانه لا يعطى المفتاح لأحد من خلقه . وقد يريد الله أن يعطى لواحد كرامة ، فأعطاه كلمة على لسانه قد يكون هو غير مدركٍ لها ! فيقول : من يسمع هذا القول وينتفع به . فلان قال لى : كذا وكذا . . يا سلام ! وهذا فيض من الله على عبده حتى يبين الله لنا أنه يوالى هؤلاء العباد الصالحين .

وقوله الحق : « ولا يحيطون بشىء » نجد أن كلمة « شىء » تعنى أقل القليل . وقوله سبحانه : « من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السموات والأرض » يعلمنا أن الحق فيما يتكلم به عن نفسه ولخلقه فيه نظائر ، كالوجود ، هو سبحانه موجود وأنت موجود ، وكالغنى هو غنى وأنت غنى ، كالعلم هو عالم وأنت تكون عالماً ، فهل

نقول : إن الصفة لله كالصفة عندنا ؟ لا ، كذلك كل ما يرد بالنسبة للغيب فيما يتعلق بالله إضافة أو وصفاً ؛ لا تأخذها بالمناسب عندك ؛ بل خذها فى إطار « ليس كمثله شيء » .

فإذا قيل لله يد ، قل : هو له يد كما أن له وجودا ؛ وبما أن وجوده ليس كوجودى فيده ليست كيدى بل افهمها فى إطار « ليس كمثله شيء » ، فإذا قال : « وسع كرسيه » نقول : هو قال هذا ، ومادام قال هذا فسنأخذ هذه الكلمة فى إطار « ليس كمثله شيء » . فلا تقل له كرسى وسيقعد عليه مثلنا ، لا . لقد وجدنا من قال : أين يوجد الله ؟!! متى وجد ؟!! وقلنا ونقول : « متى » و« أين » لا تأتى بالنسبة لله ، إنها تأتى بالنسبة لكم أنتم ، لماذا ؟ لأن « متى » زمان و« أين » مكان . والزمان والمكان ظرفان للحدث ، فالشيء الحادث هو الذى له زمان ومكان ، مثال ذلك أن أقول : « أنا شربت » ومادام قد حدث الشرب فيكون له زمان ومكان ، لكن هب أننى لم أشرب ، أيكون هناك زمان أو مكان ؟! لا ، فمادام الله ليس حدثاً فليس متعلقاً به زمان أو مكان ، لأن الزمان والمكان نشآ عندما خلق الله وأحدث هذا الكون ، فلا تقل : « متى » لأن « متى » خُلِقَت به ، ولا تقل « أين » لأن أين خُلِقَت به ولأن « متى » و« أين » ظرفان ؛ هذه للزمان ، وهذه للمكان ، والزمان والمكان فرعا الحدث . وعندما يوجد حدث فقل زمان ومكان .

إذن فمادام الله ليس حدثاً ، فإياك أن تقول فيه متى ، وإياك أن تقول فيه أين ، لأن « متى » و« أين » وليدة الحدث . وقوله الحق : « وسع كرسيه » نأخذه ـ كما قلنا ـ فى إطار « ليس كمثله شيء » ، الكرسى : فى اللغة من الكِرْس . والكِرْسُ هو : التجميع ، ومنه الكراسة وهى عدة أوارق مجمعة ، وكلمة « كرسى » استعملت فى اللغة بمعنى الأساس الذى يُبنى عليه الشيء ، فمادة « الكرسى »(الكاف والراء والسين) تدل على التجميع وتدل على الأساس الذى تثبت عليه الأشياء ؛ فنقول : اصنع لهذا الجدار كرسيًا ، أى ضع لهذا الجدار أساساً يقوم عليه . وتطلق أيضاً على القوم العلماء الذين يقوم بهم الأمر فيما يشكل من الأحداث ، والشاعر العربى قال : « كراسى فى الأحداث حين تنوب » أى يُعتمد عليهم فى الأمور الجسيمة .

وحين يُنسب شيء من ذلك للحق سبحانه وتعالى . فإن السلف لهم فيها كلام

والخلف لهم فيها كلام ، والسلف يقولون : كما قال الله نأخذها ولكن نضع كيفيتها وتصورها فى إطار « ليس كمثله شىء » ، وبعضهم قال : نؤولها بما يُثبت لها صفة من الصفات ، كما يثبتون قدرة الحق بقوله الحكيم .

﴿ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾

(من الآية ١٠ سورة الفتح)

أى أن قدرة الله فوق قدرتهم ، وكما قال سبحانه عن قدرته فى الخلق :

﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾

(سورة الذاريات)

إن كمال قدرة الله أحكمت خلق السماء ، والحق سبحانه مقدس وَمُنَزَّهٌ عن أن يتصور المخلوق كلمة « يد » بالنسبة لله . ونحن نقول : الله قال ذلك ، ونأخذها من الله ؛ لأنه أعلم بذاته وبنفسه ، ونُحيلها إلى ألاَّ يكون له شبيه أو نظير ، كما أثبتنا لله كثيراً من الصفات ، فى خلق الله مثلها ومع ذلك نقول : علمه لا كعلمنا ، وبصره لا كبصرنا ، فلماذا يكون كرسيه مثل كرسينا ؟. فتكون فى إطار « ليس كمثله شىء » .

والعلماء قالوا عن الكرسى : إنه ما يُعتمد عليه ، فهل المقصود علمه ؟. نعم . وهل المقصود سلطانه وقدرته ؟. نعم ، لأن كلمة « كرسى » توحى بالجلوس فوقه ، والإنسان لا يجلس عن قيام إلا إذا استتب له الأمر ، ولذلك يسمونه « كرسى المُلْكُ » ؛ لأن الأمر الذى يحتاج إلى قيام وحركة لا يجعلك تجلس على الكرسى ، فعندما تقعد على الكرسى ، فمعنى ذلك أن الأمر قد استتب ، إذن فهو بالنسبة لله السلطان ، والقهر ، والغلبة ، والقدرة .

أو نقول : مادام قال : « وسع كرسيه السموات والأرض » فوسع الشىء أى : دخل فى وسعه واحتماله . « والسموات والأرض » نحن نفهمها أنها كائنات كبيرة بالنسبة لنا ، إنه سبحانه يقول :

﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾

(سورة غافر)

وعندما يقول : إن الكرسى وسع السموات والأرض ، إذن ، فهو أعظم من السموات والأرض أى دخل فى وسعه السموات والأرض . ولذلك يقول أبو ذر الغفارى رضى الله عنه :

(سألت النبى صلى الله عليه وسلم عن الكرسى فقال : يا أبا ذر ما السماوات السبع والأرضون السبع عند الكرسى إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة . وإن فضل العرش على الكرسى كفضل الفلاة على تلك الحلقة)[1] .

والبشرية بكل ما وصلت له من إنجازات علمية قد وصلت إلى القمر فقط وهو مجرد ضاحية من ضواحى الأرض ، ومفصول عنا بمسافة تقاس بالثوانى الضوئية ، ولقد تعودنا فى حياتنا أن نستخدم وحدات الميل والكيلومتر لقياس الأطوال والأبعاد الكبيرة ، لكننا اكتشفنا أن هذه الوحدات ليست ذات نفع فى قياس أبعاد النجوم ؛ لأننا نعرف مثلا أن الشمس تبعد عن الأرض ثلاثة وتسعين مليونا من الأميال ، ولكن عندما نريد أن نرصد المسافة بيننا وبين أحد النجوم فلسوف نضطر إلى استخدام أعداد كثيرة من الأصفار أمام رقم ما ، وهذا يجعل التعبير غير عملى ، ولهذا السبب وضع علماء الفلك وحدة ملائمة لقياس أبعاد النجوم وهى ما نسميه السنة الضوئية . ونحن نعرف أن سرعة الضوء حوالى ثلاثمائة ألف كيلومتر فى الثانية . ولذلك فقياس أى مسافة بيننا وبين أى نجم فى السماء أمر يحتاج إلى حسابات دقيقة وكثيرة ودراسة علوم متعددة .

فالشمس بيننا وبينها ثلاثة وتسعون مليونًا من الأميال ويصلنا ضوؤها فى خلال ثمانى دقائق وثلث الدقيقة . والشعرى اليمانية وهى ألمع نجوم السماء يصل إلينا ضوؤها فى تسع سنوات ضوئية .

---

(١) حديث شريف أخرجه ابن جرير وأبو الشيخ فى العظمة .

إذن فالسنة الضوئية هى وحدة لقياس المسافات الفلكية . ونحن نذهل عندما نعرف أن بعض النجوم يصل ضوؤها إلينا فى خمسين سنة ضوئية !! كل ذلك ونحن لم نصل بعد إلى السماء الدنيا ، فما بالنا ببقية السموات ؟ إذن فحدود ملك الله فوق تصورنا . ولنا أن نعرف أى تكريم من الحق للمؤمنين حين يصور لنا ضخامة الجنة يقول سبحانه :

﴿ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾ ﴾

(سورة الحديد)

هذه هى الجنة التى أعدها الله للمؤمنين بالله ورسله الذين يسارعون إلى طلب غفران الله . فإذا كان عرض الجنة هو السموات والأرض ، فما طولها إذن ؟ وكم يكون بعدها ؟ والعرض كما نعرف هو أقل البعدين .

إذن يجب أن نفهم أن هناك عوالم أخرى غير السماء والأرض ، لكن عيوننا لا تبصر فقط إلا ماأراده الحق لنا من السماء والأرض ، ولذلك فعندما نسمع قول الحق : « وسع كرسيه السموات والأرض » فلنا أن نتخيل أى عظمة هى عظمة كرسى ذى الجلال والإكرام .

إن الحق يقول : « وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤوده حفظهما » ، ومعنى آده الشيء ، أى أثقله . وحتى نفهم ذلك هب أن إنسانا يستطيع أن يحمل عشرة كيلوجرامات ، فإن زدنا هذا الحمل إلى عشرين من الكيلوجرامات فإن الحمل يثقل عليه ، ويجعل عموده الفقرى معوجا حتى يستطيع أن يقاوم الثقل . فإن زدنا الحمل أكثر فقد يقع الرجل على الأرض من فرط زيادة الوزن الثقيل .

إذن فمعنى « ولا يؤوده حفظهما » أى أنه لا يثقل على الله حفظ السموات والأرض .

إن السماء والأرض وهما فوق اتساع رؤية البشر ؛ قد وسعهما الكرسى الربانى . وقال بعض المفسرين : إذا كان الكرسى لا يثقل عليه حفظ السموات والأرض فما بالنا بصاحب الكرسى !!؟

ها هوذا الحق سبحانه وتعالى يطمئننا فيقول :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ ﴾

(سورة فاطر)

إنه الحق وحده سبحانه وتعالى الذى يحفظ السموات والأرض فى توازن عجيب ومذهل ، ولئن قُدِّر لهما أن تزولا . فلن يحفظهما أحد بعد الله ، أى لا يستطيع أحد إمساكهما ؛ فهما قائمتان بقدرة الواحد القهار ، وإذا أراد الله أن تزولا فلا يستطيع أحدٌ أن يمسكهما ويمنعهما من الزوال .

وإذا كانت هذه الأشياء الضخمة من صنع الله وهو فوقها ، فإنه عندما يصف نفسه بأنه « علىّ » و« عظيم » فذلك أمر طبيعى . إن الحق سبحانه وتعالى يعطينا تذييلاً منطقياً يقتضيه ما تقدمت به الآية الجليلة : آية الكرسى ، إنه الحق يقول : « وهو العلىّ العظيم » وكلمة « علىّ » صيغة مبالغة فى العلو . و« العلىّ » هو الذى لا يوجد ما هو أعلى منه فكل شىء دونه .

هذه الآية الكريمة التى نحن بصددها نعرفها بآية الكرسى ؛ لأن كلمة « الكرسى » هى الظاهرة فيها . وكلمة « الكرسى » فيها : تعنى السلطان والقهر والقدرة والملكية وكلها مأخوذة من صفات الحق جل وعلا .

إنه لا إله إلا هو . إنه الحى . إنه القيوم . إنه الذى لا تأخذه سنة ولا نوم .

والشفاعة عنده مأذون فيها بإرادته هو وحده وليس بإرادة سواه . وهو العليم بكل

شيء ، الذى يسع كرسيه السموات والأرض وهو العلىّ فلا أعلى منه ، وهو العظيم بمطلق العظمة . وتتجمع كل هذه الصفات لتضع أمامنا أصول التصور فى العقيدة الإيمانية ، وقد وردت فيها أحاديث كثيرة ، ومنها نستخلص أنها آية لها قدرها ومقدارها عند الله . فعن أبى هريرة رضى الله عنه قال :

« وكلنى رسول الله صلى الله عليه وسلم بحفظ زكاة رمضان فأتانى آت فجعل يحثو الطعام فأخذته وقلت:والله لأرفعنّك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : إنى محتاج ، وعلىّ عيال ، ولى حاجة شديدة . قال:فخليت عنه ، فأصبحت فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم ـ يا أبا هريرة : « ما فعل أسيرك البارحة » ؟ قال : قلت يا رسول الله : شكا حاجة شديدة وعيالا ، فرحمته ، فخليت سبيله ، قال : « أمّا إنه كذبك وسيعود » فعرفت أنه سيعود لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ إنه سيعود ، فرصدته فجاء يحثو من الطعام فأخذته فقلت : لأرفعنّك إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال:دعنى فإنى محتاج ، وعلىّ عيال لا أعود ، فرحمته وخليت سبيله ، فأصبحت فقال لى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم : يا أبا هريرة:« ما فعل أسيرك »؟ فقلت يا رسول الله : شكا حاجة شديدة وعيالا فرحمته فخليت سبيله قال : « أما إنه قد كذبك وسيعود » فرصدته الثالثة ، فجاء يحثو من الطعام فأخذته فقلت لأرفعنّك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ وهذا اخر ثلاث مرات أنك تزعم لا تعود ، قال : دعنى أعلمْك كلمات ينفعْك الله بها قلت : ما هى ؟

قال : إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسى « الله لا إله إلا هو الحىّ القيوم » حتى تختم الآية ؛ فإنه لن يزال عليك من الله حافظ ، ولا يقربنّك شيطان حتى تصبح ، فخليت سبيله ، فأصبحت فقال لى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « ما فعل أسيرك البارحة » ؟ قلت يا رسول الله : زعم أنه يعلمنى كلمات ينفعنى الله بها فخليت سبيله قال : « ماهى » قلت : قال لى : إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسى من أولها حتى تختم « الله لا إله إلا هو الحى القيوم » ، وقال لى : لن يزال عليك من الله حافظ ولا يقربك شيطان حتى تصبح ، وكانوا (أى الصحابة) أحرص شيء على تعلم الخير ، فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم : « أمَا أنه قد

صدقك وهو كذوب ، تعلم من تخاطب منذ ثلاث ليالٍ يا أبا هريرة ؟ قال : لا ، قال صلى الله عليه وسلم : « ذاك الشيطان »[١] .

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « سورة البقرة فيها آية سيدة آى القرآن لا تقرأ فى بيت فيه شيطان إلا خرج منه ـ آية الكرسى »[٢] .

وعن أبي أمامه قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من قرأ دُبُرَ كل صلاة آية الكرسى لم يمنعه من دخول الجنة إلا أن يموت »[٣] .

وعن عليّ ـ كرم الله وجهه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ قال : « من قرأها ـ يعنى آية الكرسى ـ حين يأخذ مضجعه آمنه الله تعالى على داره ، ودار جاره ، وأهل دويرات حوله »[٤] .

كل هذه المعانى قد وردت فى أفضال هذه الآية الكريمة ، وقد جلس العلماء يبحثون عن سر هذه المسألة فقال واحد منهم : انظروا إلى أسماء الله الموجودة فيها .

وبالفعل قام أحد العلماء بحصر أسماء الله الحسنى فيها ، فوجد أن فيها ستة عشر اسماً من أسماء الله ، وبعضهم قال : إن بها سبعة عشر اسماً من أسماء الله الحسنى ، وبعضهم قال أن فيها واحدًا وعشرين اسماً من أسماء الله ، كل ذلك من أجل أن يستنبطوا منها أشياء ، ويعلموا فضل وفضائل هذه الآية الكريمة . والذين قالوا إن بها ستة عشر اسماً من أسماء الله قالوا :

إن بها اسم علم واجب الوجود « الله » .
واسم « هو » فى لا إله إلا هو:هو الاسم الثانى .

---

١ ـ من صحيح البخارى فى كتاب فضائل القرآن وكتاب الوكالة وفى صفة إبليس .
٢ ـ الحاكم أبو عبدالله فى مستدركه .
٣ ـ النسائى فى اليوم والليلة وابن حبان فى صحيحه .
٤ ـ البيهقى فى شعب الإيمان .

و« الحىّ » هو الاسم الثالث .
و« القيوم » هو الاسم الرابع .
وعندما ندقق فى قول الحق « لا تأخذه سنة ولا نوم » نجد أن الضمير فى « لا تأخذه » عائد إلى ذاته ـ جل شأنه ـ .
و« له ما فى السموات وما فى الأرض » فيها ضمير عائد إلى ذاته سبحانه .
وكذلك الضمائر فى قوله:« عنده » و« بإذنه » و« يعلم » و« من علمه » و« بما شاء » و« كرسيه » كلها تعود إلى ذاته جل شأنه .
و« لا يؤوده حفظهما » فيها ضمير عائد إلى ذاته كذلك .
و« هو » فى قوله سبحانه « وهو العلى العظيم » اسم من أسمائه تعالى .
و« العلىّ » اسم من أسمائه جل وعلا .
و« العظيم » كذلك اسم من أسمائه سبحانه وتعالى .

لكنَّ عالماً آخر قال : إنها سبعة عشر اسماً من أسماء الله ؛ لأنك لم تحسب الضمير فى المصدر المشتق منه الفعل الموجود بقوله:« حفظهما » إن الضمير فى « هما » يعود إلى السموات والأرض . و« الحفظ » مصدر .. فمن الذى يحفظ السموات والأرض ؟ إنه الله سبحانه وتعالى ، وهكذا أصبحوا سبعة عشر اسماً من أسماء الله الحسنى فى آية الكرسى .

وعالم ثالث قال : لا ، أنتم تجاهلتم أسماء أخرى ؛ لأن فى الآية الكريمة أسماء واضحة للحق جل وعلا ، وهناك أسماء مشتقة ، مثال ذلك :
الله لا إله إلا هو . الحىّ هو . القيوم هو . العلىّ هو . العظيم هو .
ولكن العلماء قالوا ردا على ذلك : صحيح أنها أسماء مشتقة ولكنها صارت أعلاما .

المهم أن فى الآية الكريمة ستة عشر اسماً ، وإن حسبنا الضمير المستتر فى « حفظهما » نجد أنها سبعة عشر اسماً ، وإذا حسبنا الضمير الموجود فى المشتقات مثل « الحىّ هو » و« القيوم هو » ، و« العلىّ هو » و« العظيم هو » . صارت أسماء الله الحسنى الموجودة فى هذه الآية الكريمة واحدًا وعشرين اسماً . إذن هى آية قد جمعت قدراً كبيرا من أسماء الله ، ومن ذلك جاءت عظمتها .

وهذه الآية الكريمة قد بيّنت ووضحت قواعد التصور الإيمانى ، وأنشأت عقيدة متكاملة يعتز المؤمن أن تكون هذه العقيدة عقيدته . والآية فى ذاتها تتضمن حيثيات الإيمان ، إنه مادام هو الله لا إله إلا هو ، ومادام هو الحىّ القيوم على أمر السماء والأرض ، وكل شىء بيده ، وهو العلىّ العظيم ، فكل هذه مبررات لأن نؤمن به سبحانه وتعالى ، وأن نعتز بأن نعتقد هذه المعتقدات ، وتكون هى الدليل على أن المؤمن فخور بهذا الدين الذى كان أمر الألوهية المطلقة واضحا وبيّنا فيه .

ولذلك فمن الطبيعى ألا يقهر الحق أحداً على الإيمان به إكراهاً ، لأن الذى يقهر أحداً على عقيدة ما ، هو أول من يعتقد أنه لولا الإكراه على هذه العقيدة لما اعتقدها أحد . ونحن فى حياتنا اليومية نجد أن أصحاب المبادىء الباطلة هم الذين يمسكون السياط من أجل إكراه الناس على السير على مبادئهم . وكل من أصحاب هذه المبادىء الباطلة يعلم تمام العلم أنه لو ترك السوط والقهر ما سار إنسان على مثل هذه المبادىء الباطلة .

ولو كان أحد من أصحاب هذه المبادىء الباطلة معتقدا أن مبدأه سليم لقال : أطرح هذا المبدأ على الناس ، وأترك لهم الخيار ؛ لأنه فى هذه الحالة سيكون واثقا من مبدئه . أما الذى يقهر الناس إكراها بالسوط أو السلطان ليعتقدوا مبدأ ما ، فهو أول من يشك فى هذا المبدأ ، وهو أول من يعتقد أنه مبدأ باطل . مثل هؤلاء نراهم عندما تضعف أيديهم عن استعمال السوط أو السلطان فإن أمر مبدئهم ينهزم ويسقط بنيانه .

والحق سبحانه وتعالى بعد ذلك يقول :

﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ﴾

إن الحق سبحانه وتعالى يوضح لنا نحن العباد المؤمنين ولسائر البشرية أنه : « لا إكراه فى الدين » . والإكراه هو أن تحمل الغير على فعل لا يرى هو خيراً فى أن يفعله . أى لا يرى الشخص المكرَه فيه خيراً حتى يفعله .

ولكن هناك أشياء قد نفعلها مع من حولنا لصالحهم ، كأن نرغم الأبناء على المذاكرة ، وهذا أمر لصالح الأبناء ، وكأن نجبر الأطفال المرضى على تناول الدواء . ومثل هذه الأمور ليست إكراهاً ، إنما هى أمور نقوم بها لصالح من حولنا ؛ لأن أحداً لا يسره أن يظل مريضاً .

إن الإكراه هو أن تحمل الغير على فعل من الأفعال لا يرى فيه هو الخير بمنطق العقل السليم . ولذلك يقول الحق سبحانه : « لا إكراه فى الدين » . ومعنى هذه الآية أن الله لم يُكره خلقه ـ وهو خالقهم ـ على دين ، وكان من الممكن أن الله يقهر الإنسان المختار ، كما قهر السموات والأرض والحيوان والنبات والجماد ، ولا أحد يستطيع أن يعصى أمره . فيقول سبحانه :

﴿ لَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾

(من الآية ٣١ سورة الرعد)

لكن الحق يريد أن يعلم من يأتيه محباً مختاراً وليس مقهوراً ، أن المجىء قهراً يثبت له القدرة ، ولا يثبت له المحبوبية ، لكن من يذهب له طواعية وهو قادر ألا يذهب فهذا دليل على الحب ، فيقول تعالى : « لا إكراه فى الدين » أى أنا لم أضع مبدأ الإكراه ، وأنا لو شئت لآمن من فى الأرض كلهم جميعاً . فهل الرسل الذين أرسلهم سبحانه يتطوعون بإكراه الناس ؟ . لا ، إنّ الرسول جاء لينقل عن الله لا ليُكره الناس ، وهو سبحانه قد جعل خلقه مختارين ، وإلا لو أكرههم لما أرسل الرسل ، ولذلك يقول المولى عز وجل :

﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ ﴾

(سورة يونس)

إن الرسول له مهمة البلاغ عن الله ؛ لأن الله لم يرد خلقه مكرهين على التدين ، إذن فالمبلغ عنه لا يُكره خلقه على التدين ، إلا أن هنا لبسًا . فهناك فرق بين القهر على الدين ، والقهر على مطلوب الدين ، هذا هو ما يحدث فيه الخلاف .

تقول لمسلم : لماذا لا تصلى ؟ يقول لك : « لا إكراه فى الدين » ، ويدعى أنه مثقف ، ويأتيك بهذه الآية ليلجمك بها ، فتقول له : لا . « لا إكراه فى الدين » عقيدة وإيماناً ، إنما إن آمنت وأعلنت أنك آمنت بالله وصرت معنا مسلماً فلا بد أن تعرف أنك إن كسرت حكماً من أحكام الإسلام نطلب منك أن تؤديه ، أنت حر أن تؤمن أو لا تؤمن ، لكن حين التزمت بالإيمان ، فعليك مسئولية تنفيذ مطلوب الإيمان ، وإلا حُسب تصرفك أنه من تصرفات الإسلام ، فإذا كنت تشرب خمراً فإنك حر ؛ لأنك كافر مثلاً ، لكن أتؤمن ثم تشرب خمراً !؟ لا . أنت بذلك تكسر حداً من حدود الله ، وعليك العقاب .

ولأنك مادمت قد علمت كعاقل رشيد مطلوبَ الإسلام ، فعليك أن تنفذ مطلوب الإسلام ، ولذلك لم يكلف الله الإنسان قبل أن ينضج عقله بالبلوغ ؛ حتى لا يقال: إنّ الله قد أخذ أحداً بالإيمان وألزمه به قبل أن يكتمل عقله . بل ترك التكليف حتى ينضج الإنسان ويكتمل ، حتى إذا دخل إلى دائرة التكليف عرف مطلوباته ، وهو حر أن يدخل إلى الإيمان أو لا يدخل ، لكن إن دخل سيُحاسب .

إذن فلا يقل أحد عندما يسمع حكماً من أحكام الدين : « لا إكراه فى الدين » ؛ لأن هذه الآية نزلت بشأن العقيدة الأساسية ، فإن اتبعت هذه العقيدة صار لزاماً عليك أن توفى بمطلوباتها . وقد أراد خصوم الإسلام أن يصعدوا هذه العملية فقالوا كذباً وافتراء : إن الإسلام انتشر بحد السيف .

ونقول لهم : لقد شاء الله أن ينشأ الإسلام ضعيفاً ويُضطهد السابقون إليه بكل أنواع الاضطهاد ، ويُعذبون ، ويُخرجون من ديارهم ومن أموالهم ومن أهلهم ، ولا يستطيعون عمل شيء . إذن ففترة الضعف التى مرت بالإسلام أولا فترة مقصودة .

ونقول لهم أيضا : من الذى قهر وأجبر أول حامل للسيف أن يحمل السيف ؟! والمسلمون ضعاف ومغلوبون على أمرهم ، لا يقدرون على أن يحموا أنفسهم ، إنكم تقعون فى المتناقضات عندما تقولون : إن الإسلام نُشِرَ بالسيف . ويتحدثون عن الجزية رفضاً لها ، فنقول : وما هى الجزية التى يأخذها الإسلام من غير المسلمين كضريبة للدفاع عنهم ؟ لقد كان المسلمون يأخذون الجزية من البلاد التى دخلها الفتح الإسلامى ، أى أن هناك أناسًا بقوا على دينهم . ومادام هناك أناس باقون على دينهم فهذا دليل على أن الإسلام لم يُكره أحداً .

وقول الله : « لا إكراه فى الدين » علته أن الرشد واضح والغىّ واضح ، ومادام الأمر واضحا فلا يأتى الإكراه . لأن الإكراه يأتى فى وقت اللبس ، وليس هناك لبس ، لذلك يقول الحق : « قد تبين الرشد من الغىّ » . ومادام الرشد بائنا من الغىّ فلا إكراه . لكن الله يعطيك الأدلة ، وأنت أيها الإنسان بعقلك يمكنك أن تختار ، كى تعرف أنك لو دخلت الدين لالتزمت ، وحوسبت على دخولك فى الدين ، فلا تدخل إلا وأنت مؤمن واثق بأن ذلك هو الحق ؛ لأنه سيترتب عليه أن تقبل أحكام الدين عليك .

« لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى » والرشد : هو طريق النجاة ، و« الغى » : هو طريق الهلاك . ويقول الحق إيضاحاً للرشد والغى فى آية أخرى من آيات القرآن الكريم :

﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

إن الحق يعلمنا أن المتكبرين فى الأرض بغير حق لن يستطيعوا الفوز برؤية آيات الله ودلائل قدرته ، وحتى إن رأوا السبيل الصحيح فلن يسيروا فيه ، وإن شاهدوا طريق الضلال سلكوا فيه لأنهم يكذبون بآيات الرحمن ويغفلون عنها .

والغى ـ أيضا ـ هو ضلال الطريق ، فعندما يسير إنسان فى الصحراء ويضل الطريق يقال عنه : « فلان قد غوى » أى فقد الاتجاه الصحيح فى السير ، وقد يتعرض لمخاطر جمة كلقاء الوحوش وغير ذلك . ويوضح لنا الحق طريق الرشد بمنطوق آخر فى قوله الحق :

﴿ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ ﴾

(سورة الجن)

إن الجن قد ظنوا كما ظن بعض من معشر الإنس أن الله لن يبعث أحداً بعد الموت أو لن يرسل رسولاً من البشر لهداية الكون . وقد طلب الجن بلوغ السماء فوجدوها قد مُلئت حرساً من الملائكة وشُهباً محرقة . وإن الجن لا يعلمون السر فى حراسة السماء وهل فى ذلك شرٌّ بالبشر أو أراد الله بهم خيراً وهدى . إذن فالرُّشْد ـ بضم الراء وتسكين الشين ـ ـ والرَشَد بفتح الراء وفتح الشين ـ كلاهما يوضح الطريق الموصل للنجاة . ويقابل الرشد الغىّ .

ويتابع الحق : « فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى » أولا : نلحظ أن الحق هنا قد قدم الكفران بالطاغوت ، ثم جاء بالإيمان بالله ؛ لأن الأمر يتطلب التخلية أولا والتحلية ثانيا ، لابد أن يتخلى الإنسان من الطاغوت ، فلا يدخل على أنه يؤمن بالله وفى قلبه الطاغوت ، فنحن قبل أن نكوى الثوب نغسله وننظفه ، التخلية قبل التحلية .

وما هو « الطاغوت » ؟ إنه من مادة « طغى » ، وكلمة « طاغوت » مبالغة فى الطغيان . لم يقل : طاغ ، بل طاغوت ، مثل جبروت ، والطاغوت إما أن يُطلق على الشيطان،وإما أن يُطلق على من يعطون أنفسهم حق التشريع فيكَفِّرون وينسبون من يشاءون إلى الإيمان حسب أهوائهم ، ويعطون أشياء بسلطة زمنية من عندهم ، ويُطلق أيضاً على السحرة والدجالين ، ويُطلق على كل من طغى وتجاوز الحد فى أى شىء ، فكلمة « طاغوت » مبالغة ، وقد تكون هذه المبالغة متعددة الألوان ، فمرة يكون الطاغى شيطانا ، ومرة يكون الطاغى كاهناً ، ومرة يكون ساحراً أو دجالاً ، ومرة يكون حاكماً .

ومادة « الطاغوت » تدل على أن الموصوف بها هو من تزيده الطاعة له طغيانا ، فعندما يجربك فى حاجة صغيرة ، فتطيعه فيها فيزداد بتلك الطاعة طغيانا عليك . والحق سبحانه يقول :

﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾

(سورة الزخرف)

ويزيد فى الأمر حتى يصير طاغية ، ولا يوجد أحد استهل عمله بالطغيان العالى ، إنما يبدأ الأمر خطوة خطوة ، كأى نظام ديكتاتورى قهرى ، إنه يبدأ بـ (جس نبض) فإن صبر الناس ، ازداد هذا النظام فى القسوة حتى يصير طاغوتا ، إذن فالطاغوت هو الذى تستزيده الطاعة طغيانا ، وتُطلق على الشيطان ؛ لأنه هو الأساس ، وعلى الذين يتكلمون باسم الدين للسلطة الزمنية (سواء كانوا كهاناً أو غيرهم) ، وتُطلق على الذين يسحرون ويدجلون ، لأنهم طغوا بما علموه ؛ إنهم يستعملون أشياء يتعبون بها الناس ، وقد جاءت الكلمة هنا بصيغة المبالغة لاشتمالها على كل هذه المعانى ، وإذا استعرضنا الكلمة فى القرآن نجد أن « الطاغوت » ترد مذكرة فى بعض الأحيان ، وقد وردت مؤنثة فى آية واحدة فى القرآن :

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة الزمر)

لقد أوضحت هذه الآية أنهم تركوا كل أنواع الطغيان وأصنافه ، أى إن الذين اجتنبوا الألوان المتعددة من الطغيان هم الذين يتجهون بالعبادة الخالصة لله ، ولهم البشرى . «فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى » وكلمة « استمسك » غير كلمة « مَسَكَ » . لأن « استمسك » تدل على أن فيه مجاهدة فى المسك ، والذى يتدين يحتاج إلى مجاهدة فى التدين ؛ لأن الشيطان لن يتركه ، فلا يكفى أن تمسك ، بل عليك أن تستمسك ، كلما وسوس الشيطان لك بأمر فعليك أن تستمسك بالتدين ، هذا يدل على أن هناك مجاهدة وأخذًا وردًّا .

« فقد استمسك بالعروة » والعروة هى العلّاقة ، مثلما نقول : « عروة الدلو » ، التى تمسكها منه ، وهذه عادة ما تكون مصنوعة من الحبل الملفوف المتين ،

و« الوثقى » هى تأنيث (الأوثق) أى أمر موثوق به ، وقوله : « فقد استمسك بالعروة الوثقى » ، قد يكون تشبيها بعروة الدلو لأن الإنسان يستخدم الدلو ليأتى بالماء ، وبالماء حياة البدن ، وبالدين حياة القيم .

« فقد استمسك بالعروة الوثقى » كأنه ساعة جاء بكلمة « عروة » يأتى بالدلو فى بال الإنسان ، والدلو تأتى بالماء ، والماء به حياة البدن ، إذن فهذه تعطينا إيحاءات التصور واضحة ، « فقد استمسك بالعروة الوثقى » ، ومادامت « عروة وثقى » التى هى الدين والإيمان بالله ، ومادامت هى الدين وحبل الله فهذه وثقى ، ومادامت « وثقى » فلا انفصام لها ، وعلينا أن نعرف أن فيه انفصاماً . وفيه انقصام الأول بالفاء والثانى بالقاف .

الانفصام : يمنع الاتصال الداخلى ؛ مثلما تنكسر اليد لكنها تظل معلقة ، والانقصام : أن يذهب كل جزء بعيدا عن الآخر أى فيه بينونة ، والحق يقول : « لا انفصام لها والله سميع عليم » توحى بأن عملية الطاغوت ستكون دائما وسوسة ، وهذه الوسوسة هى : الصوت الذى يُغرى بالكلام المعسول ، ولذلك أخذت كلمة « وسوسة الشيطان » من وسوسة الحُلىّ ، ووسوسة الذهب هى رنين الذهب ، أى وسوسة مغرية مثل وسوسة الشيطان ، والله عليم بكل أمر . ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾ ﴾

إن الله ولىّ الذين آمنوا مادام « فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك

بالعروة الوثقى » وكأن الحق يشرح ذلك بهذه الآية ، فمادام العبد سيتصل بالعروة الوثقى ويستمسك بها ، وهذه ليست لها انفصام فقد صارت ولايته لله ، وكلمة « ولىّ » إذا سمعتها هى من « وَلِىَ » أى : جاء الشىء بعد الشىء من غير فاصل ؛ هذا يليه هذا ، ومادام يليه من غير فاصل فهو الأقرب له ، ومادام هو الأقرب له إذن فهو أول من يفزع لينقذ ، فقد يسير معى إنسان فإذا التوت قدمى أناديه ؛ لأنه الأقرب منى ، وهو الذى سينجدنى .

فلا يوجد فاصل ، ومادام لا يوجد فاصل فهو أول من تناديه ، وأول من يفزع إليك بدون أن تصرخ له ؛ لأن من معك لا تقل له : خذ بيدى ، إنه من نفسه يأخذ بيدك بلا شعور ، إذن فكلمة « الله ولى الذين آمنوا » إذا نظرت إليها وجدتها تنسجم أيضاً مع « سميع وعليم » ، فلا يريدك أن تناديه ؛ لأن هناك من تصرخ عليه لينجدك ، وهو لن تصرخ عليه ؛ لأنه سميع وعليم ، « الله ولى الذين آمنوا » .

وكلمة « ولىّ » أيضا منها (مولى) ومنها (وال) ، « ولىّ الذين آمنوا » أى هو الذى يتولى شئونهم وأمورهم ، كما تقول : الوالى الذى تولَّى أمر الرعيّة ، وكلمة « مَوْلَى » مرة تُطلق على السيد ، ومرة تُطلق على خادمه ، ولذلك يقول الشاعر :

مولاك يا مولاى طالب حاجة

أى عبدك يا سيدى طالب حاجة ، فهى تستعمل فى معان مترابطة ؛ لأننا قلنا : « وَلِىّ » تعنى القريب ، فإذا كان العبد فى حاجة إلى شىء فمَن أول من ينصره ؟ سيده ، وإذا نادى السيد ، فمن أول مجيب له ؟ إنه خادمه ، إذن فيُطلق على السيد ويُطلق على العبد ، ويُطلق على الوالى ، « الله ولى الذين آمنوا » . وقوله الحق : « الذين آمنوا » يعنى جماعة فيها أفراد كثيرة ، كأنه يريد من الذين آمنوا أن يجعلوا إيمانهم شيئا واحداً ، وليسوا متعددين ، أو أن ولاية الله لكل فرد على حدة تكون ولاية لجميع المؤمنين ، وماداموا مؤمنين فلا تضارب فى الولايات ؛ لأنهم كلهم صادرون وفاعلون عن إيمان واحد ، ومنهج واحد ، وعن قول واحد ، وعن فعل واحد ، وعن حركة واحدة .

وكيف يكون « الله ولى الذين آمنوا » ؟ إنه وليهم أى ناصرهم . ومحبهم ومجيبهم

ومعينهم ، هو وليهم بما أوضح لهم من الأدلة على الإيمان ، هل هناك حُب أكثر من هذا ؟ هل تركنا لنبحث عن الأدلة أو أنه لفتنا إلى الأدلة ؟

وتلك هى ولاية من ولايات الله . فقبل أن نؤمن أوجد لنا الأدلة ، وعندما آمنا وَالانَا بالمعونة ، وإن حاربنا خصومنا يكن معنا ، وبعد ذلك تستمر الولاية إلى أن يعطينا الجزاء الأوفى فى الآخرة ، إذن فهو ولى فى كل المراحل ، بالأدلة قبل الإيمان ولىّ . ومع الإيمان استصحاباً يكون ناصرنا على خصومنا وخصومه . وفى الآخرة هو وليّنا بالمحبة والعطاء ويعطينا عطاءً غير محدود ، إذن فولايته لا تنتهى .

« الله ولىّ الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور » إنه سبحانه يخرجهم من ظلمات الجهل إلى نور الإيمان ؛ لأن الظلمات عادة تنطمس فيها المرائى ، فلا يمكن أن ترى شيئاً إلا إذا كان هناك ضوء يبعث لك من المرئى أى أشعة تصل إليك ، فإن كانت هناك ظلمة فمعنى ذلك أنه لا تأتى من الأشياء أشعة فلا تراها ، وعندما يأتى النور فأنت تستبين الأشياء ، هذه فى الأمور الـمُحسَّة ؛ وكذلك فى مسائل القيم ، « يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات » .

هل هم دخلوا النور يا ربنا ؟ لنا أن نفهم أن المقصود هنا هم المرتدون الذين وسوس لهم الشيطان فأدخلهم فى ظلمات الكفر بعد أن كانوا مؤمنين ، أو « يخرجونهم من النور إلى الظلمات » ، أى يحولون بينهم وبين النور فيمنعونهم من الإيمان كما يقول واحد :

أما دريت أن أبى أخرجنى من ميراثه ؟ إن معنى ذلك أنه كان له الحق فى التوريث ، وأخرجه والده من الميراث . وهذا ينطبق على الذين تركوا الإيمان ، وفضلوا الظلمات . والقرآن يوضح أمر الخروج من الظلمة إلى النور ومن الكفر إلى الإيمان فى مواقع أخرى ، كقول سيدنا يوسف للشابين اللذين كانا معه فى السجن :

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ

مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾

(سورة يوسف)

فهل كان سيدنا يوسف فى ملة القوم الكافرين ثم تركها ؟ لا ، إنه لم يدخل أساساً إلى ملة القوم الذين لا يؤمنون بالله . إن هذه الملة كانت أمامه ، لكنه تركها ورفض الدخول فيها وتمسك بملة إبراهيم عليه السلام . وفى التعبير ما فيه من تأكيد حرية الاختيار . وهناك آية أخرى يقول فيها الحق :

﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾ ﴾

(سورة النحل)

إن معنى الآية أن الله قد خلقنا جميعا ، وقدر لكل منا أجلاً ، فمنا من يموت صغيراً ، ومنا من يبلغ أرذل العمر ، فيعود إلى الضعف وتقل خلايا نشاطه فلا يعلم ما كان يعلمه . وليس معنى الآية أن الإنسان يوجد فى أرذل العمر ثم يرد إلى الطفولة .

وعندما يقول الحق : « والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات » فالحق أورد هنا كلمة أولياء عن الطاغوت ، لأن الطاغوت كما قلنا:ألوان متعددة ، الشيطان طاغوت ، والدجال طاغوت ، والساحر طاغوت . وجاء الحق بالخبر مفرداً وهو الطّاغوت لمبتدأ جمع وهو أولياء ، ووصف هؤلاء الأولياء للطاغوت بأنهم يخرجون الذين كفروا من النور إلى الظلمات .

لقد أفرد الله الطاغوت وأورد بالجمع الأفراد الذين ينقلهم الطاغوت إلى الظلمات . ولماذا لم يقل الله هنا : « طواغيت » بدلا من طاغوت ؟ إن الطاغوت كلمة تتم معاملتها هنا كما نقول : « فلان عدل » أو « الرجلان عدل » أو « الرجال عدل » . وعلى هذا القياس جاءت كلمة طاغوت ، فالشيطان والدجال والكاهن

والساحر والحاكم بغير أمر الله ؛ كلهم طاغوت ، لقد التزمت الآية بالإفراد والتذكير . فالطاغوت تُطلق على الواحد أو الاثنين أو الجماعة ، أى أن المُخرجين من النور إلى الظلمات هم أولياء الطاغوت ، أو من اتخذوا الطواغيت أولياء ، وهم إلى النار خالدون . والدخول للنار يكون للطواغيت ويكون لأتباع الطواغيت ، كما يقول الحق فى كتابه :

﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ ﴾

(سورة الأنبياء)

إن أتباع الطواغيت ، والطواغيت فى نار جهنم . وقانا الله وإياكم عذابها . ويريد الحق سبحانه وتعالى أن يعطينا صورة واقعية فى الكون من قوله : « الله ولى الذين آمنوا » ، فهو الولى ، وهو الناصر فيقول سبحانه :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ ﴾

وساعة تسمع « ألَم تَر » ؛ فأنت تعلم أنها مكونة من همزة هى « أ » وحرف نفى وهو « لم » ، ومنفى هو « تر » والهمزة : تأتى هنا للإنكار ، والإنكار نفى بتقريع ، ولكنها لم تدخل على فعل مثبت حتى يقال : إنها أنكرت الفعل بعدها ، مثلما تقول

للولد : أتضرب أباك ! هنا الهمزة جاءت لا لتستفهم وإنما أتت تنكر هذه الفعلة ، لأن الفعل بعدها مثبت وهو « تضرب » ، وجاءت الهمزة قبله فتسمى « همزة إنكار » للتقريع . إذن فالإنكار : نفى بتقريع إذا دخلت على فعل منفى .

ومادام الإنكار نفيا والفعل بعدها منفىٌ فكأنك نفيت النفى ، إذن فقد أثبته ، كأنه سبحانه عندما يقول للرسول صلى الله عليه وسلم : « ألم تر » فالمقصود « أنت رأيت » . ولماذا لم يقل له : أرأيت ؟ لقد جاء بها بأسلوب النفى كى تكون أوقع ، فقد يكون مجىء الإثبات تلقينًا للمسئول ، فعندما يقول لك صديق : أنت لم تسأل عنى وأنت تهملنى . فأنت قد ترد عليه قائلا : ألم أساعدك وأنت ضعيف ؟ ألم آخذ بيدك وأنت مريض ؟

لقد سبق أن قدمت خدماتك لهذا الصديق ، ولكنك تريد أن تنكر النفى الذى يقوله هو ، وهكذا نعلم أن نفى النفى إثبات ، ولذلك فنحن نأخذ من قوله تعالى من هذه العبارة « ألم تر » على معنى : أنت رأيت ، والرؤية تكون بالعين . فهل رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ وهو المخاطب الأول بالقرآن الكريم من ربه ـ هل رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الحادثة أيام إبراهيم ؟ طبعا لا ، فكأن « ألم تر » هنا تأتى بمعنى : ألم تعلم .

ولماذا جاء بـ « ألم تر » هنا ؟ لقد جاء بها لنعلم أن الله حين يقول : « ألم تعلم » فكأنك ترى ما يخبرك به ، وعليك أن تأخذه على أنه مصدق كأنك رأيته بعينك . فالعين هى حاسة من حواسك ، والحاسة قد تخدع ، ولكن ربك لا يخدع ، إذن فـ « ألم تر » تعنى : « ألم تعلم علم يقين » ، وكأنك قد رأيت ما يخبرك به الله ، ولذلك يقول تعالى للرسول :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ ﴾

(سورة الفيل)

والرسول ولد عام الفيل ، فلم ير هذه الحادثة ، وكأن الله يخبره بها ويقول له : ألم تعلم ، وكأنه يقول له : اعلم علماً يقينيا كأنك تراه ؛ لأن ربك أوثق من عينيك ،

وعندما يقال : « ألم تر » فالمراد بها « ألم تر كذا » ، لكن الحق قال : « ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه » واستعمال حرف « إلى » هنا يشير إلى أمر عجيب قد حدث ، ومثال ذلك ما نقوله أحيانا : ألم تر إلى زيد يفعل كذا .

فكأن ما فعله زيد أمر عجيب ، وكأنه ينبه هنا إلى الالتفات إلى نهاية الأمر ، لأن « إلى » تفيد الوصول إلى غاية ، فكأنها مسألة بلغت الغاية فى العجب ، فلا تأخذها كأنك رأيتها فقط ، ولكن انظر إلى نهايتها فيما حدث .

والحق يقول هنا : « ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه » و« إلى » جاءت هنا لتدل على أنه أمر بلغ من العجب غاية بعيدة ، وهو بالفعل قد بلغ من العجب غاية بعيدة ، والحق سبحانه وتعالى لم يقل لنا من هو ذلك الإنسان الذى حاج إبراهيم فى ربه ، لأنه لا يعنينا التشخيص سواءً كان النمروذ أو غيره .

فإذا ذهب بعض المفسرون إلى القول : إنه ملك واسمه النمروذ . فإننا نقول لهم : شكراً لاجتهادكم ، ولكن لو شاء الله تحديد اسم الرجل لحدده لنا ، والذى يهمنا هو أنه واحد خرج على رسول الله إبراهيم عليه السلام وجادله فى هذه المسألة ، والتشخيص هنا ليس ضرورياً ، والحق سبحانه وتعالى حينما يريد شيوع الأمر وإمكان حدوثه فى أى زمان أو مكان فإن الله لا يشخص الأمر ، فأى إنسان فى أى مكان قد يحاجج أى مؤمن . وليس كذلك الأمر بالنسبة لأى تشخيص أو تحديد ، ومثال ذلك هؤلاء الذين يريدون أن يعرفوا قصة أهل الكهف ، ويتساءلون : أين ومتى ، وكم عددهم ، ومن هم ؟

ونقول : لو جاءت واحدة من هؤلاء لفسدت القصة ؛ لأنه لو حددنا زمانها سيأتى واحد يقول لك : مثل ذلك الزمان الذى حدثت فيه القصة كان يسمح بها . ولو حددنا المكان سيقول آخر : إن المكان كان يسمح بهذه المسألة . ولو حددنا الأشخاص بأسمائهم فلان وفلان ، فسيقول ثالث : إن مثل هذه الشخصيات يمكن أن يصدر منها مثل هذا السلوك وأنّى لنا بقوة إيمان هؤلاء ؟

والحق لم يحدد الزمان والمكان والأشخاص وجاء بها مبهمة ليدل على أن أى فتية فى

أى زمان وفى أى مكان يقولون ما يقولون ، ولو شخصها فى واحد لفسد المراد . لننظر إلى دقة الحق حين ضرب مثلا للذين كفروا بامرأة نوح وامرأة لوط حين قال جل وعلا :

﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾

(سورة التحريم)

ولم يحدد لنا اسم امرأة من هاتين المرأتين ، بل ذكر الأمر المهم فقط ؛ وهو أن كلا منهما زوجة لرسول كريم ، ولكن كلا منهما أصرت على الكفر فدخلتا النار . ولكن الحق سبحانه وتعالى حين أراد التخصيص بحادث لن يتكرر فى أى زمان أو مكان جاء بذكر السيدة مريم بالتشخيص والتحديد الواضح حين قال :

﴿ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾ ﴾

(سورة التحريم)

تحديد الحق لمريم بالاسم والحادث لماذا ؟ لأن الواقعة غير قابلة للتكرار من أيَّةِ امرأة أخرى . التشخيص هنا واجب ؛ لأنه لن تلد امرأة من غير زوج إلا هذه ، إنما إذا كانت المسألة ستتكرر فى أى زمان أو مكان فهو سبحانه يأتى بوصفها العام ، ومثال ذلك قول الحق : « ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم » فلم يقل لنا : من هو ؟ و« حاجّ » أصلها « حاجج » ، مثل « قاتل » و« شارك » . وعندما يكون هناك حرفان مثلان ، فنحن نسكن الأول وندغم الثانى فيه وذلك للتخفيف ، فتصير (حاج) ، و« حاج » من مادة « فاعل » التى تأتى للمشاركة ، وحتى نفهم معنى « المشاركة » . إليكم هذا المثال :

نحن نقول : قاتل زيد عَمراً ، أو نقول : قاتل عَمرو زيداً، ومعنى ذلك أن كُلًّا منهما قد تقاتل ، وكلاهما فاعل ومفعول فى الوقت نفسه ، لكننا غلبنا جانب الفاعل فى واحد ، وجانب المفعول فى الثانى . برغم أن كلا منهما فاعل ومفعول معا .

ومثال آخر ، حين نقول : شارك زيد عمراً ، وشارك عمرو زيداً ، إذن فالمفاعلة جاءت من الاثنين ، هذا فاعل وهذا مفعول ، لكننا عادة نُغلب الفاعلية فيمن بدأ ، والمفعولية فى الثانى ، وإن كان الثانى فاعلا أيضا . ولذلك يقول الشاعر عندما يريد أن يشرح حال إنسان يمشى فى مكان فيه حيات كثيرة ومتحرزاً من أن حية تلدغه فقال :

قد سالم الحيات منه القدم
الأفعوان والشجاع القشعما

إن الشاعر هنا يصف لنا إنساناً سار فى مكان ملىء بالحيات ، وعادة ما يخاف الإنسان أن تلدغه حية ، لكن هذا الإنسان الموصوف فى هذا البيت نجد أن الحيات قد سالمت قدمه ، أى لم تلدغه لأنه لم يَهجْها ، والثعابين عادة لا تلدغ إلا من يبدأها بالإهاجة ، نجد هنا أن الفاعل هو الحيات ؛ لأنها سالمت قدمه . ويصح أيضا أن نقول : إن القدم هى التى سالمت الحيات .

ونحن نعرف من قواعد اللغة ما درسناه قديما ما يسمى بالبدل ، والبدل يأخذ حكم المبدل منه ، فإن كان المبدل منه مرفوعا جاء البدل مرفوعا ، وإن كان المبدل منه منصوبا جاء البدل منصوبا ، وإن كان المبدل منه مجروراً كان البدل كذلك . هنا جاءت « الحيات » فى هذا البيت من الشعر مرفوعة ولكن الأفعوانَ جاءت فى البيت منصوبة مع أنها بدل من مرفوع هو « الحيات » لأنه لاحظ ما فيها أيضاً من المفعولية فأتى بها منصوبة . كما أن بالإمكان أن تُقرأ « الحيات » بالنصب و« القدم » بالرفع لأن كلا منهما فاعل ومفعول من حيث المسالمة .

وكذلك فى قول الحق سبحانه : « ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه » نحن نلاحظ أن كلمة « إبراهيم » تأتى فى الآية الكريمة منصوبة بالفتحة ، أى يغلب عليها المفعولية . فمن إذن الذى حاجّ إبراهيم ؟ إنه شخص ما ، وهو الفاعل ؛ لأنه الذى بدأ بالمحاجّة ، وهكذا تدلنا الآية الكريمة ، وتصف الآية ذلك الرجل « أن آتاه الله الملك » أى أن الرجل قد وهبه الله الملك وقد حاج هذا الرجل إبراهيم فى ربه ، فكأن هذا الرجل هو الذى بدأ الحِجاج قائلا لإبراهيم : من ربك ؟

فقال إبراهيم عليه السلام : « ربى الذى يحيى ويميت » وهذه هى براعة القرآن فى أن يترك الشىء ثقة بأن السامع يرد كل شىء إلى أصله ، فقوله الحق : « إذ قال إبراهيم ربى الذى يحيى ويميت » فكأن الذى حاج إبراهيم سأله : من ربك ؟ فقال إبراهيم : « ربى الذى يحيى ويميت » .

ولنا أن نلحظ أن هذه الآية قد جاءت بعد قوله الحق فى الآية السابقة : « الله ولى الذين آمنوا » ، والولاية هى النصر والمحبة والمعونة ، فيريد سبحانه أن يبين لنا كيف أعان الله إبراهيم على من حاجه ، إلا أن الذى حاج إبراهيم دخل فى متاهات السفسطة بعد أن سمع قول إبراهيم : « ربى الذى يحيى ويميت » ، وقد جاء الحق بـ « يحيى ويميت » ؛ لأن تلك القضية هى التى لم يدَّعِ أحد أنه فعلها ، ولم يدَّع أحد أنه شريك فيها ، حتى الكافرون إذا سألتهم : من الذى خلق ؟ يقولون الله .

إذن فهذه قضية ثابتة . إلا أن الخصم الذى حاجّ إبراهيم أراد أن ينقل المحاجة نقلة سفسطائية . والسفسطة كما نعلم هى الكلام الذى يطيل الجدل بلا نهاية .

وقال الرجل الذى يحاج إبراهيم عليه السلام : إذا كان ربك الذى يحيى ويميت فأنا أحيى وأميت .

فسأله إبراهيم عليه السلام ؛ كيف تحيى أنت وتميت ؟

قال الرجل : أنا أقدر أن أقتل ما عندى من مساجين وأقدر ألا أقتلهم ، فالذى لم أقتله كأننى أحييته ، والذى قتلته فقد أمته .

ولم يقل سيدنا إبراهيم لنتفق أولا ما الحياة ؟ وما الموت ؟ ذلك أن إبراهيم خليل الرحمن لم يشأ أن يطيل هذه المجادلة ، فجاء له بأمر يُلجمه من البداية وينتهى الجدل ، فقال له : « إن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبُهت الذى كفر » . وهكذا أنهى سيدنا إبراهيم هذا الجدل . كان من الممكن أن يدخل معه سيدنا إبراهيم فى جدل ، ويقول له : ما هى الحياة ؟

ونحن نعرف أن الحياة هى إعطاء المادة ما يجعلها متحركة حساسة مريدة مختارة ، أما الموت فهو إخراج الروح من الجسد ، فالذى يقتل إنساناً ؛ إنما يخرج روحه من جسده ، والقتل يختلف عن الموت ؛ لأن الموت خروج الروح من الجسد بدون جرح ، أو نقض بنية ، أو عمل يفعله الإنسان فى بدنه كالانتحار .

وقد يكون الإنسان جالسا مكانه وينتهى عمره فيموت ، ولا أحد قادر قبل ذلك أن يقول له : مت فيموت ، هذا هو الموت ، لكن إزهاق الروح بجرح جسيم أو نقض بنية فهذا هو القتل وليس الموت ، ولذلك يجعل الله القتل مقابلا للموت ، فى قوله تعالى :

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

وقد أوضح لنا الله سبحانه وتعالى الفرق بين الموت والقتل ، وجعل كلا منهما مقابلاً للآخر ، فعندما أشيع أن رسول الله قد قتل ، هَمَّ بعض المسلمين بالارتداد إلى الكفر ، فأنكر الله عليهم ذلك قائلا : إن محمداً رسول من عند الله قد مات من قبله المرسلون أفإن مات أو قتل رجعتم عن الإيمان للكفر ، ومن يفعل ذلك فإنما يضر نفسه ، والثواب عند الله للثابتين على منهج الله الشاكرين لنعمه ، أوضح لنا الحق أن موت أى إنسان لا يمكن أن يحدث إلا بإذن الله ، وقد كتب الله ذلك فى كتاب مشتمل على الآجال .

ويريد الله أن يُنبهنا ويُلفتنا إلى حقيقة هامة وهى أن الرسل فى جدلهم مع أممهم أو مع المناقشين لهم لا يكون الهدف أنّ النّبىّ يظفر بالغلبة وإنما يكون الهدف بالنسبة للرسول أو النبى أن يصل إلى الحقيقة ، ولذلك لم يتوقف إبراهيم عليه السلام مع

الرجل الذى يحاجّه فى الله عند نقطة الإحياء والإماتة ؛ لأنه رأى فى مناقشة الرجل لونا من السفسطة .

وعلينا ونحن نتدبر آيات القرآن بالخواطر الإيمانية أن نفهم الفرق بين الإماتة والقتل . الصحيح أن الإماتة والقتل يشتركان فى أمر واحد وهو خروج الروح من الجسد . والإماتة تختلف عن القتل بأنه لا يقدر عليها إلا واهب الحياة الذى وضع مقومات خاصة فى البنية الإنسانية حتى تسكنها الروح ، وهو القادر على أن يسلب الروح بأمر غير مُحس .

أما القتل فهو أن تجرح إنساناً فيموت ، أو تنقض بنيته ، تكسر له رأسه مثلاً ، أما « الإماتة » فهى أن تنقبض حياته بمجرد الأمر دون أن تقربه ، هل أحد من البشر يقدر على هذه ؟ لا . إذن فالذى حاج إبراهيم لم يحى الذى قال : إنه سيتركه بدون عقوبة ، إنه لم يقتله ، لكنه أبقى الحياة التى كانت فيه ، هذا إذا أردنا أن ندخل فى جدل .

والله قد جعل القتل مقابلاً للموت ، صحيح أنهما ينتهيان بأن لا روح ، لكنْ هناك فرق بين أن تؤخذ الروح بدون هذه الوسائل . وأن تترك الروحُ البدنَ لأن بنيته قد تهدمت . وإياك أن تظن أن الروح لا تخضع لقوانين معينة ، إن الروح لا تحل إلا فى مادة خاصة ، فإذا انتهت المقومات الخاصة فى المادية فالروح لا تسكنها ، فلا تقل : إنه عندما ضربه على رأسه أماته ! لا ، هو لم يخرج الروح لأن الروح بمجرد ما انتهت البنية تختفى .

والمثال الذى يوضح ذلك : لنفترض أن أمامنا نورًا ، إذا كسرت الزجاجة يذهب النور . هل الزجاجة هى النور ؟ لا ، لكن الكهرباء لا تظهر إلا فى هذه الزجاجة ، كذلك الروح لا توجد إلا فى بنية لها مواصفات خاصة ، إذن فالقاتل لا يُخرج الروح ولكنه يَهدم البنية بأمر مُحسّ ؛ فالأمر الغيبى وهو الروح لا يسكن فى بنية مهدومة .

« ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه أن آتاه الله الملك » ، انظر إلى الطغيان ،

أتجعل إيتاء المُلْك وهو نعمة وسيلة إلى التمرد على من أنعم عليك بهذا ؟ أتجعل شكر النعمة بأنك تخالف المنعم ؟ من الذى أبطره ؟ أأبطره أن آتاه الله الملك ؟ وكيف يعين الله واحداً ليس مؤمنا به ؟ والمُلْك ـ بمعنى الأمر والنهى ـ إنما يكون للمبلغ عن الله ، إنما الملك الآخر مُلْكُ السلطان بأن يُحَكِّمَ إنسانا على جماعة ، فمن الجائز أن يكون مؤمنا ، وأن يكون كافراً .

وقوله « أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربى الذى يحيى ويميت » هو جواب على من قال : « من ربك » فجاءته إجابة إبراهيم عليه السلام « ربى الذى يُحيى ويميت فقال أنا أُحيى وأميت » وعرفنا ما فى هذا الأمر من سفسطة ، فلم يقل له إبراهيم : أأنت تُحيى وتميت ، بل ينقله إلى أمر آخر ، كأنه قد قال له : اترك الأمر الغيبى وهو الروح ، وتعال للأمر المشهود « قال إبراهيم فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذى كفر » .

ولأن الله ولى الذين آمنوا فهو سبحانه لم يلهم المحاج أن يَرُدّ ؛ كان يستطيع أن يقول له : اجعل من يأتى بها من المشرق يأتِ بها من المغرب ، لكنه لم يقلها ! مما يدل على أنه غبى ! أو يكون ذكيا فيقول : إن الرب الذى معه بهذا الشكل قد يفعلها ، فخاف . إذن فـ «الله ولىّ الذين آمنوا » حقا . وهو سبحانه « يخرجهم من الظلمات إلى النور » .

وما معنى كلمة « بُهت » ؟ إن البهت يأخذ ثلاث صور : الصورة الأولى : الدهشة ؛ نَقَله فيما يمكنَ أن تحدث فيه مماحكة إلى مالا تحدث فيه مماحكة وجدال ، أراد أن يجد أمراً يرد به فلم يقدر ، مثلما قال : أنا أحيى وأميت ، لقد دهش ، وأول ما فاجأه هو الدهش ، ثم كان التحيّر ، أراد أن يجد أى مخرج من هذه الورطة فلم يجد ، إذن فقد هُزم . فهذه هى نهاية البَهت . فـ« بُهت » تعنى أنه دهش أولا ، فتحير فى أن يرد ثانيا ، فكان نتيجة ذلك أنه هُزم ثالثا ، وهذا أمر ليس بعجيب ؛ لأنه مادام كافراً فليس له ولى ، أو وليه من لا يقدر « أولياؤهم الطاغوت » ، أما إبراهيم خليل الرحمن فوليه الله .

ويختم الحق الآية بقوله : « والله لا يهدى القوم الظالمين » لا يهديهم إلى برهان ،

ولا إلى دليل ، ولا إلى حجة ، لأن وليهم الشيطان ، « والله لا يهدى القوم الظالمين » والآية التى تأتى من بعد ذلك كلها ستتدخل فى الحياة والموت ، ومن المهم أن الآية تدخل فى الحياة والموت كى لا نفهم أن إبراهيم إنما ترك المحاجة مع ذلك الذى حاجّه فى أمر الموت والحياة هربا من الكلام فيها ، لذلك يريد الله أن يستوفى تلك القضية استيفاء فى قصص متعددة ، ويبسط الحق القضية التى عدل عنها إبراهيم وهى الموت والحياة فيقول سبحانه :

أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا
قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ
ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ
قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ
وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ
ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ
نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ
أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾

وعندما ننظر إلى بداية الآية نجدها تبدأ بـ « أو » ، وما بعد « أو » يكون معطوفاً على ما قبلها ، فكأن الحق يريد أن يقول لنا : أو (ألم تر) إلى مثل الذى مر على قرية .

وعندما تسمع كلمة « قرية » فإنها تفيد تجمع جماعة من الناس يسكنون فى مكان

محدود ، ونفهم أن الذى مر على هذه القرية ليس من سكانها ، إنما هو قد مر عليها سياحة فى رحلة . ونلحظ كذلك أن الحق سبحانه لم يشأ أن يأتى لنا باسم القرية أو باسم الذى مر عليها .

قال البعض : إنه هو أرمياء بن حلقيا أو هو الخضر ، أو هو عزير ، وقد قلنا من قبل : إنه إذا أبهم الحق فمعناه : لا تشخص الأمر ، فيمكن لأى أحد أن يحدث معه هذا .

« أو كالذى مر على قرية » . وقالوا : إنها بيت المقدس ، « وهى خاوية على عروشها » وحتى نفهم معنى خاوية على عروشها ، لنا أن نعرف أننى عندما أقول : « أنا خويان » أى « أنا بطنى خاوية » : « جوعان » فـ « خاوية » المقصود بها أنها قرية خالية من السكان ، وقد تكون أبنيتها منصوبة ، لكن ليس فيها سكان ، والحق بقوله عن تلك القرية : إنها خاوية على عروشها ، و« العرش » يُطلق على البيت من الخيام ، ويطلق كما نعرف على السقف ، فإذا قال : « خاوية على عروشها » أى أنّ العرش قد سقط أولا ، ثم سقطت الجدران عليه ، مثلما نقول فى لغتنا العامية : « جاب عاليها على واطيها » .

وعندما يمر إنسان على قرية مثل هذه القرية فلا بد أن مشهدها يكون شيئاً لافتا للنظر ، قال : « أنّى يُحيى هذه الله بعد موتها » فكأنه يسأل عن القرية ، وعن إماتة وإحياء الناس الذين يسكنون القرية . والحق حين يذكر القرية فى القرآن فهو يقصد فى بعض الأحيان الحديث عن أهلها مثل قوله تعالى :

﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

(سورة يوسف)

إن أبناء يعقوب عليه السلام حين عادوا من مصر وتركوا أخاهم الأصغر مع يوسف عليه السلام قالوا لأبيهم : أرسل من يأتيك بشهادة أهل مصر واسأل بنفسك زملاءنا الذين كانوا معنا فى القافلة ، وسيقولون لك : إننا قد تركنا أخانا بمصر . لكن سؤال الذى مر على القرية الخاوية على عروشها هو سؤال عن أهلها .

« أنَّى يُحيى هذه الله بعد موتها » وساعة تسمع « أنَّى » فهى تأتى مرة بمعنى « كيف » ، ومرة تأتى بمعنى : « من أين » ، والمناسب لها هنا هو أن يكون السؤال كالتالى : « كيف يُحيى الله هذه بعد موتها » ؟ وقوله هذا يدل على أنه مؤمن ، فهو لا يشك فى أن قضية الإحياء من الله ، وإنما يريد أن يعرف الكيفية ، فكأنه مؤمن بأن الله هو الذى يحيى ويميت ، وهذه ستأتى فى قصة سيدنا إبراهيم :

﴿ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾

(من الآية ٢٦٠ سورة البقرة)

هو لا يشك فى أن الله يُحيى الموتى ، إنما يريد أن يرى كيف تتم هذه الحكاية ؛ لأن الذى يريد أن يعرف كيفية الشىء ، لا بد أنه متعجب من وجود هذا الشىء ، فيتساءل : كيف تم عمل هذا الشىء ؟ مثلما نرى الأهرام ، ونحن لا نشك أن الأهرام مبنية بهذا الشكل ، لكننا نتساءل فقط : كيف بنوها ؟ كيف نقلوا الحجارة بضخامتها لأعلى ولم يكن هناك سقالات أو روافع آلية ؟ إذن فنحن نتعجب فقط ، والتعجب فرع الإيمان بالحدث .

والسؤال عن الكيفية معناه التيقن من الحدث ، فقول الحق : « أَنَّىٰ يُحيى هذه الله » . . يعنى : كيف يُحيى الله هذه القرية بعد موتها ، فكأن القائل لا يشك فى أن الله يُحيى ، ولكنه يريد الكيفية ، والكيفية ليست مناط إيمان ، فالله لم ينهنا عن التعرف على الكيفية ؛ فهو يعلم أننا نؤمن بأنه قادر على إيجاد هذا الحدث .

وأضرب هذا المثل ـ ولله المثل الأعلى ـ فمُصمم الملابس عندما يقوم بتفصيل أزياء جميلة ، أنت تراها ، فأنت تتيقن من أنه صانعها ، ولكنك تتعجب فقط من دقة الصنعة ، وتقول له : بالله كيف عملت هذه ؟ كأنك قد عشقت الصنعة ! فتشوقت إلى معرفة كيف صارت ، فما بالنا بصنعة الحق تبارك وتعالى ؟ إنك تندهش وتتعجب لتعيش فى ظل السر السائح من الخالق فى المخلوق ، وتريد أن تنعم بهذه النعم .

ومثال آخر ـ ولله المثل الأعلى من قبل ومن بعد ـ أنت ترى مثلا لوحة رسمها رسام ، فتقول له : بالله كيف مزجت هذه الألوان ؟ أنت لا تشك فى أنه قد مزج

الألوان . بل تريد أن تسعد نفسك بأن تعرف كيف رسمها ، إذن فقوله وقول إبراهيم بالسؤال فى الإحياء والإماتة فيما يأتى ليس معناه أنه غير مؤمن بل هو عاشق ومشتاق لأن يعرف الكيفية ؛ ليعيش فى جو الإبداع الجمالى الذى أنشأ هذه الصنعة .

ونعلم أن إحياء الناس سيترتب عليه إحياء القرية ، فالإنسان هو باعث الحركة التى تعمر الوجود ، والناس لهم حياة ولهم موت ، والقرية بأنقاضها وجدرانها وعروشها لها حياة ولها موت . وعندما سأل العبد هذا السؤال ، أراد الله أن تكون الإجابة تجربة معاشة فى ذات السائل ؛ لذلك يأتى القرآن بالقول « فأماته الله مائة عام » .

إن صاحب السؤال قد أراد أن يعرف الكيفية ، وطلبه هو إيمان دليل ، ليصبح فيما بعد إيمانا بواقع مشاهد « فأماته الله مائة عام »لقد جعل الله الأمر والتجربة فى السائل ذاته وهذا إخبار الله . لقد أماته مائة عام ، والعام هو الحول ، وقد سموا « الحَوْل » عاما ؛ لأن الشمس تعوم فى الفلك كله فى هذه المدة ، والعوم سَبْحٌ ، والحق يقول :

﴿ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾

(من الآية ٤٠ سورة يس)

ولذلك نسميه عاماً . « فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوماً أو بعض يوم » ، فكأن الله قال له كلاماً كما كلم موسى ، أو سمع صوتاً أو ملكاً أو أنّ أحدًا من الموجودين رأى التجربة . فالمهم أن هناك سؤالاً وجوابًا . ويخبرنا الحق سبحانه بحوار دار فى هذا الشأن ، السؤال هو : كم لبثت ؟ فأجاب الرجل : لبثت يوماً أو بعض يوم .

وإجابة الرجل تعنى أنه قد تشكك ، فقد وجد اليوم قد قارب على الانتهاء أو انتهى ، أو أنه عندما رأى الشمس مشرقة أجاب هذه الإجابة :« لبثت يوماً أو بعض يوم » أو يكون قد قال ذلك ؛ لأنه لا يستطيع أن يتحكم فى تقدير الزمن . فهل هو صادق فى قوله أو كاذب ؟ إنه صادق ، لأنه لم ير شيئاً قد تغير فيه ليحكم بمقدار التغير ، فلو كان قد حلق لحيته مثلاً ، وقام بعد ذلك ليجد لحيته قد طالت ، أو قد

نام بشعر أسود ، وقام بعد ذلك بشعر أشيب ، فلو حدثت أية تغيرات فيه لكان قد لمسها ، لكنه لم يجد تغيراً .

فماذا كان جواب الحق ؟ قال الحق : « بل لبثت مائة عام » . إننا هنا أمام طرفين ويكاد الأمر أن يصبح لغزاً ، طرف يقول : « لبثت يوماً أو بعض يوم » ورب يقول : « بل لبثت مائة عام » . ونريد أن نحل هذا اللغز . إن الحق سبحانه صادق ومُنزّه ، والعبد المؤمن صادق فى حدود ما رأى من أحواله .

ونريد دليلا على هذا ، ودليلا على ذاك . نريد دليلا على صدق العبد فى قوله : « لبثت يوماً أو بعض يوم » . ونريد من الحق سبحانه وتعالى دليل اطمئنان لا دليل برهان على أن الرجل قد مات مائة عام وعاد إلى الحياة .

ونقول : إن فى القصة ما يؤيد « لبثت يوما أو بعض يوم » ، وما يؤيد « بل لبثت مائة عام » ، فقد كان مع الرجل حماره ، وكان معه طعامه وشرابه من عصير وعنب وتين . فقال الحق سبحانه وتعالى : « لبثت مائة عام » ، وأراد أن يدلل على الصدق فى القضيتين معاً قال : « فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنّه »، ونظر الرجل إلى طعامه وشرابه فوجد الطعام والشراب لم يتغيرا ، وهذا دليل على أنه لم يمكث إلا يوما أو بعض يوم ، وبذلك ثبت صدق الرجل ، بقيت قضية « مائة عام » .

فقال الحق : « وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس » وهذا القول يدل على أن هنا شيئا عجيبا ، وأراد الله أن يبين له بنظرة إلى الحمار دليلاً على صدق مرور مائة عام ، ووجد الرجل حماره وقد تحول عظاماً مبعثرة ، ولا يمكن أن يحدث ذلك فى زمن قصير ، فإن موت الحمار أمر قد يحدث فى يوم ، لكن أن يَرِمّ جسمه ، ثم ينتهى لحمه إلى رماد ، ثم تبقى العظام مبعثرة ، فتلك قضية تريد زماناً طويلاً لا يتسع له إلا مائة عام ، فكأن النظر إلى الحمار هو دليل على صدق مرور مائة عام ، والنظر إلى الطعام دليل على صدق « يوماً أو بعض يوم » .

فالقضية إذن قضية عجيبة ، وكيف طُوى الزمن فى مسألة الطعام ، وكيف بُسط

الزمن فى مسألة الحمار . إنه سبحانه يظهر لنا أنه هو القابض الباسط ، فهو الذى يقبض الزمن فى حق شىء ، ويبسط الزمن فى حق شىء آخر ، والشيئان متعاصران معا . وتلك العملية لا يمكن أن تكون إلا لقدرة طليقة لا تملكها النواميس الكونية ، وإنما هى التى تملك النواميس .

وقد قال الحق سبحانه : « ولنجعلك آية للناس » ، فمن هم الناس الذين سيجعل الله من قضية الذى مَرَّ على قرية آية لهم ؟ كان لابد أن يوجد أناس فى القصة ، لكن القرية خاوية على عروشها ، وليس فيها إنسان أو بنيان ، أهم الذين كانوا فى القرية أم سواهم ؟ قال بعض المفسرين هذا ، وقال البعض الآخر الرأى المضاد .

وأصدق شىء يمكن أن يتصل بصدق الله فى قوله : « ولنجعلك آية للناس » هو قبض الله للزمن فى حق شىء ، وبسطه فى حق شىء آخر ، وعزير كما قال جمهرة العلماء هو الذى مر على قرية ، وعزير هذا كان من الأربعة الذين يحفظون التوراة ، فلم يحفظ التوراة إلا أربعة : موسى ، وعيسى ، وعزير ، ويوشع ، وقد أراه الله العظام وكيف ينشزها ويرفعها فتلتحم ثم يكسوها لحما ، أى أراه عملية الإحياء مشهدياً ، وفى هذا إجابة للسؤال : « أنّى يُحيى هذه الله بعد موتها » ؟

والحق يقول : « وانظر إلى العظام كيف ننشزها » و« ننشزها » أى نرفعها ، ورأى « عزير » كل عظمة فى حماره ، وهى تُرفع من الأرض ، وشاهد كل عظمة تُركب مكانها ، وبعد تكوين الهيكل العظمى للحمار بدأت رحلة كسوة العظام لحماً ، وبعد ذلك تأتى الحياة .

لقد وجد عزير إجابة فى نفسه ، ووجد إجابة فى الحمار ، ومن بعد ذلك تذكر قريته التى خرج منها ، وأراد العودة إليها ، فلما عاد إليها وجد أمرها قد تغير بما يتناسب مع مرور مائة عام ، وكان فى تلك القرية مولاة لهم ، أى أمة فى أسرته ، وكانت هذه الأمة قد عميت وأصبحت مقعدة ، فلما دخل وقال : أنا العزير . قالت الأمة : ذهب العزير من مائة عام ولا ندرى أين ذهب ولم يعد ؟

قال : أنا العزير . قالت : إن للعزير علامة ، هذه العلامة أنه مجاب الدعوة ، ولم تنس نفسها . قالت : فإن كنت العزير فادع الله أن يرد عليَّ بصرى وأن يخرجنى من قعودى هذا . فدعا عزير الله فبرئت ، فلما برئت ؛ نظرت إليه فوجدته هو العزير فذهبت إلى قومها وأعلنت أن العزير قد عاد . وبعد ذلك ذهب العزير إلى ابنه ، فوجده رجلا قد تجاوز مائة سنة ، وكان العزير لا يزال شابا فى سن خمسين سنة .

ولذلك ترى الشاعر يقول مُلغزاً : وما ابنٌ رأى أباه وهو فى ضعف عمره ؟ والمقصود بهذا اللغز هو العزير الذى أماته الله وهو فى الخمسين ثم أحياه الله فى عمره نفسه بعد مائة عام ، والتقى العزير بابنه . قال الابن : كنت أسمع أن لأبى علامة بين كتفيه « شامة » . فلما كشف العزير كتفه لابنه وجد الشامة .

وتثبت أهل القرية من صدق عزير : بشىء آخر هو أن (بختنصر) حينما جاء إلى بيت المقدس وخربها حرق التوراة ، إلا أن رجلا قال : إن أباه قد دفن فى مكان ما نسخة من التوراة ، فجاءوا بالنسخة ، قال العزير : وأنا أحفظها . وتلا العزير التوراة كما وُجدت فى النسخة ، فصدق القوم أنه العزير ، وتعجب الناس وهم يشاهدون ابنا تخطى المائة وأبا فى سن الخمسين . ولذلك يذيل الحق الآية بالقول : « قال أعلم أن الله على كل شىء قدير » .

ألم يكن قبل ذلك يعلم أن الله على كل شىء قدير ؟ نعم كان يعلم علم الاستدلال ، وهو الآن يعلم علم المشهد ، علم الضرورة ، فليس مع العين أين .

إذن فـ « أعلم أن الله على كل شىء قدير » هى تأكيد وتعريف بقدرة الله على أن يبسط الزمن ويقبضه ، وقدرة الله على الإحياء والإماتة ، فصار يعلم حق اليقين بعد أن كان يعلم علم اليقين .

وهذه المسألة تفسر ما يقوله العلم الحديث عن تعليق الحياة . ومعنى تعليق الحياة هو يشبه ما تفعله بعض الثعابين عندما تقوم بالبيات الشتوى ، أى تنكمش فى الشتاء

فى ذاتها ولا تُبدى حركة ، وتظل هكذا إلى أن يذهب الشتاء ، ومدة البيات الشتوى لا تحتسب من عمر الثعابين ، ولذلك يقال : إن ذلك هو عملية تعليق الحياة . وهذه العملية التى قد نفسر بها مسألة أهل الكهف . فأهل الكهف أيضا مرت عليهم العملية نفسها :

﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾

(من الآية ١٩ سورة الكهف)

إنهم لم يروا شيئاً قد تغير فيهم . وبعد ذلك قال الحق سبحانه :

﴿ وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴿٢٥﴾ ﴾

(سورة الكهف)

إن الله حدد الزمن الذى لبثوه ، بينما هم قالوا : إن الزمن هو يوم أو بعض يوم . ومعنى ذلك أنهم عندما ناموا هذا اللون من النوم واستيقظوا وجدوا أنفسهم على حالتهم التى كانت قبل هذا اللون من النوم . إذن فقد علق الله حياتهم . ونلاحظ أن كل هذه العملية قد جاءت هنا فى قصة العزير بعد آية الكرسى التى تصور العقيدة الإيمانية :

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ ﴾

(سورة البقرة)

وتصور قضية الحياة وقضية الموت ونعلم أن إبراهيم حين حاجَّه الرجل وقال له :

« أنا أحيى وأميت » نقل إبراهيم الحُجّة إلى الليل والنهار ، وطلب منه أن يعكس آية الليل والنهار ، فقال للرجل : « فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذى كفر » .

وحتى لا يظن أحد أن إبراهيم عليه السلام إنما ترك الكلام عن الإحياء والإماتة فراراً من الجدل . ونقل الأمر إلى الشمس ، لكن أراد الله أن يأتى بقصة هذا الإنسان الذى مر على قرية وهى خاوية ، فيحدث له كل ما تقدم ليثبت الحق لنا أن قضية الحياة وقضية الموت بيده وحده . وليخرج الحق سبحانه أمر الحياة والموت عن مجال السفسطة الجدلية . وعرفنا من قبل معنى السفسطة الجدلية حينما تعرضنا لقول الذى حاج إبراهيم فى ربه باثنين من المسجونين وقال : أنا أستطيع أن أقتل واحدا ، وأن أترك الثانى بلا قتل .

هذه هى السفسطة : إنه لم يحى ، بل أبقى حياة . وعرفنا أن الإحياء ضد الإماتة ؛ لأن الإماتة هى أن تخرج الروح من الجسد بدون جرح ، أو نقض بنية ، أو عمل يفعله الإنسان فى البدن . أما إذا فعل إنسان أى شىء من هذه الأفعال ضد إنسان آخر فلا يقال إنه أماته بل يقال لقد قتله . والموت كما عرفنا غير القتل .

وتأتى بعد ذلك قصة لإبراهيم أيضا بعد أن نقل الجدل مع الرجل إلى الشمس ، فبهت الرجل الذى كفر ، أما إبراهيم عليه السلام فهو مؤمن بقدرة الله ، لكنه يريد أن يعرف الكيفية . إن إبراهيم عليه السلام لم يكن شاكا لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

(نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال : « رب أرنى كيف تحيى الموت قال : أو لم تؤمن قال : بلى ولكن ليطمئن قلبى »[1] .

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب الأنبياء .

راجع أصله وخرّج أحاديثه الدكتور أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .

ونحن المسلمين لم نشك فى هذا الأمر . إذن ، فإبراهيم عليه السلام لم يشك من باب أولى بدليل منطوق الآية حين قال الحق سبحانه :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾ ﴾

إن إبراهيم عليه السلام يسأل : كيف تُحيى الموتى ؟ أى أنه يطلب الحال التى تقع عليها عملية الإحياء . فإبراهيم عليه السلام لا يتكلم فى الإحياء ، وإنما كان شكه ـ عليه السلام ـ فى أن الله سبحانه قد لا يستجيب لطلبه فى أن يريه ويطلعه على كيفية إحياء الموتى ؟ ولنضرب هذا المثل ـ ولله المثل الأعلى من قبل ومن بعد ـ والمثل لتقريب المسألة من العقول ؛ لأن الله مُنزه عن أى تشبيه .

إن الواحد منا يقول للمهندس : كيف بنيت هذا البيت ؟ إن صاحب السؤال يشير إلى حدث وإلى مُحْدَث وهو البيت الذى تم بناؤه . فهل معرفة الكيفية تدخل فى عقيدة الإيمان ؟ لا .

ولنعلم أولا ما معنى : عقيدة ؟ . إن العقيدة هى : أمر معقود ، وإذا كان هذا فكيف يقول : « ليطمئن قلبى » ؟ فهل هذا دليل على أن إبراهيم قبل السؤال ، وقبل أن يجاب إليه ، لم يكن قلبه مطمئناً ؟ لا ، لقد كان إبراهيم مؤمناً ، ولكنه يريد أن يزداد اطمئناناً ؛ لأنه أدار بفكره الكيفية التى تكون عليها عملية الإحياء ، لكنه لا يعرف على أية صورة تكون .

إذن فالاطمئنان جاء لمراد فى كيفية مخصوصة تخرجه من متاهات كيفيات متصورة ومتخيلة ، ومادمت تريد الكيفية ، وهذه الكيفية لا يمكن أن نشرحها لك بكلام . بل لا بد أن تكون تجربة عملية واقعية ، « فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك » . و« صرهن » أى أملهن وأضممهنّ إليك لتتأكد من ذوات الطير ، ومن شكل كل طير ، حتى لا تتوهم أنه قد جاء لك طير آخر .

وقال المفسرون : إن الأربعة من الطير هى : الغراب ، الطاووس ، الديك ، الحمامة ، وهكذا كان كل طائر له شكلية مختلفة .

« ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم ادعهن يأتينك سعيا » ، فهل أجرى سيدنا إبراهيم هذه العملية أو اكتفى بأن شرح الله له الكيفية ؟ إن القرآن لم يتعرض لهذه الحكاية ، فإما أن يكون الله قد قال له الكيفية ، فإن أراد أن يتأكد منها فليفعل ، وإمّا أنه قد تيقن دون أن يجرى تلك العملية . إن القرآن لم يقل لنا هل أجرى سيدنا إبراهيم هذه العملية أم لا ؟ والحق يقول مخاطبا إبراهيم بخطوات التجربة : « ثم ادعهن يأتينك سعيا » وكان المفروض أن يقول : يأتينك طيرانا .

فكيف تسعى الطيور ؟ إن الطير يطير فى السماء وفى الجو . لكن الحق أراد بذلك ألا يدع أى مجال لاختلاط الأمر فقال : « سعيا » أى أن الطير سيأتى أمامه سائرا ، لقد نقل الحق الأمر من الطيران إلى السعى كى يتأكد منها سيدنا إبراهيم ، إذن فلكى تتأكد يا إبراهيم ويزداد اطمئنانك جئنا بها من طيور مختلفة وأنت الذى قطعتها ، وأنت الذى جعلت على كل جبل جزءا ، ثم أنت الذى دعوت الطير فجاءتك سعيا .

وهنا ملحظية فى طلاقة القدرة ، وفى الفرق بين القدرة الواجبة لواجب الوجود ، وهو الحق سبحانه وتعالى ، والقدرة الممنوحة من واجب الوجود وهو الله ـ سبحانه ـ لمنكر واجب الوجود وهو الإنسان ، هذا له قدرة ، وذاك له قدرة ؛ إن قدرة الله هى قدرة واجبة ، وقدرة الإنسان هى قدرة ممكنة ، وقدرة الله لا ينزعها منه أحد ، وقدرة الإنسان ينزعها الله منه ؛ فالإنسان من البشر ، والبشر تتفاوت قدراتهم ؛ فحين

تكون لأحدهم قدرة فهناك آخر لا قدرة له ، أى عاجز . ويستطيع القادر من البشر أن يعدى أثر قدرته إلى العاجز ؛ فقد يحمل القادر كرسيا ليجلس عليه من لا يقدر على حمله . لكن قدرة الحق تختلف .

كأن الحق سبحانه وتعالى يقول : أنا أعدى من قدرتى إلى من لا يقدر ، فيقدر ، أنا أقول للضعيف : كن قادراً ، فيكون . وهذا ما نفهمه من قوله سبحانه لإبراهيم : « ثم ادعهن يأتينك سعيا » . إن إبراهيم كواحد من البشر عاجز عن كيفية الإحياء ، ولكن الحق يعطيه القدرة على أن ينادى الطير ، فيأتى الطير سعيا .

إن الحق يعطى القدرة لإبراهيم أن يدعو الطير فيأتى الطير سعيا . وهذا هو الفرق بين القدرة الواجبة ، وبين القدرة الممكنة . إن قدرة الممكن لا يعديها أحدٌ لحالٍ منها ، ولكن قدرة واجب الوجود تُعديها إلى من لا يقدر فيقدر ، ولذلك يأتى القول الحكيم بخصائص عيسى ابن مريم عليه السلام :

﴿ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّيٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

إن خصائص عيسى ابن مريم لا تكون إلا بإذن من الله ، فقدرة عيسى عليه السلام أن يصنع من الطين ما هو على هيئة الطير ، وإذا نفخ فيه بإذن الله لأصبح طيرا ، وكذلك إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى ، إن ذلك كله بإذن ممن ؟ بإذن من الله .

وكذلك كان الأمر فى تجربة سيدنا إبراهيم ، لذلك قال له الحق : « واعلم أن الله عزيز حكيم » . إن الله عزيز أى لا يغلبه أحد . وهو حكيم أى يضع كل شىء فى موقعه .

وكذلك يبسط الحق قصة الحياة وقصة الموت فى تجربة مادية ؛ ليطمئن قلب سيدنا إبراهيم ، وقد جاءت قصة الحياة والموت ؛ لأن الشك عند الذين عاصروا الدعوة المحمدية كان فى مسألة البعث من الموت ، وكل كلامهم يؤدى إلى ذلك ، فهم تعجبوا من حدوث هذا الأمر :

﴿ قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

(سورة المؤمنون)

وفى قول آخر :

﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ﴾

(سورة يس)

لقد أمر الحق سبحانه محمدًا صلى الله عليه وسلم ليجيب على ذلك : قل يا محمد : يحييها الذى أنشأها أول مرة ؛ فقد خلقها من عدم ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ﴾

(سورة الروم)

إن الله سبحانه وتعالى قادر على أن يبدأ الخلق على غير مثال ، ثم يعيده بعد الموت ، وإعادته أهون عليه من ابتدائه بالنظر إلى مقاييس اعتقاد من يظن أن إعادة الشىء أسهل من ابتدائه ؛ فالله له مطلق القدرة فى خلقه ، وهو الغالب فى ملكه ، وهو الحكيم فى فعله وتقديره .

إن الذى يعيد إنما يعيد من موجود ، أما الذى بدأ فمن معدوم . فالأهون هو الإعادة ، أما الابتداء فهو ابتداء من معدوم ، وكلاهما من قدرة الحق سبحانه

وتعالى . إن هذه القضية إنما تثبت اليوم الآخر ، لأن الإيمان باليوم الآخر هو الميزان العقدى فإن استقر فى القلب فالإنسان بكل جوارحه يتجه إلى الأفعال التى تسير على ضوء منهج الله لينال الإنسان الجزاء الأوفى .

إن الإنسان حينما يفهم أن هناك حسابا وهناك جزاءً ، وهناك بعثا ، فهو يعرف أنه لم ينطلق فى هذا العالم ، ولم يفلت من الإله الواحد القهار ، إنّ للإنسان عودة ، فالذى يغتر بما آتاه الله نقول له : لا ، إنك لن تفلت من يد الله ، بل لك عودة بالموت وعودة بالبعث . وإذا ما استقرت فى أذهان المسلمين تلك العودة ، فكل إنسان يقيم حسابه على هذه العودة .

وبعد أن استقر الأمر فى شأن الحياة والموت أراد الحق سبحانه وتعالى أن يجىء بشىء هو ثمرة الحياة فى الكائن الحى وأول مظهر من مظاهر الحياة هو الحس والحركة . والحركة فى الوجود أرادها الله للإنسان ؛ لأنه وهو الحق قد أراد الإنسان للخلافة فى الأرض . والخلافة فى الأرض تقتضى أن يعمر الإنسان الأرض ، كما قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾

(من الآية ٦١ سورة هود)

إن خلافة الإنسان فى الأرض تقتضى أن يتحرك ويعمر الأرض . وحين يريد الله منا أن نتحرك ونعمر الأرض فلا بد من أعمال تنظم هذه الحركة ، ولا بد من فنون متعددة تقوم على العمارة . ويوزع الله الطاقات الفاعلة لهذه الفنون المتعددة ويجعلها مواهبَ مفكرة ومخططة فى البشر . إن الحق سبحانه لم يجعل من إنسان واحد مجمع مواهب ، بل نثر الله المواهب على الخلق ، وكل واحد أخذ موهبة ما .

لماذا ؟ لأن الله قد أراد أن يتكامل العالم ولا يتكرر ؛ فالتكامل يوحى بالاندماج . فإذا كنت أنت تعرف شيئاً خاضعا لموهبتك ، وأنا لا أعرفه فأنا مضطر أن ألتحم بك ، وأنا أيضا قد أعرف شيئا وأنت لا تعرفه ، لذلك تضطر أنت أن تلتحم بى . وهذا اللون من الالتحام ليس التحام تفضل ، إنما هو التحام تعايش ضرورى .

لكن لو أن كل واحد صار مجمع مواهب ، لاستغنى عن غيره من البشر وأقام وحده بمفرده ، وينتهى احتياجه للمجتمع الإنسانى . فكأن الله حين وزع أسباب الفضل على الخلق يريد منهم أن يتكاملوا ويلتحم بعضهم ببعض لا التحام فضل ، ولكن التحام تعايش ضرورى ؛ لأن واحداً يريد ما ينتجه الآخر بموهبته ، والآخر يريد من إنسان غيره ما هو موهوب فيه . ولذلك فالناس بخير ما تباينوا ؛ لأن كلا منهم يحتاج إلى الآخر .

ولذلك لا نجد أى تقدم فى مجتمع إلا إذا كانت المواهب فى هذا المجتمع مختلفة ومتآزرة . أما حين يوجد قوم لهم مواهب متحدة فلا بد أن يقاتل بعضهم بعضا لكن عندما يكون كل واحد فى حاجة لموهبة الآخر ، فهم يتعايشون ؛ لأن الحياة لا تسير إلا بالكل ، ولذلك إذا استوت جماعة فى المواهب فلا بد أن يتفانوا لأنهم يتنافسون فيها ويريد كل واحد منهم أن يستأثر بها لنفسه ، لكن لا أحد فى المواهب المتكاملة يقول : لماذا يكون فلان أفضل منى ، لأنه يعرف أنه من الضرورى أن يوجد المهندس والطبيب والصانع ، ولذلك تجد الوجود منظما بذاته التنظيم الطبيعى الذى يُوجد قاعدة ويُوجد قمة ، فالقمة الصغيرة تحملها القاعدة الكبيرة . ولو عكست الهرم لصارت مشكلة ؛ لأن الأمر فى هذه الحالة سَيَجِدُّ به جوانب كثيرة ليس لها أساس ولا ترتكز على شىء ، ولذلك فمن الحكمة إذا رأيت فى المجتمع واحداً قد ذهب إلى القمة فأعنه على أن يستمر متفوقا ، ولا تصطرع معه فتسقطوا جميعا ، فلا بد من التفاضل كى ينشأ التكامل .

والحق سبحانه وتعالى يعرض لنا هذه القضية عرضا اجتماعيا وعرضا اقتصاديا ؛ ليبين لنا أن أصل الوجود يجب أن ينشأ على أمر اجتماعى وأمر اقتصادى ، لماذا ؟ لأن الإنسان مشغول أولا باستبقاء حياته ، ثم باستبقاء نوعه . واستبقاء حياة الإنسان بالقوت ، واستبقاء نوعه بالزواج . واستبقاء الحياة بالقوت يحتاج إلى حركة فى الحياة ، والحق يحترم ثمرتها ، وعندما يريد الحق أن يرقق قلب المتحرك على أخيه العاجز فهو يقول :

﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾

(من الآية ٤٥ سورة البقرة)

كما ضربنا المثل من قبل ـ ولله المثل الأعلى ـ وقلنا : إن الإنسان يعطى أولاده مصروفا ، وكل واحد منهم يضعه فى حصالته ، فهب أن واحداً من الأولاد اضطر إلى شىء عاجل كإجراء جراحة ، هنا يذهب الرجل إلى أولاده ويقول لهم : أقرضونى ما فى حصالاتكم لأن أخاكم يحتاج إلى عملية ، وسأرده لكم بعد ذلك مضاعفا . إن الأب لم يرجع فى هبته ليقول إن ما فى الحصالات هو مالى وسآخذه . لا ، هو مالكم ، لكنه سيكون دينا عندى .

كذلك يصنع الله مع الخلق فيوضح : بعضكم عاجز وبعضكم قادر ، وسأتكفل أنا بالعاجز ، وأقترض من القادر . وكان ضروريا أن يكون بعضنا عاجزاً ، حتى لا يظن أحد أن القوة ذاتية فى النفس البشرية . لا ، إن القوة موهوبة ؛ ويستطيع من وهبها أن يسلبها . وحتى يعرف صاحب القوة أن القوة ليست ذاتية فيه ، يجد بجانبه إنساناً آخر عاجزا . لكن هذا العاجز الذى سيلفت القوى إلى أن القوة ليست ذاتية ، ما ذنبه ؟

إنّ الله قد جعله وسيلة إيضاح فى الكون وكأن الحق يقول : سنضمن لك أيها العاجز المستوى اللائق من الحياة من أثر قدرة القادر ، ومادام من أثر قدرة القادر ، فهل سيتحرك القادر فى الكون على قدر «حاجته» أو على قدر «طاقته» ؟ لابد أن يتحرك على قدر طاقته ؛ لأنه لو تحرك على قدر حاجته فلن يجد ما يعطيه للعاجز .

ويتكلم الحق سبحانه وتعالى عن تلك القضية المهمة فى البناء الاجتماعى والبناء الاقتصادى بعد إثبات قضية البعث والإحياء والإماتة لكى تكون ماثلة أمامنا ، وينتقل بنا الحق سبحانه وتعالى كى يعطينا الكيان الإسلامى الاقتصادى والاجتماعى فيقول جل شأنه :

﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ

لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾

إن الله ينسب المال للبشر المتحركين ؛ لأنهم أخذوا هذه الأموال بحركتهم . وفى موضع آخر من القرآن يقول الحق :

﴿ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ﴾

(من الآية ٣٣ سورة النور)

إن المال كله مال الله ، وقد أخذه الإنسان بالحركة ، فاحترم الله هذه الحركة ، واحترم الله فى الإنسان قانون النفعية ، فجعل المال المتبقى من حركتك ملكا لك أيها الإنسان ، لكن إن أراد الله هذا المال فسيأخذه ، ومن فضل الله على الإنسان أنه سبحانه حين يطلب من الإنسان بعضا من المال المتبقى من حركته فهو يطلبه كقرض ، ويرده مضاعفا بعد ذلك .

إذن فالإنفاق فى سبيل الله يرده الله مضاعفا ، ومادام الله يضاعفه فهو يزيد ، لذلك لا تحزن ولا تخف على مالك ؛ لأنك أعطيته لمقتدر قادر واسع عليم . إنه الحق الذى يقدر على إعطاء كل واحد حسب ما يريد هو سبحانه ؛ إنه يعطى على قدر نية العبد وقدر إنفاقه . وهذه الآية تعالج قضية الشُح فى النفس الإنسانية ؛ فقد يكون عند الإنسان شيء زائد ، وتشح به نفسه ويبخل ، فيخاف أن ينفق منه فينقص هذا الشيء .

وهنا تقول لك قضية الإيمان : أنفق لأنه سبحانه سيزيدك ، والحق سيعطيك مثلما يعطيك من الأرض التى تزرعها . أنت تضع الحبة الواحدة . فهل تعطيك حبة واحدة ؟ لا . إن حبة القمح تعطى كمية من العيدان وكل عود فيه سنبلة وهى مشتملة على حبوب كثيرة ، فإذا كانت الأرض وهى مخلوقة لله تضاعف لك ما تعطيه أفلا يضاعف العطاء لك الذى خلقها ؟ وإذا كان بعض من خلق الله يضاعف لك ، فما بالك بالله جل وعلا ؟

إن الأرض الصماء بعناصرها تعطيك ، أئذا ما أخذت كيلة القمح من مخزنك

لتبذرها فى الأرض أيقال : إنك أنقصت مخزنك بمقدار كيلة القمح ؟ لا ؛ لأنك ستزرع بها ، وأنت تنتظر كم ستأتى من حبوب ، وهذه أرض صماء مخلوقة لله ، فإذا كان المخلوق لله قد استطاع أن يعطيك بالحبة سبعمائة ، ألا يعطيك الذى خلق هذه الأرض أضعاف ذلك ؟

إنه كثير العطاء . والحق قد نسب للمنفقين الأموال التى رزقهم الله بها فقال : « مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله » وكلمة « فى سبيل الله » كلمة عامة ، يصح أن يكون معناها الجهاد ، أو مصارف الصدقات ؛ لأن كل هذا فى سبيل الله ؛ لأن الضعيف حين يجد نفسه فى مجتمع متكافل ، ويجد صاحب القوة قد عدّى من أثر قوته وحركته إليه ، أيحقد على ذى القوة ؟ لا ؛ لأن خيره يأتيه ، نضرب المثل فى الريف نقول :

البهيمة التى تدر لبناً ساعة تسير فى الحارة . فالكل كان يدعو الله لها ويقول : « يحميكى » لماذا ؟ لأن صاحبها يعطى كل من حوله من لبنها ومن جبنتها ومن سمنها ، لذلك يدعو لها الجميع ، ولا يربطها صاحبها ، ولا يعلفها ، ولا ينشغل عليها ، والخير القادم منها يذهب إلى كل الأهل ، وحين نجد مجتمعاً بهذا الشكل ويجد العاجز من القوى معيناً له ، هنا يقول العاجز : إننى فى عالم متكامل .

وإذا ما وُجد فى إنسان قوة وفى آخر ضعف ؛ فالضعيف لا يحقد وإنما يقول : إن خير غيرى يصلنى . وكذلك يطمئن الواهب أنه إن عجز فى يوم ما سيجد من يكفله ـ والقدرة أغيار ـ مادام الإنسان من الأغيار . فقد يكون قويا اليوم ضعيفاً غداً .

إذن فقول الحق سبحانه وتعالى : « مثل الذين ينفقون أموالهم » هو قانون يريد به الله أن يحارب الشُح فى نفس المخلوقين ، إنه يقول لكل منا : انظر النظرة الواعية ؛ فالأرض لا تنقص من مخزنك حين تعطيها كيلة من القمح ! صحيح أنك أنقصت كيلة من مخزنك لتزرعها ، ولكنّك تتوقع أن تأخذ من الأرض أضعافها . وإياك أن تظن أن ما تعطيه الأرض يكون لك فيه ثقة ، وما يعطيه الله لا ثقة لك فيه .

« مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل

سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم » إن الآية تعالج الشُح ، وتؤكد أن الصدقة لا تنقص ما عند الإنسان بل ستزيده . وبعد ذلك يقول تعالى :

﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ﴾

إنها لقطة أخرى يوضح فيها الحق : إياك حين تنفق مالك فى سبيل الله وأنت طامع فى عطاء الله أن تمن على من تعطيه أو تؤذيه . والمنّ هو أن يعتد على من أحسن إليه بإحسانه ويريه أنه أوجب عليه حقا له وأنه أصبح صاحب فضل عليه ، وكما يقولون فى الريف (تعاير بها) ، والشاعر يقول :

وإنّ امْرَأً أسدى إلىّ صنيعة ... وذكَّرنيها مَـرَّةً للئيـم

ولذلك فمن الأدب الإيمانى فى الإنسان أن ينسى أنه أهدى وينسى أنه أنفق ، ولا يطلع أحداً من ذويه على إحسانه على الفقير أو تصدقه عليه وخاصة الصغار الذين لا يفهمون منطق الله فى الأشياء ، فعندما يعرف ابنى أننى أعطى لجارى كذا ، ربما دلّ ابنى وَمَنّ على ابن جارى ، ربما أخذه غروره فعيّره هو ، ولا يمكن أن يقدر هذا الأمر إلا مُكَلَّفٌ يعرف الحكم بحيثيته من الله .

إن الحق يوضح لنا : إياك أن تتبع النفقة منّا أو أذى ؛ لأنك إن أتبعتها بالمنّ ماذا يكون الموقف ؟ يكرهها المُعْطَى الذى تصدقت بها عليه ويتولد عنده حقد ، ويتولد عنده بغض ، ولذلك حينما قالوا : « اتق شر من أحسنت إليه » شرحوا ذلك بأن اتقاء شر ذلك الإنسان بألا تذكره بالإحسان ، وإياك أن تذكره بالإحسان ؛ لأن ذلك يولد عنده حقداً .

ولذلك تجد كثيرا من الناس يقولون : كم صنعت بفلان وفلان الجميل ، هذا كذا وهذا كذا ، ثم خرجوا عليّ فانكروه . وأقول لكل من يقول ذلك : مادمت تتذكر ما أسديته إليهم فمن العدالة من الله أن ينكروه ، ولو أنك عاملت الله لما أنكروه ، فمادمت لم تعامل الله ، فإنك تقابل بنكران ما أنفقت .

فكأن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يسخى بالآية الأولى قلب المنفق ليبسط يده بالنفقة ، لذلك قال : « ثم لا يتبعون ما أنفقوا منًا ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

فالحق سبحانه وتعالى طمأننا فى الآية الأولى على أن الصدقة والنفقة لا تنقص المال بل تزيده ، وضرب لنا الحق سبحانه المثل بالأرض التى تؤتينا بدل الحبة الواحدة سبعمائة حبة ، ثم يوضح الحق لنا أن آفة الإنفاق أن يكون مصحوباً بـ« المنّ » أو « الأذى » ؛ لأن ذلك يفسد قضية الاستطراق الصفائى فى الضعفاء والعاجزين ، ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾

(من الآية ٢٦٢ من سورة البقرة)

انظر إلى الدقة الأدائية فى قوله الكريم : « ثم لا يتبعون ما أنفقوا منّا ولا أذى » . قد يستقيم الكلام لوجاء كالآتى : « الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ولا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى » ، لكن الحق سبحانه قد جاء بـ« ثم » هنا ؛ لأن لها موقعاً . إن المنفق بالمال قد لا يمن ساعة العطاء ، ولكن قد يتأخر المنفق بالمن ، فكأن الحق سبحانه وتعالى ينبه كل مؤمن :

يجب أن يظل الإنفاق غير مصحوب بالمن وأن يبتعد المنفق عن المن دائماً ، فلا يمتنع عن المن فقط وقت العطاء ، ولكن لابد أن يستمر عدم المن حتى بعد العطاء وإن طال الزمن .

إن « ثم » تأتى فى هذا المعنى لوجود مسافة زمنية تراخى فيها الإنسان عن فعل المن . فالحق يمنع المن منعاً متصلاً متراخياً ، لا ساعة العطاء فحسب ، ولكن بعد العطاء أيضاً . وشوقى أمير الشعراء ـ رحمه الله ـ عندما كتب الشعر فى حمل الأثقال ، وضع أبياتاً من الشعر فى مجال حمل الأثقال النفسية ، فقال :

أحملت دَيْناً فى حياتك مرة ؟
أحملت يوما فى الضلوع غليلا ؟
أحملت مَنًّا فى النهار مُكَرَّرا ؟
والليلِ مِن مُسْدٍ إليك جميلا ؟

وبعد أن عدد شوقى أوجه الأحمال الثقيلة فى الحياة قال :

تلك الحياة وهذه أثقالها
وُزِنَ الحديدُ بها فعاد ضئيلا

كأن المن إذن عبء نفسى كبير . ويطمئن الحق سبحانه من ينفقون أموالهم دون مَنٍّ ولا أذى فى سبيل الله بأن لهم أجراً عند ربهم . وكلمة « الأجر » ـ والإيضاح من عند الرب ـ هى طمأنة إلى أن الأمر قد أحيل إلى موثوق بأدائه ، وإلى قادر على هذا الأداء . أما الذى يمن أو يؤذى فقد أخذ أجره بالمن أو الأذى ، وليس له أجر عند الله ؛ لأن الذى يمن أو يؤذى لم يتصور رَبَّ الضعيف ، وإنما تصور الضعيف .

والمنفق فى سبيل الله حين يتصور رب الضعيف ، وأن رب الضعيف هو الذى استدعاه إلى الوجود ، وهو الذى أجرى عليه الضعف ، فهو يؤمن أن الله هو الكفيل برزق الضعيف ، وحين ينفق القوى على الضعيف فإنما يؤدى عن الله ، ولذلك نجد فى أقوال المقربين :

« إننا نضع الصدقة فى يد الله قبل أن نضعها فى يد الضعيف » ولننظر إلى ما فعلته سيدتنا فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم . لقد راحت تجلو الدرهم وتطيبه ، فلما قيل لها : ماذا تصنعين ؟ قالت : أجلو درهماً وأطيبه لأنى نويت أن

أتصدق به . فقيل لها : أتتصدقين به مجلواً ومعطراً ؟

قالت الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم : لأنى أعلم أنه يقع فى يد الله قبل أن يقع فى يد الفقير . إن الأجر يكون عند من يغليه ويعليه ويرتفع بقيمته وهو الخالق الوهاب .

ولنتأمل قوله الحق : « ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » لماذا لم يقل الله : ولا خوف منهم ؟ . لأن الحق يريد أن يوضح لنا بقوله : « ولا خوف عليهم » أن هناك عنصراً ثالثاً سيتدخل . إنه تدخل مِن شخص قد يُظهر للإنسان المنفق أنه محبٌ له ، فيقول : ادخر للأيام القادمة ، ادخر لأولادك .

لمثل هذا العنصر يقول الحق : « ولا خوف عليهم » أى إياك يا صاحب مثل هذا الرأى أن تتدخل باسم الحب ، ولتوفر كلامك ؛ لأن المنفق فى سبيل الله إنما يجد العطاء والحماية من الله . فلا خوف على المنفق فى سبيل الله ، وليس ذلك فقط ، إنما يقول الحق عن المنفقين فى سبيل الله دون مَنٍّ ولا أذى : « ولا هم يحزنون » ومعناها أنه سوف يأتى فى تصرفات الحق معهم ما يفرحهم بأنهم تصدقوا إما بسرعة الخلف عليهم ، أو برضى النفس ، أو برزق السلب ، فآفة الناس أنهم ينظرون إلى رزق الإيجاب دائما ، أى أن يقيس البشر الرزق بما يدخل له من مال ، ولا يقيسون الأمر برزق السلب ، ورزق السلب هو محط البركة .

هب أن إنسانا راتبه خمسون جنيها ، وبعد ذلك يسلب الله منه مصارف تطلب منه مائة جنيه ، كأن يدخل فيجد ولده متعبا وحرارته مرتفعة ، فيرزق الله قلب الرجل الاطمئنان ، ويطلب من الأم أن تعد كوبا من الشاى للابن ويعطيه قرصا من الأسبرين ، وتذهب الوعكة وتنتهى المسألة .

ورجل آخر يدخل ويجد ولده متعبا وحرارته مرتفعة ، وتستمر الحرارة لأكثر من يوم ، فيقذف الله فى قلبه الرعب ، وتأتى الخيالات والأوهام عن المرض فى ذهن الرجل ، فيذهب بابنه إلى الطبيب فينفق خمسين أو مائة من الجنيهات .

الرجل الأول ، أبرأ الله ابنه بقرش . والثانى ، أبرأ الله ابنه بجنيهات كثيرة . إن رزق الرجل الأول هو رزق السلب ، فكما يرزق الله بالإيجاب ، فالله يرزق بالسلب أى يسلب المصرف ويدفع البلاء . وهناك رجل دخله مائة جنيه ، ويأتى له الله بمصارف تأخذ مائتين ، وهناك رجل دخله خمسون جنيها فيسلب الله عنه مصارف تزيد على مائة جنيه ، فأيهما الأفضل ؟

إنه الرجل الذى سلب الله عنه مصارف تزيد على طاقته . إذن فعلى الناس أن تنظر إلى رزق السلب كما تنظر إلى رزق الإيجاب ، وقوله الحق عن المنفقين فى سبيله دون مَنّ أو أذى : « ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » هذا القول دليل على أن الله سيأتى بنتيجة النفقة بدون مَنّ أو أذى بما يفرح له قلب المؤمن ، إما بالبركة فى الرزق وإمّا بسلب المصارف عنه ، فيقول القلب المؤمن : إنها بركة الصدقة التى أعطيتها .

إنه قد تصدق بشىء فرفع وصرف عنه الله شيئا ضارا ، فيفرح بذلك القلب المؤمن . وبعد ذلك ينبهنا الحق سبحانه وتعالى إلى قضية مهمة هى : إن لم تَجُد أيها المؤمن بمالك فأحسن بمقالك ، فإن لم تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم بحسن الرد ، والرسول صلى الله عليه وسلم يقول :

(اتقوا النار ولو بشق تمرة ، فمن لم يجد فبكلمة طيبة)[1] .

والحق سبحانه وتعالى يحدد القضية فى هذه الآية :

﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ ﴾

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب الزكاة .

ما معنى « قول معروف » ؟ إننا فى العادة نجد أن المعروف مقابل للمنكر ، كأن الأمر الخَيِّر أمر متعارف عليه بالسجية ، وكأن المتعارف عليه دائما من جنس الجمال ومن جنس الخير ، أما الأمر الذى تنكره النفس فمن جنس الشر وجنس القبح . ولذلك يقول الحق : « قول معروف » فكأن من شأن الجمال ومن شأن الحسن أن يكون معروفا ، ومن شأن النقيض أن يكون منكرا ، إذن فالقول المعروف هو أن ترد السائل الرد الجميل بحيث لا تمتلىء نفسه بالحفيظة عليك ، وبحيث لا توبخه لأنه سألك ، وإذا كان السائل قد تجهم عليك تجهم المحتاج فاغفر له ذلك ، لماذا ؟

لأن هناك إنسانا تلهب ظهره سياط الحاجة ، ويراك أهلا لغنى أو ليسار أو جِدة وسعة من المال،وقد يزيد بالقول واللسان قليلاً عليك،وربما تجاوز أدب الحديث معك ، فعليك أن تتحمله .

وإذا كنت أنت أيها العبد تصنع المعاصى التى تغضب الله ، ويحلم الحق عليك ، ويغفرها لك ولا يعذبك بها ، فإذا ما صنع إنسان معك شيئا فكن أيضا صاحب قول معروف ومغفرة وحلم ؛ إن الحق سبحانه يقول لنا : « ألا تحبون أن يغفر الله لكم » ؟

إننا جميعا نحب أن يغفر الله لنا ، ولذلك يجب أن نغفر لغيرنا وخصوصا للمحتاج . والحق حين يقول : « والله غنى حليم » ففى ذلك تنبيه للقادر الذى حرم الفقير ، وكأنه يقول له : إنما حرمت نفسك أيها القادر من أجر الله . إنك أيها القادر حين تحرم فقيراً ، فأنت المحروم ؛ لأن الله غنى عنك ، وهو سبحانه يقول :

﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾ ﴾

(سورة محمد)

إن الله غنى بقدرته المطلقة ، غنى وقادر أن يستبدل بالقوم البخلاء قوما يسخون بما أفاء الله عليهم من رزق فى سبيل الله . فالذى يمسك عن العطاء إنما منع عن نفسه

باب رحمة . ولذلك يقول الحق :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (٢٦٤)

فالذى يتصدق ويتبع صدقته بالمن والأذى ، إنما يُبطل صدقته ، وخسارته تكون خسارتين : الخسارة الأولى أنه أنقص ماله بالفعل ؛ لأن الله لن يعوض عليه ؛ لأنه أتبع الصدقة بما يبطلها من المَنّ والأذى ، والخسارة الأخرى هى الحرمان من الثواب ؛ فالذى ينفق ليقول الناس عنه إنه ينفق ؛ عليه أن يعرف أن الحق يوضح لنا : أنه يعطى الأجر على قاعدة أن الذى يدفع الأجر هو من عملت له العمل .

إن الإنسان على محدودية قدرته يعطى الأجر لمن عمل له عملا ، والذى يعمل من أجل أن يقول الناس إنه عمل ، فليأخذ أجره من القدرة المحدودة للبشر ، ولذلك قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الذى يفعل الحسنة أو الصدقة ليقال عنه إنه فعل ، فإنه يأتى يوم القيامة ولا يجد أجرا له . وقد جاء فى الحديث الشريف :

(ورجل آتاه الله من أنواع المال فأتى به فعرفه نعمه فعرفها فقال ما عملت فيها ؟ قال : ما تركت من شيء تحب أن أنفق فيه إلاّ أنفقت فيه لك ، قال : كذبت إنما

أردت أن يقال : فلان جواد فقد قيل ، فأمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار)[١] .

إياك إذن أن تقول : أنا أنفقت ولم يوسع الله رزقى ؛ لأن الله قد يبتليك ويمتحنك ، فلا تفعل الصدقة من أجل توسيع الرزق ، فعطاء الله للمؤمن ليس فى الدنيا فقط ، ولكن الله قد يريد ألا يعطيك فى الفانية وأبقى لك العطاء فى الباقية وهى الآخرة . وهو خير وأبقى .

والحق يقول : « ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثله كمثل صفوان عليه تراب » والصفوان هو الحجر الأملس ، ويُسمى المروة والذى نسميه بالعامية « الزلطة » . ويقال للأصلع « صفوان » ، أى رأسه أملس كالمروة . والشىء الأملس هو الذى لا مسام له يمكن أن تدركها العين المدركة ، إنما يدرك الإنسان هذه المسام بوضع الحجر تحت المجهر . وعندما يكون الشىء ناعما قد يأتى عليه تراب ، ثم يأتى المطر فينزل على التراب وينزلق التراب من على الشىء الأملس ، ولو كان بالحجر بعض من الخشونة ، لبقى شىء من التراب بين النتوءات ، فالذى ينفق ماله رئاء الناس ، كالصفوان يتراكم عليه التراب ، وينزل المطر على التراب فيزيله كلّه فيصير الأمر : « لا يقدرون على شىء مما كسبوا » أى فقدوا القدرة على امتلاك أى شىء ؛ لأن الله جعل ما لهم من عمل هباء منثورا .

وهؤلاء كالحجر الصفوان الذى عليه تراب فنزل عليه وابل . . أى مطر شديد فتركه صلدا . . تلك هى صفات من قصدوا بالإنفاق رئاء الناس ، فيبطل الله جزاءهم ؛ لأن الله لا يوفقهم إلى الخير والثواب . ويأتى الله بالمقابل ، وهم الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله فيقول :

﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ

(١) من حديث فيه قال الحاكم هذا حديث صحيح على شرط الشيخين وقد خرجه مسلم .

وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾

إن ابتغاء مرضاة الله فى الإنفاق تعنى خروج الرياء من دائرة الإنفاق ، فيكون خالصا لوجهه ـ سبحانه ـ وأما التثبيت من أنفسهم ، فهو لأنفسهم أيضا . فكأن النفس الإيمانية تتصادم مع النفس الشهوانية ، فعندما تطلب النفس الإيمانية أى شىء فإن النفس الشهوانية تحاول أن تمنعها . وتتغلب النفس الإيمانية على النفس الشهوانية وتنتصر لله .

والمراد بـ « تثبيتا من أنفسهم » هو أن يتثبت المؤمن على أن يحب نفسه حبا أعمق لا حبا أحمق . إذن فعملية الإنفاق يجب أن تكون أولا إنفاقا فى سبيل الله ، وتكون بتثبيت النفس بأن وهب المؤمن أولا دمه ، وثبت نفسه ثانيا بأن وهب ماله ، وهكذا يتأكد التثبيت فيكون كما تصوره الآية الكريمة :

﴿ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾

(من الآية ٢٦٥ سورة البقرة)

والجنة كما عرفنا تُطلق فى اللغة على المكان الذى يوجد به زرع كثيف أخضر لدرجة أنه يستر من يدخله . ومنها « جن » أى « ستر » ، ومن يدخل هذه الجنة يكون مستوراً .

إن الحق يريد أن يضرب لنا المثل الذى يوضح الصنف الثانى من المنفقين فى سبيل الله ابتغاء مرضاته وتثبيتا من أنفسهم الإيمانية ضد النفس الشهوانية ، فيكون الواحد منهم كمن دخل جنة كثيفة الزرع ، وهذه الجنة توجد بربوة عالية ، وعندما تكون

الجنة بربوة عالية فمعنى ذلك أنها محاطة بأمكنة وطيئة ومنخفضة عنها ، فماذا يفعل المطر بهذه الجنة التى توجد على ربوة ؟ وقد أخبرنا الحق بما يحدث لمثل هذه الجنة قبل أن يتقدم العلم الحديث ويكتشف آثار المياه الجوفية على الزراعة .

فهذه الجنة التى بربوة لا تعانى مما تعانى منه الأرض المستوية ، ففى الأرض المستوية قد توجد المياه الجوفية التى تذهب إلى جذور النبات الشعرية وتفسدها بالعطن ، فلا تستطيع هذه الجذور أن تمتص الغذاء اللازم للنبات ، فيشحب النبات بالاصفرار أولا ثم يموت بعد ذلك ، إنّ الجنة التى بربوة تستقبل المياه التى تنزل عليها من المطر ، وتكون لها مصارف من جميع الجهات الوطيئة التى حولها ، وترتوى هذه الجنة بأحدث ما توصل إليه العلم من وسائل الرى ، إنها تأخذ المياه من أعلى ، أى من المطر ، فتنزل المياه على الأوراق لتؤدى وظيفة أولى وهى غسل الأوراق .

إن أوراق النبات ـ كما نعلم ـ مثل الرئة بالنسبة للإنسان مهمتها التنفس ، فإذا ما نزل عليها ماء المطر فهو يغسل هذه الأوراق مما يجعلها تؤدى دورها فيما نُسميه نحن فى العصر الحديث بالتمثيل الكلوروفيلى . وبعد ذلك تنزل المياه إلى الجذور لتذيب العناصر اللازمة فى التربة لغذاء النبات ، فتأخذ الجذور حاجتها من الغذاء المذاب فى الماء ، وينزل الماء الزائد عن ذلك فى المصارف المنخفضة . وهذه أحدث وسائل الزراعة الحديثة ، واكتشفوا أن المحصول يتضاعف بها .

إن الحق يخبرنا أن من ينفق ماله ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم كمثل هذه الجنة التى تروى بأسلوب ربانى ، فإن نزل عليها وابلٌ من المطر ، أخذت منه حاجتها وانصرف باقى المطر عنها ، « فإن لم يصبها وابل فَطَلٌّ » ؛ والطَلُّ وهو المطر والرذاذ الخفيف يكفيها لتؤتى ضعفين من نَتاجها . وإذا كان الضعف هو ما يساوى الشىء مرتين ، فالضعفان يساويان الشىء أربع مرات . والله يضرب لنا مثلا ليزيد به الإيضاح لحالة من ينفق ماله رئاء الناس فيسأل عباده المؤمنين وهو أعلم بهم فيقول جل شأنه :

﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾ ﴾

إن الحق سبحانه يشركنا فى الصورة كأنه يريد أن يأخذ منا الشهادة الواضحة . فهل يود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجرى من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات . ونعلم أن النخيل والأعناب هما من أهم ثمار ونتاج المجتمع الذى نزل به القرآن الكريم . ونعرف أن هناك حدائق فيها نخيل وأعناب ، ويضيف إليها صاحبها أشجاراً من الخوخ وأشجاراً من الفواكة الأخرى . ولذلك يقول الحق فى أصحاب الجنة :

﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ ﴾

(سورة الكهف)

كأن الجنتين هنا فيهما أشياء كثيرة ، فيهما أعناب ، وزادهما الله عطاء النخيل ، ثم الزرع ، وهذا يسمى فى اللغة عطف العام على الخاص ، أو عطف الخاص على العام ، ليذكر الشيء مرتين ، مرة بخصوصه ، ومرة فى عموم غيره . وعندما يتحدث الحق سبحانه عن جنة الآخرة فإنه يقول مرة :

﴿ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ ﴾

(سورة التوبة)

لقد هيأ الله للمؤمنين به ، المقاتلين فى سبيل نصرة دينه وإعلاء كلمته جنات تتخللها الأنهار ، وذلك هو الفوز والنجاح الكبير . ومرة أخرى يتحدث الحق عن جنة الآخرة بقوله :

﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ ﴾

(سورة التوبة)

إن الحديث عن الأنهار التى تجرى تحت الجنة يأتى مرة مسبوقا بـ « مِن » . ومرة أخرى غير مسبوق بـ « مِن » . فعندما يأتى الحديث عن تلك الأنهار التى تحت الجنة مسبوقا بـ « مِن » فإن ذلك يوحى أن نبعها ذاتى فيها والمائية مملوكة لها .

وعندما يأتى الحديث عن تلك الأنهار التى تجرى تحت الجنة غير مسبوق بـ« مِن » ، فمعنى ذلك أن نبع هذه الأنهار غير ذاتى فيها ، ولكنه يجرى تحتها بإرادة الله ، فلا يجرؤ أحد أن يمنع الماء عن هذه الجنة التى أعدها الله للمؤمنين . وعندما يشركنا الحق فى التساؤل :

﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ۗ

كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾

(سورة البقرة)

إن الجنة التى بهذه الصفة وفيها الخير الكثير ، لكن صاحبها يصيبه الكبر ، ولم تعد فى صحته فتوة الشباب ، إنه محاط بالخير وهو أحوج ما يكون إلى ذلك الخير ؛ لأنه أصبح فى الكبر وليس له طاقة يعمل بها ، وهكذا تكون نفسه معلقة بعطاء هذه الجنة ، لا لنفسه فقط ولكن لذريته من الضعفاء . وهذه قمة التصوير للاحتياج للخير ، لا للنفس فقط ولكن للأبناء الضعفاء أيضا .

إننا أمام رجل محاط بثلاثة ظروف . الظرف الأول : هو الجنة التى فيها من كل خير .

والظرف الثانى : هو الكبر والضعف والعجز عن العمل .

والظرف الثالث : هو الذرية من الضعفاء .

فيطيح بهذه الجنة إعصار فيه نار فاحترقت ، فأى حسرة يكون فيها الرجل ؟ إنها حسرة شديدة . كذلك تكون حسرة من يفعل الخير رئاء الناس . والإعصار كما نعرف هو الريح الشديدة المصحوبة برعد وبرق ومطر وقد يكون فيه نار ، هذا إذا كانت الشحنات الكهربائية ناتجة من تصادم السحب أو حاملة لقذائف نارية من بركان ثائر . هكذا يكون حال من ينفق ماله رئاء الناس . ابتداء مطمع وانتهاء موئس أى ميئوس منه .

إذن فكل إنسان مؤمن عليه أن يتذكر ساعة أن ينفق هذا الابتداء المثير للطمع ، وذلك الانتهاء الملىء باليأس . إنها الفجيعة الشديدة . ويصورها الشاعر بقوله :

فأصبحت من ليلى الغداة كقابض
على الماء خانته فروج الأصابع

ويقول آخر :

كما أبرقت قوما عطاشا غمامةٌ
فلما رأوها أقشعت وتجلّت

إن الذى يرائى يخسر كل حاجاته ، ولا يقدر على شىء مما كسب . ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ﴾

إن هذه الآية تعطى صورا تحدث فى المجتمع البشرى . وكانت هذه الصور تحدث فى مجتمع المدينة بعد أن أسس فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم دولة الإسلام . فبعض من الناس كانوا يحضرون العِذق من النخل ويعلقه فى المسجد من أجل أن يأكل منه من يريد ، والعِذق هو فرع قوى من النخل يضم الكثير من الفروع الصغيرة المعلقة عليها ثمار البلح . وكان بعضهم يأتى بعذق غير ناضج أو بالحَشَف وهو أردأ التمر ، فأراد الله أن يجنبهم هذا الموقف ، حتى لا يجعلوا لله ما يكرهون ، فأنزل هذا القول الحكيم : « يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم » .

إن الإنفاق يجب أن يكون من الكسب الطيب الحلال ، فلا تأتى بمال من مصدر غير حلال لتنفق منه على أوجه الخير . فالله طيب لا يقبل إلا طيبا . ولا يكون الإنفاق من رُذَال وردِىء المال .

ويحدد الحق سبحانه وتعالى وسيلة الإنفاق من عطائه فيقول : « ومما أخرجنا لكم من الأرض » وهو سبحانه يذكرنا دائما حين يقول : « أنفقوا من طيبات ما كسبتم » ألا نظن الكسب هو الأصل فى الرزق . لا ، إن الكسب هو حركة موهوبة لك من الله . إنك أيها العبد إنما تتحرك بطاقة موهوبة لك من الله ، وبفكر ممنوح لك من

الله ، وفى أرض سخرها لك الله ، إنها الأدوات المتعددة التى خصك بها الله وليس فيها ما تملكه أنت من ذاتيتك . ولكن الحق يحترم حركة الإنسان وسعيه إلى الرزق فيقول : « أنفقوا من طيبات ما كسبتم » .

ويحذرنا الحق من أن نختار الخبيث وغير الصالح من نَتاج عملنا لننفق منه بقوله سبحانه : « ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون » أى لا يصح ولا يليق أن نأخذ لأنفسنا طيبات الكسب ونعطى الله ردىء الكسب وخبيثه ؛ لأن الواحد منا لا يرضى لنفسه أن يأخذ لطعامه أو لعياله هذا الخبيث غير الصالح لننفق منه أو لنأكله . « ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه ، واعلموا أن الله غنى حميد » أى أنك أيها العبد المؤمن لن ترضى لنفسك أن تأكل من الخبيث إلا إذا أغمضت عينيك ، أو تم تنزيل سعره لك ؛ كأن يعرض عليك البائع شيئا متوسط الجودة أو شيئا رديئاً بسعر يقل عن سعر الجيد .

لقد أراد الحق سبحانه وتعالى أن يوضح لنا بهذه الصور أوجه الإنفاق :

- إن النفقة لا تنقص المال وإنما تزيده سبعمائه مرة .
- إن النفقة لا يصح أن يبطلها الإنسان بالمن والأذى .
- إن القول المعروف خير من الصدقة المتبوعة بالمن أو الأذى .
- إن الإنفاق لا يكون رئاء الناس إنما يكون ابتغاءً لمرضاة الله .

هذه الآيات الكريمة تعالج آفات الإنفاق سواءً آفة الشُح أو آفة المَنّ أو الأذى ، أو الإنفاق من أجل التظاهر أمام الناس ، أو الإنفاق من ردىء المال . وبعد ذلك يقول سبحانه :

﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾ ﴾

إن الشيطان قد يوسوس لكم بأن الإنفاق إفقار لكم ، ويحاول أن يصرفكم عن الإنفاق فى وجوه الخير ، ويغريكم بالمعاصى والفحشاء ، فالْغنِىُّ حين يقبض يده عن المحتاج فإنه يُدْخِل فى قلب المحتاج الحقد . وأى مجتمع يدخل فى قلبه الحقد نجد كل المنكرات تنتشر فيه . ويعالج الحق هذه المسائل بقوله :

﴿ إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾ ﴾

(سورة محمد)

إن الحق سبحانه وتعالى لا يسألك أن ترد عطاءه لك من المال ، إنما يطلب الحق تطهير المال بالإنفاق منه فى سبيل الله ليزيد ولينمو ، وليخرج الضغن من المجتمع ؛ لأن الضغن حين يدخل مجتمعا فعلى هذا المجتمع السلام . ولا يُفيق المجتمع من هذا الضغن إلا بأن تأتيه ضربة قوية تزلزله ، فينتبه إلى ضرورة إخراج الضغن منه . لذلك يحذرنا الله أن نسمع للشيطان :

﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾ ﴾

(سورة البقرة)

فالذى يسمع لقول الشيطان ووعده ، ولا يستمع إلى وعد الله يصبح كمن رجّح عدو الله على الله ـ أعاذنا الله وإياكم من مثل هذا الموقف ـ إن الشيطان قد وسوس لكم بالفقر إذا أنفقتم ، وخبرة الإنسان مع الشيطان تؤكد للإنسان أن الشيطان كاذب مضلل ، وخبرة الإنسان مع الإيمان بالله تؤكد للإنسان أن الله واسع المغفرة ، كثير العطاء لعباده . والحكمة تقتضى أن نعرف إلى أى الطرق نهتدى ونسير . وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ

أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿٢٦٩﴾

والحكمة هى وضع الشىء فى موضعه النافع . فكأن الحق يقول : كل ما أمرتكم به هو عين الحكمة ؛ لأنى أريد أن أُؤَمِّنَ حياتكم الدنيا فيمن تتركون من الذرية الضعفاء ، وَأُؤَمِّنَ لكم سعادة الآخرة . فإن صنع العبد المؤمن ما يأمر به الله فهذا وضع الأشياء فى موضعها وهو أخذ بالحكمة .

وقد أراد الحق أن يعلم الإنسان من خلال عاطفته على أولاده ، لأن الإنسان قد تمر عليه فترة يهون فيها عنده أمر نفسه ، ولاينشغل إلا بأمر أولاده ، فقد يجوع من أجل أن يشبع الأولاد ، وقد يعرى من أجل أن يكسوهم . ولنا المثل الواضح فى سيدنا إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام ، لقد ابتلاه ربه فى بداية حياته بالإحراق فى النار ، ولأن إبراهيم قوى الإيمان فقد جعل الله النار برداً وسلاماً .

وابتلاه الله فى آخر حياته برؤيا ذبح ابنه ، ولأن إبراهيم عظيم الإيمان فقد امتثل لأمر الرحمن الذى افتدى إسماعيل بكبش عظيم . والإنسان فى العمر المتأخر يكون تعلقه بأبنائه أكبر من تعلقه بنفسه . وهكذا كان الترقى فى ابتلاء الله لسيدنا إبراهيم عليه السلام ، ولذلك أراد الله أن يضرب للبشر على هذا الوتر وقال :

﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ ۖ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ ﴾

(سورة النساء)

إن الحق سبحانه يريد من عباده أن يؤمّنوا على أولادهم بالعمل الصالح والقول السديد .

ومثال آخر حين أراد الحق أن يحمى مال اليتامى ، وأعلمنا بدخول موسى عليه السلام مع العبد الصالح الذى أوتى العلم من الله ، يقول ـ سبحانه ـ :

﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ ﴾

(سورة الكهف)

كان موسى عليه السلام لا يعلم علم العبد الصالح من أن الجدار كان تحته كنز ليتيمين ، كان أبوهما رجلاً صالحا ، وأهل هذه القرية لئام ، فقد رفضوا أن يطعموا العبد الصالح وموسى عليه السلام ، لذلك كان من الضرورى إقامة الجدار حتى لا ينكشف الكنز فى قرية من اللئام ويستولوا عليه ولا يأخذ الغلامان كنز أبيهما الذى كان رجلاً صالحاً .

إذن فالحق سبحانه يعلمنا أن نُؤَمِّنَ على أبنائنا بالعمل الصالح ، وهذه هى الحكمة عينها التى لا يصل إليها إلا أصحاب العقول القادرة على الوصول إلى عمق التفكير السديد .

وسيدنا الحسن البصرى يعطينا المثل فى العمل الصالح عندما يقول لمن يدخل عليه طالبا حاجة : مرحباً بمن جاء يحمل زادى إلى الآخرة بغير أجرة . إن سيدنا الحسن البصرى قد أوتى من الحكمة ما يجعله لا ينظر إلى الخير بمقدار زمنه ، ولكن بمقدار ما يعود عليه بعد الزمن .

وقد ضربت من قبل المثل بالتلميذ الذى يَجِدُّ ويتعب فى دروسه ليحصل على النجاح ، بينما أخوه يحب لنفسه الراحة والكسل . ثم نجد التلميذ الذى يتعب هو الذى يرتقى فى المجتمع ، بينما الذى ارتضى لنفسه الكسل يصير صعلوكاً فى المجتمع . وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ

يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾

وقد عرفنا النفقة من قبل ، فما هى مسألة النذر ؟ . إن النذر هو أن تُلزم نفسك بشىء من جنس ما شرع الله فوق ما أوجب الله . فإذا نذرت أن تصلى لله كل ليلة عددا من الركعات فهذا نذر من جنس ما شرع الله ؛ لأن الله قد شرع الصلاة وفرضها خمسة فروض ، فإن نذرت فوق ما فرضه الله فهذا هو النذر . ويقال فى الذى ينذر شيئا من جنس ما شرع الله فوق ما فرضه الله : إن هذا دليل على أن العبادة قد حَلَت له ، فأحبها وعشقها ، ودليل على أنه قارب أن يعرف قدر ربه ؛ وأن ربه يستحق منه فوق ما افترضه عليه ، فكأن الله فى افتراضه كان رحيماً بنا ، لأنه لو فُرض ما يستحقه منا لما استطاع واحد أن يفى بحق الله .

إذن فعندما تنذر أيها العبد المؤمن نذراً ، فإنك تُلزم نفسك بشىء من جنس ما شرع الله لك فوق ما فرض الله عليك . وأنت مخير أن تقبل على نذر ما ، أو لا تقبل . لكن إن نطقت بنذر فقد لزم . لماذا ؟ لأنك ألزمت نفسك به . ولذلك فمن التعقل ألا يورط الإنسان نفسه ويسرف فى النذر ، لأنه فى ساعة الأداء قد لا يقدر عليه .

وأهل القرب من الله يقولون لمن يخل بالنذر بعد أن نذر : هل جربت ربك فلم تجده أهلاً لاستمرار الود . وليس فينا من يجرؤ على ذلك ؛ لأن الله أهل لعميق الود . ولهذا فمن الأفضل أن يتريث الإنسان قبل أن ينذر شيئا .

ونقف الآن عند تذييل الآية : « وما للظالمين من أنصار » . إن الظالمين هم من ظلموا أنفسهم ؛ لأن الحق عرفنا أن ظلم الإنسان إنما يكون لنفسه ، وقال لنا :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

(سورة يونس)

ومن أشد الظلم للنفس الإنفاق رياءً ، أو الإنفاق فى المعاصى ، أو عدم الوفاء

بالنذر ، فليس لمن يفعل ذلك أعوان يدفعون عنه عذاب الله فى الآخرة . ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾ ﴾

فإن أظهرتم الصدقة فنعم ما تفعلون ؛ لتكونوا قدوة لغيركم ، ولتردوا الضغن عن المجتمع . وإن أخفيتم الصدقة وأعطيتموها الفقراء فإن الله يكفر عنكم بذلك من سيئاتكم ، والله خبير بالنية وراء إعلان الصدقة ووراء إخفاء الصدقة . والتذييل فى هذه الآية الكريمة يخدم قضية إبداء الصدقة وقضية إخفاء الصدقة ، فالحق خبير بنية من أبدى الصدقة ، فإن كان غنياً فعليه أن يبدى الصدقة حتى يحمى عرضه من وقوع الناس فيه ؛ لأن الناس حين يعلمون بالغنى فلابد أن يعلموا بإنفاق الغنى ، وإلا فقد يحسب الناس على الغنى عطاء الله له ، ولا يحسبون له النفقة فى سبيل الله . لماذا ؟ لأن الله يريد أن يحمى أعراض الناس من الناس .

أما إن كان الإنسان غير ظاهر الغنى فمن المستحسن أن يخفى الصدقة . وإن أظهرت الصدقة كما قلت ليتأسى الناس بك ، وليس فى ذهنك الرياء فهذا أيضا مطلوب . والحق يقول : « والله بما تعملون خبير » أى أن الله يجازى على قدر نية العبد فى الإبداء أو فى الإخفاء .

إنه باستقراء الآيات التى تعرضت للإنفاق نجده سبحانه يسد أمام النفس البشرية كل منافذة الشُح ، ويقطع عنها كل سبيل تحدثه به إذا ما أرادت أن تبخل بما أعطاها الله ، والخالق الذى وهب للمخلوق ما وهبه يطلب منه الإنفاق ، وإذا نظرنا إلى الأمر فى عرف المنطق وجدناه أمراً طبيعيا ؛ لأن الله لا يسأل خلقه النفقة مما خَلَقُوا

ولكنه يسألهم النفقة مما خلقه لهم .

إن الإنسان فى هذا الكون حين يُطلب إيمانياً منه أن ينفق فلازم ذلك أن يكون عنده ما ينفقه ، ولا يمكن أن يكون عنده ما ينفقه إلا إذا كان مالكاً لشىء زاد على حاجته وحاجة من يعوله ، وذلك لا يتأتى إلا بحصيلة العمل . إذن فأمر الله للمؤمن بالنفقة يقتضى أن يأمره أولاً بأن يعمل على قدر طاقته لا على قدر حاجته ، فلو عمل كل إنسان من القادرين على قدر حاجته ، فكيف توجد مقومات الحياة لمن لا يقدر على العمل ؟ . إذن فالحق يريد منا أن نعمل على قدر طاقتنا فى العمل لنعول أنفسنا ولنعول من فى ولايتنا ، فإذا ما زاد شىء على ذلك وهبناه لمن لا يقدر على العمل .

ولقائل أن يقول : إذا كان الله قد أراد أن يحنن قلوب المنفقين على العاجزين فلماذا لم يجعل العاجزين قادرين على أن يعملوا هم أيضاً ؟

نقول لصاحب هذا القول : إن الحق حين يخلق . . يخلق كوناً متكاملاً منسجماً دانت له الأسباب ، فربما أطغاه أن الأسباب تخضع له ، فقد يظن أنه أصبح خالقاً لكل شىء ، فحين تستجيب له الأرض إن حرث وزرع ، وحين يستجيب الماء له إن أدلى دلوه ، وحين تستجيب له كل الأسباب ، ربما ظن نفسه أصيلاً فى الكون . فيشاء الله أن يجعل القوة التى تفعل فى الأسباب لتنتج ، يشاء ـ سبحانه ـ أن يجعلها عرضاً من أعراض هذا الكون ، ولا يجعلها لازمة من لوازم الإنسان ، فمرة تجده قادراً ، ومرة تجده عاجزا .

فلو أنه كان بذاتيته قادراً لما وُجَدَ عَاجزٌ . إذن فوجود العاجزين عن الحركة فى الحياة لفت للناس على أنهم ليسوا أصلاء فى هذا الكون ، وأن الذى وهبهم القدرة يستطيع أن يسلبهم إياها ليعيدها إلى سواهم ، فيصبح العاجز بالأمس قادراً اليوم ، ويصبح القادر بالأمس عاجزاً اليوم وبذلك يظل الإنسان منتبهًا إلى القوة الواهبة التى استخلفته فى الأرض .

ولذلك كان الفارق بين المؤمن والكافر فى حركة الحياة أنهما يجتمعان فى شىء ، ثم ينفرد المؤمن فى شىء ، يجتمعان فى أن كل واحد من المؤمنين ومن الكافرين يعمل فى أسباب الحياة لينتج ما يقوته ويقوت من يعول ، ذلك قدر مشترك بين المؤمن والكافر . والكافر يقتصر على هذا السبب فى العمل فيعمل لنفسه ولمن يعول .

ولكن المؤمن يشترك معه فى ذلك ويزيد أنه يعمل لشىء آخر هو : أن يفيض عنه شىء يمكن أن يتوجه به إلى غير القادر على العمل . محتسبا ذلك عند الله .

ولذلك قلنا سابقا : إن الحق سبحانه حينما تكلم عن الزكاة تكلم عنها مرة مطلوبة أداء ، وتكلم عنها مرة أخرى مطلوبة غاية فقال : « والذين هم للزكاة فاعلون » . ولم يقل للزكاة مؤدون ، فالمؤمنون لا يعملون لقصد الزكاة إلا إن عملوا عملا على قدر طاقاتهم ليقوتهم وليقوت من يعولهم ، ثم يفيض منهم شىء يؤدون عنه الزكاة .

والحق سبحانه وتعالى يقول فى أمر الزكاة :

﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾ ﴾

(سورة البقرة)

إذن فحصيلة الأمر أن الزكاة مقصودة لهم حين يقبلون على أى عمل . ولقد صارت الزكاة بذلك الأمر الإلهى مطلوبة غاية ، فهى أحد أركان الإسلام وبذلك يتميز المؤمن على الكافر .

والحق سبحانه وتعالى حين تعرض لمنابع الشُح فى النفس البشرية أوضح : أن أول شىء تتعرض له النفس البشرية أن الإنسان يخاف من النفقة لأنها تنقص

ما عنده ، وقد حذر رسول الله صلى الله عليه وسلم من الشح فى قوله : « اتقوا الظلم ؛ فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الشح ؛ فإن الشح أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم »[١] . هى كذلك ، ولكن الحق سبحانه أوضح لكل مؤمن : أنها تنقص ما عندك ، ولكنها تزيدك مما عند الله ؛ فهى إن أنقصت ثمرة فعلك فقد أكملتك بفعل الله لك . وحين تكملك بفعل الله لك ، يجب أن تقارن بين قوة مخلوقة عاجزة وقوة خالقة قادرة .

ويلفتنا سبحانه : أن ننظر جيداً إلى بعض خلقه وهى الأرض ، الأرض التى نضع فيها البذرة الواحدة ـ أى الحبة الواحدة ـ فإنها تعْطِى سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة ، فلو نظر الإنسان أول الأمر إلى أن ما يضعه فى الأرض حين يحرث ويزرع يقلل من مخازنه لَما زرع ولما غرس ، ولكنه عندما نظر لما تعطيه الأرض من سبعمائة ضعف أقبل على البذر ، وأقبل على الحرث غير هياب ؛ لأنها ستعوضه أضعاف أضعاف ما أعطى .

وإذا كانت الأرض وهى مخلوقة لله تعطى هذا العطاء ، فكيف يكون عطاء خالق الأرض ؟

﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ﴾

(سورة البقرة)

إذن فقد سدّ الحق بهذا المثل على النفس البشرية منفذ الشُح . وشىء آخر تتعرض له الآيات ، وهو أن الإنسان قد يُحْرَج فى مجتمعه من سائل يسأله فهو فى حرصه على ماله لا يحب أن ينفق ، ولحرصه على مكانته فى الناس لا يحب أن يمنع ، فهو يعطى

---

(١) رواه مسلم .

ولكن بتأفف ، وربما تعدى تأففه إلى نهر الذى سأله وزجره ، فقال الحق سبحانه وتعالى ليسد ذلك الموقف :

﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ ﴾

(سورة البقرة)

وقول الله : « قول معروف ومغفرة » يدل على أن المسئول قد أحفظه سؤال السائل وأغضبه الإحراج ، ويطلب الحق من مثل هذا الإنسان أن يغفر لمن يسأله هذه الزلة إن كان قد اعتبر سؤاله له ذنباً :

﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ ﴾

(سورة البقرة)

وبعد ذلك يتعرض الحق سبحانه وتعالى إلى « المن » الذى يفسد العطاء ؛ لأنه يجعل الآخذ فى ذلة وانكسار ، ويريد المعطى أن يكون فى عزة العطاء وفى استعلاء المنفق ، فهو يقول : إنك إن فعلت ذلك ستتعدى الصدقة منك إلى الغير فيفيد ، ولكنك أنت الخاسر ؛ لأنك لن تفيد بذلك شيئا ، وإن كان قد استفاد السائل . إذن فحرصا على نفسك لا تتبع الصدقة بالمن ولا بالأذى .

ثم يأتى الحق ليعالج منفذا من منافذ الشح فى النفس البشرية هو : أن الإنسان قد يحب أن يعطى ، ولكنه حين تمتد يده إلى العطاء يعز عليه إنفاق الجيد من ماله الحسن ، فيستبقيه لنفسه ثم يعزل الأشياء التى تزهد فيها نفسه ليقدمها صدقة : فينهانا ـ سبحانه ـ عن ذلك فيقول :

﴿ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ ﴾

(من الآية ٢٦٧ سورة البقرة)

أى إن مثل هذا لو أُعطى لك لما قبلته إلا أن تغمض وتتسامح فى أخذه وكأنك

لا تبصر عيبه لتأخذه ، فما لم تقبله لنفسك فلا يصح أن تقبله لسواك . ثم بعد أن تكلم القرآن عن منافذ الشُح فى النفس الإنسانية بين لنا أن الذى ينتج هذه المنافذ ويغذيها إنما هو الشيطان :

﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾ ﴾

(سورة البقرة)

فإن سوّيتم بين عِدَةِ الشيطان ووعد الله لكم بالرضوان كان الخسران والضياع . فراجعوا إيمانكم ، وعليكم أن تجعلوا عدة الشيطان مدحورة أمام وعد الله لكم بالفضل والمغفرة .

ثم يتكلم بعد ذلك عن زمن الصدقة وعن حال إنفاقها ـ ظاهرة أو باطنة ـ وتكون النية عندك هى المرجحة لعمل على عمل ، فإذا كنت إنسانا غنيا فارحم عرضك من أن يتناوله الناس وتصدق صدقة علنية فيما هو واجب عليك لتحمى عرضك من مقولهم ، وأن أردت أن تتصدق تطوعا فلا مانع أن تُسر بها حتى لا تعلم شمالك ما أنفقت يمينك . . فعن ابن عباس رضى الله عنهما : صدقات السر فى التطوع تفضل علانيتها سبعين ضعفا ، وصدقة الفريضة علانيتها أفضل من سرها بخمسة وعشرين ضعفا .

وكأن الله فتح أمام النفس البشرية كل منافذ العطاء وسد منافذ الشح . انظروا بعد ذلك إلى الحق سبحانه حينما يحمى ضعاف المؤمنين ليجعلهم فى حماية أقوياء المؤمنين . اعلم أيها العبد المؤمن أنك حين تتلقى حكم الله لا تتلقاه على أنه مطلوب منك دائما ، ولكن عليك أن تتلقى الحكم على أنه قد يَصير بتصرفات الأغيار مطلوبا لك ، فإن كنت غنيا فلا تعتقد أن الله يطالبك دائما ، ولكن قَدّرْ أنك إن أصبحت بعرض الأغيار فى الحياة فقيراً سيكون الحكم مطلوباً لك . فقدر ـ حال كونه مطلوبًا منك الآن ؛ لأنك غنى ـ أنّه سيطلُب لك إن حصلت لك أغيار ، فصرت بها فقيراً .

إذن فالتشريع لك وعليك ، فلا تعتبره عليك دائما لأنك إن اعتبرته عليك دائما

عزلت نفسك عن أغيار الحياة ، وأغيار الحياة قائمة لا يمكن أن يبرأ منها أحد أبدا . لذلك أمر ـ سبحانه ـ المؤمنَ أن يكفل أخاه المؤمن .

انظروا إلى طموحات الإيمان فى النفس الإنسانية ، حتى الذين لا يشتركون معك فى الإيمان . إن طُلب منك أن تعطى الصدقة المفروضة الواجبة لأخيك المؤمن فقد طُلب منك أيضا أن تتطوع بالعطاء لمن ليس مؤمنا . وتلك ميزة فى الإسلام لا توجد أبدا فى غيره من الأديان ، إنه يحمى حتى غير المؤمن . ولذلك يقول الحق :

﴿ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ ﴾

ما أصل هذه المسألة ؟

أصل هذه المسألة أن بعض السابقين إلى الإسلام كانت لهم قرابات لم تسلم . وكان هؤلاء الأقرباء من الفقراء وكان المسلمون يحبون أن يعطوا هؤلاء الأقارب الفقراء شيئا من مالهم ، ولكنهم تحرجوا أن يفعلوا ذلك فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذا الأمر .

وها هى ذى أسماء بنت أبى بكر الصديق وأمها « قُتَيْلَة » كانت مازالت كافرة. وتسأل أسماء رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تعطى من مالها شيئا لأمها حتى تعيش وتقتات . وينزل الحق سبحانه قوله : « ليس عليك هداهم ولكن الله يهدى من يشاء » ، وعن أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنهما قالت : قدمتْ علىّ أمى وهى مشركة فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستفتيتُ رسول الله صلى الله عليه

وسلم قُلت : قِدمتْ علىّ أمى وهى راغبة . أفأصل أمّى ؟ قال : « نعم صلى أمّكِ »[١] . ولقد أراد بعض من المؤمنين أن يضيقوا على أقاربهم ممن لم يؤمنوا حتى يؤمنوا ، لكن الرحمن الرحيم ينزل القول الكريم : « ليس عليك هداهم ولكن الله يهدى من يشاء » .

إنه الدين المتسامى . دين يريد أن نعول المخلوق فى الأرض من عطاء الربوبية وإن كان لا يلتقى معنا فى عطاء الألوهية ؛ لأن عطاء الألوهية تكليف ، وعطاء الربوبية رزق وتربية .

والرزق والتربية مطلوبان لكل من كان على الأرض ؛ لأننا نعلم أن أحداً فى الوجود لم يستدع نفسه فى الوجود ، وإنما استدعاه خالقه ، ومادام الخالق الأكرم هو الذى استدعى العبد مؤمناً أو كافراً ، فهو المتكفل برزقه . والرزق شىء ، ومنطقة الإيمان بالله شىء آخر ، فيقول الحق : « ليس عليك هداهم ولكن الله يهدى من يشاء » .

أو أن الآية حينما نزلت فى الحثّ على النفقة ربما أن بعض الناس تكاسل ،وربما كان بعض المؤمنين يعمدون إلى الردىء من أموالهم فينفقونه .

وإذا كان الإسلام قد جاء ليواجه النفس البشرية بكل أغيارها وبكل خواطرها ، فليس بعجيب أن يعالجهم من ذلك ويردهم إلى الصواب إن خطرت لهم خاطرة تسىء إلى السلوك الإيمانى .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب حين ينزل أى أمر أن يلتفت المسلمون إليه لفتة الإقبال بحرارة عليه ، فإذا رأى تهاوناً فى شىء من ذلك حزن ، فيوضح له الله : عليك أن تبلغهم أمر الله فى النفقة ، وما عليك بعد ذلك أن يطيعوا . « ليس عليك هداهم ولكن الله يهدى من يشاء » .

---

(١) رواه البخارى ومسلم .

ولقائل أن يقول : مادام الله هو الذى يهدى فيجب أن نترك الناس على ما هم عليه من إيمان أو كفر ، وما علينا إلا البلاغ ، ونقول لأصحاب هذا الرأى : تنبهوا إلى معطيات القرآن فيما يتعلق بقضية واحدة ، هذه القضية التى نحن بصددها هى الهداية ، ولنستقرىء الآيات جميعا ، فسنجد أن الذين يرون أن الهداية من الله ، وأنه ما كان يصح له أن يعذب عاصياً ، لهم وجهة نظر ، والذين يقولون : إن له سبحانه أن يعذبهم ؛ لأنه ترك لهم الخيار لهم وجهة نظر ، فما وجهة النظر المختلفة حتى يصير الأمر على قدر سواء من الفهم ؟

إن الحق سبحانه وتعالى حينما يتكلم فى قرآنه الكلام الموحَى ، فهو يطلب منا أن نتدبره ، ومعنى أن نتدبره ألا ننظر إلى واجهة النص ولكن يجب أن ننظر إلى خلفية النص . « أفلا يتدبرون » يعنى لا تنظر إلى الوجه ، ولكن انظر ما يواجه الوجه وهو الخلف .

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾

(من الآية ٨٢ سورة النساء)

فالحق سبحانه وتعالى قد قال :

﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾

(من الآية ١٧ سورة فصلت)

كيف يكون الله قد هداهم ، ثم بعد ذلك يستحبون العمى على الهدى ؟ إذن معنى « هداهم » أى دلَّهم على الخير . وحين دلهم على الخير فقد ترك فيهم قوة الترجيح بين البدائل ، فلهم أن يختاروا هذا ، ولهم أن يختاروا هذا ، فلما هداهم الله ودلَّهم استحبوا العمَى على الهدى . والله يقول لرسوله فى نصين آخرين فى القرآن الكريم :

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾

(من الآية ٥٦ سورة القصص)

فنفى عنه أنه يهدى . وأثبت له الحق الهداية فى آية أخرى يقول فيها :

﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾

(من الآية ٥٢ سورة الشورى)

فكيف يثبت الله فعلاً واحداً لفاعل واحد ثم ينفى الفعل ذاته عن الفاعل ذاته ؟ نقول لهم : رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه أن يدل الناس على منهج الله . ولكن ليس عليه أن يحملهم على منهج الله ؛ لأن ذلك ليس من عمله هو ، فإذا قال الله : « إنك لا تهدى » أى لا تحمل بالقسر والقهر من أحببت ، وإنما أنت « تهدى » أى تدل فقط ، وعليك البلاغ وعلينا الحساب .

إذن فقول الحق : « ليس عليك هداهم ولكن الله يهدى من يشاء » ليس فيه حجة على القسرية الإيمانية التى يريد بعض المتحللين أن يدخلوا منها إلى منفذ التحلل النفسى عن منهج الله ونقول لهؤلاء : فيه فرق بين هداية الدلالة وهداية المعونة ، فالله يهدى المؤمن ويهدى الكافر أى يدلهم ، ولكن من آمن به يهديه هداية المعونة ، ويهديه هداية التوفيق ، ويهديه هداية تخفيف أعمال الطاعة عليه .

« ليس عليك هداهم ولكن الله يهدى من يشاء ، وما تنفقوا من خير فلأنفسكم » تلك قضية تعالج الشُح منطقياً ، وكل معطٍ من الخلق عطاؤه عائد إليه هو ، ولا يوجد معطٍ عطاؤه لا يعود عليه إلا الله ، هو وحده الذى لا يعود عطاؤه لخلقه عليه ، لأنه ـ سبحانه ـ أزلا وقديما وقبل أن يخلق الخلق له كل صفات الكمال ، فعطاء الإنسان يعود إلى الإنسان وعطاء ربنا يعود إلينا .

ولذلك قال بعض السلف الذين لهم لمحة إيمانية : مَا فعلت لأحد خيراً قط ؟ فقيل له : أتقول ذلك وقد فعلت لفلان كذا ولفلان كذا ولفلان كذا ؟ فقال : إنما فعلته لنفسى . فكأنه نظر حينما فعل للغير أنه فعل لنفسه . ولقد قلنا سابقا : إن العارف بالله « الحسن البصرى » كان إذا دخل عليه من يسأله هشّ فى وجهه وبشّ ، وقال له : مرحباً بمن جاء يحمل زادى إلى الآخرة بغير أجرة .

إذن فقد نظر إلى أنه يعطيه وإن كان يأخذ منه . فالحق سبحانه وتعالى يعالج فى هذه القضية « وما تنفقوا من خير فلأنفسكم » أى إياكم أن تظنوا أننى أطلب منكم أن تعطوا غيركم ، لقد طلبت منكم أن تنفقوا لأزيدكم أنا فى النفقة والعطاء ، ثم يقول : « وما تنفقوا من خير يوفّ إليكم » ومعنى التوفية : الأداء الكامل . ولا تظنوا أنكم تنفقون على من ينكر معروفكم ؛ لأن ما أنفقتم من خير فالله به عليم . إذن فاجعل نفقتك عند من يجحد ، ولا تجعل نفقتك عند من يحمد ، لأنك بذلك قد أخذت جزاءك ممن يحمدك وليس لدى الله جزاء لك .

كنت أقول دائما للذين يشكون من الناس نكران الجميل ونسيان المعروف : أنتم المستحقون لذلك ؛ لأنكم جعلتموهم فى بالكم ساعة أنفقتم عليهم ، ولو جعلتم الله فى بالكم لما حدث ذلك منهم أبداً . « وما تنفقوا من خير فلأنفسكم ، وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله » أهذه الآية تزكية لعمل المؤمنين ، أم خبر أريد به الأمر ؟

إنها الاثنان معا ، فهى تعنى أنفقوا ابتغاء وجه الله . « وما تنفقوا من خير يوفّ إليكم وأنتم لا تظلمون » أنتم لا تظلمون من الخلق ، ولا تظلمون من الخالق ، أما من الخلق فقد استبرأتم دينكم وعرضكم حين أديتم بعض حقوق الله فى أموالكم ، فلن يعتدى أحد عليكم ليقول ما يقول ، وأما عند الله فهو سبحانه يوفى الخير أضعاف أضعاف ما أنفقتم فيه .

وبعد ذلك يتكلم الحق سبحانه وتعالى عن مصرف من مصارف النفقة كان فى صدر الإسلام :

﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ
لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ
ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ

لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾

ساعة أن نسمع « جاراً ومجروراً » قد استهلت به آية كريمة فنعلم أن هناك متعلقاً . ما هو الذى للفقراء ؟ هو هنا النفقة، أى أن النفقة للفقراء الذين أحصروا فى سبيل الله . وإذا سألنا : ما معنى « أحصروا » فإننا نجد أن هناك « حَصر » وهناك « أحصر » وكلاهما فيه المنع ، إلا أن المنع مرة يأتى بما لا تقدر أنت على دفعه ، ومرة يأتى بما تقدر على دفعه .

فالذى مرض مثلاً وحُصِرَ عن الضرب فى الأرض ، أكانت له قدرة أن يفعل ذلك ؟ لا ، ولكن الذى أراد أن يضرب فى الأرض فمنعه إنسان مثله فإنه يكون ممنوعاً ، إذن فيئول الأمر فى الأمرين إلى المنع ، فقد يكون المنع من النفس ذاتها أو منعٌ من وجود فعل الغير ، فهم أحصروا فى سبيل الله . حُصِرُوا لأن الكافرين يضيقون عليهم منافذ الحياة ، أو حَصَرُوا أنفسهم على الجهاد ، ولم يحبوا أن يشتغلوا بغيره ؛ لأن الإسلام كان لا يزال فى حاجة إلى قوم يجاهدون . وهؤلاء هم أهل الصُّفة « للفقراء الذين أحصروا فى سبيل الله لا يستطيعون ضربا فى الأرض » وعدم استطاعتهم ناشىء من أمر خارج عن إرادتهم أو من أمر كان فى نيتهم وهو أن يرابطوا فى سبيل الله ، هذا من الجائز وذاك من الجائز .

وكان الأنصار يأتون بالتمر ويتركونه فى سبائطه ، ويعلقونه فى حبال مشدودة إلى صوارى المسجد ، وكلما جاع واحد من أهل الصُّفَّة أخذ عصاه وضرب سباطة التمر ، فينزل بعض التمر فيأكل ، وكان البعض يأتى إلى الردىء من التمر والشيص ويضعه ، وهذا هو ما قال الله فيه : « ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه » .

وإذا نظرنا إلى قول الحق : « لا يستطيعون ضرباً فى الأرض » و« الضرب » هو

فعل مِن جارحة بشدة على متأثر بهذا الضرب ، وما هو الضرب فى الأرض ؟ إن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يبين لنا أن الكفاح فى الحياة يجب أن يكون فى منتهى القوة ، وإنك حين تذهب فى الأرض فعليك أن تضربها حرثاً ، وتضربها بذراً ، لا تأخذ الأمر بهوادة ولين ولذلك يقول الحق :

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾ ﴾

(سورة الملك)

إن الأرض مسخرة من الحق سبحانه للإنسان ، يسعى فيها ، ويضرب فيها ويأكل من رزق الله الناتج منها .

وحين يقول الله سبحانه فى وصف الذين أحصروا فى سبيل الله فلا يستطيعون الضرب فى الأرض « يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف » أى يظنهم الجاهل بأحوالهم أنهم أغنياء ، وسبب هذا الظن هو تركهم للمسألة ، وإذا كان التعفف هو ترك المسألة فالله يقول بعدها : « تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافا » والسمة هى العلامة المميزة التى تدل على حال صاحبها ، فكأنك ستجد فيهم خشوعاً وانكساراً ورثاثة هيئة وإن لم يسألوا أو يطلبوا ، ولكنك تعرفهم من حالتهم التى تستحق الإنفاق عليهم ، وإذا كان التعفف هو ترك المسألة فالله يقول بعدها : « لا يسألون الناس إلحافا » فكأنه أباح مجرد السؤال ولكنه نهى عن الإلحاح والإلحاف فيه ، ولو أنهم سألوا مجرد سؤال بلا إلحاف ولا إلحاح أَمَا كان هذا دليلاً على أنهم ليسوا أغنياء ؟ نعم ، لكنه قال : « يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف » إذن فليس هناك سؤال ، لا سؤال على إطلاقه ، ومن باب أولى لا إلحاف فى السؤال ؛ بدليل أن الحق يقول : « تعرفهم بسيماهم » ، ولو أنهم سألوا لكنا قد عرفناهم بسؤالهم ، إذن فالآية تدلنا على أن المنفى هو مطلق السؤال ، وأما كلمة « الإلحاف » فجاءت لمعنى من المعانى التى يقصد إليها أسلوب القرآن الإعجازى ، ما هو ؟

إن « السيما » ـ كما قلنا ـ هى العلامة المميزة التى تدل على حال صاحبها ، فكأنك ستجد خشوعاً وانكساراً ورثاثة هيئة وإن لم يسألوا،أى أنت تعرفهم من حالتهم

البائسة ، فإذا ما سأل السائل بعد ذلك اعتبر سؤاله إلحاحاً ؛ لأن حاله تدل على الحاجة ، ومادامت حالته تدل على الحاجة فكان يجب أن يجد من يكفيه السؤال،فإذا ما سأل مجرد سؤال فكأنه ألحف فى المسألة وألح عليها .

وأيضا يريد الحق من المؤمن أن تكون له فراسة نافذة فى أخيه بحيث يتبين أحواله بالنظرة إليه ولا يدعه يسأل ، لأنك لو عرفت بـ « السيما » فأنت ذكى ، أنت فطن ، إنما لو لم تعرف بـ « السيما » وتنتظر إلى أن يقول لك ويسألك ، إذن فعندك تقصير فى فطنة النظر ، فهو سبحانه وتعالى يريد من المؤمن أن يكون فطن النظر بحيث يستطيع أن يتفرس فى وجه إخوانه المؤمنين ليرى مَن عليه همُّ الحاجة ومن عنده خواطر العوز ، فإذا ما عرف ذلك يكون عنده فطانة إيمانية .

ولنا العبرة فى تلك الواقعة ، فقد دق أحدهم الباب على أحد العارفين فخرج ثم دخل وخرج ومعه شيء ، فأعطاه الطارق ثم عاد باكياً فقالت له امرأته : ما يبكيك ؟. قال : إن فلاناً طرق بابى . قالت : وقد أعطيته فما الذى أبكاك ؟. قال : لأنى تركته إلى أن يسألنى .

إن العارف بالله بكى ؛ لأنه أحس بمسئولية ما كان يجب عليه أن يعرفه بفراسته ، وأن يتعرف على أخبار إخوانه . ولذلك شرع الله اجتماعات الجمعة حتى يتفقد الإنسان كل أخ من إخوانه ، ما الذى أقعده : أحاجة أم مرض ؟ أحدث أم مصيبة ؟ وحتى لا يحوجه إلى أن يذل ويسأل ، وحين يفعل ذلك يكون له فطنة الإيمان .

« وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم » يجب أن تعلم أنه قبل أن تعطى قد علم الله أنك ستعطى ، فالأمر محسوب عنده بميزان ، ويجيء تصرف خلقه على وفق قدره ، وما قدره قديما يلزم حاليا ، وهو سبحانه قد قدر ؛ لأنه علم أن عبده سيفعل وقد فعل . وكل فعل من الأفعال له زمن يحدث فيه ، وله هيئة يحدث عليها . والزمن ليل أو نهار .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى مبينا حالات الإنفاق والأزمان التى يحدث فيها وذلك فى قوله تعالى :

﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾ ﴾

إن المسألة فى الإنفاق تقتضى أمرين : إما أن تنفق سراً ، وإما أن تنفق علانية . والزمن هو الليل والنهار ، فحصر الله الزمان والحال فى أمرين : الليل والنهار فإياك أن تحجز عطيّةً تريد أن تعطيها وتقول : « بالنهار أفعل أو فى الليل أفعل ؛ لأنه أفضل » وتتعلل بما يعطيك الفسحة فى تأخير العطاء ، إن الحق يريد أن تتعدى النفقة منك إلى الفقير ليلاً أو نهاراً ، ومسألة الليلية والنهارية فى الزمن ، ومسألة السرية والعلنية فى الكيفية لا مدخل لها فى إخلاص النية فى العطاء .

« الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم » أقالت الآية : الذين ينفقون أموالهم بالليل أو النهار ؟ لا ، لقد طلب من كل منا أن يكون إنفاقه ليلاً ونهاراً وقال : « سرا وعلانية » فأنفق أنت ليلاً ، وأنفق أنت نهارا ، وأنفق أنت سراً ، وأنفق أنت علانية ، فلا تحدد الإنفاق لا بليل ولا بنهار ، لا بزمن ؛ ولا بكيفية ولا بحال .

إن الحق سبحانه استوعب زمن الإنفاق ليلاً ونهارا ، واستوعب أيضاً الكيفية التى يكون عليها الإنفاق سراً وعلانية ليشيع الإنفاق فى كل زمن بكل هيئة ، وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى عن هؤلاء : « فلهم أجرهم عند ربهم » وهذا القول يدل على عموم من يتأتى منه الإنفاق ليلاً أو نهاراً ، سراً أو علانية .

وإن كان بعض القوم قد قال : إنها قيلت فى مناسبة خاصة ، وهى أن الإمام عليًا كرم الله وجهه ورضى عنه كانت عنده أربعة دراهم ، فتصدق بواحد نهاراً ، وتصدق بواحد ليلا ، وتصدق بواحد سراً ، وتصدق بواحد علانية ، فنزلت الآية فى هذا

الموقف ، إلا أن قول الله : « فلهم » يدل على عموم الموضوع لا على خصوص السبب ، فكأن الجزاء الذى رتبه سبحانه وتعالى على ذلك شائع على كل من يتأتى منه هذا العمل .

وقول الله:« فلهم أجرهم عند ربهم » هنا نجد أن كلمة « أجر » تعطينا لمحة فى موقف المؤمن من أداءات الإنفاق كلها ؛ لأن الأجر لا يكون إلا عن عمل فيه ثمن لشىء ، وفيه أجر لعمل . فالذى تستأجره لا يقدم لك شيئا إلا مجهودا ، هذا المجهود قد ينشأ عنه مُثْمَنٌ ، أىْ شىء له ثمن ، فقول الله « فلهم أجرهم عند ربهم » يدل على أن المؤمن يجب أن ينظر إلى كل شىء جاء عن عمل فالله يطلب منه أن ينفق منه .

إن الله لا يعطيه ثمن ما أنفق ، وإنما يعطيه الله أجر العمل ، لماذا ؟ لأن المؤمن الذى يضرب فى الأرض يخطط بفكره ، والفكر مخلوق لله ، وينفذ التخطيط الذى خططه بفكره بوساطة طاقاته وأجهزته ؛ وطاقاتُه وأجهزته مخلوقة لله ، ويتفاعل مع المادة التى يعمل فيها ، وكلها مخلوقة لله ، فأى شىء يملكه الإنسان فى هذا كله ؟ لا الفكر الذى يخطط ، ولا الطاقة التى تفعل ، ولا المادة التى تنفعل ؛ فكلها لله . إذن فأنت فقط لك أجر عملك ؛ لأنك تُعمل فكرا مخلوقا لله ، بطاقة مخلوقة لله ، فى مادة مخلوقة لله ، فإن نتج منها شىء أراد الله أن يأخذه منك لأخيك العاجز الفقير فإنه يعطيك أجر عملك لا ثمن عملك . لكن المساوى لك فى الخلق وهو الإنسان إن أخذ منك حصيلة عملك فهو يعطيك ثمن ما أخذ منك ، فهى من المخلوق المساوى « ثمن » ، وهى من الخالق الأعلى أجر ؛ لأنك لا تملك شيئا فى كل ذلك .

وبعد ذلك يقول الحق : « ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » والخوف هو الحذر من شىء يأتى ، فمن الخائف ؟ ومن المُخوفُ ؟ ومن المَخوفُ عليه ؟ «ولا خوف عليهم » ممن ؟

يجوز أن يكون «ولا خوف عليهم » من أنفسهم ؛ فقد يخاف الطالب على نفسه من أن يرسب ، فالنفس واحدة خائفة ومخوف عليها ، إنها خائفة الآن ومخوف عليها بعد الآن . فالتلميذ عندما يخاف أن يرسب ، لا يقال : إن الخائف هو عين المخوف ؛

لأن هذا فى حالة ، وهذا فى حالة .

أو « لا خوف عليهم » من غيرهم ، فمن الجائز أن يكون حول كثير من الأغنياء أناس حمقى حين يرون أيدى هؤلاء مبسوطة بالخير للناس فيغمزونهم ليمسكوا مخافة أن يفتقروا كأن يقولوا لهم : « استعدوا للزمن فوراءكم عيالكم » . لكن أهل الخير لا يستمعون لهؤلاء الحمقى .

إذن فـ« لا خوف عليهم » لا من أنفسهم ، ولا من الحمقى حولهم . ويتابع الحق : « ولا هم يحزنون » أى لا خوف عليهم الآن ، ولا حزن عندهم حين يواجهون بحقائق الخير التى ادخرها الله سبحانه وتعالى لهم بل إنهم سيفرحون .

بعد ذلك يتعرض الحق سبحانه وتعالى إلى قضية من أخطر قضايا العصر ، وهذه القضية كان ولابد أن يتعرض لها القرآن ؛ لأنه يتكلم عن النفقة وعن الإنفاق ، ولاشك أن ذلك يقتضى منفِقا ومنفَقًا عليه ؛ لأنه عاجز ، فهب أن الناس شحّوا ، ولم ينفقوا ، فماذا يكون موقف العاجز الذى لا يجد ؟ إن موقفه لا يتعدى أمرين : إما أن يذهب فيقترض ، وإن لم يقبل أحد أن يقرضه فهو يأخذ بالربا والزيادة وإلا فكيف يعيش ؟

إذن فالآيات التى نحن بصددها تعرّضت للهيكل الاقتصادى فى أمة إسلامية جوادة ، أو أمة إسلامية بخيلة شحيحة ، لماذا ؟

لأن الذى خلق الخلق قد صنع حسابا دقيقا لذلك الخلق ، بحيث لو أحصيت ما يجب على الواجدين من زكاة ، وأحصيت ما يحتاج إليه من لا يقدر لأن به عجزا طبيعيا عن العمل ، لوجدت العاجزين يحتاجون لمثل ما يفيض عن القادرين بلا زيادة أو نقصان ، وإلا كان هناك خطأ والعياذ بالله فى حساب الخالق ، ولا يمكن أن يتأتى ذلك أبداً .

وحين ننظر إلى المجتمعات فى تكوينها نجد أن إنساناً غنيا فى مكان قد نبا به مكانه ، واختار أن يقيم فى مكان آخر ، فيعجب الناس لماذا ترك ذلك المكان وهو فى

يسر ورخاء وغنى ؟ ربما لو كان فقيراً لقلنا طلبا للسعة ، فلماذا خرج من هذا المكان وهو واجد ، وهو على هذا الحال من اليسر ؟ إنهم لم يفطنوا إلى أن الله الذى خلق الخلق يُدير كونه بتسخير وتوجيه الخواطر التى تخطر فى أذهان الناس ، فتجد مكانه قد نبا به ، وامتلأت نفسه بالقلق ، واختار أن يذهب إلى مكان آخر .

ولو أن عندنا أجهزة إحصائية دقيقة وحسبنا المحتاجين فى البيئة التى انتقل منها لوجدنا قدرا من المال زائدا على حاجة الذين يعيشون فى هذه البيئة ؛ فوجهه الله إلى مكان آخر يحتاج إلى مثل هذا الكم منه . وهكذا تجد التبادل منظما . فإن رأيت إنسانا محتاجا أو إنسانا يريد أن يرابى فاعلم أن هناك تقصيراً فى حق الله المعلوم ، ولا أقول فى الحق غير المعلوم . أى أن الغنى بخل بما يجب عليه إنفاقه للمحتاج .

والقرآن حين يواجه هذه المسألة فهو يواجهها مواجهة تُبشِّع العمل الربوى تبشيعا يجعل النفس الإنسانية المستقيمة التكوين تنفر منه فيقول سبحانه وتعالى :

﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ ﴾

وانظر إلى كلمة « يأكلون » ، هل كل حاجات الحياة أكل ؟ لا ، فحاجات الحياة كثيرة ، الأكل بعضها ، ولكن الأكل أهم شىء فيها ؛ لأنه وسيلة استبقاء النفس . و« الربا » هو الأمر الزائد ، ومادام هو الأمر الزائد يعنى هو لا يحتاج أن يأكل ، فهذا

تقريع له .

إن الحق يريد أن يبشع هذا الأمر فيقول : لهم سمة . هذه السمة قال العلماء أهى فى الآخرة يتميزون بها فى المحشر ، كما يقول الحق :

﴿ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ ﴾

(من الآية ٤١ سورة الرحمن)

فهؤلاء غير المصلين لهم علامة مميزة ، وهؤلاء غير المزكين لهم علامة أخرى مميزة بحيث إذا رأيتهم عرفتهم بسيماهم ، وأنهم من أى صنف من أصناف العصاة ، فكأنهم حين يقومون يوم القيامة يقومون مصروعين كالذى يتخبطه ويضربه الشيطان من المس فيصرعه ، أو أن ذلك أمر حاصل لهم فى الدنيا ، ولنبحث هذا الأمر :

« الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس » . نريد أن نعرف كلمة « التخبط » وكلمة « الشيطان » وكلمة « المس » . « التخبط » هو الضرب على غير استواء وهدى ، أنت تقول : فلان يتخبط ، أى أن حركته غير رتيبة ، غير منطقية ، حركة ليس لها ضابط ، ذلك هو التخبط . و« الشيطان » جنس من خلق الله ؛ لأن الله قال لنا : إنه خلق الإنس والجن ، والجن منهم شياطين ، وجن مطلق ، والشيطان هو عاصى الجن . ونحن لم نر الشيطان ، ولكننا علمنا به بوساطة إعلام الحق الذى آمنا به فقال : أنا لى خلق مستتر ، ولذلك سميته الجن ، من الاستتار ومنه المجنون أى المستور عقله ، والعاصى من هذا الخلق اسمه « شيطان » .

إذن فإيماننا به لا عن حس ، ولكن عن إيمان بغيب أخبرنا به من آمنا به . وحين نجد شيئاً اسمه الإيمان يجب أن نعرف أنه متعلق بشىء غير مُحس ؛ لأن المُحس لا يقال لك : آمن به ؛ لأنه مشهود لك ، فأنا لا أقول : أنا أؤمن بأن المصباح منير الآن ، أنا لا أؤمن بأننا مجتمعون فى المسجد الآن ، لا أقول ذلك لأن هذا واقع مشهود ومُحسّ . إذن فالأمر الإيمانى يتعلق بالغيب ، مثل الإيمان بوجود الملائكة . فإذا ما كنا قد آمنا بالغيب نجد الحق سبحانه وتعالى يعطى لنا صورة للشيطان ،

ولكنه حين يعطينا صورة للشيطان أو لرأس الشيطان المميزة له ، كما أن رءوسنا نحن هى التى تميزنا يتكلم سبحانه عن شجرة الزقوم فيقول جل شأنه :

﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ ﴾

(سورة الصافات)

وشجرة الزقوم فى الآخرة فى النار ، إذن فنحن لا نراها ، ورءوس الشياطين لا نراها ، فكيف يشبه الله ما لم نره بما لم نره ، يشبه شيئا مجهولاً بشىء مجهول ؟ نقول : نعم ، وذلك أمر مقصود للإعجاز القرآنى ؛ لأن للشيطان صورة متخيلة بشعة ، بدليل أنك لو طلبت من رسامى العالم فى فن الكاريكاتير ، وقلت لهم : ارسموا لنا صورة الشيطان ، ولم تعطهم ملامح صورة محددة ، فكل منهم يرسم وفق تخيله كياناً غاية فى القبح : فهذا يصوره بالقبح من ناحية ، وذاك يصوره بالقبح من ناحية أخرى بحيث لو جمعت الرسوم لما اتحد رسم مع رسم .

إذن فكل واحد يستبشع صورة يرسمها . وساعة نعطى الجائزة لمن رسم صورة الشيطان أنعطى الجائزة لأجملهم صورة أم لأقبحهم صورة ؟ إننا نعطى الجائزة لصاحب أشد الصور قبحا . إذن فصورة الشيطان المتمثلة صورة بشعة قبيحة ، ولو جاء على صورة واحدة من القبح لاختلف الناس حول هذه الصورة فلعل هذا يكون قبحا عندك ولا يكون قبحا عند آخر ، ولكن حين يُطلق الله أخيلة الناس فى تصور القبح ، يكون القبح ماثلا وواضحا فى عمل كل إنسان فتكون الصورة أكمل وأوفى ، فالأكمل والأوفى أن يكون القبح شائعا فيها جميعا .

ويقول الحق : « الذى يتخبطه الشيطان من المس » الشيطان قلنا : إنه العاصى من الجن ، وقلنا : إن ربنا سبحانه وتعالى حكى لنا كثيرا أنّ الشياطين لهم التصاق واتصال بكثير من الإنس :

﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ ﴾

(سورة الجن)

و« لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس » فكأن الشيطان قد مس التكوين الإنسانى مساً أفسد استقامة ملكاته ، فالتكوين الإنسانى له استقامة ملكات مع بعضها البعض ؛ فكل حركة لها استقامة ، فإذا ما مسّه الشيطان فسد تآزر الملكات ، فملكاته النفسية تكون غير مستقيمة وغير منسجمة مع بعضها البعض ، فتكون حركته غير رتيبة وغير منطقية .

وماالمناسبة بين هذه الصورة وبين عملية الربا ؟ . إن أردنا فى الآخرة ميزة ، فساعة ترى واحداً مصروعاً فاعرف أنه من أصحاب الربا ، هذا فى الآخرة ، وفى الدنيا تجد أيضاً أن له حركة غير منطقية ، هستيرية ، كيف ؟

انظر إلى العالم الآن ، لقد خلق الله العالم على هيئة من التكامل . فهذا إنسان يتمتع بإمكانات ومواهب ، وذاك يتمتع بمواهب وإمكانات أخرى ، حتى يحتاج صاحب هذه الإمكانات إلى صاحب تلك الإمكانات فيكتمل الكون ، ولو أن كل إنسان كان وحدة متكررة لاستغنى الكل عن الكل . ولو أن الأفراد متساوون فى المواهب لما احتاج الناس لبعضهم البعض . لكن المواهب تختلف ؛ لأنك إن أَجَدْتَ فنًا من فنون الحياة فقد أجاد سواك فنونا أخرى أنت محتاج إليها ، فإن احتاجوا إليك فيما أَجَدْتَ ، فقد احتجت إليهم فيما أجادوا ، وهكذا يتكامل العالم . وكذلك خلق الله الكون : مناطق حارة ، ومناطق باردة ، ومناطق بها معادن ، ومناطق بها زراعة ؛ حتى يضطر العالم إلى أن يتكامل ، ويضطر العالم إلى أن يتعايش مع بعضه ، ولذلك يقول الحق فى سورة « الرحمن » :

﴿ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ ﴾

(سورة الرحمن)

« وضعها » لمن ؟ . « والأرض » ، أى أرض ، وأى أنام ؟ . الأرض كل الأرض ، والأنام كل الأنام ، فإن تحددت بحواجز فسدت . إن منع الإنسان من حرية الانتقال من مكان إلى مكان يفسد حركة الإنسان فى الكون ، فقد يرغب إنسان فى أن ينتقل إلى أرض بكر ليعمرها ، فيرفض أهل تلك الأرض ، فلو أن الأرض كل الأرض كانت للأنام كل الأنام بحيث إن ضاق العمل فى مكان ذهبت إلى مكان

آخر ، بدون قيود عليك ، تلك القيود التى نشأت من السلطات الزمنية التى تحتجز الأماكن لأنفسها ، فهذا ما يفسد الكون . فهناك بيئات تشتكى قلة القوت ، وبيئات تشتكى قلة الأيدى العاملة لأرض خراب وهى تصلح أن تزرع ، فلو أن الأرض كل الأرض للأنام كل الأنام لما حدث عجز .

ونلاحظ ما يُقال : ازدحام السكان أو الانفجار السكانى ، بينما توجد أماكن تتطلب خلقاً ! ويوجد خلق تتطلب أماكن ، فلماذا هذا الاختلال ؟ هذا الاختلال ناشىء من أن السلوك البشرى غير منطقى فى هذا الكون . والكون الذى نعيش فيه ، فيه ارتقاءات عقلية شتى ، وطموحات ابتكارية صعدت إلى الكواكب ، وتغزو الفضاء ، ووُجِدَت فى كل بيت آلات الترفيه ، أما كان المنطق يقتضى أن يعيش العالم سعيداً مستريحاً ؟

كان المنطق يقتضى أن يعيش العالم مستريحاً هادئاً ؛ لأنه فى كل يوم يبتكر أشياءَ تعطى له أكبر الثمرة بأقل مجهود فى أقل زمن ، فماذا نريد بعد هذا ؟ ولكن هل العالم الذى نعيش فيه منطقى مع هذا الواقع ؟ لا ، بل نحن نجد أغنى بلاد العالم وأحسنها وفرة اقتصادية هى التى يعانى الناس فيها القلق ، وهى التى تمتلىء بالاضطراب ، وهى التى ينتشر فيها الشذوذ ، وهى التى تشكو من ارتفاع نسبة الجنون بين سكانها .

إذن فالعالم ليس منطقيا . وهذا التخبط يؤكد ما يقوله الحق : « إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المسّ » إنها حركة هستيرية فى الكون تدل على أنه كون غير مستريح ، كون غير منسجم مع طموحاته وابتكاراته .

أما كان على هذا الكون بعقلائه أن يبحثوا عن السبب فى هذا ، وأن يعرفوا لماذا نشقى كل هذا الشقاء وعندنا هذه الطموحات الابتكارية ؟ كان يجب أن يبحثوا ، فالمصيبة عامة ، لا تعم الدول المتخلفة أو النامية فقط ، بل هى أيضاً فى الدول المتقدمة ، كان يجب أن يعقد المفكرون المؤتمرات ليبحثوا هذه المسألة ، فإذا ما كانت المسألة عامة تضم كل البلاد متقدمها ومتأخرها وجب أن نبحث عن سبب مشترك ، ولا نبحث عن سبب قد يوجد عند قوم ولا يوجد عند قوم آخرين ؛ لأننا لو بحثنا لقلنا : يوجد فى هذه البيئة . وكذلك هو موجود فى كل البيئات ، فلابد أن يوجد

القدر المشترك .

فالأرزاق التى توجد فى الكون تنقسم إلى قسمين : رزق أنتفع به مباشرة ، ورزق هو سبب لما أنتفع به مباشرة . أنا آكل رغيف الخبز ، هذا اسمه رزق مباشر ، وأشرب كوب الماء ، وهو رزق مباشر ، واكتسى بالثوب وذلك أيضاً رزق مباشر ، وأسكن فى البيت وهذا رابعاً رزق مباشر ، وأنير المصباح رزق مباشر . ولكن المال يأتى بالرزق المباشر ، ولا يغنى عن الرزق المباشر . فإذا كان عندى جبل من ذهب وأنا جوعان ، ماذا أفعل به ؟ . إذن فرغيف العيش أحسن منه ، هذا رزق مباشر ، فالنقود أو الذهب أشترى بها هذا وهذا ، لكن لا يغنينى عن هذا وهذا .

وقد جاء وقت أصبح الناس يرون فيه أن المال هو كل شىء حتى صار هدفا وتعلق الناس به . . وفى الحق أنّ المال ليس غاية ، ولا ينفع أن يكون غاية بل هو وسيلة . فإن فقد وسيلته وأصبح غاية فلابد أن يفسد الكون ؛ فعلة فساد الكون كله فى القدر المشترك الذى هو المال ، حيث أصبح المال غاية ، ولم يعد وسيلة .

والحق سبحانه وتعالى يريد أن يطهر حياة الاقتصاد للناس طهارة تضمن حِلّ ما يطعمون ، وما يشربون ، وما يكتسون ، حتى تصدر أعمالهم عن خليات إيمانية طاهرة مصفاة ؛ ذلك أن الشىء الذى يصدر عن خلية إيمانية طاهرة مصفاة لا يمكن أن ينشأ عنه إلا الخير .

ومن العجيب أن نجد القوم الذين صدروا لنا النظام الربوى يحاولون الآن جاهدين أن يتخلصوا منه ، لا لأنهم ينظرون إلى هذا التخلص على أنه طهارة دينية ، ولكن لأنهم يرون أن كل شرور الحياة ناشئة عن هذا الربا . وليست هذه الصيحة حديثة عهد بنا ، فقديما أى من عام ألف وتسعمائة وخمسين قام رجل الاقتصاد العالمى « شاخت » فى ألمانيا وقد رأى اختلال النظام فيها وفى العالم ، فوضع تقريره بأن ألفساد كله ناشىء من النظام الربوى ، وأن هذاالنظام يضمن للغنى أن يزيد غنى ، ومادام هذا النظام قد ضمن للغنى أن يزيد غنى ، فمن أين يزداد غنى ؟ لاشك أنه يزداد غنى من الفقير . إذن فستئول المسألة إلى أن المال سيصبح فى يد أقلية فى الكون تتحكم فى مصائره كلها ولا سيما المصائر الخلقية . لماذا ؟ .

لأن الذين يحبون أن يستثمروا المال لا ينظرون إلا إلى النفعية المالية ، فهم يديرون المشروعات التى تحقق لهم تلك النفعية . وهناك رجل اقتصاد آخر هو « كينز » الذى يتزعم فكرة « الاقتصاد الحر » فى العالم يقول قولته المشهورة : إن المال لا يؤدى وظيفته فى الحياة إلا إذا انخفضت الفائدة إلى درجة الصفر . ومعنى ذلك أنه لا ربا .

وإذا ما نظرنا إلى عملية عقد الربا فى ذاتها وجدناها عقداً باطلاً ؛ لأن كل عقد من العقود إنما يوجد لحماية الطرفين المتعاقدين ، وعقد الربا لا يحمى إلا الطرف الدائن فقط ، وهناك أمر خلقى آخر وهو أن الإنسان لا يعطى ربا إلا إذا كان عنده فائض زائد على حاجته .

ولا يأخذ إنسان من المرابى إلا إذا كان محتاجاً . فانظروا إلى النكسة الخلقية فى الكون . إن المعدم الفقير الذى لا يجد ما يسد جوعه وحاجته يضطر إلى الاستدانة ، وهذا الفقير المعدم هو الذى يتكفل بأن يعطى الأصل والزائد إلى الغنى غير المحتاج .

إنها نكسة خلقية توجد فى المجتمع ضِغناً ، وتوجد فى المجتمع حقداً ، وتقضى على بقية المعروف وقيمته بين الناس ، وتنعدم المودة فى المجتمع . فإذا ما رأى إنسانٌ فقيرٌ إنساناً غنياً عنده المال ، ويشترط الغنى على الفقير المعدم أن يعطيه ما يأخذه وأن يزيد عليه ، فعلى أية حال ستكون مشاعر وأحاسيس الفقير ؟ كان يكفى الغنى أن يعطى الفقير ، وأن يسترد الغنى بعد ذلك ما أخذه الفقير ، ولكن الغنى المرابى يطلب من الفقير أن يسدد ما أخذه ويزيد عليه . وكانوا يتعللون ويقولون : إن النص القرآنى إنما يتكلم عن الربا فى الأضعاف المضاعفة ، فإذا ما منعنا القيد فى الأضعاف المضاعفة لا يكون حراماً !!

أى أنهم يريدون تبرير إعطاء الفقير مالاً ، وأن يرده أضعافاً فقط لا أضعافاً مضاعفة ؛ حتى لا يصير ذلك الاسترداد بالزيادة حراماً . ولهؤلاء نقول : إن الذين يقولون ذلك يحاولون أن يتلصصوا على النص القرآنى ، وكأن الله قد ترك النص ليتلصصوا عليه ويسرقوا منه ما شاءوا دون أن يضع فى النص ما يحول دون هذا التلصص ، ولو فطنوا إلى أن الله يقول فى آخر الأمر :

﴿ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾

(من الآية ٢٧٩ سورة البقرة)

هذا القول الحاسم يوضح أن الله لم يستثن ضعفاً ولا أضعافاً . إذن فقوله الحق :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

إن هذا القول الحكيم لم يجىء إلا ليبين الواقع الذى كانوا يعيشونه ، ولم يستثن الله ضعفاً أو أضعافاً ؛ لأن الحق جعل التوبة تبدأ من أن يأخذ الإنسان رأس ماله فقط ، فلا يسمح الله لأحد أن يأخذ نصف الضعف أو الضعف أو الضعفين ، ولا يسمح بالأضعاف ولا بالمضاعفات .

وكانوا يتعللون أن اتفاق الطرفين على أى أمر يعتبر تراضياً ويعتبر عقداً . قد يكون ذلك صحيحاً إن لم يكن هناك مشرع أعلى من كل الخلق يسيطر على هذا التراضى . فهل كلما تراضى الطرفان على شىء يصير حلالاً ؟ .

لو كان الأمر كذلك لكان الزنا حلالاً : لأنهما طرفان قد تراضيا . وكل ذلك لا يتأتى ـ أى رضاء الطرفين ـ إلا فى الأمور التى ليس فيها تشريع صدر عن المشرع الأعلى ، وهو الله الحىّ القيوم .

إن الله قد فرض أمراً يقضى على التراضى بينى وبينك ؛ لأنه هو المسيطر ، وهو الذى حكم فى الأمر ، فلا تراضى بيننا فيما يخالف ما شرع الله أو حكم فيه .
وإذا نظرنا نظرة أخرى فإننا نجد أن التراضى الذى يدعونه مردود عليه . إنه « تراضٍ » باطل بالفحص الدقيق والبحث المنطقى . لماذا ؟ لأننا نقول إن التراضى إنما ينشأ بين اثنين لا يتعدى أمر ما تراضيا عليه إلى غيرهما ، أما إذا كان الأمر قد تعدى من تراضيا عليه إلى غيرهما فالتراضى باطل .

فهب أن واحداً لا يملك شيئا ، وواحداً آخر يملك ألفا ، والذى يملك ألفا هى ملكه ، وأدار بها عملا من الأعمال ، وحين يدير صاحب الألف عملا فالمطلوب له أجر عمله ليعيش من هذا الأجر . أما الذى لا يملك شيئا إذا ما أراد أن يعمل مثلما عمل صاحب الألف ، فذهب إلى إنسان وأخذ منه ألفا ليعمل عملا كعمل صاحب الألف ، فيشترط من يعطيه هذه الألف من الأموال أن يزيده مائة حين السداد ، فيكون المطلوب من الذى اقترض هذه الألف أجر عمله كصاحب الألف الأول ومطلوب منه أيضا أن يزيد على أجره تلك المائة المطلوبة لمن أقرضه بالربا .

فمن أين يأتى من اقترض ألفا بهذه المائة الزائدة ؟ إن سلعته لو كانت تساوى سلعة الآخر فإنه يخسر . وإن كانت سلعته أقل من سلعة الآخر فإنها تكسد وتبور .

إذن فلابد له من الاحتيال النكد ، وهذا الاحتيال هو أن يخلع على سلعته وصفا شكليا يساوى به سلعة الآخر ، ويعمد إلى إنقاص الجواهر الفعالة فى صنعة سلعته ، فيسحب منها ما يوازى المائة المطلوب سدادها للمرابى . فمن الذى سيدفع ذلك ؟ إنه المستهلك .

إذن فالمستهلك قد أضير بهذا التراضى ؛ فهو الذى سيغرم ؛ لأنه هو الذى يدفع أخيراً قيمة قرض الرجل المتاجر بالسلعة وقيمة النسبة الربوية التى حددها المرابى . إذن فالعقد بين المقترض والمرابى ـ حتى فى عرفهم ـ عقد باطل رغم أن الاثنين ـ المقترض والمرابى ـ قد اعتبرا هذا العقد تراضيا .

إذن فالحق سبحانه وتعالى أراد أن يشيع فى الناس الرحمة والمودة . وأن يشيع فى الناس التعاطف . إنه الحق ـ سبحانه ـ صاحب كل النعمة أراد أن يشيع فى الناس أن يعرف كل صاحب نعمة فى الدنيا أنه يجب عليه أن تكون نعمته متعدية إلى غيره ، فإن رآها المحروم علم أنه مستفيد منها ، فإذا كان مستفيداً منها فإنه لن ينظر إليها بحقد ، ولا أن ينظر إليها بحسد ، ولا يتمنى أن تزول لأن أمرها عائد إليه .

ولكن إذا كان السائد هو أن يريد صاحب النعمة فى الدنيا أن يأخذ بالاستحواذ على كل عائد نعمته ، ولا يراعى حق الله فى مهمة النعمة ، ولا تتعدى هذه النعمة

إلى غيره ، فالمحروم عندما يرى ذلك يتمنى أن تزول النعمة عن صاحبها وينظر إليها بحسد . ويشيع الحقد ومعه الضغينة ، ويجد الفساد فرصة كاملة للشيوع فى المجتمع كله .

إن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يسيطر على الاقتصاد عناصر ثلاثة :
العنصر الأول : الرفد والعطاء الخالص ، فيجد الفقير المعدم غنيا يعطيه ، لا بقانون الحق المعلوم المفروض فى الزكاة ، ولكن بقانون الحق غير المعلوم فى الصدقة ، هذا هو الرفد .
العنصر الثانى : يكون بحق الفرض وهو الزكاة .
العنصر الثالث : هو بحق القرض وهو المداينة .

إذن فأمور ثلاثة هى التى تسيطر على الاقتصاد الإسلامى : إما تطوع بصدقة ، وإما أداءٌ لمفروض من زكاة ، وإما مداينة بالقرض الحسن ، وذلك هو ما يمكن أن ينشأ عليه النظام الاقتصادى فى الإسلام . ولننظر إلى قول الحق سبحانه وتعالى حين عرض هذه المسألة وبشّع هيئة الذين يأكلون الربا بأنهم لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه ويصرعه الشيطان من المس .

لماذا ؟ لأن الحق قال فيهم : « ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا » فهل الكلام فى البيع ، أو الكلام فى الربا ؟ إن الكلام فى الربا . وكان المنطق يقتضى أن يقول : « الربا كالبيع » ، فما الذى جعلهم يعكسون الأمر ؟

إن النص القرآنى هنا يوحى إلى التخبط حتى فى القضية التى يريدون أن يحتجوا بها . كأنهم قالوا : مادمت تريد أن تحرم الربا ، فالبيع مثل الربا ، وعليك تحريم البيع أيضا .

وكان القياس أن يقولوا : « إنما الربا مثل البيع » ، لكن الحق سبحانه أراد أن يوضح لنا تخبطهم فجاء على لسانهم : إنما البيع مثل الربا ، فإن كنتم قد حرمتم الربا فحرموا البيع ، وإن كنتم قد حللتم البيع فحللوا الربا . إنهم يريدون قياسا إما بالطرد ، وإما بالعكس .

فقال الله القول الفصل الحاسم :

﴿ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ ﴾

(من الآية ٢٧٥ سورة البقرة)

وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال : « لَعَنَ رسول الله صلى الله عليه وسلم آكل الربا وموكله »[١] .

إنها موعظة من الله جاءت ، الموعظة إن كانت من غير مستفيد منها ، فالمنطق أن تُقبل ـ بضم التاء ـ أما الموعظة التى يُشَك فيها ، فهى الموعظة التى تعود على الواعظ بشىء ما . فإذا كانت الموعظة قد جاءت ممن لا يستفيد بهذه الموعظة ، فهذه حيثية قبولها « فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى » ، ولنر كلمة « ربه » حينما تأتى هنا فلنفهم منها أن المقصود بها الحق سبحانه الذى تولى تربيتكم، ومتولى التربية خلقا بإيجاد ما يستبقى الحياة ، وإيجاد ما يستبقى النوع ، ومحافظة على كل شىء بتسخير كل شىء لك أيها الإنسان ، فيجب أن تكون أيها الإنسان مهذبا أمام ربك فلا توقع نفسك فى اتهام الرب الخالق فى شبهة الاستفادة من تلك الموعظة ـ معاذ الله ـ .

لماذا ؟ لأن الخالق رب ، ومادام الخالق ربا فهو المتولى تربيتكم ، فإياك أيها الإنسان أن تتأبَّى على عظة المُربِّى . « فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف » ومعنى ذلك أن الأمر لن يكون بأثر رجعى فلا يؤاخذ بما مضى منه ؛ لأنه أخذ قبل نزول التحريم ؛ تلك هى الرحمة ، لماذا ؟

لأنه من الجائز أن يكون المرابى قد رتب حياته ترتيبا على ما كان يناله من ربا قبل التحريم ، فإذا كان الأمر كذلك فإن الحق سبحانه وتعالى يعفو عما قد سلف . وعلى المرابى أن يبدأ حياته فى الوعاء الاقتصادى الجديد .

تلك هى عظمة التشريع الربانى « فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله » أى أن له

---

(١) رواه مسلم ، وزاد الترمذى فى روايته وغيره (وشاهديه وكاتبه) .

ما سبق وما مضى قبل تحريم الربا . وتفيد كلمة « وأمره إلى الله » أن الله سبحانه وتعالى حينما يعفو عما سلف فله طلاقة الحرية فى أن يقنن ما شاء ، فيجب أن تتعلق دائما باستدامة الفضل من الله . « وأمره إلى الله » إن مثل هذا الإنسان ربما قال: سأنهار اقتصاديا ومركزى سيتزعزع ، وسأصبح كذا وكذا . لا . اجعل سندك فى الله ، ففى الله عوض عن كل فائت ، هو سبحانه لا يريد أن يزلزل مراكز الناس ، ولكن يريد أن يقول لهم : إننى إن سلبتكم نعمتى فاجعلوا أنفسكم فى حضانة المنعم بالنعمة .

ومادمت قد جعلت نفسك فى حضانة المنعم بالنعمة ، إذن فالنعمة لا شىء ؛ لأن المنعم عوض عن هذه النعمة ، والربا من السبع الموبقات التى أمر الرسول صلى الله عليه وسلم باجتنابها حيث قال : « اجتنبوا السبع الموبقات قالوا يا رسول الله وما هن ؟ قال : الشرك بالله والسحر ، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولى يوم الزحف ، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات »[1] « وأمره إلى الله ومن عاد » أى عاد بعد الموعظة ماذا يكون أمره ؟ « فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » . وكان يكفى أن يقول عنهم : إنهم « أصحاب النار » فلعل واحدًا يكون مؤمنا وبعد ذلك عاد إلى معصية ، فيأخذ حظه من النار .

إنما قوله : « هم فيها خالدون » يدل على أنه خرج عن دائرة الإيمان . وافهم السابق جيداً لتفهم التذييل اللاحق ؛ لأن هنا أمرين : هنا ربا حرمه الله ، وأناس يريدون أن يُحلّلوا الربا عندما قالوا : « إنما البيع مثل الربا » ، فإن عدت إلى الربا حاكما بحرمته فأنت مؤمن عاصٍ تدخل النار .

إنما إن عدت إلى ما سلف من المناقشة فى التحريم ، وقلت : البيع مثل الربا ، وناقشت فى حرمة الربا وأردت أن تحلله كالبيع فقد خرجت عن دين الإسلام . وحين تخرج عن دين الإسلام فلك الخلود فى النار .

---

(١) رواه البخارى ومسلم .

ومن هنا يجب أن نلفت الذين يقولون بالربا ، ونقول لهم : قولوا : إن الربا حرام ، ولكننا لا نقدر على أنفسنا حتى نبطله ونتركه ، وعليكم أن تجاهدوا أنفسكم على الخروج منه حتى لا تتعرضوا لحرب الله ورسوله . إنهم باعتقادهم أن الربا حرام يكونون عاصين فقط ، أما أن يحاولوا تبرير الربا ويحللوه فسيدخلون فى دائرة أخرى شر من ذلك ، وهى دائرة الكفر والعياذ بالله .

وقد عرفنا أن آدم عليه السلام عصى ربه ، وأكل من الشجرة ، وإبليس عصى ربه ، فلما تلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه ، أما إبليس فقد طرده الله ، ولماذا طرد الله إبليس وأحل عليه اللعنة ؟

لأن آدم أقر بالذنب وقال : « ربنا ظلمنا أنفسنا » . لقد اعترف آدم : حكمك يارب حكم حق ، ولكنى ظلمت نفسى . ولكن إبليس عارض فى الأمر وقال : « أأسجد لمن خلقت طينا » ، فكأنه رد الأمر على الآمر .

وبعد ذلك حين بين الله الحكم فى الربا ، وبين أن من انتهى له ما سلف ، فماذا عن الذى يعود ؟ « ومن عاد » وهى المقابل « فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » ، يريد سبحانه أن يقول : إياكم أن يخدعكم الربا بلفظه ، فالألفاظ تخدع البشر ؛ لأنكم سميتموه « ربا » بالسطحية الناظرة : لأن الربا هو الزيادة ، والزكاة تنقص ، فالمائة فى الربا تكون مائة وعشرة مثلا حسب سعر الفائدة ، وفى الزكاة تصبح المائة (٩٧,٥) ، فى الأموال وعروض التجارة ، وتختلف عن ذلك فى الزروع وغيرها ، وفى ظاهر الأمر أن الربا زاد ، والزكاة أنقصت ، ولكن هذا النقصان وتلك الزيادة هى فى اصطلاحاتكم وفى أعرافكم . والحق سبحانه وتعالى يمحق الزائد ، ويُنَمّى الناقص ؛ فهو سبحانه يقول :

﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ ﴾

وكلمة « يمحق » من « محق » أى ضاع حالا بعد حال ، أى لم يضع فجأة ، ولكن تسلل فى الضياع بدون شعور ، ومنه « المحاق » أى الذهاب للهلال . « ويمحق الله الربا » أى يجعله زاهيا أمام صاحبه ثم يتسلل إليه الخراب من حيث لا يشعر .

ولعلنا إن دققنا النظر فى البيئات المحيطة بنا وجدنا مصداق ذلك . فكم من أناس رابوا ، ورأيناهم ، وعرفناهم ، وبعد ذلك عرفنا كيف انتهت حياتهم . « يمحق الله الربا ويربى الصدقات » ويقول فى آية أخرى :

﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ٣٩ سورة الروم)

فإياكم أن تعتقدوا أنكم تخدعون الله بذلك . . ما هو المقابل ؟

﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴾

(من الآية ٣٩ سورة الروم)

و« المضعفون » هم الذين يجعلون الشىء أضعافاً مضاعفة . وعندما يقول الحق : « يمحق الله الربا » فلا تستهن بنسبة الفعل لله ؛ إن نسبة الفعل لفاعله يجب أن تأخذ كيفيته من ذات الفاعل ، فإذا قيل لك : فلان الضعيف يصفعك ، أو فلان الملاكم يصفعك ، فلابد أن تقيس هذه الصفعة بفاعلها ، فإذا كان الله هو الذى قال : « يمحق الله » . أيوجد محق فوق هذا ؟ لا ، لا يمكن .

وأيضا حين يقول الله : « يمحق الله الربا ويربى الصدقات » فى القرآن الذى يُتلى وهو معجز ؛ ومحفوظ ومُتحدى بحفظه ، فهذه قضية مصونة « يمحق الله الربا ويربى الصدقات » ؛ لأن الذى قالها هو الله فى كتاب الله المحفوظ ، الذى يُتلى مُتَعَبَّدًا به ، أى أن القضية على ألسنة الجماهير كلها ، وفى قلوب المؤمنين كلها ، أيقول الله قضية يحفظها ذلك الحفظ ليأتى واقع الزمن ليكذبها ؟ لا ، لا يمكن . فالإنسان لا يحفظ إلا المستند الذى يؤيده !! أنا لا أحفظ إلا « الكمبيالة » التى تخصنى ! فمادام هو حافظه وهو القائل :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾

(سورة الحجر)

فمعنى ذلك أنه سبحانه سيطلق فيه قضايا ، وهذه القضايا هو الذى تَعهد بحفظها ، ولا يتعهد بحفظها إلا لتكون حجة على صدقه فى قولها . فالشىء الذى لا يكون فيه حُجة لا نحافظ عليه . وهو سبحانه القائل :

﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾

(سورة الصافات)

إن هذه قضية قرآنية تعهد الله بحفظها ، فلابد أن يأتى واقع الحياة ليؤيدها ، فإذا كان واقع الحياة لا يؤيدها ، ماذا يكون الموقف ؟ أنكذب القرآن ـ وحاشانا أن نكذب القرآن ـ الذى قاله الحق الذى لا إله سواه ليُدير كوناً من ورائه .

« يمحق الله الربا ويربى الصدقات والله لا يحب كل كفار أثيم » . ولماذا قال الحق : « كفار » ولم يقل : « كافر » ، ولماذا قال : « أثيم » وليس مجرد « آثم » ؟ لأنه يريد أن يرد الحكم على الله ومادام يريد أن يرد الحكم على الله ، فقد كفر كفرين اثنين : كفر لإنه لم يعترف بهذه ، وكفر لأنه ردّ الحكم على الله ، وهو « أثيم » ، ليس مجرد « آثم » ، وفى ذلك صيغة المبالغة لنستدل على أن القضية التى نحن بصددها قضية عمرانية اجتماعية كونية ، إن لم تكن كما أرادها الله فسيتزلزل أركان المجتمع كله .

وبعد أن شرح لنا الحق مرارة المبالغة فى « كفار » وفى « أثيم » يأتى لنا بالمقابل حتى ندرك حلاوة هذا المقابل ، ومثال ذلك ما يقوله الشاعر :

فالوجه مثل الصبح مبيضّ ... والشعر مثل الليل مسودُّ
ضدّان لما استجمعا حَسُنا ... والضد يظهر حسنَه الضدُّ

فكأن الله بعد أن تكلم عن الكَفَّار والأثيم يرجعنا لحلاوة الإيمان فيقول :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ ﴾

وقلنا : إن كلمة « أجر » تقتضى أنه لا يوجد مخلوق يملك سلعة ، إنما كلنا مستأجرون ، لماذا ؟ لأننا نشغل المخ المخلوق لله ، بالطاقة المخلوقة لله ، فى المادة المخلوقة لله ، فماذا تملك أنت أيها الانسان إلا عملك ، ومادمت لا تملك إلا عملك فلك أجر « لهم أجرهم عند ربهم » . وكلمة « عند ربهم » لها ملحظ ؛ فعندما يكون لك الأجر عند المساوى لك قد يأكلك ، أما أجرك عند رب تولّى هو تربيتك ، فلن يضيع أبداً .

ويتابع الحق : « ولا خوف عليهم » لا من أنفسهم على أنفسهم ، ولا من أحبابهم عليهم ، « ولا هم يحزنون » ؛ لأن أى شىء فاتهم من الخير سيجدونه مُحضراً أمامهم . وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ ﴾

وحين يقول الحق : « يا أيها الذين آمنوا » فنحن نعرف أن النداء بالإيمان حيثية كل تكليف بعده ، وساعة ينادى الحق ويقول : « ياأيها الذين آمنوا » أى يا من آمنتم بى

إلها قادراً حكيماً ، عزيزا عنكم غالباً على أمرى ، لا تضرنى معصيتكم ، ولا تنفعنى طاعتكم ، فإذا كنتم قد آمنتم بى وأنا إله قادر حكيم فاسمعوا منى ما أحبه لكم من الأحكام .

إذن فكل « يا أيها الذين آمنوا » فى القرآن هى حيثية كل حكم يأتى بعدها ، وأنت تفعل ما يأمرك به الله ، وإن سألك أحد : وقال لك : لماذا فعلت هذا الأمر ؟ فقل له فعلته لأننى مؤمن ، والذى أمرنى به هو الذى آمنت بحكمته وقدرته . وأنت لا تدخل فى متاهة علل الأحكام ، لأنك آمنت بأن الله إله حكيم قادر ، أنزل لك تلك التكاليف ، وإياك أن تدخل فى متاهة علّة الأحكام ، لماذا ؟ لأن هناك أشياء قد تغيب علّتها عنك ، أكنت تؤجلها إلى أن تعرف العلة ؟ .

أكنا نؤجل تحريم لحم الخنزير إلى أن يثبت حالياً بالتحليل أنه ضار ؟ لا ، إذا كان قد ثبت حالياً بالتحليل أنه ضار فنحن نزداد ثقة فى كل حكم كلفنا الله به ، ولم نهتد إلى علّته ، والحق يقول : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله » ومن عجائب كلمة « اتقوا » أنها تأتى فى أشياء يبدو أنها متناقضة ، إنما هى ملتقية « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله » ولم يقل هنا : اتقوا النار كما قال فى آية أخرى : « اتقوا النار » . إذن فكيف يقول : « اتقوا الله » ويقول : « اتقوا النار » ؟ لأن معنى « اتقوا » : أى اجعلوا وقاية بينكم وبين ربكم .

كيف نجعل وقاية بيننا وبين ربنا مع أن المطلوب منا إيمانياً أن نلتحم بمنهج الله لنكون دائما فى معية الله ؟ نقول : الله سبحانه وتعالى له صفات جلال كالقهار ، والمنتقم ، والجبار ، وذى الطول وشديد العقاب ؛ فهو يطلب من عبده المؤمن أن يجعل بينه وبين صفات جلاله وقاية ، فالنار جند من جنود صفات الجلال ، وحين يقول سبحانه : « اتقوا الله » يعنى : اجعلوا وقاية بينكم وبين صفات الجلال التى من جنودها النار . إذن فـ« اتقوا الله » مثل « اتقوا النار » أى اجعلوا وقاية بينكم وبين النار .

ويتابع الحق : « وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين » ، و« ذروا » أى اتركوا ، ودعوا ، وتناسوا ، واطلبوا الخير من الله فيما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين

حقاً بالله . كأن الله أراد أن يجعلها تصفية فاصلة ، يولد من بعدها المؤمن طاهرا نقيا .

إنه أمر من الحق : دعوا الربا الذى لم تقبضوه ؛ لأن الذى قبضتموه أمره « فله ما سلف » والذى لم تقبضوه اتركوه : « اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين » فإن قلتم إن التعاقد قد صدر قبل التحريم ، والتعاقد قد أوجب لك الحق فى ذلك ، تذكر أنك لم تقبض هذا الحق ليصير فى يدك ، ولا تقل إن حياتى الاقتصادية مترتبة عليه ، فترتيب الحياة الاقتصادية لم ينشأ بالاتفاق على هذا الربا ، ولكنه ينشأ بقبضه وأنت لم تقبضه . ويتابع الحق :

﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ ﴾

فى هذه الآية قضية كونية يتغافل عنها كثير من الناس . لقد جاء نظام ليحمى طائفة من ظلم طائفة ، ولم يأت هذا النظام إلا بعد أن وجدت طائفة المرابين الذين ظلموا طائفة الفقراء المستضعفين . وحَسْبُ هؤلاء المستضعفين الذين استغِلوا من المرابين أن ينصفهم القرآن وأن يُنهى قضية الربا إنهاءً يعطى الذين رابوا ما سلف لأنهم بنوا حياتهم على ذلك .

و« فأذنوا بحرب » كلمة (الألف والذال والنون) من « الأذن » وكل المادة مشتقة من «الأذن» و«الأذُن» هى الأصل الأول فى الإعلام ؛ لأن الإنسان ليس مفروضاً أنه قارىء أولا ، إنّه لا يكون قارئاً إلا إذا سمع ، إذن فلا يمكن أن ينشأ إعلام إلا بالسماع . والحق سبحانه وتعالى حينما تكلم عن أدوات العلم للإنسان قال :

﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾

(سورة النحل)

ولذلك عندما جاء علم وظائف الأعضاء ليبحث ذلك وجدوها طبق الأصل كما قال الله عنها . فالوليد الصغير حين يولد إن جاء أصبع إنسان عند عينيه فلا يهتز له رمش ؛ لأن عينه لم تؤد مهمتها بعد ، ولكن إن تصرخ بجانب أذنه فإنه ينفعل .

وعرفنا أن أول أداة تؤدى مهمتها بالنسبة للإنسان الوليد هى أذنه ، وهى أيضا الأداة التى تؤدى مهمتها بالنسبة للإنسان مستيقظاً كان أو نائماً . إن العين تغمض فى النوم فلا ترى ، لكن الأذن مستعدة طوال الوقت لأن تسمع ؛ لأنها آلة الاستدعاء . إذن فمادة « الأذان » و« الأُذُن » كلها جاءت من مهمة السمع ، وقال الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٥﴾ ﴾

(سورة الانشقاق)

ما معنى أذنت ؟ . أنت حين تسمع من مساو لك ، فقد تنفذ وقد لا تنفذ ، لكن حين تسمعه من إله قادر فلا مناص لك إلا أن تنفذ ، فكأن الله يقول : إن الأرض تنشق حين تسمع أمرى بالانشقاق . فبمجرد أن تسمع الأرض أمر الحق فإنها تفعل ، وحق لها أن تفعل ذلك ؛ إنها أذنت لأمر الله ، أى خضعت ؛ لأن القائل لها هو الله .

إذن كل المادة هنا جاءت من « الأذن » . ولذلك فالله يقول لمن لا يفعل ما أمر به الله فى الربا ؛ « فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله » . أما حرب الله فلا نقول فيها إلا قول الله :

﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾

(من الآية ٣١ سورة المدثر)

ولا يستطيع أحد أن يحتاط لها . وأما حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم فهذه هى الأمر الظاهر . كأن الله سبحانه وتعالى يجرد على المرابين تجريدة هائلة من جنوده التى لا يعلمها إلا هو ، وحرب رسول الله جنودها هم المؤمنون برسوله ، وعليهم أن يكونوا حربا على كل ظاهرة من ظواهر الفساد فى الكون ؛ ليطهروا حياتهم من دنس الربا .

وهكذا وضع الله نهاية لأسلوب التعامل ، حتى يتطهر المال من ذلك الربا ، فإذا قال الحق : « فلكم رءوس أموالكم لا تَظلمُون ولا تُظلَمُون » فمعنى هذا أنه سبحانه يبين لنا بهذا القول أنه لا حق للمرابين فى ضعف ولا ضعفين ، ولا فى أضعاف مضاعفة . وحينئذ « لا تَظلِمون » من رابيتم ، بأن تأخذوا منهم زائدا عن رأس المال .

ولكن ما موقع « ولا تُظلَمون » ، ومن الذى يظلمهم ؟ قد يظلمهم الضعيف الذى ظُلِمَ لهم سابقا ، ويأخذ منهم بعض رأس المال بدعوى أنهم طالما استغلوه فأخذوا منه قدراً زائدا على رأس المال . إن المشرع يريد أن يمنع الظالم السابق فينهى ظلمه ، وأن يسعف المظلوم اللاحق فيعطيه حقه ، وهو سبحانه لا يريد أن يوجه ظلما ليستغل به من ظُلم فيظلم الذى ظلمه أولا ، بل سبحانه يشاء بهذا الحكم أن ينهى هذا النوع من الظلم على إطلاقه ، وأن يجعل الجميع على قدر سواء فى الانتفاع بمزايا الحكم .

وكثير من النظريات التى تأتى لتقلب نظاما فى مجتمع ما تعمد إلى الطائفة التى ظَلَمَت ، فلا تكتفى بأن تكفها عن الظلم ، ولكن تمكن للمظلوم أن يظلم من ظلمه ، وذلك هو الإجحاف فى المجتمع ، وهذا ما يجب أن يتنبه إليه الناس جيدا ؛ لأن الله الذى أنصفك أيها المظلوم من ظالمك ، فمنع ظلمه لك ، هنا يجب أن تحترم حكمه حينما قال : « فله ما سلف » وبهذا القول انتهت القضية .

ويستأنف سبحانه الأمر بعدالة جديدة تجمعك وتجمعه على قدم المساواة بدون ظلم منك أيها المظلوم سابقا بحجة أنه طالما ظلمك . والمجتمعات حين تسير على هذا النظام « لا تَظلِمون ولا تُظلَمون » إنما تسير على نمط معتدل لا على ظلم موجه .

فنحن نعيب على قوم أنهم ظلموا ، ثم نأتى بقوم لنجعلهم يَظْلِمون ، لا . . إن الجميع على قدم المساواة من الآن .

وفساد أى نظام فى المجتمع يأتى من توجيه الظلم من فئة جديدة إلى فئة قديمة ، فبذلك يظل الظلم قائما ، طائفة ظَلَمَت ، وتأتى طائفة كانت مظلومة لتظلم الطائفة الظالمة سابقا ، نقول لهم : ذلك ظلم موجه ، ونحن نريد أن تنتظم العدالة وتشمل كل أفراد المجتمع بأن يأخذ كل إنسان حقه ، فالذى ظَلَمَ سابقا منعناه عن ظلمه ، والمغلوب سابقا أنصفناه ، وبذلك يصير الكل على قدم المساواة ؛ ليسير المجتمع مسيرة عادلة تحكمه قضية إيمانية . إننا لا نكافىء من عصى الله فينا بأكثر من أن نطيع الله فيه .

وبعد ذلك يجىء القرآن ليفتح بابا جديدا من الأمل أمام المظلومين . وليضع حدا للذين كانوا ظالمين أولا ، وحكم لهم برأس المال ومنعهم من الزائد على رأس المال ، فحنن قلوبهم على هؤلاء . أىْ ليست ضربة لازب أن تأخذوا رأس المال الآن ، ولكن عليكم أن تُنْظِروا وتمهلوا المدين إن كان معسراً ، وإن تساميتم فى النضج الإيمانى اليقينى وارتضيتم الله بديلا لكم عن كل عوض يفوتكم ، فعليكم أن تتجاوزوا وتتنازلوا حتى عن رءوس أموالكم التى حكم الله لكم بها لتترفعوا بها وتهبوها لمن لا يقدر . فيأتى قول الحق :

﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ ﴾

و« وإن كان ذو عسرة » حكم بأن للدائن رأس المال ، ولكن هب أنّ المدين ذو عسرة ، هنا قضية يثيرها بعض المستشرقين الذين يدعون أنهم درسوا العربية ، لقد درسوها صناعة ، ولكنها عزت عليهم ملكة ؛ لأن اللغة ليست صناعة فقط ، اللغة

طبع ، اللغة ملكة ، اللغة وجدان ، يقولون : إن القرآن يفوته بعض التقعيدات التى تقعدها لغته . فمثلا جاءوا بهذه الآية : « وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة ، وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون » .

قال بعض المستشرقين : نريد أن نبحث مع علماء القرآن عن خبر « كان » فى قوله : « وإن كان ذو عسرة » ، صحيح لا نجد خبر « كان » ، ولكن الملكة العربية ليست عنده ؛ لأنه إذا كان قد درس العربية كان يجب أن يعرف أن « كان » تحتاج إلى اسم وإلى خبر ، اسم مرفوع وخبر منصوب وهذه هى التى يقال عنها كان الناقصة ، كان يجب أن يفهم أيضا معنى أنها قد تأتى تامة أى ليس لها خبر ، وتكتفى بالمرفوع ، وهذه تحتاج إلى شرح بسيط .

إن كل فعل من الأفعال يدل على حدث وزمن ، وكلمة « كان » إن سمعتها دلت على وجود وحدث مطلق لم تبين فيه الحالة التى عليها اسمها ، كان مجتهدا ؟ كان كسولا ؟ مثلا فهى تدل على وجود شىء مطلق أى ليس له حالة ، ومعنى ذلك أن (كان) دلت على الزمن الوجودى المطلق أى على المعنى المجرد الناقص ، والشىء المطلق لا يظهر المراد منه إلا إذا قيد ، فإن أردت أن تدل على وجود مقيد ليتضح المعنى ، ويظهر ، فلابد أن تأتيها بخبر ، كأن تقول:كان زيد مجتهدا ، هنا وجد شىء خاص وهو اجتهاد زيد . إذن فـ (كان) هنا ناقصة تريد الخبر يكملها وليعطيها الوجود الخاص ، فإذا لم يكن الأمر كذلك وأردنا الوجود فقط تكون (كان) تامة أى تكتفى بمرفوعها فقط مثل أن تقول : عاد الغائب فكان الفرح أى وجد ، أو أشرقت الشمس فكان النور ، والشاعر يقول :

وكانت وليس الصبح فيها بأبيض
وأضحت وليس الليل فيها بأسود

فقوله «وإن كان ذوعسرة» أى فإن وُجد ذوعسرة . . أى إن وُجِدَ إنسان ليس عنده قدرة على السداد ، « فنظرة » من الدائن « إلى ميسرة » أى إلى أن يتيسر ، ويكون رأس المال فى هذه الحالة « قرضا حسنا » ، وكلما صبر عليه لحظة أعطاه الله عليها ثوابا .

ولنا أن نعرف أن ثواب القرض الحسن أكثر من ثواب الصدقة ؛ لأن الصدقة حين تعطيها فقد قطعت أمل نفسك منها ، ولا تشغل بها ، وتأخذ ثوابا على ذلك دفعة واحدة ، لكن القرض حين تعطيه فقلبك يكون متعلقا به ، فكلما يكون التعلق به شديدا ، ويهب عليك حب المال وتصبر فأنت تأخذ ثوابا . لذلك يجب أن تلحظ أن القرض حين يكون قرضا حسنا والمقترض معذور بحق ؛ لأن فيه فرقاً بين معذور بحق ، ومعذور بباطل ، المعذور بحق هو الذى يحاول جاهدا أن يسدد دينه ، ولكن الظروف تقف أمامه وتحول دون ذلك ، أما المعذور بباطل فيجد عنده ما يسد دينه ولكنه يماطل فى السداد ويبقى المال ينتفع به وهو بهذا ظالم .

ولذلك جرب نفسك ، ستجد أن كل دين يشتغل به قلبك فاعلم أن صاحبه قادر على السداد ولم يسدد ، وكل دين كان برداً وسلاماً على قلبك فاعلم أن صاحبه معذور بحق ولا يقدر أن يسدد ، وربما استحييت أنت أن تمر عليه مخافة أن تحرجه بمجرد رؤيتك . وهؤلاء لا يطول بهم الدَّيْنُ طويلا ؛ لأن الرسول حكم فى هذه القضية حكما ، فقال صلى الله عليه وسلم : « من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدّى الله عنه ، ومن أخذها يريد إتلافها أتلفه الله »[1] .

فمادام ساعة أخذها فى نيته أن يؤدى فإن الله ييسر له سبيل الأداء ، ومن أخذها يريد إتلافها ، فالله لا ييسر له أن يسدد ؛ لأنه لا يقدر على ترك المال يسدد به دينه ، وهذه حادثة فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم تفسر لنا هذا الحديث ، فقد مات رجل عليه دين ، فلما علم رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه مدين ؛ قال لأصحابه : صلوا على أخيكم .

إذن فهو لم يصل ، ولكنه طلب من أصحابه أن يصلوا ، لماذا لم يصل ؟ لأنه قال قضية سابقة : « من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدّى الله عنه » ، مادام قد مات ولم يؤد إذن فقد كان فى نيته أن يماطل ، لكن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يمنع أصحابه من الصلاة عليه .

---

(١) رواه البخارى وأحمد عن أبى هريرة

والرسول صلى الله عليه وسلم يأتى للمعسر ويعامله معاملة الأريحية الإيمانية فيقول :

« من أَنْظَرَ معسراً أَوْ وَضَعَ عنه أظله الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله »[1] .

ومعنى « أنظر » أى أمهله وأخر أخذ الدين منه فلا يلاحقه ، فلا يحبسه فى دَيْنِهِ ، فلا يطارده ، وإن تسامى فى اليقين الإيمانى ، يقول له : « اذهب ، الله يعوض على وعليك » وتنتهى المسألة ، ولذلك يقول الحق : « وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون » والثمرة هى حسن الجزاء من الله . فإما أن تنظر وتؤخر ، وإما أن تتصدق ببعض الدين أو بكل الدين ، وأنت حر فى أن تفعل ما تشاء . فانظروا دقة الحق عند تصفية هذه القضية الاقتصادية التى كانت الشغل الشاغل للبيئة الجاهلية .

ولقد عرفنا مما تقدم أن الإسلام قد بنى العملية الاقتصادية على الرفد والعطاء ، وتكلم الحق سبحانه وتعالى عنها فى آيات النفقة التى سبقت من أول قوله تعالى : « مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة » . وتكلم طويلا عن النفقة . والنفقة تشمل ما يكون مفروضا عليك من زكاة ، وما تتطوع به أنت . والمتطوع بشىء فوق ما فرض الله يعتبره سبحانه حقا للفقير ، ولكنه حق غير معلوم ، ولذلك حينما تعرضنا إلى قوله سبحانه :

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة الذاريات)

أيتطلب الإسلام منا ألا نهجع إلا قليلا من الليل ؟ لا ، إن للمسلم أن يصلى العشاء وينام ، ثم يقوم لصلاة الفجر ، هذا ما يطلبه الإسلام . لكن الحق سبحانه هنا يتكلم عن المحسنين الذين دخلوا فى مقام الإحسان مع الله .

---

(١) رواه أحمد ومسلم عن أبى اليسر .

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

(سورة الذاريات)

هل التشريع يلزم المؤمن أن يقوم بالسحر ليستغفر ؟ لا ، إن المسلم عليه أن يؤدى الفروض ، ولكن إن كان المسلم يرغب فى دخول مقام الإحسان فعليه أن يعرف الطريق :

﴿ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

(سورة الذاريات)

والكلام هنا فى مقام الإحسان . ويضيف الحق عن أصحاب هذا المقام :

﴿ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ ﴾

(سورة الذاريات)

إن الله سبحانه قد حدد فى أموال من يدخل فى مقام الإحسان حقا للسائل والمحروم ، ولم يحدد الله قيمة هذا الحق أو لونه . هل هو معلوم أو غير معلوم . لكن حين تكلم الله عن المؤمنين قال سبحانه :

﴿ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ ﴾

(سورة المعارج)

وهكذا نجد فى أموال صاحب مقام الإحسان حقا للسائل والمحروم ، لكن فى أموال صاحب الإيمان حق معلوم وهو الزكاة . ومقام الإحسان يعلو مقام الإيمان ؛ لأن الحق فى مال المؤمن معلوم ، أما فى مقام الإحسان فإن فى مالهم حقا للإحسان إلى الفقير وإن لم يكن معلوما ، أى لم يحدد .

وقد رأينا بعض الفقهاء قد اعتبر الزكاة ـ مادامت حقاً للفقير عند الغنى ـ فإن منع الغنى ما قدره نصاب سرقة تُقطع يد الغنى ، لأنه أخذ حق الفقير . ونصاب السرقة ربع دينار ذهباً ، فيبنى الإسلام قضاياه الاجتماعية إما على النفقة غير المفروضة وإما على النفقة المفروضة . فإذا ما شحّت نفوس الناس ، ولم تستطع أن تتبرع بالقدر الزائد على المفروض ، وتمكن حب مالها فى نفسها تمكنا قوياً بحيث لا تتنازل عنه يقول الله سبحانه لكل منهم :

أنت لم تتنازل عن مالك ، وأنا حرمت الربا ، فكيف نلتقى لنضع للمجتمع أساساً سليماً ؟ سنحتفظ لك بمالك ونمنع عنك فائدة الربا ، وهكذا نلتقى فى منتصف الطريق ، لا أخذنا مالك ، ولا أخذت من غيرك الزائد على هذا المال .

وشرح الحق سبحانه آية الديْن ، وأخذت هذه الآية أطول حيز فى حجم آيات القرآن ، لماذا ؟ . لأن على الديْن هذا تُبنى قضايا المجتمع الاقتصادية عند من لا يجد مورداً مالياً يُسيّر به حركة حياته . وحين وضع الحق آية الديْن لم يضعها وضعاً تقنينياً جافاً جامداً ، وإنما وضعها وضعاً وجدانيا . أى مزج التقنين بالوجدان ، مزج الحق جمود القانون بروح الإسلام ، فلم يجعلها عملية جافة .

والمشرعون من البشر عندما يقننون فهم يضعون القانون جافاً ، فمثال ذلك : من قتل يقتل ، وغير ذلك . لكن الحق يقول غير ذلك حتى فى أعنف قضايا الخلاف ، وهى خلافات الدم ، فقال سبحانه :

﴿ فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ﴾

(من الآية ١٧٨ سورة البقرة)

والحق سبحانه وتعالى قبل أن يأتى بآية الديْن ، يقول :

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾

ولقد أوضحنا من قبل أن تقوى الله تقتضى أن نقوم بالأفعال التى تقينا صفات الجلال فى الله ، وأوضحنا أن الله قال : « اتقوا النار » أى أن نفعل ما يجعل بيننا وبين النار وقاية ، فالنار من متعلقات صفات الجلال . وها هو ذا الحق سبحانه هنا يقول : « اتقوا يوما » ، فهل نتقى اليوم ، أو نتقى ما ينشأ فى اليوم ؟ إن اليوم ظرف زمان ، والأزمان لا تُخاف بذاتها ، ولكن يخاف الإنسان مما يقع فى الزمن .

لكن إذا كان كل شىء فى الزمن مخيفاً ، إذن فالخوف ينصب على اليوم كله ، لأنه يوم هول ؛ كل شىء فيه مفزّع ومخوف ، وقانا الله وإياكم ما فيه من هول ، وانظر إلى الدقة القرآنية المتناهية فى قوله : « ترجعون فيه إلى الله » .

إن الرجوع فى هذا اليوم لا يكون بطواعية العباد ولكن بإرادة الله . وسبحانه حين يتكلم عن المؤمنين الذين يعملون الصالح من الأعمال ؛ فإنه يقول عن رجوعهم إلى الله يوم القيامة :

﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٥﴾ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾

(سورة البقرة)

ومعنى ذلك أن العبد المؤمن يشتاق إلى العودة إلى الله ؛ لأنه يرغب أن ينال الفوز .

أما غير المؤمنين فيقول عنهم الحق :

﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ ﴾

(سورة الطور)

إن رجوع غير المؤمنين يكون رجوعاً قسرياً لا مرغوباً فيه . والحق يقول عن هذا اليوم : « ثم توفى كل نفس ما كسبت ، وهم لا يظلمون » . وبعد ذلك يقنن الحق سبحانه للدَّيْن فيقول سبحانه :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى
فَٱكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ
كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ
ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ
فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ
أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ
مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ
مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ
إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ۚ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْ ۚ وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ
أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ
عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ ۖ إِلَّآ أَن تَكُونَ

تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ
أَلَّا تَكْتُبُوهَا ۗ وَأَشْهِدُوٓا۟ إِذَا تَبَايَعْتُمْ ۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ
وَلَا شَهِيدٌ ۚ وَإِن تَفْعَلُوا۟ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟
ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾

إنها أطول آية فى آيات القرآن ويستهلها الله بقوله : « يا أيها الذين آمنوا » وهذا الاستهلال كما نعرف يوحى بأن ما يأتى بعد هذا الاستهلال من حكم ، يكون الإيمان هو حيثية ذلك الحكم ، فما دمت قد آمنت بالله فأنت تطبق ما كلفك به ؛ لأن الله لم يكلف كافراً ، فالإنسان ـ كما قلنا سابقاً ـ حر فى أن يُقبل على الإيمان بالله أو لا يُقبل .

فإن أقبل الإنسان بالإيمان فليستقبل كل حكم من الله بالتزام . ونضرب هذا المثل ـ ولله المثل الأعلى ـ إن الإنسان حين يكون مريضاً ، هو حر فى أن يذهب إلى الطبيب أو لا يذهب ، ولكن حين يذهب الإنسان إلى الطبيب ويكتب له الدواء فالإنسان لا يسأل الطبيب وهو مخلوق مثله : لماذا كتبت هذه العقاقير ؟ .

إن الطبيب يمكن أن يرد : إنك كنت حرا فى أن تأتى إلىّ أو لا تأتى ، لكن ما دمت قد جئت إلى فاسمع الكلام ونفذه . والطبيب لا يشرح التفاعلات والمعادلات ، لا ، إن الطبيب يشخص المرض ، ويكتب الدواء . فما بالنا إذا أقبلنا على الخالق الأعلى بالإيمان ؟

إننا ننفذ أوامره سبحانه ، والله لا يأمر المؤمن إلا عن حكمة ، وقد تتجلى للمؤمن بعد ذلك آثار الحكمة ويزداد المؤمن ثقة فى إيمانه بالله . يقول الحق : « يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه » وعندما نتأمل قول الحق : «تداينتم » نجد فيها « دَيْن » ، وهناك « دِين » ، ومن معنى الدِّين الجزاء ، ومن معنى الدِّين

منهج السماء ، وأما الدَّيْن فهو الاقتراض إلى موعد يسدد فيه . هكذا نجد ثلاثة معان واضحة : الدِّين : وهو يوم الجزاء ، والدين وهو المنهج السماوى،والدَّيْن : هو المال المقترض .

والله يريد من قوله : « تداينتم بدين » أن يزيل اللبس فى معنيين ، ويبقى معنى واحداً وهو الاقتراض فقال : « بِدَيْن » فالتفاعل هنا فى مسألة الدَّيْن لا فى الجزاء ولا فى المنهج ، والحق يحدد الدَّيْن بأجل مُسمّى . وقد أراد الله بكلمة « مُسمّى » مزيداً من التحديد ، فهناك فرق بين أجل لزمن ، وبين أجل لحدث يحدث ، فإذا قلت : الأجل عندى مقدم الحجيج . فهذا حدث فى زمن ، ومقدم الحجيج لا يضمنه أحد ، فقد تتأخر الطائرة ، أو يصاب بعض من الحجيج بمرض فيتم حجز الباقين فى الحجر الصحى .

أما إذا قلت : الأجل عندى شهران أو ثلاثة أشهر فهذا يعنى أن الأجل هو الزمن نفسه ، لذلك لا يصح أن يؤجل أحد دينه إلى شىء يحدث فى الزمن ؛ لأنه من الجائز ألا يحدث ذلك الشىء فى هذاالزمن . إن التداين بديْن إلى أجل مُسمى يقتضى تحديد الزمن ، والحق يوضح لنا : «إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه » وكلمة « فاكتبوه » هى رفع لحرج الأحباء من الأحباء .

إنه تشريع سماوى ، فلا تأخذ أحد الأريحية ، فيقول لصاحبه : « نحن أصحاب » ، إنه تشريع سماوى يقول لك : اكتب الديْن ، ولا تقل : « نحن أصدقاء » فقد يموت واحد منكما فإن لم تكتب الديْن حرجاً فماذا يفعل الأبناء،أو الأرامل ، أو الورثة ؟ .

إذن فإلزام الحق بكتابة الديْن هو تنفيذ لأمر من الله يحقق رفع الحرج بين الأحباء . ويظن كثير من الناس أن الله يريد بالكتابة حماية الدائن . لا ، إن المقصود بذلك والمهم هو حماية المدين ، لأن المدين إن علم أن الديْن عليه موثق حرص أن يعمل ليؤدى ديْنه ، أما إذا كان الديْن غير موثق فمن الجائز أن يكسل عن العمل وعن سداد الديْن . وبذلك يحصل هو وأسرته على حاجته مرة واحدة ، ثم يضن المجتمع الغنى على المجتمع الفقير فلا يقرضه ؛ ويأخذون عجز ذلك الإنسان عن السداد ذريعة لذلك ، ويقع

هذا الإنسان الذى لم يؤد دينه فى دائرة تحمل الوزر المضاعف ، لأنه ضيّق باب القرض الحسن .

إن الله يريد أن يسير دولاب الحياة الاقتصادية عند من لا يملك ، لأن من يملك يستطيع أن يسيّر حياته ، أما من لا يملك فهو المحتاج . ولذلك فهناك مثل فى الريف المصرى يقول : من يأخذ ويعطى يصير المال ماله . إنه يقترض ويسدد ، لذلك يثق فيه كل الناس ، ويرونه أميناً ويرونه مُجداً ، ويرونه مخلصاً ، ويعرفون عنه أنه إذا أخذ وفّى ، فكل المال يصبح ماله .

إذن فالله ـ سبحانه ـ بكتابة الديْن يريد حماية حركة الحياة عند غير الواجد ؛ لأن الواجد فى غير حاجة إلى القرض . لذلك جاء الأمر من الحق سبحانه : « إذا تداينتم بديْن إلى أجل مسمى فاكتبوه » . ومن الذى يكتب الديْن ؟ .

انظر الدقة : لا أنت أيها الدائن الذى تكتب ، ولا أنت أيها المدين ، ولكن لابد أن يأتى كاتب غير الاثنين ، فلا مصلحة لهذا الثالث من عملية الدين « وليكتب بينكم كاتب بالعدل ، ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله » . وفى ذلك إيضاح بأن الإنسان الذى يعرف الكتابة إن طُلب منه أن يكتب ديْناً ألا يمتنع عن ذلك ، لماذا ؟ لأن الآية ـ آية الديْن ـ قد نزلت وكانت الكتابة عند العرب قليلة ، كان هناك عدد قليل فقط هم الذين يعرفون الكتابة ، فكان هناك طلب شديد على من يعرف الكتابة .

ولكن إن لم يُطْلَب أحد من الذين يعرفون الكتابة أن يكتب الديْن فماذا يفعل ؟ . إن الحق يأمره بأن يتطوع ، وفى ذلك يأتى الأمر الواضح « فليكتب » ؛ لأن الإنسان إذا ما كان هناك أمر يقتضى منه أن يعمل ، والظرف لا يحتمل تجربة ، فالشرع يلزمه أن يندب نفسه للعمل .

هب أنكم فى زورق وبعد ذلك جاءت عاصفة ، وأغرقت الذى يمسك بدفة الزورق ، أو هو غير قادر على إدارة الدفة ، هنا يجب أن يتقدم من يعرف ليدير الدفة ، إنه يندب نفسه للعمل ، فلا مجال للتجربة . والحق سبحانه وتعالى حين عرض قضية الجدب فى قصة سيدنا يوسف قال :

﴿ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾
ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾

(سورة يوسف)

وقال سيدنا يوسف :

﴿ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾

(من الآية ٥٥ سورة يوسف)

إن المسألة جدب فلا تحتمل التجربة ، وهو كفء لهذه المهمة ، يملك موهبة الحفظ والعلم ، فيندب نفسه للعمل . كذلك هنا « ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله » إذا طُلب منه وإن لم يطلب منه وتعين « فليكتب » .

وهذه علة الأمرين الاثنين ، ومادامت الكتابة للتوثيق فى الدَّيْن ؛ فمن الضعيف ؟ إنه المدين ، والكتابة حجة عليه للدائن ، لذلك يحدد الله الذى يملل : الذى عليه الديْن ، أى يملى الصيغة التى تكون حجة عليه « وليملل الذى عليه الحق » ولماذا لا يملى الدائن ؟ لأن المدين عادة فى مركز الضعف ، فلعل الدائن عندما تأتى لحظة كتابة ميعاد السداد فقد يقلل هذا الميعاد ، وقد يخجل المدين أن يتكلم ويصمت ؛ لأنه فى مركز الضعف . ويختار الله الذى فى مركز الضعف ليملى صيغة الديْن ، يملى على راحته ، ويضمن ألا يُؤخذ بسيف الحاجة فى أى موضع من المواضع .

لكن ماذا نفعل عندما يكون الذى عليه الديْن سفيها أو ضعيفا أو لا يستطيع أن يمل هو ؟ إن الحق يضع القواعد « فإن كان الذى عليه الحق سفيها أو ضعيفا أو لا يستطيع أن يمل هو فليملل وليّه بالعدل » والسفيه هو البالغ مبلغ الرجال إلا أنه لا يمتلك أهلية التصرف . والضعيف هو الذى لا يملك القدرة التى تُبلغه أن يكون ناضجا النضج العقلى للتعامل ، كأن يكون طفلا صغيرا ، أو شيخا بلغ من الكبر حتى صار لا يعلم من بعد علمه شيئا ، أو لا يستطيع أن يمل . أى أخرس فيقوم بالإملاء الولى أو القيمّ أو الوصىّ .

ويأتى التوثيق الزائد : بقوله ـ تعالى ـ : « واستشهدوا شهيدين من رجالكم ، فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء ، أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى » .

ولننظر إلى الدقة فى التوثيق عندما يقول الحق : « واستشهدوا » نستشهد ونكتب ، لأنه سبحانه يريد بهذا التوثيق أن يؤمّن الحياة الاقتصادية عند غير الواجد ؛ لأن الحاجة عندما تكون مؤمَّنة عند غير الواجد فالدولاب يمشى وتسير حركة الحياة الاقتصادية ؛ لأن الواجد هو القليل ، وغير الواجد هو الكثير ، فكل فكر جاد ومفيد يحتاج إلى مائة إنسان ينفذون التخطيط .

إن الجيب الواحد الذى يصرف يحتاج إلى مائة لينفذوا ، ولهذا تكون الجمهرة من الذين لا يجدون ، وذلك حتى يسير نظام الحياة ؛ لأن الله لا يريد أن يكون نظام الحياة تفضلا من الخلق على الخلق ، إنما يريد الله نظام الحياة نظاما ضروريا ؛ فالعامل الذى لا يعول أسرة قد لا يخرج إلى العمل ، لذلك فالحق يربط خروج العامل بحاجته . إنه يحتاج إلى الطعام ورعاية نفسه وأسرته فيخرج اضطرارا إلى العمل ، وبتكرار الأمر يعشق عمله ، وحين يعشق العمل فهو يحب العمل فى ذاته .

وبذلك ينتقل من الحاجة إلى العمل ، إلى حب العمل فى ذاته ، وإذا ما أحب العمل فى ذاته ، فعجلة الحياة تسير . والحق سبحانه حين يحدد الشهود بهذا القول : « واستشهدوا شهيدين من رجالكم » .

ولماذا قال الحق : « شهيدين » ولم يقل « شاهدان » ؟ لأن مطلق شاهد قد يكون زوراً ، لذلك جاء الحق بصيغة المبالغة . كأنه شاهد عرفه الناس بعدالة الشهادة حتى صار شهيدا . إنه إنسان تكررت منه الشهادة العادلة ؛ واستأمنه الناس على ذلك ، وهذا دليل على أنه شهيد . وإن لم يكن هناك شهيدان من الرجال فالحق يحدد لنا « فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء » .

إن الحق سبحانه وتعالى قد طلب منا على قدر طاقتنا أى من نرضى نحن عنهم ، وعلل الحق مجىء المرأتين فى مقابل رجل بما يلى : « أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى » ؛ لأن الشهادة هى احتكاك بمجتمع لتشهد فيه وتعرف ما يحدث . والمرأة

بعيدة عن كل ذلك غالبا .

أن الأصل فى المرأة ألا علاقة لها بمثل هذه الأعمال ، وليس لها شأن بهذه العمليات ، فإذا ما اضطرت الأمور إلى شهادة المرأة فلتكن الشهادة لرجل وامرأتين ؛ لأن الأصل فى فكر المرأة أنه غير مشغول بالمجتمع الاقتصادى الذى يحيط بها ، فقد تضل أو تنسى إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى ، وتتدارس كلتاهما هذا الموقف ، لأنه ليس من واجب المرأة الاحتكاك بجمهرة الناس وبخاصة ما يتصل بالأعمال

وبعد ذلك يقول الحق : « ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا » فكما قال الحق عن الكاتب ألا يمتنع عن توثيق الديْن ، كذلك الشهادة على هذا الديْن . وكيف تكون الشهادة ، هل هى فى الأداء أو التحمل ؟ إن هنا مرحلتين : مرحلة تحمل ، ومرحلة أداء .

وعندما نطلب من واحد قائلين : تعال اشهد على هذا الديْن . فليس له أن يمتنع ، وهذا هو التحمل . وبعدما وثقنا الديْن ، وسنطلب هذا الشاهد أمام القاضى ، والوقوف أمام القاضى هو الأداء . وهكذا لا يأبى الشهداء إذا ما دعوا تحملا أو أداءً .

لكن الحق سبحانه وتعالى يعلم أن كل نفس بشرية لها مجال حركتها فى الوجود ، ويجب ألا تطغى حركة حدث على حدث ، فالشاهد حين يُستدعى - بضم الياء - ليتحمل أولا أو ليؤدى ثانيا ينبغى ألاّ تتعطل مصالحه ؛ إن مصالحه ستتعطل ؛ لأنه عادل ، ولأنه شهيد ، لذلك يضع الله لذلك الأمر حداً فيقول : « ولا يضار كاتب ولا شهيد » .

إذن فالشهادة هنا تتطلب أن نحترم ظروف الشاهد . فإن كان عند الشاهد عمل أو امتحان أو صفقة أو غير ذلك ، فلنا أن نقول للشاهد : إما أن تتعين فى التحمل حيث لا يوجد من يوثق به ويطمأن إليه أما فى الأداء فأنت مضطر .

إن الشاهد يمكنه أن يذهب إلى أمره الضرورى الذى يجب أن يفعله ، فلا يطغى حدث على حدث ، لذلك علينا أن نبحث عن شاهد له قدرة السيطرة على عمله بدرجة ما . وإن لم نجد غيره ، فماذا يكون الموقف ؟

لقد قال الحق : « ولا يضار كاتب ولا شهيد » إذن فعلينا أن نبحث له عن « جُعْل » يعوض عليه ما فاته ، فلا نلزمه أن يعطل عمله وإلا كانت عدالته وَبالاً عليه ، لأن كل إنسان يُطلب للشهادة تتعطل أعماله ومصالحه . والله لا يحمى الدائن والمدين ليضر الكاتب أو الشهيد .

وقوله الحق لكلمة : « يضار » فمن الممكن أن تأتى الكلمة على وجهين فى اللغة ، فمرة تأتى « يضار » بمعنى أن الضرر يأتى من الكاتب أو الشهيد ، ومرة أخرى تأتى كلمة « يضار » بمعنى أنّ الضرر يقع على الكاتب أو الشهيد . فاللفظ واحد ، ولكن حالة اللفظ بين الإدغام الذى هو عليه حسب قواعد اللغة وبين فكه هى التى تُبَيِّنُ لنا اتجاه المعنى . فإن قلنا : « ولا يضارِّ كاتب ولا شهيد » ـ بكسر الراء ـ ، فالمعنى فى هذه الحالة هو أن يقع الضرر من الكاتب فيكتب غير الحق ، أو أن يقع الضرر من الشهيد فيشهد بغير العدل .

وإن قلنا : « ولا يضارَّ كاتب ولا شهيد » ـ بفتح الراء ـ فالمنهى عنه هو أن يقع الضرر على الكاتب أو الشهيد من الذين تؤدى الكتابة غرضا لهم ، وتؤدى الشهادة واجبا بالنسبة لهم ؛ ليضمن الدائن دَيْنه ، وليستوثق أن أداءه محتم .

والكاتب والشهيد شخصان لهما فى الحياة حركة ، ولكل منهما عمل يقوم به ليؤدى مطلوبات الحياة ، فإذا عُلِمَ ـ بضم العين وكسر اللام وفتح الميم ـ أنه كاتب أو شهد بأنه عادل،عند ذلك يتم استدعاؤه فى كل وقت من أصحاب المصلحة فى المداينة ، وربّما تعطلت مصالح الكاتب أو الشهيد .

ويريد الله أن يضمن لذلك الكاتب أو الشهيد ما يبقى على مصلحته . ولذلك أخذت القوانين الوضعية من القرآن الكريم هذا المبدأ ، فهى إن استدعت شاهدا من مكان ليشهد فى قضية فإنّها تقوم له بالنفقة ذهابا وبالنفقة إيابا ، وإن اقتضى الأمر أن يبيت فله حق المبيت وذلك حتى لا يضار ، وهو يؤدى الشهادة ، وحتى لا يتعطل الشاهد عن عمله أو أن يصرف من جيبه .

راجع أصله وخرج أحاديثه الدكتور أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .

ويريد الحق سبحانه وتعالى أيضا أن يضمن مصالح الجميع لا مصلحة جماعة على حساب جماعة .

ويقول الحق فى هذه « المضارة » : « وإن تفعلوا فإنه فسوق بكم » أى وإن تفعلوا الضرر من هذا أو من ذاك فإنه فسوق بكم ، إنه سبحانه يحذر أن يقع الضرر من الكاتب أو الشهيد ، أو أن يقع الضرر على الكاتب أو الشهيد . ففعل الضرر فسوق ، أى خروج عن الطاعة .

والأصل فى « الفسق » هو خروج الرطبة من قشرتها ، فالبلح حين يرطب تكون القشرة قد خلعت عن الأصل من البلحة ، فتخرج الثمرة من القشرة فيقال : « فسقت الرطبة » . ومنها أخذ معنى الفسوق وهو الخروج عن طاعة الله فى كل ما أمر .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك : « واتقوا الله » وعلمنا من قبل معنى كلمة « التقوى » حين يقول الله : « واتقوا الله » أو يقول سبحانه : « واتقوا النار » « واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله » ، وكل هذه المعانى مبنية على الوقاية من صفات جلال الله ، وجبروته ، وقهره ، وإذا قلنا : « اتقوا النار » فالنار من جنود صفات القهر لله ، فـ « اتقوا الله » هى بعينها « اتقوا النار » هى بعينها « اتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله » .

ويقول الحق سبحانه : « واتقوا الله ويعلمكم الله » . وهنا مبدأ إيمانى يجب أن نأخذه فى كل تكليف من الله ؛ فإن التكاليف إن جاءت من بشر لبشر ، فأنت لا تنفذ التكليف من البشر إلا إن أقنعك بحكمته وعلته ؛ لأن التكليف يأتى من مساوٍ لك ، ولا توجد عقلية أكبر من عقلية ، وقد تقول لمن يكلفك : ولماذا أكون تبعا لك وأنت لا تكون تبعا لى ؟ إنك إذا أردت أن تكلفنى بأمر من الأمور وأنت مساو لى فى الإنسانية والبشرية وعدم العصمة فلا بد أن تقنعنى بحكمة التكليف .

أما إن كان التكليف من أعلى وهو الحق سبحانه وهو الله الذى آمنا بقدرته وعلمه وحكمته وتنزهه عن الغرض العائد عليه فالمؤمن فى هذه الحالة يأخذ الأمر قبل أن

يبحث فى الحكمة ؛ لأن الحكمة فى هذا الأمر أنه صادر من الله ، وحين ينفذ المؤمن التكليف الصادر من الله فسيعلم سر هذه الحكمة فيما بعد ؛ فأسرار الحكم عند الله تأتى للمؤمن بعد أن يقبل على تنفيذ التكاليف الإيمانية .

إن الحق سبحانه ـ على سبيل المثال ـ لا يقنع العبد بأسرار الصوم ، ولكن إن صام العبد المؤمن كما قال الله وعند ممارسة المؤمن لعبادة الصوم سيجد أثر حكمة الصوم فى نفسه بما لا يمكن إقناعه به أولا . إن المؤمن حين يفعل التكليف الإيمانى فإن الله يعلمه حكمة التكليف.ولنا فى قوله سبحانه الدليل الواضح :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٢٩ ﴾

(سورة الأنفال)

إن الله سبحانه يَعِدُ عباده المؤمنين أنهم عندما يتقونه فإنه يجعل لهم دلائل تبين لهم الحق من الباطل ويستر عنهم السيئات ويغفر لهم . لماذا ؟ لأن الله الذى يعلمنا هو الحق سبحانه العليم بكل شىء . وعلم الله ذاتى ، أما علم الإنسان فقد يكون أثرا من ضغط الأحداث عليه فيفكر الإنسان فى تقنين شىء يخرجه مما يكون فيه من شر ، ولكن علم العليم الأعلى سابق على ذلك لأنه علم ذاتى .

وفيما سبق علمنا أن الله سبحانه وتعالى قد أعطى الدِّين هذه العناية ليضمن للحياة حركتها الطاهرة ، حركتها السليمة ؛ لأن المعدم لا وسيلة له فى حركة الحياة إلا أمور ثلاثة ، الأمر الأول : الرِّفْدُ أى عطاء تطوعى يستعين به على حركة الحياة . والأمر الثانى : الفرض الذى فرضه الله فى الزكاة . والأمر الثالث : القرض الذى شرعه .

فعندما لا يجد المؤمن المعدم الرفد أو الفرض فماذا يكون بعد ذلك ؟ إنه القرض . إذن فالقرض هو المفزَع الثالث للحركة الاقتصادية عند المعدمين . وعرفنا أن القرض عند الله يفوق ويعلو الصدقة فى الثواب ؛ لأن الصدقة حين تتصدق بها تكون قد خرجت من نفسك من أول الأمر فلا مشغولية لذهنك بعد ذلك ، ولكن القرض

نفسك تكون متعلقة به ؛ لأنك لا تزال مالكاً له ، وكلما صبرت عليه أخذت ثواباً من الله على كل صبرة تصبرها على المدين .

وعرفنا كذلك أن الحق سبحانه وتعالى قد استوثق لعملية الدَّيْن استيثاقا يجب أن نفهمه من وجهيه ، الوجه الأول : أنه يحفظ بذلك ثمرة حركة المتحرك فى الحياة ، وهى أن يتمول ، أى أن يكون عنده مال ؛ فإن لم نَحْم له ثمرة حركته فى الحياة استهان بالحركة ، وإذا استهان بالحركة تَعطلت مصالح كثيرة ؛ لأن حركة المتحرك فى الحياة تنفع بشراً كثيرين قصد المتحرك ذلك أو لم يقصد ، وضربنا المثل بمن يريد بناء عمارة ، وعنده مال ، فيسلط الله عليه خاطراً من خواطره مصداقاً لقوله الحق :

﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾

(من الآية ٣١ سورة المدثر)

فيقول : ولماذا أكنز المال ؟ ولماذا لا أبنى عمارة أستفيد من إيجارها ؟ . وبذلك لا يتناقص المال بل يزيد . وليس فى بال ذلك الرجل أن ينفع أحداً . إن باله مشغول بأن ينفع نفسه ، لكن حركته وإن لم يقصد نفعَ الغير ستنفع الغير . . فالذى يحفر الأرض سيأخذ أجراً لذلك ، والذى يضرب الطوب سيأخذ أجراً لذلك ، وكل من يشترك فى عمل لإقامة هذا البنيان من بناء أو إدخال كهرباء أو توصيل مياه أو تحسين وتجميل كل واحد من هؤلاء سيأخذ أجره ، وبذلك يستفيد الجميع وإن لم يقصد المتحرك فى الحياة .

إذن فالحق يريد أن يحمى حركة المتحرك فى الحياة لأنه لو لم يحم الله ثمرة حركته فى الحياة ؛ لاكتفى المتحرك فى حركته بما يقوته ويقوت من يعول ، ويبقى الضعيف فى الحياة ؛ فمن ذا يعوله ؟ . إذن لابد أن نضمن للمتحرك ماله حتى يتشجع على الحركة إن الله الذى وهب الناس أرزاقهم ، عندما يطلب من القوى المتحرك أن يعطى أخاه الضعيف المحتاج قرضاً ، لا يقول الله : « اقرض المحتاج » ، ولكنه جل وعلا يقول :

﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾

(من الآية ٢٤٥ سورة البقرة)

إن الله سبحانه وتعالى قد احترم حركة الإنسان المتحرك فى الحياة وجعل المال مال المتحرك ، فلا يقول الله للمتحرك : اعط المحتاج من المال الذى وهبتك إياه . لا ، إنه مال المتحرك ، ويقول الله للمتحرك : اقرضنى لأن أخاك فى حاجة إليه ، كما نقول للتقريب لا للتشبيه ـ ولله المثل الأعلى ـ أنت تأخذ من حصالة ابنك لمصلحة أخيه ، وتعد ابنك الذى أخذت من حصالته أنك سوف تعطيه الكثير . والمال الذى أخذته من حصالة ابنك قرضا أنت الذى أعطيته له أولا .

إذن فالله يريد أن يحمى حركة الحياة ، وإن لم نحم حركة الحياة ، لا يكون كل إنسان آمناً على ثمرة حركته ، فستفسد الحياة كلها ويستشرى الضغن والحقد ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾ ﴾

(سورة محمد)

وساعة يتفشى الضغن فى المجتمع فلا فائدة فى هذا المجتمع أبداً . إذن فالحق حين يوثق الدَّيْن يريد أن يحمى حركة المتحرك ؛ لأن الناس تختلف فيما بينها فى الحركات الطموحية . ولا توجد الحركات الطموحية فى كل الناس ، بل توجد فى بعضهم ، فلنستغل حركة الطموح عند بعض الناس ؛ لأنهم سيفيدون المجتمع : قصدوا ذلك أو لم يقصدوا .

وبعد ذلك يريد الحق سبحانه وتعالى أن يحمى أيضاً الإنسان من نفسه ؛ لأنه إن علم أن الدَّيْن الذى عليه موثق ، ولا وسيلة لإنكاره حاول جاهداً أن يتحرك فى الحياة ليؤديه . وحين يتحرك الإنسان ليؤدى عن نفسه الدَّيْن فإن ذلك يزيد الحركة فى الحياة ، ويزداد النفع .

وهكذا نرى أن الله أراد بالتوثيق للدَّيْن حماية المدين من نفسه ؛ لأن المدين قد تطرأ عليه ظروف فيماطل ، وإذا ما ماطل فلن تكون الخسارة فيه وحده ، ولكنه

سيصبح أسوة عند جميع الناس وسيقول كل من عنده مال : لا أعطى أحداً شيئاً لأن فلاناً الغنى مثلى قد أعطى فلاناً الفقير وماطله وأكله ، وعند ذلك تتوقف حركة الحياة ولكن إذا كان الدين موثقا ومكتوبا فإن المدين يكون حريصا على أدائه . والله يريد أن يضمن لحركة الحياة دواماً واستمراراً شريفاً نظيفاً . ولذلك نجد فى آية الدَّين أن كلمة « الكتابة » ومادتها « الكاف والتاء والباء » تتكرر أكثر من مرة بل مرات كثيرة .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ۚ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْ ۚ وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ ۖ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ۗ وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ ۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ۚ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ ۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾ ﴾

(سورة البقرة)

وهذا التكرار فى هذه الآية لعملية الكتابة يؤصل العلاقة بين الناس ؛ فالكتابة هى عمدة التوثيق ، وهى التى لا تغش ، لأنك إن سجلت شيئاً على ورقة فلن تأتى الورقة لتنكر ما كتبته أنت فيها ، ولكن الأمر فى الشهادة قد يختلف ، فمن الجائز أن يخضع الشاهد لتأثير ما فينكر الحقيقة ، ولذلك فإن الحق يعطينا قضية إيمانية جديدة حين يقول : « أن يكتب كما علمه الله » أى أن يكتب الكاتب على وفق ما علمه الله ،

فكأنه لابد أن يكون فقيهاً عالماً بأمور الكتابة ، أو « كما علمه الله » أى أنّ الله أحسن إليه وعلمه الكتابة دون غيره ، فكما أحسن الله إليه بتعلم الكتابة فليحسن ولْيُعَدِّ أثر الكتابة إلى الغير .

وليست المسألة مسألة كتابة فقط ، إنما ذلك يشمل ويضم كل شىء أو موهبة خص الله بها فرداً من الناس من مواهب الله على خلقه ؛ فالمؤمن هو من يعمل على أن يعدى أثر النعمة والموهبة إلى الغير . وعليك أن تعدى أثر مواهب الغير إليك فتنفع بها سواك ، وبذلك يشيع الخير ويعم النفع لأنك إن أخذت موهبة فستأخذ موهبة واحدة تكفيك فى زاوية واحدة من زوايا حياتك ، وعندما تعديها للجميع وتنقلها إليهم فيعدى الجميع مواهبهم المجتمعة لمصلحتك ، فأيهما أكسب ؟

حين تعدى وتنقل موهبتك إلى الناس ، تكون أنت الأكثر كسباً ؛ لأن الجميع يعدون وينقلون مواهبهم إليك . وإذا أتقنت صنعتك للناس فالصنعة التى فى يدك واحدة ، وعندما تتقنها فإن الله يسلط جنود الخواطر على كل من يصنع لك شيئاً أن يتقنه ، كما أتقنت أنت لسواك . وبعد ذلك يعلمنا الحق سبحانه شدة الحرص على التوثيق فيقول :

﴿ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا۟ كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ ۖ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ ۗ وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾ ﴾

والسفر كما نعلم هو خروج عن رتابة الحياة فى الموطن ، ورتابة الحياة فى الموطن

تجعل الإنسان يعلم تمام العلم مقومات حياته ، لكن السفر يخرج الإنسان عن رتابة الحياة فلا يتمكن من كثير من الأشياء التى يتمكن بها فى الإقامة . فهب أنك مسافر ، واضطررت إلى أن تستدين ، ولا يوجد كاتب ولا يوجد شهيد ، فماذا يكون الموقف ؟

ها هو ذا الحق يوضح لك : « فرهان مقبوضة » . إذن فلم يترك الله مسألة الدَّيْن حتى فى السفر فلم يشرِّع فقط للإقامة ولكن الحق قد شرَّع أيضا للسفر « فرهان مقبوضة » وهكذا الكتابة ، والشهادة فى الإقامة والرهان المقبوضة فى السفر هدفها حماية الإنسان أمام ظروف ضغط المجتمع .

ولكن هل يمنع الحق سبحانه وتعالى طموحية الإيثار ؟ هل يمنع الحق سبحانه وتعالى رجولية التعامل ؟ هل يمنع الحق سبحانه وتعالى المروءات من أن تتغلغل فى الناس ؟ لا . إنه الحق سبحانه يقول : « فإن أمن بعضكم بعضاً فليؤد الذى اؤتمن أمانته » إنه الطموح الإيمانى ، لم يَسُدّ الله مسألة المروءة والإيثار فى التعامل . إن كتابة الدَّيْن والإشهاد والرهن ليس إلزاماً لأن الله قال : « فإن أمن بعضكم بعضاً فليؤد الذى اؤتمن أمانته » .

وأيضا قد نفهم أن الذى اؤتمن هو المدين ، وهنا نقول : لا ، إن الأمر مختلف ، فهنا رِهان ، وذلك معناه وجود مسألتين ، المسألة الأولى هى « الدَّيْن » ، والمسألة الثانية هى « الرهان المقبوضة » وهى مقابل الدَّيْن . فواحد مأمون على الرهن فى يده . والآخر مأمون على الدَّيْن . ولهذا يكون القول الحكيم مقصودا به من بيده الرهن ، ومن بيده الدَّيْن ومعنى ذلك أن يؤدى مَن معه الرهن أمانته ، وأن يؤدى الآخر دَيْنه . وحين نرتقى إلى هذا المستوى فى التعامل فإن وازع الإنسان ليس فى التوثيق الخارج عن ذات النفس ، ولكنه التوثيق الإيمانى بالنفس ، ولكن أنضمن أن يوجد التوثيق الإيمانى عند كل الناس ؟ .

أنضمن الظروف ؟ . نحن لا نضمن الظروف ، فقد توجد الأمانة الإيمانية وقت التحمل والأخذ ، ولا نضمن أن توجد الأمانة الإيمانية وقت الأداء فقد يأتى واحد ويقول لك : إن عندى مائة جنيه وخذها أمانة عندك .

ومعنى « أمانة » أنه لا يوجد صك ، ولا شهود ، وتكون الذمة هى الحكم ، فإن شئت أقررت بهذه الجنيهات المائة ، وإن شئت أنكرتها . إن الرجل الذى يفعل معك ذلك إنما يطلب منك توثيق المائة جنيه فى الذمة الإيمانية ، ومن الجائز أن تقول له لحظة أن يفعل معك ذلك : نعم سأحتفظ لك بالمائة جنيه بمنتهى الأمانة . وتكون نيتك أن تؤديها له ساعة أن يطلبها ، ولكنك لا تضمن ظروف الحياة بالنسبة لك ، وأنت كإنسان من الأغيار . ومن الجائز أن تضغط عليك الحياة ضغطا يجعلك تماطل معه فى أداء الأمانة ، أو يجعلك تنكرها ، فتقول لمن ائتمنك :

ابعد عنى ؛ أنا لا أملك نفسى فى وقت الأداء ، وإن ملكت نفسى وقت التحمل . والأمانة هى القضية العامة فى الكون ، وإن كانت خاصة الآن بالنسبة للآية الكريمة التى نحن بصددها والحق ـ سبحانه ـ يعرضها بعمومها على الكون كله فيقول ـ جل شأنه ـ :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾

(سورة الأحزاب)

إن الكون كله أشفق على نفسه من تحمل الأمانة وهذا يعنى أن الأمانة سوف تكون عرضة للتصرف والاختيار ، ولا كائن فى الكون قد ضمن لنفسه القدرة على الوفاء وقت الأداء . لقد أعلنت الكائنات قولها فأبين تحمُّل الأمانة وكأنها قالت : إنّا يا ربنا نريد أن نكون مسخرين مقهورين لا اختيار لنا ؛ ولذلك نجد الكون كله يؤدى مهمته كما أرادها الله ، ماعدا الإنسان ، أى أنه الذى قبل بما له من عقل وتفكير أن يتحمل أمانة الاختيار ، وبلسان حاله أو بلسان مقاله قال : إننى قادر على تحمل الأمانة ؛ لأنى أستطيع الاختيار بين البدائل .

وهنا نُذَكِّر الإنسان : إنك قد تكون قوياً لحظة التحمل ، ولكن ماذا عن حالك وقت الأداء ؟ لذلك قال الله عن الإنسان : « وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً » لقد ظلم الإنسان نفسه حيث حمل الأمانة ولم يف بها فلذلك فهو ظلوم . وهو جهول لأنه قَدّر وقت التحمل ، ولم يقدّر وقت الأداء ، أو ضمنها ثم خاس وخالف ما عاهد نفسه على أدائها .

إذن فالإنسان وإن كان واثقاً أنه سيؤدى الأمانة إلاّ أنه عرضة للأغيار ، لذلك قال الحق سبحانه : « ولا تسأموا أن تكتبوه صغيراً أو كبيراً إلى أجله ذلكم أقسط عند الله » فالكتابة فرصة ليحمى الإنسان نفسه من الضعف وقت الأداء ، فالله سبحانه وتعالى يريد أن يوثق الأمر توثيقاً لا يجعلك أيها العبد خاضعاً لذمتك الإيمانية فقط ، ولكنّك تكون خاضعاً للتوثيق الخارج عن إيمانيتك أيضا ، وذلك يكون بكتاب الدين صغيرا أو كبيرا إلى أجله .

ويقول الحق سبحانه : « ولا تكتموا الشهادة » وهذه الكلمة « ولا تكتموا » إنما هى أداء معبر ، لأن كلمة « شهادة » تعنى الشىء الذى شهدته ، فمادمت قد شهدت شيئاً فهو واقع ، والواقع لا يتغير أبداً ، ولذلك فالإنسان الذى يحكى لك حكاية صدق لا يختلف قوله فى هذه الحكاية حتى وإن رواها ألف مرة ؛ لأنه يستوحى واقعاً .

لكن الكذّاب يستوحى غير واقع ، فيقول كلمة ، وينسى أنه كذب من قبل فيكذب كذبة أخرى ؛ لأنه لا يستوحى واقعاً . فكلمة الشهادة هى عن أمر مشهود واقع ، ومادام الأمر مشهوداً وواقعاً ، فإنه يلح على نفس من يراه أن يخرج ، فإياك أن تكبته بالكتم ؛ لأن كلمة « الكتم » تعنى أن شيئاً يحاول أن يخرج وأنت تحاول كتمانه ، لذلك يقول الحق : « ولا تكتموا الشهادة » فكأن الطبيعة الإيمانية الفطرية تلح على صاحبها لتنطقه بما كان مشهوداً له لأنه واقع .

لذلك يأتى الأمر من الحق ؛ « ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنه آثم قلبه » . وقد يسأل الإنسان : هل الكتم هنا صفة للقلب أو للإنسان الذى لم يقل الشهادة ؟ .
إن الشاعر يقول :

إن الكلام لفى الفؤاد وإنما
جعل اللسان على الفؤاد دليلاً

وساعة يؤكد الله شيئا فهو يأتى بالجارحة التى لها علاقة بهذا الصدد ، فتقول : أنا رأيته بعينى وسمعته بأذنى ، وأعطيته بيدى ومشيت له برجلى . إنّك تذْكر الجارحة التى لها دخل فى هذه المسألة .

وعندما يقول الحق : « فإنه آثم قلبه » إنّ كل الجوارح تخضع للقلب : « والله بما تعملون عليم » أى أن كتمك للحقيقة لن يغير من واقع علم الله شيئاً ، وحينما تنتهى مسألة المداينة والتوثيق فيها وظروفها سواء كانت فى الموطن العادى أو فى أثناء السفر فإن الله يضمن للإنسان المتحرك فى الحياة حركة شريفة وطاهرة .

فإن لم تكن هذه فالمصالح تتوقف ، ويصيبها العطل ، فالذى لا يقدر على الحركة فماذا يصنع فى الحياة ؟ . إن قلبه يمتلىء بالحقد على الواجد ، وحين يمتلىء قلبه بالحقد على الواجد فإنه يكره النعمة عنده ، وحين يكره المعدم النعمة عند أخيه الواجد، فالنعمة نفسها تكره أن تذهب إلى مَن كره النعمة عند أخيه . إنها مسائل قد رتبها الحق سبحانه بعضها متعلق بالبعض الآخر .

إن النعمة تحب المُنعَم عليه ـ بضم الميم وفتح العين ـ أكثر من حب المنعِم عليه للنعمة وتذهب إلى من أنعم الله عليه بها بعشق ، فمن كره النعمة عند منعَم عليه فالنعمة تستعصى عليه حتى كأنها تقول له : لن تنال منى خيراً.وليجربها كل إنسان .

أحبب النعمة عند سواك فستجد نعمة الكل فى خدمتك ، إنك إنْ أحببت النعمة عند غيرك فإنها تأتى إليك لتخدمك . وأيضاً فعلى المؤمن أن يعرف أن بعض النعم ليست وليدة كد وجهد ، قد تكون النعمة مجرد فضل من الله ، يفضل به بعض خلقه ، فحين تكرهها أنت عند المنعَم عليه تكون قد اعترضت على قدر الله فى النعمة . وحين تعترض على قدر الله فى النعمة فإن الحق ـ سبحانه ـ لا يجعلك تنتفع منها بشىء .

فإن رأيت قريباً حبس نعمته عن أقاربه فاعلم أنهم يكرهون النعمة عنده . ولو أحبوها لسعت النعمة إليهم . إن المنهج الإلهى يريد أن يجعل الناس كتلة متكافلة متكاملة بحيث إذا رأيت أنا النعمة عندك ونلت منها ، أحببتها عندك ، وحين أحب النعمة عندك فإن العطاء يجىء من هذه النعمة إلىّ ، ولا تجد فارقاً بين واجد ومعدم . إنك لا تجد فارقاً بين واجد ومعدم إلا فى مجتمع لا يؤدى حكم الله فى شىء .

لقد قلنا ذلك فى مجال اضطرار الإنسان إلى الربا لأنه لم يجد من يقرضه قرضاً حسناً ، ولم يجد من يؤدى فرض الله له من الزكاة لتسع حاجته فاضطر أن يأخذ بالربا ، وبذلك يدخل المجتمع الربوى فى حرب مع الله ، وهل لأحد جلد على أن يدخل فى حرب مع الله ؟ لا . والمجتمع الربوى يدخل فى حرب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ الربا وقال فى حجة الوداع : « إن كل ربا موضوع ولكن لكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تُظلمون قضى الله أنه لا ربا وإن ربا عباس بن عبدالمطلب موضوع كله » .

وتلك سمة سمو التشريع السماوى ، إن التشريع البشرى يحمى به صاحبه أقاربه من التقنين ، لكن التشريع السماوى يفرض تطبيقاته أولا على الأقارب . وكان الأسوة فى ذلك سيدنا عمر بن الخطاب ، فساعة يريد عمر أن يضع التشريع فإنه يجمع أهله وأقاربه ويقول :

ـ سأقوم بعمل كذا وكذا فوالذى نفسى بيده من خالفنى فى شىء من هذا لأجعلنَّه نكالاً للمسلمين . ويعلنها عمر أمام الناس ، ولماذا أعلن عمر ذلك ؟ ؛ لأن كثيرا من الناس يجاملون أولياء الأمور ، وقد لا يكون أولياء الأمور على دراية بذلك ؛ فقد نجد واحداً يدخل على قوم على أساس أنه فلان بن فلان ، وبالرعب يقضى هذا الإنسان مصالحه عند الناس برغم أنف الناس . وقد يكون ولى الأمر لا يعرف عن مثل هذا التصرف شيئاً .

لكن حين يعلن ولى الأمر على الناس ولأقاربه أنه لا تفرقة أبداً فيما يقنن وأن القانون سائر على نفسه وعلى أهله فمن استغل اسماً لولى الأمر أو اصطنع شيئاً فالتبعة على من فعل له وعليه ، وبذلك تستقيم الأمور . لكن أن تظهر الحقائق فى استغلال أقارب الحكام بعد انتهاء فترات حكم الحكام ، فهنا نقول : ولماذا لم نعرف كل شىء من البداية ؟. وأين كانت الحقائق فى وقتها ؟.

إن الحاكم المسلم عليه أن يعلن للمحكومين أن القوانين إنما تُطبق عليه أولاً وعلى

من يعول . هكذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع (وربَا الجاهلية موضوع ، وأول ربا أضع رِبَانا ، رِبَا عباس بن عبدالمطلب فإنه موضوع كله)[1] .

وفى معركة بدر ، أخرج الرسول صلى الله عليه وسلم أهل بيته ليحاربوا ؛ لأنه لو لم يخرج أحداً من أهل بيته لقال واحد من الكفار : إنه يحمى أهل بيته ، ولو أن أجر الاستشهاد هو الجنة فلماذا يقدم الأباعد ولا يقدم أحبابه للقتال ؟

لكن ها هو ذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقدم أقاربه وأحبابه ، فهو العارف من ربه بأمر الشهادة وكيف أنها تقصر على الإنسان متاعب الحياة وتدخله الجنة . هكذا كانت المحاباة فى صدر الإسلام ، إنها محاباة فى الباقى ، ولم تكن كمحاباة الحمقى فى الفانى .

وحين يعلمنا الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك ويضرب على أيدى المرابين فهذه هى الحرب التى يجب أن تقوم ، حرب من الله المالك القادر على المحاربة ، أما الضعاف الذين لا يستطيعون القتال فهم لا يحاربون ؛ لأنهم أمام خالقهم وقاهرهم فلا يقدرون على حربه ولذلك يجب أن تتنبه الدولة إلى مثل هذه الأمور وتقنن تقنينا إسلامياً وبعد ذلك إذا لم تتسع الزكاة المفروضة إلى ما يقوم بأود المحتاجين فلتفرض الدولة ما تشاء لتفى بحاجة المحتاجين .

والحق سبحانه وتعالى بعد أن أوضح الأمر عقيدة فى قوله : « الله لا إله إلا هو الحى القيوم » ، وتقنيناً للعقيدة فى قوله : « لا إكراه فى الدين » ، وحماية للعقيدة بأمره سبحانه المؤمنين أن يقاتلوا لتكون كلمة الله هى العليا ، وبعد ذلك تكلم الحق عن حماية حركة الاقتصاد فى الإنفاق أولاً فى سبيل الله ، والإنفاق على المحتاجين . يقول سبحانه بعد ذلك .

﴿ لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ

---

(١) رواه مسلم فى خطبة الوداع فى حجة الوداع .

أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾

استهلت الآية بتقديم « لله » على ما فى السماوات وما فى الأرض ، والحق سبحانه يقول : « لله ما فى السماوات وما فى الأرض » ذلك هو الظرف الكائنة فيه المخلوقات ، السماوات والأرض لم يدع أحد أنها له ، لكن قد يوجد فى السماوات أو فى الأرض أشياء يدعى ملكيتها المخلوقون ، فإذا ما نظرنا إلى خيرات الأرض فإننا نجدها مملوكة فى بعض الأحيان لأناس بما ملكهم الله ، والبشر الذين صعدوا إلى السماء وأداروا فى جوها ما أداروا من أقمار صناعية ومراكب فضائية فمن الممكن أن يعلنوا ملكيتهم لهذه الأقمار وتلك المراكب .

ويلفتنا الحق سبحانه هنا بقوله : « لله ما فى السماوات وما فى الأرض » وهو يوضح لنا : إنه إن كان فى ظاهر الأمر أن الله قد أعطى ملكية السببية لخلقه فهو لم يعط هذه الملكية إلا عَرَضاً يؤخذ منهم ، فإما أن يزولوا عنه فيموتوا ، وإما أن يزول عنهم فيؤخذ منهم عن بيع أو هبة أو غصب أو نهب .

وكلمة « لله » تفيد الاختصاص ، وتفيد القصر ، فكل ما فى الوجود أمره إلى الله ، ولا يدعى أحد بسببية ما آتاه الله أنه يملك شيئا لماذا ؟ لأن المالك من البشر لا يملك نفسه أن يدوم .

نحن لم نر واحداً لم تنله الأغيار ، ومادامت الأغيار تنال كل إنسان فعلينا أن نعلم أن الله يريد من خلقه أن يتعاطفوا ، وأن يتكاملوا ، ويريد الله من خلقه أن يتعاونوا ، والحق لا يفعل ذلك لأن الأمر خرج من يده ـ والعياذ بالله ـ لا ، إن الله يبلغنا : أنا لى ما فى السماوات وما فى الأرض ، وأستطيع أن أجعل المسألة دولاً بين الناس .

ولذلك نقول للذين يَصلون إلى المرتبة العالية فى الغنى ، أو الجاه ، أو أى مجال ، لهؤلاء نقول : احذر حين تتم لك النعمة ، لماذا ؟ لأن النعمة إن تمت لك علواً وغنىً وعافيةً وأولاداً ، أنت من الأغيار ، ومادامت قد تمت وصارت إلى النهاية وأنت لاشك من الأغيار ، فإن النعمة تتغير إلى الأقل . فإذا ما صعد إنسان إلى القمة وهو متغير فلا بد له أن ينزل عن هذه القمة ، ولذا يقول الشاعر :

إذا تم شيء بدا نقصه ... ترقب زوالاً إذا قيل تم

والتاريخ يحمل لنا قصة المرأة العربية التى دخلت على الخليفة وقالت له : أتم الله عليك نعمته . وسمعها الجالسون حول الخليفة ففرحوا ، وأعلنوا سرورهم ، لكن الخليفة قال لهم : والله ما فهمتم ما تقول ، إنها تقول : أتم الله عليك نعمته ، فإنها إن تمت تزول ؛ لأن الأغيار تلاحق الخلق . وهكذا فهم الخليفة مقصد المرأة .

والشاعر يقول :

نفسى التى تملك الأشياء ذاهبة
فكيف آسى على شيء لها ذهبا

إن النفس المالكة هى نفسها ذاهبة ؛ فكيف يحزن على شيء له ضاع منه ؟

والحق سبحانه يطلب منا أن نكون دائما على ذكر من قضية واضحة هى : أن الكون كله لله ، والبشر جميعا بذواتهم ونفوسهم وما ظهر منها وما بطن لا يخفى على الله ، والحق سبحانه لا يحاسبنا على مقتضى ما علم فحسب ، بل يحاسبنا على ما تم تسجيله علينا .

إن كل إنسان يقرأ كتابه بنفسه . . فسبحانه يقول :

﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

والحساب معناه أن للإنسان رصيدا ، وعليه أيضا رصيد . والحق سبحانه وتعالى يفسر لنا (له وعليه) بالميزان كما نعرف فى موازين الأشياء عندنا وهو سبحانه يقول :

﴿ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

إن حساب الحق دقيق عادل ، فالذين ثقلت كفة أعمالهم الحسنة هم الذين يفوزون بالفردوس ، والذين باعوا أنفسهم للشيطان وهوى النفس تثقل كفة أعمالهم السيئة ، فصاروا من أصحاب النار .

إذن نحن أمام نوعين من البشر ، هؤلاء الذين ثقلت كفة الخير فى ميزان الحساب ، وهؤلاء الذين ثقلت كفة السيئات والشرور فى ميزان الحساب . فماذا عن الذين تساوت الكفتان فى أعمالهم . استوت حسناتهم مع سيئاتهم ؟ إنهم أصحاب الأعراف ، الذين ينالون المغفرة من الله ؛ لأن مغفرة الله وهو الرحمن الرحيم قد سبقت غضبه جل وعلا . ولو لم يجىء أمر أصحاب الأعراف فى القرآن لقال واحد : لقد قال الله لنا خبر الذين ثقلت موازينهم ، وأخبار الذين خفت موازين الخير عندهم ، ولم يقل لنا خبر الذين تساوت شرورهم مع حسناتهم .

لكن الحليم الخبير قد أوضح لنا خبر كل أمر وأوضح لنا أن المغفرة تسبق الغضب عنده ، لذلك فالحساب لا يكتفى الحق فيه بالعلم فقط ، ولكن بالتسجيل الواضح الدقيق ، لذلك يطمئننا الحق سبحانه فيقول :

﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

إن الحق يطمئننا على أن ما نصنعه من خير نجده فى كفة الميزان ، ويطمئننا أيضا على أنه ـ سبحانه ـ سيجازينا على ما أصابنا من شر الأشرار وأننا سنأخذ من حسناتهم

لتضاف إلى ميزاننا ، إذن فالطمأنينة جاءت من طرفين : طمأننا الحق على ما فعلناه من خير ، فلا يُنسى أنه يدخل فى حسابنا ، وطمأننا أيضا على ما أصابنا من شر الأشرار ، وسيأخذ الحق من حسناتهم ليضيفها لنا .

ونحن نجد فى الكون كثيراً من الناس قد يحبهم الله لخصلة من خصال الخير فيهم ، وقد تكون هذه الخصلة الخيّرة خفيّة فلا يراها أحد ، لكن الله الذى لا تخفى عليه خافية يرى هذه الخصلة فى الإنسان ، ويحبه الله من أجلها ، ويرى الحق أن حسنات هذا الرجل قليلة ، فيجعل بعض الخلق يصيبون هذا الرجل بشرورهم وسيئاتهم حتى يأخذ من حسنات هؤلاء ليزيد فى حسنات هذا الرجل .

ومعنى « تبدوا ما فى أنفسكم » أى تصيروا الوجدانيات إلى نزوعيات عملية ، ولكن هل معنى « أو تخفوه » هو ألا تصيروا الوجدانيات النفسية إلى نزوعيات عملية ؟ لا ، فليس لكل شىء نزوع عملى ، ومثال ذلك الحب ؛ إن الإنسان قد يحب ، ولا يجد القدرة على النزوع ليعلن بهذا النزوع أنه محترق فى حبه ، وكذلك الذى يحقد قد لا يجد القدرة على النزوع ليعلن بهذا النزوع عن حقده ، إذن فهناك أعمال تستقر فى القلوب ، فهل يؤاخذ الله بما استقر فى النفوس ؟

إن هذه المسألة تحتاج إلى دقة بالغة ؛ لأننا وجدنا بعضا من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم قد وقفوا فيها موقفا أبكى بعضهم ، هذا عبدالله بن عمر رضى الله عنهما حينما سمع هذه الآية قال : لئن آخذنا الله على ما أخفينا فى نفوسنا لنهلكن . وبكى حتى سُمع نشيجه بالبكاء . وبلغ ذلك الأمر ابن عباس فقال : يرحم الله أبا عبدالرحمن لقد وجد إخوانُه المسلمون مثلما وجد من هذه الآية . فأنزل الله بعدها « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها » إلى آخر السورة .

ولنعلم أن نوازع النفس كثيرة ؛ فهناك شىء اسمه « هاجس » وهناك شىء آخر اسمه « خاطر » وهناك ما يسمى « حديث نفس » ، وهناك « هم » وهناك « عزم » ، إنها خمس حالات ، والأربع الأولى من هذه الحالات ليس فيها شىء ، إنما الأخيرة التى يكون فيها القصد واضحا يجب أن نتنبه لها ولنتناول كل حالة بالتفصيل .

إن الهاجس هو الخطرة التى تخطر دفعة واحدة ، أما الخاطر فهو يخطر . . أى يسير فى النفس قليلا ، وأما حديث النفس فإن النفس تظل تتردد فيه ، وأما الهم فهو استجماع الوسائل ، وسؤال النفس عن كل الوسائل التى ينفذ بها الإنسان رغباته ، أما العزم (القصد) فهو الوصول إلى النهاية والبدء فى تنفيذ الأمر.

والقصد هو الذى يُعنى به قوله تعالى : « وإن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله » وقد وجدنا كثيرا من العلماء قد وقفوا عند هذا القول وتساءل بعض من العلماء : هل الآية التى جاءت بعد ذلك والتى يقول فيها : « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها » هل هى نسخ للآية السابقة عليها ؟

ولكن نحن نعرف أن الآية هى خبر ، والأخبار لا تنسخ إنما الأحكام هى التى يتم نسخها ، وعلى ذلك يكون القصد والعزم على تنفيذ الأمر هو المعنى بقوله الحق : « وإن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله » فهذا هو الذى يحاسبنا الله عليه .

وعندما يقول الحق سبحانه : « فيغفر لمن يشاء » فمن هم ؟ لقد بين الله من يشاء المغفرة لهم ، إنهم الذين تابوا ، وهم الذين أنابوا إلى الله ، هم الذين قال فيهم الحق :

﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾

(سورة الفرقان)

وتبديل المغفرة حسنة مسألة يجب أن يقف عندها الإنسان المكلف من الله وقفة ليرى فضل الله ، لأن الذى صنع سيئة ثم آلمته ، فكما آلمته السيئة التى ارتكبها وحزن منها ، فإن الله يكتب له حسنة . ولكن الذى لم يصنع سيئة لا تفزعه هذه ، وبعض العارفين يقول : رُبَّ معصية أورثت ذلا وانكسارا خير من طاعة أورثت عزا واستكبارا .

إنك لتجد الخير الشائع فى الوجود كله ربما كان من أصحاب الإسراف على أنفسهم فى شىء ما قد اقترفوه وتابوا عنه ولكنه لا يزال يؤرقهم .

يكون الواحد منهم قويا فى كل شىء ، إلا أنه ضعيف أمام مسألة واحدة ، وضعفه أمام هذه المسألة الواحدة جعله يعصى الله بها وهو يحاول جاهداً فى النواحى التى ليس ضعيفاً فيها أن يزيد كثيراً فى حسناته ، حتى يمحو ويذهب الله هذه بهذه . فالخير الشائع فى الوجود ربما كان من أصحاب السيئات الذين أسرفوا على أنفسهم فى ناحية من النواحى ، فيشاء الله سبحانه وتعالى أن يجعلهم متجهين إلى نواحٍ من الخير قائلين : ربما هذه تحمل تلك .

لكن الذى يظل رتيباً هكذا لا تلذعه معصية ربما تظل المسائل فاترة فى نفسه . ولذلك يجب أن ننظر إلى الذين أسرفوا على أنفسهم لا فى زاوية واحدة ، ولكن فى زوايا متعددة ، ونتأدب أمامهم وندعو الله أن يعفيهم مما نعرفه عنهم ، وأن يبارك لهم فيما قدموه ؛ ليزيل الله عنهم أوزار ما فعلوا .

وبعض العلماء يرى فى قوله الحق : « فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء » أن الله قد جعل المغفرة أمراً متعلقاً بالعابد لله ، فإن شئت أن يغفر الله لك فأكثر من الحسنات حتى يبدل الله سيئاتك إلى حسنات . وإن شئت أن تعذب ـ وهذا أمر لا يشاؤه أحد ـ فلا تصنع الحسنات .

وهذه المسألة تجعلنا نعرف أن الحق سبحانه وتعالى حين يطلب منا الإيمان به فإنه يُملكنا الزمام . وبمجرد إيماننا به فنحن نتلقى منه زمام الاختيار ، والدليل واضح فى الحديث القدسى : عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله ـ عز وجل ـ :

« أنا عند ظن عبدى بى ، وأنا معه حين يذكرنى . إن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، وإن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأهم خيرٌ منهم وان تقرب منى شبرا تقربت إليه ذراعا ، وإن تقرب إلىّ ذراعا ، تقربت منه باعا ، وإن أتانى يمشى أتيته هَرْوَلَةً »[1] .

إذن فبمجرد إيمانك ملكك الله الزمام ، فإن أردت أن يتقرب الله إليك ذراعا ،

---

(١) رواه مسلم عن أبى هريرة فى كتاب الذكر .

فتقرب أنت إليه شبرا ، فالزمام فى يدك . وإن شئت أن يتقرب الله منك باعا ، فتقرب أنت ذراعا . وإن شئت أنت أن يأتى ربك إليك مهرولاً ـ جرياً ـ فأت إليه مشيا . فبمجرد أن يراك الله وأنت تقبل وتتجه إليه ، كأنه يقول لك : لا . . استرح أنت ، أنا الذى آتى إليك .

ولذلك قلنا من قبل فى مسألة الصلاة حين تؤمن ـ أيها العبد ـ بالله وبعد ذلك ينادى المؤذن للصلاة ، فتذهب أنت إلى الصلاة ، صحيح أنت تذهب إلى الصلاة المفروضة ، لكن هل منعك الله أن تقف بين يديه فى أية لحظة ؟ . لقد طلب الله منك أن تحضر بين يديه خمس مرات فى اليوم ، وبعد ذلك ترك الباب مفتوحاً لك ـ أيها المؤمن ـ فالله لا يمل حتى يمل العبد .

والإنسان فى حياته العادية ـ ولله المثل الأعلى ـ إذا أراد أن يقابل عظيماً من العظماء فإن الإنسان يطلب الميعاد ، فإما أن يقبل العظيم من البشر لقاء من يطلب الميعاد أو يرفض . وإذا قبل العظيم من البشر لقاء من يطلب الميعاد ، فإن العظيم من البشر يحدد الزمن ، ويحدد المكان ، وربما طلب العظيم من البشر أن يعرف سبب وموضوع المقابلة . لكن الله يترك الباب مفتوحاً أمام العبد المؤمن ، يلقى الله عبده فى أى شىء ، وفى أى وقت ، وفى أى مكان ، وفى أى زمان .

حسب نفسى عزاً بأنَّ عبد ... يحتفى بى بلا مواعيد ربُّ
هو فى قدسه الأعز ولكن ... أنا ألقى متى وأين أحبُّ

الزمام إذن فى يد من ؟ . إن الزمام فى يد العبد المؤمن . لذلك فالذين قالوا فى فهم « فيغفر لمن يشاء » إن البشر فى أيديهم أمر المغفرة لهم ، فإن شاء البشر أن يغفر الله لهم فإنهم يفعلون أسباب المغفرة ، ويتوبون إلى الله ، ويكثرون من الحسنات ، ومن يريد أن يتعذب فليظل سادراً فى غيه فى فعل السيئات . ثم بعد ذلك يقول الله عز وجل :

﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ

كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾

عندما نتأمل هذه الآية الكريمة نجد أن الإيمان الأول بالله كان من الرسول صلى الله عليه وسلم : « آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه » . وبعد ذلك يأتى إيمان الذين بلغهم الرسول بالدعوة « والمؤمنون » . وبعد ذلك يمتزج إيمان الرسول بإيمان المؤمنين « كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير » .

أى أن كلا من الرسول والمؤمنين آمنوا بالله . إن الإيمان الأول هو إيمان الرسول صلى الله عليه وسلم ، والإيمان أيضاً من المؤمنين بالرسالة التى جاء بها الرسول بناءً على توزيع الفاعل فى « آمن » بين الرسول والمؤمنين . وبعد ذلك يجمعهما الله - الرسول والمؤمنين - فى إيمان واحد ، وهذا أمر طبيعى ، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم آمن بالله أولاً ، وبعد ذلك بلغنا الرسول صلى الله عليه وسلم وآمنا بالله وبه ثم امتزج الإيمان فصار إيماننا هو إيمان الرسول وإيمان الرسول هو إيماننا ، وهذا ما يوضحه القول الحق : « كل آمن بالله » .

إذن فالرسول فى مرحلته الأولى سبق بالإيمان بالله ، والرسول مطلوب منه حتى حين يؤمن بالله أن يؤمن بأنه رسول الله ، ألم يقل الرسول صلى الله عليه وسلم : أشهد أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ وكان الرسول إذا ما أعجبه أمر فى سيرته ذاتها يقول : أشهد أنى رسول الله . . إنّه يقولها بفرحة .

مثال ذلك ما روى عن جابر بن عبدالله رضى الله عنهما قال : « كان بالمدينة يَهودى وكان يسلفنى فى تمرى إلى الجذاذ ، وكان لجابر الأرض التى بطريق رومة فجلست[1]

(١) فجلست : تأخرت الأرض عن الإثمار ، وفى رواية : فخاست : أى خالفت ما كان معهوداً منها من التمر .

فخلا[١] عاما فجاءنى اليهودى عند الجذاذ[٢] ولم أجذ منها شيئا فجعلت أستنظره إلى قابل « أى أطلب منه أن يمهلنى إلى عام ثان » فيأبى فأخبر بذلك النبىّ صلى الله عليه وسلم فقال لأصحابه : امشوا نستنظر لجابر من اليهودى فجاءونى فى نخلى ، فجعل النبى ـ صلى الله عليه وسلم يكلم اليهودى فيقول (اليهودى) أبا القاسم ، لا أنظره فلما رأى النبى صلى الله عليه وسلم قام فطاف فى النخل ثم جاءه فكلمه فأبى ، فجئت بقليل رطب فوضعته بين يدى النبى صلى الله عليه وسلم فأكل ثم قال : أين عريشك يا جابر فأخبرته ، فقال : افرش لى فيه ففرشته ، فدخل فرقد ثم استيقظ فجئته بقبضة أخرى فأكل منها ، ثم قام فكلم اليهودى فأبى عليه ، فقام فى الرطاب فى النخل الثانية ثم قال يا جابر ، جذّ واقض فوقف فى الجذاذ فجذذْتُ منها ما قضيته ، وفضل منه فخرجت حتى جئت النبى صلى الله عليه وسلم فبشرته . فقال : أشهد أنى رسول الله[٣] .

والحق سبحانه وتعالى يشهد أن لا إله إلا هو :

﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

إذن فالله يشهد أن لا إله إلا هو ، ورسول الله يشهد أن لا إله إلا الله ، ويشهد أيضاً أنه رسول الله ، يبلغ ذلك للمؤمنين فيكتمل التكوين الإيمانى ، ولذلك يقول الحق عن ذلك : « كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله » . والحق يأتى بـ« كلٍ » ـ بالتنوين ـ أى كل من الرسول والمؤمنين .

ويورد لنا سبحانه عناصر الإيمان : « كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير » . ونحن نعرف أن الإيمان بالله وكل ما يتعلق بالإيمان لابد أن يكون غيباً ؛ فلا يوجد إيمان بمحس

(١) فخلا : تأخر السلف عاما .

(٢) الجذاذ (بكسر الجيم وفتحها وبالذال المعجمة ويجوز إهمالها) زمن قطع تمر النخل .

(٣) رواه البخارى فى الأطعمة ، ومسلم فى الإيمان .

أبداً . فالأشياء المحسة لا يدخلها إيمان ؛ لأنها مشهودة . وعناصر الإيمان فى هذه الآية هى :

إيمان بالله وهو غيب . وإيمان بالملائكة وهى غيب من خلق الله ، ولو لم يبلغنا الله أن له خلقاً هم الملائكة لما عرفنا ، إن الحق أخبرنا أنه خلق الملائكة وهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون وهم غيب ، ولولا ذلك لما عرفنا أمر الملائكة إيمان بالكتب والرسل .

وقد يقول قائل : هل الرسل غيب ؟ وهل الكتب السماوية غيب ؟ إن الرسل بشر ، والكتب مشهودة . ولمثل هذا القائل نقول : لا ، لا يوجد واحد منا قد رأى الكتاب ينزل على الرسول ، وهذا يعنى أن عملية الوحى للرسول بالكتاب هى غيب يعلمه الله ويؤمن به المؤمنون .

وكيف نؤمن بكل الرسل ولا نفرق بين أحد منهم ؟ . ونقول : إن الرسل المبلغين عن الله إنما يبلغون منهجاً عن الله فيه العقائد التى لا تختلف باختلاف العصور ، وفيه الأحكام التى تختلف باختلاف العصور ومواقع القضايا فيها .

إذن فالأصل العقدى فى كل الرسالات أمر واحد ، ولكن المطلوب فى حركة الحياة يختلف ؛ لأن أقضية الحياة تختلف ، وحين تختلف أقضية الحياة فإن الحق سبحانه ينزل التشريع المناسب ، لكن الأصل واحد والبلاغ من خالق لا إله إلا هو ، ولذلك يأتى القول الحكيم : « لا نفرق بين أحد من رسله » فنحن لا نفرق بين الرسل فى أنهم يبلغون عن الله ما تتفق فيه مناهج التبليغ من ناحية الاعتقاد ، وما تختلف من ناحية الأحكام التى تناسب أقضية كل عصر .

وبعد ذلك يقول الحق ؛ « وقالوا سمعنا وأطعنا » إذن السماع هو بلوغ الدعوة ، والطاعة هى انفعال بالمطلوب ، وأن يمتثل المؤمن أمراً ويمتثل المؤمن نهياً فى كل أمر يتعلق بحركة الكون . فالذين يريدون أن يعزلوا الدين عن حركة الحياة يقولون : إن الدين يهتم بالعبادات كالصلاة والصوم والزكاة والحج . وبعد ذلك يحاولون عزل حركة الحياة عن الدين .

لهؤلاء نقول : أنتم تتكلمون عما بلغكم من دين لم يجىء لينظم حركة الحياة ، وإنما جاء ليعطى الجرعة المفقودة عند اليهود وهى الجرعة الروحية ، لكن الدين الإسلامى جاء خاتماً للأديان منظماً لحركة الحياة ، فكل أمر فى الحياة وكل حركة فيها داخلة فى حدود الطاعة . ونحن حين نقرأ القرآن الكريم ، نجد القول الحكيم :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٩ ﴾

(سورة الجمعة)

إذن الحق سبحانه يأمر المؤمنين ويخرجهم من حركة من حركات الحياة إلى حركة أخرى ، فهو لم يأخذهم من فراغ ، إنما ناداهم لإعلان الولاء الجماعى ، وهو إعلان من كل مؤمن بالعبودية لله أمام بقية المخلوقات . وبعد أن يقضى المؤمنون الصلاة ماذا يقول لهم الحق سبحانه ؟ يقول لهم :

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝١٠ ﴾

(سورة الجمعة)

إذن فالانتشار فى الأرض هو حركة فى الحياة ، تماماً كما كان النداء إلى السعى لذكر الله . وهكذا تكون كل حركة فى الحياة داخلة فى إطار الطاعة ، إذن « سمعنا وأطعنا » أى سمعنا كل المنهج ، ولكن نحن حين نسمع المنهج ، وحين نطيع فهل لنا قدرة على أن نطيع كل المنهج أو أن لنا هفوات ؟ .

ولأن أحداً لن يتم كل الطاعة ولنا هفوات جاء قوله الحق : « غفرانك ربنا وإليك المصير » فالغاية والنهاية كلها عائدة إليك ، وأنت الإله الحق ، لذلك فنحن العباد نطلب منك المغفرة حتى نلقاك ، ونحن آمنون على أن رحمتك سبقت غضبك . ويقول الحق :

لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ
وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ
أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا
حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا
مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ
أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ

٢٨٦

« لا يكلف الله نفساً إلا وسعها » إنّه سبحانه لم يكلفكم إلا ما هو فى الوسع . لماذا ؟ لأن الأحداث بالنسبة لعزم النفس البشرية ثلاثة أقسام : القسم الأول : هو ما لا قدرة لنا عليه ، وهذا بعيد عن التكليف . القسم الثانى : لنا قدرة عليه لكن بمشقة أى يجهد طاقتنا قليلا . القسم الثالث : التكليف بالوسع . إذن « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها » أى أن الحق لا يكلف النفس إلا بتكليف تكون فيه طاقتها أوسع من التكليف ، كلف الحق كل مسلم بالصلاة خمسة فروض كل يوم ، وتملأ أوقاتها بالصلاة وكان من الممكن أن تكون عشرة ، بدليل أن هناك أناسا تتطوع وهو سبحانه كلف كل مسلم بالصوم شهراً ، ألا يوجد من يصوم ثلاثة أشهر ؟ ومثل هذا فى الزكاة ؛ فهناك من كان يخرج عن ماله كله لله ، ولا يقتصر على ما يجب عليه من زكاة .

إذن فهذا فى الوسع ، ومن الممكن أن تزيد ، إذن فالأشياء ثلاثة : شىء لا يدخل فى القدرة فلا تكليف به ، شىء يدخل فى القدرة بشىء من التعب ، وشىء فى الوسع ، والحق حين كلف ، كلف ما فى الوسع . ومادام كلف ما فى الوسع فإن

تطوعت أنت بأمر زائد فهذا موضوع آخر « فمن تطوع خيراً فهو خير له » مادمت تتطوع من جنس ما فرض .

إذن فالتكليف فى الوسع وإلا لو لم يكن فى الوسع لما تطوعت بالزيادة . فسبحانه يقول : « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها » ويأتى بعد ذلك ليعلمنا فيقول : « ربَّنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربَّنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به » ، وهو القائل : « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها » إذن ـ سبحانه ـ يكلفنا بما نقدر عليه ونطيقه .

فقد روى أن الله حينما سمع رسوله وسمع المؤمنين يقولون : « ربّنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا » قال سبحانه : قد فعلت .

وعندما قالوا : « ربّنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به » قال سبحانه : قد فعلت . ولم يكلفنا سبحانه إلا بما فى الوسع ، وهو القدر المشترك عند كل المؤمنين . وهناك أناس تكون همتهم أوسع من همة غيرهم ، ومن تتسع همته فإنه يدخل بالعبادات التى يزيد منها فى باب التطوع ، ومن لا تتسع همته فهو يؤدى الفروض المطلوبة منه فقط . وعندما يطرأ على الإنسان ما يجعل الحكم فى غير الوسع ؛ فإن الله يخفف التكليف ؛ فالمسافر تقول له الشريعة : أنت تخرج عن حياتك الرتيبة ، وتذهب إلى أماكن ليس لك بها مستقر ، لذلك يخفف الحق عليك التكليف ؛ فلك أن تفطر فى نهار رمضان ، ولك أن تُقصر الصلاة .

والحق سبحانه يعلم أن الوسع قد يضيق لذلك فإنه ـ جل شأنه ـ يخفف حكم التكليف ويمنح الرخص عند ضيق الوسع ، ومثال ذلك قوله الحق :

﴿ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ﴾

(من الآية ٦٦ سورة الأنفال)

كانت النسبة فى القتال قبل هذه الآية هى واحداً لعشرة ، وخففها الحق وجعلها

واحداً إلى اثنين لأن هناك ضعفا ، وهكذا نرى أنه سبحانه سيخفف التكليف إذا ما زاد عن الوسع . وكثير من الناس يخطئون التفسير ؛ فيقولون عن بعض التكاليف : إنها فوق وسعهم ولهؤلاء نقول : لا . لا تحدد أنت الوسع ، ثم تقيس التكليف عليه ، بل انظر هل كلفك أو لم يكلفك ؟ فإذا كان قد كلفك الحق فاحكم بأنه كلفك بما فى الوسع ، وكل تكاليف الرحمن تدخل فى الوسع « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت » .

و« لها » تفيد الملكية والاختصاص وهى ما تُفيد وتُكْسِبُ النفسَ ثوابا ، و« عليها » تفيد الوزر ، ونلاحظ أن كل « لها » جاءت مع « كسبت » ، وكل « عليها » جاءت مع « اكتسبت » إلا فى آية واحدة يقول فيها الحق :

﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ ﴾

(سورة البقرة)

وهنا وقفة فى الأسلوب ؛ لأن « كسب » تعنى أن هناك فرقاً فى المعالجة الفعلية الحدثية بينها وبين كلمة « اكتسبت » ، لأن « اكتسب » فيها « افتعل » أى تكلف ، وقام بفعل أخذ منه علاجاً ، أما « كسب » فهو أمر طبيعى إذن فـ« كسب » غير « اكتسب » وكل أفعال الخير تأتى كسباً لا اكتساباً .

مثال ذلك عندما ينظر الرجل إلى زوجته ، ويرى جمالها ، فهل هو يفتعل شيئاً ، أو أن ذلك أمر طبيعى ؟ إنه أمر طبيعى ، ولكن عندما ينظر الرجل إلى غير محارمه فإنه يرقب هل يرى أحد النظرة ؟ وهل رآه أحد من الناس ؟ وهل سينال سخرية واستهزاء على ذلك الفعل أو لا ؟ لماذا ؟ لأنه ارتكب عملاً مفتعلاً .

مثال آخر ، إنسان يأكل من ماله ، أو من مال أبيه ، إنه يأكل كأمر طبيعى ، أما من يدخل بستاناً ويريد أن يسرق منه فهو يتكلف ذلك الفعل ، ويريد أن يستر نفسه ، فصاحب الشر يفتعل ، أما صاحب الخير فإن أفعاله سهلة لا افتعال فيها . . فالشر هو الذى يحتاج إلى افتعال .

والمصيبة الكبرى ألا يحتاج الشر إلى افتعال ؛ لأن صاحبه يصير إلى بلادة الحس الإيمانى ، وتكون الشرور بالنسبة إليه سهلة ؛ لأنه تعود عليها كثيراً ، ويقول الحق : « بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته » إن الخطيئة تحيط به من كل ناحية ، ولم يعد هناك منفذ ، وهو لا يفتعل حتى صارت له ملكة فى الشر ؛ فاللص مثلاً فى بداية عمله يخاف ويترقب ، لكن عندما تصبح اللصوصية مهنته فإنه يحمل أدوات السرقة ويصير حسه متبلداً .

ففى المرحلة الأولى من الشر يكون أهل الشر فى حياء من فعل الشر ، وذلك دليل على أن ضمائرهم وقلوبهم مازال فيها بعض من خير ، لكن عندما يعتبرون الشر حرفة وملكة فهنا المصيبة ، وتحيط بكل منهم خطيئته وتطوقه ولا تجعل له منفذاً إلى الله ليتوب .

فالذى يلعب الميسر ، أو طوقته خطيئة الفحش قد يقول فرحاً : « كانت سهرة الأمس رائعة » ، أما الذى يرتكب الخطأ لأول مرة فإنه يقول : « كانت ليلة سوداء يا ليتها ما حدثت » ، ويظل يؤنب نفسه ويلومها ؛ لأنه تعب وأرهق نفسه ؛ لأنه ارتكب الخطأ .

إذن فقول الحق : « لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت » يوضح لنا أن فعل الشر هو الذى يحتاج إلى مجهود ، فإن انتقلت المسألة من اكتسبت إلى كسبت فهذه هى الطامة الكبرى ، ويكون قد أحاطت به خطيئته . ويكون على كل نفس ما اكتسبت . والعاقل هو من يكثر ما لنفسه ، لا ما عليها ؛ لأن الذى يقول ذلك هو الحق العالم المالك الذى إليه المصير ، فليس من هذا الأمر فِكاك . وبعد ذلك يقول الحق على لسان عباده المؤمنين : « ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا » ، ولقائل أن يقول : إن الرسول صلى الله عليه وسلم طمأننا ، فقال : (رفع عن أمتى الخطأ والنسيان ، وما استكرهوا عليه)[1] .

فكيف يأتى القرآن بشىء مرفوع عن الأمة الإسلامية ليدعو به الناس ربهم ليرفعه عنهم ؟ .

---

(١) رواه الطبرانى فى معجمه الكبير عن ثوبان .

على مثل هذا القائل نرد : هل قال لك أحد : إن رفع الخطأ والنسيان والاستكراه كان من أول الأمر ؟. لعل الرفع حدث بعد أن دعا الرسول والسابقون من المؤمنين ، فما دام قد رُفِعَ ـ بضم الراء وكسر الفاء وفتح العين ـ فمعنى ذلك أنه كان موجوداً ، إذن فلا يقولن أحد : كيف تدعو بشيء غير موجود . أو أن ذلك يدل على منتهى الصفاء الإيمانى ، أي الله يجب ألاّ يُعصى إلا خطأً أو نسياناً ، وأن الله لا يصح ولا يستقيم أن يُعصى قصداً ؛ لأن الذى يعرف قدر الله حقاً ، لا يليق منه أن يعصى الله إلا نسياناً أو خطأً ؛ لأن الخالق هو المنعم بكل النعم ، وبعد ذلك كلفنا ، وكان يجب ألا نقصد المعصية . ولذلك فالحق سبحانه وتعالى قد سمى ما حدث من آدم معصية مع أنه يقول :

﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ ﴾

(سورة طه)

وسمى الله النسيان فى قصة آدم معصية : « وعصى آدم ربه فغوى » فكان النسيان أولاً معصية ، ولكن الله أكرم أمة محمد ، فرفع عنها النسيان . وفى مسألة آدم هناك ملحظ يجب على المؤمن أن يتنبه إليه ؛ فآدم خُلِقَ بيد الله ، ونحن مخلوقون بقانون التكاثر ، وآدم تلقى التكليف من الله مباشرة وليس بواسطة رسول ، وكُلِّف بأمر واحد وهو ألا يأكل من الشجرة .

فإذا كان آدم مخلوقاً من الله مباشرة ومكلفاً من الله مباشرة ، ولم يكلف إلا بأمر واحد وهو ألا يقرب هذه الشجرة ، ولم تكن هناك تكاليف كثيرة فماذا نسى ؟ وماذا تذكر ؟ إنها معصية إذن . لقد كان النسيان بالنسبة لآدم معصية ؛ لأنه مخلوق بيد الله .

﴿ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ﴾

(من الآية ٧٥ سورة ص)

لذلك فلم يكن من المناسب أن ينسى هذا التكليف الواحد ، وما كان يصح له أن ينسى ، وَلَعلّ سيدنا آدم نُسِّىَ لحكمة يعلمها الله رُبَّما تكون ليعمر الأرض التى جعله الله خليفة فيها ؛ أما بالنسبة لأمة محمد فحينما نقول : « ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو

أخطأنا » فكأننا يارب نقدرك ، حق قدرك ، ولا نجترىء على عصيانك عمدا ، وإن عصينا فإنما يكون العصيان نسياناً أوْ خطأ ، وهذه معرفة لقدر الحق سبحانه وتعالى .

ولكن ما النسيان ؟ وما الخطأ ؟

أولاً فيه « أَخْطَأ » وفيه « خَطِىءَ » و« الخِطْء » لا يكون إلا إثما ؛ لأنه تعمد ما لا ينبغى ، فأنت تعلم قاعدة وتخطىء ، والذى أخطأ قد لا يعرف القاعدة ، فأنت تصوب له خطأه لأنه حاد عن الصواب .

ومثال ذلك : عندما تتعلم فى المدرسة أن الفاعل مرفوع ، والمفعول منصوب ، وفى وسط السنة يصححون لك القاعدة حتى تستقر فى ذهنك ، إنما فى أيام الامتحان أيصحح لك المدرس أم يؤاخذك ؟ إنه يؤاخذك ؛ لأنك درست طوال السنة هذه القاعدة ، إذن ففيه خَطِىء وفيه أخطأ ، فأخطأ مرة تأتى عن غير قصد ؛ لأنه لا توجد قاعدة أنا خالفتها ، أو لم أعرف القاعدة وإنما نطقت خطأ ؛ لأنهم لم يقولوا لى ، أو قالوا لى مرة ولم أتذكر ، أى لم تستقر المسألة كملكة فى نفسى ؛ لأن التلميذ يخطىء فى الفاعل والمفعول مدة طويلة ، وبعد ذلك ينضج وتصير اللغة ملكة فى نفسه إن كان مواظبا على صيانتها .

كان التلميذ فى البداية يقول : قطع محمد الغصن ، ولا يقولها مُشَكَّلةً ولكن يسكن الآخر فى نهاية نطقه لاسم محمد ، وساعة يتذكر القاعدة ينطقها « محمد » بالرفع وينطق « الغصن » بالنصب لماذا ؟ لأنه ترد ثلاث قواعد على ذهنه ، هذه فاعل والفاعل حكمة الرفع ، فهى مرفوعة ، فهو يمر بقضية عقلية ، لكن بعدما يمر عليها يقرأها صحيحة وقد لا يتذكر القاعدة ، فقد صارت المسألة ملكة لغوية عنده ، هذه الملكة اللغوية مثلما نقول: « صارت آلية » .

ومثال ذلك الصبى الذى يتعلم الخياطة ، انظر كم من الوقت يمر ليتعلم كيف يمسك بخيط ليدخله فى سم الإبرة ، وقد يضربه معلمه أكثر من مرة ليتعلمها ؛ وفتلة الخيط تنثنى منه لأنها طويلة فيقصرها ثم لا تدخل فى العين فيبرمها لتدخل ، إنه يأخذ وقتا كثيرا ثم يعمل الغرزة فتخرج غير منتظمة وبعد ذلك يظل مدة ، ثم يفعل كل

هذه الأعمال بتلقائية وهو يتكلم مع غيره ؛ لأن هذه الأعمال صارت ملكة ذاتية أى عملاً آليًا .

والتدريب على العمل الذهنى ـ حسب قواعد محددة مثل تعلم اللغة ـ نسميه ملكة . أما التدريب على عمل الجوارح ـ مثل إدخال الخيط فى سم الإبرة ـ نسميه آلية .

وعلى سبيل المثال فى العمل الذهنى عندما تسأل سؤالاً فى الفقه لطالب فى الأزهر فإنه يحتار قليلا إلى أن يتعرف على الباب الذى فيه إجابة للسؤال ، أما إذا سألت السؤال نفسه لعالم مدرب فبمجرد أن توجه له السؤال فإنه يقول لك الحكم والباب الذى فيه هذا الحكم ، لقد صار الفقه بالنسبة للعالم ملكة .

ويقول الحق من بعد ذلك : « ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا » والإصر هو الشيء الثقيل الذى يثقل على الإنسان ، ومثال ذلك الإصر الذى نزل على اليهود « إن أردتم التوبة فاقتلوا أنفسكم أو تصدقوا أو زكوا بربع أموالكم » لكن الله لم يعاملنا كما عامل الأمم السابقة علينا ، وعندما نقول : « ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به » فنحن نصدق أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « قال الله نعم »[1] ومعنى قال الله نعم أنه سبحانه وتعالى أجاب الدعاء برفع المشقة عن الأمة .

أى أن الله لن يحملنا ما لا طاقة لنا به . وعندما نقول : « واعف عنا » فنحن نتوجه إلى الله ضارعين : أنت يا حق تعلم أننا مهما أوتينا من اليقظة الإيمانية والحرص الورعى فلن نستطيع أن نؤدى حقك كاملاً ، ولذلك لا ندخل عليك إلا من باب أن تعفو عنا .

ومعنى العفو محو الأثر ، كالسائر فى الصحراء تترك قدماه علامة ، وتأتى الريح لتزيل هذا الأثر . كأن هناك ذنباً والذنب له أثر ، وأنت تطلب من الله أن يمحو الذنب .

وعندما تقول : « واغفر لنا » فأنت تعرف أن من مظاهر التكوين البشرى النية

(١) رواه الإمام مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة .

التى تريد أن تحول العزم إلى حيز السلوك والانفعال النزوعى ؛ فالمسألة تحتاج منك إلى تدريب ، ومثال ذلك ، عندما يذنب واحد فى حقك فلك أن ترد عليه الذنب بالذنب ، ولك أن تكظم الغيظ ، لكن يظل الغيظ موجوداً وأنت تحبسه ، ولك أن تعفو .

لكن ماذا عن مثل هذا الأمر بالنسبة للخالق الذى له كمال القدرة ؟ إن الله قد لا يعذب العبد المذنب ولكنه قد يظل غاضبا عليه ، ومن منا قادر على أن يتحمل غضب الرب ؟ لذلك نطلب المغفرة ، ونقول : « واغفر لنا وارحمنا » فنحن ندعوه سبحانه ألا يدخلنا فى الذنب الذى يؤدى إلى غضبه ـ والعياذ بالله ـ علينا . فالعفو هو أن نرتكب ذنبا ونطلب من الله المغفرة ، ولكن الرحمة هى الدعاء بألا يدخلنا فى الذنب أصلا .

وعندما يقول الحق : « أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين » فهذا اعتراف بعبوديتنا له ، وأنه الحق خالقنا ومتولى أمورنا وناصرنا ، ومادام الحق هو ناصرنا ، فهو ناصرنا على القوم الكافرين ، فكان ختام سورة البقرة منسجمًا مع أول سورة البقرة فى قوله : « الم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ، الذين يؤمنون بالغيب ، ويقيمون الصلاة ، ومما رزقناهم ينفقون » .

فى أول السورة ضرب الله المثل بالكافرين والمنافقين . . وفى ختامها يقول الحق دعاء على لسان المؤمنين : « فانصرنا على القوم الكافرين » هذا القول يدل على استدامة المعركة بين الإيمان والكفر ، وأن المؤمن يأخذ أحكام الله دائماً لينازل بها الكفر أيان وُجد ذلك الكفر ، ويثق المؤمن تمام الثقة أن الله متوليه ؛ لأن الله مولى الذين آمنوا ، أما الكافرون فلا مولى لهم . فإذا كان الله هو مولى المؤمن ، وإذا كان الكافر لا مولى له ، فمعنى ذلك أنه يجب أن تظل المعركة بين المؤمن والكافر قائمة ، بحيث إذا رأى المؤمن اجتراءً على الإسلام فى أى صورة من صوره فليثق بأن الله ناصره ، وليثق بأن الله معه ، وليثق المؤمن أن الله لا يطلب منه إلا أن يَنفعل بحكمه وتأييده بالنصر ؛ لأنه هو الذى يَغْلب فهو القائل جل وعلا : « قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم » .

يجب أن تظل دائما مؤمناً متيقظاً لعملية الكفر فى أى لون من ألوانها ؛ فهذا الكفر بعملياته يريد أن يشوه حركة الحياة وأن يتعب الكون ، وأن يجعل القوانين الوضعية البشرية هى المسيطرة ، كما يجب عليك أيها المؤمن أن تكون من المتقين الذين استهل بهم الله سورة البقرة ، وبعد ذلك تسأل الله أن ينصرك دائماً على القوم الكافرين . هذا هو مسك الختام من سورة البقرة « فانصرنا على القوم الكافرين » .

وختام السورة بهذا النص يوحى بأن الذى آمن يجب أن يعدى إيمانه بربه إلى الخلق جميعاً ، حتى تتساند حركة الحياة ، ولا توجد فيها حركة مؤمن على هدى لتصطدم حركة كافر على ضلال ؛ لأن فى ذلك إرهاقاً للنفس البشرية ، وتعطيلاً للقوى والمواهب التى أمد الله بها ذلك الإنسان الذى سخر من أجله كل الوجود ، فلا يمكن أن يعيش الإنسان الذى سوّده الله وكرّمه على سائر الخلق إلا فى أمان واطمئنان وسلام وحركة تتعاون وتتساعد لتنهض بالمجتمع الذى تعيش فيه نهضة عمرانية تؤكد للإنسان حقاً أنه هو خليفة الله فى الأرض .

ولا يكتفى الإيمان منا بأن يؤمن الفرد إيماناً يعزله عن بقية الوجود ، لأنه يكون فى ذلك قد خسر حركة الحياة فى الدنيا ، والله يريد له أن يأخذ الدنيا تخدمه كما شاء الله لها أن تكون خادمة ، فحين يعدى المؤمن إيمانه إلى غيره ينتفع بخير الغير ، وإن اكتفى بإيمان نفسه فقط وترك الغير فى ضلالة ، انتفع الغير بخير إيمانه وأصابته مضرة الكافر وأذاه .

إذن فمن الخير له أن يؤمن الناس جميعاً ، ويجب أن يعدى ذلك الإيمان إلى الغير. ولكن الغير قد يكون منتفعاً بالضلال ؛ لأنه يؤيد به طغيانه ، عندئذ تنشأ المعركة ، تلك المعركة التى غاية كل من دخل فيها أن ينتصر ، فيعلمنا الله أن نطلب النصر على الكافرين منه ؛ لأن النصر على الكافرين لا يعتبر نصراً حقيقيا إلا إن أَصَّل صفات الخير فى الوجود كله ، وحين تتأصل صفات الخير فى الوجود كله يكون المؤمن قد انتصر بحق .

وحين يطلب منا الله أن نسأله أن ينصرنا لابد أن نكون على مطلوب الله منا فى المعركة ، بأن نكون جنوداً إيمانيين بحق . وقد عرفنا أن المؤمنين حين يدخلون فى

معركة مع غيرهم يستطيعون أن يحددوا مركزهم الإيمانى من غاية المعركة . فإن انتهت المعركة بنصرهم وغلبتهم علموا أنهم من جنود الله ، وإن هُزموا وغُلبوا فليراجعوا أنفسهم ؛ لأن الله أطلقها قضية إيمانية فى كتابه الذى حفظه فقال :

﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾

(سورة الصافات)

فإن لم نغلب فلننظر فى نفوسنا : ما الذى أخللنا به من واجب الجندية لله . وحين يعلمنا الحق أن نقول : « فانصرنا على القوم الكافرين » ، أى بعد أن أخذنا أسباب وجودنا من مادة الأرض المخلوقة لنا بالفكر المخلوق لله ، نعمل فيها بالطاقة المخلوقة لله ، وحينئذ نكون أهلاً للنصر من الله ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى قد مد يده بأسباب النصر :

﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾

(من الآية ٦٠ سورة الأنفال)

حينئذ لا تخافون أبداً ؛ لأن لله جنوداً لم تروها ، ولا يتدخل الله بالجنود غير المرئية لنا إلا إذا استنفدنا نحن أسباب الله الممدودة لنا .

وحين يختم الحق سبحانه وتعالى سورة البقرة وهى الزهراء الأولى لتأتى بعدها الزهراء الثانية وهى سورة آل عمران نجد أن هذا هو الترتيب القرآنى (الآن) وهو ليس على ترتيب النزول الذى حدث ، فللقرآن ترتيبان : ترتيب نزولى حين نزلت الآيات لتعالج حدثاً وقع للأمة المسلمة فى صراعها مع الكافرين بربهم ، وفى تربيته لنفوسهم ، فكانت كل آية تأتى لتعالج حادثة . والأحداث فى الوجود إنما تأتى على أيدى البشر ، فليس من المعقول أن تنزل آيات من القرآن . تعالج أحداثا أخرى لا صلة بينها وبين ما يجرى من أحداث فى المجتمع الإسلامى أو ما ينشأ فى الكون من قضايا .

إذن فلا بد أن توجد الأحداث أولا ، ويأتى بعدها النص القرآنى ليعالج هذه

الأحداث ، ولكن بعد أن اكتمل الدين كما قال الله :

﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾

(من الآية ٣ سورة المائدة)

جاء الترتيب الذى يرتب القضايا ترتيباً كلياً ، لأنه عالجها من قبل علاجا جزئيا . فحين نقول:إن هذه السورة نزلت بعد كذا ، أو فيها آية كذا ، نزلت بعد كذا ، ونجد أن ذلك يختلف عن النسق النزولى نعلم أن لله سبحانه وتعالى فى كتابه ترتيبين :

الترتيب الأول : حسب النزول .

والترتيب الثانى : الذى وُجد عليه القرآن الآن وتمت به كلمة الله فى خدمة الهداية الإيمانية وهذا الأخير من عند الله أيضا .

سورة آل عمران (٣)

مدنية

وهذه السورة التى نحن بصددها ـ سورة آل عمران ـ كان من السياق أن تأتى بعد سورة البقرة ؛ لأن سورة البقرة جاءت لتخدمنا فى قضية الوجود الأول ، فتكلمت عن خلق آدم ، وتكلمت عن خلافته فى الأرض ، وتكلمت عن تعليمه الأسماء ، ثم تكلمت عن بعض مواكب الرسل لذلك الإنسان الذى استخلف فى الأرض . وتعرضت لقضايا تعلقت بأحداث ، هذه الأحداث ارتبطت بأزمنة مخصوصة . والقرآن قد جاء بها ، ثم جاء مترتباً على الصورة النهائية . ناسب أن تأتى بعد سورة البقرة سورة آل عمران ؛ لأنها تكلمت عن نوع جديد من الخلق ، لم يأت على نمط الخلق الأول ، وإن جاء من الخلق الأول ؛ لأنها جاءت لتكلمنا عن خلق عيسى . وخلق عيسى جاء بغير الناموس الذى خلق به آدم . فكما أن آدم خلق بلا أب وبلا أم ، كان المنطق أن يأتى بخلق آخر وجد من دون أب .

لقد استهل الحق سبحانه وتعالى سورة البقرة بأسماء ثلاثة من حروف المعجم وهى : « ألف ـ لام ـ ميم » وتلك القضية تعرضنا لها طويلاً عند استهلال سورة البقرة . وبيّنا الحكمة فى ورود بعض الحروف ، وعرفنا أنّ للحرف « مسمّى » وله « اسم » . « المُسمّى » هو الذى ننطق به ، و« الاسم » هو الذى يُعتبر عنواناً على هذا المسمّى . فأنت حين تقرأ مثلاً ، تقول : قرأ ، فعندما تنطق حرف « ق » تنطقه حرفًا متصلاً ببقية الحروف ، وهذا النطق اسمه « المسمّى » ، ولكن اسم ذلك المسمّى « قاف » .

إذن فلكل حرف اسم ، ومسمّى . حين نتكلم جميعاً نتكلم بالمسمّى ، وسواء مِنّا الأمى أو المتعلم ، فكل واحد ينطق المسمى « ق . ر . أ » ولكن لا يعرف اسم « قاف » إلا من تعلم ؛ لأنه قيل له هذه اسمها « قاف » . فذلك هو الاسم .

إذن فالتعليم يعطينا أسماء المسميات ، واللفظ الذى يلفظ به الأمى والمتعلم هو

المسميات ، ونحن نعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أمياً ، لم يجلس إلى معلم ولم يتعلم ، فمن الذى لقنه أسماء الحروف التى لا يعرفها إلا من تعلم ؟ هذه الحروف لُقِّنت على صور مختلفة ، فتنطق بالمسمّى مرة وتُنطق مرة أخرى بأسماء الحروف ، فلما جاءت فى أول سورة البقرة « الم » تلك هى أسماء الحروف . ولكنا قلنا : إننا حين نقرأ فى أول سورة الفيل « ألم تر » هى (الألف واللام والميم) ونقرأها كثلاثة حروف تُكَوِّن تساؤلاً : « ألم تر » ، ولم تقرأ أسماء حروفها ، وإنما قرأتها بمسميات الحروف . فقلت : « ألْمْ » ، فمن الذى يفرق لنا بين ألف ولام وميم . وتقرأ مرة أخرى ألْمْ ؟ لاشك أنها توقيف من الله ، وهى حَقًّا توقيف من الله ، هذه تقرأ ألْمْ وهذه تقرأ ألف ، لام ، ميم .

إن الحق يدلنا على أن هذا القرآن ليس من صنعة البشر ، وإلا فصنعة البشر لم تأت قبل نزول القرآن لتنطق بأسماء الحروف ، اللهم إلا بعض أسماء قالوا فيها:إنها أداة مثل « هاء التنبيه » أى لتنبيه السامع . لماذا ؟ لأن المتكلم حر فى أن يتكلم وهو الذى يحدد وقت كلامه ولكن السامع يفاجأ . إذن فالكلام من المتكلم يحدده المتكلم ، يتكلم متى شاء . ولكن السامع لا يسمع متى شاء ، ولكنه يسمع بعد أن يتكلم المتكلم ، لكن السامع ليس عنده اختيار ، فكانوا يريدون لبعض الحروف أن يخرجوا بها إلى السامع كَلَوْنٍ من ألوان الانجذاب إلى المتكلم ، فقبل أن يجىء بالكلام الذى يريده يأتى بهاء التنبيه . كأن المتكلم يقول : تنبه لى فأنا أريد أن أتكلم حتى لا يفوت منك بعض الكلمات التى أنطق بها . وبعضها يسمونه « أداة استفتاح » مثل القول : ألا هُبى بصحنك فاصبحينا . فـ « ألا » تنبه إلى أن كلاماً يقال ، ثم يقول : هبى بصحنك فاصبحيناً ؛ لأنه ربما نطق ببعض الكلمات فى شغل من السامع عن المتكلم ، فتفوته الفائدة .

إذن فكل الألفاظ التى تأتى بأسماء حروف أو بأسماء يراد بها التنبيه ، إنما هى تهيئة للذهن . وما الذى يمنعنا أن يكون أيضاً ذلك من باب تهيئة السامع إلى ضرورة حضور الذهن ؟ ومما يدل على أن لهذه الحروف التوفيقية مواقع فى النفس البشرية ، أن الذين عارضوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى دعواه لم يستدركوا عليه شيئاً وهم أهل فصاحة وأهل لغة .

هل سمعنا أن واحداً منهم قال : انظروا إلى محمد كيف يأتى بألفاظ وكلمات لا مدلول لها ولا معنى ، ثم يدّعى أنه أفصح العرب ؟!

هل قال واحد منهم ذلك ؟ لم يقل ، وقبلوها ولم يستدركوا ، ولم يقولوا : « ما هذه » « ألف ، لام ، ميم » التى جاء بها محمد ؟ مما يدل على أنها أخذت من أسماعهم موقعاً كما أرادها الله ، بدليل أنهم لم يستدركوا بها على رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولم يجعلوها من النقد الذى وُجِّهَ إلى رسول الله ، وقلنا فى ذلك : إنه بعض من أسرار هذه الحروف .

ويريد الله حين يؤكد معنى من المعانى ألا يمسه مرة واحدة ، فقد جاءت رسالة محمد صلى الله عليه وسلم على فترة من النبوات ، ومن خطاب السماء ، والمعنى الذى يريد الله أن يوضحه ويؤكده يردده كثيراً حتى يستقر فى ذهن المتلقى . وعلى هذا النمط جاء قول الحق سبحانه فى أول سورة آل عمران :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾

وجاءت أيضاً فى سور أخرى ، فى سورة العنكبوت ، وفى سورة الروم ، ولقمان ، والسجدة ، وزاد عليها راءً فى بعض السور ، وزاد عليها صادًا فى بعض السور « المص » و« المر » كل ذلك جاء تأكيدًا للمعانى أو تأكيدًا للسر الذى وضعه الله فى هذه الحروف ، وإن لم نكن ندرك ذلك السر .

والإنسان ينتفع بأسرار الأشياء التى وضعها من أوجد الأشياء وإن لم يعلم هذه

الأشياء فهو منتفع بها ، وضربنا المثل وقلنا : إن الريفى الذى ليس عنده ثقافة فى الكهرباء ، أيستفيد بالكهرباء أم لا ؟ إنه يستفيد بها ويحرك زر المصباح لينيره أو ليطفئه ، أهو يعلم سر ذلك ؟ لا ، لكنه إنما انتفع به ، فكذلك المؤمن حين يقول : « ألف ـ لام ـ ميم » ، يأخذ سرها من قائلها ، فهمها أم لم يفهمها ، إذن فالمسألة لا تحتاج إلى أن نفلسفها ، صحيح أن العقل البشرى يحوم حول شىء ليستأنس به ، ولكن عطاء الله وحكمة العطاء فوق ما يستأنس به وفوق ما نستوحش منه .

وقول الحق سبحانه فى ختام سورة البقرة : « فانصرنا على القوم الكافرين » يناسب أيضاً سورة آل عمران ، لماذا ؟ لأن الإسلام سيأتى ليواجه معسكر كفر ومعسكر أهل الكتاب ، فحتى لا تتشقق دعوة الله التى صدرت عن الله بمواكب الرسل جميعاً الذين سبقوا محمداً صلى الله عليه وسلم وأن هذا جاء ليناقض شيئاً منه ، إنه قد جاء ليعزز دعوة الله ، ولتكون هذه الأمم التى تبعت هذه الديانات فى صف الإسلام . ولذلك حينما أنكر العرب رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الله لهم : « ومن عنده علم الكتاب » أى أن من عنده علم الكتاب يشهد أنك رسول الله .

﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾ ﴾

(سورة الرعد)

فكان المفروض فى أهل الكتاب أنهم حينما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكونوا هم أول المؤمنين برسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأنه جاء ليؤكد موكب الإيمان ويأتى لهم بسورة يسميها آل عمران حتى يعلم الجميع أنك يا محمد لم تأت لتهدم ديانة عيسى ، ولكن لتبقى ديانة عيسى ولتؤيد ديانة عيسى ، فإن كنتم يا من آمنتم بعيسى مؤمنين بعيسى فاهرعوا حالاً إلى الإيمان بمحمد ؛ فقد سماها الله آل عمران ، وجعل لهم سورة فى القرآن .

إن رسالة محمد صلى الله عليه وسلم لم تأت للعصبية ، أو لتمحو ما قبلها كما تأتى عصبيات البشر حين يأتى قوم على أنقاض قوم ، ويهدمون كل ما يتصل بهؤلاء القوم

حتى التاريخ يمحونه ، والأشياء يمسخونها ؛ لأنهم يريدون أن ينشئوا تاريخاً جديداً . لا ، إن هذا القرآن يريد أن يصوب التاريخ ، فيأتى بسورة اسمها « آل عمران » وذلك تكريم عال لهذه الديانة ولتابعيها .

وبعد ذلك يأتى الحق فيستهلها : بقوله جل شأنه :

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ﴿٢﴾ ﴾

تلك هى قضية القمة ، ولذلك يتكرر فى القرآن التأكيد على هذه القضية ، « الله لا إله إلا هو » . و« الله » كما يقولون مبتدأ ، و« لا إله إلا هو » خبر ، والمبتدأ لا بد أن يكون متضحاً فى الذهن ، فكأن كلمة « الله » متضحة فى الذهن ، ولكنه يريد أن يعطى لفظ « الله » الوصف الذى يليق به وهو « لا إله إلا هو » . ولذلك يقول الحق :

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ﴾

(سورة العنكبوت)

إذن فالله متضح فى أذهانهم ، ولكن السلطات الزمنية أرادت أن تطمس هذا الإيضاح ، فجاء القرآن ليزيل ويمحو هذا الطمس مؤكدا « الله لا له إلا هو » فهذه قضية أطلقها الحق شهادة منه لنفسه :

﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾

(من الآية ١٨ سورة آل عمران)

وكفى بالله شهيداً ؛ لأنها شهادة الذات للذات ، وشهدت الملائكة شهادة المشهد فلم يروا أحداً آخر إلا هو ، وكذلك ، شهد أولو العلم الذين يأخذون من الأدلة فى

الكون ما يثبت صدق الملائكة ويؤكد صدق الله ، فإذا ما نظرنا نظرة أخرى نقول : إن الحق أطلقها على نفسه وقال : « لا إله إلا هو » ؛ وجعلها كلمة التوحيد وجعل الأمر فى غاية اليسر والسهولة والبساطة ؛ فلم يشأ الله أن يجعل دليل الإيمان بالقوة العليا دليلاً معقداً ، أو دليلاً فلسفياً ، أو لا يستطيع أحد أن يصل إليه إلا أهل الثقافة العالية ، لا ، إن الدين مطلب للجميع ؛ من راعى الشاة إلى الفيلسوف ؛ إنه مطلوب للذى يكنس فى الشارع كما هو مطلوب من الأستاذ الجامعى .

فيجب أن تكون قضية الإيمان فى مستوى هذه العقول جميعاً ؛ فلا فلسفة فى هذه المسألة ، لذلك شاء الحق أن يجعل هذه المسألة فى منتهى البساطة فأوضح الله : أنا شهدت ألا إله إلا أنا ، فإما أن يكون الأمر صدقاً وبذلك تنتهى المشكلة ، وليس من حق أحد الاعتراض ، وإن لم تكن صدقاً فقولوا لنا : أين الإله الآخر الذى سمع التحدى ، وأخذ الله منه ذلك الكون ، وقال : أنا وحدى فى الكون ، وأنا الذى خلقت ، ثم لم نسمع رداً عليه ولا عن معارض له ، ألم يدر ذلك الإله الآخر ؟

إذن فذلك الآخر لا ينفع أن يكون إلهاً ، فإن علم ذلك الآخر ولم يدافع عن نفسه وملكيته للكون فإنه لا يصلح أن يكون إلهاً . وتصبح القضية لله إلى أن يظهر مدع ليناقضها ، فـ « لا إله إلا هو » كلمة حق ، وبالعقل والمنطق هو إله ولم نجد معارضاً . وقلنا سابقاً:إن الدعوى حين تُدعى ولا يوجد معارض حين نَسمعها تكون لصاحبها إلى أن يوجد المعارض . وضربنا مثلا : نحن مجتمعون فى حجرة ، عشرة أشخاص ، وبعد ذلك انصرفوا فوجد صاحب البيت حافظة نقود ، فجاء واحد متلهفا وقال : لقد ضاعت منى حافظة نقود . فقال له صاحب البيت : وجدنا حافظة ولكن كان هنا عشرة ، فلما جىء بالعشرة ، وسئلوا لم يدعها أحد ، إذن فهى له .

إن الله قد قال : « لا إله إلا هو » ، فإن كان هناك إله آخر فليظهر لنا ، لكن لا تظهر لنا إلا قوة الله « لا إله إلا هو » ومادام لا إله إلا هو ، وهذا الكون يحتاج إلى قيومية لتدبيره ، فلا بد أن يكون حيا حياة تناسبه ، لأنه سيهب حيوات كثيرة لكل الأجناس ، للإنسان وللحيوان وللنبات وللجماد ، إذن فالذى يوجدها لا بد أن يكون حياً ولا بد أن تكون حياته مناسبة له .

و« قيّوم » هذه يسمونها صيغة مبالغة ؛ لأنّ الحدث إذا وقع فإنه يقع مرة على صورة عادية ، ومرة يقع على صورة قوية . مثلما تقول : فلان أكول ، و« أكول » غير « آكل » ، فكلنا نأكل ، وكلنا يُطلق علينا « آكل » ، لكن ليس كلنا يُطلق علينا « أكول » لأن هذه اسمها صيغة مبالغة فى الحدث .

وإذا كان الله هو الذى يدبر ويقوم على أمر كل عوالم الكون هل يكون قائما أو قَيّومًا ؟ لا بد أن يكون قَيُّومًا . و« قيوم » معناها أيضا : قائم بذاته . فما شكل هذا القيام ؟ إنه قيام أزلى كامل .

إذن فكلمة « قيّوم » صيغة مبالغة من القيام على الأمر ، قائم بنفسه ، قائم بذاته ، ويُقِيم غيره ، والغير متعدد متكرر ، فعندما يكون هذا الغير متعدداً ومتكرراً فهو يحتاج إلى صفة قوية فى خالقه ، فيكون الخالق قيّوما .

إن قوله الحق : « الله لا إله إلا هو الحىّ القيّوم » هو سند المؤمن فى كل حركات حياته ، عن أبىّ بن كعب رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا أبا المنذر أتدرى أى آية من كتاب الله معك أعظم ؟ قلت : « الله لا إله إلا هو الحى القيوم » فضرب فى صدرى وقال : « ليهنك العلمُ أبا المنذر »[1] .

وقولوا لنا بالله : حين يوجد ولد وأب ، هل يحمل الولد همّا لأى مسألة من مسائل الحياة ؟ لا ؛ لأن الأب متكفل بها ، والمثل العامى يقول : الذى له أب لا يحمل همّا ، إذن فالذى له ربٌّ عليه أن يستحى ؛ لأنه سبحانه يقول : أنا حىّ ، وأنا قيّوم ، و« قيّوم » يعنى قائم بأمرك .

ويؤكد سبحانه هذه القيّومية فى سورة البقرة ، فقال فى آية الكرسى : « لا تأخذه سنة ولا نوم » ، كأنه يقول لنا : ناموا أنتم لأننى لا أنام ، وإلا فإن نمت أنت عن حراسة حركة حياتك فمن يحرسها لك ؟ إنه سبحانه يتفضل علينا بقيوميته فـ « الله لا إله إلا هو الحىّ القيوم » ، ومادام هو « الحىّ » و« القيّوم » فأمر منطقى أنه قائم

(١) رواه مسلم .

بأمر الخلق جميعا وقد وضع لكل الخلق ما تقوم به حياتهم من مادة وصيانة مادة ، ومن قيم وصيانة قيم .

ومادام هو القيوم والقائم بالأمر والمتولى الشئون للخلق فلا بد أن يؤدى لهم مطلوبات مادتهم وما يبقيها ، ومطلوبات قيمهم وما يبقيها . أما مطلوبات المادة فيقول فيها :

﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾

(سورة فصلت)

إنه سبحانه يطمئننا على القوت ، وأما مطلوبات القيم فقال سبحانه :

﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ ﴾

إذن فلم يعطنا سبحانه مقومات المادة فقط ، ولكن أعطانا مقومات القيم أيضا ؛ لأن المادة بدون قيم تكون شرسة هوجاء رعناء ، فيريد الله أن يجعل المادة فى مستوى إيمانى . إذن لا بد أن تنزل القيم . لذلك قال سبحانه : « نزّل عليك الكتاب بالحق » و« نزل » تفيد شيئا قد وجب عليك ؛ لأن النزول معناه : شىء من أعلى ينزل ، وهو يقول لك:لا تتأبى على القيم التى جاءت لك من أعلى منك ؛ لأنها ليست من مساو لك ، إنها من خالق الكون والبشر ، والذى يمكنك أن تتأبى عليه ما يأتى ممن هو أدنى منك .

لكن حين يجىء لك التقنين ممن هو أعلى منك فلا تتأبّ عليه ؛ لأن خضوعك له ليس ذلة بل عزة ، فقال : « نزل عليك الكتاب » . وفى سياق القرآن نجده سبحانه

يقول :

﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ ﴾

(سورة الشعراء)

ومرة أخرى يقول فى القرآن الكريم :

﴿ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

ولكن هل نزل القرآن وحده ؟ لقد كان جبريل عليه السلام ينزل بالقرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا يعنى ذلك خروج القرآن عن كونه « نزل » ، فجبريل عليه السلام كان ينزل بالقرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم . والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

وبذلك تتساوى « أنزل » مع « نَزل » . وحين نأتى للحدث أى الفعل فى أى وقت من الأوقات فإننا نتساءل : أهو موقوت بزمن أم غير موقوت بزمن ؟ إن القرآن الكريم قد نزل على رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم فى ثلاثة وعشرين عاما . وينزل القرآن حسب الحوادث ، فكل نجم من نجوم القرآن ينزل حسب متطلبات الأحداث . ولكن الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ ﴾

(سورة القدر)

والحق هنا يحدد زمنا . ولنا أن نعرف أن القرآن الذى نزل فى ثلاثة وعشرين عاما هو الذى أنزله الله فى ليلة القدر .

إذن فللقرآن نزولان اثنان : الأول : إنزال من « أنزل » .
الآخر : تنزيل من « نَزَّل » .

إذن فالمقصود من قوله ـ سبحانه ـ : « إنا أنزلناه فى ليلة القدر » أن القرآن نزل من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا ليباشر مهمته فى الكون ، وهذا ما أنزله الله فى ليلة القدر .

والكتاب الكريم الذى أنزله الله فى ليلة القدر إلى السماء الدنيا ينزل منجما على حسب الأحداث التى تتطلب تشريعا أو إيضاحا لأمر .

لكن الكتب الأخرى لم يكن لها ذلك اللون من النزول والتنزيل ، لقد نزلت مرة واحدة ؛ لا حسب الأحداث والمناسبات ، لقد جاءت مرة واحدة ، كما نزل القرآن أولا من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا . ولننظر إلى الأداء القرآنى حين يقول :

﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

وهنا يجب أن نلتفت إلى أن الحق قال عن القرآن : « نَزَّل » وقال عن التوراة والإنجيل : « أنزل » . لقد جاءت همزة التعدية وجمع ـ سبحانه ـ بين التوراة والإنجيل فى الإنزال ، وهذا يوضح لنا أن التوراة والإنجيل إنما أنزلهما الله مرة واحدة ، أما القرآن الكريم فقد نزَّله الله فى ثلاث وعشرين سنة منجما ومناسبا للحوادث التى طرأت على واقع المسلمين ، ومتضمنا البلاغ الشامل من يوم الخلق إلى يوم البعث .

ونَزَّل الله القرآن منجما مناسبا للأحداث ، ليثبت فؤاد رسول الله ؛ لأنه صلى الله عليه وسلم كان يتعرض لأحداث شتى ، وكلما يأتى حدث يريد تثبيتا ينزل نجم من القرآن .

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾

(سورة الفرقان)

وكان النجم من القرآن ينزل ، ويحفظه المؤمنون ، ويعملون بهديه ، ثم ينزل نجم آخر ، والله سبحانه يقول :

﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ﴾

(سورة الفرقان)

فمن رحمته سبحانه وتعالى بالمسلمين أن فتح لهم المجال لأن يسألوا ، وأن يستوضحوا الأمور التى تغمض عليهم .

وجعل الحق سبحانه لأعمال المؤمنين الاختيارية خلال الثلاثة والعشرين عاما فرصة ليقيموا حياتهم فى ضوء منهج القرآن ، وصوب لهم القرآن ما كان من خطأ . وذلك يدل على أن القرآن قد فرض الجدل والمناقشة ، وفرض مجىء الشىء فى وقت طلبه ؛ لأن الشىء إذا ما جىء به وقت طلبه فإن النفس تقبل عليه وترضى به .

ومثال ذلك فى حياتنا اليومية أن الواحد منا قد يملك فى منزله صندوقا للأدوية مُمتلئا بألوان شتى من الدواء ، ولكن عندما يصاب صاحب هذا الصندوق بقليل من الصداع فهو يبحث عن قرص أسبرين ، وقد لا يعرف مكانه فى صندوق الدواء فيبعث فى شرائه ، وذلك أسهل وأوثق . والحق سبحانه قد جمع للقرآن بين « نزّل » و« أنزل » فقال :

﴿ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ ۗ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴿٤﴾ ﴾

ويأتى القول الفصل فى : « وأنزل الفرقان » .
هنا الجمع بين « نزل » و« أنزل » .

وساعة يقول الحق عن القرآن : « مصدقا لما بين يديه » فمعنى ذلك أن القرآن

يوضح المتجه ؛ إنه مصدق لما قبله ولما سبقه ، إنه مصدق للقضايا العقدية الإيمانية التى لا يختلف فيها دين عن دين ؛ لأن الديانات إن اختلفت فإنما تختلف فى بعض الأحكام ، فهناك حكم يناسب زمنا وحكم آخر لا يناسب ذلك الزمن . أما العقائد فهى لا تتغير ولا تتبدل ، وكذلك الأخبار وتاريخ الرسل ، فليس فى تلك الأمور تغيير .

ومعنى « مصدق » أى أن يطابق الخبر الواقع ، وهذا ما نسميه « الصدق » . وإن لم يطابق الخبر الواقع فإننا نسميه « كذبا » . إذن ، فالواقع هو الذى يحكم . ولذلك قلنا من قبل : إن الصادق هو الذى لا تختلف روايته للأحداث ؛ لأنه يستوحى واقعا ، وكلما روى الحادثة فإنه يرويها نفسها بكلماتها وتفاصيلها ، أما الكاذب فلا يوجد له واقع يحكى عنه ، لذلك يُنشىء فى كل حديث واقعا جديدا ، ولذلك يقول الناس : « إن كنت كذوبا فكن ذكورا » . أى إن كنت تكذب ـ والعياذ بالله ـ فتذكر ما قلت ؛ حتى لا تناقضه بعد ذلك . فالصادق هو من يستقرىء الواقع ، ومادام يروى عن صدق فهو يروى عن أمر ثابت لا تلويه الأهواء ، فلا يحكى مرة بهوى ، ومرة بهوى آخر .

ومادام الخبر صادقاً فإنه يصبح حقاً ؛ لأن الحق هو الشىء الثابت الذى لا يتغير وسبحانه يقول هنا : « نزل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل ، من قبل هدى للناس » .

وقد تكلمنا من قبل عن التوراة ، وقلنا : إن بعضاً من العلماء حين يتعرض للفظ من الألفاظ فهو يحاول أن يجعله من اللغة العربية ، ويحاول أن يعثر له على وزن من الأوزان العربية ، وأن يأتى له بصفة من الصفات العربية ، فقال بعضهم عن التوراة : إنها من « الوَرْى » ـ بسكون الراء ـ وكان الناس قديماً يشعلون النار بضرب عود فى عود آخر ، ويقولون : « الزَّند قد ورى » ، أى قد خرجت ناره . وقال بعض العلماء أيضا : إن الإنجيل من « النجْل » ، وهو الزيادة .

وأقول لهؤلاء العلماء : لقد نظرتم إلى هذه الألفاظ على أنها ألفاظ عربية ، لكن التوراة لفظ عبرى ، والإنجيل لفظ سريانى أو لفظ يونانى ، وصارت تلك الكلمات

علما على تلك الكتب وجاءت إلى لغتنا . ولا تظنوا أن القرآن مادام قد نزل عربياً فكل ألفاظه عربية ، لا . صحيح أن القرآن عربى ، وصحيح أيضا أنه قد جاء وهذه الألفاظ دائرة على لسان العرب ، وإذا تم النطق بها يُفهم معناها .

والمثال على ذلك أننا فى العصر الحديث أدخلنا فى اللغة كلمة « بنك » وتكلمنا بها ، فأصبحت عربية ؛ لأنها تدور على اللسان العربى ، فمعنى أن القرآن عربى أن الله حينما خاطب العرب خاطبهم بألفاظ يفهمونها ، وهى دائرة فى ألسنتهم ، وإن لم تكن فى أصلها عربية . وحينما تكلم الحق عن التوراة والإنجيل وقال : إن القرآن جاء مصدقا لهما قال ـ جل شأنه ـ :

﴿ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴿٤﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

فأى ناسٍ هؤلاء الذين قال عنهم : « هدى للناس » ؟ لاشك أنهم الناس الذين عاصروا الدعوة لتلك الكتب . وإذا كان القرآن قد جاء مصدقا لما فى التوراة والإنجيل ألا تكون هذه الكتب هداية لنا أيضاً ؟ نعم هى هداية لنا ، ولكن الهداية إنما تكون بتصديق القرآن لهما ، حتى لا يكون كل ما جاء فيهما ومنسوباً إليهما حجة علينا . فالذى يصدقه القرآن هو الحجة علينا ، فيكون « هدى للناس » معناها : الذين عاصروا هذه الديانات وهذه الكتب ، ونحن مؤمنون بما فيها بتصديق القرآن لها .

وحين يقول الحق سبحانه وتعالى : « وأنزل الفرقان » يدل على أن الكتاب ـ أى القرآن ـ سيعاصر مهمة صعبة ؛ فكلمة « الفرقان » لا تأتى إلا فى وجود معركة ، ونريد أن نفرق بين أمرين : هدى وضلال ، حق وباطل ، شقاء وسعادة ، استقامة وانحراف ، إذن فكلمة « الفرقان » تدل على أن القرآن إنما جاء ليباشر مهمة صعبة وهو أنّه يفرق بين الخير والشر ، ومادام يفرق بين الخير والشر إذن ففيه خير وله معسكر ، وفيه شرّ وله معسكر ، إذن ففيه فريقان . ويأتى للفريق الذى يدافع عن الحق نضالاً وجهاداً بما يفرق له ويميز به بين الحق والباطل ويختم الحق هذه الآية

بقوله : « إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد والله عزيز ذو انتقام » .

ولماذا جاء هذا التذييل على هذه الصورة فى هذه الآية ؟ أى مادام القرآن فرقاناً فلا بد أن يفرق بين حق وباطل ، والحق له جنوده ، وهم المؤمنون ، والباطل له جنوده وهم الكافرون ، والشر قد جاء من الكافرين فلا بد أن يتكلم عن الذين كفروا « إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد » . والعذاب إيلام ، ويختلف قُوّة وضعفا باعتبار المؤلم المباشر للعذاب . فصفعة طفل غير صفعة شاب غير صفعة رجل قوى ، كل واحد يوجه الصفعة بما يناسب قوّته ، فإذا كان العذاب صادراً من قوة القوى وهو الله ، إذن فلا بد أنه عذاب لا يطاق . « لهم عذاب شديد والله عزيز ذو انتقام » أى لا يُغلب على أمره ، ولا توجد قوة أخرى ضده ، وانتقامه لن يستطيع أحد أن يرده .

وقوله الحق سبحانه وتعالى : إنه « قيوّم » أى يقوم بشئون خلقه إيجاداً وإمداداً ، بناء مادة وإيجاد قيم ، لابد أن يتفرع من ذلك أنه يعلم كل الخلق ويعلم الخبايا ، ولذلك يضع التقنين المناسب لكل ما يجرى لهم ، والتقنينات التى تأتى من البشر تختلف عن التقنينات الموجودة من الله ، لماذا ؟

لأن الله حين يقنن بكتاب ينزله على رسوله ليبلغ حكم الله فيه فهو سبحانه يقنن لما يعلم ، وما يعلمه سبحانه قد يعلمه خلقه وقد لا يعلمونه وقد تأتى الأحداث بما لم يكن فى بال المشرع البشرى المقنن حين يقنن ، ولذلك يضطرون عادة إلى تغيير القانون ؛ لأنه قد جدّت أحداث لم يلتفت إليها المشرع البشرى . ولماذا لم يلتفت إليها المشرع البشرى ؟ لأن علمه مقصور على المرئيات التى توجد فى عصره وغير معاصر للأشياء التى تحدث بعد عصره ، وأيضاً يقنن لملكات خفية عنه .

إن الحق سبحانه وتعالى لكونه قيّوما ويُنزل ما يفرق بين الحق والباطل ، فهو ـ سبحانه ـ يعلم علماً واسعاً ، بحيث لا يُستدرك عليه ، ولذلك فالذين يحاولون أن يقولوا : إن هذا الحكم غير ملائم للعصر ، نقول لهم : أتستدركون على الله ؟! كأنكم تقولون : إن الله قد فاته مثل هذه الحكاية ونريد أن نصححها له ! .

لا ، لا تستدركوا على الله ، وخذوا حكم الله هكذا ؛ لأن هذا هو الحكم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ؛ لأنه حكم من عالم لا يتجدد علمه ، ولا يطرأ شيء على علمه ، وفوق كل ذلك فهو سبحانه لا ينتفع بما يقنن ، وهو سبحانه يقول :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾ ﴾

انظروا إلى خدمة الآية لكل الأغراض التى سبقتها ، مادام قيُّوما وقائما بأمور الخلق ، فلا بد أنه يعلم كل شيء عن الخلق ، فلا يخفى عليه شيء فى الأرض ولا فى السماء ، ومادام سيفرق بين الحق والباطل وينزل بالكفار عذاباً شديداً فلا يخفى عليه شيء . إن الآية تخدم كل الأغراض ، وهو سبحانه يعلم كل الأغراض ، فحين يقنن بقيوميته ، فهو يقنن بلا استدراك عليه ، وحين يخرج أحد عن منهجه لا يخفى عليه . إذن فالآية حصاد على التشريع وعلى الجزاء « إن الله لا يخفى عليه شيء فى الأرض ولا فى السماء » . وبعد ذلك يتكلم الحق عن مظهر القيّومية الأول بالنسبة للإنسان فيقول :

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦﴾ ﴾

والتصوير فى الرحم هو إيجاد المادة التى سيوجد منها الإنسان على هيئة خاصة ؛ هذه الهيئة تختلف نوعيتها : ذكورة وأنوثة . والذكورة والأنوثة تختلفان أشكالاً ؛ بيضاء وسمراء وقمحية وخمرية وقصيرة وطويلة ، هذه الأشكال التى يوجد عليها الخلق والتى منها :

﴿ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ﴾

(من الآية ٢٢ سورة الروم)

هذا الاختلاف فى الألوان والألسنة والأشياء المتعددة يَدُل على أنها ليست من إنتاج مصنع يصنع قالباً ثم يشكل عليه ، لا ؛ فكل إنسان يولد يصنع بيد قديرة بقدرة ذاتية .

إن الصانع الآن إذا أردت أن يصنع لك كوباً يصنع قالباً ويكرره ، لكن فى الخلق البشرى كل واحد بقالبه الخاص ، وكل واحد بشكله المخصوص ، وكل واحد بصوته الذى ثبت أن له بصمة كبصمة اليد ، وكل واحد بلون ، إذن فهى من الآيات ، وهذا دليل على طلاقة القدرة ، وفوق كل هذا هو الخلق الذى لا يحتاج إلى عملية علاج ، معنى عملية علاج أى يجعل قالباً واحداً ليصب فيه مادته . لا ، هو ـ جل شأنه ـ يقول :

﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ ﴾

(سورة البقرة)

إن الأب والأم قد يتحدان فى اللون ولكن الابن قد ينشأ بلون مختلف ، ويخلق الله معظم الناس خلقاً سوياً ، ويخلق قلة من الناس خلقاً غير سوى ؛ فقد يولد طفل أعمى أو مصاب بعاهة ما أو بأصبع زائدة أو إصبعين . . وهذا الشذوذ أراده الله فى الخلق ليلفتنا الحق إلى حسن وجمال خلقه . لأن من يرى ـ وهو السوىّ ـ إنساناً آخر معوَّقاً عن الحركة فإنه يحمد الله على كمال خلقه .

وحين يرى إنسان له فى كل يد خمس أصابع إنساناً آخر له إصبع زائدة يعوق حركة يده ، يعْرف حكمة وجود الأصابع الخمس ، فالجمال لا يثبت إلا بوجود القبح ، وبضدها تتمايز الأشياء ، الإنسان الذى له سبع أصابع فى يد واحدة ، يضع الطب أمام مهمة يجند نفسه لها ؛ حتى يستطيع الطبيب أن يستأصل الزائد عن حاجة الإنسان الطبيعى . ولو خلق الله الإنسان بثلاث أصابع لما استطاع ذلك الإنسان أن يتحكم عند استعماله الأشياء الدقيقة .

إن الإنسان العادى فى حركته اليومية لا يدرك جمال استواء خلقه إلا إذا رأى فرداً من أفراد الشذوذ . والحق يلفت الناس الساهين عن نعم الله عليهم لرتابتها فيهم بفقدها فى غيرهم . فساعة أن يرى مبصرٌ مكفوفاً يسير بعكاز ، يفطن إلى نعمة البصر التى وهبها له الله فيشعر بنعمة الله عليه . إن الشذوذ فى الخلق هو نماذج إيضاحية تلفت الناس إلى نعم الله التى أنعم الله عليهم بها .

هذه المُثُل فى الكون تلفت الناس إلى نعم الله فيهم ، ولذلك تجدها أمامك ، وأيضا كى لا تستدرك على خالقك ، ولا تقل مَا ذنب هذا الإنسان أن يكون مخلوقاً هكذا ؟ فهو سبحانه سيعوضه فى ناحية أخرى ؛ فقد يعطيه عبقرية تفوق إمكانات المبصر .

ونضرب هذا المثل ـ ولله المثل الأعلى ـ عن الذى ساح فى الدنيا « تيمور لنك الأعرج » وهو القائد الذى أذهل الدنيا شجاعة ، إن الله قد أعطاه موهبة التخطيط والقتال تعويضاً له عن العرج . ونحن نجد العبقريات تتفجر فى الشواذ غالباً ، لماذا ؟ لأن الله يجعل للعاجز عجزاً معيناً همةً تحاول أن تعوض ما افتقده فى شىء آخر ، فيأتى النبوغ . إذن فـ « هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء » وكل تصوير له حكمة . ومادام كل تصوير له حكمة فكل خلق الله جميل .

عليك ألاّ تأخذ الخلق مفصولاً عن حكمة خالقه ، بل خُذ كل خلق مع حكمته . إن الذى يجعلك تقول : هذا قبيح ، إنك تفصل المخلوق عن حكمته ، ومثال ذلك : التلميذ الذى يرسب قد يحزن والده ، ولكن لماذا يأخذ الرسوب بعيداً عن حكمته ؟ لقد رسب حتى يتعلم معنى الجدية فى الاستذكار ، فلو نجح مع لعبه ماذا سيحدث ؟ كل أقرانه الذين عرفوا أنه لعب ونجح سيلعبون ويقولون : هذا لعب ونجح . . إذن فلا بد أن تأخذ كل عمل ومعه حكمة وجوده .

كذلك لا تأخذ العقوبة منفصلة عن الجريمة ، فكل عقوبة علينا أن نأخذها ملتصقة بجريمتها ، فساعة ترى واحداً مثلاً سيحكمون عليه بالإعدام تأخذك الرحمة به وتحزن ، هنا نقول لك : أنت فصلت إعدامه عن القتل الذى ارتكبه سابقاً ، إنما

لو استحضرت جريمته لوجدته يُقتَلُ عدالة وقصاصاً فقد قُتل غيره ظلماً ، فلا تبعد هذه عن هذه .

« هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو » ومعنى « لا إله إلا هو » أى سيصُوِّر وهو عالم أن ما يصوِّره سيكون على هذه الصورة ؛ لأنه لا يوجد إله آخر يقول له : هذه لا تعجبنى وسأصور صورة أخرى ، لا ؛ لأن الذى يفعل ذلك عزيز ، أى لا يُغلب على أمر ، وكل ما يريده يحدث وكل أمر عنده لِحكمة ، لأنه عندما يقول : « يصوركم فى الأرحام » قد يقول أحدٌ من الناس : إن هناك صورًا شاذة وصورًا غير طبيعية . وهو سبحانه يقول لك : أنا حكيم ، وأفعلها لحكمة فلا تفصل الحدث عن حكمته ، خُذ الحدث بحكمته ، وإذا أردت الحدث بحكمته تجده الجمال عينه ، وهو سبحانه المصوّر فى الرحم كيف يشاء ، هذا من ناحية مادته .

وهو سبحانه يوضح : فلن يترك المادة هكذا بل سيجعل لهذه المادة قِيما كى تنسجم حركة الوجود مع بعضها يقول سبحانه :

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾ ﴾

إذن فبعدما صورنا فى الأرحام كيف يشاء على مُقتضى حكمته لن يترك الصور بدون منهج للقيم ، بل صنع منهج القيم بأن أنزل القرآن وفيه منهج القيم ، ولا بد أن نأخذ الشيء بجوار الحكمة منه ، وإذا أخذنا الشيء بجوار الحكمة منه يوجد كل أمر مستقيما كله جميل وكله خير . فيقول سبحانه : « هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات » .

ماذا يعنى الحق بقوله : « آيات محكمات » ؟ إن الشيء المحكم هو الذى لا يتسرب إليه خلل ولا فساد فى الفهم ؛ لأنه محكم ، وهذه الآيات المحكمة هى النصوص التى لا يختلف فيها الناس ، فعندما يقول :

﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا ﴾

(من الآية ٣٨ سورة المائدة)

هذه آية تتضمن حُكما واضحا . وهو سبحانه يقول :

﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ﴾

(من الآية ٢ سورة النور)

هذه أيضا أمور واضحة ، هذا هو المُحكَم من الآيات ، فالمُحكم هو ما لا تختلف فيه الأفهام ؛ لأن النص فيه واضح وصريح لا يحتمل سواه ، و« المُتشَابِه » هو الذى نتعب فى فهم المراد منه ، ومادمنا سنتعب فى فهم المراد منه فلماذا أنزله ؟

ويوضح لنا سبحانه ـ كما قلت لك ـ خذ الشيء مع حكمته كى تعرف لماذا نزل ؟ فالمُحْكَم جاء للأحكام المطلوبة من الخلق ، أى افعل كذا ، ولا تفعل كذا ، ومادامت أفعالا مطلوبة من الخلق فالذى فعلها يُثاب عليها ، والذى لم يفعلها يُعاقب ، إذن فسيترتب عليها ثواب وعقاب ، فيأتى بها فى صورة واضحة ، وإلا لقال واحد : « أنا لم أفهم » ، إن الأحكام تقول لك : « افعل كذا ولا تفعل كذا » فهى حين تقول : « افعل » ؛ أنت صالح ألا تفعل ، فلو كنت مخلوقًا على أنك تفعل فقط ؛ لا يقول لك:افعل ، لكن لأنك صالح أن تفعل وألا تفعل فهو يقول لك : « افعل » .

وساعة يقول لك : « لا تفعل » ، فأنت صالح أن تفعل ، فلا يقال : « افعل ولا تفعل » إلاّ لأنه خلق فيك صلاحية أن تفعل أو لا تفعل ، ونلحظ أنه حين يقول لى : افعل كذا ولا تفعل كذا يريد أن أقف أمام شهوة نفسى فى الفعل والترك ، ولذلك يقول الحق فى الصلاة :

﴿ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴾

(من الآية ٤٥ سورة البقرة)

فعندما يقول لى:« افعل ولا تفعل » معناها : أن فيه أشياء تكون ثقيلة أن أفعلها ، وأنّ شيئا ثقيلا على أن أتركه ، فمثلا البصر خلقه الله صالحا لأن يرى كل ما فى حيِّزه . على حسب قانون الضوء ، والحق يقول له :

﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾

(من الآية ١٠١ سورة يونس)

ولكن عند المرأة التى لا يحل لك النظر إليها يقول الحق : اغضض .

﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ﴾

(سورة النور)

ومعنى « يغضوا » و« يغضضن » أنه سبحانه حدد حركة العين ، ومثال آخر ؛ اليد تتحرك فيأمرك ـ سبحانه ـ ألاّ تحركها إلا فى مأمور به ، فلا تضرب بها أحدًا ، ولا تشعل بها ناراً تحرق وتفسد بل أشعل بها النار لتطبخ مثلاً .

إذن فهو سبحانه يأتى فى « افعل ولا تفعل » ويحدد شهوات النفس فى الفعل أو الترك ، فإن كانت شهوة النفس بأنها تنام ، يقول الأمر التعبدى : قم وصل ، وإن كانت شهوة النفس بأنها تغضب يقول الأمر الإيمانى : لا تغضب .

إذن فالحكم إنما جاء بافعل ولا تفعل لتحديد حركة الإنسان ، فقد يريد أن يفعل فعلاً ضارًا ؛ فيقول له : لا تفعل ، وقد يريد ألاّ يفعل فعلَ خير يقول له : افعل . إذن فكل حركات الإنسان محكومة بـ « افعل ولا تفعل » ، وعقلك وسيلة من وسائل الإدراك ، مثل العين والأذن واللسان . إن مهمة العقل أن يدرك ، فتكليفه يدعوه إلى أن يفهم أمرًا ولا يفهم أمرا آخر ، وجعل الله الآيات المحكمات ليريح العقل من مهمة البحث عن حكمة الأمر المحكم ؛ لأنها قد تعلو الإدراك البشرى . ويريد الحق أن يلزم العبد آداب الطاعة حتى فى الشيء الذى لا تُدرك حكمة تشريعه ، وأيضا لتحرك عقلك لترد كل المتشابه إلى المحكم من الآيات . وإذا قرأنا قول الحق :

﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

نرى أن ذلك كلام عام . وفى آية أخرى يقول سبحانه :

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ ﴾

(سورة القيامة)

ويتكلم عن الكفار فيقول :

﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ﴾

(سورة المطففين)

إذن فالعقل ينشغل بقوله : « لا تدركه الأبصار » ، وهذا يحدث فى الدنيا ، أما فى الآخرة فسيكون الإنسان قد تم إعداده إعداداً آخر ليرى الله ، نحن الآن فى هذه الدنيا بالطريقة التى أعدنا بها الله لنحيا فى هذا العالم لا نستطيع أن نرى الله ، ومسألة إعداد شيء ليمارس مهمة ليس مؤهلا ولا مهيأ لها الآن ، أمر موجود فى دنيانا ، فنحن نعرف أن إنسانا أعمى يتم إجراء جراحة له أو يتم صناعة نظارة طبية له فيرى . ومن لا يسمع أو ثقيل السمع نصنع له سماعة فيسمع بها .

فإذا كان البشر قد استطاعوا أن يُعِدُّوا بمقدوراتهم فى الكون المادى أشياء لتؤهلهم إلى استعادة حاسة ما ، فما بالنا بالخالق الأكرم الإله المُربّى ، ألا يستطيع أن يعيد خلقنا فى الآخرة بطريقة تتيح لنا أن نرى ذاته ووجهه ؟! إنه القادر على كل شيء .

إذن فالأمر هنا متشابه ، إن الله يُدرَك ـ بضم الياء وفتح الراء ـ أو لا يُدْرَك ، فما الذى تغير من الأحكام بالنسبة لك ؟ لا شيء . إذن فهذه الآيات المتشابهات لم تأت من أجل الأحكام ، إنما هى قد جاءت من أجل الإيمان فقط ، ولذلك فالرسول صلى الله عليه وسلم ينهى كل خلاف للعلماء حول هذه المسألة بقوله وهو الرسول الخاتم : « إن القرآن لم ينزل ليكذب بعضه بعضا فما عرفتم منه فاعملوا به وما تشابه منه فآمنوا به »[1] .

إن المُتشَابه من الآيات قد جاء للإيمان به ، والمُحْكَم من الآيات إنما جاء للعمل به ، والمؤمن عليه دائما أن يرد المُتشَابِه إلى المُحْكَم . مثال ذلك عندما نسمع قول الله عز وجل :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾ ﴾

(سورة الفتح)

إن الإنسان قد يتساءل : « هل لله يد » ؟ على الإنسان أن يرد ذلك إلى نطاق « ليس كمثله شيء » . وعندما يسمع المؤمن قول الحق :

﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ ﴾

(سورة طه)

فهل لله جسم يستقر به على عرش ؟ هنا نقول : هذا هو المُتشَابِه الذى يجب على المؤمن الإيمان به ، ذلك أن وجودك أيها الإنسان ليس كوجود الله ، ويدك ليست كيد الله وأن استواءك أيضا ليس كاستواء الله . ومادام وجوده سبحانه ليس كوجودك وحياته ليست كحياتك فلماذا تريد أن تكون يده كيدك ؟

هو كما قال عن نفسه : « ليس كمثله شيء » . ولماذا أدخلنا الله إلى تلك المجالات ؟ لأن الله يريد أن يُلفت خلقه إلى أشياء قد لا تستقيم فى العقول ؛ فمن

---

(١) رواه الإمام ابن كثير فى تفسيره ، ورواه ابن مردويه .

يتسع ظنه إلى أن يؤول ويردها إلى المُحْكَم بأن الله ليس كمثله شيء . فله ذلك ، ومن يتسع ظنه ويقول : أنا آمنت بأن لله يداً ولكن فى إطار « ليس كمثله شيء » فله ذلك أيضا وهذا أسلم .

والحق يقول : « منه آيات محكمات هن أم الكتاب » ومعنى « أُمّ » أى الأصل الذى يجب أن ينتهى إليه تأويل المُتشابه إن أوّلت فيه ، أو تُرجعه إلى المُحكم فتقول : إن لله يداً ، ولكن ليست كأيدى البشر . إنما تدخل فى نطاق :

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾

(من الآية ١١ سورة الشورى)

ولماذا قال الحق : « هن أم الكتاب » ؟ ولم يقل : هن أمهات الكتاب ؟ لك أن تعرف أيها المؤمن أنه ليس كل واحدة منهن أمّا ، ولكن مجموعها هو الأم ، ولتوضيح ذلك فلنسمع قول الحق :

﴿ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾ ﴾

(سورة المؤمنون)

لم يقل الحق : إنهما آيتان ؛ لأن عيسى عليه السلام لم يوجد كآية إلا بميلاده من أمه دون أب أى بضميمة أمه ، وأم عيسى لم تكن آية إلا بميلاد عيسى أى بضميمة عيسى . إذن فهما معاً يكونان الآية ، وكذلك « هن أم الكتاب وأخر متشابهات » فالمقصود بها ليس كل محكم أمّا للكتاب ، إنما المحكمات كلها هى الأم ، والأصل الذى يَرُدُّ إليه المؤمنُ أىَّ متشابهٍ . ومهمة المحكم أن نعمل به ، ومهمة المتشابه أن نؤمن به ؛ بدليل أنك إن تصورته على أى وجه لا يؤثر فى عملك . فقوله الحق : « لا تدركه الأبصار » لا يترتب عليه أى حكم ، وهنا يكفى الإيمان فقط .

لكن ماذا من أمر الذين قال عنهم الله : « فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله » ؟ . ولنا أن نعرف أن « الزيغ » هو المَيْل ، فزاغ يعنى مال ، وهى مأخوذة من تزايغ الأسنان ، أى اختلاف منابتها ، فسِنّةٌ تظهر داخلة ، وأخرى خارجة ، وعندما لا تستقيم الأسنان فى طريقة نموها يصنعون لها

الآن عمليات تجميل وتقويم ليجعلوها صفاً واحداً .

إن الذين فى قلوبهم زيغ أى ميل ، يتبعون ما تشابه من الآيات ابتغاء الفتنة . كأن الزيغ أمر طارىء على القلوب ، وليس الأصل أن يكون فى القلوب زيغ ، فالفطرة السليمة لا زيغ فيها ، لكن الأهواء هى التى تجعل القلوب تزيغ ، ويكون الإنسان عارفاً لحكم الله الصحيح فى أمر ما ، لكن هوى الإنسان يغلب فيميل الإنسان عن حكم الله . والميل صنعة القلب ، فالإنسان قد يخضع منطقه وفكره ليخدم ميل قلبه ، ولذلك فرسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

(لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به)[1]

لماذا ؟ لأن آفة الرأى الهوى ، وحتى المنحرفون يعرفون القصد السليم ، لكن الواحد منهم ينحرف لما يهوى ، ودليل معرفة المنحرف للقصد السليم أنه بعد أن يأخذ شرّته فى الانحراف يتوب ويعلن توبته ، وهذا أمر معروف فى كثير من الأحيان ؛ لأن الميل تَكَلّفٌ تبريرى ، أما القصد السليم فأمر فطرى لا يُرهِق ، ومثال ذلك : عندما ينظر الإنسان إلى حلاله ، فإنه لا يجد انفعال مَلكة يناقض انفعال ملكة أخرى ، ولكن عندما ينظر إلى واحدة ليست زوجته ، فإن ملكاته تتعارك ، ويتساءل : هل ستقبل منه النظرة أو لا ؟ إن ملكاته تتضارب ، أما النظر إلى الحلال فالملكات لا تتعب فيه . لذلك فالإيمان هو اطمئنان ملكات ، فكل ملكات الإنسان تتآزر فى تكامل ، فلا تسرق ملكة من وراء أخرى .

مثال آخر : عندما يذهب واحد لإحضار شىء من منزله ، فإنه لا يحس بتضارب ملكاته ، أما إذا ذهب إنسان آخر لسرقة هذا الشىء فإن ملكاته تتضارب ، وكذلك جوارحه ؛ لأنها خالفت منطق الحق والاستقامة والواقع .

« فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله » إذن فاتباعهم للمتشابه منه ليؤوّلوه تأويلاً يخالف الواقع ليخدموا الزيغ الذى فى قلوبهم .

(١) رواه فى شرح السنة للبغوى ، وفى كنز العمال ، ومشكاة المصابيح للتبريزى .

فالميل موجود عند قلوبهم أولاً ، ثم بدأ الفكر يخضع للميل ، والعبارة تخضع للفكر ، وهكذا نرى أن الأصل فى الميل قد جاء منهم . . ولننظر إلى أداء القرآن الكريم حين يقول :

﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾

(من الآية ٥ سورة الصف)

كأنه يقول : مادمتم تريدون الميل فسأميلكم أكثر وأساعدكم فيه . والحق سبحانه لا يبدأ إنساناً بأمر يناقض تكليفه ، لكن الإنسان قد يميله هواه إلى الزيغ ، فيتخلى الله عنه : ويدفعه إلى هاوية الزيغ . وآية أخرى يقول فيها الحق :

﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾

(سورة التوبة)

إنهم الذين بدأوا ؛ انصرفوا عن الله فصرف الله قلوبهم بعيداً عن الإيمان . وكذلك الذين يتبعون المتشابه يبتغون به الفتنة أى يطلبون الفتنة ، ويريدون بذلك فتنة عقول الذين لا يفهمون ، وماداموا يريدون فتنة عقول من لا يفهمون فهم ضد المنهج ، وماداموا ضد المنهج فهم ليسوا مؤمنين إذن ، وماداموا غير مؤمنين فلن يهديهم الله إلى الخير ، لأن الإيمان يطلب من الإنسان أن يتجه فقط إلى الإيمان بالرب الإله الحكيم ، ثم تأتى المعونة بعد ذلك من الله . لكن عندما لا يكون مؤمنا فكيف يطلب المعونة من الله ، إنه سبحانه يقول :

(أنا أغنى الشركاء عن الشرك)[1] .

إنهم يبتغون الفتنة بالمتشابه ، ويبتغون تأويله ، ومعنى التأويل هو الرجوع ، لأننا نقول : « آل الشيء إلى كذا » أى رجع الشيء إلى كذا ، فكأن شيئاً يرجع إلى شيء ، فمن لهم عقل لا زيغ فيه يحاولون جاهدين أن يؤولوا المُتشَابه ويردوه إلى المُحكم ، أو يؤمنوا به كما هو .

---

(١) اتحاف السادة المتقين للزبيدى ، ومسند الربيع بن حبيب ، والترغيب والترهيب للمنذرى ، والأسماء والصفات للبيهقى .

ويقول الحق بعد ذلك : « وما يعلم تأويله إلا الله » إن الله لو أراد للمتشابه أن يكون مُحْكَما ، لجاء به من المُحكَم ، إذن فإرادة الله أن تكون هناك آيات المتشابه ومهمتها أن تحرك العقول ، وذلك حتى لا تأتى الأمور بمنتهى الرتابة التى يجمد بها عقل الإنسان عن التفكير والإبداع ، والله يريد للعقل أن يتحرك وأن يفكر ويستنبط . وعندما يتحرك العقل فى الاستنباط تتكون عند الإنسان الرياضة على الابتكار ، والرياضة على البحث ، وليجرب كل واحد منا أن يستنبط المتشابه إلى المحكم ولسوف يمتلك بالرياضة ناصية الابتكار والبحث ، والحاجة هى التى تفتق الحيلة .

إن الحق يريد أن يعطى الإنسان دربة حتى لا يأخذ المسائل برتابة بليدة ويتناولها تناول الخامل ويأخذها من الطريق الأسهل ، بل عليه أن يستقبلها باستقبالٍ واع وبفكر وتدبر .

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾

(سورة محمد)

كل ذلك حتى يأخذ العقل القدر الكافى من النشاط ليستقبل العقل العقائد بما يريده الله ، ويستقبل الأحكام بما يريده الله ، فيريد منك فى العقائد أن تؤمن ، وفى الأحكام أن تفعل « وما يعلم تأويله إلا الله » . والذين فى قلوبهم زيغ يحاولون التأويل وتحكمهم أهواؤهم ، فلا يصلون إلى الحقيقة . والتأويل الحقيقى لا يعلمه إلا الله .

قد رأينا من يريد أن يعيب على واحد بعض تصرفاته فقال له : يا أخى أتَدّعى أنك أحطت بكل علم الله ؟ فقال له : لا . قال له : أنا من الذى لا تعلم . وكأنه يرجوه أن ينصرف عنه .

والعلماء لهم وقفات عند قوله الحق : « وما يعلم تأويله إلا الله » : بعضهم يقف عندها ويعتبر ما جاء من بعد ذلك وهو قوله الحق : « والراسخون فى العلم » كلاماً مستأنفاً ، إنهم يقولون : إن الله وحده هو الذى يعلم تأويل المتشابه ، والمعنى : « والراسخون فى العلم » أى الثابتون فى العلم ، الذين لا تغويهم الأهواء ، إنهم :

« يقولون آمنا به كل من عند ربنا » وهو ما قاله الرسول صلى الله عليه وسلم ، إن الراسخين فى العلم يقولون : إن المحكم من الآيات سيعملون به ، والمتشابه يؤمنون به ، وكل من المتشابه والمحكم من عند الله .

أمّا مَن عطف وقرأ القول الحكيم ووقف عند قوله : « والراسخون فى العلم » نقول له : إن الراسخين فى العلم علموا تأويل المتشابه ، وكان نتيجة علمهم قولهم : « آمنا به » .

إن الأمرين متساويان ، سواء وقفت عند حد علم الله للتأويل أو لم تقف . فالمعنى ينتهى إلى شيء واحد . وحيثية الحكم الإيمانى للراسخين فى العلم هى قوله الحق على لسانهم : « آمنا به كل من عند ربنا » فالمحكم من عند ربنا ، والمتشابه من عند ربنا ، وله حكمة فى ذلك ؛ لأنه ساعة أن يأمر الأعلى الأدنى بأمر ويبين له علته فيفهم الأدنى ويعمل ، وبعد ذلك يلقى الأعلى أمراً آخر ولا يبين علته ، فواحد ينفذ الأمر وإن لم يعرف العلة ، وواحد آخر يقول : لا ، عليك أن توضح لى العلة . فهل الذى آمن آمن بالأمر أو بالعلة ؟

إن الحق يريد أن نؤمن به وهو الآمر ، ولو أن كل شيء صار مفهوماً لما صارت هناك قيمة للإيمان . إنما عظمة الإيمان فى تنفيذ بعض الأحكام وحكمتُها غائبة عنك ؛ لأنك إن قمت بكل شيء وأنت تفهم حكمته فأنت مؤمن بالحكمة ، ولست مؤمناً بمن أصدر الأمر .

وعندما نأتى إلى لحم الخنزير الذى حرمه الله من أربعة عشر قرناً ، ويظهر فى العصر الحديث أن فى أكل لحم الخنزير مضار ، ويمتنع الناس عن أكله لأن فيه مضار ، فهل امتناع هؤلاء أمر يثابون عليه ؟ طبعاً لا ، لكن الثواب يكون لمن امتنع عن أكل لحم الخنزير لأن الله قد حرمه ؛ ولأن الأمر قد صدر من الله ، حتى دون أن يُعَرِّفنا الحكمة ، إن المؤمن بالله يقول : إن الله قد خلقنى ولا يمكن - وهو الخالق - أن يخدعنى وأنا العبد الخاضع لمشيئته .

إن العبد الممتنع عن أكل لحم الخنزير وشرب الخمر امتثالاً لأمر الله ، هو الذى

ينال الثواب ، أما الذى يمتنع خوفاً من اهتراء الكبد أو الإصابة بالمرض فلا ثواب له . وهناك فرق بين الذهاب إلى الحكم بالعلة . وبين الذهاب إلى الحكم بالطاعة للآمر بالحكم .

إذن فالمتشابه من الآيات نزل للإيمان به ، والراسخون فى العلم يقابلهم من تلويهم الأهواء ، والأهواء تلوى إلى مرادات النفس وإلى ابتغاءات غير الحق . ومادامت ابتغاءات غير الحق ، فغير الحق هو الباطل ، فكل واحد من أهل الباطل يحاول أن يأتى بشىء يتفق مع هواه . ولذلك جاء التشريع من الله ليعصم الناس من الأهواء ؛ لأن هوى إنسانٍ ما قد يناقض هوى إنسان آخر ، والباقون من الناس قد يكون لهم هوى يناقض بقية الأهواء . والحق سبحانه يقول :

﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ ﴾

(سورة المؤمنون)

إذن فلا بد أن نتبع فى حركتنا ما لا هوى له إلا الحق ، والدين إنما جاء ليعصمنا من الأهواء ؛ فالأهواء هى التى تميلنا ، والذى يدل على أن الأهواء هى التى تميل إلى غير الحق أن صاحب الهوى يهوى حكماً فى شىء ، ثم تأتى ظروف أخرى تجعله يهوى حكماً مقابلاً ، إنه يلوى المسألة على حسب هواه ، وإلا فما الذى ألجأ دنيا الناس إلى أن يخرجوا من قانون السماء الأول الذى حكم الأرض عند آدم عليه السلام ؟

لقد خرجوا من قانون السماء حينما قام قوم بأمر الدين فأخذوا لهم من هذا سلطة زمنية ، وأصبحوا يُخضعون المسائل إلى أهوائهم . ونحن إذا نظرنا إلى تاريخ القانون فى العالم لوجدنا أن أصل الحكم فى القضايا إنما هو لرجال الدين والكهنة والقائمين على أمر المعابد . كان الحكم كله لهم ، لأن هؤلاء كانوا هم المتكلمين بمنهج الله .

ولماذا لم يستمر هذا الأمر ، وجاءت القوانين الرومانية والإنجليزية والفرنسية وغيرها ؟ لأنهم جربوا على القائمين بأمر الدين أنهم خرجوا عن نطاق التوجيه السماوى إلى خدمة أهوائهم ، فلاحظ الناس أن هؤلاء الكهنة يحكمون فى قضية

بحكم ما يختلف عن حكم آخر فى قضية مشابهة . إنهم القضاة أنفسهم والقضايا متشابهة متماثلة ، لكن حكم الهوى يختلف من قضية إلى أخرى ، بل وقد يتناقض مع الحكم الأول ، فقال الناس عن هؤلاء الكهنة :

لقد خرجوا عن منطق الدين واتبعوا أهواءهم ، ليثبتوا لهم سلطة زمنية ، فنحن لم نعد نأمنهم على ذلك . وخرج التقنين والحكم من يد الكهنة ورجال الدين إلى غيرهم من رجال التقنين . لقد كان أمر القضاء بين الكهنة ورجال الدين ؛ لأن الناس افترضت فيهم أنهم يأخذون الأحكام من منهج الله ، فلما تبين للناس أن الكهنة ورجال الدين لا يأخذون الحكم من منهج الله ، ولكن من الهوى البشرى ، عند ذلك أخذ الناس زمام التقنين لأنفسهم بما يضمن لهم عدالة ما حتى ولو كانت قاصرة .

وبمناسبة كلمة الهوى نجد أن هناك ثلاثة ألفاظ :

أولا : الهواء وهو ما بين السماء والأرض ، ويراد به الريح ويحرك الأشياء ويميلها وجمعه : الأهوية وهذا أمر حسىّ .

ثانيا : الهوَى : وهو ميل النفس ، وجمعه : الأهواء ، وهو مأخوذ من هَوِىَ يَهْوَى بمعنى مال .

ثالثا : الهَوىّ : بفتح الهاء وضمها وتشديد الياء وهو السقوط مأخوذ من هَوَى يهْوِى : بمعنى سقط . وهذا يدل على أن الذى يتبع هواه لا بد أن يسقط ، والاشتقاقات اللغوية تعطى هذه المعانى . إنها متلاقية . إذن الراسخون فى العلم يقفون ثابتين عند منهج الله . وأما الذين يتبعون أهواءهم فهم يميلون على حسب ميل الريح . فإن الريح مالت ، مالوا حيث تميل .

ويقول الراسخون فى العلم فى نهاية علمهم : آمنا « والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا » . وهنا تلتقى المسألة ، فنحن نعرف أن المحكم نزل للعمل به ، والمتشابه نزل للإيمان به لحكمة يريدها الله سبحانه وتعالى ، وهى أن نأخذ الأمر من الآمر لا لحكمة الأمر . وعندما نأخذ الأوامر من الحق فلا نسأل عن علتها ؛ لأننا نأخذها من خالق محب حكيم عادل . والإنسان إن لم ينفذ الأمر القادم من الله إلا إذا علم علته وحكمته فإننا نقول لهذا الإنسان : أنت لا تؤمن بالله ولكنك تؤمن بالعلة

والحكمة ، والمؤمن الحق هو من يؤمن بالآمر وإن لم يفهم .

والراسخون فى العلم يقولون : آمنا به ، كل من عند الله ، المحكم من عند ربنا والمتشابه من عند ربنا .

ويضيف سبحانه : « **ومايذكّر إلا أولو الألباب** » و« أولو الألباب » أى أصحاب العقول المحفوظة من الهوى ، لأن آفة الرأى الهوى ، والهوى يتمايل به . « وما يذكّر إلا أولو الألباب » و« اللب » هو : العقل ، يخبرنا الله أن العقل يحكم لُبّ الأشياء لا ظواهر الأشياء وعوارضها ، فهناك أحكام تأتى للأمر الظاهر ، وأحكام للُبّ . الحق يأمر بقطع يد السارق . وبعد ذلك يأتى من يمثل دور حامى الإنسانية والرحمة ويقول : « هذه وحشية وقسوة » !

هذا ظاهر الفهم ، إنما لُبّ الفهم أنى أردت أن تُقطع يد السارق حتى أمنعه أن يسرق ؛ لأن كل واحد يخاف على ذاته ، فيمنعه ذلك أن يسرق . وقد قلنا من قبل : إن حادثة سيارة قد ينتج عنها مشوهون قدر مِنْ قطعت أيديهم بسبب السرقة فى تاريخ الإسلام كله ، فلا تفتعل وتدعى أنك رحيم ولا تنظر إلى العقاب حين ينزل بالمذنب ، ولكن انظر إلى الجريمة حين تقع منه،فإن الله يريد أن يحمى حركة الحياة للناس بحيث إذا عملت وكددت واجتهدت وعرقت يضمن الله لك حصيلة هذا العمل ، فلا يأتى متسلط يتسلط عليك ليأخذ دمه من عرقك أنت .

إذن فهو يحمى حركة الحياة وتحرك كل واحد وهو آمن ، هذا « لُبّ » الفهم ، ولذلك يقول تعالى : « ولكم فى القصاص حياة » ، إياكم أن تقولوا : إن هذا القصاص اعتداء على حياة فرد . لا ، لأن « لكم فى القصاص حياة » إنّ مَن علم أنه إن قَتل فسيقتل ، سيمتنع عن القتل ، إذن فقد حمينا نفسه وحمينا الناس منه ، وهكذا يكون فى القصاص حياة ، وذلك هو لُبّ الفهم فى الأشياء ؛ فالله سبحانه وتعالى يلفتنا وينبهنا ألاّ نأخذ الأمور بظواهرها ، بل نأخذها بلبها ، وندع القشور التى يحتكم إليها أناس يريدون أن ينفلتوا من حكم الله . و « الراسخون فى العلم » حينما فَصلوا فى أمر المتشابه دعوا الله بالقول الذى أنزله ـ سبحانه ـ :

﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾ ﴾

فكأن قول الراسخين فى العلم : إن كل محكم وكل متشابه هو من عند الله ، والمحكم نعمل به ، والمتشابه نؤمن به ، فهذه هى الهداية ؛ ثم يكون الدعاء بالثبات على هذه الهداية ، والمعنى : يارب ثبتنا على عبادتك ولا تجعل قلوبنا تميل أو تزيغ . وهذا يدلنا على أن القلوب تتحول وتتغير ؛ لذلك يأتى القول الفصل بالدعاء على الثبات الإيمانى :

﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

إنهم يطلبون رحمة هبة لا رحمة حق ، فليس هناك مخلوق له حق على الله إلا ما وهبه الله له . والراسخون فى العلم يطلبون من الله الرحمة من الوقوع فى الهوى بعد أن هداهم الله إلى هذا الحكم السليم بأن المتشابه والمحكم كل من عند الله . ويعلموننا كيف يكون الطريق إلى الهداية وطلب رحمة الهبة . والراسخ فى العلم مادام قد علم شيئا فهو يريد أن يشيعه فى الناس ، لذلك يقول لنا :

إياكم أن تظنوا أن المسألة مسألة فهم لنص وتنتهى ، إن المسألة يترتب عليها أمر آخر ، هذا الأمر الآخر لا يوجد فى الدنيا فقط ، فهناك آخرة ، فالدنيا مقدور عليها لأنها محدودة الأمد ومنتهية ، ولكن هناك الآخرة التى تأتى بعد الدنيا حيث الخلود ، فيقول الحق على لسان الراسخين فى العلم :

﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ

فِيهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٩﴾

وقولهم:« ربنا » نفهم منه أنه الحق المتولى التربية ، ومعنى التربية هو إيصال من تتم تربيته إلى الكمال المطلوب له ، فهناك ربٌّ يربى ، وهناك عبد تتم تربيته ، والربُّ يعطى الإنسان ما يؤهله إلى الكمال المطلوب له .

والمؤمنون يرجون الله قائلين : يارب من تمام تربيتك لنا أن تحمينا من عذاب الآخرة ، فإذا ما عشنا الدنيا وانتهت فنحن نعلم أنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه ، ومادمت ربا ، ومادمت إلها فإنك لا تخلف الميعاد ؛ فالذى يخلف الميعاد لا يكون إلها ؛ لأن الإله ساعة الوعد يعلم بتمام قدرته وكمال علمه أنه قادر على الإنفاذ ، إنما الذى ليس لديه قدرة على الإنفاذ لا يستطيع أن يعد إلا مشمولا بشىء يستند إليه ، كقولنا نحن العباد : « إن شاء الله » لماذا ؟ لأن الواحد منا لا يملك أن يفى بما وعد .

حينما تعرضنا إلى قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾ ﴾

(سورة الكهف)

قُلنا إياك أن تقول:إنى سأفعل شيئا إلا أن تشتمله وتربطه بمشيئة الله ؛ لأنك أنت إن وعدت ، فأنت لا تضمن عمرك ولا إنفاذ وعدك ، إنك لن تفعل شيئا إلا بإرادة الله ، لذلك فلا تعد إلا بالمشيئة ؛ لأنك تعد بما لا تضمن ، فأنت فى حقيقة الأمر لا تملك شيئا ، فإن أردت فعل أى شىء أو الذهاب إلى أى مكان فالفعل يحتاج إلى فاعل ومفعول وزمان ومكان وسبب ، ثم يحتاج إلى قدرة لتنفيذ الفعل . والإنسان لا يملك من هذه الأشياء إلا ما يشاء الله له أن يملكه . إن الإنسان لا يملك أن يظل فاعلا . والإنسان لا يملك إن وُجد الفاعل أن يُوجد المفعول . والإنسان لا يملك الزمن ، ولا يملك المكان ، بل لا يملك الإنسان أن يظل السبب قائما ليفعل ما كان

يريد أن يفعله ؛ فكل هذه العناصر ، الفاعل والمفعول ، والزمان ، والمكان ، والسبب ، لا يملكها إلا الله . لذلك فليحم الإنسان نفسه من أن يكون كاذبا ومجازفا وليكن فى ظل قوله تعالى :

﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾ ﴾

(سورة الكهف)

إن كلمة « إلّا أن يشاء الله » تعصم الإنسان من أن يكون كاذبا . وعندما لا يحدث الذى يعد به الإنسان فمعنى ذلك أن الله لم يشأ ؛ لأن الإنسان لا يملك عنصراً واحداً من عناصر هذا الفعل . وعندما يقول الحق : « ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه إن الله لا يخلف الميعاد » لأن الذى يخلف الميعاد إنما تمنعه قوة قاهرة تأتيه ؛ ولو من تغير نفسه تمنعه أن يفعل ، أما الله فلا تأتى قوة قاهرة لتغير ما يريد أن يفعل ، ولا يمكن أن يتغير ؛ لأن التغير ليس من صفات القديم الأزلى .

وحين يؤكد الحق أنه سيتم جمعنا بمشيئته فى يوم لا ريب فيه ، وأن الله لا يخلف الميعاد،فمن المؤكد أننا سنلتقى . وسنلتقى لماذا ؟ لقد قال الراسخون فى العلم : عملنا بالمحكم ، وآمنا بالمتشابه ، ودعوا الله أن يثبت قلوبهم على الهداية رحمة من عنده ، وأن يبعد قلوبهم عن الزيغ ؛ لأنهم خائفون من اليوم الذى سيجمع الله الناس فيه ، إننا سنلتقى للحساب على أفعالنا وإيماننا . وبعد ذلك يقول الحق جل شأنه :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾ ﴾

ساعة تسمع وأنت المؤمن ، ويسمع معك الكافر ، ويسمع معك المنافق : « ربنا

إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه إن الله لا يخلف الميعاد » ربما فكر الكافر أو المنافق أن هناك شيئا قد ينقذه مما سيحدث فى ذلك اليوم ، كعزوة الأولاد ، أو كثرة مال يشترى نفسه به ، أو خُلة ، أو شفاعة ، هنا يقول الحق لهم : لا ، إن أولادكم وأموالكم لا تغنى عنكم شيئا .

وفى اللغة يقال : هذا الشىء لا يغنى فلاناً ، أى أنه يظل محتاجاً إلى غيره ؛ لأن الغِنَى هو ألا تحتاج إلى الغير ، فالأموال والأولاد لا تُغنى أحداً فى يوم القيامة ، والمسألة لا عِزوة فيها ، لا أنساب بينهم يومئذ والجنة ليست للبيع ، فلا أحد يستطيع شراء مكان فى الجنة بمال يملكه .

وكان الكافرون على أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون ذلك القول الشاذ يقولون : مادام الله قد أعطانا أموالاً وأولاداً فى الدنيا فلا بد أن يعطينا فى الآخرة ما هو أفضل من ذلك . ولذلك يقول الله لهم : « إن الذين كفروا لن تُغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا » إذن فالأمر كله مردود إلى الله . صحيح فى هذه الدنيا أن الله قد يخلق الأسباب ، والكافر تحكمه الأسباب ، وكذلك المؤمن ، فإذا ما أخذ الكافر بالأسباب فإنه يأخذ النتيجة ، ولكن فى الآخرة فالأمر يختلف ؛ فلن يملك أحد أسباباً ، ولذلك يقول الحق عن اليوم الآخر :

﴿ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة غافر)

إن البشر فى الدنيا يملكون الأسباب ، ويعيشون مختلفين فى النعيم على اختلاف أسبابهم ، واختلاف كدحهم فى الحياة ، واختلاف وجود ما يحقق للإنسان المُتع ، لكن الأمر فى الآخرة ليس فيه كدح ولا أسباب ؛ لأن الإنسان المؤمن يعيش بالمُسبب فى الآخرة وهو الله ـ جلت قدرته ـ فبمجرد أن يخطر الشىء على بال المؤمن فى الجنة فإن الشىء يأتى له . أما الكفار فلا يغنى عنهم مالهم ولا أولادهم ، لأنهم انشغلوا فى الدنيا بالمال والأولاد وكفروا بالله .

﴿ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ

بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِم ﴾

(من الآية ١١ سورة الفتح)

إذن فما انشغل به الكفار فى الدنيا لن ينفعهم ، ويضيف الحق عن الكفار فى تذييل الآية التى نحن بصددها : « وأولئك هم وقود النار » إنهم المَعذبون ، وسوف يتعذبون فى النار . ولنر النكاية الشديدة بهم ، إن الذين يُعَذِّبون ، هم الذين يُعَذَّبُون ؛ لأنهم بأنفسهم سيكونون وقود النار . إن المعَذِّب ـ بفتح العين وفتح الذال مع التشديد ـ يكون هو المعَذَب ـ بفتح العين وكسر الذال مع التشديد ـ

فهذه ثورة الأبعاض . فذرّات الكافر مؤمنة ، وذرات العاصى طائعة ، والذى جعل هذه الذرات تتجه إلى فعل ما يُغضب الله هو إرادة صاحبها عليها . وضربنا قديما المثل ـ ولله المثل الأعلى ـ وقلنا : هب أن كتيبة لها قائد فالمفروض فى الكتيبة أن تسمع أمر القائد ، وتقوم بتنفيذ ما أمر به ؛ فإذا ما جاءوا للآمر والقائد الأعلى بعد ذلك فإنهم يرفعون أمرهم إليه ويقولون له : بحكم الأمر نفذنا العمل الذى صدر لنا من قائدنا المباشر وكنا غير موافقين على رأيه . وفى الحياة الإيمانية نجد القول الحكيم من الخالق :

﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

(سورة النور)

فكان اللسان ينطق بكلمة الكفر وهو لاعِنٌ لصاحبه . واليد تتقدم إلى المعصية وهى كارهةٌ لصاحبها ولاعِنةٌ له ، إن إرادة الله العليا هى التى جعلت للكافر إرادة على يده ولسانه فى الدنيا ، وينزع الله إرادة الكافر عن جوارحه يوم القيامة فتشهد عليه أنه أجبرها على فعل المعاصى ، وتعذب الأبعاض بعضها ، وعندما يقول الحق : « وأولئك هم وقود النار » وهنا مسألة يجب أن نلتفت إليها ونأخذها من واقع التاريخ ، هذه المسألة هى أن الذين كفروا برسالات الله فى الأرض تلقوا بعض العذاب فى الدنيا ؛ لأن الله لا يدّخر كل العقاب للآخرة وإلا لشقى الناس بالكافرين وبالعاصين ، ولذلك فإن الله يُعَجِّلُ بشىء من العقاب للكافرين والعاصين فى هذه الدنيا .

ويقول الحق مثالاً على ذلك :

﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١١﴾ ﴾

وساعة تسمع « كدأب كذا » ، فالدأب هو العمل بكدح وبلا انقطاع فنقول : فلان دأبه أن يفعل كذا أى هو معتاد دائماً أن يفعل كذا . أو نقول : ليس لفلان دأب إلا أن يغتاب الناس .

فهل معنى ذلك أن كل أفعاله محصورة فى اغتياب الناس ، أو أنه يقوم بأفعال أخرى ؟ إنه يقوم بأفعال أخرى لكن الغالب عليه هو الاغتياب ، وهذا هو الدأب . فالدأب هو السعى بكدح وتوالٍ حتى يصبح الفعل بالتوالى عادة . إذن فقوله الحق : « كدأب آل فرعون » أى كعادة آل فرعون . وآل فرعون هم قوم جاءوا قبل الرسالة الإسلامية ، وقبلهم كان قوم ثمود وعاد وغيرهم .

ويلفتنا الحق سبحانه إلى أن ننظر إلى هؤلاء ونرى ما الذى حدث لهم ، إنه سبحانه لم يؤخر عقابهم إلى الآخرة ؛ لأنه ربما ظن الناس أن الله قد ادخر عذاب الكافرين إلى الآخرة ؛ لأنه قال :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَٰئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ ﴿١٠﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

لا ، بل العذاب أيضا فى الدنيا مصداقاً لقوله الحق :

﴿ لَّهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾ ﴾

(سورة الرعد)

إن العذاب لو تم تأجيله إلى الآخرة لشقى الناس بالأشقياء ، لذلك يأتى الله بأمثلة من الحياة ويقول : « كدأب آل فرعون » أى كعادة آل فرعون ، ولا تصير مسألة عادة إلا بالكدح فى العمل ، وكان دأب آل فرعون هو التكذيب والطغيان وادّعاء فرعون الألوهية .

ويقول سبحانه : « والذين من قبلهم كذبوا بآياتنا ، فأخذهم الله بذنوبهم والله شديد العقاب » فصار الدأب منهم ، ومما وقع بهم ، فإذا كانوا قد اعتادوا الكفر والتكذيب فقد أوقع الله عليهم العذاب . لقد كان دأب آل فرعون هو التكذيب ، والخالق ـ سبحانه ـ يجازيهم على ذلك بتعذيبهم ، ولتقرأ إن شئت قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَالْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴿٤﴾ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ﴿٥﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾ ﴾

(سورة الفجر)

فدأبهم التكذيب وجزاء الله لهم على ذلك هو العذاب والعقاب . إذن فقوله الحق : « فأخذهم الله بذنوبهم والله شديد العقاب » أى أوقع بهم العذاب فى الدنيا ، وكانت النهاية ما كانت فى آل فرعون وثمود ومَن قبلهم من القوم الكافرين .

وعندما تسمع قول الله : « والله شديد العقاب » فالذهن ينصرف إلى أن هناك ذنباً يستحق العقاب . وكل الأمور من المعنويات مأخوذة دائماً من المُحسَّات ؛ لأن الأصل فى إيجاد أى معلومات معنوية هو المشاهد الحسِّية ، وتُنقل الأشياء الحسّية إلى

المعنويات بعد ذلك . لماذا ؟ لأن الشيء الحسيّ مشهود من الجميع ، أما الشيء المعنوى فلا يفهمه إلا المتعقلون ، والإنسان له أطوار كثيرة . ففى طور الطفولة لا يفهم ولا يعقل الإنسان إلا الأمر المحسوس أمامه .

وقلت قديما فى معنى كلمة « الغصب » : إنه أخذ وسلب شيء من إنسان صاحب حق بقوة ، وهذا أمر معنوى له صورة مشهدية ؛ لأن الذى يسلخ الجلد عن الشاة نسميه غاصباً . ولنر كيف يكون أخذ الحق من صاحبه ، إنه كالسلخ تماماً ، فالكلمة تأتى للإيضاح .

وكلمة « ذنب » وكلمة « عقوبة » مترابطتان ؛ فكلمة « ذنب » مأخوذة من مادة ذنب ؛ لأن المادة كلها تدل على « التالى » والذَنَب يتلو المقدمة فى الحيوان . والعقاب هو ما يأتى عقب الشيء .

إذن فهناك ذنب وهناك عقاب . لكن ماذا قبل الذنب ، وماذا يتلو العقاب ؟ لا يوجد ذنب إلا إذا وُجِدَ نص يُجرّم ، فلا ذنب إلّا بنص . فليس كل فعل هو ذنب ، بل لابد من وجود نص قبل وقوع الذنب . يجرّم فعله ؛ ولذلك أخذ التقنين الوضعى هذا الأمر ، فقال : لا يمكن أن يعاقب إنسان إلا بتجريم ، ولا تجريم إلا بنص ، فلا يمكن أن يأتى إنسان فجأة ويقول : هذا العمل جريمة يعاقب عليها . بل لابد من التنبيه والنص من قبل ذلك على تجريم هذا العمل .

إنه لا عقوبة إلا بتجريم ، ولا تجريم إلا بنص . فالنص يوضح تجريم فعل نوع ما من العمل ، وإن قام إنسان بهذا العمل فإنه يُجرّم ، ويكون ذلك هو الذنب ، فكأن الذنب جاء تالياً لنص التجريم . والعقاب يأتى عقب الجريمة ، وهكذا نجد أن كلاً من الذنب والجريمة يأخذان واقع اللفظ ومدلوله ومعناه ؛ فالذَنَبُ هو التالى للشيء . ولذلك يسمّون الدلو الذى يملأونه بالماء « ذَنوباً » لأنه هو الذى يتلو الحبل . وأيضا الجزاء فى الآخرة :

﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ ﴾

(سورة الذاريات)

أى ذَنوباً تتبع ، وتتلو جريمتهم . إذن فالنص القرآنى فى أى ذنب وفى أى عقاب يؤكد لنا القضية القانونية الاصطلاحية الموجودة فى كل الدنيا : إنه لا عقوبة دون تجريم . فكان العقابُ بعد الجريمة أى بعد الذنب ، والذنب بعض النص ، فلا نأتى لواحد بدون نص سابق ونقول له : أنت ارتكبت ذنباً . وهذه تحل إشكالات كثيرة ، مثال ذلك :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ ﴾

(سورة النساء)

إن الله يغفر ما دون الشرك بالله ، فالشرك بالله قمة الخيانة العظمى ؛ وهذا لا غفران فيه وبعد ذلك يغفر لمن يشاء . ويقول الحق فى آية أخرى :

﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ ﴾

(سورة الزمر)

فهناك بعض من الناس يقولون : إن الله قال:إنه لا يغفر أن يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ، حتى إنهم قالوا : إن ابن عباس ساعة جاءت هذه الآية التى قال فيها الحق : « إن الله يغفر الذنوب جميعا » قال : « إلا الشرك » وذلك حتى لا تصطدم هذه الآية مع الآية الأخرى .

والواقع أنه حين يدقق أولو الألباب فلن نجد اصطداما ، لأن الذين أسرفوا على أنفسهم . هم من عباد الله الذين آمنوا ولم يشركوا بربهم أحدًا ، ولكنهم زلُّوا وغووا ووقعوا فى المعاصى فهؤلاء يقال عنهم : إنهم مذنبون ؛ لأنهم مؤمنون بالله ومعترفون بالذى أنزله ، أما المشرك فلم يعترف بالله ولا بما شرع وقنن من أحكام،فما هو عليه لا يسمى ذنبا وإنما هو كفر وشرك . فلا تعارض ولا تصادم فى آيات الرحمن .

وعندما يقول الحق :

﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِـَٔايَـٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١١﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

فهذا القول الحكيم مُتوازن ومُتّسِق ، فالذنب يأتى بعد نص ، والعقاب من بعد ذلك . ويقول الحق آمرا رسوله ببلاغ الكافرين :

﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٢﴾ ﴾

إنه أمر من الله لرسوله صلى الله عليه وسلم وهو المبلغ عن الله ، أن يحمل للكافرين خبراً فيه إنذار . من هم هؤلاء الكفار ؟ هل هم كفار قريش ؟ الأمر جائز . هل هم اليهود ؟ الأم جائز . فالبلاغ يشمل كل كافر .

والنص القرآنى حينما يأتى فهو يأتى على غير عادة الناس فى الخطاب ، ولأضرب هذا المثل ـ ولله المثل الأعلى وسبحانه منزه عن التشبيه أو المثل ـ أنت تقول لابنك : اذهب إلى عمك ، وقل له : إن أبى سيحضر لزيارتك غدا . فماذا يكون كلام الابن للعم ؟ إن الابن يذهب للعم ويقول له : إن أبى سيزورك غدا . لكن الآمر وهو الأب يقول : قل لعمك إن أبى سيزورك غدا . فإذا كان الابن دقيق الأمانة فهو يقول :

ـ قال أبى : ـ قل لعمك:إن أبى سيزورك غدا . وعندما يقول الحق سبحانه : « قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد » .

فهذا معناه قمة الأمانة من الرسول المبلغ عن الله ، فنَقَل للكافرين النص الذى أمره الله بتبليغه للكافرين . وإلا كان يكفى الرسول صلى الله عليه وسلم أن يذهب

للكافرين ويقول لهم : ستُغلبون وتُحشرون . لكن من يدريهم أن هذا الكلام ليس من عند محمد وهو بشر ؟ لذلك يبلغهم الرسول صلى الله عليه وسلم أن الله أبلغه أن يبلغهم بقوله : « قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد » .

إن الرسول لم يبلغهم بمقول القول : لا ، إنما أبلغهم نص البلاغ الذى أبلغه به الله . وساعة يأمر الحق فى قرآنه رسوله صلى الله عليه وسلم أن يبلغ أمرا للكافرين فإن الرسول صلى الله عليه وسلم مُخاطب ، والكفار مُخاطبون ، فعندما يواجههم فإنه يقول لهم : ستُغلبون . . وفى آية أخرى يقول الحق :

﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾

(سورة الأنفال)

إن القياس أن يقول : إن تنتهوا يغفر لكم ما قد سلف ، لكن الحق قال : « إن ينتهوا » ، فكأن الله حينما قال كان الكفار غير حاضرين للخطاب ورسول الله هو الحاضر للخطاب ، والله يتكلم عن غائبين .

ولكن الله ـ سبحانه ـ فى هذه الآية التى نحن بصددها يحمل الرسول تمام البلاغ . فمرة يكون النقل من الآمر الأول كما صدر منه سبحانه كقوله:« إن ينتهوا » ومرة يأمره الآمر الأول أن يبلغ الكلمة التى يكون بها مخَاطِبا أى لا تقل : سيغلبون وقل : « ستغلبون » لأنك أنت الذى ستخاطبهم . وهذه الدقة الأدائية لا يمكن إلا أن تكون من قادر حكيم .

إنه بلاغ إلى كفار قريش أو إلى مطلق الذين كفروا . والغلب سيكون فى الدنيا ، والحشر يكون فى الآخرة .

فإذا ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينقل النص القرآنى « ستُغلبون » فمتى قالها رسول الله ؟ لقد قالها والمسلمون قلة لا يستطيعون حماية أنفسهم ، ولا يقدرون على شىء . وكل مؤمن يحيا فى كنف آخر ، أو يهاجر إلى مكان بعيد . فهل يمكن أن يأتى هذا البلاغ إلا ممن يملك مطلق الأسباب ؟

لقد قالها الرسول مبلغا عن الله ، والمسلمون فى حالة من الضعف واضحة ، ومادام قد قالها ، فهى حجة عليه ، لأنّ مَن أبلغه إياها وهو الله قادر على أن يفعلها . « قل للذين كفروا ستُغلبون » ليس العقاب فى الدنيا فقط ، ولكن فى الآخرة أيضا « وتُحشرون إلى جهنم وبئس المهاد » هذه المسألة بشارة لرسول الله ولأصحابه ، وإنذار للكافرين به ، ويتم تحقيقها فى موقعة بدر . فسيدنا عمر بن الخطاب لما نزل قول الله :

﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ ﴾

(سورة القمر)

تساءل عمر بن الخطاب : أى جمع هذا ؟ إنه يعلم أن المسلمين ضعاف لا يقدرون على ذلك ، وأسباب انتصار المسلمين غير موجودة ، ولكن رسول الله لم يكن يكلم المؤمنين بالأسباب ، إنما برب الأسباب ، فإذا ما تحدى وأنذرهم ، مع أنه وصحبه ضعاف أمامهم ، فقد جاء الواقع ليثبت صدق الحق فى قوله : « ستُغلبون » ويتم انتصار المسلمين بالفعل ، ويغلبون الكافرين .

ألا يُجعل صدق بلاغ الرسول صلى الله عليه وسلم فيما يحدث فى الدنيا دليل صدقٍ على ما يحدث فى الآخرة ؟ إن تحقيق « ستُغلبون » يؤكد « وتُحشرون إلى جهنم » . وفى هذه الآية شيئان : الأول ؛ بلاغ عن هزيمة الكفار فى الدنيا وهو أمر يشهده الناس جميعا ، والأمر الآخر هو فى الآخرة وقد يُكذبه بعض الناس . وإذا كان الحق قد أنبأ رسوله بأنك يا محمد ستَغلب الكافرين وأنت لا تملك أسباب الغَلَبَة عليهم . ومع ذلك يأتى واقع الأحداث فيؤكد أن الكافرين قد تمت هزيمتهم . ومادام قد صدق الرسول صلى الله عليه وسلم فى البلاغ عن الأولى ولم يكن يملك الأسباب فلا بد أن يكون صادقا فى البلاغ فى الثانية وهى البلاغ عن الحشر فى نار جهنم .

وبعض المفسرين قد قال : إن هذه المقولة لليهود ؛ لأن اليهود حينما انتصر المسلمون فى بدر زُلزِلوا زِلزَالا شديدا ، فلم يكن اليهود على ثقة فى أن الإسلام والمسلمين سينتصرون فى بدر ، فلما انتصر الإسلام فى بدر ؛ قال بعض اليهود : إن محمداً هو الرسول الذى وَعَدنَا به الله والأوْلَىٰ أن نؤمن به,فقال قوم منهم : انتظِروا إلى معركة أخرى . أى لا تأخذوها من أول معركة ، فانتظروا ، وجاءت معركة أحد ،

وكانت الحرب سجالا[١] .

ولنا أن نقول : وما المانع أن تكون الآية لليهود وللمشركين ولمطلق الذين كفروا ؟ فاللفظ عام وإن كان قد ورد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد جمع اليهود فى سوق بنى قينقاع وقال لهم : يا معشر اليهود احذروا مثل ما نزل بقريش وأسْلِموا قبل أن ينزل بكم ما نزل بهم ، فقد عرفتم أنى نبىّ مرسل . فماذا قالوا له ؟ قالوا له : لا يَغُرنَّك أنك لقيت قوما أغماراً ـ أى قوما من غمار الناس لم يجربوا الأمور ـ لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة ، لئن قاتلتنا لعلمت أنّا نحن الناس ، فأنزل الله قوله : « قل للذين كفروا ستغلبون . . . » إلخ الآية .

والمهاد هو ما يُمهّد عادة للطفل حتى ينام عليه نومًا مستقراً أى له قرار ، وكلمة « بئس المهاد » تدل على أنهم لا قدرة لهم على تغيير ما هم فيه ، كما لا قدرة للطفل على أن يقاوم من يضعه للنوم فى أى مكان . ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾ ﴾

وحين يقول الحق : « قد كان لكم آية » . فمن المخاطب بهذه الآية ؟ لاشك أن المخاطب بهذه الآية كل من كانت حياته بعد هذه الواقعة ، سواء كان مؤمنا أو كافرا ، فالمؤمن تؤكد له أن نصر الله يأتى ولو من غير أسباب ، والكافر تأتى له الآية

(١) الحرب سِجال : النصر بين طرفيها متداول .

بالعبرة فى أن الله يخذله ولو بالأسباب ، إن الله جعل من تلك الموقعة آية . والآية هى الشىء العجيب .أىْ إن واقعه ونتائجه لا تأتى وَفق المقدمات البشرية .

نعم هذا خطاب عام لكل من ينتسب إلى أىِّ فئة من الفئتين المتقاتلتين ، سواء كانت فئة الإيمان أو فئة الكفر . ففئة الإيمان لكى تفهم أنه ليست الأسباب المادية هى كل شىء فى المعركة بين الحق والباطل ، لأن لله جنودا لا يرونها . وكذلك يخطّىء هذا الخطاب فئة الكافرين فلا يقولون : إن لنا أسبابنا من عدد وعُدَّة قوية ، فقد وقعت المعركة بين الحق والباطل من قبل ؛ وقد انتصر الحق .

وكلمة « فئة » إذا سمعتها تصورت جماعة من الناس ، ولكن لها خصوصيّة ؛ فقد توجد جماعة ولكن لكل واحد حركة فى الحياة . ولكن حين نسمع كلمة « فئة » فهى تدل على جماعة ، وهى بصدد عمل واحد . ففى غير الحرب كل واحد له حركة قد تختلف عن حركة الآخر . ولكن كلمة « فئة » تدل على جماعة من الناس لها حركة واحدة فى عمل واحد لغاية واحدة .

ولاشك أن الحرب تصور هذه العملية أدق تصوير ، بل إن الحرب هى التى تُوَحّد كل فئةٍ فى سبيل الحركةِ الواحدة والعمل الواحد للغاية الواحدة ؛ لأن كل واحد من أى فئة لا يستطيع أن يحمى نفسه وحده ، فكل واحد يفىء ويرجع إلى الجماعة ، ولا يستطيع أن ينفصل عن جماعته . ولكن الفرد فى حركة الحياة العادية يستطيع أن ينفصل عن جماعته .

إذن فكلمة « فئة » تدل على جماعة من الناس فى عملية واحدة ، وتأتى الكلمة دائما فى الحرب لتصور كل معسكر يواجه آخر . وحين يقول الحق : « قد كان لكم آية فى فئتين التقتا » أى أن هناك صراعا بين فئتين ، ويوضح الحق ما هية كل فئة فيقول : « فئة تقاتل فى سبيل الله وأخرى كافرة » . وحين ندقق النظر فى النص القرآنى ، نجد أن الحق لم يورد لنا وصف الفئة التى تقاتل فى سبيل الله ولم يذكر أنها فئة مؤمنة ، وأوضح أن الفئة الأخرى كافرة ، وهذا يعنى أنّ الفئة التى تقاتل فى سبيل الله لا بد أن تكون فئة مؤمنة ، ولم يورد الحق أن الفئة الكافرة تقاتل فى سبيل الشيطان اكتفاء بأن كفرها لا بد أن يقودها إلى أن تقاتل فى سبيل الشيطان .

لقد حذف الحق من وصف الفئة الأولى ما يدل عليه فى وصف الفئة الثانية . وعرفنا وصف الفئة التى تقاتل فى سبيل الله من مقابلها فى الآية وهى الفئة الأخرى. فمقابل الكافرة مؤمنة ، وعرفنا ـ أيضا ـ أن الفئة الكافرة إنما تقاتل فى سبيل الشيطان لمجرد معرفتنا أن الفئة الأولى المؤمنة تقاتل فى سبيل الله . ويسمون ذلك فى اللغة « احتباك » . وهو أن تحذف من الأول نظير ما أثبت فى الثانى ، وتحذف من الثانى نظير ما أثبت فى الأول ، وذلك حتى لا تكرر القول ، وحتى توضح الالتحام بين القتال فى سبيل الله والإيمان ، والقتال فى سبيل الشيطان والكفر .

إذن فالآية على هذا المعنى توضح لنا الآتى : لقد كان لكم آية ، أى أمر عجيب جدا لا يسير ولا يتفق مع منطق الأسباب الواقعية فى فئتين،فعندما التقت الفئة المؤمنة فى قتال مع الفئة الكافرة ، استطاعت الجماعة المؤمنة المحددة بالغاية التى تقاتل من أجلها ـ وهى القتال فى سبيل الله ـ أن تنتصر على الفئة الكافرة التى تقاتل فى سبيل الشيطان .

وبعد ذلك يقول الحق : « يرونهم مثليهم رأى العين » فنحن أمام فئتين ، فمن الذى يَرى ؟ ومن الذى يُرى ؟ من الرائى ومن المرئى ؟ إن كان الرائى هم المؤمنين فالمرئى هم الكافرون . وإن كان الرائى هم الكافرين فالمرئى هم المؤمنون ولنر الأمر على المعنيين :

فإن كان الكافرون هم الذين يرون المؤمنين ، فإنهم يرونهم مثليهم ؛ أى ضعف عددهم ، وكان عدد الكافرين يقرب من ألف . إذن فالكافرون يرون المؤمنين ضعف أنفسهم ، أى ألفين . وقد يكون المعنى مؤديا إلى أن المؤمنين يرون الكافرين ضعف عددهم الفعلى . وقد يؤدى المعنى إلى أن الكافرين يرون المؤمنين ضعف عددهم وكان عدد المؤمنين يقرب من ثلاثمائة وأربعة عشر ، وضعف هذا العدد هو ستمائة وثمانية وعشرون مقاتلا .

فإن أخذنا معنى « مثليهم » على عدد المؤمنين ، فالكافرون يرونهم حوالى ستمائة وثمانية وعشرين مقاتلا ، وإن أخذنا معنى « مثليهم » على عدد الكافرين فالكافرون يرون المؤمنين حوالى ألفين . وما الهدف من ذلك ؟ إن الحق سبحانه يتكلم عن

المواجهة بين الكفر والإيمان حيث ينصر الله الإيمان على الكفر . وبعض من الذين يتصيدون للقرآن يقولون : كيف يقول القرآن : « يرونهم مثليهم رأى العين » وهو يقول فى موقع آخر :

﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾ ﴾

(سورة الأنفال)

وهذه الآية تثبت كثرة ، سواء كثرة المؤمنين أو كثرة الكافرين ، والآية التى نحن بصدد تناولها بالخواطر الإيمانية تثبت قلة ، والمشككون فى القرآن يقولون : كيف يتناول القرآن موقعة واحدة على أمرين مختلفين ؟ ونقول لهؤلاء المشككين : أنتم قليلو الفطنة ؛ لأن هناك فرقًا بين الشجاعة فى الإقبال على المعركة وبين الروح العملية والمعنوية التى تسيطر على المقاتل أثناء المعركة ، والحق سبحانه قد تكلم عن الحالين : قلل الحق هؤلاء فى أعين هؤلاء ، وقلل هؤلاء فى أعين هؤلاء ، لأن المؤمنين حين يرون الكافرين قليلا فإنهم يتزودون بالجرأة وطاقة الإيمان ليحققوا النصر .

والكافرون عندما يرون المؤمنين قلة فإنهم يستهينون بهم ويتراخون عند مواجهتهم . ولكن عندما تلتحم المعركة فما الذى يحدث ؟ لقد دخلوا جميعا المعركة على أمل القلة فى الأعداد المواجهة ، فما الذى يحدث فى أعصابهم ؟ إن المؤمن يدخل المعركة بالاستعداد المكثف لمواجهة الكفار . وأعصاب الكافر تخور لأن العدد أصبح على غير ما توقع ، إذن فقول الحق :

﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾ ﴾

(سورة الأنفال)

يُصور الحالة قبل المعركة ؛ لأن الله لا يريد أن يتهيب طرف من طرف فلا تنشأ المعركة . لكن ما إن تبدأ المعركة حتى يقلب الحق الأمور على عكسها ، إنه ينقل الشيء من الضد إلى الضد . ونقل الشيء من الضد إلى الضد إيذان بأن قادرا أعلى يقود المشاعر والأحاسيس ، والقدرة العالية تستطيع أن تصنع فى المشاعر ما تريد .

لقد قلل الحق الأعداد أولا حتى لا يتهيبوا المعركة ، وفى وقت المعركة جعلهم الله كثيرا فى أعين بعضهم البعض، فترى كلّ فئةٍ الطرف الآخر كثيرا ، فتتفجر طاقات الشجاعة المؤمنة من نفوس المؤمنين فيقبلون على القتال بحماسة ، وتخور نفوس الكافرين عندما يواجهون أعدادا أكثر مما يتوقعون . والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

إن هذه الآية هى خبر تبشيرى لكل مؤمن بالنصر ، وهى فى الوقت نفسه خبر إنذارى لكل كافر بأن الهزيمة سوف تلحق به إن واجه الجماعة المؤمنة . فإياكم أن تقيموا الأمور بمقاييس الأسباب ، فالأسباب المطلوبة منكم هى المقدور عليها للبشر وعليكم أن تتركوا تتمة كل ذلك للقدر ، فلا تخور الفئة المؤمنة أمام عدد كثير ، ولا تغتروا معشر الكفار بأعدادكم الكثيرة ؛ فالسابقة أمامكم تؤكد أن عدداً قليلا من المؤمنين قد غلب عددا كثيرا من الكافرين .

ومن معانى الآية ـ أيضا ـ أن الكافرين يرون المؤمنين مثلى عدد الكافرين ، أى ضعف عددهم . ومن معانيها ـ ثالثا ـ أن الكافرين يرون المؤمنين ضعف عدد المؤمنين الفعلى . ومن معانى الآية ـ رابعا ـ أن يرى المسلمون الكافرين مثليهم ، أى مثل المؤمنين مرتين ، أى ستمائة نفر وقليلا ، وحينئذ يكون عدد الكافرين فى عيون المؤمنين أقل من العدد الفعلى لهؤلاء الكافرين . إذن فما حكاية « مثليهم » هذه ؟ لقد وعد الله المؤمنين بنصره حين قال :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟

مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾

(سورة الأنفال)

والنسبة هنا أن المؤمن الواحد يخرج إلى عشرة من الكافرين فيهزمهم ، ذلك وعد الله ، وحين أراد الله التخفيف قال الحق :

﴿ الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾

(سورة الأنفال)

لقد خفف الله النسبة ، فواحد من المؤمنين يغلب اثنين من الكافرين . فالمؤمنون موعودون من الله بالغلبة حتى وهم ضعاف . والحق يقول فى الآية المبشرة للمؤمنين ، المنذرة للكافرين ، والتى نحن بصددها الآن : « والله يؤيد بنصره من يشاء إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار » .

ونحن نسمع كلمة « عبرة » كثيرا ، والمادة المأخوذة منها تدل على الدخول من مكان إلى مكان ، فيقال عن ذلك « عُبور » ، ونحن فى حياتنا العادية نخصص فى الشوارع أماكن لعبور المشاة ، أى المسافة التى يمكن للمشاة أن ينفذوا منها من ضفة الشارع إلى الضفة الأخرى من الشارع نفسه . وعبور البحر هو النفاذ من شاطىء إلى شاطىء آخر .

إذن فمادة « العبور » تدل على النفاذ من مكان إلى مكان ، و« العَبرة » أى الدمعة لأنها تسقط من محلها من العين على الخد . و« العِبارة » أى الجملة التى نتكلم بها ، فهى تنتقل من الفم إلى الأذن ، وهى عبور أيضا . و« العبير » أى الرائحة الجميلة التى تنتقل من الوردة البعيدة عن الإنسان قليلا لتنفذ إلى أنفه . إذن فمادة « العبور » تدل على « النفاذ » .

وحين يقول الحق : « إن فى ذلك لعبرة » . أى تنقلكم من أمر قد يخيفكم أيها المؤمنون لأنكم قليل ، وهم كثير ، إنها تنقلكم إلى نصر الله أيها المؤمنون ، وتنقلكم

أيها الكافرون إلى الهزيمة برغم كثرة عُدتكم وعَددكم . فالعبرة هى حدث ينقلك من شيء إلى شيء مغاير ، كالظالم الذى نرى فيه يوما ، ونقول : إن ذلك عبرة لنا ، أى إنها نقلتنا من رؤيته فى الطغيان إلى رؤيته فى المهانة .

وهكذا تكون العبرة هى العظة اللافتة والناقلة من حكم إلى حكم قد يستغربه الذهن ، فتذييل هذه الآية الكريمة بهذا المعنى هو إيضاح وبيان كامل ، فالحق يقول فى بداية هذه الآية : « قد كان لكم آية فى فئتين التقتا » . وتنتهى الآية بقوله : « إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار » .

إذن فالعبرة شيء ينقلنا من أمر إلى أمر قد تستغربه الأسباب وذلك إن كنت متروكا لسياسة نفسك ، لكن المؤمن ليس متروكا لسياسة نفسه ؛ لأن الله لو أراد أن يعذب الكفار بدون مواجهة المؤمنين وحربهم لعذبهم بدون ذلك ، ولكن الله يريد أن يكون عذاب الكافرين بأيدى المؤمنين :

﴿ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ ﴾

(سورة التوبة)

ولو كان الله يريد أن يعذب الكافرين بغير أيدى المؤمنين لأحدث ظاهرة فى الكون تعذبهم ، كزلزال يحدث ويدمرهم ، ولكن الله يريد أن يعذب الكافرين بأيدى المؤمنين . « والله يؤيد بنصره من يشاء ، إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار » ، و« الأيد » هو القوة ، إذن فهو يريد منك فقط النواة العملية ، ثم بعد ذلك يكملها الله بالنصر ، « وأيَّده » أى قواه ، ويؤيد الله بنصره من يشاء ، وتكون العبرة لأولى الأبصار .

وقد يقول قائل : أتكون العبرة لأولى الأبصار أم لأولى البصائر ؟ وهنا نقول : إن العبرة هنا لأولى الأبصار ؛ لأن الأمر الذى تتحدث عنه الآية هو أمر مشهدى ، أمر محسوس ، فمن له عينان عليه أن يبصر بهما ، فإذا كان التفكير والتدبر ليس أمرا موهوبا لكل مخلوق من البشر ، فإن البصر موجود للغالبية من الناس ، وكل منهم

يستطيع أن يفتح عينيه ليرى هذا الأمر المشهدى .

وإذا ما نظرنا إلى المعركة بذاتها وجدنا الدليل الكامل على صدق العبارة ؛ فالمؤمنون قلة وعددهم معروف محدود ، وعتادهم قليل ، ولم يخرجوا بقصد حرب ، إنما خرجوا لقصد الاستيلاء على العير المحملة بالأرزاق من طعام وكسوة تعويضا عما اغتصبه المشركون من أموالهم فى مكة ، ولو أنهم استولوا على العِير فقط لما كان النصر عظيما بالدرجة التى كان عليها ؛ لأن العِير عادة لا تسير بعتاد ضخم إنما تحفظ بالحراسة فقط . ولكن الله يريد لهم النصر على ذات الشوكة ، أى الطائفة القوية المسلحة ، لقد وعدهم الله بالنصر على إحدى الطائفتين :

﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾ ﴾

(سورة الأنفال)

لقد كان وعد الله أن ينصر المؤمنين على إحدى الطائفتين ، والأمل البشرى كان يود الانتصار على الطائفة غير ذات الشوكة أى الطائفة غير المسلحة وهى العير ، ولكن مثل هذا النصر لا يكون له دَوِىُّ النصر على الطائفة المسلحة ، فقد كان من السهل أن يقال : إن محمداً ومن معه تعرضوا لجماعة من التجار لا أسلحة معهم ولا جيش ، ولكن الله يريد أن يجعل من هذه المعركة فرقانا وأن يحق الحق .

إنكم أيها المؤمنون لم تخرجوا إلاَّ لِقصد العير أى لم يكن استعدادكم كافيا للقتال ، أما الكفار فقد جاءوا بالنفير ، أى بكل قوتهم فقد ألقت مكة فى هذه المعركة بأفلاذ أكبادها . وعندما يأتى النصر من الله للمؤمن فى مثل هذه الموقعة فهو نصر حقيقى ، ويكون آية غاية فى العجب من آيات الله . وتصير عبرة للغير . لذلك نجد العجائب فى هذه المعركة ـ معركة بدر ـ .

الغرائب أنك تجد الأخوين يكون لكل منهما موقف ومجابهة . وتجد الأب والابن لكل منهما موقف ومجابهة برغم عمق الصلة بينهما ، فمثلا ابن أبى بكر رضى الله عنه ، وكان هذا الابن لم يسلم بعد ، وكان فى جانب الكفار ، وأبوه الصديق مع رسول الله

صلى الله عليه وسلم ، وبعد أن أسلم ابن أبى بكر يحكى الابن لأبيه بشىء من الامتنان والبر : لقد تراءيت لى يوم بدر فزويت وجهى عنك . فيرد أبو بكر الرد الإيمانى الصدِّيقى : والله لو تراءيت لى أنت لقتلتك .

وكلا الموقفين منطقى ، لماذا ؟ لأن ابن أبى بكر حين يلتقى بأبى بكر ، ويرى وجه أبيه ، فإنه يقارن بين أبى بكر وبين ماذا ؟ إنه يقارن بين أبيه وبين باطل ، ويعرف تمام العلم أنه باطل ، فيرجح عند ابن أبى بكر أبوه ، ولذلك يحافظ على أبيه فلا يلمسه . لكنَّ أبا بكر الصديق حينما يقارن فهو يقارن بين الإيمان بالله وابنه ، ومن المؤكد أن الإيمان يزيد عند الصديق أبى بكر ، فلو رآه يوم بدر لقتله .

ولله حكمة فيمن قُتل على أيدى المؤمنين من مجرمى الحرب من قريش ، ولله حكمة فيمن أبقى من الكفار بغير قتل ؛ لأن هؤلاء مدخرون لقضية إيمانية كبرى سوف يبلون فيها البلاء الحسن . فلو مات خالد بن الوليد فى موقعة من المواقع التى كان فيها فى جانب الكفر لحزنا نحن المسلمين ؛ لأن الله قد ادخره لمعارك إيمانية يكون فيها سيف الله المسلول ، ولو مات عكرمة لفقدت أمة الإسلام مقاتلا عبقريا .

لقد حزن المسلمون فى موقعة بدر لأنهم لم يقتلوا هؤلاء الفرسان ؛ لأنهم لم يعلموا حكمة الله فى ادخار هؤلاء المقاتلين ؛ لينضموا فيما بعد إلى صفوف الإيمان . والله لم يمكِّن مقاتلى المسلمين يوم بدر من المحاربين الذين كانوا على دين قومهم آنئذٍ إلاّ لأن الله قد ادخرهم لمواقع إيمانية قادمة يقفون فيها ، ويحاربون فى صفوف المؤمنين ، وهذا نصر جديد .

ونرى أبا عزيز وهو شقيق الصحابى مصعب بن عمير الذى أرسله رسول الله صلى الله عليه وسلم ليبشر بدين الله ، ويعلّم أهل المدينة ، وكان مصعب فتى قريش المدلل صاحب ترف ، وأمه صاحبة ثراء ، وبعد ذلك رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يلبس جلد شاة بعد أن كان يلبس الحرير ، فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « انظروا إلى الإيمان ماذا فعل بصاحبكم » .

والتقى مصعب فى المعركة مع أخيه أبى عزيز ، وأبو عزيز على الكفر ، ومصعب

رضى الله عنه مسلم يقف مع النبى صلى الله عليه وسلم ، وحين يرى مصعب رضى الله عنه أخاه أبا عزيز وهو أسير لصحابى اسمه أبو اليسر ، فيقول مصعب : يا أبا اليسر اشدد على أسيرك ؛ فإن أمه غنية وذات متاع ، وستفديه بمال كثير .

فيقول له أخوه أبو عزيز : أهذه وصاتك بأخيك ؟ فيقول مصعب مشيراً إلى أبى اليسر : هذا أخى دونك . كانت هذه هى الروح الإيمانية التى تجعل الفئة القليلة تنتصر على أهل الكفر ، طاقة إيمانية ضخمة تتغلب على عاطفة الأخوة ، وعاطفة الأبوة ، وعاطفة البنوة . وقد جعل الله من موقعة بدر آية حتى لا يخور مؤمن وإن قل عدد المؤمنين ، أو قلت عُدّتهم، وحتى لا يغتر كافر ، وإن كثر عددُ قومه وعتادهم .

وقد جعلها الله آية للصدق الإيمانى ، ولذلك يقال : احرص على الموت توهب لك الحياة . وقد كانت القضية الإيمانية هى التى تملأ نفس المؤمن ، إنها قضية عميقة متغلغلة فى النفوس . ولماذا يتربص الكفار بالمؤمنين ؟ إنهم إن تربصوا بهم ، فسيدخل المؤمنون الجنة إن قُتِلوا أو ينتصرون على الكفار ، وفى ذلك يقول الحق على لسان المؤمنين :

﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾

(سورة التوبة)

فالظفر هنا بأحد أمرين : إما النصر على الكافرين ، وإما الاستشهاد فى سبيل الله ، ونيل منزلة الشهداء فى الجنة وكلاهما جميل . والمؤمنون يتربصون بالكافرين ، إما أن يصيب الله الكفار بعذاب من عنده ، وإما أن يصيبهم بأيدى المؤمنين . إنها معادلة إيمانية واضحة جلية . وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ

وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ
مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ
ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾

الموضع الذى تأتى فيه هذه الآية الكريمة هو : موقع ذكر المعركة الإسلامية التى جعلها الله آية مستمرة دائمة ؛ لتوضح لنا أن المعارك الإيمانية تتطلب الانقطاع إلى الله ، وتتطلب خروج الإنسان المؤمن عما ألف من عادة تمنحه كل المتع . والمعارك الإيمانية تجعل المؤمن الصادق يضحى بكثير من ماله فى تسليح نفسه ، وتسليح غيره أيضا .

فمن يقعد عن الحرب إنسان تغلبه شهوات الدنيا ، فيأتى الله بهذه الآية بعد ذكر الآية التى ترسم طريق الانتصارات المتجدد لأهل الإيمان ؛ وذلك حتى لا تأخذنا شهوات الحياة من متعة القتال فى سبيل الله ولإعلاء كلمته فيقول : « زين للناس حب الشهوات » وكلمة « زين » تعطينا فاصلا بين المتعة التى يحلها الله ، والمتعة التى لا يرضاها الله ؛ لأن الزينة عادة هى شىء فوق الجوهر . فالمرأة تكون جميلة فى ذاتها وبعد ذلك تتزين ، فتكون زينتها شيئا فوق جوهر جمالها .

فكأن الله يريد أن نأخذ الحياة ولا نرفضها ، ولكن لا نأخذها بزينتها وبهرجتها ، بل نأخذها بحقيقتها الاستبقائية فيقول : « زين للناس حب الشهوات من النساء » . وما الشهوة ؟ الشهوة هى ميل النفس بقوة إلى أى عمل ما .

وحين ننظر إلى الآية فإننا نجدها توضح لنا أن الميل إذا كان مما يؤكد حقيقة استبقاء الحياة فهو مطلوب ومقبول ، ولكن إن أخذ الإنسان الأمر على أكثر من ذلك فهذا هو الممقوت .

وسبق أن ضربنا المثل من قبل بأعنف غرائز الإنسان وهى غريزة الجنس ، وأن

الحيوان يَفْضُل الإنسان فيها ، فالحيوان أخذ العملية الجنسية لاستبقاء النوع بدليل أن الأنثى من الحيوان إذا تم لقاحها من فحل لا تُمكِّن فحلاً آخر منها . والفحل أيضا إذا ما جاء إلى أنثى وهى حامل فهو لا يُقبل عليها ، إذن فالحيوانات قد أخذت غريزة الجنس كاستبقاء للحياة ، ولم تأخذها كالإنسان لذة متجددة .

ومع ذلك فنحن البشر نظلم الحيوانات ، ونقول فى وصف شهوة الإنسان : إن عند فلان شهوة بهيمية . ويا ليتها كانت شهوة بهيمية بالفعل ؛ لأن البهيمة قد أخذتها على القدر الضرورى ، لكن نحن فلسفناها ، إذن فخروجك بالشىء عما يمكن أن يكون مباحاً ومشروعا يسمى : دناءة شهوة النفس .

والحق سبحانه وتعالى يريد أن يضمن للكون بقاءه ، والبقاء له نوعان : أن يُبقِى الإنسان حياته بالمطعم والمشرب ، وتبقى حياة النوع الإنسانى بالتزاوج .

ولكن إن نظرت إلى المسألة وجدت الخالق حكيما عليما . إنه يعلم أن طفولة أى حيوان بسيطة بالنسبة لأبيه وأمه ، مثال ذلك : الحمامة تطعم فرخها إلى أن يستطيع الطيران ، ثم لا تعرف أين ذهب فرخها ، لكن حصيلة الالتقاء بين الرجل والمرأة ، والتى أراد الله لها أن تنتج الأولاد تحتاج إلى شقاء إلى أن يبلغ الولد ، وذلك ليكون هناك تكافؤ وتناسب بين ما يحرص عليه الإنسان من شهوة ، وما يتحمل من مشاق ومتاعب فى سبيل الاستمتاع بها واستبقائها . فقول الحق سبحانه : « زين للناس حب الشهوات من النساء » فمن المزين ؟ إن كان فى الأمر الزائد على ضروريات الأمر ، فهذا من شغل الشيطان،وإن كان فى الأمر الرتيب الذى يضمن استبقاء النوع فهذا من الله .

ونجد الحق يضيف « البنين » إلى مجال الشهوات ويقصد بها الذكران ، ولم يقل البنات ، لماذا ؟ لأن البنين هم الذين يُطلبون دائما للعزوة كما يقولون ولا يأتى منهم العار ، وكان العرب يئدون البنات ويخافون العار ، والمحبوب لدى الرجل فى الإنجاب حتى الآن هو إنجاب البنين ، حتى الذين يقولون بحقوق المرأة وينادون بها ، سواء كان رجلا أو امرأة إن لم يرزقه الله بولد ذكر فإنه أو إنها تريد ولداً ذكراً .

ويضيف الحق إلى مجال الشهوات : « والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة » ، والقناطير هى جمع قنطار ، والقنطار هو وحدة وزن ، وهذا الوزن حددته كثافة الذهب ، إلا أن القنطار قبل أن يكون وزناً كان حجماً ، لكنهم رأوا الحجم هذا يزن قدراً كمياً ، فانتقلوا من الحجم إلى الوزن .

وكان علامة الثراء الواسع فى الزمن القديم أن يأتوا بجلد الثور بعد سلخه ويملأوه ذهبا ، وملء جلد الثور بالذهب يسمونه قنطاراً ، وكانت هذه عملية بدائية . وبعد ذلك أخذوا ملء الجلد ذهباً ووزنوه فصار وزنا . إذن فالأصل فيه أنه كان حجماً ، فصار ووزناً .

وساعة تسمع « قناطير مقنطرة من الذهب والفضة » فهو يريد أن يحقق فيها القنطارية ، وذلك يعنى أن القنطار المقنطر هو القنطار الكامل الوزن ، وليس مجرد قنطار تقريباً ، كما نقول أيضاً : « دنانير مدنرة » . وعادة نجد فى اللغة العربية لفظاً يأتى من جنس اللفظ يضم إليه كى يعطيه قوة ، فيقال « ظل ظليل » أى ظل كثيف ، ويقال « ليل أليل » أى أن الليل فى ظلمة شديدة ، وهى مبالغة فى كثافة الظلام .

والظلام على سبيل المثال يحجب الشمس ، وحاجب الشمس عنك قد يكون حجاباً واحداً ، وقد يكون الشيء الذى يظلك فوقه شيء أخر يظلله أيضاً فيكون الظل ظليلاً ، ولذلك يكون الظل تحت الأشجار جميلاً ، لأن ورقة تستر الشمس ، وورقة أخرى تستر الورقة الأولى ، وهكذا ، فتصنع تكييفاً طبيعياً للهواء .

ولذلك فهم يصنعون الآن خياماً مكيفة الهواء مصنوعة من قماش فوقه قماش آخر ، وبينهما مسافة ، فيكون هناك قماش يُظلل ظِلاً آخر ، فإذا ما وضعوا قطعة ثالثة من القماش تُظل الظلين الأولين ، فإن الظل يكون ظليلاً ، ولذلك قلنا : إن ظل الأشجار هو ظل ظليل ، فيه حنان ، فكل ورقة تظل الإنسان تكون نفسها مظَّللةً بورقة أخرى ، وتكون أوراق الشجر التى تظلل بعضها بعضا مختلفة الأوضاع ، وتعطى الأوراق للنسيم فرصة المرور ، أما الخيام فهى تحجب النسيم . والشاعر حين أراد أن يصف الروضة قال :

تصد الشمس أنَّى واجهتها
فتحجبها وتأذن للنسيم

إذن فحين وصف الحق القناطير بأنها مقنطرة فذلك يعنى القناطير الدقيقة الميزان ، وهى قناطير مقنطرة من ماذا ؟ « من الذهب والفضة والخيل المسوّمة » . وكانت الخيل هى أداة العز وأمارة وعلامة على العظمة ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

(الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة)[1] .

قول الحق : « والخيل المسوّمة » نرى فيهِ أن اللفظ الواحد يشع فى مجالات متعددة من المعانى ، فمسوّمة من سامها يَسوُمها ، ومعنى ذلك أن لهذه الخيل مراعى تأكل منها كما تريد ، وليست خيلاً مربوطة تأكل ما يُقدم لها فقط ، ومسوّمة أيضاً تعنى أن لهذه الخيل علامات ، فهذا حصان أغرّ ، وذلك أدهم ، وذاك أشقر .

ومسوّمة أيضا ، أن تكون مروضة ، ومدربة ، وتم تعليمها ، فالأصل فى الخيل أنها لم تكن مُستأنسة بل مُتوحشة ، ولذلك لا بد من ترويضها حتى ينتفع بها الإنسان . فكم معنى إذن أعطته لنا كلمة « مسوّمة » ؟

سائمة ، أى تأكل على قدر ما تشتهى لا على قدر ما نعطيها من طعام . ومُعلّمة أى فيها علامات كالغرّة والتحجيل ، وهذا جواد أدهم ، وذلك جواد أشقر ، أو أنها معلمة أى مروضة . فماذا تتطلب الحرب ؟ .

إن الحرب تتطلب الانقطاع عن الأهل ، فيجب ألا تكون شهوة النفس حاجزاً ، سواءً كانت شهوة للنساء ، أو كانت شهوة العزوة للبنين ورعايتهم ، أو كانت شهوة المال ؛ فالمؤمن ينفقه فى سبيل الله ، والخيل أيضاً يستخدمها الإنسان فى القتال لإعلاء كلمة الله .

ونلحظ أن هذه الآية ـ التى تعدّد أنواع الزينة ـ جاءت بعد الآية التى تتحدث عن الجهاد فى سبيل الله ،والتى يقول الحق تبارك وتعالى فيها :

---

(١) رواه البخارى ، ومسلم ، والترمذى ، والنسائى ، وأحمد .

﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿١٣﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

وذلك ليرشدنا إلى أن الإنسان المؤمن لا يصح أن يضحى بشهوته الحقيقية وهى إدراك الشهادة فى سبيل الله أو النصر على العدو بسبب الشهوات الزائلة التى تتمثل فى النساء ، وفى البنين ، وفى القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، وفى الخيل المسوّمة والأنعام . وقد قال الله عن الأنعام فى سورة الأنعام :

﴿ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَٰذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

حساب ذلك هو إثنان من الضأن ، وإثنان من الماعز ، وإثنان من الإبل ، وإثنان من البقر أى ثمانية أزواج . ولا يمكن حسابها على أنها ستة عشر كما قال البعض قديماً ، لا ؛ إن الزوج لا يعنى اثنين من الشىء ، ولكن الزوج واحد ، ولكن يُشترط أن يكون مع غيره من جنسه . ومثال آخر هو كلمة « التوأم » ، إن التوأم هو واحدٌ معه غيره ، وهما توأمان ، وهم توائم إذا كان العدد أكثر من اثنين .

والحق يقول فى مجال زينة الشهوات : « زُين للناس حُبَّ الشهوات من النساء

والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسوّمة والأنعام والحرث » وحين تسمع كلمة « الحرث » فافهم أن المراد بها هنا الزرع ، ولكن الله سبحانه وتعالى يريد منك أن تعلم أن الله حين يُنبت لك أشياء بدون مُعالجتك فإنه يريد منك أيضاً أن تَسْتنبت أشياء بمعالجتك ، وهذا لا يتأتى إلا بعملية الحرث .

والحرث هو إهاجة الأرض ؛ فالتربه تكون جامدة ، فلا بد أن يهيّجها الإنسان بالحرث ، أى أن تفك يبوستها وتَلاَصُقَ ذراتها ؛ لأن تَلاصُقَ ذرات التربة لا يصلح أن يكون بيئة للنبات ؛ لأن النبات يحتاج إلى الماء ويحتاج إلى الهواء ، ويحتاج من الإنسان أن يُمهد للشعيرات البسيطة أن تخرج ، وتجد تربة سهلة تتحرك فيها إلى أن تقوى .

إذن فالحرث يثير الأرض ، ويجعلها ليّنة مُتفتتة حتى تستطيع البذرة أن تنمو ؛ لأن الله قد أودع فى فلقتى كل بذرة مقوّمات الحياة إلى أن يوجد لها جذر يأخذ مقومات الحياة من الأرض ، وكلما قوى الجذر فى النبات فإن الفلقتين تضمحلان ، وتصيران مجرد ورقتين . فأين ذهب حجم الفلقتين ؟

لقد قامت الفلقتان بتغذية النبتة إلى أن أستطاعت النبتة أن تتغذى بنفسها من الأرض ، ولا يمكن حدوث ذلك إلا إذا كانت الأرض محروثة . ولذلك يقولون : إن الأرض الطينية السوداء تكون صعبة ، وغير خصبة ، ويقال : إن الأرض الرملية أيضاً غير خصبة ، لماذا ؟ .

لأننا نريد صفتين اثنتين فى الأرض : الصفة الأولى أن تكون الأرض صالحة أن يتخللها الماء ليشرب الزرع ، والصفة الأخرى ألّا تُسرب الماء بعيداً ، فإذا كانت الأرض طينية فإن جذور الزرع تختنق وتتعطن ، وإذا كانت رملية فإن الماء يتسرب بعيداً ، لذلك نحتاج فى الزراعة إلى أرض بين سوداء ورملية ، أى أرض صفراء . والله حين يتكلم عن الزرع فإنه يقول : « الحرث » وذلك حتى يلفتنا إلى أن من يريد أن يأخذ زرعاً لا بد أن يجدّ ويحرث الأرض . وهو سبحانه القائل :

﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾

(سورة الواقعة)

وعبّر الحق عن الزرع بالحرث لأنه السبب الذى يُوجِد الزرع . وكل ما تقدم من الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسوّمة والأنعام والحرث ، كل ذلك تكون قيمته عند الإنسان ما يوضحه الحق بقوله : « ذلك متاع الحياة الدنيا ، والله عنده حسن المآب » .

إن كل ذلك هو متاع الحياة الدنيا ، والفيصل هو أن الإنسان يخشى أن تفوته النعمة فلا تكون عنده ، أو أن يفوتها فيموت . وكل ما يفوتك أو تفوته ، فلا تعتز به . وعندما نتأمل الآية فى مجموعها نجد أن فيها مفاتيح كل شخصية تريد أن تنحرف عن منهج الله ، إنه سبحانه يقول :

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

هكذا نرى المفاتيح التى قد تجذب الإنسان لينحرف عن مراد الله فى منهجه ، إنه ـ سبحانه ـ يطلب من عبده المؤمن أن يبنى حركة حياته على مراد الله ، فما الذى يجعل المؤمن يترك مراد الله من حكم لينصرف إلى حكم يناقضه ؟ .

لاشك أنه الهوى ، والهوى هو الذى يُميل ويُزيغ القلوب ، ولكل هوى مفتاح ، ولكل شخصية من المكلفين بمنهج الله مفتاح لهواه ، فواحد مفتاحه النساء ، وواحد مفتاحه البنون ، يحب أن يرعاهم رعاية تفوق دَخْلَه من عمل أو صناعة مثلا فقد يسرق أو يرتشى ليسعد هؤلاء . وأناس مفاتيحهم الشخصية فى المال ، أو فى زينة الخيل ، والعدة والعتاد فلكل شخصية مفتاح هوى .

والذين يدخلون على الناس ليُزيِّنوا لهم غير منهج الله يأتون لهم بالمفتاح الذى يفتح شخصياتهم ، فربما كان هناك إنسان لا تُغريه نظرة المرأة أو ملايين الذهب ، إنما يتملكه حبه لأولاده وهو الهوى الغلاب .

إذن فكل واحد له مفتاح لشخصيته ، والذين يريدون إغراء الناس وغوايتهم يعرفون مفاتيح من يريدون إغراءه وإغواءه . وحين يقول الحق أنَ هذه الأشياء هى المُزَيَّنة للناس . قد يقول قائل : إذا كان الله يريد أن يصرفنا عن هذه الأشياء فلماذا خلقها لنا ؟

وعلى هذا القول نرد : إن الحق مادام قد قال : « زُيِّنِ » وبناها ـ كما يقول النحاة ـ للمجهول أى لما لم يُسَمَّ فاعله ، فمن الذى زيَّن ؟ لقد كان الله قادرا أن يقول لنا من الذى زَيَّن تلك الأشياء تحديدا ، لكن الحق يريد أن يعلمنا أنه من الممكن أن يكون الشيطان هو الذى يُزيّن لنا هذه الأشياء ، ومن الممكن أن يكون منطق المنهج هو الذى يزين ، ألم يقل الحق سبحانه دعاء على لسان عباده الصالحين :

﴿ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾

(من الآية ٧٤ سورة الفرقان)

إذن فما الفيصل فى تلك المسألة ؟ الفيصل فى هذه المسألة أن الحق سبحانه وتعالى جعل لكل نعمة من نعم الحياة عملا يعمله الإنسان فيها ، فالمرأة إنما اتُّخِذَت سكنا أى ارتياحا عندها ، ارتياحا يعطيك كل الحنان والعطف ، وهو سبحانه القائل :

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

(سورة الروم)

إن الحق يريد لنا أن يسكن الرجل إلى حلاله ، وتصرف المرأة الحلال عَيْنَىْ زوجها عن أعراض الناس . لكن ماذا فى الرجل الذى يُحب الأبناء ؟ ألم يقل سيدنا زكريا :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ ﴾

(سورة مريم)

لقد طلب زكريا عليه السلام وليًا يرثه ، والأنبياء لا تُورث منهم أموال ، إنما يُورِّثون العلم والحكمة ، إذن فقد طلب زكريا عليه السلام أن يرث ابنه الحكمةَ منه ويرث من آل يعقوب وأن يجعله الله رضِيًّا . فلو كان الأنبياء يورِّثون المال ، لكان البعض قد فهم أن طلب زكريا للإبن كى يرثه فى المال ، لكن الحق أراد لأنبيائه ألاّ يُورِّثوا المال ، بل يورِّثون العلم بمنهج الله . وقد طلب زكريا الابن لتثبيت منهج الله فى الأرض .

وكذلك الذى يريد الأموال لينفقها فى سبيل الله ، وكذلك الذى يريد الخيل ليروضها على الجهاد ، وكذلك الذى يريد الحرث ليملأ بطون خلق الله بما يَطعَمُون منه ، كل هؤلاء ينالهم المدح والثناء والجزاء الكثير من الله . لذلك يجب أن نعلم أن الحكم يأتى من الله مُحتملا أن تتجه به إلى الخير المراد لله ، ومحتملا أن تتجه به إلى الشر المراد لنفسك . وأنت ـ أيها العبد ـ حين تنظر إلى أى شهوة من هذه الشهوات فلسوف تجد أنه من الممكن أن تُوجِّهها وِجهة خير . يقول الحق :

﴿ هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾

(من الآية ٧٤ من سورة الفرقان)

لقد أراد الله للأتقياء والأنبياء أن يكون لهم من الذرية أبناء ليرثوا المنهج السلوكى ويكونوا مثلا طيبة للناس يقتدون بهم . إذن فالمؤمن يحب أن تكون ذريته قدوة سلوكية . والذى يحب الخيل يمكن أن يوجه هذا الحب إلى الخير ، ألم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الحديث الشريف :

عن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عيه وسلم أنه قال : (مِنْ خير معاش الناس لهم رجل ممسك عِنَانَ فرسه فى سبيل الله يطير على مَتنه كلما سمع هِيْعَةً[١] أو فَزْعَةً طار عليه يبتغى القتل والموت مَظَانَّهُ[٢])[٣] .

---

(١) الهيعة : كل ما أفزع من جانب العدو من صوت أو خبر .

(٢) مظانه : بفتح الميم والظاء المعجمة وتشديد النون منصوب على الظرفية : أى يطلبه فى المحل الذى يظن وجوده فيه طلبا لمرضاة الله تعالى .

(٣) رواه مسلم من حديث لأبى هريرة .

وقد أمرنا الرسول صلى الله عليه وسلم أن نُروِّض الخيل ، إذن فمن الممكن أن تكون هذه الأشياء مساراً للخير . وإياكم أن تفهموا أن الله يزهدنا فيها أو ينفرنا منها ، ولكنه يزهدنا أن نستعمل ما خلقه لنا فى غير مراده .

ولننظر إلى تعليق الله على الأشياء المُزيَّنة : « ذلك متاع الحياة الدنيا » أى أن الذى ينظر إلى هذه الأشياء المزينة نظرة تقليدية سطحية سيجدها مجرد متاع ، وما عمر هذا المتاع ؟ إنه موقوت بالدنيا الفانية . ولننظر إلى الإنسان عندما يُصَعِّدُ فى عمله قيمة الخير،وتصعيد قيمة الخير يأتى من تنمية نوعه ، أى الزيادة فى نوع الخير ، ومن استدامته ، ومن أن الإنسان لا يترك هذا الخير .

إذن فتصعيد الخير يأتى على عدة صور تبدأ من تنمية الخير نفسه . واستدامة الخير فلا ينقطع ، وضمان أن يحيا الإنسان للخير ويعيش له ، وألاّ يذهب الخير عنه ، وأمر رابع هو ألاّ تربط هذا الخير بأغيار ، أى أن تربطه بواحد قوى يأتى لك به ، فقد يضعف ، أو يمرض ، أو يغيب ، أو يغدر بك .

إذن فلا بد من أربعة عناصر : الأول : تصعيد الخير ، أى نوع الخير الذى تفعله يكون أرقى من خير آخر ، فنعمل دائما على زيادته وتنميته . والثانى : استدامة الخير . والثالث : أن تدوم أنت للخير ، وتحرص على أن تعيش له ، والأمر الرابع : ألاّ تربط هذا الخير بالأغيار . بل عليك أن تعتمد على الله ثم على نفسك .

وكل خير يأتى دون هذا فهو خير غير حقيقى . فإذا نظرت إلى شهوات النساء والمال والبنين والخيل والأنعام والحرث فإنها ستعطيك متاعَ الدنيا . ولنسلم جدلا أن شيئا لن يسلبك هذه الأشياء وأنت حىّ ، وأنها ستظل معك طيلة دنياك . فما قيمة الدنيا وهى مقاسة بآلاف السنين ، والإنسان لا يعيش فيها إلا قدرا محددا من الأعوام يقرره الحق سبحانه وتعالى .

إذن فالدنيا تقاس بعمر الإنسان فيها لا بعمر ذات الدنيا لغيره ، لأن عمر الدنيا لغيرك لا يخصك . هب أن هذه الشهوات من نساء ومال وبنين وخيل وذهب وفضة

وحرث وأنعام وعدة وعتاد قد دامت لك ، فما الذى يحدث ؟ إن الدنيا محدودة . ولا أحد يستطيع أن يستديم الدنيا ، لذلك فلن يستطيع أحد أن يستديم الخير لأن عمره فى الدنيا محدود .

وحياة الإنسان فى الدنيا لم يضع الله لها حداً يبلغه الإنسان . إن الله لم يحدد عمرا يموت فيه الإنسان ، ولكنْ لكل إنسان عمْر خاصٌ محدود بحياته ، فعندما يولد أى طفل لا تنزل معه بطاقة تحدد عدد السنوات التى سوف يحياها فى الدنيا .

وهو سبحانه قد جعل عدد سنوات الحياة مبهما لكل إنسان ، ولذلك يقال إن الإبهام هو أعلى درجات البيان ، الحق أخفى توقيت الموت وسببه عن الإنسان . متى يأتى ؟ فى أى زمان وفى أى مكان ؟ كل ذلك أخفاه فأصبح على المؤمن أن يكون مترقبا للموت فى كل لحظة .

إن الإبهام للموت هو البيان الوافى ، ومادامت الدنيا مهما طالت فهى محدودة وغير مضمونة للإنسان أن يحياها ، ونعيمه فيها على قدر إمكاناته وقدرته ، وإن لم تذهب الدنيا من الإنسان فالإنسان نفسه يذهب منها . فإذا ما قارنت كل ذلك باسم الحياة التى نحياها الآن ، إنّ اسمها « الدنيا » أى « السفلى » ومقابل « الدنيا » هو « العليا » وهى الحياة فى الآخرة . ولماذا هى « عليا » ؟ لأنها ستصعد الخير .

فبعد انقضاء هذه الحياة المحدودة ، يذهب المؤمن إلى الجنة وبها حياة غير محدودة ، وهذا أول تصعيد . ويضمن المؤمن أن أكلها دائم لا ينقطع . ويضمن المؤمن أنه خالد فى الجنة فلا يموت فيها . ويضمن المؤمن قيمة هذه الجنة ؛ لأن الخير إنما يأتى على مقدار معرفة الفاعل للخير . ومعرفة الإنسان للخير جزئية محدودة ، ومعرفة الله للخير كمال مطلق .

فالمؤمن فى الآخرة يتنعم فى الخير على مقدار ما علم الله من الخير . إذن فحياتنا هى الدنيا ، أى السفلى ، وهناك الآخرة العليا . فإذا طلب المنهج منا ألاّ ننخدع بالدنيا ، وألاّ ننقاد إلى المتاع فهل هذا لون من تشجيع الحب للنفس أو تشجيع للكراهية للنفس ؟

إنه منهج سماوى يقود إلى حب النفس ؛ لأنه يريد أن يُصَعِّد الخير لكل مؤمن ، لقد بيّن المنهج أن فى الدنيا ألوانا من المتع هى كذا وكذا وكذا ، والدنيا محدودة ولا تدوم لإنسان ، ولا يدوم إنسان لها ، وإمكانات الإنسان فى النعيم الدنيوى محدودة على قدر الإنسان ، أما إمكانات النعيم فى الآخرة فهى على قدر قدرة الخالق المربى ، فمن المنطقى جدا أن يقول الله لنا : « ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب » . وحسن المآب تعنى حسن المرجع .

والحق حينما طلب منك أيها المؤمن أن تغض بصرك عما لا يحل لك ، فقد يظن الإنسان السطحى أن فى ذلك حجراً على حرية العين ، ولكن هذا الغض للبصر أمر به ـ سبحانه ـ إنما ليملأ العين فى الآخرة بما أحل الله ، إذن فهذا حب من الله للمخلوق وهذا تصعيد فى الخير .

ولنفترض أن معك مبلغا قليلا من المال وقابلت فقيرا مسكينا فآثرت أنت هذا الفقير على نفسك ، فأنت تفعل ذلك لتنال فى الآخرة ثوابا مضاعفا . إذن فقضية الدين هى أنانية عالية سامية ، لا أنانية حمقاء . ويوضح الله بعد ذلك حسن المآب بقوله سبحانه :

﴿ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾ ﴾

وحين تسمع كلمة « أؤخبركم » فما نسمعه بعد ذلك كلام عادى ، أما عندما نسمع « أؤنبئكم » فما نسمعه بعدها هو خبر هائل لا يقال إلا فى الأحداث العظام ،

فلا يقول أحد لآخر : سأنبئك بأنك ستأكل كذا وكذا فى الغداء ، ولكن يقال « أنا أنبئك بأنك نلت جائزة كبرى » ، هذا فى المستوى البشرى فما بالنا بالله الخالق الأعلى ، ولذلك يقول الله الحق :

﴿ عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢ ﴾

(سورة النبأ)

إنه الأمر الذى يقلب كيان هذه الدنيا كلها ، فحين يقول الحق : « قل أؤنبئكم بخير من ذلكم » فمعنى ذلك أن الله يخبرنا بخير من هذه الأشياء ، ومن ذلك نعرف أن الله قد جعل هذه الأشياء مقياساً ، لماذا ؟

لأنه مقياس محس ، وأوضح لنا كيفية التصعيد فقال : « للذين اتقوا عند ربهم » ، والمؤمن هو من ينظر بثقة إلى كلمة « عند ربهم » أى الرب المتولى التربية والذى يتعهد المربى حتى يبلغه درجة الكمال المطلوب منه .

والعندية هنا هى عند الرب الأعلى . فماذا أعد المربى الأعلى للمتقين ؟ لقد أعد لهم « جنات تجرى من تحتها الأنهار » ولنر الخيرية فى هذه الجنات ، وهى تقابل فى الدنيا الحرث والزرع ، وقد قلنا : إن الحق حين تكلم عن الزرع تكلم واصفاً له بـ « الحرث » لنعرف أن الزرع يتطلب منا حركة وعملاً .

أما فى الآخرة فالجنات جاهزة لا تتطلب من المؤمن حركة أو تعباً ، ولا يقف الأمر عند ذلك ، بل إن هذه الجنات تجر من تحتها الأنهار وفيها للإنسان المؤمن ما وعده الله به : « خالدين فيها وأزواج مطهرة » إنه الخلود الذى لا يفنى ، ولا يتركه الإنسان ولا يترك هو الإنسانِ .

والأزواج المطهرة هى وعد من الله للمؤمنين ، ومن يحب النساء فى الدنيا يعرف أن المرأة فى الدنيا يطرأ عليها أشياء قد تنفر ، إما خَلْقاً تكوينياً ، وإمَّا خُلُقاً ، فهناك وقت لا يحب الرجل أن يقرب فيه المرأة ، وقد يكون فيها خصلة من الخصال السيئة فيكره الإنسان جمالها .

لذلك فالرجل قد ينخدع بالمنظر الخارجى للمرأة فى الدنيا ، وقد يقع الإنسان فى هوى واحدة فيجد فيها خصلة تجعله يكرهها ، أما فى الآخرة فالأمر مختلف ، إنها « أزواج مطهرة » أى مطهرة من كل عيب يعيب نساء الدنيا ، فيأخذ المؤمن جمالها ، ولا يوجد فيها شرور الدنيا ، فقد طهرها الله منها .

« وأزواج مطهرة » من الذى طهرها ؟ إنه هو الله ـ سبحانه ـ طهرها خَلْقاً وَخُلُقاً . فالرجل فى الدنيا قد يهوى إمرأة ، وتستمر نضارتها خمسة عشر عاماً تستميله وتجذبه ، ثم تبدأ التجاعيد والترهل والتنافر . أما فى الآخرة فالمرأة مطهرة من كل شىء ، وتظل على نضارتها وجمالها إلى الأبد ، أليس هذا تصعيداً للخير ؟ ونلاحظ أن الحق سبحانه ذكر هنا أمرين :

الأمر الأول : هو جنات تجرى من تحتها الأنهار ، ونقارن بينها وبين الحرث فى الدنيا .

والأمر الآخر : هو الأزواج المطهرة ، ونقارن بينها وبين النساء فى الدنيا أيضا ، ولم يورد الحق أى شىء عن بقية الأشياء ، فأين القناطير المقنطرة من الذهب ؟ وأين الخيل ؟ وأين الأنعام وأين البنون ؟

إننا نلاحظ أن الحق سبحانه وتعالى جعل الأمرين المزينين ، واحداً يستهل به الآية ، والأمر الآخر يأتى فى آخر الآية ، ولنقرأ الآية التى فيها التزيين : « زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسوّمة والأنعام والحرث » .

إن البداية هى النساء ، ذلك هو القوس الأول ، والنهاية هى الحرث وذلك هو القوس الثانى ، وبين القوسين بقية الأشياء المزينة ، وقد أعطانا الله عوض القوسين ، وأوضح لنا إنهما هما الخير الْمُصَعَّد ، ولم يورد بقية الأشياء المزينة ، وهذا يعنى أن نفهم ذلك فى ضوء أن الرزق ما به انتُفِعَ ، أى أن كل ما ينتفع به الإنسان رزق ، الخُلُق الطيب رزق ، سماع العلم رزق ، أدب الإنسان رزق ، حلم الإنسان رزق ، صدق الإنسان رزق ، لكن الرزق يأتى مرة مباشرا بحيث تنتفع به مباشرة ، ومرة أخرى يأتى الرزق لكنه لا ينفع مباشرة ، بل قد يكون سببا ووسيلة لما ينفع مباشرة .

مثال ذلك الخبز ، إنه رزق مباشر ، والنقود هى رزق ، لكنها رزق غير مباشر ؛ لأن الإنسان قد يكون جائعاً وعنده جبل من ذهب ، فلو قال واحد لهذا الإنسان : خذ رغيفا مقابل جبل الذهب . سيعطى الإنسان الجائع جبل الذهب مقابل الرغيف ؛ لأن الإنسان لا يأكل الذهب ، وكذلك كوب الماء بالنسبة للعطشان .

إذن فهناك رزق لا يطلب لذاته ، ولكن يطلبه الإنسان لأنه وسيلة لغيره.فالوسيلة لغيره أنت لن تحتاج إليها فى الآخرة ؛ لأنك ستعيش ببدل الأسباب بقول الحق : « كن » . فالإنسان لن يحتاج فى الجنة إلى مال . أو قناطير مقنطرة من الذهب والفضة ؛ لأن كل ما تشتهيه النفس ستجده ، ولن تحتاج فى الآخرة إلى خيل مسومة ؛ لأنك لن تجاهد عليها أو تتلذذ وتستأنس بركوبها .

وكل ما لا تحتاج إليه فى الآخرة من أشياء أعطاها لك الله فى الدنيا لتسعى بها فى الأسباب ، ولم يورده الله فى قوله : « قل أؤنبكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد » لم يوردها فى النص الكريم ، لأن عطاء الله فى الآخرة بالرزق المباشر ، أما الأشياء التى يسعى بها الإنسان إلى الرزق المباشر فى الدنيا فلم يوردها لعدم الحاجة إليها فى الآخرة ، فنحن نحب المال ، لماذا ؟ . لأنه يحقق لنا شراء الأشياء ، والخيل المسومة نحبها ؛ لأنها تحقق لنا القدرة على القتال والجهاد فى سبيل الله . والأنعام ؛ لتحقق لنا المتعة .

أما الجنة فى الآخرة فالمؤمن يجد فيها كل ما تشتهيه الأنفس ، وكل ما يخطر ببال مَن يرزقه الله الجنةَ سوف يجده ؛ فالوسائط لا لزوم لها . لذلك تكلم الحق عن الأشياء المباشرة ، فأورد لنا ذكر الجنات التى تجرى من تحتها الأنهار ، وذكر لنا الأزواج المطهرة .

وعندما نتأمل قول الحق : « قل أؤنبئكم بخير من ذلكم » قد يقول قائل : ألم يكن من المنطق أن يخبرنا الحق مباشرة بما يريد أن يخبرنا به ، بدلاً من أن يسألنا : أيخبرنا بهذا الخير ، أم لا ؟

ونقول : أنت لم تلتفت إلى التشويق بالأسلوب الجميل ، وحنان الله على خلقه . إنه سبحانه وتعالى يقول لنا : ألا تريدون أن أقول لكم على أشياء تفضل تلك الأشياء التى تسيركم فى الدنيا . فكأن الحق سبحانه وتعالى قد نبه من لم ينتبه . ولم ينتظر الحق أن نقول له : قل لنا يارب .

لا ، إنه يقول لنا دون طلب منا ، ويقال عن هذا الأسلوب فى اللغة إنه « استفهام للتقرير » ، فالإنسان حين يسمع : « أؤنبئكم بخير من ذلكم » فالذهن ينشغل ، فإن لم يسمع النبأ ، فلسوف يظل الذهن مشغولاً بالنبأ ، ويأتى الجواب على اشتياق فيتمكن من نفس المؤمن .

ويأتى النبأ « للذين اتقوا » ، فعندما نمعن النظر فى الشهوات التى تقدمت من نساء وبنين وقناطير مقنطرة من ذهب وفضة وخيل مسومة وأنعام وحرث ، ألا يكون من المناسب فيها أن يتقى الإنسان ربه فى مجالها ؟

إن التقوى لله فى هذه الأشياء واجبة ، ولذلك قلنا من قبل قضية نرد بها على الذين يريدون أن يجعلوا الحياة زهداً وانحساراً عن الحركة ، وأن يوقفوا الحياة على العبادة فى أمور الصلاة والصوم ، وأن نترك كل شىء . لهؤلاء نقول : لا ؛ إن حركتك فى الحياة تعينك على التقوى ؛ لأننا عرفنا أن معنى التقوى هو أن يجعل الإنسان بينه وبين النار حجاباً ، أو أن تجعل بينك وبين غضب ربك وقاية . فإذا ما أخذت نعم الله لتصرفها فى ضوء منهج الله فهذا هو حسن استخدام النعم .

وقد أوضحت من قبل أن التقوى حين تأتى مرة فى قول الحق : « اتقوا الله » وتأتى مرة أخرى « اتقوا النار » فهما ملتقيان ؛ فاتقاء النار حتى لا يصاب الإنسان بأذى ، وعندما يتقى الإنسان الله فهو يتقى غضب الله ؛ لأن غضب الله يورد العذاب ، والعذاب من جنود النار . إذن فالذين يتقون الله لا يظنون أنهم زهدوا فى هذه الحياة لذات الزهد فيها ، ولكن للطمع فيما هو أعلى منها ، إنه الطمع فى النعيم الأخروى الدائم .

ويوضح الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك : أنكم لن تتمتعوا فى الآخرة لضرورة

الحاجة للمتعة ، بحيث إذا ما جاءت النعمة عليكم تفرحون بها ، إن الأمر لا يقتصر على ذلك وإنما يتعداه إلى أنكم ـ أيها المؤمنون ـ تحبون فقط أن تروا المنعم ، فمادام المؤمن الذى يدخل الجنة يجد كل ما يشتهى بل إنه لا يشتهى شيئا حتى يأتيه ، ويستمتع على قدر عطاء الله وقدراته .

وإذا لم يشته الإنسان ثماراً فى الجنة أو نساء ، ويصبح مشغولاً برؤية ربه فإن مكانه جنة من الجنان اسمها « عليّون » و« عليّون » هذه ليس فيها شىء مما تسمعه عن الجنة ، ليس فيها إلا أن تلقى الله . إنّ الرزق والنعم ليسا من أجل قوام الحياة فى الجنة ، بل إن الإنسان سيكون له الخلود فيها ؛ فالذى يحتاج إليه الإنسان هو رضوان من الله .

إن رُضواناً من الله أكبر من كل شىء . ولقد نبأنا الله بما فى الجنات ، ونبأنا بالخير من كل ذلك . لقد نبأنا الله بأن رضوانه الأكبر هو أن يضمن المؤمن أنْ يظفر برؤية ربّه . وهذا ما يقول فيه الله .

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ ﴾

(سورة القيامة)

إذن فهناك فى الجنة مراتب ارتقائية . ويخبرنا الحق من بعد ذلك : « والله بصير بالعباد » أى أن الله سيعطى كل إنسان على قدر موقفه من منهج ربه ، فمن أطاع الله رغبة فى النعيم بالجنة يأخذ جنة الله ، ومن أطاع الله لأن ذات الله أهل لأن تطاع فإن الله يعطيه متعة ولذة النظر إليه ـ سبحانه ـ تقول رابعة العدوية فى هذا المعنى:

كلهم يعبدون من خوف نار
ويرون النجاة حظا جزيلاً
إننى لست مثلهم ولهذا
لست أبغى بمن أحب بديلا

وقالت أيضاً : اللهم إن كنت تعلم أنى أعبدك خوفاً من نارك فادخلنى فيها ، وإن كنت تعلم أنى أعبدك طمعاً فى جنتك فاحرمنى منها ، إنما أعبدك لأنك تستحق أن تُعبد .

إذن فـ « الله بصير بالعباد » أى أنه سيعطى كل عبد على قدر حركته ونيته فى الحركة ؛ فالذى أحب ما عند الله من النعمة فليأخذ النعمة ويفيضها الله عليه . أما الذى أحب الله وإن سلب منه النعمة ، فإن الله يعطيه العطاء الأوفى ، وذلك هو مجال مباهاة الله لملائكته . . ومن أقوى دلائل الإيمان وكماله . . إيثار محبة الله ورسوله على كل شىء فى الوجود :

عن أنس رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان : مَنْ كان الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما ، وأن يحبَّ المرءَ لا يحبه إلا الله ، وأن يكره أن يعود فى الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يَقذف فى النار »[1] . إن هناك العبد الذى يحب الله لذاته ؛ لأن ذاته سبحانه تستحق أن تعبد ، فذات الله تستحق العبادة ؛ لأنه الوهاب ، الذى نظم لنا هذا الكون الجميل .

إذن فقوله الحق : « والله بصير بالعباد » يعنى أن الله يعلم مقدار ما يستحق كل عابد لربه ، وعلى مقدار حركته ونيته فى ربه يكون الجزاء ، فمن عبد الله للنعمة أعطاه الله النعمة المرجوة فى الجنة ليأخذها ، ومن أطاع الله لأنه أهل لأن يطاع وإن أخذت ـ بضم الألف وكسر الخاء ـ النعمة منه فإن الله يعطيه مكاناً فى عليين .

ولذلك قيل : إن أشد الناس بلاء هم الأنبياء ، ثم الأولياء ، ثم الأمثل فالأمثل . لماذا ؟ لأن ذلك دليل صدق المحبة . والإنسان عادة يحب من يحسن إليه ، ولا يحب من تأتى منه الإساءة إلا إن كانت له منزلة عالية كبيرة . إنه مطمئن إلى حكمته ، إنه ابتلاه ـ وهو يعلم صبره ـ ليعطيه ثوابا جزيلا وأجرا كبيرا ، والحق يقول :

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾ ﴾

(سورة الكهف)

لقد قال : « فمن كان يرجو لقاء ربه » ولم يقل جنة ربه وهكذا يجب ألا تشغلنا النعمة ـ الجنة ـ عن المنعم وهو الله سبحانه وتعالى ، وإذا كان الحق قد طلب منا ألا نشرك بعبادة ربنا أحداً فلنعلم أن الجنة أَحَدٌ .

(١) رواه مسلم والبخارى .

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ﴾

إن قولهم : « ربنا إننا آمنا » هو أول مرتبة للدخول على باب الله ، فكأن الإيمان بالله يتطلب رعاية من الذى تلقى التكليف لحركة نفسه ، لأن الإيمان له حق يقتضى ذلك ، كأن المؤمن يقول : أنا ببشريتى لا أستطيع أن أوفى بحق الإيمان بك ، فيارب اغفر لى ما حدث لى فيه من غفلة ، أو من زلة ، أو من كبر ، أو من نزوة نفس .

وهذا الدعاء دليل على أنه عرف مطلوب الإيمان كما أوضحه لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيانه لمعنى الإحسان حين قال :

« الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك »[1] .

كأنك تستحضر الله فى كل عمل ، لأنه يراك .
وهل يتأتى لواحد من البشر أن يجترىء على محارم من يراه بعينه ؟ حينئذ يستحضر المؤمن ما جاء إلينا من مأثور القول ، فكأنه سبحانه وتعالى يوجه إلينا الحديث : يا عبادى إن كنتم تعتقدون أنى لا أراكم ، فالخلل فى إيمانكم . وإن كنتم تعتقدون أنى أراكم فلم جعلتمونى أهون الناظرين إليكم ؟

وكأن الحق سبحانه يقول للعبد : هل أنا أقل من عبيدى ؟ أتقدر أن تسىء إلى أحد وهو يراك ؟ إذن فكيف تجرؤ على الإساءة لخالقك ؟

إن قول المؤمنين : « إننا آمنا فاغفر لنا » دليل على أنهم علموا أن الإيمان مطلوباته صعبة . « الذين يقولون ربنا إننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا » .

---

(١) رواه مسلم وأبو داود والترمذى والنسائى .

فلنر على ماذا رتبوا غفران الذنب ؟ لقد رتبوا طلب غفران الذنب على الإيمان . لماذا ؟ لإنه مادام الحق سبحانه وتعالى قد شرع التوبة ، وشرع المغفرة للذنب ، فهذا معناه أنه سبحانه قد علم أزلا أن عباده قد تخونهم نفوسهم ، فينحرفون عن منهج الله .

ويختم الحق سبحانه الآية بقوله على ألسنة المؤمنين : « وقنا عذاب النار » لأنه ساعة أن أعلم أن الحق سبحانه وتعالى ضمن لى بواسع مغفرته أن يستر علىّ الذنب ، فإن العبد قد يخجل من ارتكاب الذنب ، أو يسرع بالاستغفار .

ولماذا لا يكون قوله : « فاغفر لنا ذنوبنا » بمعنى استرها يارب عنا فلا تأتى لنا أبدا ؟ وإن جاءت فهى محل الاستغفار والتوبة . فإذا أذنبت ذنبا ، واستغفرت ربى ، وعلمت أن ربى قد أذن بالمغفرة ؛ لأنه قال :

﴿ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴾

(من الآية ١٠ من سورة نوح)

فإن الوجل يمتنع ، والخوف يذهب عنى ، وأقبل على الله بمحبة على تكاليفه وأحمل نفسى على تطبيق منهج الله كله . ولذلك حينما شرع الحق سبحانه وتعالى للخلق التوبة كان ذلك رحمة أخرى . وهذه الرحمة الأخرى تتجلى فى المقابل والنقيض .

هب أن الله لم يشرع التوبة وأذنب واحد ذنبا ، وبمجرد أن أذنب ذنبا خرج من رحمة الله ، فماذا يصيب المجتمع منه ؟ إن كل الشرور تصيب المجتمع من هذا الإنسان لأنه فقد الأمل فى نفسه ، أما حينما يفتح الله له باب التوبة فإن ارتكب العبد ذنبا ساهيا عن دينه ، فإنه يرجع إلى ربه .

وتلك واقعية الدين الإسلامى ، فليس الدين مجرد كلام يقال ، ولكنه دين يقدر الواقع البشرى ، فإنه ـ سبحانه ـ يعلم أن العباد سيرتكبون الذنوب ، فيرسم لهم أيضا طريق الاستغفار . وإذا ما ارتكب العباد ذنوبا ، فإن الحق يطلب منهم أن يتوبوا عنها . وأن يستغفروا الله . فإذا ما لذعتهم التوبة حينما يتذكرون الذنب فإن هذه اللذعة كلما لذعتهم أعطاهم الله حسنة .

كأن غفران الذنب شيء ، والوقاية من النار شيء آخر . كيف ؟ لأنه ساعة أن يعلم العبد أن الحق سبحانه وتعالى ضمن للعبد مغفرته ، وهو الخالق المربى ، فإن العبد يذهب إلى الله مستغفرا طامعا فى المغفرة والرحمة . إنها دعوة المؤمنين إن كانوا قد نسوا أن يستغفروا لأنفسهم . لماذا ؟ لأن الاستغفار من الذنب تكليف من الله . وكما قلنا : إن الإنسان قد ينسى بعضا من التكاليف ، لذلك فمن الممكن أن يسهو عن الاستغفار ، ولذا يقول الحق على ألسنة عباده المؤمنين : «وقنا عذاب النار» .

ومعنى التقوى أن تجعل بينك وبين النار وقاية ، أو تجعل بينك وبين غضب ربك وقاية ، فإذا ما أخذت النعم من الله لتصرفها فى منهج الله تكون حسنة لك ، وقلنا : إن « اتقوا الله » و« اتقوا النار » ملتقيتان ، لأن معنى « اتقوا النار » كى لا تصيبكم بأذى ، « واتقوا الله » تعنى أن نضع بيننا وبين غضب الله وقاية ، لأن غضب الله سيأتى .

وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾ ﴾

وهذه كلها صفات للذين اتقوا الله ، وأعد الله لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ، والأزواج المطهرة ، ورضوان من الله أكبر ، وهم صابرون وصادقون وقانتون ومنفقون فى سبيل الله ، ومستغفرون بالأسحار .

وصابرون على ماذا ؟ إنهم صابرون على تنفيذ تكاليف الله ، لأننا أول ما نسمع عن التكليف فلنعلم أن فيه كلفة ومشقة ، والتكاليف الشرعية فيها مشقة لأنها قيدت حرية العبد .

لقد خلقك الحق خلقا صالحا لأن تفعل كذا وألا تفعل . فساعة يقول لك :

افعل . . فإنه قد سد عليك باب « لا تفعل » وساعة يقول لك الحق : لا تفعل فإنه يكون قد سد عليك باب « افعل » ، وهكذا يكون تقييد حركتك وتقييد المخلوق على هيئة الاختيار فيه مشقة ، فإذا ما جاء أمر الله بـ « افعل » فقد يكون الفعل فى ذاته شاقا ، فإن صبرت على مشقة الفعل الذى جاء بوساطة « افعل » فأنت صابر ، لأنك صبرت على الطاعة . . وقد تصبر عن المعصية ، عندما يلح عليك شيء فيه غضب الله فترفض أن ترتكب الذنب ، فتكون قد صبرت عن ارتكاب الذنب .

إذن ففى « افعل » صبر على مشقتها ، وفى « لا تفعل » صبر عنها ، فالصابرون لهم اتجاهان اثنان ، لأن التكليف إما أن يكون بافعل ، وإما أن يكون بلا تفعل . فساعة يأتى التكليف بافعل فقد تأتى المشقة . . وعندما تنفذ التكليف بافعل فأنت قد صبرت على المشقة . . وعندما يأتى التكليف بـ « لا تفعل » كأمر الحق بعدم شرب الخمر ، أو « لا تسرق » فأنت قد صبرت عنها . . إذن فـ «افعل » ولا « تفعل » قد استوعبت نَوْعَىْ التكليف ، وبقيت بعد ذلك أحداث لا تدخل فى نطاق افعل ولا تفعل ، وهى ما ينزل عليك نزولا قدريا بدون اختيار منك بل هى القهرية والقسرية .

فساعة أن يطلب الله منك أن تفعل ، أى إنه قد خلقك صالحا ألا تفعل كما قلنا من قبل . إلّا إن كنت مجبرا على الفعل فقط . وكذلك إذا قال لك الحق : « لا تفعل » . والشيء القدرى الذى لا صلاحية فيه للاختيار ماذا يفعل فيه المؤمن ؟ إنه يصبر على الآلام والمتاعب لأنه آمن بالله ربا ، والرب هو الذى يتولى تربية المربى لبلوغه حد الكمال المنشود له فإذا جاء لك الحق بأمر لا خيار لك فيه ، كالمرض أو الكوارث الطارئة ، كوقوع حجر من أعلى أو إصابة برصاصة طائشة ، فكل ذلك هى أمور لا دخل لـ « افعل » ولا « تفعل » فيها .

وهنا يكون الصبر على مثل هذه الأمور هو إيمان بحكمة من أجراها عليك . لأن الذى أجراها رب ، وهو الذى خلقنى فأنا صنعته . وما رأينا أحدا يفسد صنعته أبدا . فإذا ما جاء أمر على الإنسان بدون اختيار منه ، فالذى أجراه له فيه حكمة ، فإن صبر الإنسان على هذه الآلام فإنه يدخل فى باب الصابرين .

إذن ، فالصابرون أنواع هم : صابر على الطاعة ومشاقها ، صابرٌ عن المعاصى

ومغرياتها ، وصابر على الأحداث القدرية التى تنزل عليه بدون اختيار منه . وإذا رأيت إنسانا قد صبر على أمر الطاعة وصبر عن شهوة المعصية وصبر على الأقدار النازلة به ، فاعرف حبه لربه ورضاه عنه .

ونأتى بعد ذلك لوصف آخر يقول الله فيه : « الصابرين » « والصادقين » .

والصدق كما نعلم يقابله الكذب ، والصدق كما نعرف حقيقته : يأتى حين توافق النسبة الكلامية التى يتكلم بها الإنسان ، النسبة الأخرى الخارجية الواقعة فى الكون .

فإن قلت : « حصل كذا وكذا » فتلك نسبة كلامية صدرت من متكلم ، فإن وافقها الواقع بأنه حصل كذا وكذا فعلا يكون المتكلم صادقا . وإن لم يكن الواقع موافقا لحدوث ما أخبر به يكون المتكلم كاذبا . لماذا ؟ لأن كلام المتكلم العاقل لابد له من نسب ثلاث :

الأولى وهى النسبة الذهنية : فقبل أن أتكلم أعرض الأمر على ذهنى ، وذهنى هو الذى يعطى الإشارة للسانى ليتكلم ، هذه هى النسبة الأولى واسمها « نسبة الذهن » . وقد يعن لى أن تأتى النسبة الذهنية ثم أعدل عنها فلا أتكلم ، فتكون النسبة الذهنية قد وُجِدَت ، والنسبة الكلامية لم توجد .

وقد أصر على أن أبرز إشارة ذهنى على لسانى فأقول النسبة الكلامية . ونأتى بعد النسبة الكلامية لنرى : هل الواقع أن ما حدث وتحدثت به وقع أم لم يقع ؟ فإن كان قد وقع ، يكون الكلام منى صدقا . وإن لم يكن قد وقع ، وكانت النسبة الخارجية على عكس ما أخبرت به . فإننا نقول : « هذا كلام كذب » إذن : فالصدق : هو أن تطابق النسبة الكلامية الواقع . والكذب : هو ألا تطابق النسبة الكلامية الواقع . وكثيرا ما يخطىء الناس فى فهم الواقع فيجدون تناقضا فى بعض الأساليب .

مثال ذلك ، حينما تعرض بعض المستشرقين لقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ١ من سورة المنافقون)

تلك نسبة كلامية صدرت منهم ، فهل هى مطابقة للواقع أم هى مخالفة له ؟

إنها مطابقة للواقع . ويؤكد الحق ذلك بقوله :

﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ ﴾

(من الآية الأولى من سورة المنافقون)

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴾

(من الآية الأولى من سورة المنافقون)

ففيم كذب المنافقون ؟ هل كذبوا فى قولهم : « إنك لرسول الله » ؟ لا . إن الحق لم يكذبهم فى قولهم : « إنك لرسول الله » ؛ لأن الله قد أيد هذه الحقيقة بقوله : « والله يعلم إنك لرسوله » .

ولكن كذبهم الله فيما سها عنه المستشرق الناقد عندما قالوا : « نشهد إنك لرسول الله » . لقد كذبهم الله فى شهادتهم ، لا فى المشهود به ، وهو أن محمدا صلى الله عليه وسلم رسول من الله ، إن الله يعلم أن محمدا رسوله المبعوث منه رحمة للعالمين ، لكن الكذب كان فى شهادتهم هم .

إن كلام المنافقين مردود من الله . لماذا ؟ لأن الشهادة تعنى أن يواطئ اللسان القلب ويوافقه . وقولهم : شهادة لا توافق قلوبهم وتعنى كذبهم .

إذن ، فالتكذيب هو لشهادتهم ، فلو قالوا : « إنك لرسول الله » دون « نشهد » لكان قولهم : قضية « سليمة » . ولذلك كان تكذيب الله لشهادتهم ، ومن هنا ندرك السر فى قول الله : « والله يعلم إنك لرسوله » . إن الحق يؤكد الأمر المشهود به وهو بعث محمد رسولا من عند الحق ، وبعد ذلك يأتى لنا الحق بشهادته إن المنافقين كاذبون فى قولهم : « نشهد » . فالصدق أن تطابق النسبة الكلامية الواقع . والصدق ـ كما قلنا من قبل ـ حق ، والحق لا يتعدد ، وضربت من قبل المثل بأن الإنسان الذى نطلب منه

أن يروى واقعة شهدها بعينيه ، وأن يحكيها بصدق لن يتغير كلامه أبدا ، مهما تكرر القول ؛ أو عدد مرات الشهادة . لكن إن كانت الواقعة كذبا ، فالراوى تختلط عليه أكاذيبه ، فيروى الواقعة بألوان متعددة لا اتساق فيها ، وقد ينسى الراوى الكاذب ماذا قال فى المرة الأولى ، وهكذا ينكشف سر الكذب . لكن الراوى عن واقع مشهود وبصدق ، هو الذى يحكى ، وهو الذى لا تختلف رواياته فى كل مرة عن سابقتها بل تتطابق .

فعندما نقول : « إن زيدا مجتهد » ، فهذا يعنى أن اجتهاد زيد قد حدث أولا ، ثم يأتى فى ذهن من رأى اجتهاد زيد أن يخبر بأمر اجتهاده ، ثم يخبر بالكلام عن اجتهاد زيد . إن الأمر الخارج وهو اجتهاد زيد قد حدث أولا ، وبعد ذلك تأتى النسبة الذهنية ، وبعد ذلك تأتى النسبة الكلامية .

ولكن الإنشاء وهو ضد الخبر ، هو أن نطلب من واحد أن ينشىء أمرا لا واقع له ، كأن نقول لواحد : اجتهد . إننا قبل أن نقول لإنسان ما : « اجتهد » فمعنى ذلك أن الاجتهاد كان أمرا فى ذهن القائل ، وعندما ينطقها تصبح « نسبة كلامية » . وبعد ذلك يحدث الواقع ، بعد النسبة الذهنية ، والنسبة الكلامية ، وهذا هو الإنشاء .

إن الإنشاء الطلبى يعنى أن تحدث النسبة الخارجية بعد النسبة الكلامية . والصادقون هم الذين أراد الله أن يمدحهم ، لماذا ؟ وأين هو مجال صدقهم ؟ إنهم الذين تتطابق حركتهم مع منهج الله ، لأنهم حين قالوا : « لا إله إلا الله » ، وآمنوا به ، فهم قد التزموا بكل مطلوبات الإيمان قدر الطاقة . ومعنى « لا إله إلا الله » أى لا معبود إلا الله . ومعنى لا معبود إلا الله أى أنه لا طاعة إلا لله .

والطاعة ـ كما نعرف ـ هى امتثال أمر ، وامتثال نهى . إذن فمجال « لا إله إلا الله » يشمل أنه لا معبود بحق إلا الله ، ولا مُطاع فى تكليفه إلا الله ، ولا امتثال لأمر أو لنهى إلا للأمر القادم من الله ؛ فإن امتثل إنسان الأمر من الله بعد قوله : « لا إله إلا الله » كان هذا الإنسان صادقا فى قوله : « لا إله إلا الله » .

وهذا هو صدق القمة ، أن تكون كل تصرفات قائل : « لا إله إلا الله » متطابقة

مع هذا القول . والمؤمن الحق هو من يبنى كل تصرفاته موافقة لمنهج الله . هذا هو الإنسان الصادق . أما الذى يقول بلسانه : « لا إله إلا الله ، لا معبود بحق إلا الله » ثم يخالف ربه بعصيانه له ، لنا أن نقول له : أنت كاذب فى قولك « لا إله إلا الله » لماذا ؟ لأنه لم يطابق النسبة التى قالها . إن هذا الإنسان إذا آمن بأى تكليف ثم فعل ما يناقضه قلنا له : أنت منافق ، لماذا ؟ لأننا عندما تكلمنا فى أول سورة البقرة عن المنافقين قلنا : إن المؤمن حين يؤمن بالله يكون صادقا مع نفسه ، لأنه قال : « لا إله إلا الله » وهو مؤمن بها ، والكافر حين ينكر الألوهية يكون صادقا مع نفسه أيضا .

أما المنافق فهو لا يصدق مع نفسه ، ولا يصدق مع الناس ، إنه مذبذب بين هؤلاء وهؤلاء . إن المنافق بلا صدق مع النفس، ولذلك يصفهم الحق :

﴿ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾

(من الآية ١٤٣ من سورة النساء)

إن الكافر له صدق مع النفس فهو لا يقول : «لا إله إلا الله » لأنه لا يعتقدها . أما المنافق فقد قال : « لا إله إلا الله » وهى غير مطابقة لسلوكه ، لذلك يكون غير صادق مع نفسه ، وغير صادق مع ربه . إذن ، فقول الحق : « الصادقين » مقصود به هؤلاء الناس الذين يأتون فى كل حركاتهم صادرين عن منهج الله ، فلا يؤمنون بقضية ، ويفعلون أخرى . ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣ ﴾

(سورة الصف)

أى أنه حين يكون القول شيئا مختلفا عن الفعل ، لا تتطابق النسبة . فالصادقون هم الذين يصدقون فى سلوكهم مع كلمة التوحيد فى كل ما تتطلبه هذه الكلمة من هذه السلسلة : « لا إله إلا الله لا معبود بحق إلا الله » أى لا مطاع فى أمر أو نهى إلا الله ، فإن جئت وطاوعت أحدا فى غير ما شرع الله يحق للمؤمنين أن يقولوا لك : أنت كاذب فى قولك : « لا إله إلا الله » .

« فعن أبي هريرة رضى الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن »[١] .

هذا هو سمو الإيمان عند المؤمن ، إن المؤمن لا يمكن أن يكذب أو يخالف مقتضيات عقيدته ؛ لأن المؤمن فى كل تصرفاته خاضع لإيمانه بأنه لا إله إلا الله .

ثم يقول الحق : « والقانتين » والقانت : هو العابد بخشوع وباطمئنان وباستدامة . والقانت صادق مع نفسه ، لماذا ؟ لأن الحق سبحانه وتعالى حين يكلف عباده تكليفا ، فقد يكلفهم بشىء يعز على أفهامهم أن تدرك حكمته .

وأقبل القانتون من العباد على هذا التكليف ؛ لأن الذى أمرهم به إله قادر ، فهم يثقون فى حكمته فأدُّوا الأمر الصادر إليهم لأنهم خاضعون لحكمة الله .

إنهم منفذون للأمر القادم من الآمر لا لعلة الأمر . وبعد أن يصنعوا ذلك ؛ يريهم الله نورانية هذا الحكم بأن يعطيهم فرقانا فى أنفسهم :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٢٩ ﴾

(سورة الأنفال)

فيقول المؤمن منهم لنفسه بعد أن يرى هذا الفرقان : إن الله قد أراد لى بهذا الأمر أن أدرك حلاوة طاعة هذا الأمر ، ولذلك قال أحد العارفين بالله :

إن كنت تريد أن تعلم عن الله حكما كلفك الله به دون أن تعلم علته فاتق الله فيه ، وحين تتقى الله فى هذا الأمر ، فإنك تجد الحكمة مستنيرة فى ذهنك ، ولذلك يقول الله :

---

(١) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه وأحمد .

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾

(من الآية ٢٨٢ من سورة البقرة)

فكأنك قبل التقوى لم يعلمك الله ، أما بعد التقوى فإن الله يعلمك ، فتقبل على تنفيذ التكليف لتلمس إشارة فى نورانية نفسك ، وهذا هو الفارق بين الأمر من المساوى ، والأمر من الأعلى . وعندما ترتقى كلمة « الأعلى » ، فإنها لا تنطبق إلا على الأعلى المطلق وهو الله ، إنه الأعلى فى الحكمة ، والأعلى فى المنزلة،والأعلى فى المكانة ، والأعلى فى الربوبية .

إذن ، فالإنسان لا يطلب علة حكم إلا من مساو له ، فإن قال لك أحد من البشر : افعل الشيء الفلانى . فإنك تسأله : لماذا ؟ فإن أقنعك ، فأنت تقوم بالفعل . وتكون قد قمت بتنفيذ هذا الفعل ؛ لأن المساوى لك قد أقنعك بالحكمة لا بالطاعة له .

ولكن عندما يصدر الأمر من الأعلى وهو الحق سبحانه وتعالى ، فإنك أيها العبد المؤمن تنفذ الأمر فورا عشقا فى طاعته . والمثال الذى أضربه للتقريب لا للتشبيه ، فالله الأعلى ، وهو منزه عن كل شبيه ، إن الأب يقول للابن فى حياتنا اليومية : إن نجحت فى المدرسة فسأحضر لك هدية هى الدَّراجة.فهل معنى ذلك أن علة الذهاب إلى المدرسة هى الحصول على الدراجة كهدية ؟ لا ، ليست هذه هى العلة ، إن العلة عند الأب هى أن يتعلم الابن ويتفوق فى حياته ، ويكبر ، وعند ذلك يدرك العلة ، ويقول لنفسه : لقد كان أبى على حق .

إذا كان هذا يحدث فى الحياة بيننا نحن البشر ، فكيف لنا بطاعة الأمر الصادر من الله ؟ إن الحق سبحانه وتعالى حين يكلف العبد تكليفاً ، فإن العبد قد يجد مشقة فى فهم العلة . والعبد المؤمن يعرف أن الرضوخ لتكليف الحق إنما هو خضوع للأمر الأعلى .

إن العبد المؤمن يعرف أنه آمن بمن هو أعلى منه وأعلى من كل كائن ، ولا يساويه أحد ، إن العبد المؤمن يعرف أنه آمن أولا بأن الله هو الإله الواحد ـ سبحانه ـ له مطلق

الحكمة ، وله القوة وله كل شيء فى الكون ، وسبق أن ضربت المثل ـ ولله المثل الأعلى .

إن الإنسان قد يمرض ، وصحة الإنسان أثمن شيء عنده ، فيفكر فى الذهاب إلى طبيب ، ويقول له : إننى أتعب من معدتى ، أو من قلبى أو من أمعائى . إنه يحدد ما يشكو منه . وعقل الإنسان هو الذى هداه إلى الطبيب الذى يشخص العلة ، وبعد ذلك يأخذ المريض من الطبيب ورقة مكتوبًا فيها الأدوية اللازمة . إن الإنسان يتناول كل دواء من هذه الأدوية دون أن يسأل الطبيب عن حكمة كل دواء ؛ لأنه لو سأل عن ذلك فهذا معناه الدخول فى متاهة كيماوية ، فإن سأل أى إنسان ذلك المريض : لماذا تأخذ هذا الدواء ؟ فيجيب المريض : لأن الذى كتب لى هذا الدواء هو الطبيب المختص بعلاج المعدة ، أو القلب ، أو الأمعاء أو أى عضو يشكو منه الإنسان .

والطبيب قد يخطىء ، إنما حكم الله لا يخطىء أبدا ، فهو جل شأنه منزه عن الخطأ تماما . إن الحكمة تكون عند الحق سبحانه وتعالى ، وعندما ينفذ المؤمن مطلوب الله فإنه يدرك آثار الحكمة الربانية فى نفسه . وكلمة « قانتين » كما عرفنا هى وصف لمن يعيشون القنوت ، والقنوت هو عبادة مع خضوع ، وخشوع واستدامة . لماذا الخضوع ، والخشوع ؟

لأن الله جل وعلا لم يشرع العبادة لينفذها الإنسان ، وينقذ نفسه من عذاب النار ، لا ؛ إننا نرى كثيرا من الناس ـ إذا ما لاحظنا واقع الحياة ـ إذا وجدوا رئيسا قوى الشكيمة وقوانينه صارمة فى أن الموظفين تحت يده يجب أن يحضروا صباحا فى الميعاد المحدد ، وأن ينصرفوا فى الميعاد المحدد ، ولا يسمح لهم بالاشتغال بغير العمل ، فلا يشربون الشاى ، ولا يقرأون الصحف ولا يقابلون الأصدقاء ، وغير ذلك من الأعمال . ويأتى واحد من الموظفين فيقول عن هذا الرئيس « إنه شديد المراس ، ولذلك فليس له عندى إلا أن أحضر فى الثامنة إلا خمس دقائق ، ولن أنصرف إلا فى الثانية وخمس دقائق ، ولن أقرأ الصحف ولن أفعل أى شيء مما يمنعه » . إن هذا الموظف يفعل ذلك بجبروت واستعلاء على رئيسه حتى لا يسمح له بنقد أو تجريح ، فهذا الموظف ممتثل ولكن باستعلاء .

إنها طاعة بلا حب ، ولكنها باستعلاء . وقد يحاول عبد أن يقول : ماذا يطلب الله منى ؟ ألا يطلب منى الصلاة والزكاة وإقامة العبادات ؟ سوف أفعل ذلك . لمثل هذا العبد نقول : لا ، إن الله يطلب العبادة بحب منك وخشوع واطمئنان ، لأن التكليف من الحق صدقة أخرى أجراها الله على العبد . إن الحق سبحانه وتعالى قد كلف العبد بالتكاليف الإيمانية ، حتى يكون الإنسان سويا وله قيمة فى الحياة .

إن معنى « قانت » هو العبد الذى يؤدى عبادة ربه بخشوع ، وباطمئنان ، وباستدامة . لماذا ؟ لأن الذى يقبل على الطاعة ثم ينصرف عنها كأنه قد جرب وده لله فلم يجد الله أهلا للود . أما العبد الطائع فهو لا ينصرف عن العبادة ، لأنه ذاق حلاوة استدامة العبادة لله ، ومادام قد أدرك حلاوة العبادة فهو يقبل عليها بخشوع ، واطمئنان ، واستدامة ، ويدخل فى دائرة القانتين .

وبعد « القانتين » يقول الله سبحانه : « والمنفقين » وكلمة أنفق و«نفق » ، مأخوذة من كلمة « نفق الحمار » أى مات ، و« نفقت السوق » أى انتهت بضائعها واشتراها الناس ولم يبق منها شيء . و« نفقة » مأخوذة من هذا المعنى لتشعرنا بأن الإنسان حين ينفق فهو يميت ما أنفقه من نفسه ، فلا يتذكر أنه أنفق على فلان كذا ، وعلى علان كذا ، أى يعلم يقينا أن ما أنفقه هو رزق من أنفقه عليهم وليس له إلا أجر إيصاله إليهم فلا مَنّ ، ولا إذلال .

إن الله يريد من كل إنسان يُخرج شيئا من ماله أن ينهى من ذهنه هذا الشيء الذى خرج من المال فلا يذكره ولا يَمُنّ به على أحد . « والنفقة » ، تقتضى وجود منفق ، ومنفقًا عليه ، ومنفقًا به ، المنفق كما نعرف هو المؤمن الذى عنده فضل مالٍ ، والمنفَق عليه هو الفقير ، والمنفَق به هو الخيرات .

ومن أين تأتى هذه الخيرات ؟ إنها تأتى نتيجة الحركة فى الحياة ، وحركة المتحرك فى الحياة تقتضى قدرة ، فإذا كان الإنسان عاجزا ، ولا يجد القدرة على الحركة ، فمن أين يعيش ؟ إن الله لابد أن يضمن له فى حركة القادر ما يعوله .

لقد جعل الله القدرة عرضا من أعراض الحياة ، فالقادر اليوم قد يصير عاجزا غدا . ومادامت القدرة عرضا من أعراض الحياة ، فالقادر الآن عندما يسمع الأمر

من الله بأن ينفق على غير القادر ، فلابد أن يُقدر فى نفسه أن قدرته هى عرض من أعراض الحياة ، والقادر الآن من الأغيار ، لذلك فهو عرضة لأن يصير غدا من العاجزين ، ويقول القادر لنفسه : « عندما أصبح عاجزا سوف أجد من يعطينى » . أليس ذلك هو التأمين الحق ؟ إنه تأمين المؤمن . إن المؤمن يعطى عند قدرته ، وذلك حتى يجنبه الله مشقة السؤال إن جاءت الأغيار ، لأن الأغيار إن جاءت سوف يجد من يعطيه .

إننا يجب أن نلحظ فى الحكم ، لا ساعة أن تطالب أنت بأداء مطلوب الحكم ، ولكن ساعة أن يؤدى الغير إليك مطلوب الحكم . فالذى يطلب منه أن ينفق ، عليه أن يقدر أنه قد يصبح عاجزا ، ولنا أن نسأله : لو كنت عاجزا ألم تكن تحب أن يعطيك الناس دون مَنٍّ أو أذى ؟

إن هذا هو التأمين الحق ، لأنّ التأمين فى يد الله ، ومادامت الأغيار عرضة لأن يصير القادر عاجزا ويصير العاجز قادرا ، فساعة ينفق المنفق يجب عليه أن يميت أنه أنفق فلا يتذكر وجه من أنفق عليه ، ولا يخبر أحدا بما أنفق .

عد الرسول صلى الله عليه وسلم الرجل الذى أنفق حتى لا تعلم شماله ما صنعت يمينه من السبعة الذين يظلهم الله فى ظله فقال : (سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله ، إمام عادل ، وشاب نشأ فى عبادة الله ، ورجل قلبه معلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه ، ورجلان تحابا فى الله فاجتمعا على ذلك وافترقا عليه ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إنى أخاف الله رب العالمين ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه)[1] .

وبعد ذلك على المؤمن المنق أن يُقدر ساعة عطائه أنه ادّخر ليأخذ ، إما أن يأخذ إن طرأت له الأغيار فى الدنيا ، وإما أن يأخذ من يد الله فى الآخرة أضعافا مضاعفة . إذن ، فالمنفق هو الذى يُؤَمِّنُ لغير القادر حركته فى الحياة ضمانا لنفسه حين لا يقدر ؛ أو استثمارا مضاعفا عند الله ، وهؤلاء المنفقون الذين يَسَعُونَ العاجزين بفضل ما لديهم ، يظهرون حكمة الله فى الوجود ، لأن الله مادام قد خلقنا ، وفينا

---

(١) رواه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى وأحمد .

القادر ، وفينا العاجز ، فقد أراد الله لنا أن نعرف أن القدرة ليست لازمة فى الخلق . فإن قدرت الآن فقد تُسلب ـ بضم التاء ـ منك هذه القدرة ، ومادامت القدرة يتم سلبها ، فلابد أن يتمسك المؤمن بالقيوم الذى يقيم القدرة لك أيها المؤمن دائما ، وذلك حتى يعرف الواحد منا أنه لم ينفلت من ربه ، خلقنا قادرين وانتهت المسألة . لا . إنّ القدرة أغيار تذهب وتجيء . ومادامت الأغيار تذهب وتجيء فلابد أن يضع المؤمن نصب عينيه عطاء القادر الأعلى .

وقلنا سابقا : إن الله جعل المنفقين وصفا من أوصاف الذين اتقوا ، والذين أعد الله لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ، وذلك حتى يحمى الله الضعيف الذى خلقه الله لحكمة فى الوجود . إن الإنفاق ليس أخذا من العبد ، إنما هو مناولة ، هذه المناولة تتضح فى أنه ما كان لك ما يزيد عن حاجتك ، إلا بحركتك فى الحياة .

وهذه الحركة فى الحياة تتطلب عقلا يخطط للحركة وجوارح تنفذ المخطط الفكرى ، ومادة يتم الفعل فيها سواء كانت أرضا تتم زراعتها ، أو آلة يتم الصنع بها ، ولا شيء للإنسان من هذا فى الكون . إن المخ الذى يدبر هو عطاء من الله ، والطاقة التى تنفذ هى عطاء من الله . ونحن نرى فى الحياة إنسانا قد نزع الله عنه المخ الذى يفكر ويدبر ، ونجد إنسانا آخر قد نزع الله منه الطاقة التى تنفذ ، فقد يمنع الله عن عبدٍ المادة التى يتفاعل معها .

إذن ، فلا شيء من هذه الأشياء ذاتى للإنسان ؛ إنها كلها عطاء من الله . فليعمل المؤمن مضاربا عند الله ، وليعط المؤمن للعاجز حق الله . إن الله لا يأخذ هذا الحق لنفسه إنما يريده الله لأخيك العاجز ، وسوف يطلب الله هذا الحق لك إذا عنّت لك حاجة بسبب الأغيار .

هكذا تكون « المنفقين » صفة من صفات الذين اتقوا ربهم . والحق سبحانه وتعالى قد جعل فى الصبر ، صلابة اليقين الإيمانى فى النفس البشرية . وفى الصدق انسجاما مع واقع لا إله إلا الله ، وفى النفقة حماية العاجز الذى لا يقدر .

وبعد ذلك يعود إلى نفس المؤمن عودة أخرى فيقول : « والمستغفرين بالأسحار » إننا يجب أن نأخذ هذا الوصف بعد مجيء الأوصاف الأخرى فى النفس البشرية . البداية

هى إقرارهم بالإيمان ، ودعاؤهم الحق ـ سبحانه ـ أن يغفر لهم وقد طلبوا الوقاية من عذاب النار ، وصبروا ، وصدقوا ، وقنتوا فى العبادة ، وأنفقوا فى سبيل الله ، إن كل هذه الأوصاف تبرىء ذمتهم من أنهم مقصرون أيضا فى حقوق إلههم لذلك فهم يأتون حال السكون بالليل ، ويستغفرون الله .

إما أن يستغفر العبد لأنه قد فرطت منه هفوة فى ذنب ، وإما أن يستغفر لأنه لم يَزد فيما يفعله من أمور الطاعة . وكلمة « بالأسحار » توضح لنا لحظات من اليوم يكون الإنسان فيها محل الكسل والراحة ، إن الذى سوف يصحو فى السحر لابد أن يكون قد اكتفى من الراحة ، ولم يكن قد أخذ منه كد الحياة كل النهار ، ثم إن بعضهم يأخذه لهو الحياة ليلا .

وهذا هو وجه الخيبة لما يحدث فى زماننا . إن كد الحياة ـ إن أخذ ـ يأخذ نهارا ، وبعد ذلك يأخذنا لهو الحياة ليلا ، مما نشاهده من لهو الحديث ، ولهو السهرات ، وبعد ذلك يأتى الإنسان لينام متأخرا ، فكيف نطلب من هذا الإنسان أن يصحو فى السحر ؟ إن الذى يصحو فى السحر هو من أخذ حظه فى الراحة ، فبعد أن جاء من كد العمل نام نوما هادئا ، ويصحو من بعد ذلك فى السحر ليذكر ربه ، فى الوقت الذى نام فيه غيره من الناس ، لماذا ؟ لأن الحق سبحانه وتعالى فى لحظة سكون الليل يوزع رحمته ، وعندما يصحو إنسان فى السحر ويدعو الله ، ويستغفره فإنه يأخذ من رحمة الله النازلة .

وعندما يأخذ هذا العبد من رحمة الله النازلة فى ذلك الوقت ، فمعنى هذا أنه سيأخذ الكثير من رحمة الله . وإياك أن تقول : لو صحونا جميعا فى الأسحار لنفدت الرحمة والعطاء « لا » ، لأن الله قد قال :

﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ﴾

(من الآية ٩٦ من سورة النحل)

إن قدرته جل وعلا تتسع لعطائنا جميعا دون أن ينقص شىء من عنده . إن كل هذه الأشياء من التقوى ، والإقرار بالإيمان ، وطلب المغفرة للذنوب ، وطلب الوقاية من عذاب النار ، والصبر ، والصدق ، والقنوت ، والإنفاق فى سبيل الله ،

والاستغفار بالأسحار ، كل ذلك نتيجة للتقوى الأولى .

إنها الثمرة من « لا إله إلا الله » . ومادامت هذه هى الثمرة من « لا إله إلا الله » فليعلم كل إنسان ، أن الله لم يدعك لتستنبطها أنت من مفقود ، بل اعلم أن الله قد شهد أنه لا إله إلا الله ،وكفى بالله شهيدا . ولذلك يقول الحق :

﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾

ولنأخذ الجملة الأولى من الآية الكريمة بمعناها : لقد شهد الله أنه لا إله إلا هو ، أى أنَّ الحق قد أخبر بما رآه ، وشاهده ، أو ما يقوم مقام ذلك . إن « شهد » بمعنى علم .

إنه الحق الذى نصب الأدلة فى الوجود على قيوميته ، وعلى أنه إله واحد ، أليس فى ذلك إقامة للحجة على أنه إله واحد ؟ ومن الذى خلق الأدلة وجاء بها ؟ إنه الله . إذن ، فقد شهد الله أنه لا إله إلا هو . وقلنا : إن شهادة الله أنه لا إله إلا هو هى شهادة الذات للذات ، وشهادة الذات للذات تعنى أنها كلمة مُمَكَّنٌ منها . فعندما يقول الحق :

﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ ﴾

(سورة البقرة)

بالله لو لم يكن قد شهد لنفسه بأنه لا إله إلا هو ، وليس هناك من يعارض مبتغاه ، أكان يجازف فيقولها ؟ إنه الحق الأعلى الذى شهد أن لا إله إلا هو ، فساعة

أن يقول : « كن » فإنه قد علم ، أنه لا يوجد إله آخر يقول : « لا تكن » . إن الحق لابد أن يطمئننا أنه لا إله إلا هو ، لذلك فلزم أن يشهد لنفسه أنه لا إله إلا هو . إننا نجد أن من أسماء الله الحسنى « المؤمن » . بماذا يؤمن الله ؟ إنه مؤمن بأنه لا إله إلا هو ويلقى الأمر ، ويلقى الحكم التسخيرى ، ويعلم أنه لا إله يعارضه .

وأليس من مطلوبات الرسول صلى الله عليه وسلم أن يشهد أنه رسول الله ؟ لقد صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال فى صلاته : « أشهد أن محمدا رسول الله » . ولو لم يشهد بهذه لنفسه فكيف يجازف بالأشياء التى يقولها ؟ ولذلك فسيدنا أبو بكر عندما بلغه أمر بعث محمد رسولا ، قال ما معناه : أقالها محمد ؟ إنه صادق ، ومادام قد قالها فهى حق .

إن أبا بكر الصديق واثق من الرصيد الذى سبق بعث محمد بالرسالة . ونحن نرى فى التاريخ امرأة كان السبب فى إسلامها لمحة من سيرته صلى الله عليه وسلم . قرأت هذه المرأة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان له حراس من المؤمنين يقومون بحراسته من الكافرين . وبعد ذلك جاء يوم وصرف الرسول صلى الله عليه وسلم هؤلاء الحراس ، وقال لهم ما معناه : إن الله عصمنى من الناس فاذهبوا أنتم .

وقد قرأنا هذه الواقعة كثيرا جدا ، ولكن الفتح جاء من الحق لامرأة ، فشغلتها هذه المسألة ، وتساءلت : ألم يكن هؤلاء الحراس يحرسونه خوفا على حياته ؟ فلماذا قال لهم : « لا تحرسونى » لأن الله هو الذى يحرسنى ؟ فلو أن رسول الله قد غش الدنيا كلها ؛ أكان من الممكن أن يغش نفسه فى حياته ؟

وأجابت المرأة على نفسها : لا يمكن ، لابد أن رسول الله قد وثق تمام الثقة فى أن الله قد أبلغه أمر حمايته بدليل أنه قام بصرف الحراس ، وإلا فكيف يأمن أن يأتى أحد ليقتله ؟ قالت المرأة : والله لو خدع الناس جميعا ما خدع نفسه فى حياته ، أشهد ألا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله . حدث إسلام هذه المرأة من نفحة يسيرة من سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

إذن ، « شهد الله أنه لا إله إلا هو » هى شهادة الذات للذات ، وكفى بالله

شهيدا . وشهدت الملائكة أيضا ، والملائكة هم الغيب الخفى عنا ، وتتلقى الأوامر من الحق . إن الملائكة لم يروا أحدا آخر يعطى لهم الأوامر ، إنه الإله الواحد القادر . وهذه هى شهادة المشهد . ويضاف إلى الملائكة « أولو العلم » ، لقد أخذ « أولو العلم » الأدلة وجلسوا يستنبطون من كون الله أدلة على أنه لا إله إلا الله .

إن هذه أعظم شهادة لأعظم مشهود به من أعظم شهود ، الله فى القمة ، ومحمد صلى الله عليه وسلم ، والملائكة وأولو العلم . ولقد أخذ أولو العلم منزلة كبيرة لأن الله قد قرنهم بالملائكة .

إن الحق سبحانه وتعالى يبلغنا أنه قد نثر فى كونه الآيات العجيبة العديدة ، والذى يجلس ، ويتفكر ويتدبر ، ويتفطن وينظر ، فإنه يستخرج الأدلة على أنه لا إله إلا هو ، وكما قلنا من قبل : إن أبسط الطرق للتدليل على هذه الحقيقة . إن كانت « لا إله إلا الله » صدقا فقد كفينا ، وإن كانت غير صدق فأين الإله الذى أخذ منه الله هذا الكون ، ولم يخبرنا ذلك الإله أنه صاحب الكون ؟ فإما أن هذا الإله الآخر لم يَدْر ، أو أنه قد علم ، ولا يستطيع فعل شىء ، إذن فلا يصح أن يكون إلها يزاحم الحق الذى أبلغنا أنه لا إله إلا هو .

وتظل « لا إله إلا الله » لصاحبها ـ جل شأنه ـ « شهد الله أنه لا إله إلا هو » وفى كل حركة من حركات الحياة نجد أن الانفراد بصدور الحركة قد يعطى علوا ، وقد يعطى استكبارا . . لذلك نقول : ها هو ذا الخالق الأعلى الذى « لا إله إلا هو » يخبرنا أنه قائم بالقسط . ورغم أنه لا أحد فى استطاعته أن يتدارك على الله ، إلا أنه يطمئننا أنه قائم بالقسط .

ولنلحظ هنا ملحظا جميلا فى الأداء « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط » لماذا لم يقل الله إن « الملائكة » و« أولو العلم » ، الذين شهدوا أنه لا إله إلا هو « قائمين » بالقسط ؟ لقد شهد الله أنه لا إله إلا هو قائما بالقسط ، والملائكة شهدوا هذه القضية والعلماء شهدوا أيضا بهذه القضية . . لماذا ؟ لأن الله لو قال : « قائمين بالقسط » لكان الله مشهودا عليه من هؤلاء ، والشهادة هى له وحده أنه قائم بالقسط والعدل .

لأنه سبحانه خلق الملائكة بالقسط ، فلو كانوا معه فى ذلك لما استقام الأمر ،

وأولو العلم أيضا مخلوقون بالقسط ، لأن الله قد وزع حركة الحياة على الناس ، فَنَاسٌ يعملـون بعقـولهم ، وآخرون يعملـون بقلوبهم ، وقوم غيرهم يعملون بجوارحهم ، فهذا هو لون من عدل الله ، وإلا ، فهل يدعى أحد أن إنسانا تتجمع فيه كل المواهب التى تتطلبها الحياة . لا ، وهذه من عدالة الرحمن .

إن من عدالة الحق أنه وزع المواهب بين البشر ، فبدلا من أن يعتمد الإنسان على نفسه فى صناعة الملبس والمأكل ، والمشرب ، جعل الله المهارات موزعة بين البشر . . فأتقنت مجموعة من البشر حرفة الزراعة لإنتاج الطعام الذى يكفيهم ، ويسد حاجة غيرهم ، وكذلك تبادلوا مع غيرهم المنافع ، فالإنسان ـ بمفرده ـ لا يستطيع أن يزرع القطن ويجمعه ويغزله وينسجه ، ليلبس ، والإنسان لا يستطيع أن يزرع القمح ويحصده ثم يطحنه ثم يخبزه .

إن الله لم يخلق الناس ليقوم كل فرد بإشباع حاجات نفسه المتنوعة ، إنما وزع الله المواهب ، لتتداخل هذه المواهب ، ويتكامل المجتمع البشرى ، فواحد يزرع الأرض ، وثانٍ يغزل القطن ، وثالث ينسج القماش ، ورابع يصنع الأدوات . وهذا عدل عظيم ، لأن الطاقة البشرية لا تقوى على أن تقوم بكل متطلبات الحياة ، لذلك جعل الحق هذا التنوع فى المواهب ليربط الناس بالناس قهرا عن الناس ، فلم يجعل لأحد تفضلا على أحد ، فمادام واحد يعرف فى مجال ، وآخر لا يعرف فى هذا المجال ، فالذى لا يعرف محتاج للآخر ، وهكذا يتبادل الناس المنافع رغما عنهم .

ولذلك نجد الكون متكاملا . ولينظر كل منا إلى حياته وليعدد كمْ زاوية من زوايا العلم ، وكم زاوية من زوايا القدرات ، وكم زاوية من زوايا المواهب تلزم حتى تخدم حركة الحياة ؟

إن هذه الزوايا موزعة على الناس جميعا ليخدموا جميعا حركة الحياة . وهذا قمة العدل . وحتى يوضح لنا الحق قيمة العدل وكيفية العدالة فى إقامة المحبة والاحترام بين البشر ، فلينظر الواحد منا إلى الإنسان الآخر البعيد عنه ، ويتساءل بينه وبين نفسه : أهذا الرجل البعيد عنى يعمل من أجلى ؟ وتكون الإجابة : نعم .

إذن ، فعلى الإنسان عندما يرى إنسانا متفوقا فى صنعة ما ، فليقل : إن تفوقه فى

صنعته عائد إلىّ وتفوقه فى موهبته عائد إلىّ ، وهكذا منع الله بالعدل الحقد والحسد ، وجعل الناس متكاتفين قهرا عنهم ، لا تفضلا منهم ، إذن ، فكل إنسان يسعى بحركة الحياة إنما يقيم نفسه فى زاوية من زوايا الحياة ، ومن العجيب أن الزاوية التى يحسنها الإنسان تكون حاجته فيها أقل الحاجات ، لذلك نجد المثل الريفى الذى يقول : « باب النجار مخلع » ، وذلك حتى يعلم الإنسان أن موهبة ما تكون عند غيره سوف تنفعه هو ، بدليل أن الموهبة التى عندك لم تنتفع أنت بها إلاّ قليلا .

وبذلك يشيع فى الناس اقتناع بأن موهبة كل فرد فيهم ، إنما تعود عليهم جميعا ، وبذلك تحل المحبة والاحترام بدلا من الحسد والحقد . وعندما سأل أحد الظرفاء : ولماذا يكون باب النجار هو « المخلع » ؟ قال أحد الظرفاء ردا عليه : لأنه الباب الوحيد الذى لن يأخذ النجار أجرا لإصلاحه ، ونلتفت إلى العجائب فى الحكمة الشائعة ، فنجد أطباء اخصائيين فى ألوان من المرض ، وصاروا أعلاما فى مجالات تخصصاتهم ، ويشاء الحق سبحانه وتعالى ألا يصابوا إلا بما برعوا فيه ، كأن الذى برعوا فيه لم يفدهم هم بشىء ، إنما أفاد الآخرين . ولننظر إلى الآية فى مجملها :

﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

لقد استهلها الله بقوله : « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط » ثم قال بعد ذلك : « لا إله إلا هو العزيز الحكيم » . فكأن الآية تقول لنا : إذا ثبتت شهادة الذات للذات ، وشهادة المشهد من الملائكة ، وشهادة الاستدلال من العلماء ، فإن القاعدة تكون قد استقرت استقرارا نهائيا لاشك فيه ، فخذوها مسلمة : « لا إله إلا هو » .

ومادام « لا إله إلا هو » فليكن اعتمادك عليه وحده ، واعلم أنك إن اعتمدت عليه وحده إلها فأنت قد اعتمدت على عزيز لا يُغْلب على أمره .

قال صلى الله عليه وسلم : « إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فأستعن بالله ،

واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك ، رُفعت الأقلام، وجفت الصحف »[١] .

فلا يستطيع أحد أن يدخل مع الله فى جدال . إنما يدخل خلق الله مع خلق الله فى خلاف أو نضال ، لكن لا أحد يجرؤ على أن يدخل فى نضال مع الله لأنه عزيز لا يغلب . فإن آمنت به وحده ، فلك الفوز . وكلمة « وحده » قد تبدو فى ظاهرها تقليلا للسند الذى تستند إليه فى القياس البشرى ، فيقال : « أنا لاجىء إلى فلان وحده » وعندما تكون لاجئا إلى عشرين ألا تكون أكثر قوة ؟ لكن هنا لا يكون قياس بين اللجوء إلى الله وحده ، بقياس اللجوء إلى مخلوق . إنك هنا تلجأ إلى خالق أعلى بيده مقاليد كل شيء وهو على كل شيء قدير ، فكلمة « وحده » هنا تغنيك وتكفيك عن الكل . اعمل لوجه واحد . يكفك كل الأوجه ، واعلم أنه لا يوجد من يغلبه على أمره .

وعظمة الحق أنه واحد أحد فرد متفرد صمد ، وهو عزيز لا يُغْلب على أمره ، وهو صاحب كل الحكمة فى وضع الأشياء فى مواضعها بحيث إذا ما عرفت حكمة ما يجريه الله سبحانه وتعالى على خلقه فأنت تتعجب من عظمة قدرة الله ، لأن الحكمة هى وضع الشيء فى موضعه ، ومادمت قد وضعت الشيء فى موضعه فإنه لا يكون هناك قَلَقٌ ، ومادام الشيء موضوعا فى مكانه فهو مستقر ، ومادام الشيء مستقرا فإنه لا يتلون وتزداد الثقة فيه ، وهذه مأخوذة من « الحَكَمَة » التى تُوضع فى فم الفرس ، والتى نسميها « اللجام » وهى كما نعرف تتكون من قطعة من الجلد تدخل على اللسان وفيها قطعة من الحديد ، فإن مال إلى غير الاتجاه الذى تريد ، يكون من السهل جذبه إلى الاتجاه الصحيح .

إن وجود الحكمة يعنى وجود شيء يحكمه فلا ينحرف يمينا ولا يسارا ، ومادام الله قد شهد أنه لا إله إلا هو ، وشهدت الملائكة وشهد أولو العلم ، وانتهت القضية بعد هذه الشهادات إلى أنه لا إله إلا هو ، وأنه العزيز الحكيم ، فكل منهج منه يجب أن يُسلم إليه ، وأن ينقاد له . ومادام الله قد شهد لنفسه بأنه إله واحد ، أى لا يوجد له

---

(١) رواه الترمذى .

شريك ينازعه فيما يريد من خلقه ، وليس لله شريك فى الخلق ، وليس لله شريك فى الرزق ، وليس له شريك فى التشريع .

إذن .. فالجهة التى نستمد منها مقومات منهجنا هى جهة واحدة ، وكان من الممكن أن تظلم وتجور هذه الجهة الواحدة الخالقة على ما خلقت لأنه ليس لأحد من خلق الله حق على الله ، لكن الله سبحانه عادل ، إنه سبحانه يطمئننا ، فهذه الوحدانية بقدرتها وجبروتها وعلمها وحكمتها عادلة لا تظلم ، لأنه قال : مع أنى إله واحد ، لا يُرد لى حكم ولا أمر فأنا قائم بالقسط .

والقيام بالقسط يجب أن نتوقف عنده لنفهمه جيدا ، إن الحق يقول عن نفسه : « قائما بالقسط » وكلمة قائم تعنى أن الله قد خلقهم الخلقَ الأول ، وهذا الخلق إنما قام على العدل والقسط . وتكليف الحق للخلق قام على العدل والقسط . والعدل والقسط يقتضى ميزانا لا ترجح فيه كفة على كفة ، وهذا الميزان ممسوك بيد القدرة القاهرة التى لا توجد قوة أعلى منها تميل فى الحكم ، والحق سبحانه قائم بالقسط فى الخلق ، فقبل أن يخلقنا أعدّ لنا ما تتطلبه حياتنا بالقسط أيضا ، فلم يجعل أمر الحياة قائما على الأسباب التى يكلفنا بها لنعيش ، بل حكم بالقسط ، لقد جعل الحق بعضا من الأمور لا دخل لنا نحن العباد فيها ، ولم يقض الحق بذلك على حركتنا ولا على حريتنا فى الحركة ، لذلك خلق لنا أسبابا إن شئنا أن نفعل بها وصلنا إلى المسببات ، وإن شئنا ألا نفعل فنترك الأسباب والمسببات .

إذن .. فالحق سبحانه لم يحكمنا فى قضية الخلق الأولى بشىء واحد ، بأن يجبرنا على كل شىء ، بل جبرنا بأنه ـ سبحانه ـ لم يدخل أسبابنا ولا حركتنا فى كثير من الحركات التى تترتب عليها الحياة ، فلم يجعل الشمس بأيدينا ، ولا القمر ، ولا الريح ، ولا المطر . كل هذه الأسباب جعلها بيده هو ، لماذا ؟ لأن هذه الأسباب ستفعل للمخلوق قبل أن تكون له قدرة . هذه الأسباب تفعل للإنسان قبل أن توجد له حياة ؛ لتمهد للحياة التى يهبك الله إياها ، فلو ترك الله كل هذه الأشياء لأسباب الإنسان لتأخرت هذه الأشياء إلى أن يوجد للإنسان إرادة ، وتوجد له قدرة وعلم .

لقد جعل الله أسباب الحياة بيده ، كالتنفس مثلا ، إن التنفس لا يخضع لإرادة القدرة على الحركة فى الحياة، ولكنه قال لك: أيها الإنسان ـ وهو سبحانه الإله القادر ـ تحرك

التنفس إلى أن توجد له إرادة . ولا توجد الإرادة إلا إن وجُد عند الإنسان علم بأنه يريد إدخال الأوكسجين إلى الرئتين حتى يغذى الدم والمخ وينقى الدم والجسم من الأشياء التى تضره ، هذا يقتضى العلم ، فإذا كان هذا الأمر يقتضى العلم .. فماذا يصنع الطفل الذى ليس له علم ؟ كيف يتنفس ؟

لذلك فمن رحمة الله وعدالته أن جعل أمر التنفس ـ على سبيل المثال ـ بيده هو سبحانه ، ولكن الحق سبحانه لم يقض على مخلوقه بأن يجعله فى الكون بلا حرية أو اختيار ، لا ، لقد ترك الحق سبحانه بعضا من الأشياء لحرية الإنسان واختياره .

إذن ، فالحق لم يلزم العبد تسخيرا ، ولم يمنع تخييرا . وذلك هو العدل المطلق . لقد احترم الحق كينونة الإنسان ، وحياة الإنسان ، ومشيئة الإنسان ، واختيار الإنسان ، فقال : أنا سأعطيك أسباب الحياة الضرورية ولا أجعل لك دخلا فيها ؛ لأنك إن تدخلت فيها أفسدتها ، وتأخر وصول خدمتها لك إلى أن تعرف وتعلم ، وأنا ـ الحق ـ أريدُها لك ، وأنت أيها الإنسان عاجز قبل أن توجد لك ، وأنت قادر بوجودها الذى أمنحه لك ، لذلك جعلتها بيدى أنا الخالق المأمون على خلقى . ولكن لن أقضى على حريتك ، فإن أردت ارتقاءً فى الحياة فتحرك فى الحياة ، إن شئت أيها الإنسان أن تفعل فافعل . وإن شئت أيها الإنسان ألا تفعل فلا تفعل . وهذا مطلق العدل .

ثم جاء الحق سبحانه وتعالى وجعل قوله : « قائما بالقسط » مشتملا على التكليف أيضا ، أى إن عدالته فى التكليف مطلقة . فأناس يقولون : « لا إله » وأناس آخرون عددوا الآلهة ، فقام الحق بالقسط بين الأمرين . هو إله موجود يا من تقول : « لا إله » . وهو إله غير متعدد يا من تشرك معه غيره . وهذا قيام بالقسط . وجاء الحق سبحانه فى الأحكام . نحن نجد أحكاما شرعية طلبها الحق سبحانه من العبد طلبا باتا ، ولم يتركها لاختيار الإنسان ونجد أشياء تركها الحق سبحانه ليجتهد فيها الإنسان ، فلم يجعل الحق سبحانه العبد حرا طليقا يعربد فى الكون كما يشاء ، ولم يجعل الحق سبحانه عبده مقهورا أو مقسورا بحيث لا توجد له إرادة أو اختيار .

لقد جعل الله للإنسان مجالا فى القسر ومجالا فى الاختيار ، أوجد فى الإنسان القدرة على الحركة فى الحياة ، ولكنه قال لك : أيها الإنسان ـ وهو الإله القادر ـ تحرك

فى الحياة وأنا أحمى نتيجة ما تتحرك فيه ، ولكن لى فى مالك الذى جعلتك فيه خليفة حق عليك أن تعطى بعضا منه لأخيك المحتاج .

لقد أعطى الحق للنفس البشرية أن تكد ، وأعطى لها أن تكدح ، وحفظ لها ما تملك ، ولكنه هو الحق لم يُطلق للنفس البشرية عنانها ، بل قال : لى حق فى ذلك . وهكذا نجده سبحانه قد عدل فى هذا الأمر .

إذن فقول الحق إنه قائم بالقسط . . نجده واضحا فى كل شىء ؛ ففى الخلق والرزق والتكليف نجد أنه قائم بالقسط ، ومادام هو إلها واحدا وقائما بالقسط . فما الذى يمنعك أيها الإنسان أن تخضع لمراده منك ؟ يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾ ﴾

بعد أن قال لنا : إنه إله واحد ، وقائم بالقسط هو نتيجة منطقية لكونه ـ سبحانه ـ إلها واحدا فكأن قوله « إن الدين عند الله الإسلام » هو نتيجة لقوله : « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط » . لماذا ؟ لأنه لا تسليم لأحد إلا الله ، ومادام الله إلها واحدا ، فلا إله غيره يشاركه ؛ يقول الحق :

﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ ﴾

(سورة المؤمنون)

ومادام قد ثبت أنه هو الإله الواحد ، فما الذى يمنعك أيها الإنسان أن تخضع لمراده منك ؟ إذن فقول الحق بعد ذلك : « إن الدين عند الله الإسلام » هو أمر منطقى جدا يجب أن ينتهى إليه العاقل ، ومع ذلك رحمنا الله سبحانه وتعالى فأرسل لنا رسلا لينبهونا إلى القضية السببية ، والمسببية ، والمقدمة والنتيجة « إن الدين عند الله الإسلام » وإذا سألنا : ما هو الدين ؟ تكون الإجابة : إن الدين كلمة لها إطلاقات متعددة فهى من « دان » تقول : دنت لفلان : رجعت له وأسلمت نفسى له ، وائتمرت بأمره . ويُطلق الدين أيضا على الجزاء ، فالحق يقول عن يوم الجزاء : « يوم الدين » وهو يوم الجزاء على الطاعة وعلى المعصية ، وعلى أن الإنسان المؤمن قد دان لأمر الله ، فكلها تلتقى فى قول الحق : « إن الدين عند الله الإسلام » يُشعرنا بأنه قد توجد أديان يخضع لها الناس ، ولكنها ليست أديانا عند الله ؛ ألم يقل الحق :

﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾ ﴾

(سورة الكافرون)

إن معنى ذلك أن هناك دينا لغير الله فيه خضوع واستسلام ، وفيه تنفيذ لأوامر ، ولكن ليس دينا لله ، ولا دينا عند الله . إن الدين المعترف به عند الله هو الإسلام . والدين يطلق مرة على الملة ومرة أخرى على الشريعة ، فإن أراد المؤمن الأحكام المطلوبة فلك أن تسميها شريعة ، وإن أراد المؤمن الطاعة ، والخضوع ، وما يترتب عليهما من الجزاء فليسمها المؤمن الدين ، وإن أراد الإنسان كل ما ينتظم ذلك فليسمها الملة .

إذن فقوله سبحانه : « إن الدين عند الله الإسلام » تعنى أنه لا دين عند الله إلا الإسلام ، وكلمة « إسلام » مأخوذة من مادة « سين » و« لام » و« ميم » . و« السين » و« اللام » و« الميم » لها معنى يدورفى كل اشتقاقاتها ، وينتهى عند السلامة من الفساد . وينتهى المعنى أيضا إلى الصلح بين الإنسان ونفسه ، وبين الإنسان وربه ، وبين الإنسان والكون ، وبين الإنسان وإخوانه ، إنه صلاح وعدم فساد ، كل مادة السين واللام والميم تدل على ذلك ، ومادامت المادة المكونة منها كلمة « إسلام » تدل على ذلك فلماذا لا نتبعها ؟.

لقد قلنا سابقا : إن الإنسان لا يخضع لمثيله إلا إذا اقتنع بما يقول ، إن الإنسان

يقول لمساويه الذى يأمره : لماذا تريدنى أن أنفذ أوامرك ؟ إنك لابد أن تقنعنى بالحكمة من ذلك الأمر ، لكن عندما يؤمن الإنسان بإله واحد قائم بالقسط ، ويصدر من هذا الإله أمر ، فعلى الإنسان الطاعة .

إذن . . فالإسلام معناه الخضوع ، والاستسلام بعزة وفهم ، وعزة وتعقل ؛ لأن هناك عبودية تَعَقّل عندما يقف الإنسان عند المعنى السطحى ، وهناك عزة تعقل عندما يقف الإنسان عند المعنى الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه أو من خلفه ، إن هذا هو عزة العقل فلا يستهويه أى شىء سوى الخضوع للأمر الثابت الذى لا يتناقض أبدا .

فمادام الله إلها واحدا قائما بالقسط فإنى كعبدٍ من عبيده حين أؤمن به وآخذ عنه ، فهذه عزة فى الفهم وعزة فى التعقل ، وعزة فى العبودية أيضا ، لأننى أعبد الله الذى هو فوق كل المخلوقات والكائنات ، ولا أعبد مساويا لى ، وإن الذى يعبد مساويا له لا يملك إلا إنفة وحميّة الذليل ، ومادام الإسلام هو الخضوع والاستسلام لله فهو خضوع لغير مساو ، و« أسلم » أى دخل فى السلم ، أى دخل فى الصلح ، وعدم التناقض ، وفى الأمان والراحة ، أى خلص نفسه من كل شىء إلا وجه الله ؛ ولذلك يقول الحق :

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾﴾

(سورة الزمر)

كأن الله يريد أن يوضح لنا الفرق بين الخاضع لأمر سيد واحد ، وبين الخاضع لِسَادَةٍ كثيرين . وضرب الله لنا المثل بالأمر المشهور عندنا ، فقال ما معناه : هب أن عبدا له من السادة عشرة ، وكل سيد له منه طلب ، فماذا يصنع ذلك العبد ؟ وعبد آخر له سيد واحد ، هذا العبد يكون مستريحا لأنّ له سيدا واحدا ، بينما الآخر المملوك لعشرة تتضارب حياته بتضارب أوامر سادته العشرة .

إذن فالعبد المملوك لشركاء تعيس ؛ لأن الشركاء غير متفقين ، إنهم شركاء

متشاكسون ، فإذا رآه سيد يفعل أمرا لسيد آخر ، أمره بالعكس ، وبذلك يتبدد جهد هذا العبد ويكثر تعبه ، ولكن الرجل السلم لرجل ، هو مستريح ، وكذلك التوحيد ، لقد جاء الحق سبحانه بمثل من واقعنا ليقرب لنا حلاوة التوحيد . إن العبد المؤمن بإله واحد يحمد الله لأنه خاضع لإله واحد . إذن فما دام الإسلام هو الخضوع والاستسلام ومعناه الدخول فى السلم بكسر السين ـ أو الدخول فى السلم ـ بفتح السين ـ يقول الحق :

﴿ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ ﴾

(سورة الأنفال)

هذا الخضوع ليس لمساو ، بل لأعلى . والأعلى الذى نخضع له هو الذى خلق ، وهو الأعلى الذى أمدنا بقيوميته بكل شىء . إذن فإذا أسلم الإنسان ، فإن هذا الإسلام له ثمن هو المثوبة من الله . إن من مصلحة الإنسان أن يسلم . « إن الدين عند الله الإسلام » ومادام الدين المعترف به عند الله هو الإسلام فهو الدين الذى يترتب عليه الثواب والإسلام هو دين الرسل جميعا ، وكلهم قد آمن به ؛ فإبراهيم خليل الرحمن قد قال :

﴿ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ ﴾

(سورة البقرة)

ويعقوب عليه السلام يخبر الحق عنه فى قوله لبنيه وإجابتهم له :

﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ ﴾

(سورة البقرة)

ويقول ـ جل شأنه ـ :

﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

إذن فالإسلام دين شائع ، والمسلمون كلمة شائعة فى الأديان ، وبذلك لا يقف الإسلام عند رسالة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام فقط،إنما الإسلام خضوع من مخلوق لإله فى منهج جاء به رسل مؤيدون بالمعجزات ، إلّا أن الإسلام بالنسبة لهذه الرسالات كان وصفا ، لكن أمة محمد صلى الله عليه وسلم تميزت بديمومة الوصف لدينها كما كان لأمم الرسل السابقة ، وصار الإسلام ـ أيضا ـ علما لأمة محمد صلى الله عليه وسلم ، لأن رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم تضمنت منتهى ما يوجد من إسلام فى الأرض ، فلم يعد هناك مزيد عليها ، وانفردت أمة رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن صار الإسلام علما عليها .

إذن فالإسلام فى الأمم السابقة كان وصفا ، وأما بالنسبة لرسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد صار علما لأنه لم يأت بعدها دين ، فإسلامها إسلام عالمى، ولذلك فنحن بهذا الدين نقول : « نحن مسلمون » أما أصحاب الديانات الأخرى فهم أيضا مسلمون لكن بالوصف فقط . نحن الذين نتبع الدين الخاتم سمانا الله فى كتابه المسلمين فهذا من إعجازات التسمية التى وافق فيها خليل الله إبراهيم عليه السلام مراد ربه :

﴿ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُواْ

﴿بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾

(سورة الحج)

لقد صار الإسلام اسما لأمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا يُطلق هذا الوصف اسما إلا على من بالغ فى التسليم . كيف ؟ نحن نعلم أن لفظ « الله » علم لواجب الوجود ، ونعلم أن « حى » صفة من صفات واجب الوجود . ونعلم أن « قادر » صفة من صفات الله سبحانه وتعالى . ولكن صارت كلمة « حى » اسما من أسماء الله ، لأن الله حى حياة كاملة أزلية . إذن لا تكون الصفة اسما إلا إذا أخذ الوصف فيها الديمومة والإطلاق . وعلى هذا القياس يكون الرسل السابقون على محمد صلى الله عليه وسلم ، والأمم السابقة على أمة الإسلام ، كانوا مسلمين ، وكانوا أمما مسلمة بالوصف ، ولكن أمة محمد صلى الله عليه وسلم تميزت بالإسلام وصفا وعَلَما ، فصار الأمر بالنسبة إليها اسما ، ونظرا لأنه لن يأتى شىء بعدها ، لذلك صار إسلام أمة رسول الله « علما » . ولقد بشر سيدنا إبراهيم عليه السلام بهذا الأمر :

﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾

(من الآية ٧٨ من سورة الحج)

إن الحق قد أورد على لسان سيدنا إبراهيم بالوضوح الكامل « هو سماكم المسلمين » ولم يقل الحق : « هو وصفكم بالمسلمين » . لا ، إنما قال : « هو سماكم المسلمين » ، لأن الأمم السابقة موصوفة بالإسلام وأما أمة رسول الله صلى الله عليه وسلم فهى مسماة بالإسلام . وتجد من إعجازات التسمية ، أننا نجد لأتباع الأديان الأخرى أسماء أخرى غير الإسلام ، فاليهود يسمون أنفسهم باليهود نسبة لـ « يوها » . ويقولون عن أنفسهم : « موسويون » نسبة إلى موسى عليه السلام . والمسيحيون يسمون أنفسهم بذلك نسبة إلى المسيح عيسى بن مريم . ولم نقل نحن أمة رسول الله عن أنفسنا : « إننا محمديون » . لقد قلنا عن أنفسنا : « نحن مسلمون » . ولم تأت على لسان أحد قط إلا هذه التسمية لأمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصار اسم الإسلام لنا شرفا . إذن ، فقول الله الحق : « إن الدين عند الله الإسلام » يعنى أنه ، إن جاز أن يكون لرسول أو لأتباع رسول وصف

الإسلام فقد يجيء رسول بشيء جديد لم يكن عند الأمم السابقة فنزيده نحن بالتسليم ، وبزيادتنا ـ نحن المسلمين ـ بهذا التسليم خُتِمَ التسليم بنا نحن أمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولذا صار الإسلام لا يُطلق إلا علينا .

إن الحق سبحانه وتعالى يوضح لنا أن الذين أوتوا الكتاب قد اختلفوا من بعد ما جاءهم العلم . ولماذا اختلفوا ؟ جاءت الإجابة من الحق . الأعلى : (بغيا بينهم) وكلمة الاختلاف هذه توحى أن هناك شيئا متفقا عليه ، ومادام الإسلام هو خضوعا لمنهج الله . لأنه إله واحد وقائم بالقسط ، فمن أين يوجد الاختلاف ؟ وما الذى زاد حتى يوجد اختلاف ؟ أبرز إلهٌ آخر يناقض الله فى ملكه ؟ لا لم يحدث . ومادام الإله واحدا ، ومادام المنهج القادم من عنده منهجا واحدا ، فمن أين جاء هذا الاختلاف ؟

إن الحق يوضح لنا أن الاختلاف قد جاء للذين أوتوا الكتاب من بعد ما جاءهم العلم وتلك هى النكاية ، وذلك هو الشر ، فلو كانوا قد اختلفوا من قبل أن يأتى إليهم العلم لقلنا : « إنهم معذورون فى الاختلاف » . ولكن أن يحدث الاختلاف من بعد أن جاء العلم من الإله الواحد القائم بالقسط فلنا أن نقول لهم : ما الذى جَدَّ لتختلفوا ؟ إن الذى جَدَّ هو من عالم الأغيار ، ومادام الجديد قد جاء إليهم من عالم الأغيار ، فمعنى ذلك أن هوى النفس قد دخل ، ونريد أن نعرف أولا . معنى الاختلاف ، الاختلاف فى حقيقته هو ذهاب نفس إلى غير ما ذهبت إليه نفس أخرى .

ولماذا حدث الاختلاف هنا رغم أن الإله واحد ، وهو قائم بالقسط ؟ لابد لنا أن نستنتج أن شيئا جديدا قد نبت ، ما هو هذا الشيء ؟ إنه الهوى المختلف ، وحينما يقال : « اختلفوا » فنحن نعلم أن جماعة قد ذهبت إلى شيء وجماعة أخرى ذهبت إلى شيء آخر . وقد نستنتج أن طرفا قد ذهب إلى حق ، وأن الطرف الآخر قد ذهب إلى باطل ، أو أنهم جميعا قد ذهبوا إلى باطل . والذهاب إلى الباطل قد يختلف ، لأن كل باطل له لون مختلف . هل أراد الحق سبحانه وتعالى أن يقول : أنا أنزلت الأديان، ومن رحمتى بخلقى تركت بعضا من الناس يحتفظون بالحق فى ذاته وإن طرأ عليهم أناس يختلفون معهم . وتجد المثال لذلك فى اليهود ، عندما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم . لقد اختلفوا ، وأسلم منهم أناس وآمنوا برسالة النبى الخاتم ، بينما

الآخرون لم يسلموا ، ومن أسلم هم الذين كانوا على الحق ، ومن رحمة الله تعالى أنه جعل الذين علموا برسالة رسول الله أن يعلنوا البشارة فى كتبهم ولم يكتموا ذلك العلم بل أعلنوا الإيمان ، بينما أصر البعض الآخر على كتمان ما جاءهم من العلم وأصروا على الإنكار . إن الذين أسلموا هم الذين ينطبق عليهم قول الشاعر :

إن الذى جعل الحقيقة علقما
لم يخل من أهل الحقيقة جيلا

وإذا كان الله قد عصم الأجيال المتتالية من أمة الإسلام بأن حفظ لنا القرآن . ففى الأديان الأخرى كان هناك أناس من أهل الحقيقة ، وأنصفهم الله :

﴿ لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

لقد أنصفهم الله حق الإنصاف ، والذين آمنوا برسول الله من أتباع تلك الديانات قد اهتدوا إلى الحق ، واختلفوا مع غيرهم وقول الحق : « أوتوا الكتاب » هذا القول يقتضى أن نقف عند « أوتوا » ونقف عند « الكتاب » وقفة أخرى ، إن قول الحق « أوتوا » أى أن شيئا قد جاء إليهم من جهة أخرى . إذن فالكتاب ليس من أفكار البشر ؛ لأن المنهج لو كان من أفكار البشر لكان من الممكن أن يختلفوا فيه أو حوله ، وبناء « أوتوا » للمفعول يجعلنا نسأل : من الذى آتاهم الكتاب ؟ إنه الله سبحانه وتعالى ، والحق سبحانه وتعالى لا يأتى بمختلف فيه .

ومادام الكتاب من عند الله فلا يمكن أن يوجد فيه خلاف . يقول الحق :

﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾

(من الآية ٨٢ من سورة النساء)

وكأن الله ينبهنا بذلك القول إلى أن كل شيء ينبت من البشر للبشر ، فلابد أن تحدث فيه خلافات . إنما الشيء عندما يأتى من الواحد الأحد لا يمكن أن يحدث فيه خلاف أبدا . لا يمكن أن يحدث خلاف فيما اتحد فيه المصدر والمنبع إلا إن وجدت ـ بضم الواو وكسر الجيم ـ أشياء زائدة عن ذلك ، وهذه الأشياء الزائدة هى أهواء الذين يقولون : إنهم منسوبون إلى الله .

إذن فالحق سبحانه وتعالى يوضح لنا أن الكتاب لم يأت إليهم من بشر مثلهم ، إنما من إله واحد قادر، وفى هذا تنبيه لأتباع الديانات السابقة. أى إنكم أيها الأتباع لا تتبعون إلا منهج الله ، وحين تتبعون منهج الله الذى جاء به الرسل فأنتم لا تتبعون أحدا من الخلق ، لأن أى رسول أرسل إليكم إنما جاء ليبلغكم بمنهج قادم من ربكم ، ولم يقل لكم أحد من الرسل إن المنهج قادم من عنده والرسول يحمل نفسه على الطاعة والخضوع للمنهج المنزل عليه قبلكم ، وهذه عزة لكم ، ولينتبه جميع الخلق أن المنهج الحق دائما قد أخذه الرسل من الله .

وحين يقول الحق : « الكتاب » فلنا أن نعرف أن كلمة « الكتاب » قد وردت فى القرآن الكريم فى أكثرمن موضع ، إن الحق سبحانه وتعالى يسمى القرآن مرة « قرآنا » لأنه يُقرأ ، ويسميه الحق أيضا « الكتاب » وذلك دليل على أنه يُكتب ، وحين نقول : إن القرآن من (القراءة) فهذا يعنى أن نبرز ما فى الصدور بالقراءة ولكن ما فى الصدور قد تلويه الأهواء ، لذلك يحرس الحق قرآنه بما فى السطور ولذلك فالقرآن مقروء ومكتوب .

وعندما يقول الحق (من أهل الكتاب) ، فإن ذلك تنبيه لنا أن الكتاب هو منهج مكتوب ، أى لم يتم وضعه فى الصدور ونسيته النفوس ، لا ، إنه منهج مكتوب ، هكذا حدد الحق أمر المنهج السابق على القرآن ، إنه مكتوب ، فإن لعبت أهواء النفوس كما لعبت ، فإن ذلك يعنى تحريف الكلم عن مواضعه . ولنا أن ننتقل الآن إلى معرفة « العلم » : ما هو العلم ؟ إن العلم هو أن تدرك قضية وهذه القضية واقعة فى الوجود تستطيع أن تقيم الدليل عليها ، وغير ذلك من القضايا لا يصل إلى مرتبة العلم لأنه لا يستطيع أحد أن يدلل عليه .

مثال ذلك : نحن نقول : « الأرض كروية » إن كروية الأرض هى نسبة

حدثت ، ونقولها ونحن جازمون بها . والسابقون لنا فى عصور سابقة قال بعضهم : « إن الأرض مسطحة » ، وحاول أن يجد من الأسباب ما يقيم الدليل على ذلك ، ولكن الذين أقاموا الدليل على أن الأرض كروية كانوا صادقين بالفعل . وفى العصر الحديث صارت كروية الأرض أمرا مرئيا من سفن الفضاء ، وغيرها من الوسائل ، ونحن نعرف أنه « ليس مع العين أين » إن الكروية بالنسبة للأرض ، هى نسبة ، نقولها ونجزم بها ، والواقع أنها كذلك ، ونستطيع أن نقيم على ذلك الدليل .

هذا هو العلم المستوفى ، إن فساد الناس أنهم يأتون إلى قضية لم تصل إلى هذه المرتبة ويسمونها « علما » كقولهم : إن الإنسان أصله قرد ، لا ، إن أحدا لا يستطيع الجزم بذلك ، وتلك قضية ليست من العلم ، إن كلمة « علم » تُطلق على القضية المجزوم بها ؛ وهى واقعة فى الوجود ، ونستطيع أن ندلل عليها ، وإذا كانت القضية مجزوما بها ؛ وواقعة فى الوجود ، ولكنك لا تستطيع أن تدلل عليها ، فماذا تسمى هذه القضية ؟ هذا ما يطلق عليه « تقليد » تماما كما يقلد الولد أباه قبل أن ينضج عقله فيقول : « لا إله إلا الله ، الله واحد » . ومثلما يأخذ التلميذ عن أستاذه القضية العلمية ، ولا يعرف كيفية إقامة الدليل عليها ، فهذا نطلق عليه « تقليدا » ، وإلى أن ينضج عقل التلميذ ويحسن استيعابه نقول له : ابحث بحثا آخر لتقيم الدليل .

إذن فالتقليد هو قضية مجزوم بها ، وواقعة ، ولا يوجد عليها دليل . وهكذا نعرف أن « العلم » يمتاز عن التقليد بوجود القدرة على التدليل ، لكن إذا ما كانت هناك قضية ومجزوم بها ولكنها ليست واقعة ، فماذا نسمى ذلك ؟ إن هذا هو الجهل . إن الجهل لا يعنى عدم علم الإنسان ، ولكن الجهل يعنى أن يعلم الإنسان قضية مخالفة للواقع ومناقضة له . أما الذى لا يعلم فهو أمىّ يحتاج إلى معرفة الحكم الصحيح ، فالجاهل أمره يختلف ، إنه يحتاج منا أن نخرج من ذهنه الحكم الباطل ؛ ونضع فى يقينه الحكم الصحيح ، وهكذا تكون عملية إقناع الجاهل بالحكم الصحيح هى عملية مركبة من أمرين ، إخراج الباطل من ذهنه ، ووضع الحكم الصحيح فى يقينه .

ولذلك فنحن نجد أن تعب الناس يتأتى من الجهلاء ، لا من الأميين ؛ لأن الجاهل هو الذى يجزم بقضية مخالفة للواقع ومناقضة له ، أما الأمىّ فهو لا يعرف ، ويحتاج

إلى أن يعرف . وماذا يكون الأمر حين تكون القضية غير مجزوم بها ، وتكون نسبة عدم الجزم ، مساوية للجزم ؟ هنا نقول : إن هذا الأمر هو الشك ، وإن رجح أمر الجزم على عدم الجزم فهذا هو الظن ، وإن رجح عدم الجزم يكون ذلك هو الوهم .

إذن فوسائل إدراك القضايا هى كالآتى : أولا : علم . ثانيا : تقليد . ثالثا : جهل . رابعا : شك . خامسا : ظن . سادسا : وهم . والعلم هو أعلى المستويات فى إدراك القضايا . ولذلك نجد أن الحق يحدد لنا على ماذا اختلف الذين أوتوا الكتاب ، لقد اختلفوا من بعد ما جاءهم العلم . ولم يقل الحق : إنهم اختلفوا بعد ما جاءهم التقليد أو الظن ، أو الجهل أو الشك ، إنما قال الحق : إنهم قد اختلفوا من بعد ما جاءهم الاستيفاء الكامل ، وهو العلم . ومادام هناك أمر قد جاء من القائم بالقسط والإله الواحد ، فالمسألة القادمة منه وهى الحق قد وصلت إلى مرتبة العلم .

إذن ، ففيم الاختلاف ؟ لابد أن أمرا ما قد جدّ . والذى يجدُّ إنما هو قادم من الأغيار ، وهى الأهواء ، ولذلك يحدد لنا الحق هذا الأمر بقوله : « بغيا بينهم » . ما البغى ؟ البغى هو طلب الاستعلاء بغير حق . إذن فطلب الاستعلاء ليس ممقوتا فى ذاته ، لأن طلب الاستعلاء هو قضية الطموح فى الكون . وأن يطلب إنسان الرفعة فيجد ويجتهد ، ويبذل العرق ليصل إلى مكانة علمية أو غيرها ، فهذا حق طبيعى ، ونحن نعرف أن العالم قد ارتقى بالطموحات الإنسانية ، إن العالم لو اكتفى وثبت عند الذى وصل إليه فى جيل ما ، فإن العالم يحكم على نفسه بالجمود . ولكن الناس طورت فى العالم الذى تحياه بجهد بذله البعض منهم فى قضايا نافعة ، ثم حاولوا أن يرتقوا بها ونالوا حقهم من التقدير ، وارتفعوا بالعلم بجهد حقيقى بذلوه ، وبدراسة لما بذله السابقون عليهم .

إذن فطلب الاستعلاء فى حد ذاته غير ممقوت ، بل محمود مادام قائما على الجهد . لكن أن يطلب الإنسان الاستعلاء بغير حق ، فهذا هو البغى . لقد أثبت الله لنا فى هذه الآية ، أن كل خلاف بين رجال دين ، أو بين دين ودين ، إنما مرجعه إلى نشوء البغى ، ونشوء البغى هو طلب رجال دين الاستعلاء بغير حق . ومظاهر طلب الاستعلاء بغير حق هو إعطاء الفتاوى التى توافق أمزجة القوم ، وتخالف ما أنزله الحق .

إن الواحد من هؤلاء يدعى لنفسه التحضر ، ويعطى من الفتاوى ما يناقض الذى أنزله الله ، ويدعى أنه يأخذ الدين بروح العصر ، ويدعى لنفسه عدم الجمود ، ويذهب إلى حد اتهام المتمسكين بدينهم بأنهم متخلفون ، والهدف الذى يختبىء فى صدر مثل هذا الإنسان هو الاستعلاء فى قومه بغير الحق ، ويجب أن نفهم أن كل خلاف بين أهل دين واحد ، أو بين دين ودين ، منبعه قول الحق : « بغيا بينهم » . وهذا يعنى اتباع البعض للهوى النابع من بينهم ولم ينزله الله .

لماذا ؟ لأن الله سبحانه وتعالى إمّا أن ينزل حكما محكما لا رأى فيه لأحد ، ولا يستطيع أحد أن ينقضه ، وإما أن ينزل الله حكما قابلا للفهم والاجتهاد . ولم يجعل الله الأحكام كلها من لون واحد ، إنما جعل الأحكام على لونين ، وذلك حتى يحترم الإنسان ما وهبه الخالق له من عقل ، ويجعل له مهمة ، فيأتى بقضية ويبحثها ويرجح سببا على سبب . وفى ذلك استخدام من الإنسان لعقله ، إنها رحمة من الله حتى لا يجمد العقل الإنسانى .

إذن فإذا رأيت أى خلاف بين رجال دين أو بين دين ودين فاعلم أن القول الفصل فى هذا الأمر هو ما عبر عنه القرآن : « بغيا بينهم » فمن البغى يهب الهوى الذى تنشأ منه الأعاصير ، إن من يحب الاستعلاء بغير الحق هو الذى يحاول البغى فيدعى لنفسه أنه أرقى فى الفكر ، أو يستعلى عند من يملكون له أمرا ، أو يستعلى عندما يوافق حاكما فى رأى من الآراء ، ويبرر للحاكم حكما من الأحكام .

إن كلمة « بغيا بينهم » يدخل فى نطاقها كل موجات الخروج عن منهج الله ، والتى نراها فى الكون ، والرسول صلى الله عليه وسلم قد أعطانا المناعة ضد الأمراض النفسية الناشئة عن البغى ، مثلما يعطى المعاصرون المصل ضد أمراض البدن التى تفتك بالإنسان ، وحتى لا تفاجئنا أمراض البغى ، نجد الرسول يعطينا المناعة

فيقول لنا صلى الله عليه وسلم : (البر حسن الخلق ، والإثم ما حاك فى صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس)[1] .

ويحذرنا الرسول صلى الله عليه وسلم من ذلك كما فى الحديث التالى :

---

(١) رواه البخارى فى الأدب المفرد ومسلم والترمذى .

فيقول صلى الله عليه وسلم : (البر ما سكنت إليه النفس واطمأن إليه القلب ، والإثم ما لم تسكن إليه النفس ولم يطمئن إليه القلب وإن أفتاك المفتون)[١] .

إن الرسول صلى الله عليه وسلم يحذرنا ليوضح لنا أن أهل البغى لهم لجاج فى أن يقولوا ويصدروا الفتاوى ، وما معنى الإفتاء الذى يحذرنا منه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ هل هو مجرد رأى ؟ أم هو رأى يأتى من إنسان معروف عنه أنه مشتغل بعلم الله وبالأحكام ؟ إن الرسول صلى الله عليه وسلم ينبهنا إلى ذلك مناعة لنا . فقد يصبح أصحاب الحق قلة ، وليس لهم نصيب فى إيصال رأيهم للناس ، أو أن الذين يملكون الكلمة الإعلامية ليسوا مع أصحاب الحق بل فى جانب رجل يساير الباطل أو الركب .

وهنا نرى أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد أعطانا المناعة حتى لا ييأس المتمسكون بالحق ، فأمر الدين لن يمر رخاء ، أو بسلام دائم ، بل سنجد قوما يفسرون أحكام الدين بغيا بينهم ، ويلوون الأشياء ، لذلك أوضح لنا أن المؤمن حَكَمٌ فى نفسه ، ويحذرنا من الذين يفتون بالبغى ، إن الافتاء يحتاجه الناس من الذى يعلم ، ولذلك جاءت كلمة « يستفتونك » أكثر من مرة فى القرآن الكريم ، لأن الذين يطلبون الفتوى هم الذين يحتاجون إلى توضيح لأمر ما ، لأنهم مشغولون بقضية الإيمان ، ولذلك فالنبى صلى الله عليه وسلم يحذرنا من الذين يحاولون إلقاء الفتاوى ، ويحذر كل مؤمن من أن يستمع لكل فتوى .

ويقول الحق : « ومن يكفر بآيات الله » . إذن فمن هو الذى يكفر بآيات الله ؟ وفى أى مجال ؟ إن الكفر بآيات الله هنا محدد فى الاختلاف ، وفى البغى بينهم ، أى طلب الاستعلاء بغير حق ، وسمى الحق كل ذلك « كفرا » والمراد منه هنا التنبيه لنا ألا نستر أحكام الله بالاختلاف أو البغى ، وجاء التحذير فى تذييل الآية بقوله : « فإن الله سريع الحساب » . فإياك أن تستطيل أمر الجزاء وتقول : سأستمتع بنتيجة البغى والاختلاف لخدمة من يهمهم أمر الاختلاف ، ويهمهم أمر البغى ، لأنك تريد أن تتعجل أشياء تظن أنها نافعة لك ، لكن ها هو ذا الحق سبحانه يحذرك أن تستبطىء حسابه ، لماذا ؟ لأنه من الجائز أن يأتى لك الحساب من الله فى الدنيا ،

---

(١) رواه أحمد .

وهب أن الله لم يبتل مثل هذا الإنسان ببلاء كبير فى الدنيا فإن هذا الإنسان سيكون له الحساب العسير فى الآخرة .

وقد يقول قائل : إن الحساب فى الدنيا قد يؤجله الله إلى الآخرة ، والعلامات الصغرى للقيامة نحن فى مراحلها ، ومازالت العلامات الكبرى ليوم القيامة لم تظهر . لمثل هذا القائل نقول : هناك فرق بين الحدث فى ذاته ، وبين الحدث فيمن يُجرى عليه الحدث . هناك فرق بين أن تقوم القيامة على الناس جميعا ، وبين أن تُختصر حياة الإنسان بحادثة ليست فى حسبانه ، فقد يفتى الإنسان فتوى اليوم ، وتأتى له حادثة فورية تنقله فجأة إلى سريع الحساب ، فإن استبطأ إنسان الحساب ، فعليه أن يعرف أن الآخرة قد تجىء له أسرع من مسائل الدنيا ، لأن الإنسان لا يملك القدرة على إطالة عمره ، ومفتاح العمر عند الخالق الأكرم ، وهو الذى يملك القدرة على أن ينقل إليه من يريد فى أى وقت . وهكذا تكون الآخرة بالنسبة للمستبطىء للحساب أسرع من حساب الدنيا ، وكلمة « حساب » كلمة تطمئن المؤمن إلى أن الله قائم بالقسط لا يتخلى حتى عمن كفر به أو عصاه ، إن كل إنسان يأخذ ماله ويدفع ما عليه ، ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ ﴾

« فإن حاجوك » هذا القول يدل على أن الحق سبحانه وتعالى يلقى منهجه على الرسول الخاتم ، ويعطيه الواقع الذى يحيا فيه ، لقد جابه الرسول صلى الله عليه وسلم ثلاثة معسكرات . المعسكر الأول : هم مشركو قريش ، وكان كفرهم فى القمة . والمعسكر الثانى : هو معسكر اليهود والنصارى ويجمعهم معا لأنهم أهل كتاب . والمعسكر الثالث : هو معسكر المنافقين . والمحاجّة قد أتت من المعسكر

الثانى ، لأن كفار قريش لم يدعوا أن عندهم دينا قد نزل من السماء ، أما أهل الكتاب فهم يدعون أن عندهم دينا منزلا من السماء ، وعندما يناطح الشرك دينا فهذا أمر معقول ، أما أن يناطح أهل دين نزل من السماء رسولا جاء بدين خاتم من السماء فهذا أمر يستحق أن نتوقف عنده .

ومعنى « فإن حاجوك » أى أنهم يحاججون الرسول صلى الله عليه وسلم وتم إدغام الحرفين المتشابهين وهما حرفا « الجيم » حتى لا تصبح ثقيلة على اللسان . ومعنى المحاجة : أن يدلى كل واحد من الخصمين بحجته . وهذا يعنى النقاش ، ومادام هناك نقاش بين حق وبين باطل ، فإن الله لا يترك الرسول صلى الله عليه وسلم ، بل يقول له : « فإن حاجوك » أى إن ناقشوك فى أمر الإسلام الذى جئت به كدين خاتم مناقض لوثنية أو شرك قريش ومناقض لما قام أهل الكتاب بتغييره من مراد الله فقل يا محمد : « أسلمت وجهى لله » وقد قلنا من قبل : إننا عندما نسمع قول الحق : « فقل » كان من الجائز أن يكتفى رسول الله صلى الله عليه وسلم بمقول القول ، وضربنا مثلا على ذلك ، حين يقول الأب لابنه : اذهب إلى عمك وقل له : كذا وكذا . وساعة أن يذهب الابن إلى العم فيقول له : الأمر كذا ، وكذا . إن الابن لا يقول لعمه : قل لعمك كذا وكذا . . لكن الرسول صلى الله عليه وسلم قد حافظ على النص الذى جاءه من ربه لأن النص واضح . « فإن حاجوك فقل أسلمت وجهى لله » فهل هذا رد بالحجة ؟ نعم هذا هو الرد ، لأن أهل الكتاب وكفار قريش يأتى فيهم القول :

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾ ﴾

(سورة الزخرف)

ويأتى فيهم القول الحكيم :

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾

(سورة الزخرف)

والكون كما نعرف « مكان » و« مكين » فالمكان : هو السماء والأرض . والمكين وهو الإنسان . والمكان مخلوق لله ، والمكين مخلوق لله . وكان من المنطق

أن نسلم وجهنا لمن خلق .

إذن فقول الحق : « فقل أسلمت وجهى لله » أى انتبهوا أيها الناس ، إننى لم أخرج عن دائرة الإيمان بالإله الواحد ، الذى تؤمنون به . إنه هو الذى خلق وهو الذى أوجد الكون . وبعد ذلك إذا كان فى الإسلام خضوع ، فإن الحق يأتى بأشرف شىء فى الإنسان ليجعله مظهر الخضوع . لأن الوجه هو السمة العالية المميزة ، وهو الذى يظهر عليه انفعالات الأحداث فى الكون من سرور أو حزن ، ويظهر عليه أنك قد تكون قد سجدت وأنت كاره للسجود ، أو سجدت وأنت مقرب لله سبحانه وتعالى فيمتلىء الوجه بالبشر والبشاشة .

وقول الحق : « أسلمت وجهى لله » . تعنى أن الوجه المسلم لله وهو أشرف شىء فى الإنسان قد خضع للحق ، وكأن القول الكريم لم ينسب الخضوع للبدن ولكن لأشرف شىء فى الإنسان وهو الوجه ، والوجه يطلق مرة ويراد به الذات كلها ، فعندما يقول إنسان : « أسلمت وجهى » فهو يعنى « أسلمت ذاتى » بكل ما أوتيت الذات من جوارح ومن أعضاء . ولنقرأ قول الحق سبحانه :

﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾

(من الآية ٨٨ من سورة القصص)

أى كل شىء هالك إلا ذاته سبحانه وتعالى ، هذا هو المقصود بـ « إلا وجهه » وإلا إن أخذنا الوجه على أنه الوجه فقط فقد يقول قائل : أليس لله يد مثلا ؟ ونقول : إن له يدا فى نطاق ليس كمثله شىء ، ولذلك فلا يد الله تهلك ولا أى شىء فيه يهلك ، ووجهه يعْنى ذاته فى نطاق ليس كمثله شىء . وأطلق الوجه على الذات ، لأن الوجه هو المشخص للذات ، فلا يستطيع أحد أن يميز أعضاء بدن عن أعضاء بدن ، إنما التمييز يأتى بسمة الوجه ، لأنها السمة المميزة،وقول الحق فى تلقينه لرسول الله : « فقل أسلمت وجهى لله ومن اتبعن » . تدل على أن الرسول قد أسلم وجهه لله ، لأن الله خاطبه بوساطة الوحى ، والوحى يباشره صلى الله عليه وسلم،ولكن حين يقول : « ومن اتبعن » فقد قام الدليل لمن اتبعنى ، وإن لم يكن مخاطبا من الله مباشرة .

إذن فلا مجال لأن يقول قائل للرسول صلى الله عليه وسلم : أنت أسلمت وجهك لله لأنه خاطبك وحدك ، وكأن صاحب هذا القول يريد خطابا لكل مؤمن ، قال سبحانه : « ومن اتبعن » فمن اتبع الرسول فقد آمن بأن محمدا صلى الله عليه وسلم هو رسول صدق مبلغ عن الله منهج حق ، فلا مجال لطلب البلاغ لكل فرد ؛ لأن البلاغ قد وصل إليهم بالإيمان بما أنزله الله على رسوله الكريم ويأمر الحق سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم « وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم » .

وساعة تقرأ أو تسمع أسلوبا فيه « همزة الاستفهام » فلك أن تعرف أن الاستفهام يُطلب منه أن تُعرف الحقيقة ، كقول إنسان لآخر : أعندك محمد ؟ أو أزارك فلان ؟ إن هذا استفهام المراد به فهم الحقيقة ، ومرة يريد الاستفهام مجرد الأمر بشيء ، كأن يأتيك ضيف وتجلس معه ويدخل عليك والدك فيقول لك : أصنعت قهوة لضيفك ؟ إن ذلك توجيه لك إن كنت لم تقم بواجب الضيافة فعليك أن تسرع فى القيام بهذا الواجب . وعلى ذلك نفهم قول الحق : « أأسلمتم » ولذلك نقرأ قول الحق سبحانه بعد الكلام عن الخمر :

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ ﴾

(سورة المائدة)

إن قول الحق : « فهل أنتم منتهون » يتضمن استفهاما ، والاستفهام هنا يعنى الأمر بالانتهاء . وفى مجال الآية التى نتعرض لها بالخواطر نجد قول الحق : « أأسلمتم » تعنى الدعوة للإسلام ، أى « أسلموا » وجاء بعد ذلك قول الحق الكريم : « فإن أسلموا فقد اهتدوا » ومعنى « اهتدوا » أنهم عرفوا الطريق الموصل للغاية التى خلق الله من أجلها الإنسان . وهنا يجب أن نعلم أن كلمة « الإسلام » هنا جاءت لتدل على الخضوع ، والخضوع لايلمح إلا من خاضع ، وعملية الخضوع تعرف بالحركة والسلوك ، ولا تعرف فقط بالاعتقاد ، ولذلك فالإمام على كرم الله وجهه الذى أوتى شيئا من نفح النبوة فى الأداء الإيمانى بالأسلوب البيانى الجميل قال الإمام علىّ لإخوانه : سأنسب الإسلام نسبا لم ينسبه قبلى أحد : الإسلام هو اليقين ، واليقين هو التصديق ، والتصديق هو الإقرار ، والإقرار هو الأداء ، والأداء

هو العمل ، والمؤمن يُعرف إيمانه بالعمل . ونحن فى حياتنا العادية نسأل : ما نسب فلان ؟

أى أننا نسأل « هو ابن مَن » ؟ ومعنى كلمة « نسابة » عند العرب هو الرجل الذى يعرف سلسلة النسب ، ومَن ابن مَن ، ففلان ابن فلان ابن فلان ، ابن فلان . والإمام علىّ كرم الله وجهه ، حين ينسب الإسلام ينسبه بالفعل إلى نسب لم ينسبه قبله أحد . وحين ينتهى الإمام علىّ كرم الله وجهه إلى أن نسب الإسلام إلى العمل قال :

المؤمن يعرف إيمانه بالعمل ، فالدليل الصحيح على إيمان المؤمن هو عمله . ويضيف الإمام علىّ كرم الله وجهه : والكافر يُعرف كفره بالإنكار ، وإن المؤمن قد أخذ دينه من ربه ، ولم يأخذه برأيه . والسيئة فى الإسلام خير من الحسنة فى غيره ؛ لأن السيئة فى الإسلام تُغفر ، والحسنة فى غيره لا تُقبل ؛ لأن الكفر يصاحبها بالله ، هل هناك نسب للإسلام أروع من هذا ؟ وهكذا نجد القول الكريم : « فإن أسلموا فقد اهتدوا » . والمقابل للإسلام يأتى بعد ذلك : « وإن تولوا فإنما عليك البلاغ » إن المقابل هو « تولوا » أى لم يسلموا ، إنه الحق ينبه رسوله ألا يحزن ، وألا يأسف إن تولوا ، كما جاء فى قوله الكريم :

﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ ﴾

(سورة الكهف)

لماذا ؟ لأن الرسول صلى الله عليه وسلم عليه البلاغ فقط ، ومادام قد جاء فى صدر الآية : « أسلمت وجهى لله ومن اتبعن » فإن البلاغ أيضا يشمل النبى صلى الله عليه وسلم ومن اتبعه ، ولذلك تأتى آية أخرى لتشرح هذه القضية الإيمانية، ولتبقى الرسالة فى أمته صلى الله عليه وسلم ، ولتخبرنا أيضا لماذا لم يعد هناك داع لوجود أنبياء بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ذلك أن المؤمنين برسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم أمناء على أن يعدلوا فساد السلوك فى الكون ، فلم يعد العالم فى حاجة إلى أنبياء جدد،ولهذا السبب قال الرسول : صلى الله عليه وسلم : (العلماء ورثة الأنبياء)[1] .

---

(١) رواه الإمام أحمد فى مسنده وأبو داود والترمذى وصححه ابن حيان والحاكم .

إذن « فعليك البلاغ » نأخذ منها الفهم الواضح أن البلاغ لا تنتهى مهمته عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إنما يشمل كل عالم بالبلاغ الذى وصل إلى رسول الله وآمن به ، فقد كان لهم فى رسول الله أسوة حسنة ، ويوضح الحق ذلك فى آية أخرى :

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

ويقول الحق فى آية أخرى :

﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ۚ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ ۖ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٧٨﴾ ﴾

(سورة الحج)

ومعنى ذلك أنكم تشهدون على الناس أنكم أبلغتموهم رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمن لم يقم بإبلاغ الناس برسالة رسول الله فهو لم يأخذ ميراث النبوة . وميراث النبوة كما يكون شرف تبليغ ، فهو أيضا تجلّد وتحمل ، إن ميراث النبوة يكون مرة هو نيل شرف التبليغ لرسالةً رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومرة أخرى يكون ميراث النبوة هو جلادة التحمل فى سبيل أداء الرسالة ، وجلادة التحمل هى التى يجب أن يتصف بها أتباع محمد صلى الله عليه وسلم ، فكما ورثناه نحن المسلمين فى شرف النبوة فإننا نرثه فى جلادة التحمل ، وهذا هو معنى القول الحق :

﴿ لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ۚ ﴾

(من الآية ٧٨ من سورة الحج)

فما معنى الأسوة إذن ؟ إن الأسوة فى رسول الله صلى الله عليه وسلم تقتضى أنه مادام قد تحمل بجلادة بلاغ الناس فى رسالته ، فعلينا أيضا أن نقتدى به . لقد ناضل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعلى أتباع رسول الله أن يناضلوا فى سبيل نشر الدعوة ، فإن رأيت أهل الدين فى استرخاء وترهل وعدم قدرة على النضال فى سبيل البلاغ عن الله فلتعلم أن هؤلاء القوم لم يأخذوا ميراث النبوة . ولذلك إذا رأيت عالما من علماء الإسلام ليس له أعداء فأعلم أنه قد نقص ميراثه من ميراث الأنبياء .

لماذا ؟ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان له أعداء وكان يواجههم ، فساعة أن ترى رجل دين وله أعداء فاعرف أنه قد أخذ حظه من ميراث الأنبياء ولننظر الآن إلى قول الحق سبحانه تذييلا للآية يوضح لنا ما الإسلام : « والله بصير بالعباد » لم يقل الله : إنه عليم بالعباد ، لأن « عليم » تكون للأمور العقدية ، لقد قال الحق فى وصف ذاته هنا : « إنه بصير بالعباد » ، والبصر لا يأتى إلا ليدرك حركة وسلوكا . فماذا يرى الله من العباد؟ إنه ـ سبحانه ـ يرى العباد المتحركين فى الكون، وهل حركة العبد منهم تطابق الإسلام أولا ؟ ومتابعة الحركة تحتاج إلى البصر ، ولا تحتاج إلى العلم ، وكأن الحق سبحانه وتعالى يقول : إن كنتم تعتقدون أنى لا أراكم ، فالخلل فى إيمانكم ، وإن كنتم تعتقدون أنى أراكم فلمَ جعلتمونى أهون الناظرين إليكم ؟

إذن فقول الحق : « والله بصير بالعباد » نفهم منها أن الإسلام سلوك لا اعتقاد فقط ، لأن الذى يُرى هو الفعل لا المعتقدات الداخلية . ومادام الله بصيرا بكل سكنات الإنسان وحركاته فإن الإنسان يستحى أن يراه ربه على غير ما يحب ، وأضرب هذا المثل للتقريب لا للتشبيه فالحق سبحانه له المثل الأعلى وليس كمثله شىء ، نحن فى حياتنا العادية نجد أن الشاب الذى يدخن يستحى أن يظهر أمام كبار عائلته كمدخن ، فيمتنع عن التدخين أثناء تواجده مع الكبار ، فما بالنا بالعبد وهو يعتقد أن الله يراه ؟ وبعد ذلك يقول الحق :

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾﴾

وقلنا إن الحق حين يقول : « إن الذين يكفرون بآيات الله » هم الذين يكفرون بآيات الله على إطلاقها ، وهناك فرق بين الكفر بآيات الله وبين الكفر بالله . لماذا ؟ لأن الإيمان بالله يتطلب البينات التى تدل على الله ، والبينات الدالة على وجود الله موجودة فى الكون .

إذن فالبينات واضحة ، إن الذى يكفر بالله يكون قبل ذلك كافرا بالأدلة التى تدل على وجود الخالق . إن الحق لم يقل هنا : إن الذين يكفرون بالله ، وذلك حتى يوضح لنا أنّ الحق غيب ، ولكن الآيات البينات ظاهرة فى الكون ، لذلك قال : « إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين » . ولنا أن نلاحظ هنا ، أن كلمة القتل تأتى دائما للنبيين ، أى أنها لا تأتى للذين أخذوا صفة تزيد على مهمة النبى ، وهو الرسول ، فليس من المعقول أن يرسل الله رسولا ليبلغ منهجا لله ، فيُقدر الله خلقه على أن يقتلوا الرسول . لكن الأنبياء يرسلهم الله ليكونوا أسوة سلوكية للمؤمنين ، ولا يأتى الواحد منهم بتشريعات جديدة ، أما الرسول فإن الله يبعثه حاملا لمنهج من الله . وليس من المعقول أن يصطفى الله عبدا من عباده ويستخلصه ليبلغ منهجه ، ويُمكّن الله بعد ذلك بعضا من خلقه أن يقتلوا هذا الرسول .

إن الخلق لا يقدرون على رسول أرسله الله ، لكنهم قد يقدرون على الأنبياء ، وكل واحد من الأنبياء هو أسوة سلوكية ، ولذلك نجد أن كل نبىّ يتعبد على دين الرسول السابق عليه ء فلماذا يقتل الخلق الأسوة السلوكية مادام النبىّ من هؤلاء قد جاء ليكون مجرد أسوة ، ولم يأت بدين جديد ؟ فلو كان النبى من هؤلاء قد جاء بدين جديد ، لقلنا : إن التعصب للدين السابق عليه هو الذى جعلهم يقتلونه ،

لكن النبىّ أسوة فى السلوك ، فلماذا القتل ؟ إن النبى من هؤلاء يؤدى من العبادة ما يجعل القوم يتنبهون إلى أن السلوك الذى يفعله النبىّ لا يأتى وفق أهوائهم .

إن القوم الذين يقتلون النبيين هم القوم الذين لا يوافقون على أن يسلكوا السلوك الإسلامى الذى يعنى إخضاع الجوارح ، والحركة لمنطق الدين ولمنطق الإسلام ، لماذا ؟ لأن النبىّ وهو ملتزم بشرع الرسول السابق عليه ، حينما يلتزم بدين الله بين جماعة من غير الملتزمين يكون سلوكه قد طعن غير الملتزمين .

إن وجود النبىّ الذى يتمسك بشرع الله ، ويخضع جوارحه ، وسلوكه لمنهج الله بين جماعة تدّعى أنها تدين بدين الله ، ولكنها لا تتمسك بمنهج الله تحملهم إلى أن يقولوا : لماذا يفعل النبى هذا السلوك القويم ، ولماذا يخضع جوارحه لمنطق الإيمان ، ونحن غير ملتزمين مثله ؟ وهذا السؤال يثير الغيظ والحقد على النبىّ بين هذه الجماعة غير الملتزمة بدين الله ، وإن أعْلنت فى ظاهر الأمر التزامها بالدين . إنهم يحقدون على النبىّ لأنه يرتفع بسلوكه المسلم ، وهم لا يستطيعون أن يرتفعوا ليكونوا مثله .

إن النبىّ بسلوكه الخاضع لمنهج الله يكون أسوة واضحة جلية يظهر بها الفرق بين مجرد إعلان الإيمان بمنهج الله ، وبين الالتزام السلوكى بمنهج الله ، وتكون أسوة النبىّ مُحَقرة لفعلهم ، ولذلك حين نجد إنسانا ملتزما بدين الله ومنهجه ، فإننا نجد غير الملتزم ينال الملتزم بالسخرية والاستهزاء ، لماذا ؟ لأن غير الملتزم يمتلىء بالغيظ والحقد على الملتزم القادر على إخضاع نفسه لمنهج الله ، ويسأل غير الملتزم نفسه :

لماذا يكون هذا الإنسان قادرا على نفسه مخضعا لها لمنهج الله وأنا غير قادر على ذلك ؟ إن غير الملتزم يحاول إزاحة الملتزم وإبعاده من أمامه . لماذا ؟ لأن غير الملتزم يتضاءل فى نظر نفسه ونظر الآخرين . إذا ما قارن نفسه بالملتزم بمنهج الله ، وعندما يقارن الآخرون بين سلوك الملتزم بمنهج الله وسلوك غير الملتزم بمنهج الله فهم لا يحترمون غير الملتزم ، فيشعر بالصغار النفسى أمام الملتزم وأمام الناس . فيحاول غير الملتزم أن يزيح الملتزم وينحيه عن طريقه ، إن غير الملتزمين بمنهج الله يسخرون ويتغامزون على الملتزمين بمنهج الله ، كما يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾

(سورة المطففين)

ألا توضح لنا تلك الآيات البينات ما يقوله غير الملتزمين فى بعض مجتمعاتنا للملتزمين بمنهج الله ؟ ألا نسمع قول غير الملتزمين للملتزم بمنهج الله : « خذنا على جناحك » ؟ إن هؤلاء غير الملتزمين ينطبق عليهم قول الحق :

﴿ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ ﴾

(سورة المطففين)

إن غير الملتزمين قد يفرح الواحد منهم ، لأنه استطاع السخرية من مؤمن ملتزم بالله . وقد يتهم غيرُ الملتزمين إنسانا ملتزما بأن الالتزام ضلال . والحق سبحانه وتعالى يرد على هذا الاتهام بالقول الكريم :

﴿ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾

(سورة المطففين)

الحق يرد على الساخرين من الملتزمين بمنهج الله ، فيضحك الذين آمنوا يوم القيامة من الكفار ، ويتساءل الحق بجلال قدرته وتمام جبروته :

﴿ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

(سورة المطففين)

هكذا ينال غير الملتزمين عقابهم ، فماذا عن الذين يقتلون النبيين بغير حق ؟ إن لنا أن نسأل : لماذا وصف الله قتل النبيين بأنه « بغير حق » ، وهل هناك قتل لنبىّ بحق ؟ لا يمكن أن يكون هناك قتل لنبىّ بحق ، وإذا كان الله قد قال : « ويقتلون النبيين بغير حق » هذا القول الكريم قد أتى ليوضح واقعا ، إنه سبحانه يقول بعد ذلك فى سلسلة أعمال هؤلاء الذين يقتلون النبيين بغير حق : « ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس » إنهم لم يكتفوا بقتل النبيين ، بل يقتلون أيضا من يدافع من المؤمنين عن هذا النبىّ كيف ؟ لأنه ساعة يُقتل نبىّ ، فالذين التزموا بمنهج النبىّ ، وكانوا معه لابد لهم أن يغضبوا ويحزنوا .

إن أتباع النبىّ ينفعلون بحدث قتل النبىّ ، فإن استطاعوا منع ذلك القتل لفعلوا وإن لم يستطع أتباع النبىّ منع قتل النبىّ فلا أقل من أن يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر ، لكن القتلة يتجاوز طغيانهم فلا يقتلون النبيين فقط فإذا قال لهم منكر لتصرفهم : ولماذا تقتلون النبيين ؟ فإنهم يقتلونه أيضا ، وبالنسبة لرسولنا محمد صلى الله عليه وسلم ، نحن نعرف أن أعداءه قد صنعوا معه أشياء أرادوا بها اغتياله ، وذلك يدل على غباء الذين فكروا فى ذلك الاغتيال .

لماذا ؟ لأنهم لم ينظروا إلى وضعه صلى الله عليه وسلم ، فلم يكن نبيا فقط ، ولكنه رسول أيضا . ومادام رسولا فهو أسوة وحامل لمنهج فى آن واحد ، فلو كان محمد صلى الله عليه وسلمه نبيا فقط لكان فى استطاعتهم أن يقتلوه كما قتلوا النبيين من قبل ، لكنه رسول من عند الله ، ولقد رأوه يحمل منهجا جديدا ، وهذا المنهج يسفه أحلامهم ، ويوضح أكاذيبهم ، من تبديلهم للكتب المنزلة عليهم .

إذن ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم رسولا يحمل رسالة ومنهجا ، وحينما أرادوا أن يقتلوه كنبىّ ، غفلوا عن كونه رسولا . ولذلك قال الحق مطمئنا لنا ومحدثا رسوله صلى الله عليه وسلم :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾

(سورة المائدة)

الرسول الكريم إذن حامل رسالة ومعصوم بالله من أعدائه ، والحق سبحانه وتعالى قد حكى عن الذين يقتلون الأنبياء ، وأراد أن يطمئن المؤمنين ، ويطمئن الرسول على نفسه ، وأن يعرف خصوم رسول الله أنه لا سبيل إلى قتله ، فيقول الحق :

﴿ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾

(من الآية ٩١ من سورة البقرة)

ولماذا يأتى الله بـ « من قبل » هذه ؟ إنه يوضح لنا وللرسول ولأعداء محمد صلى الله عليه وسلم أن مسألة قتل الأنبياء كان من الممكن حدوثها قبل رسول الله ، لكن هذه المسألة صارت منتهية ، ولا يجرؤ أحد أن يمارسها مع محمد رسول الله ، وبذلك طمأن الحق المؤمنين ، وطمأن رسول الله بأن أحدا لن يناله بأذى ، ولذلك قال الحق :

﴿ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾

(من الآية ٦٧ من سورة المائدة)

وأيأس الحق الذين يريدون قتل رسول الله فقد قال لهم :

﴿ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ ﴾

(من الآية ٩١ من سورة البقرة)

ولو أن المسألة مسألة نبوة ، ورسالة رسول الله غير داخلة فى مواجيدهم ، وكان إنكارهم لرسالته عنادا ، لكانوا قد قالوا : « إن مسألة قتل الأنبياء لا تتوقف عند « من قبل » لأننا سنجعلها « من بعد » أيضا ، ولكانوا قد كتلوا قواهم وقتلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لكن الله سبحانه أيأسهم وقنطهم من ذلك ، وذلك من مناط قدرة الله . وإذا كان الحق سبحانه وتعالى يحكى عن أمر فى قتل الأنبياء ، وقتل الذين يأمرون بالقسط ، أكان ذلك معاصرا لقول الرسول هذا ؟ أو كان هذا الكلام لمن ؟ إنه موجه لبعض من أهل الكتاب ، إنه موجه لمن آمنوا باتباع الذين قتلوا النبيين من قبل ، وقتلوا الذين يأمرون بالقسط ، لقد آمنوا كإيمان السابقين لهم من قتلة الأنبياء ، وقتلهم للذين يأمرون بالقسط .

وهذا تقريع لهؤلاء الذين اتبعوا فى الإيمان قوما قتلوا الأنبياء من قبل ، وقتلوا الذين يأمرون بالقسط ، إنه تقريع وتساؤل . كيف تؤمنون كإيمان الذين قتلوا الأنبياء؟ وكيف تتبعون من فعل مثل ذلك ؟ وقد قص رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن بنى إسرائيل قد قتلوا ثلاثة وأربعين نبيا دفعة واحدة ، فقام مائة وسبعون من أتباع الأنبياء لينكروا عليهم ذلك ، فقتلوهم[1] ، وهذا هو معنى هذه الآية الكريمة :

﴿ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾

(من الآية ٢١ من سورة آل عمران)

لماذا يبشرهم الحق بعذاب أليم ؟ أليس معنى التبشير هو إخبار بما يسر فى أمد يمكن أن يؤتى فيه الفعل الذى يسر ؟ إن التبشير دائما يكون للفعل الذى يسر ، كتبشير الحق للمؤمنين بالجنة ، ومعنى التبشير بالجنة أن الله يخبر المؤمن بأمر يُسر له المؤمن ، ويعطى الحقّ الفرصة للمؤمن لينفذ منهج الله ليأخذ الجائزة والبشارة .

لماذا يكون الحديث بالبشارة موجها لأبناء الذين فعلوا ذلك ؟ لأننا نعرف أن الذين قتلوا النبيين وقتلوا الذين أمروا بالقسط من الناس لم يكونوا معاصرين لنزول هذه الآية ، إن المعاصرين من أهل الكتاب لنزول هذه الآية هم أبناء الذين قتلوا الأنبياء وقتلوا الذين أمروا بالقسط ، ويبشرهم الحق بالعذاب الأليم ، لأنهم ربما رأوا أن ما فعله السابقون لهم كان صوابا . فإن كانوا قد رأوا أن ما فعله السابقون لهم كان صوابا فلهم أيضا البشارة بالعذاب .

وتتسع دائرة العذاب لهم أيضا ، ولكن لماذا يكون العذاب بشارة لهم ، رغم أن البشارة غالبا ما تكون إخبارا بالخير ، وعملية العذاب الأليم ليست خيرا ؟ إن علينا أن نعرف أنه ساعة نسمع كلمة « أبشر » فإن النفس تتفتح لاستقبال خبر يسر ، وعندما تستعد النفس بالسرور وانبساط الأسارير إلى أن تسمع شيئا حسنا يأتى قول : أبشر بعذاب أليم ، ماذا يحدث ؟ الذى يحدث هو انقباض مفاجىء أليم ، ابتداء مطمع « فبشرهم » وانتهاء مُيْئِس (بعذاب أليم) وهنا يكون الإحساس بالمصيبة أشد؛ لأن الحق لو أنذرهم وأوعدهم من أول الأمر بدون أن يقول :

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير .

« فبشرهم » لكان وقوع الخبر المؤلم هينا . لكن الحق يريد للخبر أن يقع وقوعا صاعقا ، ومثال لذلك قول الحق :

﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾

(من الآية ٢٩ من سورة الكهف)

إنهم يستغيثون فى الآخرة ، ويغاثون بالفعل ، ولكن بماذا يغيثهم الله ؟ إنه يغيثهم بماء كالمهل يشوى الوجوه . إننا ساعة أن نسمع « يغاثوا » قد نظن أن هناك فرجا قادما ، ولكن الذى يأتى هو ماء كالمهل يشوى الوجوه . وهكذا تكون البشارة بالنسبة لمن قتلوا الأنبياء أو لأتباع القتلة الذين آمنوا بمثل ما آمن به هؤلاء القتلة . « فبشرهم بعذاب أليم » وكلمة « عذاب » تعنى إيلام حىّ يحس بالألم . والعذاب هو للحىّ الذى يظل متألما ، أما القتل فهو ينهى النفس الواعية وهذا ليس بعذاب ، بل العذاب أن يبقى الشخص حيًّا حتى يتألم ويشعر بالعذاب ، وقول الحق : « بعذاب أليم » يلفتنا إلى قوله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ ﴾

(سورة النساء)

أى أن الحق يديم عليهم الحياة ليديم عليهم التعذيب . وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾

إنهم الذين كفروا بآيات الله ، وقتلوا النبيين بغير حق ، وقتلوا الذين أمروا بالقسط بين الناس ، هؤلاء لهم العذاب ، ولهم أيضا حبط العمل فى الدنيا

والآخرة ، وكذلك من نهج نهجهم ، ومعنى « حبطت » أى لا ثمرة مرجوة من العمل ، إن كل عمل يعمله العاقل لابد أن يكون لهدف يقصده ، فأى عمل لا يكون له مقصد يكون كضربة المجنون ليس لها هدف . إن العاقل قبل أن يفعل أى عمل ينبغى أن يعرف الغاية منه ، وما الذى يحققه من النفع ؟ وهل هذا النفع الذى سوف يحققه هو خير النفع وأدومه ، أو هو أقل من ذلك ؟

وعلى ضوء هذه المقاييس يحدد العاقل عمله ، وحينما يقول الحق : « أولئك الذين حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة » فهو سبحانه يريد أن يخبرنا أن إنسانا قد يفعل عملا هو فى ظاهره خير ، فإياك أن تغتر أيها المؤمن بأنه عَمِلَ خيرا . لماذا ؟ لأن عمل الخير لا يحسب للإنسان إلا بنية إيمانه بمن يجازى ، فالإنسان إن عمل عملا قد تصلح به دنياه فهو عمل حسن ، فلماذا يكون عمل هؤلاء حابطا فى الدنيا ، وفى الآخرة ؟ إنه حابط بموازين الإيمان ويكون العمل حابطا لأنه لم يصدر من مؤمن ، لأن ذلك الإنسان قد عمل العمل ثقة بنتيجة العمل ، لا ثقة بالأمر الأعلى .

إن الإنسان المؤمن حين يقوم بالعمل يقوم بالعمل ثقة فى الأمر الأعلى . وبعض من الناس فى عصرنا يأخذون على الإسلام أنه لا يجازى الجزاء الحسن للكفرة الذين قاموا بأعمال مفيدة للبشرية . يقول الواحد منهم : هل يعقل أحد أن « باستير » الذى اكتشف الميكروبات ، والعالم الآخر الذى اكتشف الأشعة ، وكل هؤلاء العلماء يذهبون إلى النار ؟ ولهؤلاء نقول : نعم ، إن الحق بعدالته أراد ذلك ، ولنتقاض نحن وأنتم إلى أعراف الناس . إن الذى يطلب أجرا على عمل يطلبه ممن ؟ إنه يطلب الأجر ممن عمل له . فهل كان الله فى بال هؤلاء العلماء وهم يفعلون هذه الأعمال ؟ إن بالهم كان مشغولا بالإنسانية ، وقد أعطتهم الإنسانية التخليد ، وغير ذلك من مكاسب الدنيا ، وينطبق عليهم قول الرسول صلى الله عليه وسلم :

(إن أول الناس يُقْضَى يوم القيامة عليه رجل استشهد ، فأتى به فعرفه نعمه فعرفها ، قال : فما عملت فيها؟ قال ؛ قاتلت فيك حتى استشهدت قال : كذبت ، ولكنك قاتلت لأن يقال : جرىء فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه ، حتى ألقى فى النار ، ورجل تعلّم العلم وعلمه وقرأ القرآن ، فأتى به فعرّفه نعمه فعرفها ، قال : فما عملت فيها؟ قال : تعلمت العلم وعلمته ، وقرأت فيك القرآن قال : كذبت ، ولكنك تعلمت العلم ليقال : عالم ، وقرأت القرآن ، ليقال : هو قارىء ،

فقد قيل ، ثم أمر به ، فسحب على وجهه ، حتى ألقى فى النار ، ورجل وسّع الله عليه ، وأعطاه من أصناف المال كله ، فأتى به ، فعرفه نعمه فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك ، قال : كذبت ، ولكنك فعلت ليقال : هو جواد ، فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه ، ثم ألقى فى النار)[1] .

إذن فإذا كان الجزاء من الله ، فلنا أن نسأل : هل كان الله فى بال هؤلاء العلماء حينما أنتجوا مخترعاتهم ؟ لم يكن فى بالهم الله . والذى يطلب أجرا ، فهو يطلبه ممن عمل له . ولم يُضع الله ثمرة عملهم ، بل درت عليهم أعمالهم الذكر والجاه والرفعة . لم يضع الله أجر من أحسن عملا .

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ ﴾

(سورة الشورى)

وقد قلت لكم قديما : تذكروا المفاجأة التى تحدث لمن عمل عملا هو فى ظاهره خير ، ولكن لم يكن ربه فى باله ، هذا ينطبق عليه قول الحق :

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَـٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ ﴾

(سورة النور)

إنه يفاجأ بوجود الله ، ولم يكن هذا الإله فى باله ساعة أن قام بهذا العمل الذى هو فى ظاهره خير ، كأن الله يقول لصاحب مثل هذا العمل : أنا لم أكن فى بالك ساعة أن قمت بهذا العمل ، فخذ جزاءك ممن كان فى بالك . « أولئك الذين حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة ومالهم من ناصرين » إن أعمالهم حبطت فى الدنيا ، لأنهم قد يعملون عملا يراد به الكيد للإسلام ، لذلك لا يمكنهم الله من ذلك ، بل يخذلهم

(١) أخرجه الإمام مسلم بروايات مختلفة وأخرجه النسائى والترمذى وابن ماجه .

جميعا . وانتصر دين الله رغم قلة العدد وقلة العُدّة . وليس لهؤلاء ناصرون . أى ليس لهم من يأتى ويراهم مهزومين أمام خصم لهم وينجدهم ، إنهم لن يجدوا ناصرا إذا هزمهم الله ، فليس مع الله أحد غيره . وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾

ونعرف أننا ساعة نسمع قول الحق : (ألم تر) . فهنا همزة استفهام ، وهنا أداة نفى هى « لم » ، وهنا « تر » ومعناها أن يستخدم الإنسان آلة الإبصار وهى العين . فإذا ما قال الله لرسوله : « ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون » . إن هذه دعوة لأمر واضح . لكن فى بعض الأحيان تأتى « ألم تر » فى حادث كان زمانه قبل بعثته صلى الله عليه وسلم فلم يره رسول الله كقول الحق :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ ﴾

(سورة الفيل)

إن النبى صلى الله عليه وسلم لم ير أصحاب الفيل ، إذن فساعة تسمع « ألم تر » ، إن كان حدثها من المعاصر ، فمن الممكن أن تكون رؤية ، والرؤية تؤدى إلى علم يقين ، لأنها رؤية لمشهود ، وإن جاءت « ألم تر » فى أمر قد حدث من قبل ، أو أمر لما يحدث بعد فهى تعنى « ألم تعلم » ، لأن الرؤية سيدة الأدلة ، فكأن الله سبحانه وتعالى ساعة يقول لرسوله فى حدث لم يشهده الرسول : ألم تر ؟ فهذا معناه : ألم تعلم ؟

وقد يقول قائل : ولماذا لم يأت بـ «تعلم » وجاء بـ (تر) ؟ لأن سيادة الأدلة هو الدليل المرئى ، فكأن الله يريد أن يخبرنا بـ « ألم تر » أن نأخذ المعلومة من الله على أنها

مرئية ، وليكن ربك أوثق عندك من عينك ، إنك قد لا ترى بالفعل هذا الأمر الذى يخبرك به الله ، ولكن لأن القائل هو الله ، ولا توجد قدرة تُخرج ما يقوله الله على غير ما يقوله الله . لذلك فقد قلنا ساعة يعبر الله عن الأمر المستقبل الذى سيأتى بعد ، فإنه قد يعبر عنه بالماضى ، فالحق قد قال :

﴿ أَتَىٰ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾ ﴾

(سورة النحل)

فهل ينسجم قوله : « أتى أمر الله » مع « فلا تستعجلوه » ؟ إن الأمر الذى يخبرنا به الله قد أتى ، فكيف يمكن عدم استعجاله ؟ إن « أتى » معناها أن الأمر قد حصل قبل أن يتكلم . يجب علينا إذن أن نعرف أن الذى قال : « أتى » قادر على الإتيان به ، فكأنه أمر واقع ، إنها مسألة لا تحتاج إلى جدال ، لأنه لا توجد قوة تستطيع أن تنازع الله لتبرز أمرا أراده فى غير مراده . فكأن قوله الحق : « ألم تر » إن كانت تحكى عن حدث فات زمنه فالذى يأتى منها هو العلم ، لأنه إخبار الله ، وإن كانت تحكى عن حدث معاصر فالذى يأتى منه أيضا هو العلم ؛ لأنه صادر عن رؤية ومشاهدة .

وعندما يقول الحق : « ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب » . « وأوتوا » تلفتنا إلى قوم قد نزل إليهم منهج من أعلى . ولذلك يأتى فى القرآن ذكر المنهج بـ « نزل » و « أنزل » ، وذلك حتى نشعر بعلو المكانة التى نزل منها المنهج . وما هو النصيب ؟ إننا نسمى النصيب « الحظ » ، أو خارج القسمة ، كأن يكون عندنا عشرون دينارا ، ونقسمها على أربعة فيكون لكل واحد خمسة ، هذه الخمسة الدنانير هى التى تسمى « نصيبا » أو « حظا » ، والنصيب : « حظ » أو « قسمة » يضاف لمن أخذه .

إذن ، فلماذا يقول الحق : « الذين أوتوا نصيبا من الكتاب » إنها لفتة جميلة ، فالكتاب كله لم يبق لهم ، إنما الذى وصل وانتهى إليهم جزء بسيط من الكتاب ، فكأن هذه الكلمة تنبه الرسول والسامعين له أن يعذروا هؤلاء القوم حيث لم يصلهم من الكتاب إلا جزء يسير منه ، إن نصيبا من الكتاب فقط هو الذى وصلهم .

راجع أصله وخرّج أحاديثه الدكتور أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .

ويشرح الحق ذلك فى آيات أخرى :

﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ ﴾

(من الآية ١٣ من سورة المائدة)

إن الجزء المنسى من الكتاب لم يأخذه المعاصرون لرسول الله . وقلنا أيضا : إن الحق قد أوضح أن بعضهم كتم بعضا من الكتاب .

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ﴾

(سورة البقرة)

ومادام هناك من كتم بعضا من الكتاب فمعنى ذلك كتمانه عن المعاصرين له ، وهناك أناس منهم مخدوعون ، فشىء من الكتاب قد نسى ، وبالتالى مسح من الذاكرة ، وهناك شىء من الكتاب قد كتم ، فصار معلوما عند البعض ، وغير معلوم عند البعض الآخر ، وحتى الذى لم يكتموه ، جاء فيه القول الحكيم :

﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

إذن فالكتاب الذى أنزل إليهم من الله قد تعرض لأكثر من عدوان منهم ، ولم يبق إلا حظ من الكتاب ، وهذا الحظ من الكتاب هو الذى يجادل القرآن به هؤلاء الناس ، إن القرآن لا يجادلهم فيما تبدل عندهم بفعل أحبارهم ورهبانهم السابقين ، ولكنه يجادلهم بالنصيب الذى أوتوه .

يقول الحق : « ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يدعون إلى كتاب الله

ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون » . وعن أى كتاب لله تتحدث هذه الآية ؟ هل تتحدث عن القرآن ؟ لو كان الحديث عن القرآن فلابد أنه حُكِّمَ فى أمر بينهم وبين رسول الله ، لكن الذين أوتوا نصيبا من الكتاب قد اختلفوا فيما بينهم ، ولماذا يختلفون فيما بينهم ؟ السبب هو أيضا لون من البغى فيما بينهم . وإذا كان الكتاب هو القرآن ، أليس القرآن مصدقا لما معهم ؟

إذن فعندما يدعون ليتم التصديق على ما جاء فى كتبهم ، فالدعوة هنا لأن يسود حكم القرآن . وما معنى « يدعون إلى كتاب الله » ، إن الداعى هو الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهم المدعون ، ومادام الحق قد قال : « أوتوا نصيبا من الكتاب » فهل كان خلافهم فى النصيب الذى بين أيديهم أم النصيب المحذوف ؟ إنه خلاف بينهم فى النصيب الذى بين أيديهم ، ليكون ذلك حجة على أنهم غير مأمونين حتى على ما وصل إليهم وما هو مكتوب عندهم . وعندما تكلم العلماء عن هذه المسألة أوردوا لذلك الأمر حادثة . لقد اختلفوا فى أمر سيدنا إبراهيم وقالوا : إن سيدنا إبراهيم يهودى وقال بعضهم : إنه نصرانى . وجاء القرآن حاسما :

﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

لماذا .. لأن كلمة يهودى ونصرانى قد جاءت بعد إبراهيم ، وكان لابد لهم أن يخرجوا من قلة الفطنة وأن يرتبوا الأحداث حسب زمانها ، إذن ففى أى أمر اختلفوا ؟ هل اختلفوا فى أمر النبى محمد صلى الله عليه وسلم ؟ هل اختلفوا فى حكم موجود عندهم فى التوراة ؟ لقد كانت الدعوة موجهة إليهم فى ماذا ؟ إنهم « يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم » وذلك يدل على أن كلمة :

﴿ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ﴾

(من الآية ١٩ من سورة آل عمران)

هى حالة شائعة بينهم ، لماذا ؟ لأن العلماء حينما ذكروا الحادثة التى دعوا للحكم فيها بكتاب الله ، قال العلماء : إن اثنين من يهود خيبر ـ امرأة ـ خيبرية ورجل من

خيبر ، قد زنيا ، وكان الاثنان من أشراف القوم ، ويريد الذين يحكمون فى هذا الأمر بكتاب التوراة ألا يبرزوا حكم الله الذى جاء بالتوراة ، وهو الرجم ، فاحتالوا حيلة ، وهى أن يذهبوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولماذا يذهبون فى هذه الجزئية إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ إننا نأخذ مجرد الذهاب إلى رسول الله ارتضاء لحكمه .

لكن لماذا لم يرتضوا من البداية بكل ما جاء به رسول الله ؟ لقد أرادوا أن يذهبوا لعلهم يجدون نفعا فى مسألة يبغونها ، أما فى غير ذلك فهم لا يذهبون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إن مجرد ذهابهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يعطينا فكرة عنهم ، لقد كانوا يريدون حكما مخففا غير الرجم . إن الزانى وهو من خيبر والخيبرية الزانية أرادا أن يستنقذا أنفسهما من حكم التوراة بالرجم ، إنهما من أشراف خيبر ، ولأن اليهود قد صنعوا لأنفسهم فى ذلك الوقت سلطة زمنية ، فذهب الزانى والزانية ومعهما الأحبار الذين يريدون أن يلووا حكم الله السابق نزوله فى التوارة وهو الرجم . وعندما دخلوا على رسول الله كان هناك واحد اسمه « النعمان بن أوفى » ، وواحد اسمه « بحرى بن عمرو » فقالوا : يا رسول الله اقض بين هؤلاء ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما معناه : أوَ ليس عندكم حكم ؟ وأضاف رسول الله ما معناه : أنا أحتكم إلى التوراة وهى كتابكم ، فماذا قالوا : ؟ قالوا : أنصفتنا .

وكان رسول الله قد بين لهم أولا حكم الإسلام فى الزنا بأنه الرجم ، وجىء بالجزء الباقى عندهم من التوراة لرسول الله صلى الله عليه وسلم الذى يتضمن الحكم الملزم دليلا على أن الله أطلعه على أشياء لم تكن فى بال أحد . فدعا بقسم من التوراة ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما معناه : أيكم أعلم بالتوراة ؟ فقالوا : شخص اسمه عبدالله بن صورية فأحضروه ، وأعطاه التوراة ، وقال : اقرأ فجلس عبدالله بن صورية يقرأ ، فلما مر على آية الرجم وضع كفه عليها ليخفيها ، وقرأ غيرها وكان عبدالله بن سلام حاضرا ، فقال : يا رسول الله أما رأيته قد ستر بكفه آية وقرأ ما بعدها ؟ وزحزح ابن سلام كف الرجل ، وقرأ هو فإذا هى آيةُ الرجم .

هذه المسألة تعطينا أن الحكم فى القرآن الكريم هو الحكم فى التوراة فى أمر الزنا ، وتعطينا أيضا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أفاض الله عليه من إلهاماته فجاء

بالجزء من التوراة الذى يحمل هذا النص . وجاء بعد ذلك جندى من جنود الله هو عبدالله بن سلام وكان يهوديا قد أسلم ليظهر به رغبة القوم فى التزييف والتزوير .

وإسلام عبدالله بن سلام له قصة عجيبة ، فبعد أن اختمر الإيمان فى قلبه ، جاء إلى رسول الله قائلا : لقد شرح الله صدرى إلى الإسلام ونطق بكلمة « لا إله إلا الله محمد رسول الله » ولكنى أحب قبل أن أعلن إسلامى أن تحضر رؤساء اليهود لتسألهم رأيهم فى شخصى ، لأن اليهود « قوم بهت » ، فيهم افتراء وفيهم الكذب وفيهم التضليل ، فلما سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم رؤساء اليهود عن رأيهم فى عبدالله بن سلام قالوا : سيدنا وابن سيدنا وحبرنا . . إلخ . وأفاضوا فى صفات المدح والإطراء والتقدير . فقال عبدالله بن سلام أمامهم : الآن أشهد ألا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله ، فانقلب رؤساء اليهود ، وقالوا فى عبدالله بن سلام : عكس ما قالوه أولا ، قالوا : إنه خبيثنا وابن خبيثنا . . إلخ .

لقد غيروا المديح إلى ذم . فقال عبدالله بن سلام : يا رسول الله أما قلت لك : إنهم قوم بهت ؟ والله لقد أردت أن أعلمك برأيهم فى قبل أن أسلم . ذلك هو عبدالله بن سلام الذى زحزح كف عبدالله بن صورية عن النص الذى فيه آية الرجم فى التوراة ، وفى ذلك جاء القول الحق : « ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون » إنهم الذين أعرض فريق منهم عن قبول الحق .

ما سبب هذا الإعراض ؟ أهو قضية عامة ؟ أو أنّ سبب هذا الإعراض هو السلطة الزمنية التى أراد اليهود أن يتخذوها لأنفسهم ؟ ومعنى السلطة الزمنية أن يجىء أشخاص فيأخذوا من قداسة الدين ما يفيض عليهم هم قداسة ، ويستمتعوا بهذه القداسة ثم يستخدموها فى غير قضية الدين ، هذا هو معنى السلطة الزمنية . وقلنا سابقا : إن كل تحوير فى منهج الله سببه البغى ، والمفروض أن أهل الكتاب من أصحاب التوراة كانوا يستفتحون على العرب ويقولون : سيأتى نبىّ من العرب نتبعه ونقتلكم به قتل عاد وإرم ، فلما جاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بما عرفوه سابقا فى كتبهم كفروا به ، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى فى مثل هذه القضية موضحا موقفهم من قضية الإيمان العليا :

﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾ ﴾

(سورة الرعد)

فكأن من عنده علم بالكتاب كان مفروضا فيه أن يشهد لصالح رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإلا فلا يقول الله : « ومن عنده علم الكتاب » لن يقول الحق ذلك إلا إذا كان عند علماء أهل الكتاب ما يتفق مع ما جاء به الله فى صدق رسوله صلى الله عليه وسلم فى البلاغ عنه . وكان السبب فى محاولة بعض اليهود لإنكار رسالة رسول الله هو السلطة الزمنية ، وأرادوا أن ييسروا لأتباعهم أمور الدين .

إن كل دعى ـ أى مزيف ـ فى مبدأ من المبادىء يحاول أن يأخذ لنفسه سلطة زمنية ، فيأتى إلى تكاليف الدين التى قد يكون فيها مشقة على النفس ، ويحاول أن يخفف من هذه التكاليف ، أو يأتى بدين فيه تخفيف مخلٍ بالعبادات ، فإذا نظرنا إلى مسيلمة الكذاب ، نجده قد خفف الصلاة حتى يُرغب فى دينه من تشق عليه الصلاة ، وينضم إلى دين مسيلمة ، وحذف مسيلمة جزءا من الزكاة ، وهذا يعطى فرصة التحلل من تكاليف الدين ، ولذلك فالذى أفسد الأديان السابقة على الإسلام أن بعضا من رجال الدين فيها كلما رأوا قوما على دين فيه تيسيرات أخذوا من هذه التيسيرات ووضعوها فى الدين ، لأن تكاليف الدين شاقة ولا يحمل إنسان نفسه عليها إلا من آمن بها إيمان صدق وإيمان حق ، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى فى عمدة العبادات وهى الصلاة :

﴿ وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾

(سورة البقرة)

ويقول فى موقع آخر فى القرآن الكريم عن الصلاة :

﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾ ﴾

(سورة طه)

إن الحق عليم حكيم بمن خلق وهو الإنسان ، ويعلم أن الضعف قد يصيب روح الإنسان فلا يصطبر على الصلاة ، أو يراها تكليفا صعبا ، لكن الذى يقيم الصلاة ويحافظ عليها فهو الخاشع لربه . ولذلك فإننا نجد أن كل منحرف يأتى ويحاول أن يخفف من تكاليف الدين ، ويحاول أن يحلل أشياء محرمة فى الدين ، ولم نر منحرفا يزيد فى الأشياء المحرمة . إن المنحرفين يريدون إنقاص الأمور الحرام . وإذا سألنا هؤلاء المنحرفين : لماذا تفعلون ذلك ؟ فإننا نجد أنهم يفعلون ذلك لجذب الناس إلى أمور محرمة يحللها هؤلاء المنحرفون . ولذلك أراد بعض من اليهود أن يسهلوا على أتباعهم الدين ، وقال بعض من أحبارهم : لا تخافوا من أمر يوم القيامة . وجاء القول الحق يحكى عنهم وكأنهم حاولوا أن يفهموا الأمر بأن الله يحلل لهم أمورا ، لا ، إن الله لم يحلل إلا الحلال ، ولم يحرم إلا الحرام . وإذا كان الحق قد قال :

﴿ قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ ۚ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ ﴾

(سورة التحريم)

فهذا القول الحكيم جاء فى مناسبة محددة وينطبق فقط فى مجال ما حلل الله فلا تحرمه ، أما ما حرم الله فلا تقربه ، لقد أرادوا أن يبيحوا للأتباع ارتكاب الآثام ، لأن النار لن تصيبهم إلا أياما معدودة ، وإذا دققنا التأمل فى القول الحق الذى جاء على لسانهم ، فإننا نجد الآتى : إننا نعرف أن لكل حدث زمانا ، ولكل حدث قوة يحدث عليها ، فمن ناحية الزمان . قال هؤلاء المزوّرون لأحكام الله عن يوم القيامة إنها أيام معدودة ، فلا خلود فى النار ، وحتى لو كان العذاب شديدا فإنه أيام معدودة ، فالإنسان يستطيع أن يتحمل ، ومن ناحية قوة الحدث ، أرادوا أن يخففوا منه ، فقالوا : إنه عذاب ليس بشديد إنما هو مجرد مس . إنهم يحاولون إغراء الناس لإفسادهم وقال هؤلاء الأحبار : نحن أبناء الله وأحباؤه أرأيتم أحدًا يعذب أبناءه وأحباءه ؟ لقد أعطى الله يعقوب النبوة ، ولا يمكن أن يعاقب ذريته أبدا ، إلا بمقدار تحلة القسم .

﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ ﴾

(سورة ص)

إن أيوب عليه السلام قد حلف أن يضرب امرأته إذا برىء من مرضه مائة سوط ، وأراد الله له أن يحله من هذا القسم فأمره أن يأخذ حزمة من حشيش أو

عشب فيها مائة عود ويضربها بها ضربة خفيفة ليبرّ فى قسمه ، وكان ذلك رحمة من الله به وبزوجه التى قامت على رعايته وقت المرض ، وكان أيوب عبدا شاكرا لله ، كأن الضربة الواحدة هى مائة ضربة ، وهذا تحليل للقسم ، وقال بعض من بنى إسرائيل : إن ذرية بنى يعقوب لن تُعذب من الله إلا بمقدار تحلة القسم ، وكل ذلك ليزينوا للناس بقاءهم على هذا الدين الذى سوف تكون الآخرة فيه بعذابها مجرد مس من النار ، وأيام معدودة ، بادعاء أن بنى يعقوب هم أبناء الله وأحباؤه ، وأن الله قد أعطى وعدا ليعقوب بأنه لن يعذب أبناءه إلا بمقدار تحلة القسم ، وهذا بطبيعة الحال هو تزييف لدين الله ومنهجه لقد تولوا عن منهج الله ، وأعرضوا عنه بعصيان ، يوضح لنا هذا المعنى القول الكريم :

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

لقد تولوا وهم معرضون عن حكم الله لقد ظنوا أن النار لن تمسهم إلا أياما معدودات . ولنا أن نعرف معنى « غرهم » ولنا أن نسأل ما الغرور ؟ إن الغرور هو الأطماع فيما لا يصح ولا يحصل ، فعندما تقول لواحد والعياذ بالله : « أنت مغرور » فأنت تقصد أنه يسلك سبيلا لا يوصله إلى الهدف المنشود . إذن فالغرور هو الإطماع فيما لا يصح ولا يحصل ، ولذلك يسمى الله الشيطان « الغرور » .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿٦﴾ ﴾

(سورة فاطر)

إنه الشيطان الذى يزين للناس بعض الأمور ويحث الخلق ليطمعوا فى حدوثها ،

وعندما تحدث فإن هذه الأمور لا صواب فيها ، فهى مما زينه الشيطان ، لذلك فحصيلتها لا تتناسب مع الطمع فيها . والحق سبحانه يقول عن الدنيا :

﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ ﴾

(سورة الحديد)

ويقال عن الرجل الذى ليس له تجربة : إنه « غِرٌّ » فيأتى بأشياء بدون تجربة ؛ فلا ينتفع منها ، ولا تصح . إذن ، فكل مادة « الغرور » مأخوذة من إطماع فيما لا يصح ولا يحصل . لذلك سمى الله الشيطان « الغرور » لأنه يطمعنا نحن البشر بأشياء لا تصح ولا تحدث ، ولهذا سوف يأتى الشيطان يوم القيامة ليتبرأ من الذين اتبعوه ويتهمهم بالبلاهة :

﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾

(سورة إبراهيم)

ما معنى « وما كان لى عليكم من سلطان »؟ السلطان أى القوة التى تقنع الإنسان بعمل فعل ما ، وهو إما أن يكون سلطان الحجة فيقنعك بفعل ما ، فتفعله ، وإما أن يكون سلطان القوة ، فيرغمك أن تفعل . السلطان - إذن - نوعان : سلطان حجة ، وسلطان قوة . والفرق بين سلطان الحجة وسلطان القوة القاهرة على الفعل ، هو أن سلطان الحجة يقنعك أن تفعل الفعل وأنت مقتنع ، أما سلطان القوة القاهرة فهو لا يُقنع الإنسان ، ولكنه يُرغم الإنسان على فعل ما ، ولذلك فالشيطان يعلن لأتباعه يوم القيامة : لم يكن لى سلطان عليكم ،

لا حجة عندى لأقنعكم بعمل المعاصى ، ولا عندى قوة ترغمكم على الفعل ، لكنكم أنتم كنتم على حرف إتيان المعاصى ودعوتكم فاستجبتم لى . ويضيف الشيطان مخاطبا أتباعه :

﴿ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ﴾

(من الآية ٢٢ من سورة إبراهيم)

أى أن الشيطان يؤكد أنه لن يفزع لأحد من الذين اتبعوه لينجده ، إن كلمة « يصرخ » تعنى أن هناك مَنْ يفزع لأحد تلبية لنداء أو استغاثة . الشيطان إذن لن ينجد أحدا من عذاب الله ، ولن ينجد أحد الشيطانَ من عذاب الله ، وهكذا ذهب بعض من أهل الكتاب إلى الغرور فى الدين ، فافتروا أقوالا على الله ، لم تصدر عنه ، وصدقوا افتراءاتهم ، ويا ليت غرورهم لم يكن فى الدين ، لأن الغرور فى غير الدين تكون المصيبة فيه سهلة ، لكن الغرور فى الدين هو المصيبة الكبرى ، لماذا ؟ لأن الغرور فى أى أمر يخضع لقانون واضح ، وهو أن ميعاد كل حدث موقوت بماهيته ، لكن الغرور فى أمر الدين مختلف ، لماذا ؟ لأن حدث الدين غير موقوت بماهية الزمان ، إنه مستمر ، لأنه منهج قيم صدر من الحق إلى الخلق ، إن الغرور فى أى جزئية من جزئيات الدنيا ، فإن فشلت فالفشل يقف عند هذه الجزئية وحدها ، ولا يتعدى الفشل إلى بقية الزمن ، لكن الغرور فى الدين يجعل العمر كله يضيع ، لأن الإنسان لم يتبع المنهج الحق بل يمتد الضياع والعذاب إلى العمر الثانى وهو الحياة فى الآخرة . يقول الحق :

﴿ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾

(من الآية ٢٤ من سورة آل عمران)

والافتراء هو تعمد الكذب ، إن الحق سبحانه يوضح لهم المعنى فيقول : إن حصل ذلك منكم وأعرضتم عن حكم الله الذى دعيتم إليه فى كتاب الله ، وعللتم ذلك بأن النار لن تمسكم إلا أياما معدودة ، وادعيتم كذبا أن الأيام المعدودات هى أيام عبادتكم للعجل ، وادعيتم أنكم أبناء الله وأحباؤه ، إن ذلك كله غرور وافتراءات ، ويا ليتهم كانوا يعلمون صدق هذه الافتراءات ، لكنهم هم الذين قالوها ويعرفون أنها كذب ، فإذا جاز ذلك لهم فى هذه الدنيا فكيف يكون موقفهم

وحالهم عندما يجمعهم الله فى يوم لا ريب فيه ؟ وفى هذا يقول الحق :

﴿ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

إن كذبهم سينكشف فى هذا اليوم ، فالفاضحة قد جاءت ، والفاضحة هى القيامة ، إنها تفضح كل كذاب وكل غشاش وكل داعية بغير الحق . إن الحق يتساءل : كيف يصنعون ذلك كله فى الحياة التى جعلنا لهم فيها اختيارا ، فيفعلون ما يريدون ، ولا يفعلون ما لا يريدون ، يحدث منهم كل ذلك وهم يعلمون أن الحق قد جعل الثواب لمن اتبع تكاليف الله ، وجعل العقاب لمن يخرج عن مراد الله ، كيف يتصرفون عندما يسلب الحق منهم الاختيار ويجىء يوم القيامة . لقد كانوا فى الدنيا يملكون عطاء الله من قدرة الاختيار بين البديلات ، وركز الله لهم فى بنائهم أن كل جوارحهم خاضعة لإرادتهم كبشر من خلق الله ، فمنهم من يستطيع أن يستخدم جوارحه فيما يرضى الله ، وفيهم من يستخدم جوارحه المسخرة له ـ بفضل الله ـ فيما لا يرضى الله ، إن الجوارح كما نعلم جميعا خاضعة لإرادة الإنسان ، وإرادة الإنسان هى التى تختار بين البديلات ، لكن ماذا يفعل هؤلاء يوم القيامة ؟ إن الجوارح التى كانت تطيع الخارجين عن منهج الله فى الفعل لا تطيعهم فى هذا اليوم العظيم ؛ لأن الطاعة اختيار أن تفعل وتطيع ، والجوارح يوم القيامة لا تكون مقهورة لإرادة الإنسان ، إن الجوارح يوم القيامة تنحل عنها صفة القهر والتسخير لمراد الإنسان ، وتصير الجوارح على طبيعتها :

﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴿٢٥﴾ ﴾

(سورة النور)

إن اللسان كان أداة إعلان الكفر ، وهو يوم القيامة يشهد على الكافر ، واليد

كانت أداة معصية الله ، وهى يوم القيامة تشهد على صاحبها ، والجلود تشهد أيضا ، لقد كانت الجوارح خاضعة لإرادة أصحابها ، وتفعل ما يريدونها أن تفعل ، ولكنها كانت تفعل الفعل العاصى لله وهى كارهة لهذا الفعل ؛ لذلك يقول الحق :

﴿ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

كيف يكون حالهم يوم يجمعهم الله للجزاء فى يوم لا ريب فيه ولاشك فى مجيئه . . وهذا اليوم قادم لا محالة لقيام الأدلة على وجوده ، ورغم خصومتهم لله فإن الله العادل الحق لا يظلمهم بل سيأخذهم بمقاييس العدل .

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ ﴾

وساعة تسمع كلمة « ملك » ، فلنا أن نعرف أن هناك كلمة هى « مُلك » بضم الميم ، وكلمة أخرى هى « مِلك » بكسر الميم . إن كلمة « مِلك » تعنى أن للإنسان ملكية بعض من الأشياء ، كملكية إنسان لملابسه وكتبه وأشيائه ، لكن الذى يملك مالك هذا الملك فهذا تسميه « مُلك » ، فإذا كانت هذه الملكية فى الأمر الظاهر لنا ، فإننا نسميه « عالم الملك » ، وهو العالم المُشاهد ، وإذا كانت هذه الملكية فى الأمر الخفى فإننا نسميه « عالم الملكوت » . إذن ، فنحن هنا أمام « مِلك » ، و« مُلك » و « ملكوت » . ولذلك فعندما تجلى الحق سبحانه وتعالى على سيدنا إبراهيم خليل الرحمن وكشف له ما خفى عن العيون وما ظهر ، قال سبحانه :

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

أى أن الله سبحانه وتعالى أراد لسيدنا إبراهيم أن يشاهد الملكوت فى السماوات والأرض ، أى كل الأشياء الظاهرة والخافية المخفية عن عيون العباد . وهكذا نرى مراحل الحيازة كالآتى : ملك ، أى أن يملك الإنسان شيئا ما ، وهذا نسميه مالكا للأشياء ، فهو مالك لأشيائه ، ومالك لمتاعه ، أما الذى يملك الإنسان الذى يملك الأشياء فإننا نسميه « مُلك » ، أى أنه يملك من يملك الأشياء ، والظاهرة فى الأولى نسميها « مِلْك » فكل إنسان له ملكية بعض من الأشياء . وبعد ذلك تنحاز إلى الأقل ؛ أى أن تنسب ملكية أصحاب الأملاك إلى ملك واحد . فالملكية بالنسبة للإنسان تتلخص فى أن يملك الإنسان شيئا فيصير مالكا ، وإنسان آخر يوليه الله على جماعة من البشر فيصير مَلِكاً ، هذا فى المجال البشرى .

أما فى المجال الإلهى ، فإننا نُصعد لنرى من يملك كل مالك وملك ، إنه الله سبحانه وتعالى . ولا يظن أحد أن هناك إنسانا قد ملك شيئا ؛ أو جاها فى هذه الدنيا بغير مراد الله فيه ، فكل إنسان يملك بما يريده الله له من رسالة ، فإذا انحرف العباد ، فلابد أن يولى الله عليهم ملكا ظالما ، لماذا ؟ لأن الأخيار قد لا يحسنون تربية الناس .

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

وكأن الحق سبحانه يقول : يأيها الخيِّر ـ بتشديد الياء ـ ضع قدما على قدم ولا تلوث يدك بأن تنتقم من الظالم ، فسوف أضع ولاية ظالم أكبر على هذا الظالم الصغير ، إننى أربأ بك أن تفعل ذلك ، وسأنتقم لك ، وأنت أيها الخير منزه عندى عن ارتكاب المظالم ، ولذلك نجد قول الحق :

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

ونحن جميعا نعرف القول الشائع : « الله يسلط الظالمين على الظالمين » . ولو أن الذين ظلموا مُكِّن منهم من ظلموهم ما صنعوا فيهم ما يصنعه الظالمون فى بعضهم بعضا . إن الحق يسلط الظالمين على الظالمين ، وينجى أهل الخير من موقف الانتقام ممن ظلموهم .

إذن فنحن فى هذه الحياة نجد « مالك » ، و« ملك » وهناك فوق كل ذلك « مالك الملك » ، ولم يقل الله : إنه « ملك الملك » ، لأننا إذا دققنا جيدا فى أمر الملكية فإننا لن نجد مالكا إلا الله . « قل اللهم مالك الملك » إنه المتصرف فى ملكه ، وإياكم أن تظنوا أن أحدا قد حكم فى خلق الله بدون مراد الله ، ولكن الناس حين تخرج عن طاعة الله فإن الله يسلط عليهم الحاكم الظالم ، ولذلك فالحق سبحانه يقول فى حديثه القدسى :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (يطوى الله ـ عز وجل ـ السموات يوم القيامة ، ثم يأخذهن بيده اليمنى ، ثم يقول : أنا الملك ، أين الجبارون ؟ أين المتكبرون ؟ ثم يطوى الأرض بشماله ، ثم يقول : أنا الملك ، أين الجبارون ؟ أين المتكبرون)[1]

إياك أيها المؤمن أن تظن أن أحدا قد أخذ الملك غصبا من الله . إنما الملك يريده الله لمن يؤدب به العباد . وإن ظلم الملك فى التأديب فإن الله يبعث له من يظلمه ، ومن رأى ظلم هذا الملك أو ذاك الحاكم فمن الجائز أن يريه الله هذا الملك أو ذلك الحاكم مظلوما . إنه القول الحكيم يؤكد لنا أنه سبحانه وتعالى مالك الملك وحده .

إن الحق سبحانه يأمر رسوله الكريم : « قل اللهم مالك الملك » إن كلمة « اللهم » وحدها فيها عجب من العجائب اللغوية ، إن القرآن قد نزل باللسان العربى ، وأمة العرب فصيحة اللسان والبيان والبلاغة ، وشاء الحق أن يكون للفظ الجلالة « الله » خصوصية فريدة فى اللغة العربية .

إن اللغة العربية تضع قاعدة واضحة وهى ألا يُنادى ما فيه ، أداة التعريف ، مثل « الرجل » بـ «يا » فلا يقال : « يا الرجل » بل يقال : « يأيها الرجل » لكن اللغة

---

(١) رواه البخارى ومسلم وأبو داود وابن ماجه .

التى يسرها الله لعباده تخص لفظ الجلالة بالتقديس ، فيكون من حق العباد أن يقولوا : « يا ألله » . وهذا اللفظ بجلاله له تميز حتى فى نطقه .

ولنا أن نلحظ أن العرب من كفار قريش وهم أهل فصاحة لم يفطنوا إلى ذلك ، فكأن الله يرغم حتى الكافرين بأن يجعل للفظ الجلالة تميزا حتى فى أفواه الكافرين فيقولون مع المؤمنين : « يا الله » . أما بقية الأسماء التى تسبقها أداة التعريف فلا يمكن أن تقول : « يا الرجل » أو « يا العباس » لكن لابد أن تقول : « يأيها الرجل » ، أو « يا أيها العباس » ، ولا تقول حتى فى نداء النبى : « يا النبى » ، إنما تقول : « يأيها النبّى » .

لكن عند التوجه بالنداء إلى الله فإننا نقول : « يا الله » ، إنها خصوصية يلفتنا لها الحق سبحانه بأنه وحده المخصوص بها ، وأيضا ما رأينا فى لغة العرب عَلَمًا دخلت عليه « التاء » كحرف القسم إلا الله ، فإننا نقول « تا لله » ، ولم نجد أبدا من يقول « تزيد » أو « تعمرو » .

إننا لا نجد التاء كحرف قسم إلا فى لفظ الجلالة ، ولا نجد أيضا علما من الأعلام فى اللغة العربية تحذف منه « يا » فى النداء وتستبدل بالميم إلا فى لفظ الجلالة فنقول : « اللهم » كل ذلك ليدل على أن اللفظ فى ذاته له خصوصية المسمى . « قل اللهم » وكأن حذف حرف النداء هنا يُعلمنا أن الله هو وحده المستدعى بدون حرف نداء . « اللهم » وفى بعض الألسنة يجمعون الياء والميم ، مثل قول الشاعر :

إنى إذا ما حادث ألمّا
أقول يا لهم يا اللهمّا

إنها خصوصية لصاحب الخصوصية الأعلى . « قل اللهم مالك الملك » وقد يسأل إنسان لماذا لم يقل الحق : « ملك الملك » ؟ هنا لابد أن نعرف أنه سيأتى يوم لا تكون فيه أى ملكية لأى أحد إلا الله ، وهو المالك الوحيد ، فهو سبحانه يقول :

﴿ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ

ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة غافر)

إن قول الحق هنا : « مالك الملك » توضح لنا أن ملكية الله وهى الدائمة والقادرة واضحة ، وجلية ، ومؤكدة ، ولو قال الله فى وصف ذاته : « ملك الملك » لكان معنى ذلك أن هناك بشرا يملكون بجانب الله ، لا ، إنه الحق وحده مالك الملك . ومادام الله هو مالك الملك ، فإنه يهبه لمن يشاء ، وينزعه ممن يشاء . وهنا نلاحظ أن قول الحق : إنه مالك الملك يعطى الملك لمن يشاء وينزع الملك ممن يشاء تأتى بعد عملية المحاجّة ، وبعد أن تهرب بعض من أهل الكتاب من تطبيق حكم الله بعد أن دعوا إليه ، فتولى فريق منهم وأعرض عن حكم الله ، وعللوا ذلك بادعاء أنهم أبناء الله وأحباؤه وأن النار لن تمسهم إلا أياما معدودات .

كل هذه خيارات من لطف الله وضعها أمام هؤلاء العباد ، خيارات بين اتباع حكم الله أو أتباع حكم الهوى ، لكنهم لم يختاروا إلا الاختيار السيىء ، حكم الهوى . ولذلك يأتى الله بخبر اليوم الذى سوف يجىء ، ولن يكون لأحد أى قدرة ، أو اختيار . إن حق الاختيار موجود لنا فى هذه الدنيا ، وعلينا أن نحسن الاختيار فى ضوء منهج الله .

ولنتأمل هذا المثل الذى حدثتنا عنه السيرة النبوية الطاهرة ، حينما جاءت غزوة الأحزاب التى اجتمع فيها كل خصوم الدعوة ، واشتغل اليهود بالدس والوقيعة ، وأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحفر بمشورة سلمان الفارسى خندقا حول المدينة المنورة . ومعنى « الخندق » ، أى مساحة من الأرض يتم حفرها بما يعوق التقدم . وكان المقاتلون يعرفون أن الفرس يستطيع أن يقفز مسافة ما من الأمتار .

لقد حاول المؤمنون أثناء حفر الخندق أن يكون اتساعه أكبر من قدرة الخيل ، ولننظر إلى دقة الإدارة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إن سلمان الفارسى قد اقترح أن يتم حفر الخندق ، وفيما يبدو أنه قد أخذ الفكرة من بيئته وقبل الرسول صلى الله عليه وسلم الفكرة وأقرها ، وفعلها المسلمون .

إذن فليس كل ما فعله الكفار كان مرفوضا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم قبل تطبيق كل الأعمال النافعة ، سواء أكان قد فعلها الكفار من قبل أم لا ، ورأى الرسول صلى الله عليه وسلم أن عملية الحفر مرهقة بسبب جمود الأرض وصخريتها فى بعض المواقع ، لذلك وضع حصة قدرها أربعون ذراعا لكل عشرة من الصحابة ، وبذلك وزع الرسول الكريم العمل والمسئولية ، ولم يترك الأمر لكل جماعة خشية أن يتواكلوا على غيرهم .

وتوزيع المسئولية يعنى أن كل جماعة تعرف القدر الواضح من العمل الذى تشارك به مع بقية الجماعات وقد يسأل سائل : ولماذا لم يوزع الرسول صلى الله عليه وسلم التكليف لكل واحد بمفرده ؟ ونقول : إنها حكمة الإدارة والحزم هى التى جعلت الرسول صلى الله عليه وسلم يتعرف على حقيقة واضحة ، وهى أن الذين يحفرون من الصحابة ليسوا متساوين فى القدرة والمجهود ، لذلك أراد لكل ضعيف أن يكون مسنودا بتسعة من الصحابة .

إن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يجعل الأمر مشاعا ، بل كان هناك تحديد للمسئولية ، لكنه لم يجعل المسئولية مشخصة تشخيصا أوليا ومحددا بكل فرد ، وذلك حتى يساعد الأقوياء الضعيف من بينهم . لقد ستر رسول الله صلى الله عليه وسلم الضعيف بقوة إخوانه ، وساعة أن يوجد ضعيف بين عشرة من الإخوان يحملون عنه ويحفرون ، فإن موقفه من أصحابه يكون المحبة والألفة ، ويكون القوى قد أفاض على الضعيف .

وكان عمرو بن عوف ضمن عشرة منهم سلمان الفارسى رضى الله عنه ، فلما جاءوا ليحفروا صادفتهم منطقة يقال عنها : « الكئود » ، ومعنى « الكئود » هى المنطقة التى تكون صلبة أثناء الحفر ، فالحافر إذا ما حفر الأرض قد يجد الأرض سهلة ويواصل الحفر ، أما إذا صادفته قطعة صلبة فى الأرض فإنه لا يقدر عليها بمعوله لأنها صخرية صماء ، فيقال له : « أكدى الحافر » . وعندما صادف عمرو بن عوف وسلمان الفارسى والمغيرة وغيرهم هذه الصخرة الكئود ، قالوا لسلمان : « اذهب فارفع أمرنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم » . ومن هذا نتعلم درسا وهو أن المُكَلَّفَ مِنْ قِبل مَنْ يكلفه بأمر إذا وجد شيئا يعوقه عن أداء المهمة فلابد أن يعود إلى من كلفه بها .

وذهب سلمان الفارسى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحضر رسول الله

صلى الله عليه وسلم مع سلمان إلى الموقع وأخذ المعول وجاء على الصخرة الكئود وضربها ، فحدث شرر أضاء من فرط قوة الاصطدام بين الحديد والصخرة ، فهتف رسول الله صلى الله عليه وسلم : الله أكبر فُتِحَتْ قصور بصري بالشام ، ثم ضرب ضربة أخرى ، وقال الرسول صلى الله عليه وسلم : الله أكبر فُتِحَتْ قصور الحمراء بالروم . وضرب ضربة ثالثة وقال : الله أكبر ، فُتِحَتْ قصور صنعاء باليمن ، فكأنه حين ضرب الضربة أوضح الله له معالم الأماكن التى سوف يدخلها الإسلام فاتحا ومنتصرا ، فلما بلغ ذلك القول أعداء رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الأعداء للصحابة : يمنيكم محمد بفتح قصور صنعاء فى اليمن ، والحمراء فى الروم ، وفتح قصور بصرى ، وأنتم لا تستطيعون أن تبرزوا لنا للقتال فأنزل الله قوله : « قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء . . . » .

إن المسألة ليست عزما من هؤلاء المؤمنين ، إنما هى نية على قدر الوسع ، فإن فعلت أى فعل على النية بقدر الوسع فانتظر المدد من الممد الأعلى سبحانه وتعالى .

إن الله سبحانه هو الذى يعطى الملك ، وهو الإله الحق الذى ينزع ملك الكفر فى كسرى والروم وصنعاء ، يعطى سبحانه الملك لمحمد رسول الله وأصحابه ، وينزعه من قريش ، وينزع الملك من يهود المدينة حيث كانوا يريدون الملك .

إن قول الحق : « وتنزع الملك ممن تشاء » تجعلنا نتساءل : ما النزع ؟ إنه القلع بشدة ، لأن الملك عادة ما يكون متمسكا بكرسى الملك ، متشبثا به ، لماذا ؟ لأن بعضا ممن يجلسون على كراسى السلطان ينظرون إليه كمغنم بلا تبعات فلا عرق ولا سهر ولا مشقة أو حرص على حقوق الناس ، إنهم يتناسون سؤال النفس « وماذا فعلت للناس » ؟ إن الواحد من هؤلاء لا يلتفت إلى ضرورة رعاية حق الله فى الخلق فيسهر على مصالح الناس ويتعب ويكد ويشقى ويحرص على حقوق الناس .

إننا ساعة نرى حاكما متكالبا على الحكم ، فلنعلم أن الحكم عنده مغنم ، لا مغرم . ولنر ماذا قال سيدنا عمر بن الخطاب عندما قالوا له : إن فقدناك - ولا نفقدك - نولى عبدالله بن عمر ، وهو رجل قرقره الورع . . فقال عمر ابن الخطاب رضى الله عنه : بحسب آل الخطاب أن يُسأل منهم عن أمة محمد رجل واحد ، لماذا ؟ لأن الحكم فى الإسلام مشقة وتعب .

لقد جاء الحق بالقول الحكيم : « وتنزع الملك ممن تشاء » وذلك لينبهنا إلى هؤلاء المتشبثين بكراسى الحكم وينزعهم الله منها ، إن المؤمن عندما ينظر إلى الدول فى عنفوانها وحضاراتها وقوتها ونجد أن المُلك فيها يسلب من الملك فيها على أهون سبب . لماذا ؟ إنها إرادة الخالق الأعلى ، فعندما يريد فلا راد لقضائه .

إن الحق إما أن يأخذ الحكم من مثل هذا النوع من الحكام ، وإما أن يأخذه هو من الحكم ، ونحن نرى كل ملك وهو يوطن نفسه توطينا فى الحكم ، بحيث يصعب على من يريد أن يخلعه منه أن يخلعه بسهولة ، لكن الله يقتلع هذا الملك حين يريد سبحانه .

وبعد ذلك يقول الحق : « وتعز من تشاء وتذل من تشاء » لأن ظواهر الكون لا تقتصر على من يملك فقط ، ولكن كل ملك حوله أناس هم « ملوك ظل » . ومعنى « ملوك الظل » أى هؤلاء الذين يتمتعون بنفوذ الملوك وإن لم يكونوا ظاهرين أمام الناس ، ومن هؤلاء يأتى معظم الشر . إنهم يستظلون ويستترون بسلطان الملك ، ويفعلون ما يشاءون ، أو يفعل الآخرون لهم ما يأمرون به ، وحين يُنزع الملك فلاشك أن المغلوب بالظالمين يعزه الله ، وأما الظالمون لأنفسهم فيذلهم الله ؛ لذلك كان ولابد أن يجىء بعد « تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء » هذا القول الحق : « وتعز من تشاء وتذل من تشاء » . لماذا ؟ لأن كل ملك يعيش حوله من يتمتع بجاهه ونفوذه ، فإذا ما انتهى سلطان هذا الملك ، ظهر هؤلاء المستمتعون على السطح . وهذا نشاهده كل يوم وكل عصر . « وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير » .

ونلاحظ هنا : أن إيتاء الملك فى أعراف الناس خير . ونزع الملك فى أعراف الناس شر . ولهؤلاء نقول : إن نزع الملك شر على من خُلِعَ منه ، ولكنه خير لمن أوتى الملك . وقد يكون خيرا لمن نزع منه الملك أيضا . لأن الله حين ينزع منه الملك ، أو ينزعه من الملك يخفف عليه مؤونة ظلمه فلو كان ذلك الملك المخلوع عاقلا ، لتقبل ذلك وقال : إن الله يريد أن يخلصنى لنفسه لعلى أتوب . .

إذن فلو نظرت إلى الجزئيات فى الأشخاص ، ونظرت إلى الكليات فى العموم لوجدت أن ما يجرى فى كون الله من إيتاء الملك وما يتبعه من إعزاز ، ثم نزع الملك

وما يتبعه من إذلال ، كل ذلك ظاهرة خير فى الوجود ، لذلك قال الحق هنا : « بيدك الخير » ولو دقق كل منا النظر إلى مجريات الأمور ، لوجد أن : الله هو الذى يؤتى ، والله هو الذى ينزع ، والله هو الذى يعز ، والله هو الذى يذل ، ولابد أن يكون فى كل ذلك صور للخير فى الوجود ، فيقول : « بيدك الخير إنك على كل شىء قدير » .

إن إيتاء الملك عملية تحتاج إلى تحضير بشرى وبأسباب بشرية ، وأحيانا يكون الوصول إلى الحكم عن طريق الانقلابات العسكرية ، أو السياسية ، وكذلك نزع الملك يحتاج إلى نفس الجهد .

إن الحق سبحانه وتعالى يوضح لنا المعنى فيقول : ليس ذلك بأمر صعب على قدرتى اللا نهائية ، لأننى لا أتناول الأفعال بعلاج ، أو بعمل ، إنما أنا أقول : « كن » فتنفعل الأشياء لإرادتى ، ويأتى الحق بعد ذلك ليدلل بنواميس الكون وآيات الله فى الوجود على صدق قضية « إنك على كل شىء قدير » فيقول وقوله الحق :

﴿ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾ ﴾

إن الحق يقول لنا : عندكم ظاهرة تختلف عليكم ، وهى الليل والنهار ، وظاهرة أخرى ، هى الحياة والموت . إن ظاهرة الليل والنهار كلنا نعرفها لأنها آية من الآيات العجيبة ، والحق يقول عنها : « تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل » إن الحق لم يصنع النهار بكمية محدودة من الوقت متشابهة فى كل مرة ، لا ، إنه سبحانه شاء لليل أن ينقص أحيانا عن النهار خمس ساعات ، وأحيانا يزيد النهار على الليل خمس ساعات .

ولنا أن نتساءل . . هل تنقص الخمس الساعات من الليل أو النهار مرة واحدة وفجأة ؟ هل يفاجئنا النهار بعد أن يكون اثنتى عشرة ساعة ليصبح سبع عشرة ساعة ؟ هل يكون الليل مفاجئاً لنا فى الطول أو القصر ؟ لا ، إن المسألة تأتى تباعا ، بالدورة ، بحيث لا تحس ذلك ، إن هناك نوعا من الحركة اسمها الحركة الترسية . إننا عندما ننظر إلى الساعة التى تدور نجد أن دورتها تعتمد على التروس ، فهل يمشى عقرب الساعة فى كل الزمن ؟ لا ، إن كل ترس له زمن يتوقف فيه ، وعندما يتوقف فإننا ندفع به ليعيد دورته ، ويعمل ، وإذا دققنا النظر فى عقرب الدقائق فإننا نستطيع أن نلحظ ذلك .

إذن هناك فترة توقف وسكون بين انتقال عقرب الدقائق من دقيقة إلى أخرى ، وهذا اللون من الحركة نسميه « حركة ترسية » ، وهناك حركة أخرى ثانية ، نسميها « حركة انسيابية » ، بحيث يكون كل جزء من الزمن له حركة ، كما يحدث الأمر فى ظاهرة النمو بالنسبة للإنسان والنبات والحيوان .

إن الطفل الوليد لا يكبر من الصباح إلى المساء بشكل جزئى ، أو محسوس ، إنه يكبر بالفعل دون أن نلحظ ذلك ، وقد يزيد بمقدار ملليمتر فى الطول ، وهذا الملليمتر شائع فى كل ذرات الثوانى من النهار ، إن الطفل لا يظل على وزنه وطوله أربعا وعشرين ساعة من النهار ، ثم يكبر فجأة عند انتهاء اليوم ، لا ، إن نمو الطفل كل يوم يتم بطريقة تشيع فيها قدرة النمو فى كل ذرات الثوانى من النهار ، وهذه العملية تحتاج إلى الدقة المتناهية فى توزيع جزئيات الحدث على جزئيات الزمان ، وهذه هى العظمة للقدرة الخالقة التى يظل الإنسان عاجزا عنها إلى الأبد .

وقد قلت لكم مرة : إن الواحد منكم إن نظر إلى ابنه الوليد ، وظل ناظرا له طوال العمر فلن يلحظ الإنسان منكم كبر ابنه على الإطلاق ، لكن عندما يغيب الإنسان عن ابنه شهرا أو شهورا ، ثم يعود ، هنا يرى فى ابنه مجموع نمو الشهور التى غاب فيها عنه وقد أصبح واضحا . ولو زرع الإنسان نباتا ما ، وجلس ينظر إلى هذا النبات ، فهو لن يرى أبدا نمو هذا النبات لماذا ؟ لأن الجزئيات تكبر دون قدرة على أن يلمس الإنسان طريقة نموها .

ولنا أن نعرف أن كل ما يكبر إنما يصغر أيضا ، ولا توجد عند الإنسان قدرة

للملاحظة المباشرة لذلك ، وفى الحياة أمثلة أخرى ، نأخذ منها هذا المثل ، فعندما قام العلماء بتصوير الأرض من الأقمار الصناعية ، كانت الصور الأولى لمدينة نيويورك هى صورة لنقطة بسيطة ، وعندما قام العلماء بتكبير هذه الصور ظهرت الجزئيات ، كالشوارع وغيرها ، أين كانت الشوارع فى هذه النقطة الصغيرة ؟ لقد صغرت الشوارع أثناء التصوير بصورة تستحيل معها على آلات الإدراك عند الإنسان أن تراها ، ولذلك فلابد من التكبير لهذه الصور حتى يمكن للإنسان أن يراها ، ونحن نرى الشيء البعيد صغيرا ، ولكما قربناه كبر فى نظرنا .

إذن فقول الله : « تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل » هو لفت للانتباه البشرى إلى أن الليل والنهار لا يفصل بينهما حد قاطع بنسبة متساوية لكل منهما ، لا ، إنه الحق بقدرته يدخل الليل فى النهار ، ويدخل النهار فى الليل . إن معنى « تُولج » هو « تُدخل » ، ومثال ذلك أن يؤذن المؤذن لصلاة المغرب فى يوم ما عند الساعة الخامسة ، ويؤذن المؤذن لصلاة المغرب فى أيام أخرى فى الساعة السابعة . إن ذلك لا يحدث فجأة ، ولا يقفز المغرب من الخامسة إلى السابعة ، إنما يحدث ذلك بانسيابية ، ورتابة . ومن ذلك نتلقى الدرس والمثل .

إنك أيها العبد إن رأيت ملكا قائما على حضارة مؤصلة ، فاعلم أن هناك عوامل دقيقة لا تراها بالعين تنخر فى هذا الملك إلى أن يأتى يوم ينتهى فيه هذا الملك . وهكذا تنهار الحضارات بعد أن تبلغ أوج الارتقاءات ، ويصل الناس فيها إلى استعدادات ضخمة وإمكانات هائلة ، وذلك لأن عوامل الانهيار تنخر داخل هذه الحضارات .

إن الحق يلفتنا إلى جلال قدرته وعظمة دقة صنعه ، بمثل الليل والنهار : « تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل » . ثم يأتى لنا الحق الأعلى بمثل آخر ، فيقول : « وتخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى » ، إنها القدرة المطلقة بدون أسباب .

والوقفة هنا تجعلنا نرى كيف اهتدينا بما أفاض الله على بعض خلقه من اكتشاف لبعض أسراره فى كونه ، لقد وصل العلم لمعرفة أن لكل شيء حياة خاصة ، فنرى أن ورقة النبات تحدث فيها تفاعلات ولها حياة خاصة ، ونرى أن الذرة فيها تفاعلات

ولها حياة خاصة ، والتفاعل معناه الحركة ، والحياة كما تعرف مظهرها الحركة ، وغاية ما هناك أنه يوجد فرق فى رؤية الحياة عند العامة ، ورؤية الحياة عند الخاصة . إن الإنسان العامى لا يعرف أن النطفة فيها حياة ، وأن الحبة فيها حياة ، ولا يعرف ذلك إلا الخاصة من أهل العلم .

إن العامة من الناس لا يعرفون أن الحبة توجد لها حياة مرئية ، ويكمن فيها نمو غير ظاهر ، ولا يعرف العامة أن هناك فرقا بين شيء حى ، وشيء قابل لأن يحيا . ومثال ذلك نواة البلح التى نأخذها ونزرعها لتخرج منها النخلة ، إنها كنواة تظل مجرد نواة إلى أن يأخذها الإنسان ، ويضعها فى بيئتها ؛ لتخرج منها النخلة .

إذن فالنواة قابلة للحياة ، وعندما ننظر إلى ذرات التراب فإننا لا نستطيع أن نضعها فى بيئة لنصنع منها شيئا ، ورغم ذلك فإن لذرة التراب حركة . ويقول العلماء : إن الحركة الموجودة فى ذرات رأس عيدان علبة كبريت واحدة تكفى لإدارة قطار كهربائى بإمكانه أن يلف حول الكرة الأرضية عددا من السنوات .

إن هذه أمور يعرفها الخاصة ، ولا يعرفها العامة . فإن نظرنا إلى العامة عندما يسمعون القول الحق : « وتخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى » كانوا يقولون : إن المثل على ذلك نواة البلح ، وكانوا يعرفون أن النخلة تنمو من النواة . ولكن الخاصة بحثوا واكتشفوا أن فى داخل النواة حياة وعرفوا كيفية النمو . . وعرف العلماء أن لكل شيء فى الوجود حياة مناسبة لمهمته . . فليست الحياة هى الحركة الظاهرة والنمو الواضح أمام العين فقط ، لا ، بل إن هناك حياة فى كل شيء .

إن العامة يمكنهم أن يجدوا المثال الواضح على أن الحق يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ، أما الخاصة فيعرفون قدرة الله عن طريق معرفتهم أن كل شيء فيه حياة ، فالتراب الذى نضع فيه البذر لو أخذنا بعضا منه فى مكان معزول ، فلن يخرج منه شيء ، هذا التراب هو ما يصفه العلماء بوصف « الميت فى الدرجة الأولى » وأما النواة التى يمكن أن تأخذها وتضعها فى هذا التراب ، فيصفها العلماء بأنها « الميت من الدرجة الثانية » .

وعندما ننقل الميت فى الدرجة الأولى ليكون وسطا بيئيا للميت فى الدرجة الثانية

تظهر لنا نتائج تدلل على حياة كل من التراب والنواة معا ، وقد مس القرآن ذلك مسا دقيقا ، لأن القرآن حين يخاطب بأشياء قد تقف فيها العقول فإنه يتناولها التناول الذى تتقبلها به كل العقول ، فعقل الصفوة يتقبلها ، وعقل العامة يتقبلها أيضا ؛ لأن القرآن عندما يلمس أى أمر إنما يلمسه بلفظ جامع راق يتقبله الجميع ، ثم يكتشف العقل البشرى تفاصيل جديدة فى هذا الأمر .

إن القرآن على سبيل المثال لم يقل لنا : إن الذرة فيها حركة وحياة وفيها شحنات من لون معين من الطاقة ، ولكن القرآن تناول الذرة وغيرها من الأشياء بالبيان الإلهى القادر ، وخصوصا أن هذه الأشياء لن يترتب عليها خلاف فى الحكم أو المنهج . فلو عرف الإنسان وقت نزول القرآن أن الذرة بها حياة فماذا الذى يزيد من الأحكام ؟ ولو أن أحدا أثبت أن الذرة ليس بها حياة ، فما الذى ينقص من أحكام المنهج الإيمانى ؟ لم يكن الأمر من ناحية الأحكام ليزيد أو لينقص ، وعندما نأخذ القرآن مأخذ الواعين به ، ونفهم معطيات الألفاظ فإننا نجد أن كلمة « الحياة » لها ضد هو « الموت » ، وقد ترك الحق سبحانه كلمة « الموت » فى بعض المواقع من الكتاب الكريم وأورد لنا كلمة أخرى هى « الهلاك » قال الحق سبحانه :

﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

(من الآية ٤٢ من سورة الأنفال)

إن « الهلاك » هنا هو مقابل الحياة ، لماذا لم يورد الحق كلمة « الموت » هنا ؟ لأنه الخالق الأعلم بعباده ، يعلم أن العباد قد يختلفون فى مسألة « الموت » فبعض منهم يقول تعريفا للميت : إنه الذى لا توجد به حركة أو حس أو نمو ، ولكن هذا الميت له حياة مناسبة له ، كحياة الذرة أو حياة حبة الرمل ، أو حياة أى شىء ميت ، وهكذا عرفنا من الآية السابقة أن الحياة يقابلها الهلاك . ويقول الحق سبحانه عن الآخرة ليوضح لنا ما الذى سوف يحدث يوم القيامة :

﴿ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾

(الآية ٨٨ من سورة القصص)

لقد استثنى الحق الوجه أو الذات الإلهية ، وكل ما عداها هالك . ومادام كل شيء هالكا فمعنى ذلك أن كل شيء كان حيا وإن لم ندرك له حياة . إذن فالحياة الحقيقية توجد فى كل شيء بما يناسبه ، مرة تدركها أنت ، ومرة لا تدركها .

إذن فقوله الكريم : « وتخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى » يجوز أن تأخذه مرة بالعرف العام ، أو تأخذه بالعرف الخاص ، أى عرف العلماء ، ومادام ذلك أمرا ظاهرا فى الوجود كولوج الليل فى النهار ، وولوج النهار فى الليل ، أى أن الحق يدخل النهار فى الليل ، ويدخل الليل فى النهار . وفى اللغة يسمون بطانة الرجل - أى خاصة أصدقائه - « الوليجة » لماذا ؟ لأنها تتداخل فيه ، لأنك إن أردت أن تعرف سر واحد من البشر فاجلس مع صديق له أو عددٍ من أصدقائه الذين يتداخلون معه .

لذلك جاء أمر إيلاج الليل فى النهار وإيلاج النهار فى الليل بالوضوح الكامل ، وجاءت مسألة الحياة والموت بألفاظ يمكن أن يفهمها كل من العامة والخاصة . وإذا كانت تلك الظواهر هى بعض من قدرات الله فمن إذن يستكثر على الله قدرته فى أنه يؤتى الملك من يشاء ، ويعز من يشاء ، وينزع الملك ممن يشاء ، ويذل من يشاء ؟ لقد جاء الدليل من الآيات الكونية ، ونراه كل يوم رأى العين . « قل اللهم مالك الملك . . تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير » . إنك أنت يا الله ، الذى أجريت فى كونك كل هذه المسائل وهى كلها أمور من الخير ، وإن بدا للبعض أن الخير فيها غير ظاهر .

إن الإنسان عندما يرى فى ابنه شيئا يحتاج إلى علاج فإنه يسرع به إلى الطبيب ويرجوه أن يقوم بكل ما يلزم لشفاء الابن ، حتى ولو كان الأمر يتطلب التدخل الجراحى . إن الأب هنا يفعل الخير للابن ، والابن قد يتألم من العلاج ، فإذا كان هذا أمر المخلوق فى علاقته بالمخلوق ، فما بالنا بالخالق الأكرم الذى يجرى فى ملكه ما يشاء ، إيتاء ملك أو نزعه ، وإعزازا أو إذلالا ، فكل ذلك لابد أن يكون من الخير ، وآيات الله تشهد بأن الله على كل شيء قدير لذلك يأتى بعد الآية السابقة قوله :

﴿ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

فإذا كان هناك إنسان لم يفطن أبدا لمسألة إيلاج الليل فى النهار أو إخراج الحى من الميت ، فإنه لابد أن يلتفت إلى رزقه ، فكل واحد منا يتصل برزقه قهرا عنه ، ولذلك جاء الحق سبحانه بهذا الأمر الواضح : « وترزق من تشاء بغير حساب » وساعة تسمع كلمة « حساب » فإنك تعرف أن الحساب هو كما قلنا سابقا : يبين لك مالك وما عليك .

وعندما نتأمل قول الحق : « وترزق من تشاء بغير حساب » . فإننا نعلم أن « الحساب » يقتضى « محاسبا » ـ بكسر السين ويقتضى « محاسبا » ـ بفتح السين ويقتضى « محاسبا عليه » ، إن الحساب يقتضى تلك العناصر السابقة . فعندما يقول الحق : « وترزق من تشاء بغير حساب » فلنا أن نقول : ممن ؟ ولمن ؟ من أين يأتى الرزق ؟ وإلى أين ؟ إنه يأتى من الله ، ويذهب إلى ما يقدره الله لأن الله هو الرزّاق ، وهو الحق وحده ، وهو الذى لا يستطيع ولا يجرؤ أحد على حسابه ، فهو سبحانه الذى يحاسبنا جميعا ، لا شريك له ، وهو الفعال لما يريد .

إن الحساب يجريه الله على الناس ، وهو سبحانه لا يعطى الناس فقط على قدر حركتهم فى الوجود ، بل يرزقهم أحيانا بما هو فوق حركتهم . وقد يرزقك الله من شىء لم يكن محسوبا عندك ، لأن معنى الحساب هو ذلك الأمر التقديرى الذى يخطط له الإنسان ، كالفلاح الذى يحسب عندما يزرع الفدان ويتوقع منه نتاجا يساوى كذا إردبا أو قنطارا ، أو الصانع الذى يقدر لنفسه دخلا محددا من صنعته . هذا هو الحساب ، لكن الإنسان قد يلتفت فيجد أن عطاء الله له من غير حساب . وقد يحسب الإنسان مرة ولا يأتى له الرزق .

مثال ذلك : قالوا : إن دولة أعلنت أنها زرعت قمحا يكفى الدنيا كلها ، ولكن عندما نضج المحصول هبت عاصفة أهلكت الزرع ، وأكلت هذه الدولة قمحها من

الخارج . فمن قالوا عن أنفسهم : إنهم سيطعمون الناس أطعمهم الناس . أليس ذلك مصداقا لقول الحق : « من غير حساب » ؟ إنه الحق سبحانه لا يحسب حركتك أيها الإنسان ليعطيك قدرها ، ولكنه قد يعطيك أحيانا فوق حركتك .

ونحن نرى إخوتنا الذين أفاض الله عليهم بثروة البترول ، لقد تفجر البترول من تحت أرجلهم دون جهد منهم ، إنه الله يريد أن يلفت الناس إلى قدرته جل وعلا، وأن الأرزاق فى يده هو . وننظر إلى الناس الذين يشيرون إلى منطقة البترول فيتهمون أهلها بالكسل ، ونجد أن الحق سبحانه وتعالى قد سخر لهم غير الكسالى ليخدموهم ، وعندما أفاء على المنطقة العربية بالبترول احتاجت لهم الدول التى تقول عن نفسها : إنها متقدمة ، إنه رزق بغير حساب .

إن هذه اللفتات إنما تؤكد للمؤمن طلاقة القدرة ، إن الحق قد خلق الأسباب ، ولم يترك الأسباب تتحكم وحدها ، وقد يترك الحق الأسباب للإنسان ليعمل بها ، وقد لا يعطيه منها ، ويعطى الحق الإنسان من جهة أخرى لم يحسب لها حسابا . والإنسان الذى يتأمل تقدير أموره أو أمور من يعرف يجد أن تلك القضية منتشرة فى كل الخلق ، إنه سبحانه يرزق بغير حساب ، ولا يقول : « لقد فعلت على قدر يساوى كذا » . والحق سبحانه يعطى بغير حساب من الإنسان ، لأن الموازنة التى قد يقوم بها الإنسان قد يأتى لها من الأسباب ما يخرقها .

إذن « وترزق من تشاء بغير حساب » تعنى قدرة الحق المطلقة على الرزق بغير حساب ولا توجد سلطة أعلى منه تقول له : لماذا فعلت ؟ أو ماذا أعطيت ؟ أو من غير حساب منه سبحانه لخلقه ، فيأتى الرزق على ما هو فوق أسباب الخلق ، أو من غير حساب للناس المرزوقين فيأتى رزقهم من حيث لم يقدروا ، فإذا كانت كل هذه الأمور لله ، وهو مالك الملك ويعطى من يشاء ، ويعز من يشاء ، ويولج الليل فى النهار ، ويرزق من يشاء بغير حساب ، أليس من الحمق أن يذهب إنسان ليوالى من لا سلطان له ويترك هذا السلطان ، إن من يوالى غير الله هو الذى استبد به الغباء . ولنفطن لتلك القضية الإيمانية : أى فمادامت كل الأمور عندى فإياكم أن توالوا خصومى، لأننى أنا الذى بيده كل شىء ، هاهوذا القول الحق :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ

قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾

(سورة آل عمران)

إنه الحق يأمرنا ألا نوالى إلا الله ، فإن كنت تجرى حسابا لكل شىء وبتقدير مؤمن فلا توال إلا صاحب هذه الأشياء ، وإياك أن تعمد إلى عدو لهذه القوة القاهرة القادرة المستبدة فى كل أمور الكون ونواميسه ، إياك أن تعمد إلى أعداء الله لتتخذ منهم أولياء ، لأنك لو فعلت تكون غير صائب التفكير .

﴿ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ ﴾

أنت لا تتخذ الكافر وليا إلا إن بانت لك مظاهر القوة فيه ، ومظاهر الضعف فيك ، إنك عندما تتأمل معنى كلمة « ولى » . تجد أن معناها « معين » وحين تقول : « الله هو الولى » فإننا نستخدم الكلمة هنا على إطلاقها ، إن كلمة الولى تضاف إلى الله على إطلاقها ، وتضاف بالنسبية والمحدودية لخلق الله ، فالحق يقول :

﴿ ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ ﴾

(من الآية ٢٥٧ من سورة البقرة)

إن الله ولى على إطلاقه ، والحق يقول :

﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾

(سورة يونس)

إن المفرد لأولياء الله هو « ولى الله » ، فالمؤمن ولى الله ، والحق يقول :

﴿ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾ ﴾

(سورة الكهف)

هكذا نلاحظ أن الولاية قد تضاف مرة إلى الله ، ومرة إلى خلق الله . إن الله ولى المؤمن ، وهذا أمر مفهوم ، وقد نتساءل : كيف يكون المؤمن ولى الله ؟ إنا نستطيع أن نفهم هذا المعنى كما يلى : إن الله هو المعين للعباد المؤمنين فيكون الله ولى الذين آمنوا ، أى معينهم ومقويهم . وأولياء الله ، هم الذين ينصرون الله ، فينصرهم الله ، وهو ـ سبحانه ـ الحق الذى قال :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ ﴾

(سورة محمد)

ألم يكن الله قادرا أن ينتقم من الكفار مرة واحدة وينتهى من أمرهم ؟ ولكن الحق سبحانه قال :

﴿ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ ﴾

(سورة التوبة)

إن الحق لو قاتلهم فإن قتاله لهم سيكون أمرا خفيا ، وقد يقولون : إن هذه مسائل كونية فى الوجود ، لذلك يأتى بالقتال للمؤمنين الذين استضعفهم الكافرون . إذن مرة تُطلق « الولى » ويراد بها « المعين » . ومرة أخرى تُطلق كلمة « الولى » ويراد

بها « المعان » لأنك إن كنت أنت ولى الله ، والله وليك فإنه الحق سبحانه « معين » لك وأنت « معان » .

إن الحق سبحانه يريد لمنهجه أن يسود بإيمان خلقه به ، وإلا لكان الحق سبحانه وتعالى قد استخدم طلاقة قدرته على إرغام الناس على أن يكونوا طائعين ، فلا أحد بقادر على أن يخرج عن قدرة الله ، والإنسان عليه أن يفكر تفكيرا واضحا ، ويعرف أن حياته بين قوسين : بين قوس ميلاده وقوس وفاته ، ولا يتحكم الإنسان فى واحد من القوسين ، فلماذا يحاول التحكم فى المسافة بين القوسين ؟ إذن القواميس الكونية بيد الله وتسير كالساعة ، إنه سبحانه يقول :

﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾

(سورة غافر)

إن شيئا لم يخرج عن مراد الخالق الأعظم . إنما الحق سبحانه وتعالى أخذ هذه المسائل فى حركة السماوات والأرض بقوة قهره وقدرة جبروته ، فلا شىء يخرج من يده ، أما بالنسبة للعباد فهو سبحانه يريد أن يأخذ قوما بحب قلوبهم . إن الإيمان طريق متروك لاختيار الإنسان ، صحيح أن الحق قادر على أن يأتى بالناس مؤمنين ، ولكنه يريد أن يرى من يجىء إليه وهو مختار ألا يجىء .

إن تسخير الأشياء يظهر لنا صفة القدرة الكاملة لله ، واختيارات الإنسان هى التى تظهر صفة المحبوبية لله ، والله يريد لنا أن نرى قدرته ، ويريد منا أن نتجه إليه بالمحبوبية لذلك يقول الحق : « لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين » لماذا ؟ لأن الكافرين وإن تظاهروا أنهم أولياء لك أيها المؤمن ، فهم يحاولون أن يجعلوك تستنيم لهم ، وتطمئن إليهم وربما تسللوا بلطف ودقة ، فدخلوا عليك مدخل المودة ، وهم ليسوا صادقين فى ذلك ، لأنهم ماداموا كافرين ، فليس هناك التقاء فى الأصل بين الإيمان والكفر ؛ لذلك يقول الحق : « ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شىء » .

إن من يتخذ هؤلاء أولياء له ، فليس له نصيب من نصرة الله ، لماذا ؟ لأنه اعتقد

أن هؤلاء الكافرين قادرون على فعل شيء له . لذلك يحذرنا الله ويزيد المعنى وضوحا أى : إياكم أن تغتروا بقوة الكافرين وتتخذوا منهم أولياء . ولا تقل أيها المؤمن : « ماذا أفعل ؟ » لأن الله لا يريد منك إلا أن تبذل ما تستطيع من جهد ، ولذلك قال سبحانه :

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾

(سورة الأنفال)

إن الحق لم يقل : « أعدوا لهم ما تغلبونهم به » ، ولكنه قال : « أعدوا لهم ما استطعتم » . إن على المؤمن أن يعمل ما فى استطاعته ، وأن يدع الباقى لله ، ولذلك فهناك قضية قد يقف فيها العقل ، ولكن الله يطمئننا ؛ أى : لا تخافوا ولا تظنوا أن أعدادهم الكبيرة قادرة على أن تهزمكم ، ولا تسأل : « ماذا أفعل يا الله » ؟ لقد علمنا الحق ألا نقول ذلك ، وعلمنا ما يحمينا من هذا الموقف لذلك قال :

﴿ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾

(من الآية ١٢ من سورة الأنفال)

إذن فساعة يلقى الله فى قلوب الذين كفروا الرعب فماذا يصنعون مهما كان عددهم أو عدتهم ؟ أليس فى ذلك نهاية للمسألة ؟ إن الرعب هو جندى ضمن جنود الله ، ولذلك فعلى المؤمن ألا يوالى الكافرين من دون المؤمنين ، لماذا ؟ حتى لا ينطبق عليه القول الحق : « ومَن يفعل ذلك فليس من الله فى شيء » ويضع الحق بعد ذلك الاستثناء : « إلاّ أن تتقوا منهم تقاة ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير » .

إن الحق سبحانه وتعالى يعطى المنهج للإنسان وهو من خلقه سبحان ، ويعرف كل غرائزه ، وانفعالاته ، وفكره ، وفى أنه قد تأتى له ظروف أقوى من طاقته ، لذلك

يعامل الحق الإنسان على أنه مخلوق محدود القدرات ، وفى موضع آخر جاء الحق باستثناء آخر فقال :

﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة الأنفال)

إن الحق يقول فى هذا الموضع من سورة آل عمران : لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شىء ، إلا أن تتقوا منهم تقاة .

« وتقاة » مأخوذة من « الوقاية » . إنهم قد يكونون أقوياء للغاية ، وقد لا يملك المؤمن بغلبه الظن فى أن ينتصر عليهم ؛ وهم الكافرون ، فلا مانع من أن يتقى المؤمن شرهم .

إن التقية رخصة من الله ، روى : أن مسيلمة الكذاب جاء برجلين من المسلمين وقال لواحد منهما : « أتشهد أن محمدا رسول الله » ؟ قال المؤمن « نعم » : قال مسيلمة : « وتشهد أنى رسول الله ؟ » قال المؤمن : « نعم » . وأحضر مسيلمة المسلمَ الآخر وقال له : « أتشهد أن محمدا رسول الله ؟ » قال المؤمن : « نعم » . قال مسيلمة : « أتشهد أنى رسول الله ؟ » قال المؤمن الثانى : « إنى أصم » كيف رد عليه المؤمن بدعوى الصمم ؟ لقد علم مسيلمة أنه يدعى الصمم ، ولذلك أخذه وقتله ، فرفع الأمر إلى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فماذا قال ؟ قال صلى الله عليه وسلم : « أما المقتول . . فقد صدع بالحق فهنيئا له ، وأما الآخر فقد أخذ برخصة الله » . فالتقية رخصة ، والإفصاح بالحق فضيلة . .

وعمار بن ياسر أخذ بالرخصة وبلال بن رباح تمسك بالقرعة .

---

(١) من تفسير الكشاف لزمخشرى بتصرف .

ولننظر إلى حكمة التشريع فى هذا الأمر . إن كل مبدأ من مبادىء الخير جاء ليواجه ظاهرة من ظواهر الشر فى الوجود ، وهذا المبدأ يحتاج إلى منهج يأتى من حكيم أعلى منه ، ويريد صلابة يقين ، وقوة عزيمة ، كما يريد تحمل منهج ، فالتحمل إنما يكون من أجل أن يبقى المنهج للناس ، والعزيمة من أجل أن يواجه المؤمن الخصوم ، فلو لم يشرع الله التقية بقوله :

﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ ﴾

(من الآية ١٠٦ من سورة النحل)

لكنا حقيقة سنحقق الفدائية التى تفدى مناهج الحق بالتضحية بالحياة رخيصة فى سبيل الله ، ولكن هب أن كل مؤمن وقف هذا الموقف فمن يحمل علم الله إلى الآخرين ؟ لذلك يشرع الحق سبحانه وتعالى التقية من أجل أن يبقى من يحمل المنهج ، إنه يقرر لنا الفداء للعقيدة ، ويشرع لنا التقية من أجل بقاء العقيدة . لقد جاء الحق بالأمرين : أمر الوقوف فى وجه الباطل بالاستشهاد فى سبيل الحق ، وأمر التقية حماية لبعض الخلق حتى لا يضيع المنهج الحق لو جاء جبار ، واستأصل المؤمنين جميعا ، لذلك يشرع الحق ما يبقى للفداء قوما ، ويبقى للبقاء قوما ليحملوا منهج الله ، هل عرفنا الآن لماذا جاءت التقية ؟ لأن الحق سبحانه وتعالى يريد منهجا يعمر الأرض، ويورث للأجيال المتتالية ، فلو أن الحق لم يشرع التقية بقوله :

﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ﴾

(سورة النحل)

لثبتت الفدائية فى العقيدة ، ولو ثبتت الفدائية وحدها لكان أمر المنهج عرضة لأن يزول ، ولا يرثه قوم آخرون ، لذلك شرع الله التقية ليظل أناس حول شمعة الإيمان ، يحتفظون بضوئها ؛ لعل واحدا يأخذ بقبسها ، فيضىء بها نورا وهاجا . ولذلك ، فلا ولاية من مؤمن لقوم كافرين إلا أن يتقى منهم تقاة ، لماذا ؟ لأن الله يحذرنا نفسه بقوله : « ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير » .

فإياك أن تقبل على السلوك الذى يضعه أمامك الكفار بانشراح صدر وتقول : أنا أقوم بالتقية ، بل لابد أن تكون المسألة واضحة فى نفسك ، وأن تعرف لماذا فعلت التقية ، هل فعلتها لتبقى منهج الخير فى الوجود ، أو لغير ذلك ؟ هل فعلتها حتى لا تجعل جنود الخير كلهم إلى فناء أو غير ذلك ؟ إنك إن فعلت التقية بوعى واستبقيت نفسك لمهمة استبقاء المنهج الإيمانى ، فأنت أهل الإيمان ، وعليك أن تعرف جيدا أن الحق قد قال : « ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير » . إنه الحق يقول للمؤمنين : إياكم أن تخلعوا على التقية أمرا هو مرغوب لنفوسكم ، لماذا ؟ لأن الحق قد حددها :

﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿١٠٦﴾ ﴾

(سورة النحل)

فلا غاية إلا الله ، فإياكم أن تغشوا أنفسكم ؛ لأنه لا غاية عند غيره ؛ فالغاية كلها عنده وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ قُلۡ إِن تُخۡفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمۡ أَوۡ تُبۡدُوهُ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٢٩﴾ ﴾

لأن الإنسان قد يقوم بالتقية كظاهرة شكلية ، أما المؤمن فلا يفعل ذلك أبدا . لماذا ؟ لأن التحذير واضح فى هذه الآية . هنا قد يقول قائل : إن إخفاء ما فى الصدر هو الذى يعلمه الله أما إبداء ما فى الصدر فإنه قد علمه أحد غير الله ، فلماذا جاء هذا القول ؟ لقد جاء هذا القول الحكيم ، لأنه قد يطرأ على بالك أن الله غيب فهو يعلم

الغيب فقط ولا يعلم المشهد . لكن الله لا يحجبه مكان عن مكان أو زمان عن زمان . فإياك أن تعتقد أن الله غيب فلا يعرف إلا الغيب . إن الحق يعلم الغيب ويعلم ما برز إلى الوجود . وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾ ﴾

إن العمل فى ذاته ظاهرة تحدث وتنتهى ، فكيف يأتى الإنسان يوم القيامة ، ويجد عمله ؟ إنه لاشك سوف يجد جزاء عمله ، إننا حتى الآن نقول ذلك ، لكن حين يفتح الله على بعض العقول فتكتشف أسرارا من أسرار الكون فقد يكون تفسير هذه الآية فوق ما نقول ، إنهم الآن يستطيعون تصوير شريط لعمل ما وبعد مدة يقول الإنسان للآخر : انظر ماذا فعلت وماذا قلت إن العمل المسجل بالشريط يكون حاضرا ومصورا ، فإذا كنا نحن البشر نستطيع أن نفعل ذلك بوسائلنا فماذا عن وسائل الحق سبحانه وتعالى ؟ لابد أنها تفوقنا قدرة ، إنه الحق يعلم كل شىء ، فى الصدر ، أو فى السماوات أو فى الأرض : إن الحكم الإلهى يشمل الكون كله مصداقا لقول الحق :

﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

ويختم الحق هذه الآية بقوله : « والله على كل شيء قدير » إنه القادر الذى يعلم عنا الغفلة ، فينبهنا دائما إلى كمال قدرته ، كما قال فى آية قبلها : « إنك على كل شيء قدير » ونحن مخلوقون لله ، وهو القادر الأعلى ، القادر على كل شيء ويأتى لكل منا بكتاب حسابه يوم الحساب :

﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ ﴾

(سورة الحاقة)

إذن فمن تقف فى عقله هذه المسألة ، فليقل : « ما عملت من خير محضرا » يعنى أنه يجد جزاء عمله . أما ما عملته النفس من السوء فهى تود أن يكون بينه وبينها أمد بعيد ، أى غاية بعيدة ، ويقول الإنسان لنفسه : « يا ليتها ما جاءت » . والحق سبحانه يقول : « ويحذركم الله نفسه والله رءوف بالعباد » إن الحق سبحانه يكرر التحذير لنستحضر قوته المطلقة ، ولكنه أيضا رءوف بنا رحيم ومن بعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ ﴾

ولنا أن نعرف أن كل « قل » إنما جاءت فى القرآن كدليل على أن ما سيأتى من بعدها هو بلاغ من الرسول صلى الله عليه وسلم عن ربه ، بلاغ للأمر وللمأمور به ، إن البعض ممن فى قلوبهم زيغ يقولون : كان من الممكن أن يقول الرسول : « إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله » لهؤلاء نقول : لو فعل الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك لكان قد أدى « المأمور به » ولم يؤد الأمر بتمامه . لماذا ؟ لأن الأمر فى « قل » . . والمأمور به « إن كنتم تحبون الله » وكأن الرسول صلى الله عليه وسلم فى كل بلاغ عن الله بدأ بـ « قل » إنما يبلغ « الأمر » ويبلغ « المأمور به » مما يدل على أنه

مبلغ عن الله فى كل ما بلغه من الله .

إن الذين يقولون : يجب أن تحذف « قل » من القرآن ، وبدلا من أن نقول : « قل هو الله أحد » فلننطقها : « الله أحد » . لهؤلاء نقول : إنكم تريدون أن يكون الرسول قد أدى « المأمور به » ولم يؤد « الأمر » .

إن الحق يقول : « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله » هذه الآية تدل على ماذا ؟ إنهم لابد قد ادعوا أنهم يحبون الله ، ولكنهم لم يتبعوا الله فيما جاء به رسوله صلى الله عليه وسلم ، فكأنهم جعلوا الحب لله شيئا ، واتباع التكليف شيئا آخر ، والله سبحانه وتعالى له على خلقه إيجاد ، وإمداد ، وتلك نعمة ، ولله على خلقه فضل التكليف ، لأن التكليف إن عاد على المُكَلَّفِ « بفتح الكاف وتشديد اللام » ولم يعد منه شيء على المُكَلِّفِ بكسر الكاف فهذه نعمة من المكلِّف .

إن الحق سبحانه لا يحتاج إلى أحد ولا من أحد . إن الحق سبحانه عندما كلفنا إنما يريد لنا أن نتبع قانون صيانة حياة الإنسان . وقد ضربنا المثل ـ ولله المثل الأعلى ، بالآلة المصنوعة بأيدى البشر ، إن المهندس الذى صممها يضع لها قانون صيانة ما ، ويضع قائمة تعليمات عن كيفية استعمالها ؛ وهى تتلخص فى « افعل كذا » و« لاتفعل كذا » ، ويختار لهذه الآلة مكانا محددا ، وأسلوبا منظما للاستخدام .

إذن فوضع قائمة بالقوانين الخاصة بصيانة واستعمال آلة ما وطبعها فى كراسة صغيرة ، هى لفائدة المنتفع بالصنعة . هذا فى مجال الصنعة البشرية ، فما بالنا بصنعة الله عز وجل ؟ إن لله إيجادا للإنسان ، ولله إمدادا للإنسان ، ولله تكليفا للإنسان ، والحق قد جعل التكليف فى خدمة الإيجاد والإمداد . إن الحق لو لم يعطنا نظام حركة الحياة فى « افعل » و« لاتفعل » لفسد علينا الإيجاد والإمداد ، إن من تمام نعمة الحق على الخلق أن أوجد التكليف ، وإن كان العبد قد عرف قدر الله فأحبه للإيجاد والإمداد فليعرف العبد فضل ربه عليه أيضا من ناحية قبول التكليف ، وأن يحب العبد ربه لأنه كلفه بالتكاليف الإيمانية .

إنك قد تحب الله ، ولكن عليك أن تلاحظ الفرق بين أن تحب أنت الله ، وأن

يحبك الله . إن التكليف قد يبدو شاقا عليك فتهمل التكليف ؛ لذلك نقول لك : لا يكفى أن تحب الله لنعمة إيجاده وإمداده ، لأنك بذلك تكون أهملت نعمة تكليفه التى تعود عليك بالخير ، إن نعمة التكليف تعود عليك بكل الخير عندما تؤديها أيها الإنسان ، فلا تهملها ، ومن الجائز أن تجد عبادا يحبون الله لأنه أوجدهم وأمدهم بكل أسباب الحياة ، ولكن حب الله لعبده يتوقف على أن يعرف العبد نعمته ـ سبحانه ـ فى التكليف ، إن الله يحب العبد الذى يعرف قيمة النعمة فى التكليف .

ونحن فى مجالنا البشرى نرى إنسانا يحب إنسانا آخر ، لكن هذا الآخر لا يبادله العاطفة ، والمتنبى قال :

أنت الحبيب ولكنى أعوذ به
من أن أكون حبيبا غير محبوب

إن المتنبى يستعيذ أن يحب واحدا لا يبادله الحب . فكأن الذين يدعون أنهم يحبون الله ، لأنهم عبيد إحسانه إيجادا وإمدادا ، ثم بعد ذلك يستنكفون ، أولا يقدرون على حمل نفوسهم على أداء التكليف لهؤلاء نقول : أنتم قد منعتم شطر الحب لله ، لأن الله لم يكلفكم لصالحه ولكنه كلفكم لصالحكم ؛ لأن التكليف لا يقل عن الإيجاد والإمداد .

لماذا ؟ لأن التكليف فيه صلاح الإيجاد والإمداد ، والحب ـ كما نعرف ـ هو ودادة القلب وعندما تقيس ودادة القلب بالنسبة لله ، فإننا نرى آثارها ، وعملها ، من عفو ورحمة ورضا . وعندما تقيس ودادة القلب من العبد إلى الله فإنها تكون فى الطاعة . إن الحب الذى هو ودادة القلب يقدر عليه كل إنسان ، ولكن الحق يطلب من ودادة القلب ودادة القالب ، وعلى الإنسان أن يبحث عن تكاليف الله ليقوم بها ؛ طاعة منه وحبا لله ، ليتلقى محبة الله له بآثارها ، من عفو ، ورحمة ، ورضا .

والحب المطلوب شرعا يختلف عن الحب بمفهومه الضيق ، أقول ذلك لنعلم جميعا ، أنه الحق سبحانه قائم بالقسط ، فلا يكلف شططا ، ولا يكلف فوق الوسع أو فوق الطاقة . إن الحب المراد لله فى التكليف هو الحب العقلى ، ولابد أن نفرق بين الحب العقلى والحب العاطفى ، العاطفى لا يقنن له . لا أقول لك : « عليك أن تحب فلانا حبا عاطفيا » لأن ذلك الحب العاطفى لا قانون له . إن الإنسان يحب ابنه حتى ولو كان قليل الذكاء أو صاحب عاهة ، يحبه بعاطفته ، ويكره قليل الذكاء

بعقله .

والإنسان حينما يرى ابن جاره أو حتى ابن عدوه ، وهو متفوق ، فإنه يحب ابن الجار أو ابن العدو بعقله ، لكنه لا يحب ابن الجار أو العدو بعاطفته ، ودليل ذلك أن الإنسان عندما توجد لديه أشياء جميلة فإنه يعطيها لابنه لا لابن الجيران ، هناك - إذن - فرق بين حب العقل ، وحب العاطفة .

والتكليف دائما يقع فى إطار المقدور عليه وهو حب العقل ، ومع حب العقل قد يسأل الإنسان نفسه : ماذا تكون حياتى وكيف . . لو لم أعتنق هذا الدين ؟ وماذا تكون الدنيا وكيف ، لولا رحمة الله بنا عندما أكرمنا بهذا الدين ؟ وأرسل لنا هذا الرسول الكريم ؟ إن هذا حديث العقل وحب العقل .

وقد يتسامى الحب فيصير بالعاطفة أيضا ، لكن المكلف به هو حب العقل ، وليس الحب العاطفى ، ولذلك يجب أن نفطن إلى ما روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه - حينما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
(لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين)[١] .

وقف سيدنا عمر عند هذه النقطة فقال : أمعقول أن يكون الحب لك أكثر من النفس ؟ إننى أحبك أكثر من مالى ، أو من ولدى ، إنما من نفسى ؟ ففى النفس منها شيء . وهكذا نرى صدق الأداء الإيمانى من عمر بن الخطاب رضى الله عنه وكررها النبى صلى الله عليه وسلم ثانيا ، وثالثا ، فعرف سيدنا عمر أنه قد أصبحت تكليفا وعرف أنها لابد أن تكون من الحب المقدور عليه ، وهو حب العقل ، وليس حب العاطفة . وهنا قال عمر : « الآن يا رسول الله ؟ » فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : الآن يا عمر ، أى كمل إيمانك الآن ، أى أن سيدنا عمر قد فهم المراد بهذا الحب وهو الحب العقلى .

ونريد هنا أن نضرب مثلا حتى لا تقف هذه المسألة عقبة فى القلوب أو العقول

---

(١) رواه البخارى ومسلم والنسائى وابن ماجه وأحمد .

ـ نقول ـ ولله المثل الأعلى: إن الإنسان ينظر إلى الدواء المر طعما ويسأل نفسه هل أحبه أو لا ؟ إن الإنسان يحب هذا الدواء بعقله ، لا بعاطفته

إذن فحب العقل هو ودادة من تعلم أنه صالح لك ونافع لديك وإن كانت نفسك تعافه، وعندما تتضح لك حدود نفع بالشيء فأنت تحبه بعاطفتك. إذاً فالمطلوب للتكليف الإيمانى « الحب العقلى » ، وبعد ذلك يتسامى ليكون « حبا عاطفيا » وهكذا يكون قول الحق : « إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله » وهذا الحب ليس دعوى . إن الإنسان منا عندما يدعى أنه يحب إنسانا آخر ، فكل ما يتصل به يكون محبوبا ، ألم يقل الشاعر : « وكل ما يفعل المحبوب محبوب » ؟ فإن كنتم تحبون رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاتبعوه بتنفيذ التكاليف الإيمانية ، ولنلتفت إلى الفرق بين « اتبعنى » و« استمع لى » .

إن الاتباع لا يكون إلا فى السلوك ، فإن كنت تحب رسول الله فعليك أن ترى ماذا كان يفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأن تفعل مثله ، أما إذا كنت تدعى هذا الحب ، ولا تفعل مثلما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم فهذا عدم صدق فى الحب ، إن دليل صدقكم فى الحب المدعى منكم أن تتبعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن اتبعنا رسول الله نكون قد أخذنا التكليف من الله على أنه نعمة ، ونقبلها من الله مع ما فيها من مشقة علينا ، فيحبنا الله ، لأننا آثرنا تكليفه على المشقة فى التكليف .

إن فهم هذه الآية يقتضى أن نعرف أن الحق ينبهنا فكأنه يقول لنا : أنتم أحببتم الله للإيجاد والإمداد ، وبعد ذلك وقفتم فى التكليف لأنه ثقيل عليكم ، وهنا نقول : « انظروا إلى التكليف أهو لصالح من كلف أم هو لصالح من تلقى التكليف ؟» . إنه لصالح المكلَّف أى الذى تلقى التكاليف .

وهكذا يجب أن نضم التكليف للنعم ، فتصبح النعم هى « نعم الإيجاد » ، و« الإمداد » ، و« التكليف » ، فإن أحببت الله للإيجاد والإمداد ، فهذا يقتضى أن تحبه أيضا للتكليف ، ودليل صدق الحب هو قيام العبد بالتكليف ، ومادمت أنت قد عبرت عن صدق عواطفك بحبك لله ، فلابد أن يحبك الله ، وكل منا يعرف أن حبه لله لا يقدم ولا يؤخر ، لكن حب الله لك يقدم ويؤخر .

إن قول الحق سبحانه وتعالى فيما يعلّمه لرسول الله ليقول لهم : « فاتبعونى يحببكم الله » أى أن الرسول صلى الله عليه وسلم المرسل من عند الله جاء بكل ما أنزله الله ولم يكتم شيئا مما أمِرَ بتبليغه ، فلا يستقيم أن يضع أحد تفريقا بين رسول الله وبين الله ، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم مبلغ عن الله كل ما أنزل عليه .

وبعد ذلك يقول الحق : « ويغفر لكم ذنوبكم » إن مسألة « يغفر لكم » هذه تتضمن ما تسميه القوانين البشرية بالأثر الرجعى ، فمن لم يكن فى باله هذا الأمر ؛ وهو حب الله ، واتباع الرسول صلى الله عليه وسلم ، فعليه أن يعرف أن عليه مسئولية أن يبدأ فى هذه المسألة فورا ويتبع الرسول صلى الله عليه وسلم وينفذ التكليف الإيمانى ، وسيغفر له الله ما قد سبق ، وأى ذنوب يغفرها الله هنا ؟ إنها الذنوب التى فر منها بعض العباد عن اتباع الرسول ، فجاء الرسول صلى الله عليه وسلم بالحكم فيها .

وهكذا نعرف ونتيقن أن عدالة الله أنه سبحانه لن يعاقب أحدا على ذنب سابق مادام قد قبل العبد أن ينفذ التكليف الإيمانى ، إن الذين أبلغهم رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يجب عليهم أن يفطنوا بعقولهم إلى ما أعلنه الرسول لهم ، إن هذا الأمر لا يكون حجة إلا بعد أن صار بلاغا، وقد جاء البلاغ ، ولذلك يغفر الله الذنوب السابقة على البلاغ ، وبعد ذلك يقول الحق : « والله غفور رحيم » إننا نعلم أن المغفرة من الله والرحمة منه أيضا ، وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾

وقد قلت من قبل فى مسألة الأمر بالطاعة ، إنها جاءت فى القرآن الكريم على ثلاثة ألوان : فمرة يقول الحق : « أطيعوا الله والرسول » . كما جاء بهذه الآية التى

نحن بصدد تناولها بخواطرنا الإيمانية . ونلاحظ هنا أن الحق سبحانه لم يكرر أمر الطاعة ، بل جعل الأمر واحدا ، هو « أطيعوا » ،فإذا سألنا من المطاع ؟ تكون الإجابة . الله والرسول معا .

إذن فقول الرسول صلى الله عليه وسلم بلاغا عن الله « اتبعونى يحببكم الله » يعنى أن طاعة المؤمنين للرسول من طاعة الله . إن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يأمرنا بطاعته ، ولكنه يأمرنا بطاعة الله ، ولذلك لم يكرر الحق أمر الطاعة ، إنّ الحق هنا يوحد أمر الطاعة فيجعلها لله وللرسول معا ، إنه يعطف على المطاع الأول وهو الله بمطاع ثانٍ هو الرسول صلى الله عليه وسلم . ويقول الحق فى كتابه العزيز :

﴿ قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾ ﴾

(سورة النور)

إن الحق يورد أمر الطاعة ثلاث مرات : فمرة يكون أمر الطاعة لله ، ومرة ثانية يكون أمر الطاعة للرسول صلى الله عليه وسلم،ومرة ثالثة يقول الحق :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾ ﴾

(سورة النساء)

فما مسألة هذه الأوامر بالطاعة ؟ إنها طاعة بألوان التكليف وأنواعها ، إن الأحكام المطلوب من المؤمنين أن يطيعوا فيها ، مرة يكون الأمر من الله قد جاء بها وأن يكون الرسول قد أكدها بقوله وسلوكه ، إن المؤمن حين يطيع فى هذا الأمر الواحد ، فهو يطيع الله والرسول معًا ، ومرة يأتى حكم من الله إجمالا ، ويأتى الرسول ليفصله .

﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾

(سورة النور)

إن الواحد منا لم يكن يعرف كم صلاة فى اليوم ، ولا عدد الركعات فى كل صلاة ، ولا نعرف كيفيتها لكن الرسول صلى الله عليه وسلم قد فصل لنا الأمر فى كل صلاة ، إذن ، فالمؤمن يطيع الله فى الإجمال ، ويطيع الرسول فى التفصيل . إن علينا أن نلتفت إلى أن هنا طاعتين : الأولى : طاعة الله ، والثانية : طاعة الرسول ، أما فى الأمرالمتحد ، فتكون الطاعة لله والرسول ، لأنه أمر واحد . وأما الأمر الذى جاء من الله فيه تكليف إجمالى فقد ترك الله للرسول صلى الله عليه وسلم بيانه ، فالمؤمن يطيع الله فى الأمر الإجمالى كأمر الصلاة ، وإقامتها ، ويطيع الرسول فى تفصيل أمر الصلاة ؛ وكيفيتها ، وأحيانا يجىء الحكم بالتفويض الأعلى من الله للرسول ، فيقول الله لرسوله ما معناه إنك أنت الذى تقرر فى هذه الأمور ، كما قال الحق :

﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ۚ ﴾

(من الآية ٧ من سورة الحشر)

لقد ترك الحق سبحانه للرسول أن يصدر التشريعات اللازمة « لاستقامة حياة المؤمنين » لقد أعطاه الحق سبحانه التفويض العام ، ومادام سبحانه قد أعطى الرسول صلى الله عليه وسلم التفويض العام فإن طاعة المؤمن تكون للرسول فيما يقوله الرسول وإن لم يقل الله به . إننا على سبيل المثال لا نجد فى القرآن دليلا على أن صلاة الفجر ركعتان ، لكن الرسول صلى الله عليه وسلم هو الذى فصل لنا الصلاة فعرفنا أن الفجر ركعتان ، والظهر أربع ركعات ، والعصر مثل الظهر ، والمغرب ثلاث ركعات ، والعشاء أربع ركعات . إن الدليل هو تفصيل الرسول ، وقول الحق :

﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ۚ ﴾

(من الآية ٧ من سورة الحشر)

إنه دليل من القرآن الكريم . هكذا نعرف أن الأمر بالطاعة جاء بالقرآن على ألوان ثلاثة : اللون الأول : إن اتحد المطاع « الله والرسول » ان عطف الرسول هنا يكون على لفظ الجلالة الأعلى . اللون الثانى : هو طاعة الله فى الأمر الإجمالى وطاعة الرسول فى تفصيل هذا الأمر ، فإن الحق يقول : « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول » اللون الثالث : وهو الذى لم يكن لله فيه حكم ، ولكنه بالتفويض العام للرسول ، بحكم قوله الحق : « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » هذه طاعة للرسول ، ثم يأتى فى أمر طاعة أولى الأمر فيقول الحق :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ٥٩ ﴾

(سورة النساء)

إن الحق لم يورد طاعة أولى الأمر مندمجة فى طاعة الله والرسول ، لتكون طاعة واحدة . لا . إن الحق أورد طاعة أولى الأمر فى الآية التى يفرق فيها بين طاعة الله وطاعة الرسول ، ثم من بطن طاعة الرسول تكون طاعة أولى الأمر . لماذا ؟ لأنه لا توجد طاعة ذاتية لأولى الأمر ؛ لأن الرسول صلى الله عليه وسلم له الطاعة الذاتية . أما طاعة أولى الأمر فهى مستمدة من طاعة أولى الأمر لله ورسوله ، ولا طاعة لأولى الأمر فيما لم يكن فيه طاعة لله وللرسول صلى الله عليه وسلم .

إن الحق يقول : « قل أطيعوا الله والرسول فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين » . إن الله يبلغ الرسول أن يبلغ هؤلاء الذين قالوا : إنهم يحبون الله ، بالشروط التى يمكن أن يبادل بها الحق عباده الحب ، وذلك حتى تتحقق الفائدة للبشر ؛ لأن محبة الله تفوق ما يقدمه البشر من حب . إن اتباع الرسول وتنفيذ التكليف بالطاعة لله والرسول .

ذلك هو أسلوب تعبير العباد عن حبهم لله وللرسول صلى الله عليه وسلم ، أما إن تولوا ، أى لم يستمعوا إليك يا محمد ، ولم يتبعوك ، فإن موقفهم ـ والعياذ بالله ـ ينتقل إلى الكفر ؛ لأن الحق يقول عن الذين يتولون عن الله والرسول : « فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين » . وليس هناك تفظيع أكثر من هذا .

إن كلمة « تولوا » توحى بأن الذين استمعوا إلى أوامر الحق قد نفروا وأعرضوا ، فهم لم يأخذوا حكم الله ، ثم منعهم الكسل من تنفيذه . لا . إنهم أعرضوا عن حكم الله ـ والعياذ بالله ـ ولذلك فقد قلت ومازلت أقول : فليحذر الذين يخالفون عن أوامر الله ألا يفرقوا بين أمر متقبل على أنه الحكم الحق وبين حمل النفس على اتباع الحكم وتنفيذه .

إياك أيها المسلم أن تنكر حكما لا تستطيع أن تحمل نفسك عليه أو لا تقدر عليه . إنك إن أنكرت تنقل نفسك من دائرة الإسلام إلى دائرة الكفر والعياذ بالله . ولكن عليك أن تؤمن بالحكم ، وقل : « إنه حكم الله وهو صواب ولكنى لا أستطيع أن أقدر على نفسى » إن ذلك يجعل عدم تنفيذ الحكم معصية فقط . ويأتى الحق ـ سبحانه ـ بعد أن بيّن لنا أصول العقائد فى قوله :

﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

وبعد أن بشر الحق المؤمنين بأنه سبحانه وتعالى يعطيهم الملك الإيمانى وأنه الإله القادر ، وطلاقة قدرته تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل ، وتخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى ، وبعد أن رسم سبحانه طريق محبته ، فإن كنتم قد أحببتم الله للإيجاد والإمداد ، وتريدون أن يحبكم فعليكم بطاعة الله والرسول صلى الله عليه وسلم فى تنفيذ التكاليف .

وبعد أن وضع الله سبحانه وتعالى المبادىء الإيمانية عقدية وتشريعية ، بعد هذا و ذاك يعطى لنا نماذج تطبيقية من سلوك الخلق ، ذلك أن هناك فرقا بين أن توضع نظريات ويأتى الأمر للتطبيق فلا تجد من يطبق ، إن الحق لم يكلف شططا ولا عبثا ، إن الله يقول لنا : أنا كلفت بالتكاليف الإيمانية ومن الخلق أمثالكم من استطاع أن يسير عليها وأن ينفذها ، لذلك يعرض الحق لنا النماذج التى توضح ذلك .

لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مبعوثا إلى أمة أمية ، وكان الإسلام جديدا عليهم ، ولذلك يعرض الحق نماذج قديمة ، وهذه النماذج تؤكد لنا أننا فى دين

الإسلام لا نجد تعصبا؛لأن الدين الذى جاء من الله على آدم عليه السلام هو الدين الذى جاء به إبراهيم عليه السلام من عند الله وهو الدين الذى نزل إلى آل عمران وموسى عليه السلام وعيسى عليه السلام .

إن الحق يعطى صفات التكريم لأهل أديان منسوبين إلى ما أنزله الله عليهم من منهج . وجاء الإسلام لينسخ بعضا مما جاء فى تلك الرسالات السابقة ويضعها فى منهج واحد باق إلى يوم القيامة ، هو منهج الإسلام ، إنه مطلق العظمة . هاهوذا الحق يقول :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾

إنها عدالة القرآن الكريم ، إنه الحق العادل الذى ينزل على الرسول بلاغا يذكر الأبناء بطهارة أصول الآباء ، ومن الخسارة أن يصير الأبناء إلى ما هم عليه . « إن الله اصطفى آدم » وكلمة « اصطفى » تدل على اختيار مُرضٍ . ولنا أن نسأل : هل اصطفى الحق هؤلاء الرسل ، آدم ونوحًا ، وآل إبراهيم ، وآل عمران فكانوا طائعين ، أم علم الحق أزلا أنهم يكونون طائعين فاصطفاهم ؟ إن الحق علمه أزلى ، وعلمه ليس مرتبا على شىء . وساعة أن تأتى أنت بقانونك البشرى وتتفرس فى إنسان ما ، وتوليه أمرا ، وينجح فيه ، هنا تهنىء نفسك بأن فراستك كانت فى محلها ، بعلم الله واقتداره ؟

إن الذين اصطفاهم الله هم الذين علم الله أزلا أنهم سيكونون طائعين ، وقد يقول قائل : إنهم طائعون لله بالاصطفاء ، لمثل هذا القائل نرد : إنهم طائعون بالنفس العامة ويكونون فى مزيد من الطاعة بعد أن يأخذوا التكليف بالنفس الخاصة ، إنهم طائعون من قبل أن يأخذوا أمور التكليف ، ولو تركهم الحق للأمور

العقلية لاهتدوا إلى طاعته ، وعندما جاءهم الأمر التكليفى ويصطفيهم الله يكونون رسلا وحملة منهج سماوى .

عندما يسمع الإنسان قول الحق : « إن الله اصطفى آدم » فقد يتساءل عن معناها ، ذلك أن من اصطفاء الله لآدم تأتى إلى الذهن بمعنى « خصه » بنفسه أو أخذه صفوة من غيره ، فكيف كان اصطفاء آدم ، ولم يكن هناك أحد من قبله ، أو معه لأنه الخلق الأول ؟ إننا يمكن أن نعرف بالعقل العادى أن اصطفاء الله لنوح عليه السلام ؛ كان اصطفاء من بشر موجودين ، وكذلك اصطفاء إبراهيم خليل الرحمن وبقية الأنبياء .

إذن ، فكيف كان اصطفاء آدم ؟ إن معنى « اصطفى آدم » ـ كما قلنا ـ تعنى أن الله قد اختاره أو أن « المصطفى عليه » يأتى منه ومن ذريته . نعم وقد جاء المصطفى عليه من ذريته ، وهذا المعنى يصلح ، والمعنى السابق عليه يصلح أيضا . إن الحق يقول : « إن الله اصطفى آدم ونوحا » ونحن نعلم أن سيدنا نوحًا عليه السلام واجه جماعة من الكافرين به ، فأغرقهم الله فى الطوفان،ونجا نوح ومن معه بأمر الله .

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾﴾

(سورة هود)

إن الذين بقوا من بعد نوح عليه السلام كانوا مؤمنين ، ثم تعرضوا للأغيار . وجاءت هذه الأغيار فى أعقابهم ، فنشأ كفر وإيمان ، لماذا ؟ لأن آدم عليه السلام حين خلقه الله وضع له التجربة التكليفية فى الجنة ، كان من الواجب أن ينقل ما علمه له الله لأبنائه .

لقد نقل آدم لهم مسائل صيانة مادتهم وعلمهم كيف يأكلون ، وكيف يشربون ، وغير ذلك . وكان يجب أن تكون معهم القيم . إن آدم عليه السلام قد أدى ذلك ، وعلم أبناءه كيفية صيانة مادتهم وعلمهم القيم أيضا ، ولكن بمرور الزمان ، ظل بعض من أبناء آدم يتخففون من التكاليف حتى اندثرت وذهبت . ومن رحمة الله بخلقه يجدد سبحانه وتعالى الرسالة ببعث رسول جديد .

والرسالة الجديدة تعطى ما كان موجودا أولا ، فيما يتعلق بالعقائد والأخبار ، والأشياء التى لا تتغير ، وتأتى الرسالة الجديدة بالأحكام المناسبة لزمن الرسالة . فإذا ما أمكن للبشر أن يعدلوا من سياسة البشر ، يظل الأمر كما هو ، فإن ارتكب واحد منكرا وضرب قومه على يده ، استقام أمر الرسالة وبقيت هذه الأمة على الخير . لماذا ؟ لأن مصافى اليقين فى النفس الإنسانية موجودة ، ونحن نراها ونلمسها . إن هناك واحدا تجد مصافى اليقين فى ذاته ، وقد لا يقدر على نفسه ، فيرتكب المعصية ، وتلومه نفسه ، فيرجع عن المعصية .

ومرة أخرى نجد إنسانا آخر لا يجد فى نفسه مصافى اليقين ، ولكنها موجودة فى غيره ، فنجد من يأمره بالمعروف ، وينهاه عن المنكر ، فإذا امتنعت المصافى الذاتية للإيمان ، وكذلك امتنعت المصافى الإيمانية فى المجتمع ، فلا أمل هنالك ، لذلك يجب أن يأتى رسول جديد ، وينبه الناس بمعجزة ما .

لقد شاءت إرادة الحق سبحانه ألا يأتى رسول آخر بعد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وفى ذلك شهادة لأمة محمد صلى الله عليه وسلم بأن الله أمنها على منهج الله ، فإذا مُنِعت من أى نفس مصافيها الذاتية فستبقى مصافيها الاجتماعية ، ولابد أن يكون فى أمة محمد ذلك ، لأن امتناع ذلك كان يستدعى وجود نبىّ جديد .

إن الله أمن أمة محمد على منهجه ، ولذلك لم يأت نبىّ بعد سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم . لقد أمن الحق أمة محمد فلم يمنع فيها أبدا المصافى الذاتية أو الاجتماعية ، ولذلك يأتى القول الحق :

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾

(من الآية ١١٠ من سورة آل عمران)

. إن هذا توجيه لنا من الحق لنعرف أن المصافى الاجتماعية ستظل موجودة فى أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، إذن فبعد حدوث الغفلة من بعد نوح عليه السلام جاء الله باصطفاءات أخرى رحمة منه بالعالمين ، ويقول الحق : « إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين » . ونحن نقول على إبراهيم عليه السلام : « أبو الأنبياء » وأورد الحق نبأ بعض من أبناء آل إبراهيم ، وهم آل عمران وأعطاهم ميزة .

وكلمة « عمران » هذه حين ترد فى الإسلام فلنا أن نعرف أن هناك اثنين لهما الاسم نفسه ، هناك « عمران » والد موسى وهارون عليهما السلام . وهناك « عمران » آخر . إن عمران والد موسى وهارون كان اسم أبيه « يصهر » وجده اسمه « فاهاث » ، ومن بعده « لاوى » ومن بعده « يعقوب » ، ومن بعده « إسحق » ، وبعده « إبراهيم » ، أما عمران الآخر ، فهو والد مريم عليها السلام .

وقد حدث إشكال عند عدد من الدارسين هو « أى العمرانين يقصده الله هنا ؟ » والذى زاد من حيرة هؤلاء العلماء هو وجود أخت لموسى وهارون عليهما السلام اسمها مريم ، وكانت ابنة عمران والد موسى وهارون فكلتاهما اسمها مريم بنت عمران . وكانوا فى ذلك الزمن يتفاءلون باسم « مريم » لأن معناه « العابدة » ، ولما اختلفوا لم يفطنوا إلى أن القرآن قد أبان وأوضح المعنى، وكان يجب أن يفهموا أن المقصود هنا ليس عمران والد موسى وهارون عليهما السلام ، بل عمران والد مريم ، ومنها عيسى عليه السلام ء وعمران والد مريم هو ابن ماثان ، وهو من نسل سليمان ، وسليمان من داود ، وداود من أوشى ، وأوشى من يهوذا ، ويهوذا من يعقوب ، ويعقوب من إسحق .

وكنا قديما أيام طلب العلم نضع لها ضبطا بالحرف ، فنقول « عمعم سدئيّا » ومعناها . . عيسى بن مريم ، ومريم بنت عمران ، وعمران ابن ماثان ، وماثان من سليمان ، من داود من أوشى وأوشى من يهوذا ويهوذا من يعقوب ويعقوب من إسحاق . لقد التبس الأمر على الكثير وقالوا : أى العمرانين الذى يقول الله فى حقه هذا القول الكريم ؟ ولهؤلاء نقول : إن مجىء اسم مريم عليها السلام من بعد ذلك يعنى أنه عمران والد مريم ، وأيضا يجب أن نفطن إلى أن الحق قد قال عن مريم :

﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ۖ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

وزكريا عليه السلام هو ابن آذن ، وآذن كان معاصرا لماثان . إن المراد هنا هو عمران والد مريم . هكذا حددنا أى العمرانين يقصد الحق بقوله : « إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين » . وعندما تقول : اصطفيت كذا على كذا ، فمعنى ذلك أنه كان من الممكن أن تصطفى واحدا من مجموعة على الآخرين ، ولذلك نفهم المقصود بـ « على العالمين » أى على عالمى زمانهم ، إنهم قوم موجودون وقد اصطفى منهم واحدا ، أما الذى سيولد من بعد ذلك فلا اصطفاء عليه ، فلا اصطفاء على محمد صلى الله عليه وسلم . ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ ذُرِّيَّةًۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾

وحين يقول : « ذرية بعضها من بعض » فلنا أن نسأل : هل المقصود بذلك الأنساب أم الدين والقيم ؟ ولنا أن نلتفت أن الحق قد علمنا فى مسألة إبراهيم عليه السلام أن الأنساب بالدم واللحم عند الأنبياء لا اعتبار لها ، وإنما الأنساب المعترف بها بالنسبة للأنبياء هى أنساب القيم والدين . وكنا قد عرضنا من قبل لما قاله الحق :

﴿ وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ ﴾

(من الآية ١٢٤ سورة البقرة)

فردها الله عليه قائلا :

﴿ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

(من الآية ١٢٤ سورة البقرة)

لماذا ؟ لأن الإمام هو المقتدى فى الهدايات . إذن فالمسألة ليست وراثة بالدم . وهكذا علم سيدنا إبراهيم ذلك بأن النسب للأنبياء ليس بوراثة الدم ، إذن فنحن نفهم قول الحق : « ذرية بعضها من بعض » على أنها ذرية فى توارثها للقيم . ونحن نسمع فى القرآن :

﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾

(سورة التوبة)

إن هذا النفاق ليس أمرا يتعلق بالنسب وإنما يتعلق بالقيم ، إنها كلها أمور قيمية ، وحين يقال : « والله سميع عليم » أى أن الله يعرف الأقوال وكذلك الأفعال والخبايا . وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ ﴾

وعندما تقرأ « إذ » فلتعلم أنها ظرف ويُقدر لها فى اللغة « اذكر » ، ويقال « إذ جئتك » أى « اذكر أنى جئتك » . وعندما يقول الحق : « إذ قالت امرأة عمران » فبعض الناس من أهل الفتح والفهم يرون أن الحق سبحانه سميع عليم وقت أن قالت امرأة عمران : « رب إنى نذرت لك ما فى بطنى » ، وهم يحاولون أن يربطوا هذه الآية بما جاء قبلها ، بأن الله سميع وعليم . ونقف عند قول امرأة عمران : « رب إنى نذرت لك ما فى بطنى محررا » .

إننا عندما نسمع كلمة « محررا » فمعناها أنه غير مملوك لأحد فإذا قلنا : « حررت

العبد » يعنى ينصرف دون قيد عليه . أو « حررت الكتاب » أصلحت ما فيه . إن تحرير أى أمر ، هو إصلاح ما فيه من فساد أو إطلاقه من أى ارتباط أو قيد . أما قولها : « رب إنى نذرت لك ما فى بطنى محررا » هو مناجاة لله ، فما الدافع إلى هذه المناجاة لله ؟

إن امرأة عمران موجودة فى بيئة ترى الناس تعتز بأولادها ، وأولاد الناس ـ كما نعلم ـ يحكمون حركة الناس ، والناس تحكم حركة أولادهم ، ويكد الناس من أجل أن يكون الأبناء عزوة ، وقرة عين ، ويتقدم المجتمع بذلك التواصل المادى ، ولم تعجب امرأة عمران بذلك ؛ لقد أرادت ما فى بطنها محررا من كل ذلك ، إنها تريده محررا منها ، وهى محررة منه . وهذا يعنى أنها ترغب فى أن يكون ما فى بطنها غير مرتبط بشىء أو بحب أو برعاية .

لماذا ؟ لأن الإنسان مهما وصل إلى مرتبة اليقين ، فإن المسائل التى تتصل بالناس وبه ، تمر عليه ، وتشغله ، لذلك أرادت امرأة عمران أن يكون ما فى بطنها محررا من كل ذلك ، وقد يقال : إن امرأة عمران إنما تتحكم بهذا النذر فى ذات إنسانية كذاتها ، ونرد على ذلك بما يلى :

لقد كانوا قديما عندما ينذرون ابنا للبيت المقدس فهذا النذر يستمر مادامت لهم الولاية عليه ، ويظل كما أرادو إلى أن يبلغ سن الرشد ، وعند بلوغ سن الرشد فإن للابن أن يختار بين أن يظل كما أراد والداه أو أن يحيا حياته كما يريد .

إن بلوغ سن الرشد هو اعتراف بذاتية الإنسان فى اتخاذ القرار المناسب لحياته . كانت امرأة عمران لا تريد مما فى بطنها أن يكون قرة عين ، أو أن يكون معها ، إنها تريده محررا لخدمة البيت المقدس ، وكان يستلزم ذلك فى التصور البشرى أن يكون المولود ذكرا ؛ لأن الذى كان يقوم بخدمة البيت هم الذكران .

ونحن نعرف أن كلمة « الولد » يطلق أيضا على البنت ، ولكن الاستعمال الشائع ، هو أن يطلق الناس كلمة « ولد » على الذكر . لكن معنى الولد لغويا هو المولود سواء أكان ذكرا أم أنثى . وعندما نسمع كلمة « نذر » فلنفهم أنها أمر أريد به الطاعة فوق تكليف المكلف من جنس ما كلّفه به الله .

إن الله قد فرض علينا خمس صلوات ، فإذا نذر إنسان أن يصلى عددا من الركعات فوق ذلك ، فإن الإنسان يكون قد ألزم نفسه بأمر أكثر مما ألزمه به الله ، وهو من جنس ما كلف الله وهو الصلاة . والله قد فرض صيام شهر رمضان ، فإذا ما نذر إنسان أن يصوم يومى الاثنين والخميس أو صيام شهرين فالإنسان حر ، ولكنه يختار نذرا من جنس ما فرض الله من تكاليف ، وهو الصيام . والله فرض زكاة قدرها باثنين ونصف بالمائة ، ولكن الإنسان قد ينذر فوق ذلك ، كمقدار عشرة بالمائة أو حتى خمسين بالمائة .

إن الإنسان حر ، ولكنه يختار نذرا من جنس ما فرض الله من تكاليف ، إن النذر هو زيادة عما كلف المكلف من جنس ما كلف سبحانه . وكلمة « نذرت » من ضمن معانيها هو أن امرأة عمران سيدة تقية وورعة ولم تكن مجبرة على النذر ، ولكنها فعلت ذلك ، وهو أمر زائد من أجل خدمة بيت الله .

والنذر كما نعلم يعبر عن عشق العبد لتكاليف الله ، فيلزم نفسه بالكثير من بعضها . ودعت امرأة عمران الله من بعد ذلك بقبول ذلك النذر فقالت : « فتقبل منى » . « والتقبل » هو أخذ الشيء برضا ، لأنك قد تأخذ بكره ، أو تأخذ على مضض ، أما أن « تتقبل » فذلك يعنى الأخذ بقبول وبرضا . واستجابة لهذا الدعاء جاء قول الحق :

﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة آل عمران)

ونلاحظ أن امرأة عمران قالت فى أول ما قالت : « رب إنى نذرت لك ما فى بطنى محررا فتقبل منى إنك أنت السميع العليم » ، ولم تقل : « يا الله » وهذا لنعلم أن الرب هو المتولى التربية ، فساعة ينادى « ربى » فالمفهوم فيها التربية . وساعة يُنادى بـ « الله » فالمفهو فيها التكليف . إن « الله » نداء للمعبود الذى يطاع فيما يكلف به ، أما « رب » فهو المتولى التربية .

قالت امرأة عمران : « رب إنى نذرت لك ما فى بطنى محررا فتقبل منى إنك أنت السميع العليم » . هذا هو الدعاء ، وهكذا كانت الاستجابة : « فتقبلها ربها

بقبول حسن » وبعد ذلك تكلم الحق عن الأشياء التى تكون من جهة التربية . « وأنبتها نباتا حسنا . . وكفلها زكريا » . كل ذلك متعلق بالتربية وبالربوبية ، فساعة نادت امرأة عمران عرفت كيف تنادى ونذرت ما فى بطنها . وبعد ذلك جاء الجواب من جنس ما دعت بقمة القبول وهو الأخذ برضا . « فتقبلها ربها بقبول حسن » .

فالحسن هنا هو زيادة فى الرضا ، لأن كلمة « قبول » تعطينا معنى الأخذ بالرضا ، وكلمة « حسن » توضح أن هناك زيادة فى الرضا ، وذلك مما يدل على أن الله قد أخذ ما قدمته امرأة عمران برضا ، وبشىء حسن ، وهذا دليل على أن الناس ستلمح فى تربيتها شيئا فوق الرضا ، إنه ليس قبولا عاديا ، إنه قبول حسن . « وأنبتها نباتا حسنا » . مما يدل على أن امرأة عمران كانت تقصد حين نذرت ما فى بطنها ، ألا تربى ما فى بطنها إلى العمر الذى يستطيع فيه المولود أن يخدم فى بيت الله . ولكنها نذرت ما فى بطنها من اللحظة الأولى للميلاد . إنها لن تتنعم بالمولود ، ولذلك قال الحق : « وكفلها زكريا » ، وزكريا هو زوج خالة السيدة مريم . وبعد دعاء امرأة عمران ، يجىء القول الحكيم :

﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ ﴾

لقد جاء هذا القول منها ، لأنها كانت قد قالت : إنها نذرت ما فى بطنها محررا لخدمة البيت ، وقولها : « محررا » تعنى أنها أرادت ذكرا لخدمة البيت ، لكن المولود جاء أنثى . فكأنها قد قالت : ان لم أُمَكَّنْ من الوفاء بالنذر ، فلأن قدرك سبق ، لقد جاءت المولودة أنثى . لكن الحق يقول بعد ذلك : « والله أعلم

بما وضعت » . وهذا يعنى أنها لا تريد إخبار الله ، ولكنها تريد أن تظهر التحسر ، لأن الغاية من نذرها لم تتحقق وبعد ذلك يقول الحق : « وليس الذكر كالأنثى » . فهل هذا من كلامها ، أم من كلام الله ؟

قد قالت : « إنى وضعتها أنثى » وقال الله : « وليس الذكر كالأنثى » .

إن الحق يقول لها : لا تظنى أن الذكر الذى كنت تتمنينه سيصل إلى مرتبة هذه الأنثى ، إن هذه الأنثى لها شأن عظيم . أو أن القول من تمام كلامها : « إنى وضعتها أنثى » ويكون قول الحق : « والله أعلم بما وضعت » هو جملة اعتراضية ويكون تمام كلامها « وليس الذكر كالأنثى » . أى أنها قالت : يارب إن الذكر ليس كالأنثى ، إنها لا تصلح لخدمة البيت .

وليأخذ المؤمن المعنى الذى يحبه ، وسنجد أن المعنى الأول فيه إشراق أكثر ، إنه تصور أن الحق قد قال : أنت تريدين ذكرا بمفهومك فى الوفاء بالنذر ، وليكون فى خدمة البيت ، ولقد وهبت لك المولود أنثى ، ولكنى سأعطى فيها آية أكبر من خدمة البيت ، وأنا أريد بالآية التى سأعطيها لهذه الأنثى مساندة عقائد ، لا مجرد خدمة رقعة تقام فيها شعائر .

إننى سأجعل من هذه الآية مواصلة لمسيرة العقائد فى الدنيا إلى أن تقوم الساعة . ولأننى أنا الخالق ، سأوجد فى هذه الأنثى آية لا توجد فى غيرها ، وهى آية تثبت طلاقة قدرة الحق ، ولقد قلت من قبل : إن طلاقة القدرة تختلف عن القدرة العادية ، إن القدرة تخلق بأسباب ، ولكن من أين الأسباب ؟ إن الحق هو خالق الأسباب أيضا .

إذن فمادام الخالق للأسباب أراد خلقا بالأسباب فهذه إرادته . ولذلك أعطانا الحق القدرة على رؤية طلاقة قدرته ، لأنها عقائد إيمانية ، يجب أن تظل فى بؤرة الشعور الإيمانى ، وعلى بال المؤمن دائما . لقد خلق الله بعضا من الخلق بالأسباب كما خلقنا نحن ، وجمهرة الخلق عن طريق التناسل بين أب وأم ، أما خلق الحق لآدم عليه السلام فقد خلقه بلا أسباب . ونحن نعلم أن الشىء الدائر بين اثنين له قسمة عقلية ومنطقية ، فمادام هناك أب وأم ، ذكر وأنثى ، فسيجىء منهما تكاثر . .

إن الحق يقول :

﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾

(سورة الذاريات)

وعندما يجتمع الزوجان ، فهذه هى الصورة الكاملة ، وهذه الأولى فى القسمة المنطقية والتصور العقلى ، وإما أن ينعدم الزوجان فهذه هى الثانية فى القسمة المنطقية والتصور العقلى . أو أن ينعدم الزوج الأول ويبقى الطرف الثانى ، وهذه هى الثالثة فى القسمة المنطقية والتصور العقلى ، أو أن ينعدم الزوج الثانى ويبقى الطرف الأول ، وهذه هى الرابعة فى القسمة المنطقية والتصور العقلى .

تلك إذن أربعة تصورات للقسمة العقلية . وجميعنا جاء من اجتماع العنصرين ، الرجل والمرأة . أما آدم فقد خلقه الله بطلاقة قدرته ليكون السبب . وكذلك تم خلق حواء من آدم . وأخرج الحق من لقاء آدم وحواء نسلا . وهناك أنثى وهى مريم ويأتى منها المسيح عيسى بن مريم بلا ذكر . وهذه هى الآية فى العالمين ، وتثبت قمة عقدية . فلا يقولن أحد : ذكرا ، أو أنثى ؛ لأن نية امرأة عمران فى الطاعة أن يكون المولود ذكرا ، وشاء قدر ربكم أن يكون أسمى من تقدير امرأة عمران فى الطاعة ، لذلك قال : « وليس الذكر كالأنثى » . أى أن الذكر لن يصل إلى مرتبة هذه الأنثى .

وقالت امرأة عمران : « وإنى سميتها مريم وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم » . إن امرأة عمران قالت ما يدل على شعورها ، فحينما فات المولودة بأنوثتها أن تكون فى خدمة بيت الله فقد تمنت امرأة عمران أن تكون المولودة طائعة ، عابدة ، فسمتها « مريم » لأن مريم فى لغتهم ـ كما قلنا ـ معناها « العابدة » .

وأول ما يعترض العبودية هو الشيطان . إنه هو الذى يجعل الإنسان يتمرد على العبودية . إن الإنسان يريد أن يصير عابدا ، فيجىء الشيطان ليزين له المعصية . وأرادت إمرأة عمران أن تحمى ابنتها من نزغ الشيطان لأنها عرفت بتجربتها أن المعاصى كلها تأتى من نزغ الشيطان ، وقد سمتها « مريم » حتى تصبح « عابدة لله » ؛ ولأن إمرأة عمران كانت تمتلك عقلية إيمانية حاضرة وتحمل المنهج التعبدى كله لذلك قالت : « وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم » .

إن المستعاذ به هوالله ، والمستعاذ منه هو الشيطان ، وحينما يدخل الشيطان مع خلق الله فى تزيين المعاصى ، فهو يدخل مع المخلوق فى عراك ، ولكن الشيطان لا يستطيع أن يدخل مع ربه فى عراك ، ولذلك يقال عن الشيطان إنه إذا سمع ذكر الله فإنه يخنس أى يتراجع ، ووصفه القرآن الكريم بأنها « الخنّاس » ، إن الشيطان إنما ينفرد بالإنسان حين يكون الإنسان بعيدا عن الله ، ولذلك فالحق يُعَلِّمُ الإنسان :

﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

إن الشيطان يرتعد فرقا ورعشة من الإستعاذة بالله . وعندما يتكرر ارتعاد الشيطان بهذه الكلمة ؛ فإنه يعرف أن هذا الإنسان العابد لن يحيد عن طاعة الله إلى المعاصى . وقد علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف يجىء الرجل امرأته ، ومجىء الأهل هو مظنة لمولود قد يجىء ، فيقول العبد : « اللهم جنبنى الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنى » (من دعاء رسول الله) .

إن من يقول هذا القول قبل أن يحدث التخلق « فلن يكون للشيطان ولاية أو قدرة على المولود الذى يأتى بإذن الله . ولذلك قالت إمرأة عمران : « وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم » . والذرية قد يفهمها الناس على أنها النسل المتكاثر ، ولكن كلمة « ذرية » تطلق على الواحد وعلى الاثنين ، وعلى الثلاثة أو أكثر . والذرية هنا بالنسبة لمريم عليها السلام هى عيسى عليه السلام ، وتنتهى المسألة . وبعد دعاء إمرأة عمران « وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم » يجىء القول الحق :

﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ

عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾

وقد عرفنا القبول الحسن والإنبات الحسن ، أما قوله الحق : « وكفلها زكريا » فهذا يعنى أن المسألة جاءت من أعلى ، إنه الرب الذى تقبل بقبول حسن ، وهو الذى أنبتها نباتا حسنا . إذن ، فرعاية زكريا لها إنما جاءت بأمر من الله . والدليل على ما حدث عند كفالة مريم . لقد اجتمع كبار القوم رغبة فى كفالتها وأجروا بينهم قرعة من أجل ذلك . وساعة تجد قرعة ، أو إسهاما . فالناس تكون قد خرجت من مراداتها المختلفة إلى مراد الله . فعندما نختلف على شيء فإننا نجرى قرعة ، ويخصص سهم لكل مشترك فيها ، ونرى بعد ذلك من الذى يخرج سهمه ، ويلجأ الناس لهذاالأمر ، ليمنعوا هوى البشر عن التدخل فى الاختيار ، ويصبح الأمر خارجا عن مراد البشر إلى مراد الله سبحانه وتعالى ، وهذا ما حدث عند كفالة زكريا لمريم . ولذلك فالحق يقول لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم :

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

إذن فالكفالة لمريم أخذت لها ضجة ، وهذا دليل على أنهم اتفقوا على إجراء قرعة بالنسبة لكفالتها ، ولا يمكن أن يكونوا قد ذهبوا إلى هذه القرعة إلا إذا كان قد حدث تنازع بينهم ، عن أيهم يكفل مريم ، ومن فضل الله أن زكريا عليه السلام كان متزوجا من « إشاع » « أخت » « حنة » وهى أم مريم ، فهو زوج خالتها .

وكلمة « أقلامهم » قال فيها المفسرون : إنها القداح التى كانوا يصنعونها قديما ، أو الأقلام التى كتبوا بها التوراة ، فرموها فى البحر ، فمن طفا قلمه لم يأخذ رعاية مريم ، ومن غرق قلمه فى البحر فهو الذى فاز بكفالة مريم . إذن فهم قد خرجوا

عن مراداتهم إلى مراد الله .

والخروج عن المرادات ، والخروج عن الأهواء بجسم ليس له اختيار ـ كقداح القرعة ـ لا يوجد فى النفس غضاضة . لكن لو كان هناك من سيأخذ رعاية مريم بالقوة والغصب فلابد أن يجد نفوس الآخرين وقد امتلأت بالمرارة أو الغضب . ولذلك فقد كان سائدا فى ذلك العصر عملية إجراء السهام إذا ما خافوا أن يقع الظلم على أحد أو أن يساء الظن بأحد ، وهناك قصة سيدنا يونس عندما قاربت السفينة على الغرق ، وكان لابد لإنقاذها أن ينزل واحد إلى البحر ، وجاء القول الحكيم :

﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ﴾

سورة الصافات)

كان لابد أن ينزل واحد من تلك السفينة ، لذلك تم إجراء قرعة بالسهام حتى لا تقوم معركة بين الموجودين على ظهر السفينة ، وحتى لا تكون الغلبة للأقوياء ، ولكن القرعة حمت الناس من ظلم بعضهم بعضا . قالوا : لنجر قرعة السهام ، فمن يخرج سهمه فهو الذى يلقى به ، وكان على يونس عليه السلام أن ينزل إلى اليم فيلتقمه الحوت . ولأنه من المسبحين فإن الله ينقذه . لقد قبل يونس عليه السلام اختيار الله ولم ينس تسبيح الله فكان فى ذلك الإنقاذ له . وهكذا نقرأ قول الله لنفهم أن كفالة زكريا كانت باختيار الله . « فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتا حسنا وكفلها زكريا » .

وكلمة « كفلها » أى تولى كل مهمة تربيتها ، هذه هى الكفالة ، ونحن نعرف أن الكفيل فى عرفنا هو الضامن ، والضامن هو من يسد القرض عندما يعجز الإنسان عن السداد ، وقوله الحق : « وكفلها زكريا » يعطينا المعنى الواضح بأن زكريا عليه

السلام هو الذى قام برعاية شئون مريم .

ويتابع الحق الكريم قوله : « كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا » إنه لم يدخل مرة واحدة ، بل دخل عليها المحراب مرات متعددة . وكان زكريا عليه السلام كلما دخل على مريم يجد عندها الرزق ، ولذلك كان لابد أن يتساءل عن مصدر هذا الرزق ، ولابد أن يكون تساؤله معبرا عن الدهشة ، لذلك يجىء القول الحق على لسان زكريا : « أنّى لك هذا » .

وساعة أن تسمع « أنى لك هذا ؟» فهذا يدل على أنه قام بعمل محابس على المكان الذى توجد به مريم ، وإلا لظن أن هناك أحدا قد دخل على مريم ، وكما يقولون : فإن زكريا كان يقفل على مريم الأبواب . وإلا لو كانت الأبواب غير مغلقة لظن أن هناك من دخل وأحضر لها تلك الألوان المتعددة من الرزق .

والزرق هو ما ينتفع به ـ بالبناء للمجهول ـ وعندما يقول زكريا عليه السلام : « أنّى لك هذا » . فلنا أن نتذكر ما قلناه سابقا من أن أى إنسان وكله الله على جماعة ويرى عندهم ما هو أزيد من الطاقة أو حدود الدخل ، فلابد أن يسأل كُلًّا منهم : من أين لك هذا ؟ ذلك أن فساد البيوت والمجتمعات إنما يأتى من عدم الاهتمام بالسؤال وضرورة الحصول على إجابة على السؤال المحدد : من أين لك هذا ؟

إن الذى يدخل بيته ويجد ابنته ترتدى فستانا مرتفع الثمن ويفوق طاقة الأسرة ، أو يجد ابنه قد اشترى شيئا ليس فى طاقة الأسرة أن تشتريه ، هنا يجب أن يتوقف الأب أوالولى ليسأل : من أين لك هذا ؟ إن فى ذلك حماية لأخلاق الأسرة من الانهيار أو التحلل . فلو فطن كل واحد أن يسأل أهله ومن يدخلون فى كفالته ـ « من أين لك هذا ؟» لعرف كل تفاصيل حركتهم ، لكن لو ترك الحبل على الغارب لفسد الأمر .

وقول زكريا : « أنّى لك هذا ؟» هو سؤال محدد عن مصدر هذا الرزق ، ولننظر إلى إجابتها : « قالت هو من عند الله » ثم لا تدع البديهة الإيمانية عند سيدنا زكريا دون أن تذكره انها لا تنسى حقيقة واضحة فى بؤرة شعور كل مؤمن : « إن الله يرزق

من يشاء بغير حساب » وأثارت هذه المسألة فى نفس زكريا نوازع شتى ، إنها مسألة غير عادية ، لقد أخبرته مريم أن الرزق الذى عندها هومن عند الله الذى يرزق من يشاء بغير حساب ، إنه الإله هو القادر على أن يقول : « كن » فيكون .

وهنا ذكر زكريا نفسه ، وكأن نفسه قد حدثته : « إذا كانت للقدرة طلاقة فى أن تفعل بلا أسباب ، وتعطى من غير حساب ، فأنا أريد ولدا يخلفنى ، رغم أننى على كبر ورغم بلوغى من السن عتيًا ، وامرأتى عاقر . إن مسألة الرزق الذى وجده زكريا كلما دخل على مريم هى التى نبهت زكريا إلى ما يتمنى ويرغب .

ونحن نعلم أن المعلومات التى تمر على خاطر النفس البشرية كثيرة ، ولكن لا يستقر فى بؤرة الشعور إلا الذى يصر عليه الإنسان ، وهناك فرق بين معلومات توجد فى بؤرة الشعور . ومعلومات فى حاشية الشعور يتم استدعاؤها عند اللزوم ، فلما وجد زكريا الرزق المنوع عند مريم وقالت له عن مصدره : « هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب » . هنا تساءل زكريا : كيف فاتنى هذا الأمر ؟ ولذلك يقول الحق عن زكريا :

﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٨﴾ ﴾

إنها ساعة أن قالت له : إن الرزق من عند الله ، وأنه الحق الذى يرزق من يشاء بغير حساب ، هنا أيقظت فيه القضية الإيمانية فجاءت أمنيته إلى بؤرة الشعور ، فقال زكريا لنفسه : فلنطلب من ربنا أن يرزقنا ما نرجوه لأنفسنا ، ومادام قد قال هذا القول فلابد أنه قد صدق مريم فى قضيتها ، بأن هذا الرزق الذى يأتيها هو من عند الله ، ودليل آخر فى التصديق ، هو أنه لابد وقد رأى أن الألوان المتعددة من الرزق التى توجد عند مريم ليست فى بيئته ، أو ليست فى أوانها ؛ وكل ذلك فى المحراب .

ونحن نعرف أن المحراب كلمة يراد بها بيت العبادة . يقول الحق :

﴿ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ ﴾

(سورة سبأ)

أو « المحراب » وهو مكان الإمام فى المسجد ، أو هو حجرة يصعد إليها بسلم ، كالمبلغات التى تقام فى بعض المساجد . ومادامت مريم قد أخبرت زكريا وهى فى المحراب بأن الرزق من عند الله ، وأيقظت بذلك تلك القضية الإيمانية فى بؤرة شعوره ، فماذا يكون تصرفه ؟ هنا دعا زكريا أثناء وجوده فى المحراب . « رب هب لى من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء » إنه هنا يطلب الولد . ولكن لابد لنا أن نلاحظ ما يلى :

ـ هل كان طلبه للولد لما يطلبه الناس العاديون من أن يكون زينة للحياة أو « عزوة » أو ذكرا ؟ لا ، إنه يطلب الذرية الطيبة ، وذكر زكريا الذرية الطيبة تفيد معرفته أن هنالك ذرية غير طيبة . وفى قول زكريا الذى أورده الحق :

﴿ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ﴾

(من الآية ٦ سورة مريم)

أى أن يكون دعاء لإرث النبوة وإرث المناهج وإرث القيم ، هكذا طلب زكريا الولد . لقد طلبه لمهام كبيرة ، وقول زكريا : « رب هب » تعنى أنه استعطاء شىء بلا مقابل ، إنه يعترف . أنا ليس لى المؤهلات التى تجعل لى ولدا ، لأنى كبير السن وامرأتى عاقر ، إذن فعطاؤك يارب لى هو هبة وليس حقا ، وحتى الذى يملك الاستعداد لا يكون هذا الأمر حقا له ، فلابد أن يعرف أن عطاء الله له يظل هبة ، فإياك أن تظن أن اكتمال الأسباب والشباب هى التى تعطى الذرية ، إن الحق سبحانه ينبهنا ألاّ نقع فى خديعة وغش أنفسنا بالأسباب .

﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ

لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ﴾

(سورة الشورى)

إن فى ذلك لفتا واضحا وتحذيراً محدداً ألا نفتتن بالأسباب ، إذن فلكل عطاء من الله هو هبة ، والأسباب لا تعطى أحدا ما يريد . إن زكريا يقول : « رب هب لى من لدنك » وساعة أن تقول من : « لدنك » فهو يعنى « هب لى من وراء أسبابك » . لماذا ؟ لأن الكل من الله .

ولكن هناك فرقا بين عطاء الله بسبب ، كأن يذهب إنسان ليتعلم العلم ويمكث عشرين عاما ليتعلم ، وهناك إنسان يفيض الله عليه بموهبة ما ، ولذلك يقول أهل الإشراقات : إنه علم لدنى ، أى من غير تعب ، وساعة أن نسمع « من لدن » أى انعزلت الأسباب ، كان دعاء زكريا هو « رب هب لى من لدنك » وكلمة « هب » توضح ما جاء فى سورة مريم من قول زكريا :

﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ ﴾

(سورة مريم)

إن « هب » هى التى توضح لنا هذه المعانى ، هذا كان دعاء زكريا : « رب هب لى من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء » فهل المراد أن يسمع الله الدعاء ؟ أم أن يجيب الله الدعاء ؟ إنه يضع كل أمله فى الله ، وكأنه يقول : إنك يارب من فور أن تسمعنى ستجيبنى إلى طلبى بطلاقة قدرتك . لماذا ؟ لأنك يارب تعلم صدق نيتى فى أننى أريد الغلام لا لشىء من أموركقرة العين ، والذكر ، والعز ، وغيرها ، إنما أريد الولد ليكون وارثا لى فى حمل منهجك فى الأرض ، وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾

هل كل الملائكة اجتمعوا أو نادوا زكريا ؟ لا ، لأن جبريل عليه السلام الذى ناداه . ولماذا جاء القول الحق هنا بأن الملائكة هى التى نادته ؟ لقد جاء هذا القول الحق لنفطن إلى شيء هو ، أن الصوت فى الحدث ـ كالإنسان ـ له جهة يأتى منها ، أما الصوت القادم من الملأ الأعلى فلا يعرف الإنسان من أين يأتيه ، إن الإنسان يسمعه وكأنه يأتى من كل الجهات ، وكأن هناك ملكا فى كل مكان .

والعصر الحديث الذى نعيشه قد ارتقى فى الصوتيات ووصل لدرجة أن الإنسان أصبح قادرا على جعل المؤثر الصوتى يحيط بالإنسان من جهات متعددة ، إذن فقوله الحق : « فنادته الملائكة » فهذا يعنى أن الصوت قد جاء لزكريا من جميع الجهات .

﴿ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

لقد نادته الملائكة فى أورع لقاءاته مع ربه ، أو هو حينما دعا أخذ ما علمه الله للأنبياء إذا حزبهم أمر قاموا إلى الصلاة . أليس طلبه من الله ؟ إذن فليقف بين يدى الله . وليجربها كل واحد منا عندما يصعب عليك أى شيء ، وتتأزم الأمور ، وتمتنع الأسباب ، فليقم ويتوضأ وضوءا جديدا ويبدأه بالنية حتى ولو كان متوضئا . وليقف بين يدى الله ، وليقل ـ إنه أمر يارب عزّ علىّ فى أسبابك ، وليصل بخشوع ، وأنا أجزم بأن الإنسان ما إن يسلم من هذه الصلاة إلّا ويكون الفرج قد جاء . ألم نتلق عن رسول الله هذا السلوك البديع ؟ إنه كلما حزبه أمر قام إلى الصلاة ؟

ومعنى حزبه أمر ، أى أن أسبابه ضاقت ، لذلك يذهب إلى الصلاة لخالق الأسباب ، إنها ذهاب إلى المسبب . وبدلا من أن تلف وتدور حول نفسك ، اذهب إلى الله من أقصر الطرق وهو الصلاة ، لماذا تتعب نفسك أيها العبد ولك رب حكيم ؟ وقديما قلنا : إن من له أب لا يحمل هما ، والذى له رب أليس أولى بالإطمئنان ؟

إن زكريا قد دعا الله فى الأمر الذى حزبه ، وبمجرد أن دعا فى الأمر الذى حزبه ، قام إلى الصلاة ، فنادته الملائكة ، وهو قائم يصلى ، إن الملائكة لم تنتظر إلى أن ينتهى من صلاته ، « فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب أن الله يبشرك » .

والبشارة هى إخبار بخير زمنه لم يأت ، فإذا كانت البشارة بخير زمنه لم يأت فلنر من الذى يخبر بالبشارة ؟ أمن يقدر على إيجاده أم من لا يقدر ؟ فإذا كان الله هو الذى يبشر ، فهو الذى يقدر ، لذلك فالمبشر به قادم لا محالة ، «إن الله يبشرك بيحيى» لقد قال له الله : سأعطيك . وزيادة على العطاء سماه الله بـ « يحيى » وفوق كل ذلك : « مصدقا بكلمة من الله » .

ولننظر إلى دقة الحق حين يقول : « بيحيى مصدقا » . هذا دليل على أنه سيعيش بمنهج الله وما يعرفه من الطاعات سيسير فى هذا الطريق وهو مصدق ، وهو سيأتى بكلمة من الله ، أو هو يأتى ليصدق بكلمة من الله ، لأن سيدنا يحيى هو أول من آمن برسالة عيسى عليه السلام . وهو موصوف بالقول الحق : « وسيدا وحصورا ونبيا من الصالحين » . أى ممنوعا عن كل ما حُرم عليه ، أو ممنوعا عن قمة الغرائز وهى الشهوة ، وهو نبىّ ، أى قدوة فى اتباع الرسول الذى يجىء فى عصره ، لقد دعا زكريا ، وقام ليصلى ، وتلقى البشارة بيحيى ، وهنا ارتجت الأمور على بشرية زكريا ، ويصوره الحق بقوله :

﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ ﴾

إن زكريا ـ وهو الطالب ـ يصيبه التعجب من الإستجابة فيتساءل . كيف يكون ذلك ؟ والحق يورد ذلك ليعلمنا أن النفس البشرية دائما تكون فى دائرات التلوين ، وليست فى دائرات التمكين ، وذلك ليعطى الله لخلقه الذين لا يهتدون إلى الصراط المستقيم الأسوة فى أنه إذا ما حدث له ابتلاء فعليه الرجوع إلى الله ، فيقول زكريا : « أنَّى يكون لى غلام وقد بلغنى الكبرى وإمرأتى عاقر » .

إن بلوغ الكبر ليس دليلا على أنه عاجز عن الإنجاب لأنه قد يكون كبير العمر ، وقادرا على إخصاب امرأة ، ذلك أن الإخصاب بالنسبة لبعض الرجال ليس أمرا عسيرا مهما بلغ من العمر إن لم يكن عاقرا ، ولكن المرأة هى العنصر المهم ، فإن كانت عاقرا ، فذلك قمة العجز فى الأسباب . ولو أن زكريا قال فقط : « وامرأتى عاقر » لكان أمرا غير مستحب بالنسبة لزوجته ، ولكان معنى ذلك أنه نسب لنفسه الصلاحية وهى غير القادرة .

إنه أدب النبوة وهو أدب عال ، لذلك أوردها من أولها : « وقد بلغنى الكبر وامرأتى عاقر » ولنر دقة القول فى : « بلغنى الكبر » ، إنه لم يقل : « بلغت الكبر » بل يقول : إن الكبر هو الذى جاءنى ولم أجىء أنا إلى الكبر . لأن بلوغ الشىء يعنى أن هناك إحساسا ورغبة فى أن تذهب إليه ، وذكر زكريا « وامرأتى عاقر » هو تضخيم لطلاقة القدرة عند من يستمع للقصة ، لقد أورد كل الخوالج البشرية ، وبعد ذلك يأتى القول الفصل : « قال كذلك الله يفعل ما يشاء » إنها طلاقة القدرة التى فوق الأسباب لأنها خالقة الأسباب . ويقول زكريا :

﴿ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً ۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾ ﴾

إن زكريا يطلب علامة على أن القول قد انتقل إلى فعل .

﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴿٩﴾ ﴾

(سورة مريم)

لقد كان هذا القول تأكيدا لاشك فيه ، فبمجرد أن قال الرب فقد انتهى الأمر . فماذا يريد زكريا من بعد ذلك ؟ إنه يطلب آية ، أى علامة على أن يحيى قد تم إيجاده فى رحم أمه ، ومادامت المرأة قد كبرت فهى قد انقطع عنها الحيض ، ولابد أنه عرف الآية لأنه يعرف مسبقا أنها عاقر . لكن زكريا لم يرغب أن يفوت على نفسه لحظة من لحظات هبات الله عليه ، ومادام الحمل قد حدث فهنا كانت استغاثة زكريا ، لا تتركنى يارب إلى أن أفهم بالعلامات الظاهرة المحسة ، لأننى أريد أن أعيش من أول نعمتك علىّ فى إطار الشكر لك على النعمة ، فبمجرد أن يحدث الإخصاب لابد أن أحيا فى نطاق الشكر ، لأن النعمة قد تأتى وأنا غير شاكر .

إنه يطلب آية ليعيش فى نطاق الشكر ، إنه لم يطلب آية لأنه يشك ـ معاذ الله ـ فى قدرة الله ، ولكن لأنه لا يريد أن يفوت على نفسه لحظة النعمة من أول وجودها إلا ومعها الشكر عليها ، والذى يعطينا هذا المعنى هو القول الحق : « قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا واذكر ربك كثيرا وسبح بالعشى والإبكار » . لابد أن معناها أنه يرغب فى الكلام فلا يستطيع .

إن هناك فارقا بين أن يقدر على الكلام ولا يتكلم ، وبين ألا يقدر على الكلام . ومادامت الآية هبة من الله . فالحق هو الذى قال له : سأمنعك من أن تتكلم ، فساعة أن تجد نفسك غير قادر على الكلام فاعرف أنها العلامة ، وستعرف أن تتكلم مع الناس رمزا ، أى بالإشارة ، وحتى تعرف أن الآية قادمة من الله ، وأن الله علم عن عبده أنه لا يريد أن تمر عليه لحظة مع نعمة الله بدون شكر الله عليها ، فإننا نعلم أن الله سينطقه . . « واذكر ربك كثيرا وسبح بالعشىّ والإبكار » .

لقد أراد زكريا أن يعيش من أول لحظة مع نعمة المنعم شكرا ، وجعل كل وقته ذكرا ، فلم ينشغل بالناس أو بكلام الناس ، وذكر الرب كثيرا هو ما علمه ـ سبحانه ـ عن زكريا عندما طلب الآية ليصحبها دائما بشكر الله عليها ، إن قوله :

« واذكر ربك كثيرا » تفيد أن زكريا قادر على الذكر وغير قادر على كلام الناس ، لذلك لا يريد الله أن يشغله بكلام الناس ، وكأن الله يريد أن يقول له : مادمت قد أردت أن تعيش مع النعمة شكرا فسأجعلك غير قادر على الكلام مع الناس لكنك قادر على الذكر .

والذكر مطلقا هو ذكر الله بآلائه وعظمته وقدرته وصفات الكمال له ، والتسبيح هو التنزيه لله ، لأن ما فعله الله لا يمكن أن يحدث من سواه ، فسبحان الله ، معناها تنزيه لله ، لأنه القادر على أن يفعل ما لاتفعله الأسباب ولا يقدر أحد أن يصنعه . إنه يريد أن يشكر الحق الذى يرزق من يشاء بغير حساب . تلك اللفتة . . التى جاءت من قبل من مريم لزكريا .

وزكريا كما نعلم هو الكفيل لها ، فكونها تنطق بهذه العبارة دلالة على أن الله مهد لها بالرزق ، يجيئها من غير زكريا ، بأنها ستأتى بشىء من غير أسباب . وكأن التجربة قد أراد الله أن تكون من ذاتها لذاتها ، لأنها ستتعرض لشىء يتعلق بعرض المرأة ، فلابد أن تعلم مسبقا أن الله يرزق من يشاء بغير حساب ، وبدون أسباب . فإن جاءت بولد بدون سبب من أبوة فلتعلم أن الله يرزق من يشاء بغير حساب .

فلما سمع زكريا منها ذلك قال : مادام الله يرزق من غير حساب ويأتى بالأشياء بلا أسباب فأنا قد بلغت من الكبر عتيا ، وامرأتى عاقر ، فلماذا لا أطلب من ربى أن يهبنى غلاما ؟ إذن فمقولة مريم : « إن الله يرزق من يشاء بغير حساب » قد لفتت زكريا ، ونبهت إيمانا موجودا فى أعماقه وحاشية شعوره ، ولا نقول أوجدت إيمانا جديداً لزكريا بأن الله يرزق من يشاء بغير حساب ، ولكنها أخرجت القضية الإيمانية من حاشية الشعور إلى بؤرة الشعور ، فقال زكريا : مادام الأمر كذلك فأنا أسأل الله أن يهبنى غلاما . . وقول زكريا : « هب لى من لدنك ذرية طيبة » دل على أنه وزوجته لا يملكان اكتساب الأبوة والأمومة ولذلك طلب الهبة من الله . والهبة شىء بدون مقابل .

فلما سأل الله ذلك استجاب الله له ، وقال له سبحانه : سأهبك غلاما بدون أسباب من خصوبتك فى التلقيح أو خصوبة الزوجة فى الحمل ، ومادامت المسألة ستكون بلا أسباب وأنا ـ الخالق ـ سأتولى الإيجاب بـ « كن » ولمعنى سام شريف سأمنحكم شيئا آخر تقومون به أنتم معشر الآباء والأمهات ـ عادة ـ إنه تسمية

المولود ، فأفاض الحق عليهم نعمة أخرى وهى تسمية المولود بعد أن وهبه لهما . . هنا وقفة عند الهبة بالاسم .

﴿ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

حين يولد للناس ولد فهم يسمونه ، فالتسمية أمر شائع فى عادات الناس . ولكن من يهمهم أمر الوليد حينما يقبلون على تسميته ؛ فهم يحاولون أن يتفاءلوا ؛ فيسموه اسما يرجون أن يتحقق فى المسمى ، فيسمونه « سعيدا » أملا فى أن يكون سعيدا ، أو يسمونه « فضلا » أو يسمونه « كريما » . إنهم يأتون بالاسم الذى يحبون أن يجدوا وليدهم على صفته ، وذلك هو الأمل منهم ، ولكن أتأتى المقادير على وفق الآمال ؟

قد يسمونه سعيدا ، ولا يكون سعيدا . ويسمونه فضلا ، ولا يكون فضلا . ويسمونه عزا ، ولا يكون عزا . ولكن ماذا يحدث حين يسمى الله سبحانه وتعالى ؟ لابد أن يختلف الموقف تماما . فإذا قال اسمه « يحيى » دل على أنه سيعيش . وقديما قال الشاعر حينما تفاءل بتسمية ابنه يحيى :

فسميته يحيا ليحيا
فلم يكن لرد قضاء الله فيه سبيل

كان الشاعر قد سمى ابنه يحيى أملا أن يحيا ، ولكن الله لم يرد ذلك ، فمات الابن . لماذا ؟ لأن المسمى من البشر ليس هو الذى يُحْيِى ، إن المسمى إنسان قدرته عاجزة ، ولكن « المحيى » له طلاقة القدرة ، فحين يسمى من له طلاقة القدرة على إرادة أن يحيا فلابد من أن يحيا حياة متميزة ؟ وحتى لا تفهم أن الحياة التى أشار الله إليها بقوله : « اسمه يحيى » بأنها الحياة المعروفة للبشر عادة ـ لأن الرجل حينما يسمى ابنه « يحيى » يأمل أن يحيا الابن متوسط الأعمار ، كما يحيا الناس ستين عاما ، أو سبعين ، أو أى عدد من السنوات مكتوبة له فى الأزل .

لكن الله حينما يسمى « يحيى » فانه لا يأخذ « يحيى » على قدر ما يأخذه الناس ،

بل لابد أن يعطيه أطول من حدود أعمار الناس ، ويهيىء له الحق من خصومه ومن أعدائه من يقتله ليكون شهيدا ، وهو بالشهادة يصير حيا ، فكأنه يحيا دائما ، فالشهداء أحياء عند ربهم يرزقون .

وهكذا أراد الله ليحيى عليه السلام أن يحيا كحياة الناس ، ويحيا حياةٍ أطول من حياة الناس إلى أن تقوم الساعة ، وأيضا نأخذ ملحظا فى أن زكريا حينما بُشر بأن الله سيهبه غلاما ويسميه يحيى ، نجده قد استقبلها بالعجب . كيف يستقبل زكريا مسألة الرزق بالولد متعجبا مع أنه رآها فى الرزق الذى كان يجده عند مريم ؟ « يرزق من يشاء بغير حساب » .

ولنا أن نقول : أكنت تحب أن يمر مثل هذا الأمر الخارق للعادة والخارق للناموس على سيدنا زكريا كأنه أمر عادى لا يندهش له ولا يتعجب ؟ لا ، لابد أن يندهش ويتعجب لذلك قال : « ربى أنّى يكون لى غلام » . فكأن الدهشة لفتته إلى أنه ستأتى آية عجيبة ، ولو لم تكن تلك الدهشة لكانت المسألة رتيبة وكأنها أمر عادى . إذن ، فهو يلفتنا إلى الأمر العجيب الذى خصه الله به . وأيضا جاءت المسألة على خلاف ناموس التكاثر والإنجاب والنسل : « وقد بلغنى الكبر وإمرأتى عاقر » .

إن المسألة كلها تفضل وهبة من الله . فلما جاءته البشارة ، لم يقل الله له : إننى سأهبك الغلام واسمه يحيى من امرأتك هذه ، أو وأنت على حالتك هذه . فيتشكك ويتردد ويقول : أترى يأتى الغلام الذى اسمه « يحيى » منى وأنا على هذه الحالة ، امرأتى عاقر وأنا قد بلغت هذا الكبر ، أو ربما ردنا الله شبابا حتى نستطيع الإنجاب ، أو تأتى امرأة أخرى فأتزوجها وأنجب .

إذن فالعجب فى الهيئة التى سيصير عليها الإنجاب فقوله : « أنى يكون لى غلام وقد بلغنى الكبر وامرأتى عاقر » هذا التساؤل من زكريا يهدف به إلى معرفة الهيئة أو الحالة التى سيأتى بها الإنجاب ، لأن الإنجاب يأتى على حالات متعددة . فلما أكد الله ذلك قال : « كذلك » ماذا تعنى كذلك ؟ إنها تعنى أن الإنجاب سيأتى منك ومن زوجك وأنتما على حالكما ، أنت قد بلغت من الكبر عتيا ، وامرأتك عاقر . لأن العجيبة تتحقق بذلك ، أكان من المعقول أن يردهما الله شبابا حتى يساعداه أن يهبهما الولد ؟ لا . لذلك قال الحق : « كذلك الله يفعل ما يشاء » . أى كما أنتما ، وعلى حالتكما .

لقد جعل الحق الآية ألا يكلم زكريا الناس ثلاثة أيام إلا بالإشارة ، وقد يكون عدم الكلام فى نظر الناس مرضا لا ، إنه ليس كذلك ، لأنّ الحق يقول له : « واذكر ربك كثيرا وسبح بالعشىّ والإبكار » إنّ الحق يجعل زكريا قادرا على التسبيح ، وغير قادر على الكلام . وهذه قدرة أخرى من طلاقة قدرة الله ، إنه اللسان الواحد ، غير قادر على الكلام ، ولو حاول أن يتكلم لما استطاع ، ولكن هذا اللسان نفسه ـ أيضا ـ يصبح قادرا فقط على التسبيح ، وذكر الله بالعشىّ والإبكار ، ذكر الله باللسان وسيسمعه الناس ، وذلك بيان لطلاقة القدرة .

وبعد ذلك ينتقل بنا الحق إلى مسألة أخرى تتعلق بمريم ، لأن مريم هى الأصل فى الكلام ، فالرزق الذى كان يأتيها من الله بغير حساب هو الذى نبه سيدنا زكريا إلى طلب الولد،وجاء الحق لنا بقصة زكريا والولد،ثم عاد إلى قصة مريم :

﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾

« وإذ قالت الملائكة » المراد بها جبريل عليه السلام ، والسبب فى أن الحق يورد ذلك بـ« قالت الملائكة » لأن كلام المتكلم ـ أى الإنسان ـ له ـ كما قلنا ـ زاوية انطلاق يأتى من جهتها الصوت . وتستطيع أن تتأكد من ذلك عندما يجىء لك صوت ، فأنت تجد ميل أذنك لجهة مصدر الصوت ، فإن جاء الصوت من ناحية أذنك اليمنى فأنت تلتفت وتميل إلى يمينك ، وإذا جاءك الصوت من شمالك تلتفت إلى الشمال . لكن المتكلم هنا هو جبريل عليه السلام ، ويأتى صوته من كل جهة حتى يصير الأمر عجيبا ، لهذا جاء الكلام منسوبا إلى الملائكة .

فماذا قال جبريل ؟ قال جبريل مبلغا عن رب العزة : « يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين » وما الاصطفاء ؟ إن الاصطفاء اختيار واجتباء ، وهو مأخوذ

من الصفو أو الصافى ، أى الشىء الخالص من الكدر . وعادة تؤخذ المعانى من المحسات ، وعندما تقول الماء الصافى أى الماء غير المكدر ، أو كما يقول الحق :

﴿ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ﴾

(من الآية ١٥ من سورة محمد)

وعندما يقول الحق : « إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين » نحن هنا أمام اصطفاءين ، الاصطفاء الأول ورد دون أن تسبقه كلمة « على » والإصطفاء الثانى تسبقه كلمة « على » والمقصود بالإصطفاء الأول هو إبلاغ مريم أن الله ميزها بالإيمان ، والصلاح والخلق الطيب ، ولكن هذا الاصطفاء الأول جاء مجردا عن « على » أى أن هذا الاصطفاء الأول لا يمنع أن يوجد معها فى مجال هذا الإصطفاء آخرون ، بدليل قول الحق :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

ثم أورد الحق سبحانه أنه طهرها ، وجاء من بعد ذلك بالاصطفاء الثانى المسبوق بـ« على » فقال « واصطفاك على نساء العالمين » إذن فهذا خروج للرجال عن دائرة هذا الاصطفاء ، ولن يكون مجال الاصطفاء موضوعا يتعلق بالرجولة ، فهى مصطفاة على نساء العالمين ، فكأنه لا توجد أنثى فى العالمين تشاركها هذا الاصطفاء . لماذا ؟ لأنهاالوحيدة التى ستلد دون ذكر ، وهذه مسألة لن يشاركها فيها أحد .

وقوله الحق : « واصطفاك على نساء العالمين » هذا القول يجب أن ينبه فى نفسها سؤالا هو : ما الذى تمتاز هى به عن نساء العالمين ؟ إن الذهن ينشغل بهذا الأمر ، وينشغل على أمر من وظيفة الأنثى ، ولنضم هذه إلى قول الحق على لسانها : « إن الله يرزق من يشاء بغير حساب » ونجد أن هذه كلها إيناسات للحدث الذى سيأتى من بعد ذلك ، وهو حدث يتعلق بعرضها وعفافها ، فلابد أن يمهد الله له تمهيدا مناسبا حتى تتأكد من أن هذه المسألة ليس فيها شىء يخدش العرض أو يخدش الكرامة . « واصطفاك على نساء العالمين » ولنا أن نسأل : ما نتيجة الاصطفاء ؟

لقد عرفنا أن الاصطفاء هو الاجتباء والآختيار ، ويقتضى « مصطفَى » بفتح الفاء . ويقتضى « مصطفِى » بكسر الفاء . والمصطفِى هو الله ، لكن ما علة الاصطفاء ؟إن الذى يصطفيه الله إنما يصطفيه لمهمة ، وتكون مهمة صعبة . إذن هو يصطفيه حتى يشيع اصطفاؤه فى الناس . كأن الله قد خصه بالاصطفاء من أجل الناس ومصلحتهم ، سواء أكان هذا الاصطفاء لمكان أم لإنسان أم لزمان ليشيع صفاؤه فى كل ما اصطفى عليه . لقد اصطفى الله الكعبة من أجل ماذا ؟ حتى يتجه كل إنسان إلى الكعبة . إذن فقد اصطفاها من أجل البشر وليشيع اصطفاؤها فى كل مكان آخر ، ولذلك قال الحق عن الكعبة :

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

وإذا اصطفى الحق سبحانه زمانا ، كاصطفائه لرمضان ، فلماذا اصطفاه ؟ ليشيع صفاؤه ، وصفاء ما أنزل فيه فى كل زمان . إذن فاصطفاء الحق للشخص أو للمكان أو للزمان هو لمصلحة بقية الناس أو الأمكنة أو الأزمنة ، لماذا ؟ لأن أحدا من الخلق ليس ابنا لله ، وليس هناك مكان أولى بمكان عند الله . ولكن الله يصطفِى زمانا على زمان ، ومكانا على مكان ، وإنسانا على إنسان ليشيع اصطفاء المُصطفَى فى كل ما اصطُفِىَ عليه . إذن فهل يجب على الناس أن يفرحوا بالمصطفَى ، أو لا يفرحوا به ؟ إن عليهم أن يفرحوا به ، لأنه جاء لمصلحتهم ، والحق سبحانه يقول :

﴿ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِى لِرَبِّكِ وَاسْجُدِى وَارْكَعِى مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾

فكأن ما تقدم من حيثيات الاصطفاء الأول ، والاصطفاء الثانى ، يستحق منها القنوت ، أى العبادة الخالصة الخاضعة الخاشعة . وقد يقول قائل : ولماذا يصطفى

الله واحدا ، ليشيع اصطفاؤه فى الناس ؟ لأن الاصطفاء من الحق لابد أن يبرئه من كل ما يمكن أن يقع فيه نظيره من الاختيارات غير المرضية ، والحق ـ سبحانه ـ يريده نموذجا لا يقع منه إلا الخير ، والمثال الكامل على ذلك اصطفاء الحق سبحانه لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم من أول الأمر وجعله لا يفعل إلا السلوك الطيب من أول الأمر ، وذلك حتى يعطينا الرسول القدوة الإيمانية فى ثلاث وعشرين سنة هى مدة الرسالة المحمدية .

والحق يقول لمريم على لسان الملائكة : « يا مريم اقنتى لربك » إنه أمر بالعبادة الخاشعة المستديمة لربها ، وكلمة « لربك » تعنى التربية ، فكأن الاصطفاءات هى من نعم الله عليك يا مريم ، وتستحق منك القنوت « واسجدى واركعى مع الراكعين » و« اسجدى » أى بَالِغِى فى الخشوع ، والخضوع ، بوضع الجبهة التى هى أشرف شىء فى الإنسان على الأرض ، لأن السجود هو أعلى مرتبة من الخضوع .

لكن أيعفيها هذا اللون من الخضوع مما يكون من الركوع لله مع الناس ؟ لا ، إنه الأمر الحق يصدر لمريم « واركعى مع الراكعين » ولا يعفيك من الركوع أنك فعلت الأمر الأعلى منه فى الخضوع وهو السجود ، بل عليك أن تركعى مع الراكعين ، فلا يحق لك يا مريم أن تقولى : « لقد أمرنى الله بأمر » أعلى ولن أنفذ الأمر الأدنى »

إن الحق يأمرها أن تكون أيضا فى ركب الراكعين مثلما نقرأ قوله الحق عن الكفار :

﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ ﴾

(سورة المدثر)

إنهم كفار ، فكيف يصلون ؟ إنه اعتراف منهم بأنهم كفار ، ولم يكونوا مسلوكين فى سلك من يصلى ، واعتراف بأنهم لم يكونوا مسلمين أو مؤمنين بالله . وهنا يسأل سائل كريم : لماذا قال سبحانه وتعالى فى خطابه لمريم : « يا مريم اقنتى لربك واسجدى واركعى مع الراكعين » ولم يقل الحق : « مع الراكعات » ؟ هذا هو السؤال .

وإجابة على هذا السؤال نحب أن نمهد تمهيدا بسيطا إلى فلسفة الأسماء فى وضعها على مسمياتها . إن الأسماء ألفاظ من اللغة تعين مسماها . والمسميات مختلفة ، فمنها الجماد ، ومنها النبات ، ومنها الحيوان ، ومنها الأسماء التى تدل على عالم الغيب كالجن ، والملائكة ، وكل ما غيب الله . هذه الأسماء تدل على معانيها .

وهدى الله سبحانه البشر إليها بما علم آدم من الأسماء ، فكيف كان باستطاعة آدم التعبير عن معطيات الأسماء بمسمياتها ؟ إذن لابد أن يوجد لكل شىء اسم حتى نستطيع حين نتفاهم على الشىء أو الكائن بأن نذكر لفظا واحدا موجزا يشير إليه . ولو لم يكن يذكر هذا فكيف كان باستطاعة إنسان أن يتكلم مع إنسان آخر عن الجبل مثلا ؟ . أكان على المتكلم أن يأخذ السامع إلى الجبل ويشير إليه ؟ أم يكفى أن يقول له لفظ « جبل » حتى يستحضر السامع فى ذهنه صورة لهذا المسمى ؟

إذن . . ففلسفة تعليم الحق للأسماء لنا أزاحت عنا عبئا كبيرا من صعوبة التفاهم . ولولا ذلك لما استطعنا أن نتفاهم على شىء إلا إذا واجهنا الشىء وأشرنا إليه . فكلمة « جبل » وكلمة « صخر » وغيرها من الكلمات هى أسماء لمسميات . . وعندما أتكلم على سبيل المثال عن أمريكا فإننى لن آخذ السامع إليها وأشير إليه قائلا « إن هذه هى أمريكا » ، لكن كلمة واحدة هى « أمريكا » تعطى السامع معنى للمسمى ، فتلحق الأحكام على مسمياتها . ومادامت المسألة هكذا فلابد من وجود أسماء لمسميات ، هذه الأسماء علمها الله للإنسان حتى يتفاهم بها والإنسان أصله من آدم .

وكلمة « آدم » حينما تتكلم بها تجدها فى النحو مذكرة ، والمذكر يقابله المؤنث . وقد خلق الحق الأعلى : الذكورة والأنوثة ؛ لأن من تزاوجهما سيخرج النسل . إذن فكان لابد من التمييز بين النوعين للجنس الواحد . فالذكر والأنثى ، هما بنو آدم ، ومنهما ينشأ التكاثر ، لكن العجيب أن الله حين سمى آدم ونطقناه اسما مذكرا وسمى « حواء » ونطقناه اسما مؤنثا ، وجعل سبحانه الاسم الأصيل الذى وجِدَ منه الخلق هو « نفس » . لقد قال الحق :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ

كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ ﴾

(سورة النساء)

لقد سمى الحق آدم بكلمة نفس ، وهى مؤنثة ، إذن فليس معنى التأنيث أنه أقل من معنى التذكير ، ولكن « التذكير » هو فقط علامة لتضع الأشياء فى مسمياتها الحقيقية وكذلك التأنيث . إن الحق سبحانه يطلق على كل إنسان منا « نفس » وهى كلمة مؤنثة ، وحينما تكلم الحق سبحانه كلاما آخر عن الخلق قال :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾

(سورة الحجرات)

وكلمة « ناس » تعنى مجموع الإنسان . وهكذا نعرف أن كلمة « إنسان » تُطلق مرة على المذكر ، ومرة أخرى على المؤنث . إذن فالحق قد أورد مرة لفظا مذكرا ، ومرة أخرى أطلق لفظا مؤنثا ، وذلك حتى لا نقول : إن المذكر أفضل وأحسن من المؤنث ، ولكن ذلك وسيلة للتفاهم فقط ، ولذلك يؤكد لنا الحق سبحانه أنه قد وضع الأسماء لمسمياتها لنتعارف بها .

﴿ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ ﴾

(من الآية ١٣ سورة الحجرات)

ومعنى « لنتعارف » أى أن يكون لكل منا اسمٌ يعرف به عند الآخرين . وفى حياتنا العادية ـ ولله المثل الأعلى ـ نجد رجلا عنده أولاد كثيرون ، لذلك يُطلق على كل ابن اسما ليعرفه المجتمع به ، والعجيب فى هذه الآية الكريمة : « وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا » . أننا نجد كلمة « شعوبا » مذكرة وكلمة « قبائل » مؤنثة . إذن فلا تمايز بالأحسن ، ولكن الكلمات هنا مسميات للتعارف . والحق الأعلى يقول :

﴿ وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣ ﴾

(سورة العصر)

إذن فما وضع النساء اللائى آمنّ ؟ إنهن يدخلن ضمن « الذين آمنوا » . ولماذا أدخل الله المؤنث فى المذكر ؟ لأن المذكر هو الأصل ، والمؤنث جاء منه فرعا . إذن فالمؤنث هو الذى يدخل مع المذكر فى الأمور المشتركة فى الجنس .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝٢١ ﴾

(سورة البقرة)

وهذا يعنى أن « المؤنث » عليه أن يدخل فى تكليف العبودية لله .

والمعنى العام يحدد أن المطلوب منه العبادة هو الإنسان كجنس . وبنوعية الذكر والأنثى . وفى الأمر الخاص بالمرأة ، يحدد الله المرأة بذاتيتها . فالحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ۝٣٦ ﴾

(سورة الأحزاب)

لماذا ؟ إن المسألة هنا تشمل النوعين من الجنس الواحد : الرجل والمرأة ، زوج وزوجة ، فمثلا نجد زوجا يريد تطليق زوجته ، فيأتى الحق بتفصيل يوضح ذلك . وإذا كان هناك أمر خاص بالمرأة فالحق سبحانه وتعالى يحدد الأمر فها هوذا قوله الحكيم :

﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۝٣٢ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ

ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾

(سورة الأحزاب)

إن كل ما جاء فى الآية السابقة يحدد المهام بالنسبة لنساء النبى صلى الله عليه وسلم ، فالخطاب الموجه يحدد الأمر بدقة « لستن » و« اتقيتن » ، « لا تخضعن » ، و« قرن » ، و« لا تبرجن » . الحديث فى هذه الآية الكريمة يتعلق بالمرأة لذلك يأتى لها بضميرها مؤنثا .

ولكن إذا جاء أمر يتعلق بالإنسان بوجه عام فإن الحق يأتى بالأمر شاملا للرجل والمرأة ويكون مذكرا ، ولذلك فعندما قالت النساء لماذا يكون الرجل أحسن من المرأة ، جاء قول الحق :

﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ ۙ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ ﴾

(سورة الأحزاب)

هكذا حسم الحق الأمر . قال سبحانه تأكيدا لذلك ؛

﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ ﴾

(سورة النساء)

إن الذكر والأنثى هنا يدخلان فى وصف واحد هو : « وهو مؤمن » إذن فعندما يأتى الأمر فى المعنى العام الذى يُطلب من الرجل والمرأة فهو يُضمر المرأة فى الرجل

لأنها مبنية على الستر والحجاب ، مطمورة فيه . داخله معه . . فإذا قال الحق سبحانه لمريم : « واركعى مع الراكعين » فالركوع ليس خاصا بالمرأة حتى يقول « مع الراكعات » ولكنه أمر عام يشمل الرجل والمرأة ، لذلك جاء الأمر لمريم بأن تركع مع الراكعين ، وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

وقد قلنا من قبل : إن كلمة « نبأ » ، لا تأتى إلاّ فى الخبر العظيم . والغيب هو ما غاب عن الحس . وهناك « غياب عن الحس » من الممكن أن يدركه مثلك . وهناك غياب عن الحس لا يدركه مثلك . وقلنا من قبل : إن حجب الغيب ثلاثة : مرة يكون الحجاب فى الزمن ماضيا ، ومرة مستقبلا ، ومرة ثالثة يكون الحجاب فى المكان. لماذا ؟ لأن ظروف الأحداث زمان ومكان. فإذا أنبأنى منبىء بخبر مضى زمنه فهذا اختراق للحجاب الزمن الماضى ، فالحدث يكون قد وقع من سنوات وصار ماضيا ، وإذا أخبرنى به الآن فهذا يعنى أنه اخترق حجاب الزمن الماضى ، وإذا قال لى عن أمر سيحدث بعد سنتين من الآن فهذا اختراق حجاب الزمن المستقبل ، وهب أنه أخبرك بنبأ معاصر لزمنك الآن نقول : هنا يوجد حجاب المكان ، فعندما أكون معكم الآن لا أعرف ما الحادث فى مدينة أخرى غير التى نحن بها ، ورغم أن الزمن واحد .

لذلك فعلينا أن نعرف ، أنه مرة يكون الحجاب حجاب زمان . . أى قد يكون الزمن ماضيا ، أو يكون الزمن مستقبلا ، وقد يكون حجاب مكان . فإذا كان الله ينبىء رسوله بهذا النبأ ، فوسائل علم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث ؛ لأن وسيلة العلم بالنبأ أحد ثلاثة أمور : مشاهدة ؛ أو سماع ؛ أو قراءة .

والوسيلة الأولى وهى مشاهدة النبأ يشترط أن يوجد فى زمن هذا النبأ ، والنبأ الذى أخبر الله به رسوله حدث من قبل بعث الرسول بمالا يقل عن ستة قرون . إذن فالمشاهدة كوسيلة علم بهذا النبأ لا تصلح ، لأن النبأ قد حدث فى الماضى . قد يقول قائل : لعل الرسول صلى الله عليه وسلم قد قرأها ، أو سمعها وبإقرار خصوم محمد صلى الله عليه وسلم أنه ليس بقارىء ، فامتنعت هذه الوسيلة أيضا ، وبإقرار خصومة صلى الله عليه وسلم أنه لم يجلس إلى معلم فلم يستمع من معلم . إذن فلم يكن من سبيل لمعرفة رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذا النبأ إلا بالوحى ، لذلك قال الحق سبحانه :

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

(سورة ال عمران)

وقلنا قديما إن الوحى ، هو إعلام بخفاء ؛ لأن الإعلام العادى هو أن يقول إنسان لإنسان خبراً ما ، أو يقرأ الإنسان الخبر ، أما الإعلام بخفاء فاسمه « وحى » . والوحى يقتضى « موحِى » وهو الله ، « وموحىً إليه » وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، و« موحى به » وهو القرآن الكريم .

وإذا نظرنا إلى الإعلام بخفاء لوجدنا له وسائل كثيرة . إن الله يوحى . لكن الموحى إليه يختلف . الله سبحانه وتعالى يوحى للأرض :

﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ ﴾

(سورة الزلزلة)

إنه إعلام بخفاء ، لأن أحدا منا لم يسمع الله وهو يوحى للأرض ، والحق سبحانه يوحى للنحل ، ويوحى للملائكة ، ويوحى للأنبياء ، وهناك وحى من غير الله ، كوحى الشياطين .

﴿ وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَـٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾

(سورة الأنعام)

وهناك وحى من البشر للبشر :

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَـٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

لكن الوحى إذا أُطلق ، ينصرف إلى الوحى من الله إلى من اختاره لرسالة ، وما عدا ذلك من أنواع الوحى يسمونه « وحيا لغويا » إنما الوحى الاصطلاحى وحى من الله لرسول ، إذن فوحى الله للأرض ليس وحيا اصطلاحيا ، ووحى الله للنحل ليس وحيا اصطلاحيا ، ووحى الله لأم موسى ليس وحيا اصطلاحيا ، ووحى الله للحواريين ليس وحيا اصطلاحيا ، إن الحق سبحانه يقول :

﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ ﴾

(سورة المائدة)

إن هذا لون من الوحى غير اصطلاحى ، بل هو وحى لغوى ، أى أعلمهم بخفاء . لكن الوحى الحقيقى أن يُعلم الله من اختاره لرسالة ، وهذا هو الوحى الذى جاء للرسول صلى الله عليه وسلم . يقول الحق : « ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون » .

هكذا يخبرنا الحق أن الرسول تلقى هذا النبأ بالوحى ، فلم يقرأه ، ولم يشاهده ، ونحن نعرف أن خصوم رسول الله شهدوا أنه لم يقرأ ولم يستمع من معلم . وهكذا يخبرنا الحق أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن موجودا مع قوم مريم حين ألقوا أقلامهم .

راجع أصله وخرّج أحاديثه الدكتور أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .

والقلم يُطلق على القلم الذى نكتب به ، أو يطلق القلم على القداح التى كانوا يقترعون بها إذا اختلفوا على شيء . وكانوا عندما يختلفون يحضرون قداحا ، ليعفروا من يظفر بالشيء المختلف عليه ونسميها نحن القرعة ، والقرعة يقومون بإجرائها لإخراج الهوى من قسمة شائعة بين أفراد ، وذلك حتى لا يميل الهوى إلى هذا أو إلى ذاك مفضلا له على الآخرين ، ولذلك فنحن أيضا نجرى القرعة فنضع لكل واحد ورقة .

إذن فلا هوى لأحد فى إجراء قسمة عن طريق القرعة ، وبذلك نكون قد تركنا المسألة إلى قدر الله لأن الورقة لا هوى لها ، ولما اختلف قوم مريم على كفالتها ، واختصموا حول مَن الذى له الحق فى أن يكفلها . هنا أرادوا أن يعزلوا الهوى عن هذه المسألة ، وأرادوا أن تكون قدرية ، ويكون القول فيها عن طريق قدح لا هوى له . وهذا القدح سيجرى على وفق المقادير . أما « أقلامهم » فقد تكون هى القداح التى يقتسمون بها القرعة ، أو الأقلام التى كتبوا بها التوراة تبركا .

وتساءل البعض ، ما المقصود بقول الحق : « إذ يلقون أقلامهم » وأين تم إلقاء هذه الأقلام ؟ قيل : إنها ألقيت فى البحر وإذا ألقيت الأقلام فى البحر فمن الذى يتميز فى ذلك ؟ قيل : إنه إذا ما أطل قلم بسنه إلى أعلى فصاحبه الفائز ، أو إذا غرقت كل الأقلام وطفا قلم واحد يكون صاحبه هو الفائز . ولابد أنهم اتفقوا على علامة أو سمة ما تميز القلم الذى كان لصاحبه فضل كفالة مريم . « وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون » .

وكلمة « إذ يختصمون » تدل على حرارة المنافسة بين القوم شوقا إلى كفالة مريم ، لدرجة أن أمر كفالتها دخل فى خصومة ، وحتى تنتهى الخصومة لجئوا إلى الاقتراع بالأقلام .

وننتقل الآن إلى مرحلة أخرى .

﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾

لقد كانت المرحلة الأولى بالنسبة لإعداد مريم هى قوله الحق على لسانها : « إن الله يرزق من يشاء بغير حساب » . وبذاك تعرفت على طلاقة قدرة الله ، والمرحلة الثانية هى سماعها لحكاية زكريا ويحيى وتأكيد الحق لها أنه اصطفاها على نساء العالمين ، وفى ذلك أمر يتعلق بالنساء ، وكان ذلك إيناساً من الحق لها ، وتدخل مريم إلى مرحلة جديدة .

﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ﴾

(من الآية ٤٥ سورة آل عمران)

والبشارة لا تكون إلا بخبر عظيم مفرح ، وقد يتساءل البعض ؟ ماذا يقصد الحق بقوله : « كلمة منه » ؟ والإجابة هى : أن الحق سبحانه وتعالى يزاول سلطانه فى ملكه بالكلمة ، لا بالعلاج ، فالحق سبحانه علمنا ذلك بقوله :

﴿ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾

(من الآية ٤٧ سورة آل عمران)

وهذا القول هو مجرد إيضاح لنا وتقريب لأنه لا يوجد عندنا أقصر فى الأمر من كلمة « كن » إن قدرته قادرة بطلاقتها أن تسبق نطقنا بالكاف وهى الحرف الأول من « كن » ، ولكن الحق يوضح لنا بأقصر أمر على طريقة البشر ، إن الحق سبحانه وتعالى إذا أراد أمرا فإنه يقول له كن فيكون ، وذلك إيضاح أن مجرد الإرادة الإلهية لأمر ما تجعله ينشأ على الفور ، و« كن » هى مجرد إظهار الأمر للخلق ، هكذا نفهم معنى بشارة الحق لمريم بـ« كلمة منه » ويقول الحق : « اسمه المسيح عيسى ابن مريم » . إنها ثلاثة أسماء ، « المسيح » ، « عيسى » ، « ابن مريم » .

ما معنى المسيح ؟ قد يكون المسموح من الذنوب ، أو أن تكون من آياته أن يمسح على المريض فيبرأ ، أو المسيح المبارك . . أما عيسى . فهذا هو الاسم ، والمسيح هو اللقب ، وابن مريم هى الكنية . . ونحن نعرف أن العَلَمَ فى اللغة العربية يأتى على ثلاثة أنواع : اسم أو لقب أو كنية . وابن مالك يقول : « واسما أتى وكنية ولقبا » إن العَلَم على الشخص له ثلاث حالات . إما اسم وهو ما يطلق على المسمى أولا . والاسم الثانى الذى أطلقناه عليه . إن كان يشعر برفعة صاحبه أو بضِعَتِه نسميه لقبا . أما ما كان فيه أب أو أم فيقال له : « كنية » وجاءت الثلاثة فى عيسى « اسمه المسيح عيسى بن مريم » .

« المسيح » هو اللقب ، « عيسى » هو الاسم » و« ابن مريم » هو الكنية . ومجىء عيسى باللقب والاسم والكنية ستكون لها حكمة تظهر لنا من بعد ذلك . ويقول عنه الحق : « وجيها فى الدنيا والآخرة » .

ونحن فى حياتنا نستعمل كلمة فلان وجيه من وجهاء القوم ، والوجيه هو الذى لا يرده مسئول للكرامة فى وجهه ، ونحن نسمع فى حياتنا اليومية . فلان لا يصح أن نسببُ له الخجل برفض أى طلب له . وكما يقول العامة : (هو الوجه ده حد يكسفه) إذن فالوجيه هو الذى يأخذ سمة وتميزا بحيث يستحى الناس أن يردوه إذا كان طالبا ، وهناك إنسان آخر قد يسألك أو يسأل الناس ، فلا يبالى به أحد ، إنه يريق ماء وجهه وتنتهى المسألة .

إذن فقوله الحق فى وصف عيسى بن مريم : « وجيها فى الدنيا والآخرة » أى أن أحدا لا يرده إن سأله . لكرم وجهه ، فالإنسان يخجل أن يرد صاحب مثل هذه الكرامة ، لذلك نجد ان السائل قد يقول : أعطنى لوجه الله . أى أنه يقول لك : لا تنظر إلى وجهى ، ولكن أنظر إلى وجه الله ، لأن الله هو الذى جاء بى إلى الدنيا وخلقنى ، ومادام قد جاء بى الخالق إلى الدنيا فهو المتكفل برزقى ، فأنت حينما تعين على رزق من استدعاه الله إلى الوجود تكون قد أعطيت لوجه الله ، إنه الخالق الذى يرزق كل مخلوق له حتى الكافر .

إذن فعطاء الإنسان للسائل ليس عطاء لوجه السائل ، ولكنه عطاء لوجه الله . والحق يقول عن عيسى بن مريم : « وجيها فى الدنيا والآخرة » وعرفنا كيف يكون

الإنسان وجيها فى الدنيا ، فلماذا نص الحق على وجاهة عيسى فى الآخرة ؟ وخصوصا أن كل وجوه المؤمنين ستكون ناضرة ، لقد نص الحق على وجاهة عيسى فى الآخرة لأنه سوف يُسأل سؤالا يتعلق بالقمة الإيمانية :

﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ ﴾

(سورة المائدة)

إياك أن تظن أن هذا السؤال هو تقريع من الله لعيسى بن مريم . لا . إن الحق يريد أن يقرّع من قالوا هذا الكلام . ولذلك يقول عنه الحق :

﴿ وَٱلسَّلَـٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ﴾

(سورة مريم)

لأن ميلاده كان له ضجة ، وبعض بنى إسرائيل اتهموا والعياذ بالله أمه مريم البتول ، و« يوم الممات » ، كلنا نعرف حكاية الصلب وكان لها ضجة . إنه لم يصلبْ ولكن صلب من خانه ووشى به فألقى الله شبه عيسى عليه فقتلوه . ويوم البعث حيا يوم يسأله الله :

﴿ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ ﴾

(من الآية ١١٦ سورة المائدة)

إنه عيسى ابن مريم الذى أنعم الله عليه بالسلام فى هذه المواقف الثلاثة . ويتابع الحق فيصف عيسى ابن مريم بقوله : « وجيها فى الدنيا والآخرة ومن المقربين » إن كلمة « من المقربين » تدل على تعالى الحق فى عظمته ، فحين يفتن بعض البشر فى واحد منهم قد يغضب بعضهم من الشخص الذى فتن الآخرون فيه مع أنه ليس له ذنب فى ذلك .

والحق سبحانه يعلمنا أن للمغالى جزاءه ولكن المغالَى فيه تنجيه رحمة الغفار .

إن الحق يعلمنا أن فتنة بعض الناس بعيسى ابن مريم عليه السلام لا تؤثر فى مكانة عيسى عليه السلام عند الحق ، إنه مقرب من الله ، ولا تؤثر فتنة الآخرين فى مكانته عند الله، ويقول الحق .

﴿ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾

الكلام : معناه اللفظ الذى ينقل فكر الناطق إلى السامع ، وقول الحق : « يكلم الناس فى المهد » ، معناه أن المواجه لعيسى عليه السلام فى المهد هم الناس . و« المهد » هو ما أعد كفراش للوليد . ولقد أورد الحق « المهد وكهلا » رمزية لشىء ، وهى أن عيسى ابن مريم من الأغيار ، يطرأ عليه مرة أن يكون فى المهد ، ويطرأ عليه مرة أخرى أن يكون كهلا ، ومادام فى عالم الأغيار فلا يصح أن يفتتن به أحد ليقول إنه « إله » أو « ابن إله » .

ونفهم أيضا من « ويكلم الناس فى المهد » سر وجود آية المعجزة التى وهبها له الله وهو طفل فى المهد . لأن المسألة تعلقت بعِرض أمه وكرامتها وعفتها ، فكان من الواجب أن تأتى آية لتمحو عجبا من الناس حين يرونها تلد بدون أب لهذا الوليد أو زواج لها . وهذه المسألة لم نجد لها وجودا . مع أنها مسألة كان يجب أن تقال لأنهم يمجدون نبيهم ، وكان من الواجب ألا يغفلوا عن هذه العجيبة ، إن كلام طفل فى المهد لما كان أمرا عجيبا كان لابد أنّه سيكون محل حفظ وتداول بين الناس ، ولن يكتفى الناس برواية واقعة كلامه فى المهد فقط ، بل سيحفظون ما قاله ، ويرددون قوله .

والكلمة التى قالها عيسى عليه السلام فى المهد لا تسعف من يصف عيسى عليه السلام بوصف يناقض بشريته ، لأن الكلمة التى نطق بها أول ما نطق : إنى عبدالله ، فأخفوا هم هذه المسألة كلها لأن هذه الكلمة تنقض القضية التى يريدون

أن يضعوا فيها عيسى عليه السلام ، إن الحق يقول : « ويكلم الناس فى المهد وكهلا » .

ونعرف أن الكلام فى المهد أى وهو طفل و« كهلا » أى بعد الثلاثين من العمر ، أى فى العقد الرابع . والبعض قد قال : إن الكهولة . . بعد الأربعين من العمر . وهو قد حدثت له فى رواياتهم حكاية الصلب قبل أن يكون كهلا ، فإذا كان قد تكلم فى المهد فيبقى أن يتكلم وهو كهل ، وقالوا إن حادثة الصلب أو عدم الصلب ، أو الاختفاء عن حس البشر قد حدثت قبل أن يكون كهلا ، إذن فلابد أن يأتى وقت يتكلم فيه عيسى بن مريم عندما يصير كهلا ، وأيضا قوله الحق : « ويكلم الناس فى المهد وكهلا » أى أنه تكلم فى المهد طفلا ويتكلم كهلا ، أى ناضج التكوين ، وبذلك نعرف أن عيسى بن مريم فيه أغيار وفيه أحوال ، فإذا كنتم تقولون إنه إله فهل الألوهية فى المهد هى الألوهية فى الكهولة ؟

إن كانت الألوهية فى المهد فقط فهى ناقصة لأنه لم يستمر فى المهد ، وحدثت له أغيار ، ومادام قد حدثت له أغيار فهو محدث ، ومادام محدثا فلا يكون إلها ، وبعد ذلك يقول الحق عن عيسى ابن مريم : « ومن الصالحين » ما حكايتها ؟

إن العجيبة التى قال عنها الله : إنه يكلم الناس فى المهد لم تكن باختياره ، وكلامه وهو كهل سيكون بالوحى ، أى ليس له اختيار فيه أيضا ، « ومن الصالحين » مقصود بها عمله ، أى الحركة السلوكية . لماذا ؟ لأنه لا يكفى أن يكون مبلغا ، ولا يكفى أن يكون حامل آية ، بل لابد أن يؤدى السلوك الإيمانى .

ويقول الحق على لسان مريم البتول :

﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ ﴾

ونريد أن نقف وقفة ذهنية تدبرية عند قولها : « قالت رب أنى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر » فلو أنها سكتت عند قولها : « أنّى يكون لى ولد » لكان أمرا معقولا فى تساؤلها ، ولكن إضافتها « ولم يمسسنى بشر » تثير سؤالا ، من أين أتت بهذا القول « ولم يمسسنى بشر » ؟ هل قال لها أحد : إنك ستلدين ولدا من غير أب ؟ إن الملائكة لم تخبرها بذلك ، لذلك انصرف ذهنها إلى مسألة المس . إنها فطرة وفطنة المهيأة والمعدة للتلقى عن الله ، عندما قال لها : « المسيح عيسى ابن مريم » .

قالت لنفسها : إن نسبته بأمر الله هى لى ، فلا أب له ، لقد قال الحق : إنه « ابن مريم » ولذلك جاء قولها : « ولم يمسسنى بشر » ذلك أنه لا يمكن أن ينسب الطفل للأم مع وجود الأب . هكذا نرى فطنة التلقى عن الله فى مريم البتول . لقد مر بها خوف عندما عرفت أن عيسى منسوب إليها وقالت لنفسها : إن الحمل بعيسى لن يكون بوساطة أب ، وكيف يكون الحمل دون أن يمسسنى بشر . وقال الخالق الأكرم : « كذلك » أى لن يمسك بشر ، ولم يقل لها : لقد نسبناه لك لأنك منذورة لخدمة البيت ، ولكن الحق قال : « كذلك » تأكيدا لما فهمته عن إنجاب عيسى دون أن يمسسها بشر . وتتجلى طلاقة القدرة فى قوله سبحانه : « الله يخلق ما يشاء » .

إنها طلاقة القدرة ، وطلاقة القدرة فى الإنسال أو الإنجاب أو فى عدم التكثير بالنسبة للإنسان ، وطلاقة القدرة لا تتوقف على إيجاد ذكورة وأنوثة ، ولو كانت طلاقة القدرة متوقفة على إيجاد ذكورة وأنوثة فكيف خلق آدم أول الخلق ؟ إن طلاقة القدرة فى الخلق لا تتوقف على إيجاد ذكورة وأنوثة ، إنه الحق الأعلى القادر على أن يخلق دون ذكورة أو أنوثة ، كخلقه لآدم عليه السلام ، ويخلق الحق سبحانه بواحد منهما ، كخلقه سبحانه لحواء وخلق عيسى عليه السلام ، ويخلق الخالق الأعلى بالذكورة والأنوثة ، وهذه تتضح فى خلق جمهرة الناس ، ولا تظنوا أن باجتماع الذكورة والأنوثة يمكن أن يُحقق الخلق ، فقد توجد الذكورة والأنوثة ولا يوجد إنجاب ، هاهوذا القول الحق :

﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ

إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾

(سورة الشورى)

هذه هى إرادة الحق ، إذن فلا تقل : إن اكتمال عنصرى الذكورة والأنوثة هو الذى يحدث الخلق ، لأن الخلق يحدث بإرادة الحق . « كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون » . فأنتم أيها المحدثون تفعلون بالأسباب . لكن الذى خلقكم وخلق الأسباب لكم هو الذى بيده أن يوجد بلا أسباب ، لأنه أنشأ العالم أول ما أنشأ بدون أسباب .

ويقول الحق سبحانه عن عيسى عليه السلام :

وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾

وساعة نسمع « يعلمه الكتاب » فنحن نفهم أن المقصود بها الكتاب المنزل ، ولكن مادام الحق قد أتبع ذلك بقوله : « والتوراة والأنجيل » فلابد لنا أن نسأل . إذن ما المقصود بالكتاب ؟ هل كان المقصود بذلك الكتاب الكتب المتقدمة ، كالزبور ، والصحف الأولى ، كصحف إبراهيم عليه السلام ؟ إن ذلك قد يكون صحيحا ، ومعنى « يعلمه الكتاب » أن الحق قد علمه ما نزل قبله من زبور داود ، ومن صحف إبراهيم ، وبعد ذلك توراة موسى الذى جاء عيسى مكملا لها .

وبعض العلماء قد قال : أُثِرَ عن عيسى عليه السلام أن تسعة أعشار جمال الخط كان فى يده . وبذلك يمكن أن نفهم « يعلمه الكتاب » أى القدرة على الكتابة . وما المقصود بقوله : إن عيسى عليه السلام تلقى عن الله بالإضافة إلى « يعلمه الكتاب » أنه تعلم أيضا « الحكمة والتوراة والإنجيل » وكلمة الحكمة عادة تأتى بعد

كتاب منزل ، مثال ذلك قوله الحق :

﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾

(الآية ٣٤ من سورة الأحزاب)

كتاب الله المقصود هنا هو القرآن الكريم ، والحكمة هى كلام الرسول عليه الصلاة والسلام . فالرسول له كلام يتلقاه ويبلغه ، ويعطيه الحق أيضا أن يقول الحكمة ، أما التوراة التى علمها الله لعيسى عليه السلام فقد علمها له الله ، لأننا كما نعلم أن مهمة عيسى عليه السلام جاءت لتكمل التوراة ، ويكمل ما أنقصه اليهود من التوراة ، فالتوراة أصل من أصول التشريع لعصره والمجتمع المبعوث إليه فهو بالنص القرآنى :

﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾

إن كلمة رسول تحتاج إلى علامة ، فليس لأى أحد أن يقول : « أنا رسول من عند الله » بل لابد أن يقدم بين يدى دعواه معجزة تثبت أنه رسول من الله . والآية كما نعرف هى الأمر العجيب الذى خرج عن القوانين والنواميس لتثبت صدق

الرسول فى البلاغ ، ومادامت المعجزة خارجة عن نواميس البشر ، فالمخالف نقول له : أنت حين تكذب أن حامل المعجزة رسول ، فكيف تعلل أنه جاء بمعجزة خرجت عن الناموس ؟ إذن ، فالمعجزة تلزم المنكر الذى يتحدى وتفحمه ، لأنه لا يستطيع أن يأتى بمثلها ، ولذلك قلنا : إن من لزوم التحدى ألا يتحدى الله حين يعطى رسولا معجزة إلا بشىء نبغ فيه القوم المبعوث إليهم ذلك الرسول ؛ لأن الحق لو جاء لهم بشىء لم يدرسوه ولم يعرفوه ، فالرد منهم يكون للرسول بقولهم : إن هذا أمر لم نروّض أنفسنا ولم ندربها عليه ، ولو روّضنا أنفسنا عليه لاستطعنا أن نفعل مثله ، وأنت قد جئت لنا بشىء لم نعود أنفسنا عليه ، لذلك يرسل الحق الرسول ـ أى رسول ـ بمعجزة من جنس ما ينبغ فيه القوم المرسل إليهم . . مثال ذلك ، موسى عليه السلام ، أرسله الله إلى قوم كانوا نابغين فى السحر ، فكانت معجزته تقرب من السحر .

وإياك أن تقول إن معجزة موسى كانت سحرا ؛ لأن موسى عليه السلام لم ينزل بسحر ولكن بمعجزة . كانوا هم يخيلون للناس أشياء ليست واقعا.لذلك تجد القرآن يعطيك الفارق بين ما يكون عليه ما يأتى به الله على يد رسول من الرسل من معجزة وسحر القوم ، فيقول القرآن :

﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ ﴾

(سورة طه)

كأن الحق يقول لموسى عليه السلام : إن حدود علمك بما فى يدك أنها عصا تتوكأ عليها وتهش بها على غنمك ، أما علمى أنا فهو علم آخر . لذلك يأمره أن يلقى العصا ، فلما ألقاها وجدها حية تسعى ، فأوجس فى نفسه خيفة . . إن « أوجس فى نفسه خيفة » هى التى فرقت بين سحر القوم ومعجزة موسى عليه السلام » .

لماذا ؟ لأن الساحر يلقى العصا فيراها الناس حية وهو يراها عصا لأنّ الساحر لو رآها حية لخاف مثل الناس ، لقد خاف موسى عليه السلام لأنها تغيرت وصارت حية فعلا،ولذلك قال له الله :

﴿ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ ﴾

(سورة طه)

فلو كانت من جنس السحر لما أوجس فى نفسه خيفة لأنه سوف يراها عصا وإن رآها غيره حية ، وهذا هو الفارق . وقوم عيسى أيضا كانوا مشهورين بالحكمة والطب ، إذن فستجىء الآيات من جنس الحكمة والطب ، ثم تتسامى المعجزة ، لأن الذى يطبب جسما ويداويه لا يستطيع أن يعيد الميت إلى الحياة ، لأن الإنسان إذا ما مات فقد خرج الميت عن دائرة علاج الطبيب . ولذلك رقّى الله آية عيسى ، إنه يشفى المرضى ، ويحيى الموتى أيضا ، وهذا ترق فى الإعجاز . قال عيسى : « أنى قد جئتكم بآية من ربكم أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله » . إن كلمة « أخلق » تحتاج إلى وقفة وكذلك « الطين » و« الهيئة » و« الطير » .

« أخلق » مأخوذة من الخلق ، والخلق هو إيجاد شىء على تقدير ، فأنت تتخيله وتقدره فى ذهنك أولا ثم تأتى به على هذه الحالة . فإن كان قد أتى على غير تقديرك فليس خلقا ، إنما هو شىء جزافى جاء على غير علم وتقدير ، وإنّ من يأخذ قطعة من الطين ويصنع منها أى شىء فهذا ليس خلقا . إن الخلق هو المطلوب على تقدير . مثال ذلك الكوب أو الكأس البلور الذى نشرب فيه حينما صنعه الصانع . هل كانت هناك شجرة تخرج أكوابا ، أم أن الصانع أخذ الرمال وصهرها ووضع عليها مواد كيماوية تخليها من الشوائب ، ثم قام بتشكيلها على هيئة الكوب ؟

إذن فالكوب لم تكن موجودة ، ووجدت على تقدير أن تكون شكل الكوب ، فهى خلق أوجد على تقدير . فماذا عن خلق الله ؟ إنه يخلق على تقدير ، وفرق بين صنعة البشر حين يخلق ، وبين صنعة الله حين يخلق . إن صنعة البشر حين تخلق ، إنما تخلق من موجود ، وحين يخلق الله فهو يخلق من معدوم ، وهذا هو أول فرق ، إنه سبحانه يخلق من عدم ، أما الإنسان فيضع الأشياء بنظام يحدث فيها تفاعلات أرادها الله فتوجد ، فلا يوجد من يستطيع ـ على سبيل المثال ـ من يصنع كوبا من غير المادة التى خلقها الله .

إن هذا أول فرق بين خلق الله ، وخلق الإنسان ، فخلق الله يكون من عدم ،

وخلق الإنسان من موجود ، وإن كان الإثنان على تقدير . وأيضا يعطى الله لخلقه سرا لا يستطيع البشر إعطاءه لصنعته ، فالله يعطيه سر الحياة ، والحياة فيها نمو ، وفيها تكاثر ، لكن البشر يصنعون الكوب مثلا ، فتظل كوبا ، ولا يوجد تكاثر بين كوب ذكر وكوب أنثى .

إن الإنسان يوجد صنعته فتظل على حالتها ، ولا يستطيع أن يصنعها صغيرة ثم تكبر ، لكن صنعة الله هى صنعة القادر الذى يهب الحياة ، فتكبر مخلوقاته وتتطور وتمر بمراحل ، وتعطى مثلها . إذن ، فالخلق إيجاد على تقدير ، هذا الإيجاد يوجد معدوما ، والمعدوم موجودة مادته ، هذا فى خلق الإنسان ، أما فى خلق الله ، فالله يخلق من معدوم لا توجد له مادة . والله يخلق من الشىء ذكرا وأنثى ويعطيهما القدرة على التناسل، فها هوذا قول الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾

(سورة المؤمنون)

ولم يمنع الحق خَلْقَه أن يخلقوا أشياء ، ولكن خلق الله أحسن ، لماذا ؟ لأنه يخلق من عدم ، والبشر يخلقون من موجود . وهو الحق يخلق ويوجد فى مخلوقاته حياة وتكاثرا ، والبشر يخلقون بلا نمو ولا حياة ، إنه الحق أحسن الخالقين ، إذن قول عيسى عليه السلام : « أخلق لكم من الطين كهيئة « الطير » فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله » .

يعنى أن كل إنسان يستطيع أن يصنع تمثالا كهيئة الطير . لكن الله أوجد معجزة عيسى وجعله يخلق من الطين كهيئة الطير ، وينفخ فيه ، وقد تسأل ، فى ماذا ينفخ ؟ أينفخ فى الطير ، أم فى الطين ، أم فى الهيئة ؟ إن قلنا : إن النفخ فى الطين بعد ما صار طيرا . يكون النفخ فى الطين ، كالنفخ فى الطير ، وجاءت فى آية أخرى أنها نفخ فى الهيئة .

﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي ﴾

(سورة المائدة)

إن « النفخ فيه » ، تكون للطين أو الطير . و« النفخ فيها » تكون للهيئة ، وهناك آية بالنسبة للسيدة مريم البتول :

﴿ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾ ﴾

(سورة التحريم)

إن النفخ هنا فى الفرج ، وآية أخرى بالنسبة للسيدة مريم البتول :

﴿ وَٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾ ﴾

(سورة الأنبياء)

مرة يقول: « نفخنا فيه » أى فى الفرج ، ومرة يقول : « نفخنا فيها » أى فيها هى ، والقولان متساويان ، وهنا فى هذه الآية ، نجد أن الإعجاز ليس فى أن عيسى صنع من الطين كهيئة الطير ، لأن أى إنسان يستطيع أن يفعل ذلك ، فكأنه حينما قال : « أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله » .

كأنه صار طيرا من النفخة ، أما عن أمر صناعة طير من الطين فأى إنسان يمكن أن يفعلها ، لكن عيسى عليه السلام يفعل ذلك بإذن الله ، ولابد أن يجىء الأمر

مختلفا ، و« بإذن الله » هنا تضم صناعة الطير ، والنفخ فيه .

إن عيسى لم يكن ليجترىء ويصنع ذلك كله إلا بإذن الله ، وجاءت كلمة « بإذن الله » من عيسى وعلى لسانه كاعتراف منه بأن ذلك ليس من صناعته ، وكأنه يقول لقومه : إن كنتم فتنتم بهذه . فكان يجب أن تفتنوا بإبراهيم من باب أولى ، حينما قطعَ الطير وجعل على كل جبل جزءا منهن ثم دعاهن .

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾ ﴾

(سورة البقرة)

إذن كان من الأولى الفتنة بما أعطاه الله إبراهيم عليه السلام من معجزة ، فإن كانت الفتنة من ناحية الإحياء لكان ما صنعه إبراهيم عليه السلام أولى بها ، وإن كانت الفتنة من ناحية أنه جاء إلى الدنيا بدون أب لكانت الفتنة أكثر فى خلق آدم ، لأن الله خلقه بلا أب أو أم . إذن فالفتنة لا أصل لها ، ولا منطق يبررها . . ويتابع الحق سبحانه على لسان عيسى ابن مريم عليه السلام « وأبرىء الأكمه والأبرص وأحيى الموتى بإذن الله » .

لماذا تعرض عيسى ابن مريم لهذين المرضين ؟ لأنها كانت الأمراض المستعصية فى ذلك العصر ، والأكمه هو الذى ولد أعمى ، أى لم يحدث له العمى من بعد ميلاده . والبرص ، هو ابيضاض بقعة فى الجلد وإن كان صاحبها آدم أو أسود . وبعد ذلك تنتشر بقع متناثرة فى كافة الجسم بلون أبيض ، مما يدل على أن لون الجلد له كيماويات فى الجسم تغذى هذا اللون ، فإن مُنعت الكيماويات فى الجسم صار أبرص .

وتبين صدق هذا فى أن العلم المعاصر قد عرف أن الملونات للجلد هى غدد خاصة توجد فى الجسم ، واسمها الغدد الملونة ، فإن امتنعت الغدد الملونة من إعطاء الألوان ، جاء البرص والعياذ بالله . وهو مرض صعب ، لم يكن باستطاعتهم أن

يداووه ، فعندما جاء عيسى ابن مريم أعطاه الله الآية من جنس ما نبغوا فيه وهو الطب . وجاء لهم بآية هى إبراء ما كانوا عاجزين عنه .

وبعض القوم الذين يحاولون أن يقربوا بين المعجزة وعقول الناس . يقولون : إن هذه المعجزات إنما هى سبق زمنى ، بمعنى أنه من الممكن أن يتوصل الإنسان إلى أن يكتشف علاجا لهذه الأمراض ، لكن لهؤلاء نقول : لا ، إن المعجزة تظل معجزة إلى أن تقوم الساعة . كيف ؟

لنأخذ مثالا من طب العيون ، عندما قالوا إن هناك علاجاً للعمى . « سنقوم بتركيب قرنية » أو أن نأخذ مثالا من طب الجلد لو قالوا : « سنداوى البرص » واكتشفوا ألوانا مختلفة من العلاج تحاول أن تجعل الجلد على لون واحد ، لكنه لا يستعيد لونه الأصلى . ولذلك قال البعض : « إن معجزة عيسى كانت مجرد سبق زمنى » . لهؤلاء نقول : لا ، لنأخذ كل أمر بأدواته .

إن عيسى بن مريم عليه السلام كان يبرىء بالكلمة والدعوة ومهما تقدم العلم فلن يستطيع العلم أن يبرىء المرض بالكلمة والدعوة ، إنما سيأخذون أشياء ويقوم بتحليل تلك الأشياء ، وخلط الكيماويات وإجراء الجراحات ، لذلك تظل المعجزة التى جاء بها عيسى ابن مريم عليه السلام معجزة ؛ لأنه كان يبرىء بالكلمة والدعوة .

ويضيف الحق على لسان عيسى ابن مريم : « وأحيى الموتى بإذن الله وأنبئكم بما تأكلون » . ومسألة إحياء الموتى لم يأخذها عيسى هكذا على إطلاقها فيحيى كل ميت ، إنما قام بها وفى وحدات تثبت صدق الآية ولا تعمم مدلول المعجزة كسام بن نوح مثلا ، و« عازر » إنها أشياء لمجرد إثبات المعجزة ، ولكنها ليست مطلقة ، ذلك أنه نبى ورسول من الله فلا يمكن أن يصادم قدر الله فى الآجال . ولذلك قالوا : إنه عندما أحيا سام بن نوح ، أحياه حتى نطق بكلمة ، ثم عاد سام إلى الموت من بعد ذلك ويضيف الحق على لسان عيسى ابن مريم عليه السلام :

﴿ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ﴾

(من الآية ٤٩ سورة آل عمران)

لماذا ؟ لأن كل إنسان يعلم جزئية من أحداثه الحياتية الخاصة ، يكون هذا العلم

خاصا به ، وكل إنسان ـ مثلا ـ يأكل طعامه بألوان مختلفة يعرفها هو ، ولا يعرفها الآخرون . إن الأمر الأول كخلق الطير ، وإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى ، هى أمور عامة للكل . أما الإنباء بألوان الطعام التى يأكلها كل إنسان فهى خاصية أحداث ، لأن كل واحد يأكل أكلا معينا فيقول له عيسى ابن مريم ماذا أكل . وليس من المعقول أن يكون عيسى ابن مريم قد دخل كل بيت أو جاءت له أخبار عن كل بيت .

وكذلك أمر الادخار . وذلك حتى تنتفى شبهة أنه كان يشم رائحة الإنسان فيعرف لون الطعام الذى يأكله ، لذلك كان الإخبار بما يدخر كل واحد فى بيته ، فهذه مسألة توضح بالجلاء التام أنها آية من إخبار من يعلم مغيبات الأمور .

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾

(من الآية ٤٩ سورة ال عمران)

إن هذه آية عجيبة تثبت أن هناك قوة أعلى قاهرة هى قوة الله الحق هى التى تعطيه هذه الأشياء ، فإن كنتم مؤمنين بوجود قوة أعلى فعلكيم تصديق الرسالة التى جاء بها عيسى ابن مريم ، لأن معنى (رسول) أنه مخلوق اصطفاه الله وأرسله سبحانه إلى الأدنى منه ، فالذى يؤمن بالآية هو الذى يؤمن بوجود إله أعلى قادر ومن يريد أن يتثبت ـ مع إيمانه بالله ـ من الآية التى بعثها الله مع عيسى ابن مريم ، فالآية واضحة . اما غير المؤمن بالله فلن تفيده الاية فى الإيمان . ويقول الحق متابعا على لسان عيسى ابن مريم :

﴿ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ ﴾

وقد قلنا : إن « مصدقا » تعنى أن ما جاء به عيسى بن مريم مطابق لما جاء فى

التوراة . وقلنا : إن « ما بين يدى » الإنسان هو الذى سبقه ، أى الذى جاء من قبله وصار أمامه . ومادام عيسى ابن مريم جاء مصدقا لما بين يديه من التوراة فى زمانه ، وكانت التوراة موجودة ، فلماذا جاءت رسالته إذن ؟

لكن القول الحق يتضمن هذا المعنى : إن عيسى سيأتى بأحكام جديدة ، ويتضح ذلك فى قوله الحق سبحانه على لسان عبده عيسى ابن مريم : « ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم » إذن فليس المهم هو التصديق فقط ، ذلك أن عيسى جاء ليحل بعضا من الذى حرمته التوراة .

وقد يقول قائل : إذا كانت الكتب السماوية تأتى مصدقة بعضها بعضا فما فائدة توالى نزول الكتب السماوية ؟ والإجابة هى : أن فائدة الكتب السماوية اللاحقة أنها تذكر من سها عن الكتب السابقة ، هذا فى المرتبة الأولى ، وثانيا : تأتى الكتب السماوية بأشياء ، وأحكام تناسب التوقيتات الزمنية التى تنزل فيها هذه الكتب . هذه هى فوائد الكتب السماوية التى توالت نزولا من الحق على رسله ، إنها تذكر من عقل وتُعَدِّل فى بعض الأحكام .

ومن الطبيعى أننا جميعا نفهم أن العقائد لا تبديل فيها ، وكذلك الأخبار والقصص ، لكن التبديل يشمل بعضا من الأحكام . ولهذا جاء القول الحق على لسان عبده عيسى ابن مريم : « ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم » ونحن نعرف أن القوم الذى أرسل الله عيسى ابن مرم لهم هم بنو إسرائيل ، والتحريم والتحليل يكون بحكمة من الله .

إن لله حكمة فيما يحلل وحكمة فيما يحرم ، إنما إياك أن تفهم أن كل شىء يحرمه الله يكون ضارا ؛ قد يحرم الله أشياء لتأديب الخلق ، فيأمر بالتحريم ، ولا يصح أن تسأل عن الضرر فيها ، وقد يعيش المؤمن دنياه ولم يثبت له ضرر بعض ما حرم الله . فإن تساءل أحد : لماذا حرم الله ذلك ؟ تقول له : من الذى قال لك إن الله حين يحرم فهو يحرم الشىء الضار فقط ؟ إنه الحق سبحانه يحرم الضار ، ويحرم بعضا مما هو غير ضار ، ولذلك قال الحق :

﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ ﴾

(سورة النساء)

وتفصيل ذلك فى آية أخرى :

﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

إذن التحريم ليس ضروريا أن يكون لما فيه الضرر ، ولهذا جاء قول الحق على لسان عبده ورسوله إلى بنى إسرائيل عيسى ابن مريم : « ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم » لقد جاء عيسى ابن مريم ليُحل لهم بأمر من الله ما كان قد حرمه الله عليهم من قبل .

وبعد ذلك يقول الحق على لسان عبده ورسوله عيسى ابن مريم : « وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله وأطيعون » ومجموعة هذه الأوامر التى تقدمت هى آية أى شىء عجيب ، بلغت القوم الذين أرسل الله عيسى إليهم ، إنه كرسّول وكبشر لا يستطيع أن يجىء بالآية المعجزة بمفرده بل لابد أن يكون مبعوثا من الله . فيجب أن يلتفتوا إلى أن الله الذى أرسله ، وله طلاقة القدرة فى خرق النواميس هو سبحانه الذى أجرى على يدى عيسى هذه الأمور ، ويأمرهم عيسى ابن مريم بتقوى الله نتيجة لذلك ، ويدعو القوم لطاعته فى تطبيق منهج الله .

وبعد ذلك يقول الحق على لسان عيسى ابن مريم :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾

إذن اجتمع الرسول والمرسل إليهم فى أنهم جميعا مربوبون إلى إله واحد ، هو الذى يتولى تربيتهم والتربية تقتضى إيجادا من عدم ، وتقتضى إمدادا من عدم ، وتقتضى رعاية قيومية ، وعيسى ابن مريم يقر بعبوديته لله وكأنه يقول : وأنا لم أصنع ذلك لأكون سيدا عليكم ، ولكن أنا وأنتم مشتركون فى العبودية لله . « إن الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم » .

ومعنى « هذا صراط مستقيم » أى أنه صراط غير ملتو يا لأن الطريق إذ إلتوى ؛ انحرف عن الهدف ، وحتى تعرف أن الكل يسير على طريق مستقيم واحد ، فلتعلم أنك إذا نظرت على سبيل المثال إلى الدائرة ، فستجد أن لها محيطا ، ولها مركزا ، ومركز الدائرة هو الذى نضع فيه « سن الفرجار » حتى نرسم الدائرة ، وبعد ذلك تصل من المركز إلى المحيط بأنصاف أقطار ، وكلما بعدنا عن المركز زاد الفرق ، وكلما نقرب من المركز تتلاشى الفروق .

فإذا ما كان الخلق جميعا يلتقون عند المركز الواحد فهذا يعنى الاتفاق ، لكن الاختلاف يحدث بين البشر كلما بعدوا عن المركز ولذلك لا تجد للناس أهواء ولا نجد الناس شيعا إلا إذا ابتعدوا عن المركز الجامع لهم.والمركز الجامع لهم هو العبودية للإله الواحد ، ومادامت عبوديته لإله واحد ففى هذا جمع للناس بلا هوى أو تفرق .

إنه حتى فى الأمر الحسى وهو الدائرة المرسومة ، نجد أن الأقطار المأخوذة من المحيط وتمر بمركز الدائرة ، سنجد أنه فى مسافة ما قبل المركز تتداخل الأقطار إلى أن تصير عند نقطة المركز شيئا واحدا لا انفصال بينها أبدا . وهكذا الناس إذا التقوا جميعا عند مركز عبوديتهم للإله الواحد ، فإذا ما اختلفوا ، بعدوا عن العبودية للإله الواحد بمقدار ذلك الاختلاف .

ولذلك دعا المسيح عيسى ابن مريم الناس لعبادة الله « إن الله ربى وربكم فاعبدوه

هذا صراط مستقيم » ذلك هو منطق عيسى . كان منطقه الأول حينما كان فى المهد

﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ ﴾

(سورة مريم)

إن قضية عبوديته لله قد حُسمت من البداية ، وهى قضية القمة ، إنه عبدالله والقضية الثانية هى قضية الرسالة ونقل مراد الله وتكليفه إلى خلق الله حتى يبنوا حركة حياتهم على مقتضى ما أنزل الله عليهم ، ومن الطبيعى أن أى رسول عندما يأتى بمنهج من عند الله ، فالهدف أن يحمل الناس جميعا على سلوك هذا المنهج ، ويحدد حركة حياتهم بـ « افعل كذا » و« لا تفعل كذا » وعندما يسمع الواحد من الناس الأمر بـ « افعل » فقد يجد فى التكليف مشقة ، لماذا ؟ لأنها تلزمه بعمل قد يثقل عليه ، و« لا تفعل كذا » فيها مشقة ، لأنها تبعده عن عمل كان يحبه .

والمرء فى الأحداث بين اثنين : عمل يشق عليه فيحب أن يجتنبه ، وعمل يستهويه فيحب أن يقترب منه ، والمنهج جاء من السماء ليقول للإنسان « افعل » ولا « تفعل » إذن فهناك مشقة فى أن يحمل الإنسان نفسه على أن يقوم بعمل ما من أعمال التكليف ، ومشقة أخرى فى أن يبتعد عن عمل نهى عنه التكليف .

ومعظم الناس لا تلتفت إلى الغاية الأصيلة ؛ ولا يفهمونها حق الفهم ، فيأتى أنصار الشر ؛ ولا يعجبهم حمل نفوسهم على مرادات خالقهم . إن أفكار الشر تلح على صاحبها فيتمرد على التكليف الإيمانى ، وأفكار الشر تحاول الاقتراب بصاحبها من فعل الأمور التى حرمها التكليف . ولذلك ينقسم الناس لأنهم لم يحددوا هدفهم فى الوجود .

إن كل حركة فى الوجود يمكننا أن نعرف أنها حركة إيمانية فى صالح انسجام الإنسان مع الكون ، أو هى حركة غير إيمانية تفسد انسجام الإنسان مع فطرته ومع الكون ، فإذا كانت الحركة تصل بالإنسان إلى هدفه الإيمانى . فستكون حركة طيبة وحسنة بالنسبة للمؤمن ، وإذا كانت تبعده عن هدفه تكون حركة سيئة وباطلة ، وهكذا نرى أن الهدف هو الذى يحدد الحركة .

إن التلميذ الذى يذهب إلى المدرسة له هدف بأن يتخرج فى مهنة ما ، ومادام ذلك هو هدفه فنحن نقيس حركة سلوكه ، هل هى حركة تقربه إلى الهدف أم تبعد به عنه ؟ فإن كان مجتهدا . فاجتهاده حركة تقرب له الهدف ، وإن كان كسولا ، خاملا فإنه يبتعد بنفسه عن الهدف . إذن يجب أن نحدد الهدف حتى نعرف هل يكون هذا العمل صالحا . أو غير صالح .

وآفة الناس أنهم عندما يحددون أهدافهم يقعون فى اعتبار ما ليس بالهدف هدفا وغاية . ومادام هناك من يعتبر غير الهدف هدفا فلابد من حدوث اضطراب وضلال ، فالذى يعتبر أن الحياة هى الهدف ، فهو يريد أن يحقق لنفسه أكبر قدر من اللذة فيها . أما الذى يعرف أن الهدف ليس هو الحياة ، إنما الحياة مرحلة ، نسأله . . ما الهدف إذن ، فيقول : إنه لقاء الله والآخرة .

هذا المؤمن سيكون عمله من أجل هذا الهدف . لكن الضال الذى يرى الدنيا وحدها هدفه ولا يؤمن بالجنة أو النار ، هو غارق فى ضلاله ويقبل على ما تشتهيه نفسه ، ويبتعد عما يتعبه وإن كانت فيه سعادته .

ولكن المؤمن يعرف أن الهدف ليس هو الدنيا ، وأن الهدف فى مجال آخر ، لذلك يسعى فى تطبيق التكاليف الإيمانية ليصل إلى الهدف ، وهو الجنة . إذن ما يفسد سلوك الناس هو جهلهم بالهدف ، وحين يوجد الهدف ، فالإنسان يحاول أن يعرف العمل الذى يقربه من الهدف ، فيفعله ، فهذا هو الخير . أما الذى يبعده عن الهدف ويفعل عكس الموصل إليه فهذا هو الشر .

وإذا كان الأمر كذلك والمسألة هى فى تحديد الهدف يجب أن تعلم أن الناس يستقبلون الكثير من الأحداث بما يناقض معرفة الهدف ، ومادام الهدف هو أن تذهب إلى الآخرة لتلقى الله فلماذا يغرق فى الحزن إنسان لأن له حبيبا قد انتقل إلى رحمة الله ؟

هذا الإنسان يمكننا أن نسأله ، لماذا تحزن وقد قصر الله عليه خطواته إلى الهدف ؟ لابد أنك حزين على نفسك لأنك مستوحش له ، ولأنك كنت تأنس به ، أما حزنك من أجله هو ، فلا حزن ، لأنه اقترب من الهدف ووصل إليه .

وفى حياتنا اليومية عندما يكون هدف جماعة أن تصل إلى الإسكندرية من القاهرة ، نجد إنسانا ما يذهب إلى الإسكندرية ماشيا ، لأنه لا يجد نقودا أو وسيلة توصله ، وتجد آخر يذهب إليها راكبا حمارا ، وثالثا يذهب إليها راكبا حصانا ، ورابعا يصل إليها راكبا « أتوبيسا » ، وخامسا يصل إليها بركوب الطائرة ، وسادسا يصل إليها بصاروخ ، وكل ما حدث هو أن كل واحد فى هذه الجماعة قد اقترب من الهدف بالوسيلة التى توافرت له ، وهكذا نجد إنسانا يذهب إلى الله ماشيا فى سبعين عاما ، وآخر يستدعيه الله فورا ، فلماذا تحزن عليه ؟

إن لنا أن نحزن على الإنسان الذى لم يكن موفقا فى خدمة الهدف ، أما الموفق فى خدمة الهدف فلنا أن نفرح له ، ونقول : إن الله قد قصر عليه المسافة ، وأغلبنا إن كان عنده ولد حبيب إلى قلبه وصغير ويفقده فهو يغرق فى الحزن قائلا « إنه لم ير الدنيا » لهذا الإنسان نقول : يا رجل إن الله جعل ابنك يقفز الخطايا ويتجاوزها وأخذه إلى الغاية ، فما الذى يحزنك ؟ إن علينا أن نحسن استقبال ما يقضى به الله فى خلقه ، ونعرف أنه حكيم ، وأنه رحيم وأن كل شىء منه يجب ألا نفهمه خارجا عن الحكمة .

وبعد تلك الآيات الكريمة التى تحدث فيها الحق عن مريم وعيسى عليه السلام . . قال الحق سبحانه :

﴿ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾

لقد ذكر عيسى ابن مريم القضية الجامعة المانعة أولا حين قال :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

وأوضح عيسى ابن مريم بما لا يقبل الجدل : « أنا معكم سواء فى مربوبيتنا إلى إله واحد ، وأنا لم أجىء لأعلّمكم لأنى تميزت عنكم بشىء . فيما يتعلق بالعبادة نحن سواء ، فالله رب لى ورب لكم ، والصراط المستقيم هو عبادة الله الحق .

ونحن ساعة نسمع « الصراط المستقيم » فإننا نتخيل على الفور الطرق الموصلة إلى الغاية ، ونعرف جميعا أنه لا يوجد طريق فى الحياة مصنوع لذات الطريق ، إنما الطريق يصنع ليوصل إلى غاية . وساعة تسمع « صراط » فإننا نفهم على الفور الغايةالتى نريد أن نصل إليها . والحق سبحانه يقول :

﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

ومادام هناك طريق لغاية ما فلابد لنا أن نحدد الغاية أولا ، وتحديد الغاية إنما يهدف إلى إيضاح السبيل أمام الإنسان ليسلك الطريق الموصل إلى تلك الغاية . وهكذا يقول الحق على لسان عيسى ابن مريم : « إن الله ربى وربكم فاعبدوه » .

والعبادة هى إطاعة العابد لأمر المعبود ، وهكذا يجب أن نفطن إلى أن العبادة لا تقتصر على إقامة الأركان التعبدية فى الدين من شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا ، إن هذه هى أركان الإسلام ولا يستقيم أن ينفصل الإنسان المسلم عن ربه بين أوقات الأركان التعبدية ، إن الأركان التعبدية لازمة ، لأنها تشحن الطاقة الإيمانية للنفس حتى تقبل على العمل الخاص بعمارة الدنيا ، ويجب أن نفطن إلى أن العبادة فى الدنيا هى كل حركة تؤدى إلى إسعاد الناس وعمارة الكون .

ويجب أن نعرف أن الأركان التعبدية هى تقسيم اصطلاحى وضعه العلماء فى الفقه كباب العبادات وباب المعاملات ، لكن علينا أن نعرف أن كل شىء يأمر به الله اسمه « عبادة » . إذن فالعبادة منها ما يصل العبد بالمعبود ليأخذ الشحنة الإيمانية من خالقه ، خالق الكون ، ومنها ما يتصل بعمارة الكون . ولذلك قلنا : إنك حينما

تتقبل من الله أمرا بعبادة ما ، فأنت تتلقاه وأنت موصول بأسباب الله بحثا عن الرزق وغير ذلك من أمور الحياة ، والمثل الواضح لذلك هو قول الحق :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ ﴾

(سورة الجمعة)

إن هذا الأمر بالصلاة الجامعة يوم الجمعة يخرج بالإنسان من أمر البيع ، وهذا الأمر بالصلاة لم يأخذ الإنسان من فراغ ، إنما أخذ الإنسان من عمل ، هو البيع . . ولو نظرنا إلى دقة الأداء فى البيع لوجدناها قمة الأخذ المباشر للرزق . إن كلام الله يصل فى دقته إلى ما لا يصل إليه كلام بشر ، فلم يقل الله مثلا « اتركوا الصنعة » « اتركوا الحرث » ولكن الحق جاء بالبيع هنا لأنه قمة النفعية العاجلة .

إن الذى يحرث ويزرع ينتظر وقتا قد يطول حتى تنضج الثمار ، لكن الذى يبيع شيئا ، فإنه ينال المنفعة فورا ، لقد جاء الأمر بترك هذه الثمرة العاجلة لأداء صلاة الجمعة ، ويتضمن هذا الأمر ترك كل الأمور التى قد تأتى ثمراتها من بعد ذلك لأداء الصلاة .

إن البيع هو التعبير الدقيق لأن المتكلم هو الله ، والحق لم يتكلم هنا مثلا عن الشراء ، لأن الشارى قد يشترى وهو كاره ، لكن البائع يملأه السرور وهو يبيع فقد يذهب رجل لشراء أشياء لبيته فيسمع الأذان فيسرع إلى الصلاة ويقول لأهله من بعد ذلك : لقد ذهبت إلى الشراء ، لكن المؤذن قد أذن لصلاة الجمعة ، ذلك أن الإنسان يجب ألا يدفع نقودا ، لكن البائع يستفيد بقمة الفائدة . لذلك يخرجنا الحق من قمة « كل الأعمال ونهاية كل الأعمال وهى مبادله السلع بأثمانها » . لكن ماذا بعد انقضاء الصلاة ؟

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ ﴾

(سورة الجمعة)

لقد أخرجنا من الصلاة إلى الحياة نبتغى من فضل الله ، ولذلك يكون الإنتشار فى الأرض والبحث عن الرزق عبادة .

ولننظر إلى الدقة فى قوله الحق : « فانتشروا فى الأرض » إن الانتشار يعنى أن ينساح البشر لينتظموا فى كل حركات الحياة ، وبذلك تعمر كل حركة فيها . إن كل حركة فى الحياة هى عبادة ، وهكذا نستوعب قوله الحق على لسان عيسى بن مريم : « إن الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم » ومن بعد ذلك يقول الحق : « فلما أحس عيسى منهم الكفر » لقد حسم عيسى بن مريم أمر العقيدة حينما قال : « إن الله ربى وربكم » إن فى ذلك تحذيرا من أن يقول أتباع عيسى أى شىء آخر عن عيسى غير أنه عبدالله خاضع لله ، مأمور بالطاعة والعبادة لله . ووضع أمامهم المنهج ، فقال : « هذا صراط مستقيم » .

وقول الحق : « فلما أحس عيسى منهم الكفر » يدل على أن كل صاحب فكرة ، وكل صاحب مهمة ، وكل صاحب هدف لابد أن يكون يقظ الأحاسيس ، لأن صاحب الفكرة وخاصة الدينية يخرج الناس من الظلمات إلى النور .

وقد يقول قائل : لماذا يعيش الناس فى الظلام ولا يتجهون إلى النور من أول الأمر ؟ وتكون الإجابة : إن هناك أناساً يستفيدون من وجود جموع الناس فى الظلمات ، لذلك يكون بينهم أناس ظالمون وأناس مظلومون ، والظالم الذى يأخذ ـ اغتصابا ـ خيرَ الآخرين ويعربد فى الكون يخاف من رجل الدعوة الذى ينهاه عن الظلم ، ويدعوه إلى الهداية إلى منطق العقل ، ومثل هذا الظالم عندما يسمع كلمة المنطق والدعوة إلى الإيمان لا يحب أن تُنطق هذه الكلمة ، إنه يكره الكلمة والقائل لها .

إن الداعية مأمور من الله بأن يكون يقظا لأنه إن اهتدى بكلماته أناس وسعدوا بها ، فإنّه يغضب أناساً آخرين ، ذلك أن المجتمع الفاسد يوجد به المستفيدون من الفساد ، فالداعية عليه أن يعرف يقظة الحس ، ويقظة الحس معناها الالتفاف إلى الأحاسيس الخفية الموجودة عند كل إنسان ، ونحن نسمى الأشياء الظاهرة منها الحواس الخمس ، اللمس ، والرؤية ، والسمع ، والتذوق ، والشم .

إن رجل الدعوة مأمور بأن تعمل كل حواسه حتى يعرف من الذى يجبن ويرتجف

لحظة أن تأتى دعوة الخير ، ومن الذى يطمئن ويحسن الراحة لدعوة الخير . إن رجل الدعوة مأمور بدقة اليقظة والإحساس ليميز بين الذى تتغير سحنته لحظة دعوة الخير ، ومن الذى يستبشر ويفرح .

وعندما أعلن عيسى ابن مريم منهج الحق ، وجد أنصار الظلم وأنصار البغى ، وأنصار الظلمات غير معجبين بالمنهج الواضح للإيمان بالله ، لذلك أحس منهم الكفر لقد كان مليئا باليقظة والانتباه . إنه يعلم أنه قد جاء برسالة من الله ؛ ليخرج أناساً من مفسدة إلى مصلحة . وعندما أحس منهم الكفر ، أراد أن ينتدب جماعة ليعينوه على أمر الدعوة . « قال من أنصارى إلى الله » ؟

إن الدعوة تحتاج إلى معركة ، والمعركة تحتاج إلى تضحية . والتضحية تكون بالنفس والنفيس ، لذلك لابد أن يستثير ويحرك من يجد فى نفسه العون على هذه المسألة . وهو لم يناد أفرادا محددين ، إنما طرح الدعوة ليأتى الأنصار الذين يستشرفون فى أنفسهم القدرة على حمل لواء الدعوة ، ولتكون التضحية بإقبال نفس لا استجابة لداع . « فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصارى إلى الله » وكلمة « أنصار » هى جمع « نصير » . والنصير هو المعين لك بقوة على بُغْيَتِك .

وعندما سأل عيسى : « من أنصارى إلى الله ؟» كانت إلى فى السؤال تفيد الغاية ، وهى الله ، أى من ينصرنى نصرا تصير غايته إلى الله وحده لا إلى أهواء البشر ؟ إنه لا يسأل عن أناس يدخلون فى لواء الدعوة من أجل الغنيمة أو يدخلون من أجل الجاه ، أو غير ذلك ، إنه يسأل عن أهل العزم ليكون كل منهم متجها بطاقته إلى نصرة الله وحده .

ومثال ذلك ما دار بين رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم وبين رجال من المدينة فى أثناء مبايعتهم له فى العقبة فقد قال لهم رسول الله : « أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون فيه نساءكم وأبناءكم » فأخذ الداء بن معرور بيده ثم قال : « نعم ، والذى بعثك بالحق لنمنعنّك مِما نمنع منه أزرنا » فبايعوا رسول الله على ذلك فقام أبو الهيثم بن التيهان فقال : يا رسول الله إن بيننا وبين اليهود حبالا وإنا قاطعوها فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدَعَنا » ؟ فتبسم رسول الله ثم قال : « بل الدم الدم ، والهدم الهدم أنا منكم وأنتم منى ، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم »

أى ذمتى ذمتكم وحرمتى حرمتكم[١]

أقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنكم ستمتلكون الأرض ، وستسودون الدنيا ، أو ستنتصرون على أعدائكم ؟ لا . بل قال صلى الله عليه وسلم أنا منكم وأنتم مِنِّى . لماذا ؟ لأنه لو قال لهم ستنتصرون على أعدائكم ، فقد يدخلون المعركة ، ويموت واحد منهم ؛ ولا يرى النصر ، لكن الأمر الذى سيراه كل المؤمنين أن رسول الله منهم وأنهم من رسول الله ومادموا كذلك فسيدخلون معه الجنة وهى الغاية الأصيلة .

وعندما سأل عيسى ابن مريم « من أنصارى إلى الله » فكأنه كان يسأل : من يعيننى معونة غايتها الله ؟ ولماذا نأخذ هذا المعنى ؟ تكون الإجابة : أنا آخذ المعنى على قدر ذهنى ؛ لأن مرادات الله فى كلماته لا تتناهى كمالاً ، وقد يأتى غيرى ويأخذ منها معنى آخر . ومعنى « النصير » : هو « من ينصر بجهد وقوة » . وننظر النصر فى الإيمان كيف يأتى ؟ إن الحق سبحانه وتعالى حينما تكلم عن النصر فى الإيمان قال :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ﴿٧﴾ ﴾

(سورة محمد)

إذن فالنصر منا لله بأن نُطبق دينه ، وهذا مراد الله ، ولذلك يأتى النصر مرة من المؤمن لربه ، ومرة من الرب لمربوبه ، وقد يكون مراد عيسى ـ عليه السلام ـ من الذى ينصرنى كى ينضم إلى الله فى النصر ؟

ونحن هنا أمام معسكرين ، معسكر الإيمان ، ومعسكر الكفر . لقد سأل عيسى « من أنصارى إلى الله » أى أنه يسأل عن الذين بإمكانهم أن ينضموا إلى غاية هى الله ، ونتفهم نحن هذا المعنى على ضوء ما قاله الحق :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ﴿٧﴾ ﴾

(سورة محمد)

ونعرف أيضا أن هناك نصراً من المؤمن لله ، وهناك نصر من الله للمؤمن . وهكذا

١ ـ السيرة النبوية لابن هشام جـ ١ .

يكون سؤال عيسى ابن مريم « من أنصارى إلى الله » ؟ قد أفاد المعنيين معاً . وكانت الإجابة : « قال الحواريون نحن أنصار الله ، آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون » .

والحواريون ماخوذة من الحور ، وهو شدة البياض ، وهم جماعة أشرقت فى وجوههم سيماء الإيمان ، فكأنها مشرقة بالنور . ونور الوجه لا يقصد به البشرة البيضاء ، ولكن نور الوجه فى المؤمن يكون بإشراقة الإيمان فى النفس ، ولذلك يصف الحق المؤمنين برسالة رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم :

﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الفتح)

فحتى لو كان المؤمن أسود اللون فإن له سمة على وجهه . كيف ولماذا ؟ لأن الإنسان مكون من أجهزة ، ومكون من ذرات ، وكل جهاز فى الإنسان له مطلوب محدد ، وساعة ان تتجه كل الأجهزة إلى ما أراده الله ، فإن الذى يحدث للإنسان هو انسجام كل أجهزته ، ومادامت الأجهزة منسجمة فإن النفس تكون مرتاحة ، ولكن عندما تتضارب مطلوبات الأجهزة ، تكون السحنة مكفهرة .

عندما قال عيسى : « من أنصارى إلى الله » سمع الاستجابة من الحواريين ، والحواريون قوم لهم إشراقات انسجام النفس مع الإيمان ، أو هم قوم بيض المعانى ، أى أن معانيهم بيضاء ومشرقة . والنبى صلى الله عليه وسلم سمى بعضا من صحابته حوارى رسول الله ، وهم الذين جعلهم رسول الله معه طوال الوقت .

وحين قال الحواريون : « نحن أنصار الله » كان ذلك يعنى أن كل إنسان منهم يريد نصرة الله . فينضم إلى الله ناصرا للمنهج ، وهذا يتطلب أن يعرف كل منهم المنهج . ونحن نعرف مقومات النصرة لله . إنه الإيمان:وما الإيمان ؟ إنه اطمئنان القلب إلى قضية ما ، هذا هو الإيمان فى عمومه . فلو لم أكن مؤمنا بأن الطريق الذى أسير فيه موصلٌ إلى غاية مطلوبة لى لما سرت فيه .

مثال ذلك المسافر من القاهرة إلى دمياط لو لم يعتقد صحة الطريق لما سلك هذا الطريق ، وإن لم اعتقد أننى إن لم أذاكر دروسى سوف أرسب لما ذاكرت . إذن فكل أمر

فى الدنيا يتم بناؤه على الإيمان ، لكن إذا أطلق الإيمان بالمعنى الخاص ، فهو اطمئنان القلب إلى قمة القضايا ، وهى الإيمان بالله ، ولذلك فأسلحة النصر إلى الله هى: إسلام كل جوارح الإنسان إلى الله . ولذلك قال الحواريون : « نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون » .

لماذا يشهد الرسول لهم ؟ لأن المفروض فى الرسول أن يبلغ القوم عن الله ، فيشهد عليهم كما قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾

(من الآية ٧٨ سورة الحج)

ولنا أن نلحظ أن الحق أورد على لسانهم ـ الحواريين ـ الإيمان أولا ، لأنه أمر غيبى عقدى فى القلب ، وجاء من بعد ذلك على لسان الحواريين طلب الشهادة بالإسلام ، لأن الإسلام خضوع لمطلوبات الإيمان وأحكامه . إن قولهم : « واشهد بأنا مسلمون » هو أيضا طلب منهم يسألونه لعيسى ابن مريم أن يبلغهم كل مطلوبات الإسلام قل لنا افعلوا كذا ولا تفعلوا كذا إنهم قالوا : « آمنا » ومادامو قد أعلنوا الإيمان بالله ، فهم آمنوا بمن بلغهم عن الله ، والمطلوب من عيسى ابن مريم أن يشهد بأنهم مسلمون ، ولا تتم الشهادة إلا بعد أن يبلغهم كل الأحكام وقد بلغهم ذلك وعملوا به وقالوا من بعد ذلك :

﴿ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾

فهل يكون إعلانهم للإيمان، يعنى إيمانهم بتشريعات رسالة سابقة، لا، إن الإيمان هنا مقصود به ما جاء به عيسى من عند الله ؛ لأن كل رسول جاء بشىء من الله ، فوراء

مجىء رسول جديد أمر يريد الله إبلاغه للناس ، ونحن نعلم أن العقائد لا تغيير فيها ؛ وكذلك الأخبار ؛ وكذلك القصص ، ولكن الأحكام هى التى تتغير. فكأن إعلان الحواريين هو إعلان بالإيمان بما جاء سابقا على عيسى ابن مريم من عقائد وبما جاء به عيسى ابن مريم من أحكام وتشريعات .

وقولهم : « ربنا آمنا بما أنزلت » كلمة « بما أنزلت » تدل على منهج منزل من أعلى إلى أدنى ، ونحن حين نأخذ التشريع فنحن نأخذه من أعلى . ولذلك قلنا سابقا : إن الله حينما ينادى من آمن به ليتبع مناهج الإيمان يقول : « تعالوا » أى ارتفعوا إلى مستوى التلقى من الإله وخذوا منه المنهج ولا تظلوا فى حضيض الأرض ، أى لا تتبعوا أهواء بعضكم وآراء بعضكم أو تشريع بعضكم،ومادام المؤمن يريد العلو فى الإيمان ، فليذهب بسلوكه فى الأرض إلى منهج السماء .

وقولهم : « ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول » . إن المتبع عادة يقتنع بمن اتبعه أولا ، حتى يكون الاتباع صادرا من قيم النفس لا من الإرغام قهرا أو قسرا ، فنحن قد نجد إنسانا يرغم إنسانا آخر على السير معه ، وهنا لا يقال عن المُرغَم : إنه « اتبع » إنما الذى يتبع ، أى الذى يسير فى نفس طريق صاحبه يكون ذلك بمحض إرادته ومحض اختياره . فلو سار شخص فى طريق شخص آخر بالقهر أو القسر لكان ذلك الاتباع بالقالب ، لا بالقلب . ولذلك فمن الممكن لمتجبر أن يمسك سوطا ويقهر مستضعفا على السير معه ، وفى ذلك إخضاع لقالب المستضعف ، لكنه لم يخضع قلبه ، فالإكراه يخضع القالب لكنه لا يخضع القلب .

﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝٣ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ۝٤ ﴾

(سورة الشعراء)

إن الحق يخبر رسوله أن أحدا من العباد . لا يستعصى على خالقه ، وأنه سبحانه القادر على الإحياء والإماتة ، ولو أراد الله أن ينزل آية تخضع أعناق كل العباد لَفَعَلَ ، لكن الحق لا يريد أعناق الناس ، ولكنه يطلب القلوب التى تأتى طواعية وبالاختيار ، وأن يأتى العبد إلى الإيمان وهو قادر ألا يجىء . هذه هى العظمة

الإيمانية . وقال الحواريون بعد إعلانهم الإيمان بما جاء به عيسى : « فاكتبنا مع الشاهدين » إنه الطلب الإيمانىّ العالى الواعى ، الفاهم . إنهم يحملون أمانة التبليغ عن الرسول ، ويشهدون كما يشهد الرسل لأممهم ، ويطلبون أن يكتبهم الله مع الذين يشهدون أن الرسل يبلغون رسالات الله وأنهم يحملونها من بعدهم ؛ ولذلك قلنا عن آمة محمد عليه الصلاة والسلام : إنها الأمة التى حملها الله مهمة وصل بلاغ الرسالة المحمدية إلى أن تقوم الساعة . لماذا ؟ هاهو ذا القول الحق :

﴿ وَجَٰهِدُواْ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾ ﴾

(سورة الحج)

ولذلك فلن يأتى أنبياء أو رسل من بعد أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، لقد ائتمن الله أمة محمد ؛ بعد محمد صلى الله عليه وسلم ، لذلك فلا نبوة من بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم . وبعد ذلك يخبرنا الحق :

﴿ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾

إن الأشياء التى يدركها العقل هى مسميات ولها أسماء وتكون أولا بالحس ، لأن الحس هو أول مصاحب للإنسان لإدراك الأشياء ، وبعد ذلك تأتى المعانى عندما نكبر ونعرف الحقائق . إن البداية دائما تكون هى الأمور المحسة،ولذلك يقول الله عن المنهج الإيمانى : إنه طريق مستقيم ، أى أن نعرف الغاية والطريق الموصل إليها،

وكلمة « الطريق المستقيم » من الأمور المحسة والتى يتعرف الناس عليها بالتطبيق لقواعد المنهج .

إن كلمة « مكر » ، مأخوذة من الشجر ، فساعة أن ترى الشجرة التى لا تلتف أغصانها على بعضها فإن الإنسان يستطيع أن يحكم أن ورقة ما ، هى من فرع ما . ولكنْ هناك نوع من الأشجار تكون فروعه ملفوفة على بعضها بحيث لا يستطيع الإنسان أن يعرف أى ورقة من أى فرع هى ، ومن هذا المعنى أخذنا كلمة « المكر » . فالرجل الذى يلف ويدور ، هو الذى يمكر ، فالذى يلف على إنسان من اجل ان يستخلص منه حقيقة ما ، والذى يحتال من أجل إبراز حقيقة ، فإن كان ذلك بغير قصد الضرر نسميه حيلة ، وإن كان بقصد الضرر فهذا هو المكر السيىء . ولذلك فالحق يقول :

﴿ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئُ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾

(من الآية ٤٣ سورة فاطر)

ومعنى ذلك أن هناك مكراً غير سيىء ، أى أن المكر الذى لا يقصد منه إيقاع الضرر بأحد ، فإننا نسميه مكرَ خير ، أما المكر الذى يقصد منه إيقاع الضرر فهو « المكر السيىء » . ولنا أن نسأل : ما الذى يدفع إنسانا ما إلى المكر ؟ إن الذى يمكر يدارى نواياه ، فقد يظهر لك الحب بينما هو مبغض ، ويريد أن يزين لك عملا ليمكر بك ، فيحاول مثلا أن يصحبك إلى مكان بعيد غير مأهول بالناس ويريد أن يوقع بك أبلغ الضرر ، وقد يكون القتل .

إذن ، فمن أسس المكر التبييت، والتبييت يحتاج إلى حنكة وخبرة ، لأن الذى يحاول التبييت قد يجد قبالته من يلتقط خبايا التبييت بالحدس والتخمين ، ومادام المكر يحتاج إلى التبييت ، فإن ذلك علامة على الضعف فى البشر لأن القوى لا يمكر ولا يكيد ولكن يواجه .

إن القوى لحظة أن يمسك بخصم ضعيف ، فمن الممكن أن يطلقه ، لأن القوى مطمئن إلى أن قوته تستطيع أن تؤذى هذا الضعيف . لكن الضعيف حين يملك قويا ، فإنه يعتبر الأمر فرصة لن تتكرر ، ولذلك فالشاعر يقول :

وضعيفة فإذا أصابت فرصة قتلت
كذلك قدرة الضعفاء

إن الضعيف هو الذى يمكر ويبيت . والذى يمكر قد يضع فى اعتباره أن خصمه أقوى منه حيلة وأرجح عقلا ، وقد ينكل به كثيرا ، لذلك يخفى الماكر أمر مكره أو تبييته . فإذا ما أراد خصوم المنهج الإيمانى أن يمكروا، فعلى من يمكرون ؟ إن الرسول لا يكون فى المعركة بمفرده ولكن معه الله .

﴿ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ۝٩ ﴾

(سورة البقرة)

فالله يعلم ما يبيت أى إنسان ، ولذلك فعندما يريد الله أن يبرز شيئا ويوجده فلن يستطيع أحد أن يواجه إرادة الله وأمره ، إذن فمكر الله لا قبل لأحد لمواجهته .

﴿ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ۝٥٤ ﴾

(سورة آل عمران)

وساعة تجد صفة تستبعد أن يوصف بها الله فاعلم أنها جاءت للمشاكلة فقط وليست من أسماء الله الحسنى . إن المؤمنين بإمكانهم أن يقولوا للكافرين : إنكم إن أردتم أن تبيتوا لنا ، فإن الله قادر على أن يقلب المكر عليكم . أما أسماء الله وصفاته فهى توقيفية ، نزل بها جبريل على رسول الله صلى الله عليه وسلم . لكن إذا وجد فعل لله لا يصح أن نشتق نحن منه وصفا ونجعله اسما لله ، « ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين » . فليس من أسماء الله مخادع ، أو ماكر ، إياك أن تقول ذلك ، لأن أسماء الله وصفاته توقيفية، وجاء القول هنا بمكر الله كمقابل لفعل من البشر ، ليدلهم على أنهم لا يستطيعون أن يخدعوا الله ، ولا يستطيعون أن يمكروا بالله ، لأن الله إذا أراد أن يمكر بهم ، فهم لا يستطيعون مواجهة ذلك . إن الحق يقول :

« ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين » .

إذن فهناك « مكر خير » . . وذلك دليل على أن هناك من يصنع المكر ليؤدى إلى الخير . ولماذا تأتى هذه الآية هنا ؟ لأن هناك معركة سيدخلها عيسى ابن مريم عليه السلام ، وعيسى عليه السلام لم يجىء ليقاتل بالسيف ليحمى العقيدة ، إنما جاء واعظا ليدل الناس على العقيدة ، إن النصرة لا تكون بالسيف فقط ، ولكن بالحجة . ونحن نعرف أن السماء كانت لا تطلب من أى رسول أن يحارب فى سبيل العقيدة لأن السماء هى التى كانت تتولى التأديب .

﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾

(سورة العنكبوت)

ولم يجىء قتال إلا حينما طلب بنو إسرائيل :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ ﴾

(سورة البقرة)

ولكن أمة محمد صلى الله عليه وسلم هى التى أذن الله لها أن تحمل السيف لتؤدب به الذين يحولون دون بلوغ العقيدة الصحيحة للناس . إن السيف لم يأت ليفرض العقيدة ، إنما ليحمى الاختيار فى النفس الإيمانية ، فبدلا من أن يترك الناس

مقهورين على اعتناق عقيدة خاطئة. فالمسلمون يرفعون السيف فى وجه الظالم القاهر لعباد الله . وعباد الله لهم أن يختاروا عقيدتهم .

ولذلك فعندما يقول أعداء الإسلام : « إن الإسلام انتشر بالسيف » . نرد عليهم : إن الله قد بدأ الإسلام بضعف حتى يسقط هذا الاتهام ، لقد كان المسلمون الأوائل ضعفاء لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم ، فيتجه بعضهم إلى الحبشة ، ويهاجرون بحثا عن الحماية ، فلو كان الإسلام قد انتشر بالسيف فلنا أن نسأل : من الذى حمل أول سيف ليكره أول مؤمن ؟ إن المؤمنين رضوا الإسلام دينا وهم فى غاية الضعف ومنتهاه . إن الإسلام قد بدأ واستمر ومازال يحيا بقوة الإيمان .

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء فى أمة أمية ، ومن قبيلة لها شوكتها ، وشاء الحق ألا ينصر الله دينه بإسلام أقوياء قريش أولا ، بل آمن بالرسول صلى الله عليه وسلم الضعفاء وخاض رسول الله صلى الله عليه وسلم رحلة الدعوة الإيمانية مدة ثلاثة عشر عاما ، دعوة للإيمان بالله ، ثم هاجر رسول الله إلى المدينة ، إلى أن صار كل المسلمين وحدة إيمانية قوية ، وارتفع السيف لا ليفرض العقيدة ، ولكن ليحمى حرية اختيار الناس للعقيدة الصحيحة . ولو أن الإسلام انتشر بالسيف . فكيف نفسر وجود أبناء لديانات أخرى فى البلاد المسلمة ؟ لقد أتاح الإسلام فرصة اختيار العقيدة لكل إنسان .

إذن فكل مسلم يمثل وحدة إيمانية مستقلة ، وواجب كل مسلم أن يعرف أن الإسلام قد انتشر بالأسوة الحسنة ، وأنه كمؤمن بالله وبدين الله ، قد اصطفاه الله ليطبق السلوك الإيمانى ، فقد مكن الله للإسلام فى الأرض بالسلوك والقدوة .

إن كل مسلم عليه واجب ألا يترك فى سلوكه ثغرة ينفذ منها خصوم الإسلام إلى الإسلام ، ذلك أن اختلال توازن سلوك المسلم بالنسبة لمنهج الله هو ثغرة ينفذ منها خصوم الإسلام ، ولذلك فالمفكرون فى الأديان الأخرى حينما يذهبون إلى الإسلام ، ويقتنعون به ، إنما يقتنعون بالإسلام لأنه منهج حق . إنهم يمحصونه بالعقل ، ويهتدون إليه بالفطرة الإيمانية . أما الذين يريدون الطعن فى الإسلام ، فهم ينظرون إلى سلوك بعض من المسلمين ، فيجدون فيه من الثغرات ما يتهمون به الإسلام .

إن المفكرين المنصفين يفرقون دائما بين العقيدة ، ومتبع العقيدة ، ولذلك فأغلب المفكرين الذين يتبعون هذا الاتجاه ، يلجأون إلى الإسلام ويؤمنون به . ولكن الذين يذهبون إلى الإسلام من جهة أتباعه ، فإن صادفوا تابعا للإسلام ملتزما دعاهم ذلك إلى أن يؤمنوا بالإسلام ، ولذلك كانت الجمهرة الكثيرة الوفيرة فى البلاد الإسلامية المعاصرة فى بلاد لم يدخلها فتح إسلامى ، وإنما دخلتها الأسوة الإسلامية فى أفراد تابعين ملتزمين ، فراق الناس ما عليه هؤلاء المسلمون من حياة ورعة ، ومن تصرفات مستقيمة جميلة ، ومن أسلوب تعامل سمح أمين ، نزيه ، نظيف ، كل ذلك لفت جمهرة الناس إلى الإسلام ، وجعلهم يتساءلون : ما الذى جعلكم على هذا السلوك الطيب ؟ قالوا : لأننا مسلمون . وتساءل الناس فى تلك المجتمعات : وما معنى الإسلام ؟ وبدأ المسلمون يشرحون لهم الإسلام .

إذن ، فالذى لفت إلى الإسلام هو السلوك المنهجى الملتزم . ولذلك فالحق سبحانه وتعالى حين يعرض منهج الدعوة الناجحة يقول :

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾

(سورة فصلت)

والدعوة إلى الله تكون باللسان والعمل الصالح،ليدل المؤمن على أن ما يدعو إليه غيره قد وجده مفيدا فالتزمه هو ، فالعمل الصالح هو شهادة للدعوة باللسان . ولا يكتفى المؤمن بذلك ، إنما يعلن ويقول : « إننى من المسلمين » يقول ذلك لمن ؟ يقوله لمن يرونه على السلوك السمح الرضى الطيب . إنها لفتة من ذاته إلى دينه .

إن هذا يفسر لنا كيف انتشر الإسلام بوساطة جماعة من التجار الذين كانوا يذهبون إلى كثير من البلاد ، وتعاملوا مع الناس بأدب الإسلام ، وبوقار الإسلام ، وبورع الإسلام ، فصار سلوكهم الملتزم لافتا ، وعندما يسألهم القوم عن السر فى سلوكهم الملتزم ، يقول الإنسان منهم : أنا لم أجىء بذلك من عندى ولكن من اتباعى لدين الله الإسلام .

ومثال ذلك فى السلوك الأسوة : المسلمون الأوائل من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم . لقد كان صحابته رضوان الله عليهم يخافون عليه من خصومه ، فكانوا

يتناوبون حراسته ، ومعنى تناوب الحراس أنهم أرادوا أن يكونوا المصد للأخطار يتداولون ذلك فيما بينهم . وأراد الحق سبحانه أن يهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة خفية ، ونام على بن أبى طالب رضى الله عنه وأرضاه مكان الرسول صلى الله عليه وسلم . لقد أراد على ـ كرم الله وجهه ـ أن يكون هو المصد ، فإذا جاء خطر فإنه هو الذى يصده .

لاشك أنه كان يفعل ذلك لأنه واثق أن بقاء الرسول صلى الله عليه وسلم خير للإسلام حتى ولو افتداه بروحه . هذا هو التسامى العالى من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم . كان الواحد منهم يحب الرسول صلى الله عليه وسلم لأن الأسوة بالرسول واتباع دين الله إنّما يعود ذلك عليه بالخير العميم . وعندما يموت واحد منهم فى سبيل المحافظة على من أرسله الله رسولا ليبلغ دعوته فقد نال الشهادة فى سبيل الله .

هذا هو أبو بكر الصديق رضوان الله عليه مع رسول الله فى الغار . ألم يجد الصديق شقوقا فيمزع من ثيابه ليسد الشقوق ؟ ألم يضع قدمه فى شق لأنه يخشى أن تجىء حشرة من الحشرات قد تؤذى حضرة النبى صلى الله عليه وسلم ؟ لقد أراد أن يحافظ على الرسول صلى الله عليه وسلم حتى ولو افتداه ، وهذه شهادة بأن صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم آمنوا بأن بقاء الرسول خير لهم وللإيمان ولنفوسهم من بقائهم هم أنفسهم .

وهكذا أراد الله نصرة رسوله على الكفار ، عندما مكروا وبيتوا أن يقتلوه قبل الهجرة ، وهكذا أراد الله نصر رسوله صلى الله عليه وسلم بعد الهجرة عندما واجه أعداء الإسلام فى القتال ، لقد مكروا ، ولكن الله خير الماكرين .

وكأن الحق سبحانه وتعالى يقول بهذا النصر من الله : لن تستطيعوا أن تقاوموا محمدا لا بالمواجهة ولا بالتبييت . وها هوذا تابع من أتباعه صلى الله عليه وسلم هو سيدنا عمر رضى الله عنه يهاجر علنا ، ويقول : من أراد أن تثكله أمه ، أو ترمل زوجته ، أو ييتم ولدُه ، فليلقنى وراء هذا الوادى . بينما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم خفية .

لماذا ؟ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة للضعيف . إن القوى يستطيع حماية نفسه ويخرج إلى الهجرة مجاهرا . أما الضعيف فلابد أن يهاجر خفية ، لذلك فالأسوة للضعيف كانت فى رسول الله صلى الله عليه وسلم . لقد مكر أعداء الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولكن الله مكر بهم .

﴿ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ ﴾

(سورة إبراهيم)

إن مكرهم رغم عنفه وشدته والذى قد يؤدى إلى زوال الجبال ، هذا المكر يبور عند مواجهته لمكر الله الذى يحمى رسله وعباده الصالحين . لقد جاء مكر بنى إسرائيل وأنزل فيه الله قوله الحكيم : « ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين » . لأنهم أرادوا أن يتخلصوا من سيدنا عيسى ابن مريم عليه السلام . فقال الحق سبحانه :

﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾

لقد جاء الحق سبحانه بعد عرضه لمسألة المكر بهذا القول الحكيم ، وذلك دليل على أن عيسى عليه السلام أحس من بنى إسرائيل الكفر ، والتبييت ، ومؤامرة للقتل فطمأن الله عيسى إلى نهاية المعركة . « إنى متوفيك ورافعك إلىّ ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة » . إنها أربعة مواقف ، أرادها الله لعيسى ابن مريم عليه السلام .

ونريد أن نقف الآن عند كلمة قول الحق : « متوفيك » . نحن غالبا ما نأخذ معنى بعض الألفاظ من الغالب الشائع ، ثم تموت المعانى الأخرى فى اللفظ ويروج المعنى الشائع فنفهم المقصد من اللفظ . إن كلمة « التوفى » نفهمها على أنها الموت ، ولكن علينا هنا أن نرجع إلى أصل استعمال اللفظة ، فإنه قد يغلب معنى على لفظ ، وهذا اللفظ موضوع لمعان متعددة ، فيأخذه واحد ليجعله خاصا بواحد من هذه . إن كلمة « التوفى » قد يأخذها واحدا لمعنى « الوفاة » وهو الموت . ولكن ، ألم يكن ربك الذى قال : « إنى متوفيك » ؟ وهو القائل فى القرآن الكريم :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

إذن « يتوفاكم » هنا بأى معنى ؟ إنها بمعنى ينيمكم . فالنوم معنى من معانى التوفى . ألم يقل الحق فى كتابه أيضا الذى قال فيه : « إنى متوفيك » .

﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾

(سورة الزمر)

لقد سمى الحق النوم موتا أيضا . هذا من ناحية منطق القرآن ، إن منطق القرآن الكريم بين لنا أن كلمة « التوفى » ليس معناها هو الموت فقط ولكنْ لها معان أخرى ، إلا أنه غلب اللفظ عند المستعملين للغة على معنى فاستقل اللفظ عندهم بهذا المعنى ، فإذا ما أطلق اللفظ عند هؤلاء لا ينصرف إلا لهذا المعنى ، ولهؤلاء نقول : لا ، لابد أن ندقق جيدا فى اللفظ ولماذا جاء ؟

وقد يقول قائل : ولماذا يختار الله اللفظ هكذا ؟ والإجابة هى : لأن الأشياء التى قد يقف فيها العقل لا تؤثر فى الأحكام المطلوبة ويأتى فيها الله بأسلوب يحتمل هذا ،

ويحتمل ذلك ، حتى لا يقف أحد فى أمر لا يستأهل وقفة . فالذى يعتقد أن عيسى عليه السلام قد رفعه الله إلى السماء ما الذى زاد عليه من أحكام دينه ؟ والذى لا يعتقد أن عيسى عليه السلام قد رُفع ، ما الذى نقص عليه من أحكام دينه ، إن هذه القضية لا تؤثر فى الأحكام المطلوبة للدين ، لكن العقل قد يقف فيها ؟ فيقول قائل : كيف يصعد إلى السماء ؟ ويقول آخر : لقد توفاه الله . وليعتقدها أى إنسان كما يريد لأنها لا تؤثر فى الأحكام المطلوبة للدين .

إذن ، فالأشياء التى لا تؤثر فى الحكم المطلوب من الخلق يأتى بها الله بكلام يحتمل الفهم على أكثر من وجه حتى لا يترك العقل فى حيرة أمام مسألة لا تضر ولا تنفع . وعرفنا الآن أن « توفى » تأتى من الوفاة بمعنى النوم من قوله سبحانه :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

ومن قوله سبحانه وتعالى :

﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾

(سورة الزمر)

إن الحق سبحانه قد سمى النوم موتا لأن النوم غيب عن حس الحياة . واللغة العربية توضح ذلك ، فأنت تقول ـ على سبيل المثال ـ لمن أقرضته مبلغا من المال ، ويطلب منك أن تتنازل عن بعضه لا ، لابد أن أستوفى مالى ،وعندما يعطيك كل مالك ، تقول له : استوفيت مالى تماما ، فتوفيته ، أى أنك أخذته بتمامه .

إذن ، فمعنى « متوفيك » قد يكون هو أخذك الشىء تاما . أقول ذلك حتى نعرف

الفرق بين الموت والقتل ، كلاهما يلتقى فى أنه سلب للحياة ، وكلمة « سلب الحياة » قد تكون مرة بنقض البنية ، كضرب واحد لآخر على جمجمته فيقتله ، هذا لون من سلب الحياة ، ولكن بنقض البنية . أما الموت فلا يكون بنقض البنية ، إنما يأخذ الله الروح ، وتبقى البنية كما هى ، ولذلك فرق الله فى قرآنه الحكيم بين « موت » و« قتل » وإن اتحدا معا فى إزهاق الحياة .

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

إن الموت والقتل يؤدى كل منهما إلى انتهاء الحياة ، لكن القتل ينهى الحياة بنقض البنية،ولذلك يقدر بعض البشر على البشر فيقتلون بعضهم بعضا . لكن لا أحد يستطيع أن يقول : « أنا أريد أن يموت فلان » ، فالموت هو ما يجريه الله على عباده من سلب للحياة بنزع الروح . إن البشر يقدرون على البنية بالقتل ، والبنية ليست هى التى تنزع الروح ، ولكن الروح تحل فى المادة فتحيا ، وعندما ينزعها الله من المادة تموت وترم أى تصير رمة .

إذن ، فالقتل إنما هو إخلال بالمواصفات الخاصة التى أرادها الله لوجود الروح فى المادة ، كسلامة المخ أو القلب . فإذا اختل شىء من هذه المواصفات الخاصة الأساسية فالروح تقول : « أنا لا أسكن هنا » . إن الروح إذا ما انتزعت ، فلأنها لا تريد أن تنتزع . . لأى سبب ولكن البنية لا تصلح لسكنها . ونضرب المثل ولله المثل الأعلى :

إن الكهرباء التى فى المنزل يتم تركيبها ، وتعرف وجود الكهرباء بالمصباح الذى يصدر منه الضوء . إن المصباح لم يأت بالنور ، لأن النور لا يظهر إلا فى بنية بهذه المواصفات بدليل أن المصباح عندما ينكسر تظل الكهرباء موجودة ، ولكن الضوء يذهب . وكذلك الروح بالنسبة للجسد . إن الروح لا توجد إلا فى جسد له مواصفات خاصة . وأهم هذه المواصفات الخاصة أن تكون خلايا البنية مناسبة ، فإن توقف القلب ، فمن الممكن تدليكه قبل مرور سبع ثوان على التوقف ، لكن إن

فسدت خلايا المخ ، فكل شيء ينتهى لأن المواصفات اختلت .

إذن ، فالروح لا تحل إلا فى بنية لها مواصفات خاصة ، والقتل وسيلة أساسية لهدم البنية ؛ وإذهاب الحياة ، لكن الموت هو إزهاق الحياة بغير هدم البنية ، ولا يقدر على ذلك إلا الله سبحانه وتعالى . ولكن خلق الله يقدرون على البنية ، لأنها مادة ولذلك يستطيعون تخريبها .

إذن ، « فمتوفيك » تعنى مرة تمام الشيء ، « كاستيفاء المال » وتعنى مرة « النوم » . وحين يقول الحق : « إنى متوفيك » ماذا يعنى ذلك ؟ إنه سبحانه يريد أن يقول : أريدك تاما ، أى أن خلقى لا يقدرون على هدم بنيتك ، إنى طالبك إلى تاما ، لأنك فى الأرض عرضة لأغيار البشر من البشر ، لكنى سآتى بك فى مكان تكون خالصا لى وحدى ، لقد أخذتك من البشر تامًّا ، ومعنى « تاما » ، أى أن الروح فى جسدك بكل مواصفاته ، فالذين يقدرون عليه من هدم المادة لن يتمكنوا منه .

إذن ، فقول الحق : « ورافعك إلىّ » هذا القول الحكيم يأتى مستقيما مع قول الحق : « متوفيك » . وقد يقول قائل : لماذا نأخذ الوفاة بهذا المعنى ؟ نقول : إن الحق بجلال قدرته كان قادرا على أن يقول : إنى رافعك إلىّ ثم أتوفاك بعد ذلك . ونقول أيضا : من الذى قال : إن « الواو » تقتضى الترتيب فى الحدث ؟ ألم يقل الحق سبحانه :

﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة القمر)

هل جاء العذاب قبل النذر أو بعدها ؟ إن العذاب إنما يكون من بعد النذر . إن « الواو » تفيد الجمع للحدثين فقط . ألم يقل الله فى كتابه أيضا :

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ ﴾

(سورة الأحزاب)

إن « الواو » لا تقتضى ترتيب الأحداث ، فعلى فرض أنك قد أخذت « متوفيك » أى « مميتك » ، فمن الذى قال : إن « الواو » تقتضى الترتيب فى الحدث ؟ بمعنى أن الحق يتوفى عيسى ثم يرفعه . فإذا قال قائل : ولماذا جاءت « متوفيك » أولا ؟ نرد على ذلك : لأن البعض قد يظن أن الرفع تبرئة من الموت . ولكن عيسى سيموت قطعا ، فالموت ضربة لازب . ومسألة يمر بها كل البشر . هذا الكلام من ناحية النص القرآنى . فإذا ما ذهبنا إلى الحديث وجدنا أن الله فوّض رسوله صلى الله عليه وسلم ليشرح ويبين ، ألم يقل الحق :

﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة النحل)

فالحديث كما رواه البخارى ومسلم : (كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم) ؟ .

أى أن النبى صلى الله عليه وسلم بين لنا أن ابن مريم سينزل مرة أخرى . ولنقف الآن وقفة عقلية لنواجه العقلانيين الذين يحاولون إشاعة التعب فى الدنيا فنقول : يا عقلانيون أقبلتم فى بداية عيسى أن يوجد من غير أب على غير طريقة الخلق فى الإيجاد والميلاد ؟ سيقولون نعم . هنا نقول : إذا كنتم قد قبلتم بداية مولده بشىء عجيب خارق للنواميس فكيف تقفون فى نهاية حياته إن كانت خارقة للنواميس ؟ . إن الذى جعلكم تقبلون العجيبة الأولى يمهد لكم أن تقبلوا العجيبة الثانية . إن الحق سبحانه يقول :

﴿ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾

(من الآية ٥٥ سورة ال عمران)

إنه سبحانه يبلغ عيسى إننى سأخذك تاما غير مقدور عليك من البشر ومطهرك من خبث هؤلاء الكافرين ونجاستهم ، وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة . وكلمة « اتبع » تدل على أن هناك «مُتبعًا » يتلو مُتبعا . أى أن المتبَّع هو

الذى يأتى بعد ، فمن الذى جاء من بعد عيسى بمنهج من السماء ؟ إنه محمد صلى الله عليه وسلم . ولكن على أى منهج يكون الذين اتبعوك ؟ أعلى المنهج الذى جاؤا به أم المنهج الذى بلغته أنت يا عيسى ؟ إن الذى يتبعك على غير المنهج الذى قلته لن يكون تبعا لك ، ولكن الذى يأتى ليصحح الوضع على المنهج الصحيح فهو الذى اتبعك . وقد جاء محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصحح الوضع ويبلغ المنهج كما أراده الله . « وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة » . فإن أخذنا المعنى بهذا ؛ فإن أمة محمد صلى الله عليه وسلم هى التى اتبعت منهج الله الذى جاء به الرسل جميعا ، ونزل به عيسى أيضا ، وأن أمة محمد قد صححت كثيرا من القضايا التى انحرف بها القوم . نقول ليس المراد هنا من « فوق » الغلبة والنصر ، ولكننا نريد من « فوق » الحجة والبرهان . وذلك إنما يحدث فى حالة وجود قوم منصفين عقلاء يزنون الأمور بحججها وأدلتها وهم لن يجدوا إلا قضية الإسلام وعقيدة الإسلام .

إذن ، فالفوقية هى فوقية ظهور دليل وقوة برهان . ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

(سورة التوبة)

وفى موقع آخر من القرآن الكريم ، يؤكد الحق ظهور الإسلام على كافة الأديان وهو الشاهد على ذلك :

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ ﴾

(سورة الفتح)

ومعنى ذلك أن الله قد أراد للإسلام أن يظهر على كل الأديان . وقد يقول قائل : إن فى العالم أديانا كثيرة ، ولم يظهر عليها الإسلام ، والموجودون من المسلمين فى العالم الآن مليار وأضعاف ذلك من البشر على ديانات أخرى . نقول لمثل هذا القائل : إن

الله أراد للإسلام أن يظهره إظهار حجة ، لا من قِبَلِكم أنتم فقط ولكن من قِبَلهم هم كذلك . والناس دائما حين يجتمعون ليشرعوا القوانين وليحددوا مصالح بعضهم بعضا ، يلجأون أخيرا إلى الإسلام . فلننظر إلى من يشرع من جنس تشريع الأرض ولنسأل أرأيت تشريعا أرضيا ظل على حاله ؟ لا ، إن التشريع الأرضى يتم تعديله دائما .

لماذا ؟ لأن الذى وضع التشريع الأول لم يكن له من العلم ما يدله على مقتضيات الأمور التى تَجدّ ، فلما جَدّت أمور فى الحياة لم تكن فى ذهن من شرع أولا ، احتاج الناس إلى تعديل التشريع . ولنمسك بأى قانون بشرى معدل فى أى قضية من قضايا الكون ، ولننظر إلى أى اتجاه يسير ؟ إنه دائما يتجه إلى الإسلام ، وإن لم يلتق مع الإسلام فإنه يقرب من الإسلام . وعندما قامت فى أوربا ضجة على الطلاق فى الإسلام ، ما الذى حدث ؟ جاء التشريع بالطلاق فى إيطاليا تحت سمع وبصر الفاتيكان . هل شرعوا الطلاق لأن الإسلام أباح الطلاق ؟ لا ، إنما شرعوه لأن أمور الحياة أخضعتهم إلى ضرورة تشريع الطلاق ، فكأنهم أقاموا الدليل بخضوعهم لأمور الحياة على أن ما جاء به الإسلام قبل التجربة كان حقا . بدليل أن أوربا لجأت إلى تشريع الطلاق لا كمسلمين ولكن لأن مصالح حياتهم لا تتأتى إلا به .

وهل هناك ظهور وغلبة أكثر من الدليل الذى يأتى من الخصم ؟ تلك هى الغلبة . لقد وصلوا إلى تشريع الطلاق رغم كراهيتهم للإسلام كدليل على صدق ما جاء به الإسلام . وفى الربا ، الذى يريد البعض هنا أن يحلله ، تجد أوربا تحاول التخلص منه ، لأنهم توصلوا بالتجربة إلى أن المال لا يؤدى وظيفته فى الحياة إلا إذا انخفضت الفائدة إلى صفر. أى أنهم عرفوا أن إلغاء الربا ضرورى حتى يؤدى المال وظيفته الحقيقية فى الحياة ، والذى ألجأهم إلى الوصول إلى هذه الحقيقة هو أن فساد الحياة سببه الربا ، فأرادوا أن يمنعوا الربا . لقد وصلوا إلى ما بدأ به الإسلام من أربعة عشر قرنا . أتريد غلبة ، وتريد فوقا ، وتريد ظهورا ، أكثر من هذا بالنسبة لدين الله ؟

إذن ، ففهم الخصوم ما يصلح أمر الحياة اضطرهم إلى الأخذ بمبادىء الإسلام . ونتابع بالتأمل قول الحق : « وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة » . أى أن الحق جاعل الذين ساروا على المنهج الأصيل القادم من الله فوق الذين كفروا . فالذين يقولون فيك يا عيسى ابن مريم ما لا يقال من ألوهية ، هل

اتبعوك ؟ لا . . لم يتبعوك .

إن الذى يتبع عيسى هو الذى يأتى على المنهج القادم من الله . إن عيسى ابن مريم رسول إلى بنى إسرائيل . وديانات السماء لا تأتى لعصبيات الجنس أو القومية أو الأوطان أو غير ذلك ، ولكن المنهج هو الذى يربط الناس بعضهم ببعض ، ولذلك جاء لنا الحق بقصة سيدنا نوح لنتعرف على هذه المعانى . لقد وعد الله سيدنا نوحا أن ينجى له أهله . وعندما دعا نوح عليه السلام ابنه ليركب معه : ولكن ابن نوح رفض ، فقال نوح عليه السلام لله :

﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾

(سورة هود)

فهل الأهلية بالنسبة للأنبياء هى التى قالها نوح هل أهلية الدم ؟ لا ، لأن الحق قال :

﴿ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾

(سورة هود)

لماذا ؟ لأن أهل النبوة هم المؤمنون بها.فالذين اتبعوا المنهج الذى جاء به المسيح من عند الله ليس من يطلق على نفسه النسب للمسيح ، ومن يطلق على نفسه أنه يهودى إن هذه أسماء فقط . إن المتبع الحق هو من يتبع المنهج المنزل من عند الله . إن الأنبياء ميراثهم المنهج والعلم . ألم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم على سلمان وهو فارسى لا يجتمع مع رسول الله فى أرومة عربية :

(سلمان منا آل البيت)[1] .

---

(١) هذا الحديث رواه الحاكم والطبرانى فى الكبير .

وهكذا انتسب سلمان إلى آل البيت بحكم إيمانه ، وبنص حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم .

إذن : « وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة » ، أى أن الحق سبحانه قد جعل الفوقية للذين يتبعون المنهج الحق القادم من عند الله . والذى يصوب منهج عيسى هو محمد رسول الله. هل تكون الفوقية هى فوقية مساحة جغرافية ؟ لأن رقعة من الأرض التى تتبع الديانات الأخرى غير الإسلام أكبر مساحة من رقعة أرض المؤمنين بالإسلام ؟ لا . . فالفوقية تكون فوقية دليل .

وقد يقول قائل : إن الدليل لا يلزم . نرد قائلين : كيف لا يلزم الدليل ؟ ونحن نرى الذين لا يؤمنون به يدللون عليه . كيف يدللون عليه ؟ إنهم يسيرون فيما يقننون من قوانين البشر إلى ما سبق إليه تقنين السماء . ومادام هنا فى هذه الآية كلمة « فوق » وكلمة « كفروا » وهناك أتباع ، إذن ، فهناك قضية وخصومة ، وهناك حق ، وهناك باطل ، وهناك هدى، وهناك ضلال . فلابد من الفصل فى هذه القضية . ويأتى الفصل ساعة ألا يوجد للإنسان تصرف إرادى لا على ذات نفسه ولا على سواه .

إن الظالمين يستطيعون التصرف فى الأرض ، لكن عندما يكون المرجع إلى الله فالله يقول : أنا ملكتكم وأنتم عصاة لى فى كثير من الأسباب ، لكن هناك وقت تزول فيه ملكيتكم للأسباب . إذن . . فالظالم قد يتحكم على الأرض وكذلك الباطل لأن الله أوجد لنا جميعا إرادات ومرادات اختيارية . لكن فى يوم القيامة فلا إرادات إلا إرادة الله :

﴿ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة غافر)

(إذن فالحكم قادم بدون منازع . . والذى يدل على ذلك قوله الحق :

﴿ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ

﴿١٦٦ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ١٦٧﴾

(سورة البقرة)

إن الذى اتبع واحدا على ضلال يأتى يوم القيامة ليجد أن صاحب الضلال يتبرأ منه ، فيقول المتبعون سائلين الله : يارب ارجعنا إلى الدنيا لننتقم ممن خدعونا . هذا من ناحية علاقة البشر بالبشر . أما من ناحية الجسد الواحد نفسه ، فسوف نجد شهادة الجلود والألسنة والأيدى ، بعد أن تسقط عنها إرادة الإنسان ويسقط تسخير الحق لهذه الجوارح والحواس لخدمة الإنسان ، تقول الجوارح والحواس : لقد كانت لصاحبى إرادة ترغمنى على أن أفعل ما لا أحب ، لكن ها هوذا يوم القيامة ، فلا قهر ولا إرغام ولا تسخير لأن الملك كله لله . . لذلك تشهد الألسنة والجلود ولهذا يقول الحق : « ثم إلىّ مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون » .

إن الحق يحكم فيما كانوا فيه يختلفون لتكون ثمرة الحكم هى ماذا ؟ هل هناك تكليف بعد ذلك ؟ لا . . لكن ثمرة الحكم هى الجزاء . ففى الآخرة لا عمل هنالك ، والحكم فيها للجزاء . وكما قلنا : مادام هناك متبعون وكافرون ، وجماعة فوق جماعة ، وإلى الله مرجعهم ، فلابد لنا أن نرى ما هو الحكم الذى سوف يكون ؟ ها هوذا القول الحكيم :

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٥٦﴾

لماذا لم يأت الله بالحكم على المؤمنين أولا ؟ لأن المؤمنين يؤمنون بذلك تماما ، إنهم بإيمانهم يعرفون ذلك ويعونه . ولننتبه هنا إلى أن الحكم لا يشمل العذاب فى الآخرة فقط ولكنه يشتمل على العذاب فى الدنيا أيضا ، فعذاب الدنيا سيكون قبل الحكم ،

وكأن الحق يقول لنا : لا تعتقدوا أن تعذيبى إياهم فى الدنيا يعفيهم من تعذيبى إياهم فى الآخرة ، لأن التعذيب فى الدنيا فقط قد يصيب من آمن بى .

أما من كفر بى ، فإنى أعذبه فى الدنيا وأعذبه فى الآخرة. إننى لا أؤجل العذاب للكافرين إلى الآخرة فقط ولكن سأضم عذاب الدنيا إلى عذاب الآخرة .

إن الحصيلة بعد كل شىء هى أن يعذب الكافر فى الدنيا وفى الآخرة . ويقول الحق عن هذا العذاب : إنه عذاب شديد ؛ لأن الحدث حين يقع لابد أن تلحظ فيه القوة التى تناسب من أحدث . ولنضرب هذا المثل ولله المثل الأعلى :

إن الطفل قد يكسر شيئا فى حدود قوته كطفل ، والشاب قد يكسر شيئا مناسبا لقوته . إذن فالحدث يجب أن نأخذه قياسا بالنسبة لفاعله ؛ فإذا كان الفاعل هو الله ، فهل لأحد طاقة على عذاب الله ؟ لا أحد يتصور ذلك ، وليس لأحد من هؤلاء من ناصر ، لأن الذى يهزمه الله ويعذبه لا ناصر له ، وبعد ذلك يأتى الحق بالمقابل :

﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾

أى فمادام الذين كفروا سينالون العذاب الشديد من الله ، فالذين آمنوا سينالون النعيم المقيم بإذن الله .

﴿ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ ﴾

يقول الحق تبارك وتعالى :

« ذلك » إشارة لما سبق من الأحداث ، فى شأن امرأة عمران ، ومريم ، وزكريا ، ويحيى ، وعيسى ، وكان لكل واحد من هؤلاء قضية عجيبة يخرق فيها ناموس الكون ، وكلها آيات ، أى عجائب . وقد نقلت إلينا هذه العجائب من واقع ما رآه الذين عاصروا تلك الأحداث ، وجاء الخبر اليقين بتلك العجائب فى قرآن لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وهو الكتاب الحق الموصوف من الله بأنه « الذكر الحكيم » فاطمئنوا ـ أيها المؤمنون ـ إلى أن ما وصلكم عن طريق القرآن ، إنما حكى واقعا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فما جاء به من أخبار عن تلك الآيات هو ما يطابق الواقع الذى عاصره الناس وحكوه.

وبعد ذلك يعرض الحق لنا سبحانه قضية سيدنا عيسى عليه السلام ، وهى قضية يجب أن نتنبه إليها تنبها جديدا فنعرض وجهة نظر الذين يضعونه فى غير الموضع الذى أراده الله ، كما نعرض وجهة نظر الذين يضعونه فى الموضع الذى يريده الله ، فالمسألة ليست انتصارا منا فى الدنيا على فريق يقول : كذا ، وليست انتصارا لفريق آخر فى الدنيا ليقول : كذا ، لأنها مسألة لها عاقبة تأتى فى الآخرة ويحاسبنا عليها الحق تعالى ، لذلك كان من المهم جدا أن نصفيها تصفية يتضح فيها الحق ، حتى لا يظلم أحد نفسه .

لقد جاء عيسى عليه السلام على دين اليهودية ، أى طرأ على دين اليهودية ونحن نعلم أن دين اليهودية قد تم تحريفه من اليهود تحريفا جعله ينحاز إلى الأمور المادية الصرفة ، دون أدنى اعتبار للأمور الروحية والإيمان بالغيب ، فهم ماديون ، وتتمثل ماديتهم فى أنهم قالوا لموسى عليه السلام ما حكاه القرآن الكريم :

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾

(سورة البقرة)

إنهم لم يلتفتوا إلى أن بعضا من كمال وجلال الله غيبٌ ؛ لأنه لو كان مشهودا محسا ، لحدد ـ بضم الحاء وكسر الدال ـ وحُيِّز ، ومادام قد حُدِدَ وحُيِّزَ فى تصورهم فذلك يعنى أنه سبحانه قد يوجد فى مكان ولا يوجد فى مكان آخر ، والحق سبحانه منزه عن مثل ذلك لأنه موجود فى كل الوجود ، ولا نراه بالعين ، لكن نرى آثار أعماله وجميل صنعه فى كل الكون .

إذن فكون الله غيبا هو من تمام الجلال والكمال فيه .

لكن اليهود قد صوروا الأشياء كلها على أنها حسية ، حتى أمور اقتيات حياتهم وهى الطعام ، لقد أرادها الله لهم غيبا حتى يريحهم فى التيه ، فأرسل عليهم المنّ والسلوى ، كرزق من الغيب الذى يأتى إليهم ، لم يستنبتوه . ولم يستوردوه ، ولم يعرفوا كنهه ، ولم يجتهدوا فى استخراجه ، إنه رزق من الغيب ، ومع ذلك تمردوا على هذا الرزق القادم لهم من الغيب وقالوا كما أخبر الله عنهم :

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ٦١ سورة البقرة)

إنهم يريدون أن يكون طعامهم كما ألفوا ، وأن يروا هذا الطعام كأمر مادى من

أمور الحياة ؛ لذلك تشككوا فى رزق الغيب ، وهو المن والسلوى ، وقالوا : « من يدرينا أن المن قد لا يأتى ، وأن السلوى قد لا تنزل علينا » فلم تكن لهم ثقة فى رزق وُهب لهم من الغيب ؛ لأنهم تناولوا كل أمورهم بمادية صرفة . ومادامت كل أمورهم مادية فهم فى حاجة إلى هزة عنيفة تهز أوصال ماديتهم هذه ؛ لتُخرجهم إلى معنى يؤمنون فيه بالغيب .

ونحن نعلم أن الفكر المادى لا يرى الحياة إلا أسبابا ومسببات ، فأراد الحق سبحانه وتعالى أن يخلع منهم ذلك الفكر المادى ، لذلك جاء بعيسى عليه السلام على غير طريق الناموس الذى يأتى عليه البشر ، فجعله من امرأة دون أب ، حتى يزلزل قواعد المادية عند اليهود . لكن الفتنة جاءت فى قومه ، فقالوا ببنوته للإله ، وسبحانه منزه عن أن يكون له ولد .

ولنا أن نسأل ما الشبهة التى جعلتهم يقولون بهذه البنوة ؟

قالوا : إن الأمومة موجودة والذكورة ممتنعة ، والشبهة إنما جاءت من أن الله نفخ فيه الروح ، فالله هو الأب .

نقول لهم : لو أن الأمر كذلك لوجب أن تفتنوا فى آدم أولى من أن تفتنوا فى عيسى ؛ لأن عيسى عليه السلام كان فى خلقه أمومة ، أما آدم فلا أمومة ولا أبوة ، فتكون الفتنة فى آدم عليه السلام أكبر ، وإن قلتم : « إن الحق قال : إنه نفخ فيه من روحه » ، فلكم أن تعرفوا قول الله فى آدم عليه السلام :

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

(سورة الحجر)

إذن فالنفخ هنا فى آدم موجود ، فلماذا سكتم عن هذه الحكاية منذ آدم وحتى مجىء عيسى عليه السلام ، وهكذا يتم دحض تلك الحجة ونهايتها ، وبعد ذلك نأتى إلى قضية أخرى ، وهى توفيه أو وفاته ، إلى القضيتين معا ـ توفيه ووفاته ـ حتى

نُبَيِّن الرأيين معا . وهنا نتساءل : لماذا فتنتم فى ذلك ؟ يقولون : لقد أحيا عيسى الموتى ، ونقول لهم : ألم تأخذوا تاريخ إبراهيم عليه السلام حينما قال الله له :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾ ﴾

(سورة البقرة)

إذن فمجال الفتنة فى إبراهيم عليه السلام كبير ، وكذلك ، ألم يجىء موسى عليه السلام بآية هى العصا ؟ . إنه لم يجىء ميتا كانت فيه حياة ، إنما أجرى الله على يديه خلق الحياة فيما لم تثبت له حياة ، فأصبحت العصا ـ وهى جماد ـ حية تسعى لماذا إذن لم تفتنوا فى عصا موسى عليه السلام ؟

وهكذا نعرف أنه لا يصح أن يفتن أحد فى المعجزة التى جاءت بعيسى عليه السلام ، أو فى إحيائه الموتى بإذن الله ، وأتباع عيسى عليه السلام يتفقون معنا أن الله سبحانه وتعالى غيب ، ولكنهم يختلفون معنا فيقولون : إن الله أراد أن يؤنس البشر بصورة يتجلى لهم فيها بشرا فجاء بعيسى عليه السلام ليتحقق لهم ذلك الأنس .

ونقول لهم : سنبحث هذه المسألة بدون حساسية ، وبدون عصبية ، بل بالعقل ، ونسأل « هل خلق الله عيسى ليعطى صورة للإله ؟ . إن عيسى كان طفلا ، ثم كبر من بعد ذلك ، فأى صورة من صوره المرحلية كانت تمثل الله ؟

إن كانت صورة طفل فهل هى صورة الله ؟ وإن كانت صورة كهل فهل هى صورة الله ؟ إن لله صورة واحدة لا نراها ولا نعرف كنهها فهو سبحانه « ليس كمثله شىء » ، فأية صورة من الصور التى تقولون : إنها صورة الله ؟

وإن كان الله على كل هذه الصور فمعنى ذلك أن لله أغيارا ، وهو سبحانه منزه عن ذلك . ولو كان على صورة واحدة لقلنا : إنه الثبات والأمر كذلك فهو

ـ سبحانه ـ الحق الذى لا يتغير إنهم يقولون : إن الله أراد أن يجعل صورته فى بشر ليؤنس الناس بالإله ، فتمثل فى عيسى .

ولنا أن نسأل : كم استغرق وجود عيسى على الأرض ؟ والإجابة : ثلاثين عاما أو يزيد قليلا . وهكذا تكون فترة معرفة الناس بالصورة الإلهية محدودة بهذه السنوات الثلاثين طبقا لتصوركم . ولابد أن نسأل « ما عمر الخلق البشرى كله ؟» إن عمر البشرية هو ملايين السنين . فهل ترك الله خلقه السابقين الأولين بدون أن يبدى لهم صورته ، ثم ترك خلقه الآخرين الذين قدموا إلى الحياة بعد وفاة عيسى ـ أى تمام مهمته ـ ورفعه ، بدون أن يعطيهم صورة له ؟ . إن هذا تصور لإله ظالم ، وسبحانه وتعالى منزه عن الشرك والظلم . فلا يعقل أن يضن بصورته فلا يبقيها إلا ثلاثين عاما ؟ إن هذا قول لا يقبله عقل يثق فى عدالة الله المطلقة .

ثم إنهم يقولون : إن عيسى عليه السلام قد صلب ، وهم معذورون والحق سبحانه وتعالى قد عذرهم فى ذلك فأورد التأريخ الحق العادل ، حين يقول :

﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ ﴾

(سورة النساء)

لقد جعل الله لهم عذرا فى أن يقولوا : إنه قتل أو صلب ؛ لأنه شبه لهم وكان من المعقول أن يلتمسوا من الإسلام حلا لهذه المشكلة ، لأن الإسلام جاء ليقول : « لا ، لقد شبه لكم ، فما قتلوه وما صلبوه ؛ لأن هذا الفعل ـ القتل أو الصلب ـ ينقض فكرتهم عن أنه إله أو ابن إله . لأن المصلوب لو كان إلها أو ابن إله ، لكانت لديه القدرة التى تغلب الصالب ، فكيف يعقل الإنسان أن ينقلب الإله ـ أو ابن الإله ـ مقدورا عليه من مخلوق ؟ والإسلام عندما يقول : إن عيسى ابن مريم لم يصلب فقد كرمه الله . وهكذا ترى أن الإسلام قد جاء ليصفى العقائد كلها من عيوب التحريف التى قام بها المتبعون لتلك الأديان .

وبعد ذلك يأتى الحق سبحانه وتعالى ليعرض علينا قضية جدلية حدثت فى أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى يخرج الناس ـ مسلمين ونصارى ويهودا ـ من هذه البلبلة ، وأن يتم ذلك فى مودة ، لأنهم كلهم مؤمنون بالعبودية لمعبود واحد . فقد جاء وفد من نصارى نجران إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المدينة ، والتقوا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان لهؤلاء القوم جدل مع اليهود ، ولهم جدل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما كان لليهود والنصارى معا جدل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

والجدل بين اليهود والنصارى مصدره أن لليهود والنصارى قولا متضاربا فى بعضهم بعضا يرويه لنا الحق :

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾

(سورة البقرة)

فاليهود يقولون : « كان إبراهيم يهوديا » والنصارى يقولون لا ، كان إبراهيم نصرانيا » وأما الجدل بين النصارى وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسببه أنهم قد أرادوا أن يتكلموا فى مسألة عيسى ، وأراد الحق سبحانه وتعالى أن يصفى القضية تصفية نهائية حتى لا تظل معلقة تلوكها الألسنة وتجعلها مثارا للفتن . فلما اجتمع نصارى نجران تحت لواء رؤسائهم ، ومن هؤلاء الرؤساء من اسمه السيد ، ومنهم من يسمى العاقب صاحب المشورة ، ومعهم قسيس ، فقال لهم صلى الله عليه وسلم : ماذا تقولون فى عيسى ؟ قالوا : إنه ابن الله . وقال لهم الرسول : إن عيسى عليه السلام قال : « إنى عبدالله » وهو عبده ورسوله وكلمته ألقاها إلى العذراء البتول ، فغضبوا وقالوا للرسول صلى الله عليه وسلم : هل رأيت إنسانا قط من غير أب ؟. إن كنت قد رأيت مثل ذلك فأخبرنا به .

وهنا نزلت الآية الكريمة :

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ﴾

لقد جاء القول الفصل بالحجة الأقوى ، فإذا كان عيسى عليه السلام قد جاء بدون أب ، فإن آدم عليه السلام قد جاء بدون أب ، وبدون أم ، وقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : تعلمون أنى رسول الله وأننى نبى هذه الأمة ، فقالوا : أنظرنا غدا نتكلم فى هذه المسائل ، ودعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الإيمان فقالوا : لا .

وعندما يعرض الحق سبحانه صراع قضية حق مع قضية باطل فهو يقول :

﴿ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾

(سورة سبأ)

أى إن طرفا واحدا على هدى ، والطرف الآخر على ضلال مبين ، لماذا ؟ لأن القضيتين متناقضتان ، ولا يمكن أن يجتمعا ، ودعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أن يجتمع بهم فى مكان ظاهر ، ويدعو الطرفان الأبناء والنساء ، ويبتهل الجميع إلى الله الحق أن تُسْتَنْزَلَ لعنة الله على الكاذبين ، وفى هذا جاء القول الكريم :

﴿ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾

﴿ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ ﴾

لقد جاء الحق البيّن والقول الفصل من الله لرسوله صلى الله عليه وسلم فلا مجال للشك أو المراء ، ومن يُرد أن يحتكم إلى أحدٍ فليقبل الاحتكام إلى الإله العادل الذى لن يحكم بالباطل أبدا ، فهو سبحانه الحق ، ويجىء هذا القول : « تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ، ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ، ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين » . إن الطرفين مدعوان ليوجها الدعوة لأبنائهم ونسائهم ، فالرسول صلى الله عليه وسلم مدعو لدعوة أبنائه ونسائه ، ومن له الولاية عليهم ؛ وبحضوره هو صلى الله عليه وسلم ، وهم مدعون لدعوة أبنائهم ونسائهم وأنفسهم للابتهال .

وقد يسأل سائل : ولماذا تكون الدعوة للأبناء والنساء ؟ والإجابة هى : أن الأبناء والنساء هم القرابة القريبة التى تهم كل إنسان ، وإن لم يكن رسولا ، إنهم بضعة من نفسه وأهله . فكأن الرسول صلى الله عليه وسلم مأمور بأن يقول لهم : « هاتوا أحبابكم من الأبناء والنساء لأنهم أعزة الأهل وألصقهم بالقلوب وادخلوا معنا فى مباهلة » «و المباهلة » : هى التضرع فى الدعاء لاستنزال اللعنة على الكاذب ، فالبهلة ـ بضم الباء ـ هى اللعنة ، وعندما يقول الطرفان : « يارب لتنزل لعنتك على الكذاب منا » فهذا دعاء يحمل مطلق العدالة ؛ فالإله الذى يستطيع أن ينزل اللعنة هو الإله الحق . وهو سينزل اللعنة على من يشركون به ، ولو كانت اللعنة تنزل من الآلهة المتعددة فسوف تنزل اللعنة على أتباع الإله الواحد .

ولهذا كانت الدعوة إلى المباهلة والبهلة ـ كما قلنا ـ وهى ضراعة إلى القوة القاهرة التى تتصرف فى الأمر لتنهى الخلاف ، ثم صار المراد بالمباهلة هنا مطلق الدعاء ،

فنحن نقول : « نبتهل إلى الله » ، أى ندعو الله .

إذن فالرسول صلى الله عليه وسلم جاءهم بالأمر المنزل من عند الله الحق بدعوة الأبناء والنساء والأنفس ، لكنهم قالوا للرسول صلى الله عليه وسلم : « أَنْظِرْنَا إلى غد ونأتى إليك » .

ثم أرسلوا فى الصباح واحدا منهم ليرى ماذا فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ وهل هو مستعد لهذا الأمر حقيقة ، أو هو مجرد قول منه أراد به التهديد فقط ؟ ووجد رسولهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد جاء ومعه الحسين والحسن وفاطمة وعلى بن أبى طالب ، لذلك قالوا : « لا لن نستطيع المباهلة » ، والله ما باهل قوم نبيا إلا أُخذوا ، وحاولوا ترضية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقالوا : « لنظل على ديننا ويظل محمد وأتباعه على دينه » لقد ظنوا أن الدعوة إلى المباهلة هى مجرد تهديد لن ينفذه الرسول ، لكن صاحب اليقين الصادق جاء ومعه أهله استعدادا للمباهلة ، ولن يُقبل على مثل هذا الموقف إلا من عنده عميق الإيمان واليقين ، أما الذى لا يملك يقينا فلن يقبل على المباهلة بل لابد أن يرجع عنها . وقد رجعوا عن المباهلة ، وقالوا للرسول صلى الله عليه وسلم : لنتفق معا ألا تغزونا أو تخيفنا على أن نرسل لك الجزية فى رجب وفى صفر وهى من الخيل وغير ذلك ! لقد فروا من المباهلة لمعرفتهم أنهم فى شك من أمرهم ، أما رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان على يقين بما أنزله الله عليه وكان العرب إذا خرجوا إلى الحرب يأخذون نساءهم معهم ، وذلك حتى يخجل الرجل من الفرار ، وحتى لا يترك أولاده ونساءه لكيلا يذلوا من بعد موته ، فإن قُتِل قُتلوا معه هم أيضا .

إذن إن أردنا نحن الآن أن ننهى الجدل فى مسألة عيسى عليه السلام فلنسمع قول الحق سبحانه وتعالى : « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ، الحق من ربك فلا تكن من الممترين » إنه الحق القادم من الربوبية فلا تكن أيها السامع من الشاكين فى هذه المسألة . ومن أراد أن يأتى بحجة مضادة للحجة القادمة من الله فلنا أن نحسمها بأن نقول : « تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين » .

ولن يجرؤ واحد منهم على ذلك . لماذا ؟ لأن السابقين عليهم قد فروا من المباهلة

ولأن الله ـ سبحانه ـ يريد أن يزيد المؤمنين إيمانا واطمئنانا إلى أن ما ينزله على رسوله هو الحق قال ـ جل شأنه ـ :

﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ ﴾

وقوله الحق : « إن هذا لهو القصص الحق » يلفتنا إلى أن ما يرويه الحق لنا هو الحق المطلق ، وليس مجرد حكاية أو قصة ، أو مزج خيال بواقع ، كما يحدث فى العصر الحديث ، عندما أُخذت كلمة القصة فى العرف الأدبى الحديث ـ القادم من حضارة الغرب ـ إن القصة بشكلها الحديث المعروف إنما يلعب فيها الخيال دورا كبيرا ، لكن لو عرفنا أن كلمة « قصة » مشتقة من قص الأثر لبحث أهل الأدب فيما يكتبون من روايات وخيالات عن كلمة أخرى غير « قصة » ، فالقصص هو تتبع ما حدث بالفعل لا تبديل فيه ولا أخيلة .

وها هو ذا الحق سبحانه وتعالى يقول : « إن هذا لهو القصص الحق وما من إله إلا الله » فإذا جاء القصص من الإله الواحد فلنطمئن إلى أنه لا يوجد إله آخر سيأتى بقصص أخرى ، ولأن الله الواحد هو «العزيز الحكيم » أى الغالب على أمره ، ومع أنه غالب على أمره فهو حكيم فى تصرفه .

لكن هل اتعظ القوم الذين جادلوا ؟ لا ، إن الحق يقول :

﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾ ﴾

إن قوله « فإن تولوا » يدل على أن الله قد علم أزلا أنهم لن يقبلوا المباهلة ، وهكذا حكموا على أنفسهم بأنهم المفسدون ، فصدق الحق سبحانه فى قوله : « فإن تولوا فإن الله عليم بالمفسدين » ومع ذلك فقد أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يدعوهم إلى الدين الكامل لأنهم مؤمنون بالإله ، وبالسماء ، وبالكتاب ، لذلك يقول الحق :

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ ﴿٦٤﴾

إنها دعوة إلى كلمة مستوية لا التواء فيها « ألا نعبد إلا الله » وهذا أمر لا جدال فيه ، ثم « ولا نشرك به شيئا » أى لا ندخل معه من لا يقدر على الارتفاع إلى جلال كماله ، فالعقول السليمة ترفض كلمة « الشرك » ؛ لأن الشرك يكون على ماذا ؟ هل الشرك على خلق الكون ؟ إن كل مخلوق أشركوه فى الألوهية إنما جاء من بعد أن خلق الله الكون . أو يكون الشرك على إدارة هذا الكون ؟

إذا كان هذا هو السبب فى الشرك فهو أتفه من أن يكون سببا لأن الحق سبحانه قادر على إدارة الكون ، وأنزل منهجا إذا ما اتبعه الإنسان صار الكون منسجما . إذن فأى شرك لا لزوم له . وإن كان ـ والعياذ بالله ـ له شريك وتمتع إله ما بقدرات خاصة فهذه القدرات تنقص من قدرات الإله الثانى . وهذا عجز فى قدرة هؤلاء الآلهة ، ولهذا يحسم الحق هذا الأمر بقوله الكريم :

﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ ﴾

(سورة المؤمنون)

إذن فمسألة الشركاء هذه ليست مقبولة ، وبعد ذلك يقول الحق : « ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله » . أى ألا نأخذ من بعضنا كهنوتا وكهنة ، يضع الواحد منهم الحلال لنا أو الحرام علينا؛ فالتحليل والتحريم إنما يأتى من الله ، وليس لمخلوق أن يحلل أو يحرم . ثم يقول الحق : « فإن تولوا فقولوا : اشهدوا بأنا مسلمون » أى إن من لا يقبل عبادة الإله الواحد الذى لا شريك له ولا أرباب تحلل أو تحرم ، إنما يريد أربابا وشركاء ، وهذا معناه أن قلبه غير مستعد لتقبل قضية الإيمان ؛ لأن قضية الإيمان تتميز بأن مصدرا واحدا هو الذى له مطلق القدرة ، وهو مصدر الأمر فى الحركة وهو الواحد الأحد ، فلا تتضارب الحركات فى الكون .

إن حركاتنا كلها وهى الخاضعة لمنهج الله بـ « افعل » و« لا تفعل » فلو أن هناك إلها قال : « افعل » وإلها آخر قال : « لا تفعل » ، لكان معنى ذلك والعياذ بالله أن هؤلاء الآلهة أغيار لها أهواء . والحق سبحانه يحسم هذا بقوله :

﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ ﴾

(سورة المؤمنون)

وهكذا كانت دعوة الله على لسان رسوله محمد صلى الله عليه وسلم « قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهد بأنا مسلمون » ، إنها آية تحمل دعوة مستوية بلا نتوءات ، فلا عبادة إلا لله ، ونحن لا نأخذ « افعل » و« لا تفعل » إلا من الله ، ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا كهنوتا أو مصدرا للتحليل أو التحريم ، فإن رفضوا وتولوا ، فليقل المؤمنون : «اشهدوا بأنا مسلمون » أى أنه

لا يوجد إلا إله واحد ، ولا شركاء له ، وبعضنا لا يتخذ بعضا أربابا ، وتلك شهادة بأن الإسلام إنما جاء بالأمر المستوى الذى لا عوج ولا نتوء فيه ونحن متبعون ما جاء به .

وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾

إن الحق يسألهم : لماذا يكون جدالكم فى إبراهيم خليل الله ؟ إن اليهود منكم ينسبون أنفسهم إلى موسى ، والنصارى منكم ينسبون أنفسهم إلى عيسى ، وإبراهيم عليه السلام لا يمكن أن يكون يهوديا كما يدعى اليهود ، فاليهودية قد جاءت من بعد إبراهيم والنصارى لا يمكنهم الادعاء بأن إبراهيم كان نصرانيا ، لأن النصرانية قد جاءت من بعد إبراهيم عليه السلام ، فلم المحاجة إذن ؟ لقد أنزلت التوراة والإنجيل من بعد إبراهيم فكيف يكون تابعا للتوراة والإنجيل ؟

وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾

أى لقد جادلتم فيما بقى عندكم من التوراة وتريدون أن تأخذوا الجدل على أنه باب مفتوح ، تجادلوا فى كل شىء ، وأنتم لا تعلمون ما يعلمه الخالق الرحمن علام الغيوب .

ويوضح الحق هذا الأمر فيقول :

﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾

وبذلك يتأكد أن إبراهيم عليه السلام لم يكن يهوديا ، لأن اليهودية جاءت من بعده . ولم يكن إبراهيم نصرانيا ، لأن النصرانية جاءت من بعده ، لكنه وهو خليل الرحمن « كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين » ونحن نفهم أن كلمة « حنيفًا » تعنى الدين الصافى القادم من الله ، والكلمة مأخوذة من المحسات ، فالحنف هو ميل فى الساقين من أسفل ، أى اعوجاج فى الرجلين ، ثم نقل الحنف إلى كل أمر غير مستوٍ .

وهنا يتساءل الإنسان ، هل كان إبراهيم عليه السلام فى العوج أو فى الاستقامة ؟ وكيف يكون حنيفا ، والحنف عوج ؟ وهنا نقول : إن إبراهيم عليه السلام كان على الاستقامة ، ولكنه جاء على وثنية واعوجاج طاغ فالعالم كان معوجا . وجاء إبراهيم ليخرج عن هذا العوج ، ومادام منحرفا عن العوج فهو مستقيم ، لماذا ؟ لأن الرسل لا يأتون إلا على فساد عقدى وتشريعى طاغ . والحق سبحانه وتعالى ساعة ينزل منهجه يجعل فى كل نفس خلية إيمانية . والخلية الإيمانية تستيقظ مرة ، فتلتزم ، وتغفل مرة ، فتنحرف ، ثم يأتى الاستيقاظ بعد الانحراف ، فيكون الانتباه ، وهكذا توجد النفس اللوامة ، تلك النفس التى تهمس للإنسان عند الفعل الخاطىء : إن الله لم يأمر بذلك .

ويعود الإنسان إلى منهج الله تائبا ومستغفرا ، فإن لم توجد النفس اللوامة صارت النفس أمارة بالسوء ، وهى التى تتجه دائما إلى الانحراف ، وحول النفس الواحدة توجد نفوس متعددة تحاول أن تقاوم وتقوّم المعوج ، وهى نفوس من البيئة والمجتمع ، فمرة يكون الاعتدال والاتجاه إلى الصواب بعد الخطأ قادما من ذات الإنسان أى من النفس اللوامة ، ومرة لا توجد النفس اللوامة ، بل توجد النفس الأمارة بالسوء ، لكن المجتمع الذى حول هذا الإنسان لا يخلو من أن يكون فيه خلية من الخير تهديه إلى الصواب ، أما إذا كانت كل الخلايا فى المجتمع قد أصبحت أمارة بالسوء فمن الذى يعدلها ويصوبها ؟

هنا لابد أن يأتى الله برسول جديد ، لأن الإنسان يفتقد الردع من ذاتية النفس بخلاياها الإيمانية ، ويفتقد الردع من المجتمع الموجود لخلوه كذلك من تلك الخلايا الطيبة ، وهكذا يطم الظلام ويعم ، فيرسل الله رسولا ليعيد شعلة الإيمان فى النفوس . والله سبحانه وتعالى قد ضمن لأمة محمد صلى الله عليه وسلم ألا يأتى لها نبى بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولهذا فمن الضرورى أن يوجد فيها الخير ويبقى ، فالخير يبقى فى الذات المسلمة ، فإن كانت الغفلة فالنفس اللوامة تصوب ، وإن كانت هناك نفس أمارة بالسوء فهناك قوم كثيرون مطمئنون يهدون النفس الأمارة إلى الصواب .

وهكذا لن تخلو أمة محمد فى أى عصر من العصور من الخير ، أما الأمم الأخرى السابقة فأمرها مختلف ؛ فإن الله يرسل لهم الرسل عندما تنطفىء كل شموع الخير فى النفوس ، ويعم ظلام الفساد فتتدخل السماء ، وحين تتدخل السماء يقال : إن السماء قد تدخلت على عوج لتعدله وتقومه .

إذن فإبراهيم عليه السلام جاء حنيفا ، أى مائلا عن المائل ، ومادام مائلا عن المائل فهو مستقيم ، فالحنيفية السمحة هى الاستقامة . وهكذا نفهم قول الحق : « ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين » .

إن إبراهيم هو أبو الأنبياء ، ولو لم تكن اليهودية قد حُرفت وبدلت ، وكذلك النصرانية لكان من المقبول أن يكون اليهود والنصارى على ملة إبراهيم ؛ لأن الأديان لا تختلف فى أصولها ، ولكن قد تختلف فى بعض التشريعات المناسبة للعصور ،

ولذلك فسيدنا إبراهيم عليه السلام لا يمكن أن يكون يهوديا باعتبار التحريف الذى حدث منهم ، أى لا يكون موافقا لهم فى عقيدتهم ، وكذلك لا يمكن أن يكون نصرانيا للأسباب نفسها ، لكنه « كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين » أى أنه مائل عن طريق الاعوجاج .

قد يقول قائل : ولماذا لم يقل الله : « إن إبراهيم كان مستقيما » ولماذا جاء بكلمة « حنيفا » التى تدل على العوج ؟ ونقول : لو قال : « مستقيما » لظن بعض الناس أنه كان على طريقة أهل زمانه وقد كانوا فى عوج وضلال ولهذا يصف الحق إبراهيم بأنه « كان حنيفا مسلما » وكلمة « مسلما » تقتضى « مسلما إليه » وهو الله ، أى أنه أسلم زمامه إلى الله ، ومُسْلَمًا فيه وهو الإيمان بالمنهج .

وعندما أسلم إبراهيم زمامه إلى الله فقد أسلم فى كل ما ورد بـ « افعل ولا تفعل » وإذا ما طبقنا هذا الاشتقاق على موكب الأنبياء والرسل فسنجد أن آدم عليه السلام كان مسلما ، ونوحا عليه السلام كان مسلما ، وكل الأنبياء الذين سبقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا مسلمين .

كان كل نبى ورسول من موكب الرسل يلقى زمامه فى كل شىء إلى مُسْلَم إليه ؛ وهو الله ، ويطبق المنهج الذى نزل إليه ، وبذلك كان الإسلام وصفًا لكل الأنبياء والمؤمنين بكتب سابقة ، إلى أن نزل المنهج الكامل الذى اختتمت به رسالة السماء على محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم بـ« افعل ولا تفعل » ولم يعد هناك أمر جديد يأتى ، ولن يشرع أحد إسلاما لله غير ما نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

لقد اكتملت الغاية من الإسلام ، ونزل المنهج بتمامه من الله . واستقر الإسلام كعقيدة مصفاة ، وصار الإسلام علما على الأمة المسلمة ، أمة محمد صلى الله عليه وسلم وهى التى لا يُستدرك عليها لأنها أمة أسلمت لله فى كل ما ورد ونزل على محمد صلى الله عليه وسلم . لذلك قال الحق :

﴿ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا

ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾

ولنا أن نلحظ أن كل رسول من الرسل السابقين على سيدنا رسول الله إنما نزل لأمة محددة ، فموسى عليه السلام أرسله الله إلى بنى إسرائيل ، وكذلك عيسى عليه السلام ، قال تعالى : « ورسولا إلى بنى إسرائيل » أى رسولا مسلما فى حدود تطبيق المنهج الذى جاء به ونزل إلى هؤلاء الرسل ، فلما تغير بعض من التشريع وتمت تصفية المنهج الإيمانى بالرسالة الخاتمة ، وهى رسالة محمد صلى الله عليه وسلم وهى عامة لكل البشر فقد آمن بعض من أهل تلك الأمم برسالته عليه الصلاة والسلام ، كما آمن بها من أرسل فيهم سيدنا رسول الله ، واستمر موكب الإيمان بالدين الخاتم إلى أن وصل إلينا . وهكذا صارت أمة محمد صلى الله عليه وسلم هى خاتمة الأمم الإسلامية ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو خاتم الأنبياء والمرسلين .

عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه ، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ، ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة ، فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين »(١) .

وحين يقولون : إن إبراهيم عليه السلام كان يهوديا أو نصرانيا . إنما أوردوا ذلك لأن إبراهيم عليه السلام فيه أبوة الأنبياء . وهم قد أرادوا أن يستحضروا أصل الخلية الإيمانية فى محاولة لأن ينسبوها إلى أنفسهم وكأنهم تناسوا أن المسألة الإيمانية ليست بالجنس أو الوطن أو الدم ، أو أى انتماء آخر غير الانتماء لمنهج الله الواحد ، ولذلك فأولى الناس بإبراهيم ليسوا من جاءوا من ذريته ، بل إن أولى الناس بإبراهيم هم الذين اتبعوه ، ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم قد اتبع إبراهيم عليه السلام ، لذلك فلا علاقة لإبراهيم بمن جاء من نسله ، ممن حرفوا المنهج ولم يواصلوا الإيمان ، لقد حسم الله هذه القضية مع إبراهيم عندما قال سبحانه :

---

(١) رواه البخارى ومسلم .

﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ ﴾

(سورة البقرة)

لقد امتحن الحق إبراهيم بكلمات هى الأوامر والنواهى ، فأتمها إبراهيم عليه السلام تماما على أقصى مايكون من الالتزام ، ولم يكن مجرد إتمام يتظاهر بالشكلية ، إنما كان إتماما بالشكل والمضمون معا .

والمثال على تمام الأوامر والنواهى بالشكل فقط هو رؤيتنا لمن يتلقى الأمر من الله بأن يصلى خمسة فروض ، فيصلى هذه الفروض الخمسة كإجراء شكلى ، لكن هناك إنسانا آخر يصلى هذه الفروض الخمسة بحقها فى الكمال مضمونا وشكلا ، إنه يتم الأوامر الإلهية إتماما يرضى عنه الله .

ولقد أدى إبراهيم عليه السلام الابتلاءات التى جاءت بالكلمات التكليفية من الله على أكمل وجه . ألم يأمر الله إبراهيم عليه السلام على أن يرفع القواعد من البيت ؟ أما كان يكفى إبراهيم عليه السلام لينفذ الأمر برفع بناء الكعبة إلى أقصى ما تطوله يداه ؟ إنه لو فعل ذلك لكان قد أدى الأمر ، لكن إبراهيم عليه السلام أراد أن يوفى الأمر بإقامة القواعد من البيت تمام الوفاء ، فبنى الكعبة بما تطوله يداه ، وبما تطوله الحيلة أيضا ، فجاء إبراهيم عليه السلام بحجر ليقف من فوقه ، ويزيد من طول جدار الكعبة مقدار الحجر ، لقد أراد أن يوفى البناء بطاقته فى اليدين وبحيلته الابتكارية أيضا ، فلم يكن معروفا فى ذلك الزمان « السقالات » وغير ذلك من الأدوات التى تساعد الإنسان على الارتفاع عن الأرض إلى أقصى ما يستطيع .

ولو أن إبراهيم عليه السلام قد رفع القواعد من البناء على مقدار ما تطوله يداه ؛ لكان قد أدى تكليف الله ، لكنه أراد الأداء بإمكاناته الذاتية الواقعية ، وأضاف إلى ذلك حيلة من ابتكاره ، لذلك جاء بالحجر الذى يقف عليه ليزيد من جدار الكعبة ، وهذا ما نعرفه عندما نزور البيت الحرام بـ « مقام إبراهيم » فلما أتم إبراهيم الكلمات

هذا الإتمام قال الحق سبحانه لإبراهيم :

﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾

(من الآية ١٢٤ سورة البقرة)

أى إنك يا إبراهيم مأمون على أن تكون إماما للناس فى دينهم لأنك أديت « افعل ولا تفعل » بتمام وإتقان . ولنر غيرة إبراهيم عليه السلام على منهج ربه ، إنه لم يرد أن يستمر المنهج فى حياته فقط ، ولكنه طلب من الله أن يظل المنهج والإمامة فى ذريته ، فقال الحق سبحانه على لسان إبراهيم طالبا استمرار الأمانة فى ذريته :

﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِي ﴾

(من الآية ١٢٤ سورة البقرة)

إن سيدنا إبراهيم قد امتلأ بالغيرة على المنهج وخاف عليه حتى من بعد موته ، لكن الحق سبحانه وتعالى يُعلم الخلق جميعهم من خلال إبراهيم فيقول سبحانه :

﴿ لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

(من الآية ١٢٤ سورة البقرة)

أى أن المسألة ليست وراثة ، لأنه سيأتى من ذريتك من يكون ظالماً لنفسه ويعدل فى المنهج بما يناسب هواه ، وهو بذلك لا تتوافر فيه صفات الإمامة . إن الحق يعلمنا قواعد إرث النبوة ، إن تلك القواعد تقضى أن يرث الأنبياء من هو قادر على تطبيق المنهج بتمامه دون تحريف ، والمثال على ذلك ما علمه لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال لسلمان الفارسى : « سلمان منا آل البيت »[1]

إن سيد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم لم يقل لسلمان الفارسى « أنت من العرب » لا . بل نسبه لآل البيت ، أى نسبه إلى إرث النبوة بما يتطلبه هذا الإرث

---

(١) رواه الحاكم فى مستدركه ، والطبرانى فى معجمه الكبير .

من تطبيق المنهج بتمامه ، لقد علم رسول الله صلى الله عليه وسلم ما علّمه الحق سبحانه لسيدنا إبراهيم عليه السلام عن إرث النبوة ، فليس هذا الإرث بالدم ، إنما بتطبيق المنهج نصا وروحا ، كما تعلم سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم مما علّمه له الحق عن نوح عليه السلام ، لقد وعد الحق نوحا بأن ينجيه وأهله من الطوفان . ويرى نوح عليه السلام ابنه مشرفا على الغرق ، فيتساءل « ألم يعدنى الله أن ينجى أهلى ؟» فينادى نوح عليه السلام ربّه ، بما أورده القرآن الكريم حين قال :

﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾

(سورة هود)

فيقول الحق ردا على طلب نوح نجاة ابنه :

﴿ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾

(سورة هود)

ولننظر إلى التعليل القرآنى لانتفاء الأهلية عن ابن نوح عليه السلام « إنه ليس من أهلك » ؟ لماذا ؟ « إنه عمل غير صالح » . إن الحق لم يقل « إنه عامل غير صالح » ـ الذاتية ممنوعة ـ لأن الفعل هو الذى يحاسب به الله ؛ فالإيمان ليس نسبا ، ولا انتماء لبلد ما ، أو انتماء لقوم ما ، إنه العمل ، فمن يعمل بشرع أى رسول يكون من أهل هذا الرسول ، إنّ النسبة للأنبياء لا تأتى للذات التى تنحدر من نسب النبى ، بل يكون الانتساب للأنبياء بالعمل الذى تصنعه الذات .

وفى موقع آخر يعلمنا الحق عن سيدنا إبراهيم موقفا يصور رحمة الخالق بكل خلقه من آمن منهم ومن كفر . لقد طلب إبراهيم عليه السلام سعة الرزق لأهل بيته الذين جعل إقامتهم بمكة ، كما جاء فى الكتاب الكريم :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم ﴾

(من الآية ١٢٦ سورة البقرة)

فهل استجاب الحق لدعوة إبراهيم برزق الذين آمنوا فقط من أهل مكة ؟ لا ، بل رَزَقَ المؤمن والكافر . وعلّم إبراهيم ذلك حينما قال له :

﴿ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾

(من الآية ١٢٦ سورة البقرة)

إن الرزق المادى مكفول من الحق لكل الخلق ، مؤمنهم وكافرهم ، والاقتيات المادى مكفول من قبل الله لأنه هو الذى استدعى المؤمن والكافر إلى هذه الدنيا . أما رزق المنهج فأمر مختلف ، إن اتباع المنهج يقتضى التسليم بما جاء به دون تحريف . وهذا المنهج لم يتبعه أحد ممن جاءوا بعد إبراهيم عليه السلام إلا القليل ، فمن آمن برسالة موسى عليه السلام دون تحريف هم قلة .

ثم جاء عيسى عليه السلام برسالة تبعد بنى إسرائيل عن المادية الصرفة إلى الإيمان بالغيب ، لكن رسالة عيسى عليه السلام تم تحريفها أيضا ، وعلى ذلك فأولى الناس بإبراهيم عليه السلام هم الذين اتبعوا المنهج الخاتم الصحيح والمصفى لكل ما سبق من رسالات ، وهؤلاء هم الذين آمنوا برسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، والله ولى المؤمنين جميعا من آمن منهم برسالة إبراهيم خليل الرحمن ، إيمانا صحيحا كاملا ، ومن آمن برسالة محمد عليه الصلاة والسلام . . بعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾

إن معنى « ودت » هو « تمنت » و« أحبت » . ولماذا أحبوا أن يُضلوا المؤمنين ؟ لأن المنحرف حين يرى المستقيم ، يعرف أنه كمنحرف لم ينجح فى أن يضبط حركته على مقتضى التكليف الإيمانى لـ « افعل » و« لا تفعل » ، أما الملتزم المؤمن فقد استطاع أن يضبط نفسه ، وساعة يرى غير الملتزم إنسانا آخر ملتزما ، فإنه يحتقر نفسه ، ويقول بينه وبين نفسه حسدا للمؤمن : لماذا وكيف استطاع هذا الملتزم أن يقدر على نفسه ؟

ويحاول المنحرف أن يأخذ الملتزم إلى جانب الانحراف ، وعندما لا يستطيع جذب الملتزم إلى الانحراف فهو يسخر منه ، ويهزأ به ، ويحاول أن يحتال عليه ليأخذه إلى جانب الانحراف . ألم يقل الله سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾

(سورة المطففين)

وهذا ما يحدث الآن عندما يرى أهل الانحراف إنسانا مؤمنا ذا استقامة ، فيسخرون منه بكلمات كالتى تسمعها « خذنا على جناحك » أو يحاولون النيل من إيمانه وعندما يعود أهل الانحراف إلى أهلهم فهم يروون بتندر كيف سخروا من المؤمنين ، وكأنهم يحققون السعادة لهؤلاء الأهل بحكايات السخرية من الإنسان المؤمن ، ويطمئن الحق المؤمنين بأن لهم يوما يضحكون فيه من هؤلاء الكفار :

﴿ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

(سورة المطففين)

ويسأل الحق أهل الإيمان :

﴿ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

(سورة المطففين)

أى قد عرفتم كيف أجازى بالعقاب أهل الكفر .

لذلك فأولى الناس بإبراهيم هم المؤمنون برسالة محمد عليه الصلاة والسلام . ولا يفتأ بعض من أهل الكفر من محاولة جذب المؤمنين إلى الضلال . إنهم يحبون ذلك ويتمنونه ، ولكن ليس كل ما يوده الإنسان يحدث ، فالتمنى هو أن يطلب الإنسان أمرا مستحيلا أو عسير المنال ، هم يحبون ذلك ولكن لن يصلوا إلى ما يريدون ، يشير إلى ذلك قوله تعالى : « ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم وما يضلون إلا أنفسهم وما يشعرون » .

إنهم يتمنون إضلال المؤمنين ، لكن هل يستطيعون الوصول إلى ذلك ؟ لا : والمثال على ذلك هو ما فعله بعض أهل الكتاب من اليهود عندما ذهبوا إلى معاذ بن جبل وإلى حذيفة الصحابيين الجليلين ، وذهبوا أيضا إلى عمار الصحابى الجليل وحاولوا فتنة معاذ وحذيفة وعمار لكنهم لم يستطعوا .

وعلينا أن نعرف أن « الضلال » يأتى على معان متعددة ، فقد يأتى الضلال مرة بمعنى الذهاب والفناء فى الشىء ، مثل قوله الحق :

﴿ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ ۚ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٠﴾ ﴾

(سورة السجدة)

لقد تساءل المشركون « أبعد أن نذوب فى الأرض وتتفكك عناصرنا الأولية نعود ثانية ، ونُبعث من جديد ؟ » . وقد يأتى الضلال مرة أخرى بمعنى عدم اهتداء الإنسان إلى وجه الحق ، كما قال الحق وصفا لرسوله صلى الله عليه وسلم عندما رفض عبادة الأصنام وظل يبحث عن المنهج الحق .

﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ ﴾

(سورة الضحى)

أى أنك يا محمد لم يعجبك منهج قريش فى عبادة الأصنام ، وظللت تبحث عن المنهج الحق ، إلى أن هداك الله فأنزل إليك هذا المنهج القويم . لقد كنت ضالا تبحث عن الهداية ، فجاءتك النعمة الكاملة من الله .

وهناك لون آخر من الضلال ، وهو أن يتعرف الإنسان على المنهج الحق ، لكنه ينحرف عنه ويتجه بعيدا عن هذا المنهج مثل قول الحق : « ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم وما يضلون إلا أنفسهم » .

ونتساءل : كيف يحدث إضلال النفس ؟ وتكون الإجابة هى : أن الضال الذى يعرف المنهج وينكره إنما يرتكب إثما ، ويزداد هذا الإثم جُرمًا بمحاولة الضال إضلال غيره ، فهو لم يكتف بضلال ذاته بل يزداد ضلالا بمحاولته إضلال غيره . وهذا القول الكريم قد حل لنا إشكالا فى فهم قوله تعالى :

﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۗ ﴾

(من الآية ١٨ من سورة فاطر)

وفى فهم قوله ـ جل شأنه ـ :

﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

(سورة النحل)

وهكذا نعرف أن الوزر فى آية فاطر هو وزر الضلال فى الذات والأوزار فى سورة النحل هى لإضلال غيرهم فهؤلاء الضالون لا يكتفون بضلال أنفسهم ، بل يزيدون من ضلال أنفسهم أوزارا بإضلال غيرهم فهم بذلك يزدادون ضلالا مضافا إلى أنهم يحملون أوزارهم كاملة . « وما يضلون إلا أنفسهم وما يشعرون » .

إنهم لا يشعرون بالكارثة التى سوف تأتى من هذا الضلال المركب الذى سينالون عليه العقاب . ولو أنهم تعمقوا قليلا فى الفهم لتوقفوا عن إضلال غيرهم ، ولو بحثوا عن اليقين الحق لتوقفوا عن ضلال أنفسهم .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ٧٠ ﴾

إن الحق يسألهم على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم لم تكفرون بآيات الله العجيبة وأنتم تشهدون ؟ وهنا قد يسأل سائل هل شهد أهل الكتاب الآيات العجيبة فى زمن رسول الله ؟ .

والإجابة هى : ألم يستفتح اليهود على من يقاتلونهم بمجىء نبى قادم ؟ إنهم كانوا يدعون الله قائلين : إنا نسألك بحق النبى الأمىّ الذى وعدتنا أن تخرجه لنا فى آخر الزمان إلا تنصرنا عليهم فكانوا يُنصرون على أعدائهم فلما بعث ـ صلى الله عليه وسلم ـ كفروا به بغيا وحسدًا قال الله تعالى :

﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمۡ كِتَٰبٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٨٩ ﴾

(سورة البقرة)

لقد كفروا من أجل السلطة الزمنية . فقد كانوا يريدون الملك والحكم . وهذا عبدالله بن سلام الذى كان يهوديًا فأسلم قد قال عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لقد عرفته حين رأيته كمعرفتى لابنى ومعرفتى لمحمد أشد » .

إذن فمعرفتهم بنعت رسول الله ووصفه موجودة فى آيات التوراة ولقد شهدوا الآيات البينات ، لكنهم أنكروا الآيات طمعا فى السلطة الزمنية حتى ولو تطلب ذلك أن يُحرِّف بعضهم منهج الله سبحانه وتعالى ويحوّلوا هذا التحريف إلى سلطة زمنية فاسدة كهؤلاء الذين باعوا صكوك الغفران ولذلك قال الحق عن هؤلاء الذين يحرفون منهج الله :

﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾

(سورة البقرة)

إن العذاب هو مصير هؤلاء الدين يحرفون كلام الله ومنهجه .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ ﴾

ومعنى « تلبس » هو إدخال شىء فى شىء ، فنحن عندما نرتدى ملابسنا ، إنما ندخل أجسامنا فى الملابس ، وبهذا يختلف منظر اللابس والملبوس .

وفى مجال الدعوة إلى الله نجد دائما الحق وهو يواجه الباطل ، إنهم يخلطون الحق بالباطل فهذه الآية تتحدث عن محاولة من بعض أهل الكتاب لإلباس الحق بالباطل ، وقد حدث ذلك عندما حرفوا التوراة والإنجيل وأدخلوا فيها ما لم يأت به موسى عليه السلام أو عيسى عليه السلام ، وكانت هذه هى محاولة ضمن محاولات أخرى لإلباس الحق بالباطل ، ثم جاءت أكبر المحاولات لإلباس الحق بالباطل وهو

إنكارهم للبشارة برسول الله صلى الله عليه وسلم ، رغم أنها وردت فى كتبهم السماوية .

لقد أعلنوا الإيمان بموسى أو عيسى ، ولم يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم ، لقد أنكروا بشارة موسى وعيسى برسالة محمد الخاتمة ، وكان ذلك قمة إلباس الحق بالباطل ، لأنهم أعلنوا الإيمان برسولين ثم أنكروا الإيمان بالنبى الخاتم وذلك لأنهم كانوا يعلمون أن الإسلام الذى جاء به محمد رسول الله هو الدين الحق ، وكانوا إذا ما خلوا إلى أنفسهم عرفوا ذلك ولكنهم يجحدونه .

﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾

(من الآية ١٤ سورة النمل)

ومع ذلك فهم يحاولون العثور على حيلة ليبتعد بها الناس عن تلك الرسالة الخاتمة ، تماديا منهم فى الكفر ، ونزل قول الحق :

﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾

لقد أراد بعض من أهل الكتاب أن يشككوا المسلمين فى أمر المنهج ، لذلك اصطنعوا تلك الحيلة ، فالمؤمنون من العرب وقريش فى ذلك الزمن كانوا أميين وكانوا يعرفون أن أهل الكتاب على علم بمناهج السماء ، ولم يكن القرآن كله قد نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم . فإذا ما آمن بعض منهم برسالة رسول الله وجه النهار وكفروا به آخر النهار فهذا خلط للحق بالباطل . وفى هذا خداع للمؤمنين .

ولنا أن نعرف أن « وجه النهار » مقصود به ساعات الصباح والظهر ، فالوجه هو أول ما يواجه فى أى أمر ، ونحن نأخذ ذلك فى أمثلة حياتنا اليومية ، فنقول عن بائع الفاكهة : « لقد صنع وجها للفاكهة » ، أى أنه قد وضع أنضج الثمار فى واجهة العربة ،وأخفى خلف الثمار الصالحة الناضجة ثمارا أخرى فاسدة . وعندما يفعل التاجر مثل هذا الفعل فمقصده الغش والخداع ، لأن الإنسان إذا ما اشترى أى مقدار من هذه الفاكهة فسيجد ربع ما اشترى هو من واجهة الفاكهة ، والباقى من الثمار الفاسدة .

وكذلك حاول بعض من أهل الكتاب أن يخدعوا المؤمنين بإعلان الإيمان أول النهار ثم إعلان الكفر آخر النهار ، والهدف بطبيعة الحال هو إشاعة الشك وزراعة البلبلة فى نفوس المؤمنين بخصوص هذا الدين ، فقد يقول بعض من الأميين : « لقد اختبر أهل الكتاب هذا الدين الجديد وهم أهل علم بمناهج السماء ولم يجدوه مطابقا لمناهج السماء » .

أو أن الآية قد نزلت فى مسألة تحويل القبلة إلى الكعبة ، فإذا كان الحق سبحانه قد أمر سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحول القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة ، فالكافرون من أهل الكتاب أرادوا نقض ذلك ، وقالوا : « فلنسمع أول النهار كلام محمد ونتوجه فى الصلاة إلى الكعبة ثم نصلى آخر النهار ونجعل قبلتنا بيت المقدس » .

وكأن الحق قد أراد بذلك أن يكشف لنا أن كل أساليب الكفر هى من تمام قلة الفطنة وعدم القدرة على حسن التدبر ، لقد أرادوا إشعال الحرب النفسية ضد المسلمين ، لعل بعضا من المسلمين يتشككون فى أمر الدين الجديد ، لكنهم دون أن يلحظوا أنهم قد فضحوا أنفسهم ، واعترفوا دون قصد منهم بأن الذين آمنوا بالقرآن هم المؤمنون حقا بينما هم قد أخذوا لأنفسهم موقف الكفر الذى هو نقيض للإيمان ، قال سبحانه حكاية عنهم : « آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره » فهم قد ارتضوا لأنفسهم الكفر .

لقد أعلن هؤلاء المشككون التصديق بالإسلام ؛ وذلك ليعرف الناس عنهم ذلك ، ولكونهم أهل كتاب فهم قادرون على الحكم عليه ، فإذا ما رجعوا عن

الإسلام من بعد معرفته ، فسيقولون : إن رجوعنا ليس بسبب الجهل أو التعصب ، إنما بسبب اختبارنا لهذا الدين ، فلم نجده مناسبا ولا متوافقا مع ما نزل على رسولنا . وهذا من أساليب الحرب النفسية .

والحق سبحانه وتعالى يكشف ذلك المكر والخداع للذين حاولوا أن يكتموا خداعهم ولعبتهم الماكرة ، والتى أرادوا بها التشكيك والخداع . فينزل على رسوله هذا القول الحق :

﴿ وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ ﴾

إن الحق سبحانه يكشف للرسول صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين به من الأميين لعبة إيمان بعض من أهل الكتاب بالإسلام وجه النهار والكفر به آخر النهار ، لقد طالب المتآمرون بعضهم بعضا أن يظل الأمر سرا حتى لا يفقد المكر هدفه وهو بلبلة المسلمين من الأميين ، ولذلك قال هؤلاء المتآمرون بعضهم لبعض : « ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم » أى لا تكشفوا سر هذه الخدعة إلا لمن هو على شاكلتكم ، لكن الحق يكشف هذا الأمر كله بنزول هذه الآية على رسول الله صلى الله عليه وسلم وبلاغه إياها للمؤمنين ، وبذلك فسد أمر تلك البلبلة ، وارتدت الحرب النفسية إلى صدوز من أشعلوها ، ويستمر القول الكريم فى كشف خديعة هؤلاء البعض من أهل الكتاب فيقول سبحانه : « قل إن الهدى هدى الله أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم » .

إن الحق سبحانه يكشف فعل الماكرين من أهل الكتاب الذين أرادوا إعلان الإيمان أول النهار كلون من « هدى النفس » لكنه من صميم الضلال والإضلال وذريعة له ، ولم يكن هدى من الله ؛ لأن هدى الله إنما يوصل الإنسان إلى الغاية التى يريدها الله ، وهؤلاء البعض من أهل الكتاب أرادوا بالخديعة أن يجعلوا سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم دون أتباع يؤمنون بالإسلام ؛ لقد تواصى هؤلاء القوم من أهل الكتاب بأن يكتموا اتفاقهم على تمثيل الادعاء بالإيمان وجه النهار والكفر به فى آخره ، وألا يعلنوا ذلك إلا لأهل ديانتهم حتى لا يفقد المكر هدفه ، وهو بلبلة المسلمين .

لقد أخذهم الخوف ؛ لأن الناس إن أخذوا بدين محمد صلى الله عليه وسلم لأوتوا مثلما أوتى أهل الكتاب من معرفة بالمنهج ، بل إن المنهج الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم هو المنهج الخاتم ، وأهل المكر من أهل الكتاب إنما أرادوا أن يحرموا الناس من الإيمان ، أو أنهم خافوا أن يدخل المسلمون معهم فى المحاجة فى أمر الإيمان ، وكان كل ذلك من قلة الفطنة التى تصل إلى حد الغباء .

لماذا ؟ لأنهم توهموا أن الله لا يعرف باطن ما كتموا وظاهر ما فعلوا ، إنهم تناسوا أن الحق يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، وتطابق ذلك مع سابق فعلهم عندما خرجوا من مصر ، وذهبوا إلى التيه أثناء عبور الصحراء ، وادعوا أن الله قال لموسى عليه السلام : « علموا بيوتكم أيها الإسرائيليون ، لأنى سأنزل وأبطش بالبلاد كلها » . وكأنهم لو لم يضعوا العلامات على البيوت فلن يعرفها الله ، إنه كلام خائب للغاية بل هو منتهى الخيبة والضلال ، ويبلغ الحق رسوله الكريم : « قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم » .

ومادام الفضل بيد الله فلن تستطيعوا يا أهل المكر بالمسلمين أن تأخذوا أناسا كما تودون ، وبعد ذلك تريدون أن تخدعوهم ؛ لأن الفضل حين يؤتيه الله لمن آمن به فلن ينزعه إلا الله .

فالحيلة لن تنزع فضل الإيمان بالله مادام قد أعطاه الله ، والله واسع بمعنى أنه قادر على إعطاء الفضل لكل الخلق ، ولن ينقص ذلك من فضله شيئا ، والحق سبحانه عليم بمن يستحق هذا الفضل لأن قلبه مشغول بربه .

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ﴾

إن أحدا ليس له حق على الله ؛ فكل لحظة من لحظات الحياة هى فضل من الله ، وهو سبحانه يعطى رحتمه بالإيمان بمنهجه لمن يشاء وهو صاحب الفضل المطلق .

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾

إنه مطلق الإنصاف الإلهى ، فإذا كان الحق قد كشف للرسول بعضا من مكر أهل الكتاب فذلك لا يعنى أن هناك حملة على أهل الكتاب وكأنهم كلهم أهل سوء ، لا ، بل منهم مَنْ يتميز بالأمانة ، وهذا القول إنما يؤكد إنصاف الإله المنصف العدل .

راجع أصله وأخرج أحاديثه الدكتور أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر

إن الحق سبحانه يخاطب النفوس التى يعلمها ، فهو يعلم أن دعوة محمد صلى الله عليه وسلم ، قد نزلت رحمة للناس أجمعين ، ويخاطب بها العالم كله بما فيه من أهل الكتاب ، وهم الذين يعرفون الآيات والعلامات التى تدل على مجىء رسالة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم . ومنهم أناس قد جعلوا دعوة محمد صلى الله عليه وسلم فى بؤرة شعورهم ليدرسوها ويؤمنوا بها . ولو أن الله قد جعل الحملة على كل أهل الكتاب ، لقال الذين فكروا فى الإيمان برسول الله : « كنا نفكر فى أن نؤمن ، ونحن نريد أن ننفذ تعاليم الله لنا لكن محمدا يشن حملة على كل أهل الكتاب ونحن منهم » .

فساعة يقول الله إن بعضا من أهل الكتاب يتميزون بالأمانة فإن من تراوده فكرة الإسلام يقولون : إن محمداً صلى الله عليه وسلم لا يتكلم إلا عن نور من ربه ، لكن لو عمم القرآن الحكم على الكل ، لتساءل الذين ينشغلون برغبة الإيمان بما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم « لماذا يعم الحكم الجميع ونحن نسير فى الطريق إلى الإيمان ؟ » .

ولهذا يضع الحق القول الفصل فى أن منهم أناسًا يتجهون إلى الإيمان :

﴿ لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

وفى هذا ما يطمئن الذين شغلوا أنفسهم بدراسة هذا الدين والتفكير فى أن يؤمنوا برسول الله صلى الله عليه وسلم .

لو كان القرآن قد نزل بلعنتهم جميعا لقال الذين يفكرون منهم فى الإيمان « نحن لسنا كذلك ولا نستحق اللعنة ، فلماذا يأتى محمد بلعنتنا ؟ » .

لذلك نرى القول بأن « ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك » العدل المطلق فى الإنصاف :

وقد قال بعض المفسرين : إن القرآن يقصد هنا من « أهل الكتاب » النصارى ؛

لأن منهم أصحاب ضمير حى ، ونحن نعرف أن المقصود بأهل الكتاب هم اليهود والنصارى ، وفى هذا التفسير إنصاف للنصارى فصفة الخير لهم لا ينكرها الله ، بل يشيعها فى قرآنه الذى يُتلى إلى يوم الدين ، وذلك ليصدق أيضا أهل الكتاب أىَّ أمر سىء تنزل فيه آيات من القرآن ، لأن القرآن منصف مطلق الإنصاف . فمادام قد قال خصلة الخير فيهم فلابد أن يكون صادقا عندما يقول الأمور السيئة التى اتصفوا بها . وعندما يقول الحق سبحانه : « ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك » فالقنطار هنا للمبالغة فى القدر الكبير من المال ، وكلمة الأمانة حينما نستعرضها فى كتاب الله عز وجل نجد أنها مرة تتعدى بالباء ، كمثل هذه الآية « من إن تأمنه بقنطار » ومرة تتعدى بـ « على » :

﴿ قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَـٰصِحُونَ ﴿١١﴾ ﴾

(سورة يوسف)

وقوله الحق :

﴿ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ۖ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَـٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّـٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾

(سورة يوسف)

إن مادة الأمانة تأتى متعدية مرة بالباء ، ومرة متعدية بـ « على » .

وكل حرف من هذين الحرفين له حكمة ، فالمتكلم هو الله .

إن الأمانة هى شىء يأتمن فيه مؤتمن على مؤتَمَن ولا حجة لصاحب الشىء المؤتَمَن عليه إلا ذمة المؤتَمَن ، فإن كانت العلاقة بينهما محكومة بإيصال أو عقد ، أو شهود فهذه ليست أمانة ، إنما الأمانة هى ما يعطيها إنسان لآخر فيما بينهما ، وبعد ذلك فالمؤتَمَن بعد ذلك إما أن يُقِرّبها وإمّا لا يقِرّبها .

وقلنا سابقا : إن على المؤمن الحق أن يحتاط للأمانة ، لأن هناك وقتًا تتحمل فيه الأمانة ، وهناك وقت آخر تؤدى فيه الأمانة إن طلبها صاحبها .

ومثال تحمل الأمانة كأن يعرض عليك إنسان مبلغا من المال ، ويقول : « احفظ

هذا المبلغ أمانة عندك » فتقول له : نعم سأفعل . وتأخذ المبلغ ، إن هذا الفعل يسمى « التحمل » ، وعندما يأتى صاحب المال ليطلبه فهذا اسمه « الأداء » والكل يضمنون أنفسهم وقت التحمل ، وقد تكون النية هكذا بالفعل ، ولكن المؤمن الحق لا يأمن ظروف الأغيار ، فمن المحتمل أنه عندما يأتى صاحب المال ليطلبه من المؤتمَن يجد المؤمن نفسه وقد انشغل بالأغيار ، فقد تكون ظروف الحياة قد داهمته مما دفعه ليتصرف فى الأمانة أو أن تكون نفسه قد تحركت ، وقالت له : وماذا يحدث لو تصرفت فى الأمانة ؟ إن المؤمن الحق لا يضمن نفسه وقت الأداء ، وإن ضمن نفسه وقت التحمل .

إذن يجب أن نلحظ فى الأمانة ملحوظتين هما « الأداء » « والتحمل » . والذين يأخذون الأمانة وفى نيتهم أن يؤدوها ضمنوا أنفسهم وقت التحمل ، لكنهم لا يضمنون أنفسهم وقت الأداء لذلك فالمؤمن المحتاط يقول لنفسه : ولماذا أعرض نفسى لذلك ، فقد يأتى وقت الأداء فلا أستطيع ردّها لصاحبها .

لذلك يقول لصاحب الأمانة : أرجوك ابتعد عنى فأنا لن أحمل هذه الأمانة .

إنه خائف من وقت الأداء وذلك ما حدث فى أمانة التكليف والاختيار والتى قال عنها الحق سبحانه :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾

(سورة الأحزاب)

إن السماء والأرض والجبال طلبوا ألا يكون لهم اختيار وأن يظلوا مقهورين ؛ لأنهم لا يضمنون لحظة الأداء ، أما الإنسان فلأنه ظلوم جهول فقد قال : « لا ، إننى عاقل وسأرتب الأمور » فالإنسان ظلوم لنفسه ، وجهول لأنه لم يعرف ماذا يفعل وقت الأداء .

لذلك نرى هنا القول الحق : « ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار » ونجد الأمانة متعدية بالباء ، فمعنى الباء ـ فى اللغة ـ الإلصاق ، أى التصق القنطار

بأمانته ، فأصبح هناك ارتباط وامتزاج ، وإياك ساعة الأداء أن تفصل الأمانة عن القنطار ، فساعة يغريك قنطار الذهب ببريقه فعليك أن تلصق الأمانة بالقنطار ، وإياك أن يغريك القنطار فتترك أمانتك لأنك إن نظرت إلى القنطار دون أن تنظر إلى الأمانة فهذه هى الخيبة .

أما استعمال « على » مع الأمانة ، فـ « على » فى اللغة تأتى للاستعلاء والتمكن ، أى اجعل الأمانة مستعلية على القنطار ، وبذلك تصير أمانتك فوق القنطار ، فساعة تحدثك نفسك بأن تأخذ القنطار لأنه يدير لك حركة حياتك ، ولأنه يخرجك إلى دنيا عريضة مغرية فتذكر عز الأمانة ، ولهذا نجد الفقهاء قد قالوا بقطع يد السارق فى ربع دينار ، وجعلوا دية قطع يد إنسان لم يسرق خمسمائة دينار وتساءل البعض قائلا :

يد بخمس مئين عسجد وديت ما بالها قطعت فى ربع دينار

فقال فقيه ردا على ذلك المعترض :

عز الأمانة أغلاها ، وأرخصها ذل الخيانة ، فافهم حكمة البارى

إذن قول الحق سبحانه وتعالى : « ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك » هذا القول جاء بالباء ليلصق الأمانة بالمؤتمن عليه ، وجاء بالمؤتمن عليه وهو القنطار وهو أضخم شىء فى عالم الموازين وكان من الذهب وهو أثمن المعادن وأغلاها ليؤكد على كل مؤتمن أن يلصق الأمانة بما اؤتمن عليه ولا يفصل بينهما أبدا لأنه لو فصل الأمانة وعِزَّها عن القنطار ربما سولت له نفسه أن يأخذ القنطار ويترك الأمانة .

وكذلك عندما تأتى الأمانة متعدية بعلى، تكون الأمانة فوق الشىء المؤتمن عليه ، فالأمانة يجب أن تكون مستعلية على الشىء مهما غلت قيمته ، ويقول الحق من بعد ذلك : « ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا مادمت عليه قائما » أى أن تكون دائم السؤال عن دينارك الذى ائتمنت عليه ذلك الإنسان ، وأن تلح فى طلب دينارك .

ومن بعد ذلك يقول الحق : « ذلك بأنهم قالوا ليس علينا فى الأميين سبيل » وقد قام بعض من بنى إسرائيل على عهد رسول الله ، بخديعة الأميين من العرب المؤمنين

فأنكروا حقوقهم . والمقصود بالأميين هنا المؤمنون الذين لم يكونوا من أهل الكتاب ، أو هم المنسوبون إلى الأم كما قال الحق :

﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾

(سورة النحل)

أو أن يكون المقصود « بالأميين » أهل مكة ، فقد كانوا يسمونهم كذلك لأنهم منسوبون إلى أم القرى « مكة المكرمة » .

من أين جاء أهل الكتاب إذن بهذا الأسلوب المزدوج فى معاملة الناس ؟ ومن الذى وضع هذا المنهج الذى يقضى بخديعة المؤمنين الأميين ؟ وهل الفضائل ومنازل الخلق تختلف فى المعاملة من إنسان إلى آخر ؟ وهل يقضى الخلق القويم أن يأخذ إنسان الأمانة وينكرها إذا كانت لرجل أمى ؟ ويرد الأمانة ويعترف بها إن كانت ليهودى ؟ هل يصح أن يقرض إنسان أمواله بالربا لغير اليهود ، ويقرض اليهود دون ربا ؟ إذن تكون هذه المعاملات مجحفة ، هنا فضيلة ، وهناك لا فضيلة ، لا ، إن القضية يجب أن تكون مستوية ومكتملة فى كل وقت وكل زمان ولكل إنسان ، ولا ينبغى أن تتنوع .

من أين إذن جاءوا بهذا القول وهم أهل كتاب ؟ إن هذا ضد منهج الكتاب الذى أنزله الله عليهم بل هو من التحريف والتحوير لقد خدعوا أنفسهم وألصقوا بالتشريع ما ليس فيه ، فالكتاب السماوى الذى نزل عليهم ليس به تصنيف البشر صنفين : صنف هم أهل الكتاب ولهم معاملة خاصة ، وصنف هم الأميون ولهم معاملة أخرى ، وكان عليهم أن يتعلموا من عدالة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى معاملتهم .

لقد أرخ لهم رسول الله بالنص المنزل عليه من الله التأريخ الصادق والعادل ، فى هذا القول الكريم الذى نتناوله بالخواطر إنما يسجل تاريخ اليهودية مع الإسلام . وهذا التأريخ لم يصدر فيه الله حكما واحدا يشملهم جميعا ، بل أنصف أصحاب الحق منهم ، وإن كانوا على دين اليهودية ، وبذلك استقر فى أذهان المنصفين منهم أن

الإسلام قد جاء بكل الحق ، فلو كان الإسلام قد أصدر حكما واحدا ضد كل اليهود سواء من وقف منهم ضد دعوة رسول الله أو المنصف منهم الذى تراوده فكرة الإيمان بالإسلام ، لو كان مثل ذلك الحكم العام الشامل قد صدر لقال المنصفون من اليهود : نحن نفكر فى أن نؤمن بالإسلام فكيف يهاجمنا الإسلام هذه المهاجمة ؟ لكن الإسلام جاء لينصف فيعطى كل ذى حق حقه .

وهؤلاء هم الذين يؤرخ الله لهم بالقول : « من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك » وتلك شهادة على صدق اليقين من هؤلاء ، أما الذين طغت عليهم المادية فهؤلاء هم الذين جاء فيهم القول الحكيم : « ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا مادمت عليه قائما » وهذا هو التأريخ الصادق لمن طغت عليهم المادية فلا يرد الإنسان منهم ما عليه إلا بعد الملاحقة والمطاردة ، وهكذا يبلغنا القرآن التاريخ بصدق .

والعلة فى أن الذى يؤتمن على قنطار يؤديه ، والذى يؤتمن على دينار لا يؤديه هى علة واضحة . فالمؤتمن على قنطار ويؤديه هو إنسان ملتزم أمام إله موصوف باسم الحق ، ولا يريد الله من عباده إلا أن يواجهوا حركة حياتهم بالحق .

وأكرر هنا مرة أخرى ، إن كلمة « الأمانة » ترد فى القرآن الكريم مرة وهى متعدية بـ « على » ، ومرة أخرى وهى متعدية بالباء ، لأن الباء تأتى فى اللغة لإلصاق شىء بشىء آخر ، فكأنك إذا اؤتمنت أيها المسلم فلابد أن تلتصق بالأمانة حتى تؤديها ، وكذلك جاءت الأمانة متعدية بـ « على » ، أى أنك أيها المؤمن إذا اؤتمنت فعليك أن تستعلى على الشىء الذى اؤتمنت عليه . فإذا ما اؤتمنت على مائة جنيه مثلا فلا تنظر إلى ما يعود عليك من نفع إذا ما تصرفت فى هذا المبلغ ، بل يجب أن تستعلى على تلك المنفعة . فإياك أن تغش نفسك أيها المؤمن بفائدة ونفاسة الشىء الذى تختلسه من الأمانة ، بل قارن هذا الشىء بالأمانة فستجد أن كفة الأمانة هى الراجحة .

والذين استباحوا خيانة الأمانة من أهل الكتاب ، إنما عميت بصيرتهم عن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد نال الشهرة بالأمانة سواء قبل الرسالة أو بعدها . وعميت أبصارهم ، إن الدين الحق لا يفرق فى أداء الأمانة بين صنف من البشر ، وصنف آخر ؛ فالدين الحق يضم تشريعا من إله خلق الجميع وهكذا نجد أن تشريعهم بالتفرقة فى أداء الأمانة هو تشريع من عند أنفسهم ، وليس من الرب المتولى شئون خلقه جميعا ، ويدحض الحق القضية التى حكموا بوساطتها أن يعاملوا الأميين

معاملة تختلف عن معاملتهم لأهل الكتاب ، فقال سبحانه : « ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون » .

يعلمون ماذا ؟ يعلمون أن قولهم كذب ، فهم يعرفون الحكم الصحيح وينحرفون عنه ، وياليتهم قالوا : إن ذلك الحكم من عند أنفسهم ، لكنهم ينسبون ذلك إلى تعاليم دينهم ، وتعاليم الدين ـ كما قلنا ـ مأخوذة من الله ، وهم بذلك ـ والعياذ بالله ـ يفترون على الله كذبا بأنه خلق خلقا ثم صنفهم صنفين : صنفًا تؤدى الأمانة له ، وصنفًا لا تؤدى الأمانة له ، وهكذا كذبوا على الله وعلموا أنهم كاذبون ، وهذا هو الافتراء . وهم أيضا يعلمون العقوبة التى تلحق من يكذب على الله ورغم ذلك كذبوا .

لقد حذف الحق فى هذه الآية المفعول به فلم يقل : « يعلمون كذا » . الحق حين يحذف « المفعول » فهو يريد أن يعمم الفهم ويريد أن يعمم الحركة ، إنه سبحانه يريد أن يبلغنا بأن هؤلاء يعلمون أن قولهم هذا كذب ، ويعلمون عقوبة ذلك الكذب . . وساعة تأتى قضية منفية ثم يأتى بعدها كلمة « بلى » فإنها تنقض القضية التى سبقتها ومعنى ذلك أنها تُثْبِتُ ضدها . لقد قالوا :

« ليس علينا فى الأميين سبيل » وهذه قضية منفية بـ« ليس »، والحق يقول فى الآية التالية :

﴿ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾

إن قول الحق فى بداية هذه الآية « بلى » إنما جاء لينقض القضية السابقة التى ادعاها أهل الكتاب ، وكأن الحق يقول : أىْ عليكم فى الأميين سبيل ؛ لأن المشرع هو الله ، والناس بالنسبه له سبحانه سواء .

وبعد ذلك يأتى قول الحق بقضية عامة :

﴿ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾

(من آية ٧٦ سورة آل عمران)

ما العهد هنا ؟ وأى عهد ؟

إنه العهد الإيمانى الذى ارتضيناه لأنفسنا بأننا آمنا بالله وساعة تؤمن بالإله فمعنى إيمانك به هو حيثية قبولك لكل حكم يصدر منه سبحانه ، وأن تلتزم بما يطلبه منك . وإن لم تلتزم بما يطلبه منك كان إيمانك بلا قيمة ؛ لأن فائدة الإيمان هو الالتزام . ولذلك قلنا : إن الحق سبحانه وتعالى حينما يريد تشريع حكم لمن آمن به ينادى أولا يأيها الذين آمنوا كتب عليكم كذا ، إن الحق سبحانه لا ينادى فى التكليف كل الناس ، إنما ينادى من آمن وكأنه سبحانه يقول : « يا من آمن بى إلها ، اسمع منى الحكم الذى أريده منك ، أنا لا أطلب ممن لم يؤمن بى حكما ، إنما أطلب ممن آمن » .

وهنا يقول الحق : « من أوفى بعهده واتقى فإن الله يحب المتقين » وقد يفهم البعض هذا القول بأن من أوفى بعهده الإيمانى واتقى الله فى أن يجعل كل حركاته مطابقة لـ « افعل ولا تفعل » فإن الله يحبه . هذا هو المعنى الذى قد يفهم للوهلة الأولى ، لكن الله لم يقل ذلك ، إن « الحب » لا يرجع إلى الذات بل يرجع إلى العمل ، لقد قال الحق : « فإن الله يحب المتقين » .

إن الإنسان قد يخطىء ويقول : « لقد أحبنى الله ، وسأفعل من بعد ذلك ما يحلو لى » ونحن نذكر صاحب هذا القول بأن الله يحب العمل الصالح الذى يؤديه العبد بنية خالصة لله وليس للذات أى قيمة ، لذلك قال : « من أوفى بعهده واتقى فإن الله يحب المتقين » .

إن الذى أوفى بعهده واتقى سيحب الله فيه التقوى ، وإياك أن تفهم أن الحب من الله للعبد سيصبح حبا ذاتيا ، لكنه حب لوجود الوصف فيه ، فاحرص على أن يكون الوصف لك دائما ، لتظل فى محبوبية الله .

ولذلك نقول : إن الحق سبحانه وتعالى أوضح لنا أن الذات تتناسل من ذات ، والذوات عند الله متناسلة من أصل واحد . فالجنس ليس له قيمة ، إنما القيمة للعمل الصالح .

وقد ضربنا المثل قديما ، وقلنا : إن الحق سبحانه وتعالى حينما وعد نوحا عليه السلام بأن ينجيه من الغرق هو وأهله ، ثم فوجىء نوح بأن ابنه من المغرقين ، قال سبحانه حكاية عما حدث :

﴿ قَالَ سَآوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾

(سورة هود)

ماذا فعل نوح عليه السلام ؟ لقد نادى ربه طالبا نجاة ابنه :

﴿ وَنَادَىٰ نُوحٞ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾

(سورة هود)

ويعلمنا الله من خلال رده على نوح ، أن أهل الأنبياء ليسوا من جاءوا من نسلهم ، إنما أهل الأنبياء هم من جاءوا على منهجهم ، لذلك قال الحق لنوح عن ابنه :

﴿ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ ﴾

(من الآية ٤٦ من سورة هود)

لماذا يكون ابن نوح ليس من أهل نوح ؟ ذلك لأن أهل النبوة هم الذين يتبعون منهج النبوة ، ولذلك لم يقل الحق لنوح عن ابنه : « إنه عامل غير صالح » لكن الحق سبحانه قال عن ابن نوح : « إنه عمل غير صالح » . . لقد نسب الحق الأمر إلى العمل .

إذن فالحكمة هى أن الله سبحانه وتعالى فى أسلوبه القرآنى يوضح لنا أن الله لا يحب شخصا لذاته ، إنما لعمله وصفاته فلم يقل : « من أوفى بعهده واتقى فإن الله يحبه » ، لأن « الهاء » هنا ترجع إلى الذات ، إن فى ذلك إيضاحًا كامل البيان بأن الله يحب عمل العبد لا ذات العبد ، فإن حرص العبد على محبوبية الله فذلك يتطلب من العبد أن يظل متبعا لمنهج الله ، وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾ ﴾

وساعة نسمع كلمة « شراء وبيع » فلابد أن نتوقف عندها ؛ لنفهم معناها بدقة . ونحن فى الريف نرى المقايضات أو المبادلات فى الرزق الذى له نفع مباشر ، كأن يبادل طرف طرفا آخر ، قمحا بقماش ، فهذه سلعة يتم مبادلتها بسلعة أخرى ، وعلى ذلك فليس هناك شارٍ وبائع ، لأن كلا من الطرفين قد اشترى وباع . وهنا نسأل : متى يصبح الأمر إذن شراء وبيعا ؟

إن الشراء والبيع يحدث عندما نستبدل رزقا مباشرا برزق غير مباشر ، ومثال ذلك عندما يشترى الإنسان رغيف خبز بخمسة قروش ، إن هذا هو الشراء والبيع ، لأن الخمسة قروش هى رزق غير مباشر النفعية ؛ لأن النقود لا تشبعك ولا ترويك من عطشك ولا تسترك . والرغيف هو رزق مباشر النفعية لأنه يشبعك ويدفع عنك الجوع وعندما يحب الإنسان أن يشترى شيئا فإن الذى يدفعه فى الشراء يسمى ثمنا .

إذن فكيف يشترى الثمن ؟

إن الحق يوضح لنا أن الأثمان لا تكون مشتراة أبدا ، إنها مشْترى بها ، ولذلك تكون أول خيبة فى صفقة الذين يشترون بعهد الله ثمنا قليلا ، أنهم اشتروا الثمن ، بينما الثمن لايُشترى ، فالذى يشترى هو السلعة . ويا ليت الثمن الذى اشتروه ثمن له قيمة ، لكنه ثمن قليل ، ومن هنا جاء تحريم الربا لأن المرابى يعطى الشخص مائة ، ويريد أن يسترده مائة وعشرة ، ويكون المرابى فى هذه المسألة قد جعل النقود سلعة ، وهكذا تكون الصفقة خائبة من بدايتها .

إذن فأول خيبة فى نفوس الناس الذين يستبدلون الهدى ويأخذون بدلا منه الضلالة ، إنهم خاسرون .

﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَـٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَـٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة البقرة)

والحق سبحانه يقول هنا : « إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا » . ونعرف أن « الباء » دائما تدخل على المتروك ، أى أنهم تركوا عهد الله والأيمان التى حلفوا بها على التصديق بالرسول ، وعلى نصرته إذا جاءهم ، أنهم اشتروا ذلك بثمن قليل ، كيف يحدث ذلك ؟ لهذه المسألة واقعة حال ، وإن كان المراد عموم الموضوع لا خصوص السبب ، فلا يقولن أحد : إن هذه الآية نزلت فى الأمر الفلانى فلا شأن لى بها ، لا.فكل من يشترى بآيات الله ثمنا قليلا تنطبق عليه هذه الآية .

وواقعة الحال التى نزلت فيها الآية هى أن جماعة فى عهد جدب ومجاعة دخلت على كعب بن الأشرف اليهودى يطلبون منه الميرة ـ أى الطعام والكسوة ـ فقال لهم : هل تعلمون أن هذا الرجل رسول الله ؟ قالوا نعم ، قال : إننى هممت أن أطعمكم وأن أكسوكم ولكن الله حرمكم خيرا كثيرا وتساءلوا : لماذا حرمنا الله الخير الكثير ؟ وجاءتهم الإجابة لقد أعلنتم الإيمان بمحمد فلما وجدوا أنفسهم فى هذا الموقف ، قالوا لكعب بن الأشرف : دعنا فترة لأنه ربما غلبتنا شبهة ، فلنراجع فيها أنفسنا . وعندما مرت الفترة ، فضلوا الطعام والكسوة على الإيمان ، وقالوا لكعب بن الأشرف : لقد قرأنا فى كتبنا الموجودة لدينا خطأ ، ومحمد ليس رسولا . فأعطاهم كعب القوت والكسوة . وهؤلاء هم الذين اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا ، وهو الطعام والكسوة . وكل من يشترى بآيات الله ثمنا قليلا ، فهو يطمس حكما من أحكام الله من أجل أن يتظاهر أمام الناس أنه عصرى ، أو أنه مساير لروح الزمان ، أو يزين لأولياء الأمر فعلا من الأفعال لا يرضى عنه الله .

إذن فالذى يفعل مثل ذلك إنما يشترى بآيات الله ثمنا قليلا ، وكل من يجعل آية من آيات الله عرضة للبيع من أجل أن يأخذ عنها ثمنا يُعتبر داخلا فى هذا النص « إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا » .

والمقصود هنا بعهد الله ، إما أن يكون عهد الفطرة أو العهد الذى أخذه الله على أهل الكتاب بأنهم إن أدركوا بعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم فلابد أن يعلنوا الإيمان به وهو العهد الذى جاء به القول الحق :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَـٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ

مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

إذن فعندما جاءت صفة تكذيبهم لما أعلنوه من إيمان سابق مقابل الميرة والكسوة فهم قد تركوا عهد الله وأخذوا الثمن القليل من الميرة والكسوة ، وكان ذلك خيبة كبرى فهم قد اشتروا الثمن ، والثمن مع ذلك قليل ، ولذلك يقول عنهم الحق :

﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

وكلمة « أولئك » تدل على أن الصلة وهى « يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا » تُلحق بهم كل من يتصف بهذه الصفات وتجعل له المصير نفسه . فهذه الآية وإن نزلت فى هؤلاء الأشخاص الذين جرت منهم حادثة شراء الطعام والكسوة مقابل النكوص عن الإيمان برسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنها تشمل كل متصف بهذه الصفة وكل من كان على هذا اللون فى أى عصر ، وفى أى دين من الأديان ، ويصفهم الحق سبحانه بـ « أولئك لا خلاق لهم » .

وكلمة « خلاق » وكلمة « خُلق » وكلمة « خليقة » وكلمة « خلق » كلها تدور حول معنى يكاد يكون متقاربا ، فالخلق ـ بضم الخاء واللام ـ أن توجد صفة فى الإنسان تغلب عليه حتى تصير ملكة . فيقال : « فلان عنده خلق الصدق » أو « فلان خلقه الكرم » ومعناه : أن فلانا الأول صار الصدق عنده ملكة ولا يتعب نفسه فى أن يكون صادقا بل صار الصدق أمرا طبيعيا فيه ، وكذلك وصف فلان الثانى بالكرم أى أن الكرم صار ملكة وسجية عنده .

وهذه الملكة فى الأمور المعنوية تساوى الآلية فى الأمور الحسية ؛ لأننا نعرف أن كل فعل من الأفعال يحتاج إلى دربة ليكون الإنسان متميزا فى أدائه ، وعلى سبيل المثال ، العامل الذى ينسج على آلة يحتاج إلى أن يتدرب على تحريك مكوك الخيط ، وأن يتعلم كيف يحرك المكوك بين خيوط النسيج ، وبعد ذلك يختلف الخيطان معا لتمسك

بهما حركة المكوك الثانية فى ارتدادها ، وبذلك يتم النسيج ، وحين يتدرب إنسان على هذا العمل فهو يحتاج إلى وقت طويل ، ليصل إلى كفاءة الحركة .

فى بداية التدريب يكون الأمر صعبا ، ويستطيع النساج بعد أن يتقن التدريب أن يجلس أمام آلة النسيج ويداه تحرك المكوك بآلية . لقد صارت المسألة بالنسبة إلى النساج المتدرب آلية .

وسبق أن ضربت المثل بالإنسان الذى يتعلم قيادة السيارة ، فالمدرب يعلمه كيف يدير المفتاح ، وكيف ينتظر لتسخين المحرك ، وكيف يفك مكبح السيارة ، ثم كيف يحرك عصا التحكم فى اندفاع السيارة ، وكيف يوازن بين الضغط على بدال الوقود والضغط على بدال التحكم الفاصل ، وكيف يوازن بين سير السيارة بتخفيض السرعة بلمسات خفيفة لبدال المكبح .

وقد يخطىء الإنسان فى بداية التعلم ويرتبك ، ولكنه بعد تمام التدريب فإنه يعمل بآلية وبدون تفكير ، إنه عمل آلى لا يحتاج إلى تفكير ، وضربت فى السابق مثالا بالصبى الذى يتعلم حياكة الملابس ، إنه يأخذ وقتا ليضع الخيط فى سم الإبرة ، وتقع منه الأخطاء فى قياس المسافات المختلفة بين الغرز ، لكنه من بعد ذلك يتدرب على فعل هذه الأعمال التى كانت صعبة ، ويؤديها بآلية ، والعمل الآلى فى الأمور المحسة ، يقابل الملكة فى الأمور المعنوية ، فيقال : « إن الصدق عند فلان ملكة » أى أنه إنسان لا يرهُقه أن يكون صادقا .

ونحن أثناء تعليم أبنائنا للنحو ـ مثلا ـ نقول لهم : « إن حكم الفاعل الرفع والمفعول به منصوب » وعندما ينطق الابن عبارة ما ، فإنه يحاول تطبيق القاعدة أثناء القراءة ، وقد ينساها ، أو يتلجلج ، وعندما يتذكرها فإنه ينطق الكلمات برسمها الصوتى الصحيح ، وبعد أن يتم التدريب على القاعدة ويقرأ الابن ، فإن أخطاءه تتلاشى ، وبذلك يصير النحو ملكة عنده .

وكذلك الخلق ، إن الخلق صفة ترسخ فى النفس ، فتصدر عنها الأفعال بيسر وسهولة ، فيقال : « «الصدق له خلق » ، و« الكرم له خلق » ، و« الشجاعة له خلق » إنها الصفات التى ترسخ فى النفس فتصدر عنها الأفعال فى يسر وسهولة . والحق سبحانه يقول : « أولئك لا خلاق لهم فى الآخرة » وقد فسر البعض حرمان أولئك من الخلق بأن هذا الصنف من الناس لا نصيب لهم من الخلق ، لأن الخلق

صفة راسخة فى الإنسان ، والحق يحدد الزمن بأنه « فى الآخرة » . والآخرة هى الوقت الذى لا يمكن التدارك فيه ، فالآخرة هى يوم التقييم الصحيح والنهائى .

إن الإنسان قد لا يكون له نصيب السلوك القويم فيعدل سلوكه حتى يكتسب هذا السلوك القويم فى الدنيا لكن الإنسان لا يستطيع فى الآخرة أن يجد مجالا للاستدراك ، وهذه هى الخيبة القوية .

فالإنسان فى الدنيا ، قد يقوم بعمل ما ولا يكون له نصيب من أجره أو قد لا نرى نحن الجزاء والنصيب الذى يعطيه له الله ولكن الله يعوضه فى الآخرة عن هذا العمل الذى لم يكن له نصيب منه فى الدنيا أما من لا خلاق له فى الآخرة فكيف يتم التعويض ؟ إنّ ذلك أمر مستحيل ؟

ويضيف الحق « ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم » وقد يقول قائل : ألم يقل القرآن الكريم فى موقع آخر ، إن الله يقول للكافرين :

﴿ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ ﴾

(سورة المؤمنون)

فلماذا يقول الحق لهم مرة : « اخسئوا فيها ولا تكلمون » ، ومرة أخرى يقول الحق : « لا يكلمهم الله »؟ . ونجيب على مثل هذا القول : إن الحق لا يكلمهم كلاما ينفعهم ، أو أنه سبحانه يكلمهم بواسطة ملائكته ، ولكن كيف لا ينظر إليهم الله ؟

وساعة نجد أمرا يوجد فى الناس وله نظير منسوب لله سبحانه وتعالى ويقوله سبحانه عن نفسه ، فلابد أن نأخذ هذا الأمر فى إطار : « ليس كمثله شىء » .

إننا فى مجالنا البشرى نقول : « فلان لا ينظر إلى فلان » أى أنه لا يوجه عيونه إليه ، ويحول حدقتيه عنه ، لكن لا يمكن قياس ذلك على الله ، لأن الله منزه عن التشبيه ففى الوضع البشرى نجد إنسانا يحب صديقا له فيقبل عليه بالوجه والنظر فيقال : «فتى هو قيد العين » أى أنه شاب عندما تنظر إليه العين فهو يقيد العين

فلا تذهب عنو إلى أى مكان آخر؛ ففى هذا الشاب محاسن تجعل العين لا تذهب بعيدا عنه . وهكذا نأخذ إقبال العين بالنظر على المنظور أو على المرئى كسمة للاهتمام به ، وهذا صحيح فى الوضع البشرى .

لكن إذا ما جاء ذلك بالنسبة لله ، هنا نأخذ المسألة فى إطار : « ليس كمثله شىء » . وهكذا نفهم عدم نظر الله إلى « الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا » بأن الله يهملهم ، ولا يهتم بهم « لا يناهم الله برحمته » ، فالحق سبحانه منزه عن كل تشبيه ، وهكذا الأمر فى عدم نظر الحق إليهم ، نأخذ الأمر أيضا فى إطار : « ليس كمثله شىء » إن ولى الأمر من البشر عندما يرغب فى عقاب أحد رعاياه ، لا ينظر إليه ويهمله ، فما بالنا بإهمال الحق سبحانه وتعالى ؟! إنه إبعاد لهم عن رحمة الله ورضوانه .

ويضيف الحق سبحانه « ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم » والتزكية تأتى بمعنى التطهير ، أو بمعنى الثناء أو النماء والزيادة فنقول : « فلان زكى فلانًا » أى أثنى عليه ويقال أيضا : « فلان زكى فلانا » أى طهره ، ومن هذا تكون « الزكاة » التى هى تطهير ونماء .

وعندما يخبرنا الحق سبحانه أنه لا يكلم ذلك الصنف من البشر ولا ينظر إليهم ولا يطهرهم من أوزارهم ، فهذا مقدمة لما أعده لهم بقوله : « ولهم عذاب أليم » .

وكأن الحق سبحانه قد أورد هذا المصير بالنسبة لهذا الصنف من البشر حتى لا يقول أحدهم ليس مُهمًا أن الله لن يكلمنى ولن ينظر إلى ، ولن يزكينى ، ولكنه قد يدخلنى الجنة « لا لن يدخل واحد من هذا الصنف من البشر الجنة بل له ولأمثاله العذاب الأليم » . وحين يقال : « ولهم عذاب أليم » فلابدِ أن نأخذ قوة الحدث بفاعل الحدث .

وفى حياتنا العادية عندما يقال : « صفع الطفل فلانا الرجل » نفهم بطبيعة الحال أن صفعة الطفل تختلف فى قوتها عن صفعة الشاب ، وكذلك صفعة الشاب تختلف عن صفعة بطل فى الملاكمة . إذن فالحدث يختلف باختلاف فاعله قوة وضعفا على المفعول به الذى هو مناط الحدث، فإذا كان فاعل العذاب هو الله فلابد أن يكون عذابا

أليما ؛ ولا حدود لألمه ، أنجانا الله وإياكم منه . ومن بعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾

أى أنهم يلوون ألسنتهم بالكلام الصادر من الله ليحرفوه عن معانيه ، أو يَلْوُون ألسنتهم عندما يريدون التعبير عن المعانى . و« اللى » هو الفتل ، فنحن عندما نفتل حبلا ، نحاول أن نجدل بين فرعين اثنين من الخيوط ، ثم نفتلهم معا لنصنع حبلا ، والهدف من الفتل هو أن نضع قوة من شعيرات الخيوط، فهذه الشعيرات لها قوة محدودة، وعندما نفتل هذه الخيوط فإننا نزيد من قوة الخيوط بجدلها معا.

إذن فالفتل المراد به الوصول إلى قوة ، وهكذا نرى أنهم يلوون ألسنتهم بكلام يدعون أنه من المنهج المنزل من عند الله ، وهذا الكلام ليس من المنهج ولم ينزل من عند الله إنّهم يفعلون ذلك لتقوية مركزهم والتنقيص من مكانة الإسلام والطعن فى الرسول كما قالوا من قبل : « راعنا » ، لذلك قال الحق مخاطبا المؤمنين :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ ﴾

(سورة البقرة)

إن الحق يوضح لنا ألا نعطى لهم فرصة لتحريف كلام الله ، فهو سبحانه القائل :

﴿ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾ ﴾

(سورة النساء)

لقد فضحهم ـ الحق سبحانه ـ لنا ، وهم يحرفون الكلام عن موضعه ، فقد قال الحق هذا القول بمعنى : أن الذى تسمعه لا يضرك لقد سجل الله عليهم أنهم قالوا سمعنا وعصينا كما قاموا بتحريف الكلمة وقالوا : « اسمع غير مسمع » أى « لا سمعت أبدا » ، تماما كما أخذوا من قبل قول الله :

﴿ وَقُولُواْ حِطَّةٌ ﴾

(من الآية ١٦١ من سورة الأعراف)

وحرفوا هذا القول : « وقولوا حنطة » ، وهم قد فعلوا ذلك حتى نحسب هذا التحريف من الكتاب ، وما هو من الكتاب ، أى أنهم يفتلون بعضا من المعانى المستنبطة من الكلمات حتى يوهموا المؤمنين بأن هذه المعانى غير المرادة وغير الصحيحة هى معان مرادة لله ، وصحيحة المعنى ، إنهم يدعون على المنهج المنزل من السماء ما ليس فيه ، ولذلك قال سبحانه : « لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب » إنهم عندما يلوون ألسنتهم بالكتاب يحرفونه رغبة فى التلبيس والتدليس عليكم لتظنوا أنه من الكتاب المنزل من عند الله على رسولهم ، إنهم لو فعلوا ذلك فحسب لجاز أن يتوبوا ويرجعوا إلى ربهم ويندموا على ما فعلوا .

أما قولهم بعد ذلك : « هو من عند الله » فهو دليل على أنهم أحدثوا فى الكتاب شيئا وأصروا عليه فجاءوا بقولهم : (هو من عند الله) لينفوا عن أنفسهم شبهة أن يُدعى عليهم أنهم حرفوا الكتاب ، ولو لم يكونوا قد حرفوا الكتاب أكانت تخطر ببالهم ، هذه ؟ إن أمرهم جاء من باب (يكاد المريب أن يقول خذونى) إنهم بهذا القول يحتالون على إخفاء أمر حدث منهم . إن الحق ـ سبحانه ـ يؤكد أن الخيانة تلاحقهم فيقول : (وما هو من عند الله) ، فهذه الآية الكريمة تفضحهم وتكشف تحريفهم لكتاب الله ، يقول سبحانه : « ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون »

إنهم يعرفون أن ما يقولونه هو الكذب ، والكذب كما عرفنا هو أن تكون النسبة الكلامية غير مطابقة للواقع ، فالنسب فى الأحداث تأتى على ثلاث حالات :

نسبة واقعة .

نسبة يفكر فيها وهى نسبة ذهنية .

نسبة ينطق بها .

فعندما نعرف إنسانا اسمه محمد ، وهو مجتهد بالفعل فهذه نسبة واقعة

وإذا خطر ببالك أن تخبر صديقا لك باجتهاد محمد فهذا الخاطر نسبة ذهنية .

وساعة تنطق بهذا الخبر لصديق لك صارت النسبة كلامية . والصدق هو أن تكون النسبة الكلامية لها واقع متسق معها كأن يقول : « محمد مجتهد » ويكون هناك بالفعل من اسمه محمد وهو مجتهد بالفعل ، وبهذا تكون أنت الناطق بخبر اجتهاد محمدٍ إنسانا صادقا ، أما إن لم يكن هناك من اسمه محمد ومجتهد فالنسبة الكلامية لا تتفق مع النسبة الواقعية ، لذلك يصير الخبر كاذبا . والعلماء يفرقون بين الصدق والكذب بهذا المعيار . فالصدق : هو مطابقة الكلام للواقع ، والكذب : هو عدم مطابقة الكلام للواقع .

وحاول بعض من الذين يحبون التشكيك أن يقفوا عند سورة المنافقين التى يقول فيها الحق :

﴿ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَكَـٰذِبُونَ ﴿١﴾ ﴾

(سورة المنافقون)

لقد قال المنافقون : نشهد إنك لرسول الله ، وسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم هو رسول من عند الله بالفعل ، والحق سبحانه يقول : « والله يعلم إنك لرسوله » فهل علمهم كعلم الله ؟ لا ، لأن الله سبحانه قال : « والله يشهد إن المنافقين لكاذبون » ، فكيف يصفهم الحق بأنهم كاذبون مع أنهم شهدوا بما شهد هو به ؟

إن الحق لا يكذبهم فى أن محمدا رسول الله فهذه قضية صادقة ، ولكنه سبحانه قد كذبهم فى قضية قالوها وهى : « نشهد » ، لأن قولهم : « نشهد » تعنى أن يوافق الكلام المنطوق ما يعتقدونه فى قلوبهم ، وقولهم : « نشهد » هو قول لا يتفق مع ما فى

قلوبهم ، ولذلك صاروا كذابين ، فلسان كل منهم لا يوافق ما فى قلبه .

إذن فقوله الحق : « ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون » ، أى إنهم يقولون كلاما ليس له نسبة خارجية تطابقه ، وهم يعلمون أنه كذب ، حتى لا نقول : إنهم نطقوا بذلك غفلة ، لقد تعمدوا الكذب ، وهم يعرفون أنهم يقولون الكذب . والدقة تقتضى أننا يجب أن نفرق بين صدق الخبر ، وصدق المخبر . صدق الخبر هو أن يطابق الواقع لكن أحيانا يكون المخبر صادقا ، والخبر فى ذاته كذب ، كأن يقول واحد : « إن فلانا يستذكر طول الليل » لأنه شاهد حجرة فلان مضاءة وأنه يفتح كتابا ، بينما يكون هذا الفلان غارقا فى قراءة رواية ما ، إن المخبر صادق فى هذه الحالة ، لكن الخبر كاذب .

ولكن فى مجال الآية نحن نجد أنهم كاذبون عن عمد ، فاللسان هو وسيلة بيان ما فى النفس :

إن الكلام لفى الفؤاد وإنما جعل اللسان على الفؤاد دليلا

ومن بعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾

ونحن نعرف أن الحق سبحانه وتعالى حين ينزل منهجه ، فهو ينزله فى كتاب ، ويقتضى ذلك أن يصطفى سبحانه إنسانا للرسالة ، أى أن الرسول يجىء بمنهج ويطبقه على نفسه ويبلغه للناس ، الرسول مصطفى من الله ويختلف فى مهمته عن

النبى، فالنبى أيضا مصطفى ليطبق المنهج، وهكذا حتى لا يسمع الناس المنهج ككلام فقط ولكن يرونه تطبيقا أيضا ، إذن فالرسول واسطة تبليغية ونموذج سلوكى ، والنبى ليس واسطة تبليغية ، بل هو نموذج سلوكى فقط .

إن الحق سبحانه وتعالى يرسل النبى ويرسل الرسول ، ولذلك تأتى الآية :

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ ﴾

(سورة الحج)

هكذا نعرف أن الرسول والنبى كليهما مرسل من عند الله ، الرسول مرسل للبلاغ والأسوة ، والنبى مرسل للأسوة فقط ، لأن هناك بعضا من الأزمنة يكون المنهج موجودا ، ولكن حمل النفس على المنهج هو المفتقد ، ومثال ذلك عصرنا الحاضر .

إن المنهج موجود وكلنا نعلم ما الحلال وما الحرام ، لكن خيبة هذا الزمان تأتى من ناحية عدم حمل أنفسنا على المنهج ،لذلك فنحن نحتاج إلى أسوة سلوكية ، هكذا عرفنا الكتاب ، والنبوة ، فما هو الحكم إذن ؟

لقد جاء الحق بكلمة : « الحكم » هنا ليدلنا على أنه ليس من الضرورى أن توجد الحكمة الإيمانية فى الرسول أو النبى فقط ، بل قد تكون الحكمة من نصيب إنسان

من الرعية الإيمانية ، وتكون القضية الإيمانية ناضجة فى ذهنه ، فيقولها لأن الحكمة تقتضى هذا . ألم يذكر الله لنا وصية لقمان لابنه ؟ إن وصية لقمان لابنه هى المنهج الدينى ، وعلى ذلك فمن الممكن أن يأتى إنسان دون رسالة أو نبوة ، ولكن المنهج الإيمانى ينقدح فى ذهنه ، فيعظ به ويطبقه ، وهذا إيذان من الله على أن المنهج يمكن لأى عقل حين يستقبله أن يقتنع به ، فيعمل به ويبلغه .

ولابد لنا أن نؤكد أن من يهبه الله الحكمة فى الدعوة لمنهج الله وتطبيق هذا المنهج ، لن يضيف للمنهج شيئا ، وبحكم صدقه مع الله فهو لن يدعى أنه مبعوث من الله للناس ، إنه يكتفى بالدعوة لله وبأن ، يكون أسوة حسنة .

لكن لماذا جاءت هذه الآية ؟ لقد جاءت هذه الآية بعد جدال نصارى نجران مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المدينة ، وأثناء الجدال انضمت إليهم جماعة من اليهود ، وسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ـ بماذا تؤمن وتأمر ؟ فأبلغهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بأوامر المنهج ونواهيه ، وأصول العبادة ، ولأن تلك الجماعة كانوا من أهل الكتاب ، بعضهم من نصارى نجران والبعض الآخر من يهود المدينة ، وكانوا يزيفون أوامر تعبدية ليست من عند الله ، ويريدون من الناس طاعة هذه الأوامر ، لذلك لم يفطنوا إلى الفارق بين منهج رسول الله صلى الله عليه وسلم وأوامره ، وبين ما زيفوه هم من أوامر ، فمحمد صلى الله عليه وسلم يطلب من الناس عبادة الله على ضوء المنهج الذى أنزله عليه الحق سبحانه ، أما هم فيطلبون طاعة الناس فى أوامر من تزييفهم .

والطاعة ـ كما نعلم ـ هى لله وحده فى أصول كل الأديان ، فإذا ما جاء إنسان بأمر ليس من الله ، وطلب من الناس أن يطيعوه فيه ، فهذا معناه أن ذلك الإنسان يطلب أن يعبده الناس ـ والعياذ بالله ـ لأن طاعة البشر فى غير أوامر الله هى شرك بالله . ولهذا تشابهت المواقف على هذا البعض من أهل الكتاب ، وظنوا أن الرسول صلى الله عليه وسلم يطلب منهم طاعتهم لأوامره هو ، كما كانوا يطلبون من الناس بعد تحريفهم للمنهج وقالوا : أتريد أن نعبدك ونتخذك إلها ؟

إنهم لم يفطنوا إلى الفارق بين الرسول الأمين على منهج الله ، وبين رؤسائهم الذين خالفوا الأحكام واستبدلوها بغيرها ، فالرسول صلى الله عليه وسلم لم يطلب منهم طاعته لذاته هو ، ولكنه قد طلب منهم الطاعة للمنهج الذى جاء به رسولا وقدوة ، واستنكر رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قالوه .

وأنزل الله سبحانه قوله الحق :

﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ٧٩ سورة آل عمران)

لقد بلغت بهم الغفلة والشرك أنهم ظنوا أن الله لم يختر رسولا أمينا على المنهج ، وظنوا بالله ظن السوء ، أو أنهم ظنوا أن الرسول سيحرف المنهج كما حرفوه هم ، فتحولوا عن عبادة الله إلى عبادة من بعثه الله رسولا ، ولذلك جاء القول الفصل « ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عبادا لى من دون الله » .

وقد ينصرف المعنى أيضا إلى أن بعض صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يُجلُونَه ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكل مؤمن مطلوب منه أن يُجل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن يعظمه ، ومن فرط حب بعض الصحابة لرسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا له : أنسلم عليك كما يسلم بعضنا على بعض ، ألا نسجد لك ؟

إن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يطلب السجود له من أحد ، والحق سبحانه هو الذى كلف عباده المؤمنين بتكريم رسوله فقال :

﴿ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾

(سورة النور)

إن المطلوب هو التعظيم لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا أن نعطى له أشياء لا تكون إلا لله . إن تعظيم المسلمين لرسول الله وتكريمهم له هو أن نجعل دعاءه مختلفًا عن دعاء بعضنا بعضا .

والحق فى هذه الآية التى نحن فى مجال الخواطر عنها وحولها يقول : « ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون » .

إن « لكن » هنا للاستدراك ، مثلما قلنا من قبل : إن « بلى » تنقض القضية التى قبلها وتثبت بعدها قضية مخالفة لها . إن الحق يستدرك هنا لنفهم أنه ليس لأحد من البشر أن يقول : « كونوا عبادا لى » بعد أن أعطاه الله الكتاب والحكم والنبوة ، والقضية التى يتم الاستدراك من أجلها وإثباتها هى : « كونوا ربانيين » وكلمة « ربانى » ، وكلمة « رب » ، وكلمة « ربيون » ، وكلمة « ربان » ، وكل المادة المكونة من « الراء » و« الباء » تدل على التربية ، والولاية ، وتعهد المربى ، وتدور

حول هذا المعنى . أليس ربان السفينة هو الذى يقود السفينة ؟

وكلمة « الرب » توضح المتولى للتربية ، إذن فما معنى كلمة « ربانى » ؟ إنك إذا أردت أن تنسب إلى « رب » تقول : « ربىّ » . وإذا أردنا المبالغة فى النسبة نضيف لها ألفا ونونا فنقول : « ربانى » ولذلك نجد فى التعبيرات المعاصرة من يريدون أن ينسبوا أمرا إلى العلم فيقولون : « علمانى » وفى ذلك مبالغة فى النسبة إلى العلم . والفرق بين « علمى » و« علمانى » هو أن العلمانى يزعم لنفسه أن كل أموره تمشى على العلم المادى ، ونجد أن فى « علمانى » ألفا ونونا زائدين لتأكيد النسبة إلى العلم .

وقد يقول قائل : ولماذا نؤكد الانتساب إلى الله بكلمة « ربانى » ؟
ونقول : لأن الكلمة مأخوذة من كلمة رب ، وتؤدى إلى معان : منها أن كل ما عنده من حصيلة البلاغ لابد أن يكون صادرا ومنسوبا إلى الرب ؛ لأنه لم يأت بشىء من عنده ، أى أنه يأخذ من الله ولا يأخذ من أحد آخر أبدا ؛ فهو ربانى الأخذ .

وتؤدى الكلمة إلى معنى آخر : إنه حين يقول ويتكلم فإنه يكون متصفا بخلق أنزله رب يربى الناس ليبلغوا الغاية المقصودة منهم ، فهو عندما ينقل ما عنده للناس يكون مربيا ، ويدبر الأمر للفلاح والصلاح .

يقول الحق ـ سبحانه ـ : « بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون » إن العلم هو تلقى النص المنهجى . والدراسة هى البحث الفكرى فى النص المنهجى .

لذلك فنحن فى الريف نقول : « ندرس القمح » أى أننا ندرس القمح بآلة حادة كالنورج حتى تنفصل حبوب القمح عن « التبن » وتكون نتيجة الدراس هى استخلاص النافع . . إذن ففيه فرق بين « تعلمون » أى تعلمون غيركم المنهج الصادر من الله وذلك خاضع لتلقى النص ، وبين « ماكنتم تدرسون » أى تعملون أفكاركم فى الفهم عن النص .

إن الفهم عن النص يحتاج إلى مدارسة ، ومعنى المدارسة هو أخذ وعطاء ، ويقال : « دارسه » أى أن واحدا قد قام بتبادل التدريس مع آخر ، ويقال أيضا : « تدارسنا » أى أننى قلت ما عندى وأنت قد قلت ما عندك حتى يمكن أن نستخلص

ونستنبط الحكم الذى يوجد فى النص .

وقد يأتى النص محكما ، وقد يأتى النص محتملا لأكثر من معنى.

ومادمت قد تعلمت ، فلابد أنك تعرفت على النصوص المحكمة للمنهج . ومادمت قد تدارست،فلابد أنك قد فهمت من النصوص المحتملة حين مدارستك لأهل الذكر حُسْن استقبال المنهج؛لذلك يجب أن تكون ربانياً فى الأمرين معاً .

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾

أى أنه ليس لبشر آتاه الله الكتاب والحكم والنبوة أن يأمر الناس باتخاذ الملائكة والنبيين أربابا . إن مَن اختصه الله بعلم وكتاب ونبوة لا يمكن أن يقول : اعبدونى ، أو اعبدوا الملائكة ، أو اعبدوا الأنبياء .

لماذا ؟ ويجيب الحق سبحانه : « أيامركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون » .

وقوله الحق : « بعد إذ أنتم مسلمون » تدل على أن واقعة القضية وما معها كانت مع مسلمين كأنهم عندما جاءوا وأرادوا أن يعظموا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا : نحن نريد أن نعطيك وضعا فى التعظيم أكثر من أى كائن ونريد أن نسجد لك . فَوَضَّحَ النبى صلى الله عليه وسلم لهم : أَنَّ السجود لا يكون إلا لله .

إذن فالذين تكلموا مسلمون ، وكانوا يقصدون بذلك تعظيم الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولو أن رسول الله وافقهم لكان معنى ذلك أنه يخرجهم عن الإسلام، ولا يتصور أن يصدر هذا عن سيدنا وحبيبنا المصطفى صلى الله عليه وسلم أو عن غيره من الأنبياء عليهم السلام .

والحق سبحانه يقول :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾

هذه الآية تجعلنا نتعرف على أسباب بعث الحق لموكب الرسل ، ونعرف جميعا أن المنهج الأول قد أنزله الله على آدم عليه السلام متضمنا كل ما يجعل الحياة تسير إلى انسجام ، وبلّغ آدم أولاده هذا المنهج كما علمهم أمور حياتهم ، تماما مثلما يعلم الأب أبناءه ما يخدم أمور حياتهم ، كما يقوم / بإبلاغ الأبناء مطلوب الدين ، والأبناء يبلغون أبناءهم ، ويتواصل البلاغ من جيل إلى جيل كى يكتمل وصول المنهج للذرية ، ولكن مع توالى الزمن وتتابعه نجد أن بعضا من مطلوبات الدين يتم نسيانها .

إن هذا دليل على أن الناس قد غفلت عن المنهج ، وهكذا نرى أن الغفلة عن المنهج إنما تتم على مراحل ، فبعد بلاغ المنهج نجد إنسانا يغفل عن جزئيةٍ ما فى هذا المنهج ، وتنبهه نفسه وتلومه على تركه لتلك الجزئية ، ونسمى صاحب هذا الموقف بصاحب النفس اللوامة ، إنه يفعل السيئة لكن نفسه تعود إلى اليقظة لمنهج الله ؛ لأنه يتمتع بوجود خلية المناعة الإيمانية فيه ، وهناك إنسان آخر يستمرىء المخالفة للمنهج وتلح عليه نفسه بالمخالفة ؛ إنه صاحب النفس الأمارة بالسوء ، وتتوالى به دواعى ارتكاب السيئات ، ومثل هذا الإنسان يحتاج إلى غيره من خارج نفسه ليلفته إلى الخير .

وماذا يحدث للمجتمع إذا صار أفراده جميعا من أصحاب النفس الأمارة بالسوء ؟

إن معنى ذلك أن الفساد قد طم ، ولابد من مجىء رسول ؛ لأن مراد الحق سبحانه هو هداية الناس ، لقد خلقنا سبحانه وله كل صفات الكمال ، ولم يضف خلقُنا إليه شيئا . وها هو ذا الحديث القدسى الذى رواه أبو ذر رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال :

« يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى ، وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا ، يا عبادى ، كلكم ضال إلا من هديته فاستهدونى أهدكم ، يا عبادى ، كلكم جائع إلا من أطعمته ، فاستطعمونى أطعمكم ، يا عبادى ، كلكم عار ، إلا من كسوته ، فاستكسونى أكسكم ، يا عبادى ، إنكم تخطئون بالليل والنهار ، وأنا أغفر الذنوب جميعا ، فاستغفرونى أغفر لكم ، يا عبادى إنكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى ، ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى ، يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ، ما زاد ذلك فى ملكى شيئا ، يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئا ، يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم ، قاموا فى صعيد واحد ، فسألونى فأعطيت كل إنسان مسألته ، ما نقص ذلك مما عندى إلا كما ينقص المِخيط إذا أدخل البحر ، يا عبادى ، إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ، ثم أوفيكم إياه ، فمن وجد خيرا فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه »[1]

إن الله سبحانه وتعالى قد خلقنا وهو من الأزل إلى الأبد ، فى تمام صفات الكمال ولم يضف له هذا الخلق شيئا ، فهو القائل :

﴿ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ ﴾

(سورة الذاريات)

---

(١) رواه مسلم والترمذى وابن ماجه .

إذن فعندما يشرع لنا الحق أمرًا فهو يشرعه لمصلحتنا ؛ إنه سبحانه يحب لصنعته أن تظفر بسعادة المنهج ؛ لذلك أنزل المنهج « بافعل ولا تفعل » وحين يقول المنهج : « افعل ولا تفعل » فهو لا يريد أن يحدد حرية الحركة على الخلق إلا بما يحميهم ، إنه يحدد حرية هنا ليحمى حرية هناك . فعندما حرم الله السرقة ـ على سبيل المثال ـ فالأمر شامل لكل البشر ، فلا يسرق أحد أحدا .

إن الحق سبحانه حين منع يدَ واحدٍ من السرقة ، كان فى ذلك منع لملايين الأيدى أن تسرق من هذا الإنسان ، وفى هذا حماية لكل البشر من أن يسرق إنسان إنسانا آخر ، وفى ذلك كسب لكل إنسان ، فساعة تأخذ التشريع لا تأخذه على أنه مطلوب منك ، ولكن خذه على أنه مطلوب منك ومطلوب لك أيضا .

ومثال آخر ، لقد حرم المنهج على العبد المؤمن أن يمد عينيه إلى محارم غيره ، ولم يكن هذا التحريم لعبد واحد ، إنما لكل إنسان مؤمن ، وبذلك لا تمتد أى عين إلى محارم هذا العبد ، لقد جاء الأمر لك بغض البصر عن محارم غيرك وأنت واحد ، وكففنا من أجلك ملايين الأبصار كيلا تمتد إلى محارمك .

إذن فكل عبد مؤمن يكسب حياة مطمئنة من وجود التشريع ، وكل التشريعات إنما جاءت لصالحنا جميعا ، ولذلك كان الحق رحيما بنا لأن رَكْبَ الرسل قد تواصل واستمر فى الكون منذ آدم ، وإلى محمد صلى الله عليه وسلم ، والمنهج الذى جاء به كل هؤلاء الرسل لا تناقض فيه أبدا ، لأن فى هذا المنهج مصلحة للخلق ، لذلك فلا يمكن أن يكون موكب رسول قد أتى ، ليناقض موكب رسول آخر .

لكن ما الذى يأتى بالتناقض بين الأديان والمشرع واحد ؟ وكل الناس عيال له ؟

إننا نبرىء الرسل من التناقض ، وإن حاول البعض أن يصوروا الأمر كذلك فلنعلم أن أتباع الرسل هم الذين يريدون لأنفسهم سلطة زمنية يتحكمون بها فى الدنيا ، فالذين كانت لهم سلطة زمنية فى دين كاليهودية أو النصرانية فعلوا ذلك .

وعندما جاءت النصرانية على اليهودية قال أحبار اليهود : نحن لا نريد النصرانية لماذا ؟ لأن السلطة الزمنية كانت فى أيديهم ، ولو أن هؤلاء الأحبار ظلوا باقين على

ما أنزله الله عليهم من منهج لقَبِّلُوا يدى أى رسول قادم شاكرين له مقدَمَه ومجيئه وقالوا له : ساعدنا على أن نعمق فهمنا لمنهج الله . . إذن فالخلاف لا يحدث إلا حين توجد أهواء لها سلطات زمنية ، وموكب الرسالات من يوم أن خلق الله الإنسان هو منهج متساند لا متعاند .

وحينما يأتى رسول ليجد أناسا غير مؤمنين بإله فالمشكلة تكون سهلة ، لأنه سيلفتهم إلى إله واحد ، وبالمنهج الذى يريده الله ، لكن المشكلة تكون كبيرة مع الجماعة التى لها رسول وهم منسوبون إلى السماء ، فإذا ما جاء رسول من الله فهو يجىء وهؤلاء الأتباع قد أخذوا من ادعائهم بالانتساب لرسالة رسول سابق سلطة زمنية كما حدث مع اليهود والنصارى ، فتعصبوا للدين الذى كانوا عليه متناسين أن كبارهم قد حرفوا المنهج لحساب السلطة الزمنية .

وقد استمر موكب الرسل إلى الخلق ليحمىَ الله الخلق من سيادة الانحراف واصطفى الله أمة محمد صلى الله عليه وسلم لتحمل الأمانة فلن يأتى لها رسول بعد محمد صلى الله عليه وسلم ؛ لأن الله قد ضمن بقاء الخير فى هذه الأمة ، فإذا رأيت أناسا بالغوا فى الإلحاد فثق أن هناك أناسا زادهم الله فى المدد حتى يحدث التوازن ؛ لأن الحق هو القائل :

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

وفى موضع آخر من القرآن الكريم يقول الحق سبحانه :

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

إذن فإن امتنع الوازع النفسى فى النفس اللوامة عند فرد من أمة محمد صلى الله عليه وسلم فسوف يأتى أناس مسلمون ينبهونه إلى المنهج ، والحق سبحانه وتعالى لا يعصم الناس من أن يخطئوا فهو القائل :

﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣ ﴾

(سورة العصر)

إن الحق جاء بكلمة « وتواصوا » ، ولم يأت بكلمة « وصوا » وذلك لنفهم أن التوصية أمر متبادل بين الجميع ، فساعة يوجد إنسان فى لحظة ضعف أمام المنهج توجد لحظة قوة عند غيره فيوصيه .

وترد هذه المسألة أيضا إلى الموصى ، فقد تأتى له لحظة ضعف أمام المنهج ؛ فيجد من يوصيه وهكذا نرى أنه لا يوجد أناس مخصوصون ليوصوا ، وآخرون مهمتهم تلقى التوصية ، إنما الأمر متبادل بينهم ، وهذا هو التكافل الإيمانى ، والإنسان قد يضعف فى مسألة من المسائل فيأتى أخ مؤمن يقول له : ابتعد عن هذا الضعف ، إن هذه المسألة تحدث بالتناوب لمقاومة لحظات الأغيار فى النفس البشرية ؛ لأن لحظات الأغيار لا تجعل الإنسان يثبت على حال ، فإذا ما رأينا إنسانا قد ضعف أمام التزام ما فعلينا أن نتواصى بالحق ونتواصى بالصبر ، وأنت أيضا حين تضعف ستجد من أخوتك الإيمانية مَنْ يوصيك .

هذا هو الحال فى أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، أما الأمم السابقة عليها فقد كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ، ولذلك كان لابد أن تتدخل السماء وتأتى برسول جديد ومعه معجزة جديدة تلفت العقول لفتا قسريا إلى أن هناك أشياء تأتى بها المعجزة ، وهى خرق ناموس الكون ، وفى ذلك لفت من الله للناس إلى مناطق القدرة .

وأخذ الله الميثاق على الأنبياء بأن يبلغ كل نبى قومه هذا البلاغ ، انتظروا أن

ترسل إليكم السماء رسلا ، وساعة يجىء الرسول المبلغ عن الله منهجه فكونوا معه ، وأيدوه .

كان الرسل عليهم جميعا السلام مأمورين أن يضعوا فى المنهج . وصلبه أن السماء حينما تتدخل وتأتى برسول جديد فلابد أن يتبعه أقوامهم ، وألا يتعصبوا ضد الرسول القادم ، بل يسلمون معه ويرحبون به ؛ لأن الرسول إنما يجىء ليعاون الناس على المنهج الصحيح ، لكن الأتباع الذين يعشقون السلطة الزمنية تعمدوا التحريف ، ومن أجل أن يحمى الحقُّ خلقه من هذا المرض أنزل الميثاق الذى أخذه على النبيين ، فقال :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ﴾

(من الآية ٨١ سورة آل عمران)

قد يقول قائل : إن هذا القول يصلح عندما يأتى رسول معاصر لرسول مثلما عاصر شعيب سيدنا موسى عليه السلام ، وكما عاصر لوط سيدنا إبراهيم عليه السلام ، ونقول : هذا يحدث ـ أيضا ـ وإن لم تتعاصر الرسل ، فالحق سبحانه قد أراد لكل رسول أن يعطى لقومه البلاغ الواضح ، وإن لم يتعاصر الرسولان فلابد أن يعطى الرسول مناعة ضد التعصب ، فما داموا قد آمنوا بالرسول واتبعوه فعليهم حسنَ استقبال الرسول القادم من بعد رسولهم ، وكان على كل رسول أن يبلغ قومه : كونوا فى انتظار أن تتدخل السماء فى أى وقت ، فإذا تدخلت السماء فى أى وقت من الأوقات ، وجاءت برسول مصدق لما معكم فإياكم أن تقفوا منه موقف المضارّة ، وإياكم أن تقفوا منه موقف العداوة ، بل عليكم أن « تنصروه » وهذا قول واضح وجلى ولا لبس فيه .

﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ ﴾

(من الآية ٨١ سورة آل عمران)

ونقول فى شرح معنى : « رسول مصدق لما معكم » .

إن الدين يأتى بقضايا متفق عليها ؛ لأن العقائد واحدة ، والأخبار واحدة ، والقصص واحد ، لكن الذى يختلف هو الحكم التشريعى الذى قد يناسب زمنا ولا يناسب زمنا آخر ، فإذا جاء الرسول بكتاب مصدق لما معكم فى الأمور الدائرة فى منهج العقائد ، أو منهج الأخبار أو منهج القصص فلابد لكم أن تصدقوه .

لكن اليهود لم يفعلوا ذلك ؛ لأن الرسول جاء ليعيد هداية الجماعة التى آمنت بالرسل والتى تؤمن بإله ، وكان مجىء محمد صلى الله عليه وسلم بالمنهج الواضح العقيدة والأخبار الصحيحة غير المحرفة والقصص التى تدعم المنهج كما جاء بالتشريع المناسب وكان مجىء النبى الخاتم مزلزلا لمن استمرءوا السلطة الزمنية ، فمنهم من أصر على اتباع رسولهم فقط وبالمنهج الذى تم تحريفه ورفضوا اتباع الرسول الجديد ، ومنهم جماعة أخرى آمنت ، بالرسول صلى الله عليه وسلم ، وكانت هناك جماعة ثالثة تؤمن برسول آخر ، والخيبة تأتى نتيجة للتعصب ، ولذلك كانت دعوة الإسلام هى لتصفية العقائد ، ودعوة لكل متبع لأى رسالة سابقة أن يدرس ويناقش ، هل الدين الخاتم قد جاء بما يختلف عن الأديان السابقة فى العقائد ؟ أو جاء مصدقًا لها ؟

لقد جاء الدين الخاتم مصدقا لما سبقه فى العقائد والأخبار والقصص وإن اختلف فى التشريعات التى تناسب زمنا ولا تناسب زمنا آخر ، فكأن الحق سبحانه وتعالى أراد أن يعصم البشرية من العصبية الهوجاء ، والعصبية العمياء التى تنشأ من اتباع رسول لتقف سدا حائلا أمام رسول آخر ؛ فالله حين أرسل كل رسول قد أعطاه الأخبار والحقائق وأنه سبحانه قد أخذ الميثاق على كل نبى أرسله بأن يكون على استعداد هو والمؤمنون معه لتصديق كل رسول يأتى معاصرا ومصدقا لما معهم ، وأن يؤمنوا به ، وأن يبلغ كل رسول أمته بضرورة هذا الإيمان .

لماذا ؟ لأن الحق سبحانه وتعالى يريد من الركب الإيمانى المتمثل فى مواكب الرسل ألا يكون بعضهم لبعض عدوًا ، بل عليهم أن يواجهوا أعداء قضية الدين كلها . فالذى يجعل الإلحاد متفشيا فى هذا العصر هو أن المنسوبين إلى الأديان السماوية مختلفون ، وربما كانت العدواة بينهم وبين بعضهم أقوى من العدواة بينهم وبين

الملحدين والمنكرين لله ، وهذا الاختلاف يعطى المجال للملحدين فيقولون : لو كانت هذه الأديان حقا لاتفقوا وما اختلفوا ، فما معنى أن يقول أتباع كل رسول: إنهم يتبعون رسولا قادما من السماء ؟

إن الملحدين يجدون من اختلاف أتباع الديانات السماوية فرصة ليبذروا فى الناس بذور الإلحاد ، ولا يجدون تكتلا ولا قوة إيمانية لمن يؤمن بالسماء أو بمنهج السماء لكن الحق سبحانه يقول : « وإذ أخذ الله ميثاق النبيين » وهذا يعنى أنه سبحانه قد أخذ الميثاق على كل نبى ساعة أرسله أنه قد آتاه الكتاب والحكمة ، وأنه إذا جاءكم رسول مصدق لهذا الكتاب وتلك الحكمة فعليكم الإيمان به ، ولا يكفى إعلان الإيمان فقط ، بل لابد أن يكون النبى ومن معه فى نصرة الرسول الجديد نقول : ولو عمل أتباع كل نبىّ بهذا العهد والميثاق لما كان لهؤلاء الملحدين حجة ويضيف سبحانه : « قال ، ءأقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى قالوا أقررنا قال فاشهدوا » والإقرار سيد الأدلة كما يقولون ؛ والإصر هو العهد الشديد ، ولذلك يقال : « آصرة المودة » أى الرابطة الشديدة المعقودة . وقال الموكب الإيمانى للأنبياء موجهين إقرارهم لله تعالى « أقررنا » ، فقال الحق سبحانه : « فاشهدوا » . والشهادة دائما تقتضى شاهدا ومشهودا عليه ومشهودا به .

ومادام الحق سبحانه هو الذى يقول للنبيين الذين أخذوا منه العهد والميثاق الحق : « فاشهدوا » ، إذن فهم فى موقف الشاهد ، وما المشهود عليه ؟ وما المشهود به ؟ هل يشهدون على أنفسهم ؟

أو يشهد كل نبى على الأنبياء الآخرين ؟

أو يشهد أنه قد بلغ أمته هذا القرار الإلهى ؟

إن الرسول يشهد على أمته ، وأن الأنبياء يشهد بعضهم لبعض .

إذن قد يكون الشاهد نبيا ، والمشهود له نبى آخر ، والمشهود به أن يؤمنوا بالرسول القادم وينصروه .

وقد يكون الشاهد النبى ، والمشهود عليه هى أمته بأنه قد بلغها ضرورة الإيمان بالرسول القادم بمنهج السماء ؛ لأن الأمة مادامت قد آمنت برسول فعليهم مؤازرة هذا الرسول ، ومؤازرة مَنْ يأتى من بعده ، وذلك حتى لا يتبدد ركب الإيمان وأمام باطل الإلحاد :

﴿ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾

(من الآية ٨١ سورة آل عمران)

ولنرتب الشهادات التى وردت فى هذه الآية الكريمة : الأنبياء يشهد بعضهم على بعض ، أو الأنبياء يشهدون على أممهم ، ثم شهادة الله على الأنبياء .

ومادام الأمر قد جاء بهذا التوثيق فعلينا أن ننبه أنه إذا ما وجدنا دينا سابقا يتعصب أمام دين لاحق ، بعد أن يأتى هذا الدين بالمعجزة الدالة على صدق بلاغ ذلك الرسول عن الله فلنعلم أنهم خانوا هذه القضية . وسبب ذلك إنما يرجع إلى أن الله يريد أن يحتفظ للدعوة إلى الإيمان ، بانسجام تام ، فلا يتعصب رسول لنفسه ولا لقوميته ولا لبيئته ، ولا يتعصب أهل رسول لملتهم أو نحلتهم ؛ لأنهم جميعا مبلغون عن إله واحد لمنهج واحد ، فيجب أن يظل المنهج مترابطا فلا يتعصب كل قوم لنبيهم أو دينهم ، وهذا ليكون موكب الرسالات موكبا متلاحما متساندا متعاضدا ، فلا حجة من بعد ذلك لنبى ، ولا لتابع نبى أن يصادم دعوة أى رسول يأتى ، مادام مصدقا لما بين يديه .

لقد أعلمنا الحق أنه قد عرض شهادة الأنبياء على بعضهم ، وشهادة الأنبياء على أممهم ، وشهادة الله سبحانه على الجميع ، وذلك أوثق العهود وآكدها . ولذلك فكل من استمع لهذا يجب أن ينصر أى رسول يأتى مصدقا لما معه ، وبذلك يزداد موكب الإيمان تآزرا وتلاحما ، فلا يأتى مؤمن برسالة من السماء ليصادم مؤمنا آخر برسالة من السماء . . ولندع المصادمة لمن لا يؤمنون برسالة السماء ، وحين يتكاتف المؤمنون برسالة السماء يستطيعون الوقوف أمام هؤلاء الملاحدة ، وبعد هذا البيان الواضح يقول الحق :

﴿ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

معنى « تولى » هى مقابل « أقبل » . و« أقبل » تعنى أنه جاء بوجهه عليك . و«تولى» أعرض كما نقول نحن فى تعبيراتنا الشائعة : « أعطانى ظهره » . ومعنى هذا أنه لم يأبه لى ، ولم يقبل على . إذن فالمراد مِنْ أَخْذ العهدِ أن يُقبلَ الناسُ على ذلك الدين ، فالذى يُعرض ويعطى الإيمان الجديد ظهره يتوعده الله ويصفه بقوله : « فمن تولى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون » بعد ماذا ؟ إنه التولى بعد أخذ العهد والميثاق على النبيين ، وشهادة الأمم بعضها على بعضها ، وشهادة الله على الجميع ، إذن فلا عذر لأحد . فمن أعطى ظهره للنبى الجديد ، فماذا يكون وعيد الله له ؟

إن الحق يصفهم بقوله : « فأولئك هم الفاسقون » أى أن الوعيد هو أن الله يحاسبه حساب الفاسقين ، والفسق ـ كما نعلم ـ هو الخروج عن منهج الطاعة . والمعانى ـ كما تعرف ـ أخذت وضعها من المحسوسات . لأن الأصل فى الوعى البشرى هو الشىء المحس أولا ، ثم تأتى المعنويات لتأخذ من ألفاظ المحسوسات . والفسق فى أصل اللغة هو خروج الرطبة عن قشرتها ؛ فالبلح حين يرطب ، يكون حجم كل ثمرة قد تناقص عن قشرتها . وحينما يتناقص الحجم الطبيعى عن القشرة تصبح القشرة فضفاضة عليه ، وتصبح أى حركة عليه هى فرصة لانفلات الرطبة من قشرتها .

ويقال : « فسقت الرطبة » أى خرجت عن قشرتها . وأَخَذَ الدينُ هذا التعبير وجعله وصفاً لمن يخرج عن منهج الله ، فكأن منهج الله يحيط بالإنسان فى كل تصرفاته ، فإذا ما خرج الإنسان عن منهج الله ، كان مثل الرطبة التى خرجت عن قشرتها .

ونحن أمام فسق من نوع أكبر ، فهناك فسق صغير ، وهناك فسق كبير . وهنا

نسأل أيكون الفسق هنا مجرد خروج عن منهج طاعة الرسول ؟ لكن هذا الخروج يوصف به كل عاصٍ ، أى أن صاحبه مؤمن بمنهج وفسق جزئيا ، إننا نقول عن كل عاصٍ : « إنه فسق » أى أنه مؤمن بمنهج وخرج عن جزئية من هذا المنهج ، أما الفسق الذى يتحدث عنه الحق هنا فهو فسق القمة ؛ لأنه فسق عن ركب الإيمان كله ، فإذا كان الله قد أخذ العهد ، وشهد الأنبياء على أممهم ، وشهدت الأمم بعضها على بعض ، وشهد الله على الجميع ، أبعد ذلك تكون هناك فرصة لأن يتولى الإنسان ويعرض ؟

ثم لماذا يتولى ويعرض ؟ إنه يفعل ذلك لأنه يريد منهجا غير هذا المنهج الذى أنزله الله ، فلو كان قد اقتنع بمنهج الله لأقبل على هذا المنهج ، أما الذى لم يقتنع فإنه يعرض عن المنهج ويطلب منهجا غيره فأى منهج تريد يا من لا ترضى هذه الشهادة ولا هذا التوثيق ؟ خصوصا وأنت تعلم أنه لا يوجد منهج صحيح إلا هذا المنهج ، فليس هناك إله آخر يرسل مناهج أخرى .

وهكذا نعرف أنه لا يأتى منهج غير منهج الله ، إلا منهج من البشر لبعضهم بعضا ، ولنا أن نقول لمن يتبع منهجا غير منهج الله : من الذى جعل إنسانا أولى بأن يتبعه إنسان ؟ إن التابع لابد أن يبحث عمن يتبعه ، ولابد أن يكون الذى يتبعه أعلى منه ، لكن أن يتبع إنسان إنسانا آخر فى منهج من عنده ، فهذا لا يليق ، وهو فسق عن منهج الله ؛ لأن المساوى لا يتبع مساويًا له أبدا ، ومن فضل الله سبحانه أنه جعل المنهج من عنده للناس جميعا حتى لا يتبع إنسان إنسانا آخر . لماذا ؟ حتى لا يكون هوى إنسان مسيطرا على مقدرات إنسان آخر ، والحق سبحانه لاهوى له . إن كل إنسان يجب أن يكون هواه تابعا لله الذى خلق كل البشر .

ومادام ليس هناك إله آخر فما المنهج الذى يرتضيه الإنسان لنفسه ؟

إن المنهج الذى يرتضيه الإنسان لنفسه لو لم يتبع منهج الله هو منهج من وضع البشر ، والمنهج الذى يضعه البشر ينبع دائما من الهوى ، ومادامت الأهواء قد وجدت ، فكل مشرِّع من البشر له هوى ، وهذا يؤدى إلى فساد الكون . قال تعالى :

﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم

بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾

(سورة المؤمنون)

فإذا كانوا لا يرتضون منهج الله ، فأى فسق هم فيه ؟ إنه فسق عظيم ؛ لأن الله قد أخذ عليهم العهد وعلى أنبيائهم ووثق هذا العهد ، أفغير الله يبغون ؟ نعم ، إنهم يبغون غير الله ومن هو ذلك الغير ؟ أهو إله آخر ؟ لا ، فليس مع الله إله آخر ، بل هم قد جعلوا الخلق مقابل الخالق ، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾

إنهم ماداموا غير مؤمنين برسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى أرسله الله نبيا ورسولا فإن ذلك يكشف رغبتهم فى أنهم يريدون منهجا غير منهج الله ، وليس أمامهم إذن إلا مناهج البشر النابعة من الأهواء ، والتى تقود حتما إلى الضلال ، إن الحق سبحانه وتعالى يريد لخلقه أن يكونوا منطقيين مع أنفسهم ، إنه الحق سبحانه وتعالى قد أوضح لنا فى منهجه ، وقال لنا هذا المنهج : أنتم مستخلفون فى الكون ، وأنتم أيها الخلفاء فى الأرض سادة هذا الكون ، سادة يخدمكم الكون كله ، وانظروا إلى أجناس الوجود تجدوها فى خدمتكم ، الحيوان أقل منكم بالفكر . والنبات أقل من الحيوان بالحس . والجماد أقل من النبات .

إذن فأجناس الكون من حيوان ونبات وجماد ترضخ لإرادتك أيها الإنسان ، فالنبات يخدم الحيوان والحيوان يخدمك أيها الإنسان ، والجماد يخدم الجميع ، والعناصر التى نأخذها نحن البشر من الجماد يستفيد منها أيضا النبات والحيوان . إذن فكل جنس فى الوجود تراه بعينيك إنما يخدم الأجناس التى تعلوه .

الجماد يخدم النبات .
والجماد والنبات يخدمان الحيوان .
والجماد والنبات والحيوان فى خدمة الإنسان ، وأنت أيها الإنسان تخدم من ؟

كان من واجب عقلك عليك أيها الإنسان أن تفكر فيمن ترتبط به ارتباطا يناسب سيادتك على الأجناس الأخرى ، كان لابد أن تبحث عمن أعطاك السيادة على الأجناس الأخرى .

هل أنت أيها الإنسان قد سخرت هذه الأجناس بقدرتك وقوتك ؟

لا ؛ فلست تملك قدرة ذاتية تتيح لك ذلك ؟ أما كان يجب عليك أن تفكر ما هى القوة التى سخرت لك ما لا تقدر عليه ، فخدمتك حين لا توجد لك قدرة ، وخدمتك وأنت نائم تغط فى نوم عميق ؟ أما كان يجب أن تفكر هذا الفكر ؟ إنك أيها الإنسان يجب أن تكون منطقيا مع نفسك ، وأن تبحث لك عن سيد يناسب سيادتك على غيرك . والكون لا يوجد فيه سيد عليك ؛ لأن الكون محس ، فإن جاءك من يحدثك بأن غيبا هو الإله يطلب أن تكون فى خدمته فيجب أن تقول : « إن هذا كلام منطقى بالنسبة لوضعى فى الكون » وبعد ذلك انظر إلى الكون ، فأنت فى الكون لست وحدك بل هناك أجناس أخرى ، وكل جنس من الأجناس له قانونه وله مهمته ، للحيوان مهمة ، وللنبات مهمة ، وللجماد مهمة . فهل وجدت جنسا من الأجناس تمرد على مهمته ؟ لا .

إن الحصان مثلا ، تستخدمه كمطية عليها وسادة من حرير وجلد ولها لجام من فضة لتركبه ، وتجد هذه المطية فى يوم آخر تحمل سماد الأرض من روث الحيوان وما تأبت ، لقد أدت الخدمة لك راكبا ، وأدت الخدمة لك ناقلا ، وما تمردت عليك أبدا . كل الأجناس ـ إذن ـ تؤدى مهمتها كما ينبغى ، فاستقام الأمر فيها ، ومادام الأمر قد استقام فيها ، فبأى شىء استقام ؟ إن الله هو الذى خلقها ذللها ، قال لها : « كونى فى خدمة الإنسان مؤمنا كان أو كافرا » وفى هذا الأمر عدالة الربوبية ، فلا تتأخر أو تشذ عن حركتها فى خدمة الإنسان .

أرأى أحدكم الشمس مرة قالت : لم يعد الخلق يعجبوننى ، ولن أشرق عليهم

وسأحتجب اليوم ؟! أتمرد الهواء وقال : لا ، إن الخلق لم تعد تستحق تنفس الهواء ، لذلك لن أمكنهم من الانتفاع بى .

أرأينا المطر امتنع ؟ هل استنبت الإنسان أرضا صالحة للزراعة واستعصت عليه ؟ لا .. فكل شىء فى الوجود يؤدى مهمته تسخيرا وتذليلا .

لذلك يقول الحق :

﴿ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾

(سورة يس)

والحق سبحانه وتعالى يطلق بعضا من الحيوان فلا يذلل ، ولا يستأنس ، وذلك حتى تعلم أيها الإنسان أنك لم تستأنس الجمل بقدرتك فإن كانت لك قدرة مطلقة على الكون فاستأنس بعض ثعابين هذا العالم أو استأنس الأسد . و أنت أيها الإنسان ترى فى هذا الكون بعضا من الحيوانات والمخلوقات شاردة مثل الثعابين والحيوانات المتوحشة . بغير استئناس ليدلنا الحق على أن هذا الذى يخدمك لو لم يذلله الله لك لما استطعت أنت بقدرتك أن تذلله ، إنه تذليل وتسخير وخضوع لهذه المخلوقات منحه الله تعالى لك أيها الإنسان تفضلا منه ـ سبحانه ـ مع عجزك وضعفك .

ولم نجد شيئا نافعا قد عصى الإنسان فى الكون ، لأن كل الخلق مسخر من الله لخدمة الإنسان كافرا كان أو مؤمنا ، وهذا هو عطاء الربوبية ، لأن عطاء الربوبية يشمل الخلق جميعا ، فالخالق الأكرم هو رب الناس كلهم ويتولى تربيتهم جميعا ، ولذلك تستجيب الأجناس من غير الإنسان للإنسان سواء أكان مؤمنا أم كافرا . فإن أحسن الكافر استخدام الأسباب فإن الأسباب تعطيه ولا تعطى المؤمن الذى لا يستخدم الأسباب ، أو لا يُحسن استخدامها فهذا هو عطاء الربوبية ، والربوبية للجميع . أما عطاء الألوهية فهو « افعل ولا تفعل » وهو عطاء للمؤمنين فقط .

فإذا كانت هذه هى صورة الكون وهو يؤدى مهمته بلا شذوذ فيه ، ومنسجم فى ذاته انسجاما عجيبا فلنا أن نسأل « من أين جاء الخلل فى الكون ؟ » إن الخلل قد

جاء منك أيها الإنسان . ولهذا فنحن لا نجد فسادا فى الكون إلا وللإنسان مدخل فيه ، أما مالا مدخل للإنسان فيه فلا فساد فيه أبدا .

أرأيت أحدا قد اشتكى من أن الهواء قصر ؟ لا .

لماذا ؟ لأن أحدا لا دخل له بمسألة الهواء هذه أبدا ، صحيح أننا نتدخل فى الهواء بتلويثه بالعادم والفضلات ، وصحيح أيضا أن الحق يُكرم الخلق باكتشافات قد تصلح من هذا الفساد إذن ، فحين يتدخل الإنسان فإن الشىء قد يفسد . لكن هل معنى ذلك ألا نتدخل ؟ هل نقف من الكون مكتوفى الأيدى ؟ لا ، بل يجب أن نتدخل فى الكون ، ولكن بمنهج الله .

إنك إن تدخلت فى الكون بمنهج الله ، فكل شىء يسير كما يسير الكون الذى لا منهج له إلا الخضوع والتسخير ، فكما أدت الشمس مهمتها والجماد مهمته ، والحيوان مهمته ، وأنت أيها الإنسان مطلوب منك أن تؤدى مهمتك ، وهى أن تطيع الله ، تلك الطاعة التى تتلخص مطلوباته منك فى : « افعل كذا ولا تفعل كذا » فإن انتظمت مع المنهج بـ « افعل » و« لا تفعل » تكن قد انسجمت مع الكون .

إن الله سبحانه يزيّل هذه القضية ويختمها باستفهام تنقطع وتنفطر له قلوب المؤمنين :

﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

إن كل شىء فى السماوات وفى الأرض قد أسلم لله طوعا أو كرها . وإذا ما تساءلنا ، وما معنى « طوعا ؟» فالإجابة هى طاعة التسخير ، كما قالت السماوات والأرض فى النص القرآنى الحكيم :

﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ

أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ ﴾

(سورة فصلت)

فكل ما لا تكليف له جاء طائعا مسخرا ، وما معنى : « كرها » ؟ إن بعضا من العلماء قد قال : إن « طوعا » تشمل أجناس الملائكة ، والجماد ، والنبات ، والحيوان ، فكل منهم يؤدى مهمته بخضوع ولا يعترض أحد منهم ولا يملك أحدهم قدرة على العصيان ، وأما عن « كرها » فقد فهم بعض العلماء أنهم الناس الذين يخدمون الناس بالقوة كالعبيد مثلا ، ولهؤلاء نقول : لا يصح ولا يستقيم أن نعطى خصوم الإسلام فرصة ليقولوا إن الإسلام قد أكره أحدًا من البشر أن يخدم أحدا كرها ؛ لأن الحق سبحانه قال :

﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ﴾

(سورة البقرة)

فمادام الله لم يكره أحدًا على الإيمان به فكيف يكره إنسانا ليخدم إنسانا آخر ؟! ولهذا فإننا يجب أن نفهم كرها على وضعها الحقيقى ، والحق سبحانه أبلغنا أن هذا الكون كله مسخر له ، لأنه سبحانه هو الذى خلقه ولا إله غيره وهذه مسألة مسلم بها ، فالكون كله لله ، وهو المدبر والقاهر له ، قال الحق :

﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ ﴾

(سورة المؤمنون)

ومادام هو الواحد وهو الخالق فلن يتمرد أحد على مراده ، وكان يجب أن يفهم الإنسان مهمته على أنه هو الوحيد الذى كلفه الله ؛ لأن بقية الأجناس لا اختيار لها وهى غير مكلفة كما كلف الله الإنسان بـ « افعل » و« لا تفعل » إذن فالتكليف فرع

الاختيار ؛ فالمنهج يقول لك : « افعل كذا ولا تفعل كذا » لأن الذى وضعه يعلم أنه قد خلقك صالحا لأن تفعل ما يأمرك به ، وصالحا لأن تفعل ما لا يأمرك به .

إن اليد ـ مثلا ـ مخلوقة لتتحرك حسب إرادة صاحبها ، بدليل أن الإرادة إن شُلت وانقطع الخيط الموصل للإرادة الآمرة إلى الجارحة الفاعلة عندئذ يحاول الإنسان المصاب بذلك ـ والعياذ بالله ـ أن يرفع يده فلا يستطيع ، فاليد مسخرة لإرادة الإنسان ، وإرادتك أيها الإنسان عندما تسير فى ضوء منهج الله فإنك توجهها فى ضوء « افعل » و« لا تفعل » .

وعندما يقال لك مثلا : « لا تضرب بها أحدًا » فمعنى ذلك أن اليد صالحة لأن تضرب ، وعندما يقال لك : « خذ بيد العاثر » فيدك قادرة على أن تأخذ بيد العاثر . ، فأنت مخلوق على هيئة الطواعية من جوارحك لإرادتك . ويأتى المنهج ليقول لك : « نفذ الإرادة فى كذا ولا تنفذ الإرادة فى كذا » . .

إذن فالإنسان عندما يتبع المنهج فهو يتفق مع الأشياء المسخرة تمام الاتفاق ، ويؤدى كل شىء على خير أداء ، لكن متى يختلف الإنسان عن الانسجام مع الأجناس الأخرى فى الكون ؟ إن الإنسان يختلف عن الانسجام عندما لا يطبق المنهج ، فيشذ عن الركب فى الكون كله ، ولتقرأ قوله سبحانه وتعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿١٨﴾ ﴾

(سورة الحج)

إنها الأجناس كلها ساجدة ، الشمس ساجدة ، القمر ساجد ، والنجوم ، والجبال ، كل هذه الجمادات ساجدة ، وكذلك الشجر والنبات ساجد لله ، والحيوان والدواب ساجدة لله ، وكثير من الناس سجود ، لكن فى مقابل هذا الكثير الساجد من البشر ، هناك كثير غير ساجد لذلك حق عليه العذاب ، ولو أن الإنسان قد أخذ

منهج الله فنفذه لصار كبقية الأجناس ، لكن الإنسان اختلف ، وقال : « أنا سوف آخذ اختيار تحمل الأمانة ، لأنى عالم وعاقل » كما جاء فى القول الحق :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾

(سورة الأحزاب)

فلو أخذ الإنسان منهج الله فى « افعل » و« لا تفعل » ، لانسجم الإنسان مع الوجود كله وحين ينسجم الإنسان مع الوجود كله فلن تأتى منه مخالفة أبدا كما لا تأتى مخالفة فى الوجود من غير الإنسان ، وعند ذلك يصبح الكون مثاليا فى الانسجام . ونحن نعرف أن الطموحات العلمية حين تعمل وتُشغل العقل فى أمر ما فإنها تريد الخير ، ولكنها تعلم شيئا ، ويغيب عنها شىء آخر ، ولو أخذوا عن الله العليم بكل شىء لصارت الدنيا إلى انسجامها .

إن المخترعين الذين صمموا المحركات التى تتحرك بسائل البنزين قاموا بتسهيل الحركة على الإنسانية ، ولكن العادم والمخلفات الناتجة من البنزين صنعت ضررا بالكون ، ودليل ذلك أن العلماء الآن يبحثون عن أساليب لمقاومة تلوث البيئة . وعندما كان الوقود هو الحطب لم يكن هناك تلوث للبيئة ، لماذا ؟ لأن كل عنصر كان يؤدى مهمته ، فجزء من احتراق الحطب كان يتحول إلى كربون ، وجزء آخر يتحول إلى غازات ، وتنصرف كل الأشياء إلى مساراتها .

إن هذا يدلنا على أن الإنسان قد دخل إلى المخترعات المعاصرة بنصف علم . لقد قدّر الإنسان أنه يريد تخفيف الحركة ، وينقل الأثقال ويختصر المسافات ، لكنه لم ينظر إلى البيئة وتلوثها ، فنشأ عادم يفسد البيئة ، لكن لو كان عند الإنسان القدرة الشاملة على العلم لكان ساعة اختراع هذه المحركات قد بحث عن وضع معادلة لتعدل من فساد العادم .

ولننظر إلى عظمة الحق ، إنه يترك للعقل البشرى أن يتقدم . ولكن العقل البشرى قاصر وينسى من الأشياء ما ينتج عنه الضرر أخيرا . إن الذين اخترعوا

المبيدات الحشرية كانوا يظنون أنهم قاموا بفتح جديد فى الكون ، وتشاء إرادة الحق أن يقوم بتحريم هذه المبيدات القوم أنفسهم الذين اخترعوها ؛ لأنهم وجدوا منها الضرر ، لذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ﴾

(سورة الكهف)

إنك إن أردت أن تكمل صنعتك فابحث عن الحسن فى ضوء منهج الله ، والحق سبحانه يضرب لنا المثل الواضح . إننا نعرف أن عادم صناعتنا ضار كعادم المصانع والسيارات وغيرها ، لكن عادم خلق الله فى الحيوان نافع ، فالإنسان يأخذ روث الحيوان ويصنع منه السماد ليزيد من خصوبة الأرض ، والعجيب أن فضلات الحيوان التى تعطى خصوبة للأرض لا نجد فيها شيئا يقزز ، ولا نجد لها الرائحة التى توجد فى فضلات الإنسان ، لماذا ؟

لأن الحيوان يأكل على قدر حاجته ، إن الحيوان قد يجد أمامه أصنافا كثيرة ، مثل الحشيش الجاف اليابس ، وأمامه النعناع الأخضر ، فلا يأكل النعناع الأخضر ويأكل الحشيش اليابس ، وإذا شبع الحيوان امتنع عن الطعام ، ولذلك لا يُخرج فضلات كريهة الرائحة ، لكن الإنسان ينوع ويلون ويأكل فوق طاقته ويحث شهيته على الانطلاق والانفلات ، إن الحيوان لا اختيار له ، ومحكوم بالغريزة ويجد أمامه هذا الذى يؤكل وذلك الذى لا يؤكل فيختار بغريزته المناسب له ، وإذا امتلأت البطن لا يأكل ؛ لأنه محكوم بالغريزة والتسخير المطلق ، لكن الإنسان يتمتع بالاختيار ، فأفسد عليه هذا الاختيار وأبعده عن منهج الله وجعله بما لديه من قدرة يتجاوز الاكتفاء بحدود الشبع .

وهكذا نرى بوضوح أن الكون كله أسلم لله طوعا فى المسخرات . وإياك أن تفهم أن هناك إسلاما بالقهر والإكراه . وبعض العلماء قد فاتهم ذلك ، وهم يعطون

لخصوم الإسلام حجة فيقولون : « إن دينكم انتشر بإكراه السيف » ولذلك نقول لهم : لا ، إن أحدا لم يسلم كرها أبدا ؛ لأن السيف إنما رفع لشيء واحد هو حماية حرية الاختيار . إن السيف قد رُفع ليمنع الإكراه ، وليمنع تسلط بعض الناس بقوتهم ليجبروا الناس على عقائدهم فقال لهم السيف : « قفوا عند حدكم ، ودعوا الناس أحرارا فى اختيار ما يعتقدون » ، ودليل ذلك أن البلاد التى فتحها الإسلام تجد فيها غير المسلمين ، ولو كان الأمر فتحا بالسيف لما وجدنا ديانات أخرى . غير الإسلام ، نجدهم أيضا يتشدقون بذلك ويزيدون « إنكم تفرضون جزية » .

ونقول لهم : أنتم تردون على أنفسكم ، نحن لم نفرض جزية على المؤمن ولكن الكافر تركناه على كفره ، والجزية يدفعها الكافر ليدافع عنه المؤمنون لو أصاب البلاد مكروه .

إذن فكيف نفهم قوله الحق بأن هناك من أسلم كرها ؟

نحن نفهمها كالآتى : إن الإنسان هو الذى انقسمت عنده المسائل ، وفيه أمور تدخل فى فعله ومراداته ، وفيه أمور تحدث قهرا عنه ، وتحدث له بلا إرادة ولا اختيار ، فالإنسان يكون مختارا فى الفعل الذى يقع منه ، أما الفعل الذى يقع عليه أو فيه فلا دخل له فيه بالاختيار ؛ إن أحدا منا لا يختار يوم ميلاده ، أو يوم وفاته أو يوم إصابته بالمرض ، والإنسان الذكى هو الذى يعرف ذلك ونقول للإنسان الذى لا يعرف أو يتجاهل ذلك : أيها الإنسان دعك من الغباء ؛ إن هناك زوايا من حياتك أنت مجبر فيها على أن تكون مسلما لله كرها إنك تسلم لله دون إرادتك فى كثير من الأمور التى تقع عليك ، ولا تستطيع لها دفعا ، فلماذا تقف فى الإسلام عند زاوية الاختيار ؟

إن المسخرات كلها مسلمة لله ، والإنسان فيما يقع فيه أو عليه من أمور لا يستطيع دفعها . هو تسليم لله كرها من الإنسان ، وهكذا نرى أن قيادة التسخير فيما ليس لك دخل فيه أيها الإنسان هى مسلمة لله ، مثلك فى ذلك مثل كل الكائنات ، أفلا يجب عليك أن تسلم بكل زوايا حياتك ؟ فلو كان هناك إنسان كافر بكل ما فيه من أبعاض فعلى هذا الكافر ألا يسلم بأى شيء من جوارحه ؛ هل يستطيع أن يمنعها من أن تؤدى عملها ؟

ولنر ما سيحدث له لابد أن يتوقف عن التنفس ؛ لأن التنفس يحدث رغما عنه ، لا بد أن يوقف دقات قلبه ؛ لأنها تدق رغما عنه . ومادام هناك من يستمرىء الكفر فليحاول أن يجعل كل ما فيه كافرا ، ولن يستطيع ؛ بل سيجد أنه يحب أمورا ولا تأتى له ، ويكره أمورا وتنزل به ، ولن يفلت أحد من الإسلام لله ، لأن الله قد اختار لكل إنسان يوم الميلاد ويوم الموت ، واختار الله للإنسان أن تجرى الأحداث فوقه ولا يستطيع دفعها ، ويصبح خاضعا رغم أنفه ، لذلك قال الحق : « وله أسلم من فى السمٰوات والأرض طوعا وكرها وإليه يرجعون » .

إذن ولنأخذ « طوعا » لغير الإنسان ، وللمؤمن الذى نفذ تعاليم المنهج ، ولنأخذ « كرها » فى المسائل التى لا دخل لاختيار الإنسان فيها وتقع عليه وهو يكرهها ، ولا يستطيع دفعها ، لأن الذى يجريها عليه هو الخالق الفعال لما يريد ، ومادامت هناك زاوية من حياتك أيها الإنسان أنت مكره فيها فلماذا تمردت فى المسألة الاختيارية ؟

كان يجب أن يأخذ الكافر هذه النقطة ويقول للكفر : « لا » ، ويتجه إلى الإيمان ؛ لأن المؤمن يأخذ هذه النقطة ويقول : أنا أريد أن أنسجم مع الكون كله حتى لا تطغى ملكة على ملكة ، ولا تطغى إرادة على إرادة أخرى ، وهذه رحمة من الله بالخلق .

وحين يسلم الإنسان منهجه لله فإنه يفعل ما يطلبه المنهج ولا يفعل ما يحرمه المنهج ومن يريد أن يقف فى « افعل » و« لا تفعل » ، نقول له : إذا فعلت ما الذى يستفيده الله منك ؟ وإذا لم تفعل ما الذى يضر الله منك ؟

لا شىء ، إن عليك أن تفكر جيدا فالأمر إنما يُرَدّ أو يتمرد عليه إن كان للأمر فيه مصلحة ، وحيث إنه لا مصلحة للحق سبحانه وتعالى فى مراداته من الخلق إلا إصلاح الخلق ذاته ، إذن فمنهج الحق هو لمصلحة الإنسان ، وأول ما يصاب به من يقف فى منهج الله أنه يصبح ضد نفسه ، ولا ينسجم مع الكون ، فإن كان هناك من يريد ألا يسلم ، فليجرب نفسه بألا يسلم فى المقهورات التى هو مقهور عليها ، وهذا أمر مستحيل .

ولنقرأ الموقف القرآنى بدقة ، لنرى أنه الحق بعد القسم وبعد العهد وبعد الإشهاد

عليه ، قال لنا : « أفغير دين الله يبغون وله أسلم من فى السماوات والأرض طوعا وكرها وإليه يرجعون » . إن من يبغى غير دين الله ليس منطقيا مع نفسه أو مع الكون ؛ لأن الكون كله لله بما فيه ومن فيه من السماوات والأرض ، وكذلك الإنسان الذى ارتضى منهج الله ، وأيضا أسلم الكافر لله فيما ليس له فيه اختيار .

« وأسلم » فى هذا السياق القرآنى الكريم تعنى أنه خضع وسُخر ، وقُهر على أن ينفذ ، ولكن الحق سبحانه أورد عن السماء والأرض فقال:« قالتا أتينا طائعين » . إن المألوف أن ترضخ السماء والأرض لأمر الله ، وعندما « قالتا أتينا طائعين » فقد كسبت السماء والأرض الإسلام لله ، فإلى الله كل مرجع فالإنسان ـ مؤمنا كان أو كافرا ـ سيعود إلى الله حتما .

وكلمة « يرجعون » التى تأتى فى تذييل الآية يمكننا أن نراها فى مواقع أخرى من القرآن مرة تأتى مبنية للمفعول وننطقها « يُرجعون » بمعنى أنهم مقهورون على الرجوع إلى الله ، ونجدها فى مواقع أخرى فى القرآن كفعل مبنى للفاعل فننطقها « يَرجعون » ، أى أنهم يريدون الإسراع فى العودة إلى الله ، وفى هذه الآية نفهم أن الذين يبغون غير دين الله لا يرغبون أن يعودوا إلى الله لذلك يتم إرجاعهم بالقهر ، فسبحانه وتعالى يقول :

﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ ﴾

(سورة الطور)

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ

مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾

عندما ننظر إلى هذه الآية بخواطرنا فإننا نجد أن الحق يمزج الرسول والمؤمنين به والمرسل إليهم فى الإيمان به ، ويتحدث إلى الرسول والمؤمنين كوحدة إيمانية ، إن قول الحق : « قل » هو خطاب لمفرد هو النبى صلى الله عليه وسلم ، والمقول : « آمنا » دليل على انسجام الرسول مع الأمة المؤمنة به ، فكأن الأمة الإسلامية قد انصهرت فى « قل » ، وكأن الرسول موجود فى « آمنا » ، وبذلك يتحقق الامتزاج والانسجام بين الرسول وبين المؤمنين به ، ويصير خطاب الحق إليهم هو خطاب لوحدة إيمانية واحدة لا انفصام فيها .

وقد جاء الحق بهذا الأسلوب ليوضح لنا أن الرسول لم يأت ليتعالى على أمته ، بل جاء ليحمل أعْبَاءَ هذه الأمة ، ولذلك قلنا من قبل : إن للرسول صلى الله عليه وسلم إيمانين ، لقد آمن بالله ، وآمن للمؤمنين ، وهو صلى الله عليه وسلم سيشفع لنا ، لأنه قد أدى مُؤدى يسع أمته كلها ، لقد أتم البلاغ وخضع للتكليف بما يسع أمته كلها ، ولذلك يقول الحق : « قل آمنا » ، كان القياس أن يقول : « قل آمنت » ، أو أن يقول : « قولوا آمنا » . لكن الحق فى قرآنه الكريم يضع كل كلمة فى موضعها ، فتصبح الكلمة جاذبة لمعناها ، ويصبح كل معنى عاشقا لكلمته ، وقد قال الحق هنا : « قل آمنا » ليتضح لنا أن محمدا رسول ممتزج فى أمته ، وأمة الإسلام فى طواعية لرسولها ، والأمر يأتى لرسول الله من الحق سبحانه ، والتنفيذ لهذا الأمر يكون من الجميع ، وفى هذا إشعار للخصوم أن الرسول صلى الله عليه وسلم سيكون ذا عصبية إيمانية قوية ، فلو قال : « قل آمنت » لكان معنى ذلك أن الرسول لن يملك إلا إيمانه فقط ، لكن الرسول صلى الله عليه وسلم آمن به قومه ، وكثير غيرهم وجاء على يديه فتح مكة كما قال الحق :

﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ ﴾

(سورة النصر)

وعندما نقرأ قوله الحق : « قل آمنا بالله وما أنزل علينا » فلنا أن نلتفت إلى أن العلماء لهم وقفة فى مسألة الإنزال ، فمرة يقول الحق :

﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ ﴾

(سورة البقرة)

ومرة أخرى يقول الحق :

﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾

(سورة النحل)

وهكذا نجد أن « الإنزال » يأتى مرة متعديا بـ « إلى » ، ويأتى مرة أخرى متعديا « بعلى » . وقال بعض من العلماء : إن الكلام حينما يكون موجها لرسول الله صلى الله عليه وسلم فالحق يقول : « أنزل عليك » ، وكأن هؤلاء العلماء ـ دون قصد منهم ـ يفصلون بين بلاغ الله للرسول عن البلاغ إلى أمة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولم يلتفتوا إلى أن الغاية من إنزال المنهج على الرسول هو هداية الأمة .

ونحن نقول : إن علينا ألا نأخذ الأمر بسطحية من أسلوب ظهر لنا ؛ ذلك أن هناك أسلوبا خفيًّا ، وهو أن « إلى » و« على » إنما تفيدان أن المنهج نزل للأمة والرسول صلى الله عليه وسلم ؛ فمرة يأتى الحق بالنزول متعديا بـ « إلى » والخطاب موجه للرسول صلى الله عليه وسلم كقوله الحق :

﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾

(سورة المائدة)

ومرة يأتى الحق بالنزول متعديا بـ « على » والخطاب موجه للرسول صلى الله عليه

وسلم كقوله الحق :

﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾

(سورة النحل)

ومرة ثالثة يأتى الحق بالإنزال فى حديث إلى المؤمنين :

﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ ﴾

(سورة النساء)

إنه كتاب منزل من السماء وملحوظ فيه العلو ، والغاية من النزول هو مصلحة الأمة ، فالإتيان بـ (على) يُفيد العلو ، ولمصلحة الأمة ، « والعلية » هنا لتزيد مقام المنهج بالنسبة للمؤمنين فهو قد نزل لمصلحتهم . إذن فالنزول يقتضى « علِّية » ، وهو من حيث العلو يأتى بـ « على » ، ومن حيث الغاية يأتى بـ « إلى » ، فهو منهج نزل من الحق الأعلى ونزل إلى الرسول وعلى الرسول ليبلغه إلى المؤمنين لمصلحتهم . ولذلك قلنا : إننا إذا رأينا حكما يقيد من حرية الفرد فلا يصح أن نفهم أن الله قد قصد هذا الفرد ليقيد حريته ، إنما جاء مثل هذا القيد ليقيد الملايين من أجل حرية الفرد ، مثال ذلك ساعة يحرم المنهج السرقة على الإنسان ، فهو أمر لكل إنسان من الملايين وهو لمصلحة كل إنسان ، فالقرآن قد نزل لمصلحتك ، ومصلحة المؤمنين جميعا .

وعندما نقرأ قوله الحق : « قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط ، وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون » . فهذا القول يوضح أن الرسول صلى

الله عليه وسلم إنما جاء بمنهج يضم صحيح العقائد والقصص والأخبار ، وهو يوافق ما جاء فى موكب الرسالات من يوم أن خلق الله الأرض وأرسل الرسل. وقد أخذ الله العهد على الأمم والأنبياء من قبل ، بأنه إذا جاء رسول مصدق لما معهم ليؤمنن به ، وكذلك أخذ الله العهد على رسولنا صلى الله عليه وسلم بأن يؤمن بالرسل السابقين ، فهو صلى الله عليه وسلم لم يأت ليهدم أديانا ، ولكن ليكمل أديانا ، وهكذا نرى النص القرآنى الجليل :

﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾

(من الآية ٣ سورة المائدة)

كأن الأديان السابقة بكل ما جاء فيها من صحيح العقائد ، والقصص ، والأخبار موجودة فى الإسلام ، وفوق كل ذلك جاء الإسلام بشرائع تناسب كل زمان ومكان ، ولذلك قال الرسول صلى الله عليه وسلم فى حديث شريف :

« إنما مثلى ومثل الأنبياء قبلى كمثل رجل بنى بنيانا فأحسنه وأجمله وأكمله إلا موضع لبنة فجعل الناس يطوفون به ويقولون ما رأينا أحسن من هذا لولا موضع هذه اللبنة فكنت أنا اللبنة »[1]

إذن فزمام كل الأمر انتهى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد أخذ الله العهد على غيره أن يصدقوه عندما يجىء ، وهو صلى الله عليه وسلم آمن وصدق بمن سبق من الرسل ، ولن يجىء من بعده شىء يطلب من رسول الله ولا من أمته أن يصدقوه ، وقال الحق تذييلا لهذه الآية الكريمة : « ونحن له مسلمون » .

أى أنه لا يوجد لأتباع أى رسول من الرسل السابقين ما يعطيهم سلطة زمنية ، بل المسألة كلها تبدأ من الله ، وتنتهى إلى الله . وتلك هى القضية النهائية فى موكب

---

(١) رواه البخارى ومسلم .

الرسالات . ومادام الإسلام هو ذلك الانقياد الذى يختاره الإنسان لنفسه ليكون منسجما مع نفسه فى الإسلام لله ، ويكّون انسجاما مع الكون الآخر وما يحتويه من حيوان ونبات وجماد وغيرها فى أنه أسلم خضوعا لله ، وبذلك يصبح الكون بما فيه الإنسان المؤمن المسلم لله كله مسخّرا لله سبحانه وتعالى . ومادام الكون بالإنسان قد صار مسخرا لله فلا تضاد فى حركة لِتعاند حركة أخرى ؛ لأن الذى يهيمن هذه الهيمنة هو الذى وضع لكل إنسان فى مجال حركته فى الحياة قانونا يعصمه من أن يصطدم بغيره ، وإذا كان البشر قد استطاعوا أن يضعوا لأنفسهم معايير تمنع التصادم فى الحركة ، ذلك التصادم الذى يؤدى إلى كوارث ومصائب .

مثال ذلك ، لننظر إلى السكك الحديدية ، ألا يوجد موظف اسمه « المحولجى » ؟ ومعنى هذه الوظيفة هو أن القائم بها يقوم بتحويل القاطرة القادمة من طريق معين إلى مسار محدد حتى لا تدهم قاطرة أخرى جاءت من الطريق نفسه . إن ذلك من فعل الإنسان فيما صنع من قطارات ومواصلات ، لقد صنع أيضا وسائل تمنع تصادمها ، فما بالنا بالحق ـ وله المثل الأعلى ـ وهو الذى خلق الإنسان ؟ إنه سبحانه قد وضع المنهج حتى لا تصطدم حركة فى الوجود بحركة أخرى .

ولننظر إلى الأشياء التى جاءت بقانون التسخير ، والأشياء التى دخلت فى ظل الاختيار . أسمعنا أن جملين سارا فى طريقين متعارضين واصطدم الجمل بجمل ؟ لم يحدث ذلك أبدا ، فالجمل يفادى نفسه وما يحمل من الجمل الآخر وما يحمله ، لكننا نسمع عن تصادم سيارة مع سيارة ، ذلك أن السيارة لا تسير بذاتها بل تسير بقيادة إنسان مختار ، وهو الذى يصدم وهو الذى قد تأتى منه فى غفلته الكوارث .

إذن فتصادم حركة بحركة إنما ينشأ فى الأمور الاختيارية ، أو غفلة إنسان عن مهمته ، كغفلة « المحولجى » عن عمله فى تنظيم مرور القطارات ، لكن تصادم حركة فى الوجود بحركة أخرى فى الوجود هو أمر مستحيل ، ولا يحدث أبدا ؛ لأن الأمر الذى مازال فى يد المهيمن الأعلى ، مهيمن الأرض والسماء ، وهو الله الذى يسير الكون منسجما ويعرفنا بصفاته فيقول : « الله لا إله إلا هو الحىّ القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم » ومعناه : أنى أنا القائم بأسبابكم ومدبر أمركم ولا أنام أو تأخذنا سنة أو غفلة أى فناموا أنتم فقد سخرت الوجود كله من أجلكم .

ومادام الأمر فى الإسلام هكذا ، والوجود ينسجم مع نفسه ، فلماذا تشذ أنت أيها الإنسان عن الوجود ؟ ولماذا تشذُّ عن ملكات نفسك ؟

لماذا لا تكون منسجما مع الكون ؟ إنك إن انسجمت مع نفسك ومع الكون صرت الإنسان السعيد .

وفى عصرنا الحديث نرى ارتقاء العالم ماديا بصورة عالية ، بحيث يقع الحدث فى أمريكا مثلا فنراه على شاشة التليفزيون فورا ، ويركب الإنسان مركبا صاروخيا إلى الفضاء ولكن هل استراح العالم ؟ لا ، لقد ازداد العالم عناء ، وكأنه يكد ذهنه ويرهق العلماء فى معاملهم لابتكار أشياء تعطى للعالم مزيدا من القلق والاضطراب وتتصادم وتتعارض . وبذلك صار الكون لا يفرغ أبدا من حرب باردة أو ساخنة .

كل ذلك إنما ينشأ من إدارة أمور العالم بأهواء البشر ، فلسنا جميعا مردودين إلى منهج واحد يأمرنا فنأتمر ، وينهانا فننتهى ، بل كل إنسان يتبع فى عمله هواه ، لذلك نرى القلق والاضطراب ، ونرى الصرخات تملأ الدنيا من أهوال ومصائب ، منها مثلا المخدرات وغيرها. إن الذى يدمن المخدرات هو إنسان غير راضٍ عن واقع حياته، فلا يريد مواجهة حياته ، إنما يحاول الهرب منها بالإدمان ، ونقول لمثل هذا الإنسان : ليس هذا حلا للمشكلة ؛ لأن الإنسان عندما تأتيه مشكلة فهو يحتاج عقلا على عقله ليواجه هذه المشكلة ، وأنت بهذا الإدمان إنما تُضَيِّع عقلك ، رغم أنك مطالب بأن تأتى بعقل آخر بجانب عقلك لتحل مشكلتك ، فالهرب من المشكلة لا يحلها ، إنما الهروب غباء وقلة فطنة فالمشكلة زادت تعقيدا ونقول للمجتمعات التى تشكو من مثل هذه البلايا لو أخذتم شرائعكم من منهج الله لكان ذلك حماية لكم من مثل تلك الكوارث .

وهكذا نرى أن كل الابتكارات تُوجه دائما إلى الشر أولا ، فإذا لم يوجد لها ميدان شر فإننا نوجهها إلى الخير ، ويا ليته خير خالص لوجه الله ، لا ، إنه خير مجنح ومنحرف عن الخير لأن الذى لا يملك هذا اللون من الاختراعات كالشعوب النامية والعالم الثالث قد جعله المخترعون بوساطة هذه الاكتشافات والمخترعات مستعبدا ومقهورا لهم ؛ إنهم جعلوا تقدمهم استعبادا وإذلالا لغيرهم وإن تظاهروا بغير ذلك .

لماذا يحدث كل ذلك ؟ لأننا لم نكن منطقيين ـ كما يجب ـ مع أنفسنا ولا مع واقع

الأمور النهوضية التى نحن فيها فالطموحات العلمية التى لا حد لها لا يصح أن تسبب لنا كل هذا التعب ، بل كان المفروض بعد الوصول إلى تحقيق هذه الطموحات أن نستريح ، ولكن لِمَ لم يحدث هذا ؟ لأن زمامنا نحن البشر بيد أهوائنا ، والأهواء ليست هى اليد الأمينة ، إن اليد الأمينة هى شرع الله الذى لم يشرع إلا لمصلحة من خلق ، ومادام الإسلام يرسم طريق الأمان مع الخالق والنفس والكون الذى نحياه ، بما فيه من الأجناس الأخرى ، إذن فالدين عند الله هو الإسلام ، وهذه هى النتيجة الحتمية لذلك يقول الحق سبحانه : « ونحن له مسلمون » ويتبعها الحق سبحانه بقوله :

﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾

إن الغاية التى تسعد العالم كله هى دين الإسلام ، ومن يرد دينا غير ذلك فلن يقبله الله منه . فإن كان هناك من لا يعجبه تقنين السماء ويقول مندهشا : إن فى هذا التقنين قسوة ؛ إنك تُقطع يد إنسان وتشوهه نرد على مثل هذا القائل : إن سيارة تصدم سيارة تشوه عشرات من البشر داخل السيارتين ، أو قطار يصاب بكارثة فيشوه مئات من البشر .

ونحن عندما نبحث عن عدد الأيدى التى تم قطعها فى تاريخ الإسلام كله ، فلن نجدها إلاَّ أقل كثيرا من عدد المشوهين بالحوادث ، وأى ادعاء بالمحافظة على جمال الإنسان مسألة تثير السخرية ؛ لأن تقنين قطع يد السارق استقامت به الحياة ، بينما الحروب الناتجة عن الهوى شوهت وأفنت المئات والآلاف ، إن مثل هذا القول سفسطة ، هل معنى تشريع العقوبة أن يحدث الذنب ؟ لا ، إن تشريع العقوبة يعنى تحذير الإنسان من أن يرتكب الذنب .

وعندما نقول لإنسان : « إن قتلت نفسا فسيتولى ولى الأمر قتلك » أليس فى ذلك

حفاظ على حياته وحياة الآخرين ؟ وحين يحافظ التشريع على حياة فرد واحد فهو يحافظ فى الوقت نفسه على حياة كل إنسان ، يقول الله تعالى :

﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾

(سورة البقرة)

وهكذا يصبح هذا التقنين سليما غاية السلامة ، إذن فقول الحق سبحانه : « ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه » يدلنا على أن الذى يشرع تشريعا يناقض ما شرعه الله فكأنه خطأ الله فيما شرع ، وكأنه قد قال لله : أنا أكثر حنانا على الخلق منك أيها الإله ؛ لأنه قد فاتتك هذه المسألة .

وفى هذا القول فسق عن شرع الله ، وعلى الإنسان أن يلتزم الأدب مع خالقه . وليرد كل شىء إلى الله المربى ، وحين ترد أيها الإنسان كل شىء إلى ربك فأنت تستريح وتريح ، اللهم إلا أن يكون لك مصلحة فى الانحراف . فإن كان لك مصلحة فى الانحراف فأنت تريد غير ما أراد الله ، أما إذا أردت مصلحة الناس فقد شرع الحق ما فيه مصلحة كل الناس ؛ لذلك قال الحق : « ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين » .

وقد يقول قائل فى قوله تعالى : « فلن يقبل منه » إن هذه العبارة لا تكفى فى منحى اطمئنانا إلى جزاء العمل الذى أتقرب به إلى الله،فالله قد يقبل وقد لا يقبل فهو ـ سبحانه ـ لا أحد يكرهه على شىء ، ونقول له:إنك ستأتى إلى ربك رضيت أو أبيت فما حاجتك إلى هذا القول ؟ لو كنت تستطيع أن تعجز الله وتفوته فلا يقدر عليك؛ لحقَّ لك أن تقول ذلك ، ولكنك لا تستطيع ، فكن عاقلا ولا تتمرد على أمر ربك ، ويقول الحق : « وهو فى الآخرة من الخاسرين » . والخاسر : مأخوذة من « الخسر » ، و« الخسر » هو ذهاب رأس المال وضياعه ، والآخرة حياة ليس بعدها حياة ، ومن الغباء أن يقول قائل : « سوف أتعذب قليلا ثم تنتهى المسألة » لا ، إن المسألة لا تنتهى ؛ لأن الآخرة حياة دائمة ولا حياة بعدها . وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَـٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾

إننا نرى هنا الأسلوب البديع ؛ إن الحق سبحانه يدعونا أن نتعجب من قوم كفروا بعد الإيمان ، إنهم لو لم يعلنوا الإيمان من قبل لقلنا : إنهم لم يذوقوا حلاوة الإيمان ، لكن الذى آمن وذاق حلاوة الإيمان كيف يقبل على نفسه أن يذهب إلى الكفر ؟ إنه التمرد المركب .

وقد يتساءل إنسان قائلا : مادام الله لم يهدهم ، فما ذنبهم ؟ نقول له : يجب أن تتذكر ما نكرره دائما ، لتتضح القضية فى الذهن لأنها قضية شائعة وخاصة عند غير الملتزمين ، الذين يقول الواحد منهم : إن الله لم يرد هدايتى ، فماذا أفعل أنا ؟ إن ذلك استدلال لتبرير الانحراف ومثل هذا القول لا يصدر إلا من المسرف على نفسه ، ولا يأتى هذا القول أبدا من طائع لله ، إن الذى يقول : « إن المعصية إنما أرادها الله منى ، فما ذنبى ؟» يجب أن يعرف أن الطاعة من الله ، فلماذا لم يقل : « إن الطاعة من الله فلماذا يثيبنا عليها ؟ لماذا تغفل أيها العاصى عن ذكر ثواب الطاعة ، وتقف عند المعصية وتقول : « إن الله قد كتب على المعصية فلماذا يعذبنى ؟» كان يجب أن نقول أيضا : « مادام قد كتب على الطاعة فلماذا يعطينى عليها ثوابا ؟» .

إننا نقول لمن يبرر لنفسه الانحراف : إنك تريد أن تأخذ من الطاعة ثوابها ، وتريد أن تهرب من عقاب المعصية . وأنت تحتاج إلى أن تفهم الأمر على حقيقته ، لقد قلت من قبل:إن « الهداية » تأتى بمعنيين « هَدَى » أى دل على الطريق الموصلة للغاية المرجوة ولم يصنع شيئا أكثر من ذلك والمثال هو إشارات المرور الصماء ؛ إن كل إشارة توضح طريقا معينا وتهدى إليه ، وإشارة أخرى توضح طريقا آخر وتهدى إليه . ولا يوجد أحد عند هذه الإشارة يأخذ بيد الإنسان ويقول له : أنا سآخذ بيدك وأصلح لك العربة عندما تقف منك ، أو أركب معك لأوصلك إلى غايتك .

إن هذه الإشارة هى هداية فقط ، أى أنها دلالة على الطريق الموصلة إلى الغاية المرجوة والله سبحانه وتعالى قد هدى الناس جميعا المؤمن منهم والكافر أيضا ، أى دلّهم سبحانه على الطريق الموصل للغاية . وانقسم الناس بعد ذلك إلى قسمين : قسم قبِل هذا المنهج وارتضاه وسار كما يريد الله ، وساعة أن راح هذا المؤمن إلى جناب الله وآمن به ، فكأن الحق يقول له : إنك آمنت بى وبمنهجى ، لذلك ستكون لك جائزة أخرى ، وهى أن أعينك وأخفف عليك الأمور ، وهذه هى الهداية الثانية التى يعطيها الله جائزة لمن آمن به وارتضى منهجه وتعنى « المعونة » ، إن الله يعطى عبده المؤمن حلاوة الطاعة ، ويجعله مقبلا عليها بنشاط .

إذن فالهداية تكون مرة « دلالة » وتكون مرة ثانية « معونة » إننى أكرر هذا القول حتى يتضح الأمر فى أذهاننا جميعا ، ولنذكره دائما ، ونقول : مَن يعين الإنسان ؟ إن الذى يعينه هو من آمن به ، أما من كفر بالله ، فلا يعينه الله .

وسبق أن قلت مثلا ـ ومازلت أضربه ـ : إن إنسانا ما يسير فى طريق ثم التبس عليه الطريق الموصل للغاية كالمسافر إلى الإسكندرية مثلا ، وبعد ذلك وجد شرطيا واقفا فسأله : أين الطريق إلى الإسكندرية ؟

فيشير الشرطى إلى الطريق الموصل إلى الإسكندرية قائلا للسائل : هذا هو الطريق الصحيح إلى الإسكندرية .

إن الشرطى هنا قد دل هذا الإنسان ، لكن عندما يقول السائل للشرطى : « الحمد لله أننى وجدتك هنا لأنك يسرت لى السبيل » فهذا القول يأسر قلب الشرطى ، فيزيد من إرشاداته للسائل ويوضح له بالتفصيل الدقيق كيف يصل إلى الطريق ، وينبهه إلى أى عقبة قد تعترضه ، وإن زاد السائل فى شكره للشرطى ، فإن ذلك يأسر وجدان الشرطى أكثر ، ويتطوع ليركب مع السائل ليوصله إلى الطريق ، شارحا له ما يجب أن يتجنبه من عقبات ، وبذلك يكون الشرطى قد قدم كل المعونة لمن شكره .

لكن لنفترض أن رجلا آخر سأل الشرطى عن الطريق ، فكذب الرجل الشرطى ، وفى مثل هذا الموقف يتجاهل الشرطى مثل هذا الرجل ، وقد ضربت

هذا المثل للتقريب لا للتشبيه . إن الحق يدل أولا بهداية الدلالة ، وقد هدى الله الناس جميعا ، أى دلهم على المنهج ، فمن ذهب إلى رحابه وآمن به ، أعطاه الله هداية ثانية ، وهى هداية المعونة والتيسير .

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة محمد)

إن الحق يعطيهم حلاوة الهداية وهى التقوى ، كأن الحق يقول للعبد المؤمن : مادمت قد أقبلت علىَّ بالإيمان فلك حلاوة الإيمان ، أما الذى يكفر ، والذى يظلم نفسه بالشرك ، فالحق يمنع عنه هداية المعونة ؛ لأنه قد رأى هداية الدلالة ولم يؤمن بها . إذن فالاستفهام فى قوله تعالى : « كيف يهدى الله قوما كفروا بعد إيمانهم » هو تساؤل يراد به الإنكار والاستبعاد لا عن الهداية الأولى وهى هداية الدلالة ، ولكنه عن هداية المعونة ، أى : كيف أعين من كفر بى ؟

والمقصود بهذا القول هو بعض من أهل الكتاب الذين جاءهم نعت الرسول صلى الله عليه وسلم فى كتبهم حتى إن عبدالله بن سلام وهو منهم ، يقول : لقد عرفت محمدًا حين رأيته كمعرفتى لابنى ، ومعرفتى لمحمد أشد ، ومصداق ذلك ما يقوله الحق سبحانه وتعالى :

﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

والتعبير القرآنى الدقيق لم يقل : يجدون وصفه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل إنما يقول الحق :

﴿ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ﴾

(من الآية ١٥٧ سورة الأعراف)

كأن الذى يقرأ التوراة والإنجيل يمكنه أن يرى صورة النبى عليه الصلاة والسلام من دقة الوصف ، لقد عرفته التوراة وعرفه الإنجيل معرفة مفصلة وشاملة ، مع نطق وقول يؤكد ذلك وهناك فرق بين أن « تعرف » وبين أن « تقول » ؛ فقد يعرف الإنسان ويكتم ما عرف ، ولكنهم عرفوا الرسول صلى الله عليه وسلم واعترفوا بذلك ، فقد كانوا من قبل يستفتحون به على الذين كفروا ، قال الحق سبحانه :

﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَـٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۖ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾

(سورة البقرة)

لقد أخذوا الرسول صلى الله عليه وسلم قبل مجيئه نصرة على الكافرين ، فقالوا : سيأتى نبى ونتبعه ونقتلكم معه قتل عاد وإرم . فماذا فعلوا ؟ إن الحق يجيب :

﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۖ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾

(من الآية ٨٩ سورة البقرة)

إذن هم آمنوا بالرسول صلى الله عليه وسلم من قبل مجيئه ، فلما جاء كفروا به . انظر إلى العدالة من الحق سبحانه وتعالى ، حين يريد أن يدلهم على موقف الصدق والحق والكرامة الإيمانية .

﴿ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَـٰبِ ﴾

(سورة الرعد)

إن الذين عندهم علم الكتاب هم اليهود والنصارى ، هؤلاء يشهدون أن محمدا رسول الله ، وإن القرآن بعدالته ينصف التوراة والإنجيل وهى الكتب التى بين أيديهم ،

« كيف يهدى الله قوما كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أن الرسول حق » لقد آمنوا به رسولا من منطوق كتبهم ، ثم أعلنوها حينما قالوا : « يأتى نبى نتبعه ونقتلكم معه قتل عاد وإرم » .

فإذا كانوا قد صنعوا ذلك ، فكيف يهديهم الله ؟ إنهم ليس لديهم الاستعداد للهداية ، ولم يقبلوا على الله بشىء من الحب ، لذلك فهو سبحانه لا يعينهم على الهداية ولو أقبلوا على الله لأعانهم قال تعالى :

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة محمد)

وهؤلاء لم يهتدوا ، فلذلك تركهم الله بدون هداية المعونة ، وهذا يوضح لنا معنى القول الحق :

﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴾

(من الآية ٨٨ سورة النساء)

إن الذين لم يهتدوا بهداية الدلالة فلم يؤمنوا يضلهم الله أى يتركهم فى غيهم وكفرهم ، أى أنه مادام هناك من لم يؤمن بالله فهل يمسك الله بيده ليهديه هداية المعونة ؟ لا ؛ لأنه إذا لم يؤمن بالأصل وهو هداية الدلالة ، فكيف يمنحه الله هداية المعونة ؟ ومادام لم يؤمن بالله أكان يصدق التيسيرات التى يمنحها الله له ؟ لا . إنه لا يصدقها ، ويجب أن تعلم أن هداية الدلالة هداية عامة لكل مخاطب خطابا تكليفيا ، وهو الإنسان على إطلاقه ، أما هداية المعونة فهى لمن أقبل مؤمنا بالله وكأن الحق يقول له : « أنت آمنت بدلالتى فخذ معونتى » أو « أنت أهل لمعونتى » أو « ستجد التيسير فى كل الأمور » ، أما الذى كفر فلا يهديه الله . .

إن الحق سبحانه لا يعين الكافر ؛ لأن المعونة تقتضى ابتداء فعلاً من المُعان ، والكافر لم يفعل ما يمكن أن ينال به هذه المعونة ، فهو لم يؤمن ، لذلك يكون القول الفصل : « والله لا يهدى القوم الكافرين » ويكون القول الحق « والله لا يهدى القوم الفاسقين » ويكون القول الحق « والله لا يهدى القوم الظالمين » . إن هؤلاء هم

الظالمون الذين ارتكبوا الظلم الأصيل وهو الشرك بالله كما قال الحق :

﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ ﴾

(سورة لقمان)

والحق عندما يتركهم فإنه يزيدهم ضلالا ، ويختم على قلوبهم ، فلا يعرفون طريقا إلى الإيمان :

﴿ كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

لقد جاءهم الرسول بالآيات الدالة على صدق رسالته ، ولكنهم ظلموا أنفسهم الظلم الكبير العظيم ، وهو الشرك بالله ، ولكن هل هذه الآية قد نزلت فى أهل الكتاب الذين كان عندهم نعت لرسول الله صلى الله عليه وسلم وإشارات وبشارات به ؟ أو نزلت من أجل شيء آخر هو أن أناسا آمنوا برسول الله صلى الله عليه وسلم ثم كفروا به ؟

إن القول الحق يتناول الفئتين ، وينطبق عليهم ، سواء أكانوا من أهل الكتاب الذين آمنوا بالرسل من قبل ولم يؤمنوا برسالة محمد عليه الصلاة والسلام ، أم من الذين آمنوا برسالة رسول الله ثم كفروا به ، كما حدث من بعضهم فى عهد الرسول ، مثال ذلك طعمة بن أبيرق ، وابن الأسلت والحارث بن سويد ، هؤلاء أعلنوا الإيمان واتجهوا إلى مكة ومكثوا فيها ، تاب منهم واحد وأخذ له أخوه ضمانا عند رسول الله ، والباقون لم يتوبوا .

إن القول الحق يتناول الفئتين ، وينطبق عليهم جميعا قوله تعالى :

﴿ كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ

ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾

(سورة آل عمران)

ويفصل لنا الحق سبحانه جزاء هؤلاء بقوله الحكيم :

﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾

واللعنة هى الطرد من الرحمة ، والله يعلم كل ملعون منهم ، ومادامو قد طُرِدوا من رحمة الله فالملائكة وهم المؤمنون بالله إيمان المشهد يرددون اللعنة ، والمؤمنون من خلق الله يرددون اللعنة ، وكذلك يلعنهم جميع الناس ، وكيف يلعنهم كل الناس سواء أكانوا مؤمنين أم كفارا ؟ كيف يلعنهم الكافرون ؟ إن الكافر عندما يرى إنسانا يرتكب معصية ما فإنه ينزله من نظره ويحتقره وإن لم يكن مؤمنا .

وهَب أن كافرا وجد إنسانا يخرج على المنهج ويفعل معصية ويرتكب جُرمًا ألا يلعن الكافر مثل ذلك الإنسان ؟ إنه يلعنه لأن الفطرة المركوزة التى فطر الله الناس عليها ترفض ذلك ولا ترتضيه .

وهكذا شاء الحق أن يجعلهم ككفار يتلاعنون فيما بينهم ، ونجد أن جميع الناس يلعنونهم كذلك ؛ لأنهم قد خرجوا عن منهج الله بالكفر بعد الإيمان ، وجرهم ذلك إلى اقتراف الآثام ، وهكذا تصبح الملاعنة من الجميع ، وهم مع ذلك خالدون فى اللعنة قال تعالى :

﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾

ومعنى « لا يخفف عنهم العذاب » أى أن العذاب يظل دائما أبدا وقد يظن بعض الناس أن الكافر مادام سيدخل النار ويحترق فسوف ينتهى أمره. لا إنه يغفل قضية ويذكر قضية ، إنه يتناسى قول الحق :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ ﴾

(سورة النساء)

إنهم سيذوقون العذاب بأمر من الحق دائما وأبدا ، وقد يقول بعضهم : إن العلم قد توصل إلى أن الإنسان تقل حساسيته للألم الناتج من الضرب بالسوط بعد العشرين سوطا الأولى ، وهو بذلك ينسى أن العذاب فى الآخرة على نمط آخر ، إن الله يخلق للمعذب إحساسا جديدا ليظل مستشعرا دائما العذاب ، قال الحق : « لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون » أى أن عذابهم مؤكد ولا يتركهم الحق ليستريحوا من عذابهم . وبعد ذلك يقول تعالى :

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾ ﴾

والحق سبحانه وتعالى هو الخالق للخلق كلهم ، يحب أن يكونوا على ما يود

ويحب ؛ لأنهم صنعة الله فهو سبحانه وتعالى يحب التوابين ويحب المتطهرين

وقد أمر عباده أن يتوبوا إليه توبة نصوحاً أى توبة صادقة خالصة لا رجوع فيها هذه التوبة تتسم بالاقلاع عن الذنب والندم على ما فات والعزم على عدم العودة للذنب مرة أخرى ورد المظالم لأصحابها إن كانت هناك مظالم .

وقد قال صلى الله عليه وسلم « إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها »[1] .

وهكذا أوجد الحق تشريع التوبة بهدف إصلاح الكون ؛ لأن الله لو لم يشرع التوبة لمن أذنب فإن من غفل عن منهج الله ولو مرة واحدة قد يصير فى نظر نفسه ضائعا فاسدًا مرتكبا لكل الحماقات ، فكأن الله بتشريع التوبة قد ضمن لصاحب الإسراف على نفسه فى ذنب أن يعود إلى الله ، كما يرحم المجتمع من شرور إنسان فاسد ، إذن فتشريع التوبة إنما جاء لصالح الكون ، ولصالح الإنسان لينعم بمحبة الله ، لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

فبرغم كفرهم السابق إلا أن الله برحمته لا يدخلهم فى الوعيد ؛ إنهم مطالبون بالتوبة والإصلاح ، ومعنى كلمة « أصلح » أنه زاد شيئا صالحا على صلاحه . والكون ليس فيه شيء فاسد.اللهم إلا ما ينشأ عن فعل اختيارى من الإنسان وعلى التائب أن يزيد من الصلاح فى الكون ، وهكذا نضمن ألا يجيء التائب إلى الشيء فيفسده ؛ لأن من يريد أن يزيد الصالح صلاحا ، لن يفسد الشيء الصالح .

وربما كان هؤلاء الذين أسرفوا على أنفسهم فى لحظة من لحظات غفلة وعيهم الإيمانى ساعة يذكرون الذنب أو الجريرة التى اقترفوهابالنسبة لدينهم ، يحاولون أن يجدّوا ويسارعوا فى أمر صالح حتى يَجْبُر الله كسر معصيتهم السابقة بطاعتهم اللاحقة .

---

(١) رواه مسلم فى صحيحه .

ولذلك تجد كثيرا من الناس الذين يتحمسون للإصلاح وللخير ، هم أناس قد تكون فيهم زاوية من زوايا الإسراف على نفوسهم فى شىء ، وبعد ذلك يتجهون لعمل الخيرات فى مجالات كثيرة جدا ، كأن الله يقول لكل منهم : أنت اختلست من محارمى شيئا وأنا سآخذك إلى حلائلى ، إنه الحق يجعل من معصية الفرد السابقة سياطا دائمة تلهب ضميره فيتجه إلى الخير ، فيتصدق على الفقراء ، وربما كان أهل الطاعة الرتيبة ليس فى حياتهم مثل هذه السياط .

ولكن الذين أسرفوا على أنفسهم هم الذين تلهبهم تلك السياط ، فساعة يرى الواحد منكم إنسانا قد أسرف على نفسه فليدع الله له بالهداية ، واعلم تمام العلم أن الله سيُسَخِّر منه ما يفعل به الخير ؛ لأن أحدا لن يسرق الكون من خالقه أبدا . وهذا ينطبق على من قال عنهم الله : « إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا » (وأصلحوا) أى عملوا صلاحات كثيرة لأن حرارة إسرافهم على نفوسهم تلهب ظهورهم دائما ، فهم يريدون أن يصنعوا دائما أشياء لاحقة تستر انحرافاتهم السابقة وتذهبها .

وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَـٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾ ﴾

هذه الآية تحدث عن أولئك الذين كفروا بعد إيمانهم ، وازدادوا كفرا ، وهؤلاء لا تقبل توبتهم وهم الضالون ، وقد جاءت مقابلة للآية السابقة ، أناس تابوا وأناس لم يتوبوا . لكن كيف يزداد الكفر ؟ إنه قد كفر فى ذاته ، وبعد ذلك كان عائقا لغيره عن أن يؤمن ، وهو لا يكتفى بخيبته ، بل يحاول أن ينشر خيبته على الآخرين ، وفى ذلك ازدياد فى الكفر والعياذ بالله ، وهذا القول قد نزل فى بعض من اليهود الذين آمنوا بالبشارات التى تنبأت بمقدم عيسى عليه السلام ، فلما جاء عيسى كفروا به ، ولما جاء محمد ازدادوا كفرا .

لقد كفروا بعيسى أولا ، ثم ازدادوا كفرا بمحمد وادعوا أنهم أبناء الله وأحباؤه ، وهؤلاء ليسوا من الذين تابوا . أو أنهم أعلنوا التوبة باللسان ، ولم يتوبوا التوبة النصوح ، « والراجع فى توبته كالمستهزىء بربه » . وقانا الله وإياكم هذا المنقلب .

وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾ ﴾

لقد كفروا ، ولم يقدر الله لهم أن يتوبوا ، فماتوا على الكفر ، ويريد الله أن يعطينا حكما خاصا بعملهم فى الدنيا ، وحكما خاصا بما يتلقونه من عذاب فى الآخرة ، والحكم الخاص بعملهم فى الدنيا سببه أن لهم اختيارا ، والحكم الخاص بما يتلقونه فى الآخرة من عقاب لأنه لا خيار لهم ، وهنا للعلماء وقفة ، فهل ملء الأرض ذهبا أنهم أنفقوا فى حياتهم ملء الأرض ذهبا ؟ نقول له : لا ينفعك هذا الإنفاق فى أعمال الخير لأن أعمالك حابطة .

هب أن كافرا مات على الكفر وقد أنفق فى الخير ملء الأرض ذهبا ، نقول له : هذا الإنفاق لا ينفع ، مع الخيانة العظمى وهى الكفر ، فمادام غير مؤمن بإله ، فهو قد أنفق هذا المال من أجل الناس ، وصار منفقا على من لا يقدر على أن يجازيه بالخير فى الآخرة ، لذلك فليس له عند الله شىء ، فالذى يعمل عملا ، عليه أن يطلب أجرا ممن عمل له ، فهل كان الله فى بال ذلك الكافر ؟ لا ؛ لأنه مات على الكفر ، لذلك لو أنفق ملء الأرض ذهبا فلن يقبل منه . لقد صنع ذلك الخير وفى باله الناس ، والناس يعطونه حقه من الثناء ، سواء كان مخترعا أو محسنا أو غير ذلك ، إنه ينال أجره من الإنسانية ، وينطبق عليه قول الرسول صلى الله عليه وسلم :

« وفعلت ليقال وقد قيل »[١]

(من حديث شريف)

كأن الله يقول له : لم أكن فى بالك فلماذا تطلب منى أجرا فى الآخرة ، لم يكن فى بالك أن الملك لى ، قال سبحانه :

﴿ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة غافر)

وبعض الناس يقول : كيف لا ينال ثواب الآخرة من ملئوا الدنيا بالاكتشافات والابتكارات وخففوا بها آلام الإنسانية ؟ نقول : لقد أعطتهم الإنسانية وخلدت ذكراهم ، وأقامت لهم التماثيل والمؤلفات والأعياد والجوائز ، لقد عملوا للناس فأعطاهم الناس ، فلا بخس فى حقوقهم ، ذلك أنهم لم يعملوا وفى بالهم الله ،وقد صور الحق موقفهم التصوير الرائع فيقول جل شأنه :

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ ﴾

(سورة النور)

إنه سراب ناتج عن تخيل الماء فى الصحراء يتوهمه السائر العطشان فى الصحراء نتيجة انعكاسات الضوء ، فيظل السائر متجها إلى وهم الماء ، إنه يصنع الأمل لنفسه، فإذا جاءه لم يجده شيئا ، ويفاجأ بوجود الله ، فيندم ويتلقى العذاب ، وكذلك لن يقبل منه ملء الأرض ذهبا لو أنفقه فى أى خير فى الدنيا ، وبعد ذلك لن يقبل الله منه ملء الأرض ذهبا لو افتدى به نفسه فى الآخرة ، إن كان سيجد ملء الأرض ذهبا ، وعلى فرض أنه قد وجد ملء الأرض ذهبا ، فهل يجد من يقبل ذلك منه ؟ لا،إنه فى الحقيقة لن يجد الذهب ؛ لأنه فى الآخرة لم يعد يملك شيئا : يقول الحق :

---

(١) رواه مسلم والترمذى والنسائى وابن ماجه .

﴿ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾

(سورة غافر)

ويقول سبحانه :

﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾

(سورة الزمر)

« أولئك لهم عذاب أليم وما لهم من ناصرين » أى إن لهؤلاء عذابا أليما ؛ لأن كل حدث من الأحداث إنما يأخذ قوته من قوة فاعله ، فإذا كان الحدث التعذيبى منسوبا إلى الله وله مطلق القوة والقدرة ، لذلك فالعذاب لن يطاق . ولن يجد الظالم من يدرأ عنه هذا العذاب . لأنه لن يجد ناصرا له ، ولن يجد شفيعا فلن يأتى أحد ويقول : إن فلانا يتعذب فهيا بنا ننصره ، لا يأتى أحد لينصره .

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾ ﴾

وتؤدى كل مادة الباء والراء المضعفة إلى معنى « السعة » ، فـ « البَرّ » أى الواسع والبَرّ أى الأرض المتسعة ومقابله « البحر » وإن قال قائل : « إن البحر أوسع من البر ، لأن حجم القارات ليس فى حجم البحار والمحيطات التى تفصل بينها : « نقول لمثل هذا القائل » لا ، إن حركتك فى البر ـ الأرض ـ موسعة ، وحركتك فى البحر مضيقة ؛ لأنك لا تتحرك فى البحر إلا على شكل خاص ، إما أن تتحرك بسفينة أو

حتى على لوح من الخشب ، أما حركتك فى البر ـ الأرض ـ فأنت تمشى أو تركب ، تذهب أو تجىء ، فمجالك فى البر متسع عن مجالك فى البحر .

و« البِرّ » هو التقوى ، والطاعة ، أو هو « الجنة » وكلها معان ملتقية ، لأنها تؤدى إلى السعة ، فالطاعة تؤدى إلى السعة ، وكذلك التقوى ، وكذلك الجنة ، كلها ملتقية ؛ لأن كلها سعة ، فأحدهم أخذ معنى الكلمة من مرحلتها الأولى أى بالسبب وهو الطاعة ، وبعضهم أخذها من المرحلة الأخيرة أى بالمسبب وهو الجنة ، وقد يسأل سائل ، لماذا أراد الله أن يجىء بحديث عن النفقة بعد الحديث عن تعذيب الكفار ؟ ونقول : إن الحق حين يتكلم عمن يصيبه العذاب الأليم لأنه كفر ومات كافرا ، وماله من ناصرين فإن المقابل يأتى إلى الذهن ، وهو من آمن وعمل صالحا ، ومات على إيمانه ، فله عكس العذاب الأليم وهو النعيم ، وسيجد من يأخذ بيده ، بينما الكافر لن يجد ناصرين له . إن المؤمن سيجد جزاء الله على الطاعة وهى البر ؛ لأن البر هو كل خير ، وإن جاء على اطلاقه فإنه ينصرف إلى الجزاء من الله وقمته هو الجنة .

وهكذا نرى المقابل لمعاملة الحق للكفار وهو معاملة الحق للمؤمنين ، لقد جاء هذا القول فى القرآن وهو كلام الله المعجز ، وحين يخاطب سبحانه المكلفين بالمنهج . فهو يخاطب بكلامه ملكات إنسانية خلقها هو ، إذن فلابد أن يغذى هذا الكلام كل الملكات المخلوقة لله ، فلو كان الخالق للملكات غير المتكلم لكان من الممكن ألا ينسجم الكلام مع الملكات ، ولكن الكلام هنا لله الذى خلق ، لذلك لابد أن تنسجم الملكات مع كلام الله .

وفى النفس الإنسانية ملكات متعددة ، وهذه الملكات المتعددة متشابكة تشابكا دقيقا فتستطيع حين تخاطب ملكة سمعية أن تحرك مواجيد وجدانية ، فإن لم يكن العالم بالملكات عليما بها لما أمكن أن يجىء المنطق موافقا لملكة سمعية ، وموافقا لملكات وجدانية قد تتأتى بها طبيعة تداعى المعانى .

و« تداعى المعانى » هو الخاصية الموجودة فى الإنسان ، ومعنى « تداعى المعانى » أن الإنسان يستقبل معنى من المعانى فيشير ذلك المعنى إلى معان خبيئة يستدعيها لتحضر فى الذهن ، فمثلا حين ترى إنسانا تعرفه . فإن تداعى المعانى يعطيك تاريخك معه

وتاريخه معك ، ويصور بخاطرك أيضا صورا عن أهله وأصدقائه ، ومعارفه ، ويأتى لك تداعى المعانى بالأحداث التى كانت بينك وبينه أو شاهدتها أنت وهذا هو ما نسميه « تداعى المعانى » أى أن المعنى يدعو المعنى .

وحين يخاطب الله سبحانه وتعالى الإنسان ، فإنه يخاطب كل ملكة فيه فى آن واحد ، حتى لا تأخذ ملكة غذاءها ، دون ملكة أخرى لا تجد لها غذاء إن كلام الله جاء مستوفيا وكافيا لكل الملكات ، ومثال ذلك حينما أراد الحق سبحانه وتعالى أن يمنع المشركين من أن يطوفوا بالبيت ، وكان المشركون قبل تحريم الله لطوافهم ، يطوفون بالبيت ، ويأتون من أماكن سحيقة بعيدة ليطوفوا فى موسم الحج ، وكانوا يأتون بأموالهم لينفقوها على أهل مكة ، ويشتروا كل شىء يلزمهم منها ، فموسم الحج كان موسما اقتصاديا . وحين يريد الله أن يمنع المشركين من الحج فهو يخاطب المسلمين المقيمين بمكة حتى يحولوا بين المشركين وبين الطواف ، وهو سبحانه قد علم ـ وهو العليم ـ بما خلق من ملكات ، يعلم سبحانه أن ملكة أخرى ستتدخل فى هذا الوقت ، فيقول :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ﴾

(من الآية ٢٨ سورة التوبة)

وعندما ينزل هذا الحكم فلابد أن تتحرك ملكات فى النفس الإنسانية ، والحق قد علم أزلا أن ملكة النفعية الاقتصادية عند أهل مكة ستتحرك عند سماع هذا الحكم ، بمعنى أن بعضا من المسلمين المقيمين بمكة وقت نزول هذا الحكم قد يقولون : « وإذا كنا نمنع المشركين الذين يفدون علينا بالأموال ليشتروا بضائعنا وموسمهم الاقتصادى هو الذى يعولنا طيلة العام فماذا نصنع إذن ؟ إن الله يعلم أنه عند نزول حكم بتحريم البيت على المشركين أن يقربوه فلا بد أن تتحرك فى النفس الإنسانية تلك الملكة النفعية ، فيقول ـ سبحانه ـ عقب ذلك مباشرة :

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

(من الآية ٢٨ سورة التوبة)

الخوف من العيلة ، أى الخوف من الفقر ، وتلك هى عظمة الكلام الإلهى لأن

رَبًّا يتكلم إن الإنسان حينما يتكلم قد تفوته معان كثيرة ، وبعد ذلك قد تحدث ضجة وبلبلة وثورة بين الناس ، لكن الحق الأعلى عندما يقول : « إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا » ويتبع ذلك فورا بقوله المطمئن : « وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله » وقد فعل وجبى الحق وجلب إلى البيت الحرام ثمرات كل شيء ، وكأنه يقول لنا : لا تعتقدوا أن هذه الثمرات قادمة عن طريق التطوع ولكنها رزق من لدنا ، كما جاء فى قوله الحق :

﴿ وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾

(سورة القصص)

أى أنه ليست هناك حرية لأحد أن يعطى أهل البيت الحرام أو لا يعطى ، إنها جباية ، لطمأنة الملكة النفعية فى النفس ، وهو سبحانه يعطى الأمان الاقتصادى الذى يترتب عليه قوام الحياة ، وعندما نمعن النظر فى آيات القرآن نجد أن هناك آية قد تتقدم وآية قد تتأخر ، وآية قد تأتى فى الوسط ، ونجد أن الآية الوسطى ، مرتبطة بتداعى المعانى بالآية التى قبلها ، ومرتبطة بتداعى المعانى بالآية التى بعدها ، وذلك لترتوى وتتغذى كل ملكات الإنسان فلا يأتى أمر يوحى بأن هناك ما ينقص النفس البشرية ، لنتأمل مثالا لذلك وهو قوله الحق :

﴿ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ ۚ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾

(من الآية ٨ سورة المجادلة)

إن المشركين لم يقولوا لأحد : « إنما قالوا لأنفسهم » ، ويكشفهم الحق سبحانه العليم فى أخفى خباياهم ، ويُظهر ما فى أنفسهم ، وهو العليم بكل خفايا عباده والكاشف لكل الملكات النفسية فى خلقه . وحين يقول الحق سبحانه : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون وما تنفقوا من شيء فإن الله به عليم » . فإن الآية تحريض على الإنفاق ، وجاءت بعد آية تفيد أن هناك إنفاقا لا يقبله الله فى قوله سبحانه :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

إذن فهناك لون من النفقة يرفضه الله ، وتداعى المعانى فى النفس الإنسانية قد يجعل الإنسان يسأل « ما هى إذن النفقة المقبولة ؟ » لذلك كان لابد وأن يأتى قوله تعالى : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » فإذا كانت هناك نفقة مردودة فهناك أيضا نفقة مقبولة ، وهكذا نرى الآية التى تحرض على الإنفاق منسجمة مع ما قبلها . « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » ، قد يسأل سائل ، ولماذا لا ينال الإنسان البر إلا بعد أن ينفق مما يحب ؟ وله أن يعرف أن طبيعة النفس الإنسانية هى « الشح » ولهذا جاء فى القرآن الكريم :

﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة التغابن)

وشح النفس يأتى لأن الإنسان لا يأمن أبدا أن يأتيه العجز من بعد القدرة ، لذلك فإنه يحاول إن كان يملك شيئا أن يؤمن العجز المتوهم ، فيحافظ على ما عنده من حاجات ، ومن هنا جاءت الحيازة والملكية ولم تنشأ هذه الأشياء من أول الخلق ، وإنما نشأت من يوم أن ضاقت الأمكنة المُعْطية دون الحاجات ، فحين تكون الأمكنة المعطية تسع الحاجات فلا داعى لهذا العجز المتوهم .

لنفترض أن رجلا اشترى صندوقا من البرتقال ، ودخل منزله وعندما يحتاج ابن هذا الرجل لبرتقالة أو اثنتين فإنه يأخذ ما يريد ، لكن لو أحضر الرجل قليلا من البرتقال فإن زوج الرجل تكون حريصة على أن تقسم البرتقال بين الأولاد حتى لا تترك كل ابن على سجيته بما قد يحرم الآخرين .

وهكذا كان الأمر فى بدء استخلاف الله للإنسان فى الأرض ، فمن أراد الأرض

أخذ ، ومن أراد أكل الثمار فهى أمامه ، وعندما قلت مُعطيات الحاجات وذلك بضيق الأمكنة المعطية بدأت فى الظهور الرغبة فى الملكية ، وامتياز الأشياء، والحق سبحانه يلفتنا فى هذه المسألة وكأنه يقول لنا : إن النفقة لو نظرت إليها نظرة واقعية حقيقية لوجدت أنك أيها العبد مضارب لله فى خير الله . ومعنى « مضارب » أى أنك تعمل عند الله بالعقل الذى خلقه لك ، وتخطط به ، وتعمل عند الله بالطاقة التى خلقها الله ، والمادة التى خلقها الله لك تنفعل معها فماذا لك أنت ؟

إن كل شىء لله ، وأنت مجرد مضارب لا تملك شيئا ومادمت مضاربا أيها العبد ، فأعط لله حقه ، وحق الله لا يأخذه هو ؛ فهو أغنى الأغنياء ، إن حق الله يأخذه أخوك غير القادر الذى لا يستطيع أن يتفاعل مع المادة ، ولا تظن أيها العبد أن الله حين طلب منك النفقة مما تحب أنه ـ جل شأنه ـ قد استكثر عليك ما طلب منك أن تنفقه ، إنه ساعة يأخذ منك لأخيك وأنت قادر ، إنما يطمئنك أنك إن عجزت فسيأخذ لك من القادرين ذلك هو التأمين فى يد الله .

إن الحق يريد أن يحببنا فى أن ننفق ، لكن الإنسان يحاول أن ينفق مما لا يحب ، فيهدى الإنسان الثوب الذى لم يعد صالحا للاستعمال يعطيه لفقير ، أو يعطى الحذاء المستهلك لواحد محتاج . لكن الله يأمرنا بأن ننفق مما نحب لذلك انفعل صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما سمعوا هذا النص : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » هذا أبو طلحة حينما يسمعها يقول : يا رسول الله ، إن أحب مالى إلىّ هو « بيرحاء » فأنا أخرجه فى سبيل الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اجعله فى أقاربك ، فجعله فى أقاربه ، وهذا زيد بن حارثة يسمع الآية الكريمة فينفعل بها كذلك ، وكان عنده فرس اسمه « سَبَل » وكان يحبه ، فيقول : يا رسول الله أنت تعلم حبى لفرسى ، وأنا أجعله فى سبيل الله . فأخذه منه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجاء بأسامة بن زيد وأركبه الفرس . قال زيد : « فوجدت فى نفسى » أى أنه حزن ، وقال زيد : يا رسول الله أنا أردت أن أجعل الفرس فى سبيل الله وأنت تعطى الفرس لابنى ليركبه . فقال رسول الله لزيد : « أمَا إنّ الله قبله منك » .

وبعد ذلك ينفعل سيدنا أبو ذر رضى الله عنه وكان عنده إبل ، والإبل لها فحل يلقح إناث الإبل ، وكان هذا الفحل أحب مال أبى ذر إليه وجاء ضيف إلى أبى ذر ،

فقال له : إنى مشغول ، فاخرج إلى إبلى فاختر خيرها لنذبحه لضيافتك . فخرج الضيف ، ثم عاد وفى يده ناقة مهزولة ، فلما رآها أبو ذر قال : خنتنى ، قلت لك هات خير الإبل ، قال الضيف : يا أبا ذر لقد رأيت خيرها فحلا لك وقدرت يوم حاجتكم إليه . فقال أبو ذر : إن يوم حاجتى إليه ليوم أوضع فى حفرتى .

إن الصحابى الجليل أبا ذر يعرف أن يوم أن يوضع فى الحفرة هو اليوم الجليل الذى يستحق من المرء أن يستعد له .

وسيدنا ابن عمر كان عنده جارية جميلة من فارس ، وكان يحبها ، فلما سمع الآية ، قال : ليس عندى أحب إلىّ من هذه الجارية ، وأعتقها ، وكان من الممكن أن يتزوجها بعد أن أعتقها لكنه قال : لولا أن ذلك يقدح فى عتقها لتزوجتها . وسيدنا أبو ذر رضى الله عنه يعطينا فى مسألة الإنفاق درسا من أروع الدروس المستوعبة للملكة النفسية ، فيقول : فى المال شركاء ثلاثة : القَدَرَ لا يستأمرك أن يذهب بخيره وشره من هلك أو موت . أى أن القَدَر لا يستأذن عبدا فى أن يذهب بالمال حيث يريد ، فتأتى أى مصيبة فتأخذ المال إلى هلك أو موت . هذا هو الشريك الأول فى المال ، إنه القَدَر .

والشريك الثانى فى المال يوضحه لنا أبو ذر فيقول : إنّه الوارث ، ينتظرك إلى أن تضع رأسك ، ثم يستاقها وأنت قد سلبت بالموت كل ما تملك فى الدنيا وأصبحت من غير أهلها . إن الوارث يقول لنفسه : « فلأستمتع بما ترك لى » ، وهذا هو الشريك الثانى فى المال .

ويوضح لنا أبو ذر رضى الله عنه الشريك الثالث فى المال فيقول : والثالث أنت ، فإن استطعت ألاّ تكون أعجز الثلاثة فلاتكن أعجزها . أى إياك أن يغلبك على المال القدر أو الوارث ، ينبغى عليك أن تغلب بإنفاق المال فى سبيل الله وإلا أخذه منك باقى الشركاء .

إذن لقد انفعل صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم بالآية حينما نزلت حتى عدا الخير المحبوب منهم إلى غيرهم ، وكان جزاء ذلك الجنة . لقد عرفوا قول الحق : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » أى الجنة المترتبة على الطاعة أو

التقوى ، أو سعة البركة أو سعة القوة ، وكلها معان ملتقية ، ولذلك يقول الله فى الحديث القدسى :

« قد كان العباد يكافِئون فى الدنيا بالمعروف وأنا اليوم أكافىء بالجنة » .

إن الحق سبحانه الذى يعطى البر ثمنا لنفقة مما تحب يعلم هل أنفقت مما تحب فعلا أو تيممت الخبيث لتنفق منه ، فإياك أيها المؤمن أن تخدع نفسك فى هذا الأمر ، لأن الذى يعطى البر ثمنا لنفقة مما تحب يعلم خبايا النفس ، لذلك يقول سبحانه : « وما تنفقوا من شىء فإن الله به عليم » .

وعلم الله شامل ، إنه يعلم ما فى نيتك ، وكيف أنفقت .

ولقد بين الحق سبحانه النفقة المرفوضة حتى ولو كانت ملء الأرض ذهبا ، ثم أوضح لنا أن هناك نفقة مقبولة وجزاؤها الجنة ، وبذلك نرى التقابل بين النفقتين ولماذا جاء هذا الحديث ؟ لقد كذب بعض أهل الكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مستهل أمر الدعوة وكذبوا البشارة به ، والنعت والبشارة جاءا فى التوراة والإنجيل ، وأنكروا الأوصاف التى ذُكِرت فى كتبهم السماوية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتمادوا ومحوا هذه الأوصاف من كتبهم . حدث ذلك مع أنهم قد تورطوا من قبل فى إعلان البشارة به « وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به » .

لقد أراد الله أن يفضحهم فى التوراة التى يعتقدون أنها كتابهم وقدحرفوا بعض أحكام الله ، وظنوا أن هذه التحريفات ستظل مستورة ، لذلك جاء لهم بأحداث ولم ينتبهوا إليها لتقوم الحجة على أنهم قاموا بتحريف التوراة مثلما قلنا من قبل عن الخيبرية التى ارتكبت فاحشة الزنا ، وأراد رؤساء اليهود أن يخففوا العقوبة عنها ، لأن العقوبة الواردة فى التوراة على جريمة الزنى هى الرجم وقال هؤلاء الرؤساء : « نذهب إلى محمد ، لعل لديه حكمًا مخففا » فلما ذهبوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وضح لهم أنه الرجم . فقالوا : لا ، إنك لم تنصف فى حكمك . فبين رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم إنه يرضى بحكم التوراة التى عندكم وجىء بالتوراة وأمرهم الرسول أن يقرأوا فلما جاءوا إلى آية الرجم أرادوا أن يغفلوها

فقال ابن سلام : إنهم يا رسول الله قد وثبوا وأغفلوا الآية .

وهكذا انتبه الجميع إلى أن رؤساء اليهود أرادوا أن يتخطوا حكما لله موجودا عندهم وأرادوا أن ينكروه ، كما فعلواوأحدثوا فى وصف النبى عليه الصلاة والسلام ومحوا هذا الوصف ، ولم يتركوا له أثرا ، لكن الله أنساهم بعض الأشياء لتكون بينة وآية على رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وعندما أحل الرسول صلى الله عليه وسلم الإبل وألبانها، قالوا : هذه محرمة من أيام إبراهيم ومن قبله من أيام نوح ، ولا يمكن أن نقبل تحليلها ، فوضح النبى صلى الله عليه وسلم لهم أنها ليست محرمة ، الله أحلها .

وكان يجب أن يفهموا أن الإبل وألبانها حتى وإن كانت محرمة من قبل إلا أن رسولا قد جاء من عند الله بتشريع له أن ينسخ ما قبله مع أنّ الإبل وألبانها لم تكن محرمة ، لذلك أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يحتكم إلى التوراة . وهذه هى العظمة النورانية المحمدية ، فلا يمكن أن يقول صلى الله عليه وسلم : « نحتكم إلى التوراة » إلا وهو واثق أن التوراة إنما تأتى بالحكم الذى يؤيد ما يقول ، مع أنه لا يقرأ ولا يكتب . ويحضرون التوراة ، فيجدون الكلام مطابقا لما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لذلك قال الله :

﴿ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾

وحين يحرم نبى الله يعقوب ـ إسرائيل ـ طعاما ما ، فهو حر ؛ فقد يحرم على نفسه طعاما كنذر ، أو كوسيلة علاج أو زهادة ، لكن الله لم يحرم عليه شيئا ، وما تحتجون به أيها اليهود إنما هو خصوصية لسيدنا يعقوب « كل الطعام كان حلا لبنى إسرائيل

إلا ما حرم إسرائيل على نفسه » فلماذا تقولون : إن الإبل وألبانها كانت محرمة ؟

لقد فعلوا ذلك لأنهم أرادوا أن يستروا على أنفسهم نقيصة لا يحبون أن يُفْضحوا بها ، وتلك هى النقيصة التى كشفها القرآن بالقول الكريم :

﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

إذن فهناك أشياء قد حُرمت على اليهود لأنهم ظلموا ، وهذه الآية الكريمة هى التى أوضحت أن الحق قد حرم عليهم هذه الأطعمة لظلمهم . ومعنى : « كل ذى ظفر » أى القدم التى تكون أصابعها مندمجة ومتصلة ، فليست الأصابع منفصلة ، ونجدها فى الإبل والنعام والأوز ، والبط ، وهذه كلها تسمى ذوات الظفر « إلا ما حملت ظهورهما » يعنى الشحم الذى على الظهر . أما « الحوايا » فهى الدهون التى فى الأمعاء الغليظة « أو ما اختلط بعظم » . أى الشحم الذى يختلط بالعظم إن التحريم هنا لم يكن لأن هذه الأشياء ضارة ، ولكن التحريم إنما كان عقابا لهم على ظلمهم لأنفسهم وبغيهم على غيرهم .

وأقول ذلك حتى لا يقول كل راغب فى الانفلات من حكم الله ما الضرر فى تحريم الأمر الفلانى ؟ إن محاولة البحث عن الضرر فيما حرمه الله هى رغبة فى الانفلات عن حكم الله . فالتحريم قد يأتى أدبا وتأديبا ، ونحن على المستوى البشرى ـ ولله المثل الأعلى ـ يمنع الإنسان منا « المصروف » عن ابنه تأديبا ، أو يمنع عنه الحلوى ، لأن الابن خرج عن طاعة أمه ، إذن كان التحريم جزاءً لهم وعقابا قال تعالى :

﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ

كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ ﴾

(سورة النساء)

وذلك هو الجزاء الذى أراده الله عليهم .

إن التشريع السماوى حينما يأتى لظالم يخرج عن منهج الله فكأنه يقول له ما هو القصد من خروجه عن منهج الله ؟ لماذا يظلم ؟ لماذا يأخذ الربا ؟ لماذا يصد عن سبيل الله ؟ لماذا يأكل أموال الناس بالباطل ؟ إن الظالم يفعل ذلك حتى يمتع نفسه بشىء أكثر من حقه ، لذلك يأتى التشريع السماوى ليفوت عليه حظ المتعة ، وكان هذا الحظ من المتعة حقا وحلا له ، لكن التشريع يحرمه . ومثال ذلك القاتل يحرم من ميراث من يقتله ؟ لأن القاتل استعجل ما أخره الله ، وأراد أن يعجل لنفسه المتعة بالميراث ، فارتكب جريمة قتل ، لذلك يأتى التشريع ليحرمه من الميراث .

كأن التشريع يقول له : « مادامت نيتك هكذا فأنت محروم من الميراث » والتشريع حين وضع ذلك إنما حمى كل مورث ، وإلا لكان كل مورث عرضة لتعدى ورثته عليه بالقتل لينتقل إليهم ما يملك ، فقال : لا . نحرمه من الميراث وكذلك هنا نجد الظلم بأنواعه المختلفة ، الظلم بإنكار الحق ، والصد عن سبيل الله ، وأخذ الربا ، وأكل أموال الناس بالباطل ، ومادام اليهود قد أدخلوا على أنفسهم أشياء ليست لهم فالتشريع يسلب منهم أشياء كانت حقا لهم .

وكان اليهود فى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم يرغبون ألا يُشاع عنهم هذا الأمر فقالوا : إن هذا الطعام محرم على بنى إسرائيل . وبعد ذلك وجد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن هذا اللون من الطعام حلال فى التوراة ، فكشف رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الأمر الذى فضحهم .

ولماذا تجىء هذه الآية بعد قوله الحق فى الآية السابقة : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » ؟ ونحن نعرف أن آية « لن تنالوا البر » قد جاءت بعد آية توضح النفقة غير المقبولة من الله . ولنذكر ما قلناه أولا ، عن تداعى المعانى فى الملكات

الإنسانية : إن فى النفس الإنسانية ملكة تستقبل ، فتتحرك ملكة أخرى ، وحين يقول الحق:« كل الطعام كان حلا لبنى إسرائيل » فالذين يسمعون هذا سينفعلون انفعالات مختلفة ، فالشبعان من الناس لن يلتفت إلى هذه المسألة بانتباه بالغ ، ومن عنده بعض الطعام فإن نفسه قد تتحرك إلى ألوان أخرى من الطعام ، أما من ليس عنده طعام فلسوف يلتفت بانتباه شديد ليتعرف على الحلال من الطعام والحرام منه .

إذن فقبل أن يأتى الله بالحكم الذى يحلل ويحرم ، هذا الحكم الذى يثير عند الجائع شجن الافتقار وشجن ذكر الطعام الذى يسيل له لعابه ، إن الحق قبل أن يحرك معدما على غير موجود معه ، فإنه يحرك معطيا على موجود معه ، لذلك فقبل أن يأتى الحق سبحانه ويذكر الطعام ، وقبل أن يُقلب الأمر على النفس الإنسانية التى لا تجد طعاما ، نجد الرسول قد نطق قبلها بما أنزله عليه الحق « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » . فبتداعى المعانى فى النفس الإنسانية يكون ـ سبحانه ـ قد حرك ملكة واجدة ومالكة قبل أن يحرك ملكة معدمة . وهكذا يكون التوازن الذى أراده الله فى الكون المخلوق له .

إنه رب يحكم كونه ، فلا ينسى شيئا ويذكر شيئا . « لا يضل ربى ولا ينسى ، » إن كل شىء فى علمه كما قَدّره وهو الخلاق القدير العليم ، وهو لا يذكر بعضا من الخلق ، وينسى بعضا آخر ، فهو قد كتب العدم لحكمة ، وأعطى النعمة لحكمة .

لقد جعل الفقير عبرة ، ولكنه لم يتركه ، وذلك حتى يرى كل إنسان أن القدرة على الكسب ليست إلا عرضا زائلا ، فمن الممكن أن يصبح القادر الآن عاجزا بعد دقائق أو ساعات ، ومن الممكن أن يصبح القوى ضعيفا ، فإذا ما علم القوى أو القادر ذلك فإنه يتحرك إلى إعطاء الآخرين ؛ حتى يضمن لنفسه التأمين الإلهى لو صار ضعيفا ، فيعطيه الأقوياء ، فعندما يأمر الله الأقوياء بأن يعطوا وينفقوا فإن عليهم أن يستجيبوا ؛ لأن الواحد منهم لو صار ضعيفا فسوف يأخذ .

إذن فقول الحق سبحانه وتعالى : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » هذا القول قد خدم قضية سبقتها ، وهى أنه لن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبا ولو افتدى به ، مادام كافرا ، إنها نفقة مرفوضة لا اعتبار لها ، إنها هدر . ويأتى من بعد ذلك بتحديد النفقة التى ليست هدرا ، ثم يفضح اليهود بقضية توجد عندهم فى التوراة

ولكنهم كذبوها ، وهى قضية تتعرض للطعام ، ومادامت القضية تتعرض للطعام فهناك الكثير من الملكات التى يمكن أن تتحرك ، فملكات الواجد حين تتحرك فحركتها تكون بأسلوب غير الأسلوب الذى تتحرك به ملكات المعدم . فقبل أن يُحَرِك وجدان المعدم إلى أنه معدم ، حتى لا يتلقى ذلك بحسرة ، فإنه سبحانه يكون قد عمل رصيدا لهذا المعدم ، فيرقق قلب الواجد أولا « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون وما تنفقوا من شىء فإن الله به عليم » وبعد ذلك يأتى قوله الحق سبحانه :

﴿ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

ومعنى كلمة « حل » هو « حلال » ، ويقابلها « حرام » وحل هى مصدر ، ومادامت مصدرا فلا نقول « هذان حلالان » بل نقول : « هذان حل » ، ونقول : « هؤلاء حل » وإن شئت فاقرأ قوله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ ﴾

(من الآية ١٠ سورة الممتحنة)

« لا هن » هذه لجماعة النساء ، والحل مفرد ، وعندما يقول الحق سبحانه : « كل الطعام كان حلا لبنى إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه » فهذا يعنى أنه قد حرم بعضا من الطعام على نفسه فهو حر فى أن يأخذ أو يترك ، أو أنه قد حرمه على نفسه فوافقه الله ؛ لأن الناذر حين ينذر شيئا لم يفرضه الله عليه فهو قد ألزم نفسه بالنذر أمام الله .

إن الزمن الذى حرم فيه إسرائيل على نفسه بعضا من الأطعمة هو « من قبل أن تنزل التوراة » أى أن هذا التحريم لم يحرمه الله ، ويأتى الأمر لرسوله الكريم أن يخاطب بنى إسرائيل : « قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين » إنه قد كشف سترهم ، وعلموا أن الرسول صلى الله عليه وسلم يعلم أن النص الذى

يؤيد صدقه موجود فى التوراة ، ولهذا لم يأت اليهود بالتوراة ، وذلك لعلمهم أن فيها نصا صريحا يصدق ما جاء به رسول الله ، ولا يحتمل اللجاجة ، أو المجادلة ، وماداموا لم يحضروا التوراة فهذا يعنى أنهم غير صادقين . ويقول الحق :

﴿ فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾

إن فى هذا القول التحذير الواضح ألا يختلق أحد على الله شيئا لم ينزل به رسول أو كتاب فمن يفترى الكذب على الله لا يظلم إلا نفسه . ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾

يأمر الحق رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول : « قل صدق الله فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفا » .

ونعرف أن ملة إبراهيم هى التى سمّت كل المؤمنين بالله المسلمين ، والدعوة إلى الإيمان بملة إبراهيم هى لإيضاح أن جوهر الإيمان لا يحتمل الخلاف ، فركب الإيمان والرسل والأنبياء هو ركب واحد ، وكلمة « اتبعوا » تعنى أن هناك مقدما كما أن هناك تابعا . و« الملة » تشمل المعتقدات والتشريعات العامة ، كما أن الشريعة تشمل الأحكام ، والدين يكون لبيان العقائد .

راجع أصله وخرج أحاديثه الدكتور أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .

وقد عرفنا من قبل أن كلمة « حنيفا » تعنى الذى يسير على خط مستقيم ، ويتبع منهجا قويما ومستويا ، ونحن نسمى ملتنا « الحنيفية السمحاء » ومع ذلك فالحنف هو ميل فى الساقين ، اليمين مقوسة إلى اليمين ، واليسار مقوسة إلى اليسار ، فكيف إذن نقول عن الدين الحق الهادى لمنهج الله وشريعته : إنه حنيف ؟

لقد قلنا : إن السماء لا تتدخل بإرسال الرسل إلا حين يعم الفساد ، ومادام الفساد قد عم فإن الذى يميل منحرفا عن الفساد هو الذى اهتدى إلى الصراط المستقيم ، فالحنيف معناه مائل عن الفساد ، فالمائل عن المعوج معتدل ، « قل صدق الله فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين » .

« صدق الله » نعم ؛ لأن الصدق هو أن يطابق القول ما وقع فعلا ، وحين يتكلم الحق وهو العليم أزلا فما الذى يحدث ؟ لابد أن يوافق الواقع ما يقوله سبحانه وتعالى فليس من المعقول أن يتكلم الله كلاما يأتى على لسان رسول ، أو على لسان أتباع الرسول ، وبعد ذلك يأتى واقع الحياة فينقض قول الحق ويخالفه ، إن الحق العليم أزلا يُنزل من الكلام ما هو فى صالح الدعوة إلى منهجه .

إذن فحين يطلق الله قضية من قضايا الإيمان فإنه ـ سبحانه ـ عليم أزلا أنها سوف تحدث على وفق ما قال ، وإن كان الظرف الذى قيلت فيه لا يشجع على استيعابها وفهمها . إن المؤمنين كانوا فى أول الأمر مضطهدين ، ومرهقين وإن لم يكن للواحد منهم عشيرة تحميه فإنه يهاجر عن البلاد ، وإن لم يستطع الهجرة فإنه يُعَذب ويُضطهد . وفى هذه الفترة الشديدة القاسية وفى قمة اضطهاد المؤمنين ينزل القول الحق :

﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ ﴾

سورة القمر)

وعندما يسمع سيدنا عمر عليه رضوان الله هذا القول يتساءل : أى جمع هذا ؟ إن الواقع لا يساعد على هذا،ثم جاءت بدر ، وهزم المؤمنون الجمعَ وولوا الدبر ، وهذا دليل على أن الله قد أطلق قضية وضمن أنها ستحدث كما قال وكما أخبر ، وهذا مطلق الصدق . إن الإنسان يمكنه أن يستبعد الصدق لو أن الذى قال غير الذى

خلق ، لكن الذى قال ذلك هو الذى خلق ويخلق ويعلم ، فمن أين يأتى التناقض ؟ وهذا معنى القول الكريم :

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾

(سورة النساء)

إنه قول حق جاء من عند العليم أزلا ، ومن العجيب أن أهل الكتاب من يهود ونصارى يتمسحون فى سيدنا إبراهيم ، فقال بعضهم:إن إبراهيم عليه السلام كان يهوديا ، وبعضهم قال:إن إبراهيم كان نصرانيا . وكان يجب أن يفهموا أن اليهودية والنصرانية إنما جاءتا من بعد إبراهيم ، فكيف يكون يهوديا أو نصرانيا وهذه الملل قد جاءت من بعده ؟ لذلك جاء القرآن الكريم قائلا :

﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

وقد أوضح الحق بعد ذلك دين إبراهيم عليه السلام :

﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

فكيف يمكن أن يختلقوا على إبراهيم أنه كان يهوديا أو نصرانيا ؟ إنه كلام لا يصدر إلا عن قلة فطنة وغفلة بالغة . وعندما يقول الحق عن إبراهيم:« وما كان من المشركين » فهل أهل الكتاب مشركون ؟ نعم ؛ لأنهم حين يؤمنون بالبنوة لعزير ، ويؤمنون بالبنوة لعيسى فهذا إشراك بالله ، وأيضا كان العرب عبدة الأصنام يقولون : إنهم على ملة إبراهيم ؛ لأن شعائر الحج جاء بها إبراهيم عليه السلام ، ولهذا ينزه الحق سبحانه سيدنا إبراهيم عن ذلك ، ويقول : « قل صدق الله فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين» وذلك يدل على أن ملة إبراهيم وما جاء به

موافق لملة محمد صلى الله عليه وسلم وما جاء به ، وإجابة لدعوة إبراهيم عليه السلام . ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ ﴾

لقد عرفنا من قبل كيف كان تداعى المعانى سببا فى إرواء الحق لكل ملكات الإنسانية ، وقبل هذه الآية التى تتحدث عن بناء البيت الحرام بمكة المكرمة كان هناك حديث عن سيدنا إبراهيم عليه السلام حين قال الحق :

﴿ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

وإبراهيم عليه السلام هو أول الأنبياء صلة بالبيت الحرام ، وكان رفع قواعد البيت الحرام على يده بعد أن طمر وستر بالطوفان فى عهد نوح عليه السلام ، فحين يأتى الكلام فى رسالة سيدنا إبراهيم عليه السلام فلابد أن تأتى أكبر حادثة فى تاريخ سيدنا إبراهيم ، وهى حادثة بناء البيت الحرام ، كما أن الحق سبحانه حينما تكلم عن المحاجاة بين المسلمين وعلى رأسهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وفى يده القرآن ، وبين أهل الكتاب وفى أيديهم التوراة المحرفة والإنجيل المحرف أراد سبحانه أن يردنا إلى شىء واحد هو ملة إبراهيم الذى سمانا مسلمين . ومعنى ذلك أن الله يريد منا أن تسيطر قيم السماء على حركة أهل الأرض ؛ لأن حركة أهل الأرض إن اتبعت الأهواء تصادمت الحركات ، ومادامت الحركات قد تصادمت فإن ما ينتج عنها هو ضياع مجهود الحركة الإنسانية ، ويصير هذا المجهود مبددا .

ولكن الإنسان الذى يحمل القيم التى تتركز عقيدة فى قلبه ـ بعد أن يبحثها بفكره ـ هذا الإنسان له قالب تنفذ به تشريعات الله ، ولولا وجود القالب هذا لما استطاع

الإنسان أن يطبق تشريعات الله ، ولَمَّا استطاع أن يؤدى هذه التشريعات ، ولما استطاع أن يطيع الله بجوارحه ؛ فالإنسان بغير قالب لا يستطيع أن يؤدى الحركة المطلوبة .

إذن فلابد للقالب الإنسانى ـ البدن ـ فى التشريع من عملية أخرى وهى أن ينصب القالب ويكون له عمل حين يتوجه إلى بيت واحد لله ، وبذلك يصبح للقالب نصيب فى العبادة أيضا .

ولهذا كان لابد أن يوجد للقالب ـ أيضا ـ مُتَّجَهٌ وهذا المُتّجه يحكم القالب نفسه ، فكان المؤمن المسلم محكومًا قلبا وقالبا ، فحين نأتى للصلاة لنكون فى حضرة الله نتحرى أن يكون قالبنا متجها إلى المكان الذى أمرنا الله أن نتوجه إليه ، لماذا ؟

لأن الحق سبحانه وتعالى ساعة يعطى رحمته وبركته وتنزلاته وإشراقاته يريد أن يكون الجسم فى وضع مؤهل لاستقبال هذه التجليات ؛ ولذلك كان لابد أن يكون لله بيت يتجه إليه الجميع حتى يعطى للتدين وحدة ، فكما أعطى الحق لموكب الرسالات وحدة ، فإنه يعطى أيضا وحدة فى القالب الإنسانى والمتجَه ، وكل مكان يعبد الله فيه بالنسبة للإسلام يُعتبر مسجدا ، وقد يسر الله الأمر على أمة سيدنا محمد ، فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « جعلت لى الأرض مسجدًا وطهورا »[1] .

وكان لقاء الله وعبادته فى الديانات السابقة يقتضى مكانا محددا ولكن قد وسع رحمته على أمة محمد صلى الله عليه وسلم .

إن تراب الأرض طهور ، إننا عندما نفتقد الماء الطهور فإن التراب الذى قد يبدو للوهلة السطحية أنه سبب فى عدم النظافة قد جعله الله لنا طهورا .

إن الإنسان يمكنه أن يتيمم ويتطهر بالتراب ، وكأن الله قد أراد أن يكون لقاء كل فرد من أمة محمد به ميسرا تيسيرا كبيرا . وكل مكان نعبد فيه الله ويسجد فيه المسلم لله يصير مسجدا .

---

(١) هذا جزء من حديث شريف أخرجه الإمام البخارى فى صحيحه ، والإمام مسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه ، والإمام أحمد فى مسنده وغيرهم من أصحاب السنن .

لكن هناك فارقا بين أى مكان نعبد الله فيه والمسجد ، فنحن نرى العامل يعبد الله فى المصنع والتلميذ يعبد الله فى الفصل ، والفلاح يعبد الله ويؤدى الفروض فى الحقل ، ويمكن للسائر فى الشارع أن يؤدى صلاته فى أى مكان ، وأن يزاول عمله بعد ذلك ، ولكن حين يُحَيِّزُ الإنسان مكانا ليكون بيتا لله ، فمحظور أن يزاول فيه نشاطا آخر من نشاطات الحياة ؛ إنه مكان مُحيز .

إن العبادة كلها مقبولة ، ولكن هناك فارقا بين مكان تعمل فيه ومكان تخصصه ليصير مسجدا . فالمسجد هو مكان لايزاول فيه إلا لقاء الله ، ولذلك أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا نستغل هذا الحيز فى أى أمر يتعلق بدنيانا ، وقد أوضح لنا ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن الذى يعقد صفقة فى المسجد لن يبارك الله فيها ، والذى ينشد فيه شيئا ضالا له لن يجده . فقد دعا الرسول ألا يرد الله عليه ضالته .

إن أمور الدنيا يكفيها أن تأخذ من الإنسان كل يوم ثلاثا وعشرين ساعة، فليخصص الإنسان المؤمن ساعة لله وحده ، وليخلع كل أغراض الحياة الدنيا كما يخلع النعال على باب المسجد . فليس من حسن الأدب واللياقة أن ينشغل الإنسان بأى شىء غير لقاء الله فى الوقت المخصص للقاء الله ، وفى المكان المخصص لهذا اللقاء .

فساعة تدخل المسجد ينبغى أن تمنع نفسك من أن يتكلم معك أحد فى فضول الكلام ولغوه ، وأن تنوى الاعتكاف لتستفيد من وجودك فى المسجد . وساعة أن نخصص حيزا ما ليكون مسجدا ، فكيف يكون الاتجاه داخل المسجد ؟ أيترك الأمر لكل واحد أن يختار له متجها ؟

لا ، إن المؤمن ملتزم بالاتجاه إلى مكان واحد ، هذا المكان الواحد هو بيت لله باختيار الله بينما المساجد الأخرى هى بيوت لله باختيار خلق الله ، فبيوت الله باختيار خلق الله .متجهها جميعا هو بيت الله الحرام.

وحين تنظر هذه النظرة ستجد العالم متواجها ؛ لأن كل عابد سيكون اتجاهه إلى بيت الله مع بقية العابدين لله ، فيلتف المؤمنون كلهم حول بيت الله ، ويتواجهون ، إن وجوهنا كلها تُقابل بعضها بعضا ، ولكن ما ضرورة الاتجاه للكعبة ؟ والحق سبحانه يقول :

﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ ﴾

(سورة البقرة)

نقول : إن هذه الآية تؤيد ما نقوله ، فمادام لله المشرق والمغرب ، فهذا هو المعنى العام ، فالناس أول ما عرفوا الكون تعرفوا على المشرق والمغرب ثم الشمال والجنوب أيضا ، وبعد أن توصل العلم إلى تحديد الجهات الفرعية بجانب الجهات الأصلية الأربع المعروفة عرفنا « الشمال الشرقى » و« الشمال الغربى » و« الجنوب الشرقى » و« الجنوب الغربى » . إذن فكل المتجهات لله ، والاتجاه للكعبة يحقق هذا القول الكريم .

وعندما يتجه إنسان إلى الكعبة فقد يكون الشرق خلفه ، ويكون الغرب أمامه ، ويتجه إليها إنسان آخر إلى الكعبة ، فيتقابل وجهه مع وجه المتجه للكعبة ، وثالث يتجه إلى الكعبة ، فيكون فى زاوية أخرى ناظرا إليها ، وهكذا يلتف البشر من الشرق والغرب والشمال والجنوب وكل الجهات الفرعية حول الكعبة .

إذن فقول الحق : « ولله المشرق والمغرب » أى جميع الخلق متجه إلى الكعبة ، وبذلك لا تكون هناك جهة أولى بالله من جهة أخرى . وأنا لا أريد أن أدخل فى متاهة أنّ الكعبة مركز الأرض وأن الأرض خلقت منها ؛ لأن الشىء إذا كان مكورا فأى نقطة فيه تكون مركزا للجميع ، لذلك فلنترك مثل هذا الكلام ، لكن ألَا يكفى أن يرجحها أن الله قد اختارها ؟ إن ذلك يكفى وزيادة ، وبذلك ينتهى الأمر ، إنها كذلك ؛ لأنها بيت الله باختيار الله ، وهذا يكفى .

لقد علّمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الأشياء التى تقف فيها العقول وليست من صلب العقائد أو الدين لا يصح أن تكون محل خلاف أو جدل . يقول سيدنا على كرم الله وجهه عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : سأله رجل ، « أذلك أول بيت لله ؟ » فوضح رسول الله صلى الله عليه وسلم أن قبله بيوتا ، ولكن هو أول بيت وُضِع للناس . وهذا إيضاح أن الله قد جعل الكعبة هى أول بيت له يتعبد فيه جنس البشر ، وذلك لقول الله تعالى : « إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين » . ولكن إن كانت هناك أجناس سابقة على الجنس البشرى فمن المؤكد أنه كانت هناك لله بيوت لا نعرفها .

وما آدم فى منطق العقل واحد ولكنه عند القياس أوادم

ولذلك فوجود البيت الحرام كبيت لله لا يصطدم مع منطق الناس الذين لا يملكون إلا الثقافة الدينية الضحلة ، فساعة أن يسمع الواحد منهم ، أن هناك اكتشافا لحفريات من كذا مليون سنة فهو يتساءل قائلا : كيف وآدم لم يمر عليه ملايين السنين ؟ لنفترض أن هناك خمسة أجيال لإدريس عليه السلام وثلاثة أجيال لنوح عليه السلام ، وأحد عشر جيلا لإبراهيم عليه السلام وثلاثين جيلا لمحمد عليه الصلاة والسلام ، وهكذا يكون الوجود البشرى محددا بآلاف السنوات لا ملايينها .

لهذا الإنسان نقول : وهل قال لك أحد : إن آدم أول من عَمَرَ الأرض ؟ إن الدين لم يقل ذلك ، لكن الدين قال : إن آدم هو أول هذا الجنس البشرى ، ولكنه ليس أول من سكن الأرض ، لذلك فليقل العلماء : إن عمر هذه الأرض ملايين السنين ولنسمع جميعا قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ ﴾

(سورة إبراهيم)

إذن فلا مجال لهذا البحث ، لذلك قال النبى عليه الصلاة والسلام : « لا ، بل قبله بيوت » .

والحق سبحانه وتعالى يقول ما يوضح أن الجن قد سكنوا الأرض قبلنا :

﴿ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ ﴾

(سورة الحجر)

ألم يقل الحق سبحانه إن الإنسان خليفة ، وردّت عليه الملائكة :

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

(سورة البقرة)

إن الذين قالوا ذلك ليسوا من البشر ، إذن فكلام الله يؤكد أن الكعبة هى أول بيت وُضع للناس ، أى للجنس البشرى ، ولذلك فلا داعى أن نتكلم فى الأشياء التى يقف فيها العقل حتى لا ندخل فى متاهة . ولو كان الله قد أراد أن يعلمنا أن الكعبة هى أول بيت فى الأرض لقال لنا : « إنه أول بيت وضع فى الأرض » ، ولم يكن قد حدد الجنس الذى وضع البيت من أجله ، لكن الحق سبحانه قال : « إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا » ، ولذلك بين رسول الله صلى الله عليه وسلم أن قبله بيوتا ، ولكنه أول بيت وضع للناس . إنه جواب يتسع لكل ما يأتى به العلم .

وحين ننظر إلى القول الحق : « إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا » ما معنى « أول » ؟ إنه الابتداء ، وهل كل ابتداء له انتهاء ؟ لا ، إن هناك أمورا لها « أول » وليس لها « آخر » ومثال ذلك العدد « واحد » وما بعده ليس له آخر ، فآخر ما بعد العدد واحد هو ما يمكن الإنسان أن يحسبه عجزا فى التقديرات الدشليونية ، ولكن ما بعد الدشليون هناك أعداد أخرى ، وكان الإنسان قديما يقف عند الألف ، ثم يقول عن المليون « ألف ألف » ، وكذلك الجنة لها أول وليس لها آخر .

إذن فأول بيت وضعه الله للناس هو الكعبة . وعندما نرى كلمة « وُضع » نجدها فعلا ، ونرى أنه قد وُضِع للناس . ومادام هذا البيت قد وضع للناس لذلك فمن اللازم حين تأتى كلمة « ناس » أن يكون هناك « بيت » و« آدم » من الناس ، ووالد كل الناس ، وكان له بيت وُضِع له . وحين يقال : إن البيت قد تم بناؤه قبل آدم فإننا نقول : نعم ، لأن آدم من الناس ، والله يقول : « إن أول بيت وضع للناس » فلماذا نحرم آدم من أن يكون له بيت عند الله ؟ إذن فالبيت موجود من قبل آدم . وبعض الناس تظن أن إبراهيم عليه السلام هو الذى بنى البيت ، ولأصحاب هذا الظن نقول : لنفهم القرآن معا ، إن مثل هذا القول يناقض القرآن ؛ لأن القرآن قد قال : « إن أول بيت وضع للناس » وذلك إيضاح أن إبراهيم كان من قبله أناس سابقون له ، فكيف لا يكون للناس من قبل إبراهيم بيت ؟ ولا يكون للناس من بعد إبراهيم بيت ؟

إن الذين كانوا يعيشون قبل مجىء إبراهيم عليه السلام لهم الحقوق نفسها عند الله التى وضعها الله لمن بعد إبراهيم ، فلابد أن الله قد جعل بيته لهم ، والنص القرآنى

« إن أول بيت وضع للناس » مؤكد ذلك ، ومادام قد جاء الفعل مَبْنياً للمفعول فواضعه غير الناس ، فـ « وُضِع » هو فعل مبنى على ما لم يسم فاعله ، فمن الذى وضعه ؟ هل هم الملائكة ؟

قد يصح ذلك وهو أن يكون الملائكة قد تلقوا الأمر من الله بمزاولة هذا البناء ، ولكن الحق يقول عن هذا البيت إنه : « هدى للعالمين » وهذا يعنى أن البيت هدى للملائكة ؛ لأنهم عالم،وهذا يعنى أن البيت قد وضعه الله من قبل ذلك ، إن أحدًا لا يقدر أن يجعل الكون على قدر العقل البشرى ، إن على العقل البشرى أن يكون فى ركاب الكون ، وإياك أن تجعل الكون فى ركاب عقلك . أما مسألة أن إبراهيم قد بنى الكعبة أولاً فهذا عدم فهم للنص القرآنى القائل :

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ ﴾

(سورة البقرة)

فما هو الرفع ؟ إنه إيجاد البُعد الثالث وهو الارتفاع ، فالطول والعرض موجودان إذن فهذا دليل على وجود البيت قبل أن يقيم إبراهيم عليه السلام ارتفاع البيت . وهكذا نستنتج أن الذى كان مطموسا هو القاعدة والارتفاع ، مع وجود الطول والعرض اللذين يحددان المكان ، أما البناء فهو الذى يحدد « المكين » وعندما انهدم البيت الحرام كان الناس يتجهون إلى المكان نفسه . ونحن عندما نصلى فى الدور الثالث فى الحرم ، فإننا نتجه إلى الهواء الموجود من فوق الكعبة ، ولو حفرنا نفقا تحت الأرض بألف متر ، وأردنا أن نصلى فإننا سنتجه إلى جذر الكعبة ، وهكذا نعرف أن جو الكعبة كعبة .

إذن فعمل إبراهيم عليه السلام كان فى إيجاد المكين لا المكان ، ولنقرأ بالفهم الإيمانى ما حدث لإبراهيم عليه السلام . لقد أخذ إبراهيم هاجر وابنها إسماعيل ، وخرج بهما ليضعهما فى هذا المكان . « وهاجر » تعرف أن مكونات الحياة هى المياه والهواء والقوت ، وهذا المكان لا توجد به حتى المياه ، لذلك قالت هاجر سائلة إبراهيم عليه السلام : كيف تتركنا هنا ؟ هل أنزلتنا هنا برأيك أم بتوجيه من الله ؟

فقال لها إبراهيم عليه السلام : إنه توجيه من الله ، لذلك قالت : « لقد اطمأننت ، والله لا يضيعنا أبدا » . لم تقلق هاجر لأن إبراهيم اتجه إلى ما أمره الله ، وهذا هو الإيمان فى قمته ، ولو لم يكن الإيمان على هذه الدرجة الرفيعة فأى قلب لأم تترك أب الطفل يذهب بعيدا عنها وتعيش مع ابنها فى هذا المكان الذى لا يوجد به طعام أو ماء ، فهى لا تؤمن بإبراهيم ، ولكنها تؤمن برب إبراهيم وعندما تقرأ القرآن الكريم تجد القول الحق على لسان إبراهيم :

﴿ رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾

(سورة إبراهيم)

هكذا نعرف أنه ساعة إسكان إبراهيم لذريته كان هناك بيت وأن هذا البيت محرم ، وعندما نقرأ عن رفع البيت الحرام نجد أن إبراهيم عليه السلام لم يرفع قواعد البيت بمفرده بل شاركه ابنه إسماعيل عليه السلام .

﴿ وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ ﴾

(سورة البقرة)

هكذا نعلم أن إسماعيل عليه السلام كان قد نضج بصورة تسمح له أن يساعد والده خليل الرحمن فى إقامة قواعد البيت الحرام ، وهذا يدلنا على أن إسماعيل نشأ طفلا فى هذا المكان عندما أسكنه والده إبراهيم عند البيت المحرم ، هكذا نتيقن أن البيت المحرم كان موجودا من قبل إبراهيم عليه السلام ، وعندما ندقق النظر فى معنى كلمة « بكة » التى وردت فى هذا القول الكريم: « إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا » فإننا نعرف أن هناك اسما لمكان البيت الحرام هو « بكة » وهناك اسم آخر هو مكة ، وبعض العلماء يقول : إن « الميم » و« الباء » يتعاونان ، ونلحظ ذلك

فى الإنسان « الأخنف » أو المصاب بزكام ، إنه ينطق « الميم » كأنها « باء » . والميم و« الباء » حرفان قريبان فى النطق ، والألفاظ منهما تأتى قريبة المعنى من بعضها .

ولننظر إلى اشتقاق « مكة » واشتقاق « بكة » . إننا نقرأ « بكّ المكان » أى ازدحم المكان ، وهكذا نعرف من قوله الحق : « إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا » أى أنه مكان الازدحام الذى يأتى إليه كل الناس وكل الوفود لتزور بيت الله الحرام ، ولا أدل على ازدحام البيت الحرام من أن الرجال والنساء يختلط بعضهم ببعض ، والإنسان يطوف بالبيت الحرام ، ولا يدرى أنه يسير وقد يلمس امرأة أثناء الطواف .

و« بكة » هى المكان الذى فيه الطواف والكعبة ، أى هى اسم مكان البيت الحرام ، و« مكة » اسم البلد كلها الذى يوجد به البيت الحرام . و« مكة » مأخوذة من ماذا ؟ إن « مكة » مأخوذة من « مك الفصيل الضرع » أو « امتك الفصيل الضرع » ، أى امتص كل ما فيه من لبن ، والفصيل كما نعرف هو صغير الإبل أو صغير البقر . ومادام الفصيل قد امتص كل ما فى الضرع من لبن فمعنى هذا أنه جائع ، ومكة كما نعرف ليس فيها مياه ، والناس تجهد وتبالغ فى أن تمتص المياه القليلة عندما تجدها فى مكة .

وفى كلمة « مباركا » نجد أنها مأخوذة من « الباء والراء والكاف » والمادة كلها تدور حول شىء اسمه الثبات ، فهل هو الثبات الجامد ، أم الثبات المعطى النامى الذى مهما أخذت منه فإنه ينمو أيضا ؟ إننا فى حياتنا اليومية نقول : « إن هذا المال فيه بركة . مهما صرفت منه فإنه لا ينتهى » ، أى أنه ثابت لا يضيع ، ويعطى ولا ينفد . وكلمة « بِرْكة » فى حياتنا تعنى أنها تَجمعُ الماء تأخذ منها مهما تأخذ فيأتى إليها ماء آخر .

وكلمة « تبارك الله » تعنى « ثبت الحق » ولم يزل أزلا ولا يزال هو واحداً أحداً ، إنه الثبوت المطلق . وهكذا نجد أن الثبات يأتى فى معنى البيت الحرام . إن البيت الحرام مبارك أبدا « كيف » ؟ أليست تضاعف فيه الحسنة ؟ وهل هناك بركة أحسن من هذه ؟ وهل هناك بركة أفضل من أنه بيت تُجبى إليه ثمرات كل شىء ولا تنقطع ؟ فقديما كان الذاهب إلى البيت الحرام يأخذ معه حتى الكفن ، ويأخذ الإبرة والخيط ، والملح ، والآن فإن الزائر لبيت الله الحرام يذهب ليأتى بكماليات

الحياة من هناك . ويقول سبحانه عن هذا البيت الحرام المبارك : إنه « هدى للعالمين » . ما هو الهدى ؟ قلنا : إن الهدى هو الدلالة الموصلة للغاية ، ومن يَزُرْ البيت الحرام يخرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه ، فهل اهتدى للجنة أم لا ؟ إنه عرف بزيارة البيت الحرام الطريق إلى الجنة . وحينما ننظر إلى هذه المسألة نجد أن الحق سبحانه وتعالى عندما تكلم عن البيت لم يتكلم إلا عن آية واحدة فيه هى مقام إبراهيم مع أن فيه آيات كثيرة .

قال الحق :

﴿ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾

إننا نجد أن صيغة الجمع موجودة فى قوله الحق : « فيه آيات » و« بينات »وهى وصف الجمع . وبعد ذلك قال الحق : « مقام إبراهيم » إنه سبحانه لم يذكر إلا مقام إبراهيم بعد الآيات ، والمقام آية واحدة ، وهذا يدل على أن مقام إبراهيم فيه الآيات البينات ، ونحن نقرأ « مقام إبراهيم » بفتح الميم الأولى فى كلمة « مقام » ولا ننطقها « مقام » بضم الميم الأولى لأن المقام بضم الميم تعنى مكان إقامة إبراهيم،أما مقام بفتح الميم فمكان القيام ، لماذا كان قيام إبراهيم عليه السلام ؟

لقد كان إبراهيم يقوم ليرفع قواعد البيت الحرام ، وكان إبراهيم يقوم على « حجر » . وعندما ننظر إلى مقام إبراهيم فإنك تجد فيه كل الآيات البينات ؛ لأن الله طلب من إبراهيم عليه السلام أن يرفع قواعد البيت ، وكان يكفيه حين يرفع قواعد البيت أن يعطيه الارتفاع الذى يؤديه طول يديه ، وبذلك يكون إبراهيم عليه السلام قد أدى مطلوب الله ـ كما قلنا من قبل ـ لكن إبراهيم عليه السلام تعود مع

الله أن يؤدى كل تكليفات الله بعشق وحب وإكمال وإتمام ، فقال إبراهيم فى نفسه : « ولماذا لا أرفع البيت أكثر مما تطول يداى ؟» ولم تكن هناك فى ذلك الزمن القديم فكرة « السقالات » ، ولم يكن مع إبراهيم عليه السلام إلا ابنه إسماعيل . وأحضر إبراهيم عليه السلام حجرا ، ووقف عليه ؛ ليرفع القواعد قدر الحجر .

إذن فإبراهيم خليل الرحمن أراد أن ينفذ أمر الله بالرفع للقواعد لا بقدر الاستطاعة البدنية فقط ،ولكن بقدر الاحتيال على أن يرفع القواعد فوق ما يطلبه الله ، وهذا معنى قول الله عن إبراهيم عليه السلام :

﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ ﴾

(سورة البقرة)

أى أنه أدى مطلوب الله أداء كاملا ، ولا أدل على هذا الأداء الكامل من أنه أتى بحجر ليقف عليه ليزيد من ارتفاع البيت قدر هذا الحجر . ونعرف أن الذى ساعده وشاركه فى رفع القواعد هو ابنه إسماعيل . ومن أكرمه الله برؤية مقام إبراهيم يجد أن الحجر يسع وقوف إنسان واحد ، وهكذا نفهم أن إسماعيل كان يساعد ويناول والده الأحجار ، أما مكان الأقدام الموجودة فى هذا الحجر ، فهذا يعنى أن إبراهيم عندما كان يقف ويحمل حجرا من المفروض أن يحمله اثنان فإن هذا يتطلب ثبات القدمين فى مكان آمن حتى لا يقع .

فهل يا ترى أن الله سبحانه وتعالى جلت قدرته ساعة رأى إبراهيم يحتال هذه الحيلة قال لخليله : سأكفيك مؤنة ذلك . وجعل الحق القدمين تغوصان فى الحجر غوصا يسندهما حتى لا تقعا . والذى لا يتسع ذهنه إلى أن الله ألآنَ لإبراهيم الحجر ، نقول له : إن إبراهيم قد احتال ، وخاف أن تزل قدمه ، فنحت مكانا فى الحجر على قدر قدمه حتى تثبت قدمه حين يحمل ويرفع الحجر ، وهذه آيات بينات . فخذ ما يتسع ذهنك وفهمك له ، إن الله أعان إبراهيم لأنه فكر أن يبنى القواعد ويرفعها أكثر مما تطول يداه ، وقد مكّن الله له فى ذلك وأعانه عليه ، ونحن نعلم أن الهداية تكون هداية الدلالة وهداية المعونة .

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة محمد)

« فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا » ، والآيات هى الأمور العجيبة ، وعندما تراها فإنك لا تستطيع أن تنكرها . ودخول البيت يعنى الأمن للإنسان الذى يدخله ، ونحن نعلم أن البيت قد تم بناؤه فى هذا المكان . وهذا المكان تجتمع فيه القبائل ، وبين بعض هذه القبائل ثارات ودماء وحروب ، لذلك يبّين الله الوضع الذى بمقتضاه تحقن الدماء « ومن دخله كان آمنا » لماذا ؟ لأنه بيت الرب ولا يصح أن يدخل واحد بيت الرب ويُعاقب حتى ولو كان قد أجرم جرما يوجب الله عليه الحد فيه . ولذلك قال سيدنا عمر رضى الله عنه : لو ظفرت فيه بقاتل الخطاب ـ والده لم أتعرض له .

ولكن يُضَيّق الخناق على المجرم حتى يخرج . وهذا الأمن محدد بأي أمر اقترفه فى دنياه ، أما من دخله كان آمنا يوم القيامة فالحكم فيه شيء آخر ، إنها درجة عالية من فضل الله ، والآيات البينات الواضحة فى البيت الحرام يراها من زار البيت الحرام ، وليحقق الله أمل كل راغب فى زيارة البيت الحرام ، وأن يكرر الزيارة لمن ذهب وأراد أن يعود للزيارة مرة أخرى . فساعة تدخل البيت الحرام فأنت هنا تتجه إلى مكان فى البيت والمقابل لك فى الكرة الأرضية يتجه إلى المكان المقابل ، إلى أن تصير الاتجاهات مشتملة على الكعبة كلها . ونحن عندما نكون فى الكعبة فإننا نوجه وجوهنا إلى المبنى لأننا نراها ، ونحن نوجه الوجوه إلى المبنى المقطوع بأنه منها ، والحطيم ، وهو القوس المبنى حول حجر إسماعيل ، هو من الكعبة أيضا ، ولكن النفقة قصرت ، فجعلوه ليحدد مكان الكعبة ، فظل هكذا ، فإذا غاب الإنسان عن الكعبة واتجه إليها فإنه يكفى أن يتجه إلى جهتها .

ولذلك نجد الصفوف فى الصلاة حول الكعبة تتخذ شكل الدائرة ؛ لأن الذين يصلون فى داخل الحرم يشاهدونها ، أما الذين يصلون خارجها فيكفى أن يتجهوا إلى جهتها ولو طال الصف إلى ألف متر ، لذلك فالصف للمصلين خارج الحرم يكون معتدلا ، أما فى داخل الحرم فالصفوف تأخذ شكل الدائرة لأن أقصى بُعد فى الكعبة هو اثنا عشر مترا وربع المتر،ونجد من الآيات العجيبة أنك إذا ما نظرت إلى الحجر الأسود تجد الناس تتهافت على تقبيله ، والحجر يمثل أدنى أجناس الكون ، ونعلم

جميعا أن الإنسان مستخلف كسيد فى الكون ، ومن بعده الحيوان أقل منه فى الفكر ومسخر ، ومن بعد الحيوان يكون جنس النبات ، ومن بعد ذلك يأتى جنس الجماد ومنه الحجر .

إننا نرى هذا الإنسان السيد فى الكون لا يقبل الله منه النسك القبول التام الحسن إلا إذا قبل الحجر ، أو حياه ، وهكذا ينقل الحق أعلى الأجناس إلى أدناها . والناس تزدحم حول الحجر ، ومن لم يقبل الحجر يحس أنه افتقد شيئا كثيرا ، وهكذا ترى استطراقا وسلوكا من الخلق إلى باب الله ، فالإنسان المتكبر الذى يتوهم أنه سيد على غيره ، يأتى إليه أمر فى النسك بتقبيل الحجر أو تحيته بالسلام ، وهذا الإنسان برغم أن الحق ـ سبحانه ـ يقبل منه أن يحيى الحجر الأسود بالسلام ولم يفرض عليه أن يقبّله ولكنه مع ذلك يحاول أن يقبل الحجر ، وهو أدنى الأجناس ، لأن الله قد عظمه ، وهذا أول كسر لأنف غرور الإنسان ، وحتى لا يظن ظان أنها حجرية أو وثنية ، يأتى الأمر من الحق برجم حجر آخر .

إذن فالحجرية لا ملحظ لها هنا ، فنحن نجد حجرا يُقدس ، وحجرا آخر يُرجم . نجد حجرا يقبله الإنسان ويعظمه وحجرا آخر يزدريه ويحقره . وذلك يدل على رضوخنا لإرادة الآمر سبحانه وتعالى فقط ، فعندما يأمرنا بأن نعظم حجرا فالمؤمن يؤدى حق التعظيم بالسمع والطاعة ، وعندما يأمرنا سبحانه برجم حجر آخر ، فالمؤمن يرجم هذا الحجر بالسمع والطاعة لله أيضا ، فالذاتية الحجرية لا دخل لها على الإطلاق . وبعض من أصحاب الظن السيىء قالوا:إن الإسلام قد استبقى بعض الوثنية .

ولهؤلاء نقول : ولماذا تذكرون تعظيم الحجر الأسود ، ولم تذكروا رجم إبليس وهو ثلاثة أحجار ؟ لقد عظم المؤمن المؤدى للنسك حجرا واحدا ورجم ثلاثة أحجار ، إن المؤمن إنما يطيع أمر الله ، فليست للحجر أى ذاتية فى النسك أو العبادة . لقد رفعنا الحق من حضيض عبادة الأصنام التى هى عين الكفر ، لكنه قال لنا : « قبلوا الحجر الأسود » فقد قبلنا الحجر احتراما لأمر الآمر ، وذلك هو منتهى اليقين . لقد نقلنا الحق من مساو إلى مساو ، من عبادة الحجر إلى تعظيم وتقديس حجر مثله ، لكن الأصنام كانت منتهى الشرك ، وتقبيل الحجر الأسود منتهى اليقين . أليست هذه آيات بينات ؟

وزمزم التى توجد فى حضن الكعبة ، أليست آيات بينات ؟ إن « هاجر » تترك الكعبة وتروح إلى « الصفا » وتصعد إلى « المروة » بعد أن تضع « إسماعيل » بجانب الكعبة ، وتدور بحثا عن المياه . وسعت هاجر سبعة أشواط لعلها ترى طيرا أو تجد إنسانا يعرف طريق المياه لأن ابنها يحتاج إلى الشرب ، ولو أنها وجدت على الصفا أو المروة مياها فى أول سعيها أكانت تجد تصديقا لقولها لإبراهيم عندما جاء بها للإقامة فى هذا المكان « إن الله لا يضيعنا » إنها سعت .

وكأن الله يقول لها ولكل إنسان : عليك بالسعى ، ولكن لن أعطيك من السعى ، إنما أعطيك الماء من تحت رجل إسماعيل،إذن فصدقت فى قولها: لن يضيعنا الله ، لقد جعلها الحق سبحانه تسعى سبعة أشواط ، ولا يمكن لامرأة فى مثل عمرها أن تقدر على أكثر من ذلك ، وهذا يعلمنا أن الإنسان عليه أن يباشر الأسباب ، ولكن القلب عليه أن يتعلق بمسبب الأسباب ، وهو الله سبحانه،وفى هذا ما يعدل سلوك الناس جميعا . فساعة يرى الإنسان أن البئر مكان قدم إسماعيل وعلى البعد تكون الصفا والمروة ، وتسعى بينهما ، وبعد ذلك تجد زمزم مكان ضربة قدم إسماعيل ، أليس فى هذا آيات بينات تهدى الإنسان أن يباشر الأسباب ويأخذ بها ، ويتعلق القلب بمسبب الأسباب ؟

إن هذا يعطى المؤمن إيمانية التوكل ، وهى تختلف عن الكسل و« بلادة التواكل » فإيمانية التوكل هى أن الجوارح تعمل ، والقلوب تتوكل ، أما الكسل عن الأخذ بالأسباب مع الادعاء بالتوكل فهذه بلادة ، ومثل هذا الكسول المتواكل عندما يأتى الأكل أمامه يأكل بنهم وشره ، ولو كان صادقا لترك اللقمة تقفز إلى فمه ، ولماذا يمضغها إذن ؟ لماذا يختار التواكل والكسل ، وعدم العمل ، ثم يمد يده ليأكل ؟ إن هذه هى « صفات التواكل » .

إننا نأخذ من سعى « هاجر » وتفجر الماء عبرة ، هى الأخذ بأسباب الله ، وبعد ذلك فإننا نجد كل إنسان فى البيت الحرام مشغولا بنفسه مع ربه ، ومن فرط انشغاله يكون غافلا عمّن يكون معه ، ولو كان أحب إنسان له فإنه لا يدرى به . وساعة تدخل وتنظر إلى الكعبة ينفض من عقلك كل فكر فى أى شىء من الأشياء ، لا تذكر أولادك أو مالك ، لكنك بعد أن تفرغ من المناسك تعود للتفكير فى أولادك وعملك ، وإلا لو ظل حبك وشوقك وتعلقك ومواجيدك بهذه البقعة لضاق المكان

بالناس جميعا . بعد ذلك يقول الحق سبحانه عن البيت الحرام : « ومن دخله كان آمنا » . وهنا يجب أن نفهم أن هناك فارقا بين أن يكون « الخبر » تاريخا للواقع ، وبين أن يكون « الخبر » خبرا تكليفيا فلو كان « وَمَنْ دخله كان آمنا » تاريخا للواقع لتم نقض ذلك بأشياء كثيرة ، فقد وجد فيه قوم ولم يأمَنوا .

ونحن نعرف حادث الاعتداء الأخير الذى حاوله جهيمان منذ سنوات قال الناس: إن جهيمان عندما اعتدى على الناس ، لم يستطع حجيج بيت الرحمن أن يكونوا آمنين فى البيت وتساءل بعضهم ، فكيف قال الحق : « ومن دخله كان آمنا » ؟ بل قال بعض أهل الانحراف : إذن مسألة دخول جهيمان إلى البيت الحرام تجعل « ومن دخله كان آمنا » ليست صادقة ! ولهؤلاء نقول :

إن هناك فرقا بين إخبار الحق بواقع قد حدث ، وبين إخبار بتكليف . إن الإخبار بالواقع كان معناه ألا يدخل أحد البيت الحرام ويهيجه أو يهاجمه أحد أبدا ، ولكن الإخبار التكليفى معناه : أن يخبر الله بخبر ويقصد به تكليف خلقه به ، والتكليف كما نعرف عرضة لأن يطاع ، وعرضة لأن يعصى ، فإذا قال الله سبحانه : « ومن دخله كان آمنا » فهذا معناه : يأيها المؤمنون ، من دخل البيت الحرام فأمنوه . ونضرب المثل ـ ولله المثل الأعلى ـ تقول أنت لولدك: يا بنى هذا بيت يفتح للضيوف من دخله يكرم . أهذا يدل على إنجاز الإكرام لكل من دخل هذا البيت وحصوله له بالفعل وأن هذا لا يتخلف أبدًا أم أنك قلت الخبر وتريد لولدك أن ينفذه ؟

إن هذا خبر يحمل أمرا لابنك هو ضرورة إكرام من يدخل هذا البيت ، وتلك الوصية عرضة لتطاع وعرضة لأن تخالف ، لذلك فنحن نفهم من قول الحق : « ومن دخله كان آمنا » على أساس أنها أمر تكليفى ، عرضة للطاعة وللعصيان ، ومثال آخر على ذلك هو قول الله تعالى :

﴿ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾ ﴾

(سورة النور)

بعض الناس يقول : نجد واقع الحياة غير ذلك ، حيث نجد امرأة طيبة تقع فى

عصمة رجل غير طيب وتتزوجه . ونجد رجلا طيبا يقع مع امرأة غير طيبة ويتزوجها ، فكيف يقول الله ذلك ؟ ونحن نرد على أصحاب هذا القول : إن الله لم يقل ذلك تأريخا للواقع . ولكنه أمر تكليفى . أىْ افعلوا ذلك ، وحكمى وتكليفى أن يكون الطيبات للطيبين والطيبون يكونون للطيبات . فإذا امتثل الخلق أمر الحق فعليهم أن يفعلوا ذلك ، وإن لم يمتثل بعض الخلق لأمر الحق فإن الواقع ينبىء بحدوث وجود طيبين لغير طيبات أو العكس .

إذن فقول الحق : « ومن دخله كان آمنا » هو خبر يراد به أمر تكليفى ، فمن أراد أن يكون صادقا فيما كلفه الله به فليُؤمن مَن دخل البيت الحرام . وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

(من الآية ٩٧ سورة آل عمران)

وحين تسمع « لـ » و« على » ، فافهم أن الفائدة تقع على ما دخلت عليه « اللام » ، والتبعة تقع على ما دخلت عليه « على » . فحين نقول : « لفلان عَلَى فلان كذا » فالنفعية لِفلان الأول والتبعة على فلان الثانى . وحين يقول الحق سبحانه وتعالى : « ولله على الناس حج البيت » . فعلى هذا فالنفعية هنا تكون لله ، والتبعة هنا تكون على الناس ، لكن لو فطنا إلى سر العبارة لوجدنا أن الله لا ينتفع بشىء من تكليفه لنا ، فالحج لله ، ولكنه يعود إليك ، فما لله عاد إليك ، وما عليك عاد لك .

وكل تكليف عليك فأثره لك ، فإياك أن تفهم من ذلك القول الكريم : « ولله على الناس حج البيت » أن اللام الأولى للنفعية ، وإياك أن تفهم أن « على » هى للتبعة ، نعم إن الحج لله ، ولكن الفائدة لا تعود إلا عليك ، وهو تكليف عليك ، وفائدته تعود عليك ، فالحق سبحانه وتعالى منزه عن أن يُفيد من حكم من أحكامه ، وهو سبحانه حين ينزل حكما تكليفيا فعلى العبد المؤمن أن يعرف أن فائدة الحكم عائدة عليه وعلى حياته ، ولله يكون القصد والحج ، لا لشىء سواه .

ولماذا يقول الحق : إن على العبد المؤمن أن يحج البيت الحرام ؟ لأنه الخالق وهو

خبير وعليم بأن التكليف شاق على النفس ، ولكن على المؤمن المكلف حين يجد تكليفا شاقا عليه أن ينظر إلى الفائدة العائدة من هذا الحكم ، فإن نظر إلى الفائدة من الحكم وجد أنها تعود عليه ، ولذلك يسهل على العبد المؤمن أمر الطاعة . والذى لا يقبل على الطاعة ويهمل الجزاء عليها ويغفل عنه . تكون الطاعة شاقة عليه . والذى يقبل على المعصية ويهمل الجزاء عليها تكون المعصية هينة عليه . ولكن الطائع لو استحضر غاية الطاعة لعلم أنها له لا عليه .

ولو أن العاصى استحضر العذاب على المعصية لعلم أنها عليه لا له ؛ فالعاصى قد يحقق لنفسه شهوة ، لكنها شهوة عاجلة ، أمدها قصير ، ولو استحضر العاصى العقوبة على المعصية وقت عملها ما أقدم على معصيته أبدا . ولكن الذين يرتكبون المعصية ينظرون إلى الشهوة الطارئة ، ويعزلون جزاء المعصية عنها ، ولو أنصفوا أنفسهم ، لاستحضروا العقاب على المعصية فى وقت الرغبة فى ارتكابها . وحين يستحضرون جزاء المعصية مع المعصية فإن شهوة المعصية تنتهى منهم ، وأضرب هذا المثل دائما عن أعنف غرائز الإنسان وهى غريزة الجنس .

هب أن هناك واحدا رأى فتاة جميلة ثم أراد أن ينالها نقول لهذا المتشرد جنسيا : استحضر العذاب على هذا العمل ، وإن أخذت هذه الفتاة فتعال لنريك بعينيك ما أعده الله لك حين تتمتع بهذه الفتاة خارجا عن شرع الله ، وأوقد له فرنا مسجورًا ومحميًا ، وقُل له : فى مثل هذا ستدخل بل وأشد منه إن نلت من الفتاة .

أيقبل هذا المتشرد على ارتكاب تلك المعصية ؟ لا ؛ فشهوة المعصية تضيع عندما يَستحضر العذاب عليها . إن الحق سبحانه يقول : « ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا » والسبيل هو الطريق الموصل للغاية ، والطريق الموصل للغاية عادة ما يكون مطروقا ، وعندما يتجه الإنسان لأداء فريضة الحج فهو طارق للطريق ، أى سيسير عليه ، هكذا تعرف أن هناك ثلاثة أشياء :

طارق ، وهو من كتب الله عليه الحج وهو المكلف .
وسبيل مطروق .
وغاية ، وهى حج البيت .

ومادام الطارق سيسلك طريقا فلا بد أن يكون عنده قدرة على أن يسلك هذا الطريق فكيف تتأتى هذه القدرة ؟ إن أول شيء فى القدرة هو الزاد ، وثانى شيء فى القدرة هو المطية التى يركبها ، وهكذا نتبين أننا نحتاج إلى زاد وراحلة لطارق الحج . والسبيل الذى يطرقه ، أيكون محفوفا بالمخاطر ؟ لا ، بل يُفترض أن يكون السبيل آمنا . إذن فالاستطاعة تلزمها ثلاث حاجات ، هى : الزاد ، والراحلة ، وأمن الطريق . والزاد عادة يخص الإنسان نفسه ، ولكن ماذا يكون الحال إن كان الإنسان يعول أسرة وصغارا ؟

إذا كان الإنسان على هذا الحال فمن الاستطاعة أن يكون قد ترك زادا لمن يعولهم إلى أن يعود . وعلينا أن ننتبه إلى أن الله قال فى كل تكليف : « يأيها الذين آمنوا كتب عليكم » . ولكنه سبحانه جاء فى فريضة الحج بالقول الواضح ، بأن الحج لله على الناس وليس لمن أسلموا فقط ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم قد دعا أهل الكتاب الذين كانوا يتمحكون فى إبراهيم عليه السلام أن يحجوا البيت الحرام ، فامتنعوا عن الحج ، ولو كان الحج للمسلمين المؤمنين برسالة محمد صلى الله عليه وسلم لما عرض رسول الله صلى الله عليه وسلم على اليهود والنصارى أن يحجوا ليكون ذلك جمعًا لهم على أن يتجه الخلق جميعا إلى بيت الله ويعبدوا إلها واحدًا هو ربّ هذا البيت ، ولكنهم امتنعوا عن الحج . ولذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم فيمن لم يحج بدون مرض حابس ، أو سلطان جائر ، أو فقر وعوز ، يقول فى الحديث الشريف :

عن على رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (من ملك زادًا وراحلة تبلغه إلى بيت الله ولم يحج فلا عليه أن يموت إن شاء يهوديا وإن شاء نصرانيا ، وذلك أن الله تعالى يقول : « ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا »)[1] .

ولذلك نجد التكليف بالحج قد اتبع مباشرة بقول الحق : « ومن كفر » فهل يقع من لا يحج بدون مانع قاهر فى الكفر ؟ هنا يقف العلماء وقفة . العلماء يقولون : نعم إنه يدخل فى الكفر ، لماذا ؟ لأن الكفر عند العلماء نوعان كفر بالله ، أو كفر بنعمة

(١) رواه الترمذى ، والحديث وإن كان فى إسناده هلال بن عبدالله مجهول إلا أنه ورد فى طرق أخرى حسان وكلها تدل على أن مناط الوجوب فى توافر الزاد والراحلة .

الله ، ومثال ذلك قوله ـ جل شأنه ـ :

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾

(سورة النحل)

أو هو الكفر ، كأن يموت الإنسان يهوديا أو نصرانيا ، وهنا نقول : انتبه ، لا تأخذ الحكم من زاوية وتترك الزاوية الأخرى . إن المسألة التكليفية يوضحها الحق بقوله : « ولله على الناس حج البيت » . فهل تعارضون فى هذا التكليف ؟ أو تؤمنون به ولكن لا تنفذونه ؟

إن القضية التكليفية الإيمانية هى « ولله على الناس حج البيت » فهل أنت مؤمن بها أو لا ؟ سنجد الإجابة من كل المؤمنين بـ « نعم » . ولكن الموقف يختلف مِنْ مؤمن إلى آخر ؛ فنحن نجد مؤمنا يحرص على أداء الحكم من الله ، وهو الطائع ، ونجد مؤمنا آخر قد لا يحرص على أداء الحكم فيصبح عاصيا .

ونجد فى هذا الموقف أن الكفر نوعان ، هناك من يكفر بحكم الحج ، أى من كفر فى الاعتقاد بأن لله على الناس حج البيت ، وهذا كافر حقا ، لكنْ هناك نوع آخر وهو الذى يرتكب معصية الكفران بالنعمة ؛ لأن الله أعطاه الاستطاعة من زاد ، ومن راحلة ، ومن أمن طريق ، ومن قدرة على زاد يكفى من يعولهم إلى أن يعود ، وهنا كان يجب على مثل هذا الإنسان أن يسعى إلى الحج . لذلك قال بعض العارفين لو أن أحدهم أُخْبِر بأن له ميراثا بمكة لذهب إليه حبوًا .

إذن فقوله تعالى : « ولله على الناس حج البيت » هى قضية إيمانية ، فمن اعتقدها يبرأ من الكفر ، ومن خالفها وأنكرها فهو فى الكفر . ومن قام بالحج فهو طائع ، ومن لم يفعل وهو مؤمن بالحج فهو عاصٍ .

ولننظر إلى دقة الأداء القرآنى حين يقول الحق : ومن كفر فإن الله غنى عن

العالمين . قد يقول قائل : ولماذا لم يقل الله : ومن كفر فإن الله غنى عنه ؟ وقال : « فإن الله غنى عن العالمين » ؟ ونقول : إنّ الله غنىٌّ عن كل مخلوقاته ، وإيّاك أن تفهم أن الذى لم يكفر وآمن ، وأدى ما عليه من تكليف ، أنه عمل منفعة لله ؛ إن الله غنى عن الذى أدّى وعن الذى لم يؤد ، إياك أن تظن أن من أدّى قد صنع لله معروفا ، أو قدم لله يدا ؛ « فإن الله غنى عن العالمين » عمن لا يفعل ، وعمن يفعل . وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ ﴾

وحين تسمع « قل » فهى أمر من الله لرسوله كما قلنا من قبل ؛ إنك إذا كلفت إنسانا أن يقول جملة لمن ترسله إليه فهل هذا الإنسان يأتى بالأمر « قل » أو يؤدى الجملة ؟ إنه يؤدى الجملة ، ومثال ذلك حين تقول لابنك مثلا:« قل لعمك : إن أبى سيأتيك غدا » فابنك يذهب إلى عمه قائلا : « أبى يأتيك غدا » .

وقد يقول قائل : ألم يكن يكفى أن يقول الله للرسول:« قل يا محمد » فيبلغنا رسول الله يا أهل الكتاب لم تكفرون ؟ كان ذلك يكفى ، ولكن الرسول مبلغ الأمر نفسه من الله ، فكأنه قال ما تلقاه من الله ، والذى تلقاه الرسول من الله هو : « قل يا أهل الكتاب » وهذا يدل على أن الرسول يبلغ حرفيا ما سمعه عن الله . وهناك آيات كثيرة فى القرآن تبدأ بقول الحق : « يا أهل الكتاب » ولا يأتى فيها قول الحق : « قل » . وهناك آيات تأتى مسبوقة بـ« قل » « ما الفرق بين الاثنين » ؟

نحن نجد أن الحق مرة يتلطف مع خلقه ، فيجعلهم أهلا لخطابه ، فيقول : « يا أهل الكتاب » إنه خطاب من الله لهم مباشرة . ومرة يقول لرسوله : قل لهم

يا محمد لأنهم لم يتساموا إلى مرتبة أن يُخاطبوا من الله مباشرة : فإذا ما وجدنا خطابا من الحق للخلق ، مرة مسبوقا بـ « قل » ومرة أخرى غير مسبوق فلْتعلم أن الحق سبحانه حين يخاطب خلقه الذين خلقهم يتلطف معهم مرة ، ويجعلهم أهلا لأن يخاطبهم ، ومرة حين يجد منهم اللجاج فإنه يبلغ رسوله صلى الله عليه وسلم : قل لهم .

والمثال على ذلك ـ ولله المثل الأعلى ـ فى حياتنا ، نجد الواحد منا يقول لمن بجانبه : قل لصاحب الصوت العالى أن يصمت . إن هذا القائل قد تَعَالَى عن أن يخاطب هذا الإنسان صاحب الصوت المرتفع فيطلب ممن يجلس بجانبه أن يأمر صاحب الصوت العالى بالسكوت . وحين يجىء الخطاب لأهل الكتاب فنحن نعرف أنهم اليهود أصحاب التوراة ، والنصارى أصحاب الإنجيل ، وهؤلاء هم من يقول عنهم الحق : « يا أهل الكتاب » .

ولم يقل أحد لنا : « يا أهل القرآن » لماذا ؟ لأن الحق حين يقول لهم : « يا أهل الكتاب » فنحن نعرف أن الكتاب يُطلق على كل مكتوب ، وكفرهم يعارض ما علم الله أنه موجود فى الكتاب الذى أنزل عليهم ؛ لأنه هو الذى أنزل الكتاب ، ويعلم أن ما فى الكتاب يدعو إلى الإيمان ، ولا يدعو إلى الكفر . ومادام هو الحق الذى نَزَّل الكتاب ، وهو الشاهد ، فيصبح من الحمق من أهل الكتاب أن يوقعوا أنفسهم فى فخ الكفر ؛ لأنهم بذلك يكذبون على الله : والله ـ سبحانه ـ يسجل عليهم أنهم خالفوا ما هو مكتوب ومنزل عليهم فى كتابهم . إنهم ـ أهل الكتاب ـ إن استطاعوا تعمية أهل الأرض فلن يستطيعوا ذلك بالنسبة لخالق الأرض والسماء .

والحق حين يقول : « لم تكفرون بآيات الله » فهل نفهم من ذلك أن كفرهم بآيات الله هو سترهم آيات الله سترا أوليا أو أنهم آمنوا بها ، ثم كفروا بها ؟ لنرى ماذا حدث منهم ، لقد كانت البشارات به صلى الله عليه وسلم مكتوبة فى التوراة، ومكتوبة فى الإنجيل وهم قد آمنوا بها قبل أن يجىء سيدنا رسول الله ، فلما جاء رسول الله بالفعل كفروا بها . وفى هذا جاء القول الحكيم :

﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَـٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ

عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ ۖ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾

(سورة البقرة)

لماذا كفروا به صلى الله عليه وسلم ؟ لأنه زحزح عنهم السلطة الزمنية ، فلم تعد لهم السلطة الزمنية التى كانوا يبيعون فيها الجنة ويبيعون فيها رضوان الله ويعملون ما يحقق لهم مصالحهم دون التفات لأحكام الله . وسبق أن قلت : إن قريشا قد امتنعت عن قول:« لا إله إلا الله » وهذا الامتناع دليل على أنها فهمت المراد من « لا إله إلا الله » ، فلو كانت مجرد كلمة تقال لقالوها ، لكنهم عرفوا وفهموا أنه لا معبود ولا مطاع ولا مشرع ، ولا مكلف إلا الله .

إن الحق يقول لأهل الكتاب :

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾

هب أنكم خبتم فى ذواتكم ، وحملتم وزر ضلالكم ؛ فلماذا تحملون وزر إضلالكم للناس ؟. كان يكفى أن تحملوا وزر ضلالكم أنتم ، لا أن تحملوا أيضا وزر إضلالكم للناس ؟

إنّ الحق ـ سبحانه ـ قال :

﴿ لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

(سورة النحل)

إنه سبحانه قال ذلك مع أنه قد قال :

﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾

(من الآية ١٨. سورة فاطر)

إن الذى لا يحمل وزرا مع وزره هو الضال الذى لم يُضِل غيره ، فهذا يتحمل إثمه فقط . أما الذى يحمل وزر نفسه ، ووزر غيره فهو الضال المضل لغيره ، وهنا يسألهم الحق سبحانه وتعالى على لسان رسوله : « لم تصدون عن سبيل الله من آمن » .

كأنه يقول لهم ماذا تريدون من الدين الذى يربط العبد بربه ؟ . إنكم لا تريدونه دينا قيما ، إنكم تريدونه دينا معوجا ، والمعوج عن الاستقامة إنما يكون معوجا لِغرض ؛ لأن المعوج يطيل المسافة . إنّ الذى يسير فى طريق مستقيم ما الذى يدعوه إلى أن ينحرف عن الطريق المستقيم ليطيل على نفسه السبيل ؟ . إن كان يريد الغاية مباشرة فإنه يفضل الطريق المستقيم . أما الذى ينحرف عن الطريق المستقيم فهو لا يبغى الغاية المنشودة ، بل يطيل على نفسه المسافة ، وقد لا يصل إلى الغاية .

والحق يقول : « لم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجا » وساعة تسمع « عوجا » فإننا قد نسمعها مرة « عوج » بفتح العين . ومرة نسمعها « عوج » بكسر العين . حين نسمعها « عوج » بفتح العين ، فالعَوَج هو للشىء الذى له قيام ، كالحائط أو الرمح ، أما « العِوج » بكسر العين فهو فى المعانى والقيم ، لذلك يقول لهم الحق عن انحرافهم فى المعانى والقيم : « تبغونها عوجا وأنتم شهداء » .

إن الحق يبلغهم : أنتم تبغون الدين عوجا برغم أنكم شهداء على أن ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم هو الحق ، إنه جاء مبلغا بالصدق ، وكنتم تبشرون برسالة محمد ، وكنتم تستفتحون على الذين أشركوا من أهل مكة وتقولون : سيأتى نبى نتبعه ثم نقتلكم معه قتل عاد وإرم . أنتم ـ يا أهل الكتاب ـ شهود على صدق هذا الرسول .

لقد ارتكبوا سلسلة من المعاصى ؛ هم ضلوا وجهدوا أن يُضلوا غيرهم . ويا ليت

ذلك يتم عن جهل ، ولكنه أمر كان يتم بقصد وعن علم . وبلغت المسألة منهم مبلغ أنهم شهود على الحق . وبرغم ذلك أصروا على الضلال والإضلال . ومعنى « الشهود » ، أنهم عرفوا ما قالوا ورأوه رأى العين ، فالشهود هو رؤية لشيء تشهده ، وليس شيئا سمعته ، لذلك يذكرهم الحق سبحانه بقوله : « وما الله بغافل عما تعملون » .

إنَّ الرسالة التى جاء بها محمد مبلغا واضحة ، وهذا مذكور فى كتبكم السماوية . فما الذى يجعلكم ـ يا أهل الكتاب ـ لا تلتزمون طريق الحق وأنتم شهود ؟ لابد أنكم قد مستكم شبهة إن اللهيغفل عن ذلك ، فقال لهم لا : « وما الله بغافل عما تعملون » .

وبعد ذلك يأتى قول الحق سبحانه :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ ﴾

معنى ذلك أن الله نبّه الفئة المؤمنة إلى أن الذين يكفرون بآيات الله لن يهدأ بالهم مادمتم أنتم ـ أيها المؤمنون ـ على الجادة ، ومادمتم مستقيمين ، ولن يهدأ للكافرين بآيات الله بال إلا أن يشككوا المؤمنين فى دينهم ، وأن يبغوها عوجا ، وأن يكفروهم من بعد إسلامهم .

وهذه قضية يجب أن ينتبه لها الذين آمنوا ؛ لأن الذين يبغون الأمر عوجا قد ضلوا وأضلوا ، وهم يشهدون على هذا ، ويعلمون أنّ الله غير غافل عما يعملون ، فماذا يكون موقف الطائفة المؤمنة ؟ إن الحق سبحانه يوضحه بقوله : « يأيها الذين آمنوا » .

إن أهل الكتاب يحاولون أن يصدوا المؤمنين عن سبيل الله ، وليس المقصود بالصد ، أن هناك من يمنع المؤمنين من الإيمان ، لا ، بل هى محاولة من أهل الكتاب لإقناع المؤمنين بالرجوع والارتداد عن الإيمان الذى اعتنقوه ؛ فالمؤمنون هم الطائفة التى تلتزم بالتكليف من الله ، لذلك يحذرهم الحق سبحانه بقوله :

« إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب ، يردوكم بعد إيمانكم كافرين » الحق يحدد قسما من الذين أوتوا الكتاب ، وذلك تأريخ بنزاهة وصدق وحق ودون تحامل . كأن الحق سبحانه يبلغنا أن هناك فريقا من أهل الكتاب سيسلكون الطريق السوى ، ويجيئون إلى المسلمين أرسالا وجماعات وأفرادا مع الإسلام ؛ فالحق لا يتكلم عن كل الذين أوتوا الكتاب . لذلك يقول الحق « إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب » إن الحق يؤرخ وهو يحمى الحقيقة ، ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾

إنه استعظام وتعجيب من أن يأتى الكفر مرة أخرى من المؤمنين وهم فى نعيم المعرفة بالله ، فآيات الله تُتلى عليهم ، ورسول الله حق ومعهم وفيهم .

ويقول الحق سبحانه للمؤمنين : « إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب » إنّ لذلك قصة ؛ فقد كان اليهود فى المدينة يملكون السلطة الاقتصادية ؛ لأنهم يجيدون التعامل فى المال ، وكل من يريد مالا يذهب إليهم ليقترض منهم بالربا . وكان لليهود أيضا التفوق والتميز العلمى ؛ لأنهم يعلمون الكتاب ، بينما كان غالبية أهل مكة والمدينة من الأميين الذين لا يعرفون كتابا سماويا . وكذلك كان هناك تميز آخر لليهود

هو خبرتهم بالحرب ؛ فلهم قلاع وحصون . هكذا كان لليهود ثلاثة أسباب للتميز :

المال يحقق الزعامة الاقتصادية ، والعلم . . بالكتاب وهو تفوق علمى ، ثم خبرتهم بفنون الحرب ، وكانوا فوق ذلك يحاولون إيجاد الخلاف بين الناس وتعميقه . مثل محاولتهم إثارة العداوات بين الأوس والخزرج . والمتاجرة بذلك حتى تظل الحروب قائمة ، وبذلك يضمنون رواج تجارة الأسلحة التى يصنعونها ويمدون بها كل فريق من المتحاربين .

ولما جاء الاسلام وحّد الرسول صلى الله عليه وسلم بين الأوس والخزرج وبذلك ضاع منهم التفوق الاقتصادى . وجاء الاسلام بدين وكتاب مهيمن على الكتب ، فضاعت من اليهود المنزلة العلمية . وكذلك ضاعت من اليهود المنزلة الحربية ؛ فقد رأوا قلة من المؤمنين هزموا الكفار وأنزلوا بهم هزيمة نكراء فى بدر ، وهكذا ضاع كل سلطان لليهود فى المدينة ، لذلك أرادوا أن يعيدو الأمر إلى ما كان عليه قبل أن يجىء الإسلام ، فقالوا فلنؤجج ونشعل ما بين الأوس والخزرج من العداوات ونهيجها ، وقال شخص اسمه « شأس بن قيس » وقد رأى نور الإيمان يعلو وجوه الأوس والخزرج ويشملهم الانسجام الإيمانى . وتوجد بينهم المودة وابتسامات الصفاء ، هيَّج ذلك شأس بن قيس وقال : « والله لابد أن نعيدها جذعة ونرجعهم إلى ما كانوا عليه من أحقاد وعداوات ، فلا استقرار لنا ماداموا قد اجتمعوا » .

فأرسل فتى من اليهود وجلس بين الأوس والخزرج ، ثم تطرق الحديث منه إلى يوم يسمى يوم « بعاث » ، وهو اسم يوم من أيام العرب قبل الإسلام ، وكان بين الأوس والخزرج ، وكان النصر فيه للأوس على الخزرج ، وجلس الفتى اليهودى يذكر ويأتى بالشعر الذى قيل فى هذا اليوم فهيّج حمية الأوس والخزرج وحدث النزاع ، وحصل التفاخر واستيقظ التباغض ، وقالوا : « السلاح . . السلاح » وهكذا نجحت المكيدة ، ونمى الخبر إلى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقام صلى الله عليه وسلم ومعه صحابته ، حتى انتهَوْا إلى اجتماع الأوس والخزرج ، فوجدوا الحال على أشد درجات الهياج ، نزاع ، وتباغض ، وسلاح محمول ، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : أبِدَعْوَى الجاهلية وأنا بين أظهركم !!

أى كان من الواجب أن تخجلوا من أنفسكم ؛ لأن رسول الله بينكم ، وأضاف رسول الله صلى الله عليه وسلم : لقد أكرمكم الله بالإسلام ، وقطع به عنكم أمر الجاهلية ، وألف بين قلوبكم ، فماذا كانت مواقع كلمات الرسول فى نفوس القوم ؟ لقد دفعتهم كلماته صلى الله عليه وسلم إلى إلقاء السلاح ، وبكوا وعانق بعضهم بعضا وانصرفوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فما كان يوم أقبح أولا وأحسن آخرا من ذلك اليوم .

وعندما نتأمل ما فعله هؤلاء القوم من اليهود لإشعال الفتنة بين الأوس والخزرج نجد أنهم قد أدركوا طبيعة النزاع القديم بين الأوس والخزرج فأرادوا أن يهيجوا تلك العداوات والأحقاد القديمة ، وكذلك نجد أن تهييج المشاعر بين الأوس والخزرج جعل للانفلات بابا فكاد القتال يشتعل ، وعندما تكلم فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم هدأت المواجيد ، وألقوا السلاح ، وندموا على ما فعلوا .

وإذا أردنا أن نرى الأمر بعمق التصور لِمَا حدث فإننا نجد أن إدراك العداوة بين الأوس والخزرج من اليهود هو الذى دفع اليهود لتحريك هذا الإدراك الخاطىء وإحياء الثارات القديمة ، ثم كان انفعال الأوس والخزرج بتلك الثارات القديمة قد فتح الباب لحمل السلاح للاقتتال .

وهكذا نجد أن الإدراك للشىء ، يمر بثلاث مراتب : أولا : الإحساس بالشىء ، ثانيا : انفعال النفس له ، ثالثا ؛ النزوع السلوكى ، وعندما تحدث الرسول صلى الله عليه وسلم ، أدرك الأوس والخزرج الأمر بطريقة عكسية فألقوا السلاح ، وهدأت مواجيد البغضاء ، وتركوا الإدراكات الخاطئة .

لقد ذكرهم النبى صلى الله عليه وسلم بثلاثة أشياء هى : « أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم وقد أكرمكم الله بالإسلام وقطع به عنكم أمر الجاهلية . وألف بين قلوبكم » . وقد استقبلوا ذلك بإلقاء السلاح أولا ، ثم البكاء ثانيا ، وهو أمر حركته المواجيد فيهم ثم تعانقوا أى صححوا الإدراكات ثالثا ، وهكذا حدث النزوع بالعكس . ولما حدث ذلك أصاب اليهود الغيظ والخيبة والنكد . وقال المؤرخ لهذه القصة: فما كان يوم فى الإسلام أسوأ أولا وأحسن آخراً إلاّ ذلك اليوم .

لقد بدأ اليوم بعبوس ، وانتهى بإشراق الطمأنينة ، وبعد ذلك وُجدت الخلية التى تكوّن المناعة فى نفوس المؤمنين ، بعد أن قال الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك القول : « أبِدَعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد إذ أكرمكم الله بالإسلام ، وقطع به عنكم أمر الجاهلية وألف بينكم » .

لقد صار هذا القول الكريم مستحضرا عند كل نزع لشيطان ، أو كيد لعدو . لقد جعل الحق المناعة ضد فعل الكيد ، ونزغ الشيطان عند المؤمنين من الأوس والخزرج ، وهكذا نرى أن الله يسخر الكافر حتى فى رفعة شأن الإيمان ، فلو لم تحدث هذه المسألة ويأتى الرسول صلى الله عليه وسلم بمنطقه المؤثر وهو بين القوم ليقول ذلك القول لما أصبح لدى المسلمين هذه المناعة من الارتفاع عن البغضاء فيما بينهم ، ولو كان أحد من أتباع الرسول قد قال مثل هذه الكلمة فقد كان من المحتمل أن يحدث هذا الأثر ، لكن عندما قالها الرسول صلى الله عليه وسلم فقد أوجدت المناعة لغيرها من الأحداث التى تأتى وقد لا يكون الرسول موجودا .

ولذلك فأنت أيها المؤمن إن نظرت إلى الكافرين . فإنك تجد عقولهم خائبة . لقد نشروا الإسلام ـ دون إرادتهم ـ بمواقفهم الحمقاء ، فمثلا حين قالوا : سيأتى نبى نتبعه ونقتلكم معه قتل عاد وإرم ، فما الذى حدث ؟

إن الأنصار ساعة أن سمعوا بالدين الجديد قال بعضهم لبعض : اسمعوا يا قوم ، إنه الدين الذى بشرتكم به يهود ، فقبل أن يسبقونا إليه هيا بنا نسبق نحن اليهود إليه .

لقد كان استعلاء اليهود وتفاخرهم على الأوس والخزرج دافعا للأوس والخزرج على الدخول فى الإسلام ، وهكذا يجعل الحق سبحانه وتعالى كفر الكافر مؤثرا فى تثبيت إيمان المؤمن .

وحين يقول الحق سبحانه : « وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم » نفهم أنه استعظام وتعجيب يأتى من الحق . فساعة تسمع : « كيف تكفرون » فذلك أمر عجيب ، لأنه من

المستبعد أن يكفر المؤمنون وكتاب الله يتلى عليهم ، ورسول الله فيهم .

ويجىء من بعد ذلك الدعوة إلى الاعتصام بالله ، ومعنى الاعتصام : التمسك ، ولا يتأتى إلا فى علو ، فيقال : « اعتصمت بحبل الإيمان » لأن للإنسان ثقلا ذاتيا ، هذا الثقل الذاتى إن لم يرفعه سواه ، فإنه يقع بالإنسان . وهذا لا ينشأ إلا إذا كان الإنسان معلقا فى الجو ويمسك بحبل ولا يوجد من يدفعه إلى أسفل ، بل الإنسان بثقله الخاص يهبط إلى الأرض . فمن يعتصم بالله ويمسك بحبل الإيمان فإنه يمنع نفسه من الهُوِىِّ والسقوط .

وهنا نشعر أن الاعتصام بالله هو أن نتبع ما تُلِىَ علينا من الآيات ، وما سنه لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم . إذن فباب الاعتصام هو كتاب الله وسنة رسوله ، وكذلك كان وجود الرسول بين أظهرهم هو الأمر الضرورى ، لأنهم كانوا منغمسين فى حمأة الجاهلية ، فلابد أن توجد إشراقة الرسول بينهم حتى تضىء لهم ، فيروا أن الله قد أخرجهم من الظلمات إلى النور . ولم يقبض الحق رسوله إلا بعد أن أكمل لنا الدين ، وأتم علينا النعمة ورضى لنا الإسلام دينا . قال الرسول صلى الله عليه وسلم : (تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما كتاب الله وسنتى »[1] .

هكذا نرى أن وجود آيات الله ، وسنة رسول الله هى العاصم الذى يهدى إلى صراط مستقيم . والهدى كما نعرف هو ما يوصل إلى الغاية المرجوة ، فهب أن غايتك أن تذهب إلى مكان معين فالذى يوصلك إلى ذلك المكان هو هدى ، وكل ما يدل إنسانا على الموصل للغاية اسمه هدى . والحق سبحانه وتعالى خلق الخلق جميعا ، وجعل بعض الخلق مقهورا ، وبعض الخلق مخيرا .

والمقهور من خلق الله هو كافة المخلوقات فى الكون ما عدا الإنسان . إلا فى بعض أموره فإنه مقهور فيها أيضا ولذلك قلنا : إن كل ما عدا الإنسان من خلق الله يؤدى مهمته كما طُلبت منه ، فما امتنعت الشمس أن تشرق على الناس يوما ، ولا امتنعت الريح أن تهب ، ولا امتنعت السماء عن أن تمطر ، ولم تقل الأرض للإنسان إنك

---

(١) رواه الحاكم فى المستدرك عن أبى هريرة .

تعصى الله فلا أنبت لك ، ولا جاء إنسان ليركب الدابة المسخرة فقالت : لا ؛ إنك عاصٍ ، ولذلك سأحرن فلا أمكنك من ركوب ظهرى .

هكذا نرى أن كل شيء ماعدا الإنسان مسخر مقهور للغاية المرجوة منه ، وهو خدمة ذلك الإنسان . والإنسان وحده هو الذى له اختيار . . ولذلك يجب أن نتنبه دائما إلى أن الله قد جعل للخلق تسخيرا وتسييرا ، وجعل الإجماع فى كل الأجناس ، ولكن الانقسام جاء عند الإنسان فقال الحق سبحانه :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿١٨﴾ ﴾

(سورة الحج)

إن الجمادات الساجدة المسخرة هى : « الشمس والقمر والنجوم » ، والنبات الساجد المسخر هو « الشجر » ، وكذلك « الدواب » فهى ضمن الكائنات التى عليها حكم الحق بالإجماع ، بأنها كلها تسجد خاضعة مسخرة . أما الإنسان فقد قال الحق عنه :« وكثير من الناس ، وكثير حق عليه العذاب » .

إذن فالانقسام جاء عند من ؟ لقد جاء الانقسام عند الإنسان . لماذا ؟ لأن الله خلق الإنسان مختارا . ألم يكن من الممكن أن يخلق الله الإنسان مسخرا كبقية الكائنات ؟ أليس التسخير دليلاً على قدرة المسخر ، وأن شيئا من خلقه لن يخرج من قدرته ، هذا صحيح ، لكن الحق سبحانه كما أراد أن يثبت القدرة والقهر بالتسخير ، أراد أن يثبت المحبوبية بالاختيار . فمن كان مختارا أن يؤمن أو يعصى ، ثم اختار أن يؤمن ، فهذا الاختيار إنما يثبت به الإنسان المحبوبية لله .

هكذا صنف الله الخلق بين قسم قهرى يثبت القدرة ، وقسم اختيارى يثبت المحبوبية ، ولهذا أراد الله للإنسان أن يكون مختارا أن يفعل أو لا يفعل . فلماذا - إذن - لا يفعل الإنسان كل أفعاله وهى منسجمة مع الإيمان ؟ لأن للشهوة بريقا سطحيا ، وهذا البريق السطحى يجذب الإنسان كما تجذب النارُ الفَرَاش .

عندما يوقد الإنسان نارًا ما فى الخلاء فضوؤها يجذب الفَرَاش ، ويحترق الفَراش بنيران الضوء ؛ فقد جذبه النور وأغراه ، ولكنه لم يعرف أن مصرعه فى تلك النار . والحكمة العربية تقول : « رب نفس عشقت مصرعها » كذلك فى الشهوات ، تتزين الشهوة للإنسان ، فتجذبه إليها فيكون فيها مصرع الإنسان .

لكن ما الحماية للإنسان من ذلك ؟

إن الحماية هى فى منهج الله « افعل » . و« لا تفعل » فمن يرد أن ينقذ نفسه من كيد الشيطان وكيد النفس فعليه أن يخضع لمنهج الله فى « افعل » و« لا تفعل » . وقد قلت قديما : إنه من الحمق أن يصنع صانع صنعةً ما ، ثم ينسى أن يضع لها قانون الصيانة . والإنسان فى حدود صناعته لا ينسى ذلك ، فما بالنا بالحق سبحانه بطلاقة قدرته ؟

إن الخالق سبحانه وتعالى قد صنع الإنسان ، ووضع الحق سبحانه وتعالى قانون صيانة صنعته فى الإنسان فقال جل وعلا : افعل كذا ولا تفعل كذا ، فمن أراد أن يعتصم بالحبل المتين فلا يأتى له نزغ شيطان أو كيد عدو ولا هوى نفس . فليعتصم بمنهج الله ؛ لأن الله هو الذى خلقه وهو الذى وضع منهجه كقانون لصيانة صنعته ، وهو القانون الموجز فى « افعل ولا تفعل » .

ويقول الحق : « ومن يعتصم بالله فقد هُدِىَ إلى صراط مستقيم » وكلمة الاعتصام أروع ما تكون عندما يكون الإنسان فى الهواء معلقا فى الفراغ ، وهو فى أثناء وجوده فى الفراغ فإن ثقله الذاتى هو الذى يوقعه ويسقطه ، لكن عندما يتمسك الإنسان بمنهج الله فإنه ينقذ نفسه من السقوط والهوى (بضم الهاء وكسر الواو) ومهمة الشيطان أن يزيّن المعصية بالبريق ، فتندفع شهوات النفس هائجة إلى المعصية ، ولذلك يأتى الشيطان يوم القيامة ويأخذ الحجة علينا . يقول الحق :

﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا

أَنفُسَكُم مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّۖ إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٢﴾

(سورة إبراهيم)

والسلطان كما نعرف نوعان : النوع الأول هو أن يقهر الشيطانُ الإنسانَ ، والشيطان لا قدرة له على ذلك . والنوع الثانى هو أن يقنع الشيطان الإنسان بأن يفعل ذلك الخطأ .

ما الفرق بين الإقناع والقهر فى هذا المجال ؟

إن القهر هو أن يجبر الشيطان الإنسان على أن يفعل شيئا لا يريده الإنسان . أما الإقناع فهو أن يزين الشيطان الأمر للإنسان فيفعله الإنسان بالاختيار ويعلن الشيطان يوم القيامة : لم يكن لى سلطان أقهرك به أيها الإنسان حتى تعصى الله ، لقد زينت لك المعصية أيها الإنسان فاستجبت لى .

إن الشيطان يوم القيامة يقول : « ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخى » ما معنى « مصرخكم » ؟ إنها مشتقة من « أصرخ » ، أى سمع صراخك فأغاثك وأنجدك ، فمصرخ : مغيث ومنجد ، والشيطان يعلن أنه لن يستطيع نجدة الإنسان ، ولا الإنسان بمستطيع أن ينجد الشيطان .

إذن ، فثقل النفس البشرية هو ما يوقع الإنسان فى الهاوية دون أن يلقيه أحد فيها ، ولا إنقاذ للإنسان من الهاوية إلا بالاعتصام بحبل الله . كأن منهج الله هو الحبل الممدود إلينا ، فمن يعتصم به ينجو من الهاوية .

ومادمنا نعتصم بحبل الله وهو القرآن المنزل من خالقنا والسنة النبوية المطهرة ، وسبحانه يعلم كيد النفس لصاحبها ـ فلابد أن يهدينا الله إلى الصراط المستقيم . وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾

إن الله قد أعطى المؤمنين المناعة أولا بألا يسمعوا كلام أعداء الدين . وحين نسمع كلمة « اتقوا » فلنفهم أن هناك أشياء تسبب لك التعب والأذى ، فعليك أن تجعل بينك وبينها وقاية ، ولذلك قال الحق :

﴿ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٣١﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

إنه الحق يطلب من الإنسان أن يجعل بينه وبين النار وقاية وحجابا يقيه منها . والحق سبحانه وتعالى حين يقول على سبيل المثال :

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾

(من الآية ٤ سورة المائدة)

أى اجعل بينك وبين الله حجابا يقيك من غضبه . وقد يقول قائل : كيف يكون ذلك وأنا كمؤمن أريد أن أعيش فى معية الله ؟

نقول : إنك تجعل الوقاية لنفسك من صفات جلال الله ، وأنت تستظل بصفات الجمال ، فالمؤمن الحق هو من يجعل لنفسه وقاية من صفات الجلال ، وهى القهر والجبروت وغيرها ، وكذلك النار إنها من جنود صفات جلال الله . فحين يقول الحق : « اتقوا النار » أو « اتقوا الله » فالمعنى واحد . وعندما يسمع إنسان قول الحق سبحانه : « اتقوا الله حق تقاته » ماذا تعنى (حق تقاته) ؟ إن كلمة « حق » ـ كما نعرف ـ تعنى الشيء الثابت الذى لا يزول ولا يتزحزح ، أى لا ينتهى ولا يتذبذب ، هذا هو الحق .

إذن ما حق التقى ؟ هو أن يكون إيمانك أيها المؤمن إيمانا راسخا لا يغادرك ولا تتذبذب معه ، واتقاء الله حق تقاته هو اتباع منهجه ، فيطاع الله باتباع المنهج

فلا يعصى ، ويُذكر فلا ينسى ، ويُشكر ولا يُكفر . وطريق الطاعة يوجد فى اتباع المنهج بـ « افعل » و« لا تفعل » ويذكر ولا ينسى ؛ لأن العبد قد يطيع الله ، وينفذ منهج الله ، ولكن النعم التى خلقها الله قد تشغل العبد عن الله ، والمنهج يدعوك أن تتذكر فى كل نعمة من أنعم بها ، وإياك أن تنسيك النعمة المنعم .

ويشكر العبد الله ولا يكفر بالنعم التى وهبها له الله . ومادمت أيها العبد تستقبل كل نعمة وتردها إلى الله وتقول : « ما شاء الله ، لا قوة إلا بالله » ولا تكفر بالنعم أى أنك تؤدى حق النعمة ، وكل نعمة يؤدى العبد حقها تعنى أنها نعمة شكر العبد ربه عليها ، ولم يكفر بها .

و قيل فى معنى : « حق تقاته » أى أنه لا تأخذك فى الله لومة لائم ، أو أن تقول الحق ولو على نفسك . هذا ما يقال عنه « حق التقى » ، أى التقى الحق الذى يعتبر تقى بحق وصدق . وقال العلماء : إن هذه الآية عندما نزلت وسمعها الصحابة ، استضعف الصحابة نفوسهم أمام مطلوبها ، فقال بعضهم : من يقدر على حق التقى ؟ ويقال : إن الله أنزل بعد ذلك :

﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ ﴾

(من الآية ١٦ سورة التغابن)

فهل معنى هذا أن الله كلف الناس أولا ما لا يستطيعون ، ثم قال من بعد ذلك : « فاتقوا الله ما استطعتم » ؟ لا ، إنه الحق سبحانه لا يكلف إلا بما فى الوسع ، والناس قد تخطىء الفهم لقوله تعالى : « فاتقوا الله ما استطعتم » فيقول العبد : أنا غير مستطيع أن أقوم بذلك التكليف ، ويظن هذا العبد أن التكليف يسقط عنه . لا ، إن هذا فهم خاطىء ؛ إن قوله الحق : « فاتقوا الله ما استطعتم » أى إنك تتقى الله بما كان فى استطاعتك من الوسع ، فما باستطاعتك أن تقوم به عليك أن تقوم به . فلا يهرب أحد إلى المعنى المناقض ويقول : أنا غير مستطيع ؛ لأن الله يعلم حدود استطاعتك .

وساعة تكون غير مستطيع فهو ـ سبحانه ـ الذى يخفف . . إنك لا تخفف أنت على نفسك أيها العبد ، فالخالق الحق هو الذى يعلم إذا كان الأمر خارجا عن

استطاعتك أو لا ، وساعة يكون الأمر خارجًا عن استطاعتك فالله هو الذى يخفف عنك . ولذلك فعلى الإنسان ألا يستخدم القول الحق :

﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾

(من الآية ٢٨٦ سورة البقرة)

فى غير موضعه ؛ لأن الإنسان لا يستطيع أن يقدر الوسع ، ثم يبنى التكليف على الوسع . بل عليك أن تفهم أيها الإنسان أن الله هو الذى خلق النفس ، وهو الذى أنزل التكليف لوسع النفس ، ومادام الخالق للنفس هو الله فهو العليم بوسع النفس حينما قرر لها المنهج . إنه سبحانه الذى كلف ، وهو العليم بأن النفس قد وسعت ، ولذلك فهو لا يكلف نفسا إلا وسعها . فإن كان سبحانه قد كلف فأعلم أيها العبد أنه سبحانه قد كلف بما فى وسعك ، وعندما يحدث للإنسان ما يشق عليه أو يمنعه من أداء ما كلف به تامًا فهو ـ سبحانه ـ يضع لنا التخفيف وينزل لنا الرخص . مثال ذلك : المريض أو الذى على سفر ، له رخصة الإفطار فى رمضان ، والمسافر له أن يقصر الصلاة .

إذن فالله سبحانه هو الذى علم حدود وسع النفس التى خلقها ، ولذلك لا تقدر وسعك أولا ثم تقدر التكليف عليه ، ولكن قَدّر التكليف أولا ، وقل : مادام الحق قد كلف فذلك فى الوسع . وفى تذييل الآية الكريمة بقوله : « ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون » نجد أنفسنا أمام نهى عن فعل وهو : عدم الموت إلا والإنسان مسلم .

كيف ذلك ؟ أيقول لك أحد : لا تمت ؟ إن ذلك الأمر ليس لك فيه اختيار ؛ لأنه أمر نازل عليك . فإذا قيل لك : لا تمت ، فإنك تتعجب ؛ لأن أحدا لا يملك ذلك ، ولكن إذا قيل لك : لا تمت إلا وأنت مسلم ، فأنت تفكر ، وتصل بالتفكير إلى أن الفعل المنهى عنه : لا تمت ليس فى قدرة الإنسان ، ولكن الحال الذى يقع عليه الفعل وهو : إلا وأنت مسلم ، فى قدرة الإنسان ؛ لذلك تقول لنفسك : إن الموت يأتى بغير عمل منى ، ولكن كلمة : إلا وأنت مسلم ، فهى باستطاعتى ، لأن الإسلام يكون باختيارى . صحيح أنك لا تعرف متى يقع عليك الموت ؟ ولذلك تحتاط والاحتياط يكون بأن تظل مسلما حتى يصادفك الموت فى أى لحظة وأنت مسلم .

إذن . . فقول الله : « ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون » هو نهى عن الفعل الأول وهو ليس باختيارنا . والحال الذى لنا فيه اختيار هو « وأنتم مسلمون » فكيف نوفق بين الأمرين ؟ إن الموت لا اختيار لأحد فيه ، ولا يعلم أحد منا متى يقع عليه ، ولذلك نأتى إلى الأمر الذى لنا فيه اختيار ، وهو أن نحرص على أن نكون مسلمين ، ويظل كل منا متمسكا بأهداب الإسلام ، فإن صادف الموت فى أى لحظة يكون مسلما وكأن الحق سبحانه يقول لنا : تمسكوا بإسلامكم ؛ لأنكم لا تدرون متى يقع عليكم الموت .

وإخفاء الموت عن الإنسان ليس إبهاما كما يظن البعض ، لا ؛ إنه منتهى البيان الواسع ؛ لأن إخفاء الموت ، وميعاده عن الإنسان زمنا وحالا ، وسنا وسببا ، كل ذلك يوضح الموت أوضح بيان . لماذا ؟ لأن الله حين استأثر بعلم الموت فالإنسان منا يترقب الموت فى أى لحظة ومادام الإنسان مترقبا للموت فى أى لحظة فهذا بيان واسع بل هو أوسع بيان . ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾

جاء هذا القول الكريم لينبه كل المؤمنين ، من خلال التنبيه للأوس والخزرج ، وكأنه يقول : اعلموا أن التفاخر قبل الإسلام كان لأشياء وبأشياء ليست من الإسلام

فى شيء . لكن حين يجيء الإسلام فالتفاخر يكون بالإسلام وحده فإذا ما تغاضى إنسان بما قبل الإسلام بقوله : منا كذا . . ومنا كذا . فهنا يأتى الردّ : لا ؛ إن ذلك قبل الإسلام .

وقد حدث أن قال الأوس من بعد الإسلام : « منا خزيمة » فقال واحد من الخزرج : ومنا أبىّ بن كعب وزيد بن ثابت فقال واحد من الأوس : منا حنظلة ابن الراهب وحنظلة هذا هو غسيل الملائكة ، وخزيمة بن ثابت صحابى جليل جعل الرسول صلى الله عليه وسلم شهادته بشهادتين ؛ لأن خزيمة صاحب إيمان نورانى . ونورانية اليقين هدته إلى الحكم الصواب ؛ فقد اشترى النبى صلى الله عليه وسلم فرسا من أعرابى وذهب ليحضر له الثمن ، ولكن الأعرابى أنكر البيع لأن بعض الناس زاده فى ثمن الفرس دون علم أن الرسول قد اشتراه فنادى الأعرابى الرسول وقال له إن كنت مبتاعا هذا الفرس فابتعه وإلا بعته .

فقال النبى للرجل : « ألست قد ابتعته منك » . فقال الرجل هات شاهدا يشهد بذلك . لقد انتهز الرجل فرصة أن النبى ابتاع منه دون وجود أحد فى هذا الوقت ، وكان سيدنا خزيمة جالسا لحظة مطالبته للنبى بشاهد . فقال سيدنا خزيمة : أنا أشهد يا رسول الله أنك قد بايعته .

ولأن الرجل كاذب ، قال لنفسه : لعل خزيمة رآنا وأنا أبيع الفرس للنبّى فسكت الرجل وانصرف ، وبعد أن انصرف الرجل نادى الرسول خزيمة . وقال له : « يا خزيمة بم تشهد ولم تكن معنا ؟» فقال : أنا أصدقك فى خبر السماء ولا أصدقك بما تقول ؟ أعلم أنك لا تقول إلا حقاً قد آمناك على أفضل من ذلك ، على ديننا . فعلم الرسول أن لخزيمة نورانية التصديق وحسن الاستنباط ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من شهد له خزيمة فحسبه »[1] .

فالأمر الذى يحتاج شاهدين تكفى فيه شهادة خزيمة ، وبذلك أعطى الرسول صلى الله عليه وسلم الوسام لخزيمة وجعل شهادته شهادة رجلين ، ولنر كيف جمع الله بين الأوس والخزرج فى جمع القرآن ، قال زيد بن ثابت :

---

(١) رواه أبو داود من طريق الزهرى عن عُمارة بن خزيمة بن ثابت .

فآليت على نفسى ألاّ أكتب آية إلاّ إذا وجدتها مكتوبة وشهد عليها اثنان ، إلاّ آخر التوبة فوجدتها مكتوبة ولم يشهد عليها إلاّ خزيمة ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم قد قال فى خزيمة : « من شهد له خزيمة فحسبه » ولنا أن نعرف أن زيد بن ثابت من الخزرج وأن خزيمة من الأوس . لقد جمعهما الله فى جمع القرآن ، فنفع الأوسى الخزرجى ، وذلك ليدلنا الحق سبحانه دلالة جديدة ، وهى أن التفاخر قبل الإسلام كان بغير الإسلام ، لكن ساعة يجىء الإسلام فأى واحد من أى جنس مادام قد أحسن الإسلام ، فله أن يفخر به ، فإياك يا أوسىّ أن تقول : « منا خزيمة » ؛ فالخزرجى له الفخر بخزيمة أيضا ، وليس للخزرجى أن يقول : « منا زيد بن ثابت » فللأوسى أيضا أن يفخر به ، لأن كُلاًّ منهما قد جمعه الله بالآخر فى القرآن ، والإسلام ، وهكذا يكون الاعتصام بحبل الله .

يقول الحق سبحانه وتعالى : « واعتصموا بحبلِ الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم » إنّ الحرب ظلت مستعرة بين الأوس والخزرج مائة وعشرين عاما مع أن أصل القبيلتين واحد ، هما أخوان لأب وأم وعندما جاء الإسلام ألف الله بين قلوبهم وأصبحوا بنعمته إخوانا .

وهذا يدلنا على أن كل نزغةِ جارحةٍ من الجوارح لابد أن يكون وراءها هبة قلب وثورته وهياجه ، فاليد لا تصفع أحدا من فراغ ، ولكن الصفعة توجد فى القلب أولا « فألف بين قلوبكم » ، إن الحق سبحانه يقول : « وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها » والشفا هى الحافة.ومرة يقال : « شفا » ، ومرة يقال:« شفة » . لقد كانوا على حافة النار ، ومن كان على الحافة فهو يوشك أن يقع ، فكأن الله يقول : لقد تداركتم بالإسلام ، ولولا الإسلام لهويتم فى النار .

ويقول سبحانه : « كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون » وهكذا نرى نعمة الإسلام فى الدنيا ، فقدرة الإيمان على إنقاذ الإنسان من النار لا تحتاج إلى انتظار بل يستطيع المؤمن أن يراها فى الدنيا . ولقد كان العرب قبل الإسلام مؤرقين بالاختلافات ، وموزعين بالعصبية ، وكل يوم فى شقاق . ولما جاء الإسلام صاروا إخوانا ، وهذه نعمة عاجلة فى الدنيا ، والدنيا كما نعرف ليست دار جزاء ، فما بالك بما يكون فى الآخرة وهى دار الجزاء والبقاء .

وقوله الحق : « لعلكم تهتدون » المقصود به أن تظلوا على هدايتكم . لقد خاطبهم الحق : « إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا » وساعة يطلب التشريع منك ما أنت عليه ، فاعلم أن التشريع يريد منك استدامته ، فعندما يقول الحق (يا أيها الذين آمنوا) أى مع الإيمان الذى معكم قبل كلامى ، جددوا إيمانا بعد كلامى ليستمر لكم الإيمان دائما . وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾

وكلمة « أمة » تطلق مرة ، ويراد بها الجماعة التى تنتسب إلى جنس ، كأمة العرب ، أو أمة الفرس ، أو أمة الروم ، ومرة تطلق كلمة « أمة » ويراد بها الملة أى الدين ، ومرة ثالثة تطلق كلمة « أمة » ويراد بها الفترة الزمنية كقول الحق :

﴿ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ ﴾

(سورة يوسف)

إن الرجل الذى فسر له سيدنا يوسف الرؤيا تذكر سيدَنا يوسف بعد أمة أى بعد فترة من الزمن ، ومرة تطلق كلمة « أمة » على الرجل الجامع لصفات الخير :

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾

(سورة النحل)

لأن خصال الخير ليس من الضرورى أن تجتمع فى واحد ، ولكنها قد تجتمع فى عدد من الأفراد فيكون هناك فلان المتميز بالصفة الطيبة ، وغيره متصف بصفة أخرى طيبة ، وثالث فيه صفة طيبة ثالثة ، ومن مجموع الأمة تظهر صورة الكمال ، لكن إبراهيم عليه السلام اجتمعت فيه كل خصال الخير المكتمل .

وساعة أن تأتى لإنسان ونَقول له : ليكن منك شجاع فما معنى ذلك ؟ إن معناه ، أن يجرد الإنسان من نفسه ويخرج منها شخصا شجاعا ، وذلك بتدريبها وتعويدها على ذلك حتى يكون الإنسان شجاعا ، أو تقول لآخر : ليكن منك كريم ، أى أخرج من نفسك رجلا كريما .

وقوله الحق سبحانه : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير » .

هذا القول يعنى أن يكون منكم أيها المخاطبون أمة تدعو إلى الخير ، ومعناه أيضا أن تكونوا جميعا أمة تدعو إلى الخير ، وبعض العلماء يرى أن هذا القول يعنى : أن تكون منكم جماعة يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر . ولكنّ هناك فهما أعمق من هذا ، وهو أن هذه الآية تأمر بأن تكون كل جماعة المسلمين أمة تدعو إلى الخير ، وتأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر ، أى أن هذه الآية تطالب كُلَّ أمة المسلمين بذلك ، فلا تختص جماعة منها فقط بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، بل الواجب أن تكون أمة المسلمين كلها آمرة بالمعروف ، وناهية عن المنكر ، فمن يعرف حكما من الأحكام عليه أن يأمر به .

وهناك من العلماء من قال : إن الذى يأتى المنكر له حكم آخر أيضا وهو أن ينهى غيره عن المنكر ، أى أن الإنسان المؤمن مطالب بأمرين : الأول : ألّا يصنع المنكر ، والثانى : أن ينهى عن المنكر . ولذلك إن جاء نصح من إنسان ينهاك عن المنكر ، وهو قد فعله ، فلا تقل له : أصلح نفسك واتبع أنت ما تنصح به أولا ، لا تقل له ذلك حتى لا يقول لك ما قاله الشاعر :

خـذ بعلمى ولا تـركن إلى عمـلى
واجن الثـمار وخـل العـود للنـار

لكن الأجدر بمن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر أن يكون أول العاملين بقوله حتى لا يدخل فى زمرة من قال الله فيهم :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٣ ﴾

(سورة الصف)

إذن فقوله الحق : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير » أى جردوا من أنفسكم أمة مجتمعة على أنها تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، واستمعوا إلى قوله تعالى :

﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣ ﴾

(سورة العصر)

إن السورة الكريمة توضح العقيدة ومطلوبها وهو الإيمان والعمل الصالح . وبعد ذلك قال الحق : « وتواصوا » ولم يقل « ووصوا » ما معنى « تواصوا » ؟ أى أن يعرف كل مؤمن أنه من الأغيار ، وكذلك أخوه المؤمن ، وقد يضعف أحَدهما أمام معصية فيصنعها ، لكن الآخر غير ضعيف أمام تلك المعصية ، لذلك يكون على غير الضعيف توصية الضعيف ، وعلى الضعيف أيضا ضرورة الانتباه حتى يتواصى مع غيره . فالإسلام لم يجعل جماعة يوصون غيرهم ، وجماعة أخرى تتلقى الوصاية ، بل كلنا موص ـ بكسر الصاد ـ حينما نجد مَنْ من يضعف أما معصية . وكلنا موصًى ، ـ بفتح الصاد ـ حين يكون ضعيفا أمام المعصية ؛ فالتواصى يقتضى التفاعل بين جانبين . . فمرة تكون موصيا ، ومرة تكون موصًى ، وكذلك التواصى بالصبر .

فساعة تحدث كارثة لواحد من المسلمين يأتى أخوه ليصبره ، وكذلك إن حدثت كارثة للأخ المسلم يصبره أخوه المسلم ، فعندما يحتاج مسلم فى وقت ما إلى أن يُصَبِّر ، يجد من إخوته من يصبره ، فالأمة كلها مطالبة : « وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » .

هكذا نفهم معنى قول الحق: « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » . والدعوة إلى الخير يفسرها الحق بأن يأمر الإنسان بالمعروف ، وأن ينهى عن النكر .

ويقول الحق : « وأولئك هم المفلحون » أن كلمة « المفلحون » هى كلمة معها دليلها ، فالمفلح هو الذى أخذ الصفقة الرابحة . والكلمة مأخوذة ، من فلح الأرض . فالذى يفلح الأرض ويحرثها ثم يزرعها يجد الثمرة تجيئه فى النهاية ، وقد جاء الحق بالمسألة المعنوية من أمر محس . وبعد ذلك يريد الحق أن يعطينا شيئا آخر

فيقول : إياك أن تظن أن المشقة التى تصيبك حين تفعل خيرا لا تعود عليك بالراحة ، أو أن النقص الذى تفعل به الخير لا يعود عليك بالكمال ، فمثلا الإنسان الذى فلح الأرض وأخرج « كيلة » من القمح وبذرها فيها . هذا الإنسان قد تكون له زوجة حمقاء تقول له : إننا لا نملك إلا أربع « كيلات » من القمح فكيف تأخذ « كيلة » لترميها فى الأرض ، إن هذه المرأة لا تعرف أن « الكيلة » التى أخذها الزوج هى التى ستأتى بعدد من الأرادب من القمح . فإياك أن تفهم أن الإسلام يأخذ منك شيئا إلا وهو يريد أن يعطيك أشياء .

إن الفلاح الذى يشقى بالحرث وبالرى ، وتراه وقد علا جبهته العرق وتراب الأرض وتغوص أقدامه فى الطين والمياه ، إنك تراه يوم الحصاد وهو فرح مسرور بغلته . أما غيره الذى لم يشْقَ بالحرث ولم تعل جبهته حبات العرق ، فيأتى فى هذا اليوم وهو حزين ونادم.فإياك أن تنظر إلى تكاليف الدين على أنها أمور تحرمك النفع ، إنها أمور تربّب لك النفع أى تكثر لك النفع . وإياك أن تظن أن حكما من أحكام الله قد جاء ليجور على حريتك بل جاء ليمنع عنك اعتداء الآخرين .

وقلنا من قبل : إن الشرع حين كلف كل إنسان ألا يسرق مال أحد ، فهو تقييد من أجل حفظ أموال الملايين ، وهو أمر ضمنى لكل الناس ألاَّ يسرقوا شيئا من هذا الإنسان ، وهنا نجد الأمان ينتشر بالإيمان بين الجميع .

ولو نظرت إلى ما منع الدين الناس أن يمارسوه معك لعرفت قيمة التكاليف الإيمانية . إن التكليف حين يأمر ألا يمد أحد عيونه إلى محارم جاره ، هذا التكليف صادر للناس جميعا حتى يحمى الله لك محارمك من عيون الناس ، لقد قَيَّد التكليف حرية الآخرين من أجلك وهم كثيرون ، وقيد حريتك من أجل الآخرين وأنت واحد . .

إذن فيجب أن نذكر أن كل تكليف يعطى صلاحا وفلاحا ، فالأرض تأخذ الحبة ، وتعطيك سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة ،فلا تنظر إلى ما أخذه التكليف من حريتك ، لأنه أخذ لك من حريات الآخرين أيضا . ولا تقل : إن التكليف قد نقص حركتى لنفسى ، لأنه سيعطيك ثمرات أكثر مما أفقدك .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ ﴾

وهذا القول الحكيم ينهى عن اتباع الهوى الذى يؤدى إلى الفرقة . برغم وضوح آيات الحق سبحانه لهم ، لأن لهؤلاء الذين يتبعون الهوى من بعد وضوح قضية الحق سيصليهم الله النار ، ولهم عظيم العذاب . وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ ﴾

وهنا يجب أن نعلم أن الاسوداد والابيضاض هما من آثار اختلاف البيئات فى الدنيا ، فالشخص الأسود يزيد الله فى تكوينه عن الشخص الأبيض بما يناسب البيئة ، لأن المادة الملونة للبشرة فى جسده موجودة بقوة ، لتعطيه اللون المناسب لمعايشة ظروف البيئة ، أما أبيض البشرة فلا يملك جسده القدر الكافى من المادة الملونة ، لأن بيئته لا تحتاج مثل هذه المادة الملونة .

إذن فالسواد فى الدنيا لصالح المسود ، أما فى هذه الآية ، فهى تتحدث عما سوف نراه فى الآخرة حيث يكون السواد والبياض مختلفين ، تماما كما تتبدل الأرض غير

الأرض والسموات غير السموات ، وكذلك يتبدل أمر السواد والبياض ، انه لن يكون سواداً أو بياضا من أجل البيئات . ولذلك ستتعجب يوم القيامة ؛ لأنك قد ترى إنسان كانا أسود فى الدنيا ، وتجده أبيض فى الآخر ، وتجد إنسانا آخر كان لونه أبيض فى الدنيا ثم صار أسود فى الآخرة .

فلا يظن ظان أن الإنسان الأسود فى الدنيا مكروه من الله ، لا ، إن الله يعطى كل واحد ما يناسبه ، بدليل أن الله قد أمده باللون الذى يقويه على البيئة التى يحيا فيها . وفى مجالنا البشرى ، نحن نعطى المصل لأى إنسان مسافر إلى مكان ما ، حتى نحميه من شر مرض فى المكان الذى يذهب إليه ، كذلك خَلْقُ الله فى الأرض فقد أعطى سبحانه لكل إنسان فى تكوينه المناعة التى تحفظه ؛ فالله لا يكره السواد لأنه حماية للإنسان من البيئة . وهذه المسألة ستتبدل يوم القيامة كما تتبدل الأرض غير الأرض ، وتبيض الوجوه المؤمنة ، وتسود الوجوه الكافرة .

أو أن البياض والسواد كليهما ، أمر اعتبارى ، بدليل أنك ترى واحدا أبيض ولكن وجهه عليه غبرة ترهقه قترة ، وترى واحداً آخر أسود اللون ، ولكن نور اليقين يملأ وجهه ، وبريق الصلاح يشع منه ، وأنت لا تقدر أن تمنع عينيك من أن تديم النظر إليه ، ولذلك قال الحق :

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ ﴾

(سورة القيامة)

أى أن ما فى داخل النفس إنما ينضح على قالب الإنسان ؛ وتظهره ملامحه ، فقد يكون الأسود مضىء الوجه بالبشر والإشراق والتجلى بالجاذبية الآسرة ، وقد يكون الإنسان أبيض الوجه لكنه مظلم الروح .

وهكذا نفهم أن اسوداد بشرة إنسان فى الدنيا ، إنما هو لمساعدة الإنسان على التواؤم مع البيئة ، ومثال ذلك سواد العين وبياضها ، هل يستطيع أحد أن يقول : إن بياض العين أحسن من سوادها ؟ أو العكس ؟ . لا ؛ لأن كل شىء معد لمهمته .

ومثال آخر : عندما يأتى عامل البناء ليثنى عمود الحديد المستقيم ؛ ويلويه ، فهل

يقال : إن هذا الإنسان قد عوج الحديد ؟. لا ؛ إنه يريد أن يشكل عود الحديد ليكون صالحا لمهمة معينة . وكذلك الاسوداد أو الابيضاض فى الدنيا ، إنما أراده الله ليتناسب مع ظروف الحياة فى البيئة ، أما فى الآخرة فالدنيا قد زالت وفنيت ، والأرض لن تكون هى الأرض والسماء لن تكون هى السماء ؛ فالحق يقول :

﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ ﴾

(سورة إبراهيم)

فالمؤمن حين يرى ما أعده الله له من النعيم المقيم يقابل عطاء الله باستشراف نفس وسرور وانبساط ، أما الذى يرى مقعده من النار فلابد أن يكون مظلم الوجه . والحق سبحانه يوجه سؤالا لهؤلاء : « أكفرتم بعد إيمانكم » أو كأن هذا أمر يُفاجىء من كان يعرف هؤلاء الناس فى الدنيا ؛ فقد رأوهم فى الدنيا بيض الوجوه ، ولكن يرونهم يوم القيامة وعلى وجوههم غبرة سوداء وترهقهم قترة ، فيقولون لهم : « أكفرتم بعد إيمانكم »؟ . وكأن ذلك هو سمة من يكفر بعد الإيمان . هذه هى سمتهم وعلامتهم فى الآخرة أى ما الذى صيركم إلى هذا اللون ؟ إنه الكفر بعد الإيمان .

فمن هم الذين كفروا بعد الإيمان ؟

هذا يعنى أن الإيمان قد سبق ثم طرأ على الإيمان كفر ، وماتوا على ذلك الكفر ، وهذا قول ينطبق على الذين ارتدوا عن الإسلام مثل ابن الأسلت وغيره ، وهؤلاء كفروا بعد الإيمان . أو يكون « أكفرتم بعد إيمانكم » يجعلنا نقول : البعدية هنا لابد أن يكون لها قبلية : ألم يأخذ الله على خلقه عهدا فى عالم الذر حين استخرجهم من ظهر آدم ؟ وقال سبحانه :

﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ﴾

(من الآية ١٧٢ سورة الأعراف)

إنه إقرار إيمانى موجود فى عالم الذّر ، فمن جاء فى الواقع لينقض هذه المسألة فقد كفر بعد إيمان . أو أكفرتم بعد إيمانكم بمحمد ، بعد أن جاءتكم به البشارات التى

عرفتموها ، وقرأتموها فى التوراة والإنجيل ، وقد تأكدتم أنه قادم لا محالة ، وأنه رسول هذه الأمة وخاتم الرسل ، وانطبق عليكم قول الحق :

﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾

(من الآية ٨٩ سورة البقرة)

إذن فهذا القول ، إما أن يكون فى المرتدين ، وإما أن يكون الكفر فى واقع الدنيا بعد الإيمان فى عالم الذر عندما أخذ الله العهد على الناس جميعا ، أو يكون الكفر بعد الإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم وقد جاءت به البشارة فى التوراة والإنجيل ، أو يكون ذلك من أهل الأهواء الذين أخذوا الدين وجعلوه شيعا ، كالفرق التى خرجت عن الإسلام ، وهى تدعى الانتساب إليه كالبهائية والقاديانية وغيرها . إن الآية تحتمل كل هذا ، وعندما نمعن النظر إلى النص القرآنى نجده يستوعب كل هذه المعانى .

وهنا نلاحظ أن الحق سبحانه أورد فقط : « أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون » وهذا قول يختص بالكفار فقط يذوقون العذاب بسبب الكفر ، وذلك يعنى أن المؤمن بإيمانه سينال ثواب عمله . يقول تعالى :

﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾ ﴾

ولنلاحظ دائما أن الله حين يبين جزاءً لمؤمن على إيمانه وطاعته فسبحانه يقول مرة :

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾

(من الآية ٤٢ سورة الأعراف)

ومرة أخرى يقول :

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾ ﴾

(سورة النساء)

ما الفرق بين الاثنين ؟ إن الناس فى العبادة صنفان : منهم من يعبد الله ويريد نعيم الجنة ، فيعطيه الله الجنة جزاء لعبادته ولعمله الصالح . وآخر يعبد الله ؛ لأن الله يستحق العبادة ولا تمر الجنة على باله ، وهذا ينال ذات الرحمة ، إنه ينال لقاء وجه الله .

وما الفرق بين الجنة والرحمة ؟ إن الجنة مخلوقة لله ، فهى باقية بإبقاء الله لها ، ولكن الرحمة باقية ببقاء الله ، وهذا ضمان كاف ، فمن يرى الله فيه حسن العبادة لذاته ـ سبحانه ـ يضعه الله فى الرحمة .

وقلنا من قبل : إن هناك جنة من الجنات اسمها « عليّون » ليس فيها متعة من المتع التى سمعنا عنها فى الجنة ، كلحم الطير وغير ذلك ، وليس فيها إلا أن ترى الله . ومادام العبد لا يأكل عن جوع فى الآخرة ، فما الأفضل له ، جنة المتع ، أو متعة رؤية وجه الله ؟

أتتمتع بالنعمة أم بالمنعم ؟ لا جدال أن التمتع برؤية المنعم أرقى وأسمى من التمتع بالمتع الأخرى . والدقة الأدائية فى القرآن توضح لنا أن الرحمة تكتنف هؤلاء العباد الصالحين ، وتحيط بهم ، إنهم ظرف للرحمة وداخلون فيها فلا تمسهم الرحمة فقط ، ولكن تحيط بهم ، وهم خالدون فيها ، ويؤكدها الحق بظرفية جديدة بقوله:« هم فيها خالدون » فكأن هناك رحمة يُدخل فيها العباد ، ثم يطمئننا على أنها لا تُنزع منا أبدا . فـ « فيها » الثانية للخلود ، « وفى » الأولى للدخول فى الرحمة .

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾

إن آيات الله هى حججه وبراهينه وجزاءاته ، فمن اسود وجهه يوم القيامة نال العذاب ، ومن ابيض وجهه نال الرحمة وهو فيها خالد « تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق » ، فما الذى يجعل إنسانا لا يخبر بالحق ؟ لابد أن هناك داعيا عند ذلك الإنسان ، فلأنّ الحق يُتعبه ، فهو يخبر بغير الحق . لكن هل هناك ما يتعب الخالق ؟ لا ؛ فسبحانه وتعالى منزه عن ذلك وعن كل نقص أو عيب إذن فلابد ألاّ يقول إلا الحق ، فلا شيء خارج عن ملكه بعد ذلك . يقول سبحانه : « وما الله يريد ظلما للعالمين » . إنه سبحانه ينفى الظلم عن نفسه كما قال :

﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾

(من الآية ٤٦ سورة فصلت)

والحق لا يريد الظلم على إطلاقه ، من نفسه ومنكم أنتم أيها العباد . وكيف يأتى الظلم ؟ إن مظاهر الظلم هى ـ كما نعرف ـ أن تأخذ إنسانا بغير جرم . . هذا ظلم ، أو أن تعاقب إنسانا فوق الجرم . . هذا ظلم . أو ألا تعطى إنسانا مستوى إحسانه . . هذا ظلم . وماذا يفعل من يقوم بالظلم ؟ إنه يريد أن يعود الأمر بالنفع له ، فإن كان يريد أخذَ إنسانٍ بغير جرم فهو يفعل ذلك ليروى حقدا وغلا فى نفسه ، وقد يلفق لإنسان جرما ؛ لأنه يرى أن هذا الإنسان قد يهدده فى أى مصلحة من المصالح ، وهو يعلم انحرافه فيها ، فيعتقله مثلا ، أو يضعه فى السجن حتى لا يفضحه .

إذن لا يمكن أن يذهب إنسان عن الحق إلى الظلم إلا وهو يريد أن يحقق منفعة أو يدفع عن نفسه ضررا ، والله لن يحقق لذاته منفعة بظلم ، أو يدفع ضررا يقع من خلقه عليه ؛ إنه منزه عن ذلك ؛ فهو القاهر فوق عباده . والحديث القدسى يقول : « يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى . وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا »[1] .

(١) رواه أحمد فى المسند ، ورواه مسلم فى البر .

والظالم من البشر جاهل . لماذا ؟ لأنه قوّى الذى ظلمه ، ولم يضعفه ، فالظالم يظلم ليضعف المظلوم أمامه ، فنقول له : أنت غبى ، قليل الذكاء ؛ لأنك قويته على نفسك وفعلت عكس ما تريد . ولنوضحْ ذلك ـ ولله المثل الأعلى ـ نحن جميعا عيال الله ، سننتقل إلى دائرة حياتنا اليومية ونرى عيالنا ، إن الواحد منا عندما يكون له أولاد ، وجاء ولد من الأولاد وظلم أخاه فَقَلْبُ الوالد يكون مع المظلوم ، ويحاول الوالد أن يترضّى ابنه المظلوم . إذن فالولد الظالم ضر أخاه ضررا يناسب طفولته ، ولكنه أعطاه نفعا يناسب قوة والده ، إنه يجهل حقيقة تقويته لأخيه .

ومادمنا جميعا عيال الله فماذا يفعل الله حين يرى سبحانه واحدا من خلقه يظلم آخر من خلقه ؟ لا بد أن الحق سيشمل المظلوم برعايته ، وهكذا يقوى الظالمُ المظلومَ ، والظالم بذلك يعلن عن غبائه ، فلو كان ذكيا ، لما ظلم ، ولضنّ على عدوه أن يظلمه ، ولقال : إنه لا يستأهل أن أظلمه ؛ لأنه عن طريق ظلمى له سيعطيه الله مكافأة كبرى ، وهى أن يجعله فى كنفه ورعايته مباشرة .

وقد نجد واحدا يظلم من أجل نفع عاجل ، وينسى هذا الإنسان أنه لن يشرد أبدا ممن خلقه . ونقول لمثل هذا الإنسان : أنت لن تشرد ممن خلقك ، ولكنك شردت من المخلوق وداريت نفسك ، وحاولت أن تحقق النفع العاجل لنفسك ، لكن الخالق قيوم لا تأخذه سنة ولا نوم . وكأن الحق سبحانه يطمئننا بأن ننام ملء جفوننا لأنه سبحانه لا تأخذه سنة ولا نوم .

« وما الله يريد ظلما للعالمين » لأن الظلم لا ينشأ إلا عن إرادة نفعية بغير حق ، أو إرادة الضرر بغير جرم ، والله غنى عن ذلك ؛ ولذلك نجد الحق يؤكد غناه عن الخلق وأنه مالك للكون كله فيقول :

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾ ﴾

إنه مالك الملك ، كل شيء له وبه وملكه ، وإليه يُرجع كل أمر . ونحن نعلم أن القرآن الكريم قد نزل من عند الله بقراءات متعددة وقد ورد وفى بعضها (تَرجِعُ الأمور) بفتح التاء بالبناء للفاعل ، وفى قراءة أخرى : « ترجع الأمور » بضم التاء بالبناء للمفعول ، وكذلك (ترجعون) تأتى أيضا بضم التاء وفتحها ، وكلها ـ كما قلنا ـ قراءات من عند الله .

وعندما يقول الحق : « وإليه تَرجعون » بفتح التاء فمعنى ذلك أننا نعود إليه مختارين ؛ لأن المؤمن يُحبُّ ويرغب أنْ يصل إلى الآخرة ، لأن عمله طيب فى الدنيا ، فكأنه يجرى ويسارع إلى الآخرة ، ومرة يقول تعالى : « وإليه تُرجَعون » بضم التاء . وهذا ينطبق على الكافر أو العاصى . إنّ كُلًّا منهما يحاول ألا يذهب إلى الآخرة ، لكن المسألة ليست بإرادته ، إنه مقهور على العودة إلى الآخرة ولذلك نجد التعبير القرآنى :

﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ ﴾

(سورة الطور)

هناك من يدفعهم إلى النار دفعا . وفى حياتنا ـ ولله المثل الأعلى ـ نجد الشرطى يمسك بالمجرم من ملابسه ويدفعه إلى السجن . . ذلك هو الدع . وهكذا يكون قول الحق : « وإليه تُرجَعون » بضم التاء وفتح الجيم ، أى أنه مدفوع بقوة قاهرة إلى النهاية . أما المؤمن الواثق فهو يهرول إلى آخرته مشتاقا لوجه ربه .

وعندما تقرأ « وإلى الله تُرجع الأمور » . قد يقول قائل : ومتى خرجت الأمور منه حتى ترجع إليه ؟ ونقول : حين خلق الله الدنيا ، خلقها بقهر تسخيرى لنفع الإنسان ، وجعل فيها أشياء بالأسباب ، فإن فعل الإنسان السبب فإنه يأخذ المسبب ـ بفتح الباء ـ المشددة ، فالشمس تشرق علينا جميعا ، والضوء والدفء والحرارة ، هى ـ بأمر الله ـ للمؤمن والكافر معا ، ولم يصدر الله لها أمرا أن تختص المؤمن وحده بمزاياها ، والهواء لا يمر على المؤمن وحده ، إنما يمر على المؤمن والكافر ، وكذلك الماء ، والأرض يزرعها الكافر فيأخذ منها الثمار ، ويزرعها المؤمن كذلك .

إذن ففى الكون أشياء تسخيرية ، وهى التى لا تدخل فيها طاقة الإنسان ، وهناك

أشياء سببية ، فإن فعلت السبب يأت لك المسبب ، والله قد جعل الأسباب للمؤمن والكافر . وعندما يُمَلِّك الله بعض الخلق أسباب الخلق فهو القيوم فوق الجميع ، لكن فى الآخرة ، فلا أسباب ولا مسببات ؛ ولذلك يكون الأمر له وحده ، اقرأوا جيدا :

﴿ لِمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾

(من الآية ١٦ سورة غافر)

إنّ فى الدنيا أناسا ـ بإرادة الله ـ تملك أسبابا ، وتملك عبيدا ، وتملك سلطانا ؛ لأن الدنيا هى دنيا الأسباب . أما فى الآخرة فلا مجال لذلك . لقد بدأت الدنيا بأسبابها مِنَّة منه ، ورجعت مِنَّةُ إليه « لمن الملك اليوم لله الواحد القهار » ومن يعتز بالسببية نقول له : كن أسير السببية لو كنت تستطيع . ومن يعتز بالقوة لأنها ـ ظاهرا ـ سبب للحركة ، نقول له : احتفظ بقوتك إن كنت قادرا . ومن يعتز بالملك نقول له : لتحتفظ بالملك لو كنت تستطيع . ولا أحد بقادر على أنْ يحتفظ بأى شىء ، فكل شىء مرده إلى الله ، وإن كان فى ظاهر الأمر أن بعض الأشياء لك الآن ، وفى الآخرة لله يكون كل أمر ، ويرجع إليه كل شىء ، لقد بدأت به ، ورجعت إليه . ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾

هذه الخيرية لها مواصفات وعناصر : « تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر

وتؤمنون بالله » . فإن تخلف عنصر من هذه العناصر ، انحلت عنكم الخيرية ، فالخيرية لكم بأشياء هى : أمر بالمعروف . نهى عن المنكر . إيمان بالله .

وساعة تسمع كلمة « معروف » و« منكر » فإنك تجد أن اللفظ موضوع فى المعنى الصحيح ، فـ « المعروف » هو ما يتعارف الناس عليه ويتفاخرون به ، ويَسُرُّ كل إنسان أن يعرفه الآخرون عنه . و« المنكر » هو الذى ينكره الناس ويخجلون منه ، فمظاهر الخير يحب كل إنسان أن يعرفها الآخرون عنه ، ومظاهر الشر ينكرها كل إنسان .

إن مظاهر الخير محبوبة ومحمودة حتى عند المنحرف ، ومظاهر المنكر مذمومة ومكروهة حتى عند المنحرف . فاللص نفسه عندما يوجد فى مجلس لا يعرفه فيه أحد ، ويسمع أن فلانًا قد سرق فإنه يعلن استنكاره لفعل اللص ، إنه أمر منكر ، حتى وإن كان هو يفعله . وهكذا تعرف أن « المعروف » و« المنكر » يخضعان لتقدير الفطرة . والفطرة السليمة تأتى للأمور الخيرة ، وتجعلها متعارفا عليها بين الناس ، وتنكر الفطرة السليمة الأمور المنكرة ، حتى ممن يفعلها .

ويورد الله مسألة الإيمان بالله من بعد الأمر بالمعروف والنهى المنكر ، لماذا ؟ لأنه من الجائز أن يوجد إنسان له صفات الأريحية والإنسانية ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويصنع الخير ، ويقدم الصدقات ، ويقيم مؤسسات رعاية للمحتاجين والعاجزين سواء كانت صحية أو اقتصادية ، لكنه يفعل ذلك من زاوية نفسه الإنسانية ، لا من زاوية منهج الله ، فيكون كل ما فعله حابطا ولا يُعترَفُ له بشىء لأنه لم يفعل ذلك فى إطار الإيمان بالله ، ولذلك فلا تظن أن الذى يصنع الخير دون إيمان بالله له أجر عند الله ؛ فالله يجازى من كان على الإيمان به ، وأن يكون الله فى بال العبد ساعة يصنع الخير . فمن صنع خيرا من أجل الشهامة والإنسانية والجاه والمركز والسمعة فإنه ينال جزاءه ممن عمل له ، ومادام قد صنع ذلك من أجل أن يقال عنه ذلك فقد قيل ، وهو ما بيّنه رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله :

« إن أول الناس يُقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتى به فعرفه نعمه فعرفها فقال : ما عملتَ فيها ؟ قال : قاتلت فيك حتى استشهدت . قال : كذبت ،

ولكنك قاتلت لأن يقال جرىء فقد قيل ، ثم أمر به فسحب . ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن فأتى به فعرّفه نعمه فعرفها فقال : ما عملت فيها قال : تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن ، قال:كذبت ولكنك تعلمت العلم ليقال : عالم ، وقرأت القرآن ليقال : قارىء فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار ، ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله فأتى به فعرّفه نعمه فعرفها قال : فما عملت فيها ؟ قال : ما تركت فى سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقتُ فيها . قال : كذبت ولكنك فعلت ليُقال:هو جواد ، فقد قيل ، ثم أمر فسحب على وجهه ثم أُلقى فى النار »[1] .

إنه ينال جزاء عمله من قول الناس ، لكن الله يجازى فى الآخرة من كان الله فى باله ساعة أن عمل . ولذلك فالحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾

(سورة فصلت)

إن المؤمن يفعل العمل الصالح ، ويعلن أنه يفعل ذلك لأنه من المسلمين ، إنه لا يفعل الخير ، لأنه شيوعى ، أو وجودى ، أو إنسانى إلخ ، فمهما صنع إنسان من الخير ، وترك الاعتراف بالله فخيانة الكفر تفسد كل عمل . لأنه جحد وأنكر خالقه وكفر به ، والذى يعمل خيرا من أجل أحدٍ فلينل من هذا الأحد جزاء هذا العمل .

وهنا فى هذه الآية ، أمر بالمعروف ، ونهى عن المنكر ، وإيمان بالله . ولكن ما الذى يجعلهم لا يؤمنون بالله وإن عملوا معروفا ؟ إنه حرصهم على الجاه الزائف ، فلمّا جاء الإسلام ، ظن أهل الجاه فى الديانات الأخرى أن الإسلام سيسلبهم الجاه والسلطة والمكانة والمنافع التى كانوا يحصلون عليها ، وكان من حماقة بعضهم أن باعوا الجنة على الأرض وخافوا على المركز والجاه والمنافع ، وكان ذلك من قلة الفطنة ، فالحق يقول :

﴿ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾

(من الآية ١١٠ سورة آل عمران)

---

(١) رواه مسلم فى صحيحه .

فلو آمنوا لظل لهم الجاه والسلطة فى ضوء الإيمان بالله ، فلا تجارة بالدين ، وكانوا سيحصلون على أجرهم مرتين ، أجر فى الدنيا ، وأجر فى الآخرة ، أو أجر على إيمانهم بنبيهم ، وأجر آخر لإيمانهم برسول الله ، ولكن هل معنى هذا القول أن أهل الكتاب لم يؤمنوا ؟ لا ، إن بعضهم قد آمن ، فالحق سبحانه وتعالى يؤرخ لهم تأريخا حقيقيا فيقول سبحانه : « منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون » وكان القياس أن يأتى وصف بعضهم بالإيمان ، وأن يكون غيرهم من أبناء ملتهم كافرين ، لأن الإيمان يقابله الكفر ، لكن الحق يحدد المعنى المناسب لفعلهم فيقول : « وأكثرهم الفاسقون » .

إنه الحق سبحانه وتعالى الذى يتكلم فيورد كل كلمة بمنتهى الدقة ، فهناك فرق بين أن تكفر وليس عندك مقدمات الإيمان وأدلته ، وأن تكفر وأنت تعرف مقدمات الإيمان كقراءة التوراة والإنجيل .

لقد قرأ أهل الكتاب التوراة والإنجيل ورأوا الآيات البينات وعرفوا البشارات ؛ لذلك فهم عندما كفروا برسول الله ، فسقوا أيضا مع الكفر . إن الذين كفروا برسول الله من أهل الكتاب هم فاسقون حتى فى كفرهم ، لأن مقتضى معرفتهم للبشارات والآيات أن يعلنوا الإيمان برسالة رسول الله ، فالواحد منهم ليس كافرا عاديا ، بل هو فاسق حتى فى الكفر ؛ لأنه عرف الحق ، ثم خرج وفسق عنه .

ومادام الحق قد قال : « منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون » إذن ماذا يفعل المؤمن منهم مع الفاسق ؟ سيتربص الفاسقون وهم الأكثرية فى اليهودية والنصرانية بالأقلية المؤمنة ليوقعوا بهم الأذى والضرر ، ويقول الحق سبحانه :

﴿ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ﴾

لكن الحق سبحانه يطمئن هذه الأقلية من إضرار الأكثرية بهم فيقول : « لن يضروكم إلا أذى » . أى يا أيتها الأقلية التى آمنت من أهل الكتاب ـ مثل عبدالله بن سلام الذى أسلم وترك اليهودية ـ إياكم أن تظنوا أن الأكثرية الفاسقة قادرة على إنزال العذابيكم ؛ فالحق ـ سبحانه ـ يعلن أن محاولة الأكثرية لإنزال الضرر بالأقلية التى آمنت منهم لن يتجاوز الأذى .

ما هو الضرر ؟ وما هو الأذى ؟

إن الأذى هو الحدث الذى يؤلم ساعة وقوعه ثم ينتهى ، أما الضرر فهو أذى يؤلم وقت وقوعه ، وتكون له آثار من بعد ذلك ، فعندما يصفع الإنسان إنسانا آخر صفعة بسيطة فالصفعة البسيطة تؤلم ، وألمها يذهب مباشرة ، لكن إن كانت الصفعة قوية وتتسبب فى كدمات وتورم فهذا هو الضرر . إذن فالأذى يؤلم ساعة يُباشَر الفعل فقط ، وقد يكون الأذى بالكلمة كالاستهزاء ، فالفاسق قد يستهزىء بالذى آمن ، فينطق بكلمة الكفر أو الفُجْر ، هذه الكلمة ليس لها ضرر فى ذات المؤمن ولكنها تؤذى سمعه . إن الحق سبحانه يطمئن المؤمنين على أن أهل الكفر لن يضروا المؤمنين إلا أذى ، وهذا أقصى ما فى استطاعتهم ، وليس لهذا الأذى أثر .

إذن فقول الحق : « لن يضروكم إلا أذى » يعنى أنهم لن يستطيعوا أن ينالوا منكم أبدا اللّهم إلا الاستهزاء أو الغمز واللمز ، أو إشارة بحركة تؤذى شعور المؤمن ، أو تمجد الكفر ، وتعظمه أو بنطق كلمة عهر أو فجر لا يوافق عليها الدين ، هذا أقصى ما يستطيعه أهل الفسق ، وهم لا يملكون الضرر لأهل الإيمان . وبعد ذلك نرى أن واقع الأمر قد سار على هذا المنوال مع الدعوة المحمدية ومع جنود سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم . لقد أطلقها الله كلمة : « لن يضروكم إلاّ أذى » فصارت الكلمة قانونا . فقد وقعت الوقائع بين جند رسول الله وأهل الفسق ، وثبت أن أهل الفسق لم يستطيعوا ضرر أهل الإيمان إلا أذى .

ولننظر إلى ما حدث لبنى قينقاع ، ولما حدث لبنى قريظة ، ولما حدث لبنى النضير ، ولما حدث ليهود خيبر ، هل ضروا المؤمنين إلا أذى ؟ لقد قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : لا يغرنك يا محمد أنك لقيت قوما أغرارا لا علم لهم بالحرب فانتصرت عليهم ، فإذا أنت حاربتنا فستعرف مَن الرجال . وكان ذلك هو مجرد كلام باللسان .

إن التاريخ يحمل لنا ما حدث لهم جميعا ، لقد هزمهم رسول الله صلى الله عليه وسلم . وبعد هذا أرادوا أن يرتفعوا عن الأذى إلى الضرر الحقيقى فلم يمكنهم الله ؛ لأن الحق يقول : « وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ، ثم لا ينصرون » ، فإن أراد أهل الفسق أن يُصَعِّدوا الأذى للمؤمنين ليوقعوا ضررا حقيقيا ، فإن الكافرين يولون الأدبار أمام المؤمنين ، فهزيمتهم أمر لا مناص منه . ونحن نعرف فى اللغة أن هناك ما نسميه « الشرط » وما نسميه « الجواب » فـ « إنْ » حرف شرط تجزم فعل الشرط وجوابه فإنْ كان الفعل من الأفعال الخمسة فإنّنا نحذف النون ، ولذلك نجد القول الحق : « وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار » .

إن « يقاتلوكم » فعل شرط محذوفة منه النون . و« يولوكم الأدبار » أصلها يولونكم الأدبار . وهى جواب شرط حذفت منه النون ، وعندما يأتى العطف بعد ذلك ، فهل يكون بالرفع أو بالجزم ؟ إن العادة أن يكون العطف بالجزم !! لكن الحق يعطف بالرفع فيأتى قوله : « ثم لا يُنصرون » . إنها كسرة إعْرَابِيَّة تجعل الذهن العربى يلتفت إلى أن هناك أمرا جللا ، لأن المتكلم هو الله سبحانه . كيف جاءت « النون » ؟

هنا نقف وقفة فَلننطق الآية ككلام البشر : إن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصروا . وهذا القول يكون تأريخا لمعركة واحدة ، لكن ما الذى سوف يحدث من بعد ذلك ؟ ماذا يحدث عندما يقاتل المؤمنون أهل الكفر والفسق ؟ وتكون الإجابة هى : « ثم لا ينصرون » إن هذا القول الحكيم يحمل قضية بعيدة عن الشرط والجزاء ، إنها حكم من الله على أهل الفسق بأنهم لا يُنصرون أبدا سواء أقاتلوا أم لم يقاتلوا إنها قضية ثابتة منفصلة ، وليست معطوفة على الشرط ، فعلة عدم النصر ، ليست القتال ، ولكنها الكفر .

وإذا دققنا الفهم فى العبارة حروفا ـ بعد أن دققنا فيها الفهم جملا ـ لوجدنا معنى جديدا ، فقد يظن إنسان أن القول كان يفترض أن يتأتى على نحو مغاير ، هو « يولوكم الأدبار فلا ينصرون » لأن الذى يأتى بعد الـ « فاء » يعطى أنهم لا ينتصرون عليكم فى بداية عهدكم ، وهذا ما تفيده الفاء لأنها للترتيب والتعقيب . لكن الحق أورد حرف « ثم » وهو يفيد التراخى ، وهذا يعنى أنهم لا ينتصرون عليكم أيها

المؤمنون حتى لو استعدوا بعد فترة لمعركة يَرُدُّونَ بها على توليهم الأدبار . إنه حكم تأبيدى ، لأن « ثم » تأتى للتعقيب مع التراخى ، والفاء تأتى للتعقيب المباشر بدون تراخ . ولذلك فعندما نقرأ القرآن نجد وضع الفاء كالآتى :

﴿ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ﴾

(سورة عبس)

لأن دخول القبر يكون بعد الموت مباشرة ، وبعدها يقول الحق :

﴿ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ ﴾

(سورة عبس)

فإذا كان هناك تعقيب بعد مدّة زمنية فالحق يأتى بـ «ثم » ، وإذا كان هناك تعقيب فورى بلا مدّة يأتى الحق بـ« ف » . والتعقيب فى الآية التى نتناولها يأتى بعد « ثم » ، وكأن هذا حكم مستمر من الحق بأن أهل الفسق لن ينتصروا على أهل الإيمان ، ولو بعد انتهاء المعركة القائمة الآن بينهم ، إنها هزيمة بحكم نهائى ، هذا هو القول الفصل : « ثم لا يُنصرون » وهو أشد وقعا مما لو جاء « لا ينتصرون » لماذا ؟ لأن من الممكن ألّا ينتصر أهل الكفر بذواتهم ، ولكن الإيضاح يؤكد أنهم ـ أهل الكفر ـ لا ينتصرون لا بذواتهم ، ولا يُنصرون بغيرهم أيضا .

إن « ثم لا ينصرون » قضية دائمة فليست المسألة مقصورة على عهد رسول الله فقط ، ولكنها ستظل إلى أبد الآبدين .

ومن السطحية فى الفهم أن نقول : إن الآية كانت تتطلب أن يكون القول « ثم لا ينصروا » لأن الاعراب يقتضى ذلك . لكن المعنى اللائق بالمتكلم وهو الحق سبحانه وتعالى الذى يعطى الضمان والاطمئنان للأمة المسلمة أمام خصومها لابد أن يقول : « ثم لا ينصرون » وهى أكثر دقة حتى من « لا ينتصرون » لأن « ينتصرون » فيها مدخلية الأسباب منهم ، أما « ثم لا ينصرون » فهى تعنى أن لا نصر لهم أبداً ، حتى وإن تعصب لأهل الفسق قوم غيرهم وحاولوا أن ينصروهم فلن يستطيعوا ذلك .

فإن رأيتم ـ أيها المسلمون ـ نصرا للكافرين عليكم منهم أو بتعصب قوم لهم

فاعلموا أنكم دخلتم معهم على غير منهج الله . وقد يأتى إنسان ويقول : كيف ينتصر علينا اليهود ونحن مسلمون ؟ ونقول : هل نحن نتبع الآن منهج وروح الإسلام ؟ وماذا عندنا من الإسلام ومن الإيمان ؟ هل تحسب نفسك على ربك أثناء هزيمتك ؟ وهل دخلت معركتك كمعركة إسلامية ؟

لا ، لقد انتبهنا إلى كل شيء إلاّ الإسلام . قدمنا الانتماء لعصبية وقومية وعرقية على الإيمان فكيف نطلب نصرا من الله ؟ لا يحق لنا أن نطلب نصرة لله إلا إذا دخلنا المعركة ونحن من جند الله . والهزيمة تحدث عندما لا نكون جنداً لله ؛ لأن الله ضمن النصر والغلبة لجنوده فقال :

﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾

(سورة الصافات)

فإذا لم نغلب فتأكدوا أننا لسنا من جنود الله . . ويقول الحق من بعد ذلك .

﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾

ونحن نستخدم كلمة « ضرب » فى النقود ، عندما نقول : ضرب هذا الجنيه فى مصر ، ومعنى ذلك أن الصانع يقوم بصنع قالبٍ من مادة أكثر صلابة ، من المادة التى يصنع منها النقد ويرسم فيها الحفريات التى تبزر الكتابة والصور على وجهى الجنيه ،

ثم يصب المادة فى ذلك القالَب ، وتخضع للقالب فتبرز الكتابة والصور ، ولا تتأبى المادة على القالب . كأن « ضُرب » معناها « أُلزم » بالبناء للمجهول فيهما ، وكأن المادة المصنوعة تَلْزَمُ القالبَ الذى تصب فيه ولا تتأبى عليه ولا يمكن أن تتشكل إلّا به .

إذن فالضرب معناه الإلزام والقسر على الفعل . وعندما يقول الحق : « ضربت عليهم الذلة » أى لزمتهم الذلة لا يستطيعون الانفكاك عنها أبدا ، كما لا يستطيع المعدن المضروب نقدا أن ينفك عن القالب الذى صك عليه ، وكأن الذلة قبة ضربت عليهم ، وقالب لهم ، وقول الحق : « أينما ثقفوا » تفيد أنهم أذلاء أينما وُجدوا فى أى مكان . ولكن هناك استثناء لذلك ، ما هو ؟

إنه قول الحق : « إلّا بحبل من الله وحبل من الناس » إنهم لا يعانون من الذلة فى حالة وجود عهدٍ من الله أو عهد من أناس أقوياء أن يقدموا لهم الحماية . فلما كانوا فى عهد الله أولا وعهد رسوله ساعة دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وأعطاهم العهد ، فكانوا آمنين ، ولما خانوا العهد ، ولم يُوفوا به ؛ ماذا حدث ؟ ضُربت عليهم الذلة مرة أخرى .

إذن لقد كانوا فى عهد الله آمنين لكنهم خانوا العهد ، وانقطع حبل الله عنهم ، فهيجوا الهيجة التى عرفناها ونزل بهم ما نزل ، وهو ما حدث لبنى قينقاع ولبنى النضير وبنى قريظة ويهود خيبر .

إذن فهم قبل ذلك كانوا فى عهد مع الله . وأنتم تعرفون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أول ما نزل المدينة بنى المسجد وعقد العهد بينه وبين اليهود وعاشوا فى اطمئنان إلى أن خانوا العهد ، فضربت عليهم الذلة . وطُردوا من المدينة ، كما يقول الحق : « ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس » .

لقد أخذوا العهد من الله من خلال من له الولاية على الناس ، فالرسول فى عهده كان قائما على أمر المسلمين ، وكذلك يكون الأمر معهم فى ظل القائمين على أمر الإسلام ، ويحدث هذا عندما تسير الأمور بمنهج الإسلام .

أما عن حبل الناس فذلك لأنهم لا يملكون أى عزة ذاتية ، إنهم دائما فى ذلة إلا أن يبتغوا العزة من جانب عهد وحبل من الله ، أو من جانب حماية من الناس . ونحن نراهم على هذا الحال فى حياتنا المعاصرة ، لابد لهم من العيش فى كنف أحد ؛ لذلك فعندما حاربنا « إسرائيل » فى حرب أكتوبر ، انتصرنا عليهم إلى أن تدخلت أمريكا بثقلها العسكرى . فقال رئيس الدولة المصرى : « لا جَلَدَ لى أن أحارب أمريكا » .

إذن لو كانت الحرب بيننا وبينهم فقط لانتهت قوتهم ؛ فهم بلا عزة ذاتية ، وتكون لهم عزة لو كانوا فى جانب حبل من الله ، أو حبل من الناس . يقول الحق سبحانه عنهم من بعد ذلك : « وباءوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة » ولنا أن نلاحظ أن الذلة لها استثناء ، فهم ينالون العزة لو كانوا بجانب حبل من الله أو حبل من الناس ، أما المسكنة ، فلا استثناء فيها ، وقد قال الحق عنهم فى موضع آخر فى القرآن الكريم :

﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ٦١ سورة البقرة)

لأن المسكنة أمر ذاتى فى النفس ، إنهم مساكين بأمر من الله ، أما الذلة فقد يأتى لهم من ينصرهم ويقف بجانبهم ؛ فالذلة أمر من خارج ، أما المسكنة فهى فى ذاتيتهم ، وعندما تكون المسكنة ذاتية ، فلا إنقاذ لهم منها ؛ لأنه لا حبل من الله يأتيهم فينجيهم منها ، ولا حبل من الناس يعصمهم من آثارها . ويقول الحق : « وباءوا بغضب من الله » وهل رأى أحد منا غضبا أكبر من أن الحق قد قطعهم فى الأرض ؟ ولنقرأ قول الله :

﴿ وَقَطَّعْنَـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ﴾

(من الآية ١٦٨ سورة الأعراف)

المكان الوحيد الذى آواهم فى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الجزيرة العربية فى يثرب ، واستقروا قليلا ، وصارت لهم سيادة علمية ؛ لأنهم أهل كتاب ، وصارت لهم سيادة اقتصادية ، وكذلك سيادة حربية ، وهذا المكان الذى أواهم من الشتات فى الأرض هو المكان نفسه الذى تمردوا عليه . لقد كان السبب الذى من أجله قد جاءوا إلى يثرب هو ما كانوا يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة ؛ ففى التوراة

جاء ما يفيد أن نبيا سيأتى فى هذا المكان ولابد أن يتبعوه كالميثاق الذى قلنا عليه من قبل :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

وهذا الميثاق يقضى بأن يتولى الرسل بلاغ الأمم التى بُعِثوا إليها ، وأن يُبلغ أهلُ الإيمان القادمين من بعدهم بأن هناك رسولا قادما من عند الله بالمنهج الكامل . - واليهود - لم يأتوا إلى يثرب إلا على أمل أن يتلقفوا النبى المنتظر ليؤمنوا به ، ومن بعد ذلك يكونون حربا على الكافرين بالله ، لكن ما الذى حدث ؟ إنه سبحانه يخبرنا بما حدث منهم فى قوله :

﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ﴾

(من الآية ٨٩ سورة البقرة)

فماذا بعد أن باءوا بغضب من الله . وبعد أن ختم الله قالبهم بالمسكنة ؟ وما السبب ؟ تكون الإجابة من الحق سبحانه : « ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق » لقد أرسل الله لهم آيات عجيبة ولكنهم كفروا بها ، تلك الآيات التى جاءنا ذكر منها فى قوله الحق :

﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ﴾

(من الآية ٥٧ سورة البقرة)

كثير من الآيات أرسلها الحق لبنى إسرائيل ، منها ما جاء فى قوله الحق :

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾

(سورة البقرة)

ولكنهم تولوا عن الإيمان وأمامهم ضرب موسى عليه السلام الحجر بالعصا فانفجرت منه عيون المياه ليشربوا .

﴿ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ﴾

(من الآية ٦٠ سورة البقرة)

وبرغم ذلك فقد قاموا بقتل الأنبياء بغير حق . وادعوا الكذب على أنبيائهم وقتلوهم ، وفى شأنهم يقول الحق : « ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون » كَانَ العصيانُ سبباً لأن تُضرب عليهم الذلة ، وأن يبوءوا بغضب من الله ، وأن تُضرب عليهم المسكنة ، وكل ذلك ناشىء من فعلهم . وهناك فرق بين أن يبدأهم الله بفعل ، وبين أن يعاقبهم الله على فعل ، وحتى نفهم ذلك فلنقرأ قوله الحق :

﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ ﴾

(سورة النساء)

لقد حرم الله عليهم الطيبات بظلم منهم لأنفسهم ، لأن معنى تحريم الطيبات أن الله حرمهم متعة فى طيب ، وذلك لأنهم استحلوا متعة فى غير طيب ؛ لأن مرادات الشارع تأتى على عكس مرادات الخارجين عن أمر الشارع . وكما قلنا من قبل : إنّ الحق سبحانه وتعالى يؤرخ للحق وللواقع ولا يشملهم كلهم بحديث يجمعهم جميعا ، فقد كان منهم أناس تراودهم فكرة الإيمان بالرسول ، وفكرة الإيمان بالقرآن ، ومنهم من آمن فعلا ؛ لذلك كان من عدل الله أن يفصل بين الذين يفكرون فى الإيمان والمصرين على الكفر . لذلك يقول سبحانه :

﴿ لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾

وهذا ما حدث بالفعل ، لكن أى آيات لله كانوا يتلونها ؟ إنها الآيات المهيمنة ، آيات القرآن ولماذا يقول الحق : « وهم يسجدون » وهل هناك قراءة للقرآن ساعة السجود ؟ حتى نعرف تفسير ذلك لابد لنا أن نعرف أن اليهود لا يصلون العتمة ، أى الصلاة فى الليل ، وحتى يعطيهم الله السمة الإسلامية قال عنهم : « يسجدون » ويُعَرِّفهم بأنهم يقيمون صلاة العتمة ، ـ العشاء ـ وهى صلاة المسلمين ، وماداموا يصلون صلوات المسلمين ويسجدون ، إذن فهم مسلمون أو نفهم من قوله : « وهم يسجدون » أن الصلاة عنوان الخضوع ، والسجود أقوى سمات الخضوع فى الصلاة . وماداموا يصلون فلا بد أنهم يتلون آيات الله آناء الليل وهم يؤدون الصلاة بخشوع كامل . ونعرف أن من حسن العبادة فى الإسلام ، ومن السنن المعروفة قراءة القرآن ليلا ، وصلاة التهجد ، وهذه فى مدارج العملية الإيمانية التى يدخل بها الإنسان إلى مقام الإحسان .

و« آناء » جمع « إنى » مثلها مثل « أمعاء » جمع « مِعى » . و« الآناء » هى مجموع الأوقات فى الليل ، وليست فى «إنى » واحد . فهناك مؤمن يقرأ القرآن فى وقت من الليل ، ومؤمن آخر يقرأ القرآن فى وقت آخر ، وكأن المؤمنين يقطعون الليل فى قراءة للقرآن ، والذى يدخل مع ربه فى مقام الإحسان ، فهو لا يصلى فقط صلاة العتمة وهى ستأخذ « إنى » واحدا ، أى وقتا واحدا ، ولكنه عندما يصلى فى آناء الليل فذلك دليل على أنه يكرر الصلاة ، وزاد عن المفترض عليه ، ومادام قد زاد عن المفترض ، فهو لا يكتفى بتلاوة القرآن لأنه يريد أن يدخل فى مقام الإحسان ، أى أنه وجد ربه أهلا لأن يصلى له أكثر مما افترض عليه ، كأنه قد قال لنفسه : أنت كلفتنى يارب بخمس صلوات لكنك يارب تستحق أكثر من ذلك وكأن هذا البعض من أهل الكتاب لم يكتفوا بإعلان الإيمان بالإسلام فقط ، ولكنهم دخلوا بثقلهم ، فصلوا آناء الليل . وأحبوا أن ينطبق عليهم قول الله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة الذاريات)

ما معنى « محسن » ؟ إنها وصف للإنسان الذى آمن بربه فعبَد الله بأكثر مما افترض

تعبدنا الله بخمس صلوات فنزيدها لتصل إلى عشرين مَثَلاً ، ونحن تعبدنا الله بصيام شهر فى العام ومنا من يصوم فى كل شهر عددا من الأيام .
العام ومنا من يصوم فى كل شهر عددا من الأيام .

وتعبدنا بالزكاة بالنصاب ، ومنا من يزيد على النصاب ، وتعبدنا سبحانه بالحج مرة ، ومنا من يزيد عدد مرات الحج . فحين يريد العبد أن يدخل فى مقام الإحسان فبابه هو أداء عبادات من جنس ما تعبده الله به ؛ فالعبد لا يخترع أو يقترح العبادة التى يعبد بها الله ، ولكنه يزيد فيما افترضه الله . وهؤلاء الذين آمنوا بالله من أهل الكتاب ويتحدث عنهم القرآن ، لقد دخلوا بثقلهم فى الإسلام فصلوا آناء الليل وقرءوا القرآن ، ودخلوا مقام الإحسان ، وأرادوا أن يطبقوا القول الحق :

﴿ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة الذاريات)

أى أنهم ماداموا قد صلوا فى الليل ، وقليلا ما هجعوا فلا بد أنهم قد أدوا الصلاة فى آناء كثيرة من الليل . ونحن حين ندخل فى مقام الإحسان ونصلى فى الليل ، ونكون بارزين إلى السماء فلا يفصلنا شىء عنها،وننظر فنجد نجوما لامعة تحت السماء الدنيا ، وأهل السماء ينظرون للأرض فيجدون مثلما نجد من النجوم المتلألئة اللامعة فى الأرض ، ويسألون عنها فيقال لهم : إنها البيوت التى يصلى أهلها آناء الليل وهم يسجدون ، وكل بيت فيه هذا يضىء كالنجوم لأهل السماء . ويضيف الحق فى صفات هؤلاء : « وبالأسحار هم يستغفرون » وهل فرض الله على خلقه بأن يصلوا آناء الليل فلا يهجعون إلا قليلا من الليل ؟ لا ، ولكن من يريد أن يدخل فى مقام الإحسان ، فهو يفعل ذلك . أما المسلم العادى فيكتفى بصلاة العشاء ، وعندما يأتى الصبح فهو يؤدى الفريضة . لكن من يدخل فى مقام الإحسان فقليلا من الليل ما يهجع . وينطبق عليه القول الحق :

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟
قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ
يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ ﴾

(سورة الذاريات)

وهذه دقة البيان القرآنى التى توضح مقام الإحسان ، فيكون فى مالهم حق للسائل والمحروم ، وليس هناك قدر معلوم للمال الذى يخرج ، لأن المقام هنا مقام الإحسان الذى يعلو مقام الإيمان ، ومقام الإيمان ـ كما نعرف ـ قد جاء ذكره فى قوله الحق :

﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٢٦﴾ ﴾

(سورة المعارج)

فالإنسان فى مقام الإيمان قد يقيد الإخراج من ماله بحدود الزكاة أو فوقها قليلا ، لكن فى مقام الإحسان فلا حدود لما يخرج من المال . وهكذا نعرف أن أهل الكتاب ليسوا سواء ؛ فمنهم من دخل الإسلام من باب الإحسان ، فقال فيهم الحق : « ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون » ، وكأن الحق بهذا الاستثناء الواضح . يؤكد لنا أننا لا يصح أن نظن أن أهل الكتاب جميعهم هم الذين جاء فيهم قوله : « ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون » لا ؛ فأهل الكتاب ليسوا سواء ، ولذلك لا يكون حكم الله منسحبا عليهم جميعا ، فمن أهل الكتاب جماعة قائمة بتلاوة القرآن آناء الليل وهم يسجدون ، إنهم أمة قائمة ، وكلمة « قائم » هى ضد « قاعد » ، والقعود غير الجلوس ، فالجلوس يكون عن الاضطجاع فيقال : كان مضطجعا فجلس .

لكن عندما نقول : « كان قائما » فإننا نقول فقعد،فالقعود يكون بعد القيام . والقعود فى الصلاة مريح ، أما القيام فهو غير مريح ، ونحن نعرف أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يقف فى الصلاة حتى تتورم قدماه ؛ لأن الثقل كله على القدمين ، ولكن عندما نقعد فنحن نوزع الثقل على جملة أعضاء الجسم . وعندما يصفهم الحق : « من أهل الكتاب أمة قائمة » فمعنى ذلك أنهم أخذوا أمانة أداء الفروض بكل إخلاص ، وكانوا يؤدون الصلاة باستدامة وخشوع . ويستمر الحق فى وصفهم فى الآية التالية :

﴿ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ

بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾

وهم بالإيمان بالله واليوم الآخر ، وبالأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، إنما يتصفون بالصفات التى أوردها الله صفة لخير أمة أخرجت للناس وهى أمة محمد صلى الله عليه وسلم . لقد دخل هذا البعض من أهل الكتاب بثقلهم ـ ومن أول الأمر ـ فى مقام الإحسان ، وماداموا قد دخلوا فى مقام الإحسان فهم بحق كانوا مستشرفين لظهور النبى الجديد . وبمجرد أن جاء النبى الجديد تلقفوا الخيط وآمنوا برسالته ، وصاروا من خير أمة أخرجت للناس . ويكمل الحق سبحانه صفاتهم بقوله : « ويسارعون فى الخيرات » وهذا كمثل قوله سبحانه وتعالى فى حق المؤمنين :

﴿ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

ونحن نعرف أن هناك فرقا بين « السرعة » و« العجلة » فـ« السرعة » و« العجلة » يلتقيان فى تقليل الزمن بالنسبة للحدث ، ومثال ذلك أن يقطع إنسان المسافة من مكان إلى مكان فى زمن معين،والذى يسرع فى قطع المسافة هو الذى يستغرق من الزمن أقل وقت ممكن ولكن هناك اختلاف بين السرعة والعجلة ، وأول خلاف بينهما يتضح فى المقابل ، فمقابل السرعة الإبطاء ، ويقال : فلان أسرع ، وعلان أبطأ ومقابل « العجلة » هو « الأناة » فيقال : فلان تأنى فى اتخاذ قراره . فالسرعة ممدوحة ومقابلها وهو « الإبطاء » مذموم ، « والعجلة » مذمومة ، ومقابلها وهو التأنى ممدوح ؛ لأن السرعة هى التقدم فيما ينبغى التقدم فيه ، والعجلة هى التقدم فيما لا ينبغى التقدم فيه ، ولذلك قيل فى الأمثال : « فى العجلة الندامة ، وفى التأنى السلامة » وقال الحق :

﴿ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾

(من الآية ١٣٣ سورة آل عمران)

وهو سبحانه : هنا يقول « ويسارعون فى الخيرات » أى كلما لمحت لهم بارقة فى الخير فهم يسرعون إليها ، أى أنهم يتقدمون فيما ينبغى التقدم فيه ، إنهم يعلمون أن الإسراع إلى الخير حدث ، وكل حدث يقتضى حركة ، والحركة تقتضى متحركا ، والمتحرك يقتضى حياة ، فما الذى يضمن للإنسان أن تظل له حياة ، لذلك يجب أن تسرع إلى الخيرات ، وسيدنا عمر بن عبدالعزيز رضى الله عنه وأرضاه كان ينام القيلولة ، وكان حاجبه يمنع الناس من إيقاظ الخليفة ، فجاء ابن عمر بن عبدالعزيز وقال للحاجب :

أريد أن أدخل على أمير المؤمنين الساعة ، فمنعه الحاجب قائلا : إنها ساعة يستريح فيها وهو لا يستريح من الليل أو النهار إلاّ فيها ، فدعه ليستريح . وسمع سيدنا عمر بن عبدالعزيز الضجة ، فسأل الحاجب . قال الحاجب : إنه ابنك ، ويريد أن يدخل عليك وأنا أطالبه ألا يدخل حتى تستريح . قال عمر بن عبدالعزيز للحاجب : دعه يدخل . فلما دخل الابن على أبيه ، قال الابن : يا أبى بلغنى أنك ستخرج ضيعة كذا لتقفها فى سبيل الله . قال عمر بن عبدالعزيز ؛ أفعل إن شاء الله . غدا نبرمها . قال الابن متسائلا : هل يبقيك الله إلى غد ؟ فقال عمر بن عبدالعزيز وهو يبكى : الحمد لله الذى جعل من أولادى من يعيننى على الخير .

لقد أراد الابن من أبيه أن يسارع إلى الخير ، فمادامت هبة الخير قد هبَّت عليه فعلى الإنسان أن يأخذ بها ؛ لأن الإنسان لا يدرى أغيار الأحداث فى نفسه ، لذلك فعليه أن يسارع إلى اقتناص هبة الخير ، وها هو ذا ابن عمر بن عبدالعزيز يعين والده على الخير ، لكننا فى زماننا قد نجد من الأبناء من يطلب الحَجْر على أبيه إن فكر الأب فى فعل الخير ، متناسين قول الحق : « ويسارعون فى الخيرات وأولئك من الصالحين » .

وهنا يبرز سؤال هو : لأى عمل هم صالحون ؟

والإجابة تقتضى قليلا من التأمل . إننا نقول فى حياتنا : « إن فلانا رجل صالح » ومقابله « رجل طالح » . والإنسان صالح للخلافة ، فقد جعل الله آدم وذريته خلفاء فى الأرض ، والرجل الصالح يرى الشىء الصالح فى ذاته فيترك هذا الشىء على ما هو عليه أو يزيده صلاحا . أما الرجل الطالح أو المفسد فهو يأتى إلى الشىء الصالح فيفسده ، ولا يفعل صلاحا .

إن الرجل ـ على سبيل المثال ـ قد يجد بئرا يأخذ منه الناس الماء ، فإن لم يكن من أهل العزم فإنه يتركه على حاله . وإن كان طالحا فقد يردم البئر بالتراب . أما إن كان الرجل من أهل الصلاح والعزم فهو يحاول أن يبدع فى خدمة الناس التى تستقى من البئر ، فيفكر ليبنى خزانا عاليا ويسحب الماء من البئر بآلة رافعة ، ويخرج من الخزان أنابيب ويمدها إلى البيوت ، فيأخذ الناس المياه وهم فى المنازل ، إن هذا الرجل قد استخدم فكره فى زيادة صلاح البئر .

إذن فكلمة « رجل صالح » تعنى أنه صالح لأن يكون خليفة فى الأرض وصالح لاستعمار الأرض أى أن يجعلها عامرة ، فيترك الصالح فى ذاته ، أو يزيده صلاحا ، ويحاول أن يصلح أى أمر غير صالح . الرجل الصالح عندما يعمل فهو يحاول أن يجعل عمله عن عمق علم ، فلا يقدم على العمل الذى يعطى سطحية نفع ثم يسبب الضرر من بعد ذلك .

ومثال ذلك حين اخترعوا المبيدات الحشرية ظنوا أنهم تغلبوا على الآفات فى الزراعة ، لكنهم لم يعرفوا أنهم قد أضروا بالزراعة وبالبيئة أكثر مما أفادوا ، لذلك عادوا يقولون : لا تستعملوا هذه المبيدات ؛ لأنها ذات أضرار جمة ؟ ولهذا لابد أن يكون كل عمل قائما على قواعد علمية سليمة ، ولنقرأ قوله تعالى :

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

وقوله سبحانه :

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَـٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ ﴾

(سورة الكهف)

إذن فقد أكرم الله من آمن من أهل الكتاب فوصفهم الوصف الحقيقى ، فهم يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون ، ويؤمنون بالله واليوم الآخر ، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ويسارعون فى الخيرات ، ثم يحكم الحق عليهم حكما عاما بأنهم من الصالحين لعمارة الكون والخلافة فى الأرض .

ومن بعد ذلك يضيف الحق :

﴿ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾

إنه سبحانه يعطيهم الجزاء العادل ، وإن شيئا لا يضيع عنده وهو الحق ؛ فالخير الذى يفعلونه لن يُجحد لهم أو يُستر عن الناس ؛ لأنه سبحانه عليم بالمتقين ، فمن الجائز أن يصنع إنسان الأعمال ولا يراها أحد ، أما الحق فهو يرى كل عمل ، وهو الذى يملك حسن الجزاء . وبعد ذلك يعود الحق لتبيان حال الذين كفروا فيقول :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا ۖ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١٦﴾ ﴾

يظن الكافرون أن الأموال والأولاد قد تغنى من الله ، إنهم لا يحسنون التقدير ، فالأموال والأولاد هما من مظان الفتنة مصداقا لقوله تعالى :

﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾

(سورة الأنفال)

ومادامت الأموال والأولاد فتنة فلا بد أن نفهم الأمر على حقيقته ؛ فالفتنة ليست مذمومة فى ذاتها ؛ لأن معناها اختبار وامتحان ، وقد يمر الإنسان بالفتنة ، وينجح .

كأن يكون عنده الأموال والأولاد ، وهم فتنة بالفعل فلا يغره المال بل إنه استعمله فى الخير ، والأولاد لم يصيبوه بالغرور بل علمهم حمل منهج الله وجعلهم ينشأون على النماذج السلوكية فى الدين ، لذلك فساعة يسمع الإنسان أى أمر فيه فتنة فلا يظن أنها أمر سيىء بل عليه أن يتذكر أن الفتنة هى اختبار وابتلاء وامتحان ، وعلى الإنسان أن ينجح مع هذه الفتنة ؛ فالفتنة إنما تضر من يخفق ويضعف عند مواجهتها . والكافرون لا ينجحون فى فتنة الأموال والأولاد ، بل سوف يأتى يوم لا يملكون فيه هذا المال ، ولا أولئك الأولاد ، وحتى إن ملكوا المال فلن يشتروا به فى الآخرة شيئا ، وسيكون كل واحد من أولادهم مشغولا بنفسه ، مصداقا لقول الحق :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾ ﴾

(سورة لقمان)

إن كل امرىء له يوم القيامة شأن يلهيه عن الآخرين ، والكافرون فى الدنيا مشغولون بأموالهم وأولادهم وعندما نتأمل قوله : « لن تغنى عنهم » نجد أننا نقول : أغناه عن كذا أى جعله فى استغناء فمن هو الغَنِىُّ إذن ؟ الغنى هو من تكون له ذاتية غير محتاجة إلى غيره ، فإن كان جائعا فهو لا يأكل من يد الغير ، والنبى صلى الله عليه وسلم يقول : « ليس الغنى عن كثرة العرض ، ولكن الغنى غنى النفس »(١) .

والمقصود بالعَرَض هو متاع الحياة الدنيا قلّ أو كثر ، ومتاع ، وعرض الدنيا كالماء المالح ، كلما شربت منه ازددت ظمأ . إن الكافر من هؤلاء يخدع نفسه ويغشها ، ويغتر بالمال والأولاد وينسى أن الحياة تسير بأمر من يملك الملك كله ، إن الكافر يأخذ مسألة الحياة فى غير موقعها ، فالغرور بالمال والأولاد فى الحياة أمر خادع ، فالإنسان يستطيع أن يعيش الحياة بلا مال أو أولاد . ومن يغتر بالمال أو الأولاد فى الحياة يأتى يوم القيامة ويجد أمواله وأولاده حسرة عليه ، لماذا ؟ لأنه كلما تذكر أن المال والأولاد أبعداه عما يؤهله لهذا الموقف فهو يعانى من الأسى ويقع فى الحسرة .

(١) رواه أحمد فى المسند ، والبخارى ، ومسلم ، والترمذى وابن ماجه عن أبى هريرة .

ويقول الحق سبحانه عن هذا المغتر بالمال والأولاد وهو كافر بالله : « وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » وهذا مصير يليق بمن يقع فى خديعة نفسه بالمال أو الأولاد . وكيف يكون الإنسان صاحباً للنار؟ لنعرف أولا معنى كلمة « الصاحب » ، إن الصاحب هو الملازم ؛ فنحن نقول : فلان صاحب فلان أى ملازمه ، لكن من أين تبدأ الصحبة ؟ . إن الذى يبدأ الصحبة هو « فلان » الأول ، لـ« فلان الثانى » الذى يقبل الصحبة أو يرفضها ، وهذا أمر قد نعرفه وقد لا نعرفه ، وعن الصحبة مع النار نرى أن الإنسان يلوم نفسه ويؤنبها على أنه اختار النار وصاحبها .

ألسنا نرى فى الحياة إنسانا قد ارتكب ذنبا وأصابه ضرر ، فيضرب نفسه ويقول : أنا الذى استأهل ما نزل بى وأستحقه ، وكذلك الإنسان الكافر يجد نفسه يوم القيامة ، وهو يدخل النار ، ويقول لنفسه : أنا أستحق ما فعلته بنفسى ، وتقول النار لحظتها ردا على سؤال الحق لها :

﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ ﴾

(سورة ق)

وفى الآخرة نرى أبعاض الإنسان الكافر وهى تبغض صاحبها ، فإذا كان للإنسان ولاية على أبعاضه فى الدنيا ، وهى خاضعة لإرادته إلا أن هذه الأبعاض تأتى يوم القيامة وصاحبها خاضع لإرادتها . إن الظالم يقول ليده فى الدنيا ، « اضربى فلانا وشددى الصفعة » فلم تعصه يده فى الدنيا ؛ لأن الله خلقها خاضعة لإرادته ، والظالم لنفسه بالكفر يأمر لسانه أن ينطق كلمة الكفر ، فلا يعصاه اللسان فى الدنيا ، لماذا ؟ لأن أبعاضه خاضعة لإرادته فى الحياة الدنيا ، لكن ذلك الكافر يأتى يوم القيامة وتنعزل عنه إرادته ، فتتحرر أبعاضه ، ولا تكون مرغمة على أن تفعل الأفعال التى لا ترتضيها ، وتتمرد الأبعاض على صاحبها ، وتشهد عليه . قد يقول قائل : ولكن الأبعاض هى التى تتعذب . نعم ، ولكنها تقبل العذاب تكفيرا عما فعلت .

إذن فالصحبة تبدأ من الأبعاض للنار « أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » فإن رأينا كفارا يعملون خيرا فى الدنيا فليحذر كل منا نفسه قائلا : إياك يا نفس أن

تنخدعى بذلك الخير . لماذا ؟ لأن الكافر يعيش كفر القمة ، وكل عمل مع كفر القمة هو عمل حابط عندالله ، وإن كان غير حابط عند الناس . وبعد ذلك يقول الحق عن هؤلاء الكافرين :

﴿ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾

إن الحق يصف ما ينفقه هؤلاء الكافرون فى أثناء الحياة الدنيا وهم بعيدون عن منهج الله إنه ـ سبحانه ـ يشبهه بريح فيها صر ، أى شدة ، فمادة « الصاد والراء » تدل على الشدة والضجة والصخب ، ومثال ذلك ما قاله الحق عن امرأة إبراهيم :

﴿ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ ﴾

(سورة الذاريات)

إنها أتت وجاءت بضجيج ؛ لأنها عجوز وعقيم ويستحيل عادة أن تلد . ومثل قوله الحق :

﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ ﴾

(سورة الحاقة)

والريح الصرصر هى التى تحمل الصقيع ولها صوت مسموع .

وقوله الحق : « كمثل ريح فيها صر » أى أن الريح جعلت البرد شائعا وشديدا ، فالبرد قد يكون فى منطقة لا ريح فيها ، ويظل باقيا فى منطقته تلك ، وعندما تأتى

الريح فإنها تنقل هذا البرد من مكان إلى مكان آخر ، فتتسع دائرة الضرر به . وماذا تفعل الريح التى فيها شِدة برد ؟ إنها تفعل الكوارث ، ويقول عنها الحق : « أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته » وساعة نسمع كلمة « حرث » فنحن نعرف أنه الزرع ، وقد سماه الله حرثًا ، ليعرف الإنسان إنه إن لم يحرث فلن يحصد ، يقول الحق :

﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾

(سورة الواقعة)

كأن الريح العارمة تفسد الحرث ، وهو العملية اللازمة للإنبات ؛ فالحرث إثارة للأرض ، أى جعل الأرض هشة لتنمو فيها الجذور البسيطة ، وتقوى على اختراقها ، وأخذ الغذاء منها ، وهذه الجذور تستطيع ـ أيضا ـ من خلال هشاشة الأرض المحروثة أن تأخذ الهواء اللازم للإنبات .

إن الحق سبحانه يريد أن يضرب لنا المثل وهو عن جماعة غير مؤمنين أنفقوا أموالهم فى الخير ، لكن ذلك لا ينفعهم ولا جدوى منه . مصداقا لقوله تعالى : « كمثل ريح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون » وهكذا يكون مصير الإنفاق على نية غير مؤمنة ، كهيئة الحرث الذى هبت عليه ريح فيها صوت شديد مصحوب ببرد ، فالـ « صر » فيه الشدة والبرودة والعنف ، وحاتم الطائى كريم العرب يقول لعبده :

أوقد ؛ فإن الليل ليل قر
والريح يا غلام ريح صر
عَلَّ يرى نارك من يمر
إن جلبت ضيفا فأنت حر

إن هذا الرجل الكريم يطلق سراح العبد إذا ما هدى ضيفًا إلى منزل حاتم الطائى . « والليل القر » : هو الليل الشديد البرودة . و« الريح الصر » : هى

الريح الشديدة المصحوبة بالبرد . ونعرف فى قُرآنَا أن الصقيع ينزل على بعض المزروعات ، فيتلفها . ونلاحظ هنا أن الحق سبحانه قد جاء بهذه الآية الكريمة بعد أن أوضح لنا فى الآية السابقة عليها أن الذين كفروا لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم شيئا ومصيرهم النار ، وهو سبحانه يدفع أى شبهة تطرأ على السامع ، وهى أن هذه الأموال التى أنفقها الكافرون لعمل الخير ، لن تغنى عنهم شيئا فى الآخرة ؛ لأنهم لا يملكونها . لماذا ؟

لأن العمل إنما يراد للثواب عليه ، والنية دائما هى التى تحدد الهدف من كل حركة . . فهل كان فى نية الكفار حين أنفقوا أموالهم فى الخير الذى يعلمه الناس كالمساعدات ، وتفريج الكرب ، وإنشاء المستشفيات هل كان فى بال هؤلاء الكفار رَبُّ هذه النعم ، أو كانوا يعملونها طمعا فى جاه الدنيا ، وتقدير التاريخ وذكر الإنسانية ؟

لاشك أنهم كانوا يعملونها للجاه ، أو للتاريخ ، أو للإنسانية ؛ لأنهم لا يؤمنون بما وراء ذلك ، فهم لا يؤمنون بوجود إله ، ولا يؤمنون بوجود يوم آخر يُحَاسبون فيه على ما قدموا . وقلنا من قبل : إن الذى يعمل عملا فليطلب أجره ممن عمل له ، ومادامو قد عملوا للدنيا وذكرها ، وجاهها ، والفخر فيها ، فقد أعطتهم الدنيا كل شىء .

الحق سبحانه وتعالى يضرب لنا مثلا ، وهو الذى يضرب الأمثال للناس لعلهم يتذكرون . ومعنى المثل : أن يأتى إلى أمر معنوى قد يغيب عن بعض العقول فهمه ، فيشخصه ويمثله بأمر حسى يعرفه الجميع ، ونحن نعرف أن المحسات هى أصل المعنويات فى الفهم . ونعرف أن الطفل أول ما تتفتح إدراكاته يدرك الشىء المحس أولا ، ثم بعد ذلك يكوّن من المحسات المعقولات .

فالطفل ـ على سبيل المثال ـ يرى نارا فيمسكها فتحرقه، فيتكون عند الطفل اقتناع بأن النار محرقة . ويشرب الطفل عسلا ، فيجده حلوا ، فيتكون عنده اقتناع بأن العسل حلو الطعم ، ويأكل الطفل شيئا مرا كالحنظل ، فتتكون عنده قضية معلومة وهى أن هذا الشىء مر الطعم ، فكل المعلومات التى يعرفها الإنسان بوسائل

إدراكه المتعددة إنما تأتى من الأمور المحسة أولا .

والأمور المحسة ـ كما علمنا ـ وسائلها الحواس الخمس الظاهرة ، وهى : العين لترى ، والأذن لتسمع ، والأنف ليشم ، واللسان ليذوق ، والأنامل لتلمس ، وهكذا نعرف أن كل حاسة ظاهرة لها غاية فى الإدراك . والإنسان يتمتع بحواس أخرى ندرك أعمالها ، ولكنا لا ندرك أجهزتها أو آلاتها .

مثال ذلك : حاسة البعد وهى أن يعرف الإنسان هل الشىء الذى يراه قريب منه أو بعيد عنه ؟ وكذلك حاسة الثقل فيحمل الإنسان الشىء فيعرف مدى ثقله ، إنه يدرك ذلك الثقل بحاسة غير الحواس الخمس الظاهرة ، هذه الحاسة هى حاسة الثقل يكتشف بها الإنسان أن شيئا أثقل من شىء آخر ؛ ذلك أن العضلات التى تحمل الشىء تعرف قدر الجهد المبذول فى الحمل . وهناك حاسة أخرى غير ظاهرة هى حاسة « البَين » فيمسك الإنسان القماش بأنامله ليعرف هل سمك هذا القماش أكبر من سمك قماش آخر ؟ ولمعرفة سمك الشىء لابد أن يكون واقعا بين لامسين . إذن فهناك حواس كثيرة تربى المعانى عندنا ؛ فكل الإدراكات بنت الحس ، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾

(سورة النحل)

هذه هى الوسائل للإدراك ، وقد أورد سبحانه السمع والأبصار أولا لأنهما الوسيلتان الأساسيتان ، وأورد من بعد ذلك « الأفئدة » وهى المختصة بالمعانى والقلبيات وغيرها ، فإذا أراد الله أن يضرب مثلا فى أمر معنوى قد تختلف فيه العقول فهو سبحانه يأتى بأمر حسىّ تتفق فيه الحواس . ونعلم أن فى اللغة أمرا اسمه « التشبيه » ، فعندما يجهل إنسان شيئا يقول لمعلمه : شبه لى الأمر الذى أجهله بأمر أعرفه . والإنسان منا قد يسأل صاحبه : أتعرف فلانا ؟ فيقول الصاحب : لا أعرفه ، فيقول الإنسان منا لصاحبه : إن فلانا الذى لا تعرفه يساوى فلانا فى الطول ، ويساوى فلانا فى اللون . وهكذا ينتقل الإنسان من أمر

لا يعرفه إلى أمر يعرفه . والحق سبحانه يضرب لنا المثل بالأمور الحسية ، لنفهم الأمور المعنوية ، والله يوضح لنا أن الذين كفروا ساعة تكون لهم آلهة متعددة فملكاتهم تصاب بالاضطراب يقول ـ سبحانه ـ :

﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾

(سورة الزمر)

إنه سبحانه يوضح لنا بالمثل الواضح مصير وحال رجل مملوك لعدد من الشركاء ، والشركاء الذين يملكون هذا العبد ليسوا متفقين ، بل بينهم نزاع وشقاق ، وبطبيعة الحال لابد أن يكون هذا العبد مرهقا ، وهكذا تكون قضية الشرك بالله ، إن العبد فى مثل هذه الحالةيكون مُشتّتاً وموزع النفس بين الذين يملكونه وهم متشاكسون ، أما قضية التوحيد فالحق يشبهها بالقول : « ورجلا سلما لرجل » .

وهكذا ينقلنا الحق سبحانه ـ رحمة بنا ـ من المعنى العقدى العالى إلى معنى محس من الجميع ، لنرى أن الرجل المملوك لسيد واحد يتلقى أوامره من واحد فقط ، وكذلك يريد الله فى هذه الآية أن يضرب مثلا لمن ينفق شيئا على غير نية إرضاء الله فى طاعته ، فمهما أنفق هذا الإنسان فإن إنفاقه حابط . ونحن عندما نقرأ أمثال القرآن الكريم علينا ألا نأخذ جزئية فقط ، لا ، لكن يجب أن نأخذ الجملة كلها لنفهم المثل كله كصورة مؤتلفة مثلما ضرب الله لنا مثلا بالشركاء المتشاكسين الذين يملكون رجلا ، فعلينا إذن ألّا نأخذ المثل بحرفيته ، ولكن نأخذ الأمر بمجموع المثل . مثال آخر ، يقول الحق سبحانه :

﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ﴾

(سورة الكهف)

فهل الحياة الدنيا كالماء ؟ لا ، ولكن قصة الحياة كلها ، تشبه القصة التى يضربها الحق كمثل ، الماء حين ينزل يختلط بالأرض ، وبعد ذلك تهتز ، فتعطى نباتا ، والنبات ينتج الزهر الجميل ، وبعد ذلك ينتهى إلى هشيم ، هكذا هى الدنيا فى

زخرفتها ؛ فالبداية مزهرة ، فيها نضارة وخضرة وبهجة ، ونهاية مؤلمة ومدمرة .

إذن فالحق سبحانه ينقل لنا معنى الحياة الدنيا ويشبهها بالأزهار والنبات ونهايته أن يصبح هشيما تذروه الرياح ، وهو ما يقوله فى موضع آخر من القرآن الكريم .

﴿ فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة يونس)

وعندما نمعن النظر فى قوله الحق :

﴿ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

نجد فى هذه الآية « مشبها » و« مشبها به » ، المُشَبَّه هم القوم الذين ينفقون أموالهم بغير نية الله ، أى كافرون بالله ، والمُشَبَّه به : هو الزرع الذى أصابته الريح وفيها الصر ، والنتيجة أنه لا جدوى هنا ، ولا هناك .

ولماذا تصيب الريح حرث قوم ظلموا أنفسهم ، وهل لا تصيب الريح حرث قوم لم يظلموا أنفسهم ؟

إن الذين ظلموا أنفسهم تنزل بهم هذه الكارثة كعقوبة ، مثلهم فى ذلك مثل أصحاب الجنة الذين يقول فيهم الحق سبحانه :

﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ ﴾

(سورة القلم)

لقد جزاهم الله بظلمهم ، ولكن ألا نرى رجلا لم يظلم نفسه وتصيب زراعته كارثة ؟ إننا نرى ذلك فى الحياة ، والرجل الذى لم يظلم نفسه وتصيب زراعته كارثة ، ويصبر على كارثته ، يأخذ الجزاء والثواب من الله ، ولعل الله قد أهلك بها مالا كانت الغفلة قد أدخلته فى ماله من طريق غير مشروع .

هكذا تكون الكارثة بالنسبة للمؤمن لها ثواب وجزاء ، أو تكون تطهيرا للمال . أما الذى ينفق على غير نية الله وهو كافر ، فلا ثواب له .

ويذيل الحق الآية بقوله « وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون » فهو سبحانه لم يظلم الكافرين حين جعل نفقتهم بدون جدوى ولا حصيلة لها عنده ، ولكنهم هم الذين ظلموا أنفسهم ، لأنهم أنفقوا النفقة على غير هيئة القبول ، وهم الذين صنعوا ذلك عندما ظلموا أنفسهم بالكفر فَحبطت أعمالهم ، وتلك هى عدالة الحق سبحانه وتعالى :

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾

راجع أصله وخرّج أحاديثه الدكتور أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .

حين يخاطب الله المؤمنين ويناديهم بقوله : « ياأيها الذين آمنوا » فلتعلم أن ما يجىء بعد ذلك هو تكليف من الحق سبحانه . فساعة ينادى الحق المؤمنين به ، فإنه ينادى ليكلف ، وهو سبحانه لا يكلف إلا من آمن به ، أما حين يدعو غير المؤمن به إلى رحاب الإيمان ، فإنه يثير فيه القدرة على التفكير ، فيقول له :

فكّر فى السماء ، فكّر فى الأرض ، فكّر فى مظاهر الكون ، حتى تؤمن أن للكون إلها واحدا . فإذا آمن الإنسان بالإله الواحد ، فإن الحق سبحانه وتعالى يقول له مادمت قد آمنت بالإله الواحد ، فَتَلَقَّ عن الإله الحُكم .

إن الحق حين يقول : « ياأيها الذين آمنوا » فهو سبحانه يخاطب بالتكليف المؤمنين به ، وهو لا يكلف بـ « افعل » و« لا تفعل » إلا من آمن ، أما من لم يؤمن فيناديه الله ليدخل فى حظيرة الإيمان : « ياأيها الناس اعبدوا ربكم » فإذا ما دخل الإنسان فى حظيرة الإيمان فالحق سبحانه وتعالى يكرم هذا المؤمن بالتكليف بـ « افعل » و« لا تفعل » ومادام العبد قد آمن بالإله القادر الحكيم الخالق ، القيوم ، فليسمع من الإله ما يصلح حياته . ويجىء فى بعض الأحيان ما ظاهره أن الله ينادى مؤمنا به ، ثم يأمره بالإيمان كقول الحق : « ياأيها الذين آمنوا آمنوا » .

ويتساءل الإنسان كيف ينادى الله مؤمنا به ، ثم يأمره بالإيمان ؟ وهنا نرى أن المطلوب من كل مؤمن أن يؤدى أفعال الإيمان دائما ويضيف لها ليستمر ركب الإيمان قويا ، فالحق حين يطلب من المؤمن أمرًا موجودا فيه ؛ فلنعلم أن الله يريد من المؤمن الاستدامة على هذا اللون من السلوك الذى يحبه الله ، وكأن الحق حين يقول : « ياأيها الذين آمنوا آمنوا » إنما يحمل هذا القول الكريم أمرًا بالاستدامة على الإيمان ، لأن البشر من الأغيار . ونحن نعرف أن الله أفسح بالاختيار مجالا لقوم آمنوا فارتدوا ، فليس الأمر مجرد إعلان الإيمان ثم تنتهى المسألة ، لا ، إن المطلوب هو استدامة الإيمان .

وحين نقرأ قول الحق : « ياأيها الذين آمنوا » فلنفهم أن هناك تكليفا جديدا ، ومادام فى الأمر تكليف فعنصر الاختيار موجود ، إذن فحيثية كل حكم تكليفى من الله له مقدمة هى : « ياأيها الذين آمنوا » ولا تبحث أيها المؤمن فى علة الحكم ،

وتسأل: لماذا كلفتنى يارب بهذا الأمر ؟ فليس من حقك أيها المؤمن أن تسأل : « لماذا » مادمت قد آمنت ؛ فالحق سبحانه لم يكلف إلا من آمن به ، فإذا كنت ـ أيها المؤمن ـ قد آمنت بأنه إله صادق قادر حكيم فأمن الله على نفسك ، ونفذ مطلوب الله بـ « افعل » و« لا تفعل » سواء فهمت العلة أم لم تفهمها . وسبق أن ضربنا المثل ومازلنا نكرره .

إن المريض الذى يشكو من سوء الهضم بعد تناول الطعام يفكر أن جهازه الهضمى مصاب بعلة ، ويفكر فى اختيار الطبيب المعالج ويختار طبيبا متخصصا فى الجهاز الهضمى ، ويذهب إلى هذا الطبيب . وهنا ينتهى عمل العقل بالنسبة للمريض ؛ فقد اختار طبيبا وقرر الذهاب إليه ، والطبيب يجرى الفحص الدقيق ، ويطلب التحاليل اللازمة إن احتاج الأمر ، ويشخص الداء ، ثم يكتب الدواء ، وحين يكتب الطبيب الدواء للمريض ، فإن المريض لا يصح أن يقول للطبيب : لن آخذ هذا الدواء إلا إذا أقنعتنى بحكمته . بل عليه أن ينفذ كلام الطبيب ، وهكذا يطيع المريض الطبيب ، وكلاهما مساوٍ للآخر فى البشرية ، فكيف يكون أدب الإنسان مع خالقه ؟ إن كل عمل العقل عند المؤمن هو أن يؤمن بالله ، وبعد أن آمنت ـ أيها المؤمن ـ بالله حكيما ، فَتَلَقَّ عن الله الحكم ؛ لأنه مأمون على أن يوجهك لأنك أنت صنعته .

إن الحق يأمر المؤمن بالصلاة ، وعلى المؤمن أن يؤديها ، ولا يبحث عن علة الصلاة كأنها رياضة مثلا ، لا ، إن الأمر صادر من الحق بالصلاة ، وحين تصلى ، فإنك تلتفت إلى أن نفسك قد انشرحت بالصلاة وشعرت بالراحة ، فتقول لنفسك : ما أحلى راحة الإيمان ؛ هذه هى علة الحكم الإيمانى . إن علة الحكم الإيمانى يعرفها المؤمن بعد أن ينفذه ، ولذلك نجد الحق من فضل كرمه ، يقولنا لنا :

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾

(من الآية ٢٨٢ سورة البقرة)

فأنت ساعة أن تتقى الله فى الحكم ، يعطيك العلة ، ويعطيك راحة الإيمان ، إنك أيها العبد لا تسأل أولا عن الاقتناع بالعلة حتى تنفذ حكما لله ، لأن الحق

سبحانه قد يؤجل بعض حيثيات الأحكام لخلقه قرونا طويلة ، ومثال ذلك أننا ظللنا لا نعرف علة حكم من الأحكام لمدة أربعة عشر قرنا من الزمان مثل تحريم أكل لحم الخنزير ، فهل كان على العباد المؤمنين أن يؤجلوا أكل لحم الخنزير أربعة عشر قرنا إلى أن يمتلكوا معامل للتحليل حتى نعرف المضار التى فيه ؟ تلك المضار التى ثبتت معمليا . . لا .

إن العباد المؤمنين لم يؤجلوا تنفيذ الحكم ، ولكنهم نفذوه ، واكتشف أحفاد الأحفاد أن فيه ضررًا ، وهذا يدفعنا إلى تنفيذ كل حكم لا نعرف له علة ، إن هذا الحكم له حكمة عند الله قد لا يستطيع عقل الإنسان أن يفهمها ، ولكن ستأتى أشياء توضح بعض الأحكام فيما لم يكن يعرفه الإنسان ، وتعطينا تلك الإيضاحات الثقة فى كل حكم لا تعرف له علة ، وتصبح علة كل حكم هى : « ياأيها الذين آمنوا » .

إن الحق بهذا القول ينادى كل عبد من عباده : يا من آمنت بى إلها خذ منى هذا التكليف . ومثال ذلك ـ ولله المثل الأعلى ـ عندما يقول الطبيب : يا من صدقت أنى طبيب لمرضك خذ هذا الدواء وستشفى بإذن الله .

وعندما يزور الإنسان مريضا ويسأله : لماذا تأخذ هذا الدواء ؟ فالمريض يجيب : لقد كتب الطبيب لى هذا الدواء ، فما بالنا بتنفيذ أحكام الله ؟ إنه يجب أن ننفذها لأن الله قالها ، ولذلك فالعاقلون بعمق وجدية يختلفون عن مُدعى العقل بسطحية ، هؤلاء العاقلون الجادون يقولون : إن هذا العقل مطية يوصلك إلى باب السلطان ولكن لا يدخل معك عليه . فكأن العقل يوصلك إلى أن تؤمن بالله ، ولكنه لا يحشر نفسه فيما ليس له قدرة عليه .

إن الحق سبحانه فى هذا التكليف القادم : « ياأيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم » أى إنكم مادمتم قد آمنتم ، فعليكم الحفاظ على هذا الإيمان بأن تبعدوا عنه نزغ الشيطان وكيد الأعداء . إن نزغ الشيطان وكيد الأعداء إنما يأتى من البطانة التى تتداخل مع الإنسان .

ولنفهم كلمة « بطانة » جيدا ، إن بطانة الرجل هم خاصته ، أى الناس الذين

يصاحبهم ويجلسون معه ويعرفون أسراره ، وكلمة « بطانة » مأخوذة أيضا من بطانة الثوب ؛ فنحن عندما نمسك أى قطعة من ثياب نرى أن الثوب خشن ، ولذلك فالصانع يضع للثوب الخشن بطانة ناعمة ويختارها كذلك ؛ لأنها متصلة بالجسم ، والبطانة من الأصدقاء تدخل على الناس بالنعومة وتسميلهم وتستعبدهم . ولذلك نجد النبى صلى الله عليه وسلم يقول : « الأنصار شعار ، والناس دثار »[١] .

« والشعار » هو الثوب الذى يلامس شعر الجسد ، والنبى صلى الله عليه وسلم يُعلى من قيمة الذين استقبلوا الدعوة الإسلامية بمودة وحب . وهكذا نعرف أن كلمة « بطانة » مأخوذة ـ كما قلنا ـ من بطانة الثوب ، لأنها التى تلتحم بالجسم حتى تحميه ؛ فنحن نرتدى الصوف ليعطينا الدفء ، ونضع بينه وبين الجسم بطانة لنبعد عن الجسم خشونة الصوف ، ويسمون البطانة بالوليجة ، أى التى تدخل فى حياة الناس ، وكل شر فى الوجود من هذه البطانة .

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو معصوم ومُوحًى إليه وله من الصحابة ما يطمح أى عبد مؤمن أن يتخذه قدوة له ، هذا الرسول الكريم نجد بعضا من وصفه فى حوار بين سيدنا الحسين رضوان الله عليه و أبيه سيدنا على كرم الله وجهه قال الحسين :

يأبى قل لى عن مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال على كرم الله وجهه :

كان رسول الله لا يجلس ولا يقوم إلا على ذكر . وفى الحديث : « كان رسول الله يكثر الذكر »[٢] .

لماذا ؟ لأن الجلوس والقيام هو إبطال حركة بحركة ، فمن كان قائما فقعد فقد أدى حركة هى القعود ، ومن كان جالسا فقام ، فقد أدى حركة هى القيام . وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يذكر الله فى كل حركة ، شاكرا نعمة الخالق عز وجل ، والإنسان منا يستطيع أن يسأل نفسه : كم عضلة يحركها الإنسان حتى يقعد أو يقوم ؟

---

(١) رواه البخارى فى المغازى ، ورواه مسلم فى الزكاة ، ورواه ابن ماجه فى المقدمة ، ورواه أحمد فى مسنده .

(٢) رواه النسائى فى الجمعة .

إنها أعداد كبيرة من العضلات تتحرك لتوازن ارتفاع الجسم أو جلوسه ، وهى أعداد لا يعرفها الإنسان . فما الذى جعل هذه الأجهزة الصماء تفهم مراد الإنسان ، وبمجرد أن يحاول الإنسان القيام ، فإنه يقوم ، وبمجرد أن يحاول الإنسان القعود ، فإنه يقعد ؟ إنك إذا رفعت يدك لا تعرف ما هى العضلات التى تتحرك لترفع اليد ، وتلك إدارة عالية يقول عنها الشاعر :

«وفيك انطوى العالم الأكبر»

كأن العالم الكبير قد انطوى وصار فى داخلك أنت . إنك إن أردت أن تنام فإنك تنام ، وتحب أن تقوم فتقوم . ويبين لك الحق أن أوامرك لعضلاتك وتحكمك فى مملكة جسدك ، هى من تسخير الله ؛ تدرك ذلك حين تنظر حولك فتجد أنه سبحانه قد سلب أحدا غيرك القدرة على رفع الذراع . وإياك أن تظن أن الحركة قد واتتك لمجرد أن لك يدا ، لا ، إن غيرك قد تكون له يد ؛ ولكنه لا يستطيع أن يأمرها فتتحرك . وهكذا نعرف أن كل الإرادات فى النفس إنما تتحرك بتسخير الحق لها لخدمة الإنسان .

قال صلى الله عليه وسلم : « إذا استيقظ أحدكم فليقل:الحمد لله الذى ردّ علىّ روحى وعافانى فى جسدى وأذِن لى بذكره »[1] .

انه يُوجه الإنسان إلى ذكر خالقه عند كل قيام أو قعود ، ورسولنا صلى الله عليه وسلم يعلمنا أنه عند كل انفعال بكل حركة من الحركات علينا أن نذكر الذى خلقنا وخلق فينا القدرة على الحركة .

وليسأل كل منا نفسه : كم حركة يتطلبها أمر من الإنسان بأن يحك ظهره مثلا ؟ إنه عدد غير معروف من الحركات . وهكذا علينا أن نحسن الأدب مع الله بأن نذكره فى كل حركة فهو الذى خلق كل إنسان منا صالحا لكل هذه القدرات .

---

(١) رواه ابن السنى .

ونعود إلى وصف على كرم الله وجهه مجلسَ الرسول صلى الله عليه وسلم : كان لا يجلس ولا يقوم إلا عن ذكر .

ولنتنبه إلى دقة الرسول فى التعامل مع البطانة من البشر ، فهاهو ذا رسول الله صلى الله عليه وسلم كان لا يوطن الأماكن وينهى عن إيطانها . ويوطن المكان ، أى أن يخصص مكانا لفلان ليجلس فيه ، لقد كان الرسول يجلس حيث انتهى به المجلس ، وكذلك كان صحابته ، فلا أحد يجلس دائما بجانبه حتى لا يأخذ أحد من مكانته عند الرسول فرصة يتخيل معها الآخرون أنه صاحب حظوة ؛ فكلهم سواسية ونحن نرى فى عصرنا أن هناك من يتخذ لنفسه مكانا فى المسجد ، وهذا منهى عنه . فعن ابن عمرو رضى الله عنهما قال : (نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن نقرة الغراب وافتراش السبع وأن يوطّن الرجل المكان فى المسجد كما يوطن البعير »[١] .

ويضيف على كرم الله وجهه فى وصف مجلس رسول الله : وكان إذا ذهب إلى قوم جلس حيث ينتهى به المجلس ، « وكان يجلس على الأرض ويأكل على الأرض ، يعتقل الشاة ويجيب دعوة المملوك »[٢] .

أهناك أدب أكثر من هذا ؟ إنه الرسول الكريم ، يجلس حيث ينتهى به المجلس ، لقد أراد أن يضرب لنا المثل حتى تتنوع اللقاءات ؛ فاليوم قد يجلس مؤمن بجانب مؤمن من مكان بعيد ، وغدا يجلس كلاهما بجانب اثنين جاء كل منهما من مكان آخر ، وهكذا تتحقق اندماجية الإيمان بتنوع اللقاءات .

ويقول على كرم الله وجهه : وكان رسول الله يعطى كل جلسائه نصيبهم من مجلسه حتى لا يحسب جليسه أن أحدا أكرم عليه منه .

إن الرسول صلى الله عليه وسلم عندما يعطى نظرة لواحد ، فهو ينظر كذلك لكل

---

(١) رواه أحمد وأبو داود والنسائى فى الصلاة والنهى عن نقرة الغراب أى تخفيف السجود بقدر وضع الغراب منقاره ، وافتراش السبع : هو بسط الذراعين فى السجود وعدم رفعهما ، وأن يوطن المكان : أى يلازمه فلا يصلى فى غيره .

(٢) رواه الطبرانى .

واحد فى مجلسه ، وإن تكلم كلمة إلى ناحية فهو يعطى كلمة أخرى إلى الناحية المقابلة ؛ وذلك حتى يعرف كل جليس للرسول أن المؤمنين سواسية ، وأنّه صلى الله عليه وسلم رسول إلى الناس كافة ؛ وليس رسولا إلى قوم بعينهم ، وحتى يعرف كل واحد من جلسائه أنه يجلس إلى رسوله الذى بعثه الله إليه .

هكذا كان سلوك الرسول صلى الله عليه وسلم حتى يعطى القدوة للناس ، وحتى يعرف كل إنسان أن التحام الناس بعضهم ببعض ؛ قد يسبب لواحد استغلال الالتحام فى غير صالح الإيمان .

لذلك يقول الحق سبحانه : ياأيها المؤمنون تنبهوا إلى أنكم فى معسكر من غير المؤمنين يقاتلكم ويعاند إيمانكم ، وهؤلاء لا يمكن أن يتركوكم على إيمانكم ، بل لابد أن يكيدوا لكم ، وهذا الكيد يتجلى فى أنهم يدسون لكم أشياء ، وينفذون إليكم .

ونعرف جميعا أن الإسلام عندما جاء كان كثير ممن آمن له ارتباطات بمن لم يسلم ؛ فهناك القرابة ، والصداقة ، والإلف القديم والجوار ، والأخوة من الرضاعة ، لذلك يحذر الحق من هذه المسائل ، فلا يقولن مؤمن:هذا قريبى ، أو هذا صديقى ، أو هذا حليفى ، أو هذا أخى من الرضاعة ، فالإسلام يحقق لكم أخوة إيمانية تفوق كل ذلك ، ولهذا فإياكم أن تتخذوا أناسا يتداخلون معكم بالود ؛ لأن الشر يأتى من هذا المجال ، وإياكم أن تعتقدوا أن فجوة الإيمان والكفر بينكم ستذهب أو تضيق ؛ لأن الكفار لن يتورعوا أن يدخلوا عليكم من باب الكيد لكم ولدينكم بكل لون من الألوان ، وهم ـ الكفار ـ لا يقصرون فى هذا أبدا ، لذلك يأتى الأمر من الحق :

ياأيها الذين آمنوا ، احموا هذا الإيمان فلا تتداخلوا مع غير المؤمنين تداخلا يفسد عليكم أمور دينكم ؛ لأنهم لن يهدأوا ، لماذا ؟ لأن حال هذه البطانة معكم سيكون كما يلى : « لا يألونكم خبالا » أى لا يقصرون أبدا فى الكيد لكم ، والخبال:هو الفساد للهيئة المدبرة للجسم وهو العقل ، ونحن نسمى اختلال العقل « خبلا » .

إن الحق يقول :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ

قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

فالمنهى عنه ليس أن تتخذ بطانة من المؤمنين ، ولكن المنهى عنه هو أن تتخذ بطانة من غير المؤمنين ؛ لأن المؤمن له إيمان يحرسه ، أما الكافر فليس له ما يحرسه ، والبطانة من غير المؤمنين لا تقصر فى لحظة واحدة فى أنها تريد للمؤمنين الخبال والفساد ، ولا يقف الأمر عند هذا الحد ، بل إنهم يحبون العنت والمشقة للمؤمنين « ودوا ماعنتم » والحق سبحانه وتعالى لا يريد لنا العنت ، وفى هذا يقول سبحانه :

﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

(من الآية ٢٢٠ سورة البقرة)

أى أنه سبحانه لو أراد ، لكلفكم بأمور كثيرة تحمل المشقة ، لكن الحق سبحانه يَسّر لكم أيها المؤمنون ، لكن أهل الكفر لا يودون إلا الخبال للمؤمنين ، ويحبون المشقة لهم .

ومن أين تنشأ المشقة ؟ إنك حين تكون مؤمنا فأنت تقوم بما فرضه عليك الدين ، وهم يحاولون أن ينفخوا فى المؤمن بغير ما يقتضيه هذا الدين ، فتتوزع نفس المؤمن ، وبهذا النفخ تنقسم ملكات المؤمن على نفسها ، وعندما تنقسم الملكات على نفسها فإن القلق والاضطراب يسيطران على الإنسان ، فالقلق والاضطراب ينشآن عندما لا تعيش الملكات النفسية فى سلام وانسجام .

ونحن نرى ذلك فى المجتمعات التى وصلت إلى أرقى حياة اقتصادية وأمورهم المادية ميسرة كلها ، فالشيخوخة مُؤَمَّنة ، وكذلك التأمينات الصحية والاجتماعية ، ودخل الإنسان مرتفع ، لكنهم مع ذلك يعيشون فى تعب ، وترتفع بينهم نسبة الانتحار ، وينتشر بينهم الشذوذ ، والسبب وراء كل ذلك هو أن ملكاتهم النفسية غير منسجمة ، وسلام الملكات النفسية لا يتحقق إلا عندما يؤمن الإنسان ، ويطبق

تعاليم ما يؤمن به . فالرجل ـ على سبيل المثال ـ حين ينظر إلى حلاله ، أى زوجته ، ينظر إليها براحة ويشعر باطمئنان ؛ لأن ملكاته النفسية منسجمة ، أما عندما تتجه عيناه إلى امرأة ليست زوجته ، فإنه يراقب كل من حوله حتى يعرف هل هناك من يراه أو لا ؟ وهل ضبطه أحد أو لا ؟ وعندما يضبطه أحد فهو يفزع وتتخبط ملكاته .

لذلك يحذر الحق سبحانه المؤمنين : إياكم من البطانة من غير المؤمنين ، لأنهم لا يقصرون أبدا ولا يتركون جهدا من الجهود إلا وهم يحاولون فيه أن يدخلوكم فى مشقة . والمشقة إنما تنشأ من أن الكافر يحاول أن يجذب المؤمن إلى الانحراف والاضطراب النفسى وتشتت الملكات مستغلا القرابة والصداقة ، مطالبا أن يرضيه المؤمن بما يخالف الدين ، ولا يستطيع المؤمن التوفيق بين ما يطلبه الدين وما يطلبه الكافر ؛ لذلك تنقسم ملكات المؤمن ويحس بالمشقة . والكافرون لا يتركون أى فرصة تأتى بالفساد للمؤمنين إلا انتهزوها واغتنموها . « ياأيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم » .

ومادامت البغضاء قد بدت من أفواههم فكيف نتخذهم بطانة ؟ إنك حين تصنع لنفسك جماعة من غير المؤمنين ، فإنها تضم بعضا من المنافقين غير المنسجمين مع أنفسهم . والمنافق له لسان يظهر خلاف ما يبطن . وعندما يذهب المنافق إلى غير المؤمنين فإن لسان المنافق ينقل بالسخرية كلام المؤمن .

هكذا تظهر البغضاء من أفواه المنافقين المذبذبين بين ذلك ، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ، إنهم لا ينتمون إلى الإيمان ولا ينتمون إلى الكفر ، والذى يصل المؤمنين من بغضاء هؤلاء قليل ؛ لأن ما تخفى صدورهم أكبر . وحين تبدو البغضاء من أفواههم ، فإما أن يقولوها أمام منافقين ، وإما أن يقولها بعضهم لبعض ، فيتبادلوا الاستهزاء والسخرية بالمؤمن،والله أعلم بمن قيل فيه هذا الكلام ، ولذلك فعندما يتحدث الكافرون بكلام فيما بينهم فالله يكشفهم ويفضحهم لنا نحن المؤمنين .

إن الله تعالى يكشف بطلاقة علمه كل الخبايا ، وكان على الكافرين والمنافقين أن يعلموا أن هناك إلها يرقب عملية الإيمان فى المؤمن حتى ينبهه إلى أدق الأشياء ، لكنهم كأهل كفر ونفاق فى غباء ، لقد كان مجرد نزول قول الحق:« قد بدت البغضاء من

أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر » كان ذلك فرصة أمامهم ليدفعوا عن أنفسهم لو كانت صدورهم خالية من الحقد . لكنهم عرفوا أن الله قد علم ما فى صدورهم . إن الغيظ الذى فى قلوب هؤلاء الجاحدين الحاقدين قد نضح على ألسنتهم ، ولكن مَن الذى نقل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته ما فى صدور الكافرين مما هو أكثر من ذلك ؟

إنه الله ـ جلت قدرته ـ قد فضحهم بما أنزل من قوله تعالى : « وما تخفى صدورهم أكبر » إذن لم يعد لمن آمن بالله حجة ؛ لأن الله أعطاه المناعات القوية لصيانة ذلك الإيمان ، وأوضح الحق للمؤمنين أن أعداءهم لن يدخروا وسعا أبدا فى إفساد انتمائهم لهذا الدين ، فيجب أن ينتبه المؤمنون .

وإذا ما دققنا التأمل فى تذييل الآية نجد أن الحق قال : « قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون » إذن ، فالآيات المنزلة من الله تعالى توضح ذلك ، وقد قلنا من قبل:إن الآيات ، إما أن تكون آيات قرآنية ، وإما أن تكون آيات كونية ، فالقرآن له آيات ، والكون له آيات . ولنسمع قول الحق بالنسبة للقرآن :

﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾

(سورة النحل)

وفى مجال الكون يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾

(سورة فصلت)

وهكذا نعلم أن الآية هى الشىء العجيب اللافت الذى يجب أن ننتبه إليه لنأخذ منه دستورا لحياتنا . وعلى ذلك ، فالآيات القرآنية تعطى المنهج ، والآيات الكونية

تؤيد صدق الآيات المنهجية . ويجب أن تتفطنوا أيها المؤمنون إلى هذه الآيات . والذى يدل على أن المؤمنين قد عقلوا وتفطنوا ، أن الآية الأولى بينت أنهم قد نهوا عن أن يتخذوا بطانة من دونهم ـ أى من غير المؤمنين ـ وها هى ذى الآية التالية تقول :

﴿ هَٰٓأَنتُمۡ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمۡ وَلَا يُحِبُّونَكُمۡ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ عَضُّواْ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَنَامِلَ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۚ قُلۡ مُوتُواْ بِغَيۡظِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ١١٩ ﴾

ومازال الحديث والكلام عن البطانة ، وهويدل على أن البطانة لم تستطع أن تلوى المؤمنين عن الإيمان ، بل إن المؤمنين الذين ذاقوا حلاوة الإيمان حاولوا أن يغيروا من الكافرين . ولم يفلح الكافرون أن يغيروا من المؤمنين ، وكذلك لم يفلح الكافرون أيضا أن يسيطروا على أنفسهم ، ولم يكن أمام هؤلاء الكافرين إلا النفاق ، لذلك قالوا:« آمنا » . إن الآية تدلنا على أن المؤمنين قد عقلوا آيات الحق . ولماذا ـ إذن ـ جاء الحق بقوله :« تحبونهم ولا يحبونكم » ؟

لقد أحب المؤمنون الكافرين حين شرحوا لهم قضية الحق فى منهج الإسلام ، وأراد المؤمنون أن يجنبوا الكافرين متاعب الكفر فى الدنيا والآخرة ، وهذا هو الحب الحقيقى ، فهل بَادَلَهُم الكافرون الحب ؟ لا ؛ لأن هؤلاء الكافرين أرادوا أخذ المؤمنين إلى الكفر ، وهذا دليل عدم المودة . ولم يستطع الكافرون تحقيق هذا المأرب ، ولذلك قالوا : « آمنا » ومعنى قولهم : « آمنا » يدلنا على أن موقف المسلمين كان موقفا صُلبا قويا ؛ لذلك لم يجد الكافرون بدًا من نفاقهم « وإذا لقوكم قالوا آمنا » قالوا ذلك على الرغم من ظهور البغضاء فى أفواههم ، ولم يكن سلوكهم مطابقا لما يقولون . وهنا بدأ المسلمون فى تحجيم وتقليل مودتهم للكافرين ؛ ولذلك

قال أهل الكفر : لو استمر الأمر هكذا فسوف يتركنا هؤلاء المسلمون . . وحتى يتجنبوا هذا الموقف ادعوا الإيمان فى الظاهر ، وينقلب موقفهم إذا خلوا لأنفسهم ، ويصور الحق هذا الموقف فى قوله : « وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ » فما هو العض ؟

إن العضَّ لغويا ، هو التقاء الفكين على شيء ليقضماه . وما الأنامل ؟ إنها أطراف الأصابع ، والأنامل فيها شيء من الدقة ، وشيء من خفة الحركة المأخوذة من خلية النمل ، ويسمون الأنامل أيضا البنان ، وعملية عض الأنامل عندما نراها نجدها عملية انفعالية قسرية . أى أن الفكر لا يرتبها ؛ فليس هناك من يرضى أن يظل مرتكبا لعملية عض أصابعه ، فعض الأصبع يسبب الألم ، لكن الامتلاء بالغيظ يدفع الإنسان إلى عض الأصابع كمسألة قسرية نتيجة اضطراب وخلل فى الانفعال .

ومن أين يجيء الغيظ ؟.

لقد جاء الغيظ إلى الكافرين لأنهم لم يستطيعوا أن يزحزحوا المؤمنين قيد شعرة عن منهج الله ، بل حدث ما هو العكس ، لقد حاول المؤمنون أن يجذبوا الكافرين إلى نور الإيمان ، وكان الكافرون يريدون أن يصنعوا من أنفسهم بطانة يدخلون منها إلى المؤمنين لينشروا مفاسدهم ؛ ولذلك وقعوا فى الغيظ عندما لم يمكنهم المؤمنون من شيء من مرادهم .

إن الإنسان يقع أحيانا فريسة للغيظ حين لا يتمكن من إعلان غضبه على خصمه ؛ ولهذا إذا أراد إنسان من أهل الإيمان أن يواجه حسد واحد من خصومه فعليه أن يزيد فى فضله على هذا الإنسان ، وهنا يزداد هذا الخصم غيظا ومرارة ، أيضا نجد أن من تعاليم الإسلام أن الإنسان المؤمن لا يقابل السيئة التى يصنعها فيه آخر بسيئة ، وذلك حتى لا يرتكب الذنب نفسه ، ولكن يَتبع القول المأثور :

« إننا لا نكافىء من عصى الله فينا بأكثر من أن نطيع الله فيه »[1]

---

(١) هذا القول مسند إلى عبدالله بن مسعود رضى الله عنه عندما جاء رجل فقال له : إن لى جارا يؤذينى ويشتمنى ويضيق على فقال : « اذهب فإن هو عصى الله فيك فأطع الله فيه » من كتاب « إحياء علوم الدين » للإمام الغزالى ـ فصل حقوق الجوار .

إنهم بإحسان المسلمين إليهم يزدادون خصومة ، وغيظا وحقدا على الإسلام وكان المسلمون الأوائل يتصرفون بذلك الأسلوب لقد كانوا جبالا إيمانية راسخة .

فخصوم الإسلام يعصون الله بسوء معاملتهم للمسلمين ، لكنْ المسلمون يردون على سوء المعاملة بحسن المعاملة ، وساعة يرى خصوم الإسلام أن كيدهم لا يحقق هدفه فإنهم يقعون فى بئر وحمأة الغيظ . وعندما يخلو الكافرون لأنفسهم فأول أعمالهم هو عض الأصابع من الغيظ ، وهو كما أوضحت نتيجة الانفعال القسرى التابع للغضب والعجز عن تحقيق المأرب ؛ ذلك أن كل تأثير إدراكى فى النفس البشرية إنما يطرق مجالا وجدانيا فيها .

والمجال الوجدانى لابد أن يعبر عن نفسه بعملية نزوعية تظهر بالحركة ؛ فالإنسان عندما يسبب لواحد يعرفه لونا من الغضب فهو ينفعل بسرعة ويثور بالكلمات ، هذا دليل على طيبة الإنسان الغاضب . أمَّا الذى لا يظهر انفعاله فيجب الحذر منه ؛ لأنه يخزن انفعالاته ، ويسيطر عليها ، فلا تعرف متى تظهر ولا على أية صورة تبدو ؛ ولذلك يقول الأثر : « اتقوا غيظ الحليم » فعندما تتجمع انفعالات جديدة فوق انفعالات قديمة متراكمة فى قلب الحليم فلا أحد يعرف متى يفيض به الكيل .

إذن فالإدراك ينشأ عنه وجدان ، فينفعل الإنسان بالنزوع الحركى . والتشريع الإسلامى لا يريد من الإنسان أن يكون حجرا أصم لا ينفعل ، لكنه يطلب من المسلم أن ينفعل انفعالا مهذبا ؛ ولذلك يضع الحق للمؤمن منهجا ، فيقول سبحانه :

﴿ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

(من الآية ١٣٤ سورة آل عمران)

إن القرآن يعترف بأن هناك من الأحداث ما يستدعى غيظ الإنسان ، والذى لا يغضب على الإطلاق إنما يسلك طريقا لا يتوافق مع طبيعة البشر السوية ، والله يريد من الإنسان أن يكون إنساناً ، له عواطفه وشعوره وانفعالاته ، ولكن الله المربى الحق يهذب انفعالات هذا الإنسان ، ولنا فى النبى صلى الله عليه وسلم القدوة

الحسنة ، فحين مات ولده إبراهيم :

قال عليه الصلاة والسلام : « إن العين تدمع والقلب يحزن ولا نقول إلا ما يرضى ربنا ، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون »[١] .

إن النبى صلى الله عليه وسلم يمزج بين العاطفة والإيمان ، فالعين تدمع ، والقلب يحزن ، والإنسان لا يكون أصمَّ أمام الأحداث ، إنما على الإنسان أن يكون منفعلا انفعالا مهذبا .

وعندما يعبرّ القرآن عن الإنسان السوىّ فهو لا يضع المؤمن فى قالب حديدى بحيث لا يستطيع أن يتغير فيقول سبحانه :

﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾

(من الآية ٥٤ سورة المائدة)

إذن فليس المؤمن مطبوعا على الذلة ، ولا مطبوعا على العزة ، لكنه ينفعل للمواقف المختلفة ، فهذا موقف يتطلب ذلة وتواضعا للمؤمنين فيكون المؤمن ذليلا ، وهناك موقف آخر يتطلب عزة على الكافرين المتكبرين فيكون المؤمن عزيزا ، والحق سبحانه يقول عن المؤمنين :

﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ﴾

(من الآية من سورة الفتح)

إن الرحمة ليست خلقا ثابتا ، ولا الشدة خلقا ثابتا ولكنَّ المؤمنين ينفعلون للأحداث ، فحين يكون المؤمن مع المؤمنين فهو رحيم ، وحين يكون فى مواجهة الكفار فهو قوى وشديد . والله سبحانه لا يريد المؤمن على قالب واحد متجمد ،

(١) رواه البخارى فى الجنائز ومسلم فى الفضائل ، وابن ماجه فى الجنائز ورواه أحمد فى المسند .

لذلك يقول الحق :

﴿ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

(من الآية ١٣٤ سورة آل عمران)

وهو سبحانه القائل :

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ﴾

(من الآية ١٢٦ سورة النحل)

إذن فالحق لم يمنع المؤمن من أن يعاقب أحدا على خطأ ، وذلك لأنه خلق الخلق وعليم بهم ، ولا يمكن أن يصادم طباعهم ، وذلك حتى لا يتهدد المؤمن فى إيمانه فيما بعد ، فالمؤمن لو ترك حقوقه فإن الكفار سيصولون ويجولون فى حقوق المسلمين ؛ ولهذا فالمؤمن يتدرب على توقيع العقاب حتى على المؤمن المخطئ ، وذلك ليعرف المؤمن كيف يعاقب أى مجترىء على حق من حقوق الله . والمؤمن أيضا مطالب بأن يرتقى بعقابه ، فهو إما أن يعاقب بمثل ما عوقب به ، وإما أن يرتقى أكثر ، ويستمع لقول الحق :

﴿ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴾

(من الآية ١٢٦ سورة النحل)

لقد وضع الحق منهج الارتقاء بعد أن أعطى المؤمن الحق فى توقيع العقاب قصاصا ، وهكذا لم يقسر الله طبع الإنسان ولو أراد سبحانه ذلك لما خلق هذا الطبع إنه سبحانه يوضح لنا أن هناك انفعالا بالغيظ ، وأن المؤمن عليه أن يحاول كظم الغيظ أى لا يعبر عن الغيظ نزوعيا ، فإن أخرج المؤمن هذا الأمر من قلبه فمعناه أنه قد برىء وشُفِىَ منه وارتقى .

إذن فكظم الغيظ هو ألا يعبر المؤمن عن الغيظ نزوعيا ، فإن سبّكَ أحدٌ فأنت لا تسبّه ، وهذا الكظم يعنى كتمان الانفعال فى القلب ، فإذا ارتقى المؤمن أكثر وتجاهل حتى الانفعال بذلك ، فإنه يُخرج الغيظ من قلبه ، وهو بذلك يرتقى ارتقاء

أعلى ، ويصفه الحق بأنه دخول إلى مرتبة الإحسان ، فهو القائل : « والله يحب المحسنين » وهكذا يحسن المؤمن إلى المسبب للغيظ بكلمة طيبة .

فماذا يكون موقف الذى تسبب فى غيظك أيها المؤمن وأنت قد كظمت الغيظ فى المرحلة الأولى وعفوت فى المرحلة الثانية وإن أخرجت الانفعال من قلبك ، وصلت إلى المرحلة الثالثة وهى التى تمثل قمة الإيمان إنها الإحسان . . « والله يحب المحسنين » لابد أن يراجع المسبب للغيظ نفسه ويندم على ما فعل .

إن الإسلام لم يتجاهل المشاعر الإنسانية عندما طالب المؤمنين أن يحسنوا لمن أساء إليهم ، فالذى يمعن النظر ويدقق الفهم يعرف أن الإسلام قد أعطى المؤمن الحق فى الطبع البشرى حين قال : « وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به » ولكنه ارتقى بالمؤمن . وعندما ننظر إلى هذا الأمر كقضية اقتصادية وتحسبها بـ« منه » و« له » فسنجد أنّ المؤمن قد كسب . . ومثال ذلك ـ ولله المثل الأعلى ـ ساعة يجد الأب ابنا من أبنائه قام بظلم أخ له فإن قلب الأب يكون مع المظلوم . فهب أن إنسانا أساء لعبد من عباد الله فإن الله كربّ مربٍّ يغار له ونحن نعرف أن واحدا قال لعارف بالله :

أتحسن لمن أساء إليك ؟ فقال العارف بالله : أفلا أحسن لمن جعل الله فى جانبى ؟

ولنعد الآن إلى غيظ الكافرين من المؤمنين ، إن غيظ الكافر ناتج من أن خصمه المؤمن يحب له الإيمان وليس فى قلبه ضغينة بينما الكافر يغلى من الحقد ، وبسبب هذا الأمر يكاد يفقد صوابه ؛ لذلك يقول الحق : « وإذا خلوا عضّوا عليكم الأنامل من الغيظ » .

و« خلوا » المقصود بها . أن الكافرين إذا ما أصبحوا فى مجتمع كفرى وليس معهم مسلم أعلنوا الغيظ من المؤمنين ، ولقد فعلوا هذا الأمر ـ عض الأنامل من الغيظ ـ فى غيبة الإيمان والمؤمنين بالله ، لو كان عند هؤلاء الكافرين ذرة من تعقل لفكروا كيف فضحهم القرآن ، وهم الذين ارتكبوا هذا الفعل بعيدا عن المؤمنين ؟

ألم يكن لتفكيرهم أن يصل إلى أن هناك ربًا للمؤمنين يقول الخافىَ من الأمور لرسوله ، ويبلغها الرسول للمؤمنين .

لكنهم مع ذلك لم يفهموا هذا الفضح لهم « وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ » وهنا ينبغى أنْ نفهم أنَّ هناك أمرًا قد يغيظ ، ولكن الإنسان قد يجبن أن ينفث غيظه ، فإذا غاظك أحد فقد تذهب إليه وتنفعل عليه ، أو قد تنفعل على نفسك وذلك هو ما يسمى بـ « تحويل النزوع » . فالغاضب يمتلىء بطاقة غضبية ، ومن يغضب عليه قد يكون قويا وصاحب نفوذ ، فيخاف أن ينفعل عليه ، فينفث الغاضب طاقة غضبه على نفسه بأن يعض على أنامله ، ومادامت المسألة هكذا ، فقد قال الحق :

﴿ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾

(من الآية ١١٩ سورة آل عمران)

ومعنى ذلك أن إغاظة المؤمنين لكم أيها الكافرون ستستمر إلى أن تموتوا من الغيظ ؛ لذلك فلا طائل من محاولتكم جذب المؤمنين إلى الكفر : « قل موتوا بغيظكم » .

ونحن قد عرفنا أنه ساعة يؤمر الإنسان بشىء ليس فى اختياره ـ لأن الموت ليس فى اختيارهم ـ وأن يختار بينه وبين شىء فى اختياره كالغيظ ، فمعنى ذلك أن الأمر قد صدر إليه ليظل أسير الأمر الذى يقدر عليه وهو الغيظ حتى يدركه الموت .

وعندما يقول الحق : « موتوا بغيظكم » فهذا يعنى أن الكافرين لن يستطيعوا الموت ، ولكن سيظلون فى حالة الغيظ إلى أن يموتوا ؛ لأنهم لا يعرفون متى يموتون ، وهكذا يظلون على حالهم من الغيظ من المؤمنين ، ومادام الكافرون فى حالة غيظ من المؤمنين فهذا دليل على أن المؤمنين يطبقون منهجهم بأسلوب صحيح .

وفى هذه الآية بشارة طيبة للمؤمنين ونذارة مؤلمة للكافرين « قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور » إن الحق يعلمنا أنه عليم بذات الصدور ، أى بالأمور التى

تطرأ على الفكر ، ولم تخرج بعد إلى مجال القول . وهو سبحانه القائل :

﴿ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ﴾

(من الآية ١١٨ سورة آل عمران)

ومادام هو الحق العليم بما تخفى الصدور فهو قادر ليس فقط على الجزاء بما يفعلونه من عمل نزوعى ولكنه قادر على أن يجازيهم أيضا بأن يفضح الأعمال غير النزوعية الكامنة فى صدورهم ، وبعد ذلك يقول سبحانه :

﴿ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾ ﴾

والقرآن كلام الله وله ـ سبحانه ـ الطلاقة التامة والغنى الكامل ، والعبارات فى المعنى الواحد قد تختلف لأن كل مقام له قوله ، وسبحانه يحدد بدقة متناهية اللفظ المناسب . . إنه هو سبحانه الذى قال :

﴿ إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾

(سورة المعارج)

وهو سبحانه الذى قال :

﴿ مَآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾ ﴾

(سورة النساء)

إنه جل وعلا يتكلم عن المس فى الشر والخير ، ومرة يتكلم عما يحدث للإنسان كإصابة فى الخير أو فى الشر ، وفى الآية التى نحن بصدد الخواطر عنها تجد خلافا فى الأسلوب فسبحانه يقول : « إن تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها » إنه لم يورد الأمر كله مَسًّا ، ولم يورده كله « إصابة » إنه كلام رب حكيم وعندما نتمعن فى المعنى فإن الواحد منا يقول : هذا كلام لا يقوله إلا رب حكيم .

ولنتعرف الآن على « المس » و« الإصابة » بعض العلماء قال : إن المس والإصابة بمعنى واحد ، بدليل قوله الحق :

﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ ﴾

(سورة المعارج)

ولكننا نقول إن المس هو إيجاد صلة بين الماس والممسوس ، فإذا مس الرجل امرأته ، فنحن نأمره بالوضوء فقط ، لأنه مجرد التقاء الماس بالممسوس ، والأمر ليس أكثر من التقاء لا تحدث به الجنابة فلا حاجة للغسل ، أما الإصابة فهى التقاء وزيادة ؛ فالذى يضرب واحدا صفعة فإنه قد يورم صدغه ، فالكف يلتقى بالخد ، ويصيب الصدغ ، وهكذا نعرف أن هناك فرقا بين المس والإصابة ، وحين يقول الحق : « إن تمسسكم حسنة تسؤهم » .

فمعنى ذلك أن الحسنة الواقعة بسيطة ، وليست كبيرة إنها مجرد غنيمة أو قليل من الخير . . وفى حياتنا اليومية نجد من يمتلىء غيظا لأن خصمه قد كسب عشرة قروش ، وقد يجد من يقول له : لماذا لا تدخر غيظك إلى أن يكسب مائة جنيه مثلا ؟ ومثل هذا الغيظ من الحسنة الصغيرة هو دليل على أن أى خير يأتى للمؤمنين إنما يسبب

التعب والكدر للكافرين . فمجرد مس الخير للمؤمنين يتعب الكافرين فماذا عن أثر السيئة ؟

إن الحق يقول : « وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها » إن الكافرين يفرحون لأى سوء يصيب المؤمنين مع أنه كان مقتضى الإنسانية أن ينقلب الحاسد راحما :

وحسبك من حادث بامرىء
ترى حاسديه له راحمينا

يعنى حسبك من حادث ومصيبة تقع على إنسان أن الذى كان يحسده ينقلب راحما له ويقول : والله أنا حزنت من أجله .

إذن فلمّا تشتد إصابة المؤمنين أكانت تغير من موقف الكافرين ؟ . لا ، كان أهل الكفر يفرحون فى أهل الإيمان ، وإذا جاء خير أى خير للمؤمنين يحزنون فالحق يقول : « أن تمسسكم حسنة تسؤهم » والحسنة هى أى خير يمسهم مساً خفيفاً ، « وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا » ، فأنت مهما كادوا لك فلن يصيبوك بأذى .

إن المطلوب منك أن تصبر على عداوتهم ، وتصبر على شرّهم ، وتصبر على فرحهم فى المصائب ، وتصبر على حزنهم من النعمة تصيبك أو تمسك ، اصبر فيكون عندك مناعة ؛ وكيدهم لن ينال منك . اصبر واتق الله : لتضمن أن يكون الله فى جانبك ، « وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً » .
وما الكيد ؟ الكيد هو أن تبيت وتحتال على إيقاع الضرر بالغير بحيث يبدو أنه كيدٌ من غيرك ، أى تدبر لغيرك لتضره . وأصل الكيد مأخوذ من الكيد والكبد ، وهما بمعنى واحد ، فما يصيب الكبد يؤلم ؛ لأن الكبد هو البضع القوى فى الإنسان ، إذا أصابه شىء أعيى الإنسان وأعجزه ، ويقولون : فلان أصاب كبد الحقيقة أى توصل إلى نقطة القوة فى الموضوع الذى يحكى عنه .

وما معنى يبيتون ؟ قالوا : إن التبييت ليس دليل الشجاعة ، وساعة ترى واحداً

يبيت ويمكر فاعرف أنه جبان ؛ لأن الشجاع لا يكيد ولا يمكر ، إنما يمكر ويكيد الضعيف الذى لا يقدر على المواجهة ، فإن تصبروا على مقتضيات عداواتهم وتتقوا الله لا يضركم كيدهم شيئا ؛ لأن الله يكون معكم .

ويذيل الحق الآية بالقول الكريم : « إن الله بما يعملون محيط » . وساعة ترى كلمة « محيط » فهذا يدلك على أنه عالم بكل شىء . والإحاطة : تعنى ألا تشرد حاجة منه . وها هى ذى تجربة واقعية فى تاريخ الإسلام ؛ يقول الحق فيها مؤكدا : « وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً إن الله بما يعملون محيط » وعلى كل منا أن يذكر صدق هذه القضية .

﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ ﴾

إنه فى هذه المرة ـ فى غزوة أحد ـ جاء الكفار بثلاثة آلاف وكان المسلمون قلة ، سبعمائة مقاتل فقط ، وحتى يبين الحق صدق قضاياه فى قوله : « وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا » وليس المقصود هنا الكيد التبييتى بل عملهم العلنى ، أى واذكر صدق هذه القضية :

« وإذْ غدوت من أهلك » ، والغدوة هى : أول النهار ، والرواح : آخر النهار ، والأهل : تطلق ويراد بها الزوجة ، والمقصود هنا حجرة عائشة ؛ لأن الرسول كان فيها فى هذا الوقت الذى أراد فيه كفار قريش أن يثأروا لأنفسهم من قتلى بدر وأسراهم ، لقد جمعوا حشودهم ، فكل موتور من معركة بدر كان له فرسان وله رجال ، حتى أنهم بعد معركة بدر قال زعيمهم أبو سفيان لأصحابه : قل للنساء لا تبكين قتلاكم فإن البكاء يذهب الحزن ، فالدموع يسمونها غسيل الحزن ، أو ذوب المواجيد ، فساعة يبكى إنسان حزين يقول من حوله : دعوه يرتاح .

فلو حزنت النساء وبكين على قتلى بدر لهبطت جذوة الانتقام ؛ لذلك قال أبو سفيان : قل لهن لا يبكين . إنه يريد أن يظل الغيظ فى مسألة بدر موجوداً إلى أن يأخذوا الثأر . وفعلاً اجتمع معسكر الكفر فى ثلاثة آلاف مقاتل عند أحد ، وبعد ذلك استشار النبى صلى الله عليه وسلم فى هذه المسألة أصحابه وأرسل إلى واحد من أكبر المنافقين هو عبدالله بن أبى بن سلول ، وما استدعاه إلا فى هذه المعركة ، فقال عبدالله بن أبى بن سلول وأكثر الأنصار :

يا رسول الله نحن لم نخرج إلى عدو خارج المدينة إلا نال منا ، ولم يدخل علينا عدو إلا نلنا منه ، فإنا نرى ألا تخرج إليهم فإن أقاموا أقاموا بشر محبس ، وإن دخلوها قاتلهم الرجال فى وجوههم ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم ، وإن رجعوا رجعوا خائبين وأشار آخرون من الصحابة بالخروج إليهم ، وقالوا :

« يارسول الله اخرج بنا إلى أعدائنا لا يرون أنا جَبُنا عنهم وضعفنا ، ولم يترك أصحاب هذا الرأى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى وافقهم على ما أرادوا »

فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بيته فلبس درعه وأخذ سلاحه ، وظن الذين ألحوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخروج أنهم قد استكرهوه على ما لا يريد فندموا على ما كان منهم ، ولما خرج عليهم قالوا : استكرهناك يا رسول الله ولم يكن لنا ذلك ، فإن شئت فاقعد ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« ما ينبغى لنبى لبس لأْمَتَهُ أن يضعها حتى يقاتل »[1].

وخرجوا إلى الحرب ، وهذا هو الذى يُذَكِّرُ به القرآن صدقا للقضية التى جاءت فى الآية السابقة : « وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً إن الله بما يعملون محيط » .

---

(١) رواه ابن إسحاق والإمام أحمد ورواه الطبرانى بنحوه ، واللأمة : هى الدرع .

اذكر يا محمد :

﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ﴾

(الآية ١٢١ سورة آل عمران)

و« تبوىء المؤمنين مقاعد للقتال » أى توطن المؤمنين فى أماكن للقتال ، وبوأت فلانا يعنى : وطنته فى مكان يبوء إليه أى يرجع ، واسمه وطن ؛ لأن الوطن يرجع إليه الإنسان .

انظر إلى الدقة الأدائية لقول الحق : « وإذ غدوت من أهلك تبوىء المؤمنين مقاعد للقتال » أى تجعل لهم مباءة ووطنا . وكلمة « مقاعد » أى أماكن للثبات ، والحرب كرّ وفرّ وقيام ، والذى يحارب يثبته الله فى المعركة ، فكأنه مُوَطَّنٌ فى الميدان ، فكأن أمر الرسول إلى المقاتلين يتضمن ألا يلتفت أى منهم إلى موطن آخر غير موطنه الذى ثبّته وبوّأته فيه أى إن هذا هو وطنك الآن ؛ لأن مصيرك الإيمانى سيكون رهناً به .

إذن فقوله : « وإذْ غدوت من أهلك تبوىء » أى توطن « المؤمنين » وتقول لهم : إن وطنكم هو مقاعدكم التى ثبتكم بها . ورسول الله صلى الله عليه وسلم جاء بالرماة ؛ وأمّر عليهم « عبدالله بن جبير » وهم يومئذ خمسون رجلا وقال رسول الله لهم :

« قوموا على مصافكم هذه فاحموا ظهورنا فإن رأيتمونا قد انتصرنا فلا تشركونا ، وإن رأيتمونا نقتل فلا تنصرونا »(١) .

لكنهم لم يقدروا على هذه لأن نفوسهم مالت إلى الغنيمة ؛ وشاء الله أن يجعل التجربة فى محضر من رسوله صلى الله عليه وسلم : حتى يبين للمؤمنين فى كل المعارك التى تلى ذلك أن اتباع أمر القائد يجب أن يكون هو الأساس فى عملية الجندية . وإنكم إن خالفتم الرسول فلا بد أن تنهزموا .

---

(١) رواه ابن سعد وابن هشام والبخارى بنحوه .

وقد يقول قائل : الإسلام انهزم فى أُحد . ونقول : لا ، إن الإسلام انتصر.ولو أن المسلمين انتصروا فى « أحد » مع مخالفة الرماة لأمر النبى صلى الله عليه وسلم ، أكان يستقيم لرسول الله أمر ؟

إذن فقد انهزم المسلمون الذين لم ينفذوا الأمر ، وكان لابد أن يعيشوا التجربة وهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . فحينما هبت ريح النصر على المؤمنين فى أول المعركة ، ابتدأ المقاتلون فى الانشغال بالأسلاب والغنائم ، فقال الرماة : سيأخذ الأسلاب غيرنا ويتركوننا ونزلوا ليأخذوا الغنائم ، فانتهز خالد بن الوليد وكان على دين قومه انتهز الفرصة وطوقهم وحدث ما حدث وأذيع وفشا فى الناس خبر قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم فانكفأوا وانهزموا فجعل رسول الله يدعو ويقول : « إلىّ عباد الله » حتى انحازت إليه طائفة من أصحابه فلامهم على هربهم فقالوا : يا رسول الله : فديناك بآبائنا وأمهاتنا ، أتانا خبر قتلك فرعبت قلوبنا فولينا مدبرين

إن التحقيق التاريخى لمعركة أُحد قد أكد أن المسألة لا تُعتبر هزيمة ولا انتصاراً ؛ لأن المعركة كانت لاتزال مائعة . وبعدها دعا الرسول من كان معه فى غزوة أحد إلى الخروج فى طلب العدو ، وأدركوهم فى حمراء الأسد وفَرَّ الكافرون . إنّ الله أراد أن يعطى المؤمنين درساً فى التزام أمر الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقال الحق : « وإذ غدوت من أهلك تبوىء المؤمنين مقاعد للقتال » .

إن الحق يذكر بمسئوليات القائد ، الذى يوزع المهام ، فهذا جناح أيمن وذاك جناح أيسر ، وهذا مقدمة وهذا مؤخرة . ويذيل الحق هذا بقوله : « والله سميع عليم » حتى يعرف المؤمنون أنه سبحانه قد شهد أن رسوله قد بوأ المؤمنين مقاعد القتال ، وسبحانه « عليم » بما يكون فى النيات ؛ لأن المسألة فى الحرب دفاع عن الإيمان وليست انقياد قوالب ، ولكنها انقياد قلوب قبل انقياد القوالب .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ

وَلِيُّهُمَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾

والفشل هو الجبن ، والطائفتان هما « بنو حارثة » من الأوس ، « وبنو سلمة » من الخزرج ، وهؤلاء كانوا الجناح اليمين والجناح اليسار ، فجاءوا فى الطريق إلى المعركة ، وسمعوا كلام المنافق ابن سلول ، إذ قال لهم : لن يحدث قتال ؛ لأنه بمجرد أن يرانا مقاتلو قريش سيهربون .

وقال ابن سلول المنافق للرسول : لو نعلم قتالاً لاتبعناكم . إلا أن عبدالله ابن حارثة قال : أنشدكم الله وأنشدكم رسول الله وأنشدكم دينكم . فساروا إلى القتال وثبتوا بعد أن همّوا فى التراجع .

وما معنى « الهمّ » هنا ؟ إن الهم هو تحرك الخاطر نحو عملية ما ، وهذا الخاطر يصير فى مرحلة ثانية قصداً وعزماً ، إذن فالذى حدث منهم هو مجرد هَمّ بخاطر الانسحاب ، لكنهم ثبتوا .

ولماذا ذلك ؟ لقد أراد الله بهذا أن يُثبت أن الإسلام منطقى فى نظرته إلى الإنسان ، فالإنسان تأتيه خواطر كثيرة . لذلك يورد الحق هذه المسألة ليعطينا العلاج . فقال : « إذ همّت طائفتان منكم أن تفشلا » .

وقد قال واحد من الطائفتين : والله ما يسرنى أنى لم أهم ـ أى لقد انشرح قلبى لأنى هممت ـ لأنى ضمنت أنى من الذين قال الله فيهم : « والله وليهما » ، وحسبى ولاية الله . لقد فرح لأنه أخذ الوسام ، وهو ولاية الله .

وهكذا نلتقط العبر الموحية من الآيات الكريمات حول غزوة أُحُد ، ونحن نعلم أن هذه الغزوة كانت الغزوة التالية لغزوة بدر الكبرى . وغزوة بدر الكبرى انتهت بنصر المسلمين وهم قلة فى العدد والعُدة ، ففى بدر لم يذهب المسلمون إلى

المعركة ليشهدوا حرباً ، وإنما ليصادروا أموال قريش فى العِير تعويضاً لأموالهم التى تركوها فى مكة . ومع ذلك شاء الله ألاّ يواجهوا العِير المحملة ، ولكن ليواجهوا الفئة ذات الشوكة ، وجاء النصر لهم .

ولكن هذا النصر ، وإن يكن قد ربّى المهابة للمسلمين فى قلوب خصومهم ، فإنه قد جمّع همم أعداء الإسلام ليتجمعوا لتسديد ضربة يردون بها اعتبار الكفر ؛ ولذلك رأينا رءوس قريش وقد منعت نساءها أن يبكين على قتلاهم ؛ لأن البكاء يُريح النفس المتعبة ، وهم يُريدون أن يظل الحزن مكبوتاً ليصنع مواجيد حقدية تحرك النفس البشرية للأخذ بثأر هؤلاء ، هذا من ناحية العاطفة التى يحبون أن تظل مؤججة ، ومن ناحية المال فإنهم احتفظوا بمال العِير الذى نجا ليكون وسيلة لتدبير معركة يردون فيها اعتبارهم .

وقد حاولوا قبل أُحد أن يفعلوا شيئاً ، ولكنهم كانوا يُرَدّون على أعقابهم . فمثلاً قاد أبو سفيان حملة مكونة من مائة ، وأراد أن يهاجم بها المدينة فلما نمى خبرها إلى سيدنا رسول الله نهض بصحابته إليهم ، فبلغ أبا سفيان خروج رسول الله ، ففرّ هارباً وألقى ما عنده من مؤنة فى الطريق ليخفف الحمل على الدواب لتسرع فى الحركة ، ولذلك يسمونها « غزوة السويق » لأنهم تركوا طعامهم من السويق .
كَما حاول بعض الكفار أن يُغيروا على المدينة بعد ذلك أكثر من مرة ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يذهب إليهم على رأس مقاتلين ، فمرة عددهم مائة ومرة مائة وخمسون ومرة مائتان ، وفعلاً شتت الرسول صلى الله عليه وسلم شملهم . وكان من خطته صلى الله عليه وسلم حين يذهب إلى قوم كان يبلغه أنهم يُريدون أن يتآمروا لغزو المدينة أن يظل فى بلدهم وفى معسكرهم وقتا ليس بالقليل .

كل ذلك سبق غزوة أُحد . وبعد ذلك تجمعوا ليجيئوا لغزوة أُحد ، وكان ما كان ، والآيات التى تعالج هذه الغزوة فيها إيحاءات بما جاء فى المعركة ، فالرسول صلى الله عليه وسلم بوأ للمقاتلين مقاعد للقتال ، وأمرهم بالثبات فى تلك المواقع لكن بعضا من المقاتلين ترك مكانه ، والبعض الآخر همّ بالانسحاب ، لكنه ثبت أخيراً ، وفرّ كفار قريش . وقد تجلت فى هذه المعركة آيات الله الكبيرة .

فحين نصر الله سبحانه وتعالى المسلمين « ببدر » وهم قلة ، لم يخرجوا لمعركة وإنما خرجوا لمصادرة عير . وربما ظن أناس أنهم بمجرد نسبتهم إلى الله وإلى الإسلام سينصرون على هذه الوتيرة ، ويتركون الأسباب فأراد الله أن يعلمهم أنه لابد من استنفاد الأسباب ، إعداداً لعدة ولعدد ، وطاعة لتوجيه قائد .

فلما خالفوا كان ولابد أن يكون ما كان . والمخالفة لم تنشأ إلا بعد استهلالٍ بالنصر ، ولذلك سيجىء فيما بعد ستون آية حول هذه الغزوة ؛ لتبين لنا مناط العبرة فى كل أطوارها لنستخرج منها العظة والدرس . ونعلم أن المنتصرين عادةً يكون الجو معهم رخاءً . ولكن الكلام هنا عن هزيمة من لا يأخذون بأسباب الله ، وهذا أمر يحتاج إلى وقفة ، فجاء القرآن هنا ليقص علينا طرفاً من الغزوة لنستخرج منها العبرة والعظة ، العبرة الأولى :

أنهم حينما خرجوا ، تخلف المنافقون بقيادة ابن أبىّ ، إذن فالمعركة إنما جاءت لتمحص المؤمنين . والتمحيص يأتى فى الشىء الواحد ، أما التمييز فيأتى فى شيئين : هذا مؤمن ، وهذا كافر ، إنما التمحيص يأتى للمؤمن ويعركه عركا ، ويبين منه مقدار ما هو عليه من الثبات ومن اليقين ، والحق إنما يمحص الفئة المؤمنة لأنها ستكون مأمونة فى التاريخ كله إلى أن تقوم الساعة على حماية هذه العقيدة ، فلا يمكن أن يتولى هذا الأمر إلا أناس لهم قلوب ثابتة ، وجأش قوى عند الشدائد ، وهمة دونها زخارف الدنيا كلها .

وبعد ذلك يعالج النفس البشرية فى أوضاعها البشرية ، فعقائد الإيمان لا تنصب فى قلوب المسلمين بمجرد إعلان الإيمان ، ولكن كل مناسبة تعطى دفعة من العقيدة يتكون بعد ذلك الأمر العقدى كله . ولذلك يبين لنا الحق أن طائفتين من المؤمنين قد همت بالتراجع ، فهم نفوس بشرية ، ولكن أنفذت الطائفتان ذلك الهم أم رجعت وفاءت إلى أمر الله ؟ لقد رجعت الطائفتان . وهكذا رأينا بين الذين أعلنوا إيمانهم فئة نكصت من أول الأمر ، وفئة خرجت ثم عادت .

لقد تحدثت النفوس ولكن أفراد تلك الفئة لم يقفوا عند حديث النفس بل ثبتوا إلى نهاية الأمر ، ومنهم من ثبت إلى الغاية السطحية من الأمر كالرماة الذين رأوا النصر أولا ، وهؤلاء من الذين ثبتوا ، ما فرّوا أولاً مع ابن أبىّ ، وما كانوا من الطائفة التى

همت ، ولكنهم كانوا من الذين ثبتوا . لكنهم عند بريق النصر الأول اشتاقوا للغنائم ، وخالفوا أمر الرسول ، ولنقرأ قوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

وبعد ذلك تأتى لقطة أخرى وهى ألا نفتن فى أحد من البشر ، فخالد بن الوليد بطل معسكر الكفر فى أُحد ، وهو الذى استغل فرصة نزول الرماة عن أماكنهم ، وبعد ذلك طوق جيش المؤمنين ، وكان ما كان ، من خالد قبل أن يسلم ، ألم يكن فى غزوة الخندق ؟ لقد كان فى غزوة الخندق . وكان فى غزوات كثيرة غيرها مع جند الشرك ، فأين كانت عبقريته فى هذه الغزوات ؟ . .

إن عبقرية البشر تتصارع مع عبقرية البشر ، ولكن لا توجد عبقرية بشرية تستطيع أن تصادر ترتيباً ربانياً ، ولذلك لم يظهر دور خالد فى معركة الخندق ، لقد ظهر دوره فى معركة أُحد ؛ لأن المقابلين لخالد خالفوا أمر القيادة فبقيت عبقرية بشر لعبقرية بشر ، ولكنهم لو ظلوا فى حضن المنهج الإلهى فى التوجيه لما استطاعت عبقرية خالد أن تطفو على تدبيرات ربه أبداً .

والتحقيق التاريخى لكل العسكريين الذين درسوا معركة أُحد قالوا : لا هزيمة للمسلمين ولا انتصار للكفار ؛ لأن النصر يقتضى أن يُجلى فريق فريقاً عن أرض المعركة ، ويظل الفريق الغالب فى أرض المعركة . فهل قريش ظلت فى أرض المعركة أو فرّت ؟ لقد فرّت قريش .

ويُفسر النصر أيضاً بأن يؤسر عدد من الطائفة المقابلة ، فهل أسرت قريش واحداً من المسلمين ؟ لا . ولقد علموا أن المدينة خالية من المؤمنين جميعاً وليس فيها إلا من تخلف من المنافقين والضعاف من النساء والأطفال ، ولم يؤهلهم فوزهم السطحى لأن

يدخلوا المدينة .

إذن فلا أسروا ، ولا أخذوا غنيمة ، ولا دخلوا المدينة ، ولا ظلوا فى أرض المعركة ، فكيف تسمى هذا نصراً ؟ فلنقل:إن المعركة ماعت . وظل المسلمون فى أرض المعركة .

وهنا تتجلّى البطولة الحقة ؛ لأننا كما قلنا فى حالة النصر يكون الأمر رخاء ، حتى من لم يُبْلِ فى المعركة بلاءً حسناً ينتهز فرصة النصر ويصول ويجول ، ولكن المهزومين والذين أصيب قائدهم صلى الله عليه وسلم ، وضعف أن يصعد الجبل ، حتى أن طلحة بن عبيد الله يطأطىء ظهره لرسول الله ليمتطيه فيصعد على الصخرة . ورسول الله يسيل منه الدم بعد أن كسرت رباعيته وتأتى حلقتان من حلق المغفر فى وجنته ، بعد هذا ماذا يكون الأمر ؟ حتى لقد أرجف المرجفون وقالوا : إن رسول الله قد قُتل .

وكل هذا هو من التمحيص ، فمن يثبت مع هذا ، فهو الذى يؤتمن أن يحمل السلاح لنصرة كلمة الله إلى أن تقوم الساعة . ويتفقد رسول الله صلى الله عليه وسلم بطلاً من أبطال المسلمين كان حوله فلا يجده ، إنه « سعد بن الربيع » .

يقول عليه الصلاة والسلام : « مَن رجل ينظر لى ما فعل سعد بن الربيع ؟ أفى الأحياء هو أم فى الأموات ؟ فقال رجل من الأنصار هو أُبَيُّ بن كعب : فذهبت لأتحسسه ، فرأيته وقد طُعن سبعين طعنة ما بين ضربة سيف وطعنة رمح ورمية قوس . فلما رآه قال له : رسول الله يقرئك السلام ، ويقول لك : كيف تجدك ـ أى كيف حالك ـ ؟

قال سعد ابن الربيع : قل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : جزاك الله عنَّا خير ما جزى نبيا عن أمته ، وقل للأنصار ليس لكم عند الله عُذر إن خَلص إلى رسول الله وفيكم عين تطرف . ثم فاضت روحه .

انظروا آخر ما كان منه ، حين أُثخن فى المعركة فلم يقو على أن يحارب

بنصاله[١] ، انتهز بقية الحياة ليحارب بمقاله ، ولتصير كلماته دوياً فى آذان المسلمين . وليعلم أن هؤلاء الذين أثخنوه جراحاً ما صنعوا فيه إلا أن قربوه إلى لقاء ربه ، وأنه ذاهب إلى الجنة . وتلك هى الغاية التى يرجوها كل مؤمن .

ونجد أيضاً أن الذين يعذرهمْ القرآن فى أن يشهدوا معارك الحرب ، يتطوعون للمعارك ! فمثلا عمرو بن الجموح ؛ كان أعرج ، والعرج عذر أقامه الله مع المرض والعمى ؛ لأنه سبحانه هو القائل :

﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾

(من الآية ٦١ سورة النور)

وكان لعمرو بن الجموح بنون أربعة مثل الأسْد قد ذهبوا إلى المعركة ، ومع ذلك يطلب من رسول الله أن يذهب إلى المعركة ويقول له : يا رسول الله إن بَنىّ يريدون أن يحبسونى عن هذا الوجه والخروج معك فيه ، فوالله إنى لأرجو أن أطأ بعرجتى هذه فى الجنة .

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : أمّا أنت فقد عذرك الله فلا جهاد عليك . وقال لبنيه : ما عليكم ألّا تمنعوه ، لعل الله أن يرزقه الشهادة ، فخرج معه فقتل .

وهذا مؤمن آخر يقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله إن ابنى الذى استشهد ببدر رأيته فى الرؤيا يقول لى : « يا أبت أقبلٍ علينا » فأرجو أن تأذن لى بالقتال فى « أحُد » فأذن له فقاتل فقُتل فصار شهيداً .

وتتجلّى الروعة الإيمانية والنسب الإسلامى فى حذيفة بن اليمان ، لقد كان أبوه شيخاً كبيرا مسلما فأخذ سيفه ولحق برسول الله صلى الله عليه وسلم لعل الله يرزقه الشهادة فى سبيل الله ، فدخل فى المعركة ولا يعلم به أحد فقتله المسلمون

---

(١) النِّصال : جمع نصل وهو حديدة السيف والسهم والرمح والسكين .

ولا يعرفونه ، فقال ابنه حذيفة : أبى والله . فقالوا والله ما عرفناه ، وصدقوا ، قال حذيفة : يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين . وأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يؤدى ديته ، فقال له حذيفة بن اليمان : وأنا تصدقت بها على المسلمين .

هذه الأحداث التى دارت فى المعركة تدلنا على أن غزوة أُحد كان لابد أن تكون هكذا ، لتمحص المؤمنين تمحيصاً يؤهلهم لأن يحملوا كلمة الله ويعلوها فى الأرض . ويقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾

لقد نقلهم من معركة فيها شبه هزيمة أو عدم انتصار إلى نصر ، فكأنه يريد أن يقول : إن الأمر بالنسبة لكم أمر إلهكم الذى يرقبكم ويعينكم ويمدكم ويرعاكم . وإياكم أن تعتمدوا على العدد والعُدة ولكن اعتمدوا على الحق سبحانه وتعالى وعلى ما يريده الحق توجيها لكم ، لأن مدد الله إنما يأتى لمُستَقْبل لمدد الله ، ولا يأتى المدد لغير مستقبل لمدد الله .

ونعرف أن فيه فرقاً بين الفاعل وبين القابل ، فالفاعل شىء والقابل للانفعال بالفعل شىء آخر . وضربنا لذلك مثلاً : بأن الفاعل قد يكون واحداً ، ولكن الانفعال يختلف ، وحتى نقرب المسألة نقول : كوب الشاى تأتى لتشرب منه فتجده ساخناً فتنفخ فيه ليبرد ، وفى الشتاء تصبح لتجد يدك باردة فتنفخ فيها لتدفأ ، إنك تنفخ مرة لتبرد كوب الشاى ، ومرة تنفخ لتدفىء يدك ، إذن فالفاعل واحد وهو النافخ ، ولكن القابل للانفعال شىء آخر ، ففيه فاعل وفيه قابل ، ومثال آخر : إن القرآن كلام الله ولو أنه نزل على الجبال لخرّت خاشعة ، ومع ذلك يسمعه أناس ،

لا يستر الله عليهم بل يكشفهم لنا ويفضحهم بعظمة ألوهيته :

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة محمد)

إنهم لم ينفعلوا بالقرآن ، وقولهم : « ماذا قال آنفاً » معناه استهتار بما قيل . ونجد الحق يرد على ذلك بقوله تعالى :

﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴾

(سورة محمد)

إن الفاعل واحد والقابل مختلف . ويتابع الحق بلاغه الحكيم فى قوله :

﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾

)

إذن فمدد الله لكم إنما يتأتى لمستقبلٍ إيمانى ، فإن لم يوجد المستقبل ـ بكسر الباء ـ فلا يوجد المدد . فإذا كنت لا تستطيع أن تستقبل ما ترسله السماء من مدد نقول لك : أصلح جهاز استقبالك ؛ لأن جهاز الاستقبال كالمذياع الفاسد ، إن الإرسال من الإذاعات مستمر ، لكن المذياع الفاسد هو الذى لا يستقبل . إذن فإن كنت تريد أن تستقبل عن الله فلابد أن يكون جهاز استقبالك سليما . ويوضح الحق ذلك بقوله جل جلاله :

﴿ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ

رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾

ويبين سبحانه وتعالى كيفية إصلاح جهاز الاستقبال لتلقى مدد الله فيقول :

﴿بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾

إن الحق سبحانه وتعالى ضرب المثل بالصبر والتقوى فى بدر مع القلة فكان النصر ، وهنا فى أُحد لم تصبروا ؛ فساعة أن رأيتم الغنائم سال لعابكم فلم تصبروا عنها ، ولم تتقوا أمر الله المبلغ على لسان رسوله فى التزام أماكنكم . . فكيف تكونون أهلاً للمدد ؟

إذن من الذى يحدد المدد ؟ إن الله هوالذى يعطى المدد ، ولكن من الذى يستقبل المدد لينتفع به ؟ إنه القادر على الصبر والتقوى .

إذن فالصبر والتقوى هما العُدّة فى الحرب . لا تقل عدداً ولا عدة . ولذلك قال ربنا لنا : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » ولم يقل : أعدوا لهم ما تظنون أنه يغلبهم ، لا . أنتم تعدون ما فى استطاعتكم ، وساعة تعدون ما فى استطاعتكم وأسبابكم قد انتهت . . فالله هو الذى يكملكم بالنصر .

والبشر فى ذواتهم يصنعون هذا ، فمثلا ـ ولله المثل الأعلى من قبل ومن بعد ـ

لنفترض أنك تاجر كبير . وتأتيك العربات الضخمة محملة بالبضائع ، صناديق وطرود كبيرة ، وأنت جالس بينما يفرغ العمال البضائع ، وجاء عامل لينزل الطرد فغلبه الطرد على عافيته ، وتجد نفسك بلا شعور منك ساعة تجده سيقع تهب وتقوم لنصرته ومعاونته ، لقد استنفد هذا العامل أسبابه ولم يقدر ، فالذى يعنيه الأمر يمد يده إليه ، فما بالنا بالحق سبحانه وتعالى . كأنه يقول ابذل وقدّم أسبابك ، فإذا ما رأيت أسبابك انتهت والموقف أكبر منك ، فاعلم أنه أكبر منك أنت ولكنه ليس أكبر من ربك إنه سبحانه يقول :

﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ ﴾

فإياك أن تظن أن المدد بالثلاثة آلاف أو الخمسة آلاف ، الذين أنزلهم الله وأمدكم بهم أو بالملائكة المدربين على القتال . . إياكم أن تظنوا أن هذا المدد ، هو شرط فى نصر الله لك . بذاتك أو بالملائكة ؛ إنه قادر على أن ينصرك بدون ملائكة ، ولكنها بشرى لتؤنس المادة البشرية ، فساعة يرى المؤمنون أعداداً كبيرة من المدد ، والكفار كانوا متفوقين عليهم فى العدد ، فإن أسباب المؤمنين تطمئن وتثق بالنصر . إذن فالملائكة مجرد بُشْرَى ، ولكن النصر من عند الله العزيز الذى لا يُغلب . وكل الأمور تسير بحكمته التى لا تملوها حكمة أبداً . يقول الحق من بعد ذلك :

﴿ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾ ﴾

وقطع الطرف يتحدد بمعرفة ما هو طرف لماذا ؟ فإن كان الطرف هو العدد الكثير فقطع الطرف أن يُقتل بعضه . وإن كان الطرف هو أرضا واسعة فقطع الطرف أن يأخذ من أرضهم . ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤١﴾ ﴾

(سورة الرعد)

لقد كانت الأرض الكُفْرِيّة تخسر كل يوم جزءاً منها لينضم هذا الجزء إلى الأرض الإيمانية ، هذا بالنسبة لسعة الأرض ، وافرض أن الطرف هو المال ، فقطع الطرف هنا يكون بأن نأخذ بعض المال كغنائم ، ثم هناك المنزلة التى كانت تهابها الجزيرة كلها ، كل الجزيرة تهاب قريشاً ، وقوافلها التجارية للشمال والجنوب لا تستطيع قبيلة أن تتعرض لها ؛ لأن كل القبائل تعرف أنها ستذهب إلى البيت فى موسم الحج ، فلا توجد قبيلة تتعرض لها لأنها غداً ستذهب إلى قريش ، إذن فالسيادة والعظمة كانت لقريش ، وساعة تعلم القبائل أن رجال قريش قد كسروا وانهزموا ، وأن رحلتهم إلى الشام أصبحت مهددة ، فإنهم يبحثون عن فريق آخر يذهبون إليه .

إن قطع الطرف كان على أشكال متعددة ، فإن كان طرفَ عددٍ فيقتل بعضهم ، وإن كان طرفَ أرض فبعضها يؤخذ وتذهب إلى أرض إيمانية ، وإن كانت عظمة وقهرا تأتهم الهزيمة ، وإن كان نفوذاً فى الجزيرة فهو يتزلزل « ليقطع طرفاً من الذين كفروا » .

ولنلحظ أن الحق قد قال : « ليقطع طرفاً » ـ لم يقل ليستأصل ـ لأن الله سبحانه وتعالى أبقى على بعض الكفار لأن له فى الإيمان دوراً ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ممتلئا بالعطف والرحمة والحنان على أمته ، وكان يحسن الظن بالله أن يهديهم ، ولذلك تعددت آيات القرآن التى تتحدث فى هذا الأمر . ها هو ذا الحق يقول :

﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ ﴾

(سورة الكهف)

وفى موقع آخر بالقرآن الكريم يقول الحق :

﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝٣ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ۝٤ ﴾

(سورة الشعراء)

والله يقول لرسوله صلى الله عليه وسلم : « فإنَّما عليك البلاغ » والرسول يحب أن يهتدى إلى الإيمان كل فرد فى أمته ، فقال الحق :

﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ۝١٢٨ ﴾

أى ليس لك يا محمد من الأمر شىء إلا أن يتوب الله عليهم فتفرح بتوبتهم ، أو يعذبهم ، فلا يحزنك ذلك لأنهم ظالمون أى ما عليك يا محمد إلّا البلاغ فقط . أما هم فقد ظلموا أنفسهم بالكفر . والظلم كما نعرف هو أخذ الحق من ذى الحق وإعطاؤه لغيره . وقمة الظلم هو إضفاء صفة الألوهية على غير الله ، وهو الشرك . ولذلك يقول الحق :

﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾

(من الآية ١٣ سورة لقمان)

إن الحق يقول لرسوله صلى الله عليه وسلم :

﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ۝١٢٨ ﴾

« سورة آل عمران »

وهذه مسألة لم تخرج عن ملك الله ، لماذا ؟ لأن السماوات والأرض وما فيهن ملك لله : قيل أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ بعد أن خضّب المشركون وجهه بالدم وهو يدعوهم إلى ربهم ـ أراد عليه الصلاة والسلام أن يدعو عليهم فنهاه الله لعلمه ـ سبحانه ـ أن فيهم من يؤمن وأنزل قوله تعالى :

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾ ﴾

وبما أننا نتحدث عن ملامح فى غزوة أحد أريد أن أقول : « جبل أُحدٍ رضى الله عنه » ؛ لأننا سمعنا بعض العارفين بالله حين تذكر كلمة « أحد » قال : أحد رضى الله عنه ـ فتعجب القوم لقول الشيخ عبدالله الزيدان الذى قال ذلك ، فلما رأى عجبهم قال لهم : ألم يخاطبه رسول الله بقوله : « اثبت أحد فإنما عليك نبى وصديق وشهيدان »[١] ، ألم يقل فيه رسول الله : « أحد جبل يحبنا ونحبه »[٢] أتريدون أحسن من ذلك فى الصحبة !، قل : أحد رضى الله عنه .

وقلنا سابقاً : إنك إذا وقف عقلك فى حاجة فلا تأخذها بمقاييسك أنت ، بل خذها بالمقاييس الأعلى . ونحن نقول هذا الكلام لأن العلم الآن يجرى ويسعى سعياً حثيثا مسرعاً حول استخراج بعض أسرار الله فى الكون ، فبين لنا أن الحيوانات لها لغات تتفاهم بها ، ويحاولون الآن أن يضعوا قاموسا للغة الأسماك . والحق سبحانه وتعالى ذكر لنا حكاية النملة مع سليمان ـ عليه السلام ـ فقال :

---

(١) رواه البخارى فى فضائل الصحابة ، وأبو داود فى السنة ورواه أحمد فى المسند .

(٢) رواه البخارى عن سهل بن سعد ، والترمذى ، والطبرانى عن أنس وأحمد والطبرانى والضياء عن سويد بن عامر الأنصارى .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴾

(من الآية ١٨ سورة النمل)

هذا القول يدل على أنّ نملة خرجت وقامت بعمل (وردية) كى تحافظ على من معها ثم عادت لتتكلم مع أبناء فصيلتها ، وسمعها سيدنا سليمان ، فتبسم من قولها . إذن العلم يتسابق ويجد وَيُسَارع الآن ليثبت أن لكل جنس فى الوجود لغة يتفاهم بها ، وكل جنس فى الوجود له انفعال ، وكل جنس فى الوجود له تكاثر ، ولذلك قال الحق لنا على لسان سيدنا سليمان :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمۡنَا مَنطِقَ ٱلطَّيۡرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيۡءٍۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡمُبِينُ ﴾

(من الآية ١٦ سورةالنمل)

وكانت هذه خصوصية لسيدنا سليمان عليه السلام ، إذن فللطير منطق . وعندما نتسامى ونذهب إلى الجهاد نسمع قول الحق سبحانه فى آل فرعون وعدم بكاء الجهاد عليهم :

﴿ كَمۡ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٖ وَمَقَامٖ كَرِيمٖ ﴿٢٦﴾ وَنَعۡمَةٖ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَۖ وَأَوۡرَثۡنَٰهَا قَوۡمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

(سورة الدخان)

هل تبكى السماء والأرض ؟ إنه أمر عجيب ؛ فالجماد من سماء وأرض لا تتفاهم فقط ولكن لها عواطف أيضاً ؛ لأن البكاء إنما ينشأ عن انفعال عاطفى وجدانى .

وهذا يعنى أن الجمادات لا تتكلم فقط ، ولكنها تحس أيضاً . فالأرض تخرج أثقالها ، وتحدث أخبارها ، كيف ؟

﴿ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥ ﴾

(سورة الزلزلة)

والسماء والأرض أتيا إلى الله فى منتهى الطاعة والخشوع :

﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ۖ قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ۝١١ ﴾

(سورة فصلت)

إذن فهناك ما هو أكثر من التفاهم ، إن لها عواطف مثلك تماما ، وكما تحزنك حاجة فالأرض أيضاً تبكى ، ومادامت تبكى إذن فلها مقابل بأن تفرح ، ويقول الله تعالى عن أرض فرعون : « فما بكت عليهم السماء والأرض » فلو أنها لم تبك مع بعض الناس ؛ لما كان لهذا الكلام ميزة .

لذلك قال الإمام على ـ كرم الله وجهه ـ : إذا مات المؤمن بكى عليه موضعان : موضع مصلاه ؛ لأنه سيحرم من نعمة الإيمان ، ومصعد عمله ، موضع فى الأرض وموضع فى السماء . إذن فلابد أن نفهم أن لكل شىء شعوراً . وقال صلى الله عليه وسلم : « إذا مات المؤمن استبشرت له بقاع الأرض فليس من بقعة إلا وهى تتمنى أن يدفن فيها »[1]

لماذا نقول هذا الكلام الآن ؟ نقول ذلك حتى إذا ثبت بالعلم أن لكل شىء لغة ، ولكل شىء فى أجناس الكون تفاهما ، يقال إن فيه ناساً هبت عليهم نسمات الإيمان فأدركوها وأحسوها من القرآن ، فلا يدعى أحد أنه ابتكر من ذات نفسه لأنها فى القرآن وإن كنا لا نعرف كيف تأتى .

---

(١) رواه الديلمى عن ابن عمر رض الله عنهما ، وتكملة الحديث : « . . . . وإذا مات الكافر أظلمت الأرض فليس من بقعة إلا وهى تستعيذ بالله أن يدفن فيها » .

وهذه المعركة ـ معركة أُحد ـ التى أخذت ستين آية ، نجد أن الحق تكلم عنها هنا فقال : « وإذ غدوت من أهلك » و« إذ همت طائفتان » ، وقوله : « ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة » ، وبعد ذلك يترك الغزوة فى حرارتها ويأتينا بأشياء يضعها هنا ، ثم يأتى ليكمل الغزوة . لو أن هذه لقطة من الغزوة وتنتهى ثم يأتى موضوع آخر ، لما شغلنا أنفسنا ، إنما الغزوة ستأتى فيها ستون آية ، فكيف ينهى الكلام فى الغزوة ولا يعطينا إلا استهلال الغزوة ، وبعد ذلك ينصب القرآن على معانٍ بعيدة عن الغزوة ؟ فما الذى يجعله ـ سبحانه ـ يترك أمر الغزوة ليقول :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

لماذا لم يعطنا الحق إلا استهلال الغزوة وبعد ذلك انصب على قضايا أولها قضية الربا ، ما العلاقة بين هذه القضايا وتلك الغزوة ؟ . وأقول : رحم الله صاحب

الظلال الوارفة الشيخ سيد قطب فقد استطاع أن يستخلص من هذه النقلة مبادىء إيمانية عقدية لو أن المسلمين فى جميع بقاع الأرض جعلوها نصب أعينهم لما كان لأى دولة من دول الكفر غلب علينا .

ونريد أن نفهم هذه اللقطات ، ولماذا استهلت بمسألة الربا ؟ لأن الذى كان سبباً فى الهزيمة أو عدم النصر فى معركة أُحُد أنهم طمعوا فى الغنيمة . والغنيمة مال زائد ، والربا فيه طمع فى مال زائد .

والقرآن حين يعالج هنا قضية حدثية ، والأحداث أغيار تمر وتنتهى ، فهو سبحانه يريد أن يستبقى عطاء الحدث ليشيع فى غير زمان الحدث ، وإلا فالحدث قد يمر بعظاته وعبره وينتهى ولا تكون له فائدة . والنفس حين تمر بالأحداث تكون ملكاتها متفتحة ؛ لأن الحدث ـ كما قال المغفور له الشيخ سيد قطب ـ يكون ساخناً ، فحين يستغل القرآن الحدث قبل أن يبرد فإن القضية التى تتعرض لها الموعظة تتمكن من النفس البشرية . وهو سبحانه لم يرد أن تمر أحداث أُحُد بما فيها من العبر والعظات إلا ويستغلها القرآن الكريم ليثبت بها قضايا إيمانية تشيع فى غير أزمنة الحدث من الحروب وغيرها لتنتظم أيضاً وقت السلام . فآية الربا هنا كأنما سقطت وسط النصوص التى تتعرض لغزوة أحد .

والسطحيون قد يقولون : ما الذى جعل القرآن ينتقل من الكلام عن أُحُد إلى أن يتكلم فى الربا مرة ثانية بعد أن تكلم عنه أولاً ؟

ونقول : إن القرآن لا يؤرخ الأحداث ، وإنما يُريد أن يستغل أحداثاً ليبسط ويوضح ما فيها من المعانى التى تجعل الحدث له عرض وله طول وله عمق ؛ لأن كل حدث فى الكون يأخذ من الزمن قدر الحدث ، والحدث له طول هو قدر من الزمن ، يكون ساعة أو ساعتين أو ليلة مثلا ، هذا هو طول الحدث .

والأحداث التى يجريها الله لها طول يحدده عمر الحدث الزمنى ، ولها عرض يعطيها الاتساع ، فبعد أن كانت خطاً مستقيماً صارت مساحة ، ويجعلها الحق شاملة لأشياء كثيرة ، فهو لا يريد للحدث أن يسير كخط مستقيم ، بل يريده طريقا واسعاً له

مساحة وله عرض . هذا العرض يعطيه رقعة مساحية تأخذ كثيراً من الأشياء ، وهذا أيضا قد ينتهى مع الحدث ، ولذلك يريد الله أن يعطى للحدث بعداً ثالثاً وهو العمق فى التاريخ فيعطى عطاءه ، كما نستفيد نحن الآن من عطاء حدث هو غزوة أُحُد .

إذن فالحدث له حجم أيضاً ، وهذا ما يجعل الناس تقف لتقول : إن صلة الرحم تطيل العمر ، والعمر له حد زمنى محدد وهو الخط المستقيم له ، فهناك واحد يزيد من عرض عمره ، فبدلاً من أن ينفع الناس فى مجال صغير فهو يعمل وينفع فى مجال أوسع ، إذن فهو يعطى لعمره مساحة .

وهناك إنسان آخر يريد أن يكون أقوى فى العمر ، فماذا يعمل ؟ إنه يعطى لعمره عمقاً ، فبدلاً من أن يعمل لمجرد حياته وينتهى عمره مهما كانت رقعته واسعة ، فهو يزيد من عمله الصالح ويترك أثراً من علم أو خير يستمر من بعد حياته كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة : صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له »[1] .

ولذلك يقول الحق :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

(سورة إبراهيم)

هى كلمة طيبة قيلت ، لكنّها مثل الشجرة الطيبة ؛ لأنها ترسخ فى أذن من يسمعها فتصير حركة خاضعة للكلمة ، وكلما فعل السامع لهذه الكلمة فعلاً ناتجاً من تأثير هذه الكلمة فإن بعض الثواب يعود إلى من قال هذه الكلمة حتى ولو كان قد مات .

---

(١) رواه أبو داود والترمذى والنسائى والبخارى فى الأدب المفرد .

فكأن قائل هذه الكلمة مازال يعيش ، وكأن عمره قد طال بكلمته الطيبة . إذن فأعمال الخير التى تحدث من الإنسان ليس معناها أنها تطيل العمر ؛ لأن العمر محدود بأجل ، ولكنْ هناك إنسان يعطى عمره عرضاً ، وآخر يعطيه عمقاً ويظل العطاء منه موصولاً إلى أن تقوم الساعة ، فكأنه أعطى لنفسه عمراً خالداً . ويقولون : والذكر للإنسان عمر ثان .

والحق سبحانه وتعالى يوضح الدروس المستفادة من غزوة أُحد ، إن أول مخالفة كانت سبباً ليس فى الهزيمة ، ولكن دعنا نقل : « فى عدم إتمام النصر » ، لأنهم بدأوا منتصرين ، ولم يتم النصر لأنه قد حدثت مخالفة ، ودوافع هذه المخالفة أنهم ساعة رأوا الغنائم ، اندفعوا إليها ، إذن فدوافعها هى طلب المال من غير وجه مشروع ؛ لأن النبى قال لهم : (انضحوا عنا الخيل ولا نؤتين من قبلكم ، الزموا أماكنكم إن كانت النوبة لنا أو علينا ، وإن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم) وبهذا صارت مبارحة المكان أمراً غير مشروع ، فتطلع النفس إلى شىء فى غير ما أمر به رسول الله يعتبر أمراً غير مشروع والتطلع هنا كان للمال ، وهكذا الربا .

وأراد الحق أن تكون سخونة الحدث ، والأثر الذى نشأ من الحدث فى أن المسلمين لم يتم نصرهم ، وتعبوا ، وكان مصدر التعب أن قليلاً منهم أحبوا المال الزائد من غير وجهه المشروع . فأراد ـ سبحانه ـ أن يكون ذلك مدخلا لبيان الأثر السيىء للتعامل بالربا .

إذن فهذه مناسبة فى أننا نجد آية الربا هنا وهى توضح الآثار السيئة للطمع فى المال الزائد عن طريق غير مشروع ، والقرآن فيه الكثير من المواقف التى توضح آثاراً تبدو فى ظاهرها غير مترابطة ، ولكن النظرة العميقة تؤكد الترابط .

وقلنا من قبل فى قول الله تعالى :

﴿ حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾ ﴾

(سورة البقرة)

قد يقول أحد السطحيين : إن الحق سبحانه وتعالى كان يتكلم عن الطلاق قبل هاتين الآيتين فقال سبحانه :

﴿ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾ ﴾

(سورة البقرة)

ويترك الحق الحديث عن الطلاق ويأمر بالحفاظ على الصلاة بقوله الحكيم : « حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين » .

وبعد ذلك يعود الحق لاستكمال حديث الطلاق والفراق بالموت .

﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ۚ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِى مَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾ ﴾

(سورة البقرة)

إنه يتكلم عن الطلاق ، والوفاة ، ثم ينزل بينهما آية الصلاة ، لماذا ؟ ليتضح لنا أن المنهج الإسلامى منهج متكامل . إياك أن تقول : إن الطلاق غير الصلاة ، غير الوفاة ، أبداً ، إنه منهج متكامل . ولأنه ـ سبحانه وتعالى ـ يريد أن ينبهنا إلى أن لطلاق عملية تأتى والنفس فيها غضب ، وتأتى والزوج والزوجة وأهل الزوج وأهل لزوجة فى كدر ، فيقول لهم المنهج : لو كنتم تحسنون الفهم لفزعتم إلى الصلاة حين نواجهكم هذه الأمور التى فيها كدر .

وساعة تكون فى كدر قم وتوضأ وصَلِّ ، لأن النبى علمنا أنه إذا حَزَبَه أمر قام

إلى الصلاة ، فساعة تجد الجو المشحون بالتوتر بين الزوج والزوجة وأهلهما قل لهم : المسألة صارت أكبر من حيلنا ، فهيا نصل ليساعدنا الله على حل هذه المسائل الصعبة ، وأنا أتحدى ألا يوجد الله حلاً لمشكلة لجأ فيها المسلم إلى الصلاة قبلها .

وهكذا نفهم أن الحق قال : « حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى » لأن محافظتكم عليها هى التى ستنهى كل الخلافات ؛ لأن الله لا يكون فى بالكم ساعة ضيقكم وفى ساعة شدتكم فتستسلمون للضيق والشدة وتنسون الصلاة ، فى الوقت الذى يكون فيه الإنسان أحوج ما يكون إلى الصلاة . إنك فى وقت الضيق والشدة عليك أن تذهب إلى ربك ، وأقول هذا المثل ـ ولله المثل الأعلى ـ إن الولد الذى يضربه أصحابه يذهب إلى أبيه ، كذلك زوجتك إذا أغضبتها تذهب إلى أهلها ، فكيف لا تذهب إلى ربك وقت شدتك وكربك ؟ .

وهكذا نجد أن قوله الحق : « حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى » جاء فى المكان الصحيح ، وهكذا آية الربا ، جاءت فى مكانها هنا وخصوصاً أنه تكلم عن الربا أولاً ، فتأتى الحادثة وسخونة الحدث وينزل هذا القول الكريم . كى يعرف كل من يريد مالاً زائداً على غير ما شرع الله أنّه سيأتى منه البلاء على نفسه وعلى غيره ، فالبلاء فى أُحد شمل الجميع : الرماة وغير الرماة أيضا .

إذن فكل الدنيا تتعب عندما تخالف منهج الله ، والمال الزائد من غير ما شرع الله إن لم يترك فقد آذن الله من يأكله بحرب من الله ومن رسول الله .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ ﴾

والربا زيادة فى المال ، فهل يؤكل ؟ نعم ؛ لأن كل المسائل المالية من أجل اللقمة

الَّتى تأكلها ، هذا هو الأصل . والرسول صلى الله عليه وسلم يقول : « من أصبح منكم آمنا فى سِرْبِهِ مُعَافىً فى جسده عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا »[١] .

ونعرف أنه عندما يكون الواحد منا فى منطقة ليس فيها رغيف خبز ، فلن تنفعه ملكية جبل من الذهب . « لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة » وقوله سبحانه : « أضعافا » و« مضاعفة » هو كلام اقتصادى على أحدث نظام ، فالأضعاف هى : الشىء الزائد بحيث إذا قارنته بالأصل صار الأصل ضعيفاً ، فعندما يكون أصل المال مائة ـ على سبيل المثال ـ وسيؤخذ عليها عشرون بالمائة كفائدة فيصبح المجموع مائة وعشرين . إذن فالمائة والعشرون تجعل المائة ضعيفة ، هذا هو معنى أضعاف .

فماذا عن معنى « مضاعفة » ؟ إننا سنجد أن المائة والعشرين ستصبح رأس مال جديداً ، وعندما تمر سنة ستأخذ فائدة على المائة وعلى العشرين أيضاً ، إذن فالأضعاف ضوعفت أيضاً ، وهذا ما يسمى بالربح المركب ، وهل معنى هذا أننا نأكله بغير أضعاف مضاعفة ؟! لا ؛ لأن الواقع فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كان هكذا .

وقد يقول لك واحد : أنا أفهم القرآن وأن المنهى هو الأضعاف المضاعفة ، فإذا لم تكن أضعافاً مضاعفة فهل يصح أن تأخذ ربحاً بسيطاً يتمثل فى نسبة فائدة على أصل المال فقط ؟ . ولكن مثل هذا القائل نرده إلى قول الله :

﴿ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾

(من الآية ٢٧٩ سورة البقرة)

إن هذا القول الحكيم يوضح أن التوبة تقتضى أن يعود الإنسان إلى حدود رأس ماله ولا يشوب ذلك ربح بسيط أو مركب . وعندما نجد كلمة « أضعافا مضاعفة » فهى قد جاءت فقط لبيان الواقع الذى كان سائداً فى أيامها .

وبعد ذلك يقول الحق تذييلاً للآية : « واتقوا الله لعلكم تفلحون » ونقول دائماً

---

(١) رواه البخارى فى الأدب ، والترمذى وابن ماجه عن عبدالله بن محصن .

ساعة نرى كلمة « اتقوا » يعنى اجعلوا بينكم وبين الله وقاية ، وهل تكون الوقاية بينكم وبين الله بكل صفات جماله وجلاله ؟ لا ، فالوقاية تكون مما يتعب ومما يؤلم ويؤذى ، إذن فاتقوا الله يعنى : اجعلوا بينكم وبين صفات جلاله من جبروت وقهر وانتقام وقاية ، وعندما يقول الحق : « واتقوا النار » فهى مثل قوله : « واتقوا الله » ، لأن النار جند من جنود صفات الجلال .

وعندما يقول الحق : « لعلكم تفلحون » نعرف أن كلمة « الفلاح » هذه تأتى لترغيب المؤمن فى منهج الله ، وقد جاء الحق بها من الشىء المحس الذى نراه فى كل وقت ، ونراه لأنه متعلق ببقاء حياتنا ، وهو الزرع والفلاحة ، أنت تحرث وتبذر وتروى ، وبعد ذلك تحصد .

إذن فهو يريد أن يوضح لك أن المتاعب التى فى الحرث ، والمتاعب التى فى البذر ، والمتاعب التى فى السقى كلها متى ترى نتيجتها ؟ أنت ترى النتيجة ساعة الحصاد ، فالفلاح يأخذ (كيلتين) من القمح من مخزنه كى يزرع ربع فدان ، ولا نقول له : أنت أنقصت المخزن ؛ لأنه أنقص المخزن للزيادة ، ولذلك فالذى لم ينقص من مخزنه ولم يزرع ، يأتى يوم الحصاد يضع يده على خده نادماً ولا ينفع الندم حينئذ !

إن الحق يريد أن يقول لنا : إن المنهج وإن أتعبك ، وإن أخذ من حركتك شيئاً كثيراً إلا أنه سيعود عليك بالخير حسب نيتك وإقبالك على العمل ، ولقد ضرب لنا الله المثل فى قوله :

﴿ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾

(الآية ٢٦١ سورة البقرة)

هذا أمر واضح ، حبة نأخذها منك فتنقص ما عندك ، لكنها تعطيك سبعمائة ، إذن فساعة تؤخذ منك الحبة لا تقل : إنك نقصت ، إنما قَدِّرْ أنك ستزيد قدر كذا . ويعطينا الله ذلك المثل فى خلق من خلقه وهو الأرض ،

الأرض الصماء ، أنت تعطيها حبة فتعطيك سبعمائة . فإذا كان خلق من خلق الله وهو الأرض يعطيك أضعاف أضعاف ما أعطيت . أفلا يعطيك رَبّ هذه الأرض أضعافاً مضاعفة ؟ إنه قادر على أجزل العطاء ، هذا هو الفَلاحُ على حقيقته ، وبعد ذلك فإنه ساعة يتكلم عن الفلاح يقول لك : إنك لن تأخذ الفلاح فقط ولكنك تتقى النار أيضاً .

فيقول الحق سبحانه :

﴿ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ ﴾

إذن ففيه مسألتان : سلبٌ لمضرّة ، وإيجابُ منفعة ، إنه يوجب لك منفعة الفلاح ويسلب منك مضرّة النار . ولذلك يقول تعالى :

﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾

(من الآية ١٨٥ سورة آل عمران)

لأنه إذا زُحزح عن النار ولم يعد فى نار ولا فى جنه فهذا حسن ، فما بالك إذا زُحزح عن النار وأدخل الجنة ؟ إن هذا هو الفوز الكبير ، وهذا السبب فى أن ربنا سبحانه وتعالى ساعة السير على الصراط سيُرينا النار ونمرُّ عليها ، لماذا ؟ كى نعرف كيف نجانا الإيمان من هذه ، وما الوسيلة كى نفلح ونتقى النار ؟ إن الوسيلة هى اتباع منهج الله الذى جاء به على لسان رسوله :

﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾

و« الرحمة » تتجلى فى ألا يوقعك فى المتعبة ، أما الشفاء فهو أن تقع فى المتعبة ثم تزول عنك ، لذلك فنحن إذا ما أخذنا المنهج من البدء فسنأخذ الرحمة .

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ ﴾

(من الآية ٨٢ سورة الإسراء)

إن الشفاء هو إزالة للذنب الذى تورطنا فيه ويكون القرآن علاجاً ، والرحمة تتجلى إذا ما أخذنا المنهج فى البداية فلا تأتى لنا أية متاعب . ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾

والسرعة ـ كما عرفنا ـ مقابلها العجلة ، إن السرعة هى : التقدم فيما ينبغى ، ومعنى أن تتقدم فيما ينبغى : أنك تجعل الحدث يأخذ زمناً أقل ، والمثال على ذلك عندما يسرع الإنسان بسيارته من القاهرة إلى الإسكندرية فهو يحاول أن يقطع المائتين والعشرة كيلو مترات فى زمن أقل ، فبدلاً من أن تأخذ منه ثلاث ساعات فى السيارة فهو يسرع كى تأخذ منه ساعتين . إذن فالسرعة هى : التقدم فيما ينبغى ، وهى محمودة ، وضدها : الإبطاء . فالسرعة محمودة ، والإبطاء مذموم .

لكن « العجلة » تقدم فيما لا ينبغى ، وهى مذمومة ، مقابلها « التأنى » ، والتأنى ممدوح ، إذن فالسرعة محمودة ، ومقابلها الإبطاء مذموم ، والعجلة مذمومة ، ومقابلها التأنّى ممدوح ، والمثل الشعبى يقول : فى التأنى السلامة وفى العجلة الندامة .

إن الحق يقول : « وسارعوا إلى مغفرة من ربكم » أى : خذوا المغفرة وخذوا الجنة بسرعة ، لأنك لا تعرف كم ستبقى فى الدنيا ، إياك أن تؤجل عملاً من أعمال الدين أو عملا من أعمال الخير ؛ لأنك لا تعرف أتبقى له أم لا . فانتهز فرصة حياتك وخذ المغفرة وخذ الجنة ، هذا هو المعنى الذى يأتى فيه الأثر الشائع « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً » .

الناس تفهمها فهماً يؤدى مطلوباتهم النفسية بمعنى : اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً : يعنى اجمع الكثير من الدنيا كى يَكفيك حتى يوم القيامة ، وليس هذا فهماً صحيحاً لكن الصحيح هو أن ما فاتك من أمر الدنيا اليوم فاعتبر أنك ستعيش طويلاً وتأخذه غداً ، أمَّا أمر الآخرة فعليك أن تعجل به .

« وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض » ونحن نعرف أن المساحات لها طولٌ وعرض ، لأن الذى طوله كعرضه يكون مربعاً ، إنما الذى عرضه أقل من طوله فنحن نسميه « مستطيلا » ، وحين يقول الحق « عرضها السموات والأرض » نعرف أن العرض هو أقل البعدين ، أى أنها أوسع مما نراه ، فكأنه شبّه البعد الأقل فى الجنة بأوسع البعد لما نعرفه وهو السموات والأرض ملتصقة مع بعضها بعضا فأعطانا أوسع مَمَّا نراه . فإذا كان عرضها أوسع مَمَّا نعرف فما طولها ؟ أنه حد لا نعرفه نحن .

قد يقول قائل لماذا بيَّن عرضها فقال : « عرضها السموات والأرض » . فأين طولها إذن ؟ ونقول : وهل السموات والأرض هى الكون فقط ؟ إنّه سبحانه يقول :

﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾

(من الآية ٢٥٥ سورة البقرة)

ويقول صلى الله عليه وسلم : (ما السموات والأرض وما بينهما إلا كحلقة ألقاها ملك فى فلاة) . أليست هذه من ملك الله ؟

وهكذا نرى أن هذه الجنة قد أُعدت للمتقين ، ومعنى « أُعدت » أى هيئت وصُنعت وانتهت المسألة ! يؤكد ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول :

(عرضت عليّ الجنة ولو شئت أن آتيكم بقطاف منها لفعلت)[١] .

لماذا ؟ لأن الإخبار بالحدث قد يعني أن الحدث غير موجود وسيوجد من بعد ذلك ، ولكن الوجود للحدث ينفى أن لا يوجد ؛ لأن وجوده صار واقعا ، فعندما يقول : « أُعدت » فمعناها أمر قد انتهى الحق من إعداده ، ولن يأخذ من خامات الدنيا وينتظر إلى أن ترتقى الدنيا عندكم ويأخذ وسائل وموادّ مما ارتقيتم ليعد بها الجنة ، لا .

لقد أخبر سبحانه عنها فقال:« فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » ، وأعد سبحانه الجنة كلها بـ « كن » ، فعندما يقول : « أُعدت » تكون مسألة مفروغاً منها . ومادامت مسألة مفروغاً منها إذن فالمصير إليها أو إلى مقابلها مفروغ منه ، والجنة أُعدت للمتقين ، فمن هم المتقون ؟

﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾

هذه بعض من صفات المتقين « والكاظمين الغيظ » لأن المعركة ـ معركة أُحُد ـ ستعطينا هذه الصورة أيضاً . فحمزة وهو سيد الشهداء وعم سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يُقتل . وليته يُقتل فقط ولكنه مُثِّل به ، وأُخذِ بضع منه وهو الكبد فلاكته « هند » ، وهذا أمر أكثر من القتل . وهذه معناها ضغن دنىء .

وحينما جاء لرسول الله صلى الله عليه وسلم خبر مقتل حمزة وقالوا له : إن « هنداً »

---

(١) رواه البخارى فى الأذان ، وابن ماجه فى الإقامة ورواه أحمد فى المسند .

أخذت كبده ومضغتها ثم لفظتها ، إذ جعلها الله عَصِيَّة عليها ، قال : « ما كان الله ليعذب بعضاً من حمزة فى النار » كأنها ستذهب إلى النار ، ولو أكلتها لتمثلت فى جسمها خلايا ، وعَندما تدخل النار فكأن بعضاً من حمزة دخل النار ، فلابد أن ربها يجعل نفسها تجيش وتتهيأ للقىء وتلفظ تلك البضعة التى لاكتها من كبد سيد الشهداء .

وقد شبه النبى صلى الله عليه وسلم هذه الحادثة بأنها أفظع ما لقى . إنها مقتل حمزة فقال : (لئن أظفرنى الله على قريش فى موطن من المواطن لأمثلن بثلاثين رجلا منهم) .

وهنا جاء كظم الغيظ ليأخذ ذروة الحدث وقمته عند رسول الله فى واحد من أحب البشر إليه وفى أكبر حادث أغضبه ، وينزل قول الحق :

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾

(سورة النحل)

كى نعرف أن ربنا ـ جل جلاله ـ لا ينفعل لأحد ؛ لأن الانفعال من الأغيار ، وهذا رسوله فأنزل ـ سبحانه ـ عليه : « وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به » ويأتى هنا الأمر بكظم الغيظ ، وهو سبحانه يأتى بهذا الأمر فى مسألة تخص الرسول وفى حدث « أُحُد » . وبعد ذلك يُشيعها قضية عامة لتكون فى السلم كما كانت فى الحرب . وتكون مع الناس دون رسول الله ؛ لأنها كانت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

« والكاظمين الغيظ » ونعرف أن كل الأمور المعنوية مأخوذة من الحسّيات . وأصل الكظم أن تملأ القِرْبَة ، والقِرَب ـ كما نعرف ـ كان يحملها « السقا » فى الماضى ، وكانت وعاء نقل الماء عند العرب ، وهى من جلد مدبوغ ، فإذا مُلئت القربة بالماء شُدّ على رأسها أى رُبط رأسها ربطاً محكماً بحيث لا يخرج شىء مّما فيها ، ويقال عن هذا الفعل :« كظم القربة » أى ملأها وربطها ، و القربة لينة وعندما توضع على ظهر واحد أو على ظهر الدابة فمن ليونتها تخرج الماء فتكظم وتربط بإحكام كى لا يخرج منها شىء .

كذلك الغيظ يفعل فى النفس البشرية ، إنه يهيجها ، والله لا يمنع الهياج فى النفس لأنه انفعال طبيعى ، والانفعالات الطبيعية لو لم يردها الله لمنع أسبابها فى التكوين الإنسانى . إنما هو يريدها لأشياء مثلا : الغريزة الجنسية ، هو يريدها لبقاء النوع ، ويضع من التشريع ما يهذبها فقط ، وكذلك انفعال الغيظ ، إن الإسلام لا يريد من المؤمن أن يُصَبَّ فى قالب من حديد لا عواطف له ، لا ، هو سبحانه يريد للمؤمن أن ينفعل للأحداث أيضاً ، لكن الانفعال المناسب للحدث ، الانفعال السامى الانفعال المثمر ، ولا يأتى بالانفعال المدمر .

لذلك يقول الحق :

﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الفتح)

فالمؤمن ليس مطبوعاً على الشدة ، ولا على الرحمة ، ولكن الموقف هو الذى يصنع عواطف الإنسان ، فالحق سبحانه يقول :

﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾

(من الآية ٥٤ سورة المائدة)

وهل هناك من هو ذليلٌ عزيزٌ معاً ؟ نقول : المنهج الإيمانى يجعل المؤمن هكذا ، ذلة على أخيه المؤمن وعزة على الكافر . إذن فالإسلام لا يصب المؤمنين فى قالب كى لا ينفعلوا فى الأحداث .

ومثال آخر : ألم ينفعل الرسول صلى الله عليه وسلم حين مات ابنه إبراهيم ؟ لقد انفعل وبكى وحزن . إن الله لا يريد المؤمن من حجر . بل هو يريد المؤمن أن ينفعل للأحداث ولكن يجعل الانفعال على قدر الحدث ، ولذلك قال سيدنا رسول الله عند فراق ابنه : (إن العين تدمع وإن القلب يحزن ولا نقول إلا مايرضى ربنا وإنّا بفراقك

يا إبراهيم لمحزونون) [١] .

ولا نقول لحظة الانفعال ما يسخط الرب . بل انفعال موجّه ، والغيظ يحتاج إليه المؤمن حينما يهيج دفاعاً عن منهج الله ، ولكن على المؤمن أن يكظمه . . أى لا يجعل الانفعال غالبا على حسن السلوك والتدبير . والكظم ـ كما قلنا ـ مأخوذ من أمر محس . مثال ذلك : نحن نعرف أن الإبل أو العجماوات التى لها معدتان ، واحدة يُختزن فيها الطعام ، وأخرى يتغذى منها مباشرة كالجمل مثلاً ، إنه يجتر .

ومعنى : يجتر الجمل أى يسترجع الطعام من المعدة الإضافية ويمضغه ، هذا هو الاجترار . فإذا امتنع الجمل عن الاجترار يقال : إن الجمل قد كظم . والحق سبحانه يقول : « والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس » .

وقلنا : إن هناك فرقاً بين الانفعال فى ذاته ، فقد يبقى فى النفس وتكظمه ، ومعنى كظم الانفعال : أن الإنسان يستطيع أن يخرجه إلى حيز النزوع الانفعالى ، ولكنّه يكبح جماح هذا الانفعال . أما العفو فهو أن تخرج الغيظ من قلبك ، وكأن الأمر لم يحدث ، وهذه هى مرتبة ثانية . أما المرتبة الثالثة فهى : أن تنفعل انفعالاً مقابلاً ؛ أى أنك لا تقف عند هذا الحد فحسب ، بل إنك تستبدل بالإساءة الإحسان إلى من أساء إليك . إذن فهناك ثلاث مراحل : الأولى : كظم الغيظ . والثانية : العفو . والثالثة : أن يتجاوز الإنسان الكظم والعفو بأن يحسن إلى المسىء إليه .

وهذا هو الارتقاء فى مراتب اليقين ؛ لأنك إن لم تكظم غيظك وتنفعل ، فالمقابل لك أيضاً لن يستطيع أن يضبط انفعاله بحيث يساوى انفعالك ، ويمتلىء تجاهك بالحدة والغضب ، وقد يظل الغيظ نامياً وربما ورّث أجيالا من أبناء وأحفاد . لكن إذا ما كظمت الغيظ ، فقد يخجل الذى أمامك من نفسه وتنتهى المسألة .

« والعافين عن الناس » مأخوذة من « عفّى على الأثر » والأثر ما يتركه سير الناس

---

(١) رواه البخارى فى الجنائز ، ومسلم فى الفضائل ، وابن ماجه فى الجنائز ورواه أحمد فى المسند .

فى الصحراء مثلا ، ثم تأتى الريح لتمحو هذا الأثر . ويقول الحق فى تذييل الآية : « والله يحب المحسنين » .

وقلنا فى فلسفة ذلك : إننا جميعاً صنعة الله ، والخلق كلهم عيال الله . وما دمنا كلنا عيال الله فعندما يُسىء واحد لآخر فالله يقف فى صف الذى أسىء إليه ، ويعطيه من رحمته ومن عفوه ومن حنانه أشياء كثيرة . وهكذا يكون المُسَاء إليه قد كسب . أليس من واجب المُسَاء إليه أن يُحسِن للمسىء ؟ .

لكن العقل البشرى يفقد ذكاءه فى مواقف الغضب ؛ فالذى يسىء إلى إنسان يحسبه عدوًا . لكن على الواحد منا أن يفهم أن الذى يسىء إليك إنما يجعل الله فى جانبك ؛ فالذى نالك من إيذائه هو أكثر مما سلبك هذا الإيذاء . هنا يجب أن تكون حسن الإيمان وتعطى المسىء إليك حسنة .

ويضيف الحق من بعد ذلك فى صفات أهل الجنة :

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ ﴾

والفاحشة هى:الذنب الفظيع . فهل معنى ذلك أن الرماة فى غزوة أحد حين تركوا مواقعهم ، قد خرجوا من الإيمان ؟ لا ، إنها زلة فقط ، لكنها اعتبرت كبيرة من الكبائر لمن أشار على المؤمنين أن ينزلوا ،واعتبرت صغيرة لمن حُرّض ـ بالبناء للمفعول ـ على أن ينزل من موقعه .

إذن فهو قول مناسب : « والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله » وجاء الحق هنا بـ« ذكروا الله » كتنبيه لنا إلى أن من يفعل الفاحشة أو يظلم نفسه هو من نسى الله ، فلحظة فعل الفاحشة أو ظلم النفس لا يكون الله على بال الإنسان الفاعل للفاحشة أو على بال من ظلم نفسه ، والذى يُجرِّىء الإنسان على المعصية ليحقق لنفسه شهوة ، أنه لم ير الله ولم ير جزاءه وعقابه فى الآخرة ماثلا أمامه ، ولو تصور هذا لامتنع عن الفاحشة .

وكذلك الذى يهمل فى الطاعة أيضاً ، لم يذكر الله وعطاءه للمتقين . ولو ذكر الله وعطاءه للمتقين لما تكاسل عن طاعة الله . ولذلك يقول الحق : « ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم » فمن يستغفر لذنبه فقد ذكر الله .

•

وموقف العلماء من الفاحشة فيه اختلاف . بعض العلماء قال : إنها الكبيرة من الكبائر ، وظلم النفس صغيرة من الصغائر . وقال بعض آخر من العلماء : إن الفاحشة هى الزنا ؛ لأن القرآن نص عليها ، ومادون ذلك هو الصغيرة .

ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (لا كبيرة مع الاستغفار . ولا صغيرة مع الإصرار)[1]

فلا يجوز للإنسان أن يتجاوز عن أخطائه ويقول : هذه صغيرة وتلك صغيرة لأن الصغيرة مع الصغيرة تصير كبيرة . وحين ننظر إلى قول الله تعالى : « والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم » نجد أن الذى فعل الفاحشة ظالم لنفسه أيضا لأنه حقق لنفسه شهوة عارضة ، وأبقى على نفسه عذاباً خالداً .

ولماذا لم يقل الحق إذن : والذين ظلموا أنفسهم فقط ؟ أى يكون العطف بـ (الواو) لا بـ (أو) ؛ لأن الحق يريد أن يوضح لنا الاختلاف بين فعل الفاحشة وظلم النفس .

لأن الذى يفعل الفاحشة إنما يحقق لنفسه شهوة أو متعة ولو عاجلة ، لكن الذى

(١) رواه أبو الشيخ والديلمى عن ابن عباس رفعه ، ورواه البيهقى ـ عن ابن عباس ـ موقوفا ، وله شاهد عند البغوى ، ومن جهة الديلمى عن أنس مرفوعا ، وأخرجه الطبرانى عن أبى هريرة ، وزاد فى آخره « فطوبى لمن وجد فى كتابه استغفاراً كثيراً » لكن فى إسناده بشر بن عُبيد الفارسى متروك .

يظلم نفسه يذنب الذنب ولا يعود عليه شيء من النفع ؛ فالذى يشهد الزور ـ على سبيل المثال ـ إنه لا يحقق لنفسه النفع ، ولكن النفع يعود للمشهود له زوراً . إن شاهد الزور يظلم نفسه لأنه لبّى حاجة عاجلة لغيره ، ولم ينقذ نفسه من عذاب الآخرة . أما الإنسان الذى يرتكب الفاحشة فهو قد أخذ متعة فى الدنيا ، وبعد ذلك ينال العقاب فى الآخرة .

لكن الظالم لنفسه لا يفيد نفسه ، بل يضر نفسه ؛ فالذى هو شر أن تبيع دينك بدنياك ؛ إنك فى هذه الحالة قد تأخذ متعة من الدنيا وأمد الدنيا قليل . والحق لم ينه عن متاع الدنيا ، ولكنه قال عنه : « قل متاع الدنيا قليل » . وهناك من يبيع دينه بدنيا غيره ، وهو لا يأخذ شيئاً ويظلم نفسه .

ويقول الحق : « فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله » . ومعنى « ذنب » هو مخالفة لتوجيه منهج . فقد جاء أمر من المنهج ولم ينفذ الأمر . وجاء نهى من المنهج فلم يُلتزم به . ولا يسمى ذَنْباً إلا حين يعرفنا الله الذنوب ، ذلك هو تقنين السماء . وفى مجال التقنين البشرى نقول : لا تجريم إلا بنص ولا عقوبة إلا بتجريم .

وهذا يعنى ضرورة إيضاح ما يعتبر جريمة ؛ حتى يمكن أن يحدث العقاب عليها ، ولا تكون هناك جريمة إلا بنص عليها . أى أنه يتم النص على الجريمة قبل أن يُنص على العقوبة ، فما بالنا بمنهج الله ؟ إنه يعرفنا الذنوب أولاً ، وبعد ذلك يحدد العقوبات التى يستحقها مرتكب الذنب .

ولننتبه إلى قول الحق : « ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون » إذن فالاستغفار ليس أن تردف الذنب بقولك : أستغفر الله لا . إن على الإنسان أن يردف الذنب بقوله : أستغفر الله وأن يصر على ألا يفعل الذنب أبداً .

وليس معنى هذا ألا يقع الذنب منك مرة أخرى ؛ إن الذنب قد يقع منك ، ولكن ساعة أن تستغفر تصر على عدم العودة ، إن الذنب قد يقع ، ولكن بشرط ألا

يكون بنيّة مُسبقة ، وتقول لنفسك : سأرتكب الذنب ، وأستغفر لنفسى بعد ذلك . إنك بهذا تكون كالمستهزىء بربّك ، فضلا على أنك قد تصنع الذنب ولا يمهلك الله لتستغفر . وقوله الحق : « ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون » يوضح لنا أنه لا عقوبة إلا بتجريم ولا تجريم إلا بنص .

إن الحق يعلمنا ويعرفنا أولاً ما هو الذنب ؟ وما هو العقاب ؟ وكيفية الاستغفار ؟ ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾

« أولئك » إشارة إلى ما تقدم فى قوله سبحانه :

﴿ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

مع بيان أوصاف المتقين فى قوله :

﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

(الآية ١٣٤ سورة آل عمران)

إنهم ينفقون فى السراء نفقة الشكر . وينفقون فى الضراء نفقة الذكر والتضرع ،

لأن النعمة حين توجد بسرّاء تحتاج إلى شكر لهذه النعمة ، والنعمة حين تنفق فى الضراء تقتضى ضراعة إلى الله ليزحزح عن المنفق آثار النقمة والضراء . إذن فهم ينفقون سواء أكانوا فى عسر ، أم كانوا فى يسر .

إن كثيراً من الناس ينسيهم اليسر أن الله أنعم عليهم ويظنون أن النعمة قد جاءت عن علم منهم . وبعض الناس تلهيهم النعمة عن أن يحسوا بآلام الغير ويشغلوا بآلام أنفسهم . لكن المؤمنين لا ينسون ربهم أبداً . وأمره بالإنفاق فى العسر واليسر . ولذلك قالوا : فلان لا يقبض يده فى يوم العرس ولا فى يوم الحبس .

وتتتابع أوصاف المتقين :

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

وفى ذلك لون من تطمين المؤمن على أغيار نفسه ، وعلى أنه عندما يستجيب مرة لنزغات الشيطان ، فهذه لا تخرجه من حظيرة التقوى ، لأن الله جعل ذلك من أوصاف المتقين . فالفاحشة التى تكون من نزغ الشيطان وذكر العباد لِلّه بعدها ، واستغفارهم مع الإصرار على عدم العودة ، لا تخرجهم أبداً عن وصفهم بأنهم متقون . لأن الحق هوالغفور : « ومن يغفر الذنوب إلا الله » .

إنهم قد أُخبروا بذلك ، فلم يجرم الحق أحداً إلا بنص ، ولم يعاقب إلا بجريمة . وقول الحق سبحانه : « أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم » هو إشارة لكل ما سبق . ونلاحظ أن الحق سبحانه وتعالى جعل للعاملين بهذا العمل من التقوى قوسين : القوس الأول الذى ابتدأ به هو قوله الحق : « وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين » .

والقوس الثانى هوالذى أنهى الأمر : « أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الأنهار » .

فالجنة الأولى التى ذكرها الله إلهاباً للعواطف النفسية لتقبل على ما يؤدى لهذه الجنة ، وبعد ذلك ذكر الأوصاف والأصناف وجعل الجنة أجراً . « ونعم أجر العاملين » .

والأجر عادة هو ما يأخذه العامل نتيجة العمل . والأجر حين يأخذه العامل نتيجة لعمل يتوقف على تقييم العمل عند صاحب العمل نفسه . فزيادة الأجر ونقصه تقدير من صاحب العمل ، وأيضاً تقدير للعامل . فإن طلب أصحاب عمل متعددون عاملاً محدداً فله أن يطلب زيادة ، وإن لم يطلبه أحد فهو يقبل أول عرض من الأجر نظير أداء العمل .

إذن فالمسألة مسألة حاجة من صاحب عمل ، أو حاجة من عامل ، وحين ننظر إلى الصفقة فى الآخرة نجد أنها بين إله لا يحتاج إلى عملك . ومع أنه لا يحتاج إلى عملك جعل لعملك أجراً .

ما هذه المسألة ؟ . هو ليس محتاجاً إلى عملك ، ويعطيك أجراً على عملك ويقول لك : إن هذا الأجر هو الحد الأدنى ، لكن لى أنا أن أضاعف هذا الأجر ، ولى أن أتفضل عليك بما فوق الأجر . فكم مرحلة إذن ؟ إنها ثلاث مراحل ، مع أنه سبحانه لا يستفيد من هذا العمل إلا أنه وضع ثلاث مراتب للأجر .

إذن فالحاجة من جهة واحدة هى جهتك أنت أيها العبد ، أنت تحتاج إلى خالقك وهو لا يحتاج إليك ، ومع ذلك يعطيك الإله الحق الأجر لا على قدر العمل فقط ، ولكن فوق ذلك بكثير . إن الذى تعمل له يوماً من العباد قد يعطيك ـ على سبيل المثال ـ ما يكفيك قوت يوم ، أو قوت يوم ونصف يوم . ولكنك حين تأخذ الأجر من يد الله فإنه يعطيك أجراً لا تنتهى مدة إنفاقه ؛ فهو القائل : « ونعم أجر العاملين » .

هذا هو الأجر الذى يقال فيه : نعم هذا الأجر ؛ لأنه أجر لا يتناسب مع مجهودى ، بل يفوق كل ما بذلتَ من جهد وقادم من جهة لا تحتاج إلى هذا المجهود .

إنه سبحانه متفضل على أولاً . ومتفضل على أخيراً ، ليدل الحق سبحانه وتعالى على أنك ـ أيها العبد ـ حين تعمل الطاعة يَعود أثر الطاعة على نفسك ومع ذلك فهو يعطيك أجراً على ما فعلت .

وأوضحنا أن هذه الآيات جاءت بين آيات معركة أُحُد إرشاداً واستثمارا للأحداث التى وقعت فى أُحُد ، حتى إذا عاش الإنسان فى تصور الأحداث فالأحداث تكون ساخنة ، ويكون التقاط العبرة منها قريباً إلى النفس ؛ لأن لها واقعاً يُحتِّمُها ويؤكدها . والحق سبحانه وتعالى يقول من بعد ذلك :

﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ ﴾

أى أنتم لستم بدعاً فى هذه المسألة . و« خلت » تعنى « مضت » ، أى حصلت واقعا فى أزمان سبقت هذا الكلام . وعادة فالأخبار التى يتكلم بها الإنسان مرة تكون خبراً يحتمل الصدق والكذب ، لكن هذه المسألة لا تحتاج إلى صدق أو كذب ؛ لأن الواقع ليس أمراً مستقبلاً ، ولكنه أمر قد سبق ، فبمجرد أن يجىء الكلام لا ننتظر واقعاً يؤكد صدق الكلام ، لأنَّ الواقع قد حدث من قبل ، فيقول سبحانه : « قد خلت من قبلكم سنن » .

والسنن هى الطرق التى يصرف الله بها كونه بما يحقق مصلحة ذلك الكون ؛ ليضمن للإنسان ـ السيد فى هذا الكون ـ ما يحقق مصلحته ، ومصلحةالإنسان تتمثل فى أن يسود الحق فى حياة الإنسان المختار كما ساد الحق فى الكون المسيّر قبلَ الإنسان .

وقد قلنا إن فى هذا الكون تسخيراً : أى لا إرادة له ، لا إرادة للجماد ولا للنبات .

ولا للحيوان فى أن تفعل الخير لك أو لا تفعل . فلم يحدث أن جاء إنسان لأرض صالحة للزراعة ، ووضع فيها بذوراً ، فلم تنبت الأرض وقالت له : لن أعطيك ، ولم تقل الأرض يوماً عن إنسان : إنه كافر فلن أعطى له الرزق .

إن الأرض مسخرة لخدمة الإنسان مادام يأخذ بأسبابها ؛ فهى تؤدى له . والحيوانات أيضا مسخرة لخدمتك لا باختيارك ، ولا بقدرة تسخيرك لها ،ولكن بتسخير الله لها أن تفعل .

وقلنا:إن الإنسان قد تكون عنده مطية ، مثل بعض الفلاحين ، فمرة يجعلها صاحبها تحمل أكوام السباخ من روث الحيوان وفضلاته ، وبعد ذلك يلوح له أن يخرجها من عملها هذا ويجعلها ركوبة له ، ويدللها بالأشياء التى تعرفونها من لجام جميل وسرج أجمل ، ويرفهها فى حياتها وينظفها .

هل فى الحالة الأولى امتنعت المطية عن حمل السباخ أو امتنعت فى الحالة الثانية عن حمل الإنسان ؟ لا ؛ أنت تسيرها مثلما تريد أنت ، فليس لها اختيار . ولا النبات له اختيار ، ولا الجماد له اختيار ، ولا الحيوان أيضاً ، إنما الاختيار للإنسان .

وقد حكم الله اختيار الإنسان بمقادير يكون الإنسان مسخراً فيها حتى لا يظن أنه استقل بالسيادة فأصبحت له قدرة ذاتية . والحق يحكم الإنسان بأشياء يجعلها قهرية على الإنسان كى يظل فى إطار التسخير . ويترك الحق للإنسان أشياء ليبقى له فيها الاختيار . فإذا ما نظرنا إلى الكون وجدنا أن ما لا اختيار فيه لشىء يسير على أحدث نظام ولا تصادم فيه ، والذى فيه اختيار للإنسان هو الذى يختل ، لماذا ؟.

لأن الإنسان قد يختار على غير منهج الذى خَلَق وهو الله ـ سبحانه وتعالى ـ فإذا أردت أن يستقيم لك الأمر أيها المختار فاجعل اختيارك فى إطار منهج الله . وحين تجعل اختيارك فى إطار منهج الله تكون قد أصبحت سويًّا كبقيّة الأجناس وتسير الأمور معك بانتظام .

وعندما تقارن بين شىء للإنسان فيه اختيار وعمل ، وشىء لا اختيار للإنسان فيه

ولا عمل ، فأنت تجد أن الشيء الذى لا اختيار للإنسان فيه مستقيم الأمر ، ولا خلاف فيه أبداً ، أما الشيء الذى فيه اختيار للإنسان ، فأنت تجد فيه الخلاف .

مثال ذلك : لو نظرنا إلى وسيلة مواصلات من الحيوانات كالجمال أو الخيل أو الحمير ، فإننا نجدها تسير فى طريق واحد ، وتتقابل جيئة وذَهابا فلا يحدث تصادم بين حمار وحمار ، ولا قتل لراكب أحد الحمارين .

إن الحيوانات يتفادى ويتحامى بعضها بعضاً حتى لو كان الراكب نائماً . ومهما كان الطريق مزدحماً فالحيوانات لا تتصادم ؛ لأن ذلك من نطاق تسخير الحق للحيوان .

ولننظر إلى الإنسان حين تدخَّل ليصنع وسيلة مواصلات ، صنع الإنسان ألوان السيارات ، يقودها الإنسان ، ومع أن الإنسان هو الذى يقود السيارات ، وبرغم ذلك بدأت تأتى المخالفات والمصادمات والحوادث ؛ لأن للإنسان يداً فى ذلك .

والحق سبحانه وتعالى يريد أن يدلك على أن ما خلق مسخراً بأمر الله وتوجيهه لا يتأتى منه فساد أبداً ، إنما يتأتى الفساد مما لك فيه اختيار ، فحاول أن تختار فى إطار منهج الله . فعندما يقول الحق لك : « افعل كذا ولا تفعل كذا » فعليك أن تصدق وتطيع ؛ لأن الحق سبحانه عندما سخر الأشياء للإنسان سارت بانتظام رائع ، وأنت أيها العبد عندما تطيع الله فإن الأمور فى حياتك تمشى بيسر .

ولذلك قلنا : إن الناس لم تشتك قط أزمة شمس ، ولم يشتكوا أزمة هواء ، لكن لماذا اشتكوا أزمة طعام ؟ إن الإنسان له دخل فى إنتاج الطعام . فما للإنسان فيه دخل يجب أن يحكمه قانون التكليف من الله : « افعل كذا ولا تفعل كذا » .

الكون مخلوق بحق . ومعنى أنه مخلوق بحق أن كل شيء فى الوجود يؤدى مهمته كما أرادها الله ، وكما سُخِّر من أجله . وإذا ما قام الإنسان بتنفيذ التكليف فكل شيء يسير بحق . وإن ترك الإنسان التكليف وأخذ باختياره فإنه يصير إلى باطل ونتج ما هو باطل ، والكون مبنى على الحق .

﴿ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾

(سورة الدخان)

إن الحق جعل للكون قضايا ثابتة ، فلا شيء يعتدى على شيء آخر أبداً . واختيار الإنسان هو الذى يأتى بمقابل الحق وهو الباطل ، ولذلك يصون الله الكون بأن يبين أن الحق يصطدم بالباطل ، والباطل يصطدم بالحق لكن الحق يجيء ويبقى ، والباطل يزهق ويزول ، ويظهر الله لنا ذلك أمام أعيننا يقول تعالى :

﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ ۚ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

إذن فقوله سبحانه : « قد خلت من قبلكم سنن » يعنى : اعتبروا بما سبقكم وانظروا إلى اصطدام الباطل بالحق ، أدام وبقى اصطدام الباطل بالحق ؟ لا ؛ لأن الباطل كان زهوقا . ولذلك نحن نرى أمثلة عملية لذلك لا أقول فى مواكب الناس بعضهم مع بعض ، ولكن فى موكب الباطل مع حق السماء . وحق السماء يمثله الرسل والمناهج التى جاءت من عند الله وكل حق جاء من السماء وجاء من مناهج الله قابله قوم مبطلون .

لماذا ؟ . لأن السماء دائماً لا تتدخل إلا حين يشيع الفساد ، ومادام الفساد يشيع فإن هناك طائفة منتفعة بالفساد ، وهذه الطائفة المنتفعة بالفساد وبالباطل تدافع عنه وبعد ذلك يأتى موكب السماء ليصادم هذا الباطل والفئة المنتصرة للباطل ، فتنشأ معركة ، فقال الحق حينئذ : « قد خلت من قبلكم سنن » . قالها الحق لنعرف أن الباطل زهوق ، وأن كل معارك أهل الأرض مع منهج السماء قد انتصر فيها الحق . ولذلك تأتى سورة العنكبوت لتبين لنا ذلك ، بداية من قوله سبحانه :

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾

(سورة العنكبوت)

هذه هى الصورة الأولى ، وتأتى الصورة الثانية :

﴿ وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾

(سورة العنكبوت)

إذن فانظروا إلى مساكنهم الباقية لتدلكم على ما حدث لهم . والصورة الثالثة :

﴿ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾

(سورة العنكبوت)

وساعة تسمع « وما كانوا سابقين » . أى كأن هناك حاجة تلاحقهم ، والذى يلاحقه شىء فإنه يحاول أن يسبقه ، لكنهم لا يستطيعون . وتأتى السنن واضحة بعد ذلك :

﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾

(سورة العنكبوت)

إذن فصراع الحق والباطل قد تقدم ووقع فى أمم قد سبقتكم وبقيت لها مساكن ، فمن شاء أن يذهب إليها ليتأكد فليذهب ، ولا تزال مدائن صالح ، ولا تزال هناك آثار عاد ، وكل مكان فيه أثر من الآثار . ولذلك يوضح الحق : فإن كنتم تريدون التأكد من ذلك فأنا قد أخبرت ، ومن آمن بى فليصدق خبرى ، ولغير المؤمن ولمن يريد اطمئنان قلبه يقول سبحانه :

﴿ فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾

(الآية ٣٦ سورة النحل)

إن الحق سبحانه وتعالى يمثل صراع الحق ـ وهو الشيء الثابت ـ مع الباطل ، وهذه القضية موجودة حتى فيما لا اختيار له . ويصنعها الحق فيهم ، صراعا بين حق وباطل فيما لا اختيار له لمصلحة الإنسان أيضاً . وقد جعل سبحانه الصراع بين الحق والباطل فى أشياء ليست من الإنسان ولكنها تخدم الإنسان ، وهذه نراها فى الأمور المادية . أما فى القيم فالحق يقول :

﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة الرعد)

إنه سبحانه أنزل من السماء ماء فسال فى الأودية ، والأودية كما نعرفها هى المكان المنحصر بين جبلين ، فإذا نزلت الأمطار على الأعالى فإنها تنحدر إلى الأسفل وتسيل فى الأودية . والوديان هى محل الخصب ؛ لأن الغرين والطمى الذى ينزل من الجبال مع مياه المطر ويترسب ويصير تراباً خصباً يخرج منه الزرع . وكل وادٍ من الوديان يأخذ على قدر سعته ، وباقى المياه يبحث له عن مسلك آخر ، ولو إلى باطن الأرض ، وذلك كان مظهراً مألوفاً فى الجزيرة العربية ، فعندما يأتى السيل فإن الأودية تمتلىء ماءً ، كل وادٍ يأخذ على قدر سعته . « فاحتمل السيل زبداً رابياً » ونحن نراه فى الحقول ونسميه « الريم » الذى يطفو على سطح الماء ، ما الذى يحدث لهذا الريم ؟ إنه يتجمع ويطفو ثم يركن ويميل جانباً . ألم تر القدْر بها لحم تفور ؟. إننا نجد الريم قد طفا على السطح . وهذا الريم فيه أشياء خارجة عن عنصر الشيء الموجود فى القدر ، فإذا ما جاءت حرارة النار أخرجته على السطح ، فإما أن يخرجه الإنسان خارج القدر ، وإما أن يتركه فيتجمد على الجوانب وينتهى .

ومن أين جاء هذا الزبد ؟ إنه يأتى من الأرض ، والأرض فيها أشياء كثيرة ، كجذور النبات وبقايا ما حمله الهواء وتتخلل هذه الأشياء مسام الأرض ، هذه الأشياء عندما توجد فى المسام ، وتأتى الجذور الصغيرة لتنمو فتعوقها عن أخذ غذائها ؛ لذلك فعندما ينزل الحق الماء من السماء فإن الماء يجعل هذه الأشياء تطفو على السطح ؛ ليجعل هناك منفذاً للجذور الصغيرة .

وينزل الله المطر ليغسل التربة كلها ، ويجعل هذه الأشياء تطفو ؛ لأنها غثاء ، ويطفو الغثاء . وساعة أن يطفو الغثاء فإياك أن تفهم أن ذلك علو ، إنه علو إلى انتهاء ، كذلك فورة الباطل .

إياك أنن تظن أن الزَبَد له فائدة ، أو أن ارتفاع الريم كان علواً على ما فى القدر ، لا . إنه تطهيرٌ لما فى القدر أو الإناء ، ولهذا قال الحق : « فاحتمل السيل زبداً رابياً » .

وإن لم تذهب آثار الريم بحركة الماء التموجية فإنها ستذهب بطريقة أو بأخرى . ولننظر إلى الأشياء القذرة التى تلقى فى البحر نجد أنها بعد مدة قد خرجت إلى الشاطىء .

﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾

(من الآية ٣١ سورة المدثر)

إنها تخرج على الشاطىء ويجمعها المكلفون بتنظيف الشاطىء . وإلا كيف تتم صيانة الماء ؟ إنه سبحانه يجعل الماء ينظف نفسه بحركته الذاتية . إذن فالماء عندما ينزل سيلاً ، فإنه ينقى التربة من العوائق التى تعوق غذاء الجذيرات الصغيرة ، وقد لا يكتفى بعضنا بهذا المثل ، فيضرب لنا الله مثلاً آخر :

﴿ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾

(من الآية ١٧ سورة الرعد)

ونحن نرى هذه الحكاية عندما يضعون أى معدن فى النار ، فإن المعدن ينصهر ويصير كالعجينة وتخرج منه فقاقيع ونحن نسميها خبث المعدن ، وعندما نخرج الخبث من المعدن فإنه يصير قوياً ، إذن فالنار قد صهرت المعدن ، وأخرجت منه الخبث الضار فيه،أو الذى يجعله لا يؤدى مهمته بكفاءة عالية ، فأنا قد أصنع من الحديد درعاً قوية أو أريد أن أستخرج منه الصلب ، وهذه العمليات معناها أننا نصْهر الحديد بالنار لنزيل خبثه ليزداد قوة . وكذلك الذهب والفضة ساعة نريد أن نخلصهما من هذه الآثار فإننا نصهرهما لنخرج منهما الأشياء الخارجة عنهما أى التى تختلط بهما وتشوبهما وهى ليست منهما .

لماذا إذن يا ربّى هذا التمثيل الحسى فى المياه ؟ والحلية التى لا تؤدى ضرورة ، والمتاع وهو الذى يؤدى ضرورة ؟ إنه سبحانه يقول : « كذلك يضرب الله الحق والباطل » .

إن الحق كالماء ، والحق كالنار ، والماء يحمل الزبد الرابى بعيداً عن مسام الأرض ، والنار تخرج الزبد والخَبث من المعادن ، وتجعل المعادن خالصة للمنفعة المطلوبة لنا ، كذلك يضرب الله الحق والباطل : « فأما الزبد فيذهب جفاءً » .

وجفاءً أى مطروحاً مرمياً ، « وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض » . ذلك هو صراع الحق والباطل فى المبادىء والقيم ويصوره الله فى الأمور المادية . ومن العجيب أنه يصوره بمتناقضين ولكنهما متناقضان يؤديان مهمة واحدة ، ماء ونار ، فإياك حين ترى شيئاً يناقض شيئاً أن تقول : هذا يناقض ذاك ، لا.لأن هذا الشىء مطلوب لمهمة ، وذاك الشىء مطلوب لمهمة أخرى .

إذن فقول الحق سبحانه : « قد خلت من قبلكم سنن » هو لفت لنا إلى صراع الحق مع الباطل ، وأن الإنسان قد يرى الباطل مرة وله فورة وعلو ، ونقول : هذا إلى جُفاء . وهذه سنة من سنن الحياة . وإن أردتم أن تتأكدوا منهما ، فالتفتوا إلى دقة قول الحق تعالى :

« فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين » .

وهنا ملحظ عام ، وملحظ خاص ، الملحظ العام : أننا نفهم أن المقصود بذلك السير على الأرض ، وتلك هى حدود رؤيتنا ، لكن حين يتكلم الله فرؤية الله أشمل فهو الخالق لهذا الكون ، ونحن مازلنا نجهل جزئيات فى هذا الكون ، ولم نعرف بعضها إلا أخيراً ، وخالق الكون هو الذى يعلم كل الخبايا .

نحن نقول : إننا نسير على الأرض ؛ لأننا كنا نفهم أن هذه الأرض ليس عليها إلّا نحن فقط ، ثم تبين لنا ـ بعد أن أخذ العلم حظه ـ أنه لولا وجود الهواء فى الأرض لما صلحت للحياة . ولذلك فعندما تدور الأرض . فالهواء الذى حولها يدور معها ويسمونه الغلاف الجوى . إذن فالغلاف الجوى جزء من الأرض وله امتداد كبير ، فالإنسان عندما يسير فإنه يسير فى الأرض ، أما الذى يسير على الأرض فهو الذى يسير فوق الغلاف الجوى ، أما السائر على اليابسة ، والغلاف الجوى مازال فوقه فهو يسير فى الأرض لا على الأرض .

ومادامت المسألة هى سنن تقدمت ، ويريد الله منا أن نعتبر بالسنن المتقدمة ، لذلك يقول لنا : « فسيروا فى الأرض » نسير بماذا ؟ . إما أن نسير بالانتقال ، أو نسير بالأفكار ؛ لأن الإنسان قد لا يملك القدرة على السير ويترك هذه المهمة للرحالة ، والرحالة ـ مثلاً ـ هم الذين ذهبوا إلى جنوب الجزيرة ، ورأوا وادى الأحقاف ووجدوا أن عاصفة رمل واحدة تطمر قافلة بتمامها .

إذن ففيه عواصف وارت الكثير من الأشياء ، فعاصفة واحدة تطمر قافلة . فكم من العواصف قد هبت على مرّ هذه القرون ؟ والحق سبحانه يخبرنا بإرم ذات العماد فيقول :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَادِ ۝٨ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِي ٱلْأَوْتَادِ ۝١٠ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِي ٱلْبِلَادِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣ ﴾ (سورة الفجر)

إنه سبحانه يخبرنا أن إرم ذات العماد التى لم يخلق مثلها فى البلاد أى متفوقة على حضارة مصر القديمة . وهى عجيبة وفيها أكثر من عجيبة فأين هى الآن ؟ .

ومادامت الرمال بعاصفة واحدة ـ كما قلنا ـ تطمر قافلة ، فكم عاصفة مرت على هذه البلاد ؟ . ولذلك نجد أننا لا نزال جميعاً إلى الآن حين نريد أن ننقب عن الآثار فلا بد أن نحفر تحت الأرض . لماذا هذا الحفر وقد كانت هذه الآثار فوق الأرض ؟ لقد غطتها العواصف الرملية .

والمثال على ذلك : أنَّك تغيب عن بيتك شهراً واحداً وتعود نتجد من التراب الناعم ما يغطى أرض البيت على الرغم من إغلاق النوافذ . فماذا تجد من حجم التراب لو غبت عن بيتك عاماً ، أو عامين ، أو ثلاثة أعوام ، رغم إحكام وإغلاق النوافذ والفتحات بالمطاط وخلافه ؟ ولكن التراب الناعم يتسرب ويغطى الأثاث والأرض . وإذا كانت هذه الأمور تحدث فى منازلنا فما بالك بالمنطقة التى فيها أعاصير وعواصف رملية ؟ هل تطمر المدن أو لا ؟

إن المدن والحضارات تطمر تحت الرمال ؛ لذلك فعندما ننقب عن الآثار فنحن نحفر فى الأرض ، وهذا لون من السير فى الأرض للرؤية والعظة . وحين يقول الحق : « فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين » فماذا يعنى بعاقبة المكذبين ؟ حين تكون أمة قد تحضرت حضارة كبيرة يقول عنها الحق :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَادِ ۝٨ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِي ٱلْأَوْتَادِ ۝١٠ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِي ٱلْبِلَادِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ۝١٢ ﴾

(سورة الفجر)

إن الذى أقام هذه الحضارات ألا يستطيع أن يجعل لهذه الحضارة ما يصونها ؟ كيف يتم القضاء على هذه الحضارات الواسعة واندثارها وذهابها ؟ .

لابد أن ذلك يتم بقوة أعلى منها ، فهذه الحضارات رغم تقدمها الرهيب لم تستطع أن تحفظ نفسها من الفناء . إنها القوة الأعلى منها ، وهكذا نصدق قوله الحق : « فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين » . إنه القيّوم الذى يرى كل الخلق ، فمن يطغى ويفسد فليلق النهاية نفسها . إذن فقوله سبحانه يحمل كل الصدق :

« قد خلت من قبلكم سنن فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين »

وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ ﴾

انظر إلى الكلمة « هذا بيان للناس » إن البيانات عندما تتأتى تأخذ قوتها وسطوتها وعظمتها من قوة من أصدر البيان ؛ أنت ساعة تجد ثورة فى مجتمع ما فإننا نسمع كلمة « بيان رقم واحد » تهتز له الدنيا وهو بيان قادم من بشر فما بالنا بالبيان القادم من الله ؟

إنه إيضاح من الله : أنا لن آخذكم على غرة « هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين » و« الهدى » : كما نعرف هو الطريق الموصل للغاية المرجوة . و« الموعظة » معناها : حمل النفس ترغيباً وترهيباً ، لعمل الخير بالترغيب ، والبعد عن الشر بالترهيب ، تلك هى الموعظة .

وكل هذه الأشياء عندما جاءت فى ثنايا آيات أُحُد بعد أن أخذنا منها العبرة والحدث مازال ساخناً . ولذلك فقبل أن يكمل لنا قصة أُحُد استثار النفوس بهذه المسألة ، ووضع لنا الأشياء المادية والقيمية ؛ لنأخذ بها فى حياتنا ، وحتى لا تنتهى قصة أُحُد وينصرف الناس عن العظات التى كانت فيها .

ومادامت المسألة هكذا ، وكان المقاتلون فى سبيل الله هم جنود الحق ، وعرفوا ذلك بتأييد الله لهم ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم بينهم . وهو حامل المعجزة الدالة على صدقه ؛ لذلك فالذى حدث فى معركة أُحُد لا يصح أن يضعفكم ؛ لأنكم تعرفون كيف يسند الله الحق ويقويه . وتعرفون حملة الله على الباطل . وقد أوضحنا لكم السنن والبيان ، ولذلك يقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ ﴾

والمقصود بقوله : « ولا تهنوا » أى لا تضعفوا ، وهى أمر خاص بالمسألة البدنية ؛ لأن الجراحات أنهكت الكثيرين فى موقعة أُحُد لدرجة أن بعضهم أقعد ، ولدرجة أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يقدر أن يصعد الجبل ، وحمله طلحة بن عبيد الله على ظهره ليقوم ، لذلك قال الحق : « ولا تهنوا » ، لأنك عندما تستحضر أنك مؤمن وأن الله لن يخلى بينك وبين جنود الباطل لأنك نصير للحق ، والحق من الله وهو الحق لا يسلم نبيه وقومه لأعدائهم فيوم تأتى لك هذه المعانى إياك أن تضعف . والضعف هو نقصان قوة البدن .

« ولا تحزنوا » والحزن مواجيد قلبية ، وهم قد حزنوا فقد مات منهم كثير . مات منهم خمسة وسبعون شهيداً ، خمسة من المهاجرين ، وسبعون من الأنصار ، وهذه عملية صعبة وشاقة ، وقد حزن رسول الله صلى الله عليه وسلم على الشهداء ، وغضب لمقتل حمزة ـ رضى الله عنه ـ وقال : « لن أُصاب بمثلك أبداً ! وما وقفت موقفا قط أغيظ إلىّ من هذا » ثم قال : « لئن أظهرنى الله على قريش فى موطن من المواطن لأمثلن بثلاثين رجلا منهم مكانك » .

فقال الحق : « ولا تحزنوا » ؛ لماذا ؟ لأنك يجب أن تقارن الحدث بالغاية من الحدث .

صحيح أن القتل صعب وإزهاق للنفس ، ولكن انظر إلى أين ذهب . وانظر ماذا خلف من بعده . أما هو فقد ذهب إلى حياة عند ربه وهى ليست كالحياة عندكم . إن الحياة عندنا لها مقاييس ، والحياة عند ربنا لها مقاييس ، فهل مقاييسنا أعلى من مقاييسه ؟لا ، حاشا لله .

إذن فإذا نظرت إليه هو فاعلم أنه ذهب لخير مما ترك ، فلا تحزن عليه بل تفرح له ؛ لأنه مادامت الغاية ستصل إلى هذه المسألة . إذن فقد قصر له مسافة الحياة ، ومادامت الغاية أن يصل إلى رحمة الله وإلى حياة عند الله بكافة معانيها ، فهو سعيد بجوار ربه ، ونحن فى الغايات الدنيوية عندما نريد أن نذهب إلى مكان نُسرّ ممن يعجل لنا الزمن لنصل إلى هذا المكان .

فبدلاً من أن أذهب إلى الإسكندرية ماشياً أذهب راكباً حصاناً أو أذهب راكباً سيارة ، والمترفه يذهب راكباً طائرة ، فإذا كانت الغاية مرجوَّة ومحبّبة إلى النفس ، وبعد ذلك يجىء لك حدث يقرب لك المسافة من الغاية ، فلماذا تحزن إذن ؟ لقد استشهد . إياك أن تقول : إنّ الله حرمنى قوته فى نصرة الحق ، لا . هو أعطى قوة أخرى لكثير من خلقه نصر بهم الحق ، إنك عندما تعرف أن إنساناً باع نفسه لله ، لابد أن تعرف أن الغاية عظيمة ؛ ولذلك كان الرسول صلى الله عليه وسلم فى معركة بدر ، يقدم أهله ؛ لأنه يعرف أنه إن قُتل واحد منهم إلى أين سيذهب ، إذن فهو يحب أهله ، لكنه يحبهم الحب الكبير ، والناس تحب أهلها هنا أيضاً لكن الحب الدنيوى .

« ولا تحزنوا » على ما فاتكم من الغنائم أو لا تحزنوا على ما فاتكم من النصر لماذا ؟ وتأتى الإجابة ، « وأنتم الأعلون » . . ولذلك جاء مصداق ذلك حينما نادى أبو سفيان فقال : « اعل هبل » أى أن إلههم صار عالياً ، فقال الرسول لأصحابه : ألا تردون عليهم ؟، قالوا : بماذا نرد قال : قولوا لهم : الله أعلى وأجلّ فقال أبو سفيان : « لنا العزى ولا عزى لكم ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « أجيبوه » قالوا : ما نقول ؟ قال : « قولوا الله مولانا ولا مولى لكم » ثم قال أبو سفيان : إن موعدكم « بدر » العام المقبل ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم

لرجل من أصحابه : « قل نعم هو بيننا وبينك موعد »[١]

فـ « وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين » . فما دمتم على الإيمان فأنتم الأعلون ، وإذا أردتم أن تعرفوا معنى « الأعلون » حقاً ، فقارنوا معركة « أُحد » بمعركة « بدر » ، هم قتلوا منكم فى أُحد ، وأنتم قتلتم منهم فى بدر . ولكنكم أسرتم منهم فى بدر ، ولم يأسروا منكم أحداً فى « أُحد » . وأنتم غنمتم فى بدر ، ولم يغنموا شيئاً فى أُحد .

وأنتم الأعلون لأن الله حمى مدينتكم مع أنه لا حامية فيها ممن يكون فيه معنى الجندية . كل ذلك وأنتم الأعلون ، هذا إذا نظرنا إلى معركة بمعركة . وإن نظرنا إلى المعركة نفسها « أُحد » وندع بدراً وحدها ، فى ظل قوله تعالى : « وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين » لقد ثبتت تلك القضية لأنكم حينما كنتم مؤمنين ـ ومن شرط الإيمان اتباع أمر الذى لا ينطق عن الهوى ـ انتصرتم . وانتصرتم انتصاراً رائعا ؛ لأنكم قتلتم فى أول جولة للحرب بضعاً وعشرين من صناديدهم وفيهم صاحب الراية . ولكنكم حينما خالفتم أمر النبى صلى الله عليه وسلم ، تلخلخ الإيمان فى قلوبكم .

إذن فالعملية التى حدثت تؤكد صدق « وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين » . فأنتم علوتم فى أول الأمر ، وعندما خالفتم الأمر صار لكم ما صار ؛ فقد صدقت القضية فى قول الله : « وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين » .

وأيضا فإنكم لو نظرتم إلى المعركة نفسها لوجدتم أن عدوّكم لم يبق فى أرض المعركة ، بل أنتم الذين بقيتم فى موضع المعركة . وأين ذهب هو ؟ أذهب إلى موقع آخر ينال فيه غلبة ونصرا ؟ لم يكن هناك إلا المدينة ، والمدينة ليس فيها أحد ، ولم يذهب عدوكم إلى هناك ، وإنما ذهب ناحية مكة ، إذن فهو الذى هرب .

وبعد ذلك ماذا حدث ؟ ألم يؤذن مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الناس ويطلب العدوّ مرهباً له ليظنوا به القوة ، وإن الذى أصابهم لم يوهنهم عن عدوهم ؟

---

(١) رواه ابن إسحاق وأحمد والبخارى ومسلم .

ولقد خرج رسول الله ، مع من ؟ أجاء بحامية لم تشهد المعركة ؟ لا . بل قال عليه الصلاة والسلام مناديا المسلمين : « إلىّ عباد الله » ، فالذين شهدوا المعركة سبعمائة ، جرح منهم الكثير وقتل منهم خمسة وسبعون ، فيهم حمزة ، ومصعب بن عمير ، وعبدالله بن جحش ، وشماس بن عثمان ، وسعد مولى عتبة ، هؤلاء خمسة من المهاجرين ، والباقى من الأنصار ، هؤلاء مطروحون من العدد الذى شاهد أول الموقعة ، حتى أن رسول الله لم يأخذ بدلاً منهم من المدينة من القوم الذين عرضوا أنفسهم ليكونوا مع الجيش الذى يطارد قريشاً ، بل آثر الرسول أن يذهب بمن ذهب معه إلى المعركة أنفسهم ، ولم يكن منهم بطبيعة الحال الشهداء أو الجرحى .

لم يقبل الرسول صلى الله عليه وسلم ممن لم يشهد المعركة إلا واحداً . وهوسيدنا جابر بن عبدالله . الذى لم يخرج فى معركة أُحد واعتذر إلى رسول الله بأن أباه عبدالله بن عمرو بن حرام قد خلّفه على بنات له سبع وقال له :

يا بنىّ إنه لا ينبغى لى ولا لك أن نترك هؤلاء النسوة لا رَجَل فيهن ولست بالذى أوثرك بالجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على نَفْسى فتخلّفْ على أخواتك فتخلف عليهن فقبل رسول الله عذره،وأذن له فخرج معه وطاردهم رسول الله ومن معه إلى حمراء الأسد ، أما والده عبدالله بن عمرو فقد استشهد فى أُحد ومع ذلك فقد طلب من رسول الله على الرغم من استشهاد أبيه أن يخرج إلى حمراء الأسد . وذلك لنعلم أن الله يقول :

﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾

(من الآية ٣١ سورة المدثر)

هذا وإن واحداً من المشركين الذين كانوا موضع سر رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن حلفائه وهو معبد الخزاعى ، مَرَّ على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أُحد وقال له : يا محمد : أما والله لقد عز علينا ما أصابك ، ثم لقى أبا سفيان بن حرب ومن معه بالروحاء[1] وقد أجمعوا الرجعة إلى رسول الله صلى الله عليه

(١) الروحاء : موضع بين الحرمين على ثلاثين أو أربعين ميلا من المدينة ـ القاموس المحيط .

وسلم وأصحابه فقال له أبو سفيان: ما وراءك يا معبد ؟ قال : محمد قد خرج فى أصحابه يطلبكم فى جمع لم أر مثله ، ولم يزل بهم حتى ثنى أبا سفيان ومن معه فولوا وجوههم إلى مكة خائفين مسرعين ، وقد ذهب رسول الله إلى حمراء الأسد فلم يجد أحداً فعسكر رسول الله ثلاثة أيام هناك ، ومعنى ذلك أنهم هم الذين فروا من المعركة . إذن فأنتم الأعلون ، ولكن لاحظوا الشرط « إن كنتم مؤمنين » . ثم بعد ذلك يُسَلِّى الله المؤمنين فيقول :

﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ ﴾

وقد تكلمنا ـ من قبل ـ عن « المس » وهو : إصابة بدون حس . . أى لمس لكنك لا تحس بحرارة أو نعومة مثلا ، إنما « اللمس » هو أن تحس فى الشىء حرارة أو نعومة ويحتاج إلى الالتصاق المؤقت ، إنما « المس » هو ما لا تكاد تدرك به شيئاً ، و« القَرْح » هو : الجراح ، وفى لغة أخرى تقول « القُرح » ـ بضم القاف ـ وأقول: القُرح وهو الألم الناشىء من الجراح ، كى يكون لكل لفظ معنى .

وأنت قد ترى بعض الألفاظ فتظن أن معناها واحد فى الجملة ، إلا أن لكل معنى منها ملحظاً ، أنت تسمع مثلاً : رأى ، ونظر ، ولمح ، ورمق ، ورنا . كل هذه تدل على البصر . لكن كل لفظ له معنى :

رمق: رأى بمؤخر عينيه ، ولمح: أى شاهد من بعد ، ورنا: نظر بإطالة ، وهكذا .

ويقال أيضاً : جلس ، وقعد ، فالمعنى العام يكاد يكون واحداً ، لكن المعنى الدقيق يوضح أن الجلوس يكون عن اضطجاع . والقعود عن قيام ، كان قائماً فقعد ، والاثنان ينتهيان إلى وضع واحد ، فكذلك « قَرح » و« قُرح » كل لفظ له معنى دقيق .

ويقولون ـ مثلاً ـ : إن للأسد أسماء كثيرة ، فيقال : « الأسد » و« الغضنفر » و« الرئبال » و« الوَرْد » و« القسْورة » . صحيح هذه أسماء للأسد ، ولكن لكل اسم معنى محدد ، فـ « الأسد » هو اللفظ العام والعَلَم على هذاالحيوان ، و« الغضنفر » هو الأسد عندما ينفش لبدته ، و« الوَرْد » هو حالة للأسد عندما يكون قد مط صلبه ، فكل موقف للأسد له معنى خاص به .

وقوله الحق : « إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله » لاحظ أن المتكلم هو الله فافطن جيداً إلى مرادات كلامه . ونعرف أنه فى الشرط والجواب ، أن الشرط يأتى أولاً ثم يأتى الجواب من بعد ذلك مترتبا عليه ونتيجة له ، كقولنا « إن تذاكر تنجح » إن النجاح هو جواب لشرط وهو الاستذكار .

وقوله الحق : « إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله » فهل المعنى المراد من هذه الجملة الشرطية أن مس القرح للكافرين الذى حدث فى بدر كان كجزاء لمس القرح للمؤمنين فى أحد ؟ لا ، إنه لا يكون أبداً جواباً لشرط ؛ لأنه لو كان جواب شرط لقال الحق : إن يمسسكم قرح فسيمس القوم قرح مثله . ولكنه لم يقل ذلك لأن القرح الذى أصاب المشركين فى بدر كان أسبق من القرح الذى أصاب المؤمنين فى أحد .

وكأن الحق يقول : إن يمسسكم قرح فلا تبتئسوا ؛ فقد مس القوم قرح مثله ، وليس ذلك جواب الشرط ، ولكنه جاء ليُستدل به على جواب الشرط ، أى أنه تعليل لجواب الشرط ، أقول ذلك حتى لا يتدخل دعىّ من الأدعياء ويتهم القرآن ـ والعياذ بالله ـ بما ليس فيه . إنه ـ سبحانه ـ يثبت المؤمنين و يسلّيهم . ومثال ذلك ما نقوله نحن لواحد إذا أصابته كارثة :

إن كان قد حدث لك كذا ، فقد حدث لخصمك مثله . إذن فنحن نسليه . والمقصود هنا أن الحق يسلّى المؤمنين : إن يمسسكم قرح فلا تبتئسوا ، فليكن عندكم سُلْوٌ ولْتجتازوا هذا الأمر ولترض به نفوسكم ؛ لأن القوم قد مسهم قرح مثله .

والأسوة والتسلية ، هل تأتى بما وقع بالفعل أم بما سيقع ؟ . إنها تأتى بما وقع بالفعل ، إذن فهى تعلل تعليلاً صحيحاً : « إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله » .

وأطلق الحق سبحانه من بعد ذلك قضية عامة : « وتلك الأيام نداولها بين الناس » . ما معنى المداولة ؟ . داول أى نقل الشىء من واحد لآخر . ونحن هنا أمام موقعتين ؛ غزوة بدر وغزوة أُحُد . وكان النصر للمسلمين فى غزوة بدر بالإجماع ، أما غزوة أُحُد فلم يكن فيها هزيمة بالإجماع ولم يكن فيها نصر .

إذن فقوله الحق : « وتلك الأيام نداولها بين الناس » أى مع التسليم جدلاً بأن الكفار قد انتصروا ـ رغم أن هذا لم يحدث ـ فإننا نقلنا النصر منكم أيها المؤمنون إليهم .

وإياك أن تفوتك هذه الملاحظة ، بأن النصر لم ينتقل إليهم إلا بمخالفة منكم أيها المؤمنون . ومعنى مخالفة منكم ، أى أنكم طرحتم المنهج . ومعنى أنكم طرحتم المنهج ، أى أنكم أصبحتم مجرد « ناس » مثلهم .

ومادمتم قد صرتم مجرد ناس بدون منهج مثلهم ومتساوين معهم ، فإن النصر لكم يوم ، ولهم يوم . ولنلحظ أن الحق لم يقل : إن المداولة بين الناس هى مداولة بين مؤمنين وكافرين .

فإن ظللتم مؤمنين فلا يمكن أن ينتقل النصر إلى الكفار ، إنما النصر يكون لكم . انظر ماذا قال : « وتلك الأيام نداولها بين الناس » ولم يقل بين المؤمنين والكافرين ، أى بينكم وبين قريش .

وليس المقصود بالأيام ما هو معروف لدى الناس من أوقات تضم الليل والنهار ، ولكن المقصود بـ« الأيام » هنا هو أوقات النصر أو أوقات الغلبة . ويقال أيضاً : « يوم فلان على فلان » إذن «وتلك الأيام نداولها بين الناس » لم تتضمن المداولة بين المؤمنين والكافرين ، ولكنها مداولة بين الذين مالت أبصارهم إلى الغنائم فتخلخل إيمانهم ، ففازت قريش ظاهرياً . فلو ظللتم على إيمانكم لما حدث ذلك أبداً . لكنكم تخليتم عن منهج ربكم ، وبذلك استويتم وتساويتم مع غير المؤمنين ، وبذلك تكون الأيام لذلك مرة ولهذا مرة أخرى ، إنها مطلق عدالة .

علينا أن نتذكر الشرط السابق ، لا لعدم الهزيمة . بل للعلو والنصر :

« وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين » .

إن الحق سبحانه فى مسألة مداولة الأيام ينبه المؤمنين الذين تخلخل إيمانهم : مادمتم اشتركتم معهم فى كونكم مجرد « أناس » فيصبح النصر يوماً لهم ويوماً لكم ، والذكى العبقرىّ الفطن الذى يحسن التصرف هو من يغلب ؛ لأن المعركة هنا تدور بين قوة بشر مقابل قوة بشر . ومادام المسلمون قد تخلوا عن منهج الله فقد صاروا مجرد بشر فى مواجهة بشر . ولذلك قلنا:إنه عندما تخلى الرماة عن إنفاذ أمر القائد الأعلى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ظهرت عبقرية خالد بن الوليد على عبقرية المقاتلين المسلمين .

ويجب أن نلحظ فى قوله الحق : « وتلك الأيام نداولها بين الناس » أننا لا يمكن أن نقول : إن مداولة الأيام تكون بين المؤمنين والكافرين ، إنما هى بين الناس ؛ لأن الناس هم مجموعة الإنسان ، فإن تجردوا عن منهج السماء فهم سواسية ، وصاحب الحيلة يغلب ، أو صاحب القوة يغلب ، أو صاحب العدد أو العُدّة يغلب .

ولكن ما الذى يعوض كل تلك الإمكانات ويحقق النصر ؟ إنك إن تأخذ الله فى جانبك فلن يجرؤ مخلوق أن يكون فى مواجهة الحق فى معركة . لقد قلنا قديماً وعلينا أن نعيها جيداً : إن الولد الصغير حينما يضطهده زملاؤه فيلجأ إلى حِضن أبيه ، عندئذ ينصرف كل منهم إلى حاله ، لكن أقرانه يستطيعون أن يهزموه عندما يبتعد

عن أبيه . فما بالنا ونحن عيال الله ؟ وكذلك شأن الكفار مع المؤمنين .

إن الكفار قادرون على الانفراد بالمؤمنين حينما يتخلى المؤمنون عن منهج الله ؛ لأن الله لن ينصر أناساً ليسوا على منهجه ، فلو نصر الله أناساً على غير منهجه فإن ذلك يبطل قضية الإيمان . وعندما نستقرىء القرآن الكريم ؛ نجد أن كل خبر عن الإنسان وهو معزول عن المنهج الإلهى هو خبر كله شر .

فسبحانه يقول :

﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ ﴾

(سورة العصر)

إن الإنسان على اطلاقه لفى خسر ، ولكن من الذى ينجو من الخسران ؟ وتأتى الإجابة من الحق فيقول :

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣ ﴾

(سورة العصر)

وتتأكد القضية فى موضع آخر من القرآن الكريم فيقول ـ سبحانه ـ

﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ۝٢١ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ۝٢٢ ﴾

(سورة المعارج)

إذن كل كلام ـ فى القرآن ـ عن الإنسان على إطلاقه يأتى من ناحية الشر . وما الذى ينجيه من ذلك ؟ إنه المنهج الإلهى .

إذن فقول الحق : « وتلك الأيام نداولها بين الناس » تحمل تأنيبا ولذعة خفيفة لمن أعلنوا الإيمان ولكنهم تخلفوا عن أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أُحد .

راجع أصله وخرج أحاديثه الدكتور أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه : « وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين » .

ففى وقت النصر نجد حتى الذى لم يشترك فى المعركة يريد أن يُدخل نفسه ضِمن المنتصرين . لكن وقت الهزيمة فالحق يَظْهر ، والذى يظل فى جانب الهزيمة معترفا بأنه شارك فى نزولها بالمسلمين وان لم يكن شارك فقد عذر أو لام من كان سببا فيها ، وهو مع ذلك يسهم فى حمل أوزارها وآثارها الضارة ، ويتحمل ويشارك فى المسئولية ، إنه بذلك يكون صادقا .

وقد يقول قائل : هل الله لا يعلم الذين آمنوا ؟ لا ، إنه سبحانه وتعالى يعلم الذين آمنوا سواء حدثت معركة أو لم تحدث . لكن علم الله الأزلى الغيبىّ لا نرى نحن به الحُجَّة ، ولذلك لا تكون الحجَّة ظاهرة بيننا ، ولكن حين يبرزُ علم الله إلى الوجود أمامنا فإنه علم تقوم به الحُجة واضحة على من آمن ، وعلى من لم يحسن الإيمان ، وذلك حتى لا يدَّعى أحد لنفسه أنه كان سيفعل ، لكن الفرصة لم تواته .

وهكذا تأتى المواقف الاختبارية والابتلاءات ليعلم كل منا نفسه وتبرز الحُجة علينا جميعا . إذن : فهناك فرق بين علم الله الأزلىّ للأشياء كما سوف تحدث ، ولكن لا تقوم به الحُجة علينا . فقد يدعى البعض أنه لو قامت معركة شديدة فإنهم سوف يصمدون ، ولكن عندما تقوم المعركة بالفعل فنحن نرى مَنْ الصّامد ومَنْ هو غير ذلك من المتخاذلين الفارين ؟ ولنضرب لذلك مثلا ولله المثل الأعلى : نحن فى حياتنا العادية نجد أن عميد إحدى الكليات يأتى إلى المدرس ويقول له : نحن نريد أن نعقد امتحانا لنتعرف على المتفوقين من الطلاب ، ونمنح كُلا منهم جائزة .

فيرد المدرس : ولماذا الامتحان ؟ إننى أستطيع أن أقول لك : من هم المتفوقون ، وأن أرتبهم لك من الأول ومن الثانى وهكذا .

لكن عميد الكلية يصر على أن يعقد امتحانا حتى لا يكون لأحد حجة ، ويختار العميد مدرسا آخر ليضع هذا الامتحان . وتظهر النتيجة ويكون توقع المدرس الأول

هو الصائب ، وهكذا يكون تفوُق هؤلاء الطلاب تفوقا بحُجة . وإذا كان ذلك يحدث فى المستوى البشرى فما بالنا بعلم الله الأزلى المطلق ؟

إن الحق بعلمه الأزلى يعلم كل شىء ومُحيط بكل شىء ، وهو سبحانه لا يقول لنا : أنا كنت أعلم أنكم لودخلتم معركة ستفعلون كذا وكذا . .

وكان يمكن أن يجادلوا ويدعوا لأنفسهم أشياء ليست فيهم ، لكن الحق يضع المعركة وتكون النتيجة مطابقة لما يعلمه الله أزلا . إذن فالتغيير هنا لا يكون فى علم الله ، لكن التغيير يكون فى المعلوم لله ، ليس فى العالِم بل فى المعلوم بحيث نراه حُجة علينا .

ويقول الحق : « ويتخذ منكم شهداء » وساعة تسمع كلمة « يتخذ » هذه ؛ اعرف أنها اصطفاء واختيار . وسبحانه يقول :

﴿ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴾

(من الآية ١٢٥ سورة النساء)

أى أنه جل وعلا قد آثر إبراهيم واصطفاه ، إذن فالاتخاذ دائما هو أن يَأخذه إلى جانبه لمزية له ورفعة لمكانته .

وحين يقول الحق : « ويتخذ منكم شهداء » فنحن نعرف أن « شهداء » هى جمع شهيد ، وكلمة شهيد لها معانٍ متعددة ، فالشهيد فى القتال هو الذى يُقتل فى المعركة ، وهذا سيكون حيا ويرزق عند ربه . وإياك أن تقول : إننا عندما نفتح قبر الشهيد سنجده عظاما وترابا . وهذا يعنى أنه سلب الحياة . . لا ، إن الله وضح أن الشهيد حىّ عِنده ، وليس حيا عند البشر . وإذا فتح أحد من الناس القبر على الشهيد فسيراه عظاما وترابا ؛ فقد جعل الله سبحانه للشهيد حياة عنده لا عندنا .

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

إذن فللشهداء عند ربهم حياة لا نعرف كنهها ، ويوم نفتح عليهم قبورهم تصير أمرا مُحسا ، ولكن الله نبهنا أن الشهداء أحياء عند ربهم . وعندما نتأمل كلمة « شهداء » نجد أنها تعنى أيضا الشهادة على الحق الذى قامت من أجله المعركة ، وكل إنسان يُحب الخير لنفسه ، فلو لم يعلم هؤلاء أن إقدامهم على ما يؤدى إلى قتلهم خير لهم من بقائهم على حياتهم لما فعلوا .

وبذلك يكون الواحد منهم شاهدا للدعوة وشهيدا عليها . وقد ينصرف المعنى فى « شهداء » إلى أنهم بَلَّغوا الدعوة حتى انتهت دماؤهم . ويذيل الحق الآية بقوله : « والله لا يحب الظالمين » .

ومعنى هذا التذييل أن المعركة يجب أن تدور فى إطار الحق ، ومثلما قلنا : مادام الناس متخلفين عن المنهج فإن الله لا يظلمهم بل ستدور المعركة صراع بشر لبشر ، والقادر من الطرفين هو الذى يغلب . فالحق سبحانه بالرغم من كراهيته للكفر إلا أنه لا يُحابى المسلم الذى لا يتمسك بمطلوب الإيمان ، لذلك قد يغلب الكافرُ المسلمَ الذى لا يتمسك بمطلوب الإيمان ، ولكن إن تمسك المؤمنون بمطلوب الإيمان فالنصر مضمون لهم بأمر الله . وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ ﴾

والتمحيص يختلف عن المحْق ، لأن التمحيص هو تطهير الأشياء وتخليصها من العناصر الضارة ، أما المحق فهو الذهاب بها كلها . ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ ﴾

إن الإيمان ليس مجرد كلمة تقال هكذا ، بل لابد من تجربة تثبت أنكم فُتِنتُم ونجحتم فى الفتنة ، والفتنة هى الامتحان . إذن فلا تحسبوا أن المسألة سوف تمر بسهولة ويكتفى منكم أن تقولوا نحن نحمل دعوة الحق ، لا . إذا كنتم صادقين فى قولكم يلزمكم أن تكونوا أسوة حين يكون الحق ضعيفا ؛ فالحق حين يكون قويا فهو لا يحتاج إلى أسوة . بل قضية الإيمان الحق تحتاج إلى الأسوة وقت الضعف . ودخول الجنة له اختبار يجب أن يجتازه المؤمن .

والحق يقول : « ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين » وعندما نسمع ذلك فعلينا أن نعرف أن الله يعلم علما أزليا مَن المجاهد ومن الصابر ، ولكنه علم لا تقوم به الحُجة على الغير ، فإذا حدث له واقع صار حُجة على الغير . وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ ﴾

وكان القوم الذين فاتهم شرف الاشتراك فى بدر قد أرادوا أن يذهبوا مع الرسول للمشاركة فى غزوة أُحد ، ويوضح لهم الحق : أكنتم تظنون أن تمنى المعارك وحده يحقق النصر ، وهل كنتم تظنون أن كل معركة يدخلها المؤمنون لابد أن تكون منتصرة ؟ وإن كنتم تظنون أن المسألة هى نصر لمجرد التمنى ، فمعنى ذلك أنكم دخلتم إلى معسكر الإيمان من أجل الفأل واليُمن والنصر ، ونحن نريد أن نعرف من الذى يدخل معسكر الإيمان وهو بائع روحه وهو مُحتسب حياته فى سبيل الله .

فلو أن الأمر يمر رخاء ، لدخل كل واحد إلى معسكر الإيمان ، لذلك يقول الحق : « أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين » . فهل ظننتم أنكم تدخلون الجنة بدون أن يُخرج الحق على الملأ ما علمه

غيبا ، وتترجمه الأحداث التى يُجريها سبحانه فيصير واقعا وحُجة عليكم ، ويبرز الله سبحانه من الذين جاهدوا ؛ أى دخلوا فى زُمرة الحق ، والذين صبروا على الأذى فى الحق .

ويقول سبحانه : « ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون » أى إن ما كنتم تتمنونه قديما صار أمامكم ، فلو أن التمنى كان صحيحا لأقبلتم على الموت كما تقبلون على الحياة . ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى اللَّهُ الشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾

ونحن نعرف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم اسمه الأول هو « محمد » ، وله اسم ثانٍ عرفناه من القرآن وجاء فى الإنجيل هو « أحمد » :

﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ التَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى اسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَآءَهُم بِالْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾ ﴾

(سورة الصف)

وقد ورد اسمه صلى الله عليه وسلم « مُحمد » فى القرآن أربع مرات ، و «أحمد » وردت مرة واحدة .

والآية التى نحن بصددها ، وهى آية ذكر فيها اسم محمد : « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل » . ولنقرأ قول الحق :

﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾

(سورة الأحزاب)

وقوله تعالى :

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ﴾

(سورة محمد)

وها هو ذا القول الكريم :

﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الفتح)

والاسم هو ماوُضع عَلَماً على المسَمَّى ؛ بحيث إذا ذُكر الاسم جاء إلى الذهن المسمى ، فإذا اشترك اثنان فى بيئة واحدة فى اسم ؛ فلا بد من التمييز بينهما بوصف . فإذا كان فى أسرة واحدة ولدان اسم كل واحد منهما مُحمد ، فلا بد أن نميز بين الاثنين بصفة ، وفى الريف نجد من يسمى « مُحمدًا الكبير » و« مُحمدًا الصغير » .

وكلمة « مُحمد » وكلمة « أحمد » مشتركتان فى أصل المادة ؛ لأنهما من « الحاء والميم والدال » فالمادة هى الحمد ، إلا أن التوجيه الاشتقاقى فى محمد غير التوجيه الاشتقاقى فى أحمد ، لأن الاسم قبل أن يكون علماً إذا خرجت به عن معناه الأصلى ، انحل عن معناه الأصلى ، وصار علما على الشخص .

ولذلك قد نجد رجلا له جارية سوداء فيسميها « قمرا » وقد يكون للرجل عبد شقى فيسميه : « سعيدا » . فإذا صار الاسم علما على شىء فإنه ينتقل من معناه الأصلى ويصير عَلَماً على المسمَّى ، لكن الناس حين تُسمى أبناءها تلمح التفاؤل فى أن يصير المعنى الأصلى واقعا .

والدميمة التى يسميها صاحبها « قمرا » افتقدت جمال المسمى ، ولذلك فهو يريد لها أن تأخذ جمال الاسم . .وكلمة « مُحمد » حين ننظر إليها فى الاشتقاق نجد أنها ذاتٌ يقع عليها الحَمْد من غيرها ، مثلما تقول : فلان مكرَّم أى وقع التكريم من الغير عليه .

وكلمة « أحمد » نجدها ذاتا وقع عليها الحمد لغيرها . وعندما نقول : مُكرِّم ـ بضم الميم وفتح الكاف مع تشديد الراء مكسورة ـ أى وقع التكريم منه لغيره . ونحن عندنا اسمان لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فى القرآن وكلاهما من مادة « الحمد » فـ « محمد » ملحوظ فيه أن الحمد وقع عليه كثيرا من غيره . لكن لو كان المراد أن الحمد وقع عليه دون الكثرة فيه لكان اسم « محمود » هو الذى يطلق عليه فقط .

أما « أحمد » فقد قلنا إنه ملحوظ فيها أن الحَمْد وقع منه لغيره . و « أحمد » تتطابق مع أفعل التفضيل فنحن نقول : « فلان كريم وفلان أكرم من فلان » . إذن فـ « أحمد » أى وقع منه الحمد لغيره كثيرا ، فلو كان الحمد قد وقع منه بقدر محدود لقلنا « حامد » . إذن فـ « أحمد » مبالغة فى « حامد » وقع منه الحمد لغيره كثيراً فصار أحمد . و « محمد » مبالغة فى « محمود » ، وقع عليه الحمد من غيره كثيرا فصار محمدا .

إذن فرسول الله صلى الله عليه وسلم جمع له الله بين الأمرين ؛ فهو محمد من الله وحامد لله ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم جمع الله له بين مقامين : مقام الاصطفاء ومقام المجاهدة ، فبالاصطفاء كان « محمدا » و« محمودا » ، وبالمجاهدة كان « حامدا » و« أحمد » . إذن نحن هنا أمام مقامين اثنين لرسول الله صلى الله عليه

وسلم . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنا محمد وأحمد والمقفى والحاشر ونبى التوبة ونبى المرحمة »(١) .

وسيكون لذلك كلام ونحن نتناول هنا بالخواطر معركة أُحد ، فبعد أن انحل القوم من الرماة عن أمره ، وحدثت الكرَّة عليهم من المشركين القرشيين ، بعد ذلك يتجه الصحابة هنا وهناك ليفروا ، ويتكتل المشركون على رسول الله لدرجة أن ابن قمئة يمسك حجرا ويضرب به حضرة النبى عليه الصلاة والسلام فيكسر رَبَاعِيَّته . وتنغرز فى وجنتى الرسول حلقتا المغفر ، ويسيل منه الدم ، ويحاول الرسول صلى الله عليه وسلم أن يصعد على صخرة من الجبل ليعلوها فلم يستطع فجلس تحته طلحة بن عبيد الله فنهض به حتى استوى عليها . وكلها مجاهدات بشرية .

أما كان الله بقادر أن يُجنِّب رسوله كل ذلك ؟ إنه سبحانه قادر . ولكن كل ذلك كان تكريما من الله ، ولم يرد سبحانه أن يحرم رسوله من لذة المجاهدة ، وحتى يعرِّف الله المؤمنين بمحمد نقول : إن الله لم يأت بمحمد ليدلله على خلقه ، ولكن ليدُلَّ كُلَّ مؤمن على أن رسول الله حينما حدث له ما حدث قد ذاق المجاهدة ؛ فقد فر بعض المقاتلين من المعركة فى أُحد ، وكادت ريح الهزيمة تهب على معسكر الإيمان ، هاهو ذا سيدنا أبو عبيدة رضى الله عنه يذهب إلى رسول الله فيجد حلقتى المغفر فى وجنتيه صلى الله عليه وسلم ، فيحاول سيدنا أبو بكر أن يخلع حلقتى المغفر ، فيتألم الرسول صلى الله عليه وسلم ، فيقول سيدنا أبو عبيدة :

- إليك يا أبا بكر . بالله دعنى .

ويمسك أبو عبيدة بإحدى الحلقتين وينزعها من وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم فسقطت ثنيته ، ثم نزع الحلقة الأخرى فسقطت ثنيته الأخرى فكان أبو عبيدة - رضى الله عنه - ساقط الثنيتين ، وقال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لكل أمة أمين ، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح » . وينزف دمه صلى الله عليه وسلم ، وسيدتنا فاطمة يلهمها الله أن تأتى بقطعة من حصير وتحرقها ، وتأخذ

---

(١) رواه أحمد ومسلم عن أبى موسى الأشعرى .

التراب الباقى من الحريق وتضمد به الجرح . إن الله لم يشأ أن يحرم رسوله لذة المجاهدة .

ويأتى أنس بن النضر ويجد الصحابة وفيهم عمر بن الخطاب وطلحة بن عبيدالله وقد ألقوا ما بأيديهم ، فيسألهم أنس : ما يجلسكم ؟ فيقولون : قُتل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيقول : فماذا تصنعون بالحياة بعده ؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم استقبل القوم من المشركين فقاتل حتى قتِل .

هذه كلها مواقف لم تكن تأتى وتظهر إلا بهذه المعركة . « وما محمد إلا رسول » أى اسمعوا . هذا محمد وهذه منزلته ، هو رسول من الله جاء بعد عيسى بن مريم ، وكان من الواجب أن نعلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم مؤكد على بشريته . « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم » .

وهل انقلب أتباع الرسل السابقين على أعقابهم حينما ماتت رسلهم ؟ فكيف تكونون أقل شأنا من هذه الأمم ؟ هبوا أن ذلك قد حدث ، فلماذا لا يبقى الخير الذى بلغه فيكم رسول الله إلى يوم القيامة ؟ الرجل الذى يكون قد صنع خيرا يموت بموته ، أيكون قد صنع شيئا ؟ لا ؛ فالذى يريد أن يصنع خيرا فعليه أن يصنع خيرا يخلفه .

لذلك فالزعامات الفاشلة هى التى يكون الفرد فيها زعيما ، ثم يموت ونبحث عن زعيم بعده فلا نجد ونتساءل : لماذا خنق الزعيم أصحابه وزملاءه ؟ أكان خائفا منهم ؟ ونظل نتمنى أن يكون قد ربَّى الزعيم أناسا ، فإذا ما ذهب نجد من يخلفه ، فلا يوجد إنسان يضمن حياته ؛ لذلك يقول الحق : « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل » .

وساعة تسمع القول الكريم : « وما محمد إلا رسول » فهذا أسلوب اسمه أسلوب

القصر . إنه سبحانه وتعالى يقصر محمدا على الرسالة . فإذا قصر محمد صلى الله عليه وسلم على الرسالة فهذا يعنى أن بعض المعاصرين له كانوا يعتقدون أن محمدا أكبر من رسول ولا يموت . فأوضح الله سبحانه أن محمدا رسول ، وقد خلت من قبله الرسل ، ولن يخلد الله أحدا .

وهل غاب ذلك عن الذهن ؟ نعم كان ذلك يغيب عن الذهن بدليل أنه حتى بعد أن نزلت هذه الآية وصارت قرآنا يُتلى ، نجد أن سيدنا عمر رضى الله عنه وكانت له فطرة صافية توافق وحى الله ، إنه محدَّث مُلْهَم .

ها هو ذا عمر بن الخطاب حينما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم وانتقل إلى رحاب الله يقول : والله ما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يموت حتى يقطع أيدى أناس من المنافقين كثير وأرجلهم . قال عمر بن الخطاب ذلك من هول الفاجعة ونسى الآية فيأتى سيدنا أبو بكر فيقول : من كان يعبد الله فإن الله حىٌّ لم يمت ، ومن كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات ، وتلا قوله تعالى : « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزى الله الشاكرين » . فقال عمر بن الخطاب : « فلكأنى لم أقرأها إلا يومئذ » .

ثم إن عمر بعد أن بايع المسلمون أبا بكر بالخلافة قال : أما بعد فإنى قلت لكم أمس مقالة ، وإنها لم تكن كما قلت ، وإنى والله ما وجدت المقالة التى قلت لكم فى كتاب أنزله الله ، ولا فى عهد عهده إلىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكنى كنت أرجو أن يعيش رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يَدْبُرنا[1] فاختار الله عز وجل لرسوله الذى عنده على الذى عندكم ، وهذا الكتاب الذى هدى الله به رسوله فخذوا به تهتدوا كما هُدِىَ له رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وهذه تعطينا أمرين اثنين :

الأمر الأول : هو عِشق الصحابة لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

---

(١) يدبرنا : يكون آخرنا موتًا .

والأمر الثانى : هو حاجة إيمان ؛ فالعشق لا يستقيم ولا يصح أن يخرجنا عن طور التصور الإيمانى ؛ فعمر بن الخطاب قال : عندما سمعت أبا بكر يتلو هذه الآية عرفت حتى ما تقلنى رجلاى ، وحتى هويت على الأرض .

إذن فقوله سبحانه : « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل » يعنى لا ترتفعوا به أنتم أيها المؤمنون برسالته فوق ما رفعته أنا .

ومعنى « ينقلب على عقبيه » أى يرَجع . فهل هذا الرجوع رجوع عن المعركة ؟ أو رجوع عن أصل التشريع وأصل الديانة وأصل الرسالة التى جاء بها محمد ؟ إن هذا يصح ، وذلك يصح . وقوله الحق : « أفإن مات أو قتل » قول واضح ، وسبق أن تعرضنا إلى الموت وإلى القتل ، وقلنا : إن الموت والقتل مؤداهما واحد ، وهو الذهاب بالحياة ، إلا أن الذهاب بالحياة مرة يكون بنقض البنية التى لا تسكن الروح فيها إلاَّ بمواصفاتها ، فإن نقضت البنية ولم تجد الروح المسكنَ الملائم لها تتركه ، لكن الموت على إطلاقه : هو أن تذهب الحياة بدون نقض البنية ، فالإنسان يذهب حتف أنفه ، أى نجده قد مات وحده .

إذن فنقض البنية يؤدى إلى ذهاب الحياة بالقتل ؛ لأن الروح لا تسكن فى مادة إلا بمواصفات خاصة ، فإذا انتهت هذه المواصفات ذهبت الروح . لكن عندما تذهب الروح بمفردها بدون نقض للبنية فهذا هو الموت لا القتل .

والله سبحانه يقول : « أفإن مات أو قتل » ذلك أنهم أشاعوا أن النبى قد قتل . وكيف يجوز ذلك على الصحابة والله قد قال :

﴿ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾

(من الآية ٦٧ سورة المائدة)

وهنا نقول : هل أنت علمت أن هذه الآية قد نزلت قبل أُحُد أو بعدها ؟ وهل أنت حسن الظن بأن كل صحابى يكون مستحضرا لكل آيات القرآن فى بؤرة

شعوره ؟ ألا ترى أنهم عندما سمعوا خبر قتله هربوا ، وإذا كان سيدنا عمر قد نسى هذه الآية : « أفإن مات أو قتل » كما أنه يحتمل أن يكون المراد من عصمة الله رسوله من الناس أنه ـ سبحانه ـ يحفظه من فتنة الناس وإذلالهم .

وهكذا أراد الله أن تمثل لنا معركة أُحد كل الطوائف والأصناف التى تُنسب إلى الإيمان تمثيلا يتضح فى موقف ابن أُبىّ حيث انخذل وانقطع عن رسول الله بثلث القوم ، ومرحلة أقل منها ، تتمثل فى طائفتين هَمَّتا ، ثم شاء الله أن يربط على قلوبهما فيظلا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولما نشبت المعركة كان للرماة موقف فى المعركة الأحدية .

فحين رأوا النصر أولا ورأوا الغنائم سال لعاب بعضهم على الغنائم ، فحصل انشقاق فيهم ، فعبدالله بن جبير وهو رئيس الرماة ومعه من معه من القلة يُصر على تنفيذ أمر رسول الله فيقاتل حتى استشهد ، واستشهدوا وهؤلاء هم الذين أرادوا الآخرة . بينما كان هناك قوم آخرون أرادوا الغنائم ، وحينما أشيع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قُتل فرت البقية الباقية من الرماة وغيرهم من المعركة ، ورسول الله ينادى القوم : « إلىّ عباد الله إلىّ عبادالله »[1] .

كل هذه مصاف إيمانية تمثل لنا كيف يُصفى الله مواقف المنسوبين إليه . وتظهر وتوضح موقف كل واحد ، وأنه مفضوح إيمانيا إن وقف موقفا يخالف منهج الله . كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ فى هذا الوقت ـ فى موقف الإنهاك لقوته البشرية لدرجة أننا قلنا : إنه أراد أن يصعد فلم تَقو مادته البشرية ، فطأطأ طلحة ظهره ليصعد النبى عليه ، وهو فى هذه المرحلة من الإنهاك المادى البشرى يريد الحق سبحانه وتعالى أن يعطيه من القوة فى هذا الضعف وفى هذا الإنهاك ما يقف به أمام جبار من جبابرة قريش . كان هذا الجبار يتهدده .

ولو أن الموقف كان موقف قوة لرسول الله أكان من المعقول أن ينتصر رسول الله على جبار قريش ؟

---

(١) رواه الحافظ ابن كثير فى التفسير .

ولكن الله يريد أن يُرينا تأييد الله لرسوله ، فى موقف إنهاكه وكيف يقف من جبار قريش هذا الموقف ، هذا الجبار هو « أبى بن خلف الجمحى » وكانت عنده رَمَكة[١] فيقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم : هذه الرمكة أنا أعلفها كل يوم فَرَقاً[٢] مِن ذُرة لأقتلك عليها . فيقول له رسول الله قولة الواثق من أن ربه لن يخذله : « بل أنا أقتلك إن شاء الله » .

لم يلتق هذا الرجل مع رسول الله وهو فى قوته ، ولكنه جاء لرسول الله وهو فى هذا الموقف الذى أثخنته فيه الجراح وكسرت رَبَاعيته ودخلت حلقتا المغفر فى وجنتيه وسال دمه . وبعد ذلك يأتى إليه هذا الرجل ـ أبى بن خلف الجمحى ـ وهو يقول : أين محمد ؟ لانجوت إن نجا ، فقال القوم : يا رسول الله أيعطف عليه رجل منا ؟

فيشير إليهم رسول الله أن اسكتوا . إنه ـ رسول الله ـ لا يريد قوة لقوة ، ولكنه علم أن أُبَيّاً قد عرف أن رسول الله منهك فجاء فى هذا الوقت ، فأخذ رسول الله الحربة ، وضرب أبى بن خلف بها فنالت منه ، فسقط من على فرسه يخور كما يخور الثور ، فقال له أصحابه : « لا بأس عليك يا أُبىُّ ، ما أجزعك : إنما هو خدش »[٣].

وهذا الذى قتله رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذى اشتد عليه غضب الله تعالى لما رواه ابن عباس رضى الله عنهما قال : « اشتد غضب الله على مَنْ قتله رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده فى سبيل الله واشتد غضب الله على قوم دَمَوْا وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم »[٤] .

ولننظر كيف أن الذين عادوا رسول الله صلى الله عليه وسلم استكبارا وعنادا ، ولم

---

(١) الرمكة : أنثى البرذون ويطلق على غير العربى من الخيل ، عظيم الخلقة غليظ الأعضاء قوى الأرجل عظيم الحوافر .

(٢) الفَرَقُ : مكيال يسع ستة عشر رطلاً = ٧ ك ج تقريبا .

(٣) ابن كثير فى التفسير .

(٤) رواه البخارى .

يعادوه عقيدة قلبية ، إنهم يعتقدون صدقه ، ويعتقدون حُسن بلاغه عن الله ، ويتحقق ذلك من قوله سبحانه وتعالى :

﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ ﴾

(سورة النمل)

فما هو الاستيقان هنا ؟ لقد قال أصحاب أبىّ له : ما أجزعك إنما هو خدش فقال أبىّ : والذى نفسى بيده لو كان الذى بى بأهل الحجاز لماتوا جميعا . لكن أصحاب أبى قالوا له مرة أخرى : لا بأس عليك يا أبى إنه خدش بسيط . لكنْ أبى يقول :

ـ لا والله لقد علمت أنه يقتلنى ؛ لأنه قال لى بمكة : « أنا قاتلك إن شاء الله » فوالله لو بصق على لقتلنى . فمات وهم قافلون به إلى مكة .

هذا يحدث من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فى موقف الضعف والإنهاك ، ويشاء له الله أن يقتل جبارا من جبابرة قريش وهو فى هذه الحالة . إن كل ذلك لأدلة تثبت لهم أن البشرية المادية لا علاقة لها مطلقا بمدد النصر من الله ؛ فالله يُمد رسوله حتى فى وقت الضعف . ومدده سبحانه لرسوله وقت ضعف الرسول هو إعلام بقيوميته سبحانه على جنوده ؛ لأنهم لو ظلوا أقوياء لقيل فى عرف البشر : أقوياء وغلبوا .

لكن هاهو ذا الرسول يصيب الجبار من قريش فى مقتل والرسول ضعيف ، وبعد ذلك يعطى الحق سبحانه لرسول الله أشياء إيمانية تزيده ثقة بأنه هو رسول الله ، وتزيد المؤمنين ثقة بأنه رسول الله . لقد خرج إلى المعركة وهو يعلم بما سيكون فيها ؛ لأنه قال : (إنى قد رأيت والله خيرا رأيت بقرا تُذبح ورأيت فى ذباب سيفى ثَلْمًا ، ورأيت أنى أدخلت يدى فى درع حصينة فأولتها المدينة)[1] .

(١) سيرة ابن هشام حـ ٣ ص ٦٢ .

وقال صلى الله عليه وسلم : (لقد رأيتني يوم أحد وما فى الأرض قربى مخلوق غير جبريل عن يمينى وطلحة عن يسارى)[١] .

إذن فالمعركة بكل أحوالها عُرضت عليه ، ومع ذلك أقبل رسول الله على المعركة ليستدل من ذلك على أن الله أعطاه المناعة قبل أن يخوض المعركة . هذا ما يتعلق به صلى الله عليه وسلم ، لقد رأى فأول ، وأما الذى يتعلق بالناس ، فيأتى إلى واحد من قتلى المعركة ـ وقتلى المعركة ، لا يُغسَّلون ؛ لأن الذى يغسل هو من يموت فى غير معركة ـ يأتى الرسول إلى واحد من هؤلاء الشهداء فيقول :

« إن صاحبكم لتغسله الملائكة » ـ يعنى حنظلة ـ المؤمنون يرون أنه صلى الله عليه وسلم قد خرج عن القاعدة فى الشهداء . كيف ؟ . لقد أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم بالخبر بعد ذلك . . ولا يُخرج حنظلة عن قانون الشهداء أنه يُغسّل . . ولكن الذى يغسله هم الملائكة . . إن الملائكة تغسل حنظلة .

وبعد أن رجع رسول الله إلى المدينة يسأل أهله ما شأنه . . فيعلم أن حنظلة قد دخل بعروسه . . ثم نودى للمعركة . . فأعجله نداء المعركة . . فذهب إلى المعركة جُنبا . . فذلك غُسْل الملائكة له ، لقد تأكد الخبر من زوجة حنظلة . . إذن فهذه شهادة أخرى أن الله سُبحانه وتعالى لم يتخل عنهم فى أوقات الضعف ، وأن تلك العملية كانت عملية مقصودة .

إن الحق سبحانه وتعالى يعطى الرسول صلى الله عليه وسلم أشياء لتؤكد لنفسه أنه رسول الله . ألم نقل سابقا : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء له صحابته فقالوا : يا رسول الله : إن جابر بن عبدالله عليه دين ليهودى وأجل الدين إلى جَزّ التمر وتمرُه خَاسَ هذا العام أى فسد من آفةٍ مثلا فنحب يا رسول الله أن تطلب من اليهودى أن يُنظر جابرا ـ أى ينتظر عليه ويؤخره إلى وقت آخر ـ فذهب رسول الله إلى اليهودى وطلب منه أن يُنْظِر جابرا ، فلم يرض اليهودى وقال : لا يا أبا القاسم . .

---

(١) رواه الحاكم فى المستدرك عن أبى هريرة .

فأعاد عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال اليهودى : لا يا أبا القاسم . فأعاد عليه الرسول مرة ثالثة فقال اليهودى : لا يا أبا القاسم . . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بثقة الإيمان بالله ما معناه : يا جابر اذهب بى إلى بستانك .

وذهب رسول الله فجاس خلال النخل ، ثم ذهب إلى عريش جابر الذى يجلس فيه ، واضطجع وقال : يا جابر جز واقض . قال جابر : فذهبت فجززت ، فإذا ما جززته يؤدى ما علىّ لليهودى ويبقى لى ما لم يبق لى وأنا غير مدين . فلما بلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« **أشهد أنى رسول الله** » . إن الحق سبحانه يعطى رسوله بينات توضح أنه رسول الله ؛ فاليهودى لم يرض بشفاعة النبى ، فيعطى الله رسوله ما يؤكد أنه رسول الله . وهكذا نرى أن الله يعطى رسوله فى وقت الضعف الأدلة التى تؤكد له أنه رسول الله . والذى يدل على ذلك هؤلاء الذين أحبوا أن يؤذوه فى اسمه . إنّ اسمه مُحمد كما نعرف ، و« محمد » أى الممدوح من الكل ، وبكثرة ، فيأتى خصومه ويريدون أن يهجوه وأن يلعنوه ، فيصرفهم الله سبحانه وتعالى حتى عن شتم الاسم لا المسمى فقط .

إن الله أراد أن يصعد العصمة ، وأراد ـ سبحانه ـ ألا ينالوا بالسباب من اسم رسول الله ، فألهم الله خصوم رسول الله أن يسموا المشتوم عندهم « مذمما » بدلا من « محمد » . وعندما يريدون اللعن ، فهم لا يلعنون الاسم محمدًا ولكنهم يسبون الاسم الذى اختاروه وهو « مذمَم » ، فيضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ عندما سمع ما قالته أم جميل امرأة أبى لهب :

« مذمما عصينا . . وأمره أبينا . . ودينه قلينا »[1] . وهى تقصد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد حدث أن حمالة الحطب أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس فى المسجد عند الكعبة ومعه أبو بكر الصديق وفى يدها حجر فلما وقفت عليهما أخذ الله ببصرها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا ترى إلا أبا بكر فقالت :

(١) قلينا : أبغضنا .

يا أبا بكر أين صاحبك ؟ فقد بلغنى أنه يهجونى والله لو وجدته لضربت بهذا الحجر فاه أما والله إنى لشاعرة وقالت ما قالت .

ويقول رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « ألا تعجبون لِما يصرف الله عنى من أذى قريش يشتمون مُذَمَّماً ويلعنون مذمما وأنا محمد »[1] .

هكذا نرى من أفواه الحاقدين على رسول الله أنه معصوم بإرادة الله ، حتى الاسم أبعده الله عن اللعن ، أما المسمى فلن يلعن ولن يشتم .

إن ما حدث فى غزوة أحد كان هو التربية الأولى لصحابة رسول الله ، والتأكيد على صدق بلاغه عن الله . إن هذه المعركة قد صورت ذلك وجسدته ، ولذلك حين نلحظ المعارك التى جاءت بعد هذه المعركة فإننا لا نجد للمؤمنين هزيمة أبدا ، لأنهم صُفوا التصفية وربُوا التربية التى جعلت كل واحد منهم عارفا أن الله يعلم ما يخفيه وإن لم يحسن البلاء والجهاد فسيفضح الله ما فى نفسه ، وسيعلن الله عنه ؛ لذلك دخل كل مؤمن منهم المعارك وهو مقبل على الجهاد ، وكل المعارك بعد أُحد جاءت نصرا وجاءت سلاما .

وهنا يعلمنا الحق أن البقاء على منهج رسول الله صلى الله عليه وسلم هو النجاة وهو النصر ، ويحذرنا سبحانه ألا ينقلب المؤمن على عقبيه ، قال لنا : (أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزى الله الشاكرين) .

« ومن ينقلب على عقبيه » هى صورة حركية مادية مرئية . وقد حدث ذلك من بعض الصحابة فى معركة أُحد ، لقد فر البعض وانقلب بعضهم إلى المدينة ، ومعنى « انقلب » أى أعطى ظهره للمعركة بعد أن كان مواجها لعدوه ، وهى مثل قوله : « وَلَّوُا الأدبار » .

---

(١) رواه البخارى فى المناقب ، والنسائى فى الطلاق ورواه أحمد فى المسند .

ولكن فى قوله : « انقلبتم على أعقابكم » فيه انقلاب حسى أيضا ، وفيها كذلك انقلاب نفسى ، وهو الانصراف عن أصل الدين ، ولذلك سيعرفنا الحق أن المنافقين بعد حدوث تلك الواقعة وبعد ما فشا وذاع فى الناس قتل الرسول كان لهم كلام ، وضعاف الإيمان كان لهم كلام آخر ؛ فالمنافقون الذين هم أكثر شرا من الكفار قالوا : لو كان نبيًّا لما قتل ، ارجعوا إلى إخوانكم وإلى دينكم .

أما الذين آمنوا إيمانا ضعيفا فقالوا : سنذهب إلى ابن أُبَىّ ليأخذ لنا أمانا من أبى سفيان . فيقف أنس بن النضر قائلا : اللهم إنى أبرأ إليك مما جاء به هؤلاء ـ أى المنافقون ـ وأعتذر إليك مما يقول هؤلاء ـ أى ضعاف الإيمان ـ .

لقد وزعها بالحق ؛ فهو يبرأ إلى الله من قول المنافقين الذين قالوا : إنهم سيعودون إلى دينهم القديم ، ويعتذر ويستغفر عن ضِعاف الإيمان . ويقول سبحانه : « ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا » . لماذا؟ لأن الله أزلاً وقبل أن يخلق شيئا من خلقه له كل صفات الكمال ، إذن فأى صفة من صفات الكمال لم تطرأ عليه ـ سبحانه ـ من خلقه ، إنه ـ سبحانه ـ أوجد الكون بما فيه الخلق لأنه قادر ، وأوجده لأنه حكيم ، وأوجده لأنه عالم ، إذن فخلق الخلق لم يزد الله صفة من صفاته ، فحين خلقكم وصنعكم أعطى لكم المنهج لتكونوا خلقا سويا . إذن فالمصلحة تعود علينا نحن الخلق ، فكان يجب أن تنظروا إلى المناهج التى تأتى من الله على أنه لا نفع فيها لله ، ولكن النفع فيها عائد عليكم . ولذلك فمن يلحظ هذه ، فهو يعرف أن ربنا يستحق الشكر على أنه كلفنا بالمنهج . ولذلك جاءت الآية من بعد ذلك لتقول : « وسيجزى الله الشاكرين » لأن الشكر إنما يؤديه العبد على نعمة ، نعمة تمحيص وتعليم وبيان مكانة الرسول صلى الله عليه وسلم من ربه . لقد تعلم المؤمنون أن الله يستحق منهم الشكر على هذه النعم .

وبعد ذلك ينتقل بنا الحق إلى قضية عامة ، القضية العامة للناس جميعا هى :

﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ

كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾

وساعة تسمع « ما كان » أى « ما ينبغى » . فنحن فى حياتنا نقول : ما كان لك أن تضرب زيدا ، ونقصد أنه ما ينبغى أن تضرب زيدا . فقوله:« وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله » هذا القول قد يدفع إلى التساؤل : وهل الموت أمر اختيارى ؟ لا ، ولكن تعبير الحق سبحانه له إيحاء ؛ لأنك عندما تقول : ما كان لفلان أن يفعل كذا ، فهذا معناه أن لفلان أن يختار أن يفعل ذلك أو لا يفعله ، وفى قدرة فلان أن يفعل أو لا يفعل . أما عن قدرة الله فلا يمكن أن يقول أحد ذلك .

إننا نفهمه على فرض أن النفس تدفع نفسها إلى موارد التهلكة ، فما لها أن تموت إلا أن يأذن الله . فإذا كانت النفس هى التى تدفع نفسها إلى موارد التهلكة ، ومع ذلك لا تملك أن تموت ، فكيف إذا لم تدفع نفسها إلى موارد التهلكة . إذن فالموت إن أرادته النفس فلن يأتى إلا أن يكون الله قد أذن بذلك . وإننا نجد فى واقع الحياة صورا شتى من هذه الصور .

نجد من يضيق ذرعا بهذه الحياة ؛ لأن طاقته الإيمانية لا تتسع للبلاء والكد فى الدنيا فينتحر ، إنه يريد أن يفر مما لا يقدر على دفع أسبابه . أما الذى يملك الطاقة الإيمانية الرحبة فأى شقاء أو بلاء يقابله يقول : إن لى ربا ، وما أجراه علىّ ربى فهو المربى الحكيم الذى يعرف مصلحتى أكثر مما أعلم ، ولعل هذا البلاء كفارة لى عن ذنب .

وهذا عكس من يفر مما لا يقدر على دفع أسبابه ، فيحاول أن يقتل نفسه ، وكل منا قد رأى أو سمع عن بعض الذين يريدون ذلك لكن يتم إنقاذهم ويدركهم من ينفذ

مشيئة الله فى إنقاذهم ، كغسيل المعدة لمن ابتلع أقراصا سامة ، أو إطفاء حريق من أشعل فى نفسه النار . فالمنتحر يريد لنفسه الموت ولكن الله إذا لم يأذن ، فلا يبلغه الله هذا ، فقد تجد مُنتحرا يريد أن يطلق على نفسه رصاصة من مسدس فلا تنطلق الرصاصة ، أو تجد منتحرا آخر يريد أن يشنق نفسه بحبل معلق فى السقف فينقطع الحبل ، لماذا ؟ لأنه لا يقبض الحياة إلا من وَهَبَ الحياة .

قد يقول قائل : ولكن هناك المقتول الذى يقتله إنسان آخر . وهنا يرد المثل الشعبى : لو صبر القاتل على المقتول لمات بمفرده . إن اللحظة التى تفارق الروح مادة الجسد موقوتة بأجل محدود ، فمرة تأتى اللحظة بدون سبب ، فيموت الإنسان حتف أنفه ، ويقول أصدقاؤه : لقد كان معنا منذ قليل . إنهم ينسون أنه مات لأنه يموت بكتاب مؤجل .

ولذلك نجد إنسانا يسعى إلى عافية الحياة ، فيذهب إلى إجراء جراحة ما ، وأثناء إجراء الجراحة يموت . ورحم الله أمير الشعراء أحمد شوقى حين يقول فى ذلك :

فى الموت ما أعيا وفى أسبابه
كل امرىء رهن بطىِّ كتابه
أسد لعمرك من يموت بظفره
عند اللقاء كمن يموت بنابه
إن نام عنك فكل طب نافع
أو لم ينم فالطب من أذنابه

إن الكتاب إذا انطوى فقد انتهى الأمر ، حتى عندما يلتقى الإنسان بأسد ، فيستوى الموت بالناب ، كالموت بظفر الأسد . فإن نام الموت عن الإنسان فقد يشفيه من أمراضه قرص دواء أو جرعة ماء . أما إن استيقظ الموت فالطب والعلاج قد يكون ذَنَباً أو أداة للموت ، والقاتل كل ما فعله أنه نقض بنْية المقتول ، وهذا هو ما يعاقب عليه .

إذن فقول الحق : « وماكان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجلا » يطلق قضية

عامة . والكتاب المؤجل يطلق مرة على زمن العمر كله ، ومرة يطلق على النهاية النهائية منه ، والنهاية النهائية هى الموت الحقيقى . فالقاتل حين ينقض بِنية القتيل إنما يوافق الأجل المكتوب الذى أراده الله . لكن لماذا نعاقب القاتل إذن ؟ نحن نعاقبه لأنه نقض بنية إنسان آخر .

والحق يقول : « وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجلا » . ولنلحظ قوله : « بإذن الله » فهى تدلنا على أن الله هو الذى يطلق الإذن . والإذن يكون للملائكة ليقوموا بهذه المسألة . ولذلك نجد القرآن الكريم حين يتعرض لهذه المسألة يسند مرة هذه العملية لله فيقول سبحانه :

﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾

(سورة الزمر)

ومرة أخرى يسند القرآن هذه العملية لِمَلَكٍ واحد :

﴿ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ ﴾

(سورة السجدة)

ومرة يسندها الحق سبحانه إلى رسل من المعاونين لملك الموت :

﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

والحق سبحانه وتعالى صادق فى كل بلاغ عنه ؛ لأن كل أمر يحدد الأجل ليس بمراد الموكَّل بإنهاء الأجل ، إنما هو بإذن من الله تعالى الذى يحدد ذلك . ومادام كل أمر قد صدر منه فهو سبحانه الذى يتوفى الأنفس ، وبعد ذلك فالملك الذى يتوفى

الأنفس ـ عزرائيل ـ له أعوان ؛ فهو عندما يتلقى الأمر من الله فهو ينقل الأوامر إلى أعوانه ليباشر كل واحد مهمته . إذن فصيرورة الأمر بالموت نهائيا إلى الله .

وصيرورة الأمر بالموت إلى الملائكة ببلاغ من الله ، هذا هو الإذن ، والإذن يقتضى مأذونا ، والمأذون هم ملائكة الموت الذين أذن لهم ملك الموت بذلك ، وملك الموت تلقى الإذن من الله سبحانه وتعالى .

ويقول الحق من بعد ذلك : « ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها » فالذى يريد جزاء الدنيا وهو الذى يطلب جزاء حركته فيها ، يأخذها ، ولو كان كافرا :

﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

ويقول سبحانه وتعالى فى موضع آخر من القرآن الكريم :

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ ﴾

(سورة الشورى)

وهذا ينهى عملية أن تقول : إن الكفار حالتهم أفضل من حالتنا ، الكفار متقدمون ؛ ونحن متخلفون . وهل لم تأت فترة كان فيها المؤمنون متقدمين جدا ؟ لقد جاءت فترة تقدم فيها المؤمنون ، وكانوا متقدمين لألف سنة ، وهم الدولة الأولى فى العالم . وكان الكفار يسمون زمانهم ودولهم بأنها تحيا فى عصور الظلمات . لماذا أنكرتم هذه !؟ لأن التاريخ جاء لنا من ناحية هؤلاء وقد شوهوه ، ولذلك نقول لهم : نحن كنا متقدمين وأنتم والتاريخ يشهد بذلك .

ولذلك قلنا : يجب على المؤمن بالله أن يكون غيورا على أسباب الله ، فلا يدع

أسباب الله للكافر بالله ، أيأخذ الكافر بأسباب الله وأنت يا مؤمن بالله تترك الأسباب ليأخذها هو !؟ لا ؛ لأن من يعبد الله أولى بسرِّه فى الوجود ، فكوننا نتركهم يأخذون الأسرار العلمية ولا ننافسهم فى هذا المجال هذا تقصير منا .

« ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها وسنجزى الشاكرين » ونلحظ أن الحق قد جاء بلفظ « الشاكرين » مرتين ، والقرآن يؤكد هذا المعنى . إنه سبحانه أعطاكم أسبابا فإن كانت الأسباب قد جاءت لكم بمسائل الدنيا فهى تستحق الشكر ، وإن كانت ستعطيكم تكليفا مع الأسباب فهذا التكليف سيعطيكم خير الآخرة ، وهو أمر يستحق الشكر أيضا .

وبعد هذا الكلام النظرى « وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجلا » . . يقول ما يؤكد وجوده فى موكب الإيمان الذى سبقكم ؛ لأن فيه فرقا بين الكلام وبين أن يقع مدلول الكلام ، فواقع الكلام سبقكم فيقول :

﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ ﴾

« وكأين » هذه يقولون : إنها للتكثير ، مثل « كم » ؛ فعندما يقول لك إنسان مثلا : لماذا تجافينى ؟ فتقول له : كم زرتك ؟ إن قولك : « كم زُرتك ! » فى ظاهرها أنها استفهام ، وأنت لا تريد أن تقول له مستفهما كم مرة زُرته فيها ، بل تقول له : أنت الذى عليك أن تقول ـ لأنك بقولك ستعترف أنى زُرتك كثيرا ، فيكون الجواب موافقا لما فعلت . وأنت لا تقول « كم زرتك » إلا وأنت واثق أنه إذا أراد أن يجيب فسيقول : « زرتنى كثيرا » ولو كنت لا تثق أنه سيقول : زرتنى كثيرا ، لَمَا قلتها ،

فعندما تقول له : كم زرتك ، كم تفضلت عليك ، كم واسيتك ، كم أكرمتك ؟ فإن « كم » تأتى للتكثير ، وتأتى مثلها « كأين » إنها للتكثير أيضا ، عندما تقول مثلا : « ياما حصل كذا » و « ياما » هذه معناها « كأيِّن » .

وقد يسألك صديق : كيف حدثت هذه الحكاية ؟ فتقول له : كأى رجل يفعل كذا ويحصل له كذا ، أى أن المسألة ليست غريبة ، إن قولك : كأى رجل معناها أنها شاعت كثيرا ، وعندما تقول : كم مرة زرتك ، وكم من مرة زرتك فهذان الاستعمالان صحيحان والمعنى : كثير من نبى قاتل معه مؤمنون برسالته كما حدث وحصل مع رسول الله . وقوله الحق « رِبّيون » أى ناس فقهاء فاهمون سبل الحرب ، و« ربيون » أيضا تعنى : أتباعا يقاتلون ، و« ربيون » يمكن أن ينصرف معناها إلى أن منهجهم إلهى مثل « الربانيين » .

وقول الحق:« فما وهنوا » أى ما ضعفوا ، إذن فهو يريد أن يأتى بالأسوة ، وكأنه سبحانه يقول : أنتم لماذا ضعفتم فى موقفكم فى غزوة أُحد وأنتم تقاتلون مع رسول الله . لقد كان الأولى بكم أن يكون حماسكم فى القتال معه أشد من حماس أى أتباع نبى مع نبيهم ؛ لأنه النبى الخاتم الذى سيضع المبدأ الذى ستقوم عليه الساعة ، ولن يأتى أحد بعده ، فكان يجب أن تتحمسوا ؛ فأنتم خير أمة أخرجت للناس ، وأنا ادخرتكم لذلك .

إن الحق يعطيهم المثل وفيه تعريض بهم وعتاب لهم ، وفى هذا القول تعليم أيضا ، فيقول : « وكأين من نبى » أى وكثير من الأنبياء « قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم » ونستوحى من كلمة « وهنوا » أى ما ضعفوا . فكأنه قد حدث فى القتال ما يضعف ، « فما وهنوا لما أصابهم » أى ما حدثت لهم نكسة مثلما حدثت لكم .

« وما ضعفوا وما استكانوا » . وكل من « وهنوا » و« ضعفوا » و« استكانوا » هذه جاءت فى موقعها الصحيح ؛ لأن « الوهن » بداية الضعف ، و« الوهن » محله القلب وهو ينضح على الجوارح ضعفا . و« استكانوا » ماذا تعنى ؟ إنها من « سكن » . والسكون تقابله الحركة .

والحرب تحتاج إلى حركة ، والذى يأتى للحرب فهو يحتاج إلى كَرّ وفر . أما الذى لا يتحرك فهذا معناه أنه ليس لديه قدرة على أن يتحرك ، وساعة تسمع ـ الألف والسين والتاء ـ وتأتى بعدها كلمة ، نعلم أن (الألف والسين والتاء) للطلب ، « فاسْتَفْهَم » أى طلب أن يفهم ، وهى تأتى لطلب المادة التى بعدها . كأن نقول : « استعلم » أى طلب أن يعلم ، أو نقول : « استخبر » أى طلب الخبر ، و« استكان » يعنى طلب له كوْنًا أى وجودًا ، فكأنهم بلغوا من الوهن ومن الضعف مبلغاً يطلبون فيه أن يكون لهم مجرد وجود ؛ لأن الوجود مظهره الحركة ، والحركة انتهت ، هذا هو معنى « استكانوا » .

ومادامت مِن الكون يكون وزنها ـ مثلما يقول الصرفيون ـ « استفعل » يعنى طلب الكون ، وطلب الوجود ، وقد يكون وزنها ليس كذلك ؛ إذا كانت من سكن ، وهى بهذا الاعتبار لا يكون فيها طلب ؛ لأن السين ستكون أصلية ، فوزنها ليس « استفعل » بل هو « افتعل » فـ « استكانوا » هل تعنى أنهم طلبوا السكون ؟ لا ؛ لأنهم كانوا ساكنين ، إذن فالأولى أن يكون معناها أنهم طلبوا مجرد الوجود ، هذا ما أميل إليه وأرجحه ، وقيل فى معناها : فما خضعوا وما ذَلوا من الاستكانة : وهى الذلة والخضوع .

« فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين » فما يصيب العبد ابتلاء من الله ، وفى الحديث : « إذا أحب الله قوما ابتلاهم »[1] . وكل ذلك الوهن والضعف ، لا يشغلهم عن المعركة ، لأنهم لو صبروا على التحمل لأمدهم الله بمدد من عنده ؛ لأنه حين تفرغ أسباب الخلق وتنتهى يأتى إمداد الخالق .

ويلفتنا الحق سبحانه وتعالى بتذييل الآية : « والله يحب الصابرين » أى وكفى جزاء عن الصبر أن تكون محبوبا لله ؛ لأننا قلنا سابقا : قد نحب الله لنعمه التى أنعمها علينا ، ولكن المسألة ليست فى أن تحب الله أنت ، وإنما فى أن تصير بتطبيق

---

(١) رواه الطبرانى فى الأوسط والكبير ، والبيهقى فى شعب الإيمان ، والضياء المقدسى عن أنس ، وصححه السيوطى .

منهجه فيك محبوبا لله . وقد أثر عن بعضهم قوله :

وإلا ألم تَرَ كثيراً أحَبَّ ولم يُحَبْ ؟!!

أنت أحببت للنعم ، ولكنك تريد أن تكون محبوبا من الله ؛ لأن حبك للنعم لا يكفى ، فمثل هذه النعم أخذها الكافر أيضاً ، إذن فهناك حاجة أخرى . هناك مقدم وهناك مؤخر ، فالمقدم هو نعم الحياة وكل البشر شركاء فيها مؤمنهم وكافرهم ، ولكن المؤخر هو جزاء الله فى الآخرة وهو الأصل .

إذن ، فلو أن الناس فطنوا إلى قول الله : « والله يحب الصابرين » لقالوا : كفى بالجزاء عن الصبر أن نكون محبوبين لله ، حين أصابهم ما أصابهم . صحيح أن الإصابة لم تصنع فيهم وهناً أو ضعفا أو استكانة ، وهذا معناه أن فيهم مُسكة اليقين بالله . ومُسكة اليقين بالله تجعلهم أهلا لإمداد الله . فليس لك إلا أن تصبر على ما أنت فيه لتعرف مدد الله لك . ومدد الله لك لا يتجلى بحق إلا وقت الضعف ؛ لأنك وقت قوتك قد تعمل مثل الذين قيل فيهم :

﴿ فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾

(سورة الزمر)

لكن المؤمنين حين أصابهم ما أصابهم « فما وهنوا » ؛ لِأنَّهم كانوا متيقظين إلى قضية إيمانية : إن الله لا يسلمك لنفسك إلا حين تغيب عنه ، فقالوا : ولماذا حدث لنا هذا ؟ لم يقولوا : ربنا انصرنا كى نخرج من الضعف ، لا . بل فكروا فى الأسباب التى أدت بهم إلى هذا :

﴿ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا

عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾

فكأن ما حدث نتيجة لذنب تقدم ففطنوا إلى السبب ، كان المفروض أنهم فى معركة ، وهذه المعركة أجهدتهم وأنهكتهم ، صحيح أنهم لم يضعفوا ، وكان المفروض أن يقولوا:« يارب انصرنا أولا » لا . بل قالوا : لابد أن نعرف السبب فى النكسة الأولى ، السبب فى هذه النكسة أن الله لم يسلمنى إلى نفس إلا لأنى نسيته .

«وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا » ، « ربنا » ، وانظر لكلمة النداء فى « ربنا » ، كان يمكن أن يقولوا : يا ألله إنما جاءوا بكلمة « ربنا » لماذا ؟ لأن علاقة العبد بالربوبية هى قبل علاقته بالألوهية ، فالألوهية مكلفة ، فمعنى « إله » أى : معبود ، ومادام معبودا فله تكليف يطاع فيه ، وهذا التكليف يأتى بعد ذلك ، هو سبحانه له ربوبيتهُ فى الخلق . قبل أن يكلفهم ، ومادام الرب هو الذى يتولى التربية ، فالأولى أن يقولوا : يارب ، إذن قولهم : « ربنا » يعنى أنت متولى أمورنا ، أنت الذى تربينا .

« ربنا اغفر لنا ذنوبنا » فكأنه لا شىء يصيبنا إلا بذنب من الغفلة ارتكبناه . ونعرف من كلمة « ذنب » أن الذى يفطن إلى معناها لا يفعلها أبدا ، لأن كلمة « ذنب » مأخوذة من مادة « الذَنَب » . والذَّنْبُ سيأتى بعده عقوبة . فاللفظ نفسه يوحى بأن شيئا سيأتى ، وعندما تتذكر عقاب الذنب فأنت لا تفعله .

« اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا فى أمرنا » لأن كل معصية تكون تجاوزا عما أحلَّه الله لك ، وزيادة غير مشروعة وإن كانت من نوع ما أحله الله ، ولكنها زيادة عن مقومات حياتك ؛ فالله شرع لنا الزواج لنأتى بالأولاد ، وعندما نأخذ أكثر من هذا من غير زواج نكون قد أسرفنا ، والله أعطانا مالا بقدر حركتنا ، فإن طمعنا فى مال غيرنا فقد أسرفنا . « وأسرفت » يعنى أن تأخذ حاجة ليست ضرورية لقوام حياتك . ولذلك فالحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ ﴾

(سورة الزمر)

إنه سبحانه يوضح : أنا حللت لك كذا من النساء فما الذى جعل عينيك تزوغ وتميل إلى غير ما أحله الله لك ؟ أنا أحللت لك كسب يدك وإن كنت فقيراً فستأخذ صدقة ، لماذا أسرفت ؟ إذن فكل أمر زائد على الحد المطلوب لبقاء الحياة اسمه « إسراف » « وإسرافنا فى أمرنا وثبت أقدامنا » . لقد بدأوا يدخلون فى الحق ، لكنهم فى البداية رَأَوْا الباطل ، والباطل هو من أسباب تخلى الحق عن نصرتنا أولا ، لكن عندما يغفر سبحانه الذنب ويغفر الإسراف فى الأمر نكون أهلاً للمدد وأهلاً لتثبيت الله .

« وثبت أقدامنا » كيف يقول الحق ذلك والمفهوم فى المعركة أن الأقدام لا تثبت ؟ المعركة تطلب من المقاتل أن يكون صوالاً جوالاً متحركا ، إذن فما معنى « وثبت أقدامنا » ؟ إن قول الحق : «وثبت أقدامنا » يعنى لا تجعلنا نفر من أرض المعركة ، ولا نترك أرض المعركة أبدا . ولذلك قلنا : إن الكفار عندما حدث منهم ما حدث لم يظلوا فى أرض المعركة ، بل تركوا أرض المعركة وانصرفوا ، وهؤلاء المؤمنون ولو أنهم انهزموا إلا أنهم مكثوا فى أرض المعركة مدة ، وكروا وراء أعدائهم وطاردوهم . وقد اهتدى البشر أخيراً إلى هذا المعنى ، ففى فرنسا نيشان يسمونه « نيشان الذبابة » لماذا الذبابة ؟ لأن الذبابة إن طردتها عن مكان لابد أن تعود إليه ، فكذلك المفروض على القائد ـ مادام انسحب من منطقة ـ أن يوطن نفسه على العودة إليها ، فيعطوه نيشان الذبابة .

فقوله : « وثبت أقدامنا » فى أى منطقة ؟ وفى أى معركة ؟ علينا ألا نبرح أماكننا ؛ لأننا ساعة آن نبرحها فهذه أول الهزيمة ، وهذا أمر يُجَرِّىء العدو علينا .

« وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين » . كلمة « وانصرنا على القوم الكافرين » هى حيثية ، فماداموا قد قالوا : «وانصرنا على القوم الكافرين » فهم إذن

مؤمنون ، ومؤمنون بحق ؛ ولذلك فإن سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول قولته المشهورة : إنكم تنتصرون على عدوكم بطاعة الله ، فإن استويتم أنتم وهم فى المعصية غلبوكم بعُدتهم وعَددهم .

ولذلك فالإيمان يتطلب أن تنتبهوا إلى موطن الضعف فيكم أولا ، والذى استوجب أن يصيبكم ما أصابكم ، حقًا إنكم لم تضعفوا ، ولم تستكينوا وأصابكم من المعركة شيء من التعب والألم . وكأن الحق يوضح لنا أنهم قد تنبهوا فأحسنوا البحث فى نفوسهم أولا ، لقد تكلموا عن الذنوب وطلبوا المغفرة وتكلموا عن الإسراف على النفس ، وبعد ذلك تكلموا عن المعركة . فماذا كان العطاء من الله ؟

ويأتينا الجواب فى قوله الحق :

﴿ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾ ﴾

أى أن الذى يريد الدنيا فالله يعطيه من الدنيا غنائم وأشياء ، ولنا أن نلحظ أن الحق عندما يتكلم هنا عن الدنيا فهو لم يصفها بحُسن أو بشيء ، فقط قال : « ثواب الدنيا » ، لكن عندما تكلم عن الآخرة فهو يقول : « وحُسن ثواب الآخرة » وهذا هو الجمال الذى يجب أن يُعشق ؛ لأن الدنيا مهما طالت فهى متاع وغرور وزخرف زائل ، ومهما كنت منعما فيها فأنت تنتظر حاجة من اثنتين : إما أن تزول عنك النعمة ، وإما أن تزول أنت عن النعمة .

ويختم الحق الآية بقوله : « والله يحب المحسنين » وقد أحسنوا حين ناجوا ربهم بعدما أصابهم . إنهم سألوا المغفرة ، وسألوا أن يغفر لهم إسرافهم فى أمرهم ، وأن يثبت أقدامهم وأن ينصرهم على القوم الكافرين ؛ لأنهم رأوا أن قوتهم البشرية حين

يتخلى عنهم مدد الله تصبح هباءً لا وزن لها .

« فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين » ومثلما قلنا فى الصبر : « والله يحب الصابرين » كفى بالجزاء على الصبر أن تكون محبوباً لله ، كذلك كفى بالجزاء على الإحسان أن تكون محبوبا لله . وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ ﴾

ومادمتم مؤمنين وهم كفار فكيف يتأتى منكم أن تطيعوا الكافرين ؟ إنكم وهم من أول مرحلة مختلفون ؛ أنتم مؤمنون وهم كفار ، والكافر والمنافق سيستغل فرصة الضعف فى النفس الإيمانية المسلمة ، ويحاول أن يتسلل إليها ، مثلما قلنا : إن جماعة من المنافقين قالوا : قتل محمد ، ولم يعد فينا رسول فلنلجأ إلى دين آبائنا . والمؤمنون الذين أصابتهم لحظة ضعف قالوا : نذهب إلى ابن أبى - المنافق الأول فى المدينة - ونطلب منه أن يتوسط لنا عند أبى سفيان ليأخذ لنا الأمان .

ولذلك يقول الحق : « ياأيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين » ، فإن كان الموقف يحتاج إلى ناصر فلا تطلبوا النصير من الكافرين ، ولكن اطلبوه ممن آمنتم به . وينزل القول الحق :

﴿ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ ﴾

ألم يقل أبو سفيان : « لنا العُزَّى ، ولا عُزَّى لكم » ، فقال لهم النبى قولوا لهم : الله مولانا ولا مولى لكم ، وعندما قال : يوم بيوم ، أى يوم أُحد بيوم بدر ، الحرب سجال . فرد عليه عمر بن الخطاب رضى الله عنه وقال : لا سواء ، أى نحن لسنا مثلكم ؛ قتلانا فى الجنة ، وقتلاكم فى النار ، فكيف تكون سواء وكيف تكون سجالاً !؟

« بل الله مولاكم وهو خير الناصرين » ونفهم قول الحق:« خير الناصرين » أى يجوز أن يوجد الله بشرا كافرين أو غير كافرين وينصركم نصرا سطحيا ، لا نقول إن هذا نصر إنما النصر الحقيقى هو النصر الذى يأتى من الله ، لماذا ؟ لأن النصر أول ما يأتى من ناحية الله فاطمئن على أنك خالص ومخلص لله وإلا ما جاءك نصره ، فساعة يأتيك نصر الله فاطمئن على نفسك الإيمانية ، وأنك مع الله .

وقول الحق:« خير الناصرين » دليل على أنه من الممكن أن يكون هناك ناصر فى عرف البشر . وقد قال المؤمنون : يارب نحن ضعاف الآن وإن لم نذهب لأحد ليحمينا ماذا نصنع ؟ فيوضح لهم الحق : كونوا معسكرا إيمانيا أمام معسكر الكفر ، وإياكم أن تلجأوا إلى الكافرين بربكم ؛ لأنهم غير مأمونين عليكم . وإن كنتم تريدون أن تعرفوا ماذا سأفعل : « سنلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب » . فإذا ألقى الرعب فى قلوب الكافرين فماذا يفيدهم من عَدَدِهم وعُدَدِهم ؟! عددهم وأموالهم تصير ملكا لكم وتكون فى السَلَب والغنيمة .

﴿ سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

(١٥١)

وألقى الحق فى قلوبهم الرعب بالفعل . فساعة قالوا لأبى سفيان : إن محمداً قادم إليك بجيش كثيف من المدينة ، وانضم له مقاتلون لم يحاربوا من قبل ، وقادم إليكم فى حمراء الأسد . ماذا صنع أبو سفيان وقومه ؟ ألقى الله الرعب فى قلوبهم وفروا .

وكلمة « سنلقى » مأخوذة من « الإلقاء » وهو لا يكون إلا لمادة وعين . ويبين لنا القرآن هذا الأمر حين يقول : « فألقى الألواح » ، هذه حاجة مادية . قال تعالى :

﴿ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى ﴾

(من الآية ١٥٠ سورة الأعراف)

إنه أمر مادى . . ونحن نقول : ألقى الحجر . والحق سبحانه يقول :

﴿ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

(سورة الشعراء)

إنها حبال ، أى أمر مادى . وسبحانه وتعالى يقول عن الوحى لأم موسى :

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ ﴾

(سورة القصص)

فالإلقاء أمر مادى ، كأن الله يريد أن يجعل المعنى وهو الرعب شائعا ، فقال : أنا سأجمع الرعب وأضعه فى القلب ، ويكون عمله ماديًّا . فإذا ما استقر الرعب فى القلب جاء الخَور ، وإذا سكن الخور القلب نضح على جميع الجوارح تخاذلا ، فيقول : « سنلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب » فكأنه مثل لنا الرعب ، والرعب أمر معنوى وهو التخوف من كل شىء ، فأوضح : بأنه سيأتيهم بالرعب ويلقيه فى القلب ، فيبقى به ليصنع الخور والخذلان .

« سنلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب » انظروا إلى التعابير الصادرة عن الله . إنه هنا يأتى بـ « نون العظمة » ، « سنلقى » ونلحظ أن الحق سبحانه وتعالى ساعة

يتكلم عن أمر يحتاج إلى فعل فهو سبحانه يأتى بـ « نون العظمة » كقوله :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝ ﴾

(سورة الحجر)

ولأن إنزال الذكر عملية عظيمة ، فنأتى بـ « نون العظمة » . لأننا سننزله بقدرة وسننزله بحكمة ، وننزله بعلم وننزله بسمع ، وننزله ببصر ، وننزله بقيومية ، وننزله بقبض ، وننزله ببسط ، فقوله : « إنا نحن » فكأن نون العظمة تأتى هنا ، لكن ساعة يتكلم سبحانه عن الذات العلية فهو يقول : « إننى أنا الله » . لم يقل إننا ، ولكن فى الإنزال يقول :

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝ ﴾

(سورة القدر)

لأن هذه عملية عظيمة جليلة ؛ فـ « نون العظمة » تأتى فيما يكون من شأنه حدث يُفعل ؛ وهذا الحدث الذى يُفعل يحتاج لصفات كثيرة ، ولذلك قلنا ساعة تبتدىء أىَّ عمل تقول : « بسم الله الرحمن الرحيم » لماذا ؟ لأن العمل الذى ستعمله يحتاج إلى قدرة عليه ، ويحتاج إلى علم قبل أن تعمله ، ويحتاج إلى حكمة ، أى أنه يحتاج إلى صفات كثيرة ، فأنت تدخل على العمل باسم القادر الذى يُقْدِرُك ؛ وباسم العليم الذى يعلمك ، وباسم الحكيم الذى يحكمك . وكل هذه الصفات ستتكاتف فى إبراز العمل كى يرحمك حتى فى الاستعانة ، فلا يقول لك : هات الصفات كلها التى يحتاج إليها فعلك ؛ لأن هناك صفات أنت لا تعرفها ، فيقول لك : هات الاسم الجامع لكل صفات الكمال . قل : « باسم الله » ، وهى تضم كل صفات الكمال .

إذن فأنت تلاحظ أنك إذا رأيت « نون العظمة » التى نسميها « نون الجمع » نجد أننا نقول : « نحن » للجماعة . أو للمتكلم الواحد حين يعظم نفسه ، ولذلك نلاحظها حتى فى قانون البشر ، ألم يقولوا فى الملكية : « نحن الملك » ، وهذه النون بالنسبة لله ليست نون الجماعة . إنما هى « نون العظمة » ، العظمة الجامعة لكل صفات الكمال التى يتطلبها أى فعل من الأفعال ؛ لذلك قال سبحانه : « سنلقى فى

قلوب الذين كفروا الرعب » فكل قلب به كفر يحتاج إلى إلقاء الرعب فيه . إذن فتأتى نون العظمة لتستوعب كل هذه القلوب الكافرة .

وهو سبحانه لا يتجنى عليهم بالقاء الرعب ، ولكن هم الذين استحقوا أن يلقى فى قلوبهم الرعب ، لماذا ؟ « بما أشركوا » . إن الإشراك بالله هو الذى جاء لهم بالرعب ؛ لأن الله يفعل ، والشركاء لا يفعلون . ولو أن شركاءهم حق لما تخلوا عنهم . فلماذا لم يأتوا بشركائهم لينصروهم ؟ لقد جاءهم الرعب لأنهم ليس لهم مولى ، ولو كان لهم آلهة قادرة ـ كما يدعون ـ لقالوا لتلك الآلهة : رب محمد يعمل معنا هكذا فلماذا لا تقفون له يا أربابنا ؟ لكنهم أشركوا بالله ما لا يضر ولا ينفع ، بل ضره أقرب من نفعه .

« بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا » والسلطان هو القوة والحجة والبرهان مأخوذة من مادة « السين واللام والطاء » ونقول : فلان تسلط على فلان ، أى أرغمه بقدرته عليه . ويقولون : فلان سليط اللسان ، أى قادر أن يسب ، إذن فالسلطة هى : القهر ، والقوة التى ترغم على الفعل ، وفى المعنويات هى الحجة والبرهان . والمؤمنون دائما ذوو سلطان من الله ؛ لأنهم إن انتصروا ماديا فذلك سلطان القهر ، وإن انهزموا ماديا فعندهم سلطان الحق والدليل ؛ ولذلك قلنا سابقا : إن إبليس يأتى يوم القيامة ويقول :

﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ﴾

(من الآية ٢٢ سورة إبراهيم)

وقلنا إن السلطان نوعان : إما قوة تقهرنا على أن نفعل المعصية ، وإما برهان ودليل يجعلنا نفعل المعصية .

والفرق بين القوة القاهرة وبين سلطان الدليل هو أن القوة القاهرة تجعلك تفعل وأنت مرغم غير راض عن الفعل . أما سلطان الدليل فيقنعك بأن تفعل ؛ فتكون قد فعلت برضاك ، فمرة يأتى السلطان بمعنى : قوة تقهرك على أن تفعل الفعل وأنت

مرغم . إنما قوة الدليل تقنعك أن تفعل ، فيأتى الشيطان ليقر على نفسه فى الآخرة ويقول : « وما كان لى عليكم من سلطان » أى ليس معى قوة تقهركم على المعصية ، وليس معى دليل يقنعكم حتى تفعلوا المعصية ، لا هذا ولا ذاك ، فما الحكاية إذن ؟ قال : « وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى » . أى إنكم أطعتمونى واستجبتم لدعوتى بلا سلطان قوة أقهركم به على شىء ، ولا سلطان دليل أقنعكم به .

ويذيل الحق الآية بقوله : « ومأواهم النار وبئس مثوى الظالمين » أى أن المرجع الذى يأوون إليه هو النار ، والمأوى ؛ هو الموضع الذى ترجع أنت إليه . وكأن فى هذا المرجع ذاتية من الكافر تلقيه على النار فهو ـ أى الكافر ـ مأواه ومثواه الذى يرجع إليه . ولذلك يجب أن نفطن إلى قوله الحق فى بعض الأساليب : « وإليه تَرجَعون » وقوله : « وإليه تُرجِعون » . « وبئس مثوى الظالمين » . . أى مثوى لا مفر بعده أبدا ، فكل مثوى من الجائز أننا نرحل عنه ، لكن المثوى الذى سيبقى خلودا للظالمين هو النار وهو بئس المثوى . وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ
تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ
وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ
أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ
ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ
صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا

عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾

ونعرف أن فى « صدقكم الله وعده » مفعولين : الأول هو ضمير المخاطبين فى قوله : « صدقكم » ، والثانى هو قوله « وَعْد » المضاف إلى الضمير العائد على لفظ الجلالة « الله » فهو ـ سبحانه ـ قد أحدث وعداً ، والواقع جاء على وفق ما وعد . لقد قال الحق :

﴿ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾

(سورة محمد)

وقال سبحانه :

﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾

(سورة الصافات)

والآيتان تؤكدان قضية وعدية ، بعد ذلك جاء التطبيق العملى . . فهل وقع الوعد أو لم يقع ؟ لقد وقع ، ومتى ؟ فهل يشير الحق فى هذه الآية إلى موقعة بدر ؟

« إذ تحسونهم بإذنه » . و« تحسونهم » أى تُذهبون الحس منهم ، والحس : هو الحواس الخمس ، ومعنى أذهبت حسه يعنى أفقدته تلك الحواس . « إذ تحسونهم » وقد حدث ، وتمكنتم منهم ؛ تقتلونهم وتأسرونهم ، أو الحس : هو الصوت الذى يخرج من الإنسان ، ومادام فقد الحس يعنى انتهى ، « إذ تحسونهم بإذنه » فحينما صدقتم لقاءكم لعدوكم على منهج الله صدق الله وعده ؛ هذا فى بدر .

أما هنا فى أُحد فقد جاء فيكم قوله : « حتى إذا فشلتم » أى جبنتم . « وتنازعتم فى الأمر وعصيتم » أمر الرسول « من بعدما أراكم ما تحبون » وهى الغنائم ، « منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة » . كأنه سبحانه يعطينا العبرة من معركتين : معركة فيها صدق وعد الله ، وفعلا انتصرتم ، وأيضا صدق وعد الله حينما تخليتم

عن أمر الرسول فحدث لكم ما حدث . إذن فالمسألة مبسوطة أمامكم بالتجربة الواقعية ، ليس بالكلام النظرى وليس بالآيات فقط ، بل بالواقع .

أو أن الأمر كله دائر فى أحُد ، نقول فرضا : هو يدور فى أحُد ودع بدرا هذه ، حينما دخلتم أيها المسلمون أول الأمر انتصرتم أم لم تنتصروا ؟ لقد انتصرتم ، وطلحة بن أبى طلحة الذى كان يحمل الراية للكفر قتل هو وبضعة وعشرون ، الراية الكافرة قد سقطت فى أول المعركة ، وحامل الراية يقتل وهذا ما وضحه قوله تعالى : « ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر » فجماعة تقول : لنبق فى أرض المعركة ، وجماعة تقول : ننسحب . ورأيتم الغنائم فحدث منكم كذا وكذا . فتأتى النكسة ، ولو لم يحدث ما حدث لكان من حقكم أن تتشككوا فى هذا الدين ، إذن فما حدث دليل على صدق هذا الدين ، وأنكم إن تخليتم عن منهج من مناهج الله فلا بد أن يكون مآلكم الفشل والخيبة والهزيمة .

« حتى إذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر » ، فجماعة قالوا : نظل كما أمرنا الرسول ، وجماعة قالوا : نذهب إلى الغنائم « منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة » . . ومادمتم قد تنازعتم وقالت جماعة : لنتمسك بمواقعنا ، وقالت جماعة أخرى : لنذهب إلى الغنائم ، إذن فالذى أراد مواصلة القتال إنما يريد الآخرة ولم تلهه الغنائم ، والقسم الذى أراد الدنيا قال : لنذهب إلى الغنائم . وفى هذه المسألة قال ابن مسعود رضى الله عنه : والله ما كنت أعلم أن أحدًا من صحابة رسول الله يريد الدنيا حتى نزل فينا ما نزل يوم أحُد .

أى أنه لم يكن يتصور أن من بين الصحابة من يريد الدنيا ، بل كان يظن أنهم جميعا يريدون الآخرة ، فلما نزل قول الله : « منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة » عرف ابن مسعود أن من الصحابة من تتقلب به الأغيار . وذلك لا يقدح فيهم ؛ لأنهم رأوا النصر ، فظنوا أن المسألة انتهت ؛ لقد سقطت راية الكفر ، وقتل المؤمنون عددا من صناديد قريش . ولقد عفا الله عن المؤمنين وغفر لهم ما بدر منهم من مخالفة لأمر رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

« ثم صرفكم عنهم ليبتليكم » نعم لأنكم كنتم مشغولين بقتالهم قبل أن تنظروا إلى الغنائم ، فلما نظرتم إلى الغنائم اتجه نظركم إلى مطلوب دنياكم ، فانصرفتم عنهم ، ولم تجهزوا عليهم ولم تتم لكم هزيمتهم وقهرهم ، « ثم صرفكم عنهم ليبتليكم » وابتلاؤكم فى هذه الغزوة إنما هو رياضة وتدريب على المنهج ، كأنها غزوة مقصودة للابتلاء ، فترون منها كل ما حدث . وبعد ذلك نجحت التجربة ، فبعد هذه المعركة لم ينهزم المسلمون فى معركة قط .

ولذلك يقولون : الدرس الذى يعلم النصر فى الكثير لا يعتبر هزيمة فى القليل . والمثال على ذلك : لنفرض أن ولداً من الأولاد رسب سنة ، ثم حمل ذلة الرسوب ، نجده ينال بسبب ذلك مرتبة متميزة بعد ذلك بين العشرة الأوائل ، إذن فالرسوب الأول له كان خيرا .

« ولقد عفا عنكم » لأنه كان لكم وجهة نظر أيضا عندما تصورتم أن المعركة انتهت بسقوط راية الكفر ومقتل طلحة بن أبى طلحة ومقتل بعض من الصناديد فى معسكر الكفر ، فظننتم أن المسألة انتهت ، لكن كان يجب أن تذكروا أن الرسول قال لكم : اثبتوا فى مراكزكم وأماكنكم حتى لو رأيتمونا نتبع القوم إلى مكة ، ولو رأيتموهم يدخلون المدينة .

أيوجد تحذير أكثر من ذلك !؟ « والله ذو فضل على المؤمنين » وسبحانه جل وعلا لم يخرجهم من الحظيرة الإيمانية بهذا القول الحكيم . ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ

خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾

« إذ تصعدون ولا تلوون على أحد » هنا جاء لهم بلقطة من المعركة ، حتى إذا سمع كل واحد منهم هذا الكلام يستحضر الصورة المخزية التى ما كان يصح أن تحدث ، « إذ تصعدون » ، فيه « تَصْعَد » ، وفيه « تُصعِد » وهنا « تُصعِدون » من « أَصْعَد » ، و« أَصْعَد » أى ذهب فى الصعيد ، والصعيد الأرض المستوية حتى تعينه على سرعة الفِرار . إنما « صَعِدَ » تحتاج إلى أن يكون هناك مكان عالٍ يصعدون إليه . وهم ساعة أرادوا أن يفروا جَرَوْا إلى الأرض السهلة ومَشَوْا ، فكل منهم لا يريد أن يتعثر هنا أو هناك ، إذن فالمناسب لها « إذ تُصعِدون ولا تلوون على أحد » والفَار لا ينظر هنا أو هناك ؛ ليس أمامه إلا الأرض السهلة .

« ولا تلوون على أحد » أى لا تعرجون على شىء ، والأهم من ذلك أن هناك تنبيها من القائد الأعظم وهو الرسول صلى الله عليه وسلم الذى يدعوكم « والرسول يدعوكم فى أخراكم » أى يناديكم من مؤخرتكم طالبا منكم العودة إلى ميدان القتال « فأثابكم غما بغم » . أنتم غَمَمْتُم الرسول صلى الله عليه وسلم بأنكم خالفتم أوامره ، فوقفكم الله هذا الموقف .

كلمة « فأثابكم غما بغم » كأنه يقول : عاقبكم . ولكنه سبحانه يأتى بها مغلفة بحنان الألوهية « فأثابكم ». إذن فهى ثواب . . أى أن الحق سبحانه وتعالى بربوبيته وبألوهيته ؛ يعلم أن هؤلاء مؤمنون فلم يَقْسُ عليهم ، قال : « فأثابكم غما بغم » فكأن ما حدث لكم تخليص حق .

« لكيلا تحزنوا على ما فاتكم » ولو لم تحدث مسألة الحزن والخزى والذلة لشغلتكم مسألة أنكم فاتتكم الغنائم والنصر ، ولظل بالكم فى الغنائم ؛ لأنها هى السبب فى هذا . كأن الغم الذى حدث إنما جاء ليخرج من قلبكم لقطة سيل اللعاب على الغنيمة . وما أصابكم من القتل والهزيمة ، « فأثابكم غما بغم لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم والله خبير بما تعملون » أى أنه سبحانه يقدر ما الذى استولى

عليكم ، لأن من الجائز « والرسول يدعوكم فى أخراكم » أنهم لم يسمعوا النداء من هول المعركة ، « والله خبير بما تعملون » وهو سبحانه خبير بكل فعل وإحساس . ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ ﴾

وكلمة « أنزل » تدل على أن هذا عطاء عُلوى ليس له شأن بالأسباب المادية ولا بالقوانين البشرية ؛ لأن النوم عرض من الأعراض التى تطرأ على الأحياء ، هذا العرض تستوجبه عمليات كيماوية فى نفسك ، وهذه العمليات الكيماوية حتى الآن لا يعرفون ما هى ، وأقصى ما فُهم منه أنه ردع ذاتى لجسم الإنسان . فكأن الجهاز المتحرك المكون من مخ يعمل، وعين ترى، وأذن تسمع، وحواس وحركة هذا الجهاز له طاقة ، ساعة تنتهى منه الطاقة ، لا يقول لك : أنت الذى تترك العمل.لا ، بل

يقول لك : أنا لم أعد صالحا للعمل . إنه ردع ذاتى ، مثلما يريدون أن يصلوا إليه الآن فى مجال الآلات بمجرد فصل تيار الكهرباء آليا عن تلك الآلات فهى تتوقف .

فالردع الذاتى هو فى النوم ويأتيك النعاس . وتبين بالبحث العلمى أن هناك أشياء فى الجسم لا تخرج كفضلات . بل تحتاج إلى التعادل والتوازن الكيميائى . ونحن نعلم أن هناك بقايا كنتيجة للحركة ، وهناك احتراق للطاقة ، وكلٍ حركة فيها احتراق ، وبقايا هذا الاحتراق تخرج مرة على هيئة بول ، ومرة يخرج غائطًا ومرة يخرج مخاطًا ، وهكذا ، إذن كثير من هذه الفضلات هى نتيجة عمليات الاحتراق ، لكن هناك أشياء لا نريد لها أن تخرج ولكن نريدها أن تتعادل ، فعندما تنام لا يوجد لك حركة وتبتدىء الكيماويات داخل الجسم فى التعادل ، وهذا هو ما يفعله لك النوم الذى تستوجبه أسبابك المادية .

وصاحب الهم والغم لا ينام أبدا ؛ فهو يسهو عن نفسه ويرهق جسمه أكثر وتكون المصيبة كبيرة عليه ، وهنا ينزل الحق فضله عليكم بالنوم لأن أسبابكم لا تساعد أيا منكم على أن ينام .

وأنتم تذكرون قديما أننا قلنا : إن الإمام عليًا كرم الله وجهه لما اشْتُهِرَ بالفتيا ، وكلما سألوه عن أمر أفتى فيه ، فقالوا : نأتى له بمسألة معقدة ونرى كيف يأتى بالفتيا ، وكأنهم نسوا أنه يُفتى لأنه تربى فى حضن النبوة ، فقد جاءت النبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم وسيدنا على مازال صغيرا ، أما الصحابة الآخرون فقد جاءت النبوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهم كبار فى السن ، فهناك معلومات دخلت عندهم من أيام الجاهلية ، ولكن سيدنا عليًا كرم الله وجهه لم تدخل عليه معلومة من معلومات الجاهلية . كل المعلومات التى عنده نبوية ، فكل هذا التفاعل ينشأ عنه فُتيا ؛ لذلك كان سريعا فى الإفتاء .

على سبيل المثال ، تأتى له امرأة فتقول : يا ابن أبى طالب كيف يعطوننى دينارا من ستمائة ؟ مورثى خَلَّفَ ستمائة دينار فأعطونى دينارا واحدا . فقال لها : لعله مات عن زوجة ، وعن بنتين ، وعن أم ، الزوجة تأخذ الثُمن (خمسة وسبعين دينارا)

والبنتان تأخذان الثلثين (أربعمائة دينار) وللأم السدس وهو مائة دينار ، ولعل له اثنى عشر أخا وأختا واحدة،أشقاء أو لأب،وأنت هذه الأخت وقد بقى من التركة خمسة وعشرون دينارا توزع على الاثنى عشر أخا والأخت ؛ فيكون نصيبك دينارا . كيف عرف ذلك ؟ إنها دقة الحساب عند من تعلم فى بيت النبوة .

وفى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها نجد أن الحق قد أنزل عليهم نعاسا ليؤمنهم فلم ينشأ النوم هنا من حركة الاختيار ، ولكن الله أنزله ، ومعنى « أنزله » ؛ أنه بعث رحمة جديدة من السماء ليُخرج القوم الذين أصابهم الغم على ما فعلوا مما هم فيه . ولذلك قال أبو طلحة : غشينا النعاس ونحن فى مصافنا يوم أحد فكان السيف يسقط من أحدنا فيأخذه ثم يسقط فيأخذه .

إذن فهى عملية قسرية . والنعاس حينما ينزل من الحق سبحانه وتعالى يكون عملية إنقاذ من حركة فاتت فرصتها على النفس البشرية فعوضها الله ، ولكن القوم الذين نافقوا ماذا كان حالهم ؟ لاشك أن الذين جاءوا نفاقا لم يصبهم غم على ما حدث . بل بالعكس ، لابد أن يكون قد أصابهم فرح أو اطمئنان على ما حدث ، وهؤلاء لا يكونون أهلا لأن ينزل الله عليهم أمنة النعاس . بل يتركهم الله لذواتهم ؛ لأنهم لم يكونوا فى حصن الله باتباع منهج الإسلام أو بالاخلاص ـ على الأقل ـ لفكرة الإسلام ، هؤلاء يسلمهم الله لذواتهم .

إذن فلن يُنزل عليهم أمنة النعاس . ومادام لن ينزل عليهم أمنة النعاس ، فقد أصبحوا فى قلق ، لماذا ؟ لأن نفوسهم قد أهمتهم . والإنسان حين يؤمن ويتقبل الإسلام من ربه يكون قد باع نفسه لربه ، ومادام قد باع نفسه لربه فالصفقة الإيمانية لابد أن تستمر . وإذا استيقظ المسلم مرة لنفسه نقول له : لقد رجعت فى عقد الصفقة. ومادمت قد رجعت فى عقد الصفقة فالله الذى كان قد اشتراك يتركك لنفسك ، فقوله : « أهمتهم أنفسهم » أى خرجوا عن صفقة الإيمان ؛ لأن الذى يعقد صفقة بالإيمان مع ربه ، هو من قال الله فيه :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ

فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾

(سورة التوبة)

ومادام الله قد اشترى من المؤمن نفسه فيجب على المؤمن ألا تهمه نفسه ، فيدخل المعركة بالصفقة الإيمانية ، فإذا أهمته نفسه يبدأ القلق ، والبلبلة ، والاضطراب ، وتوهم الأشياء ، والشيء الواحد يتوهمه على ألف لون . إذن فنفسه تكون غير مطمئنة ، ومادام الإنسان قد شغله هم نفسه حتى لو كان النعاس استجابة لأمر طبيعى من ذات النفس فلا يأتى النعاس أبدا .

ولذلك نجد أن الإمام عليًّا ـ رضوان الله عنه وكرم الله وجهه ـ حينما سُئل عن أشد جنود الله؟بسط يديه وقال : أشد جنود الله عشرة : الجبال الرواسى ، والحديد يقطع الجبال ، إذن فالحديد أشد من الجبال ، والنار تذيب الحديد ، والماء يطفىء النار ، والسحاب المسخر بين السماء والأرض يحمل الماء ، والريح يقطع السحاب ، وابن آدم يغلب الريح يستتر بالثوب أو الشيء ويمضى لحاجته ، والسُكر يغلب ابن آدم ، والنوم يغلب السُكر ، والهم يغلب النوم ، فأشد جنود الله « الهم » .

فساعة يدخل الهم على النفس البشرية ، هذا أشد جنود الله ؛ لأن الهم يدخل على النفس البشرية بألوان متعددة للخطب الواحد ، فيتصور أموراً معقدة فى أمر واحد ، وواقعة على لون واحد ، ولكن الهم يجول به فى كل لون ؛ فهؤلاء قد أهمتهم أنفسهم ومادامو قد أهمتهم أنفسهم فقد خرجوا عن صفقة الإيمان . ومادامو قد خرجوا عن صفقة الإيمان الذى بوساطته اشترى الله من المؤمنين أنفسهم ، فالله يتخلى عنهم . ومادام الله قد تخلى عنهم فعليهم مواجهة المصير .

إن القلق والاضطراب يستبدان بهم ويصابون بالفزع من كل شيء . لكن حال الصنف الأول والطائفة الأولى يختلف ؛ فالله سبحانه وتعالى يعاملهم معاملة من بقى

فى الصفقة الإيمانية وإن كانت نفوسهم البشرية قد فسرت الأحداث تفسيرا خاطئا ، فظنوا أن المسألة فى المعركة انتهت ، فذهبوا لأخذ الغنيمة ، إن هؤلاء قد احترم الله بقاءهم على الإخلاص للإسلام ، وأدبهم على تفسيرهم للأحداث تفسيرا غير حق ، فأثابهم غما لما خالفوا فيه ، وأنزل عليهم أمنه لإخلاصهم فى قضية الإسلام .

« وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية » وإذا سمعت كلمة « طائفة » فاعلم أنها جماعة ، لكن هذه الجماعة لها مواصفات خاصة هى التى تجمعها على فكرة واحدة كأنهم يطوفون حولها ، إنها ليست مطلق جماعة لكنها جماعة تدور حول فكرة واحدة ، ويأتى القول الحكيم هنا ليبين لك ما قالوه فى نفوسهم ، وماداموا قد قالوا فى نفوسهم ، أسمعهم أحد ؟ لا ، ولكن الله أخبر به ، وأخبر بما فى نفوسهم جميعا بقول واحد ، مما يدل على أنهم يطوفون حول فكرة واحدة ، فالنضح الوجدانى يجعلهم يقولون جملة واحدة هى : « هل لنا من الأمر من شىء » وماداموا سيقولون فى نفوسهم فمن الذى سمعهم وهم جماعة ؟ إنه الله - سبحانه - « والله عليم بذات الصدور » .

وأنت إذا قلت « طائفة » تجد أنها فى عرف اللفظ « مفرد » ، وعندما تجمعها تقول : « طوائف » ، لكن هى لفظ مفرد يدل على جمع ، فمرة يلحظ المفرد ، ومرة يلحظ ما يؤديه المفرد من الجمع . وهذه لا يتنبه إليها إلا البليغ ، فيفرق بينها كلفظ مفرد وبين ما تدل عليه كجمع ، ولذلك تجد هذا فى إعجاز القرآن ، فالحق يقول :

﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ ﴾

(سورة الحجرات)

وحينما يقول : « وإن طائفتان من المؤمنين » فهو هنا يأتى بالخبر ، اقتتلتا أو اقتتلوا ؟ إنه سبحانه يقول : « اقتتلوا » ، اللفظة طائفتان لكن الدقة البلاغية لاحظت أن كل طائفة مكونة من جماعة . « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا » فماذا

نفعل ؟ « فأصلحوا بينهما » . فمرة رجع للجماعة ومرة رجع للاثنتين ، ففى ساعة الاقتتال لا تقف الطائفة بسيف واحد وتضرب ضربة واحدة ، لا ، ففى ساعة القتال كل فرد من الطائفة له عمل ، إذن فالفردية المكونة للطائفة متعددة .

لكن عندما نُصلح هل نأتى بكل فرد من هذه الطائفة وبكل فرد من الطائفة الأخرى أو نأخذ هذه الطائفة ممثلة فى رؤوسها والطائفة الأخرى ممثلة فى رؤوسها ونعقد الصلح بين الطائفتين ؟ فدقة القرآن تقول : « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما » وبعد ذلك يعود الحق للتثنية فيقول : « فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما » والصُّلح يكون بين جماعة ممثلة فى قيادة وجماعة أخرى ممثلة فى قيادة .

وقوله الحق : « وطائفة قد أهمَّتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية يقولون هل لنا من الأمر من شىء قل إن الأمر كله لله يخفون فى أنفسهم ما لا يبدون لك يقولون لو كان لنا من الأمر شىء ماقتلنا هاهنا » هذا القول يدل على أنها طائفة تدور حول حركة واحدة ، ويدل على أن النفاق نفاق متفق عليه ، وليس كل واحد منهم ينافق فى نفسه ، لا . إنها طائفة المنافقين ، وقد كوَّنوا جماعة ، ولهم سياسة مخصوصة ، ولهم كلام مخصوص ولهم وحدة فكر ، ولهم وحدة قول ، تعرفهم من قول الحق : « وطائفة قد أهمّتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية » .

ونعرف أن الحق هو الشىء الثابت ، ومادام ثابتا فهو لا يتغير ، وقضية الحق فيه تكون مطردة ، فالله حق ، خلق السماوات والأرض ، وكل الكون بالحق ، أنزل كتابه بالحق ، كله حق ، فهم يظنون بالله غير الحق مع أنه حق ، ونشأ الكون منه بقانون حق ، واستمرت سنن الله فى الكون بالحق ، وهو دائما ينصر الحق ، وهم يظنون بالله غير الحق ، يقولون : ربنا لم ينصرنا على الرغم من أنه وعدنا بالنصر ، وتناسوا العناصر التى جعلها الله أسبابًا للنصر ، إنها سُنّة الله وسُنّة الله تتحقق ولو على أحبابه ، لقد خالفوا أمر الرسول ، فلابد أن ينهزموا ، فلا مجاملة لأحد ، فالذى يخالف لابد أن يأخذ جزاءه ؛ لأن هذا هو الحق .

كان يجب أن يقولوا إن الحق واضح لدرجة أن أحبابه ومعهم رسوله حينما خالفوا

عن أمر الله الذى قاله الرسول صلى الله عليه وسلم طبق الله عليهم سُنته ، إذن فهى سنة بالحق ، لكنهم ظنوا بالله ظن الجاهلية ، والمقصود به إما ظن أهل الجاهلية ؛ وإمَّا أن تكون الجاهلية عَلَمًا على السَّفه كله ، وهذا الظن له نضح سلوكى .

« يقولون هل لنا من الأمر من شىء » أى هل انتصرنا أو ظفرنا أو غلبنا أو أخذنا غنائم ؟ أو يكون قولهم : « هل لنا من الأمر من شىء » مقصودا به : أننا خرجنا إلى المعركة بدون رأينا ؛ فقد كان من رأينا ألا نخرج وأن نظل فى المدينة وعندما يدخلونها علينا نحاربهم . « يقولون هل لنا من الأمر من شىء قل إن الأمر كله لله » هم لم يمتلكوا البصيرة الإيمانية ولم يعرفوا لماذا لم ينصرهم الله ، هم فهموا أنهم لم ينتصروا ؛ لكن فى عرف الحق أنه انتصار ؛ لماذا ؟ لأنَّ المعركة أثبتت أن المبدأ إن خولف فلا نصر ، إذن فالإسلام قد انتصر ، ولكن الذى انهزم هم المتخاذلون عن منهج الإسلام ، وهذا نصر للإسلام فى ذاته . ولذلك يجب أن نفرق دائما بين المبدأ الإسلامى و المنسوبين للمبدأ .

إياك أن تأخذ الحكم على المبدأ من المنسوبين للمبدأ ، فلا يكون المنسوبون للمبدأ حُجّة على الحكم فى ذاته إلا إذا كانوا ملتزمين به ؛ لأن الله حينما شرع ديناً سمّاه الإسلام ليحكم حركة الحياة فى الناس فهو قد قنّن وحرّم فيه أفعالاً ، ومادام قد قنن وحرم فيه أفعالاً فمعناه أن المؤمنين المسلمين الذين انتسبوا له من الممكن أن يخالفوا بأفعالهم تلك الأحكام ، فعندما يقرر الإسلام جلد أو رجم الزانى والزانية ، وحينما يشرع الإسلام قطع يد السارق أو السارقة ، وحين يشرع الإسلام تلك العقوبات للجرائم ، فمعنى ذلك أنه من الجائز أن تحدث تلك الجرائم ، فإذا ما حدثت فأنت لا تأخذها من واقع مُجَرَّم لتحكم به على الإسلام ، لا تقل إن الإسلام أباح السرقة بل قل : سرق مسلم ووضع الإسلام عقوبة صارمة عليه وهى قطع يده .

« يُخفون فى أنفسهم ما لا يبدون لك يقولون لو كان لنا من الأمر شىء ما قتلنا ها هنا » وهذه هى الفضيحة لهم ، فماذا كانوا يريدون أن يكون لهم ؟ كانوا يريدون ألا يخرجوا للمعركة فقالوا : لو كان لنا من الأمر شىء واتبعنا منطقنا ، لما جئنا الموقعة هنا وحصل لنا ما حصل ، هذه واحدة ، أو لو كان لنا شىء من الظفر الذى وعد الله به محمداً وأصحابه ما قتلنا ها هنا ، فعلى الرأيين يصح المعنى ، فكأنهم أرادوا أن

يعللوا القتل أو الموت بأسباب ، ومن الذى قال:إن القتل أو الموت يتعلق بأسباب ؟ إن الموت قضية تطرأ لإعدام الحياة ، وهى مجهولة السبب ومجهولة الزمان ومجهولة المكان ومجهولة العمر .

إذن فمادامت المسألة مجهولة فلماذا ربطتم بين القتل والموقعة ؟ وهل لم تروا إنساناً مات وليس فى موقعة ؟ ألم تروا إنساناً قد قُتل وليس فى موقعة ؟ لو أن القتل لا ينشأ إلا فى مواقع قتال وحرب لكان لكم أن تقولوا هذا ، وإنما القتل والموت قضية عامة لها واقع فى حياتكم . هذا الواقع لم يرتبط بأرض ، ولم يرتبط بزمان ، ولم يرتبط بسن ، ولم يرتبط بسبب ، وإنما الموت يأتى لأنك تموت ، انتهت المسألة .

إذن فهم عندما ربطوا القتل والموت بالموقعة فهم قد خرجوا عن القضية الإيمانية . ولذلك يأتى الرد من الحق بأمر واضح للرسول صلى الله عليه وسلم : « قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم » . فكأنك أيها الميت قد تكون أحْرَص على لقاء الموت من حِرْص الموت عليك . بدليل أننا قلنا : إن الإنسان يكون مريضاً ، ويلح على أن تُجرى له عملية جراحية فيعتذر الطبيب قائلا : عندى عدد كبير من الجراحات فانتظر شهراً ، فيأتى له المريض بوساطة لكى يقبل الطبيب إجراء العملية الجراحية ويلح عليه . ويعلى أجر الطبيب وقد يموت المريض . إذن فهو يلح على الموت أو لا ؟ إنه يلح على الموت .

يقول الحق : « قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم » وكلمة « بَرَزَ » تدل على اندفاع حركى ، فمعنى : بَرزَ من الصّف ؛ يعنى أن الصّف له التئام واقعى ، والذى يبرُز إنما يقوم بحركة مخالفة للصف ، هذه حركة .

« قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم وليبتلى الله ما فى صدوركم وليُمحّص ما فى قلوبكم والله عليم بذات الصدور » والذى يبرز إلى المضجع هو من يخرج من مكان الاستقرار ، وإلاّ فكيف يكون الابتلاء لمن يقدر الله سبحانه أن يحملوا معركة الإسلام إلى أن تقوم الساعة إذا لم تكن هذه المسائل ؟ لابد أن يكونوا قوماً قد عركتهم التجربة ، مُمحصين بالأحداث حتى لا يكون مأموناً على

حمل السلاح فى الإسلام إلا هؤلاء الصفوة المختارة .

فساعة يقول الرسول صلى الله عليه وسلم بالخروج ، وينتهى إلى أن يخرج إلى أحُد ، نجد جماعة يتخاذلون بوساطة ابن أبى ، هذه أول تصفية ، وبعد ذلك ينقسم الرُماة ، وهذه تصفية أخرى ، فريق يظل وفريق ينزل للغنائم ، وبعد ذلك يُشَاع أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد قُتل ، هذه تصفية ثالثة .

« وليبتلى الله ما فى صدوركم وليمحص ما فى قلوبكم والله عليم بذات الصدور » وكلمة « ذات الصُدور » معناها صاحبة الصدور . وفى الصدر يحرص الإنسان على إخفاء الأمر الذى يجب أن يحتفظ به لنفسه بِحرْص كحرص الصاحب على صاحبه ، كأن الصدر حريص على ألا يسلم ما فيه ، ولكن الله سبحانه وتعالى يفضحهم أمام الناس ، ويفضحهم أمام نفوسهم ؛ فقد يجوز أن يكونوا مغشوشين فى نفوسهم .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾ ﴾

وعندما نقرأ كلمة « اسْتَزَلَّهم » نعرف أن (الهمزة والسين والتاء) للطلب ، تطلب ما بعدها ، مثل : استفهم أى طلب الفهم ، استعلم يعنى طلب العلم ، استقوى يعنى طلب القوة ، و« اسْتَزَلّ » يعنى طلب الزّلل ، ومعنى « الزَّلَل » هو العثرة والهفوة ، أى أن الإنسان يقع فى الغلط ، إذن فالشيطان طلب أن يزلوا ، « ببعض ما كسبوا » ، كأن الشيطان لا يجترىء على أن يستزل أحداً ممن آمن إلا إذا صادف فيه

تحللاً فى ناحية ، لكن الذى ليس عنده تحلل لا يقوى عليه الشيطان ، ساعة يأتى الإنسان ويعطى لنفسه شهوة من الشهوات فالشيطان يرقمه ويضع عليه علامة ويقول : هذا ضعيف ، هذا نقدر أن نستزِلّه . لكن الذى يراه لا يطاوع نفسه فى شىء من التحلل لا يقترب ناحيته أبداً .

ولذلك فالنفس هى مطية الشيطان إلى الذنوب ، وفى الحديث الشريف : « إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم »[1] وعندما يرى الشيطان واحدًا تغلبْه نفسه فى حاجة فالشيطان يقول : هذا فيه أمل ! وهو الذى يجرى منه مجرى الدم كما سبق فى الحديث ، أما الملتزم الذى ساعة تُحدثه نفسه بشىء ويأبى فالشيطان يخاف منه ، إذن فالشيطان لا يستزل إلا الضعيف ، ولذلك فالذى يكون ربه على ذِكْر منه دائماً لا يجترىء عَليه الشيطان أبداً .

إن الله ـ سبحانه ـ قد سمى الشيطان « الوسواسَ الخناس » ، إنه يوسوس للناس ، لكنه خنَّاس فإذا ذُكِر اللَّهُ يخنِس ، أى يتأخر ويختفى ولكنّه ينفرد بك حين يراك مُنعزلاً عن ربك ، لكن حين تكون مع ربك فهو لا يقدر عليك بل يتوارى ويمتنع عن الوسوسة إذا استعذت عليه بالله .

إذن فقوله : « إنما استزلهم الشيطان » يعنى طلب منهم أن يزلوا نتيجة لأنه عرف أنهم فعلوا أشياء أبْدَوْا وأظهروا فيها ضعفهم ، « إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا » . وكلمة « ببعض ما كسبوا » . . كأن قول الله « ولقد عفا الله عنهم » أنّه لم يأخذهم بكل ما كسبوا ؛ لأن ربنا يعفو عن كثير . « إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم إن الله غفور حليم » .

« عفا الله عنهم » لماذا ؟ عفا عنهم تكريما لمبدأ الإسلام الذى دخلوا فيه بإخلاص ، ولكن نفوسهم ضعُفت فى شىء ، فيُعطيهم عقوبة فى هذه ولكنه يعفو عنهم فهذا هو حق الإسلام ، « إن الله غفور حليم » .

---

(١) رواه أحمد والبخارى ومسلم وأبو داود عن أنس .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ ﴾

والضرب فى الأرض هو السعى واستنباط فضل الله فى الأرض وفى سبيله لإعلاء كلمته ، فالذين كفروا يرتبون الموت والقتل والعمليات التى يفارق الإنسان فيها الحياة على ماذا ؟ على أنه ضرب فى الأرض أو خرج ليقاتل فى سبيل الله ، وقالوا : لو لم يخرجوا ما حصل لهم هذا ! سنرد عليهم ، ونقول لهم : كأنكم لم تروا أبداً ميتاً فى فراشه . كأنكم لم تروا مقتولا يسقط عليه جدار ، أو يصول عليه جمل ، أو تصيبه طلقة طائشة ، هل كل من يموت أو يقتل يكون ضارباً فى الأرض لشىء أو خارجا للجهاد فى سبيل الله ؟!

إذن فهذا حُمق فى استقراء الواقع ، وجاء الحق بذلك ليعطينا صورة من حكمهم على الأشياء ، إنه حكم غير مبنى على قواعد استقرائية حقيقية . فإذا عرفنا أنهم كفروا نقول : هذه طبيعتهم ، لأننا نجد أن حكمهم ليس صحيحا فى الأشياء الواضحة ، ومادام حكمهم ليس صحيحاً أو حقيقياً فى الجزئيات التى تحدث ـ فإذا عرفتم أنهم كفروا فهذا كلام منطقى بالنسبة لهم ـ فشأنهم أنهم لا يتثبتون فى أحكامهم فلا عجب ـ إذن ـ أن كانوا كافرين .

« أو كانوا غُزًّى » ، وغُزى : جمع فازٍ ، مثل : صُوَّم وقُوَّم ؛ يعنى جمع : صائم

وقائم . « لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ليجعل الله ذلك حسرة فى قلوبهم » . إذن فالله سبحانه وتعالى يصور لهم ما يقولونه ليعذبهم به ، كيف ؟ لأنهم عندما يقولون : لو كانوا عندنا لكنا منعناهم أن يخرجوا أو يُقتلوا ، إذن فنحن السبب .

وهكذا نجد أنهم كلما ذكروا قتلاهم أو موتاهم يعرفون أنهم أخطأوا ، وهذه حسرة فى قلوبهم ، ولو أنهم ردوها إلى الحق الأعلى لكان فى ذلك راحة لهم ولَمَا كانوا قد أدخلوا أنفسهم فى متاهة ، ويحدُث منهم هذا حتى نعرف غباءهم أيضاً ؛ فهم أغبياء فى كل حركاتهم وفى استقراء الأحداث الجزئية ، وأغبياء فى استخراج القضية الإيمانية الكلية ، أغبياء فى أنهم حشروا أنفسهم وأدخلوها فى مسألة ليست من شأنهم ، فأراد ربنا سبحانه وتعالى أن يجعل ذلك حسرة عليهم .

« لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قُتلوا ليجعل الله ذلك حسرة فى قلوبهم » إن القضية الإيمانية هى « والله يُحيى ويُميت » أى هو الذى يَهَب الحياة وهو الذى يَهب الموت ، فلا الضرب فى الأرض ولا الخروج فى سبيل الله هو السبب فى الموت ، ولذلك يقول خالد بن الوليد ـ رضى الله عنه ـ : لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها وما فى جسدى موضع شبر إلا وفيه ضربةُ سيف أو طعنة رمح ، وهأنذا أموت على فراشى كما يموت العَيْر ـ أى حتف أنفه ـ فلا نامت أعين الجُبناء .

والشاعر يقول :

ألا أيهذا الزاجرى أحضر الوغى
وأن أشهد اللذات هل أنت مُخْلِدِى ؟

أى يا من تمنعنى أن أحضر الحرب هل تضمن لى الخلود ودوام البقاء إذا أحجمت عن القتال . ويكمل الشاعر قوله :

فإن كنت لا تستطيع دفع منيتى
فدعنى أبادرها بما ملكت يدى

ويختم الحق الآية بقوله: « والله بما تعملون بصير » فكأنهم قد بلغوا من الغباء أنهم

لم يستتروا حتى فى المعصية ، ولكنهم جعلوها حركة تُرى ، وهذا القول هنا أقوى من « عليم » ؛ لأن « عليم » تؤدى إلى أن نفهم أنهم يملكون بعضاً من حياء ويسترون الأشياء ، ولكن علم الله هو الذى يفضحهم.لا ، هى صارت حركة واضحة بحيث تُبْصَر . فجاء قوله : « والله بما تعملون بصير » . ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾

والذى يحرص على ألا يخوض المعركة مخافة أن يُقتل ، فما الذى يرجح عنده هذا العمل ؟ إنه يبتغى الخير بالحياة . ومادام يبتغى الخير بالحياة ، إذن فحركته فى الحياة فى وهمه ستأتيه بخير ، فهو يخشى أن يموت ويترك ذلك الخير ، إنه لم يمتلك بصيرة إيمانية ، ونقول له : الخير فى حياتك على قدر حركتك : قوة وعلما وحكمة ، أما تمتعك حين تلتقى بالله شهيداً فعلى قدر ما عند الله من فضل ورحمة وهى عطاءات بلا حدود ، إذن فأنت ضيعت على نفسك الفرق بين قُدرتك وحِكمتك وعِلمك وحَركتك فى الكسب وبين ما يُنسب إلى الله فى كل ذلك ، ولذلك يقول الحق :

« وَلَئِن قُتِلتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أَوْ مُتُّم لَمَغفِرَةٌ مِّنَ اللهِ وَرَحمَةٌ خَيرٌ مِّمَّا يَجمَعُونَ »

وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾

ولنا أن نلحظ أن قول الحق فى الآية الأولى جاء بتقديم القتل على الموت قال تعالى : « ولئن قتلتم فى سبيل الله أو متم » وجاء فى هذه الآية بتقديم الموت على القتل قال ـ جل شأنه ـ : « ولئن متم أو قتلتم » فقدم القتل على الموت فى الآية الأولى لأنها جاءت فى المقاتلين ، والغالب فى شأنهم أن من يلقى الله منهم ويفضى إلى ربه يكون بسبب القتل أكثر مما يكون بسبب الموت حتف أنفه ، أما هذه الآية فقد جاءت لبيان أن مصير جميع العباد ومرجعهم يوم القيامة يكون إلى الله ـ تعالى ـ وأن أكثرهم تزهق نفسه وتخرج روحه من بدنه بسبب الموت ، فلذا قدم الموت هنا على القتل . إذن فكل كلمة وجملة جاءت مناسبة لموقعها . إنه قول الحكيم الخبير .

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ ﴾

إن الآية كما نرى تبدأ بكلام إخبارى هو « فبما رحمة من الله لنت لهم » . فكأنه ـ سبحانه ـ يريد أن يقول : إن طبيعتك يا محمد طبيعة تتناسب لما يطلب منك فى هذه المسألة ، هم خالفوك وهم لم يستجيبوا لك حينما قلت : إلىّ عباد الله ، إلىّ عباد الله إنى رسول الله ، وهذا شيء يُحْفِظ ويُغضِب . ولكنه لا يُحفِظ طبيعتك ولا يُغضب سجيتك لأنك مفطور مع أمّتك على الرحمة . فكأنه يريد أن يُحنن رسول الله على أمته التى أصابته بالغم ؛ فقال له : إياك أن تجازيها على هذا ؛ لأن طبيعتك أنك رحيم ، وطبيعتك أنك لست فظاً ، طبيعتك أنك لست غليظ القلب ، فلا تخرج عن طبيعتك فى هذه المسألة ، مثلما تأتى لواحد مثلا وتقول له : أنت طبيعة أخلاقك حسنة ، يعنى اجعلها حسنة فى هذه .

« فبما رحمة من الله لنت لهم » أى بأى رحمة أودعت فيك . ساعة تقول : بأى رحمة فأنت تبهم الأمر ، وعندما تُبهم الشيء فكأنه شيء عظيم ؛ لأن الشيء يُبهم إما لأنه صغير جدا ، وإما لأنه كبير جدا ، فالشيء إذا كان كبيرا يكون فوق المستوى الإدراكى ، وإذا كان صغيرا جدا يكون دون مستوى الإدراك . ولذلك فالأشياء الضخمة جدا نرى منها جانبا ولا نرى الجانب الآخر ، والشيء الدقيق جدا لا نراه ، ولذلك يقولون : هذا الشيء نكرة ، وذلك يدل مرة على التعظيم ويدل مرة على التحقير ، ومرة يدل على التكثير ، ومرة يدل على التقليل . فإن نظرت إلى أن الإدراك لا يستوعبه لضخامته إذن فهو كثير ، وإن رأيت أن الإدراك لا يستوعبه لِلُطفِه ودِقَّته ، وأنه ليس فى متناول البصر يكون قليلا أو دقيقا .

إذن فقول الحق : « فبما رحمة » أصلها هو : برحمة من الله طُبعت عليها لِنْتَ لهم ، و« ما » لماذا جاءت هنا ؟ إنك إما أن تأخذها إبهامية . . يعنى بأى رحمة فوق مستوى الإدراك ، رحمة عظيمة . أو تقول : « فبما رحمة » أى أن « ما » تكون اسماً موصولا . وكأن الحق يقول له : فبالرحمة المُودعة من خالقك فيك والتى تُناسب مُهمتك فى الأمة لِنْتَ لهم ، ومادامت تلك طبيعتك فَلِنْ لهم فى هذا الأمر واعفُ عنهم واستغفر لهم .

وهذه الآية جاءت عقب أحداث حدثت فى أُحُد : الحدث الأول : أنه صلى الله عليه وسلم رأى ألا يخرج إلى قتال قريش خارج المدينة بل يظل فى المدينة ، فأشار عليه المحبون للشهادة والمحبون للقتال والمحبون للتعويض عما فاتهم من شرف القتال فى « بدر » أن يخرج إليهم ، فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم عند رأيهم ، ولبس لأمته ، فلما أحسوا أنهم أشاروا على رسول الله بما يخالف ما كان قد بدر منه ، تراجعوا وقالوا : يا رسول الله إن رأيت ألا نخرج ، فقال : « ما ينبغى لِنبى إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل » فمادام قد استعد للحرب انتهى الأمر ، هذه أول مسألة وهى مسألة المشورة .

وبعد ذلك تخلف ابن أُبىّ بثُلثُ الجيش وهذه مسألة ثانية ، أما المسألة الثالثة فهى مُخالفة الرُماة أمرَه صلى الله عليه وسلم وتَرْكهم مواقعهم على الرغم من أنه صلى الله

عليه وسلم قد حذرهم من ذلك وقال لعبدالله بن جبير الذى أمَّره على الرماة : « أنضح عنا الخيل بالنَّبل ، لا يأتونا من خلفنا ، إن كانت لنا أو علينا فأثبت مكانك لا نؤتَين من قِبلك »[١] ، ولكنهم خالفوا عن أمر رسول الله . والمسألة الرابعة هى : فِرارهم حينما قيل : قُتِل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والمسألة الخامسة : أنه حين كان يدعوهم ؛ فروا لا يلوون على شىء .

كل تلك أحداث كادت تترك فى نفسه صلى الله عليه وسلم آثاراً ، فكأن الله سبحانه وتعالى يقول : أنا طبعتك على رحمة تتسع لكل هذه الهفوات ، والرحمة منى ، ومادامت الرحمة موهوبة منى فلابد أنى جعلت فيك طاقة تتحمل كل مخالفة من أمتك ومن أتباعك . ولا تظن أنك قد أُرسلت إلى ملائكة ، إنما أُرسلت إلى بشر ، والبشر خطاءون ، البشر من الأغيار ، فلهذا اجعل المسألة درساً ، وأنا فطرتك على الرحمة ، وأنت بذاتك طلبت منى كثيراً من الخير لأمتك ، ومن رحمته أن جبريل نادى رسول الله صلى الله عليه وسلم[٢] فقال : إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم ، قال : فنادانى ملك الجبال فسلم على ثم قال : يا محمد إن الله قد بعثنى إليك وأنا ملك الجبال لتأمرنى بأمرك ، فما شئت ؟ إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئا »[٣] .

فأنا أطلب منك الرحمة التى أودعتُها فى قلبك فاستعملتها فى كل مجال ، وبهذه الرحمة لنت لهم ، وبهذه الرحمة التفُّوا حولك ، التفوا حولك لأدبك الجم ، ولتواضعك الوافر ، لجمال خلقك ، لبسمتك الحانية ، لنظرتك المواسية ، لتقديرك لظرف كل واحد حتى إنك إذا وضع أى واحد منهم يده فى يدك لم تسحب يدك أنت حتى يسحبها هو ، خُلُق عالٍ ، كل ذلك أنا أجعله حيثية لتتنازل عن كل تلك الهفوات ولْيَسَعها خُلقك وليسعها حلمك ، لأنك فى دور التربية والتأديب . والتربية والتأديب لا تقتضى أن تغضب لأى بادرة تبدر منهم ، وإلا ما كنت مُربيا ولا مُؤدبا .

---

(١) الدر المنثور للسيوطى حـ٢ صـ٦٨ . (٢) عند عودته من الطائف وقد آذاه أهلها .

(٣) رواه البخارى فى بدء الخلق ، ورواه مسلم فى الجهاد ، و[الأخشبان] جبلان فى مكة ، أبو قبيس والذى يقابله ويسمى قعيقعان أو هو الجبل الأحمر الذى يشرف عليه وسمى الجبلان بالأخشبين لصلابتهما وغلظ حجارتهما .

« ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك » لماذا ؟ لأنك تُخرجهم عما ألفوا من أمور الجاهلية . والذى يخرج واحدا عما أَلِف لا يصح أن يَجْمَعَ عليه إخراجه عما اعتاد بالأسلوب الخشن الفظ ؛ لأنه فى حاجة إلى التودد وإلى الرحمة ، لا تجمع عليه بين أمرين تقبيح فعله ، وإخراجه عما ألف واعتاد ، ولذلك يقولون للذى ينصح إنسانا ، النصح ثقيل ؛ لأن النصح معناه تجريم الفعل فى المنصوح ؛ فعندما تقول لواحد : لا تفعل هذا ، ما معناها ؟ معناها أن هذا الفعل سيىء ، فمادمت تُجرِّم فعله فلا تجمع عليه أمرين : إنك قبحت فِعْله وأخرجته مما أَلِف ، وبعد ذلك تنصحه بما يكره.لا ، إنه فى حاجة إلى ملاطفة وملاينة لتستل منه الخصال القبيحة ، نحن نستعمل ذلك فى ذوات أنفسنا حين نجد مرضا يحتاج إلى علاج مر ، فنغلف العلاج المر فى غلاف من السكر بحيث يمر من منطقة الذوق بلا ألم أو نغص ، حتى ينزل فى المنطقة التى لا تحس بهذه المرارة ؛ لأن الإحساس كله فى الفم .

فإذا كنتم تفعلون ذلك فى الأمور المادية ، فلابد إذن أن نطبق ذلك أيضا فى الأمور المعنوية ، ولأن النُصح ثقيل فلا تجعله جدلا ولا ترسله جبلا ، وخِفة البيان تؤدى عنك بدون إثارة أو استثارة ، وبلطف يحمل على التقبل . .

بهذا تصل إلى ما تريد ، ومثال ذلك حكاية الملك الذى رأى فى منامه أن أسنانه كلها وقعت ، فجاء للمعبر ليعبر ، فقال له : أهلك جميعا يموتون ، التعبير لم يُسر منه الملك ، فذهب لواحد آخر فقال له : ستكون أطول أهل بيتك عمرا ، إنه التعبير نفسه ، فمادام أطول أهل بيته عمرا ، إذن فسيموتون قبله ، هى هى ، ولذلك قالوا : الحقائق مرة فاستعيروا لها خفة البيان .

« ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك » إذن فبالرحمة لِنت لهم وبلين القول تبعوك وألفوك وأحبوك . و« الفظُّ » هو : ماء الكرش ، والإبل عندما تجد ماءً فهى تشرب ما يكفيها مدة طويلة ، ثم بعد ذلك عندما لا تجد ماء فهى تجتر من الماء المخزون فى كرشها وتشرب منه ، فى موقعة من المواقع لم يجدوا ماء فذبحوا الإبل وأخذوا الماء من كرشها ، الماء من كرش الإبل يكون غير مستساغ الطعم ، هذا معنى « الفَظّ » ، ونظرا لأن هذا يورث غضاضة فسموا : « خشونة القول » فظاظة ، والغلظ فى القلب هو ما ينشأ عنه الخشونة فى الألفاظ .

« ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك » . إنها رحمة طُبِعت عليها يا رسول الله من الحق الذى أرسلك . وبالرحمة لِنت لهم وظهر أثر ذلك فى إقبالهم عليك وحُبهم لك ؛ لأنك لو كنت على نقيض ذلك لما وجدت أحداً حولك . إذن فالسوابق تثبت أن هذه هى طباعك ، وخلقك ، هو الرحمة واللين .

وبعد ذلك اعفُ عنهم ، وقلنا : إن « العفو » هو : مَحْو الذنب محوا تامًا وهو يختلف عن كظم الغيظ ؛ لأن كظم الغيظ يعنى أن تكون المسألة موجودة فى نفسك أيضا إلا أنك لا تُعاقب عليها ؛ لأنك كففت جوارحك وصنت لسانك ، أما المسألة فمازالت فى نفسك ، لكن العفو هو أن تمحو المسألة كلها نهائيا ، وتأكيدا لذلك العفو فأنت قد تقول : أنا من ناحيتى عفوت . لا . المسألة لا تتعلق بك وحدك ، لأنك رسول من الله ، أنت وراءك إله يغار عليك ، فلا يكفى أن تعفو عنهم . بل لابد أن تستغفر الله لهم أيضا ، فمن الممكن أن يعفو صاحب الذنب ، ولكن ربى ورب صاحب الذنب لا يعفو ، فيوضح الحق : أنت عفوت فهذا من عندك ؛ لكنه يطلب منك ان تستغفر لأجلهم . كى لا يعذبهم الله عما بدر منهم نحوك .

« فاعفُ عنهم » هذه خاصة بالرسول صلى الله عليه وسلم . . « واستغفر لهم » بسبب ما فعلوه ، وترتب عليه ما ترتب من هزيمتكم فى « أحُد » ، وشجك وجرحك ، ولا تقل : استشرتهم وطاوعتهم فى المشورة ، وبعد ذلك حدث ما حدث ، فتكره أن تشاورهم ، لا تقفل هذا الباب برغم ما حدث نتيجة تلك المشورة وأنها لم تكن فى صالح المعركة ، فالعبرة فى هذه المشقة هى أن تكون « أحُد » معركة التأديب ، ومعركة التهذيب ، ومعركة التمحيص ، إذن فلا تُرتِّب عليها أن تكره المشورة ، بل عليك أن تشاورهم دائما ، فمادام العفو قد رضيت به نفسك ، ومادمت تستغفر لهم ربك ، واستغفارك ربك قد تستغفره بعيدا عنهم ، وعندما تشاورهم فى أى أمر من بعد ذلك فكأن المسألة الأولى انتهت ، ومادامت المسألة الأولى قد انتهت ، فقد استأنفنا صفحة جديدة ، وأخذنا الدرس والعظة التى ستنفعنا فى أشياء كثيرة بعد ذلك .

ولذلك تجد بعد هذه المعركة أن الأمور سارت سيرها المنتصر دائما ؛ لأن التجربة

والتعليم والتدريب قد أثر وأثمر ، لدرجة أن سيدنا أبا بكر ـ رضى الله عنه ـ عندما جاءت حروب الردة ، ماذا صنع ؟ شاور أصحابه ، فقال له بعضهم : لا تفعل . فهل سمع مشورتهم ؟ لا.لم يسمع مشورتهم ، إنما شاورهم . فلإنفاد المشورة حُكم ، ولرد المشورة حكْم ، المهم أن تحدث المشورة ؛ ونعمل بأفضل الآراء فالمشورة : تلقيح الرأى بآراء متعددة ، ولذلك يقول الشاعر :

شاور سواك إذا نابتك نائبة
يوما وإن كنت من أهل المشورات

لقد اهتدى الشاعر إلى كيفية تقريب المعنى لنا ، فعلى الرغم من أن الإنسان قد يكون من أهل المشورة والناس تأخذ برأيه ، فعليه أن يسأل الناس الرأى والمشورة ، لماذا ؟ هاهوذا الشاعر يكمل النصيحة :

فالعين تنظر منها ما دنا ونأى
ولا ترى نفسها إلا بمرآة

إن العين ترى الشيء القريب والشيء البعيد ، لكن هذه العين نفسها تعجز عن رؤية نفسها إلا بمرآة ، وكذلك شأن المسألة الخاصة بغيرك والتى تعرض عليك ، إن عقلك ينظر فيها باستواء ودون انفعال ؛ لأنه لاهوى لك ، والحق هو الذى يجذبك . لكن مسائلك الخاصة قد يدخل فيها هواك ويُحليها لك ويُحسنها .

إذن فالمشورة فى أُحد كانت نتيجتها كما علمتم ، وكأن الله يقول لرسوله : إياك أن تأخذ من سابقة المشورة أن المشورة لا تنفع ، فتقاطعهم ولا تشاورهم ؛ لأنك لن تظل حيا فيهم ، وسيأتى وقت يحكمهم بشر مثلهم ، ومادام يحكمهم بشر مثلهم فلا تحرمه أن يأخذ آراء غيره ، وعندما يأخذ الآراء وتكون أمامه آراء متعددة فهو يستطيع أن يتوصل إلى الحكم الصحيح بحكم الولاية وبحكم أنه الإمام ، ويستطيع أن يفاضل ويقول : هذه كذا وهذه كذا ، إلا أن يُفوض غيره .

« وشاورهم فى الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله » وقد عزم رسول الله أيضا على

الحرب ولبس لأمته ، أكان يلبس اللأمة ـ وهى عُدة الحرب ـ وبعد ذلك يقولون له : لا تخرج فيدعها ؟ لا ؛ فالمسألة لا تحتمل التردد. « فإذا عزمت فتوكل على الله » وهذه فائدة الإيمان ، وفائدة الإيمان : أن الجوارح تعمل والقلوب تتوكل ، معادلة جميلة ! الجوارح تقول : نزرع ، نحرث ، نأتى بالبذر الجيد ، نروى ، نضع سمادًا ونفترض أن الصقيع قد يأتى ونخشى على النبات منه فنأتى بقش ونحوه ونُغطيه ، كل هذه عمل الجوارح . وبعد ذلك القلوب تتوكل .

فإياك أن تقول : المحصول آتٍ آتٍ لأننى أحسنت أسبابى ، لا . لأن فوق الأسباب مُسَبِّبها . فالجوارح تعمل والقلوب تتوكل ، هذه فائدة الإيمان لأننى مؤمن بإله له طلاقة القدرة ، يخلق بأسباب ويخلق بغير أسباب . الأسباب لك يا بشر ، أما الذى فوق الأسباب فهو لله ، فأنت حين تعمل أخذت بالأسباب ، وحين تتوكل ضمنت المسبب وهو الله ـ سبحانه ـ .

إذن فالجوارح تعمل والقلوب تتوكل . إياك أن تظن أن التوكل يعنى أن تترك الجوارح بلا عمل ، لا ، فهذا هو التواكل أو الكسل ، إنه التوكل الكاذب ، والدليل على كذب من يقول ذلك أنه يحب أن يتوكل فيما فيه مشقة ، والسهل لا يتوكل فيه ، ونقول للرجل الذى يدعى أنه يتوكل ولا يعمل : أنت لست متوكلا ، ولو كنت صادقا فى التوكل إياك أن تمد يدك إلى لقمة وتضعها فى فمك . كن متوكلا كما تدعى ، ودع التوكل يضع لك اللقمة فى فمك واترك التوكل ليمضغها لك !

وطبعا لن يفعل ذلك ، ولهذا نقول له أيضا : إن ادعاءك التوكل هو بلادة حس إيمانى وليس توكلا .

إن الحق سبحانه وتعالى يقول : « واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله » و« عزمت » تقتضى عزيمة ، والتوكل يقتضى إظهار عجز ، فمعنى أنى أتوكل على الله أننى استنفدت أسبابى ، ولذلك أرجع إلى من عنده قدرة وليس عنده عجز ، وهذا هو التوكل المطلق .

وفى حياتنا اليومية نسمع من يقول : أنا وكلت فلانا ، أى أننى لا أقدر على هذا الأمر فوكلت فلانا . ومعنى توكيله لفلان أنه قد أظهر عجزه عن هذا الأمر . ولهذا ذهب إلى غير عاجز . كذلك التوكل الإيمانى ، فالتوكل معناه : تسليمك زمام أمورك إلى الحق ثقة بحسن تدبيره ، ومن تدبيره أن أعطاك الأسباب فلا ترد يد الله الممدودة بالأسباب ثم تقول له اعمل لى يارب ؛ لأننا قلنا فى سورة الفاتحة:إن الإنسان يدعو قائلا :

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ﴾

(سورة الفاتحة)

ومعنى « نستعين » أى نطلب منك المعونة التى نتقن بها العمل . وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١٦٠ ﴾

الحق يقول هنا : « وعلى الله فليتوكل المؤمنون » ، المؤمنون بمن ؟ بالله . ومادامو مؤمنين به فمن إيمانهم به أنه إله قادر حكيم عالم بالمصلحة ، ولا يوجد أحسن من أنك توكله .

وعندما نقرأ « إن ينصركم الله فلا غالب لكم » فقد نسأل : وما هو المقابل ؟ المقابل هو « وإن يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده » . إذن فأنت دخلت بالأسباب التى قالها الحق سبحانه وتعالى مُؤتمرا بأمر القيادة السماوية التى مُثلت فى الرسول المبلغ عن الله ، وقد أخذت عُدتك على قدر استطاعتك ، إياك أن تقارن

عَدَدَك بعدد خصمك أو تقارن عُدتك بعُدة خصمك ؛ فالله لا يكلفك أن تقابل العدد بالعدد ولا العُدة بالعُدة ، وإنما قال : أنت تُعد ما استطعته ، لماذا ؟ لأن الله يريد أن يصحب ركب الإيمان معونة المؤمن به ؛ لأنه لو كانت المسائل قدر بعضها ، لكانت قوة لقوة . لكن الله يريد أن يكون العدد قليلاً وتكون العُدة أقل وأن نعترف ونقول : هذا ما قدرنا عليه يارب . ومادام هو الذى قدرنا عليه ، فتكون هذه هى الأسباب التى مكنتنا منها ، ونثق بأنك يارب ستضع مع العدد القليل مدداً من عندك ، فأنت المعين الأعلى ، فسبحانك القائل :

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾ ﴾

(سورة محمد)

والحق هنا يقول : « إن ينصركم الله فلا غالب لكم » فأنت تضمن نصر الله لك إن كنت قد دخلت على أن تنصره .

كيف نعرف أننا ننصر الله ؟ نعرف ذلك عندما تأتى النتيجة بنصرنا ، لأنه سبحانه لا يعطى قضية فى الكون وبعد ذلك يأتى بالواقع ليكذبها ، وإلا فالمسلمون يكونون قد انخدعوا ـ معاذ الله ـ لأنه لو جاء الدين بقضية ثم يأتى الواقع ليكذبها ، فلابد أن يقولوا : إن الواقع كذب تلك القضية . لكن الحق قال : « إن تنصروا الله ينصركم » ويجىء الواقع مؤكدا لهذه القضية ، عندئذ نحن لا نصدق فى هذه القضية فقط ، بل نصدق كل ما غاب عنا ، فعندما تظهر جزئية ماديَّة واقعة محسوسة لتثبت لى صدق القرآن فى قضية ؛ فأنا لا أكتفى بهذه القضية ، بل أقول : وكل ما لا أعلمه داخل فى إطار هذه القضية .

ولذلك قلنا : إن الحق سبحانه وتعالى ترك بعض أسراره فى كونه ، وهذه الأسرار التى تركها فى كونه هى أسرار لا تؤدى ضرورات ؛ إن عرفناها فنحن ننتفع بها قليلا فى الكماليات ، ويترك الحق بعض الأسرار فى الكون إلى العقول لتستنبطها ، فالشىء الذى كان العقل يقف فيه قديما يصبح باكتشاف أسرار الله مقبولا ومعقولا ، كأن الشىء الذى وقف فيه العقل سابقا أثبتت الأيام أنه حق ، إذن فما لا يُعرف من الأشياء يُؤخذ بهذه القضية أو بما أُخِذَ من الغير .

يقولون ـ مثلا ـ اكتشف الميكروب على يد « باستير » ، لكن ألم يكن الميكروب موجودا قبل « باستير » ؟ كان الميكروب موجودا ، ولم يكن أحد يراه ؛ لأن الشيء إذا دق ولطف لا نقدر أن ندركه ؛ فليس عندنا الآلة التى تدركه ، ولم نكن قد اخترعنا المجهر الذى يكبِّر الأشياء الدقيقة آلاف المرات . وكذلك اخترع الناس التلسكوب ، فبعد أن كان الشيء لا يرى لبعده ، أصبح يرى بوساطة التلسكوب ، وإن كان الشيء ضئيلا جدا ولا نراه . فقد استطعنا أن نراه بوساطة المجهر المسمى « الميكروسكوب » .

و« التلسكوب » يقرب البعيد و« الميكروسكوب » يكبر الصغير فنرى له حركة وحياة ، ونجد له مجالا يسبح فيه ، وهذا جعلنى إذا حدثنى القرآن أن لله خلقا غاب عن الحس لا يدرك من جن وملائكة ، فلا أكذب ذلك ، لأن هناك أشياء كانت موجودة ولم تدخل تحت حسى ولا إدراكى مع أنها من مادتى ، فإذا كانت الأشياء الأخرى من مادة أخرى مثل الملائكة من نور ، أو الجن من النار ، ويقول لى سبحانه إنهم مخلوقون وموجودون فأنا لا أكذب ما جاء عن الحق ؛ لأن هناك أشياء من جنسى كانت موجودة ولم أستطع أن أراها .

إذن فهذه قربت لى المسألة ، فعندما يقول الحق : « إن ينصركم الله فلا غالب لكم » فنحن نعرف أن نصر الله مترتب على أن تدخل المعركة وأنت تريد أن تنصر الله ، وتنصره بماذا ؟ بأنك تحقق كلمته وتجعلها هى العليا ، وليس هذا فقط هو المطلوب ، بل لتجعل ـ أيضا ـ كلمة الذين كفروا السفلى .

« وإن يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده » إنه فى ظاهر الأمر يكون معنا ، لكننا نشعر أنه تخلى عنا ، لماذا ؟ لأننا نترك بعضا من تعاليم الله ، إذن فهو فى المظهر العام معكم كمسلمين ، ومن معيته لكم أن يؤدبكم على المخالفة فيخذلكم عندما تخالفون عن أمره .

ويختم الحق سبحانه الآية بقوله : « وعلى الله فليتوكل المؤمنون » وفى الآية السابقة قال سبحانه : « إن الله يحب المتوكلين » ، والذى لا يتوكل على الله عليه أن يراجع إيمانه .

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ ﴾

ما معنى « يغُل » ؟ أولا : « الغلول » هو الأخذ فى الخفاء . وهو مأخوذ من « أغل الجازر » ـ أى الجزار ـ أى عندما يسلخ الجلد يأخذ بعض اللحم مع الجلد ، ثم يطوى الجلد مخفيا ما أخذه من اللحم ، هذا هو الأصل ، وأطلق شرعا على الخيانة فى الغنائم ، ففى هول المعارك قد يجد المقاتل شيئا ثمينا فيأخذ هذا الشىء خفية ، وهذا اسمه « الغلول » ، وأيضا كلمة « الغِل فى الصدور » أى إخفاء الكراهية ، وكل المادة إخفاء .

والحق يقول : « وما كان لنبى أن يَغُل » لماذا ؟ لأن من الجائز أن الرماة ـ فى غزوة أحد ـ ساعة رأوا الغنائم أقبلوا عليها ؛ لأن غنائم بدر لم تكن قد قسمت بين كل من اشتركوا فى القتال ، فالذى كان يعثر على غنيمة كان يأخذها ، وكانت بدر أول معركة ، وكان الهدف من ذلك تشجيع المقاتلين . وكان الرسول صلى الله عليه وسلم : قد قال : « من قتل قتيلا فله سلبه » .

وظن المقاتلون فى أُحد أن المسألة ستكون مثل بدر ، وظن البعض أن الرسول لن يعطيهم غنائم ، فيوضح الحق سبحانه وتعالى : بأن هذه مسألة وتلك مسألة أخرى ، فمن يفعل مثل هذا يكون قد غَل . وساعة تسمع : « وما كان لنبى أن يَغُل » أى أن من طبعه صلى الله عليه وسلم ومن فطرته وسجيته ألّا يتأتى ذلك منه أبدا ، لكن من الجائز أن يحدث مثل ذلك من واحد من أمته ، إذن فهناك فرق بين امتناع

المؤمن أن يكون غالاً ، أى يأخذ لنفسه شيئا من الغنيمة ، وامتناع الرسول أن يكون غالاً ، لأن طبعه وسجيَّته لا تستقيم مع هذه ، لكن الأمر يختلف مع المقاتلين ؛ فمن الممكن أن يكون أحدهم كذلك ، فسيدنا عمر فى معركة الفرس ، حينما جاء جماعة بتاج كسرى ، والتاج فيه كل النفائس وتلك سمة عظمة الملوك ، فقال الفاروق عمر : إن قوما أدوا إلى أميرهم هذا لأمناء . فقد كان من الممكن أنهم يخفونه .

« وما كان لنبى أن يغُل » وساعة تسمع « وما كان » أى : وما ينبغى ولا يصح أن يكون ذلك الأمر ، وبعد ذلك يأتى بالحكم العام فيمكن أن يحدث غلول من أحَدٍ فيقول : « ومن يغلل يأت بما غَل يوم القيامة » فالذى غل فى حاجة وخان فيها يأتى بها يوم القيامة كما صورها الرسول صلى الله عليه وسلم :

« والله لا يأخذ أحد منكم شيئا بغير حلّه إلا لقى الله يحمله يوم القيامة ، فلا أعرفن أحدًا منكم لقى الله يحمل بعيرا له رُغاء أو بقرة لها خُوار ، أو شاة تَيعَر ، ثم رفع يديه حتى رُئىَ بياض إبطيه يقول :اللهم قد بلغت »[1] .

إن من يأخذ حراما فى خفية يأتى يوم القيامة وهو يحمل البعير أو البقرة أو الشاة مثلا . وآه لو كان ما أخذه حمارا فله نهيق !!

فإذا كان سيأتى بما غَل يوم القيامة ـ فالذى أخذه سيفضحه ـ ولذلك تسمى « الفاضحة » ، و« الطامة » . إذن فمن الممكن فى الدنيا أن يأخذها خفية ويغُل . لكنه سيأتى فى يوم القيامة وهو يحمل ما أخذه على ظهره ، ثم يقول مناديا رسول الله : يا محمد . . يا محمد ، لأن كل مسلم قد علم واطمأن إلى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رءوف ورحيم وأنه لن يرضى بهذه الحكاية ، لكن رسول الله أبلغ عن عقاب من يفعل ذلك فى حياته ، وعلى كل المؤمنين به ألا يفكروا فى الغلول وأخذ الغنيمة خفية .

ولماذا تكون الغنيمة فى الحرب شرا ؟ لأن المقاتل يعيش أثناء القتال فى مهمة أن

---

(١) رواه البخارى ومسلم ، و(رُغاء) بضم الراء صوت البعير ، و(خُوار) بضم الخاء صوت البقرة ، و(تَيْعَر) : تصيح واليُعار : صوت الغنم .

تكون كلمة الله هى العليا فكيف يرضى لنفسه بهذه المهانة وهى إخفاء الغنيمة ؟ إنه يحارب من أجل أن تكون كلمة الله هى العليا ، ويجب أن يكون فى مستوى ذلك .

وبعد ذلك يأتى الحق بالقضية العامة : « ثم توفى كل نفس ما كسبت » ، وهى تشمل الغلول فى الغنيمة والغلول فى غير الغنيمة ، ولنتصور هذه بالنسبة لكل من يخون أمانة أؤتمن عليها ، وأنه سيأتى يوم القيامة يحمل عمارة ـ مثلا ـ لأنه بناها بغير أمانة أو يحمل أطنانا من سمك لأنه سرقها ، أو يحمل أطنانا من الجبن الفاسد التى استوردها . فكل من سرق شيئا سيأتى يوم القيامة وهو يحمله ، وإذا كنا نشهد أن الناس لا تطيق أن تفضح بين الخلق ، والخلق محدودون لأنهم المعاصرون ، فما بالك بالفضيحة التى ستكون لعموم الخلق من أول آدم إلى أن تقوم الساعة . إذن فعلى كل إنسان أن يحرس نفسه لأن المسألة ستنفضح .

« ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون » ومادام سبحانه سيوفى كل نفس ما كسبت فكل سيأخذ قدر ما فعل ، فلا ظلم ، فلو ترك الأمر بلا حساب لكان هذا هو الظلم وحاشا لله أن يظلم أحدا . وبعد تلك التهيئة والإيضاح يقول سبحانه :

﴿ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ ﴾

والحق سبحانه وتعالى حين يطرح بعض القضايا طرح الاستفهام ، فهو يطرحها لا ليعلم هو فهو عالم ، ولكن ليستنطق السامع ، ونطق السامع حجة فوق خبر المخبر ، فلو قال : إن الذى يتبع رضوان الله لا يساوى من ذهب إلى سخط الله لكان ذلك إخبارا منه وهو صادق فيما يقول ، لكنه سبحانه يريد أن يستنطق عباده بالقضية ، « أفمن اتبع رضوان الله كمن باء » ، « باء » أى : رجع « بسخط من الله » .

لاشك أن كل من يسمع عن الفارق بين اتباع الرضوان ، أو الرجوع بالسخط يقول : إن اتباع الرضوان يرفع درجة الإنسان ، والذى يبوء بالسخط يهبط إلى درك الخسران ، فالقضية قالها السامع . . فكأن الحق يستنطقنا بالقضية لتكون حجة علينا ، والذى يتبع رضوان الله بالطاعة ، أيساويه من يرجع إلى سخط الله بالمعصية ؟!

أفمن يتبع رضوان الله فلا يغُل فى الغنيمة ولا يختان فى الأمانة كمن غل فى الغنيمة وخان فى الأمانة ؟

أفمن اتبع رضوان الله بأن استمع لأوامر الله حين استنفره لجهاد العدو ، كمن لم يذهب لنداء الله ليكون فى جند الله مقاتلا لعدو الله ، لا ؛ فالذى لا يستجيب لنداء الله هو من يبوء بسخط الله .

و« السخط » هو : إظهار التقبيح ، لكن إظهار التقبيح قد لا يؤثر فى أناس غليظى الإحساس ، لا تنفع فيهم اللعنة أو الشتائم ؛ لذلك جاء سبحانه بالحكم : « ومأواه جهنم وبئس المصير » و« مأواه » أى المكان الذى يأوى ويرجع إليه هو جهنم وبئس المصير . وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ ﴾

« هم درجات » أى ينزلون فى الآخرة منازل على قدر أعمالهم ، فكما ترى الدرجات موصلة إلى المراقى العالية كذلك فى الآخرة كل إنسان مُحاسب بعمله ، ويأخذ عليه درجة ، ولنا أن نلحظ أن الحق يستخدم كلمة « درجات » بالنسبة للجنة ؛ لأن فيها منازل ورتبا ، أما فيما يتعلق بالنار ، فيأتى لفظ « دركات » ،

فالدركة تنزل ، والدرجة ترفع .

« هم درجات عند الله » فالله هو العادل الذى ينظر لخلقه جميعا على أنهم خلقه ، فلا يعادى أحدا ، إنه يحكم القضية فى هذه المسألة سواء أكانت لهم أم كانت عليهم ، وبعد ذلك يردفها ـ سبحانه بقوله : « والله بصير بما يعملون » ليطمئن هؤلاء على أن الله بصير بما يعملون فلن يضيع عنده عمل حسن ، ولن تهدر عنده سيئة بدرت منهم . « والله بصير بما يعملون » . ونحن نسمع كلمة « يعمل » وكلمة « يفعل » وكلمة « يقول » ، والعمل أهم الأحداث ، لأن العمل هو تعلق الجارحة بما نيطت به ، فالقلب جارحة عملها النية ، واللسان جارحة عملها القول ، والأذن جارحة وعملها الاستماع ، والعين جارحة وعملها أن تنظر . إذن فكل جارحة من الجوارح لها حدث تُنشِئه لتؤدى مهمتها فى الكائن الإنسانى ، إذن فكل أداءٍ مُهِمّة من جارحة يقال له : « عمل » .

لكن « الفعل » هو تعلق كل جارحة غير اللسان بالحدث ، أما تعلق اللسان فيكون قولا ومقابله فعل ، إذن ففيه قول وفيه فعل وكلاهما « عمل » إذن فالعمل يشمل ويضم القول والفعل معا ؛ لأن العمل هو شغل الجارحة بالحدث المطلوب منها ، لكن الفعل هو : شغل جارحة غير اللسان بالعمل المطلوب منها ، وشغل اللسان بمهمته يسمى : قولا ولا يسمى فعلاً ، لماذا ؟ لأن الإنسان يتكلم كثيرا ، لكن أن يحمل نفسه على أن يعمل ما يتكلمه فهذه عملية أخرى ، ولذلك يقول الحق :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٣ ﴾

(سورة الصف)

إذن فالقول مقابله الفعل ، والكل عمل « والله بصير بما يعملون » قولا أو فعلاً وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ ﴾

والذى يمن على الآخر هو الذى يعطيه عطية يحتاج إليها هذا الآخذ ، فكأن الحق يقول : وهل أنا فى حاجة إلى إيمانكم ؟ فى حاجة إلى إسلامكم ؟ أصفة من صفاتى معطلة حتى تأتوا أنتم لتكملوها لى ؟ لا ، إذن فحين أبعث لكم رسولا رحيما بكم ، فالمنة تكون لى وحدى .

« لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم » .

أكان يبعثه مَلَكا ؟ لا . بل بعثه من البشرية ؛ كى تكون الأسوة فيه معقولة . فعندما يقول لكل مسلم افعل مثلى ، فالمسلم عليه أن يطبق ما يأمره به الرسول ، لكن لو كان مَلَكا أكانت تنفع فيه الأسوة ؟ لا ، فقد يقول لك : افعل مثلى ، فتقول له : لا أقدر لأنك مَلَك ، ومن يدعى الألوهية لرسول ، فهو ينفى عنه الأسوة ؛ لأنه عندما يقول : كن مثلى ، يمكنك أن تقول : وهل نقدر ؟ أنت طبيعتك مختلفة ، فهل نصل لذلك ؟! لا نقدر ، ولذلك فالذين يقولون بألوهية رسول ، إنما يفقدون الأسوة فيه ، والمفهوم فى الرسول أن يكون أسوة سلوكية ، وأن يكون مبلغا عن الله منهجه ، وأن يعلن بشريته ويقول : أنا بشر وأستطيع أن أمثل وأطبق المنهج . إذن فهو أسوة سلوكية تطبيقية .

والرسول مبعوث للكل ، فلماذا كانت المنة على من آمن فقط !؟ لأنه هو الذى انتفع بهذه الحكاية ، لكنَّ الباقين أهدروا حقهم فى الأسوة ولذلك تكون المنة على من آمن .

« لقد من الله على المؤمنين » وما هى المنة ؟ المن : الأصل فيه أنه القطع ، لكن حين نسمعها نجدها تستعمل فى أشياء متقابلة ، فمثلا : المن هو العطاء بلا مقابل ، والمن هو : تكدير النعمة بالتحدث بها ، مثل قوله تعالى :

﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ﴾

(سورة البقرة)

إذن فالمن الذى نحن بصدده هو العطاء بلا مقابل ، ولكن المن قد استعمل فى تكدير النعمة بكثرة الكلام فيها ، فقد يقول الإنسان لمن يمن عليه : لا أريد النعمة التى تتكلم عنها دائما ، إذن فالمن استعمل فى النعمة وفى تكدير النعمة ، تقول: مَنَّ على فلان إذ أنقذنى من ضيق كنت فيه ، ويقال : فلان ليس فيه مُنة ، أى ليس فيه قوة ، وكلها تدور فى معنى القطع ، فإذا استعمل فى النعمة والعطاء نقول : نعم فيها قطع ؛ لأن النعمة جاءت لتقطع الحاجة ، ففيه حاجة ثم جاء عطاء ، والعطاء قطع الحاجة . فاستعملت فى معناها .

فإذا جاءت نعمة بعد حاجة والحاجة انقطعت بالنعمة فلا بد أن تأتى بفعل بعدها وهو أن تشكر من أنعم عليك ، وخصوصا أنه الله ، فالمن يقطع الشكر لأنك إن مننت بالنعمة وأظهرت تفضلك بها على من أسديتها إليه فقد تسببت فى أن الآخذ لا يشكرك بل إنه يتضايق من نعمتك وقد يردّها عليك . فإذن : هنا قطع للشكر ، فإن قطعت حاجة محتاج فهذا يسمى « نعمة » وإن فخرت بنعمتك عليه حتى كدرتها فقد قطعت ومنعت شكره لك،وهذا يسمى « مَنًّا » أى أذى لأنه يؤذى مشاعر وإحساس الآخذ . وإن قطعت مطلقا اختصت باسم « المِنّة » ، يقولون : فلان لا مُنة فيه أى لا قوة عنده تقطع فى الأمور ، وهنا يقول : « لقد من الله على المؤمنين » و« مَنَّ » هنا بمعنى أعطى نعمة ، والنعمة فى الدنيا تعطيك على قدر دنياك ، و« منة » الله برسوله صلى الله عليه وسلم تعطينى عطاء على قدر الدنيا وعلى امتداد الآخرة ، فتكون هذه منة كبيرة .

« لقد من الله على المؤمنين إذ » ، و« إذ » يعنى ساعة أى حين بعث فيهم رسولا

منهم فقد عمل فيهم منة وقدم لهم ومنحهم جميلا كبيرا وأنعم عليهم نعمة ، « إذ بعث فيهم رسولا » . فإذا كان مطلق بعث رسول كى يهدى الناس إلى منهج الله يكون نعمة فماذا إذا كان الرسول من أنفسهم ؟ إن هذه تكون نعمة أخرى لأنه مادام من أنفسهم ومن رهطهم ومن جماعتهم ، هو معروف نسبًا وحسبًا ومعروف أمانة ، فلا يخون ، ومعروف صِدْقًا فلا يكذب ، كل هذه « مِنة » ولم يتعب أحدًا فى أن يبحث وراءه : أكذب قبل ذلك حتى نعتبر ذلك كذبا ؟، أخان قبل ذلك حتى نعتبر ذلك خيانة ؟ لا ، هل هو من الناس المدَّعين الذين يريدون أن يقيموا ضوضاء من حولهم ؟ لا . بل هو فى الحسب والنسب معروف ، جده عبدالمطلب سيد البطحاء ولا يوجد واحد من أهله تافها .

وعرف الجميع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمانة منذ صغره ، إذن فالمقدمات تجعل الناس لا تجهد نفسها فى أن تتحرى عنه أصادق هو أم غير صادق ؟ إذن فهو مِنّة ، ولذلك حينما بعث الله سيد الخلق إلى الخلق ؛ كان هناك أناس بمجرد أن قال لهم : إنى رسول الله ، آمنوا به ، لم يقدم معجزة ولم يقولوا له : ماذا ستقول أو ماذا تعمل ؟ بل بمجرد أن قال : إنه رسول الله صدقوه ، فعلى أى حيثية استندوا فى التصديق ؟ لقد استندوا على الماضى .

لقبتموه أمين القوم فى صغر
وما الأمين على قول بمُتهم

ها هو ذا سيدنا أبو بكر رضى الله عنه يقول : إن كان قد قال فقد صدق - إذن فالمقدمات التى يعرفونها عنه كانت هى الحجة فى تصديق الرسول ، وخديجة - رضى الله عنها - عندما آمنت به ، أقال لها المعجزات والقرآن ؟ لا . بل بمجرد أن قال لها : أنا رسول الله . قالت له : صدقت فلابد أن تكون رسولا ، هو نفسه كان يتشكك وهى مؤمنة به ، هو نفسه يتساءل : لعل ذلك يكون كذا ، وذهبت به خديجة - رضى الله عنها - إلى ورقة بن نوفل لتطمئنه على الرغم من أنها كانت قد توصلت إلى الحكم فى القضية التى سألت عنها ورقة بن نوفل وأوضحت لرسول الله أنّ ما تقوله لا يمكن أن يوقعك فى بلية أو خزى أو ذِلّة ؛ لأن صفاتك جاءت كمقدمات لهذه النتيجة ، وهى أنك رسول كريم « إنك لتحمل الكلّ وتكسب المعدوم وتعين على نوائب

الدهر ، والله لا يخزيك الله أبداً »[١] ، إنسان بهذه الصفات لا يمكن أن يأتيه شيطان ، وتعال نذهب معا لأهل الكتاب الذين لهم علم بهذه المسألة . كأنها آمنت برسالة رسول الله قبل أن يقول لها ورقة بن نوفل شيئاً .

إذن فقوله : « من أنفسهم » أى معروف لهم ، فلم يأت لهم بواحد سقط عليهم من السماء ، وقال : هذا رسول ، لا . إنه رسول « من أنفسهم » ، وهذه أول مِنّة ، « لقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم » ، هذا إذا أخذت المحيط القريب أنه من الرهط ومن القبيلة ومعروف لهم ، « من أنفسهم » أو من جنس ونوع العرب ، وهذه أيضاً مِنّة ، فساعة أن يتكلم سيفهمونه ولا يحتاجون إلى وساطة أو ترجمة ، والرسول عندما يأتى ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ، يريد أناساً تفهم عنه ، فأوضح لهم : لم أكلفكم لتقولوا ماذا يريد ، لا ، هو من أنفسكم ، وهو إنسان له مواصفاتكم ، ولكنهم لفرط عنادهم لم يؤمنوا مصداق ذلك قوله تعالى :

﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

إنهم يستكثرون كيف يبعث الله بشراً ويجعله رسولاً ، وهذا غباء فى الاعتراض ، ويأتى الرد الجميل من الله :

﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

أنتم من البشر ، فلا بد أن نأتيكم برسول من جنسكم ، حتى إذا قال لكم : افعلوا كذا تقولون : نعم ؟ لأنه بشر ويعمل ونحن بشر نستطيع أن نعمل مثله . . لكنه لو كان مَلَكاً لقال الواحد منكم : وهل أنا أقدر أن أكون كالمَلَك ؟ إذن فلا تنفع

---

(١) رواه البخارى .

هذه الحكاية ، وهكذا منّ الله على المؤمنين.إذ بعث فيهم رسولا . « من أنفسهم » ، إن أخذتها على أساس أنها قبيلة محدودة وَمعروفة فهى منّة ، وإن أخذتها على أنه من جنس عربى فيكون اللسان واحداً فهى مِنّة ، وإن أخذتها من الجنس العام وهو الإنسان فهى مِنّة أيضاً .

وهل اعتبار معنى واحد من المعانى ينقض المعانى الأخرى أو تأتى كلها فى سلك واحد ؟ إنها معانٍ تأتى كلها فى سلك واحد ؛ لأن المتكلم هو الله ، ومادام المتكلم هو الله فيكون عطاء اللفظ أكثر من عطاء ألفاظ الخلق ، « لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أَنفُسِهم » ، وهناك قراءة ـ وإن كانت قراءة شاذة ـ تقول : « من أَنفَسِهم » (بفتح الفاء) أى من أشرفهم لأنه من بنى هاشم وهم أفضل قريش ، وقريش أفضل العرب .

وماذا يعمل الرسول ؟ يُفهم من قوله : « رسولا » أنه لا يأتى بشىء من عنده ، بل هو ـ مع هذه المنزلة الحسنة بخُلُقه الجميل وماضيه الناصع ـ هو مع هذا رسول وليس له فى الأمر شىء ، إذن فمرسله خير منه ، فلا تتنبه إلى هذا الرجل العظيم فحسب بل يجب عليك أن تسأل : من أين جاء ؟ لابد أن تلتفت إلى أن الذى بعثه أعظم منه .

« رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته » ، وكلمة « يتلو » يعنى يقرأ لأن الكلمة تتلو الكلمة ، فالذى يقرأ أى ينطق كلمة بعد كلمة ، كلمة تالية بعد أخرى « يتلو عليهم آياته » وكلمة « الآيات » ـ كما نعرف ـ تستعمل للأمور العجيبة ؛ اللافتة للنظر ، تقول مثلا : فلان آية فى الحسن . أى حُسْنُه لافت للنظر ، وتقول : فلان آية فى الذكاء ، صحيح أن هناك أذكياء كثيرين ، لكنه آية فى الذكاء . . أى أن هذا الإنسان أمره عجيب فى الذكاء ، إذن فكلمة « آية » معناها : الأمر العجيب ، وهو الذى يقف الإنسان عنده وقفة طويلة ليتأمل فى عجائبه .

والآيات نوعان : ايات منظورة فى الكون مثل قول الحق :

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ

﴿ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾

(سورة فصلت)

وكل ظواهر الكون تعتبر أشياء عجيبة . والنوع الثانى : هو آيات القرآن مثل قوله الحق :

﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾

(سورة النحل)

إذن فالآيات هى الأمور العجيبة وهى قسمان : منظور ومقروء ، المنظور : كل الكون ، والمقروء : هو القرآن ، فالقرآن يفسر آيات الكون ، وآيات الكون تفسر آيات القرآن ، والرسول جاء يتلو آيات القرآن ، وكانت عجيبة عليهم ، لكن الآيات الأخرى التى فى الكون يشاهدونها ويرونها ، لقد جاء الرسول بآيات مقروءة ليلفت الناس إلى الآيات المنظورة ، وبتلك الآيات المنظورة يكون العجب من دقة خلق الكون ؛ فينتهى الإنسان إلى الإيمان بمَن خلق هذا الكون .

إن الحق يقول عن الرسول : « يتلو عليهم آياته ويزكيهم » والمسألة ليست أنه يتلو الآيات ليعجبوا منها فحسب ، لا . فالرسول له مهمة إيمانية تلفت كل سامع للقرآن إلى من خلق ذلك الكون الجميل البديع الذى فيه الآيات العجيبة . ثم يعطى الرسول من بعد ذلك المنهج الذى يناسب جمال الكون ، إذن فالرسول ينقل المؤمنين إلى المنهج الذى يُزكى الإنسان ، وأنت إذا سمعت كلمة « يُزكيهم » فأنت تعرف أنها من الزكاة . والزكاة أول معانيها : التطهير ؛ والتنقية ؛ والنماء . والآيات التى جاء بها رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما جاءت لتزكيهم .

وهذا التطهير لمصلحة المُطَهّر أو المُطَهَّر ، إنه لمصلحة المُطَهَّر . التنقية والنماء لمصلحتكم أنتم وهذا لا يشكك فى التكليف ؛ لأن التكليف لم يأت للمُكلِّف ، إنما جاء للمُكلَّف ، وأضرب هذا المثل ـ ولله المثل الأعلى ـ فالرجل يكون ميسور الحال وعنده مال وعنده عقارات وأطيان ، وبعد ذلك يحب لأولاده أن ينجحوا فى المدارس

فيشجعهم قائلا لكل منهم : إن نجحت فسأفعل لك كذا . هو لا يريد منهم شيئا لنفسه ، فعنده النعمة الكافية ، هو يريد ـ فقط ـ مصلحتهم هم .

إذن فالمكلف لن ينتفع بتكليفنا أبدا ، فالتنقية لصالحنا والتطهير لصالحنا والنَّماء لصالحنا ـ والتزكية هى : تطهير وتنقية ونماء ـ ولننظر إلى الحالة التى كانت الجاهلية عليها ، هل كانت طاهرة ؟ هل كانت نقية ؟ هل كانت نامية ؟ لم يكن بها وصف من تلك الأوصاف ، لأنها جاهلية ، فكلهم محكومون بالهوى والجبروت والسلطان والقهر ، ونعرف أن أول ما يهتم به الإنسان هو أن يستبقى حياته وبعد ذلك يستبقى نوعه ، وبعد ذلك يستديم ما حوله ، والتزكية شملت كل أمر من هذه الأمور ، تزكية فى الإنسان نفسه ، فى ذاته ، بدلا من أن يكذب لسانه طهره عن الكذب ، بدل أن تمتد عينه إلى محارم غيره طهر عينه من النظر للمحرمات ، وبدلا من أن تمتد يده خفية وتسرق فهو لا يفعل ذلك .

والسرقة ـ كما نعلم حتى عند من يسرق ـ نقيصة ، بدليل أن اللص يتوارى ويحاول أن يسترها وألا يراه أحد ، لأنها رذيلة ونقيصة . ويأتى المنهج فيقول له : لا تسرق ، ويطهر المنهج حركة جوارح الإنسان فى الأرض ، ويطهر قلبه من الحقد كى يعيش مرتاحا ، وتبقى قوته مصونة للعمل الجاد المثمر ، فلِمَ يبدد قوته ، ولِمَ يبدد نظراته ، ولِمَ يبدد علاقاته بالناس ؟

إذن فالمنهج ينمى الإنسان ، إنه تطهير وتنقية ونماء له ، وبعد ذلك عندما يصاب الإنسان بالعجز وعدم القدرة ، فلن يستذله الغير لكى يعطيه لقمة . لقد زكاه المنهج من هذه ونقاه من الذلة وجعل له فى مال القادر حقا ، والقادر هو الذى يبحث عن الضعيف ليعطيه حقه ؛ لأن العاجز عندما يرى كل المؤمنين حوله قادرين يبحثون عنه ليعطوه حقه وليس مجرد صدقة يتصدقون بها عليه حينئذ يقول : أنا لست وحدى فى الكون . أنا فى الكون بفلان وبفلان ، فتكون تنمية له ، مادام الكل يعطيه .

أما عن بقاء النوع فماذا يعنى ؟ إن الحق يريد طهارة الإنسان والذرّية التى تأتى وأن يجعل لها وعاءً شريفا عفيفا ، وإطارا لا تشوبه شائبة فجاء المنهج ليزكيكم فى كل

شيء ، يزكى حركات جوارحكم فلا تتجه الحركة إلا لتحقق المطلوب منها عند من خلقها ، فالخالق قد أوضح : ياعين حدودك كذا ، يا لسان حدودك كذا ، يا يد حدودك كذا ، يا رِجْلُ حدودك كذا ، يا قلب حدودك كذا ، فالذى خلق كل جارحة هو الذى أعطى لكل منها حدودها فلا تجاوز ولا تهاون ولا إفراط ولا تفريط ، فإن خرجت عن غير ما وضع لها فى منهج الله فقد خالفت . وهكذا نرى أن المنهج قد جاء يزكيكم أى يطهركم وينقيكم وينميكم فى كل مجال من مجالات الحياة .

« ويعلمهم الكتاب والحكمة » وساعة يقول الحق : « الكتاب » فهو يقصد الكتاب المنزل إنه القرآن ، والحكمة هى السنة . والحق يقول :

﴿ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾ ﴾

(سورة الأحزاب)

وآيات الله معروفة وهى آيات القرآن ، والحكمة هى سُنّة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وهنا يقول الحق : « يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب » ، إذن فالكتاب هو القرآن ، سيتلو عليهم آيات القرآن وبعد ذلك يعلمهم ما جاء فى هذا الكتاب . بعض المفسرين قال : لابد أن نحمل « الكتاب » هنا على معنى آخر غير القرآن ، فقالوا : الكتاب يعنى الكتابة ، وأول عمل زاولوه فى الكتابة كتابة المصحف . إذن فالتقى المعنيان ، ولذلك فى غزوة « بدر » كان يتم فداء الأسرى إما بالمال وإما أن كل أسير يجيد القراءة والكتابة إذا أراد أن يفدى نفسه فعليه أن يقوم بتعليم عشرة من المسلمين القراءة والكتابة فقد كانت الأمة أمية . يقول سبحانه وتعالى :

﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾

(من الآية ٢ سورة الجمعة)

لذلك نجد أن تفسير الكتاب بالكتابة هو المناسب للأمية ، أو خذ هذه اللقطة على أساس أن هناك فرقا بين التلاوة والتعليم ، التلاوة : يتلو عليهم ، أى أن الرسول هو الذى يتلو ، والتعليم يكون بأن يتلوا هم القرآن . « ويعلمهم الكتاب والحكمة » و« علَّمَ » أى نقل العلم من مُعَلمٍ إلى مُعلَّم .

ويختتم الحق هذه الآية بالقول الكريم : « وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين » وهناك أساليب تأتى فى القرآن فيها « إن » وتجد كل « إن » فى موضع لها معنى يختلف عن الآخر ، فمثلا تأتى « إن » شرطية ، يعنى يأتى بعدها فعل شرط وجواب شرط مثل قوله الحق :

﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ﴾

(من الآية ١٤٠ سورة آل عمران)

أى إن يمسسكم قرح فلا تيأسوا ولا تبتئسوا . فقد مس القوم قرح مثله ، وقوله الحق :

﴿ إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ﴾

(من الآية ٢٧١ سورة البقرة)

إننا هنا نجد أنَّ « إن » شرطية ، ففيه شرط وجواب شرط . ومرة تأتى « إن » وبعدها « إلا » :

﴿ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ﴾

(من الآية ٢ سورة المجادلة)

وهو سبحانه يتكلم هنا عن الذين يظاهرون من نسائهم ، أى يقول الرجل لامرأته : أنت علىّ كظهر أمى ، إن أمك هى التى ولدتك وامرأتك لم تلدك ، فلو كانت أمك لكانت محرمة عليك ، « إن أمهاتهم إلا اللائى » ، فعندى هنا « إن » وبعدها « إلا » ومادام جاءت « إلا » فالذى بعدها يكون مثبتا ، والذى قبلها يكون منفيا ، مثل قولنا : « ما قام القوم إلا زيدًا » إن زيدا مختلف عنهم . « إن أمهاتهم إلا اللائى ولدنهم » أى : ما أمهاتهم إلا اللائى ولدنهم ، إذن فـ « إن » هنا ليست

شرطية لكنها هنا « إن » النافية وتعرفها بوجود « إلاّ » .

ومرة ثالثة تأتى « إن » لا هى شرطية ، ولا هى نافية مثل آيتنا هنا « وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين » . ونقول : هذه « إنْ » التى هى تخفيف « إنَّ » أى « إنْ » هنا مخففة من الثقيلة ويكون المعنى وإنّ الحال والشأن والقصة والواقع أنهم كانوا فى ضلال مبين . ويقول النحاة : اسمها ضمير الشأن ـ أى الحال والقصة ـ وهو محذوف .

وما هو الضلال ؟ يقولون : ضل فلان الطريق أى مشى فى مكان لا يوصله للغاية ، أو يوصل إلى ضد الغاية ؛ لأن الضلال فى الدنيا والأمور المادية قد لا يوصلنى لغايتى المرجوة ، وقد لا يوصلنى لشر منها أو لمقابلها ، لكن فى الأمر القيمى ماذا يفعل ؟ إنه لا يوصلك إلى الغاية المرجوة وهى الجنة فحسب ولكنه يوصل للمقابل وهو النار ، هذا هو الضلال المبين ، إنه ضلال واضح ؛ بدليل أن النقائص التى جاء الإسلام ليطهر الإنسان منها ، يحبّ مرتكبها ألا تُعلم عنه وسط الناس ، فالسارق يسرق لكن لا يحب أن يعرف الناس أنه لص ، والكاذب يكذب لكن لا يحب أن يعرف الناس أنه كذاب ، بدليل أنك عندما تقول له : يا كذاب تكون له صاعقة . إذن فالنقيصة تُفعل وصاحبها لا يريد أن يراها أحد أو يُعرف بها .

« وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين » أى ضلال ظاهر وهو ضلال يعرفه صاحبه بدليل أننا قلنا فى قصة سيدنا يوسف ؛ حيث نجد فى القصة اثنين من الفتيان قد دخلا السجن ، وماذا حدث لهما :

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾

(سورة يوسف)

لقد رأوا فى يوسف عليه السلام كأن عنده ميزان الإحسان فهو يعرف الحسن والقبيح ، ولأنهما يعرفان ميزان الإحسان فلا بد أن تكون المسائل بالنسبة لهما واضحة . ولماذا لم يقلها واحد منهما من قبل ؟

لقد شهدا هذه الشهادة لسيدنا يوسف لأنهما يطلبان الآن مشورته فى تأويل الرؤى . كان يوسف عليه السلام مسجونا ، ولم ينظر إليه أحد إلا كمسجون . ومن سلوكه معهما فى السجن عرفا أنه طيب ومحسن . ولذلك التفتا إليه ورأيا فيه أنه قادر على تأويل رؤيا كل منهما . مثلما قلنا : إن المنحرف نفسه يعرف قيمة الفضيلة ، وهكذا نجد أن الفضيلة مسألة ذاتية وليست نسبية ، أى أنه حتى المنحرف عن الفضيلة يرى الفضيلة فضيلة .

وبعد ذلك يعود الحق إلى قضية عجيبة ، فإذا كان الله سبحانه قد من على المؤمنين بالرسول ، ومن أنفسهم ، وجاء يتلو عليهم آيات الله ، وجاء يزكيهم طهارة ونقاء ونماء ، وجاء ليعلمهم الكتاب والحكمة وهى وضع الشىء فى مرضعه ، أو البحث عن أسرار الأشياء كان يجب عليكم ـ إذن ـ أنه إذا قال قولة لا تخالفوا عنها أبدا ، وعندما يجرى على يديه أمر فهو لا يحتاج إلى مناقشة ، إذن فما حكايتكم ؟

يقول الحق :

﴿ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٦٥ ﴾

لماذا تقولون : كيف يهزمنا الكفار ؟ لقد حدث لكم ذلك لأنكم خالفتم الرسول الذى مَنَّ ربكم به عليكم ، وآتاكم ، وزكاكم ، ويعلمكم الكتاب والحكمة ، كان

مقتضى ذلك أن كل ما يقوله الرسول الذى هو بهذه المواصفات أن تطيعوه ، ولا يقولن أحدكم : لماذا تحدث هذه الهزيمة ؟ ولا يقولن أحد لماذا حكاية أُحد وكيف يهزمنا الكفار ؟ إنّ هذا لا ينسجم مع ما قيل من أن الله مَن عليكم وبعث فيكم رسولا ، ثم إن أُحُدًا ليست مصيبة بادئة ، بل مصيبة جاءت بعدما أصبتم من أعدائكم مصيبة ،ونلتم منهم ضعف ما نالوا منكم .

فأنتم بدأتم ببدر وأعطاكم الله الخير . أنتم قتلتم سبعين وأسرتم سبعين ، وهم قتلوا سبعين ولم يأسروا أحدًا فى « أُحد » ، أنتم أخذتم غنائم فى بدر ، وهم لم يأخذوا أى غنيمة فى أُحد ، ما العجيبة فى هذه !! كان يجب أن تبحثوا فى ذواتكم وفى نفوسكم ، هل كنتم منطقيين مع إيمانكم ومع قيادة الرسول لكم !؟ أيكون منكم ذلك السؤال وهو « أنى هذا » ، لأن « أنى » معناها استنكار أنّ هَذَا يحدث أى من أين أصابنا هذا الانهزام والقتل ونحن نقاتل فى سبيل الله وفينا النبى والوحى وهم مشركون ونقول لكم : وهل كنتم على مستوى الإيمان المطلوب ؟ إن مستوى الإيمان المطلوب يقتضى منكم أن تنفذوا ما قاله الرسول ، وأنتم لم تكونوا على هذا المستوى ، الذى كنتم عليه فى بدر .

وساعة تسمع « أو لما » فهناك همزة الاستفهام ثم « واو عطف » ، « أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا » ، و« لما » هنا هى الحينية ، فماذا يكون المعنى ، لقد آمنتم بالله إلها وآمنتم بالرسول مبلغا ، أحين تصيبكم مصيبة قد أصبتم مثليها تقولون أنى هذا ؟

كان المنطق ألا تسألوا هذا السؤال أبدا لأنكم آمنتم بإله عادل له سنن لا تتبدل ولا تتحول . أكان يترك السنن من أجلكم !؟

﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾ ﴾

(سورة الأحزاب)

وفى موقع آخر من القرآن يقول سبحانه :

﴿ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾

(من الآية ٤٣ سورة فاطر)

فلو أنكم استحضرتم الإيمان بالإله الذى أطلق السنن فى الكون ليسوس به أمر ملكه بما يحقق أمر المصلحة لما قلتم هذا ومادمتم قد آمنتم بأن الإله هو الذى صنع تلك السنن فكان الواجب عليكم أن تعلموا أن الإله لن يجاملكم بإبطال سننه من أجل أنكم نُسبتُم إليه أولا بأنكم مسلمون ، فإنكم إن خالفتم فسنن الله واقعة ، وكان يجب أن تفهموا هذا الأمر ، وكان يجب ألا تسألوا هذا السؤال ، وقد آمنتم بالله إلها له سنن ، وآمنتم بالرسول المبلغ عن الله . أحين تصيبكم مصيبة مع هذا الإيمان قد أصبتم مثليها ، تقولون : أنى هذا ؟ أنتم حدث منكم أنكم أصبتم خصومكم ، وياليتكم أصبتموهم بمثل ما أصابوكم به بل أنتم أصبتم مثليها ، كان يجب أن تقارنوا : لماذا أصبتُم مثليها من قبل ، ولماذا أُصِبْتُم الآن ؟ كان يجب أن تعرضوا عملكم على الموازين الإيمانية ؛ فإن عرضتموه على الموازين الإيمانية لما سألتم هذا السؤال : « أنى هذا » . .

وساعة تسمع « أنى هذا » فلها معنيان : إما أنها تأتى بمعنى (كيف يحدث هذا) ؟ وإما بمعنى (من أين يحدث هذا) ؟ فإن كانت لأعيان وتحب أن تعرف ، مثلما أحب سيدنا زكريا أن يعرف : من أين يأتى الرزق لسيدتنا مريم وهى فى المحراب :

﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة آل عمران)

راجع أصله وخرج أحاديثه الدكتور أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .

أى من أين ؟ وتأتى مرة أخرى بمعنى « كيف » :

﴿ أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ﴾

(من الآية ٢٥٩ سورة البقرة)

أى كيف يحيى ؟ إذن فمرة تكون بمعنى « من أين » ، ومرة تكون بمعنى « كيف » ، والذين دخلوا معركة أُحد كانوا ينكرون ويستعجبون لعدم انتصارهم . . فأوضح لهم الحق : لو كنتم مستحضرين قضية الإيمان بإله عادل وضع فى كونه سننا وهو لن يغير سننه ولن يحولها من أجلكم أنتم ، إن عليكم أن تعرفوا أن الله لا يتغير من أجل أحد ، ولكن يجب أن تتغيروا أنتم من أجل الله .

« أَوَ لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها » : و« لما » يعنى : حين ، واسمها : « لما الحينية » و« لما » تكون أيضا من أدوات وعوامل الجزم مثل : لَمْ و« لم » تنفى ، و« لمَّا » أيضا تنفى مثل قوله الحق :

﴿ وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾

(من الآية ١٤ سورة الحجرات)

أى أن الإيمان لم يدخل قلوبكم بعد . إنما من الجائز أنه قد يدخل بعد ذلك ، هذه اسمها « لَما » الجازمة . وهناك « لما » الشرطية مثل قولنا : لما يقوم زيد يحدث كذا ، وهذه فيها شرط ، وفيها الزمن. أى حين يقوم يحدث كذا ، مثل قوله الحق :

﴿ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ﴾

(سورة الصافات)

أى حين أسلم وتله للجبين وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا أى ناديناه ، والواو هنا مقحمة مثلها فى قوله تعالى : « حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها » أى قال لهم. ومعنى مقحمة.. جىء بها للتوكيد والتقوية. أو جاءت الواو هنا لتفيد أن نداء الله لسيدنا إبراهيم جاء مصاحبا لإلقاء ابنه إسماعيل على وجهه ليذبحه .

فـ « لـمّا » هذه وفى الآية التى نحن بصددها هى « لما الحينية » ، أحين تصيبكم أى : أوقت تصيبكم مصيبة قد أصبتم مثليها « قلتم أنى هذا » كان يجب أن تقارنوا لماذا أَصَبْتُم فى بدر مِنْ عدوكم ضعف ما أصاب منكم ، ولماذا أصاب عدوكم منكم يوم أُحُدٍ هذا ؟ كان يجب أن تسألوا أنفسكم هذا السؤال ؛ لأن الميزان منصوب وموضوع ، ومادمتم تغافلتم عن هذا فسيأتى لكم الرد . . قل يا محمد لهم رداً على هذا : « هو من عند أنفسكم » . لقد خالفتم عن أمر الرسول ، ومادمتم خالفتم عن أمر الرسول فلا بد أن يحدث هذا بمقتضى إيمانكم بإله له سنن لا تتحول ولا تتبدل . « أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم » .

وبعد ذلك تذيل الآية بقوله سبحانه : « إن الله على كل شىء قدير » . فما موضعها هنا ؟ موضعها أنه مادامت لله سنن ، وسنن الله لا تتبدل ، والله موصوف بالقدرة الفريدة له فلن يأتى إله آخر ويقول : نبطل هذه السنن . ومادام لا يوجد إله آخر يقول ذلك فهو سبحانه قدير على كل شىء ، وهو قدير على أن تظل سننه دائمة ، ولا توجد قوة تزحزح هذه القضية ؛ لأن السنن وضعها الله . فمن الذى يغيرها ؟ إنها لن تتغير إلا بقوة أعلى ومعاذ الله أن تكون هناك قوة أعلى من قوة الله ؛ لذلك يوضح سبحانه : أنا قدير على كل شىء وقدير على أن أصون سننى فى الكون ، فلا تتخلف ولا توجد قوة أخرى تحوِّل هذه السنن أو تبدلها .

ولا تظنوا أن ما أصابكم جاء فقط لأن السنن لا تتغير ، لا ، فهذا قد حدث بإذن من الله ، فالله أوضح للكون : من يخالف أمرى أفعل فيه كذا . إذن فالكون لم يحدث فيه شىء دون علم الله وإذنه .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ ﴾

أى أنه سبحانه قد جمع المؤمنين وجمع الكافرين فى أُحد بإذن منه وبعلمه والنتيجة معروفة عنده ، وأنه سيحدث منكم كذا وكذا ، إذن فهذا أمرٌ معلوم ، أو « بإذن الله » أى فى السنن التى لا تتخلف ، فالمسألة لم تأت بغير علم الله ، لا . لقد جاءت بإذن الله ولا تتخلف ـ تطبيقا ـ عن أَحدٍ من خلقه أبداً مهما كانت منزلته .

« وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله وليعلم المؤمنين » ساعة ترى أمراً أجراه الله ليعلم الذين نافقوا ، وليعلم المؤمنين،نعرف أن الله عالم بهم قبل أن تقع الأحداث ، ولكن علمه لا يكون حجة على الغير إلا إن حدث منه بالفعل ؛ لجواز أن يقول : يارب أنت حاسبتنى بعلمك أن هذه سيحدث ، لكن ما كنت لأفعله . فيوضح الحق : لا . أنت قد علمته لأنك فعلته وصار واقعاً منك وتقوم به الحجة عليك .

وأضرب هذا المثل ـ ولله المثل الأعلى ـ أنت كمعلم تقول لواحد من الطلبة: أنت راسب، فيقول لك : لا ، لابد أن تمتحننى . تقول له : أنا أعرف أنك راسب . فيقول لك : أنا لا آخذ بعلمك بل لابد أن تمتحننى . تقول له : تعال أمتحنك . وتعطيه بعض الأسئلة فيرسب . وهنا يصير علمه برسوبه أمراً واقعاً ، وهو كان يعلمه بسبق علم ، لكنه الآن لا يقدر أن يجادل لأنه صار واقعا محسوساً .

ويقول الحق : « وليعلم المؤمنين » ومنهم الثابت الإيمان الذى لا يتزعزع ويعلم أنه إذا أصابته مصيبة بما قدم لنفسه ، هذه المصيبة تزيده إيماناً بإله .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ يَقُولُونَ

بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾

وقوله: « وليعلم الذين نافقوا » أى يجعلهم يظهرون وينكشفون أمام الناس، وإلا لو لم تحدث هذه الأحداث فكيف كنت تعرف المنافق ؟ سيستر نفسه . لابد إذن أن تأتى أحداث لتظهره وتفضحه ، فالمنافق يراوغ ؛ لذلك يأتيه الحق بأحداث ليظهر على حقيقته ، وقد كان .

« وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا فى سبيل الله أو ادفعوا » . . وكانت المدينة مهاجمة ، وإذا انتصر الكفار فسيدخلون ويسْبون ويأخذون المسلمين أسرى ويفعلون كل منكر !! فقال عبدالله بن عمرو بن حرام الأنصارى للمنافقين : اخرجوا وقاتلوا معنا ، وإن لم تخرجوا لتقاتلوا معنا . . اخرجوا لتدفعوا عن أنفسكم وعن أموالكم وعن نسائكم ؛ لأنهم إذا انتصروا على المسلمين فسيدخلون ويفعلون كذا وكذا ، إنه دعاهم إلى القتال على طريق إثارة الحمية والأنفة فيهم وذلك بعد أن يئس من أنهم لم يقاتلوا فى سبيل الله ، ولما رأى اصرارهم على عدم الخروج قال لهم عبدالله : اذهبوا أعداء الله فسيغنى الله رسوله عنكم .

إذن ففيه فرق بين القتال فى سبيل الله وبين الدفاع عن النفس فقال : « قاتلوا فى سبيل الله أو ادفعوا » . . أو ادفعوا عنا ولو بتكثير سوادنا وإظهار كثرتنا حتى يظن المشركون أن معنا أناسا كثيرين . « قالوا لو نعلم قتالاً لاتبعناكم » . . وعندما نتابع هذا المنطق فى القصة فى ذاتها نجد أن « ابن أُبَىّ » كان من رأيه أن يظل رسول الله فى المدينة لماذا ؟ لأنه قد ثبت بالتجربة أنه إذا جاء قوم ليغيروا على المدينة ودخلوها فأهل المدينة ينتصرون عليهم ، وإذا خرج لهم أهل المدينة فهم ينهزمون .

إذن فالقضية واضحة فى ذهن ابن أُبَىّ ، فهو لم يرض أن يخرج لأن التجارب أثبتت له أنهم إذا خرجوا عن المدينة ليحاربوا العدو فعدوهم ينتصر عليهم ، وإذا ظلوا انتصروا ، إذن فهو واثق من نتيجة الخروج ، ولكن مادامت المسألة قد صدرت من رأس النفاق عبدالله بن أبىّ فأنت لا تستطيع أن تحكم أين الحق ، فمن الجائز أن آثار

يوم هجرة الرسول عليه الصلاة والسلام من مكة إلى المدينة هذه الآثار كانت باقية فى نفس « ابن أبىّ » ففى ذلك اليوم الذى جاء فيه الرسول إلى المدينة كان هو اليوم الذى كان سيتوج فيه المنافق « ابن أُبَىٍّ » ليكون ملكاً على المدينة ، فلما جاء الرسول بهذا الحدث الكبير تغير الوضع وصار التاج من غير رأس تلبسه ، فهذه قد حملها فى نفسه .

« قالوا لو نعلم قتالاً لاتبعناكم » لقد ادّعى ابن أبىّ أن الخروج من المدينة هو كإلقائه إلى التهلكة وليس قتالاً ؛ لأن القتال تدخله وعندك مظنة أن تنتصر ، إنما هذا إلقاء إلى تهلكة وليس قتالاً ، لكن أقال : « لو نعلم قتالاً لاتبعناكم » وهو صادق ؟

إن الحق يفضحهم : « هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان » ، فقبل ذلك كانوا فى نفاق مستور ، ومادام النفاق مستوراً فاللسان يقول والقلب ينكر ويجحد ، فهم مذبذبون بين ذلك ؛ لا إلى هؤلاء ، ولا إلى هؤلاء ، هذه المسألة جعلته قريبا من الكفر الظاهر .

« يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم » . . إذن فالقلب عمله النية الإيمانية ، واللسان قد يقول ولا يفعل ما يقول ، ولذلك قلنا : إن المنافق موزع النفس ، موزع الملكات ، يقول بلسانه كلاما وقلبه فيه إنكار ، ولذلك سيكونون فى الدرك الأسفل من النار ؛ لأنهم غشاشون ، ونفوسهم موزعة .

« يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم » والقول ضرورى بالفم ؛ لأن القول يُطلق ويراد به البيان عما فى النفس ، فتوضيح الإنسان لما فى نفسه كتابة ، يعتبر قولاً ـ لغة ـ ولذلك فالذى يستحى من واحد أن يقول له كلاما فهو يكتبه له فى ورقة ، فساعة يكتب يكون قد قال ، وهؤلاء المنافقون يقولون كلماتهم لا بوساطة كتاب بل بوساطة أفواههم، وهذا تبجح فى النفاق ، فلو كانوا يستحون لهمسوا به : « يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم » إذن فاللسان لم يتفق مع القلب . فالقلب منعقد ومصر على الكفر ـ والعياذ بالله ـ واللسان يتبجح ويعلن الإيمان .

ونعرف أن « الصدق » هو أن يوافق القول الواقع ، والواقع فى القضية الإيمانية نية فى القلب وحركة تُثبت الإيمان ، أما المنافقون فلسانهم لا يوافق قلبهم ، فلما كان ما فى القلب مستورا ثم ظهر إلى الجوارح انكشفوا . وهذا هو السبب فى أنهم كانوا أقرب إلى الكفر ، « يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم » وهذا لون من نقص التصور الإيمانى فى القلب ، كأنهم يعاملون الله كما يعاملون البشر مثلهم .

وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟ ۗ قُلْ فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾ ﴾

فعندما أراد ابن أُبَىٍّ أن يخذّل الجيش ، وافقه بعض المنافقين ولم يوافقه البعض . هؤلاء الذين خرجوا للقتال والجهاد ولم يوافقوهم ثم قتلوا فرحوا فيهم ، وقالوا : لو كانوا أطاعونا ومكثوا فى المدينة ولم يخرجوا لما انهزموا ولما قتلوا ، وكأن الحق يوضح لنا أسلوبهم ؛ لذلك سنأخذهم من منطقهم . . هم قعدوا وقالوا عن إخوانهم الذين قُتلوا فى المعركة والذين هم من جماعتهم : « لو أطاعونا » كأن قولا صدر منهم:« أن اقعدوا » ولكن القوم الآخرين الذين هم أقل نفاقا . لم يطاوعوهم وخرجوا ، فحدث لهم ما حدث .

فكيف يرد الله على هذه ؟ انظروا إلى الرد الجميل : أنتم تقولون : « لو أطاعونا » ، فكأن طاعتكم كانت وسيلة لسلامتهم من القتل . إذن فأنتم تعرفون طريق السلامة من القتل . والذى يعرف طريق السلامة من القتل هل يعرف طريق السلامة من الموت ؟ ولذلك يقول الحق سخرية بهم : « فادرأوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين » وفى ذلك رد عليهم من كلامهم « لو أطاعونا ما قتلوا » .

ومادمتم تعرفون وسيلة للسلامة من القتل فاستعملوا هذه الوسيلة فى أن تدفعوا عن أنفسكم الموت . وأنتم مع المتقدمين منكم والحاضرين تموتون ولا تستطيعون رد الموت عنكم ، إذن فأنتم لا تعرفون طريق السلامة من الموت ؛ فكم من مُحارب عاد من الحرب سليما ، وكم من هَارب من القتال قد مات وانتهى ، وَهَبْ أن بعضا من المؤمنين المقاتلين قد قُتل، إن الذى قُتل فى المعركة ليس أهون على الله ممن سلم من المعركة، هؤلاء أحب إلى الله وقد عجل الله لقاءهم وأنزلهم المنزل المقرب عنده .

ونعرف أن الحدث إنما يُحمد ويُذم بالنسبة للغاية منه ، فكل حدث يُقربك من الغاية يكون محموداً ، وكل حدث يُبعِدك عن الغاية يكون غير محمود ، فإذا كانت الغاية أن تذهب إلى الاسكندرية مثلا ؛ فقد تذهب إليها ماشيا فتحتاج إلى عدة أيام ، وقد تذهب إليها راكبا دابة فتحتاج إلى زمن أقل ، أو تذهب إليها راكبا عربة فيقل الزمن لساعات ، أو تذهب إليها راكبا طائرة فتصلها فى نصف الساعة ، فكلما كانت الوسيلة قوية كان الزمن قليلا ؛ لأننا نعلم أن القوة الفاعلة فى النقلة تتناسب مع الزمن تناسبا عكسيا . وكلما زادت القوة قل الزمن ، ومادامت غايتى أن أذهب إلى الاسكندرية . فالذى يُعجل لى الزمن ويقلله لأذهب إليها أفضل أم لا ؟ إنها الوسيلة الأفضل .

فمادامت الغاية أن تذهب إلى لقاء الله وأن تعيش فى جواره ومعيته ، فحين يُعجل الله ببعضنا فيأخذهم من أقصر طريق فهذا أفضل بالنسبة لهم أم لا ؟ هذا أفضل ، وهكذا نرى أن الناس تنظر للموت نظرة حمقاء ، إن موت المؤمن الحق الصادق الإيمان إنما يقربه إلى الغاية ، فما الذى يُحزننى !

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾

أنتم تخافون الموت ، ولكن هؤلاء الذين قتلوا فى سبيل الله ليسوا بميتين ، لأن حياتهم حياة موصولة ؛

إن هناك فارقا كبيرا بين الموت والشهادة ، فالذى يقتل شهيدا تكون حياته موصولة ، ولن يمر بفترة موتنا نحن ، ولنفهم أنهم أحياء عند ربهم ، أى بقانونه سبحانه ، فلا تُحَكّم قانونك أنت ، فأنت ـ كما قلت ـ لو فتحت القبر ستجد هؤلاء القتلى مجرد أشلاء . هم عندك أشلاء وأموات فى قانونك أنت . لكنهم أحياء عند ربهم يُرزقون .

فالحياة تختلف عن الموت فى ماذا ؟ إن الإنسان إذا زهقت روحه وفارقت جسده انقطعت حياته ، فى ظاهر الأمر انتهى ولم يعد ينتفع برزق ولا بأكل ؛ لأن الرزق جُعِلَ لاستبقاء الحياة ، ومادام الرزق قد صُنِعَ لاستبقاء الحياة وليس فيه حياة إذن فلا رزق ، لكن الله سبحانه يريد أن يعطينا مواصفات تؤكد أن الشهيد حي . ومن ضروريات الحياة أنه يُرزَق أى ينتفع باستبقاء الحياة ، وعلينا أن نفهم أن العنْدية عندك غير العندية عند الله . فالشهيد حى عند ربه ويُرزق عند ربه رزقا يناسب الحياة التى أرادها له ربه . ونعلم أن الرزق هو الخاصية التى توجد للأحياء . وعندما نقرأ قول الله : « أحياء عند ربهم يرزقون » قد يقول قائل : من الجائز أنك تأخذ إنسانا وتُبقيه حيا وتعطيه طعاما وشرابا لكن أهو فرح بموقعه ؟ لا . لذلك يجب أن ندرك ونعرف أن حياة الشهيد ليست فى قبره ولكنها عند ربه وهو فَرِح بموقعه لذلك يقول الحق :

﴿ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾

والعدل يتحقق بين البشر بأن كلا منهم يموت . ولكن الفضل أن يعجل الله انقضاء الحياة فى الدنيا لمن يُحبهم بالاستشهاد وينقلهم إلى رضوانه ونعيمه « فرحين بما آتاهم الله من

فضله » وليس هذا فقط ، بل إننا نجد الأخوة الإيمانية قد بقيت فيهم وليست كخاصية الأحياء بل أنقى وأبقى من خاصية الأحياء ، فالخاصية الإيمانية تقتضى أن يُحب المؤمن لأخيه ما يُحب لنفسه ، والشهداء فى حياتهم عند ربهم كذلك ، مما يدل على أن الحياة التى يحياها الشهداء هى حياة نامية فيها رزق ومواجيد وفرح ، وكل شهيد يعتبر أن هذا فضل من الله قد فضله به . ولذلك فالشهيد يستبشر بالذى لم يأت من بعده من إخوانه المؤمنين ويقول : يا ليتهم يأتون ليروا ما نراه .

« ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم » : « ويستبشرون » من البُشرى ، والبُشرى هى الخبر السَّار « ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم » ويلحقوا أى يأتوا بعدهم ، فالشهداء يقولون:إنهم سيأتون لنا وماداموا سيأتون لنا فنحن نُحب أن يكونوا معنا فى النعيم والخير الذى نحيا فيه . وكل منهم يشعر بالمحبة لأخيه ، لأنه يعلم قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « لا يكمل إيمان أحدكم حتى يُحب لأخيه ما يُحبه لنفسه » . وعن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لما أصيب إخوانكم يوم أحد جعل الله أرواحهم فى أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها ، وتأوى إلى قناديل من ذهب فى ظل العرش ، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم وحسن فضلهم قالوا : ليت إخواننا يعلمون ما صنع الله بنا لئلا يزهدوا فى الجهاد ولا ينكلوا من الحرب.فقال الله ـ عز وجل ـ:أنا أبلغهم عنكم ، فأنزل الله هذه الآيات : « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون » وما بعدها[1] .

ونعرف أن « البِشْرَ » عادة هو الفرحة ، وهى تبدو عَلَى بشَرة الإنسان ، فساعة يكون الإنسان فرحا ، فالفرحة تظهر وتُشرق فى وجهه ولذلك نُسميها « البشارة » ، لأنها تصنع فى وجه المُبشَّر شيئا من الفرح مما يعطيه بريقا ولمعانا وجاذبية .

« ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون » أى أن الذين خلفوا عن الشهادة لا خوف عليهم ، فهؤلاء الذين لم يستشهدوا بعد قد يخوضون معركة ما ، فيقول الحق على لسان الشهداء لكل منهم : لا تخف لأنك ستذهب لخير فى الحياة « ألاّ خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

---

(١) رواه الإمام أحمد .

وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ ﴾

إن الحق سبحانه لا يضيع أجر هؤلاء الذين قاتلوا فى سبيل الله ، وها هو ذا سبحانه وتعالى يقول :

﴿ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ﴾

انظر إلى المنزلة العالية كى تعلم أن الهزة التى حدثت فى أُحُد أعادت ترتيب الذرات الإيمانية فى نفوس المؤمنين . ولذلك أراد الله ألا يطول أمد الغم على مَن ندموا بسبب ما وقع منهم ، وألا يطول أمد الكفار الذين فرحوا بما أُلحق بالمؤمنين من الضرر فى المعركة الأخيرة ، هؤلاء المشركون فرحون ، وهؤلاء المسلمون فى حزن ؛ لأننا قلنا : ماداموا مسلمين ومؤمنين فلهم حق ، وإن قَصَّروا فعليهم عقوبة ، وسبحانه قد أنزل بهم العقوبة لكن بقى لإسلامهم حق على الله ؛ لأنه أجرى تلك الأقدار ليُهذب ويمحص ويُربى ، فلا يطيل أمد الغم على المؤمنين ولا يمد الفرحة للكافرين ، فيأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم والحالة كما تعلمون هكذا، ويؤذن مؤذنه صلى الله عليه وسلم فى الناس بطلب قريش قائلا : « لا يخرجن معنا إلا من حضر معنا القتال » .

ويخرج الرسول صلى الله عليه وسلم إليهم بعدد لا يزيد على عدد المقاتلين الذين كانوا يواجهونهم حتى لا يقال إنهم جاءوا بمددٍ إضافى ، بل بالعكس ، فالذين خرجوا لمطاردة الكفار هم الذين بقوا مع الرسول فى أُحد ، ونقص منهم من قُتل ونقص منهم أيضا كل من أثقلته جراحه . لقد كانوا أقل ممن كانوا فى المعركة ، وكأن الله يريد أن يبين لنا أن التمحيص قد أدى مطلوبه .

هم فى هذه الحالة استجابوا للرسول ، كأن المسألة جاءت رد اعتبار لمن شهدوا المعركة ؛ حتى لا يضعفوا أمام نفوسهم ؛ وحتى لا يجعلوها زلة تطاردهم وتلاحقهم فى تاريخهم الطويل ، بل يعلمون أن معركة أُحد قد انتهت وعرفوا آثارها .

وبمجرد أن أذن مؤذن الرسول صلى الله عليه وسلم بالنداء السابق استجابوا جميعا ، ولم يُسمح إلا لجابر بن عبدالله أن يكون إضافة لهم ؛ لأنه أبدى العذر فى أنه لم يكن مع القوم ؛ لأن له أخوات سبعًا من البنات وأمره أبوه أن يمكث مع أخواته لرعايتهن ، فسمح له رسول الله .

ـ وكما قلنا ـ فإن الله أراد بكل أحداث أُحدٍ أن يُعيد ترتيب الذرات الإيمانية ، ومادامت الذرات الإيمانية قد انتظمت فقد تم إصلاح جهاز الاستقبال عن الله ، وفى لحظة واحدة يستجيبون لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى أنهم يلاحقون الكفار ، وذهبوا إلى حمراء الأسد وكان ما كان . وبعد ذلك أرسل الله لهم من جنوده من يُخَذِّلُ هؤلاء القوم الكافرين ، ويقول لهم : إن محمدا قد خرج إليكم بجيش كبير .

ونلحظ أن الحق سبحانه يجىء هنا بقوله : « الذين استجابوا » وهى تقابل « من خالفوا » أمر رسول الله وهم الرماة ، « الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح » .

لقد استجابوا وهم مُرهقون ومُتألمون ومثخنون بالجراح ؛ فكل واحد منهم قد ناله

نصيب من إرهاق القتال ، ومع ذلك استجابوا لله وللرسول ، وكل منهم أصابه القَرح أو القُرح . . يعنى الألم أو الجرح ، « من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم » وهم قد أحسنوا فى الاستجابة ؛ لذلك فلهم الأجر العظيم ، « أجر عظيم » لأن ما حدث منهم من أمر المخالفة قد أخذوا عليه العُقوبة .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ ﴾

المسألة ليست ذلك فقط ، المسألة أن المنافقين راحوا يُروجون إشاعات كاذبة بأن المشركين قد اسْتَدْعوا عددا جديدا من كفار مكة وذلك ليخيفوا المؤمنين ، فلم يخف مؤمن واحد « الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم » وساعة ترى كلمة « الناس » فاعرف أن الإيمان بعيد عنها ، وماداموا « أناسا » فهم يقابلون أناسا آخرين ، ومن يغلب فهو يغلب بجهده وشطارته وحسن تصرفه ، لكن المؤمن يقابل الكافر ، والمؤمن يتلقى المدد من ربه .

قيل : إن الشيطان قد يتمثل على هيئة حشد من الناس ليُرهب المؤمنين ، والشيطان من عالم الجن ، وعالم الجن يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم ، وقد أعطاه الله القدرة على أن يتشكل بما يُحب . فله أن يتشكل فى إنسان ، فى حيوان ، أو كما يريد ، ولكن إذا تشكل فالصورة تحكمه لأنه ارتضى أن يخرج عن واقعه ليتشكل بهيئة أخرى ، فإذا ما تشكل على هيئة إنسان ، فقانون الإنسان يسرى عليه ، بحيث

إن كان معك مسدس أو سيف أو خنجر وتمكنت منه وطعنته يموت . وهذا هو ما رحمنا من تخويفهم لنا .

ولذلك تجد أن الشيطان يظهر لمحة خاطفة ثم يختفى ، لأنه يخاف أن يكون الإنسان الذى أمامه واعيا بأن الصورة تحكمه ، فعندما يتمثل لك بأى شكل تخنقه فيُخنق ، لذلك يخاف من الإنسان ، فلا يظهر إلا فى لمحات خاطفة .

ويمكن أن نفهم أيضا قول الحق : « الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم » أن هناك بعضا من الكفار أشاعوا أن أبا سفيان وصحبه قد حشدوا حشودهم ، فكلمة « جمعوا » تعطى إيحاء بأنهم جاءوا بمقاتلين آخرين ، أو أن فلولهم قد تجمعت ، وسواء هذا أو ذاك فهم عندما فروا فروا فلولا ، لأن القوم المنهزمين لا يسيرون سيرا منتظما يجمعهم ، بل يسير كل واحد منهم حسب سرعته ، ويصح أن يتجمعوا ثانية ، أو جاءوا بناس آخرين ، ولنا أن نلحظ أن الأسلوب يحتمل كل ذلك .

« الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم » ومثل هذا القول قد يفت فى عضد المؤمنين ، لكن التمحيص الإيمانى قد صقل معسكر الإيمان فلم يهتموا بهذا الكلام ، وهكذا أثمر الدرس الأول ، لقد تعلموا أن المخالفة عن أمر الله الممثل فى أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم مجرد المخالفة تجعل الضعف يسرى فى النفس ، لكن التثبت والتمسك بأوامر رسول الله صلى الله عليه وسلم يُعزز الإحساس بالقوة ، لذلك لم يأبهوا لهذا التهديد بل قالوا : إن العدد هذا ليس فى بالنا ؛ لأننا نعتمد على الله وحُسن الإيمان ، إنهم قالوا : « حسبنا الله ونعم الوكيل » فلم يهتموا بالعدد وفهموا أن الإيمان يقتضى أن يقاتلوا الكافرين حتى يُعذبهم الله بأيديهم ، وفى هذا درس لكل مُحارب ، فعندما تحاربُ ، فأنت إما أن تكون منصورا بإيمانك بالله وإما أن تكون على عكس ذلك :

﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾

(من الآية ١٧ سورة الأنفال)

لقد فطنوا إلى أنفسهم ، وتغير الترتيب الإيمانى فى أعماقهم ، ونلمس ذلك فى أن بعضا من الناس جاءوا يصدونهم ويخذلونهم ، فلم يستطيعوا بل زادهم هذا القول إيمانا « وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل » ، لقد فطنوا إلى أن قوة الله هى التى تنصرهم والله حسبهم وكافيهم عن أي عدد من الأعداد وهو نعم الوكيل ، ومعنى « الوكيل » أننى عندما أعجز عن أمر أُوَكِّلُ أحدا فهو وكيل عنى ، وعندما نوكل الله فيما عجزنا عنه فهو نعم الوكيل ، لماذا ؟ وتأتينا الإجابة : « فانقلبوا بنعمة من الله » ، ولقد نصروا بالرعب الذى أنزله الله فى قلوب أعدائهم ولم يشتبكوا مع الكفار ، فصدق قول الله :

﴿ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ ﴾

(من الآية ١٢ سورة الأنفال)

ويأتى الحق من بعد ذلك بما يصدق القضية :

﴿ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ ﴾

وهذه القضية يجب أن يستشعرها كل مؤمن يتعرض لتمحيص الحق له ، وعلى كل مسلم أن يتذكر تلك تجربة ، تجربة أُحد ، فليلة واحدة كانت هى الفارق بين يوم معركة أُحد ويوم الخروج لملاحقة الكفار فى حمراء الأسد ، ليلة واحدة كانت فى حضانة الله وفى ذكر لتجربة التمحيص التى مر بها المؤمنون إنها قد فعلت العجب ؛ لأنهم حينما طاردوا الكفار ، لم يأبهوا لمحاولات الحرب النفسية التى شنها عليهم الأعداء ، بل زادهم ذلك إيمانا وقالوا : « حسبنا الله ونعم الوكيل » .

إذن فقد تجردوا من نفوسهم ومن حولهم ومن قوتهم ومن عددهم ومن أى شىء إلا أن يقولوا : الله كافينا وهو نعم الوكيل لمن عجز عن إدراك بغيته . لقد عرفوا الأمر المهم ، وهو أن يكون كل منهم دائما فى حضانة ربه ، وقد أخذ صحابة رسول الله وآل بيت رسول الله هذه الجرعة الإيمانية واستنبطوا منها الكثير فى حل قضاياهم .

وقول الله سبحانه : « حسبنا الله ونعم الوكيل » يُذكرنا بالإمام جعفر الصادق ابن سيدى محمد الباقر بن سيدى على زين العابدين وكان من أفقه الناس بالقرآن ، وكان من أعلمهم فى استنباط أسرار الله فى القرآن ، إنّه كان يجد فى قول الحق : « حسبنا الله ونعم الوكيل » استنباطا رائعا ، فهو يتعجب لأى إنسان أدركه الخوف من أى شىء يخيف ، والإنسان لا يخاف إلا أمرا يَنْقُضُ عليه رَتَابَة راحته ، ويقلقه ويهدده فى سلامه وأمنه واطمئنانه ، ويكون لهذا الخوف مصدر معلوم ، فإذا ما تعرض المؤمن لمثل هذا الخوف فعليه أن يتذكر قول الحق : « حسبنا الله ونعم الوكيل » لأنها قضية نفعت الجيش كله فى معركته مع الكفار ، فحين يأخذ الفرد هذه الجرعة فهو يستعيد رباطة الجأش . واشتداد القلب فلا يفر عند الفزع .

وينبهنا سيدنا جعفر الصادق إلى هذه القضية لنفزع إليها عند كل ما يُخيفنا فيقول : عجبت لمن خاف ولم يفزع إلى قول الله : « حسبنا الله ونعم الوكيل » إنه بنظرته الإيمانية يتعجب لإنسان أدركه الخوف ثم لا يفزع إلى هذا القول الكريم « حسبنا الله ونعم الوكيل » ، ثم يستنبط بإشراقاته سر هذا فيقول : لأنى سمعت الله بعقبها يقول : « فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء » وانظروا إلى قول سيدنا جعفر الصادق:« فإنى سمعت الله بعقبها » هو قرأ بنفسية المؤمن الصادق ، فالمؤمن حين يقرأ كلام الله إنما يستحضر أنه يسمع الله يتكلم إنه يقول : فإنى سمعت الله بعقبها يقول : « فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء » ولذلك فالحق يقول :

﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

فأنت حين تستمع إلى القرآن فالله هو الذى يتكلم ، ومن العيب أن يتكلم ربك

فى أذنك ثم تشغل عنه وهو ربك ، إذن فعلاج الخوف هو أن تقول من قلبك:« حسبنا الله ونعم الوكيل » وأن تقولها بحقّها ، فإن قلتها بحقها كفاك الله شرّ ذلك الخوف ، لأن الله يقول بعد « وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل » : « فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء » انظر إلى النعمة والفضل ، إنهما من الله،وقد تصيبك النعمة والفضل ولكن تقدر ذلك فى أخريات الأمور ، فأوضح الله أن النعمة زادت فى أنها غنيمة باردة ، ولم يحدث فيها أن مسّنا سوء ، إن ذلك هو قمة العطاء ورأسه وسنامه ، فإذا قدرته فى أخريات الأمور فقدْ أخطأت التقدير « فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء » ونتيجة لتلك التجربة النافعة هى أن « اتبعوا رضوان الله » ، وقد نجحت التجربة مع المؤمنين .

ويقول الإمام جعفر الصادق ليكمل العلاج لجوانب النفس البشرية، ويصف الدواء. فالنفس البشرية يفزعها ويقلقها ويجعلها مضطربة أن تخاف شرّاً يقع عليها ، وعلاج هذا : « حسبنا الله ونعم الوكيل » ، ويضيف : وعجبت لمن اغتمّ ولم يفزع إلى قول الحق سبحانه :

﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

(من الآية ٨٧ سورة الأنبياء)

و« الغمّ » قلق فى النفس ، ولكنك لا تدرك أسبابه ، فأسبابه مُعقّدة ، صدر يضيق ، ولذلك تقول : أنا صدرى ضيق ، أنا متعب ولا أدرى لماذا ؟ أى لم يمرّ بك الآن أشياء تستوجب هذا ، إنما قد تكون حصيلة تفاعلات لأحداث وأمور أنت لا تتذكرها الآن ، هذا اسمه « غمّ » ، فإذا ما فزع العبد إلى قول الحق سبحانه : « لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين » فالعبد يقرّ بذنبه ويقول : هذا الغمّ لم يأتنى إلا لأننى خرجت عن المنهج ، ويذكرنا سيدنا جعفر الصادق بأنه سمع بعدها قول الله :

﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾

(سورة الأنبياء)

والذى قال ذلك هو سيدنا يونس « فاستجبنا له ونجيناه من الغمّ » .

وهذه الاستجابة من الله ليست خاصّية كانت ليونس عليه السلام ، لأنه سبحانه قال : « وكذلك ننجى المؤمنين » أى أنه باب واسع أدخل الله فيه كل المؤمنين ، ويضيف سيدنا جعفر الصادق : وعجبت لمن مُكر به ولم يفزع إلى قول الله :

﴿ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾

(من الآية ٤٤ من سورة غافر)

فإنى سمعت الله بعقبها يقول : « فوقاه الله سيئات ما مكروا » .

ومُكر به معناها بيّت له الشر بحيث يخفى ، لأن المكر هو : تبييت من خصمك لشرّ يُصيبك ، بينما أنت تقف بجانب الحق ، فيكون هذا المكر شراً يُبيَّتُ لخير وحق ، وهذا هو المكر السّيىء ، ويُقابله مكر حَسن ، ولذلك يقول الحق :

﴿ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ﴾

(من الآية ٤٣ سورة فاطر)

إذن فهناك مكرٌ ليس بسيّء ، كأن يُبيّت صاحب الحق لصاحب الشرّ . تبييتا يخفى عليه ، هذا اسمه مكر خير ؛ لأنه محاربة لشرٍّ ؛ ولذلك يوضح لنا الله هذا الأمر : افطنوا إلى هذه ، فإن كانوا يمكرون ويُبيّتون ، فهم إن بيّتوا على الخلق جميعاً لا يُبيّتون على الله لأنه سبحانه العليم ، الخالق ، المُربّى ، وإن يُبيّت الله لهم فلن يستطيعوا كشف هذا التبييت ، إذن فالله خير الماكرين ؛ لأن تبييتهم مكشوف أمام الخالق ، لذلك فهو مكر ضعيف ، أما المكر الحقيقى فهو الذى لا توجد وسيلة تعرفه بها .

ونواصل مع سيدنا جعفر الصادق قوله فى علاج النفس البشرية فيقول : وعجبت لمن طلب الدنيا وزينتها كيف لا يفزع إلى قول الله :

﴿ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾

(من الآية ٣٩ سورة الكهف)

فإنى سمعت الله يعقبها بقوله :

﴿ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ ﴾

(من الآية ٣٩ وجزء من الآية ٤٠ سورة الكهف)

واستنبط سيدنا جعفر الصادق ذلك من حكاية صاحب الجنة :

﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ ﴾

(سورة الكهف)

إنك حين تقول:« ما شاء الله لا قوة إلا بالله » فإن الدنيا تأتيك مهرولة ، لأنك جرّدت نفسك من حولك ، ومن قوة حيلتك وأسبابك ، وتركت الأمر لله سبحانه وتعالى القادر على كل عطاء .

إذن فالجوانب البشرية فى النفس : هى خوف له علاج وَوَصْفَة ، وهمٌّ له علاج ووصفة ، ومكر بك له علاج ووصفة ، وطلب دنيا وسعادة لها علاج وَوَصْفَة ، والوصْفَة التى نحن بصددها هنا : « وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء » .

والنعمة أن يعطيك الله على قدر عملك ، والفضل من الله هو أن يزيدك عطاء ، ولم يمسس السوء أحداً من المؤمنين الذين طاردوا المقاتلين من قريش ، وكان من نتيجة ذلك أنهم جمعوا بين كل ما وهبه الله لهم ؛ من نعمة وفضل مع اتباعهم رضوان الله ؛ فقد صارت المسألة بالنسبة لهم تجربة مُحسّة ومُجرّبة « واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم » .

لقد حاول المنافقون أن يثبطوا المؤمنين عن لقاء كفّار قريش ، فيريد الحق أن يكشفهم ، ويظهر الدافع إلى مثل ذلك الموقف من المنافقين ، لذلك قالوا للمؤمنين : « إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم »

ويظهر الله للمؤمنين حقيقة موقف المنافقين :

﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ ﴾

إنها صرخة الشيطان الذى يخوِّف أولياءه ، ويَصحُّ أن يصرخ الشيطان صرخته وهو يتمثل فى صورة بشر ، ويصح أن ينزغ الشيطان بصرخته لواحد من البشر فيصرخُ هذا الإنسان بنزغ الشيطان له « إنما ذلكم الشيطان يخوّف أولياءه » .

وعندما نقرأ القرآن بدقة صفائية إيمانية فلابد أن نفهم عن القرآن بعمق ، فمن هم أولياء الشيطان ؟ أولياء الشيطان فى هذا الموقف ، إما كفّار قريش ، وإما المنافقون أو هما معا . و« أولياؤه » هم أحبابه الذين ينصرون فكرته .

كأن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يُبلّغنا : إنما ذلكم الشيطان الذى قال:إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ، هذا الشيطان إنما يخوف أولياءه .

وللوهلة الأولى نجد أن الشيطان مُفترض فيه أن يخوّف أعداءه . ونحن هنا أمام شيطان ينزغ بعبارة التخويف ، فمن الذى يخاف وممن يخاف ؟

المفروض أن يُخيف الشيطانُ أعداءه ، هذا هو المنطق .

فنحن فى حياتنا العادية نقول : خوّفت فلاناً من فلان ، أو خوفت فلاناً فلاناً . إذن فالشيطان يحاول هنا أن يتسلط على المؤمنين ويخوفهم من أوليائه الكفار والمنافقين ، ونعرف فى اللغة أن هناك فى بعض المواقف يمكننا أن نحذف حرف الجر ونصل الجملة ، ونُسمّيه « مفعولاً مِنه » . مثال ذلك قول الحق :

﴿ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا ﴾

(من الآية ١٥٥ سورة الأعراف)

فموسى عليه السلام اختار من قومه سبعين رجلاً .

وعلى ذلك نقرأ قول الحق : « إنما ذلكم الشيطان يخوّف أولياءه » ونفهم منها ؛ أن ذلكم الشيطان يخوِّفكم أنتم من أوليائه ، لأن حرف الجر فى الآية الكريمة محذوف ، ويعاضد هذا ويقويه قراءة ابن عباس وابن مسعود : يخوفكم أولياءه ، وينبه الحق المؤمنين ألاّ يخافوا من أولياء الشيطان فيقول : « فلا تخافوهم » .

وهذا يوضح لنا أن الشيطان إنما أراد أن يُخوّف المؤمنين من أوليائه وهم المنافقون والكافرون . وبعض المفَسرين قال : « يخوّف أولياءه » المقصود بهم أن الشيطان يخوّف أولياءه حتى يَجبنوا من القتال ، فنزغ فيهم أنهم إن خرجوا للقتال فقد يموتون . ولكن إن جاز ذلك القول على المنافقين الذين لم يخرجوا مع الرسول لملاقاة المشركين فكيف يجوز ذلك على الصنف الثانى من أوليائه وهم الكفار ؟ إن الكفار قد خرجوا فعلا لقتال المؤمنين . ونفهم من قول الحق : « فلا تخافوهم وخافون » أن أولياء الشيطان ليسوا هم الخائفين ولكنهم هم المخوِّفون : « إنما ذلكم الشيطان يخوِّف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين » .

فالحق سبحانه يطلب من المؤمنين أن يصنعوا معادلة ومقارنة ، أيخافون أولياء الشيطان ، أم يخافون الله ؟ ولابد أن يصلوا إلى الخوف من الله القادر على دحر أولياء الشيطان .

ومن بعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ ﴾

لقد كان المنافقون فى أول المعركة مُختفين ومستورين ، ثم ظهرت منهم بادرة الانخذال فى أُحُد فكانوا أقرب إلى الكفر منهم إلى الإيمان ، ولكنهم من بعد ذلك سارعوا إلى الكفر ، كأن هناك من يلاحقهم بسوط ليتسابقوا إلى الكفر .

وها هو ذا الحق سبحانه قد حدّد عناصر المعركة ، أو قوى المعركة ، أو ميدان المعركة أو جنود المعركة ، فينبه رسوله : « ولا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر » ولم يقل : لن يضروكم شيئا ؛ لأن الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته المؤمنين ليسوا طرفاً فى المسألة ، فعداء الذين يسارعون فى الكفر هو عداء لله ؛ لذلك يقول الحق : « إنهم لن يضروا الله شيئا » . كأن المعركة ليست مع المؤمنين . ولكنها معركة الكافرين مع الله ، ومادامت المعركة مع الله فالمؤمنون جند الله ؛ وهم الصورة التى أرادها الله لهزيمة الكافرين :

﴿ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ ﴾

(سورة التوبة)

فلو كانت معركة الكفر مع المؤمنين بالله فقط لقال الله : ولا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر إنهم لن يضروكم شيئا ، لكن المسألة ليست هكذا ، لقد أراد معسكر الكفر والنفاق أن يدخل معركة مع الله ، ولا توجد قوة قادرة على ذلك ، ولهذا يطمئن الله المؤمنين أكثر ، ليزدادوا ثباتاً على الإيمان ؛ لأن الكل من البشر مؤمنين وكفارًا أغيار ، وقد يتحول بعض من البشر المؤمنين الأغيار عن المنهج قليلاً ، فعندما تكون المعركة بين بشر وبشر فقد يغلب أحد الطرفين بقوته .

ومن أجل المزيد من الاطمئنان الكامل نقل الله المعركة مع الكفر إلى مسألة أخرى ، إنه بجلاله وكماله وجبروته هو الذى يقف ضد معسكر الكفار . والمهم فقط أن يظل المؤمنون فى حضانة الله . والرسول كان يحزنه أن يُسارع البعض إلى الكفر . فهل رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يعلم أنه إنما جاء مُبلّغاً فقط ؟ . إنه يعلم ولكنه كان يحرص ـ صلى الله عليه وسلم ـ على أن يؤمن الناس جميعاً ليذوقوا حلاوة ما جاء به ، هذا الحرص هو الذى يدفع الحُزن إلى قلب الرسول ، وعندما يرى

واحداً لا يتذوق حلاوة المنهج ، فالرسول يأمل أن يذوق الناس كلهم حلاوة الإيمان ؛ لأنه صلى الله عليه وسلم رءوف رحيم بالمؤمنين ، بل وبالناس جميعا « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » ودليل ذلك أن جاءه التخيير .

فقد نادى جبريل رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : « إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردّوا عليك ، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم . قال : فناداني ملك الجبال وسلم عليّ ثم قال : يا محمد ، إن الله قد بعثني إليك وأنا ملك الجبال لتأمرني بأمرك فما شئت ؟ إن شئت أطبق عليهم الأخشبين ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئا »(١)

فالرسول صلى الله عليه وسلم لا يبقى على هؤلاء فقط ولكنه يحرص أيضاً على الأجيال القادمة . وقد كان . وخرج من أولاد كفار قريش صناديد وأبطال وجنود دعوة وشهداء . فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ كما أخبر الله في آيات القرآن ـ يحزن عندما لا يذوق أحد حلاوة الإيمان ، يقول الحق :

﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ ﴾

(سورة الكهف)

وفي موقع آخر يقول الحق :

﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾ ﴾

(سورة الشعراء)

والحق سبحانه وتعالى لا يريد أعناقاً ، لكنه يريد قلوباً تأتي له بعامل الاختيار والمحبة ، فباستطاعته وهو الخالق الأكرم أن يخلق البشر على هيئة غير قابلة للمعصية ، كما خلق الملائكة ، إن كل الأجناس تُسبّح بحمده ، إذن فالقرآن يُبيّن حِرصَه صلى الله عليه وسلم بأن يؤمن الناس جميعاً وأن يذوقوا حلاوة اللقاء بربهم ،

(١) رواه البخاري ومسلم .

واتّباع منهج الله ، وحلاوة التشريع الذى يُسعدهم ويُسعد كل ملكاتهم . فإذا ما جاءت المسائل على غير ما يُحبُّ رسول الله . فها هو ذا قول الله سبحانه : « ولا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر » .

وهذا دليل على أن الله يريد أن يُبلّغ البشر : أيهاالناس إن من فَرْط حُبّ الرسول لكم أنه يَحزن من أجلِ عِصيانكم وأنا الذى أقول له:لا تحزن . والرسول صلى الله عليه وسلم رحيم بالأمَّة كلّها ، كما يقول القرآن :

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾

(سورة الأنبياء)

ويكفيه موقفه صلى الله عليه وسلم يوم القيامة ، حين تذهب كل أمة إلى رسولها ليردّها ، فتأتى الأمم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيُكرمه الله بقبول شفاعته حتى يُعجّل الله بالفصل والحساب ، وهذه رحمة للعالمين ؛ لأنهم من هول الموقف يتمنون الانصراف ولو إلى النار .

ونحن قلنا سابقا : إن الحق سبحانه وتعالى علم انشغال سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بأمته وبرحمته بهم ، فقال له الله ـ ليريح عواطفه ومواجيده ـ ما ورد هنا فى الحديث الشريف :

فعن عبدالله ابن عمر بن العاص رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم تلا قول الله عز وجل فى إبراهيم : « ربى إنهن أضللن كثيراً من الناس فمن تبعنى فإنه منى » .

وقول عيسى ـ عليه السلام ـ « إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم » .

فرفع يديه وقال : اللهم أمتى أمتى وبكى ، فقال الله عز وجل : يا جبريل اذهب إلى محمد وربك أعلم فسله ما يُبكيك ؟ فأتاه جبريل عليه الصلاة والسلام فسأله ، فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قال وهو أعلم ، فقال الله : يا جبريل ،

اذهب إلى محمد فقل : (إنا سنرضيك فى أمتك ولا نسوؤك)[١]

ورسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ له موقف آخر يدل على كمال رحمته بأمته ، فقد أنزل الله فيما أنزل من القرآن الكريم ـ بعد فترة الوحى ـ قوله تعالى : (ولسوف يعطيك ربك فترضى) .

انظروا إلى ما ورد عن سيدنا على فى هذه الآية،فقد روِىَ أنه ـ رضى الله عنه ـ قال لأهل العراق : إنكم تقولون : إن أرجى آية فى كتاب الله تعالى : (قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا) . قالوا : إنا نقول ذلك.قال : ولكنّا ـ أهل البيت ـ نقول : إن أرجى آية فى كتاب الله قوله تعالى : (ولسوف يعطيك ربك فترضى) . وفى الحديث لما نزلت هذه الآية قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : (إذا لا أرضى وواحد من أمتى فى النار)[٢] .

كما روى أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : (لكل نبىّ دعوة مستجابه فتعجل كل نبىّ دعوته وإنى اختبأت دعوتى شفاعتى لأمتى يوم القيامة)[٣] .

وهكذا نرى شغل رسول الله بأمته كأمر واضح موجود فى بؤرة شعوره .

إذن فقول الله : « ولا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر » هو توضيح من الله لرسوله بأنهم لم يسارعوا فى الكفر تقصيراً منك ، فأنت قد أديت واجبك ، ويضيف سبحانه : « إنهم لن يضرّوا الله شيئا » ولم يقل سبحانه: إنهم لن يضروك،أولن يضروا المؤمنين ، لا بل لقد جعل سبحانه وتعالى المعركة معه وهو القوى ذو الجبروت إنّه هنا يطمئن المؤمنين .

ويريد الله ألا يجعل للذين يسارعون إلى الكفر حظاً فى الآخرة فيقول : « يريد الله

---

(١) رواه الأمام مسلم فى صحيحه فى كتاب الايمان .

(٢) من تفسير الإمام القرطبى .

(٣) أخرجه البخارى .

ألا يجعل لهم حظاً فى الآخرة ولهم عذاب عظيم » ومادامت هذه إرادات الله فى ألا يجعل لهم حظاً فى الآخرة ، أيكون لهم عمل يصادم مرادات ربهم ؟ لا .

إنه سبحانه يريد بما شرّع من منهج أن تأتيهم سُنّته ، والله يعذّب من يخالف سُنّته التى شرعها . لأنه جلت قدرته يطلب من المكلفين أن يطبقوا سنته التى شرعها لهم .

وفرق بين وجود « لام العاقبة » التى تأتى حين يكون فى مُراد العبد شىء ، ولكن القُدرة الأعلى تريد شيئاً آخر ، وهى تختلف عن « لام الإرادة » والتعليل فـ « لام الإرادة والتعليل » تتضح فى قولنا : ذاكر التلميذ لينجح ، لأن علّة المذاكرة هى الرغبة فى النجاح ، أما « لام العاقبة » ، فتتضح عندما يقول الأب لابنه : أنا دللتك لترسب آخر العام .

أدللّ الأب ابنه حتى يرسب ؟ لا ، ولكن الأب يأتى هنا بـ « لام العاقبة » أى كان للأب مراد ، ولكن قدرة أعلى جاءت على خلاف المراد .

ونوضح المسألة أكثر ، فالحق يقول فى قصة سيدنا موسى :

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ ﴾

(سورة القصص)

ونحن لابد أن نتنبه إلى قول الحق : « فألقيه فى اليم » والإنسان العادى لو قال لامرأة تحمل رضيعها : إن خفت على ابنك فألقيه فى البحر . هذه المرأة لن تُصدّق هذا القائل ، لكن أم موسى تلقت هذا الوحى من الله ، والتّلقّى من الله لا يُصادمه فكر شيطان ولا فكر بشر ، فالإلهام من الله يتجلىّ فى قوله : « وأوحينا إلى أم موسى » .

ومادام الله هو الذى ألهمها ، فإن خاطر الشيطان لا يجىء . ولذلك قامت أم موسى بتنفيذ أمر الله . ويطمئنها الله فقال لها : « ولا تخافى ولا تحزنى إنّا رادوه إليك

وجاعلوه من المرسلين » .

ويُنبّه سُبحانه أم موسى أنه لن يردّه إليها لمجرد أنه قُرة عين ، ولكن لأن لموسى أيضاً مُهمّة مع الله . وفى لقطة أخرى يقول الحق عن مسألة الوحى لأم موسى :

﴿ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾ ﴾

(سورة طه)

والحق هنا فى هذه اللقطة يصف وقت تنفيذ العملية التى أوحى بها ، ففيه فرق بين التمهيد للعملية قبل أن تقع كما حدث فى اللقطة السابقة حيث قال لها الحق : « فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم » . كان ذلك هو الإعداد ، ثم جاء وقت التنفيذ ، فقال الحق لموسى : « إذ أوحينا إلى أمك ما يوحى » . إنها سلسلة من الأوامر المتلاحقة التى تدل على أن هذه العملية كانت فى وقت أخذ جنود فرعون لأطفال بنى إسرائيل ليقتلوهم ، إنه سبحانه يبين لنا أن جنود الله من الجمادات التى لا تعى تلقت الأمر الإلهى بأن تصون موسى ، فكلمة « اقذفيه » تدل على السرعة ، وتلقّى « اليم » الأمر من الله بأن موسى عندما يُلقى فى البحر ، فلابد أن يلقيه إلى الساحل . « إذ أوحينا إلى أمك ما يوحى أن اقذفيه فى التابوت فاقذفيه فى اليم فليلقه اليم بالساحل » إنها أوامر للمُسخّر من المخلوقات التى لا تعصى .

لكن كيف تكون أوامر الحق لعدو لله ؟ إن الله يدخلها كخاطر مُلحّ فى رأس فرعون ليُنفّذ مُراد الله . إن امرأة فرعون تقول له ما جاء فى قوله تعالى :

﴿ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ ﴾

(سورة القصص)

لقد دخل أمر الله كخاطر ، والتقطه آل فرعون لا ليكون قرة عين لامرأة فرعون ، ولكن لأمر مختلف أراده الله . فهل ساعة الالتقاط كان فى بالهم أن يكون موسى عدوّاً

أو قرة عين ؟ إنها « لام العاقبة » التى تتضح فى قوله : « ليكون لهم عدوًا وَحَزَنا » . فالإنسان يكون فى مُراده شىء ، ولكن القدرة الأعلى من الإنسان ـ وهو الله ـ تريد شيئاً آخر .

الإنسان فى تخطيطه أن يقوم بالعملية لكذا ، ولكن القوة الأعلى من الإنسان تريد العملية لهدفٍ آخر ، وهى التى أوحت للإنسان أن يقوم بهذه العملية . ويتجلّى ذلك بوضوح فى العلة لالتقاط آل فرعون لموسى . كان فرعون يريده قُرّة عين له ، ولكن الله أراده أن يكون عدوّاً لفرعون . وفى هذا المثال توضيح شامل للفرق بين « لام العاقبة » و« لام الإرادة والتعليل » وعندما نرى أحداثاً مثل هذه الأحداث فلا نقول : « هذا مراد الله » ولكن فلنقل : (العاقبة فيما فعلوا وأحدثوا خلاف ما خططوا) .

وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ ﴾

إنهم لن يضروا الرسول وصحابته لأنهم فى معيّة الله ، وهم لن يضرّوا الله ، وفى ذلك طمأنة للمُؤمنين ، كأن الحق سبحانه وتعالى يقول : أيها المؤمنون بى المصدّقون بمحمدّ إن المعركة مع الكفر ليست معركة المؤمنين مع الكافرين ، ولكنها معركة ربكم مع هؤلاء الكافرين . وفى هذا اطمئنان كبير .

« إن الذين اشتروا الكفر بالإيمان » ، و« الاشتراء » صفقة ، والصفقة تقتضى « ثمناً » و« مُثمناً » . و« الثمن » هنا هو الإيمان ، لأن الباء تدخل على المتروك ، و« المُثمَن » هو الكفر لأنه هو المأخوذ . فهل أخذوا الكفر ودفعوا الإيمان ثمناً له ؟

وهل معنى ذلك أن الإيمان كان موجوداً لديهم ؟

نعم كان عندهم الإيمان ؛ لأن الإيمان القديم هو إيمان الفطرة وإيمان العهد القديم الذى أخذه الله على الذّر قبل أن توجد فى الذّر الأغيار والأهواء :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ ﴾

(سورة الاعراف)

أو على الأقل كان الإيمان والكفر فى متناولهم ؛ بانضباط قانون الاختيار فى النفس البشرية ، لكنهم أخذوا الكفر بدل الإيمان . والبدلية واضحة ، فقد استبدلوا الكفر بالإيمان ، فالباء ـ كما قلت ـ دخلت على المتروك . لقد تركوا الإيمان القديم وهو إيمان الذّر ، أو تركوا إيمان الفطرة فالحديث الشريف يقول :

« كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهوِّدانه أو ينصرانه أو يُمجِّسانه »[1] .

لقد انسلوا من الإيمان ، ودفعوه ثمناً للكفر ، فعندما يأخذ واحد الكفر ، فهو قد أخذ الكفر بدلاً من الإيمان وهم « لن يضرّوا الله شيئا ولهم عذاب أليم » لماذا ؟ لأننا إن افترضنا أن الدنيا كلّها قد آمنت فهذا لن يُفيد الله فى شىء . والحديث القدسى يقول :

قال الله تعالى : (يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته محرما بينكم فلا تظالموا ، يا عبادى كلكم ضال إلا من هديته فاستهدونى أهدكم ، يا عبادى كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعمونى أطعمكم ، يا عبادى كلكم عارٍ إلا من كسوته فاستكسونى أكسكُم ، يا عبادى إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعا ، فاستغفرونى أغفر لكم ، يا عبادى إنكم لن تبلغوا ضُرِّى فتضرونى ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى ، يا عبادى لو أن أولَكم وآخرَكم وإنسَكم وجنَّكم كانوا على

---

(١): رواه البخارى .

أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك فى ملكى شيئا ، يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئا ، يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا فى صعيد واحد فسألونى فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندى إلا كما ينقص المِخْيَطُ إذا أُدْخل البحر ، يا عبادى إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خيرا فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنّ إلا نفسه)[1] .

إذن ، فلا الإيمان من البشر يزيد الله شيئاً ، ولا الكفر ينقص من الله شيئاً ؛ لأن الإنسان قد طرأ على ملك الله . ولم يأت الإنسان فى ملك الله بشىء زائد ، فالإنسان صنعه الله وخلقه من عناصر ملكه ـ جلت قدرته ـ ويستمر الحديث فى توضيح أنَّ الحق سبحانه لا يعالج شيئاً بيديه فيأخذ منه زمناً . لا ، إنه سبحانه جلّت مشيئته يقول للشىء : كُن ، فيكون .

وكلمة « كُن » نفسها هى أقصر أمر . إنّ أمره ألطف وأدق من أن يدركه على حقيقته مخلوق . لكن الحق يأتى لنا بالصورة الخفيفة التى تجعل بشريتنا تفهم الأمر . فالذين اشتروا الكفر بالإيمان لن يضرّو الله شيئاً ولهم عذاب أليم . فهم لن يعيشوا بِنَجْوَةٍ وبُعد عن العذاب ، بل سيكون لهم العذاب الأليم .

ونحن نجد أن الحق يقول مرة فى وصف مثوى الكافرين إنه عذاب اليم ، ومرة أخرى لهم عذاب عظيم ومرة عذاب مهين ، لماذا ؟

لأن العذاب له جهات متعددة ، فقد يُوجد عذابٌ مؤلم ، ولكن المُعَّذب يتجلد أمام من يُعذبّه ويُظهر أنه مازال يملك بقيّة من جَلَد ، إنه يتألم لكنه يستكبر على الألم ، ولَذلك قال الشاعر :

وَتجلّدى للشامتين أُريهمو
أنى لِرَيْب الدهر لا أتضعضعُ

---

(١) رواه مسلم بسنده عن أبى ذر .

فالتجلّد هو نوع من الكبرياء على الواقع . ولذلك يأتى من بعد ذلك قوله الحق إن لأمثال هؤلاء عذاباً مهيناً ، أى إنهم سيذوقون الذّل والألم ، ولا أحد فيهم يستطيع التجلّد . وهذا النوع من العذاب لا يقف فقط عند حدود الألم العادى ، ولكنه عذاب عظيم فى كمّيته وقدره ، وأليم فى وقعه . ومهين فى إذلال ودكّ النفس البشرية وغُرورها ؛ لذلك فعندما نجد أن العذاب الذى أعده الله للكافرين موصوف بأنه « عذاب أليم » ومرة « عذاب عظيم » ومرة « عذاب مهين » فلنعرف أن لكل واحدة معنى ، فليست المسألة عبارات تقال هكذا بدون معنى مقصود .

وأريد أن أقف هنا فى هذا الحديث عند « لام العاقبة » لأن البعض يحاول أن يخلق منها إشكالات إنّ هؤلاء المتربصين لكلام الله يحاولون النيل منه ، وهم لا يبحثون إلا فيما يتوهّمون ـ جهلاً ـ أنه نقاط ضعف ، وهو سبحانه وتعالى يقول عن الكفار والعياذ بالله وهم فى النار :

﴿ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾

(سورة المؤمنون)

لقد انشغل الكفار بالسّخرية من أهل الإيمان بإشاراتٍ أو لمزٍ وغمزٍ أو اتهام بالرجعية أو الدروشة أو مثل ذلك من ألوان السّخرية ، لدرجة أنهم نسوا مسألة الإيمان ، فما الذى أنساهم ذكر الله ؟ لقد أنساهم ذكر الله انشغالهم بالسّخرية من أهل الإيمان .

لقد قضى الكفار وقتهم كله للسّخرية من أهل الإيمان حتى نسوا ولم يتذكروا أن هناك خالقا للكون . وهذا ما يسمى « غاية العاقبة » وليست غاية وعلة للإرادة ، لأنهم لم يريدوا نسيان ذكر الله ولكن أمرهم انتهى إلى ذلك .

وسيُعذّب الله الكافرين عذاباً أليماً وعظيماً ومُهيناً . ولكل وصف مراده فى النص

حتى يستوعب كل حالات الإهانة من إيلام ، فالذى لا يألم بشىء صغير ولا يتحمل الألم القوى سيجد الألم الكبير ، وكذلك الذى يتجلد على الألم العظيم ، سيجد الألم المهين .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾ ﴾

وعندما نسمع قول الله : « ولايحسبن » فهو نهى ، وقد نهى الله الكافرين عن ماذا ؟ إن الكافر عندما يجد نفسه قد أفلت فى المعركة من سيف المؤمنين وأن عمره قد طال فى الكفر ، فهو يظن أن الحق سبحانه وتعالى تركه لخير له ؛ لأنه يفهم أن عمره هو أثمن شىء عنده ، فمادام قد حوفظ له على عمره فهو الخير . نقول لمثل هذا الكافر : إن العمر زمن ، والزمن وعاء الأحداث ، إذن فالزمن لذاته لا يُحمد إلا بالحدث الذى يقع فيه ، فإن كان الحدث الذى يقع فى الزمن خيراً ؛ فالزمن خير . وإن كان الحدث الذى يقع فى الزمن شراً ؛ فالزمن شر ، ومادام هؤلاء كافرين ، فلابد أن كل حركاتهم فى الوجود والأحداث التى يقومون بها هى من جنس الشر لا من جنس الخير ، لأنهم يسيرون على غير منهج الله . وربما كانوا على منهج المضادة والمضارة لمنهج الله .

وذلك هو الشر . إذن فالله لا يملى لهم بقصد الخير ، إنما يملى الله لهم لأنهم ماداموا على الكفر فهم يشغلون أوقات أعمارهم بأحداث شرّية تخالف منهج الله . وكل حدث شرّى له عذابه وجزاؤه . إذن ، فإطالة العمر لهم شر .

والحق سبحانه يقول : « ولا يحسَبَنّ الذين كفروا أنما نملى لهم خير لأنفسهم » و« يحسَبَنّ » هى فعل مضارع ، والماضى بالنسبة له هو « حسِب » ـ بكسر السين ـ ولذلك قال الحق سبحانه فى موقع آخر من القرآن الكريم :

﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ ﴾

(سورة العنكبوت)

إن الماضى هو « حَسِبَ » ـ بكسر السين ـ والمضارع « يحسَب » ـ بفتح السين ـ . أما حَسَبَ « يحسِب » ـ بكسر السين ـ فى المضارع وفتحها فى الماضى فهى من الحساب والعدد ، وهو عدد رقمى مضبوط .

أمر « حَسِبَ » و« يحسَب » فتأتى بمعنى الظن ، والظن كما نعرف أمر وهمى ، والحق سبحانه يذكرهم أن ظنونهم بأن بقاء حياتهم هو خير لهم ليست حقاً . بل هى حدس وتخمين لا يرقى إلى اليقين .

صحيح أن العمر محسوب بالسنوات ؛ لأن العمر ظرف للأحداث ، والعمر بذاته ـ مجرداً عن الأحداث ـ لا يقال إن إطالته خير أو شر ، وإنما يقال : إن العمر خير أو شر بالأحداث التى وقعت فيه ، والأحداث التى تقع من الكافر تقع على غير منهج إيمانى فلا بد أن تكون شراً ، حتى ولوفعل ما ظاهره أنه خير فإنه يفعله مضارة لمنهج الله . فلو كانت المسألة بالعملية الرقمية ؛ لقلنا:« حسَب » و« يحسِب » ـ بفتح السين فى الماضى وكسر السين فى المضارع ـ لكن هى مسألة وهمية ظنية ؛ لذلك نقول: « يحسَب » ـ بفتح السين فى المضارع ـ أى يظن . وهو سبحانه يقول : « إنما نملى لهم » . ما الإملاء ؟ الإملاء هو تمديد الوقت وإطالته . ولذلك نجد فى القرآن :

﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ ﴾

(سورة مريم)

إنه يأمر سيدنا إبراهيم أن يهجره مدة طويلة . هذا هو معنى « واهجرنى مليا » .

والمقصود هنا أن إطالة أعمارهم بعد أن أفلتوا من سيوف المؤمنين . ليست خيراً لهم ولا يصح أن يظنوا أنها خير لهم ، لأن الله إنما يملى لهم ؛ « ليزدادو إثماً ولهم

عذاب مهين » وهنا نجد « لام العاقبة » .

وإياك أن تقول أيها المؤمن : إن الله قد فعل ذلك ليعاقبهم . لا ؛ لأن الله سبحانه وتعالى قد وضع سننه فى الكون ويطبقها على من يخرج على منهجه،فمن يصنع إثماً يعاقبه الله عليه « إنما نملى لهم ليزدادوا إثماً » فكل ظرف من الزمن يمر عليهم يصنعون فيه أعمالاً آثمة على غير المنهج .

« ولهم عذاب مهين » وتأتى كلمة « مهين » وصفاً للعذاب مناسبة تماماً ؛ لأن الكافر قد يخرج من المعركة وقد تملكه الزهو والعجب بأن أحداً لم يستطع أن يقطع رقبته بالسيف ، ويتيه بالعزة الآثمة ، لذلك فالإيلام هنا لا يكفى ،لأنه قد يكتم الألم ويتجلد عليه ، ولكن العذاب عندما يكون مهيناً فهو العقاب المناسب لمثل هذا الموقف . والمتكلم هنا هو الله ، وسبحانه العليم بالمناسب لكل حال .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ مَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾ ﴾

وساعة نسمع « ما كان » فلنعرف أن هنا « جحوداً » أى أن هناك من يجحد القضية . ويسمونها « لام الجحود » . فقبل حادثة أُحد ، كان المنافقون متداخلين مع

المؤمنين . أكان الله يترك الأمر مختلطاً هكذا ، ولا يُظهر المنافقين بأحداث تبين مواقعهم الحقة من الإيمان ؟ لا ، إنه سبحانه وتعالى لا يقبل ذلك ؛ حتى لا يظل المنافقون دسيسة فى صفوف المؤمنين . وكان لابد أن تأتى الأحداث لتكشفهم . وجاءت أحداث أُحُد لتهيج الصف المنسوب إلى الإيمان ، وتفرزه ليتميز الخبيث من الطيب ، مصداقاً لقوله الحق :

﴿ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾

(من الآية ١٧ سورة الرعد)

إذن كانت أحداث أُحُد ضرورية .

وقوله الحق : « ما كان الله ليذر المؤمنين » مقصود بها أن الله لم يكن ليدع المؤمنين ويتركهم عرضة لاختلاط المنافقين بهم بدون أن يتميز المنافقون بشىء من الأشياء ، حتى لا تظل المسألة مقصورة على ما يُعلمه الله لرسوله من أمر المنافقين . فلو أعلم الله رسوله فقط بأمر المنافقين ، ولو أعلن الرسول ذلك للمؤمنين دون اختبار واقعى للمنافقين لكان ذلك مجرد تشخيص نظرى للنفاق يأتى من جهة واحدة ، وأراد الله أن تأتى حادثة واضحة وتجربة معملية واقعية تبين وتظهر الواقع ، حتى ينكشف المنافقون ، وحتى لا يعترض أحد منهم عندما يوصف بأنه منافق ، وحتى لا يكون هذا الوصف مجرد كلام من الخصم ، بل بفعل ارتكبوه هم عملياً ، وبذلك تكون الحجة قوية للغاية .

لقد كان المنافقون أسبق الناس إلى الصفوف الأولى فى الصلاة ؛ لأن كل منافق منهم أراد أن يَحبك مسألة نفاقه ، ويُواريه ، فيحرص على ما يندفع المؤمنون إليه ، والمنافق كان يعرف أن المؤمنين يتسابقون إلى الصلاة ، فهو يسارع ليكون فى الصف الأول من الصلاة . ويخبر الله سبحانه وتعالى رسوله :

﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾ ﴾

(سورة محمد)

أى لو لاحظت كلامهم لعرفتهم ، مثلهم مثل كل المنافقين فى الدنيا ، تلاحظ فى كلامهم لقطة من نفاق ؛ فالمؤمن حين يجلس مع جماعة من المنافقين ويأتى وقت صلاة الظهر ويدعو الأذان إلى الصلاة ، تجد المؤمن يقول : فلنقم إلى الصلاة ، وهنا يسخر المنافق ويقول للمؤمن : لتأخذنى على جناحك للجنة يوم القيامة . ومثل هذه الكلمة يكون « لحن القول » . أو عندما يدخل مؤمن على جماعة من الناس فيهم منافق ، فيستقبل المنافق المؤمن بلهجة من السخرية فى التحية ، « كيف حالك أيها الشيخ (فلان) » ؟ ومعنى ذلك أنه غير مستريح لوجود المؤمن فيسخر منه .

وذلك من « لحن القول » الذى يظهر به المنافق .

ومثل هذه العمليات عندما يواجهها المؤمن الواعى المستنير الذى يتجلّى الله عليه بالإشراقات النورانية ، مثل هذه العمليات تكون وقوداً للمؤمن وتزيد من إيمانه ؛ لأن المؤمن على منهج الحق ، وقادر على نفسه ، هذا ما يغيظ المنافق كثيراً ؛ فالمنافق يتساءل بينه وبين نفسه : لماذا يقدر المؤمن على نفسه ؟ والمنافق لا يقدر على نفسه ؛ لذلك يريد أن يسحب المؤمن من عقيدته ليكون معه على النفاق والعياذ بالله . وعلى المؤمن أن يوطن نفسه على أنه سيواجه منافقين يريدون أن يردوه عن الإيمان ، وسيجد أناساً يسخرون منه ويتغامزون عليه ، مصداقاً لقوله الحق :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُواْ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾

(سورة المطففين)

والمنافق أو الكافر قد يقول لأهله : لقد رأيت اليوم شيخاً أو رجل دين أومتدينا فسخرت منه وأهنته ويتندر المنافق بمثل هذا القول فى بيئته الفاسدة ، ويكشفها الحق لنا بقوله الكريم . ليطمئن المؤمنين ، ويعوض كل مؤمن عما يصيبه من أهل النفاق والفساد :

﴿ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

(سورة المطففين)

فالحق سبحانه يسأل المؤمنين يوم القيامة : هل قدرنا أن نجازى الكفار والمنافقين الذين سخروا منكم ؟ فيقولون : نعم يارب العالمين قد جوزوا وأثيبوا على فعلهم أوفى الجزاء وأتمه وأكمله .

إن سخرية المنافقين والكافرين من المؤمنين لها أمد دنيوى ينقضى ، ولكن السخرية فى الآخرة لا تنقضى أبداً . وعندما نقيسها نحن المؤمنين ، نجد أننا الفائزون الرابحون إن شاء الله . فلو ترك أى منافق ليتداخل فى أحضان المؤمنين ، ولا يظهر ذلك للمؤمنين لكانت المسألة صعبة العلاج ، ولهذا يقول الحق للرسول صلى الله عليه وسلم :

﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾ ﴾

(سورة محمد)

والحق لا يكتفى بذلك ، لكنه يكشف لنا واقع المنافقين بتجارب معملية حتى لا يقول واحد منهم : لست منافقاً . وعندما يظهر الله المنافق ويكشفه بحادثة مدوية فعلية ، ومخجلة تبين أنه منافق ، فيكون قد وُصم بالنفاق ، لأن كثيراً من الناس الذين يظلون طوال عمرهم ينافقون اعتماداً على أنهم مسلمون فى الظاهر لا يتركهم الله ، بل لابد أن يأتى الله لهم بخاطر من الخواطر ويقعوا فى فخ اكتشاف المؤمنين لهم حتى يعرفهم المؤمنون ويقيّموهم على حقيقتهم ، فسبحانه وتعالى القائل :

« ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب » .

وكلمة « يذر » تعنى « يترك » أو « يدع » . والدارسون للنحو يعرفون أن هناك فعلين هما « يذر » و« يدع » ، أهملت العرب الفعل الماضى لهما ، فهذان الفعلان

ليس لهما فعل ماضٍ . ونستخدمهما فى صيغة المضارع .

والحق سبحانه لم يكن ليدع المؤمنين على ما هم عليه من الاختلاط واندساس المنافقين بينهم وعدم معرفة المؤمنين للمنافقين ؛ لذلك يميز ويظهر الخبيث من الطيب . فلا يكتفى بإخبار النبى بأمر الخبثاء فقط ، ولكنه يكشف الخبثاء بفعل واقعى . فيقول : « وما كان الله ليطلعكم على الغيب » ؛ لأن الله لو أطلعكم على الغيب لتعرفوا المنافقين لأنكروا أنفسهم منكم وستروها عنكم ، ولذلك يجرى سبحانه الوقائع لتكشف الخبيث من الطيب ، وبعد ذلك يوصم المنافق بالنفاق بإقرار نفسه وإقرار فعله .

« وما كان الله ليطلعكم على الغيب ولكن الله يجتبى من رسله من يشاء » . إنه جلّ وعلا يختار من رسله من يشاء ليطلعهم على بعض الغيب حتى يزدادوا ثقة فى أن الله لا يتخلّى عنهم ، أى يعطى للرسول دلالات على المنافقين ، حتى يزداد الرسول ثقة فى أن الله لا يتخلّى عنه .

والله برحمته لا يكشف الغيب لكل المؤمنين ، فلو اطلع المؤمن على الغيب لفسدت أمور كثيرة فى الكون . وَهَبْ أن الله أطلع الإنسان على غيب حياته ، فعرف الإنسان ألف حادثة سارة ثم حادثة واحدة مكدرة ؛ فإن كدر الإنسان بالحادثة الواحدة المكدرة التى تقع بعد عشرين عاماً يفسد على الإنسان تنعمه بالأحداث السارة .

وإن كان الإنسان يريد أن يطلع على غيب الناس فهل يقبل أن يطلع على غيبه أحد ؟ فلماذا تريد أيها الإنسان أن تعرف غيب غيرك ؟ أيرضى أى واحد منا أن يعرف الناس غيبه ؟ لا . إذن فستر المعلومات عن الناس وجعلها غيباً هى نعمة كبرى .

ومع ذلك فالناس تُلح أن تعرف الغيب . ونرى من يجرى على الدجالين والعرافين ومن يدعون كذباً أنهم أولياء لله ، وكل ذلك من أجل أن يعرف الواحد بعضاً من الغيب . وهنا نقول : ليست مهارة العارف فى أن يقول لك ماذا سيحدث لك فى المستقبل ، لكنها فى أن يقول واحد من هؤلاء المدّعين لمعرفة الغيب : إن حادثاً مكروهاً سيقع لك ، وسأمنعه أو أدفعه بعيداً عنك . لا أحد يستطيع دفع قدر الله ،

ولذلك فلنترك المستقبل إلى أن يقع . لماذا ؟ . حتى لا يحيا الواحد منا فى الهم والحزن قبل أن يقع . إذن فقول الحق : « وما كان الله ليطلعكم على الغيب » هو سنة من الله لأن نظام الملك ينتظم بها ويحتاج إليها .

فكل إنسان له هزات مع نفسه ، وقد تأتى له فترة يضعف فيها فى شىء من الأشياء ، فإذا ما عرف الغير منطقة الضعف فى إنسان ما ، وعرف هذا الإنسان منطقة الضعف فى أخيه ، فلسوف يبدو كل الناس فى نظر بعضهم بعضا ضعافاً . ومن فضل الله أن أخفى غيب الناس عن الناس . وجعل الله إنساناً ما قوياً فيما لا نعلم ، وذلك قويًا فيما لا نعلم ، وبذلك تسير حركة الحياة بانتظامها الذى أراده الله .

« وما كان الله ليطلعكم على الغيب ولكن الله يجتبى من رسله من يشاء » والحق يجتبى من الرسل ، أى بعضاً من الرسل ـ لا كل الرسل ـ ليطلعهم على الغيب حتى يعطى لهم الأمان بأنهم موصولون بمن أرسلهم ، فهو سبحانه لم يرسلهم ليتخلّى عنهم ، لا ، إنهم موصولون به؛لذلك يطلعهم على الغيب ، وقلنا : إن الغيب أنواع : فمطلق الغيب : هو ما غاب عنك وعن غيرك . ولكنَّ هناك غيباً غائباً عنك وهو معلوم لغيرك ، وهذا ليس غيباً .

مثال ذلك إن ضاعت من أحدكم حافظة نقوده ، وسارقها غيب ، ومكانها غيب عن صاحبها ، لكن الذى سرقها عارف بمكانها ، إذن فهذا غيب على المسروق ، ولكنه ليس غيباً على السارق . إنه ليس غيباً مطلقاً ، وهذا ما يضحك به الدجالون على السذج من الناس ، فبعض من الدجالين والمشعوذين قد يتصلون بالشيطان أو الجن ؛ ويقول للمسروق حكاية ما عن الشىء الذى سُرق منه وهؤلاء المشعوذون لا يعرفون الغيب ؛ لأن الغيب المطلق هو الذى لا يعلمه أحد ، فقد استأثر به الله لنفسه .

ومثال آخر : الأشياء الابتكارية التى يكتشفها البشر فى الكون ، وكانت سراً ولكن الله كشف لهم تلك الأشياء ، وقد يتم اكتشافها على يد كفار أيضاً . فهل قال

أحدٌ: إنهم عرفوا غيباً ؟ لا ؛ لأن لمثل هذا الغيب مقدمات ، وهم بحثوا فى أسرار الله ، ووفقهم سبحانه أن يأخذوا بأسبابه ما داموا قد بذلوا جهداً ، والله يعطى الناس ـ مؤمنهم وكافرهم ـ أسبابه . وماداموا يأخذون بها فهو يعطيهم المكافأة على ذلك . ولله المثل الأعلى ، وسبحانه منزه عن كل تشبيه ، أقول لكم هذا المثل للتقريب :

المدرس الذى يعطى تمرين هندسة للتلميذ ليقوم بحله ، فهل مجىء الحل غيب ؟ لا ؛ لأن التلميذ يعرف كيف يحل التمرين الهندسى ؛ لأن فيه المعطيات التى يتدبر فيها بأسلوب معين فتعطى النتيجة . ومادام التلميذ يخرج بنتيجة لتمرين ما بعد معطيات أخذها ، فذلك ليس غيباً .

ولذلك فعلينا أن نفطن إلى أن الغيب هو ما غاب عن الكل ، وهذا ما استأثر الله بعلمه وهو الغيب المطلق ، وهو سبحانه وتعالى يطلع عليه بعضاً من خلقه من الرسل ، وهو سبحانه القائل :

﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ﴾

(سورة الجن)

وأما الأمر المخفى فى الكون ، وكان غيباً على بعض من الخلق ثم يصبح مشهداً لخلق آخرين فلا يقال إنه غيب ، وعرفنا ذلك أثناء تناولنا بالخواطر لآية الكرسى :

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ ﴾

(سورة البقرة)

إن الحق سبحانه قد نسب هنا الإحاطة للبشر ، ولكن بإذن منه ، فهو يأذن للسر أن يولد ، تماماً كما يوجد للإنسان سلالات ولها أوقات معلومة لميلادها ، كذلك أسرار الكون لها ميلاد . وكل سر فى الكون له ميلاد ، هذا الميلاد ساعة يأتى ميعاده فإنه يظهر ، ويحيط به البشر . فإن كان العباد قد بحثوا عن السر وهم فى طريق المقدمات ليصلوا إليه ووافق وصولهم ميعاد ميلاده ؛ يكونوا هم المتكشفين له . وإن لم يحن ميعاد ميلاد هذا السر فلن يتم اكتشافه . وإذا حان ميلاد السر ولم يوجد عالم معملى يأخذ بالأسباب والمقدمات فالله يخرج هذا السر كمصادفة لواحد من البشر . وحينئذ يقال : إن هذا السر قد ولد مصادفة من غير موعد ولا توقع .

وأسرار الله التى جاءت على أساسها الاكتشافات المعاصرة ، كثير منها جاء مصادفة . فالعلماء يكونون بصدد شىء ، ويعطيهم الله ميلاد سر آخر . إذن فليس كل اكتشاف ابناً لبحث العلماء فى مقدمات ما ، ولكن العلماء يشتغلون من أجل هدف ما ، فيعطيهم الله اكتشاف أسرار أخرى ؛ لأن ميلاد تلك الأسرار قد جاء والناس لم يشتغلوا بها . ويتكرم الله على خلقه ويعطيهم هذه الأسرار من غير توقع ولا مقدمات .

ويستمر سياق الآية « فآمنوا بالله ورسله وإن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم » وهو سبحانه يخاطب المؤمنين . والحق سبحانه وتعالى إذا خاطب قوماً بوصف ، ثم طلب منهم هذا الوصف فما معناه ؟ . ومثال ذلك قول الحق سبحانه :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ ﴾

(من الآية ١٣٦ سورة النساء)

إنهم مؤمنون ، والحق قد ناداهم بهذا الوصف . معنى ذلك أنه يطلب منهم الالتزام بمواصفات الإيمان على مر الأزمان ، لأن الإيمان هو يقين بموضوعات الإيمان فى ظرف زمنى ، والأزمان متعاقبة لأن الزمن ظرف غير قارٍ . و« غير قارٍ » تعنى أن الحاضر يصير ماضياً ، والحاضر كان مستقبلاً من قبل . فالماضى كان فى البداية مستقبلاً ، ثم صار حاضراً ، ثم صار ماضياً . والزمن « ظرف » ، ولكنه ظرف غير قار . . أى غير ثابت . لكن المكان ظرف ثابت قار . فكأن الله يخاطبك : إن الزمن الذى مر قبل أن أخاطبك شُغِل بإيمانك ، والزمن الذى يجىء أيضاً اشغله بالإيمان .

إذن معنى ذلك : يا أيها الذين آمنوا داوموا على إيمانكم . « وإن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم » ولنا أن نتصور عظمة عطاء الحق ، فالمنهج الإيمانى يعود خيره على من يؤديه ، ومع ذلك فالله يعطى أجراً لمن اتبع المنهج . إذن فعندما يضع الحق سبحانه وتعالى منهجاً فإنه قد فعله لصالح البشر وأيضاً يثيبهم عليه ، وهو يقول :

﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ ﴾

(سورة طه)

إن المتَّبع للمنهج يأخذ نفعه ساعة تأدية هذا المنهج . ويزيد الله فوق ذلك أنه سبحانه يعطى المتبع للمنهج أجراً ، وهذا محض الفضل ، وقلنا من قبل : إن العمر الذى يمده الله للكافرين والمنافقين ليس خيراً . إذن فعلى الناس أن يأخذوا المسائل والأزمنة بتبعات وآثار ونتائج ما يحدث فيها .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾ ﴾

لقد ظن بعض من المنافقين والكفار أن طول العمر ميزة لهم ، وها نحن أولاء بصدد قوم آخرين ظنوا أن المال الذى يجمعونه هو الخير فكلما زاد فرحوا . فيقول الحق : « ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله » . فالمال قد جاءهم من

فضل الله ، ذلك بأنهم دخلوا الدنيا بغير جيوب . ولا أحد فينا قد رأى كفناً له جيوب . ولا أحد فينا قد رأى قماط طفل وليد له جيوب . فالإنسان يدخل الدنيا بلا جيب ، ويخرج بلا جيب . وكل ما يأتى للإنسان هو من فضل الله ، فلا أحد قد ابتكر الاشياء التى يأتى منها الرزق . ويمكن أن تبتكر من رزق موجود . فتطور فى الوسائل والأسباب وللإنسان جزء من الحركة التى وهبها الله له ليضرب فى الأرض ، ولكن لا أحد يأتى بأرض من عنده ليزرع فيها ، ولا أحد يأتى ببذور من عنده لم تكن موجودة من قبل ويزرعها ، ولا أحد يأتى بماء لم يوجد من قبل ليروى به ، فالأرض من الله ، والبذور عطاء من الله ، والماء من رزق الله ، وحتى الحركة التى يتحرك بها الإنسان هى من فضل الله .

فبالله لو أراد إنسان أن يحمل الفأس ليضرب فى الأرض ضربة ، فهل يعرف الإنسان كم عضلة من العضلات تتحرك ليرفع الفأس ؟ وكم عضلة تتحرك حين ينزل الفأس ؟!!

وعندما يضرب الإنسان الفأس . فهو يضربها فى أرض الله . والذى أراد لنفسه فأساً فإنه يذهب إلى الحداد ليصنعها له ، لكن هل سأل الإنسان نفسه من أين أتى الحديد ؟ وفى هذه قال الحق :

﴿ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ ﴾

(من الآية ٢٥ سورة الحديد)

إذن فماذا تُوجد أنت أيها الإنسان ؟

أنت تأخذ المواد الخام الأولية من عند الله ، وتبذل فيها الحركة الممنوحة لك من الله ، وأنت لا توجد شيئاً من معدوم ؛ بل إنك توجد من موجود ، فكل شىء من فضل الله . وأنت أيها الإنسان مضارب فى كون الله . فعقلك الذى يفكر ، من الذى خلقه ؟ إنه الله . وجوارحك التى تنفعل للعقل من الذى خلقها ؟ إنه الله .

وجوارحك تنفعل فى منفعل هو الأرض ، بآلة هى الفأس ، ثم ترويها بماء هو

نازل من السماء . فما الذى هو لك أيها الإنسان ؟ إن عليك أن نعرف أنه ليس لك شيء فى كل ذلك ، إنما أنت مضارب لله . فلتعطه حق المضاربة .

والحق سبحانه لا يطلب إلا قدراً بسيطاً من نتاج وثمرة الأرض . . إن كانت تروى بماء السماء فعليك عشر نتاجها . وإن كانت الأرض تروى بآلة الطنبور أو الساقية فعليك نصف العشر .

والذى يزرع أرضا فإنه يحرثها فى يوم ، ويرويها كل أسبوعين .

أما الذى يتاجر فى صفقات تجارية فهى تحتاج إلى عمل فى كل لحظة ، ولذلك فإن الحق قدّر الزكاة عليه بمقدار اثنين ونصف بالمائة . إذن فكلما زادت حركة الإنسان قلل الله قدر الزكاة . وهذه العملية على عكس البشر . فكلما زادت حركته . فإنهم يأخذون منه أكثر !!

والله سبحانه يريد أن توجد الحركة فى الكون ؛ لأنه إن وجدت الحركة فى الكون انتفع الناس وإن لم يقصد التحرك . وبعد ذلك فأين يذهب الذى يأخذه الله منك ؟ . إنه يعطيه لأخ لك ولغيره . فمادام سبحانه يعطى أخاً لك وزميلاً لك من ثمرة ونتيجة حركتك ، ففى هذا اطمئنان وأمان لك ، لأن الغير سيعطيك لو صرت عاجزاً غير قادر على الكسب . وفى هذا طمأنينة لأغيار الله فيك . فإن جاءت لك الأغيار فستجد أناساً يساعدونك ، وبذلك يتكاتف المجتمع ، وهذا هو التأمين الاجتماعى فى أرقى معانيه . أليس التأمين أن تعطى وأنت واجد وأن تأخذ وأنت فاقد ؟ . إذن فهذا كله من فضل الله .

« ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شر لهم » إن الذين يبخلون بفضل الله يظنون أن البخل خير لمجرد أنه يكدس عندهم الأموال ، وليس ذلك صحيحاً ؛ لأن الحق يقول : « سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة » أى أن ما بخلوا به يصنعه الله طوقاً فى رقبة البخيل ، وساعة يرى الناس الطوق فى رقبة البخيل يقولون : هذا منع حق الله فى ماله .

والرسول صلى الله عليه وسلم يصور هذه المسألة تصويراً دقيقاً حين يبين لنا أن من يُطلب منه حق الله ولم يؤده ، يأتى المال الذى منعه وضن وبخل به يتمثل لصاحبه يوم القيامة « شجاعاً أقرع » وهو ثعبان ضخم ، ويطوق رقبته . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من آتاه الله مالاً فلم يؤد زكاته مُثِّلَ له شجاعا أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة يأخذ بلهزمتيه ـ يعنى شدقيه ـ يقول : « أنا مالُك أنا كنزك » ثم تلا قوله تعالى : « ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله » إلى آخر الآية[1] .

إذن فالذى يدخر بخلاً على الله فهو يزيد من الطوق الذى يلتف حول رقبته يوم القيامة .

« ولله ميراث السماوات والأرض والله بما تعملون خبير » نعم فلله ميراث السماوات والأرض ، ثم يضعها فيمن يشاء ، فكل ما فى الكون نسبته إلى الله ، ويوزعه الله كيفما شاء . إن الإيمان يدعونا ألاّ ننتظر بالصدقة إلى حالة بلوغ الروح الحلقوم ، فقد روى عن أبى هريرة أنه قال : جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله أى الصدقة أعظم أجراً ؟ قال : « أن تصدّق وأنت صَحيح شحيح تخشى الفقر وتأمل الغنى ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت:لفلان كذا ولفلان كذا وقد كان لفلان »[2] لأنه عند وصول الروح إلى الحلقوم لا يكون له مال .

قول الحق : « والله بما تعملون خبير » قضية تجعل القلب يرتجف خوفاً ورعباً ، فقد يدلس الإنسان على البشر ، فتجد من يتهرب من الضرائب ويصنع تزويراً دفترين للضرائب ، واحداً للكسب الصحيح وآخر للخسارة الخاطئة ويكون هذا المتهرب من الضرائب يملك المال ثم ينكر ذلك ، هذا الإنسان عليه أن يعرف أن الله خبير بكل ما يعمل . وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ

(١) تفرد به البخارى دون مسلم من هذا الوجه ، وقد رواه ابن حبان فى صحيحه .

(٢) أخرجه البخارى فى كتاب الزكاة ـ باب أى الصدقة أفضل .

وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾

روى - فى سبب نزول هذه الآية الكريمة : قال سعيد بن جُبير عن ابن عباس - رضى الله عنهما - لما نزل قوله تعالى : « من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة » قالت اليهود : يا محمد افتقر ربك ، فسأل عباده القرض ؟ فأنزل الله « لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء »(١) .

والذين عايشوا الإسلام فى المدينة كانوا من اليهود . واليهود كما نعرف كانوا يَدِلون ويفخرون على العالم بأنهم أهل كتاب وعلم ومعرفة ، ويدلون على البيئة التى عاشوا فيها أنهم ملوك الاقتصاد كما يقولون الآن عن أنفسهم . كل من يريد شيئاً يأخذه من اليهود . وكانوا يبنون الحصون ويأتون بالأسلحة لتدل على القوة . وجاء الإسلام وأخذ منهم هذه السيادات كلها ، ثم تمتعوا بمزايا الإسلام من محافظة على أموالهم وأمنهم وحياتهم .

أكان الإسلام يتركهم هكذا يتمتعون بما يتمتع به المسلمون أمناً واطمئناناً ، وسلامة أبدان وسلامة أموال ثم لا يأخذ منهم شيئاً ؟ لقد أخذ منهم الإسلام الجزية . فلم يكن من المقبول أن يدفع المسلم الزكاة ويجلس اليهود فى المجتمع الإيمانى دون أن يدفعوا تكلفة حمايتهم . ولذلك أرسل الرسول صلى الله عليه وسلم سيدنا أبا بكر إلى اليهود فى المكان الذى يتدارسون فيه . فعن ابن عباس قال : دخل أبو بكر الصديق بيت المدراس فوجد من يهود ناساً كثيرة قد اجتمعوا على رجل منهم يقال له فنحاص ، وكان من علمائهم وأحبارهم ومعه حبر يقال : أشيع ، فقال له أبو بكر : ويحك يا فنحاص ، اتق الله وأسلم ، فوالله إنك لتعلم أن محمداً رسول الله من عند الله قد جاء بالحق من عنده ، تجدونه مكتوبا عندكم فى التوراة والإنجيل ، فقال فنحاص : والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله من حاجة من فقر ، إنه

(١) رواه ابن مردويه وابن أبى حاتم .

إلينا لفقير ، ما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا وإنا عنه لأغنياء ، ولو كان عنّا غنيًّا ما استقرض منا كما يزعم صاحبكم ، ينهاكم عن الربا ويعطينا ، ولو كان غنيا ما أعطانا الربا . فغضب أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ فضرب وجه فنحاص ضربا شديداً ، وقال : والذى نفسى بيده لولا الذى بيننا وبينك من العهد لضربت عنقك يا عدوّ الله فأكذبونا ما استطعتم إن كنتم صادقين[١] .

فذهب فنحاص إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم فقال : يا محمد أبصر ما صنع بى صاحبك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما حملك على ما صنعت يا أبا بكر » ؟ فقال يا رسول الله : إن عدوّ الله قال قولا عظيما ، يزعم أن الله فقير وأنهم عنه أغنياء فلما قال ذلك غضبت لله مما قال فضربت وجَهه ، فجحد فنحاص ذلك وقال : ما قلت ذلك . فأنزل الله فيما قال فنحاص « لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء »[٢] .

هؤلاء لم يفطنوا إلى سر التعبير الجميل فى قوله سبحانه :

﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾

(من الآية ١١ سورة الحديد)

فإن هذا القول هو احترام من الحق ـ سبحانه ـ لحركة الإنسان فى التملك . لماذا احترم الله حق الإنسان فى التملك ؟ هو سبحانه يريد أن يغرى المتحرك بزيادة الحركة ، ويحمل غير المتحرك على أن يتحرك . فإن طلب سبحانه شيئاً من هذا المال فهو لا يقول للإنسان : أعطنى ما أعطيت لك . بل كأنه سبحانه يقول : إننى سأحترم عرقك ، وسأحترم حركتك ، وسأحترم فكرك ، وسأحترم جوارحك وطاقاتك وكل ما فيك ، فإن أخذتُ منك شيئاً فلن أقول لك أعطنى ما أعطيت لك ، لكن أقول لك : أقرضها لى ؛ وإن أقرضتها فسوف تقرضها لا لأنتفع بها ، ولكنها لأخيك . وقد اقترض من القادر فيما بعد وذلك لك أنت إذا أصابتك الحاجة . لماذا ؟ لأننى أنا الله الذى استدعيت خلقى إلى الوجود . ومادمت أنا الله الذى استدعيت الخلق إلى

(١) أكذبونا : بيّنوا وأظهروا كذبنا .

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير .

الوجود فأرزاقهم مطلوبة منى .

إن الواحد من البشر عندما يدعو اثنين من أصدقائه فهو يصنع طعاماً يكفى خمسة أو عشرة أشخاص . ومادام الله هو الذى استدعى الخلق إلى الوجود فهو الذى يكفل لهم الرزق . وعندما يكفل لهم الرزق فلا بد أن يتحركوا . وعندما يتحركون فهو سبحانه يضمن آثار الحركة ، وذلك حتى ينال كلٌ ما يرضيه ، أو على الأقل ما يكفيه من الضروريات .

ولذلك عندما جاءت آثار الحركة من المال وتدخل البشر فيها تأميماً وغير ذلك من الإجراءات قلّت الحركة . لكن الله سبحانه وتعالى يعلم حرص الإنسان على منفعة نفسه فيغريه بذلك حتى يتحرك وسينتفع المجتمع بحركته ، سواء قصد الإنسان أو لم يقصد . إذن فحين يقترض الحق سبحانه وتعالى من بعض خلقه لبعض خلقه ، فهو سبحانه لا يتراجع فيما وهب . بل يقول جل وعلا :

﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾

(سورة الحديد)

وأضرب هذا المثل ـ ولله المثل الأعلى ـ نحن البشر قد نضطر إلى هذا الموقف ؛ فالواحد منا عندما يعطى أبناءه مصروف اليد ، فكل ابن يدخر ما يبقى منه ، وبعد ذلك يأتى ظرف لبعض الأبناء يتطلب مالاً ليس فى مُكْنة الوالد ساعة يأتى الحدث . فيقول الوالد لأبنائه : أقرضونى ما فى « حصّالاتكم » ، وسأردها لكم مضاعفة ، هو أخذها لأخيهم ، لكن لأنه الذى وهب أولاً فلم يرجع فى الهبة ، لكنه طلبها قرضاً . وعندما يأتى أول الشهر فهو يرد القرض مضاعفاً ، فإن كان ذلك ما يحدث فى مجال البشر فما بالنا بما يحدث من الخالق الوهاب لعباده ؟ . هو سبحانه يقول : « من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسناً » .

لكن اليهودى لم يأخذ المسألة بهذا الفهم ، لكنه أخذها بغباء المادة فقال : إن الله فقير ونحن أغنياء . لذلك قال الحق سبحانه : « لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء سنكتب ما قالوا » .

ولماذا يكتب الله ذلك وهو العالم بكل شيء ؟ . جاء هذا القول ليدل على التوثيق أيضاً ، فعندما يأتى هذا الرجل ليقرأ كتابه يوم القيامة يجدها مكتوبة ؛ فالكتابة لتوثيق ما يمكن أن يُنكر ـ بالبناء للمجهول ـ فإذا كان العلم من الله فقط فالعبد قد يقول :

ـ إنك يارب الذى تعاقب . فلك أن تقول ما تقول . فإذا ما كان مكتوباً عليهم ليقرأوه . فهذا توثيق لا يمكن إنكاره .

ولم يفهم ذلك اليهودى أن القرض لله هو تلطف من الحق سبحانه وتعالى واستدرار لحنان الإنسان على الإنسان . فقد شاء الحق أن يحترم أثر مجهودك وعرقك أيها الإنسان ، فإن وصلت إلى شيء من المال فهو مالك . ولم يقل الله لك : أعط أخاك ، فسبحانه وتعالى تلطفا مع خلقه يقول : أقرضنى ؛ ليضمن الإنسان أن ما أعطاه إنما هو عند ملىء . لكن أدب بنى إسرائيل مع الله مفقود ، فقد قالوا من قبل :

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾

(من الآية ٦٤ سورة المائدة)

وسبب ذلك أنه أصابتهم سنة وجدب . وذلك بسبب تكذيبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال ابن عباس : « إن الله وسع على اليهود فى الدنيا حتى كانوا أكثر الناس مالا ، فلما عصوا الله وكفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم وكذبوه ضيّق الله عليهم فى زمنه صلى الله عليه وسلم ، فقال فنحاص بن عازوراء ومن معه من يهود : يد الله مغلولة فأنزل الله هذه الآية . إنهم قالوا : السماء بخلت علينا ويد الله مغلولة ، فلم تعطنا رزقاً . هكذا كان اجتراؤهم فى الحديث عن الله « يد الله مغلولة » ونعرف أن « الغل » هو ربط اليدين بسلسلة .

وهاهم أولاء يجترئون مرة أخرى فيقولون : « إن الله فقير » . ويورد الحق سبحانه كل ذلك تسلية لسيدنا محمد حتى إذا ما اجترأوا عليه بكلمة أو على أصحابه باستهزاء ، فسبحانه يوضح لرسوله : أنهم لم يصنعوا ذلك معك ولا مع أتباعك ،

إن هذا هو موقفهم منى أنا . فإذا كان موقفهم وسوء أدبهم وصل بهم إلى أن يجترئوا على الذات المقدسة العليّة ، ويقولون : « إنّ الله فقير ونحن أغنياء » ويقولون : « يد الله مغلولة » . أفتحزن وتأسى على أن يقولوا لك أو لأتباعك أى شىء يسيء إليكم ؟

إنها نعمت المواساة من الله لرسوله ونعمت التسلية . ويضيف الحق : « سنكتب ما قالوا » . لماذا يكتب الله ما قالوا مع أن علمه أزلى لا يُنسى ؟

﴿ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴾

(من الآية ٥٢ سورة طه)

لقد جاءت كلمة « سنكتب » حتى لا يؤاخذهم سبحانه وتعالى يوم القيامة بما يقول هو إنهم فعلوه ، ولكن بما كتب عليهم وليقرأوه بأنفسهم ، وليكون حجة عليهم ، كأن الكتابة ليست كما نظن فقط ، ولكنها تسجيل للصوت وللأنفاس ، ويأتى يوم القيامة ليجد كل إنسان ما فعله مسطوراً :

﴿ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

وهذا القول يدل على أنه ساعة يرى الإنسان ما كتب فى الكتاب سيعرف أنه منه ، وإذا كنا نحن الآن نسجل على خصومنا أنفاسهم وكلماتهم أتستبعد على من علمنا ذلك أن يسجل الأنفاس والأصوات والحركات بحيث إذا قرأها الإنسان ورآها لا يستطيع أن يكابر فيها أو ينكرها ؟ « سنكتب ما قالوا » وهم قالوا : « إن الله فقير ونحن أغنياء » وهذا معصية فى القمة ، وتبجح على الذات العلية ، ولم يكتفوا بذلك بل قتلوا الأنبياء الذين أرسلهم الله لهدايتهم ؛ لذلك يقول الحق : « سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق » .

وعندما يأتى هذا النبأ لرسول الله صلى الله عليه وسلم فهو تسلية له من الحق سبحانه . لقد قالوا فى ربك يا محمد ما قالوا ، وقتلوا الأنبياء إخوانك ، فإذا صنعوا معك ما صنعوا فلا تحزن فسوف يُجَازَوْن على ما كتبناه عليهم بشهادة أنفسهم ، ونقول : ذوقوا عذاب الحريق . والحريق يصنع إيلاماً إحساسياً فى النفس .

والإحساس يختلف من حاسة إلى أخرى ، فمرة يكون الإحساس بالبصر ، ومرة بالأذن ، ومرة بالشم أو باللمس أو بالذوق .

والذوق هو سيد الأحاسيس ، فهو لا يضيع من أحد أبداً ، فقد نجد إنساناً أعمى ، وآخر أصم ، أو شخصاً ثالثاً أصيب بالشلل فلا تستطيع يده أن تلمس ، وقد يصاب واحد بزكام مستمر فلا يصبح قادراً على الشم ، أما الذوق فهو حاسة لا تختفى من أى إنسان ، ذلك أن الذوق أمر من داخل الذات ؛ لذلك فهو أبلغ فى الإيلام . ونجد الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾

(سورة النحل)

انظر إلى التعبير القرآنى « فأذاقها الله لباس الجوع والخوف » . جاء التعبير بالإذاقة ، وجاء بشىء لا يذاق وهو اللباس . وهل اللباس يذاق ؟ لا ، لكنه سبحانه يريد أن ينبه الإنسان إلى أن كل الحواس التى فيه تحس ، حتى تلك الحاسة المختفية داخل النفس ، إنّ ذلك يَشمل كل جزء فى الإنسان .

فالإذاقة تحيط بالإنسان فى هذا التصوير البيانى القرآنى الكريم : « فأذاقها الله لباس الجوع والخوف » . إذن فهى شدة وقع الإيلام ؛ واستيعاب العذاب المؤلم لكل أجزاء الجسم حتى صار الذوق فى كل مكان . « ذوقوا عذاب الحريق » ، والحريق هو النار القوية التى تحرق ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ ﴾

« ذلك » إشارة إلى عذاب الحريق . والحق سبحانه لم يظلمهم ، لكنهم هم الذين ظلموا أنفسهم . « بما قدمت أيديكم » . فهل معنى ذلك أن كل المعاصى من تقديم اليد ؟ إن هناك معصية للعين ، ومعصية للسان ، ومعصية للرجل ، ومعصية للقلب ، ولا حصر للمعاصى . فلماذا إذن قال الحق : « بما قدمت أيديكم » ؟

قال الحق ذلك لأن الأعمال الظاهرة تُمارس عادة باليد ؛ فاليد هى الجارحة التى نفعل بها أكثر أمورنا ، وعلى ذلك يكون قول الحق : « بما قدمت أيديكم » مقصود به : بما قدمتم بأى جارحة من الجوارح .

وبعد ذلك يخبرنا سبحانه : « وأن الله ليس بظلام للعبيد » لقد أذاقهم عذاب الحريق نتيجة ما كتبه عليهم ؛ من قول وفعل . والقول هو الافتراء باللسان حين قالوا : « إن الله فقير ونحن أغنياء » . والفعل هو قتلهم الأنبياء . فهم يستحقون ذلك العذاب .

والقضية العامة فى الإله وعدالة الإله أنه ليس بظلام للعبيد .

وهنا وقفة لخصوم الإسلام من المستشرقين ، هم يقولون : الله يقول فى قرآنهم « وأنَّ الله ليس بظلام للعبيد » ، وكلمة « ظلام » هى مبالغة فى كلمة « ظالم » ، ففيه « ظالم » وفيه « ظلّام » ، و« الظَّلّام » هو الذى يظلم ظلماً قوياً ومتكرراً ؛ فـ« ظلّام » هى صيغة مبالغة فى « ظالم » .

وحتى نرد عليهم لا بد لنا أن نعرف أن صيغ المبالغة كثيرة ، فاللغويون يعرفون أنها : فعّال ، فعيل ، مفعال ، فعول ، فَعِل ، فظلّام بمثلها مثل قولنا:« أكّال » ، ومثل قولنا:« قَتّال » بدلاً من أن نقول : « قاتل » فالقاتل يكون قد ارتكب جريمة القتل مرة واحدة ، لكن الـ« قتّال » هو من فعل الجريمة مرات كثيرة وصار القتل حرفته . ومثل ذلك « ناهب » ، ويقال لمن صار النهب حرفته:« نَهّاب » أى أنه إن نهب ينهب كثيراً ، ويعدد النهب فى الناس .

وهذه تسمى صيغة المبالغة . وصيغة المبالغة إن وردت فى الإثبات أى فى الأمر

الموجب فهى تثبت الأقل ، فعندما يقال : « فلان ظلّام » فالثابت أنه ظالم أيضاً ، لأننا ما دمنا قد أثبتنا المبالغة فإننا نثبت الأقل . ومثل ذلك نقول : « فلان علّام » أو « فلان علّامة » فمعنى ذلك أن فلاناً هذا عالم . ولكن إذا قلنا : « فلان عالم » فلا يثبت ذلك أنه « علّامة » . فصيغة المبالغة ليس معناها « اسم فاعل » فحسب ، إنها أيضاً اسم فاعل مبالغ فيه ، لأن الحدث يأتى منه قوياً ، أو لأن الحدث متكرر منه ومتعدد . فإذا ما أثبتنا صفة المبالغة فمن باب أولى تثبت صفة غير المبالغة . فإذا ما قال واحد : « فلان أكّال » فإنه يثبت لنا أنه آكل ، هذا فى الإثبات .

والأمر يختلف فى النفى . إننا إذا نفينا صفة المبالغة ، فلا يستلزم نفى الصفة الأصلية ، فإن قلت : « فلان ليس علّامة » فقد يكون عالماً . وهكذا نفهم لأن الإثبات يختلف عن النفى . فإذا أثبتّ صفة المبالغة تثبت الصفة التى ليس فيها مبالغة من باب أولى . أما إذا نفيت صفة المبالغة فلا يستلزم ذلك نفى الصفة الأقل .

والتذييل للآية التى نحن بصددها الآن هو « وأنَّ الله ليس بظلّام للعبيد » .

يفهم المستشرقون من هذا القول أنه مجرد نفى للمبالغة فى الظلم ، لكنها لم تنف عنه أنه ظالم ولم يفهم المستشرقون لماذا تكون المبالغة هنا : إن الحق قد قال : إنه ليس بظلّام للعبيد ، ولم يقل إنه ليس بظلام للعبد . ومعنى ذلك أنه ليس بظلام للعبيد من أول آدم إلى أن تقوم الساعة ، فلو ظلم كل هؤلاء ـ والعياذ بالله ـ لقال إنه ظلام ، حتى ولو ظلم كل واحد أيسر ظلم . لأن الظلم تكرر وذلك بتكرر من ظُلِم وهم العبيد،فإن أريد تكثير الحديث فليفطن الغبى منهم إلى أن الله قال : « وأن الله ليس بظلام للعبيد » ولم يقل إنه ليس بظلام للعبد .

وإذا كان الظالم لا بد أن يكون أقوى من المظلوم ، إذن فكل ظلم يتم تكييفه بقوة الظالم . فلو كان الله قد أباح لنفسه أن يظلم فلن يكون ظالماً ؛ لأن عظم قوته لن يجعله ظالماً بل ظَلّاما .

فإن أردنا الحدث فيكون ظلاماً ، وإن أردنا تكراراً للحدث فيكون ظلاماً . وحين

يحاول بعض المستشرقين أن يستدركوا على قول الحق : « وأن الله ليس بظلام للعبيد » فهذا الاستدراك يدل على عجز فى فهم مرامى الألفاظ فى اللغة أو أنّ هؤلاء يعلمون مرامى الألفاظ ويحاولون غش الناس الذين لا يملكون رصيداً لغوياً يفهمون به مرامى الألفاظ . ولكن الله سبحانه وتعالى يُسخر لكتابه من ينبه إلى إظهار إعجازه فى آياته .

وبعد أن انتهى الحق من غزوة أُحد ، فهو سبحانه يريد أن يقرر مبادىء يبين فيها معسكرات العداء للإسلام : معسكر أهل الكتاب ، ومعسكر مشركى قريش فى مكة ، ومعسكر المشركين الذين حول المدينة وكانوا يغيرون على المدينة .

فبعد غزوة أُحد التى صفّت ، وربّت ، وامتحنت وابتلت ، وعرّفت الناس قضايا الدين ، أراد الحق بعدها أن يضع المبادىء .

فأوضح القرآن : أن هؤلاء أعداؤكم ؛ تذكروهم جيداً ، قالوا فى ربكم كذا ، ويقولون فى رسولكم كذا ، وقتلوا أنبياءكم .

ومن بعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيۡنَآ أَلَّا نُؤۡمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأۡتِيَنَا بِقُرۡبَانٖ تَأۡكُلُهُ ٱلنَّارُۗ قُلۡ قَدۡ جَآءَكُمۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِي بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِي قُلۡتُمۡ فَلِمَ قَتَلۡتُمُوهُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٨٣ ﴾

هم يدّعون ذلك ويقولون : ربنا قال لنا هذا فى التوراة ؛ إياكم أن تؤمنوا برسول

يأتيكم ، حتى يأتيكم بمعجزة مُحسة ، هذه المعجزة الـمُحسّة هى أن يقدم الرسول قرباناً فتنزل نار من السماء تأكله .

هذا كان صحيحاً ، وكلنا نسمع قصة قابيل وهابيل :

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾

(سورة المائدة)

ونريد أن نقبل على القرآن ونتدبر : لماذا جاء هذا اللفظ : « فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر » ؟ إن القبول من الله ، وهو مسألة سرية عنده ، فكيف نعرف نحن أن الله تقبل أو لم يتقبل ؟ لا بد أنه الله قد جعل للقبول علامة حسية . ونحن نعرف أن الإنسان قد يعمل عملاً فيقبله الله ، ونجد إنساناً آخر قد يعمل عملاً ولا يقبله الله والعياذ بالله ، فمن الذى أعلمنا أن الله قد قبل عمل إنسان وقربانه ، ولم يقبل عمل الآخر وقربانه ؟ .

وبما أن القبول سر من أسرار الله إذن فلن نعرف علامة القبول إلا إذا كانت شيئاً مُحساً ، بدليل قوله : « فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر » . وقال الذى لم يتقبل الله قربانه : « لأقتلنك » كأن الذى قبل الله قربانه قد عرف ، والذى لم يتقبل الله قربانه قد عرف أيضاً ، إذن فلا بد أن هناك أمراً حسياً قد حدث .

وقلنا : إن الله كان يخاطب خلقه على قدر رشد عقولهم حساً ومعنى ؛ ولذلك كانت معجزاته سبحانه وتعالى للأنبياء السابقين لرسول الله هى من الأمور الـمُحسة . فالمعجزة التى آتاها الله لإبراهيم كانت نارا لا تحرق ، وعصا سيدنا موسى تنقلب حية ، وسيدنا عيسى عليه السلام يبرىء الأكمه والأبرص ويُحيى الموتى بإذن الله . والمعجزة الحسية لها ميزة أنها تقنع الحواس ، ولكنها تنتهى بعد أن تقع لمرة واحدة . لكن المعجزة العقلية التى تناسب رشد الإنسانية ، هى المعجزة الباقية ،

وحتى تظل معجزة باقية فلا يمكن أن تكون حسية .

إذن فعندما تأتى معجزة خالدة لرسول هو خاتم الرسل ، والذى سوف تقوم القيامة على المنهج الذى جاء به ، هذه المعجزة لا بد أن تكون ذات أمد ممتدّ ، والامتداد يناقض الحسّية ؛ لأن الحسّية تظل محصورة فيمن رآها ، والذى لم يرها لا يقولها ولا يؤمن بها إلا إذا كان على ثقة عظيمة بمن أخبره بها . وابنا آدم ، قابيل وهابيل قرّب كل منهما قربانا .

و« قُربان » مثلها فى اللغة مثل « غفران » و« عُدوان » والقُربان هو شىء أو عمل يتقرب به العبد من الله . وقبول هذا العمل من البر هو سرّ من أسرار الله . فما الذى أدرى هؤلاء أن قربان هابيل قد تقبّله الله ولم يتقبّل الله قربان قابيل ؟ لا بد أن تكون المسألة حسّية . ولا بد أن قابيل وهابيل قد اختلفا ، ولكن القرآن لم يقل لنا على ماذا اختلفا ، إنها دعوى أن واحداً منهما مُقرّب إلى الله أكثر ، ولكن بأى شكل ؟ لم يظهر القرآن لنا ذلك ، ولو كانت المسألة مهمة لأظهرها الله لنا فى القرآن الكريم ، فلا تقل كان الخلاف على زواج أو غير ذلك . فالذى ظهر لنا من القرآن أن خلافاً قد وقع بينهما أو أنهما قد حكما السماء . ومبدأ تحكيم السماء لا يستطيع أحد أن ينقضه . وكان لكل واحد منهم شُبهة . وعندما قامت الشبهة التى لقابيل ضد الشبهة التى لهابيل ، فلا إقناع من صاحب شبهة لصاحب شبهة ، ولذلك ذهبا إلى التحكيم .

ونحن فى عصرنا الحديث عندما نختلف على شىء فإننا نقول : نجرى قرعة . وذلك حتى لا يرضخ إنسان لهوى إنسان آخر ، بل يرضخ الاثنان للقدر ، فيكتب كل منهما ورقة ثم يتركان ثالثا يجذب إحدى الورقتين . أما هابيل وقابيل فيذكر القرآن الكريم : « واتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق إذا قربا قرباناً فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر » .

إذن فكل واحد منهما كانت له شبهة ، ولا أحد منهما بقادر على إقناع الثانى ؛ لذلك قال قابيل بعد أن قبل الله قربان هابيل : « لأقتلنك » فماذا قال هابيل ؟ . قال : « إنما يتقبل الله من المتقين » .

إذن فالذى يتقبل الله منه القربان هو الذى سيُقْتل . والذى يملأه الغيظ هو من لم يتقبل الله قربانه ، وهو الذى سوف يَقْتُل . فماذا قال صاحب القربان المقبول :

﴿ لَئِنْ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾

(سورة المائدة)

إذن فهذا أهل لأن يتقبّل الله قربانه ، لأنه متيقظ الضمير بمنهج السماء ، وهذه حيثية لتقبل القربان .

وحتى لا نظن أن الآخر « قابيل » كله شر لمجرد أن الشهوة سيطرت عليه ، لكن الحق يظهر لنا أن فيه بعض الخير ، ودليل ذلك قول الحق :

﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾

(سورة المائدة)

وهذا القول يدل على أنه تردد ، فلا يقال : « طوّعت الماء » ، ولكن يقال « طوّعت الحديد » ، فكأن الإيمان كان يعارض النفس ، إلا أن النفس قد غلبت وطوّعت له قتل أخيه . وعندما قتل قابيل أخاه وهدأت شرّة الغضب وسُعار الانتقام ، رأى أخاه مُلقى فى العراء :

﴿ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَىٰ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾

(سورة المائدة)

وعلى هذا النسق قال اليهود : إن الله أوصانا ألا نؤمن برسول إلا بعد أن يأتى بمعجزة من الـمُحسّات . لماذا قالوا ذلك ؟. قالوا ذلك لأن معجزة رسول الله الكبرى وهى القرآن الكريم لم تكن من ناحية المحسّات وانتهى عهد الإعجاز بالمحسّات فقط،فرسولنا له معجزات حسية كثيرة ، ونظرا لأن هذه ينتهى إعجازها بانقضائها فكان القرآن الكريم هو المعجزة الخالدة وهو الذى يناسب الرسالة

الخاتمة ، فهم طلبوا أن تكون المعجزة بالمحسّات حتى يصنعوا لأنفسهم شبه عذر فى أنهم لم يؤمنوا ، فقالوا ما أورده القرآن :

« الذين قالوا إن الله عهد إلينا أن لا نؤمن لرسول حتى يأتينا » . . إلخ.

وعلمنا الحق فى هذه الآية أن القربان تأكله النار ، ومن هذا نستنبط كيف تقبل الله قربان هابيل ولم يتقبل قربان قابيل ، لكى نفهم أن القرآن لا يوجد به أمر مكرر . والحق سبحانه يرينا ردوده الإلهية المقنعة الممتعة :

« قل قد جاءكم رسل من قبلى بالبينات وبالذى قلتم . . » إلخ الآية .

لقد جاءكم رسل قبل رسول الله بالقربان وأكلته النار ومع ذلك كفرتم . فلو كان كلامكم أيها اليهود صحيحاً ، لكنتم آمنتم بالرسل الذين جاءوكم بالقربان الذى أكلته النار . وهكذا يكشف لنا الحق أنهم يكذبون على أنفسهم ويكذبون على رسول الله ، وأنها مجرد « مماحكات » ولجاج وتمادٍ فى المنازعة والخصومة .

والحق سبحانه يأمر رسوله أن يسأل : « فلم قتلتموهم إن كنتم صادقين » ؟

هو سبحانه يريد أن يضع لنا قضية توضح أن عهد المعجزات الحسّية وحدها قد انتهى ، ورُشد الإنسانية وبلوغ العقل مرتبة الكمال قد بدأ ؛ لذلك أتى سبحانه بآية عقلية لتظلّ مع المنهج إلى أن تقوم الساعة . ولو كانت الآية حسّية لاقتصرت على المعاصر الذى شهدها وتركت من يأتى بعده بغير معجزة ولا برهان . أما مجىء المعجزة عقلية فيستطيع أى واحد مؤمن فى عصرنا أن يقول : سيدنا محمد رسول الله وتلك معجزته . ولكن لو كانت المعجزة حسّية وكانت قرباناً تأكله النار ، فما الذى يصير إليه المؤمن ويستند إليه من بعد ذلك العصر ؟

إن الحق يريد أن يعلمنا أن الذى يأتى بالآيات هو سبحانه ، وسبحانه لا يأتى بالآيات على وفق أمزجة البشر ، ولكنه يأتى بالآيات التى تثبت الدليل ؛ لذلك فليس للبشر أن يقترحوا الآية . هو سبحانه الذى يأتى بالآية ، وفيها الدليل . لماذا ؟

لأن البعض قد قال للرسول :

﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

لقد كانت كل هذه آيات حسّية طلبوها ، والله سبحانه وتعالى يرد على ذلك حين قال لرسوله : إن الذى منعه من إرسال مثل هذه الآيات هو تكذيب الأولين بها :

﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ﴾

(من الآية ٥٩ سورة الإسراء)

فحتى هؤلاء الذين قالوا : لن نؤمن حتى تأتى بقربان تأكله النار قد جاءهم من قبل من يحمل معجزة القربان الذى تأكله النار ، ومع ذلك كذبوا ، إذن فالمسألة مماحكة ولجاج فى الخصومة . ويُسلّى الله رسوله صلى الله عليه وسلم ، وتسلية الله لرسوله هنا تسلية بالنظير والمثل فى الرسل . كأن الحق يوضح : إن كانوا قد كذبوك فلا تحزن ؛ فقد كذبوا من قبلك رسلاً كثيرين ، وأنت لست بِدَعاً من الرسل .

﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُو بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾ ﴾

ويتسامى الحق سبحانه وتعالى بروح سيدنا رسول الله إلى مرتبة العلو الذى لا يرقى إليه بشر سواه ، فيقول :

﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ ﴾

(من الآية ٣٣ سورة الأنعام)

فالمسألة ليست مسألتك أنت إنهم يعرفون أنك يا محمد صادق لا تكذب أبداً « ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون » . أى هذا الأمر ليس خاصا بك بل هو راجع إلىّ فلا أحد يقول عنك إنك كذّاب هم يكذبوننى ، الظالمون يجحدون وينكرون آياتى فالحق سبحانه يخاطب رسوله صلى الله عليه وسلم هنا للتسلية ويعطيه الأسوة التى تجعله غير حزين مما يفعله اليهود والمكذبون به فيقول :

﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾ ﴾

(سورة ال عمران)

ونعرف أن الشرط سبب فى وجود جوابه . فإذا كان الجواب لم يأت فالشرط هو الذى يجعله يأتى ، وإذا كان الجواب قد حصل قبل الشرط فما الحال ؟ . الحق يوضح : إن كذبوك يا محمد فقد كذبوا رسلاً من قبلك . أى أن « جواب الشرط » قد حصل هنا قبل الشرط وهذه عندما يتلقفها واحد من السطحيين أدعياء الإسلام ، أو من المستشرقين الذين لا يفهمون مرامى اللغة فمن الممكن أن يقول :

إن الجواب فى هذه الآية قد حصل قبل الشرط . وهنا نرد عليه قائلين : أقوله تعالى : « فقد كذب رسل من قبلك . . » هو جواب الشرط .. أم هو دليل الجواب ؟ لقد جاء الحق بهذه الآية ليقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم :

فإن كذبوك فلا تحزن ، فقد سبقك أن كَذّب قوم رسلَهم . إنها علة لجواب الشرط ، كأنه يقول :

فإن كذبوك فلا تحزن . إذن فمعنى ذلك أن المذكور ليس هو الجواب ، إنما هو

الحيثية للجواب « فإن كذبوك فقد كذب رسل من قبلك جاءوا بالبينات » . . إلخ .

وعندما نقول : « جاءنى فلان بكذا » فقد يكون هو الذى أحضره ، وقد يكون هو مجرد مصاحب لمن جاء به .

ولنضرب هذا المثل للإيضاح ـ ولله المثل الأعلى ـ فلنفترض أن موظفاً أرسله رئيسه بمظروف إلى إنسان آخر ، فالموظف هو المصاحب للمظروف .

إذن فالبينات جاءت من الله ، لكن هؤلاء الرسل جاءوا مصاحبين ومؤيِّدين بالبينات كى تكون حُجة لهم على صدق بلاغهم عن الله ، « فإن كذبوك فقد كذب رسل من قبلك جاءوا بالبينات » . أى جاءوا بالآيات الواضحة الدلالة على المراد . والآيات قد تكون لفتاً للآيات الكونية ، وقد تكون المعجزات .

ونعلم أن كل رسول من الرسل الذين سبقوا سيدنا رسول الله كانت معجزتهم منفصلة عن منهجهم ، فالمعجزة شيء وكتاب المنهج شيء آخر . « صحف إبراهيم » فيها المنهج لكنها ليست هى المعجزة؛ فالمعجزة هى الإحراق بالنار والنجاة، وموسى عليه السلام معجزته العصا وتنقلب حية ، وانفلاق البحر ، لكن كتاب منهجه هو « التوراة » ، وعيسى عليه السلام كتاب منهجه « الإنجيل » ومعجزته العلاج وإحياء الموتى بإذن الله ، إذن فقد كانت المعجزة منفصلة عن المنهج ، إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فإن معجزته هى عين منهجه ، معجزته القرآن ، ومنهجه فى القرآن ، لماذا ؟

لأنه جاء رسولاً يحمل المنهج المكتمل وهو القرآن الكريم ، ومع ذلك فهو صلى الله عليه وسلم الرسول الخاتم ، فلا بد أن تظل المعجزة مع المنهج ؛ كى تكون حُجة ، إذن فقول الحق سبحانه وتعالى : « جاءوا بالبينات » : أى المعجزات الدالات على صدقهم . « والزبر والكتاب المنير » أى الكتب التى جاءت بالمنهج ، فهم يحتاجون إلى أمرين اثنين : منهج ومعجزة .

و« البينات » هى المعجزة أى الأمور البينة من عند الله وليست من عند أى واحد

منهم ، ثم جاء « المنهج » فى « الزُّبُر والكتاب المنير » . ومعنى « الزِبْر » : الكتاب ، ومادام الشىء قد كُتِب فقد « زبره » أى كَتَبَهُ ، وهذا دليل على التوثيق أى مكتوب فلا ينطمس ولا يمحى فالزَّبْر الكتابة ، و« الزَّبْرُ » تعنى أيضا الوعظ ؛ لأنه يمنع الموعوظ أن يصنع ما عظم أى يمتنع عن الخطأ وإتيان الانحراف ، و« الزَّبْرُ » أيضا تعنى العقل ؛ لأنه يمنع الإنسان من أنْ يرد موارد التهلكة .

والذين يريدون أن يأخذوا العقل فرصة للانطلاق والانفلات ، نقول لهم : افهموا معنى كلمة « العقل » ، معنى العقل هو التقييد ، فالعقل يقيدك أن تفعل أى أمر دون دراسة عواقبه . والعقل من « عَقَلَ » أى ربط ، كى يقال هذا ، ولا يقال هذا ، ويمنع الإنسان أن يفعل الأشياء التى تؤخذ عليه . و« الزبر » أيضاً : تحجير البئر ؛ فعندما نحفر البئر ليخرج الماء ، لا نتركه . بل نصنع له حافة من الحجر ونبنيه من الداخل بالحجارة . كى لا يُردم بالتراب وكل معانى الزبر ملتقية ، فهو يعنى : المكتوبات ، والمكتوبات لها وصف ، إنّها منيرة ، وهذه الإنارة معناها أنها تبين للسالك عقبات الطريق وعراقيله ، كى لا يتعثر .

إذن فالحق سبحانه وتعالى يسلّى رسوله صلى الله عليه وسلم ويوضح له : لا تحزن إن كذبوك ؛ فقد كذب رسل من قبلك ،والرسل جاءوا بالمنهج وبالمعجزة ، وبعد أن يعطى الله للمؤمنين ولرسول الله مناعة ضد ما يذيعه المرجفون من اليهود وضد ما يقولون ، وتربية المناعة الإيمانية فى النفس تقتضى أن يخبرنا الله على لسان رسوله بما يمكن أن تواجهه الدعوة ؛ حتى لا تفجأنا المواجهات ويكشف لنا سبحانه بما سيقولون . وبما سيفعلونه .

ونحن نفعل ذلك فى العالم المادى : إذا خفنا من مرض ما كالكوليرا ـ مثلاً ـ ماذا نفعل ؟ نأخذ الميكروب نفسه ونُضْعِفُه بصورة معينة ثم نحقن به السليم ؛ كى نربّى فيه مناعة حتى يستطيع الجسم مقاومة المرض .

ثم بعد ذلك يأتى الحق سبحانه وتعالى بقضية إيمانية يجب أن تظل على بال المؤمن دائماً . هذه القضية : إن هم كذبوك فتكذيبهم لا إلى خلود ؛ لأنهم سينتهون

بالموت ، فالقضية معركتها موقوتة ، والحساب أخيراً عند الحق سبحانه ، ولذلك يقول :

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ ﴾

ونلاحظ أن كلمة « ذائقة » جاءت أيضاً هنا ، ونعرف أن هناك « قتلا » وهناك « موتا » ، فالموت معناه أعم وهو : انتهاء الحياة سواء أكان بنقض البنية مثل القتل ، أم بغير نقض البنية مثل خروج الروح وزهوقها حتف الأنف ، ولذلك فالعلماء الذين يدققون فى الألفاظ يقولون : هذا المقتول لو لم يُقتل ، أكان يموت ؟ نقول : نعم ؛ لأن المقتول ميت بأجله ، لكن الذى قتله هل كان يعرف ميعاد الأجل ؟ لا . إذن فهو يُعاقب على ارتكابه جريمة إزهاق الروح ، أمّا المقتول فقد كتب الله عليه أن يفارق الحياة بهذا العمل .

إذن فكل نفس ذائقة الموت إما حتف الأنف وإمّا بالقتل . ولأن الغالب فى المقتولين أنهم شهداء ، والشهداء أحياء ، لكن الكل سيموت . يقول تعالى :

﴿ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾

(من الآية ٦٨ سورة الزمر)

انظروا إلى دقة العبارة : « وإنما توفون أجوركم يوم القيامة » أى إياكم أن تنتظروا نتيجة إيمانكم فى هذه الدنيا ، لأنكم إن كنتم ستأخذون على إيمانكم ثوابا فى الدنيا

فهذا زمن زائل ينتهى ، فثوابكم على الإيمان لا بد أن يكون فى الآخرة لكى يكون ثوابا لا ينتهى .

ونعرف ما حدث فى بيعة العقبة الثانية ؛ حينما أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم على الأنصار عهوداً ، قالوا : فما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفينا ؟ لم يقل لهم صلى الله عليه وسلم ستنتصرون أو ستملكون الدنيا ، بل قال : « الجنة » قالوا : ابسط يدك ، فبسط يده فبايعوه ، فلو وعدهم بأى شىء فى الدنيا لقال له أى واحد فطن منهم : ما أهونها ، ولذلك عندما قال واحد لصاحبه : أنا أحبك قدر الدنيا ، فقال له : وهل أنا تافه عندك لهذه الدرجة ؟ .

فكأن الحق سبحانه وتعالى يقول : إياكم أن تفهموا أن جزاء الإيمان يكون فى الدنيا ؛ لأنه لو كان فى الدنيا لكان زائلاً ولكان قليلا كجزاء على الإيمان ، لأن الإيمان وصل بغير منتهٍ وهو الله ، فلا بد أن يكون الجزاء غير منتهٍ وهو الجنة ، فقال : « وإنما توفون أجوركم » . . وأخذ أهل اللمح من كلمة « توفون » أن هناك مقدمات ؛ لأن معنى « وفيته أجره » أى أعطيته وبقى له حاجة وأكمل له ، نعم هو سبحانه يعطيهم حاجات إيمان ، ويكفى إشراقة الإيمان فى نفس المؤمن ، فالجواب لا بد أن يكون متمشياً مع منطق من يسمع هذه الآية ؛ فقد يموت من يسمعها بعد قليل فى معركة ، وما دام قد مات فى معركة فهو لم ير انتصاراً ، ولم ير غنائم ولا أى شىء ، فماذا يكون نصيبه ؟ إنه يأخذ نصيبه يوم القيامة « توفون » فمن نال منها شيئاً فى الدنيا بالنصر ، بالغنائم ، بالزهو الإيمانى على أنه انتصر على الكفر فهذا بعض الأجر ، إنما الوفاء بكامل الأجر سيكون فى الآخرة ، لأن كلمة التوفية تفيد أن توفية الأجور وتكميلها يكون فى يوم القيامة ، وأن ما يكون قبل ذلك فهو بعض الأجور التى يستحقها العاملون .

ويقول الحق : « فمن زُحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز » عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « موضع سوط فى الجنة خير من الدنيا وما فيها اقرأوا إن شئتم : « فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز »[1]

---

(١) رواه ابن أبى حاتم ، ورواه البخارى ومسلم من غير هذا الوجه وبدون هذه الزيادة وأبو حاتم وابن حبان فى صحيحه والحاكم فى مستدركه

وعندما تقول : زحزحت فلاناً ، معناها أنه كان متوقفا برعب ، فكيف يحدث ذلك عند النار ؟. نعرف أن النار سببها المعصية ، والمعصية كانت لها جاذبية للعصاة ، ويأتى الإيمان ليشدهم فتأخذهم جاذبية المعصية ، فكذلك يكون الجزاء بالنار . إذن فالنار لها جاذبية لأنها ستكون فى حالة غيظ . . ولذلك يقول ربنا :

﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ﴾

(من الآية ٨ سورة الملك)

النار تتميز من الغيظ على الكافرين . وما معنى تميز من الغيظ ؟ أما رأيت قِدْراً يفور ؟ ساعة يفور القدر فإن بعض الفقاقيع تخرج منه وتنفصل عما فى القدر ، وهذا « تميز » أى تفترق ، والإنسان منا عندما يكون فى حالة غيظ تخرج منه أشياء كفقاقيع غليان القدر إنه يرغى ويزبد أى اشتد غضبه ، هذه الفقاقيع تحرق من يقف أمامها أو يلمسها ، وهى من شدة الفوران تميز بعضها وانفصل عن القدر ، كذلك النار ، ولماذا تميز من الغيظ ؟ إنها تميز من الغيظ من الكافرين ؛ لأنها أصلها مُسبّحة حامدة شاكرة ، وبعد ذلك يقول لها الحق :

﴿ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ ﴾ وتقول : ﴿ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة ق)

وذلك مما يدل على أن كلمة : « تميز من الغيظ » حقيقة ؛ ولذلك يبين لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن النار لها جاذبية ، فالنار إنما كانت نتيجة المعصية فى الدنيا ، والمعصية فى الدنيا هى التى تجذب العصاة ، يقول الرسول صلى الله عليه وسلم فى ذلك : (مثلى ومثلكم كمثل رجل أوقد نارا فجعل الفراش والجنادب يَقعْن فيها وهو يذبّهُنّ عنها ، وأنا آخذ بِحُجُزكم عن النار وأنتم تَفَلّتُون من يدى)[1] انظر إلى التشبيه الجميل ـ حين توقد ناراً فى خلاء فأول مظهر هو أن ترى الفراش والهوامّ والبعوض تأتى على النار ، ولذلك يقولون : رُبّ نفس عشقت مصرعها .

لقد جاءت تلك الحشرات على أساس أنها جاءت للنور ، إننا نرى ذلك عندما نُشعِل موقداً فى الخلاء فأنت تجد حوله الكثير من هذه الحشرات صرعى ، تلك

---

(١) رواه أحمد ومسلم عن جابر .

الحشرات عشقت مصرعها ، إنها قد جاءت إلى النور ولكن النار أحرقتها ، كذلك الإنسان العاصى يعشق مصرعه ؛ لأنه لا يعرف أن هذه الشهوة ستدخله النار .

« فمن زُحزح عن النار » أى أن النار لها جاذبية مثل جاذبية المعصية عندما تأخذ الإنسان ، ومجرد الزحزحة عن النار ، حتى وإن وقف بينهما لا فى النار ولا فى الجنة فهذا حسن ، فما بالك إنْ زُحزح عن النار وأدخل الجنة ؟ لقد زال منه عطب وأعطى صالحاً . وهذه حاجة حسنة ، وهذا هو السبب فى أن النار مضروب على متنها الصراط الذى سنمر عليه ، لماذا ؟ حتى يرى المؤمن النار . . وهو ماشٍ على الصراط التى لو لم يكن مؤمناً لنزل فيها ، فيقول : الحمد لله الذى نجانى من تلك النار .

« فمن زُحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز » والفوز هو النجاة مما تكره ، ولقاء ما تحب ، مجرد النجاة مما تكره نعمة ، وأن تذهب بعد النجاة مما تكره إلى نعمة ، فهذا فوز . ونلحظ فى « زُحزح » أن أحداً غيره قد زحزحه . نعم لأنّ الله تكرّم عليه أولاً فى حياته بفيض الإيمان وهو الذى زحزحه عن النار أيضا .

ويذيل الحق الآية بقوله تعالى : « وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور » .

وعندما يصف الحق سبحانه الحياة التى نعرفها بأنها « دنيا » ففى ذلك ما يشير إلى أن هناك حياة توصف بأنها « غير دنيا » وغير الدنيا هى « العليا » ، ولذلك يقول الحق فى آية أخرى :

﴿ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾

(من الآية ٦٤ سورة العنكبوت)

أى هى الحياة التى تستحق أن تُسمّى حياة ؛ لأن الدنيا لا يقاس زمانها ببدايتها إلى قيام الساعة ، لأن تلك الحياة بالنسبة للكون كله ، ولكن لكل فرد فى الحياة دنيا ليس عمرها كذلك ، وإنما دنيا كل فرد هى مقدار حياته فيها . ومقدار حياته فيها لا يُعلم أهو لحظة أم يوم أم شهر أم قرن . وقصارى الأمر أنها محدودة حداً خاصا لكل عمر ، وحداً عاماً لكل الأعمار .

والمتعة فى الدنيا على قدر حظ الإنسان فى المتع ، فهى على قدر إمكاناته . فإذا نظرنا إلى الدنيا بهذا المعيار فإن متاعها يعتبر قليلاً ، ولهذا لا يصح ولا يستقيم أن يغتر الإنسان بهذه المتعة متذكراً قول الله :

﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝ ﴾

(سورة العَلَق)

فالغرور إذن أن تلهيك متعة قصيرة الأجل عن متعة عالية لا أمد لانتهائها ، فحتى لا يغتر عائش فى الدنيا فيلهو بقليلها عن كثير عند الله فى الآخرة يجب أن يقارن متعة أجلها محدود وإن طال زمانها بمتعة لا أمد لانتهائها ، متعة على قدر إمكاناتك ومتعة على قدر سعة فضل الله ؛ لذلك كانت الحياة الدنيا متاع غرور ممن غُرّ بالتافه القليل عن العظيم الجليل .

والله لم يظلم الدنيا فوصفها أنها متاع ، ولكن نبهنا إلى أنها ليست المتاع الذى يُغتَرّ به فيلهى عن متاع أبقى ، إنه الخلود . وبعد ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى لرسوله ولأتباع رسوله قضية تُنشىء فيهم وتؤكد لهم أن الإيمان وحده خير جزاء للمؤمن ، وإن لم يتأت له فى الدنيا شىء من النعيم ، ولذلك أراد أن يوطنهم على أن الذين يدخلون الإيمان ، لا يوطِّنون أنفسهم على أن الإيمان دائماً منتصر ، فلو كان دائماً منتصراً لوطّن كل واحد نفسه عليه ورضيه لأنه يضمن له حياة مطمئنة ؛ لذلك كان لا بد أن يوضح لهم : أن هناك ابتلاءات . فالقضية الإيمانية أن تبتلوا ، وموقع البلاء فى نفوسكم أو فى أموالكم ، فقال :

﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ﴾

وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾

والبلاء فى المال بماذا ؟ بأن تأتى آفة تأكله ، وإن وجد يكون فيه بلاء من لون آخر ، وهى اختبارك هل تنفق هذا المال فى مصارف الخير أو لا تعطيه لمحتاج ، فمرة يكون الابتلاء فى المال بالإفناء ، ومرة فى وجود المال ومراقبة كيفية تصرفك فيه ، والحق فى هذه الآية قدم المال على النفس ؛ لأن البلاء فى النفس يكون بالقتل ، أو بالجرح ، أو بالمرض . فإن كان القتل فليس كل واحد سيقتل ، إنما كل واحد سيأتيه بلاء فى ماله .

« ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا » هما إذن معسكران للكفر : معسكر أهل الكتاب ، ومعسكر المشركين . هذان المعسكران هما اللذان كانا يعاندان الإسلام ، والأذى الكثير تمثل فى محاولة إيذاء الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأذى الاستهزاء بالمؤمنين ، وأهل الكفر والشرك يقولون للمؤمنين ما يكرهون ، فوطّنوا العزم أيها المسلمون أن تستقبلوا ذلك منهم ومن ابتلاءات السماء بالقبول والرضا .

ويخطىء الناس ويظنون أن الابتلاء فى ذاته شرّ ، لا . إن الابتلاء مجرد اختبار ، والاختبار عرضة أن تنجح فيه وأن ترسب ، فإذا قال الله : « لتبلون » ، أى سأختبركم ـ ولله المثل الأعلى ـ كما يقول المدرس للتلميذ : سأمتحنك « فنبتليك » يعنى نختبرك فى الامتحان ، فهل معنى ذلك أن الابتلاء شرّ أو خير ؟ . إنه شرّ على من لم يتقن التصرف . فالذى ينجح فى البلاء فى المال يقول : كله فائت ، وقلل الله مسئوليتى ، لأنه قد يكون عندى مال ولا أحسن أداءه فى مواقعه الشرعية ، فيكون المال علىّ فتنة . فالله قد أخذ منى المال كى لا يدخلنى النار ، ولذلك قال فى سورة « الفجر » :

﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾

﴿ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة الفجر)

فهنا قضيتان اثنتان : الإنسان يأتيه المال فيقول : ربى أكرمنى ، وهذا أفضل ممن جاء فيه قول الحق :

﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ﴾

(من الآية ٧٨ سورة القصص)

إذن فالذى نظر إلى المال وظن أنّ الغنى إكرام ، ونظر إلى الفقر والتضييق وظن أنه إهانه ، هذا الإنسان لا يفطن إلى الحقيقة ، والحقيقة يقولها الحق:« كلا » أى أن هذا الظن غير صادق ؛ فلا المال دليل الكرامة ، ولا الفقر دليل الإهانة ، ولكن متى يكون المال دليل الكرامة ؟ يكون المال دليل كرامة إن جاءك وكنت موفقاً فى أن تؤدى مطلوب المال عندك للمحتاج إليه ، وإن لم تؤد حق الله فالمال مذلة لك وإهانة ، فقد أكون غنياً لا أعطى الحق ، فالفقر فى هذه الحالة أفضل ، ولذلك قال الله للاثنين : « كلا » ، وذلك يعنى : لا إعطاء المال دليل الكرامة ولا الفقر دليل الإهانة .

وأراد سبحانه أن يدلل على ذلك فقال :

﴿ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ ﴾

(سورة الفجر)

« كلا بل لا تكرمون اليتيم » ومادمتم لا تكرمون اليتيم فكيف يكون المال دليل الكرامة ؟ إن المال هنا وزر ، وكيف إن سلبه منك يا من لا تكرم اليتيم يكون إهانة ؟ . . إنه سبحانه قد نزهك أن تكون مهانا ، فلا تتحمل مسئولية المال . إذن فلا المال دليل الكرامة ، ولا الفقر دليل الإهانة .

« كلا بل لا تكرمون اليتيم ولا تحاضون على طعام المسكين » وحتى إن كنت لا تمتلك ولا تعطى أفلا تحث من عنده أن يُعطى ؟ أنت ضنين حتى بالكلمة ، فمعنى تحض على طعام المسكين . أى تحث غيرك .. فإذا كنت تضن حتى بالنصح فكيف تقول إن المال كرامة والفقر إهانة ؟ . . « كلا بل لا تكرمون اليتيم ولا تحاضون على طعام المسكين وتأكلون التراث أكلاً لـمّا » أى تأكلون الميرات وتجمعون فى أكلكم بين نصيبكم من الميراث ونصيب غيركم دون أن يتحرّى الواحد منكم هل هذا المال حلال أو حرام . . فإذا كانت المسألة هكذا فكيف يكون إيتاء المال تكريماً وكيف يكون الفقر إهانة ؟ . . لا هذا ولا ذاك .

« لتبلون فى أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا » والذى يقول هذا الكلام : هو الله ، إذن لا بد أن يتحقق ـ فيارب أنت قلت لنا : إن هذا سيحصل وقولك سيتحقق ، فماذا أعطيتنا لنواجه ذلك ؟ـ اسمعوا العلاج : « وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور » . . تصبر على الابتلاء فى المال ، تصبر على الابتلاء فى النفس ، تصبر على أذى المعسكر المخالف من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا ، إن صبرت فإن ذلك من عزم الأمور ، والعزم هو : القوة المجتمعة على الفعل . فأنت تنوى أن تفعل ، وبعد ذلك تعزم يعنى تجمع القوة ، فقوله : « فإن ذلك من عزم الأمور » أى من معزوماتها التى تقتضى الثبات منك ، وقوة التجميع والحشد لكل مواهبك لتفعل .

إذن فالمسألة امتحان فيه ابتلاء فى المال ، وابتلاء فى النفس وأذى كثير من الذين أشركوا ومن الذين أوتوا الكتاب ، وذلك كله يحتاج إلى صبر ، و« الصبر » ـ كما قلنا ـ نوعان : « صبر على » و« صبر عن » ، ويختلف الصبر باختلاف حرف الجر ، صبر عن شهوات نفسه التى تزين للإنسان أن يفعل هذه وهذه ، فيصبر عنها ، والطاعة تكون شاقة على العبد فيصبر عليها ، إذن ففى الطاعة يصبر المؤمن على المتاعب ، وفى المعصية يصبر عن المغريات .

و« لتبلون فى أموالكم وأنفسكم » توضح أنه لا يوجد لك غريم واضح فى الأمر ، فالآفة تأتى للمال ، أو الآفة تأتى للجسد فيمرض ، فليس هنا غريم لك قد تحدد ،

ولكن قوله : « ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا » فهذا تحديد لغريم لك . فساعة ترى هذا الغريم فهو يهيج فيك كوامن الانتقام . فأوضح الحق : إياك أن تمكنهم من أن يجعلوك تنفعل ، وأَجِّلْ عملية الغضب ، ولا تجعل كل أمر يَسْتَخِفُّك . بل كن هادئا ، وإياك أن تُسْتَخَفَّ إلا وقت أن تتيقن أنك ستنتصر ، ولذلك قال : « وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور » .

واتقوا مثل « اتقوا الله » أى اتقوا صفات الجلال وذلك بأن تضع بينك وبين ما يغضب الله وقاية . عن أسامة بن زيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ركب على حمار عليه قطيفة فدكية وأردف أسامة بن زيد وراءه يعود سعد بن عبادة ببنى الحارث بن الخزرج قبل وقعة بدر حتى مرّ على مجلس فيه عبدالله بن أبى بن سلول وذلك قبل أن يسلم ابن أُبَىّ ، وإذا فى المجلس أخلاط من المسلمين والمشركين عبدة الأوثان وأهل الكتاب اليهود والمسلمين وفى المجلس عبدالله بن رواحة ، فلما غشيت المجلس عجاجة الدابة خَمَّر عبدالله بن أبى أنفه بردائه وقال : لا تغبروا علينا ، فسلم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم وقف فنزل ودعاهم إلى الله عز وجل وقرأ عليهم القرآن فقال عبدالله بن أبى : أيها المرء إنه لا أحسن مما تقول إن كان حقا فلا تُؤْذنا فى مجالسنا ، ارجع إلى رحلك فمن جاءك فاقصص عليه ، فقال عبدالله بن رواحة رضى الله عنه : بلىٰ يا رسول الله فاغشنا به فى مجالسنا فإنا نحب ذلك ، فاستب المسلمون والمشركون واليهود حتى كادوا يتثاورون ، فلم يزل النبى صلى الله عليه وسلم يخفضهم حتى سكتوا ، ثم ركب النبى صلى الله عليه وسلم دابته فسار حتى دخل على سعد بن عبادة فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : « يا سعد » ألم تسمع إلى ما قاله أبو حباب » ؟ يريد عبدالله بن أبى ، قال : كذا وكذا فقال سعد : يا رسول الله اعفُ عنه واصفح فوالذى أنزل عليك الكتاب لقد جاءك الله بالحق الذى نزل عليك ، ولقد اصطلح أهل هذه البحيرة على أن يتوجوه فيعصبوه بالعصابة فلما أبى الله ذلك بالحق الذى أعطاك الله شَرِقَ بذلك ، فذلك الذى فعل به ما رأيت . فعفا عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم[1] .

---

(١) رواه البخارى فى صحيحة عند تفسير هذه الآية

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ ﴾

ونعرف ـ من قبل ـ أن الله قد أخذ عهداً وميثاقاً على كل الأنبياء أن يؤمنوا برسالة محمد عليه الصلاة والسلام فى قوله :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

ونأتى هنا إلى عهد وميثاق أخذه الله على أهل الكتاب الذين آمنوا بأنبيائهم ، هذا العهد هو : « وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتواالكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه » .

فما الذى يبينونه ؟ وما الذى يكتمونه ؟

وهل هم يكتمون الكتاب ؟ نعم لأنهم ينسون بعضا من الكتاب ، وما داموا ينسون بعضاً من الكتاب فمعنى ذلك أنهم مشغولون عنه :

﴿ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾

(من الآية ١٤ سورة المائدة)

والذى لم ينسوه من المنهج ، ماذا فعلوا به ؟ :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾

(سورة البقرة)

لقد كتموا البينات التى أنزلها الله فى الكتاب ، فالكتم عملية اختيارية ، أما النسيان فقد يكون لهم العذر أنهم نسوه ، لكنهم يتحملون ذنباً من جهة أخرى ، إذ لو كان المنهج على بالهم وكانوا يعيشون بالمنهج لما نسوه . والذى لم ينسوه كتموا بعضه ، والذى لم يكتموه لووا به ألسنتهم وحرّفوه .

وهل اقتصروا على ذلك ؟ لا . بل جاءوا بشىء من عندهم وقالوا : هو من عند الله :

﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾

(سورة البقرة)

وقولهم : « هذا من عند الله » ما يصح أن يقال إلا لبلاغ صادق عن الله ، وكلمة « ليشتروا به ثمناً قليلا » لا بد أن توسع مدلولها قليلاً ، ولها معنى عام ، ونحن نعرف أن الثمن نشترى به ، فكيف تشترى أنت الثمن ؟ أنت إذن جعلت الثمن سلعة ، وما دام الثمن يُجعل سلعة فيكون ذلك أول مخالفة لمنطق المبادلة ؛ لأن الأصل فى الأثمان أن يُشترى بها ، أصل المسألة أنّ نَعْت رسول الله صلى الله عليه وسلم كان موجوداً عندهم فى الكتب ثم أنكروه .

﴿ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ﴾

(من الآية ٨٩ سورة البقرة)

إذن فقوله : « لتبيننه » يعنى لتبينن أمر الرسول صلى الله عليه وسلم ، كما هو موجود عندكم دون تغيير أو تحريف ، وعندما يبينون أمر الرسول بأوصافه ونعوته فهم يبينون ما جاء حقاً فى الكتاب الذى جاءهم من عند الله . وهكذا نجد أن المعانى تلتقى ، فإن بينوا الكتاب الذى جاء من عند الله ، فالكتاب الذى جاء من عند الله فيه نعت محمد ، وهكذا نجد أن معنى تبيين الكتاب ، وتبيين نعت رسول الله بالكتاب أمران ملتقيان .

« لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم » يقال : نبذت الشىء أى طرحته بقوة ، وذلك دليل على الكراهية ؛ لأن الذى يكره شيئاً يحب أن يقصر أمد وجوده ، ومثال ذلك : لنفترض أن واحداً أعطى لآخر حاجة ثم وجدها جمرة تلسعه ، ماذا يفعل ؟ هو بلا شعور يلقيها بعيداً . والنبذ له جهات ، ينبذه يمينه ، ينبذه أمامه ، ينبذه شماله،أما إذا نبذه خلفه ، فهذا دليل على أنه ينبذه نبذة لا التفات إليها أبداً ، انظر التعبير القرآنى « فنبذوه وراء ظهورهم » .

إن النبذ وحده دليل الكراهية لوجود الشىء الذى يبغضه ، إمعان فى الكراهية والبغض ، فلو رمى إنسان شيئاً أمامه فقد يحن له عندما يراه أو يتذكره ، لكن إن رماه وراء ظهره فهذا دليل النبذ والكراهية تماما ، ولذلك يقولون : لا تجعلن حاجتى بظهر منك ، يعنى لا تجعل أمرا أريده منك وراء ظهرك ، والحق يقول : « فنبذوه وراء ظهورهم » أى أنهم جماعة و« ظهور » جمع « ظهر » ، كأن كل واحد منهم نبذه وراء ظهره . وكأن هناك إجماعاً على هذه الحكاية ، وكأنهم اتفقوا على الضلال ، واشتروا به ثمناً قليلاً فبئس ما يشترون . والمشترى هنا هو الثمن ، والثمن يُشترى به ؛ ولندقق النظر فى التعبير القرآنى ، فهناك واحد يشترى هذا الأمر بأكلة ، وآخر يشترى هذه الحكاية بحُلَّة أو لباس ، وهناك من يشتريها بحاجة وينتهى ، إنما هم يقولون : نريد نقوداً ونشترى بها ما نحب ، هذا معنى « واشتروا به ثمناً » .

ويعلق الحق على ما يشترونه قائلاً : « فبئس ما يشترون » لماذا ؟ لأنك قد تظن أن بالمال ـ وهو الثمن ـ تستطيع أن تشترى به كل شىء ، ولكن النقود لا تنفع الإنسان كما تنفعه الحاجة المباشرة ؛ لأننا قلنا سابقاً : هب أن إنساناً فى مكان صحراوى ومعه

جبل من ذهب وليس معه كوب ماء ، صحيح أن المال يأتى بالأشياء ، إنما قد يوجد شيء تافه من الأشياء يغني ما لا يغنيه المال ولا الذهب ، فيكون كوب الماء مثلاً بالدنيا كلها ، ولا يساويه أى مال « فبئس ما يشترون » .

وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ ﴾

والحسبان للأمر أن يظنه السامع دون حقيقته ، والأمور التى يظنها السامع تسير أولاً على ضوء الشيء الواضح دون التدبر لما وراء واجهات الأشياء ، فالذين يفرحون بما أتوا نوعان : نوع يفرح بما أتاه مناهضاً لدعوة الحق كالمنافقين الذين فرحوا بأنهم غشوا المؤمنين ، وتظاهروا بالإيمان فعاملهم المؤمنون بحق الأخوة الإيمانية ، حدث هذا قبل أن يكشف الحق هؤلاء المنافقين للرسول صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين من بعد ذلك .

ونوع آخر يفرح لما أتاه وجاء به مناصراً لدعوة الحق فالفرح الأول ـ وهو فرح المنافقين ـ ممنوع ، والفرح الثانى مشروع . ولذلك يقول الحق :

﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ ﴾

(من الآية ٥٨ سورة يونس)

إذن فلم ينه الله عن مطلق الفرح ولكن ليفرحوا بفضل الله . إنه سبحانه قد نهى عن نوع من الفرح فى مسألة قارون :

﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴾

(من الآية ٧٦ سورة القصص)

وهكذا نجد آيات تنهى عن الفرح وآيات تثبت للمؤمنين الفرح ، وتأمرهم به . إذن فالفرح فى ذاته ليس ممقوتاً ، ولكن الممقوت بعض دواعى ذلك الفرح ، فدواعيه عند المؤمن أن يفرح بنصر الله ، وأن يفرح بإعلاء كلمة الحق ، وهذه دواع مشروعة . ودواعيه الممنوعة أن يفرح بأن يقف أمام مبدأ من مبادىء الله ليدحض ذلك المبدأ ، وهذا ما يفرح به الكافر ، ولكن الفرح الحقيقى هو الفرح الذى لا يعقبه ندم ، ففرح المؤمن موصول إلى أن تقوم الساعة ، وموصول بعد أن تقوم الساعة . ولكن فرح الكافر والمنافق وأهل الكتاب الذين يصورون الله على غير حقيقته فرح موقوت وممقوت ، إذن فذلك لا يعتبر فرحاً ؛ لأن الندم بعد الفرح يعطى عاقبة شر ؛ لأن النادم يتحسر دائما على فعله فهو فى غم وحزن .

فالحق سبحانه وتعالى يريد أن يعطى للمؤمن مناعة ، إنكم أيها المؤمنون تواجهون معسكرات تعاديكم . هذه المعسكرات ستفرح بما أتته ضدكم فيجب ألا يفتّ ذلك فى عضدكم ، ولا تحسبنهم إن فعلوا ذلك بمنجاة من العذاب ، ومادام فرحهم سيؤدى بهم إلى العذاب فهو فرح أحمق .

وماذا صنع الذين جاء فيهم القول : « لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا » يحتمل أن يكون المراد هم أهل الكتاب الذين كتموا نعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأن الآية السابقة تقول : « وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم » ماذا فعل هؤلاء إذن ؟ لقد كتموا أوصاف رسول الله ونعته الموجود فى كتبهم وفرحوا بما كتموا ، وبعد ذلك أحبوا أن يحمدوا بما فعلوا من الذين على طريقتهم فى الكفر والضلال .

إن الإنسان قد يأتى الذنب ولكنّه يندم بعد أن يفعله ، ولكنه حين يسترسل فيفرح بما فعل فذلك ذنب آخر ، وهكذا صار إتيان العمل ذنباً ، والفرح به ذنباً آخر ؛ لأنه لو ندم على ما فعله لكان الندم دليلا على التوبة ، أما أن يأتى العمل وبعد ذلك يفرح

به ثم يأتى بعد ذلك الأشد ؛ فيحب أن يُحمد بما لم يفعل ، فذلك من تمام الحمق ، إنه جرم وذنب مركب من فعل آثم ، ففرح به ، فحب لحمد على شىء لم يفعله .

أكان يجب أن يُحمد بما فعل أو بما لم يفعل ؟ بما لم يفعل ، لأنه خلع على أمره غير الحق ، وإذا قال قائل : إنها نزلت فى المنافقين الذين تخلفوا عن رسول الله فالقول محتمل ؛ لأن هؤلاء تخلفوا عن الحرب مع رسول الله وفرحوا بأن متاعب السفر ومتاعب الجهاد لم تنلهم ، وبعد ذلك اعتذروا لرسول الله صلى الله عليه وسلم اعتذارات كاذبة ولو ندموا لكان خيراً لهم،ولم يتضح للمسلمين كذبهم فحمدوا لهم ذلك الاعتذار ، إنهم قد أتوا الذنب ، وفرحوا بأنهم أتوه ، ونجوا من مغارم الحرب ، وبعد ذلك فرحوا أيضاً بأنهم أحبوا أن يحمدوا بما لم يفعلوا ، لأن اعتذارهم كان نفاقاً ، سواء كان هذا أو ذاك فالآية على إطلاقها : للذين يفرحون بما أتوا من مناهضة الحق وذلك فعل ، والفرح به ذنب آخر ، والرغبة فى الحمد عليه شىء ثالث ، إذن فالذنب مركب ، فهم يسترون الأمر ويبينون نقيضه كى نحمدهم ونشكرهم ، والحق سبحانه وتعالى يعطى لهذا دستوراً إيمانياً لمطلق الحياة .

« ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا » وهل المنعى عليهم أنهم يحبون أن يحمدوا ؟ أو المنعى عليهم والمأخوذون به أنهم يحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا ؟ إن المنعى عليهم أنهم يحبون،أن يحمدوا بما لم يفعلوا ؛ لأن الإنسان إن أحب أن يُمدح بما فعل فلا مانع ، والقرآن حين يعالج نفساً بشرية خلقها الله بملكات ، فهو يعلم مطلوبات الملكات ، بعض الملكات قد تحتاج إلى شىء فلا يتجاوز الله هذا الشئ ، إنّ الإنسان مطبوع على حب الثناء من الغير ، لأن حب الثناء يثبت له وجوداً ثانيا ، ووجودك الثانى هو أن تعبر عن نفسك بعملك الذى يكون مبعث الثناء عليك ، والناس لا تثنى على وجودك ، لكنها تثنى على فعلك .

ومادام الإنسان يحب الثناء فسيغريه ذلك بأن يعمل ما يُثنى به عليه ، ومادام يُغرى بما يُثنى عليهَ فسيعمل بإتقان أكثر ، وساعة يعمل فإن المحيط به ينتفع من عمله ، والله يريد إشاعة النفع فلا يمنع سبحانه حب الثناء كى يزيد فى الطاقة الفاعلة للأشياء ؛ لأنه لو حرّم ذلك الثناء فلن يعمل إلا من كانت ملكاته سوية ، وسيفقد

المجتمع طاقات من كانت ملكاته قليلة ، فصاحب الملكات القليلة يريد أن يُمدح ، فلا مانع من مدحه ليزيد من العمل ، ويُمدح مرة ثانية ، وتستفيد الناس ، والذى ينتظر الثناء من الناس تنزل منزلته ومرتبته عن مرتبة من انتظر التقدير من الله ، فهو الذى جنى على نفسه فى ذلك . لكن لابد أن نمدحه كى يعمل بما فيه من غريزة حب الثناء فنكون قد زدنا من عدد طاقات العاملين .

ولذلك نجد أن الحق سبحانه وتعالى حينما عرض لهذه القضية ، وهى قضية تزكية الصالح وتجريم الطالح الفاسد فى قصة « ذى القرنين » يقول تعالى :

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ ﴾

(سورة الكهف)

كى تعلم أن المَمَكَّنَ لا يُمَكِّنُ بذاته وإنما هو ممكن بمن مَكَّنَهُ ، فلو كان عنده تفكير إيمانى ، لما أغرته الأسباب أن يتمرد ؛ لأن الإيمان يعلمه أن الأسباب ليست ذاتية . ومن أجل أن يثبت الله أن الأسباب غير ذاتية فهو ينزع الملك ممن يشاء ، ويهب الملك من يشاء ، نقول له : لو كانت الأسباب ذاتية فتمسك بها ، لكن الأسباب هبة من الله « وآتيناه من كل شىء سببا » وحين يأتيه الله الأسباب فالأسباب أنواع : سبب مباشر للفعل ، وسبب متقدم على السبب المباشر ، فأنت إذا ارتديت ثوباً جميلاً ، فوراء ذلك أنك أتيت بالقماش الذى نسجه النساج ، والنساج استطاع إتقان عمله بعد أن قام الغزّال بغزل القطن ، والقطن نتج لأن فلاحاً بذر البذور ورعى الأرض بالحرث والرى . فأنت إن نظرت إلى الأسباب المباشرة المتلاحقة فانظر إلى نهاية الأسباب ، وستصل إلى شىء لا سبب له إلا المسبب الأعلى وهو الله ـ جلت قدرته ـ .

وسلسل أى شىء فى الوجود ستجد أنك أخيراً أمام سبب خلقه الله ، مثال ذلك النور الكهربىّ الذى تتمتع أنت به . ستجد أن المعمل قام بصنع الزجاج الخاص بالمصابيح الكهربية ، ونوع من المصانع يصنع الأسلاك الموجودة بالمصباح ، وستنتهى إلى شىء موجود لا يوجد فيه بشر ، فتصل إلى الحق سبحانه وتعالى .

أنت مثلاً جالس على الكرسى . وقد تقول : لقد صنعه النجار والنجار جاء بالخشب من البائع ، والبائع جاء بالخشب من الغابة ، فمن أين جاء الخشب إلى الغابة ؟ تقول : لا أعرف ، أما إذا كان عندك الحس الإيمانى فأنت تقول : أوجده الله . وحين تنتهى الأسباب وسلسلتها نجد الله الخالق « إنا مكنا له فى الأرض وآتيناه من كل شىء سببا فأتبع سببا » فعندما أعطاه الله الأسباب جاء هو بالوسائط فقط ، إذن فالأصل كله من الله .

ويتابع الحق : « حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب فى عين حمئة » هذا فى عين الناظر فقط ، فأنت حين تركب البحر ثم ترى الشمس عند الغروب تغطس فى البحر ، وعندما تذهب للمنطقة التى غطست الشمس فيها تجد الشمس موجودة ؛ لأنها لا تغيب أبدا، إنما «تغرب فى عين حمئة» أى فوجد الشمس فى نظره عند غروبها عنه كأنها تغرب فى مكان به عين ذات ماء حار وطين أسود . ويتابع الحق : « ووجد عندها قوماً قلنا يا ذا القرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسنا » .

والناس تفهم أن هذا تخيير ، يعنى إما أن تعذبهم ، وإما تُحسن إلى من كنت تعذبهم ، لكن الدقة والتمعن يوضحان لنا أن الحق قد أعطى تفويضاً لذى القرنين ، بقوله : « إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسنا » فَفَهِمَ ذو القرنين عن الله التفويض ، ولم يأخذ التفويض وافترى ، بل قال : « أما من ظلم فسوف نعذبه » . وليس هذا هو العذاب الذى يستحقه ، لا ، نحن سنعذبه فى دنيانا كى لا يستشرى فيها الشرّ . وفوق ذلك سيعذبه الله عذاباً آخر .

« أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يردّ إلى ربه فيعذبه عذاباً نكرا » إنه أولاً لم يصف عذابه بنكر ، إنما وصف عذاب الله فقال : « فيعذبه عذاباً نكرا » ، لأن عذاب البشر للبشر على قدر البشر ، لكن عذاب الله يتناسب مع قدرة الله ، فهل لنا طاقة بهذا العذاب والعياذ بالله ؟ ليس لنا طاقة به ، وماذا عن موقف ذى القرنين من الذى آمن ؟ إنه موقف مختلف .

يقول الحق : « وأما من آمن وعمل صالحا فله جزاء الحسنى وسنقول له من أمرنا

يسرا » هو يجازيه بالحسنى ويعطيه المكافآت ويكرمه ، وعندما يتساءل من يحب الثناء قائلاً : لماذا كرّم هذا ؟ ويرى أسباب التكريم فيقول لنفسه لأصنعنَّ مثله كى أكرّم . ولذلك تجد الشباب يتهافت حتى على اللعب بكرة القدم لماذا ؟ لأنهم يجدون من يضع هدفاً فى كرة القدم يكرّم ، فيقول : أنا أريد أن أضع هدفاً .

هذا وإن ديننا الحنيف يدعونا إلى أن نشكر من قدم خيرا أو أُسدى معروفا حَفزاً للهمم وتشجيعا لبذل الطاقات وفى الأثر : « من لم يشكر الناس لم يشكر الله » إذن فحب الثناء من طبيعة الإنسان ، ولكى تُغرى الناس بأن يعملوا لابد أن تأتى لهم بأعمال تستوعب طاقاتهم المتعددة ، أما إذا اقتصر إتقان العمل على من لا يحبون الثناء ، فسنقلل الأيدى التى تفعل ، ولذلك تجد العمل حيث توجد المكافأة التشجيعية التى يأخذها من يستحقها ويقابلها من التجريم والعقوبة لمن يهمل فى عمله ، فلا يمنح رئيس عمل مكافأة لمن عملوا على هواهم ، بل عليه أن يمنحها لمن أدى عمله بإتقان . وحين يعلم الناس أنه لا يجازى بالخير ولا يكرّم بالقول إلا من فعل فعلاً حقيقياً فالكل يفعل فعلاً حقيقياً ، لكن عندما تجد الناس أن المكافآت لا يأخذها أحدَ إلا بالتزلف وبالنفاق وبالأشياء غير المشروعة فسيفعلون ذلك ، وهكذا تأتى الخيبة .

وهكذا تجد أن قوله الحق : « لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا » .

إن هذا القول يضع أساساً ودستوراً إيمانياً لمطلق الحياة ، وعلاقة الحاكم بالمحكومين ، وعلاقة الفرد بنفسه وبمن حوله . وعلاقة الإنسان بالعمل الصالح أو بالذنوب ؛ فالإنسان إذا ما أتى ذنباً ، فربما يكون قد نفَّس عن نفسه بارتكاب الذنب ، لكن بعد ما تهدأ شِرّة المعصية يجب عليه أن ينتبه فيندم ولا يفرح . هذه أول مرحلة . ولا يتمادى فى ارتكاب الذنب ، أما إذا تمادى وخلع على فعله النقيض وادّعى أنه قد أتى فعلاً حسناً حتى يناله مدح بدلاً من أن يناله ذم فذلك ذنب مركب ، ويحشره الله ضمن من قال فيهم : « فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب » .

والمفازة هى المكان الذى يظن الإنسان أن فيه نجاته ، أى أن فى هذا المكان فوزاً

له ، ويطلقون كلمة « مفازة » على الصحراء إطلاقاً تفاؤلياً ، لا يسمونها « مهلكة » لأن الذى كان يجوبها يهلك فسموها « مفازة » تفاؤلاً بأن الذى يسلكها يفوز ، أو أن الصحراء أرض مكشوفة ، ومادام الإنسان قد وصل إلى أرض مكشوفة فلن يصادف ما يخافه من حيوانات شرسة أو من وافدات ضارة كالحيّات ، أو من عدو راصد ، وفى ذلك فوز له ، لأنه تجنب هذه المخاطر ، إنه إن سار فى الجبال والوديان فمن الممكن أن تستر عنه الوحوش المفترسة أو الهوام أو تستر عنه الذين يتتبعونه فلا يتوقاهم وقد يصيبونه بالأذى ، فإذا ما ذهب إلى الأرض المكشوفة نجا من كل هذا لأنه ينأى ويبتعد عنهم ، وتكون التسمية على حقيقتها ، ومن يرى أن الصحراء مهلكة فليعرف أنها سميت « مفازة » تفاؤلاً ، كما يسمون اللديغ الذى لدغه الثعبان بـ « السليم » .

ونحن فى أعرافنا العادية نتفاءل فنضع للشىء اسما ضد مسماه تفاؤلاً بالاسم ، مثال ذلك : إذا كنت فى ضيافة إنسان وقدم شراباً . قهوة مثلاً ، وبعد أن نشرب القهوة يأتى الخادم فيقول من قدم لك القهوة لخادمه : تعال « خذ المملوء » ولا يقول : « خذ الفارغ » وهذا لون من التفاؤل .

«فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ولهم عذاب أليم » هم يظنون أنهم بمفازة من العذاب برغم أنهم لا يؤمنون بالحق ، ولا يؤمنون بسيطرة الحق على كل أحوالهم وكل أمورهم فهم يظنون أن انتصارهم فى معركة الدنيا لا هزيمة بعده ، ولكن الحق بعد هذه الآية قال :

﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾ ﴾

راجع أصله وخرج أحاديثه الدكتور أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .

إنه سبحانه حكم فيما يملك ولا أحد يستطيع أن يخرج من ملكه ، ومادام لله ملك السماوات والأرض ، فحين يقول : « فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ولهم عذاب أليم » فهذا الوعيد سيتحقق ؛ لأن أحداً لا يفلت منه ، ولذلك يقول أهل الكشف وأهل اللماحية وأهل الفيض : اجعل طاعتك لمن لا تستغنى عنه ، واجعل شكرك لمن لا تنقطع نعمه عنك ، واجعل خضوعك لمن لا تخرج عن ملكه وسلطانه .

إذن فـ « ولله ملك السماوات والأرض » تدل على أن الله حين يوعد فهو ـ سبحانه ـ قادر على إنفاذ ما أوعد به ، ولن يفلت أحد منه أبدا . وهذه تؤكد المعنى . فإذا ما سُرّ أعداء الدين فى فورة توهم الفوز ، فالمؤمن يفطن إلى النهاية وماذا ستكون ؟ ولذلك تجد أن الحق سبحانه وتعالى قال :

﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝٥ ﴾

(سورة المسد)

وهذه السورة قد نزلت فى عمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكانت هذه السورة دليلاً من أدلة الإيمان بصدق الرسول فى البلاغ عن الله ، لأن أبا لهب كان كافراً ، وكان هناك كفرة كثيرون سواه ، ألم يكن عمر بن الخطاب منهم ؟ ألم يكن خالد بن الوليد منهم ؟ ألم يكن عكرمة بن أبى جهل منهم ؟ ألم يكن صفوان منهم ؟ كل هؤلاء كانوا كفاراً وآمنوا ، فمن الذى كان يدرى محمداً صلى الله عليه وسلم أنه بعد أن يقول : « تبت يدا أبى لهب وتب ، ما أغنى عنه ماله وما كسب ، سيصلى ناراً ذات لهب ، وامرأته حمالة الحطب ، فى جيدها حبل من مسد » من كان يدرى محمداً بعد أن يقول هذا ويكون قرآناً يُتلى ويحفظه الكثير من المؤمنين ، وبعد ذلك كله من كان يدريه أن أبا لهب لن يأتى ويقول : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وقد يضيف : إن كان محمد يقول: إننى سأصلى ناراً ذات لهب فهأنذا قد آمنت ، مَن كان يدريه أنه لن يفعل ، مثلما فعل ابن الخطاب ، وكما فعل عمرو بن العاص . إن الذى أخبر محمداً يعلم أن أبا لهب لن يختار الإيمان أبداً ، فيسجلها القرآن على

نفسه ، وبعد ذلك يموت أبو لهب كافرا .

وكأن الله يريد أن يؤكد هذا فيوضح لك : إياك أن تظن أن ذلك الوعيد يتخلف ؛ لأنى أنا « أحد صمد » ، ولا أحد يعارضنى فى هذا الحكم ؛ لذلك يقول فى سورة الإخلاص : « قل هو الله أحد الله الصمد » .

فمادام « هو الله أحد » فيكون ما قاله أولاً لن ينقضه إله آخر ، وستظل قولته دائمة أبداً . إذن فقول الحق سبحانه وتعالى بعد قوله : « فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ولهم عذاب أليم » ، « ولله ملك السماوات والأرض » يوضح لنا أنه قد ضم هذا الوعيد إلى تلك الحقيقة الإيمانية الجديدة : « ولله ملك السماوات والأرض » وجاء بالقوسين ؛ لأن السماء تُظِل ، والأرض تُقِل ، فكل منا محصور بين مملوكين لله ، ومادام كل منا محصوراً بين مملوكين لله ، فأين تذهبون ؟ « ولله ملك السماوات والأرض » وقد يكون هناك المَلِك الذى لا قدرة له أن يحكم ، فيوضح سبحانه ؛ لا ، إن لله المُلْكَ وله القدرة .

« والله على كل شىء قدير » ثم يأتى بعد ذلك إلى تصور إيمانى آخر ليحققه فى النفوس بعد المقدمات التى أثبتت صدق الله فيما قال بواقع الحياة :

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ ﴾

سبحانه يريد أن يبنى التصور الإيمانى على جذور ثابتة فى النفس البشرية ؛ لأن الإنسان الذى يفاجأ بهذا الكون ، وفيه سماء بهذا الشكل : بلا عمد ، وتحتها الكواكب ، وأرض مستقرة ، بالله ألا يفكر فيمن صنع هذا ؟ والله لو أن واحدا

استيقظ من نومه ووجد سرادقا قد نصب فى الميدان ليلا لوقف ليسأل : ما الحكاية ؟ فما بالنا بواحد فتح عينيه فوجد هذا الكون المنتظم الذى يعطيه أسباب الحياة ؟

ولذلك يجىء فى سورة أخرى ليشرح هذه القضية شرحا يجلى لنا قضية الإيمان بالفكر الإنسانى ، فلا ننتظر الواعظ فقط الذى يأتينا بالرسالة والنبوة ليدل على المنهج المراد لمن خلق ، بل يحتم علينا أن نتنبه بالفطرة إلى من خلق ، لأننا قلنا من قبل :لو أن إنساناً وقعت به طائرة فى صحراء ، ولم يجد فيها ماء ولا شجراً ولا أناسا ولأنه مجهد غلبه النوم ، فاستيقظ فوجد مائدة عليها أطايب الطعام ، بالله قبل أن يمد يده لينتفع بها ، ألا يجول فكره فيمن صنع هذه ؟ إن دهشته من الحدث تجعله يفكر فيمن جاء بها قبلما يذوق الطعام ، رغم أنه جوعان ، فكذلك الناس الذين فتحوا عيونهم فوجدوا هذا الكون العجيب ، وبعد ذلك لم يدَّع أحد منهم أنه خلقه ، ولو كان أحد قد ادعى أنه خلقه . . لكانت المسألة تسهل ، لكن أحدا لم يدع صنعه . هذا الكون الذى نراه جميعا بانتظامه الرائع ، وقوانينه الثابتة . هل قال أحد : إننى صنعته ؟ لا ، إذن فالذى قال : إننى صنعته تُسْلم له الدعوة ، حتى يأتى واحد آخر يقول : أنا الذى صنعته . لم يحدث هذا قط برغم وجود الملاحدة والمفترين على الله ، ولذلك جاء قوله تعالى :

﴿ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾

(من الآية ٦٠ سورة النمل)

كأن الحق يقول : إن لم أكن أنا الذى خلقت فمن الذى خلق إذن ؟ ولم يجرؤ أحد على أن ينسب الكون لنفسه ؛ لأن الكفار والملاحدة لا يستطيعون خلق شىء تافه من عدم . ومثال ذلك كوب الماء الذى تركه الله ولم يخلقه على الصورة التى هو عليها ، كى يصنعوه ليفهموا أن كل شىء تم بخلقه ـ سبحانه ـ كوب الماء هذا شىء تافه أترف الحياة ، وقبل أن تتم صناعة الكوب كنا نشرب ولم يكن هناك شجر يطرح ويثمر أكواباً بل صنعه إنسان أراد أن يترف الحياة ، فإذا كان هذا الشىء الصغير له صانع جال فى نواحى علوم شتى وفى المادة ، ثم نظر إلى الأرض حتى وجد المادة التى عندما تُصهر تعطى هذه الشفافية واللمعان ، فجرب فى عناصر الأرض فلم يجد إلا الرمل[1] .

(١) قيل إن رمل سيناء من أفضل المواد لهذه الصناعة .

واكتشف هذه المادة ومزجها بمواد أخرى لصهرها وإذابتها واحتاجت صناعة الكوب إلى معامل وعلماء ، كل هذا من أجل الكوب الصغير الذى قد تستغنى عنه ، انظر ما يحتاجه لصنعه ؟ احتاج طاقات جالت فى جميع مواد الأرض ، وإمكانات صناعية وأناساً يضعون معادلات كيماوية ، فما بالنا بالأشياء الأصلية وكم تحتاج ؟

إن كل صنعة تحتاج على قدرها ، ولم يقل أحد : إننى صنعتها ، فيقول الحق : من الذى صنع كل هذا ؟ وساعة يطرح سؤالاً فهو لا يريد أن يجعل القضية إخبارية منه ، وهو القادر أن يقول : أنا الذى خلق السماء والأرض ؟ فماذا يفعل المسئول ؟ إنه يتخبط فى إجابته ثم فى النهاية لا يجد إلا الله .

وكأن السائل لا يطرح هذا السؤل إلا إذا وثق أن الإجابة لا تكون إلا على وفق ما يريد « أمَّن خلق السماوات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به » وجاء هنا بالحاجة المباشرة . . « فأنبتنا به حدائق ذات بهجة » أى أنها تسرّ النظر بما فيها من خضرة ، ونضارة ، وطراوة ، وظل ، وأزهار ، وثمار ، ولم يختصر الأمر فيقول : « لتأكلوا منها » لأن الذى يأكل هو الذى يملك فقط ، لكن جمال المنظر لا يحجزه أحد عن كل من يرى ، ويستمتع بما يراه . وكل منا عندما يرى بستاناً جميلاً يسره منظره ، صحيح أنك لا تمد يدك لتأكل منه لأنه ليس ملكك ، لكن هل يمنعك أحد أن تمتع به نظرك . وأن تمتع أنفك برائحته الجميلة ؟ لا .

وهكذا جاء الحق بالنعمة الشائعة لمن يملك ولمن لا يملك فقال : « ذات بهجة » ونعرف أن الحق سبحانه وتعالى حين يمتن بالأشياء يوضح لك : إياك أن تفهم أن الغرض من هذه المسألة أن تأكلها لتملأ بها بطنك فقط ؛ لأن هناك أشياء جميلة لا ننتفع بها أكلاً ، فهناك ألوان من الشجر ليس له ثمرة لكن لابد أن له عملاً ؛ فورقه الجميل قد يفيد فى الظل وما يشيعه من رائحة تعطر الجو ، وبه خشب نحتاج إليه ، وبجانب هذا نجد أشجاراً لها ثمار جميلة ننتفع بها .

ولذلك يقول الحق :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا

﴿ نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

وسبحانه يستفهم من الإنسان « ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أإله مع الله بل هم قوم يعدلون » .

بسطحية راح أحد المستشرقين يردد : أَيْنَعَى الله على الخلق ويعيب عليهم أن يعدلوا ؟ ذلك أنه لم يفهم المعنى الصحيح ، فالعدل هنا بمعنى العدول عن الحق أو الميل عنه . ويقول :

﴿ أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ ﴾

(سورة النمل)

إنه سبحانه الذى خلق الأرض ومن خلالها الأنهار وجعل فيها الجبال الرواسى ، ويوضح الحق سبب وجود الجبال الرواسى فى موقع آخر من القرآن الكريم :

﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾

(سورة فصلت)

فلماذا باركت يا الله ؟ بارك الله فى الجبال وقدر فيها أقواتها ، فالقوت هو ما يُنتفع به فى استبقاء الحياة . ونعرف أن القوت يؤخذ من الزرع ، والزرع ينمو دائماً فى

الأرض الخصبة ، وخصوبة الأرض تكون فى الوديان ، والوادى هو المكان الذى يكون بين جبلين . ولماذا يكون الوادى خصباً بين جبلين ؟ لأن المطر حين ينزل من السماء ، إنما ينزل على الجبال ، والجبال كما نعرف معرضة لعوامل التعرية ، فالحرارة تأتى بعد البرودة ، والحرارة تجعل الأرض تمتد والبرودة تقبض المادة ، وما بين القبض والبسط يحدث للجبال التشقق السطحى . وعندما ينزل المطر فهو يجرف هذه التشققات ، فتنزل من قمة الجبل بقوة الدفع لتصير جسيمات ناعمة ، ونسميها نحن الغِرْين أو الطمى ، كالذى كان يأتى لنا من الحبشة ، والذى أحدث خصوبة وادى النيل .

إذن فالجبال هى مخازن الأقوات . ومن فضل الله أن جعل الجبال صلبة ، فلو أنها كانت هشة من أول الأمر ، لكان سيلٌ واحد من المطر كفيلاً بإزالتها كلها ، ولجعل الأرض سطحاً واحداً ، ولا أنتفع البشر بنصف متر من الخصوبة . وبعد ذلك يأتى الجدب . ونعلم أن الحق جعل مع التكاثر الإنسانى تكاثراً لأسباب القوت ، فكيف يكثر الحق سبحانه من القوت ؟

نحن نرى أن للجبال قمة ولها قاعدة ، وبين كل جبل وجبل يوجد الوادى ، ونعرف أن ضيق الوادى يكون فى أدناه، واتساع الوادى فى أعلاه ، والجبل عكس الوادى . فضيق الجبل يكون فى القمة واتساعه فى القاعدة أى أن قمة الجبل أقل اتساعا من قاعدته . وعندما ينزل الغرين بوساطة المطر من الجبل فهو ينزل إلى الوادى ، فيرفع من مستوى سطح الوادى ، وتتسع مساحة الوادى . وكلما نزل المطر على الجبال اتسعت مساحة الوديان التى بين الجبال؛ لأن المطر يحمل معه أجزاء من الجبال وهو ما يسمى بالغرين . وعندما يشاء الحق سبحانه إيذان النهاية ، تتفتت كل الجبال ويقول للساعة : « قومى الآن » .

وهو يقول : « وجعل لها رواسى وجعل بين البحرين حاجزا أإله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون » .

وفى موقع آخر يقول الحق :

﴿ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ ﴾

(سورة الرحمن)

الماء له استطراق فسلكه الله ينابيع فى الأرض ، فالإنسان يحفر فى مكان من الأرض فيجد الماء عذباً ، وفى موقع آخر يدق الإنسان الأرض ويحفرها ليجد الماء ولكنه مالح . لماذا إذن لم يتسرب الماء المالح إلى الماء العذب وكلاهما تحت الأرض ؟ إذن لا بد أن للماء المالح مسارب تختلف عن مسارب الماء العذب ولا يطغى أحد على الآخر .

لماذا ؟ لأننا نجد أن الماء العذب يأتى من أعلى . ونجد دائماً منابع الأنهار عالية وتصب فى البحر . والحق لم يجعل منسوب الماء المالح أعلى من منسوب الماء العذب حتى لا يطغى الماء المالح على الماء العذب ، لأنه سبحانه يريد أن يرتوى الناس من الظمأ بالماء ، ويريد للزرع أن ينمو ، وأن يتجه الفائض من الماء العذب إلى مخزن الماء سواء فى بطن الأرض أو فى البحار ، وتأتى من بعد ذلك عملية التبخير فيتصاعد الماء بخاراً ليصير سحاباً ، ثم يمطر من بعد ذلك ماء عذبا . والقدر الذى خلقه الله من الماء أزلاً ، هو . هو ، لا يزيد ولا ينقص .

فالإنسان إذا كان قد شرب أطناناً من الماء طوال حياته ، فهل ظلت تلك الأطنان فى جسد الإنسان أو أن تلك الأطنان قد خرجت فى فضلات الإنسان ؟ إن الإنسان لا يختزن إلا الموجود فيه الآن من الماء . والجسم الإنسانى به حوالى تسعين بالمائة من مكوناته من الماء ، وبعد ذلك يموت الإنسان فيتبخر منه الماء وتنزل بقية العناصر للأرض . إذن فكمية المياه واحدة ، ولكنها تخضع لدورة أرادها الله .

وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾

(من سورة النمل)

ومعنى المضطر هو الإنسان الذى استنفد أسباب بشريته ولم يدرك ما يحفظ به حياته ولذلك يقول الحق :

﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

(سورة يونس)

وكذلك يقول الحق فى موضع آخر بالقرآن الكريم :

﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

ذلك أنه عندما يصاب الإنسان بحادث جسيم ، فهو لا يكذب على نفسه ، حتى الكافر بالله عندما يجد أن كل الأسباب المادية التى أمامه لا تنفعه فهو يلجأ ويعترف بأنّ هناك إلهاً واحداً خالقاً . فيقول : يارب .

إذن فالحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾

(سورة النمل)

كل هذه الآيات تؤكد قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

إنها ظواهر كونية . واختلاف الليل والنهار يعنى أن هناك شيئاً يناقض شيئاً آخر أو يأتى بعد شىء آخر . إذن فاختلاف الليل والنهار له معنيان : فمجىء الليل بعد النهار يعنى اختلافهما أى كل منهما خليفة للآخر . والزمن يمثل ذلك .

واختلاف آخر يتمثل فى أن النهار منير ، والليل مظلم ، والنهار محل حركة ، والليل محل سكون . فاختلاف الليل والنهار ليس آية فقط ولكنه آيات لكثيرين .

وكأن الحق سبحانه وتعالى يوضح لنا : أنّ الفرد أعجز من أن يستنبط كل ما فى الآيات ، ولكن على كل واحد منكم أنتم البشر أن يستنبط آية ، وكل إنسان يستنبط آية ينتفع بها هو وغيره من الناس وهكذا .

إنها آيات يتوزع استنباطها على الخلق الذين يملكون البصيرة والأخذ بأسباب الله ليشيع الحق الاستنباط من أسرار الله لكل خلق الله المؤمنين إلى أن تقوم الساعة ، وليبين لنا أصحاب العقول الحقيقية التي لا تنشغل بالنعمة عن المنعم بالنعمة ؛ لأن لله إمداداً حين خلق من عَدَم ، وإمداداً حين أمدّ من عُدم ، وإمداداً آخر حينما يلقى على نعمته شيئاً من البركة ، فالذى أخذ نعمة الله التى سبقت وجوده ، وبعد ذلك غفل عن الحق سبحانه وتعالى فإن النعمة تعطيه ، لكنها لا تكون مصحوبة بالبركة .

ومعنى البركة أن يكون الشىء الحاصل والمستنبط من حركتك لا يأتى منه لك ولا للناس إلا الخير . فقد يعطيك الله بالأسباب والمسببات . لكن الله لا يعطيك البركة إذا أخذت النعمة وتركت المنعم . فلو أنك عند كل شىء ذكرت الله لأخذت النعمة والبركة . فحين ترى لك شيئاً تحبه عليك أن تقول : « ما شاء الله لا قوة إلا بالله » .

إنه ليس من شغلك ولا من عملك . ولكنها مشيئة الله وقوته سبحانه .

ولذلك يقولون : إنك إذا رأيت أى نعمة لك فى مال أو ولد أو خُلق أو هندام تقول حين تراها : « ما شاء الله لا قوة إلا بالله » فأنت لا ترى فيها سوءاً أبداً ؛ لأنك رددتها إلى مَن خلقها ، فضمنت صيانة الله لها بذلك الرد ، والذى يحرسها هو الكلمة الواضحة « ما شاء الله لا قوة إلا بالله » .

ولذلك نرى فى قوله تبارك وتعالى :

﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ ﴾

سورة الكهف)

فماذا قال له صاحبه ؟

﴿ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ ﴾

سورة الكهف)

فكان يجب ألا يغتر الإنسان بوجود النعمة وأن يعزوها وينسبها ويردها إلى المنعم وهذا يوضح لنا معنى قول الحق :

﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾

(من الآية ٧ سورة إبراهيم)

فقد تعطيكم الأسباب مسبباتها ، ولكن لا زيادة عن المسببات بالتفضل منه سبحانه بالبركة ، بل ربما كانت فجيعة لصاحبها ، فتعطيه الأسباب ثم ينزع العطاء فتكون حسرة عليك .

إذن فمَنْ هم أولو الألباب ؟

تكون إجابة الحق :

﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾

إنهم يقولون :

« ربنا ما خلقت هذا باطلاً » لأنك حق ، وخلقت السموات والأرض بالحق ، ووضعت لها نواميسها وقوانينها بالحق ، فيجب أن نستقبل النعمة التى خلقتها لنا بالحق . فإن استقبلها بعض الناس بغير الحق ، فإنها تكون وبالاً عليهم . ويقال : إن المؤمن الصادق فى بنى إسرائيل قبل رسالة عيسى عليه السلام كان إذا عبد الله بإخلاص ثلاثين سنة فإن غمامة تظله حيث سار . فكانوا عندما يرون واحداً من هؤلاء يسير تظلله غمامة ، فهم يعرفون أنه عبد الله بإخلاص ثلاثين عاماً .

وعَبَدَ واحد منهم الله ثلاثين سنة ولم ير السحابة تظلله ، فشكا ذلك لأمه فقالت له : لعل شيئا فَرطَ منك . فقال لها : يا أماه لا أذكر . فقالت له : لعلك نظرت مرة إلى السماء ولم تفكر . فقال لها : لعل ذلك حدث . فقالت : الذى يأتيك من ذاك . وهذه القصة تذكرنا بضرورة التفكير فى الله دائماً .

ويروى عن سيدنا الإمام علىّ ـ رضى الله عنه وكرم الله وجهه ـ أنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذا استيقظ فى الليل ، استاك ، ثم نظر إلى السماء .

إذن فالنظر إلى السماء هو النظر إلى العلو . والنظر إلى الأرض أيضا هو تأمل فى حكمة الخالق . لكن النظرة إلى السماء تجعل الإنسان يفطن إلى علو الخالق . ولذلك فالعربى الذى استلقى على ظهره نائما ، واستيقظ ففطن إلى لون السماء الأزرق البديع ، والنجوم تتلألأ فيها فقال : أشهد أن لَكِ رباً وخالقاً ، اللهم اغفر لى . لقد عرف الرجل متى يدعو الله وكيف يدعو ، لذلك غفر الله له .

وفيما روت كتب السيرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه جاء ليلة ونام ، وكانت ليلة عائشة رضوان الله عليها . قالت عائشة لعبدالله بن عمر رضوان الله عليه : فنام بجوارى حتى مس جلدى جلده ، ثم قال : « يا عائشة هل تأذنين لى الليلة فى عبادة ربى » ؟[1] .

لقد استأذن منها رسول الله فى حقها لأن الليلة ليلتها . وأضافت عائشة : يا رسول الله أنا أحب قربك وأحب هواك ، وقد أذِنتُ لَكَ .

لقد احتاطت الاحتياط الجميل ، فهى تحب الرسول ، وتقول : «وأنا أحب قربك » وهذا القول له معنى جميل ، وحدث أن قال بعض المتنطعين على دين الله : إن رسول الله كان كبير السن بفارق كبير بينه وبين عائشة ، وقولها ذلك إنما عن زهد فيه .

---

(١) رواه الترمذى عن عائشة ، ورواه ابن ماجه عن ابن عباس ورواه الطبرانى عن معاوية .

لكنها عائشة ـ رضى الله عنها ـ ردت على ذلك من قبل أن يقال . فقالت : يا رسول الله أنا أحب قربك وأحب هواك وقد أذنت لك . وهذا درس يعطيه لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نتعلم كيف نعامل أهلنا ، حتى ولو كان الأمر الذى يشغلنا عنهم هو العبادة ، وهو لا يريد أن ينشغل المؤمن عن رعاية أهله بعد أداء ما عليه من فروض ، حتى ولو كان عبادة إلا بعد استئذان الأهل .

لماذا ؟ لأن الله طلب من الزوجة فى العبادة غير المفروضة ألا تتطوع حتى تستأذن زوجها . فالزوجة إن صلت تطوعا ، أو صامت تطوعا لابد أن تستأذن زوجها ، فإن أذن لها ، فبها ، وإن لم يأذن فليس لها أن تقوم بهذه العبادة غير المفروضة .

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خيركم . . خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلى »[١]

لأن الزوج حين يقرب زوجته فهو يريد أن يعفها عن التطلعات البشرية ؛ لذلك فعندما تريد الزوجة أن تأخذ وقتها وخصوصا إن كان لها ضرائر ، فهذا الوقت حق لها . فإن أراده الزوج للعبادة غير المفروضة فعليه أن يستأذنها . وقد تكون الحالة النفسية للمرأة فى عدم وجود ضرائر أكثر قدرة على قبول استئذان الزوج لها ليتفرغ للعبادة . ولذلك فأنت ترى من أهل الفتوى الإيضاح الناجح لمثل هذا الأمر .

لقد ذهبت امرأة تشكو زوجها لعمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ وكان مضمون الشكوى أن زوجها لا يقربها ، وكان مع عمر صحابى جليل . فقال له عمر ابن الخطاب : افتها . فقال الصحابى للزوج : يا هذا سنفرض أنك تزوجت أربعاً ، فلزوجتك إذن ليلة بعد كل ثلاث ليال . وإذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم قد استأذن عائشة فى عبادة ربه ، فهذا معناه درس للأزواج أن يحسنوا معاملة الأهل إحساناً لا يجعل للمرأة تطلعا .

لكننا نجد أناسا لا يستأذنون أهلهم لا فى العبادة ، ولا حتى فى سهرات المعصية . وهذا ما يفسد البيوت والأسر . إن ما يفسد البيوت أن يكون الزوج مشغولا عن الزوجة ، ويذهب إلى أصحابه فى المقهى أو فى مكان آخر . ولا يهتم بأفراد أسرته .

١ ـ رواه ابن ماجه والدرمى فى كتاب النكاح .

لماذا لا يذهب إلى منزله ليؤانس أهله ؟ وليشبع رغبتهم ويجلس مع زوجته وأهله وأولاده وبذلك تطمئن الزوجة أن رجلها معها وليس فى مكان آخر ، وذلك حتى تستقر الأمور . إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يستأذن عائشة رضى الله عنها فتأذن له . قالت عائشة رضوان الله عليها :

« فقام إلى قربة فتوضأ ثم قام فبكى ثم قرأ فبكى ، ثم أثنى على الله وحمده فبكى ، حتى ابتلت الأرض ، ثم جاء بلال ، فقال : يا رسول الله صلاة الغداة . فرآه يبكى . فقال : يا رسول الله أتبكى وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال رسول الله : أفلا أكون عبدا شكورا . . يا بلال لقد نزل على الليلة :

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ
(١٩٠) ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ (١٩١)
رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ (١٩٢) رَّبَّنَآ إِنَّنَا
سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا
وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ (١٩٣) رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا
تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ (١٩٤) فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى
لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ فَٱلَّذِينَ
هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ
عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ
ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ (١٩٥) لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ

﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ
لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ
ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ
إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ
أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

وأضاف رسول الله صلى الله عليه وسلم : (فويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها ، وويل لمن لاكها بين فكيه ولم يتأملها)[1] .

هذا ما جاء عن سيدنا رسول الله فى أواخر سورة آل عمران ، تلك الأواخر التى تبدأ بقوله تعالى : (إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار) .

إن فى تلك الآيات المنهج والاستدلال ، واصطحاب الحق سبحانه وتعالى وذكره على كل حال من القيام والقعود وعلى الجنب . إن الحق يقول : (الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض . ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار) .

ها نحن أولاء نرى أن مطلوب أولى الألباب هو أن يذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم . وقال بعض العلماء فى تفسير قول الحق : « الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم » إن المقصود بذلك هو الصلاة ، فمن لا يستطيع الصلاة قائما يصلى قاعدا . . ومن لا يستطيع الصلاة قاعدا فليصل مضطجعا .

---

(١) رواه البخارى فى التهجد ورواه مسلم والترمذى فى الصلاة والنسائى فى قيام الليل وابن ماجه فى الاقامة والإمام أحمد فى مسنده .

ونقول لهؤلاء العلماء : لقد خصصتم هذا المعنى حيث المقام للتعميم ، لماذا ؟ لأن القرآن لا يتعارض مع بعضه ، بل يفسر بعضه بعضا ، والحق يقول عند صلاة الخوف :

﴿ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾ ﴾

(سورة النساء)

وحتى لا يظن المؤمن أن الفروض الخمسة هى التى يذكر فيها الله فقط قال سبحانه :

﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾ ﴾

(سورة النساء)

أى إنه حصلت الصلاة أولا ، وحصلت الصلاة ثانيا ، كأن ذكر الله أمر متصل واجب فى الصلاة ، وفى غيرها ، وبعدها يتفكر المؤمنون فى خلق السموات والأرض ويعترفون أنه سبحانه لم يخلق هذا باطلاً . ويكون المطلوب أن يقولوا :

﴿ سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾

(من الآية ١٩١ سورة آل عمران)

لماذا ؟ لأن كل هذا الذكر لا يوفى حق ربنا علينا .. لذلك قالوا :

﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ ﴾

إنها العظمة ، فهم لا يذكرون عذاب من يدخل النار ، ولكنهم يذكرون خزى الله لمن دخل النار . وكأن الخزى مرتبة أشر من عذاب النار ، فمن الذى أعطانا كل هذا الفضل ، إنه ـ سبحانه ـ أعطانا توفيقا لذكره ، وتوفيقا لنتفكر فى خلق السموات والأرض ، فهل يصح أن نقابله بكفران النعمة ؟ وما الذى يحدث لهؤلاء الذين يدخلون النار ؟

إنه الخزى والعياذ بالله . « وما للظالمين من أنصار » أى وليس لهم أنصار يمنعون عنهم عذاب النار .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ ﴾

فكأن الإنسان بقلبه وفكره قبل أن يجىء له الرسول يجب أن يتنبه إلى ما فى الكون

من آيات ، وعليه أن يستشرف أن وراء الكون قوة ، ولكن هذه القوة مبهمة فى ذهنه . ما هى ؟ إنه يرى الكون العجيب فيقول لنفسه : من المستحيل أن يكون هذا الكون بلا خالق . إن وراءه قوة لها حكمة ولها قدرة . هذا قصارى ما يصل إليه العقل ولكن أيستطيع العقل أن يدرك أن القوة اسمها الله ؟ أيستطيع العقل أن يدرك ماذا تطلب القوة منه ؟

لا . إذن لابد من رسول يبلغ عن تلك القوة . ولذلك قلنا : إن تلك هى الزلة التى وقع فيها الفلاسفة ؛ لأن الفلاسفة هم الذين بحثوا وراء المادة . ونحن نعلم أن العلم ينقسم إلى قسمين ، قسم مادى قائم على التجربة ، وقسم ميتافيزيقى يبحث فيما وراء المادة . وهذا العلم متاهة الفلاسفة . وهو المضلة التى لم تلتق فيها مدرسة بمدرسة ، ولا تلميذ فى مدرسة مع تلميذ آخر فى مدرسة .

لماذا لم يلتقوا ؟ لأنهم يبحثون وراء المادة . وما وراء المادة غيب . والغيب لا يدخل المعمل . لكن المادة تدخل المعمل . والمعمل عندما يعطى نتائج تحليلات لا يجامل فى هذه النتائج . فالذى يدخل التجربة العلمية فى المعمل بنزاهة فالمعمل يعطيه . والذى يدخل بغير نزاهة لا تعطيه المعامل شيئا .

ولذلك نقول دائما : إننا لا نجد فى العلوم المادية فارقا بين علم شيوعى روسى ، وعلم أمريكى رأسمالى ، فلا توجد كيمياء رأسمالية أو كيمياء شيوعية ولا توجد كهرباء روسية وأخرى أمريكية . إنها كيمياء واحدة ، وكهرباء واحدة لأنها ابنة المعمل وبنت التجربة المادية .

ومن العجيب الذى لا يفطن له الخلق المغرورون من هؤلاء أننا نجد العلم المادى ابن التجربة والمعمل والمادة الصماء التى لا تجامل يحاول كل معسكر أن يسرقه من غيره ، ونجد الجواسيس يسافرون من معسكر إلى معسكر ليسرقوا تصميمات الطائرات والصواريخ . وأن بعضهم يتلصص على بعض حتى يعرفوا العلم المادى .

لكن ماذا عن علم الأهواء والنظريات ؟ إننا نجد أن كل طرف يقيم جدارا حتى لا يخترق علم الأهواء المجتمع .

هم يقيمون الحواجز فى الأهواء ولكن فى العلم المادى يتحولون إلى لصوص . فلماذا لا يأخذون الأهواء مع العلم المادى ؟ إن كل معسكر حريص على العداء مع مذاهب الغير فى الحكم والاجتماع والاقتصاد . لكنهم فى العلم المادى يسرق بعضهم بعضا ؛ لأن المذاهب النظرية تتبع الأهواء ، لكن العلم المادى ـ كما قلنا ـ يتبع الحقيقة المعملية التى لا تجامل .

إذن فساعة يفكر الإنسان بعقله لابد أن يقول : إن وراء خلق الكون قوة خارقة . وقد عرفها العربى بفطرته فقال : البعرة تدل على البعير والقدم تدل على المسير ، أفلا يدل كل ذلك على اللطيف الخبير ؟!!

إنه دليل فطرى ، يدلك على وجود القوة ، لكن ما اسم هذه القوة ؟ لا نعرف . إذن فالأذن تستشرف إلى من يدلها على اسم هذه القوة . فإذا جاء واحد وقال : أنا مُرْسَلٌ من ناحية هذه القوة ، وأنَّ اسمها الله ، كان من المفروض أن تتهافت الناس عليه ؛ لأنه سيحل لها اللغز الذى يشغلهم ، لذلك فالمؤمنون يقولون :

﴿ رَبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ﴾

(سورة آل عمران)

كأن ذهن كل واحد فيهم كان مشغولا بضرورة التعرف على الخالق . وبعد ذلك يقولون :

﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ ﴾

(من سورة آل عمران)

فأول حاجة فكروا فيها هى درء المفسدة ؛ لأن أفاضل الناس يتهمون أنفسهم بالتقصير دائما ؛ لذلك قالوا : « ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفِّر عنا سيئاتنا » .

وعندما ننظر إلى معطيات القرآن نجد أن « الذنب » شىء ، و« السيئة » شىء آخر . فالذنب يحتاج إلى غفران ، والسيئة تحتاج إلى تكفير ، على سبيل المثال « كفارة اليمين » تكون واجبة إذا ما أقسم المؤمن يمينا وحنث فيه ، وهذا التكفير هو المقابل

للحنث فى اليمين ، أما الأشياء التى تتعلق بالمعصية بين العبد وربه فهى الذنب ، والسيئة هى الأمر الذى يخالف منهج الله مع عباد الله . فحين تفعل المعصية فى أمر بينك وبين الله فأنت لم تسئ إلى الله ، فمن أنت أيها الإنسان من منزلة الله ؟ لكنك بالمعصية تذنب ، والذنب تأتى بعده العقوبة . أما مخالفة منهج الله مع عباد الله فهى سيئة ؛ لأنك بها تكون قد أسأت .

لذلك فالمؤمنون قالوا : « ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفِّرْ عنا سيئاتنا » .

ومن الذى هداهم إلى معرفة أن هناك فرقا بين الذنب والسيئة ؛ وأن الذنب يحتاج إلى غفران ، وأن السيئة تحتاج إلى تكفير ؟ إنه الرسول صلى الله عليه وسلم حامل الرسالة من الله . وهو الذى علمنا الفرق بين الذنب والسيئة . فقد كان جالساً بين أصحابه فأخذته سِنَةٌ من النوم ، ثم استيقظ فضحك .

فعن أنسٍ رضى الله عنه قال : « بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس إذ رأيناه ضحكَ حتى بدت ثناياه فقال عمر رضى الله عنه : ما أضحكك يا رسول الله ؟ قال : رجلان جثيا من أمتى بين يدى رب العزة فقال أحدهما : يارب خذ لى مظلمتى من أخى . قال الله : أعط أخاك مظلمته . قال يارب : لم يبق من حسناتى شىء ، قال : يارب يحمل عنى من أوزارى . وفاضت عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبكاء ثم قال : إن ذلك ليوم عظيم ، يوم يحتاج الناس إلى أن يُتَحَمَّل عنهم من أوزارهم . فقال الله للطالب : ارفع بصرك فانظر فى الجنان فرفع رأسه فقال : يارب أرى مدائن من فضة وقصوراً من ذهب مكللةً باللؤلؤ لأى نبى هذا ؟ لأى صِدّيقٍ هذا ؟ لأى شهيدٍ هذا ؟ قال : هذا لمن أعطى الثمن . قال : يارب ومن يملك ثمنه ؟ قال : أنت . قال : بماذا ؟ قال : بعفوك عن أخيك . قال : يارب قد عفوت عنه ، قال : خذ بيد أخيك فأدخله الجنة . ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم فإن الله يُصلحُ بين المؤمنين يوم القيامة »[1] .

---

(١) رواه أبو يَعْلَىَ والحاكم وصححه ورواه السيوطى فى الدر المنثور وابن كثير فى التفسير .

هذا هو معنى التكفير أى أن نتحمل ، لذلك نقول فى الدعاء كما عُلِّمْنَا : « اللهم ما كان لك منها فاغفره لى ، وما كان لعبادك فتحمله عنى » . أى أن العبد يطلب أن يراضى الحق عباده من عنده ، وما عنده لا ينفد أبدا .

والعباد المؤمنون يقولون : « ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار » أى اختم لنا سبحانك هذا الختام مع الأبرار . ومن بعد ذلك يأتى قوله تعالى حكاية عنهم :

﴿ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ ﴾

أى ربنا أعطنا ما وعدتنا على لسان رسلك ، ولتسمع قول الحق استجابة لهم :

﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَـٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَـٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾ ﴾

ولْنر اللفتة الجميلة فى الاستجابة : « فاستجاب لهم ربهم أنّى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض » لقد كانوا يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ، ويتفكرون فى خلق السموات والأرض . ويخشون خزى الدخول إلى النار . ودعوا الله بغفران الذنوب وتكفير السيئات . ودعوا الله أن يأتيهم ويعطيهم ما وعدهم به على ألسنة الرسل .

لم يقل الحق سبحانه: استجبت لكم ، لكنه جعل الاستجابة هى قبول العمل فقال: « أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى » فليست الحكاية كلاما يقال ، إنما يريد الله أن تدخل هذه المسائل فى حيز التطبيق والنزوع العملى ؛ فالمسألة ليست بالتمنى فقط ، فقد وضع سبحانه الشرط الواضح وهو العمل ، فمن يريد استجابة الحق فلابد له من العمل . إن التفكر فى بديع صنع الله لا يغنى عن العمل ؛ لأن الحق سبحانه يريد التفكر فيه وأنت تعمل فى أسبابه . فأسباب الحق لا تشغلك عنه .

﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

فالذين هاجروا من بلادهم ومن أهلهم ومن أوطانهم ومن أحبابهم ، دون إكراه فهجرتهم هذه هى نزع وجودى ، وانتقال من مكان إلى مكان جديد وكان ذلك فى سبيل الله. أى ، فالذين هاجروا وخرجوا بجزء من إرادتهم ، وكذلك الذين أخرجوا من ديارهم ، وقاتلوا فى سبيل الله وتحملوا الايذاء وقُتلوا ـ هؤلاء ـ ينالون التكفير عن السيئات ويدخلون الجنة .

لقد جاء الحق هنا بالعملية التى تتضح فيها الأسوة الإيمانية ؛ لأن الإنسان ينشغل بماله وأهله ووطنه وباستبقاء الحياة ، فإذا ما ضحى الإنسان بهذا كله فى سبيل الثبات

على كلمة الله أولا ، وإعلاء كلمة الله ونشرها ثانيا . فالمؤمن من هؤلاء لم يكتف بنفسه بل جاهد فى سبيل الله لتنتقل الحياة بحلاوتها إلى غيره ، وبذلك يكون قد أحب لغيره ما أحبه لنفسه .

نخرج من كل هذا برؤية واضحة هى أن الفكر وحده لا يكفى وإذا قال واحد : إن إيمانى حسن فلا تأخذنى بالمسائل الشكلية ، نرد عليه قائلين : إن الله ليس فى حاجة إلى ذلك ، ولكنه يطلب منك أن تعمر الكون بحركتك ، وأبرك الحركات وأفضلها أن ترسخ منهج الله فى الأرض ؛ لأنك إن رسخت منهج الله فى الأرض ، أدمت للوجود جماله .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿١٩٦﴾ ﴾

وإذا ما سمعنا كلمة « تقلب الذين كفروا فى البلاد » فاعلم أن التقلب يحتاج إلى قدرة على الحركة . والقدرة على الحركة تكون فى مكان الإنسان وبلاده ، فإذا اتسعت قدرتك على الحركة وانتقلت إلى بلد آخر ، فعندئذ يقال عن هذا الإنسان : « فلان نشاطه واسع » أى أن البيئة التى يحيا فيها ليست على قدر قدرته ، بل إن قدرته أكبر من بيئته . لذلك فإنه يخرج من بلده . وكان ذلك يحدث ، فكفار قريش كانوا يرحلون من بلدهم فى رحلات خارجها . لذلك قال الحق :

﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿١٩٦﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

والتقلب كما عرفنا ينشأ عن : قدرة وحركة واتساع طموح . وسبحانه يريد أن يبين لنا أن زخارف الحياة قد تأتى لغير المؤمنين . إن كل زخرف هو متاع الحياة الدنيا وهو مرتبط بعمر الانسان فى الوجود . ومهما أخذوا فقد أخذوا زينة الحياة وغرورها ؛

فسبحانه هو القائل :

﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾

(من الآية ١٨٥ سورة آل عمران)

إنها حياة لها نهاية . أما الذى يريد أن يُصَعِّدَ النعمة ويصعد النفع فهو يفعل العمل من أجل حياة لا تنتهى . والكافرون قد يأخذون العاجلة المنتهية ، ولكن المؤمنين يأخذون الآجلة التى لا تنتهى .

وحين نقارن بين طالب الدنيا وطالب الآخرة ، نرى أن الصفقة تستحق أن نناقشها من نواحيها وهى كما يلى : لا تقس عمر الدنيا بالنسبة لذاتها ، ولكن قس عمرها بالنسبة لعمر الفرد فى الحياة ؛ لأن عمر الدنيا عند كل فرد هو مدة بقائه فيها ، فهب أن الدنيا دامت لغيرى ، فمالى ولها ، إن عمر الدنيا قصير بالنسبة لبقاء الإنسان فيها ، وإياك أن تقارنها بقولك : إن الدنيا سوف تبقى لملايين السنين ؛ لأنها ستظل ملايين السنين لملايين الخلق غيرك ، وعمر الدنيا بالنسبة لك هو عمرك فيها ، وعمرك فيها محدود ، وهذا على فرض أن الإنسان سيعيش متوسط الأعمار . فما بالك وعمرك فيها مظنون ؛ لأن الموت يأتى بلا سن ولا يرتبط بسبب أو بزمان . ولذلك فالإنسان لا يضمن متوسط الأعمار . وعمر الآخرة متيقن وهو إلى خلود .

إذن فعمر الإنسان فى الدنيا مظنون وعمره فى الآخرة متيقن ، والدنيا محدودة ، وفى الآخرة خلود ، ونعيمك فى الدنيا منوط بقدرتك على تصور النعمة وإمكاناتها . ولكن نعيمك فى الآخرة على قدر عظمة رَبِّك وعطائه العميم ؛ لذلك قال الحق عنها : إنها متاع الغرور . ولم يأت الله لها باسم أقل من اسم الدنيا ، فهل هناك اسم أقل وأحقر من هذا ؟ إن الذين يغترون بما يناله الخارجون عن منهج الله من تقلبهم فى البلاد عليهم أن يتذكروا أن كل ذلك إلى زوال وضياع . وعلينا أن نقارن التقلب فى البلاد بما أعده الله لنا فى الآخرة . وساعة تقارن هذه المقارنة تكون المقارنة سليمة . .

ولذلك يتابع الحق قوله عن تقلب الذين كفروا فى البلاد :

﴿ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۚ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ١٩٧ ﴾

والمهد هو المكان الذى ينام فيه الطفل . ومعنى ذلك أن الحق يقلب فيهم فى جهنم كما يريد ؛ لأنه لا قدرة لهم على أى شىء ، شأنهم فى ذلك شأن الطفل ، يزال ملازما لفراشه ومهده حتى يقلبه ويحركه غيره . ويأتى المقابل لهؤلاء وهم المؤمنون فيقول :

﴿ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّلۡأَبۡرَارِ ١٩٨ ﴾

والنزل هو المكان الذى يعد لنزول الضيف ، والنزل حينما تقيمه قدرات بشرية تتراوح حسب إمكانات البشر وفى احدى السفريات نزلنا فى فندق فاخر فقال لى زملائى وإخوانى :

هذا لون من العظمة البشرية .
قلت لهم : هذا ما أعده البشر للبشر ، فكيف بما أعده الله للمؤمنين ؟

وعندما ترى تقلب الكفار فى البلاد فاعلم أنهم لن يأمنوا أن يأخذهم الله فى تقلبهم ، وفى ذلك يقول :

﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

ويقول ـ سبحانه ـ :

﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾

(سورة النحل)

والكافر من هؤلاء يتملكه الغرور ، وهو يتقلب فيأتيه عذاب الله بغتة . والعذاب يأتى مرة بغتة ، ومرة أخرى جهرة . إنه يأتى بغتة حتى يكون الإنسان متوقعا له فى أى لحظة . ويأتى جهرة حتى يرعب الإنسان ويخيفه قبل أن يقع . ولذلك يقول الحق :

﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾

(من الآية ٥٥ من سورة البقرة)

فالموت إن جاءهم بغتة فقد لا يشعرون بهوله إلا لحظة وقوعه ، ولكن حينما يأتيهم الموت وهم ينظرون ، فهم يرونه وهم فى فزع ورعب .

والحق يقول من بعد ذلك :

﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ ﴾

والحق سبحانه وتعالى يؤرخ للإيمان تأريخا صادقا أمينا ، فالقرآن لم يتحامل على أهل الكتاب لأنهم عاندوا رسول الله وواجهوا دعوته وصنعوا معه كل ما يمكن أن يحبط الدعوة ويقضى عليها .

إن القرآن يقول : فى شأن بعض منهم منصفا لهم : « وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله » . وهذا اسمه ـ كما قلنا ـ صيانة الاحتمال . فساعة يقول الحق : « وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله » ، ساعة ينزل هذا الكلام ، فيسمعه بعض من أهل الكتاب الذين انشغلوا فى أعماقهم بتصديق الرسول ، ويعرضون قضية الإيمان على نفوسهم ، فإذا ما كانوا كذلك ماذا يكون موقفهم وهم الذين يفكرون فى أمر الإيمان بما جاء به محمد ؟ إنهم عندئذ يقولون لأنفسهم : هذه مسألة فى أعماقنا ، فمن الذى أطلع محمدًا عليها ؟ إن ذلك دليل على أن محمداً لا ينطق عن الهوى ، وأن الله يعلمه بما فى نفوسنا مما لم يبرز إلى حيز الوجود . ومادام الحق يخبره بما لم يخرج إلى حيز الوجود فلابد أنه صادق . فإن كانت الآية قد قيلت بعد أن آمنوا فلن يكون لها هذا الوقع .

إذن فلابد أن هذا القول تبشير بأن كثيرًا من أهل الكتاب يفكرون فى تصديق رسول الله فى البلاغ من الله ، وهم بصدد أن يؤمنوا . فقول الله ذلك يجعل العملية الإيمانية فى نفوسهم مصدقة ، لأنهم يقولون : إنّ الرسول الذى يقول ذلك هو مبلغ عن إله يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾ ﴾

هذه الآية هى ختام سورة آل عمران . وسورة آل عمران جاءت بعد سورة

البقرة . والسورتان تشتركان معاً فى قضية عقدية أولى ، وهى الإيمان بالله والتصديق بمحمد صلى الله عليه وسلم وبما جاء به من عند الله خاتما للرسالات ومهيمناً عليها . ولذلك تكلم الحق عن قضية الإيمان وقضية الهدى وقضية الكتاب ، ثم تعرض الحق لرواسب ديانات سابقة تحولت عن منهج الله إلى أهواء البشر ، فجادل فى سورة البقرة اليهود ، وجادل فى سورة آل عمران النصارى .

وبعد ذلك عرض قضية إيمانية تتعلق بموقف المسلمين المؤمنين بالله وبتصديق رسوله فى معترك الحياة ، وعرض معركة من المعارك ابتلى فيها المؤمنون ابتلاءً شديداً ، ثم عرض للقضية الإيمانية حين يثوب المؤمن المتخاذل إلى منهج ربه . وبعد أن ينتهى من هذه ، يقول الحق : « يا أيها الذين آمنوا » أى يا من آمنتم بما تقدم إيماناً بالله ، وتصديقاً بكتابه ، وتصديقاً برسالته صلى الله عليه وسلم ، وتمحيصاً للحق مع اليهود ، وتمحيصاً للحق مع أهل الكتاب جميعا ، تمحيصاً لا جدلياً نظرياً ، ولكن واقعيا فى معركة من أهم معارك الإسلام وهى معركة أحد ، فيا من آمنتم بالله إيمانا صادقا صافيا ، استمعوا إلىّ يا من آمنتم بى « اصبروا » وهذا أمر ، و« صابروا » أمر ثان ، و« رابطوا » أمر ثالث ، و« اتقوا الله » أمر رابع .

إنها أربعة أوامر ، والغاية من هذه الأوامر هى « لعلكم تفلحون » . إذن فمن عشق الفلاح فعليه أن ينفذ هذه الأربعة : اصبر ، صابر ، رابط ، اتق الله ، لعلك تفلح .

والحق سبحانه وتعالى حين يعبر عن الفلاح إنما يعبر بأمر مشهود مُحس للناس جميعا ، لم يقل لك : افعل ذلك لتنجح أو لتفوز . إنما جاء بكلمة « الفلاح » . و« الفلاح » كما قلنا: مأخوذ من فلح الأرض . وفلح الأرض هو شقها لتتعرض للهواء ، ولتكون سهلة هينة تحت الجذير البسيط الخارج من البذرة ، فإذا فلحت الأرض بهذه المشقة حرثاً وبذراً وتعهداً بالرى ماذا يحدث لك من الأرض ؟ إنها تؤتيك خيراً مادياً مشهودا ملحوظا .

إذن فقد ضرب الله المثل فى المعنويات بالأمر المُحس الذى يباشره الناس جميعا ، وأى فَلَاح هذا الذى يقصده الحق سبحانه وتعالى ؟ إنّه فلاح الدنيا وفلاح الآخرة ؛

فلاح الدنيا بأن تنتصروا على خصومكم ، وأن تعيشوا معيشة آمنة مستقرة رغدة ، وفلاح الآخرة أن تأخذوا حظكم من الخلود فى النعيم المقيم ، ومادام سبحانه يقول : اصبروا فلابد أن يكون هذا إيذانا بأن فيه مشقة ، فالإيمان يؤدى إلى الجنة ، والجنة محفوفة بالمكاره ؛ لذلك لابد أن تكون فيه مشقات .

وإذا نظرت إلى تلك المشقات تجدها فى ذات النفس منفصلة عن المجتمع تارة ، وتجدها فى ذات النفس مع المجتمع تارة أخرى ، أما فى ذات النفس مفصولة عن المجتمع ، فإن الصبر يقتضى أن تصبر على تنفيذ أمر الله فى فعل الطاعات وعلى تحمل الألم منه فى ترك المعاصى وإن كان ذلك يمنعك عن لذة شهوة تحبها فإنك تصبر عن تلك الشهوة التى تلح عليك ، فمجاهدة المؤمن أن يصبر عن الشهوات التى نهى الله عنها ، والأشياء التى تصيب الإنسان يصبر عليها ، فالمصيبة فى النفس يصبر عليها ، والأشياء التى يصبر عنها من النواهى هى الشهوات والمتع التى يحرمها الله .

وكأن الحق سبحانه وتعالى يقول : إننى خلقتك وأعلم منازعة نفسك إلى الشهوة ، لأنك تحبها فاصبر عنها ، والأمور التى فى الطاعة إن فعلتها ستورثك مشقة فى ذاتك ، اصبر عليها ، إذن ففى الأوامر صبر على تنفيذها ، وفى المناهى صبر عن إيقاعها ، هذه كلها فى الذات ، وبعد ذلك إذا تعدت المسألة من الذاتية إلى المحيط الخارجى فالحق يقول :

﴿ وَٱلصَّـٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾

(من الآية ١٧٧ سورة البقرة)

يقول : « صابرين فى » ، فعندنا : « صابر على » ، و« صابر عن » ، و« صابر فى » ، « والصابرين فى البأساء » التى تقع عليهم من المجتمع الخارج عنهم ، وكيف تصيبهم البأساء من المجتمع الخارج عنهم ؟ نعم ، لأن منهج الحق إنما يجىء ليصوب الخطأ فى حركة المجتمع . والخطأ فى حركة المجتمع إنما يستفيد منه أناس وهم يحرصون جاهدين أن يصدوا من يريدون تثبيت منهج الله ، إذن فهم لا يقصرون فى إيذائهم ، وفى السخرية منهم ، وفى إتعابهم وفى حربهم ، وهذا صبر فى البأساء

والضراء وحين البأس ، وإذا كان عدوك الذى جئت لتدحض منهجه الباطل بمنهجك الحق صابرك وصابر أيضا على إيذائك ، فعليك أن تصابره .

ماذا يعنى ذلك ؟ يعنى أن « اصبر » غير « صابر » ، فاصبر هو أمر فى نفسك ستصبر عليه ، ولكن هب أن خصمك صبر أيضا على إيذائك ، وصار عنده جلد ليقف أمامك هنا ،

الحق يأمرك هنا بأن تصابره ، أى إذا كان عدوك يصبر قليلا فعليك أنت أن تقوى على الصبر عليه ، أى أن تجىء بصبر فوق الصبر الذى يعارضك ، وكل مادة « فاعَل » هكذا .

مثال ذلك : عندما تقول : فلان نافس فلانا . والمنافسة تكون بين اثنين يحتاجان ويقصدان غاية ، وكل واحد يريد أن يصل إليها ، والذى يريد أن يصل إليها يريد أن يصل بحرص ، فإن كان معاندك يحرص عليها بخطوة فاحرص عليها أنت بخطوتين ، هذه هى المنافسة ؛ فالمنافسة مغالبة على الفوز ، والحق يقول :

﴿ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴾

(من الآية ٢٦ سورة المطففين)

والأصل فيها هو : إطالة النفس حين يغطس الإنسان فى الماء ، وسيدنا عمر ـ رضى الله عنه ـ قال للعباس ـ رضى الله عنه ـ : أتنافسنى ؟ أى عرض عليه أن ينزلا معا تحت الماء ، ويرى مَن منهما أطول نفسا . إذن فالفطن الكيّس هو من يتمرس على هذا العمل ولا ينزل إلى الماء فى نفس متردد ، بل يأخذ كمية من الهواء بشهيق يتسع له تجويف صدره كله ليكون عنده حصيلة يستطيع بها أن يمكث فى الماء أطول مدة من الثانى ، أما الذى يغطس وليس عنده هذه الحصيلة ، فسيأخذ مقدار شهيق وزفير فقط ، « فنافسنى » تعنى أن نغطس فى الماء معا لنرى من منا أطول نفسا . أى أنه قادر على أن يحتفظ بكمية من الهواء تستطيع أن تؤدى وظيفة حياته مدة طويلة ، ولا يمكن أن يتأتى هذا إلا إذا أخذت شهيقا يملأ الصدر حتى إنك لا تقدر أن تزيد ، ولذلك فالطبيب عندما يريد أن يفحص حالة الرئة يقول للمريض : خذ نفسا طويلا ، لأنه يريد أن يرى المريض وقدرته .

إذن فالمصابرة تعنى إن كان خصمك يصابرك فأنت تصبر وهو يصبر ، فتصبر أنت

أكثر ، ولهذا تحتاج المسألة إلى أن يتكاتف المجتمع كله على المصابرة ، ولذلك جاء قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣ ﴾

(سورة العصر)

أى أنك إذا رأيت أخا من إخوانك المؤمنين يخور ويضعف فى مصابرته فتحثه على المصابرة وقل له : إياك أن تخور ، لماذا ؟ لأن النفس البشرية من الأغيار ، وقد يأتى لها حدث يقوى عليها ، فالمؤمن الذى ليس عنده هذه الأغيار ينفخ بالعزيمة فيمن يخور فقال الحق : « تواصوا » ، ولم يقل : جماعة يوصون جماعة ، لا . « فالتواصى » أن تكون أنت مرة موصِياً ، ومرة مُوصىً ، فساعة لا يكون عندك ضعف الأغيار فَوصٍّ ، وساعة يكون عندك ضعف الأغيار تُوَصىً ، فكل واحد موصٍ فى وقت ، ومُوصىً فى وقت آخر ، ولا نتواصى هذه التوصية على الصبر إلا إذا كنا تواصينا أولا على الحق الذى من أجله نشأت المعركة بين صابر وصابر .

« يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون » وعرفنا الصبر ، وعرفنا المصابرة ، فما هو الرباط ؟ هو أن تشعر عدوك بأنك مستعد دائما للقائه ، هذا هو معنى الرباط . والحق يقول :

﴿ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾

(من الآية ٦٠ سورة الأنفال)

إنها خيل مربوطة للجهاد فى سبيل الله ومستعدة ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « خيركم ممسك بعنان فرسه كلما سمع هيعة طار إليها »[١] .

أى أن نكون مستعدين قبل وقوع الهجوم ، وساعة تأتى الأمور الداهمة ننطلق لمواجهتها . ولكن يكون استعدادنا من قبل الأمر الداهم ، ولذلك حين يكون عدوك

---

(١) رواه مسلم فى الإمارة وابن ماجه فى الفتن ورواه أحمد .

عالما بأنك مرابط له ومستعد للحركة فى أى وقت يرهبك ويخافك ، أما إذا كنت فى استرخاء وغفلة ؛ فإنه يدهمك ، فإلى أن تستعد يكون قد أخذ منك الجولة الأولى ، إذن فما فائدة الرباط ؟

فائدة الرباط أن يُعلم أنك لم تغفل عن عدوك وأنك لن تترك العدة والاستعداد له إلى أن يأتى بالمداهمة ، ولكن تكون أنت مستعدًّا لها فى كل وقت ، والرباط لا يكون فقط أن ترابط بالخيل للعدو المهاجم هجوما ماديا ، بل المرابطة تعني : الإعداد لكل ما يمكن أن يَرُدَّ عن الحق صيحة الباطل ، فمن المرابطة أن تعد الناشئة الإسلامية لوافدات الإلحاد قبل أن تفد ، لماذا ؟ .

لأن المسألة ليست كلها غزوًا بخيل وسلاح وعُدَد ، فقد يكون الغزو بالفكر الذى يتسرب إلى النفوس من حيث لا تشعر ، فإذن لابد أن تكون أيضا فى الرباط الذى يمد المؤمن بقدرة وطاقة المواجهة بحيث إذا جاءت قضية من قضايا الإلحاد التى قد تفد على المؤمنين ، يكون عند كل واحد منهم الحصانة ضدها والقدرة على مواجهتها .

لقد قلنا : إن آفة المناهج العلمية أنهم أخذوا مناهجهم عن الغرب ، فدرسوا التاريخ كما يدرسه الغرب ، ودرسوا الطبيعة كما يدرسها الغرب ونسوا أن لنا دينا يحمينا من كل هذه الأشياء ، فعندما يأتينى رجل التاريخ بمنهجه من الغرب ، ويقول : إن الثورة الفرنسية هى التى أعلنت حقوق الإنسان ، هنا يجب أن تكون عندنا مناعة وترابط ، ونقول له : فى أى سنة نشأت الثورة الفرنسية ؟

لقد نشأت منذ سنوات قليلة ، قد تزيد أو تنقص على المائتى سنة ، وأنتم تجهلون أن الدين الإسلامى جاء منذ أربعة عشر قرنا بحقوق الإنسان ، واقرأوا القرآن . فلو أن كل تلميذ حين يسمع أن الثورة الفرنسية هى التى أعلنت حقوق الإنسان ، يقول لهم : لا ، أنت تعلم أن ذلك حدث فى القرن السابع عشر لكن لماذا لا تلتفت إلى أنه منذ أربعة عشر قرنا جاء الإسلام بهذا المبدأ والتفت إلى الاساءة فى استعمال الحق ، فإذا كنت تجهل تشريع الله فلا يصح أن يؤدى بك هذا الجهل إلى طمس معالم الحق فى منهج الله .

وإذا قال دارس للطبيعة : إن الطبيعة أمدت الحيوان الفلانى باللون الذى يناسب البيئة التى يعيش فيها حتى لا يفتك به عدوه وهو بذلك يضلله ، نقول له : إن الطبيعة لا تمد ، الطبيعة مُمدة من الله ، لا تقل : إن الطبيعة أمدت . إذن فالرباط لا يكون بقوة عسكرية فحسب بل بالقوة العلمية أيضا ، فخصوم الإسلام قد يئسوا من أن ينتصروا على الإسلام بقوة عسكرية بعد أن كتلوا كل قواهم فى الحروب الصليبية ، ولم يبق لهم إلا أن يَدخلوا علينا من خلال مناهجهم ومن خلال المستشرقين هناك ، والمستغربين منا فينقلوا لنا ثقافات أجنبية بعيدة عن منهجنا ، وهم معذورون لأنهم لا يعلمون منهج الله فى دين الله . إذن فالرباط لا بد أن يكون أيضا فى رباط الأفكار ، ورباط العلم المادى .

إن خصوم الإسلام يدخلون على الناس من مداخل متعددة فيجب أن ننبه النشء إليها ، يقولون : أوروبا ارتقت حضاريا وأنتم يا مسلمون تخلفتم . نقول لهم : هل كان التخلف مقارنا للإسلام ؟ لقد كانت الدولة الإسلامية هى الدولة الحضارية الأولى فى العالم لمدة ألف سنة ، وأوروبا التى تتشدقون بحضارتها كانت تعيش فى العصور المظلمة . إن هؤلاء لم يعرفوا تاريخنا أو هم يتكلمون لأناس لا يعرفون تاريخهم .

إذن فالمرابطة أن توضح أمور دينك توضيحا يقف أمام أى وافدة قبل أن تفد بالعدوان المسلح ، ويجب أن تقف لغزو الأفكار ولهدم المبادىء ، ولذلك قال الحق : « اصبروا » . و« صابروا » . و« رابطوا » ، وجماع كل ذلك « الصبر على » و« الصبر عن » و« الصبر فى » ، والمصابرة للعدو والتواصى بالصبر ، والرباط بمعنييه المادى والمعنوى ، أى بالأمور المادية والأمور المعنوية القيمية ، ويختم الحق الآية بقوله : « واتقوا الله لعلكم تفلحون » .

ونعرف أنه حين قال لك : « اتق الله » تساوى أن يقول لك : « اتق النار » فمعنى « اتقوا الله » : أى اجعلوا بينكم وبين غضب ربكم وقاية . ما هى الوقاية ؟ أن تطيع ، وما هى الطاعة ؟ أن تنفذ ما أمر ، وأن تنتهى عما نهى . فالذى يفسر التقوى بأنها الطاعة نقول له : نعم لأنها الوسيلة إلى وقايتك من غضب الله وعذابه ، فالذى

يفسرها بهذا يفسرها بالوسيلة ، والذى يفسرها بالأخرى يفسرها بالغاية ، فعندما يقال لك : اتق الله ، أى اجعل بينك وبين النار التى هى من جنود الله وقاية ، أى اجعل بينك وبين غضب الله وقاية ، وإذا قال لك : اتِّقِ الله يعنى أطعه فى أمره وفى نهيه ، فما هى الوسيلة لاتقاء النار واتقاء غضب الله ؟ إنها الطاعة ، فمرة تفسر التقوى بالوسيلة ومرة تفسر بالغاية .

وقلنا فى قوله : « لعلكم تفلحون » إن الفلاح إما أن يكون فى الدنيا وإما أن يكون فى الآخرة.فى الدنيا:بأن ترتفع كلمة الحق وكلمة الإيمان وتنتصروا ولا أحد يذلكم ولا يجعلكم أحد تابعين له . هذا لون من الفلاح ، ولكن على فرض أنهم فلحوا وضعفتم أنتم ، فى فترة من الزمن فثقوا أنكم تعملون لفلاح آخر هو فلاح الآخرة ، وإلا فالذين يخاطبون بهذه الآية قبل أن يدركوا نصرا للإسلام على أعدائه ، يفسرون الفلاح بماذا ؟ الذين جاهدوا وتعبوا وعاشوا مضطهدين لا استقرار فى حياتهم ، وبعد ذلك ماتوا قبل أن يُمكَّن للإسلام ، كيف يكون فلاحهم ؟ إن فلاحهم فى الآخرة ، ولذلك تجد الاحتياط فى قصة أهل الكهف :

﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُواْ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾ ﴾

(سورة الكهف)

ونلحظ فى هذه القصة قوله الحق : « يرجموكم » هذه واحدة ، « أو يعيدوكم فى ملتهم ولن تفلحوا إذن أبدا » .

إن كانوا يرجمونكم فسينتصرون عليكم فى الدنيا ، إنما ستأخذون الآخرة ، وإن

ردوكم إلى دينهم ، فلن تفلحوا فى الدنيا ولا فى الآخرة ، إذن فعناصر الفلاح المرادة للإنسان ، إما فى الدنيا وإما فى الآخرة وإما فيهما معا.إنّ عناصر الفلاح أن ننفذ أوامر الله فى قوله : « اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون » .

سُورَةُ النِّسَاءِ (٤)

مدنية

عرضنا ـ فيما سبق ـ خواطرنا حول تسمية السور ، وهنا تأتى سورة النساء والاسم المختار لها اسم مكرم للجنس الآخر من النوع الإنسانى ، ونلحظ أن الحق لم ينزل سورة باسم سورة الرجال ، وجاء بسورة وسماها « سورة النساء » وتتعلق بها أحكام كثيرة ، وأيضا سيتكلم فى سورة المائدة عن حقوق النساء ، وأيضا سيتكلم فى سورة الأحزاب عن النساء ، وأيضا سيتكلم فى سورة الممتحنة عن النساء ، وفى سورة المجادلة عن النساء وفى سورة الطلاق ، وفى سورة التحريم عن النساء ، إنها أحكام منصوص عليها فى القرآن عن حقوق المرأة ، وهذه الأحكام جاءت لتتكلم عن الوعاء الحاضن للنفس البشرية .

ونحن نعرف أن مهمة الرجل مع الأجناس الدنيا فى الحياة مع الجماد فى المعمل ، ومع الحيوانات يربى ، ومع الزرع يزرع . إن الرجل يعمل مع تلك الأجناس ، والأجناس كما نعلم هى : جماد ، ونبات ، وحيوان ، وإنسان ، ومجال الإنسان الرجل هو العمل مع الجماد ومع النبات ومع الحيوان ، أما مجال المرأة فمع الإنسان ، أيوجد تكريم للمرأة أكثر من أن الله جعلها الحاضنة لأكرم مخلوقاته وهو الإنسان ؟

انظر إلى طفولة كل الأشياء ، النبات والحيوان تجدها طفولات قصيرة ، هناك حيوانات لا تطول طفولتها لأكثر من شهر ، وهناك حيوانات تستمر طفولتها أياما ، وهناك نبات تكون طفولته سبع سنين ـ وهذه طفولة الشجر المعمر ـ لكن طفولة الإنسان تستمر من الميلاد حتى أربع عشرة سنة ، وهى فترة حضانة طويلة ، ولماذا يجعل الله لهذا الإنسان المكرم حضانة طويلة ؟

إن مهمة الإنسان فى الحياة جليلة . إذن فطفولته تحتاج إلى عناية ،وفى مرحلة الطفولة يتشرب الإنسان نضج ما حوله ليكون سلوكياته ، وعندما يكون فى حضن أمه فهو فى حضن المرأة ، بينما يكدح والده فى الحياة ، ويأتى لهما بالرزق ، ويسكن عند الزوجة .

فالمرأة عندما قاضت الرجل وخاصمته أمام القاضى وهو يريد أن يأخذ ابنه منها ، قالت للقاضى : لقد حمله خِفًا ، يعنى حمله فى ظهره خفيفا لا يدرى به ووضعه شهوة ، ولكننى حملته كرها على كره ؛ لذلك فبعد أن أنزل الحق فى آل عمران سورة وهم قدوة الاصطفاء فى الرسالات وفى التكليفات ، ومنهم جاء لنا ببعض الرسل ، وجاء منهم بمنفذين لمنهج الله مثل امرأة عمران ، فلم تكن هى ولا مريم عليهما السلام نبية ولا رسولة ولكن نفذت كل واحدة منهما ما أمرت به .

وبعد تخصيص سورة لآل عمران يأتى لنا الحق بسورة النساء .

والحق سبحانه وتعالى ساعة يخاطب الذين آمنوا فانتظروا منه تكليفا. ساعة يقول: « يا أيها الذين آمنوا » فافهم أنه يريد أن يكلفك . وسبحانه يوضح لك : أنا لا أقتحم عليك اختيارك ، ولا أكلفك إلا بما كلفت أنت به نفسك لأنك آمنت بى ، ومادمت آمنت بى ربا إلها قادرا حكيما فاسمع منى .

إنّ الله لم يدخلك فى الإيمان فأنت الذى دخلت باختيارك فى الإيمان فيجب أن تستمع إلى من آمنت به ، وقلنا ؛ ـ ولله المثل الأعلى ـ الإنسان منا عندما يذهب إلى الطبيب فهو يختار هذا الطبيب ؛ لأنه أنسب الأطباء لعلاجه ، وساعة يذهب إلى مثل هذا الطبيب فهو يلتزم بأوامره ، ويأخذ تذكرة العلاج ويصرفها من الصيدلية ، وإن لم يجدها يحتال على أى واحد يسافر للخارج ليأتى بها ، وينفذ المريض ما بها من أوامر .

وسبحانه يقول هنا : « يا أيها الناس » إنه لا يطلب من الانسان أى تكليفات ، لكنه يطلب منك أيها الانسان أن تؤمن . فيوضح « يا أيها الناس » . إنه ينادى الناس : تعالوا إلى جانبى كى تروا أيؤمن بى أم لا يؤمن بى ؟ والمقصود بـ « يا أيها الناس » هم آدم وذريته .

والحق يبدأ سورة النساء بقوله :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ ﴾

وساعة يدعو الله سبحانه الناس إلى تقواه يقول : « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة » ومعنى « اتقوا ربكم » أى اجعلوا بينكم وبينه وقاية ، وماذا أفعل لأتقى ربنا ؟

أول التقوى أن تؤمن به إلها ، وتؤمن أنه إله بعقلك ، إنه ـ سبحانه ـ يعرض لك القضية العقلية للناس فيقول : « يا أيها الناس اتقوا ربكم » ولم يقل : اتقوا الله ، لأن الله مفهومه العبادة ، فالإله معبود له أوامر وله نواهٍ ، لم يصل الحق بالناس لهذه بعد ، إنما هم لايزالون فى مرتبة الربوبية ، والرب هو : المتولى تربية الشىء ، خلقا من عدم وإمدادا من عدم ، لكن أليس من حق المتولى خلق الشىء ، وتربيته أن يجعل له قانون صيانة ؟

إن من حقه ومسئوليته أن يضع للمخلوق قانون صيانة . ونحن نرى الآن أن كل مخترع أو صانع يضع لاختراعه أو للشىء الذى صنعه قانون صيانة ، بالله أيخلق سبحانه البشر من عدم وبعد ذلك يتركهم ليتصرفوا كما يشاءون ؟ أم يقول لهم : اعملوا كذا وكذا ولا تعملوا كذا وكذا ، لكى تؤدوا مهمتكم فى الحياة ؟ إنه يضع دستور الدعوة للإيمان فقال : « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم » .

إذن فالمطلوب منهم أن يتقوا ، ومعنى يتقوا أن يقيموا الوقاية لأنفسهم بأن ينفذوا أوامر هذا الرب الإله الذى خلقهم ، وبالله أيجعل خلقهم علة إلا إذا كان مشهودا بها له ؟ هو سبحانه يقول : « اتقوا ربكم الذى خلقكم » كأن خلقة ربنا لنا مشهود بها ، وإلا لو كان مشكوكا فيها لقلنا له : إنك لم تخلقنا ـ ولله المثل الأعلى .

أنت تسمع من يقول لك : أحسن مع فلان الذى صنع لك كذا وكذا ، فأنت مقر بأنه صنع أم لا ؟ فإذا أقررت بأنه صنع ما صنع فأنت تستجيب لمن يقول لك مثل ذلك الكلام . إذن فقول الله : « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم » فكأن خلق الله للناس ليس محل جدال ولا شك من أحد ، فأراد ـ سبحانه ـ أن يجذبنا إليه ويأخذنا إلى جنابه بالشىء الذى نؤمن به جميعا وهو أنه ـ سبحانه ـ خلقنا إلى الشىء الذى يريده وهو أن نتلقى من الله ما يقينا من صفات جلاله ، وجاء سبحانه بكلمة « رب » ولم يقل : « اتقوا الله » ، لأن مفهوم الرب هو الذى خلق من عدم وأمد من عُدْم ، وتعهد وهو المربى ويبلغ بالإنسان مرتبة الكمال الذى يراد منه وهو الذى خلق كل الكون فأحسن الخلق والصنع ، ولذلك يقول الحق :

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ﴾

(سورة العنكبوت)

إذن فقضية الخلق قضية مستقرة . ومادامت قضية مستقرة فمعناها : مادمتم آمنتم بأنى خالقكم فلى قدرة إذن ، هذه واحدة ، وربيتكم إذن فلى حكمة ، وإله له قدرة وله حكمة ، إما أن نخاف من قدرته فنرهبه وإما أن نشكر حكمته فنقر به ، « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة » . لو لم يقل الحق : « وجعل منها زوجها » لما كملت ، لماذا ؟ لأنه سيقول فى آيات أخرى عن الإيجاد :

﴿ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾

(سورة الذاريات)

إذن فخلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها هنا ، والناس تريد أن تدخل فى متاهة . هل خلق منها المقصود به خلق حواء من ضلع آدم أى من نفس آدم ؟ أناس

قالوا ذلك ، وأناس قالوا : لا ، « منها » تعنى من جنسها ، ودللوا على ذلك قائلين : حين يقول الله :

﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾

(من الآية ١٢٨ سورة التوبة)

أأخذ الله محمدا صلى الله عليه وسلم من نفوسنا وكونه ؟ لا ، إنما هو رسول من جنسنا البشرى ، وكأنه سبحانه قد أشار إلى دليل ؛ لأن خلْق حواء قد انطمست المعالم عنه ، ولأنه أعطانا بيان خلق آدم وتسويته من طين ومراحل خلقه إلى أن صار إنسانا ، ولذلك يجوز أن يكون قد جعل خلق آدم هو الصورة لخلق الجنس الأول ، وبعد ذلك تكون حواء مثله ، فيكون قوله سبحانه : « خلق منها » أى من جنسها ، خلقها من طين ثم صورها إلخ ؛ ولكن لم يعد علينا التجربة فى حواء كما قالها فى آدم ، أو المراد من قوله : « منها » أى من الضلع ، وهذا شىء لم نشهد أوله ، والشىء الذى لم يشهده الإنسان فالحجة فيه تكون ممَّن شهده ، وسبحانه أراد أن يرحمنا من متاهات الظنون فى هذه المسألة ، مسألة كيف خُلقنا ، وكيف جئنا ؟

إن كيفية خلقك ليس لك شأن بها ، فالذى خلقك هو الذى يقول لك فاسمع كلامه لأن هذه مسألة لا تتعلق بعلم تجريبى ؛ ولذلك عندما جاء « دارون » وأراد أن يتكبر ويتكلم ، جاءت النظرية الحديثة لتهدم كلامه ، قالت النظرية الحديثة لدارون : إن الأمور التى أثرت فى القرد الأول ليكون إنسانا ، لماذا لم تؤثر فى بقية القرود ليكونوا أناسا وينعدم جنس القرود ؟! وهذا سؤال لا يجيب عليه دارون ؛ لذلك نقول : هذا أمر لم نشهده فيجب أن نستمع ممن فعل ، والحق سبحانه يقول :

﴿ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ ﴾

(سورة الكهف)

ومادام لم يشهدهم ، فهل يستطيع أحد منهم أن يأتى بعلم فيها ؟ إن أحدا لا يأتى بعلم فيها ، وبعد ذلك يرد على من يجىء بادعاء علم فيقول : « وما كنت متخذ المضلين عضدا » ، معنى مضلين أنهم سيضلونكم فى الخلق . كأن الله أعطانا مناعة

فى الأقوال الزائفة التى يمكن أن تنشأ من هذا عندما قال : « وما كنت متخذ المضلين عضدا » ، فقد أوضح لنا طبيعة من يضللون فى أصل الخلق وفى كيفية الخلق ، فهم لم يكونوا مع الله ليعاونوه ساعة الخلق حتى يخبروا البشر بكيفية الخلق . فإن أردتم أن تعرفوا فاعلموا أنه سبحانه الذى يقول كيف خلقتم وعلى أى صورة كنتم ، ولكن من يقول كذا وكذا ، هم المضللون ، و« المضللون » هم الذين يلفتونكم عن الحق إلى الباطل .

« يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة » ولماذا لم يقل خلقكم من زوجين وانتهى ؟ لأنه عندما يُردّ الشىء إلى اثنين قد يكون لواحد من الاثنين هوى ، وإنما هذه ردت إلى واحدة فقط ، فيجب ألا تكون لكم أهواء متنازعة ، لأنكم مردودون إلى نفس واحدة ، أما عن نظرية « دارون » وما قاله من كلام فقد قيض الله لقضية الدين وخاصة قضية الإسلام علماء من غير المسلمين اهتدوا إلى دليل يوافق القرآن ، فقام العالم الفرنسى « مونيه » ، عندما أراد أن يرد على الخرافات التى يقولونها من أن أصل الإنسان كذا وكذا ، وقال : أنا أعجب ممن يفكرون هذا التفكير ، هل توجد المصادفة ما نسميه « ذكراً » ثم توجد المصادفة شخصا نسميه « أنثى » ويكون من جنسه لكنه مختلف معه فى النوع بحيث إذا التقيا معا جاءا بذكر كالأول أو بأنثى كالثانى ؟

كيف تفعل المصادفة هذه العملية ؟

سنسلم أن المصادفة خلقت آدم ، فهل المصادفة أيضا خلقت له واحدة من جنسه . ولكنها تختلف معه فى النوع بحيث إذا التقيا معا ينشأ بينهما سيال عاطفى جارف وهو أعنف الغرائز ، ثم ينشأ منهما تلقيح يُنشىء ذكرا كالأول أو ينشىء أنثى كالثانى ؟ أى مصادفة هذه ؟ هذه المصادفة تكون عاقلة وحكيمة ، سموها مصادفة ونحن نسميها الله .

لقد ظن « مونيه » ـ هداه الله إلى الإسلام وغفر له ـ أنه جاء بالدليل الذى يرد به على دارون ، نقول له : إن القرآن قد مس هذه المسألة حين قال : « اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها » ، وهذه هى

العظمة ، إنه خلق الرجل وخلق الأنثى ؛ وهى من جنسه ، ولكنها تختلف معه فى النوع بحيث إذا التقيا معا أنشأ الله منهما رجالا ونساءً . إذن فهو عملية مقصودة ، وعناية وغاية وحكمة ، إذن فقول الله سبحانه وتعالى : « الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها » . هذه جاءت بالدليل الذى هُدِى إليه العالم الفرنسى « مونيه » أخيرا .

« وبث منهما رجالا كثيرا ونساء » وانظروا عظمة الأسلوب فى قوله « وبث » أى « نشر » وسنقف عند كلمة « نشر » لأن الخلق يجب أن ينتشروا فى الأرض ، كى يأخذوا جميعا من خيرات الله فى الأرض جميعا .

و« النشر » معناه تفريق المنشور فى الحيز ، فهناك شىء مطوى وشىء آخر منشور ، والشىء المطوى فيه تجمع ، والشىء المنشور فيه تفريق وتوزيع ، إذن فحيز الشىء المتجمع ضيق ، وحيز الشىء المبثوث واسع ، معنى هذا أن الله سبحانه وتعالى حينما يقول : « وبث منهما » أى من آدم وحواء « رجالا كثيرا ونساء » واكتفى بأن يقول « نساء » ولم يقل : كثيرات لماذا ؟ لأن المفروض فى كل ذكورة أن تكون أقل فى العدد من الأنوثة . وأنت إذا نظرت مثلا فى حقل فيه نخل ، تجد كم ذكرا من النخل وكم أنثى ؟ ستجد ذكراً أو اثنين .

إذن القلة فى الذكورة مقصودة لأن الذكر مخصب ويستطيع الذكر أن يخصب آلافا ، فإذا قال الله : « وبث منهما رجالا كثيرا » فالذكورة هى العنصر الذى يفترض أن يكون أقل كثيرا ، فماذا عن العنصر الثانى وهو الأنوثة ؟ لابد أن يكون أكثر ، والقرآن يأتى لينبهك إلى المعطيات فى الألفاظ لأن المتكلم الله ، ولكن إذا نظرت لقوله : « وبث منهما » أى من آدم وحواء وهما اثنان « رجالا كثيرا ونساء » . فتكون جَمْعاً وهذا ليدلك على أن المتكاثر يبدأ بقلة ثم ينتهى بكثرة .

ونريد أن نفهم هذه كى نأخذ منها الدليل الإحصائى على وجود الخالق ، فهو « بث منهما رجالا كثيرا ونساء » والجمع البشرى الذى ظهر من الاثنين سيبث منه أكثر . . وبعد ذلك يبث من المبثوث الثانى مبثوثا ثالثاً ، وكلما امتددنا فى البث تنشأ

كثرة ، وعندما تنظر لأى بلد من البلاد تجد تعداده منذ قرن مضى أقل بكثير جدا من تعداده الآن ، مثال ذلك كان تعداد مصر منذ قرن لا يتعدى خمسة ملايين ، ومن قرنين كان أقل عدداً ، ومن عشرة قرون كان أقل ، ومن عشرين قرنا كان أقل ، إذن فكلما امتد بك المستقبل فالتعداد يزيد ، لأنه سبحانه يبث من الذكورة والأنوثة رجالاً كثيراً ونساء وسيبث منهم أيضاً عددا أكبر .

إذن فكلما تقدم الزمن تحدث زيادة فى السكان ، ونحن نرى ذلك فى الأسرة الواحدة ، إن الأسرة الواحدة مكونة عادة من أب وأم ،وبعد ذلك يمكن أن نرى منهما أبناء وأحفاداً وعندما يطيل الله فى عمر أحد الوالدين يرى الأحفاد وقد يرى أحفاد الأحفاد . إذن كلما تقدم الزمن بالمتكاثر من اثنين يزداد وكلما رجعت إلى الماضى يقل ؛ فالذين كانوا مليوناً من قرن كانوا نصف مليون من قرنين ، وسلسلها حتى يكونوا عشرة فقط ، والعشرة كانوا أربعة ، والأربعة كانوا اثنين والاثنان هما آدم وحواء .

فعندما يقول الحق : إنه خلق آدم وحواء ، وتحاول أنت أن تسلسل العالم كله سترجعه لهما ، ومادام التكاثر ينشأ من الاثنين ، فمن أين جاءا ؟ الحق سبحانه يوضح لنا ذلك بقوله : « إنا خلقناكم من ذكر وأنثى » وهو بذلك يريحنا من علم الإحصاء . وكان من الضرورى أن تأتى هذه الآية كى تحل لنا اللغز فى الإحصاء ، وكلما أتى الزمن المستقبل كثر العالم وكلما ذهبنا إلى الماضى قل التعداد إلى أن يصير وينتهى إلى اثنين ، وإياك أن تقول إلى واحد ، لأن واحداً لا يأتى منه تكاثر ، فالتكاثر يأتى من اثنين ومن أين جاء الاثنان ؟ لابد أن أحدا خلقهما ، وهو قادر على هذا ، ويعلمنا الله ذلك فيقول : « خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء » ونأخذ من « بث » « الانتشار » ، ولو لم يقل الله هذا لكانت العقول الحديثة تتوه وتقع فى حيرة وتقول : نسلسل الخلق حتى يصيروا اثنين ، والاثنان هذان كيف جاءا ؟ ـ إذن لابد أن نؤمن بأن أحدا قد أوجدهما من غير شىء .

« وبث منهما رجالا كثيرا » لأن النشر فى الأرض يجب أن يكون خاصا بالرجل ، فالحق يقول :

﴿ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ ﴾

(من الآية ١٠ سورة الجمعة)

والحق يقول :

﴿ فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ ﴾

(من الآية ١٥ سورة الملك)

والأنثى تجلس فى بيتها تديره لتكون سكناً يسكن إليها ، والرجل هو المتحرك فى هذا الكون ، وهى بذلك تؤدى مهمتها .

وبعدما قال : « اتقوا ربكم » يقول : « اتقوا الله » . لقد قدم الدليل أولا على أنه إله قادر ، وخلقكم من عدم وأمدكم وسخر العالم لخدمتكم ، وقدم دليل البث فى الكون المنشور الذى يوضح أنه إله ، فلا بد أن تتلقوا تعليماته ، ويكون معبوداً منكم ، أى مطاعاً ، والطاعة تتطلب منهجاً : افعل ولا تفعل ، وأنزل الحق القرآن كمنهج خاتم ، ويقول : « واتقوا الله الذى تساءلون به » .

انظر إلى « القفشة » ، للخلق الجاحد ، إنه ـ سبحانه ـ بعد أن أخذهم بما يتعاملون ويتراحمون ويتعاطفون به أوضح لهم : أنتم مع أنكم كنتم على فترة من الرسل إلا أن فطرتكم التى تتغافلون عنها تعترف بالله كخالق لكم .

وأنت إذا أردت إنفاذ أمر من الأمور ، وتريد أن تؤثر على من تطلب منه أمراً ، تقول : سألتك بالله أن تفعل ذلك ، لقد أخذ منهم الدليل ، فكونك تقول : سألتك بالله أن تفعل ذلك فلا بد أنك سألته بمعظَّم ، إذن فتعظيم الله أمر فطرى فى البشر ، والمطموس هو المنهج الذى يقول : افعل ولا تفعل . والإنسان من هؤلاء الجاحدين عندما يسهو ، ويطلب حاجة تهمه من آخر ، فهو يقول له : سألتك بالله أن تفعل كذا . ومادام قد قال : سألتك بالله فكأن هناك قضية فطرية مشتركة هى أن الله هو الحق ، وأنه هو الذى يُسأل به ، ومادام قد سئل بالله فلن يخيِّب رجاء من سأله .

إنه فى الأمور التى تريدون بها تحقيق مسائلكم تسألون بالله وتسألون أيضاً بالأرحام

وتقولون : بحق الرحم الذى بينى وبينك ، أنا من أهلك ، وأنا قريبك وأمُّنا واحدة ، أرجوك أن تحقق لى هذا الأمر . ولماذا جاءت « الأرحام » هنا ؟ لأن الناس حين يتساءلون بالأرحام فهم يجعلون المسئولية من الفرد على الفرد طافية فى الفكر ، فمادمت أنا وأنت من رحم واحد ، فيجب أن تقضى لى هذا الشىء . إذن فمرة تسألون بالله الذى خلق ، ومرة تسألون بالأرحام لأن الرحم هو السبب المباشر فى الوجود المادى ، ومثال ذلك قول الحق :

﴿ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾

(من الآية ٣٦ سورة النساء)

لقد جاء لنا بالوالدين اللذين هما السبب فى إيجادنا ، والله يريد من كل منا أن يبر والديه ، ولكن قبل ذلك لابد أن ينظر إلى الذى أوجدهما ، وأن يُصعد الأمر قليلا ليَعرف أن الذى أوجدهما هو الله سبحانه .

ويختم الحق الآية بقوله : « إن الله كان عليكم رقيبا » ، لأن كلمة « اتقوا » تعنى اجعل بينك وبين غضب ربك وقاية بإنفاذ أوامر الطاعة ، واجتناب ما نهى الله عنه « إن الله كان عليكم رقيبا » ، والرقيب من « رقب » إذا نظر ويقال : « مرقب » ، ونجد مثل هذا المرقب فى المنطقة التى تحتاج إلى حراسة ، حيث يوجد « كشك » مبنى فوق السور ليجلس فيه الحارس كى يراقب . ومكان الحراسة يكون أعلى دائما من المنطقة المحروسة ، وكلمة « رقيب » تعنى ناظراً عن قصد أن ينظر ، ويقولون : فلان يراقب فلانا أى ينظره ، صحيح أن هناك من يراه ذاهباً وآتياً من غير قصد منهم أن يروه ، لكن إن كان مراقباً ، فمعنى ذلك أن هناك من يرصده ، وسبحانه يقول : « إن الله كان عليكم رقيبا » . فليس الله بصيراً فقط ولكنه رقيب أيضاً ـ ولله المثل الأعلى .

نحن نجد الإنسان قد يبصر مالا غاية له فى إبصاره ، فهو يمر على كثير من الأشياء فيبصرها ، لكنه لا يرقب إلا من كان فى باله . والحق سبحانه رقيب علينا جميعا كما فى قوله :

﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾ ﴾

(سورة الفجر)

وبعد أن تكلم سبحانه عن خلقنا أبا وأما وأنّه بث منهما رجالاً كثيراً ونساء ، أراد أن يحمى هذه المسألة وأن يحمى المبثوث . والمبثوث قسمان : قسم اكتملت له القوة وأصبحت له صلاحية فى أن يحقق أموره النفعية بذاته ، وقسم ضعيف ليست له صلاحية فى أن يقوم بأمر ذاته ، ولأنه سبحانه يريد تنظيم المجتمع ؛ لذلك لابد أن ينظر القادرون فى المجتمع إلى القسم الضعيف فى المجتمع ، ومن القسم الضعيف الذى يتكلم الله عنه هنا ؟ إنهم اليتامى ، لماذا ؟

لأن الحق سبحانه حينما خلقنا من ذكر وأنثى ، آدم وحواء ، جعل لنا أطواراً طفولية ، فالأب يكدح والأم تحضن ، ويربيان الإنسان التربية التى تنبع من الحنان الذاتى ونَعرف أن الحنان الذاتى والعاطفة يوجدان فى قلب الأبوين على مقدار حاجة الابن إليهما ، الصغير عادة يأخذ من حنان الأب والأم أكثر من الكبير ، وهذه عدالة فى التوزيع ، لأنك إذا نظرت إلى الولد الصغير والولد الكبير والولد الأكبر ، تجد الأكبر أحظهم زمنا مع أبيه وأمه والصغير أقلهم زمنا ، فيريد الحق أن يعوض الصغير فيعطى الأب والأم شحنة زائدة من العاطفة تجاهه ، وأيضا فإن الكبير قد يستغنى والصغير مازال فى حاجة ، ولذلك قال سبحانه فى أخوة يوسف :

﴿ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ﴾

(من الآية ٨ سورة يوسف)

أى أنهم أقوياء وظنوا أنه كان يجب على أبيهم أن يحب الأقوياء . وهذا الظن دليل على أن الأب كان يعلم أنهم عصبة لذلك كان قلبه مع غير العصبة ، وهذا هو الأمر الطبيعى ، فهم جاءوا بالدليل الذى هو ضدهم .

إذن فحين يوجد الناشىء الذى يحتاج إلى أن يُربَّى التربية التى يعين عليها الحنان والعطف ، فلا بد أن نأتى لليتيم الذى فقد مصدر الحنان الأساسى ونقنن له ، ويأتى الحق سبحانه وتعالى ليوزع المجتمع الإنسانى قطاعات ، ويحمل كل واحد القطاع المباشر له ، فإذا حمل كل واحد منا القطاع المباشر له تتداخل العمايات فى القطاعات ، هذا سيذهب لأبيه وأمه ولأولاد أخيه ، وهذا كذلك ، فتتجمع الدوائر . وبعد ذلك يعيش المجتمع كله فى تكافل ، وهو سبحانه يريد أن يجعل وسائل الحنان ذاتية فى كل نفس ، ومادام اليتيم يقيم معنا كفرد فلا بد من العناية به .

إن اليتيم فرد فقد العائل له ولذلك يقولون : « درة يتيمة » أى وحيدة فريدة ، وهكذا اليتيم وحيد فريد ، إلا أنهم جاءوا فى الإنسان وفى الأنعام وفى الطير وقالوا : اليتيم فى الإنسان من فقد أباه ، واليتيم فى الأنعام من فقد أمه ، لماذا ؟ لأن الأنعام طلوقة تلقح الذكور فيها الإناث وتنتهى . والأم هى التى تربى وترضع ؛ فإذا جاء أحد آخر يمسها تنفر منه .

أما اليتيم فى الطير فمن فقدهما معاً ، فالطير عادة الزوج منها يألف الآخر ؛ ولذلك يتخذان عشا ويتناوبان العناية بالبيض ويعملان معاً ففيه حياة أسرية ، والحق سبحانه وتعالى جاء فى اليتيم الذى هو مظهر الضعف فى الأسوة الإنسانية وأراد أن يقنن له فقال :

﴿ وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَـٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾ ﴾

وكيف نؤتى اليتيم ماله وهو لم يبلغ مبلغ الرجال بعد ، ونخشى أن نعطيه المال فيضيعه ؟

انظر إلى دقة العبارة فى قوله من بعد ذلك :

﴿ وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَـٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ﴾

(من الآية ٦ سورة النساء)

وقبل ذلك ماذا نفعل ؟ هل ندفع لهم الأموال ؟ الحق يوضح أنك ساعة تكون وليا على مال اليتيم فاحرص جيدا أن تعطى هذا اليتيم ماله كاملا بعد أن يستكمل نضجه

كاملا ، فأنت حفيظ على هذا المال ، وإياك أن تخلط مالك بماله أو تتبدل منه ، أى تأخذ الجميل والثمين من عنده وتعطيه من مالك الأقل جمالا أو فائدة .

إذن فقوله : « وآتوا اليتامى أموالهم » أى أن الله جعل المال لليتيم ولم يجعل للقيِّم عليه أن يتصرف فى هذا المال إلا تصرف صيانة ، وأيضا هنا ملحظ آخر هو ما شرحه لنا « وابتلوا اليتامى » فهناك أناس يريدون أن يطيلوا أمد الوصاية على اليتيم ، لكى ينتفع الواحد منهم بهذا المال فيوضح سبحانه : لا تنتظر إلى أن يبلغ الرشد ثم تقول ننظره ، لا . أنت تدربه بالتجربة فى بعض التصرفات وتنظر أسيحسن التصرف أم لا ؟

إن قول الحق : « وابتلوا اليتامى » أى اختبروهم ، هل يستطيعون أن يقوموا بمصالحهم وحدهم ؟ فإن استطاعوا فاطمئنوا إلى أنهم ساعة يصلون إلى حد الحلم سيحسنون التصرف ، أعطوهم أموالهم بعد التجربة ؛ لأن اليتيم يعيش فى قصور عمرى ، وهو سبحانه يفرق بين اليتيم والسفيه ، فالسفيه لا يعانى من قصور عمرى بل من قصور عقلى ، وعندما تكلم سبحانه عن هذه المسألة قال :

﴿ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ﴾

(من الآية ٥ سورة النساء)

فهل هى أموالكم ؟ لا . فحين يكون المرء سفيها فاعلم أنه لا إدارة له على ملكه ، وتنتقل إدارة الملكية إلى من يتصرف فى المال تصرفا حكيما ، فاحرص على أن تدير مال السفيه كأنه مالك ؛ لأنه ليس له قدرة على حسن التصرف . لكن لما يبلغ اليتيم إلى مرحلة الباءة والنكاح والرشد يقول الحق :

﴿ فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ﴾

(من الآية ٦ سورة النساء)

إنه سبحانه يقول مرة فى الوصاية : « أموالكم » وفى العطاء يقول : « أموالهم » إذن فهو يريد ألا تبدد المال ، ثم يوضح . احرص على ثروة اليتيم أو السفيه وكأنها مالك ؛ لأنه مادام سفيها فمسئولية الولاية مطلوبة منك ، والمال ليس ملكا لك . خذ منه ما يقابل إدارة المال وقت السفه أو اليتم ، وبعد ذلك يأتى الحق سبحانه

وتعالى ليعلم القائمين على أمر اليتامى أو على أمر السفهاء الذين لا يحسنون إدارة أموالهم فيقول :

﴿ وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا ﴾

(من الآية ٥ سورة النساء)

اجعلوا الرّزق مما يخرج منها ، وإياكم أن تبقوها عندكم ، وإلا فما قيمة ولايتك ووصايتك وقيامك على أمر السفيه أو اليتيم ؟ إنك تثمر له المال لا أنْ تأكله أو لا تحسن التصرف فيه بحيث ينقص كل يوم ، لا . «وارزقوهم فيها » ، و« فى » هنا للسببية ، أى ارزقوهم بسببها ، ارزقوهم رزقا خارجا منها .

« وآتوا اليتامى أموالهم ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب » والخبيث هو الحرام والطيب هو الحلال ، ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ، فقد يكون ضمن مال اليتيم شيء جميل ، فيأخذه الوصى لنفسه ويستبدله بمثلٍ له قبيح ، مثال ذلك ، أن يكون ضمن مال اليتيم فرس جميل ، وعند الوصى فرس قبيح فيأخذه ويقول : فرس بفرس ، أو جاموسة مكان جاموسة ، أو نخلة طيبة بنخلة لا تثمر ، هنا يقول الحق : « ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب » .

وقوله سبحانه وتعالى:« ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم » يعنى إياكم ألا تجعلوا فرقا بين أموالهم وأموالكم فتأكلوا هذه مع تلك ، بل فرقوا بين أكل أموالكم والحفاظ على أموالهم لماذا ؟ تأتى الإجابة : « إنه كان حوبا كبيرا » أى إثما فظيعا .

ثم ينتقل الحق إلى قضية أخرى يجتمع فيها ضعف اليتم ، وضعف النوع : ضعف اليتم سواء أكان ذكراً أم أنثى ، وإن كانت أنثى فالبلوى أشد ؛ فهى قد اجتمع عليها ضعف اليتم وضعف النوع ، طبعا فاليتيمة عندما تكون تحت وصاية وليها ، يجوز أن يقول : إنها تملك مالا فلماذا لا أتزوجها لكى آخذ المال ؟ وهذا يحدث كثيرا .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ﴿٣﴾ ﴾

هنا يؤكد الحق الأمر بأن ابتعدوا عن اليتامى . فاليتيم مظنة أن يُظلم لضعفه ، وبخاصة إذا كان أنثى . إنّ الظلم بعامة محرم فى غير اليتامى ، ولكن الظلم مع الضعيفة كبير ، فهى لا تقدر أن تدفع عن نفسها ، فالبالغة الرشيدة من النساء قد تستطيع أن تدفع الظلم عن نفسها . وقوله الحق : « وإن خفتم ألا تقسطوا » من « أقسط » ، أى عدل ، والقسط من الألفاظ التى تختلط الأذهان فيها ، و« القسط » مرة يطلق ويراد به « العدل » ، إذا كان مكسور القاف ، ولذلك يأتى الحق سبحانه فيقول :

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

وهكذا نعرف أن كلمة « قسط » تأتى مرة للعدل ومرة للجور .

فـ« قَسَطَ » « يَقْسِطُ » « قَسْطا » و« قُسوطًا » أى ظَلَم بفتح القاف فى « قَسطٍ » وضمها فى « قُسوط » .

والقِسط بكسر القاف هو العدل . . والقَسط بفتح القاف ـ كما قلنا ـ هو الظلم . وهناك مصدر ثانٍ هو « قسوط » لكن الفعل واحد ، وعندما يقول الحق : « وإن خفتم ألا تقسطوا » من أقسط . أى خفتم من عدم العدل وهو الظلم . وهناك فى اللغة ما نسميه همزة الإزالة ، وهى همزة تدخل على الفعل فتزيله ، مثال ذلك : فلان عتب على فلان ، أى لامه على تصرف ما ، ويقال لمن تلقى العتاب عندما يرد

على صاحب العتاب : أعتبه ، أى طمأن خاطره وأزال مصدر العتاب .

ويقال : محمد عتب على علىّ . فماذا كان موقف على ؟ يقال : أعتب محمداً أى طيب خاطره وأزال العتاب . ويقال أعجم الكتاب . فلا تفهم من ذلك أنه جعل الكتاب معجما ، لا ، فأعجمه أى أزال إبهامه وغموضه . كذلك « أقسط » أى أزال القَسْط والظلم . إذن « القِسط » هو العدل من أول الأمر ، لكن « أقسط . إقساطاً » تعنى أنه كان هناك جور أو ظلم وتم رفعه . والأمر ينتهى جميعه إلى العدل . فالعدل إن جاء ابتداء هو : قِسط بكسر القاف . وإن جاء بعد جور تمت إزالته فهو إقساط . فحين يقال « أقسط » و« تقسطوا » بالضم ، فمعناها أنه كان هناك جور وظلم تم رفعه ، ولذلك فعندما نقرأ القرآن نجده يقول :

﴿ وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ ﴾

(سورة الجن)

والقاسطون هنا من القسط ـ بالفتح ـ ومن القسوط بالضم ، أى من الجور والظلم ، ونجد القرآن الكريم يقول أيضا :

﴿ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾

(من الآية ٤٢ سورة المائدة)

أى أن الله يحب الذين إن رأوا ظلما أزالوه وأحلوا محله العدل .

الحق هنا فى سورة النساء يقول : « وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى » أى إن خفتم ألا ترفعوا الظلم عن اليتامى ، ومعنى أن تخاف من ألا تقسط لأنك بار تعرف كيف تنقذ نفسك من مواطن الزلل . أى فإن خفتم أيها المؤمنون ألا ترفعوا الجور عن اليتامى فابتعدوا عنهم وليسد كل مؤمن هذه الذريعة أمام نفسه حتى لا تحدثه نفسه بأن يجور على اليتيمة فيظلمها . وإن أراد الرجل أن يتزوج فأمامه من غير اليتامى الكثير من النساء .

ومادامت النساء كثيرات فالتعدد يصبح واردا ، فهو لم يقل : اترك واحدة وخذ

واحدة ، لكنه أوضح : اترك اليتيمة وأمامك النساء كثيرات . إذن فقد ناسب الحال أن تجيء مسألة التعدد هنا ، لأنه سبحانه وتعالى يريد أن يرد الرجل الولى عن نكاح اليتيمات مخافة أن يظلمهن ، فأمره بأن يترك الزواج من اليتيمة الضعيفة ؛ لأن النساء غيرها كثيرات . « وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع » .

وقوله الحق : « ما طاب لكم من النساء » أى غير المحرمات فى قوله تعالى :

﴿ وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ ﴾

(سورة النساء)

وفى قوله سبحانه :

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ ﴾

(سورة النساء)

إذن فما طاب لكم من النساء غير المحرمات هن اللاتى يحللن للرجل « فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت

أيمانكم ذلك أدنى ألا تعولوا » وهنا يجب أن نفهم لماذا جاء هذا النص ؛ ولماذا جاء بالمثنى والثلاث والرباع هنا ؟

إنه سبحانه يريد أن يُزَهِّدَ الناس فى نكاح اليتيمات مخافة أن تأتى إلى الرجل لحظة ضعف فيتزوج اليتيمة ظالما لها ، فأوضح سبحانه : اترك اليتيمة ، والنساء غيرها كثير ، فأمامك مثنى وثلاث ورباع ، وابتعد عن اليتيمة حتى لا تكون طامعا فى مالها أو ناظراً إلى ضعفها أو لأنها لم يعد لها ولىّ يقوم على شأنها غيرك .

ونريد أن نقف هنا وقفة أمام قوله تعالى : « فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع » ما معنى مثنى ؟ يقال « مثنى » أى اثنين مكررة ، كأن يقال : جاء القوم مثنى ، أى ساروا فى طابور وصفٍ مكون من اثنين اثنين . هذا يدل على الوحدة الجائية .

ويقال : جاء القوم ثلاث ، أى ساروا فى طابور مكون من ثلاثة ؛ ثلاثة . ويقال : جاء القوم رباع . أى جاء القوم فى طابور يسير فيه كل أربعة خلف أربعة أخرى .

ولو قال واحد : إن المقصود بالمثنى والثلاث والرباع أن يكون المسموح به تسعة من النساء . نقول له : لو حسبنا بمثل ما تحسب ، لكان الأمر شاملا لغير ما قصد الله ، فالمثنى تعنى أربعة ، والثلاث تعنى ستة ، والرباع تعنى ثمانية ، وبذلك يكون العدد ثمانية عشر ، ولكنك لم تفهم ، لأن الله لا يخاطب واحداً ، لكن الله يخاطب جماعة ، فيقول:« وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع » .

فإذا قال مدرس لتلاميذه : افتحوا كتبكم ، أيعنى هذا الأمر أن يأتى واحد ليفتح كل الكتب ؟ لا ، إنه أمر لكل تلميذ بأن يفتح كتابه ، لهذا فإن مقابلة الجمع بالجمع تقتضى القسمة آحاداً .

وعندما يقول المدرس : أخرجوا أقلامكم . أى على كل تلميذ أن يخرج قلمه .

وعندما يقال : اركبوا سياراتكم ، أى أن يركب كل واحد سيارته . إذن فمقابلة الجمع بالجمع تقتضى القسمة آحاداً ، وقوله الحق : « فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى ألا تعولوا » هو قول يخاطب جماعة ، فواحد ينكح اثنتين وآخر ينكح ثلاث نساء ، وثالث ينكح أربع نساء .

والحق سبحانه وتعالى حينما يشرع الحكم يشرعة مَّرة إيجاباً ومرة يشرعه إباحةً ، فلم يوجب ذلك الأمر على الرجل ، ولكنه أباح للرجل ذلك ،وفيه فرق واضح بين الإيجاب وبين الإباحة . والزواج نفسه حتى من واحدة مباح . إذن ففيه فرق بين أن يلزمك الله أن تفعل وأن يبيح لك أن تفعل . وحين يبيح الله لك أن تفعل ، ما المرجح فى فعلك ؟ إنّه مجرد رغبتك .

ولكن إذا أخذت الحكم ، فخذ الحكم من كل جوانبه ، فلا تأخذ الحكم ، بإباحة التعدد ثم تكف عن الحكم بالعدالة ، وإلا سينشأ الفساد فى الأرض ، وأول هذا الفساد أن يتشكك الناس فى حكم الله . لماذا ؟ لأنك إن أخذت التعدد ، وامتنعت عن العدالة فأنت تكون قد أخذت شقا من الحكم ، ولم تأخذ الشق الآخر وهو العدل ، فالناس تجنح أمام التعدد وتبتعد وتميل عنه لماذا ؟ لأن الناس شقوا كثيراً بالتعدد أخذاً لحكم الله فى التعدد وتركاً لحكم الله فى العدالة .

والمنهج الإلهى يجب أن يؤخذ كله ، فلماذا تكره الزوجة التعدد ؟ لأنها وجدت أن الزوج إذا ما تزوج واحدة عليها التفت بكليته وبخيره وببسمته وحنانه إلى الزوجة الجديدة ، لذلك فلابد للمرأة أن تكره زواج الرجل عليها بامرأة أخرى .

إن الذين يأخذون حكم الله فى إباحة التعدد يجب أن يلزموا أنفسهم بحكم الله أيضا فى العدالة ، فإن لم يفعلوا فهم يشيعون التمرد على حكم الله ، وسيجد الناس حيثياتٍ لهذا التمرد ، وسيقال : انظر ، إن فلاناً تزوج بأخرى وأهمل الأولى ، أو ترك أولاده دون رعاية واتجه إلى الزوجة الجديدة .

فكيف تأخذ إباحة الله فى شىء ولا تأخذ إلزامه فى شىء آخر ، إن من يفعل ذلك

يشكك الناس فى حكم الله ، ويجعل الناس تتمرد على حكم الله ـ والسطحيون فى الفهم يقولون : إنهم معذورون ، وهذا منطق لا يتأتى .

إن آفة الأحكام أن يؤخذ حكم جزئى دون مراعاة الظروف كلها ، والذى يأخذ حكما عن الله لابد أن يأخذ كل منهج الله .

هات إنساناً عدل فى العِشْرة وفى النفقة وفى البيتوتة وفى المكان وفى الزمان ولم يرجح واحدة على أخرى ، فالزوجة الأولى إن فعلت شيئاً فهى لن تجد حيثية لها أمام الناس . أما عندما يكون الأمر غير ذلك فإنها سوف تجد الحيثية للاعتراض ، والصراخ الذى نسمعه هذه الأيام إنما نشأ من أن بعضاً قد أخذ حكم الله فى إباحة التعدد ولم يأخذ حكم الله فى عدالة المعدد . والعدالة تكون فى الأمور التى للرجل فيها خيار . أما الأمور التى لا خيار للرجل فيها فلم يطالبه الله بها .

ومن السطحيين من يقول : إن الله قال : اعدلوا ، ثم حكم أننا لا نستطيع أن نعدل . نقول لهم : بالله أهذا تشريع ؟ ، أيعطى الله باليمين ويسحب بالشمال ؟ ألم يشرع الحق على عدم الاستطاعة فقال :

﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾ ﴾

(سورة النساء)

ومادام قد شرع على عدم الاستطاعة فى العدل المطلق فهو قد أبقى الحكم ولم يلغه ، وعلى المؤمن ألا يجعل منهج الله له فى حركة حياته عضين بمعنى أنه يأخذ حكماً فى صالحه ويترك حكماً إن كان عليه . فالمنهج من الله يؤخذ جملة واحدة من كل الناس ؛ لأن أى انحراف فى فرد من أفراد الأمة الإسلامية يصيب المجموع بضرر . فكل حق لك هو واجب عند غيرك ، فإن أردت أن تأخذ حقك فأدِّ واجبك . والذين يأخذون حكم الله فى إباحة التعدد يجب أن يأخذوا حكم الله أيضا فى العدل ، وإلا أعطوا خصوم دين الله حججا قوية فى إبطال ما شرع الله ، وتغيير ما شرع الله بحجة ما يرونه من آثار أخذ حكم وإهمال حكم آخر .

والعدل المراد فى التعدد هو القسمة بالسوية فى المكان ، أى أن لكل واحدة من المتعددات مكاناً يساوى مكان الأخرى ، وفى الزمان ، وفى متاع المكان ، وفيما يخص الرجل من متاع نفسه ، فليس له أن يجعل شيئا له قيمة عند واحدة ، وشيئاً لا قيمة له عند واحدة أخرى ، يأتى مثلا ببجامة « منامة » صُوف ويضعها عند واحدة ، ويأتى بأخرى من قماش أقل جودة ويضعها عن واحدة ، لا . لابد من المساواة ، لا فى متاعها فقط ، بل متاعك أنت الذى تتمتع به عندها ، حتى أن بعض المسلمين الأوائل كان يساوى بينهن فى النعال التى يلبسها فى بيته ، فيأتى بها من لون واحد وشكل واحد وصنف واحد ، وذلك حتى لا تَدِلُّ واحدة منهن على الأخرى قائلة : إن زوجى يكون عندى أحسن هنداماً منه عندك . والعدالة المطلوبة ـ أيضاً ـ هى العدالة فيما يدخل فى اختيارك ؛ لأن العدالة التى لا تدخل فى اختيارك لا يكلف الله بها ، فأنت عدلت فى المكان ، وفى الزمان ، وفى المتاع لكل واحدة ، وفى المتاع لك عند كل واحدة ، ولكن لا يطلب الله منك أن تعدل بميل قلبك وحب نفسك ؛ لأن ذلك ليس فى مكنتك .

والرسول صلى الله عليه وسلم يعطينا هذا فيقول : عن عائشة رضى الله عنها قالت : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم ويعدل ويقول : « اللهم هذا قسمى فيما أملك فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك » يعنى القلب)[1] .

إذن فهذا معنى قول الحق :

﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾

(من الآية ١٢٩ سورة النساء)

لأن هناك أشياء لا تدخل فى قدرتك ، ولا تدخل فى اختيارك ، كأن ترتاح نفسياً عند واحدة ولا ترتاح نفسياً عند أخرى ، أو ترتاح جنسياً عند واحدة ولا ترتاح عند أخرى ، لكن الأمر الظاهر للكل يجب أن تكون فيه القسمة بالسوية حتى لا تَدِلُّ واحدة على واحدة . وإذا كان هذا فى النساء المتعددات ـ وهن عوارض ـ حيث من الممكن أن يخرج الرجل عن أى امرأة ـ بطلاق أو فراق فما بالك بأولادها منه ؟ لابد أيضا من العدالة .

---

١ ـ رواه الإمام أحمد وأبو داود والدارمى .

والذى يفسد جو الحكم المنهجى لله أن أناساً يجدون رجلاً عدّد ، فأخذ إباحة الله فى التعدد ، ثم لم يعدل ، فوجدوا أبناءه من واحدة مهملين مشردين ، فيأخذون من ذلك حجة على الإسلام . والذين حاولوا أن يفعلوا ما فعلوا فى قوانين الأحوال الشخصية إنما نظروا إلى ذلك ، التباين الشديد الذى يحدثه بعض الآباء الحمقى نتيجة تفضيل أبناء واحدة على أخرى فى المأكل والملبس والتعليم !

إذن فالمسلم هو الذى يهجر دينه ويعرضه للنقد والنيل من أعدائه له . فكل إنسان مسلم على ثغرة من ثغرات دين الله تعالى فعليه أن يصون أقواله وأفعاله وحركاته وسكناته من أى انحراف أو شطط ؛ لأن كل مسلم بحركته وبتصرفه يقف على ثغرة من منهج الله ، ولا تظنوا أن الثغرات فقط هى الشىء الذى يدخل منه أعداء الله على الأرض كالثغور ، لا ، الثغرة هى الفجوة حتى فى القيم يدخل منها خصم الإسلام لينال من الإسلام .

إنك إذا ما تصرفت تصرفاً لا يليق فأنت فتحت ثغرة لخصوم الله . فسُدَّ كل ثغرة من هذه الثغرات ، وإذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم قد توسع فى العدل بين الزوجات توسعاً لم يقف به عند قدرته ، وإن وقف به عند اختياره ، فالرسول صلى الله عليه وسلم حين مرض كان من الممكن أن يعذره المرض فيستقر فى بيت واحدة من نسائه ، ولكنه كان يأمر بأن يحمله بعض الصحابة ليطوف على بقية نسائه فى أيامهن فأخذ قدرة الغير . وكان إذا سافر يقرع بينهن ، هذه هى العدالة .

وحين توجد مثل هذه العدالة يشيع فى الناس أن الله لا يشرع إلا حقاً ، ولا يشرع إلا صدقاً ، ولا يشرع إلا خيراً ، ويسد الباب على كل خصم من خصوم دين الله ، حتى لا يجد ثغرة ينفذ منها إلى ما حرم دين الله ، وإن لم يستطع المسلم هذه الاستطاعة فليلزم نفسه بواحدة . ومع ذلك حين يلزم المسلم نفسه بزوجة واحدة ، هل انتفت العدالة مع النفس الواحدة ؟ لا ، فلا يصح ولا يستقيم ولا يحل أن يهمل الرجل زوجه . ولذلك حينما شكت امرأة إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن زوجها لا يأتى إليها وهى واحدة وليس لها ضرائر ، فكان عنده أحد الصحابة ، فقال له : أفتها « أى أعطها الفتوى » .

قال الصحابى : لك عنده أن يبيت عندك الليلة الرابعة بعد كل ثلاث ليال .

ذلك أن الصحابى فرض أن لها شريكات ثلاثا ، فهى تستحق الليلة الرابعة . وسُر عمر ـ رضى الله عنه ـ من الصحابى ؛ لأنه عرف كيف يفتى حتى فى أمر المرأة الواحدة .

إذن قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ ﴾

(من الآية ١٢٩ سورة النساء)

أى لا تظنوا أن المطلوب منكم تكليفياً هو العدالة حتى فى ميل القلب وحبه ، لا . إنما العدالة فى الأمر الاختيارى ، ومادام الأمر قد خرج عن طاقة النفس وقدرتها فقد قال ـ سبحانه ـ:« فلا تميلوا كل الميل » . ويأخذ السطحيون الذين يريدون أن يبرروا الخروج عن منهج الله فيقولوا : إن المطلوب هو العدل وقد حكم الله أننا لا نستطيع العدل .

ولهؤلاء نقول : هل يعطى ربنا باليمين ويأخذ بالشمال ؟ فكأنه يقول : اعدلوا وأنا أعلم أنكم لن تعدلوا ؟ فكيف يتأتى لكم مثل هذا الفهم ؟ إن الحق حين قال : « ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم » أى لا يتعدى العدل ما لا تملكون من الهوى والميل ؛ لأن ذلك ليس فى إمكانكم ، ولذلك قال : « فلا تميلوا كل الميل » .

نقول ذلك للذين يريدون أن يطلقوا الحكم غير واعين ولا فاهمين عن الله ، ونقوله كذلك للفاهمين الذين يريدون أن يدلسوا على منهج الله ، وهذه المسألة من المسائل التى تتعرض للأسرة ، وربها الرجل . فهب أن رجلاً ليس له ميل إلى زوجته ، فماذا يكون الموقف ؟ أمن الأحسن أن يطلقها ويسرحها ، أم تظل عنده ويأتى بامرأة تستطيع نفسه أن ترتاح معها ؟ أو يطلق غرائزه فى أعراض الناس ؟

إن الحق حينما شرّع ، إنما شرع دينا متكاملاً ، لا تأخذ حكماً منه لتترك حكما آخر .

والأحداث التى أرهقت المجتمعات غير المسلمة ألجأتهم إلى كثير من قضايا الإسلام . وأنا لا أحب أن أطيل ، هناك بعض الدول تكلمت عن إباحة التعدد لا لأن الإسلام قال به ، ولكن لأن ظروفهم الاجتماعية حكمت عليهم أنه لا يحل مشاكلهم إلا هذا ، حتى ينهوا مسألة الخليلات . والخليلات هنّ اللائى يذهب إليهن الرجال ليهتكوا أعراضهن ويأتوا منهن بلقطاء ليس لهم أب .

إنّ من الخير أن تكون المرأة الثانية ، امرأة واضحة فى المجتمع . ومسألة زواج الرجل منها معروفة للجميع ، ويتحمل هو عبء الأسرة كلها . ويمكن لمن يريد أن يستوضح كثيراً من أمر هؤلاء الناس أن يرجع إلى كتاب تفسير فى هذا الموضوع للدكتور محمد خفاجة حيث أورد قائمة بالدول وقراراتها فى إباحة التعدد عند هذه الآية .

وهنا يجب أن ننتبه إلى حقيقة وهى : أن التعدد لم يأمر به الله ، وإنما أباحه ، فالذى ترهقه هذه الحكاية لا يعدد ، فالله لم يأمر بالتعدد ولكنه أباح للمؤمن أن يعدد . والمباح أمر يكون المؤمن حراً فيه يستخدم رخصة الإباحة أو لا يستعملها ، ثم لنبحث بحثاً آخر . إذا كان هناك تعدد فى طرف من طرفين فإن كان الطرفان متساويين فى العدد ، فإن التعدد فى واحد لا يتأتى ، والمثل هو كالآتى :

إذا دخل عشرة أشخاص حجرة وكان بالحجرة عشرة كراسى فكل واحد يجلس على كرسى ، ولا يمكن بطبيعة الحال أن يأخذ واحد كرسياً للجلوس وكرسياً آخر ليمد عليه ساقيه ، لكن إذا كان هناك أحد عشر كرسياً ، فواحد من الناس يأخذ كرسياً للجلوس وكرسياً آخر ليستند عليه ، إذن فتعدد طرف فى طرف لا ينشأ إلا من فائض . فإذا لم يكن هناك فائض ، فالتعدد ـ واقعاً ـ يمتنع ، لأن كل رجل سيتزوج امرأة واحدة وتنتهى المسألة ، ولو أراد أن يعدد الزواج فلن يجد .

إذن فإباحة التعدد تعطينا أن الله قد أباحه وهو يعلم أنه ممكن لأن هناك فائضاً . والفائض كما قلنا معلوم ، لأن عدد ذكور كل نوع من الأنواع أقل من عدد الإناث . وضربنا المثل من قبل فى النخل وكذلك البيض عندما يتم تفريخه ؛ فإننا نجد عدداً

قليلاً من الديوك والبقية إناث . إذن فالإناث فى النبات وفى الحيوان وفى كل شىء أكثر من الذكور .

وإذا كانت الإناث أكثر من الذكور ، ثم أخذ كل ذكر مقابله فما مصير الأعداد التى تفيض وتزيد من الإناث ؟ إما أن تعف الزائدة فتكبت غرائزها وتحبط ، وتنفس فى كثير من تصرفاتها بالنسبة للرجل وللمحيط بالرجل ، وإما أن تنطلق ، تنطلق مع من ؟ إنها تنطلق مع متزوج . وإن حدث ذلك فالعلاقات الاجتماعية تفسد .

ولكن الله حين أباح التعدد أراد أن يجعل منه مندوحة لامتصاص الفائض من النساء ؛ ولكن بشرط العدالة . وحين يقول الحق : « فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة » أى إن لم نستطع العدل الاختيارى فليلزم الإنسان وَاحدة .

وبعد ذلك يقول الحق : « أو ما ملكت أيمانكم » .

وهناك من يقف عند « ما ملكت أيمانكم » ويتجادل ، ونطمئن هؤلاء الذين يقفون عند هذا القول ونقول : لم يعد هناك مصدر الآن لملك اليمين ؛ لأن المسلمين الآن فى خنوع ، وقد اجترأ عليهم الكفار ، وصاروا يقتطعون دولاً من دولهم . وما هبّ المسلمون ليقفوا لحماية أرض إسلامية . ولم تعد هناك حرب بين مسلمين وكفار ، بحيث يكون فيه أسرى ، و« ملك اليمين » .

ولكنا ندافع عنه أيام كان هناك ملك يمين . ولنر المعنى الناضج حين يبيح الله متعة السيد بما ملكت يمينه ، انظر إلى المعنى ، فالإسلام قد جاء ومن بين أهدافه أن يصفى الرِّق ، ولم يأت ليجىء بالرق .

وبعد أن كان لتصفية الرق سبب واحد هو إرادة السيد . عدَّدَ الإسلام مصارف تصفية الرق ؛ فارتكاب ذنب ما يقال للمذنب : اعتق رقبة كفارة اليمين . وكفارة ظهار فيؤمر رجل ظاهر من زوجته بأن يعتق رقبة وكفارة فطر فى صيام ، وكفارة قتل .. إلخ .. إذن فالإسلام يوسع مصارف العتق .

ومن يوسع مصارف العتق أيريد أن يبقى على الرق ، أم يريد أن يصفيه ويمحوه ؟

ولنفترض أن مؤمناً لم يذنب ، ولم يفعل ما يستحق أن يعتق من أجله رقبة ، وعنده جوار ، هنا يضع الإسلام القواعد لمعاملة الجوارى :

ـ إن لم يكن عندك ما يستحق التكفير ، فعليك أن تطعم الجارية مما تأكل وتلبسها ما يلبس أهل بيتك ، لا تكلفها ما لا تطيق ، فإن كلفتها فأعنها ، أى فضل هذا ، يدها بيد سيدها وسيدتها ، فما الذى ينقصها ؟ إن الذى ينقصها إرواء إلحاح الغريزة ، وخاصة أنها تكون فى بيت للرجل فيه امرأة ، وتراها حين تتزين لزوجها ، وتراها حين تخرج فى الصباح لتستحم ، والنساء عندهن حساسية لهذا الأمر ، فتصوروا أن واحدة مما ملكت يمين السيد بهذه المواقف ؟ ألا تهاج فيها الغرائز ؟

حين يبيح الله للسيد أن يستمتع بها وأن تَستمتع به ، فإنه يرحمها من هذه الناحية ويعلمها أنها لا تقل عن سيدتها امرأة الرجل فتتمتع مثلها . ويريد الحق أيضا أن يعمق تصفية الرق ، لأنه إن زوجها من رجل رقيق فإنها تظل جارية أَمَة ، والذى تلده يكون رقيقا ، لكن عندما تتمتع مع سيدها وتأتى منه بولد ، فإنها تكون قد حررت نفسها وحررت ولدها ، وفى ذلك زيادة فى تصفية الرق ، وفى ذلك إكرام لغريزتها . لكن الحمقى يريدون أن يؤاخذوا الإسلام على هذا !!

يقول الحق : « فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى ألا تعولوا » فالعدل أو الاكتفاء بواحدة أو ما ملكت اليمين ، ذلك أقرب ألا تجوروا . وبعض الناس يقول : « أدنى ألا تعولوا » أى ألا تكثر ذريتهم وعيالهم . ونقول لهم : إن كان كذلك فالحق أباح ما ملكت اليمين ، وبذلك يكون السبب فى وجود العيال قد اتسع أكثر ، وقوله : « ذلك أدنى ألا تعولوا » أى أقرب ألا تظلموا وتجوروا ، لأن العول فيه معنى الميل ، والعول فى الميراث أن تزيد أسهم الأنصباء على الأصل ، وهذا معنى عالت المسألة ، وإذا ما زاد العدد فإن النصيب فى التوزيع ينقص .

وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴿٤﴾ ﴾

والمقصود بـ « صدقاتهن » هو المهور ، و« النِّحلة » هى العطية ، وهل الصداق عطية ؟ لا . إنه حق وأجر بضع . ولكن الله يريد أن يوضح لنا : أىْ فليكن إيتاء المهور للنساء نحلة ، أى وازع دين لا حكم قضاء ، والنحلة هى العطية .

وانظر إلى اللمسات الإلهية والأداء الإلهى للمعانى ، لأنك إن نظرت إلى الواقع فستجد الآتى :

الرجل يتزوج المرأة ، وللرجل فى المرأة متعة ، وللمرأة أيضا متعة أى أن كُلًّا منهما له متعة وشركة فى ذلك ، وفى رغبة الإنجاب ، وكان من المفترض ألا تأخذ شيئاً ، لأنها ستستمتع وأيضا قد تجد ولداً لها ، وهى ستعمل فى المنزل والرجل سيكدح خارج البيت ، ولكن هذه عطية قررها الله كرامة للنساء « وآتوا النساء صدقاتهن نحلة » والأمر فى « آتوا » لمن ؟ إما أن يكون للزوج فقوله : « وآتوا النساء صدقاتهن » يدل على أن المرأة صارت زوجة الرجل ، وصار الرجل ملزماً بالصداق ومن الممكن أن يكون ديناً إذا تزوجها بمهر فى ذمته يؤديه لها عند يساره ، وإمّا أن يكون الأمر لولى أمرها فالذى كان يزوجه أختَه مثلا ، كان يأخذ المهر له ويتركها دون أن يعطيها مهرها ، والأمر فى هذه الآية ـ إذن ـ إما أن يكون للأزواج وإما أن يكون للأولياء . وحين يُشرِّع الحق لحماية الحقوق فإنه يفتح المجال لأريحيات الفضل .

لذلك يقول : « فإن طبن لكم عن شىء منه نفسا فكلوه هنيئاً مريئاً » .

لقد عَرَّف الحق الحقوق أولاً بمخاطبة الزوج أو ولى الأمر فى أن مهر الزوجة لها لأنه أجر البضع . ولكنه سبحانه فتح باب أريحية الفضل فإن تنازلت الزوجة فهذا أمر آخر ، وهذا أدعى أن يؤصل العلاقة الزوجية وأن يؤدم بينهما . والمراد هنا هو طيب

النفس ، وإياك أن تأخذ شيئاً من مهر الزوجة التى تحت ولايتك بسبب الحياء ، فالمهم أن يكون الأمر عن طيب نفس . « فإن طبن لكم عن شىء منه نفساً فكلوه هنيئاً مريئاً » . والهنىء هو الشىء المأكول وتستسيغه حين يدخل فمك . لكنك قد تأكل شيئاً هنيئاً فى اللذة وفى المضغ وفى الأكل ولكنه يورث متعبة صحية . إنه هنىء ، لكنه غير مرىء . والمقصود هو أن يكون طيب الطعم وليس له عواقب صحية رديئة . وهو يختلف عن الطعام الهنىء غير المرىء الذى يأكله الإنسان فيطلب من بعده العلاج .

إذن فكل أكل يكون هنيئاً ليس من الضرورى أن يكون مريئاً . وعلينا أن نلاحظ فى الأكل أن يكون هنيئاً مريئاً .

والإمام علىّ ـ رضوان الله عليه وكرم وجهه ـ جاء له رجل يشتكى وجعاً ، والإمام علىّ ـ كما نعرف ـ مدينة العلم والفتيا ، وهبه الله مقدرة على إبداء الرأى والفتوى .

لم يكن الإمام علىّ طبيباً . . لكن الرجل كان يطلب علاجاً من فهم الإمام علىّ وإشراقاته .

قال الإمام علىّ للرجل : خذ من صداق امراتك درهمين واشتر بهما عسلاً ، وأذب العسل فى ماء مطر نازل لساعته ـ أى قريب عهد بالله ـ واشربه فإنى سمعت الله يقول فى الماء ينزل من السماء :

﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَـٰرَكًا ﴾

(من الآية ٩ سورة ق)

وسمعته سبحانه وتعالى يقول فى العسل :

﴿ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ﴾

(من الآية ٦٩ سورة النحل)

وسمعته يقول فى مهر الزوجة :

﴿ فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴾

(من الآية ٤ سورة النساء)

فإذا اجتمع فى دواء البركة والشفاء الهنىء والمرىء عافاك الله إن شاء الله . لقد أخذ الإمام علىّ ـ رضوان الله عليه وكرّم الله وجهه ـ عناصر أربعة ليمزجها ويصنع منها دواءً ناجعاً ، كما يصنع الطبيب العلاج من عناصر مختلفة وقد صنع الإمام علىّ علاجاً من آيات القرآن .

وبعد ذلك ينتقل الحق إلى قضايا اليتامى والسفهاء والمال والوصاية والقوامة ، فيقول سبحانه :

﴿ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَـٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٥﴾ ﴾

ومن هو السفيه ؟ إنه الذى لا صلاح له فى عقل ولا يستطيع أن يصرّف ماله بالحكمة . ومَن الذى يعطى ماله إلى سفيه ؟ إن الحق يقول ذلك ليعلمنا كيفية التصرف فى المال ـ ومثال على ذلك يقول الحق :

﴿ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ﴾

(من الآية ١١ سورة الحجرات)

هل أحد منا يلمز نفسه ؟ لا ، ولكن الإنسان يلمز خصمه ، ولمز الخصم يؤدى إلى لمز النفس لأن خصمه سيلمزه ويعيبه أو لأنكما سواء . إذن فقول الحق : « ولا تؤتوا السفهاء أموالكم » يعنى أن الله يريد أن يقول : إن السفيه يملك المال ، إلا أن سفهه يمنعه من أن يحسن التصرف . وعدم التصرف الحكيم يذهب بالمال ويفسده ، وحين يكون سفيهاً فالمال ليس له ـ تصرفا وإدارة ـ ولكن المال لمن يصلحه بالقوامة .

أو أن الحق سبحانه وتعالى يعالج قضية كان لها وجود فى المجتمع وهى أنّ الرجل إذا ما كان له أبناء ، وكبروا قليلا ، فهو يحب أن يتملص من حركة الحياة ، ويعطى لهم حق التصرف فى المال . وإن كان تصرفهم لا يتفق مع الحكمة ، فكأنه قال سبحانه : « لا » إياك أن تعطى أموالك للسفهاء بدعوى أنهم أولادك . وإياك أن تملك أولادك ما وهبه الله لك من رزقك ؛ لأن الله جعل من مالك قياماً لك ، وإياك أن تجعل قيامك أنت فى يد غيرك .

« ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما . وارزقوهم فيها » وهل السفيه لا يعيش ؟ وهل يأكل السفيه دون أكل الرشيد ؟ أيَلْبَسُ السفيه دون لبس الرشيد ؟ أيسكن السفيه دون مسكن الرشيد ؟ أيبتسم الإنسان فى وجه الرشيد ولا يبتسم فى وجه السفيه ؟ لا ؛ لذلك يأمر الحق ويقول : « وارزقوهم فيها واكسوهم وقولوا لهم قولا معروفا » ذلك أمر بحسن معاملة السفيه ، وإياكم أن تعيروهم بسفههم ، ويكفيهم ما هم فيه من سفه .

ويرجع الحق من بعد ذلك إلى اليتامى :

﴿ وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾ ﴾

إن الله سبحانه وتعالى يأمر فى التعامل مع اليتامى بأن يبدأ الولى فى اختبار اليتيم

وتدريبه على إدارة أمواله من قبل الرشد ، أى لا تنتظر وقت أن يصل اليتيم إلى حد البلوغ ثم تبتليه بعد ذلك ، فقبل أن يبلغ الرشد ، لا بد أن تجربه فى مسائل جزئية فإذا تبين واتضح لك اهتداء منه وحسن تصرف فى ماله ؛ لحظتها تجد الحكم جاهزاً ، فلا تضطر إلى تأخير إيتاء الأموال إلى أن تبتليه فى رشده . بل عليك أن تختبره وتدربه وتمتحنه وهو تحت ولايتك حتى يأتى أوانُ بلوغ الرشد فيستطيع أن يتسلم منك ماله ويديره بنفسه . وحتى لا تمر على المال لحظة من رشد صاحبه وهو عندك .

فسبحانه يقول : « وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشدا فادفعوا إليهم أموالهم ولا تأكلوها إسرافا » .

فعندما يبلغ اليتيم الرشد وقد تم تدريبه على حسن إدارة المال . وعرف الوصى أن اليتيم قد استطاع أن يدير ماله ، ومن فور بلوغه الرشد يجب على الوصى أن يدفع إليه ماله ، ولا يصح أن يأكل الوصى مال اليتيم إسرافا . والإسراف هو الزيادة فى الحد ؛ لأنه ليس ماله ، إنه مال اليتيم . وعندما قيل لرجل شره : ماذا تريد أيها الشره ؟ قال الشره : « أريد قصعة من ثريد أضرب فيها بيدى كما يضرب الولى السوء فى مال اليتيم » . أنجانا الله وإياكم من هذا الموقف ، ونجد الحق يقول : « ولا تأكلوها إسرافا وبدارا أن يكبروا » .

إن الحق سبحانه يحذرنا من الإسراف فى مال اليتيم فى أثناء مرحلة ما قبل الرشد ، وذلك من الخوف أن يكبر اليتيم وله عند الولى شىء من المال أى أن يسرف الولى فينفق كل مال اليتيم قبل أن يكبر اليتيم ويرشد ، والله سبحانه وتعالى حين يشرع فهو بجلال كماله يشرع تشريعا لا يمنع قوامة الفقير العادل غير الواجد . كان الحق قادرا أن يقول : لا تعطوا الوصية إلا لإنسان عنده مال لأنه فى غنى عن مال اليتيم .

لكن الحق لا يمنع الفقير النزيه صاحب الخبرة والإيمان من الولاية .

ولذلك يقول الحق سبحانه عن الولى : « ومن كان غنيا فليستعفف ومن كان فقيرا

فليأكل بالمعروف » فلا يقولن أحد عن أحد آخر : إنه فقير ، ولو وضعنا يده على مال اليتيم فإنه يأكله . لا ، فهذا قول بمقاييس البشر ، لا يجوز أن يمنع أحد فقيرا مؤمنا أن يكون وليا لليتيم ؛ لأننا نريد من يملك رصيدا إيمانيا يعلو به فوق الطمع فى المال ؛ لذلك يقول الحق عن الوصى على مال اليتيم : إن عليه مسئولية واضحة .

فإن كان غنيا فليستعفف ، وإن كان فقيرا فليأكل بالمعروف . وحددوا المعروف بأن يأخذ أجر مثله فى العمل الذى يقوم به .

وكلمة المعروف تعنى الأمر المتداول عند الناس ، أو أن يأخذ على قدر حاجته . ويقول الحق : « فإذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم وكفى بالله حسيبا » وانظروا الحماية ، هو سبحانه يصنع الحماية للولى أو الوصى ، فالحق يعلم خَلْقَه ، ـ وخَلْقُه من الأغيار ـ والولى على اليتيم لابد أن يلى الأمر بحكمة وحرص ؛ حتى لا يكرهه اليتيم . وربما قد يراضيه فى كل شىء . نقول له : لا ، أعطه بقدَر حتى لا تفسده . فإذا ما أعطى الولى اليتيم بقدر ربما كرهه اليتيم ؛ لأن اليتيم قد يرغب فى أشياء كمالية لا تصلح له ولا تناسب إمكاناته ، وعندما يصل اليتيم إلى سن الرشد قد يتركز كرهه ضد الوصى ، فيقول له : لقد أكلت مالى ؛ لذلك يوضح الحق للولى أو الوصى : كما حميت اليتيم بحسن ولايتك أحميك أنا من رشد اليتيم .

لذلك يجب عليك ـ أيها الولى ـ حين تدفع المال إليه أن تشهد عليه ، لأنك لا تملك الأغيار النفسية ، فربما وَجَد عليك وكرهك ؛ لأنك كنت حازما معه على ماله ، وكنت تضرب على يده إذا انحرف . وإذا ما كرهك ربما التمس فترة من الفترات وقام ضدك واتهمك بما ليس فيك ؛ لذلك لابد من أن تحضر شهودا عدولا لحظة تسليمه المال . وهذه الشهادة لتستبرىء بها من المال فحسب ، أما استبراء الدِّين فموكول إلى الله « وكفى بالله حسيبا » .

هذا وإن سورة النساء تعالج الضعف فى المرأة والضعف فى اليتيم ، لأن الحال فى المجتمع الذى جاء عليه الإسلام أنهم كانوا لا يورثون النساء ولا يورثون الصغار الذين لم تشتد أجنحتهم ، وكانت القاعدة الغريبة عندهم هى : من لم يطعن برمح

ولم يذد عن حريم أو عن مال ولم يشهد معارك فهو لا يأخذ من التركة . وكانت هذه قمة استضعاف أقوياء لضعفاء . وجاء الإسلام ليصفى هذه القاعدة . بل فرض وأوجب أن تأخذ النساء حقوقهن وكذلك الأطفال ، ولهذا قال الحق سبحانه :

﴿ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾ ﴾

ومَن الذى يفرض هذا النصيب ؟ إنه الله الذى ملك وهو الذى فرض .

هنا نلاحظ أن المرحوم الشهيد صاحب الظلال الوارفة الشيخ سيد قطب لحظ ملحظا جميلا هو : كيف يكون للمتوفى أولاد أو نساء محسوبون عليه ولا يأخذون ؟ إن الصغار كانوا أولى أن يأخذوا لأن الكبار قد اشتدت أعوادهم وسواعدهم ، فالصغار أولى بالرعاية ، وأيضا إذا كانت قوانين « مندل » فى الوراثة توضح أن الأولاد يرثون من أمهاتهم وآبائهم وأجدادهم الخصال الحسنة أو السيئة ، أو المرض أو العفة أو الخلقة ، فلماذا لا تورثونهم أيضا فى الأموال ؟

وحين نسمع قول الحق : « نصيبا مفروضا » فلا بد أن يوجد فارض ، ويوجد مفروض عليه ، والفارض هنا هو الله الذى ملك ، وفيه فرق دقيق بين « فرض » و« أوجب » فالفرض يكون قادما من أعلى ، لكن الواجب قد يكون من الإنسان نفسه ، فالإنسان قد يوجب على نفسه شيئا .

وحين يتكلم الحق عن النصيب المفروض ، فقد بين أن له قدرا معلوما ، ومادام للنصيب قدر معلوم ، فلا بد أن يتم إيضاحه . . ولم يبين الحق ذلك إلا بعد أن يُدخل فى العملية أناسا قد لا يورثهم ، وهم ممن حول الميت ممن ليسوا بوارثين ،

ويوضح سبحانه الدعوة إلى إعطاء مَن لا نصيب له ، إياكم أنْ يلهيكم هذا النصيب المفروض عمن لا نصيب له فى التركة .

لذلك يقول سبحانه وتعالى :

﴿ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾ ﴾

وحين يحضر أولو القُرْبى واليتامى والمساكين مشهد توزيع المال ، وكل واحد من الورثة الذين يتم توزيع مال المورِّث عليهم انتهت مسائله ، قد يقول هؤلاء غير الوارثين : إن الورثة إنما يأخذون غنيمة باردة هبطت عليهم مثل هذا الموقف يترك شيئا فى نفوس أولى القُربى واليتامى والمساكين .

صحيح أن أولى القُربى واليتامى والمساكين ليسوا وارثين ، ولن يأخذوا شيئا من التركة فرضاً لهم ، ولكنهم حضروا القسمة ؛ لذلك يأتى الأمر الحق : « فارزقوهم منه وقولوا لهم قولا معروفا » فلو أنهم لم يحضروا القسمة لاختلف الموقف . فيأمر سبحانه بأن نرزق اليتامى وأولى القُربى والمساكين حتى نستل منهم الحقد أو الحسد للوارث ، أو الضغن على المورِّث ، وبذلك يشيع فى الناس شىء من الألفة ومن المحبة ومن حب الخير لأنهم قد نالوا شيئا من الخير مع هؤلاء ، فلا يكونون حاقدين على الورثة ولا على المورِّث ، ولا يكتفى الحق بالأمر برزق هؤلاء الأقارب واليتامى والمساكين ، ولكن يأمر أن نقول لهم : قولا معروفا ، مثل أن ندعو الله لهم أن يزيد من رزقهم ، وأن يكون لهم أموال وأن يتركوا أولادا ويورثوهم ، ومن الذى يجب عليه أن يقوم بمثل هذا العمل ؟ إنهم الوارثون إن كانوا قد بلغوا الرشد ، ولكن ماذا

يكون الموقف لو كان الوارث يتيما ؟ فالحضور هم الذين يقولون لأولى القُربى واليتامى والمساكين : إنه مال يتيم ، وليس لنا ولاية عليه ، ولو كان لنا ولاية لأعطيناكم أكثر ، وفى مثل هذا القول تطييب للخاطر .

« وإذا حضر القسمة أولو القرْبى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه وقولوا لهم قولا معروفا » يجب أن تكونوا فى ذلك الموقف ذاكرين أنه إذا كنتم أنتم الضعفاء واليتامى وغير الوارثين فمن المؤكد أن السرور كان سيدخل إلى قلوبكم لو شرعنا لكم نصيبا من الميراث . إذن فليذكر كل منكم أنه حين يطلب الله منه ، أنك قد تكون مرة فى موقف من يطلب الله له ولأولاده . إذن فالحكم التشريعى لا يؤخذ من جانب واحد ، وهو أنه يُلزم المؤمن بأشياء ، ولكن لنأخذ بجانب ذلك أنه يلزم غيره من المؤمنين للمؤمن بأشياء .

إن الحكم التشريعى يعطيك ، ولذلك يأخذ منك . ولهذا قلنا فى الزكاة : إياك أن تلحظ يا من تؤدى الزكاة أننا نأخذ منك حيفا ثمرة كدحك وعرقك لنعطيها للناس ، نحن نأخذ منك وأنت قادر لنؤمِّنك إن صرت عاجزا . وسوف نأخذ لك من القادرين . إنه تأمين ربانى حكيم . .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ ﴾

والإنسان حين يترك ذرية ضعيفة يتركها وهو خائف عليهم أن يضيعهم الزمان .

فإن كان عندك أيها المؤمن ذرية ضعيفة وتخاف عليها فساعة ترى ذرية ضعيفة تركها غيرك فلتعطف عليها ، وذلك حتى يعطف الغير على ذريتك الضعيفة إن تركتها . واعلم أن ربنا رقيب وقيوم ولا يترك الخير الذى فعلته دون أن يردّه إلى ذريتك . وقلنا ذات مرة : إن معاوية وعَمرو بن العاص اجتمعا فى أواخر حياتهما ، فقال عمرو بن العاص لمعاوية : يا أمير المؤمنين ماذا بقى لك من حظ الدنيا ؟ . وكان معاوية قد صار أميراً للمؤمنين ورئيس دولة قوية غنية ، فقال معاوية : أما الطعام فقد مللت أطيبه ، وأما اللباس فقد سئمت ألينه ، وحظى الآن فى شربة ماء بارد فى ظل شجرة فى يوم صائف .

وصمت معاوية قليلاً وسأل عَمْراً : وأنت يا عَمرو ماذا بقى لك من متع الدنيا ؟ .

وكان سيدنا عمرو بن العاص صاحب عبقرية تجارية فقال : أنا حظى عين خرارة فى أرض خوارة تدر علىّ حياتى ولولدى بعد مماتى .

إنه يطلب عين ماء مستمر فى أرض فيها أنعام وزروع تعطى الخير .

وكان هناك خادم يخدمهما ، يقدم لهما المشروبات ، فنظر معاوية إلى الخادم وأحب أن يداعبه ليشركه معهما فى الحديث .

فقال للخادم : وأنت يا « وردان » ماذا بقى لك من متاع الدنيا ؟ أجاب الخادم : بقى لى من متع الدنيا يا أمير المؤمنين صنيعة معروف أضعها فى أعناق قومٍ كرامٍ لا يؤدونها إلىّ طول حياتى حتى تكون لعقبى فى عقبهم . لقد فهم الخادم عن الله قوله :

﴿ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ ﴾

(سورة النساء)

فالذين يتقون الله فى الذرية الضعيفة يضمنون أن الله سيرزقهم بمن يتقى الله فى ذريتهم الضعيفة .

وقد تكلمنا مرة عن العبد الصالح الذى ذهب إليه موسى عليه السلام :

﴿ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ ﴾

(سورة الكهف)

لقد جرب العبد الصالح موسى فى خرق السفينة ـ كما توضح الآيات ـ فقال العبد الصالح :

﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾ ﴾

(سورة الكهف)

ثم ما كان من أمر الغلام الذى قتله العبد الصالح وقول موسى له : « لقد جئت شيئا نكرا » .

ثم جاءا إلى أهل قرية فطلبا منهم الطعام ، وحين يطلب منك ابن سبيل طعاماً فاعلم أنها الحاجة الملحة ؛ لأنه لو طلب منك مالاً فقد تظن أنه يكتنز المال ، ولكن إن طلب لقمة يأكلها فهذا أمر واجب عليك .

فماذا فعل أهل القرية حين طلب العبد الصالح وموسى طعاماً لهما ؟ .

يقول الحق :

﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ ﴾

(سورة الكهف)

إنها قرية لئيمة ، ووجد العبد الصالح فى القرية جداراً يريد أن يسقط وينقض فأقامه ، واعترض موسى ؛ لأن عنده حفيظة على أهل القرية فقد طلبا منهم طعاماً فلم يطعموهما ، وقال سيدنا موسى : إنك لو شئت لاتخذت عليه أجراً ؛ لأن أهل القرية لئام ، وما كان يصح أن تقيم لهم الجدار إلا إذا أخذت منهم أجرا .

لقد غاب عن موسى ما لم يغيِّب الله سبحانه عن العبد الصالح ، فبالله لو أن الجدار وقع وهم لئام لا يطعمون من استطعمهم ، ثم رأوا الكنز المتروك لليتامى المساكين ، فلا بد أنهم سيغتصبون الكنز . إذن فعندما رأيت الجدار سيقع أقمته حتى أوارى الكنز عن هؤلاء اللئام . ويقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَـٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَـٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ ﴾

(سورة الكهف)

إذن فالعلة فى هذه العملية هى الحماية لليتيمين ، ولنلق بالاً ولْنَهْتَمَّ بملاحظ النص ، لا بد أن العبد الصالح قد أقام الجدار بأسلوب جَدَّد عمراً افتراضيًا للجدار بحيث إذا بلغ اليتيمان الرشد وقع الجدار أمامهما ؛ ليرى كلاهما الكنز ، لقد تم بناء الجدار على مثال القنبلة الموقوتة بحيث إذا بلغا الرشد ينهار الجدار ليأخذا الكنز . إنه توقيت إلهى أراده الله ؛ لأن والد اليتيمين كان صالحاً ، اتقى الله فيما تحت يده فأرسل الله له جنوداً لا يعلمهم ولم يرتبهم ليحموا الكنز لولديه اليتيمين ، لذلك فلنفهم جيداً فى معاملتنا ، قول الحق :

﴿ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ ﴾

(سورة النساء)

لماذا ؟ لأن الإنسان عندما يكون شاباً فذاتيته تكون هى الموجودة . لكن كلما تقدم الإنسان فى السن تقدمت ذاتية أولاده عنده ، ويحرم نفسه ليعطى أولاده ، وعندما يرى أنّ عياله مازالوا ضعافاً ، وجاءت له مقدمات الموت فهو يحزن على مفارقة هؤلاء الضعاف ، فيوضح الحق لكل عبد طريق الأمان : إنك تستطيع وأنت موجود أن تعطى للضعاف قوة ، قوة مستمدة من الالتحام بمنهج الله وخاصة رعاية ما تحت يدك من يتامى ، بذلك تؤمن حياة أولادك من بعدك وتموت وأنت مطمئن عليهم . .

والقول السديد من الأوصياء : ألاّ يؤذوا اليتامى ، وأن يكلموهم كما يكلمون أولادهم بالأدب الحسن والترحيب ويدعوهم بقولهم يا بنى ويا ولدى .

وحين يتقى المؤمن الله فيما بين يديه يرزقه الله بمن يتقى الله فى أولاده .

ومازال الحق يضع المنهج فى أمر اليتامى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾ ﴾

لماذا يركز القرآن على هذه الجزئية ؟ لأن الله يريد من خلقه أن يستقبلوا قدر الله فيمن يحبون وفيمن يحتاجون إليهم برضا ، فإذا كان الطفل صغيراً ويرى أباه يسعى

فى شأنه ويقدم له كل جميل فى الحياة وبعد ذلك يموت ، فإن كان هذا الصغير قد رأى واحداً مات أبوه وكفله المجتمع الإيمانى الذى يعيش فى كفالة عوضته عن أب واحد بآباء إيمانيين متعددين ، فإذا مات والد هذا الطفل فإنه يستقبل قدر الله وخطبه بدون فزع . فالذى يجعل الناس تستقبل الخطوب بالفزع والجزع والهلع أنهم يرون أن الطفل إذا ما مات أبوه وصار يتيماً فإنه يضيع ، ويقول الطفل لنفسه : إن أبى عندما يموت سأصير مضيعاً . لكن لو أن المجتمع حمى حق اليتيم وصار كل مؤمن أباً لليتيم وكل مؤمنة أمًّا لليتيم لاختلف الأمر ، فإذا ما نزل قضاء الله فى أبيه فإنه يستقبل القضاء برضا وتسليم .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾ ﴾

(سورة النساء)

إنّ كل العملية السلبية والنهيية أهم ما فيها هو الأكل ؛ لأن الأكل هو المتكرر عند الناس ، وهو يختلف عن اللباس ، فكل فصل يحتاج الإنسان إلى ملابس تناسبه ، لكن الأكل عملية يومية ؛ لذلك فأى نهب يكون من أجل الأكل . ولذلك نقول فى أمثالنا العامية عن النهاب : « فلان بطنه واسعة » إنها مسألة الأكل .

وقد أوضح الحق هذا الأمر لأكل مال اليتيم : أنت تحشو فى بطنك ناراً . ويعنى ذلك أنه يأكل فى بطنه ما يؤدى إلى النار فى الآخرة . وهذا قد يحدث عقاباً فى الدنيا فيصاب آكل مال اليتيم فى بطنه بأمراض تحرق أحشاءه ، ويوم القيامة يرى المؤمنون هؤلاء القوم الذين أكلوا مال اليتيم ، وعليهم سمات أكل مال اليتيم : فالدخان يخرج من أفواههم . وإياك أن تفهم أن البطون هى التى ستكون ممتلئة بالنار فقط ، وألا يكون هناك نار أمام العيون . بل سيكون فى البطون نار وسيصلون سعيراً .

ويقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ
ٱلْأُنثَيَيْنِ ۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا
تَرَكَ ۖ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ ۚ وَلِأَبَوَيْهِ
لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ ۚ
فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ ۚ فَإِن
كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ
يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۗ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ
أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ۚ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ
كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾ ﴾

ونعم الرب خالقنا ؛ إنه يوصينا فى أولادنا ، سبحانه رب العرش العظيم ، كأننا عند ربنا أحب منا عند آبائنا . وقوله الكريم : « يوصيكم الله فى أولادكم » توضح أنه رحيم بنا ومحب لنا . ومادة الوصية إذا ما استقرأناها فى القرآن نجد ـ بالاستقراء ـ أن مادة الوصية مصحوبة بالباء ، فقال سبحانه :

﴿ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾

(من الآية ١٥٣ سورة الأنعام)

وقال سبحانه :

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا ﴾

(من الآية ١٣ سورة الشورى)

وقال الحق أيضاً :

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ ﴾

(من الآية ١٤ سورة لقمان)

كل هذه الآيات جاءت الوصية فيها مصحوبة بالباء التى تأتى للإلصاق .

لكن عندما وصّى الآباء على الأبناء قال : « يوصيكم الله فى أولادكم » فكأن الوصية مغروسة ومثبتة فى الأولاد ، فكلما رأيت الظرف وهو الولد ذكرت الوصية . وما هى الوصية ؟ إنها « للذكر مثل حظ الأنثيين » وقلنا من قبل : إن الحق قال :

﴿ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ﴾

(من الآية ٧ سورة النساء)

ولم يحدد النصيب بعد هذه الآية مباشرة إلا بعد ما جاء بحكاية اليتامى وتحذير الناس من أكل مال اليتيم ، لماذا ؟ لأن ذلك يربى فى النفس الاشتياق للحكم ، وحين تستشرف النفس إلى تفصيل الحكم ، ويأتى الحكم بعد طلب النفس له ، فإنه يتمكن منها . والشىء حين تطلبه النفس تكون مهيأة لاستقباله ، لكن حينما يعرض الأمر بدون طلب ، فالنفس تقبله مرة وتعرض عنه مرة أخرى . ونلحظ ذلك فى مناسبة تحديد أنصبة الميراث .

فقد قال الحق سبحانه أولا :

﴿ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ﴾

(من الآية ٧ سورة النساء)

راجع أصله وخرج أحاديثه الدكتور أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر

وعرض بعد ذلك أمر القسمة ورعاية اليتامى والمساكين وأولى القُربى ، ثم يأتى الأمر والحكم برعاية مال اليتيم والتحذير من نهبه ، وبعد ذلك يقول : « يوصيكم الله فى أولادكم » ويأتى البند الأول فى الوصية « للذكر مثل حظ الأنثيين » ولماذا لم يقل « للأنثيين مثل حظ الذكر » . أو « للأنثى نصف حظ الذكر » ، هذه معان يمكن أن تعبر عن المطلوب .

لقد أراد الله أن يكون المقياس ، أو المكيال هو حظ الأنثى ، ويكون حظ الرجل هنا منسوبًا إلى الأنثى ، لأنه لو قال:« للأنثى نصف حظ الرجل » لكان المقياس هو الرجل ، لكنه سبحانه جعل المقياس للأنثى فقال : « للذكر مثل حظ الأنثيين » .

والذين يقولون : هذا أول ظلم يصيب المرأة ، نريد المساواة . نقول لهم : انظروا إلى العدالة هنا . فالذكر مطلوب له زوجة ينفق عليها ، والأنثى مطلوب لها ذكر ينفق عليها ، إذن فنصف حظ الذكر يكفيها إن عاشت دون زواج ، وإن تزوجت فإن النصف الذى يخصها سيبقى لها ، وسيكون لها زوج يعولها .

إذن فأيهما أكثر حظا فى القسمة ؟ إنها الأنثى . ولذلك جعلها الله الأصل والمقياس حينما قال : « للذكر مثل حظ الأنثيين » فهل فى هذا القول جور أو فيه محاباة للمرأة ؟ إن فى هذا القول محاباة للمرأة ؛ لأنه أولا جعل نصيبها المكيال الذى يُرد إليه الأمر ؛ لأن الرجل مطلوب منه أن ينفق على الأنثى ، وهى مطلوب لها زوج ينفق عليها . إذن فما تأخذه من نصف حظ الذكر يكون خالصا لها ، وكان يجب أن تقولوا : لماذا حابى الله المرأة ؟ لقد حابى الله المرأة لأنها عِرض ، فَصَانَها ، فإن لم تتزوج تجد ما تنفقه ، وإن تزوجت فهذا فضل من الله ، ثم يقول الحق : « فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك » .

وأنا أريد أن نستجمع الذهن هنا جيدا لنتعرف تماما على مراد الحق ومسالك القرآن فى تنبيه الأذهان لاستقبال كلام الله . فقد كرم الله الإنسان بالعقل ، والعقل لا بد له من رياضة . ومعنى الرياضة هو التدريب على حل المسائل ، وإن طرأت مشكلات هيأ نفسه لها بالحل ، وأن يملك القدرة على الاستنباط والتقييم ، كل هذه من مهام العقل . فيأتى الحق فى أهم شىء يتعلق بالإنسان وهو الدين ، والدليل إلى

الدين وحافظ منهجه هو القرآن ، فيجعل للعقل مهمة إبداعية .

إنه ـ سبحانه ـ لا يأتى بالنصوص كمواد القانون فى الجنايات أو الجنح ، ولكنه يعطى فى مكان ما جُزْءًا من الحكم ، ويترك بقية القانون لتتضح معالمه فى موقع آخر من القرآن بجزئية أخرى ، لأنه يريد أن يوضح لنا أن المنهج الإلهى كمنهج واحد متكامل ، وأنه ينقلك من شىء إلى شىء ، ويستكمل حكما فى أكثر من موقع بالقرآن . وذلك حتى تتعرف على المنهج ككل . وأنك إذا كنت بصدد شىء فلا تظن أن هذا الشىء بمفرده هو المنهج ، ولكن هناك أشياء ستأتى استطرادا تتداخل مع الشىء الذى تبحث عن حكم الله فيه ، مثال ذلك : مسألة اليتيم التى تتداخل مع أحكام الميراث . وهذه الآية تعطينا مثل هذه المسألة لماذا ؟ لأن الله يريد لك يا صاحب العقل الدربة فى الإطار الذى يضم الحياة كلها . وما يهمك أولا هو دينك ، فلتعمل عقلك فيه ، فإذا أعملت عقلك فى الدين أعطيت عقلك النشاط ليعمل فى المجال الآخر .

لكن إذا غرق ذهنك فى أى أمر جزئى فهذا قد يبعد بك عن الإطار العام لتنشغل بالتفاصيل عن الهدف العام .

وأولادنا من الممكن أن يعلمونا من تجربة من ألعابهم ، فالطفل يلعب مع أقرانه « الاستغماية » ، ويختبىء كل قرين فى مكان ، ويبحث الطفل عن أقرانه .

ونحن نلعب أيضا مع أولادنا لعبة إخفاء شىء ما فى يد ونطبق أيدينا ونترك الابن يخمن بالحدس فى أى يد يكون الشىء ، إنها دربة للعقل على الاستنباط ، فإن كان الولد سريع البديهة قوى الملاحظة ويمتلىء بالذكاء ، فهو يرى يَدَىْ والده ليقارن أى يد ترتعش قليلا ، أو أى يد ليست طبيعية فى طريقة إطباق الأب لها فيختارها ، وينتصر بذلك ذكاء الولد ، وهذه عملية ترويض للطفل على الاستنباط والفهم ، وبذلك تعلم الطفل ألا يأخذ المسائل ضربة لازب بدون فكر ولا دُربة .

والحق سبحانه أراد أن تكون أحكامه موزعة فى المواقع المختلفة ، ولننظر إلى قوله : « يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين ، فإن كن نساء فوق اثنتين

فلهن ثلثا ما ترك » أى أنه إن لم ينجب المورث ذكرا وكان له أكثر من اثنتين فلهن ثلثا ما ترك .

أما لو كان معهن ذكر ، فالواحدة منهن ستأخذ نصف نصيب الذكر ، وإن كانت الوارثة بنتا واحدة ، فالآية تعطيها النصف من الميراث « وإن كانت واحدة فلها النصف » وبقى شىء لم يأت الله له بحكم ، وهو أن يكون المورث قد ترك ابنتين . وهنا نجد أن الحق قد ضمن للاثنتين فى إطار الثلاث بنات أو أكثر أخذ الثلثين من التركة ، هكذا قال العلماء ، ولماذا لم ينص على ذلك بوضوح ؟ لقد ترك هذه المهمة للعقل ، فالبنت حينما ترث مع الذكر تأخذ ثلث التركة ، وعندما تكون مع ابنة أخرى دون ذكر ، تأخذ الثلث .

فإذا كانت مع الذكر وهو القائم بمسئولية الكدح تأخذ الثلث ، ولذلك فمن المنطقى أن تأخذ كل أنثى الثلث إن كان المورث قد ترك ابنتين . وهناك شىء آخر ، لتعرف أن القرآن يأتى كله كمنهج متماسك ، فهناك آية أخرى فى سورة النساء تناقش جزئية من هذا الأمر ليترك للعقل فرصة العمل والبحث ، يقول سبحانه :

﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿١٧٦﴾ ﴾

(سورة النساء)

لقد جاء الحق هنا بأختى المورث وأوضح أن لهما الثلثين من التركة إن لم يكن للمورث ولد - ابن أو بنت - فإذا كان للأختين الثلثان ، فأيهما ألصق بالمورث ، البنتان أم الأختان ؟ إن ابنتى المورث ألصق به من أختيه ، ولذلك فللبنتين الثلثان ، فالابنة إن كانت مع أخيها فستأخذ الثلث ، وإن كانت قد ورثت بمفردها فستأخذ النصف . وإن كانت الوارثات من البنات أكثر من اثنتين فسيأخذن الثلثين ، وإن

كانتا اثنتين فستأخذ كل منهما الثلث ، لماذا ؟ لأن الله أعطى الأختين ثلثى ما ترك المورث إن لم يكن له أولاد .

ومن العجيب أنه جاء بالجمع فى الآية الأولى الخاصة بتوريث البنات ، وجاء بالمثنى فى الآية التى تورث الأخوات ، لنأخذ المثنى هناك ـ فى آية توريث الأخوات ـ لينسحب على الجمع هنا ، ونأخذ الجمع هنا ـ فى آية توريث البنات ـ لينسحب على المثنى هناك .

لقد أراد الحق أن يجعل للعقل مهمة البحث والاستقصاء والاستنباط وذلك حتى نأخذ الأحكام بعشق وحسن فهم ، وعندما يقول سبحانه : « يستفتونك » فمعنى يستفتونك أى يطلبون منك الفتوى ، وهذا دليل على أن المؤمن الذى سأل وطلب الفتيا قد عشق التكليف ، فهو يحب أن يعرف حكم الله ، حتى فيما لم يبدأ الله به الحكم . وقد سأل المؤمنون الأوائل وطلبوا الفتيا عشقا فى التكليف « يستفتونك قل الله يفتيكم فى الكلالة » والكلالة مأخوذة من الإكليل وهو ما يحيط بالرأس ، والكلالة هى القرابة التى تحيط بالإنسان وليست من أصله ولا من فصله .

﴿ إِنِ ٱمْرُؤٌاْ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوٓاْ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴾

(من الآية ١٧٦ سورة النساء)

وهذه الآية تكمل الآية الأولى . ونعود إلى تفصيل الآية الأولى التى نحن بصدد خواطرنا الإيمانية عنها : « ولأبوية لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان له ولد ، فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث » .

ومعنى ذلك أن المورث إن لم يكن له أولاد فللأم الثلث ، والأب له الثلثان ، فإن كان للمورث إخوة أشقاء أو لأب أو لأم فللأم السدس حسب النص القرآنى « فإن

كان له إخوة فلأمه السدس من بعد وصية يوصى بها أو دين » ، وذلك بعد أن تنفذ وصية المورث ، ويؤدَّى الدَّيْن الذى عليه . والوصية هنا مقدمة على الدين ؛ لأن الدين له مُطالب ، فهو يستطيع المطالبة بدينه ، أما الوصية فليس لها مطالب ، وقد قدمها الحق للعناية بها حتى لا نهملها . ويذيل الحق هذه الآية :

﴿ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ۚ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾

(من الآية ١١ سورة النساء)

فإياك أن تحدد الأنصباء على قدر ما تظن من النفعية فى الآباء أو من النفعية فى الأبناء ، فالنفعية فى الآباء تتضح عندما يقول الإنسان : « لقد ربانى أبى وهو الذى صنع لى فرص المستقبل » . والنفعية فى الأبناء تتضح عندما يقول الإنسان : إن أبى راحل وأبنائى هم الذين سيحملون ذكرى واسمى والحياة مقبلة عليهم . فيوضح الحق : إياك أن تحكم بمثل هذا الحكم ؛ فليس لك شأن بهذا الأمر : « لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا » .

ومادمت لا تدرى أيهم أقرب لك نفعا فالتزم حكم الله الذى يعلم المصلحة وتوجيهها فى الأنصبة كما يجب أن تكون .

ونحن حين نسمع : « إن الله كان عليما حكيما » أو نسمع : « إن الله كان غفورا رحيما » فنحن نسمعها فى إطار أن الله لا يتغير ، ومادام كان فى الأزل عليما حكيما وغفورا رحيما فهو لا يزال كذلك إلى الأبد .

فالأغيار لا تأتى إلى الله ، وثبت له العلم والحكمة والخبرة والمغفرة والرحمة أزلاً وهو غير متغير ، وهذه صفات ثابتة لا تتغير . لذلك فعندما تقرأ : « إن الله كان عليماً حكيماً » أو « إن الله كان غفوراً رحيما » فالمسلم منا يقول بينه وبين نفسه : ولا يزال كذلك .

والحق يقول من بعد ذلك :

﴿ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن
لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ
الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ
بِهَا أَوْ دَيْنٍ ۚ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن
لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ
فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم ۚ مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ
تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ ۗ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ
كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ
مِّنْهُمَا السُّدُسُ ۚ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ
فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ ۚ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ
يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ ۚ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ ۗ
وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾

والآيات تسير فى إيضاح حق الذكر مثل حظ الأنثيين ؛ وهذه عدالة ؛ لأن الرجل حين تموت امرأته قد يتزوج حتى يبنى حياته ، والمرأة حين يموت زوجها فإنها تأخذ ميراثها منه وهى عرضة أن تتزوج وتكون مسئولة من الزوج الجديد .

إن المسألة كما أرادها الله تحقق العدالة الكاملة . والكلالة ـ كما قلنا ـ أنه ليس للمتوفى والد أو ولد ، أى لا أصل له ولا فصل متفرع منه .

فإذا كان للرجل الكلالة أخ أو أخت فلكل واحد منهما السدس ، فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء فى الثلث ، وذلك أيضاً من بعد الوصية التى يوصى بها أو دين . ولماذا يتم تقرير هذاالأمر ؟ لنرجع مرة أخرى إلى آية الكلالة التى جاءت فى آخر سورة النساء .

إن الحق يقول فيها :

﴿ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴾

(من الآية ١٧٦ سورة النساء)

فى الآية الأولى التى نحن بصددها يكون للواحد من الإخوة سدس ما ترك إذا انفرد ، فإذا كان معه غيره فهم شركاء فى الثلث . هذا إذا كانوا إخوة من الأم . أما الآية التى يختص بها الحق الأختين بالثلثين من التركة إذا لم يكن معهما ما يعصبهما من الذكور فهى فى الإخوة الأشقاء أو الأب ، هكذا يفصل القرآن ويوضح بدقة مطلقة .

وماذا يعنى قوله الحق : « غير مضار وصية من الله والله عليم حليم » ؟

إنه سبحانه يريد إقامة العدل ، فلا ضرر لأحد على الإطلاق فى تطبيق شرع الله ؛ لأن الضرر إنما يأتى من الأهواء التى تفسد قسمة الله . فقد يكون هناك من يرغب ألا يرث العم من بنات أخيه الشقيق ، أو لأب ، أو يريد آخر ألا يُدْخل أولاد الإخوة الذكور أشقاء أو لأب فى ميراث العمة أو بنات العم الشقيق أو لأب ، لمثل هؤلاء من أصحاب الهوى نقول : إن الغرم على قدر الغنم ، بالله لو أنك مت وتركت بنات ولهن عمّ ، أليس مطلوباً من العم أن يربى البنات ؟ فلماذا يجبر الحق العم على رعاية بنات أخيه إن توفى الأخ ولم يترك شيئاً ؟ لذلك يجب أن تلتفت إلى حقيقة الأمر عندما يأتى نصيب للعم فى الميراث . وعلينا أن نعرف أن الغرم أمامه الغنم .

وقلنا:إن القرآن الكريم يجب أن يؤخذ جميعه فيما يتعلق بالأحكام ، فإذا كان فى

سورة النساء هذه يقول الحق سبحانه وتعالى فى آخر آية منها :

﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿١٧٦﴾ ﴾

(سورة النساء)

فما الفرق بين الكلالة حين يجعل الله للمنفردة النصف وللاثنتين الثلثين ، وبين الكلالة التى يجعل الله فيها للمنفرد السدس ، ويجعل للأكثر من فرد الاشتراك فى الثلث دون تمييز للذكر على الأنثى ؟

لابد أن نفرق بين كلالة وكلالة . .

هما متحدتان فى أنه لا أصل ولا فرع للمتوفى . والمسألة هنا تتعلق بالإخوة .

ونقول:إن الإخوّة لها مصادر متعددة . هذه المصادر إما إخوة من أب وأم ، وإما أخوة لأب،وإما إخوة لأم . فإذا كان أخ شقيق أو لأب فهو من العصبة الأصيلة ، وهما المعنيان فى الآية ١٧٦ من السورة نفسها .

وبذلك تكون آية السدس والثلث التى نحن بصددها الآن متعلقة بالإخوة لأم . إذن فالكلالة إما أن يكون الوارث أخا لأم فقط ، وإما أن يكون أخًا لأب ، أو أخًا لأب وأم . فالحكمان لذلك مختلفان ؛ لأن موضع كل منهما مختلف عن الآخر . وإلا لو أن مستشرقاً قرأ هذه الآية وقرأ الآية الأخرى وكلتاهما متعلقتان بميراث الكلالة ، وأراد هذا المستشرق أن يبحث عن شىء يطعن به ديننا ويطعن به القرآن لقال ـ والعياذ بالله ـ : القرآن متضارب ، فهو مرة يقول : للكلالة السدس،ومرة يقول : الثلث ، ومرة أخرى النصف،ومرة أخرى الثلثان،ومرة للذكر مثل حظ الأنثيين ! ونرد

على من يقول ذلك : أنت لم تلاحظ المقصود الفعلى والواقعى للكلالة ؛ لذلك فأنت تفهم شيئا وتغيب عنك أشياء .

والحق قال : « من بعد وصية يوصى بها أو دين » ولنا أن نلاحظ أن فى كل توريث هذه « البعدية » أى أن التوريث لا يتأتى إلا من بعد الوصية الواجبة النفاذ والدَّيْن .

ولنا أن نسأل : أيهما ينفذ أولاً ، الوصية أم الدين ؟

والإجابة : لاشك أنه الدين ؛ لأن الدين إلزام بحق فى الذمة ، والوصية تطوع ، فكيف تقدم الوصية ـ وهى التطوع ـ على الدين ، وهو للإلزم فى الذمة .

وعندما يقول : « غير مضار » لابد أن نعرف جيداً أن شرع الله لن يضر أحداً ، وما المقصود بذلك ؟ المقصود به الموصى ، ففى بعض الأحيان يكون المورِّث كارهاً لبعض المستحقين لحقهم فى ميراثه ، فيأتى ليوصى بمنع توريثهم أو تقليل الأنصباء ، أو يأتى لواحد بعيد يريد أن يعطيه شيئاً من الميراث ولا يعطى لمن يكرهه من أهله وأقاربه المستحقين فى ميراثه ، فيقر لذلك الإنسان بدين ، فإذا ما أقر له بدين حتى وإن كان مستغرقاً للتركة كلها ، فهو يأخذ الدين وبذلك يترك الورثة بلا ميراث .

و هذا يحدث فى الحياة ونراه ، فبعض من الناس أعطاهم الله البنات ولم يعطيهم الله ولداً ذكراً يعصِّبهم ، فيقول الواحد من هؤلاء لنفسه : إن الأعمام ستدخل ، وأبناء الأعمام سيدخلون فى ميراثى ، فيريد أن يوزع التركة على بناته فقط ، فيكتب ديناً على نفسه للبنات . ونقول لهذا الإنسان : لا تجحف ، أنت نظرت إلى أن هؤلاء يرثون منك ، ولكن يجب أن تنظر إلى الطرف المقابل وهو أنك إذا مت ولم تترك لبناتك شيئاً وهن لا عصبة لهن ، فمن المسئول عنهن ؟ إنهم الأعمام ، فالغرم هنا مقابل الغنم . . ولماذا تطلب البنات الأعمام أمام القضاء ليأخذن النفقة منهم فى حالة وفاة الأب دون أن تكون له ثروة . فكيف تمنع عن إخوتك ما قرره الله لهم ؟

وهناك بعض من الناس يرغب الواحد منهم ألا يعطى عمومته أو إخوته لأى سبب

من الأسباب ، فماذا يفعل ؟ إنه يضع الوصية ؛ لذلك حدد الإسلام الوصية بمقدار الثلث ، حتى لا تحدث مضارة للورثة .

وقد حاول البعض من هؤلاء الناس أن يدّعوا كذباً ، أن هناك ديناً عليهم ، والدين مستغرق للتركة حتى لا يأخذ الأقارب شيئاً .

والإنسان فى هذا الموقف عليه أن يعرف أنه واقف فى كل لحظة فى الحياة أو الممات أمام الله ، وكل إنسان أمين على نفسه .

لذلك قال الحق سبحانه :

﴿ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ۚ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾

(من الآية ١١ سورة النساء)

والحق يلفتنا ألا نضر أحداً بأى تصرف ؛ لأنها توصية من الله لكل ما يتعلق بالحكم توريثاً ووصيةً وآداء دين ، كل ذلك توصية من الله ، والتوصية ليست من مخلوق لمخلوق،ولكنها من الله ؛ لذلك ففيها إلزام وفرض ، فسبحانه القائل :

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا ﴾

(من الآية ١٣ سورة الشورى)

والوصية هنا افتراض ، ومثل ذلك يقول الحق :

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾

(من الآية ١٥١ سورة الأنعام)

ومادامت التوصية تأتى من المالك الأعلى ، فمعنى ذلك أنها افتراض ، ويذيل الحق سبحانه الآية التى نحن بصدد تناولها بالخواطر الإيمانية : « والله عليم حليم » أى إياكم أن تتصرفوا تصرفا قد يقره ويمضيه القضاء ، ولكنه لا يبرئكم أمام الله ؛ لأنه قد قام على باطل .

مثال ذلك : هناك إنسان يموت وعليه دين ، عندئذ يجب تسديد الدين ، لكن أن يكتب الرجل دينا على نفسه غير حقيقى ليحرم بعضا من أقاربه من الميراث فعليه أن يعرف أن الله عليم بالنوايا التى وراء التصرفات . فإن عمَّيتم أيها البشر على قضاء الأرض ، فلن تعموا على قضاء السماء .

وهذه مسألة تحتاج إلى علم يتغلغل فى النوايا ، إذن فمسألة القضاء هذه هى خلاف بين البشر والبشر ، ولكن مسألة الديانة وما يفترضه الحق ، فهو موضوع بين الرب وبين عبيده ، ولذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حديث شريف : « إنما أنا بشر وأنكم تختصمون إلىّ ، فلعلّ بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض ، فأقضىَ له على نحو ما أسمع ، فمن قضيت له بحق مسلم ، فإنما هى قطعة من النار فليأخذها أو ليتركها »[1] .

إن الرسول يعلمنا أنه بشر ، أى أنه لا يملك علم الغيب ومداخل المسائل ، وعندما يرفع المسلمون إليه قضاياهم فقد يكون أحدهم أكثر قدرة على الفصاحة وذلاقة اللسان ، ويستطيع أن يقلب الباطل حقا ، والآخر قليل الحيلة ، فيحكم النبى بمقتضى البيِّنة القضائية ، ولكن الأمر الواقع يتنافى مع تسلسل الحق ؛ لذلك يعلمنا أنه بشر ، وأننا حين نختصم إليه يجب ألا يستخدم واحد منا ذلاقة اللسان فى أخذ ما ليس له ، لأنه حتى لو أخذ شيئا ليس له بحكم من الرسول صلى الله عليه وسلم ، فليعلم أنه يأخذ قطعة من الجحيم .

إذن فمعنى ذلك انه يجب علينا أن نحذر فى الأمور ، فلا نُعَمِّى ولا نأخذ شيئا بسلطان القضاء ونهمل مسألة الديانة . فالأمور التى تتعلق بالدِّين لا يجوز للمؤمن المساس بها ، إياكم أن تظنوا أن حكم أى حاكم يحلل حراما أو يحرم حلالا ، لا . فالحلال بيّن ، والحرام بيّن ، والقاضى عليه أن يحكم بالبينات الواضحة .

ومثال على ذلك : هب أنك اقترضت من واحد ألفا من الجنيهات ، وأخذ عليك صكا ، ثم جاء المقترض وسدد ما عليه من قرض وقال لمن اقترض منه : « عندما

---

(١) رواه مالك ، وأحمد والبخارى ومسلم وأبو داود عن أم سلمة رضى الله عنها .

تذهب إلى منزلك أرجو أن ترسل لى الصك » ثم سبق قضاء الله ، وقال أهل الميت: « إن الصك عندنا » واحتكموا إلى القضاء ليأخذوا الدَّين.هنا يحكم القضاء بضرورة تسديد الدين مرة أخرى ، لكن حكم الدَّين فى ذلك يختلف ، فالرجل قد سدد الدين ولا يصح أبداً أن يأخذ الورثة الدَّين مرة أخرى إذا علموا أن مورِّثهم حصل على دينه .

ولذلك يقول لنا الحق : « والله عليم حليم » حتى نفرق بين الديانة وبين القضاء . والحق يقول لنا:إنه « حليم » فإياك أن تغتر بأن واحدا حدث منه ذلك ، ولم ينتقم الله منه فى الدنيا ، فعدم انتقام الله منه فى الدنيا لا يدلّ على أنه تَصَرَّفَ حلالا ، لكن هذا حلم من الله وإمهال وإرجاء ولكنَّ هناك عقابا فى الآخرة .

وبعد بيان هذه الأمور يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ ﴾

الأحكام المتقدمة والأمور السابقة كلها حدود الله ، وحين يحدّ الله حدودا . . أى يمنع أن يلتبس حق بحق ، أو أن يلتبس حق بباطل ؛ فهو الذى يضع الحدود وهو الذى فصل حقوقا عن حقوق .

ونحن عندما نقوم بفصل حقوق عن حقوق فى البيوت والأراضى فنحن نضع حدودا واضحة ، ومعنى « حد » أى فاصل بين حقين بحيث لا يأخذ أحد ما ليس له

من آخر . والحدود التى نصنعها نحن والتى قد لا يتنبه إليها كثير من الناس ، هى نوعان : نوع لا يتعدى بالبناء ، فعندما يريد واحد أن يبنى ، فالأول يبنى على الأرض التى هى حق له ، ويكون الجداران ملتصقين بعضهما ببعض . وعندما يزرع فلاح بجانب فلاح آخر فكل فلاح يزرع فى أرضه وبين القطعتين حد ، وهذا يحدث فى النفع .

لكن لنفترض أن فلاحا يريد أن يزرع أرزا ، وجاره لن يزرع أرزا ، فالذى لن يزرع الأرز قد تأخذ أرضه مياها زائدة ، فالمياه تصلح للأرز وقد تفسد غيره ، ولذلك يكون الحكم هنا أن يقيم زارع الأرز حدا اسمه « حد الجيرة » ليمنع الضرر ، وهو ليس « حد الملكية » فزارع الأرز هنا ينقص من زراعته مسافة مترين ، ويصنع بهما حد الجيرة ، حتى لا تتعدى المياه التى يُروى بها الأرز إلى أرض الجار . إنه حد يمنع الضرر ، وهو يختلف عن الحد الذى يمنع التملك .

إذن فمن ناحية حماية الإنسان لنفسه من أن يوقع الضرر بالآخرين عليه أن ينتبه إلى المقولة الواضحة : « لا تجعل حقك عند آخر حدك ، بل اجعل حقك فى الانتفاع بعيدا عن حدك »، وهذا فى الملكية . وذلك إذا كان انتفاعك بما تملكه كله سيضر بجارك . وكذلك يعاملنا الله ، ويقول فى الأوامر :

﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ﴾

(من الآية ٢٢٩ سورة البقرة)

وفى النواهى يقول سبحانه :

﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ﴾

(من الآية ١٨٧ سورة البقرة)

أى أنك إذا ما تلقيت أمرا ، فلا تتعد هذا الأمر ، وهذه هى الملكية ، وإذا ما تلقيت نهيا فلا تقرب الأمر المنهى عنه . مثال ذلك النهى عن الخمر ، فالحق لا يقول : « لا تشرب الخمر » ، وإنما يقول : « إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه » . أى لا تذهب إلى المكان الذى توجد فيه من الأصل ، كن فى جانب وهذه الأشياء فى جانب آخر .

ولذلك قلنا فى قصة أكل آدم من الشجرة : أقال الحق : « لا تأكلا من الشجرة » ؟ أم قال ولا تقربا هذه الشجرة ؟ سبحانه قال :

﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ ﴾

(من الآية ١٩ من سورة الأعراف)

وهذا حد اسمه « حد عدم المضارة » إنه أمر بعدم الاقتراب حتى لا يصاب الإنسان بشهوة أو رغبة الأكل من الشجرة . وكذلك مجالس الخمر لأنها قد تغريك . ففى الأوامر يقول سبحانه : « تلك حدود الله فلا تعتدوها » وهذا ما يتعلق بالملكية .

وفى النواهى يقول سبحانه : « تلك حدود الله فلا تقربوها » ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول هذا الحديث : « الحلال بيّن والحرام بيّن وبينهما أمور مُشْتَبِهات لا يعلمها كثير من الناس فمن اتقى المشبّهات فقد استبرأ لعرضه ودينه ، ومن وقع فى المشبّهات وقع فى الحرام ، كراعٍ يرعى حول الحمى يُوشك أن يُواقِعَه ، ألا وإن لكل ملك حِمى ، ألا وإن حمى الله تعالى فى أرضه محارمه ، ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صَلَحتْ صَلَحَ الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب »[1] .

لذلك تجنب حدود الله . مثال ذلك قول الحق :

﴿ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾

(من الآية ١٨٧ سورة البقرة)

إن الحق يأمر المعتكف بالمسجد أنه عندما تأتى له زوجه لتناقشه فى أمر ما فعلى المؤمن أن يمتثل لأمر الله بعدم مباشرة الزوجة فى المسجد . ولا يجعل المسائل قريبة من المباشرة ، لأن ذلك من حدود الله . وسبحانه يقول : « تلك حدود الله فلا تقربوها » .

وهنا فى مسائل الميراث يقول الحق :

---

(١) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه عن النعمان بن بشير .

﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ ﴾

(سورة النساء)

وكان يكفى أن يقول الحق ـ من بعد بيان الحدود ـ : «ومن يطع الله » ولكنه قال : « ومن يطع الله ورسوله » وذلك لبيان أن لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن يضع حدودا من عنده لما حل ، وأن يضع حدودا لما حرم . وهذا تفويض من الله لرسوله فى أنه يُشرِّع ، لذلك فلا تقل فى كل شىء : « أريد الحكم من القرآن » .

ونرى من يقول : بيننا وبينكم كتاب الله ، فما وجدنا فيه من حلال أحللناه ، وما وجدنا فيه من حرام حرمناه . هؤلاء لم يلتفتوا إلى أن الرسول صلى الله عليه وسلم مفوض فى التشريع وهو القائل :

﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾

(من الآية ٧ سورة الحشر)

إنه صلى الله عليه وسلم مفوض من الله ، وهؤلاء الذين ينادون بالاحتكام إلى القرآن فحسب يريدون أن يشككوا فى سنة رسول الله ، إنهم يحتكمون إلى كتاب الله ، وينسون أو يتجاهلون أن فى الكتاب الكريم تفويضا من الله لرسوله صلى الله عليه وسلم أن يشرع .

هم يقولون : بيننا وبينكم كتاب الله ، فما وجدنا فيه من حلال أحللناه وما وجدنا فيه من حرام حرمناه . وقولهم لمثل هذا الكلام دليل على صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يقول ، لأنهم لو لم يقولوا لقلنا :

يا رسول الله لقد قلت : روى المقدام بن معدى كرب قال : حرم النبى صلى الله عليه وسلم « أشياء يوم خيبر منها الحمار الأهلى وغيره فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يوشك أن يقعد الرجل منكم على أريكته يحدث بحديثى فيقول: بينى وبينكم

كتاب الله فما وجدنا فيه حلالا استحللناه وما وجدنا فيه حراما حرمناه وإن ما حرم رسول الله كما حرم الله »[١] .

فكيف يا سيدى يا رسول الله ذلك ، ولم يقل أحد هذا الكلام ؟

إذن فقولهم الأحمق دليل على صدق الرسول فيما أخبر . ويسخرهم الحق ، فينطقون بمثل هذا القول لنستدل من قول خصوم النبى على صدق كلام النبى . .

والحق يقول : « ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات » والذى يطيع الله ورسوله فى الدنيا هو من أخذ التكليف وطبقه ويكون الجزاء هو دخول الجنة فى الآخرة . لكن إدخال الجنة هل هو منهج الدين ، أو هو الجزاء على الدين ؟

إنه الجزاء على الدين ، وموضوع الدين هو السلوك فى الدنيا ، ومن يسير على منهج الله فى الدنيا يدخل الجنة فى الآخرة ، فالآخرة ليست موضوع الدين ، لكن موضوع الدين هو الدنيا ، فعندما تريد أن تعزل الدنيا عن الدين نقول لك : لم تجعل للدين موضوعا ، إياك أن تقول:موضوع الدين هو الآخرة لأن الآخرة هى دار الجزاء ، وفى حياتنا نأخذ هذا المثل : هل الامتحان موضوع المناهج ، أو أن المناهج يقرأها الطالب طوال السنة ، وهى موضوع الامتحان ؟

إن المناهج التى يدرسها الطالب هى موضوع الامتحان ، وكذلك فالدنيا هى موضوع الدِّين ، والآخرة هى جزاء لمن نجح ولمن رسب فى الموضوع ؛ لذلك فإياكم أن تقولوا : دنيا ودين ، فلا يوجد فصل بين الدنيا والدين ؛ لأن الدنيا هى موضوع الدين . فالدنيا تُقابلها الآخرة والدين لهما . الدنيا مزرعة والآخرة محصدة . بهذا نرد على من يقول : إن الدنيا منفصلة عن الدين .

ومَن يطع الله ورسوله يدخله جنة واحدة أو جنتين أو جنات ، وهل دلالة « مَن » للواحد ؟ لا ، إن « من » تدل على الواحد ، وتدل على المثنى وتدل على الجمع ،

---

(١) رواه الطبرانى فى الأوسط عن جابر .

مثال ذلك نقول : جاء مَن لقيته أمس ونقول أيضا : جاء من لقيتهما أمس ، وتقول ثالثا : جاء من لقيتهم أمس . . إذن فـ« مَن » صالحة للمفرد والمثنى والجمع .

والحق هنا لا يتكلم عن مفرد هنا أو جمع . كما قلنا فى أول الفاتحة :

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ﴾

(سورة الفاتحة)

على الرغم من أن القياس أن تقول : « إياك أعبد وإياك أستعين » . لكن قال الحق سبحانه : « إياك نعبد وإياك نستعين » ليوضح لنا أن المؤمنين كلهم وحدة واحدة فى العبادة .

وهناك من يقول إذا دلت : (مَن) على المفرد فقد لحظنا لفظها ، وإذا دلت على المثنى أو الجمع فقد لحظنا معناها .

ولمن يقول ذلك نقول : إن هذا الكلام غير محقق علميا ؛ لأن لفظ « من » لم يقل أحد إنه للمفرد . بل إنها موضوعة للمفرد والمثنى والجمع . فلا تقل : استعمل لفظ « من » مراعاة للفظ أو مراعاة للمعنى ، لأن لفظ « من » موضوع لمعان ثلاثة هى المفرد والمثنى والجمع .

وقد سألنى أخ كريم فى جلسة من الجلسات : لماذا يقول الحق سبحانه فى سورة الرحمن :

﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ ﴾

(سورة الرحمن)

فقلت له : إن سورة الرحمن استهلها الحق سبحانه وتعالى :

﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ ﴾

(سورة الرحمن)

وبعد ذلك قال الحق :

﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ ﴾

(سورة الرحمن)

وقال سبحانه :

﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ ﴾

(سورة الرحمن)

وقال تعالى :

﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾ ﴾

(سورة الرحمن)

إذن فمن خاف مقام ربه ، هو من الجن أو من الإنس ، إن كان من الجن فله جنة ، وإن كان من الإنس فله جنة أخرى . إذن فمن خاف مقام ربه فله جنتان .

وهناك من يقول هناك جنتان لكل واحد من الإنس والجن ، لأن الله لا يعانى من أزمة أماكن ، فحين شاء أزلا أن يخلق خلقا أحصاهم عدا من لدن آدم إلى أن تقوم الساعة ، وعامل الكل على أنه مؤمن مطيع ، وأنشأ لكل واحد مكانه فى الجنة ، وعامل سبحانه الكل على أنه عاص ، وأنشأ له مقعدا فى النار ، وذلك حتى لا يفهم أحد أن المسألة هى أزمة أماكن .

فإذا دخل صاحب الجنة جنته ، بقيت جنة الكافر التى كانت معدة له على فرض أنه مؤمن ، لذلك يقول الحق :

﴿ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾

(سورة الزخرف)

فيرث المؤمنون ما كان قد أعد لغيرهم لو آمنوا .

إذن فالمعانى نجدها صوابا عند أى أسلوب من أساليب القرآن .

وهنا يقول الحق : « يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار » ويجب أن نفهم أن النهر هو الشق الذى يسيل فيه الماء وليس هو الماء ، الحق يقول : « جنات تجرى من تحتها الأنهار » فأين تجرى الأنهار ؟

أتجرى الأنهار تحت زروعها ، أم تحت بنيانها ؟ ونعرف أن الزروع هى التى تحتاج إلى مياه ، ونحن نريد أن نبعد المياه عن المبانى كيف ؟ ولكن ليس هناك شىء مستحيل على الله ؛ لأنها تصميمات ربانية .

فالخلق قد تشق نهرا ، ونجد من بعد ذلك النشع يضرب فى المبانى ، لكن تصميمات الحق بطلاقة القدرة ؛ تكون فيه الجنات تجرى من تحتها مياه الأنهار ، ولا يحدث منها نشع ، سواء من تحت أبنية الجنات أو من تحت زروعها والذى يقبل على أسلوب ربه ويسأله أن يفيض عليه ويلهمه ، فهو ـ سبحانه ـ يعطيه ويمنحه فالحق مرة يقول : « جنات تجرى من تحتها الأنهار » ومرة أخرى يقول : « جنات تجرى تحتها الأنهار » فهذا ممكن وذاك ممكن .

فقوله ـ سبحانه ـ « جنات تجرى تحتها الأنهار » قد يشير إلى أن الأنهار تكون آتية من موقع آخر وتجرى وتمر من تحت الجنات . لا . هى تجرى منها أيضا يقول الله تعالى : « جنات تجرى من تحتها الأنهار » حتى لا يظن أحد أن هناك من يستطيع أن يسد عنك المياه من أعلى . إنها أنهار ذاتية . وعندما نقرأ أن الأنهار تجرى من تحت الجنات بما فيها ومن فيها من قصور فقد يقول قائل : ألا أستطيع أن آخذ من هذه وأنا مهندس أضع تصميمات مبانى الدنيا وآخذ من قول الحق إنه من الممكن أن تقيم مبانى تجرى من تحتها الأنهار ؟ وبالفعل أخذ البشر هذا الأمر اللافت .

نحن نقيم القناطر وهى مبانٍ وتجرى من تحتها الأنهار ، وعندما تكون المواصفات

صحيحة فى الطوب والأسمنت إلى آخر المواصفات فلا نشع يحدث ولا خلخلة فى المبنى . فالخلل الذى يحدث فى المبانى عندنا ، إنما يأتى من أثر الخيانة فى التناول . ومن الممكن أن تجرى الأنهار تحت قصور الجنة . التى فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

ألَا يوحى ذلك للمهندس المسلم أن يحيا فى هذه اللفتة الإلهية ويأخذ منها علما ويستطيع أن يقيم مبانى تجرى من تحتها الأنهار ؟ لو تنبهت إلى ذلك إيمانية مهندس وأخذ يتعلم عن ربه كيفية أداء العمل . لفعل ذلك بتوفيق الله .

ولنتكلم على مصر التى تعانى من أزمة إسكان ، ونجد أن المساحة المائية تأخذ قدرا كبيرا من الأرض ، سواء أكانت النيل ، أم الفروع التى تأخذ من النيل ، وكذلك الترع الصغيرة وكذلك الطرق فلو أن هناك هندسة إيمانية لاستغلت المساحات والمسطحات المعطلة ، نقيم عليها مبانى تسع مرافق الدولة كلها ، ويتم إنجاز المبانى فوق الطرق وفوق المياه وفوق المصارف . وليس معنى ذلك أن نبنى كل الأماكن حتى تصير مسدودة بالمبانى ، ولكن نبنى الثلث ، ونترك فراغا مقدار الثلثين حتى لا نفسد المنظر ، ولا نتعدى على أرض خضراء مزروعة ، إنها إيحاءات إيمانية على المهندس المسلم أن يفكر فيها .

إن بلدا كالقاهرة تحتاج إلى مرافق مختلفة متنوعة ، ونستطيع أن نبنى على الفراغات سواء أكانت فراغات فى مساحات النيل شرط مراعاة الفراغات والزروع اللازمة لجمال البيئة وتنقيتها من التلوث . أم نبنى المرافق تحت الأرض ، ولن تكون هناك أزمات للإسكان أو المرافق ، هذا بالإضافة إلى الانتفاع بالصحراء فى هذا المجال .

والحق يقول : « جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها » صحيح أن الجنة ستكون نعيما ليس على قدر تصورك ولكن على قدر كمال وجمال قدرة الحق ، فالنعيم الذى يتنعم فيه الإنسان يكون على قدر التصور فى معطيات النعيم ، وقلنا قديما : إن عمدة إحدى القرى قال : أريد أن أبنى مضيفة وحجرة للتليفون ، ومصطبة نفرشها . هذا هو النعيم فى تصور العمدة . ونحن فى الحياة نخاف أن نترك النعيم بالموت أو يتركنا النعيم . لكن كيف يكون النعيم عند صانع كل التصورات وهو

الحق سبحانه وتعالى ؟ لذلك تكون جنات النعيم دائمة ، فلا أنت تموت ولا هى تذهب .

والخلود هنا له معنى واضح إنه بقاء لا فناء بعده « وذلك الفوز العظيم » وما هو « الفوز » ؟

إنه النصر ، إنه الغلبة ، إنه النجاح ، إنه الظفر بالمطلوب .

فإذا كان فوزنا فى الدنيا يعطينا جائزة نفرح بها ، فالفرح قد يستمر مدة الدنيا التى يملكها الواحد منا ، فما بالنا بالفوز الذى يأتى فى الآخرة وهو فوز الخلود فى جنة من صنع ربنا ، أليس ذلك فوزا عظيما ؟

إننا إذا كنا نفرح فى الدنيا بالفوز فى أمور جزئية فما بالنا بالفوز الذى يمنحه الحق ويليق بعظمته سبحانه وتعالى ، ولو قسنا فوز الدنيا بفوز الآخرة لوجدنا فوز الآخرة له مطلق العظمة ، ومهما ضحى المؤمن فى سبيل الآخرة ، فهناك فوز يعوض كل التضحيات ، ويسمو على كل هذا .

وإذا قال قائل : ألم يكن من الأفضل أن يقول : ذلك الفوز الأعظم نقول له : إنك سطحى الفهم لأنه لو قال ذلك لكان فوز الدنيا عظيما ، لأن الأعظم يقابله العظيم ، والعظيم يقابله الحقير فحين يقول الحق عن فوز الآخرة : إنه عظيم ، فمعنى ذلك أن فوز الدنيا حقير ، والتعبير عن فوز الآخرة هو تعبير من الحق سبحانه .

وبعد ذلك يأتى الحق بالمقابل : فيقول :

﴿ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾ ﴾

وسبحانه قال من قبل : « تلك حدود الله » . والحدود إما أن تبين الأوامر وحدها وإما أن تبين النواهى وحدها . فهى شاملة أن يطيعها الطائع أو يعصيها العاصى .

فإن كنت تطيع فلك جزاء الطاعة وتأخذ الجنات والخلود والفوز العظيم .

لكن ماذا عمن يعصى ؟ إن له المقابل ، وهذا هو موقفه وجزاؤه أنَّ له العذاب .

« ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين » .

هنا نجد « نارا » واحدة ، وهناك نجد « جنات » . هذا ملحظ أول ، وإذا كنا منتبهين ونقبل على كتاب الله ، ونعرف أن المتكلم هو الله ، فإننا نجد الملحظ الثانى وهو خلود للمؤمنين فى الجنات ، أما الكافر فسيدخل النار . ولم يقل الحق:نيراناً ، ولم يقل الحق أيضاً: « خالدين » لماذا ؟ لأن المؤمنين سيكونون فى الجنة على سرر متقابلين ، ويتزاورون ، وكل واحد يستمتع بكل الجنان ، وأيضاً إن المرء إذا كان له من عمله الصالح الكثير وقصر أولاده الذين اشتركوا معه فى الإيمان ، فإن الحق ـ سبحانه ـ يلحق به ذريته ويكون هو وذريته فى النعيم والجنان كرامة له . فتكون الجنات مع بعضها وهذا أدعى للإنس .

ولكن الموقف يختلف مع الكافر ، فلن يلحق الله به أحداً وكل واحد سيأخذ ناره ، وحتى لا يأنسوا مع بعضهم وهم فى النار ، فالأنس لن يطولوه أيضاً ، فكل واحد فى ناره تماماً مثل الحبس المنفرد فى زنزانة . ولن يأنس واحد منهم بمعذب آخر . إذن فهناك « جنات » و« نار » و« خالدين » و« خالداً » ، وكل استخدام للكلمة له معنى . والطائع له جنات يأتنس فيها بذريته وإخوته أهل الإيمان ويكونون خالدين جميعاً فى الجنات ،أما العاصى فهو فى النار وحده خالداً « وله عذاب مهين » .

إن العذاب يكون مرة أليماً ، ومثال ذلك أن يؤلم واحد عدوه فيتجلد عدوه حتى لا يرى شماتة الذى يعذبه . ويقول الشاعر :

وتجلدى للشامتين أريهمو
أنى لِرَيْبِ الدهر لا أتضعضع

فيكتم الألم عن خصمه ، لكن هذا فى الدنيا ، أما فى الآخرة فهناك إهانة فى النفس ، فعذاب الله يجمع الألم والإهانة ، إياك أن تفهم أن هناك من يقدر على أن يتجلد كما يتجلد البشر عند وقوع العذاب فى الدنيا ـ إن عذاب الآخرة مهين ومذل للنفس فى آن واحد .

وهكذا نجد أن المرحلة الأولى من سورة النساء عالجت وحدة الإنسان أباً ، ووحدته أماً ، وعالجت كيف بث الله منهما رجالاً كثيراً ونساء . وعالجت السورة أيضاً ما يطرأ مما يجرى به قدر الله فى بعض خلقه بأن يتركوا أيتاماً ضعافاً ، وأنّه سبحانه أراد استبقاء الحياة الكريمة للنفس الإنسانية ؛ لذلك طلب أن نصنع الخير والمودة مع اليتامى ، ووضع أسلوب التعامل الإيمانى معهم ، وأن نكون أوصياء قائمين بالعدالة والإرادة الحسنة العفيفة لأموالهم ، إلى أن يبلغوا سن الرشد فيتسلموها .

وأيضا عالجت السورة أمراً آخر وهو استبقاء الحياة الكريمة للنساء والأطفال ضمن النسيج الاجتماعى . ذلك أن العرب كانوا يمنعون النساء من الميراث ، ويمنعون ـ كذلك ـ من الميراث من لم يطعن برمح ولم يضرب بخنجر أو سيف ولم يشترك فى رد عدوان . فأراد الله سبحانه لهذه الفئة الذليلة المضطهدة أن تأخذ حقها ليعيش العنصران فى كرامة ويستبقيا الحياة فى عزة وهمة وفى قوة ، فشرع الحقُ نصيباً محدداً للنساء يختلف عن نصيب الرجال مما قل أو كثر ، وبعد ذلك استطرد ليتكلم عن الحقوق فى المواريث . وأوضح سبحانه الحدود التى شرعها لهذا الأمر ، فمن كان يريد جنات الله فليطع الله ورسوله فيما حدّ من حدود . ومن استغنى عن هذه الجنات فليعص الله ليكون خالدا فى النار .

إذن فالحياة الإنسانية هبة من الله لعباده ، ومن كرمه سبحانه أن أوجد لها ـ قبل أن يوجدها ـ ما يقيم أود الحياة الكريمة لذلك الإنسان المكرم ، فوفد الإنسان على الخير ، ولم يفد الخير على الإنسان ، أى أنّ الحق سبحانه لم يخلق الإنسان أولاً ثم صنع له من بعد ذلك الشمس والقمر والأرض والعناصر . لا ، لقد خلق الله هذه العناصر التى تخدم الإنسان أولاً وأعدها لاستقبال الطارق الجديد ـ الإنسان ـ الذى اختاره سبحانه ليكون خليفة فى الأرض . فالخير فى الأرض الذى نستبقى به الحياة سبق وجود

الإنسان ، وهذه عناية من الحق الرحمن بمخلوقه المكرم وهو الإنسان . وجعل الله للإنسان وسيلة للتكاثر وربطها بعملية الإمتاع ، وهذه الوسيلة فى التكاثر تختلف عن وسائل التكاثر فى الزروع والحيوانات ، فوسيلة التكاثر فى كل الكائنات هى لحفظ النوع فقط .

وأراد ـ سبحانه وتعالى ـ أن يكون الإمتاع مصاحباً لوسيلة التكاثر الإنسانى ، ذلك أن المشقَّات التى يتطلبها النسل كثيرة ، فلابد أن يجعل الله فى عملية التكاثر متعة تغرى الإنسان .

وأراد الحق سبحانه بذلك أن يأتى بالضعاف ليجعل منهم حياة قوية .

ويوصينا الحق باليتيم من البشر ، وقد يقول قائل :

مادام الحق سبحانه وتعالى يوصينا حتى ننشىء من اليتيم إنساناً قوياً وأن نحسن إلى اليتيم ، فلماذا أراد الله أن يموت والد اليتيم؟ . نقول : جعل الحق هذا الأمر حتى لا تكون حياة الإنسان ضربة لازب على الله ، إنه يخلق الإنسان بعمر محدد معروف له سبحانه ومجهول للإنسان ، فالإنسان قد يموت جنيناً أو طفلاً أو صبياً أو رجلاً أو هرماً ، بل نحن نجد فى الحياة إنساناً هرماً مازال يحيا بيننا ويموت حفيد حفيده ، لماذا ؟ .

لأن الله أراد أن يستر قضية الموت عن الناس ، فلا معرفة للإنسان بالعمر الذى سوف يحياه ولا بزمان الموت ، ولا مكان الموت ، حتى يكون الإنسان منا دائماً على استعداد أن يموت فى أى لحظة . ومادام الإنسان يعيش مستعدا لأن يموت فى أى لحظة ، فعليه أن يستحى أن يلقى الله على معصية . وأيضا لنعلم أن المنهج الإيمانى ؛ منهج يجعل المؤمنين جميعا كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا ، فإذا مات رجل وترك طفلاً يتيماً ، ووجد هذا اليتيم آباء من المجتمع الإيمانى ، فإن المنهج الإيمانى يستقر فى قلب اليتيم اطمئناناً ويقيناً . ومن حكمة الموت ألا يفتن أحد فى أبيه أو فى الأسباب الممنوحة من الله للآباء ، بل نكون جميعا موصولين بالله .

ومادام الحق سبحانه قد وضع لنا الأسباب لاستبقاء الحياة ، ووضع لنا أسلوب

السعى فى الأرض لتستبقى الحياة بالحركة فيها ، فقد وضع أيضا الوسيلة الكريمة لاستبقاء النوع وجعل من حركة الأصل ما يعود على الفرع ، فلم يُغر الله الإنسان وحده بالحركة لنفسه ، ولكن أغراه أن يتحرك فى الحياة حركة تسعه وتسع من يعول ، ويوضح الحق للإنسان : أن حركتك فى الأرض ستنفع أولادك أيضاً .

ولذلك أوجد الله سبحانه فى نفس كل والد غريزة الحنان والحب . ونحن نرى هذه الغريزة كآية من آيات الله متمكنة فى نفوس الآباء . ولهذا يسعى الأب فى الحياة ليستفيد هو وأولاده . والذى يتحرك حركة واسعة فى الحياة قد يأتى عليه زمان يكفيه عائد حركته بقية عمره ؛ لأنه تحرك بهمة وإخلاص ؛ وأفاء الله عليه الرزق الوفير ، وقد يتحرك رجل لمدة عشرين عاماً أو يزيد ويضمن لنفسه ولأولاده من بعده الثروة الوفيرة ، وهناك من يكد ويتعب فى الحياة ويكسب رزقاً يكفيه ويكفى الأبناء والأحفاد .

وهكذا نجد الذين يتحركون لا يستفيدون وحدهم ، فقط ولكن المجتمع يستفيد أيضاً . وتشاء حكمة الله العالية بأن يفتت الثروة بقوانين الميراث لتنتشر الثروة وتتوزع بين الأبناء فتشيع فى المجتمع ، وهذا اسمه التفتيت الانسيابى . كأن نجد واحداً يملك مائة فدان وله عدد من الأبناء والبنات . وبعد وفاة الرجل يرث الأبناء والبنات كل تركته ، وهكذا تتفتت الثروة بين الأبناء تفتيتاً انسيابياً وليس بالتوزيع القهرى الذى يُنشىء الحقد والعداوة ، ويريد الحق أن نحترم حركة المتحرك ، وأن تعود له حركة حياته ولمن يعول فقال سبحانه :

﴿ إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ ﴾

(سورة محمد)

هو سبحانه لا يقول لأى واحد : هات المال الذى وهبته لك . وقلت سابقا : إنه سبحانه وتعالى يحنن عبداً على عبد فيقول :

﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾

(سورة الحديد)

إن الله سبحانه يحترم حركة العبد ، ويحترم ما ملك العبد بعرقه ، ويوصى الحق العبد الغنى : إن أخاك العبد الفقير فى حاجة ، فأقرضنى ـ أنا الله ـ بإعطائك الصدقة أو الزكاة لأخيك الفقير . ولم يقل للعبد الغنى : أقرض أخاك ، ولكنه قال أقرضنى . لماذا ؟ لأنه سبحانه هو الذى استدعى الخلق إلى الوجود ، وهو المتكفل برزقهم جميعاً . . المؤمن منهم والكافر . ولذلك ضمن الرزق للجميع وأمر الأسباب بأن تستجيب حتى للكافر ، لأنه سبحانه هو الذى استدعاه للوجود .

وسبحانه وضع هذا التوريث ، ليصنع التفتيت الإنسيابى للملكية حتى لا يأتى التفتيت القسرى الذى يجعل بعضاً من الأبناء وقد نشأوا فى نعمة وأخذوا من مسائل الحياة ما يريدون ، وعندما يأتى عليهم هذا التفتيت القسرى ، يصبحون من المساكين الذين فاجأتهم الأحداث القسرية بالحرمان ، فهم لم يستعدوا لهذا الفقر المفاجىء . لكن عندما يأتى التفتيت الانسيابى فكل واحد يعد نفسه لما يستقبله ، وبذاتية راضية وبقدرة على الحركة ، ولذلك قال الحق :

﴿ إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ ﴾

(سورة محمد)

إنه سبحانه لا يقول : أنا الذى ملكتك هذا المال ، ولا أنا الذى رزقتك هذا الرزق ، مع أنه ـ سبحانه ـ هو الذى ملكك ورزقك هذا المال حقا ولكنه يوضح لك حقك فى الحركة ، فيقول بعد ذلك :

﴿ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾ ﴾

(سورة محمد)

ولو ألح عليك فأنت تبخل بها لأنك جنيتها بتعب وعرق . ولكن ما الفرق بين إنسان لم يسرف على نفسه ، بل عاش معتدلا ، ثم أبقى شيئا لأولاده ؛ والذى جاء بدخله كله وبدده فيما حرمه الله وأسرف على نفسه فى المخدرات وغيرها ، ما الفرق بين هذا وذاك ؟ .

الفرق هو احترام الحق سبحانه لأثر حركة الإنسان فى الحياة ، لذلك يوضح : أنا لا أسألكم أموالكم ، لأنى إن سألتكم أموالكم فقد تبخلون ، لأن مالكم عائد من أعمالكم .

ويقول الحق : « ويخرج أضغانكم » وإذا ظهر وخرج الضغن فى المجتمع فالويل للمجتمع كله ؛ ولذلك نجد أن كل حركة من هذه الحركات القسرية ينشأ منها بروز الضغن فى المجتمع كله ، وساعة يبرز الضغن فى المجتمع ، انتهى كل شىء جميل . ولذلك وضع الحق أسس ووسائل استبقاء الحياة الكريمة .

وضع أسسا للضعيف بما يحميه ، وكذلك للنساء اللاتى كن محرومات من الميراث قبل الإسلام ، وجعل الحق ـ سبحانه وتعالى ـ لتوريث الأطفال والأبناء والنساء حدوداً « تلك حدود الله » وإياكم أن تتعدوا هذه الحدود ؛ لأن الإنسان إذا ما تعدى هذه الحدود ، فلا بد أن يكون من أهل النار ـ والعياذ بالله ـ فقد وضع الله تلك القواعد لاستبقاء حياتك وحياة من تعول .

وهناك لون آخر من الاستبقاء ، هو استبقاء النوع ، لأن للإنسان عمرًا محدودًا فى الحياة وسينتهى ؛ لذلك يجب أن يستبقى الإنسان النوع فى غيره ، كيف ؟ نحن نتزوج كى يرزقنا الله بالذرية والبنين والحفدة وتستمر حلقات ، وهذا استبقاء للنوع الإنسانى

والحق يريد أن يكون الاستبقاء للنوع كريماً ؛ لذلك يأمرنا الحق ـ سبحانه ـ أن نستبقى النوع بأن نختار له الوعاء الطاهر ، فإياك أن تستبقى نوعا من وعاءٍ خبيثٍ نجس ، اختلطت فيه مياه أناس متعددين ، فلا يدرى أحد لمن ينسب الولد فيصير مضيعاً فى الكون ، مجهول النسب فأوضح الله للإنسان أن يختار لنفسه الوعاء النظيف ليستبقى النوع بكرامة .

والحصول على الأوعية النظيفة يكون بالزواج . فيختار الرجل أنثى عفيفة ذات دين وترضى به زوجاً أمام أعين الناس جميعاً ، ويصير معروفا للجميع أن هذه امرأة هذا ، وهذا زوجها ، دخوله وخروجه غير ممقوت أو موقوت . وما ينشأ من الذرية

بعد ذلك يكون قطعا منسوبا إليه . ويخجل الإنسان أن يكون ابنه مهينا أو عاريا أو جائعا أو غير معترف به ؛ لذلك يحاول الأب أن يجعل من ابنه إنسانا مستوفيا لكل حقوقه مرفوع الرأس غير مهين ، لا يقدحه واحد فَيَسُبُّهُ وينال منه قائلا : جئت من أين ؟ أو من أبوك ؟ فلا يعيش الطفل كسير الجناح ذليلا طوال عمره . فأراد سبحانه استبقاء النوع برابطة تكون على عين الجميع ، وأن تكون هذه الرابطة على الطريق الشرعى .

ومن العجيب أننا نجد هذه المسألة ذات آثار واضحة فى الكون ، فالتى تحاول أن تزيل أثر جريمتها يجبرها الحنان الطبيعى كأم ألا تلقى ابنها الوليد فى البحر بل أمام مسجد ؛ فالطفل مربوط بحنان أمه ولكن الحنان غير شرعى ولذلك ترمى الأم الزانية بطفلها أمام المسجد حتى يلتقطه واحد من الناس الطيبين ، فالزانية نفسها تعرف أنه لا يدخل المسجد إلا إنسان طيب قد يحن على الوليد ويأخذ هذا الطفل ويصير مأمونا عليه .

وهى لا تلقى بوليدها عند خمارة أو دار سينما ، ولكن دائما تضعه عند أبواب المساجد ، فالحنان يدفعها إلى وضع الطفل غير الشرعى فى مثل هذا المكان ؛ لأنها تخاف عليه ، لذلك تلفه وتضعه فى أحلى الملابس ، وإن كانت غنية فإنها تضع معه بعضا من المال ؛ لأن الحنان يدفعها إلى ذلك ، والحياء من الذنب هو الذى يجعلها تتخلص من هذا الطفل .

إنها ـ كما قلنا ـ:تحتاط بأن تضعه فى مكان يدخله أناس طيبون فيعثر عليه رجل طيب ، يأخذه ويكون مأمونا عليه . إذن فحتى الفاسق المنحرف عن دين الله يحتمى فى دين الله ، وهذا شىء عجيب .

والله يريد أن يبنى بقاء النوع على النظافة والطهر والعفاف ولا يريد لجراثيم المفاسد أن توجد فى البيوت ، لذلك يشرع العلاقة بين الرجل والمرأة لتكون زواجا أمام أعين الناس . ويأخذ الرجل المرأة بكلمة الله .

وأضرب هذا المثل : نحن نجد الرجل الذى يحيا فى بيت مطل على الشارع وله

ابنة وسيمة والشباب يدورون حولها ، ولو عرف الرجل أن شابا يجيء ويتعمد لينظر إلى ابنته فماذا يكون موقف الرجل من الشاب ؟ إن الرجل قد يسلط عليه من يضربه أو يبلغ ضده الشرطة ويغلى الرجل بالغيظ والغَيْرة .

وما موقف الرجل نفسه عندما تدق الباب أسرة شاب طيب يطلبون الزواج من ابنته ؟ يفرح الرجل ويسأل الابنة عن رأيها ، ويبارك للأم ويأتى بالمشروبات ويوجه الدعوات لحفل عقد القران ، فما الفرق بين الموقفين ؟

لماذا يغضب الأب من الشاب الذى يتلصص ؟ لأن هذا الشاب يريد أن يأخذ البنت بغير حق الله ، أما الشاب الذى جاء ليأخذ الابنة زوجة بحق الله وبكلمة الله فالأب يفرح به وينزل الأمر عليه بردا وسلاما . وبعد ذلك يتسامى الأمر ، ويتم الزفاف ويزور الأب ابنته صباح الزفاف ويرغب أن يرى السعادة على وجهها .

إن الفارق بين الموقفين هو ما قاله الرسول صلى الله عليه وسلم : « الصلاة الصلاة ، وما ملكت أيمانكم لا تكلفوهم ما لا يطيقون ، الله الله فى النساء فإنهن عَوانٍ فى أيديكم[1] أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله »[2] .

ومادام الله هو الذى خلق الرجل والمرأة وشرع أن يجتمعا وتكون كلمة الشاب : « أريد أن أتزوج ابنتك » بردا وسلاما على قلب الأب ، ويكون الفرح والاحتفال الكبير ؛ لأن هذه مسألة عفاف وطهر . والله يريد أن يجعل استبقاء النوع الإنسانى استبقاءً نظيفا لا يُخجل أن تجيء منه ولادة ، ولا يخجل منه المولود نفسه ، ولا يُذَم فى المجتمع أبدا ، إذا استبقينا النوع بهذا الشكل ؛ فهذا هو الاستبقاء الجميل للنوع . واستبقاء النوع هو الذى تأتى من أجله العملية الجنسية وأراد الله أن يشرعها حلالا على علم الناس ويعرفها الجميع .

وقد سألنى سائل وأنا فى الجزائر : لماذا تقوم العلاقة بين الرجلِ والمرأة على كلمات

---

(١) عوانٍ : أسيرات جمع عانية .

(٢) رواه النسائى وابن ماجه .

نحو : « زوجتك موكلتى ، أو تقول هى : زوجتك نفسى » ويقبل الرجل ، وتنكسر العلاقة بكلمة « أنت طالق » ؟ وأجبته : لماذا يستبيح الرجل لنفسه أن يمتلك بضع الزوجة بكلمتين ؟ ويستكثر أن تخرج من عصمته بكلمتين ؟ فكما جاءت بكلمة تذهب بكلمة .

إن الحق سبحانه وتعالى كما استبقى الحياة بالعناصر التى تقدمت ، يريد أن يستبقى النوع بالعناصر التى تأتى ، وأوضح لنا أن كل كائن يتكاثر لابد له من إخصاب ، والإخصاب يعنى أن يأتى الحيوان المنوى من الذكر لبويضة الأنثى كى ينشأ التكاثر ، والتكاثر فى غير الإنسان يتم بعملية قسرية .

ففى الحيوانات نرى الأنثى وهى تجأر بالصوت العالى عندما تنزل البويضة فى رحمها كالبقرة مثلا ، حتى يقول الناس جميعا:إن البقرة تطلب الإخصاب ، وعندما يذهب بها صاحبها إلى الفحل ليخصبها تهدأ ، ولا تمكن فحلا آخر منها من بعد ذلك ، وهكذا يتم حفظ النوع فى الحيوانات .

أما فى النباتات ؛ فالأنثى يتم تلقيحها ولو على بعد أميال . ونحن نعرف بعضا من ذكور النبات وإناثها مثل ذكر النخل والجميز ، لكننا لا نعرف التفريق بين ذكورة وأنوثة بعض النباتات ، وقد يعرفها المتخصصون فقط ، وبعض النباتات تكون الذكورة والأنوثة فى عود واحد كالذرة مثلا ؛ فالأنوثة توجد فى « الشراشيب » التى توجد فى « كوز » الذرة ، وعناصر الذكورة توجد فى السنبلة التى يحركها الهواء كى تنزل لتخصب الأنوثة . وكذلك القمح . وهناك أنواع من النباتات لا نعرف ذكورتها ! بالله أيوجد أحدٌ عنده ذكر مانجو أو ذكر برتقال ؟

إذن هناك أشياء كثيرة لا نعرفها ، لكن لا بد من أن تتلاقح إخصابا لينشأ التكاثر ، فيوضح ربنا : اطمئنوا أنا جعلت الرياح حاملة لوسائل اللقاح ، يأخذ الريح اللواقح إلى النباتات ، والنبات الذى يكون تحت مستوى الريح يسخر الله له أنواعا من الحشرات غذاؤها فى مكانٍ مخصوصٍ من النبات وله لون يجذبها ، حشرة يجذبها اللون الأحمر ، وحشرة يجذبها اللون الأبيض ؛ لأن الحشرة تذهب للذكورة فيعلق بها حيوان الذكورة ، فتذهب إلى الأنثى المتبرجة بالزينة ، وهذه العملية تحدث

ولا ندرى عنها شيئا .

من الذى يلقح ؟ من الذى يعلمها ؟ إنه الله القيوم الذى لا تأخذه سنة ولا نوم ، فاستبقى لنا الأنواع غريزيا وقسريا ، بدون أن نعرف عن الكثير منها شيئا ، حتى المطر لا يمكن أن ينزل إلا إذا حدثت عملية تلقيح . ولذلك يقول الحق :

﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾

(سورة الحجر)

إذن الحق قد استبقى لك أيها الإنسان أنواع مقومات حياتك بما لا تدريه ، وجعل هذه المسائل قسرية بحيث يؤدى كل كائن وظيفته وتنتهى المسألة ، لكن حين كان لك اختيار ، وتوجد مشقات كثيرة فى الإنجاب وحفظ النوع ، فقد قرن ـ سبحانه ـ حفظ النوع بالمتعة ، وإياك أن تعزل حفظ النوع عن المتعة ، فإن أخذت المتعة وحدها فقد أخذت الفرع وتركت الأصل ، فلا بد أن تفعلها لحفظ النوع المحسوب عليك .

إذن فإياك أن تلقى حيوانك المنوى إلا فى وعاء نظيف ، محسوب لك وحدك كى لا تنشأ أمراض خبيثة تفتك بك وبغيرك ، ولكيلا ينشأ جيل مطموس النسب ، ولكيلا يكون مهينا ولا مدنسا فى حياته ؛ فإياكم أن تأخذوا قضية حفظ النوع منفصلة عن المتعة فيها .

ولذلك ـ فسبحانه ـ سيتكلم عن المرأة عندما تتصل بامرأة بالسحاق ، أو الرجل يكتفى بالرجل باللواط للمتعة ، أو رجل ينتفع بامرأة على غير ما شرع الله . فعندما تنتفع امرأة مع امرأة ، وينتفع الرجل بالرجل للاستمتاع ، نقول لها : أنت أيتها المرأة أخذتِ المتعة وتركتِ حفظ النوع ، وأنت يا رجل أخذت المتعة وتركت حفظ النوع ، والحق يريد لك أن تأخذ المتعة وحفظ النوع معا . فيوضح سبحانه أنه لا بد أن تكون المتعة فى ضوء منهج الله .

واسمعوا قول الله :

﴿ وَٱلَّٰتِي يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُواْ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾ ﴾

و« اللاتى » اسم موصول لجماعة الإناث ، وأنا أرى أن ذلك خاص باكتفاء المرأة بالمرأة . وماذا يقصد بقوله : « فاستشهدوا عليهن أربعة » ؟ إنه سبحانه يقصد به حماية الأعراض ، فلا يلغ كل واحد فى عرض الآخر ، بل لا بد أن يضع لها الحق احتياطا قويا ، لأن الأعراض ستجرح ، ولماذا « أربعة » فى الشهادة ؟ لأنهما اثنتان تستمتعان ببعضهما ، ومطلوب أن يشهد على كل واحدة اثنان فيكونوا أربعة ، وإذا حدث هذا ورأينا وعرفنا وتأكدنا ، ماذا نفعل ؟

قال سبحانه : « فأمسكوهن فى البيوت » أى احجزوهن واحبسوهن عن الحركة ، ولا تجعلوا لهن وسيلة التقاء إلى أن يتوفاهن الموت « أو يجعل الله لهن سبيلا » وقد جعل الله .

والذين يقولون : إن هذه المسألة خاصة بعملية بين رجل وامرأة ، نقول له : إن كلمة « واللاتى » هذه اسم موصول لجماعة الإناث ، أما إذا كان هذا بين ذكر وذكر . ففى هذه الحالة يقول الحق :

﴿ وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة النساء)

الآية هنا تختص بلقاء رجل مع رجل ، ولذلك تكون المسألة الأولى تخص المرأة مع المرأة ، ولماذا يكون العقاب فى مسألة لقاء المرأة بالمرأة طلبا للمتعة هو الإمساك فى البيوت حتى يتوفاهن الموت ؟ لأن هذا شر ووباء يجب أن يحاصر ، فهذا الشر معناه الإفساد التام ، لأن المرأة ليست محجوبة عن المرأة ؛ فلأن تحبس المرأة حتى تموت خير من أن تتعود على الفاحشة . ونحن لا نعرف ما الذى سوف يحدث من أضرار ، والعلم مازال قاصرا ، فالذى خلق هو الذى شرع أن يلتقى الرجل بالمرأة فى إطار الزواج وما يجب فيه من المهر والشهود ، وسبحانه أعد المرأة للاستقبال ، وأعد الرجل للإرسال ، وهذا أمر طبيعى ، فإذا دخل إرسال على استقبال ليس له ، فالتشويش يحدث .

وإن لم يكن اللقاء على الطريقة الشرعية التى قررها من خلقنا فلا بد أن يحدث أمر خاطىء ومضر ، ونحن عندما نصل سلكا كهربائيا بسلك آخر من النوع نفسه . . أى سالب مع سالب أو موجب مع موجب تشب الحرائق ، ونقول : « حدث ماس كهربائى » ، أى أن التوصيلة الكهربائية كانت خاطئة . فإذا كانت التوصيلة الكهربائية الخاطئة فى قليل من الأسلاك قد حدث ما حدث منها من الأضرار ، أفلا تكون التوصيلة الخاطئة فى العلاقات الجنسية مضرة فى البشر ؟

إننى أقول هذا الكلام ليُسَجَّل ، لأن العلم سيكشف ـ إن متأخرا أو متقدما ـ أن لله سرا ، وحين يتخصص رجل بامرأة بمنهج الله « زوجنى . . وتقول له زوجتك » فإن الحق يجعل اللقاء طبيعيا . أما إن حدث اختلاف فى الإرسال والاستقبال فلسوف يحدث ماس صاعق ضار ، وهذه هى الحرائق فى المجتمع .

أكرر هذا الكلام ليسجل وليقال فى الأجيال القادمة : إن الذين من قبلنا قد اهتدوا إلى نفحة من نفحات الله ، ولم يركنوا إلى الكسل ، بل هداهم الإيمان إلى أن يكونوا موصولين بالله ، ففطنوا إلى نفحات الله . والحق هو القائل :

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾

(من الآية ٥٣ سورة فصلت)

فإذا كنا قد اهتدينا إلى معرفة أن اتصال سلك صحيح بسلك صحيح فالكهرباء تعطى نورا جميلا . أما إذا حدث خطأ فى الاتصال ، فالماس يحدث وتنتج منه حرائق ، كذلك فى العلاقة البشرية ، لأن المسألة ذكورة وأنوثة .

والحق سبحانه القائل :

﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾

(من الآية ٤٩ سورة الذاريات)

فإذا كان النور الجميل يحدث من الاتصال الصحيح بين الموجب والسالب فى غير الإنسان ، وتحدث الحرائق إن كان الاتصال خاطئا ، فما بالنا بالإنسان ؟

وفى بعض رحلاتنا فى الخارج ، سألنا بعض الناس :

ـ لماذا عَدَّدتم للرجل نساءً ، ولم تعددوا رجالا للمرأة ؟

هم يريدون أن يثيروا حفيظة المرأة وسخطها على دين الله ؛ حتى تقول المرأة الساذجة ـ متمردة على دينها ـ : « ليس فى هذا الدين عدالة » ، لذلك سألت من سألونى : أعندكم أماكن يستريح فيها الشباب المتحلل جنسيا ؟

فكان الجواب : نعم فى بعض الولايات هناك مثل هذه الأماكن .

قلت : بماذا احتطتم لصحة الناس ؟

قالوا : بالكشف الطبى الدورى المفاجىء .

قلت : لماذا ؟

قالوا : حتى نعزل المصابة بأى مرض .

قلت : أيحدث ذلك مع كل رجل وامرأة متزوجين ؟

قالوا : لا .

قلت : لماذا ؟؟ فسكتوا ولم يجيبوا ، فقلت : لأن الواقع أن الحياة الزوجية للمرأة مع رجل واحد تكون المرأة وعاء للرجل وحده لا ينشأ منها أمراض ، ولكن المرض ينشأ حين يتعدد ماء الرجال فى المكان الواحد .

إذن فالحق سبحانه وتعالى يريد أن يستبقى النوع بقاء نظيفاء لذلك قال :

﴿ وَٱلَّٰتِي يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُواْ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾ ﴾

(سورة النساء)

والمقصود بـ « نسائكم » هنا المسلمات ، لأننا لا نشرع لغيرنا ، لأنهم غير مؤمنين بالله . وطلب الشهادة يكون من أربعة من المسلمين ، لأن المسلم يعرف قيمة العرض والعدالة . وإن شهدوا فليحدث حكم الله بالحبس فى البيوت .

وقد عرفنا ذلك فيما يسمى فى العصر الحديث بالحجر الصحى الذى نضع فيه أصحاب المرض المعدى . وهناك فرق بين من أُصِبْن بـ « مرض معدٍ » ومن أصبن بـ « العطب والفضيحة » .

فإذا كنا نعزل أصحاب المرض المعدى فكيف لا نعزل اللاتى أصبن بالعطب والفضيحة ؛ لذلك يقول الحق : « فأمسكوهن فى البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلا » أى أن تظل كل منهما فى العزل إلى أن يأتى لكل منهن ملك الموت . وحدثتنا كتب التشريع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حمل الآية على أنها تختص بزنا يقع بين رجل وامرأة وليس بين امرأتين .

عن عبادة بن الصامت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « خذوا عنى خذوا عنى : البكر بالبكر جلد مائة ونفى سنة ، والثيب بالثيب جلد مائة والرجم »[1] .

ثم جاء التشريع بعد ذلك فصفى قضية الحدود إلى أن البكر بالبكر جلد . . والثيب بالثيب رجم . وبعض من الناس يقول : إن الرجم لم يرد بالقرآن .

---

(١) رواه مسلم عن عبادة بن الصامت .

نرد فنقول : ومن قال:إن التشريع جاء فقط بالقرآن ؟ لقد جاء القرآن معجزة ومنهجا للأصول ، وكما قلنا من قبل : إن الحق قال :

﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ ﴾

(من الآية ٧ سورة الحشر)

وبعد ذلك نتناول المسألة : حين يوجد نص ملزم بحكم ، قد نفهم الحكم من النص وقد لا نفهمه ، فإذا فهمنا فله تطبيق عملى فى السيرة النبوية .

فإذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم لم يأت بالنص فقط ولكن جاء بالعمل نفسه ، فالأسوة تكون بالفعل فى إقامة الحد ؛ لأن الفعل أقوى من النص ، فالنص قد يوجد ولا يطبق لسبب كالنَّسْخ للحكم مثلا ، أما الفعل فإنه تطبيق ، وقد رجم الرسول ماعزا والغامدية ورجم اليهودى واليهودية عندما جاءوا يطلبون تعديل حكم الرجم الوارد بالتوراة . إذن فالفعل من الرسول أقوى من النص وخصوصا أن الرسول مشرع أيضا .

وقال واحد مرة : إن الرجم لمن تزوج ، فماذا نفعل برجل متزوج قد زنا بفتاة بكر ؟

والحكم هنا : يُرجم الرجل وتجلد الفتاة ، فإن اتفقا فى الحالة ، فهما يأخذان حكما واحدا . وإن اختلفا فكل واحد منهما يأخذ الحكم الذى يناسبه .

وحينما تكلم الحق عن الحد فى الإماء ـ المملوكات ـ قال :

﴿ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ﴾

(سورة النساء)

ويفهم من ذلك الجلد فقط ، لأن الرجم لا يمكن أن نقوم بتقسيمه إلى نصفين ، فالأمة تأخذ فى الحد نصف الحرة ، لأن الحرة البكر فى الزنا تجلد مائة جلدة ، والأمَة تجلد خمسين جلدة .

ومادام للأمَة نصف حد المحصنة ، فلا يأتى ـ إذن ـ حد إلا فيما ينصَّف ، والرجم لا ينصَّف ، والدليل أصبح نهائيا من فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مشرع وليس مستنبطا ، وقد رجم رسول الله . ولماذا تأخذ الأمَةُ نصف عقاب الحرة ؟ لأن الإماء مهدورات الكرامة ، أما الحرائر فلا . ولذلك فهند امرأة أبى سفيان قالت : أَوَ تزنى الحرة ؟ قالت ذلك وهى فى عنف جاهليتها . أى أن الزنا ليس من شيمة الحرائر ، أما الأمَةُ فمهدورة الكرامة نظرا لأنه مُجترأ عليها وليست عرض أحد .

لذلك فعليها نصف عقاب المحصنات ، وقد تساءل بعضهم عن وضع الأمة المتزوجة التى زنت ، والرجم ليس له نصف .

نقول : الرجم فقد للحياة فلا نصف معه ، إذن فنصف ما على المحصنات من العذاب ، والعذاب هو الذى يؤلم . ونستشهد على ذلك بآية لنبين الرأى القاطع بأن العذاب شيء ، والقتل وإزهاق الحياة شيء آخر ، ونجد هذه الآية هى قول الحق على لسان سليمان عليه السلام حينما تفقد الطير ولم يجد الهدهد :

﴿ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ ﴾

(من الآية ٢١ من سورة النمل)

إذن ، فالعذاب غير الذبح ، وكذلك يكون العذاب غير الرجم . فالذى يحتج به البعض ممن يريدون إحداث ضجة بأنه لا يوجد رجم ؛ لأن الأمة عليها نصف ما على المحصنات ، والرجم ليس فيه تنصيف نقول له : إن ما تستشهد به باطل ؛ لأن الله فرق بين العذاب وبين الذبح ، فقال على لسان سليمان : « لأعذبنه عذابا شديدا أو لأذبحنه » فإذا كان العذاب غير إزهاق الروح بالذبح ، والعذاب أيضا غير إزهاق الروح بالرجم . إذن فلا يصح أن يحاول أحد الإفلات من النص وفهمه على غير حقيقته ولنناقش الأمر بالعقل :

حين يعتدى إنسان على بكر ، فما دائرة الهجوم على العرض فى البكر ؟ إنها أضيق من دائرة الهجوم على الثيب ؛ لأن الثيب تكون متزوجة غالبا ، فقصارى ما فى البكر أن الاعتداء يكون على عرضها وعرض الأب والأخ . أما الثيب فالاعتداء يكون على

عرض الزوج أيضا ، وهكذا تكون دائرة الاعتداء أكبر ، إنه اعتداء على عرض الأب والأم . والإخوة والأعمام مثل البكر ، وزاد على ذلك الزوج والأبناء المتسلسلون . فإذا كان الآباء والأمهات طبقة وتنتهى ، فالأبناء طبقة تستديم ؛ لذلك يستديم العار . واستدامة العار لا يصح أن تكون مساوية لرقعة ليس فيها هذا الاتساع ، فإن سوينا بين الاثنين بالجلد فهذا يعنى أن القائم بالحكم لم يلحظ اتساع جرح العرض .

إن جرح العرض فى البكر محصور وقد ينتهى لأنه يكون فى معاصرين كالأب والأم والإخوة ، لكن ما رأيك أيها القائم بالحكم فى الثيب المتزوجة ولها أولاد يتناسلون ؟ إنها رقعة متسعة ، فهل يساوى الله ـ وهو العادل ـ بين ثيب وبكر بجلد فقط ؟ إن هذا لا يتأتى أبدا .

إذن فالمسألة يجب أن تؤخذ مما صفّاه رسول الله وهو المشرِّع الثانى الذى امتاز لا بالفهم فى النص فقط ، ولكن لأن له حق التشريع فيما لم يرد فيه نص ! فسنأخذ بما عمله وقد رجم رسول الله فعلا ، وانتهى إلى أن هذا الحكم قد أصبح نهائيا ، الثيب بالثيب هو الرجم ، والبكر بالبكر هو الجلد ، وبكر وثيب كل منهما يأخذ حكمه ، ويكون الحكم منطبقا تماما ، وبذلك نضمن طهارة حفظ النوع ؛ لأن حفظ النوع هو أمر أساسى فى الحياة باستبقاء حياة الفرد واستبقاء نوعه ، فاستبقاء حياة الفرد بأن نحافظ عليه ، ونحسن تربيته ونطعمه حلالا ، ونحفظ النوع بالمحافظة على طهارة المخالطة .

والحق سبحانه وتعالى يمد خلقه حين يغفلون عن منهج الله بما يلفتهم إلى المنهج من غير المؤمنين بمنهج الله ، ويأتينا بالدليل من غير المؤمنين بمنهج الله ، فيثبت لك بأن المنهج سليم . ولقد تعرضنا لذلك من قبل مراراً ونكررها حتى تثبت فى أذهان الناس قال الحق :

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

(سورة التوبة)

فلا يقولن قائل : إن القرآن أخبر بشيء لم يحدث لأن الإسلام لم يطبق ولم يظهر على الأديان كلها . ونرد عليه : لو فهمت أن الله قال : « ليظهره على الدين كله » وأضاف سبحانه : « ولو كره المشركون » ، « ولو كره الكافرون » كما جاء فى موقع آخر من القرآن الكريم ، لقد أوضح الحق أن الإسلام يظهر ويتجلى مع وجود كاره له وهو الكافر والمشرك . ولم يقل سبحانه : إن الإسلام سيمنع وجود أى كافر أو مشرك .

وكيف يكره الكفار والمشركون إظهار الله للإسلام ؟ إنهم لا يدينون بدين الإسلام ، لذلك يحزنهم أن يظهر الإسلام على بقية الأديان . وهل يظهر الإسلام على الأديان بأن يسيطر عليها ويبطل تلك الأديان ؟ لا . إنه هو سبحانه يوضح بالقرآن والسنة كما يوضح لأهل الأديان الأخرى :

بأنكم ستضطرون وتضغط عليكم أحداث الدنيا وتجارب الحياة فلا تجدون مخلصا لكم مما أنتم فيه إلا أن تطبقوا حكما من حكم الإسلام الذى تكرهونه .

وحين تضغط الحياة على الخصم أن ينفذ رأى خصمه فهذا دليل على قوة الحجة ، وهذا هو الإظهار على الدين كله ولو كره الكافرون والمشركون ، وهذا قد حدث فى زماننا ، فقد روعت أمة الحضارة الأولى فى العالم وهى الولايات المتحدة الأمريكية منذ عام ١٩٨١ بما يثبت صدق الإسلام فى أنه حين ضمن ووضع للمخالطات التى تبقى النوع نظاما ، وهو التعاقد العلنى والزواج المشروع ، فالحق قد ضمن صحة الخلق . لكن الحضارة الأمريكية لم تنتبه إلى عظمة قانون الحق سبحانه فَرُوِّعت بظهور مرض جديد يسمى « الإيدز » و« إيدز » مأخوذة من بدايات حروف ثلاث كلمات : حرف « A » ، وحرف « I » ، و« D » .

ومعنى اسم المرض بالترجمة العربية الصحيحة « نقص مناعى مكتسب » والوسيلة الأولى للإصابة به هى المخالطة الشاذة ، ونشأت من هذه المخالطات الشاذة فيروسات ، هذه الفيروسات مازال العلماء يدرسون تكوينها ، وهى تفرز سموما وتسبب آلاما لا حصر لها ، وإلى الآن يعيش أهل الحضارة الغربية هول الفزع والهلع من هذا المرض .

ومن العجيب أن هذه الفيروسات تأتى من كل المخالطات الشاذة سواء أكانت بين رجل ورجل ، أو بين رجل وامرأة على غير ما شرع الله .

لقد جعل الحق سبحانه وتعالى عناصر الزواج « إيجابا » و« قبولا » و« علانية » إنه جعل من الزواج علاقة واضحة محسوبة أمام الناس ، هذا هو النظام الربانى للزوج الذى جعل فى التركيب الكيميائى للنفس البشرية « استقبالا » و« إرسالا » .

والبشر حين يستخدمون الكهرباء . . فالسلك الموجب والسلك السالب ـ كما قلنا ـ يعطيان نورا فى حالة استخدامهما بأسلوب طبيعى ، لكن لو حدث خلل فى استخدام هذه الأسلاك فالذى يحدث هو ماس كهربائى تنتج منه حرائق . وكذلك الذكورة والأنوثة حين يجمعها الله بمنطق الإيجاب والقبول العلنى على مبدأ الإسلام ، فإن التكوين الكيميائى الطبيعى للنفس البشرية التى ترسل ، والنفس البشرية التى تستقبل تعطى نورا وهو أمر طبيعى .

وأوضحنا من قبل أن الإنسان حين يجد شابا ينظر إلى إحدى محارمه ، فهو يتغير وينفعل ويتمنى الفتك به ، لكن إن جاء هذا الشاب بطريق الله المشروع وقال والد الشاب لوالد الفتاة : « أنا أريد خطبة ابنتك لابنى » فالموقف يتغير وتنفرج الأسارير ويقام الفرح .

إنها كلمة الله التى أثرت فى التكوين الكيميائى للنفس وتصنع كل هذا الإشراق والبِشْر ، وإعلان مثل هذه الأحداث بالطبول والأنوار والزينات هو دليل واضح على أن هناك حاجة قد عملت وأحدثت فى النفس البشرية مفعولها الذى أراده الله من الاتصال بالطريق النظيف الشريف العفيف .

فكل اتصال عن غير هذا الطريق الشريف والعفيف لابد أن ينشأ عنه خلل فى التكوين الإنسانى يؤدى إلى أوبئة نفسية وصحية قد لا يستطيع الإنسان دفعها مثل ما هو كائن الآن .

وعلى هذا فيكون قول الحق سبحانه :

﴿ وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ١٥ ﴾

(سورة النساء)

وكانت هذه مرحلة أولية إلى أن طبق الرسول إقامة الحد . ويقول الحق :

﴿ وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا ١٦ ﴾

والحق سبحانه وتعالى تواب ورحيم ، ونعرف أن صفة المبالغة بالنسبة لله لا تعنى أن هناك صفة لله تكون مرة ضعيفة ومرة قوية ، وكل صفات الله واحدة فى الكمال المطلق . وقلت من قبل : إننى عندما أقول : « فلان أكَّال » قد يختلف المعنى عن قولى : « فلان آكل » ، فبمثل هذا القول أبالغ فى وصف إنسان يأكل بكثرة ، فهل هو يأكل كثيرا فى الوجبة الواحدة ، أو أن الوجبة ميزانها محدود لكن هذا الموصوف يعدد الوجبات ، فبدلا من أن يأكل ثلاث مرات فهو يأكل خمس مرات ، عندئذ يقال له : « أكَّال » ، أى أنَّه أكثر عدد الوجبات ، وإن كانت كل وجبة فى ذاتها لم يزد حجمها .

أو هو يأتى فى الوجبة الواحدة فيأكل أضعاف ما يأكله الإنسان العادى فى الوجبة العادية ، فيأكل بدلا من الرغيف أربعة ، فنقول:إنه « أكول » ، إذن فصيغة المبالغة فى الخلق إما أن تنشأ فى قوة الحدث الواحد ، وإما أن تنشأ من تكرار الحدث الواحد .

إن قولك: « الله توَّاب » معناه أنه عندما يتوب على هذا وذاك وعلى ملايين الملايين من البشر ، فالتوبة تتكرر . وإذا تاب الحق فى الكبائر أليست هذه توبة عظيمة ؟ هو تواب ورحيم لأنه سبحانه وتعالى يتصف بعظمة الحكمة والقدرة على الخلق والإبداع ، وهو الذى خلق النفس البشرية ثم قنن لها قوانين وبعد ذلك جرم من يخالف هذه القوانين ، وبعد أن جرم الخروج عن القوانين وضع عقوبة على الجريمة .

والتقنين فى ذاته يقطع العذر ، فساعة أن قنن الحق لا يستطيع واحد أن يقول : « لم أكن أعلم » ؛ لأن ذلك هو القانون ، وحين يجرم فهذا إيذان منه بأن النفس البشرية قد تضعف ، وتأتى بأشياء مخالفة للمنهج ، فنحن لسنا ملائكة ، وسبحانه حين يقنن يقطع العذر ، وحين يجرم فهو إيذان بأن ذلك من الممكن أن يحدث . وبعد ذلك يعاقب ، وهناك أفعال مجرمة ، ولكن المشرِّع الأول لم يجرمها ولم يضع لها قانونا ، لا عن تقصير منه ، ولكن التجريم يأتى كفرع .

إن الله سبحانه قد قدر أن النفس البشرية قد تفعل ذلك ، كالسرقة ـ مثلا ـ إنه سبحانه وضع حدا للسرقة ، وقد تضعف النفس البشرية فتسرق ، أو تزنى ؛ لذلك فالحد موجود ، لكن هناك أشياء لا يأتى لها بالتجريم والعقوبة ، وكأنه سبحانه يريد أن يدلنا من طرف خفى على أنها مسائل ما كان يتصور العقل أن تكون . مثال ذلك اللواط ، لم يذكر له حداً ، لماذا ؟ لأن الفطرة السليمة لا تفعله ، بدليل أن اللواط موجود فى البشر وغير موجود فى الحيوان .

لكن ليس معنى ألا يجرم الحق عملا أنه لا يدخل فى الحساب ، لا ، إنه داخل فى الحساب بصورة أقوى ؛ لأن التجريم والعقوبة على التجريم تدل على أن الفعل من الممكن أن يحدث ، وحين يترك هذه المسألة بدون تجريم ، فمعنى ذلك أن الفطرة السليمة لا يصح أن تفعلها ، ولذلك لم يضع لها حدا أو تجريما ، وترك الأمر لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو المكلف بالتشريع أن يضع حدا لهذه المسألة .

إذن فعدم وجود نص على جريمة أو عقوبة على جريمة ليس معناه ألا يوجد حساب عليها ، لا . هناك حساب ، فقد تكون العقوبة أفظع ، وقد أمر الرسول صلى الله

عليه وسلم بإلقاء الفاعل للواط والمفعول به من أعلى جبل . إن عقوبتهما أن يموتا بالإلقاء من شاهق جبل ، إذن فالعقوبة أكثر من الرجم . وهكذا نعرف أن عدم التجريم وعدم التقنين بالعقوبة لأى أمر غير مناسب للعقل وللفطرة السليمة دليل على أن هذا الأمر غير مباح ، والحق لم يترك تلك الأمور سكوتا عنها ، ولكن هو إيحاء من طرف خفى أن ذلك لا يصح أن يحدث ، بدليل أنها لا تحدث فى الحيوانات التى هى أدنى من الإنسان .

وبعد ذلك قد يتعلل الإنسان الفاعل لمثل هذا القبح الفاحش بأنها شهوة بهيمية . نقول : يا ليت شهوتك المخطئة فى التعبير عن نفسها بهيمية ؛ لأن البهائم لا يحدث منها مثل ذلك الفعل أبدا ، فلا أنثى الحيوانات تقترب من أخرى ، وكذلك لا يوجد ذكر حيوان يقترب من ذكر آخر ، وإذا ما حملت أنثى الحيوان فإنها لا تسمح لأى ذكر من الحيوانات بالاقتراب منها ، إذن فالقبح الفاحش من المخالطة على غير ما شرع الله يمكن أن نسميها شهوة إنسانية ، فالبهائم لا ترتكب مثل تلك الأفعال الشاذة . ومن يقول عن الشهوة إنها بهيمية فهو يظلم الحيوانات . والحق سبحانه وتعالى على الرغم من هذه الخطايا يوضح لنا : أنه التواب الرحيم ، لماذا ؟

انظر الحكمة فى التوبة وفى قبولها ، فلو لم تحدث معصية من الإنسان الذى آمن ، لفقَد التكليف ضرورته . معنى التكليف أنه عملية يزاحم الإنسان فيها نفسه ويجاهدها لمقاومة تنفيذ المعاصى أو لحملها على مشقة الطاعة .

فمقاومة الإنسان للمعاصى خضوعاً للتكليف الإيمانى دليل على أن التكليف أمر صحيح ، اسمه « تكليف » وإلا لخلقنا الله كالملائكة وانتهت المسألة . وحين يشرع الله التوبة ، فذلك يدل على أن الإنسان ضعيف ، قد يضعف فى يوم من الأيام أمام معصية من المعاصى ، وليس معنى ذلك أن يطرده الله من عبوديته له سبحانه ، بل هو يقنن العقوبة ، وتقنين العقوبة للعاصى دليل على أنه سبحانه لم يُخرج الذى اختار الإسلام وعصى من حظيرة الإسلام أو التكليف ، ولو فرضنا أن الحق سبحانه لم يقنن التوبة لصارت اللعنة مصير كل من يضعف أمام شهوة ، ولصار العاصى متمرداً لا يأبه ولا يلتفت من بعد ذلك إلى التكليف ، يَلِغ فى أعراض الناس ويرتكب كل الشرور .

إذن فساعة شرع الله التوبة سدَ على الناس باب « الفاقدين » الذين يفعلون ذنباً ثم يستمرون فيه ، ومع ذلك فسبحانه حين تاب على العاصى رحم من لم يعص إنه القائل : « إن الله كان تواباً رحيما» . ولو قال الحق إنه تواب فقط لأذنب كل واحد منا لكى يكون الوصف معه وقائم به لا محالة ، ولكنه أيضا قال : « تواباً رحيماً » أى أنه يرحم بعضاً من خلقه فلا يرتكبون أى معصية من البداية . فالرحمة ألا تقع فى المعصية .

وبعد ذلك يشرع الحق سبحانه وتعالى للتوبة :

﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ ﴾

ولنلتفت إلى دقة الأداء القرآنى ، هو سبحانه يقول : « إنما التوبة على الله » وقد يقول واحد : مادام الحق شرع التوبة ، فلأفعل ما أريد من المعاصى وبعد ذلك أتوب . نقول له : إنك لم تلتفت إلى الحكمة فى إبهام ساعة الموت ، فما الذى أوحى لك أنك ستحيا إلى أن تتوب ؟ فقد يأخذك الموت فجأة وأنت على المعصية ، وعليك أن تلتفت إلى دقة النص القرآنى :

﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة النساء)

وفعل السوء بجهالة ، أى بعدم استحضار العقوبة المناسبة للذنب ، فلو استحضر الإنسان العقوبة لما فعل المعصية . بل هو يتجاهل العقوبة ، لذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن »[١] .

فلو كان إيمانه صحيحاً ويتذكر تماما أن الإيمان يفرض عليه عدم الزنا ، وأن عقوبة الزنا هى الجلد أو الرجم ، لما قام بذلك الفعل .

والحق قد قال : « إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب » فهناك من يفعل المعصية ويخطط لها ويفرح بها ويُزْهَى بما ارتكب ويفخر بزمن المعصية ، وهناك من تقع عليه المعصية وبمجرد أن تنتهى يظل نادماً ويضرب نفسه ويعذبها ويتساءل لماذا فعلت ذلك ؟ .

وأضرب مثلاً للتمييز بين الاثنين ، نجد اثنين يستعد كل منهما للسفر إلى باريس ، واحد منهما يسأل قبل سفره عن خبرة من عاشوا فى عاصمة فرنسا ، ويحاول أن يحصل على عناوين أماكن اللهو والخلاعة ، وما إن يذهب إلى باريس حتى ينغمس فى اللهو ، وعندما يعود يظل يفاخر بما فعل من المعاصى .

وأما الآخر فقد سافر إلى باريس للدراسة ، وبينما هو هناك ارتكب معصية تحت إغراء وتزيين ، إذن هو إنسان وقعت عليه المعصية ودون تخطيط ، وبعد أن هدأت شِرَّة الشهوة غرق فى الندم ، وبعد أن عاد استتر من زمن المعصية . هكذا نرى الفارق بين المخطط للمعصية وبين من وقعت عليه المعصية .

والله سبحانه حين قدَّر أمر التوبة على خلقه رحم الخلق جميعاً بتقنين هذه التوبة ، وإلا لغرق العالم فى شرور لا نهاية لها ، بداية من أول واحد انحرف مرة واحدة فيأخذ الانحراف عملاً له ، والمهم فى التائب أن يكون قد عمل السوء بجهالة ، ثم تاب من قريب . والرسول صلى الله عليه وسلم حين حدد معنى « من قريب » قال :

---

(١) رواه أحمد والبخارى عن أبى هريرة ، وفى رواية عن مسلم وأحمد : (ولا يَغُلُّ أحدكم حين يَغُلُّ وهو مؤمن فإياكم إياكم) وزاد عبدالرزاق : (ولا ينتهب النهبة وهو مؤمن) .

(إن الله تعالى يقبل توبة العبد ما لم يغرغر)[١] .

والحوار الذى دار بين الحق وبين إبليس :

﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾

(سورة الحجر)

إن إبليس قال ذلك وظن أنه سيهلك البشر جميعا ويوقعهم فى المعصية إلا عباد الله الذين اصطفاهم وأخلصهم له ، لكن الله ـ سبحانه ـ خيَّب ظنه وشرع قبول توبة العبد ما لم يغرغر ، لم يصل إلى مرحلة خروج الروح من الجسد . فإذا ما قدم العبد التوبة لحظة الغرغرة فماذا يستفيد المجتمع ؟ لن يستفيد المجتمع شيئاً من مثل هذه التوبة ؛ لأنه تاب وقت ألاّ شر له ؛ لذلك فعلى العبد أن يتوب قبل ذلك حتى يرحم المجتمع من شرور المعاصى . « إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة » هل يتوب أولا ، ثم يتوب الله عليه ؟

أنه سبحانه يقول :

﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

(من الآية ١١٨ سورة التوبة)

هنا وقف العلماء وحق لهم أن يتساءلوا : هل يتوب العبد أولاً وبعد ذلك يقبل الله التوبة ؟ أم أن الله يتوب على العبد أولاً ثم يتوب العبد ؟ ، صريح الآية هو : « ثم تاب عليهم ليتوبوا » ونقول : وهل يتوب واحد ارتجالاً منه ، أو أن الله شرع التوبة للعباد ؟ . لقد شرع الله التوبة فتاب العبد ، فقبل الله التوبة .

نحن إذن أمام ثلاثة أمور : هى أن الله شرع التوبة للعباد ولم يرتجل أحد توبته ويفرضها على الله ، أى أن أحداً لم يبتكر التوبة ، ولكن الذى خلقنا جميعاً قدَّر أن الواحد قد يضعف أمام بعض الشهوات فوضع تشريع التوبة . وهو المقصود بقوله: « ثم تاب عليهم » أى شرع لهم التوبة وبعد ذلك يتوب العبد إلى الله « ليتوبوا »

---

(١) رواه أحمد والترمذى وابن ماجه والبيهقى فى شعب الإيمان ، وابن حبان فى صحيحه ، والحاكم فى المستدرك .

وبعد ذلك يكون القبول من الله وهو القائل :

﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ ﴾

(من الآية ٣ سورة غافر)

تأمل كلمة « إنما التوبة على الله » تجدها فى منتهى العطاء ، فإذا كان الواحد فقيراً ومديناً وأحال دائنه إلى غنى من العباد فإنّ الدائن يفرح ؛ لأن الغنىّ سيقوم بسداد الدين وأدائه إلى الدائن ، فما بالنا بالتوبة التى أحالها الله على ذاته بكل كماله وجماله ، إنه قد أحال التوبة على نفسه لا على خلقه ، وهو سبحانه أوجب التوبة على نفسه ولا يملك واحد أن يرجع فيها ، ثم قال : « ثم يتوبون من قريب » أى أن العبد يرجو التوبة من الله ، وحين قال : « فأولئك يتوب الله عليهم » أى أن سبحانه قابل للتوب وغافر للذنب وحين يقول سبحانه : « وكان الله عليماً حكيماً » فنحن نعلم أن كل تقنين لأى شىء يتطلب علماً واسعاً بما يمكن أن يكون وينشأ . والذين يتخبطون فى تقنينات البشر ، لماذا يقنون اليوم ثم يعدلون عن التقنين غداً ؟ لأنهم ساعة قننوا غاب عنهم شىء من الممكن أن يحدث ، فلما حدث ما لم يكن فى بالهم استدركوا على تقنينهم .

إذن فالاضطراب ينشأ من عدم علم المقنن بكل أحوال من يقنن لهم ماضياً وحاضراً ومستقبلاً ، والمقنن من البشر قد لا يستوعب الأحداث الماضية ، وذلك لأنه لا يستوعبها إلا فى بيئته أو فى البيئة التى وصله خبرها ، فحتى فى الماضى لا يقدر ، ولا فى المستقبل يقدر ، وكذلك فى الحاضر أيضاً ، فالحاضر عند بيئة ما يختلف عن الحاضر فى بيئة أخرى . ونحن نعرف أن حواجز الغيب ثلاثة : أى أن ما يجعل الشىء غيباً عن الإنسان هو ثلاثة أمور :

الأمر الأول : هو الزمن الماضى وما حدث فيه من أشياء لم يرها المعاصرون ولم يعرفوها ؛ لذلك فالماضى قد حُجز عن البشر بحجاب وقوع الأحداث فى ذلك الماضى ؛ ولذلك يلفتنا الله سبحانه وتعالى فى تصديق رسوله صلى الله عليه وسلم فيقول سبحانه :

﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلۡغَرۡبِيِّ إِذۡ قَضَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلۡأَمۡرَ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة القصص)

ورسول الله لم يكن مع موسى ساعة أن قضى الله لموسى الأمر ، ومع ذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أميًا لا يمكنه أن يقرأ التاريخ أويتعلمه . ويقول أيضا سبحانه :

﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾

(من الآية ٤٤ آل عمران)

أى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يشهد تلك الأزمان التى يأتيه خبرها عن الله ، والرسول أمى بشهادة الجميع ولم يجلس إلى معلم . إذن فالذى اخترق حجاب الزمن وأخبر الرسول بتلك الأحداث هو الله .

والأمر الثانى : هو حجاب الحاضر ، حيث يكون الحجاب غير قادم من الزمن لأن الزمن واحد ، ولكن الحجاب قادم من اختلاف المكان ، فأنا أعرف ما يحدث فى مكانى ، ولكنى لا أعرف ما الذى يحدث فى غير المكان الذى أوجد به ، ولا يقتصر الحجاب فى الحاضر على المكان فقط ولكن فى الذات الإنسانية بأن يُضمر الشخصُ الشيء فى نفسه . فالحق يقول :

﴿ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ ﴾

(من الآية ٨ سورة المجادلة)

هنا يخبر الله سبحانه الرسول عن شيء حاضر ومكتوم فى نفوس أعدائه . وبالله لو لم يكونوا قد قالوه فى أنفسهم ، لما صدقوا قول الرسول الذى جاءه إخباراً عن الله . وقد خرق الله أمام رسوله حجاب الذات وحجاب المكان .

والأمر الثالث : هو حجاب المستقبل ، فيقول القرآن :

﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ ﴾

(سورة القمر)

ونلحظ أن كلمة « سيهزم » فيها حرف « السين » التى تُنبىء عن المستقبل ، وقد نزلت هذه الآية فى مكة وقت أن كان المسلمون قلة وهم مضطهدون ولا يستطيعون

الدفاع عن أنفسهم . وعندما يسمعها عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ ينفعل ويقول لرسول الله : أى جمع هذا ؟

وجاء الجمع فى بدر وولَّى الدبر . حدث ذلك الإخبار فى مكة ، ووقعت الأحداث بعد الهجرة . وكانت الهجرة فى الترتيب الزمنى مستقبلاً بالنسبة لوجود المسلمين فى مكة .

أكان من الممكن أن يقول سبحانه : « سيُهزم الجمع ويولون الدبر » لولا أن ذلك سيحدث بالفعل ؟

لو حدث غير ذلك لكذبه المؤمنون به .

إن الرسول صلى الله عليه وسلم قال ذلك إبلاغاً عن الله وهو واثق ، ويطلقها الله على لسان رسوله حُجة فيمسكها الخصم ، ثم يثبت صدقها لأن الذى قالها هو من يخلق الأحداث ويعلمها .

ويأتى فى الوليد بن المغيرة وهو ضخم وفحل وله مهابة وصيت وسيد من سادة قريش ، فيقول الحق :

﴿ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة القلم)

أى سنضربه بالسيف ضربة تجعل على أنفه علامة فى أعلى منطقة فيه . ويأتى يوم بدر ، فيجدون الضربة على أنف الوليد . لقد قالها الحق على لسان رسوله فى زمن ماضٍ ويأتى بها الزمن المستقبل ، وعندما تحدث هذه المسألة فالذين آمنوا بمحمد وبالقرآن الذى نزل على محمد يتأكدون من صدق رسول الله فى كل شىء . ويأخذون الجزئية البسيطة ويرقُّونها فيصدقون ما يخبرهم به من أمر الدنيا والآخرة . ويقولون :

ـ إذا أخبرنا رسول الله بغيب يحدث فى الآخرة فهو الصادق الأمين ، ويأخذون من أحداث الدنيا الواقعة ما يكون دليلاً على صدق الأحداث فى الآخرة .

ويذيل الحق الآية : « وكان الله عليماً حكيماً » أى عليما بالتقنينات فشرَّع التوبة لعلمه ـ جل شأنه ـ بأنه لو لم يشرِّع التوبة ، لكان المذنب لمرة واحدة سبباً فى شقاء العالم ؛ لأنه ـ حينئذ ـ يكون يائساً من رحمة الله .

إذن فرحمة منه ـ سبحانه ـ بالعالم شرّع الله التوبة . وهو حكيم فإياك أن يتبادر إلى ذهنك أن الحق قد حمى المجرم فحسب حين شرع له التوبة ، إنه سبحانه قد حمى غير المجرم أيضا . وساعة نسمع الزمن فى حق الحق سبحانه وتعالى كقوله : « كان » فلا نقول ذلك قياساً على زماننا نحن ، أو على قدراتنا نحن ، فكل ما هو متعلق بالحق علينا أن نأخذه فى نطاق « ليس كمثله شىء » .

فقد يقول كافر : « إن علم الله كان » ويحاول أن يفهمها على أنه علم قد حدث ولا يمكن تكراره الآن ، لا ، فعلم الله كان ولا يزال ؛ لأن الله لا يتغير ، ومادام الله لا يتغير ، فالثابت له من قبل أزلاً يثبت له أبداً . والحكمة هى وضع الشىء فى موضعه . ومادام قد قدر سبحانه وضع الشىء ، فالشىء إنما جاء عن علم ، وحين يطابق الشىء موضعه فهذه هى مطلق الحكمة .

والحق يقول :

﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة النساء)

لقد شرع الله سبحانه التوبة ليتوب عباده ، فإذا تابوا قَبِلَ توبتَهم ، وهذا مبنى على العلم الشامل والحكمة الدقيقة الراسخة . وانظروا إلى دقة العبارة فى قوله : « إنما التوبة على الله » ، فساعة يوجد فعل إيجابي يقال : على مَن ، لكن عندما لا يأتى بفعل إيجابى لا يقال : عل مَن ، بل يقال : ليس بالنفى . إنّ الحق عندما قرر التوبة عليه ـ سبحانه ـ وأوجبها على نفسه ، للذين يعملون السوء بجهالة ويتوبون فوراً ، إنه يدلنا أيضاً على مقابل هؤلاء ، فيقول :

﴿ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾ ﴾

هنا يوضح الحق أن توبة هؤلاء الذين يعملون السيئات لم توجد من قريب . وهم يختلفون عن الذين كتب الله قبول توبتهم ، هؤلاء الذين يعيشون وتستحضر نفوسهم قِيَم المنهج ، إلا أن النفوس تضعف مرة . أما الذين لا يقبل منهم التوبة فهم أصحاب النفوس التى شردت عن المنهج فى جهات متعددة ، وهم لم يرتكبوا « سوءاً » واحداً بل ارتكبوا السيئات . فالذى ارتكب سوءاً واحداً فذلك يعنى أنه ضعيف فى ناحية واحدة ويبالغ ويجتهد فى الزوايا والجوانب الأخرى من الطاعات التى لا ضعف له فيها ليحاول ستر ضعفه .

إنك ترى أمثال هذا الإنسان فى هؤلاء الذين يبالغون فى إقامة مشروعات الخير ، فهذه المشروعات تأتى من أناس أسرفوا على أنفسهم فى ناحية لم يقدروا على أنفسهم فيها فيأتوا فى نواحى خير كثيرة ، ويزيدوا فى فعل الخير رجاء أن يمحو الله سيئاتهم التى تركوها وأقلعوا وتابوا عنها .

ومن ذلك نعلم أن أحداً لا يستطيع أن يمكر مع الله ؛ فالذى أخذ راحته فى ناحية ، يوضح له الله : أنا سآتى بتعبك من نواحٍ أخرى لصالح منهجى ، ويسلط الله عليه الوهم ، ويتخيل ماذا ستفعل السيئة به ، فيندفع إلى صنع الخير . وكأن الحق يثبت للمسىء : أنت استمتعت بناحية واحدة ، ومنهجى ودينى استفادا منك كثيراً ، فأنت تبنى المساجد والمدارس وتتصدق على الفقراء ، كل هذا لأن عندك سيئة واحدة .

إذن فلا يمكن لأحد أن يمكر على الله ، وعبر القرآن عن صاحب السيئة بوصف هذه الزلة بكلمة « السوء » ، ولكنه وصف الشارد الموغل فى الشرود عن منهج الله بأنه يفعل « السيئات » ، فهو ليس صاحب نقطة ضعف واحدة ، لكنه يقترف سيئات متعددة ، ويمعن فى الضلال ، ولا يقتصر الأمر على هذا بل يؤجل التوبة إلى لحظة بلوغ الأجل ، بل إنهم قد لا ينسبون الخير الصادر منهم إلى الدين مثلما يفعل الملاحدة ، أو الجهلة الذين لا يعلمون بأن كل خير إنما يأمر به الدين .

مثال ذلك مذهب « الماسونية » ، يقال : إن هذا المذهب وضعه اليهود ، والظاهر فى سلوك الماسونيين أنهم يجتمعون لفعل خير ما يستفيد منه المجتمع ، وما خفى من أفعال قمة أعضاء الماسونية أنهم يخدمون أغراض الصهيونية ، وقد ينضم إليهم بعض ممن لا يعرفون أهداف الماسونية الفعلية ليشاركوا فى عمل الخير الظاهر . ونقول لكل واحد من هؤلاء : انظر إلى دينك ، تجده يحضك على فعل مثل هذا الخير ، فلماذا تنسبه إلى الماسونية ولا تفعله على أنه أمر إسلامى . ولماذا لا تنسب هذا الخير إلى الإسلام وتنسبه لغير الإسلام ؟

وفى هذا العصر هناك ما يسمّى بأندية « الروتارى » ويأخذ الإنسان غرور الفخر بالانتماء إلى تلك الأندية ، ويقول : « أنا عضو فى الروتارى » وعندما تسأله : لماذا ؟ يجيب : إنها أندية تحض على التعاون والتواصل والمودة والرحمة ، ونقول له : وهل الإسلام حرم ذلك ؟ لماذا تفعل مثل هذا الخير وتنسبه إلى « الروتارى » ، ولا تفعل الخير وتنسبه إلى دينك الإسلام ؟ إذن فهذا عداء للمنهج .

ونجد الشاردين عن المنهج ، مثلهم كمثل الرجل الذى قالوا له : ما تريد نفسك الآن ؟ وأراد الرجل أن يحاد الله فقال : تريد نفسى أن أفطر فى يوم رمضان ، وعلى كأس خمر ، وأشترى كأس الخمر هذه بثمن خنزير مسروق .

إنه يريد فطر رمضان وهو محرّم ، ويفطر على خمر وهى محرمة ، وبثمن خنزير والخنزير حرام على المسلم ، والخنزير مسروق أيضا . وسألوه : ولماذا كل هذا التعقيد ؟ فقال : حتى تكون هذه الفعلة حراماً أربع مرات .

إذن فهذه مضارة لله ، وهذا رجل شارد عن المنهج . فهل هذا يتوب الله عليه ؟ لا ، « وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت » وعند لحظة الموت يبدأ الجبن وتتمثل أخلاق الأرانب ، ولماذا لم يصر على موقفه للنهاية ؟ لأنه جاء إلى اللحظة التى لا يمكن أن يكذب فيها الإنسان على نفسه « حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إنى تبت الآن » لكن التوبة لا تقبل ، ولن ينتفع بها المجتمع ، وشر مثل هذا الإنسان انتهى ، وتوبته تأتى وهو لا يقدر على أى عمل ، إذن فهو يستهزىء بالله ؛ فلا تنفعه التوبة .

ولكن انظروا إلى رحمة الله واحترامه للشهادة الإيمانية التى يقر فيها المؤمن بأنه : « لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله » .

هذا المؤمن جعله الله فى مقابل الكافر ، فيأخذ عذاباً على قدر ما فعل من ذنوب ، ويأتى احترام الحق سبحانه لإيمان القمة لقوله : « أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله » فيوضح سبحانه : لن نجعلك كالكافر ؛ بدليل أنه عطف عليه « ولا الذين يموتون وهم كفار » ، وإنما يقدر للمؤمن العاصى من العذاب على قدر ما ارتكب من معاصٍ ، ويحترم الحق إيمان القمة ، فيدخلون الجنة ؛ لذلك لم يقل الحق : إنهم خالدون فى النار . وإنما قال : « أولئك أعتدنا لهم عذاباً أليما » و« أولئك » تعنى الصنفين ـ المؤمن والكافر ـ فالعذاب لكل واحد حسب ذنبه .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمْ
أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًاۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ
بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ
مُّبَيِّنَةٍۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ

فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾

وقلنا : ساعة ينادى الحق عباده الذى آمنوا به يقول سبحانه : « ياأيها الذين آمنوا » ، فمعناها : يا من آمنتم بى بمحض اختياركم ، وآمنتم بى إلهاً له كل صفات العلم والقدرة والحكمة والقيومية ، مادمتم قد آمنتم بهذا الإله اسمعوا من الإله الأحكامَ التى يطلبها منكم . إذن فهو لم يناد غير مؤمن وإنما نادى من آمن باختياره وبترجيح عقله فالحق يقول :

﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ﴾

(من الآية ١٥٦ سورة البقرة)

يريد الحق سبحانه وتعالى أن يعالج قضية تتعلق بالنساء وباستضعافهم . لقد جاء الإسلام والنساء فى الجاهلية فى غَبْن وظلم وحيف عليهن . و ـ سبحانه ـ قال : « يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً » وكلمة « ورث » تدل على أن واحداً قد توفى وله وارث ، وهناك شىء قد تركه الميت ولا يصح أن يرثه أحدٌ بعده ؛ لأنه عندما يقول : « لا يحل لكم أن ترثوا » ، فقد مات مورِّث ؛ ويخاطب وارثاً . إذن فالكلام فى الموروث ، لكن الموروث مرة يكون حِلاً ، ولذلك شرع الله تقسيمه ، وتناولناه من قبل ، لكن الكلام هنا فى متروك لا يصح أن يكون موروثاً ، ما هو ؟

قال سبحانه : « لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها » ، وهل المقصود ألا يرث الوارث من مورثه إماء تركهن ؟ لا . إن الوارث يرث من مورثه الإماء اللاتى تركهن ، ولكن عندما تنصرف كلمة « النساء » تكون لأشرف مواقعها أى للحرائر ، لأن الأخريات تعتبر الواحدة منهن ملك يمين ، « لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها » ، وهل فيه ميراث للنساء برضى ؟ وكيف تورث المرأة ؟

ننتبه هنا إلى قوله سبحانه « كرها » ، وكان الواقع فى الجاهلية أن الرجل إذا مات

وعنده امرأة جاء وليه ، ويلقى ثوبه على امرأته فتصير ملكا له،وإن لم تقبل فإنه يرثها كرها ، أو إن لم يكن له هوى فيها فهو يحبسها عنده حتى تموت ويرثها ، أو يأتى واحد ويزوجها له ويأخذ مهرها لنفسه ؛ كأنه يتصرف فيها تصرف المالك ؛ لذلك جاء القول الفصل :

« لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها ولا تعضلوهن » ، و« العضل » فى الأصل هو المنع ، ويقال : « عضلت المرأة بولدها » ، ذلك أصل الاشتقاق بالضبط . فالمرأة ساعة تلد فمن فضل الله عليها أن لها عضلات تنقبض وتنبسط ، تنبسط فيتسع مكان خروج الولد ، وقد تعضل المرأة أثناء الولادة ، فبدلا من أن تنبسط العضلات لتفسح للولد أن يخرج تنقبض ، فتأتى هنا العمليات التى يقومون بها مثل القيصرية .

إذن فالعضل معناه مأخوذ من عضلت المرأة بولدها أى انقبضت عضلاتها ولم تنبسط حتى لا يخرج الوليد ، وعضلت الدجاجة ببيضها أى أن البيضة عندما تكون فى طريقها لتنزل فتنقبض العضلة فلا تنزل البيضة لأن اختلالا وظيفيا قد حدث نتيجة للحركة الناقصة ، ولماذا تأتى الحركة ناقصة للبسط ؟ لأن الحق سبحانه وتعالى لم يشأ أن يجعل الأسباب فى الكون تعمل آليا وميكانيكيا بحيث إذا وجدت الأسباب يوجد المسبب ، لا . ففوق الأسباب مسبب إن شاء قال للأسباب : قفى فتقف .

إذن فكل المخالفات التى نراها تتم على خلاف ما تؤديه الأسباب إنما هى دليل طلاقة القدرة ، فلو كانت الأشياء تسير هكذا ميكانيكيا ، فسوف يقول الناس : إن الميكانيكا دقيقة لا تتخلف . لكن الحق يلفتنا إلى أنه يزاول سلطانه فى ملكه ، فهو لم يزاول السلطان مرة واحدة ، ثم خلق الميكانيكا فى الكون والأسباب ثم تركها تتصرف ، لا ، هو يوضح لنا : أنا قيوم لا تأخذنى سِنَةٌ ولا نوم ، أقول للأسباب اعملى أو لا تعملى ، وبذلك نلتفت إلى أنه المسيطر .

وتجد هذه المخالفات فى الشواذ فى الكون ، حتى لا تَفْتِنَّا رتابة الأسباب ، ولنذكر الله باستمرار ، ويكون الإنسان على ذكر من واهب الأسباب ومن خالقها ، فلا تتولد عندنا بلادة من أن الأسباب مستمرة دائما ، ويلفتنا الحق إلى وجوده ، فتختلف

الأسباب لتلفتك إلى أنها ليست فاعلة بذاتها ، بل هى فاعلة لأن الله خلقها وتركها تفعل ، ولو شاء لعطلها .

قلنا هذا فى معجزة إبراهيم عليه السلام ، حيث ألقاه أهله فى النار ولم يُحرق ، كان من الممكن أن ينجى الله إبراهيم بأى طريقة أخرى ، ولكن هل المسألة نجاة إبراهيم ؟ إن كانت المسألة كذلك فما كان ليمكّنهم منه ، لكنه سبحانه مكنهم منه وأمسكوه ولم يفلت منهم ، وكان من الممكن أن يأمر السماء فتمطر عندما ألقوه فى النار ، وكان المطر كفيلا بإطفاء النار ، لكن لم تمطر السماء بل وتتأجج النار . وبعد ذلك يقول لها الحق :

﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ ﴾

(سورة إبراهيم)

بالله أهذا غيظ لهم أم لا ؟ هذا غيظ لهم ؛ فقد قدرتم عليه وألقيتموه فى النار ، وبعد ذلك لم يَنْزِل مطر ليطفىء النار ، والنار موجودة وإبراهيم فى النار ، لكن النار لا تحرقه . هذه هى عظمة القدرة .

إذن فما معنى « تعضلوهن » ؟ العضل : أخذنا منه كلمة « المنع » ؛ فعضلت المرأة أى قبضت عضلاتها فلم ينزل الوليد ، وأنت ستعضلها كيف ؟ بأن تمنعها من حقها الطبيعى حين مات زوجها ، وأن من حقها بعد أن تقضى العدة أنْ تتزوج من تريد أو من يتقدم لها ، وينهى الحق : « ولا تعضلوهن » أى لا تحبسوهن عندكم وتمنعوهن ، لماذا تفعلون ذلك ؟ « لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن » كأن هذا حكم آخر ، لا ترثوا النساء كرها هذا حكم ، وأيضا لا تعضلوهن حكم ثانٍ .

والمثال عندما يكون الرجل كارها لامرأته فيقول لها : والله لن أطلقك ، أنا سأجعلك موقوفة ومعلقة لا أكون أنا لك زوجا ولا أمكنك أيضا من أن تتزوجى . وذلك حتى تفتدى نفسها فتُبرىء الرجل من النفقة ومؤخر الصداق ؛ فيحمى الإسلام المرأة ويحرم مثل تلك الأفعال .

ولكن متى تعضلوهن ؟ هنا يقول الحق : « إلا أن يأتين بفاحشة مبينة » لأنهم

سيحبسونهن ، وهذا قبل التشريع بالحد . وقال بعض الفقهاء : للزوج أن يأخذ من زوجته ما تفتدى به نفسها منه وذلك يكون بمال أو غيره إذا أتت بفاحشة من زنا أو سوء عشرة ، وهذا ما يسمى بالخلع وهو الطلاق بمقابل يطلبه الزوج .

ويتابع الحق : « وعاشروهن بالمعروف » وكلمة « المعروف » أوسع دائرة من كلمة المودة ؛ فالمودة هى أنك تحسن لمن عندك ودادة له وترتاح نفسك لموادته ، أنك فرح به وبوجوده ، لكن المعروف قد تبذله ولو لم تكره ، وهذه حلت لنا إشكالات كثيرة ، عندما أراد المستشرقون أن يبحثوا فى القرآن ليجدوا شيئا يدعون به أن فى القرآن تعارضا فيقولون : قرآنكم يقول :

﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

(سورة المجادلة)

كيف لا يواد المؤمن ابنه أو أباه أو أحداً من عشيرته لمجرد كفره . والقرآن فى موقع آخر منه يقول ؟

﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾

(من الآية ١٥ سورة لقمان)

ونقول : إن هؤلاء لم يفهموا الفرق بين المودة والمعروف . فـ « الود » شىء و« المعروف » شىء آخر . الود يكون عن حُب ، لكن المعروف ليس ضروريا أن يكون عن حُب ، ساعة يكون جوعان ساعطيه ليأكل وألبى احتياجاته المادية . هذا هو المعروف ، إنما الوُد هو أن أعمل لإرضاء نفسى . وساعة يعطف الرجل المؤمن على أبيه الكافر لا يعطف عليه نتيجة للوُد ، إنما هو يعطف عليه نتيجة للمعروف ؛ لأنه حتى لو كان كافرا سيعطيه بالمعروف .

ألم يعاتب الحق ـ سبحانه ـ إبراهيم فى ضيف جاء له فلم يكرمه لأنه سأله وعرف منه : أنه غير مؤمن لذلك لم يضيّفه ؟ فقال له ربنا : أمن أجل ليلة تستقبله فيها تريد أن تغير دينه ، بينما أنا أرزقه أربعين سنة وهو كافر ؟ فماذا فعل سيدنا إبراهيم ؟ جرى فلحق بالرجل . وناداه فقال له الرجل : ما الذى جعلها تتغير هذا التغيير المفاجىء فقال له إبراهيم : « والله إن ربى عاتبنى لأنى صنعت معك هذا . فقال له الرجل : أربك عاتبك وأنت رسول فىّ وأنا كافر به ، فنعم الرب ربٌ يعاتب أحبابه فى أعدائه ، فأسلم .

هذا هو المعروف ، الحق يأمرنا أننا يجب أن ننتبه إلى هذه المسائل فى أثناء الحياة الزوجية ، وهذه قضية يجب أن يتنبه لها المسلمون جميعا كى لا يُخربوا البيوت . إنهم يريدون أن يبنوا البيوت على المودة والحب فلو لم تكن المودة والحب فى البيت لخُربَ البيت ، نقول لهم : لا . بل « عاشروهن بالمعروف » حتى لو لم تحبوهن ، وقد يكون السبب الوحيد أنك تكره المرأة لأن شكلها لا يثير غرائزك ، يا هذا أنت لم تفهم عن الله ؛ ليس المفروض فى المرأة أن تثير غريزتك ، ولكن المفروض فى المرأة أن تكون مصرفا ، إن هاجت غريزتك كيماويا بطبيعتها وجدت لها مصرفا . فأنت لا تحتاج لواحدة تغريك لتحرك فيك الغريزة ؛ ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : « إذا رأى أحدكم امرأة حسناء فأعجبته فليأت أهله فإن البضع واحد ومعها مثل الذى معها »[1] .

أى أن قطعة اللحم واحدة إن هاجت غريزتك بطبيعتها فأى مصرف يكفيك ، ولذلك عندما جاء رجل لسيدنا عمر ـ رضى الله عنه ـ وقال : يا أمير المؤمنين أنا كاره لامرأتى وأريد أن أطلقها ، قال له : أَوَلَمْ تُبن البيوت إلا على الحب ، فأين القيم ؟ . لقد ظن الرجل أن امرأته ستظل طول عمرها خاطفة لقلبه ، ويدخل كل يوم ليقبلها ، فيلفته سيدنا عمر إلى أن هذه مسألة وجدت أولا وبعد ذلك تنبت فى الأسرة أشياء تربط الرجل بالمرأة وتربط المرأة بالرجل .

لذلك يقول الحق : « وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا » ، أنت كرهتها فى زاوية وقد تكون الزاوية التى كرهتها فيها

---

(١) رواه الخطيب عن عمر .

هى التى ستجعلها تحسن فى عدة زوايا ؛ لكى تعوض بإحسانها فى الزوايا الأخرى هذه الزاوية الناقصة ، فلا تبن المسألة على أنك تريد امرأة عارضة أزياء لتثير غرائزك عندما تكون هادئا ، لا . فالمرأة مصرف طبيعى إن هاجت غرائزك بطبيعتها وجدت لها مصرفا ، أما أن ترى فى المرأة أنها ملهبة للغرائز فمعنى ذلك أنك تريد من المرأة أن تكون غانية فقط . وأن تعيش معك من أجل العلاقة الجنسية فقط ، لكن هناك مسائل أخرى كثيرة ، فلا تأخذ من المرأة زاوية واحدة هى زاوية الانفعال الجنسى ، وخذ زوايا متعددة .

وأعلم أن الله وزع أسباب فضله على خلقه ، هذه أعطاها جمالاً ، وهذه أعطاها عقلاً ، وهذه أعطاها حكمة ، وهذه أعطاها أمانة ، وهذه أعطاها وفاء ، وهذه أعطاها فلاحًا ، هناك أسباب كثيرة جدا ، فإن كنت تريد أن تكون منصفا حكيما فخُذ كل الزوايا ، أما أن تنظر للمرأة من زاوية واحدة فقط هى زاوية إهاجة الغريزة ، هنا نقول لك : ليست هذه هى الزاوية التى تصلح لتقدير المرأة فقط . « فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا »

وانظر إلى الدقة فى العبارة « فعسى أن تكرهوا » فأنت تكره ؛ وقد تكون محقا فى الكراهية أو غير محق ، إنما إن كرهت شيئا يقول لك الله عنه : « ويجعل الله فيه خيراً كثيراً » فاطمئن إنك إن كرهت فى المرأة شيئا لا يتعلق بدينها ، فاعلم أنك إن صبرت عليه يجعل الله لك فى بقية الزوايا خيراً كثيراً . ومادام ربنا هو مَن يجعل هذا الخير الكثير فاطمئن إلى أنك لو تنبهت لزاوية أنت تكرهها ومع ذلك تصبر عليها ، فأنت تضمن أن ربنا سيجعل لك خيراً فى نواحٍ متعددة ، إن أى زاوية تغلبت على كرهك سيجعل الله فيها خيرا كثيرا .

إن الحق يطلق القضية هنا فى بناء الأسرة ثم يُعمم ، وكان بإمكانه أن يقول : فعسى أن تكرهوهن ويجعل الله فيهن خيرا ، لا . فقد شاء أن يجعلها سبحانه قضية عامة فى كل شىء قد تكرهه ، وتأتى الأحداث لتبين صدق الله فى ذلك ، فكم من أشياء كرهها الإنسان ثم تبين له وجه الخير فيها . وكم من أشياء أحبها الإنسان ثم تبين له وجه الشر فيها ، ليدلك على أن حكم الإنسان على الأشياء دائما غير دقيق ،

فقد يحكم بكره شيء وهو لا يستحق الكره ، وقد يحكم بحب شيء وهو لا يستحق الحب .

إذن فالحق سبحانه وتعالى يأتى بالأشياء مخالفة لأحكامك « فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا » فقدر دائما فى المقارنةأن الكرهَ منك وجَعْل الخير فى المرأة من الله ، فلا تجعل جانب الكره منك يتغلب على جانب جعل الخير من الله .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ ﴾

فإذا ضاقت بك المسائل ، بعد أن عاشرت بالمعروف ولم يعد ممكنا أن تستمر الحياة الزوجية فى إطار يرضى عنه الله ، وتخاف أن تنفلت من نفسك إلى ما حرم الله ، ماذا تفعل ؟ يقول سبحانه : « وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج » أى لك أن تستبدل مادامت المسألة ستصل إلى جرح منهج الله ، وعليك فى هذا الاستبدال أن ترعى المنهج الإيمانى مثلما أشار به سيدنا الحسن رضى الله عنه على الرجل الذى كان يستشيره فى واحد جاء ليخطب ابنته . قال سيدنا الحسن ـ رضى الله عنه ـ : إن جاءك الرجل الصالح فزوجه ، فإنه إن أحب ابنتك أكرمها ، وإن كرهها لم يظلمها .

والحق يقول : « وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج » فهذا يعنى أن الرغبة قد انصرفت عن الأولى نهائيا ، ولا يمكن التغلب عليها بغير الانحراف عن المنهج . وقد يحدث أن يضيق الرجل بزوجته وهو لا يعانى من إلحاح فى الناحية الغريزية ، فيطلقها ولا يتزوج ، فما شروط المنهج فى هذا الأمر ؟

يقول الحق : « وآتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا » . كلمة « قنطار » وكلمة « قنطرة » مأخوذة من الشيء العظيم . وقنطار تعنى « المال » . وقدروه قديما بأنه ملء مَسْك البقرة ، و« المسك » هو الجلد ، فعندما يتم سلخ البقرة يصبح جلدها مثل القربة ، وملء مَسْكها يسمى قنطارا ، والقنطار المعروف عندنا الآن له سمة وَزْنِيّة ، والحق حين يعظم المهر بقنطار يقول : « وآتيتم إحداهن قنطارا » فهو يأتى لنا بمثل كبير وينهانا بقوله : « فلا تأخذوا منه شيئا » . لماذا ؟ لأنك يجب أن تفهم أن المهر الذى تدفعه ليس منساحا على زمن علاقتك بالمرأة إلى أن تنتهى حياتكما ، بل المهر مجعول ثمنا للبضع الذى أباحه الله لك ولو للحظة واحدة ، فلا تحسبها بمقدار ما مكثت معك ، لا ، إنما هو ثمن البضع ، فقد كشفت نفسها لك وتمكنت منها ولو مرة واحدة .

إذن فهذا القنطار عمره ينتهى فى اللحظة الأولى ، لحظة تَمكُّنِك منها . « وآتيتم إحداهن قنطارا » وهذه هى المسألة التى قال فيها سيدنا عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ : أخطأ عمر وأصابت امرأة ، لأنه كان يتكلم فى غلاء المهور ؛ فقالت له المرأة : كيف تقول ذلك والله يقول : « وآتيتم إحداهن قنطارا » ، فقال : أصابت امرأة وأخطأ عمر .

عن عمر رضى الله عنه أنه نهى وهو على المنبر عن زيادة صداق المرأة على أربعمائة درهم ثم نزل ، فاعترضته امرأة من قريش فقالت : أما سمعت الله يقول : (وآتيتم إحداهن قنطارا) ؟ فقال : اللهم عفوا كل الناس أفقه من عمر ثم رجع فركب المنبر فقال : « إنى كنت قد نهيتكم أن تزيدوا فى صدُقاتهن على أربعمائة درهم فمن شاء أن يعطى من ماله ما أحب »[1] .

وعن عبدالله بن مصعب أن عمر ـ رضى الله عنه ـ قال : « لا تزيدوا فى مهور النساء على أربعين أوقية من فضة ، فمن زاد أوقية جعلتُ الزيادة فى بيت المال ، فقالت امرأة : ما ذاك لك ، قال ولِمَ ؟ فقالت : لأن الله تعالى يقول : « وآتيتم إحداهن قنطارا » فقال عمر : « امرأة أصابت ورجل أخطأ » .

---

(١) رواه سعيد بن منصور ، وأبو يعلى .

ثم ينكر القرآن مجرد فكرة الأخذ فيقول : « أتأخذونه بهتانا وإثما مبينا » لماذا ؟ لأنه ليس ثمن استمتاعك بها طويلا ، بل هو ثمن تمكنك منها ، وهذا يحدث أوّل ما دخلت عليها . وإن أخذت منها شيئا من المهر بعد ذلك فأنت آثم ، إلاّ إذا رضيت بذلك ، والإثم المبين هو الإثم المحيط .

ويأتى الحق من بعد ذلك بمزيد من الاستنكار فيقول : « وكيف تأخذونه » . إنه استنكار لعملية أخذ شيء من المهر بحيثية الحكم فيقول :

﴿ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾ ﴾

فلو أدركتم كل الكيفيات فلن تجدوا كيفية تبرر لكم الأخذ ، لماذا ؟ لأن الحق قال : « وكيف تأخذونه » وانظر للتعليل : « وقد أفضى بعضكم إلى بعض » . إذن فثمن البُضع هو الإفضاء ، وكلمة « أفضى بعضكم إلى بعض » كلمة من إله ؛ لذلك تأخذ كل المعانى التى بين الرجل والمرأة ، و« أفضى » مأخوذة من « الفضاء » والفضاء هو المكان الواسع ، و« أفضى بعضكم » يعنى دخلتم مع بعض دخولا غير مضيق .

إذن فالإفضاء معناه : أنكم دخلتم معا أوسع مدَاخَلة ، وحسبك من قمة المداخلة أن عورتها التى تسترها عن أبيها وعن أخيها وحتى عن أمها وأختها تبينها لك ، ولا يوجد إفضاء أكثر من هذا ، ودخلت معها فى الاتصال الواسع ، أنفاسك ، ملامستك ، مباشرتك ، معاشرتك ، مدخلك ، مخرجك ، فى حمامك ، فى المطبخ ، فى كل شيء حدثت إفضاءات ، وأنت مادمت قد أفضيت لها وهى قد أفضت لك كما قال الحق أيضا فى المداخلة الشاملة :

﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾

(من الآية ١٨٧ سورة البقرة)

أى شيء تريد أكثر من هذا !؟ ولذلك عندما تشتد امرأة على زوجها ، قد يغضب ، ونقول له : يكفيك أن الله أحل لك منها ما حرمه على غيرك ، وأعطتك عرضها ، فحين تشتد عليك لا تغضب ، وتذكَّر حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلى »[1] .

« وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقا غليظا » والميثاق هو : العهد يؤخذ بين اثنين ، ساعة سألت وليها : « زوجنى » فقال لك : زوجتك ، ومفهوم أن كلمة الزواج هذه ستعطى أسرة جديدة ، وكل ميثاق بين خلق وخلق فى غير العرض هو ميثاق عادى ، إلا الميثاق بين الرجل والمرأة التى يتزوجها ؛ فهذا هو الميثاق الغليظ ، أى غير اللين ، والله لم يصف به إلاّ ميثاق النبيين فوصفه بأنه غليظ[2] ، ووصف هذا الميثاق بأنه غليظ . ففى هذه الآية « أفضى بعضكم إلى بعض » فهنا إفضاء وفى آية أخرى يكون كل من الزوجين لباسا وسترا للآخر « هن لباس لكم وأنتم لباس لهن » لهذا كان الميثاق غليظا ، وهذا الميثاق الغليظ يحتم عليك إن تعثرت العشرة أن تتحملها وتعاملها بالمعروف ، وإن تعذرت وليس هناك فائدة من استدامتها فيصح أن تستبدلها ، فإن كنت قد أعطيتها قنطارا إياك أن تأخذ منه شيئا ، لماذا ؟ لأن ذلك هو ثمن الإفضاء ، ومادام هذا القنطار هو ثمن الإفضاء وقد تم ، فلا تأخذ منه شيئا ، فالإفضاء ليس شائعا فى الزمن كى توزعه ، لا .

والحق يقول : « وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقا غليظا » هنا يجب أن نفهم أن الحق حين يشرع فهو يشرع الحقوق ، ولكنه لا يمنع الفضل ، بدليل أنه قال :

﴿ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا ﴾

(من الآية ٤ سورة النساء)

(١) رواه الترمذى عن عائشة ، ورواه ابن ماجه عن ابن عباس ورواه الطبرانى فى الكبير عن معاوية .
(٢) الآية رقم ٧ من سورة الأحزاب .

إذن ففيه فرق بين الحق وما طاب لكم ، والأثر يحكى عن القاضى الذى قال لقومه : أنتم اخترتمونى لأحكم فى النزاع القائم بينكم فماذا تريدون منى ؟! أأحكم بالعدل أم بما هو خير من العدل ؟ فقالوا له : وهل يوجد خير من العدل ؟ قال : نعم ، الفضل . فالعدل : أن كل واحد يأخذ حقه ، والفضل : أن تتنازل عن حقك وهو يتنازل عن حقه ، وتنتهى المسألة ، إذن فالفضل أحسن من العدل ، والحق سبحانه وتعالى حين يشرع الحقوق يضع الضمانات ، ولكنه لا يمنع الفضل بين الناس :

فيقول ـ جل شأنه ـ :

﴿ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ﴾

(من الآية ٢٣٧ سورة البقرة)

ويقول الحق فى آية الدَّين :

﴿ وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ ﴾

(من الآية ٢٨٢ سورة البقرة)

ويأمركم الحق أن توثقوا الدَّيْن .. لأنكم لا تحمون مال الدائن فحسب بل تحمون المدين نفسه ، لأنه حين يعلم أن الدَّيْن موثق عليه ومكتوب عليه فلن ينكره ، لكن لو لم يكن مكتوبا فقد تُحدثه نفسه أن ينكره ، إذن فالحق يحمى الدائن والمدين من نفسه قال : « ولا تسأموا أن تكتبوه » ، وقال بعدها :

﴿ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ ﴾

(من الآية ٢٨٣ سورة البقرة)

فقد تقول لمن يستدين منك : لا داعى لكتابة إيصال وصكٍّ بيني وبينك ، وهذه أريحية لا يمنعها الله فمادام قد أمن بعضكم بعضا فليستح كل منكم وليؤد الذى أؤتمن أمانته وليتق الله ربه .

ومادام قد جعل للفضل مجالا مع تسجيل الحقوق فلا تنسوا ذلك . فما بالنا بالميثاق الغليظ بين الرجل والمرأة . . وغلظ الميثاق إنما يتأتى بما يتطلبه الميثاق ، ولا يوجد ميثاق أغلظ مما أخذه الله من النبيين ومما بين الرجل والمرأة ؛ لأنه تعرض لمسألة لا تباح من الزوجة لغير زوجها ، ولا من الزوج لغير زوجته . إن على الرجل أن يوفى حق المرأة ولا يصح أن ينقصها شيئا إلا إذا تنازلت هى . فقد سبق أن قال الحق :

﴿ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا ﴾

(من الآية ٤ سورة النساء)

ومادامت النفس قد طابت ، إذن فالرضا بين الطرفين موجود ، وذلك استطراق أنسى بين الرجل والمرأة . فالمهر حقها ، ولكن لا يجب أن يقبض بالفعل ، فهو فى ذمة الزوج ، إن شاء أعطاه كله أو أخره كله أو أعطى بعضه وأخر بعضه . ولكن حين تنفصل الزوجة بعد الدخول يكون لها الحق كاملا فى مهرها ، إن كان قد أخره كله فالواجب أن تأخذه ، أو تأخذ الباقى لها إن كان قد دفع جزءا منه كمقدم صداق . ولكن حين تنتقل ملكية المهر إلى الزوجة يفتح الله باب الرضا والتراضى بين الرجل والمرأة فقال : « فإن طبن لكم عن شىء منه نفسا فكلوه هنيئا مريئا » فهو هبة تخرج عن تراض . وذلك مما يؤكد دوام العشرة والألفة والمودة والرحمة بين الزوجين . وبعد ذلك يبقى حكم آخر . هَبْ أن الخلاف استعر بين الرجل والمرأة .

حالة تكره هى وتحب أن تخرج منه لا جناح أن تفتدى منه نفسها ببعض المال لأنها كارهة ، ومادامت هى كارهة ، فسيضطر هو إلى أن يبنى بزوجة جديدة ، إذن فلا مانع أن تختلع المرأة منه بشىء تعطيه للزوج :

﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ ﴾

(من الآية ٢٢٩ سورة البقرة)

والحق سبحانه وتعالى أراد أن يعطينا الدليل على أن حق المرأة يجب أن يحفظ لها ، ولذلك جاء بأسلوب تناول مسألة أخذ الزوج لبعض مهر الزوجة فى أسلوب التعجب :

﴿ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾ ﴾

(الآية ٢١ سورة النساء)

فكأن «وكيف تأخذونه» هذه دليل على أنه لا يوجد وجه من وجوه الحق يبيح لك أن تأخذ منها مهرها ، فساعة يستفهم فيقول : «كيف» فهذا تعجيب من أن تحدث هذه ، وقلنا : إن كل المواثيق بين اثنين لا تعطى إلا حقوقاً دون العرض ، ولكن ميثاق الزواج يعطى حقوقاً فى العرض ، ومن هنا جاء غلظ الميثاق ، وكل عهد وميثاق بين اثنين قد ينصب إلى المال ، وقد ينصب إلى الخدمة ، وقد ينصب إلى أن تعْقل عنه الدِّيَة ، وقد ينصب إلى أنك تعطيه مثلاً المعونة ، هذه ألوان من المواثيق إلا مسألة العرض ، فمسألة العرض عهد خاص بين الزوجين ، ومن هنا جاء الميثاق الغليظ .

وبعد ذلك يتناول الحق سبحانه وتعالى قضية يستديم بها طهر الأسرة وعفافها وكرامتها وعزتها ، ويبقى لأطراف الأسرة المحبة والمودة فلا يدخل شيء يقضى على هذه المحبة والمودة ويُدخل نزغ الشيطان فيها . قال الحق سبحانه :

﴿ وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ ﴾

فكأن هذه مسألة كانت موجودة ، كان ينكح الولد زوج أبيه التى هى غير أمه . و«صفوان بن أمية» وهو من سادة قريش قد خلف أباه أمية بن خلف على «فاختة بنت الأسود بن المطلب» كانت تحت أبيه ، فلما مات أبوه تزوجها هو ، ويريد الحق سبحانه وتعالى أن يبعد هذه القضية من محيط الأسرة ، لماذا ؟ . لأن الأب والابن لهما من العلاقات كالمودّة والرحمة والحنان والعطف من الأب ، والبر والأدب ، والاستكانة ، وجناح الذل من الابن ، فحين يتزوج الرجل امرأة وله ابن ، فذلك دليل على أن الأب كان متزوجاً أمه قبلها ، وكأن الزيجة الجديدة طرأت على الأسرة .

وسبحانه يريد ألا يجعل العين من الولد تتطلع إلى المرأة التى تحت أبيه ، ربما راقته ، ربما أعجبته ، فإذا ما راقته وأعجبته فأقل أنواع التفكير أن يقول بينه وبين نفسه : بعدما يموت أبى أتزوجها ، فحين يوجد له الأمل فى أنه بعدما يموت والده يتزوجها ، ربما يفرح بموت أبيه ، هذا إن لم يكن يسعى فى التخلص من أبيه ، وأنتم تعلمون سعار الغرائز حين تأتى ، فيريد الحق سبحانه وتعالى أن يقطع على الولد أمل الالتقاء ولو بالرجاء والتمنى ، وأنه يجب عليه أن ينظر إلى الجارية أو الزوجة التى تحت أبيه نظرته إلى أمه ، حين ينظر إليها هذه النظرة تمتنع نزعات الشيطان .

فيقول الحق : « ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم » والنكاح هنا يُطلق فينصرف إلى الوطء والدخول ، وقد ينصرف إلى العقد ، إلا أن انصرافه إلى الوطء والدخول ـ أى العملية الجنسية ـ هو الشائع والأوْلى ، لأن الله حينما يقول : « الزانى لا ينكح إلا زانية » معناها أنَّه ينكح دون عقد وأن تتم العملية الجنسية دون زواج .

والحق هنا يقول : « ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف » فما هو السلف هذا ؟ إن ما سلف كان موجوداً ، أى جاء الإسلام فوجد ذلك الأمر متبعاً ، وجاء الإسلام بتحريم مثل هذا الأمر . فالزمن الجديد بعد الإسلام لا يحل أن يحدث فيه ذلك وإن كان عقد النكاح قد حدث قبل الإسلام ، ولذلك قال ـ سبحانه ـ : « إلا ما قد سلف » فجاء بـ(ما) وهى راجعة للزمن . كأن الزمن الجديد لا يوجد فيه هذا .

هب أن واحداً قد تزوج بامرأة أبيه ثم جاء الحكم . . أيقول سلف أن تزوّجتها قبل الحكم ! نقول : لا الزمن انتهى ، إذن فقوله : « ما قد سلف » يعنى الزمن ، وما دام الزمن انتهى يكون الزمن الجديد ليس فيه شىء من مثل تلك الأمور . لذا جاءت (ما) ولو جاءت (مَن) بدل (ما) لكان الحكم أن ما نكحت قبل الإسلام تبقى معه ، لكنه قال (إلا ما قد سلف) فلا يصح فى المستقبل أن يوجد منه شىء البتة ويجب التفريق بين الزوجين فيما كان قائما من هذا الزواج .

والحق سبحانه وتعالى يريد أن يبين لنا أنه حين يشرِّع فهو يشرع ما تقتضيه الفطرة

السليمة . فلم يقل : إنكم إن فعلتم ذلك يكون فاحشة ، بل إنه برغم وجوده من قديم كان فاحشة وكان فعلاً قبيحاً « إنه كان فاحشة ومقتاً وساء سبيلاً » وما كان يصح بالفطرة أن تكون هذه المسألة على تلك الصورة ، إلا أنّ الناس عندما فسدت فطرتهم لجأوا إلى أن يتزوج الرجل امرأة أبيه ، ولذلك إذا استقرأت التاريخ القديم وجدت أن كل رجل تزوج من امرأة أبيه كان يُسمَّى عندهم نكاح « المقت » والولد الذى ينشأ يسمُّونه « المقتى » أى المكروه .

إذن فقوله : « إنه كان » أى قبل أن أحكم أنا هذا الحكم « كان فاحشة ومقتاً وساء سبيلاً » . فالله يوضح : إننى أشرع لكم ما تقتضيه الفطرة . والفطرة قد تنطمس فى بعض الأمور ، وقد لا تنطمس فى البعض الآخر لأن بعض الأمور فاقعة وظاهرة والتحريم فيها يتم بالفطرة .

مثال ذلك : أن واحداً ما تزوج أمه قبل ذلك ، أو تزوج ابنته ، أو تزوج أخته . إذن ففيه أشياء حتى فى الجاهلية ما اجترأ أحدٌ عليها . إذن جاء بالحكم الذى يحرم ما اجترأت عليه الجاهلية وتجاوزت وتخطت فيه الفطرة ، فقال سبحانه : « ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف » أى مضى .

لقد وصف سبحانه نجاح الأبناء لزوجات آبائهم بأنه « كان فاحشة » أى قبحاً ، و« مقتاً » أى مكروهاً ، « وساء سبيلاً » أى فى بناء الأسرة .

ثم شرع الحق سبحانه وتعالى يبين لنا المحرمات وإن كانت الجاهلية قد اتفقت فيها ، إلا أن الله حين يشرع حكماً كانت الجاهلية سائرة فيه لا يشرعه لأن الجاهلية فعلته ، لا . هو يشرعه لأن الفطرة تقتضيه ، وكون الجاهلية لم تفعله ، فهذا دليل على أنها فطرة لم تستطع الجاهلية أن تغيرها ، فقال الحق سبحانه وتعالى :

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ

وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ
وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ
وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ
وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن
نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟
دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ
أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن
تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ
إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾

من الذى يحلل ويحرم ؟ إنه الله ، فهم رغم جاهليتهم وغفلتهم عن الدين حرموا زواج المحارم ؛ فحتى الذى لم يتدين بدين الإسلام توجد عنده محرمات لا يقربها . أى أنهم قد حرموا الأم والبنت والأخت . . إلخ ، من أين جاءتهم هذه ؟ الحق يوضح :

﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة فاطر)

ومنهج السماء أنزله الله من قديم بدليل قوله :

﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ ﴾

(سورة طه)

فبمجرد أن خلق الله آدم وخلق زوجته ، أنزل لهما المنهج ، هذا المنهج مستوفى الأركان ، إذن فبقاء الأشياء التى جاء الإسلام فوجدها على الحكم الذى يريده الإسلام إنما نشأ من رواسب الديانات القديمة ، وإن أخذ محل العادة ومحل الفطرة . . أى أن الناس اعتادوه وفطروا عليه ولم يخطر ببالهم أن الله شرعه فى ديانات سابقة .

والعلوم الحديثة أعانتنا فى فهم كثير من أحكام الله ، لأنهم وجدوا أن كل تكاثر سواء أكان فى النبات أم فى الحيوان أم فى الإنسان أيضاً ، كلما ابتعد النوعان « الذكورة والأنوثة » فالنسل يجىء قوياً فى الصفات . أما إذا كان الزوج والزوجة أو الذكر والأنثى من أى شىء : فى النبات ، فى الحيوان ، فى الإنسان قريبين من اتصال البنية الدموية والجنسية فالنسل ينشأ ضعيفاً ، ولذلك يقولون فى الزراعة والحيوان : « نهجن » أى نأتى للأنوثة بذكورة من بعيد . والنبى عليه الصلاة والسلام يقول لنا :

(اغتربوا لا تضْوُوا) وقال : « لا تنكحوا القرابة القريبة فإن الولد يخلق ضاويا »[1]

فالرسول يأمرنا حين نريد الزواج ألا نأخذ الأقارب ، بل علينا الابتعاد ، لأننا إن أخذنا الأقارب فالنسل يجىء هزيلاً . وبالاستقراء وجد أن العائلات التى جعلت من سنتها فى الحياة ألا تنكح إلا منها ، فبعد فترة ينشأ فيها ضعف عقلى ؛ أو ضعف جنسى ؛ أو ضعف مناعى ، فقول رسول الله : « اغتربوا لا تضووا »أى إن أردتم الزواج فلا تأخذوا من الأقارب ، لأنكم إن أخذتم من الأقارب تهزلوا ، فإن « ضَوِى » بمعنى « هزل » فإن أردتم ألا تضووا ، أى ألا تهزلوا فابتعدوا ، وقبلما يقول النبى هذا الكلام وجد بالاستقراء فى البيئة الجاهلية هذا . ولذلك يقول الشاعر الجاهلى :

أنصح من كان بعيد الهم

---

(١) رواه إبراهيم الحربى مرفوعا إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، ورواه موقوفا على عمر ، وقد روى براهيم الحربى فى غريب الحديث عن عمر رضى الله عنه قال : (يا بنى السائب قد أضويتم فأنكحوا فى الغرائب) من كتاب إحياء علوم الدين للإمام الغزالى » .

تزويج أبناءِ بنات العم
فليس ينجو من ضَوًى وسُقْم

فقد يضوى سليل الأقارب ، وعندنا فى الأحياء الشعبية عندما يمدحون واحداً يقولون : « فتوة » أى فتى لم تلده بنت عم قريبة . وفى النبات يقولون : إن كنت تزرع ذرة فى محافظة الغربية لابد أن تأتى بالتقاوى من محافظة الشرقية مثلا ، وكذلك فى البطيخ الشيليان . يأتون ببذوره من أمريكا ؛ فيزرعونها فيخرج البطيخ جميلاً لذيذا ، بعض الناس قد يرفض شراء مثل تلك البذور لغلو ثمنها . فيأخذ من بذور ما زرع ويجعل منه التقاوى ، ويخرج المحصول ضعيفاً . لكن لو ظل يأتى به من الخارج وإن وصل ثمن الكيلو مبلغاً كبيراً فهو يأخذ محصولاً طيباً .

وكذلك فى الحيوانات وكذلك فينا ؛ ولذلك كان العربى يقول : ما دكّ رءوس الأبطال كابن الأعجمية ؛ لأنه جاء من جنس آخر . أى أن هذا الرجل البطل أخذ الخصائص الكاملة فى جنس آخر . فلقاح الخصائص الكاملة بالخصائص الكاملة يعطى الخصائص الأكمل ، إذن فتحريم الحق سبحانه وتعالى زواج الأم والأخت وكافة المحارم وإن كانت عملية أدبية إلا أنها أيضاً عملية عضوية . « حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم » لماذا ؟ لأن هذه الصلة صلة أصل ، والصلة الأخرى صلة فرع ، الأمهات صلة الأصل ، والبنات صلة الفرع ، « وأخواتكم » وهى صلة الأخ بأخته إنّها بنوة من والد واحد ، « وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت وأمهاتكم اللاتى أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة » .

إذن فالمسألة مشتبكة فى القرابة القريبة . والله يريد قوة النسل ، قوة الإنجاب ، ويريد أمرا آخر هو : أن العلاقة الزوجية دائما عرضة للأغيار النفسية ، فالرجل يتزوج المرأة وبعد ذلك تأتى أغيار نفسية ويحدث بينهما خلاف مثلما قلنا فى قوله تعالى : « وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج » ؛ ويكره منها كذا وكذا ، فكيف تكون العلاقة بين الأم وابنها إذا ما حدث شىء من هذا ؟! والمفروض أن لها صلة تحتم عليه أن يظل على وفاء لها ، وكذلك الأمر بالنسبة للبنت ، أو الأخت ، أو العمة ، أو الخالة ، فيأمر الحق الرجل : ابتعد بهذه المسألة عن مجال الشقاق .

ومن حسن العقل وبعد النظر ألا ندخل المقابلات فى الزواج ، أو ما يسمى « بزواج البدل » ، حيث يتبادل رجلان الزواج ، يتزوج كل منهما أخت الآخر مثلا ، فإذا حدث الخلاف فى شيء حدث ضرورةً فى مقابله وإن كان الوفاق سائداً . فحسن الفطنة يقول لك : إياك أن تزوج أختك لواحد لأنك ستأخذ أخته ، فقد تتفق زوجة مع زوجها ، لكن أخته قد لا تتوافق مع زوجها الذى هو شقيق للأخرى . وتصوروا ماذا يكون إحساس الأم حين ترى الغريبة مرتاحة عند ابنها لكن ابنتها تعانى ولا تجد الراحة فى بيت زوجها . ماذا يكون الموقف ؟ نكون قد وسعنا دائرة الشقاق والنفاق عند من لا يصح أن يوجد فيه شقاق ولا نفاق .

والحكمة الإلهية ليست فى مُسألة واحدة ، بل الحكمة الإلهية شاملة ، تأخذ كل هذه المسائل ، « حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم » والمحرم هنا بطبيعة الحال هن الأمهات وإن علون ، فالتحريم يشمل الجدة سواء كانت جدة من جهة الأب ، أو جدة من جهة الأم . وما ينشأ منها . وكل واحدة تكون زوجة لرجل فأمها محرمة عليه ، « وبناتكم » وبنات الابن وكل ما ينشأ منها ، وكذلك بنات البنت ، « وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت وأمهاتكم اللاتى أرضعنكم » .

ولماذا يحرم الحق « أمهاتكم اللاتى أرضعنكم » ؟ لأنها بالإرضاع أسهمت فى تكوين خلايا فيمن أرضعته ؟ ففيه بَضْعَة منها ، ولهذه البَضْعَة حُرمة الأمومة ، ولذلك قال العلماء : يحرم زواج الرجل بامرأة جمعه معها رضاعة يغلب على الظن أنها تُنشيء خلايا ، وحلل البعض زواج من رضع الرجل منها مصة أو مصتين مثلا ، إلا أن أبا حنيفة رأى تحريم أى امرأة رضع منها الرجل ، وأفتى المحققون وقالوا : لا تحرم المرأة إلا أن تكون قد أرضعت الرجل ، أو رضع الرجل معها خمس رضعات مشبعات ، أو يرضع من المرأة يوما وليلة ويكتفى بها ، وأن يكون ذلك فى مدة الرضاع . وهى بنص القرآن سنتان . « والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين » .

وهذه المسألة حدث الكلام فيها بين سيدنا الإمام على ـ رضوان الله عليه وكرم الله

وجهه ـ وسيدنا عثمان ـ رضى الله عنه ـ حينما جاءوا بامرأة ولدت لستة شهور وكان الحمل الشائع يمكث تسعة أشهر ، وأحيانا نادرة يولد الطفل بعد سبعة أشهر ، لكن أن تلد امرأة بعد ستة شهور فهذا أمر غير متوقع . . ولذلك أراد عثمان ـ رضى الله عنه ـ أن يقيم الحد عليها ؛ لأنها مادام ولدت لستة أشهر تكون خاطئة ، لكنْ سيدنا على ـ رضوان الله عليه وكرم الله وجهه ـ أدرك المسألة .

قال : يا أمير المؤمنين ، لماذا تقيم عليها الحد ؟ فقال عثمان بن عفان : لأنها ولدت لستة أشهر وهذا لا يكون . وأجرى الله فتوحاته على سيدنا على ، وأجرى النصوص على خياله ساعة الفتيا ، وهذا هو الفتح ، فقد يوجد النص فى القرآن لكن النفس لا تنتبه له ، وقد تكون المسألة ليست من نص واحد . بل من اجتماع نصين أو أكثر ، ومن الذى يأتى فى خاطره ساعة الفتيا أن يطوف بكتاب الله ويأتى بالنص الذى يسعفه ويساعده على الفتيا ، إنه الإمام على ، وقال لسيدنا عثمان : الله يقول غير ذلك ، قال له : وماذا قال الله فى هذا ؟ قال :

﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ﴾

(من الآية ٢٣٣ سورة البقرة)

إذن فإتمام الرضاعة يكون فى حولين كاملين أى فى أربعة وعشرين شهرا ، ـ والتاريخ محسوب بالتوقيت العربى ـ والحق سبحانه قال أيضا :

﴿ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ﴾

(من الآية ١٥ سورة الأحقاف)

فإذا كان مجموع أشهر الحمل والرضاع ، ثلاثين شهرا ، والرضاع التام أربعة وعشرون شهرا ، إذن فمدة الحمل تساوى ستة أشهر .

هكذا استنبط سيدنا على ـ رضى الله عنه وكرم الله وجهه ـ والإنسان قد يعرف آية وتغيب عنه آيات ، والله لم يختص زمنا معينا بحسن الفتيا وحرم الأزمنة الأخرى ، وإنما فيوضات الله تكون لكل الأزمان ، فقد يقول قائل : لا يوجد فى المسلمين من يصل بعمله إلى مرتبة الصحابة ، ومن يقول ذلك ينسى ما قاله الحق فى سورة الواقعة :

﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٤﴾ ﴾

(سورة الواقعة)

أى أن الآخرين أيضا لن يحرموا من أن يكون فيهم مقربون قادرون على استيعاب النصوص لاستنباط الحكم ، إذن فالرضاع : مصة أو مصتان ؛ هذا مذهب ، وعشر رضعات مذهب آخر ، وخمس رضعات مشبعات مذهب ثالث ، وأخذ جمهور الفقهاء بالمتوسط وهو خمس رضعات مشبعات تحرمن الزواج ، لكن بشرط أن تكون فى مدة الرضاع ، فلو رضع فى غير مدة الرضاعة ، نقول : إنه استغنى بالأكل وأصبح الأكل هو الذى يعطيه مقومات البنية .

إذن فمسألة الرضاع متشعبة ؛ لأن النبى عليه الصلاة والسلام قال : « يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب »[1] .

والمحرم من الرضاع هو : الأم من الرضاع ، والبنت من الرضاع ، والأخت من الرضاع ، والعمة من الرضاع ، والخالة من الرضاع ، وهكذا نرى أنها عملية متشعبة تحتاج من كل أسرة إلى اليقظة ، لأننا حين نرى أن بركة الله لا تحوم حول كثير من البيوت لا بد أن ندرك لها أسبابا ، أسباب البعد عن استقبال البركة من الله . . فالإرسال الإلهى مستمر ، ونحن نريد أجهزة استقبال حساسة تحسن الاستقبال ، فإذا كانت أجهزة الاستقبال خربة ، والإرسال مستمراً فلن يستفيد أحد من الإرسال ، وهب أن محطة الإذاعة تذيع ، لكن المذياع خرب ، فكيف يصل الإرسال للناس ؟

إذن فمدد الله وبركات الله المتنزلة موجودة دائما . . ويوجد أناس لا يأخذون هذه البركات ؛ لأن أجهزة استقبالها ليست سليمة ، وأول جهاز لاستقبال البركة أن البيت يبنى على حل فى كل شىء . . يعنى : لقاء الزوج والزوجة على حل ، وكثير من

---

(١) رواه أحمد والبخارى ومسلم وأبو داود والنسائى وابن ماجه عن عائشة .

الناس يدخلون فى الحرمة وإن لم يكن بقصد ، وهذا ناشىء من الهوس والاختلاط والفوضى فى شأن الرضاعة ، والناس يرضعون أبناءهم هكذا دون ضابط وليس الحكم فى بالهم . وبعد ذلك نقول لهم : يا قوم أنتم احتطتم لأولادكم فيما يؤدى إلى سلامة بنيتهم ، فكان لكل ولد ملف فيه : شهادة الميلاد ، وفيه ميعاد تلقى التطعيمات ضد الدفتريا ، وشلل الأطفال وغير ذلك .

فلماذا يا أسرة الإسلام لا تضعون ورقة فى هذا الملف لتضمنوا سلامة أسركم ، ويكتب فى تلك الورقة من الذى أرضع الطفل غير أمه ، وساعة يأتى للزواج نقول : يا موثق هذا ملفه إنه رضع من فلانة ، فى هذا الملف تُدْرج أسماء النساء اللاتى رضع منهن . . فنبنى بذلك أسرة جديدة على أسس إيمانية سليمة ، بدلا من أن نفاجىء رجلا تزوج امرأة ، وعاشا معا وأنجبا وبعد ذلك يتبين أنهما رضعا معا ، وبذلك تصير المسألة إلى إشكال شرعى وإشكال مدنى وإشكال اجتماعى ناشىء من أن الناس لم تُعد لمنهجها الإيمانى ما أعدته لمنهجها المادى .

إذن فلا بد من التزام كل أسرة أن تأتى فى ملف ابنها أو بنتها وتضع ورقة فيها أسماء من رضع منهن المولود . وعلى كل حال لم تعد هناك الآن ضرورة أن نأتى بمرضعة للأولاد ، فاللبن الجاف من الحيوانات يكفى ويؤدى المهمة ، وصرنا لا ندخل فى المتاهة التى قد تؤدى بنا فى المستقبل إلى أن الإنسان يتزوج أخته من الرضاعة أو أمه من الرضاعة ، أو أى شىء من ذلك ، وبعد ذلك تمتنع بركة الله من أن تمتد إلى هذه الأسرة . « حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت وأمهاتكم اللاتى أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة » . ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب »[1] .

وجاء القرآن بالأمور البارزة فيها فقط ، « وأمهات نسائكم » فإذا تزوج رجل من امرأة ولها أم ، بالله أيتزوج أمها أيضا ؟ إنها عملية غير مقبولة ، « وربائبكم اللاتى فى حجوركم من نسائكم اللاتى دخلتم بهن » . الربيبة هى بنت المرأة من غير زوجها ، فقد يتزوج رجل من امرأة كانت متزوجة من قبل وترملت أو طلقت بعد أن ولدت

(١) رواه أحمد والبخارى ومسلم وأبوداود والنسائى وابن ماجه عن عائشة .

بنتا . هذه البنت يسمونها « ربيبة » وزوج الأم الجديد سيُدخلها فى حمايته وفى تربيته ، وبذلك تأخذ مرتبة البنوة . والأمر هنا مشروط : « من نسائكم اللاتى دخلتم بهن فإن لم تكونوا قد دخلتم بهن فلا جناح عليكم » فمادام الرجل قد عقد على المرأة ولم يدخل بها تكون بنتها غير محرمة . أما العقد على البنت حتى دون دخول فإنه يحرم الأمهات .

« وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم » أى زوجة الابن ، وكلمة « من أصلابكم » تدل على أنه كان يطلق لفظ « الأبناء » على أناس ليسوا من الأصلاب ، وإلا لو أن كلمة « الأبناء » اقتصرت فى الاستعمال على أولاد الإنسان من صلبه ، لما قال : « أبنائكم الذين من أصلابكم » .

إذن كان يوجد فى البيئة الجاهلية أبناء ليسوا من الأصلاب هم أبناء التبنى ، وكانت هذه المسألة شائعة عند العرب ، فكان الرجل يتبنى طفلا ويلحقه بنسبه ويطلق عليه اسمه ويرثه . وجاء الإسلام ليقول : لا ، لا يصح أن تنسب لنفسك من لم تنجبه ، لأنه سيدخل فى مسألة أخوة لابنتك مثلا ، وسيدخل على محارمك ، ولذلك أنهى الله هذه المسألة ، وجاء هذا الإنهاء على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد كانت المسألة متأصلة عند العرب .

ونعلم أن زيد بن حارثة خُطف من أهله ، وبعد ذلك بيع على أنه رقيق ، واشتراه حكيم بن حزام . وأخذته سيدتنا خديجة وبعد ذلك وهبته لسيدنا رسول الله . وصار زيد بن حارثة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعندما علم أهل زيد أن ولدهم الذى خُطف قديما موجود فى مكة جاءوا إليها ، فرأوا زيد بن حارثة ، ولما سألوه أن يعود معهم قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنا أخيره بين أن يذهب معكم أو أن يبقى معى ، انظروا إلى زيد بن حارثة كيف صنع به إيمانه وحبه لسيدنا رسول الله : قال : ما كنت لأختار على رسول الله أحداً . وظل مع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأراد الرسول أن يكرمه على العادة التى كانت شائعة فسماه « زيد بن محمد » وتبناه .

إذن فالمسألة وصلت إلى بيت النبوة ، التبنى وصل بيت رسول الله صلى الله عليه

وسلم ، وأراد الله أن ينهى هذه المسألة فقال سبحانه :

﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ ﴾

(من الآية ٤٠ سورة الأحزاب)

هذا يدل على أن صرامة التشريع لا تجامل أحداً حتى ولا محمدا بن عبدالله وهو رسول ، « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم » .

وبعض الناس الذين يتسقطون للقرآن يقولون : إن رسول الله كان عنده إبراهيم وكان عنده الطيب وكان عنده القاسم ، ونقول : أكان هؤلاء رجالا ؟! لقد ماتوا أطفالا ، والكلام « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم » ، وهب أنهم كبروا وصاروا رجالا ، أقال من رجالكم أم من رجاله ؟ قال : « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم » أى لا يمنع أن يكون أبا أحد من رجاله ، هو أبو القاسم وأبو الطيب وأبو إبراهيم هم أولاده فافهموا القول .

وهذه المسألة أخذت ضجة عند خصوم الاسلام والمستشرقين والحق سبحانه وتعالى وإن كان قد عدل لرسوله صلى الله عليه وسلم ، فتعديل الله لرسوله يشرف رسوله صلى الله عليه وسلم ؛ لأن من الذى يعدل لمحمد ؟ إنه الله الذى أرسله .

ويقول : « وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم » . ومفهوم هذه العبارة أن المحرمة إنما هى حليلة الابن من الصلب . وقوله : « من أصلابكم » يدل على أنه كان هناك أبناء ليسوا من الصلب ، إذن فالتبنى كان موجوداً قبل نزول هذا الحكم ، وأراد الله أن يبطل عادة التبنى ، وكانت متغلغلة فى الأمة العربية ، فأبطلها على يد سيدنا رسول الله ، لا مشرعا ينقل حكم الله فحسب ، ولكن مطبقا يطبق حكم الله فى ذاته وفى نفسه حتى يأخذ الحكم قداسته ، ويجب أن نفطن إلى أن فكرة التبنى كانت فى ذاتها تهدف إلى أن ولدا نجيبا يلحقه رجل به ليعطيه كل حقوق أولاده كلون من التكريم .

ولذلك علينا أن نلحظ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تصرف بالكمال البشرى

فى إطار العدل البشرى ، والعدل هو : القسط ، وساعة تبنى زيد بن حارثة وسماه زيد بن محمد إنما كان يهدف إلى أن يعوضه والده ، لأن زيداً اختار رسول الله على أبيه ، إذن فكان ذلك التبنى من رسول الله كمالا وعدلا بشريا بالنسبة للوفاء لواحد آثر اختياره على اختيار أهله فإذا أراد الله أن يصوب فيكون كمالا إلهيا وعدلا إلهيا ، فلا غضاضة عند أحد أن يُصوِّب الكمال البشرى بالكمال الإلهى ، ولا أن يصوب العدل البشرى والقسط البشرى بالعدل الإلهى والقسط الإلهى ، وأنزل الله وهو أحكم القائلين هذا الحكم بعبارة تعطى ذلك كله :

﴿ ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ٥ سورة الأحزاب)

أى إن دعاءهم لآبائهم « أقسط عند الله » . وكلمة : « أقسط » إياكم أن تكونوا بعدتم ونأيتم بها عن « عظيم » و« أعظم » ، إنك ساعة تأتى بصيغة التفضيل يكون المقابل لها وصفا من جنسها ، فـ « أعظم » المقابل لها « عظيم » ، و« أقسط » المقابل لها « قِسْط » ، فما فعله رسول الله هو قِسْطٌ وعدل ، ولكن ما عدله الله أقسط مما صنعه رسول الله . إذن فيجب أن نفطن إلى أن الكمال البشرى والعدل البشرى شيء ، والكمال الإلهى والعدل الإلهى شيء آخر . ومن نقله الله من عدل بشريته إلى عدل ألوهيته يكون قد تلقى نعمة كبرى .

وإذا ما حاول المستشرقون أن يأخذوا هذه المسألة على أن ربنا عدل له ويحاولوا أن يلصقوا برسول الله صلى الله عليه وسلم خطأ ما ، نقول لهم : أنتم لا تحسنون تقدير الأمر ولا تفهمون المراد من ذلك ، فالذى صوب هو الله الذى أرسله ، وقد صوب له فعلا فعله فى إطار البشرية ، وقال الحق : « هو أقسط عند الله » ومن الذى يجعل البشر متساوين مع الله فى القسط والعدل والكمال ؟

إن هناك قصة طار بها المستشرقون فرحا وكذلك يروجها خصوم الإسلام من أبناء الإسلام ؛ لأن من مصلحة خصوم الإسلام ، وكذلك الذين لا يحملون من الإسلام إلا أسمه ؛ يروجون أن هذا الدين يحتوى على أكاذيب ـ والعياذ بالله ـ فمادام الواحد منهم لا يقدر أن يحمل نفسه على منهج الدين لا يكون له مندوحة ولا نجاة إلا أن يقول :

هذا الدين غير صحيح ؛ لأن هذا الدين إن كان صحيحا فسوف يهلك هو ومن على شاكلته ، فيكذبون أنفسهم وينكرون على الدين أملاً فى النجاة فى ظنهم إذ لا منجى ولا أمل لهؤلاء إلا أن يكون الدين كذبا كله .

لننظر إلى القصة التى طار بها المستشرقون فرحا : النبى صلى الله عليه وسلم هو محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب ، وكان عبدالمطلب له بنت اسمها : أميمة بنت عبدالمطلب ، وهى بذلك تكون أختا لعبدالله بن عبدالمطلب . وأنجبت أميمة بنتا اسمها « برّة » ، وغير النبى صلى الله عليه وسلم اسمها ، لأنه صلوات الله وسلامه عليه كان له ملحظ فى الأسماء ، اسمها « برّة » . والاسم جميل لأنه من البر وهو صفة تجمع كل خصال الخير ، لكن رسول الله كره أن يقال فيما بعد : خرج رسول الله من عند « برّة » ، فسماها « زينب » .

« برّة » هذه هى بنت أميمة فهى ابنة عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وزيد ابن حارثة ـ كما قلنا ـ كان طفلا ثم خُطف وَسُرِق ، وبيع وانصرف إلى ملكية رسول الله ، وبعد ذلك أراد رسول الله أن يكرمه على ما يقتضيه كماله البشرى وعدله البشرى فسماه « زيد بن محمد » .

وعندما أراد زيد بن محمد أن يتزوج . . زوّجه رسول الله من « برة » على مضض منها ، لأنه مَوْلى ، وهى بنت سيد قريش . وكان ملحظ الرسول صلى الله عليه وسلم أنه يريد أن يجعل من المسلمين مزيجا واحداً ، فلا فرق بين مَوْلى وسيد ، وزوّج بنت عمته لزيد ، وبعد الزواج لم ينشأ بينهما ودّ ، وكل هذه تمهيدات الأقدار للأقدار .

بالله لو أنها كانت أخذته عن حب وكان بينهما وئام ، وبعد ذلك أراد الله أن يشرِّع فهل يشرع على حساب قلبين متعاطفين متحابين ليمزقهما ؟ لا ، المسألة ـ إذن ـ تمهيد من أولها ، فلم تكن لها رغبة فيه . وعندما يجد الرجل أن المرأة ليس لها رغبة فيه ، تهيج كرامته ، وخصوصا أنه صار ابنا بالتبنى لرسول الله ، ويكون رفضُ امرأةٍ له مسألةً ليست هينة ، وتصعب عليه نفسه ، فيأتى لرسول الله شاكيا ، وقال له : لم

تعجبنى معاشرة « برّة » وأريد أن أفارقها ، وكان ذلك تمهيداً من الله سبحانه لأنه يريد أن ينهى مسألة التبنى ، فقد كانوا فى الجاهلية يحرمون أن يتزوج الرجل امرأة ابنه المتبنى ، ولذلك يقول الحق :

﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة الأحزاب)

ومادام يقول له : « أمسك عليك زوجك » فالكلام إذن قد جاء معبرًا عن رغبة زيد فى أن يفارقها ، لكن خصوم الإسلام وأبواقهم من المسلمين يقولون فى قوله : « وتخفى فى نفسك » إن محمدا كان معجبا بالمرأة ويريد أن يتزوجها ، ويخفى هذه الحكاية .

نقول لهم : كونوا منطقيين وافهموا النص ، فربنا يقول : « وتخفى فى نفسك » ، أنتم أخذتم منها أن النبى كان يريد أن يتزوجها . والحق قال : « وتخفى فى نفسك ما الله مبديه » . فإذا كنت تريد أن تعرف ما أخفاه رسول الله ، فاعرف ما أبداه الله ، هذه هى عدالة الاستقبال ، وبدلا من أن تقول هذا الكلام كى تشفى مرض نفسك انظر كيف أعطاك ربنا من تفاصيل الحكاية . قال سبحانه : « وتخفى فى نفسك ما الله مبديه » فماذا أبدى ربنا ؟ وحين يبدى ربنا أمرًا يكون هو عين ما أخفاه رسوله ، فلما ذهب زيد للنبى وقال له : أريد أن أفارق « برّة » قال له : « أمسك عليك زوجك » لأن رسول الله عَلِم مِنَ الله أنه يريد أن يزوجه « برة » التى هى امرأة زيد الذى تبناه كى ينهى مسألة التبنى ، وأن امرأة المتبنى لا تحرم على الرجل ، ويطبقها رسول الله صلى الله عليه وسلم على نفسه .

راجع أصله وخرج أحاديثه الدكتور أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .

لكنْ هناك أناس مازال عندهم مرض فى قلوبهم ، وأناس منافقون ، والرسول عليه الصلاة والسلام أراد أن يكون هذا الأمر واردا من الله فى قرآنه . فلو كان قد قال هذا الأمر بمجرد الإيحاء الذى جعله الله بينه وبينه لقالوا : هذا كلام منه هو ؛ لذلك قال محمد صلى الله عليه وسلم لزيد : أمسك عليك زوجك ، فينزل ربنا الأمر كله قرآنا ، فلم يقل محمد : ألهمنى ربنا ، أو ألقى فى روعى ، لا ، جاء هذا الأمر قرآنا ، ولذلك يقدم الحق سبحانه وتعالى لهذه المسألة فى سورة الأحزاب فيقول :

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ ﴾

(سورة الأحزاب)

فالله أنعم على زيد بالإسلام وأنعمت أنت يا رسول الله عليه بالتبنى فلا تخش الناس أن يقولوا : طلق المرأة من زيد ليتزوجها . كأن زواج « زيد » من « زينب » ، كان لغاية واحدة وهى أن تكون « برة » التى سماها رسول الله « زينب » منكوحة لزيد الذى تبناه رسول الله بدليل : « فلما قضى زيد منها وطرا » أى أدى المهمة ، فأردنا أن نعطى الحكم : « زوّجنا » فمن الذى زوّج ؟ إنه الله ، وليس رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذى تزوج .

فإن كنتم تريدون أن تصعدوا المسألة فاتركوا رسول الله فى حاله ، وصعدوها إلى ربنا ، فقوله سبحانه : « فلما قضى زيد منها وطرا » يدل على أن أصل الزواج من البداية ممهد له ، فالغاية منه أن يقضى زيد منها وطرا وهو متبنى رسول الله ، ويكون هذا الزواج عن كره منها ، إنها غير موافقة عليه ، وتنتقل المسألة عند زيد إلى عزة

ويقول : لا أريدها . ويذهب إلى الرسول ويقول : أريد أن أطلق « برّة » فيقول له الرسول : « أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفى فى نفسك ما الله مبديه » . والذى أبداه الله هو قوله لرسوله : « فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها » كأن الغاية من النكاح أن يقضى زيد منها وطرا وتنتهى الحكاية بالنسبة لزيد ، ويأتى الحكم بالنسبة لرسول الله فيقول ربُّنا : « زوجناكها » .

فالذى يريد أن يمسك المسألة لا يمسكها على الرسول ، لكن عليه أن يصعدها إلى ربنا ، « زوجناكها لكيلا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا » . كأن العملية جاءت من أجل أن ما أبداه ربنا فى زواج الرجل من مطلقة الولد المتبنى إذا قضى منها وطرا ، هذا ما أبداه ربنا ، إن الله حكم بأن الذى أخفاه النبى صلى الله عليه وسلم سيبديه ، إن الوحى هو الذى بيّن السبب الباعث على زواج الرسول بزينب إنه قوله تعالى : « لكى لا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا » .

فالعلة فى هذه العملية : يا ناس ، يا محمد ، يا زيد ، يا زينب ، أو يا من يحب أن يرجف ، العلة فى كل ذلك علة إلهية من كمال إلهى وعدل إلهى يتركز فى قوله سبحانه : « لكى لا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا وكان أمر الله مفعولا » ، والأدعياء : هم الذين يتبنونهم من غير ولادة .

ومادام ربنا يريد أمرا فلا بد أن يفعل ، وأنتم آمنتم بأنه رسول ، وإن لم تؤمنوا بأنه رسول يكون تكذيبكم برسالته أكبر من أنكم تنقدون تصرفه ، فإن كنتم مكذبين أنه رسول ، فما شأنكم إذن ؟ إن تكذيبكم له كرسول هو أشد من أن تنقدوا تصرفا من تصرفاته بأنه تزوج ممن كانت امرأة ابنه المتبنى . وإن آمنتم بأنه رسول ، فهذا الرسول مبلغ عن الله .

إذن ففعل الرسول المبلغ عن الله هو الميزان للأعمال لا ما تنصبونه أنتم من موازين . أتقولون للرسول الذى أرسله ربنا كى يبلغ منهجه ويطبق هذا المنهج ويكون هو ميزانا للتصرفات ، تقولون له : سنأخذ تصرفاتك ونعيدها على الميزان

الذى نضعه ؟ ما كان يصح أن يفعل أحد هذا ، فإن قلت ذلك فقد عملت الميزان من عندك ، ونقلت الأمر إلى غير الحق ، وهذا أول خطأ ؛ فالأصل فى الرسول أن كل فعل له هو الكمال ، ولا تأتى أنت بميزان الكمال وتأتى للرسول وتقول له : كيف فعلت هذه العملية ؟ لأنك عندما تقول ذلك فقد نصبت ميزان كمال من عندك ، وتأخذ تصرف الرسول لتزنه بميزان الكمال من عندك ، وهذا مناقض للحق لأنك آمنت بأنه رسول .

وبعد ذلك يأتى بالقضية العامة ليقول سبحانه :

﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾

(سورة الأحزاب)

وكلمة « أبا أحد » أى لم يكن أباً لأحد ، ماذا تفهم منها ؟ نفهم منها أنه أبوكم كلكم ، « ما كان محمد أبا أحد » لأنه أبو الجميع ، بدليل أن أزواجه أمهاتكم ، ومحرمات عليكم ، فهو إذن والدكم كلكم ؛ إذن فخذ بالك من دقة الأداء « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم » وبمنطق الواقع هو أب لكم كلكم ؛ لذلك هو لا يأخذ واحداً فقط ويقول : هذا ابنى ، لا ، هو أب لكم كلكم . وكل المؤمنين أولاده بدليل أن أزواجه أمهات لهم ، قد يقول واحد : لقد كان عنده أبناء .

نقول له : إن أبناءه لم يبلغوا سن الرجولة ، وهب أنهم بلغوا سن الرجولة حتى باعتبار ما سيكون. فهؤلاء ليسوا رجالكم ولكنهم رجاله . « ولكن رسول الله وخاتم النبيين » والرسالة وختم النبوة به فوق شرف الأبوة . وجاء الحق بذلك حتى لا يحزن زيد ، فرسول الله قد شرفه ، وإن شرفك يا زيد أنك كنت تدعى ابن محمد ، فما يشرفك أكثر أنك مؤمن بمحمد كرسول ، فالعظمة فى محمد صلى الله عليه وسلم أنه جاء رسولاً .

ولذلك قلنا : إن هذه جعلت بنوة الدم بلا قيمة عند الأنبياء ، ونجد أن النبى جاء بسلمان وهو من فارس وليس من قبيلته ولا هو بعربى وقال :

(سلمان منا آل البيت)[١]

وقول الحق : « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم » بمفهوم العبارة ونضحها الذوقى والأدائى والأسلوبى أنه أبوكم كلكم ، فلا ينفرد به أحد دون الآخر ، « ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شىء عليماً » وبعدما كان زيدٌ ابنَ محمد ، أصبح زيدا ابن حارثة ، ومحمد هو رسول الله ، ومادمت أنت مؤمنا به ـ يا زيد ـ فرسول الله هذه تعوض إلغاء الأبوة بالتبنى بالنسبة لك ، ثم إنك داخل فى الأبوة العامة من رسول الله للمؤمنين ؛ لأنك آمنت به كرسول ، إذن فعندما نحقق فى هذه العبارة نجد أنه يُسلِّى زيدًا أيضاً . وخير من هذا ـ أنك يا زيد ـ إن فقدت بين الناس اسم زيد ابن محمد ، وكنت تجعل ذلك شرفاً لك ، فأنت الوحيد من صحابة رسول الله الذى يُذكر فى القرآن باسمه الشخصى ، وتصبح كلمة « زيد » قرآنا يُذْكر ويُتلى ، ويتعبد بتلاوته ، ومحفوظا على الألسنة ؛ ومرفوع الذِّكر ، إذن فقد عوضك الله يا زيد ، فقد قال الحق : « فلما قضى زيد منها وطراً » وهب أنه بقى زيد ابن محمد ، فما الذى يحدث ؟ سنقرأها فى السيرة ، لكن يرتفع شرف ذلك عندما نقرأها فى كتاب الله المعجزة المتعبد بتلاوته ، الذى ضمن الله حفظه ، فقد ضمن الله تخليد اسم زيد إلى أن تقوم الساعة ، إذن فذكره كزيد ابن محمد فى حياته أوْلى أو ذكر زيد فى القرآن ؟ إن ذكر اسمه فى القرآن أولى ، « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شىء عليماً » .

إذن فقول الحق سبحانه : « وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم » يدل على أن حلائل الأبناء المتبنين حل لكم ، بعد أن كانوا ـ فى الجاهلية ـ يحرمون ذلك ، ويقول الحق من بعد ذلك : « وأن تجمعوا بين الأختين » وتحريم الجمع فى الزواج بين الأختين لأن بينهما رحماً يجب أن تظل معه المودّة والرحمة والصفاء ، لكن إذا كانتا تحت رجل واحد تحدث عداوة ، « وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف إن الله كان غفوراً رحيماً » وهذا الجزء من الآية « وأن تجمعوا بين الأختين » مع استثناء الحق .

فى قوله : « وأحل لكم ما وراء ذلك » قد حصل فى فهمها والمراد منها خلاف . .

---

(١) رواه الطبرانى فى الكبير ورواه الحاكم فى المستدرك .

ونقول أولا المرأة فى ملك اليمين ليس لها حق قِبَلَ سيدها فى أن يطأها أو يستمتع بها ، فملك اليمين لا يوجب على السيد أن يجعل إماءه أمهات أولاد .

إنّ الأمام عليا ـ رضى الله عنه وكرّم الله وجهه ـ وسيدنا عثمان ـ رضى الله عنه ـ أخذ كل واحد منهما موقفاً ، فسيدنا عثمان سئل عن الأختين مما ملكت اليمين ؟ فقال : « لا آمرك ولا أنهاك أحلتهما آية وحرّمتهما آية » فتوقف رضى الله عنه ولم يفت . أما سيدنا علىّ فقد حرم الجمع فى وطء الأختين بملك اليمين ، أما التملك من غير وطء فهو حلال ، وهذا هو الذى عليه أهل العلم بكتاب الله ولا اعتبار برأى من شذ عن ذلك من أهل الظاهر .

ويتابع الحق : « إلا ما قد سلف إن الله كان غفوراً رحيماً » أى أن هذا الأمر مادام قد سلف قبل أن يشرع الله ، فهو سبحانه من غفرانه ورحمته لم يؤاخذنا بالقانون الرجعى ، فلا تجريم إلا بنص ولا عقوبة إلا بتجريم ، ومادام الحكم لم يأت إلا الآن فيطبق من الآن ولا يصح أن يجمع أحدٌ أختين تحته فى نكاح أو فى وطء بملك يمين ، ولا يجمع أيضا بينهما فى زواج من إحداهما ووطء بملك يمين لأخرى .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ ۚ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾ ﴾

وقول الحق : « والمحصنات من النساء » هو قول معطوف على ما جاء فى الآية السابقة من المحرمات ، أى سيضم إلى المحرمات السابقات المحصنات من النساء ، ومن هن المحصنات من النساء ؟ الأصل فى الاشتقاق عادة يوجد معنى مشتركا . فهذه مأخوذة من « الحصن » ، وهو مكان يتحصن فيه القوم من عدوهم ، فإذا تحصنوا فيه امتنعوا على عدوهم . . أما إذا لم يكونوا محصنين فهم عرضة أن يُغير عليهم عدوهم ويأخذهم ، هذا هو أصل الحصن ، والاشتقاقات التى أخذت من هذه كثيرة : منها ما جاء فى قوله تعالى :

﴿ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا ﴾

(من الآية ١٢ سورة التحريم)

و« أحصنت فرجها » يعنى أنها عفت ومنعت أى إنسان أن يقترب منها ، وهنا قوله : « والمحصنات » فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها ، المقصود بها المتزوجات ، فمادامت المرأة متزوجة ، فيكون بضعها مشغولاً بالغير ، فيمتنع أن يأخذه أحد ، وهى تمتنع عن أى طارىء جديد يفد على عقدها مع زوجها . هذا معنى « المحصنات من النساء » ، فالمحصنات هنا هن العفيفات بالزواج ، والحق يقول :

﴿ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ﴾

(من الآية ٢٥ سورة النساء)

فمادامت الإماء قد أحصن بالزواج ، هل يكن من المحصنات كالحرائر ؟ لا ، فهذه غير تلك ، فهن لا يدخلن فى المحصنات من الحرائر ، وإلا لو دخلن فى المحصنات يكون الحكم واحداً ، فهو سبحانه يقول : « فإذا أحصن فإن أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب » ، وأصل الإحصان وهو العفة . . توصف به الحرة ؛ لأن الحرة عادة لا يقربها أحد . وهذه امرأة أبى سفيان فى بيعة النساء قالت : وهل تزنى الحرة؟ كأن الزنا كان خاصا بالإماء ؛ لأنهن المهينات . وليس لهن أب أو أم أو عرض ، قد يجترىء عليها أى واحد ، وليس لها شوكة

ولا أهل ، ولذلك جاء عقابها نصف عقاب الحرة ؛ لأن الأمة يحوم حولها من الناس مَن تسوّل له نفسه فعل الفاحشة .

إذن فالإحصان يُطلق ويراد به العفة ، ويطلق الإحصان ويراد به أن تكون حرة ، ويطلق الإحصان ويقصد به أن تكون متزوجة ، وتُطلق المحصنات على الحرائر . فالوضع العام للحرة هو الذى يجعل لها أهلاً ولا يجترىء عليها أحد ، لكن هَبْ أن امرأة متزوجة ثم حدث خلاف أو حرب بين قومها وبين المؤمنين وصارت أسيرة لدى المسلمين مع أنها متزوجة بطريقتهم فى بلادها ، وهى بالأسر قد انتقلت من هذا الزواج وجاءت فى البيئة الإسلامية وصارت مملوكة ، ومملوكيتها وأَسْرُها أسقطت عنها الإحصان ، فقال : « إلا ما ملكت أيمانكم » .

إذن فهى بملك اليمين يسقط عنها الإحصان ، وللمسلم أن يتزوجها أو أن يستمتع بها إذا دخلت فى ملكه وإن كانت متزوجة لأن هناك اختلافاً فى الدارين ، هى فى دار الإسلام ، وخرجت من دار حرب فصارت ملك يمين ، ولا يكون هذا إلاّ بعد استبرائها والاستيثاق من خلو رحمها من جنين يكون قد جاءت به من قومها لقوله صلى الله عليه وسلم فى سبايا أوْطاس : « لا توطأ حامل حتى تضع ، ولا غير ذات حمل حتى تحيض » وهذا تكريم لها لأنها عندما بعدت عن زوجها وصارت مملوكة ملك يمين فلم يرد الحق أن يعضلها بل جعلها تتمتع بسيدها وتعيش فى كنفه كى لا تكون محرومة من التواصل العاطفى والجسدى ، بدلاً من أن يلغ سيدها فى أعراض الناس .

« والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم كتاب الله عليكم » و« كتاب الله » يعنى : كَتَبَ الله ذلك كتاباً عليكم ، وهو أمر مسجل موثق ، وكما هو كتاب عليكم فهو لكم أيضاً ، ويقول الحق : « وأحل لكم ما وراء ذلكم » . إذن فالمحرمات هن : محرمات نسب ، ومحرمات رضاع ، ومحرمات إحصان بزواج .

« وأحل لكم ما وراء ذلكم » أى أحل لكم أن تتزوجوهن ، ولذلك قال : « وأحل لكم ما وراء ذلكم أن تبتغوا » أى تطلبوا « بأموالكم محصنين » والمال نعلم أنه ثمرة الحركة . والحركة تقتضى التعب والمشقة ، وكل إنسان يحب ثمرة عمله ، وقد يدافع عنها إلى أن يموت دون ماله ؛ لأن المال ما جاء إلا ثمرة جدّ ، وحتى إذا

ما جاء المال عن ميراث ؛ فالذى وّرثك أيضاً ما ورَّثك إلا نتيجة كدّ وتعب ، وعرفنا أن الذى يتعب مدّة من الزمن تساوى عشر سنوات قد يرزقه الله ما يكفيه أن يعيش بعدها مرتاحاً ، والذى يتعب عشرين سنة قد يرزقه الله ما يكفيه أن يعيش ولده مرتاحاً ، والذى يتعب ثلاثين سنة يعيش حفيده مرتاحا.

إذن فكل ما تراه من مال موروث كان نتيجة جدّ وكدّ ومشقة من الآباء ، وإذا ما قال الحق : « أن تبتغوا بأموالكم » دلّ على أن مقابل البضع يكون من جهة الرجل . . « أن تبتغوا بأموالكم » التى قال عنها سيدنا رسول الله : (يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء)[1] .

ومادام المال عزيزاً على الإنسان وأخذه من طريق الحركة وطريق الجدّ وطريق العرق فيجب ألا ينفقه إلا فيما يعود عليه بالخير العاجل ولا ينسى الخير الآجل ، فإن هو حقق به خيراً عاجلاً ثم سها وغفل عن شرّ آجل فهو لم يضع المال فى موضعه . « أن تبتغوا بأموالكم محصنين » و« محصنين » كما عرفنا لها معان متعددة . . « محصنين » أى متعففين أن تَلِغُوا وتقعوا فى أعراض الناس . بأموالكم ، أى ضع مالك الذى كسبته بكدّ فيما يعود عليك بالخير العاجل والآجل ، فلا تلغوا به فى أعراض الناس ؛ لأنه من الممكن أن يبتغى إنسان لقاء امرأة بأمواله لكنه غير محصن ، ونقول له : أنت حققت لذة ونفعاً عاجلاً ولكنك ذهلت عن شرّ آجل ، يقول فيها ربنا : « محصنين غير مسافحين » ومنه أخذ السِفاح .

فإياك أن تدفع أموالك لكى تأخذ واحدة تقضى معها وطراً . فكلمة « محصنين » تعنى التزام العفة ، وشرح الحق كلمة محصنين بمقابلها وهو : مسافحين ، من السفح وهو : الصب ، والصب هطول ونزول الماء بقوة ، فالماء قد ينزل نقطة نقطة ، إنما السفح صبّ ، ولذلك سمى سفح الجبل بذلك لأن الماء ينزل من كل الجبل مصبوباً .

---

(١) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى عن عبدالله بن مسعود .

هنا يلاحظ أن الحق حين يتكلم عن الرجال يقول : « محصِنِين » بكسر الصاد ، وحين يتكلم عن النساء يقول : « محصَنات » بالفتحة . لم يقل « محصِنات » بالكسرة ، لأن العادة أن الذكورة هى الطالبة دائماً للأنوثة ، والأنوثة مطلوبة دائما .

« غير مسافحين فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن » والاستمتاع هو إدراك متعة للنفس ، والمتعة توجد أولا فى الخطبة ، فساعة يخطب رجل امرأة فهذا استمتاع ، وساعة يعقد عليها وساعة تزف له ، هذه كلها مقدمات طويلة فى الاستمتاع ، لكن الاستمتاعَ ليس هو الغرض فقط ، يقول لك : إذا استمتعت بهن فلا بد أن تعطيهن مهورهن ، ولذلك إذا تزوج رجل بامرأة ثم طلقها قبل أن يدخل بها نقول له : ادفع نصف المهر ؛ لأنك أخذت نصف المتعة ، فلو أن المتعة هى العملية الجنسية فقط لم يكن قد أخذ شيئا وبالتالى فلا شىء عليه من المهر ، لكن نقول : إن المتعة فى أنه تقدم إلى بنت فلان وخطب وعقد ، كل هذه مقدمات متعة ، فعندما يكون ذلك فإنه يكون قد استمتع بعض الشىء .

الحق سبحانه وتعالى يريد منا أن نبنى حياة الأسرة على طهر ، وعلى أمن ملكات ، فأنت تجد الرجل حين يكون بين أهله لا يجد غضاضة فى أن يغلق عليها الباب ، لكن تصور وجوده مع امرأة دون زواج ، فالملكات النفسية تتصارع فيه ، ويتربص ، ويمكننا أن ننظر رجفته إذا سمع أى شىء ، لأن ملكاته ليست منسجمة ، هو سيمتع ملكة واحدة . لكن الملكات النفسية الباقية ملكات مفزعة ، مما يدل على أن ما يفعله ليس أمرا طبيعيا ، ومادام ليس أمرا طبيعيا فالملكات النفسية تناقضه ، الحق سبحانه وتعالى يريد أن تُبنى الأسرة على طهر وعلى أمن ، وهذا الأمن النفسى يعطى لكل ملكات النفس متعة .

وقلنا من قبل إن الإنسان إذا كان له بنت ثم رأى شابا يمر كثيرا على البيت ويلتفت كثيرا إلى الشرفة ، ثم يقع بصر والد البنت عليه ، ماذا يكون موقفه ؟ تهيج كل جوارحه ، فإذا ما جاء الولد أو أبوه وطرق الباب وقال : يا فلان أنا أريد أن أخطب ابنتك لنفسى ، أو أريد ابنتك لابنى . ماذا يكون موقف والد الفتاة ؟ إنه السرور والانشراح وتصبح الملكات راضية والنفس مطمئنة ، ويتم اعلان البهجة وهو الذى

يدعو الناس ويقيم فرحا ؛ لأن الذى خلق الزوجين الذكر والأنثى حينما شرع الالتقاء ، أعطى فى النفس البشرية وفى ذراتها رضا بهذا الحكم بالالتقاء .

ولذلك رُوى : « جَدَعَ الحلال أنف الغيْرة » .

أى أن من يغار على ابنته هو الذى يوجه الدعوات لزواجها ، فكأن الغيرة فيها حمية ، وإن طُلِبَ عرض عن غير طريق خالق الأعراض فلا بد أن تهيج النفس ، فإن طلبها على وفق ما شرع خالق الأعراض تطمئن النفس . وهذه عملية قد يكون من الصعب تصورها ، فما الذى يسبب الرضا ، ومن الذى يدفع فى القلب الحمية والغضب والثورة ؟ إنه ـ سبحانه ـ هو الذى يفعل ذلك .

والإنسان عليه أن يلتفت إلى أن كلًّا منا مكون من ملكات متعددة ، فعقد الزواج وقول: « زوجنى » و« زوجتك » وحضور الشهود ، ماذا يعمل فى ذرات تكوين النفس لكى تُسر ؟ إنها إرادة الحق . وهذا شيء معروف ، وأنت حين يكون لك إنسان تعرفه فقط ، والإلف السيال بينك وبينه مازال فى أوله ، يكفى عندما تقابله أن تلقى عليه السلام ويَنتهى الأمر ، لكنْ هناك إنسان آخر لا يكفى هذا السيال الودى بينك وبينه ، بل لا بد أن تسلم عليه بيدك ؛ لأن هناك جاذبية ومودة ولكل منهما تأثير .

إذن فعملية الود والولاء أمر يصنع تغييرا كيماويا فى النفس ، ويكون التنافر إذا ما جاء اللقاء عن طريق ما حرم الله ، والذى يأتى عن طريق ما شرع الله يحقق التجاذب . والشاعر عندما خاطب من يحبه قال :

بأبى من وددته فافترقنا
وقضى الله بعد ذاك اجتماعا
وتمنيته فلما التقينا
كان تسليمه علىَّ وداعا

كأن الشاعر يريد تطويل أمد التسليم ومسافته كى يغذى ما عنده من الود ، وكأنه يريد أن يقول : أنا التقيت مع من أوده فاختفى فى واختفيت فيه ، وهذا ناشىء من الامتزاج .

إذن فالتكوين العاطفى أو السيال أوجده الله كسيال التقاء . هذا إذا ما كان على شرع الله ، أما فى الحالة الأخرى فهو سيال كراهية . وما الذى يسبب ذلك ؟ إنه عطاء من الله وهو خالق الرجل وخالق المرأة ، فساعة يجىء اللقاء على وفق ما شرع الله فلا تستبعد أن يعدل الخالق الذرات ، فعندما يحدث الامتزاج فلا بد أن الوفاء يأتى كنتيجة طبيعية وكذلك الولاء ، ويتحقق الانسجام هذا إيجاب ، أما إذا كان اللقاء على غير طريق الله فلا انسجام فيه وهذا سلب .

إذن فالحق سبحانه وتعالى يبنى الأسرة على هذا المعنى . وأنتم تعلمون أن الالتقاءات التى تحدث عن غير طريق الله إنما تحدث فى الخفاء ، ومنكورة الثمرة ، فإن جاء منها أثر وحمل فسيلقى الوليد فى الشارع ويكون لقيطا وقد يميتونه ، إنما الثمرة التى تأتى بالحل فالكل يفرح بها .

فالحق سبحانه وتعالى يقول : « وأحل لكم ما وراء ذلكم أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن » والاستمتاع أشياء كثيرة ، وجاء الشيعة فى قوله : « فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن » . وقالوا : هذا نكاح المتعة بدليل أنه سبحانه سمى ما أخذ فى نظير ذلك أجرًا ونقول : كلمة « أجر » هذه واردة فى الزواج ، فسيدنا شعيب عندما جاءه سيدنا موسى عليه السلام قال له : أعطنى أجر ثمانى حجج . وسيأتى فى الآية نفسها التى يتقولون بها ويقول : « وآتوهن أجورهن بالمعروف » . فسمى المهر « أجرًا » أيضا ، فلماذا تأخذون هذا المعنى ؟ هم يقولون : نكاح المتعة حدث ، ونقول لهم : نكاح المتعة حدث ولننظر إلى أسبابه .

إن هذا النكاح قد حصل على يد مشرع وله حكمة ، ولكن ماذا بعد أن أنهى المشرع هذا الحكم وانتقل إلى الرفيق الأعلى ؟ لقد أنهى الحكم ، إن الرسول صلى الله عليه وسلم أحل زواج المتعة فى فترة وجيزة حينما كانوا فى غزوة من الغزوات ، وذهب قوم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأنهم يريدون أن يبنوا حركة حياتهم على الإيمان الناصع . كان من الممكن أن يواروا هذه المسألة عن الرسول ، إنهم قالوا له : يا رسول الله أنستخصى ؟ أى نخصى أنفسنا ؟ فمادام الجهاد يَطلب منا أن نكون

فى هذا الموقع بعيدا عن أهلنا فلنستخص حتى لا يكون عندنا رغبة . فأباح لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم زواج المتعة ؛ ولكنه أنهاه ، والدليل على أنه أنهاه ، أن عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ ، وأنتم تعلمون منزلته ـ رضى الله عنه ـ من التشريع فى أحكام الله ، إنه كان يقترح الاقتراح فينزل القرآن موافقا له ، يقول عمر : ما يجىء واحد ليستمتع إلى أجل إلا رجمته .

إذن فانتهت المسألة . وسيدنا على ـ كرم الله وجهه ـ أقر نَهْى سيدنا عمر ، وقالوا : إن ابن عباس قال به . لكنه قال : إننى كنت قد أخطأت فيه ، ونعلم أن صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يجلسوا فى فصول تعليمية لسماع الوحى ، بل كان كل منهم يذهب إلى رسول الله بعد أن يفرغ من عمله ، فهذا سمع وذلك لم يسمع . وهذا هو السبب فى أن هذا يروى وذاك لم يرو ، فسيدنا ابن عباس قال : إننى كنت أعرف مسألة المتعة ، ولم يصح عندى خبر منعها إلا فى آخر حياتى .

إذن فقول الشيعة : إن المتعة موجودة هو نتيجة استدلال خاطىء ، فقوله سبحانه : « فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن » علينا أن نقرنه بقوله أيضا فى المهور فى الآية التالية : « فانكحوهن بإذن أهلهن وآتوهن أجورهن » لأن هناك فرقًا بين الثمن وبين الأجر ؛ فالثمن للعين ، والأجر للمنفعة من العين ، ولم يَملك الرجل بمهره المرأة . إنما ملك الانتفاع بالمرأة ، ومادام هو ملْكَ انتفاع فيقال له أجر أيضا .

« فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة » أى أن الذى فرض ذلك هو ربنا . « ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة » ونلحظ هنا أن هناك فرقًا بين أن يشرع الحق لحق ، وأن يترك باب الفضل مفتوحا ، فمن حقها أنها تأخذ المهر . لكن ماذا إن تراضت المرأة مع الرجل فى ألا تأخذ المهر وتتنازل له عنه ؟ أو أن يعطيها أكثر من المهر ؟ هذا ما يدخل فى قوله تعالى : « ولا تنسوا الفضل بينكم » ، فلا لوم ولا تثريب فيما يتراضى به الزوجان من بعد الفريضة ، وكلمة « تراضيتم » تدخل فى قوله سبحانه :

﴿ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا ﴾

(من الآية ٤ سورة النساء)

وفى عصرنا نجد أن المرأة تأخذ مهرها من الرجل وتجهز منه أثاث البيت ، مع أن المفروض أن يجهز الرجل لزوجته البيت وأن يبقى المهر كاملا لها ، ولكن التعاون هو الذى يعطى العطف والتكاتف .

ويذيل الحق الآية : « إن الله كان عليما حكيما » إذن فكل أحكام الله مبنية على العلم بما يصلح خلقه ، ولا يغيب عنه أمر كى يؤخر تشريعه ، فتأخير التشريع يعنى : أن الذى شرع غاب عن ذهنه جزئيات ما كانت فى باله ساعة شرع ، وحين يأتى الواقع يأتى له بجزئيات لم تكن موجودة ، فيضطر إلى إصدار تشريع جديد يستدرك به ما لم يكن فى باله . والذين يقولون : إن التشريع الإلهى لا يغطى حاجة البشر نقول لهم : من الذى سيغطيه ؟ أنتم يا مفكرون أتعدلون على الله ؟ إن الله يكشفكم أنكم تأتون بتقنينات ، وبعد ذلك يظهر عيبها وعوارها وأخطاؤها فتضطرون أن تعدلوا ، فسبحانه عليم حكيم . فإن أخر حكما عن ميعاده فقد اقتضت الحكمة أن يكون كذلك .

ومثال ذلك تحريم الخمر ، لم يجئ به مرة واحدة ؛ لأن الشىء الذى تحكمه العادة والإلف ، لا بد فيه من التريث ، وأن يصدر التشريع على مراحل ، وكل مرحلة تسهل المسألة بالنسبة لما سبقها ، ويكون الأمر صعبا إذا كان التشريع دفعة واحدة لأن ترك العادة دون تدرج يكون عسيرا شاقا ؛ لأن أهم شىء فى الخمر أنها تقود إلى الاعتياد ، بدليل أن مدمن الخمر عندما يمر عليه الوقت يضطرب فيأخذ كأسا ليستريح ، وأول مرحلة فى التحريم أن الحق كسر الاعتياد ، ومادامت هى عادة متغلغلة فمن الصعب جدا أن ينزعها صاحبها من نفسه مرة واحدة . فأولا جاء الأمر كعظة ، وبعد ذلك يقول : « يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون » . ومادمت لا تشربها وأنت تصلى فكم مرة تصلى ؟ خمس مرات فى النهار ، إذن فعودك أن تترك وقتا من الأوقات غير ملتبس بالخمر ، وتكون قد تعودت على ترك الخمر طوال النهار . وبعد ذلك يتدرج فيقول :

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ ﴾

(من الآية ٢١٩ سورة البقرة)

لكن الأحمق عادة يرجح الإثم ويفعله؛ ومادام سبحانه قال : « فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما » . إذن فالإثم يترجح . وبعد ذلك جعلها بعلمه ـ سبحانه ـ أمرًا نهائيا ، والحكمة شاءت أن يكون التحريم بالتدريج . ويطمئننا الحق على أن علمه وحكمته منوط بها إخراج الأحكام ، ولذلك قال :

﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ ﴾

(سورة البقرة)

وسبحانه عليم لا يخفى عليه شيء ، ويعلم ان امرأة أحبت زوجها لدرجة أن هذا الأجر ليس له قيمة ، أو رجل أحب زوجته أيضا لدرجة أن النقود ليس لها قيمة عنده ، ومادام سبحانه حكيم . فهو قد يجرى الأمور لا بحتمية ما افترض ، ولكن بإبقاءٍ على فضل المتعاملين .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ۚ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ

ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾

والاستطاعة تعنى أن يدخل الشىء فى طاعتى فلا يعصى ولا يتأبى على ، وافرض أننى أمسكت قطعة حديد ولويتها ، هنا تكون قطعة الحديد قد دخلت فى طوعى ، ومثال ذلك : ابنا آدم ، حين قدم كل منهما قربانا لله فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر ، فالذى لم يتقبل الله منه القربان قال :

﴿ لَأَقْتُلَنَّكَ ﴾

(من الآية ٢٧ سورة المائدة)

فماذا كان ردُّ الذى تلقى التهديد ؟ قال :

﴿ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾

(سورة المائدة)

ما معنى « طوعت له » ؟ طوعت يعنى : جعلته فى استطاعته ، وعندما نمعن النظر فى « فطوعت له نفسه » نجد أن « الهاء » تشير إليه هو ، وذلك يدل على أن الإنسان فيه ملكات متعددة ؛ ملكة تقول : اقتله ، وملكة أخرى تقول له : لا تقتله . ضميره يقول له : لا تفعل ، والنفس الأمارة بالسوء تقول له : اقتل ، ويكون هو مترددا بين الأمرين .

وقوله الحق : « فطوعت له » دليل على أن نفسه كانت متأبية عليه ، لكن النفس

الأمارة بالسوء ظلت وراءه بالإلحاح حتى أن نفسه الفاعلة طوعت له أن يقتل أخاه ، ومع أن نفسه طوعت له أن يقتل أخاه إلا أنه أصبح بعد ذلك من النادمين ، وبعدما أخذ شهوته من القتل ندم ، ويأتى هذا الندم على لسانه :

﴿ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴾

(من الآية ٣١ سورة المائدة)

أنت الذى قتلته ، لكنك أصبحت من النادمين . لماذا ؟ لأن ملكات الخير دائما تُصعد عمل الخير وتحبط عمل الشر . والإنسان قد يبدأ شريرا ، وإن كانت ملكاته ملكات خير غالبة ، فهو ينزل من هذا الشر العالى ويخففه ، وإن كانت ملكات الشر غالبة فهو يبدأ فى الشر قليلا ثم يصعده ، فيقول فى نفسه : فلان فعل فيَّ كذا وأريد أن أصفعه صفعة ، وبعد ذلك قد يرفع من شره فيقول : « أو أضربه ضربة » . لكن إذا ما كان الإنسان خيِّراً ، فيقول : « فلان كاد لى ، أريد أن أضربه رصاصة أو أضربه صفعتين أو أوبخه » إنه ينزل من الشر ويصعد من الخير . كما فى قصة سيدنا يوسف وإخوته حين قالوا :

﴿ إِذۡ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ۝٨ ٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطۡرَحُوهُ أَرۡضٗا يَخۡلُ لَكُمۡ وَجۡهُ أَبِيكُمۡ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ ۝٩ قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ لَا تَقۡتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلۡقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّ يَلۡتَقِطۡهُ بَعۡضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ۝١٠ ﴾

(سورة يوسف)

إنهم أسباط ، وأولاد النبى يعقوب ، فيقللون من الشر ، يخففونه مباشرة قائلين : « أو اطرحوه أرضا » يعنى يلقونه فى أرض بعيدة ، إذن فخففوا القتل فى نفس واحد ، كيف تم هذا الانتقال من القتل إلى اطرحوه أرضا ؟ ثم خففوا الأمر ثانية حتى لا يأكله سبع أو يتوه ، فقالوا : « وألقوه فى غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة » .

إذن فقوله : « ومن لم يستطع منكم » أى من لم يستطع دخول الشىء فى طوعه أو أن تطوله يداه ، وهذا هو المقصود بالطول ، « فطالته يده » يعنى صار فى استطاعته ، وفلان تطول علىّ ، أى تفضل علىّ بشىء ، « وفلان تطاول علىّ » أى ما كان يصح أن يجترىء علىّ ، وكلها من الطول ، و« طولا » : تعنى قدرة تطول بها الزواج بمن تحب ، أى أنت لا تملك مالا ولا تستطيع الطول ، فهناك مرحلة أخرى ، لا داعى للحرة لأن مهرها غالٍ غالبا ؛ فخذ من الإماء الأسيرات لأن مؤنتهن ونفقتهن خفيفة ، وليس لها عصبة ولا أهل يجادلونك فى المهر ، فقال : « ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فمن ما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات » . . والذى نلمحه فى الآية . أن نكاح ما ملكت اليمين يكون لغير مالكها ؛ لأن مالكها لا يحتاج ذلك ، إنه يستمتع بها ويتغشاها ، لأنها ملك يمينه وليست مملوكة للغير .

إذن فقد أباح الله للمسلم أن ينكح مما ملكت يمين غيره على شرط أن يكون ذلك بإذن مولاها ؛ لأنها بالزواج تقتطع جزءًا من وقتها وخدمتها لمن يملك رقبتها ، فلا بد أن يُستَأذَن حتى يكون أمر انقطاعها إلى الزوج فى بعض خدماته مما هو معلوم لأوليائهن ، وأمر أيضا سبحانه ألا نستهين بأنها مملوكة ومهينة فلا نأتيها مهرها . بل يجب أن يُؤدَى لهؤلاء مهورهن بما يعرف ، أى بالمتعارف عليه ؛ لأن ذلك عوض البضع ، فإذا كان الحق قد أمر بأن نستأذن مواليهن وأمر بأن نأتيهن أجورهن ، هنا بعض الإشكال لأنَّ المملوكة لا تملك ؛ لأن العبد وما ملكت يداه لسيده .

نقول له : نعم ، ولكن إذا قلت : العبد وما ملكت يداه لسيده فلا بد أن تحقق لها ملكا أولا ثم يكون ما تملكه لسيدها . . أما أن تتعداها وتعطى المال لسيدها فإنها فى هذه الحالة لم يتحقق لها مهر ، فقولك : العبد وما ملكت يداه ، أى أعطها فترة وفرصة لتكون مالكة بأن تُعطى الأجر تكريما لها ، أما كون مالها لسيدها فهذا موضوع آخر . وبعد ذلك تذهب لتتزوجها إن ذلك يصح ، فهل نفهم من ذلك أنك إن استطعت طوْلا لا تنكح الإماء ؟ لا . وهل هذا يقلل من شأن الإماء ؟ لا . لماذا ؟ انظر للحكم العالية التى لا يقولها إلا رب .

الله يريد أن يصفى مسألة الرق ، فحين يأتى واحد ويتزوج أمة مملوكة لغيره

فأولادها يتبعونها فى الرق . فالأولاد فى الدين تتبع خير الأبوين ، وفى الحرية والرق يتبع الأولاد الأم ، فإذا ما تزوج إنسان أَمَةً مملوكة لغيره فأولادها الذين سيأتون يكونون عبيدا . وحين يتركها لسيدها ويتزوج غيرها من الحرائر ، فمن تلده من سيدها يكون حرا ، إذن فسبحانه يريد أن يصفى الرق ، هذه واحدة ، الشىء الآخر أن الزواج : التقاء الذكر بالأنثى ليكونا نواة أسرة ، فإذا ما كان الزوج والزوجة أكفاء . فالزوج لا يجد فى نفسه تعاليا على الزوجة ، والزوجة لا تجد فى نفسها تعاليا على الزوج ؛ لأن كل واحد منهما كفء للآخر ، وهذه تضمن اتزان الحياة واتزان التعامل ، لكن حين يتزوج واحد أمةً ليس لها أهل فقد يستضعفها وقد يستعلى عليها . وقد يذلها . وقد يعيرها ، وحين يكون لها أولاد قد يقولون لهم : ليس لكم خال مثلا . والمشرع يريد أن يبنى حياة أسرية متزنة ، ولذلك اشترط الكفاءة ، وقال :

﴿ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ ﴾

(من الآية ٢٦ سورة النور)

وبعض من الناس تفهم عندما ترى طيبة فلا بد أن يتزوجها رجل طيب ، نقول لهم : إن هذا تشريع والتشريع تكليف وعرضة أن يطاع وعرضة أن يعصى،فسبحانه حين يشرع أن الطيبات يكن للطيبين والخبيثات للخبيثين ، فإن طبقتم التشريع تكون المسائل مستقيمة ، وهذا يحمل الرد على من يقولون : مادام ربنا يقول : « الطيبات للطيبين » فكيف يتزوج فلان بفلانة وأحدهما طيب والآخر خبيث ؟

ونقول : إن هذا الحكم ليس فى قضية كونية حادثة ، بل هو قضية تشريعية تقتضى منا أن نتبعه وأن نجعل الطيبين للطيبيات والخبيثين للخبيثات ليتحقق التوازن . فإن كان خبيثا وقال لها : أنت كذا وكذا تقول له : أنت كذا وكذا . فلا يقول هذه كى لا تقول له مثلها ، أما الإنسان الطيب فهو يلين جانبه مرة وهى طيبة وتلين جانبها مرة .

« ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات » كلمة « المحصنات » تعنى هنا الحرائر ؛ لأنها لو كانت متزوجة فلن تكون محل تزويج لآخر . « فمن ما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات » وكلمة « فتى » نطلقها فى الحر على من له

فتوة وشباب ، ونطلق كلمة فتاة على أى أمَة ولو كانت عجوزا ، وعلمنا رسول الله ألا نقول : هذا عبدى وهذه أمتى . وإنما نقول : « فتاى » و« فتاتى » .

« فمن ما ملكت أيمانكم ».ويتساءل البعض : وهل يتزوج الإنسان ممن يملكها ؟ نقول له:لا . إنها حلال له فهى مملوكة له ملك يمين ويستطيع أن يكون له منها ولد ، إذن فتكون ما ملكت أيمان غيركم ، لأن الله يخاطب المؤمنين على أنهم وحدة بنيانية ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا »[1] .

ويقول الحق :

﴿ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ﴾

(من الآية ١١ سورة الحجرات)

ويقول فى موضع آخر :

﴿ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ٦١ سورة النور)

فهل يسلم المؤمن على نفسه أو يسلم على من دخل عليهم ؟

إن الحق يريد بالتشريع أن يجعل المؤمنين كالجسد الواحد ، ولذلك قال أيضا :

﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة النساء)

أى لا تقتلوا غيركم ، والمعنى هو أن الوحدة الإيمانية يجب أن تجعلنا متكاتفين فى وحدة .

« فمن ما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات والله أعلم بإيمانكم » . وقد تقول :

---

(١) رواه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى عن أبى موسى .

إن إيمان ملك اليمين ضعيف وتجعلها علة . يقول لك الحق : لا « والله أعلم بإيمانكم » ولعل أمة خير فى الإيمان منك ؛ لأن هذه مسألة دخائل قلوب ، وأنت يكفيك أن تعلم الظاهر .

والحق سبحانه وتعالى حين يعالج الأمر يعالجه معالجة رب . يعلم واقع ما خلق ويعطى كل مطلوبات المخلوق ، هو أولا أوضح : أنتم إن كنتم لا تستطيعون طولا أن تنكحوا المحصنات فانكحوا الإماء ، وهذا من أجل مزيد من تصفية الرق .

بعد ذلك يقول : « والله أعلم بإيمانكم بعضكم من بعض » فإن كنت ستتزوج يجب أن تجعل نصب عينيك أمرا هو : أن « بعضكم من بعض » . أى أنكم جميعا من آدم . ومادمت قد آمنت ، فالإيمان سوَّى بينكما ، فإذا ذهبت لتتزوج فلا بد أن تضع هذا نصب عينيك ، إنه سبحانه يعالج واقعا .

ويقول بعد ذلك : « فانكحوهن بإذن أهلهن » . وهذا إشعار بأن من تحت يده فتاة بملك يمينه فعليه أن يعاملها معاملة الأهل ليعوّضها عما فقدته عند أهلها هناك ، ولتشعر أنها فى حضانة الإسلام مثلما كانت فى حضانة أهلها وآبائها أو أكثر .

إذن فالذى يملك لابد أن يجعل نفسه من الأهل ، وبذلك يزيد الحق سبحانه وتعالى من أبواب تصفية الرق ، وأوضح : فإن لم يُدخل واحد منكم مَن يملكه فى هذه المصافى فسوف يبقيه رقيقاً ، وإذن فعليه أن يطعمه مما يأكل ويلبسه مما يلبس ولا يكلفه ما لا يطيق ، فإن كلفه ما لا يطيق فيدك بيده . وعندما يوجد معك إنسان تلبسه من لبسك وتطعمه من أكلك ، وعندما يعمل عملاً يصعب عليه فأنت تساعده ، فأى معاملة هذه ؟ إنها معاملة أهل .

انظر كم مسألة يعالجها الحق : يعالج طالب الزواج ويعالج المملوكة ، ويعالج السادة ، إنه تشريع ربّ الجميع . فلا يشرع لواحد على حساب آخر . ومادامت ملك يمين ولها سيّد فهذا السيد له مصالح لابد أن تستأذنه ، فقد لا يستطيع أن يستغنى عنها لأنها تخدمه ، فقال : « بإذن أهلهن » ، لكن فى المهور قال :

« فانكحوهن بإذن أهلهن وآتوهن أجورهن بالمعروف » فالأمة تنكح بإذن من يملكها كي يعرف أن هناك من دخل شريكا له فى العملية ويأخذ البضع وهو الزوج ، وحين يُستأذن السيد ويزوّجها فهو يعلم أنها لم تعد له ، وبذلك لن يأخذها أحد من خلف ظهره ، وهو بالاستئذان والتزويج يرتب نفسه على أن البضع قد أغلق بالنسبة له ، وبقيت له ملكية الرقبة . أما ملك البضع فهو للزوج .

« وآتوهن أجورهن بالمعروف » فإياكم أن تقولوا : هذه مملوكة يمين وأى شىء يرضيها ويكفيها ، لا . فلها مهر بالمعروف أى بالمتعارف الذى يعطيها ميزان الكرامة فى البيئة ، « محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان »وقلنا: إن المحصنة هى العفيفة ، « غير مسافحات » والمسافِحَة ؛ هى من تمارس وتزاول عملية الزنا ، ويسمونها : امرأة عامة ، ومتخذات أخدان : أى يتخذن عشّاقا وأخدانا .

« فإذا أحصن فإن أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب » أى إذا تزوجت الإماء وجاءت الواحدة منهن بفاحشة فلها عقاب . أما إن لم تحصن فليس عليهن حاكم ويقوم سيدها بتعزيرها وتأديبها ؛ لأن الأمة عادة مبتذلة ، لكن عندما تتزوج تصير محصنة ، فإن أتت بفاحشة نقول لها : أنت لك عقابك الخصوصى ، لن نعاقبك عقاب الحرّة ؛ لأن الحرة يصعب عليها الزنا ، لكن الأمة قد لا يصعب عليها أن يحدث منها ذلك ، فليس لها أب ولا أخ ولا أسرة ، فقال : « فإن أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب » ، أى نصف ما على الحرائر من العذاب .

لكن الخوارج أخذوا الكلمة فى معنى من معانيها ليخدم قضية عندهم وقالوا : إن « المحصنات » هن المتزوجات ، هم يريدون أن يأخذوها بمعنى المتزوجات كى يقولوا : مادامت الأمة عليها نصف ما على المتزوجة ، إذن فالمتزوجة ليس عليها رجم ؛ لأن الرجم لا ينصف . . والخوارج أخذوا هذه وقالوا : إن القرآن لا يوجد فيه رجم واكتفوا بجلد الزانية مائة جلدة .

ونقول لهم : أنتم أخذتم المحصنة على معنى أنها المتزوجة ، ونسيتم « ومن لم

يستطع منكم طولاً أن ينكح المحصنات » . . فالمحصنات هن الحرائر ، فلماذا أخذتم المحصنات هناك بمعنى الحرائر والمحصنات هنا بمعنى المتزوجات ؟! إن عليكم أن تأخذوها بمعنى الحرائر ولا حجة لكم فى مثل هذا الباطل . وبذلك تسقط الحجة ، فالدليل إذا تسرب إليه الاحتمال سقط به الاستدلال .

ثم نبحث بحثاً آخر ، نقول : يقول الحق : « فعليهن نصف ما على المحصنات » لو أن الحكم على إطلاقه لما قال الحق : « من العذاب » ، فكأن الذى عليها فيه النصف هو العذاب ، وما هو العذاب ؟ العذاب هو إيلام من يتألم ، والرجم ليس فيه عذاب لأنه عملية إنهاء حياة ، والآية تبين المناصفة فيما يكون عذاباً ، أما ما لا يكون عذاباً فهو لا ينصّف والحكم غير متعلق به . فالعذاب إنما يأتى لمن يتألم ، والألم فرع الحياة . والرجم مزيل للحياة ، إذن فالرجم لا يعتبر من العذاب ؛ والدليل على أن العذاب مقابل للموت أن الحق سبحانه وتعالى حينما حكى عن سيدنا سليمان وتفقده الطير قال :

﴿ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ ﴾

(من الآية ٢٠/٢١ سورة النمل)

فالذبح وإزهاق الحياة مقابل للعذاب ، فقوله : « نصف ما على المحصنات » فالمتكلم فيه الآن العذاب وليس الرجم ، وليس إزهاق الحياة وبهذا يسقط الاستدلال .

والذين يقولون : إن آيات القرآن لا تدل على رجم نقول لهم : ومن الذى قال لكم إن القرآن جامع لكل أحكام منهج الله فى الإسلام وأنه فصل كل شىء ؟ . . القرآن لم يجىء كتاب منهج فقط ، وإنما جاء معجزة وكتاب منهج للأصول ، ثم ترك للرسول صلى الله عليه وسلم أن يبين للناس ما نزل إليهم فضلا على أن الرسول صلى الله عليه وسلم بنص القرآن عنده تفويض من الله أن يشرع ، وتلك ميزة تميّز بها صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء والمرسلين فالله قد أعطاه الحق فى أن يشرع ، بدليل أنه سبحانه قال فى صلب القرآن الذى يشتمل على أصول منهج الإسلام :

﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾

(من الآية ٧ سورة الحشر)

إذن فللرسول عمل مع القرآن ، وإلا فليقل لى من يدّعى أنّ فى القرآن كل حكم من أحكام دين الله ، من أين أخذ تفصيل حكم الصلوات الخمس ؟ ومن أى آية أخذ أن الصبح ركعتان ؟ وأخذ الظهر أربعاً وأخذ العصر أربعاً ، والمغرب ثلاثاً ، والعشاء أربعاً ، من أين أخذها ؟! إذن لا يوجد شيء من ذلك ، فما معنى ذلك ؟ معنى ذلك أن القرآن جاء كتاب معجزة وفيه منهج يتعلق بالأصول . ومادام المنهج الذى تعلق بأصول الأشياء قد أعطى لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن يشرع ، إذن فتشريعه مأمور به ومأذون فيه من صلب القرآن . ولذلك إذا جاء لك حكم من الأحكام وقال لك المتعنت : هات لى هذا الحكم من القرآن ، ونظرت فى كتاب الله فلم تجد ، فقل له : دليل الحكم فى القرآن هو قول الله : « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » ، وأى حكم من الأحكام يأتى ولا تجد له سنداً من كتاب الله ويقال لك : ما سنده ؟ قل : « وما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » .

والمنهج أوامر ونواهٍ . إذن فالطاعة أن تمتثل أمراً وتجتنب نهياً ، تلك هى الطاعة ، كل منهج أو دين أمر ونهى ، فامتثل الأمر واجتنب النهى . وأنت إذا تصفحت القرآن وجدت آيات الطاعة المطلوبة من المؤمن بمنهج الله والذى شهد بأنه لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله تتمثل فى الأمر والنهى . فإذا ما استقرأت القرآن وجدت ـ كما قلنا سابقاً ـ أن الحق سبحانه وتعالى يقول مرة فى الطاعة :

﴿ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ﴾

(من الآية ٣٢ سورة آل عمران)

ولم يكرر الحق هنا أمر الطاعة ، فالمطاع هو المكرر ، فـ« أطيعوا » أمر واحد ، نطيع من؟ . . الله والرسول . المطاع هنا هو الله والرسول ، ومرة يكرر أمر الطاعة فيقول :

﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ﴾

(من الآية ٩٢ سورة المائدة)

ومرة ثالثة يقول :

﴿ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾

(من الآية ٥٦ سورة النور)

ومرة رابعة يقول :

﴿ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾

(من الآية ٥٩ سورة النساء)

وأدخل هنا أولى الأمر أيضاً ، إذن فمرة يأمر بالطاعة ويكرر المطاع فقط . أى : يوحد أمر الطاعة ، ويكرر المطاع « قل أطيعوا الله والرسول » ، فوحد أمر الطاعة وكرر المطاع ، ومرة يكرر أمر الطاعة ، ويكرر معها المطاع : « وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول » ، ومرة يقول « وأطيعوا الرسول » فإذا قال لك : « أطيعوا الله والرسول » فالأمر قد توارد فيه حكم الله وحكم الرسول . إذن فتطيع فيه الله والرسول ، وإذا كان لله أمر إجمالىٌّ وللرسول أمر تفصيلىٌّ كالصلاة والزكاة والحج ، إذن فتطيع الله وتطيع الرسول .

وإذا لم يكن لله أمر فيه بل جاء من باطن التفويض فى قوله سبحانه : «و ما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » ، فهذا الأمر أطيع فيه الرسول ، لأنه جاء فى آية أخرى قوله : « من يطع الرسول فقد أطاع الله » ، لماذا ؟ لأن الرسول عمل بالتفويض الذى أعطاه الله له حسب قول الحق : « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » .

وبقيت طاعة أولى الأمر التى جاءت فى قوله : « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » أى أطيعوا أولى الأمر من باطن طاعة الله وطاعة رسوله ، فلم يفرد ولى الأمر بطاعة وإنما جعل طاعته من : « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول » ، فلم يقل : وأطيعوا أولى الأمر ، بل قال : وأولى الأمر ، أى من باطن طاعة الله والرسول ، إنها دقة الأداء فى القرآن . تأمل ما يقوله الحق سبحانه : « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » .

لقد قلنا : إن الطاعة امتثال أمر واجتناب نهى . . والموجود هنا « آتاكم » و« نهاكم » ؛ فـ « آتى » هذه جاءت بدل وما أمركم والنهى موجود بلفظة « وما نهاكم عنه » الأمر هو « آتاكم » ، ولماذا لم يقل : وما أمركم به الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ؟ ولماذا لم يختصر فيقول : وما آتاكم الرسول فخذوه ؟! لأن الإتيان من الرسول إما أن يكون قولاً وإما أن يكون فعلاً ، ولكن أيكون المنهىّ عنه فعلاً يفعله الرسول ؟! لا يمكن .

إذن فالنهى لا يتأتى إلا نهياً ومنعا من الفعل ، لكن الإيتاء يكون قولاً أو فعلاً ؛ لأنه عندما يقول لك : لا تشرب الخمر ، فماذا كان يفعل النبى كى نأخذه من الفعل ؟ إن الرسول قطعا لم يشرب الخمر . إذن فقول الرسول وفعله يتأتى فى المأمور به ، وأما فى المنهى عنه فلا يتأتى إلا قولاً . بالله أمِنَ الممكن أن يأتى بهذا عقل بشرى ؟ لا يمكن ، ولا يقولها إلا الله .

ثم نبحث بحثاً آخر يا خوارج . إن الرسول إنما جاء ليبلغ عن الله ـ ومراد التبليغ أن يعلمنا بالحكم ، لنؤدى مدلوله ، فإذا جاء حكم قولاً بالنص ، فالذى يشرحه لنا هو ما يفعله الرسول ، وحين يفعله الرسول أيوجد مجال للكلام فى هذا النص ؟ لا يوجد ، بل تكون المسألة منتهية . إذن فالفعل أقوى ألوان النص فى الأوامر ؛ لأن الأمر قد يأتى كلاماً نظرياً ، وقد يتأول فيه البعض . لكن عندما يفعل الرسول يكون الحكم لازماً ؛ لأن الذى فعل هو المشرع .

أرجم رسول الله أم لم يرجم ؟ قد فعل رسول الله ذلك ، وفعله هو نص عملىّ . إنّ الفعل ليس نصاً قوليًّا يُتأول فيه . لقد رجم الرسول ماعزاً والغامدية ورجم اليهودى واليهودية وكانا قد أحصنا بالزواج والحرية . . وفعل الرسول هو الأصل فى الحكم . فدليل الخوارج إذن قد سقط به الاستدلال وبقى ما فعله المشرع وهو الرسول المفوض من الله فى أن يشرع قولاً أو فعلاً أو تقريراً ، أى يرى أحداً يفعل فعلاً فيقرّه عليه .

ثم نبحثها بالعقل : إذا كنت تريد ألا يوجد فى الزنا حد إلا الجلد ، أتسوى بين من لم يتزوج ومن تزوج ؟ إن المتزوجة لها عرض ولها زوج ولها نسب ونسل . هل

هذه مثل تلك التى لم تتزوج ؟! إن هذا لايتأتى أبدا بالعقل ، إذن فحكم الرجم موجود من فعل الرسول ، والدليل الذى استدل به الخوارج هو دليل تسرب إليه الاحتمال . والدليل إذا تسرب إليه الاحتمال سقط به الاستدلال .

« فإن أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب ذلك لمن خشى العنت منكم » . ومن هو المقصود بـ « ذلك » ؟ المقصود به إباحة نكاح الإماء لِمن لم يجد طوْلا أن ينكح من الحرائر . وما هو « العنت » ؟ « العنت » هو المشقة والجهد ، وإرهاق الأعصاب ، وتلف الأخلاق والقيم ، لأن الإنسان إذا هاجت غرائزه إما أن يعف وإما أن ينفلت . فإن انفلت فقد تسرب الفساد إلى قيمه وإلى خلقه ، وإن لم ينفلت والتزم ، ماذا يحدث ؟ سيقع بين أنياب المرض النفسى وتأتيه الأمراض العصبية . فأباح له الله أن يتزوج الأَمَةَ ، إن لم يجد طوْلا فى الزواج من الحرائر .

وبذلك يكون مفهوم الآية : إن الذى لا يخشى العنت فليس ضروريا أن يتزوج الأَمَةَ[1] . وليس هذا تزهيدًا فى الأَمَةِ بل فيه احترام لها ، لأنها إن تزوجت ثم ولدت ممن تزوجته فسيصبح ولدها عبدا ، والله يريد أن يصفى الرق والعبودية ، فيوضح له : دعها لسيدها فإن أعجبته وَحَلَت فى عينيه ووطئها وجاءت منه بولد فستكون هى والولد من الأحرار إنهما قد دخلا فى دائرة الحرية .

إذن فالحق يريد أن يصفى الرق ، ثم قال : « وأن تصبروا خيركم لكم » أى وصبركم عن نكاح الإماء . وأنتم فى عفة وطهر عن مقارفة الإثم إن ذلك خير لكم من زواجهن ، فنكاح الحرائر أفضل .

ويذيل الحق الآية : بقوله : « والله غفور رحيم » أى إنه (غفور) لما قد بدر وحصل منكم من ذنوب استغفرتم ربكم منها (رحيم) بكم فلا يعاجلكم بالعقوبة شفقة عليكم وحبا فى رجوعكم إليه .

---

(١) من الفقهاء من يشترط لصحة نكاح الأَمَة شروطا هى : ألا يجد ما يتزوج به امرأة حرة ، وأن تكون الأمة مسلمة . وأن يخاف الوقوع فى الإثم .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ ﴾

ماذا يبين لنا ؟ إنه ـ سبحانه ـ يبين القوانين الحاكمة لانتظام الحياة . . وقلنا إنه لا يمكن أن يوجد تجريم إلا بنص ولا توجد عقوبة إلا بتجريم . فقبلما يعاقبك على أمر فهو يقول لك : هذه جريمة ويُنص عليها ، إنه لا يأتى ليقول لك : فعلت الشيء الفلانى وهذه عقوبته ؛ لأنك قد تقول له : فعلت هذا الفعل من قبل ولم أعرف أنه جريمة وعليه عقوبة . إذن فلا يمكن أن تعاقب إلا إذا أجرمت ، ولا يمكن أن تجرم إلا بنص ، فيريد الله أن يبصركم ببيان ما تصلح به حركة حياتكم ، والله آمن عليكم من أنفسكم ، لأنه هو سبحانه الذى خلق وهو يعلم من خلق .

إن سبحانه ـ وحده ـ الذى يقنن ما يصلح مخلوقه ، أما أن يخلق هو وأنت تقنن فهذا اعتداء ؛ لأنه سبحانه يقنن لما يعلم ـ ولله المثل الأعلى ـ وقلنا سابقا : إن المهندس الذى يصنع التليفزيون هو الذى يضع له قانون الصيانة ؛ لأنه هو الذى صمم الآلة ، وهو الجدير بأن يضع لها قانون صيانتها ، فيعلمنا : المفتاح هذا لكذا ، وهذا للصورة وهذا للصوت .

إن الذى خلق الإنسان هو الذى يضع قانون صيانته المتمثل فى « افعل ولا تفعل » ، وترك سبحانه أمورا لم يرد فيها افعل ولا تفعل ، وهى متروكة على الإباحة ، تفعله أو لا تفعله ، إنه سبحانه : « يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم » ، والسنة هى الناموس الحاكم لحركة الحياة . والحق يقول :

﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾ ﴾

(سورة الأحزاب)

والرسل سبقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم . . وعرفنا الذين أطاعوا رسلهم ماذا حدث لهم ، والذين كذبوا رسلهم ماذا حدث لهم . لقد قال الحق فى شأنهم :

﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾

(سورة العنكبوت)

فالله يريد أن يبين لنا سنن من قبلنا ، أى الطرائق التى حُكموا بها ، وماذا حدث لأهل الحق وماذا حدث لأهل الباطل . إذن فهو ليس تقنينا أصم ، بل هو تقنين مسبوق بوقائع تؤكده وتوثقه ، « ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم » وهو سبحانه يبين ويوضح ويتوب ، « والله عليم » لأنه خالق ، « حكيم » يضع الأمر فى موضعه والنهى فى موضعه . فالحكمة هى : وضع الشىء فى موضعه ، وسبحانه يضعه عن علم ، فالعلم يقتضى اتساع المعلومات ، والحكمة هى وضع كل معلوم فى موقعه .

وبعد ذلك يقول سبحانه :

﴿ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ ﴾

سبحانه قال فى الآية السابقة : « يريد الله ليبين لكم » ، وبعد ذلك يقول : « ويهديكم » ، وبعد ذلك : « ويتوب عليكم » ، وفى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها : « والله يريد أن يتوب عليكم » ، فلماذا جاء أولا بـ « ويتوب عليكم » وجاء هنا ثانيا بـ «والله يريد أن يتوب عليكم » ؟

نقول : التوبة لا بد أن تكون مشروعة أولا من الله ، وإلا فهل لك أن تتوب إلى الله من الذنب لو لم يشرع الله لك التوبة ؟ أتصحُّ هذه التوبة ؟ إنه سبحانه إذن يشرع التوبة أولا ، وبعد ذلك أنت تتوب على ضوء ما شرع ، ويقبل هو التوبة ، وبذلك نكون أمام ثلاث مراحل : أولا مشروعية التوبة من الله رحمة منه بنا ، ثم توبة العبد ، وبعد ذلك قبول الله التوبة ممن تاب رحمة منه ـ سبحانه ـ إذن فتوبة العبد بين توبتين من الرب : توبة تشريع ، وتوبة قبول .

« والله يريد أن يتوب عليكم » ، مادام سبحانه قد شرع التوبة أيشرعها ولا يقبلها ؟! لا ، فمادام قد شرع وعلمنى أن أتوب فمعنى ذلك أنه فتح لى باب التوبة ، وَفَتْحُ باب التوبة من رحمة العليم الحكيم بخلقه ؛ لأن الحق حينما خلق الإنسان زوده دون سائر الأجناس بطاقة من الاختيارات الفاعلة ، أى أن الإنسان يستطيع أن يفعل هذه أو يفعل تلك ، وجعل أجهزته تصلح للأمر وللنهى ، فالعين صالحة أن ترى آية فى كون الله تعتبر بها ، والعين ـ أيضا ـ صالحة أن تمتد إلى المحارم . واللسان صالح أن تسب به ، وصالح أن تذكر الله به قائلا : لا إله إلا الله وسائر أنواع الذكر . واليد عضلاتها صالحة أن ترفعها وتضرب بها ، وصالحة لأن تقيل وترفع بها عاثرا واقعاً فى الطريق .

هذا هو معنى الاختيار فى القول وفى الفعل وفى الجوارح ، فالاختيار طاقة مطلقة توجهها إرادة المختار ، وإذا نظرت إلى اليد تجد أنك إذا أردت أن ترفعها ، فإنك لا تعرف شيئاً عن العضلات التى تستعملها كى ترفع اليد . فالذى يرفع يده ماذا يفعل ؟ وما العضلات التى تخدم هذا الرفع ؟ وأنت ترى ذلك مثلاً فى الإنسان الميكانيكى أو تراه فى رافعة الأثقال ـ الونش ـ التى ترفع الأشياء ، انظر كم عملية لتفعل ذلك ؟ أنت لا تعلم شيئاً عن هذه المسألة فى نفسك ، لكنك بمجرد أن تريد تحريك يدك فأنت تحركها وتطيعك . وعندما يريد المهندس أن يحرك الإنسان الآلى فهو يوجهه بحسابات معينة ليفعل كذا وكذا ، أما الإنسان فيحرك اليد أو القدم أو العين بمجرد الإرادة .

والحق حين يسلب قدرة الإنسان ـ والعياذ بالله ـ يصيبه بالشلل ، إنه يريد

فلا تنفعل له اليد أو غيرها ولا يعلم ما الذى تعطل إلى أن يذهب إلى الأطباء ليبحثوا فى الجهاز العصبى ، ويعرفوا لماذا لم تنفذ أعصابه الأوامر ، إنها عملية طويلة . إذن فالإنسان ـ عندما يريد الحركة ـ يوَجِّه الطاقة المخلوقة لله فقط ، فليس له فعل فى الحقيقة ، فأنا إنْ أثابنى الله وجازانى على طاعة فذلك لأنّى وجهت الآلة الصالحة للفعل إلى عمل الخير ، وعندما تسمع أنه لا أحد بيده أن يفعل شيئاً فهذا صحيح ؛ لأن أحداً لا يعرف كيف يفعل أى شىء ، إنه فقط يريد ، فإن وجهت الطاقة للفعل فهذا عملك أنت . فمعنى الاختيار ـ إذن ـ أن تكون صالحاً للفعل ومقابل الفعل وهو الانتهاء والترك .

وعندما يبين الحق سبحانه وتعالى لك وينزل لك المنهج الذى يقول لك : وجه طاقتك لهذه ولا توجهها لهذه ، معنى ذلك أن طاقتك صالحة للاثنين . إذن فأنت مخلوق على صلاحية أن تفعل وألا تفعل ، وما تركه المنهج دون أن يقول لك فيه « افعل » ولا « تفعل » فإن فعلته على أى وجه لا يفسد به الكون ولا تفسد به حركة حياتك فهذا هو المباح لك .

وحينما شرع الحق سبحانه التوبة أوضح : أنه إذا انفعل مريد لعمل شىء فوجه طاقته لعمل شىء مخالف ، قد تكون شهوته أو شِرّته قد غلبت عليه ، فتوجه فى ساعة ضعف إلى عمل شرّ ؛ لذلك شرعت التوبة.لماذا ؟ لأننا لو أخرجنا هذا الإنسان من حظيرة المطيعين بمجرد فعل أول عمل شرّ لصارت كل انفعالاته من بعد ذلك شروراً ، وهذا هو الذى نسميه « فاقداً » ، فيشرع الحق : إن فعلت ذنباً فلا تيأس ، فنحن سنسامحك ونتوب عليك .

فساعة شرع الله التوبة رحم المجتمع من شراسة أول عاصٍ ، فلو لم تأت هذه التوبة لكثرت المعاصى بعد أول معصية . ومقابل قول الحق : « والله يريد أن يتوب عليكم » وتنبيهه أن الذنوب التى فعلتها قبل ذلك يطهرك منها بالتوبة ، مقابل ذلك الذين يتبعون الشهوات ويريدون منك أن تأتى بذنوب جديدة ؛ لذلك يقول الحق سبحانه : « ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا » والميل هو مطلق عمل الذنوب . إنّك بذلك تميل عن الحق ؛ لأن الميل هو انحراف عن جادة مرسومة لحكيم ، والجادة هى الطريق المستقيم .

هذه الجادة من الذى صنعها ؟ إنه الحكيم . . فإذا مال الإنسان مرّة فربنا يعدله على الجادة مرّة ثانية ، ويقول له : « أنا تبت عليك » ، إنه ـ سبحانه ـ يعمل ذلك كى يحمى العالم من شرّه ، لكن الذين يتبعون الشهوات لا يحبون لكم فقط أن تميلوا لمرّة واحدة ، بل يريدون لكم ميلاً موصوفا بأنه ميل عظيم . لماذا ؟ . . لأن الإنسان بطبيعته ـ كما قلنا سابقاً ـ إن كان يكذب فإنه يحترم الصادق ، وإن كان خائناً فهو يحترم الأمين ، بدليل أنه إن كان خائناً وعنده شىء يخاف عليه فهو يختار واحداً أميناً ليضع هذا الشىء عنده .

إذن فالأمانة والصدق والوفاء وكل هذه القيم أمور معترف بها بالفطرة ، فساعة يوجد إنسان لم يقو على حمل نفسه على جادة القيم ، ووجد هذا الإنسانُ واحداً آخر قدر على أن يحمل نفسه على جادة القيم فهو يصاب بالضيق الشديد ، وما الذى يشفيه ويريحه ؟ إنه لا يقدر أن يصوِّب عمله وسلوكه ويقوّم من اعوجاج نفسه ؛ لذلك يحاول أن يجعل صاحب السلوك القويم منحرفاً مثله ، وإن كانت الصداقة تربط بين اثنين وانحرف أحدهما فالمنحرف يستخذى أمام نفسه بانحرافه ، ويحاول أن يشد صديقه إلى الانحراف كى لا يكون مكسور العين أمامه . وهو لا يريده منحرفاً مثله فقط بل يريده أشد انحرافاً ؛ ليكون هو متميزاً عليه . إذن فالقيم معترف بها أيضاً حتى لدى المنحرفين ، واذكروا جيداً أننا نقرأ فى سورة يوسف هذا القول الحكيم :

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾

(سورة يوسف)

هم فى السجن مع يوسف ، لكن لكلٍ سبب فى أنَّهم سجنوه ، فسبب هؤلاء الذين سألوا يوسف هو أنهم أجرموا ، لكن سبب وجود يوسف فى السجن أنه برىء . والبرىء كل فكره فى الله ، أما الذين انحرفوا ودخلوا معه السجن عندما ينظرون إليه يجدونه على حالة حسنة ، بدليل أن أمراً جذبهم وهمّهم فى ذاتهم بأن رأوا رؤيا ،

فذهبوا لمن يعرفون أنه إنسان طيب برغم وجوده معهم فى السجن ، فقد أعجبوا به بدليل أنهم قالوا له : « إنا نراك من المحسنين » . ومن يقول : « إنا نراك من المحسنين » لابد أن تكون عنده قدرة على تمييز القيم ، ثم قاسوا فعل يوسف عليها فوجدوها حسنة ، وإلا فكيف يُعرف ؟ . إذن فالقيم معروفة عندهم ، فلما جاء أمر يهمهم فى ذاتهم ذهبوا إلى يوسف .

ومثال ذلك : هناك لص لا يمل من السرقة ولا يكف عنها ، وبعد ذلك جاء له أمر يستدعيه للسفر إلى مكان غير مأمون ، فاللص فى هذه الحالة يبحث عن إنسان أمين ليقضى الليل عنده ولا يذهب للص مثله . إذن فالقيم هى القيم ، وعندما قال أصحاب يوسف فى السجن : « إنا نراك من المحسنين » ، استغل سيدنا يوسف هذه المسألة ووجدهم واثقين فيه فلم يقل لهم عن حكايتهم ابتداء ويؤول لهم الرؤيا ، بل استغل حاجتهم إليه وعرض عليهم الإيمان قال :

﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ ﴾

(سورة يوسف)

لقد نقلهم من حكايتهما لحكايته ، فهاداما يريدان استغلال إحسانه فلماذا لا يستغل حاجتهما له ويعظهما ويبشرهما بدين الله ؟ وكأنه يقول لهما : أنتما جئتما إلىّ لأنكما تقولان إننى من المحسنين . وأنتما لم تريا كل ما عندى بل إن الله أعطانى الكثير من فيضه وفضله ، ويقول الحق على لسان يوسف :

﴿ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة يوسف)

أى أن يوسف الصديق عنده الكثير من العلم ، ويقر لهما بفضل الله عليه : فليس هذا العلم من عندى :

﴿ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة يوسف)

وبعد ذلك يدعوهما لعبادة الإله الواحد كى يستنجدا به بدلاً من الآلهة المتعددة

التى يتخذانها معبودا لهما وهى لا تضر ولا تنفع .

﴿ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴾

(من الآية ٣٩ سورة يوسف)

إذن فالقيم واحدة ، والله يريد أن يتوب عليكم ، ولكن الذين يتبعون الشهوات يريدون أن تميلوا ميلاً عظيماً ، حتى لا تكونوا مميزين عليهم تميزاً يحقّرهم أمام أنفسهم ، فهم يريدون أن تكونوا فى الانحراف أكثر منهم ، لأنهم يريدون أن يكونوا متميزين فى الخير أيضاً ويقولون لأنفسهم : « إن كنا شريرين فهناك أناس شرٌّ منا » .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ ﴾

فسبحانه بعد أن قال : « يريد الله ليبين لكم » ليبصر ، و « الله يريد أن يتوب عليكم » ليغفر ، والآن يقول : « يريد الله أن يخفف عنكم » ليبسر ، وهى ثلاثة أمور هامة . ويقول سيدنا ابن عباس ـ رضى الله عنه وعن أبيه ـ : « فى سورة النساء ثمانى آيات لأمة محمد هى خير مما تطلع عليه الشمس وتغرب :

الأولى قول الحق :

﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ ﴾

(سورة النساء)

والثانية هى قول الحق :

﴿ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ ﴾

(سورة النساء)

والثالثة هى قول الحق :

﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ ﴾

(سورة النساء)

والرابعة هى قول الحق :

﴿ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ ﴾

(سورة النساء)

والخامسة هى قول الحق :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ ﴾

(سورة النساء)

والسادسة هى قوله سبحانه :

﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ ﴾

(سورة النساء)

والسابعة هى قوله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾

(سورة النساء)

والثامنة هى قوله تعالى :

﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾ ﴾

(سورة النساء)

هذه هى الآيات الثمانى التى لم تؤت مثلها أى أمة إلا أمة محمد عليه الصلاة والسلام . ومنها قول الحق : « يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفا » . وما هو ضعف الإنسان ؟ . الضعف هو أن تستميله المغريات ولا يملك القدرة على استصحاب المكافأة على الطاعة أو الجزاء على المعصية ، لأن الذى تتفتح نفسه إلى شهوة مايستبعد ـ غالباً ـ خاطر العقوبة ، وعلى سبيل المثال ، لو أن السارق وضع فى

ذهنه أن يده ستقطع إن سرق ، فسيتردد فى السرقة ، لكنه يقدر لنفسه السلامة فيقول : أنا أحتال وأفعل كذا وكذا كى أخرج .

إذن فضعف الإنسان من ناحية أن الله جعله مختارا تستهويه الشهوات العاجلة ، لكنه لو جمع الشهوات أو صعد الشهوات فلن يجد شهوة أحظى بالاهتمام من أن يفوز برضاء ولقاء الله فى الآخرة .

وقول الحق : « يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفا » نلحظ فيه أن التخفيف مناسب للضعف ، والضعف جاء من ناحية أن الإنسان أصبح مختاراً وخاصة فى أمور التكليف ، فالذى جعل فيه الضعف جعله مختاراً يفعل كذا أو يفعل كذا ولكل أمر مغرياته . ، ومغريات الشهوات حاضرة . ومغريات الطاعة مستقبلة . فهو يغلب دائماً جانب الحاضر على جانب المستقبل .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ ﴾

وعندما يريد الحق سبحانه وتعالى أن يلفت خلقه إلى أن يؤمنوا به يلفتهم إلى الكون ، ويلفتهم إلى ما خلق الله من ظواهر ليتأكدوا أن هذه الظواهر لا يمكن أن تكون قد نشأت إلا عن قادر عليم حكيم ، فإذا ما انتهوا إلى الإيمان به استقبلوا التكليف الذى يتمثل فى افعل كذا ولا تفعل كذا ، فحين يخاطبهم بالتكليف يجعل لأمر التكليف مقدمة هى أنك ألزمت نفسك فى أن تدخل إلى هذا التكليف ، ولم يرغمك الله على أن تكون مكلفاً ، وإنما أنت دخلت إلى الإيمان بالله باختيارك

وطواعيتك .ومادمت قد دخلت على الإيمان باختيارك وطواعيتك فاجعل إيمانك بالله حيثية كل حكم يحكم به الله عليك . من افعل كذا ولا تفعل كذا ، ولا تقل : لماذا أفعل كذا يارب ، ولماذا لا أفعل كذا يارب ؟ بل يكفى أن تقول : الذى آمنت به إلها حكيماً قادراً هو سبحانه مأمون على أن يأمرنى وأن ينهانى . ولذلك يجىء الحق دائما قبل آيات التكليف بقوله سبحانه : « ياأيها الذين آمنوا » فهو لم يكلف مطلق الناس ، وإنما كلف من آمن به .

إذن فحين يكلف من آمن به لا يكون قد اشتط وجار عليه لأنه قد آمن به بمحض اختياره .

وإذا لفتَّ إنسانا ونبهته وأمرته بأمر تكليفى مثل صَلِّ ، أو امتنع عن فعل المنكر فقال لك : « لا إكراه فى الدين » هنا يجب أن تقول له : أنت لم تفهم معنى قول الحق : « لا إكراه فى الدين » فأصل التدين والإيمان بالله ألاّ يكرهك أحد عليه ، بل ادخل إلى الإيمان بالله باختيارك ، لكن إذا دخلت إلى الإيمان بالله فالتزم بالسماع من الله فى « افعل » و « لا تفعل » فحين يقول الحق : « ياأيها الذين آمنوا » فهو يعطينا حيثيات التكليف ، أى علة الحكم . فعلّة الحكم أنك آمنت بالله إلهاً حكيماً قادراً . ومادمت آمنت بالله إلها حكيماً قادراً فسلم زمام الأوامر والنواهى له سبحانه ، فإن وقفت فى أمر بشىء أو نهى عن شىء فراجع إيمانك بالله .

إذن فقوله : « لا إكراه فى الدين » أى أنك حر على أن تدخل فى الإيمان بالله أو لا تدخل ، لكن إذا ما دخلت فإياك أن تكسر حكماً من أحكام الله الذى آمنت به ، وإن كسرت حكماً من أحكام الله تدخل معنا فى إشكال ارتكاب السيئات أو الذنوب .

والأحكام التى سبقت للذين آمنوا هى أحكام تعلقت بالأعراض وبإنشاء الأسرة على نظام طاهر نقى كى يأتى التكاثر تكاثراً نقياً طاهراً ، وتكلمت الآيات عن المحرمات من النساء وكذلك المحللات ؛ وهاهو ذا سبحانه يتكلم عن المال ، وهو الذى يقيم الحياة ، والمال كما نعرف ثمرة الجهد والمشقة ، وكل ما يتمول يعتبر مالاً ، إلا أن المال ينقسم قسمين : مال يمكن أن تنتفع به مباشرة ، فهناك من يملك

الطعام ، وآخر يملك الشراب ، وثالث يملك أثوابا، وهذا نوع من المال ينتفع به مباشرة ، وهناك نوع آخر من المال ، وهو « النقد » ولا ينتفع به مباشرة ، بل يُنتفع به بإيجاد ما ينتفع به مباشرة .

وهكذا ينقسم المال إلى رزق مباشر ورزق غير مباشر . والحق سبحانه وتعالى يريد أن يحمى حركة الحياة ، لأنه بحماية حركة الحياة يغرى المتحرك بأن يتحرك ويزداد حركة . ولو لم يحم الحق حركة الحياة ، وثمرة حركة الحياة فماذا يقع ؟ تتعطل حركة الحياة .

وإننا نلاحظ أن كل مجتمع لا يؤمن فيه على الغاية والثمرة من عمل الإنسان تقل حركة العمل فيه ، ويعمل كل واحد على قدر قوته . ويقول لنفسه : لماذا أعمل ؟ لأنه غير آمن . لكن إذا كان آمناً على ثمرة حركته يغريه الأمن على ماله على أن يزيد فى حركة العمل ، وحين تزيد حركة العمل فالمجتمع ينتفع وإن لم يقصد المتحرك . فليس ضرورياً أن يقصد الإنسان بكل حركته أن ينفع المجتمع . لا ، اجعله يعمل لنفع نفسه .

لقد ضربنا هذا المثل سابقاً : إنسان مثلاً عنده آلاف الجنيهات وبعد ذلك وضعها فى خزانة ثم تساءل : لماذا أضعها فى خزانة ؟ لماذا لا أبنى بها بيتاً آخر وأكرى منه شقتين ، فسيأتينى منه عائد ؟ هل كان المجتمع فى بال مثل هذا الإنسان ؟ لا ، إن باله مشغول بمصلحته ؛ لذلك فلنجعل مصلحة كل إنسان فى باله ، وهنا سيستفيد المجتمع بحركته قصد أو لم يقصد . لأنه ساعة يأتى ليحفر الأساس سيعطى أناساً أجورهم ؛ وساعة يأتى بالطوب يشتريه بثمن ، وساعة يبنى يعطى المهندس والعمال أجورهم ؛ لذلك أقول : اعمل لنفسك فى ضوء شرع الله ، وسينتفع المجتمع قهراً عنك .

ومن العجيب أنك تريد أن تنفع نفسك فيُبَيِّنَ لك ربنا : أنت ستنفع غيرك قبل أن تنتفع بعائد المنزل الذى بنيته ، ولا تظن أن أحداً سيأخذ رزق ربنا ولن يجريه على الخلق ، لا ، إن المجتمع سينتفع بالرغم منك .

إذن فمن حظ المجتمع أنْ نصون حركة الحياة . ونؤمن كل متحرك فى الحياة على ماله . لكن إن كنا حاكمين يجب أن تكون أعيننا مبصرة : أيكسب من حلّ أم لا ؟ فإذا كان الكسب حلالاً نشكره ، أما إذا كان يكسب من حرام ، فنحن نسائله ، وإن عمل على غير هذا توقفت حركة الحياة ، وإن توقفت حركة الحياة فهذا أمر ضار بالذين لايقدرون على الحركة ، لماذا ؟ لأن الله قسم المواهب على الناس ، فليس كل واحد من الناس يملك الطموح الحركى ، ولا يملك كل إنسان فكراً يخطط به ، فقد لا يكون فى المجتمع إلا قلة تخطط ، والباقون هم جوارح تنفعل للفكر المخطط ، والفكر يعمل لجوارح كثيرة ، فكذلك يكون هناك مفكر واحد هو الذى يضع خطة ينتفع بها الكثير من الناس .

إذن فلا بد أن نرعى حركة المتحرك وننميها ؛ لأن المجتمع ينتفع منها ، وإن لم يقصد المتحرك إلا مصلحة نفسه ، صحيح أن الذى ليس فى باله إلا نفسه إنما يحبط ثواب عمله ، وصحيح أن من يضع الناس فى باله إنما يُعطى ثمرة عمله ويأخذ ثواباً أيضاً من الله .

والحق سبحانه وتعالى يأتى فى مسائل المال ويوضحها توضيحا تامًّا ليحمى حركة الحياة ويُغرى الناس بالحركة ـ وبذلك يتعدد المتحركون وتتعدد الحركات ، ويستفيد المجتمع ، فقال : « يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل » وساعة تجد أمراً لجماعة فى جمع مأمور به فقسّم الأفراد على الأفراد .

مثال ذلك : عندما نقول لجماعة : اركبوا سياراتكم أى : ليركب كل واحد منكم سيارته ، والمدرس يدخل الفصل ويقول للتلاميذ : أخرجوا كتبكم . أى أن كل تلميذ عليه أن يخرج كتابه . فمقابلة الجمع بالجمع تقتضى القسمة آحاداً ، وقول الحق : « لا تأكلوا » فهذا أمر لجمع . و« أموالكم » أيضا جمع ، فيكون معناه : لا يأكل كل واحد ماله ، وكيف لا يأكل كل واحد منكم ماله ؟ ـ يوضح الحق : « بالباطل » . فيكون مطلوبا من كل واحد منكم ألا يأكل ماله بالباطل . والإنسان يأكل الشىء لينتفع به . والحق يوصيك ويأمرك : إياك أن تصرف قرشاً من مالك وتضيعه إلا فى حق ، هذا إذا كنا سنقابل المفرد ، فلا يأكل واحد منكم ماله

بالباطل ، بل يوجهه إلى الأمر النافع ، الذى ليس فيه حرمة ، والذى لا يأتى بعذاب فى الآخرة .

وإذا كان المراد أن لا أحد يأكل مال الآخر ، فسنوضحه بالمثل الآتى : لنفترض أن تلميذاً قال لمدرسه : يا أستاذ قلمى كان هنا وضاع . فيقول الأستاذ للتلاميذ : لا تسرقوا أقلامكم ، فهل معنى ذلك أن الأستاذ يقول : لا يسرق كل واحد قلمه أو لا يسرق كل واحد قلم أخيه ، إذن فيكون المعنى الثانى « لا تأكلوا أموالكم » ، أى لا يأكل كل واحد منك مال أخيه بالباطل .

وكيف يقول : « أموالكم »؟ ومادام مالهم فليس عليهم حرج ؟ لا ؛ لأن معناها المقصود : لا يأكل كل واحد منكم مال أخيه . ولماذا لم يقل ذلك وقال : « أموالكم » ؟ لأن عادة الأوامر من الحق ليست موجهة إلى طائفة خُلِقت على أن تكون آكلة ، وطائفة خُلِقت على أن تكون مأكولة ، بل كل واحد عرضة فى مرة أن يكون آكلاً لمال غيره ؛ ومرة أخرى يكون ماله مأكولاً . فأنا إذا أكلت مال غيرى فسوف يأكل غيرى مالى . فأكون قد عملت له أسوة ويأكل مالى أيضاً ، فكأنه سبحانه عندما يقول لك : لا تأكل مالك إنما ليحمى لك مالك .

إن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يصنع من المجتمع الإيمانى مجتمعاً واحداً . ويقول إن المال الذى عند كل واحد هو للكل . وأنك إن حافظت على مال غيرك حافظ غيرك على مالك . وأنت إن اجترأت على مال غيرك فسيجترىء المجموع على مالك . وأنت ساعة تأكل مال واحد تجرِّىء آلاف الناس على أن يأكلوا مالك . وحين لا تأكل مال غيرك كأنك لم تأكل مالك .

« لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل » وكلمة « أكل » معناها : الأخذ ؛ لأنّ الأكل هو أهم ظاهرة من ظواهر الحياة ؛ لأنها الظاهرة المتكررة ، فقد تسكن فى بيت واحد طوال عمرك ، وتلبس جلباباً كل ستة أشهر ، لكن أنت تتناول الأكل كل يوم ، وحينما نزلت الآية قال المسلمون : نحن لا نأكل أموالنا بالباطل . وتحرجوا أن يأكلوا عند إخوانهم . وبعد ذلك رفع الأمر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأوضح أن

أكل التكارم ليس بالباطل ـ أنزل الله قوله :

﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ﴾

(من الآية ٦١ سورة النور)

هذه رفعت عندهم الحرج ، إنما ساعة سمعوا أكل الباطل قالوا : لا آخذ حاجة من أحد إلا بمقابل .

وما هو « الباطل »؟ . . الباطل هو أن تأخذ الشيء بغير حقه . مثال ذلك الربا ، لأن معنى « ربا » أن واحدا عنده فائض وآخر يحتاج ، والمحتاج ليس عنده الأصل أنطلب منه أن يرد الأصل وزيادة ، ويعطى الزيادة لمن عنده ؟

كيف يتأتّى هذا ؟ هذا هو الآخذ بالربا ، أو الأخذ بالسرقة ، بالاختلاس أو بالرشوة أو بالغش فى السلع ، كل ذلك هو أكل مال بالباطل،وساعة تريد أن تأكل مالاً بالباطل ؛ كأنك تريد أن تتمتع بثمرة عمل غيرك ، وأنت بذلك تتعود على التمتع بثمرة عمل غيرك ، وتضمحل عندك قدرة العمل ويصير أخذك من غيرك . أخذاً لماله كَرْهاً وبغير وجه حق وبذلك تتعطل حركة متحرك فى الحياة وهو ذلك العاطل « البلطجى » ، ويخاف المتحرك فى الحياة وهو من تُفرض عليه الإتاوة فيقل ويضعف نشاطه فى الحياة ، كيف يكون شكل هذا المجتمع ؟ إن المجتمع فى هذه الحالة سيعانى من كرب وصعوبات فى الحياة .

فقوله سبحانه : « لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل » هو أمر لكل مسلم : لا ترابِ ، ولا تسرق ، ولا تغش ، ولا تدلس ، ولا تلعب ميسراً ، ولا تختلس ،

ولا ترتش ؛ لأن كل هذه الأمور هى أكل أموال بالباطل . وعندما ندقق فى مسألة لعب الميسر نجد أمراً عجيباً ؛ فالذين يلعبون الميسر يدعون أنهم أصدقاء ، وينتظر بعضهم بعضاً ويأكلون معاً ، وكل واحد منهم يجلس أمام الآخر وهو حريص أن يأخذ ما فى جيبه ، فأى صداقة هذه ؟ .

إذن فساعة يقول الحق : « لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل » ، وساعة يأمرك الحق : إياك أن يصعب عليك التكليف ؛ لأنه شاق عليك ، ولكن قدر ما يأخذه منك التكليف من تضييق حركة تصرفك ، وما يعطيك التكليف من تضييق حركة الآخرين ، الحق قال لك : لا تأخذ مال غيرك لكى لا يأخذ غيرك مالك ، وبذلك تكسب أنت ويكسب كل المجتمع ، فحين يصدر أمر لإنسان أن يكف يده عن السرقة فهو أمر للناس جميعاً كى يكفوا عن سرقة هذا الإنسان ؛ لذلك فحين تستقبل أى حكم عن الله لا تنظر إلى ما أخذه الحكم من حريتك ، ولكن انظر إلى ما أعطاه الحكم لصالحك من حرية الآخرين .

ومثال ذلك : حين يوضح الحق وينهى عن النظر إلى المرأة الأجنبية فإياك أن تمد عينك إلى محارم غيرك ، هو أمر لا يخصك وحدك ، ولكنه أمر لملايين الناس ألا يمدوا عيونهم إلى محارمك ، وعندما توازن الأمر فأنت الذى تكون أكثر كسباً .

إننى لذلك أقول دائماً : لا تنظر إلى ما فى التكليف من مشقة أو إلى ما أُخذ منك ، ولكن انظر فيه إلى ما يعطى لك ؛ فإن نظرت هذه النظرة وجدت كل تكليف من الحق هو ربح لك أنت . وإلا لو أننا أطلقنا يدك فى الناس جميعاً لا بد أن تقدر أننا نطلق أيدى الناس جميعاً فيك . وأنت إذا أطلقت يدك فى الناس فلن تؤثر فيهم مثلما يؤثرون فيك لو أطلقوا أيديهم فيك وفيما يخصك ، فمن مصلحتك ألا تطلق يدك فى الناس .

« يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم » وكلمة « إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم » أى إلّا فى النفعية المتبادلة تبادل الأعواض،فشىء عوض شىء . وجاءت التجارة ؛ لأن التجارة هى

الحلقة الجامعة لأعمال الحياة ؛ فالتاجر هو وسيط بين من ينتج سلعة ومن يستهلكها . والسلع فى حركتها إنتاج واستهلاك . والإنتاج قد يكون زراعيا او صناعياً أو خدمياً . إذن فالتجارة جامعة لذلك كله .

وكلمة « عن تراض » تدل على أن رضا النفس البشرية فى الأعواض مشروط ، حتى ما أخذ بسيف الحياء يكون حراما ؛ لذلك أقول : على كل واحد أن يغربل إيمانه ، وينظر هل حياته فى أعواض الأموال وأعواض التجارة وأعواض المبادلات مستوية أو غير مستوية ؟ فإن لم تكن مستوية ؛ فعليه أن يفكر فيها قليلاً حتى يُعطى كل ذى حق حقه . وحتى لا يدخل فى دائرة حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إلىّ ، فلعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضى له على نحو ما أسمع ، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هى قطعة من النار فليأخذها أو ليتركها »[1] .

ويتابع الحق : « ولا تقتلوا أنفسكم » وهنا أيضاً مقابلة جمع بجمع ، ويعنى : لا يقتل كل واحد منكم نفسه ، وهذا ما يفعله المنتحر ـ ولا يقتل نفسه إلا إنسان وجد نفسه فى ظرف لا يستطيع فى حدود أسبابه أن يخرج منه . ونقول له : أنت نظرت لنفسك كإنسان معزول عن خالق أعلى ، لكن المؤمن لا يعزل نفسه عن خالقه ؛ فساعة يأتيه ظرف فوق أسبابه ولا يقوى عليه فعليه أن يفكر : وهل أنا فى الكون وحدى ؟ لا ، إن لى ربًا . ومادام لى رب فأنا لا أقدر وهو ـ سبحانه ـ يقدر ، وهنا يطرد فكرة الانتحار ؛ لأن المنتحر هو إنسان تضيق أسبابه عن مواجهة ظروفه فيقتل نفسه .

وإن فائدة الإيمان أنه ساعة يأتى ظرف عليك وتنتهى أسبابك تقول : إن الله لن يخذلنى وهو يرزقنى من حيث لا أحتسب ، ويفتح لى أبواباً ليست فى بالى ، وضربنا مثلاً كى نقرب المعنى ، وقلنا : هب أن إنساناً يسير فى الطريق ومعه « جنيه واحد »

---

(١) رواه مالك فى الموطأ ورواه أحمد فى مسنده ورواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه عن أم سلمة .

فى جيبه ، ثم ضاع الجنيه ، وليس فى بيته إلا هو ؛ لذلك يحزن جداً على ذلك الجنيه . لكن من يضيع منه « جنيه » وعنده فى البيت خمسة « جنيهات » فالمصيبة تكون خفيفة ، كذلك من فقد أسبابه فعليه أن يخفف الأمر على نفسه فلا ييأس ، فَلِمَ يقتل نفسه ؟ الله يقول فى الحديث القدسى :

(بادَرَنى عبدى بنفسه حرمت عليه جنتى)[1] .

وهل أنت من وهبت الحياة لنفسك ؟ لا ، ولذلك فواهب الحياة هو الذى يأخذها ، ومن ينتحر لا يدخل الجنة ، لأنه لم يتذكر أن له إلهاً . ولنذكر هنا موقف قوم موسى عليه السلام عندما خرجوا ، وطاردهم قوم فرعون . فماذا قال قوم موسى ؟ قالوا :

﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾

(من الآية ٦١ سورة الشعراء)

وهذا كلام صحيح فأمامهم البحر ومن ورائهم فرعون ، وهم قد قالوا ذلك بأسبابهم وبشريتهم . لكن ماذا قال سيدنا موسى ؟

﴿ قَالَ كَلَّا ﴾

(من الآية ٦٢ سورة الشعراء)

و« كلا » هذه نفى ، وكيف يقول موسى : « كلا » وما رصيدها ؟ إنه لم يقل : « كلا » ببشريته ، ولكن قالها برصيده من الإيمان بالإله العظيم فقال :

﴿ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾

(من الآية ٦٢ سورة الشعراء)

إذن فقوله : « ولا تقتلوا أنفسكم » أى ولا يقتل كل واحد منكم نفسه ؛ لأنك لا تقتل نفسك إلا إذا ضاقت أسبابك عن مواجهة ما تعانيه ، وهذا يدل على أنك

---

(١) رواه البخارى فى الجنائز .

عزلت نفسك عن ربك ، ولو ظللت على الإيمان بأن لك خالقاً لانفرجت عنك الكروب ، وأى مسألة تأتى تقول : « إن معى ربى سيهدين » .

إن الإيمان يعطيك صلابة استقبال الصعاب . وقد تأخذ « ولا تقتلوا أنفسكم » معنى آخر أى ، ولا تؤدوا بأنفسكم لأن تقتلوا ، أى لا تلق بنفسك إلى التهلكة ، أو « ولا تقتلوا أنفسكم » على أن المؤمنين هُم وحدة إيمانية ، أو أنّ المشرع لهذه الوحدة قال : الذى يَقْتل يُقتل فإياك أن تقتل نفسك ، أى لا تقتل غيرك حتى لا يصير الأمر إلى أنك تَقْتُل نفسك لأنه سيقتص منك .

فقوله : « ولا تقتلوا أنفسكم » يعنى : لا تفعلوا ما يؤدى بكم إلى القتل ، ويحنن الحق الإنسان على نفسه وليس على الناس فحسب ، فلا يقول لك : لا تَقْتُل حتى لا تُقْتَل ، لأنه سبق أن قال :

﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِي ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾

(سورة البقرة)

وعندما يعرفْ القاتل أنه إن قَتَلَ يُقْتَل ، فهو يتجنب ذلك ، ونلحظ أن الحق قال فى آية أخرى :

﴿ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ ﴾

(من الآية ٦١ سورة النور)

وهل أنا سأسلم على نفسى أو على الناس الداخل عليهم ؟ إن الإنسان يسلم على هؤلاء الناس ، وعندما تقول : « السلام عليكم » ، يعنى الأمان لكم . فسيقولون لك: « وعليكم السلام » فكأنك قد سلمت على نفسك . أو أن الحق قد جعل المؤمنين وحدة واحدة ، ومعنى « وحدة » يعنى أن ما يحدث لواحد يكون للكل .

إذن فقوله : « ولا تقتلوا أنفسكم » أى ولا يقتل واحد منكم نفسه ، فتصلح « ولا تقتلوا أنفسكم » بمعنى : ولا يقتل واحد منكم نفسه بأن ينتحر ، هذه واحدة ، ولا يقتل واحدٌ منكم نفسه بأن يلقى بها إلى التهلكة ، أو لا يقتل واحد منكم نفسه بأن يقتل غيره فيقتل قصاصاً ، أو لا تقتلوا أنفسكم يعنى : لا يقتل أحد منكم نفس

غيره لأنكم وحدة إيمانية وليس واحداً بعينه هو المأمور بل الكل مأمور ، فلا يقتل واحد منكم نفس غيره .

ويذيل الحق الآية : « إن الله كان بكم رحيماً » . وبالله ، ساعة ينهانى الحق عن أن أقتل نفسى أو أقتل غيرى ، أليست هذه منتهى رحمة الصانع بصنعته ؟ إنها منتهى الرحمة .

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ ﴾

« ذلك »:« ذا » وحدها للإشارة ، و « الكاف » للخطاب ، والخطاب إذا أُفرد ، فالمراد به خطاب الله لرسوله ، والمؤمنون فى طى ذلك الخطاب . ومرة يقول : « ذلكم » أى أنه يخاطبنا نحن ، مثل :

﴿ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ ﴾

(من الآية ٢٣٢ سورة البقرة)

وذلك إشارة لما تقدم مباشرة فى الآية الخاصة بقتل النفس ، وكذلك ما قبلها وهو أكل الأموال . والبعض يأخذها لكل ما تقدم من أول قوله : « ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف » ، والبعض الآخر يأخذها من أول الأوامر والنواهى من أول السورة إلى هنا ، وكلها تصح .

« ومن يفعل ذلك عدواناً وظلماً » . والعدوان هو التعدى ، والتعدى قد يكون ظلماً وقد يكون نسياناً . ومن يتعدى بالظلم يكون عارفاً ويأخذ حق غيره ، أما

التعدى بالنسيان فيقتضى أن يراجع الإنسان سلوكه ، لماذا ؟ لأن العاقبة مريرة .

وقوله تعالى : « ومن يفعل ذلك عدواناً وظلماً فسوف نصليه ناراً » والفعل إذا أسند لفاعله أخذ قوته من فاعله . فعندما يقول لك أحد : إن عملت هذه فابنى الصغير سيصفعك صفعة ، وهو قول يختلف عن التهديد بأن يضربك شاب قوى ، لماذا ؟ لأن قوة الحدث نأخذها من فاعل الحدث ، من الذى يُصْلى المعتدى النار ؟ إنه الله ، وسبحانه سيجعله يصطلى بها .

ويقول الحق : « وكان ذلك على الله يسيرا » لأن فعل الله ليس عن معالجة بل ينفذ فوراً . ونعلم أن فعل المعالجة هو كل فعل يحتاج لوقت ، فهناك عمل يحتاج لساعة وكل دقيقة من هذه الساعة تأخذ جزئية من العمل ، وعندما تقسم العمل لستين جزئية ، ينتهى العمل فى ساعة ، وإن كان العمل ينتهى فى عشرة أيام تقول له : أسقط أوقات الراحة وعدم مزاولة العمل ، وقسم العمل على الباقى من الوقت . هذا هو ما يسمى علاجاً ؛ لأن ذلك من عمل الإنسان ، لكن عمل الله يختلف ، فالحق يقول للشيء : « كن فيكون » إذن فكل فعل على الله يسير مادامت المسألة : « كن فيكون » قال سبحانه :

﴿ مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾

(من الآية ٢٨ سورة لقمان)

وسبحانه يوضح : أنا لا أُوجِد كل واحد مثلما خلقت آدم وأشكله وأخلقه ثم أبعثه ، لا ، بل كل الخلق كنفس واحدة .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ ﴾

هذه الآية هى إحدى ثمانى آيات قال عنها ابن عباس ـ رضى الله عنه ـ : فى هذه السورة ـ سورة النساء ـ ثمانى آيات خير لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس أو غربت ، وقلنا : إن هذه الآيات تبدأ بقوله سبحانه : « يريد الله ليبين لكم » ، « والله يريد أن يتوب عليكم » ، « يريد الله أن يخفف عنكم » ، ثم جاءت : « إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه » . و « الاجتناب » ليس معناه عدم مزاولة الحدث أو الفعل ، ولكن عدم الاقتراب من مظان الحدث أو الفعل حتى يسدّ المؤمن على نفسه مخايلة شهوة المعصية له وتصوره لها وترائيها له .

هذه الآيات الكريمات كانت خيراً لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس أو غربت ، لأنها تحمى من حمق الاختيار الذى وجد فى الإنسان حين لا يلتزم بمنهج الله ، ولو أن الإنسان كان مسيَّراً وَمُكْرَهاً على الفعل لارتاح من هذا الاختيار . وتعب الإنسان جاء من ناحية أن اغترّ بميزته على سائر خلق الله ، والميزة التى ميَّز الله بها الإنسان هى العَقل الذى يختار به بين البديلات . بينما سائر الأجناس كلها رضيت من الله أن تكون مسخرة مقهورة على ما جعلها له بدون اختيار . ونعرف أن الحق قال :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾

(سورة الاحزاب)

فالإنسان قد ظلم نفسه ، لأنه أرجح نفسه عند اختيار الشهوة أو اختيار مرادات منهج الله ، بينما المقهورون أو المسخرون ليست عندهم هذه المسألة . وكل كائن منهم يقوم بعمله آلياً وارتاح من حمق الاختيار ـ فهذه الآيات طمأنت الإنسان على أنه إن حمق اختياره فى شىء فالله يريد أن يبصره ، والله يريد أن يتوب عليه ، والله يريد أن يخفف عنه . والله يريد إن اجتنب الكبائر أن يرفع عنه السيئات ويكفرها . كل هذه مطمئنات للنفس البشرية حتى لا تأخذها مسألة اليأس من حمق الاختيار ، فيوضح : أنا خالقك وأعرف أنك ضعيف لأنَّ عندك مسلكين : كل مسلك يغريك ، تكليف الله بما فيه من الخير لك وما تنتظره من ثواب الله فى الآخرة يُغرى ، وشهوة النفس العاجلة تُغرى .

ومادامت المسألة قد تخلخلت بين اختيار واختيار فالضعف ينشأ ؛ لذلك يوضح

سبحانه : أنا أحترم هذا فيك لأنه وليد الاختيار ، وأنا الذى وهبت لك هذا الاختيار .

والحق حين وهب الاختيار لهذا الجنس الذي هو سيد الأجناس كلها ، يُحبُّ أن يأتى لربه راغبا محبًا : لأن هناك فارقاً بين أن يسخر المسخَّر ولا يستطيع أن ينفلت عما قدر له أن يعمله ، وتلك تؤديها صفة القدرة لله ، لكن لم تعط لله صفة المحبوبية ؛ لأن المحبوبية أن تكون مختاراً أن تطيع ومختاراً أن تعصى ثم تطيع ، هذه صفة المحبوبية، والله يريد من الإنسان أن يثبت بطاعته صفة المحبوبية له سبحانه ، فالإنسان المحب لمولاه برغم أنه مختار أن يفعل الطاعة أولا يفعلها ينحاز بالإيمان إلى جانب الطاعة .

« إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه » كأن الله بعد تكليفاته فى أمور الأعراض والأموال وتكليفاته فى الدماء من قتل النفس وغيرها ، أوضح : إياكم أن تستقبلوا الأشياء استقبالاً يجعلكم تيأسون من أنكم قد تعجزون عن التكليف لبعض الأمور ، فأنا سأرضى باجتناب الكبائر من المساوى : فالصلاة إلى الصلاة كفارة لما بينهما ، والجمعة للجمعة كفارة ، ومن رمضان لرمضان كفارة ، لكن بشرط ألا يكون عندكم إصرار على الصغائر لماذا ؟ لأنك إن قدرت ذلك فقدر أنك لا تقدر عَلى استبقاء حياتك إلى أن تستغفر ، فلا تقل : سأفعل الذنب ثم أستغفر ، هذه لا تضمنها ، وأيضا تكون كالمستهزىء بربّه .

« إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم » ـ فى السيئات يقول : « نكفر عنكم سيئاتكم » وقلنا : إن « الكفر » هو « الستر » أى يسترها ـ ومعنى نسترها يعنى لا نعاقب عليها ، فالتكفير إماطة للعقاب ، والإحباط إماطة للثواب . فإن ارتكب إنسان أمراً يستحق عليه عقاباً وقد اجتنب الكبائر يكفر عنه الله أى يضع ويستر عنه العقاب ، أماّ مَن عمل حسنة ولم يقبلها الله ، فهو يحبطها ، إذن فالتكفير ـ كما قلنا ـ إماطة للعقاب ، و« الإحباط » إماطة للثواب كما فى قوله :

﴿ فَأُوْلَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ ﴾

(من الآية ٢١٧ سورة البقرة)

أى ليس لهم على تلك الأعمال ثواب ؛ لأنهم فعلوها وليس فى بالهم الذى يعطى الثواب وهو الله . بل كان فى بالهم الخلق ، ولذلك يقول النبى صلى الله عليه وسلم :

(فعلت ليقال وقد قيل) .

أنت فعلت ليقال وقد قيل ، وقالوا عنك إنك محسن كبير ، قالوا : إنك بنيت المسجد ، وقرأوا اللافتة التى وضعتها على المسجد وسط احتفال كبير . ويقول الحق :

﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ ﴾

(سورة الفرقان)

أنت فعلت ليقال وقد قيل ، ولذلك فالذين عملوا مثل هذه ووضعوا لافتات من رخام عليهم أن يفطنوا لهذا الأمر ، وإن كان الواحد منهم حريصاً على أنه يأخذ الثواب من يد الله فليرفع هذه اللافتة ويسترها وتنتهى المسألة ، فالله سبحانه وتعالى يحب ممن يتصدق أن يكون كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شأن السبعة الذين يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله منهم :

(ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه)[1] .

فأنت حين تتصدق لماذا تفضح من يتقبل الصدقة . والحق يقول : « إن تجتنبوا » ، و « الاجتناب » هو إعطاء الشىء جانباً . ولذلك يقولون : فلان ازورّ جانبه عنى ، أى أنه عندما قابلنى أعطانى جانبه ، والمراد فى قوله : « إن تجتنبوا » هو التباعد ، والحق ساعة يطلب منك ألا تصنع الحدث ويطلب منك بأسلوب آخر أن تجتنبه ، فهذا يدل على أن الاجتناب أبلغ ، لأن الاجتناب معناه ألا تكون مع المنهى عنه فى مكان واحدٍ فعندما يقول الحق :

﴿ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة الحج)

---

(١) رواه البخارى ومسلم وأحمد والنسائى والترمذى .

وعندما يقول :

﴿ وَٱجْتَنِبُواْ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة الحج)

فاجتنبوه أى : ابتعدوا عنه . لماذا ؟ لأن حمى الله محارمه . .

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمها كثير من الناس فمن اتقى المشبهات فقد استبرأ لعرضه ودينه ومن وقع فى المشبهات وقع فى الحرام كراع يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه ألا وإن لكل ملك حمى ألا وإن حمى الله تعالى فى أرضه محارمه . . »[1] .

والحق يقول :

﴿ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾

(من الآية ٩٠ سورة المائدة)

واجتنابه يكون بألا توجد معه فى مكان واحد يخايلك ويشاغلك ويتمثل لك ، فعندما تكون مثلاً فى منطقة الذين يشربون الخمر يقول لك الحق : اجتنبها . أى لا تذهب إليها ؛ لأن الخمر عندما توجد أمامك وترى من يشربون وهم مستريحون مسرورون . . فقد تشربها ، لكن عندما تجتنب الخمر ومجالسها فأنت لا تقع فى براثنها وإغرائها ، ولذلك قلنا : إن الاجتناب أبلغ من التحريم ، وهناك أناس يبررون الخمر لأنفسهم ويقولون : إن الخمر لم يرد فيها تحريم بالنص !! نقول لكل واحد منهم : حسبك أن شرب الخمر قُرن بالرجس من الأوثان ، فالحق يقول :

﴿ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾

(من الآية ٣٦ سورة النحل)

فاجتناب الطاغوت ليس معناه ألا تعبده ، بل إياك أن تراه ، إذن فاجتناب الخمر ليس بألا تشربها ، بل إياك أن تكون فى محضرها .

(١) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجة .

« والكبائر » جميع « كبيرة » ، ومادام فيه « كبيرة » يكون هناك مقابل لها وهى « صغيرة » و« أصغر » ، فالأقل من « الكبيرة » ، ليس « صغيرة » فقط ، لأن فيه « صغيرة » ، وفيه « أصغر » من « الصغيرة » وهو « اللمم » .

والحق يقول : « إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم » و« السيئات » منوطة بالأمر الصغير وبالأصغر ، لكن هذه المسألة وقف فيها العلماء ، قالوا : معنى ذلك أننا سنغرى الناس بفعل السيئات ماداموا قد اجتنبوا الكبائر فقد يفعلون الصغائر . نقول : لا ، فالإصرار على الصغيرة كبيرة من الكبائر ؛ لذلك لا تجز الصغائر لنفسك ؛ فالحق يُكَفِّر ما فلت منك فقط ؛ ولذلك يقول الحق :

﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ ﴾

(من الآية ١٧ سورة النساء)

يفعلون الأمر السيىء بدون ترتيب وتقدير سابق وهو سبحانه قال بعد ذلك :

﴿ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ ﴾

(من الآية ١٨ سورة النساء)

إذن فمعنى أنك تصرّ على صغيرة وتكررها إنّها بذلك تكون كبيرة ، وإن لم نجتنب الكبائر ووقعنا فيها فماذا يكون ؟ . يقول العلماء الذين جعلهم الله هبات لطف ورحمة على الخلق : لا كبيرة مع الاستغفار ، ولا صغيرة مع الإصرار . فإن أخذت هذه فخذ تلك ، خذ الاثنتين ، فلا كبيرة مع الاستغفار ، ومقابلها لا صغيرة مع الإصرار .

وحينما أراد العلماء أن يعرفوا الكبيرة قالوا : الكبيرة هى ما جاء فيها وعيد من الله بعذاب الآخرة ، أو جاء فيها عقوبة كالحد مثلاً فهذه كبيرة ، والتى لم يأت فيها حد فقد دخلت فى عداد السيئة المغفورة باجتناب الكبيرة أو الصغيرة أو الأصغر .

وأن سيدنا عمرو بن عبيد عالم من علماء البصرة وزاهد من زهادها ، وهو الذى قال فيه أحد الخلفاء : كلهم طالب صيد غير عمرو بن عبيد ، أى أن كل العلماء

يذهبون إلى هناك ليأخذوا هبات وهدايا إلا عمرو بن عبيد ، إذن فقد شهد له ، هذا العالم عندما أراد أن يعرف مدلول الكبيرة ، وأصر ألا يعرف مدلولها بكلام علماء ، بل قال : أريد أن أعرفها من نص القرآن ، الذى يقول لى على الكبيرة يأتينى بنص من القرآن . ودخل ابن عبيد البصرى على سيدنا أبى عبدالله جعفر بن محمد الصادق ، ونعرف سيدنا جعفر الصادق وهو أولى الناس بأن يُسأل ؛ لأنه عالم أهل البيت ، ولأنه قد بحث فى كنوز القرآن وأخرج منها الأسرار وعاش فى رحاب الفيض ، فقال ابن عبيد : هذا هو من أسأله ، فلما سلّم وجلس قرأ قول الله سبحانه :

﴿ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ﴾

(من الآية ٣٢ سورة النجم)

ثم سكت !! فقال له سيدنا أبو عبدالله جعفر الصادق : ما أسكتك يا بن عبيد ؟ قال : أحب أن أعرف الكبائر من كتاب الله .

وانظروا إلى الثقة بمعرفة كنوز القرآن ، شاعة قال له : « أحب أن أعرف الكبائر من كتاب الله » . قال أبو عبدالله : نعم ، أى على خبير بها سقطت ، أى جئت لمن يعرفها ، ثم قال : « الشرك بالله ، قال تعالى :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾

(من الآية ٤٨ سورة النساء)

وقال تعالى :

﴿ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ ﴾

(من الآية ٧٢ سورة المائدة)

وأضاف : واليأس من رحمة الله فإن الحق قال :

﴿ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾

(من الآية ٨٧ سورة يوسف)

وهكذا جاء سيدنا أبو عبدالله جعفر الصادق بالحكم وجاء بدليله ، وأضاف : ومن أمن مكر الله ؛ لأنه سبحانه قال :

﴿ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾

(من الآية ٩٩ سورة الأعراف)

والكبيرة الرابعة : عقوق الوالدين ؛ لأن الله وصف صاحبها بأنه جبار شقى ، قال تعالى :

﴿ وَبَرًّا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ ﴾

(سورة مريم)

وقتل النفس . قال تعالى :

﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا ﴾

(من الآية ٩٣ سورة النساء)

وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات . قال تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾

(سورة النور)

وأكل الربا . قال تعالى :

﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ﴾

(من الآية ٢٧٥ سورة البقرة)

والفرار يوم الزحف ، أى إن هوجم المسلمون من أعدائهم وزحف المسلمون فرّ واحد من الزحف . فقد قال تعالى فى شأنه :

﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة الأنفال)

وأكل مال اليتيم . قال تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾ ﴾

(سورة النساء)

والزنا . قال تعالى :

﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ ﴾

(جزء من الآية ٦٨ ، والآية ٦٩ سورة الفرقان)

وكتمان الشهادة . قال تعالى :

﴿ وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ﴾

(من الآية ٢٨٣ سورة البقرة)

واليمين الغموس وهو أن يحلف إنسان على شيء فعله وهو لم يفعله أو أقسم أنه لم يفعله ، وهو قد فعله ، أى القسم الذى لا يتعلق بشيء مستقبل . قال تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

والغلول أى أن يخون فى الغنيمة . قال تعالى :

﴿ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾

(من الآية ١٦١ سورة آل عمران)

وشرب الخمر ؛ لأن الله قرنه بالوثنية . قال تعالى :

﴿ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾

(من الآية ٩٠ سورة المائدة)

وترك الصلاة ؛ لأن الله قال :

﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ ﴾

(سورة المدثر)

ونقض العهد ، وقطيعة الرحم وهو مما أمر الله به أن يوصل . قال تعالى :

﴿ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ

وَيُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾

(سورة البقرة)

إذن فكل هذه ، هى الكبائر بنص القرآن ، وكل كبيرة معها حكمة ، عرضها لنا سيدنا ابن عبيد لأنه خاطب عالماً ، فإذا ما نظرنا إلى الاستنباط الذى جاء به سيدنا ابن سيدنا « جعفر الصادق » عندما سأله ، ثم يجيبه بهذا الترتيب وبشجاعة من يقول لابن عبيد . . « نعم » أى إن جوابك عندى ، ثم يذكرها رتيبة بدون تفكير ، وهذا دليل على أنها مسألة قد اختمرت فى ذهنه ، وخصوصاً أنها ليست آيات رتيبة مسلسلة متتابعة ! بل هى آيات يختارها من هنا ومن هناك ، مما يدل على أنه يُعايش أسرار القرآن .

لقد نشأ هذا الرجل فى بيت سيدنا جعفر الصادق وهو الذى وضع للمؤمن منهجاً بحيث لا يصيبه شىء فى نفسه إلا وجد له علاجاً ودواء فى كتاب الله ، إنه وجد أن الزوايا التى تعكّر على الإنسان أنّه يخاف من شىء ، والذى يخاف من شىء يكون هذا الشىء ـ غالبا ـ محدوداً معروفاً .

أنا أخاف من الشىء الفلانى ، ولكنَّ واحداً يصيبه غمّ وهمّ لا يدرى سببه ، فيقول لك : أنا مغتمّ دون أن أعرف السبب . إذن ففيه انقباض لا يعرف سببه ، وهناك مثلاً إنسان يكيد له أناس كثيرون ويمكرون له ويأتمرون به ، وهناك ثالث يحب الدنيا ويريد أن تكون الدنيا عنده ، كل هذه هى مشاغل النفس البشرية : أن تخاف من شىء ، أن تغمّ من شىء ، أن تشفق من مكر بك وكيد لك ، أن تتطلب أمراً من أمور الدنيا ، وسيدنا جعفر هو الذى قال : عجبت لمن خاف ولم يفزع إلى قول الله سبحانه :

﴿ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾

(من الآية ١٧٣ سورة آل عمران)

انظر لاستنباط الدليل ، الذى يقوله سيدنا جعفر : فإنى سمعت الله بعقبها يقول :

﴿ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ ﴾

(من الآية ١٧٤ سورة آل عمران)

انظر دقة الأداء ، يقول : سمعت الله ، ولم يقل:قرأت ، كأن الإنسان ساعة يقرأ قرآناً لابد أن يتأكد أن الله هو الذى يتكلم . وجلال القديم يغطى على جدية الحادث ، فالذى يقرأ أمامك حادث ، لكنّه يقرأ كلام الله ، إذن فجلال القديم يغطى على جدية الحادث . ويضيف سيدنا جعفر : وعجبت لمن اغتم ولم يفزع إلى قول الله سبحانه :

﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾

(من الآية ٨٧ سورة الأنبياء)

ثم يقول : فإنى سمعت الله بعقبها يقول :

﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾

(سورة الأنبياء)

ويضيف سيدنا جعفر : وعجبت لم مُكِرَ به ولم يفزع إلى قول الله سبحانه :

﴿ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة غافر)

فإنى سمعت الله بعقبها يقول :

﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ﴾

(من الآية ٤٥ سورة غافر)

وعجبت لمن طلب الدنيا كيف لا يفزع إلى قول الله سبحانه :

﴿ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾

(من الآية ٣٩ سورة الكهف)

فإنى سمعت الله بعقبها يقول :

﴿ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ ﴾

(من الآية ٣٩ وجزء من الآية ٤٠ سورة الكهف)

هذه هى الاستنباطات الإيمانية ، والاستنباطات هنا كالاستنباطات هناك ، وإذا ما نظرت إلى الاستنباطات التى قالها سيدنا جعفر تجدها تغطى زوايا النفس الاجترائية ؛ لأن التكليف حينما يأتى يحدّ حركة الإنسان عن الشهوات ، فالآيات

جاءت لتحدّ من الاجتراء ، وتجدها تأخذ بالقمة من أول الاجتراء على الوحدانية فى الألوهية إلى قطيعة الرحم ، وقد غطت الآيات كل جوانب الاجتراءات فى النفس البشرية ، أول اجتراء : هو الشرك . . لأنه قال : « إن الشرك لظلم عظيم » والظلم الذى نعرفه : أنك تحكم بشىء للغير وليس من حقه ، فبالله عندما تحكم أن ربنا له شريك ، أليس هذا أعظم الظلم ، وهو ظلم لنفسك ، فإياك أن تظن أنك تظلم الله ؛ لأن ربنا أغنى الشركاء عن الشرك ؛ ولذلك يقول فى الحديث القدسى :

(أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملا أشرك فيه معى غيرى تركته وشركه)[1] .

إن هذا ظلم لنفسك ؛ لأنك حين تعتقد أنّ لله شركاء فقد أتعبت نفسك تعب الأغبياء . واقرأ قول الله :

﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الزمر)

فعبد مملوك لعشرة أسياد ، وياليت العشرة الأسياد متفقون ، بل هذا يقول له : اذهب ، وهذا يقول له : تعال ، إذن فقد أتعب نفسه وأرهقها . إذن فقد ظلمها . . قال تعالى :

﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة يونس)

إن الإيمان بإله واحد يجعلك غير خاضع إلا لوجهة واحدة ، ولا أوامر من جهة أخرى أبداً ، إذن فقد أرحت نفسك ، وهذه قضية يثبتها الواقع ؛ لأن الله قد أنزل فى قرآنه المحفوظ المتلو المقروء :

﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا ﴾

(من الآية ١٤ سورة طه)

فالمؤمن يقول : هذه كلمة صدق ، والكافر يقول ـ والعياذ بالله ـ : هذه الكلمة غير صدق ، والمسألة على أى تقدير منتهية ، واحد جاء وأخذ الكون وقال : لا يوجد

---

(١) رواه مسلم وابن ماجه عن أبى هريرة .

إله إلا أنا ، والذى أخذ منه الكون إله ولكن أَعَلِمَ أن الكون أخذ منه أم لم يعلم بذلك ؟ إن لم يكن قد درى تكون مصيبة فى هذا الإله ، وإن كان قد درى فما الذى أسكته ؟ فالمسألة ـ إذن ـ محلولة ، هذه مسألة الشرك .

إن الإيمان بوحدانية إله جاءت لتريح النفس البشرية من كثرة تلفتاتها إلى آلهة متعددين ، إنّه هو الحق ، وهو الذى ينفع ويضر ، إنكم حين تكونون لإله واحد كمثل العبد يكون لمالك واحد ، أما عندما تعبدون آلهة متعددين تكونون كمثل العبد الذى له شركاء وياليتهم متفقون ؛ بل هم مختلفون .

بعد ذلك يأتى فى المرحلة الثانية وهى : اليأس من رَوْح الله ، و« الرَّوْح » من « الرائحة » وهى النسيم ، فساعة تكون فى ضيق والجو حار تلتفت لتجد واحة فتأوى إلى ظلها وهوائها وتلجأ إلى حضنها ، هذه الراحة يعطيها الله لمن لا ييأس من روْح الله فتعطيه صلابة إيمانية لاستقبال أحداث الحياة ؛ لأن الحياة أغيار ، وأحداثها متعددة ، وللعالم وللكون الظاهر سنن فى الأسباب والمسببات .

هَبْ أن أسبابك ضاقت بشىء ولم يعد عندك أسباب له أبداً ، فالذى لا يؤمن بإله قوى يخرق الأسباب ، ماذا يفعل ؟ ينتحر كما قلنا .

إذن فاليأس من روْح الله هو من جعل قوة الله العليا التى خلقت النواميس متساوية مع النواميس بحيث إذا ضاقت وعزت أسبابها البشرية فى شىء يئس منها ، أما المؤمن فنقول له : أنت لا تيأس ؛ لأنك مؤمن بإله قادر فوق النواميس ؛ فالذى ييأس من روْح الله كأنه يعطل طلاقة القدرة الإلهية على النواميس الكونية ، إنّ الله ، هو خالق هذه النواميس . فعندما ييأس إنسان من روح الله ، يكون قد سوّى الله ـ بطلاقة قدرته ـ بالنواميس ، إنّ الذى تأباه النواميس فسبحانه قادر أن ييسره .

وبعد ذلك جاء بـ « عقوق الوالدين » وهما الخلية الأولى التى يواجهها الإنسان ، وهما السبب المباشر فى إيجادك ؛ لأنك حين تعق وتعصى من كان سبباً مباشراً لوجودك تكون قد عققت وعصيت من كان سبباً أولياً لوجودك ، وهو الله الذى لم تره ، إذن

فاحترامهما والبرّ بهما ليس ـ فقط ـ لأنهما سبب فى وجودك وإنما ـ أيضا ـ لأنهما ربياك صغيراً فعليك بالبر بهما ، وهذا يحثك ويدفعك إلى أن تحفظ الجميل لمن كان سبباً فى إيجادك ، وتربيتك،وعندما ترقيها وتتساءل : من أوجد أباك ؟ جدّك . ومن أوجد جدّك ؟ تصل إلى أين ؟ لا يمكن أن تكون لها نهاية إلا أن تتصل بمن لا نهاية له ، وهو أن الله قد خلق آدم .

ثم قال : قتل النفس ، والقتل هو نقض بنية الكائن ، وهو يختلف عن الموت ، فالموت أن يموت الإنسان وبنيته سليمة ، لكن إن تلقى ضربة على رأسه فهو يموت منها ، هذا هو نقض البنية سواء أكان الضرب بحجر أم برصاصة أم بأى شىء . ولنقرأ القرآن بإمعان ، إنَّ الحق يقول :

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ﴾

(من الآية ١٤٤ سورة آل عمران)

فالموت هو سلب الحياة بدون نقض بنية ، وهذا لا يجريه إلا الله ، إنما القتل بهدم البنية ، فأى إنسان يستطيع أن يفعله ، فتخرج الروح بإذن الله ، وليس معنى ذلك أن أحداً عجّل بأجل القتيل ، لا ، ولكنه تدخل فى بنيان أقامه الله فهدمه ، ولو لم يتدخل أحد فى بنيان الله ليهدمه لكان أجله قد جاء . إذن فالقاتل يُعاقب لأنه تدخل فى هدم البنية وهو يعرف أن هذه الروح لا تحل إلا فى بنيان له مواصفات خاصة تقتضى أن يكون المخ سليماً ، وكذلك القلب ، وبقية أجزاء الجسم . لكن حين يجىء الأجل يموت الإنسان ولو لم ينقض أحد البنية .

وضربنا مثلاً لنقرِّب هذا الأمر ـ ولله المثل الأعلى :

إنّ هذه الروح نشبهها بالكهرباء ، فأنت لا تعرف الروح ولم ترها ولم تسمعها ولم تشمّها ولم تذقها ، إذن فبأى وسيلة من وسائل الإدراك أنت لا تعرفها . لكنك تعرف أنها تدير حياة جسمك كله ، بدليل أن الروح عندما تُسحب من الجسم يصير رِمّة . وقد جعلها الله كدليل ذاتى فى النفس البشرية على وجود إله لا تدركه الأبصار وهو

يدرك الأبصار ، تقول : لا نرى الله . نقول لك : نعم ، فهو سبحانه يقول :

﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٢١ ﴾

(سورة الذاريات)

إن الحق لا يطالبك بأن تبصر ما فى الكون فقط من آيات ، بل إن الأدلة لاتتعداك أنت أولاً ، فروحك التى تدير جسمك أين هى ؟ ما شكلها ؟ ما لونها ؟ ما رائحتها ؟ أتعرف ؟ لا ، ولكنها موجودة فيك وأنت لا تراها ، فكيف تطلب أن ترى إلهاً وقد خلق شيئاً لم تقو على أن تراه ؟ أمخلوق لا تقدر أن تراه ، وبعد ذلك تريد أن ترى خالقه . إذن فمن عظمته أنه لا يُدْرَك ، ويقول الحقّ سبحانه وتعالى عن لحظة تنزل الروح فى الجسم :

﴿ فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ٧٢ ﴾

(سورة ص)

لأنه سيكون إنساناً سوياً ، فإن شبهنا تلك الروح بالكهرباء ـ ولله المثل الأعلى ـ هل تعرف ماهى هل رأيتها ؟ . لم ترها ، هل أحد عرفها ؟ الذين اكتشفوها ، أعرفوا ماهى ؟ لم يعرفوا ، إنما نعرفها بآثارها ، فساعة نرى المصباح منيراً نقول : جاءت الكهرباء ، وساعة تدور المروحة تقول : الكهرباء جاءت . إذن فأنت تعرفها بآثارها ، كذلك تعرف الشخص أنه مات عندما لاتجد له حركة . وعندما تخف الحركة وتَخْفُت يقولون : خذ الحركة من شيء إن وقف يكون الموت ، وليس من اليد ، لأن اليد قد لاتتحرك لإصابتها بالشلل ، بينما الإنسان مازال حيا ؛ ولذلك هات المرآة وضعها أمام مخرج النفس ، فإن وجدت بخاراً على المرآة فهذا يعنى أن هذا الإنسان مازال حياً ، وفيه روح ، وكذلك عندما ينكسر المصباح الكهربائى فالكهرباء لاتعمل عملها ؛ لأن الكهرباء لاتظهر إلا فى قالب من هذا النوع ، زجاجة مفرغة الهواء مصنوعة بشكل خاص إن انكسرت أو تلفت يذهب النور .

إذن فعندما نهدم الجسم لاتجد الروح الوعاء الذى تظهر فيه ، فكذلك المصباح الكهربائى إن انكسر تكون الكهرباء موجودة فى الأسلاك إنما لايوجد نور ، وعندما تأتى بمصباح جديد يأتى النور ، كذلك الروح لاتظهر إلا فى الجسد الذى له مواصفات خاصة ، هذا وإن القتل هو دليل عجز القاتل ، لأن القاتل حين يقتل خصمه فهذه شهادة

منه أنه أعجز من خصمه ، صحيح أنه قد قدر عليه وضربه وأماته وهذا مظهر قدرة بشرية حمقاء . لكن فى الواقع أن هذا عجز .

إن معنى القتل ونقض الحياة أن القاتل يعلن أمام الملأ أنه لا يستطيع أن يواجه حركة حياة خصمه ، ولايرتاح إلا اذا مات هذا الانسان ، إذن فقد شهد القاتل حين يقتل بعجزه . فلو علم القاتل أن قتله لنفس أخرى ليس دليل قدرة وقوة له ولكنها شهادة عجز ، وأنه لايمكن أن يواجه حياة هذا الحى إلا بأن يميته لما قتله ، والحق يحمى النفس البشرية من القتل حتى لايكون أى انسان مهددا ، وحتى لاتتعطل الخلافة التى أرادها الله فى الكون .

ثم تأتى كبيرة أخرى وهى : قذف المحصنات الحرائر ، ونعرف أن ركناً من أركان المجتمع السليم أن تظل الحرائر مصونات كى لايعانى النشء والنسل الذى ينسل منهم من ظن الريبة والعار ، وحين لاتظن النفس البشرية بريبة فهى تواجه الحياة بمنتهى طلاقتها وبمنتهى قدرتها ؛ لذلك فالذى يحب أن تشيع الفاحشة ويقذف المحصنات والحرائر بغير ما اكتسبن فهو يحدث زلزلة فى المجتمع ، زلزلة فى نسب أفراد المجتمع ، ويضار بها من ليس له ذنب ، يضار بها الأولاد الصغار ، وما ذنبهم وقد قال تعالى :

﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾

(من الآية ١٨ سورة فاطر)

وبعد ذلك قال : أكل الربا ؛ لأن الربا يصنع خللاً إقتصادياً فهو يحمل غير الواجد أن يزيد ثروة الواجد .

والزنا كبيرة من الكبائر والحق يقول :

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾

(سورة الاسراء)

فالزنا يجعل العلاقة بين الرجل والمرأة علاقة استمتاع فقط ، والعلاقة الأولى التى أرادها الله حينما أوجد حواء لآدم هى أن تكون المرأة سكناً وليست أداة استمتاع

فقط ، والاستمتاع إنما جاء لحفظ النوع وأطلقه فى النفس البشرية ؛ لأن آثار هذا الاستمتاع تبعتها طويلة من تربية للأطفال الذين تطول طفولتهم ويحتاجون لرعاية ، ولو لم يربطها بهذا الاستمتاع لكان كثير من الناس يزهد فى الأولاد .

وكذلك الفرار يوم الزحف كبيرة من الكبائر ، لأن الفرار يصنع خللاً فى المجتمع الإيمانى ؛ لأن معنى الزحف أن أعداء الاسلام أغاروا علينا ، ومادامو قد أغاروا علينا فكل مسلم يقف على ثغرة من ثغور الاسلام ، حتى لايمكّن أعداء الإسلام من ديار الإسلام ، ولتظل كلمة الله هى العليا ، ففرار المسلم يعطى أسوة على ضعف الإيمان فى النفس ، ولذلك لاتغتروا بأن هذا صار مؤمناً وذاك صار مؤمناً ، فلو كان مؤمناً حقاً ووثق بالغاية فهو لايهاب القتال ؛ لأنه إن قتل صار شهيداً ومبشراً من الله بكذا وكذا ، لذلك فالفرار فى يوم الزحف يعطى أسوة سيئة ليس فى الحرب فقط ، بل سيعطى شيوع خلخلة إيمانية فى النفس البشرية ، والحق سبحانه وتعالى أوضح أن المؤمن عندما يدخل الحرب يرغب فى أحد أمرين كلاهما حسن : النصر أو الشهادة ، فقال سبحانه :

﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ﴾

(من الآية ٥٢ سورة التوبة)

والمؤمن يتربص بالكافر ليحقق ماقاله الله :

﴿ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ﴾

(من الآية ٥٢ سورة التوبة)

فإذا كان الحق سبحانه وتعالى يريد من المؤمن أن يثبت يقين إيمانه بأن يفقد الحياة التى هى سبب التمسك بمظاهر الحياة لأنه ذاهب لحياة أحسن ، ولكن الحق سبحانه وتعالى لايحب للمؤمنين أن يقدموا على عمليات انتحارية إلا حين تكون هناك مظنة للنصر بدليل قوله الحق :

﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ١٦ سورة الأنفال)

فالإنسان لايدخل فى معركة وهو غير مستعد لها ، أو ليس لديه مظنة النصر ، إنه إن فعل ذلك فإنما ينقص المسلمين واحداً ، فماذا أفادنا ؟ إن على المؤمن أن يقبل على الاستشهاد بثمن يخصه وهو الجنة ، وبثمن يُبقى للجماعة الأمان أو النصر .

وبعد ذلك قال : واليمين الغموس . واليمين الغموس تمثل قضية من قضايا خلل المجتمع ؛ لأن اليمين الغموس هى السبب الذى يغمس صاحبه فى النار ؛ لأنه حلف على شيء أنه كان وهو لم يكن ، أو على شيء لم يكن وهو قد كان ، وبهذا يتسلل الكذب إلى الصدق ، ولايعرف القاضى التمييز حين يفصل فى الحقوق ، هناك إنسان يكذب ويشهد ويحلف اليمين أن هذا حدث ويؤدى ذلك إلى ضرر بالغير ، فمن يريد أن يظلم لن يعدم شاهدين على باب المحكمة يحلفان له ، عندئذ يصبح الإنسان غير مطمئن إلى حركة حياته ولا إلى مصالحه .

وتأتى كبيرة أخرى وهى الغلول . وتعنى أن المسلمين حين يلتحمون بأعدائهم ويأخذون منهم الغنائم وهى مانسميها « السَلَب » . .وهى أسلحة الأعداء وماعندهم من أشياء . . فبالله من يدخل معركة بهذا الشكل ويجد غنيمة ويأخذها ، أيكون قد نقض عملية الحرب فى سبيل الله أم لا ؟ إنه ينقض عملية الحرب فى سبيل الله ، إن الحرب فى سبيل الله شرعت لتكون كلمة الله هى العليا ، ولذلك يقول الحق :

﴿ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾

(من الآية ١٦١ سورة آل عمران)

لقد قلنا : إن كان قد غلّ بقرة . . فسيحملها يوم القيامة ، وسيكون لها خوار . .

وإن غل فى أسمنت فسياتى حامله يوم القيامة ، ومن غلّ فى حديد أو استورد لحوما فاسدة أو سمكا نتنا فإنه سيأتى وهو يحمله يوم القيامة .

ثم تأتى كبيرة وهى شهادة الزور . فشهادة الزور أيضا ركن من أركان فساد المجتمعات كلها ؛ لأنها لاتجعل المؤمن مطمئنا على حقه .

أما السحر فهو كبيرة تهدد المجتمع بما يفزع كيانه ؛ لأنه ينتهى إلى قوة خفية ، إذ

ليس أمام الذى يتعرض للإصابة به عدو مباشر يواجهه ، حتى يرتب لنفسه الحماية منه . ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ﴾

(من الآية ١٠٢ سورة البقرة)

أى ليس له نصيب فى الآخرة ، وربما يقول قائل : إذا كانت هذه مضرة السحر فى هدم كيان المجتمع وتفزيعه ، فلماذا وجد ؟ نقول له : إن الكائنات مخلوقة لله ، وكل كائن له قانون ، وقد يكون قانون كائن أخف وأسرع من قانون آخر ، فأفراد الجنس الواحد محكومون بقانون واحد . وحين يوجد لأفراد الجنس الواحد قانون يحكم حركته يكون قد وجد فى ذلك الجنس تكافؤ الفرص ، بمعنى أن لك فرصة هى لغيرك . أما أن توجد لك فرصة ولا توجد لغيرك ، فهذا يمثل خللاً فى تكافؤ الفرص فى الجنس الواحد .

إن تكافؤ الفرص هو الأمر الذى يحمى المجتمع ، بأن تكون فرصك أنت وفرصى أنا متساوية ، فيكون صاحب الحركة فى مادة الكون هو الذى يتغلب ، وبذلك لا آخذ أنا فرصة غير موجودة عندك . فتكافؤ الفرص هو الذى يرحم البشرية .

وإذا كانت قوة الشرق تتمثل فى الشيوعية فى روسيا قد سقطت وبقيت قوة فى الغرب تتمثل فى أمريكا ، فهناك قوى جديدة تحاول أن تعدل الميزان ، اليابان ، ألمانيا الموحدة ، وأوروبا التى تبحث عن الوحدة ، وكل ذلك من أجل أن تتوازن القوى فى الفرص المادية الموجودة . وهذا هو مايحمى الكون من الدمار ؛ لأن أى واحد يفكر فى أى شر جارف يخاف من رد الفعل ، ويخاف أن يردوا عليه بشر أشد ، ولو تيقنوا أن واحدة أقوى من الأخرى لجاء الخراب ، إذن فحماية الجنس البشرى إنما تنشأ من تكافؤ الفرص بين أفراده ، ولكن الإنسان جنس ، والجن جنس آخر ، والإنس والجن مكلفان من الله ، فعنصر الاختيار موجود فيهما ، ولذلك حكى القرآن :

﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ۝ ﴾

(سورة الجن)

وعندما قسموا قال القرآن :

﴿ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّـٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ ﴾

(سورة الجن)

إذن فهم مثلنا . . لكنهم لهم قانون ولنا قانون :

﴿ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾

(من الآية ٢٧ سورة الأعراف)

إذن فقانون الجن أنه يرى الإنسان ، والإنسان لايراه ، وقانونه أخف من قانون الإنسان ؛ لأن كل جنس يستمد قانونه من جرثومة تكوينه الأولى ، فنحن البشر مخلوقون من طين . . أى أن لنا مادية محسة وكثيفة . والجن مخلوق من النار ، والمخلوق من مادة الطين مثلنا ، النبات والحيوان ، تفاحة مثلاً مخلوقة من مادة الطين لأنها أخذت عناصر غذائها وتكوينها من تربة الأرض وخصوبتها . هب أنها خلف جدار وأنت جالس . أيتعدّى طعمها لك ؟ أتتعدّى رائحتها لك ؟ أيتعدّى لونها لك ؟ لا ، إذن فالجرمية المحيزة لاتجعلك تنتفع به .

لكن هب أن ناراً موضوعة وراء الجدار ، وبعد مضى مدة ستشعر بالحرارة ، أى أن الحرارة قد نفذت . والجن له شفافية وله خفة فى قانونه وفى انتقاله ولاتوجد مثل هذه الشفافية والخفة للإنسان ، ولذلك لاحظوا أن الحق سبحانه وتعالى حينما أراد أن يبين لنا هذا ، ضرب لنا المثل بسيدنا سليمان عليه وعلى نبينا السلام الذى سخر الله له الجن :

﴿ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَـٰرِيبَ وَتَمَـٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَـٰتٍ ﴾

(من الآية ١٣ سورة سبأ)

وحينما اجتمع فى جنوده ومن حوله من الناس قال :

﴿ مَالِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾

(من الآية ٢٠ سورة النمل)

وبعد ذلك جاءه الهدهد وقال له :

﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ

وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾

(جزء من الآية ٢٢ والآية ٢٣ سورة النمل)

وهذا كله ليس بمهم ، إنما المهم هو قول الهدهد :

﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة النمل)

وهذا ما يهم سيدنا سليمان كرسول . فسيدنا سليمان يتميز بأنه رسول وملك ، فجاء بالملكية أولاً : « إنى وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم » هذه مقومات المُلك ، أما المسألة التى تهم سيدنا سليمان : « وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله » ، والسجود للشمس من دون الله ضايق الهدهد وهو الطائر ، كأن الهدهد عارف لقضية التوحيد وقضية الإيمان بدليل أنه غضب ، ثم يقول :

﴿ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾

(من الآية ٢٥ سورة النمل)

إذن فهو يعرف من الذى يستحق السجود ، ولاحظ أنه جاء بـ« الخَبْء » لأن طعامه دائماً من تحت الأرض ، ينقر ويُخرج رزقه .

واستمرت القصة حتى قال سليمان لمن يجلس معه :

﴿ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴾

(من الآية ٣٨ سورة النمل)

وهذا يدل على أن سليمان عليه السلام كان على علم بأن بلقيس ـ ملكة سبأ ـ فى الطريق إليه ، ومعنى أن يقول : « أيكم يأتينى بعرشها قبل أن يأتونى مسلمين » . معناها أن الذى يتصدّى لهذا الأمر عليه أن يذهب من عند بيت المقدس إلى اليمن ويحلّ ويحمل العرش ويأتى به قبل أن تأتى بلقيس .

بالله هل من قانون بشرى يأتى به ؟ وكيف ذلك ؟ . ولذلك لم يتكلم إنسىٌّ عادى ، فالإنس العادى يعرف أن قانونه البشرى لا يقدر على تلك المهمة ، لأن سليمان قال :

« قبل أن يأتونى » ، ومادام قال ذلك فقد علم أنهم فى الطريق . فهل يذهب إنسان عادى ويحلّ العرش ويحمله ويأتى به قبل أن يأتوا ؟ لا ، ولذلك عرفنا من هذه قول الحق :

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ﴾

(من الآية ٣٦ سورة الإسراء)

وهنا يتصدّى أحد الأذكياء من الجن قائلاً :

﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ ﴾

(سورة النمل)

ومن يقول ذلك ليس بجن عادى ، فالجن أيضاً فيهم عفاريت أذكياء وفيهم من هو عاجز قليل الذكاء ، مثل الإنسان ، ومن قال ذلك أكد أنه قادر على أن يأتى بعرش بلقيس قبل أن يقوم سليمان من مقامه ، فكم يمكث من الوقت ؟ لا نعرف ، ترى هل يجلس سليمان مع القوم ساعتين أو ثلاث ساعات لا نعرف ، إذن فتأخذ هذه العملية زمن مقامه ، لكن ها هو ذلك الإنسىّ الذى أعطاه الله فتحاً من الكتاب وعلماً يقول :

﴿ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾

(من الآية ٤٠ سورة النمل)

الإنسىّ العادى لم يتكلم ، والعفريت من الجن قال : « أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك » أما الإنسىّ الذى أعطاه الله الفتح من الكتاب فقد قال : « أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك » ولذلك انظر إلى الأداء العاجل فى القرآن أداء الحركة :

﴿ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ ﴾

(من الآية ٤٠ سورة النمل)

فالمسألة حدثت على الفور .

والمهم لنا هنا أن نعرف أن الجن قال : « أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك » ، ومنها نعرف أن له قانوناً فى الحركة والسرعة ، والإنسان الذى وهبه الله علماً بالكتاب له قدرة وحركة . إذن فكل جنس من الأجناس له القانون المناسب له .

وقد يقف بعض الناس كما وقف كثير من سطحيى المفكرين قائلين : ما الجن والملائكة والعالم الخفىّ الذى تحدثوننا به ؟ نقول : ألا تؤمن إلا بالمحُسّ بالنسبة لك ؟ فما رأيك فى الميكروباتْ التى ظهرت الآن بعدما اختُرع المجهر ؟ لقد كانت موجودة ، أكنت تعرفها ؟ لقد كانت غيباً عنك ، فلماذا لا تأخذ من أن شيئاً لم يكن موجوداً تحت حسّك وغير مُدرك بإدراكك ، كان موجوداً وكنت لا تملك آلة إدراكه ، لماذا لا تأخذ من ذلك دليلاً على وجودْ أجناسٍ غير مُدركة ، وعندما يحدثك القرآن عن هذه الأجناس غير المدركة تتساءل عنها ؟ فما المشكلة فى هذا ؟ .

وبعد ذلك عندما يقول سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الحديث الشريف :

(وإن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم)[1]

قد تتساءل : وهل الشيطان يجرى مجرى الدم ، أهو سائل أم ماذا ؟

نقول : هو خلق لطيف خفىّ له قانونه الخاص ، فربنا فضح الفكر الملحد وفضح التشكيك فى الغيبيات التى يذكرها الله ، واكتشفنا أن هناك مخلوقات هى الميكروبات ، وهى من الجنُس المادى من الطين ، لكنها ضئيلة جداً ، وماذا يفعل الميكروب ؟ إنه ينفذ فى الجسم ولا تدرى أنت به وهو داخل فى جسمك ، وبعد ذلك ماذا يفعل فى حرارتك ؟ وماذا يفعل فى جسمك ؟ـ فعندما يقول لك الرسول المبلغ عن الله : إن الشيطان سيجرى منك مجرى الدم فما التناقض فى هذا ؟ إذا كان هناك شىء من مادتك ضئيل ولا تعرف كيف دخل ، ولا تشعر به وهو داخل ، ثم يقلب ميزانك فى الحرارة ويمارس العبث بكل جسمك ، فتهيج الكرات البيضاء لتقاومه وتخرج الصديد . أى تناقض إذن ؟

إن ربنا ترك من غيبيات كونه المادى ما يثبت صدقه فى التحدث بغيبيات أخرى : « قال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك » ، لقد جاء

---

(١) رواه أحمد والبخارى ومسلم وأبو داود وابن ماجه .

الحق بواحد من الإنس حتى لا يظنن الجن أنه أخذ خفة قانونه وشفافيته وسرعته من عنصر تكوينه بل إنه أخذها بإرادة المكون ـ سبحانه ـ إذن فالمسألة ليست عنصرية بل هى إرادة الله إنه ـ جلت قدرته ـ أوضح: أنا أستطيع أن أجعل من الجنس القوى بقانونه وهو الجن محكوماً لواحد من الإنس ، ويجعله يعمل ما يريده . ولم يطلقها الله كطاقة ممنوحة لكل البشر حتى لا تحدث فتنة عند من يعرفها ؛ لأنها ستعطيه فرصة ليست موجودة عند غيره . وقد يطغى بها وهذا هو السحر . وأوضحنا ذلك عند قوله سبحانه :

﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ﴾

(من الآية ١٠٢ سورة البقرة)

فتنة ، لماذا ؟ ، لأنك تأخذ فرصة ليست موجودة لغيرك ، وعندما توجد عندك فرصة ليست موجودة لغيرك فأنت لا تضمن نفسك أن تستعملها فى الضار فقد تستعملها فى ذلك ؛ فستذهب بك إلى النار . والحق يقول :

﴿ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ۚ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ﴾

(من الآية ١٠٢ سورة البقرة)

إذن فالحق سبحانه وتعالى من طلاقة قدرته يعطى للجنس الضعيف وهو الإنسان شيئا يستطيع به أن يسخرّ الأقوى وهو الجن ، والجن يعرف هذه الحكاية . ولذلك فكل الذين يتمثل لهم الجن لا يَأتى ويَدوم بل يَأتى لمحة خاطفة ؛ لأنه لا يستطيع أن يستقر على صورته التى يتمثل فيها ، فلو تمثل بإنسان أو بحيوان مثلا لحكمته الصورة ، وإن حكمته الصورة ، واستطاع من يراه أن يطلق عليه رصاصة من « مسدسه » لقتله !

ولذلك فالجن يأتى لمحة مثل ومضة البرق ويختفى ، إنها طلاقة قدرة الحق التى

يمكن أن تعطى للجنس الأقل ـ الإنسان ـ قوة القدرة على أن يُسخِّر الجنس الأقوى ـ الجن ـ ، لكن هذه ليست فى مصلحة الإنسان ، ولذلك فالمؤمن من الجنّ يقول : أنا أكتفى فى جنسى بقانونى ، فربما يجعلنى عدم تكافؤ الفُرص طاغياً ، لأن من يملكون هذه القُدرة يطغون فى الناس . والذى يقوم بعمل تكره به المرأة زوجَها ويكره به الزوج امرأته هو نفسه من يَحِلّ مثل هذا العمل ، وَمن مصلحته أن تستمر هذه الحكاية .

ولذلك لا أحد يتغلب على تلك المسألة إلا إذا استحضر قول الحق : « وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله » فالسحر وارد بنص القرآن ، لكن يجب أن تعلم أن هذه ليست طبيعية فى السحرة ولا ذاتية فيهم ، وإذا أراد الله ألا يضار الإنسان بالسحر فلن ينفع السحر ، وإن اتسعت المعرفة بهذا الأمر تكون فتنة للناس ، والذى يتبع هؤلاء السحرة ويذهب لهم ليفكّوا له السحر ، ويذهب لهم ليسحروا له الخصوم ، وينفتن فيهم يعيش طوال عمره مُرهقاً مصداقاً لقوله الحق :

﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ ﴾

(سورة الجن)

صحيح أنهم يقدرون أن يسحروا ، لكن ذلك السحر يزيد المتسبب فيه رهقاً وتعبا .

وعلى المؤمن أن يحمى نفسه بهذا الدعاء : « اللهم قد أقدرت بعض خلقك على السحر ، واحتفظت لذاتك بإذن الضر ، فأعوذ مما أقدرت عليه بما احتفظت به » .

عندئذ لن يخافهم ولن يجدوا سبيلاً لهم إليه ، فهم يستغلون الضعيف فقط ، والسحر يُوجد عدم تكافؤ فرص ، ويفتن الناس فى الناس ، ويؤدى إلى إخلال توازن المجتمع .

وبعد ذلك تجىء كبيرة منع الزكاة ، والحق سبحانه وتعالى حين يطلب منا أن نُزكى ، إنما يلفتنا إلى أننا لم نأت بشىء من عندنا ؛ فالعقل الذى يخطط للعمل مخلوق لله ، والجوارح التى تعمل مخلوقة لله ، والأرض التى تعمل فيها أو الصنعة التى

نصنعها مخلوقة لله . إذن فكل حاجة لله ، لكنه أوضح لك : سأحترم عملك ، وعليك أن تعطى أخاك الفقير بعضاً مما رزقتك به .

ويقول قائل : مادام هو ربُّ الكلّ ، فلماذا يترك واحداً فقيراً ؟ نقول : لكى يُثبت الأغيار فى الكون ، ويعرف الغنىّ أن الفقر قد يلحقه ، ويعرف القوى أن الضعف قد يلحقه ، إذن فالمسألة جاءت لنظام الكون ، فيحُنن الخالق قلب الواجد على المعدم ليعطيه ، فيوم تمنع الزكاة يظهر أثر ذلك فى الكون لأنها مسألة محسوبة بحساب دقيق ، ولذلك فإذا رأيت واحداً جوعان بحق فاعرف أن واحداً ضيع زكاته فلم يؤدها ، وإن رأيت عورة فى المجتمع فاعرف أن فيه حداً مضيّعاً لله ، لأن ربنا جعل المجتمع متساوياً والنقص هنا يكمّله من هناك ، فإن رأيت نقصاً عاماً فاعرف أن فيه حقاً لله مضيعاً .

وبعد ذلك حدثنا سيدنا جعفر الصادق عن كبيرة ترك الصلاة ، ونعرف أن الصلاة هى إعلان دوام الولاء للإله الواحد ، فأنت تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله مرّة واحدة فى العمر ، وتُزكّى إن كنت واجداً وقادراً مرّة واحدة فى السنة ، وتحجُ مرّة واحدة فى العمر ، وتصوم شهراً واحداً فى السنة ، وإن كنت مريضاً لاتصوم وقد يسقط عنك هذا الركن إذا كان هناك مرض لايرجى شفاؤه أو أصبح الشخص لايقوى على الصوم لكبر سنه ، وإذا كنت فقيراً لاتزكى ، فقد سقطت الزكاة عنك أيضاً ، وإن كنت غير مستطيع فلا تحج ويسقط عنك الحج .

هاهى ذى ثلاثة أركان لك عذر إن لم تفعلها . وبقى ركنان اثنان من أركان الإسلام : شهادة أن لاإله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، والصلاة ، وشهادة أن لا إله إلا الله يكفى أن تقولها فى العمر مرة ، فماذا بقى من أركان الإسلام ؟ بقيت الصلاة ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم :

« الصلاة عمود الدين »[1] .

---

(١) رواه أبونعيم الفضل بن دكين فى الصلاة عن عمر وهو حديث حسن ، ورواه البيهقى فى شعب الإيمان بلفظ (الصلاة عماد الدين) عن عمر ولكنه ضعيف .

إذن فترك الصلاة معناه : أنه تمرد على إعلان العبودية والولاء للحق . وقد طلبها الله فى اليوم خمس مرات ، وحتّم الجماعة فيها فى يوم الجمعة فى الأسبوع . لماذا ؟ حتى يرانا كل العبيد لله عبيداً لله . فلا يعبد واحد ربنا سراً وبعد ذلك لايرى أحد منا أحداً فكلنا نسجد لله ولا بد من إعلان الولاء لله ، فيوم تُترك الصلاة ينعدم إعلان الولاء له ـ سبحانه ـ .

ومن العجيب أن الصلاة فرضها الله عليك بأنك تذهب له خمس مرات فى اليوم ، هذا بالأمر والتكليف ، وإن لم تذهب تأثم إنه ما أغلق الباب اذهب له فى أى وقت تجده فى استقبالك فى أى مكان تقف وتقول : الله أكبر تكون فى حضرة ربنا ، وقلنا سابقاً : إن من له السيادة فى الدنيا حين تطلب لقاءه تقدم طلباً حتى تلقاه . ويحدد لك الميعاد ، وبعد ذلك يسألك أحد رجاله : ستتكلم فى ماذا . وقد يقف المسئول أو السيد فى الدنيا وينهى المحادثة . لكن ربنا ليس كذلك . أنت تذهب له فى أى وقت وفى أى زمان وتطيل كما تحب ولن ينهى المقابلة إلا إذا أنهيتها أنت . ولذلك يقولون :

حسبُ نفسى عزاً بأنى عبد
يحتفى بى بلا مواعيد ربّ
هو فى قدسه الأعزُّ ولكن
أنا ألقَى متى وأيْن أُحِبّ

صحيح هو يأمرنى أن ألقاه خمس مرات فى اليوم ، لكن الباب مفتوح للقائه فى أى وقت ، وأوضحنا سابقاً ـ ولله المثل الأعلى ـ هب أن صنعة تعرض على صانعها خمس مرات كل يوم ـ أيوجد فيها عطب ؟ لا . وأنت تعرض على خالقك وصانعك كل يوم خمس مرات . والصنعة العادية يُصلحها صانعها بسلك أو بمسمار أو بوصلة يضعها ، أما أنت المخلوق لله وربّك غيب وهو يُصلح جهازك بما يراه مناسباً .

وبعد ذلك بقى من الكبائر نقض العهد وقطيعة الرحم ، ونقض العهد لايجعل إنساناً يثق فى وعد إنسان آخر . فينتشر التشكك فى نفوس الجماعة الإيمانية بعضها من بعض ، والوعد قد يحل مشاكل للناس/المعْسرين ، فعندما يقول قادر لغير قادر : أعدك بكذا . ويعطيه ماوعده به ، فإن وعده المدين بسداد الدين وأخلفه مرة فلن

يصدقه بعد ذلك . وإن وعده وصدق ثم وعده وصدق ثم وعده وصدق ، يصبح صادقاً ، وكل ماعند الناس يصبح عنده ، ولذلك يقولون : من يأخذ ويعطى يكون المال ماله .

وبعد ذلك تأتى كبيرة قطيعة الرحم : لأن الحق سبحانه وتعالى اشتق للرحم اسماً من اسمه فهو القائل فى الحديث القدسى :

(أنا الرحمن خلقت الرحِم وشققت لها اسماً من اسمى فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته)[1] .

ونعلم جميعاً حكاية سيدنا معاوية عندما دخل عليه الحاجب وقال له : يا أمير المؤمنين هناك واحد بالباب يقول : إنه أخوك ، فيقول معاوية للحاجب : أى إخوتى هو ؟ ألا تعرف إخوتى ؟ فقال الحاجب : إنه يقول : إنه أخوك . فلما دخل الرجل ، سأله معاوية : أأنت أخى ؟ قال : نعم فقال معاوية : وأى إخوتى أنت ؟ . فقال : أنا أخوك من آدم ! فقال معاوية : رَحِمٌ مقطوعة ، لأكونن أول من وصلها .

تلك هى الكبائر التى ذكرها سيدنا جعفر الصادق وهى تمثل مايمكن أن يكون نقضاً للمجتمع كله من أساسه ، فكل كبيرة تنقض ناحية من نواحى المجتمع ، وهذا يخالف الإيمان ، لأن الإيمان هو منهج إن اتبعناه جميعاً عشنا فى أمن . والإسلام أيضاً منهج إن اتبعناه جميعاً عشنا فى سلام ، فيوم تأتى ـ أيها المسلم ـ كبيرة من هذه الكبائر فأنت تزلزل بها ركناً من الأركان ، وحينئذ لايكون هناك أمان ولاسلام ، ولذلك يقول الحق سبحانه : « إن تجتنبوا كبائر ماتنهون عنه» وعندما ندقق فى كلمة «تنهون عنه» نلتفت إلى أن أصل الفضائل : أن تسلب نقيصة وأن توجب كمالاً ، فقبلما توجب الكمال بالأوامر اسلب النقائص بالنواهى ؛ ولذلك يقولون : التخلية قبل التحلية .

« إن تجتنبوا كبائر ماتنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم».و« نكفر » أى نستر ، لأن

(١) رواه أحمد والبخارى فى الأدب المفرد ، وأبو دواد والترمذى والحاكم عن عبدالرحمن بن عوف .

الكفر هو الستر ، وقلنا : إن التكفير للذنوب إماطة للعقاب ، والإحباط إماطة للثواب ، «وندخلكم مدخلاً كريماً » فلن نسقط عنكم العذاب فقط بل نعطيكم المدخل الكريم - يقول الحق :

﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾

(من الآية ٢٦ سورة يونس)

وقد كان يكفى ألا تعاقب ، لكنك حينما تتجنب الكبائر لايسقط عنك العقاب فقط ، بل يدخلك الله مدخلاً كريماً ، والمدخل الكريم يتناسب مع من يدخلك فى مدخله ، فانظر ، إلى المدخل الكريم من الله وما شكله ؟ يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : قال الله تعالى :

(أعددت لعبادى الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر واقرأوا إن شئتم : « فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين »)[1] .

وبذلك تنتقل الصورة إلى شيء جديد ، وهو : التوازن بين أفراد الجنس الإنسانى ، كل هذا الكلام كى يُحفظ الجنس الإنسانى مع بعضه ، وبعد ذلك يريد الله أن يقيم توازناً ومصالحة إيمانية بين نوعى الجنس الإنسانى ، والجنس الإنسانى فيه ذكورة وفيه أنوثة . ونعرف أن كل جنس من الأجناس لاينقسم إلى نوعين إلا إذا كان فيه قدر مشترك يجمع النوعين من الجنس ، وفيه شيء مفترق يجعل هذا نوعاً وهذا نوعاً ولو لم يكن فيه شيء مفترق لما كان نوعين ، إذن فما دام الجنس الواحد نوعين فلا بد أن يجمعهما فى شيء مشترك ، ومادام الجنس الواحد قد انقسم لنوعين فكل نوع له مهمة . والذكورة والأنوثة هما نوعان لجنس البشر ، فالذكر والأنثى يشتركان فى مطلوبات الجنس ، وبعد ذلك ينفردان فى مطلوبات النوع ، وبعد ذلك كل نوع ينقسم إلى أفراد . والأفراد أيضاً ليسوا مكررين ، بل فيه قدر مشترك يجمع كل الأفراد ، وبعد ذلك كل واحد له موهبة وله ريادة وله شطارة فى مجال كذا أو كذا ، وبذلك يتكامل أفراد الجنس البشرى .

ومادام الجنس البشرى قد انقسم لنوعين ، فيكون للرجال خصوصية وللنساء

---

(١) رواه البخارى ومسلم .

خصوصية . وربنا سبحانه وتعالى لايأتى حتى فى البنية العامة ليجعل الجنسين مستويين فى خصائص البنية ، صحيح البنية واحدة : رأس وجذع وأرجل،إنما يأتى ويميز بنية كل نوع بشىء ، الرجل له شكل مميز ، والمرأة لها شكل مميز . ولذلك فالذين يقولون : نسوى الرجل بالمرأة أو المرأة بالرجل نقول لهم : المرأة لها تكوين خاص ، والرجل له تكوينه الخاص ، فإذا سويت المرأة بالرجل أعطيت لها مجالات الرجل ، وبقيت مجالاتها التى لايمكن للرجل أن يشاركها فيها ، معطلة لايقوم بها أحد.إذن فأنت حملتها فوق ماتطيق وأنت مخطىء ؛ لأنك تأتيها بمتاعب أخرى .

إن الحق سبحانه وتعالى ساعة يخلق جنساً ، وساعة يقسم الجنس إلى نوعين ، يوضح : تنبهوا أن كل نوع له مهمة وفيه شىء مشترك ، المشترك بين الأنوثة والذكورة ، ماهو ؟ إن هذا إنسان وذلك إنسان ، وإن هذا من ناحية الإيمان مُطالب منه أن يكون له عقيدة إيمانية ولا أحد يسيطر على الآخر فى عقيدته الإيمانية ، الاثنان متساويان فيها ، ولا يفرضها واحد على الآخر ، وضرب الله سبحانه وتعالى لنا مثلاً على تشخص الذكورة وتشخص الأنوثة فى الأمر الأولى للإيمان ، وإن اختلفت فى الأمر الثانوى للأحكام ، فيقول :

﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾

(سورة التحريم)

وهذان رسولان ، ومع ذلك لم يستطيعا إقناع زوجتيهما بالتوحيد إذن فكل إنسان له حرية العقيدة والتعقل ، ولا أحد تابع لآخر فى هذه المسألة أبداً . ويقول الحق :

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ ﴾

(سورة التحريم)

فرعون الذى ادعى الألوهية لم يقدر أن يرغم إمرأته على أن تكفر والحق سبحانه وتعالى قال فيها :

﴿ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ ﴾

(من الآية ١١ سورة التحريم)

إذن ففى مسألة العقيدة الكل فيها سواء ، الذكورة والأنوثة ، فيها عقل وفيها تفكير . ولعل المرأة تشير برأى قد يعزّ على كثير من الرجال . ولنا المثل من زوج رسول الله (أم سلمة) وموقفها فى صلح الحديبية فعندما يأتى الرسول صلى الله عليه وسلم ليعقد المعاهدة ، ويحزن أصحابه ومنهم عمر رضى الله عنه الذى قال : أنقبل الدنية فى ديننا فيقول له سيدنا أبوبكر : الزم غرزك ياعمر إنه رسول الله . فدخل رسول الله مغضباً ، طبعاً من حمية عمر وحزن الصحابة ، لأنها مسألة تعز على النفس البشرية ، لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يذهب فيجد أم سلمة فيقول لها : هلك المسلمون « ألا ترين إلى الناس آمرهم بالأمر فلا يفعلونه وهم يسمعون كلامى وينظرون وجهى ؟ فقالت يارسول الله : لاتلمهم فإنهم قد داخلهم أمر عظيم مما أدخلت على نفسك من المشقة فى أمر الصلح ورجوعهم بغير فتح يا نبى الله اخرج إليهم ولا تكلم أحدا كلمة حتى تنحر بُدْنَك وتدعو حالقك فيحلقك » .

لقد وقّع رسول الله صلح الحديبية وانتهت المسألة . ولكن رحمة الله بالمؤمنين الذين وقفوا أمام رسول الله فى هذه المسألة ، ورحمة الله لهم بأم سلمة أوضح لهم الرسول : سأبين لكم : أنتم لو دخلتم مكة وفيها أناس مسلمون لاتعرفونهم إنهم يكتمون إيمانهم وإسلامهم ، والبيت الكافر قد يكون فيه واحد مسلم ، وقد تقتلون أناساً مسلمين لا تعرفونهم فتصيبكم معرة أى ما تكرهونه ويشق عليكم مصداقاً لقول الحق تعالى :

﴿ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾

(من الآية ٢٥ سورة الفتح)

لو تزيلوا أى لو تميز المؤمنون فى منطقة لعاقبنا الكافرين عقابا شديدًا . إذن لقد أوضح لهم العلة ، فرضى الكل ، ولنا أن نلتفت إلى أن المسألة جاءت من سيدتنا

أم سلمة ، وهذا دليل على أن الله لا يمنع أن يكون لامرأة عقل وتفكير ناضج ، ولذلك نجد القرآن يؤكد ذلك فى قصة بلقيس ، لقد فكرت بلقيس فى الرجل الآتى ليزلزل ملكها : يا ترى هل هو طالب ملك ، فجاء على لسانها فى القرآن الكريم :

﴿ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ ﴾

(سورة النمل)

فماذا قال القادة ؟ قالوا : لا ، هذه ليست مسألتنا ، وجاء القرآن بقولهم :

﴿ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾

(سورة النمل)

كان رجل الحرب يُؤتمر فقط ، يحارب أو لا يحارب ، لكن الذى يقدر هذا هم الساسة الذين ليس عندهم حمية وحركية القتال . نقول لقائد الجند : أنت تنتظر الأمر ، وتجعل الساسة الهادئين يفكرون فى عواقب الأمور ؛ لذلك قال قادة الجند لبلقيس : « نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد والأمر إليك » لقد وضعوا الأمر فى رقبتها وهى امرأة ، ففكرت : سأجرب وأختبره وأنظر أهو طالب مُلك أم صاحب دين ـ فأرسلت هدية له ، فلما جاءته الهدية جاء القرآن بما قاله سيدنا سليمان عندما تلقى الهدية :

﴿ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِىَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴾

(من الآية ٣٦ سورة النمل)

فعرفت بلقيس أن المُلْكَ ليس هدفه ، وبعد ذلك عرفت أنه صاحب رسالة ، فقالت : أذهب له وأسلم ، انظر أداء العبارة القرآنية عندما تصور إيمان ملكة قالت :

﴿ وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة النمل)

يعنى : أنا وهو أصبحنا عبيداً لله ، هذه رفعة الإيمان ؛ فلا غضاضة مادامت هى وهو عبيداً لإله واحد ، وبلقيس امرأة ولم يحرمها ربنا من الرأى الحسن أيضاً ومن الأداء الجميل ، وهى عندما ذهبت ووجدت عرشها وقد جاء به من عنده علم من الكتاب وأقامه ، لقد تركت العرش فى بلدها وجاءت إلى سليمان فوجدت عرشها ، وكان لا بد أن يلتبس عليها الأمر ، وقالوا لها : أهكذا عرشك ؟ :

﴿ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ﴾

(من الآية ٤٢ سورة النمل)

فأجابت إجابة دبلوماسية وكياسة :

﴿ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ﴾

(من الآية ٤٢ سورة النمل)

هى امرأة ولم يحرمها الله من تميز الفكر ؛ لذلك لا يصح أن نحرم المرأة من أن يكون لها فكر . لكن المهم أن تعلم أن لها حدوداً فى إطار نوعيتها ، ولا تعتبر النقص فى شىء للرجل أنه نقص فيها ، فإذا ما كان عندها كمال لا يوجد عند الرجل فلتعلم أنه حتى فى البنية يختلف الرجل عن المرأة ؛ الرجل فيه خشونة وفيه صلابة وفيه قوة ، والمرأة فيها رقة وفيها ليونة ومستميلة ، ولها عاطفة فياضة ، وفيض حنان ، والرجل فيه صلابة حزم وعزم ، إذن فكل واحد معدّ لمهمة . فلا يقولن أحد : أنا ناقص فى هذه ، لكن انظر غيرك إنه ناقص فى ماذا وهو عندك أيضاً كامل .

ويأتى الدين ليوضح : يا مؤمنون . . الحرير حرام على الذكور وحلال للإناث الذهب حرام على الذكور وحلال للإناث ، أى تدليل أكثر من هذا ؟ . لقد حرم على الرجال التمتع بالحرير والذهب وأعطاهما للنساء ، والدين يطلب أن تكون المرأة سكناً للرجل ، فالمفروض أن الرجل هو الذى يتحرك حركة الحياة خارجاً ، وعندما يعود لمنزله فهو يسكن لزوجه ، والذى يصقل السيف ويحده ، مثل الشجاع الذى يضرب به تماماً.كل له عمل يكمل عمل الآخر ، وكذلك الرجل عندما يدخل منزله ويجد حياته مرتبة بفضل جهد زوجته فهو يرتاح ويشكر لها ما شاركته من أعباء الحياة .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا ۖ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ ۚ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾ ﴾

الحق سبحانه وتعالى خلق الكون وفيه أجناس ، وكل جنس يشمل أنواعاً أو نوعين ، وتحت كل نوع أفراد . فإذا ما رأيت جنساً من الأجناس انقسم إلى نوعين ، فاعلم أنهما يشتركان فى مطلوب الجنس ، ثم يختلفان فى مطلوب النوع ، ولو كانا متحدين لما انقسما إلى نوعين . كذلك فى الأفراد . وإذا نظرنا إلى الجماد وجدنا الجماد جنسا عاما ولكنه انقسم إلى عناصر مختلفة ، لكل عنصر من هذه العناصر مهمة مختلفة ، فمثلاً إذا أردنا إقامة بناء ، فهذا البناء يتطلب رملاً ، ويتطلب أسمنتاً ، ويتطلب آجُرًّا ، ويتطلب حديداً ، فجنس الجماد كله مشترك فى إقامة البناء ، ولكن للأسمنت مهمة ، وللجبس مهمة ، وللرمل مهمة ، وللمرو ـ وهو الزلط ـ مهمة ، فلا تأخذ شيئا فى مهمة شىء آخر . وكذلك انقسم الإنسان إلى نوعين ، إلى ذكورة تتمثل فى الرجال ، وإلى أنوثة تتمثل فى النساء ، وبينهما قدر مشترك يجمعهما كجنس ، ثم بينهما اختلاف باختلاف نوعيهما . فلو أردت أن تضع نوعاً مكان نوع لما استطعت .

إذن فمن العبث أن يخلق الله من جنس نوعين ، ثم تأتى لتقول : إن هذا النوع يجب أن يكون مثل هذا النوع . وأيضاً نعرف ذلك عن الزمن ، فالزمن ظرف للأحداث ، أى أن كل حدث لا بد له من زمن ، لكن لكل زمن حدث يناسبه . فالزمن وهو النهار ظرف للحدث فى زمنه ، والليل أيضاً ظرف للحدث فى زمنه . ولكن الليل حدثه السكون والراحة ، والنهار حدثه الحركة والنشاط . فإن أردت أن تعكس هذا مكان هذا أحلت وجمعت بين المتناقضين .

لقد أوضحنا أن الله يلفتنا إلى شىء قد نختلف فيه بشىء قد اتفقنا عليه ، فيبين

لك : هذا الذى تختلف فيه ردّه إلى المتفق عليه . فالزمن لا خلاف فى أنك تجعل الليل سكناً ولباساً وراحة وهدوءاً ، والنهار للحركة . وكل الناس يصنعون ذلك . فالحق سبحانه وتعالى يوضح : كما جعل الزمن ظرفاً لحركة إلا أن حركة هذا تختلف عن حركة هذا ، وهل معنى ذلك أن الليل والنهار نقيضان أو ضدان أو متكاملان ؟

إنهما متكاملان ؛ لأن راحة الليل إنما جُعلت لتصح حركة النهار . فأنت تنام وترتاح لتستأنف نشاطاً جديداً . إذن فالليل هو الذى يعين النهار على مهمته . . ولو أن إنساناً استيقظ ليلة ثم جاء صباحاً لما استطاع أن يفعل شيئاً . إذن فما الذى أعان حركة النهار ؟ . . إنه سكون الليل ، فالحق سبحانه وتعالى بيّن : أن ذلك أمر متفق عليه بين الناس جميعاً متدينين وغير متدينين . . فإذا اختلفتم فى أن الذكورة والأنوثة يجب أن يتحدا فى العمل والحركة والنوع نقول لكم : لا ، هذا أمر متفق عليه فى الزمن ، فخذوا ما اتفقتم عليه دليلاً على صحة ما اختلفتم فيه . ولذلك ضرب الله المثل فقال :

﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ ﴾

(سورة الليل)

فعندما يغشى الليل يأتى السكون . وقال الحق بعد ذلك :

﴿ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ ﴾

(سورة الليل)

وعندما تبزغ الشمس تدب الحركة ، ثم جاء بالشىء المختلف فيه ، فأتبع سبحانه ذلك بقوله :

﴿ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ۝٣ إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ ۝٤ ﴾

(سورة الليل)

أى أن لكل جنس مهمة..

وهكذا نعرف أن الإنسان ينقسم إلى نوعين : الذكورة والأنوثة وفيهما عمل مشترك وخاصية مشتركة . وأن كلا منهما إنسان له كرامة الإنسان وله حرية العقيدة فلا يوجد رجل يرغم امرأة على عقيدة، وضربنا المثل بامرأة نوح وامرأة لوط وامرأة فرعون .

راجع أصله وخرّج أحاديثه الدكتور أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .

إذن فالقدر المشترك هو حرية الاعتقاد ، فلا سلطان لنوع على نوع ، وكذلك حرية التعقل فى المهمات ، وعرفنا كيف أن أم سلمة ـ رضى الله عنها ـ أشارت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة الحديبية إشارة أنقذت المسلمين من انقسام فظيع أمام حضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعرفنا قصة بلقيس ـ ملكة سبأ ـ التى استطاعت أن تبرم أمراً تخلّى عنه الرجال ، إذن فمن الممكن أن يكون للمرأة تعقل وأن يكون للمرأة فكر ، وحتى قبل أن يوجد الإسلام كانت هناك نساء لهن أصالة الرأى ، وحكمة المشورة فى نوع مهمتها .

فمثلاً يحدثنا التاريخ أن ملك « كِندة » سمع عن جمال امرأة اسمها « أم إياس » بنت عوف بن محل الشيبانى ، فأراد أن يتزوجها ، فدعا امرأة من « كِندة » يقال لها : « عصام » وكانت ذات أدب وبيان وعقل ولسان ، وقال لها : اذهبى حتى تعلمى لى علم ابنة عوف . أى أرسلها خاطبة . فلما ذهبت إلى والدة « أم إياس » واسمها « أمامة بنت الحارث »وأعلمتها بما جاءت له . وأرسلت الأم تستدعى الابنة من خيمتها ، وقالت لها : هذه خالتك جاءت لتنظر إلى بعض شأنك فلا تسترى عنها شيئاً أرادت النظر إليه من وجه وخلق ونَاطِقِيها فيما استنطقتك به . فلما اختلت « عصام » بالبنت فعلت مثل ما أمرتها أمها . وكشفت للخاطبة « عصام » عن كل ما تريد من محاسنها ، فقالت الخاطبة كلمتها المشهورة : « ترك الخداع ما انكشف القناع » ، وصار هذا القول مثلاً ، أى أن القناع عندما يزول يرى الإنسان الحقيقة ، وعادت الخاطبة « عصام » إلى الملك فسألها : ما وراءك يا « عصام » إنه يسأل : أى خبر جئت به من عند « أم إياس » ؟ . فقالت : أبدى المخض عن الزبد . والمخض هو : هزّ الحليب فى القربة ليفصل الزبد عن اللبن . وذلك يعنى أن رحلتها قد جاءت بنتيجة .

فقال لها : أخبرينى .

قالت : أخبرك حقاً وصدقاً . ووصفتها من شعرها إلى قدمها وصفاً أغرى الملك . فأرسل إلى أبيها وخطبها وزفت إليه .

وفى ليلة الزفاف نرى الأم العاقلة توصى ابنتها فى ميدان عملها ، فى ميدان

أمومتها ، فى ميدان أنوثتها . قالت الأم لابنتها : « أى بنية ، إن النصيحة لو تركت لفضل أدب لتركت لذلك منك ـ أى أنها كأم تثق فى أدب ابنتها ولا تحتاج فى هذا الأمر لنصيحة ـ ولكنها معونة للغافل وتذكرة للعاقل . إنك غداً ستذهبين إلى بيت لم تعرفيه ، وقرين لم تألفيه . فكونى له أَمَةً يكن لك عبداً . واحفظى عنى عشر خصال تكن لك ذخراً » .

وانظروا إلى الخصال التى استنبطتها المرأة من ميدان رسالتها ، تستمر كلمات الأم : « أما الأولى والثانية : فالمعاشرة له بالسمع والطاعة والرضا بالقناعة ، وأما الثالثة والرابعة : فالتعهد لموقع عينه وموضع أنفه فلا تقع عينه منك على قبيح ، ولا يشم منك إلا أطيب ريح . والخامسة والسادسة : التفقد لوقت طعامه والهدوء عند منامه فإن تنغيص النوم مغضبة ، وحرارة الجوع ملهبة . أما السابعة والثامنة : فالتدبير لماله والإرعاء على حشمه وعلى عياله . وأما التاسعة والعاشرة : فألا تفشى له سرّاً ولا تعصى له أمراً ؛ فإنك إن أفشيت سرّه لم تأمنى غدره ، وإن عصيت أمره أوغرت صدره ، وإياك بعد ذلك والفرح إن كان ترحاً والحزن إن كان فرحاً » .

فذهبت أم إياس بهذه النصائح إلى زوجها وأنجبت له البنين والبنات وسعدت معه وسعد معها .

تلك نصيحة من أم تدل على منتهى التعقل ، ولكن فى أى شىء ؟ . فى ميدان مهمتها . إذن فالمرأة يمنحها الله ويعطيها أن تتعقل ولها ميدان ولا يأتى هذا التعقل غالباً إلا فى ميدانها . لأن ميدان الرجل له حركة تتطلب الحزم ، وتتطلب الشدة ، والمرأة حركتها تتطلب العطف والحنان ؛ والأمثال فى حياتنا اليومية تؤكد ذلك ، إن الرجل عندما يدخل بيته ويحب أن ينام ، قد يأتى له طفله صارخاً باكياً ، فيثور الأب على زوجته ويسب الولد ويسب أمه ، وقد يقول ألفاظاً مثل : « اكتمى أنفاسه إنى أريد أن أستريح » . وتأخذ الأم طفلها وتذهب تربت على كتفه وتسكته ، ويستجيب لها الطفل ، فهذه مهمة الأم ، ولذلك نجد أن الأحداث التاريخية العصيبة تبرز الرجل فى مكانه والمرأة فى مكانها .

فمثلا : سيدنا إبراهيم عليه السلام أسكن هاجر وابنها إسماعيل بوادٍ غير ذى

زرع ، قالت له : أتتركنا فى مكان ليس فيه حتى الماء ، أهذا نزلته برأيك أم الله أنزلك فيه ؟. قال لها : أنزلنى الله هذا المكان . فقالت له : اذهب كما شئت فإنه لا يضيعنا . هذه المهمة للمرأة . هاجر مع طفل فى مكان ليس فيه مقوم الحياة الأول وهو الماء . فانظروا عطفها وحنانها ، ماذا فعلت ؟ لقد سعت بين الصفا والمروة ، صعدت الجبل إلى أن أنهكت قواها .

إن الذى يذهب إلى الحج أو العمرة ويجرب الأشواط السبعة هذه يعرف أقصى ما يمكن أن تتحمله المرأة فى سبيل ابنها ؛ لأن هذا موقف عطف وحنان ، ابنها يريد أن يشرب . وكأن الله قال لها : إنك قد سعيت ولكنى سأجعل رزقك من حيث لا تحتسبين ، أنت سعيت بين الصفا والمروة ، والماء ينبع تحت قدمى ولدك . إذن فصدقت فى قولها : إنه لا يضيعنا ، ولو أن سعيها جاء بالماء لظننا جميعاً أن السعى هو الذى يأتى بالماء ، ولكن اسع ولا تعتقد فى السعى ، بل اعتقد فى الرزّاق الأعلى ، تلك مسألة ظاهرة فى أمنا هاجر .

وحينما جاء موقف الابتلاء بالذبح ، اختفت هاجر من المسرح ، وجاء دور سيدنا إبراهيم بحزمه وعزمه ونبوته . ورأى فى الرؤيا أنه يذبح ابنه ، أين أمه فى هذا ؟ اختفت من المسرح ؛ لأن هذا موقف لا يتفق مع عواطفها وحنانها . إذن فكل واحد منهما له مهمة . والنجاح يكون على قدر هذه المهمة . ولذلك يقول الحق : « ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض » فساعة ترى جنساً أخذ شيئاً وجنساً آخر أخذ شيئاً ، إياك أن تشغل بالك وتتمنى وتقول : « أريد هذه » ، ولكن اسأل الله من فضله ، لأن كلمة « ولا تتمنوا » هى نهى عن أن تتمنى ما فضل الله به بعضا على بعض ، ولذلك يقول : « واسألوا الله من فضله » . ومادمت تسأل الله من فضله ، فهنا أمل أن يعطيك .

وقد يرى البعض هنا مشكلة فيتساءل : كيف ينهانا الله عن أن نتمنى ما فضل الله به بعضنا على بعض فقال : « ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض » مع أن فضل الله من شأنه أن يفضل بعضنا على بعضٍ بدليل قوله:(ورفعنا بعضكم فوق بعض درجات) فضلا على أننى أطمع فى أن أسأل الله ليعطينى ، لأنه ـ سبحانه ـ

ما أمرنا بالسؤال إلاّ ليعطينا .

ونقول : لا ، التمنى عادة أن تطلب شيئاً يستحيل أو لم تجر به العادة ، إنما السؤال والدعاء هو مجال أن تأتى إلى شيء تستطيع الحصول عليه ، فأوضح : لا تذهب إلى منطقة التمنى ، ولذلك ضربوا المثل للتمنى ببيت الشاعر :

ألا ليت الشباب يعود يوماً
فأخبره بما فعل المشيب

تمنّى الشاعر أن يعود الشباب يوماً فهل هذا يتأتى ؟ إنه لا يتأتى . أو أن يقول قائل : ليت الكواكب تدنو لى فأنظمها ، هل يمكن أن يحدث ذلك ؟ لا . ولكن هذا القول يدل على أن هذا الشيء محبوب وإن كان لم تجر به العادة ، أو هو مستحيل ، إذن فالسؤال يجب أن يكون فى حدود الممكن بالنسبة لك . والحق يوضح : لا تنظروا إلى ما فضل الله به بعضكم على بعض . ومادام الله قد فضل بعضاً على بعض فليسأل الإنسان لا فى منطقة ما فضل الله غيره عليه ويطلبه لنفسه ويسلبه من سواه ، ولكن فى منطقة أن توفق فى إبراز ما فضلك الله به ؛ ولذلك نجد الحق فى آيات التفضيل يقول :

﴿ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ ﴾

(من الآية ٧١ سورة النحل)

وما هو الرزق ؟ هل هو نقود فقط ؟ لا . بل الرزق هو كل ما ينتفع به ، فالحلم رزق ، والعلم رزق ، والشجاعة رزق ، كل هذا رزق ، وقوله الحق : « ما فضل الله به بعضكم على بعض » يجعلنا نتساءل : من هو المفضل ومن هو المفضل عليه ؟ لأنه قال : « بعضكم » . لم يبينها لنا ، إذن فبعض مفضل وبعض مفضل عليه .

وسؤال آخر : وأى بعض مفضل وأى بعض مفضل عليه ؟ إن كل إنسان هو فاضل فى شيء ومفضول عليه فى شيء آخر ، فإنسان يأخذ درجة الكمال فى ناحية ، وإنسان يفتقد أدنى درجة فى تلك الناحية ، لكنه يملك موهبة أخرى قد تكون كامنة

ومكتومة . وهذا يعنى التكامل فى المواهب ، وهذا التكامل هو أسنان الحركة فى المجتمع .

لننتبه إلى التروس ، نحن نجد الترس الزائد يدخل فى الترس الأقل ، فتدور الحركة ، لكن إذا وضعنا ترساً زائدا مقابل ترس زائد مثله فلن تحدث الحركة . إذن فلابد أن يكون متميزا فى شيء والآخر متميزًا فى شيء آخر فيحدث التكامل بينهما، ومثل ذلك قلنا:الليل والنهار ، الليل يعينني على حركة النهار ، وقلنا : إن السيف فى يد الفارس يضرب به ويقتل ، ولو لم يسنّه خبير فى الحدادة ويشحذه ويصقله لما أدى السيف مهمته ، وقد لا يستطيع هذا الخبير فى صقل السيوف الذهاب للمعركة ، وقد يخاف أن يضرب بالسيف ، لكن له فضل مثل فضل المحارب بالسيف .

إن كل واحد له مهمة يؤديها ، والأقدار تعطى الناس مواهبهم المتكاملة وليست المتكررة المتعاندة ، ومادامت المواهب متكاملة فلا أحسد من تفوّق علىّ فى مجال ما ؛ لأننى أحتاج إليه ، وهو لا يحسدنى إن تفوقت عليه فى موهبة أو عمل لأنه يحتاج إلى ، إذن فأنا أريده أن يتفوق ، وهو يريدنى أن أتفوق ، وذلك مما يحبب الناس فى نعم ومواهب الناس ، فأنا أحب النعمة التى وهبها الله للآخر ، وهو يحب النعمة والموهبة التى عندى .

مثال ذلك عندما نجد رجلا موهوبا فى تفصيل الملابس ويحيك أجود الجلابيب فالكل يفرح به ، وهذا الرجل يحتاج إلى نجار موهوب ليصنع له باباً جيداً لدكانه ، ومن مصلحة الاثنين أن تكون كل نعمة عند واحد محمودة ، ولذلك سمانا الله « بعضا » و« بعضا » ويتكون الكل من بعض وبعض ، فأنت موهوب فى بعض الأمور ولا تؤدى كل الأمور أبداً ، ولكن بضميمة البعض الآخر نملك جميعاً مواهب بعضنا بعضا .

ويتابع الحق : « للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن » فمهمة النجاح للرجل أو المرأة هو أن يكون كل منهما صالحاً ومؤديا للمهمة التى خُلق من أجلها ، بعد ذلك يكون حساب الثواب والعقاب وكل واحد على قدر تكليفه .

فالثواب والعقاب يأتى على مقدار ما يقوم كل مخلوق مما كلف به .

والمثال على اختلاف مهمة الرجل عن مهمة المرأة، يتجلى فى أننا نجد الرجل عندما تغضب امرأته أو تمرض ، ويكون عنده ولد رضيع ، فهل يستطيع هو أن يرضع الطفل ؟ طبعاً لا ؛ لأن لكل واحد مهمة ؛ فالعاقل هو من يحترم قدر الله فى خلقه ، ويحترم مواهب الله حين أعطاها ، وهو يسأل الله من فضله ، أى مما فضله به ليعطى له البركة فى مقامه . وحين يقول الحق : « ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن » نلحظ أن هذه تساوى تلك تماماً .

« واسألوا الله من فضله إن الله كان بكل شىء عليما » ومن واسع علمه سبحانه أنه وزع المواهب فى خلقه حتى يتكامل المجتمع ولا يتكرر ؛ لأن تكرار المجتمع هو الذى يولد الشقاق ، أما تكامله فيولد الوفاق ، وسبب نزول الآية « ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض » أن النساء قلن : إننا لم يكتب علينا الجهاد وأعطانا ربنا نصف الرجل من الميراث ، وقد أوضح الحق من قبل للمرأة أنها أخذت نصف الرجل لأنها محسوبة على غيرها ولن تصرف وتنفق من دخلها على نفسها ، بل سيصرف الرجل وينفق عليها، والمسألة بذلك تكون عادلة. وكذلك قال الرجال: مادام الله قد فضلنا فى الميراث، وأعطانا ضعف نصيب المرأة فلعله يفضلنا فى الآخرة ويعطينا ضعف ثوابها ، فيصنع الرجل العمل الواحد ويريد الضِّعف ! .

وانظر لذكاء المرأة ، حينما قالت : مادام ربنا أعطانا نصف ميراثكم فلماذا لا يعطينا نصف العقوبة إذن ؟ فأوضح لهم الله : اهدأوا « ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض » أى أن على كل واحد أن يرضى بما قسمه الله له .

وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ

وَٱلْأَقْرَبُونَ ۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾

وساعة ترى لفظة « لكل » وتجدها منونة ، فاعرف أن هناك حاجة مقدرة ، وأصلها « لكل إنسان » ، وحذف الاسم وجاء بدلاً منه التنوين ، مثل قوله :

﴿ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾

(سورة الواقعة)

ونجد التنوين فى « حينئذٍ » أى حين بلغت الروح الحلقوم ، فحذف حين بلغت الروح الحلقوم وعوض عنها التنوين فى « حينئذٍ » إذن فالتنوين جاء بدلاً من المحذوف .

وقول الحق : « ولكل جعلنا موالى » ، و« الموالى » جمع « مَوْلى » . وقبل أن تنزل آيات الميراث ، آخى النبى بين الأنصار والمهاجرين ، فكانوا يتوارثون بهذه المؤاخاة ، وكان هناك شىء اسمه « مولى المناصرة » وهو أن يستريح اثنان لبعضهما ويقول كل منهما للآخر : أنا أخوك وأنت أخى ، حربى حربك ، وسلمى سلمك ، ودمى دمك ، وترث منى وأرث منك ، وتعقل عنى وأعقل عنك ، أى أن فعلتُ جناية تدفع عنى ، وإن فعلتَ أنت جناية أدفع عنك . مؤاخاة .

هؤلاء كان لهم نصيب فى مال المتوفى ، فالحق يبيِّن : لكل إنسان من الرجال والنساء جعلنا ورثة يرثون مما ترك الوالدان ، والأقربون . . أى لهم نصيب من ذلك ولأولياء المناصرة بعض من الميراث كذلك. فإياكم أن تأتوا أنتم وتقولوا: لا، لابد أن تعطوهم نصيبهم الذى كان مشروطاً لهم وهو السدس .

لكن أظل ذلك الحكم ؟ لا. لقد نسخ وأنزل الله قوله :

﴿ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٧٥﴾ ﴾

(من الآية ٧٥ سورة الأنفال)

فمادام الله قد قال : « ولكل جعلنا موالى مما ترك الوالدان والأقربون » . أى ولكل إنسان من الموالى شيء من آثار ما ترك الوالدان والأقربون . فإياكم أن تقولوا : هم ذهبوا فلا نعطيهم شيئا ، لا.ما كانوا متفقين فيه وعقدوا أيمانهم عليه آتوهم نصيبهم مصداقاً لقوله الحق : « فآتوهم نصيبهم إن الله كان على كل شيء شهيدا » فالله شهيد على هذه . وشهيد على أنكم تنفذون أو لا تنفذون .

وبعد ذلك جاء ليتكلم فى قضية متصلة بقول الحق سبحانه : « ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض » فقال :

﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ۚ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾ ﴾

«الرجال قوامون على النساء»، أول ما نلتفت إليه أن بعضهم لم يفسروا الآية إلاَّ على الرجل وزوجته على الرغم من أنَّ الآية تكلمت عن مطلق رجال ومطلق نساء ، فليست الآية مقصورة على الرجل وزوجه ، فالأب قوام على البنات ،والأخ على أخواته . ولنفهم أولاً « الرجال قوامون » وماذا تعنى ؟ وننظر أهذه تعطى النساء التفوق والمركز

أم تعطيهن التعب . والحق سبحانه وتعالى يطلب منا أن نحترم قضية كونية ، فهو الخالق الذى أحسن كل شىء خلقه وأوضح القضية الإيمانية « الرجال قوامون على النساء » والذى يخالف فيها عليه أن يوضح - إن وجد - ما يؤدى إلى المخالفة ، والمرأة التى تخاف من هذه الآية ،نجد أنها لو لم ترزق بولد ذكر لغضبت ، وإذا سألناها : لماذاإذن ؟ تقول : أريد ابنًا ليحمينا . كيف وأنت تعارضين فى هذا الأمر ؟.

ولنفهم ما معنى « قَوَّام » ، القوَّام هو المبالغ فى القيام . وجاء الحق هنا بالقيام الذى فيه تعب ، وعندما تقول : فلان يقوم على القوم ، أى لا يرتاح أبدا . إذن فلماذا تأخذ « قوامون على النساء » على أنه كتم أنفاس ؟ لماذا لا تأخذها على أنه سعى فى مصالحهن ؟ فالرجل مكلف بمهمة القيام على النساء ، أى أن يقوم بأداء ما يصلح الأمر . ونجد أن الحق جاء بكلمة « الرجال » على عمومها ، وكلمة « النساء » على عمومها ، وشىء واحد تكلم فيه بعد ذلك فى قوله : « بما فضل الله بعضهم على بعض » فما وجه التفضيل ؟.

إن وجه التفضيل أن الرجل له الكدح وله الضرب فى الأرض وله السعى على المعاش ، وذلك حتى يكفل للمرأة سبل الحياة اللائقة عندما يقوم برعايتها . وفى قصة آدم عليه السلام لنا المثل ، حين حذر الحق سبحانه آدم وزوجته من الشيطان ، إبليس الذى دُعى إلى السجود مع الملائكة لآدم فأبى ، وبذلك عرفنا العداوة المسبقة من إبليس لآدم ، وحيثيتها :

﴿ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾

(من الآية ٦١ سورة الاسراء)

وأوضح الحق لآدم : إذا هبطت إلى الأرض فاذكر هذه العداوة . وأعلم أنه لن يتركك ، وسيظل يغويك ويغريك ؛ لأنه لا يريد أن يكون عاصياً بمفرده ، بل يريد أن يضم إليه آخرين من الجنس الذى أبى أن يسجد هو لأبيهم آدم يريد أن يغويهم ، كما حاول إغواء آدم :

﴿ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ ﴾

(من الآية ١١٧ سورة طه)

وهل قال الحق بعدها : فتشقيا أو فتشقى ؟ قال سبحانه :

﴿ فَتَشْقَىٰٓ ﴾

(من الآية ١١٧ سورة طه)

فساعة جاء الشقاء فى الأرض والكفاح ستر المرأة وكان الخطاب للرجل . وهذا يدل على أن القوامة تحتاج إلى تعب ، وإلى جهد ، وإلى سعى ، وهذه المهمة تكون للرجل .

ونلحظ أنه ساعة التفضيل قال : « الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض » لقد جاء بـ « بعضهم » لأنه ساعة فضل الرجل لأنه قوّام فضل المرأة أيضا لشىء آخر وهو كونها السكن حين يستريح عندها الرجل وتقوم بمهمتها .

ثم تأتى حيثية القوامة : « وبما أنفقوا من أموالهم » . والمال يأتى نتيجة الحركة ونتيجة التعب ، فالذى يتعب نقول له : أنت قوّام ، إذن فالمرأة يجب أن تفرح بذلك ؛ لأنه سبحانه أعطى المشقة وأعطى التعب للجنس المؤهل لذلك . ولكن مهمتها وإن كانت مهمة عظيمة إلا أنها تتناسب والخصلة المطلوبة أولاً فيها : الرقة والحنان والعطف والوداعة . فلم يأت بمثل هذا ناحية الرجل ؛ لأن الكسب لا يريد هذه الامور ، بل يحتاج إلى القوة والعزم والشدة ، فقول الله:« قوامون » يعنى مبالغين فى القيام على أمور النساء .

ويوضح للنساء : لا تذكرن فقط أنها حكاية زوج وزوجة . قدرن أن القيام يكون على أمر البنات والأخوات والأمهات . فلا يصح أن تأخذ « قوام » على أنها السيطرة ؛ لأن مهمة القيام جاءت للرجل بمشقة ، وهى مهمة صعبة عليه أن يبالغ فى القيام على أمر من يتولى شئونهن .

« وبما أنفقوا من أموالهم » فإذا كان الزواج متعة للأنثى وللذكر . والاثنان يستمتعان ويريدان استبقاء النوع فى الذرية ، فما دامت المتعة مشتركة وطلب الذرية أيضا مشتركا فالتبعات التى تترتب على ذلك لم تقع على كل منهما ، ولكنها جاءت على

الرجل فقط . . . صداقاً ونفقة حتى ولو كانت المرأة غنية لا يفرض عليها الشرع حتى أن تقرض زوجها .

إذن فقوامة الرجال جاءت للنساء براحة ومنعت عنهن المتاعب . فلماذا تحزن المرأة منها ؟ فـ « الرجال قوامون على النساء » أى قائمون إقامة دائمة ، لأنه لا يقال قوّام لمطلق قائم ، فالقائم يؤدى مهمة لمرة واحدة ، لكن « قوّام » تعنى أنه مستمر فى القوامة .

« الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم » وما دمنا نكدح ونتعب للمرأة فلابد أن تكون للمرأة مهمة توازى ذلك وهى أن تكون سكناً له ، وهذه فيها تفضيل أيضاً .

لقد قدم الحق سبحانه وتعالى فى صدر الآية مقدمة بحكم يجب أن يُلتزم به؛لإنه حكم الخالق الذى أحسن كل شىء خلقه ، فأوضح القضية الإيمانية : « الرجال قوامون على النساء » ثم جاء بالحيثيات فقال : « بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم » ويتابع الحق : « فالصالحات قانتات حافظات للغيب » والمرأة الصالحة هى المرأة التى استقامت على المنهج الذى وضعه لها من خلقها فى نوعها ، فمادامت هى صالحة تكون قانتة ، والقنوت هو دوام الطاعة لله ، ومنه قنوت الفجر الذى نقنته ، وندعو ونقف مدة أطول فى الصلاة التى فيها قنوت .

والمرأة القانتة خاضعة لله ، إذن فحين تكون خاضعة لله تلتزم منهج الله وأمره فيما حكم به من أن الرجال قوامون على النساء ، « فالصالحات قانتات حافظات للغيب » وحافظات للغيب تدل على سلامة العفة . فالمرأة حين يغيب عنها الراعى لها والحامى لعرضها كالأب بالنسبة للبنت والابن بالنسبة للأم ، والزوج بالنسبة للزوجة ، فكل امرأة فى ولاية أحد لا بد أن تحفظ غيبته ؛ ولذلك فالرسول صلى الله عليه وسلم حينما حدد المرأة الصالحة قال فى حديث عن الدنيا :

« الدنيا كلها متاع ، وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة »[1]

(١) رواه أحمد ومسلم والنسائى عن ابن عمرو .

لقد وضع صلى الله عليه وسلم قانوناً للمرأة الصالحة يقول فيه :

« خير النساء التى تسرّه إذا نظر وتطيعه إذا أمر ولا تخالفه فى نفسها ولا مالها بما يكره »[١] .

وأى شىء يحتاج الرجل إليه أحسن من ذلك . وكلمة « إن نظرت إليها سرّتك » إياك أن توجهها ناحية الجمال فقط ، جمال المبنى ، لا ، فساعة تراها اجمع كل صفات الخير فيها ولا تأخذ صفة وتترك صفة ؛ لأن النبى صلى الله عليه وسلم حذرنا من أن نأخذ صفة فى المرأة ونترك صفة أخرى ، بل لابد أن نأخذها فى مجموع صفاتها . فقال :

« تنكح المرأة لأربع : لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها ، فاظفر بذات الدين تربت يداك »[٢] .

المطلوب ألا تنظر إلى زاوية واحدة فى الجمال ، بل انظر إلى كل الزوايا ، فلو نظرت إلى الزاوية التى تشغل الناس ، الزاوية الجمالية ، لوجدتها أقل الزوايا بالنسبة إلى تكوين المرأة ؛ لأن عمر هذه المسألة « شهر عسل » ـ كما يقولون ـ وتنتهى ، ثم بعد ذلك تبدو المقومات الأخرى . فإن دخلت على مقوم واحد وهى أن تكون جميلة فأنت تخدع نفسك ، وتظن أنك تريدها سيدة صالون ! ونقول لك : هذه الصفة أمدها بسيط فى عمر الزمن ، لكن ما يبقى لك هو أن تكون أمينة ، أن تكون مخلصة ، أن تكون مدبرة ؛ ولذلك فالفشل ينشأ فى الأسرة من أن الرجال يدخلون على الزواج بمقياس واحد هو مقياس جمال البنية ، وهذا المقياس الواحد عمره قصير، يذهب بعد فترة وتهدأ شِرّته . وبعد ذلك تستيقظ عيون الرجل لتتطلع إلى نواحى الجمال الأخرى ، فلا يجدها . فيحدث الفشل ؛ لذلك لابد أن تأخذ مجموعة الزوايا كلها . إياك أن تأخذ زاوية واحدة ،وخير الزوايا أن يكون لها دين . وكذلك المقياس بالنسبة لقبول المرأة للزوج ، أيضاً خير الزوايا أن يكون له دين ، قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ :

---

(١) رواه أحمد والنسائى والحاكم .

(٢) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والنسائى وابن ماجه .

« إذا أتاكم من ترضون خلقه ودينه فزوجوه إن لا تفعلوا تكن فتنة فى الأرض وفساد عريض »[١] .

وعندما استشار رجل سيدنا الحسن بن على ـ رضى الله عنهما ـ قال : زَوِّجها من ذى الدين ، إن أحبها أكرمها ، وإن كرهها لم يظلمها .

إذن فالدين يرشدنا : لا بد أن ننظر إلى المسألة التى سيكون لها عمر طويل فى الحياة الممتدة ، وبعد ذلك إذا أرادت أن تكون ناجحة فعليها أن ترى إطار نوعيتها وتنبغ فيه ، ومن الممكن إن كان عندها وقت أن توسع دائرة مهمتها فى بيتها ، فإذا كان عندها أولاد فعليها أن تتعلم الحياكة وتقوم بتفصيل وحياكة ملابسها وملابس أولادها فتوفر النقود ، أو تتعلم التطريز كى لا تدفع أجرة ، أو تتعلم التمريض حتى إذا مرض ولدها استطاعت أن تمرضه وترعاه ، أن تتعلم كى تغنى عن مدرس خصوصى يأخذ نقوداً من دخل الأسرة ، وإن بقى عندها وقت فلتتعلم السباكة لتوفر أجرة السباك إذا فسد صنبور ماء ، أو تتعلم إصلاح الكهرباء لتصلح مفتاح الإضاءة . وتستطيع المرأة أن تقوم بأى عمل وهى جالسة فى بيتها وتوفر دخلاً لتقابل به المهام التى لا تقدر أن تفعلها ، والمرأة تكون من « حافظات الغيب » ليس بارتجالٍ من عندها أو باختيار ، بل بالمنهج الذى وضعه الله لحفظ الغيب ؟ . .

فما المنهج الذى وضعه الله لحفظ الغيب ؟ تحافظ على عرضها وعلى مال زوجها فى غيبته ، فتنظر المنافذ التى تأتى منها الفتنة وتمتنع عنها ، لا تخرج إلى الشوارع إلا لحاجة ماسة أو ضرورة كى لا ترى أحداً يفتنها أو يفتن بها ؛ لأن هذه هى مقدمات الحفظ ، ولا تذهب فى زحمة الحياة ، وبعد ذلك نقول لها:« حافظى على الغيب » بل عليها أن تنظر ما بيّنه الله فى ذلك . فإن اضطررت أن تخرجى فلتغضى البصر ؛ ولذلك قال سبحانه :

﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾

(من الآية ٣١ سورة النور)

---

(١) رواه الترمذى وابن ماجه والحاكم عن أبى هريرة .

فالمرأة إن لم تغض النظر يحدث التفات عاطفى ؛ لأن كل شعور فى الإنسان له ثلاث مراحل : مرحلة أن يدرك ، ومرحلة أن يجد فى نفسه ، ومرحلة أن ينزع ، أى يحول الأمر إلى سلوك ، ونضرب دائماً المثل بالوردة . وأنت تسير ترى وردة فى بستان وبمجرد رؤيتك لها فهذا إدراك ، وإذا أعجبتك الوردة وعشقتها وأحببتها فهذا اسمه وجدان . وإذا اتجهت لتقطفها فهذه عملية نزوعية ، فكم مرحلة ؟ ثلاث مراحل : إدراك ، فوجدان . فنزوع .

ومتى يتدخل الشرع ؟ الشرع يتدخل فى عملية النزوع دائماً . يقول لك : أنت نظرت الوردة ولم نعترض على ذلك ، أحببتها وأعجبتك فلم نقل لك شيئاً ، لكن ساعة جئت لتمدّ يدك لتأخذها قلنا لك : لا ، الوردة ليست لك .

إذن فأنت حرّ فى أن تدرك ، وحرّ فى أن تجد فى نفسك ، إنما ساعة تنزع نقول لك : لا ، هى ليست لك ، وإن أعجبتك فازرع لك وردة فى البيت ، أو استأذن صاحبها مثلاً .

إذن فالتشريع يتدخل فى منطقة النزوع ، إلا فى أمر المرأة فالتشريع يتدخل من أول الإدراك ؛ لأن الذى خلقنا علم أننا إن أدركنا جمالاً ، نظرنا له ، وستتولد عندنا مواجيد بالنسبة للأشياء التى نراها ونشتهيها ، وساعة يوجد إدراك واشتهاء، لا يمكن أن ينفصل هذا عن النزوع؛ لأنك ـ كرجل ـ مركب تركيباً كيميائيا بحيث إذ أدركت جمالاً ثم حدث لك وجدان واشتهاء ، فالاشتهاء لا يهدأ إلا بنزوع ، فيبين لك الشرع : أنا رحمتك من أول الأمر ، وتدخلت من أول المسألة . وكل شىء أتدخل فيه عند النزوع إلا المرأة فقد تدخلت فيها من أول الإدراك ؛ لذلك أمر الحق الرجل أن يغض البصر ، وكذلك أمر المرأة .

لماذا ؟ لأنك إن أدركت فستجد ، وإن وجدت فستحاول أن تنزع ونزوعك سيكون عربدة فى أعراض الناس ، وإن لم تنزع فسيبقى عندك كبت ؛ لذلك حسم الحق المسألة من أولها وقال :

﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ

خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ﴾

(الآية ٣٠ وجزء من الآية ٣١ سورة النور)

فامنعوا المسألة من أول مراحلها لماذا ؟ لأننى عندما أرى وردة ، ثم قالوا لى : هى ليست لك فلا تقطفها ، فلا يحدث عندى ارتباك فى مادتى ، لكن عندما يرى الرجل امرأة جميلة وتدخل فى وجدانه فسيحدث عنده النزوع ؛ لأن له أجهزة مخصوصة تنفعل لهذا الجمال ، ولذلك يوضح لك الحق : أنا خالقك وسأتدخل فى المسألة من أول الأمر ، فقوله : « بما حفظ الله » أى بالمنهج الذى وضعه الله للحفظ : ألا أعرض نفسى إلى إدراك ، فينشأ عنه وجدان ، وبعد ذلك أفكر فى النزوع ، . فإن نزعت أفسدت ، وإن لم تنزع تعقدت ، فيأتى شرّ من ذلك ، هذا معنى « بما حفظ الله » ، يعنى انظروا إلى المنهج الذى وضعه الله لأن تحفظ المرأة غيبة زوجها ، وهى تحفظه ليس بمنهج من عندها . بل بالمنهج الذى وضعه خالقها وخالقه .

وها هو ذا الحق سبحانه وتعالى حينما يربّى فى عبده حاسة اليقظة قال : « واللاتى تخافون نشوزهن » فالنشوز لم يحدث بل مخافة أن يحدث ، فاليقظة تقتضى الترقب من أول الأمر ، لا تترك المسألة حتى يحدث النشوز ، و« النشوز » من « نشز » أى ارتفع فى المكان . ومنه « النشز » وهو المكان المرتفع ، ومادام الحق قد قال : « الرجال قوامون على النساء » فالمعنى هنا : مَن تريد أن تتعالى وتوضع فى مكانة عالية ؟؛ ولذلك فالنشاز حتى فى النغم هو : صوت خارج عن قواعد النغم فيقولون : هذه النغمة نشاز ، أى خرجت عن قاعدة النغمة التى سبقتها . وكذلك المرأة المفروض فيها أنها تكون متطامنة ، فإن شعرت أن فى بالها أن تتعالى فإياك أن تتركها إلى أن تصعد إلى الربوة وترتفع . بل عليك التصرف من أول ما تشعر ببوادر النشوز فتمنعه ، ومعنى قوله : « واللاتى تخافون » يعنى أن النشوز أمر متخوف منه ومتوقع ولم يحدث بعد .

، وكيف يكون العلاج ؟ يقول الحق : « فعظوهن » أى ساعة تراها تنوى هذا فعظها ، والوعظ : النصح بالرقة والرفق ، قالوا فى النصح بالرقة : أن تنتهز فرصة

انسجام المرأة معك ، وتنصحها فى الظرف المناسب لكى يكون الوعظ والإرشاد مقبولاً فلا تأت لإنسان وتعظه إلا وقلبه متعلق بك .

ولنفترض أن ابناً طلب من والده طلباً ، ولم يحضره الأب ، ثم جاءت الأم لتشكو للأب سلوك الابن ، فيحاول الأب إحضار الطلب الذى تمناه الابن ، ويقول له :

ـ تعال هنا يا بنى ، إن الله قد وفقنى أن أحضر لك ما طلبت .

وفى لحظة فرح الابن بالحصول على ما تمنى ، يقول له الأب : لو تذكرت ما قالته لى أمك من سلوكك الردىء لما أحضرته لك .

ولو سب الأب ابنه فى هذه اللحظة فإن الابن يضحك .

لماذا ؟ لأن الأب أعطى الابن الدرس والعظة فى وقت ارتباط قلبه وعاطفته به . ولكن نحن نفعل غير ذلك . فالواحد يأتى للولد فى الوقت الذى يكون هناك نفور بينهما ، ويحاول أن يعظه ، لذلك لا تنفع الموعظة ، وإذا أردنا أن تنفع الموعظة يجب أن نغير من أنفسنا ، وأن ننتهز فرصة التصاق عواطف من نرغب فى وعظه فنأتى ونعطى العظة .

هكذا « فعظوهن » هذه معناها : برفق وبلطف ، ومن الرفق واللطف أن تختار وقت العظة ، وتعرف وقت العظة عندما يكون هناك انسجام ، فإن لم تنفع هذه العظة ورأيت الأمر داخلاً إلى ناحية الربوة ؛ والنشوز فانتبه . والمرأة عادةً تَدِل على الرجل بما تعرف فيه من إقباله عليها . وقد تصبر المرأة على الرجل أكثر من صبر الرجل عليها ، لأن تكوين الرجل له جهاز لا يهدأ إلا أن يفعل . لكن المرأة تستثار ببطء ، فعندما تنفعل أجهزة الرجل فهو لا يقدر أن يصبر ، لكن المرأة لا تنفعل ولا تستثار بسرعة ، فأنت ساعة ترى هذه الحكاية ، وهى تعرفك أنك رجل تحب نتائج العواطف والاسترسال ؛ فأعط لها درساً فى هذه الناحية ، اهجرها فى المضجع .

وانظر إلى الدقة ، لا تهجرها فى البيت ، لا تهجرها فى الحجرة ، بل تنام فى جانب وهى فى جانب آخر ، حتى لا تفضح ما بينكما من غضب ، اهجرها فى المضجع ؛ لأنك إن هجرتها وكل البيت علم أنك تنام فى حجرة مستقلة أو تركت البيت وهربت ، فأنت تثير فيها غريزة العناد ، لكن عندما تهجرها فى المضجع فذلك أمر يكون بينك وبينها فقط ، وسيأتيها ظرف عاطفى فتتغاضى ، وسيأتيك أنت أيضاً ظرف عاطفى فتتغاضى ، وقد يتمنى كل منكما أن يصالح الآخر .

إذن فقوله : « واهجروهن فى المضاجع » كأنك تقول لها : إن كنت سَتُدِلِّينَ بهذه فأنا أقدر على نفسى . ويتساءل بعضهم : وماذا يعنى بأن يهجرها فى المضاجع ؟ . نقول : مادام المضجع واحداً فليعطها ظهره وبشرط ألا يفضح المسألة ، بل ينام على السرير وتُغلق الحجرة عليهما ولا يعرف أحد شيئاً ؛ لأن أى خلاف بين الرجل والمرأة إن ظل بينهما فهو ينتهى إلى أقرب وقت ، وساعة يخرج الرجل وعواطفه تلتهب قليلاً ، يرجع ويتلمسها ، وهى أيضاً تتلمسه . والذى يفسد البيوت أن عناصر من الخارج تتدخل ، وهذه العناصر تورث فى المرأة عناداً وفى الرجل عناداً ؛ لذلك لا يصح أن يفضح الرجل ما بينه وبينه المرأة عند الأم والأب والأخ ، ولنجعل الخلاف دائماً محصوراً بين الرجل والمرأة فقط . فهناك أمر بينهما سيلجئهما إلى أن يتسامحا معاً .

« فعظوهن واهجروهن فى المضاجع واضربوهن » وقالوا : إن الضرب بشرط ألا يسيل دماً ولا يكسر عظماً . . أى يكون ضرباً خفيفاً يدل على عدم الرضا ؛ ولذلك فبعض العلماء قالوا : يضربها بالسواك .

وعلمنا ربنا هذا الأمر فى قصة سيدنا أيوب عندما حلف أن يضرب امرأته مائة جلدة ، قال له ربنا :

﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة ص)

والضغث هو الحزمة من الحشيش يكون فيها مائة عود ، ويضربها ضربة واحدة فكأنه ضربها مائة ضربة وانتهت . فالمرأة عندما تجد الضرب مشوباً بحنان الضارب

فهى تطيع من نفسها ، وعلى كل حال فإياكم أن تفهموا أن الذى خلقنا يشرع حكماً تأباه العواطف ، إنما يأباه كبرياء العواطف ، فالذى شرع وقال هذا لابد أن يكون هكذا .

« واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن فى المضاجع واضربوهن » أى ضرباً غير مبرح ، ومعنى : غير مبرح أى ألا يسيل دماً أو يكسر عظماً ويتابع الحق : « فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا » .

فالمسألة ليست استذلالاً . بل إصلاحا وتقويما ، وأنت لك الظاهر من أمرها ، إياك أن تقول : إنها تطيعنى لكن قلبها ليس معى ؛ وتدخل فى دوامة الغيب ، نقول لك : ليس لك شأن لأن المحكوم عليه فى كل التصرفات هو ظاهرالأحداث . أما باطن الأحداث فليس لك به شأن مادام الحق قال : « أطعنكم » ؛ فظاهر الحدث إذن أن المسألة انتهت ولا نشوز تخافه ، وأنت إن بغيت عليها سبيلاً بعد أن أطاعتك ، كنت قوياً عليها فيجب أن تتنبه إلى أن الذى أحلها لك بكلمة هو أقوى عليك منك عليها وهذا تهديد من الله .

ومعنى التهديد من الله لنا أنه أوضح : هذه صنعتى ، وأنا الذى جعلتك تأخذها بكلمتى « زوجنى .. زوجتك » .. ومادمت قد ملكتها بكلمة منى فلا تتعال عليها ؛ لأننى كما حميت حقك أحمى حقها . فلا أحد منكما أولى بى من الآخر ، لأنكما صنعتى وأنا أريد أن تستقر الأمور ، وبعد هذا الخطاب للأزواج يأتى خطاب جديد فى قول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾ ﴾

وقوله : « وإن خفتم شقاق بينهما » يعنى أن الشقاق لم يقع بعد ، إنما تخافون أن يقع الشقاق ، وما هو « الشقاق » ؟ الشقاق مادته من الشق ، وشق : أى أبعد شيئاً عن شيء ، شققت اللوح : أى أبعدت نصفيه عن بعضهما ، إذن فكلمة « شقاق بينهما » تدل على أنهما التحما بالزواج وصارا شيئاً واحداً ، فأى شيء يبعد بين الاثنين يكون « شقاقاً » إذ بالزواج والمعاشرة يكون الرجل قد التحم بزوجه هذا ما قاله الله :

﴿ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴾

(من الآية ٢١ سورة النساء)

ويتأكد هذا المعنى فى آية أخرى :

﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾

(من الآية ١٨٧ سورة البقرة)

وهذا يعنى أن المرأة مظروفة فى الرجل والرجل مظروف فيها . فالرجل ساتر عليها وهى ساترة عليه ، فإذا تعدّاهما الأمر ، يقول الحق : « وإن خفتم شقاق بينهما » مَن الذين يخافون ؟ . . أهو ولىّ الأمر أم القرابة القريبة من أولياء أمورها وأموره ؟ أى الناس الذين يهمهم هذه المسألة .

« وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها » إنهم البيئة والمجال العائلى ، إذن فلا ندع المسائل إلى أن يحدث الشقاق ، كأن الإسلام والقرآن ينبهنا إلى أن كل أناس فى محيط الأسرة يجب أن يكونوا يقظين إلى الحالات النفسية التى تعترض هذه الأسرة ، سواء أكان أباً أم أخاً أم قريباً عليه أن يكون متنبهاً لأحوال الأسرة ولا يترك الأمور حتى يحدث الشقاق بدليل أنه قال : « وإن خفتم شقاق بينهما » . . فالشقاق لم يحدث ، ويجب ألا تترك المسألة إلى أن يحدث الشقاق ، « وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا » وهذا القول هو لولىّ الأمر العام أيضا إذا كانت عيونه يقظة إلى أنه يشرف على علاقات كل البيوت ، ولكن هذا أمر غير وارد فى ضوء مسئوليات ولى الأمر فى العصر الحديث . إذن فلا بد أن الذى سيتيسر له تطبيق هذا الأمر هم البارزون من الأهل هنا وهناك ، وعلى كل من لهم وجاهة فى الأسرة أن يلاحظوا الخط البيانى للأسرة ، يقولون : نرى كذا وكذا .

ونأخذ حَكَماً من هنا وحكماً من هناك وننظر المسألة التى ستؤدى إلى عاصفة قبل أن

تحدث العاصفة ؛ فالمصلحة انتقلت من الزوجين إلى واحد من أهل الزوج وواحد من أهل الزوجة ، فهؤلاء ليس بينهما مسألة ظاهرة بأدلتها ، ولم تتبلور المشكلة بعد ، وليس فى صدر أى منهما حُكْمٌ مسبق ، ويجوز أن يكون بين الزوجين أشياء ، إنما الحكَم من أهل الزوج والحكَم من أهل الزوجة ليس فى صدر أى منهما شىء ، ومادام الاثنان ستوكل إليهما مهمة الحكم . فلا بد أن يتفقا على ما يحدث بحيث إذا رأى الاثنان أنه لا صلح إلا بأن تطلق ، فهما يحكمان بالطلاق ، والناس قد تفهم أن الحكم هم أناس يُصْلِحُون بين الزوجين فإن لم يعجبهم الحكم بقى الزوجان على الشقاق ، لا . فنحن نختار حكماً من هنا وحكماً من هناك .

إن ما يقوله الحكمان لابد أن ننفذه ، فقد حصرت هذه المسألة فى الحكمين فقال : « إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما » . . فكأن المهمة الأساسية هى الإصلاح وعلى الحكمين أن يدخلا بنية الإصلاح ، فإن لم يوفق الله بينهما فكأن الحكمين قد دخلا بألا يصلحا .

إن على كل حكم أن يخاف على نفسه ويحاول أن يخلص فى سبيل الوصول إلى الإصلاح ؛ لأنه إن لم يخلص فستنتقل المسألة إلى فضيحة له . . فالذى خلق الجميع : الزوج والزوجة والحكم من أهل الزوج والحكم من أهل الزوجة قال : « إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما » فليذهب الاثنان تحت هذه القضية ، ويصرّا بإخلاص على التوفيق بينهما ؛ لأن الله حين يطلق قضية كونية ، فكل واحد يسوس نفسه وحركته فى دائرة هذه القضية . وحين يطلق الله قضية عامة فهو العليم الخبير ، ومثال ذلك قوله :

﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾

(سورة الصافات)

إنه سبحانه قال ذلك ، فليحرص كل جندى على أن يكون جندياً لله ؛ لأنه إن انهزم فسنقول له : أنت لم تكن جندياً لله ، فيخاف من هذه . إذن فوضع القضية الكونية فى إطار عقدى كى يجند الإنسان كل ملكاته فى إنجاح المهمة ، وعندما يقول الله : « إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما » ، فإياك أن تغتر بحزم الحكمين ، وبذكاء الحكمين ، فهذه أسباب . ونؤكد دائماً : إياك أن تغتر بالأسباب ؛ لأن كل شىء من

المسبب الأعلى ، ولنلحظ دقة القول الحكيم : « يوفق الله بينهما » . فسبحانه لم يقل : إن يريدا إصلاحاً يوفقا بينهما . بل احتفظ سبحانه لنفسه بفضل التوفيق بين الزوجين .

ويذيل سبحانه الآية : « إن الله كان عليما خبيرا » أى بأحوال الزوج ، وبأحوال الزوجة ، وبأحوال الحكم من أهله ، وبأحوال الحكم من أهلها ، فهم محوطون بعلمه . وعلى كل واحد أن يحرص على تصرفه ؛ لأنه مسئول عن كل حركة من الحركات التى تكتنف هذه القضية ؛ فربنا عليم وخبير .

وما الفرق بين « عليم » و« خبير » ؟ . . فالعلم قد تأخذه من علم غيرك إنما الخبرة فهى لذاتك .

وبعد أن تكلم الحق على ما سبق من الأحكام فى الزواج وفى المحرمات ، وأخذنا من مقابلها المحللات ، وتكلم عمن لا يستطيع طولاً وتكلم عن المال . . وحذرنا أن نأكله بالباطل ، وتكلم عن الحال بين الرجل والمرأة ، وبعد ذلك لفتنا الحق ووجهنا ونبهنا إلى المنهج الأعلى وهو قوله سبحانه :

﴿ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ﴾

وعندما يقول لنا الحق : « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا » أى : إياكم أن تدخلوا فى قضية من هذه القضايا على غير طاعة الله فى منهجه . . والعبادة هى : طاعة العابد للمعبود ، فلا تأخذها على أنها العبادات التى نفعلها فقط من : الصلاة والصوم والزكاة والحج ؛ لأن هذه أركان الإسلام ، ومادامت هذه هى الأركان والأسس التى بنى عليها الإسلام ، إذن فالإسلام لا يتكون من الأركان فقط بل الأركان هى الأسس التى بنى عليها الإسلام ، والأسس التى بنى عليها البيت ليست هى كل البيت ؛ لذلك فالإسلام بنيان متعدد . فالذين يحاولون أن يأخذوا من المصطلح التصنيفى ، أو المصطلح الفنى فى العلوم ويقولون : إن العبادات هى : الصلاة وما يتعلق بها . . والزكاة والصوم والحج ؛ لأنها تسمى فى كتب الفقه « العبادات » فلقد قلنا : إن هذا هو الاسم الاصطلاحى ، لكن كل أمر من الله هو عبادة .

ولذلك فبعض الناس يقول : نعبد الله ولا نعمل . نقول لهم : العبادة هى طاعة عابد لأمر معبود ، ولا تفهموا العبارة على أساس أنها الشعائر فقط ، فالشعائر هى إعلان استدامة الولاء لله . وتعطى شحنة لنستقبل أحداث الحياة ، ولكن الشعائر وحدها ليست كل العبادة ، فالمعاملات عبادة ، والمفهوم الحقيقى للعبادة أنها تشمل عمارة الأرض ، فالحق سبحانه وتعالى قال :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَ ﴾

(من الآية ٩ سورة الجمعة)

كأنه أخرجهم من البيع إلى الصلاة ، ولم يخرجهم من فراغ بل أخرجهم من حركة البيع ، وجاء بـ« البيع » لأنه العملية التى يأتى ربحها مباشرة ؛ لأنك عندما تزرع زرعاً ستنتظر مدة تطول أو تقصر لتخرج الثمار ، لكن البيع تأتى ثمرته مباشرة ، تبيع فتأخذ الربح فى الحال . والبيع ـ كما نعلم ـ ينظم كل حركات الحياة ، لأن معنى البيع : أنه وسيط بين منتج ومستهلك ، فعندما تبيع سلعة ، هذه السلعة جاءت من منتج ، والمنتج يبحث عن وسيط يبيعها لمستهلك ، وهذا المستهلك تجده منتجاً أيضاً ، والمنتج تجده أيضاً مستهلكاً . فالإنتاج والاستهلاك تبادل وحركة الحياة كلها فى البيع وفى الشراء ، ومادام هناك بيع ففيه شراء . فهذا استمرار لحركة الحياة . والبائع دائماً يحب أن يبيع ، لكن المشترى قد لا يحب أن يشترى ؛ لأن المشترى

سيدفع مالاً والبائع يكسب مالاً ، فيوضح الله : أتركوا هذه العملية التى يأتى ربحها مباشرة ، ولبّوا النداء لصلاة الجمعة . لكن ماذا بعد الصلاة ؟ يقول الحق :

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ ﴾

(سورة الجمعة)

إذن فهذا أمر أيضاً . فإن أطعنا الأمر الأول : « فاسعوا إلى ذكر الله » فالأمر فى « فانتشروا فى الأرض » يستوجب الطاعة كذلك . إذن فكل هذه عبادة ، وتكون حركة الحياة كلها عبادة : إن كانت صلاة فهى عبادة ، والصوم عبادة ، وبعد ذلك.. ألا تحتاج الصلاة لقوام حياة ؟ لا بد أن تتوافر لك مقومات حياة حتى تصلى . وما هى مقومات حياتك ؟ إنها طعام وشراب ومسكن ومَلْبس ، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب . إذن فجماع حركة الحياة كلها سلسلة عبادة ، ولذلك فالحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾

(من الآية ٦١ سورة هود)

إذن فكل عمل يؤدى إلى عمارة الكون واستنباط أسرار الله فى الوجود يعتبر عبادة لله ؛ لأنك تخرج من كنوز الله التى أودعها فى الأرض ما يلفت الناس إلى الحقيقة الكونية التى جاء بها الإيمان .

وإياك أن تظن أن العبادة هى فقط العبادة التصنيفية التى فى الفقه « قسم العبادات » و« قسم المعاملات » .. لا ، فكله عبادة ، لكن الحركات الحياتية الأخرى لا تظهر فيها العبادة مباشرة ؛ لأنك تعمل لنفعك ، أما فى الصلاة فأنت تقتطع من وقتك ، فسميناها العبادة الصحيحة ؛ لأن العمليات الأخرى يعمل مثلها من لم يؤمن بإله ، فهو أيضا يخرج للحياة ويزرع ويصنع .

ولماذا سموها العبادات ؟ لأن مثلها لا يأتى من غير متدين . إنما الأعمال الأخرى من عمارة الكون والمصلحة الدنيوية فغير المتدين يفعلها ولكن كل أمر لله نطيعه فيه اسمه عبادة . هذا مفهوم العبادة الذى يجب أن يتأكد لنا أن نخلص العمل بالعقول التى

خلقها الله لنا بالطاقات المخلوقة لنا ، فى المادة المخلوقة وهى الأرض وعناصرها لنرقى بالوجود إلى مستوى يسعدنا ويرضى الله عنه .

« واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا » . بعدما قال كل هذا الكلام السابق ، لفتنا ربنا إلى قضية يجب أن نلحظها دائما فى كل تصرفاتنا هى أن نأتمر بأمر الله فى منهجه ، وألا نشرك به شيئاً ؛ لأن الشرك يضر قضية الإنسان فى الوجود ، فإن كنت فى عمل إياك أن تجعل الأسباب فى ذهنك أمام المسبب الأعلى . . بل اقصد فى كل عمل وجه الله .

ويضرب الحق المثل لراحة الموحد ولتعب المشرك فقال :

﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾

(سورة الزمر)

فهذا عبد مملوك لجماعة ، والجماعة مختلفة ومتشاكسة ، وهو لا يعرف كيف يوفق بين أوامر كل منهم التى تتضارب ، فإن أرضى هذا ، أغضب ذاك . إذن فهو عبد مبدد الطاقة موزع الجهد ، مقسم الالتفاتات ، ولكن العبد المملوك لواحد ، لا يتلقى أمراً إلا من سيد واحد ونهياً من السيد نفسه . والحق يشرع القضية لعباده بصيغة الاستفهام ، وهو العليم بكل شىء ليجعل المؤمن به يشاركه فى الجواب حتى إذا ما قال الحق : « هل يستويان » ؟ هنا يعرضها الإنسان على عقله ويريد أن يجيب ، فماذا يقول ؟ سيجيب بطبيعة الفطرة وطبيعة منطق الحق قائلاً : لا يارب لا يستويان .

إذن فأنت أيها العبد المؤمن قد قلتها ، ولم يفرضها الله عليك . وقد طرحها الحق سبحانه سؤالاً منه إليك ؛ حتى يكون جوابك الذى لن تجد جواباً سواه . فإذا ما كنت كذلك أيها العبد المؤمن قد ارتحت فى الوجود وتوافرت لك طاقتك لأمر واحد ونهى واحد ، هنا تصبح سيداً فى الكون ، فلا تجد فى الكون من يأخذ منك عبوديتك للمكون . وتلك هى راحتنا فى تنفيذ قول الله : « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا »

لأن الإشراك بالله ـ والعياذ بالله ـ يرهق صاحبه . وياليت المشركين حين يشركون يأخذون عون الله ، ولا يأخذون عون الشركاء . لكن الله يتخلى عن العبد المشرك ، لأنه سبحانه يقول :

(أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملا أشرك فيه معى غيرى تركته وشركه)[1] .

الحق إذن يتخلى عن العبد المشرك . وليت العبد المشرك يأخذ حظه من الله كشريك . . وإنما ينعدم عنه حظ الله ؛ لأن الله غنى أن يشرك معه أحدا آخر . وهكذا يكون المشرك بلا رصيد إيمانى ، ويحيا فى كد وتعب . ويردف الحق سبحانه وتعالى عبادته بالإحسان إلى الوالدين فيأتى قوله ـ جل شأنه ـ:« وبالوالدين إحسانا » والوالدان هما الأب والأم ؛ لأنهما السبب المباشر فى وجودك أيها المؤمن . ومادامت عبادتك لله هى فرع وجودك ، إذن فإيجادك من أب وأم كسببين يجب أن يلفتك إلى السبب الأول ؛ إن ذلك يلفتك إلى من أوجد السلسلة إلى أن تصل إلى الإنسان الأول وهو آدم عليه السلام .

« وبالوالدين إحسانا » . . انظر إلى المنزلة التى أعطاها الله للوالدين ، وهما الأب والأم . والخطاب لك أيها المسلم لتعبد الله ، والتكليف لك وأنت فرع الوجود ؛ لأن الخطاب لمكلف ، والتكليف فرع الوجود ، والوالدان هما السبب المباشر لوجودك ، فإذا صعّدت السبب فالوالدان من أين جاءا ؟ . . من والدين ، وهكذا حتى تصلُ لله ، إذن فانتهت المسألة إلى الواحد ؛ لأن التكليف من المُكلِّف إلى المُكَلَّف فرع الوجود . والوجود له سبب ظاهرى هما « الوالدان » ، وعندما تسلسلها تصل لله إنه ـ سبحانه ـ أمر : اعبدنى ولا تشرك بى شيئا ، وبعد ذلك . . « وبالوالدين إحسانا » . . كلمة « الإحسان » تدل على المبالغة فى العطاء الزائد . . الذى نسميه مقام الإحسان . .

« وبالوالدين إحسانا » . . الحق سبحانه وتعالى حينما قرن الوالدين بعبادته؛لأنه إله واحد ولا نشرك به شيئا ، لم ينكر أو يتعرض لإيمانهما أو كفرهما ؛ لأن هناك آية أخرى

(١) رواه مسلم وابن ماجه عن أبى هريرة .

يقول فيها :

﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾

(من الآية ١٥ سورة لقمان)

صحيح لا تطعهما ولكن احترمهما ؛ لأنهما السبب المباشر فى الوجود وإن كان هذا السبب مخالفاً لمن أنشأه وأوجده وهو الله ـ جلت قدرته ـ ، « وصاحبهما فى الدنيا معروفا » والمعروف يصنعه الإنسان فيمن يحبه وفيمن لا يحبه ، إياك أن يكون قلبك متعلقاً بهما إن كانا مشركين ، لكن صاحبهما فى الدنيا معروفا ؛ ولذلك قال: « وصاحبهما فى الدنيا » أى انظر مصلحتهما فى أمور الدنيا معروفاً منك . والمعروف تصنعه فيمن تحب وفيمن لا تحب .

والحق يقول : « وبالوالدين إحسانا » . . ويكررها فى آيات متعددة . . فقد سبق فى سورة البقرة أن قال لنا :

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾

(من الآية ٨٣ سورة البقرة)

وبعد ذلك تأتى هذه الآية التى نحن بصددها . . « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحسانا » .

وبعد ذلك يأتى أيضاً قوله سبحانه :

﴿ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾

(من الآية ١٥١ سورة الأنعام)

وبعد ذلك يأتى الحق سبحانه وتعالى فيقول :

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ﴾

(من الآية ١٥ سورة الأحقاف)

ويأتي أيضاً فى سورة العنكبوت فيقول :

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ﴾

(من الآية ٨ سورة العنكبوت)

لكن إن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعمها ، فإن كان الوالدان مشركين فلا بد أن نعطف عليهما معروفا . . والمعروف كما أوضحنا يكون لمن تحب ومن لا تحب ، ولكن الممنوع هو : الودادة القلبية ؛ ولذلك قال :

﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾

(من الآية ٢٢ سورة المجادلة)

ولا يوجد تناقض أو شبه تناقض بين الآية التى نحن بصددها وبين آية سورة المجادلة . وهناك آيات تكلم فيها الحق وقرن عبادته بالإحسان إلى الوالدين ، وهناك آيتان جاء الأمر فيهما بالتوصية بالوالدين استقلالا .

وذلك فى قوله تعالى :

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ﴾

(من الآية ١٥ سورة الأحقاف)

وفى قوله سبحانه :

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ﴾

(الآية ٨ سورة العنكبوت)

ففيه « إحسان » ، وفيه « حسن » ، « الإحسان » : هو أن تفعل فوق ما كلفك الله مستشعراً أنه يراك . فإن لم تكن تراه فإنه يراك ، و« الإحسان » من « أحسن » ، فيكون معناها أنه ارتضى التكليف وزاد على ما كلفه . وعندما يزيد الإنسان على ما كلفه الله أن يصلى الخمس المطلوبة ثم يجعلها عشرة ، ويصوم شهر رمضان ، ثم يصوم يومى الاثنين والخميس أو كذا من الشهور ، ويزكى حسب ما قرر الشرع باثنين ونصف فى المائة وقد يزيد الزكاة إلى عشرة فى المائة ، ويحج ثم يزيد الحج مرتين . إذن فالمسألة أن تزيد على ما افترض الله ، فيكون قد أدخلك الله فى مقام الإحسان ؛ لأنك حين جربت أداء الفرائض ذقت حلاوتها . وعلمت مما أفاضه الله عليك من معين التقوى ومن رصيد قوله :

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ﴾

(من الآية ٢٨٢ سورة البقرة)

علمت أن الله يستحق منك أكثر مما كلفك به ؛ ولذلك فبعض الصالحين فى أحد سبحاته قال : « اللهم إنى أخشى ألا تثيبنى على الطاعة لأننى أصبحت أشتهيها » . . أى صارت شهوة نفس ، فهو خائف أن يفقد حلاوة التكليف والمشقة فيقول : يارب إننى أصبحت أحبها ، ومفروض منا أننا نمنع شهوات أنفسنا لكنها أصبحت شهوة فماذا أفعل ؟

إذن فهذا الرجل قد دخل فى مقام الإحسان واطمأنت نفسه ورضيت وأصبح هواه تبعا لما أمر به الله ورضيه .

ولذلك يجب أن نلحظ أن الحق سبحانه وتعالى حينما تكلم عن المتقين قال :

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة الذاريات)

لماذا هم محسنون يارب ؟ . .

يقول الحق :

﴿ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة الذاريات)

وهل كلفنى الله . ألا أهجع إلا قليلاً من الليل ؟ إن الإنسان يصلى العشاء من أول الليل وينام حتى الفجر ، هذا هو التكليف ، لكن أن تحلو للمؤمن العبادة ، ويزداد الإيمان فى القلب والجوارح ، ويأنس العبد بالقرب من الله ، فالحق لا يَرُدُّ مثل هذا العبد بل إنّه يستقبله ويدخله فى مقام الإحسان .

﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾

وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

(جزء من الآية ١٦ ، والآيتان ١٧ ، ١٨ سورة الذاريات)

وربنا لم يكلفهم بذلك ، إنما كلفهم فقط بخمسة فروض . ونعرف قصة الأعرابى الذى قال للرسول صلى الله عليه وسلم : هل علىّ غيرها ؟ قال له : لا ، إلا أن تَطَوَّعَ ، وذكر له رسول الله صلى الله عليه وسلم الزكاة ، فقال : هل علىّ غيرها ؟ قال : لا ، إلا أن تطّوّع ، قال : فأدبر الرجل وهو يقول : والله لا أزيد على هذا ولا أنقص منه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أفلح إن صدق)[1] .

وبذلك دخل هذا الأعرابى فى نطاق المفلحين . إذن فالذى يزيد على هذا يدخله الله فى نطاق المحسنين :

﴿ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ ﴾

(سورة الذاريات)

ولنلحظ دقة الأداء ، إن الحق لم يذكر أن للمحرومين فى أموال المحسنين حقاً معلوماً . لماذا ؟ ؛ لأن الحق سبحانه ـ ترك للمحسن الحرية فى أن يزيد على نسبة الزكاة التى يمنحها للسائل والمحروم ، وحينما يتكلم سبحانه عن مطلوب الإيمان يقول :

﴿ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ ﴾

(سورة المعارج)

إذن فالذى يزيد على ذلك ينتقل من مقام الإيمان ليدخل فى مقام الإحسان . كأنه يقول لك فى الآية التى نحن بصددها : إياك أن تعمل مع والديك القدر المفروض فقط ، بل ادخل فى برّهما والإنعام عليهما والتلطف بهما والرحمة لهما وذلّة الانكسار فوق ما يطلب منك ، ادخل فى مقام الإحسان ، ثم يأتى فى آية أخرى ليرشدنا بعد أن أدخلنا فى مقام الإحسان ، إنّه يصف ذلك الإحسان بشىء آخر وهو « الحسن » :

---

(١) رواه مسلم فى كتاب الإيمان .

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ﴾

(من الآية ٨ سورة العنكبوت)

وما هو المقابل « للحسن » ؟ إنه « القبح » ، إذن فالحق أدخلنا فى مقام الجمال مرة ، وفى مقام الإحسان مرة أخرى ، وهنا أكثر من ملحظ يجب ألا يغيب عن بال المسلم ، أولاً : نجد أن المفروض فى الشائع الغالب أنّ الوالدين يربيان أبناءهما ، ومن النادر أن يصبح الولد يتيماً ويربيه غير والديه ، فقال : الحظ سبب التربية بعد الوجود ، فسبب الوجود : يوجب عليك أن تعطيهما حقوقهما وفوق حقوقهما وتدخل فى مقام الإحسان ، ولكنه جاء فى آية وعلل ذلك فقال :

﴿ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾

(من الآية ٢٤ سورة الإسراء)

لقد جاء الحق بالتربية حيثية فى الدعاء لهما وفى البر التوصية بهما ، لكن لو أن إنساناً أخذ فيك منزلة التربية ولم يأخذ فيك سببية الإيجاد ، أله حق عليك أن يكون كوالديك ؟

إن الحق يقول : « كما ربيانى » ، فإذا كان والدى لهما هذا الحق ، فكذلك من قام بتربيتى من غير الوالدين له هذا الحق أيضا ! مادام جاء الحق بالوالدين فى علة الإحسان : « وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا » . . فمرة نلحظ أنه لا يجىء بمسألة التربية كى نعلم أن الوالدين هما سبب الوجود ، ومرة يلفتنا إلى أن من يتولى التربية يأخذ حظ الوالدين ، وشىء آخر : وهو أن الحق سبحانه وتعالى حينما وصى بالوالدين إحسانا ، جاء فى الحيثيات بما يتعلق بالأم ولم يأت بما يتعلق بالأب :

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ﴾

(من الآية ١٥ سورة الأحقاف)

هنا جاء الحق بالحيثيات للأم وترك الأب بدون حيثية ، وهذا كلام رب ؛ لأن إحسان الوالدة لولدها وجد وقت أن صار جنيناً . فهى قد حافظت على نفسها وسارت بحساب وحرص فانشغلت به وهو مازال جنيناً . وحاولت أن توفر كل المطالب قبلما يتكون له عقل وفكر . بينما والده قد يكون بعيداً لا يعرفه إلا عندما يكبر ويصير غلاماً ليربيه لكفاح الحياة ، أما فى فترة الحمل والمهد فكل الخدمات تؤديها الأم ولم يكن

للطفل عقل حتى يدرك هذا ، إنما بمجرد أن وجد العقل وجد أباه يعايشه ويعاشره ، وكلما احتاج إلى شيء قالت له الأم : أبوك يحققه لك ، وكل حاجة يحتاج إليها الطفل يسأل أباه أن يأتيه بها ، وينسى الطفل حكاية أمه وحملها له فى بطنها وأنها أرضعته وسهرت عليه ؛ لأنه لم يكن عنده إدراك ساعة فعلت كل ذلك ، فمن الذى - إذن - يحتاج إلى الحيثية ؟ إنها الأم ، أما حيثية إكرام الأب فموجودة للإنسان منذ بدء وعيه لأنه رأى كل حاجته معه ؛ لذلك قال الحق :

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ﴾

(من الآية ١٥ سورة الأحقاف)

والطفل لا يعرف حكاية الحمل هذه ، وعندما يتنبه يجد أن والده هو الذى يأتى بكل حاجة ، ومادام أبوه هو الذى فى الصورة ، فتكون الحيثية عنه موجودة ، والأم حيثيتها مغفولة ومستورة ، فكان لابد من أن يذكرنا الله بالحيثية المتروكة عند الإنسان مكتفياً بالحيثية للأب الموجودة والواضحة عند الابن ، ولذلك تجد النبى صلى الله عليه وسلم حينما يوصىّ قال : أمك ثم أمك ثم أمك ، وبعد ذلك قال : ثم أبوك . كما جاء فى الحديث : عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : « جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحابتى ؟قال: أمك.قال : ثم من ؟ قال : أمك قال ثم من ؟ قال:أمك.قال:ثم من ؟ قال : أبوك »[1] .

ولو حسبتها تجدها واضحة ، وأيضا فالأبوة رجولة ، والرجولة كفاح وسعى . والأمومة حنان وستر ، فهى تحتاج ألا تخرج لسؤال الناس لقضاء مصالحها ، أبوك إن خرج ليعمل فعمله شرف له . إنما خروج الأم للسعى للرزق فأمر صعب على النفس ، فالحق سبحانه وتعالى يقول : « وبالوالدين إحسانا » . . أو « بوالديه حسنا » إنها . . مقرونة فى ثلاث آيات بعبادة الله وعدم الإشراك به ، ثم أفردهما بالإحسان فى آيتين ، ويلاحظ هنا أن الحق سبحانه وتعالى حينما تكلم قال :

---

(١) رواه البخارى ومسلم .

﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ﴾

(من الآية ١٥ سورة لقمان)

لكن هذا لا يمنع أن تعطيهما المعروف وما يحتاجان إليه ، ونلحظ أن الحق لم يأت لهما بطلب الرحمة وهما على الشرك والكفر كما طلبها لهما فى قوله :

﴿ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾

(من الآية ٢٤ سورة الإسراء)

لأنهما وإن ربيا جسد الولد فلم يربيا قلبه وإيمانه ، فلا يستحقان أن يقول : ارحمهما ؛ لأن الحق أراد أن يسع الولد والديه فى الدنيا وإن كانا على الكفر .

والحق سبحانه وتعالى حينما يريد أن يشيع الإحسان فى الكون كله ، يبتدىء بالأقرب فالقريب فالجار ، فقال : « وبالوالدين إحسانا وبذى القربى » . إذن ففيه دوائر . ولو أن كل واحد أحسن إلى أبويه . فلن نَجد واحداً فى شيخوخته مهيناً أبداً ؛ لذلك يوسع سبحانه دوائر الهمّة الإيمانية فجاء بالوالدين ثم قال بعدها : « وبذي القربى » أى صاحب القربى ، وما القربى ؟ إن كل من له علاقة نَسَبيَّة بالإنسان يكون قريباً . هذه هى الدائرة الثانية ، ولو أن كل إنسان موسعاً عليه وقادرا أخذ دائرة الوالدين ثم أخذ دائرة القربى فستتداخل ألوان البر من أقرباء متعددين على القريب الواحد ، ومادامت الدوائر ستتداخل ، فالواحد القريب سيجد له كثيرين يقومون على شأنه فلا يكون أحد محتاجا .

وبعد ذلك يتكلم سبحانه عن اليتامى ، واليتيم ـ كما نعلم ـ هو : من فقد أباه ولم يبلغ مبلغ الرجال ، إنه يحتاج إلى حنان أولى . لكن بعد أن يبلغ مبلغ الرجال فهو لا يُعتبر يتيماً ؛ فقد أصبح له ذاتية مستقلة ؛ ولذلك يتخلى عنه الوصف باليتم ، والذى تموت أمه لا نسميه « يتيماً » ، لكن اليتيم فى الحيوانات ليس من فقد أباه بل من فقد أمه ، وإن كانت طفولة الحيوانات تنتهى بسرعة ؛ لأن والدة الحيوان هى التى ترعاه فى طفولته القصيرة نسبياً . إذن فيتم الحيوان من جهة الأم ، والإنسان يتمه هو فَقْد الأب ؛ لأن الإنسان أطول الحيوانات طفولة لأنه مُربًّى لمهمة أسمى من الحيوانية ، وعرفنا من قبل أنك عندما تأتى لتزرع ـ مثلاً ـ فِجْلاً . . فبعد خمسة عشر يوماً تأكل منه ، لكنك حينما تزرع نخلة أو تزرع شجرة « مانجو » تمكث كذا سنة ،

حتى تثمر . . إذن فطول مدة الطفولة وعدم النسل للمثل يتوقف على المهمة الموكولة للشيء ، فإن كانت مهمته كبيرة ، تكن مدة طفولته أطول .

والله سبحانه وتعالى يريد أن يوسع دائرة الإحسان . فإياك أن تقتصر على الوالدين فقط أو أصحاب القربى فقط . خذ فى الدائرة أيضاً « اليتيم » ، لأن اليتيم فقد أباه ، ثم يرى كثيراً من زملائه وأقربائه لهم آباء ، ولو لم يوصّ الحق سبحانه وتعالى بهذا اليتيم لنشأ هذا الولد وفى قلبه جذوة من الحقد على المجتمع ، وقد يتمرد على الله ، ويتساءل : لماذا لا يكون لى أب وكل واحد من أقرانى له أب يأتيه بحاجته ، لكن حين يرى أنه فقد أباً واحداً ثم وجد فى الجو الإيمانى آباء متعددين فهو لا يسخط على أن الله أمات أباه .

إن الذين يخافون أن يموتوا ويتركوا من بعدهم ذرية ضعافا ، عليهم بالإحسان إلى اليتيم . فلو رأى الواحد منا يتيماً يُكرم فى بيئة أبوة إيمانية لما شغل نفسه ولما خاف أن يموت ويترك ولداً صغيراً، بل يقول الإنسان لنفسه : إن المجتمع فيه خير كثير ، وبذلك يستقبل الإنسان قدر الله بنفس راضية ، ولا يؤرق نفسه ، وهذه مسألة تشغل الناسَ فنقول لكل إنسان قادر : إذا كنت فى بيئة إيمانية . واليتيم يجد رعاية من آباء إيمانيين متعددين فسينشأ اليتيم وليس فيه حقد ؛ ولذلك يقول الحق :

﴿ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ ﴾

(سورة النساء)

لأنك إن رأيت المجتمع الإيمانى قد رعى أيتام غيرك فستكون على ثقة من أنه يرعى أيتامك ، فإن جاء الموت أو لم يأت فلا تشغل نفسك به ، لكن إذا رأى الإنسان يتيماً مضيعاً ، فهو يعض على أسباب الحياة ويريد أن يأتى بالدنيا كلها لولده ، ونقول لمثل هذاالأب : اعمل لابنك بأن تضع ما تريد أن تدخره له فى يد الله ؛ لأن الذى خلق آمن من المخلوق ؛ ولذلك قلنا من قبل : إن سيدنا معاوية وسيدنا عمرو بن العاص كانا يجلسان ـ فى أخريات حياتهما ـ يتكلمان معاً ، فيقول عمرو بن العاص لمعاوية : يا أمير المؤمنين : ماذا بقى لك من متع الدنيا ؟ قال معاوية : أما الطعام فقد سئمت

أطيبه ، وأما اللباس فقد مللت ألينه ، وحظى الآن فى شربة ماء بارد فى يوم صائف تحت ظل شجرة .

وهذه كلمة تعطى الإنسان طموحات إيمانية فى الكون ، فبعدما صار معاوية خليفة وأميراً للمؤمنين والكل مقبل عليه قال : حظى فى شربة ماء بارد فى ظل شجرة فى يوم صائف ، وهذه توجد عند ناس كثيرين . كأن الطموح انتهى إلى ما يوجد عند كل أحد : شربة ماء بارد ، ثم قال معاوية لعمرو : وأنت يا عمرو . ماذا بقى لك من متع الدنيا ؟ قال عمرو بن العاص : بقى لى أرض خوارة - يعنى فيها حيوانات تخور مثل البقر - فيها عين خرارة . . أى تعطى ماءً وفيراً لتروى الأرض ، وتكون لى فى حياتى ولولدى بعد مماتى ، وكان هناك خادم يخدمهما اسمه « وردان » . أراد أمير المؤمنين أن يلاطفه فقال له : وأنت يا وردان ، ماذا بقى لك من متاع الدنيا ؟ انظروا إلى جواب العبد كى تعرفوا أن الإيمان ليس فيه سيد ومسود ، فقال له : حظى يا أمير المؤمنين : « صنيعة معروف أضعه فى أعناق قومٍ كرام لا يؤدونه إلىّ فى حياتى » أى لا يرون هذا الجميل لى . حتى تبقى لعقبى فى عقبهم . إذن فحظه صنيعة معروف يضعه فى أعناق قوم كرام لا يؤدونه إليه فى حياته حتى تكون لعقبه أى لمن سيترك من أولاده .

كأنه يفهمنا أنه لا شىء يضيع ، فكما تمد يدك يمد غيرك يده لك ، والرسول صلى الله عليه وسلم يعطينا هذه المنزلة فيقول : أنا وكافل اليتيم فى الجنة هكذا « وأشار بإصبعيه متجاورين » ، أىّ منزلة هذه ، فبالله بعد ذلك ألا يبحث كل واحد منّا عن يتيم يكفله لكى يكون مع النبى صلى الله عليه وسلم فى الجنة . وهذه المنزلة كانت أمنية كل صحابى .

فقد جاء رجل من الأنصار إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو محزون فقال له النبى صلى الله عليه وسلم:« يا فلان مالى أراك محزونا؟» فقال: يا نبىَّ الله شىء فكرت فيه فقال : (ما هو ؟) قال:نحن نغدو عليك ونروح ننظر إلى وجهك ونجالسك وغداً ترفع مع النبيين فلا نصل إليك ، فلم يرد عليه النبى صلى الله عليه وسلم ونزل عليه جبريل بهذه الآية :

﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ﴾

(سورة النساء)

فبعث النبى صلى الله عليه وسلم فبشّره .[١] .

فالحق يقول لهؤلاء : لا تحزنوا ، فمادمتم تحبون رسول الله صلى الله عليه وسلم وتفرحون فى الدنيا لأنكم معه فلا تخشوا مسألة وجودكم معه بالجنة فسوف أبعثكم معه فى الجنة ، فالمرء مع من أحب ، ولذلك أقول لكل مسلم : ابحث عن يتيم تكفله كى تأخذ المنزلة الإيمانية ، المنزلة العلية فى الآخرة .

فقد قال عليه الصلاة والسلام : « أنا وكافل اليتيم فى الجنة هكذا وأشار بالسبّابة والوسطى وفرّج بينهما »[٢] .

فقل لى:إذا عاملنا اليتيم فى ضوء هذه التعاليم فماذا يحدث ؟ سينتشر التكافل فى المجتمع .

ويقول الحق بعد ذلك : « والمساكين » . . ونعرف أن المساكين . . كما قال الفقهاء عنهم وعن الفقراء : إن كلهم فى حاجة ، فهل المسكين هو من لا يملك حاجة ، أو الفقير هو الذى لا يملك حاجة أو يملك دون حاجته . كأن يكون إيراده مثلاً عشرة بينما حاجتهُ تحتاج إلى عشرين ؟ ،المهم أنه يكون محتاجاً . وكلمة « فقير » مأخوذة من فقار الظهر أى مصاب بما يقصم الوسط والظهر . وهو اسم معبر .

و« مسكين » أيضاً اسم معبر من المسكنة والسكن أى ليس له استعلاء فى شىء . . مغلوب ومقهور . . فاللفظ نفسه جاء معبراً ، و« الجار » كلمة « جار » تعنى : عدل ، كقولنا : جار عن الطريق أى عدل عنه ، فكيف أسمى من فى جانبى « جاراً » ؟ لأن مَن فى جانبك حدد مكاناً له من دنيا واسعة ، فيكون قد ترك الكثير

(١) من تفسير القرآن العظيم للإمام ابن كثير .
(٢) رواه البخارى .

وجاء للقليل ، وأصبح جارك ، أى أنه عدل عن دنياواسعة وجاء جانبك ، فسموا الجار لمن جار ، أى عدل عن كل الأمكنة الواسعة وجاء إلى مكان بجانبك .

وهذا الجار يوصى به الله سبحانه وتعالى كما أوصى بالقريب ، وباليتيم وبالمسكين ، للجار حقوق كثيرة ؛ لذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم كما جاء فى الحديث : « الجيران ثلاثة : فجار له حق واحد ، وهو أدنى الجيران حقا . وجار له حقان ، وجار له ثلاثة حقوق : فأما الذى له حق واحد فجار مشرك لا رحم له ، له حق الجوار ، وأما الذى له حقان فجار مسلم له حق الإسلام وحق الجوار ، وأما الذى له ثلاثة حقوق فجار مسلم ذو رحم له حق الإسلام وحق الجوار وحق الرحم »[1] .

ويقول صلى الله عليه وسلم فى حق الجار :

« مازال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه »[2] .

أى سيجعل له من الميراث ، وما هى حدود الجار ؟ . حدوده : الأقرب بابا إليك ، إلى أربعين ذراعاً ، وقالوا : إلى أربعين داراً ، هنا يقول الحق : « والجار ذى القربى » . فأعطاه حق القربى وحق الجوار ، وقال ؛ « والجار الجنب » . لأن فيه جاراً قريباً وجاراً بعيداً وقوله : « الجنب » أى البعيد ، « والصاحب بالجنب » « الصاحب » هو المرافق . و« بالجَنْب » أى بجانبه . قالوا : هو الزوجة أو رفيق السفر ؛ لأن الرفقاء فى السفر مع بعضهم دائماً ، أو التابع الذى يتبعك طمعاً فيما عندك من الرزق سواء كان الرزق مالاً أو علماً أو حرفة يريد أن يتعلمها منك ؛ فهو الملازم لك ، والخادم أيضاً يكون « بالجنب » وكل هذا يوسع الدائرة للإحسان ، ولو حسبت هذه الدوائر لوجدتها كلها متداخلة .

وها هو ذا النبى عليه الصلاة والسلام يقول لأبى ذرٍ رضى الله عنه :

---

(١) رواه البزار وأبو الشيخ فى الثواب ، وأبو نعيم فى الحليه عن جابر ، وهو حديث ضعيف .

(٢) رواه أحمد والبخارى ومسلم وأبو داود والترمذى عن ابن عمر .

« يا أبا ذر إذا طبختَ مرقة فأكثر ماءها وتعاهد جيرانك »[١]

والمهم أن تتواصل مع جارك ، أو الجار ذى القربى : أى الذى قربته المعرفة ، وكثير من الجيران يكون بينهم ودّ ، وهناك جار لا تعرف حتى اسمه ، فهذا هو « الجار الجنب » ، و« الصاحب بالجنب وابن السبيل » وابن السبيل، فقد تقول مثلاً : فلان بن فلان ، كأنك لا تعرف أباه ، أو تقول:فلان ابن البلد الفلانية أى لا تعرف عنه شيئاً سوى أنه منسوب لبلد معين ، وعندما تقول:ابن سبيل تعنى أنه غريب انقطعت به كل الأسباب حتى الأسباب التى يمكن أن تعرفه بها ، فساعة تراه تقول « ابن سبيل » أى ابن طريق ، ولا تجد مكانا ينسب إليه إلا الطريق ، لا يجد أبا ينسب إليه ، لا يجد أمّا ، لا يجد قبيلة ، لا تعرف عنه شيئا .

« وما ملكت إيمانكم ».وسبق أن تكلمنا عن ملك اليمين وقلنا : إن الإسلام إنما جاء لا ليشرع رقاً . . ولكن جاء لينهى رقاً ، ويسد منابعه التى كانت موجودة قبل الإسلام ، ولا يبقى إلا منبع واحد.هذا المنبع الواحد هو الحرب المشروعة ، ولماذا لم يطلقهم ؟. لأن الحرب المشروعة عرضة أن يأخذ الخصوم من أبنائى وأنا آخذ من أبنائهم ، فلا أطلق أبناءهم إن جاءوا فى يدى حتى يطلقوا أبنائى الذين فى أيديهم ، ويصير الأمر إلى المعاملة بالمثل ، التى انتهى إليها العالم الحديث وهى تبادل الأسرى .

وقد نهانا الإسلام فى ملك اليمين عن أن يقال : «عبدى» بل يقال : فتاى . ولا يقال: « أمتى » بل يقال:فتاتى ، حتى التسمية أراد الشرع أن يهذبها ، كى لا تنصرف العبودية إلا لله .

الحق سبحانه وتعالى جاء بالإسلام والرق كان موجوداً ، وله ينابيع متعددة فوق العشرين ، وليس له إلا مصرف واحد هو إرادة السيد ، فجاء الإسلام ليصفى الرق ، وأول تصفية لشىء هو أن تسد منابعه . وبدل أن يكون مجرد مصرف واحد ، وهى رغبة السيد ، جعل له الإسلام مصارف متعددة ، إذن فنكون قد حددنا المنابع فى نبع واحد ، وعددنا المصارف . . فالذنب بينك وبين الله تكفره بأن تعتق رقبة ،

---

(١) رواه مسلم .

أو أحدثت ظهاراً مثلا تُعتق رقبة ، وهذه رغبة من يريد أن يصفى الرق ، فإذا لم توجد عند أى مالك أسباب لتصفية الرق وظل الفتى أو الفتاة تحت يمينه ، فالإسلام يرشدك ويهديك : مادمت لم تؤثر أن تعتقه واستبقيته فأحسن معاملته ، أطعمه مما تطعم وألبسه مما تلبس ، ولا تكلفه ما لا يطيق ، فإن كلفته فيدك معه ، وهات لى واحداً يلبس من ملابس سيده ويأكل مثله وعندما يعمل عملاً فوق طاقته تجدُ يَد السيد بيده . . أليست هذه هى المعاملة الطيبة ! قال الله : « وما ملكت أيمانكم » .

وبعد ذلك يجىء الحق سبحانه وتعالى فى ختام الآية بما يدك كبرياء ذى الإحسان ، فإياك أن تكون النعمة أو البذل الذى ستبذله يعطيك فى نفسك غرور الاستعلاء ؛ لأن غرور الاستعلاء هذا يكون استعلاء كاذباً . وأنت إذا استعليت على غيرك بأعراض الحياة ، فهذه الأعراض تتغير ، ومعنى « أعراض » أنها تأتى وتزول . فالذى يريد أن يستعلى ويستكبر فعليه أن يستعلى ويستكبر بحاجة ذاتية فيه ؛ ولذلك لا يوجد كبرياء إلا لله ، إنما الأغيار من البشر. فنحن نرى من كان قوياً يصير إلى ضعف ، ومن كان غنياً يصير إلى فقر ، ومن كان عالماً يصبح كمن لا يعلم :

﴿ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ﴾

(من الآية ٥ سورة الحج)

فلا كبرياء إذن لمخلوق ، ومن يريد أن يستعلى ويتكبر على غيره فليتكبر ـ كما قلنا ـ بحاجة ذاتية فيه ، أى بشىء لا يسلب منه ، والخلق كلهم فى أغيار ، والوجود الإنسانى تطرأ عليه الأغيار ، إذن فاجعل الكبرياء لصاحبه ، وإياك أن تظن أنه عندما قلنا لك : اعمل كذا وأحسن لذى القربى واليتامى والمساكين ، إياك أن تحبط هذه الأعمال بأن تستعلى بها ؛ لأنها موهوبة لك من الله ، ومادامت موهوبة لك من الله فاستح ؛ لأن الذى يتكبر هو الذى لا يجد أمام عينه من هو أكبر منه .

هات واحداً يتكبر لأن عنده مليوناً من الجنيهات ثم دخل عليه واحد آخر عنده أكثر منه ماذا يفعل ؟ إنه يستحى ويتضاءل ، ولا يتكبر الإنسان إلا إذا وجد كل الموجودين أقل منه ، لكنه لو ظل ناظراً إلى الله لعلم أن الكبرياء لله وحده .

إذن فعندما يتكبر المتكبر ، إنما يفعل ذلك لأن الله ليس فى باله . لكن لو كان الحق المتكبر بذاته فى باله لاستحى ، فإذا كان فى بالك من يعطيك لاستحييت .

إذن فمعنى المتكبر أن ربنا غائب عن باله ، لذلك يقول الحق فى ختام الآية : « إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً » وما « الاختيال »؟وما « الفخر » ؟

إن المادة كلها تدل على زهو الحركة ، ولذلك نسمى الحصان « خيلا »؛لأنها تتخايل فى حركتها ، وعندما يركبها أحد تتبختر به ؛ ولذلك نسمى الخيلاء من هذه . إذن « الاختيال » : حركة مرئية ، « والفخر » حركة مسموعة ، فالحق ينهى الإنسان عن أن يمشى بعنجهية ، كما نهاه عن أن يسير مائلا بجانبه ولا أن يعتبر نفسه مصدراً للنعمة حتى لا ينطبق عليه قوله سبحانه :

﴿ ثَانِيَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾ ﴾

(سورة الحج)

أما الفخر فهو أن يتشدق الإنسان بالكلام فيحكى عما فعل وكأنه مصدر كل عطاء للبشر ، والخيلاء والفخر ممنوعان ، وعلى المسلم أن يمتنع عن الحركة المرئية وعن كلام الفخر ، ولماذا جاء الحق بهذا هنا ؟ إنه جاء به حتى لا يظن عبد أنه يحسن إلى غيره من ذاتيته ، إنه يحسن مما وهبه الله .

ولا يصح أن تستخدم من أحسنت إليهم وتتخذهم عبيداً ؛ لأنك تحسن عليهم . وعندما تنظر إلى سيادتك على هؤلاء لأنك تعطيهم ، فلماذا لا تنظر إلى سيادة من أعطاك ؟ إنك عندما تفعل ذلك وتنظر إلى سيادة خالقك فإنك قد التزمت الأدب معه وبعدت عن الاختيال والفخر بما قدمت لغيرك ، يقول الحق :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾

(من الآية ٣٦ سورة النساء)

وبعدما قال الحق : « وبالوالدين إحسانا » قال : « وبذى القربى واليتامى » .

وتحدث عن البذل والأريحية والجود والسماح وبسط اليد ، أتى سبحانه بالحديث عن المقابل وهو :

﴿ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾ ﴾

وما معنى البخل ؟ إنه مشقة الإعطاء . فعندما يقطع حاجة من خاصة ماله ليعطيها لغيره يجد فى ذلك مشقة ولا يقبل عليها ، لكن الكريم عنده بسط يد ، وأريحية . ويرتاح للمعروف ، إذن فالبخل معناه مشقة الإعطاء ، وقد يتعدى البخل ويتجاوز الحد بضن الشخص بالشيء الذى لا يضر بذله ولا ينفع منعه ؛ لأنه لا يريد أن يعطى . وهذا البخل والشح يكون فى نفس البخيل ؛ لأنه أولاً قد بخل على نفسه ، فإذا كان قد بخل على نفسه ، أتريد أن يجود على الناس ؟ .

والشاعر يصور بخيلاً اسمه « عيسى » ويريد أن يذمه؛لأنه بخيل جداً ؛ ويظهر صورة البخل بأنه ليس على الناس فقط بل على نفسه أيضاً ، فيما لا يضر بذله ولا ينفعه منعه . ومادام يقتر على نفسه فسيكون تقتيره على غيره أمراً متوقعاً :

يقتر عيسى على نفسه ... وليس بباق ولا خالد
فلو يستطيع لتقتيره ... تنفس من منخر واحد

إنه بخيلٌ لدرجة أنه يفكر لو استطاع أن يتنفس من فتحة أنف واحدة لفعل ؛ حتى لا يتنفس بفتحتى أنفه .

والشاعر الآخر يأتى بصورة أيضاً توضح كيف يمنع البخيل نفسه من الأريحية

والإنسانية فيقول :

لو أن بيتك يا بن عم محمد إبر يضيق بها فضاء المنزل
وأتاك يوسف يستعيرك إبرة ليخيط قدَّ قميصه لم تفعل

فالشاعر يصور أن سيدنا يوسف لو جاء إلى هذا البخيل وقال له : أعطنى إبرة لكى أخيط قد القميص الذى مزقته زليخاء ، وهذا البخيل عنده بيت يمتلىء فناؤه بالإبر ، لضن البخيل ورفض .

إذن فالبخيل : هو من يضيق بالإعطاء ، حتى أنه يضيق بإعطاء شىء لا يضر أن يبذله ولا ينفعه أن يمنعه ، ويقول الحق عن البخلاء :

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

فالحق يجعل للبخيل مما بخل به طوقاً حول عنقه ، ولو أن البخيل قد بذل قليلاً ، لكان الطوق خفيفاً حول رقبته يوْم القيامة . لكن البخيل كلما منع نفسه من العطاء ازداد الطوق ثقلاً .

ولقد قال الحق أيضاً عن الذين يكنزون الذهب والفضة :

﴿ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

(جزء من الآية ٣٤ والآية ٣٥ سورة التوبة)

فإن كان اكتنازهم لكميات كبيرة فما سيحمى على النار منها يكون كثيراً، ويكوَوْن

به . إذن فالإنسان لا بد أن يخفف عن نفسه الكىّ ، والذين يبخلون لا يكتفون بهذه الخسيسة الخلقية فى نفوسهم بل يحبُّون أيضاً أن تتعدى إلى سواهم كأنهم عشقوا البخل ، ويؤلمهم أن يروا إنساناً جواداً ؛ يقول لك البخيل : لا تنفق ؛ لأنه يتألم حين يرى إنساناً جواداً ، ويريد أن يَكون الناس كلهم بخلاء ؛ كى لا يكون أحد أحسن منه .

إنه يعرف أن الكرم أحسن ، بدليل أنه يريد أن يَكون الناس كلهم بخلاء ، والبخل : ضن بما أوتيته على من لم يُؤت . وهل البخل يكون فى المال فقط ؟ . لا،بل يكون فى كل موهبة أوتيتها وتنقص عند غيرك ويفتقر إليها ، إن ضننت بها فأنت داخل فى البخل .

إن الذى يبخل بقدرته على معونة العاجز عن القدرة ، والذى يبخل بما عنده من علم على من لا يعلم ، هذا بخل ، والذى يبخل على السفيه حتى بالحلم هذا بخل أيضاً ، فإن كانت عندك طاقة حلم فابذلها . إذن فالبخل معناه : أنك تمنع شيئا وهبه الله لك عن محتاجه ، معلم ـ مثلا ـ عنده عشرة تلاميذ يتعلمون الصنعة ، ويحاول أن يستر عنهم أسرار الصنعة ؛ يكون قد بخل .

« الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل » والآية معناها يتسع لكل أمر مادى أو قيمى . ونحن نأخذها أيضاً فى المعانى العالية ، فالذين أوتوا الكتاب كانوا يعرفون صفته صلى الله عليه وسلم ، ويعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، فلما جاءهم مصدقاً لما معهم كفروا برسالته صلى الله عليه وسلم وكتموا معرفتهم به عن الناس ، وكتموا معرفتهم بما جاء به من علم وهو الصادق المصدوق . وهذا بخل فى القمة ، وبعد ذلك استمروا يأمرون الناس بالبخل .

وأنتم تعرفون أن الأنصار كانت عندهم الأريحية الأنصارية ، وساعة ذهب إليهم المهاجرون ، قاسموهم المال ، حتى النعمة التى غرس الله فى قلب المؤمن الغيْرة عليها من أن ينالها أحد حتى ولو كان كارهاً لها ، وهى نعمة المرأة ؛ لأن الرجل حتى وإن كره امرأته فهو يغار أن يأخذها أحد ، ولكنّ الأنصار اقتسموا الزوجات ، فكم من

رجل كان متزوجاً من أكثر من واحدة ، طلق زوجة ليزوجها لمهاجر ، فالحق سبحانه وتعالى يصعد أريحية الأنصار حتى أن الأنصارى يأتى بالمهاجر ويقول له : انظر إلى إحدى زوجتي أو إحدى زوجاتى فاختر ما يروقك فأطلقها وتتزوجها .

أية أريحية سامية هذه ؟ فإذا كنت ذا نعمة وأنت مؤمن فأنت تحب أن تعدى أثر نعمتك إلى غيرك ، فإذا كان عندك سيارة فاخرة قد تحب أن تتصدق بها ، لكن المرأة ، لا . لكن هذه الإريحية جاءت من الأنصار وقالوا : هؤلاء مهاجرون وتاركون أهلهم . وكان هذا ارتقاءً إيمانياً فى ذات الأنصار .

لقد جاء إليهم المهاجرون وفيهم شباب يمتلئون فتوة ، وكانت قريش قد منعت أهليهم عنهم ، ليس معهم زوجات . فيقول الأنصارى : لماذا لا أطلق إحدى زوجاتى ، وليتزوجها أخى المهاجر لأنفس عن عواطفه . وأقل ما فيها أن أمنع نظره أن يتحول حراماً . لكنَّ اليهود والمشركين والمنافقين يقولون لهم : لا تنفقوا على من عند رسول الله . ويقول القرآن الكريم فى هذا الموقف :

﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْ ۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ ﴾

(سورة المنافقون)

لقد أخطأوا الظن بمن آمنوا برسول الله ، ظنوا أنهم إن لم ينفقوا عليهم فسيرتدون عن إيمانهم . ونسوا أن المؤمنين المهاجرين قد تركوا أموالهم وتركوا بلادهم ، فمن ترك أمواله للهجرة فى سبيل الله أيكفر به عندما لا يجد شيئاً ؟ لا ؛ لأنه ترك كل شىء فى سبيل الله . وها هوذا سيدنا مصعب بن عمير المدلل فى قريش ، وكانت أمه تغدق عليه النعمة وهو صاحب العطور ، وبعد ذلك يذهب إلى المدينة ، فيلبس جلد شاة ، فينظر له النبى صلى الله عليه وسلم ويقول لأصحابه : انظروا كيف صنع الإيمان بصاحبكم ، فعندما يقول المنافقون كعبدالله بن أبىّ للأنصار : لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضّوا ، يظنون أن المؤمنين يمكن أن يبيعوا إيمانهم بلقمة وكأنهم نسوا أن الذى يبيع إيمانه باللقمة هو من يُحمل على مبدأ باطل ، لكن من يعتنق ويعتقد مبدأ حق يجد حلاوته فى النفس ، وأجره مدخر عند ربه . إنه

لا يتحول عنه. قال على بن أبى طالب رضى الله عنه :

« فجئت المسجد ، فطلع علينا مصعب بن عمير فى بردة له مرقوعة بفروة ، وكان أنعم غلام بمكة وأرْفَهَ ، فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر ما كان فيه من النعيم ، ورأى حاله التى هو عليها فذرفت عيناه عليه ، ثم قال : أنتم اليوم خير أم إذا غُدى على أحدكم بجفنة من خبز ولحم ؟ فقلنا : نحن يومئذ خير نُكفَى المؤنة ونتفرغ للعبادة ، فقال : « بل أنتم اليوم خير منكم يومئذ »[1] .

وقلنا : يجب أن تذكروا جيداً أن من حلاوة اليقين وحلاوة الإيمان أن المؤمن يضحّى بكل شىء فى سبيل رفعة الإيمان . لكن أصحاب المبادىء الباطلة لا يدخلون غيرهم فيها إلا إن دفعوا الثمن مقدماً ، أى أنهم يشترونهم . فإذا رأيت مبدأً من المبادىء يشترى البشر فاعرف أنه مبدأ باطل . . ولو كان مبدأ حق لدفع الإنسان من أجل أن يدخل فيه نفيس ماله ، بل ويضحى فى سبيله بنفسه أيضا .

ومن عجائب مبادىء الإسلام أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما أخذ العهد لنفسه فى بيعة العقبة ، قال له الأنصار : فإن نحن وفَّينا بهذا فماذا يكون لنا ؟ كأنهم يقولون : أنت أخذت مَالك فماذا يبقى لنا ؟ . .

انظروا إلى سمو الإيمان ، ويقين المصطفى بأن الإيمان نفسه جائزة ، فهل بشرهم بأنهم سيملكون الأرض ؟ هل بشرهم بأن هؤلاء المستضعفين هم الذين سيمكنون فيها ؟ لا ، بل قال لهم : لكم الجنة . فلو قال لهم : لكم سيادة الدنيا ، لكان فى ذلك نظر ، صحيح أن الدنيا دانت وخضعت لهم ، لكن منهم من مات قبل أن تدنو له الدنيا وتذل ، فأين صدق النبوءة ؟

إذن فقد قال لهم عن الشىء المضمون ، الشىء الذى يجد المؤمن فيه نفسه من فور أن يموت . قال لهم : لكم الجنة . فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ وحوله

---

(١) رواه الترمذى فى صفة القيامة باب حال مصعب بن عمير بعد الاسلام وأخرجه الحاكم ، وأورده ابن سعد فى طبقاته وابن الأثير فى « أسد الغابة » .

عصابة من أصحابه ـ : « تعالوا بايعونى على ألا تشركوا بالله شيئاً ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتلوا أولادكم ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ولا تعصونى فى معروف ، فمن وَفَّى منكم فأجره على الله ، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب به فى الدنيا فهو كفارة له ، ومن أصاب من ذلك شيئاً فستره الله فأمره إلى الله إن شاء عاقبه وإن شاء عفا عنه »[١] .

لم يغرهم بأنهم سيكونون أصحاب سلطان ، ولم يقل لهم : أنتم ستجلسون على البُسُط والدنيا ستدين لكم ، إنما قال لهم فى أول البيعة : لكم الجنة ، فإياكم أن يطمع أحد منكم فى شىء إلا فى الجنة ؛ ولذلك فالأنصار محبوبون لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولما كانت غزوة حنين وأعطى المهاجرين بعضاً من الغنائم ولم يكن للأنصار منها شىء ، وجد الأنصار فى نفوسهم . فلفتهم رسول الله لفتة إيمانية وقال لهم :

« ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله إلى رحالكم ؟ فوالذى نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار ، ولو سلك الناس شِعباً وسلكت الأنصار شِعبا آخر لسلكت شعب الأنصار ، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار »[٢] .

فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم وقالوا : رضينا برسول الله قسماً وحظاً .

أى سموّ إيمانى هذا ؟ لكن المنافقون قالوا للأنصار : لا تنفقوا أموالكم على من عند رسول الله حتى ينفضّوا .

لكنّ المؤمنين لم ينفضّوا . إنهم قد تركوا النعيم والأموال فى مكة وجاءوا إلى الهجرة ، فهم لم يأتوا ليأخذوا نعيماً مظنوناً محدوداً قليلا ، وحسبهم ما وعدوا به من نعيم متيقن عريض باق . لقد عرفوا بالإيمان أن نعيم الدنيا إما أن تفوته بالموت وإمّا أن يفوتك بالتقلب ، لكن نعيم الآخرة ليس له حدّ ينتهى عنده ، ولا يفوتك ولا تفوته .

---

(١) رواه البخارى .

(٢) رواه البخارى فى كتاب المغازى ورواه مسلم فى كتاب الزكاة باب إعطاء المؤلفة قلوبهم .

ثم سبحانه يقول : « ويكتمون ما آتاهم الله من فضله » ، وساعة ترى شيئا يكتم شيئاً ، لابد أن تفهم منها أن هذا الكتم معناه : منع شيء يريد أن يخرج بطبيعته ، وكما يقولون : اكتم الدم فلو لم تكتمه يستطرق . كأن المال أو العلم يريد أن يخرج للناس ولكن أصحابه يكتمونه . وكأن الفطرة الطبيعية فى كل رزق سواءً أكان رزقاً مادياً أم رزقاً معنوياً أنه يستطرق ؛ لأن كل شيء مخلوق لخدمة الإنسان ، فعندما يأتى إنسان ويحوز شيئاً مما هو مخلوق لخدمة الإنسان ويحجبه فهو بذلك يمنع الشيء المكتوم من رسالته ؛ لأن كل شيء مخلوق لخدمة بنى آدم ، فعندما تعوقه عن هذه الخدمة فالشيء يحزن ، وليتسع ظنكم إلى أن الجمادات تحزن أيضاً .

﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الدخان)

فالسماء والأرض لهما بكاء ، ليس بكاء دموع إنما بكاء يعلم الله كنهه وحقيقته ، إذن فقوله : « ويكتمون ما آتاهم الله من فضله » . كأنه يقول : ما آتاه لك الله من فضله ليس ملكك ، وليس ذاتية فيك ، فأنت لم تأت به من عندك . وانظر إلى الكون حولك تجده كله أغيارا ، ألم تر فى حياتك قادراً أصبح عاجزاً ؟ ألم تر غنياً أصبح فقيراً ؟ فالدنيا دول ، وما من واحد إلا ويمر أمام عينيه وفى تاريخه وفى سماع من يثق بكلامه أنه « كان » هناك غنىٌ ثم صار فقيراً ، فلماذا لا تعتبر بالأغيار التى قد تمر بك ، وبعد أن كان يُطلب منك أن تعطى ، صرت فى حال يطلب الحق سبحانه من غيرك أن يعطيك ، ادخر لنفسك الآن ـ بالخير تبذله ـ حتى إذا جاءتك الأغيار تجد لك ما ينتظرك .

« الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله وأعتدنا للكافرين عذاباً مهينا » انظر ماذا فعل فيه البخل ، إنه جعل صاحبه كافراً ؛ لأن البخيل ستر نعمة كان من الممكن أن تتسع له ولغيره ، فجاء له بالشيء الذى يخيف : « وأعتدنا للكافرين عذاباً مهينا » « أعتدنا » أى أعددنا وهيأنا . فالمسألة موجودة وقد أعدت ، والنبى صلى الله عليه وسلم حينما يتكلم عن الجنة يقول :

(عُرضت علىّ الجنة لو مددتُ يدى لتناولت من قطوفها)[1].

(١) رواه النسائى وأحمد ، وأورده المتقى الهندى فى كنز العمال .

هذه ثقة اليقين فى أنها مسألة جاهزة وليست تحت الإعداد ، ومن الذى أعد ؟ إنه الله ، قوى القوى، قدرة القدر هى التى تعد، وهو يعدها على قدر سعة قدرته، عذاب مهين ؛ لأنه قد يتطاول أحد ويقول : أنا أتحمل العذاب ، كما قال الشاعر :

وتجلدى للشامتين أريهمو ... أنى لريب الدهر لا أتضعضع

فسبحانه يوضح : لن يلقى البخيل العذاب فقط ، بل سيلقى عذابا مهينا . ثم يأتى الحق سبحانه بالمقابل ، يأتى بغير البخيل ، فيقول :

﴿ وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾ ﴾

إن هذه الآية الكريمة تتحدث عن الذى ينفق ، لكن الغاية غير واضحة عنده . الغاية ضعيفة لأنه ينفق رئاء الناس ، إنه يريد بالإنفاق مراءاة الناس ؛ ولذلك يقول العارفون بفضل الله : اختر من يثمن عطاءك . فأنت عندما تعطى شيئاً لإنسان فهو يثمن هذا الشىء بإمكاناته وقدراته ، سواء بكلمة ثناء يقولها مثلاً أو بغير ذلك ، لكن العطاء لله كيف يُثَمِّنه سبحانه ؟ لابد أن يكون الثمن غالياً .

إذن فالعاقل ينظر لمن سيعطى النعمة ، ولنا الأسوة فى سيدنا عثمان رضى الله عنه عندما علم التجار أن هناك تجارة آتية له ، جاء كل التجار ليشتروا منه البضاعة ثم يبيعوها ليربحوا وقال لهم : جاءنى أكثر من ثمنكم ، وفى النهاية قال لهم : أنا بعتها لله ـ إذن فقد تاجر سيدنا عثمان مع الله ، فرفع من ثمن بضاعته ، فالذى يعطى لرئاء الناس نقول له : أنت خائب ؛ لأنك ما ثمنت نعمتك ، بل ألقيتها تافهة الثمن ، ماذا سيفعل لك الناس ؟ هم قد يحسدونك على نعمتك ويتمنون أن يأخذوها منك ،

فلماذا ترائيهم ؟ إذن فهذه صفقة فاشلة خاسرة ؛ ولذلك قال الحق :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ﴾

(من الآية ١١١ من سورة التوبة)

ومادام سبحانه هو الذى اشترى فلابد أن الثمن كبير ؛ لأنه يعطى النعيم الذى ليس فيه أغيار ، ففى الجنة لا تفوت النعمة مؤمناً ، ولا هو يفوتها . فالذى يرائى الناس خاسر ، ولا يعرف أصول التجارة ؛ لأنه لم يعرف طعم التجارة مع الله ؛ ولذلك شبه عمله فى آية أخرى بقوله :

﴿ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ﴾

(من الآية ٢٦٤ سورة البقرة)

و « الصفوان » هو المروة وجمعه مرو وهى حجارة بيض براقة ، والمروة ناعمة وليست خشنة . لكنْ بها بعض من الثنايا يدخل فيها التراب ؛ ولأن المروة ناعمة جداً فقليل من الماء ولو كان رذاذاً يذهب بالتراب . والذى ينفق ماله رئاء الناس هو من تتضح له قضية الإيمان ولكن لم يثبت الإيمان فى قلبه بعد ، فلو كنت تعلم أنك تريد أن تبيع سلعة وهناك تاجر يعطيك فيها ثمنا أغلى فلماذا تعطيها للأقل ثمنا ؟ إنك إن فعلت فقد خبت وخسرت فأوضح لك الحق : مادمت تريد رئاء الناس إذن فأنت ليس عندك إيمان بالذى يشترى بأغلى ، فتكون فى عالم الاقتصاد تاجرا فاشلاً ، ولذلك قلنا : ليحذر كل واحد حين يعطى أن يخاف من العطاء ، فالعطاء يستقبله الله بحسن الأجر ، ولكن عليه ألا يعطى بضجيج ودعاية تفضح عطاءه ؛ ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم ـ ضمن السبعة الذين يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله :

(رجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه)[1]

إنّ العبد الصالح حين يعطى فهو يعلم أن يده هى العليا ويده خير من اليد السفلى ، فليستر على الناس المحتاجين سفلية أيديهم ، ولا يجعلها واضحة . ولكن الحق سبحانه وتعالى لا يريد أن يضيق مجال الإعطاء فقال :

(٦) رواه أحمد والبخارى ومسلم والنسائى عن أبى هريرة .

﴿ إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾ ﴾

(سورة البقرة)

فإبداء الصدقات لا مانع منه إن كان من يفعل ذلك يريد أن يكون أسوة ، المهم أن يخرج الرياء من القلب لحظة إعطاء الصدقة ، فالحق يوضح : إياك أن تنفق وفيك رئاء ، أما من يخرج الصدقة وفى قلبه رياء فالله لا يحرم المحتاجين من عطاء معطٍ ؛ لأنه سبحانه يؤكد : خذوا منه وهو الخاسر ؛ لأنه لن يأخذ ثواباً ، لكن المجتمع ينتفع .

إن الذين ينفقون أموالهم رئاء الناس هم من الذين « لا يؤمنون بالله » لأنه سبحانه هو المعطى ، وهو يحب أن يضع المسلم عطاءه فى يده « ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر » فلو كانوا يؤمنون باليوم الآخر لرأوا الجزاء الباقى ، فأنت إذا كنت تحب نعمتك فخذ النعمة وحاول أن تجعلها مثمرة . . أى كثيرة الثمار ، فالذى لم يتصدق من ماله ولم ينفقه حتى على نفسه يكون قد أنهى مسألة المال وعمر ماله معه عند هذا الحدّ ، أما الذى أنفقه فى سبيل الله فسيجده فى الآخرة ، فيكون قد أطال عمر ماله .

فالبخيل هو عدو ماله ؛ لأنه لم يستطع أن يثمره ، ولذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الحديث الشريف :

« إن الله تعالى إذا كان يوم القيامة ينزل إلى العباد ليقضى بينهم وكل أمةٍ جاثية ، فأول من يدعو به رجل جمع القرآن ، ورجل قُتل فى سبيل الله ، ورجل كثير المال . فيقول الله للقارىء : ألم أعلمك ما أنزلت على رسولى ؟

قال : بلى يارب ، قال : فماذا عملت فيما علمت ؟ قال : كنت أقوم به آناء الليل وآناء النهار ، فيقول الله له : كذبت وتقول الملائكة : كذبت ، ويقول الله له : بل أردت أن يُقال : فلان قارىء فقد قيلَ ذلك ، ويؤتى بصاحب المال . . . . . »[1]

لكن هل قال لك الدين : لا تفعل؟ لا ، افعل لينتفع الناس بالرغم منك .

---

(١) رواه الترمذى فى الزهد ، وأخرجه ابن خزيمة ومسلم .

والبخيل عندما يُكَثِّر ماله يكون قد حرّم على نفسه هذا المال ثم يأتى ابن له يريد أن يستمتع بالمال ، ولذلك يقال فى الريف : مال الكُنزى للنزُهى ، ولا أحد بقادر أن يخدع خالقه أبداً !! فسبحانه يوضح : أنا أعطيتك نعمة أنت لم تعطها لأحد ، لكنى سأيسر السبيل لطائع لى ، إياك أن تظن أنك خدعتنى عندما بخلت ، فبخلك يقع عليك . إذن فأنت قد ضيقت رزقك بالبخل ولو أنفقت لأعطاك الله خيرا كثيرا « وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه » لكنك تركته لورثتك وسيأخذونه ليكون رزقهم متسعاً ، وأيضاً فإنك حين تمنع المال عن غيرك فأنت قد يسرت سبيلاً لمن يبذل .

كيف ؟ لنفترض أن إنساناً كريماً ، وكرمه لا يدعه يتوارى من السائل ، والناس لها أمل فيه . وبعد ذلك لم ينهض دخله بتبعاته ، فإن كان عنده « فدانان » فهو يبيع فداناً ليفرج به على المحتاجين ، وعندما يبيع الفدان سيشتريه من يكتنز ، فيكون المكتنز قد يسّر سبيلاً للكريم ، فإياك أن تظن أنك قادر على خداع من خلقك وخلق الكون وأعطاك هذه النعمة ، وهذا يشبه صاحب السيئة الذى منّ الله عليه بالتوبة والرجوع إلى الله ، إننا نقول له : إياك أن تعتقد أنك اختلست شهوة من الله أبداً . أنت اختلست شهوة ستلهبك أخيراً ، وتجعلك تفعل حسنات مثلها عشرين مرة ، لأنه سبحانه قد قال :

﴿ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾

(من الآية ١١٤ سورة هود)

فأنت لن تضحك على خالقك لأنه سيجعلها وراءك ، فتعمل خيراً كثيراً ، كذلك البخيل نقول له : ستيسر سبيلاً لكريم بذّال ، والحق سبحانه وتعالى بيّن فى آخر الآية السبب الذى حمله على ذلك ، إن الأسباب متعددة . لكن تجمعها كلمة « شيطان » ، فكل من يمنعك من سبيل الهدى هو شيطان ، ابتداءً من شهوات نفسك وغفلة عقلك عن المنهج ، إنّها قرين سوء يزين لك الفحشاء ، ويزين لك الإثم ، إنّ وراء كل هذه الأمور شيطانا يوسوس إليك ، وكل هؤلاء نسميهم « شيطاناً » لأن الشيطان هو من يبعدك عن المنهج ، وهناك شياطين من الجن ، وشياطين من الإنس ، فالنفس حين تحدث الإنسان ألاّ يلتزم بالمنهج ، لأن التزامه بالمنهج سيفوت عليه فرصة شهوة ـ هى شيطان . إنّ النفس التى ترى الشهوة العاجلة وتضيع منها شهوة آجلة لا حدود لها ـ هى شيطان.فالشيطان إذن هو الذى جعلهم

يبخلون ويأمرون الناس بالبخل . . وهذا الشيطان وساعة يكون قريناً للإنسان ، فمعنى ذلك أنه مقترن به ، والقِرن بكسر القاف ـ هو من تنازله .

وكلمة « قَرْن » تطلق أيضاً على فترة من الزمن هى مائة عام ؛ لأنها تقرن الأجيال ببعضها ، فالشيطان قرين أى ملازم لصاحبه ومقترن به ، فيقول الحق : « ومن يكن الشيطان له قريناً فساء قرينا»، أى بئس هذا القرين لأنه القرين الذى لا ينفعنى ولا يصدنى عن مجال ضار .

ولذلك فالناس قد يحب بعضهم بعضا فى الدنيا لأنهم يجتمعون على معصية . أما فى الآخرة فماذا يفعلون ؟ يقول الحق :

﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾

(سورة الزخرف)

لأن المتقين يعين بعضهم بعضا على الطاعة ، فالواحد منهم يقول لصاحبه : كنت تعيننى على الطاعة ، كنت توجهنى وتذكرنى إن غفلت ، فيزداد الحب بينهما . لكن الإنسان يلعن من أغواه وأول من نلعن يوم القيامة نلعن الشيطان ، وكذلك الشيطان أول ما يتبرأ يتبرأ منّا ؛ ولذلك فعندما تحين المجادلة نجد الشيطان يقول لمن أغواهم وأضلهم :

﴿ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ﴾

(من الآية ٢٢ سورة إبراهيم)

والسلطان هو : القوة العالية التى تجبر مَنْ دونها ، فالإنسان تُجبر مادته وبنيته بسلطان القهر المادى ، ويُقهر فى اعتقاداته بالدليل والحجة . والإكراه فى المادة إنما يتحكم فى القالب ، لكنه لا يتحكم فى القلب ، فقد تكون ضعيفًا أمام واحد قوى ولكنك تمسك له سوطا وتقول له : اسجد لى . اخضع ، فيسجد لك ويخضع . وأنت بذلك تقهر القالب ، لكنك لم تقهر القلب ، هذا هو السلطان المادى الذى يقهر القالب ، لكن إذا جاء لك إنسان بالحجج وأقنعك ، فهذا قهر إقناع ، وقدرة قهر العقول بالإقناع نوع من السلطان أيضاً .

إذن فالسلطان يأتى من ناحيتين : سلطان يقهر القالب ، وسلطان يقهر فقه القلب ، فسلطان القالب يجعلك تخضع قهراً عنك ، وسلطان الحجة والبرهان يجعلك تفعل برضى منك ، والشيطان يقول لمن اتبعوه : يا من جعلتمونى قريناً لكم لا تفارقونى ؛ أنتم أغبياء ؛ فليس لىَ عليكم سلطان ، وما كان لىَ من القوة بحيث أستطيع أن أرغمكم على أن ترتكبوا المعاصى ، وما كان عندى منطق ولا حجة لكى أقنعكم أن تفعلوا المعاصى ، لكنكم كنتم غافلين ، أنا أشرت لكم فقط فلست أملك قوة أقهر مادتكم بها ، ولا برهان عندى لأسيطر على عقولكم :

﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم ﴾

(من الآية ٢٢ سورة إبراهيم)

إذن فالخيبة منكم أنتم ، ولذلك يقول الحق :

﴿ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ﴾

(من الآية ٢٢ سورة إبراهيم)

ماذا يعنى « مصرخكم »؟ إنها استغاثة واحد فى أزمة لا يقدر عليها وضاقت به الأسباب ، عندئذ يستنصر بغيره ، فيصرخ على غيره ، أى يناديهم لإنقاذه ولنجدته ، فالذى يستجيب له ويأتى لإنقاذه يقال له : أزال صراخه ، إذن فأصرخه يعنى سارع وأجاب صرخته ، والشيطان يقول : إن استنجدتم بى فلن أنجدكم وأنتم لن تنجدونى ، فكل واحد منا عرف مسئوليته وقدرته . وبالنسبة للإنسان فقد قال الحق :

﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦ ﴾

(من الآية ١٣ سورة الإسراء)

فمن يتخذ الشيطان قريناً ، « فساء قرينا » وكلمة « ساء » مثل كلمة « بئس » كلتاهما تستعمل لذم وتقبيح الشيء أى ، فبئس أن يكون الشيطان قريناً لك ؛ لأن الشيطان أخذ على نفسه العهد أمام الله ألا يغوى من يطيعه سبحانه ويغوى مَن سواهم من الناس أجمعين .

وعندما نتأمل الآية ، نجد أن الحق يقول : « والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا » . فالآية إذن تتناول لونا من الإنفاق يحبط الله ثوابه . فنفقة المرائى تتعدى إلى نفع غيره لكن لا ينتفع المرائى منها ، بل تكون قد أنقصت من ماله ولم تثمر عند ربه .

والحق يلفتنا إلى أن ذلك كله راجع إلى معوقات الإيمان الذى يتطلب من الإنسان أن يكون فى كل حركات حياته على منهاج ربه ، هذه المعوقات تظهر فى النفس البشرية وفى شهواتها التى تزين الإقبال على المعصية للشهوة العاجلة ، وتزين الراحة فى ترك الأوامر ، والشيطان أيضاً يتمثل فى المعوقات ، والشيطان كما نعلم : اسم للعاصى من الجنس الثانى من المكلفين وهم الجن ويتمثل فى إبليس وفى جنوده ، ويطلق على كل متمرد من الإنس أيضا يقول تعالى : « وكذلك جعلنا لكل نبى عدواً شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا » وأنت حين تريد أن تعرف المعوق أهو من نفسك أم من الشيطان ؟. فانظر إلى نفسك حيال المعصية ، أهى معصية تدفعك نفسك أن تأتيها وحدها ، أم معصية إن عزّ عليك أن تفعلها فأنت تنتقل إلى معصية سواها ؟ هل هى معصية ملازمة أو معصية تنتقل منها إلى غيرها ؟.

فهب أن إنساناً كانت معصية نفسه فى أن يشتهى ما حُرّم عليه ، أو أن يسرق مال غيره ، نقول له : أوقفت فى المعصية عند هذه بحيث لا تتعداها إلى غيرها ؟ يقول نعم . فبقية المعاصى لا ألتفت إليها . نقول : تلك شهوة نفس ، فإن كانت المعصية حين تمتنع عليك من سرقة مثلاً فأنت تلتفت إلى معصية أخرى . فهذا لون من المعاصى ليس من حظ النفس ، وإنما هو حظ الشيطان منك ؛ لأن الشيطان يريد العاصى عاصياً على أى لون من المعصية ، فإن عزّ عليه أن يلوى زمامه إلى لون من المعصية ، انتقل إلى معصية أخرى لعلّه يصادف ناحية الضعف فيه .

لكن النفس حين تشتهى فإنها تشتهى شيئاً بعينه ، فأنت إذن تستطيع أن تعرف المعوق من قبل نفسك أم من قبل الشيطان ، فإن وقفت عند معصية واحدة لا تتعداها وتلح عليك هذه المعصية ، وكلما عزّ عليك باب من أبوابها تجد باباً آخر

لتصل إليها ، فتلك شهوة نفسك . وإن عزّت عليك معصية تنتقل إلى معصية أخرى فهذا من عمل الشيطان ؛ لأن الشيطان لا يريد عاصياً من لون واحد ، وإنما يريدك عاصياً على إطلاقك .

وعداوة الشيطان ـ كما نعلم ـ هى عداوة مسبقة ؛ فقد امتنع الشيطان عن السجود لآدم بحجة أنه خير من آدم . وحذر الله آدم . ولابد أن آدم عليه السلام قد نقل هذا التحذير لذريته وأَعْلَمَهُم أن الشيطان عدو . ولكن الغفلة حين تسيطر على النفوس تفسح مجالا للشيطان لينفذ إلى نفس الإنسان ، والشيطان ـ كما نعرف ـ لا يأتى للعاصى الذى تغويه نفسه ؛ لأن العاصى تكفيه نفسه ؛ لذلك يأتى الشيطان للطائع ليفسد عليه طاعته ، ولهذا يقول الله عنه :

﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾

(من الآية ١٦ سورة الأعراف)

إذن فمقعد الشيطان ليس فى الخمارة أو فى مكان فساد ، إنما يجلس على باب المسجد ، لكى يفسد على كل ذاهب إلى الطاعة طاعته . وهذا معنى : « لأقعدن لهم صراطك المستقيم » ؛ ولذلك كانوا يقولون : إن الطوائف الأقلية غير المسلمة فى أى بلد إسلامى لا تحدث بينهم الشحناء ، ولا البغضاء ، ولا حرق الزروع ولا سمّ المواشى ، ولا القتل ، وتأتى هذه المعاصى فى جمهرة المسلمين ، نقول : نعم ؛ لأن الشيطان ضمن أن هؤلاء وصلوا إلى قمة المعصية فابتعد عن إغوائهم ، أما المسلمون فهم أهل الطريق المستقيم ، لذلك يركز الشيطان فى عمله معهم ، إذن فمادام عمل الشيطان على الطريق المستقيم فهو يأتى لأصحاب منهج الهداية ، أما الفاسق بطبيعته ، والذى كَفَرَ كُفر القمة فالشيطان ليس له عمل معه ؛ لأنه فعل أكثر مما يطلب الشيطان من النفس البشرية .

والحق سبحانه وتعالى يقول : « والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس » أى : أنفقوا وأنقصوا مالهم فلماذا المراءاة إذن ؟ لأن الشيطان قرينهم ، وعندما ينفقون فهذا عمل طاعة ، ولماذا يترك لهم هذا العمل ليسلم الثواب لهم ؟ فلا بد أن يفسد لهم هذا العمل الذى عملوه ، وهو يقول : « ومن يكن الشيطان له قريناً فساء قرينا » مثل هذا القرين أيمدح أم يذم ؟ إنه يذم بطبيعة الحال ؛ ولذلك قال الله : « فساء

قرينا » أى بئس ذلك القرين ، فالقرين الذى يلفتك عن فعل الخير هو الذى بعد أن أنقص مالك بالنفقة أفسد عليك الثواب بالرياء .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾ ﴾

وقوله سبحانه : « وماذا عليهم » وأى تبعة ومشقة وضرر عليهم من الإيمان والإنفاق فى سبيل الله ؟ إنه سبحانه لم يستفهم منهم عما يصيبهم من ذلك ولكنه ـ جل شأنه ـ يَذُمُّهُمْ ويوبخهم ويصفهم ويصمهم بالجهل والغفلة عما ينفعهم .

فالتلميذ الذى يلعب ، فيرسب تقول له : وماذا عليك لو أنك ذاكرت ؟! يعنى أى ضرر عليك فى هذا ، إذن فمعنى ذلك أنها لا تقال إلا لإنسان فى قدرته أن يفعل الفعل ، فمثل هذا التلميذ يقدر أن يذاكر . لكننا لا نأتى لإنسان فيه صفة لا دخل له فيها كالقصر فى القامة مثلاً ثم نقول لك : ماذا عليك لو كنت طويلاً ؟! هذا قول لا ينفع ولا يصح .

إذن فماذا عليك . لا تقال إلا لمن فى قدرته الاختيارية أن يكون كذلك ، أما من لا يكون فى قدرته ألا يكون كذلك فلا تقال له . ونقول ذلك لأن طائفة الجبريّة قالت : إن الذى كفر لا يقدر أن يؤمن فالكافر يظل كافراً ، لكنهم لم يلتفتوا إلى قول ربنا : « وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر » فمعنى هذا القول أن الباب مفتوح . وإلا لو كانوا ملزمين بالكفر لما قال ربنا : « وماذا عليهم » . وهذه الآية لا ترد فقط على مذهب الجبريَّة ، بل تهدم مذهب الجبريَّة كله . فالإنسان ليس مجبراً على فعل وتنتهى المسألة ، وكما يقولون : كالريشة فى مهب الريح . ومثلما قال الشاعر :

ألقاه فى اليم مكتوفاً وقال لـه
إيـاك إيـاك أن تبتـل بـالمـاء

نقول لهم : أنتم نسبتم لله ـ والعياذ بالله ـ الظلم ، فالله سبحانه وتعالى لم يطلب من الإنسان أن يؤمن به إلا وقد أودع فيه قوة اختيارية تختار بين البديلات . وأنتم لم تفطنوا إلى حقيقة كتابة كل شيء أزلاً فأخذتم منها الشيء الذى لا بد للناس أن تنفذه ، ولم تلتفتوا إلى أن هناك فرقاً بين أن يكون قد كتب ليلزم ، وأن يكون قد كتب لأنه علم .

هو سبحانه كتب لماذا ؟ لأنه علم أزلاً أن عبده سيختار كذا ويختار كذا . إذن فالكتابة ليست للإلزام ولكن لسبق العلم . والعلم صفة انكشاف لا صفة تأثير .

وحتى نوضح ذلك نقول : إن الصفات نوعان : صفة تكشف الأشياء على ما هى عليه بصرف النظر عن أن تقهر أو لا تقهر ، والقدرة صفة إبراز وليست صفة انكشاف ، ومثال ذلك عميد الكلية الذى يأتى فيقول لأستاذ مادة من المواد : جاءت لى مكافأة للطالب النابغ فى مادة كذا ، فاصنع اختباراً للطلاب حتى نعطى هذه الجائزة لمن يستحقها . فيقول أستاذ المادة : لا ضرورة للاختبار لأننى أعلمهم وأعرف مواقعهم من الجدّ ومواقعهم من الاجتهاد ومواقعهم من فقه العلم ، فلان هو الأول وأعطه الجائزة ، فلا يقتنع عميد الكلية ، ويضع هو اختباراً أو يأتى بأساتذة آخرين يضعون الاختبار دون هذا الأستاذ . وبعد ذلك يفوز الطالب الذى حدده الأستاذ مسبقاً بالدرجة الأولى .

أساعة أجاب الطالب عن الأسئلة التى وضعت له . أكان مع الطالب الذى فاز بالمركز الأول من يرغمه على أن يكتب المادة العلمية التى جعلته يحصل على الجائزة ؟ لا . فلماذا قال الأستاذ عنه ذلك ؟ لأنه علم بمن عنده قدرة من العلم . لقد حكم الأستاذ أولاً لأنه يعلم .

ولله المثل الأعلى من قبل ومن بعد ، فالحق سبحانه وتعالى أعطى للناس الاختيار

بين البديلات ، لكنه أوضح : أنا أعلم أن عبدى سيختار كذا وكذا . إذن فهذه سبق علم لا قهر قدرة . فالقدرة لها تأثير والعلم لا تأثير له ولا قهر . وقول الله هنا : « وماذا عليهم لو آمنوا بالله » فقوله : « وماذا عليهم » تعنى أى ضرر يلحقهم . كلمة « عليهم » دائماً تكشف للإنسان ما عليه ، لذلك لا يقول « لهم » بل يقول : أى ضرر كان يلحقهم لو أنهم آمنوا بالله ؛ ولذلك يقول الحق :

﴿ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ ﴾

(من الآية ٤٦ سورة البقرة)

لم يقل سبحانه : الذين يتيقنون . بل إن مجرد الظن بلقاء الله جعلهم يعملون الأعمال الصالحة ، فما بالك إذا كان العبد متيقناً ؟ إن المتيقن يقوم بالعمل الصالح مِن باب أولى . ولذلك فهذه المسألة أخرجت « المعرّى » عما اتهموه به من أنه ينكر البعث ، صحيح أنه فى أول حياته قال :

تحطمنا الأيام حتى كأننا زجاج ولكن لا يُعاد لنا سَبْكُ

فقالوا : إن قوله « لا يعاد له سبك » معناه أنه ينفى قدرةالحق على أن يبعثنا مرة ثانية ، مع أنه من الممكن أن يتأول فيها ، أى لا يعاد لنا سبك فى حياتنا هذه ، ونحن لا نرى من مات يعود مرة ثانية . ونقول كذلك:إن هذه قالها فى أول حياته . ولكنه قال فى آخر الأمر :

زعم المنجم والطبيب كلاهما لا تحشر الأجساد قلت إليكما
إن صح قولكما فلست بخاسر أو صح قولى فالخسار عليكما

فهو يطلب من الطبيب والمنجم أن يكفا عن إفساد العقول بالشك . وهب أنه اعتقد ألا بعث ، وواحد آخر اعتقد أن فيه بعثاً ، نقول له : إما أن يجىء بعث فيكذب من قال : لا بعث ، وإما ألا يجىء بعث ، فإذا لم يجىء البعث ، ما الذى ضر من آمن بالبعث ؟ وإذا جاء البعث فمن الذى خسر ؟ سيخسر من أنكره ، إذن فالذى ينكر البعث يخسر ولا يكسب ، لكن من قال : إن هناك بعثاً لا يخسر ، وهكذا .

وقول الحق : « وماذا عليهم » إنه تساؤل عن أى ضرر كان يلحقهم«لو أنهم آمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله » إن من يعطى الصدقة ويضعها فى يد الله يستثمرها عند المعطى ، لكن عندما يقوم بذلك رئاء الناس فهو يثمر عند من لا يعطى ، وبذلك يكونون قد خسروا أموالهم وخسروا تثمير الأموال فى يد الله بالثواب فى الآخرة .

« وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله وكان الله بهم عليما » . وعلم الله متغلغل وسبحانه يعلم الخفايا . وسبحانه محيط بكل شيء علما ؛ لذلك يقول الحق بعد ذلك :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾

والظلم : الأصل فيه محبة الانتفاع بجهد غيره ، فعندما تظلم واحداً فهذا يعنى أنك تأخذ حقه ، وحقه ما جاء به بجهده وعرقه ، وتأخذه أنت بدون جهد ولا عرق . ويتبع هذا أن يكون الظالم قوياً . لكن ماذا عن الذى يظلم إنساناً لحساب إنسان آخر ؟ إنه لم ينتفع بظلمه ولكن غيره هو الذى انتفع . وهذا شرّ من الأول : عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (بادروا بالأعمال ستكون فتنا كقطع الليل المظلم يصبح الرجل مؤمناً ويمسى كافراً أو يمسى مؤمنا ويصبح كافرا يبيع دينه بعرض من الدنيا)[1] .

لأنه ظلم إنساناً لنفع عبد آخر ولم يأخذ هو شيئاً لنفسه .

إذن فالظلم إما أن يكون الانتفاع بثمرة جهد غيرك من غير كد ، وإما أن تنفع شخصا بجهد غيره ، والله سبحانه وتعالى إذا نظرنا إليه ـ وهو قوة القوى ـ إذا أراد أن يظلم ـ وحاشا لله أن يظلم ـ فماذا يكون شكل ظلمه ؟ إن الظلم يتناسب مع قوة

(١) رواه مسلم ، والترمذى ، وأحمد .

الظالم ، إذن فقوة القوى عندما تظلم فظلمها لا يُطاق ، ثم لماذا يظلم ؟ وماذا يريد أن يأخذ وهو من وهب ؟ إنه سبحانه مستغنٍ ، ولن يأخذ من هذا ليعطى ذاك ، فكلهم بالنسبة له سواء ؛ لأنه سبحانه لم يتخذ صاحبةً ولا ولداً ، كلهم متساوون ، فلماذا يظلم ؟

إن الظلم بالنسبة لله محال عقلياً ومحال منطقياً ، فلا يمكن لله أن يضيع عمل حسنة ولا أن يضاعف سيئة . فهذه لا تتأتى ، وتلك لا تتأتى ، والله واهب كل النعم للناس جميعاً . ومادام هو من وهب كل النعم ، فسبحانه غير منتفع بآثاره فى خلقه . إن الحق سبحانه وتعالى ينفى عن نفسه الظلم فى قوله :

﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ ﴾

(من الآية ٤٦ سورة فصلت)

فكلمة « ظلّام » مثل قولنا : فلان « أكّال » وفلان « نوّام » . وهى تختلف عن قولنا : فلان نائم، يعنى نام مرة، ولكن «نوام» فهذا يعنى مداومته على النوم كثيراً، أى أنه إما أن يكون مبالغاً فى الحدث ، وإما أن يكون مكرراً للحدث . فالمبالغة ـ كما نعرف ـ تأتى مرة لأن الحدث واحد لكنه قوى ، ومرة يكون الحدث عادياً لكنه مكرر ، هذه هى المبالغة ، فقوله سبحانه وتعالى : « وما ربك بظلّام » نفى للمبالغة ، وهذا لا يقتضى نفى غير المبالغة . ونقول : الله لو ظلم لكان ظلمه مناسبا قدرته فيكون كبيراً كثيراً ، ولو كان ظالما لشمل ظلمه وعَمّ الخلق جميعا فيكون كذلك كبيراً كثيراً ولكن الله ـ سبحانه ـ يقول : « إن الله لا يظلم مثقال ذرة » . وسبحانه يحسب السيئة سيئة واحدة . أما الحسنة فيضاعفها ، « إن الله لا يظلم مثقال ذرة » « مثقال » : يعنى ثقل ووزن ، والثقل هو : مقدار جاذبية الأرض للشىء . فعندما يكون وزن الشىء قليلاً وتُلقيه من أعلى ، فهو ينزل ببطء ، أما الشىء الثقيل فعندما تلقيه من أعلى فهو ينزل بسرعة ؛ لأن قوة الجاذبية له تكون أقوى ، والإنسان منا حين ينظر إلى كلمة « مثقال » ؛ ويعبر عنها بأنها وزن ، فمعيار الميزان هنا « الذرة » . وما « الذرة » ؟.

قال العلماء فيها : هى رأس النملة الصغيرة التى لا تكاد تُرى بالعين المجردة ، أو النملة نفسها . هذه مقولة ، أو الذرة كما قال ابن عباس حين سُئل عنها : أخذ شيئاً

من تراب الأرض ثم نفخه ، فلما نفخ تطاير التراب فى الهواء ، فقال لهم : كل واحدة من هذه اسمها « ذرة » وهو ما نسميه « الهباء » ، ونحن الآن الموجودين فى مكان واحد لا نرى شيئاً فى الجو ، لكن انظر إلى حزمة ضوئية ـ أى ثقب تدخل منه أشعة الشمس ـ فساعة ترى ثقباً يُدخل أشعة الشمس ترى غباراً كثيراً يسبح . والمهم أنك لا تراه جارياً إلا فى شعاع الشمس فقط ، فهو كان موجوداً ونستنشقه ، فما الذى جعلنى لا أراه ؟ . لأنه بلغ من الصغر واللطف مبلغاً فوق طوق العين أن تراه ، فالذرة واحدة من هذا الغبار ،واسمه « الهباء » وواحدة الهباء هى الذرة .

إن الحق سبحانه وتعالى يوضح لنا : أن كل شىء موزون إلى أقل درجات الوزن وهو الذرة ، وهى الهباء ، ونحن لا نراها إلا فى نور محجوز ، لأننا فى النور القوى لا نرى تلك الذرات ، بل نراها فقط فى نور له مصدر واحد ونافذ ، والحق سبحانه وتعالى لا يظلم مثقال ذرة ، وهذا تمثيل فقط ؛ لأن الذرة يمكن أن تكبر ، فالذى يكبر يمكن أن يصغر ، وقال الحق ذلك ولم يكن عند الإنسان المقياس الذى يُفتّت به الذرة ، وقد حدث أن استطاع الإنسان ذلك ، فبعد الحرب العالمية الأولى صنعت ألمانيا اسطوانات تحطيم الجوهر الفرد ، أو الجزء الذى لا يتجزأ كما كان يصفه الفلاسفة قديماً ، ومعنى جزء لا يتجزأ أى لا يمكن أن يأتى أقل منه . ولم يلتفتوا إلى أن أى شىء له مادة إن كان يقبل التكبير فهو أيضاً يقبل التصغير . والمهم أن توجد عند الإنسان الآلة التى تدرك الصغر .

ومثال ذلك عندما صعدت الأقمار الصناعية وأخذوا من الجو صورة لمدينة نيويورك ؛ خرجت الصورة صغيرة لمدينة نيويورك . بعد ذلك كبروا الصورة ؛ فأخرجوا أرقام السيارات التى كانت تسير ! . كيف حدث هذا ؟ لقد كانت الصورة الصغيرة تحتوى تفاصيل أكثر دقة لا تراها العين المجردة ، وعندما يتم تكبيرها يتضح كل شىء حتى أرقام السيارات وضحت بعد أن كانت غير ظاهرة ، وإن كنت موجوداً فى نيويورك فى هذه الساعة أكنت تظهر بها ؟ لا يمكن أن تظهر . . لماذا ؟ . . لأنّ صورتك صغرت إلى الحد والقدر الذى لا يمكنك أن تراها وهى بهذا الحجم وهكذا ، فالنور عندما يكون محزوماً ، فالحزمة الضوئية التى تدخل إلى مكان ما ، لها من القوة التى تظهر ذرة الهباء الذى لم تكن تراها .

إذن فنور من الله مخلوق ظهرت فيه الذرة ، أيخفى على نور الخالق ذرة ؟ لا يمكن أن تخفى عليه سبحانه ذرة ؛ لأن النور الذى خلقه أظهر الذرة والهباء الذى كان موجوداً ولا نراه ، فلن يخفى على نور النور ذرة فى الأرض .

وهكذا نعرف أن المسألة بالنسبة لله عملية قطعية ، وعندما اخترعوا اسطوانة تحطيم الجوهر الفرد كانت مثل عصارة القصب ، ونحن نعرف أن عود القصب يوضع بين عمودين من الحديد . والعمود الواحد اسمه « اسطوانة » وعندما يضيقون الاسطوانتين ثم يمررون عود القصب بينهما ، فلا بد أن تكون المسافة بينهما ضيقة حتى إذا نفذ عود القصب يُعصر ، إذن فكلما ضيقت بين الاسطوانتين يزداد العصر ، ومادامت الاسطوانتان تجرى كل واحدة منهما على الأخرى فهنا فراغ ضئيل جداً ، وحاول العلماء الألمان تضييق الاسطوانتين تضييقاً يفتت لنا هذه الذرة ، ونجحوا ، وأصبح هناك شىء آخر أقل من الذرة .

وظن السطحيون الذين يتربصون بالإسلام وبكتاب الله الدوائر ، ويريدون أن يجدوا فيه منفذاً . قالوا : إن الله قال : « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره » . على أنها أقل شىء وظهر أن هناك أقل من مثقال ذرة ؛ لأن الذرة تحطمت . وقلنا لهؤلاء : أنتم أخذتم آية ونسيتم آيات ، فالقرآن قد جاء معجزة ليواجه مجتمعات شتى من لدن رسول الله إلى أن تقوم الساعة ، فلا بد أن يكون فيه ما يشبع العقول من لدن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أن تقوم الساعة . ولو أن عطاء القرآن صُب مرة واحدة فى عصر الرسالة لجاءت القرون التالية وليس للقرآن عطاء . فأراد ربنا أن يكون القرآن هو المعجزة والمنهج المتضمن للأحكام والكليات ، وهذه أمور مفهومة بالنسبة لعهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى أن تقوم الساعة . لكن لا يزال هناك كونيات ونواميس للحق فى الوجود لم تظهر بعد ، فسبحانه يعطى كل عصر على قدر اتساع فهمه .

وعندما نعرف أسرار قضية كونية لا يزيد علينا حكم ، فعندما نعرف قضية مثلاً كقضية الذرة وتفتيتها ووجود إشارات لها فى القرآن الكريم لا يزيد ذلك علينا أى حكم . بل ظلت الأحكام كما هى . فالأحكام واضحة كل الوضوح ؛ لأن من

يفعلها يثاب ، ومن لا يفعلها يعاقب . والناس الذين سيقوم عليهم الساعة مثل الناس الذين عاصروا حضرة النبى عليه الصلاة والسلام ؛ لذلك لابد أن تكون الأحكام واحدة ، فمن ناحية أن القرآن كتاب أحكام فهذا أمر واضح وضوحاً لا زيادة فيه ، ولم يفهم المعاصر لرسول الله حكماً ثم جاء الإنسان فى زماننا ليفهم حكماً آخر ، بل كل الأحكام سواء .

والقرآن كمعجزة هو أيضاً معجزة للجميع . ولابد أن تكون هناك معجزة لكل جيل . ولكل عصر ، ويأتى الإعجاز فى الآيات الكونية التى لو لم نعرفها فلن يحدث شيء بالنسبة للأحكام . مثال ذلك : لو لم نعرف أن الأرض تدور أكان انتفاعنا بالأرض يقل ؟ لا . . فنحن ننتفع بالأرض سواء أعلمنا كرويتها أم لم نعلم ، لكن الحق سبحانه وتعالى يواجه العقول بما يمكن أن تطيقه . فإذا ما ارتقت العقول وتنورت واستنارت بمقتضى طموحاتها العلمية فى الكون . فالقرآن إن لم يؤيدها فهو لا يعارضها .

وعندما فتتوا الذرة قال المشككون : إن ربنا يضرب بالذرة المثل لأصغر شيء « ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » لكن هناك ما هو أقل من الذرة . ونرد عليهم : أنتم نظرتم إلى آية ونسيتم آيات . أنتم لم تنتبهوا - كما قلنا - إلى أن من فتتوا الذرة إلى إلكترونات وأيونات وموجب وسالب حاولوا بعد ذلك أن يفتتوا ما فُتت . والآية التى نحن بصددها الآن : « إن الله لا يظلم مثقال ذرة » أرضت العقول التى تعرف الذرة الأصلية هذه واحدة ، ولماذا لا نسمع قول الله :

﴿ وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ ﴾

(سورة يونس)

إذن فهناك ذرة وهناك أصغر من الذرة ، ولم تأخذوا فى بالكم أن « أصغر » هذه أفعل تفضيل ، ولا يوجد أصغر إلا إن وجد صغير ، إذن فهناك ذرة ، وهناك صغير

عن الذرة ، وهناك أصغر من الصغير ، فهناك إذن ثلاث مراحل ، فإن فتتوها فلنا رصيد فى القرآن يقول بالصغر ، فإن فتتتم المفتت ، فلنا رصيد فى القرآن بأصغر ؛ ، لأن كل أصغر لا بد أن يسبقه صغير ، وإن كنت ستفتت المفتت فما زال عندنا رصيد من القرآن يسبق عقولكم فى الابتكار ، فإن قلت تفتيت جاز ، وإن قلت تجميع جاز ، لأنها أصغر وأكبر ، تفتيت أو تجميع ، والمعقول أنك تقول : لا يغيب الأصغر والصغير ، والذرة كذلك لا تغيب فكيف يعبر عن الأكبر بأنه لا يغيب مع أنه ظاهر وواضح ؟.

ونقول لك : إن المتكلم هو ربنا ، فالشيء لا يدرك إما لأنه لطيف فى غاية الدقة بحيث لا تتعلق به الباصرة فلا يُرى ، وأيضاً لا يُدرك لأنه كبير بصورة أكبر من أن تحيط به الباصرة ، فحين ترى جبلاً كبيراً على بعد اثنين من الكيلو مترات أو ثلاثة فأنت لا تدركه ؛ لأنه أكبر من أن يحيط به إشعاع بصرك ، ولكن الأمر بالنسبة لله يختلف فلا يوجد صغير يَدِقُّ لا يراه ، ولا كبير يكبر لا يراه ، إذن فلا بد أن تأتى « ولا أصغر من ذلك ولا أكبر » . وفى آية أخرى يقول سبحانه :

﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ﴾

(سورة سبأ)

وانظروا إلى دقة الحق فى الرد على الإنكار للساعة وهى قضية كونية تنسحب على كل العصور . . فيقول سبحانه :

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾ ﴾

(سورة سبأ)

كان يكفى أن يقول : إن الساعة آتية ، لكنه أوضح : اعرفوا أن الساعة آتية ، وكل ما فعلتموه معروف ، ولماذا يقولون : لا تأتى الساعة ؟ إن هذا لون من تكذيب النفس لأنهم لم يعملوا على مقتضى ما يتطلبه قيام الساعة ، فالذى لم يعمل لذلك يود

لأن من مصلحته ذلك ـ أن تكون مسألة الساعة كذب ؛ لأنه قد عمل أشياء يخاف أن يحاسب عليها ، فجاء سبحانه بالآية لكى تردّ على المقولة وعلى الدافع للمقولة . وكل مقولة لها دافع . لقد كان الدافع لمقولتهم هو إسرافهم على أنفسهم فلم يقدموا عملاً صالحاً فمن مصلحتهم الآمالية ألا تأتى الساعة ، كى لا يعاقبوا ، وسبحانه يعلم أزلا ما فعلوا وردّ على المقولة وردّ على الدافع الذهنى للمقولة ، فأوضح سبحانه : أنا عالم كل أمر ولن يغيب عنى عمل من أعمالكم .

وقول الحق فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها : « وإن تك حسنة » يعنى : وإن يكن الوزن لحسنة يضاعفها الله ، وعندما يحدثنا سبحانه عن الحسنة وأنها تُضاعف ثم لا يتكلم عن السيئة فهذا يدل على أن السيئة بمثلها ، والحق قد تكلم عن المضاعفة للحسنة فى كثير من الآيات « والله يضاعف لمن يشاء » .

وفى آية أخرى يقول الحق :

﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ﴾

(من الآية ٢٦١ سورة البقرة)

وبعد ذلك يقول :

﴿ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ﴾

(من الآية ٢٦١ سورة البقرة)

ففيه فرق بين نظام حساب الحسنات ونظام حساب السيئات ، فالحسنة تضاعف لعشر أمثالها لسبعمائة ضعف ، هذا هو نظام الحساب ، وإرادة خالق هذا النظام تعطى كما تريد ، إذا كنا نحن ـ كبشر ـ عندما نوظف واحداً نقول : أنت تدخل السلم الوظيفى ، وتبدأ السلم الوظيفى من أول درجاته ثم تترقى درجة بعد درجة ، ثم يأتى رئيس الدولة ليعينك فى درجة أعلى من ذلك بكثير ، فما بالنا بحساب الرب الأعلى ؟ إنه يعطى بعملية حسابية فيها زيادة فضل ؛ ولذلك قال بعد هذه الآية : « وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً » أى إنه سبحانه يعطى من عنده ذلك الأجر العظيم ، وهذا اسمه « محض الفضل » وكيف يسميه الله أجراً مع

أنه زائد ؟ لأن هذا الفضل جاء تابعا للأجر ، فإذا لم يعمل الإنسان هذا العمل فإنه لا يستحق أجراً ، وبالتالى فلا ينال فضلا وحين يضرب الله الأمثال للناس فذلك لتقريب المعانى ؛ لأن الله قاله والله صادق فيما يقول ، فيعطى الحق سبحانه وتعالى مُثلاً إيناسية فى الكون ، حتى لا تستبعد أن الحسنة تذهب لهذه الأضعاف المضاعفة . فيوضح لك : هذه الأرض أمامك هات حبة واحدة وضعها فى الأرض تخرج لك سبع سنابل وكل سنبلة فيها مائة حبة فإذا كانت الأرض ـ وهى مخلوقة لله ـ أعطت سبعمائة ضعف ، فكم يعطى من خلق الأرض ؟ إنه يعطى بغير حساب .

إذن فكلمة « من لدنه » هذه تعطيك الباب الواسع الذى يتناسب مع الله . فالأرض تعطيك على قدر جهدها ، وعلى قدر العناصر الغذائية الموجودة فيها . . والذى عنده وبيده الخير وخلق كل الكون يوضح : إذا كان خلق من خلقى يعطى حتى الكافر ، سبعمائة ضعف فالذى خلق هذا يعطى للمؤمن أجراً للحسنة بلا حدود ؛ ولذلك فالإيناسات التمثيلية فى الكون يتركها الله لتقرب للعقل المعنى البعيد الذى قد يقف فيه. فالإنسان منا مادة: هى البدن وتحل فيه الروح. وعندما تسحب الروح من البدن ، ماذا يصير ؟ يصير الجسد رِمة ، ويتحلل لعوامله الأولى وتنتهى منه مظاهر الحياة .

إذن فالروح هى السبب فى الحركة ، وفى أن كل جهاز يقوم بعمله ، وفى النمو ، وعندما تسحب الروح ينتهى الأمر ، إن الروح هى التى تدير كل هذا الجسم ، والروح لا لون لها ، ولا أحد يراها ، ولا يشمها كائن ، فكيف ندركها إذن ؟

نقول : إن الجوهر الذى يدخل فى جسدك ويعطيه الحركة فيديره . أنت لا تراه ولا تحسّه ، وهو غيب بالنسبة لك ، فإذا حُدّثت أن ربك غيب فلا تتعجب ، فروحك التى بين جنبيك لا تعرف كُنهها ، وعليك إذن أن تصدق عندما يقال لك : ربك ليس بمحدود بمكان وعندما يقول سبحانه :

﴿ لَا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ ﴾

(من الآية ١٠٣ سورة الأنعام)

فكلنا نقول : نعم هذا كلام صحيح ؛ لأنه إذا كان هناك مخلوق لله وهو الروح لم

تدركه الأبصار ، أفتريد أن يُدرَك من خَلَقَ ؟ لا يمكن.وهو سبحانه من عظمته أنه لا يُدرَك .

وسبحانه يقول : « ويؤت من لدنه أجراً عظيماً » ونقف عند كلمة « من لدنه » . ونعرف أن فيه فرقا بين الإتيان بالناموس ـ وهو النظام الموضوع ـ والعطاء المباشر ، وعندما يقول الحق : « من لدنه » فهذا يعنى أن الوسائط تمتنع . ونعلم قصة سيدنا موسى عندما ذهب ليقابل العبد الصالح قال تعالى فى وصف العبد الصالح :

﴿ وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا ﴾

(من الآية ٦٥ سورة الكهف)

وهذا يعنى أن العبد الصالح قد تعلم ليس بوساطة أحد . بل من الله مباشرة ، بدليل أن الذى جاء ليتعلم منه وتعلم منه ثم وقف معه فى أمور جاءت على خلاف ما تجرى به النواميس والعادات.فكلمة « من لدنا » تعنى تجاوز الحجب ، والوسائط ، والأنظمة .

والحق سبحانه يحترم أصل عملك ويسمى عطاءه لك « أجراً » ، لأنه أعطى من لدنه بعدما أعطى له النصيب المقدر كأجر ، وهذا الأجر موصوف بأنه عظيم؛لأنه مناسب للمعطى .

ثم يقول الحق :

﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ ﴾

وساعة تسمع كلمة « كيف » فاعرف أن هناك شيئا عجيبا ، تقول مثلاً : أنت سببت السلطان فكيف إذا واجهوك ووجدته أمامك ماذا تفعل ؟ كأن مواجهة

السلطان ذاتها مسألة فوق التصور . . فكل شيء يتعجب منه يؤتى فيه بـ « كيف » ، ومثال ذلك قوله الحق :

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ ﴾

(من الآية ٢٨ سورة البقرة)

وهذا يعنى تعجيبا من مصيبة وكارثة هى الكفر بالله ، فقولوا لنا : كيف جاءت هذه ؟ إنها مسألة عجيبة ، ونقول : فكيف يكون حال هؤلاء الكافرين ، كيف يكون حال هؤلاء العُصاة ، فى يوم العرض ا لأخير ، « فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد » و « الشهيد » هو : الذى يشهد ليقرر حقيقة ، ونحن نعلم أن الحق أخبرنا :

﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة فاطر)

وهذا النذير شهيد على تلك الأمة أنه بلغها المنهج ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم شهيد على أمته أنه بلغ ، فقوله : « وجئنا بك على هؤلاء » من هم ؟ ننظر قوله : « فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد » وهو رسولها الذى بلغ عن الله منهجه ، وكيف يكون الموقف إذا جاء وقال : أنا أبلغتهم الموقف ولا عذر لهم لأننى أعلمتهم به ، « وجئنا بك » يا محمد ـ صلى الله عليك وسلم « على هؤلاء » فهل المعنى بـ « هؤلاء » هم الشهداء الذين هم الرسل أو على هؤلاء المكذبين لك ؟ وتكون أيضاً شهيداً على هؤلاء مثلما أنت شهيد على أمتك ؟ إن كلا من الحالين يصح ، لماذا ؟ .

لأن الله جاء بكتابه المعجزة وفيه ما يثبت أن الرسل قد بلغوا أممهم ، فكأن الرسول حين سُجل فى كتابه المعجزة وكتابه المنهج أن الرسل قد بلغوا أممهم فهو سيشهد أيضاً : هم بلغوكم بدليل أن ربنا قال لى فى كتاب المعجزة وفى المنهج . ويكون رسولنا شهيداً على هؤلاء المكذبين الذين أرسل إليهم وهم أمة الدعوة.فالمعنى هذا يصلح ، وكذلك يصلح المعنى الآخر . ولا يوجد معنى صحيح يطرد معنى صحيحا فى كتاب الله ، وهذه هى عظمة القرآن . إن عظمة القرآن هى فى أنه يعطى إشعاعات كثيرة مثل فص الماس ، فالماس غالٍ ونفيس ، لأنه قاسٍ ويُكسر به وكل ذرة فيه لها شعاع ، المعادن الأخرى لها إشعاع واحد ، لكن كل ذرة فى الماس لها إشعاع ؛ ولذلك يقولون إنه يضوى ويتلألأ ، فكل ذراته تعطى إشعاعاً .

والحق سبحانه وتعالى يوضح : أن حال هؤلاء سيكون فظيعاً حينما يأتى يوم العرض يوم القيامة ، ويقولون : إننا بلغناكم ، أو الحق سبحانه وتعالى عرض هذه المسألة بالنسبة للرسل وأممهم ، وبالنسبة لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمته أو للأمم كلها ، فنحن أيضاً سنكون شهداء :

﴿ لِتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾

(من الآية ١٤٣ سورة البقرة)

وهذه ميزة لأمة محمد صلى الله عليه وسلم لأن أمة محمد هى الأمة الوحيدة التى أمنها الله على أن يحملوا المنهج إلى أن تقوم الساعة ، فلن يأتى أنبياء أبداً بعد رسول الله ، فيقول : « لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا » إذن فنحن بنص هذه الآية أخذنا امتداد الرسالة .

عن عبدالله بن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« اقرأ علىّ القرآن فقلت يارسول الله : أقرأ عليك وعليك أُنزل ؟ .

قال : نعم إنى أحب أن أسمعه من غيرى ، فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية (فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا به على هؤلاء شهيدا) فقال: حسبك ، فإذا عيناه تذرفان الدموع »[1] .

فإذا كان الشهيد بكى من وقع الآية فكيف يكون حال المشهود عليه ؟ الشهيد الذى سيشهد بكى من الآية ، نعم؛لأنك تعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ملىء قلبه رحمة بأمته ، ولذلك قلنا:إن حرص رسول الله صلى الله عليه وسلم على أمته جعل ربه يعرض عليه أن يتولى أمر أمته ، بعد أن علم سبحانه مدى عنايته صلى الله عليه وسلم بهذه الأمة :

﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝٣ ﴾

(سورة الشعراء)

---

(١) رواه البخارى ومسلم وأحمد .

فأمر أمته صلى الله عليه وسلم كان يقلقه جداً على الرغم من أن الحق سبحانه قد أوضح له : أنت عليك البلاغ وليس عليك أن تهدى بالفعل ، وهو صلى الله عليه وسلم يعرف هذا . إنما حرصه ورحمته بأمته جعله يحب أن يؤمنوا ، وعليه الصلاة والسلام خاف على أمته من موقف يشهد فيه عليهم ضمن من سيشهد عليهم يوم الحشر . فلما رأى الحق سبحانه وتعالى أن رسوله مشغول بأمر أمته قال له : لو شئت جعلت أمر أمتك إليك .

وانظر إلى العظمة المحمدية والفهم عن الله ، والفطنة ، فقال له : لا يارب . أنت أرحم بهم منى .

وكأنه صلى الله عليه وسلم يقول للخالق : « أتنقل مسألتهم فى يدى وأنا أخوهم ، إنما أنت ربى وربهم ، فهل أكون أنا أرحم بهم منك ؟ لقد كان من المتصور أن يقول رسول الله : نعم أعطنى أمر أمتى لكنه صلى الله عليه وسلم قال : يارب أنت أرحم بهم منى . فكيف يكون ردّ الرب عليه ؟ . قال سبحانه : فلا أخزيك فيهم أبداً ، وسبحانه يعلم رحمة سيد البشر محمد صلى الله عليه وسلم بأمته .

عن عبدالله بن عمرو بن العاص ـ رضى الله عنهما ـ أن النبى صلى الله عليه وسلم تلا قول الله عز وجل فى إبراهيم : « رب إنهن أضللن كثيرا من الناس فمن تبعنى فإنه منى . . » وقول عيسى عليه السلام : « إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم » فرفع يديه وقال : « اللهم أمتى أمتى وبكى ، فقال الله عز وجل : يا جبريل اذهب إلى محمد وربك أعلم فسله ما يبكيك »؟ فأتاه جبريل عليه الصلاة والسلام فسأله فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قال وهو أعلم ، فقال الله : « يا جبريل اذهب إلى محمد فقل : إنا سنرضيك فى أمتك ولا نسوؤك »[1] .

« فكيف إذا جئنا » أى كيف يكون حال هؤلاء العصاة المكذبين . . « إذا جئنا من كل أمة بشهيد » أنه أدّى وبلغ عن الله مراده من خلقه . « وجئنا بك على هؤلاء شهيدا » ؟

(١) رواه مسلم .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾ ﴾

وساعة ترى « يومئذ » وتجد فيها هذا التنوين فاعلم أنه عوض عن شيء محذوف والمحذوف هنا أكثر من جملة ويصبح المعنى : يوم إذْ نجيء من كل أمة بشهيد وتكون أنت عليهم شهيداً ، فى هذا اليوم « يودّ الذين كفروا وعصو الرسول » لأنهم فوجئوا بعملية كانوا يكذبونها ، فلم يكونوا معتقدين أن الحكاية جادة ، كانوا يحسبون أن كلام الرسول مجرد كلام ينتهى ، فعندما يفاجئهم يوم القيامة ماذا يكون موقفهم ؟ « يودّ الذين كفروا وعَصَوْا الرسول لو تُسوّى بهم الأرض » وما معنى « تُسوّى بهم الأرض » ؟ كما تقول : سأسوِّى بفلان الأرض ؛ أى تدوسه دوسة بحيث يكون فى مستوى الأرض .

« ولا يكتمون الله حديثا » . فكيف لا يكتمون الله حديثا ؟ وهو قد قال فى آية أخرى :

﴿ قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ ﴾

(سورة المؤمنون)

قال الحق ذلك عنهم لأن الأمر له مراحل : فمرة يتكلمون ، ويكذبون ، فهم يكذبون عندما يقولون :

﴿ وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾

(من الآية ٢٣ سورة الأنعام)

وسيقولون عن الأصنام التى عبدوها :

﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾

(من الآية ٣ سورة الزمر)

إذن فقوله : « ولا يكتمون الله حديثا » دليل على أن الحديث مندفع ولا يقدر صاحبه أن يكتمه . فالكتم : أن تعوق شيئاً يخرج بطبيعته من شيء آخر فتكتمه . والواحد منهم فى الآخرة : لا يقدر أن يكتم حديثاً ؛ لأن ذاتية النطق ليست فى أداة النطق كما كان الأمر فى الدنيا فقط ، بل سيجدون أنفسهم وقد قدموا إقرارات بخطاياهم ، وبألسنتهم وبجوارحهم ؛ لأن النطق ليس باللسان فقط ، فاللسان سيشهد ، والجلود تشهد ، واليدان تشهدان ، بل كل الجوارح تشهد .

إذن فالمسألة ليست تحت سيطرة أحد ، لماذا ؟ ؛ لأن هناك ما نسميه « ولاية الاقتدار » ، ومعناها أن : هناك قادراً ، وهناك مقدور عليه . ولكى نقرب الصورة ، عندما توجد كتيبة من الجيش وعليها قائد . وبعد ذلك قامت الكتيبة فى مهمة ، والقانون العام فى هذه المهمة : أن يجعل لهذا القائد قادرية الأوامر وعلى الجنود طاعته ؛ وألا يخالفوا الأوامر العسكرية ، فإذا أصدر هذا القائد أمراً تسبب فى فشل معركة ما ، وذهب الجنود للقائد الأعلى منه ، ويسمونه الضابط الأعلى من الضابط الصغير ، فيكون للجنود معه كلام آخر ، إنهم يقدرون أن يقولوا : هو الذى قال لنا ونفذنا أوامره .

أقول ذلك لتقريب المعنى لحظة الوقوف أمام الحق سبحانه وتعالى . فحينما خلق سبحانه الإنسان خلق جوارحه منفعلة لإرادته ، وإرادته مكيفة حسب اختياره . فإرادة الطائع إطاعة أمر واجتناب نهى ، وإرادة العاصى على العكس ؛ لا يطيع الأمر ولا يتجنب المنهى عنه. فواحد أراد أن يشرب الخمر ، فرجله مشت ، ولسانه نطق لِلرَّجُلِ الذى يعطيه الكأس ، ويده امتدت وأخذت الكأس وشرب ، والجوارح التى تقوم بهذه العملية هى خاضعة لقادرية إرادته ، فقد خلقها ربنا هكذا ، وبعد ذلك ، حين تذهب إلى من دبر هذا الأمر فى الآخرة تقول له : يارب هو عمل بى كذا وكذا ، لماذا ؟ لأن قادرية الإرادة امتنعت :

﴿ لِمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ﴾

(من الآية ١٦ سورة غافر)

وليس لى ولا لأحد إرادة فى الآخرة ، ومادام ليس لى إرادة فاليد تتكلم وتعترف : عمل بى كذا كذا وكنت يارب مقهورة لقادرية إرادته التى أعطيتها له فبمجرد ما يريد

فأنا أنفذ . عندما أراد أن أضرب واحداً لم أمتنع . ويعترف اللسان بسبّه لفلان ، أو مدحه لآخر ، إذن فكل هذه ولاية القادرية من الإرادة على المقدورات من الجوارح . لكن إذا ما ذهبت إلى من وهب القادرية للإرادة ؛ فلا يوجد أحد له إرادة . فكأن الجوارح حين تصنع غير مرادات الله بحكم أنها خاضعة للمريد وهو غير طائع تكون كارهة؛لذلك تفعل أوامر صاحبها وهى كارهة ، فإذا ما انحلت إرادته وجدت الفرصة فتقول ما حدث :

﴿ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾

(من الآية ٢١ سورة فصلت)

« يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تُسوَّى بهم الأرض » ، لأن الكافر سيقول :

﴿ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًا ﴿٤٠﴾ ﴾

(من الآية ٤٠ سورة النبأ)

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُواْ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾ ﴾

هنا ينقلنا الحق من الأوامر ، من العبادات وعدم الإشراك بالله ، من التحذير من النفقة رئاء الناس وأنه سبحانه لا يظلم أحداً وأننا كلنا سنجتمع أمامه يوم لا ظل إلا ظله ، بعد ذلك أراد أن يصلنا به وصل العِبادية التى تجعلك تعلن ولاءك لله فى كل يوم ، خمس مرات ، وسبحانه يريدك أن تقبل عليه بجماع عقلك وفكرك وروحك بحيث لا يغيب منك شىء .

هو سبحانه يقول : « لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى » ولم يقل : لا تصلوا وأنتم سكارى ؟ أى لا تقاربوا الصلاة ولا تقوموا إليها واجتنبوها ، وفيه إشارة إلى ترك المسكرات ، فما معنى « لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى »؟ معنى ذلك أنهم إذا كانوا لا يقربون الصلاة إذا ما شربوا الخمر ، فيكون تحريم المسكرات لم يأت به التشريع بعد ، فقد مرّ هذا الأمر على مراحل ؛ لأن الدين حينما جاء ليواجه أمة كانت على فترة من الرسل أى بعدت صلتها بالرسل ، فيجىء إلى أمر العقائد فيتكلم فيها كلاماً حاسماً باتًّا لا مَرْحليَّة فيه ، فالإيمان بإله واحد وعدم الشرك بالله هذه أمور ليس فيها مراحل ، ولا هوادة فيها . لكن المسائل التى تتعلق بإلف العادة ، فقد جاءت الأوامر فيها مرحلية . فلا نقسر ولا نكره العادة على غير معتادها بل نحاول أن نتدرج فى المسائل الخاضعة للعادة مادام هناك شىء يقود إلى التعود .

إن الحق سبحانه وتعالى من رحمته بمن يشرع لهم جعل فى مسائل العادة والرتابة مرحليات ، فهذه مرحلة من المراحل : « لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى » ، والصلاة هى : الأقوال والأفعال المعروفة المبدوءة بالتكبير والمنتهية بالتسليم بشرائطها الخاصة ، هذه هى الصلاة ، اصطلاحياً فى الإسلام وإن كانت الصلاة فى المعنى اللغوى العام هى : مطلق الدعاء .

و« سُكارى » جمع « سكران » وهو من شرب ما يستر عقله ، وأصل المسألة مأخوذة من السَّكْر ما سد به النهر؛ فالماء حين ينساب يضعون سداً، هذا السد يمنع تدفق الماء ، كذلك الخمر ساعة يشربها تمنع تدفق الفكر والعقل ، فأخذ من هذا المعنى ، « لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى » المفهوم أن الصلاة تأخذكم خمسة أوقات للقاء الله ، والسَّكر والخُمار ؛ وهو ما يمكث من أثر المسْكِر فى النفس ، ومادام لن يقرب الصلاة وهو سكران فيمتنع فى الأوقات المتقاربة بالنهار . إذن فقد حملهم على أن

يخرقوا العادة بأوقات يطول فيها أمد الابتعاد عن السَّكَر . وماداموا قد اعتادوا أن يتركوها طوال النهار وحتى العشاء ، فسيصلى الواحد منهم العشاء ثم يشرب وينام . إذن فقد مكث طوال النهار لم يشرب ، هذه مرحلة من المراحل ، وأوجد الحق سبحانه وتعالى فى هذه المسألة مرحليات تتقبلها النفس البشرية . فأول ما جاء ليتكلم عن الخمر قال :

﴿ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ﴾

(من الآية ٦٧ سورة النحل)

ويلاحظ هنا أن « السَّكَر » مقدم ، على الرزق الموصوف بالحسن ، ففيه سكر وفيه رزق . كأنهم عندما كانوا يأكلون العنب أو البلح فهذا رزق ، ووصف الله الرزق بأنه حسن . لكنهم كانوا أيضا يأخذون العنب ويصنعون منه خمراً ، فقدم ربنا « السَّكَرَ » لأنهم يفعلون ذلك فيه،ولكنه لم يصفه بالحسن ، بل قال : « تتخذون منه سكراً » ، لكن كلمة رزق وُصفت بالحسن .

بالله عندما نسمع « سكَراً ورزقاً حسناً » ألا نفهم أن كونه سكراً يعنى غير حسن ، لأن مقابل الحسن : قبيح . وكأنه قال : ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا أى شرابا قبيحا ورزقاً حسناً ، ولاهتمامكم أنتم بالسكر ، قدمه ، وبعد ذلك ماذا حدث ؟ عندما يريد الحق سبحانه وتعالى أن يأتى بحكم تكون المقدمة له مثل النصيحة ؛ فالنصيحة ليست حكماً شرعياً ، والنصيحة أن يبين لك وأنت تختار ، يقول الحق :

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾

(من الآية ٢١٩ سورة البقرة)

هو سبحانه شرح القضية فقط وأنت حر فى أن تختار فقال : « قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس » ولكن الإثم أكبر من النفع ، فهل قال لنا ماذا نفعل ؟ لا ؛ لأنه يريد أن يستأنس العقول لترجح من نفسها الحكم ، وأن يصل الإنسان إلى الحكم بنفسه ، فسبحانه قال : « وإثمهما أكبر من نفعهما » فمادام الإثم أكبر من النفع فما مرجحات البدائل ؟ مرجحات البدائل تظهر لك حين تقارن بين بديلين ثم تعرف أقل البديلين شرّاً وأكثر البديلين خيراً .

فحين يقول الحق : « فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما » إذن فهذه نصيحة ، ومادامت نصيحة فالخير أن يتبعها الإنسان ويستأمن الله على نصيحته . لكن لا حكم هنا ، فظل هناك ناس يشربون وناس لا يشربون ، وبعد ذلك حدثت قصة من جاء يصلى وقرأ سورة الكافرون،ولأن عقله قد سدّ قال : قل ياأيها الكافرون أعبد ما تعبدون فوصلت المسألة ذروتها وهنا جاء الحكم فنحن لا نتدخل معك سواء سكرت أم لا ، لكن سكرك لا يصح أن يؤدى بك أن تكفر فى الصلاة ، فلا تقرب الصلاة وأنت مخمور . هذا نهى ، وأمر ، وتكليف .

« لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى » ومادام لا نقرب الصلاة ونحن سكارى فسنأخذ وقتاً نمتنع فيه ، إذن ففيه إلف بالترك ، وبعد ذلك حدثت الحكاية التى طلبوا فيها أن يفتى الرسول صلى الله عليه وسلم فى أمر الخمر ، فقالوا للنبى : بيِّن لنا فى الخمر بياناً شافياً ، فنزل قوله الحق :

﴿ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ ﴾

(من الآية ٩٠ سورة المائدة)

إذن فقوله : « ياأيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى » ، مرحلة من مراحل التلطف فى تحريم الخمر ، فحرمها زمناً ، هذا الزمن هو الوقت الذى يلقى الإنسان فيه ربه ، إنّه أوضح لك : اعملها بعيداً ، لكن عندما تأتينى فعليك أن تأتى بجماع فكرك وجماع عقلك ، « حتى تعلموا ما تقولون » فكأن هذه أعطتنا حكماً : أن الذى يسكر لا يعرف ماذا يقول ، هذه واحدة ، ومادام لا يعرف ما يقوله ، إن كان فى المسائل العادية فليقل ما يقول ، إنما فى العبادة وفى القرآن فلا يصح أن يصل إلى هذا الحدّ ، وعندما تصل إلى هذا الحدّ يتدخل ربنا فيقول : « لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون » .

ثم جاء بحكم آخر . « ولا جنباً إلا عابرى سبيل حتى تغتسلوا » ومعروف ما هى الجنابة : إنها الأثر الناتج من التقاء الرجل بالمرأة . ويقال : إنها اللذة التى يغيب فيها الفكر عن خالقه ، وهذه لذة يسمونها « جماع اللذات » ؛ لأنها تعمل فى البدن تلك الرعشة المخصوصة التى تأخذ خلاصات الجسم ؛ ولذلك قيل : إنه نور عينيك ومخّ ساقِك فأكثر منه أو أقلل.يعنى أنا أعطيك هذه المقدرة وأنت حرّ.ونحن نغتسل لنعيد النشاط إلى النفس البشرية ، وليس لأحد شأن بهذه المسائل مادامت تتم فى ضوء

شريعة الله وشأننا فى ذلك أن نأتمر بأمر ربنا ونغتسل من الجنابة سواء فهمنا الحكمة من وراء ذلك أو لم نفهم .

« ولا جنباً إلا عابرى سبيل » إذا كان المراد بالصلاة ، فلا تقربوا الصلاة ، بالسكر أو بالجنابة ولم يقل : « لا تصلوا » . والصلاة مكانها المسجد ، فقول : « لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ولا جنباً » ، أى لا تقربوا الصلاة ، والقرب عرضة أن يكون ذهابا للمسجد ، فكأنه يقول : لا تذهب إلا إذا كان المسجد لا طريق للماء إلا منه .

« وإن كنتم مرضى أو على سفر » أى كان عندكم عذر يمنع من الماء . « أو جاء أحد منكم من الغائط » ، و « الغائط » هو : الأرض الوطيئة ، الهابطة قليلاً ، وكانوا يقضون فيها حاجاتهم ، وأصبح علماً على قضاء الحاجة ، وكل واحد منا يكنى عنها بأشياء كثيرة فيقول واحد : أنا أريد أن أذهب إلى « بيت الماء » ويتساءل آخر أين « دورة المياه ؟ » وفى هذا تلطف فى الإخبار عن عملية تستقذرها النفس ؛ ولذلك نقول فى العبارات الشائعة : أنا ذاهب - أعمل زى الناس - يعنى أنا لست بدعاً أن أقضى حاجتى ، فكل الناس تعمل هذا .

فربنا سبحانه وتعالى يقول : « أو جاء أحد منكم من الغائط أو لا مستم النساء فلم تجدوا ماءً فتيمموا صعيداً طيبا » ومن رحمة الله بأمة محمد صلى الله عليه وسلم ، ومن لطف الحق بها أن التشريع جاء ليقبل عليه الإنسان ؛ لأنه تشريع فلا تقل لى مثلا : أنا أتوضأ لكى أنظف نفسى ولكننا نقول لك : هل تتوضأ لتنظف نفسك وعندما تفقد الماء تأتى بتراب لتضعه على وجهك ؟ فلا تقل لى النظافة أو كذا ، إنّه استباحة الصلاة بالشىء الذى فرضه الله ، فقال لى : توضأ فإن لم تجد ماءً فتيمم ، أينقلنى من الماء الذى ينظف إلى أن أمسح كَفَّىَّ بالتراب ثم ألمس بهما وجهى ؟! نعم ؛ لأن المسألة أمر من الله فُهمت علّته أو لم تُفهم ؛ ولذلك فالنبى عليه الصلاة والسلام يقول : « أعطيتُ خمسا لم يُعطهن أحد من الأنبياء قبلى : نصرت بالرعب مسيرة شهر وجُعلت لى الأرض مسجداً طهوراً فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى وأعطيت الشفاعة وكان كل نبى يبعث إلى قومه خاصة

وبعثت إلى الناس عامة »[١].

« فتيمموا صعيداً طيباً » ، أى أن تكون واثقاً أنه ليس عليه نجاسة ، « فامسحوا بوجوهكم وأيديكم » ، المسألة فيها « جنب » وفيها كذا وكذا . . « وتيمم » ، إذن فكلمة « فامسحوا بوجوهكم وأيديكم » ليس ذلك معناه أن التيمم خَلَف وبديل عن الوضوء فحسب ، ففى الوضوء كنت أتمضمض ، وكنت أستنشق ، وكنت أغسل الوجه ، وكنت أغسل اليدين ، وأمسح الرأس والأذنين . . مثلاً ، وأنا أتكلم عن الأركان والسنن . وفى هذه الآية يوضح الحق : مادامت المسألة بصعيد طيب وتراب فذلك يصح سواء أكانت للحدث الأصغر أم للجنابة ، إذن فيكفى أن تمسح بالوجه واليدين .

« فامسحوا بوجوهكم وأيديكم » وتساءل بعضهم : أهى ضربة واحدة نلمس بها الأرض أم ضربتان ؟ نقول : سبحانه قال : « فامسحوا بوجوهكم وأيديكم » ، وبعض العلماء قال : ضربة واحدة ، وبعضهم قال : ضربتان وكلها تيسير . وهذا التخفيف مناسب لكلمة العفو ، فيقول الحق : « إن الله كان عفواً غفوراً » ولكن ماذا حدث هنا ليذكر المغفرة ؟ لأنه غفر وستر علينا المشقة فى ضرورة البحث عن الماء ويسر ورخص لنا فى التيمم .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ ﴾

حين يريد الحق سبحانه وتعالى أن يؤكد قضية من قضايا الكون ليمهد لقضية من قضايا العقائد التى تحرس نظام الكون فهو يخاطب رسوله صلى الله عليه وسلم

(١) رواه البخارى ومسلم والنسائى عن جابر .

بقوله : « ألم تر » . والرؤية عمل العين ـ وعمل العين متعلق بانكشاف الأحداث التى تتعرض لها العين ـ والشيء المرئى دليله معه ، لأن الشيء المسموع دليله يؤخذ من صدق قائله ، وصدق قائله أمر مظنون ، أيكذب أم يصدق ؟ أما المرئى فدليله معه ، ولذلك قالوا : ليس مع العين أين ، أى أنك إذا رأيت شيئاً فلا تقل:أين هو ، وليس الخبر كالعيان ، فالخبر الذى تسمعه ليس كالمشاهدة ، إذن فالمشاهدة دليلها معها ، فلا يقال: دلل على أن فلاناً يلبس جلباباً أبيض وأنت تراه .

إذن فحين يريد الحق أن يؤكد قضية يقول : أرأيت . ولذلك فأنت إذا حدثت إنساناً عن انحراف إنسان آخر . قد يصدقك وقد لا يصدقك ، لكن إذا ما رأيت الإنسان يلعب ميسراً أو يشرب خمراً ثم تقول لمن حدثته من قبل : أرأيت من قلت لك عليه ، كأن الرؤية دليل . والحق سبحانه وتعالى حين يخاطب رسوله صلى الله عليه وسلم بقوله : « أرأيت » ننظر إلى الأمر ، فإذا كان مشهوداً لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يراه بذلك تكون « أرأيت » على حقيقتها ، كما يقول له :

﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰٓ ۝ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝ ﴾

(سورة العلق)

هو صلى الله عليه وسلم قد رآه ، فتكون « أرأيت » على حقيقتها أم ليست على حقيقتها ؟ ولماذا يأتى بهمزة الاستفام « أرأيت » ؛ على الرغم من أنه صلى الله عليه وسلم قد رأى من ينهى إنساناً عن الصلاة ولماذا لم يقل : « رأيت الذى ينهى عبداً إذا صلى » ، لا ؛ لأن الحق يريد أن يؤكد الخبر بمراحل . فمرة يكون الخبر خبراً تسمعه الأذن ، ومرة يكون رؤية تراه ، ومرة لا يقول له : أنت رأيت ، ولكن يستفهم منه بـ « أرأيت » لكى ينتظر منه الجواب . وبذلك يأتى الجواب من المخاطب نفسه وليس من المتكلم ، وهذه آكد أنواع البيان وآكد ألوان التحقيق ، فحين يخاطب الحق سبحانه وتعالى بقوله : « أرأيت » نقول : أكان ذلك مشهداً لرسول الله رآه ، فتكون الرؤية على حقيقتها . فإذا كان الأمر لم يكن معاصراً لرسول الله ثم يخاطب الله رسوله بقوله :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝ ﴾

(سورة الفيل)

ونعلم أن أصحاب الفيل كانوا عام ميلاده صلى الله عليه وسلم ، فهو حين

يخاطب رسوله لم يكن المشهد أمامه ، فـ« ألم تر » هنا بمعنى أعلمت ، ولماذا عدل هنا عن أعلمت إلى قوله : « ألم تر » ؟ . لأن الحق سبحانه وتعالى حين يخاطب رسوله بأمر منه فهو يوضح له : إن أخبرتك بشيء فاعلم أنى أصدق من عينك ، فإذا قال سبحانه : « ألم تر » فهذا يعنى أنك علمت من الحق سبحانه وتعالى ، وإخبار الحق ليس كإخبار الخلق ؛ لأن إخبار الخلق يحتمل الصدق والكذب ، لكن إخبار الحق لا يعنى إلا الصدق ، إذن فرؤية عينك قد تخونك ؛ لأنك قد تكون غافلاً فلا ترى كل الحقيقة ، لكن إذا أخبرك الحق سبحانه وتعالى فسيخبرك بكل زوايا الحقيقة . إذن فإخبار الحق أوثق وآكد من رؤية العين وسبحانه عندما قال :

﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰٓ ۝ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝ ﴾

(سورة العلق)

هذه مثلت الأولى ، وحين قال سبحانه :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝ ﴾

(سورة الفيل)

كأنك تراهم الآن ، فـ« ألم تر » تعنى كأن المشهد أمامك .

إذن فوسائل تأكيد الأشياء : خبر من خلق يحتمل الصدق ويحتمل الكذب . هذه واحدة ، ورؤية من خلق تحتمل أنها استوعبت كل المرئى أو أحاطت ببعضه ، أو خبر من خالق أحاط بكل شيء ، فيجب أن يكون الخبر من الخالق أوثق الأخبار فى تصديقهم .

« ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب » جاءت هذه الآية ورسول الله يعاصره قوم من اليهود . ورأى منهم بالفعل أنهم أوتوا نصيباً من الكتاب ؛ لأنهم أهل كتاب ، ومع ذلك يشترون الضلالة ؛ ولا يقولون الحق ، فيكون هذا أمرا مشهديا بالنسبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم . وحينما أرسل الله محمداً جعله ختاماً للأنبياء وختم به ركب النبوة ، وهذا يعنى : أن النبوة كان لها ركب . وفى كل عصر من العصور يأتى نبى على مقدار اتساع الحياة ، وعلى مقدار التقاء الكائنين فى الحياة ، وعلى مقدار الداءات والأمراض التى تأتى فى المجتمع ، ولكن الله علم أزلاً أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سيأتى فى فترة ورسالته ومنهجه ينتظم ويضم كل قضايا الزمن إلى أن

تقوم الساعة . وهو زمن يعلم الله أن فوارق المواصلات فيه ستنتهى ، وفوارق الحواجز فيه ستنتهى ، فيحدث الخبر فى أدنى الشرق وأعلاه فتسمعه فى أدنى الغرب وأعلاه ، والخبر فى الغرب تسمعه فى الشرق . والداء يوجد مرة فى أمريكا وبعد يوم أو يومين يوجد فى أى بلد من البلاد .

إذن فالمسافات انتهت ، وجعلت المواصلات العالم كقطعة واحدة ، إذن فالداءات فى المجتمع القديم لعسر الاتصال كانت تنعزل انعزالاً إقليمياً وكل داء فى جماعة قد لا يصل إلى الجماعة الأخرى ، فهؤلاء لهم داء لا يصل إلى الجماعة الأخرى ؛ لذلك كان الحق يرسل رسولاً لكل جماعة ليعالج داءاتها،لكن إذا التحم العالم هذا الالتحام ؛ فلا بد أن يأتى رسول واحد جامع للناس جميعاً ؛ لأن قضايا الداءات ستكون واحدة . ونحن نرى الآن كل يوم عجبا ، كلما تحدث حادثة هناك نجدها عندنا .

إذن فلا بد أن تتوحد الرسالة . وحين تتوحد الرسالة فلا يأتى رسول ليستدرك بعد ذلك ، فرسول الله صلى الله عليه وسلم جاء خاتماً ؛ ولذلك أخذ الله العهد على كل رسول أن يبشر قومه بأنه سيأتى رسول خاتم ليكون عند أهل كل ديانة خَلْفية تطمئنهم على أنه إذا جاء رسول ، فقد عرفوا خبر مقدمه ويقولون : لقد قالت لنا رسلنا ؛ ولذلك قال الحق :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ﴾

(من الآية ٨١ سورة آل عمران)

ثم قال :

﴿ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾

(من الآية ٨١ سورة آل عمران)

راجع أصله وخرَّج أحاديثه فضيلة الدكتور / أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .

إذن فرسول الله مشهود له من كل الرسل ؛ ولذلك أكد صلى الله عليه وسلم ديانات كل الرسل . وجاء دينه بديانات كل الرسل ؛ لأنهم معه على منهجه الذى نزل به ، والذين يلتحمون بالإيمان بالسماء بواسطة الرسل السابقين ؛ إذا ما جاءهم خبر رسالة محمد صلى الله عليه وسلم فقد يجعلهم تعصبهم لدينهم ينصرفون عنه ، فأعطاهم الحق الخميرة الإيمانية وأوضح لهم : سيأتى رسول خاتم فتنبهوا يا كل الأقوام إذا ما جاء الرسول الخاتم فلا بد أن تؤمنوا به . وكان عندهم فى كتبهم الدلالات والإخبارات . إذن فالله أعطاهم نصيبا من الكتاب . وانظروا إلى دقة الأداء القرآنى : « ألم تر » يا محمد « إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب » جاء هذا القول وهو يحمل لهم عذرهم إن فاتهم شىء من الكتاب ؛ لأنه سيقول فى آية أخرى :

﴿ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ ﴾ (من الآية ١٣ سورة المائدة)

وماداموا قد نسوا فهم معذورون ، لكن من عندهم كفاية فى العلم من الذين « أوتوا نصيباً من الكتاب » ، كان المفروض فيهم أن تكون آذانهم مستشرفة إلى صوت داعية الحق الخاتم ، وهذا كان معروفا لهم من قبل ؛ لذلك يقول لنا ربنا :

﴿ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾

(من الآية ٨٩ سورة البقرة)

فهم كانوا يقولون لعبدة الأوثان من العرب : نحن فى انتظار النبى الخاتم الذى سيرسله الله لنسبقكم إلى الإيمان به ، فإذا ماسبقناكم إلى الإيمان به وظللتم على كفركم ، سنقتلكم به قتل عاد وإرم . إذن فهم معتصمون بالإيمان بالسماء ، فقل لى : إذا قالوا هذا القول ، وهم معروفون أنهم أهل كتاب فلماذا كفروا بالرسول صلى الله عليه وسلم ؟ إن كفار قريش لم يقولوا : إننا أهل كتاب ، بل كانوا على فترة من الرسل ، فكان المفروض أنه إذا ما جاء الرسول تسابق أهل الكتاب إلى الإيمان به لأنه سبق لهم أن توعدوا به العرب . لقد أعطاهم الله منزلة عالية لكنهم من لؤمهم لم ينتفعوا بها ؛ فيقول الحق :

﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾ ﴾

(سورة الرعد)

لقد جعلكم الحق شهوداً على صدق الدعوة ، هو شاهد وأنتم شهود ، وهذه منزلة كبيرة ، لكنهم لم يلتفتوا إلى تلك المنزلة وركبوا سفينة العناد الغارقة :

﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ ﴾

(من الآية ٨٩ سورة البقرة)

ولكن يجب أن نفطن إلى أن الحق سبحانه وتعالى حينما يرسل قضية عقدية فى الكون فيخالفها مخالف يظن أنه يضار الله ، نقول له : لا. أنت تفعل ذلك لشهوة فى نفسك . لكن الحق سيجعلها لنصرة الدين الخاتم ، وتكون أنت مغفلاً فى هذا الموقف . فإياك أن تظن أنك قادر أن تصادر مرادات الله حين كذبت بمحمد وجعلك ربنا تقول هذه الكلمة للمشركين من قريش ، فانظر ماذا ستفعل هذه الكلمة ؟ . ولكى تعرف أنت بإنكارك ماذا قدمت للإيمان . أنت فهمت أنك صادمت الإيمان . لا . أنت أيدت ونصرت الإيمان لكن بتغفيل ! وعليك وزر .

فلما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأعلن دعوته من ربه . قال العرب المشركون الوثنيون : إن هذا النبى هو الذى توعدتنا به اليهود ، فهيا نسبق إلى الإيمان به قبل أن يسبقونا .

إذن أخدموا الإيمان أم لا ؟ . . لقد خدموا الإيمان . إذن فلا يظنن عاصٍ أنه يقدر أن يطفىء نور الله ، لأن الله يتم نوره ولو كره الكافرون . ومثال لذلك عندما غيّر ربنا القبلة ويوضح : يا محمد أنا أعرف أنك مستشرف ومتشوق إلى أن تتوجه إلى الكعبة ، وأنا قد وجهتك أولاً لبيت المقدس لمعنى . ولكن أنا سأوجهك للكعبة وعليك أن تلاحظ أننى حين أوجهك إلى الكعبة سيقول السفهاء « وهم اليهود » :

﴿ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُواْ عَلَيْهَا ﴾

(من الآية ١٤٢ سورة البقرة)

فهم يتساءلون : ما الذى جعلهم يتركون القبلة التى كانوا عليها ؟ فإن كانت قبلة إبراهيم هى الكعبة فلماذا لم يتجه إليها من أول الأمر ؟ هم سيقولون هذا الكلام . ونزل به قرآن يتلى ويسجل . ومن تغفيلهم ساعة تغيرت القبلة قالوا ذلك القول أيضاً ، ولم يلتفتوا إلى أن الحق قال من قبل :

﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ﴾

(من الآية ١٤٢ سورة البقرة)

فعلى الرغم من ذكائهم إلا أنهم قالوا هذا الكلام ، مما يدل على أن الكفر مظلم والكافر فى ظلام فلا يعرف كيف ينصر نفسه . وجعل الله الكفر وسيلة للإيمان . فلو أنهم كانوا أذكياء بحق وأصحاب بصيرة لكانوا بمجرد أن قال القرآن : « سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها » ، لجمعوا بعضهم وقالوا : القرآن قال : إننا سنقول كذا وكذا ، فهيًّا لا نقول كى يكون القرآن غير صادق . لكنهم لم يقدروا على ذلك . إذن فالكافر مغفل . هم يظنون أنهم بكفرهم يطمسون الإيمان بالله . لا ؛ لأن الله جعل الكفر وسيلة للإيمان ، والحديث الشريف يقول :

(إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر)[1] .

فالحق سبحانه وتعالى يبيِّن : هؤلاء أوتوا نصيباً من الكتاب ، وكان المفروض لمن أوتوا نصيباً من الكتاب أن يكونوا أول من آمن . لكنهم لم يؤمنوا ، هذه أول مرتبة ، وليتهم اقتصروا فى الشرّ على هذه ، وبذلك تقف المسألة وتظل معلقة بهم ، ولكنهم يشترون الضلالة ، ليس فقط فى نفوسهم بل يريدون أن يُضلوا غيرهم ، وهذه هى المرحلة الثانية ، فهناك من يَضِل فى ذاته وهو حرّ ، لكن أن يحاول إضلال غيره فهذا كفر مركب . أنت ضَلَلْت وانتهيت ، فلماذا تريدنى أن أضل ؟ لأن الضال أو المنحرف أو الذى ليس على طريق مستقيم إنما يعرف الطريق المستقيم جيداً . ولكن الصعوبة فى أنه لا يستطيع أن يحمل نفسه عليه . فإذا ما وجد إنساناً مؤمناً فهو يستصغر نفسه ، « لماذا آمن هو وأنا لم أؤمن » ؟

إذن فلا أقل من أن يحاول جذبه فى صفه حتى لا يكون هو المنحرف الوحيد ، فإذا رأيت مثلاً فى بلد من البلاد بعض المنحرفين ، ويرون واحداً مستقيماً فهم يتضاءلون أمامه ، وينظرون إليه نظرة حقد ، ويقولون : لماذا هو مستقيم ؟ لا بد أن نسحبه للانحراف .

---

(١) رواه البخارى .

ولذلك يجب على المستقيمين أن ينتبهوا جيداً إلى أن شياطين الإنس لن تتركهم فى طاعتهم ، بل إنهم سيحاولون أن يستميلوهم ، لأنه يعزّ عليهم أنهم لا يقدرون على أنفسهم ويحزّ فى نفوسهم أكثر أن يجدوا بشراً مثلهم قد قدر على نفسه واستقام . ولذلك يقولون : هيا نكون كلنا معاً فى المعصية حتى لا يرفع أحد رأسه على الآخر. فلنكن كلنا كذابين حتى لا يوجد فينا واحد صادق يذلنا . والكذاب كلما رأى الصادق يشعر أن هناك حربة تنغرز فى قلبه !! والخائن ساعة يرى الأمين تكون الرؤية حربة تنزل فى قلبه ؛ فيريد أن يكون الكل مثله ، هذه معنى « يشترون الضلالة » .

والحق يقول لهم : أنتم أحرار بشرائكم الضلالة وستجدون الجزاء فى النار ، فلماذا تريدون أن تضلوا الناس ؟ إذن فيجب أن ينتبه أهل الطاعة إلى هذا الأمر ، وعندما يستهزىء أحد من طاعتهم فعليهم أن يلتفتوا إلى قول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴾

(سورة المطففين)

وهذا ما يحدث إذا رأى بعض المنحرفين واحداً يذهب إلى المسجد أو يصلى ، يقولون له : « خذنا على جناحك » ويسخرون منه ويستهزئون ، لأنهم ساعة يرونه مقبلاً على الطاعة وهم غير قادرين على أن يكونوا طائعين يتضاءلون أمام أنفسهم ؛ لذلك يريدون أن يكون الكل غير طائع ، وهذه هى الصورة التى نراها الآن ، وعندما يقابل هؤلاء أهاليهم يتضاحكون بسرور من أنهم ضايقوا مؤمناً ، ويقولون : قابلنا مؤمناً واستهزأنا به ، ويتابع الحق :

﴿ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُواْ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾

(سورة المطففين)

فالله سبحانه وتعالى يوضح لنا : أن هؤلاء المستهزئين بالدين يتهمون المتدينين بأنهم على ضلال . فإياكم أن تيأسوا أمام هؤلاء ، إياكم أن تهزموا أمام هؤلاء لأننى سأنتقم عياناً من هؤلاء ، وذلك يأتى يوم الآخرة ويقول الله بعد أن ينزل بهم النكال والعذاب :

﴿ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ (سورة المطففين)

فالحق يتساءل ليأتى الجواب على ألسنتنا ، والسؤال هو : هل قدرنا أن نجازيهم على ما فعلوه فيكم ؟ فاسخروا أنتم منهم ، واضحكوا عليهم كما سخروا منكم فى الدنيا .

وفى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها يقول الحق : « ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب » وهم اليهود . و « أوتوا نصيباً من الكتاب » أى أنهم لم يأخذوا بكل الكتاب بدليل أنهم نسوا حظاً مما ذكروا به ، « ويشترون الضلالة » ، وساعة تسمع كلمة « يشترى » اعرف أن هناك معاوضة ومبادلة ، سلعة وثمنا ، فيشترون الضلالة بماذا ؟ ماذا سيدفعون ؟ الحق يقول فى آيه أخرى :

﴿ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ ﴾

(من الآية ١٦ سورة البقرة)

أى أنهم دفعوا الهدى ثمناً وأخذوا الضلالة سلعة ، وعادة ما ندفعه يضيع من يدنا ، وما نشتريه نأخذه لنا . فحين تشترى سلعة بجنيه . فالجنيه يضيع ، بعد أن كان معك أولاً ، فحين يقول : « اشتروا الضلالة بالهدى » فهل كان معهم هدى وقدموه وأخذوا الضلالة ؟! نعم ، كان معهم هدى الفطرة . فكل واحد عنده هدى الفطرة .

إياك أن تظن أن العقل الواعى ينتظر رسولاً ليدله على الله ، إنما هو ينتظر رسولا ليبلغه مرادات الله منه ، ذلك أن الإيمان بالله أمر من أمور الفطرة ، فالإنسان عندما يتفتح وعيه يجد أشياء فى الكون تخدمه ، خدمة مستقيمة رتيبة ، ولا تتخلف عن خدمته أبداً ، هناك شمس تطلع كل يوم ، وهواء يمر ، أرض عندما تزرعها تعطيك خيراً كثيرا . ألك قدرة على شىء من هذا ؟ هل ادعى إنسان مثلك أن له قدرة عليه ؟ كل هذه الكائنات أنت تطرأ عليها ، ولم تأت بها .

وعندما يولد الإنسان ويرى كل هذه النعم موجودة . ألا يؤمن بأنها من عطاء خالق ؟ الإنسان فوجىء عندما ولد بوجود النعم . وأيضاً آدم عندما خلق فوجىء بالنعم موجودة، إذن فهو قد طرأ عليها، بالله مادام هو قد طرأ عليها ألا يفكر من الذى أقام هذه النعم له ؟ كان لابد أن يفكر من الذى صنع له كل هذه النعم ، وضربنا من

قبل مثلاً بمن انقطعت به الوسائل وهو فى الصحراء ولم يجد ماءً ولم يجد طعاماً، ثم يئس فنام ، ثم استيقظ فوجد مائدة عليها أطايب الطعام ، بالله قبلما يأكل ألا ينظر ويفكر ويقول فى نفسه : من الذى أعدّ وأقام تلك المائدة ؟ أنت ـ إذن ـ وارد على الكون بخيره كله ، ولا أحد قال لك : أنا الذى فعلته ، لا أبوك ولا جدك ولا جد جدك قال هذا ، فلا بد أن تنتبه إلى أن له خالقاً .

إذن فالذين اشتروا الضلالة بالهدى ، أكان معهم هدى فقدموه وأخذوا الضلالة ؟ ! نعم كان معهم هدى الفطرة ، ولذلك حين سُئل الإمام على ـ كرّم الله وجهه ـ : أعرفت ربك بمحمد أم عرفت محمداً بربك ؟

قال : لو عرفت محمداً بربى ما احتجت إلى رسول ، إذن فلايصلح أيضا أن يقال لأحد « عرفت ربك بمحمد »؛لذلك قال على كرم الله وجهه : ولكنى عرفت ربى بربى ، وجاء محمد فبلغنى مراد ربى منى . إذن فقوله : « الذين اشتروا الضلالة بالهدى » ماذا فعلوا ؟ باعوا هدى الفطرة واشتروا الضلالة . وهنا يقول الحق : « ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يشترون الضلالة ».

ولم يأت بـ « الهدى » هنا ، وهذا يدل على أن الفطرة انطمست عندهم انطماسا بحيث لم يقدموا ثمناً للضلالة من الهدى .

« ويريدون أن تضلوا السبيل »و الإرادة هى : أن يرجح الشخص المختارُ حكماً على حكم ، ومثال ذلك : أنت أمامك جوربان مثلا ، فلك أن تختار واحداً منهما ، لكن لو كان أمامك جورب واحد فإرادتك لاترجح . إن الإرادة ترجح اختيارا على اختيار ، وما معنى « تضلوا »؟ الضلال يطلق بإطلاقات متعددة ، فحواها كلها أن هناك أمراً من الحق ليس على بالك ، فهل يحدث ذلك لأنك نسيته أو عرفته وتعمدت أن تتركه ؟ . فالذى نسى هذا الأمر معذور.لكنْ هناك إنسان آخر يعرف هذا الأمر لكنه تعمد أن يتركه ، إذن فالضلال يطلق مرة على النسيان كما فى قول الحق :

﴿ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ﴾

(من الآية ٢٨٢ سورة البقرة)

فالضلال هنا نسيان لكن هناك من يضل لأنه يفتقد المنهج الحق ويتشوف ويتطلع إليه ليتبعه ، كما فى قوله :

﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧ ﴾

(سورة الضحى)

أى أن المسائل متشعبة على الإنسان فيرى هذا وذاك ، فأوضح الحق لك : لاتتعب نفسك لأنى سأعطيك السبيل المستقيم . إذن فالضلالة لها معان متعددة ، وفحواها جميعاً أنها لاتوصلك إلى الغاية ، والحق سبحانه وتعالى حينما يعرض قضية إيمانية عقدية معنوية يستعمل فيها الألفاظ التى يستعملها الناس فى الكونيات ، ولذلك فما هو السبيل؟. السبيل ـ عندنا ـ هو الطريق ، وكلنا حتى غير المؤمنين يعرفون أن الطريق يُصنع ليوصل إلى غاية ، ولكن لابد أن نعرف الهدف أولاً وبعد ذلك نرصف الطريق ونعبّده ، ففيه فرق بين السبب الدافع والواقع .

نحن قبلما نرصف الطريق نرى إلى أين يذهب؟ إذن فالغاية أولاً وبعد ذلك نلتمس أقصر طريق يوصلنا إلى المطلوب . وعندما نكتشف أقصر طريق يوصلنا للمطلوب نمهده ونعبّده لكيلا نتعب الناس ، إذن فالسبيل هو : الطريق الموصل إلى الغاية . ولذلك أوضح لنا الحق أن الطريق إلى الإيمان مستقيم كى لا يأخذ مسافات ، فالخط المستقيم هو أقصر الخطوط .

إننا لا بد أن نعرف الغاية قبل أن نعرف السبيل إلى الغاية . وآفة الدنيا وأهلها أنهم يعيشون فيها ولايعرفون غاياتهم النهائية ، إنما يعرفون غاياتهم الجزئية ، فالطالب يريد أن يتعلم كى يكون موظفا ، لكى يتزوج ويقيم أسرة ، والتاجر يتاجر لكى يعمل كذا ، هذه هى الغايات الجزئية ، والذكى هو من لايذهب للغايات القريبة المنتهية ، بل ينظر إلى الغايات الأخيرة ؛ لأن الناس تختلف فى الغايات المنتهية ، فواحد يعيش خمسين سنة ، وآخر يعيش ستين عاماً ، وثالث يعيش لمدة سنة ، إذن فلابد أن تنظر إلى الغاية التى سيذهب لها الكل ، وآفة الناس أنها تعمل للدنيا ، يعنى للغايات القريبة ، برغم أن « الدنيا » تعنى الأقل والأتفه ، ولذلك اسمها « الدنيا » ، ومادامت « دنيا » إذن فهناك « عليا » .

إن تعب الناس يأتى من أنها تعمل للغايات الدنيا ؛ لذلك نقول لكل إنسان : انظر الغاية العليا التى سيكون الكل شركاء فيها ، والكل لابد أن يصل لها . فإذا ما عرفنا الغاية العليا نجونا من إرهاق قصر النظر والغرق فى الغايات المحدودة ، مثلاً : أنت تبعث ابنك ليتعلم من سن الحضانة ثم إلى الروضة ثم الابتدائى ثم الإعدادى ثم الثانوى ثم التعليم العالى ثم يتخصص فى مجال معين فى التعليم العالى ، وتصل سنوات عمره إلى العشرين سنة ليتخرج ويتوظف ويقدر أن يعيش بكده وعرقه،والأب يعمل لهذه الغاية ، وقد لا يصل الابن إلى الوظيفة ، وقد يُتعب الابن والده ولا يكمل تعليمه وبذلك تفلت منه الغاية . لكن نحن نريد الغاية التى لا تفلت ، فأنت الآن تعيش فى أسباب خلقها لك الحق ، فاجعل غايتك أن تعيش مع الحق .

إنك فى الدنيا تعيش مع الأسباب التى خلقها لك الحق ، لكنك فى الآخرة ستكون مع الحق نفسه . أنت فى الدنيا تعيش بالأسباب ، ولكنك تعيش فى الآخرة بالمسبب ، ومهما ارتقت أسبابك . فأنت لن تستطيع أن تصل إلى مستوى رفاهة الآخرة . صحيح أنه إذا ارتقت حياتك فى الدنيا فقد تضغط على زر فى الحجرة ويأتيك فنجان قهوة ، أو تضغط على زر فيأتيك الأكل ، ولكن قل لى مهما ارتقت الحياة أيوجد ارتقاء بحيث إذا خطر الشىء على بالك يأتيك ؟ لا يمكن ، وهذا ما سيكون لنا فى الآخرة ، إذن فهذه هى الغاية الحسنة ، ونحن نعيش فى الدنيا مع أسباب الله الممدودة لنا ، أما فى الآخرة فسوف نعيش مع الله ولذلك أوضح سبحانه : سأعطى المؤمن والكافر الأسباب فى الدنيا ، فالكافر عندما يزرع يجد نتاجاً ، وعندما يبحث فى الكون وينظر أسراره فالأسرار تتكشف له ، لأن الأسباب خلقها الله لمن يأخذ بها سواء أكان مؤمناً أم كافراً . لكن المسبب لا يذهب له إلا من آمن به ، أما الكافر فقد آمن بالأسباب فأخذ الأسباب ، ولم يمنعها الله منه:

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ ﴾

(سورة الشورى)

إذن فهل غايتك أن تبقى مع الأسباب أو تذهب إلى المسبب ؟ انظر إلى غايات

الدنيا القريبة ، ستجد أنها قد تنتهى قبل أن تصل إليها ويكون تعبك قد ذهب هباء . ولذلك أخفى الله الموت وأسبابه وزمنه كى يختبر الإنسان ، فهناك من يحقق كل ما رغب فيه وفى آخر الأمر تنتهى المسألة بالموت ، وهو قد أخذ الهباء لأنه لم يؤمن بالمسبب ، هب أنه أخذ الدنيا كلها عنده ، نقول له : سيأتيك الموت ، يعنى إما أن تفارق أنت النعمة وإما أن تفارقك النعمة ، ولكن فى الحياة الآخرة أنت لا تفارق النعمة ولا النعمة تفارقك.فهذه ـ إذن ـ هى الغاية الحقة ، غاية العقلاء . ومتعتك فى دنياك كما قلنا على قدر أسبابك.أما متعتك فى الآخرة فهى على قدر المسبب ، وسبحانه لا يقادر قدره ولا أحد يماثله فى فعله . والعاقل هو من ينظر إلى الغاية البعيدة .

إذن فالسبيل لا يمكن أن يكون طريقاً إلا إذا علمت الغاية ، والذى يجعل الناس تتعب فى الدنيا ، أنهم لا يعرفون إلا الغايات القريبة ، ولذلك سماها « الدنيا » ولا يوجد اسم أدنى من ذلك لها ، وكان يجب أن يوحى هذا الاسم بأنها فانية وهناك باقية . إذن فقبلما ترسم السبيل لابد أن تحدد الغاية . وبعدما تحدد الغاية تختار السبيل الذى يوصلك للغاية ، وهكذا نعرف أن هناك فرقا بين واقع ودافع ، الشىء الدافع هو أن تنصب الغاية أولاً وتحددها ، فالتلميذ يجتهد كى ينجح ، وينجح لكى يأخذ حظه فى الحياة ، وهذه الغاية لابد أن توجد فى ذهنه قبلما يتعلم ، وعندما يتصور النجاح ولذته فى ذهنه فهو يبدأ فى المذاكرة ، وعندما يذاكر يصل إلى الغاية وهى النجاح ، فالغاية نوعان : غاية دافعة ، وغاية واقعة ، فالغاية الدافعة تسبق الطريق ، والغاية الواقعة تتأخر عن الطريق ، ومن الذى يحدد الغاية ؟ .

إن الذى يحدد غاية كل شىء هو من صنعه ، وغايتك أنت من الذى يحددها ؟ أنت تحدد الغايات الدنيا ، أما الغايات العليا فعليك أن تتركها للأعلى ليحددها وهو الله . ومادام هو سبحانه الذى يحددها لأنك صنعته وخَلقه ؛ لذلك تسأله : أنت سبحانك الذى تعلم موقعها فهيىء لنا الطريق الذى يوصلنا لها . لابد إذن من الإيمان إذا ما كانت الغاية هى أن تعيش مع الحق ، والسبيل هو المنهج :

﴿ وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾

(من الآية ١٥٣ سورة الأنعام)

أى أن سبلكم أنتم لا توصلكم إلىَّ ؛ لأنكم حددتموها بغاياتكم ، أمّا أنا فقد

حددت السبيل بغايتى فمن أراد أن يصل إلىّ فلينظر إلى طريقى . وكلمة « السبيل » ، و« الطريق » كلها أمور حسية ، والحق يستعملها لنا ليدلنا على المعانى العقدية والمعانى المعنوية يوضحها ـ سبحانه ـ بأمور حسية أمامنا ، وعندما توجد فى مفترق طرق وتريد أن تصل إلى المنطقة الفلانية . فانحرافك بمقدار ملليمتر واحد فى بداية الطريق ، يبعدك عن الهدف ، وكلما امتد بك السير اتسع المشوار وتبعد المسافة ، فأنت تتوه ، ونمثل لهذا بشىء بسيط جداً : كلنا نركب القطارات ، والقطارات تسير على قضبان مستقيمة . فإذا أردنا أن نحول القطار فنحن لا نرفعه ونضعه على قضيب آخر ، بل نأتى بتحويلة لا تتجاوز اثنين من الملليمتر ونقربها إلى حد الالتصاق فى القضيب الأصلى ، وهذا ما يفعله « المحولجى » ، فينحرف القطار لينتظم الخط وليصل إلى المحطة المطلوبة .

ولفتنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ذلك بما رواه سيدنا حذيفة ـ رضى الله عنه ـ حينما قال : حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثين قد رأيت أحدهما ، وأنا أنتظر الآخر ، حدثنا : أن الأمانة نزلت فى جذر قلوب الرجال ـ أى أن الإيمان فطرى ـ ثم نزل القرآن ، فعلموا من القرآن وعلموا من السنة .

ثم حدثنا رسول الله عن رفع الأمانة قال :

«ينام الرجل النومة فتغيض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل الوكت ـ وهو اللسعة التى توجد أثراً على الجلد ـ ثم ينام الرجل النومة فتغيض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل أثر المجْل» (والمجل هو أثر الجمرة التى تظل مدة طويلة على جلد الإنسان فتسبب ورماً فيه مياه ـ كجمر دحرجته على رجلك فنفط ـ أى انتفخ ـ فتراه منتبراً وليس به شىء) فيصبح الناس يتبايعون فلا يكاد يوجد أحد منهم يؤدى الأمانة حتى يقال: « إن فى بنى فلان رجلاً أميناً »[1] .

ويستمر سيدنا حذيفة قائلاً :

ولقد مر علىّ زمان وما كنت أبالى أيكم بايعت لئن كان مسلماً ليردنه علىّ دينه ،

(١) رواه البخارى ومسلم والترمذى وابن ماجه وأحمد .

ولئن كان نصرانياً ليردنه عليّ ساعيه ـ أى المحتسب ـ وأما الآن فما كنت أبايع منكم إلا فلاناً وفلاناً .

إن الإيمان فطرى . إنّ قصارى ما يعطيك هذا الإيمان الفطرى أن وراء هذا الكون الدقيق قوة عظمى ؛ فالكون المنظم ، الرتيب ، الذى لا يدخل تحت طاقتك ولا تحت قدرتك ، هذا الكون يسير على أحسن نظام . والقوة العظمى القادرة التى وراء ذلك الكون تتصف بالقدرة ، وبالعلم ، وبالحكمة ، وبكل صفات الكمال .

لكن أيعطيك فكرك وعقلك اسم هذه القوة ؟ لا يمكن أن يعطى العقل اسم هذه القوة . أيعطيك فكرك وعقلك مرادات هذه القوة ؟ إنك لا تستطيع أن تعرف مرادات هذه القوة إلا برسول ترسله ليبلغ عنها . والرسول عندما يأتى يقول : إن القوة التى تبحثون عنها ، والتى آمنتم بها إيماناً مجملاً اسمها « الله » . فلا بد أن نصدق الرسول . فالعقل لا يقول لنا اسم القوة الخالقة . ولكن الذى يقول لنا اسم هذه القوة هو البلاغ ، ويعطينا الحق هذا البلاغ من خلال الرسول بكل مراداته من وجودنا .

وهذا هو أقصر طريق للوصول إلى الحق بعيداً عن تعقيدات الفلسفة أو تعقيدات المنطق ، وسفسطة الجدل ، هذا الطريق الذى يثبت أن من يعبد أى قوة غير الله لا حق له فى مثل هذه العبادة . فالذى يعبد الشمس مثلاً هل يستطيع أن يقول لنا ما هو منهج الشمس الذى تطلبه من الإنسان ؟ وماذا قالت لمن يعبدها جزاءً للفعل الحسن أو عقاباً على الفعل السيىء ؟ ماذا تستطيع هذه الشمس أن تفعل لمن لا يعبدها ؟ . إنها لا تملك ثواباً ولا عقاباً ، ولا منهج لها ، وإله بلا منهج لا يصلح أن يكون إلهاً . فالإله لا بد له من منهج يدل الناس على صواب الفعل وينهى عن سوء الفعل ويملك سلطان الثواب والعقاب . والشمس لا تملك منهجاً تعطيه،وكذلك الحجر أو القمر .

إذن فهذه الأشياء مخلوقة بدورها من قبل خالق ولا تصلح أن تكون آلهة . ووجود الرسل المبلغين عن الله دليل على صدق الدعوة. فالحق سبحانه وتعالى يعطينا إيماناً بوجوده من خلال المنهج . . ونحن قبل البلاغ نعرف أن هناك قوة خالقة لا نعرف

اسمها ولا مرادها ؛ ولذلك فعندما يأتى الرسول بالبلاغ فهذه رحمة من الله بالخلق . أما من يحاول أن يخطط بعقله لحياته بدون الرسول فنقول له : أنت تصيب نفسك وروحك بالتعب ولن تصل إلى شيء . ونضرب هذا المثل دائماً ـ ولله المثل الأعلى ـ هب أننا نجلس فى غرفة والباب مغلق ثم طرق الباب طارق . هنا نتفق نحن الجلوس فى الغرفة فى أن وراء الباب طارقاً .

ولكن إذا أردنا تحديد هذا الطارق وتعيينه فسنختلف . فيقول قائل : إنه رجل . . ويقول آخر : لا. إنه امرأة . ويقول ثالث : لا. إنه طفل . ويقول رابع : هذا بشير . ويقول خامس : هذا نذير . ويقول سادس : إنه القادم لنا بالقهوة . ويقول سابع : إنه رجل مكلف بالقبض علينا .

هكذا نتفق على أن طارقاً بالباب ونختلف فى تحديد « مَن الطارق » . وهكذا الكون ، الكون وراءه قوة هائلة وعندما يحاول الإنسان أن يقول اسم هذه القوة بعقله أو مرادات هذه القوة فهذا يسبب الخلاف . ولكن حينما ترسل القوة عن نفسها رسولاً ليقول : إن القوة الخالقة اسمها الله ومرادات الله كذا ، ففى ذلك حسم للخلاف .

إن الذى أرهق الفلاسفة ووصل ببعضهم إلى دهاليز التيه ، هو أن بعضهم لم يكتف بتعقل القوة التى خلقت الكون . بل إنهم أرادوا أن يتصوروا القوة وما هياتها ومراداتها . ونقول : إن نظرة الفلاسفة إلى الخالق لا تصلح ؛ لأنهم بتلك النظرة يظلون فى التيه ، ولكن البلاغ عن طريق رسول هو الذى يحسم هذه المسألة . والحديث الذى رواه لنا سيدنا حذيفة عن الأمانة يصور لنا مهمة الإيمان وكيف يتعلم المؤمن من القرآن والسنة ، وعندما يهمل هذا العلم ، فما الذى يحدث ؟

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يمثل لنا مراحل فقدان الأمانة . وينبهنا : احذروا من أن تتسلل الانحرافات بنومة قليلة ، ثم إلى أخرى أكبر منها ، ثم إلى ثالثة أكبر وأوسع . وشرحنا ذلك بمثل الانحراف المقصود لقطارات السكك الحديدية .

إن قوله الحق سبحانه : « يشترون الضلالة ويريدون أن تضلوا السبيل » كى لا ينفردوا ـ وحدهم ـ بالضلال ، والحق سبحانه يعطينا مناعة ضد كلامهم ، فهم لهم حظّ من علم الكتاب وهذا قد يجعلنا نحسن الظن بأن لهم صلة بالسماء؛لأنهم أتباع رسل ، فسبحانه يوضح لنا : هؤلاء يريدون أن تضلوا السبيل ويتخذوا من نصيب الكتاب الذى عندهم وسيلة كى يضلوكم .

وفى عصرنا نجد أن أعدى أعداء أى عقيدة ليسوا أعداءها الظاهرين وإنما أعداؤها من أنفسهم . لأن عدوّى الظاهر الكافر يجابهنى وأنا واثق أنه يريد أن يدس لدينى ويدلس ويحرف فيه ، لكن عندما يكون هناك مسلم مثلى يأتى ليكلمنى فربما آخذ كلامه على أنه مسلم ؛ ولذلك فخصوم الإسلام يئسوا أن يواجهوا الإسلام مواجهة صريحة ؛ ولذلك نجد الغرب قد توقف الآن عن مسألة الاستشراق ، وما بقى من الاستشراق فهذا هو القديم . وكان المستشرق من هؤلاء يؤلف كتاباً ؛ ساعة يقرأه المسلم قد يقول : إنه رجل يعمل على خدمة العلم وعلى خدمة الثقافة ، وخدمة سنة رسول الله . وقد يكتفى هذا المؤلف بأن يدس فى الكتاب الواحد فكرة واحدة بعد أن يجعل القارىء يثق فيه .

وعندما علموا أننا فطنا لهذا دخلوا علينا بالمستغربين . وهم أناس منا ذهبوا إلى الغرب فأخذوا الداءات من هناك وجاءوا فبثوها فى مناهج تعليمنا ، وفى برامجنا ، وفى وسائل الإعلام ، وفى الصحافة ، والواحد من هؤلاء المستغربين يفعل ذلك وهو مسلم ، فيكون محل ثقة ، ووجد الغرب أن أيسر طريق لهم الآن أن يدخلوا إلينا عن طريق بعض المسلمين الذين أوتوا نصيباً من الكتاب ؛ لأن الإنسان سيكون مطمئناً إلى أن هؤلاء مسلمون ؛ فالحق سبحانه وتعالى يريد أن يبين لنا : أن خصومك الظاهرين أهون عليك من خصومك المنسوبين إلى دينك ؛ لأن هؤلاء يدخلون عليك بالثقة الأولى ، ثقة انتسابهم للإسلام ؛ ولذلك يوضح لنا ربنا هذا الأمر لأنه قد يتعب ويصيب المؤمنين بالعنت لذلك يقول : « أوتوا نصيباً من الكتاب » وهم يعيشون على هذه .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾ ﴾

فقد يكون عندكم علم بالأعداء فيقال : أنتم عالمون بأعدائكم . لكن الله أعلم بالأعداء جميعا؛ لأنه قد تكون لك عداوة بينك وبين نفسك ، أو عداوة من زوجتك ، أو عداوة من أولادك أو كلٍ هذه العدوات جميعها أو بعضها . وهؤلاء فى ظاهر الأمر لا يمكن للإنسان أن يتبين عداوتهم جميعا ، لكن الله أعلم بهم وبما يخفون ؛ لذلك يقول : « والله أعلم بأعدائكم » .

وجاء بها بعد قوله : « ويريدون أن تضلوا السبيل » أى مخافة أن نقول : إن هؤلاء أهل كتاب أو مسلمون مثلنا وكذا وكذا . ومادام الله هو الأعلم بالأعداء . فهو لن يخدعنا ولن يغشنا ، فيجب أن ننتبه إلى ما يقوله الحق من أنهم أعداؤنا ، ويقول بعدها : «وكفى بالله وليًّا» وحين يقول هذا، فالقول يعنى أنك لا تريد وليّاً بعد ذلك، كما يقولون : كفانى فلانٌ ؛ أى أنك قد تحتاج إلى هذا وهذا ثم تقول : لكنَّ فلاناً عرفته فكفانى عن كل ذلك ، أى لا يحوجنى إلى أحد سواه ؛ لأننى أجد عنده الكفاية التى تكفينى فى كل حركة حياتى .

«وكفى بالله وليّاً » . . نعم كفى به وليّاً لأن غيره من البشر إنما يملكون الأسباب ، والحق سبحانه وتعالى هو الذى خلق الأسباب ، فيملك ما هو فوق الأسباب . ولذلك يقول مطمئناً لنا :

﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾

(سورة الطلاق)

و« الولى » دائماً هو من يليك مباشرة أى أنه قريب منك . « وكفى بالله نصيرا » إذن فهناك قريب ، وهناك أيضا نصير ، فقد يكون هناك من هو قريب منك ولا ينصرك، لكن الله ولىّ ونصير ، فمادامت المسألة مسألة معركة « والله أعلم بأعدائكم وكفى بالله ولياً وكفى بالله نصيراً » ، كأن الحق ينبهنا : إياكم أن تقولوا إننا نلتمس

النصرة عند أحد ، اصنعوا ما فى استطاعتكم أن تصنعوه ثم اتركوا ما فوق الاستطاعة إلى الله . ولذلك فالحق سبحانه وتعالى أوضح لنا : إياكم أن تتخذوا من أعدائكم أولياء ، وإياكم أن تقولوا ؛ ماذا نفعل ونحن ضعفاء ، ونريد أن نكون فى حمى أحد ، وماذا نفعل فى أعدائنا ؟ لا تقولوا ذلك؛لأن الله أعلمنا : أنا أنصركم بالرعب بأن أُلْقِىَ فى قلوب أعدائكم الخوف فينهزموا من غير سبب وفيهم قوة وغلبة ، فإن لم يكن عندكم أسلحة فسأنصركم بالرعب . ومادام سينصرنا بالرعب فهذه كافية ؛ لأنه ساعة ينصرنى بالرعب ؛ يلقى عدوى سلاحه وأنا آخذه ؛ ولذلك قال : اعملوا ما فى استطاعتكم ، ولم يقل : أعدوا لخصومكم ما تحققون به النصر ، فهو سبحانه قادر على أن ينصرنا بالرعب :

﴿ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ ﴾

(من الآية ١٥١ سورة آل عمران)

ومادام ألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب فوسائلهم كلها تكون للمؤمنين وتنتهى المسألة .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾ ﴾

تكلّم الحق فى سورة النساء عن الخلق الأول وأوضح : أننى خلقتكم من نفس واحدة وهى « آدم » وبعد ذلك خلقت منها زوجها ، ثم بثثت منهما رجالا كثيراً ونساء ، والبث الكثير للرجال والنساء لتستديم الخلافة للإنسان ، لكن كيف يأتى ذلك ؟ أوضح سبحانه : أريد مجتمعاً قوياً ، وإياكم أن يضيع فيه اليتيم . وبعد ذلك مادمت أريد استدامة هذا الاستخلاف فليأخذ الأيتام نصيباً ، وتكلم ـ سبحانه ـ عن التركة ، ثم تكلم عن السفهاء غير المؤتمنين على مالهم ، وبعد ذلك تكلم عن كيفية الزواج .

إذن فكل هذه العملية ليبنى لنا نظام حياة متكاملا ؛ لأن الخلافة فى الأرض تقتضى دوام هذه الخلافة بالتكاثر ، والتكاثر لا يؤدى مراده إلا إذا كان تكاثر أقوياء ، أما تكاثر الضعاف فهو لا ينفع . فإن كان فيكم يتيم لا بد أن تلاحظوه ، وإن كان فيكم سفيه لا يستطيع أن يدبر ماله فدبروا أنتم له ماله ، واجتهدوا لتتركوا من حركة حياتكم للناس الذين سيأتون بعدكم إلى أن تقوى نفوسهم على الحركة . وأوضح سبحانه منهاج الميراث ، وأمر سبحانه : أن تزاوجوا ، لكن للتزاوج شروطه وقد أوضحها ، ثم أعطانا المنهج العام : « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا » ، ووضح هذه الأحكام كلها .

وبعد ذلك ما الحكمة فى أنه ـ سبحانه ـ يرجع بنا مرة ثانية لليهود ؟ الحق سبحانه وتعالى يوفى الأحكام ، وإلقاء الأحكام شىء وحمل النفس على مراد الله فى الأحكام شىء آخر ، فيوضح لنا : أن هناك ناساً ستعلم الحكم لكنها لا تقدر أن تحمل نفسها عليه ، فإياكم أن تكونوا كذلك . واعلموا أن هناك أناساً عندهم نصيب من الكتاب أيضاً ، ويعلمون مثلكم تماماً ، إنما اشتروا الضلالة ، إذن فهو شرَح لنا ؛ إنّه الواقع الملموس ولا يأتينا ـ سبحانه ـ بكلام خبرى أو إنشائى ، قد تقول : يحدث أو لا يحدث ، إنّه يأتيك بأحداث من واقع الكون ، وينبهنا : إياكم أن تكونوا مثلهم ، فقال : « من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه » والتحريف : أنك تأتى باللفظ الذى يحتمل معنيين : معنى خير ، ومعنى شرّ ، ولكنك تريد منه الشرّ ، مثل الذى يقول : « السام عليكم ـ والعياذ بالله ـ» هى فى ظاهرها أنه يقول : السلام عليكم ، لكنه يقول : السام . يعنى « الموت » ، إذن ففى اللفظ ما يُلحظ مَلحظ الخير ، ولكن العدو يميله إلى الشرّ .

ومثل هذا ما قالوه للنبى : « قالوا راعنا » وهى من المراعاة ، لكنهم كانوا يأخذونها من الرعونة ، فيأتى الأمر : اترك الكلمة التى تحتمل المعنيين . واقطع الطريق على الكلمة التى تحتمل التوجهين ؛ لأن المتكلم ، قد يريد بها خيراً وقد يريد بها شرّاً ، فمعنى تحريف الكلام أى أن الكلام يحتمل كذا ويحتمل كذا . والمثال على ذلك : الرجل الذى ذهب لخياط ليخيط له قَباء[1] ـ وكان الخياط كريم العين ـ أى له عين واحدة ـ فلم يُعجب الرجُل بِخياطة القَباء فقال : والله مادمتُ أفتضح بهذا الثوب الذى خاطه لى أمام الناس فلا بد أن أقول فيه شعراً يفضحه فى الناس ، فقال :

خـــاط لى عمـــرو قَـــباء ليـــت عـــينيه ســـــواء

فقوله : ليت عينيه سواء يظهر ماذا ؟ . هل يا ترى يتمنى له أن تكون عينه المريضة مثل السليمة ؟ أو يتمنى أن تكون العين السليمة مثل المريضة ؟ إذن فالكلام يحتمل الخير والشر ، ومثلما حكوا لنا أن واحداً من الولاة طلب من الخطيب أن يسب سيدنا عليًّا ـ كرم الله وجهه وآله ـ وأن يلعنهم على المنبر .

فقال الخطيب : اعفنى .

فقال الوالى : لا ، عزمت عليك إلاَّ فعلت .

فقال له الخطيب : إن كنت عزمت على إلاّ فعلتُ ، فسأصعد المنبر وأقول : طلب منى فلان أن أسب عليًّا فقولوا معى يلعنه الله .

فقال له : لا تقل شيئاً . فقد فهم الوالى مقصد الخطيب وقدرته على استعمال الكلام على معنيين .

والحق يقول : « من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه » . وأريد أن تنتبهوا إلى أن أسلوب القرآن يأتى فى بعض المواقع بألفاظ واحدة ، ولكنه يعدل عن عبارة

(١) القباء : ثوب يلبس فوق الثياب ويتمنطق عليه .. أى يشد عليه حزام ، ولعله ما يسمى بالقفطان .

إلى عبارة ، فيخيل لأصحاب النظرة السطحية أن الأمر تكرار ، ولكنه ليس كذلك ، مثلما يقول مرة : « يشترون الضلالة بالهدى » ومرة لا يأتى بالهدى كثمن للضلالة ويقول : « يشترون الضلالة » ، ولم يلتفتوا إلى أن هدى الفطرة مطموس عندهم هنا ، ومثال آخر هو قول الحق :

﴿ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ﴾

(من الآية ٤١ سورة المائدة)

وفى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها يقول سبحانه : « يحرفون الكلم عن مواضعه » ، فكأن المسألة لها أصل عندهم ، فالكلام المنزل من الله وضع ـ أولا ـ وضعه الحقيقى ثم أزالوه وبدَّلوه ووضعوا مكانه كلاما غيره مثل تحريفهم الرجم بوضعهم الحد مكانه .

أما قوله : « من بعد مواضعه » فتفيد أنهم رفعوا الكلام المقدس من موضعه الحق ووضعوه موضع الباطل ، بالتأويل والتحريف حسب أهوائهم بما اقتضته شهواتهم ، فكأنه كانت له مواضع . وهو جدير بها ، فحين حرفوه تركوه كالغريب المنقطع الذى لا موضع له ، فمرة يبدلون كلام الله بكلام من عندهم ، ومرة أخرى يحرفون كلام الله بتأويله حسب أهوائهم .

« ويقولون سمعنا وعصينا » . فهم يقولون قولاً مسموعاً « سمعنا » ثم يقولون فى أنفسهم « إنَّا عصينا » . فقولهم: « سمعنا وعصينا » ففى نيتهم « عصينا » ، إذن فقولهم « سمعنا » يعنى سماع أذن فقط . إنما « عصينا » فهى تعنى : عصيان التكليف ، وهم قالوا بالفعل سمعنا جهرا وقالوا عصينا سِرًّا أو هم قالوا : سمعنا ، وهم يضمرون المعصية ، « واسمع غير مسمع » ورسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذى يُسْمِعُكم ، بدليل أنكم قلتم : سمعنا ، فماذا تريدون بقولكم : اسمع ؟ هل تطلبون أن يسمع منكم لأنه يقول كلاماً لا يعجبكم وستردون عليه ، أو أنتم تريدون استخدام كلمة تحتمل وجوهاً أخرى فتقلبونها إلى معانٍ لا تليق ، مثل قولكم: « غير مُسْمع » ما يسرّك ، أو « غير مسمع » أى لا سمعت ؛ لأنهم يتمنون له ـ معاذ الله ـ الصمم ، وقد تكون سباباً من قولهم : أسمع فلان فلانا إذا سبّه وشتمه ، فالكلام محتمل .

« واسمع غير مسمع وراعنا ليّاً بألسنتهم » لم يقولوا: « راعنا » من الرعاية بل من الرعونة ، فقال : لا . اتركوا هذا اللفظ؛لأنهم سيأخذون منه كلمة يريدون منها الإساءة إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ و« اللى » : هو فتل الشيء ، والفتل : توجيه شقى الحبل الذى تفتله عن الاستقامة ، وهذا الفتل يعطيه القوة ، وهم يعملون هذه العمليات لماذا ؟ لأنهم يفهمون أنها تعطى قوة لهم .

« ليّاً بألسنتهم وطعناً فى الدين » ، ومادامو يلوون الكلام عن الاستقامة فهم يريدون شرّاً ؛ لأن الدين جاء استقامة ، فساعة يلويه أحد فماذا يريد ؟ . . إنه يريد « طعناً فى الدين » ، « ولو أنهم قالوا سمعنا » ، وبدلاً من إضمار المعصية يقولون : « وأطعنا واسمع وانظرنا » بدلاً من « راعنا » ، فـ« انظرنا » لا تحتمل معنى سيئاً .

إذن فمعنى ذلك أن الله سبحانه وتعالى يريد أن يخبر أحباب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن خصومه يأتون بالألفاظ محتملة لذم رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لذلك يوضح : احذروا أن تقولوا الألفاظ التى يقولونها ؛ لأنهم يريدون فيها جانب الشر وعليكم أن تبتعدوا عن الألفاظ التى يمكن أن تحول إلى شرّ . فلو قالوا سمعنا وأطعنا « واسمع وانظرنا لكان خيراً لهم وأقوم ولكن » ، وساعة تسمع كلمة « لكن » فلتعلم أن الأمر جاء على خلاف ما يريده المشرع ؛ لأنه يقول : « ولو أنهم قالوا » ، لكنهم لم يقولوا ، إذن فالأمر جاء على خلاف مراد المشرع .

« ولكن لعنهم الله بكفرهم » و« اللعن » هو : الطرد والإبعاد ، فهل تجنّى الله عليهم فى لعنهم وطردهم ؟ لا . هو لم يلعنهم إلا بسبب كفرهم ، إذن فلا يقولن أحد : لماذا لعنهم الله وطردهم وما ذنبهم ؟ نقول : لا . هو سبحانه لعنهم بسبب كفرهم ، إذن فالذى سبق هو كفرهم ، وجاء اللعن والطرد نتيجة للكفر .

« ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا » . وساعة تسمع نفى حدث « لا يؤمنون » ثم يأتى استثناء « إلا » ، فهو يثبت بعض الحدث ، تقول مثلاً : لا يأكل إلا قليلاً ، كلمة « لا يأكل » نفت الأكل ، « وإلا قليلاً » أثبتت بعض الأكل ، فهو سبحانه يقول : « فلا يؤمنون إلا قليلاً » . والإيمان حدث يقتضى محدثاً

هو : من آمن ، إذن ، فعندى حدث وفاعل الحدث ، فساعة تسمع استثناء تقول : هذا الاستثناء صالح أن يكون للحدث ، وصالح أن يكون لفاعل الحدث ، كلمة « فلا يؤمنون إلا قليلاً » تعنى : فلا يؤمنون إلا إيماناً قليلاً ؛ لأنهم يؤمنون قليلاً بالصلاة ، وبأنهم لا يعملون يوم السبت ، أما بقية مطلوبات الإيمان فليست فى بالهم ولا يؤدونها ، أو فلا يؤمنون إلا قليلاً فقد يكون بعض منهم هو الذى يؤمن ، وهذا صحيح عندما نقوله ؛ لأن بعضاً منهم آمن بالفعل ، ونجد أيضاً أنهم يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض ، فيكون إيمانهم قليلاً بالحدث نفسه .

وهناك أناس منهم بعدما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتُلى القرآن ورأوا صورته فوجدوه مثلما وُصف عندهم تماماً فآمنوا ، ولكن هل آمن كل يهود ، أو آمن قليل منهم ؟ آمن قليل منهم مثل : عبدا لله بن سَلاَم ، وكعب الأحبار ، إنما عبدالله بن صُورْيَا ، وكعب بن أسد ، وكعب بن الأشرف وغيرهم من اليهود فلم يؤمنوا .

إذن فإن أردت أن بعضاً « قليلاً منهم » هو الذى آمن فهذا صحيح ، ويصح أيضاً أن الكافرين منهم كانوا يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض ، وفى ذلك تعبير من الحق سبحانه وتعالى نسميه « صيانة الاحتمال » ؛ لأن القرآن ساعة ينزل بمثل هذا القول فمن الجائز ـ وهذا ما حدث ـ أن هناك أناساً من اليهود يفكرون فى أنهم يعلنون الإيمان برسول الله ، فلو قال:« فلا يؤمنون » فقط لكان من الصعب عليهم أن يعلنوا الإيمان ـ لكن عندما يقول:« إلا قليلا » فالذى عنده فكرة عن الإيمان يعرف أن الذى يخبر هذا الإخبار عالم بدخائل النفوس ، فصان بالاحتمال إعلان هؤلاء القلة للإيمان .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا

مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾

نعلم أن كل التشريعات التى جاءت من السماء لا يوجد فيها تضارب ؛ فالمشرع واحد . ولن يشرع اليوم شريعة ثم يأتى رسول آخر يشرع شريعة أخرى جديدة . فأصول الأديان كلها التى جاء بها ركب الرسالات واحدة ، ولا تختلف إلا فى بعض الأحكام التى تتطلبها ظروف العصور ، وفى التشريع الواحد تتطور الأحكام وخصوصاً ما يتعلق بالعادات . وما كان الله سبحانه وتعالى الرحيم بعباده يأتى لمسألة من المسائل تعرض الناس فيها لعادة فتمكنت منهم تلك العادة ، وأصبحت تقودهم أن يفعلوها ثم يأتى لينهيها بكلمة . لم تأت الكلمة الفصل إلا فى العقيدة . لكن المسائل التى تحتاج إلى التعود فالحق يتلطف فى أن يخرجها خروجاً ميسوراً ، بمعنى أنه يجعلها مرحليات كى لا توجد فجوة الانتقال .

ويمكننا أن نشبه فجوة الانتقال : مثلما يكون هناك من يدخن السجائر ، ويصل معدل تدخينه فى اليوم مائة سيجارة ، فإذا قلنا له : اجعله خمسين سيجارة ، ثم ثلاثين ، وهكذا ، وبذلك نكون قد وزعنا عادته على بعض الزمن ، وبدلاً من أن تكون المسافة بين السيجارة والسيجارة عشر دقائق أو نصف ساعة فلنجعلها ساعة فنكون قد كسرنا جزءاً من الاعتياد ، وكذلك مرحليات الأمور الاجتماعية التى تنشأ من رتابة التعود .

إن الحق سبحانه وتعالى يقول : « يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نَزَّلنا مصدقاً لما معكم » . فالحق يوضح : لم نأت بحاجة جديدة ، بل كلها مما عندكم . قد يقول قائل : مادامت مما عندهم فما الداعى لها ؟ . نقول : لأن هناك جديداً فى أقضية العصر التى لم تكن موجودة عندهم ، والذى زاد هو معالجة تلك الأقضية الجديدة ،

ولكن أصل الإيمان موجود بالقرآن المعجز الذى ينزل من السماء ؛ بالمعجزة ، بالتوحيد ، والقضايا العقدية ، كل هذه لا يوجد فيها خلاف .

« يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا » ، وكلمة « أوتوا الكتاب » إلزام لهم بالحجة ، وتعنى : نحن لا نكلمكم بكلام لا تعرفونه ؛ لأنه يقول : « مصدقاً لما معكم » إنّهم يعلمون ما معهم جيداً ، فكان من الواجب أن يقارنوا ويوازنوا ما جاء لهم من جديد على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم بما عندهم ، فإن وجدوه مصدقاً لما عندهم فقد انتهت المسألة .

ثم انظر إلى التهديد « من قبل أن نطمس وجوهاً فنردها على أدبارها أو نلعنهم كما لعنّا أصحاب السبت ، وكان أمر الله مفعولا » ، سبحانه يناديهم : بادروا ، كما نقول مثلاً : « الحق نفسك وآمن » ويقول الحق : « من قبل أن نطمس وجوهاً فنردها على أدبارها » . والطمس هو : المحو . فالشىء الذى طمس هو الذى مُحى بعدما كان شيئاً مميزاً ، وكلمة « وجوه » وردت فى القرآن بمعانٍ متعددة ، فتطلق مرة فى البدن على ما يواجه وهو « الوجه » كما فى قوله :

﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ ﴾

(من الآية ١٠٦ سورة آل عمران)

ونطلق الكلمة مرة على القصد والنية والوجهة ، قال تعالى :

﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ ﴾

(من الآية ١١٢ سورة البقرة)

و« أسلم وجهه » تعنى قصده ووجهته ونيته .

إذن فمرة يطلق الوجه على الوجه الذى به المواجهة ، ومرة يطلق على القصد ، وما العلاقة بين القصد ، والنية ، والوجه ؟ . لأن الإنسان إذا قصد شيئاً اتجه إليه بوجهه ، وسار له . إذن فالوجه يطلق على هذه الجارحة « الوجه » ، ويطلق على القصد والنية . ومادام يطلق بإطلاقين فيطلق على الوجه المعروف فينا ، ويطلق على القصد والنية التى توجهنا فالاثنان يصحان .

وقوله:« نطمس وجوهاً » لأنه سبحانه أوضح : أنا مكرمكم وجعلت لكم سمات تميزكم ، بشكلها : حواجب ، وعينين ، وأنفا جميلاً ، وفماً ، بحيث إنك لو أردت أن تخلق هذه الخلقة ، لما استطعت ، وسبحانه يعلن : أنا أقدر أن أطمس هذه الوجوه التى تميزكم ، بحيث أردها على الأدبار ، فيكون الوجه مثل القفا ، وتصبح كقطعة اللحم ، هذا إن أردنا بقوله:« وجوهاً » ، الوجه الذى فى البدن .

وإن أردنا بالوجه « القصد » نقول : الذين يشترون الضلالة ، والذين يريدون أن تضلوا السبيل ، والذين يحرفون الكلام عن مواضعه ، والذين يقولون : « راعنا » ، والذين يقولون : « اسمع غير مسمع » . أليس لهم وجهة ؟ وما وجهتهم فى هذا الموقف وما قصدهم ؟

إن قصدهم هو صرف أنفسهم وصرف الناس عن اتباع محمد ، فكأنه يقول لهم : بادروا وآمنوا قبل أن نطمس ونمحو قصدكم فلا يصل إلى منتهاه مِنْ صدكم عن الإيمان برسول الله ، الحقوا أنفسكم قبل أن يحدث ذلك ونلعنكم ونطردكم من رحمتنا ، ولذلك نجد سيدنا عبدالله بن سلام عندما سمع الآية ، ذهب إلى رسول الله ويده على وجهه وقال : والله لقد خفت قبل أن أسلم أن يُطْمس وجهى .

وهذا دليل على أنه آمن بأن الذى قال هذا الكلام قادر على الإنفاذ . وفى عهد سيدنا عمر ـ رضى الله عنه ـ نجد كعب الأحبار يذهب له ، ولم تكن الآية قد بلغته ، فلما بلغته ذهب إلى سيدنا عمر وهو واضع يده على وجهه خائفا أن يُطمس وجهه قبل أن يعلن إسلامه . وذلك دليل على يقينه من أن الذى قال هذا الكلام قادر على الإنفاذ .

وقد يقول قائل : ولكنْ منهم أناس لم يؤمنوا ولم يحدث لهم هذا الطمس . نقول : أهو قال سنطمس الوجوه فقط ؟ لا ، بل قال أيضاً : « أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت » ويكفى أن هناك أناساً اعتقدوا أن الطمس قد يجىء وهم من وجوه أهل الكتاب ومن أحبارهم ، فالذين آمنوا برسول الله من هؤلاء كانوا يعلمون كيد اليهود ، فسيدنا عبدالله بن سلام قبل أن يسلم قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم :

أنا أحب أن أُسلم ، ولكنى أخشى إن أسلمت أن يقول اليهود فىَّ شرّاً فقبل أن أُسلم أسألهم عنى ، فسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أحبار اليهود : ماذا تقولون فى عبدالله بن سلام ؟ قالوا : سيدنا وابن سيدنا وعالمنا وحبرنا ومجدوه ، فلما سمع ابن سلام منهم هذا الكلام قال : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله فقالوا : هو ابن كذا وابن كذا وسبوه ، فقال ابن سلام : يا رسول الله ألم أقل لك : إنهم قوم بهت[1] .

فقد روى أن عبدالله بن سلام لما سمع بمقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه فنظر إلى وجهه الكريم فعلم أنه ليس بوجه كذاب ، وتأمله فتحقق أنه النبى المنتظر ، فقال له : إنى سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبى : ما أول شرائط الساعة ؟ وما أول طعام يأكله أهل الجنة ؟ والولد ينزع إلى أبيه أو إلى أمه ؟ فقال عليه السلام : « أما أول أشراط الساعة فنار تحشرهم من المشرق إلى المغرب ، وأما أول طعام أهل الجنة فزيادة كبد الحوت ، وأما الولد فإن سبق ماء الرجل نزعه ، وإن سبق ماء المرأة نزعته » فقال : أشهد أنك رسول الله حقا فقام ثم قال : يا رسول الله ، إن اليهود قوم بهت فإن علموا بإسلامى قبل أن تسألهم عنى بهتونى عندك ، فجاءت اليهود فقال لهم النبى صلى الله عليه وسلم : أىُّ رجل عبدالله فيكم ؟ فقالوا : خيرنا وابن خيرنا وسيدنا وابن سيدنا وأعلمنا وابن أعلمنا ، قال : أرأيتم إن أسلم عبدالله ؟ قالوا أعاذه الله من ذلك ، فخرج إليهم عبدالله فقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، فقالوا:شرنا وابن شرنا وانتقصوه ، قال : هذا ما كنت أخاف يا رسول الله وأحذر. قال سعد بن أبى وقاص ـ رضى الله عنه ـ:ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لأحد يمشى على الأرض : إنه من أهل الجنة إلا لعبدالله بن سلام ، وفيه نزل : « قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بنى إسرائيل على مثله »[2] .

« من قبل أن نطمس وجوهاً فنردها على أدبارها » فإن أردنا طمس الوجه حقيقة ، فهو الأمر الذى خاف منه عبدالله بن سَلام وكعب الأحبار ، هذا ذهب إلى رسول الله

(١) قولهم بهت فلان فلاناً . قذفه بالباطل وافترى عليه الكذب ، واسم الفاعل بهوت والجمع بُهُت مثل : رسول ورسل .

(٢) رواه البخارى ومسلم والنسائى .

وذاك ذهب إلى عمر ، وكل منهما كان يمسك وجهه خشية أن يطمس ، إذن فقوله : « نطمس وجوهاً » أى نجعلها مثل « القفا » مجرد قطعة لحم من غير تمييز ، أو نحول بينهم وبين قصدهم أى لا نمكنهم من الوصول إلى ما يريدون من صدهم الناس عن الإيمان برسول الله . . « من قبل أن نطمس وجوهاً فنردها على أدبارها أو نلعنهم » أو أن نطردهم من رحمتنا ومن ساحة إيماننا ، فيقول الحق :

﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾

(من الآية ٧ سورة البقرة)

ماداموا هم قد كفروا نقول لكل منهم : ألم تكن تريد أن تكفر؟ والله سيزيد لك الختم على قلبك وسنعينك على هذه الحكاية أيضاً قال تعالى :

﴿ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ﴾

(من الآية ١٠ سورةالبقرة)

فإذا كنت أنت تريد هذه فسنعطيك ما فى نفسك « فنردها على أدبارها أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت » وسبحانه يخاطب اليهود ، واليهود يعرفون قصة السبت ويعرفون أنها واقعة حدثت ، وطردهم الله وأهلكهم ولعنهم وأعدّ لهم عذاباً عظيماً . إذن فهو لا يأتيهم بمسألة وعيد بدون رصيد ، لا ، فهذا وعيد يسبقه رصيد . . أنتم ـ يا معشر يهود ـ تؤمنون به وتذكرونه وله تاريخ عندكم ، « كما لعنا أصحاب السبت » ، وقصة أصحاب السبت معروفة وإن كانت ستأتى فى سورة أخرى ، و« السبْت » وهو السكون والراحة ، ومنه السُّبات أى النوم ، فسبت يسبت يعنى سكن واستقر وارتاح .

« أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت » ، واللعن قالوا فيه : إنه الطرد والإهانة ، وقالوا فى معناه : إنه الإهلاك . والذين يحاولون أن يشككوا فى مفهومات آيات القرآن يقولون : أنتم لا تقفون عند معنى واحد للكلمة ، إما أن يراد كذا ، وإما أن يراد كذا . نقول لهم : أنتم ليست لكم ملكة فى اللغة حتى وإن تعلمتم اللغة فتعلمكم للغة تعلم صنعة لا تعلم ملكة . وتعلم الصنعة يعطيك القاعدة ولكن لا يعطيك قدرة وضع اللفظ فى معناه الحقيقى ولا بيان المراد منه ـ واللعن ـ إذا كان

معناه الطرد ـ كان يجب أن تفهموا أن الطرد يقتضى طارداً ، ويقتضى مطروداً ويقتضى مطروداً منه .

ومن الذى يَطْرد ؟ .
ومن الذى يُطرد ؟ .
وعن أى شىء يُطرد ؟ .

حين تأخذون المعنى على هذاالوضع لا تجدون غضاضة فى أن تتعدد معانى الطرد . فهب أنك تجلس للأكل ثم جاءك كلبك الذى تعتز به للحراسة ليحوم حول مائدتك ، ماذا تصنع له ؟ . تطرده عن المائدة ، ذلك طرد . وهب أنّ ابنك مثلاً صنع شيئاً وعندك ضيوف فأردت أن تخرجه من المجلس وقلت له : اذهب عند أمك ، هذا طرد .

وإذا كان ذنب الابن كبيراً ولك سيطرة فأنت قد تخرجه من البيت فلا يجلس فيه ، وهذا طرد . وإذا كان ذنب الابن لا يُحتمل فأنت تخرجه من القرية ، وهذا طرد . فإذا كان هناك إنسان قد أذنب ذنباً كبيراً وكنت صاحب قوة نافذة فأنت تخرجه من الحياة كلها فتكون قد أبعدته من الحياة كلها . إذن فكل ذلك طرد . فإن أردنا الخزى والهوان يتأتى اللعن ، وإن أردنا الإهلاك فقد هلك منهم الكثير فى المعارك ونالوا الخزى والهوان ؛ لأننا سبينا نساءهم وبناتهم ، وقهرناهم ، وأهلكناهم ، وأخرجناهم من ديارهم إلى بلاد الشام وإلى أذرعات ، وأهلكهم الله بالموت . إذن فكل معانى الطرد تتأتى . فقد جاء يمس كل الذى حدث لهم ، ولكنه يختلف باختلاف الطارد ، وباختلاف المطرود ، وباختلاف المطرود منه .

وحين يقول الحق : « كما لعنّا أصحاب السبت » فهذا يدل على أن اللعن له أشياء مختلفة ، أنا سآخذ منها لعن أصحاب السبت ، والسبت يوم من أيام الأسبوع ، أى وحدة زمنية فى الأسبوع ، ونلحظ أن بقية أيام الأسبوع السبعة فيها إشارات إلى العدد، يوم الأحد يعنى واحداً ويوم الاثنين تعنى اثنين.وهكذا فى الثلاثاء والأربعاء والخميس، ففيه خمسة أيام بأعداد موجودة إلا يومين اثنين لم يؤثر فيهما العدد : يوم « الجمعة »،

ويوم « السبت » ، وهذان اللفظان أخذا معانى غير العددية ، ولكنهما يأخذان معنى العددية بالبعدية أو القبلية .

يعنى عندما نقول مثلاً « الخميس » فيكون يوم الجمعة يعنى « ستة » ، إنما لم يقل « ستة » وقال « الجمعة » ويوم « السبت » يكون سبعة ، إذن فأنت تستطيع أن تضع العدد البعدى بعد الأعداد : واحد . اثنين ، ثلاثة ، أربعة ، خمسة ، ستة ، سبعة ، لكننا نجد أن لهما اسمين مختلفين ؛ لأن فى كل واحد منهما حدثاً غلب العددية . فـ« الجمعة » للاجتماع ، فتركنا كلمة « ستة » وأخذنا بدلا منها « الجمعة » ، و« السبت » للسكون ؛ لأن مادتها فى اللغة : سبت يسبت ، أى سكن وهدأ ولم يتحرك ، مثل قول الحق :

﴿ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝٩ ﴾

(سورة النبأ)

أى سكوناً وهدوءاً .

والحق سبحانه وتعالى حين يريد ابتلاء بعض خلقه ليعْلَم منازلهم من الإيمان واليقين والانصياع لأوامر الحق ، يأتى فيحرم حدثاً فى زمن وهو مباح فى غير ذلك الزمن ، فقد يحرم الصيد فى أحد الأيام وكان مسموحاً بأن يصطادوا فى كل يوم . وكانوا يأتون بالسمك كرزق من البحر ، فجاء فى هذا اليوم خصوصاً وقال لهم : لاتصطادوا فى هذا اليوم ، أى أن يسكنوا عن الحركة ، هذا هو « السبت » بمعنى السكون ، و« أصحاب السبت » هم الجماعة الذين اجتمعوا على حادثة تتعلق بالسبت أو تتعلق بالسكون ، أى تتعلق بعدم العمل وبعدم الحركة ، وقضية أصحاب السبت شرحها الحق وتكلم عنها إجمالياً فى سورة البقرة :

﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ ﴾

(من الآية ٦٥ سورة البقرة)

وقوله هنا: « كما لعنَّا أصحاب السبت » ، لكن القصة بالتفصيل ذكرها الحق سبحانه وتعالى وقال مخاطباً رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فالله الآمر ، والرسول هو الذى سأله الله أن يسأل ، والمسئولون هم أصحاب الحكاية وهم اليهود ، وحين

يطلب الحق خبراً مؤكداً من الأخبار ، قد يلقيه خبراً فيصدقه أهل اليقين الذين يثقون فى الله ويصدقونه ، وقد لايتركه خبراً ، بل يأتى به فى صيغة الاستفهام ؛ لأنه واثق أن المستفهم منه لايجد جواباً إلا الحق الذى يريده سبحانه وتعالى ، وعندما يقول ربنا لنبيه :

﴿ وَسْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾
(١٦٣ سورة الأعراف)

ذلك حدث لايستطيعون إنكاره ، وكان من الممكن أن يقص الله الحدث من عنده ، ولكنه يريد أن يوثق الحدث توثيقاً لايحتمل إنكار منكر ولا مكابرة مكابر ، فأوضح : أنا لاأقول عن الحدث ، ولكن يامحمد اسألهم أنت عن هذه الحادثة فسيكون جوابهم جواباً مطابقاً لما حدث ، لأنها مسألة واضحة لا تنكر .

« واسألهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر » وكلمة « قرية » نأخذها من « القِرَى » . والقِرَى هو أن تكرم واحداً مقبلاً عليك كضيف مثلاً . ولكن ليس عندك مايعطيه « قرى كاملاً » أى مايقيم حياته لأيام أو شهور ، بل عندك « قرْيَة واحدة » ، أى أكلة واحدة تكفيه لوجبة واحدة ، فمادام قد مر عليك فأنت تعطيه قرية واحدة ـ وجبة واحدة ـ فإن كانت البلد « أم القرى » : فيكون فيها حاجات كثيرة ؛ أو لأنها أعظم القرى شأناً.والقَرْية التى جاء ذكرها فى سورة الأعراف يتم تعريفها بأنها : « حاضرة البحر » والحاضر هو القريب . فيقال : حضر فلان أى أصبح على مقربة منى ، و « الحاضرة » أيضاً هى : التى إن طلبت فيها شيئاً وجدته ، كما قال شوقى ـ رحمة الله عليه :

ليلى بجانبى كل شىء إذن حضر

فكذلك « الحضر » معناه : أن كل حاجة فيها موجودة ، أما البادية فحاجاتها تكون على قدر أهلها فقط ، ولذلك فـ « حضر » ضد « بادية » وأخذوا منها « الحواضر » مثل العواصم الآن ، إذن فقوله : « حاضرة البحر » تأخذها بمعنى قريبة

من البحر ، أو أنها هى البلد المتحضر على البحر ، أو الجامعة لأنواع الخير على البحر ، وهى التى كانت بين « مدين » و« الطور » واسمها « أيلة » .

وقصتهم : أن الله أراد أن يبتليهم بشىء وهو : تحريم الصيد فى ذلك اليوم ، ومادامت « حاضرة البحر » ، فرزقهم على الصيد ، فقال : لاتصطادوا فى هذا اليوم ، ولكن الله حين يريد أن يحكم الابتلاء ليعلمَ علم إبراز لخلقه مدى تنفيذهم للابتلاء ، وإلا فهو عالم ماذا سيفعلون . فقال : لاتصطادوا فى هذا اليوم . قد يقول قائل : لماذا حرم هذا الحدث فى ذلك الزمن ؟ . نقول له : أنت تريد أن تعلم من الله أن كل تحريم له مضارة ، نقول لك : لا ، فقد يكون تحريم ابتلاء واختبار ، ولذلك قال تعالى :

﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ﴾

(من الآية ١٦٠ سورة النساء)

« الطيبات » هى الحلال ، لكنهم هم فعلوا مايستحقون عليه العقاب ، فقلنا لهم : مادمتم تجاوزتم حدودكم وأخذتم ماليس حلاً ، فجعلتموه حلاً فلابد أن أجعل من الحل الذى هو لكم حراماً عليكم ، هذه مقابل تلك ، فلماذا اجترأت على محرم فأحللته ؟وما دمت قد فعلت ذلك ولم ترتض تحليلى وتحريمى فأنا سآخذ شيئاً من الذى كان حلاً لك وأحرمك منه .

إذن فلا يتطلب من كل تحريم أن يكون فيه مضارة ، إن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يكون الإيمان له أصول ثابتة ، ولذلك يقول :

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾ ﴾

(سورة الحج)

إذن فالحق لايريد من الناس أن يعبدوه على حرف . . أى على طرف من الدين بل فى وسطه وقلبه . . أى أنهم على قلق واضطراب فى دينهم لا على سكون وطمأنينة ، كالذى على طرف العسكر والجيش . . فإن أحسّ بظفر ونصر وغنيمة سكن واطمأن ، وإلاّ فرّ وطار على وجهه . هو يريد منك إيماناً حقاً ، ولذلك فبعض الناس

يقول : سأزكى لأزيد من مالى . نقول له : اخرج من بالك ظنك أن مالك سيزيد ، بل أنت تزكى لأن الله طلب منك أن تزكى . أما أن يزيد مالك فهذا شيء آخر ، فلعل الله يبتلى إيمانك ويريد أن يرى : أأنت مقبل على الحكم لأن الله قاله ، أم لأنه سيعطيك ربحاً زائداً ؟ وسبحانه حين يعطى ربحاً زائداً ستزكيه أيضاً ، لكن هو يريد من يقبل على الحكم لأنه سبحانه قد قاله .

وقد حرم الحق سبحانه وتعالى عليهم الصيد يوم السبت بظلم منهم ، وكان من الجائز جداً ألاَّ يكون هناك مغريات على المخالفة ، ولكنه أراد أن يبلوهم بلاءً حقاً فيأتى فى اليوم المحرم فيه الصيد ويُكْثِر من السمك ، ترى السمكة ظاهرة مثل شراع المركب ، وهذا معناه إغراء بالمخالفة ، فلو لم يظهر السمك فى هذا اليوم لكانت المسألة عادية ، لكنهم حين ينظرون السمك وقد « شرع » مثل المراكب سابحاً فى الماء ، « إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شُرَّعاً ويوم لايسبتون لاتأتيهم » .

إذن فالابتلاء جاء من أكثر من زاوية : يوم سبتهم تأتى الحيتان شُرَّعاً ، وفى غير يوم السبت لاتأتى ، وهذا الأمر يجعلهم فى حالة قلق . فلو كانوا على اليقين والإيمان لالتزموا بالأمر .

والله سبحانه وتعالى يريد أن يمحصهم التمحيص الدقيق ، فماذا هم فاعلون ؟ هم يريدون أن ينفذوا الأمر ، إنما طمعهم المادى يصعب عليهم ألا يصطادوا هذا السمك الذى يأتيهم يوم السبت ، ولو أنهم وثقوا بعطاء الله فى المنع لنجحوا فى الاختبار . ذلك أن الحق قد يجعل فى المنع عطاء ، لكن مَن الذى يتنبه لذلك ؟

لم يقولوا : ما عند الله خيرمن هذا السمك الشُّرع الذى يأتينا ويلفتنا . لكنهم احتالوا حيلاً ، مثلاً : صنعوا من الأسلاك والحبال « مصايد » و« جُبَى » .. و« ملاقف » يحجزون بها هذا السمك الشُّرع فى الماء ثم يأتون فى اليوم التالى فيجدونه محبوساً ، وظنوا أنهم بذلك احتالوا على الله ولم يتفهموا معنى الصيد ، فالصيد هو جعل السمك فى حيازتك ، ومادمت قد عملت بحيث تتمكن من حيازة السمك فى أى وقت تكون قد اصطدت . إذن فهم يحتالون على الله ؛ ولذلك قال سبحانه :

﴿ وَسْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾

(١٦٣ سورة الأعراف)

ومادام الواحد منهم يفسق ويحل لنفسه شيئاً حرمه ربنا عليه ، فيوضح له ربنا : مادمت قد فعلت ذلك فسوف أحرم عليك شيئاً أحللته لك ؛ لأنك أعطيت لنفسك حرية فى أن تُحل ماحرمت ، فأنا سأحرم ما أحللت لك .

﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

وهذا دليل على وجود عناصر خير فيما بينهم ، وقالت عناصر الخير : اتقوا الله . فقال لهم آخرون : لِمَ تعظون قوماً الله مهلكهم ، إذن فهناك ثلاث جماعات : جماعة خالفوا ، وجماعة أرادوا أن يعظوهم كى لايقعوا فى المخالفة ، وجماعة لاموا من يعظونهم وقالوا : دعوهم ليهلكهم الله أو يعذبهم . . « الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً » ، فقالت الجماعة التى تعظ : نحن نريد بالوعظ أن يكون لنا عذر أمام الله بأننا لم نسكت على المنكر ونحن نعمل لأنفسنا . « قالوا معذرة إلى ربكم » وأيضا فلعلهم يتقون ربّهم بترك ماهم فيه من المعصية والفسق . فماذا حدث ؟ . . يقول الحق :

﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

ومادام قد قال : « أنجينا » ، فهناك مقابلها وهو « أهلكنا » ، إذن فجاء هنا « اللعن » بمعنى الهلاك .

ويختم الحق الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها : « وكان أمر الله مفعولاً » نعم لأن الحق سبحانه وتعالى بقدرته الشاملة وصفات جلاله الكاملة ، لا يتخلف شيء فى

وجوده عن أمره ، فإذا وعد بشيء فلابد أن يحدث ، فأمر الله غير أوامر البشر ، فأوامر البشر هى التى تتخلف أحياناً سواء أكانت وعداً أم وعيداً ، لأنك قد تعد إنساناً بخير ، ولكنك ساعة آداء الخير لا تستطيعه ، فتكون قدرتك هى التى تحتاج إلى أداء الخير . أو توعد إنساناً وتهدده بشرّ ، وستعمل فيه كذا غداً ، وقد يأتيك غداً مرض يقعدك فلا تستطيع إنفاذ وعيدك .

إذن فأنت قد لا تستطيع إنفاذ شيء من وعدك ولا شيء من وعيدك ؛ لأن قدرتك من الأغيار ، ومادامت قدرتك من الأغيار فقد توجد أو لا توجد . لكن الحق سبحانه وتعالى إذا قال بوعد أو قال بوعيد أيوجد شيء يغير هذا ؟ لا . إذن فساعة يقول ربنا بوعد أو وعيد فاعرف أن هذا سيحدث فى الوعد ، أما فى الوعيد فإن الله قد يتجاوز عنه كرما وفضلا ما عدا الشرك بالله .

ونعرف أن الحق سبحانه وتعالى يوزع الأحداث على الزمن ، فلا زمن يقيده ؛ لأنه يملك كل الزمن ، أما أنت كواحد من البشر فتتكلم عن الحدث حسب زمانه.فإن كان هناك حدث قد حصل قبل أن تتكلم أنت عنه ، فتقول : فعل « ماض » . أى أن الحدث قد وقع فى زمن قبل زمن تكلمك ، وإن كان الحدث يقع فى وقت تكلمك ، كان الفعل « مضارعا » ، والمضارع صالح للحال وللاستقبال ، تقول : فلان يأكل . وذلك يعنى أنه يأكل الآن . وإن قلت : « سيأكل » ـ أى أنه سيأكل بعد قليل ، فإذا قلت عن أمر مستقبل إن هذا الأمر سيحدث ، أتملك أنت أن يحدث ؟ لا . إذن فالكلام منك على الاستقبال قد يكذب وقد يصدق ، لكن إذا قال الحق وأخبر عن أمر مستقبل وعبّر عنه بالفعل الماضى فمعنى ذلك أنه حادث لا محالة ؛ ولذلك فالزمن عند ربنا مُلغى .

وعندما نقرأ قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ أَتَىٰ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾

(من الآية ١ سورة النحل)

« وأتى » هذه فعل ماض ، وقوله : « أتى » يدل على أنه أمر قد حدث قبل أن يتكلم ، وقوله : « فلا تستعجلوه » دلّ على أنه لم يحدث ، فالذى يشكك فى القرآن يقول : ما هذا الذى يقوله القرآن .؟ يقول : « أتى » وهو لم يأت ؟ . . نقول له : هذا الكلام عندك أنت . لكن إذا قال الله : إنه « أتى » فهو آتٍ لا محالة ، فاحكم

على الحدث المستقبل من الله على أنه أمر كائن كما يكون كائناً ماضياً ، مادام قال فلا رادّ لأمره . « أتى أمر الله » فهى تعنى سيأتى . ولا توجد قدرة فى خلقه تصرف مراده أو تعجزه عن أن يفعل .

وقوله سبحانه : « وكان أمر الله مفعولا » جاء لأنه قال من قبل « أو نلعنهم » هذه مستقبل . وقد يقول قائل : أن « نلعنهم » تعنى أن اللعنة لم تأت وقد لا تحدث ، ونقول: لا؛ لأن أمر الله كان مفعولاً، فإياك أن تأخذ « نلعن » هذه التى للمستقبل كى تطبقها عند ربنا ، لأن الحق سبحانه وتعالى يوضح لك : أنت الذى عندك المستقبل ، والمستقبل قد يقع منك أو لا يقع ؛ لأنك لا تملك أسباب نفسك ، تقول : سأعمل الشىء الفلانى غداً . وقد يأتى غداً وتكون أنت غير موجود هذه واحدة، أو تقول: سأقابل فلانا. وفلان هذا قد لا يكون موجوداً فقد يموت، أو قد يتغير رأيك ويأتيك الشىء الذى كنت تطلبه قبل أن تتكلم مع ذلك الإنسان ، أو قد تقول : أنا سأنتقم من فلان ، وعندما يأتى وقت الانتقام يهدأ قلبك .

إذن فأنت لا تملك شيئاً من هذا ، فلا يصح أن تجادل ؛ ولذلك يعلمنا الله الأدب مع الأحداث ومع الكون ومع المكون ، ويخرجنا عن أن نكون كذابين فيقول لرسوله :

﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾

(الآية ٢٣ وجزء من ٢٤ سورة الكهف)

يعلمك الحق ذلك حتى لا تكون كذاباً ، فإن قلت : أنا فاعل ذلك غداً ثم لا تفعله ، ومادمت لا تفعله فتكون كذاباً مجترئا ؛ لأنك افترضت فى نفسك القدرة على الوجود .

وكل حدث من الأحداث مثلما قلنا : يحتاج إلى « فاعل » ، ويحتاج إلى « مفعول » يقع عليه ، ويحتاج إلى « زمن » ويحتاج إلى « سبب » ، ويحتاج إلى « قدرة » تبرزه فى المستقبل ، قل لى بالله عليك : ماذا تملكه من عناصر الفعل ؟

أنت لا تملك وجود نفسك ولا تملك وجود المفعول ولا تملك السبب ، ولا تملك

القدرة ، ولا تملك شيئاً ، فأدباً منك عليك أن تقول : « إن شاء الله » فإن لم يحدث تقول : أنا قلت إن شاء الله وهو لم يشأ ، فتكون قد خرجت من التبعة ، ولم تكن كذاباً . إذن فقول الحق : « وكان أمر الله مفعولاً » لأنه قال : « أو نلعنهم » . و« نلعن » هذا فعل مضارع ويأتى من بعد ذلك ، فواحد قد يقول : إنه سبحانه قال : سيلعن ، فهل ستتحقق اللعنة ؟ نقول له : نعم ؛ لأنه قال : « وكان أمر الله مفعولاً » . وكذلك ساعة تقرأ أو تقول : « وكان الله غفوراً رحيماً » . فعليك أن تضيف : ولايزال غفوراً رحيماً ، لأن صفة الرحمة لم توجد له ساعة وجد المرحوم ، لا . بل معنى « رحيم » أنه سبحانه يرحم غيره والذى وُجد ليتلقى رحمته سبحانه إنما جاء بعد أزليَّة رحمة الله ومغفرته.فسبحانه أزلىّ قديم . والصفة أزلية وقديمة بقدمه ـ سبحانه قبل أن يوجد من يرحمه ، وهو لا تأتيه أغيار . ومادام سبحانه رحيماً قبل أن يُوجِدَ مرحوماً له فإذا أوجد مرحوماً له ، أتنحلّ الصفة أم تبقى ؟ إنها باقية دائما فكان الله ولا يزال غفوراً رحيماً ، « وكان أمر الله مفعولاً » نعم ، لأنه قد يفعله بأسبابه وقد يفعله بدون أسباب فالأمر متروك لمشيئته فإما أن يوجد الشىء من غير سبب أو يوجده بسبب،والشىء الموجود بالسبب مخلوق بالمسبب.فسبحانه خلق الأسباب .

وبعد ذلك ينتقل الحق سبحانه إلى قضية عقدية أساسية فى صلة الإنسان بالحق سبحانه وتعالى . يقول :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ ﴾

هذه من أرجى الآيات فى كتاب الله ، ولذلك فحينما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما موجبات الإيمان ؟ أى ما الذى يعطينا الإيمان ؟ فقال صلى الله عليه وسلم :

« من قال لا إله إلا الله دخل الجنة » .

وعن عثمان رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة »[١]

ونحن نقول إن من يشرك بالله فهو يرتكب الخيانة العقدية العظمى ، وقد أخذنا هذا المصطلح من القوانين الوضعية ، وإن كانت القوانين الوضعية ليس غرضها أن تؤكد قضايا دينية ، لكن غفلتهم تجعلنا نلتقط منها أنها تؤكد القضايا الدينية أيضاً . هب أن جماعة قاموا بحركة ، وبعد ذلك استغل واحد منهم الحركة فى نفع خاص له ، وواحد آخر استغل الحركة فى أن تكون له لا للآخر ، أى ينقلب عليه ، فالأول القائم على النظام يسميها خيانة عظمى ، أما من لا يقاوم بغرض خلع الحاكم ولكنّه يظلم الناس فقد يعاقبه الحاكم على ما حدث منه وليس على الخيانة العظمى. إذن ففى قانون البشر أيضاً خيانة عظمى ، وفيه انحراف وهو الذى لا يتعرض للسيادة ، لكن أى حركة تتعرض للسيادة يكون فيها قطع رقاب ، وكل أمر آخر إنما يؤخذ بدرجة من العقوبة تناسب ذنبه .

فالحق سبحانه وتعالى يوضح : أصل القضية الإيمانية أن الله سبحانه وتعالى يريد منكم أن تعترفوا بأنه الإله الواحد الذى لا شريك له ، وحين تعترف بأنه الإله الواحد الذى لا شريك له . فأنت تدخل حصن الأمان ، ولذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الحديث الشريف :

« أشهد ألا إله إلا الله وأنى رسول الله لا يلقى الله بهما عبد غير شاك منهما إلا دخل الجنة »[٢] .

وأبو ذر عندما قال للنبى فى محاورة بينهما حول هذه الآية ، قال له : « مامن عبد قال لا إله إلا الله ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة ، قلت : وإن زنى وإن سرق ؟ قال وإن زنى وإن سرق ، قلت وإن زنى وإن سرق ؟ قال وإن زنى وإن سرق (ثلاثا)

(١) رواه مسلم .
(٢) رواه مسلم .

ثم قال فى الرابعة : على رغم أنف أبى ذر[١] .

لقد كان أبو ذر غيوراً على حدود الله ، فهل ساعة قال رسول الله : على رغم أنف أبى ذر ؛ هل هذه أحزنت أبا ذر ؟ لا ، لم تحزنه ، ولذلك عندما كان يحكيها ويقولها : من قال لا إله إلا الله دخل الجنة وإن رغم أنف أبى ذر وهو مسرور ، لماذا ؟ لأنها فتحت باب رحمة الحق ، لأنه إذا لم يكن هذا فما الفارق بين من اعتقدها وقالها وبين من لم يقلها ؟ فلا بد أن يكون لها تمييز . وكل جريمة موجودة فى الإسلام ـ والحق سبحانه قد جرمها ـ فهذا يعني أنها قد تحدث . مثال ذلك . . . يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا ﴾

(من الآية ٣٨ سورة المائدة)

وهذا يعنى أنه من الجائز أن يسرق المؤمن ، وكذلك قد يزنى فى غفلة من الغفلات ، وفى أسس الاستغفار يأتى البيان الواضح : من الصلاة للصلاة كفارة ما بينهما ، الجمعة للجمعة كفارة ، الحج كفارة ، الصوم كفارة .

عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة كفارة لما بينهن ما لم تُغْشَ الكبائر »[٢] .

أى أن ربنا قد جعل أبواباً متعددة للمغفرة وللرحمة ، وهو سبحانه يقول : « إن الله لا يغفر أن يشرك به » وهذه المسألة ليست لصالحه إنما لصالحكم أنتم حتى لا تتعدد آلهة البشر فى البشر ويرهق الانسان ويشقى من كثرة الخضوع لكل من كان قويا عنه ، فأعفاك الله من هذا وأوضح لك : لا ، اخضع لواحد فقط يكفك كل الخضوع لغيره ، واعمل لوجه واحد يكفك كل الأوجه ، وفى ذلك راحة للمؤمن .

إن الإيمان إذن يعلمنا العزة والكرامة ، وبدلاً من أن تنحنى لكل مخلوق اسجد للذى خلق الكون كله بصفات قدرته وكماله ، فلم تنشأ له صفة لم تكن موجودة ، هل أنتم زدتم له صفة ؟ لا . فهو بصفات الكمال أوجدكم وبصفات الكمال كان قيوماً عليكم ، فأنتم لم تضيفوا له شيئاً ، فكونك تشهد أن لا إله إلا الله .

(١) رواه مسلم .
(٢) رواه مسلم والترمذى .

ما مصلحتها بالنسبة لله ؟ إن مصلحتها تكون للعبد فحسب .

ولذلك قلنا: إن الحق سبحانه وتعالى يريد من عباده أن يجتمعوا كل أسبوع مرة ؛ لأنك قد تصلى فرضاً فرضاً في مصنعك أو فى مزرعتك أو فى أى مكان ، إنما يوم الجمعة لا بد أن تجتمع مع غيرك ، لماذا ؟ لأنه من الجائز أنك تذل لله بينك وبينه ، تخضع وتسجد وتبكى بينك وبين الله ، لكنه يريد هذه الحكاية أمام الناس ، لترى كل من له سيادة وجاه يسجد ويخشع معك لله. وفى الحج ترى كل من له جاه ورئاسة يؤدى المناسك مثلك ، فتقول بينك وبين نفسك أو تقول له : لقد استوينا فى العبودية ، فلا يرتفع أحد على أحد ولا يذل له بل كلنا عبيد لله ونخضع له وحده .

إذن فالمسألة فى مصلحة العبد ، « إن الله لا يغفر أن يشرك به » ، لأنه لو غفر أن يشرك به لتعدد الشركاء فى الأرض ، وحين تتعدد الشركاء فى الأرض يكون لكل واحد إله ، وإذا صار لكل واحد إله تفسد المسألة ، لكن الخضوع لإله واحد نأتمر جميعاً بأوامره يعزنا جميعاً . . فلا سيادة لأحد ولا عبودية لأحد عند أحد ، فقوله : « إن الله لا يغفر أن يشرك به » . . هذا لمصلحتنا .

« ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » .

وروى ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس قال أتى وحشيٌّ وهو قاتل سيدنا حمزة فى غزوة أحد ، أتى على النبى صلى الله عليه وسلم - فقال : يا محمد أتيتك مستجيرا فأجرنى حتى أسمع كلام الله. فقال رسول الله : « قد كنت أحب أن أراك على غير جوار فأما إذ أتيتنى مستجيرا فأنت فى جوارى حتى تسمع كلام الله قال : فإنى أشركت بالله وقتلت النفس التى حرم الله وزنيت هل يقبل الله منى توبة ؟ فصمت رسول الله حتى نزلت :

﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾

(سورة الفرقان)

فتلاها عليه فقال : أرى شرطا فلعلّ لا أعمل صالحا ، أنا فى جوارك حتى أسمع كلام الله فنزلت :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ ﴾

(سورة النساء)

فدعا به فتلا عليه قال : فلعلّى ممن لا يشاء ، أنا فى جوارك حتى أسمع كلام الله فنزلت :

﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ ﴾

(سورة الزمر)

فقال نعم : الآن لا أرى شرطا فأسلم .

إذن فالمسألة كلها تلطف من الخالق بخلقه ، واعتبار عمليات الغفلة عمليات طارئة على البشر ، ومادام الحق يقنن تقنينات فمن الجائز أنها تحدث ، لكن إذا حدثت معصية من واحد ثم استغفر عنها ، إياك أن تأتى بسيرتها عنده مرة أخرى وتذكره بها وافرض أن واحداً شهد زوراً ، افرض أن واحداً ارتكب ذنباً ، ثم استغفر الله منه وتاب . إياك أن تقول له : يا شاهد الزور ، لأنه استغفر من يملك المغفرة ، فلا تجعله مذنباً عندك ، لأن الذى يملكها انتهت عنده المسألة .

لماذا ؟ لكيلا يذلّ الناس بمعصية فعلت ، بل العكس ؛ إنّ أصحاب المعاصى الذين أسرفوا على أنفسهم يكونون فى نظر بعض الناس هينين محقرين. ولذلك نقول: إن الواحد منهم كلما لذعته التوبة وندم على ما فعل كُتبت له حسنة ، فعلى رغم أنه ذاق المعصية لكنه مع ذلك تاب عنها ، وهذا هو السبب فى أن الله يبدل سيئاتهم حسنات ، وعندما نعلم أن ربنا يبدل سيئاتهم حسنات فليس لنا أن نحتقر المسرفين على أنفسهم . بل علينا أن نفرح بأنهم تابوا ، ولانجعل لهم أثرا رجعيا فى الزلة والمعصية .

« ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً » و « الافتراء » هو الكذب المتعمد . لأن

هناك من يقول لك قضية على حسب اعتقاده ، وتكون هذه القضية كاذبة ، كأن يقول لك : فلان زار فلاناً بالأمس .

هو قال ذلك حسب اعتقاده بأن قالوا له أو رأى أثرا للزيارة ، على الرغم من أن مثل هذه الزيارة لم تحدث فيكون كذباً فقط ، أما الشرك فهو تعمد الكذب على الله وهذا يطلق عليه : « افترى إثماً عظيماً » لأنه مخالف لوجدانية الفطرة ، كأن وجدانية الفطرة تقول : لا تقل إلا ما تعرفه فعلاً وأنت متأكد بل عليك ألاّ تخالف فطرتك متعمدا وتجعل لله شريكا .

والحق سبحانه وتعالى عندما يقول : لا إله إلا الله وحده لا شريك له . إما أن تكون هذه الكلمة صادقة فننتهى ، وإما ألا تكون صادقة ـ والعياذ بالله ـ أى أن هناك أحداً آخر معه ، وهذا الآخر سمع أن هناك واحداً يقول : لا إله إلا أنا . أسكت أم لم يسمع ؟ إن لم يكن قد سمع فيكون إلهاً غافلاً ، وإن كان قد سمع فلماذا لم يعارض ويقول : لا ، لا إله إلا أنا ، ويأتى بمعجزة أشد من معجزة الآخر ولم يحدث من ذلك شيء إذن فهذه لا تنفع وتلك لا تنفع ، فـ « لا إله إلا الله » حين يطلقها الله ويأتى بها رسول الله ويقول الله : أنا وحدى فى الكون ولا شريك لى ، ولم ينازعه فى ذلك أحد فالمسألة صادقة لله بالبداهة ولا جدال .

« ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً » والافتراء كما يكون فى الفعل وفى الكلام ويكون فى الاعتقاد أيضاً . « إثم عظيم » ، وهذا يعنى أن هناك إثماً غير عظيم ، « الإثم العظيم » هو الذى يُخلّ قضية عقدية واحدة فى الكون تشمل الوجود كله هى أنه لا إله إلاّ الله .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى عوْداً على هؤلاء اليهود :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ ﴾

وتقدم أن أشرنا إلى قول الحق : « ألم تر » ، فإن كانت الصورة التى يخاطب عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم مرئية أمامه تكن الرؤية على حقيقتها ، وإن لم تكن مرئية أمامه وكان مراد الحق سبحانه أن يعُلمه بها وهى غير معاصرة لرؤياه فالحق يقول : « ألم تر » يعنى : ألم تعلم ، وكأن العلم بالنسبة لخبر الله يجب أن يكون أصدق مما تراه العين ، لأن العين قد تكذبه والبصر قد يخدعه ، « ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم » و « التزكية » هى أولاً : التطهير من المعايب وهذا يعنى سلب النقيصة ، وبعد ذلك إيجاب كمالات زائدة فيها نماء ، والتزكية التى زكّوا بها أنفسهم أنهم قالوا :

﴿ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ﴾

(من الآية ١٨ سورة المائدة)

وجاء الرد عليهم فى هذه القضية بقوله الحق :

﴿ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ ﴾

(من الآية ١٨ سورة المائدة)

يعنى : إن كنتم أحباءه وأبناءه فلماذا يعذبكم ؟ إذن فهذه قضية باطلة ، ثم ما فائدة أن تقولوها لنا ؟ أنملك لكم شيئاً ؟ إذا كنتم تكذبونها على مَن يملك لكم كل شىء وهو الله ـ سبحانه ـ فما لنا نحن بكم ؟ والتزكية التى فعلوها أنهم مدحوا أنفسهم بالباطل وبرأوا أنفسهم من العيوب وادعوا أنهم أبناء الله وهم ليسوا أبناء الله وليسوا أحباءه ، وقالوا أيضاً :

﴿ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ﴾

(من الآية ١١١ سورة البقرة)

وتلك أيضاً قضية باطلة ، وهنا نسأل : هل إذا زكى الإنسان نفسه بحق تكون تلك التزكية مقبولة ؟ . نقول : علينا أن نسأل : ما المراد منها ؟ إن كان المراد منها الفخر تكن باطلة ، لكن تكون التزكية للنفس واجبة فى أمر يحتم ذلك . مثاله : عندما تركب جماعة زورقاً ويكون القائد أو من يجدف أو يمسك الشراع متوسط الموهبة ، ثم قامت عاصفة ولا يقوى متوسط الموهبة على قيادتها.هنا يتقدم إنسان يفهم فى قيادة الزوارق أثناء العواصف ويقول لمتوسط الموهبة : ابتعد عن القيادة فأنا أكثر فهماً وكفاءة وقدرة منك على هذا الأمر ويزحزحه ويمسك القيادة بدلاً منه ، هذه تزكية

للنفس ، وهى مطلوبة ، لأن الوقت ليس وقت تجربة ، وهو يزكى نفسه بحق ، إذن فهناك فرق بين التزكية بالباطل وبين التزكية بالحق .

ونحن نعلم قصة سيدنا يوسف ، ونعلم قصة رؤيا الملك حيث رأى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف !! وكان المفروض العكس ، انظر إلى الملحظية ، لأن سنين الجدب ستأكل سنين الخصب ، لكن من الذى يتنبه إلى رموز الرؤيا . فتعبير الرؤيا ليس علماً . بل هبة من الله يمنحها لأناس ويجعلهم خبراء فى فك رموز ـ شفرة ـ الرؤيا ، ودليل ذلك أن الملك قال هذه الرؤيا للناس فقالوا له : « أضغاث أحلام » ، و « أضغاث » مفردها « ضغث » وهو الحشيش المخلوط والمختلف ، لكنهم أنصفوا فقالوا :

﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَـٰمِ بِعَـٰلِمِينَ ﴾ (من الآية ٤٤ سورة يوسف)

لقد أنصفوا فى قولهم . لأن الذى يقول لك : لا أعلم فقد أفتى ، فمادام قد قال : لا أدرى فسيضطرك إلى أن تسأل سواه ، لكن إن قال لك أى جواب فستكتفى به وتتورط ، إذن فمن قال : لا أدرى فقد أجاب . فهم عندما قالوا : أضغاث أحلام فقد احتالوا واحتاطوا لأنفسهم أيضا وقالوا : « وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين » ، وكان الحق سبحانه وتعالى قد صنع التمهيد ليوسف وهو فى السجن عندما دخل عليه الفتيان :

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْـَٔاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ﴾
(من الآية ٣٦ سورة يوسف)

ما الذى جعل الفتيين يعرفان أن يوسف المسجون هذا يعرف تأويل الأحلام ؟ لقد قالا وأوضحا العلة :

﴿ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

(من الآية ٣٦ سورة يوسف)

ومعنى ذلك أنهما شهدا سمته وسلوكه ، وعرفا أنه إنسان مسالم ، فلما حَزَبَهما واشتد عليهما أمرٌ يتعلق بذاتهما قالا: لا يوجد أحسن من هذا الإنسان نسأله، وقلت ولا أزال أكررها : إن القيم هى القيم ، والصادق محترم حتّى عند الكذاب ، والذى لا يشرب الخمر محترم عند من يشرب بدليل أنهما عندما حَزَبهما أمر قالا : « إنا نراك من المحسنين » .

وهل يحكم واحد على آخر أنه محسن إلا إذا كان عنده مقياس يعرف به الحسن ويميزه عن القبح ؟ وعندما قالا ذلك الأمر لسيدنا يوسف ، كان من الممكن أن يجيبهما إلى تأويل رؤياهما ، ولكن هذه ليست مهمته ، بل فكر : لماذا لا يستغل هو حاجتهما إليه لأمر يتعلق بشخصيهما ، وبعد ذلك ينفذ إلى مراده هو منهما قبل أن ينفذا إلى مرادهما منه ، فهو نبى ومن سلالة أنبياء فأوضح لهما : وماذا رأيتما من إحسانى ؟ إن عندى أشياء كثيرة :

﴿ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ﴾

(من الآية ٣٧ سورة يوسف)

فقد زكى نفسه ، لكن انظروا لماذا زكى نفسه ؟ هو يريد أن يأخذ بيدهما إلى ربه هو ، بدليل أنه قال :

﴿ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة يوسف)

إذن فالتزكية هنا مطلوبة ، وقد ردّها لله ، وأعلن أن تلك ليست خصوصية لى ، بل كل واحد من خلق الله يستطيع أن يكون مثلى :

﴿ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة يوسف)

وبعد ذلك قال :

﴿ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ﴾

(من الآية ٣٨ سورة يوسف)

إذن فمن الممكن أن تكونوا مثلى إذا مااتبعتم هذا الطريق ، بعد ذلك قال لهم :

﴿ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴾

(من الآية ٣٢ سورة النجم)

أى أإله واحد أحسن أم آلهة متعددة ؟ فأنتم يا أصحاب الآلهة المتعددة جئتم لصاحب الإله الواحد مع أن التعدد ـ فى الظاهر ـ يعطى القوة ، لكن هذا التعدد أعطى الضعف . لأنكم يا أصحاب الآلهة المتعددة لجأتم إلى صاحب الإله الواحد :

﴿ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴾

(من الآية ٣٩ سورة يوسف)

إذن فهو زكى نفسه أمامهما لكى يأخذهما إلى جانب من زَكَّى ، وهو الحق سبحانه وتعالى ، وبعد ذلك عندما علم الملك قال : ائتونى به أستخلصه لنفسى ، ويكون مقرباً منى . ثم بعد ذلك جاءت سنون الجدب التى تنبأ بها أولاً فى تفسير الرؤيا ، وأشار عليهم بضرورة الادخار من سنين الخصب لسنين الجدب ، لقد كانت التجربة إخباراً لأشياء ستحدث ، فلما وقعت علم أن المسألة ليست تجارب بل هى مسألة دقيقة . . فقال للملك :

﴿ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ﴾

(من الآية ٥٥ سورة يوسف)

إذن فقد زكى نفسه ، وجاء بالحيثية :

﴿ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾

(من الآية ٥٥ سورة يوسف)

لأن هذه المسألة تحتاج حفظاً وعلماً ، فهى أمر غير خاضع للتجريب ، فيجرب واحد فيخيب ، ويجرب آخر فيخيب ، لا ، إنها تحتاج لحفظ وعلم ، ومثال ذلك أيضاً عندما كان النبى صلى الله عليه وسلم يقسم الغنائم ، قال له المنافقون : اعدل يامحمد ! فيقول لهم : والله إنى لأمين فى السماء أمين فى الأرض ، فهو يزكى نفسه ، إذن فمتى تكون التزكية مطلوبة ؟ أولاً : أن تكون بحق ، وأن يكون لها هدف عند

من يعلم التزكية وإلى من يعطيك التزكية ويثنى عليك بما فيك وما أنت أهل له فتكون هذه تزكية صحيحة ؛ ولذلك يقول الحق :

﴿ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾ ﴾

(من الآية ٣٢ سورة النجم)

لأنك تزكى نفسك عند الذى سيعطى الجزاء وهو يعلم ، إذن فمن الحمق أن يزكى الإنسان نفسه فى غير المواقف التى يحتاج فيها الأمر إلى تزكية تكون لفائدة المسلمين لا لفائدته الخاصة ، والحق يقول :

﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ ﴾

(سورة النساء)

إنّ الحق سبحانه وتعالى لاتخفى عليه خافية ، فمن الممكن أن واحداً يتصنع ويتكلف فى نفسه مدّة من الزمن أمامك ، لكن هناك أشياء أنت لا تدركها ، لكن ربنا عندما يزكى تكون تزكيته عن علم وعن خبرة ، ومع ذلك أحين يزكون أنفسهم ، أهذه محت حسناتهم ؟ لا . فعلى الرغم من أنهم زكوا أنفسهم فالحق لن يأخذهم هكذا ، ويضيع حسناتهم ولكنهم « لايظلمون فتيلا » وهذه مطلق العدالة .

ونعرف أن القرآن نزل بلسان عربى على نبى عربى ، والذين باشروه أولاً عرب ، ونعرف أن أغلب إيحاءاته كانت متوافقة مع البيئة ، وكان عندهم « النخل » وهى الشجرة المفضلة؛لأنها شجرة لايسقط ورقها ، وكل ما فيها له فائدة ، فلا يوجد شىء فى النخلة إلا وفيه فائدة .

عن عبدالله بن عمر ـ رضى الله عنهما ـ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن من الشجر شجرة لايسقط ورقها وهى مثَلُ المسلم ، حدثونى ماهى ؟

فوقع الناس فى شجر البادية ووقع فى نفسى أنها النخلة » قال عبد الله فاستحييتُ ، فقالوا : يارسول الله أخبرنا بها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« هى النخلة » قال عبدالله : فحدّثْتُ أبى بما وقع فى نفسى ، فقال : لأن تكون قلتها أحبُّ إلىَّ من أن يكون لى كذا وكذا »[١] .

وللنخلة فوائد كثيرة ، فكل مانأخذه منها نجد له فائدة حتى الليف حولها يحمل الجريد نأخذه ونصنع منه مكانس وليفاً و« مقاطف » و« كراسى » . وحينما يطلب سبحانه وتعالى مثالاً على شىء معنوى فهو يأتى بالشىء المحس فى البيئة العربية .

«ولا يظلمون فتيلاً» و« الفتيل » من « الفتلة » ، ومن معناها : الشىء بين الأصابع ، فأنت حين تدلك أصابعك مهما كانت نظيفة يخرج بعض « الوساخات مِثل الفتلة »، أو « الفتيل » هو : الخيط فى شق نواة البلحة ونواة التمرة ، جاء سبحانه وتعالى فى القرآن بثلاثة أشياء متصلة بالنواة .

بـ « الفتيل » هنا ، وجاء بـ « النقير » : وهو النقرة الصغيرة فى ظهر النواة ومأخوذة من المنقار ، كأنها منقورة ، وجاء بـ « قطمير » : وهى القشرة التى تلف النواة ، مثل قشرة البيض الداخلية وهى قشرة ناعمة ، إذن ففى النواة ثلاثة أشياء استخدمها الله . الفتيل و « النقير » ، و« القطمير » .

والحق يقول :

﴿ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴾

(من الآية ٥٣ سورة النساء)

إذن فالحق سبحانه وتعالى أخذ من النواة ثلاثة أشياء ويعطينا من الشىء المحس أمامنا أمثالاً يراها العربى فى كل وقت أمامه ويأخذ الحق أيضا أمثالا من السماء فيأتينا بمثل : « الهلال » ، يقول فى الهلال وهو صغير :

﴿ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴾

(من الآية ٣٩ سورة يس)

فسباطة البلح فيها شماريخ ، وفيها يد تحمل الشماريخ ، فهذا اسمه « العرجون » ، والعرجون عندما يكون جديداً يكون مستقيما ، لكنه كلما

(١) رواه البخارى .

قَدُمَ ينثنى وينحنى ، فجاء لهم من الهلال فى السماء وأعطاهم مثالاً له فى الأرض « كالعرجون القديم »، والعرب قد أخذوا أمثالاً كثيرة ، لكن هناك حاجات قد لايُتنبه إليها مثل قول العربى :

وغاب ضوء قُمَيْر كنت أرقبه مثل القُلاَمَة قد قُدَّتْ من الظُّفر

فساعة تقص أظافرك تجدها مقوسة . لكن هذه المسألة لايتنبه لها كل واحد ، فهو جاء بشيء واضح وقال : « كالعرجون القديم » إذن فالحق سبحانه وتعالى حين يعطى مثالاً لأمر معنوى فهو يأتى من الأمر المحس أمامك ليقرب لك المعنى ، وعندما تأكل التمرة لاتلتفت إلى الفتيلة مما يدل على أنها شيء تافه ، والنقير والقطمير كذلك . إذن فربنا أخذ من النواة أمثلة ، وأخذ من النخلة أمثلة كى يقرب لنا المعانى . « ولايظلمون فتيلاً» .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾ ﴾

وقول الحق « انظر » هى أمر لرسول الله صلى الله عليه وسلم وكل خطاب لرسول الله هو خطاب لأمته ، وعرفنا من قبل أن « الافتراء » : كذب متعمد « يفترون على الله الكذب » فى قولهم عندما أرادوا أن يزكوا أنفسهم :

﴿ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ﴾

(من الآية ١٨ سورة المائدة)

وقولهم :

﴿ وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ﴾ (من الآية ١١١ سورة البقرة)

« انظر كيف يفترون على الله الكذب وكفى به إثماً مبينا » ، لماذا ؟ لأنك إن تكذب على مثلك ممن قد يصدقك فهذا معقول ، لكن إن تكذب على إله فهذه قحة ؛ لذلك قال الحق : « وكفى به إثماً مبينا » .

إذن فالكذب مطلقاً هو إثم و الكذب المبين : هو الكذب على الله ، والمهم أنه لم يُفدك .

ثم يقول الحق بعد ذلك :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾ ﴾

قوله : « أوتوا نصيباً من الكتاب » يعنى عندهم صلة وعلاقة بالسماء وبالرسل ، وبالكتب المنزلة من السماء على الرسل التى تحمل مناهج الله ، ولو كانوا أناساً ليس لهم مثل هذا الحظ لكان كلامهم هذا معقولا لانقطاع أسباب السماء عنهم . إنما هؤلاء عندهم نصيب من الكتاب ، وأولى مهمات الكتب السماوية أن تربط المخلوق بالخالق ، وربط المخلوق بالخالق هو تربيب لقدرات المخلوق وتنميتها ؛ لأن أسباب الله فى الكون قد تعزّ عليك ، وقد تقفر يدك منها . فإذا لم يكن لك إله تلجأ إليه عند عزوف الأسباب انهرت ، وربما فارقت حياتك منتحراً ، لكن المؤمن بالله ساعة تمتنع عنه أسبابه يقول : لاتهمنى الأسباب ، لأن عندى المسبب .

إذن فالإيمان بالله يعطيك قوة . والإيمان بالله يقف المؤمنين على أرض صُلبة ، فمهما عزّت أسبابك وانتهت فاذكر المسبب . وحين تذكر المسبب تجد آفاق حياتك

رحبة ، فالذين ينتحرون إنما يفعلون ذلك لأن الأسباب ضاقت عليهم ، وعلموا أنه لامناص من أنهم فى عذاب . لكن المؤمن يقول : يارب ، ومجرد أنه يقول : يارب ، فهذا قول يريحه حتى قبل أن يجاب ؛ لأنه التفت إلى مسبب الأسباب حين عزّت عليه الأسباب .

وساعة يلتفت إلى مسبب الأسباب عند امتناع الأسباب فهو يأخذ قوة الإيمان من حيث لايحتسب ، إنك بمجرد أنك قلت : يارب تجد نفسك قد ارتاحت ؛ لأنك وصلت كل كيانك بالخالق ، وكيانك منه ما هو مقهور لك ، ومنه ماهو غير مقهور لك . والكيان نفسه سيأتى فى الآخرة ويشهد على الإنسان .

ستشهد الأرجل والجلود وغيرها من الأبعاض . لأنها فى الدنيا كانت مقهورة لإرادتى ، أنا أقول ليدى : افعلى كذا ، ولرجلى : اسعى لكذا ، وللسانى : سب فلاناً ، فالله سخر الجوارح وأمرها : ياجوارح أنت خاضعة لإرادة صاحبك فى الدنيا . لكن فى يوم القيامة أيكون لى إرادة على جوارحى ؟ لا ، ستتمرد علىّ جوارحى :

﴿ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾

(من الآية ٢١ سورة فصلت)

وتقول الجوارح لنا : أنتم استخدمتمونا فى الدنيا وحملتمونا أن نفعل أشياء نحن نكرهها ، فدعونا اليوم لنشهد ، إنها تخرج أسرارها ؛ لأن الملك الآن للواحد القهار :

﴿ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾

(من الآية ١٦ سورة غافر)

انتهت سيطرة الإنسان وليس لأحد غير الله إرادة على الأبعاض .

إذن فالنصيب من الكتاب هو أول شىء يربط المخلوق بالخالق ، فإذا ارتبط

المخلوق بالخالق قويت أسبابه ، ويستقبل الأحداث بثبات ، ويأتيه فرج ربنا ، وعندما نقرأ القرآن يجب أن نلتفت إلى اللقطات العقدية فيه ، فقد عرفنا مثلاً : أن سيدنا موسى عندما أراد أن يأخذ بنى إسرائيل من فرعون ويخرج بهم ، وقبل أن يصل بهم إلى البحر تنبه لهم قوم فرعون وجاءوا بجيوشهم ، وكان قوم فرعون من ورائهم والبحر من أمامهم ، فقال قوم موسى إيماناً بالأسباب :

﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾

(من الآية ٦١ سورة الشعراء)

بالله أأحد يكذِّب هذه المقولة ؟! لا ، فماذا قال موسى عليه السلام ؟ لم يقل مثلما قال قومه ، ولكنه نظر للمُسبب الأعلى فقال بملء فيه :

﴿ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾

(من الآية ٦٢ سورة الشعراء)

وهل تُكذِّب مقولته ؟ لا.لا تُكذب ؛ لأنه لم يقل : « كَلَّا » اعتماداً على أسبابه . فليس من محيط أسبابه أن يخرج من مثل هذا الموقف ، بل قال : « إن معى ربى سيهدين » ، هذه ثمرة الإيمان ، فلما قال : « إن معى ربى سيهدين » ، ماذا قال له الله ؟

قال له :

﴿ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ ﴾

(من الآية ٦٣ سورة الشعراء)

لم يقل له : اهجم عليهم واغلبهم ، لا.بل قال : « اضرب بعصاك البحر » ؛ كى يعطى الشىء ونقيضه ، ولتعرف أن مرادات الحق سبحانه وتعالى تعطى الشىء ونقيضه ، ولا أحد من البشر يقدر أن يصنع مثل ذلك ، فلما قال له : اضرب بعصاك البحر ، ضرب موسى البحر بالعصا ، وكان موسى يعلم قانون الماء استطراقا وسيولة ، لكن ها هى ذى المعجزة تتحقق :

﴿ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴾

(من الآية ٦٣ سورة الشعراء)

و« الطود » هو الجبل ، والجبل فيه صلابة ، والماء فيه رخاوة . فكيف انتقلت الرخاوة إلى صلابة ؟ إن الماء مهمته الاستطراق ، أى لا يمكن أن توجد منطقة منخفضة والماء أعلاها ، بل لابد أن ينفذ منها ، وعندما أطاع موسى أمر الله أراد أن يطمئن بأسباب البشر ، فأراد أن يضرب البحر كى يعود البحر مثلما كان ؛ حتى لا يأتى قوم فرعون وراءه فقال له ربنا :

﴿ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ﴾

(من الآية ٢٤ سورة الدخان)

أى : اتركه كما هو على هيئته قارًّا ساكنا ؛ لأننى أريد أن يغريهم ما يرون من اليبس فى البحر فينزلوا ، فأعيد الماء إلى استطراقه وأُطْبِقهُ عليهم ، فأكون قد أنجيت وأهلكت بالشىء الواحد .

يقول الحق : « الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت » وكيف ذلك ؟

بعد موقعة أُحد جاء حُيَىّ بن أخطب وكعب بن الأشرف وابن أبى الحقيق ، وأبو رافع . هؤلاء هم صناديد اليهود ، وأخذوا أيضاً سبعين من اليهود معهم ونزلوا على أهل مكة ، ونقضوا العهد الذى بينهم وبين رسول الله . وبعد ذلك نزل كعب ابن الأشرف ـ زعيمهم ـ على أبى سفيان وقال له : نريد أن نتعاهد على أننا نقف أمام محمد . فقال أبو سفيان : أنت صاحب كتاب ، وعندك توراة ، وعندك إيمان بالسماء ، وعندك رسول ، ونحن ليس عندنا هذا ، و« محمد » يقول : إنه صاحب كتاب ورسول ، إذن فبينكما علاقة الاتصال بالسماء ، فما الذى يدرينا أنك متفق معه علينا فى هذه الحكاية ؟ إننا لا نأمن مكرك ،ولن نصدق كلامك هذا إلا إذا جئت لآلهتنا وأقمت مراسم العبادة عندها فسجدت لها .

و« الجبت والطاغوت » هما صنمان لقريش ، وذهب إليهما اليهود أصحاب التوراة الذين عندهم نصيب من الكتاب وخضعوا لهما ، أو « الجبت » هو كل من يدعو لغير الله سواء أكان شيطاناً أم كاهناً أم ساحراً ، فإذا كان هذا هو « الجبت » . فـ « الطاغوت » من « طغى » وهو اسم مبالغة وليس « طاغيًا » . . بل « طاغوت »

وهو الذى كلما أطعته فى ظلم ارتقى إلى ظلم أكثر . . وسواء أكان الجبت والطاغوت صنمين أم إلهين من الآلهة التى يتبعونها ، المهم أن وفد اليهود خضعوا لهم وسجدوا ، لكى تصدق قريش عداء اليهود لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وبعد ذلك سأل كعب بن الأشرف أبا سفيان : ماذا فعل محمد معكم ؟ قال له : فارَق دين آبائه ، وقطع رحمه وتركهم وفر إلى المدينة ، ونحن على غير ذلك . نحن نسقى الحجيج ، ونقرى الضيف ، ونفك العانى ـ الأسير ـ ونصل الرحم ، ونعمر البيت ونطوف به . وعظّم أبو سفيان فى أفعال قريش ! ، فقال الذين أوتوا الكتاب ـ لعداوتهم لمحمد ـ قالوا لأبى سفيان وقومه : أنتم أهدى من محمد سبيلا !

ويوضح ربنا : يا محمد انظر لعجائبهم ؛ إنهم أوتوا نصيبا من الكتاب ، ومع ذلك فعداوتهم لك ووقوفهم أمام دينك وأمام النور الذى جئت به ، جعلهم ينسون نصيبهم من الكتاب ، ويؤمنون بالجبت والطاغوت ؛ وهم القوم أنفسهم الذين كانوا يقولون للعرب قديماً : إنه سيأتى نبى منكم نتبعه ونقتلكم به قتل عاد وإرم . لكن هاهم أولاء يذهبون ويؤمنون بالطاغوت والجبت ، فهل عند مثل هؤلاء شىء من الدين ؟

إن الحق سبحانه يريد أن يطمئن رسول الله بأن هؤلاء انعزلوا عن مدد السماء ، فإن نشب بينك وبينهم حرب أو خلاف فاعلم أن الله قد تخلى عنهم لأنهم تركوا النصيب من الكتاب الذى أوتوه . وإياك أن يأتى فى بالك أن هؤلاء أصحاب كتاب .

إن الحق يطمئن رسوله أنه سبحانه قد تخلى عنهم وأن الله ناصرك ـ يا محمد ـ فلا يغرنك أنهم أصحاب مال أو أصحاب علم أو أصحاب ثروات ، فكل هذا إلى زوال ؛ لأن حظهم من السماء قد انقطع ؛ ولأن الشرك قد حازهم وملكهم وضمهم إليه وقد جعلوا العداوة لك والانضمام إلى الكفار الذين كانوا يستفتحون عليهم ، ببعثك ورسالتك ، ثمناً لأن يتركوا الإيمان .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ ﴾

وقوله: « أولئك » هى اسم إشارة مكون من « أولاء » التى للجمع ، ومن «الكاف» التى هى لخطاب رسول الله ، ونحن ـ المسلمين ـ فى طى خطابه صلى الله عليه وسلم ، « أولئك » هى للذين أوتوا نصيبا من الكتاب ويؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا : هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا ، أو « أولئك » لكل من اليهود والمشركين ، ولنأخذها إشارة لهم جميعاً ، فى قوله تعالى : « أولئك الذين لعنهم الله » و« اللعن » إما أن يكون « الطرد » ، وإما أن يكون « الخزى » وإما أن يكون « الإهلاك » .

وكيف يلحق الله الخزى بالكافرين ؟ لأنك تجد المد الإسلامى كل يوم يزداد ، وهم تتناقص أرضهم :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾

(من الآية ٤١ سورة الرعد)

« أولئك الذين لعنهم الله » . . إذن فالطارد هو الله ، فحين يكون الطارد مساوياً للمطرود، ربما صادف من يعينه، لكن إذا كان الطارد هو الله فلا معين للمطرود ، « ومن يلعن الله » أى من يطرده ربنا « فلن تجد له نصيراً » ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى مادام قد طرده . . فسبحانه يُدخل فى رُوع الناس كلهم أن يتخلوا عنه لأى سبب من الأسباب فلا ينصره أحد « أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً » . ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ ﴾

وما هى حكاية قوله : « أم لهم نصيب من الملك فإذاً لا يؤتون الناس نقيرا »؟

إنه ـ سبحانه ـ يصفهم بفرط البخل وشدة الشح ، أى أنهم ـ فى واقع الأمر ـ ليس لهم ملك الدنيا وليس لهم ـ أيضا ـ ملك الله ؛ فالملك له وحده ـ جل شأنه ـ يؤتيه من يشاء وينزعه ممن يشاء ولكنهم لو أعطوا ملك الدنيا وملك الله لبخلوا وضنوا بما فى أيديهم . كما جاء فى قوله سبحانه :

﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّيٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

أى إنكم تخشون الإنفاق حتى لا تقل الأموال عندكم ، فلو أخذتم خزائن ربنا فستقولون لو أخذنا منها وأعطينا الناس لقلّت ! وفحوى العبارة : أن كل هؤلاء سواء أكانوا كفار قريش أم كبراء اليهود ، كانوا يحافظون على مكانتهم وأموالهم ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء ليسوى بين الناس ، فمن الذى يحزن ؟ الذى يحزن هم الذين كانت لهم السيادة لأنهم لا يريدون أن تتساوى الرءوس ، وياليتهم عندما أخذوا السيادة جعلوها خيراً للناس ، لكنهم لم يفعلوا . فلو كان لهم الملك والأموال لن يُعطوا للناس نقيراً ؛ لأن الإنسان بطبيعته لا ينزل عن جبروته ؛ لأن هذا الجبروت يعطيه سلطاناً ، ومادام الجبروت أعطاه سلطاناً فلا يلتفت إلى حقيقة الإيمان ، فإن خير الخير أن يدوم الخير ، فليس فقط أن تكون فى خير وسلطة لكن اضمن أنه يدوم ، وهذا الدوام ستأخذه بعمر الدنيا وأمدها قليل وعمرك فيها غير مضمون ، إذن فدوام الخير هناك فى الآخرة :

﴿ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ ﴾

(سورة الواقعة)

فأنتم إن كنتم تحرصون على هذا الجاه ، وتريدون أن يكون لكم هذا الملك والجاه والعظمة فهل أنتم تعطون الناس من خيركم هذا حتى يكون هناك عذر لكم فى الحرص على المال بأن الناس تستفيد منكم ؟

فلماذا تريدون أن يديم ربنا عليكم هذه وأنتم فى قمة البخل والشح ؟ لا يمكن أن يديمها عليكم .

ولذلك فالحق سبحانه وتعالى يقول فى سورة الفجر يوضح هذه العملية :

﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة الفجر)

إذن فالذى عنده نعمة يقول : (ربى أكرمن) ، والذى ليس عنده نعمة يقول : (ربى أهانن) ، فيقول الحق تعقيباً على القضيتين (كلا) .

ومادام سبحانه يقول تعقيباً على القضيتين : (كلا) فمعنى هذا أن كلا الطرفين كاذب ؛ فأنت تكذب يا من قلت : إن النعمة التى أخذتها دليل الإكرام ، وأنت كذاب أيضاً يا من قلت : عدم المال دليل الإهانة ، فلا إعطاء المال دليل الإكرام ، ولا سلب المال دليل الإهانة . وهى قضية غير صادقة وخاطئة من أساسها . وقال الحق فى حيثيات ذلك :

﴿ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة الفجر)

أى عندكم المال ولا تكرمون اليتيم ، إذن فهذا المال هو حجة عليكم ، فهو ليس إكراما لكم بل سيعذبكم به . ويضيف سبحانه :

﴿ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ ﴾

(سورة الفجر)

فكيف يكون المال ـ إذن ـ إكراماً وهو سيأتيك بمصيبة ؟ فعدمه أفضل ؛ فالمال الذى يوجد عند إنسان ولا يرعى حق الضعفاء فيه هو وبال وشرّ ؛ لأن الحق يقول :

﴿ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾

(من الآية ١٨٠ سورة آل عمران)

فإن بخلت كثيراً فستطوّق بغُل أشد ؛ ولذلك عندما يشتد عليه الغُلّ يقول : يا ليتنى خففت هذا الغل ، والحق يتساءل فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها لماذا يتفقون مع معسكر الشرك ، ويتركون النصيب الذى أعطوه من الكتاب ، ويذهبون ليقولوا للذين كفروا : أنتم أهدى من محمد سبيلاً مع أنهم يعلمون بحكم ما عندهم من نصيب الكتاب أن محمداً على حق ؟.

لقد كانوا يحافظون على سيادتهم ، ومعسكر الشرك يحافظ على سيادته ، ونعلم أن اليهود كانوا فى المدينة من أصحاب الثروات ، وكانوا يعيشون على الربا ، وهم أصحاب الحصون ، وأصحاب الزراعات وأصحاب العلم ، إذن فقد أخذوا كل عناصر السيادة . وعندما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم تزلزلت كل هذه المسائل من تحت أقدامهم ، وحزنوا . وكذلك كفار قريش : كانت لهم السيادة على كل الجزيرة ، فلا يستطيع أحد من أى قبيلة فى الجزيرة أن يتعرض لقافلة قريش ؛ لأن القبائل تخاف من التعرض لهم ، ففى موسم الحج تذهب كل القبائل فى حضن قريش . والمهابة المأخوذة لهم جاءت لهم من البيت الحرام الذى حفظه الله ورعاه وهزم من أراده بسوء وردّ كيده ودمره تدميرا تاما . كما جاء فى قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾ ﴾

(سورة الفيل)

وعلّة هذه العملية تأتى فى السورة التالية لها ، وهى قوله سبحانه :

﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ﴿٢﴾ ﴾

(سورة قريش)

فلولا أنه سبحانه جعل هذا البيت لعبادته لانتهى وانتهت منهم السيادة فلا يقدرون أن يذهبوا إلى رحلة الشتاء ولا إلى رحلة الصيف ؛ ولذلك يقول سبحانه :

﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ۝٣ ﴾

(سورة قريش)

فسبحانه الذى جعل لهم السيادة والعزّ . وهو :

﴿ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ۝٤ ﴾

(سورة قريش)

وجاء لهم بثمرات كل شىء ، وآمنهم من خوف حين تسير قوافلهم فى الشمال وفى الجنوب .

« أم لهم نصيب من الملك » فإذا كان لهم هذا النصيب ، فلا يأتون الناس نقيرا أى لا يعطونهم الشىء التافه .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۖ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ۝٥٤ ﴾

والحسد هنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأن ربنا قد اصطفاه واختاره للرسالة ،

ولذلك قال بعض منهم :

﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾

(سورة الزخرف)

إذن فالقرآن مقبول فى نظرهم ، لكن الذى يحزنهم أنه نزل على محمد ، وهذا من تغفيلهم ، وهو مثل تغفيل من قالوا :

﴿ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾

(من الآية ٣٢ سورة الأنفال)

لقد تمنوا الموت والقتل رميا بالحجارة من السماء ولم يتمنوا اتباع الحق ، وهذا قمة التغفيل الدال على أنها عصبية مجنونة ، ولذلك يقول الحق :

﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ ﴾

(من الآية ٣٢ سورة الزخرف)

وسبحانه يؤكد لنا أنه يختص برحمته من يشاء ، فلماذا الحسد إذن ؟ إنهم يحسدون الناس أن جاءهم محمد صلى الله عليه وسلم ، ولو أنهم استقبلوا ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم استقبالاً عادلاً بعين الإنصاف لوجدوا أن كل ما جاء به هو كلام جميل . من يتبعه تتجمل به حياته . وكان مقتضى من آتاهم الله من فضله علماً من الكتاب أن يبشروا برسول الله صلى الله عليه وسلم كما دعاهم إلى ذلك ما نزل عليهم فى كتابهم وأن يكونوا أول المصدقين به ، ولكنهم لم يفعلوا ذلك ، بل كذبوا وصدوا عن سبيله وَفَضَّلوا عليه الكافرين الوثنيين . فقالوا إنهم أهدى من محمد سبيلاً .

والحق سبحانه وتعالى حين يتفضل على بعض خلقه بخصوصيات يحب سبحانه أن تتعدى الخصوصيات إلى خلق الله ؛ لأننا نعرف أن فى كل خلق من خلق الله خصوصية مواهب ، فإذا ما تفضل المتفضل بموهبته على الخلق تفضل بقية الخلق عليه بمواهبهم ، إذن فقد أخذ مواهب الجميع حين يعطى الجميع .

وهؤلاء قوم آتاهم الله نصيباً فبخلوا وضنّوا ، وليتهم ضنّوا على أمر يتعلق بهم ، بل على الأمر الذى وصلهم بالإله ، وهو أنهم أصحاب كتاب عرفوا عن الله منهجه ،

وعرفوا عن الله ترتيب مواكب رسله ، فيريد الحق سبحانه أن يقول لهم : أنتم أوتيتم نصيباً من الكتاب فلم تؤدوا حقه ، وأيضاً أنكم لو ملكتم الملك فإنكم لن تؤدوا حقه ، ولن تعطوا أحداً مقدار نقير وهو النقرة على ظهر النواة ، ولذلك قال :

﴿ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ ﴾

(سورة النساء)

إذن فلا هم فى المعنويات والقيم معطون ، ولا هم فى الماديات معطون . فإذا كانوا قد بخلوا بما عندهم من القيم فهم أولى أن يبخلوا بما عندهم من المادة ، وبذلك صاروا قوماً لا خير فيهم أبداً .

ثم يوضح الحق : إذا كان هؤلاء قد أوتوا نصيباً من الكتاب يعرِّفهم سمات الرسول المقبل الخاتم فما الذى منعهم أن يؤمنوا به أولاً ويؤيدوه ؟ . لاشك أنه الحسد ، على الرغم من أنه صلى الله عليه وسلم جاء مصدقاً لما معهم ، إنهم لاشك حسدوا الرسول صلى الله عليه وسلم ، والحسد لا يتأتى إلا عن قلب حاقد ، قلب متمرد على قسمة الله فى خلقه ؛ لأن الحسد كما قالوا : هو أن تتمنى زوال نعمة غيرك ، ويقابله « الغبطة » وهى أن تتمنى مثل ما لغيرك ، فغيرك يظل بنعمة الله عليه ، ولكنك تريد مثلها . وأنت إن أردت مثلها من الله فلا بد أن تغبطه ، والحق يقول :

﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ﴾

(من الآية ٩٦ سورة النحل)

ولذلك يجب أن يكون الناس فى عطاء الله غير حاسدين وغير حاقدين . لكن بعض الناس ربما حسدوا غيرهم من الذين يعطيهم الأغنياء رغبة فى أن يكون ذلك لهم وحدهم فإنك إن كان عندك كَمٌّ من المال ثم اتصل بك قوم فى حاجة فأعطيتهم منه ، ربما قال الآخرون ممن يرغبون فى عطائك ويأملون فى خيرك : إنك ستنقص مما عندك بقدر ما تُعطى هؤلاء ؛ لأن ما عندك محدود ، ولكن هنا العطاء ممن لا ينفد ما عنده ، إذن فيعطيك ويعطى الآخرين ولا ينقص مما عنده شىء .

إذن فالغبطة أمر بديهى عند المؤمن ؛ لأنه يعلم أن عطاء الله لواحد لا يمنع أن

يعطى الآخر ، ولو أعطى سبحانه كل واحد مسألته ما نقص ذلك مما عنده إلا كما ينقص المخْيط إذا غمس فى البحر ، وذلك كما جاء فى الحديث القدسى : « يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا فى صعيد واحد فسألونى فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندى إلا كما ينقص المخْيط إذا أدخل البحر »[1] .

« أم يحسدون الناس على ما آتاهم » ، فالحسد ـ كما عرفنا ـ هو : أن يتمنى إنسان زوال نعمة غيره ، هذا التمنى معناه أنك تكره أن تكون عند غيرك نعمة ، ولا تكره أن يكون عند غيرك نعمة إلا إذا كنت متمرداً على من يعطى النعم .

إن أول خطأ يقع فيه الحاسد هو : ردّه لقدر الله فى خلق الله ، وثانى ما يصيبه أنه قبل أن ينال المحسود بشرّ منه ؛ فقلبه يحترق حقداً . ولذلك قالوا : الحسد هو الذنب أو الجريمة التى تسبقها عقوبتها ؛ لأن كل جريمة تتأخر عقوبتها عنها إلا الحسد ، فقبل أن يرتكب الحاسد الحسد تناله العقوبة ؛ لأن الحقد يحرق قلبه وربما قال قائل : وما ذنب المحسود ؟ . . ونقول : إن الله جعل فى بعض خلقه داء يصيب الناس ، والحسد يصيبهم فى نعمهم وفى عافيتهم . وما ذنب المقتول حين يوجه القاتل مسدسه ليقتله به ؟ هذه مثل تلك . فالمسدس نعمة من نعم الله عند إنسان ليحمى نفسه به ، وليس له أن يستعمله فى باطل .

وهب أن الله سبحانه وتعالى خلق فى الإنسان شيئاً يكره النعمة عندغيره ، فلماذا لا يتذكر الإنسان حين يستقبل نعمة عند غيرك أن يقرنها بقوله: (ما شاء الله لا قوة إلا الله). فلو قارنت كل نعمة عند غيرك بما شاء الله الذى لا قوة إلا به لرددت عن قلبك سم حقدك . إنك ساعة ترى نعمة عند غيرك وتقول : ما شاء الله لا قوة إلا بالله ، فأنت تتذكر أن الإنسان لم يعط نفسه أى نعمة . إنما ربنا هو الذى أعطاه ، وسبحانه قادر على كل عطاء ، ومن الممكن أن يحسد الإنسان . لكن الذى يجد الحسد فى نفسه ويريد أن يطفئه ، عليه أن يردّ كل شىء إلى الله ، ومادام قد ردّ كل شىء إلى الله فقد عمل وقاية لنفسه من أن يكون حاسداً. ووقاية للنعمة عند غيره من أن تكون محسودة ، والحق سبحانه وتعالى يبين لنا ذلك فى قوله سبحانه :

---

(١) رواه مسلم فى باب تحريم الظلم ، ورواه أحمد .

﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥ ﴾

(سورة الفلق)

إذن فمن الممكن أن يمتلىء قلب أى واحد منا بالحقد على نعمة وبعد ذلك يحدث منها حسد ، وعلى كل واحد منا أن يمنع نفسه من أن يدخل تيار الحقد على قلبه ؛ لأن تيار الحقد يحدث تغييراً كيماوياً فى تكوين الإنسان ، وهذا التغيُّر الكيماوى هو الذى يسبب التعب للإنسان ، وما يدرينا أن هذا التوتر الكيماوى من النعمة عند غيره تجعل فى نفس الإنسان وفى مادته تفاعلات ، وهذه التفاعلات يخرج منها إشعاع يذهب للمحسود فيقتله ؟ لأن الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥ ﴾

(سورة الفلق)

وعندما تستعيذ بالله من شر الحاسد ألاّ يصيبك ، قد يصيبك ، ولكن استعاذتك من شره تعنى أنه إن أصابك فعليك أن تسترجع ، فتقول : «إنا لله وإنا اليه راجعون» وتعلم أن ذلك خير لك ؛ فإن أصابك فى نعمة فاعلم أن هذه المصيبة فيها خير ، فالحاسد إذا أصابك فى شىء من نعم الله عليك ، فالشر هو أن تحرم الثواب عليها !! . . فالمصاب هو من حرم الثواب ، فإذا جاءت مصيبة لأى واحد وقال : إنا لله وإنا إليه راجعون . . اللهم إنك ربى وإنك لا تحب لى إلاّ الخير لأنى صنعتك ولم تجر علىّ إلاّ الخير . . لكننى قد لا أستطيع أن أفهم ذلك الخير .

إن المسلم إذا صنع ذلك فالله سبحانه وتعالى يبين له فيما بعد أنها كانت خيراً له ، فإن أصابه فى ولده وقال : من يدرينى لعل ولدى الذى أماته الله كان سيفتننى فأكفر أو أسرق له وآخذ رشوة من أجله . لكن الله أخذه منى ومنع عني ذلك الشرّ ، أو أن النعمة قد تطغينى ، وقد تجعلنى أتجبر على الناس ، وقد تجعلنى أتطاول وأعتدى على الخلق ، فيقول لى ربنا : امرض قليلا واهدأ . وهكذا نرى أن المصاب لا بد أن يتوقع الخير وأن يسترجع وأن يقول : لا بد أنه سيأتينى من الابتلاء خير ، وقد يقول قائل : نحن نقول :

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ ﴾

وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾ ﴾

(سورة الفلق)

نقرأ ونكرر هذه السورة ولم يعذنا الله من شرّ الحاسدين . ويحسدنا الحاسدون أيضاً !

نقول له : أنت لم تفهم معنى قوله : « من شرّ حاسد إذا حسد » . إنك تفهمه على أساس ألا يصيبك حسده ، لا . . إن حسده قد يصيبك ، لكن عليك أن تعرف قدر الله فى تلك الإصابة وتقول : يارب إنك أجريتها علىّ لخير عندك لى . فإن فعلتَ ذلك فقد كفيت شرّاً .

ونحن نعيش فى عالم نرى فيه أنه كلما ارتقت الدنيا فى العلم بيّن لنا ربنا آيات فى كونه وفى أسرار الوجود تقرب لنا كثيراً من المعانى ؛ فالذين يصنعون الآن أسلحة الفتك والتدمير ، كلما يلطف السلاح ويدق ولا يكون داخلاً تحت مرائى البصر ، كان عنيفاً ويختلف عن أسلحة الأزمنة القديمة حيث كان الإنسان يرمى آخر بحجر ، ثم آخر يرمى بمسدس ، ثم صار فى قدرة دولة أن تصنع قنبلة ذرية لا ينوب أى فرد منها إلا قدر رأس مسمار لكنها تقتل ، إذن فأسلحة الفتك كلما لطفت ـ أى دقت ـ عنفت . ونرى الآن الأسلحة كلها بالإشعاع ، والإشعاع ليس جِرْماً ، وعمل الإشعاع نافذ لكن لايوجد له جرم ، وكما يقول الأطباء : نجرى العملية من غير أن نسيل دماً بوساطة الأشعة ، ومثال ذلك أشعة الليزر ، إذن فكلما دقّ السلاح كان عنيفاً وفتاكاً .

وهذا مثال يوضح ذلك : لنفرض أنك أردت أن تبنى لك قصراً فى خلاء ، ثم مرّ عليك صديق فقال : لماذا لم تضع لنوافذ الدور الأول حديداً ؟ تقول له : لماذا ؟ . فيقول لك : هنا سباع وذئاب . فتضع الحديد ليمنع الذئاب ، وآخر يمرّ على قصرك فيقول : إن فتحات الحديد واسعة وهنا توجد ثعابين كثيرة ، فتضيق الحديد . وثالث يقول : هناك بعوض يلسع ويحمل الميكروبات . فتضع سلكاً على النوافذ .

إذن فكلما دقّ العدو كان عنيفاً فيحتاج احتياطاً أكبر . ونحن نعلم أن الميكروب

الذى لا يُرى يأتى فيفتك بالناس ، فالآفة التى تصيب الناس كلما لطفت ، ـ أى دقت وصغرت ـ عنفت ، فلو كانت ضخمة فمن الممكن أن يدفعها الإنسان قليلاً قليلاً ، لكن عندما تصل إلى مرتبة من الدقة والصغر ، هنا لا يستطيع الإنسان أن يدفعها . وأفتك الميكروبات هى التى تدِق لدرجة أن الأطباء يقولون عن بعض الأمراض : لا نعرف لها فيروساً ؛ بمعنى أن هذا الفيروس المسبب للمرض صار دقيقاً جداً حتى عن معايير المجاهر .

إذن فما الذى يجعلنا نضيق ذرعاً بأن نقدر أن هناك شرارة من ميكروب تخرج من كيماوية الإنسان الحاقد الحاسد الذى تشقيه النعمة عند غيره، وشرارة الميكروب هذه مثل أشعة الليزر تتجه لشىء فتفتك به !! ما المانع من هذا ؟! إننا نفعل ذلك الآن ونسلط الأشعة على أى شىء ، والأشعة هى من أفتك الأسلحة فى زماننا ، ولماذا لانصدق أن كيماوية الحاسد عندما تهيج يتكون منها إشعاع يذهب إلى المحسود فيفتك به ؟ ومثلها مثل أى نعمة ينعمها ربنا عليك ، وبعد ذلك تستعملها فى الضرر . ومثال ذلك الرجل الذى عنده بعض من المال ؛ ومع ذلك يغلى حقداً على خصومه . فيشترى مسدساً أو بندقية ليقتلهم ؛ إنه يأخذ النعمة ويجعلها وسائل انتقام ، وهذا يأتى من هيجان الغريزة الداخلية المدبرة لانفعالات الإنسان .

إذن فهؤلاء القوم عندما جاء رسول الله مصدقاً بما عندهم ، ماالذى منعهم أن يصدقوه ؟ . لا شك أنهم حسدوه فى أن يأخذ هذه النعمة ، ونظروا إلى نعمة الرسالة على أنها مزية للرسل ، وهل كان ذلك صحيحا ؟ حقا إنها مزية للرسل ولكنها مع ذلك عملية شاقة عليهم ، والناس فى كل الأمم ـ ماعدا الأنبياء ـ يورثون أولادهم مالهم ، أما الأنبياء فلا يورثون أولادهم .

إنهم لم يأتوا ليأخذوا جاهاً ، أو ليستعلوا على الناس ، بل كلِّفوا بمتاعب جمة . إذن فأنتم تنظرون إلى السلطة التى أعطاكم الله إياها فى مسألة علم الدين . وتجعلونها أداة للترف والرفاهية وللعنجهية وللعظمة ، وحين يجىء رسول لكى ينفض عنكم ويخلصكم من هذه السيطرة ، ماذا تفعلون ؟ أنتم تحزنون ؛ لأنكم أقمتم لأنفسكم سلطة زمنية ولم تجعلوا أنفسكم فى خدمة القيم ، وأخذتم عظمة السيطرة فقط ، فلما جاء رسول يريد أن يزيل عنكم هذه السيطرة قلتم : لا . لن نتبعه . فإذا كنتم

تحسدون النبى عليه الصلاة والسلام على الرسالة وجعلتموها مسألة يُدَلِّله الله بها أو أنها تعطيه سيطرة ، فلماذا الحسد على سيدنا محمد وقد أعطى الله سيدنا إبراهيم الملك ، وأعطى لداود الملك ، وأعطى لسليمان الملك ، وأعطى ليوسف الملك ، فلماذا الحسد إذن عندما أراد الله سبحانه وتعالى أن يكرم الفرع الثانى من إبراهيم وهو إسماعيل عليه السلام ؟.

لقد كرم الله سبحانه الفرع الأول فى إسحاق وجاء من إسحاق يعقوب ، ومن يعقوب يوسف ، ثم جاء موسى وهارون ثم داود وسليمان ، كل هؤلاء قدكرموا ، وعندما يكرم سبحانه الفرع الثانى لإبراهيم وهو ذرية إسماعيل ويرسل منهم رسولاً ، تحزنون وتقفون هذا الموقف ؟

لماذا لا تنظرون إلى أن إسماعيل وفرعه أتى من ذرية إبراهيم ، ولماذا اعتبرتم الرسالة والنبوة نعمة مدللة ، ولم تنتبهوا إلى أنها عملية قاسية على الرسول ؟ لأن عليه أن يكون النموذج التطبيقى على نفسه وعلى آله ، ولا أحد من أهله يتمتع بذلك بل العكس ؛ فالنبى صلى الله عليه وسلم يقول : (إنا معشر الأنبياء لا نورث)[1] .

ويَحْرِم صلى الله عليه وسلم آل بيته من الزكاة . ويقول صلى الله عليه وسلم أيضا : (إن الصدقة لاتنبغى لآل محمد إنما هى أوساخ الناس)[2] .

وهكذا نرى أنه لم يكن يعمل لنفسه ولا لأولاده .

ويتابع الحق : « فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكاً عظيماً » و« الكتاب » هو المنهج الذى ينزل من السماء ، و« الحكمة » هى الكلام الذى يقوله الرسول مفسراً به منهج الله ، ومع ذلك آتاهم الله الملك أيضاً . فسيدنا يوسف صار أميناً على خزائن الأرض ، وأصبح عزيز مصر ، وسيدنا داود ، وسيدنا سليمان آتاهما الله الملك مع النبوة . إذن ففيه نبوة وفيه ملك ، ومحمد صلى الله عليه وسلم أعطاه

---

(١) رواه أحمد .

(٢) رواه مسلم .

ربنا النبوة ولم يعطه الملك فما وجه الحسد منكم له ؟!. ثم ماذا كان موقفكم من أنبيائكم الذين أعطاهم الله النبوة والملك ؟ يجيب الحق :

﴿ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾ ﴾

وقوله سبحانه:« فمنهم من آمن به » . والمقصود الإيمان بما جاء فى منهج إبراهيم والرسل الذين جاءوا من بعده الذين آتاهم الله النبوة والملك ، أو «منهم» أى من أهل الكتاب الذين نتكلم عنهم من آمن برسول الله صلى الله عليه وسلم كعبدالله بن سلام ، وكعب الأحبار مثلاً ، « ومنهم من صدّ عنه » أى أن منهم من كفر بمنهج الله ؛ لذلك يقول سبحانه بعدها : « وكفى بجهنم سعيراً » فكأن نتيجة الصدّ عن المنهج أنّه لا يأتى بعده إلا العذاب بجهنم ليصلوا بنارها ، وتكون مسعرة عليهم جزاءً على مافعلوا .

وبعد أن بين الحق سبحانه وتعالى موكب الرسل حينما أرسله الله على تتابع فى كونه ، جاء ليذكر الناس بالمنهج ، فالمنهج هو الأصل الأصيل فى مهمة آدم وذريته ؛ لأنه سبحانه وتعالى قد قال :

﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾

(من الآية ١٢٣ سورة طه)

وينقل آدم إلى ذريته معلوماته عن حركة الحياة وعن الحق وعن المنهج . إلا أن الله قدّر الغفلة فى خلقه عن منهجه ؛ فهذه المناهج تأتى دائماً ضد شهوات النفس الحمقاء العاجلة ، لكن لو نظرت إلى حقيقة المنهج الإلهى فأنت تجده يعطى النفس شهوات لكنها مُعلاة .

مثال ذلك عندما يقول :

﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾

(من الآية ٩ سورة الحشر)

وكل واحد عنده أشياء ويحتاج إليها ، لكنه يجد أخاه المؤمن يحتاج إليها أكثر منه فيؤثره على نفسه ، أهو يفضله عن نفسه ؟ لا ؛ لكنه يعطى هذا الشىء القليل فى الفانية كى يأخذه فى الباقية ، فأخذ شهوة نفسه لكن بشهوة معلاة ، والذى قلنا له : غض طرفك عن محارم غيرك . ظاهر هذا الأمر أننا نحجبه عن شهوة يشتهيها ، لكننا ساعة نحجبك عن شهوة تشتهيها فى حرام الفانية ، نريد أن نحقق لك شهوة فى حلال الخالدة . فأيهما أعشق للجَمَالِ ؟ الذى ينظر بتفحص للمرأة الجميلة وهى تسير ، أم الذى يغض عينه عنها ؟ الأعشق للجمال هو الذى غض بصره .

إن الدين لم يأت إلا ضد النفس الحمقاء التى تريد عاجل الأمر وإن كان تافهاً . ويوضح له : كن للآجل ومعه ؛ لأنه يبقى فلا يتركك ولا تتركه ، أما أى شهوة تأخذها فى هذه الدنيا فإما أن تتركها وإما أن تتركك ، لكن فى الآخرة لا تتركها ولا تتركك .

لقد عرف الصالحون الورعون كيف يستفيدون ، لكنّ الآخرين هم الحمقى الذين لم يستفيدوا ، فالحق سبحانه وتعالى يوضح لنا أن الحسرة تكون لمن أراح نفسه بشهوة عاجلة ثم أعقبها العذاب الآجل المقيم ، فهذه هى الخيبة الحقة ، فالدنيا دار الأغيار ، يأتى للإنسان فيها ما يؤلمه وما يسره ، وليس فيها دوام حال أبداً ؛ لأنها دنيا الأغيار ، ومادامت دنيا الأغيار فيكون كل شىء فيها متغيرًا . . ومادام كل شىء فيها متغيرًا . إذن فالذى فى نعمة قد يصيبه شىء من الضر ، والذى فى قوة قد يصيبه شىء من الضعف ، والذى فى ضعف قد تأتيه قوة ، وإلا لو ظل الضعيف ضعيفاً وظل القوى قوياً لما كانت الدنيا أغياراً .

ولذلك يقولون : احذر أن تريد من الله أن يتم عليك نعمته كلها ؛ لأنها لو تمت لك النعمة كلها وأنت فى دارالأغيار فانتظر الموت ؛ فتمام النعمة هو صعود لأعلى

منطقة فى الجبل وأنت فى دار الأغيار ، فهل تظل على القمة ؟ لا ، بل لابد أن تنزل ، فإياك أن تُسرَّ عندما تبلغ المسألة ذروتها ؛ لأنه سبحانه وتعالى يوضح : إنكم لابد أن تأخذوا هذه الدنيا على أنها معبر ، والذى يتعب الناس أنهم لا يحددون الغاية البعيدة ، بل إنهم يحددون الغايات القريبة .

إن من حمق بعض الناس أن يحزن الواحد منهم على فراق حبيب أو قريب له ، وخذها بالمنطق : ما غايتنا جميعاً ؟ إنها الموت ونعود إلى خالقنا . وهل عندما نعود إلى خالقنا نحزن ؟ لا ، بل يجب أن نسر ؛ لأننا فى الدنيا مع الأسباب ، أما بعد أن ننتقل إلى الآخرة فنكون مع المسبب . ففى الدنيا تكون مع النعمة وستصبح بعد ذلك مع المنعم ، فما يحزنك فى هذا ؟ إن هذا يحزنك ساعة أن كنت مع النعمة ولم تُراع المنعم ، لكن لو كنت مع النعمة وراعيت المنعمَ لسررت أنك ذاهب للمنعم .

وإن كانت المسألة هى أن نصل إلى المنعم الحق ونكون فى حضانته فلماذا الحزن إذن ؟ ومن الحمق أن بعض الناس لا تعامل الحق سبحانه وتعالى كما يعاملون أنفسهم .

هب أن إنساناً من غايته أن يخرج من أسوان إلى القاهرة ، إذن فالقاهرة هى الغاية . ثم جاء واحد وقال له : سنذهب سيراً على الأقدام ، وقال الآخر : أنا سآتى بمطايا حسنة نركبها . وقال ثالث : سآتى بعربة ، وقال رابع : سنسافر بطائرة وقال خامس : سنسافر بصاروخ ، إذن فكل وسيلة تقرب من الغاية تكون محمودة ، ومادامت غايتنا أن نعود إلى الحق فلماذا نحزن عندما يموت واحد منا ؟ أنت ـ إذن ـ تحزن على نفسك ولا تحزن على من مات ، إن الذى يموت بعد أن يرعى حق الله فى الدنيا يكون مسروراً لأنه فى حضانة الحق ومع المنعم ، وأنت مع النعمة الموقوتة إنّه يسخر منك لأنك حزنت ، ويقول : انظر إلى الساذج الغافل ، كان يريدنى أن أبقى مع الأسباب وأترك المسبب !

إننا نجد الذين يحزنون على أحبائهم لا يرونهم فى المنام أبداً ؛ لأن الميت لا تأتى روحه لزيارة من حزن لأنه ذهب إلى المنعم ، وعلى الناس أن تدرك الغاية من الوجود

بأن تكون مع أسباب الحق فى الدنيا ثم تصير مع الحق ، والموت هو النقلة التى تنقلك من الأسباب إلى المسبب ، فما الذى يحزنك فى هذا ؟

نحن نقصِّر عليك المسافة . . فبدلاً من أن تقابلك عقبات الطريق ، وقد تنجح أو لا تنجح ، وبعضهم يقول : مات وهو صغير ولم ير الدنيا ، نقول لهم : وهل هذه تكون خيرًا له أو لا ؟ أنت مثلاً كبرت وقد تكون مقترفاً للمعاصى ؛ فلعل الله أخذ الصغير حتى لا يعرضه للتجربة ، ضع المسألة أمامك واجعلها حقيقة .

عن الحارث بن مالك الأنصارى أنه مرّ برسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له : كيف أصبحت يا حارث ؟ فقال : أصبحت مؤمنا حقا . قال : « انظر ما تقول ؛ فإن لكل شيء حقيقة فما حقيقة إيمانك ؟ فقال : عزفت نفسى عن الدنيا فأسهرت ليلى ، وأظمأت نهارى وكأنى أنظر إلى عرش ربى بارزا ، وكأنى انظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها ، وكأنى أنظر إلى أهل النار يتضاغوْن[1] فيها فقال : « يا حارث عرفت فالزم ، ثلاثا »[2] .

ولنا العبرة فى سيدنا حذيفة ـ رضى الله عنه ـ حينما سأله رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له : كيف أصبحت ؟ أى كيف حالك الإيمانى ؟ قال حذيفة : يا رسول الله ، عزفت نفسى عن الدنيا فاستوى عندى ذهبها ومدرها ـ أى أن الذهب تساوى مع الحصى ، هذه هى مسألة الدنيا ـ وأضاف حذيفة : وكأنى أنظر أهل الجنة فى الجنة ينعمون ، وإلى أهل النار فى النار يعذبون

وساعة لا تغيب عن بال سيدنا الحارث صورة الآخرة ، فهو يسير فى الحياة مستقيما . . فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : « عرفت فالزم » .

الحق سبحانه وتعالى حين يذكر لنا بعض الأحكام يذكر لنا أيضاً خبر بعض الناس الذين يتمردون على الأحكام ، ثم يذكرنا بحكاية الجنة والنار ؛ ولذلك يقول لنا :

---

(١) يتضاغون : يصيحون من الألم
(٢) رواه الطبرانى .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ ﴾

و « نصليهم » من الاصطلاء ، قد يقول قائل : مادام يصلى النار وكلنا يعرف أن نار الدنيا حين تحرق شيئاً ينتهى إلى عدم ، وحين ينتهى إلى عدم إذن فلا يوجد ألم ! ونقول : لتنتبه إلى أن الحق سبحانه وتعالى يقول فى هذا الأمر « كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب » . . إذن فالعذاب ليس كنار الدنيا ، لأن نار الدنيا تحرق وتنتهى المسألة . أما نار الآخرة فإنها عذاب سرمدى دائم مكرر « كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب » . . فإذا ما حرّقت الجلود فإن جلوداً أخرى ستأتى ، أهى عين الأولى أم غيرها ؟ وحتى أوضح ذلك : أنت عندما يكون عندك خاتم مثلاً ، ثم تقول : أنا صنعت من الخاتم خاتماً آخر ، فالمادة واحدة أيضاً ، فهل التعذيب للجلود أو للأعضاء ؟ إن العذاب دائماً للنفس الواعية ، بدليل أن الإنسان قد يصيبه ورم فيه بعض الصديد « دُمّل » يتعبه ولا يقدر على ألمه . . وبعد ذلك يغفل فينام ، بمجرد أن ينام فلا ألم . لكن عندما يستيقظ يتألم من جديد .

إذن فالألم ليس للعضو بل للنفس الواعية ، بدليل أننا عندما ارتقينا فى الطب ، قلنا إن النفس الواعية نستطيع أن نخدرها بحيث يحدث الألم ولا تشعر به ، ويفتح « الدُّمل » بالمشرط ولا يحس صاحبه بأى ألم . وهكذا تجد أن الجلود والأعضاء ليس لها شأن بالعذاب ، إنما هى موصلة للمعذب ، والمعذَّب هى النفس الواعية . . بدليل أنها ستشهد علينا يوم القيامة . . تشهد الجلود والجوارح ، وستكون آلة لتوصيل العذاب . . ومسرورة لأنها توصل لهم العذاب .

إنه نظام إلهى فلا تتعجبوا من القرآن ، فإن العلم كلّما تقدم هدانا إلى شىء من آيات الله فى الكون . أنتم ـ الآن ـ تخدرون النفس الواعية وتشقّون الجسد بالمشارط

كما يحلو لكم فلا يحدث له ألم ، وعرفتم أن الألم ليس للعضو ، إنما الألم للنفس الواعية ، إذن فكل الجوارح هى آلات توصِّل الألم للنفس الواعية ، وتكون مسرورة ؛ لأن النفس الواعية تعذب ، وهذه يشبهونها ـ مثلا ـ بواحد عنده « حكة » فى جلده ، فيهرش ، والهرش يسيل دمه فيكون مستلذاً .

إذن فقوله : « كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب » أى أن الجلود تبدل وتنشأ جلود أخرى من نفس مادتها توصل العذاب للنفس الواعية ، وهكذا .

« إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم نارا كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب » . نحن نعلم أن الحق سبحانه وتعالى أنزل كتاباً هو القرآن ، وجعله معجزة ومنهجا ، وهذه هى الميزة التى امتاز بها الإسلام . فمنهج الإسلام هو عين المعجزة ، وكل رسول من الرسل كان منهجه شيئا ومعجزته كانت شيئا آخر .

إن سيدنا موسى منهجه التوراة ومعجزته : العصا ، وسيدنا عيسى منهجه : الإنجيل ، ومعجزته : إبراء الأكمه والأبرص بإذن الله ، لكن معجزة رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت القرآن ؛ لأن دينه سيكون الامتداد النهائى لآخر الدنيا ، ولذلك جعل الله منهجه هو عين معجزته ، لتكون المعجزة دليلاً على صدق المنهج فى أى وقت ، ولا يستطيع واحد من أتباع أى نبى سابق على رسول الله أن يقول : إن معجزة الرسول الذى أتبعه هى منهجه ؛ لأن معجزات الرسل السابقين على رسول الله كانت عمليات كونية انتهت مثل عود كبريت احترق ، فمن رآه رآه وانتهى ، لكن المسلم يستطيع أن يقف ويعلن بملء فيه : إنَّ محمداً رسول الله وصادق ، وتلك معجزته . فمعجزة محمد صلى الله عليه وسلم باقية بقاءً أبدياً ، ومتصلة به أبداً . أما معجزة كل رسول سبق رسول الله فقد أدت مهمتها لمن رآها وانتهت ، وانفصلت معجزة كل رسول سابق على رسول الله عن منهجه .

والمنهج القرآنى فيه أحكام ، والأحكام معناها ؛ افعل كذا ، ولا تفعل كذا . وهى واضحة كل الوضوح منذ أن أنزل الله القرآن على رسوله وحتى تقوم الساعة . ومن فعل مطلوب الأحكام يثاب ، ومن لم يفعله يعاقب . وكل الناس سواسية فى مطلوب الأحكام إلى أن تقوم الساعة .

أما آيات الله الكونية التي لا تتأثر . . فأى فائدة للإنسان إن عرفها أو لم يعرفها : فقد طمرها الله وسترها فى القرآن مع إشارة إليها ، لأن العقل المعاصر لنزول الكتاب لم يكن قادرا على استيعابها فى زمن الرسالة . ولو أن القرآن جاء بآية واضحة تقول : إن الأرض كروية وتدور ، بالله ماذا كان المعاصرون لرسول الله يقولون ؟ إن بعضاً من البشر الآن يكذبون ذلك ، فما بالنا بالبشر المعاصرين لرسول الله صلى الله عليه وسلم الذين لو قال لهم رسول الله ذلك لانصرفوا عن اتباع ما جاء به .

لقد كانوا يستفيدون من كروية الأرض ، مثلما يستفيد منها الفلاح أو البدوى ، ومثلما يستفيد الناس الآن الذين لم يدرسوا الكهرباء برؤية التليفزيون وضوء المصباح الكهربائى وغير ذلك من الاستخدامات، دون معرفة علمية بتفاصيل ذلك ، إنّ الشمس تسطع على الدنيا فيتبخر الماء من الأنهار والمحيطات والبحار ليصير سحاباً ، ثم ينزل المطر من السحاب . وكل هذه الآيات الكونية لم يعط الله أسرارها إلا بقدر ما تتسع العقول ، وترك فى كتابه ما يدل على ما يمكن أن تنتهى إليه العقول الطموحة بالبحث العلمى .

وعندما نتعرف نحن ـ المسلمين ـ على اكتشاف علمى جديد فى الكون ، نقول : إن القرآن قد أشار له ، لكن قبل ذلك لا يصح أن نقول ذلك حتى لا يكذب الناس هذا الكتاب المعجز ، فسبحانه القائل :

﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ﴾
(من الآية ٣٩ سورة يونس)

لو أن القرآن قال : إن كل شىء فى الوجود يتكاثر ، وفيه موجب وفيه سالب ، ذكر وأنثى ، أكانوا يصدقون ذلك ؟ . لا ؛ لأنهم كانوا لا يعرفون الذكر والأنثى إلا فى الرجل والمرأة ، ويعرفون ذلك فى الحيوانات ؛ وأيضاً فى بعض النباتات مثل النخل ، لكن هناك نباتات كثيرة لا يعرفون حكاية التكاثر فيها ، ومثال ذلك القمح الذى نزرعه ونأكله ، وكذلك الذرة ، لم يكونوا عارفين بأن عنصر الذكورة يوجد فى « الشواشى » العليا فى كوز الذرة وأن الهواء يضرب تلك الشواشى فتنزل منها حبوب اللقاح فيخرج الحب ، ولذلك نجد الزّارع الذكى هو الذى يفتح «كوز الذرة» من أعلاه قليلاً حتى يتيح لحبوب اللقاح أن تصل إلى موقعها . وقد يفتح الفلاح أحد « كيزان الذرة » فيجد حبة ميتة وسط الحبوب المتراصة ويكتشف أنها حبة ليس لها خيط أى لم تتصل بحبوب اللقاح وهو ما يقولون عنه فى الريف « سنة عجوز » .

إذن فكل تكاثر له ذكورة وأنوثة ، ولذلك يقول ربنا :

﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

(سورة يس)

وكنا نعرف الأزواج فى الأنفس ، ثم عرفناها فى النبات ، وجاء الحق بـ « مما لا يَعلمون » لِتُدخل كل شيء ، وتكشف الموجب والسالب فى الكهرباء ، وصرنا نعرف أن كل كائن فيه ذكر وأنثى ، وكلما تقدم العلم فهو يشرح الآيات الكونية .

ومن رحمة الحق سبحانه بعقول الأمة المكلَّفة برسالة محمد لم يشأ أن يجعل نواميسه فى الكون واضحة صريحة حتى لا تقف العقول فيها وتعجز عن فهمها ، وخاصة أن الكتاب واجه أمّة أمّيَّة ؛ ليست لها ثقافة . وهب أنه واجه العالم المعاصر ، إن هناك قضايا فى الكون لا يعلمها العالم المعاصر ، فلو أن القرآن تعرض لها بصراحة لكانت سبباً من الأسباب التى تصرف الناس عن الكتاب . والقرآن جاء كتاب منهج ، والمعجزة أمر جاء لتأييد المنهج ، فلم يشأ أن يجعل من المعجزة ما يعوق عن المنهج ، لكنه ترك فى الكون طموحات للعقل المخلوق لله والمادة الكونية المخلوقة لله ، وكل يوم يكتشف العقل البشرى أشياء ، وهذا الاكتشاف لا يأتى من فراغ ، بل يأتى من أشياء موجودة .

إذن فلو رددت أدق أقضية العلم التى يصل إليها العقل المعاصر ، ونسبتها فى الكون لرجعت إلى الأمر البديهى . فلا يوجد صاحب عقل ابتكر أو جاء بحاجة جديدة ، إنما هو أعمل عقله فى موجود فاستنبط من مقدمات الموجود قضية معدومة ، ثم أصبحت القضية المعدومة مقدمة معلومة ليستنبط منها من يجىء بعد ذلك . ولذلك فالعلماء عادة قوم يغلبهم طابع التهذيب عندما يقولون : اكتشفنا الأمر الفلانى ، يعنى كأنه كان موجوداً .

إن الحق سبحانه وتعالى يعطى لنا فكرة تقرب لنا الفهم ، فنحن عندما كنا نتعلم الهندسة مثلاً ؛ عرفنا أن الهندسة مكونة من نظريات ، تبدأ من نظرية « واحد » ،

وتنتهى إلى ما لا نهاية ، وحين جاء لنا مدرس ليبرهن لنا على نظرية « مائة » ، استخدم فى البرهان على ذلك النظرية التسع والتسعين ، وعندما كان يبرهن على النظرية « التسع والتسعين » استعمل ما قبلها .

إذن فكل برهان على نظرية يستند إلى ما قبلها ، والعقل الواعى المفكر المستنبط هو الذى يرتب المقدمات ويستخلص منها النتائج . وكل شىء فى الكون يشترك فيه كل الناس . لكن العقل الذى يرتب ويستنبط يخيل إليه وإلى الناس أنه جاء بجديد ، وهو لم يأت بجديد . بل ولَّد من الموجود جديداً ، مثال ذلك الطفل عندما يولد من أبويه ، هل هما جاءا به من عدم ؟ لا ، بل جاء الولد من تزاوج ، وعندما نسلسل الأمر نصل إلى آدم ، فمن الذى جاء بآدم ؟. إنه الله .

إذن فالبديهيات التى فى الكون هى خميرة كل علم تقدمى وهى من صنع الله الذى أتقن كل شىء صنعاً ، وكل نظرية مهما كانت معقدة فى الكون منشؤها من الأمر البديهى ، مثال ذلك البخار ؛ عندما اكتشفوه وقبل أن يسيّروا به الآلات ماذا حدث ؟ . كان هناك من يجلس فالتفت فوجد الإناء الذى به الماء يغلى ثم وجد غطاء الإناء يرتفع وينخفض ، وعندما تعرف على السرّ ، اكتشف أن كل بخار يستطيع أن يعطى قوة دافعة ، وبذلك بدأ عصر البخار . إذن فهو ذكى ، وقد أخذ اكتشافه من بديهية موجودة فى الكون ، فإياك أن تغتر وتقول : إن العقل هو الذى اخترع ، ولكن العقل عمل بالجهد فى مطمورات الله فى الوجود ، ورتب ورتب ثم أخرج الاكتشاف .

لذلك فعندما يبتكر العقل البشرى شيئاً جديداً نقول له : أنت لم تبتكر ، بل اكتشفت فقط ، والحق سبحانه وتعالى يترك هذه العملية فى الوجود . ويقول :

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾

(من الآية ٥٣ سورة فصلت)

والبشرية عندما تكتشف شيئاً جديداً ، نقول لهم : القرآن مسّها وجاء بها ، فيقولون : عجباً هل فعل القرآن ذلك منذ أربعة عشر قرناً ، على الرغم من أنه نزل

ليخاطب أمة أمية ، وجاء على لسان رسول أمّى . ونقول : نعم .

والآية التى نحن بصددها فيها هذا :

﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا ﴾

(من الآية ٥٦ سورة النساء)

والجلود والأحاسيس شرحناها من قبل ، ونظرية « الحسّ » ـ كما نعرف ـ شغلت العلماء الماديين ، وأرادوا أن يعرفوا كيف نحسّ ؟ منهم من قال : نحن نحسّ بالمخ . نقول لهم : لكن هناك مسائل لا تصل للمخ ونحس بها ، بدليل أنه عندما يأتى واحد أمام عينى ويوجه أصبعه ليفتحها ويثقبها فقبلما يصل أصبعه أغلق عينى أى أن شيئاً لم يصل للمخ حتى أحسّ . وبعض العلماء قال : إن الإحساس يتم عن طريق النخاع الشوكى والحركة العكسية ، ثم انتهوا إلى أن الإحساس إنما ينشأ بشعيرات حسية منبطحة مع الجلد ؛ بدليل أنك عندما تأخذ حقنة فى العضل ، فالحقنة فيها إبرة ، ويكون الألم مثل لدغة البرغوث يحدث بمجرد ما تنفذ الإبرة من الجلد ، وبعد ذلك لا تحس .

إذن فمركز الإحساس فى الإنسان هو الشعيرات الحسية المنبطحة على الجلد ، بدليل أن ربنا أوضح : أنه عندما يحترق الجلد يمتنع الإحساس ، فأنا أبدل لهم الجلد ليستمر الإحساس : « كلما نضجت جلودهم » أى صارت محترقة احتراقا تاما وتعطلت عن الإحساس بالألم ، آتيهم بجلد آخر لأديم عليهم العذاب؛ لأنه هو الذى سيوصل للنفس الواعية فتتألم ، إذن فالآية مسّت قضية علمية معملية ، لو أن القرآن تعرض لها بصراحة وجاء بصورة فى الإحساس تقول : يا بنى آدم محلّ الإحساس عندكم الجلد ، لما فهموا شيئاً . لكنه تركها لتنضج فى العقول على مهل .

« كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب » . فتكون علّة التبديل للجلود التى أحرقت بجلود جديدة كى يدوم العذاب ويذيل الحق الآية : « إن الله كان عزيزا حكيما » والعزيز : هو الذى لا يُغلب ولا تَقدر أن تحتاط من أنه يهزمك أبداً ، فقد يقول كافر : لقد تلذذنا بالمعصية مرة لمدة خمس دقائق ، ومرة لمدة

ساعتين فما يضيرنى أن يحترق جلدى وتنتهى المسألة !! نقول له : لا. إن الذى يعذبك لا يُغلب فسوف يديم عليك العذاب بأن يبدل لك الجلد بجلد آخر ، وسبحانه حكيم. فالمسألة ليست مسألة جبروت يستعمله ، لا . هو يستعمل جبروته بعدالة .

وبعد أن جاء بالعذاب أو بالجزاء المناسب لمن رفضوا الإيمان ، لم ينس المقابل؛ لكى يكون البيان للغايتين : غاية الملتزم وغاية المنحرف . ولذلك يقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾ ﴾

وفى هذه الآية يصف الحق ثواب الفئة المقابلة للفئة السابقة وهم الذين آمنوا ، ونعلم أن آخر موكب من مواكب الرسالة هو رسالة محمد صلى الله عليه وسلم . إذن فأمة سيدنا محمد هى أقرب الأمم إلى لقاء الله . فالأمم من أيام آدم أخذت زمناً طويلاً ، لكننا نحن المسلمين قريبون ، ولذلك يقول النبى صلى الله عليه وسلم :

« بُعِثْتُ أنا والساعة كهاتين »[1] ، .

ولذلك لم يقل الحق فى هذه الآية : سوف ندخلهم . بل قال : « سندخلهم » ، أما مع الآخرين فاستخدم سبحانه « سوف » لأنها بعيدة ، أو أن هذا كناية وإشارة من الله لإمهال الكفار ليتوبوا ، وعندما يقرب لنا سبحانه المسافة فإنه يغرينا بالطاعة ، المسألة ليست بعيدة ، بل قريبة ؛ لذلك يعبر عنها : « سندخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار » .

---

(١) رواه أحمد والبخارى ومسلم والترمذى عن أنس .

إن كلمة « الجنة » مأخوذة من « الجَن » ، والستر ، و« الجَنَّة » هى البستان الذى به شجر إذا سار فيه الإنسان يستره ، وهو غير البساتين الزهرية التى تخرج زهراً قريباً من الأرض تمثل ترفا للعيون فقط ، أما الجنة ففيها أشجار عالية كثيفة بحيث لو سار فيها أحد يُستر ، ففيها الاقتيات وفيها كل شىء ، فهى تسترك عن أن تلتفت إلى غيرها لأن فيها ما يكفيك ، فالذى عنده حاجة لا تكفيه يتطلع إلى ما يكفيه ، لكن من عنده حاجة تكفيه فقد انستر عن بقية الوجود ، والحق سبحانه وتعالى يعطينا صورة عن شىء هو الآن عنا غيب ، وسيصير بإذن الله وبمشيئته مشهداً ، ونحن نعرف أن الجنة بها كل ما تتمناه النفس ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : قال الله عز وجل :

« أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر »[1] مصداق ذلك فى كتاب الله « فلا تعلم نفس ما أُخْفِىَ لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون » . كانوا يعملون »

ونعلم أن الكائنات الوجودية يعرفها الإنسان بما يناسب إدراكه . . فقال : « ما لا عين رأت ولا أذن سمعت » ، والعين حين ترى تكون محدودة ، لكن السمع دائرته أوسع من الرؤية ، لأنه سيسمع ممن رأى ، إنه سمع فوق ما رأى ، إذن فدائرة الإدراكات تأتى أولاً : بأن يرى الإنسان ، ثم بأن يسمع ، وهو يسمع أكثر مما يرى ، وعلى سبيل المثال قد أرى أسوان لكننى أسمع عن أمريكا ، فدائرة السماع أوسع .

وبعد ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « ولا خطر على قلب بشر » أى أن ما فى الجنة أكبر من التخيلات ، إذن فكم صفة هنا للجنة ؟ الأولى قوله : ما لاعين رأت. والعين مهما رأت فدائرتها محدودة ، والثانية : قوله : ولا أذن سمعت.والأذن إن سمعت فدائرتها أوسع قليلاً . والثالثه : قوله : ولا خطر على قلب بشر، وهذا أوسع من التخيلات ، فإذا كنت يا حق سبحانك ستعطينا فى الجنة : ما لاعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.فبأى الألفاظ يا ربى تؤدى لنا هذه الأشياء ، وألفاظ اللغة إنما وضعت لمعانٍ معروفة ، ومادمت ستأتى بحاجة لم ترها عين ، ولم تسمعها إذن ولم تخطر على قلب بشر ، فأى الألفاظ ستؤدى هذه المعانى ؟

---

(١) رواه مسلم فى صفة الجنة .

لقد أوضح صلى الله عليه وسلم : أنّه لا توجد ألفاظ ؛ لأن المعنى يُعرف أولاً ثم يوضع له اللفظ ، فكل لفظ وضع فى اللغة معروف أن له معنى ، لكن ما دامت الجنة هذه لم ترها عين ، ولم تسمعها أذن ، ولم تخطر على قلب بشر ، فلا توجد كلمات تعبر عنها ، لذلك لم يقل صلى الله عليه وسلم : إن الجنة هكذا بل قال : « مثل الجنة » أما الجنة نفسها ، فليس فى لغتنا ألفاظ تؤدى هذه المعانى ، وحيث إن هذه المعانى لا رأتها عين ولا سمعتها أذن ولا خطرت على قلب بشر ؛ لذلك فليس فى لغة البشر ما يعطينا صورة عن الجنة ، وأوضح الحق سبحانه : سأختار أمراً هو أحسن ما عندكم وأعطيكم به مثلاً فقال :

﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَـٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَـٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَـٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّـٰرِبِينَ وَأَنْهَـٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ﴾

(من الآية ١٥ سورة محمد)

ونحن نرى الأنهار ، والحق يطمئننا هنا بأن أنهار الجنة ستختلف فهو سبحانه سينزع منها الصفة التى قد تعكر نهريتها ؛ فقد تقف مياه النهر وتصبح آسنة متغيرة ، فيقول : « أنهار من ماء غير آسن » ، إذن فهو يعطينى اسماً موجودا وهو النهر ، وكلنا نعرفه ، لكنه يوضح : أنا سأنزع منه الأكدار التى تراها فى النهر الحادث فى الحياة الدنيا، وأيضاً فأنهار الدنيا تسير وتجرى فى شق بين شاطئين،لكن أنهار الجنة سترى الماء فيها وليس لها شطوط تحجز الماء لأنها محجوزة بالقدرة . . وستجد أيضاً أنهاراً من لبن لم يتغير طعمه .

إن العربى كان يأخذ اللبن من الإبل ويخزنه فى القِرَب ، وبعد ذلك ترحل الإبل بعيداً إلى المراعى وإلى حيث تسافر ، وعندما كان الأعرابى يحتاج إلى اللبن فلم يكن أمامه غير اللبن المخزن فى القرب ، ويجده متغير الطعم لكنْ لا يجد غيره ؛ لذلك يوضح الحق : سأعطيكم أنهاراً من لبن فى الجنة لم يتغير طعمه ، ثم يقول : « وأنهار من خمر » وهم يعرفون الخمر ولنفهم أنها ليست كخمر الدنيا ؛ لأنه يقول :

« مثل » . . ولم يقل الحقيقة فقال : أنهار من خمر لكنها خمر « لذة للشاربين » ، وخمر الدنيا لا يشربها الناس بلذة ، بدليل أنك عندما ترى من يشرب كأس خمر . . فهو يسكبه فى فمه مرة واحدة ! ليس كما تشرب أنت كوباً من مانجو وتتلذذ به ، إنه يأخذه دفعة واحدة ليقلل سرعة مروره على مذاقاته لأنه لاذع ومحمض ؛ وتغتال العقول وتفسدها . لكن خمر الآخرة لا اغتيال فيها للعقول .

إذن فحين يعطينى الحق مثلاً للجنة . . فهو ينفى عن المثل الشوائب ، ولذلك نجد الأمثال تتنوع فى هذا المجال ؛ فالعربى عندما كان يمشى فى الهاجرة ، ويجد شجرة « نبق » ويقال لها : « سدر » كان يعتبرها واحة يستريح عندها ، ويجد عليها النبق الجميل، فهو يمد يده ليأكل منها لكنّه قد يجد شوكاً فيتفادى الشوك، وفى بعض الأحيان تشكه شوكة ، وعندما لا يجد فى هذا الشجر شوكا يقول : هنا « سدر مخضوض » أى شجرة نبق لا شوك فيها ، والحق يأتى بكل الآفات التى فى الدنيا وينفيها عن جنة الآخرة .

« وأنهار من عسل مصفى » وكان العرب يأخذون العسل من الجبال فالنحل يصنع خلاياه داخل شقوق الجبال ، وعندما كانوا يخرجون العسل من الجبال يجدون فيه رملاً وحصى ، فأوضح الحق : ما يعكر عليك العسل هنا فى الدنيا أنا أصفيه لك هناك ، ومع أنه مثل لكنه يصفيه أيضاً ، ولماذا مثّل ؟ . . لأنه مادام نعيم الجنة « لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » . . فتكون لغة البشر كلها لا تؤدى ما فيها . . لكنه ـ سبحانه ـ يعطينا صورة مقربة ، ويضرب الله المثل بالصورة المقربة للأشياء التى تتعالى عن الفهم ليقربها من العقل ، ومثال ذلك عندما أراد سبحانه أن يعطينا صورة لتنوير الله للكون ، وليس لنور الله الذاتى ، بل لتنوير الله للكون ، فيقول :

﴿ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ﴾

(من الآية ٣٥ سورة النور)

إنه يعطينا مثلاً مقرباً لأن لغتك ليس فيها الألفاظ التى تؤدى الحقيقة ، ولذلك يقول :

﴿ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾

(من الآية ١٠٠ سورة التوبة)

ومادامت جنات ففيها شجر ملتف وعالٍ ، ونحن نعرف أن الشجر لا بد أن يكون فى منطقة فيها مياه ؛ لذلك قال : « تجرى من تحتها الأنهار » ، ومرة يقول : « تجرى تحتها الأنهار » لأن ما يجرى تحتها قد يكون آتيا من مكان آخر ، ويكون منبعها من مكان بعيد وتجرى الأنهار تحت جنّتك ، وقد تظن أن بإمكان صاحب النبع أن يسدّها على جنتك ، فيشرح الحق : لا.هى جاءت من تحتها مباشرة .

ويقول الحق عن أهل الجنة : « خالدين فيها » وهو سبحانه وتعالى يخاطب قوماً شهدوا بعض النعيم فى دنياهم من آثار نعمه عليهم ، لكنهم شهدوا أيضاً أن النعمة تزول عن الناس ، أو شهدوا أناساً يزولون عن النعمة ، فقال سبحانه عن جنة الآخرة : « خالدين فيها أبداً » فلا هى تزول عنهم ولا هم يزحزحون عنها .

ويعطينا سبحانه أيضاً صورة من النعيم الذى يوجد عندنا فى الدنيا لكنه يزول أيضاً أو نزول نحن عنه : « ولهم فيها أزواج مطهرة » وأزواج جمع « زوج » ، وعندما يصف الحق سبحانه وتعالى جمعا فهو يأتى فى الصفة بجمع أيضاً مثل قوله :

﴿ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ﴾

(من الآية ١٣ سورة سبأ)

لأن « قدور » جمع « قِدر » ، ولم يقل هنا : وأزواج مطهرات وجاء بها مفردة لأن الرجل فى الدنيا قد يتزوج بأكثر من واحدة فينشأ بين الزوجات المتعددات ظلال الشقاق فكأنهن متنافرات ، فقال : إنهن كلهن سيكنَّ أزواجاً على صورة واحدة من الطهر ، وليس فى أى منهن ما يعكر صفو الأزواج كما يكون الأمر فى الدنيا ، ولا يقولن واحد : « كيف تقبل المرأة أن يكون لها ضَرة فى الآخرة ؟ » لأن الحق سبحانه نزع من الصدور كل ما كان يكدر صفو النفوس فى الدنيا فقال :

﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ ﴾

(من الآية ٤٣ سورة الأعراف)

إذن فكأنهن ـ وإن تعددن ـ فى سياق واحد من الطهر مما لا يعكر صفو الزوج ، إنّه يعجبك شكلها ، ستعجبك ، أخلاقها ليس فيها عيب ولا نقص مما كان يوجد فى الدنيا إنها مطهرة من ذلك كله . إذن فهو يعطينى خلاصة ما يمكن أن يتصور من النعيم فى الأزواج .

ويكمل الحق : « وندخلهم ظلاًّ ظليلاً » . ولغة العرب إذا أرادت أن تؤكد معنى فهى تأتى بالتوكيد من اللفظ نفسه ، فيقول العربى مثلاً : «هذا ليل أليل» أى ليل حالك ، وعندما يبالغ فى « الظل » يقول:« ظليل » . وما هو « الظل » ؟ . « الظل » هو : انحسار الشمس عن مكان كانت فيه أو لم تدخله الشمس أصلاً كأن يكون الإنسان داخل كهف أو غار مثلاً .

إن كلمة ظل ظليل يعرفها الذين يعيشون فى الصحراء ، فساعة يرى الإنسان هناك شجرة فهو يجلس تحتها ويتمتع بظلها ، والظل نفسه قد يكون ظليلاً ، مثال ذلك « الخيام المكيفة » التى يصنعونها الآن ، وتكون من طبقتين : الطبقة الأولى تتعرض للشمس فتتحمل السخونة ، والطبقة الثانية تحجز السخونة ، ويسمون هذا السقف « السقف المزدوج » . ويوجد خاصة فى الأماكن العالية ؛ لأن الشقة على سبيل المثال التى تعلوها أدوار تكون محمية ، لكن الشقق الموجودة فى آخر دور خصوصاً فى البلاد الحارة تكون السخونة فيها صعبة وشديدة ؛ لذلك يصنعون سقفاً فوق السقف ، وبذلك يكون الظل نفسه فى ظل .

ولماذا الإنسان يسعد بالظل تحت شجرة أكثر من سعادته بالظل فى جدار ؟ لأن الظل فى جدار مكون من طبقة واحدة ، صحيح أنه يمنع عنا الشمس لكنه أيضاً يحجب الهواء ، لكن الجلوس فى ظل الشجرة يتميز بأن كل ورقة من أوراق الشجرة فوقها ورقة ، وأوراقها بعضها فوق بعض ، وكل ورقة فى ظل الورقة الأعلى . ولأن كل ورقة خفيفة لذلك يداعبها الهواء ، فتحجب عن الجالس تحت الشجرة حرارة الشمس ، وتعطيه هواء أيضاً ، هذا هو معنى قوله : « ظلاًّ ظليلاً » .

ولذلك فعندما أراد الشاعر أن يصف الروضة قال :

وقانا لفحةَ الرمضاءِ وادٍ سقاه مضاعف الغيث العميم
نزلنا دوحه فحنا علينا حنو المرضعات على الفطيم
وأرشفنا على ظمأ زلالاً ألذ من المدامة للنديم
يصد الشمس أنّى واجهتنا فيحجبها ويأذن للنسيم

والشاعر هنا يصف الموقف حين يسير الإنسان فى صحراء ثم ينزل فى وادٍ به دوح وهذا الدوح يَحنو على الإنسان حنو الأم على طفلها فى سن الفطام . وأنه قد سقاهم من مائه ما يلذ . وتصد الشمس عنهم الأشجار الكثيفة ولكن النسيم يمر بين أوراق الشجر . وهكذا نفهم أن كلمة « ظل ظليل » ، أى أن الظل فى ذاته مظلل .

وبعد أن تكلم الحق عن الغايات التى تنتظر الصنفين من خلقه : الصنف الذى يتأبى على منهج الله ، والصنف الذى يتطامن لمنهج الله : الصنف الأول أعد له الله النار التى تشوى جلوده ويبدله جلودا غيرها ليذوق العذاب ، والصنف المؤمن الذى أعد الله له الجنة ذات المواصفات المذكورة . وبعدما يجعل الغاية واضحة فى ذهننا من الكلام عن النار والكلام عن الجنة يلفتنا إلى حكم جديد ؛ لأن النفس تكون كارهة للنار ومحبة للجنة ، وعندما يأتى حكم جديد تتعلق النفس به وتنفذه ؛ لأنها قريبة العهد ، بالترهيب من النار والترغيب فى الجنة،فيجعل الحق هذا الأمر مرة تذييلاً لما تقدم ، ومرة أخرى يجعله تمهيداً لما يأتى ؛ كى تستقبل الأحكام الجديدة فى ذهنك وتتضح لك الغايةُ التى تنتظر مَن التزم ، والغاية التى تنتظر من انحرف .

وعندما يأتى الحكم والغاية متضحة فى الذهن ومهيئة للإنسان فالتكليف يوضع فى بؤرة الشعور ؛ لأن هناك حاجات كثيرة تعلمها النفس البشرية ، ورحمة الله بالخلق أن هذا الرأس الذى فيه حافظة ، وفيه ذاكرة ، وفيه مخيلة ، لا يقدر أن يستوعب كل المعلومات فى بؤرة الشعور مرة واحدة ، ولا يمكن أن يجىء لك معنى جديد إلا إذا تزحزح المعنى الذى كنت مشغولاً به فى ذهنك قليلاً عن بؤرة الشعور وذهب إلى حاشية الشعور ، فإن بقى المعنى فى مكانه فلن يأتى لك خاطر جديد .

راجع أصله وخرَّج أحاديثه د. أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .

إذن فبؤرة الشعور هى التى فيها ما أنت الآن بصدده فلا يمكن أن تتداخل الأفكار فى البؤرة الشعورية ، ولذلك عندما تريد أن تستدعى حاجة فى بؤرة الشعور . فالمعانى تتداعى كى تأتى بما فى حاشية الشعور إلى بؤرة الشعور . وساعة يأتى ما تريده فى بؤرة الشعور يذهب الخاطر الأول .

إياك أن تظن أن العقل البشرى يستطيع أن يواجه فى بؤرة الشعور كل المعلومات ، لا . فمن رحمة الله أنه وضع لشعورك نظاما تخزن فيه معلوماتك ، ولذلك فأنت قد تتذكر حاجة من عشر سنوات ، فإذا كانت قد ذهبت من فكرك فكيف تذكرتها ؟ . إذن فهى موجودة لكنها موجودة فى الحواشى البعيدة للشعور . . وعندما تداعت المعانى خرجت الخاطرة أو الحادثة إلى بؤرة الشعور ؛ ثم تؤدى مهمتها وتذهب ؛ وتأتى أخرى فى بؤرة الشعور .

إن هذا الذهن البشرى فيه قوة وطاقة يختزن فيها الأحداث ، وعلى الرغم من ذلك تختلف قدرات الناس ، فهناك من يحفظ قصيدة من عشر مرات ، وهناك ذهن يحفظ من مرتين ، وهناك من يحفظ من ثلاث مرات . إن الذهن كآلة التصوير « الفوتوجرافى » يلتقط من مرة واحدة ، والمهم فقط أن تكون بؤرة شعورك خالية ساعة الالتقاط . فإن كانت بؤرة شعورك خالية من غيرها تلتقطها .

أنت تكرر القصيدة أو الآية أو الكلمة كى تحفظها ؛ لأنك لو قدرت أن تجعل بؤرة شعورك مع النص لحفظت النص مباشرة ، لكنك لا تحفظ النص ؛ لأن هناك خواطر تأتيك فتخطف التركيز ، وتكون بؤرة الشعور مشغولة بسواها فلا تستطيع أن تحفظ المعلومة الجديدة ، فتكرر الحفظ إلى أن تصادف كل جزئية من جزئيات الشعر أو القصيدة أو الآية خلو بؤرة الشعور ؛ لذلك يقولون : هناك طالب يحفظ ببطء ، وآخر يحفظ بسرعة ، إن الذى يقدر أن يركز ذاكرته لما هو بصدده ، فذهنه يلتقط ما يقرأ من مرة واحدة أما الذى لا يركز فإن حفظه يكون بطيئا .

وأضرب هذا المثل ، وقد يكون أغلبنا مرّ به ، وخصوصاً من تعرض للعلم وللامتحانات : هب أنك طالب فى امتحان ، وبعد ذلك دق الجرس لتدخل مكان

الأمتحان ، ثم جاء زميل لك وقال لك : القطعة الفلانية سيأتى منها سؤال ، وأنت لم تكن قد ذاكرتها ، هنا تخطف أى كتاب وتقرؤها بإمعان ، فهل وأنت فى هذه الحالة تفكر فى ماذا ستأكل على الغداء ؟ أو تفكر فى من كان معك بالأمس ؟ لا ؛ لأن الوقت ضيق ولن يتركز فكرك إلا فى هذه القطعة التى تقرؤها ثم تدخل الامتحان فتجد سؤالاً فى القطعة التى ذاكرتها من دقائق ولمدة قصيرة فتضع الإجابة الصحيحة ، وقد لا يعرفها مَن ذاكرها لمدة شهر ؛ لأنه ذاكرها وباله مشغول ، أما أنت فتضع إجابة السؤال كما يجب لأنك ذاكرتها وليس فى ذهنك غيرها ؛ لأن الوقت ضيق وكانت بؤرة شعورك محصورة فيها .

ومثال آخر : نجد تلميذاً من التلاميذ يشكو من عدم فهمه من أستاذه لكن هناك تلميذ آخر يفهم ، والتلميذ الذى لا يفهم هو من انصرف ذهنه عنه فى أثناء الشرح فى مسألة بعيدة عن العلم الذى يدرسه ، وعندما يجىء درس جديد ، فهو يفاجأ بمعلومات لا بد أن تستقر وتبنى على معلومات سابقة كان ذهنه مشغولاً عنها ، فلما شرح المدرس الدرس الجديد ، قال التلميذ الذى لا يفهم : ماذا يقول هذا المدرس ؟. لكن التلميذ المنتبه له والذى يربط المعلومات بعضها ببعض ؛ يفهم ما يقوله المدرس ، ولذلك فالأستاذ الجيد لا بد أن يثيرالانتباهات دائماً لطلابه ، بمعنى أن يفاجئهم ، يقول مثلاً كم جملة ثم يقول للتلميذ : قم ، ماذا قلت الآن ؟. فيجلس كل تلميذ وهو عُرضة أن يُسأل ، فيخاف أن يُحرجه الأستاذ ، فينتبه للدرس ويجعل بؤرة شعوره مع المدرس دائماً .

فالحق سبحانه وتعالى بعدما تكلم عن النار وعن الجنة وجعل هذا الأمر مستقراً فى بؤرة شعورهم ينزل الأحكام بعد ذلك ، ولذلك تجد دائماً بعد أن يذكر سبحانه الجنة والنار يأتى بعدها بأمهات الأحكام التى إذا نفذوها نالوا الجنة وابتعدوا عن النار . فبعدما شحنت بؤرة الشعور بالجنة والنار بالغاية المنفرة والغاية المرغبة ، هنا يأتى الحكم ، فيقول الله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا

وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾

وقوله سبحانه : « أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها » ، أوجز الله فيها كل تكاليف السماء لأهل الأرض ، لأن الأمانات هى : الأمانة العليا وهى الإيمان بالله ، والأمانة التى تتعلق ببنى الجنس ، والأمانة التى على النفس لكل الأجناس .

ومعنى الأمانة هو : ما يكون لغيرك عندك من حقوق وأنت أمين عليها ، إن شئت فعلتها ، وإن شئت لم تفعلها ، أنت تقول : أنا أودعت عند فلان أمانة ، هذه الأمانة لو كانت بإيصال لما كانت أمانة ؛ لأن هناك دليلاً ، ولو كان ما أودعته عند ذلك الإنسان عليه شهود لا تكون أمانة . فالأمانة : أن تودع عنده شيئاً ، وضميره هو الحكم ، إن شاء أقر بما عنده لك حين تطلبه ، وإن شاء لم يقر به ، قال الحق :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾

(سورة الأحزاب)

فما هى الأمانة التى عرضت على السماوات والأرض والجبال فأبت أن تحملها ثم حملها الإنسان ، وعلة تحمله لها أنه كان ظلوماً جهولاً ؟ إن الكون كما نعلم فيه أجناس ، أدناها الجماد ، وأوسطها النبات ، وأعلى من الأوسط الحيوان ثم الإنسان ، والإنسان هو سيد هذه الأجناس لأنها تخدمه جميعها ، لكن الجماد والنبات والحيوان لا اختيار لأى منها فى أن يفعل أو لا يفعل ، وإنما كل جنس منها قد خلق لشىء ليؤديه ، ولا اختيار له فى أن يمتنع عن الأداء .

الأرض والسماوات والجبال لم تقبل أن تكون مختارة أو أن تحمل أمانة وتكون المسألة فيها راجعة إلى اختيارها إن شاءت فعلت وإن شاءت لم تفعل . وأشفقت الأرض والسماوات والجبال من حمل الأمانة لعدم الثقة بحالة النفس وقت أداء

الأمانة . فيجوز أن يعقد الكائن العزم عند تحمل الأمانة أن يؤديها ، ولكن عند أدائها لا يملك نفسه ، فربما خانته نفسه وجعلته لا يقر بها . لقد احتاطت السماوات والأرض والجبال وقالوا : لا نريد هذه الأمانة ولا نريد أن نكون مختارين بين أن نفعل أو نترك ، نطيع أو نعصى ، وإنما يارب نريد أن نكون مسخرين لما تحب دون اختيار لنا . فسلمت الأرض والسماوات والجبال ، لكن الإنسان بما فيه من فكر يرجح الاختيار بين البديلات قال : أنا أقبلها وإن فكرى سيخطط لأدائها . ولم يلتفت الإنسان ساعة تحمله الأمانة إلى حالة أدائه لها .

ومثال ذلك : من الجائز أن يعرض عليك إنسان مبلغاً من المال كأمانة عندك ، فأخذته وأنت واثق أنك ستؤديه حين يطلبه منك ، ولكنك ساعة الأداء قد لا تملك نفسك ، فقد تمر بك ظروف فتصرف شيئاً من المال ، أو أن تكون ـ والعياذ بالله ـ قد خربت ذمتك .

إذن فالإنسان لا يملك نفسه وقت الأداء وإن ملك نفسه وقت الأخذ ، فالذين يحتاطون يقولون : أبعد عنا تحمل الأمانة ، فلا نريد أن نحمل لك شيئا ولكن الإنسان قبل تحمل الأمانة ؛ لأنه « كان ظلوما جهولا » ظلم نفسه وجهل بحالته وقت الأداء ، إذن فالأمانة التى عرضت على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وحملها الإنسان هى أمانة الاختيار التى يترتب عليها التكليف من الله .

إن التكليف محصور فى « افعل » و« لا تفعل » ، فإن شئت فعلت فى « افعل » ، وإن شئت لم تفعل فى « لا تفعل » . وإن شئت العكس ، ومعنى ذلك أن الأمانة فى هذا المعنى مقصورة على ما طلبه الله من الإنسان وقت العرض . لكنها لم تتعرض للأمانات التى توجد بيننا ، والأمانة كذلك هى ما يتعلق بذمتك بحق غيرك ؛ لذلك فحين يعطى إنسان إنساناً شيئاً يصير الآخذ مؤتمناً فإن شاء أدى وإن شاء لم يؤد .

لكن هناك أمانات أخرى لم يعطها إنسان لإنسان ، وإنما أعطاها رب الإنسان لكل إنسان ، فالعلم الذى أعطاه الله للناس أمانة . فهل الذى علمك علماً وأعطاه لك وبعد ذلك قال لك : أدّه لى ، كمثل من يكون مأموناً على مال ؟

نقول للعالم : العلم ليس من عندك حتى تعطيه لغيرك وبعد ذلك يرده لك ولكن الله يجازيك عليه ثواباً وكذلك فى الحلم والشجاعة ، ولا تتضح هذه المسائل بين العبد والعبد إلا فى المال ، لكن فى بقية الأشياء ؛ نقول لك : أنت أمين عليها أمام خالقك ، وقد أمنك ربنا على هذه الأشياء كى تؤديها إلى من لا يعلم ، فأمنك على قدرةٍ وأمرك : أعطها لمن لا يقدر ، وأمنك على علم وأوضح لك : أعطه لمن لا علم له . .

إذن فمن الذى أعطاك هذه الأمانة ؟ الله . فليس ضرورياً أن تكون الأمانة من صاحبها الذى أعطاها لك لتردها إليه ، فالأمانة : ما تصير مأموناً عليه مِمن خَلَقَ أو من مخلوق ، فأدها ، والأمانة بهذا المعنى أمرها واسع ، فاستحقاق الله للتوحيد أمانة عندك ، أهليتك للتكليف من الله حين كلفك أمانة عندك ، وأهليتك فى المواهب المختلفة أمانة عندك ، فكل إنسان عنده موهبة هو أمين عليها ولابد أن يؤديها وينقل آثارها لمن لا توجد عنده هذه الموهبة . فربنا أعطى هذا الإنسان قوة عضل ، وأعطى ذلك قوة فكر ، وأعطى ثالثاً قوة حلم ، وأعطى رابعاً علمًا . كل هذه الأشياء أمانات أودعها الله فى خلقه ليتكامل الخلق ، فحين يؤدى كل إنسان أمانته لكل إنسان يصبح كل إنسان عنده مواهب كل الآخرين .

والحق سبحانه وتعالى حينما يقول : « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها » نتذكر على الفور قمة الأمانة أن تعبده ولا تشرك به أحدًا ، والأمانة فى التكاليف التى كلفك الله بها ؛ لأنها أمانة لغيرك عندك ، وأمانة عندك لغيرك . فحين يكلفك الله بألا تسرق ، يكون قد كلف الناس كلهم ألا يسرقوك .

إن كل أمانة عند غيرك تقابلها أمانة عندك ، فإن أديت مطلوبات الأمانة عندك أدى المجتمع الذى يحيط بك الأمانة التى عنده ، وهكذا تكون الأمانة هى : أداء حق فى ذمتك لغيرك .

وقوله تعالى : « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها » قيل نزلت فى عثمان ابن طلحة ابن أبى طلحة وكان سادن ـ خادم ـ الكعبة وحين دخل رسول الله صلى الله

عليه وسلم مكة يوم الفتح أغلق عثمان باب الكعبة وصعد السطح ، وأبى أن يدفع المفتاح إليه وقال لو علمت أنه رسول الله لم أمنعه فلوى علىٌّ بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ يده وأخذه منه وفتح ودخل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وصلى ركعتين ، فلما خرج سأله العباس أن يعطيه المفتاح ويجمع له السقاية والسِّدانة فنزلت هذه الآية فأمر أن يرده إلى عثمان ـ رضى الله عنه ـ ويعتذر له فقال عثمان لعلى : أكرهت وآذيت ثم جئت ترفق ، فقال لقد أنزل الله فيك قرآنا وقرأ عليه الآية فأسلم عثمان وهبط جبريل وأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن السِّدانة فى أولاد عثمان أبدًا .

وهذا ويقابل الأمانة شيء بعد ذلك اسمه العدل ، فلو أدى كل واحد ما لغيره عنده من حق لما احتجنا إلى عدل ، فالعدل إنما ينشأ من خصومة وتقاضٍ ، والتقاضى معناه : أن واحداً أنكر حق غيره . فلو أدى كل واحد منا ما فى ذمته من حق لغيره لما وجد تقاضٍ ، ولما وجدت خصومة فلا ضرورة إلى العدل حينئذٍ .

ولكن الحق الذى خلق الخلق وعلم الأغيار فيهم قدر أن بعض الناس يغفل عن هذه القضية وينشأ منها أن الإنسان قد لا يعطى الحق الذى فى ذمته لغيره ، فقضى سبحانه بشيء آخر اسمه « العدل » . ولو أن المسألة الاولى انتهت لما احتجنا للعدل .

إذن فالعدل هو علاج للغفلة التى تصيب البشر من الأغيار التى تطرأ على نفوسهم ، فشاء الله أن يقول : « وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » ، فى الأولى لم يقل : إذا أئتمنتم فأدوا ، لا . بل قال : « إن الله يأمركم أن تؤدوا » . فإذا حدثت منكم غفلة عن هذه فما الذى يحمى هذه المسألة ؟ هنا يأتى العدل وهو أن تقضى بحق فى ذمة غيرك لغيره ، أى ليس فى ذمتك أنت ؛ لأنك تحكم كى ترجح مسألة وتضع الأمر فى نصابه .

وبذلك نعرف أن مطلوبات أداء الأمانة تكون فى شيء عندك تؤديه لغيرك ، لكن مطلوبات العدل : تكون فى أشياء فى ذمة غيرك لغيرك . ولذلك قال الحق : « وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » ، وكما أن آية أداء الأمانة عامة ، كان لابد أن تكون آية العدل عامة أيضاً .

إن قوله تعالى : « وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » ليست خاصة للحاكم فقط ، بل إنّ كل إنسان مطالب بالعدل ، فلو كنت مُحَكَّما من طرف قوم ورضوا بك أن تحكم فاحكم بالعدل حتى ولو كان الحكم فى الأمور التى يتعلق بها التكريم والشرف والموهبة ؛ فليس ضرورياً أن يكون الحكم بالعدل فى أمر له قيمة مادية ، مثلاً : سيدنا الإمام على ـ رضوان الله عليه وكرم الله وجهه ـ يرى غلامين يتحاكمان إلى ابنه الحسن ؛ ليحكم بينهما أى الخطين أجمل من الآخر ، وهذه مسألة قد ينظر لها الناس على أنها مسألة تافهة لكنها مادامت شغلت الطفلين وأراد كل واحد منهما أن يكون خطه أجمل ، فلابد أن يكون الحكم بالعدل . فقال الإمام على لابنه الحسن : يا بنى انظر كيف تقضى ، فإن هذا حكم والله سائلك عنه يوم القيامة .

إن هذا يعطينا صورة فى دقة العدل حتى ولو كان الأمر صغيراً . وفى مباريات كرة القدم تجد الحكم الذى يقول هذه اللعبة تحتسب هدفاً أو لا تحتسب ، هذا الحكم يحتاج إلى مهارة لأنه سيترتب عليها فوز فريق أو هزيمته ، بدليل أنك حتى وأنت تراقب الكرة ثم وجدت الحكم لم يحتسب خطأ تثور عليه .

وهنا أتساءل : لماذا طبقتم قانون الجد فى اللعب ، ثم تركتم الجد بدون قانون ؟ وهذا ما يحدث . نحن ننقل قوانين الجد إلى اللعب ، ونترك الجد فى بعض الأحيان بدون قانون ، ولو اعتنينا بهذه كما اعتنينا بتلك . لتساوت الأمور ، فالعدل إذن هو حق فى ذمة غير لغير حتى ولو كانت مباراة فى اللعب ، ومادام الأمر قد شغل طرفين ، وجعل بينهما نزاعا وخلافا وتسابقًا فعليك أن تنهى هذا الخلاف بالعدل .

ويتابع الحق : « إن الله نعما يعظكم به » و« نعما » يعنى نعم ما يعظكم به الله ، أى لا يوجد أفضل من هذه العظة التى هى : أداء الأمانة والحكم بالعدل ، فبهذا تستقيم حركة الحياة . فإذا أدى الناس الأمانة فلا نزاع ولا خلاف ، وإذا أدوا عدالة الحكم فإن كان هناك خلاف ينتهى . وقال العلماء : إذا علم المجتمع أن عدلا يحرس حقوق الناس عند الناس فلن يجرّىء ذلك ظالماً على أن يظلم بعد ذلك ، فيقول الظالم : فلان ظلم ولم يحاكم ، فيغرى ذلك الظالم أن يزيد فى ظلمه ، لكن ساعة

يرى الناس أحداً يأخذ حق غيره ثم جاء الحاكم فردعه ، ورد الحق لصاحبه فلن يظلم أحد أحداً .

وسبحانه فى أمره هذا لا حاجة له فى أن تفعلوا أو لا تفعلوا ، فهى أشياء لا تؤثر عنده فى شىء ، إنما هى فى مصالحكم أنتم بعضكم مع بعض ، وأحسن ألوان الأمر هو ما لا يعود على الآمر بفائدة ، لأن الأمر إذا ما كان فيه عود بالفائدة على الآمر قد يشكك فى الأمر . لكن أن تأمر بأمر ليس لك فيه فائدة فهذا قمة العدل . وقد يوجد إنسان يأمر بما لا فائدة له فيه ، لكنه قد لا يكون واسع العلم ولا واسع الحكمة ، والأمر هنا يختلف لأن الله سبحانه وتعالى ليس له مصلحة فى الأمر ، هذه واحدة ، وأيضاً فهو ـ سبحانه ـ واسع العلم والحكمة ؛ لذلك كانت هذه العظة مقبولة جداً ، وهى نعمة من الله وأما ما عداها فبئست العظة ؛ لأن الله لا ينتفع بأمره هذا وهو مأمون على العباد جميعاً ، والثانية : أنه قد يوجد غير لا ينتفع بالأمر ولكنه قاصر العلم وقاصر الحكمة فلا نعمت العظة منه ، فقوله : « إن الله نعما » يعنى : نعم ما يعظكم به الله أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ، وأن تحكموا بالعدل .

ونلحظ الأداء البيانى فى القرآن فى قوله : « تؤدوا » هذه للجماعة ، وهذا يعنى أن كل واحد مطالب بهذا الحكم أولاً ، « وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » ، فيكون كل واحد مطالبًا بالحكم أيضاً ، كأن مهمتكم الأمانية ليست مقصورة على أن تصونوا حقوقكم بينكم وبين أنفسكم ، لا ، فأنتم مكلفون بأن تصونوا الحقوق بين الناس والناس ولو لم يكونوا مؤمنين .

إن قوله : « وإذا حكمتم بين الناس » . يُفهم منها أيضاً حماية حقوق من آمن بالإسلام ومن لم يؤمن بدين الإسلام ؛ لأن الحق جل وعلا يريد منا أن نؤدى الأمانة إلى « أهلها » ، ولم يقل « أهلها » المؤمنين أو الكافرين .

إن كلمة « الناس » هذه تدل على عدالة الأمر من إله هو رب للجميع ، فسبحانه هو الذى استدعى الإنسان للدنيا ، والإنسان منه مؤمن ومنه كافر . لكن أحداً لا يخرج عن نطاق الربوبية لله ، فربنا يرُبُّ ويرعى كل إنسان ـ مؤمناً كان أو كافراً ـ هو يرزق الجميع ولذلك أمر الكون : يا كون أعط من فَعَلَ الأسبابَ الغاية من

المسببات إن كان مؤمناً أو كافراً . وهذا هو عطاء الربوبية ، إنه ـ سبحانه ـ رزق الإنسان وسخَّر الأشياء له ، فهو لم يسخر الكون للمؤمن فقط وإنما سخره للمؤمن وللكافر ، فكذلك طلب منا أن نؤدى الأمانة للمؤمن والكافر ، وطلب منا أن نعدل بين المؤمن والكافر .

ولنا فى الرسول صلى الله عليه وسلم الأسوة الحسنة ، فقد حدث أن « طعمة ابن أبيرق » أحد بنى ظُفر سرق درعاً[1] من جارٍ له اسمه « قتادة بن النعمان » ، فى جراب دقيق والاثنان مسلمان ، إلا أن منافذ الحق لمرتكب الجريمة ضيقة مهما ظن اتساعها ، مثلما نقول : « الجريمة لا تفيد » ، فوضع الدرع المسروقة فى جراب كان فيه دقيق ، فجعل الدقيق ينتثر من خرق فى الجراب وهو يسير من بيت قتادة بن النعمان وخبأ الدرع عند يهودى اسمه « زيد بن السمين » ، فلما فطن قتادة بن النعمان لضياع الدرع قال : سرق الدرع . سرق الدرع . فتتبعوا الأثر فوجدوه إلى بيت طعمة ابن أبيرق ، فحلف ما أخذها وما له بها علم فتركوه . فتتبعوا الأثر ثانية فوجدوا الدرع عند اليهودى « زيد بن السمين » فقال اليهودى دفعها إلى طعمة وشهد له ناس من اليهود ، ورفع الأمر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجاء بنو ظفر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألوه أن يجادل عن صاحبهم وقالوا : إن لم تفعل هلك صاحبنا وافتضح وبرىء اليهودى فهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يفعل وأن يعاقب اليهودى فأنزل الله عليه حكمه الفصل :

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ ﴾ (سورة النساء)

أى لا تكن يا محمد مدافعاً عن الخائنين واستغفر الله إن كان هذا الخاطر قد جال برأسك بأن ترفع رأس مسلم على يهودى ؛ لأن الحق أولى من المسلم ؛ فمادام هو قبل

(١) الدرع : هو القميص من حلقات من الحديد متشابكة تلبس وقاية من الطعن بالسلاح .

أن يخون فلا تجادل عنه ، ولماذا طلب بنو ظفر التغاضى عن جريمة مسلم وإلصاقها بيهودى ؟ أيستخفون من الناس ولا يستخفون من الله ؟ وافرض أن هذه برأتهم عند الناس . أتبرئهم عند الله ؟ ويقول فى آية أخرى :

﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾

(من الآية ١٠٩ سورة النساء)

إذن فقول الحق سبحانه وتعالى : « وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » لابد أن نأخذه على أنه مطلب تكليفى من الله للمسلمين حتى يشيع فى كل الناس ولا يخص المؤمنين يتعاملون به فيما بينهم ، وإنما يشمل أيضا ما بين المؤمنين والكافرين ، وما بين الكافرين بعضهم مع بعض إن ارتضوا حكم رسول الله .

« إن الله نعما يعظكم به إن الله كان سميعاً بصيراً » وحين ترون تذييل آية بصفتين من صفات الحق أو باسمين من أسماء الحق ، فلا بد أن تعلموا أن بين الصفتين أو بين الاسمين وبين متعلق الآية علاقة ، وهنا يعلمنا الحق أنه سميع وبصير . بعد أداء الأمانة ، والحكم بالعدل بين الناس ، لأن الرسول شرح ذلك حين أمر من يقضى بين الناس أن يسوى بين الخصمين فى لحظه ولفظه أى لا ينظر لواحد دون الثانى ، ولا يكرم واحداً دون الآخر ، فيسوى بين الاثنين ومادام سيسوى بين الاثنين ، فلا بدّ أن تكون النظرة واحدة ، والألفاظ واحدة .

روى أن يهوديا خاصم سيدنا عليا بن أبى طالب كرم الله وجهه إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فنادى أمير المؤمنين عليا فقال : « قف يا أبا الحسن » فبدا الغضب على علىّ رضى الله عنه ، فقال له عمر : « أكرهت أن نسوى بينك وبين خصمك فى مجلس القضاء ؟ فقال على رضى الله عنه : « لا . ولكنى كرهتُ منك أن عظمتنى فى الخطاب فناديتنى بكنيتى ولم تصنع مع خصمى اليهودى ما صنعت معى »

إذن فحين يقول عمر رضى الله عنه لأبى موسى الأشعرى : « آسِ بين الناس فى مجلسك ووجهك »[1] .

(١) من كتاب سيدنا عمر رضى الله عنه لأبى موسى الأشعرى بعد تكليفه بالقضاء .

فلا بد أن يقوم بتلك التسوية كل حاكم أو محكم بين خصمين فلا يميز ولا يرفع خصما على خصمه .

و« اللحظ » عمل العين . وهذا يحتاج إلى بصير ، واللفظ يحتاج إلى أذن تسمع ، أى إلى سميع ، فقال : « إن الله كان سميعاً بصيراً » . لماذا قدم سبحانه هنا سميعاً على بصير ؟ لأن ما يُسمع فيه تعبير واضح . أما النظرة فلا يعرفها إلا من يلاحظ أنه ينظر بحنان وإكبار ، وهل وجدت له سبحانه صفة السمع بعد أن وجد ما يسمعه ، وهل وجدت له صفة البصر بعد أن وجد ما يبصره ؟ أو أن صفة السمع أزلية قديمة قبل أن يخلق خلقاً يسمع منه ، وأن صفة البصر أزلية قديمة قبل أن يخلق خلقاً ليبصر أفعالهم ؟ إنه سبحانه قديم أزلاً ، موجود قبل كل موجود . وصفاته قديمة بقدمه .

إذن ففيه فرق بين أن تقول : سميع وبصير ، وسامع ومبصر ، فأنت تكون سامعاً إذا وجد بالفعل من يُسْمع ، إذن فما معنى كلمة « سميع » ؟ أن يكون المدرِك على صفة يجب أن تدرك المسموع إن وجد المسموع وإن لم يوجد المسموع فهو ليس سامعًا فقط ، إنما هو سميع ، وكذلك بصير .

وأضرب المثل ـ ولله المثل الأعلى ، وهو منزه عن كل تشبيه ـ الشاعر الذى يقول القصيدة ، إنه قبلما يقول القصيدة كان شاعراً فى ذاته وقال القصيدة بوجود ملكة الشعر فى ذاته . والحق سبحانه وتعالى « غفّار » قبل أن يخلق الخلق ، أى أنه على صفة تدرك الأمر إن وجد . . وهو غفار قبل أن يوجد الخلق ويرتكبوا ما يغفره ، وهو « سميع بصير » أزلاً . أى قبل أن يخلق الخلق الذين سينشأ منهم ما يُبْصر وينشأ منهم ما يُسْمع .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ

وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾

هذه الآية كثر كلامنا فيها ، وفى كل مناسبة من المناسبات جاء الكلام عنها ، ولكن علينا أيضاً أن نعيد بشيء من الإيجاز ما سبق أن قلناه فيها ، الله سبحانه وتعالى يقول : « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول » ، ولماذا أطيع الله وأطيع الرسول ؟ لأن فيه الحيثيات المقدمة ، فأنت عندما ترى حكما من القاضى تجد أن هناك حيثيات الحكم أى التبرير القانونى للعقوبة أو للبراءة ؛ فيقول القاضى : بما أنه حدث كذا فقانونه كذا حسب المادة كذا . هذه هى الحيثيات . و« الحيثيات » مأخوذة من : حيث إنه حدث كذا فحكمنا بكذا . أو حيث إنه لم يحدث كذا فحكمنا بكذا ، إذن فحيثيات الحكم معناها : التبريرات التى تدل على سند الحكم لمن حكم .

هنا يقول سبحانه : « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول » . وهل الحق سبحانه وتعالى قال : يا أيها الناس أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ؟ لا . لم يقل ذلك ، لقد قال : « يا أيها الذين آمنوا » . إذن فما دمت قد آمنت بالله إلهاً حكيماً خالقاً عالماً مكلِّفاً فاسمع ما يريد أن يقوله لك ، فلم يكلف الله مطلق أناس بأن يطيعوه ، إنما دعا مطلق الناس أن يؤمنوا به . ومن يؤمن يقول له : أطعنى مادمت قد آمنت بى .

إذن فحيثية الطاعة لله وللرسول صلى الله عليه وسلم نشأت من الإيمان بالله وبالرسول . وهذه عدالة كاملة ؛ لأنه سبحانه لا يكلف واحداً أن يفعل فعلاً إلا إذا كان قد آمن به ـ سبحانه ـ مكلِّفاً ، آمن به آمراً ، أما الذى لا يؤمن به فهو لا يقول له : افعل كذا ولا تفعل كذا ، إنه سبحانه يطالبه أن يؤمن به أولاً ، فإذا ما آمن به يقول له : استمع إلى ، ولذلك تجد كل تكليف يصدر بقوله سبحانه : « يا أيها الذين آمنوا » .

إن حيثية إطاعة الله وإطاعة الرسول هى : الإيمان به ، هذه هى الحيثية الإيمانية الأولى ، أما إن جال ذهنك لتدرك سر الطاعة ، فهذا موضوع آخر ، ولذلك أوضح : إياكم أن تقبلوا على أحكام الله بالبحث فيها أولا فإن اقتنعتم بها أخذتموها

وإن لم تقتنعوا بها تركتموها ، لا . إن مثل هذا التصرف معناه أنك شككت فى الحكم. بل عليك أن تقبل على تنفيذ أحكامه ؛ لأنه سبحانه قالها وأنت مؤمن بأنه إله حكيم . لكن هل ذلك يمنع عقلك من أن يجول ليفهم الحكمة ؟

نقول لك : أنت قد تفهم بعض الحكمة ، ولكن ليست كل الحكمة ؛ لأن كمالات حكمة الله لا تتناهى ، فقد تعرف جزءًا منْ الحكمة وغيرك يعرف جزءًا آخر ، ولذلك قالوا : إن الفرق بين أمر البشر للبشر ، وأمر الله للمؤمنين به شيء يسير جداً هو : أمر الله للبشر تسبقه العلة وهى أنك آمنت به ، أما أمر البشر للبشر فأنت تقول لمن يأمرك : أقنعنى لماذا أفعل هذه ؟؛ لأن عقلك ليس أرقى من عقلى . فأنت لا تصنع شيئا إلا إذا اقتنعت به . وتكون التجارب قد أثبتت لك أصالة رأى من تستمع له وأنه لن يغشك .

وهكذا نرى أن طاعتنا لله تختلف عن طاعتنا للمخلوق ؛ فنحن نطيع الله لأننا آمنا به وحينما يطلب سبحانه منا أن نطيعه ، ننظر هل هذه الطاعة لصالحنا أو لصالحه ؟ فإذا وثقنا أنه بكل صفات الكمال الموجودة له خلقنا ؛ إذن فسبحانه لا يريد صفة جديدة تكون له ؛ لأنه لم يخلقنا إلا بصفات الكمال فيه ، وسبحانه قد خلقك دون أن يكون لك حق الخلق عنده ، خلقك بقدرته ، وأمدك لاستبقاء حياتك بقيوميته ، فحين يطلب منك الإله الذى يتصف بتلك الكمالات شيئا فهو يطلبه لصالحك ، كما ترى أى إنسان من البشر ـ ولله المثل الأعلى ـ يُعنى بصنعته ويحب أن تكون صنعته متميزة ، فكذلك الحق سبحانه وتعالى يريد أن يباهى بهذا الخلق . ويباهى بهذا الخلق ليس بالإكراه على أن يفعلوا ما يأمر به بالتسخير لا . بل بالمحبوبية لأمر الله وأن نعلن بسلوكنا : نحن نحبك يا ربنا . وإلا فأنت ـ أيها الإنسان ـ قد تختار أن تكون عاصيا . وما دمت مخيرا أن تكون عاصياً ثم أطعت ، فهذه تثبت لله صفة المحبوبية لأنه ؛ ـ كما نعرف ـ هناك فرق بين من يقهر بقدرته ومن يعطيك الاختيار حتى تأتيه وأنت محب ، على الرغم من أنه قادر على أن يقهرك .

فساعة قال الحق : « أطيعوا الله » معناها : أنه لم يطلب منا شططاً ، وكيف نطيع الله ؟. أن نطيعه فى كل أمر ، وهل أَمَرَ اللَّهُ خَلْقَه منفردين ؟. لا ، بل أمرهم كأفراد

وكجماعة ، وأعطاهم الإيمان الفطرى الذى يثبت أن وراء الكون قوة أخرى خلقته . وهذه القوة لا يعرف أحد اسمها ، ولا مطلوباتها ، أو ماذا ستعطى لمن يطيعها ؛ إذن فلا بد أن يوجد مُبلِّغ . ولذلك فأنا أرى أن بعض الفلاسفة قد جانبوا الصواب عندما قالوا : إن العقل كاف فى إدراك الدين ، وأقول لهم : لا . العقل كاف فى إدراك من ندين له ، ولكن العقل لا يأتى لنا بكيفية الدين ومنهجه .

لذلك لا بد من بلاغ عنه يقول : افعلوا كذا وكذا وكذا ، نقول لهؤلاء الفلاسفة : إن العقل كافٍ فى استنباط وجود قوة وراء هذا الكون ، أما شكل هذه القوة ، واسمها وماذا تريد ؛ فلا أحد يعرف ذلك إلا أن يوجد مبلِّغ عن هذه القوة ، ولا بد أن تكون القوة التى آمنت بها بفطرتك قد أرسلت من يقول : اسمه كذا ، ومطلوبه كذا ، إذنِ فقوله : « أطيعوا الله » يلزم منها إطاعة الرسول .

وبعد ذلك قال : « وأولى الأمر » ، و«وأولى الأمر» هنا لم يتكرر لهم الفعل ، فلم يقل : وأطيعوا أولى الأمر لنفهم أن أولى الأمر لا طاعة لهم إلا من باطن الطاعتين : طاعة الله وطاعة الرسول ، ونعلم أن الطاعة تأتى فى أساليب القرآن بثلاثة أساليب : « أطيعوا الله والرسول » و« أطيعوا الله وأطيعوا الرسول » ، وأطيعوا الرسول فقط . إذن فثلاثة أساليب فى الطاعة :

الأسلوب الأول : أطيعوا الله والرسول ؛ فأمر الطاعة واحد والمطاع هو الله والرسول .

والأسلوب الثانى : أطيعوا الله وأطيعوا الرسول .

والأسلوب الثالث : أطيعوا الرسول ، نعم . فالتكليفات يأمر بها الحق سبحانه وتتأكد بحديث من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو فعله أو تقريره ، وهنا تكون الطاعة فى الأمر لله وللرسول ، أو أن الحق قد أمر إجمالاً والرسول عين تفصيلاً ؛ فقد أطعنا الله فى الإجمال وأطعنا الرسول فى التفصيل فتكون الطاعة لله ، وتكون الطاعة للرسول ، أو إن كان هناك أمر لم يتكلم فيه الله وتكلم الرسول فقط . ويثبت ذلك بقول الحق :

﴿ مَن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾

(من الآية ٨٠ سورة النساء)

وقوله تعالى :

﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾

(من الآية ٧ سورة الحشر)

إذن فهذه تثبت أن لرسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة ملاحظ فى التشريع : ملحظ يشرع فيه ما شرع الله تأكيداً له أو أن الله قد شرع إجمالا ، والرسول عين تفصيلا . والأمثلة على ذلك : أن الله فرض علينا خمس صلوات ، وفرض علينا الزكاة ، وهذه تكليفات قالها ربنا ؛ والرسول يوضحها : النصاب كذا ، والسهم كذا ، إذن فنحن نطيع ربنا فى الأمر إجمالاً ، ونطيع الرسول فى الأمر التفصيلى ، أو أنّ الأمر لم يتكلم فيه الله حكماً ، وإنما جاء من الرسول بتفويض من الله ، ولذلك فإن قال لك أى إنسان عن أى حكم من الأحكام : هات دليله من القرآن ولم تجد دليلاً من القرآن فقل له : دليل أى أمر قال به الرسول من القرآن هو قول الحق :

﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾

(من الآية ٧ سورة الحشر)

هذا دليل كل أمر تكليفى صدر عن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقد يقول قائل : هناك فارق بين الأمر الثابت بالسنة والفرض . نقول : لا تخلط بين السنة وهى الأمر الذى إن فعلته تثاب وإن لم تفعله لا تعاقب ، والفرض الذى يجب على المكلفْ أن يفعله ، فإن تركه أثم وعوقب على الترك ، وهذا الفرض جاء به الحق وأثبته بالدليل كالصلوات الخمس وعدد الركعات فى كل صلاة ، فالدليل فى الفرض هنا ثَبت بالسنة وهذا ما يسمى سنية الدليل ؛ وهناك فرق بين سنية الحكم كأن يصلى المسلم قبل الظهر ركعتين وقبل الصبح ركعتين وفرضية الحكم كصلاة الصبح والظهر . . إذن ففيه فرق بين الشيء الذى إن فعلته تثاب عليه وإن لم تفعله لا تعاقب عليه والشيء الذى يفرض عليك أداؤه ، فإن تركته أثمت وعوقبت ، وأما سنية الدليل فهى شرح ما جاءت به الفروض شرحاً تطبيقياً ليتبعه المسلمون .

أما الأمر بطاعة أولى الأمر فقد جاءت بالعطف على المطاع دون أمر بالطاعة ، مما يدل على أن طاعة ولىّ الأمر ملزمة إن كانت من باطن طاعة الله وطاعة رسوله ، وفى ذلك عصمة للمجتمع الإيمانى من الحكام المتسلطين الذين يحاولون أن يستذلوا الناس بقول الله : « وأولى الأمر » ويدعون أن طاعتهم واجبة ، يقول الواحد منهم : ألستُ ولى أمر ؟ . فيرد العلماء : نعم أنت ولى أمر ولكنك معطوف على المطاع ولم يتكرر لك أمر الطاعة ، فدلّ ذلك على أن طاعتك واجبة إن كانت من باطن الطاعتين . فإن لم تكن من باطن الطاعتين فلا طاعة لك ، لأن القاعدة هى « لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق » ، هكذا قال أبو حازم لمسلمة بن عبدالملك حينما قال له : ألسنا ولاة الأمر وقد قال الله : « وأولى الأمر » . قال : ويجب أن نفطن أيضاً إلى أنها نزعت فى قوله سبحانه : « فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول » . إذن فالحاكم المسلم مطالب أولاً بأداء الأمانة ، ومطالب بالعدل ، ومطالب أيضاً أن تكون طاعته من باطن طاعة الله وطاعة رسوله . فإن لم تكن فيه هذه الشروط ، فهو حاكم متسلط .

« فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول » إذن فالتنازع لابد من أن يكون فى قضية داخلة فى نطاق مأمورات الطاعة ، ويجب أن يكون لها مردّ ينهى هذا التنازع « فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر » .

والذين يعرفون هذه الأحكام هم العلماء ، فإن تنازع المحكوم مع الحاكم نذهب إلى العلماء ليبينوا لنا حكم الله فى هذه المسألة ، إذن فإن أريد بـ « أولى الأمر » الحاكم ، نقول له : « فردوه إلى الله والرسول » أى على الحاكم أن يتبع ما ثبت عن الله والرسول ، والحجة فى ذلك هم العلماء المشتغلون بهذا الأمر ، وهم الملاحظون لتنفيذ حكم الله بما يعرفونه عن الدين . والحق سبحانه وتعالى حين يطلب منا ذلك ، يريد أن ينهى مسألة التنازع ، لأن التنازع يجعل حركات الحياة متضاربة ، هذا يقول بكذا وذلك يقول بكذا ، فلا بد أن نرده إلى مردّ أعلى ، والحق يقول :

﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ﴾

(من الآية ٨٣ سورة النساء)

إذن فقد يكون المراد بأولى الأمر « العلماء » .

نقول : إن الآية الأولى عامة وهى التى جاءت بها طاعة ولى الأمر ضمن طاعة الله والرسول ، والثانية التى تخص الاستنباط يكون المقصود بأولى الأمر هم العلماء .

و أولوا الأمر فى القضية الأولى التى عندما نتنازع معهم فى أمر نرده إلى الله والرسول هم الذين يشرفون على تنفيذ أحكام الله ، وهذه سلطة تنفيذية ، أما سلطة العلماء فهى تشريعية إيمانية .

« فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر » إذن فالذى لا يفعل ذلك يجازف بأن يدخل فى دائرة من لا يؤمن بالله واليوم الآخر ، ونقول لكل منهم : راجع إيمانك بالله واليوم الآخر ـ ابتداءً فى تلقى الحكم ، وإيمانا باليوم الآخر ـ لتلقى الجزاء على مخالفة الحكم ، فالحق لم يجعل الدنيا دار الجزاء .

وينبهنا الحق فى ختام الآية : « ذلك خير وأحسن تأويلاً » أى فى ذلك خير للحكام وللمحكومين معاً ؛ لأن الخير هو أن يقدر الإنسان ما ينفعه فى الدنيا والآخرة ، وكل شهوة من الشهوات إن قدَّرت نفعها فلن تنفعك سوى لحظة ثم يأتى منها الشر .

والتأويل هو : أن تُرْجع الأمر إلى حكمه الحقيقى ، من « آل » يئول إذا رجع . «وأحسن تأويلا» تعنى أحسن مَرْجعاً وأحمد مغبة وأجمل عاقبة ؛ لأنك إن حرصت بما تريد على مصالح دنياك ، فما ترجع إليه سيكون فيه شر لك . إذن فالأحسن لك أن تفعل ما يجعلك من أهل الجنة ، أو «وأحسن تأويلا» فى الاستنباط ، لأن العلماء سيأخذونه من منطلق مفهوم قول الله وقول الرسول ، وأنت ستأخذها بهواك ، وفهمك عن الله يمنعك من الشطط ومن الخطأ .

فإن كنتم تريدون الخير فلاحظوا الخير فى كل أحيانه وأوقاته ، ولا ينظر الإنسان إلى الخير ساعة يؤدى له ما فى هواه ، ولكن لينظر إلى الخير الذى لا يأتى بعده شر . وإذا ما نظرنا تاريخ الكثير من الحكام ووجدناهم قد أمنوا على انتقادهم فى حياتهم بما فرضوه من القهر والبطش ، فلما ماتوا ظهرت العيوب ، وظهرت الحملات ، إن الواجب على من يحكم أن يعتبر بما سمع عمن حكم قبله . فالذى حكم قبله كمم الأفواه وكسر الأقلام ، وبعدما انتهى ، طالت الألسنة وكتبت الأقلام ، فيجب أن

نحسن التأويل وأن ننظر إلى المرجع النهائى ، فمن استطاع أن يحمى نفسه فى حياته بسطوته وجبروته لا يستطيع أن يحمى تاريخه وسمعته . إنه بعد أن انتهت السطوة والجبروت قيل فيه ما قيل ، ونحن مازلنا فى الدنيا ولم نذهب إلى الآخرة بعد ؛ فإذا كان هذا هو جزاء الخلق . فما شكل جزاء الحق إذن ؟!

« ذلك خير وأحسن تأويلاً » أى مرجعاً وعاقبة .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ ﴾

نعرف أن « ألم تر » تعني : ألم تعلم ، إن كان المعلوم قد سبق الحديث عنه ، أو إن كان المعلوم ظاهراً حادثاً بحيث تراه ، ونعرف أن الحق عبّر بـ « ألم تر » فى كثير من القضايا التى لم يدركها المخاطب وهو سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ليدلنا على أن ما يقوله الله ـ وإن كان خبراً عما مضى ـ يجب أن تؤمن به إيمانك بالمرئى لك الآن ، لأن الله أوثق فى الصدق من عينك ؛ فعينك قد تخدعك ، لكن حاشا أن يخدعنا الله .

« ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك » والمراد هم المنافقون وبعض من أهل الكتاب الذين زعموا الإيمان برسالة محمد صلى الله عليه وسلم . و« الزعم » : مطية الكذب ، فهم « يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك »

وهو القرآن ؛ « وما أنزل من قبلك » ، وهو التوراة والإنجيل و« يريدون » بعد ادعاء الإيمان ؛ « أن يتحاكموا إلى الطاغوت » ، والتحاكم إلى شيء هو : الاستغاثة أو اللجوء إلى ذلك الشيء لينهى قضية الخلاف . فعندما نقول:« تحاكمنا إلى فلان » ، فمعنى قولنا هذا : أننا سئمنا من آثار الخلاف من شحناء وبغضاء ، ونريد أن نتفق إلى أن نتحاكم ، ولا يتفق الخصمان أن يتحاكما إلى شيء إلا إذا كان الطرفان قد أجهدهما الخصام ، فهما مختلفان على قضية ، وأصاب التعب كُلاًّ منهما .

« يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت » . و« الطاغوت » ـ كما عرفنا ـ هو الشخص الذى تزيده الطاعة طغياناً ، فهناك طاغٍ أى ظالم ، ولما رأى الناسَ تخافه استمرأ واستساغ الظلم مصداقاً لقول الحق :

﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ﴾

(من الآية ٥٤ سورة الزخرف)

وهذا اسمه « طاغوت » مبالغة فى الطغيان . والطاغوت يطلق على المعتدى الكثير الطغيان سواء أكان أناساً يُعبدون من دون الله ولهم تشريعات ويأمرون وينهون ، أم كان الشيطان الذى يُغرى الناس ، أم كان حاكماً جبّاراً يخاف الناس شرّه ، وأى مظهر من تلك المظاهر يعتبر طاغوتاً . وقالوا : لفظ الطاغوت يستوى فيه الواحد والمثنى والجمع فنقول : رجل طاغوت، ورجلان طاغوت ، ورجال طاغوت ، يأتى للجمع كقوله الحق :

﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّـٰغُوتُ ﴾

(من الآية ٢٥٧ سورة البقرة)

ويأتى للمفرد كقوله الحق :

﴿ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ ﴾

(من الآية ٦٠ سورة النساء)

إذن فمرة يأتى للجمع ومرة يأتى للمفرد ، وفى كل حكم قرآنى قد نجد سبباً

مخصوصاً نزل من أجله الحكم ، فلا يصح أن نقول : إن حكماً نزل لقضية معينة ولا يُعدَّى إلى غيرها ، هو يُعدَّى إلى غيرها إذا اشترك معها فى الأسباب والظروف ، فالعبرة بعموم الموضوع لا بخصوص السبب .

لقد نزلت هذه الآية فى قضية منافق اسمه « بشر » . حدث خلاف بينه وبين يهودى ، وأراد اليهودى أن يتحاكم إلى رسول الله ، وأراد المنافق أن يتحاكم إلى « كعب بن الأشرف » ، وكان اليهودى واثقاً أن الحق له ولم يطلب التحاكم إلى النبى حباً فيه ، بل حباً فى عدله ، ولذلك آثر مَن يعدل ، فطلب حكم رسول الله ، أما المنافق الذى يعلن إسلامه ويبطن ويخفى كفره فهو الذى قال : نذهب إلى كعب بن الأشرف الطاغوت ، وهذه تعطينا حيثية لصدق رسول الله فى البلاغ عن الله فى قوله : « وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » .

وكون اليهودى يريد أن يتحاكم إلى رسول الله ، فهذه تدل على ثقته فى أن رسول الله لن يضيع عنده الحق ، ولم يطلب التحاكم إلى كبير من كبراء اليهود مثل « كعب بن الأشرف » لأنه يعرف أنه يرتشى .

ويختم الحق الآية : « ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً » فهما حين يتحاكمان إلى الطاغوت وهو « كعب بن الأشرف » ؛ وبعد ذلك يقضى لمن ليس له حق ، سيغرى مثل هذا الحكم كل من له رغبة فى الظلم أن يظلم ، ويذهب له ليتحاكم إليه ! فالضلال البعيد جاء هنا لأن الظلم سيتسلسل ، فيكون على القاضى غير العادل وزر كل قضية يُحكم فيها بالباطل ، هذا هو معنى « الضلال البعيد » ، وليت الضلال يقتصر عليهم ، ولكن الضلال سيكون ممتداً .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى

ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾

وعندما نسمع قول الحق : « تعالوا » ، فهذا يعنى نداء بمعنى : اقبلوا ، ولكن كلمة « أقبلوا » تعنى الإقبال على المساوى لك ، أما كلمة « تعالوا » فهى تعنى الإقبال على الأعلى . فكأن لقضايا البشر تشريعاً هابطاً ؛ لأنه من صناعة العقل البشرى ، وصناعة العقل البشرى فى قوانين صيانة المجتمعات ـ على فرض أننا أثبتنا حسن نياتهم وإخلاصهم ـ تكون على قدر مستوياتهم فى الاستنباط واستقراء الأحداث .

لكن التشريع حينما يأتى من الله يكون عالياً ؛ لأنه ـ سبحانه ـ لا تغيب عنه جزئية مهما صغرت ، لكن التقنين البشرى يوضع لحالة راهنة وتأتى أحداث بعدها تستوجب تعديله ، وتعديل القانون معناه أن الأحداث قد أثبتت قصور القانون وأنه قانون غير مستوعب للجديد ، وهذا ناشىء من أن أحداثاً جدّت لم تكن فى بال من قنّن لصيانة المجتمع ، وكان ذهن مشرع القانون الوضعى قاصراً عنها ، كما أن تعديل أى قانون لا يحدث إلا بعد أن يرى المشرع الآثار الضارة فى المجتمع ، تلك الآثار التى نشأت من قانونه الأول ، وضغطت أحداث الحياة ضغطاً كبيراً ليعدّلوا فى الأحكام والقوانين .

أما تشريع الله فهو يحمى المجتمع من أن تقع هذه الأحداث من البداية ، هذا هو الفارق بين تشريع وضعى بشرى جاء لينقذنا من الأحداث ، وتشريع ربانى إلهى يقينا من تلك الأحداث . فالتشريع البشرى كمثل الطب العلاجى . أما التشريع السماوى فهو كالطب الوقائى ، والوقاية خير من العلاج .

لذلك جاء الحق سبحانه وتعالى بالتشريعات التى تقينا وتحمينا من شرّ الأحداث ، أى أنه يمنع عن الإنسان الضرر قبل أن يوجد ؛ وبذلك تتحقق رحمته سبحانه لطائفة من البشر عن أن تعضّهم الأحداث ، بينما نجد للقانون الوضعى ضحايا ، فيرق قلب المشرعين بعد رؤية هؤلاء الضحايا ليضعوا التعديل لأحكام وضعوها من قبل ،

ففى القانون الوضعى نجد بشراً يقع عليهم عبء الظلم لأنه قانون لا يستوعب صيانة الإنسان صيانة شاملة ، وبعد حين من الزمن يتدخل المشرعون لتعديل قوانينهم ، وإلى أن يتم التقنين يقع البشر فى دائرة الغبن وعدم الحصول على العدل . أما الخالق سبحانه فقد برأ وخلق صنعته وهو أعلم بها ؛ لذلك لم يغبن أحداً على حساب أحد ؛ فوضع تشريعاته السماوية ، ولذلك يقول الحق :

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾

(من الآية ٨٢ سورة الإسراء)

« شفاء » إذا وجد الداء من غفلة تطرأ علينا ، « ورحمة » وذلك حتى لا يأتى الداء . الحق سبحانه وتعالى يقول : « وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا » . إنه ـ سبحانه ـ يضع من الأحداث ما يفضحهم فيتصرفون بما يكشف نفاقهم ، وبعد ذلك يخطرهم الرسول ويعرف عنهم المجتمع أنهم منافقون .

وهم « يصدون عنك صدوداً » أى يُعرضون عنك يا رسول الله لأنهم منافقون ، وكل منافق عنده قضيتان : قضية لسانية وقضية قلبية ؛ فهو باللسان يعلن إيمانه بالله وبرسول الله ، وفى القلب تتعارض ملكاته عكس المؤمن أو الكافر ، فالمؤمن ملكاته متساندة ؛ لأن قلبه انعقد على الإيمان ويقود انسجام الملكات إلى الهدى ، والكافر أيضاً ملكاته متساندة ؛ لأنه قال : إنه لم يؤمن ويقوده انسجام ملكاته إلى الضلال ، لكن المنافق يبعثر ملكاته !! ملكة هنا وملكة هناك ، ولذلك سيكونون فى الدرك الأسفل من النار ، الكافر منطقى مع نفسه ، فلم يعلن الإيمان ؛ لأن قلبه لم يقتنع ، وكان من الممكن أن يقول كلمة الإيمان لكن لسانه لا يرضى أن ينطق عكس ما فى القلب ، وعداوته للإسلام واضحة . أما المنافق فيقول : يا لسانى . . أعلن كلمة الإيمان ظاهراً ؛ كى أنفذ من هذا الإعلان إلى أغراضى وأن تطبّق علىّ أحكام الإسلام فأنتفع بأحكام الإسلام ، وأنا من صميم نفسى إن وجدت فرصة ضد الإسلام فسأنتهزها . ولذلك يقول الحق :

﴿ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا

قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾

والمنافقون يواجهون تساؤلاً : لماذا ذهبتم للطاغوت ليحكم بينكم وتركتم رسول الله ؟. فقالوا : نحن أردنا إحساناً ، وأن نرفق بك فلا تتعب نفسك بمشكلاتنا ، ونريد أن نوفق توفيقاً بعيداً عنك كيلا تصلك المسائل فتشق عليك ، ولم نرد مخالفة لك ولا تسخطا على حكمك ؛ وهم يقولون هذا بعد أن انفضحوا أمام الناس .

« فكيف إذا أصابتهم مصيبة » والمصيبة هى الأمر يطرأ على الإنسان بما يضرّه فى عُرفه ؛ ولأنهم منافقون فهم يريدون أن يكون هذا النفاق مكتوماً ، فإذا جاءت حادثة لتفضحهم صارت مصيبة . على الرغم من أنّ الحادثة فى واقعها ليست مصيبة . فعندما نعرف المنافقين ونظهرهم أمام أنفسهم وأمام الناس فنحن نكفى أنفسنا شرّهم . وهم يريدون بالنفاق أموراً لأنفسهم .

وهكذا يكون الكشف لنفاقهم مصيبة بالنسبة لهم ، هم يرون النفاق نفعاً لهم ؛ فبه يستفيدون من أحكام الإسلام وإجرائها وتطبيقها عليهم ، وعندما ينفضح نفاقهم يشعرون بالمصيبة ، مثلهم كمثل الذى ذهب ليسرق ، ثم فوجىء وهو داخل المكان ليسرق أن الشرطة موجودة لتقبض عليه ، وهذا فى الواقع نعمة لأنها تضرب على أيدى المجرم العابث ، لكنها بالنسبة له مصيبة .

وعندما تحدث لهؤلاء المنافقين مصيبة فهم يحلفون بالله كذباً لأنهم يريدون استدامة نفاقهم . . ويحاولون أن يعتذروا عما حدث ، يحلفون بالله إنهم بالذهاب إلى الطاغوت وأرادوا الإحسان والتوفيق بينهم وبين خصومهم . لكن الحق يعلم ما يخفون وما يعلنون .

فيقول سبحانه :

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا ٦٣ ﴾

وناهيك بعلم الله ، ولذلك يقول ربنا :

﴿ وَلَوۡ نَشَآءُ لَأَرَيۡنَٰكَهُمۡ فَلَعَرَفۡتَهُم بِسِيمَٰهُمۡۚ وَلَتَعۡرِفَنَّهُمۡ فِي لَحۡنِ ٱلۡقَوۡلِ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة محمد)

يعنى : نحن لو شئنا أن نقول لك من هم لقلنا لك ودللناك عليهم حتى تعرفهم بأعيانهم ، ولكن الله ستر عليهم إبقاء عليهم لعلهم يتوبون ، ولتعرفنهم من فحوى كلامهم وأسلوبهم .

« أولئك الذين يعلم الله ما فى قلوبهم » لقد ذهبوا ليتحاكموا إلى الطاغوت ، وقد ذهبوا إلى هناك لعلمهم أنهم ليسوا على حق ، ولأنهم إن ذهبوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسيحكم بالحق ، والحق يضارُّهم ويُضايقهم ، فهل كانوا بالفعل يريدون إحساناً وتوفيقاً ، أو كانوا لا يريدون الحق ؟. لقد أرادوا الحكم المزور .

لذلك يأتى الأمر من الحق لرسوله : « فأعرض عنهم » ؛ لأنك إن عاقبتهم فقد أخذت منهم حقك ، والله يريد أن يبقى حقك ليقتص ـ سبحانه ـ لك منهم ، وأعرض أيضاً عنهم لأننا نريد أن يُظهر منهم فى كل فترة شيئاً لنعلّم المجتمع الإيمانى اليقظة إلى أن هناك أناساً مدسوسين بينهم ، لذلك لا بد من الحذر والتدبر . كما أنك إذا أعرضت عنهم أسقطتهم من حساب دعوتك .

« وعظهم » أى قل لهم : استحوا من أفعالكم . « وقل لهم فى أنفسهم قولاً بليغاً » أى قل لهم قولاً يبلغ الغاية من النفس البشرية ويبلغ الغاية من الوعظ ، أى

يوعدهم الوعيد الذى يخيفهم كى يبلغ من أنفسهم مبلغاً ، أو « قل لهم فى أنفسهم » أى افضح لهم ما يسترون ؛ كى يعرفوا أن الله مطلعك على ما فى أنفسهم فيستحوا من فعلهم ولا يفعلوه ، قل لهم ذلك بدون أن تفضحهم أمام الناس ؛ لأن عدم فضحهم أمام الناس يجعل فيهم شيئا من الحياء ، وأيضاً لأن العظة تكون ذات أثر طيب إذا كان الواعظ فى خلوة مع الموعوظ فيناجيه ولا يفضحه ، ففضح الموعوظ أمام الناس ربما أثار فيه غريزة العناد ، لكن عندما تعظه فى السرّ يعرف أنك لا تزال به رحيماً ، ولاتزال تعامله بالرفق والحسنى .

« وعظهم وقل لهم فى أنفسهم » وإنك لو فعلت ذلك علناً فستعطى الأسوة لغيرك أن يفعل . والله قد أطلعك على ما فى قلوب هؤلاء من الكفر أما غيرك فلا يطلعه الله على غيب ولو رمى أحدًا بذنب أو كفر فلعله لا يصادف الحق والواقع وتشريعنا يقول لنا :

« ادرأوا الحدود بالشبهات » .

والتطبيق لهذا التشريع نجده عندما يتم القبض على سارق ، لكن هناك شبهة فى الاتهام ، هذه الشبهة يجب أن تفسر فى صالح المتهم ، وندرأ الحد لوجود شبهة ؛ فليس من مصلحة المسلمين أن نقول كل يوم : إننا قطعنا يد سارق أو رجمنا زانية . لكن إذا افتضحت الجرائم وليس فى ارتكابها شبهة والمسألة واضحة فلا بد أن نضرب على أيدى المجرمين . فنحن ندرأ الحد بالشبهة حتى لا نلحق ضرراً أو ننال من برىء ، ونطبق الحد حتى يرتدع كل من تسول له نفسه أمراً محرّما حتى لا يرتكب الأمر المحرّم . وعندما يقام الحدّ فى أى بيئة ، فإنه لا يقام إلا لفترة قليلة وتتراجع بعدها الجرائم ، ولا يرى أحد سارقاً أو زانياً .

إذن فقول الله : « وعظهم وقل لهم فى أنفسهم قولاً بليغاً » يعنى : قل لهم ما يهددهم تهديداً يصل إلى أعماق نفوسهم ، أو «وقل لهم فى أنفسهم» بأن تكشف مستورات عيوبهم أو قل لهم فى أنفسهم بينك وبينهم ؛ لأن هذا أدعى إلى أن يتقبلوه منك ولا يوغر صدورهم ويثير فيهم غريزة العناد .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ ﴾

الغرض من إرسال الحق للرسول هو أن يعلم الناس شرع الله المتمثل فى المنهج ، وأن يهديهم إلى دين الحق . والمنهج يحمل قواعد هى : افعل ، ولا تفعل ، وما لا يرد فيه « افعل ولا تفعل » من أمور الحياة فالإنسان حرّ فى اختيار ما يلائمه . وأى رسول لا يأتى بتكليفات من ذاته ، بل إن التكليفات تجىء بإذن الله . وهو لا يطاع إلا بإذن من الله . فالرسول صلى الله عليه وسلم جاء بطاعة الله إلا أن يفوّض من الله فى أمور أخرى ، وقد فوّض الحق سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم بقوله الحق :

﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾

(من الآية ٧ سورة الحشر)

فالمؤمنون برسالة محمد صلى الله عليه وسلم ـ إذن ـ عليهم طاعة الرسول فى إطار ما فوّضه الله والله أذن له أن يشرع .

ويتابع الحق : « ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً » . وظلم النفس : أن تحقق لها شهوة عاجلة لتورثها شقاء دائماً . وظلم النفس أشقى أنواع الظلم ، فمن المعقول أن يظلم الإنسان غيره ، أما أن يظلم نفسه فليس معقولاً . وأى عاصٍ يترك واجباً تكليفياً ويقبل على أمرٍ منهى عنه ، قد يظن فى ظاهر الأمر أنه يحقق لنفسه متعة ، بينما هو يظلم نفسه ظلماً قاسياً ؛ فالذى يترك الصلاة ويتكاسل أو يشرب الخمر أو يرتكب أى معصية نقول له : أنت ظلمت نفسك ؛ لأنك ظننت أنك تحقق لنفسك متعة بينما أورثتها

شقاءً أعنف وأبقى وأخلد ، ولست أميناً على نفسك .

والنفس ـ كما نعلم ـ تطلق على اجتماع الروح بالمادة ، وهذا الاجتماع هو ما يعطى النفس الإنسانية صفة الاطمئنان أو صفة الأمارة بالسوء ، أو صفة النفس اللوامة . وساعة تأتى الروح مع المادة تنشأ النفس البشرية . والروح قبلما تتصل بالمادة هى خيّرة بطبيعتها ، والمادة قبلما تتصل بالروح خيرة بطبيعتها ؛ فالمادة مقهورة لإرادة قاهرها وتفعل كل ما يطلبه منها . فإياك أن تقول : الحياة المادية والحياة الروحية ، وهذه كذا وكذا . لا .

إن المادة على إطلاقها خيّرة ، طائعة ، مُسَخَّرة ، عابدة ، مُسبِّحة . والروح على إطلاقها كذلك ، فمتى يأتى الفساد ؟ . ساعة تلتقى الروح بالمادة ويوجد هذا التفاعل نقول : أنت يا مكلف ستطمئن إلى حكم الله وتنتهى المسألة أم ستبقى نفسك لوّامة أم ستستمرىء المعصية وتكون نفسك أمارة بالسوء ؟

فمَن يظلم مَن إذن ؟ . إنه هواك فى المخالفة الذى يظلم مجموع النفس من روحها ومادتها ، فأنت فى ظاهر الأمر تحقق شهوة لنفسك بالمخالفة ، لكن فى واقع الأمر أنك تتعب نفسك ، « ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم » . ولنعلم أن هناك فرقاً بين أن يأتى الفاحشة إنسانَ ليحقق لنفسه شهوة . وأن يظلم نفسه ، فالحق يقول :

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾

(من الآية ١٣٥ سورة آل عمران)

إذن فارتكاب الفاحشة شىء وظلم النفس شىء آخر ، « فعل فاحشة » قد متع إنسان نفسَه قليلاً ، لكن من ظلم نفسه لم يفعل ذلك . فهو لم يمتعها ولم يتركها على حالها ، إذن فقد ظلم نفسه ؛ لا أعطاها شهوة فى الدنيا ؛ ولم يرحمها من عذاب الآخرة ، فمثلاً شاهد الزور الذى يشهد ليأخذ واحدٌ حقَّ آخر ، هذا ظلم قاسٍ للنفس ، ولذلك قال الرسول : « بادروا بالأعمال فتنا كقطع الليل المظلم يصبح

الرجل مؤمنا ويمسى كافرا ، أو يمسى مؤمنا ويصبح كافرا ، يبيع دينه بِعرضٍ من الدنيا »[١] .

« ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله » . وظلم النفس أيضاً بأن يرفع الإنسان أمره إلى الطاغوت مثلاً ، لكن عندما يرفع الإنسان أمره للحاكم ، لا نعرف أيحكم لنا أم لا ؛ وقد يهديه الله ساعة الحكم .

إن قوله : « ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك » فالمسألة أنهم امتنعوا من المجيء إليك يا رسول الله ؛ فأول مرتبة أن يرجعوا عما فعلوه ، وبعد ذلك يستغفرون الله ؛ لأن الذنب بالنسبة لعدم مجيئهم للرسول قبل أن يتعلق بالرسول تعلق بمن بعث الرسول ، ولذلك يقولون : إهانة الرسول تكون إهانة للمرسِل ؛ فصحيح أن عدم ذهابهم للرسول هو أمر متعلق بالرسول ولكن إذا صعدته تجده متعلقاً بمن بعث الرسول وهو الله ، لأن الرسول لم يأت بشيء من عنده ، وبعد أن تطيب نفس الرسول فيستغفر الله لهم ، إذن فأولاً : يجيئون ، وثانياً : يستغفرون الله وثالثاً : يستغفر لهم الرسول .

وبعد ذلك يقول سبحانه : « لوجدوا الله تواباً رحيماً » إذن فوجدان الله تواباً رحيماً مشروط بعودتهم للرسول بدلاً من الإعراض عنه ثم أن يَستغفروا الله ؛ لأن الله ما أرسل من رسول إلا ليطاع بإذنه ، فعندما تختلف معه لا تقل : إننى اختلفت مع الرسول ؛ لا . إنّك إن اختلفت معه تكون قد اختلفت مع من أرسله وعليك أن تستغفر الله .

ولو أنك استغفرت الله دون ترضية الرسول فلن يقبل الله ذلك منك . فلا يقدر أحد أبداً أن يصلح ما بينه وبين الله من وراء محمد عليه الصلاة والسلام .

وحين يفعلون ذلك من المجيء إلى الرسول واستغفارهم الله واستغفار الرسول لهم سيجدون الله تواباً رحيماً ، وكلمة « توّاب » مبالغة فى التوبة فتشير إلى أن ذنبهم كبير .

---

(١) رواه مسلم .

إن الحق سبحانه وتعالى خلق خلقه ويعلم أن الأغيار تأتى فى خواطرهم وفى نفوسهم وأن شهواتهم قد تستيقظ فى بعض الأوقات فتنفلت إلى بعض الذنوب ، ولأنه رب رحيم بين لنا ما يمحص كل هذه الغفلة ، فإذا أذنب العبد ذنباً أَرَبُّهُ الرحيم يتركه هكذا للذنب ؟ لا . إنه سبحانه شرع له العودة إليه ؛ لأن الله يحب أن يئوب عبده ويرجع إليه وإن غفل بمعصيته .

إن الحق سبحانه وتعالى يعلمنا كيف نزيل عنا آثار المعاصى ، فقال : « ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك » فالعلاج من هذه أن يجيئوك لأنهم غفلوا عن أنك تنطق وتبلغ من قِبَل الحق فى التشريع وفى الحكم ، وبعد المجىء يستغفرون الله ويستغفر لهم الرسول ، تأييداً لاستغفارهم لله ، حينئذ يجدون الله تواباً رحيماً .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾

إذن لا بد أن نستقبل الإيمان بالإقبال على كل ما جاء به رسول الله ، فساعة حكّم المنافقون غيره برغم إعلانهم للإسلام جاء الحكم بخروجهم من دائرة الإيمان ، وعلى المؤمنين أن يتعظوا بذلك .

ونلحظ فى قول الحق : « فلا وربك » وجود « لا » نافية ، وأنه ـ سبحانه ـ أقسم بقوله : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك » ، ونعلم أن المنافقين قد ذهبوا فحكّموا غير رسول الله ، مع أنهم شاهدون بأنه رسول الله فكيف يشهدون أنه رسول الله ، ثم يحكمون غيره ولا يرضون بقضائه ؟ وتلك قضية يحكم الحق فيها

فيقول : لا . هذه لا تكون أبداً . إذن فـ« لا » النافية جاءت هنا لتنفى إيمانهم وشهادتهم أنه رسول الله ؛ لأنهم حكَّموا غيره . فإذا ثبت أنهم شهدوا أنه رسول الله ثم ذهبوا لغيره ليقضى بينهم إذا حدث هذا . فحكمنا فى القضية هو : لا يكون لهم أبداً شرف شهادة أنه رسول الله .

وبعد ذلك أقسم الحق فقال : « وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم » ونحن الخلق لا نقسم إلا بالله ، لكنه سبحانه له أن يقسم بما شاء على ما يشاء ، يقسم بالمادة الجبلية :

﴿ وَٱلطُّورِ ۝١ ﴾

(سورة الطور)

ويقسم بالذاريات :

﴿ وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا ۝١ ﴾

(سورة الذاريات)

والذاريات هى الرياح ، ويقسم بالنبات :

﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ ۝١ ﴾

(سورة التين)

ويقسم بالملائكة :

﴿ وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا ۝١ ﴾

(سورة الصافات)

ولكنك إن نظرت إلى الإنس فلن تجده أقسم بأحد من سيد هذا الكون وهو الإنسان إلا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأقسم بحياته فقال :

﴿ لَعَمۡرُكَ إِنَّهُمۡ لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ۝٧٢ ﴾

(سورة الحجر)

و« لعمرك » يعنى : وحياتك يا محمد إنهم فى سكرتهم يعمهون ، أى هم فى غوايتهم وضلالهم يتحيرون فلا يهتدون إلى الحق ، وأقسم الله بعد ذلك بنفسه ، فقال :

﴿ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ﴾

(من الآية ٢٣ سورة الذاريات)

وساعة يقول : « فورب السماء والأرض » . فلا بد أن يأتى بربوبيته لخلق عظيم نراه نحن ، ولذلك قال :

﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ ﴾

(من الآية ٥٧ سورة غافر)

يعنى إذا فكرت أيها الإنسان فى خلق السماوات والأرض لوجدته أكبر من خلق الناس .

وفى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها يقول الله تعالى : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم » وهذا تكريم لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودليل على أن محمداً عليه الصلاة والسلام ذو منزلة عالية ، إياكم أن تظنوا أنه حين قال : « لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس » أن محمداً قد دخل فى الناس ، إنّه سبحانه يوضح : لا ، سأقسم به كما أقسمت بالسماء والأرض ، « فوربك لنسئلنهم » ، ولماذا يقسم برب السماء والأرض ؛ لأن الربّ له قدرة عظيمة هائلة ، فهو يخلق ويربى ، ويتعهد ويؤدب .

إن خلق السماوات والأرض يكفى فيها الخلق وناموس الكون والتسخير . لكن عندما يخلق محمداً فلا يريد الخلق والإيجاد فقط، بل يريد تربية فيها ارتقاءات النبوة مكتملة فيقول له : فوربك الذى خلقك ، والذى سواك ، والذى رباك ، والذى أَهَّلَكَ لأن تكون خير خلق الله وأن تكون خاتم الرسل ، ولأن تكون رحمة الله للعالمين ، يقسم بهذا كله فيقول : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم » أبعد ما يدخل سبحانه فينا هذه المهابة بالقسم برب رسول الله نقول : لا نحكم محمداً ومنهجه فى حياتنا ؟ .

إذن فقوله : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم » وحَكَّم كل مادتها مثل « الحُكْم » و« التحكيم » و« الحكمة » و« التحكم » وكل هذا مأخوذ من الحَكَمَة وهى حديدة اللجام الذى يوضع فى فم الفرس يمنعه به صاحبه أن يشرد ، ويتحكم فيه يميناً ويساراً ، فكذلك « الحِكْمَة » تعوق كل واحد عن شروده فى أخذ حق غيره ، فالتحكيم والحكم ، والحكمة ، كلها توحى بأن تضع الشىء فى موضعه الصحيح .

وكلمة « شجر » مأخوذة من مادة (الشين والجيم والراء) وإذا رأيتها فافهم أنها مأخوذة من الشجر الذى تعرفه . وهناك نباتات لا تلتصق ببعضها ، وهناك نباتات تكبر فيلتصق بعضها ببعض فتتشابك ، كما نرى مثلاً شجراً متشابكاً فى بعضه ، وتداخلت الأفرع مع بعضها بحيث لا تستطيع أيها الناظر أن تقول : إن هذه ورقة هذه الشجرة أو ورقة تلك الشجرة . وإذا ما أثمرتا وكانتا من نوع واحد لا تقدر أن تقول : إن هذه الثمرة من هذه الشجرة ، ولا هذه الثمرة من تلك الشجرة ، أى أن الأمر قد اختلط .

« وشجر بينهم » أى قام نزاع واختلاط فى أمر ، فأنت تذهب لتفصل هذه الشجرة عن تلك ، وهذه الثمرة عن تلك الثمرة ، وساعة ترى أشجاراً من نوع واحد ، وتداخلت مع بعضها واختلطت ، لا يعنيك إن كنت جانى الثمرة أن تكون هذه الثمرة التى قطفتها من هنا أو من هناك ، فأنت تأخذ الثمرة حيث وجدت ، لا يعنيك أن تكون من هذه أو من تلك ، وإن كنت تستظل تحت شجر لا يعنيك أن تعرف هل جاء هذا الظل من ورق هذه الشجرة أو من تلك الشجرة ، فهذه فائدة اختلاط المتساوى ، لكن إذا أردتُ ورقة شجرة من نوع معين فأنتقيها لأننى أريدها لأمر خاص .

والخلق كلهم متساوون فكان يجب إن اختلطوا أن تكون المسألة مشاعاً بينهم ، لكن طبيعة النفس الشُحّ ، فتنازعوا ، ولذلك فالقاضى الذكى يقول للمتخاصِمَيْن : أتريدان أن أحكم بينكما بالعدل أم بما هو خير من العدل ؟ . فيفزعان ويقولان : أهناك خير من العدل ؟ . يقول : نعم إنه الفضل ، فمادامت المسألة أخوة واحدة ، والخير عندك كالخير عندى فلا نزاع ، أمَّا إذا حدث الشجار فلا بد من الفصل .

ومن الذى يفصل ؟. إنه سيدنا رسول الله بحكم قول الحق : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم » . . فالإيمان ليس قولة تقال فحسب وإنما هو قولة لها وظيفة ، فأن تقول : لا إله إلا الله وتشهد أن محمداً رسول الله فلا بد أن لهذا القول وظيفة ، وأن تُحكِم حركة حياتك على ضوء هذا القول ، فلا معبود إلا الله ، ولا آمر إلا الله ، ولا نافع إلا الله ، ولا ضار إلا الله ، ولا مشرع إلا الله ، فهى ليست كلمة تقولها فقط ! وينتهى الأمر ، ثم عندما يأتيك أمر يحتاج إلى تطبيقها تفرّ منه . « فلا وربك لا يؤمنون » بمنهج الإسلام « حتى يحكموك » فهذا هو التطبيق « فيما شجر بينهم » ولا يصح أن يحكموك صورياً ، بل لا بّد أن يحكموك برضا فى التحكيم ، « ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً » أى ضيقا « مما قضيت » . فعندما يحكم رسول الله لا تتوانوا عن حكمه ، ولا تضيقوا به « ويسلموا تسليما » أى يُذْعِنُوا إذعاناً .

إذن فالإيمان لا يتمثل فى قول يقال وإنما فى توظيف ذلك القول . بأن تلجأ إليه فى العمليات الحركية فى الحياة ، « فلا وربك لا يؤمنون » حتى يترجم الإيمان إلى قضية واقعية اختار الحق لها أعنف ساعات الحرج فى النفس البشرية وهى ساعة الخصومة التى تولد اللدد والميل عن الحق ، « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً » لأنه قد يجد حرجاً ولا يتكلم .

وانظروا إلى الثلاثة : الأولى : « ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك » ، هذه واحدة ، « فاستغفروا الله » هذه هى الثانية ، « واستغفر لهم الرسول » هذه هى الثالثة ، هذه ممحصات الذنوب ، والذى يدخلك فى حظيرة الإيمان ثلاثة أيضاً : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم » هذه هى الأولى ، « ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت » هذه هى الثانية ، و« يسلموا تسليماً » هذه هى الثالثة . إذن فالقولان فى رسول الله صلى الله عليه وسلم : دخول فى حظيرة إيمان ، وخروج من غلّ ذنب .

وهنا وقفة لا أبالغ إذا قلت : إنها شغلتنى أكثر من عشر سنين ، هذه الوقفة حول قول الله : « ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً » ذلك يارب تمحيص من عاصر رسولك صلى الله عليه

وسلم ، فما بال الذين لم يعاصروه ؟ فأين الممحص الذى يقابل هذا لمن لم يعاصر حضرة النبى صلى الله عليه وسلم ، والرسول إنما جاء للناس جميعاً ، فكيف يوجد ممحص لقوم عاصروا رسول الله ثم يحرم من جاءوا بعد رسول الله من هذا التمحيص ؟

هذه مسألة ظلت فى ذهنى ولا أجد لها جواباً ، إلا أنى قلت : لقد ثبت عندى وعند بعض أهل العلم أن رسول الله صلى لله عليه وسلم قال مطمئنا المؤمنين فى كافة العصور :

(حياتى خير لكم تُحْدِثون ويُحْدَثُ لكم فإذا أنا مت كانت وفاتى خيرا لكم تُعْرض علىَّ أعمالكم فإن رأيتُ خيرا حمدت الله وإن رأيت شرا استغفرتُ لكم)[١] .

انظر إلى التطمين فى قوله صلى الله عليه وسلم :

(تعرض علىّ أعمالكم فإن رأيت خيراً حمدت الله ، وإن رأيت غير ذلك استغفرت لكم)[٢] .

فاستغفار الرسول لنا موجود . إذن فما بقى منها إلا أن نستغفر الله ، وما بقى إلا « جاءوك » أى يجيئون لسنتك ولما تركت منها فصلى الله عليه وسلم هو القائل :

(تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما كتاب الله وسنتى ولن يتفرقا حتى يردا علىّ الحوض)[٣] .

فكلما كان الأحياء يجيئونه ، فنحن نجىء إلى حكمه وسنته وتشريعه ، وهو يستغفر لنا جميعاً ، إذن فهذه منتهية ، فبقى أن نستغفر الله قائلين : نستغفر الله العظيم الذى لا إله إلا هو الحىّ القيوم ونتوب إليه .. نفعل ذلك إن شاء الله .

(١) رواه ابن سعد عن بكر بن عبدالله مرسلا ورمز السيوطى له بالحسن .

(٢) رواه ابن سعد .

(٣) رواه الحاكم عن أبى هريرة .

وقوله سبحانه وتعالى : « ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً » أى لا يجدوا حرجاً عندما يذعنون لأى حكم تكليفى أو حكم قضائى ، والحكم التكليفى نعرفه فى : افعل ولا تفعل ، أما الحكم القضائى فهو عندما يتنازع اثنان فى شىء وهذا يقتضى أن نقبل الحكم فى النزاع إذا ما صدر عن رسول الله أو عن منهجه . إذن فلا بد أن نسلم تسليماً فى الاثنين : فى الحكم التكليفى ، وفى الحكم القضائى .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ ﴾

وهنا يساوى الحق بين الأمر بقتل النفس والأمر بالإخراج من الديار ، فالقتل خروج الروح من الجسد بقوة قسرية غير الموت الطبيعى ، والإخراج من الديار هو الترحيل القسرى بقوة قسرية خارج الأرض التى يعيش فيها الإنسان ، إذن فعملية القتل قرينة لعملية الإخراج من الديار ، فساعة يُقتل الإنسان فهو يتألم ، وساعة يخرج من وطنه فهو يتألم ، وكلاهما شاق على الإنسان ، ويأتى الحق بهذين الحكمين اللذين سبقا فى قوم موسى عليه السلام ، فالحق يقول :

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ﴾

(من الآية ٥٤ سورة البقرة)

ويقال : إن قوم موسى عندما سمعوا هذا الحكم قام سبعون ألفاً منهم بقتل أنفسهم ، ونعلم أيضاً أن قوم موسى أخرجوا من ديارهم وذهبوا فى التيه . يقول سبحانه وتعالى :

قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ

(من الآية ٢٦ سورة المائدة)

أى لا يدخلونها ولا يملكونها . والحق هنا يوضح : أن الإسلام لم يأت بمثل ما جاءت به الشرائع السابقة التى كانت التوبة فيها تقتضى قتل النفس ، تلك الشرائع التى رأت أن النفس تغوى صاحبها بمخالفة المنهج فلا بد أن يضيعها . ومن لطف الله أنه سبحانه لم يصدر علينا مثل هذا الحكم ، ولذلك فسيدنا عبدالله ابن مسعود ، وسيدنا عمار بن ياسر ، وثابت بن قيس ؛ كل هؤلاء قالوا : والله لو أمرنا بهذا لفعلنا ، وقال سيدنا عمر : والله لو أمرنا بهذا لفعلنا والحمد لله الذى لم يفعل بنا ذلك . إذن فهذا لطف ، إنه بيّن لهم : لو كتبنا عليهم أن يقتلوا أنفسهم أو يخرجوا من ديارهم كما حدث لقوم موسى . ماذا كانوا يفعلون ؟ لكن ربنا استجاب لدعائهم :

﴿ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ﴾

(من الآية ٢٨٦ سورة البقرة)

لقد استجاب الحق لهم ، لكن ماذا كان يحدث منكم لو كتب عليكم ذلك ؟ وسبب هذه الحكاية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم له ابن عمة اسمه « الزبير بن العوام » وهو من العشرة المبشرين بالجنة ، وهناك واحد آخر اسمه « حاطب بن أبى بلتعة » كانا فى المدينة ، ومن زار المدينة المنورة يجد هناك منطقة اسمها « الحرة » وأرضها من حجارة سوداء كأنها محروقة ، وفيها بعض « الحيطان » أى : البساتين ؛ لأنهم يسمون البستان « حائطاً » ، فقد كانوا يخافون من طغيان السيل فيبنون حول الأرض المزروعة حائطاً ، يرد عنها عنف السيل ويحدد الحيازة فيها ، فكان لحاطب بن أبى بلتعة أرض زراعية منخفضة عن أرض الزبير بن العوام ، فالسيل يأتى أولاً من عند

أرض الزبير ثم ينزل إلى أرض حاطب ، ونعلم أن الأمطار تنزل متفرقة فى مكان ثم يتجمع الماء فى جدول صغير يسمونه « شراج » ومنه يروون بساتينهم .

فلما جاء السيل وأرادوا أن يرووا بساتينهم حدث خلاف بين الزبير بن العوام وحاطب بن أبى بلتعة ، فأرض الزبير تعلو أرض حاطب ، وحاطب يريد أن تمر المياه لأرضه أولاً ثم يروى الزبير أرضه بعد ذلك . فلما تحاكما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حكم للزبير فقد كان الحق معه ، ولم يكن الرسول ليلوى الحق لمجرد القرابة ، فمن الناس من يحكم بالظلم ليشتهر بين الناس بالعدل ، فقد يتخاصم ابنه مع واحد آخر والحق مع ابنه ، فلكيلا يقول الناس : إنه جامل ابنه . يحكم على ابنه ! وهذا ليس عدلاً ؛ فالعدل أن تحكم بالحق ثم تطلب من ابنك أن يتنازل عن حقه ليصبح عطاؤه لغيره فضلاً . فالشجاعة هى أن تحكم بالحق ، وهناك شجاعة أقوى وهى أن تحكم بالحق وإن كان على نفسك ، لأن الحق أعز من نفسك .

ونص هذه الواقعة كما أوردها الإمام البخارى فى صحيحه بسنده قال :
« حدثنا أبو اليمان أخبرنا شعيب عن الزهرى قال أخبرنى عروة بن الزبير أن الزبير كان يحدث أنه خاصم رجلا من الأنصار قد شهد بَدْرًا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شراج من الحرة كان يسقيان به كلاهما فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم للزبير : اسقِ يا زبير ثم أرسل إلى جارك ، فغضب الأنصارى ، فقال : يا رسول الله آنْ كان ابن عمتك ؟ فتلون وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : اسق ثم احبس حتى يبلغ الجدر فاستوعى رسول الله صلى الله عليه وسلم حينئذ للزبير حقه وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل ذلك أشار على الزبير برأى فيه سعة له وللأنصارى ، فلما أحفظ الأنصارى رسول الله صلى الله عليه وسلم استوعى للزبير حقه فى صريح الحكم ، قال عروة : قال الزبير : والله ما أحسب هذه الآية نزلت إلا فى ذلك « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم »[1] .

فلما حكم رسول الله للزبير بأن يسقى زرعه ثم يرسل الماء إلى جاره لم يعجب ذلك

---

(١) رواه البخارى فى الصلح ومسلم فى الفضائل ، والترمذى فى الأحكام والنسائى فى القضاة وابن ماجه فى المقدمة .

حاطب بن أبى بلتعة ، فقال : لأن كان ابن عمتك ، والعربى يقول الكلمة ويترك لنباهة السامع أن يستنبط الباقى ، وكأنه يعنى : حكمت له لأنه ابن عمتك . ولوى شدقيه ، فتغير وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم لحظة علمه أن ابن أبى بلتعة لم يقدر عدالة الحق والحكم . . وكان كثير من الناس ممن كانوا يتصيدون للإسلام يقولون : هو قد حكم أولاً أن يروى الزبير ثم يطلق الماء لحاطب ، فلما غضب حاطب بن أبى بلتعة قال له : اسق يا زبير واستوف حقك ، وخذ من الماء ما يكفيك ثم أرسله لجارك ، فقالوا : لماذا حكم أولاً بأن يسقى ثم يرسل الماء إلى جاره ثم عدل فى الحكم ؟

الناس لم تفهم أن أرض الزبير عالية بينما أرض حاطب منخفضة ، وأنتم إذا نظرتم إلى أى وادٍ ؛ تجدون الخضرة والخصب فى بطن الوادى وليس فى السفح ؛ لأن الماء وإن جاء من الأرض العالية سينزل إلى الأرض المنخفضة ، وإذا رويت المنخفض أولا وأعطيته لا يصيب العالى شىء .

إذن فالحكم الأول كان مبنياً على التيسير والفضل من الزبير ، والحكم الثانى جاء مبنيًا على العدل ، ورسول الله بالحكم الثانى ـ وهو أن يستوفى الزبير حقه ويأخذ من الماء ما يكفيه ـ كأنه قال له : سنعدل معك بعدما كنا نجاملك ، فقال الحق سبحانه وتعالى : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً » .

وإذا كان هذا هو الأمر فكيف لو فعلنا بهم مثلما فعل الرسول من الأمم السابقة؟ عندما أمروهم أن يقتلوا أنفسهم أو أن يخرجوا من ديارهم، هذا الحكم لم ينفذه إلا عدد قليل منهم وهم الثابتون فى الإيمان . وهكذا نعلم أن الحق لم يخل الأمة من ممتثلين ملتزمين يؤدون أمر الله كما يجب .

« ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به » ولو فرضنا أن الله قال : اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ثم بعد ذلك فعلوه لوجدوا فى ذلك الخير عما كان فى بالهم ؛ لأن الناس يجب أن تفطن إلى أن تسأل نفسها ما غاية المؤمن حين يؤمن بإله ؟ وما غاية هذا الإيمان ؟

أنت فى دنياك تعيش مع أسباب الله المخلوقة لك ، وحين تنتقل إلى الله تعيش مع المسبب ، فما الذى يحزنك عندما قال لك : اقتل نفسك ؟ إنه قال لك : اقتل نفسك لماذا ؟ لأنك تنتقل للمسبب وتحيا دون تعب .

إن الحكم من الله هو ارتقاء بالإنسان ، ونحن فى حياتنا الدنيا نجد من يدق الجرس فيأتيه الطعام ، ويدق الجرس فيأتيه الشاى ، ويدق الجرس فتأتيه الحلوى . لكن لا يمكن أن ترتقى الدنيا إلى أن يوجد ارتقاء بحيث إذا خطر الشىء ببال الإنسان وُجد الشىء أمامه ، فلا يدق جرسا ولا يجهد نفسه ، فبالله الذى يعيش فى الأسباب ثم نريد أن ننقله إلى أن يعيش مع المسبب ، فهل هذه تحزنه ؟ لا ؛ لأنهم سيجدون خيرا أكثر .

إنك : لو قارنت الأمر لوجدت الدنيا عمرها بالنسبة لك مظنون ، ومحدود ، ونعيمك على قدر إمكاناتك . لكنك حين تنتقل إلى لقاء الله لا تكون محدوداً ، لا بعمرك ولا بامكاناتك بل تعيش زمناً ليس له حدود ، وتنعم فيه على قدر سعة فضل الله .

« ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم وأشد تثبيتاً » . . وهذا الخير أشد تثبيتاً لغيرهم ؛ لأن من يرونهم ينفذون حكم الله . فلا بد أنهم وثقوا أنهم سيذهبون إلى خير مما عندهم . إذن فهو يثبت من بعدهم . أو المعنى : لو أنهم فعلوا ما أمروا به من اتباع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وطاعته والانقياد لما يراه ويحكم به لأنه الذى لا ينطق عن الهوى لكان ذلك خيرا لهم فى دنياهم وأخراهم وأقوى وأشد تثبيتا واستقرارا للإيمان فى قلوبهم وأبعد عن الاضطراب فيه .

﴿ وَإِذًا لَّآتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ ﴾

فهم إذا فعلوا ما يوعظون به ، « وإذاً لآتيناهم من لدنا أجراً عظيما » وساعة تسمع

. « من لدنَّا » اعرف أنها ليست من شأن ولا فعل الخلق . بل من تفضل الخالق . فالحق سبحانه وتعالى يرسل لنا منهجه بوساطة الرسل ، لكنه يوضح أن بعضاً من الناس منحهم عطفاً وأعطاهم من لدنه علماً ، فهو القائل :

﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ ﴾

(سورة الكهف)

أى أن العلم الذى أعطاه الله لذلك العبد لم يَعْلَمْه موسى ، وعطاء الله للعلم خاضع لمشيئته ، ونعرف من قبل أن الحسنات والأعمال لها نظام ، فمن يعمل خيراً يأخذ مقابله كذا حسنة ، ولكنْ هناك أعمال حسناتها من غير حساب ويجازى عليها الحق بفضله هو . وأضرب هذا المثل ـ ولله المثل الأعلى ـ نحن نجد ذلك متمثلاً لنا فى كثير من تصرفاتنا ، تقول لابنك مثلاً : يا بنى كم أجرك عندى من هذا العمل ؟ فيقول لك : مائة جنيه . فتقول له : هذه مائة هى أجرك ، وفوقها خمسون من عندى أنا ، ماذا تعنى « من عندى أنا » هذه ؟ إنها تعنى أنه مبلغ ليس له دخل بأجر العمل .

« ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم » لقد عرفنا من قبل أن هناك فرقًا بين القتل والموت ، صحيح أن كليهما فيه إذهاب للحياة ، لكن الموت : إذهاب للحياة بدون نقض البنية للجسم ، ولكن القتل : إذهاب للحياة بنقض البنية كأن يكسر إنسان رأس إنسان آخر ، أو يطلق رصاصة توقف قلبه ، وهذا هدم للبنية ، والروح لا تحل إلا فى بنية لها مواصفات ، والروح لم تذهب أولاً . بل إن البنية هدمت أولاً . فلم تعد صالحة لسكنى الروح ، والمثل المعروف هو مصباح الكهرباء : إنك إن رميت عليه حجرا صغيرًا ، ينكسر وينطفىء النور برغم أن الكهرباء موجودة لكنها لا تعطى نوراً إلا فى وعاء له مواصفات خاصة ، فإذا ذهبت هذه المواصفات الخاصة يذهب النور ، فتأتى بمصباح جديد له المواصفات الخاصة الصالحة فتجد النور قد جاء .

وكذلك الروح لا تسكن إلا فى جسم له مواصفات خاصة ، فإن جئت لهذه المواصفات الخاصة وسيدها المخ ، وضربته ضربة قاسية ، فقد نقضت البنية ، وفى هذه الحالة تغادر الروح الجسد لأنه غير صالح لها ، لكن الموت يأتى من غير نقض

للبنية ، ومصداق ذلك هو قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ﴾

(من الآية ١٤٤ سورة آل عمران)

أى أن هناك أمرين : هناك موت ، وهناك قتل ، فالموت هو سلب الحياة ، والقتل هو سلب الحياة ، ولكن القتل سلب الحياة بعد نقض البنية التى تسكن فيها الروح ، ويختلف عن الموت لأن الموت هو خروج الروح دون قتل ، ولذلك يقولون : مات حتف أنفه . أى مات على فراشه ولم يحدث له أى شىء .

والذى يُقتل فى الشهادة يقول فيه ربنا :

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

فإذا كان من يقاتل فى سبيل الله قد امتثل لأمر الله فسوف يجد فضلاً أكثر ، فكيف يكون جزاء من يقتل نفسه امتثالا لأمر ربه ؟ إن امتحان النفس يكون بالنفس ، وليس امتحان النفس بالعدو . وما الميزة فى سيدنا إبراهيم ؟ هل قال له الحق : أنا سأميت ولدك ؟ أقال له إن واحداً آخر سيقتل ابنك ؟ لا ، بل قال له : اذبحه أنت . وهذه هى ارتقاء قتل النفس ، فيفدى الحق إسماعيل عليه السلام بكبش عظيم . إذن فإذا جاء الأمر بأن يقتل الإنسان نفسه فلا بد أن هناك مرتبة أعلى . « ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيرا لهم وأشد تثبيتاً ، وإذاً لآتيناهم من لدنا أجرا عظيما » . ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَلَهَدَيْنَـٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ ﴾

ونحن أمام أمرين : إما أن يقتلوا ، وإما أن يخرجوا من ديارهم ، فقوله : « ولهديناهم صراطاً مستقيماً » لمن ؟ للذى قُتِل أم لمن خَرَج ؟ هو قول لمن أخرج من دياره لأنه مازال على قيد الحياة .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ﴾

والفعل هنا : « يطع » والمطاع هو : الله والرسول ، أى أن هذا الأمر تشريع الله مع تطبيق رسوله ، أى بالكتاب والسنة ، وساعة تجد الرسول معطوفاً على الحق بدون تكرير الفعل فاعلم أن المسألة واحدة . . أى ليس لكل واحد منهما أمر ، بل هو أمر واحد ، قول من الله وتطبيق من الرسول لأنه القدوة والأسوة ؛ ولذلك يقول الحق فى الفعل الواحد :

﴿ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ ۚ وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ۚ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ ﴾ (من الآية ٧٤ سورة التوبة)

فما أغناهم الله غنىً يناسبه وأغناهم الرسول غنىً يناسبه فالفعل هنا واحد . فالغنى هنا من الله ورسوله ؛ لأن الرسول لا يعمل إلا بإذن ربه وامتثالا لأمره ، فتكون المسألة واحدة .

هناك قضية تعرض لها الكتاب وهى قضية قد تشغل كثيراً من الناس الذين عاصروا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان مجلسه صلى الله عليه وسلم لا يُصد

عنه قادم ، يأتى فيجلس حيث ينتهى به المجلس ، فالذى يريد النبى دائما يستمر فى جلوسه ، والذى يريد أن يراه كل فترة يأتى كلما أراد ذلك.فثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم كان شديد الحب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، قليل الصبر عنه ، فأتاه يوما ووجهه متغير وقد نحل وهزل جسمه ، وعُرِف الحزن فى وجهه ، فسأله النبى قائلا : ما بك يا ثوبان ؟ فقال والله ما بى مرض ولا علة ، ولكنى أحبك وأشتاق إليك ، وقد علمت أنى فى الدنيا أراك وقتما أريد ، لكنك فى الآخرة ستذهب أنت فى عليين مع النبيين ، وإن دخلتُ الجنة كنت فى منزل دون منزلك ، وإن لم أدخل فذاك حين لا أراك أبدا .

ونص الحديث كما رواه ابن جرير ـ بسنده ـ عن سعيد بن جبير قال : « جاء رجل من الأنصار إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ وهو محزون ـ فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : « يا فلان مالى أراك محزونا » ؟ فقال : يا نبى الله شىء فكرت فيه فقال : « ماهو » ؟ قال : نحن نغدو عليك ونروح ننظر إلى وجهك ونجالسك ، وغدا تُرفع مع النبيين فلا نصل إليك ، فلم يرد عليه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ شيئا فأتاه جبريل بهذه الآية : « ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين » . . فبعث النبى صلى الله عليه وسلم إليه فبشره[1] » .

وكيف تأتى هذه على البال ؟! إنه إنسان مشغول بمحبته لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وفكر : هل ستدوم له هذه النعمة ؟ وتفكر فى الجنة ومنازلها وكيف أن منزلة الرسول ستعلو كل المنازل . وثوبان يريد أن يطمئن على أن نعمة مشاهدته للنبى صلى الله عليه وسلم لن تنتهى ولن تزول منه ، إنه يراه فى الدنيا ، وبعد ذلك ماذا يحدث فى الآخرة : فإما أن يدخل الجنة أو لا يدخلها ، إن لم يدخل الجنة فلن يراه أبداً . وإن دخل الجنة والنبى فى مرتبة ومكانة عالية . فماذا يفعل ؟

انظر كيف يكون الحب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فالله سبحانه وتعالى يلطف بمثل هذا المحب الذى شغل ذهنه بأمر قد لا يطرأ على بال الكثيرين ، فيقول الحق سبحانه وتعالى تطمينا لهؤلاء : « ومن يطع الله والرسول فأولئك » أى المطيعون

(١) رواه ابن جرير .

لله والرسول « مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا » والمسألة جاءت خاصة بثوبان ، بعد أن نبه الأذهان إلى قضية قد تشغل بال المحبين لرسول الله ، فأنت مع من أحببت ، ولكن الأمر لا يقتصر على ثوبان . لقد كان كلام ثوبان سبباً فى الفتح والتطمين لكل الصديقين والشهداء والصالحين . وهى أصناف تستوعب كل المؤمنين ، فأبو بكر الصديق صِدِّيقٌ لماذا ؟ لأنه هو : المبالغ فى تصديق كل ما يقوله سيدنا رسول الله ، ولا يعرض هذا القول للنقاش أو للتساؤل : أى هذه تنفع أو لا تنفع ؟ فعندما قالوا لسيدنا أبى بكر : إن صاحبك يدعى أنه أتى بيت المقدس وعاد فى ليلة ونحن نضرب إليها أكباد الإبل ، ماذا قال أبو بكر ؟ قال : إن كان قال ذلك لقد صدق .

لم يعلل صدقه إلا بـ « إن كان قد قال ذلك » ، فهذا هو الصديق الحق ، فكلما قال محمد شيئا صدقه أبو بكر ، وأبو بكر ـ رضوان الله عليه ـ لم ينتظر حتى ينزل القرآن مصدقا للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بل بمجرد أن قال صلى الله عليه وسلم : إنى رسول . قال أبو بكر : نعم . إذن فهو صديق .

لقد كانت هناك تمهيدات لأناس سَبَقوا إلى الإسلام ؛ لأن أدلتهم على الإيمان سبقت بعثة الرسول ، هم جربوا النبى عليه الصلاة والسلام ، وعرفوه ، فَلَمَّا تحدث بالرسالة ، صدقوه على الفور ؛ لأن التجارب السابقة والمقدمات دلت على أنه رسول ، ومثال ذلك : سيدتنا خديجة ـ رضوان الله عليها ـ ماذا قالت عندما قال لها النبى : إنه يأتينى كذا وكذا وأخاف أن يكون هذا رَئِيًّا ومَسًّا من الجن يصيبنى .

فقالت خديجة : « كلا والله ما يُخزيك الله أبدا ؛ إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكَلّ ، وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق »[1] . وهذا أول استنباط فقهى فى الإسلام .

هذا هو معنى « مع النبيين والصديقين » ، « والشهداء » هم الذين قتلوا فى سبيل الله ، لكن على المؤمن حين يقاتل فى سبيل الله ألا يقول : أنا أريد أن أموت شهيداً . ويلقى بنفسه إلى التهلكة ، إياك أن تفهمها هكذا ، فأنت تدافع عن رسالة ولا بد أن تقاتل عدوك بدون أنك تمكنه من أن يقتلك ؛ لأن تمكينه من قتلك ، يفقد المسلمين

(١) رواه البخارى .

مقاتلاً . فكما أن الشهداء لهم فضل ؛ فالذين بقوا بدون استشهاد لهم فضل . فالإسلام يريد أدلة صدق على أن دعوته حق ، وهذه لا يثبتها إلا الشهداء .

لكن هل يمكن أن نصبح جميعاً شهداء ؟ ومن يحمل منهج الله إلى الباقين ؟ إذن فنحن نريد من يبقى ومن يذهب للحرب ، فهذا له مهمة وهذا له مهمة ، ولذلك كانت « التقية » وهى أن يظهر رغبته عن الإسلام ويوالى الكفار ظاهرا وقلبه مطمئن بالعداوة لهم انتظارًا لزوال المانع وذلك استبقاء لحياته كى يدافع ويجاهد فى سبيل الله . وسببها أن الإسلام يريد من يؤكد صدق اليقين فى أن الإنسان إذا قتل فى سبيل الله ذهب إلى حياة أفضل وإلى عيش خير ، هذا يثبته الشهيد . ولذلك فالحق سبحانه وتعالى عندما تأتيهم غرغرة الشهادة يريهم ما هم مقبلون عليه ، فيتلفظون بألفاظ يسمعها من لم يقبل على الشهادة ، فهناك من يقول : هبى يا رياح الجنة ، ويقول كلمة يتبين منها أنه ينظر إلى الجنة كى يسمع من خلفه ، ومفرد شهداء ، إما شهيد وهو الذى قتل فى سبيل الله ، وإمّا هى جمع شاهد ، فيكون الشهداء هم الذين يشهدون عند الله أنهم بلغوا من بعدهم كما شهد رسول الله أنه بلغهم .

والمعانى كلها تدور حول معنى أن يشهد شيئاً يقول به وبذلك نعرف أننا نحتاج إلى الاثنين : من يقتل فى سبيل الله ، ومن يبقى بدون قتل فى سبيل الله ؛ لأن الأول يؤكد صدق اليقين بما يصير إليه الشهيد ، والثانى يُعطينا بقاء تبليغ الدعوة فهو شاهد أيضاً :

﴿ لِتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾

(من الآية ١٤٣ من سورة البقرة)

و« الصالحين » والصالح هو المؤهل لأن يتحمل مهمة الخلافة الإيمانية فى الأرض . فكل شيء يؤدى نفعاً يتركه على حاله ، وإن أراد أن يزيد فى النافع فليرق النفع منه ، فمثلاً : الماء ينزل من السماء ، وبعد ذلك يكون جداول ، ويسير فى الوديان ، وتمتصه الأرض فيخرج عيوناً ، فعندما يرى عيناً للمياه فهو يتركها ولا يردمها فيكون قد ترك الصالح على صلاحه ، وهناك آخر يرقى النفع من تلك النعمة فيبنى حولها كى يحافظ عليها . إذن فهذا قد أصلح بأن زاد فى صلاحه .

وهناك ثالث يقول : بدلاً من أن يأتى الناس من أماكنهم متعبين بدوابهم ليحملوا الماء فى القِرَب أو على رءوس الحاملين ، لماذا لا أستخدم العقل البشرى فى الارتقاء بخدمة الناس لينتقل الماء إلى الناس فى أماكنهم ، وهنا يصنع الصهاريج العالية ويصلها بمواسير وأنابيب إلى كل من يريد ماء فيفتح الصنبور ليجد ما يريد . ومن فعل ذلك يسَّر على الناس ، فيكون مصلحاً بأن جاء إلى الصالح فى ذاته فزاده صلاحاً .

ويختم الحق الآية بقوله : « وحسن أولئك رفيقاً » . و« أولئك » تعنى النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، ولا توجد رفقة أفضل من هذه ، والرفيق هو : المرافق لك دائما فى الإقامة وفى السفر ، ولذلك يقولون : خذ الرفيق قبل الطريق ، فقد تتعرض فى الطريق لمتاعب وعراقيل ؛ لأنك خرجت عن رتابة عادتك فخذ الرفيق قبل الطريق . ونعرف أن الأصل فى المسائل المعنوية : كلها منقولة من الحسيات ، وفى يد الإنسان يوجد المرفق . . يقول الحق :

﴿ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ ﴾

(من الآية ٦ سورة المائدة)

وساعة يكون الواحد مرهقاً ورأسه متعباً يتكئ على مرفقه ليستريح ، وساعة يريد أن ينام ولم يجد وسادة يتكئ على مرفقه أيضاً . إذن فالمادة كلها مأخوذة من الرفق ، فالرفيق مأخوذ من الرفق و« المرافق » مأخوذة من الرفق لأنها ترفق بالجسم وتريحه ، وفى كل بيت توجد المرافق وهى مكان إعداد الطعام وكذلك دورة المياه ، وفى الريف تزيد المرافق ليوجد مكان لمبيت الحيوانات التى تخدم الفلاح ، وبيوت الفقراء قد تكون حجرة واحدة فيها مكان للنوم ، ومكان الأكل ، وقد يربط الفقير حماره فى زاوية من الحجرة ، لكن عندما يكون ميسور الحال فهو يمد بيته بالمرافق المكتملة . أى يكون فى المنزل مطبخ مستقل ، ومحل لقضاء الحاجة ، وحظيرة مستقلة للمواشى ، وكذلك يكون هناك مخزن مستقل ، وهذه كلها اسمها « مرافق » لأنها تريح كل الناس .

إذن فقوله : « وحسن أولئك رفيقا » مأخوذة من الرفق وهو : إدخال اليسر ، والأنس ، والراحة ، ويكون هذا الإنسان الذى أطاع الله ورسوله بصحبة النبيين ،

والصديقين ، والشهداء ، والصالحين .

وقد يقول قائل : كيف يجتمع كل هؤلاء فى منزلة واحدة ؛ على الرغم من اختلاف أعمالهم فى الدنيا ، أليس الله هو القائل :

﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ ﴾

(سورة النجم)

ونقول : مادام المؤمن أطاع الله وأطاع الرسول ، أليس ذلك من سعيه ؟ فهذه الطاعة والمحبة لله ولرسوله هى من سعى العبد ؛ وعلى ذلك فلا تناقض بين الآيتين ؛ لأن عمل الإنسان هو سعيه ، ويصبح من حقه أن يكون فى معية الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين . وقد تكون الصحبة تكريما لهم جميعا ليأنسوا بالصحبة ، وهذه المسألة ستشرح لنا قوله :

﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ ﴾

(من الآية ٤٣ سورة الأعراف)

فساعة يرى واحد منزلته فى الآخرة أعلى من آخر ، إياك أن تظن أنه سيقول : منزلتى أعلى من هذا ؛ لأنه مادام قد ترك الأسباب فى الدنيا وعاش مع مسبب الأسباب ، فهو من حبه لله يحب كل من سمع كلام ربنا فى الدنيا فيقول لكل محب لله : أنت تستحق منزلتك ، ويفرح لمن منزلته أعلى منه .

وأضرب هذا المثل ـ ولله المثل الأعلى ـ لنفرض أن هناك فصلاً فيه تلاميذ كثيرة ، بعضهم يحب أن ينجح فقط ، وبعضهم يحب العلم لذات العلم ، وعندما يجد عشاق العلم تلميذاً نجيباً ، أيكرهونه أم يحبونه ؟ إنهم يحبونه ويسألونه ويفرحون به ويقولون : هذا هو الأول علينا ؛ لأنه لا يحب نفسه بل يحب الآخرين ، فكذلك المؤمن الذى يكون فى منزلة بالجنة ويرى غيره فى منزلة أعلى ، إياك أن تقول إن نفسه تتحرك عليه بالغيرة ، لا . لأنه من حبه لربه وتقديره له يحب من كان طائعاً لله ويفرح له ، مثله مثل التلميذ الذى ينال مرتبة عالية فيحب التفوق للآخرين من غير حقد . وهكذا نجد أن الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها لا تخدش قول الحق : « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » .

وهناك بحث آخر فى قوله الحق : « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » . فـ « اللام » تفيد الملك والحق ، كقولنا : ليس لك عندى إلا كذا ، أى أن هذا حقك ، فقوله : « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » أى هى حق للمؤمن وقد حددت العدل فى الحق ولم تحدد الفضل ، ولذلك قال بعدها :

﴿ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾ ﴾

فالفضل من الله يستمد حيثيته من سعى الإنسان ، فقوله : « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » حددت الحق الذى لك والذى توجبه عدالة التكليف ، لكن ربنا لم يقل : إن هذا العطاء لله من الحق والعدل . بل هو من الفضل ، والفضل من الله هو مناط فرح المؤمن ؛ لأنك مهما عملت فى التكليف فلن تؤديه كما يجب بالنسبة لله ، ولذلك أوضح سبحانه لنا : تنبهوا . . أنا كلفتكم وقد تعملون وتجتهدون ، لكن لا تفرحوا مما سيجمعه هذا العمل من حسنات ، ولكن سيكون فرحكم بما يعطيكم ربكم من فضله قال سبحانه :

﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾

(سورة يونس)

وذلك الفضل من الله يرد على من يقول : كيف يجىء « ثوبان » أو مَن دون « ثوبان » ويكون فى الجنة مع النبيين والصديقين والشهداء ومع الصالحين ، ونقول : لو لم تكن منزلته أدنى لما كان فى ذلك تفضل ، إنه ينال الفضل بأن كانت طاعته لله ولرسوله فوق كل طاعة ، أما حبه لله وللرسول ، فهذا من سعيه وعمله بتوفيق الله له ـ وما توفيقى إلا بالله ـ والفضل هو مناط فرح المؤمن ، « ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليما » . ونحن نرضى ونفرح ونكتفى بعلم الله ؛ لأنه سبحانه يرتب أحكامه على علم شامل ومحيط ، ويعرف صدق الحب القلبى وصدق الودادة ،

وصدق تقدير المؤمن لمن زاد عنه فى المنزلة .

وبعد أن أمّن الحق لنا داخلية وطننا الإيمانى ، وتجمعنا الإسلامى بالأصول التى ذكرها ، وهى : أن نؤدى الأمانات ، وإذا أدينا الأمانات فلن نحتاج إلى أن نتقاضى ، فإذا غفل بعضنا ولم يؤد أمانة ، وحدث نزاع فسيأتى الحكم بالعدل . وبعد ذلك نحتكم فى كل أمورنا إلى الله وإلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا نحتكم إلى الطواغيت ، وهات لى مجتمعا إيمانيا واحدا يؤدى الأمانة ولا يشعر بالاطمئنان .

وعرفنا أن الأمانة هى : حق لغيرك فى ذمتك أنت تؤديه ، وكل ما عداك غير . وأنت غير بالنسبة لكل ما عداك ، فتكون كلها مسألة فى الخير المستطرق للناس جميعا ، وإذا حدثت غفلة يأتى العدل . والعدل يحتاج حكما ، وعندما نأتى لنحكم نحتكم لله وللرسول ، وإياك أن تتحاكم إلى الطاغوت . وكان « كعب بن الأشرف » يمثل الطاغوت سابقا ، والآن أيضا يوجد من هم مثل كعب بن الأشرف . بل هناك طواغيت كثيرة .

إنك إذا رأيت خللاً فى العالم الإسلامى فأعلم أن هناك خللاً فى تطبيق التكليف الإسلامى ، فكيف تستقيم لنا الأمور ونحن بعيدون عن منهج تكاليف الإسلام المكتملة ؟ ولو استقامت الأمور لكانت شهادة بأن هذا المنهج لا ضرورة له . لكن إذا حدث شىء فهذا دليل صدق التكليف .

وبعد أن طمأننا على المصير الأخروى مع النبيين والصديقين والشهداء أوضح سبحانه : لاحظوا أن كل رسالة خير تأتى من السماء إلى الأرض ما جاءت إلا لمحاربة فساد وقضاء على فساد طام فى الأرض ؛ لأن النفس البشرية إما أن يكون لها وازع من نفسها بحيث إنها قد تهم مرة بمعصية ثم توبخ نفسها وتعود إلى المنهج ، فتكون مناعتها ذاتية ، وإما أن المناعة ليست ذاتية فى النفس بل ذاتية فى البيئة ، فمثلاً نجد واحداً لا يقدر على نفسه . لكنه يجد واحداً آخر يقول له : « هذا عيب » . وهذا يعنى أن البيئة مازال فيها خير ، وكانت الأمم السابقة قد خلت من المناعة وصارت على هيئة ومسلك واحد وهو ما يصوره الحق بقوله :

﴿ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ﴾

(من الآية ٧٩ سورة المائدة)

إذن فقد فسدت مناعة الذات ، ولا توجد مناعة فى المجتمع ، فتتدخل - إذن - السماء . لكن الحق فضل أمة محمد صلى الله عليه وسلم وميزها على غيرها من الأمم لأن مناعتها دائماً فى ذوات أفرادها . فإن لم تكن فى ذوات الأفراد ففى المجموع ، فلا يمكن أن يخلو المجتمع الإيمانى من فرد يقول : لا . ولذلك لن يأتى رسول بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم . فلو كانت ستحدث طامة وفسد بها المجتمع ولا نجد فيه من يقول : لا . . لكان ولا بد أن يأتى رسول ، لكن محمدا كان خاتم النبيين ؛ لأن الله سبحانه وتعالى فضل أمة محمد بأن جعل وازعها دائما إما من ذاتها بحيث يرد كل فرد نفسه وتكون نفسه لوّامة ، وإمّا مناعة فى المجتمع وكل واحد فيه يوصِى ، وكل واحد يوصَى ، واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣ ﴾

(سورة العصر)

تواصوا لماذا ؟ لأن النفس البشرية أغيار ، فقد تهيج نفسى لأخرج عن المنهج مرة ؛ فواحد آخر ينهانى ، وأنا أردها له وأهديه وأرشده إلى الصراط المستقيم ، وواحد آخر أخطأ فأنا أقول له وأنهاه . إذن فقوله : « وتواصوا » يعنى : ليكن كل واحد منكم موصياً وموصًى . فكلنا يَنظر بعضنا ويلاحظه ؛ مَن ضعف فى شىء يجد من يقوِّمه ، فلا ينعدم أن يوجد فى الأمة المحمدية موصٍ بالخير ومُوصى أيضا بالخير ، وتوجد فى النفس الواحدة أنه موصٍ فى موقف ومُوصًى فى موقف آخر ؛ بحيث لا يتأبى إن وصاه غيره ؛ لأنه كان يوصى بالأمس ، وكما قالوا : « رحم الله امرأً أهدى إلى عيوبى » .

وبعد أن استكمل الحق بناء البيئة الإيمانية برسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، وصرتم أنتم آخر الأمم . فهو سبحانه يطمئننا على أن الشر لا يطم عندنا وستبقى فينا مناعة إيمانية حتى وإن لم يلتزم قوم فسيلتزم آخرون . وإن لم يلتزم الإنسان فى كل

تصرفاته ، فسيلتزم فى البعض ويترك البعض ، ولو لم تتدخل السماء بمنهج قويم لصار العالم متعبا . وكيف يتعب العالم ؟ إن العالم يتعب إذا تعطلت فيه مناهج الحق الذى استخلفنا فى الأرض . فتطغى مظاهر الجبروت والقوة على مظاهر الضعف . ويتحكم فى كل إنسان هواه .

وفى عالمنا المعاصر نرى حتى فى الأمم التى لا تؤمن بدين لا تترك شعوبها لهوى أفرادها ، بل ينظمون الحياة بتشريعات قد تتعبهم ، ووضعت الأمم غير المتدينة لنفسها نظاما يحجز هوى النفس ، ونقول لهم : أنتم عملتم على قدر فكركم ، وعلى قدر علمكم بخصال البشر ، وعلى قدر علمكم بالطبائع وأنتم تجنيتم فى هذه ؛ لأنكم تقننون لشيء لم تخلقوه بشيء لم تصنعوه .

وأصل التقنين : أن تقنن لشيء صنعته ، كما قلنا : إن الذى يضع برنامج الصيانة لأى آلة هو من صنع الآلة ، فالذى صَنَع التليفزيون أيترك الجزار يضع للتليفزيون برنامج الصيانة ؟ لا ، فمن صنع التليفزيون هو الذى يضع قانون صيانته ، فما بالنا بالذى خلقنا ؟ إنه هو الذى يضع قانون صيانتى : بـ « افعل ولا تفعل » ، فأنتم يا بشر تتحكمون فى أشياء بأهواء بعض الناس وتقولون : افعل هذه ولا تفعل هذه ، فعلى أى أساس عرفتم شرور المخالفات ؟ هل خلقتم أنتم النفس وتعرفون ملكاتها ؟ لا . بدليل أنكم تعدلون قوانينكم ، ويحدث التعديل ـ كما قلنا ـ لأن المشرع يتبين خطأ فيستدرك الخطأ ، والمشرع البشرى يخطئ لأنه يقنن لما لم يصنع ، فإذا كنا لا نريد أن يظهر خطأ فلنترك التقنين لمن صنع وهو الله .

والتاريخ البشرى يؤكد أن الفساد يطم عندما يتعطل منهج السماء ، والسماء تتدخل برسالة ، وكل رسالة جاءت كان لها خصوم وهم المنتفعون بالشر ، وهؤلاء لن يتركوا منهج الله يسيطر ليسلبهم هذه الهيمنة والسيطرة والقهر والجبروت والانتفاع بالشر ، بل يحاربون رسالات السماء ، ويلفتنا الحق إلى أن أهل الشر والناس المنفلتين من مناهج السماء وغير المتدينين ، سيسببون لكم متاعب ، فبعدما توطنون أنفسكم التوطين الإيمانى انتبهوا إلى خصومكم وإلى أعدائكم فى الله لقد قال الحق سبحانه وتعالى فى هذه القضية :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا ﴿٧١﴾ ﴾

لا يقال لك : خذ حذرك إلا إذا كان هناك عدو يتربص بك ؛ فكلمة : خذ حذرك » هذه دليل على أن هذا الحذر مثل السلاح ، مثلما يقولون : خذ بندقيتك ، خذ سيفك ، خذ عصاك ، فكأن هذه آلة تستعد بها فى مواجهة خصومك وتحتاط لمكائدهم ، ولا تنتظر إلى أن تغير عليك المكائد ، بل عليك أن تجهز نفسك قبل ذلك على احتمال أن توجد غفلة منك ، هذا هو معنى أخذ الحذر ، ولذلك يقول الحق :

﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾

(من الآية ٦٠ سورة الأنفال)

وهذا يعنى : إياك أن تنتظر حتى يترجموا عداءهم لك إلى عدوان ؛ لأنهم سيعجلونك فلا توجد عندك فرصة زمنية كى تواجههم . فلا بد لكم أيها المؤمنون من أخذ الحذر لأن لكم أعداء ، وهؤلاء الأعداء هم الذين لا يحبون لمنهج السماء أن يسيطر على الأرض . فحين يسيطر منهج السماء على الأرض فلن يوجد أمام أهواء الناس فرصة للتلاعب بأقدار الناس . ومن ينتفعون بسيطرتهم وبأهوائهم على البشر فلن يجدوا لهم فرصة سيادة .

« فانفروا ثبات أو انفروا جميعا » أى لتكن النفرة منكم على مقدار ما لديكم من الحذر ، و« ثبات » جمع ثُبَة وهى الطائفة أى انفروا سَرِيّة بعد سَرِيَّة و« جميعا » أى اخرجوا كلكم لمواجهة العدو ، وعلى ذلك يجب أن نكون على مستوى ما يهيج من الشر . فإن هاجمتنا فصيلة أو سرية ، نفعل كما كان يفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقد كان يرسل سرية على قدر المسألة التى تهددنا ، وإن كان الأمر أكبر من ذلك ويحتاج لتعبئة عامة فنحن ننفر جميعا . ولاحظوا أن الحق يخاطب المؤمنين ويعلم أن لهم أغيارًا قد تأتى فى نفوسهم مع كونهم مؤمنين . فقد تخور النفس عند مواجهة الواقع على الرغم من وجود الإيمان .

ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى فى سورة البقرة :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ٢٤٦ سورة البقرة)

لقد كانوا هم الذين يطلبون القتال ، وماداموا هم الذين قد طلبوا القتال فلا بد أن يفرحوا حين يأتى لهم الأمر من الله بذلك القتال ، لكن الله أعلم بعباده لذلك قال لهم :

﴿ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ﴾

(من الآية ٢٤٦ سورة البقرة)

فأوضح لهم الحق أن فكروا جيدا فى أنكم طلبتم القتال وإياكم ألا تقاتلوا عندما نكتب عليكم هذا القتال لأننى لم أفرضه ابتداءً ، ولكنكم أنتم الذين طلبتم ، ولأن الكلام مازال نظريا فقد قالوا متسائلين :

﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ﴾

(من الآية ٢٤٦ سورة البقرة)

لقد تعجبوا واستنكروا ألا يقاتلوا فى سبيل الله ، خصوصاً أنهم يملكون السبب الذى يستوجب القتال وهو الإخراج من الديار وترك الأبناء ، لكن ماذا حدث عندما كتب الحق عليهم القتال ؟ :

﴿ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

(من الآية ٢٤٦ سورة البقرة)

لقد هربت الكثرة من القتال وبقيت القلة المؤمنة . وكانت مقدمات هؤلاء المتهربين من القتال هى قولهم رداً على نبيهم عندما أخبرهم أن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً فقالوا :

﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ﴾

(من الاية ٢٤٧ سورة البقرة)

كانت تلك أول ذبذبة فى استقبال الحكم ، فأوضح لهم الحق السرّ فى اصطفاء طالوت ، فهو قوى والحرب تحتاج إلى قوة ، وهو عالم ، والحرب تحتاج إلى تخطيط دقيق ؛ فقال سبحانه :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ﴾

(من الآية ٢٤٧ سورة البقرة)

وعندما جاءوا للقتال أراد الحق أن يمحصهم ليختبر القوى من الضعيف فقال لهم طالوت :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ﴾

(من الاية ٢٤٩ سورة البقرة)

والتمحيص هنا ليعرف من منهم يقدر على نفسه وليختبر قوة التحمل عند كل فرد مقاتل ، فليس مسموحاً بالشرب من ذلك النهر إلا غرفة يد . فشربوا من النهر إلا قليلاً منهم ، هكذا أراد الحق أن يصفيهم تصفية جديدة ، وعندما رأوا جيش جالوت قالوا :

﴿ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ﴾

(من الآية ٢٤٩ سورة البقرة)

وما الضرورة فى كل هذه التصفيات ؟ لقد أراد الله ألاَّ يَحْمِلَ الدفاعَ عن منهجه إلا المؤمنون حقاً ، وهم مَنْ قالوا :

﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ٢٤٩ سورة البقرة)

وقوله تعالى :

﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ٢٥١ سورة البقرة)

لماذا أعطانا ربنا هذه الصورة من التصفيات ؟ كى نفهم أن النفس البشرية حين تواجه بالحكم نظرياً لها موقف ، وحين تواجه به تطبيقياً لها موقف ولو بالكلام ، وحين تواجه به فعليا يكون لها موقف ، وعلى كل حال فقليل من قليل من قليل هم الذين نصرهم الله . إذن فيريد سبحانه أن يربى فى نفوسنا أنه جل وعلا هو الذى يهزم ، وهو الذى يَغْلِب مصداقاً لقوله الحق :

﴿ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ ﴾

(من الآية ١٤ سورة التوبة)

إذن فالحق سبحانه وتعالى يوضح لنا : أنا قلت لكم انفروا ثبات أو انفروا جميعاً واعلموا أن النفس البشرية هى بعينها النفس البشرية ، وستتعرض للذبذبة حين تواجه الحكم للتطبيق ، ولذلك يأتى هنا بقوله الحق :

﴿ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ ﴾

فساعة ندعو إنساناً منكم للحرب قد يبطىء ويتخاذل ، مثلما قال فى آية أخرى :

﴿ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ ﴾

(من الآية ٣٨ سورة التوبة)

و« اثاقلتم » تعنى : أن هناك من يتثاقل أى ينزل إلى الأرض بنفسه ، وعلينا أن نفرق بين من ينزل بجاذبية الأرض فقط ، وبين من يساعد الجاذبية فى إنزاله ، فمعنى « أثاقل » أى تباطأ ، وركن ، وهذا دليل على أنه يريد أن يتخاذل ، وهؤلاء لم يتباطأوا فحسب بل إنهم أقسموا على ذلك . ومنهم من كان يثبط ويُبَطِّىء غيره عن الغزو كالمنافق عبدالله بن أبىّ .

« وإن منكم لمن ليبطئن » فافهموا وخذوا هذه المناعة ضد من يعوق زحف المنهج قبل أن تبدأ المعركة ، حتى إذا وقعت المعركة نكون قد عرفنا قوتنا وأعددنا أنفسنا على أساس المقاتلين الأشداء . لا على من يتباطأون ويتثاقلون ، فهناك من يفرح ببقائه حياً عندما يرى هزيمة المسلمين أو قتل بعضهم لأنه لم يكن معهم ، فيظهر الحق أمثال ذلك ويقول : « فإن أصابتكم مصيبة قال قد أنعم الله علىّ إذ لم أكن معهم شهيداً » . لقد تراخى وبقى ، وعندما تأتيهم المصيبة من قتل ، أو من هزيمة يقول لنفسه : الحمد لله أننى لست معهم .

إذن تثاقله وتخلفه وتأخره عن الجهاد ، كان عن قصد وإصرار فى نفسه . وهذه قمة التبجح فهو مخالف لربنا وعلى الرغم من ذلك يقول : أنعم الله علىّ ، مثله كمثل الذى يسرق ويقول : ستر الله علىّ ، وهذه لهجة من لم يفهم المنهج الإيمانى ، فيقول : « قد أنعم الله علىّ إذ لم أكن معهم شهيداً » . إنه لم يكن معهم ولم يكن شهيداً ويعتبر هذا من النعمة ، ولذلك قال بعض العارفين : إن من قال ذلك دخل فى الشرك ، فالمصيبة فى نظره إما قتل وإما هزيمة . ثم ماذا يكون موقف المتخاذل المتثاقل المتباطىء عند الغنيمة أو النصر ؟ يقول الحق :

﴿ وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن

لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾

إذن فالعلّة فى قوله : يا ليتنى كنت معهم ليست رجوعاً عما كان فى نفسه أولاً ، بل هو تحسّر أن فاتته الغنيمة ، وجاء الحق سبحانه وتعالى هنا بجملة اعتراضية فى الآية تعطينا لقطة إيمانية ، فيقول : « ولئن أصابكم فضل من الله ليقولن كأن لم تكن بينكم وبينه مودة يا ليتنى كنت معهم فأفوز فوزاً عظيماً » .

والجملة الاعتراضية هى قوله : كأن لم تكن بينكم وبينه مودة كأن المودة الإيمانية ليس لها ثمن عنده ، فلو كان لها أدنى تقدير لكان عليه ألا يقول فى البداية : أنعم الله علىّ إذ لم أكن معهم شهيداً ، ولكان مع المقاتلين المسلمين ، لكنه يرغب فى الفوز والغنيمة فقط ، ويبتعد عن المسلمين إذا ما أصابتهم الهزيمة أو استشهد عدد منهم .

وبذلك يكشف لنا الحق موقف المتخاذلين ويوضح لنا : إياكم أن تتأثروا بهؤلاء حين تنفرون ثباتٍ أو حين تنفرون جميعاً. واعلموا أن فيكم مخذلين وفيكم مبطئين وفيكم متثاقلين ، لا يهمهم إلا أن يأخذوا حظاً من الغنائم ، ولذلك يحمدون الله أن هزمتم ولم يكونوا معكم ، ويحبون الغنائم ويتمنونها إن انتصرتم ولم يكونوا معكم ، إياكم أن تتأثروا بهذا وقد أعطيتم هذه المناعة حتى لا تفاجأوا بموقفهم منكم وتكونوا على بصيرة منهم . والمناعات ما هى إلا تربية الجسم ، إن كانت مناعة مادية ، أو تربية فى المعانى ، إن حدث مكروه فأنت تملك فكرة عنه لتبنى ردّ فعلك على أساس ذلك .

ونحن عندما يهاجمنا مرض نأتى بميكروب المرض نفسه على هيئة خامدة ونطعِّم به المريض ، وبذلك يدرك ويشعر الجسم أن فيه مناعة ، فإذا ما جاء الميكروب مهاجماً الجسم على هيئة نشيطة ، فقوى المقاومة فى الجسم تتعارك معه وتحاصر الميكروب ، فكأن إعطاء حقن المناعة دربة وتنشيط لقوى المقاومة فى الجسم ، وقد أودعها الله فى

دمك كى تؤدى مهمتها ، كذلك فى المعانى يوضح الحق لكم : سيكون منكم من يفعل كذا وكذا ، حتى تعدُّوا أنفسكم لاستقبال هذه الأشياء إعداداً ولا تفاجأون به ؛ لأنكم إن فوجئتم به فقد تنهارون . فإياكم أن تتأثروا بهذا .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ ﴾

ومادة : « شرى » ومادة « اشترى » كلها تدل على التبادل والتقايض ، فأنت تقول : أنا اشتريت هذا الثوب بدرهم ؛ أى أنك أخذت الثوب ودفعت الدرهم ، وشرى تأتى أيضا بمعنى باع مثل قول الحق :

﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾

(سورة يوسف)

فالجماعة الذين وجدوا سيدنا يوسف عليه السلام فى الجب كانوا فيه من الزاهدين . وبعد ذلك باعوه بثمن بخس ، إذن فـ « شرى » من الأفعال التى تأتى بمعنى البيع وبمعنى الشراء ؛ لأن المبيع والمشترى يتماثلان فى القيمة ، وكان الناس قديماً يعتمدون على المقايضة فى السلع ، فلم يكن هناك نقد متداول ، كان هناك من يعطى بعض الحب ويأخذ بعض التمر ، فواحد يشترى التمر وآخر يشترى الحب ، والذى جعل المسألة تأخذ صورة شراء وبيع هو وجود سلع تباع بالمال .

وما الفرق بين السلع والمال ؟ . السلعة هى رزق مباشر والمال رزق غير مباشر .

فأنت مثلاً تأكل رغيف الخبز وثمنه خمسة قروش ، لكن لو عندك جبل من ذهب وتحتاج رغيفا ولا تجده ؛ أينفعك جبل الذهب ؟. لا . إذن فالرغيف رزق مباشر ؛ لأنك ستأكله ، أما الذهب فهو رزق غير مباشر ؛ لأنك تشترى به ما تنتفع به . وبذلك نستطيع أن نحدد المسألة ؛ فالسلعة المستفاد منها مباشرة هى رزق مباشر ، ندفع ثمنها مما لا ننتفع به مباشرة ، والحق سبحانه وتعالى يريد أن يعقد مع المؤمن به صفقة فيها بيع وشراء . وأنتم تعلمون أن البائع يعطى سلعة ويأخذ ثمنا ، والشارى يعطى ثمنا ويأخذ سلعة ، والحق يقول هنا :

﴿ فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ﴾

(من الآية ٧٤ سورة النساء)

فالمؤمن هنا يعطى الدنيا ليأخذ الآخرة التى تتمثل فى الجنة والجزاء ، ومنزلة الشهداء ؛ ولذلك يقول الحق فى آية أخرى :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ﴾

(من الآية ١١١ سورة التوبة)

وقال بعدها :

﴿ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ﴾

(من الآية ١١١ سورة التوبة)

تلك هى الصفقة التى يعقدها الحق مع المؤمنين ، وهو سبحانه يريد أن يعطينا ما نتعرف به على الصفقات المربحة ، فكل منا فى حياته يجب أن يعقد صفقة مربحة بأن يعطى شيئاً ويأخذ شيئاً أكبر منه ، ولذلك يقول فى آية أخرى :

﴿ يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة فاطر)

هنا أيضاً تجارة ، وأنت حين تريد أن تعقد صفقة عليك أن تقارن الشىء الذى تعطيه بالشىء الذى تأخذه ثم افرق بينهما ، ما الذى يجب أن يضحى به فى سبيل الآخر ؟.

والحق قد وصف الحياة بأنها « الدنيا » ولا يوجد وصف أدنى من هذا ، فأوضح المسألة : إنك ستعطى الدنيا وتأخذ الآخرة ، فإذا كان الذى تأخذه فوق الذى تعطيه فالصفقة - إذن - رابحة ، فالدنيا مهما طالت فإلى نهاية ، ولا تقل كم عمر الدنيا ، لأنه لا يعنيك أن يكون عمر الدنيا ألف قرن ، وإنما عمر الدنيا بالنسبة لكل فرد : هو مقدار حياته فيها ، وإلا فإن دامت لغيرى فما نفعى أنا ؟ . .

إذن فقيمة الدنيا هى : مقدار عمرك فيها ، ومقدار عمرك فيها مظنون ، وعلى الرغم من ارتفاع متوسطات الأعمار فى القرن العشرين ، فالبعض يقول : متوسط الأعمار فى أمريكا سبعون أو خمس وستون سنة ، لكن ذلك لا يمنع الموت من أن يأخذ طفلاً ، أو فتى ، أو رجلاً ، أو شيخاً .

إن عمر الدنيا بالنسبة لكل إنسان هو : مقدار حياته فيها ، فلا تقارنها بوجودها مع الآخرين ، إنما قارنها بوجودها معك أنت ، وهب أنه متيقن ولكنه محدود بسبعين عاماً على سبيل المثال ، ستجد أن تنعمك خلالها مهما كبر وعظم فهو محدود .

والإنسان منا يظل يُربَّى إلى أن يبلغ الحُلُم . فإذا ما بلغ الحُلُم وأصبحت له حياة ذاتية ، أى أن إرادته لم تعد تابعة للأب أو للأم ، بينما فى طفولته كان كل اعتماده على أسرته ، أبوه يأتى له بالملبس فيلبسه ؛ وبالمطعم فيأكله ، ويوجهه فيتوجه ، لكن حينما توجد له ذاتية خاصة يقول لأبيه : هذا اللون لا يعجبنى ! والأكل هذا لا يعجبنى !! هذه الكلية لن أذهب إليها . ولا توجد للإنسان ذاتية إلا إذا وصل إلى مرحلة من العمر يستطيع أن ينسل مثله ، فإذا ما أصبح كذلك نقول له : هذا هو النضج ، وهو الذى يجعل لك قيمة ذاتية .

إنك إذا زرعت شجيرة بطيخ . فأنت ترعاها سقياً وتنظيماً وتسميداً ، وهى مازالت صغيرة وتتعهدها كى لا تخرج مشوهة ، حتى تنضج ، وساعة تنضج يكون الشغل الشاغل قد انتقل من الشجيرة إلى الثمرة « البطيخة » ، فيقال صار لها ذاتية ؛ لأنك إن شققتها لتأكلها تجد « اللب » قد نضج ، وإن زرعته تأتى منه شجيرة أخرى .

ولكن إذا ما قطفت الثمرة قبل النضج فأنت قد تجد « اللب » أبيض لم ينضج بعد ، فلا تصلح تلك البذور لأن تأتى وتثمر مثلها ، وإذا كان « اللب » نصفه أبيض ونصفه أسود ، فهى لم تنضج تماما ، أما إذا وجدت « لبّها » أسمر اللون داكناً فهو صالح للزراعة والإثمار ، وتجد الحلاوة متمشية مع نضج البذرة . فلو كانت الثمار تنضج قبل البذور لتعجل الخلق أكل الثمرة قبل أن تُربى وتنضج البذور ولانْقَطَعَ النوع ؛ لذلك لم يجعل ربنا حلاوة الثمرة إلا بعد أن تنضج البذور ، وكذلك الإنسان ، والحق يقول :

﴿ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾

(من الآية ٥٩ سورة النور)

وعندما يكون الإنسان طفلاً فنحن نتركه يلهو ويرتع فى البيت ويرى هذه وهذه ، لكن إذا كان قادراً على نسل مثله واكتملت رجولته فعليه أن يستأذن ، وحين يكون الإنسان بهذا الشكل تصير له ذاتية ، ولنفترض أنه سيعيش عدداً من السنين تبلغ حوالى الخمسة والخمسين عاماً بعدما صارت له ذاتية ويستطيع النسل إنّه سيقضى مراهقته فى التعلم إلى أن يصبح صالحاً لأن يكسب ويعيش ويتمتع ، ثم لنسأل : كم سنة سيتمتع ؟ سنجدها عدداً قليلاً من السنوات .

إذن فالحياة محدودة ، والمتعة فيها على قدر إمكاناته ، فقد يسكن فى شقة من حجرتين أو فى شقة مكونة من ثلاث حجرات ، أو فى منزل خاص صغير أو حتى فى قصر ، وقد يركب سيارة أو يمشى على قدميه ، باختصار على قدر إمكاناته ، أما فى الآخرة فالموقف مختلف تماماً ، سيسلم نفسه إلى حياة عمرها غير محدود ، فإن قارنت المحدود بغير المحدود ستجد الغلبة للآخرة لأنها متيقنة والنعيم فيها على قدر سعة فضل الله وقدرته ، فالأحسن لنا أن نبيع الدنيا ونأخذ الآخرة ، فتكون هذه هى الصفقة الرابحة التى لا تبور .

ولماذا يدخل الله العبد فى عملية البيع هذه ؟ ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى قبل أن يعرض عليك الصفقة لتدخل فى عملية البيع التى تجهدك إن لم تَقْتُل أو تُقْتَل فى سبيل الله لابد أن يوضح لك كيفية الغاية التى تأخذ بها الفوز فى الآخرة ، ولن تأخذ هذا

الفوز بالكلام فقط ، ولكن انظر إلى المنهج الذى ستقاتل من أجله ، إنّه تأسيس المجتمع الذى يؤدى كل امرىء فيه الأمانة ، وهذا الأمر لا يحزن منه إلا من يريد أن يأخذ عرق الناس ويبنى جسمه من كدهم وتعبهم ، وهات مجتمعاً لا يؤمن بالله وقل : يأيها الناس نريد أن يؤدى كل واحد منكم الأمانة التى عنده ، نريد أن نحكم بالعدل ، فسيفرح أهل هذا المجتمع .

إذن فلكى نحمى المجتمع لابد أن نؤدى الأمانة وأن نقيم العدالة . ومن قبل ذلك أمرنا أن نعبد إلهاً واحداً فلا نتشتت ، ثم أوصانا بالوالدين والأقربين ، واليتامى والمساكين .

قل لى بالله عليك : لو لم يكن هذا دينا من السماء ، وكان تشريعاً من أهل الأرض ، أهناك أعدل من هذا ؟ .

إن مثل هذا المنهج الذى يكفل أمان الجميع يستحق أن يدافع الإنسان عن تطبيقه . وقبل أن يفرض علينا القتال أوضح سبحانه : هذا هو المجتمع الذى ستقاتلون من أجله ، واعلم أنك ساعة تذهب إلى القتال ، أقصى ما فيها أن تقتل ، فستأخذ صفقة الآخرة ، وقصرت مسافة غاياتك ؛ لأن كل شىء إنما يقاس بزمن الغاية له ، فإن قتلت فقد قصرت المدة للوصول إلى الغاية ، فتصل إلى الجنة ، والحمق هو الذى يصيب الناس عندما يموت عزيز أو حبيب فيغرقون فى الحزن . نقول لهم : ألسنا جميعاً سائرين إلى هذه الغاية ، فلماذا الغرق فى الحزن إذن ؟ .

والحق سبحانه وتعالى يكافىء من يقتل فى سبيل الله بحياة فى عالم الغيب وفيها رزق أيضاً . وبعض من الناس يظنون أنهم إن فتحوا قبر الشهيد فسيجدونه حياً يُرزق . ونقول لهم : إن الحق لم يقل : إن الشهداء أحياء عندكم ، بل أحياء عنده فى عالم الغيب . والحق سبحانه يطلب من الذى اقتنع بالإسلام أن ينشره ، وأن يعدل المسلمون بين أنفسهم لتنصلح أمورهم ، وأن يواجهوا أصحاب الشرّ الذى لا يعلمون إلا ظاهراً من الحياة .

ولم تأمر السماء بقتال قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد كان الرسول من

السابقين على محمد صلى الله عليه وسلم يبلغ قومه برسالته ، فإن آمنوا فبها ونعمت وإن لم يؤمنوا تتدخل السماء بالعقاب ، بريح صرصر ، رجفة ، صيحة ، خسف الأرض بهم ، إغراق ، فالرسول قبل محمد صلى الله عليه وسلم كان يبلغ ، والسماء تعاقب من لم يؤمن . وما وجد قتال إلا إذا اقترحوا هم القتال ، مثل بنى إسرائيل ، قال الحق :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ٢٤٦ سورة البقرة)

هم الذين اقترحوا ، لكن القتال الذى يُثَبِّت المبدأ وينشر المنهج لإعلاء كلمة الله ، وسيطرة الخلافة الأمنية الإيمانية على الأرض ، لم يشرع إلا على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم . فكأن الله لم يأمن خلقاً على خلق إلا أمة محمد صلى الله عليه وسلم فقد جعلها أمينة . فأنتم أمناء أن تتولوا عن السماء تأديب المخالف ، وبذلك أخذتم المستوى العالى فى المنهج والمستوى العالى فى الرسالة . وأكرم الله نبيّه فقال :

﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾

(من الآية ٣٣ سورة الأنفال)

فجاء القتال وحارب المسلمون ـ وهم ضعاف ـ المجتمعات الفاسدة القوية . والشاعر يقول :

فقوى على الضلال مقيم وقطيع من الضعاف يُجارِى

هذا القتال لو لم يجئ به دين ، ألَا تقوم به الأمم التى لا دين لها لإصلاح أمرها ؟ إنها تقاتل ، فلماذا يكون مباحاً منهم أن يقاتلوا كى يقرروا مبادئهم ، وعندما يأتى الدين ليشرع القتال يقولون : لا . هذا دين سيف .

نقول لهم : بالله لماذا إذن تحارب الشعوب ؟ أنت تجد شعوبا تتحارب وتجد ظلما يحارب ظلما آخر ، فإذا ما وجد عدل ليزحزح ظلما نقف فى طريقه ؟ لا . وذلك حتى

نعرف أن المسألة مسألة رسالة من السماء لا طغيان ذوات اجتمعوا أو بيتوا مؤامرة لصنع انقلاب يسيطرون به على الناس .

لقد جاء الإسلام وآمن به الضعاف الذين لا يملكون أن يقاتلوا ، فلم يكن باستطاعتهم أن يحموا حتى أنفسهم ؛ ذلك حتى نعرف أن الحق ساعة يأتى ، يأتى عادة لا من قوى بل يأتى من ضعيف تعب كثيراً كى يثبت الإيمان ، والإسلام نادى ودعا به رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مكة لكنه لم ينتصر كدين ولم يسطع إلا من المدينة . فمكة بلد محمد وفيها قبيلته قريش التى ألفت السيادة على الجزيرة كلها ولا أحد يستطيع أن يقرب منها بعدوان ، ولم تكن هناك قوة تستطيع أن تعترض قوافلها بالتجارة إلى الجنوب أو إلى الشمال .

إن أى قبيلة تخاف أن تتعرض لها فى الطريق ؛ لأن القبائل ستأتى إلى قريش فى موسم الحج ، وتخاف كل قبيلة من انتقام قريش ، فلو أن الإسلام الذى صاح به رسول الله صلى الله عليه وسلم انتصر فى مكة ربما قالوا : قبيلة عشقت السيادة ، ودانت لها أمة العرب فما المانع من أن تطمح فى أن يدين لها العالم كله ؟

وأراد الحق أن تكون قريش هى أول من يضطهد رسول الله ويحاربه ، والضعاف هم الذين يتبعونه ، .وبعد ذلك يأتى النصر لدين الله من مكان بعيد عن مكة من « المدينة » لتشهد الدنيا كلها أن الإيمان بمحمد هو الذى خلق العصبية لمحمد ، ولم تخلق العصبية لمحمد الإيمان بمحمد ، وها هوذا سيدنا عمر كان يسمع قول الله سبحانه :

﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ ﴾

(سورة القمر)

فيقول : أى جمع هذا ونحن لا نقدر أن نحمى أنفسنا ؟ ويقول الحق :

﴿ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة القلم)

فيقول عمر : كيف ونحن لا نقدر أن ندافع عن أنفسنا ؟

وبعد ذلك تأتى موقعة « بدر » فَتُثْبِت له صدق هذا ، والعجيب أن الآية تنزل وهم لا يستطيعون أن يدافعوا عن أنفسهم ، فلا يمكن أن يقال: إن هناك مقدمات لذلك بحيث تستنتج النتيجة ؛ فالمقدمات لا توحى بأى نصر ، لكن ربنا هو الذى قال ، ورأوا صحيحاً أن الوليد بن المغيرة ضُرب على أنفه وتركت الضربة علامة على أنفه ؛ لأن الذى قال ذلك من قبل قادر على إنفاذ ما يقول بدون قوة تحول دون ذلك أبداً ، وهذا يدلنا على اختبار المبادىء .

إنك تجد أنّ الذى يؤمن بالمبادىء هو الذى يضحى أولاً ، يدفع ماله وقد يدفع دياره ، بأن يخرج منها ، وقد يدفع نفسه فيقتل ، كل ذلك من أجل المبدأ ، لكن الأمر يختلف مع المبادىء الباطلة ؛ فقبل أن يدخلها واحد نجده يأخذ الثمن . ومن يروجون للمبادىء الباطلة يقولون لمن يغررون به : خذا مالاً وعش واستمتع ، واشتر أحسن الثياب .

أما أصحاب مبدأ الحق فهم الفقراء الذين يدفعون الثمن ، ولهم الحق أن يدفعوا الثمن لأن المثمن غال ، لكن فى الباطل لا يعرفون مثمناً . والذى ينظر لمبدأ من المبادىء الهدامة ، يرى كيف يعيش قادتها ، بينما الرعية تحيا فى بؤس ، فيقول : أنا آخذ الثمن مقدماً،والأمر يختلف مع المؤمنين ، فهم الذين يدفعون الثمن . لينعموا بالجزاء فى الآخرة .

والحق سبحانه وتعالى حين يشرع القتال لأمة محمد صلى الله عليه وسلم يشرعه أولا دفاعا ، كانوا يطلبون من رسول الله ، يقولون : يا رسول الله ، إئذن لنا نقاتل على قدر جهدنا ، فيقول : « اصبروا فإنى لم أؤمر بالقتال »[1] .

وبعد ذلك يؤمر بالقتال كى يدافع عن الخلية الإيمانية بعدما ذهبوا إلى المدينة ، ونعلم أن القتال عملية ضرورية فى الحياة . فالحق سبحانه هو القائل :

﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ ﴾

(من الآية ٢٥١ سورة البقرة)

---

(١) الكاف الشاف فى تخريج أحاديث الكشاف لابن حجر .

وهو القائل :

﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴾

(من الآية ٤٠ سورة الحج)

إذن فدفع الله بعض الخلق بالخلق أمر ضرورى واقعى . وحين يعاب على الإسلام أمر القتال ، نقول لهم : إن الحق سبحانه وتعالى حينما شرع هذا القتال فقد شرعه لأن قوى البغى هى التى تحول دون تطبيق منهج من مناهج العدالة المعروفة ، ولا يستطيع أحد أن يجادل فيها . ولو لم يكن العدل قادماً من السماء لما كان هناك منهج صالح يحكم الناس ، فإذا أراد الله أن يصنع العدل بمنهج أنزله هو ، فلماذا يأتى من يقف فى الطريق ويقول للرسول : أنت جئت لكى ترغم الناس أن يؤمنوا بمنهجك ؟!

ويوضح الحق مسيرة الرسول أنه جاء لكى يثبت كرامة الإنسان فهو سيد الأجناس التى تحيط به ، فالجماد مسخر ، والنبات مسخر ، والحيوان مسخر ، وليس لأى منهم حرية فى أن يقول : افعل ولا تفعل ، فلا توجد إرادة ولا اختيار عند كل الأجناس إلا عند الإنسان ؛ فالحق هو القائل عن أمانة الاختيار .

﴿ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا ﴾

(من الآية ٧٢ سورة الأحزاب)

إذن فبأى شىء تميز الإنسان على هؤلاء الأجناس ؟ تميز عليهم بالعقل ، ومهمة العقل أن يختار بين البديلات ، أما إذا كان هناك أمر ليس له بديل ، فليس للعقل عمل فيه .

ومثال ذلك : هناك مكان نريد أن نذهب إليه ، فيوضح لك إنسان : لا يوجد إلا هذا الطريق ، فهل تفكر أن تذهب عن طريق آخر ؟ طبعا لا ، إذن فالعقل لا عمل له إلا الاختيار بين البديلات ، فإن لم يكن هناك بديل فلا عمل له . وإذا أراد العقل أن يختار بين البديلات ألا نضمن له حرية الاختيار أم نقيد حرية الاختيار لديه ؟

إنك إن قيدت حرية الاختيار بالإكراه فقد أخذت النعمة التى أعطيتها له ، وجعلته مقهوراً مسخراً مكرهاً ؛ ولذلك فالمكره لا يكون له حكم على الأشياء بل هو مجبر ومسخر .

ومادمت تقول : إن العقل هو الذى يختار بين البديلات ، فلا بد أن يكون حق الاختيار موجوداً ، فإن كان فى الإنسان عطب كأن يكون مجنونا ، فلا اختيار له ، وإن كان العقل موجودا لكنه لم ينضج بعد نقول أيضا : لا اختيار .

إذن فلا بد أن يكون العقل موجودا وناضجا للاختيار بين البديلات ، ويكون للإنسان حرية أن يختار ، فإن لم يكن العقل موجودا فهو مجنون فلا تكليف له . والمجنون قد سلبه الله أعز ما أعطى للإنسان وهو العقل ، لكن أعفاه الله أن يسأله أحد عن شيء ، فيفعل ما يفعل دون سؤال ، فلا تكليف لمجنون ، فالتكليف إذن لصاحب العقل الناضج ، وكذلك لا تكليف من قبل البلوغ .

إذن فالإسلام جاء ليحمى كرامة الإنسان فى حرية الاختيار ، ويعرض عليك أمر الإيمان ، فالذى حمل السيف ، لم يحمله ليجبر أحداً على الإيمان ، إنما ليرد كيد من أرادوا قهر الناس ، والجزية إنما فرضت لإعفاء غير المسلمين من مسئولية القتال ، ولو كان الإسلام يفرض الإيمان على الناس فى البلاد التى فتحها لما وجدنا أتباع أى دين فى البلاد التى دخلها الإسلام . وهذه شهادة للمسلمين .

إن الإسلام لم يجئ ليفرض دينا وإنما جاء ليحمى حرية اختيار الدين ؛ والَّذين يقولون:إن الإسلام جاء بالسيف نقول لهم : افهموا جيدا ، لقد كان المؤمنون الأوائل ضعافا وظلوا على الضعف مدة طويلة ، والبلاد التى فتحت بالإسلام مازال فيها أناس غير المسلمين ، وهذا دليل أن الإسلام جاء ليحمى حرية الاختيار :

﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الكهف)

ثم نأتى لنقطة أخرى وهى أن الإسلام لم يأخذ الجزية إلا لأن غير المسلم سيستمتع

بكل خيرات بلاد الإسلام ، والمسلم يدافع وأيضا يدفع الزكاة والخراج . إذن فالمسألة عدالة منهج ، وعلى ذلك يجب أن نفهم أن قول الحق :

﴿ فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ ﴾

(سورة النساء)

فالقتال إنما جاء حتى تسيطر مناهج السماء ، وسبحانه حينما يقول : « فليقاتل فى سبيل الله » فهذا يدلنا على أن هناك قتالاً فى غير سبيل الله ، كأن يقاتل الرجل حمية ، أو ليعلم مكانه من الشجاعة ، فقتال الرجل دائما حسب نيته ، ولذلك تساءل بعض الناس : من الشهيد ؟ قال العلماء : هو من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فيكون شهيدا . إذن فالقتال مرة يكون فى سبيل الله ، ومرة يكون فى سبيل النفس ، ومرة يكون فى سبيل الشيطان .

يقول الحق : « فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة » أى يبيعون الدنيا ليأخذوا الآخرة ، « ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجرا عظيما » .

إذن فالذى يدخل القتال هو أمام أمرين اثنين : إما أن يُقْتل من الأعداء ، وإما إن ينتصر ، وهذه هى القضية الجدلية التى تنشأ بين معسكر الإيمان ومعسكر الكفر ، والمقاتل من معسكر الإيمان يقول لمعسكر الكفر : أنا أقاتل لإحدى الحسنين : إما أن أُقْتل فأصبح شهيدًا آخذ حياة أفضل من هذه الحياة ، وإما أن أنتصر عليك ، فلماذا تتربصون بنا أيها الكفار ؟

إن المؤمن يثق أنه فائز بكل شىء ؛ فإن قُتل ذهب إلى الجنة وإلى حياة أفضل من حياتكم ، وإما أن ينتصر ، والحالتان على سواء من الخير .

وهذا للاستدلال بأن هذا المنهج يراق فيه الدم ، وشهادة لهذا الدين بأنه صحيح ، وإلا فلن يذهب أحد للقتال إن لم يكن مقتنعا بالدين ، فكل واحد يعمل

لحياته ونفسه ، فكل الأمور بالنسبة للإنسان نفعية حتى فى الدين ، ولذلك يقولون : لا تكن أنانيا رخيصا بل عليك أن تكون أنانيا غاليا ، والدين هو ممارسة لأنانية عليا .

ونضرب هذا المثل ـ ولله المثل الأعلى ـ الذى ليس معه إلا جنيه وهو يحتاج إليه ثم رأى واحدا فى حاجة ماسة ، فيقول المؤمن لنفسه : لقد أكلت ، وقد يكون هذا الإنسان لم يأكل بعد فلأعطه الجنيه .

بالله أهو يحب الذى أخذ الجنيه عن نفسه ؟ لا ، بل هو يحب نفسه ، لكنها أنانية عليا ؛ أنانية معلاة . وسبق أن قلنا : إن الذى يجلس ويرى امرأة جميلة فغض عينه أمره يختلف عن واحد آخر « يبحلق » ويحدّق وينظر إليها بشدة ، فأيهما يحب الجمال أكثر ؟ إن الذى غضّ بصره هو من يحب الجمال أكثر ؛ لأنه لا يريدها لحظة فقط ، بل يريدها مستديمة .

فما بالنا بالذى يبيع الدنيا ويقتل فى سبيل الله ويأخذ الآخرة التى ليس فيها قتل أو أى شىء مكدر ؟ إذن فهذه أنانية عليا ، والحق سبحانه وتعالى يعاملنا بقانون النفعية ، لكنها نفعية عليا وليست نفعية رخيصة أو قصيرة المدى ، فيجعلنا نبيع الرخيص بالثمن الغالى .

ولقد رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين يقاتلون فى سبيل الله وعرض عليه منظرهم وهو فى ليلة الإسراء والمعراج ، رأى صلى الله عليه وسلم جماعة يزرعون ويحصدون بعد البذر مباشرة ؛ لأن الذى قتل فى سبيل الله إنما فعل ذلك إعلاء لكلمة الله ، فلا ينتهى قطفه أبدا للخير الذى بذله ، وحياته مستمرة فى حياة الملايين . « ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجرا عظيما » وعرفنا أن كل مؤمن يقاتل فى سبيل الله إنما يقول لمعسكر الكفر ما جاء به الحق فى قوله :

﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾

(سورة التوبة)

فالمؤمن يعلم أنه إما أن يُقتل ويكون شهيداً ، وإما أن يَغلب معسكر الكفر . وهو يتربص بالكافرين أن يُصيبهم الله بعذابٍ من عنده أو بأيدى المؤمنين ، إذن فالمؤمنون رابحون على كل حال ، والكافرون خاسرون على كل حال .

و« المعرى » قُبل أن يهديه الله وكان متشككاً قال :

تُحطمنا الأيام حتى كأننا زجاج ولكن لا يُعاد لنا سبك

فقالوا: إنه ينكر البعث ، فمادام قد جاء بمثل يقول فيه إن الإنسان كالزجاج إن تحطم فلن يستطيع أحد أن يعيده إلى سيرته الأولى ، قال ذلك أيام تكبر الفكر ، وهذه تأتى فى أيام الغرور ، ثم جاءت الأحداث لتلويه وتضرب فى فكره وينتهى إلى الإيمان ، لكن أكان ضامناً أن يعيش حتى يؤمن ؟ فلماذا لم يخلص نفسه من مرارة تجربة الشك ؟ ولكنه بعد أن آمن قال : « هأنذا أموت على عقيدة عجائز أهل نيسابور . ربنا حَقٌّ وربنا سميع وربنا بصير وقال :

زعم المنجم والطبيب كلاهما لا تحشر الأجساد قلت إليكما
إن صحّ قولكما فلست بخاسر أو صحّ قولى فالخسار عليكما

أى إن صحّ قولكما على أنه لا بعث وقمت أنا بالأعمال الطيبة فى الدنيا ، فماذا أكون قد خسرت ؟ إننى لن أخسر شيئاً ، وإن صحّ قولى وفوجئتم بالآخرة والبعث فأنا الذى يكسب والخسران والبوار والعذاب عليكما ، إذن فإيمانى إن لم ينفعنى فلن يضرنى ، وكلامكما حتى لو صح ـ وهو غير صحيح ولا سديد ـ فلن يضرنى .

والحق يقول : « ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيما » وسبحانه هنا يطيل أمد العطاء . انظروا دقة الأداء القرآنى،لأن الذى يتكلم هو الله ، ولنر كيفية ترتيب فعل على فعل ، فحين أقول لك : « احضر لى أكرمك » ، فبمجرد الحضور يحدث الإكرام ، ولكن إن قلت لك : « إن حضرت إلىّ فسأكرمك » ، فهذا يعنى أن الزمن يمتد قليلاً ، فلن تكرم من فور أن تأتى بل أنت تحضر عندى وبعد ذلك تأخذ تحيتك ، ويأتيك الإكرام بعد قليل .

وإن أردت أنا أن أطيل الزمن أكثر فإنى أقول : « إن حضرت إلىّ فسوف أكرمك » . إذن فنحن أمام ثلاث مراحل لترتيب الجزاء على الفعل : جزاء يأتى من فور حصول الشرط ، وجزاء يأتى بعد زمن يسير تؤديه « السين » ، وجزاء يأتى بعد زمن أطول تؤديه « سوف » .

ولم يقل الحق : من يقاتل فى سبيل الله نؤتيه أجراً عظيماً ، ولم يقل : فسنؤتيه أجراً عظيما ، ولكنه قال : « فسوف نؤتيه أجرا عظيماً » وهذا القول سيبقى ليوم القيامة ؛ لذلك كان لابد أن تأتى « سوف » هنا ، وهذا دليل على أنه جزاء موصول لا مقطوع ولا ممنوع .

وهكذا نرى إحكام الأداء القرآنى ، والحق سبحانه وتعالى حين يتكلم عن نفسه وذاته ، يأتى بأساليب كثيرة : فمرة يأتى بأسلوب الجمع ، ونحن نقول ، كما علمونا فى النحو : « النون للتعظيم » كما فى قوله :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩ ﴾

(سورة الحجر)

لم يقل : أنا أنزلت . . فكل شىء يكون نتيجة فعل من أفعال الله . تأتيه « نون التعظيم » ؛ لأنه سبحانه حين يصنع شيئاً لخلقه من متعة أو من نعيم ، يريد صفات كثيرة : قدرة للإبراز ، وعلما لترتيب النعمة ، وتدبيرا وحكمة ، وبسطا ، فيقول هنا : « نؤتيه » ، لأن الصفات تتكاتف لتعمل الخير ، لكنه حين يتكلم عن ذاته مجرداً عن الفعل . فسبحانه يتكلم بالوحدانية مثل قوله الحق :

﴿ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى ﴾

(من الآية ١٤ سورة طه)

وكذلك قوله الحق :

﴿ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ۝١٣ ﴾

(سورة طه)

فساعة يتكلم سبحانه عن ذاته فهو يتكلم بالوحدانية ، ولا تقل بالإفراد تأدباً مع الله فليس له شريك أو مثيل ، وحينما يتكلم سبحانه عن فعله يأتى بالجمع فيقول : « نحن » وهذه حلت لنا إشكالات كثيرة ، مثلما حدث عند قراءة قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ﴾

(من الآية ٢٧ سورة فاطر)

لقد جاء سبحانه فى صدر الآية بـ « أنزل » وكان يناسبها أن يأتى بعدها « أخرج » ، لكنه قال : « فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها» فلماذا هذه « مفردة » وتلك « جمع » ؟ ؛ لأنه ساعة قال : « أنزلنا من السماء ماءً » لم يكن لأحد من خلقه ولو بالأسباب فعل فى إنزال المطر ، لكن ساعة أن أنزل المطر ، نجد واحداً قد حرث الأرض ، وثانياً بذر ، وثالثاً روى الأرض ، وكل ذلك من أسباب خلقه ، فلم يهضم الله خلقه فقال : « أنزل من السماء ماءً » ثم بعد ذلك : أنا وخلقى بما أمددتهم ومنحتهم « فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها » . إذن فلا بد أن ننتبه إلى دلالة الكلمة حين تأتى بالمفرد وحين تأتى بالجمع .

وقوله سبحانه : « نؤتيه أجراً عظيماً » يلفتنا إلى أن كل فعل إنما هو حدث يتناسب مع فاعله أثراً وقوة . فالطفل عندما يصفع آخر لا تكون صفعته فى قوة الشاب أو قوة الرجل ، فإذا كان الذى يعطى الأجر مثيلاً لك فسيعطيك أجراً على قدره ، لكن إذا كان من يعطى هو ربنا ، فسيعطى الأجر على قدره ، ولا بد أن يكون عظيماً . والأجر هو الشيء المقابل للمنفعة .

وهناك فرق بين الأجر والثمن ؛ فالثمن مقابل العين ، أما الأجر فهو مقابل المنفعة ، أنا اشتريت هذه ، فهذا يعنى أنى دفعت ثمناً ، لكن إن استأجرت شيئاً فهو لصاحبه ولكن أخذته لأنتفع به فقط ، وجزاء الحق لمن يقتل فى سبيل الله أهو أجر أم ثمن ؟ ، ونلتفت هنا أن الحق قد أوضح : أنا لم أثمن مَن قتل ، بل نظرت لعمله ، فأخذت أثر عمله ، وأعطيته « أجراً عظيماً » .

وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ﴾

والآية تبدأ بالتعجيب ، ذلك أنه بعد إيضاح لون الجزاء على القتال فى سبيل الله كان لا بد أن يصير هذا القتال متسقاً مع الفطرة الإنسانية ، ونحن نقول فى حياتنا العادية : وما لك لا تفعل كذا ؟ كأننا نتساءل عن سبب التوقف عن فعلٍ يوحى به الطبع ، والعقل . فإن لم يفعله الإنسان صار عدم الفعل مستغرباً وعجيباً . فالقتال فى سبيل الله بعد أن أوضح الله أنه يعطى نتائج رائعة ، فالذى لا يفعله يصبح مثاراً للتعجب منه ، ولذلك يقول الحق : « ومالكم لا تقاتلون فى سبيل الله » أى لإعلاء كلمة الله ، ومرة يأتى القتال وذلك بأن يقف الإنسان المؤمن بجانب المستضعف الذى أوذى بسبب دينه . ويكون ذلك أيضا لإعلاء كلمة الله .

يقول سبحانه : « ومالكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين » أى أن القتال يكون فى سبيل الله وفى خلاص المستضعفين ، وفى ذلك استثارة للهمم الإنسانية حتى يقف المقاتل فى سبيل رفع العذاب عن المستضعفين ، بل إننا نقاتل ولو من باب الإنسانية لأجل الناس المستضعفين فى سبيل تخليصهم من العذاب ؛ لأنهم ماداموا صابرين على الإيمان مع هذا العذاب ، فهذا دليل على قوة الإيمان ، وهم أولى أن ندافع عنهم ونخلصهم من العذاب .

ويعطينا سبحانه ذلك فى أسلوب تعجب : « وما لكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين » فكأن منطق العقل والعاطفة والدين يحكم أن نقاتل ، فإذا لم نقاتل ، فهذه مسألة تحتاج إلى بحث .

وساعة يطرح ربنا مثل هذه القضية يطرحها على أساس أن كل الناس يستوون عند رؤيتها فى أنها تكون مثاراً للعجب لديهم ، مثلها مثل قوله الحق :

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ ﴾

(من الآية ٢٨ سورة البقرة)

يعنى كيف تكفرون بربنا أيها الكفار ؟ إن هذه مسألة عجيبة لا تدخل فى العقل ، فليقولوا لنا إذن : كيف يكفرون بربنا ؟

« وما لكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال » وكلمة «والمستضعفين» يأتى بعدها « من الرجال » والمفروض فى الرجل القوة ، وهذا يلفتنا إلى الظرف الذى جعل الرجل مستضعفاً ، ومَنْ يأتى بعده أشد ضعفاً . « المستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيرا » فقد بلغ من اضطهاد الكفار لهم أن يدعوا الله أن يخرجهم من هذه القرية الظالم أهلها ، والقرية هى « مكة » .

وقصة هؤلاء تحكى عن أناس من المؤمنين كانوا بمكة وليست لهم عصبية تمكنهم من الهجرة بعد أن هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهم ممنوعون من أن يهاجروا ، وظلوا على دينهم ، فصاروا مستضعفين : رجالاً ونساءً وولداناً ، فالاضطهاد الذى أصابهم اضطهاد شرس لم يرحم حتى الولدان ، فيقول الحق للمؤمنين : « وما لكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان » .

وهؤلاء عندما استضعفوا ماذا قالوا ؟ . قالوا : « ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً » وعبارة الدعاء تدل على أنهم لن يخرجوا بل سيظل منهم أناس وثقوا فى أنه سوف يأتيهم ولىّ يلى أمرهم من المسلمين ، فكأنها أوحت لنا بأنه سيوجد فتح لمكة . وقد كان .

لقد جعل الله لهم من لدنه خير ولىّ وخير ناصر وهو محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فتولاهم أحسن التولى ونصرهم أقوى النصر .

هذه الجماعة من المستضعفين منهم « سلمة بن هشام » لم يستطع الهجرة ، ومنهم « الوليد بن الوليد » و« عياش بن أبي ربيعة » ، و« أبو جندل بن سهيل بن عمرو » . وسيدنا ابن عباس ـ رضى الله عنه ـ قال : لقد كنت أنا وأمى من هؤلاء المستضعفين من النساء والولدان ، وكانوا يضيقون علينا فلا نقدر أن نخرج ، فمثل هؤلاء كان يجب نصرتهم ، لذلك يحنن الله عليهم قلوب إخوانهم المؤمنين ويهيج الحمية فيهم ليقاتلوا فى سبيلهم ؛ فظلم الكافرين لهم شرس لا يفرق بين الرجال والنساء والولدان فى العذاب .

« الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليّاً واجعل لنا من لدنك نصيراً » وكان رسول الله والمسلمون نصراء لهم .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ ﴾

وعرفنا أن الطاغوت هو : المبالغ والمسرف فى الطغيان ، ويطلق على المفرد وعلى المثنى ، وعلى الجمع : فتقول : رجل طاغوت ، رجلان طاغوت ، رجال طاغوت ، والحق يقول :

﴿ ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ ﴾

(من الآية ٢٥٧ سورة البقرة)

إذن فالطاغوت يطلق على المفرد وعلى المثنى وعلى الجمع ، وهل الطاغوت هو الشيطان ؟. يصح . أهو الظالم الجبار الذى يطغيه التسليم له بالظلم ؟ يصحّ ، أهو الذى يفرض الشرّ على الناس فيتقوا شرّه ؟ يصحّ ، وكل تلك الألوان اسمها « الطاغوت » .

والأسلوب القرآنى يتنوع فيأتى مرة ليقول :

﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ ﴾

(من الآية ١٣ سورة آل عمران)

وانظر للمقابلة هنا : « الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت » ، هنا « آمنوا » و« كفروا » وهنا أيضا فى « سبيل الله » و« فى سبيل الطاغوت » هذه مقابل تلك . لكى نعرف العبارات التى ينثرها ربنا سبحانه وتعالى علينا أن ندرك فيها الخطفة الإعجازية ، قال فى هذه الآية : « الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله والذين كفروا » مقابلات ، لأن الكافر مفهوم أنه طاغوت ، ولكن : إذا ذكرت فى الثانية مقابلا لمحذوف من الأولى ، أو حذفت من الأولى مقابلاً من الثانية ، هذا يسمونه فى الأسلوب البيانى احتباكا كيف ؟

ها هوذا قوله سبحانه وتعالى : « قد كان لكم آية فى فئتين التقتا فئة تقاتل فى سبيل الله وأخرى كافرة » أى تقاتل فى سبيل الطاغوت ، ويقابلها الفئة التى تقاتل فى سبيل الله ولا بد أن تكون مؤمنة .

إذن فالكلام كله منسجم ، فقال : « قد كان لكم آية فى فئتين التقتا فئة » وترك صفتها كمؤمنة وقال : « تقاتل فى سبيل الله » وسنعرف على الفور أنها مؤمنة ، وربنا يحرك عقولنا كى لا يعطينا المسائل بوضوح مطلق بل لنعمل فكرنا ، كى لا يكون هناك تكرار ، ولكى تعرف أنه إذا قال : « فى سبيل الله » يعنى مؤمناً ، وإذا قال : « فى سبيل الطاغوت » يكون كافراً .

ويتابع الحق : « فقاتلوا أولياء الشيطان » . أى نصراء الشيطان الذين ينفخون فى مبادئه ، والذين ينصرون وسوسته فى نفوسهم ليوزعوها على الناس ، هؤلاء هم

أولياء الشيطان ؛ لأن الشيطان ـ كما نعرف ـ حينما حدث الحوار بينه وبين خالقه . قال :

﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾

(من الآية ٨٢ سورة ص)

لكنه عرف حدوده ولزمها فقال :

﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾

(سورة ص)

أى أن من تريده أنت يارب لا أقدر أنا عليه . وهذه تدلنا على أن المعركة ليست بين إبليس وبين الله ، فتعالى الله أن يدخل معه أحد فى معركة ، بل المعركة بين إبليس وبين الخائبين من الخلق ، فعندما قال : « فبعزتك لأغوينهم أجمعين » دلّ على أنه عرف كيف يُقْسِم ويحلف ؛ لأن ربنا لو أراد الناس كلهم مؤمنين لما قدر الشيطان أن يقرب من أحد ، لكن ربنا عزيز عن خلقه ، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر . ومن هنا دخل الشيطان ، فالشيطان قد دخل من عزّتك على خلقك سبحانك لأنك لو كنت تريدهم كلهم مؤمنين لما استطاع الشيطان شيئاً ، بدليل قوله : « إلا عبادك منهم المخلصين » أى أنا لا أقدر عليهم . ودلّ قَسَم الشيطان أنه دارس ومنتبه لمسألة دخوله على العباد فقال :

﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾

(من الآية ١٦ سورة الأعراف)

إذن فالشيطان لن يأتى على الصراط المعوجّ ؛ لأن الذى يسير على الصراط المعوج والطريق الخطأ لا يريد شيطاناً ؛ فهو مريح للشيطان ، ويعينه على مهمته ، فيكون وليّه . فأولياء الشيطان هم كل المخالفين للمنهج ، وهم نصراء الشيطان .

والحق يأمرنا : « فقاتلوا أولياء الشيطان » . هؤلاء الذين بينهم وبين الشيطان ولاء ، هذا ينصر ذاك ، وذاك ينصر هذا ، ويطمئننا الحق على ذلك فيقول : « إن كيد الشيطان كان ضعيفاً » ؛ لأن الشيطان عندما يكيد سيكون كيده فى مقابل كيد

ربه ، فلا بد أن يكون كيده ضعيفاً جداً بالقياس لكيد الله ، وليس للشيطان سلطان يقهر قالب الإنسان على فعل ، ولا يستطيع أن يرغمك على أن تفعل ، وليس له حجة يقنعك بها .

والفرق بين من يكره القالب ـ قالبك ـ : أنك تفعل الفعل وأنت كاره . كأن يهددك ويتوعدك إنسان ويمسك لك مسدساً ويقول لك:اسجد لى ـ مثلاً ـ إذن فقد قهر قالبك . لكن هل يقدر أن يقهر قلبك ليقول:« أحبنى » ؟ . لا يمكن . إذن فالمتجبر يستطيع أن يكره القالب لكنه لا يقدر أن يقهر القلب ، فالذى يقهر القلب هو الحجة والبرهان ، بذلك يقتنع أن يفعل الفعل وليس مرغماً عليه . إذن فالأول يكون قوة ، والثانى يكون حجة .

والحق سبحانه وتعالى يوضح لنا : اعرفوا أن هذا الشيطان ضعيف جداً ، فهو لا يملك قوة أن يرغمك فإذا أغواك تستطيع أن تقول له : لن أفعل . . ولا يستطيع أن يأتى لقلبك ويقول لك : لا بد أن تفعل ويحملك على الفعل قهرا عنك . فليس عنده حجة يقنعك بها لتفعل ، فهو ضعيف ، فلماذا تطيعونه إذن ؟ . إنكم تطيعونه من غفلتكم وحبكم للشهوة ، والشيطان لا يقهر قلبكم ، ولا يقهر قالبكم . بل يكتفى أن يشير لكم !! ، ولذلك سيقول الشيطان فى حجته يوم القيامة على الخلق :

﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ﴾

(من الآية ٢٢ سورة إبراهيم)

أى لم يكن لى عليكم سلطان : لا سلطان قدرة أرغمكم على فعلكم بالقالب ، ولا سلطان حجة أرغمكم على أن تفعلوا بالقلب ، أى أنتم المخطئون وليس لى شأن ، إذن فكيد الشيطان ضعيف . و« الكيد » ـ كما نعرف ـ هو : محاولة إفساد الحال بالاحتيال ، فهناك من يفسد الحال لكن ليس بحيلة ، وهناك من يريد أن يفسدها بحيث إذا أمسكت به يقول لك : لم أفعل شيئاً ؛ لأنه يفعل الخطأ فى الخفاء . ويفسد الحال بالاحتيال . والكيد لا يقبل عليه إلا الضعيف .

إن القوى هو من يواجه من يكيد له ، فالذى يدسّ السّم لإنسان آخر فى القهوة

ـ مثلاً ـ هو من يرتكب عملاً لإفساد الحال باحتيال ، لأنه لا يقدر أن يواجه ، أما القوى فهو يتأبى على فعل ذلك ، وحتى الذى يقتل واحداً ولو مواجهة نقول له : أنت خائف ، أنت أثبت بجرأتك على قتله أنك لا تطيق حياته ، لكن الرجولة والشجاعة تقتضى أن تقول : أبقيه وأنا أمامه لأرى ماذا يقدر أن يفعل .

إذن فكيد الشيطان جاء ضعيفاً لأنه لا يملك قوة يقهر بها قالباً ، ولا يملك حجة يقهر بها قلباً ليقنعك ، فهو يشير لك باحتيال وأنت تأتيه : ولا يحتال إلا الضعيف . وكلما كان ضعيفاً كان كيده أكثر ، ولذلك كانوا يقولون مثلاً : المرأة أقوى من الرجل لأن ربنا يقول :

﴿ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾

(من الآية ٢٨ سورة يوسف)

ونقول لهم : مادام كيدهن عظيما ؛ إذن فضعفهن أعظم ، وإلا فلماذا تكيد ؟ . ولذلك يبرز الشاعر العربى هذا المعنى فيقول :

وضعيفة فإذا أصابت فرصة ... قتلت كذلك قدرة الضعفاء

لأن الضعيف ساعة يمسك خصمة مرة . وتمكنه الظروف منه ؛ يقول : لن أتركه لأننى لو تركته فسيفعل بى كذا وكذا . لكن القوى حينما يمسك بخصمه ، يقول : اتركه وإن فعل شيئاً آخر أمسكه وأضربه على رأسه ، إذن فإن كان الكيد عظيماً يكون الضعف أعظم .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ

يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾

نعرف أن الحق ساعة يقول : « ألم تر » يعنى : إن كانت مرئية فى زمنها ، فلك أن تتأمل الواقعة على حقيقتها ، وإن كانت غير مرئية فمعناها : ألم تعلم ، ولكن العلم بإخبار الله أصدق من العين . وحين يقول الحق : « كفّوا أيديكم » لا بد أن تكون بوادر مدّ الأيدى موجودة ، فلن يقال لواحد لم يمد يده : كف يدك . والكلام هنا فى القتال ، فيكون قد كفوا أيديهم عن القتال ، بدليل أن الحق سبحانه وتعالى جاء فى المقابل فقال : « فلما كتب عليهم القتال » إذن فقد قيل لهم : « كفوا أيديكم » لأن بوادر مدّ الأيدى للقتال قد ظهرت منهم إما قولاً بأن يقولوا : دعنا يا رسول الله نقاتل ، وإما فعلاً بأن تهيأوا للقتال . وعندما يقول القرآن : « فلما كُتِبَ عليهم القتال » دل هذا القول على وجود زمنين بصدد هذه الآية : زمن قيل لهم : كفّوا أيديكم ، وزمن كُتِبَ عليهم القتال ، فنفهم من هذه أنه كانت هناك بوادر لمدّ اليد إلى القتال قبل أن يكتب عليهم القتال والذين قالوا:دعنا نقاتل هم : ابن عوف وأصحاب له ، ولو كان الأمر بالقتال متروكا للرسول لكان قد أمرهم بمجرد أن قالوا ذلك .

عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أن عبدالرحمن بن عوف وأصحابا له أتوا النبى صلى الله عليه وسلم بمكة . فقالوا : يا نبى الله ، كنا فى عزة ، ونحن مشركون ، فلما آمنا صرنا أذلة قال : « إنى أمرت بالعفو فلا تقاتلوا القوم » فلما حوله الله إلى المدينة أمره بالقتال ، فكفوا ، فأنزل الله «ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم »[1] .

---

(١) رواه ابن أبى حاتم ، ورواه النسائى والحاكم .

راجع أصله وخرّج أحاديثه د. أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .

وهذا دليل على أنه منتظر أمر السماء . وبعد ذلك كتب الله عليهم القتال ، فلما كتب عليهم القتال تملص البعض منه . . مصداقاً لقول الحق : « فلما كُتِبَ عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية » فلماذا هذه الخشية وهم مؤمنون : هل هذا يعنى أنهم خافوا الناس أو رجعوا فى الإيمان ؟ . كما طلب بعض من بنى إسرائيل القتال :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ ﴾

(سورة البقرة)

إذن فعندما تصل المسألة إلى الأمر التطبيقى ، قد يدب فى نفوسهم الخَوَر والخوف ، والحق سبحانه لم يمنع الأغيار أن تأتى على المؤمن ، فمادام الإنسان ليس رسولا ولا معصوما فلا تقل : فلان عمل كذا أو فلان عمل كذا ؛ لأن فلانا هذا لم يدع أنه معصوم ، ولذلك يصح أن تأتى منه الأخطاء ، وتأتيه خواطر نفسه ، وتأتيه هواجس فى رأسه ، ويقف أحياناً موقف الضعف ، ولذلك عندما يقول لك واحد : فلانة عملت كذا وفلان عمل كذا ، قل له : وهل قال أحد إن هؤلاء معصومون ؟ ومادامو غير معصومين فقد يتأتى منهم هذا .

والله يقول : « إذا فريق منهم » وهذا يعنى أنهم ليسوا سواء ، ففريق منهم أصابه الضعف ، وفريق آخر بقى على شدته وصلابته فى إيمانه لم تلن له قناة ولم ينله وهن ولا ضعف ، ثم انظر أدب الأداء . لم يقل : فلان أو فلان . بل قال : « إذا فريق منهم » وهذا يستدعى أن يبحث كل إنسان فى نفسه ، وهذه عملية أراد بها الحق الستر للعبد ، ومادام الستر قد جاء من الرب ، فلنعلم أن ربنا أغير على عبده من نفسه ، ولذلك نقول دائما : ساعة يستر ربنا غيب الناس على الناس فهذا معناه : تكريم للناس جميعا .

وهب أن الله أطلعك على غيب الناس أتحب أن يطّلع الناس على غيبك ؟! لا ، إذن فأنت عندما ترى أن ربنا قد ستر غيبك عن الناس وستر غيب الناس عنك فاعرف أن هذه نعمة ورحمة ؛ لأن الإنسان ابن أغيار ، فيصح أن واحداً أساء إليك فى نفسه ولم يرغب أن تعرف ذلك ، وأنت أيضاً تريد أن تتخلص منه وتكرهه ، فلو أطلعه الله على ما فى قلبك ، أو أطلعك على ما فى قلبه لكانت معركة يجرح فيه كل منكما كرامة الآخر ، لكن ربنا ستر غيب خلقه عن خلقه رحمة بخلقه .

وأنت أيضاً أيها العبد قد تعصيه ويحب أن يستر عليك ، ويأمر الآخرين ألا يتقصوا أخبار معصيتك له . بالله أيوجد رب مثل هذا الرب ؟ شيء عجيب ؛ فقد تكون عاصياً له ويحب أن يستر عليك ، ويأمر غيرك : إياكم أن تتبعوا عورات الناس ، فقد يكون عندهم بعض الحياء ، ويكونون مستترين فى أسمالهم وملابسهم لماذا ؟ حتى لا يفقدوا أنفسهم أو يضلوا طريق التوبة لربهم .

إذن فالحق يرحم المجتمع ، ولكن الخيبة من الناس أنهم يلحون على أن يعلموا الغيب ويبحثوا عمن يكشف لهم الطالع . ونقول لمن يفعل ذلك : يا رجل لقد ستر الله الغيب عنك نعمة منه عليك ، فاجعله مستورا كما أراد الله .

إن الحق سبحانه وتعالى يقول : « إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية » والواحد من هذا الفريق يخشى القتال والقتل ، ويخاف من الموت ؛ لأنه سيأخذه إلى جزاء العمل الذى عمله فى الدنيا . ولذلك نجد أحد الصحابة يقول : أكره الحق .

فتساءل صحابى آخر : كيف تكره الحق ؟ قال : أكره الموت ومن منا يحبه !

ولماذا يخشى الناس القتال ؟ لأن الله حين يُميت ؛ يُميت بدون هدم بنية ، ولكن الأعداء فى القتال قد يقطعون جسد الإنسان ويمثلون به ، لكن إن استحضر العبد الجزاء على هذه المُثْلَة تهون عليه المسألة .

« إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية وقالوا ربنا لم كتبت علينا

القتال » وكأنهم قد نسوا أنهم طلبوا القتال ، كى نعرف أن النفس البشرية حين تكون بمنأى عن الشيء تتمناه ، وعندما يأتيها تعارضه .

« وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب » فهل جاء هذا الكلام منهم على سبيل الاستفهام ؟ يوضح الله لنا ذلك : إنهم يقولون : يارب لماذا ابتليتنا هذا الابتلاء ، وقد لا نقدر عليه فى ساعة الخوف من لقاء المعارك ؟ لذلك طلبوا أن يؤجل الله ذلك وأن يجعلهم يموتون حتف أنوفهم لا بيد العدو ، وكلمة « إلى أجل قريب » توضح أن كل واحد منهم يعى تماماً أنه سيموت حتماً ، لكن لا أحد منهم يريد أن تنتهى حياته بالقتل .

ولماذا تطلبون التأخير ؟ أحُباً فى الدنيا ومتاعها ؟ ويأتى جواب الحق : « قل متاع الدنيا قليل » ولا يصح أن تحرصوا عليه أيها المؤمنون حرصاً يمنعكم أن تذهبوا لتقاتلوا ، فكلكم ستموتون ، وكل منا يجازيه ربنا على عمله ، أما الذى يُقتل فى سبيل الله فسيجازيه على عمله فورا ، ويعطيه حياة أخرى مقابل الموت . لأنه سيأخذ الشهادة ، ولذلك يأمر الحق رسوله بأن يقول : « قل متاع الدنيا قليل » إن قارنته بما يصل إليه المرء من ثواب عظيم إن قتل فى الحرب جهاداً فى سبيل الله . قال بعضهم : اذا كان لا مفر من الموت ، فلماذا لا نذهب لنقاتل فى سبيل الله ، فإن قتلنا فليكن موتنا بثمن زائد عن عملنا ، إذن فهذا تربيب وتنمية للفائدة ، ولذلك قال الحكيم :

ولو أن الحياة تبقى لحى ... لعددنا أضلّنا الشجعان

أى أن الحياة لو كانت تبقى لحى لكان أضل ناس فينا هم الشجعان الذين يقتلون أنفسهم فى الحرب ، لكن المسألة ليست كذلك ، والشاعر العربى يقول :

ألا أيها الزاجرى أحضر الوغى ... وأن أشهد اللذات هل أنت مُخلدى

والمتنبى يقول :

أرى كلنا يبغى الحياة لنفسه ... حريصا عليها مستهاما بها صبا
فحب الجبان النفس ورثه التقى ... وحب الشجاع النفس أورده الحربا

إذن فالاثنان يحبان نفسيهما ، لكن هناك فرق بين الحب الأحمق والحب الأعمق .

وعندما ننظر إلى إجمالى السياق فى الآية نجد أن الحق سبحانه يربى ـ فى صدر الإسلام ـ الفئة المؤمنة تربية إيمانية لا تخضع لعصبية الجاهلية ولا لحمية النفس، ففريق من المؤمنين بمكة الذين ذاقوا الاضطهاد أحبوا أن يقاتلوا ، لكن الرسول صلى الله عليه وسلم يبلغهم أنه لم يؤمر بالقتال بعد ، وأمرهم بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، وأن يصبروا على ما هم فيه حتى يأذن الله بالقتال ، وتلك تربية أولى للفئة المؤمنة ؛ لأن الإسلام جاء وفى نفوس العرب حمية وعصبية وعزة وأنفة ، فكلما أهيج واحد منهم فى شىء فزع إلى سيفه وإلى قبيلته وشنها حرباً ، فيريد الله سبحانه أن يستل من الفئة المؤمنة الغضب للنفس والغضب للعصبية والغضب للحمية ، وأراد أن يجعل الغضب كله لله .

وحينما جاء الإذن بالقتال ، جاء لا ليفرض على الناس عقيدة ، ولا ليكرههم على إسلام ، وإنما جاء ليحمى النفس الإنسانية من أن يتسلط عليها الأقوى الذى يريد أن يجعل الأضعف تبيعاً له ، فأراد سبحانه أن يحرر الاختيار فى الإنسان فكان القتال حفاظا على كرامة الإنسان أن يكون تبيعاً فى العقيدة لغيره ، وبعد ذلك يعرض قضية الإسلام عرضاً عقلياً ؛ فمن استجاب له فمرحباً به ، ومن لم يستجب فله أن يظل على دينه . وهذا يدل على أن الإسلام دين منع التسلط على عقائد الناس ، وضمن لهم الحرية فى أن يختاروا ما يحبون من العقائد بعد أن بين لهم الرشد من الغى .

وحينما شرع الله القتال فقد شرعه دون أن يكون هناك أدنى تدخل لغضب النفس ولا لحميتها ولا لعزتها ، ويشاء الحق سبحانه وتعالى أن يصور العواطف الإنسانية التى تواجه الإسلام ويواجهها الإسلام تصويرا طبيعياً . فبين لنا أن الطبع الإنسانى يعالج بالتربية ، ولهذا نجد أن بعضاً من الذين طلبوا القتال خافوا : « إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية » .

إذن فهناك فرق بين نظرية أن نقاتل ، وأن نخوض القتال بالفعل ؛ لذلك تجد أن منهم من خاف الذهاب إلى القتال خشية أن يُقتلوا ، والقتل كما تعلمون : هدم بنية ، ولكن الموت حتف الأنف هو الذى يسحب به الله الروح الإنسانية ، دون

هدم بنية أو نقض لها . وأيضا فالقتال يكون مظنة القتل ، والخوف من القتال مظنة التراخى فى الأجل ، فالقتل موت مقرب أمام المقاتل ، لكن الموت حتف الأنف علمه عند الله ؛ لذلك قالوا : « ربنا لم كتبت علينا القتال » .

فهل كان طلبهم للقتال لقصد الحمية ، وسبحانه يريد أن يبرىء المؤمن أن يكون قتاله للحمية ؛ لأنه جل وعلا يريد أن تكون المعركة إيمانية ؛ لتكون كلمة الله هى العليا حتى ولو كان المخالف له صلة نسب أو صلة عصب أو صلة عواطف .

والحق سبحانه وتعالى يريد أن يعلمنا ذلك ؛ لأن الأمة الإسلامية ستواجه عنفا شرسا فى تثبيت قاعدة الاختيار الإيمانى فى البشر ، فقال الحق لرسوله صلى الله عليه وسلم : إن قالوا لك ذلك « قل متاع الدنيا قليل » ، فالحرص على أن يستبقى المؤمن نفسه من القتل ليموت بعد أجل قريب يعنى أنه يريد أن يأخذ من الحياة فرصة أكبر ، فأوضح الحق : لا ، ضعوا مقياسا تقيسون به الجدوى ، فسبحانه قال :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ﴾

(من الآية ١١١ سورة التوبة)

إنه شراء وبيع . وأيضاً قال سبحانه فى الصفقة الإيمانية :

﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾

(من الآية ١٠ سورة الصف)

إذن فالله يعاملنا بملحظ النفعية الإنسانية ، واللبق ، الفطن ، الذكى هو الذى يتاجر فى الصفقة الرابحة أو المضمونة أو التى تكون جدواها والفائدة منها أكثر من سواها . فلو أننا قارنا الدنيا ، لعلمنا أنها مهما طالت لا تؤثر ولا تزيد فى عمر الفرد ؛ لأن الدنيا تطول فى الزمن ، لكنها بالنسبة للأفراد تكون بمقدار عمر كل واحد فيها ، لا بمقدار أعمار الآخرين ، فإن دامت للآخرين طويلاً ، فما دخل الفرد فى ذلك ؟

إذن فالدنيا بالنسبة للفرد هى زمن محدد ، والله يبشر المؤمن الذى يقتل فى سبيله أنه يأخذ من الصفقة زمناً غير محدود . وأيضاً فالبقاء فى الدنيا بدون قتل وإلى أن

يموت الواحد حتف أنفه ، هو بقاء مظنون وغير متيقن . ونحن نرى من يموت طفلاً أو شاباً أو كهلاً . أما الآخرة فهى غير محدودة وهى متيقنة .

إن النعيم فى الدنيا يكون على مقدار تصور الفرد للنعيم وإمكانات الفرد فى تحقيق النعيم . وأما النعيم فى الآخرة فيكون على المقدار الذى أعده الله لعباده بطلاقة قدرته وسعة رحمته . فإن قارنا صفقة الدنيا بالآخرة لوجدنا أن متاع الدنيا على فرض أنه متاع هو قليل بالنسبة للآخرة .

إذن فالحق ينمى فينا قيمة الصفقة الإيمانية ، ويعلم أن كل إنسان يحب الخير لنفسه ، فلا يظنن أحد أن الدين جاء ليسلبه الحرية ، أو ليستذله ، فالدين إنما جاء ليربب للمؤمن النفعية وينميها له .

ومثال ذلك عندما منع الدين واحداً أن يسرق الآخرين فهو قد منع أيضاً كل الآخرين أن يسرقوا من أى واحد ، وبذلك يكسب كل إنسان حماية الدين له ، فحين يمنع الواحد عن فعل خطأ فى حق الآخرين فهو قد منع الآخرين وهم ملايين أن يخطئوا فى حقه . فإذا قال الدين لواحد : لا تمد عينيك إلى محارم غيرك ، ففى هذا القول ما يوصى كل غير فى الدنيا : لا تمدوا أعينكم إلى محارم فلان ، فالكسب العظيم - إذن - يعود على الفرد .

وقول الحق : « قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى » يوضح لنا عظمة الصفقة الإيمانية ، وبعد ذلك يؤكد لنا العدل فى قوله : « ولا تظلمون فتيلاً » ونعرف أن الفتيل هو ما فُتل من الأقذار حينما يدعك الإنسان كفيه معاً ، فيخرج ناتجا كالفتلة ، أو الفتيل هو الفتلة فى بطن النواة ، أى لا نظلم حتى فى الشىء التافه . والعدالة هنا بمشروطها ؛ لأن الله أوضح أن من يصنع السيئة يجازى بسيئة مثلها ، ومن يصنع حسنة يجازى بعشرة أمثالها أو أكثر .

وهكذا لا ترهق العدالة مؤمناً لأنها تأتى بفضلها ، فالحسنة بعشر أمثالها أو أكثر ، وتحسب الحسنة عند الله فى ميزان العدالة بما أخذ من الفضل ، فلا يقولن واحد : إن هناك عدلاً من الله بدون فضل .

إذن فقول الحق : « ولا تظلمون فتيلاً » هو بضميمة الفضل إلى العدل . ولذلك نحن ندعو الله قائلين : اللهم عاملنا بالفضل لا بالعدل ، لأن مجرد العدل قد يتعبنا . وندعو الله : وبالإحسان لا بالميزان ، لأنه لو عاملنا بالميزان قد نتعب . وندعو الله : وبالجبر لا بالحساب ، والجبر هو أن يجبرنا الله ، وهكذا نرى أن قوله الحق : « ولا تظلمون فتيلاً » بلاغ من الحق لنا : أننا سنعدل معكم بالفضل فتكون السيئة بواحدة ، وتكون الحسنة بعشر أمثالها أو أكثر .

وقوله الحق : « ولا تظلمون فتيلاً » يعنى فيما قضى به سبحانه متفضلاً بالفضل مع العدل . وسبحانه يريد أن يطمئننا على أن قضايا الإيمان يجب أن يحافظ عليها ، فإياك أن تظن أن عملك هو الذى سيعطيك الجزاء ، إنما فضل الله هو الذى سيعطيك الجزاء . يقول الحق :

﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾

(سورة يونس)

فالفضل هو الذى يُفرح قلب المؤمن . ثم يأتى الحق سبحانه ليرد من بعد ذلك على قضية قالها المنافقون حينما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أحد ، ثم قتل من قتل من المسلمين ؛ فقال المنافقون : « لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا » ففهموا أن العندية عندهم حصن لهم من الموت ، وأن الذهاب إلى القتال هو الذى يجلب الموت . ونعرف أن كل حدث من الأحداث له زمان وله مكان ونسميه الظرف .

إن الذين درسوا « الظرف » فى النحو يقولون : « ظرف زمان أو ظرف مكان » ، فكل حدث من الأحداث لا بد أن يوجد له زمان ومكان . والزمان فى الموت مبهم والمكان فى الموت أيضاً مبهم ، فظرف حدث الموت زماناً أو مكاناً مبهم ، وحين يبهم الله شيئاً ؛ فلا تظنوا أنه يريد أن يخفيه ويُغمضه علينا ، إن الحق يبهم الأمر ليوضحه أوضح بيان ، فالإبهام من عنده أوضح بيان ، كيف ؟ .

إنه سبحانه حين يجهلنا بزمن الموت ويخفيه علينا فمعنى ذلك أن الإنسان قد يستقبل الموت فى أى لحظة ، وهل هناك بيان أوضح من هذا ؟ . فحين جهَّلنا بزمن الموت فهو لم يمنع عنا معرفة زمنه ، ولكنه أشاع زمنه فى كل زمن ، فلا أحد بقادر على

الاحتياط من زمن الموت ، وكذلك الحال فى مكان الموت .

وها هوذا الحق يقول :

﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ ﴾

والحق هنا يتعرض لقضية الموت مع المكان فقال : « أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة » فالعقل البشرى الذى يتوهم أن بإمكانه الاحتياط من الموت ـ مكاناً ـ عليه أن يعى جيداً أنه لا يستطيع ذلك ، فوجود الشخص عند ظرفٍ ما لا يدفع ولا يمنع عنه الموت ، فالعندية سواء فى معسكر الكفر أو فى معسكر الإيمان لن تمنع حدوث الموت .

والعندية ـ كما نعلم ـ تعطى ظرف المكان . فلطافة تغلغل الموت تخترق أى مكان وزمان مادام الحق قد قضى به . وأعداء الإنسان فى عافيته وفى حياته كثيرون ، لكن إن نظرنا إليها فى العنف نجدها تتناسب مع اللطف . فكلما لطف عدو الإنسان ودق ؛ كان عنيفا ، وكلما كان ضخما كان أقل عنفا . فالذى له ضخامة قد يهول الإنسان ويفزعه ، ولكن بإمكان الإنسان أن يدفعه . لكن متى يكون العدو صعباً ؟ . يكون العدو صعبا كلما صغر ولطف ولا يدخل تحت الإدراك . فيتسلل إلى الإنسان .

ومثال ذلك : هب أن واحداً يبنى بيتاً فى خلاء ويمر عليه إنسان ليبارك له وضع

أساس البيت فيقول لصاحب البيت : إنك لم تحتط لمثل هذا المكان ، فهو يمتلىء بالذئاب والثعالب ويجب أن تضع حديداً على النوافذ التى فى الدور الأول ، وذلك حتى لا تدخل إليك هذه الحيوانات المفترسة .

ويضع صاحب البيت حديداً على نوافذ الدور الأول . ويجىء واحد ثان ويقول له : لقد فاتك أن هذا المكان به ثعابين كثيرة وعليك أن تضيق فتحات الحديد ، ويفعل ذلك صاحب البيت ليرد الثعابين . ويجيء ثالث لزيارة صاحب البيت فيقول : إننى أتعجب منك كيف تحترس من الذئاب والثعابين ولا تحتاط من ذباب هذه المنطقة ؟. إنه ذباب سام . وهنا يضع صاحب البيت سلكاً على النوافذ . ويجىء واحد رابع ليقول لصاحب البيت ؛ فى هذه المنطقة حشرات أقل حجماً من الذباب وأكثر عنفاً من البعوض ويمكنها أن تتسلل من فتحات السلك الذى تضعه على نوافذك ، فيخلع صاحب البيت السلك المعلق على نوافذ البيت ويقوم بتركيب سلك آخر فتحاته أكثر ضيقاً بحيث لا تمر منه هذه الحشرات . إذن فعدوك كلما لطف ودق عن الإدراك كان عنيفاً .

ولذلك فأخطر الميكروبات التى تتسلل إلى الإنسان ، ولا يدرى الإنسان كيف دخلت إلى جسده ولا كيف طرقت جلده ، ولا يعرف إصابته بها إلا بعد أن تمر مدة التفريخ الخاصة بها وتظهر بجسده آلامها ومتاعبها . إنها تدخل جسم الإنسان دون أن يدرى ولا يعرف لذلك زماناً أو مكاناً .

ويلفتنا سبحانه إلى أن الشىء عندنا كلما لطف ازداد عنفاً ، ولا تمنعه المداخل . فما بالكم بالموت وهو ألطف من كل هذا ، ولا أحد يستطيع أن يحتاط منه أبداً .

وما مقابل الموت ؟. إنه الحياة حيث توجد الروح فى الجسد . وما كنه الروح ؟ لا يعرف أحد كنه الروح على الرغم من أنه يحملها فى نفسه ، ولا أحد يعرف أين تكون الروح أو ما شكلها ، ولا أحد يعرف من رآها أو سمعها أو لمسها .

وعندما يقبضها الله فإن الحياة تنتهى . والحق هو الذى جعل للحىّ روحاً ، وعندما ينفخها فيه تأتى الحياة .

إن الحق ـ سبحانه ـ يلفتنا وينبهنا إلى ذلك فيترك فى بعض ماديتنا أشياء لا يستطيع العلماء بالطب ولا المجاهر أن يعرفوا كنهها وحقيقتها ، فنحن لا نعرف ـ مثلاً ـ الفيروس المسبب لبعض الأمراض .

فإذا كان الله قد جعل للإنسان روحاً يهبه بها الحياة ، فلماذا لا نتصور أن للموت حقيقة ، فإذا ما تسلل للإنسان فإنه يسلب الروح منه ، وبذلك نستطيع أن نفهم قول الحق سبحانه وتعالى فى سورة الملك :

﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾

(الآية ١ وجزء من الآية ٢ سورة الملك)

إذن فالموت ليس عملية سلبية كما يتوهم بعض الناس ، بل عملية إيجابية ، وهو مخلوق بسرّ دقيق للغاية يناسب دقة الصانع . ووصف الحق أمر الموت والحياة فى سورة الملك وقدم لنا الموت على الحياة ؛ مع أننا فى ظاهر الأمر نرى أن الحياة تأتى أولاً ثم يأتى الموت . لا ، إن الموت يكون أولاً ، ومن بعده تكون الحياة . فالحياة تعطى للإنسان ذاتية ليستقبل بها الأسباب المخلوقة، فيحرث الأرض أو يتاجر فى الأشياء أو يصنع ما يلائم حياته ويمتع به السمع والبصر ، فيظن أن الحياة هى المخلوقة أولاً .

ينبهنا ويوضح لنا الحق : لا تستقبل الحياة إلا إذا استقبلت قبلها ما يناقض الحياة ، فيقول لنا عن نفسه : « الذى خلق الموت والحياة » وهذا ما يسهل علينا فهم الحديث القدسى الشريف الذى يشرح لنا كيف يكون الحال بعد أن يوجد أهل الجنة فى الجنة وأهل النار فى النار ويأتى الحق سبحانه بالموت فى صورة كبش ويذبحه .

عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يؤتى بالموت يوم القيامة ، فيوقف على الصراط ، فيقال : يا أهل الجنة فيطلعون خائفين وَجِلِين أن يخرجوا من مكانهم الذى هم فيه . فيقال : هل تعرفون هذا ؟ قالوا :

نعم رَبَّنَا ، هذا الموتُ ، ثم يُقال : يا أهل النار ، فيطلعون فرحين مستبشرين ، أن يخرجوا من مكانهم الذى هم فيه . فيُقال : هل تعرفون هذا ؟ قالوا : نعم هذا الموت ، فيأمر به فيُذبح على الصراط ، ثم يقال للفريقين « كلاهما »[١]:« خلود فيما تجدون لا موت فيه أبدا »[٢] .

وتجسيد الموت فى صورة كبش معناه أن للموت كينونة . ويعلمنا الله أنه يقضى على الموت ، فنحيا فى خلود بلا موت . وينبه الناس الذين كفروا وظنوا أن الذين قتلوا فى سبيل الله لو كانوا عندهم لما ماتوا . نقول لهم : العندية عندكم لا تمنع الموت . ولو كان من دنا أجله وحان حَيْنه يسكن فى بروج مشيدة لأدركه الموت .

إن الأداء القرآنى يتنوع ؛ فهناك من الأداء ما نفهمه من الألفاظ ، وهناك ما نفهمه من الهَدْى الأسلوبى للقرآن ؛ لأنه خطاب الرب . فالبشر فيما بينهم يتخاطبون بملكات لغوية وملكات عقلية ، لكن عندما يخاطب الحقُّ الخلقَ فسبحانه يخاطب كل ملكات النفس . ولذلك نجد طفلاً صغيراً يحفظ القرآن ويمتلئ بالسرور ، فيسأله واحد من الكبار : ما الذى يسرك فى حفظ القرآن ؟ . فيجيب الصغير : إننى أحس بالانسجام وكفى . هو لا يعرف لماذا يحس بالانسجام من سماع القرآن أو حفظه ، فالمتحدث هو الله ، وسبحانه بقدرته وجمال كماله يخاطب كل الملكات النفسية .

وسبحانه وتعالى يقول : « أينما تكونوا يدرككم الموت » أى أينما توجدوا يدرككم الموت . وكلمة « يدرككم » دليل على أن الإنسان عندما تدب فيه الروح ينطلق الموت مع الروح ، إلى أن يدركها فى الزمن الذى قدره الله . وكلمة « يدرك » توضح لنا أن الموت يلاحق الروح حتى إذا أدركها سلبها وكما قال الأثر الصالح عن ملاحقة الموت للحياة : « حتى إذا أدركها جرت ، فلا أحد منكم إلا هو مُدْرَك » ، ولذلك يقول أهل المعرفة والإشراق : « الموت سهم أرسل إليك وإنما عمرك هو بقدر سفره إليك » .

---

(١) كلمة (كلاهما) هكذا جاءت بالأصل ، والمعروف فى القاعدة « كليهما » ؛ لأن الكلمة توكيد لمجرور ، ولعله على لغة من يلزم المثنى الألف .

(٢) الحديث أخرجه الإمام أحمد فى مسنده جـ ٢٤ ص ٢٠٤ .

وهكذا نعرف أن قوله الحق : « يدرككم » تدل على أن الموت يلاحق حياة الإنسان ويجرى وراء روحه حتى يدركها .

ويقول الحق : « ولو كنتم فى بروج مشيدة » . وعندما نبحث فى الحروف الأصلية لمادة كلمة « البروج » نستطيع أن نرى المعنى العام لها . والحروف الأصلية فى هذه الكلمة هى « الباء » و« الراء » و« الجيم » وكلها تدل على الارتفاع والظهور .

فيقال : « هذه امرأة فيها بَرَج » أى أن عيونها واسعة وتحتل قدراً كبيراً من وجهها وتكون واضحة ، فالبَرَجُ هو الاتساع والظهور .

والأبراج عادة كان بناؤها مرتفعاً كحصون وقلاع نبنيها نحن الآن من الأسمنت والحديد . والقصد من « مشيدة » أى أنها بروج تم بناؤها بإحكام ، فالشىء قد يكون عالياً ولكنه قد يكون هشاً . أما الشىء المشيد فهو من « الشِّيد » وهو « الجص » ، ومن « الشَّيْد » وهو « الارتفاع » ، والمقصود أن لبنات البرج تلتحم أبعاضها وأجزاؤها بالجص فهى مرتفعة متماسكة .

إنك إذا رأيت جمعاً وقوبل بجمع فمعنى ذلك أن القسمة تعطينا آحاداً . فساعة يدخل المدرس الفصل يقول لطلابه : أخرجوا كتبكم . فمعنى هذا القول أن يخرج كل تلميذ كتابه . وعلى ذلك يكون القياس . فلو بنى كل إنسان لنفسه برجاً مشيداً لجاءه الموت .

والجمع مقصود أيضا : أى لو كنتم جميعا معتصمين ببرج محاط ببرج آخر وثالث ورابع ، كأنه حصن محصن فالحصون فى بعض الأحيان يتم بناؤها وكأنها نقطة محاطة بدائرة صغيرة . وحول الدائرة دائرة أخرى أوسع . وبذلك تجد الحصن نقطة محاطة بعدد من الحصون . والموت يدرك البشر ولو كانوا فى برج محاط ببروج . وكلا المعنيين يوضح قدرة الحق فى إنفاذ أمره بالموت .

وساعة يتكلم سبحانه عن الموت وعن الحياة فى الجهاد فهو يريد أن يخرج الناس

من الظلمات إلى النور ؛ لأن الدين هو نور طارىء على ظلمة ، والذين يعيشون فى الظلام يكونون قد ألفوا الظلمة والفوضى وكل منهم يعربد فى الآخرين . وعندما جاء الدين فرّ بعضهم من مجىء النور ؛ لأن النور يحرمهم من لذات الضلال ؛ ولأن النور يوضح الرؤية .

لذلك يوضح سبحانه وتعالى أنه أتى بالموت ليؤدى حاجتين : الحاجة الأولى : أنّ مَن يؤمن عليه أن يستحضر الموت لأن جزاءه لا يكون له منفذ إلا أن يموت ويلقى ربه ، ويعلم أن الحاجب بينه وبين جزاء الخالق هو الموت ، فساعة يسمع كلمة الموت فهو يستشرف للقاء الله ؛ لأنه ذاهب إلى الجزاء .

والحاجة الثانية : أن غير المؤمن يخاف الموت ويخشاه ولا يستعد له ويخاف أن يلاقى ربه . إذن فكلمة « الموت » تعطى الرَّغَب والرَّهَب . فصاحب الإيمان ساعة يسمع كلمة الموت يقول لنفسه : إن متاعب الدنيا لن تدوم ، أريد أن ألقى ربى .

ولذلك يجب أن يستحضر المؤمنون بالله تلك القضية . وحين يستحضرون هذه القضية يهون عليهم كل مصاب فى عزيز ؛ فالإنسان مادام مؤمناً فهو يعرف أن العزيز الذى راح منه إما مؤمن وإمَّا غير مؤمن ، فإن كان مؤمناً فليفرح له المؤمن الذى افتقده ؛ لأن الله عجَّل به ليرى خيره ، فإن حزنت لفقد قريب مؤمن فأنت تحزن على نفسك . وإن كان الذى ذهب إلى ربه غير مؤمن ، فالمؤمن يرتاح من شره . إذن الموت راحة ، والذى عمل صالحاً يستشرف إليه ، وهذا رَغَب ، أما الكافر فهو خائف ؛ وهذا رَهَب .

ولذلك فمن الحمق أن يحزن الإنسان على ميْت ، وعليه أن يلتفت إلى قول الحق : « أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة » .

ويتابع الحق : « وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك قل كل من عند الله فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً » . ومثل هذا الكلام أليق بمن ؟

الذى يقول عن الحسنة إنها من عند الله فهو يؤمن بالله وهذه الكلمة لها فى ذهنه تصور . والآية لا تريد هذا الصنف من الناس ولكن بعضهم يريد أن يفرق بين محمد وربه . فينسب الخير والحسنة لله ، وينسب الشر والسيئة لمحمد ، وعلى هذا فالذين قالوا مثل هذا الكلام إما أن يكونوا من المنافقين الذين أعلنوا إسلامهم وولاءهم لرسول الله وفى قلوبهم الكفر ، وإمَّا أن يكونوا من بعض أهل الكتاب لأنهم يؤمنون بالله ولكنهم لا يعترفون برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهؤلاء وأولئك ينظرون إلى الأمر الذى فيه خير على أساس أنه من عند الله ، ويلقون اتهاماً باطلاً لرسول الله أنه مسئول عن الشرور التى تحدث لهم . كأنهم يريدون أن يقيموا انعزالاً بين محمد وربه .

لا . فسبحانه لا يتيح لهم ذلك ؛ فقد أنزل قرآناً يتلى إلى أبد الآبدين :

﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾ ﴾

(سورة النساء)

والحق يقول :

﴿ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾

(من الآية ٣١ سورة آل عمران)

فلا أحد يملك أن يصنع مضارة بين محمد وربه ؛ لأن محمداً رسول من عند الله مبلغ لقول الله ومنهجه ، وسبحانه يقول :

﴿ وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ﴾

(من الآية ٧٤ سورة التوبة)

والحق سبحانه وتعالى لا يرضى عن عبد يستغفر الله فقط ، ولكن لا بد أن يذهب العبد ويطلب من رسول الله أن يستغفر له الله ، فلا أحد يمكنه أن يقيم صلحاً مع الله من وراء محمد رسول الله ، فلا تفرقوا بين أمر الله وأمر رسول الله ، ومن يريد أن يصنع مضارة بين الله ورسوله بأن يقول عن الحسنة إنها من عند الله ، وأن السيئة من عند محمد ، فهذا قول خاسر .

ما حكاية هذا القول ؟ إنهم إن ذهبوا إلى حرب فغنموا قالوا : « إن الله أسعدنا بالغنائم » . وإن هُزِموا قالوا : إن محمدا هو الذى أوقع بنا الهزيمة ، وكأن لمحمد تصرفاً دون تصرف الله . فإياك أن تُخدع بمن يحاول أن يعزل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ربه .

إن محمداً قد بعثه الله وأنزل عليه القرآن .

وكان رسول الله حين نزلت الدعوة يأمل أن يستجيب له القوم الذين يؤمنون بالله وهم أهل الكتاب . وكانوا أقرب إلى قلبه من القوم الذين لا يؤمنون بالله وهم المشركون ، وكان هناك معسكران : معسكر الفرس ، ومعسكر الروم ، وكان معسكر الفرس يعبد النار ـ معاذ الله ـ أما معسكر الروم فهو يؤمن بالله وبالكتب السابقة على رسول الله ولكنه كافر بمحمد .

والذى يؤمن بالله كان قريباً إلى قلب محمد ممن كفر بالله ، وهذا دليل على أن عصبية محمد قد أتت له من الله . وقد ينصرف المعنى إلى اليهود . فحينما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة كان من المصادفة أن تقل ثمارهم ومزارعهم ؛ فقالوا : مزارعنا وثمارنا فى نقص منذ قدم هذا الرجل . وهل كان ذلك الأمر مصادفة أو أننا نجد له تعليلاً مادياً ؟

فحينما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة أنكروه بعد أن كانوا يستفتحون به على الذين كفروا ، وسلب مجيئه منهم السلطة الزمنية التى كانت لهم ؛ لأنهم كانوا أهل مال ، ويتعاملون بالربا ويثيرون العصبية ، ويتاجرون من أجل أن تظل لهم السيادة ، وهم أهل علم بالكتاب وحاولوا التجارة بكلمات الله . فكانت لهم السيادة من ثلاث جهات : علمياً ومالياً ومنهجياً .

وعندما جاء الإسلام ألف بين الأوس والخزرج فبارت أسلحتهم وضاعت منهم السلطة التى صنعوها بالتفرقة ، وضاعت منهم سيادة المال ؛ لأن الإسلام حرم الربا ، وضاعت منهم سيادة المنهج لأن الإسلام كشف تحريفهم للكتاب وأنزل الله كتابا ـ وهو القرآن ـ غير قابل للتحريف .

وهكذا انتهت وسائل السيطرة ، لذلك وقعوا فى الحزن وانشغلوا بهذا الهم . وكان الواحد من اليهود لا يسارر الآخر من اليهود ولا يناجيه إلا فى أمر محمد . ومادامت هذه المسألة قد شغلتهم إلى هذه الدرجة فلا بد أنها قد شغلتهم عن الزراعة والاهتمام بها .

هم انشغلوا عن الأسباب فكانت النتيجة هى ما حدث . ولكنهم حاولوا إلصاق ذلك برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان من الصعب عليهم أن يفهموا الأمر الحادث لهم ، وإمّا أن يكون تفسير ذلك هو أن السماء أرادت لهم عقاباً لأنهم حاولوا المكر برسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك شغل وقتهم عن الأخذ بالأسباب . وإمّا أن يكون ذلك من آفة سماوية فلماذا لم يلتفتوا إلى أن دين محمد هو المنقذ لهم مما هم فيه ؟

لقد كانوا يستعزون به . لكنهم لم يؤمنوا به (فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به) فنزل بهم أكثر من عقاب . فالذين كانوا يتعاملون مع اليهود بالربا امتنعوا عن ذلك ، وكذلك نقصت الزروع والثمار .

إذن فالمسألة جاءتهم بنقص من الأموال ؛ فقالوا ما قاله الله مما أورده الحق على ألسنتهم : « وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك قل كل من عند الله » . أى كل من الحسنة والسيئة من عند الله . وما الحسنة وما السيئة ؟

الحسنة هى الظفر والغنيمة والسراء والرخاء والخصب . والسيئة هى الهزيمة والقتل والضراء والبؤس والجدب. هذا ما فهموه، ونحن ـ المؤمنين ـ نفهم الحسنة فهماً دقيقاً ؛ فالحسنة فى الشرع هى ما يأمر به الله ، والسيئة هي ما ينهى عنه الله ؛ بدليل أن المؤمن قد يصاب فى عزيز لديه ثم يقف موقفاً إيمانياً فى استقبال هذه المصيبة ويقول : « إن حزنى لن يرده فالأفضل أن أكسب به الجنة » . ويزيد على ذلك : « يكفينى عزاءً الأجرُ عليه ، فأنا لم أكن سآخذ منه طيلة حياته مثل الأجر الذى سآخذه فى صبرى على مصيبتى فيه » .

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ينبهنا بقوله : إياك أن تظن أن الحسنة هى

ما تستطيبه نفسك ، أو أن السيئة هى ما تشمئز منها نفسك ، لا ، فالمصاب فى عُرْف الشرع هو من حُرم الثواب . ولذلك جاء القول : « قل كل من عند الله » أى أن الحسنة والسيئة من عند الله .

وهل يصنع الله سيئة ؟ ونقول : نستغفر الله ؛ فالسيئة فى نظر الإنسان والحسنة فى نظر الإنسان ، وكلها من عند الله ، ولكن إذا نسبنا الفعل إلى الله فكل ما يصدر عنه حسن ، وافتقاد المقاييس الصحيحة هو الذى يتعب . وعندما نحاول أن نحسب مثل تلك الأمور بحساب بالكمبيوتر تستقيم لنا النتائج .

ومثال ذلك : تلميذ أهمل فى المذاكرة وفى حضور الدرس لذلك فهو يرسب آخر العام ، ولكنه ينظر إلى الرسوب على أنه سيئة ، ولكنها فى عرف الحق عموماً حسنة . فنجاح مثل ذلك الخائب ضياع لمقاييس الاجتهاد ولَمَا ذاكر أحد ولا نطمس العلم . وحينما وضع الله قانون أن من لا يستذكر يرسب ، فهذا إحياء للحسنة فى آلاف غيره ، ويكون الراسب نموذجاً واضحا ووافيا وتطبيقيا ، وخاضعًا لسنة الكون . وكذلك الذى لم يزرع أرضه أو تكاسل عن الحرث أو أهمل الرى ، فهو يأتى يوم الحصاد ولا يُؤْتى ثماراً وهذا أمر سيئ بالنسبة له ، أما بالنسبة لقضية الحق الكونية فى ذاتها فهى حسنة ؛ لأن ذلك يدفع كل واحد إلى عدم إهمال أى سبب من الأسباب ؛ فالمصاب بنتيجة عمله يفسر المصيبة على أنها سيئة ؛ لأن فيها مساءة وإضرارا به ، ولكن لو قاس مسها له بما فعله لوجد أن ذلك هو سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا .

وحين يضع الحق سبحانه وتعالى سنناً فى كونه فالذى يأخذ بالأسباب يعطيه ، ويحرم سبحانه من لا يأخذ بالأسباب .

وعندما نقيس الأمور بهذا المقياس نرى الناجح هو المجدّ ، والمتكاسل هو الراسب ، والنتيجة كلها من عند الله تقنيناً كونياً .

والحق سبحانه وتعالى حينما يعرض أقوال طرف فإن كان مقراً بما فيه يتركه من غير تعليق عليه ، وإن كانت قضية باطلة يكر عليها بالحجة ليبطلها ويدحضها .

وهذا يلفتنا إلى أن الحق سبحانه وتعالى لا يريد أن نلف قضايا الخصوم لفاً بحيث لا نعرفها ، ولكنه يعرض قضية الخصوم عرضاً ثم يكر عليها بالنقد ليربى ـ كما قلنا ـ المناعة الإيمانية ، حتى لا تفاجئ قضيةٌ كفرية عقيدةً إيمانية ؛ فسبحانه يعرض قضايا الكفار ويوضح لنا : سيقولون كذا فقولوا لهم كذا . .

مثال ذلك : عندما قالوا : إن الله اتخذ ولداً قال الحق :

﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾

(من الآية ٥ سورة الكهف)

فهو سبحانه يعرض قضايا الخصوم ؛ لأن الذى يحاول أن يلف قضية الخصوم يكون مشفقاً منها ، لكن من يعرضها ينبه عقل السامع إليها ليبطلها ويقول : « ها هى ذى نقاط الضعف فى هذه القضية » . .

وحينما قالوا : « وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك » أرادوا بهذا القول أن يصنعوا مضارة بين الله ورسوله ، فأوضح الحق سبحانه ؛ قل لهم يا محمدُ :« كل من عند الله » ، وتتجلى دقة الحق سبحانه فى أنه جعل محمداً صلى الله عليه وسلم وكيلاً فى البلاغ عنه ، وكان من الممكن أن يسوق الحق القضية بدون « قل » .

لكنه سبحانه أراد فى هذه أن يوسط رسوله صلى الله عليه وسلم فى أنه يقول : « قل كل من عند الله » . و« كل » تعنى : كُلًّا من الحسنة ومن السيئة . ويريد الحق سبحانه وتعالى أن يبين لنا أن قضايا الوجود تتسق مع فطرة الإيمان .

ولقد وقع خلاف طويل بين العلماء فى أفعال العباد ، وتساءلوا : هل يفعل العبد أى فعل بنفسه ، أو أن الله هو الذى يجرى على عباده الأفعال ؟ . فإذا كان العبد هو الذى يفعل الفعل فمن العدالة أن يتلقى الثواب أو العذاب جزاء ما قدم . وإذا كان الله هو الذى يجرى كل الأفعال فلماذا يعذبه الله ؟ . ودخل العلماء فى متاهة كبيرة .

وهنا نقول : يجب أن تفهم أن الحق حينما خلق الكون جعل فيه سُنناً ، ومن

عجيب الأمر أن السُنن تنتظم وتشمل وتضم المؤمن والكافر مما يدل على أنه لا أحد فى كون الله أولى بربوبية الله من الآخر ، فحتى الذين لا يؤمنون بالله أدخلهم الحق فى ربوبيته فأمر الأسباب التى خلقها استجيبى لمن يخدمك وأعطيه المسببات ولا تلتفتى إلى أنه مؤمن أو كافر لأننى أنا الذى خلقته وأوجدته فى الكون ، ومادمت أنا الذى أوجدته فى الكون فلا بد أن أتكفل بكل ما يقيم حياته ، وأنا سأعرض منهجى ، وأقول لعبادى : أنا أحب هذا الفعل وأنا أكره هذا الفعل فمن يؤمن بى فسيكون له وضعٌ آخر ، سيكون عبداً لله .

إذن فالله بالألوهيّة مناط التكليف لمن يؤمن به ، والرب بالربوبية مناط الخلق والرزق وقيومية الاقتيات للخلق جميعا ، لكل العباد ؛ فالسنن والنواميس الكونية تخدم الكل ، بدليل أن بعض السنن كانت تحب أن تتمرد لأنها عصبية إيمانية لله . عندما ترى الله يعطى بعضاً من عباده وهم غير مؤمنين به .

فالسنن والنواميس كجنودٍ لله نجدها متأبية على ابن آدم من عدم شكره لله ، لكن الحق يوضح للخلق المسخر : هم خلقى وأنا الذى استدعيتهم للوجود . فصنع الحق نواميس للكون تؤدى مهمتها للمؤمن وللكافر جميعا ، ثم أنزل سبحانه تكليفاً بوساطة الرسل . يوضح : أنا أحب كذا وأكره كذا فالذى يحبنى يعمل بتكليفى . إذن فمناط الربوبية غير مناط الألوهية .

مناط الربوبية خلق من عَدم وإمداد من عُدم . ومناط الألوهية طاعة ، والطاعة تقتضى أمراً ونهياً . فكل ما كان من مدلول الأمر والنهى ـ الذى هو التكليف ـ فهذه مطلوبات الألوهية .

وكل ما كان من مطلوبات السنن الكونية فهو من مناط الربوبية . والسنن الكونية لا تتخلف أبداً . فمثلا الذى يريد أن ينجح فى مادة من المواد فى مدرسة ما . . لا بد أن يحصل على خمسين بالمائة من مجموع الدرجات . ومن يريد أن ينجح فى مادة أخرى لا بد أن يحصل على أربعين بالمائة . وحين تنطبق هذه الشروط على طالب ما . فهل هذا الطالب هو الذى أنجح نفسه أو أن القانون هو الذى أعطاه النجاح ؟

إن القانون هو الذى أعطاه النجاح . وصحيح أن القانون لم يقل للطالب وهو يكتب الإجابة : إن مستوى إجابته سيحقق له درجات النجاح ، إنّه قد بذل جهداً فى التحصيل الدراسى ، وحقق له هذا الجهد النجاح فى نطاق ما تم تقديره . فالقانون لا ينجح أحداً ، ولا يتسبب فى رسوب أحد ، ولكن الطالب الذى يبذل جهداً ينجح ، والطالب الذى لا يبذل جهداً يرسب . وعلى ذلك فكل شىء فى الوجود له قانونه .

إن اليد المخلوقة لله ، لو نظرنا إلى حركتها ، لا نعرف كيف تزاول مهمتها . وعندما يرفع أحدنا شيئاً من الأرض لا أحد فينا ـ غالباً ـ يعرف العضلات التى تتحرك لتحمل هذا الشىء . فالذى فعل حقيقة هو الله . واليد سواء أفعل الإنسان بها خيراً ؛ أم شرّاً ، فالفاعل الحقيقى لكل فعل هو الله . وقام الإنسان فقط بتوجيه الطاقة الصالحة للسلام على واحد ، أو لصفع واحد آخر ، فاليد صالحة للمهمتين . وعندما يوجه الإنسان يده للصفع فهو يأخذ عقاباً ، وعندما يوجهها للسلام يأخذ ثواباً .

صحيح أن الإنسان ليس له دخل فى العمل ذاته ولكن له دخل فى توجيه الطاقة الصانعة للعمل ؛ فالثواب أو العقوبة ليست للفعل ولكن لتوجيه الطاقة . والسكين ـ كمثال آخر ـ يذبح بها الإنسان الدجاجة ، أو يطعن بها إنساناً ، وهى لا تعصى توجيه الإنسان إن ذبح الدجاجة ؛ ولا تعصاه إن طعن إنساناً .

والحق قد خلق قانوناً للسكين أن تذبح ، والإنسان يقوم بتوجيه الآلة التى خلقها الله صالحة لأن تذبح إلى الذبح ، سواء أكان الذبح فيما حرم الله ، أم فيما أحل ، إذن فالله هو الفاعل لكل شىء . ومادام الفعل فى نطاق أوامر المكلّف صاحب السنن فهو الذى يقوم بكل فعل .

وعندما تدقق النظر تجد أن كل فعل من عند الله ، وليس للإنسان سوى توجيه الطاقة ؛ فالشاب الذى يذاكر دروسه ، لم يخلق عقله ولا خلق عينيه اللتين يقرأ بهما ، ولكن عقله صالح أن يفكر فى الأمر الحسن الصالح ، أو أن يفكر فى الأمر الردىء ، وعيناه صالحتان لأن ينظر بهما فى مجلة هزلية أو ينظر بهما فى كتاب .

إذن فهو ساعة يفعل هذا أو يفعل ذلك هل يفعل ذلك من وراء رَبِّه ؟ . لا ، إنه لم يفعل شيئاً على الإطلاق سوى توجيه الطاقة التى خلقها الله صالحة لأن تفعل هذا وتفعل ذاك .

إذن فثوابك وعقابك يكونان على توجيه الطاقة الفاعلة إلى الأمر الصالح أو الأمر السيىء . فعندما يقول ربنا : « كل من عند الله » نقول : هذا حق وصدق ؛ فالذى أهمل فى زراعة أرضه ولم يسمدها أو لم يروها وأصابه جدب فهذا نتيجة عدم توجيهه الطاقة المخلوقة لله فى مجالها الصحيح .

لكن عندما يمتنع المطر فلا عمل فى ذلك للإنسان . فالنواميس الكونية صنعها الله . ومن يأخذ بأسبابها تعطه وإن أصابت الإنسان سيئة فى إطار هذه فهى من عند الإنسان ؛ لأنه لم يأخذ بالأسباب .

وما ينطبق على الفرد ينطبق أيضاً على الجماعة ؛ فالذى يلعب الميسر ويأتى له الخراب والدمار ، هذا من نفسه ؛ لأنه تلقى الأوامر من الحق بألا يمارس تلك الألعاب . وأى أمة اشتكت من ضيق الأرض الزراعية وضيق الرزق فهذا بسبب الأمة نفسها ؛ لأن القائمين بالأمر كان عليهم العمل لتنمية الموارد بالنسبة لنمو السكان .

والذى يتعبنا ويرهقنا أننا نتحمل غفلة أجيال ، فتجمعت المشكلات فوق رءوس جيل واحد . ولو أن كل جيل سبق قام بمسئوليته لكانت مهمة الأجيال الحالية أقل تعباً . فمادامت لدينا أرض صالحة لأن تنبت كان علينا أن نعدها ونستغل المياه الجوفية فى زراعتها . فالمسألة إذن كسل من أجيال سابقة . ومادام هناك مخزون فى المياه الجوفية كان يجب أن نعمل العقل لنستنبط أسرار الله فى الكون . فليس من الضرورى أن ينزل المطر ، لأن الحق يقول :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾

(من الآية ٢١ سورة الزمر)

وجعل الله للمياه مسارب فى الأرض حتى تستطيع البلاد ذات الحرارة الشديدة الوصول إلى المياه الجوفية ولا تتعرض المياه المنتشرة فى مسطحات كبيرة للتبخر . لقد أخفى الله جزءاً من المياه فى الأرض لصالح الإنسان . وفى البلاد الحارة نجد الملح واضحاً على سطح التربة دليل على أن الحق وضع قانون تقطير المياه العذبة لتكون صالحة للشرب والزراعة .

وكلنا يعرف قانون التبخر ، فعندما نأتى بكوب من المياه وننشره على مسطح حجرة مساحتها خمسة وعشرون متراً مربعاً فالمياه تتبخر بسرعة . لكن لو تركنا كمية المياه نفسها فى كوب الزجاج فلن تنقص إلا قدراً ضئيلاً للغاية . إذن فكلما زاد المسطح ، كان البخر أسرع . وأراد الحق أن تكون ثلاثة أرباع اليابسة من المياه ؛ لأن الماء أصل كل شىء حى . وجعل بعضها من الماء المالح حتى لا تأسن ولا تتغير ، وتوجد هذه المياه فى مساحة متسعة حتى تتبخر وتنزل مطراً ، فما يجرى فى الوديان يجرى ، والمتبقى من المياه يصنع له الحق مسارب فى الأرض لأنه ماء عذب ، حتى يستخدم الإنسان ذكاءه الموهوب له من الله فيستخرج المياه من الأرض ، فالحق خلق لنا كل ما يمكن أن يحقق لنا استخراج قوت الحياة .

وسبحانه القائل :

﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾

(سورة فصلت)

فإياكم أن تقولوا : إن السكان سيزيدون عن القوت الذى فى الأرض ، ولكن اعترفوا بخمول القدرات الإبداعية للاستنباط . فبعد أن يقول الله : « وقدر فيها أقواتها » فلا قول يصدَّق من بعد قول الله . وهب أن موظفاً ـ ولله المثل الأعلى ـ جاء فى أول الشهر بتموين الشهر كله ووضعه فى مخزن البيت ، وجاء ظهر اليوم ولم يجد زوجته قد أعدَّت الغداء ، فماذا يحدث ؟ إنه يغضب . ولقد وضع ربنا أقواتنا مخزونة

فى الأرض ، ونحن لا نعمل بالقدر الكافى على استنباط الخير منها . وسبحانه يوضح لنا : إن الإنسان إن لم يستفد بالنواميس التى خلقها الله له ، ولم ينفذ التكاليف أمراً ونهياً فلسوف يتعب الإنسان نفسه ؛ فتكون معيشته ضنكاً . فسبحانه يقول :

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾

(سورة النحل)

هذه القرية كانت تتمتع بالأمن والاطمئنان لكنها كفرت بأنعم الله . والكفر فى المعنى العام هو : ألا تشكر النعمة لله . وعندما نمعن النظر بدقة لنرى قانون ربط السبب بالمسببات ، وربط السنن الكونية بالكون والمكون والمكون له نجد أشياء عجيبة ، فهذه القرية كانت آمنة مطمئنة والرزق يأتيها رغداً من كل مكان . إذن فالقرية هى مكان السكن ، وليس مكان السكن فقط هو الذى فيه الرزق بل يأتيها رزقها رغداً من كل مكان ، فكأن كل مكين فى بقعة ؛ له بقع خالية فى مكين آخر تخدمه . وتلك القرية كفرت بأنعم الله .

والكفر فى معناه الواضح هو الستر ، والقرية التى كفرت بأنعم الله هى التى سترت نعمة الله ، فنعمة الله موجودة ولكن البشر الذين فى تلك القرية هم الذين ستروا هذه النعمة بالكسل وعدم الاستنباط للنعمة وترك استخراجها من الأرض .

أو أن سكان هذه القرية استخرجوا نعمة الله واستنبطوها وستروها عن الخلق ، وفساد الكون إنما يأتى من هذين الأمرين :

أى أن هناك أمماً متخلفة ، كسل سكانها عن توجيه طاقاتهم لاستنباط النعم من الأرض . أو أن هناك أمماً أخرى تملك الثراء والخير وترميه فى البحر حتى لا يذهب إلى الأمم المتخلفة . والخراب الذى نلمسه فى علاقات العالم ببعضه البعض يقول لنا : إن العالم هو القرية التى ضرب الله بها المثل :

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾

(سورة النحل)

ولنر دقة الأداء القرآنى ، فى قوله : « فأذاقها الله لباس الجوع » ، ونعلم أن الذى يُذاق هو الطعم . والطعم يكون باللسان وحده : أما اللباس فيعم كل الجسم ، والحق هنا يعطى الإذاقة ولا يكون الذائق هو الفم فقط بل كل الجسم ، فالفم إنما يتناول لصالح بقية الجسم ، وعندما لا تصل مادة الحياة إلى بقية الجسم فكل الجسم يذوق الجوع أيضاً .

والكون المخلوق لله مصنوع على نظام دقيق من أجل أن تسير السنن الكونية فى مجالاتها التى حددها الله ، وعندما تنتظم هذه السنن فى حركتها فهى تعطى النتائج للإنسان ولو بعد حين ، حتى إن بعض المفسرين والمتكلمين بعمق يقولون : إن الأمراض الوراثية التى تنتقل من أجيال سابقة إلى أجيال لاحقة كان السبب فيها تقصير آباء واجتراءهم على أشياء مخالفة لمنهج السماء ، فإذا شرع الله سنة كونية للفرد ثم خالفها تصيبه نتيجتها السيئة من بعد ذلك ، وكذلك الأمة والجماعة .

لكن المسائل التى يقف فيها العقل فقط هى المصائب التى تصيب الناس بغير عملهم . وكان على الفلسفة أن تبحث هذا المجال ، أما الدين فهو يقول لنا أسباب تلك المسائل ؛ فالشىء الذى له مقدمات من أسباب تكاسل الإنسان عنها ، ثم أصابته كارثة فهذا من فعل الإنسان فى نفسه . أما الأشياء التى تأتى قدرية فهذا أمر مختلف . فإذا كان ديننا قد وضع للإنسان أسباباً كونية وحكمة الإنسان الإيمانية قالت له : افعل ذلك حتى يحدث كذا ، ولا تفعل ذلك حتى لا يحدث كذا فعلى الإنسان أن يعرف أن الله لم يعطه كل ما يستطيع به استيعاب كل حكمة المكوِّن فى الكون ، ليلفت سبحانه الإنسان دائما على أن طلاقة القدرة مازالت موجودة ، فيحدث شىء من الأشياء يتساءل فيه الإنسان : ما سبب ذلك ؟ ولماذا ؟ ومثال ذلك

الزلزال أو البركان أو السيل الجارف والريح العاصف ، كل هذه الأحداث لا دخل للإنسان فيها ، وهى أحداث تقول للإنسان :

لو أن المسائل فى الكون فيها رتابة أسباب لما ارتبطنا بقوة غيبية خفية نضرع إليها دائما لنَسْلَم .

وجاءت بعض مدارس الفلسفة فى ألمانيا ـ مثلا ـ وقالت : إن وجود الشر فى الكون دليل على أنه لا يوجد إله ، فلو كان هناك إله حكيم لما أفلتت منه هذه المسائل ، ولما خرج واحد بعين واحدة ولا خرج أعرج ولا مشوه . وقالت مدرسة أخرى فى العصر نفسه : لا . إن رتابة النظام فى الكون دليل على أنه لا يوجد إله ، فلو كان هناك إله لخرق القانون والناموس ولأخرج بعض الأحداث عن هذا الناموس .

وهكذا نرى أنهم يريدون الكفر من أجل الكفر بدليل أن مدرسة أخذت النظام فى الكون كدليل للكفر ، ومدرسة أخرى أخذت الشواذ فى الكون كدليل على الكفر . وكُلّ من أقطاب المدرستين إنما يبحث عن سبب للكفر .

ونقول لهم : كلاكما غبى ؛ الذى يريد منكم النظام سببا لوجود إله حكيم ، والذى يريد الشذوذ سبباً لوجود إله قادر ، هذان الأمران موجودان فى الكون ، وكلاهما دليل على وجود الإله الحكيم القادر لو كنتم منصفين .

انظر إلى النظام فى الكون الأعلى ؛ فلو فسدت فيه مسألة صغيرة لانهدم الكون كله . انظروا إلى الشمس والمطر والكواكب والنجوم ، إنها خاضعة لنظام محكم . فيا من تريد النظام دليلاً على حكمة مكون ، فالنظام موجود ، ويا من تريد الشذوذ دليلاً على أن هناك إلهاً يسيطر على ميكانيكية الكون فهذه أمور موجودة . والشذوذ إنما يتأتى من الأفراد ، فإن شذ فرد فلن يفسد القضية العامة ، فالذى يولد بعين واحدة مبصرة سنجد مئات الملايين امتلكوا البصر كاملاً .

لكن عندما يأتى الشذوذ فى نظام الكون وحركة الأفلاك فالذى يحدث هو دمار للعالم .

فمن أراد أن يرى النظام السائد يدل على الحكمة نقول له : انظر إلى الفلك الأعلى . ومن يريد الشذوذ دليلا على أن هناك قوة تتحكم فى ميكانيكية العالم نقول له : هذا موجود ، ولكن الشذوذ موجود فى الأفراد . فإن شذ فرد فلا يعطب بقية الأفراد .

ونعرف ـ أيضا ـ أن رتابة النعمة قد تلهى الإنسان عن المنعم . فالإنسان منا يظل لمدة طويلة وأسنانه سليمة فلا يتذكر مسألة أسنانه ، لكن إن آلمه ضرس واحد فهو يتذكر أن له ضرساً ، وكذلك إن آلمته إحدى عينيه ، أو إذا آلمته كُلْيَته فهو يجرى إلى الطبيب . وهذه أمور لافتة حتى تُخرج الإنسان من رتابة النعمة عليه ليتذكر المنعم بالنعمة . وعندما نرى إنساناً أكرمه الله بفقدان البصر ، فالواحد منا يقول : الحمد لله ويمسك الإنسان منا عينيه مخافة أن تذهبا،وكذلك عندما نرى أبرص أو أعرج ، وهذه هى وسائل إيضاح فى الكون حتى لا تغفل الناس عن المنعم بالنعمة .

فإذا ما نظرنا إلى الأشياء التى تصيب الإنسان فرداً ، أو تصيب الأمة كمجموع فنحن نجدها بما قدمت يدها ؛ لأنها صنعت شيئاً يخالف التوجيه . فإن كان هناك شىء خارج عن قدرة الإنسان فنحن نقول : هذه هى حكمة المكوِّن حتى يلفتنا إلى أنه المنعم . ولهذا نرى الشواذ فى الخلقة قلة لا كثرة ، ويعوض الله من أصيب بشذوذ فى شىء بدوام مَلَكَةٍ فى شىء آخر . ولذلك يقول الشاعر :

عميت جنيناً والذكاء من العمى ... فجئت عجيب الظن للعلم موئلا
وغاب ضياء العين للعقل رافداً ... لعلم إذا ما ضيع الناس حصلا

وضربت المثل مرة ببتهوفن الموسيقار العالمى الذى أطرب العالم بسمفونياته . . إنّه كان أصم .

ولذلك نحن نسمع فى لغة العامة : كل ذى عاهة جبار . فإذا كان الله قد جعله وسيلة إيضاح ليلفت الناس إلى نعم الله سبحانه عليها فهو يعوضه بموهبة أخرى ويلتفت الناس فيها إلى صاحب العاهة فيرون فضل الله عليه أيضا . إذن فالمصائب التى تحدث وليس للإنسان دخل فيها هى الملحظ الذى يجب أن نبحثه . وهذه هى مكونات الحكمة كى يلتفت الإنسان دائما إلى أن الكون غير متروك بلا قيادة .

إن الله خلق الكون وخلق القانون والنواميس ليدلنا على أنه موجود . ولا تزال يده فى الكون . فإذا حدثت حادثة فلا بد أن نلتمس لها حكمة . والحكمة خرق وخروج عن النواميس يلفت إلى أن فوق ميكانيكية العالم وقوانينها قوة أخرى تقول لها : « تعطلى » .

ولذلك فمعجزات بعض الرسل من هذا اللون ، فطبيعة النار أنها تحرق ، ولكنها لم تحرق سيدنا إبراهيم عليه السلام . أكان مراد الحق سبحانه وتعالى أن ينجِّىَ إبراهيم من النار ؟ لو كان مراده هو نجاة إبراهيم من النار فحسب لما مَكَّن خصومه من أن يمسكوه . وبعد أن أمسك خصوم سيدنا إبراهيم به ، وأشعلوا النار وأججوها . كان باستطاعة الحق سبحانه أن يأتى بغمامة لا قدرة لخصوم إبراهيم عليها وتمطر مطراً يطفىء النار . لا . فقد أراد الله النار ناراً متأججة وأن يقدر خصوم إبراهيم عليه ويمسكوا به ولا تنطفئ النار ، وأن يلقوه فى النار ، وبعد ذلك يوضح الحق :

أنا أزاول سلطانى فى الناموس ؛ لأنى خالق الناموس وأعطله متى شئت ، « يا نار كونى برداً وسلاماً على إبراهيم » . أما لو حدثت المسألة الأولى وانطفأت النار ، لقالوا : آه لو لم تنطفئ النار ، وآه لو لم ينزل الماء على النار .

إن الحق أراد أن يدحض كل دعاوى الخصم . فعندما تحدث أحداث لا دخل للإنسان فيها نقول : دعها لحكمة الخالق لأنه يريد أن يلفت الخلق إلى أنه صاحب اليد العليا فى الكون . فميكانيكية الكون تحير العقول ؛ لأنها مضبوطة بدقة ، ولكنها لم تفلت من يد ربنا . ولذلك نرى فى بعض الأحيان رياحاً عنيفة تثير الغبار فلا يرى الإنسان شيئاً على الإطلاق . ومعنى ذلك أن الذرات تراكمت وتراكبت حتى صارت جداراً ، ويحدث ذلك مهما حاولت الأجهزة العلمية التحكم فى ذلك أو منعه .

ومن العجيب أن الحق يترك لنا لذعة تقول : لقد كرمتك بالعقل ولكنى لم أدع لك كل الفهم ، فقد يوجد صاحب غريزة لا عقل له ويكون أقدر على فهم الأشياء منك أيها الإنسان .

وعندما يحدث زلزال فى منطقة ما ، فأول ما يخرج من المكان هى الحمير . وهذا لفت للإنسان حتى لا يقع فريسة للغرور :

﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧ ﴾

(سورة العلق)

فإذا ما رأيت حدثا فى الكون ولا دخل للإنسان فيه ولا للأمم دخل فيه ؛ فلتعلم أن لله فيه حكمة حتى يلفتنا إلى المكون الأعلى ؛ وحتى لا يظن أحد أن لميكانيكية الكون رتابة ، إنما هى نظام يجريه الله على وفق قدرته وإرادته وحكمته .

ولذلك يقولون : إن العقل الإلكترونى لا يخطئ ، وهم لا يعرفون أن من الخيبة ألا يخطئ ، لأنه كما تملؤه وتمده بالمعلومات سيخرج لك هذه المعلومات . ليس له خيار فى شيء . أما العقل البشرى فهو قادر على الاستنباط والاستكشاف وعدم ذكر بعض المعلومات التى قد تضر . هذه هى العظمة .

ويقول بعضهم ـ كمثال آخر ـ إن الورد الصناعى لا يذبل ، نقول : إن عيبه أنه لا يذبل لأن الذبول حيوية ، وعدم الذبول دليل على أنه لا حياة فيه ، وأنّه جمود فقط .

وساعة يجرى الحق سبحانه وتعالى شيئاً فى كونه ولا دخل لأحد فيه فهو يريد أن يلفت الكون إلى بقاء القيومية العليا والقدرة الإلهية فى الكون ؛ حتى لا تغتر بميكانيكية الكون . ولذلك يعرض القرآن بصيصاً من هذه الأشياء ، إذا أخذتها بحكم العقل فهو لا يقبلها ، لكن حين يفسرها من أجراها نجدها فى منتهى العقل . مثال ذلك : سيدنا موسى عندما ذهب إلى العبد الصالح ، ما الذى حدث ؟ .

قال العبد الصالح :

﴿ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴾

(من الآية ٦٧ سورة الكهف)

ويلتمس العبد الصالح لموسى العذر فيقول له :

﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ ﴾

(سورة الكهف)

فيقول سيدنا موسى وهو من أولى العزم من الرسل :

﴿ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ ﴾

(سورة الكهف)

فيخرق العبد الصالح السفينة . وخرق السفينة فى السطحية الفهمية شرّ ، وعلى الرغم من أن سيدنا موسى وعد العبد الصالح بعدم عصيان الأمر وأن يكون صابراً ، على الرغم من ذلك لم يطق حادثة خرق السفينة ، فقال للعبد الصالح :

﴿ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴾

(من الآية ٧١ سورة الكهف)

لقد شك سيدنا موسى فى ظاهر الأمر ، ولكن عندما يدرك الحكمة يجدها عين الخير . فلو لم يخرق العبد الصالح السفينة لأخذها الملك الظالم الذى يأخذ كل سفينة صالحة وسليمة غصباً :

﴿ وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾

(من الآية ٧٩ سورة الكهف)

فلو لم يخرقها العبد الصالح لما استرد أصحاب السفينة سفينتهم ، وبالخرق للسفينة ستظل لأصحابها ؛ لأن بها عطبا يستطيعون إصلاحه بعد ذلك . إذن ، كل شىء يجرى على غير ما تشتهيه سطحية الفهم البشرى فلنعلم أنها مادامت ليست من أحد ، وهى من المكون الأعلى فوراءها حكمة .

وهل يوجد أكثر بشاعة من القتل ؟ لقد قتل العبد الصالح غلاماً . ما الحكمة فى ذلك ؟ . إن الواحد منا يولد له ابن فيكون قرة عين وسنداً ، وقد يكون هذا الابن سببا فى فساد دين أبيه ويحمله على الكذب والرشوة والسرقة فهذا الابن يقود أباه إلى الجحيم ، ومن الخير أن يبعد الله هذا الولد من طريق الوالد فلا يطغى .

ويقول قائل : وما ذنب الولد ؟. نقول : أنت لا تفهم الأمور ، لقد ذهب إلى الحق بدون تجربة فى أن يطيع أو يعصى الله ، ذهب إلى رحمة الله مباشرة ، وهذا أفضل له . وكان فى ذلك القتل للولد رحمة لوالديه ؛ فالشىء إن حدث للنفس إن كان من مخالفة الإنسان للناموس فيكون الإنسان هو الذى فعل الضر بنفسه . . وكذلك الأمة حين تخالف ناموساً شرعياً أو كونياً . لكن لو كانت الأمور فوق طاقة البشر فلا بد أن لله فيها حكمة . وقصة العبد الصالح وموسى مليئة بالحكم . فقد ذهب الاثنان إلى قرية واستطعما أهلها أى طلبا من أهلها طعاماً :

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا ﴾

(من الآية ٧٧ سورة الكهف)

ولم يطلب أى منهما نقوداً ، وذلك حتى لا تثار الظنون السيئة ، ولكن طلبا الطعام ليأكلاه . وهو أول الحاجات الضرورية للإنسان .

فقالوا لهما : لا لن نعطيكما لأن أهل تلك القرية كانوا لئاماً . ولذلك اتجه العبد الصالح إلى جدار يريد أن ينقض فأقامه ، فقال سيدنا موسى للعبد الصالح : لماذا لا تأخذ منهم أجراً ؟

وأخيراً يوضح العبد الصالح لسيدنا موسى :

﴿ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَـٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَـٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ ﴾

(سورة الكهف)

فأهل القرية اللئام الذين طُلِبَ منهم الطعام لم يكونوا قادرين على تحمل أمانة حفظ الكنز للغلامين . فأمر الله العبد الصالح بحجب الكنز عن أهل تلك القرية . إذن ، فالمسائل إن جرت على الإنسان بسبب منه فهو الذى فعل الضر بنفسه ، أما إذا كان الأمر لا دخل للإنسان فيه فعليه أن يثق بحكمة مَن يجريه وبذلك يستقبل الإنسان كل شىء يصيبه بالراحة .

إن صاحب الإيمان يلقى الأحداث بقلب قوى . فإن كانت من نفسه فهو يعدل سلوكه ، وإن كانت من ربه فهو يثق بحكمة ربه « قل كل من عند الله » وهذا إيضاح لك حتى تفهم أن أى فعل هو من عند الله . فليس للإنسان فى الطاقة أى فاعلية ولكن للإنسان توجيه المخلوق من طاقات وجوارح إلى الطاعة أو إلى المعصية .

ومادام كل من عندالله فهو سبحانه يريد لنا أن نتلو العجب من هؤلاء ونقرأه فيقول سبحانه : « فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً » كأن منطق العقل والفكر يقودان إلى ضرورة الفهم . وعندما لا يفهمون ذلك فنحن نستعجب من عدم فهمهم . ولا نستعجب من عدم فهمهم إلا إذا كان الأمر المطروح أمامهم أمراً يستوعبه العقل . والحق يقول : « لا يكادون يفقهون حديثاً » وساعة تقول فلان لا يفقه ، فهذا معناه أن عقله ممنوع من الفهم . أما عندما نقول : لا يكاد يفقه . فهو يعنى : لا يقرب حتى من الفهم .

والقول الثانى هو الأكثر بلاغة .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾ ﴾

فإن جرت عليك سنة كونية خيراً فهو من الله ، أما إن أصابتك سيئة فيما لك فيه دخل فهى من نفسك . كأن المسألة قسمان : شىء لك فيه دخل ، وشىء لا دخل لك فيه . ولا بد أن تعتبره حسنة لأنه يقيم قضية عقدية فى الكون .

فالمؤمن بين لوم نفسه على مصيبة بما له فيه دخل ، وثقة بحكمة مَن يجرى ما لا دخل له فيه وهو الله ـ سبحانه ـ « ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من

سيئة فمن نفسك وأرسلناك للناس رسولاً » .

ومن هو الرسول ؟ .

الرسول مبلغ عمن أرسله إلى من أرسل إليه . ومادام رسولاً مبلغاً عن الله فأى شيء يحدث منه فهو من الله .

وعندما يقول الحق : « وكفى بالله شهيداً » أى لا يضرك يا محمد أن يقولوا : إن ما أصابهم من سيئة فمن عندك ؛ لأنه يكفيك أن يكون الله فى صفك ؛ لأنهم لا يملكون على ما يقولون جزاء ، وربك هو الذى يملك الجزاء وهو يشهد لك بأنك صادق فى التبليغ عنه وأنّك لم تحدث منك سيئة كما قالوا .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾ ﴾

والطاعة للرسول هى طاعة لله ، وذلك أمر منطقى ؛ لأنه رسول ، فمن أطاع الرسول فطاعته طاعة لله ؛ لأن الرسول إنما يبلغ عمن أرسله .

ولذلك ففى المسائل الذاتية التى كان يفعلها سيدنا رسول الله كبشر وبعد ذلك يطرحها قضية من عنده كبشر ، وعندما يثبت عدم صحتها يعطينا رسول الله مثالاً عن أمانته .

فعن أنس رضى الله عنه ، أن النبى صلى الله عليه وسلم مرَّ بقوم يُلَقِّحون ، فقال : لو لم تفعلوا لصلح ، قال : فخرج شيصا ، فمّر بهم ، فقال : مَالِنَخْلِكم ؟ قالوا : قلت : كذا وكذا ، قال : « أنتم أعلم بأمر دنياكم »[1]

---

(١) رواه أحمد وابن ماجه ومسلم واللفظ له .

أى فى المسائل الخاضعة للتجربة فى المعمل والتى لا دخل للسماء فيها. أما الأمور الخاضعة لنواميس الكون فلا يتركها للعباد . ومن العجيب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين يتصرف فى شىء لم يكن لله فيه حكم مسبق ويعدله له الله بينه وبين نفسه فمحمد هو الذى يبلغنا بهذا التعديل لنشهد ـ واقعا ـ أنه صادق فى البلاغ عن الله ولو كان على نفسه . وجاءت هذه الآية الكريمة بعد قول الحق سبحانه :

﴿ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾

(من الآية ٧٩ سورة النساء)

والرسول ـ كما نعلم ـ هو من بلغ عن الله شرعه الذى يريد أن يحكم به حركة حياة الخليفة فى الأرض وهو الإنسان . وإذا ما نظرنا إلى المادة المأخوذة من الراء والسين واللام وجدنا الحق سبحانه وتعالى يقول فى آية أخرى :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ ﴾

(من الآية ٥٢ سورة الحج)

إذن فالرسول قد يكون رسولاً بالمعنى المفهوم لنا ، وقد يكون نبياً ، كلاهما مرسل من الله . ولكن الفارق أن الرسول يجىء بشرع يؤمر به ؛ ويؤمر هو ـ أيضا ـ بتبليغه للناس ليعملوا به ، ولكن النبى إنما يرسله الله ليؤكد سلوكاً نموذجياً للدين الذى سبقه ؛ فهو مرسل كأسوة سلوكية . ولكن الرسول على إطلاقه الاصطلاحى يأتى بمنهج جديد قد يختلف فى الفروع عن المنهج الذى سبقه . وكلاهما رسول ؛ هذا يجىء بالمنهج والسلوك ويطبقه ، والنبى يأتى بالسلوك فقط يطبقه ليكون نموذجاً لمنهج سبقه به رسول .

وإذا كان الحق سبحانه وتعالى قد أرسل الرسل ، وجعل خاتم الرسل سيدنا محمدا فمعنى ذلك أن رسالته صلى الله عليه وسلم ستكون رسالة لا استدراك للسماء عليها ، وإذا كانت رسالته صلى الله عليه وسلم رسالة لا استدراك للسماء عليها ، فكيف يعقل أن تكون رسالته موضوعاً لاستدراك البشر عليها ؟

فمادام الله قد ختم به الرسالة ، وأنزل عليه قوله : « اليوم أكملت لكم دينكم

وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا » إذن فلم يعد للسماء استدراك على هذه الرسالة ، فكيف يأتى بعد ذلك إنسان معاصر أو غير معاصر ليقول : لا ، إننا نريد أن نستدرك كذا أو نقول : الحكم كذا أو هذا الحكم لا يلائم العصر إذا كان الله لم يجعل للسماء استدراكاً على الرسالة لأن الله أكملها وأتمها فكيف يسوغ للبشر أن يكونوا مستدركين على الرسالة ؟ .

إن الرسول حين يضاف ، يضاف مرة إلى الله ، ويضاف مرة إلى المرسل إليهم ؛ لأنه واسطة التعلق بين المُرْسِل والمرْسَل إليه ، فإن أردت الإضافة بمعنى « مِن » الابتدائية ؛ تقول : رسول الله ، أى رسول مِن الله . وإن أردت الغاية من الرسالة تقول : رسول إلى الناس أو رسول للناس . إذن فالإضافة تأتى مرة بمعنى « من » وتأتى مرة بمعنى « اللام » ، وتأتى مرة بمعنى « إلى » .

وأمر الرسالة ضرورى بالنسبة للبشر ؛ لأن الإنسان إذا ما استقرى وتتبع الوجود كله بفطرته وبعقله السليم من غير أن يجىء له رسول ، فإنّه يهتدى بفطرته إلى أن ذلك الكون لا يمكن أن يكون إلا عن مُكَوِّن له قدرة تناسب هذه الصفة المحكمة البديعة . ولا بد أن يكون قيوماً لأنه يمدنا دائماً بالأشياء ، لكن أنعرف بالعقل ما تريد هذه القدرة ؟ نحن ننتهى فقط إلى أن وراء الكون قوة ، هذه القوة لها من القدرة والحكمة والعلم والإرادة وصفات الكمال ما يجعلها تخلق هذا الكون العجيب على تلك الصورة البديعة ذات الهندسة الدقيقة ، وهذا الكون له غاية . أيمكن ـ إذن ـ للعقل أن يضع اسماً لهذه القوة ؟ . فكونها قوة يستلزم أن يكون لها قدرة وحكمة ، لكنا لا نعرف اسمها ، فكان ولا بد أن يجىء رسول ، هذا الرسول يعطى للناس جواب ما شغلهم وهو : ما القوة التى خلقت هذا الكون وجعلته بهذه الصنعة العجيبة .

ويقف العقل هنا وقفة ، فعندما يأتى الرسول ويقول : أنا أدلكم على هذه القوة اسماً ومطلوباً ، كان يجب على الخلق أن يرهفوا آذانهم له ؛ لأنه سيحل لهم ذلك اللغز الذى رأوه بأنفسهم وأوقعهم فى الحيرة ـ المؤمن منهم والكافر يؤمن بهذا ـ لأنه يجد نفسه فى كون تخدمه فيه أجناس أقوى منه ، ولا تتخلف عن خدمته أبداً ،

وأجناس لا تدخل تحت طاقته ولا تحت قدرته وتصنع له أشياء لا يفهم عقله كيف تعمل ، فكان الواجب أن يؤمن .

لقد ضربنا مثلاً وقلنا : لو أن إنساناً وقعت به طائرة أو انقطع به طريق فى صحراء ، وليس معه زاد ولا ماء ، وبعد ذلك جلس فغلبه النوم فنام ، ثم استيقظ فوجد مائدة منصوبة فيها أطايب الطعام وفيها الشراب السائغ . بالله قولوا لى : ألا يشتغل عقله بالفكر فيمن جاء بالأطعمة قبل أن يتناول منها شيئاً ؟ لذلك كان من الواجب قبل أن ننتفع بهذه الأشياء أن نلفت ذهننا : من الذى صنع هذه الصنعة ؟! ومع ذلك تركنا الله فترة حتى نفكر ، حتى إذا جاء رسول يقول : القوة التى تبحث عنها بعقلك هذه اسمها كذا ومطلوبها منك كذا ، وأنت كائن ومخلوق لها أولاً وإليها تعود أخيراً .

وخلاصة المسألة أن الله سبحانه وتعالى قبل أن يخلق الخلق أعد لهم مائدة الكون ، وفيها الأجناس التى تخدمه ـ كما قلنا ـ : سلسلة الأجناس وخدمتها تجعلك تتعجب وتتساءل : كيف يخدمنى الأقوى منى ؟.

الشمس التى لا تدخل تحت قدرتى ، والقمر الذى لا أستطيع أن أتناوله ، والريح التى لا أملك السيطرة عليها ، والأرض التى لا أستطيع أن أتفاهم معها ، كيف تؤدى لى هذه الخدمات ؟. لا بد أن يكون هناك من هو أقوى منى ومنها هو الذى سخرها لخدمتى . وهل رأيت شيئاً من هذه الأشياء امتنع أن يؤدى لك الخدمة أو نقص منها شيئا ؟. لم يحدث ؛ لأنها مسخرة ، فإذا جاء رسول من الله ليحل لنا لغز هذه الحياة ويدلنا على موجدها ، كان يجب أن نفتح له آذاننا ونسمعه ، فإذا ما قال لى : الذى خلق لك الكون هو الله ، والذى خلقك هو الله وهو صانعك ، وأرسلنى بمنهج لك كى تؤدى مهمتك كما ينبغى فافعل كذا ولا تفعل كذا ، وأنت صائر إليه ليحاسبك على ما فعلت ، وهذا المنهج هو خلاصة الأديان كلها .

ولذلك يكون مجىء الرسول ضرورياً وبعد ذلك يؤيده سبحانه بمعجزة تثبت صدقه ، ومادام قد أرسله بالمنهج الذى هو : افعل ولا تفعل ، فهذا يعنى أن تطيع هذا الرسول ، ويقول ربنا فى آية أخرى :

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾

(من الآية ٦٤ سورة النساء)

أى ليست الطاعة ذاتية له ، إنما الطاعة صادرة من الله ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يتميز عن سائر الرسل ؛ لأن معجزته التى تؤيد صدقه فى بلاغه عن الله هى عين كتاب منهجه فى الأصول ، وكل الرسل كانت على غير ذلك . كان الرسول يأتى بمعجزة ويأتى بكتاب منهج ، العصا واليد البيضاء كانت لموسى هذه معجزته ؛ ولكن منهجه فى « التوراة » ، إذن فالمعجزة منفصلة عن المنهج .

سيدنا عيسى معجزته ـ مثلاً ـ : أنَّه يبرىء الأكمه والأبرص ، لكن كتاب منهجه « الإنجيل » ، إلا سيدنا رسول الله فإن معجزته وهى القرآن هى عين منهجه ؛ لأن الله أراد للدين الخاتم ألا تنفصل فيه المعجزة من المنهج .

إن معجزات الرسل السابقين على رسول الله من رآها يؤمن بها ، والذى لم يرها يسمع خبراً عنها ، وإن كان واثقاً ممن أخبره يصدقه ، وإن لم يكن واثقا ـ لأنها ليست أمامه ـ فلا يصدقه ، ولولا أن الله أخبرنا بهذه المعجزات فى القرآن لكان من الممكن أن نقف فيها .

أما معجزته صلى الله عليه وسلم فباقية بقاء منهجه ، ويستطيع كل مسلم أن يقول فى آخر عمر الدنيا : محمد رسول الله وتلك معجزته ، أما غيره من الرسل فلا يأتى أحد ويقول : فلان رسول اللهوتلك.معجزته ، لأنها حدثت وانتهت ، أما القرآن فهو باق بقاء الرسالة والكون .

والرسول صلى الله عليه وسلم حين يأتى بالبلاغ عن الله فالحق يبيّن لنا : أنا أرسلت الرسول ليطاع . والمنطق أن يقول القرآن : « من يطع الرسول فقد أطاع الله » ؛ لأن الرسول جاء مبلغاً عن الله ؛ فالمباشر لنا هو رسول الله ، وعرفنا من قبل أنه إذا ما توارد أمر الطاعة من الله مع أمر مع رسوله نطيع الاثنين ، وإذا كان الله قد جاء بأمر إجمالى كالزكاة والحج ، وجاء الرسول ففصل ، فنطيع الله فى الأمر الإجمالى ونطيع الرسول فى الأمر التفصيلى ، وإذا كان الله لم يجئ بحكم لا مجمل

ولا مفصل ، فقد جاء التشريع من الرسول بالتفويض الذى فوض الله فيه رسوله بقوله :

﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ ﴾

(من الآية ٧ سورة الحشر)

فالرسول الوحيد الذى أعطاه الله تفويضاً فى التشريع هو محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكل الرسل بلغوا عن الله ولم يبلغ واحد منهم عن نفسه شيئاً إلا سيدنا رسول الله ، فقد فوّضه الله سبحانه وتعالى بقوله : « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » ـ إذن فللرسول مهمة داخلة فى إطار القرآن أيضاً ، ومثال ذلك فى حياتنا نجد من يقول لموظف : إن الموظف الذى يغيب خمسة عشر يوماً فى قانون الدولة يفصلونه ، فيأتى موظف ومعه دستور البلاد ليرد ويقول : هذا هو الدستور وقد قرأته فلم أجد فيه هذا القانون ، وهذا الكلام الذى تقوله عن فصل الموظف غير دستورى .

نقول له : إن الدستور قال فى هذه المسألة : وتؤلف هيئة تنظم أعمال العاملين فى هذا المجال ، إذن فبالتفويض توجد هيئة تضع نظاماً ليطبق على العاملين فتكون هذه من الدستور ، فكل بنود قانون العاملين تدخل فى التفويض الذى نص عليه فى الدستور للهيئات أو للجان التى تضع التشريعات الفرعية ، فكذلك إذا قيل لك : هات دليلاً من القرآن على أن صلاة المغرب ثلاث ركعات وأن الفجر ركعتان ، وأن الظهر أربع ركعات ، وأن العشاء أربع ركعات ، هات دليلاً من القرآن على هذه ، تقول : دليلى من القرآن : « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » ، والرسول صلى الله عليه وسلم كى يضمن سلامة المنهج من هذه التحريفات التى يفترونها يقول :

« لاأُلْفِيَنَّ أحدكم متكئا على أريكته ، يأتيه أمرٌ مما أمرْت به ، أو نَهيْتُ عنه ، فيقول : لا أدرى ما وجدنا فى كتاب الله اتبعناه » .

وفى رواية أخرى : عن المقْدَام بن معديكرب قال : قال رسول الله صلى الله عليه

وسلم : ألا هل عسى رجلٌ يَبْلُغُه الحديثُ عَنى وهو متكىء على أريكته ، فيقول : بيننا وبينكم كتاب الله ، فما وجدنا فيه حلالا اسْتَحْلَلْنَاهُ ، وما وجدنا فيه حراما حرمناه ، وإن ما حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم كما حرم الله »[1] .

أروى هذا الحديث عن الرسول كى تعرفوا غباء القائلين بهذا ، ولنقل لهم : قولكم هذا دليل على صدق الرسول ، بالله فلو لم يأت واحد بمثل قولكم بأنه لا يوجد إلا القرآن ، بالله ماذا كنا نقول للمحدثين الذين رووا حديث رسول الله ، ولو لم يقولوا هذا لقلنا : النبى قال : يتكئ رجل على أريكته ويتحدث ، ولم يتكلم أحد بما يخالف هذا الكلام . إذن فوجود هؤلاء دليل صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومادام الله قد أرسله صلى الله عليه وسلم منه إلى خلقه فيكون مع هذه الرسالة الطاعة والطاعة هى : الاستجابة للطلب . وأنواع الطلب كما يقول الذين يشتغلون فى البلاغة والنحو كثيرة ، فمرة تتمنى شيئاً مستحيلاً مثل قول القائل : ليت الكواكب تدنو لىّ فأنظمها

ليت الكواكب تدنو لى فأنظمها
عقود مدح فما أرضى لكم كَلِمى

والكواكب لن تنزل بطبيعة الحال . أو كقول الشاعر :

ألا ليت الشباب يعود يوماً فأخبره بما فعل المشيب

هذا لون من الطلب يدل على أن الطلب محبوب ، لكنه لا يقع وقد يقع ، وكذلك الاستفهام طلب شىء لأنك تستفهم عن شىء كقولك لمن تزوره : مَن عندك ؟ . وأما أن تطلب شيئاً ليفعل فهذا هو الأمر ، أو تطلب شيئاً ليجتنب فهذا هو النهى ، فتكون الطاعة هى : أن تجيب طالباً إلى ما طلب .

والطالب إما أن يطالب بأمر لتفعله وإما بنهى لتجتنبه . وإذا أطلقت الطاعة إطلاقاً عاماً فهى لا تنصرف إلا لطاعة العبد لربه ، وبعد ذلك تقول : الولد أطاع أباه ، الطالب أطاع أستاذه ، العامل أطاع معلمه ، فهذه طاعة مضافة إلى مطاع ،

---

(١) رواه الترمذى فى العلم واللفظ له ، ورواه أحمد وابن ماجه .

لكن إن أطلقت كلمة الطاعة فهى تنصرف إلى طاعة العبد لله ، وهذه أسلم أنواع الطاعات ، لماذا ؟ .

لأن أمر كل آمر ، أو نهى كل ناهٍ ؛ قد يشكك فيه أنّه أمرك بكذا ليعود عليه بالفائدة ، أو نهاك عن كذا ليعود عليه بالفائدة ، لكن إذا كان الذى طلب منك هو فى غنى عن عملك وعن انتهائك ، فهذه مسألة لا يكون فيها شبهة ، فالذى يشكك الإنسان فى الطاعة هو المخافة أن يكون الطالب قد طلب أمراً يعود عليه بالمنفعة ، أو نهى عن أمر يعود على الناهى بالمنفعة أو يدفع عنه مضرّة . لكن إذا كان الطالب له كل صفات الكمال المطلق قبل أن توجد أنت ، فوجودك وعملك وعدم عملك لا يعود عليه بشىء ، فتكون هذه هى أسلم أنواع الطاعة .

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أطاعنى فقد أطاع الله ومن عصانى فقد عصى الله . . »[1] .

إن المنافقين هم الذين يتعبهم وجود نور لأنهم ألفوا الحياة فى ظلام ، ويرهقهم وجود عدل ؛ لأنهم استمرأوا الحياة فى المظالم ، لذلك فهم يحاولون أن يتصيدوا شيئاً ليقفوا فى أمر هذه الدعوة ، فقالوا : أما سمعتم لصاحبكم . إنه قارب الشرك . . يقول : لا تعبدوا إلا الله ومع ذلك يريد أن يجعل من نفسه رباً له حب وله طاعة .

وينزل الحق على رسوله قوله : « من يطع الرسول فقد أطاع الله » .

إذن فالطاعة هنا ليست ذاتية للرسول ؛ لأنها إما بلاغ عن الله فى النص الجزئى ، وإما بلاغ عن الله فى التفويض الكلى ، ومادامت بلاغا من الله فى التفويض الكلى فيكون الله قد أمنه أن يشرع : « من يطع الرسول فقد أطاع الله » .

ما هو مقابل الطاعة ؟ . إنه التولّى والعصيان ، ورأينا الناس تنقسم تجاه الرسول إلى قسمين : قسم يطيعه فى « افعل ولا تفعل » ، وما لم يرد فيه : « افعل

(١) رواه ابن أبى حاتم ، ورواه البخارى ومسلم .

ولا تفعل » ؛ فهو داخل فى حكم المباحات ؛ إن شئت فعلته وإن شئت لم تفعله ؛ فالذين يستجيبون للرسول أى يطيعونه فى « افعل ولا تفعل » هم من أقبلوا على المنهج . والذين لا يطيعونه فقد « تولوا » أى أعرضوا وصدّوا .

انظروا إلى الحق سبحانه وتعالى كيف يحمى نفسية الرسول فيقول سبحانه : « ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظاً » فالذى يتولى ولا يطيع الرسول ، فالحق لم يرسلك يا محمد لترغمهم على الإيمان .

وهناك فرق بين « أرسلناك لهم » أو « أرسلناك إليهم » ، و« أرسلناك عليهم » . فـ « أرسلناك لهم » تعنى أنك تبلغ فقط ، إنما « عليهم » فهى تعنى لتحملهم على كذا ، أى يجب أن تنتبه يا محمد إنا أرسلناك للناس ـ لا على الناس ـ لتبلغهم ، فمن شاء فليطع ومن شاء فليعص ، فلا تجهد نفسك وتظن أننا أرسلناك عليهم لترغمهم على أن يؤمنوا ، فتكلف نفسك أمرًا ما كلفك الله به :

﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾

(من الآية ٢٧٢ سورة البقرة)

والحق يقول أيضاً :

﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ ﴾

(سورة الغاشية)

وفى آية أخرى يقول :

﴿ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ﴾

(من الآية ٤٥ سورة ق)

« جبار » يعنى تجبرهم على أن يطيعوا . فالإجبار يتنافى مع التكليف ويتنافى مع دخول الإيمان طواعية ويتنافى مع الاختيار . « فما أرسلناك عليهم حفيظا » والحفيظ هو : الحافظ بمبالغة ، تقول مثلاً : هذا حافظ مال فلان ، وهذا حفيظ مال الناس جميعاً يعنى عنده مبالغة فى الحفظ ، إذن فالمبالغة جاءت فى تكرير الحدث فهو يحفظ

لذلك الإنسان ولغيره . والحق يؤكد ذلك لمصلحته صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه سبحانه بين لنا شغل رسول الله بأمته ، وأنه يجب أن يكونوا جميعا مؤمنين ملتزمين مطيعين ، ولذلك يقول الحق :

﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ۝٣ ﴾

(سورة الشعراء)

إنهم لا يؤمنون ، فيوضح له سبحانه : أرح نفسك ، فعليك البلاغ فقط . وهكذا يخفف الله مهمة الرسول .

ونجد أغلب عتابات الله لرسول الله ، لا لأنه خالف ، ولكن لأنه حَمَّلَ نفسه فوق ما تفرضه عليه الرسالة ، مثل من يثيرون قصة ابن أم مكتوم ، فيقولون : النبى أخطأ ولذلك قرعه الله ووبخه .

نقول لهم : كان الرسول يرغب أن يؤمن به صناديد قريش العتاة الكافرون ، وجاءه ابن أم مكتوم مؤمناً ويريد أن يستفهم ، وكان من الأسهل أن يتعرض لابن أم مكتوم ولا يتعرض للصناديد الذين يخالفونه ! لكن النبى صلى الله عليه وسلم ترك السهل وذهب للصعب ، فكأنه سبحانه يتساءل : لماذا أتعبت نفسك . « وما عليك ألا يزكى » أى ما الذى يجعلك تتعب ، إذن فهو يلومه لصالحه لا لأنه خالف .

فكأن الحق سبحانه وتعالى حينما يقول لرسوله صلى الله عليه وسلم : « فما أرسلناك عليهم حفيظاً » ، إنما قاله ليخفف عن الرسول . إذن الحفيظ هو الذى يحافظ على من يبلغه أمر الله وأن يكون سائراً على منهج الله . إن أراد أن ينحرف يعدله ، فيوضح سبحانه : أنا لم أرسلك حفيظاً عليهم ، أنا أرسلتك لتبلغهم ، وهم أحرار يدخلون فى التكليف أو لا يدخلون .

إذن فالحفيظ هو المهيمن والمسيطر ، كما قال فى الآيات الأخرى : والمسيطر أو الجبار هو الذى يحملهم على الإيمان . . والكلام فى الطاعة المقصودة لله . وأن تنفذ جوارحك ما يأمر به سبحانه فيما تسمعه أذنك وما ينطق به لسانك ، وليست الطاعة أن تقول : يا رسول الله نحن طائعون ، وبعد ذلك تحاول أن تخدش هذه الطاعة بأن

تجعلها طاعة لسان وليست طاعة جوارح . فطاعة اللسان دون الجوارح غير محسوبة من الإيمان .

ولهذا يقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾ ﴾

هنا يوضح الحق لرسوله : ستتعرض لطائفة من أمة الدعوة وهم الذين أمرك الله أن تدعوهم إلى الدخول فى الإسلام ،-أما أمة الإجابة فهم الذين استجابوا لله وللرسول وآمنوا فعلا- إن هؤلاء يقولون لك حين تأمرهم بشىء أو تطلب منهم شيئاً أمراً أو نهياً : « يقولون طاعة » يعنى : أمرنا وشأننا طاعة ، أى أمرك مطاع ، « فإذا برزوا من عندك بَيّت طائفة منهم غير الذى تقول » ، ويقال : برز أى خرج للبَرَاز ، والبَرَاز هى : الأرض الفضاء الواسعة ، ولذلك يقول المقاتل لمن يتحداه : ابرز لى ، أى اخرج من الكن أو الحصن ، وكان العرب سابقاً لا يقضون حاجتهم فى بيوتهم ، فإذا ما أرادوا قضاء حاجتهم ذهبوا إلى الغائط البعيد ، وجاء من هذه الكلمة لفظ يؤدى قضاء الحاجة فى الخلاء .

« فإذا برزوا من عندك » أى خرجوا ، فهم يديرون أمر الطاعة التى أمروا بها فى رءوسهم فيجدونها شاقة ، فيبيتون أن يخالفوا ، ونعرف أن كلمة « بَيّت » تعنى المأوى الذى يؤوى الإنسان . وأحسن أوقات الإيواء هو الليل ، فسموا البيت الذى نسكنه « مبيتًا » لأننا نبيت عادة فى البيت المقام فى مكان والمكون من حجرات ؛ والمستور ، ويقولون : هذا الأمر بُيِّت بليل ، أى دبروه فى الليل ، وهل المراد ألا يبيتوا فى

النهار ؟ لا ، لكن الشائع أن يبيتوا فى ليل . يفعلون ذلك وهم بعيدون عن الأعين ، فيدبرون جيداً ؛ وإن كان المقصود هو التبييت فى ظلام فهذا المعنى يصلح أيضاً ، وإن كان سراً فالمعنى يصح أيضا .

إذن فالأصل فى التبييت إنما يكون فى البيت . والأصل أن تكون البيتوتة ليلا ، ومدار المادة كلها الاستخفاء ، فإذا بُيت فى ظلام نقول:إنه بُيت بليل ، وإذا بُيِّتَ سراً نقول : بُيِّتَ بليل أيضاً .

« ويقولون طاعة فإذا برزوا من عندك بيت طائفة منهم غير الذى تقول » أى إنهم إذا ما خرجوا بيتوا أمراً غير الذى تقول ، فهم يعلنون الطاعة باللسان بينما يكون سلوكهم على العكس من ذلك ، فسلوكهم هو العصيان أو « طاعة » غير الذى تقولها . فإن قلت : افعلوا فلن يفعلوا ، وإن قلت : لا تفعلوا فهم يفعلون عكس ما تأمر به . إنهم يطيعون أهواءهم وشياطينهم .

« ويقولون طاعة فإذا برزوا من عندك بيت طائفة منهم غير الذى تقول » يعنى قالت طائفة : أمرنا وشأننا طاعة لما تقول ، أو أطعناك طاعة ولكنهم يبيتون غير ما تقول فهم إذن على معصية . « والله يكتب ما يبيتون » وسبحانه يكتب نتيجة علمه ، وجاء بكلمة « يكتب » حتى يعلموا أن أفعالهم مسجلة عليهم بحيث يستطيعون عند عرض كتابهم عليهم أن يقرأوا ما كتب فيه ، فلو لم يكن مكتوباً فقد يقولون : لا لم يحدث ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحذر من هذه الطائفة ، لأنها ستثبط أمر الدعوة ، لذلك يوضح الحق : إنك لن تُنصَرَ بمن أرسلت إليهم وإنما تنصر بمن أرسلك ، فإياك أن ينال ذلك من عزيمتك أو يثبطها نحو الدعوة . فإذا حدث من طائفة منهم هذا فـ « أعرض عنهم » أى لا تخاطبهم فى أمر من هذه الأمور ودعهم ودع الانتقام لى ؛ لأننى سأنصرك على الرغم من مخالفتهم لك ، واتجه إلى أمر الله الذى أرسلك .

ونعلم أن المصلحة فى كل الرسالات إنما تكون عند من أرسل ، ولكن المرسل إليه قد تتعبه الدعوة الجديدة ؛ لأنها ستخرجه عن هوى نفسه ، ومستلزمات طيشه ، فالذى أرسلك يا محمد هوالضامن لك فى أن تنجح دعوتك .

« فأعرض عنهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا » لماذا ؟ لأن الذين يؤمنون بك محدودو القدرة ، ومحدودو الحيلة ، ومحدودو العدة ، ولكن الذى أرسلك يستطيع أن يجعل من عدد خصومك ومن عُدَّة خصومك جنوداً لك ، وينصرك من حيث لا تحتسب . ولذلك فالحق سبحانه وتعالى بدأ قضية الإسلام وكان المؤمنون بها قلة ، فلو جعلهم كثرة لقالوا : كثرة لو اجتمعت على ظلم لنجحت ، ولكن عندما تكون قلة وتنجح ، فهذا فأل طيب ويشير على أنك لست منصوراً بهؤلاء وإنما أنت منصور بمدد الله .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾

وإذا سمعت كلمة « أفلا » فأعلم أن الأسلوب يقرّع من لا يستعمل المادة التى بعده . « أفلا يتدبرون القرآن » أى كان الواجب عليهم أن يتدبروا القرآن ، فهناك شيء اسمه « التدبر » ، وشيء اسمه « التفكر » ، ثالث اسمه « التذكر » ، ورابع اسمه « العلم » ، وخامس اسمه « التعقل » ، ووردت كل هذه الأساليب فى القرآن ، « أفلا يعلمون » ، « أفلا يعقلون » ، « أفلا يتذكرون » ، « أفلا تتفكرون » . هى إذن تدبر ، تفكر ، تذكر ، وتعقل ، وعلم .

وحين يأتى مخاطبك ليطلب منك أن تستحضر كلمة « تدبر » ؛ فمعنى هذا أنه واثق من أنك لو أعملت عقلك إعمالاً قوياً لوصلت إلى الحقيقة المطلوبة ، لكن الذى يريد أن يغشك لا ينبه فيك وسائل التفتيش ، مثل التاجر الذى تدخل عنده لتشترى قماشاً ، فيعرض قماشه ، ويريد أن يثبت لك أنه قماش طبيعى وقوى وليس صناعياً ، فيبله لك ويحاول أن يمزقه فلا يتمزق ، إنه ينبه فيك الحواس الناقدة ، فإذا نبه فيك الحواس الناقدة فمعنى ذلك : أنه واثق من أن إعمال الحواس الناقدة فى

صالح ما ادعاه ، ولو كان قماشه ليس فى صالح ما ادعاه لحاول خداعك ، لكنه يقول لك : انظر جيداً وجرب .

والحق يقول : « أفلا يتدبرون القرآن » والتدبر هو كل أمر يُعرض على العقل له فيه عمل فتفكر فيه لتنظر فى دليل صدقه ، هذه أول مرحلة ، فإذا ما علمت دليل صدقه فانظر النتيجة التى تعود عليك لو لم تعملها ؛ و« تتدبر » تعنى أن تنظر إلى أدبار الأشياء وأعقابها ، فالرسول يبلغك : الإله واحد ، إبحث فى الأدلة بفكرك ، فإذا ما انتهيت إليها آمنت بأن هناك إلهًا واحدًا . وإياك أن تقول إنها مسألة رفاهية أو سفسطة ؛ لأنك عندما تنظر العاقبة ماذا ستكون لو لم تؤمن بالإله الواحد . سيكون جزاؤك النار .

إذن فتدبرت تعنى : نظرت فى أدبار الأشياء وحاولت أن ترى العواقب التى تحدث منها ، وهذه مرحلة بعد التفكر . فالتفكر مطلوب أن تتذكر ما عرفته من قبل إن طرأ عليك نسيان . فالتفكر يأتى أولاً وبعد ذلك يأتى التدبر . وأنت تقول ـ مثلاً ـ لابنك : لكى يكون مستقبلك عاليا وتكون مهندسا أو طبيبا عليك أن تذاكر وتجتهد ، فيفكر الولد فى أن يكون ذا مكانة مثل المتفوقين فى المهن المختلفة فى المجتمع ، ويبذل الجهد .

إذن فأول مرحلة هى : التفكر ، والثانية هى : التدبر ، فإذا غفلت نقول لك : تذكر ما فكرت فيه وانتهيت إليه وتدبر العاقبة ، هذه كلها عمليات عقلية : فالتفكير يبدأ بالعقل ، والعقل ينظر أيضا فى العاقبة ثم تعمل الحافظة لتذكرك بما فات وبما كان فى بؤرة الشعور ثم انتقل إلى حاشية الشعور ، فإذا كنت قد تعقلت الأمر لذاتك يقال : عقلته . فإن فهمت ما عقله غيرك فقد علمت ما عقله فلان .

إذن فليس ضروريا أن تكون قد انتهيت إلى العلم بعقلك ، بل أنت أخذت حصيلة تعقل غيرك ، ولذلك عندما ينفى ربنا عن واحد العلم فإنه قد نفى عنه التعقل من باب أولى ؛ ذلك أن العلم يعنى قدرته على تعقل قدرات غيره ، دون الوصول إلى قوانينها وقواعدها وأصولها ، إنه فحسب يعلم كيف يستفيد وينتفع بها ، وفى حياتنا اليومية نجد أن الأمى ينتفع بالتليفزيون وينتفع بالكهرباء ، أى انتفع بعلم غيره . لكنه لا يتعقل قدرات ذلك العَالِم . إذن فدائرة العلم أوسع ؛ لأنك تعرف بعقلك أنت. أما فى دائرة العلم فإنك تعلم وتفهم ما عقله سواك .

ولذلك فعندما يأتى ربنا ليعرض هذه القضية يقول :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾

(سورة البقرة)

وفى المعنى نفسه يأتى فى آية أخرى عندما يقول لهم :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾

(سورة المائدة)

فى الآية الأولى قال سبحانه : « لا يعقلون » لأنهم قالوا : « بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا » بدون طرد لغيره ، وفى الثانية قالوا : « حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا » بإصرار على رفض غيره والخضوع لسواه ، فقال : « أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون » ، وسبحانه هنا نفى عن آبائهم العلم الذى هو أوسع من نفى التعقل ؛ لأن نفى التعقل يعنى نفى القدرة على الاستنباط . لكنه لا ينفى أن ينتفع الإنسان بما استنبطه غيره .

« أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا » . . والحق سبحانه وتعالى حينما يحث المستمعين للاستماع إلى كلامه وخاصة المخالفين لمنهجه أن يتدبروا القرآن ، معناه أنه يحب منهم أن يُعملوا عقولهم فيما يسمعون ؛ لأن الحق يعلم أنهم لو أعملوا عقولهم فيما يسمعون لانتهوا إلى قضية الحق بدون جدال ، ولكن الذى يجعلهم فى مواقف يعلنون الطاعة « فإذا برزوا من عندك بيت طائفة منهم غير الذى تقول » ، إن هذا دليل على أنهم لم يتدبروا القرآن ، وقوله الحق : « أفلا يتدبرون » تأتى بعد تلك الآية ، كأنها جاءت ودليلها يسبقها ، فهم لو تدبروا القرآن لعلموا أن الرسول صادق فى البلاغ عن الله وأن هذا كلام حق .

وبالله حين يبيتون فى نفوسهم أو يبيتون بليل غير الذى قالوه لرسول الله ، فمن الذى قال لرسول الله : إنهم بيتوا هذا ؟!

إذن فلو تدبروا مثل هذه لعلموا أن الذى أخبر رسول الله بسرائرهم وتبييتهم ومكرهم إنما هو الله ، إذن فرسول الله صادق فى التبليغ عن الله ، ومادام رسول الله صادقا فى التبليغ عن الله ، فتعود للآية الأولى « من يطع الرسول فقد أطاع الله » ، وكل الآيات يَخدم بعضها بعضا ، فالقرآن حين نزل باللسان العربى شاء الله ألا يجعل كل مستمع له من العرب يؤمن به أولا ؛ لأنهم لو آمنوا به جميعا أولاً لقالوا : إيمانهم بالقرآن جعلهم يتغاضون عن تحدى القرآن لهم . لكن يظل قوم من المواجهين بالقرآن على كفرهم ، والكافر فى حاجة إلى أن يُعَارِض ويُعارَض . فإذا ما وجد القرآن قد تحداه أن يأتى بمثله ، وتحداه مرة أن يأتى بعشر سور من مثله ، وتحداه بأن يأتى بأقصر سورة من مثله ، هذا هو التحدى للكافر . . ألا يهيج فيه هذا التحدى غريزة العناد ؟ ولم يقل منهم أحد كلمة ، فما معنى ذلك ؟ معناه : أنهم مقتنعون بأنه

لا يمكن أن يصلوا لذلك واستمروا على كفرهم وكانوا يجترئون ويقولون ما يقولون . ومع ذلك فالقرآن يمر عليهم ولا يجدون فيه استدراكاً .

كان من الممكن أن يقولوا : إن محمدا يقول القرآن معجز وبليغ وقد أخطأ فى كذا وكذا . ولو كانوا مؤمنين لأخفوا ذلك ، لكنهم كافرون والكافر يهمه أن يشيع أى خطأ عن القرآن ، وبعد ذلك يأتى قوم ليست لهم ملكة العربية ولا فصاحة العربية ، ليقولوا إن القرآن فيه مخالفات ! فكيف يتأتى لهم ذلك وليس عندهم ملكة العربية ، ولغتهم لغة مصنوعة ، وليس لهم ملكة فصاحة ، فكيف يقولون:إن القرآن فيه مخالفات ؟ لقد كان العرب الكافرون أولى بذلك ، فقد كانت عندهم ملكة وفصاحة وكانوا معاصرين لنزول القرآن ، وهم كافرون بما جاء به محمد ولم يقولوا:إن فى القرآن اختلافاً !! هذا دليل على أن المستشرقين الذين ادعوا ذلك يعانون من نقص فى اللغة .

ونقول لهم : لقد تعرض القرآن لأشياء ليُثبت فصاحته وبلاغته عند القوم الذين نزل لهم أولا . فمنهم من سيحملون منهج الدعوة ، ثم حمل القرآن معجزات أخرى لغير الأمم العربية ، فمعجزة القرآن ليست فصاحة فقط ، وإلا لقال واحد : هو أعجز العرب ، فما شأن العجم والرومان ؟ ونقول له : أكل الإعجاز كان فى أسلوبه ؟ لا ، الإعجاز فى أشياء تتفق فيها جميع الألسنة فى الدنيا ؛ لأنه يأتى ليثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بشهادة خصومه لم يبارح الجزيرة إلا فى رحلة

التجارة للشام ، ولم يثبت أنه جلس إلى معلم ، وكلهم يعرف هذا ، حتى الغلطة التى أخطأوا فيها ، جاء ربنا بها ضدهم فقال :

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾

(سورة النحل)

يقصدون بـ : « بشر » هذا غلامًا كان لحويطب بن عبدالعزى قد أسلم وحسن إسلامه ، أو غلاما آخر روميًّا أو سلمان الفارسى ، فأوضح الحق : تعقلوا جيدا ، فمحمد لم يجلس إلى معلم ، ولم يذهب فى رحلات . وبعد ذلك جاء القرآن تحدياً لا بالمنطق ولا باللغة ولا بالفصاحة ولا بالبيان فحسب ، بل بالأمر الشامل لكل العقول وهو كتاب الكون . ووقائعه وأحداثه التى يشترك فيه كل الناس .

والكون ـ كما نعرف ـ له حجب ، فالأمر الماضى حجابه الزمن الماضى والذى كان يعيش أيامه يعرفه ، والذى لم يكن فى أيامه لا يعرفه ، إذن فأحداث الماضى حجبها الزمن الماضى ، وأحداث المستقبل حجزها المستقبل؛لأنها لم تقع بعد . والحاضر أمامنا ، فيجعل له حاجزاً هو المكان ، فيأتى القرآن فى أساليبه يخرق كل هذه الحجب ، ثم يتحدى على سبيل المثال ويقول :

﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾

(سورة القصص)

وسبحانه يقول :

﴿ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ﴾

(من الآية ٤٥ سورة القصص)

وسبحانه يقول :

﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾

(سورة العنكبوت)

وكل « ما كنت » فى القرآن تأتى بأخبار عن أشياء حدثت فى الماضى . بالله لو كانوا يعلمون أنه علم أو جلس إلى معلم ، أكانوا يسكتون ؟ طبعا لا ، لأن هناك كفارًا أرادوا أى ثغرة لينفذوا منها ، وبعد ذلك يأتى القرآن لحجاب الزمن المستقبل ويخرقه ، يحدث ذلك والمسلمون لا يقدرون أن يحموا أنفسهم فيقول الحق :

﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ ﴾

(سورة القمر)

حتى أن عمر بن الخطاب يقول : أى جمع هذا ؟ وينزل القرآن بآيات تتلى وتسجل وتحفظ . . وتأتى غزوة « بدر » ويهزم الجمع فعلاً . وتنزل آية أخرى فى الوليد ابن المغيرة الجبار المفترى :

﴿ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة القلم)

ويتساءل بعضهم : هل نحن قادرون أن نصل إليه ؟ وبعد ذلك تأتى غزوة « بدر » فينظرون أنفه فيجدون السيف قد خرطه وترك سمة وعلامة عليه ، فمن الذى خرق حجاب الزمن المستقبل ؟ إنه الله . وليس محمداً ، فإذا تدبرتم المسائل حق التدبر لعلمتم أن محمداً ما هو إلا مبلغ للقرآن ، وأن الذى قال القرآن هو الإله الذى ليس عنده ماضٍ ولا حاضر ولا مستقبل ، بل كل الزمن له ، ويأتى القرآن فيقول :

﴿ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ ﴾

(من الآية ٨ سورة المجادلة)

هم قالوا فى أنفسهم ولم يسمع لهم أحد ، ثم ينزل القرآن فيخبر بما قالوه فى أنفسهم . . فماذا يقولون إذن ؟ وهم لو تدبروا القرآن لعلموا أن الحق سبحانه وتعالى هو الذى أخبر رسول الله بما قالوا فى أنفسهم . . فهذه الآية «أفلا يتدبرون القرآن » جاءت بعد « فإذا برزوا من عندك بيت طائفة منهم غير الذى تقول » ، إذن فقد فُضحوا ، فلو كانوا يتدبرون لعلموا أن الله الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق هو الذى أخبره بما بيتوا ، والذين لا يفهمون اللغة يطيرون فرحاً باختلاف توهموا أنه موجود بالقرآن ، يقولون : إن الحدث الواحد المنسوب إلى فاعل واحد لا ينفى مرة ويثبت مرة أخرى ، فإن نفيته لا تثبته ، وإن أثبته لا تنفه ، لكن القرآن فيه هذا .

وهيئ لهم ذلك فى قول الحق :

﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾

(من الآية ١٧ سورة الأنفال)

و« ما رميت » هو نَفَى « الرمى » ، و« إذ رميت » أثْبت « الرمى » وجاء القرآن بالفعل وهو « رميت » ، والفاعل هو « رسول الله صلى الله عليه وسلم » فكيف يثبت الفعل مرة وينفيه مرة فى آية واحدة ؟ ونقول لهم : لأنكم ليس عندكم ملكة العربية قلتم هذا الكلام ، أما من عنده ملكة العربية وهى أصيلة وسليقة وطبيعة وسجية فيه ، فقد سمع الآية ولم يقل مثل هذا الكلام ، مما يدل على أنه فهم مؤداها .

ثم لماذا نبتعد ونقول من أيام الجاهلية ، لنأخذ من حياتنا اليومية مثلاً ، أنت إذا ما جئت مثلاً لولدك وقلت له : ذاكر لأن الامتحان قد قرب ، وأنا جالس معك لأرى هل ستذاكر أو لا . فيأخذ الولد كتابه ويجلس إلى مكتبه وبعد ذلك يفتح الكتاب ويقلب الأوراق ويهز رأسه . وبعد مدة تقول له : تعال انظر ماذا ذاكرت . فتمسك الكتاب وتسأله سؤالين فيما ذاكر . . فلا يجيب ، فتقول له : ذاكرت وما ذاكرت . أى أنك فعلت شكلية المذاكرة ، ولا حصيلة لك فى موضوع المذاكرة .

قولك:« ذاكرت » هو اثبات للفعل ، وقولك:« وما ذاكرت » هو نفى للفعل . فإذا جاء فعل من فاعل واحد مثبت مرة ومنفى مرة من كلام البليغ . فاعلم أن جهة الإثبات غير جهة النفى .

وقوله الحق : « وما رميت إذ رميت » فكأن رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما جاء إلى المعركة أخذ حفنة من الحصى ، وجاء ورمى بها جيش العدو .

إذن فالعملية الشكلية قام بها النبى صلى الله عليه وسلم ،لكن أَلِرَسول الله قدرة أن يُرسل الحصى إلى كل جيش العدو ؟ إن هذه ليست فى طاقته ، فقول الحق : « وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى » . أنت أخذت شكلية الرمى ، أما موضوعية الرمى فهى لله سبحانه وتعالى .

ويأتى مثلاً فى آية أخرى يقول :

﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

(من الآية ٦ سورة الروم)

وهذا نفى . ثم يقول بعدها مباشرة :

﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾

(من الآية ٧ سورة الروم)

وتتساءلون أيقول : « لا يعلمون » . . ثم يقول : « يعلمون » بعدها مباشرة ؟ نعم فهم لا يعلمون العلم المفيد ، وقوله : « يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا » أنهم لا يعلمون بواطن الأمور ولا عواقبها . فإذا جاء فعل فثبت مرة ونفى مرة أخرى فلا بد أن الجهة منفكة .

مثال ذلك هو قول الحق :

﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ ﴾

(سورة الرحمن)

ثم يقول القرآن فى موقع آخر :

﴿ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

(سورة الصافات)

ومعناها أنهم سيُسألون . ونقول : اجعلوا عندكم ملكة العربية ، ألا يسأل الأستاذ تلميذه . إذن فالسؤال قد يقع من العالم ليُعْلم ما عند المسئول ويُقِرُّ به ، وليس ليَعْلَم العالم ما عند المسئول ، وعندما يقول ربنا : « وقفوهم إنهم مسئولون » . . فإياكم أن يذهب ظنكم إلى أن الله يسأل لأنه لا يعلم ، وإنما يسأل ليقرركم لتكون حجة الإقرار أقوى من حجة الاختبار . إذن فإن رأيت شيئاً نفى ، وأثبت فى مرة أخرى فاعلم أن الجهة منفكة . وحينما نتكلم عن إعجاز القرآن نجده يقول :

﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾

(من الآية ١٥١ سورة الأنعام)

وجاء فى الآية الثانية وقال ربنا :

﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾

(من الآية ٣١ سورة الإسراء)

قد يقول من لا يملك ملكة اللغة : فأيهما بليغة ؟ إن كانت الأولى فالثانية ليست بليغة ، وإن كانت الثانية فالأولى ليست بليغة .

نقول له : أنت أخذت عجز كل آية فقط . وعليك أن تأخذ عجز كل آية مع صدرها . صحيح أن عجز الآية مختلف ؛ لأنه يقول فى الأولى : « نحن نرزقكم وإياهم » وفى الثانية يقول : « نحن نرزقهم وإياكم » . ولكن هل صدر الآية متحد ؟ لا ، فصدر كل آية مختلف ؛ لأنه قال : « ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم » . فكأن الإملاق موجود . . حاصل ؛ لذلك شغل المخاطب برزقه قبل أن يشغل برزق ولده . . ويخاف أن يأتى له الولد فلا يجد ما يطعمه . لأنه هو نفسه فقير . فيطمئنه الله على رزقه أولا ثم بعد ذلك يطمئنه على رزق من سيأتى : « نحن نرزقكم وإياهم » . . لكن فى الآية الثانية لم يقل ذلك . . بل قال : « ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق » كأنه يخاف أن يفقد ماله ويصير فقيراً عندما يأتى الولد ، ومادام قد قال : « خشية إملاق » فهذا يعنى أن الإملاق غير موجود ، ولكنه يخاف الإملاق إن جاء الولد ، يخاف أن يأتيه الولد فيأتيه الفقر معه ، فأوضح الحق له : لا تخف فسيأتى الولد برزقه . . « نحن نرزقهم وإياكم » إذن إن نظرت إلى الآية عجزها مع صدرها . . تجد العلاقة مكتملة ، ويحاول بعضهم أن يجد منفذاً للطعن فى بلاغة القرآن فيتساءل لماذا يقول الحق فى آية فى القرآن :

﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾

(من الآية ١٧ سورة لقمان)

وفى سورة ثانية يقول :

﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾

(سورة الشورى)

ونقول لهم : أنتم لم تفهموا الآيات على حقيقتها . ففى الآية الأولى يقول : « واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور » أى فى المصائب التى لا غريم لك فيها . ومادام ليس لك غريم فيها . . فماذا تفعل ؟ لكن إذا كان لك غريم وخصم فقد تتحرك نفسك بأن تنتقم منه . ولذلك فانتبه لقوله الحق : « واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور » يناسب الموقف الذى لا يوجد فيه غريم ، وفى

الآية الثانية : « إن ذلك لمن عزم الأمور » فالآية تناسب الموقف الذى فيه غريم لأنك ستصبر على المصيبة وعلى من عملها من غريم ؛ لأنك كلما رأيته تهيج نفسك وهذا يحتاج لتأكيد الصبر بقوة ، وتلك هى كلمات المستشرقين الذين يريدون الطعن فى القرآن ويقولون لنا : أنتم تنظرون للقرآن بقداسة لكنكم لو نظرتم إليه بتفحص لوجدتم أن فيه اختلافات كثيرة ، نقول لهم : قولوا لنا المخالفات ، ونحن رددنا على هذا فى ثنايا خواطرنا عن القرآن ، ومنهم من يقول لك مثلاً : القرآن عندما تعرض لقضية خلق السموات والأرض جاءت كل الآيات لتؤكد أن الله سبحانه خلقها فى ستة أيام .. لكنهم يقولون عندما نذهب إلى آيات التفصيل فى قوله :

﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ۖ قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ ﴾

(سورة فصلت)

نجدها ثمانية أيام فقالوا : هذا خلاف . نقول لهم : أنتم لم تفهموا . فسبحانه حين قال : « قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض » ، فهل تكلم عما تستقيم به الحياة على الأرض ؟ إنه عندما تكلم عن الأرض يقول : « قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين وجعل فيها رواسى من فوقها » ، فهذه تكون تتمة الأرض لأنه يتكلم عن الأرض .. « وجعل فيها » أى الأرض .. « رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها » .. وكل ذلك فى الأرض .. إذن فالمرحلة الثانية مرحلة تتمة خلق الأرض فسبحانه خلق الأرض كجرم أولاً ، وبعد ذلك جعل فيها الرواسى وجعل فيها الأقوات وبارك فيها . فى كم يوما ؟ فى أربعة أيام فكأن اليومين الأولين دخلا فى الأربعة ، لأن هذه تتمة خلق الأرض .

ولله المثل الأعلى ، مثلما تقول : سرت من هنا إلى الإسماعيلية فى ساعة ، وإلى بورسعيد فى ساعتين ، فقولك : إلى بورسعيد فى ساعتين ، يعنى أن الساعة الأولى تم حسابها ، إذن فهؤلاء المستشرقون لم يفهموا معطيات القرآن ؛ لذلك يقول سبحانه : « أفلا يتدبرون القرآن » فإن وجدت شيئا ظاهريا يثير تساؤلا فى القرآن فأعمل عقلك ، وأعمل فكرك كى تعرف أن التناقض فى فهمك أنت وليس التناقض فى القرآن ؛ لأنه مِنْ عند مَن إذا قص واقعا قصه على حقيقته ، وعند مَن لا يغيب شىء عنه ، لا حجاب الزمن الماضى ، ولا حجاب الزمن المستقبل ، ولا حجاب المكان ، ولا حجاب المكين « أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا » ، فالقرآن كتاب كبير به أربع عشرة ومائة سورة ، بالله هاتوا أى أديب من الأدباء كى يكتب هذا، ثم انظروا فى فصاحته، إنّكم ستجدونه قويا فى ناحية وضعيفا فى ناحية أخرى ، وبعد ذلك قد تجدونه أخل بالمعنى ، وقال كلمتين هنا ثم جاء بما يناقضهما بعد ذلك ! مثلما فعل أبو العلاء المعرى عندما قال :

تحطمنا الأيام حتى كأننا زجاج ولكن لا يعاد لنا سبك

وكان أيام قوله هذا: ينكر البعث .

وعندما رجع إلى صوابه بعد ذلك قال :

زعم المنجم والطبيب كلاهما لا تحشر الأجساد قلت إليكما
إن صحّ قولكما فلست بخاسر أو صحّ قولى فالخَسار عليكما

إذن فالتناقض يأتى مع صاحب الأغيار الذى كان له رأى أولاً ثم عدلته التجربة أو الواقع إلى رأى آخر . لكن ربنا سبحانه وتعالى لا يتغير ومعلومه لا يتغير فهو الحق ، إذن فالتناقض يأتى إما من واحد يكذب ، لأن الواقع لم يحكمه ، وإما من واحد هو فى ذاته متغير ، فرأى رأياً ثم عدل عنه ، فيكون متغيراً . لكن الحق سبحانه وتعالى لا يتغير . . ويقول على الواقع الحق : « أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً » . .

والواقع أيضاً أننا نجد كل قضية قرآنية تعرض كنص من نصوص القرآن أنزله الله على رسوله . . هذه القضية القرآنية فى كون له تغيرات ، والتغيرات بعضها يكون من

مؤمن بالقرآن ، وبعضها يكون من غير مؤمن بالقرآن ، فهل رأيت قضية قرآنية ثم جاءت قضية الكون حتى من غير المؤمنين فكذبتها ؟ . لا ، هم فى الغرب مثلاً بعد الحرب العالمية الأولى اخترعوا أسطوانة تحطيم الجوهر الفرد والجزء الذى لا يتجزأ . . وكانت تلك أول مرحلة فى تفتيت الذرة ، ونجد القرآن يضرب المثل بالذرة ، وأنها أصغر شىء فى قوله سبحانه :

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ ﴾

(سورة الزلزلة)

وضع العلماء أيديهم على قلوبهم لأن الذرة قد تفتت . فوجد ما هو أصغر من الذرة !! ووجدنا من قرأ القرآن . . وقال : إن القرآن نزل فى عصر كان أصغر شىء فيه « الذرة » عند العربى القديم ، والله يعلم أزلا أن العلم سيطمح ويرتقى ويفتت الذرة ، فقال :

﴿ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٣ ﴾

(سورة سبأ)

لقد تدبر صاحب هذا القول القرآن وفهم عن الله الذى تتساوى عنده الأزمنة ، فالمستقبل مثل الماضى ، ليس عنده علم مستقبل وعلم حاضر وعلم ماضٍ ، وأوضح لنا : أن هناك ما هو أصغر من الذرة . فلو فتتوا المفتت منها لوجدنا فى القرآن له رصيداً .

تعالوا للقضايا الاجتماعية مثلاً . تجدوا أى قضية قرآنية يجتمع لها خصوم القرآن ليجدوا مطعناً ، فنجد من لم يفهموا من المسلمين يجرون وراءهم ويقولون : هذه الأمور لم تعد ملائمة للعصر ، ثم نجد أعداء الإسلام يواجَهُون بظروف لا يجدون حلاً لمشكلاتهم إلا ما جاء فى القرآن .

« أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً » .

مثال آخر : بعض الناس يقولون : هناك اختلاف فى القراءات . . مثل قوله تعالى :

﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ ﴾

(سورة الفاتحة)

ويقول : هناك من يقرؤها « ملك يوم الدين » . . لكن هناك ما يُسمى « تربيب الفائدة » لأن كلمة « مالك » وكلمة « مَلِك » معناهما واحد ، والقرآن كيف يكون من عند غير الله ؟ « أفلا يتدبرون القرآن ولو كان » ـ أى القرآن ـ « من عند غير الله » أغير الله كان يأتى بقرآن ؟! لا . إنما القرآن لا يأتى إلا من الله سبحانه وتعالى ، « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا » .

إن قوله سبحانه : « أفلا يتدبرون القرآن » تكريم للإنسان ، فكأن الإنسان قد خلقه الله ليستقبل الأشياء بفكر لو استعمله استعمالاً حقيقياً لانتهى إلى مطلوبات الحق ، وهذه شهادة للإنسان ، فكأن الإنسان مزود بآلة فكرية . . هذه الآلة الفكرية لو استعملها لوصل إلى حقائق الأشياء ، والحق لا يريد منا إلا أن نعمل هذه الآلة : « أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيرا » فالقرآن كلام الله ، وكلام الله صفته ، وصفة الكامل كاملة ، والاختلاف يناقض الكمال . فمعنى الاختلاف أنك تجد آية تختلف مع آية أخرى ، فكأن الذى قال هذه نسى أنه قالها !! وبعد ذلك جاء بأمر يناقضها ، ولو كان عنده كمال لعرف ما قال أولاً كى لا يخالفه ثانياً . .

إذن فلا تضارب ولا اختلاف فى القرآن ؛ لأنه من عند الله .

وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ

لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾

الحق سبحانه وتعالى يربى الأمة الإيمانية على أسلوب يضمن ويؤمّن لهم سرّية حركتهم وخاصة أنهم قوم مقبلون على صراع عنيف ولهم خصوم أشداء ، فيربيهم على أن يعالجوا أمورهم بالحكمة لمواجهة الجواسيس . فيقول : « وإذا جاءهم أمر » . أى إذا جاءهم خبر أمر من الأمور يتعلق بالقوم المؤمنين أو بخصومهم ، وعلى سبيل المثال : يسمعون أن النبى عليه الصلاة والسلام سيخرج فى سرية إلى المنطقة الفلانية ، وقبيلة فلان تنتظره كى تنضم إليه ، وعندما يسمع الضعاف المنافقون هذا الخبر يذيعونه . فيحتاط الخصوم بمحاصرة القبيلة التى وعدت الرسول أن تقاتل معه كى لا تخرج ، أو يقولون مثلاً : إن النبى سيخرج ليفعل كذا فيذيعوا أيضاً هذا الخبر ! فأوضح لهم الحق : لا تفعلوا ذلك فى أى خبر يتعلق بكم كجماعة ارتبطت بمنهج وتريد لهذا المنهج أن يسيطر ؛ لأن هذا المنهج له خصوم .

إياكم أن تسمعوا أمراً من الأمور فتذيعوه قبل أن تعرضوه على القائد وعلى من رأى القائد أنهم أهل المشورة فيه ، فقوله : « وإذا جاءهم أمر من الأمن » يقصد به أن المسألة تكون فى صالحهم « أو الخوف » أى من عدوهم « أذاعوا به » .

كلمة « أذاعه » غير كلمة « أذاع به » ، فـ « أذاعه » يعنى « قاله » ، أما « أذاع به » فهى دليل على أنه يقول الخبر لكل من يقابله ، وكأن الخبر بذاته هو الذى يذيع نفسه ، فهناك أمر تحكيه وتنتهى المسألة ، أما « أذاع به » فكأن الإذاعة مصاحبة للخبر وملازمة له تنشره وتخرجه من طىّ محدود إلى طى غير محدود . . أو من آذان تحترم خصوصية الخبر إلى آذان تتعقب الخبر ، ثم يقول : « ولو ردوه إلى الرسول » فالرسول أو من يحددهم الرسول صلى الله عليه وسلم هم الذين لهم حق الفصل فيما يقال وما لا يقال : « لعلمه الذين يستنبطونه منهم » والاستنباط مأخوذ من « النَّبْط » وهو ظهور الشىء بعد خفائه ، واستنبط أى استخرج الماء مجتهدا فى ذلك والنَبط هو أول مياه تخرج عند حفر البئر فنقلت الكلمة من المحسات فى الماء إلى المعنويات فى

الأخبار . وصرنا نستخدم الكلمة فى المعانى ، وكذلك فى العلوم . مثلما تعطى الطالب مثلاً تمريناً هندسياً ، وتعطيه معطياته ، ثم يأخذ الطالب المعطيات ويقول بما أن كذا = كذا . . ينشأ منه كذا ، فهو يستنبط من موجودٍ معدوماً .

وهنا يوضح الحق لهم : إذا سمعتم أمراً يتعلق بالأمن أو أمراً يتعلق بالخوف ، فإياكم أن تذيعوه قبل أن تعرضوه على رسول الله صلى الله عليه وسلم أو تعرضوه على أولياء الأمر الذين رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعطيهم بعض السلطة فيه ؛ لأنهم هم الذين يستنبطون . . هذا يقال أو لا يقال .

ويقول الحق : « ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلاً » كأنهم أذاعوا بعض أحداث حدثت ، لكنهم نجوا منها بفضل من الله سبحانه وتعالى وبعض إلهاماته فكان مما أذاعوا به ما حدث عندما عقد رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ العزم على أن يذهب إلى مكة فاتحاً . . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد غزوة وَرَّى بغيرها . . أى أنه لا يقول الوجهة الحقيقية كى يأخذ الخصوم على غرة ، وعندما يأخذ الخصوم على غرة يكونون بغير إعداد ، فيكون ذلك داعياً على فقدانهم قدرة المقاومة .

وانظروا إلى الرحمة فيما حدث فى غزوة الفتح ، فقد أمر رسول الله المسلمين بالتجهيز لغزو مكة حتى إذا ما أبصر أهل مكة أن رسول الله جاء لهم بجنود لا قبل لهم بها ؛ يستكينون ويستسلمون فلا يحاربون وذلك رحمة بهم . وكان « حاطب بن أبى بلتعة » قد سمع بهذه الحكاية فكتب كتاباً لقريش بمكة ، وأخذته امرأة وركبت بعيرها وسارت . وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بعلى ومن معه وقال لهم : إن هناك امرأة فى روضة خاخ معها كتاب من حاطب بن أبى بلتعة إلى قريش يخبرهم بقدومنا إلى مكة ، فذهبوا إلى الظعينة فأنكرت ، فهددها سيدنا علىٌّ وأخرج من عقاصها ـ أى من ضفائر شعرها ـ الكِتَاب ، فإذا هو كتاب من حاطب بن أبى بلتعة إلى قريش ، فاستحضر رسول الله صلى الله عليه وسلم حاطباً وقال له : أهذا كتابك ؟. قال : نعم يا رسول الله ، فقال : وما دعاك إلى هذا ؟ قال : والله يا رسول الله لقد علمت أن الله ناصرك ، وأن كتابى لن يقدم ولن يؤخر . وأنا رجل

ملصق فى قريش ولم أكن من أنفسهم ليس لى بها عصبية ولى بين أظهرهم ولد وأهل فأحببت أن أتقدم إلى قريش بيد تكون لى عندهم يحمون بها قرابتى وما فعلت ذلك كفرا ولا ارتدادا عن دينى ولا رضا بالكفر بعد الإسلام فقال له النبى : قد صدقت .

إذن فالحق سبحانه وتعالى يريد أن يبنى القضايا الإيمانية وخاصة ما يتعلق بأمر المؤمنين مع أعدائهم على الصدق ، ولا يستقيم الأمر أن يفشى ويذيع كل واحد الكلام الذى يسمعه ، بل يجب أن يردوا هذا الكلام إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى أولى الأمر لأنهم هم الذين يستنبطون ما يناسب ظرفهم من الأشياء ، ربما أذنوا لكم فى قولها ، أو أذنوا بغيرها إذا كان أمر الحرب والخداع فيها يستدعى ذلك . وهذا يدل على أن الحق سبحانه وتعالى وإن كان قد ضمن النصر والغلبة لهم وأوضح : أنا الوكيل وأنا الذى أنصر ولا تهابوهم ، إلا أنه سبحانه يريد أن يأخذ المؤمنون بالأسباب . . وبكفايتهم به على أنه هو الناصر . .

« ولولا فضل الله عليكم ورحمته لا تبعتم الشيطان إلا قليلاً » وهذا يدل على أن هذه المسألة قد حدثت منهم ولكن فضل الله هو الذى سندهم وحفظهم فلم يجعل لهذه المسألة مغبة أو عاقبة فيما يسوؤهم . « ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلاً » ونعرف أنه كلما جاء فعل من الأفعال وجاء بعده استثناء . فنحن ننظر:هل هذا الاستثناء من الفاعل أو من الفعل ؟ . . وهنا نجد قوله الحق : « لاتبعتم الشيطان إلا قليلاً » فهل كان اتباع الشيطان قليلاً أى اتبع الشيطان قلة وكثيرون لم يتبعوا الشيطان . فهل نظرت إلى القلة فى الحدث أو فى المحدِث للحدث ؟ . فإن نظرت إلى القلة فى الحدث فيكون : لاتبعتم الشيطان إلا اتباعاً قليلاً تهتدون فيه بأمر الفطرة ، وإن أردت القلة فى المحدث : « لاتبعتم الشيطان إلا قليلاً » أى إلاَّ نفرا قليلا منكم سلمت فطرتهم فلا يتبعون الشيطان .

فقد ثبت أن قوماً قبل أن يرسل ويبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم جلسوا ليفكروا فيما عليه أمر الجاهلية من عبادة الأوثان والأصنام ، فلم يرقهم ذلك ، ولم يعجبهم ، فمنهم من صَدّ عن ذلك نهائياً ، ومنهم من ذهب ليلتمس هذا العلم من مصادرة فى البلاد الأخرى ، فهذا « زيد بن عمرو بن نفيل » ، وهذا « ورقة بن

نوفل » الذى لم يصدق كل ما عرض عليه ، و« أمية بن أبى الصلت » ، و« قُسّ بن ساعدة » ، كل هؤلاء بفطرتهم اهتدوا إلى أن هذه الأشياء التى كانت عليها الجاهلية لا تصح ولا يستقيم أن يكون عليها العرب فهؤلاء كانوا قلة وكانوا يسمون بالحنفاء والكثير منهم كان يعبد الأصنام ثم أكرمهم الله ببعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

إذن فقول الحق : « ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلاً » أى لأن الحق سبحانه وتعالى بفضله ورحمته لن يدع مجالاً للشيطان فى بعض الأشياء . . بل يفضح أمر الشيطان مع المنافقين . فإذا ما فضح أمر الشيطان مع المنافقين أخذكم إلى جانب الحق بعيداً عن الشيطان ، فتكون هذه العملية من فضل الله ورحمته .

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه مخاطباً سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم :

﴿ فَقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ۚ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٤﴾ ﴾

وحين ترى جملة فيها الفاء فاعلم أنها مسببة عن شىء قبلها ، وإذا سمعت مثلاً قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ﴾

(سورة عبس)

ومعنى ذلك أن القبر جاء بعد الموت ، فإذا وجدت « الفاء » فاعرف أن ما قبلها سبب فيما بعدها ، ويسمونها « فاء السببية » .

فما الذى كان قبل هذه الآية لتترتب عليه السببية فى قول الله سبحانه لسيدنا رسول الله : « فقاتل فى سبيل الله لا تكلف إلا نفسك » نقول : مادام الأمر جاء « فقاتل » ، فعلينا أن نبحث عن آيات القتال المتقدمة ، ألم يقل قبل هذه الآية :

﴿ فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ ﴾

(سورة النساء)

والآية الثانية :

﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ ﴾

(من الآية ٧٥ سورة النساء)

إذن أمر القتال موجود من الله لمن ؟ لرسول الله ، والرسول يبلغ هذا الأمر للمؤمنين به ، والرسول يسمعه من الله مرة واحدة ؛ لذلك فإنّه صلى الله عليه وسلم أول من يصدق أمر الله فى قوله : « فليقاتل فى سبيل الله » . ثم ينقلها إلى المؤمنين ، فمن آمن فهو مصدق لرسول الله فى هذا الأمر . فالرسول هو أول منفعل بالقرآن فإذا قال الحق :

﴿ فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴾

(من الآية ٧٤ سورة النساء)

أو عندما يقول له الحق :

﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ٧٥ سورة النساء)

ومادام الرسول صلى الله عليه وسلم هو أول منفعل بأوامر الله ، فإذا جاءه الأمر فعليه أن يلزم نفسه أولاً به ، وإن لم يستمع إليه أحد وإن لم يؤمن به أحد أو لم يتبعه أحد ، وهذا دليل على أنه واثق من الذى قاله له : « ومالكم لا تقاتلون فى سبيل الله » ومادام صلى الله عليه وسلم هو أول منفعل فعليه أولاً نفسه ؛ لأنه صلى الله

عليه وسلم بإقباله على القتال وحده ، إنما يدل مَن سمع القرآن على أن الرسول الذى نزل عليه هذا القرآن ، أول مصدق ، ومحمد لن يغش نفسه . فقبل أن يأمر المؤمنين أن يقاتلوا ، يقاتل هو وحده . ولذلك نجد أن سيدنا أبا بكر الصديق ـ رضوان الله عليه ـ حينما انتقل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى وحدثت الردة من بعض العرب ، وأصرّ خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن يقاتل المرتدين وقال : لو منعونى عقال بعير كانوا يؤدونه لرسول الله صلى الله عليه وسلم لجالدتهم عليه بالسيف . وحاول بعض الصحابة أن يثنى أبا بكر الصديق عن عزمه فقال : والله لو عصت يمينى أن تقاتلهم لقاتلتهم بشمالى .

إذن فقول الله لرسوله صلى الله عليه وسلم : « فقاتل فى سبيل الله » ينبهنا إلى أن هناك فرقاً بين البلاغ وبين تنفيذ المبلَّغ . ومادام الرسول صلى الله عليه وسلم قد سمع من الله ، فهو ملزم بتطبيق الفعل أولاً ، وبعد ذلك يبلغ الرسولُ المؤمنين ، فمن استمع إليه فعل فعله .

وقول الحق : « لا تكلف إلا نفسك » هو تكليف بالفعل لا بالبلاغ فقط ، فالرسول يبلغ ، لكن أن يفعل المؤمنون ما بلغهم به عن الله أو لا يفعلوا فهذا ليس من شأنه ولا هو مكلف به . ولكن على الرسول أن يلزم ويكلف نفسه ليقاتل فى سبيل الله . « فقاتل فى سبيل الله لا تكلف إلا نفسك » .

أمعنى ذلك أن يترك الرسول الذين آمنوا به لنفوسهم ؟ . لا.فالحق قد أوضح : عليك أيضاً أن تحرضهم على القتال فلا تتركهم لنفوسهم : « وحرض المؤمنين عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا » ومعنى « حرض » مأخوذ من « الحُرْض » وهو ما به إزالة العوائق وما ينظف الأيدى والملابس مما يرين عليها ويعلوها من الوسخ والدنس ، فعليك يا رسول الله أن تنظر فى أمر صحابتك وأتباعك وتعرف لماذا لا يريدون أن يقاتلوا ، وعليك أن تنفض عنهم الموانع وتزيل العوائق التى تمنعهم أن يقاتلوا .

« وحرض المؤمنين عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا » ، وكأن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يقول لرسوله : إنك لا تنصر بالكثرة المؤمنة بك ، ولكن المؤمنين هم

ستر ليد الله فى النصر ، فالنصر منه سبحانه :

﴿ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ١٢٦ سورة آل عمران)

وورود كلمة « بأس » فى الآية التى نحن بصددها ، يراد بها القوة والشدة فى الحرب ، ويراد بها المكيدة ، ويراد بها هزيمة الأعداء . فكلمة « بأس » فيها معانٍ متعددة . والحق يبلغ رسوله : إنك يا محمد لا تكلف إلا نفسك وإياك أن يخطر على بشريتك : كيف أقاتل هؤلاء وحدى فإن القوم المؤمنين معك وإذا ما دخلوا القتال فهم لا ينصرونك ولكنهم يسترون يد الله فى النصر :

﴿ قَـٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ ﴾

(من الآية ١٤ سورة التوبة)

ولماذا لا ينصر الله المؤمنين والرسول مباشرة دون قتال لغيرهم من الكفار والمشركين ؟ . لأن النصر لو جاء بسبب غيبى من الحق ربما قالوا ظاهرة طبيعية قد نشأت . . ولكن الحق يريد أن يظهر أن القلة المؤمنة هى التى غلبت ، فالمؤمن يقبل على الأسباب ولا ينسى المسبب ، فحينما نظر المسلمون إلى الأسباب فقط فى « حنين » ، وقال بعضهم : لن نهزم عن قلة فنحن كثير ، هنا ذاق المسلمون طعم الهزيمة أولاً ، وبعد أن أعطاهم الحقُّ الدرس التأديبى أولاً . . نصرهم ثانياً . والحق يقول :

﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا ﴾

(من الآية ٢٥ سورة التوبة)

وهذا لفت للمؤمنين أن يكونوا مع الأسباب ويتذكروا المسبب دائماً ؛ لأن الأسباب إنما تأتى فقط لإثبات أن الله مع المؤمنين فلو أن المؤمنين انتصروا بأى سبب غيبى آخر لقال الأعداء : إن هذا الذى حدث هو ناتج ظاهرة طبيعية . والفرق بين الظاهرة الطبيعية والظاهرة المادية فى الخصوم ما حدث لسيدنا إبراهيم عليه السلام . فلم يرد الحق مجرد إنقاذ سيدنا إبراهيم من النار ؛ لأن الأمر لو كان كذلك لما مَكَّن أعداء إبراهيم عليه السلام من القبض عليه . . ولو فعل الحق ذلك لقال أعداء سيدنا

إبراهيم : آه لو كنا قد أمسكنا به ، ولكان ذلك فرصة لكفرهم .

ولكن الحق يجعلهم يمسكون بإبراهيم عليه السلام : وَتَرَكَ النارَ تتأجج ، ويقطع سبحانه الأسباب :

﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ ﴾

(سورة الأنبياء)

هذه هى النكاية ، فلو جاء إنقاذ إبراهيم بطريق غير ذلك من الأمور الغَيبية غير المادية المحسة ، لوجد خصوم إبراهيم المخارج لتبرير هزيمتهم .

ولذلك فالحق سبحانه وتعالى يوضح لرسوله : يا محمد أنا الذى أرسلتك ، ولم أكِلَك إلى نصرة من يؤمن بك ، وإننى قادر على نصرك وحدك بدون شىء ، ولكن أردت لأمتك التى آمنت بك أن ينالها يُمْنُ الإيمان بك فيستشهد بعضها ، فتثاب الأمة ، وتنتصر فتعلو وترتفع هامتها على العرب ، فلو كان الأمر مقصوراً على نصر رسول الله لنصره الله دون حرب أو جهاد .

وقول الحق سبحانه : « عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا والله أشد بأساً وأشد تنكيلاً » أى أنه سبحانه قادر على أن يوقف ويمنع حرب وكيد الكافرين فيُبطله ويهزمهم . وهذا ما حدث ، فبعد موقعة « أحد » التى ماعت نهايتها ولا يستطيع أحد أن يحدد مَن المنتصر فيها ومن المهزوم ؛ لأن رسول الله قد انتصر أولاً ، ثم خالف الرماة أمر رسول الله ، فحدث خلل فى صفوف المقاتلين المسلمين ، ولكن لم يبق المحاربون من قريش فى مكان المعركة ، وأيضا لم يتجاوزوها إلى داخل المدينة ، ولذلك لم تنته معركة أُحُد بنصر أَحَد . وبعد ذلك هددوا بأن الميعاد فى بدر الصغرى فى العام القادم .

ومر العام ، وجاء الميعاد ، وأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يخرج ، فلما طالب بالخروج وجد كسلاً من القوم ، ولم يطعه إلا سبعون رجلاً ، وخرجوا إلى المكان المحدد . وأثبتوا أنهم لم يخافوا الموقف ، وقذف الله الرعب فى قلب أبى سفيان وقومه فلم يخرجوا . إذن فربنا قادر أن يكف بأس الذين كفروا ، فقد أقام رسول الله

فى المكان ، وجلس مع المقاتلين وكان معهم تجارة وباعوها وغنم المسلمون الكثير من هذه التجارة .

« عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا والله أشد بأساً وأشد تنكيلاً » وكلمة « عسى » فى اللغة تأخذ أوضاعاً متعددة ، فـ « عسى » معناها فى اللغة الرجاء ، كقول واحد : عسى أن يجىء فلان . أى : أرجو أن يجىء فلان . أو قول واحد مخاطباً صاحباً له : عسى أن يأتيك فلان بخير . وهذا رجاء أن يأتى فلان إلى فلان ببعض الخير ، وقد يأتى فلان بالخير وقد لا يأتى ، لكن الرجاء قد حدث .

وقد يقول واحد لصاحبه : عسى أن آتيك أنا بخير . هنا يكون الرجاء أكثر قوة ؛ لأن الرجاء فى الأولى فى يد واحد آخر غير المتحدث ، أما الخير هنا فهو فى يد المتحدث . لكن أيضمن المتحدث أن توجد له القوة والوجود حتى يأتى بالخير لمن يتحدث إليه ؟.

إنه صحيح ينوى ذلك ولكنه لا يضمن أن توجد عنده القدرة .

وإذا قال قائل : عسى الله أن يأتيك بالفرج . هذه هى الأوغل فى الرجاء . لكن هل من يقول ذلك واثق من أن الله يجيب هذا الرجاء ؟. قد يجيب الله وقد لا يجيب وفقاً لإرادة الله لا لمعايير من يرجو أو المرجو له . أما عندما يقول الحق عن نفسه : « عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا » فهذا هو القول البالغ لنهايات كل الرجاءات . فـ « عسى » بمراحلها المختلفة تبلغ قمتها عندما يقول الحق ذلك .

وهكذا نرى مراحل « عسى » . أن يقول قائل : عسى أن يفعل لك فلان خيراً . هذه مرحلة أولى فى الرجاء ، وأن يقول قائل : عسى أن آتيك أنا بخير . هذه مرحلة أقوى فى الرجاء ، فقد يحب الإنسان أن يأتى بالخير لكن قد تأتى له ظروف تعوقه عن ذلك . وأن يقول قائل : عسى الله أن يفعل كذا ، هذه مرحلة أكثر قوة ؛ لأن الخير فيها منسوب إلى القوة العليا ، لكن هذا الرجاء قد يجيبه الله وقد لا يجيبه .

والأقوى على الإطلاق هو أن يقول الله عن نفسه : « عسى الله أن يكف بأس

الذين كفروا » و« عسى » بالنسبة لله رجاء محقق لأنه إطماع من الله عز وجل،والإطماع منه واجب تحققه لأنه ـ سبحانه ـ هو الذى يحثنا ويدفعنا إلى الطمع فى فضله لأنه كريم ، وهو القائل سبحانه : « عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا والله أشد بأساً وأشد تنكيلاً » لأن أصحاب البأس من الخلق هم أهل أغيار ، فالقوى منهم قد يضعف أو يصاب ببعض من الرعب فتخلخل عظامه . أما واهب الفعل وواهب القوى لخلقه فهو القادر على أن يفعل فهو الأشد بأساً وهو سبحانه أشد تنكيلاً .

وساعة يسمع الإنسان أى شىء من مادة « نكل » فعليه أن يعرف أنها مأخوذة من « النِكْل » وهو القيد . وعندما يوقع الحاكم ـ مثلا ـ العذاب على مرتكب لجريمة ، والشخص الذى يرى هذا العذاب يخاف من ارتكاب مثل هذه الجريمة ، فكأن الحاكم قد قيدهم بالعذاب الذى أنزله بأول مجرم أن يفعلوا مثل فعله . ولذلك يقال على ألسنة الحكام : سأجعل من فلان نَكالاً . أى أن القائل سيعذب فلاناً ، بحيث يكون عبرة لمن يراه فلا يرتكب جريمة مثلها أبداً خوفا من أن تنزل به العقوبة التى نزلت ولحقت بمن فعل الجريمة .

إذن فالتنكيل والنكال والنِكل كلها راجعة إلى القيد الذى يمنع إنساناً أن يتحرك نحو الجريمة ، أو قيد يمنع الإنسان أن يرجع إلى الجريمة التى فعلها أولاً ، أو أن هذا القيد وهو العذاب الذى عوقب به مرتكب الجريمة يكون ماثلا أمام الناس يحذرهم من الوقوع فيها كى لا تنالهم عقوبتها ونكالها .

إن الحق سبحانه وتعالى حين خلق الخلق ووزع عليهم فضل المواهب فلا يوجد واحد قد جمع كل المواهب ؛ لأن فكر الإنسان وطاقته وزمنه وظروفه شاء الله أن تختلف وشاء سبحانه ألا يجعل الإنسان موهوباً فى كل مجال ، وحين يوزع الله على كل عبد جزءًا من المواهب ويعطى العبد الآخر جزءا آخر حتى يتكامل العباد معاً . فلو أن صاحب موهبة تجمعت لديه مواهب الآخرين لاستغنى كل إنسان عن مواهب الآخرين ، والله يريد منا مجتمعاً متسانداً متكافلاً متكاملاً ، فما أفقده أنا أجده عند غيرى . فتجد بارعاً فى الهندسة وعندما يصاب هذا المهندس البارع بألم فهو يطلب طبيبا ، والطبيب الذى يريد بناء عيادة يطلبها من المهندس . وكلاهما يطلب مشورة المحامى فى كتابة العقود ، وكل هؤلاء فى حاجة إلى من يقيم البناء ، والذين يقيمون

البناء من مهن متعددة أخرى يحتاج بعضهم إلى بعض .

إذن لا يوجد فرد واحد قادر على أن يقوم بكل هذه العمليات بمفرده ، ولو أن هناك واحداً يستطيع كل ذلك لما احتاج إلى أحد ، ولو حدث ذلك لكان التفكك فى المجتمع . ولذلك جاء قول الحق :

﴿ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ﴾

(من الآية ٣٢ سورة الزخرف)

والناس حين تنظر لتفضيل الله لبعض الناس على بعض درجات ينظرون إلى ذلك فى مجال المال فقط . . ونقول لمن يظن ذلك : ـ أنت مخطئ ، فإن فضلك الله فى القوة والجسم فهذه رفعة ، وإن فضلك فى العلم فذلك رفعة أيضاً ، وإن فضلك فى الحلم فهذه رفعة ، إن تفضيل الحق لك فى أى مجال هو رفعة لك ، فأنت كعبد تكون مفضلاً ؛ ومفضلاً عليك .

إذن فحين يقول الحق : « ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات » . قد يسأل إنسان : أى بعض مرفوع وأى بعض مرفوع عليه ؟. ونقول : كل واحد مرفوع بموهبته ، وغيره مرفوع عليه بموهبته .

ومن القصور أن ننظر إلى التفضيل فى مجال المال فقط ، فلا يصح أن ننظر إلى هذه الزاوية وحدها ولكن لننظر من كل الزوايا . وعندما ننظر فى الزوايا جميعها نجد الفرد مرفوعاً فى شىء ، ومرفوعاً عليه فى أشياء ، وكل منا مسخر لغيره . إذن فعندما خلق الله العباد جعل كُلًّا منهم مسخراً للآخر ، ومادام الأمر كذلك ، فيجب ألا يُترك الفرد فى البيئة الإيمانية فذاً ، بل على كل ذى موهبة يفقدها غيره أن يمده بهذه الموهبة . فبعد أن كان فذاً ـ أى فرداً ـ يصير شَفْعاً . والشَّفْعُ ـ كما نعلم ـ هو ضم شىء إلى مثله ، فما ضم إلى غيره ليصيرا زوجا فهو شَفْع بخلاف الوتر فإنه الواحد .

فإذا كان الواحد منا موهوباً فليضم موهبته للثانى ، حتى يصبح الاثنان شَفْعاً ، وبذلك ينطبق عليه قول الحق :

﴿ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾ ﴾

وما هى الشفاعة الحسنة ؟ الذين من الريف يعرفون مسألة « الشُّفْعَة » فى العرف . فيقال : فلان أخذ هذه الأرض بالشفعة . أى أنه بعد أن كان يملك قطعة واحدة من الأرض ، اشترى قطعة الأرض المجاورة لتنضم لأرضه ، فبدلاً من أن تكون له أرض واحدة صارت له أرضان .

وعندما يأتى واحد لشراء أرض ما ، فالجار صاحب الأرض المجاورة يقول : أنا أدخل بالشفعة ، أى أنه الأولى بملكية الأرض . إذن فمعنى يشفع ، هو من يقوم بتعدية أثر الموهبة منه إلى غيره من إخوانه المؤمنين ولهذا فإنه يكون له نصيب منها .

فالشفاعة الحسنة هى التوسط بالقول فى وصول إنسان إلى منفعة دنيوية أو أخروية أو إلى الخلاص من مضرّة وتكون بلا مقابل . إذن فكل واحد عنده موهبة عليه أن يضم نفسه لغير الموهوب ، فبعد أن كان فرداً فى ذاته صار شفعاً . ولذلك يقال : فلان سيشفع لى عند فلان ، أى أنه سيضم صوته لصوت المستعين به . والحق سبحانه وتعالى فيما يرويه سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الله قال لسيدنا داود : إن الرجل ليعمل العمل الواحد أحكّمه به فى الجنة .

أى أن رجلا واحداً يؤدى عملا ما ، فيعطيه الله فضلاً بأن يقوم بتوزيع الأماكن على الأفراد فى الجنة ، وكأنه وكيل فى الجنة ، أى أنه لا يأخذ منزلا له فقط ، ولكنه يتصرف فى إعطاء المنازل أيضاً ، فتساءل داود : يارب ومن ذلك ؟ قال سبحانه : مؤمن يسعى فى حاجة أخيه يحب أن يقضيها قضيت أو لم تقض .

قال صلى الله عليه وسلم : « من مشى فى حاجة أخيه وبلغ فيها كان خيرا له من

اعتكافه عشر سنين ، ومن اعتكف يوما ابتغاء وجه الله تعالى جعل الله بينه وبين النار ثلاثة خنادق أبعد مما بين الخافقين »[١] .

ذلك لأن العبد الذى سعى فى قضاء حاجة أخيه يكون قد أدى حق نعمة الله فيما تفضل به عليه ، ويكون من أثر ذلك أنه لا يسخط أو يحقد غير الواجد للموهبة على ذى الموهبة . وبذلك فسبحانه يزيل الحقد من نفس غير الموهوب على ذى الموهبة ؛ فغير الموهوب يقول : إن موهبة فلان تنفعنى أنا كذلك ، فيحبّ بقاءها عنده ونماءها لديه .

ويقول الحق : « من يشفع شفاعة حسنة يكون له نصيب منها » ثم يأتى الحق بالمقابل ، فهو سبحانه لا يشرع للأخيار فقط ، ولكنه يضع الترغيب للأخيار ويضع الترهيب للأشرار ، فيقول : « ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها » .

ولنر المخالفة والفارق بين كلمة « النصيب » وكلمة « الكفل » . كلمة « النصيب » تأتى بمعنى الخير كثيرا . فعندما يقول واحد : أنت لك فى مالى نصيب . هذا القول يصلح لأى نسبة من المال . أما كلمة « كفل » فهى جزء على قدر السيئة فقط . وهذا هو فضل من الله ، فمن جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ، وهذا نصيب كبير . ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها .

وهذه الآية قد جاءت بعد تحريض الرسول للمؤمنين على القتال ، أى أنك يا رسول الله مُطالب بأن تضم لك أناساً يقاتلون معك ؛ فتلك شفاعة حسنة سوف ينالون منها نصيباً كبيرا وثوابا جزيلا .

أما قول الحق : « ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها » أى يكون له جزء منها ، أى يصيبه شؤم السيئة ، أما الجزاء الكبير على الحسنة فيدفع إلى إشاعة مواهب الناس لكل الناس . ومادامت مواهب الناس مشاعة لكل الناس فالمجتمع يكون متسانداً لا متعانداً ، ويصير الكل متعاوناً صافى القلب ، فساعة يرى واحد النعمة عند أخيه يقول : « سيأتى يوم يسعى لى فيه خير هذه النعمة » .

---

(١) رواه البيهقى .

ولذلك قلنا : إن الذى يحب أن تسرع إليه نعم غيره فليحب النعم عند أصحابها . فإنك أيها المؤمن إن أحببت نعمة عند صاحبها جاءك خيرها وأنت جالس . وإذا ما حُرمت من آثار نعمة وهبها الله لغيرك عليك فراجع قلبك فى مسألة حبك للنعمة عنده ، فقد تجد نفسك مصاباً بشىء من الغيرة منها أو كارهاً للنعمة عنده ، فتصير النعمة وكأنها فى غيرة على صاحبها ، وتقول للكاره لها : « إنك لن تقربنى ولن تنال خيرى » .

ويختم الحق الآية : « وكان الله على كل شىء مُقيتاً » جاء هذا القول بعد الشفاعة الحسنة والشفاعة السيئة ، وفى ذلك تنبيه لكل العباد : إياكم أن يظن أحدكم أن هناك شيئاً مهما صغر يفلت من حساب الله ، فلا فى الحسنة سيفلت شىء ، ولا فى السيئة سيضيع شىء . وأخذت كلمة « مُقيتاً » من العلماء أبحاثاً مستفيضة . فعالم قال فى معناها : إن الحق شهيد ، وقال آخر : « إن الحق حسيب » ، وقال ثالث : إن « مقيتاً » معناها « مانح القوت » ورابع قال : « إنه حفيظ » وخامس قال : « إنه رقيب » .

ونقول لهم جميعاً : لا داعى للخلاف فى هذه المسألة ، فهناك فرق بين تفسير اللفظ بلازم من لوازمه وقد تتعدد اللوازم ، فكل معنى من هذه المعانى قد يكون صحيحاً ، ولكن المعنى الجامع هو الذى يكون من مادة الكلمة ذاتها . و« مُقيت » من « قاته » أى أعطاه القوت ، ولماذا يعطيهم القوت ؟ ليحافظ على حياتهم ، فهو مقيت بمعنى أنه يعطيهم ما يحفظ حياتهم ، ومعناها أيضاً : المحافظ عليهم فهو الحفيظ . وبما أنه سبحانه يعطى القوت ليظل الإنسان حياً ، فهو مشاهد له فلا يغيب المخلوق عن خالقه لحظة ، وبما أنه يعطى القوت للإنسان على قدر حاجته فهو حسيب . وبما أنه يرقب سلوك الإنسان فهو يجازيه .

إذن كل هذه المعانى متداخلة ومتلازمة ؛ لذلك لا نقول اختلف العلماء فى هذا المعنى ، ولكن لنقل إن كل عالم لاحظ ملحظاً فى الكلمة ، فالذى لاحظ القوت الأصلى على صواب ، فلا يعطى القوت الأصلى إلا المراقب لعباده دائماً ، فهو شهيد ، ولا يعطى أحداً قوتاً إلا إذا كان قائماً على شأنه فهو حسيب . وسبحانه لا يُقيت

الإنسان فقط ولكن يقيت كل خلقه ، فهو يقيت الحيوان ويلهمه أن يأكل صنفاً معيناً من الطعام ولا يأكل الصنف الآخر .

إننا إذا رأينا العلماء ينظرون إلى « مقيت » من زوايا مختلفة فهم جميعا على صواب ، سواء من جعلها من القوت أو من الحفظ أو من القدرة أو من المشاهدة أو من الحساب ، وكل واحد إنما نظر إلى لازم من لوازم كلمة « مقيت » وسبحانه يقيت كل شيء ، فهو يقيت الإنسان والحيوان والجماد والنبات .

ونجد علماء النبات يشرحون ذلك ؛ فنحن نزرع النبات ، وتمتص جذور النبات العناصر الغذائية من الأرض ، وقبل أن يصبح للنبات جذورٌ ، فهو يأخذ غذاءه من فلقتى الحبة التى تضم الغذاء إلى أن ينبت لها جذر ، وبعد أن يكبر جذر النبات فالفلقتان تصيران إلى ورقتين ، وسبحانه على كل شيء مقيت ، ويقول العلماء من بعد ذلك : إن الغذاء قد امتصه النبات بخاصية الأنابيب الشعرية . أى أن النبات يمتص الغذاء من التربة بواسطة الجذور الرفيعة التى تمتص الماء المذاب فيه عناصر الغذاء . وفتحة الأنبوبة فى الأنابيب الشعرية لا تسع إلا مقدار الشعرة ، وعندما توضع فى الإناء فالسائل يصعد فيها ويرتفع الماء عن مستوى الحوض ، وعندنا تتوازى ضغوط الهواء على مستويات الماء فالماء لا يصعد .

ومثال ذلك : عندما نأتى بماء ملون ونضعه فى إناء ، ونضع فى الإناء الأنابيب الشعرية، فالسائل الملون يصعد إلى الأنابيب الشعرية، ولا تأخذ أنبوبة مادة من السائل، وتترك مادة بل كل الأنابيب تأخذ المادة نفسها . لكن شعيرات النبات تأخذ من الأرض الشيء الصالح لها وتترك الشيء غير الصالح . وهو ما يقول عنه علماء النبات « ذلك هو الانتخاب الطبيعى » . ومعنى الانتخاب هو الاختيار ، والاختيار يقتضى عقلاً يفكر ويرجح ، والنبات لا عقل له ، ولذلك كان يجب أن يقولوا إنه « الانتخاب الإلهى » ، فالطبيعة لا عقل لها ولكن يديرها حكيم له مطلق العلم والحكمة والقيومية .

وسبحانه يقول عن ذلك :

﴿ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾

(من الآية ٤ سورة الرعد)

فالفلفل يأخذ المادة المناسبة للحريفية ، والقصب يأخذ المادة التى تصنع حلاوته ، والرمان يأخذ المادة الحمضية . هذا هو الانتخاب الإلهى .

« وكان الله على كل شىء مُقيتاً » وساعة تسمع « كان الله » فإياك أن تتصور أن لـ « كان » هنا ملحظاً فى الزمن ، فعندما نقول بالنسبة للبشر « كان زيد غنياً » فزيد من الأغيار وقد يذهب ثراؤه . لكن عندما نقول « كان الله » فإننا نقول « كان الله ومازال » ، لأن الذى كان ويتغير هو من تدركه الأغيار . وسبحانه هو الذى يُغَيِّر ولا يَتَغَيَّر ، وموجود منذ الأزل وإلى الأبد . وحين أوضح لنا سبحانه الشفاعة وأمرنا أن يعدى الواحد منا مواهبه إلى غيره فذلك حتى تتساند قدرات المجتمع لأنه يربب الفائدة للعبد المؤمن ويربيها للجميع .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾ ﴾

الحق هنا يريد أن يربب معنى الحياة . فما معنى : « حُييتم » ؟ الكلام السطحى الأولى فيها : إذا حياك واحد وقال لك : « السلام عليكم » فعليك أن ترد السلام . وكان العرب قديماً يقولون : حياك الله . وبعد أن جاء الإسلام جعل التحية فى اللقاء هى السلام :

﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة الأحزاب)

أو كما قال الحق فى موقع آخر :

﴿ فَسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ٦١ سورة النور)

ولنفهم معنى كلمة « حياك » . مادة الكلمة هى « الحاء » ، و« الياءان » ، ومنها كلمة « حياة » ، التى منها حياتنا . والحياة إذا نظرنا إليها قد تأخذ معنًى سطحياً عند الناس وهو ما نشأ عنه الحس الحركى وهى أول ظاهرة فينا ، وبعد ذلك فى الحيوان ، وإن ارتقيت فى الفهم تجد أن كلمة « الحياة » تنتظم كل أجناس الوجود حتى الجماد ، لكن الإنسان لا يتعرف إلى الحياة إلا فى المظهر الحسى والحركى ، ولكن لكل كائن حياة تناسبه .

وعندما كانوا يعلموننا فى المدارس علم المغناطيسية كنا نرى تجربة المغناطيس ونأتى بقضيب مغناطيسى ، ثم نأتى ببرادة الحديد ، ونسير به فى اتجاه واحد وذلك حتى نرتب الجزئيات ترتيباً يتناسب مع اتجاه المغناطيسية فى القضيب الحديدى . هذا القضيب الذى نراه مادة جامدة فى نظرنا ، ولكن توجد فيها ذرات دون إدراك الإنسان تتكيف بحركة خاصة بها ، ويُعاد ترتيب السالب منها والموجب ولا توجد قدرة عند المشاهد لها كى يدرك حركتها .

وحتى يقربها المدرسون إلى ذهن التلاميذ ، جاءوا بأنبوبة زجاجية ووضعوا فيها برادة الحديد وجاءوا بالقضيب الممغنط ومرّروه بجانب البرادة ، فرأى التلاميذ البرادة وهى تتقافز إلى أن تستقر ، وهنا يتعلم التلاميذ أن برادة الحديد غير الممغنطة عندما يمر عليها القضيب الممغنط فى اتجاه واحد فذراتها تترتب على أساس واضح ، حتى تصير ممغنطة .

وهذا دليل الحس ؛ فقد انقلبت السوالب فى جهة والموجبات فى جهة . . فالقضيب المغناطيسى له حركة ولكننا لا ندرك حسه ولا حركته لأننا لا نملك المقاييس اللازمة لذلك .

ومثال آخر : لنفترض أننا نتحرك وجاءت طائرة من أعلانا والتقطت صورة لنا .

وعندما يأخذون الصورة من قريب ، فهم يرون الحركة ، لكن كلما ابتعدت الطائرة فنحن لا نرى الحركة حتى تصير نقطة بعيدة وكأنها ثابتة . وهى ليست ثابتة ، وإنما هى متحركة بصورة دقيقة جداً لدرجة أنها لا تُدرك . فكل شىء - إذن - فيه حياة خاصة تناسبه ، وكل شىء له الحس والحركة الخاصة به . وعندما نأتى للقرآن ، نرى كيف عالج هذه القضية فيقول :

﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾

(من الآية ٨٨ سورة القصص)

استثنى القول وجه الله . أى ذاته ، فكل شىء ما عداه هالك .

ومعنى « هالك » أى ليس فيه حياة ، ومادام كل شىء يهلك فهذا دليل أن فى كل شىء حياة ، حتّى يأتى الإذن من الحق أن تذهب الحياة من كل شىء إلا وجهه سبحانه ، وقد يتساءل إنسان ومن الذى قال : إن كلمة « هالك » تعنى ليس فيه حياة ؟ . نقول : إن القرآن حين يتعرض لقضية لا يقسم العلوم إلى أبواب ولكنه يضع فى كل آية جزئية تشرح لنا ما خفى علينا فى جزئية أخرى كى نفهم أن القرآن متكامل ، فيقول الحق :

﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ﴾

(من الآية ٤٢ سورةالأنفال)

فيكون الهلاك ضد الحياة .

ونحن إذا ما نظرنا إلى الصناعات التى نصنعها ، وليكن البلاستيك مثلاً ، إننا نصنع منه أوانى للغسيل أو لخلافه ، وأول ما نشتريه للاستعمال نجده زاهى اللون ، وبعد استعماله لفترة يزول عنه البريق ويصبح شاحب اللون ، فما الذى حدث له ؟ . لقد تغير . ما الذى أحدث التغيير ؟ . يقال : الاستعمال وأشعة الشمس وغير ذلك . إذن ففيه حس لأنه تَأَثّر وحركة لأنه تغيرّ ، وكذلك الأحجار الكريمة والمرمر والرخام وغيرها يقدرون عمرها بمئات السنين وأحياناً بآلاف السنين ، وكلما طال عمرها تغير لونها من الحياة والتفاعلات .

وعندما نمسك ورقة ونضعها تحت المجهر فإننا نرى عدداً هائلاً من الغرف الصغيرة ، ولا حصر لهذه الغرف ، ويقول المؤمن :

﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾

(من الآية ١٤ سورة المؤمنون)

فكل شيء فى الوجود له حياة تناسبه ، إذ استقريتها وتتبعتها بدقة واستطعت أن توجد الآلات التى تستنبط والتى تساعد على الإدراك فإنك ترى الحركة وتشاهدها بالحس .

إلا أن الحياة بالنسبة لأرقى الأجناس ـ وهو الإنسان ـ المنتفع بكل كائن حى فى الكون ، هذه حياة تنتهى فى ميعاد مجهول بالنسبة للإنسان معلوم بالنسبة لله . وأراد الله أن يكلفه تكليفاً إن استمع إليه ونفذه فهو سبحانه يعطيه حياة لا تنتهى . وعندما نقيس الحياة التى لا تنتهى بالحياة التى تنتهى ، فأى منهما جديرة بأن تسمى حياة ؟ . إنها الحياة الأخرى التى لا تنتهى ، ولذلك يقول الحق :

﴿ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾

(من الآية ٦٤ سورة العنكبوت)

هذه هى الحياة الحقة ، وإلا فما قيمة هذه الحياة الدنيا التى تهددك فيها الآفات والآلام والاضطرابات والأسقام والأمراض ، وبعد ذلك تنتهى ، فيوضح الحق : خذ حياة لا مقطوعة ولا ممنوعة ، فهذه هى الحياة حقاً ، ولذلك فالحق عندما تعرض لهذه المسألة أوضح : إياكم أن تعتقدوا أن هذه الحياة الدنيا هى التى أريدها لكم ، أنا أريد لكم حياة أخلد من هذه ، ولذلك قال :

﴿ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة الأنفال)

هو يخاطبهم إذن فهم أحياء بالقانون المتعارف عليه ، وأنهم إن لم يستجيبوا إلى ما دعاهم إليه الحق والرسول لن يأخذوا لوناً أرقى من الحياة ، وهى حياة لا تهددها الآفات ولا الأثقال ولا الأمراض ولا الفناء ، إنها الحياة الحقة ، ولذلك يسميها الحق

« الروح » لأنها تحرك الجسم وتعطيه حياة وإن كانت تنتهى فيقول :

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾

(من الآية ٧٢ سورة ص)

هذه أولى مراحل الحياة الممنوحة للمؤمن والكافر .

ويسمى سبحانه الحياة الأكبر منها والتى لا تنتهى يسميها الحق (روحاً) أيضاً :

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾

(من الآية٥٢ سورة الشورى)

وهذه هى التى سوف تعطى الحياة الأرقى . الأولى اسمها « روح » تعطى حياة فانية . والثانية هى « روح » أيضاً ، إنها ما أوحى الله به ، لأن الناس إذا عملوا به يحيون حياة دائمة خالية من الشقاء والكدر . إذن فقوله : « إذا دعاكم لما يحييكم » هى دعوة إلى الحياة الخالدة ، والحياة الأبدية السعيدة فى الآخرة مرهونة بأن يلتزم الإنسان منهج الله فى حياته ، وإن كانت منتهية .

والحياة الدنيا يرى الإنسان فيها الأغيار والأسقام والمهيجات ، فإذا جاء له من يطمئنه ومن ينفى عنه القلق والخوف فكأنه يحسن حياته . وكلمة « حياك الله » أو « السلام عليكم » تعنى : « كن آمناً مطمئناً » وإلا فما قيمة الحياة بدون أمن واطمئنان ؟ .

إذن فكلمة « حياك الله » أو « السلام عليكم » أى الأمان والاطمئنان لك . فأنت لا تعرف هل يجىء القادم إليك بخير أو بشر ، لكن ساعة يقول : السلام عليكم ، فقد يجعل بهذه التحية الأمان فى قلب المتلقى به ويشعر بقيمة حياته .

إذن فقوله الحق : « وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها » يعنى : إذا ربيتم حياتكم بالتحية التى هى السلام والتى تضمن الأمن والاطمئنان عليكم رد التحية . فكلمة « تحية » إعطاء لقيمة الحياة ، وكذلك كلمة « حيوا » أى أعط من أمامك شيئاً من الحياة المستقرة الآمنة المطمئنة . فالحياة بدون أمن وبدون اطمئنان ، كلا حياة .

والشاعر العربى يقول :

ليس من مات فاستراح بمَيْت إنما المَيْت ميّت الأحياء

فقول الحق : « وإذا حييتم » أى أنه إذا ربيتم حياتكم وبوركتم بالأمن وبالسلام « فحيوا بأحسن منها أو ردوها » أى عليكم أن تردوها إما بالتحية مثلها وإما بأفضل منها . والعلماء عندما جاءوا ليتكلموا عن هذا ، قصروا المسألة على تحيات اللقاء . فمن قال لك : السلام عليكم ، فقل له : وعليكم السلام ورحمة الله . أى أنك تزيد عليه .

عن سلمان الفارسى قال : جاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : السلام عليك يا رسول الله ، فقال : وعليك السلام ورحمة الله ، ثم جاء آخر فقال : السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : وعليك السلام ورحمة الله وبركاته ، ثم جاء آخر فقال : السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته ، فقال له : وعليك : فقال له الرجل : يارسول الله ـ بأبى أنت وأمى ـ أتاك فلان وفلان فسلما عليك فرددت عليهما أكثر مما رددت على ، فقال : إنك لم تدع لنا شيئا قال الله تعالى : « وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها فرددناها عليك »[1] .

وعندما تكلم العلماء فى مسألة السلام ، صنفوا لها فقالوا : الماشى يسلم على القاعد . والراكب يسلم على الماشى ، والصغير يسلم على الكبير . والمبصر يسلم على الكفيف . والقليل يسلم على الكثير . وكل خطاب موجه للمؤمنين ينتظم ويشمل ذكورهم وإناثهم إلا أن يكون الحكم مما يخص النساء .

وهنا يقول الحق : « وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها » أللنساء تحية ؟ . نعم ، لهن تحية ، المرأة تحيى المرأة ، والمرأة تحيى زوجها ، والمرأة تحيى محارمها ، والمرأة العجوز التى لا إربة فيها تبدأ التحية وتردها ، أما المرأة الشابة فهى لا تبدأ أحداً بالسلام ولا ترد السلام . لا تبدأ بالسلام إلا إذا كان معها مثلها ، لأنهم

---

(١) رواه ابن جرير .

يقولون : المرأة على المرأة عين أكثر من ألف رجل ، أى أن المرأة تحرس المرأة أكثر من ألف رجل ، فعندما تكون معها مثيلتها تحفظها ، ولذلك يقال : إن المرأة إن بدأت بالسلام أو ردت السلام فذلك حرام ، وإذا بدأها واحد بالسلام أو رد عليها السلام فذلك مكروه . لماذا؟ لأن بَدْءَها له إثارة ، ولكنه إذا بدأ هو بالسلام فليس ضرورياً أن تستجيب . فإن كان معها أحد أو جماعة تُؤمن عليها فلا حرج من أن ترد السلام .

وقالوا : وإذا كان الذى يلقى السلام ويبدأه به غير مؤمن ؟ النبى عليه الصلاة والسلام أوضح أنهم يلوون فى الكلام ، فإذا قالوا لكم : « السلام » فقولوا : وعليكم . وذلك يعنى إن قالوها كلمة طيبة لها معنى طيب فأهلاً بها وعليهم مثلها ، وإن كانت كلمة خبيثة كقولهم : « السام عليكم » فقولوا:«وعليكم » ؛ لأن السام معناها الموت ، فلكيلا يستهزئوا بكم ، قولوا : وعليكم . وبعض العلماء قال : المقصود بـ « فحيوا بأحسن منها » أى بالنسبة للمؤمن ، و« ردوها » بالنسبة للكافر .

لكن أتلك هى التحية فقط ؟ . إذا كان الذى حياك بقول وأمّنك بقول ، فكيف لا تحذر من يؤمن بالقول نفاقاً ، يظهر لك الأمن ثم يقول : السلام عليكم ، ومعه الضر ؟ . كما أن الحق علمنا أن نرد التحية بمثلها لأن نقل القضايا من قولية إلى فعلية هى المحك والأساس ، فإذا حياك إنسان بخير عنده فعلى المسلم أن يقدم التحية بخير منها ، وإن لم يستطع فليرد على الأقل بمثلها ، وعندما يرد الإنسان بمثلها يصبح التكارم بين الناس إن لم يزد فهو لم ينقص ، ويكون الخير متنامياً ، فإذا قدم إنسان خيرا لإنسان آخر ، وردّ عليه بعمل أفضل منه ، ففى ذلك نماء للخير ، وإن لم يستطع فليرد بمثل العمل وبذلك لا ينقص من خيره ، فيكون خير كل إنسان محجوزاً على نفسه ؛ لأنه مادام سيعطى التحية ويأخذ على قدر ما يعطى ، فكأنه لم ينقص من خيره شيئاً .

والحق سبحانه وتعالى حين يسخِّى النفوس فى أن تعطى أكثر مما حييت به ، فهذا يبين أن المؤمن فى البيئة الإيمانية إنما يتكاثر خيره ، لأنّه كلما فعل خصلة خير فهى تعود عليه بالخير . ولذلك فهناك أناس كثيرون إذا أرادت خيراً من أحد ، أعطته خيراً

يناسب قدرها ، ليعطى هو خيراً يناسب قدره ، وهذه تحدث كثيراً خصوصاً مع الملوك ، ومثال ذلك : كان المواطن السعودى يقول للملك عبدالعزيز آل سعود : أريد أن تشرب القهوة عندى ، ويذهب الملك عبدالعزيز آل سعود ليشرب القهوة ، ويؤدى لصاحب الدعوة خدمة تعادل القهوة مليون مرة ، فكل من يحيى الملك يرد عليه التحية بأكثر منها .

إذن فقول الحق سبحانه وتعالى : « وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها » وجاءت كلمة « أو ردوها » من أجل أن يطمئن من قدم تحية أنه سيجد رد تحيته أو أكثر منها .

والحق سبحانه وتعالى عندما يرى خلقه المؤمنين به يتكارمون ، فهو يضعها فى الحساب ؛ لذلك يقول سبحانه : « إن الله كان على كل شىء حسيباً » فالحساب لا ينتهى عند أن يرد المؤمن التحية أو يؤدى خيراً منها ، ولكن هناك جزاءً أعلى وأفضل عند مليك مقتدر .

وفى تناولنا لمسألة التحية عَلِمْنَا أن كلمة التحية وهى « السلام عليكم » معناها أمان واطمئنان ، والأمان والاطمئنان كلاهما يعطى الحياة بهجة ، فالحياة بدون أمن أو اطمئنان ليس لها قيمة . فكأن إشاعة السلام بقولنا : « السلام عليكم » أو « السلام عليكم ورحمة الله » أو « السلام عليكم ورحمة الله وبركاته » تجعل المجتمع مجتمعا صفائيا ، ومادام المجتمع كله مجتمعا صفائيا ، فخير أى واحد يكون عند الآخر . ويتعدى ذلك إلى أن يطلب المؤمن خير الله لأخيه المؤمن .

إن الإنسان حين يصعد التحية بعد قوله:« السلام عليكم » بإضافة « ورحمة الله وبركاته » فهو يربط النفس البشرية برباط إيمانى بالحق سبحانه وتعالى . وبذلك تتذكر وتعى أن الخلق عيال الله ، وسبحانه يحب أن يكون خلقه منسجمين بالعلاقات الطيبة فيما بينهم ، وعندما يكون الخلق على علاقة طيبة بعضهم مع بعض فسبحانه يعطيهم من خيره أكثر وأكثر .

« وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها إن الله كان على كل شىء حسيباً » ومن الطبيعى أن نفهم أن رد التحية يعنى أن نقول: تحية مثل التى قالها لنا، فالرد ليس

مقصوداً به أن نرد التحية نفسها ، ولكننا نقول مثلها . فالضمير مبهم ويوضحه مرجعه .

مثال ذلك أن تقول : « لقيت رجلاً فأكرمته » هنا الضمير مبهم ويوضحه مرجعه ، مثال آخر « تصدقت بدرهم ونصفه » فهل معنى ذلك أنني تصدقت بدرهم ثم استرددته وقسمته قسمين وتصدقت بنصفه ؟ لا ، إن معنى ذلك هو أنني تصدقت بدرهم ، ونصف مثل الدرهم ، فإذا قال الحق : « فحيوا بأحسن منها أو ردوها » أى ردوا التحية بأفضل منها أو بمثل التى تتلقاها ، فإذا ما قيل لك:« السلام عليكم » فقل « وعليكم السلام » .

والحق سبحانه وتعالى يبلغ المؤمنين : لا تظنوا أيها المؤمنون أنى بخلقى لكم وإعطائى لكم حرية الاختيار فى الإيمان أو فى الفعل أو فى الترك إياكم أن تظنوا أنى لا أحاسبكم بل سأجازيكم بالثواب على الطاعة وبالعقاب على المعصية ، فحين آمركم بفعل ، فمعناه أننى خلقتكم صالحين أن تفعلوا ، وحين أنهاكم عن فعل فمعناه أننى خلقتكم صالحين ألا تفعلوا .

إذن فعندما يأتى أمر ؛ فمعنى هذا أن الذى خلقنى علم أزلاً بصلاحيتى لتنفيذ هذا الفعل أو عدم تنفيذه . . أى صلاحيتى أن أطيع وأن أعصى ، إذن فهناك فعل يقول الحق للعبد فيه : « افعله » ، وفعل يقول له فيه : « لا تفعله » ، والمخالفات والمعاصى إنما تنشأ من نقل « افعل » فى مجال « لا تفعل » ، ومن نقل « لا تفعل » فى مجال « افعل » ، هذا هو معنى المعصية . والحازم لا يأخذ الاختيار الممنوح له ليحقق شهواته بوساطة هذا الاختيار ، بل لا بد أن يضع بجانب الاختيار أنه مردود إلى من أعطاه الاختيار .

وحين تعلم أيها العبد أنك مردود وراجع ومصيرك إلى من أعطاك الاختيار وأنه سوف يجازيك ، فإنك لن تنقل أمراً من مجال « لا تفعل » إلى مجال « افعل » ، أو من مجال افعل إلى مجال لا تفعل . فلو أخذت الاختيار لتريح نفسك لحظة وهى فانية ، فكيف تتعب نفسك فى الباقية ؟ فإن أردت أن تكون حازماً وعاقلاً فلا تفعل ذلك ؛ فالمؤمن يمتلك الكياسة والفطنة فلا يُقْدِمُ على مثل هذا .

راجع أصله وخرَّج أحاديثه د. أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .

وبعد ذلك يقول سبحانه :

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِۗ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾ ﴾

وهذا يعنى : أنّه لا يوجد إله آخر سيأتى ليتدخل وينهى المسائل من خلف ظهر الخالق الأعلى سبحانه . « الله لا إله إلا هو » فليس هناك إله سواى ، لا تشريع يرسم صلاح البشر إلا تشريعى وسترجعون إلىّ ، وليس هناك واحد يقول:« افعل » « ولا تفعل » ، والآخر يقول بالعكس ، إنه إله واحد ، والأمر منه بـ « افعل » هو الأمر الوحيد الصالح للإنسان . والنهى منه بـ « لا تفعل » هو النهى الوحيد الذى يجب على العاقل أن يتجنبه ، ولذلك تجده يقول :

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴿٦﴾ ﴾

(سورة الكافرون)

إنه سبحانه يوضح : ليس هناك مضارة بين دينين ، دين للكافرين ، ودين للمؤمنين ، لا ، بل هو دين ومنهج واحد صالح للإنسان هو منهج التوحيد جاءت به الرسل جميعا وختم بالإسلام الذى لا دين بعده ، ولذلك جاء بعدها مباشرة :

﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾ ﴾

(سورة النصر)

ويأتى بعد ذلك بسورة المسد :

﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا

ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾ ﴾

(سورة المسد)

أما كان أبو لهب يقدر أن يقول بعدها : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ؟ كان يقدر ، ولو قالها لشكك فى هذه الآية ، ولقالوا : إنه لن يصلى ناراً ذات لهب . إن هذا الأمر كان له فيه اختيار ، ولم يوفقه الله إلى أن يقولها ولو نفاقاً ، لماذا ؟ لأن الحق قال بعد هذه الآية مباشرة :

﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ﴾

(سورة الإخلاص)

أى فليس هناك إله آخر يرد أمره سبحانه وتعالى : « الله لا إله إلا هو ليجمعنكم إلى يوم القيامة » . وكلمة « يجمع » تعنى أنه يخرجنا مع بعضنا من قبورنا جميعا ، ويحشرنا جميعاً أمامه ، وقد تعنى « ليجمعنكم » أى ليحشرنكم من قبوركم لتلقى جزاء يوم القيامة .

لماذا جاء هذا القول ؟ جاء لكى يتفحصه العاقل ، فلا يأخذ انفلات نفسه من منهج الله إلا بملاحظة الجزاء على الانفلات من المنهج ، فلو أخذ نفسه منفلتاً عن منهج الله بدون أن يقدر الجزاء لكان أحمق وأخرق .

ولذلك قلنا : إن الذين يسرفون على أنفسهم فى المعصية لا يستحضرون أمام عيونهم الجزاء على المعصية . ولذلك يقولون : كل الجرائم إنما تتم فى غفلة صاحبها عن الجزاء ؛ فالمجرم يرتكب جريمته وهو مقدر السلامة لنفسه ، والسارق يذهب إلى السرقة وهو مقدر السلامة ، لكن لو وضع فى ذهنه أنه من الممكن أن يتم القبض عليه لما فعلها أبداً .

والحق سبحانه وتعالى يوضح : إياك يا من تريد ـ بالاختيار الذى أعطيته لك ـ الانحراف عن منهجى ألا تقدر الجزاء على هذه المخالفة . بل عليك أن تأخذها قضية واضحة ، واسأل كم ستعطيك المعصية من نفع وكم سيُعطيك الله من خير على الطاعة ، وضع الاثنين فى كفتى ميزان ؛ فالذى يعطيك الخير الأبقى افعله ، وابتعد عما لا يعطيك الخير بل إنه يوقعك فى الشقاء والشر .

« الله لا إله إلا هو ليجمعنكم إلى يوم القيامة » ويوم القيامة هو اليوم الذى قال فيه الحق :

﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦ ﴾

(سورة المطففين)

ولماذا يوم القيامة ؟ لأن آخر مظهر من مظاهر دنيا الناس أنهم حين يموتون ينامون ، وهذا ما نراه ، وبعد ذلك ندخله إلى القبر ولا نعرف كيف يأتى قائماً من نومه إلا بقول الحق : « ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه » .

أى يجب أن يكون الإيمان بيوم القيامة لاشك فيه ؛ لأنك لو قدرت أن العالم الذى خلقه الله مختاراً ، إن شاء فعل الخير وإن شاء فعل الشر ، وهو ـ سبحانه ـ زود العباد بالمنهج ، وجعل لهم الاختيار ، وأنه ـ سبحانه ـ هو القادر على الجمع يوم القيامة لو قدرت هذا لا متّ بما طلبه الله منك .

ونضرب هذا المثل لا للتشبيه ، ولكن للتقريب ـ ولله المثل الأعلى ـ الوالد يعطى ابنه جنيهاً ويقول له : اشتر ما تريد ، ولكن لاحظ أنك إن اشتريت شيئا مفيداً فسأكافئك ، وإن اشتريت شيئاً فاسداً كأوراق اللعب أو غيرها فسأعاقبك .

ساعة أعطى الوالد ابنه القوة الشرائية وقال له : انزل اشتر ما تريد ، والابن ساعة اشترى أوراق اللعب . هل هذاالشراء قد تم قهراً عن أبيه ؟ لا ، لأن الأب هو من أعطاه الاختيار ، لكن الابن فعل فعلاً غير محبوب لأبيه .

فما بالنا بالعبد عندما يعطيه الحق الاختيار ؟ ولو أراد الله الناس جميعاً على هدايةٍ لجعلهم كالملائكة ، ولما جرؤ ولا قَدَرَ أحد أن يفعل معصية . فالعاصى عندما يرتكب المعصية إنما يفعلها لأن الله خلق له الاختيار . ولذلك فعندما يقول واحد : كل فعل من الله ، هو صادق . ولماذا يتعذب مرتكب المعصية مع أنّه يوجه آلة الاختيار إلى ما تصلح له ؟ ونقول إنّه وجهها مخالفًا لأمر الله ، فالسكين للذبح ، إن ذُبحت بها دجاجة لما استحق الذابح على ذلك عقاباً ، لكن لو ذبحنا بها إنساناً لوقعنا فى محظور يشبهه الحق بقتل الناس جميعاً . فالذى جاء بالسكين إلى المنزل هل نقول له : « أنت أتيت بأداة الجريمة » ؟ لا ؛ لأنه جاء بأداة صالحة لأن تكون أداة لذبح ما يحل ذبحه أو أداة

لجريمة . إذن فحتى المختار لم يفعل اختياره إلا من باطن أن الله خلقه مختاراً .

لكن هل ألزمه الحق سبحانه وتعالى بأن يفعل المعصية ؟ لا ، فسبحانه أوضح لك : هذا لا أحبه ، وهذا أحبه . واختيارك له مجال ، ولك أن تختار الشيء الذى يأتى بالنفع ولا يأتى بالضرر أو أن تختار عكس ذلك .

« الله لا إله إلا هو ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه » هذا خبر من الله . والكلام الخبرى عندنا يحتمل الصدق والكذب لذاته ، لكن لأن الخبر من الله فهو صادق . أما الكلام فى ذاته فيحتمل الصدق ويحتمل الكذب ، ولذلك يذيل الحق الآية بما يلى : « ومن أصدق من الله حديثاً » وهل الصدق فيه تفاضل ؟ . ليس فى الصدق تفاضل ، فمعنى الصدق مطابقة الكلام للواقع ، فالإنسان قبل أن يتكلم وهو عاقل ، يدير المسألة التى يريد الكلام فيها ليُعمل العقل فيها ، وبعد هذا ينطق بالكلام .

إذن ففى الكلام نسبة ذهنية ، ونسبة كلامية ، ونسبة واقعية . فعندما يقول واحد : « زيد مجتهد » هو قبل أن يقول ذلك جاء فى ذهنه أنه مجتهد ، وهذه هى « النسبة الذهنية » ، وعندما ينطقها صاحبها تكون « نسبة كلامية » ، ولكن هل صحيح أن هناك واحداً اسمه « زيد » وأنه مجتهد ؟ . إن طابقت النسبة الواقعية كُلاً من النسبة الذهنية والنسبة الكلامية يكون الكلام صدقاً . وإن لم يكن هناك أحد اسمه زيد ولا هو « مجتهد » لا تتطابق النسبة الخارجية الواقعية مع النسبتين « الذهنية والكلامية » فيكون الكلام كذباً . فالصدق يقتضى أن تتطابق النسبة الكلامية مع الواقع ، أى مع النسبة الخارجية الحاصلة .

ولماذا يكذب الكذاب إذن ؟ . ليحقق لنفسه نفعاً يفوّته ولا يحققه الصدق فى نظره أو يدفع عنه ضرًّا . مثال ذلك : يكسر الابن شيئاً فى المنزل كمنضدة فالأب يقول لابنه : هل كسرت هذه المنضدة ؟ . وينكر الابن : لا لم أكسرها . هو يريد أن يحقق لنفسه نفعاً أو يدفع عنها ضرراً وهو الإفلات من العقاب ، لأنه يعلم أن الصدق قد يسبب له عقاباً . ولا يحمله على الكذب إلا تفويت مضرة قد تصيبه من الصدق فيلجأ إلى الكذب . ويقول كلاماً يخالف الواقع .

إذن هو يريد أن يحقق لنفسه نفعاً أو يدفع عن نفسه ضرراً . والذى ينفع الإنسان لابد أن يكون أقوى منه ، وكذلك الذى يضرّه . لكن بالنسبة لله لا يوجد من يسبب له سبحانه نفعاً أو ضراً . إذن فإذا قال الله فقوله الصدق ؛ لأن الأسباب التى تدفع إلى الكذب هو ـ سبحانه ـ منزه عنها .

وإذا كان الحق يعطينا الكلام الذى يوضح لنا واقع الحياة ويعطينا الكلام الذى لا يدخل فى واقع حياتنا ويصف لنا الغيب الذى لا يدخل فى نطاق ما نراه ، إذن فهو يكلمنا كثيراً .

فقوله الحق : « ومن أصدق من الله حديثاً » مؤكد بالنسبة لنا . وأفعل التفضيل هنا لا تأتى للتمييز بين كلام صادق وكلام أصدق ، ولكن لنعرف أن كلام الله لنا كثير . فالتكثير هنا إنما يجىء من ناحية كثرة الكلام ،لا من ناحية أن هناك كلاماً صادقاً وكلاماً أصدق .

والتفاوت قد يوجد فى الصدق أيضاً ، كيف ؟. لنفرض أن إنساناً رأى حادثة يقتل فيها إنسان إنساناً آخر ، فيشهد الشاهد بأنه رأى الدم ينزف من القتيل إثر التحام القاتل به ، ولكن هناك شاهد آخر يروى كل التفاصيل التى بدأت من قبل المشاجرة بين القاتل والقتيل إلى أن صار هناك قاتل وقتيل . وهكذا نجد أن الشاهد الثانى أشمل فى الصدق من الشاهد الأول ، صحيح أن الشاهد الأول قال شهادة صادقة ، لكن شهادة الشاهد الثانى أشمل فى القضية نفسها .

إذن فقوله الحق : « ومن أصدق من الله حديثاً » أى أن الحق هو الأصدق بمعنى أنّ إخباره لنا جاء بالشمول الكامل ، وهو صدق لا تفاوت فيه ، فالصدق هو مطابقة النسبة الكلامية للواقع ، ومادام هو كذلك فليس هناك صادق وأصدق ، ولكن أفعل التفضيل تأتى فى « أصدق » باعتبار أن كمية الصدق الصادرة لا حدود لها وأنّه سبحانه يعلم الأشياء على وفق ما هى عليه أى بشمول كامل . وخلقه إن حدث منهم صدق فى شىء فقد يحدث منهم الكذب فى شىء آخر.فقد تقول قضية تعلم أنها صدق ، ولكنها فى الواقع لا تكون صدقاً .

مثلاً ؛ فقد يقول قائل : زار فلان فلاناً بالأمس . هو اعتقد ذلك لأنه رأى حجرة الاستقبال فى بيت فلان مضاءة فسأل عن الزائر فقيل له : « فلان » فهو يروى خبر هذه الزيارة على وفق ما يعتقد ، ولا يقال : إن القائل قد كذب .

إننا يجب أن نفرق بين « الخبر » وبين « المخبر » ، كيف ؟ . إذا قلنا : « زيد مجتهد » ، أيوجد واحد اسمه زيد ومجتهد بالفعل ؟ . هذا اسمه الواقع . وهل أنت تعتقد هذا ؟ . إذن فالإنسان هنا يحتاج إلى أمرين : معرفة وجود الشىء ، واعتقاد الشىء ، وبذلك يكون الخبر صادقاً والمخبر صادقا أيضاً .

وافرض أنك أخبرت أن زيداً مجتهد بناءً على أن أحداً قد أخبرك بذلك ولكنه لم يكن كذلك ، أنت هنا صادق وفق اعتقادك . لكن الخبر غير صادق فى الواقع . إذن ففيه فرق بين صدق الخبر وصدق المخبر . فإذا التقى الاعتقاد بالواقع صدق الخبر وصدق المخبر . وإذا كان الخبر موافقاً للواقع ومخالفاً للاعتقاد فالخبر صادق كموقف المنافقين الذين قال الحق فيهم :

﴿ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ١ سورة المنافقون)

هذه القضية واقعة صادقة وأعلنوا هم ذلك ، ولكن الحق أضاف :

﴿ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَكَـٰذِبُونَ ﴾

(من الآية ١ سورة المنافقون)

فالقضية صادقة ولكنهم كاذبون ؛ لأنهم قالوها بلا اقتناع فكانوا كاذبين . والدقة هنا توضح الفرق بين صدق الخبر وكذب الاعتقاد . إذن فصدق المخبر أن يطابق الكلام الاعتقاد . والتكذيب واضح فى قولهم : « نشهد » ؛ وليس فى مقول القول وهو « إنك لرسول الله » فالشهادة تقتضى أن يواطىء ويوافق اللسان القلب .

ولذلك عندما يقرأ بعض الناس القرآن دون فهم اللغة العربية . . فيفهم بالسطحية هذه الآية فهماً خاطئاً :

﴿ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾ ﴾

(سورة المنافقون)

فكيف يشهد الله أنهم كاذبون ، على الرغم من أنه سبحانه يعلم مثلما شهد المنافقون ؟ . ونرد : إن الخبر هنا لم يكن كذباً ، ولم يقل الحق ما يكذب الخبر ، لكنه أوضح صدق الخبر وكذب المنافقين فى شهادتهم لأنهم يظهرون غير ما يبطنون ويعتقدون ، فالتكذيب منصب على شهادتهم لا على خبر أن محمداً رسول الله .

« الله لا إله إلا هو ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ومن أصدق من الله حديثاً » .

إنّ المؤمن يعتقد أن يوم القيامة لاشك فيه ، فيوم القيامة يجب منطقياً ألا يوجد شك فيه ؛ لأنه لو كان هناك ريب لكان الذين انحرفوا فى الحياة الدنيا وولغوا فى أعراض الناس وأخذوا أموالهم وعاثوا فى الأرض فساداً هم الذين كسبوا وفازوا ، ويكون الطيبون والأخيار قد عاشوا فى سذاجة . فالمنطق يقتضى أنه مادام قد وُجد أناس قد ظلموا واعتدوا ، وأناس اعتدى عليهم ، فلا بد أن يكون هناك حساب . ولا يكون هناك حساب إلا إذا انتهت حكاية الموت ، بالإحياء والحشر والخروج إلى لقاء الله . ودليل هذا من الجاحدين أنفسهم ، كيف ؟ .

نحن نعرف أن المجتمعات غير المتدينة يضع قادتها القوانين التى تكفل حماية حركة المجتمع . هم يضعون مثل هذه القوانين ، ومن يخالفها يتم حسابه وعقابه . فإذا كان العقاب يمنع المجاهرة بالجريمة ، فماذا يكون الموقف ؟ إن الماهر إذن هو من يفلح فى المداراة عن عيون قادة هذا المجتمع ، ويستر نفسه عنهم حتى لا يناله العقاب .

إن هذه المجتمعات الملحدة تضع التقنينات لحماية نفسها ، فماذا تفعل هذه المجتمعات فى الذين ستروا أنفسهم ؟ . هم بقانون هذه المجتمعات كان يجب أن يعاقبوا ، وكان يجب أن تقولوا أنتم إن هناك مكاناً آخر وداراً أخرى يتم فيها عقاب من أفلت منا . فأنت أيها الملحد قد قننت لمن خالف تقنينك عقوبة . وهذا إن وقعت

عليه عينك ، وقبضت عليه يدك ، فما قولك فيمن لم تقع عليه عينك ولم تقبض عليه يدك ؟ .

إذن فنحن أهل الإيمان عندما نقول للملحد : إننا نكمل لك تفكيرك الناقص ونقول لكل الخلق : إنكم إن عَمَّيْتُم على قضاء الأرض فلن تعَمّوا على قضاء السماء الذى لا تخفى عليه خافية . إذن فغير المؤمن بمنهج نأخذ منه الدليل على ضرورة المنهج . وعلى غير المؤمن بالمنهج أن يشكر أهل الإيمان ؛ لأننا نحن أهل الإيمان قد أكملنا له نقصاً فى تقنين البشر ، وهذا لحماية المجتمع من الكيد بالجريمة والستر بالمخالفة .

« ومن أصدق من الله حديثاً » أى لا أحد أصدق من الله فى الحديث . و« أصدق » جاءت كأفعل تفضيل لا لأن هناك صدقاً يعلوه صدق أصدق ، بل الصدق واحد ؛ لأنه مطابقة النسبة الكلامية للواقع ، ولكن « أصدق » هنا لكثرة الحديث الذى حدثنا الله به عما نشهد من عالم الملك ومما لا نشهد من عالم الملكوت ، فإن تحدث الناس فإنما يتحدثون فى عالم الملك الذى يدركونه بحواسهم ، ولكن الله إذا حدثنا فسبحانه يحدثنا عن عالم الملكوت أيضا ، فالله أصدق حديثاً ؛ لأنه أكثر مَن حدّث .

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ ۖ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾ ﴾

كل جملة سبقتها « فاء » فمن اللازم أن يكون هناك سبب ومسبب ، علة ومعلول ، مقدمة ونتيجة ، وكل الأشياء التى تكلم الحق عنها سبحانه وتعالى فيما

يتعلق بمشروعية القتال للمؤمنين ليحملوا المنهج إلى الناس ، ويكون الناس - بعد سماعهم المنهج - أحراراً فيما يختارون . إذن فالقتال لم يشرع لفرض منهج ، إنما شُرع ليفرض حرية اختيار المنهج ، بدليل قول الحق :

﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ ﴾

(من الآية ٢٥٦ سورة البقرة)

وعلى ذلك فالإسلام لا يفرض الدين ، ولكنه جاء ليفرض حرية الاختيار فى الدين ، فالقُوَى التى تعوق اختيار الفرد لدينه ، يقف الإسلام أمامها لترفع تسلطها عن الذين تبسط سلطانها عليهم ثم يترك الناس أحراراً يعتنقون ما يشاءون ، بدليل أن البلاد التى فتحها الإسلام بالسيف ، ظل فيها بعض القوم على دياناتهم . فلو أن القتال شُرع لفرض دين لما وجدنا فى بلد مفتوح بالسيف واحداً على غير دين الإسلام .

وبعد أن تكلم الحق عن القتال فى مواقع متعددة من سورة النساء ، وقال للنبى صلى الله عليه وسلم :

﴿ فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأۡسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأۡسٗا وَأَشَدُّ تَنكِيلٗا ﴿٨٤﴾ ﴾

(سورة النساء)

شرع الحق سبحانه وتعالى قضية استفهامية هنا ، فيها معنى الإنكار وفيها معنى التوبيخ وذلك شائع فى كل الأساليب التى تتفق معها فى القرآن الكريم . فإذا سمعت كلمة «فمالك لا تفعل كذا» ، فكأن قياس العقل يقتضى أن تفعل ، والعجيب ألا تفعل . ولا يمكن أن يأتى هذا الأسلوب إلا إذا كان يستنكر أنك فعلت شيئا كان ينبغى ألا تفعله أو أنك تركت شيئا كان عليك أن تأتى به .

فالأب يقول للابن مثلاً : « مالك لا تذاكر وقد قرب الامتحان ؟» كأن منطق العقل يفرض على الابن إن كان قد أهمل فيما مضى من العام ، فما كان يصح للابن أن يهمل قبل الامتحان ، وهذا أمر بدهى بالقياس العقلى ، فكأن التشريع والقرآن يخاطبان المؤمنين ألا يقبلوا على أى فعل إلا بعد ترجيح الاختيار فيه بالحجة القائمة

عليه ، فلا يصح أن يقدم المؤمن على أى عمل بدون تفكير ، ولا يصح أن يترك المؤمن أى عمل دون أن يعرف لماذا لم يعمله ، فكأن أسلوب « فما لكم » ، و« فما لك » مثل قول أولاد سيدنا يعقوب :

﴿ مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾

(من الآية ١١ سورة يوسف)

ما معنى قولهم هذا ؟ معناه : أى حجة لك يا أبانا فى أن تحرمنا من أن نكون مؤتمنين على يوسف نستصحبه فى خروجنا . فكأن القياس عندهم أنهم إخوة ، وأنهم عصبة ، ولا يصح أن يخاف أبوهم على يوسف لا منهم ولا من شىء آخر يهدد يوسف ؛ لأنهم جماعة كثيرة قوية . وكذلك قول الحق :

﴿ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾

(سورة الانشقاق)

أى أن القياس يقتضى أن يؤمنوا . وقوله الحق :

﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾ ﴾

(سورة المدثر)

كان القياس ألا يعرضوا عن التذكرة . إذن فأسلوب « فماله » ، و« فمالك » و« فمالهم » ، و« فمالكم » كله يدل على أن عمل المؤمن يجب أن يُستقبل أولاً بترجيح ما يصنع أو بترجيح ما لا يصنع . أما أن يفعل الأفعال جزافاً بدون تفكير فى حيثيات فعلها ، أو فى حيثيات عدم فعلها فهذا ليس عمل العاقلين .

إذن فعمل العاقل أنه قبل أن يُقبل على الفعل ينظر البديلات التى يختار منها الفعل ؛ فالتلميذ إن كان أمامه اللعب وأمامه الاستذكار ، ويعرف أنه بعد اللعب إلى رسوب ، وبعد الرسوب إلى مستقبل غير كريم ، فإذا اختار الاجتهاد فهو يعرف أن بعد الاجتهاد نجاح ، وبعد النجاح مستقبل كريم . فواجب التلميذ ـ إذن ـ أن يبذل قدراً من الجهد ليتفوق . وكل عمل من الأعمال يجب أن يقارنه الإنسان بالنتيجة التى يأتى بها وبترجيح الفعل الذى له فائدة على الأفعال التى لا تحقق الهدف المرجو .

والآية هنا تقول : « فمالكم فى المنافقين فئتين » كأن القياس يقتضى ألا نكون فى نظرتنا إلى المنافقين فئتين ، بل يجب أن نكون فئة واحدة . وكلمة « فئة » تعنى جماعة ، والجماعة تعنى أفراداً قد انضم بعضهم إلى بعض على رغم اختلاف الأهواء بين هؤلاء الأفراد وعلى رغم اختلاف الآراء ، إلا أنهم فى الإيمان يجمعهم هوى واحد ، هو هوى الدين ، ولذلك قال الرسول :

(لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به)[1] .

فالمسبب للاختلاف هو أن كل واحد له هوى مختلف ولا يجمعهم هوى الدين والاعتصام بحبل الله المتين . وما حكاية المنافقين وكيف انقسم المؤمنون فى شأنهم ليكونوا فئتين ؟

والفئة ـ كما عرفنا ـ هى الجماعة ، ولكن ليس مطلق جماعة ، فلا نقول عن جماعة يسيرون فى الطريق لا يجمعهم هدف ولا غاية : إنهم فئة ؛ فالفئة أو الطائفة هم جماعة من البشر تجتمع لهدف ؛ لأن معنى « فئة » أنه يرجع ويفىء بعضهم إلى بعض فى الأمر الواحد الذى يجمعهم ، وكذلك معنى « الطائفة » فهم يطوفون حول شىء واحد . والحق يقول : « فما لكم فى المنافقين فئتين » . هذا لفت وتنبيه من الحق بأن ننزه عقولنا أن نكون فى الأمر الواحد منقسمين إلى رأيين ، وخصوصاً إذا ما كنا مجتمعين على إيمان بإله واحد ومنهج واحد . والمنافقون ـ كما نعرف ـ هم الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر .

إننا نعرف أن كل المعنويات يؤخذ لها أسماء من الحسيات ؛ لأن الإدراك الحسى هو أول وسيلة لإدراك القلب ، وبعد ذلك تأتى المعانى . وعندما نأتى لكلمة « منافقين » نجد أنها مأخوذة من أمر حسى كان يشهده العرب فى بيئتهم ، حيث يعيش حيوان اسمه « اليربوع » مثله مثل الفأر والضب . واليربوع مشهور بالمكر والخداع ، ولكى يأمن الحيوانات التى تهاجمه فإنه يبنى لنفسه جحرين ، أو جحورا متعددة ، ويفر من الحيوان المهاجم إلى جحر ما ، ويحاول الحيوان المهاجم أن ينتظره عند فوهة هذا

(١) رواه البغوى فى شرح السنة ، وابن أبى عاصم فى السنة ، والمتقى الهندى فى كنز العمال ، والخطيب البغدادى فى تاريخ بغداد .

الجحر ، فيتركه اليربوع إلى فتحة أخرى ، كأن اليربوع قد خطط وأعد لنفسه منافذ حتى يخادع ، فهو يصنع فوهة يدخل فيها فى الجحر ، وفوهة ثانية وثالثة ، وذلك حتى يخرج من أى فتحة منها ، وكذلك المنافق .

ونعرف أن المسائل الإيمانية أو العقدية على ثلاثة أشكال : فهناك المؤمن وهو الذى يقول بلسانه ويعتقد بقلبه وهو يحيا بملكات منسجمة تماماً . وهناك الكافر وهو الذى لا يعتقد ولا يدين بالإسلام ولا يقول لسانه غير ما يعتقد ، وملكاته منسجمة أيضاً ، وإن كان ينتظره جزاء كفره فى الآخرة ؛ فملكاته منسجمة ـ لكن ـ إلى غاية ضارة ، وهى غاية الكفر . أما « المنافق » فهو الذى يعتقد الكفر وينعقد عليه قلبه لكن لسانه يقول عكس ذلك ، وملكاته غير منسجمة ؛ فلسانه قد قال عكس ما فى قلبه ؛ لذلك يحيا موزعاً وقلقاً ، يريد أن يأخذ خير الإيمان وخير الكفر ، هذا هو المنافق .

وهناك جماعة ـ فى تاريخ الإسلام ـ حينما رأوا انتصار المسلمين فى غزوة بدر ، قالوا لأنفسهم : « الريح فى جانب المسلمين ، ولا نأمن أنهم بعد انتصار بدر وقتل صناديد قريش وحصولهم على كل هذه الغنائم أن يأتوا إلينا » ، هذه الجماعة حاولت النفاق وادعت الإسلام وهم بمكة ، حتى إذا دخل المسلمون مكة يكونون قد حصنوا أنفسهم . أو هم جماعة ذهبوا إلى المدينة مهاجرين ، ولم يصبروا على مرارة الهجرة والحياة بعيداً عن الوطن والأهل والمال ، ففكروا فى هذه الأمور ، وأرادوا العودة عن الدين والرجوع إلى مكة ، وقالوا للمؤمنين فى المدينة : « نحن لنا أموال فى مكة وسنذهب لاستردادها ونعود » .

وبلغ المسلمون الخبر وانقسم المسلمون إلى قسمين : قسم يقول : نقاتلهم ، وقسم يقول : لا نقاتلهم . الذين يقولون : « نقاتلهم » دفعهم إلى ذلك حمية الإيمان . والذين يقولون : « لا نقاتلهم » قالوا : هذه الجماعة أظهرت الإيمان ، ولم نشق عن قلوبهم ، وربما قالوا ذلك عطفاً عليهم لصلات أو أواصر .

فجاء القرآن ليحسم مسألة انقسام المسلمين إلى قسمين ، ويحسم أمر الاختلاف .

وعندما يأتى القرآن ليحسم فهذا معناه أن رب القرآن صنع جمهور الإيمان على عينه ، وساعة يرى أى خلل فيهم فسبحانه يحسم المسألة ، فقال : « فمالكم فى المنافقين فئتين » .

والخطاب موجه للجماعة المسلمة ، فقوله : « فمالكم » يعنى أنهم متوحدون على هدف واحد ، وقوله : « فئتين » تفيد أنهم مختلفون .

إذن فـ « فئتين » تناقض الخطاب الذى بدأه الحق بـ « فمالكم » ، كأن المطلوب من المتلقى للقرآن أن يقدر المعنى كالآتى : فمالكم افترقتم فى المنافقين إلى فئتين ؟ إذن فهذا أسلوب توبيخى وتهديدى ولا يصح أن يحدث مثل هذا الأمر ، فهل ينصب هذا الكلام على كل المخاطبين ؟ ننظر ، هل القرآن مع من قال : « نقتل المنافقين » أو مع من قال بغير ذلك ؟ فإن كان مع الفئة الأولى فهو لا يؤنب هذه الفئة بل يكرمها ، إن القرآن مع هذه الفئة التى تدعو إلى قتال المنافقين وليس مع الفئة الثانية ؛ لذلك فهو يؤنبها ، ويوبخها . والأسلوب حين يكون توبيخاً لمن يرى رأياً ، فهو تكريم لمن يرى الرأى المقابل ، ويكون صاحب الرأى المكرم غير داخل فى التوبيخ ، لأنّ الحق أعطاه الحيثية التى ترفع رأسه .

والحق يقول : « فمالكم فى المنافقين » أى إن الحق يقول : أى حجة لكم فى أن تفترقوا فى أمر المنافقين إلى فئتين ، والقياس يقتضى أن تدرسوا المسألة دراسة عقلية ، دراسة إيمانية لتنتهوا إلى أنه يجب أن تكونوا على رأى واحد ، ومعنى الإنكار هو : لا حجة لكم أيها المؤمنون فى أن تنقسموا إلى فئتين .

ويقول الحق : « والله أركسهم بما كسبوا » وساعة تسمع كلمة « أركسهم » ماذا نستفيد منها حتى ولو لم نعرف معنى الكلمة ؟ نستفيد أن الحق قد وضعهم فى منزلة غير لائقة . ونشعر أن الأسلوب دل على نكسهم وجعل مقدمهم مؤخرهم أى أنهم انقلبوا حتى ولو لم نفهم المادة المأخوذة منها الكلمة ، وهذا من إيحاءات الأسلوب القرآنى ، إيحاءات اللفظ ، وانسجامات حروفه .

« والله أركسهم بما كسبوا » و« أركسهم » مأخوذة من « ركسهم » ومعناها

« ردهم » . كأنهم كانوا على شيء ثم تركوه ثم ردهم الله إلى الشيء الأول ، وهم كانوا كفاراً أولاً ، ثم آمنوا ، ثم أركسهم ، لكن هل الله أركسهم تعنتاً عليهم أو قهراً ؟ لا ؛ فهذا حدث « بما كسبوا » ، وذلك حتى لا يدخل أحد بنا فى متاهة السؤال ولماذا يعاقبهم الله ويوبخهم مادام هو سبحانه الذى فعل فيهم هذا ؛ لذلك قال لنا الحق : إنه «أركسهم بما كسبوا» . و« أركسهم » مادته مأخوذة من شيء اسمه « الركس » - بفتح الراء - وهو رد الشيء مقلوبا ومنه « الرِّكس » بكسر الراء وهو الرجيع الذى يرجع من معدة الإنسان قبل أن يتمثل الطعام . مثلما نقول : « إن فلاناً غمت نفسه عليه » أو « فلان يرجع ما فى بطنه » .

وعندما ننظر إلى هذه العملية نجد أن الطعام الذى يشتهيه الإنسان ويحبه ويقبل عليه ويأكله بلذة ، وتنظر عيونه إليه باشتهاء ، ويده تقطع الطعام بلذة ويمضغ الطعام بلذة ، هذا الطعام بمجرد مضغه مع بعضه ينزل فى المعدة وتضاف إليه العصارات المهضمة ، فإذا رجع فإنه فى هذه الحالة يكون غير مقبول الرائحة ، بل إن الإنسان لو هضم الطعام وأخذ منه المفيد وأخرج الباقى بعد ذلك ، فرائحة الفضلات الطبيعية ليست أسوأ من رائحة الطعام لو رجع بدون تمثيل . فلو رأيت إنساناً يقضى حاجة وآخر يتقيأ الطعام ، فالنفس تتقزز من الذى يتقيأ أكثر مما تتقزز من الذى يقضى حاجته ؛ لأن « الترجيع » يخرج طعاماً خرج من شهوة المضغ والاستمتاع . ولم يصل إلى مسألة التمثيل .

ولذلك نسمع المثل « كل ما فات اللسان صار نتان » . و« الرِّكس » هو الرجيع الذى يرجعه الإنسان بعد الطعام قبل أن يتمثله . فالطعام بعد أن يتمثل ويخرج من المكان المخصص له يصبح روثاً ، وغائطا وبرازاً. والحق سبحانه وتعالى قد جاء بالكلمة التى تصفهم : « والله أركسهم » أى أنهم ارتدوا من قبل أن ينتفعوا بأى شيء من الإيمان .

هذا هو التعبير القرآنى الذى جاء بالعبارة التى تؤدى هذا المعنى ، وتؤدى إلى نفرتنا منهم ، فيكون الإركاس هو الرد ، وهل هو مطلق الرد ، أو رد له كيفية ؟ هو رد بإهانة أيضاً ، كيف ؟ لأن الشيء إن كان قوامه أن يقف رأسياً ، يكون الركس أن تجعل رأسه فى مكان قدمه وقدمه فى مكان رأسه. وعلى ذلك فالرد ليس رداً عادياً بل إنّه

رد جعل المردود هُزُوًا . وإن كانت استقامة الأمر على الامتداد الطولى ، يكون الركس بأن تأتى بما فى الخلف إلى الأمام ، وبما فى الأمام إلى الخلف ، فتقلب له كيانه . وتعكس حاله .

والقرآن يصف الكافرين والمنافقين :

﴿ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ ﴾

(من الآية ٦٥ سورة الأنبياء)

لماذا ، لأن الرأس مبنىٌ على القامة والهامة والارتفاع . هذا الرأس يُجْعَلُ مكان القدم ، والقدم يكون محل الرأس . إذن فقوله : « والله أركسهم » أى لم يردهم مطلق الرد ، بل ردّهم ردا مهيناً ، ردّاً يقلب أوضاعهم .

« والله أركسهم بما كسبوا » إذن فلا يقولن أحد : مادام الله قد أركسهم فما ذنبهم ؟ إن الله قد أركسهم « بما كسبوا » ، فهم كانوا فاعلين لا منفعلين .

وإليكم هذا المثل ـ ولله المثل الأعلى ـ حين تضع المدرسة أو الجامعة درجات للنجاح فى كل مادة . تجد مادة يجب أن يحصل الطالب فيها على نسبة ستين فى المائة . وأخرى على سبعين فى المائة ، ويدخل التلاميذ الامتحان ، وعندما يرسب أحدهم لا يقال : إن المدرسة قد جعلته يرسب ، صحيح هى أرسبته ولكن وفق القوانين التى وضعتها المدرسة أو الجامعة من قبل أن يدخل التلميذ الامتحان ، ولأنه لم يبذل الجهد الكافى للنجاح ، فقد أرسب نفسه .

إذن ، فالله لم يأت بالرّكس ورماه عليهم . بل هم الذين كسبوا كسباً جعل قضية السنة الكونية هى التى تؤدى بهم إلى الركس ، مثلهم مثل التلميذ الذى لم يستذكر فلم يُجب فى الامتحان ، فلا يقال عن هذا التلميذ : إن المدرسة أرسبته . ولكنه هو الذى أرسب نفسه .

ولذلك عندما يقال : الله هو الذى أضلهم ، فما ذنبهم ؟ هذه هى القضية التى يقول بها المسرفون على أنفسهم . ولهؤلاء نقول هذه الآية : « والله أركسهم بما كسبوا » وكذلك أضل الله الضالين بفعلهم ، كيف ؟ .

نحن عرفنا أن الهداية تأتى بمعنيين ، هداية الدلالة وهداية المعونة ، ويأتى المسرفون على أنفسهم الذين يودون أن تكون قضية الدين كاذبة ـ والعياذ بالله ـ لأن قضية الدين عندما تكون صدقاً فإن الذين أسرفوا على أنفسهم يتيقنون أنهم ذاهبون إلى داهية وأمر منكر شاق عليهم ؛ لذلك نجد الواحد منهم يتمحك فى محاولة عدم التصديق ، والدخول إلى متاهات يصنعها الفهم السطحى للدين . ولذلك نجد المناقشات التى يناقشونها تدل على أنها مناقشات المسرف على نفسه ، فيقول الواحد منهم : مادام الله هو الذى كتب علىّ كل شىء فلماذا يعذبنى وهو الذى كتب علىّ المعاصى ؟ .

نقول له : ولماذا آمنت فى هذا الموقف بالذات أن الله هو الذى كتب ؟ ، ومادمت قد آمنت بأن الله هو الذى كتب فلماذا لا تؤمن به وترتضى أحكام منهجه ؟ . ولكن الواحد منهم يحاول أن يقف وقفة ليست عقلية ، فالوقفة العقلية الصحيحة تقتضى أن تأتى بالقضية المقابلة وهى أن الله إذا كان قد كتب على العبد الطاعة فلماذا يثيبه ؟ . لماذا تناسى قضية الطاعة والثواب عليها ؟ ؛ لأنه يعرف أنها القضية التى تجلب الخير ، ووقف فى القضية المقابلة التى تأتى بالشرّ ، ولا يقول هذا القول إلا مسرف على نفسه . ولا نرى ملتزماً بمنهج الإيمان يقول مثل هذه القضية ، فالمؤمن يحب أن تسير الأمور على ضوء منهج الله ، ولذلك أنا إلى الآن ـ وليسامحْنى الله وليغفر لى ـ أتعجب من أن العلماء الذين سبقونا جعلوا من هذه المسألة محل خلاف . وقالوا : معتزلة وأهل سنة (!!)

المسألة كلها يجب أن تفهم على أساس أن الإسلام دين فطرة ، ولم يأت للفلاسفة فقط ، إنّه جاء للعقل الفطرى ، ورَاعى الشاة فى الإسلام كالفيلسوف ، ومن يكنس الشارع أو يمسح الأحذية مساوٍ لمن درس الفلسفة أو الحقوق ؛ لأن الإيمان لم يأت لطائفة خاصة ، ولكن المنهج قد جاء للجميع ، ولابد أن تكون أدلته واضحة للجميع ، فعندما يقال لنا : إن الله يعلم كل شىء فيك ، لا يدخل معك فى متاهة ، هو ـ سبحانه ـ يقول لك :

﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾

(سورة الملك)

فالذى صنع الكرسى ـ ولله المثل الأعلى ـ ألا يعرف أن الكرسى مصنوع من الخشب ، ونوع الخشب « زان » أو « أرو » أو « مجنه » ، وأن المسمار الذى يربط الجزء بالجزء إما مسمار صلب وإما من معدن آخر ، وكذلك يعلم صانع الكرسى أى صنف من الغراء استعمل فى لصق أجزاء الكرسى ، وكذلك مواد الدهان التى تم دهن الكرسى بها .

إذن فقول الحق : « ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير » لا يحتاج إلى جدال . ولذلك نجد النَّجار الذى يرغب أن تكون صنعته مكشوفة واضحة يقول للمشترى :

سوف أصنع لك الكرسى من خشب الزان وعليك أن تمر يومياً لترى مراحل فعله .

ويبدأ صناعة الكرسى مرحلة مرحلة تحت إشراف الزَّبون . وكذلك يعرف البدوى كيف يتكون الرحل . وهو ما يوضع على ظهر البعير للركوب ، العربى يعرف كيف يتكون الفسطاط وهو بيت يتخذ من الشَّعْرِ . وقد جاء سبحانه بما يدحض أى جدل ، وبدون الدخول فى أية مهاترات أو مناقشات لها مقدمات ونتائج ومقدم وتال . جاء الحق بهذا القول الفصل :

﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾

(سورة الملك)

هو يعلم وهذا أمر سهل عليه ، ولذلك أتعجب كيف أدخل هؤلاء العلماء هذه المسألة فى متاهة فلسفية ، فالإسلام دين الفطرة .

ولذلك نجد العلماء الذين ناقشوا هذه المسألة ـ جزاهم الله خيراً ـ جاءوا فى آخر مطافهم ، وقالوا :

نهاية إقدام العقول عِقال
وأكثر سعى العالمين ضلال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا
سوى أن جمعنا فيه قِيلَ وقالوا

وأنا أريد أن أعرف ماذا قدمت الفلسفة النظرية للدنيا من خير ؟ . لقد انفصلت عنها الفلسفة المادية ودخلت المعمل وأخرجوا لنا الابتكارات التى انتفع بها الخلق ، فماذا فعلت الفلسفة النظرية ؟ . لا شيء . ونقول : جاء الإسلام بالعقيدة الفطرية ، ومعنى العقيدة الفطرية أن الناس فيها سواء ، فالأدلة العقلية تقتضى الوضوح لمن تَعَلَّم ولمن لم يتعلم .

والفلاسفة هم الذين قالوا : بأدلة الغاية وأدلة العناية وأدلة القصد . لكن البدوى الذى سار فى الصحراء وجد بعر البعير ووجد الرمل وعليه أثر قدم ، فقال : إذا كانت البعرة تدل على البعير والقدم تدل على المسير أفلا يدل كل ذلك على اللطيف الخبير ؟ . هو لم يدخل فى فلسفة أو متاهة مثلما دخل الفلاسفة مع بعضهم فى متاهات عقلية وحلها البدوى فى جملة واحدة . وكذلك نجد واحداً من الناس يسأل واحداً من أهل الإشراق : ألا تشتاق إلى الله ؟ . فيقول له : إنّما يُشتاق إلى غائب ، ومتى غاب الله حتى يشتاق إليه ؟! .

لذلك نقول لمن اختلفوا فى أمر رد الله لهؤلاء : نريد أن نكرم عقولكم وننظر لماذا اختلفتم فى هذه الحكاية « أركسهم بما كسبوا » .

نقول مع حسن الظن بهم ، إن كل واحد منهم تعصب لصفة من صفات الحق ، فواحد منهم يقول : « الله خالق كل شيء » . فنقول له : أنت قد تعصبت لصفة القدرة وطلاقتها فى الحق .

وجاء ثانٍ وقال : ولكن الله عادل . ولا يمكن أن يخلق فى الكافر كفره ثم يعذبه عليه . إنّه متعصب لصفة العدل . وكل منهما ذاهب إلى صفة واحدة من صفات الحق . وتناسى الاثنان أن هذه الصفات إنما هى لذاته ـ تعالى ـ فسبحانه قادر وعادل معاً . فلا هذه تفلت منه ولا تلك .

ونقول لمن يقول : إنه الله خالق كل شيء وخالق كل فعل . ما الفعل ؟ . الفعل هو توجيه جارحة لإحداث حدث ، فالذى يمسح وجهه بيديه يوجه يديه لوجهه حتى يمسحه ، وهذا الفعل لا يفعله صاحب الفعل ، ودليلنا على ذلك الإنسان الآلى

نضغط على أكثر من زر ليتحقق هذا الفعل ، هذا الإنسان الآلى حتى يتحرك حركة واحدة لابد من ضغط وتحريك عدد آخر من القوى ، لكن الإنسان حتى يمسح وجهه بيديه اكتفى بأنه بمجرد أن أراد مسح الوجه باليد مسح الوجه . فهل أمسك من يمسح وجهه بشيء وضغط عليه ليمسح وجهه ؟.

إنه بمجرد أن أراد فعَل . وسائق جرافة التراب يحرك عدداً من الأذرع الحديدية حتى يحرك الجرافة إلى أسفل ، ثم حركة أخرى ليفتح كباشة التراب ، وحركة تقبض أسنان الكباشة وحركة أخرى ترفع التراب ، كل ذلك من أجل أن يرفع التراب من مكان ما إلى مكان آخر ، والواحد منا بمجرد أن يريد أن يمسح وجهه فهو يمسح وجهه ولا يعرف أى عضلات تحركت ، فمن الذى فعل كل ذلك ؟. إنه الله .

فيا من تتعصب لصفة القدرة . فالله هُو الذى فعل والعبد هو الذى وجه الطاقة التى تنفعل بالله.فإذا كانت إلى غير مراد الله يصير العبد عاصياً ، وإن وجهها إلى مراد الله فيكون طائعاً ، ويكون له الكسب فقط ، فالذى يقتل واحداً ، هو لم يقتله ؛ لأنه لم يقل له : « كن قتيلاً » فيكون قتيلاً ، ولكن القاتل يأتى بسكين أو سيف أو مسدس ويرتكب فعل القتل . فأداة القتل هى التى قامت بالفعل ، والقاتل إنما أخذ الآلة الصالحة لفعل ما ولغيره ، فوجهها لذلك الفعل . فيا من تريد العدل ، إن الله يعذب على المعصية ؛ لأن الإنسان استعمل أداة مخلوقة للفعل ولعدمه ، فجعلها تؤدى فعلاً غير مرادٍ لله أى لا يرضى عنه الله ولا يحبه ، ومع ذلك فالله هو الفاعل لكل شيء .

ونعود إلى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها : « فما لكم فى المنافقين فئتين والله أركسهم بما كسبوا » ومادام هو سبحانه الذى أركسهم بما كسبوا ، وأنتم مؤمنون بالله فلا بد أن يكون الرأى فيهم واحداً ؛ لذلك يتساءل الحق : « أتريدون أن تهدوا من أضل الله »؟ وسبحانه لا يريد أن يقدم لهم العذر ، إنما يريد أن يظهر لهم هدايته سبحانه وهى هداية لا تتأتى لهم ؛ لأنه قد أضلهم فأنَّى لهم الهداية . فلماذا يقف جانب من المؤمنين فى صفهم ؟.

لأن الله حين يهدى فهو يهدى من يشاء ويضل من يشاء بوضع القوانين الموضحة

للهداية أو الضلال . ونحن إن سمعنا « أن الله هدى » نفهمها على معنيين ؛ المعنى الأول أنه « دل » ، والمعنى الثانى أنه « أعان ومكّن » . فـ« هدى » تكون بمعنى « دل » ، وهدى تكون بمعنى « أعان » . وسبق أن قلنا : إذا كان هناك إنسان يمشى فى الطريق ويريد الاتجاه إلى الإسكندرية وهو لا يعرف الطريق الموصل . فيسأل شرطى المرور فيشير الشرطى : هذا هو الطريق الموصل إلى الإسكندرية.إنّ الشرطى هدى هذا الإنسان ودله على الطريق ، لكنه لم يحمل الإنسان على أن يسير فى الطريق ، فإذا ما صدّق المسافر قول الشرطى وقال له : إننى أشكرك وأكثر الله من خيرك والحمد لله أننى وجدتك ، فلولا وجودك لتعبت ، هنا يقول الشرطى : أنت رجل طيب والطريق إلى الإسكندرية به « مطب » وعقبة ، سأركب معك حتى أدلك على مكان هذه العقبة . وبذلك يتجاوز الشرطى مرحلة « الدلالة » إلى مرحلة « المعونة » وسبحانه أوضح : سأهدى الناس جميعاً وأرشدهم وأدلهم ، فالذى يقبل على الإيمان بى سأعاونه على ذلك .

ولذلك يقول :

﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾

(من الآية ١٧ سورة فصلت)

و« هديناهم » هنا بمعنى « دللناهم » فقط ، أما أن يسلكوا سبل الهداية أو لا فالأمر متروك لهم . والهداية ـ إذن ـ ترد بمعنى الدلالة ، وترد بمعنى الإعانة . والحق يعين من ؟. يعين من آمن به ولكن من يكفر به لا يعينه :

﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة التوبة)

وكذلك :

﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة التوبة)

إذن فلله هدايتان : هداية عم الناس بها جميعاً وهى هداية الدلالة ، وأخرى خص بها من جاءه مؤمناً به ، وهى هداية « المعونة » . ولذلك قال الحق للرسول صلى الله عليه وسلم :

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾

(من الآية ٥٦ سورة القصص)

وهذا القول فيه نفى الهداية عن الرسول ، وهو سبحانه القائل أيضاً :

﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾

(من الآية ٥٢ سورة الشورى)

وليس من المعقول أن ينفى الحق الهداية عن الرسول ثم يثبتها له . ونفهم من ذلك : إنك يا رسول الله تدل على الحق ، ولكنك لا تعين عليه . فالله هدى الناس جميعاً فدلهم على طريق الخير . فمن آمن به وأقبل عليه يسر له الأمر .

وبذلك نكون قد عرفنا تماماً معنى قوله الحق : « والله أركسهم بما كسبوا أتريدون أن تهدوا من أضل الله ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلاً » . فالذى يضله الله هو من اكتسب ما يوجب أن يضله فلا تجد له سبيلاً . وكان من الممكن أن يقول الله : أتريدون أن تهدوا من أضل الله ومن يضلل الله فلا تستطيعون أن تهدوه ، ولكن الأبلغ هو ما يوضحه سبحانه لنا : أنتم لا تستطيعون هداية هذا المكتسب للضلال ؛ ذلك أنه لا يوجد سبيل حتى تهدوه إليه . فالسبيل هو الممتنع وليس الهداية فقط .

والسبيل هو الطريق الذى يعطيك حقاً فى الهداية ، فإذا ما امتنع السبيل فماذا تفعل ؟ ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلاً فى أن ينقض هذا القرار ، أى لا حجة له على الإطلاق . ولذلك أخذنا المعنيين هنا ، فالذين ينافقون يظهرون الإيمان مرة وينقلبون إلى الكفر مرة ، هم ينكرون الإيمان بقلوبهم والذى يقولون بألسنتهم هو الإسلام ، أمّا الإيمان فلمّا يدخل فى قلوبهم .

وما هو الأعز على النفس البشرية ؟ مكنونات القلب أم مقولة اللسان ؟

الأعز هو مكنونات القلب . ومادامو هم لا يؤمنون بقلوبهم ويقولون فقط بألسنتهم ، فالعقيدة داخلهم معقودة على الكفر ، ومادامت العقيدة معقودة على الكفر فهم لا يريدون أن يأتوا إلى صف الإيمان ، ولكنهم يريدون جر المؤمنين إلى معسكر الكفر ؛ لذلك يقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ ﴾

و« ودوا » ضميرها يعود على المنافقين الذين اختلف فيهم المسلمون إلى فئتين ، وحكم الله فى صالح الفئة التى أرادت أن تقف منهم موقف القوة والبطش والجبروت ، فقال سبحانه وتعالى تعليلاً لنفاقهم : « ودّوا لو تكفرون كما كفروا » ثم إن نفاقهم معناه قلق يصيبهم من مستوى حالهم مع مستقبل الإسلام أو حاضره ؛ لأنهم كافرون بقلوبهم ، ولكنهم يخافون أن يظهر الإسلام فيعاملهم معاملة الكافرين به ، فيحاولون أن يظهروا أنهم مسلمون ليحتاطوا لنصرة الإسلام وذيوعه ، فهم فى كرب وتعب ، وهذا التعب يجعلهم يديرون كثيراً من الأفكار فى رءوسهم : يقولون نعلن أمام المسلمين أننا مسلمون ، ونعلن أمام الكافرين أننا كافرون .

وما الذى ألجأهم إلى هذا الحال ، وقد كانوا قديماً على وتيرة واحدة ، ألسنتهم مع قلوبهم قبل أن يجىء الإسلام ؟ إذن فالذى يعيدهم إلى حالة الاستقرار النفسى وينزعهم من القلق والاضطراب والخوف على حاضرهم ومستقبلهم هو أن تنتهى قضية الإسلام ، فلا يكون هناك مسلمون وكافرون ومنافقون . بل يصير الكل كافراً .

« ودوا لو تكفرون كما كفروا » والودادة عمل القلب ، وعمل القلب تخضع له جميع الجوارح إن قدرت ، فماداموا يودون أن يكون المسلمون كافرين ، إذن سيقفون فى سبيل انتصار المسلمين ، وسيضعون العقبات التى تحقق مطلوبات قلوبهم . لذلك فاحذروهم ، سأفضح لكم أمرهم لتكونوا على بينة من كل تصرفاتهم وخائنات أعينهم وخائنات ألسنتهم .

« ودوا لو تكفرون » ونعرف أن كلمة « الكفر » تعنى « الستر » ، فالفعل « كفر » معناه « ستر » . ومن عظمة الإيمان بالإسلام وعظمة الحق فى ذاته هو أنه لا يمكن أبداً أن يطمسه خصومه ، فاللفظ الذى جاء ليحدد المضاد لله هو عينه دليل على الإيمان بالله . فعندما نقول : « كفر بالله » أى « ستر وجوده » ، كأنه قبل أن يستر الوجود فالوجود موجود ، ولذلك نجد أن لفظ « الكفر » نفسه دليل على الإيمان ، فلفظ « الكفر »فى ذاته تعنى إيمانا موجوداً يجاهد صاحبه نفسه أن يغطيه ويستره .

« ودوا لو تكفرون كما كفروا » . وهذا القول جاء بعد أن قال الحق :

﴿ فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَـٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ ﴾

(من الآية ٨٨ سورة النساء)

ويدل على أنهم يوصفون مرة بالمنافقين ويوصفون مرة بالكافرين . وسماهم الله فى آية بـ « المنافقين » ويصفهم الحق فى هذه الآية بأنهم كفروا « ودوا لو تكفرون كما كفروا » والكفر الذى يجىء وصفه هنا يدل على مكنون القلب ، فالنفاق لم يعطهم إلا ظاهريات الإسلام ، لكن الباطنيات لم يأخذوها ، ولذلك سيكونون فى الدرك الأسفل من النار فى الآخرة ؛ وإن كانوا فى الدنيا يعاملون معاملة المسلمين احتراماً لكلمة « لا إله إلا الله محمد رسول الله » . لكن الله يعاملهم فى الآخرة معاملة الكافرين ، ويزيد عليها أنهم فى الدرك الأسفل من النار .

إذن فأصحاب الباطل إن كانت لهم قوة يجعلون لسانهم مع قلوبهم فى الجهر بالباطل ، وإن كان عندهم ضعف يجعلون قلوبهم للباطل ولسانهم للحق . وهذه العملية ليست مريحة فى كلا الموقعين . فالمريح لهم ألاَّ توجد للحق طائفة . لذلك يقول سبحانه وصفاً لحقيقة مشاعرهم : « ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء » . فهم يتمنون إزالة طائفة الحق حتى لا يكون هناك أحد أفضل من أحد ، مثلما نقول : مفيش حد أحسن من حد .

مثال ذلك : نجد مجموعة من الموظفين فى مصلحة حكومية ، ويكون من بينهم واحد مختلس أو لا يؤدى عمله على الشكل الراقى المطلوب ، لذلك فهو لا يحب أن يؤدى الآخرون أعمالهم بمنتهى الإتقان ، ويريدهم فاسدين ، ويحاول أن يغريهم

بالفساد حتى يكونوا مثله ؛ كى لا يظهروه أمام نفسه بمظهر النقيصة . وحتى لا يكون مكسور العين أمامهم .

ومن العجيب أننا نجد الذى يسرق يحترم الأمين ، وكثيرا ما نسمع عن لص من فور ما يعلم أن هناك كميناً ينتظره ليقبض عليه فهو يبحث عن رجل أمين يضع عنده المسروقات كأمانة .

وقول الحق عن أمنية المنافقين الكافرين بقلوبهم هو أن يكون المؤمنون مثلهم « فتكونون سواء » . وهذه شهادة فى أن صاحب الباطل يحب من صاحب الحق أن يكون معه؛لأنه حين يجده فى الحق ، فصاحب الباطل يحتقر نفسه ، وقد حدثت العجائب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لقد كفروا به وعذبوا صحابته ، ولكنه هو الأمين باعترافهم جميعاً . فها هوذا الرسول صلى الله عليه وسلم يهاجر من مكة وخلف « عليا » كرم الله وجهه ليرد الودائع والأمانات التى عنده .

هم كذبوه فى الرسالة ، ولكنه الأمين باعترافهم جميعاً ؛ لذلك أودعوا عنده الأمانات . إذن فصاحب الفضيلة محترم حتى عند صاحب الرذيلة . وحتى نتعرف تماماً على هذا المعنى ، فلنفترض أن إنساناً وقع فى مشكلة ، سبّ أحداً من الناس ورفع المعتدى عليه دعوى قضائية على هذا المعتدى الذى سبّه ، ولهذا المعتدى صديق عزيز ، استشهد به المعتدى عليه ، فيقول المعتدى : أتشهد علىّ ؟ ويذهب الصديق إلى المحكمة ليقول : « لا يقول صديقى مثل هذا السباب » . وهنا شهد الصديق لصديقه شهادة زور . ولنفترض أن هذا المعتدى قد تاب وأناب وصار من الأتقياء ، وجعله الناس حكماً بينهم ، وجاء له الصديق الذى شهد الزور من أجله ليشهد أمامه ، فهل يقبل شهادته ؟ طبعا لا .

إذن صاحب الفضيلة محترم حتى عند صاحب الرذيلة ، فإذا ما حاول أحد من أصحاب الرذيلة أن يشد صاحب الفضيلة إلى خطأ ، فهو يسعى إلى إضلاله ، وينطبق على ذلك قول الحق : « ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء » ومادام هذا هو هدفهم وفكرتهم ألا يتركوا المؤمنين على إيمانهم ، لأجل أن يأخذوهم إلى صف الكفر . وهم بذلك كمنافقين كفار قلوب غير مخلصين لصف الإيمان . وهم

لا يقفون من الإيمان موقف الحياد ، ولكنهم يقفون منه موقف العناد والعداوة . « ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء » وفى هذا تحذير واضح للمؤمنين هو : إياكم أن تأمنوهم على شىء يتعلق بمصالحكم وإيمانكم .

ويصدر الحق الحكم فى هذه القضية بمنتهى الوضوح : « فلا تتخذوا منهم أولياء » أى إياكم أن تتخذوا من المنافقين نصراء لكم أو أهل مشورة ؛ لأن الله سبحانه فضح لكم دخائل نفوسهم ، وهذه المسألة ليست ضربة لازب ، فإن آب الواحد منهم وأناب ورجع إلى حظيرة الإيمان فلن يرده الله ، فسبحانه وتعالى لا يضطهد أحداً لمجرد أنه ارتكب الذنب ؛ لأنه الحق غفور ورحيم ، فمادام قد عاد الإنسان إلى الصواب وبَعُد عن الخطأ ، فعلى المؤمنين أن يقبلوا من يعود إليهم بإخلاص ، فالكراهية لا تنعقد ضد أحد لأنه أخطأ ؛ لأن الكراهية تكون للعمل الخطأ ، وليست موجهة ضد الإنسان المخلوق لله ، فإن أقلعوا عن الخطأ ؛ فهم مقبولون من المؤمنين .

وهاهوذا قاتل زيد بن الخطاب يمر أمام عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ وقال له بعض الناس هاهوذا قاتل أخيك زيد . فيقول عمر بن الخطاب : وماذا أفعل به وقد هداه الله للإسلام ؟!

وهكذا نرى أن الكراهية لم تتعد إلى ذات القاتل ، ولكن الكره يكون للفعل ، فإن أقلعت الذات عن الفعل فالذات لها مكانتها . وهكذا يصدر الحكم الربانى : « فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا فى سبيل الله » .

والهجرة فى سبيل الله كانت تكلف الإنسان أن يخرج من ماله ومن وطنه ومن أهله ، ويذهب إلى حياة التقشف والتعب والمشقة ، وفى هذا ما يكفر عنه ، ويتعرف المؤمنون هنا أنه قد تاب إلى الله فتاب الله عليه وآن له الأوان أن يدخل فى حوزة الإيمان . فإن فعل ذلك فقد عاد إلى الإيمان . ولذلك يجب على الناس أن يفصلوا الذوات عن الأفعال . لماذا ؟ لأن الذوات فى ذاتها لا تستحق أن تكره ، وإنما يكره فعل الذات إن كان قبيحا سيئا .

وحين نقرأ القرآن نجده يعرض مثل هذه المسألة ، فسيدنا نوح عليه السلام عندما تلقى وحى الله بأن يصنع السفينة ، وجلس يصنعها ويمر عليه الناس فيسخرون منه فيقول لهم سيدنا نوح : سنسخر منكم غداً كما تسخرون منا . ويأتى له ابن ليس على منهجه ، فيدعوه نوح إلى المنهج فيقول الابن : « لا » . ويركب نوح السفينة ويقول لله : لقد وعدتنى أن تنجينى أنا وأهلى .

وهنا يوضح الحق : صحيح أنا أنجيك أنت وأهلك ، ولكن ما الذى جعلك تعتبر ابنك من أهلك ، إن الذوات عند الأنبياء لا نسب لها ، إنما نسب الأنبياء الأعمال :

﴿ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ﴾

(من الآية ٤٦ سورة هود)

إن العمل هو الذى يتم تقييمه . ولذلك يقول الحق : « فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا فى سبيل الله » والهجرة من « هجر » ، و« هجر » يعنى أن الإنسان قد عدل من مكان إلى مكان ، أو عن ود إلى ود ، أو عن خصلة إلى خصلة ، والذى يَهجر عادة يتجنى على من « هُجر » ، لنلاحظ أن الله سبحانه وتعالى فى كتابه عندما يأتى بالحدث . يأتى بـ« هاجر » ، ولم يأت بالحادث « هجر » ، فالنبى صلى الله عليه وسلم لم يهجر مكة . ولكنه هاجر منها ، ويقول صلى الله عليه وسلم :

« والله إنك لأحب أرض الله إلىّ وإنك لأحب أرض الله إلى الله ولولا أن أهلك أخرجونى منك ما خرجت »[1] .

فالهجرة جاءت ؛ لأن أهل مكة هجروه أولاً ، فاضطر أن يهاجر . و« هاجر » على وزن « فاعل » . والمتنبى يقول :

إذا ترحلت عن قوم وقد قدروا
ألا تفارقهم فالراحلون هم

ولذلك جاء الحق بالهجرة على صيغة المفاعلة . لقد كرهوا دعوته . واستجاب الرسول للكراهية فهاجر .

---

(١) رواه أحمد والترمذى .

ويوضح سبحانه أن الذى يخلص هؤلاء المنافقين من حكمنا عليهم ، ألا يتخذ المؤمنون منهم أولياء هو : أن يهاجروا فى سبيل الله ؛ لأن ذلك هو حيثية صدق الإيمان . فالمهاجر يحيا عيشة صعبة . وقد عاش المهاجرون على فيض الله من خير الأنصار ، ولم يؤسسوا حياتهم بشكل لائق . إذن فمن ينضم إلى ذلك الموكب هو مؤمن اشترى الإيمان وقدر على أن يكفِّر عما بدر منه . فليست الهجرة مجرد هجرة ، ولكنها هجرة فى سبيل الله .

ولذلك نرى القاعدة الايمانية فى الحديث النبوى : « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله . . فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه »[1] .

وهكذا يعامل المؤمنون المنافق إن عاد من كفره ونفاقه إلى الإيمان . لكن ماذا لو تولّى المنافقون ؟ . « فإن تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ولا تتخذوا منهم ولياً ولا نصيراً » والأخذ إذا جاء فى مقام النزاع فمعناه الأسر . وقتلهم فى ساحة القتال أمر واجب ، ولا يصح أن يتخذهم المؤمنون أولياء أو نصراء ؛ لأن الواحد من المنافقين يكون دسيسة على المؤمنين ، ويحاول أن يعرف أمور وأحوال المسلمين ، ويطلع خصوم الإسلام على ما يمكن أن ينفذ منه العدو إلى المسلمين . ويستميت ليعرف ما يبيت المسلمون للكافرين .

واتخاذ الولى أو النصير ممن نعلم أنه لا يحب الإيمان وليس على مبدأ الإسلام وعقيدته أمر يشكك فى صدق بصيرة الإنسان الذى يتولى ويود غير المسلمين المخلصين . فحين يرى الواحد منا إنساناً آخر لا يحبه ويكيد المكائد ، وعندما يراك تثق فيه وتحسن إليه ، يقول هذا الكاره : هذا إنسان فاقد البصيرة فلو عرف ما فى قلبى لما فعل ذلك . فإذا اتخذ المؤمنون من المنافقين أولياء أو نصراء والمنافقون على ما هم عليه من نفاق لقال المنافقون : إن المسلمين فاقدو البصيرة وهم لا يعلمون ما فى قلوبنا ؛ لذلك ينير الحق بصيرة المؤمنين حتى لا نأخذ رأياً من المنافقين ينال منا .

وقد يقول المنافقون : إن هؤلاء المسلمين ليس لهم ربٌّ يبصرهم ، فلماذا يدعون

---

(١) رواه البخارى .

أن لهم إلهاً ؟. لو كان لهم إله لبصرهم بما فى نفوسنا . ونجد هذا الفضح لهم عندما يقول الحق :

﴿ وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ لَوۡلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ ﴾

(من الآية ٨ سورة المجادلة)

وعدم تعذيب الحق له وقت كفرهم له فائدة ورحمة سيدركونها فيما بعد . فمِن هؤلاء مَن سيكون سيفاً للإسلام بعد أن كان سيفاً على الإسلام ؛ فقد ادخرهم الله ليكون بعض منهم سيفاً للإسلام ، فها هو ذا ابن الوليد يهتدى ، وها هو ذا عمرو بن العاص ، وهاهو ذا عكرمة بن أبى جهل ، هؤلاء سيكونون سيوفاً للإسلام ، ولا يظنن منهم أحد أنه سترَ مكنونَ نفسه عن الله :

﴿ وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ لَوۡلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ ﴾

(من الآية ٨ سورة المجادلة)

هذا القول قد أدى أمرين :

الأمر الأول : أوضح أن هناك رباً مطلعاً على خائنة الأعين وخفايا الصدور . والأمر الثانى : أوضح أن الله لم يعذبهم لأن منهم من سيمس الإيمان قلوبهم وسيكونون سيوفاً للإسلام وسيخرج من ذريتهم قادة يحملون الدعوة لله . ولذلك نجد النبى صلى الله عليه وسلم وقد جاءه جبريل وقال له : « إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمرهُ بما شئت فيهم فنادانى ملك الجبال فسلم علىّ ثم قال يا محمد : إن الله قد سمع قول قومك وأنا ملك الجبال وقد بعثنى ربّك إليك لتأمرنى بأمرك مما شئت ؟ إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين[1] . فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم مَن يعبد الله وحده لا يشرك به شيئا »[2] .

وقد حدث ذلك . إن أسلوب معاملة المنافقين يحدده الله فى هذه الآية بما يلى : هم قومٌ الكفر يسكن القلب منهم ومظهرهم يَدَّعى الإسلام ويتمنون أن يكون

(١) الأخشبان : هما جبلان بمكة : أبو قبيس ، والذى يقابله وهو قعَيْقعان .

(٢) رواه البخارى ومسلم .

المؤمنون على شاكلتهم ، فلذلك لا يتخذ المسلم وليا من النافقين ولا نصيراً .

ولكن إن هاجر المنافق فرحابة الإيمان تتسع له ، أما إن تولّى المنافق وأعرض عن ذلك . فأسلوب المعاملة يكون كما يحدده الله : « فإن تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ولا تتخذوا منهم ولياً ولا نصير » لكن بعد أن يُطلق هذا الأمر توجد عقبة فى تنفيذه ، إنها عقبة الأحلاف والعهود والمواثيق التى كان يعطيها رسول الله لبعض القبائل ، وكانت هذه العهود تتلخص فى أن الرسول يعاهد بعض القبائل بعدم الإغارة على المسلمين وعدم إغارة المسلمين عليهم . ولذلك يحترم الحق هذه المواثيق والأحلاف .

إن الحق يوضح لنا : لا تأخذوا هذا الأمر أيها المسلمون على إطلاقه ؛ لأن الإسلام دين الوفاء بالعهود ، وقد أعطيتم بعض القبائل عهوداً بأن من لجأ إليهم يؤمنونه ويدخل فى حمايتهم ، وكذلك الذى يصل ويلجأ إلى المسلمين فعليهم حفظه ومنع التسلط عليه .

لذلك قال الحق فى هذا الاستثناء :

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُوا۟ قَوْمَهُمْ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ ۚ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾ ﴾

والآية تبدأ باستدراك حتى لا تفتح مجالاً لإغضاب من كان للإسلام تعاهد معهم وتعاقد ، فالذين يصلون ويلجأون إلى قوم بينهم وبين المسلمين تحالف أو ميثاق

لا ينطبق عليهم ما جاء فى الآية السابقة وهو الأخذ والقتل .

مثال ذلك ما حدث من عهد بين المسلمين وهلال بن عويمر الأسلمى على ألاّ يعينوه ولا يعينوا عليه وعلى أن من وصل إلى هلال ولجأ إليه فله الجوار مثل الذى لهلال .والاستثناء يشمل أيضاً من جاءوا إلى المسلمين ، فمن ذهب من المنافقين إلى من عاهده المسلمون فهو يحصل على الأمان ، وكذلك يُؤَمِّنُ الرسول من جاءه من المنافقين وقال من الأسباب ما يجعله يطلب حماية الرسول والإسلام : فعلى الرغم من نفاقه يؤمنه الإسلام .

« أو جاءوكم حصرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم » كأن يقول الواحد منهم : أنا لا أقدر أن أقاتلكم ، ولا أقدر أن أقاتل قومى فاغفر لى هذا واقبلنى معكم . هؤلاء يقبلهم الرسول لأنهم أقروا بما هم فيه من ضيق ، فهم لا يستطيعون التصرف لا أمام المسلمين فيعلنون الإيمان ، ولا أمام الكافرين فيعملون فى معسكر الكفر . ولا يستطيعون أن يتخذوا موقفاً حاسماً حازماً بين المسلمين والكافرين ، فهم يقرّون بضعفهم ، ويعترفون به .

« ولو شاء الله لسلطهم عليكم » . فما الذى يجعلهم يلوذون إلى قوم يتحالفون مع المسلمين بميثاق حتى يحتموا فيهم ؟ أو يقرون أن صدورهم ضيقة وأنهم غير قادرين على التصرف ، ويعلنون : لا نستطيع أن نقاتلكم ولا أن نقاتل قومنا . ويوضح الحق : أنا فعلت هذا وألقيت الرعب فى نفوسهم ، ولو شئت لسلطتهم وجرأتهم عليكم ، وقاتلوكم ، إذن فسبحانه ينصرنا بالرعب ويمنع قتالهم لنا .

« فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلاً » .

إن اعتزلوكم ولم يقاتلوكم وألقوا السلم واعترفوا بأنهم لا يملكون طاقة اختيار بين قتال المسلمين أو قتال قومهم ، فليس لكم أيها المسلمون حجة أن تعتدوا عليهم ؛ فالاعتداء عليهم فى مثل هذه الحالة ينهَى الله عنه .

وعين الحق لا تقتصر على ما نعرف ، ولكنها تتعدى إلى أدق التفاصيل ؛ فهى عين لا ترى ما عرفناه فقط ولكنها تكشف لنا الحجب التى لا نعرفها ، فيقول سبحانه :

﴿ سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا۟ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا۟ فِيهَا ۚ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾ ﴾

تبدأ هذه الآية بفعل يتحدث عن المستقبل : « ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم » . معنى ذلك أن المسلمين لحظة نزول هذه الآية لم يكونوا قد وجدوا مثل هؤلاء القوم الذين يتحدث عنهم الحق ، ولو لم يحدث للمعاصرين لنزول القرآن أن وجدوا مثل هؤلاء ماذا كانوا يقولون عن هذا الخبر ؟ . لو لم يجدوا مثل هؤلاء القوم لتشككوا فى القرآن . وسبحانه يوضح أنى عين معكم ، وعين لكم ، أخبرتكم بما حدث واختلفتم فيه ، وأخبركم بما لم يصل إلى أذهانكم وعلمكم فلا تختلفوا فيه ، وهذا دليل على أنكم فى رعايتى وفى عنايتى .

« ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم » وهؤلاء القوم هم قوم من بنى أسد وغطفان ، وكانوا على مشارف المدينة ، وكانوا يقابلون المسلمين فيقولون : « نحن معكم » ، وكانوا أيضاً يقابلون الكفار فيقولون : « نحن معكم » ، والحقيقة أنهم عاجزون عن مواجهة أى معسكر . ولذلك يصفهم القرآن : « ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم كلما ردوا إلى الفتنة أركسوا فيها » . وهؤلاء كلما جاءهم الاختبار « أركسوا فيها » . أى فشلوا فى الاختبار ، فعناصرهم الإيمانية لم تقو بعد ، ومازالوا فى حيرة من أمرهم . وعندما جاءتهم الفتنة لتصهرهم وتكشف ما فى

أعماقهم ازدادت حيرتهم . فالفتنة هى اختبار ، وليست الفتنة شيئاً مذموماً ، وعندما يقال : إن فلانا فى فتنة فعلى المؤمن أن يدعو له بالنجاح فيها ، فالفتنة ليست مصيبة تقع ، ولكن المصيبة تقع إذا رسب الإنسان فى الفتنة .

ونعلم أن الفتنة مأخوذة من الأمر الحسى ، فتنة الذهب وكذلك الحديد : فتنة الذهب هى صهر الذهب فى البوتقة حتى ينصهر ؛ فتطفو كالزبد كلُّ العناصر الشائبة المختلطة بالذهب ، وكذلك الحديد ، يتم صهره حتى تنفصل الذرات المتماسكة بعضها عن بعض . ويطفو الخبث .

ونعرف أن الحديد أنواع : فالحديد الزهر شوائبه ظاهرة فيه وسهل الكسر . بينما نجد الحديد الصلب بلا خبث فهو صلب . وفتنة الذهب والحديد تكشف عن المعادن الغريبة المختلطة به . ونقلت كلمة « الفتنة » من المحسات إلى المعانى ، وصارت الفتنة هى الاختبار الذى ينجح فيه الإنسان أو يرسب ، فهى ليست ضارة فى ذاتها ، ولكنها ضارة لمن يرسب فيها .

وهكذا كان تنبؤ القرآن الذى يخبر المسلمين بأمر قوم على حدودهم ، تجعلهم الفتنة لا يقوون على الإيمان ، أى فكلما دعاهم قومهم إلى الشرك وقتال المسلمين رُدُّوا على أعقابهم وانقلبوا على رءوسهم أقبح قلب وأشنعه وكانوا شرًّا من كل عدو عليكم ، ويشرح القرآن كيفية سلوك المؤمنين تجاه هؤلاء المرتكسين والمنقلبين فى الفتنة : « فإن لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلم ويكفوا أيديهم فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأولئكم جعلنا لكم عليهم سلطاناً مبيناً » ونلحظ أن الحق أمر بتأمين من لجأوا بضعفهم على الرغم من نفاقهم إما إلى المسلمين وإما إلى حلفاء المسلمين حين قال فى الآية السابقة :

﴿ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴾

(من الآية ٩٠ سورة النساء)

وهذا إنصاف وتنبيه إلهى من الحق ألا يسمع أحد صوت حفيظته ويفترس قوماً ضعفاء . أما الذين يحاولون التمرد والاستسلام لصوت الكفر وإيقاع الأذى بالمسلمين ، ولم يلقوا بالسلم للمسلمين ويكفوا أيديهم عنهم ، هؤلاء يأتى فيهم الأمر الإلهى :

خذوهم واقتلوهم . وجعل الله للمسلمين على هؤلاء السلطانَ المبين . والسلطان ـ كما نعرف ـ هو القوة ، والقوة تأخذ لونين : هناك قوة تقهر الإنسان على الفعل كأن يأتى واحد ويأمر إنساناً بالوقوف فيقف ، وكأنْ يأمر القوىُّ الضعيفَ بالسجود فيسجد . وهذا سلطان القوة الذى يقهر القالب ، لكنه لا يقدر على قهر القلب أبداً . والسلطان الثانى هو سلطان الحجة ، وقوة المنطق وقوة الأداء والأدلة التى تقنع الإنسان أن يفعل .

والفارق بين سلطان القوة وسلطان الحجة أن سلطان القوة قد يقهر الإنسان على السجود ، لكن سلطان الحجة يجعل الإنسان يسجد بالاقتناع . والسلطان المبين الذى جعله الله للمؤمنين على المنافقين الذين يقاتلون المؤمنين ، هذا السلطان يمكن لكم أيها المسلمون قوة تفعلون بها ما تريدون من هؤلاء ماداموا حاولوا القتال وإلحاق الأذى بالمسلمين ، فالحزم والعدل هو أخذهم بالعنف .

وحتى نفهم معنى السلطان جيداً فلنتذكر الجدل الذى سيحدث فى الآخرة بين الشيطان والذين اتبعوا الشيطان ، سنجد الشيطان يقول : لقد أغويتكم ، هذا صحيح ، وأنتم اتبعتمونى ، فأنتم المسئولون عن ذلك ، فلم يكن لى عليكم من سلطان قوة أو سلطان إقناع :

﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ﴾

(من الآية ٢٢ سورة إبراهيم)

وبعد أن تكلم الحق عن القتال ومشروعيته ، وقتال المنافقين ، وقتال الآخرين . نجد الكلام يصل إلى موضوع القتل . فأوضح لهم : المسألة أننى أنا الذى عملت البنيان الآدمى ، والحياة أنا الذى أهبها ، وليس من السهل لبانى البنيان أن يحرض على هدمه ، إنما أنا أحرض على هدم هؤلاء الذين يقاتلونكم ؛ لكى يسلم باقى البنيان لكم ، وإياكم أن تجترئوا على بنيانات الناس ، فملعون من يهدم بنيان الله ؛ فالنفس التى خلقها الله ، إياك أن تقترب من ناحيتها إلا بحقها وذلك بأن اجْتَرَأَتْ على حدود الله ؛ لأنه سبحانه هو الذى خلق الحياة وهو الذى يأخذ الحياة، وحياة الناس ليست ملكاً لهم ؛ فحياة الإنسان نفسه ليست ملكاً لنفسه ، ولذلك فمن يقتل واحداً، عُدْوانا دون حق نقتص منه ، وأما إن كان ذلك قد قتل خطأ فنأخذ منه الدية،

وتنتهى المسألة . لكن قاتل نفسه تحرم عليه الجنة .

إذن فقبل أن يقول لى : لا تقتل غيرك قال لى : إياك وأن تقتل نفسك . إذن فسبحانه ليس بغيور فقط على الناس منك ، بل يغار عليك أيضاً من نفسك ، ولذلك فحين شرع سبحانه القصاص فى القتل شرعه ليحميك لا ليجرئك على أن تقتل ، أما عندما يأمر سبحانه : أن من قَتَلَ يُقتل.فهو يقسط ويعدل ، والقصد من هذا الحفاظ على حياتين ؛ لأنك إن علمت أنك إن قَتَلْتَهُ قُتِلْت لا تقتل . ومادمت لا تقتل فقد حميت حياتين حياة من كنت ستقتله وحياتك من أن يُقتص منك وهذا هو معنى قوله :

﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾

(من الآية ١٧٩ سورة البقرة)

إذن فالذى يتفلسف ويقول : هذه بشاعة وكذا وكذا نقول له : الذى يشرع القصاص أيريد أن يَقتل ؟ لا ، بل يريد أن يحمى حياتك ؛ لأن القاتل عندما يعلم أنه إن قَتَلَ يُقتل فلا يقتل ، ومادام لا يقتل نكون قد حافظنا على حياته وحياة الآخر . إذن فقوله : « ولكم فى القصاص حياة » قول صدق .

وعندما تكلم الحق عن القتال والقتل ينبهنا : إياكم وأن تجترئوا بسبب هذه المسائل على دماء الناس ولا على حياتهم ؛ لذلك يتكلم سبحانه عن القتل المحظور فى الإيمان والإسلام ويقول :

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ
وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ
وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ فَإِن
كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ

رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ
وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ
وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ
فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ
وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾

جاء هذا القول بعد أن تكلم سبحانه عن القتال لتثبيت أمر الدعوة ، ولما كان القتال يتطلب قتل نفس مؤمنة نَفْسًا كافرة،ناسب ذلك أن يتكلم الحق سبحانه عن القتل .

والقتل ـ كما نعلم ـ محاولة إزهاق روح الحى بنقض بنيته . والحى وإن لم ننقض بنيته حين يأتى أجله يموت . إذن فنقض البنية من الإنسان الذى يريد أن يقضى على إنسان عملٌ غايتُه إنهاء الحياة ، فلا يظنن ظان أن القاتل الذى أراد أن ينقض بنية شخص يملك أن ينهى حياته ، ولكنه يصادف انقضاء الحياة ، فالذى ينهى الحياة هو الحق سبحانه وتعالى . ولذلك قلنا : إن الجزاء إنما وقع على القاتل لا لأنه أمات القتيل ولكن لأن القاتل تعجل فى أمر استأثر الله وحدهُ به ، والقتيل ميت بأجله ، فالحق سبحانه وتعالى هو الذى استخلف الإنسان فى الكون ، والاستخلاف شرحه الحق فى قوله :

﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾

(من الآية ٦١ سورة هود)

فالله هو الذى جعل الإنسان خليفة فى الكون ليعمر هذا الكون ، وعمارة الكون تنشأ بالتفكير فى الارتقاء والصالح فى الكون ، فالصالح نتركه صالحاً ، وإن استطعنا أن نزيد فى صلاحه فلنفعل .

الأرض ـ على سبيل المثال ـ تنبت الزرع ، وإن لم يزرعها الإنسان فهو يجد زرعاً

خارجاً منها ، والحق يريد من الإنسان أن ينمى فى الأرض هذه الخاصية فيأتى الإنسان بالبذور ويحرث الأرض ويزرعها . فهذا يزيد الأمر الصالح صلاحاً . وهذا كله فرع وجود الحياة .

إذن فالاستخلاف فى الأرض لإعمارها يتطلب حياة واستبقاء حياة للخليفة . ومادام استبقاء الحياة أمراً ضرورياً فلا تأتى أيها الخليفة لخليفة آخر مثلك لتنهى حياته فتعطل إحياءه للأرض واستعماره لها . فالقتال إنما شُرع للمؤمنين ضد الكافرين ؛ لأن حركة الكافرين فى الحياة حركات مفسدة ، ودرء المفسدة دائما مقدم على جلب المصلحة . فالذى يفسد الحياة يقاتله المؤمنون كى ننهى الحياة فيه ، ونُخَلِّص الحياة من معوق فيها .

إذن فيريد الحق أن تكون الحياة لمن تصلح الأرض بحياته . والكافرون يعيثون فى الأرض فساداً ، ويعيشون على غير منهج ، ويأخذون خير الضعيف ليصيروا هم به أقوياء ، فشرع الله القتال إما ليؤمنوا فيخضعوا للمنهج ، وإما ليخلص الحياة من شرهم . فإذا ما وجه الإنسان القتل لمؤمن ـ وهو فى ذاته صالح للاستعمار فى الحياة ـ يكون قد جنى على الحياة ، وأيضاً لو قتل الإنسان نفسه يكون قد جنى على الحياة كذلك ، لماذا ؟ لأنه أفقد الحياة واحداً كان من الممكن أن يعمر بحركته الأرض .

فإن اجترأ على حياته أو على حياة سواه فلا بد أن نؤدبه . كيف ؟ قال سبحانه :

﴿ وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا ﴾

(من الآية ٢٧ سورة يونس)

والتشريع الإسلامى وضع للقاتل عن سبق إصرار وترصد عقاباً هو القتل . وبذلك يحمى التشريع الحياة ولا ينمى القتل ، بل يمنع القتل . إذن ، فالحدود والقصاصات إنما وضعت لتعطى الحياة سعة فى مقوماتها لا تضييقا فى هذه المقومات ، والحق سبحانه وتعالى حينما تكلم عن القتال المشروع أراد أن يوضح لنا : إياكم أن تتعدوا بهذه المسألة ، وتستعملوا القتال فى غير الأمر المشروع ، فإذا ما اجترأ إنسان على إنسان لينهى حياته فى غير حرب إيمانية شرعية فماذا يكون الموقف ؟

يقول التشريع : إنه يقتل ، وكان يجب أن يكون فى بالك ألا تجترىء على إزهاق حياة أحد إلا أن يكون ذلك خطأ منك ، ولكن إن أنت فعلت خطأ نتج عنه الأثر وهو القتل . فماذا يكون الأمر ؟ هناك منفعل لك وهو القتيل وأنت القاتل ولكن لم تكن تقصده ، هما ـ إذن ـ أمران : عدم القصد فى ارتكاب القتل الخطأ ، والأمر الثانى هو حدوث القتل .

يقول التشريع فى هذه المسألة : إن القاتل بدون قصد قد أزهق حياة إنسان ، وحياة هذا الإنسان لها ارتباطات شتى فى بيئته الإيمانية العامة ، وله ارتباطاته ببيئته الأهلية الخاصة كعائلته ، العائلة له أو العائل لها أو الأسرة أو الأقرب من الأسرة وهو الأصل والفرع ، فكم دائرة إذن ؟ دائرة إيمانية عامة ، ودائرة الأهل فى عمومها الواسع ، ودائرة الأسرة ، ودائرة خصوصيةالأسرة فى الأصل والفرع . وحين تنهى حياة إنسان فى البيئة الإيمانية العامة فسوف تتأثر هذه البيئة بنقصان واحد مؤمن خاضع لمنهج الله ومفيد فى حركته ؛ لأن الدائرة الإيمانية فيها نفع عام .

لكن الدائرة الأهلية يكون فيها نفع خاص قليلاً والدائرة الأسرية نجد أن نفعه فيها كان خاصا بشكل ما ، وفى الأصل والفرع نجده نفعا مُهِمًّا وخاصاً جداً . إذن فهذا القتل يشمل تفزيعاً لبيئة عامة ولبيئة أسرة ولبيئة أصل وفرع .

ولذلك أريد أن تلاحظوا فى أحداث الحياة شيئا يمر علينا جميعا ، ولعل كثيراً منا لا يلتفت إليه ، مع أنه كثير الحدوث ، مثلاً : إذا كنا جالسين فى مجتمع وجاء واحد وقال : « فلان مات » ، وفى هذا المجتمع أناس يعرفونه معرفة عامة . وآخرون يعرفونه معرفة خاصة ولهم به صلة ، وأناس من أهله ، وفيه والد الميت أو ابنه ، انظروا إلى أثر النعى أو الخبر فى وجوه القوم ، فكل واحد سينفعل بالقدر الذى يصله ويربطه بمن مات . فواحد يقول : « يرحمه الله » وثانٍ يتساءل بفزع : « كيف حدث ذلك » ؟ وثالث يبكى بكاء مرًا ، ورابع يبكى جارياً ليرى الميت . الخبر واحد فلماذا يتعدد أثر وصدى الانفعالات ، ولماذا لم يكن الانفعال واحداً ؟

نقول : إن الانفعال إنما نشأ قهراً بعملية لا شعورية على مقدار نفع الفقيد لمن ينفعل لموته ؛ فالذى كان يلتقى به لِماماً ويسيراً فى أحايين متباعدة يقول : « رحمه

الله » . والذى كان يجالسه كل عيد يفكر فى ذكرياته معه ، وحتى نصل إلى أولاده فنجد أن المتخرج الموظف وله أسرة يختلف انفعاله عن الخريج حديثاً أو الذى يدرس ، أو البنت الصغيرة التى مازالت تتلقى التعليم ، هؤلاء الأولاد يختلف تلقيهم للخبر بانفعالات شتى ، فالابن الذى له أسرة وله سكن يتلقى الخبر بانفعال مختلف عن الابن الذى مازال فى الدراسة ، وانفعال الابنة التى تزوجت ولها أسرة يختلف عن انفعال الابنة التى مازالت لم تجهز بعد .

إذن فالانفعال يحدث على مقدار النفعية ، ولذلك قد نجدها على صديق أكثر مما نجدها على شقيق . وقالوا : من أحب إليك ، أخوك أم صديقك ؟ . قال : النافع . إذن تلقى خبر انتهاء الحياة يكون مختلفاً ، فالحزن عليه والأسف لفراقه إنما يكون على قدر إشاعة نفعه فى المجتمع .

فالذى تجد المجتمع كله هائجا وثائرا وحزينا لفراقه كان نافعاً للمجتمع كله ، والذى تبكى عليه أسرته فقط نقول : إنه كان على قدر نفعه لأسرته وأولاده ، وقد يموت واحد ولا يحس أحد أن الكون قد نقص . وهذا هو السبب فى أنهم أرادوا أن يجعلوا لكل واحد وطناً . وقالوا : إن أوطان الناس على قدر همتهم . فواحد ليس له وطن إلا نفسه فقط ؛ يرى كل شىء لنفسه ولا يرى نفسه لأحد حتى ولو كانوا أولاده .

وهناك واحد يكون وطنه أسرته يعمل على قدر نفعها ، وواحد يكون وطنه عائلته وقريته ، وواحد وطنه أمته . وواحد وطنه العالم كله . إذن فعندما يفجع المجتمع فى واحد فالهزة تأتى على قدر وطنه ، وعندما يفاجأ الناس بواحد يُقتل عن طريق الخطأ فالفاعل معذور . ولكن عذره لم يمنع أن تعدى فعله وأن الآخر قد قتل ؟ . فالأثر قد حصل ، وتحدث الهزة للأقرب له فى الانتفاع ، ولأن القتل خطأ فلن يتم القصاص من القاتل ، ولكن عليه أن يدفع دية ، وهذه الدية توزع على الناس الذين تأثروا بفقدان حياته ؛ لأن هناك قاعدة تقول : « بسط النفع وقبض الضر » .

إنك ساعة ترى شيئاً سينفعك فإن النفس تنبسط ، وعندما ترى شيئاً سيضرك فإن النفس تنقبض . وعندما يأتى للإنسان خبر موت عزيز عليه فإن نفسه تنقبض ، وساعة يأتيه من بعد ذلك خبر وهو حصوله على جزء من دية القتيل فالنفس تنبسط ، وبذلك يتم علاج الأثر الحادث عن القتل الخطأ .

والدية بحكم الشرع تأتى من العاقلة ، وبشرط ألا تؤخذ من الأصول والفروع ، فلا تجتمع عليهم مصيبة فقد إنسان على يد أحد من أصولهم أو فروعهم وهم بذلك يفزّعون فلا يجمع عليهم هذا الأمر مع المشاركة فى الدية . كأن التشريع أراد أن يعالج الهزة التى صنعها انحراف بعلاج هو وقاية من رد الفعل فيحقق التوازن فى المجتمع . فمن يقتل خطأ لا يقتص منه المجتمع ولكن هناك الدية . ومن أجل إشاعة المسئولية فالقاتل لا يدفعها ، ولكن تدفعها العاقلة ؛ لأن العاقلة إذا ما علمت أن من يجنى من أهلها جناية وأنّها ستتحمل معه فإنها تعلّم أفرادها فن صيانة حقوق غيرهم ؛ لأن كل واحد منها سيدفع ، وبذلك يحدث التوازن فى المجتمع .

والحق سبحانه وتعالى يعلمنا أن نستبعد أن يقتل مؤمن مؤمناً إلا عن خطأ ، فلا يستقيم أن يحدث ذلك عمدا فيقول : « وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأ » ومعنى هذا أن مثل هذا القتل لا يصح أن يحدث عن قصد ؛ لأن اللُّحمة ـ بضم اللام ـ الإيمانية تمنع هذا . لكن إن حدث هذا فما العلاج ؟ . «وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأ ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله » .

ولا يذكر سبحانه هنا القصاص ، فالقصاص قد تقدم فى سورة البقرة فى قوله تعالى :

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ﴾

(من الآية ١٧٨ سورة البقرة)

والقصاص حق الولى فله أن يعفو أو أن يأخذ الدية ، كأن يقول : عفوت عن القصاص إلى الدّية . ويجب أن نفرق بين الحد وبين القصاص . فالقصاص حق الولى ، والحد حق الله . وللولى أن يتنازل فى القصاص ، أما الحدود فلا يقدر أحد أن يتنازل عنها ، لأنها ليست حقاً لأحد ولكنها حق لله .

إذن فالقتل الخطأ قال فيه : « فتحرير رقبة مؤمنة » وهنا قد نسأل : وماذا يستفيد أهل المجنى عليه بالقتل من تحرير رقبة مؤمنة ؟ . هل يعود ذلك على أهل القتيل ببسط فى النفعية ؟ . قد لا تفيدهم فى شىء ، لكنها تفيد المجتمع ؛ لأن مملوك الرقبة وهو العبد أو الأمة هو مملوك لسيده ، والسيد يملك حركة العبد ، ولكن عندما يكون

العبد حرّاً فهو حر الحركة ؛ فحركة العبد مع السيد محدودة ، وفى حريته حركة مفيدة للمجتمع .

إذن فالقبض الذى حدث من قتل نفس مؤمنة يقابلها بسط فى حرية واحد كان محكوماً فى حركته فنقول له : انطلق فى حركتك لتخدم كل مجتمعك . ويريد الحق بذلك أن يفتح مصرفاً لحرية الأرقاء ضمن المصارف الكثيرة التى جعلها الإسلام لذلك .

وبعد هذا القول « ودية مسلمة إلى أهله » لكى تصنع البسط فى نفوس أهله ليعقب القبض نتيجة خبر القتل . ولذلك نجد أسرة قد فجعت فى أحد أفرادها بحادثة وعاشوا الحزن أياماً ثم يأخذون الأوراق ويصرفون بها الدية أو التعويض ، مما يدل على أن فى ذلك شيئاً من السلوى وشيئاً من التعزية وشيئاً من التعويض ، ولو كانت المسألة مزهوداً فيها لقالوا : « نحن لا نريد ذلك » ، ولكن ذلك لا يحدث .

وبعد ذلك نجد الذى فقد حياة حبيب لا يظل فى حالة حزن ليفقد حياة نفسه ، ففى الواقع يكون الحزن من الحزين على نفسه بمقدار ما فات عليه من نفع عندما قُتل له القتيل ، والحزين إنما حزن لأن القتيل كان يثرى حياته ، فلما مات صارت حياة النفع منه بلا إثراء .

ولو رأينا إنساناً يحزن لفقد واحد وقلنا له : احتفظ بجثمانه لمدة أسبوع لترتوى من أشواقك إليه ، وبعد ذلك نأخذه منك لندفنه أيرضى ؟. لن يرضى أبداً بذلك . أو نقول للحزين : « لن نقدم لك طعاماً لمدة أسبوع لأنك فى حالة حزن هنا لن يوافق الحزين ، وزوجة الفقيد تذرف عيناها الدمع وتبكى عليه لكنها تأكل وتشرب .

إذن فالمسألة يجب أن تكون واضحة لاستقبال أقضية الحق وهى أقضية لا تنقض نواميس الله فى الكون. وبعد ذلك يريد الحق أن يشيع التعاطف بين الناس، فإذا قال أهل القتيل لأهل القاتل : نحن لا نريد دية ، لأن مصيبتكم فى القتيل مثل مصيبتنا فيه ، وكلنا إخوة فما الذى يجرى فى المجتمع ؟. الذى يحدث من النفع هو أضعاف أضعاف ما تؤديه الدية ، إذن فهذا تربيب للدية ، فساعة يعرف الطفل فى العائلة أنه

كان مطلوباً منهم دية لأن أباه قد قَتَل ، وعفا أهل القتيل فلم يأخذوا الدِّية ، هذا الطفل سيعرف عندما يَشِبُّ ويعقل الأمور أن كل خير عند أسرته ناتج من هذا العفو وهذه العفّة ، فيحدث الود .

إذن فالحق سبحانه وتعالى يريد أن يربب إشاعة المودة والصفاء والنفعية . فإذا ما حزن واحد لفقدان إنسان بالقتل الخطأ قد يأخذ الدية فينتفع ، وإن لم يأخذها فهو ينتفع أكثر ؛ لذلك يقول الحق : « ودية مسلّمة إلى أهله إلا أن يصدقوا » .

وهذا ما يحدث إذا ما قتل مؤمن مؤمناً خطأ فى بيئة إيمانية ، ولكن ما الذى يحدث عندما يتم قتل مؤمن لواحد من قوم أعداء والمقتول مؤمن ويعيش بين الكفار ؟ . ها نحن أولاء نرى عدالة التشريع الإلهى ، وحتى نزداد يقيناً بأن الله هو رب الجميع ؛ لذلك قال الحق : « فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن » أى كان المقتول من قوم فى حالة عداء مع المسلمين فهو لا يستحق الدية ؛ لأنه يحيا فى قوم كافرين .

هكذا نجد التشريع هنا قد شرع لثلاث حالات : شرع لواحد فى البيئة الإيمانية ، وشرع لواحد مؤمن فى قوم هم أعداء للمؤمنين ، وشرع لواحد قد قُتل وهو من قوم متحالفين مع المسلمين . وكل واحدة لها حكم ، والحكم فى حالة أن يكون القتيل من قوم بينهم وبين المسلمين عداء وهو مؤمن ، فتحرير رقبة مؤمنة ، وذلك للتعويض الإيمانى فينطلق عبد كان محدود الحركة لأنّ هناك مَن مات وانتهت حركته ، وفى هذا تعويض للمجتمع عندما تشيع حركة العبد . وماذا نفعل فى الدية ؟ . لا يأخذون الدية ؛ لأن الدية موروثة ، وهم من الكفار وليس بين الكفار والمسلمين توارث أى فليس هنا دية .

وعندما ننظر إلى قول الحق : « فإن كان من قوم عدو لكم » نجد أن كلمة « عدو » مفردة فى ذاتها ، ولكنها تشمل كل القوم ، وفى اللغة نقول : « هو عدو » و« هما عدو » و« هم عدو » وإن تنوعت عداوتهم فهم أعداء ، ولكن عندما يتحد مصدر العداء فهم عدو واحد . والحق يقول : « فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة » ولم يورد سبحانه هنا الدية لأن القوم على عداء للإسلام فلا دية لهم ؛ لأنه لا توارث .

ويقول الحق : « وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلَّمةٌ إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة » فإذا أعطى المسلمون قوماً عهداً من العهود فلا بد من الوفاء . هذا الوفاء يقتضى تسليم دية لأهله ؛ لأن هذا احترام للعهد ، وإلا فما الفارق بيننا وبينهم . . . والدية ـ كما نعلم ـ تدفعها العاقلة ، ويقول الحق فى بيان حق الله فى أمر القتل خطأ : « وتحرير رقبة مؤمنة فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبة من الله » أى فمن لم يجد الرقبة أو لم يتسع ماله لشرائها فصيام الشهرين بكل أيامهما ، فلا يفصل بينهما إلا فاصل معذر كأن يكون القاتل ـ دون قصد ـ على مرض أو على سفر . وبمجرد أن ينتهى المرض أو السفر فعليه استكمال الصوم .

ولماذا هذا التتابع الحكمى ؟ . لأن الله سبحانه وتعالى يريد أن يجعل هذه المسألة شاغلة لذهن القاتل ، ومادامت تشغل ذهنه فالصيام لا بد أن يكون متتابعاً ، فلو لم يكن الصيام متتابعاً لأصابت القاتل غفلة . « فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبة من الله » .

ولماذا قال الحق : « توبة من الله » ؟ . والتوبة ـ كما نعرف ـ قد تكون من العبد فنقول : « تاب العبد » .

وقد تسند التوبة إلى الحق فيقال : « تاب الله عليه » ومراحل التوبة ثلاث : حين يشرع الله التوبة نقول : تاب الله على العباد فشرع لهم التوبة فلا أحد يتوب إلا من باطن أن الله شرع التوبة ؛ لأنه لو لم يشرع الله التوبة لتراكمت على العباد الذنوب والخطايا .

وتشريع التوبة هو تضييق شديد لنوازع الشر ، فلو لم يشرع الله التوبة لكان كل من ارتكب ذنباً يعيث فى الأرض بالفساد . فحين شرع الله التوبة عصم المجتمع من الأشرار . فلأنه شرّع التوبة ، فهو ـ سبحانه ـ يتوب ، هذه هى المرحلة الأولى . ومادام الله قد شرع التوبة فالمذنب يتوب ، هذه هى المرحلة الثانية ، وساعة شرع الله التوبة ويتوب المذنب فالله يقبل التوبة ، هذه هى المرحلة الثالثة .

وهكذا نرى دقة القرآن حين قال :

﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾

(من الآية ١١٨ سورة التوبة)

وبعد أن يتوبوا فإن الله يقبل التوبة عن عباده .

إذن فالتوبة الأولى من الله تشريع . والتوبة الثانية من الله قبول ، والوسط بينهما هى توبة الإنسان .

ويذيل الحق الآية : « توبة من الله وكان الله عليماً حكيماً » فسبحانه يشرع التشريع الذى يجعل النفوس تحيا فى مُناخ طبيعى وفى تكوينها الطبيعى ، فلو تصورنا أن إنساناً قد قُتل خطأ وتركنا أهل المقتول بلا ترضية فلن يستفيد المجتمع الإيمانى من قتله .

إذن فالعلم من الله بالنفس البشرية جعل من قتل خطأً يُفيد المجتمع الإيمانى بتحرير رقبة ، فيزيد المجتمع إنساناً حراً يتحرك حركة إيمانية ؛ لذلك اشترط الحق أن تكون الرقبة مؤمنة ، حتى نضمن أن تكون الحركة فى الخير ، فنحن لا نحرر رقبة كافرة ؛ لأن الرقبة الكافرة عندما تكون مملوكة لسيد فشرها محصور ، لكن لو أطلقناها لكان شرها عاماً . وبعد تحرير الرقبة هناك الدية لننثرها على كل مفزع فى منفعته فيمن قُتل ، ولا نأخذها من أصول القاتل وفروعه ، فلا نجمع عليهم مصيبتين القتل الذى قام به أصلهم أو فرعهم ؛ لأن ذلك ـ لاشك ـ سيصيبهم بالفزع والخوف والاشفاق على مَن جنى منهم . وأن يشتركوا فى تحمل الدية . وذلك العمل ناشىء عن حكمة . فإذا كان الذى يضع الأشياء فى موضعها هو خالقها ، فلن يوجد أفضل من ذلك لتستقيم الأمور .

وفى المجال البشرى نجد أن أى آلة من الآلات ـ على سبيل المثال ـ مكونة من خمسين قطعة ، وكل قطعة ترتبط بالأخرى بمسامير أو غير ذلك ، ومادامت كل قطعة فى مكانها فالآلة تسير سيراً حسناً ، أما إذا توقفت الآلة فإننا نستدعى المهندس ليضع كل قطعة فى مكانها ، وكل شىء حين يكون فى موضعه فالآلة تمشى باستقامة ، وكل حركة فى الوجود مبنية على الحكمة لا ينشأ فيها فساد ؛ فالفساد إنما ينشأ من حركات

تحدث بدون أن تكون على حكمة . والحكمة مقولة بالتشكيك ، فهناك حكيم وهناك أحكم . وقديماً ـ على سبيل المثال ـ كنا نرى الأسلاك الكهربائية دون عوازل فكان يحدث منها « ماس » كهربائى . وعندما اكتشفنا العوازل استخدمناها وعدلنا من تصنيعنا للأشياء . وكنا نجد الأسلاك فى السيارة ـ مثلاً ـ ذات لون وحجم واحد ، فكان يحدث الارتباك عند الإصلاح ، لكن عندما تمت صناعة كل سلك بلون معين ، فسهل هذا عملية الإصلاح .

فالحكمة هى وضع الشىء فى موضعه ، فما بالنا حين يكون من يضع الشىء فى موضعه هو خالقنا ؟ لن نجد أفضل ولا أحسن من ذلك .

فإذا ما رأينا خللاً فى مجتمع فلنعلم أن هناك شيئاً قد ناقض حكمة الله . وعندما نبحث عن العطب سوف نجده ، تماماً مثلما تبحث عن العطب فى أى آلة وتأتى لها بالمهندس الذى يصلحها . ويجب أن نرده إلى من خلق المجتمع ، ونبحث عن علاج الخلل بحكم من أحكام الله . ولذلك أرشدنا الحق إلى أننا إن اختلفنا فى شىء فلنرده إلى الله وإلى الرسول حتى لا نظل فى تعب .

وبعد ذلك يتكلم الحق عن القتل العمد ، وقد يقول قائل : أما كان يجب أن يحدثنا الله عن القتل العمد أولاً ؟ ونقول : الحق لو تكلم عن القتل العمد أولاً لكان ذلك موحياً أنه يحدث أولاً ، ولكن الحق يوضح : لا يصح أن تأتى هذه على خيال المؤمن .

ويسأل سائل : لماذا لم يقل الحق : « وما كان لمسلم » . ونقول : يجب أن ننتبه إلى أن الحق نادى المؤمن لأن الإيمان عمل قلبى ، ولهذا كان النداء للمؤمنين ولم يكن النداء للمسلمين ؛ لأن الإسلام أمر ظاهرى ، فقد يقتل إنسان يتظاهر بالإسلام إنساناً مؤمناً . لهذا نادى الحق بالنداء الذى يشمل المظهر والجوهر وهو الإيمان .

وحين يشرع الحق فلا بد أن يأتى بالجزاء والعقاب للذى يقتل عمداً . وهو يقول :

﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾ ﴾

والقتل هنا لمؤمن بعمد ، فالأمر إذن مختلف عن القتل الخطأ الذى لا يدرى به القاتل إلا بعد أن يقع . وجزاء القاتل عمداً لمؤمن هو جهنم ، وليس له كفارة أبداً . هكذا يبشع الحق لنا جريمة القتل العمد . لأن التعمد يعنى أن القاتل قد عاش فى فكرة أن يقتل ، ولذلك يقال فى القانون « قتل عمد مع سبق الإصرار » . أى أن القاتل قد عاش القتل فى تخيله ثم فعله ، وكان المفروض فى الفترة التى يرتب فيها القتل أن يراجعه وازعه الدينى ، وهذا يعنى أن الله قد غاب عن باله مدة التحضير للجريمة ، ومادام قد عاش ذلك فهو قد غاب عن الله ، فلو جاء الله فى باله لتراجع ، ومادام الإنسان قد غاب باله عن الله فالله يغيبه عن رحمته .

« ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها » وقالوا فى سبب هذه الآية : إن واحداً اسمه مِقْيَسْ بن ضبابة كان له أخ اسمه هشام ، فوجد أخاه مقتولاً فى بنى النجار ، وهم قوم من الأنصار بالمدينة . فلما وجد هشامًا قتيلا ذهب مِقْيَس إلى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبره بالخبر ، فأرسل معه رجلاً من بنى فهر وكتب إليهم أن يدفعوا إلى مِقْيَس قاتل أخيه ، فقال بنو النجار والله ما نعلم له قاتلا ، ولكننا نؤدى الدية فأعطوه مائة من الأبل ثم انصرفا راجعين إلى المدينة فعدا مِقْيَس على الفِهرى فقتله بأخيه وأخذ الإبل وانصرف إلى مكة مرتدًّا وجعل ينشد :

قتلت بـه فِهـراً وحملت عقله ... سراة بنى النجار أرباب فارع
حللت به وترى وأدركت ثورتى ... وكنت إلى الأوثـان أول راجـع

فلما بلغ سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك أهدر دمه . ومعنى « أهدر دمه » أباح دمه ، أى أن مَن يقتله لا عقاب عليه ، إلى أن جاء يوم الفتح فَوُجد

« مقيس » متعلقاً بأستار الكعبة ليحتمى بها ، فأمر رسول الله صلى الله عيه وسلم بقتله ، « ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً » .

وهنا نجد أكثر من مرحلة فى العذاب : جزاء جهنم ، خُلود فى النار ، غَضب من الله ، لعنة من الله ، إعداد من الله لعذاب عظيم . فكأن جهنم ليست كل العذاب ؛ ففيه عذاب وفيه خلود فى النار وفيه غضب وفيه لعنة ثم إعداد لعذاب عظيم . وهذا ما نستعيذ بالله منه . فبعضنا يتصور أن العذاب هو جهنم فحسب ، وقد يغفل بعض عن أن هناك ألوانًا متعددة من العذاب . وفى الحياة نرى إنساناً يتم حبسه فنظن أن الحبس هو كل شيء ، ولكن عندما وصل إلى علمنا ما يحدث فى الحبس عرفنا أن فيه ما هو أشر من الحبس .

وهنا وقفة وقف العلماء فيها : هل لهذا القاتل توبة ؟ واختلف العلماء فى ذلك ، فعالم يقول : لا توبة لمثل هذا القاتل . وعالم آخر قال : لا ، هناك توبة . وجاء سيدنا ابن العباس وجلس فى جماعة وجاء واحد وسأله : أللقاتل عمداً توبة ؟ قال ابن العباس : لا . وبعد ذلك بمدة جاء واحد وسأل ابن العباس : أللقاتل عمداً توبة ؟ فقال ابن العباس : نعم . فقال جلساؤه : كيف تقول ذلك وقد سبق أن قلت لا ، واليوم تقول نعم .

قال ابن العباس : سائلى أولاً كان يريد أن يقتل عمداً ، أما سائلى ثانياً فقد قتل بالفعل ، فالأول أرهبته والثانى لم أقَنِّطه من رحمة ربه .

وكيف فرق ابن العباس بين الحالتين ؟ إنها الفطنة الإيمانية والبصيرة التى يبسطها الله على المفتى . فساعة يوجد النبى صلى الله عليه وسلم فى صحابته يسأله واحد قائلا : « أى الإسلام خير » ؟ فيقول صلوات الله وسلامه عليه : « تطعم الطعام وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف »[1] ويسأله آخر فيجيبه بقوله : « من سلم المسلمون من لسانه ويده » وهكذا كان عليه الصلاة والسلام يجيب كل سائل بما

(١) رواه مسلم .

يراه أصلح لحاله أو حال المستمع ، ويجيب كل جماعة بما هو أنفع لهم . . ويسأله عبدالله ابن مسعود رضي الله عنه : أى الأعمال أفضل ؟ فيقول صلوات الله وسلامه عليه : « الصلاة على ميقاتها . قلت : ثم ماذا يا رسول الله ؟ قال : أن يسلم الناس من لسانك »(١) .

ونعرف أن آية القتل العمد تتطلب المزيد من التفكر حول نصها « فجزاؤه جهنم خالداً فيها » . وهل الخلود هو المكث طويلاً أو على طريقة التأبيد . . بمعنى أن زمن الخلود لا ينتهى ؟ ولو أن زمن الخلود لا ينتهى لما وصف الحق المكث فى النار مرة بقوله :

﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾

(من الآية ٨٨ سورة آل عمران)

ومرة أخرى بقوله :

﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴾

(من الآية ١٦٩ سورة النساء)

هذا القول يدل على أن لفظ التأبيد فى « أبداً » فيه ملحظ يزيد على معنى الخلود دون تأبيد . وإذا اتحد القولان فى أن الخلود على إطلاقه يفيد التأبيد ، وأن « خالدين فيها أبداً » تفيد التأبيد أيضاً ، فمعنى ذلك أن اللفظ « أبداً » لم يأت بشىء زائد . والقرآن كلام الله ، وكلام الله منزه عن العبث أو التكرار . إذن لا بد من وقفة تفيدنا أن الخلود هو المكث طويلاً ، وأن الخلود أبداً هو المكث طويلاً طولاً لا ينتهى ، وعلى ذلك يكون لنا فهم . فكل لفظ من القرآن محكم وله معنى . ثم إن كلمة « خالدين » حين وردت فى القرآن فإننا نجد الحق سبحانه وتعالى يقول فى خلود النار :

﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ﴾

(سورة هود)

---

(١) رواه الطبرانى .

فكأن الحق سبحانه وتعالى استثنى من الخلود « إلا ما شاء ربك » . والاستثناء لا بد له من زمن ، فلا نأخذ الخلود بمعنى التأبيد ، ولكن الخلود هو زمن طويل ، وكذلك يقول فى خلود الجنة :

﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي ٱلْجَنَّةِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾ ﴾

(سورة هود)

وقوله الحق : « إلا ما شاء ربك » تفيد أن الخلود عندهم ينتهى . مادام هناك استثناء ؛ فالاستثناء لا بد له من زمن ، والزمن مستثنى من الخلود وعلى ذلك لا يكون الخلود تأبيدياً .

وعلينا أن نتناول الآيات بهذه الروح ، وفى هذه المسألة نجد وقفة لعالم من أعلام العقائد فى العصر العباسى هو عمرو بن عبيد ، وكان عمرو من العلماء الذين اشتهروا بالمحافظة على كرامة العلم وعزة العلماء لدرجة أن خليفة ذلك الزمان قال عنه وسط بعض المنتسبين إلى العلم : « كلهم طالب صيد إلا عمرو بن عبيد » وقد كانت منزلته العلمية عالية ونفسه ذات عزة إيمانية تعلو على صغائر الحياة . وكان عمرو بن عبيد دقيق الرأى ، ويحكى عنه قيس بن أنس هذه الحكاية : كنت فى مجلس عمرو بن عبيد فإذا بعمرو بن عبيد يقول: « يؤتى بى يوم القيامة فيقال لى: لم قلت بأن قاتل العمد لا توبة له . قال:فقرأت الآية : « فجزاؤه جهنم خالداً فيها » وكان يجب أن يلتفت عمرو بن عبيد إلى أن الإلهام الذى جاءه أو الرؤيا التى أراها له الله بأنه سوف يؤتى به يوم القيامة ليسأل لماذا أفتى بألا توبة لقاتل العمد ، كان يجب أن يلتفت إلى أن ذلك يتضمن أن لقاتل العمد توبة ؛ لأن سؤاله عن ذلك يوم القيامة يشير إلى عتاب فى ذلك .

نقول ذلك لنعرف أنَّ الحق سبحانه وتعالى جعل فوق كل ذى علم عليما . . ولكنَّ عمرا ذكر ما جاء فى قول الحق : « فجزاؤه جهنم خالداً فيها » . وقال قيس بن أنس : وكنت أصغر الجالسين سناً ، فقلت له : لو كنت معك لقلت كما قلت : « فجزاؤه جهنم خالداً فيها » وقلت أيضاً :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾

(من الآية ٤٨ سورة النساء)

قال قيس : فوالله ما رد على عمرو بن عبيد ما قلت . ومعنى ذلك موافقة عمرو بن عبيد .

ماذا تفيد هذه ؟ . تفيد ألا نأخذ كلمة « خالدين فيها » بمعنى التأبيد الذى لا نهاية له ، لأن الله قد استثنى من الخلود فى آية أخرى .

والحق سبحانه وتعالى بعد أن شرح حكم القتل العمد والقتل الخطأ ، بحث العلماء ووجدوا أن هناك قتلاً اسمه « شبه العمد » أى أنه لا عمد ولا خطأ ، كأن يأتى إنسان إنساناً آخر ويضربه بآلة لا تقتل عادة فيموت مقتولاً ، وهنا يكون العمد موجوداً ، فالضارب يضرب ، ويمسك بآلة ويضرب بها ، وصادف أن تقتل الآلة التى لا تقتل غالبا ، وقال العلماء : القتل معه لا به ، فلا قصاص ، ولكن فيه دية .

وأراد الحق سبحانه وتعالى أن يوضح : بعد ما حدث وحدثتكم عن القتل بكل صوره وألوانه سواء أكان القتل مباحا كقتل المسلمين الكافرين فى الحرب بينهما ، أم القتل العمد ، أم القتل الخطأ ، أم القتل شبه العمد ، لذلك ينبهنا : يجب أن تحتاطوا فى هذه المسألة احتياطاً لتتبينوا أين تقع سيوفكم من رقاب إخوانكم ، فيقول :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ

كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾

فيأيها المؤمنون حين تضربون فى سبيل الله فتبينوا وتثبتوا فلا تعمل سيوفكم أو رماحكم أو سهامكم إلا بعد أن تتثبتوا : « ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم فتبينوا إن الله كان بما تعملون خبيراً » .

إذن فهذه آية تجمع بين كل المعانى ، ففيها الحكم وحيثيته والمراد منه ، وسبحانه يبدأها بقوله : « يا أيها الذين آمنوا » ، والخطاب الإيمانى حيثية الالتزام بالحكم ، فلم يقل : « يا أيها الناس إذا ضربتم فتبينوا » ، ولكنه قال : « يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم فى سبيل الله فتبينوا » فهو يطلب المؤمنين به بحكم لأنهم آمنوا به إلهاً ، وماداموا قد آمنوا فعليهم اتباع ما يطلبه الله . فحيثية كل حكم من الأحكام أن المؤمن قد آمن بمن أصدر الحكم ، فإياك أيها المؤمن أن تقول : « ما العلة » أو « ما الحكمة » وذلك حتى لا تدخل نفسك فى متاهة . ولا نزال نكرر هذه المسألة ، لأن هذه المسألة تطفو فى أذهان الناس كثيراً ، ويسأل بعضهم عن حكمة كل شىء ، ولذلك نقول : الشىء إذا عرفت حكمته صرت إلى الحكمة لا إلى الأمر بالحكم .

ونرى الآن المسرفين على أنفسهم الذين لا يؤمنون بإله ، أو يؤمنون بالله ولكنهم ارتكبوا الكبائر من شهادة زور ، إلى ربا ، إلى شرب خمر ، وعندما يحلل الأطباء للكشف عن كبد شارب الخمر ـ على سبيل المثال ـ نجده قد تليف ، وأن أى جرعة خمر ستسبب الوفاة . هنا يمتنع عن شرب الخمر. لماذا امتنع ؟ . لأنه عرف الحكمة . وقد يكون قائلها له مجوسياً ، فهل كان امتناعه عن الحكم تنفيذاً لأمر إلهى ؟ . لا ، ولكن المؤمن يمتنع عن الخمر لأنها حرمت بحكم من الله والمؤمن ينفذ كل الأحكام حتى فى الأشياء غير الضارة ، فمن الذى قال : إن الله لا يحرم إلا الشىء الضار ؟ إنه

قد يحرم أمراً تأديباً للإنسان . ونضرب هذا المثل ـ ولله المثل الأعلى ـ نجد الزوج يقول لزوجه : إياك أن تعطى ابننا بعضاً من الحلوى التى أحضرتها. هو يحرم على ابنه الحلوى لا لأنها ضارة ، ولكنه يريد تأديب الابن والتزامه .

والحق يقول :

﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ﴾

(من الآية ١٦٠ سورة النساء)

فالذى يذهب إلى تنفيذ حكم الله إنما يذهب إليه لأن الله قد قاله ، لا لأن حكمة الحكم مفيدة له ، فلو ذهب إنسان إلى الحكم من أجل فائدته أو ضرره فإن الإيمان يكون ناقصاً ، والله يدير فى كثير من الأوقات حكمته فى الأحكام حتى يرى الإنسان وجهاً من الوجوه اللا نهائية لحكمة الله التى خفيت عليه ، فيقول الإنسان : أنا كنت أقف فى حكمة كذا ، ثم بينت لى الأحداث والأيام صدق الله فيما قال . وهذا يشجع الإنسان أن يأخذ أحكام الله وهو مسلِّم بها .

والحق يقول : « يا أيها الذين آمنوا » والإيمان هو الحيثية ، يا من آمنت بى إلهاً قادراً حكيماً . . اسمع منى ما أريده منك : « يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم فى سبيل الله » والضرب ـ كما نعرف ـ هو انفعال الجارحة على شىء آخر بعنف وقوة . وقوله :

﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾

(من الآية ١٠١ سورة النساء)

معناها أن الحياة كلها حركة وانفعال ، ولماذا الضرب فى الأرض ؟. لأن الله أودع فيها كل أقوات الخلق ، فحين يحبون أن يُخرجوا خيراتها ؛ يقومون بحرثها حتى يهيجوها ، ويرموا البذور ، وبعد ذلك الرّى . ومن بعد ذلك تخرج الثمار ، وهذه هى عملية إثارة الأرض . إذن كل حركة تحتاج إلى شدة ومكافحة ، والحق يقول :

﴿ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ٢٠ سورة المزمل)

ومادامت المسألة ضرباً فى الأرض فهى تحتاج إلى عزم من الإنسان وإلى قوة .

ولذلك يقال : الأرض تحب من يهينها بالعزق والحرث . وكلما اشتدت حركة الإنسان فى الأرض أخرجت له خيراً . والضرب فى سبيل الله هو الجهاد ، أو لإعداد مقومات الجهاد . والحق سبحانه يقول لنا :

﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾

(من الآية ٦٠ سورة الأنفال)

فالإعداد هو أمر يسبق المعارك ، وكيف يتم الإعداد ؟ .

أن نقوم بإعداد الأجسام ، والأجسام تحتاج إلى مقومات الحياة . وأن نقوم بإعداد العُدد . والعدد تحتاج إلى بحث فى عناصر الأرض ، وبحث فى الصناعات المختلفة لنختار الأفضل منها . وكل عمليات الإعداد تطلب من الإنسان البحث والصنعة . ولذلك يقال فى الأثر الصالح :

« إن السهم الواحد فى سبيل الله يغفر الله به لأربعة » .

لماذا ؟ . لأن هناك إنساناً قام بقطع الخشب الذى يتم منه صناعة السهم وصقله ، وهناك إنسان وضع للسهم الريش حتى يطيره إلى الأمام ، وهناك واضع النَّبْل ، وهناك من يرمى السهم بالقوس .

والحق يريد منا أن نكون أقوياء حتى يكون الضرب منا قوياً ، فيقول : « إذا ضربتم فى سبيل الله فتبينوا » ونعرف أن الضرب فى سبيل الله لا يكون فى ساعة الجهاد فقط ، ولكن فى كل أحوال الحياة ؛ لأن كل ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب . و« تبينوا » تعنى ألا تأخذوا الأمور بظواهرها فلا تمضوا أمراً أو تعملوا عملاً إلا إذا تثبتم وتأكدتم حتى لا يصيب المؤمنون قوماً بظلم .

ولهذا الأمر قصة ، كان هناك رجل اسمه « محلِّم بن جَثّامة » ، وكان بينه وبين آخر اسمه « عامر بن الأضبط الأشجعى » إحن - أى شيء من البغضاء - وبعد ذلك كان « محلم » فى سرية ، وهى بعض من الجند المحدود العدد وصادف « عامراً الأشجعى » ، وكان « عامر » قد أسلم ، لذلك ألقى السلام إلى « محلّم » فقال « محلم » : إن عامراً قد أسلم ليهرب منى . وقتل محلم عامراً . وذهب إلى رسول الله

صلى الله عليه وسلم ، وسأله الرسول : ولماذا لم تتبين ؟ . ألم يلق إليك السلام ، فكيف تقول إنّه يقول : « السلام عليكم » لينقذ نفسه من القتل ؟

فقال « محلّم » : استغفر لى يا رسول الله .

وإذا ما قال أحد لرسول الله : استغفر لى يا رسول الله .. فرسول الله ببصيرته الإيمانية يعرف على الفور حالَ طالبِ الاستغفار ، فإن قال رسول الله: « غفر الله لك » فهو يعلم أنه كان معذوراً ، وإن لم يقل رسول الله ذلك ، فيعرف طالب الاستغفار أنه مذنب . ولأن بين « محلم » و« عامر » إحنا وعداوات قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمحلم : « لا غفر الله لك » ؛ لأن الرسول صلى الله عليه وسلم علم أن الإحَنَ والبغضاء هى التى جعلته لا يدقق فى أمر « عامر » .

وقال الرواة : ومات محلّم بعد سبعة أيام من هذه الحادثة ، ودفنوه فلفظته الأرض . فجاءوا إلى النبى صلى الله عليه وسلم فذكروا ذلك له فقال : (إن الأرض تقبل مَن هِو شر من صاحبكم ولكن الله أراد أن يعظكم ، ثم طرحوه بين صدفى جبل وألقوا عليه الحجارة)[١] .

وعندما كانت تأتى آية مخالفة لنواميس الدنيا المفهومة للناس فالنبى يريد ألا يفتتن الناس فى هذه الآيات ، ومثال ذلك عندما مات إبراهيم ابن النبى . . انكسفت الشمس . . وقال الناس : انكسفت الشمس من أجل ابن رسول الله . ولكن لأن المسألة مسألة عقائد فقد وضحها رسول الله صلى الله عليه وسلم كما جاء فى الحديث الشريف :

عن المغيرة بن شعبة قال : كسفت الشمس على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم مات إبراهيم ، فقال الناس : كسفت الشمس لموت إبراهيم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته فإذا رأيتم فصلوا وادعوا الله »[٢] .

---

(١) تفسير القرآن العظيم للإمام ابن كثير .

(٢) رواه البخارى .

لقد قالوا ذلك تكريماً لرسول الله وابنه إبراهيم ، ولكن الرسول يريد أن يصحح للناس مفاهيمهم وعقائدهم . وكذلك عندما لفظت الأرض « محلم » حتى لا يفتتن أحد ولا يقولن أحد.إن كل من لا تلفظه الأرض هو حسن العمل ، فهناك كفار كثيرون قد دفنوا ولم يلفظوا . لذلك قال رسول الله : إن الأرض قبلت من هو شر من « محلم » ولكن الله أراد أن يعظ الناس حتى لا يعودوا لمثلها ، ولو لم يقل ذلك ، فماذا كان يحدث ؟. قد تحدث هِزة قليلة فى جزئية ولظن الناس وقالوا : إن كل من لم تلفظه الأرض فهو حسن العمل ، ولكان أبو جهل فى حال لا بأس به ، وكذلك الوليد بن المغيرة . لكن الرسول صلى الله عليه وسلم يضع مثل هذه الأمور فى وضعها الصحيح ؛ لذلك قال : إن الأرض تقبل من هو شر من « محلم » ، ولكن الله أراد أن يعظ القوم ألاّ يعودوا[1] .

« ياأيها الذين آمنوا إذا ضربتم فى سبيل الله فتبينوا ولا تقولو لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً » .

وعلى ذكر ذلك قال لى أخ كريم : كنت أسمع إحدى الإذاعات وأخطأوا وقالوا (فتثبتوا) بدل من (فتبينوا) فى قوله الحق :

﴿ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ ﴾

(من الآية ٦ سورة الحجرات)

وأقول : هذه قراءة من القراءات ، والمعانى دائماً ملتقية ، فـ « تبين » معناها « طلب البيان ليَتثبت » . ونعرف أن القرآن قد نزل على سبعة أحرف ، وكتابة القرآن كانت بغير نقط وبغير شكل ، وهذا حال غير حالنا ؛ حيث نجد الحروف قد تم تشكيلها بالفتحة والضمة والكسرة .

ونحن نعرف أن هناك حروفاً مشتبهة الصورة . فـ «الباء » تتشابه مع كل من : « الياء » ، والـ « نون » والـ « تاء » والـ « ثاء » ، ولم تكن هذه النقط موجودة ، ولم تكن هذه العلامات موجودة قبل الحجاج الثقفى ، وكانوا يقرأون من ملكة العربية ومن

---

(١) رواه أحمد وابن جرير .

تلقين واتباع للوحى ، ولذلك : « فتبينوا » ممن تتكون ؟ تتكون من : الـ « فاء » ولم يحدث فيها خلاف ، والـ « تاء » وبقية الحروف هى الـ « باء » والـ « ياء » والـ « نون » .

وكل واحدة من هذه الأحرف تصلح أن تجعلها « تثبتوا » بوضع النقاط أو تجعلها « تبينوا » ، إنه خلاف فى النقط . ولو حذفنا النقط لقرأناها على أكثر من صورة ، والذى نتبعه فى ذلك هو ما ورد عن الوحى الذى نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولذلك عندما جاءوا بشخص لم يكن يحفظ القرآن وأحضروا له مصحفاً ليقرأ ما فيه فقال : (صنعة الله ومن أحسن من الله صنعة) .

ولم يحدث خلاف فى الـ « صاد » ولكن حدث خلاف فى الـ «باء » فهى صالحة لتكون باءً أو نونًا ، وكذلك « الغين » يمكن أن تكون « عيْنًا » وقراءة هذه الآية فى قراءة « حفص » :

﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ﴾

(من الآية ١٣٨ سورة البقرة)

وعندما قرأها الإنسان الذى لا يجيد حفظ القرآن قال : (صنعة الله ومن أحسن من الله صنعة) . والمعنى واحد .

ولكن قراءة القرآن توقيفية ، واتباع للوحى الذى نزل به جبريل ـ عليه السلام ـ من عند الله على رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولا يصح لأحد أن يقرأ القرآن حسب ما يراه وإن كانت صورة الكلمة تقبل ذلك وتتسع له ولا تمنعه ، ولذا قالوا : أن للقراءة الصحيحة أركانا هى :

١ ـ أن تكون موافقة لوجه من وجوه اللغة العربية .
٢ ـ أن تكون موافقة لرسم أحد المصاحف العثمانية .
٣ ـ أن يصح إسنادها إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بطريق يقينى متواتر لا يحتمل الشك .

وهذه الضوابط نظمها صاحب طيبة النشر فقال :

وكل ما وافق وجه نحو ... وكان للرسم احتمالا يحوى
وصح إسنادا هو القرآن ... فهذه الثلاثة الأركان

وقوله تعالى :

﴿ قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُ ﴾

(من الآية ١٥٦ سورة الأعراف)

هذه هى قراءة « حفص » وقرأ الحسن : (قال عذابى أصيب به من أساء) .

صحيح أن كلمة « أساء » وهى من الإساءة فيها ملحظ آخر للمعنى ، لكن القراءة الأخرى لم تبعد بالمعنى ، وعلى ذلك فكلمة « فتبينوا » تُقْرَأُ مرة « فتثبتوا » ومرة تقرأ « فتبينوا » ، سواء فى هذه الآية التى نحن بصددها ، أو فى الآية التى يقول فيها الحق :

﴿ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ ﴾

(من الآية ٦ سورة الحجرات)

و« التبين » القصد منه التثبت ، والتبين يقتضى الذكاء والفطنة فيرى ملامح إيمان من ألقى إليه بالسلام :

﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ ﴾

(من الآية ٩٤ سورة النساء)

فالمسلم يجب أن يفطن كيلا يأخذ إنساناً بالشبهات ، ولذلك نجد النبى يحزم الأمر مع أسامة بن زيد الذى قتل واحداً بعد أن أعلن هذا الواحد إسلامه ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : (فكيف بلا إله إلا الله . هل شققت عن قلبه) ؟

ويقول أسامة للرسول : لقد قال الشهادة ليحمى نفسه من الموت . وتكون الإجابة : هل شققت قلبه فعرفت ، فكيف بلا إله إلا الله ؟! فلقول:« لا إله إلا الله » حرمة .

وقد روى أن الذى نزلت فيه هذه الآية هو محلم بن جثامة ، وقال بعضهم : أسامة بن زيد ، وقيل غير ذلك . عن ابن عباس رضى الله عنهما « ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا » وقال : كان رجل فى غنيمة له فلحقه المسلمون فقال : السلام عليكم فقتلوه وأخذوا غنيمته ، فأنزل الله فى ذلك : « ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا »[١] .

وأهل العلم بالله يقولون : نجاة ألف كافر خير من قتل مؤمن واحد بغير حق .

وجاء فى بعض الروايات الأخرى أنه المقداد ، وذلك فيما رواه البزار بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية فيها المقداد بن الأسود فلما أتوا القوم وجدوهم قد تفرقوا وبقى رجل له مال كثير لم يبرح ، فقال أشهد أن لا إله إلا الله ، وأهوى إليه المقداد فقتله فقال له رجل من أصحابه : أقتلت رجلا شهد أن لا إله إلا الله ؟ والله لأذكرن ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم ، فلما قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا يا رسول الله : إن رجلا شهد أن لا إله إلا الله فقتله المقداد فقال : ادعوا لى المقداد . يا مقداد أقتلت رجلا يقول : لا إله إلا الله ؟ فكيف لك بلا إله إلا الله غدا ؟ قال : فأنزل الله « ياأيها الذين آمنوا إذا ضربتم فى سبيل الله »[٢] .

« ياأيها الذين آمنوا إذا ضربتم فى سبيل الله فتبينوا ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً تبتغون عرض الحياة الدنيا» و« ألقى إليكم السلام » يعنى جاءكم مستسلما ، أو قال تحية المسلمين ، وليس من حق أحد أن يلقى الاتهام بعدم الإيمان على من جاء مسلماً ، أو يقول بتحية الإسلام .

وكلمة « عرض » إذا ما سمعناها ، فلنعلم أنها فى المعنى اللغوى : كل ما يعرض ويزول وليس له دوام أو استقرارأو ثبات . ونحن البشر أعراض ؛ لأنه ليس لنا دوام أبداً ، ويقال : إن الإنسان عرض إذا ما قاس الواحد منا نفسه بالنسبة للكون ؛ لأن

---

(١) رواه البخارى .

(٢) رواه البزار .

الكون لا يتم بناؤه على الإنسان ؛ فالكون كله الذى نراه هو عرض وسيأتى يوم ويزول .

والعرض بالنسبة للإنسان أن الواحد منا قد يرى نفسه صحيحاً أو سقيماً ، هنا تكون الصحة عرضا وكذلك المرض ، وكذلك السمنة والنحافة ، ولون البشرة إذا ما لوحته الشمس قد يتغيرمن أبيض إلى أسمر ، وكذلك الغنى والفقر . وكل شىء يمكن أن يذهب فى الإنسان ويجىء هو عرض بالنسبة للإنسان ، ويكون الإنسان جوهراً بالنسبة له . فإذا قسنا الإنسان بالنسبة إلى ثابت عنه ، فالإنسان عرض ، فهذا أمر نسبى ، وإلاّ فكل شىء عرض ، وكل شىء زائل « ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام » .

« ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً تبتغون عرض الحياة الدنيا » . وعرض الحياة الدنيا هنا هو أن يطمع القاتل فيما يملكه الذى يلقى السلام ، وقد يكون عرض الحياة الدنيا ـ هنا ـ هو كبرياء نفس الإنسان عندما ينتقم من إنسان بينه وبينه إحن أو بغضاء .

وعندما نجد كلمة « عرض » وهذا العرض فى « الحياة الدنيا » نفهم ـ إذن ـ أنه عرض فيما لا قيمة له . ولذلك نجد الشاعر يعبر عن مشاعر الإنسان حينما يحزن لفقدان شىء كان عنده ، وينسى الإنسان أنه هو شخصياً معرض للموت ، أى للذهاب عن الدنيا فيقول :

نفسى التى تملك الأشياء ذاهبة
فكيف آسى على شىء لها ذهبا

وكذلك عرض الحياة الدنيا . ونفهم كلمة « دنيا » على أساس الاشتقاق ، فهى من « الدنو » ومقابله « العلو » ومقابل « الدنيا » هو « العليا » . ومن يُقَوِّم عرض الحياة الدنيا التقويم الصحيح فهو يملك الذكاء والحكمة والفطنة ؛ لذلك لا يأخذ هذا العرض ممن سيقتله عندما يلقى إليه بالسلام ؛ لأنه يستخدم البصيرة الإيمانية ويأخذ الحياة الدنيا ممن خلقها . والعاقل حتى لو أراد الحياة الدنيا فهو يطلبها من صاحب الحياة كلها ، ولا يأخذها من إنسان مثله ، فالحياة الدنيا لا تنفعه ؛ بدليل أنه معرض للقتل .

« تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة » والحق سبحانه وتعالى ساعة يخاطب النفس البشرية التى خلقها ، ويعلم تعلقها بالأشياء التى تنفعها أو تطيل نفعها ، مثال ذلك : أنّ الإنسان يكون سعيداً إذا ما ملك غداءه ، وتكون سعادته أكثر إذا امتلك الغداء والعشاء ، ويكون أكثر سعادة واطمئنانا عندما يملك فى مخزن طعامه ما يقيته شهراً أو عاماً ، ويكون أكثر إشراقاً عندما يمتلك أرضاً يأخذ منها الرزق ، ويمتلكها أولاده من بعده .

إذن فالإنسان يحب الحياة لنفسه ، ويحب امتداد حياته فى غيره ، ولذلك يحزن الإنسان عندما لا يكون له أولاد ؛ فهو يعرف أنه ميت لا محالة ، لذلك فهو يتمنى أن تكون حياته موصولة فى ابنه ، وإن جاء لابنه ابن وصار للإنسان حفيد فهو يسعد أكثر ؛ لأن ذكره يوجد فى جيلين . ونقول لمثل هذا الإنسان : لنفرض أنك ستحيا ألف جيل ، لكن ماذا عن حالتك فى الآخرة ، ألَا تُنَشِّىء ولدك على الصلاح حتى يدعو لك ؟

ولذلك يفاجىء الحق النفس البشرية التى تهفو إلى المغانم ، ويكشفها أمام صاحبها ، فيأتى بالحكم الذى يُظهر الخواطر التى تجول فى النفس ساعة سماع الحكم . وعندما أراد سبحانه أن يُحرم دخول المشركين البيت الحرام ، وسبحانه يعلم خفايا النفوس ؛ لأن المشركين حين يدخلون البيت الحرام بتجاراتهم وأموالهم إنما يدخلون مكة من أجل موسم اقتصادى يبيعون فيه البضائع التى يعيشون من ريعها وربحها طوال العام . وساعة يحرم سبحانه دخول المشركين إلى البيت الحرام ، يعلم أن أهل الحرم ساعة يسمعون هذا الحكم سيتذكرون مكاسبهم من التجارة ، فقال :

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا ﴾

(من الآية ٢٨ سورة التوبة)

وقبل أن يقول أهل الحرم فى أنفسهم : وكيف نعيش ونصرف بضائعنا ؟ ، يتابع سبحانه :

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ ﴾

(من الآية ٢٨ سورة التوبة)

وبذلك يكشف الحق أمام النفوس خواطرها الدفينة ؛ فهو العليم بأن الحكم ساعة ينزل ما الذى سيحدث فى أذهان سامعيه ؛ فهو خالقهم ، ولذلك فلا أحد له من بعد ذلك تعليق !

وقوله الحق : « تبتغون عرض الحياة الدنيا » ينطبق فى كل عصر وفى كل زمان . ويقول الحق بعد ذلك : « فعند الله مغانم كثيرة » . فسبحانه الرزّاق الوهاب . ولذلك أنا أحب أن يزين الناس أماكنهم ومساكنهم بلوحات فنية مكتوب عليها :

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ ﴾

(من الآية ٢٨ سورة التوبة)

وكذلك قول الحق :

﴿ تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ﴾

(من الآية ٩٤ سورة النساء)

لعل ذلك يمس قلوب من بيدهم الأمر ، فيلتفتوا إلى الله . وبعد ذلك يقول الحق : « كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم فتبينوا إن الله كان بما تعملون خبيرا » .

وفى هذا دعوة لأن يمر من نزل فيهم القرآن بتاريخهم القريب ويسترجعوا ماضيهم ، فلماذا يتهم المسلم أخاه الذى يلقى السلام بأنه مازال كافراً ولا يفكر أن الذى ألقى إليه السلام هو إنسان يستر إسلامه بين أهله لأنهم كفار ؟ وكان المسلم يمر بهذه الحالة عند بداية الإسلام ؛ كان المسلم يستر إسلامه عن أهله الذين كانوا كافرين . وكان المسلمون الأوائل قلة مستذلة تدارى إيمانها ، فهل سلط الله عليهم أحداً يجترىء على التفتيش على النوايا ؟ إذن فمثلما حدث لكم قدروه لإخوانكم .

« كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم » والحق يمن عليهم بأنهم صاروا أهل رفعة بكلمة الإسلام ، وصار المسلم منهم يمشى عزيز الجانب ولا يجرؤ واحد أن يوجه إليه أى شىء . ويأتى سبحانه هنا بكلمة « فتبينوا » مرة أخرى بعد أن قالها فى صدر الآية . وكان مقصوداً بها ألا يقتل مسلم إنساناً ألقى السلام لمجرد أن المسلم يفكر فى

المسألة الاقتصادية ، وها هوذا يعيد سبحانه كلمة « تبينوا » ، لقد جاءت أولاً كتمهيد للحيثية ، وهى قوله : « تبتغون عرض الحياة الدنيا » وتأتى هاهنا نتيجة للحيثية « فتبينوا إن الله كان بما تعملون خبيرا » .

وسبحانه حين يشرع لا يشرع عن خلاء ، لكنه خبير بكل ما يصلح النفس الإنسانية ، ولا يعتقدن أحد أنه خلقنا ثم هدانا إلى الإيمان ليخذلنا فى نظام الحياة ، بل خلقنا وأعطانا المنهج لنكون نموذجاً ، وليرى الناس جميعاً أن الذى يحيا فى رحاب المنهج تدين له الدنيا .

« إن الله كان بما تعملون خبيرا » . كأن الحق يقول : إياك أن تستر بلباقتك شيئاً وتخلع عليه أمرا غير حقيقى ؛ لأن الذى تطلب جزاءه هو الرقيب عليك والحسيب ، ويعلم المسألة من أولها إلى آخرها . فالذى قتل إنساناً ألقى إليه السلام ، لم يقتله لأنه لم يُسلم ، ولكن لأن بينهما إحناً وبغضاء ، وعليه أن يعرف أن الله عليم بما فى النفوس .

ويريد الحق أن يتثبت المؤمن من نفسه حين يوجهها إلى قتل أحد يشك فى إسلامه أو فى إيمانه ، وحسبه من التيقن أن يبدأه صاحبه بالسلام ، ويُذَكّر الحق سبحانه المؤمنين بأنهم كانوا قبل ذلك يستخفون من الناس بالإيمان وكانوا مستترين .

فإذا كنتم أيها المؤمنون قد حدث لكم ذلك فاحترموا من غيركم أن يحصل منه ذلك ، وثقوا تمام الثقة أن الله عليم خبير ، لا يجوز عليه ـ سبحانه ـ ولا يخفى عليه أن يدس أحدكم الإحن النفسية ليُبرر قتل إنسان مسلم كانت بينه وبين ذلك المسلم عداوة .

وبعد أن تكلم الحق عن قتال المؤمنين للكافرين ، وبعد أن تكلم عن تحريم قتل المؤمن للمؤمن حتى لا يفقد المؤمنون خلية الإيمان ، بل تكون حياة كل مؤمن خيراً للحركة الإيمانية فى الأرض ، لذلك علينا أن نحافظ على حياة كل فرد مؤمن لأنه سيساعدنا فى اتساع الحركة الإيمانية ، فإن حدث أن قتل مؤمن مؤمناً خطأ ، فقد بين سبحانه وتعالى الحكم فى الآية رقم ٩٢ من سورة النساء .

وبعد ذلك أراد الحق سبحانه وتعالى أن يبين الفارق بين من قعد عن الجهاد فى سبيل الله ومن جاهد فقال سبحانه :

﴿ لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ ﴾

ولهذه الآية قصة .. واقتناص الخواطر من هذه القصة يتطلب يقظة تعلمنا كيف يخاطب الحق خلقه . فقد حدثنا سيدنا زيد بن ثابت وهو المأمون على كتابة وحى رسول الله . وهو المأمون على جمع كتاب الله من اللخاف[1] ومن العظام ومن صدور الصحابة ، حدثنا فقال :

ـ كنت إلى جنب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فغشيته السكينة ـ وهذه كانت دائماً تسبق نزول الوحى على رسول الله ـ فوقعت فخذه على فخذى حتى خشيت أن تَرُضَّها .

أى أن فخذ رسول الله كانت ثقيلة .

والوحى ساعة كان يأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ربّما كان يصنع فى كيماوية رسول الله تأثيرا مادياً بحيث إذا كان على دابة عرف الناس أنه يوحى إليه ؛ لأن الدابة كانت تئط تحته فإذا كانت فخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم على فخذ

(١) اللِّخاف : حجارة بيض رقاق ، واحدها لخفة .

زيد بن ثابت ، فلابد أن يشعر سيدنا زيد بثقل فخذ رسول الله وقد جاءه الوحى . قال زيد : خشيت أن ترضّ فخذه فخذى ـ أى تصيبها بالدّق الشديد أو الكسر . فلما سُرى عنه قال اكتب : « لا يستوى القاعدون من المؤمنين والمجاهدون » ، فقال سيدنا ابن أم مكتوم ، وكان ـ كما نعلم ـ ضريراً مكفوف البصر قال : فكيف بمن لا يستطيع الجهاد من المؤمنين يا رسول الله ؟

إنها اليقظة الإيمانية من ابن أم مكتوم ، لأنه فهم موقفه من هذا القول ، ومن أنه لا يستطيع الجهاد ، وعلم أنه إن كانت الآية ستظل على هذا فلن يكون مستوياً مع من جاهد ، ولهذا قال قولته اليقظة : فكيف بمن لا يستطيع ذلك يا رسول الله ؟

فأخذت رسول الله السكينة ثانيةً ، ثم سرى عنه ، فقال لزيد بن ثابت : اكتب : « لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله » .

فكأنها نزلت جواباً مطمئناً لمن لا يستطيع القتال مثل ابن أم مكتوم.ولقائل أن يقول : وهل كانت الآية تنتظر أن يستدرك ابن أم مكتوم ليقول هذا ؟.

ونقول : إن الحق سبحانه وتعالى أراد أن ينبه كل مؤمن أنه حين يتلقى كلمة من الله أن يتدبر ويتبيّن موقعه من هذه الكلمة ؛ فإذا كان ذلك حال سيدنا ابن أم مكتوم فيما سمع رسول الله عن ربه فهو يعلمنا كيف نستحضر دورنا من أية قضية نسمعها . وحينما سمع ابن أم مكتوم الآية رأى موقفه من هذه الآية ، وهذا ما يريده الحق من خلقه .

وقال زيد بن ثابت : فكتبتها .

إنها الدقة فى أداء زيد بن ثابت لتدلنا على صدق الرواية ، فحين يكتب أولاً « لا يستوى القاعدون من المؤمنين والمجاهدون » ألا تلتصق كلمة « والمجاهدون » بكلمة « المؤمنين » فإذا زاد الحق سبحانه وتعالى « غير أولى الضرر » فأين تكتب ؟

كأن زيد بن ثابت كان عليه أن يقوم بتصغير الكتابة ليكتب « غير أولى الضرر » بين كلمة « من المؤمنين » وكلمة « المجاهدون » . قال سيدنا زيد بن ثابت : لقد

نزلت « غير أولى الضرر » وحدها وكأنى أنظر إلى ملحقها عند صدع الكتف ـ فقد كانوا يكتبون على أكتاف العظم ـ والكتف التى كتب عليها سيدنا زيد بن ثابت كانت مشروخة وكانت هذه علامة بها .

ويريد الحق بذلك أن ينبه المؤمنين إلى أنهم حين يتلقون كتاب الله يجب أن يتلقوه بيقظة إيمانية بحيث لا تسمع آذانهم إلا ما يمر على عقولهم أولاً ليفهم كل مؤمن موقفه منها ، وتمر الآية على قلوبهم ثانية لتستقر فى ذاتهم عقيدة .

كذلك كانت قصة زيد بن ثابت وابن أم مكتوم والوحى فى هذه الآية : « لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون » .

وهناك حالات يأتى الفعل فلا يصلح له فاعل واحد بل لابد له من اثنين . . مثال ذلك عندما نقول : تشارك زيد وعمرو . وعندما نصف لاعبى الكرة ، نجد من يتلقف الكرة واحداً بعد الآخر ، فنقول : تلقف اللاعبون الكرة رجلاً بعد رجل .

وعندما يقول الحق : « لا يستوى » فهذا يدل على أن هناك شيئين لا يتساويان ، فأيهما غير المساوى للآخر ؟ . كلاهما لا يتساوى مع الآخر ، ولذلك يكون الاثنان فى الإعراب « فاعلا » ، فلا يساوى المجاهدون القاعدين ولا يساوى القاعدون المجاهدين ؛ لأن كلا منهما فاعل ومفعول .

وعندما نقول : « لا يستوى القاعدون من المؤمنين » فما هو مقابل « القاعدين » فى الآية الكريمة ؟ إنه « المجاهدون » ، لكن المقابل فى الحياة العادية للـ « القاعدين » هو « القائمون » ، ومقابل « المجاهدين » هو « غير المجاهدين » . وبذلك كان من الممكن القول : لا يستوى القاعدون والقائمون ، أو أن يقال : لا يستوى المجاهدون وغير المجاهدين . فما الحكمة فى مجىء القاعدين والمجاهدين ؟

إن الحق يريد أن يبين أنه فى بداية الإسلام كان كل مؤمن حين يدخل الإسلام يعتبر نفسه جندياً فى حالة تأهب ، وكانوا دائماً على درجة استعداد قصوى ليلبوا النداء فوراً ؛ فالمسلم لم يكن فى حالة استرخاء ، بل فى تأهب وكأنه واقف دائماً ليلبى

النداء ، وكأن القاعد هو الذى ليس من صفوف المؤمنين ، ويبين لنا ذلك قول الرسول عليه الصلاة والسلام : « من خير معاش الناس لهم رجل ممسك عنان فرسه فى سبيل الله يطير على متنه ، كلما سمع هَيْعَةً أو فزعة طار إليها يبتغى القتل والموت مَظَانَّه ، أو رجل فى غنيمة فى رأس شعفة من هذه الشعف ، أو بطن واد من هذه الأوْدية يقيم الصلاة ويؤتى الزكاة ويعبد ربه حتى يأتيه اليقين ، ليس من الناس إلا فى خير »[1] .

فإن لم يكن المؤمن متأهباً فهو قاعد ، والقاعد ـ كما نعرف ـ هو ضد القائم . والحق يقول :

﴿ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا ﴾

(من الآية ١٠٣ سورة النساء)

من هذا القول نعرف أن المقابل للقيام هو القعود .

وعلينا أن نعرف أن لكل لفظ معنىً محدداً ، فبعضنا يتصور أن القعود كالجلوس ، ولكن الدقة تقتضى أن نعرف أن القعود يكون عن قيام ، وأن الجلوس يكون عن الاضطجاع ، فيقال : كان مضطجعاً فجلس ، وكان قائما فقعد .

وعندما يقول الحق هنا : « لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر » فالقعود مقابل القيام ، فكأن المجاهد حالته القيام دائما ، وهو لا ينتظر إلى أن يقوم ، لكنه فى انتباه واستعداد . ويوسع الحديث الشريف الدائرة فى مسئوليات المجاهد فيرسم صورة للمقاتل أنه على أتم استعداد وعلى صهوة الفرس وممسك باللجام حتى لا تدهمه أية مفاجأة .

وهل كانت هناك مظنة أن يستوى القاعد والمجاهد ؟ . لا ، ولكن يريد الله أن يبين قضية إيمانية مستورة ، فيظهرها بشكل واضح لكل الأفهام .

ونحن نقول للطالب : « إن من يستذكر ينجح ومن لا يستذكر يرسب » وهذه

---

(١) رواه مسلم فى الإمارة وابن ماجه فى الفتن ورواه أحمد . و(الهيعة) هى الصوت عند حضور العدو . و(الفزعة) هى النهوض إلى العدو . و(الشعفة) هى أعلى الجبل .

مسألة بديهية ، لكننا نقولها حتى نجعلها واضحة فى بؤرة شعور التلميذ فيلتفت لمسئولياته .

وعندما يقول الحق : « لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله » هل معنى ذلك أن عقلاً واحداً فى زمن رسول الله كان يظن المساواة بين القاعد والمجاهد ؟ لا ، ولكن الحق يريدها قضية إيمانية فى بلاغ إيمانى من الله . وبعد ذلك يلفت الأنظار إلى صفة القاعدين الذين لا يستوون مع المجاهدين فيقول : « غير أولى الضرر » . والضرر هو الذى يفسد الشىء مثل المرض ، وهذا ما يوضحه قوله الحق :

﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾

(سورة التوبة)

فالضعف ضرر أخرج الإنسان عن مقومات الصحة والعافية ، والمرض ضرر ، والذين لا يجدون مالاً ينفقون منه ، ولا الذين يجيئون لرسول الله فلا يكون بحوزة الرسول دواب تحملهم ، فينصرفون وأعينهم تفيض من الدمع حزناً لأنهم لا يجدون ما ينفقون . وكان المؤمن من هؤلاء يحزن لأن رسول الله لم يجد له فرساً أو دابة تنقله إلى موقع القتال :

﴿ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾

(سورة التوبة)

لقد تولوا وأعينهم تفيض من الدمع . وكلمة « تولوا » هنا لها معنى كبير ، فلم يقل الحق : إن أعينهم تفيض من الدمع من غير التولى ، هم لا يدمعون أمام

النبى ، ولكنهم يدمعون فى حالة توليهم ، وهذا انفعال نفسى من فرط التأثر ؛ لأنهم لا يشتركون فى القتال . وكلمة « تفيض » تدل على أن الدمع قد غلب على العين كلها ، فهم لا يصطنعون ذلك ، لكن الانفعال يغمرهم ؛ لأن الذى يتصنع ذلك يقوم بتعصير عينيه ويبذل جهداً للمُراءاة ، ولكن انفعال المؤمنين الذين لا يقاتلون يغلبهم فتفيض أعينهم من الدمع .

وهناك آية أخرى حدد فيها الحق الحالات التى لا يطالب فيها المؤمن بالقتال :

﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾

(من الآية ١٧ سورة الفتح)

هؤلاء ـ إذن ـ هم أولو الضرر .

« لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم » وماداموا لا يستوون فمن الذى فيهم يكون هو الأفضل ؟ .

ذلك ما توضحه بقية الآية التى تحمل المقولة الإيمانية الواضحة : « فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلا وعد الله الحسنى » . وسبحانه وعد الاثنين بالحسنى الإيمانية ؛ لأن كُلًّا منهما مؤمن ، ولكن للمجاهد درجة على القاعد . وإن تساءل أحد : ولماذا وعد الله القاعد من أولى الضرر بالحسنى ؟ وهنا أقول : علينا أن ننتبه وأن نحسن الفهم والتدبر عندما نقرأ القرآن ؛ لأن الذى أصابته آفة فناله منها ضرر ، فصبر لحكم الله فى نفسه ، ألا يأخذ ثواباً على هذه ؟ .

لقد أخذ الثواب ولابد ـ إذن ـ أن يعطى الحق من لم يأخذ ثوابا مثله فرصة ليأخذ ثواباً آخر حتى يكون الجميع فى الاستطراق الإيمانى سواء . لذلك يقول سبحانه : « وكلا وعد الله الحسنى » .

والحسنى فى أولى الضرر أنه أخذ جزاء الصبر على المصيبة التى أصابته ، والذى لم يصب بضرر سيأخذ ثواب الجهاد ، وبذلك يكون الجميع قد نالوا الحسنى من الله .

« وكلا وعد الله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً » .

وسبحانه يضع أجراً جديداً للقائم مجاهداً على القاعد ، ففى صدر الآية جاء بـ « درجة » أعلى للقائم مجاهداً ، وهنا « أجر عظيم » . ما تفسير هذا الأجر العظيم ؟. التفسير يجىء فى قوله :

﴿ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾ ﴾

فسبحانه قد أعطى لأولى الضرر درجة ، وفضّل المجاهد فى سبيل الله على القاعد من غير أولى الضرر درجات عدة . وساعة نسمع كلمة « درجة » فهى المنزلة ، والمنزلة لا تكفى فقط للإيضاح الشامل للمعنى ، ولكن هى المنزلة الارتقائية . أما إن كان التغير إلى منازل أخرى أقل وأدنى ، فنحن نقول : « دركات » ولا نقول : « درجات » .

ولكن هل الدرجات هى لكل المجاهدين ؟. لا ، لأننا لابد أن نلحظ الفرق بين الخروج من الوطن وترك الأهل للجهاد ؛ وعملية الجهاد فى ذاتها ؛ فعملية الجهاد فى ذاتها تحتاج إلى همة إيمانية ، ولذلك جاء الحق بنص فى سورة التوبة :

﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ

ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾

(سورة التوبة)

هنا يوضح الحق أنه لا يصح لأهل المدينة والأعراب الذين حولهم أن يتخلفوا عن الجهاد مع رسول الله ، ولا يرضوا لأنفسهم بالسعة والدعة والراحة ورسول الله صلى الله عليه وسلم فى الشدة والمشقة ، فكما ذهب إلى القتال يجب أن يذهبوا ؛ لأن الثواب كبير ، فلا يصيبهم تعب إلا ولهم عليه أجر العمل الصالح ، ولا يعانون من جوع إلا ولهم أجر العمل الصالح ، ولا يسيرون فى مكان يغيظ الكفار إلا ولهم أجر العمل الصالح . ولا ينالون من عدو نَيلا إلا ويكتبه الله لهم عملاً صالحاً ، فسبحانه يجزى بأحسن ما كانوا يعملون .

وقام العلماء بحصر تلك العطاءات الربانية بسبع درجات ، فواحد ينال الدرجات جميعاً . وآخر أصابه ظمأ فقط فنال درجة الظمأ ، وآخر أصابه نصب فأخذ درجة النصب أى التعب ، وثالث أصابته مخمصة ، ورابع جمع ثلاث درجات ، وخامس جمع كل الدرجات .

وعندما نقوم بحساب هذه الدرجات نجدها : الإصابة بالظمأ ، النَّصَب - أى التعب - الجوع ، ولا يطأون موطئا يغيظ الكفار أى لا ينزلون فى مكان يتمكن فيه المسلمون منهم ويبسطون سلطانهم عليهم ، والمقصود الحصن الحصين عند الكافر ، النَّيْل : التنكيل بالعدو ، النفقة الصغيرة أو الكبيرة ، وقطع أى واد فى سبيل الله ، وهذه هى الدرجات السبع التى يجزى الله عنها بأحسن مما عمل أصحابها ، كما فسرها العلماء ، فمن نال الدرجات السبع فقد نال منزلة عظيمة ، وكل مجاهد على حسب ما بذل من جهد . فمن المجاهدين من ينال درجة أو اثنتين أو ثلاث أو أربع أو خمس أو ست أو سبع درجات . وعندما نقرأ الآيتين معاً :

﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَـٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَـٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَـٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَـٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَـٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا

﴿ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾ ﴾

(سورة النساء)

نجد أن الله يُرغّب المؤمنين فى أن يكونوا مجاهدين ، وأن يبذلوا الجهد لتكون كلمة الله هى العليا . فإذا ما آمن الإنسان فليس له أن يتخلف عن الصف الإيمانى ، لأنه مادام قد نفع نفسه بالإيمان فلمَ لا ينضم إلى ركب من ينفع سواه بالإيمان ؟ . ويريد الله أن يعبئ كل مَنْ مسّ الإيمان قلبه ، وحتى ولو كان موجوداً فى مكان يسيطر عليه الكفار ، فيدعوه لأن يتخلص من التفاف الكفار حوله وليخرج منضماً إلى إخوته المؤمنين . وليشيع الإيمان لسواه ويعبر عملياً عن حبه للناس مما أحبه لنفسه . ولكن هناك من قالوا : نحن ضعاف غير قادرين على الهجرة أو القتال فى سبيل الله . فيأتى القرآن بقطع العذر لأى إنسان يتخلف عن ركب الجهاد فى سبيل الله وسبيل نصرة دين الله فيقول الحق :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ ﴾

هؤلاء هم الذين يظلمون أنفسهم بعدم المشاركة فى الجهاد وهذا ما يحدث لهم عندما تقبض الملائكة أرواحهم . و« التوفى » معناه « القبض » ؛ فيقال :« توفيت دَيْنى » أى قبضته مستوفياً . ويقال :« توفى الله الإنسان » أى قبضه إليه مستوفياً . والقَبض له آمر أعلى ، وهو الحق . ومن بعد ذلك هناك موكل عام هو « عزرائيل » ملك الموت ، وهناك معاونون لعزرائيل وهم الملائكة . فإذا نسبت الوفاة فهى تنسب مرة لله ، فالله يتوفى : لأنه الآمر الأعلى ، وتنسب الوفاة للملائكة فى قوله :

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾

(من الآية ٦١ سورة الأنعام)

وتنسب الوفاة إلى عزرائيل .

﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾

(من الآية ١١ سورة السجدة)

وإذا ما أطلق الحق هذه الأساليب الثلاثة فى وصف عملية الوفاة فهل هذا اختلاف وتناقض وتضارب فى أساليب القرآن ؟ لا ، بل هو إيضاح لمراحل الولاية التى صنعها الله ، فهو الآمر الأعلى يصدر الأمر إلى عزرائيل ، وعزرائيل يطلق الأمر لجنوده . وفى حياتنا ما يشرح لنا هذا المثل ـ ولله المثل الأعلى ـ فالتلميذ قد يذهب إلى المدرسة بعد امتحان آخر العام ويعود إلى بيته قائلاً : لقد وجدت نفسى راسباً ، والسبب فى ذلك هم المدرسون الذين قصدوا عدم إنجاحى .

ويرد عليه والده : المدرسون لم يفعلوا ذلك ، ولكن اللوائح التى وضعتها الوزارة لتصحيح الامتحانات هى التى جعلتك راسباً . فيرد التلميذ : لقد جعلنى الناظر راسباً . وهذا قول صحيح ؛ لأن الناظر يطبق القوانين التى يحكم بمقتضاها على الطالب أن يكون ناجحا أو راسبا . وقد يقول التلميذ : إن وزير التربية والتعليم هو من جعلنى راسباً . وهذا أيضاً صحيح ؛ لأن الوزير يرسم مع معاونيه الخطوط الأساسية التى يتم حساب درجات كل تلميذ عليها ، فإذا قال التلميذ : لقد جعلتنى الدولة راسباً ، فهو قول صحيح ؛ لأنه فهم تسلسل التقنين إلى مراحل العلو المختلفة ، وأى حلقة من هذه الحلقات تصلح أن تكون فاعلاً . ومن هنا نفهم أن الحق سبحانه حين يقول :

﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾

(من الآية ٤٢ سورة الزمر)

فهذا قول صحيح ، مثل قوله سبحانه :

﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾

(من الآية ١١ سورة السجدة)

ومثل قوله سبحانه :

﴿ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا ﴾

(من الآية ٦١ سورة الأنعام)

كل هذه الأقوال صحيحة ؛ لأنها تتعلق بمدارج الآمر .

« إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم » والظلم هو أن تأتى لغير ذى الحق وتعطيه ما تأخذ من ذى الحق ، والظلم يقتضى ظالماً ومظلوماً وأمرا وقع الظلم فيه . فكيف يكون الإنسان ظالماً لنفسه وتتوفاه الملائكة على ذلك ؟ . لابد أنهم فعلوا ما يستحق ذلك .فساعة تأتى للإنسان الشخصية المعنوية الإيمانية بعد أن آمن بالله وآمن بالمنهج ؛ ثم تحدثه نفسه بالمخالفة ، هنا يواجه صراعاً بين أمرين : مسئولية الشخصية الإيمانية التى تَقَبَّل بها المنهج من الله ، ووازع النفس التى تلح عليه بالانحراف . ويدور ما هو أشبه بالحوار بين المسئولية الإيمانية ووازع النفس الملح بالانحراف . وعندما تتغلب النفس الإيمانية يعرف الإنسان أن نفسه صارت مطمئنة وسعيدة ، ويقول لنفسه : إنك إن طاوعت وازع الانحراف تكن قد حققت شهوة عاجلة ستكْوى بها فى آخر الأمر ، وأنت برفضك للشهوة تكون قد أنصفت نفسك . ولو طاوعت شهوتك العاجلة تكون قد ظلمت نفسك .

ومثل ذلك يحدث فى حياتنا العادية : عندما تدلل الأم ابنها بينما يطلب منه والده الاستذكار ويحاول أن يردعه ليقوم بمسئوليته الدراسية ، إن هذه الأم تظلم ابنها ، وكذلك يعطينا الحق فكرة عن الصراع بين الشخصية الإيمانية والنفس الانحرافية التى تريد الهوى فقط فيقول :

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾

(سورة المائدة)

هنا يقول هابيل لقابيل :

ـ ولماذا تقتلنى ؟ . إننى لست أنا الذى تقبل القربان ولكن الذى تقبله هو الله فما ذنبى ؟ .

ويأتى بعد ذلك الحوار :

﴿ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٨ ﴾

(سورة المائدة)

ولنلتفت إلى هذا القول الحكيم :

﴿ فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة المائدة)

كأن هناك صراعاً فى نفس قابيل بين أمرين « اقتل » و« لا تقتل » ، النفس الإيمانية تقول : « لا تقتل » والنفس الشهوانية تقول : « بل عليك أن تقتل » .

وتغلبت النفس الشهوانية عندما طوعت له قتل أخيه ، ومهدت له ذلك . وبعد أن قتل أخاه ، وضاعت شِرَّة الغضب صار من النادمين ، ثم بدأت الحيثيات تظهر وتتضح . ويبعث الله غراباً يبحث ويحفر فى الأرض ليوارى جثة غراب آخر . هنا قال قابيل :

﴿ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ ﴾

(من الآية ٣١ سورة المائدة)

وهكذا نرى أن ظلم النفس هو أن نخالف ما شرع الله للنفس لينفعها نفعاً أبدياً مستوفياً ، ولكن النفس قد تندفع وراء حبها للشهوات وتمنيها للنفع العاجل الذى لا خلود له ، وعندما يحقق الإنسان هذا النفع العاجل لنفسه فهو يظلم نفسه .

« إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم » إذن فالملائكة تسأل ظالمى أنفسهم : « فيم كنتم » أى فى أى شىء كنتم من أمر دينكم ؟ والاستفهام هنا للتوبيخ والتقريع أى لماذا ظلمتم أنفسكم ؟ ولماذا لم تفعلوا مثلما فعل إخوانكم وهاجرتم وانضممتم لموكب الإيمان وموكب الجهاد ؟ . ، ولماذا ظللتم فى أماكنكم محجوزين ومحاصرين ولا تستطيعون الحركة ولا تستطيعون الفِكاك ؟ وتكون إجابة

الذين ظلموا أنفسهم : « قالوا كنا مستضعفين فى الأرض » . وبالله عندما يحكى لنا الله هذه الصورة التى تحدث يوم القيامة فهل سيكون عندنا وقت للاستفادة منها ؟. طبعاً لا ؛ لأنه لن يكون لنا قدرة الاستدراك لنصحح الخطأ .

والحق حين يقص علينا هذا المشهد فذلك من لطفه بنا ، وتنبيه لكل منا : احذروا أن يأتى موقف ويحدث فيه ما أوضحته لكم ولن يستطيع أحد أن يستدرك الحياة ليصنع العمل الطيب . وعلى كل منكم أن يبحث أمر نفسه الآن .

« إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين فى الأرض » وكلمة « كنا مستضعفين فى الأرض » تفيد أن قوماً استضعفوهم ، أى أنهم لم يكونوا قادرين على الخروج والهجرة ولا يعرفون السبيل إليها ، وخافوا على أموالهم وديارهم ، والقوم الذين استضعفوهم قالوا لهم : إن خرجتم لا تأخذوا شيئاً من أموالكم . هذه هى بعض مظاهر الاستضعاف . وهنا تقول الملائكة ما يفيد أن هذا الكلام لا يليق ولا ينفع ، تقول الملائكة : « ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها » .

وكأن هذا تنبيه آخر ، وإعلان أن مثل هذا القول ومثل تلك الحجة لا قيمة لها ؛ لأن الذى يمسكه مكانه وماله دون الله إنما هو من وضع وربط يقينه بالأسباب . أما الذى يضع منهج الله فوق مكانه وولده وكل شىء فهذا هو الذى وثق بالله لأنه هو المسبب وهو مانح ومعطى الأسباب .

« ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها » وهذا القول على لسان الملائكة قادم من القانون الأعلى ، فقد خلق الحق الخلق جميعاً وأسكنهم فى الأرض ، وهذه الأرض ليست لأحد دون أحد ، فمن يضق به مكان فليذهب إلى مكان آخر .

وإذا كان الإنسان من ظلمه وجبروته وعتوه قد صنع تحديدا للمكان ، فلا ينتقل إنسان من مكان إلى مكان إلا بعد سلسلة طويلة من التعقيدات التى تحول دون الانتقال من مكان إلى مكان ، فذلك مناقضة لقضية الخلافة فى الأرض ؛ لأن الخلافة لم توزع كل جماعة على أرض ما . ولكن الإنسان ، كل إنسان خليفة فى الأرض كل الأرض ، مصداقاً لقول الحق :

﴿ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ ﴾

(سورة الرحمن)

فقد جعل الله الأرض متضعة مسخرة مذللة للإنسان ، والأرض هى أى أرض ، والأنام هم كل الأنام . وإن لم ينتبه العالم إلى هذه القضية ويجعلها قضية كونية اجتماعية ، سيظل العالم فى فساد وشقاء . فالذى يجعل الحياة فى الأرض فاسدة هو خروج بعض الآراء التى تقول : إن الكثافة السكانية تمنع أن نجد الطعام لسكان بلد ما . يقولون ذلك فى حين أن أرضاً أخرى تحتاج إلى أيد عاملة ، ولذلك نجد أن البشرية أمام وضع مقلوب ، فأرض فى بلاد تحتاج إلى أناس ، وأناس فى بلاد يحتاجون إلى الأرض .

ومن الواجب أن تسيح المسألة فتأخذ الأرض التى بلا رجال ما تحتاجه من الرجال من البلاد التى لا أرض فيها . وهذا الضجيج الذى يعلو فى الكون سببه أنه يوجد فى كون الله أرض بلا رجال ورجال بلا أرض ، فإذا ما ضاق مكان بإنسان فله أن يذهب إلى مكان آخر ، ولو كان الأمر كذلك لسعدت البشرية ، ومن ينقض هذه القضية فعليه أن يعرف أنه يأخذ الخلافة فى الأرض بغير شروطها ، فالذى يفسد الأمر فى الأرض أن الإنسان الخليفة فى الأرض نسى أنه خليفة واعتبر نفسه أصيلاً فى الكون . وما دام قد اعتبر نفسه أصيلاً فى الكون فهذا هو الفساد :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ ﴾

(سورة النساء)

إذن ، فإن أقام الإنسان على ضيم ولم يعمل فكره وعقله ولم يطرح قضية الكون أمامه ليرى الأرض التى تسعه فيهاجر فيها فعليه أن يعرف أنه مهدد بسوء المصير ؛ لأن الله قد جعل له الكون كله ليكون فيه خليفة ، أمّا الذين سوف ينجون من هذا العقاب ومن تعنيف الملائكة لهم ساعة الوفاة فهم مَن يقول عنهم الحق فى الآية التالية :

﴿ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ ﴾

وعلينا أن نعرف أن هناك فرقاً بين « مستضعف دعوى ومستضعف حقيقى » ، فهناك مستضعف قد قبل استضعاف غيره له وجعل من نفسه ضعيفاً. هذا هو « مستضعف دعوى » .

أما « المستضعف الحقيقى » فهو مِن هؤلاء الذين يحددهم الحق :

« إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً » . هؤلاء هم المستضعفون فعلاً حسب طبيعة عجزهم من الرجال والنساء والولدان .

هل الولد من الولدان يكون مستضعفاً ؟ نعم ؛ لأن الاستضعاف إما أن يكون طارئاً وإما أن يكون ذاتياً ؛ فبعض من الرجال يكون مملوكاً لغيره ولا يقدر على التصرف أو الذهاب ، وكذلك النساء ؛ فالمرأة لا تستطيع أن تمشى وحدها وتحمى نفسها ، بل لا بد أن يوجد معها من يحميها من زوج أو محرم لها ، وكذلك الولدان ؛ لأنهم بطبيعتهم غير مكلفين وهم بذلك يخرجون عن نطاق التعنيف من الملائكة ؛ لأنهم لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً .

وهذه دقة فى الأداء القرآنى ، فالإنسان مكلف بالخروج عن ظلم غيره له ولو بالاحتيال ، والاحتيال هو إعمال الفكر إعمالاً يعطى للإنسان فرصة أكثر مما هو متاح له بالفعل . فقد تكون القوة ضعيفة . ولكن بالاحتيال قد يوسع الإنسان من فرص القوة . ومثال ذلك : الإنسان حين يريد أن يحمل صخرة ، قد لا يستطيع ذلك بيديه ، لكنه أن يأتى بقضيب من الحديد ويصنع منه عتلة ويضع تحت العتلة عجلة ، ليدحرج الصخرة ، هذه هى حيلة من الحيل ، وكذلك السَّقالات التى نبنى عليها ، إنها حيلة .

والذى قام ببناء الهرم ، كيف وضع الحجر الأخير على القمة ؟ لقد فعل ذلك

بالحيلة ، والذى جلس لينحت مسلة من الجرانيت طولها يزيد على العشرة الأمتار ، ثم نقلها وأقامها إنّه فعل ذلك بالحيلة . فالحيلة هو فكر يعطى الإنسان قدرة فوق قدرته على المقدور عليه ، كذلك معرفة السبيل إلى الهجرة . وكانت معرفة الطرق إلى الهجرة من مكة إلى المدينة فى زمن رسول الله تحتاج إلى خبرة حتى يتجنب الواحد منهم المفازات والمتاهات ، وحينما قام الرسول بالهجرة أحضر دليلاً للطريق ، وكان دليله كافراً ، فلا يتأتى السير فى مثل هذه الأرض بلا دليل .

ولننظر إلى قول الحق سبحانه :

﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ ﴾

« فأولئك » إشارة إلى من جاء ذكرهم فى الآية السابقة لهذه الآية :

﴿ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ ﴾

(سورة النساء)

ومع ذلك فإن الله حين أشار إلى هؤلاء المستضعفين بحق قال :

﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ﴾

(من الآية ٩٩ سورة النساء)

وكان مقتضى الكلام أن يقول الحق : « فأولئك عفا الله عنهم » ، لكن الحق جاء بـ « عسى » ليحثهم على رجاء أن يعفو الله عنهم ، والرجاء من الممكن أن يحدث أَوْ لَا يحدث . ونعرف أن « عسى » للرجاء ، وأنها تستخدم حين يأتى بعدها أمر محبوب نحب أن يقع .

فقد ترجو شيئاً من غيرك وتقول : عساك أن تفعل كذا . وقد يقول الإنسان :

عساى أن أفعل كذا ، وهنا يكون القائل هو الذى يملك الفعل وهذا أقوى قليلاً ، ولكن الإنسان قد تخونه قوته ؛ لذلك فعليه أن يقول : عسى الله أن يفعل كذا ، وفى هذا اعتماد على مطلق القوة . وإذا كان الله هو الذى يقول : « عسى الله أن يعفو عنهم » ، فهذا إطماع من كريم قادر .

وبعد أن يذكر لنا القصة التى تحدث لكل من مات وتوفته الملائكة ظالماً نفسه بأن ظل فى أرض ومكث فيها ، وكان من الممكن أن يهاجر إلى أرض إيمانية إسلامية سواها ؛ ومع ذلك فالذى يضع فى نفسه شيئاً يريد أن يحقق به قضية إيمانية فهو معانٌ عليها لأن الله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾ ﴾

فالذى يهاجر فى سبيل الله سيجد السعة إن كان قد وضع فى نفسه العملية الإيمانية . وفى البداية كان المسلمون يهاجرون إلى الحبشة ؛ لأنهم لم يكونوا آمنين فى مكة على دينهم .

ولذلك قيل : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم بسط الله له كونه واستعرض قضية العدالة فى الكون ، فلم يقبل النبى إلا أن يذهب المهاجرون إلى الحبشة . ولا بد أن الحق قد أعلمه أن الحبشة فى ذلك الزمان هى أرض بلا فتنة .

وقد يقول قائل : ولماذا لم يختر النبى أن يهاجر المهاجرون الأوائل إلى قبيلة عربية فى الجنوب أو فى الشمال ؟

لقد كانت لقريش السيادة على كل الجزيرة العربية بقبائلها ، فكل القبائل تحج عند قريش ولم تكن هناك أى بيئة عربية قادرة على أن تقف أمام هوى قريش . ولذلك استعرض سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم البلاد جميعاً إلى أن أمرهم بالهجرة إلى الحبشة ، والعلة فى الذهاب إلى الحبشة أن هناك ملكاً لا يظلم عنده أحد . وكان العدل فى ذاته وساماً لذلك الملك وسماها المؤمنون دار أمن ، وإن لم تكن دار إيمان . وأما الهجرة إلى المدينة فقد كانت إلى دار إيمان . وعلينا أن نعرف نحن الذين نعيش فى هذا الزمان أنه لا هجرة بعد الفتح ، إلا إن كانت هجرة يقصد بها صاحبها المعونة على طاعة الله . وهو ما يوضحه قوله صلى الله عليه وسلم : (المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه)[1] .

وهناك هجرة باقية لنا وهى الحج ، أو الهجرة إلى طلب العلم ، أو الهجرة لأن هناك مجالاً للطاعة أكثر ، فلنفترض أن هناك مكاناً يضيق الحكام فيه على الذهاب إلى المسجد ، فيترك أهل الإيمان هذا المكان إلى مكان فيه مجال يأخذ فيه الإنسان حرية أداء الفروض الدينية ، كل هذه هجرات إلى الله . والنية فى هذه الهجرات لا يمكن أن تكون محصورة فقط فى طلب سعة العيش . ولذلك لا يصح أن يكون الشغل الشاغل للناس ما يشغلهم فى هذا الزمان هو سعة العيش .

وها هو ذا الإمام على ـ كرم الله وجهه ـ يقول : عجبت للقوم يَسْعَوْنَ فيما ضُمِن ـ بالبناء للمفعول ـ لهم ويتركون ما طلب منهم . فكل سعى الناس إنما هو للرزق والعيش وهو أمر مضمون لهم من خالقهم جل وعلا :

﴿ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾ ﴾

(سورة النساء)

ولن يجد المهاجر إلا السعة من الله ، والشاعر يقول :

لعمرك ما ضاقت بلاد بأهلها ... ولكن أخلاق الرجال تضيق

---

(١) رواه البخارى وأبو داود والنسائى عن ابن عمرو :

وقد يقول الإنسان : إننى أطلب سعة الرزق بالهجرة ، ونقول : أنت تبحث عن وظيفة لها شكل العمل وباطنها هو الكسل لأنك فى مجال حياتك تجد أعمالاً كثيرةً .

ونجد بعضاً ممن يطلبون سعة الرزق يريد الواحد منهم أن يجلس على مكتب ويقبض مرتباً ، بينما يبحث المجتمع عن العامل الفنى بصعوبة ، كأن الذين يبحثون عن سعة الرزق يريدون هذه السعة مع الكسل ، لا مع بذل الجهد .

« ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغماً كثيراً » وساعة تقرأ كلمة « مراغم » تعرف أنها تفتح المجال أمام المستضعفين الذين يستذلهم الجبارون . ومادة « مراغم » هى « الراء والغين والميم » والأصل فيها « الرّغام » أى « التراب » . ويقال : سوف أفعل كذا وأنف فلان راغم ، أى أنف فلان يذهب إلى التراب وسأفعل ما أنا مصمم عليه . ومادام هناك إنسان سيفعل شيئاً برغم أنف إنسان آخر ، فمعناه أن الثانى كان يريد أن يستذله وأراد أن يرغمه على شىء ، لكنه رفض وفعل ما يريد .

وعندما يرى الإنسان جباراً يشمخ بأنفه ويتكبر ، فهو يحاول أن يعانده ويصنع غير ما يريد ويجعل مكانة هذا الأنف فى التراب ، ويقال فى المثل الشعبى : أريد أن أكسر أنف فلان .

وعندما يهاجر من كان مستضعفا ويعانى من الذلة فى بلده ، سيجد أرضاً يعثر فيها على ما يرغم أنف عدوه . فيقول العدو : برغم أننى ضيقت عليه راح إلى أحسن مما كنت أتوقع . ويرغم الإنسان بهجرته أنف الجبارين .

وكلمة « مراغم » هى اسم مفعول ، وتعنى مكانًا إذا ما وصلت إليه ترغم أنف خصمك الذى كان يستضعفك ، فهل هناك أفضل من هذا ؟

راجع أصله وخرج أحاديثه الدكتور أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .

« ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغماً كثيراً » أى أنه سبحانه يعطى المهاجر أشياء تجعل من كان يستضعفه ويستذله يشعر بالخزى إلى درجة أن تكون أنفه فى الرَّغام .

والمستضعف فى أرضٍ ما يجد من يضيق عليه حركته ، لكنه عندما يهاجر فى سبيل الله سيجد سعة ورزقاً .

ويتابع الحق الآية : « ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله وكان الله غفوراً رحيماً » ولا أحد يعرف ميعاد الموت . فإن هاجر إنسان فى سبيل الله فقد لا يصل إلى المراغم ؛ لأن الموت قد يأتيه ، وهنا يقع أجره على الله . فإذا كان سبحانه قد وعد المهاجر فى سبيله بالمكان الذى يرغم أنف خصمه وذلك سبب ، ومن مات قبل أن يصل إلى ذلك السبب فهو قد ذهب إلى رب السبب ، ومن المؤكد أن الذهاب إلى رب السبب أكثر عطاءً . وهكذا نجد أن المهاجر رابح حياً أو ميتاً .

« ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله وكان الله غفوراً رحيماً » وكلمة « وقع أجره على الله » أى سقط أجره على الله . كأن الحق سبحانه وتعالى يقول للعبد : أنت عندما تهاجر إلى أرض الله الواسعة ، إن أدركك الموت قبل أن تصل إلى السعة والمراغم ، فأنت تذهب إلى رحابى . والمراغم سبب من أسبابى وأنا المسبب .

وحتى نفهم معنى : « وقع أجره على الله » علينا أن نقرأ قوله الحق :

﴿ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ ﴾

(من الآية ٨٢ سورة النمل)

والوقوع هنا هو سقوط ، ولكنه ليس كالسقوط الذى نعرفه ، بل هو الذهاب إلى الله . ولماذا يستخدم الحق هنا « وقع » بمعنى « سقط » ؟

هو سبحانه يلفتنا إلى ملحظ هام : حيث يكون الجزاء أحرص على العبد من حرص العبد عليه ، فإذا ما أدرك العبد الموت فالجزاء يسعى إليه وهو عند الله ،

ويعرف الجزاء مَن يذهب إليه معرفة كاملة .

وهكذا يجب أن نفهم قوله الحق :

﴿ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾ ﴾

(سورة النساء)

والله غفور رحيم حتى لمن توانى قليلاً ، وذلك حتى يلحق بالركب الإيمانى ويتدارك ما فاته ؛ لأن الله يغفر ما فات إن حاول العبد تداركه . والهجرة تقتضى ضرباً فى الأرض ، وتقتضى الجهاد .

وبعد أن جعل الله للإسلام أركاناً ، جاء فحمل المسلم ما يمكن أن يؤديه من هذه الأركان ، فأركان الإسلام هى : الشهادة ؛ والصلاة ؛ والصوم ؛ والزكاة ؛ والحج لمن استطاع إلى ذلك سبيلاً ، والمسلم ينطق بالشهادة ويؤدى الصلاة ، ولكنه قد لا يملك مالاً ؛ لذلك يعفيه الحق من الزكاة . وقد يكون صاحب مرض دائم فلا يستطيع الصوم ، فيعفيه الله من الصوم . وقد لا تكون عنده القدرة على الحج فيعفيه الحق من الحج . أما شهادة « لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله » فقد لا يقولها المسلم فى العمر إلا مرة واحدة . ولم يبق إلا ركن الصلاة وهو لا يسقط عن الإنسان أبداً ما دامت فيه الصلاحية لأدائها ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(رأس الأمر كله الإسلام وعموده الصلاة)[1] .

ولأن الصلاة هى الركن الذى لا يسقط أبداً فقد جمع الله فيها كل الأركان ، فعند إقامة الصلاة يشهد المسلم ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وخلال الصلاة يصوم الإنسان عن الطعام والشراب ، وإضافة إلى ذلك يصوم ويمتنع عن الكلام أيضا ، وهكذا نجد الصلاة أوسع فى الإمساك عن ركن الصيام . فالإنسان وهو يقيم

---

(١) رواه الترمذى وأحمد .

الصلاة يحبس نفسه عن أشياء كثيرة قد يفعلها وهو صائم ، فالصوم ـ مثلاً ـ لا يمنع الإنسان من الحركة إلى أى مكان لكن الصلاة تمنع الإنسان إلا من الوقوف بين يدى الله .

إذن فالصلاة تأخذ إمساكاً من نوع أوسع من إمساك المؤمن فى الصيام . والزكاة هى إخراج جزء من المال ، والمال يأتى به الإنسان من الحركة والعمل . والحركة والعمل تأخذ من الوقت . وحين يصلى المسلم فهو يزكى بالأصل ، إنه يُزكى ببذل الوقت الذى هو وعاء الحركة ، إذن ففى الصلاة زكاة واسعة .

والحج إلى البيت الحرام موجود فى الصلاة ؛ لأن المسلم يتحرى الاتجاه إلى البيت الحرام كقبلة فى كل صلاة ، وهكذا .

ولذلك اختلفت الصلاة عن بقية الأركان . فلم تشرع بواسطة الوحى ، وإنما شرعت بالمباشرة بين رب محمد ومحمد صلى الله عليه وسلم . ولأن هذه هى منزلة الصلاة نجد الحق يحذرنا من أن يشغلنا الضرب فى الأرض عنها ، بل شرع سبحانه صلاة مخصوصة اسمها « صلاة الحرب وصلاة الخوف » حتى لا يقولن أحد إن الحرب تمنعنا من الصلاة ، ففى الحرب يكون من الأولى بالمسلم أن يلتحم بمنهج ربه .

كذلك فى السفر يشرع الحق قصر الصلوات :

﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾ ﴾

والضرب فى الأرض مقصود به أن يمشى المؤمن فى الأرض بصلابة وعزم وقوة .

والقصر فى الصلاة هو اختزال الكمية العددية لركعاتها . وفى اللغة « اختصار »

و« اقتصار » . « الاقتصار » أن تأخذ بعضاً وتترك بعضاً ، و« الاختصار » هو أخذ الكل بصفة موجزة . مثال ذلك عندما نختصر كتاباً ما فنحن نوجز كل المعانى التى فيه فى عدد أقل من الكلمات .

وقد يفكر إنسان فى أن يكتب خطاباً ، ثم يقول لنفسه : سأرسل برقية فى الموضوع نفسه . وهنا لا بد أن يختزل الكلمات لتحمل معانى كثيرة فى ألفاظ موجزة .

والإسهاب ـ كما نعلم ـ لا يأخذ من الوقت مثلما يأخذ الإيجاز ؛ فعندما يريد الإنسان الإيجاز فهو يقدح ذهنه ـ فى وقت أطول ـ ليصل إلى المعانى فى كلمات أقل .

ويحكى عن سعد زغلول ـ زعيم ثورة ١٩١٩ المصرية ـ أنه كتب رسالة لصديق فأطال ، وأنهى رسالته بهذه الكلمات :

وإنى أعتذر إليك عن التطويل فليس عندى الوقت الكافى للإيجاز . ويحكى التاريخ عن الخليفة المسلم الذى أراد أن يهدد قائد الروم . . فكتب إليه ؛ أما بعد : فسآتيك بجيش أوله عندك وآخره عندى . وهكذا أوجز الخليفة حجم الخطر الداهم الذى سيواجه ملك الروم من جيش عرمرم سيملأ الأرض إلخ .

وينقل التاريخ عن أحد قادة العرب وموقفه القتالى الذى كان صعبًا فى « دومة الجندل » أنه كتب إلى خالد بن الوليد كلمتين لا غيرهما « إياك أريد » ولم يقل أكثر من ذلك ليتضح من هذا الإيجاز حجم المعاناة التى يعانيها . وقد أوردنا هذا الكلام ونحن بصدد الحديث عن القصر والإيجاز .

والقصر فى الصلاة هو أن يؤدى المؤمن كُلًّا من صلاة الظهر والعصر والعشاء ركعتين بدلاً من أربع ركعات ، أما الصبح والمغرب فكلاهما على حاله ، الصبح ركعتان ، والمغرب ثلاث ركعات . وحكمة مشروعية ذلك أن الصلاة فى وقت الحرب تقتضى ألا ينشغل المقاتلون عن العدو ، ولا ينشغلوا أيضا عن قول الحق :

﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَـٰبًا مَّوْقُوتًا ﴾

(من الآية ١٠٣ سورة النساء)

فإذا شرع الله للخوف صلاة ، وللحرب صلاة فمعنى ذلك أنه لا سبيل أبداً لأن ينسى العبد المؤمن إقامة الصلاة . وإذا كانت الصلاة واجبة فى الحرب فلن تكون هناك مشاغل فى الحياة أكثر من مشاغل الحرب والسيف . وصلاة الحرب ـ أى صلاة الخوف ـ جاء بها القرآن ، أما صلاة السفر فقد جاءت بها السنة أيضا ، وفيها يقصر المؤمن صلواته أيضاً :

﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾ ﴾

(سورة النساء)

ولو رأى الكافرون المؤمنين مصفوفين جميعاً فى الصلاة فقد يهجمون عليهم هجمة واحدة . ولذلك شرع الحق قصر الصلاة .

ويكون الخطاب من بعد ذلك موجهاً للرسول صلى الله عليه وسلم :

﴿ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ

أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾

وحين يقول الحق : « فلتقم طائفة منهم » نفهم أن ينقسم المؤمنون إلى طائفتين : طائفة تصلى مع رسول الله ، وأخرى ترقب العدو وتحمى المؤمنين .

ولكن كيف تصلى طائفة خلف رسول الله ولا تصلى أخرى وكلهم مؤمنون يطلبون شرف الصلاة مع رسول الله ؟ ويأمر الحق أن يقسم النبى صلى الله عليه وسلم الصلاة ليصلى بكل طائفة مرة ، ليشرف كل مقاتل بالصلاة خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقصر الصلاة ـ كما عرفنا ـ ينطبق على الصلاة الرباعية وهى الظهر والعصر والعشاء أما صلاة الفجر وصلاة المغرب فلا قصر فيهما ، فليس من المتصور أن يصلى أحد ركعة ونصف ركعة ، وفى علم الحساب نحن نجبر الكسور إلى الرقم الأكبر .

وقد صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الخوف بهيئات متعددة ، ولا مانع من أن نلم بها إلماماً عاجلاً ؛ لأن تعليم هذه الصلاة عادة يكون واجباً على الأئمة والعلماء الذين يصلون بالجيوش فى حالة الحرب . ولصلاة الخوف طرق وكيفيات : كان الرسول صلى الله عليه وسلم يُقَسِّم الجيش إلى قسمين ؛ قسم يصلى معه وقسم يرقب العدو ، ويصلى بكل فرقة ركعتين .

وهناك طريقة أخرى وهى أن يصلى بطائفة وفرقة ركعة واحدة ، ثم ينصرفون وتأتى الطائفة التى حمت الطائفة الأولى فى أثناء الصلاة لتصلى هذه الطائفة الثانية ركعة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهنا يسلم رسول الله لأنه أنهى الصلاة .

وبعد ذلك تصلى الطائفة الأولى الركعة الثانية التى عليها فى القصر وتسلم ، ثم تصلى الطائفة الثانية الركعة الثانية التى عليها فى القصر وتسلم .

وهناك كيفية ثالثة وهى أن تأتى الطائفة الأولى تصلى مع النبى صلى الله عليه وسلم ركعة ، ولا يصلى النبى معها الركعة الثانية بل يظل واقفاً قائماً إلى أن تخرج من صلاتها بالتسليم لتنادى الطائفة التى تقف فى مواجهة العدو لتصلى خلف النبى الركعة الثانية بالنسبة للنبى بينما هى الركعة الأولى بالنسبة إليها ، ويظل النبى قاعداً إلى أن تأتى الطائفة الثانية بركعتها الثانية ويسلم النبى صلى الله عليه وسلم بها وتنال الطائفة الأولى شرف بدء الصلاة مع الرسول صلى الله عليه وسلم وتحظى الطائفة الثانية بشرف السلام معه صلى الله عليه وسلم .

وهنا نسأل : هل هذه الصلاة بهذا الأسلوب مقصورة على عهد النبى صلى الله عليه وسلم واتماماً به لأن الصلاة معه هى الشرف ؟ فكيف يصلى المقاتلون صلاة الخوف بعده صلى الله عليه وسلم ؟ قال العلماء : إذا كنت تعتبر القائمين بأمر القيادة هم خلفاء لرسول الله فى الولاية فتقام صلاة الخوف على صورتها التى جاءت فى القرآن ، ولكن إذا كان لكل جماعة إمام فلتصل كل جماعة صلاة القصر كاملة خلف الإمام .

« وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم » وهذه الأسلحة المقصود بها الأسلحة الحقيقية مثل السيف أو الرمح أو النبلة أو البندقية فليأخذها المقاتل معه ، أما من معه سلاح ثقيل فلن يأخذه بطبيعة الحال إلى الصلاة .

« فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم » والقول القرآنى هنا ليس مجرد ألفاظ تقال ولكنها ألفاظ لها مدلولات من رب العالمين ، فمن قدموا إلى الصلاة أولاً ؛ تركوا خلفهم من يحميهم .

ولكن الطائفة الثانية التى سوف تترك المواقع من أجل الركعة الثانية خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم فبالهم مشغول بذواتهم وبحماية من يصلون ، فلعلهم حين يذهبون إلى الصلاة مع رسول الله تلهيهم المسألة ؛ لذلك قال الله : « وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم » وهكذا نجد أن الطائفة الأولى ملزمة بأخذ السلاح ، والطائفة الثانية ملزمة بأخذ الحذر والسلاح .

وقد يقول قائل : صحيح إن الأسلحة تؤخذ ، ولكن كيف يؤخذ الحذر وهو عملية معنوية ؟

ونقول : إنه سبحانه يصور المعنويات ويجسمها تجسيم الماديات حتى لا يغفل الإنسان عنها ، فكأن الحذر آلة من آلات القتال ، وإياك أيها المقاتل أن تغفل عنها .

وهذا أمر يشيع فى أساليب القرآن الكريم ، فالحق سبحانه يقول :

﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾

(من الآية ٩ سورة الحشر)

والدار هى مكان باستطاعة الإنسان أن يتبوأه ويقيم به ، فما معنى أن يتبوأ الإنسان الإيمان وهو أمر معنوى ؟ . إنه سبحانه فى هذا القول يصف الأنصار الذين أكرموا وفادة المهاجرين ، والدار ـ كما نعرف ـ هى المكان الذى يرجع إليه الإنسان ، والإيمان هو مرجع كل أمر من الأمور .

إذن فقد جعل الحق سبحانه الإيمان كأنه يُتبوأ ، أى جعله شيئاً ينزل الإنسان فيه ، والإيمان كذلك حقاً ، والدار فى هذا القول مقصود بها هنا المدينة المنورة ، حيث استقبل الأنصار المهاجرين .

﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ ﴾

(سورة الحشر)

وهكذا يجسم الحق المعنويات لنفهم منها الأمر وكأنه أمر حسّى ، تماماً كما قال الحق : « فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة » .

وهذا ما يوضح لنا لماذا أمر الله أن يأخذ المسلمون الحذر والأسلحة ؛ لأن المقاتل يجب أن يخاف على سلاحه ومتاعه . فلو فقدها المقاتل لفقد أداة القتال ولصارت

أدوات قتاله قوة لعدوه . فحين يأخذ المقاتل السلاح من عدوه ، يتحول السلاح إلى قوة ضد العدو .

لذلك كان التحذير من فقد الأسلحة والأمتعة حتى لا تضاف قوة السلاح والمتاع إلى قوة العدو ؛ لأن فى ذلك إضعافاً للمؤمن وقوة لخصمه . وعدو الإسلام يود أن يغفل المسلمون عن الأسلحة والمتاع ، والمؤمن ساعة الصلاة يستغرق بيقظته مع الله ، ولكن على الإنسان ألا يفقد يقظته إن كان يصلى أثناء الحرب ، فلا يصح أن ينسى الإنسان سلاحه أثناء القتال حتى وهو يصلى ، فالقتال موقف لله ، فلا تفصل القتال فى سبيل الله عن الصلاة لله .

« ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم » والغفلة هى نسيان طارىء على ما لا يصح أن يُنسى ، وفى هذا تحذير واضح ؛ لأن الغفلة أثناء القتال هى حلم للكافرين حتى يحققوا هدفهم المتمثل فى قول الله : « فيميلون عليكم ميلة واحدة » . فمعسكر الكفر يتمنى أن يهجم على المؤمنين فى لحظة واحدة ، هذا هو المقصود بقوله : « فيميلون عليكم ميلة واحدة » .

ولكن لنر من بعد ذلك قول الحق :

﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾

(من الآية ١٠٢ سورة النساء)

ونجد هنا أن كلمة « الحذر » تكررت ، وسبحانه بجلال جبروته أعد للكافرين عذاباً مهيناً ، وفى ذلك بشارة منه أن الكافرين لن ينالوا من المؤمنين شيئاً ، فلماذا جاء الأمر هنا بأخذ الحذر ؟ . إن أخذ الحذر لا يعنى أن الله تخلى عن المؤمنين ، ولكن لتنبيه المؤمنين أن يأخذوا بالأسباب ، ولا يغفلوا عن المسبب لأنه سبحانه هيأ وأعد العذاب المهين للكافرين . « إن الله أعد للكافرين عذاباً مهيناً » .

وهذا ما يجب أن نفهمه حتى لا يتوهم أحد أن الله عندما نبه كثيراً بضرورة الأخذ بالحذر ثم أنه يتخلى عنا ، لا . إنّه سبحانه يوضح لنا أن نأخذ بالأسباب ولا نهملها

وهو القائل « إن الله أعد للكافرين عذاباً مهيناً » .

ومن بعد ذلك قال الحق :

﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَوٰةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ الصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَـٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾ ﴾

كأن المؤمن مطالب بألا يسوِّف ويُؤَخِّر الصلاة عن وقتها ، وأن يذكر الله قائماً وقاعداً و على جنبه ، وذلك لتكون الصلاة دائماً فى بؤرة شعور الإنسان ، بل إن المؤمن مطالب بذكر الله حتى وهو يسايف عدوه وينازله ، فهو يحمل السيف ولسانه رطب بذكر الله ويقول : « سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم » .

والإنسان حين يسبح الله حتى وهو فى حالة الاشتباك مع العدو لا ينساه الله . والمؤمن قد يؤخر الصلاة فى حالة الاشتباك مع العدو والالتحام به ، ولكن عليه أن يدفع قلبه ونفسه إلى ذكر الله ، ففى وقت الصلاة يكون مع ربه فليذكره قائماً وقاعداً و فى كل حال ، وبعد أن يطمئن المسلم لموقفه القتالى فليقض الصلاة . وأنه لا يترك ربه أبداً بل وهو فى الحرب يكون ذلك منه أولى ؛ لأنه فى حالة الاحتياج إليه سبحانه ، والقتال يدفع المؤمن إلى الاستعانة بربه ، وإذا كان المسلم يعرف أن لله فى أوقاته تجليات ، فلا يحرمن واحد نفسه من هذه التجليات فى أى وقت ، وذكر الله يقرِّب العبد من مولاه ـ فسبحانه ـ مع عبده إذا ذكره ، فإن كان الإنسان مشبعاً بالاطمئنان وقت الخوف والقتال فليذكر الله ليدعم موقفه بالقوة العليا .

وقوله الحق : « فإذا اطمأننتم فأقيموا الصلاة » أى إذا انتهى الاشتباك القتالى فعلى المؤمن أن ينتقل من ذكر الله أثناء الاشتباك إلى الصلاة التى حان ميقاتها أثناء القتال . فقد كان ذكر الله وقت الاشتباك من أجل ألا يضيع وقت الصلاة بلا كرامة لهذا الوقت ، وبلا كرامة للقاء العبد مع الرب . ولماذا كل ذلك ؟ ويأتى القول الفصل : « إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً » .

وقد أوضح لنا الحق صلاة الخوف ، وشرع سبحانه لنا ذكره إذا ما جاء وقت الصلاة فى أثناء الاشتباك القتالى، وإذا ما اتفق توقيته مع وقت الصلاة ، وشرحت لنا سنة النبى صلى الله عليه وسلم كيفية قصر الصلاة فى أثناء السفر، لماذا كل ذلك ؟ لأن الصلاة فرض لا غنى عنه على الإطلاق « إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً » . أى أن الصلاة لها وقت .

ولا يصح أن يفهم أحد هذا المعنى ـ كما يفهمه البعض ـ بأن صلاة الظهر ـ على سبيل المثال ـ وقتها ممتد من الظهر إلى العصر ، وصحيح أن الإنسان إذا عاش حتى يصلى الظهر قبيل العصر فإنها تسقط عنه ، ولكن ماذا يحدث لو مات العبد وقد فات عليه وقت يسعها ؟ إذن فقد أثم العبد ، ومن يضمن حياته حتى يؤدى الصلاة مؤجلة عن موعد أدائها ؟.

وقد يقول قائل : أحياناً أسمع أذان الصلاة وأكون فى عمل لا أستطيع أن أتركه ؛ فقد أكون فى إجراء جراحة . أو راكباً طائرة . ونقول : أسألك بالله إذا كنت فى هذا العمل الذى تتخيل أنك غير قادر على تركه وأردت أن تقضى حاجة ، فماذا تصنع ؟ إنك تذهب لقضاء حاجتك ، فلماذا استقطعت جزءاً من وقتك من أجل أن تقضى حاجتك ؟ وقد تجد قوماً كافرين يسهلون لك سؤالك عن دورة المياه لتقضى حاجتك .

وساعة يراك هؤلاء وأنت تصلى فأنت ترى على وجوههم سمة الاستبشار ؛ لأن فيهم العبودية الفطرية لله ، وتجد منهم من يسهل ذلك ويحضر لك مُلاءة لتصلى فوقها ، ويقف فى ارتعاش سببه العبودية الفطرية لله ، فلا تقل أبداً : إن الوقت لا يتسع للصلاة ؛ لأن الله لا يكلف أبداً عبده شيئا ليس فى سعته ، والحق كلف العبد بالصلاة ومعها الوقت الذى يسعها .

ولله المثل الأعلى ، نحن نرى رئيس العمال فى موقع ما يوزع العمل على عماله بما يسع وقت كل منهم ، فما بالنا بالرب الخالق ، ولذلك يقول الحق :

﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾

(من الآية ٢ ومن الآية ٣ سورة الطلاق)

والصلاة رزق عبودى يحررك من أى خوف ، وفضلها لا حدود له لأن فارضها هو الخالق المربى ، فكيف تبخل على نفسك أن تكون موصولا بربك ؟

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝١٠٤ ﴾

وهذه الآية تذكرة لنا بكيفية الرد على من يدعون التحرر ويحاولون إظهار الإسلام بأنّه يصلح للعصر الذى نحياه عندما نؤوله ونطوّعه لمرادات العصر ، ناسين مرادات الإسلام ؛ فهم يقولون : لقد شرع الحق الحرب فى الإسلام لرد العدوان . ونقول لهم : صحيح أن الحرب فى الإسلام لرد العدوان ، والحرب فى الإسلام أيضاً هى لتوسيع المجال لحرية الاعتقاد للإنسان .

إن الذى يخيف هؤلاء أن يكون القتال فى الإسلام فريضة ، فيقاوم المسلمون الطغيان فى أى مكان . وهذه محاولة من أعداء الإسلام لصرف المسلمين حتى لا يقاوموا قهر الناس والطغيان عليهم ؛ لأن أعداء الإسلام يعرفون تماماً قوة الإسلام الكامنة والتى يهبها لمن يؤمن به ديناً ، وينخدع بعض المسلمين بدعاوى أعداء الإسلام الذين يقولون : إن الإسلام لم يشرع الحرب إلا لرد العدوان .

ولذلك نقول لهؤلاء وأولئك : لا ؛ إن الإسلام جاء بالقتال ليحرر حق الإنسان

فى الاعتقاد . والمسلم مطلوب منه أن يعلن كلمة الله ، وأن يقف فى وجه من يقاوم إعلانها ، ولكن الإسلام لا يفرض العقيدة بالسيف ، إنما يحمى بالسيف حرية المعتقِد ، فالحق يقول : « ولا تهنوا فى ابتغاء القوم » أى لا تضعفوا فى طلب القوم الذين يحاربون الإسلام ، والابتغاء هو أن يجعل الإنسان شيئاً بغية له ، أى هدفاً وغاية ، ويجند لها كل تخطيطات الفكر ومتعلقات الطاقة ، كأن الإنسان لا يرد القوم الكافرين فقط ساعة يهاجمون دار الإسلام ، ولكن على المسلم أن يبتغيهم أيضاً امتثالاً لقول الله : « ولا تهنوا فى ابتغاء القوم » . فعلى المسلمين أن يُعْلُوا كلمة الله ويدعوا الناس كافة إلى الإيمان بالله . وهم فى هذه الدعوة لا يفرضون كلمة الله ، لكنهم يرفعون السيف فى وجه الجبروت الذى يمنع الإنسان من حرية الاعتقاد . إن على المسلمين رفع الجبروت عن البشر حتى ولو كان فى ذلك مشقة عليهم لأن الحق قال :

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ﴾

(من الآية ٢١٦ سورة البقرة)

وقد خلق الله فى المؤمن القدرة على أن يبتغى عدو الإسلام ليرفع الجبروت عن غيره من البشر ، صحيح أن الحرب مسألة مكروهة من البشر وليست رحلة سهلة ، ولكنها أحياناً تكون واجبة ، والذين أدركوا الحرب العالمية الثانية عرفوا أن « تشرشل » جاء رئيسا لوزراء بريطانيا بعد « تشمبرلن » الذى عرف عنه أنه رجل سلام ، وحاول « تشمبرلن » أن يماطل ويلوح بالسلام مع ألمانيا حتى تستعد انجلترا بالحرب ، وعندما استعدت انجلترا أعلن « تشمبرلن » أن سياسته غير نافعة ، وجاء « تشرشل » وقاد دفة الحرب ، وقال للإنجليز :

ـ انتظروا أياماً سوداء وانتظروا الجوع .

لقد قال تشرشل ذلك للإنجليز ، حتى إذا ما جاء الواقع بأقل من قوله ، فهم يستبشرون ويفرحون .

والحق سبحانه يقول : « ولا تهنوا فى ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون » . إن الحرب ترهقهم أيضاً كما ترهقكم ، لكنكم أيها المؤمنون تمتازون على الكافرين بما يلى : « وترجون من الله ما لا يرجون وكان الله عليماً حكيماً » . فأنتم

وهم فى الألم سواء ، ولكن الاختلاف هو أن المؤمنين يرجون ما لا يرجوه الكافرون ، إن المؤمنين يعلمون لحظة دخولهم الحرب أن الله معهم وهو الذى ينصرهم ومن يمت منهم يذهب إلى جنة عرضها السموات والأرض ، وهذا ما لا يرجوه الكفرة .

والحق سبحانه وتعالى يطالب الفئة المؤمنة التى انتهت قضية عقيدتها إلى الإيمان بإله واحد ؛ هو ـ سبحانه ـ أنشأهم وخلقهم وإليه يعودون ، وهذه القضية تحكم حركات حياتهم ؛ إنه ـ سبحانه ـ يطالبهم أن يؤدوا مطلوبات هذه القضية ، وأن يدافعوا عن هذه العقيدة التى تثبت للناس جميعاً أنه لا معبود ـ أى لا مطاع ـ فى أمر إلا الحق سبحانه وتعالى .

وحين تحكم هذه القضية أناساً فهى توحد اتجاهاتهم ولا تتضارب مع حركاتهم ، ويصبحون جميعاً متعاونين متساندين متعاضدين ؛ لذلك جعل الله الطائفة المؤمنة خير أمة أخرجت للناس ؛ لأن رسولها صلى الله عليه وسلم خير رسول أرسل للناس ، وطلب الحق من أهل الإيمان أن يجاهدوا الكافرين والمنافقين لتصفو رقعة الإيمان مما يكدر صفو حركة الحياة .

والحق يعامل خلقه كبشر ، إنّه خلقهم ويعلم طبائعهم وغرائزهم ولا يخاطبهم على أنهم ملائكة ، وإنما يخاطبهم على أنهم بشر ، وهم أغيار ، ومن الأغيار أن يصفو لهم أمر العقيدة مرة ، وأن تعكر عليهم شهواتهم صفو العقيدة مرة أخرى ؛ لذلك يؤكد لهم أن طريق العقيدة ليس مفروشاً بالرياحين والورود ، وإنما هو مفروش بالأشواك حتى لا يتحمل رسالة الحق فى الأرض إلا من صبر على هذه البلايا وهذه المحن . فلو كانت القضية على طرف الثمام[1] أى سهلة التناول لا مشقة فى الحصول عليها وتدرك بدون آلام وبدون متاعب فسيدعيها كل إنسان ويصبح غير مأمون على حمل العقيدة .

من أجل ذلك لم ينصر الله الإسلام أولاً ، إنما جعل الإسلام فى أول أمره ضعيفاً مضطهداً ، لا يستطيع أهله أن يحموا أنفسهم ، حتى لا يصبر على هذا الإيذاء

(١) الثمام : عشب لا يطول له زهر يسهل أخذه وقطفه .

إلا من ذاق حلاوة الإيمان مما يجعله لا يشعر بمرارة الاضطهاد ووطأة التعذيب ومشقته . فقال الحق سبحانه وتعالى : « ولا تهنوا فى ابتغاء القوم » أى لا تضعفوا فى طلب القوم .

وكلمة « لا تهنوا فى ابتغاء القوم » أى فى طلبهم تدل على أن الأمة الإسلامية ليس مطلوبا منها فقط أن تدفع عن نفسها عدواناً ، بل عليها أن تطلب هؤلاء الذين يقفون فى وجه الدعوة لتؤدبهم حتى يتركوا الناس أحراراً فى أن يختاروا العقيدة .

إذن فالطلب منه سبحانه : ألاّ تهنوا ولا تضعفوا فى طلب القوم الذين يقفون فى وجه الدعوة . ثم قال سبحانه : « إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون » أى إنه إذا كان يصيبكم ألم الحرب والإعداد لها ، فأنتم أيضاً تحاربون قوماً يصيبهم ألم المواقع والحروب والإعداد لها ؛ فأنتم وهم متساوون فى إدراك الألم والمشقة والتعب ، ولكن يجب ألا تغفلوا عن تقييم القوة فلا تهملوها ؛ لأنها هى القوة المرجحة . فأنتم تزيدون عليهم أنكم ترجون من الله ما لا يرجون . والأشياء يجب أن تُقَوَّم بغاياتها والثواب عليها . لا يقولن أحد أبداً « هذا يساوى ذلك » . . فلا يهمل أحد قضية الثواب على العمل . ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى فى شرح هذه المعادلة حتى تكون الأذهان على بينة منها إعداداً وخوضاً للحرب واحتمالاً لآلامها :

﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ﴾

(من الآية ٥٢ سورة التوبة)

عليكم أيها الكافرون أن تعلموا أن الذى ينتظرنا هو إحدى الحسنيين . . إما أن ننتصر ونقهركم ، وإما أن نستشهد فنظفر بالحياة الأخرى . وماذا عن تربص المؤمنين بالكافرين :

﴿ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ﴾

(من الآية ٥٢ سورة التوبة)

كفة مَن ـ إذن ـ هى الراجحة فى المعادلة ؟ إنها كفة المؤمنين ؛ لذلك قال الحق : « ولا تهنوا فى ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون » فلا تضعفوا أيها المؤمنون فى طلب القوم لأنهم يألمون كما تألمون ، ولكن

لكم مرجِّحا أعلى وهو أنكم ترجون من الله ما لا يرجون .

ويذيل الحق قضية حث المؤمنين على طلب الكافرين وكيف يزيد المؤمنون على الكافرين بأنهم يرجون من الله ما لا يرجوه الكافرون فيقول : « وكان الله عليماً حكيماً » إنه عليم بكل ما يصيب المؤمن من ألم ، فلا تعتقد أيها المؤمن أن لك أجراً سيضيع منك ؛ فالشوكة التى تشاك بها فى القتال محسوبة لك ، وهو سبحانه وتعالى حين يتركك تألم أمام الكافر كما يألم . فذلك لحكمة هى أن تسير إلى القتال وأنت واثق من قدرة إيمانك على تحمل تبعات هذا الدين .

عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ما يُصيب المؤمنَ مِنْ شوكة فما فوقها إلا رفعه الله بها درجة أو حط عنه بها خطيئة)[1] .

وبعد أن تكلم الحق عن القتال فى سبيل نصرة دينه لم يحرم المؤمنين من توجيه يصفى أيضاً حركة الحياة ، لماذا ؟ لأنه علم أن قوماً يؤمنون به وينضوون تحت لوائه صلى الله عليه وسلم ، فيوضح : أن انضواءكم أيها المؤمنون تحت لواء الإسلام له تبعات ، فأنتم أول من يُطبق عليه حكم الله ، وإياكم أن تظنوا أنكم بإيمانكم وإعلان إسلامكم لله واتباعكم لرسول الله قد أخذتم شيئاً يميزكم عن بقية خلق الله ، فكما قلنا لكم دافعوا الكفار ودافعوا المنافقين نقول لكم أيضاً : دافعوا أنفسكم ؛ لأن واحداً قد ينضم إلى الإسلام وبعد ذلك يظن أن الإسلام سيعطيه فرصة ليكون له تميز على غيره ، ولمثل هذا الإنسان : نقول لا . ولذلك يخاطب رسوله صلى الله عليه وسلم ويقول له :

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ ﴾

(١) رواه مسلم فى البر .

والحق سبحانه وتعالى حين يتكلم عن نفسه ؛ يتكلم فيما يتعلق بالفعل بصفة التعظيم والجمع . مثال ذلك قوله : « إنا أنزلنا » . وهذه « نون الجماعة » حيث يتطلب إنزال القرآن قوى متعددة لا تتوافر إلا لمن له الملك فى كل الكون.ولنضرب لذلك مثلا ولله المثل الأعلى . . إننا نجد أن رئيس الدولة أو الملك فى أى بلد يصدر قراراً فيقول : « نحن فلانا أصدرنا القرار » . والملك أو الرئيس يعرف أنه ليس وحده الذى يصدر القرار ، ولكن يصدره معه كل المتعاونين معه وكل العاملين تحت رئاسته ، فما بالنا بالحق الأعلى سبحانه وتعالى ؟ لذلك فحين يتكلم سبحانه فيما يتعلق بالذات يكون الحديث بواسطة ضمير الأفراد فيقول :

﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴿١٤﴾ ﴾

(سورة طه)

ولا يأتى هنا ضمير الجمع أبداً ، ولا تأتى « نون التعظيم » . ولكن فى هذه الآية نجد الحق يقول : « إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق » . . ونرى « نون التعظيم » واضحة ، فالقرآن كلام الله ، ونزول القرآن يتطلب صفات متعاضدة . فسبحانه مرة يقول :

﴿ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ ﴾

(من الآية ٤٧ سورة العنكبوت)

ومرة يقول :

﴿ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ﴾

(من الآية ٥١ سورة العنكبوت)

ومرة ثالثة يقول :

﴿ لَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ كِتَٰبٗا فِيهِ ذِكۡرُكُمۡۖ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿١٠﴾ ﴾

(سورة الأنبياء)

ما الغاية من الإنزال ؟ الغاية من الإنزال أن يوجد على الأرض منهج يحكم حركة الحياة . والقرآن قد أنزل إلى الرسول وإلى من آمن بالرسالة . وحين يقول الحق : « أنزلنا عليك » فمعنى ذلك نزول التكليف . وساعة نسمع كلمة « أنزلنا » فعلينا أن

نعرف أن كل شيء يجيء من الحق فهو ينزل إلينا منه سبحانه ، وكلمة « أنزل » تشعر السامع أو القارىء لها أن الجهة التى أنزلت هى جهة أعلى ، وليست مساوية لمن أُنْزِلَ إليه ، وليست أدنى منه أيضاً .

وكلمة « أنزلنا » تدل على أن جهة أنزلت ، وجهة أُنزل إليها ، وشيء أنزلته الجهة إلى المُنَزَّلِ إليه . والكتاب هو المنزل . والذى أنزله هو الله . والمُنَزَّلِ إليه هو رسول الله وأمته . وهل أنزل الحق سبحانه الكتاب فقط أو أنزل قبل ذلك كل ما يتعلق بمقومات الحياة ؟

وعندما نقرأ هذا القول الكريم :

﴿ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾

(من الآية ٢٦ سورة الأعراف)

إنه لباس جاء من أعلى ، لذلك استخدم الحق كلمة « أنزلنا » وهو ليس لباساً فقط ولكنه أيضاً يزينكم مأخوذ من ريش الطائر لأنه لباسه وزينته ، فهو لا يوارى العورة فحسب ولكنه جميل أيضاً ، والأجمل منه أنه لباس التقوى .

لقد جاء الحق بالمقوم للحياة ستراً ورفاهية ، وبعد ذلك أنزل الحق لباس التقوى وهو الخير . فاللباس الأول يوارى عورة مادية ، ولباس التقوى يوارى العورات القيمية والمعنوية ، وكل ذلك إنزال من أعلى . وفى آية أخرى يقول الحق سبحانه :

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ﴾

(من الآية ٢٥ سورة الحديد)

إذن فكلمة « الإنزال » تدل على أن كل ما جاء من قِبَلِ الحق الأعلى إلينا ، فهو نازل إلينا بشيء يعالج مادتنا وقوامنا ، وبشيء يعالج معنوياتنا وقيمنا .

ويقول الحق فى الآية التى نحن بصدد تناولها الآن : « إنا أنزلنا إليك الكتاب » وحين يُطلق الكتاب فالمعنى ينصرف إلى الكتاب الجامع المانع المهيمن على سائر

الكتب وهو القرآن ، وإن كان « الكتاب » يطلق على المكتوب الذى نزل على أى رسول من الله سبحانه وتعالى .

« إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق » والحق هو الشيء الثابت الذى لا يأتى واقع آخر لينقضه . وعلى سبيل المثال : أنت فى حياتك العادية حين تقول قضية صدق تحكى بها واقعا حدث مهما تكررت روايتك لهذه التفاصيل مدة عشرين سنة فهى لا تتغير ؛ لأنها مطابقة للواقع . وأنت حين تقولها تستحضر الواقع الذى حدث أمامك . ولكن إذا حَدّثَ إنسان بقضية كذب لا واقع له . فماذا يكون موقفه ؟ سيحكى القضية مرة بأسلوب ، وإن مر عليه أسبوع فهو ينسى بعضاً مما قاله فى أول مرة فيحكى وقائع أخرى ، ذلك أن ما يرويه ليس له واقع ؛ لذلك يقول كلاماً مغايراً لما قاله فى المرة الأولى ، وهنا يعرف السامع أن هذه المسألة كاذبة .

إذن فالحق هو الشيء الثابت الذى لا ينقضه واقع أبداً . وأنزل الله الكتاب بالحق أى أنزله بالقضايا الثابتة التى لا يأتيها الباطل من بين يديها ، فهو ثابت لا ينقضه واقع .

ويقال فى حياتنا للتلميذ الناجح من أساتذته : لقد أعطيناك المرتبة الأولى على زملائك بالحق . أى أن هذا التلميذ قد أخذ حقه لأنه يستحق هذه المكانة . وقوله الحق سبحانه : « إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق » أى إن إنزال الكتاب على سيدنا رسول الله ليبلغه جاء ملتبسا ومرتبطا بالحق ولا ينفك عنه وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل لأن ينزل عليه الكتاب . ووجود معنى بجانب معنى فى القرآن هو من أسرار إشعاعات الكلمات القرآنية ، فهى لا تتناقض ولكنها توضع بحكمة الخالق لتجلو لنا المعانى .

« إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس » وهذا يوضح لنا أن حكومة الدين الإسلامى وعلى رأسها الحاكم الأول رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما جاء لا ليحكم بين المؤمنين به فقط ، بل ليحكم بين الناس . ومن شرط الحكم بين الناس القيام بالعدل فيما يختصمون فيه ، فلا يقولن واحد : هذا مسلم ، وذاك كافر ، فإذا كان الحق مع الكافر فلا بد أن تعطيه له ، وإذا كان الحق مع المسلم فيجب أن تعطيه له ؛ لأنك لا تحكم بين المؤمنين فقط ولكنك تحكم بين الناس .

وأنت إن حكمت بين الناس حكماً يتفق مع منطق الواقع والحق . تجعل الذى حُكم له يشهد أن دينك حق ، فعندما يكون الحق مع الكافر ، وتحكم على المؤمن بالحكم الحق الذى لا حيف فيه حتى وإن كان عقابا ، فالكافر يقرع نفسه على أنه لم يكن من أهل هذا الدين الذى يعترف بالحق ويحكم به ولو كان على مسلم . وأيضاً يعرف المسلم ساعة يُحكم عليه لصالح واحد غير مسلم أن المسألة ليست نسبة شكلية إلى الإسلام ، ولكنها نسبة موضوعية ، فلا يظنن أحد أن الإسلام قد جاء ليحابى مسلما على أى إنسان آخر ، ولكن الإسلام قد جاء ليأخذ الجميع بمنطق الحق ، ويطبق على الجميع منهج الحق ، وليكون المسلم دائما فى جانب الحق .

وسبحانه وتعالى يعطى هذه القضية لواقعة حدثت معاصرة لرسول الله . والوقائع التى حدثت معاصرة لرسول الله كانت بمثابة إستدرار السماء للأحكام ، فالقضية تحدث وينزل فيها الحكم ، ولو جاءت الأحكام مبوبة وسقطت ونزلت مرة واحدة ، فقد تحدث الحادثة ويكون لدى المؤمنين الحكم ويحاولون البحث عنه فى الكتاب . لكن إذا ما جاء الحكم ساعة وقوع الحادثة فهو ينصب عليها ، ويكون الأمر أدعى للإذعان له ؛ لأنه ثبت وأُيِّد ووثِّق بواقعة تطبيقية .

والحكم الذى نزل هو : « إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيماً » . وعندما يقول سبحانه « أراك » أو « علّمك » فلتعلم أن تعليم الله هو أكثر تصديقاً من رؤيتك الإنسانية ، وكأنك تتمثل الشىء الذى يعلمه لك الله وكأنه مجسد أمامك ، وليس مع العين أين .

والواقعة التى حدثت هى : كان فى « بنى ظفر » واحد اسمه « طعمة بن أبيرق » وسرق « طعمة » درعا ، وهذا الدرع كان « لقتادة بن النعمان » . وخاف « طعمة » أن يحتفظ بالدرع فى بيته فيعرف الناس أنه سرق الدرع . وكان « طعمة » فيما يبدو مشهوراً بأنه لص ، فذهب إلى يهودى وأودع عنده الدرع ، وكان الدرع فى جراب دقيق . وحينما خرج به « طعمة » وحمله صار الدقيق ينتثر من خرق فى الجراب وتَكوّنَ مَن الدقيق أثراً فى الأرض إلى بيت اليهودى وكان اسمه « زيد بن السمين » ، وعندما تتبعوا أثر الدقيق وجدوه إلى بيت طعمة ، ولكنه حلف ما أخذها وما له بها

علم فتركوه واتبعوا أثر الدقيق حتى انتهى إلى منزل اليهودى فأخذوها وقالوا : « لقد سرق ابن السمين » . وهنا قال ابن السمين : « أنا لم أسرق الدرع ولكن أودعه عندى « طعمة بن أبيرق » . وذهبوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وجاء « بنو ظفر » وهم مسلمون « وطعمة بن أبيرق » منهم وقالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : لو حكمت على المسلم ضد اليهودى فستكون المسألة ضد المسلمين وسيوجد العار بين المسلمين .

ونعلم أن الحق سبحانه وتعالى أرسل رسوله لِيُعَدِّل منهج الغرائز البشرية . والغريزة البشرية بحسب اندفاعها وقصر نظرتها قد تتصور أن الحكم على المسلم وتبرئة اليهودى هو إضعاف للمسلمين . ويريد الحق سبحانه وتعالى أن يقيم الأمر بالقسط فينزل على رسوله :

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ ﴾

(سورة النساء)

أى إياك أن تقول : إن هذا مسلم ولا يصح أن نلصق به الجريمة التى ارتكبها حتى لا تكون سُبة عليه ، وإياك أن تخشى ارتفاع رأس اليهودى ؛ لأن هناك لصاً قد ظهر من بين المسلمين . ومن الشرف للإسلام أن يعاقب أى إنسان ارتكب خطأ لأنه مادام قد انتسب للإسلام فعليه أن يصون هذا الانتساب . وعقاب المسلم على خطأ هو شهادة للإسلام على أنه لم يأت ليجامل مسلماً . وعلى كل مسلم أن يعرف أنه دخل الإسلامَ بحق الإسلام .

لقد نظر بعض السطحيين إلى قوله الحق : « ولا تكن للخائنين خصيماً » قائلين : إن كان هناك لص أو خائن أو مستغل لقوته فاتركه ولا تنظر إليه ولا تلتفت حتى لا يسبب لك تعباً . ولهؤلاء نقول : لا ، فسبحانه وتعالى يقول : « ولا تكن للخائنين خصيماً » و« اللام » التى فى أول « الخائنين » هى للملكية أى أن الحق يأمر النبى صلى الله عليه وسلم ألا يقف موقفا لصالح الخائن ، بل عليه أن يخاصم لمصلحة الحق .

وقد حاول العلماء أن يقربوا المسافة فقالوا : ربما لا يتنبه أحد لمسألة اللام وأنها هنا للنفعية ، فيكون المنهى عنه أن يقف مسلم موقفا ينفع خائنا ، بل لا بد أن يكون على الخائن وليس معه . فاللام هنا تكون بمعنى « عن » . كأن الحق يقول : ولا تكن عن الخائنين خصيما . أى لا تكن يا محمد مدافعاً عن الخائنين .

ولماذا لم يقل الحق « عن » بدلاً من « اللام »؟ نقول : إن الغاية من الدفاع عن الخصم أن ترجح أمره وتكون له لا عليه ، لذلك جاء الحق بـ « اللام » هنا من أجل أن نعرف الغاية من « عن » واضحة . فاللام تفيد ألا ينفع المسلم خائناً ، فلا تكون المسألة له ، ولذلك جاء الحق بها إيضاحاً واختصاراً لنعرف أن رسوله لن يقف فى جانب الخائن ولن يأتى له بما ينفعه . ولذلك قال العلماء : إن اللام هنا بمعنى « عن » . والقرآن فيه الكثير من مثل هذا .

وبعض الناس يقول : لماذا لا يأتى باللفظ الواضح الذى يجعلنا نعرف المعنى مباشرة ؟ ونقول : إن الملحظية هنا مفيدة لنعرف فى أى صف يقف القرآن والرسول المبلغ عن ربه ، مثال ذلك قوله الحق :

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾﴾

(سورة سبأ)

القائل هم الذين كفروا ، والمقول له هو الحق . وبعض الناس كان يفترض أن المنطق يقتضى أن يقول الكفار : إنك سحر مبين . وكأن الآية هى : وإذ تتلى آياتنا بينات قال الذين كفروا للحق لما جاءهم أنت سحر مبين . ولنلحظ أنهم لم يقولوا للحق ، ولكنهم قالوا عن الحق . ولم يقولوا للحق ذلك ، بل قال بعضهم لبعض . و« الحق » هنا مُحَدَّثٌ عنه وليس مخاطباً . فقالوا عنه : إنه سحر مبين .

وهناك آية أخرى يقول الحق فيها :

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾

(من الآية ١١ سورة الأحقاف)

والقائل هنا هم الذين كفروا . والمقول لهم هم الذين آمنوا . والمقصود هو : أن الذين كفروا قالوا للذين آمنوا لو كان الإسلام خيراً ما سبقتمونا إليه .

ولكن الحق سبحانه أوردها : « لو كان خيراً ما سبقونا إليه » وذلك ليدلنا على أنهم قالوا ذلك فى غير محضر المؤمنين ، بل هم يتبادلون هذا القول فيما بينهم . وإلا لو أن القول من الكافرين للمؤمنين لكان السياق يقتضى أن يكون : لو كان خيرا ما سبقتمونا إليه .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾﴾

والأمر بالاستغفار يجىء على مجرد وجود خاطر التردد بين نصرة المسلم أو نصرة اليهودى ، فلم يكن الرسول قد نصر أحداً على أحد بعد ، ولكن مجرد هذا الخاطر يتطلب الاستغفار . والذى يصدر الأمر بذلك هو الحق سبحانه لرسوله ، ولا اعتراض ولا غضاضة أن يعدل لنا ربنا أمراً ما .

أو أن كل خطاب من هذا اللون موجه لمن جعل المسألة موضع مساومة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كقول « بنى ظفر » عندما أرادوا ألا يحكم الرسول على اللص الذى من بينهم ، وتمحكوا فى الإسلام . لذلك يأمر الحق الذين حدثوا رسول الله عن هذا الموضوع بالاستغفار ، أو أن يستغفر الرسول لهم الله ؛ لأنهم لم يقولوا ذلك إلا رغبة فى ألا ينفضح أمر المسلمين .

وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ ﴾

وسبحانه يريد أن يشبع هذه القضية بحثاً ، فقد كان يكفى أن يقول لنا ما سبق . لكنه يريد أن يحسم مثل هذه الأمور ؛ فلا مجادلة فى الذين يختانون أنفسهم . والجدل كما نعرف هو الفتل . وحين يفتل الإنسان شيئاً ، مثل أن يحضر بعضاً من الشعر أو الصوف أو الليف ويجدلها ليصنع حبلاً ، فهو يفتل هذا الغزل ليقويه ويجعله غير هش وقابلاً للشد والجذب ، ولذلك يقال عن مثل هذه العملية : إننا نجدل الحبل حتى نعطيه القوة . وكذلك شأن الخصمين ؛ كل واحد منهما يريد تقوية حجته ، فيحاول جاهداً أن يقويها بما يشاء من أساليب لىّ القول ولحنه أو الفصاحة فى الأسلوب . لذلك يأتى الأمر إلى الرسول : لا تقو مركز أى إنسان يختان نفسه .

والقرآن حين يعدل عن يخونون أنفسهم إلى « يختانون أنفسهم » ، فلا بد أن لهذا معنى كبيراً ؛ لأن الخيانة هى أن تأخذ غير الحق . ومن المحتمل أن يخون الإنسان غيره ، لكن أمِنَ المعقول أن يخون الإنسان نفسه ؟ إن مثل هذه العملية تحتاج إلى افتعال كبير ، فقد يخون الإنسان غيره من أجل مصلحة نفسه ، أو ليعطى نفسه شهوة ومعصية عليها عقوبة ، وهذه خيانة للنفس ؛ لأن الإنسان فى مثل هذه الحالة يغفل عن العقوبة الآجلة بالشهوة العابرة العاجلة .

وهكذا نرى أن الذى يخون الناس إنما يخون ـ ضمناً ـ مصلحة نفسه . وإذا ما خان الإنسان نفسه فهذا ليس سهلاً ويتطلب افتعالاً ، ولذلك يقول الحق : « ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم إن الله لا يحب من كان خواناً أثيماً » .

والآية التى تحدثت من قبل ذلك عن هذا الموقف لم تأت بكلمة « خوانين » ولكن جاءت بالخائنين ، وهنا يأتى الحق بكلمة خوَّان . وفيه فرق بين « خائن » ، و« خوَّان » ، فالخائن تصدر منه الخيانة مرة واحدة ، أما الخوَّان فتصدر منه الخيانة

مراراً . أو يكون المعنى هو : أن الخائن تصدر منه الخيانة فى أمر يسير صغير ، أما الخوّان فتصدر منه الخيانة فى أمر كبير . إذن . فمرة تأتى المبالغة فى تكرير الفعل ، وأخرى فى تضخيم الفعل .

ومن لطف الله أنه لم يقل « خائن » ؛ لأن الخائن هو من خان لمرة عابرة وانتهى الأمر ، ولم يخرجه الله عن دائرة الستر إلاّ إذا أخذ الخيانة طبعاً وعادة وحرفة . وقد جاءت لسيدنا عمر ـ رضى الله عنه ـ امرأة أخذ ولدها بسرقة ، وأراد عمر ـ رضى الله عنه ـ أن يقيم على ذلك الولد الحد ، فبكت الأم قائلة : يا أمير المؤمنين والله ما فعل هذا إلا هذه المرة . قال عمر : كذبت . والله ما كان الله ليأخذ عبداً بأول مرة .

ولذلك يقولون : إذا عرفت فى رجل سيئة انكشفت وصارت واضحة . فلتعلم أن لها أخوات ؛ فالله لا يمكن أن يفضح أول سيئة ؛ لأنه سبحانه يحب أن يستر عباده ، لذلك يستر العبد مرة وثانية ، ثم يستمر العبد فى السيئة فيفضحها الله : « إن الله لا يحب من كان خواناً أثيماً » ، والإثم أفظع المعاصى . والقوم الذين ذهبوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليستشفعوا عنده لابن أبيرق لكى يحكم له الرسول ضد اليهودى ، لماذا صنعوا ذلك ؟ . لأنهم استفظعوا أن يفضح أمر مسلم ويبرأ يهودى ، استحيوا أن يحدث هذا ، وعالج القرآن هذه القضية وذلك ليأتى بالحيثية التى دعتهم إلى أن يفعلوا هذا ويقضى على مثل هذا الفعل من أساسه ، فقال :

﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ ﴾

إنهم يطلبون البراءة أمام الناس فى أن « طعمة » لم يفعل السرقة ، ولكن هل يملك الناس ما يملكه الله عنهم ؟ . إنه سبحانه أحق بذلك من الناس . فإذا كنتم تريدون

التعمية فى قضاء الأرض فلن تعموا على قضاء السماء . وهذه القضية يجب أن تحكم حركة المؤمن ، فإذا ما فكر إنسان منسوب إلى الإسلام أن يفعل شيئاً يغضب الله فعليه أن يفكر : أنا لو فعلت ذلك لفضحت نفسى أو فضحت ولدى أو فضحت أسرتى أو فضحت المسلمين ، وعلى الإنسان المسلم ألا يخشى الناس إن فعل أخ له شيئاً يشين المسلمين ، بل عليه أن يأخذ على يديه ويردهُ عن فعله . ونقول لمن يستتر عن الناس : أنت استخفيت من الناس ، ولم تستخف من الله ؛ لذلك فأنت غير مأمون على ولاية .

« يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم » ، وكلمة « معهم » هذه تريد أن تجعل المؤمن مصدقاً أن الله لا تخفى عليه خافية ، إنه من الممكن أن يستتر الشخص عن الناس ، ولكنه لا يستطيع أبداً أن يستتر عن الله ؛ لأن الله مع كل إنسان فى الخلوة والجلوة والسر والعلن . فإن قدر واحد على الاستخفاء من الناس فهو لن يقدر على الاستخفاء من الله .

« يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول » و« يبيت » أى أنه يفعل أمره فى الليل ؛ لأن الناس كانت تلجأ إلى بيوتهم فى الليل ، ومعنى « يبيت » أن يصنع مكيدة فى البيت ليلا ، وكل تدبير بخفاء اسمه « تبييت » حتى ولو كان فى وضح النهار ، ولا يبيت إنسان فى خفاء إلا رغبة منه فى أن ينفض عنه عيون الرائين . فنقول له : أنت تنفض العيون التى مثلك ، لكن العيون الأزلية وهى عيون الحق فلن تقدر عليها .

﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ ﴾

(سورة النساء)

حين نسمع كلمة « محيط » فلنعلم أن الإحاطة هى تطويق المحيط للمحاط ، بحيث لا يستطيع أن يفلت منه علماً بحاله التى هو عليها ولا قدرة على أن يفلت مِنْه مآلا وعاقبة ، فهو سبحانه محيط علماً لأنه هو الذى لا تخفى عليه خافية ، ومحيط قدرة فلا يستطيع أن يفلت أحد منه إلى الخارج . وسبحانه محيط علماً بكل جزئيات الكون وتفاصيله وهو القادر فوق كل شىء . فإذا ما سمعنا كلمة « محيط » فمعناها أن

الحق سبحانه وتعالى يحيط ما يحيط به علماً بكل جزئياته فلا تستطيع جزئية أن تهرب من علم الحق . وسبحانه محيط بكل شيء قدرة فلا يستطيع أن يفلت من مآله شيء من الجزاء الحق .

وبعد ذلك يقول الحق جل وعلا :

﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾ ﴾

فالذى جادل عن ابن أبيرق كان يريد أن يبرىء ساحته أمام الناس ويدين اليهودى ، وفى أنه قد جادل أمام بشر عن بشر ، فهل تنتهى المسألة بهذا اليسر ؟ لا ؛ لأن الدنيا ليست دار جزاء . وهب أنه أفلت من العقوبة البشرية ، أيفلت من عقوبة الله فى الآخرة ؟ لا ، إذن فالذى يجادل يريد أن يعمى على قضاء الأرض ، ولن يستطيع أن يعمى على قضاء الحق ، ولن يجد من يجادل عن مثل هذا الخطأ يوم القيامة . وليس هذا فقط ، ولكن الحق يذيل الآية : « أم من يكون عليهم وكيلاً » أى فمن إذن يستطيع أن يكون وكيلاً عن هؤلاء يوم القيامة ؟ . ونعرف أن الوكيل هو الشخص اللبق الذى يختاره بعض الناس ليكون قادراً على إقناع من أمامه . فمن يستطيع أن يقوم بذلك العمل أمام الله ؟ لا أحد .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ ﴾

وسبحانه وتعالى حينما خلق الخلق جعلهم أهل أغيار ، لذلك لم يشأ أن يُخرج مذنباً بذنب عن دائرة قدرته ورحمته ، بل إنه ـ سبحانه ـ شرع التوبة للمذنب حماية للمجتمع من استشراء شره . فلو خرج كل من ارتكب ذنباً من رحمة الله ، فسوف يعانى المجتمع من شرور مثل هذا الإنسان ، ويصبح كل عمله نقمة مستطيرة الشر على المجتمع . إذن فالتوبة من الله ، مشروعية وقبولاً ، إنما هى حماية للبشر من شراسة من يصنع أول ذنب . وهكذا جاءت التوبة لتحمى الناس من شراسة أهل المعصية الذين بدأوا بمعصية واحدة .

إن الذين وقفوا فى محاولة تبرئة « ابن أبيرق » انقسموا إلى قسمين : قسم فى باله أن يبرىء « ابن أبيرق » ، وقسم فى باله ألا يفضح مسلماً . وكل من القسمين قد أذنب . ولكن هل يخرجهم هذا الذنب من رحمة الله ؟ . لا ، فسبحانه يقول : « يجد الله غفورا رحيماً » والحق يعفو عن تلك المسألة . إن القسمين جميعا أصبحوا مطالبين بعمل طيب بعد أن أوضح لهم الرسول ، وفهموا مراد الحق . وسبحانه يبقيهم فى الصف الإيمانى ، وقد حكم رسول الله على « ابن أبيرق » لصالح اليهودى ، وبعد ذلك ارتد « ابن أبيرق » ، وذهب إلى مكة مصاحباً لِعادة الخيانة ، فنقب حائطا على رجل ليسرق متاعه فوقع الحائط عليه فمات .

والحق سبحانه يضع المعايير ، فمن يرتكب ذنباً أو يظلم نفسه بخطيئة ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً . ونلاحظ أن بعض السطحيين لا يفهمون جيداً قول الحق : « ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً » فيتساءلون : أليس الذى ارتكب العمل السيىء قد ظلم نفسه ؟

ونقول : إن دقة القرآن توضح لنا المعنى ؛ فمعنى عمل سوءًا أضرّ بهذا العمل آخرين ، إنّه غير الذى ارتكب شيئاً يضرّ به نفسه فقط ؛ فالذى سرق أو قتل أو اعتدى على آخر قذفاً أو ضرباً أو إهانة ، مثل هذه الأعمال هى ارتكاب للسوء ؛ فالسوء هو عمل يكرهه الناس ، ويقال : فلان رجل سوء ، أى يلقى الناس بما يكرهون .

لكن الذى يشرب الخمر قد يكون فى عزلةٍ عن الناس لم يرتكب إساءة إلى أحد ،

لكنه ظلم نفسه ؛ لأن الإنسان المسلم مطلوب منه الولاية على نفسه أيضاً ، والمنهج يحمى المسلم حتى من نفسه ، ويحمى النفس من صاحبها ، بدليل أننا نأخذ من يقتل غيره بالعقوبة ، وكذلك يحرم الله من الجنة من قتل نفسه انتحاراً .

وهكذا نرى حماية المنهج للإنسان وكيف تحيطه من كل الجهات ؛ لأن الإنسان فرد من كون الله ، والحق يطلب من كل فرد أن يحمي نفسه . فإن صنع سوءا أى أضر بغيره ، فهذا اسمه « سوء » . أما حين يصنع فعلاً يضر نفسه فهذا ظلم النفس :

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

وهل فعل الفاحشة مخالف لظلم النفس ؟ . إنه إساءة لغيره أيضا ، لكن ظلم النفس هو الفعل الذى يسيء إلى النفس وحدها . أو أن الإنسان يصنع سيئة ويمتع نفسه بها لحظة من اللحظات ولا يستحضر عقوبتها الشديدة فى الآخرة . وقد تجد إنساناً يرتكب المعصية ليحقق لغيره متعة ، مثال ذلك شاهد الزور الذى يعطى حق إنسان لإنسان آخر ولم يأخذ شيئاً لنفسه ، بل باع دينه بدنيا غيره ، وينطبق عليه قول الرسول صلى الله عليه وسلم :

« بادروا بالأعمال ستكون فتنة كقطع الليل المظلم يصبح الرجل مؤمنا ويُمسى كافرا ، أو يمسى مؤمنا ويصبح كافراً يبيع دينه بعرض الدنيا »[1] .

« ومن يعمل سوءًا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً » والله غفور ورحيم أزلاً ودائماً ، والعبد التائب يرى مغفرة الله ورحمته .

ويقول الحق من بعد ذلك :

---

(١) رواه مسلم والترمذى وأحمد .

﴿ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ ﴾

ويورد الحق كلمة « كسب » عندما يتناول أمراً خَيِّرًا فعله الإنسان ، ويصف ارتكاب الفعل السيىء بـ « اكتسب » ، لماذا ؟ لأن فعل الخير عملية فطرية فى الإنسان لا يستحيى منه ، لكن الشر دائماً هو عملية يستحيى منها الإنسان ؛ لذلك يجب أن يقوم بها فى خفية ، وتحتاج إلى افتعال من الإنسان .

ولنضرب هذا المثل للإيضاح ـ ولله المثل الأعلى ـ نحن نجد الرجل ينظر إلى وسامة زوجته بكل ملكاته ، لكنه لو نظر إلى واحدة أخرى من غير محارمه فهو يقوم بعملية لخداع ملكات النفس حتى يتلصص ليرى هذه المرأة . ويحاول التحايل والافتعال ليتلصص على ما ليس له . ولذلك يقال عن الحلال : إنه « كسب » ويقال عن الحرام : إنه « اكتساب » .

فإذا ما جاء القرآن للسيئة وقال : « كسب سيئة » فهذا أمر يستحق الالتفات ؛ فالإنسان قد يعمل السيئة ويندم عليها بمجرد الانتهاء منها إن كان من أهل الخير ، ونجده يوبخ نفسه ويلومها ويعزم على ألا يعود إليها . لكن لو ارتكب واحد سيئة وسعد بذلك وكأنها حققت له كسباً ويفخر بها متناسياً الخطر الجسيم الذى سوف يواجهه يوم القيامة والمصير الأسود ، وهو حين يفخر بالمعصية ففى ذلك إعلان عن فساد الفطرة ، وسيادة الفجور فى أعماقه ، وهو يختلف عن ذلك الذى تقع عليه المعصية ولحظة ما يتذكرها يقشعر بدنه ويستغفر الله .

« ومن يكسب إثماً فإنما يكسبه على نفسه » فإياك أيها الإنسان أن تظن أنك حين تظلم أحداً بعمل سوء قد كسبت الدنيا ؛ فوالله لو علم الظالم ماذا أعد الله للمظلوم لضن على عدوه أن يظلمه . وأضرب هذا المثل للإيضاح ـ ولله المثل الأعلى دائماً ـ هب أن رجلاً له ولدان . وجاء ولد منهما وضرب أخاه أو خطف منه شيئا يملكه ، ورأى الأب هذا الحادث ، فأين يكون قلب الأب ومع من يكون ؟

إن الأب يقف مع المظلوم ، ويحاول أن يرضيه ، فإن كان الأخ الظالم قد أخذ منه شيئاً يساوى عشرة قروش ، فالأب يعوض الابن المظلوم بشيء يساوى مائة قرش . ويعيش الظالم فى حسرة ، ولو علم أن والده سيكرم أخاه المظلوم لما ظلمه أبداً . إذن فالظلم قمة من قمم الغباء .

ومن ضمن المفارقات التى تروى مفارقة تقول : إن كنت ولا بد مغتاباً فاغتب أبويك . ولا بد أن يقول السامع لذلك : وكيف أغتاب أبى وأمى ؟ فيقول صاحب المفارقة : إن والديك أولى بحسناتك ، فبدلاً من أن تعطى حسناتك لعدوك ، ابحث عمن تحبهم وأعطهم حسناتك . وحيثية ذلك هى : لا تكن أيها المغتاب أحمق لأنك لا تغتاب إلا عن عداوة ، وكيف تعطى لعدوك حسناتك وهى نتيجة أعمالك ؟

ونعرف ما فعله سيدنا الحسن البصرى ، عندما بلغه أن واحداً قد اغتابه . فأرسل إلى المغتاب طبقاً من البلح الرطب مع رسول ، وقال للرسول : اذهب بهذا الطبق إلى فلان وقل له : بلغ سيدى أنك اغتبته بالأمس فأهديت له حسناتك ، وحسناتك بلاشك أثمن من هذا الرطب . وفى هذا إيضاح كاف لذم الغيبة .

« ومن يكسب إثماً فإنما يكسبه على نفسه وكان الله عليماً حكيماً » ونعلم أنه إذا جاءت أى صفة من صفات الحق داخلة فى صورة كينونة أى مسبوقة بـ « كان » فإياكم أن تأخذوا « كان » على أنها وصف لما حدث فى زمن ماضٍ ، ولكن لنقل « كان ومازال » . لماذا ؟ لأن الله كان أزلاً ، فهو غفور رحيم قبل أن يوجد مغفور له أو مرحوم ؛ فالله ليس من أهل الأغيار ، والصفات ثابتة له ؛ لأن الزمن فى الأحداث يتغير بالنسبة للأغيار فقط ، وعلى سبيل المثال نجد الواحد من البشر صحيحاً فى زمن ومريضاً فى زمن آخر .

ولذلك لا يخرج الزمن المستقبل عن الزمن الماضى إلا أصحاب الأغيار . وكذلك لا يخرج الزمن المستقبل عن الزمن الحاضر إلا فى أصحاب الأغيار . ومادام الله هو الذى يغير ولا يتغير فلن يغيره زمن ما ، بل كان فى الأزل غفوراً رحيما ، ولايزال أيضاً غفوراً رحيماً . وكذلك كان علم الله أزلياً وحكمته لا حدود لها .

وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾ ﴾

قالوا : إن الخطيئة هى الشيء غير المتعمَّد ، مثال ذلك حين نعلِّم التلميذ قاعدة من قواعد النحو ، ثم نطلب منه أن يطالع نصاً من النصوص ، ونلتفت لنجد التلميذ قد نصب الفاعل ورفع المفعول ، ونصحح له الخطأ ، إنّه لم يتعمده ، بل نسى القاعدة ولم يستحضرها . ونظل نصحح له الخطأ إلى أن يتذكر القاعدة النحوية ، وبالتدريب يصبح الإعراب ملكة عند التلميذ فلا يخطىء .

والخطيئة ـ إذن ـ هى الخطأ غير المتعمد . أما الإثم فهو الأمر المتعمَّد . فكيف إذا رمى واحد غيره بإثم ارتكبه أو خطيئة ارتكبها هو . . ما حكم الله فى ذلك ؟

﴿ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾ ﴾

(سورة النساء)

لقد ارتكب الخطيئة أو الإثم ، ويا ليته اكتفى بهذا ، لا ، بل يريد أن يصعد الجريمة بارتكاب جريمة ثانية وذلك بأن يرمى بالخطيئة أو الإثم بريئاً ، إنَّ إثمه مركب ، ولذلك قال الحق : « فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً » واستخدام الحق هنا لكلمة « احتمل » وليس « حمل » تؤكد لنا أن هناك علاجاً ومكابدة وشدة ليحمل الإنسان هذا الشيء الثقيل ؛ فالجريمة جريمتان وليست واحدة ، لقد فعل الخطيئة ورمى بها بريئاً ، وفاعل الخطيئة يندم على فعلها مرة ، ويندم أيضاً على إلصاقها ببرىء ، إذن فهى حمل على أكتافه . ونعلم أن الإنسان ساعة يقع أسير سُعار العداوة ؛ يهون عليه أن يصنع المعصية ، ولكن بعد أن يهدأ سعار العداوة فالندم يأتيه . قال الحق :

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾﴾

(سورة المائدة)

هابيل - إذن - يسأل قابيل : وما ذنبى أنا فى ذلك ، إن الله هو الذى يتقبل القربان وليس أنا فلماذا تقلتنى ؟

ويستمر القول الحكيم :

﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾﴾

(سورة المائدة)

وماذا يقول الحق من بعد ذلك :

﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾

(سورة المائدة)

كأن مسألة القتل كانت عملية شاقة وليست سهلة ، وأخذت مغالبة . وعلى سبيل المثال : لن يقول أحد : « لقد طوعت الحبل » ولكن هناك من يقول : « أنا طوعت الحديد » . وسعار الغضب جعل قابيل ينسى كل شىء وقت الجريمة ، وبعد أن وقعت ، وهدأ سعار الغضب الذى ستر موازين القيم ، هنا ظهرت موازين القيم ناصعة فى النفس .

ولذلك نجد من يرتكب جريمة ما ، ويتجه بعد ذلك لتسليم نفسه إلى الشرطة ، وهو يفعل ذلك لأن سعار الجريمة انتهى وظهر ضوء موازين القيم ساطعاً . وعلى ذلك نفهم قول الحق : « فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً » .

وهذا يدل على أن من يصنع جريمة ثم يرمى البرىء بالإثم إنما يرتكب عملاً يتطلب مشقة وتتنازعه نفسه مرة بالندم ؛ لأنه فعل الجريمة ، وتنازعه نفسه مرة ثانية لأنه رمى بريئاً بالجريمة ؛ لذلك قال الحق : « فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً » وساعة

نسمع كلمة « بهتان » فهى مأخوذة من مادة « بهت » . والبهتان هو الأمر الذى يتعجب من صدوره من فاعله . مثال ذلك قوله الحق فى شرح قضية سيدنا إبراهيم مع النمرود ، حيث يقول سبحانه على لسان سيدنا إبراهيم :

﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ ﴾

(من الآية ٢٥٨ سورة البقرة)

فماذا كان موقف الرجل ؟

﴿ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ﴾

(من الآية ٢٥٨ سورة البقرة)

أى أنه سمع شيئاً عجيباً يخرسه عن أن يتكلم ؛ فقد جاء له سيدنا إبراهيم بأمر عجيب لا يخطر على باله ، ولا يستطيع أن يجد منه مفراً ، فكأن الأمور المخالفة لمنطق الحق ولمطلوب القيم أمور غريبة عن الناس إنَّها هى البهتان ، والدليل على ذلك أنها أمور يستتر فاعلها عن الناس .

وإذا ما نظرنا إلى القضية التى نزلت الآية بسببها . وجدنا أن سارقاً سرق وأراد أن يبرىء نفسه وأن يُدخل فى الجريمة بريئاً . ويلصقها به ، وأن يرتكب المجرم الجريمة فهذا يحمِّله إثماً . أما أن ينقل الجريمة إلى سواه فهذا يدل على وجود طاقة أخرى حتى يحتمل ما فعله ، وهذا صعب على النفس ، ولا يتعجب أحد لسماع شىء إلا إذا كان هذا الشىء مخالفاً لما هو مألوف ومعروف . وإنّ فى الحوار بين سيدنا إبراهيم والنمرود لدليلاً واضحاً وناصعاً ؛ فعندما قال النمرود :

﴿ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ﴾

(من الآية ٢٥٨ سورة البقرة)

قصد بذلك قدرته على أن يقتل إنساناً ، ويترك إنساناً آخر لمسعاه . وهنا عاجله سيدنا إبراهيم بالقضية التى تبهته ولا يدخل فيها هذا التماحك اللفظى . فقال :

﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ﴾

(من الآية ٢٥٨ سورة البقرة)

أى أن النمرود سمع قولاً عجيباً وليس عنده من الذكاء ما يحتاط به إلى دفعه ، وكذلك الرجل الذى صنع الجريمة ثم رمى بها غيره احتاج إلى طاقة تتحمل هذا ، مما يدل على أن الفطرة السليمة كارهة لفعل القبيح . فإذا ما فعل الإنسان ذنباً فقد حمل بهتاناً ، وإذا ما عَدَّى ذلك إلى أن يحمله إلى برىء ، فذلك يعنى أن الأمر يحتاج إلى طاقة أخرى .

إذن فقوله الحق : « فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً » أى أنه احتمل أمراً عجيباً يبهت السامع ويتعجب كيف حدث ذلك . ويحتمل من يفعل ذلك الإثمَ أيضاً .

والإثم ـ كما عرفنا ـ هو السيئة المتعمَّدة . ويوضح الحق سبحانه وتعالى هذه القضية : إن الله سبحانه وتعالى يحوطك يا محمد بعنايته وبرعايته وبفضله ، وإن حاول بعض من قليلى الإيمان أن يخرجوك عن هذه المسألة ، وأن يزينوا لك أن تبرىء مذنباً لتجرم آخر بريئاً وإن كان المذنب مسلماً وإن كان البرىء غير مسلم ، والله لم يرسل محمداً ليحكم بين المؤمنين فقط ، ولكن صدر هذه الآية يوضح لنا أن الله أرسل رسوله ليحكم بالحق : « لتحكم بين الناس » أى ليحكم بين الناس على إطلاقهم . فإياك حين تحكم أن تقول : هذا مسلم وذلك كافر . أو تقول : هذا مسلم وذلك من أهل الكتاب ، بل كل الناس أمام قضايا الحق سواء .

ولذلك أخذ الرسول صلى الله عليه وسلم تلك الجرعة الإيمانية التى جاءت بها حادثة من الحوادث ليقول بعد ذلك فى قصة المخزومية حينما سرقت وأراد أن يقيم عليها الحد ، وكلّمه حبيبه أسامة بن زيد فى أن يرفع عنها الحد ، فقال رسول الله :

عن عائشة رضى الله عنها أن قريشا أهمهم شأن المرأة المخزومية التى سرقت فقالوا : مَنْ يكلم فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقالوا : ومن يجرؤ عليه إلا أسامة حب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكلمه أسامة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أتشفع فى حد من حدود الله ؟! ثم قام فاختطب فقال : « أيها الناس : إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإن سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها »[1] .

---

(١) رواه مسلم .

هذا القول مستخلص من القضية السابقة . ويقول سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾ ﴾

وهنا نتساءل : هل هَمَّ أحد بإضلال رسول الله ؟ علينا أن نفهم أن « الهمّ » نوعان : هم إنفاذ ، وهم تزيين . وقد رفض رسول الله هم الإنفاذ ، ودفعه الله عنه لأنه سبحانه وتعالى يحوط رسوله بفضله ورحمته ويأتى بالأحداث ليعلمه حكماً جديداً . وفضل الله على رسوله ورحمته جعل الهم منهم هم تزيين فقط وحفظ الله رسوله منه أيضا . وعندما تعلم الرسول هذا الحكم الجديد ، صار يقضى به من بعد ذلك فى كل قضايا الناس . فإذا ما جاء حدث من الأحداث وجاء له حكم من السماء لم يكن يعلمه رسول الله صلى الله عليه وسلم فالفضل لله لأنه يزيد رسوله تعليما .

﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ﴾

(من الآية ١١٣ سورة النساء)

وكان قصد الذين دافعوا عن « ابن أبيرق » أن يزينوا لرسول الله ، وهذا هو هم التزيين لا هم الإنفاذ . وكان الهدف من التزيين أن يضروا الرسول ويضلوه والعياذ بالله ، ليأخذوه إلى غير طريق الحق وغير طريق الهدى ، وهذا أمر يضر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلو أن رسول الله برأ المذنب الذى يعلم أنه مذنب لاسْتقرّ فى ذهن المذنب أن قضايا الدين ليست جادة ، أما البرىء الذى كان مطلوباً أن يدينه رسول الله ماذا يكون موقفه ؟ لا بد أن يقول لنفسه : إن دين محمد لا صدق فيه لأنه يعاقب بريئاً . إذن فَهَمُّ التزيين يضر بالرسول عند المبرأ وعند من يراد إلصاق الجريمة

به . لكن الله صان رسوله بالفضل وبالرحمة عن هذا أيضا .

﴿ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾

(من الآية ١١٣ سورة النساء)

لقد أنزل الحق كتاباً ليفصل فى القضية . ونزول الحكم بعد وقوع تلك الحادثة إنما جاء ليبين ضمن ما يبين سر نزول القرآن منجماً ؛ لأن القرآن يعالج أحداثاً واقعية ، فيترك الأمر إلى أن يقع الحدث ثم يصب على الحدث حكم الله الذى ينزل من السماء وقت حدوث الحدث ، وإلا كيف يعالج القرآن الأحداث لو نزل مرة واحدة بينما الأحداث لم تقع ؟ لذلك أراد الله أن تنزل الأحداث أولاً ثم يأتى الحكم . وقد سبق أن قال الكفار :

﴿ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ﴾

(من الآية ٣٢ سورة الفرقان)

لا ؛ فقد أراد الله القرآن منجماً ومتفرقاً ومُقَسَّطاً لماذا ؟

﴿ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴾

(من الآية ٣٢ سورة الفرقان)

فكلما حدثت هزة للفؤاد من اللّدَد والخصومة الشديدة ومن العناد الذى كان عليه الكفار وردّهم للحق ـ وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ـ ينزل نجم من القرآن ، وفى شغب البشر مع الرسول تنزل رحمة السماء تُثَبِّت الفؤاد ؛ فإن تعب الفؤاد من شغب الناس ؛ فآيات اتصال الرسول بالسماء وبالوحى تنفى عنه هذه المتاعب . ورسول الله صلى الله عليه وسلم فى أمر الدعوة كانت تحدث له كل يوم هزات ؛ لذلك كان فى كل لحظة يحتاج إلى تثبيت . وعندما ينزل النجم القرآنى بعد العراك مع الخصوم فإن حلاوة النجم القرآنى تُهَوِّنُ عليه الأمر ، وإذا ما جاء للرسول صلى الله عليه وسلم أمر آخر يعكر صفوه ، فهو ينتظر حلاوة الوحى لتنزل عليه ، وهذا معنى قوله الحق :

﴿ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾

(من الآية ٣٢ سورة الفرقان)

أى أنزلناه منجماً لنثبت به فؤادك . ولو نزل القرآن جملة واحدة لقلل من مرات اتصال السماء بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وهو يريد مداومة اتصال السماء به . بدليل أن الوحى عندما فتر جلس الرسول يتطلع إلى السماء ويتشوق . لماذا ؟ ففى بداية النزول أرهقه الوحى ، لذلك قال الرسول : « فضمنى إليه حتى بلغ منى الجهد »[١] .

ورأته خديجة ـ رضى الله عنها ـ « وإن جبينه ليتفصد عرقاً » فاتصال جبريل بملكيته ونورانيته برسول الله صلى الله عليه وسلم فى بشريته لا بد أن يحدث تغييراً كيميائيا فى نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم .

عن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها أن الحارث بن هشام رضى الله عنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله كيف يأتيك الوحى ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أحيانا يأتينى مثل صلصلة الجرس وهو أشد علىّ فيفصم عنى وقد وعيت عنه ما قال ، وأحيانا يتمثل لى الملك رجلاً فيكلمنى فأعى ما يقول . قالت عائشة رضى الله عنها : ولقد رأيته ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقا »[٢] .

إن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يواجه المتاعب وأراد الله بفترة الوحى أن يحس محمد حلاوة الوحى الذى نزل إليه ، وأن يشتاق إليه ، فالشوق يعين الرسول على تحمل متاعب الوحى عندما يجىء ، ولذلك نجد أن عملية تفصد العرق لم تستمر كثيرا ؛ لأن الحق قال :

﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾ ﴾

(سورة الضحى)

أى أن الحق أوضح لرسوله : إنك ستجد شوقا وحلاوة ولذة فى أن تستقبل هذه الأشياء .

---

(١) رواه البخارى فى كتاب : بدء الوحى .

(٢) رواه البخارى فى كتاب : بدء الوحى .

﴿ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴾

(من الآية ٣٢ سورة الفرقان)

وهكذا كان القرآن ينزل منجماً ، على فترات ، ويسمع الصحابة عدداً من آيات القرآن . ويحفظونها ويكتبها كُتَّابُ الوحى ، وبعد ذلك تأتى معجزة أخرى من معجزات القرآن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتنزل سورة كاملة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبعد أن يُسرى عنه يقول للكتبة : اكتبوا هذه . ويرتب رسول الله الآيات بمواقعها من السورة . ثم يقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم السورة فى الصلاة ويسمع المصلون الترتيل الذى تكون فيه كل آية فى موقعها ، وهذا دليل على أن المسألة مدروسة دراسة دقيقة ، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين يحكى إنما يحكى صدقاً .

وإلا فَقُولُوا لى : كيف ينزل الوحى على رسول الله بسورة بأكملها ويمليها للكتبة ، ثم يقرؤها فى الصلاة كما نزلت وكما كتبها أصحابه ، كيف يحدث ذلك إن لم يكن ما نزل عليه صدقاً كاملاً من عند الله ؟ ونحن قد نجد إنساناً يتكلم لمدة ربع ساعة ، لكن لو قلنا له : أعد ما تكلمت به فلن يعيد أبداً الكلمات نفسها ، لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يعيد الآيات كما نزلت . مما يدل على أنه يقرأ كتاب الله المحفوظ الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه إنه تنزيل من حكيم حميد . ولذلك يقول الحق :

﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ﴾

(سورة الفرقان)

أى لا يأتونك بحادثة تحدث إلا جئناك بالحق فيها .

إذن لم يكن للقرآن أن ينزل منجماً إلا ليثبت فؤاد رسول الله صلى الله عليه وسلم من تتابع الهزات التى يتعرض لها ، وأراد الله أن ينشر اتصال السماء برسول الله صلى الله عليه وسلم على الثلاثة والعشرين عاماً التى استغرقتها الرسالة .

والترتيل هو التنجيم والتفريق الذى ينزل به القرآن فيقرأه الرسول فى الصلاة مثلما نزل عليه قبل ذلك دون تحريف أو تبديل ، والحق يقول :

﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ ﴾

(سورة الأعلى)

وكل حادثة تحدث ينزل لها ما يناسبها من القرآن . كما حدثت حادثة سرقة ابن أبيرق فنزل فيها الحكم والحق يقول : « وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً » .

فإذا ما علمك الله ـ يا رسول الله ـ ما لم تكن تعلم بنزول الكتاب ، فهل أنت يا سيدى يا رسول الله مشرع فقط بما نزل من الكتاب ؟ لا ؛ فالكتاب معجزة وفيه أصول المنهج الإيمانى ، ولكن الله مع ذلك فوض رسوله صلى الله عليه وسلم أن يشرِّع ؛ وتلك ميزة لم تكن لرسول قبله ، بدليل قوله الحق :

﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ ﴾

(من الآية ٧ سورة الحشر)

فالرسل من قبل الرسول صلى الله عليه وسلم يتناولون ما أخذوه عن الله ، وميز سبحانه محمداً صلى الله عليه وسلم بتفويض التشريع . وأوضح الحق أنه عَلَّمَ رسوله الكتاب والحكمة . والحكمة مقصود بها السنة ، فسبحانه القائل :

﴿ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ﴾

(من الآية ٣٤ سورة الأحزاب)

وسبحانه صاحب الفضل على كل الخلق وصاحب الفضل على رسوله : « وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً » ولنا أن نلحظ أن « فضل الله » تكرر فى هذه الآية مرتين . ففضل الله الأول فى هذه الآية أنه عصمه من أن تضله طائفة وتنأى به عن الحق ، ثم كان فضل الله عليه ثانيا أنه أنزل عليه الكتاب بكل أحكامه وأعطاه الحكمة وهى التفويض من الله لرسوله أن يشرّع . إذن فالحق سبحانه وتعالى جعل من سنة الرسول صلى الله عليه وسلم امتداداً لوحيه . ولذلك إذا قيل من قوم يحاولون التشكيك فى حديث رسول الله : إن الصلاة لم تأت فى القرآن .

نقول سائلين الواحد منهم : هل تؤدى الصلاة أم لا .؟

فيقول : إننى أصلى . .

فنقول له : كم فرضاً تصلى ؟.

فيقول : خمسة فروض .

فنقول : هات هذه الفروض الخمسة من القرآن . ولسوف يصيبه البهت ، وسيلتبس عليه أمر تحديد الصبح بركعتين والظهر بأربع ركعات ، والعصر بمثلها ، والمغرب بثلاث ، والعشاء بأربع ركعات . وسيعترف أخيراً أنه يصلى على ضوء قول الرسول : (صلوا كما رأيتمونى أصلى)[1] وهذه من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

« وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً » وقد نجد واحداً من أهل السطحية واللجاجة يقول : القرآن يكرر الكلمات فى أكثر من موقع ، ولماذا يذكر فضل الله فى صدر هذه الآية ، ويذكره مرة أخرى فى ذيل نفس الآية ؟.

نقول : أنت لم تلحظ فضل الله فى الجزئية الأولى لأنه أنقذ رسوله من همّ التزيين بالحكم على واحد من أهل الكتاب ظلماً ، وفى الجزئية الثانية هو فضل فى الإتمام بأنه علم رسوله الكتاب والحكمة وكان هذا الفضل عظيماً حقاً .

وساعة يذهب هؤلاء الناس ليحدثوا الرسول فى أمر طعمة ابن أبيرق ، ألم يجلسوا معا ليتدارسوا كيف يفلت طعمة بن أبيرق من الجريمة ؟.

لقد قاموا بالتداول فيما بينهم لأمر طعمة واتفقوا على أن يذهبوا للرسول ؛ فكانت الصلة قريبة من النجوى . ولذلك حرص أدب الإسلام على أن يحترم كرامة أى جليس ثالث مع اثنين فلا يتناجى اثنان دون صاحبهما ؛ لأن ذلك يحزنه .

وقد يكون الأمر جائزاً لو كان الجلوس أربعة ، فواحد يتحدث مع آخر ، وهناك يستطيع اثنان أن يتناجيا . إذن فالنجوى معناها المسارّة ، والمسارّة لا تكون إلا عن أمر لا يحبون أن يشيع ، وقد فعل القوم ذلك قبل أن يذهبوا إلى الرسول ليتكلموا عن

---

(١) رواه البخارى والبيهقى فى السنن الكبرى .

حادثة طعمة بن أبيرق ، ولذلك يفضح الحق أمر هذه النجوى ، فينزل القول الحق :

﴿ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ ﴾

وسبحانه يوضح أمر هذه النجوى التى تحمل التبييت للإضلال ، ولكن ماذا إن كانت النجوى لتعين على حق ؟ إنه سبحانه يستثنيها هنا ؛ لذلك لم يصدر حكماً جازماً ضد كل نجوى ، واستثنى منها نجوى مَن أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ، بل ويجزى عليها حسن الثواب . لذلك قال : « ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضات الله فسوف نؤتيه أجراً عظيماً » . ويستخدم الحق هنا كلمة « سوف » ، وكان من الممكن أن يأتى القول « فسنؤتيه أجراً عظيماً » لكن لدقة الأداء القرآنى البالغة جاءت بأبعد المسافات وهى « سوف » .

ونعرف أن جواب شرط الفعل إذا ما جاء على مسافة قريبة فنحن نستخدم « السين » ، وإذا ما جاء جواب الشرط على مسافة بعيدة فنحن نستخدم « سوف » . وجاء الحق هنا بـ « سوف » لأن مناط الجزاء هو الآخرة ، فإياك أيها العبد المؤمن أن تقول : لماذا لم يعطنى الله الجزاء على الطيب فى الدنيا ؟! لأن الحق سبحانه وتعالى لم يقل:« فسنؤتيه » ولكنه قال : « فسوف نؤتيه أجراً عظيماً » مما يدل على أن الفضل والإكرام من الله ؛ وإن كان عاجلاً ليس هو الجزاء على هذا العمل ؛ لأن جزاء الحق لعباده المؤمنين سيكون كبيراً ، ولا يدل على هذا الجزاء فى الآخرة إلاّ « فسوف » . ونعرف أن الرسول صلى الله عليه وسلم حين يمنى أمته الإيمانية بشىء فهو يمنيها بالآخرة ، ولننظر إلى بيعة العقبة عندما جاء الأنصار من المدينة لمبايعة رسول الله :

فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وحوله عصابة من أصحابه : « بايعونى على ألا تشركوا بالله شيئا ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتلوا أولادكم ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ولا تعصوا فى معروف ، فمن وفَّى منكم فأجره على الله ، ومن أصاب من ذلك شيئا فعوقب به فى الدنيا فهو كفارة له ، ومن أصاب من ذلك شيئا ثم ستره الله إن شاء عفا عنه وإن شاء عاقبه[1] .

لقد أخذت لنفسك يا رسول الله ونحن نريد أن نأخذ لأنفسنا ، ماذا لنا إن نحن وفّينا بهذا ؟ ولنر عظمة الجواب وإلهامية الرد ، قال الرسول صلى الله عليه وسلم : (لكم الجنة) .

كان فى استطاعة رسول الله أن يقول لهم : إنكم ستنتصرون وإنكم ستأخذون مشارق الأرض ومغاربها وسيأتى لكم خير البلاد الإسلامية كلها . لكنه بحكمته لم يقل ذلك أبدًا فقد يستشهد واحد منهم فى قتال من أجل نصرة دين الله ، فماذا سيأخذ فى الدنيا ؟ . إنه لن يأخذ حظه من التكريم فى الدنيا ، ولكنه سينال الجزاء فى الآخرة . لذلك جاء بالجزاء الذى سيشمل الكل ، وهو الجنة ليدلهم على أن الدنيا أتفه من أن يكون جزاء الله محصوراً فيها ، ويحض كل المؤمنين على أن يطلبوا جزاء الآخرة ؛ ونعلم جميعاً هذه الحكاية ، ونجد رجلاً يقول لصاحبه : أتحبنى ؟ فأجاب الصاحب : نعم أحبك . فسأل السائل : على أى قدر تحبنى ؟ قال الصاحب : قدر الدنيا . أجاب الرجل : ما أتفهنى عندك !! .

يقول الحق : « ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضات الله فسوف نؤتيه أجراً عظيماً » ومن صاحب « نؤتيه » والفاعل لهذا العطاء ؟ إنه الحق سبحانه وتعالى الذى وصف الأجر بأنه أجر عظيم . وكأن الحق يبلغنا :

ـ يا معشر الأمة الإيمانية التحموا بمنهج رسول الله وامتزجوا به لتكونوا معه شيئاً واحداً . وإياكم أن يكون لكم رأى منفصل عن المنهج ؛ فهو مبلغ عن الله ، فمن آمن به فليلتحم به . ولذلك نجد سيدنا أبا بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ ساعة

---

(١) رواه البخارى فى كتاب الإيمان .

حدثوه فى حكاية الإسراء والمعراج نجده يسأل محدثه : أقال رسول الله ما قلتموه . . ؟ فيقولون : بلى ، لقد قال . فيرد عليهم الصديق : إن كان قال فقد صدق ؛ فالصديق أبو بكر لا يحتاج إلى دليل على صدق ما قال رسول الله .

ويأتى الحق بالمقابل فيقول :

﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ ﴾

وكلمة « يشاقق » تدل على أن شقاً قد حدث فى أمر كان ملتحماً ، مثلما نشق قطعة الخشب فنجعلها جزئين بعد أن كانت كتلة واحدة . وأنتم أيها المؤمنون قد التحمتم بمنهج رسول الله إيماناً ، واعترفتم به رسولا ومبلغ صدقٍ عن الله ، فإياكم أن تشرخوا هذا الالتحام . فإن جاء حكم وحاول أحد المؤمنين أن يخرج عنه ، فهذا شقاق للرسول والعياذ بالله . أو المعنى ومن سلك غير الطريقة التى جاء بها الرسول بأن صار فى شق وشرع الله فى شق آخر .

« ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى » نعم فقد تبين الهدى للمسلم حينما آمن بالله خالقاً ورباً . وآمن بالرسول مبلغاً وهو بذلك قد أسلم زمامه إلى الله . ولذلك قلنا : إن عمل العقل هو أن ينظر فى أدلة الوجود الأعلى لله ، فإذا ما آمن الإنسان بالوجود الأعلى لله ، بقيت مرتبة ، وهى أن يؤمن الإنسان بالرسول المبلغ عن الله ؛ لأن قصارى ما يطلبه العقل من الدليل الإيمانى على وجود الله أن وراء الإنسان ووراء الكون قوة قادرة حكيمة عالمة فيها كل صفات الكمال .

إن العقل لا يستطيع معرفة اسم هذه القوة . ولا يستطيع العقل أن يتعرف على مطلوباتها ؛ لذلك لابد من البلاغ عن هذه القوة ، وإذا تبين للإنسان الهدى فى

الوجود الأعلى وفى البلاغ عن الله فلا بد للإنسان أن يلتحم بالمنهج الذى جاء به المبلغ عن الله . ويفعل الإنسان مطلوب القوة العليا ؛ لأن الله قد أمر به ؛ ولأن رسول الله قد بلغ الأمر أو فعله أو أقرّه . أما إذا دخل الإنسان فى مماحكات فإننا نقول له : راجع إيمانك بالله أولاً وإيمانك برسول الله ثانياً . لذلك يقول الحق :

﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ ﴾

(سورة النساء)

والهدى ـ كما نعرف ـ هو الطريق الموصل إلى الغاية . فكل فعلٍ من أفعال الخلق لابد له من هدف . ومن فعل فعلاً بلا هدف يعتبره المجتمع فاقداً للتمييز . أما إذا كان الإنسان صاحب هدف فهو يتعرف على جدّية هدفه وأهميته . ويبحث له عن أقصر طريق ، هذا الطريق هو ما نسميه الهدى . ومن يعرف الطريق الموصل إلى الهدى ثم يتبع غير سبيل المؤمنين فهو يشاقق الرسول ، ولا يلتحم بمنهج الإيمان ولا يلتزم به ، ومن يشاقق إنما يرجع عن إيمانه .

وهكذا نعرف أن هناك سبيلا وطريقا للرسول ، ومؤمنين اتبعوا الرسول بالتحام بالمنهج ، ومن يشاقق الرسول يخالف المنهج الذى جاء به الرسول ، ويخالف المؤمنين أيضاً .

والحق هو القائل :

﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ ﴾

(من الآية ١٥٣ سورة الأنعام)

فليس للحق إلا سبيل واحد . ومن يخرج عن هذا السبيل فما الذى يحدث له ؟ . ها هى ذى إجابة الحق : « نولّه ما تولّى ونصله جهنم وساءت مصيراً » . وقد يأتى لفظ من المحتمل أن يكون أداة شرط ويحتمل أن يكون اسماً موصولاً مثل قولنا : مَن يذاكرُ ينجحُ . بالضم فيهما ، و« من » هنا هى اسم موصول ؛ فالذى يذاكر هو مَن ينجح . وقد نقول : مَن يذاكرْ ينجحْ . بالسكون وهنا « مَن » شرطية .

وفى الاسم الموصول نجد الجملة تسير على ما هى ، أما إذا كانت شرطية ، فهناك الجزم الذى يقتضى سكون الفعل ؛ ويقتضى ـ أيضا ـ جواباً للشرط . و« من » تصلح أن تكون اسماً موصولاً ، وتصلح أن تكون أداة شرط ، ونتعرف ـ عادة ـ على وضعها مما يأتى بعدها . مثال ذلك قوله الحق :

« ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبعْ » ونجد « يتبع » هنا عليها سكون الجزم ، وهذا يدل على أن « مَنْ » شرطية .

وتختلف القراءة لو اعتبرنا « مَن » اسم موصول ؛ لأن هذا يستدعى ترك الفعل « يشاقق » فى وضعه كفعل مضارع مرفوع بالضمة ، وكذلك يكون « يتبعْ » فعلاً مضارعاً مرفوعاً بالضمة ؛ عند ذلك نقول : « نوليه ما تولى ونصليه » . ولكن إن اعتبرنا « مَن » أداة شرط ـ وهى فى هذه الآية شرطية ـ فلا بد من جزم الفعل فنقرأها « ومن يشاققْ الرسول من بعد ما تبين له الهدى » . وكذلك نجزم الفعل المعطوف وهو قوله : (ويتبعْ) ويجزم جواب الشرط وما عطف عليه وهو قوله :(نولِّهِ) (ونصْلِه) والجواب وما عطف عليه مجزومان بحذف حرف العلة وهى الياء من آخره « ويتبعْ غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً » . ومعنى « تَوَلَّى » أى قرب ، ويقال : فلانٌ وَلِي فلان ؛ أى صار قريباً له . ومن يتبع غير سبيل المؤمنين ، فالحق لا يريده بل ويقربه من غير المؤمنين ويكله إلى أصحاب الكفر . وها هو ذا الحق سبحانه يقول : « أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك معى فيه غيرى تركته وشركه »[1] .

فالذى يحتاج إلى الشرك هو من به زاوية من ضعف ، ويريد شريكاً ليقويه فيها . وعلى سبيل المثال ـ ولله المثل الأعلى ـ لا نجد أحداً يشارك واحداً على تجارة إلا إذا كان لا يملك المال الكافى لإدارة التجارة أو لا يستطيع أن يقوم على شأنها . وسبحانه حين يعلمنا : « أنا أغنى الشركاء عن الشرك . من عمل عملاً أشرك معى فيه غيرى تركته وشركه »[1] .

أى أن له مطلق القوة الفاعلة التى لا تحتاج إلى معونة ، ولا تحتاج إلى شريك ؛ لأن الشركة أول ما تشهد فإنها تشهد ضعفا من شريك واحتياجاً لغريب . ولذلك

---

(١) رواه مسلم وابن ماجه عن أبى هريرة .

فمن يشاقق الرسول فى أمر إيمانى فالحق يوليه مع الذى كفر ويقربه من مراده . وسبحانه يعلم أن الإنسان لن ينتفع بالشيء المشاقق لرسول الله ، بل يكون جزاء المشاقق لرسول الله والمتبع لغير سبيل المؤمنين أن يقربه الله ويدنيه من أهل الكفر والمعاصى،ويلحقه بهم ويحشره فى زمرتهم . ولا يعنى هذا أن الله يمنع عن العبد الرزق ، لا ، فالرزق للمؤمن وللكافر ، وقد أمر الله الأسباب أن تخدم العبد إن فعلها . ومن رحمة الله وفضله أنه لا يقبض النعمة عن مثل هذا العبد ، فالشمس تعطيه الضوء والحرارة ، والهواء يهب عليه ، والأرض تعطيه من عناصرها الخير :

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ ﴾

(سورة الشورى)

ويقول سبحانه :

﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

وهكذا نجد العطاء الربانى غير مقصور على المؤمنين فقط ولكنه للمؤمن وللكافر ، ولو لم يكن لله إلا هذه المسألة لكانت كافية فى أن نلتحم بمنهجه ونحبه .

« ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً » ولا بد أن يكون المصير المؤدى إلى جهنم غاية فى السوء . وبعد ذلك تأتى سيرة الخيانة العظمى للإيمان ، إنها قول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ ﴾

والحق هنا يتكلم عن إنسان لم تحدث له توبة عن الشرك فيؤمن ؛ لأن الإيمان يَجُبُّ ما قبله أى يقطع ما كان قبله من الكفر والذنوب التى لا تتعلق بحقوق الآخرين كظلم العباد بعضهم بعضا . ومن عظمة الإيمان أن الإنسان حين يؤمن بالله وتخلص النية بهذا الإيمان ، وبعد ذلك جاءه قدر الله بالموت ، فقد يعطيه سبحانه نعيما يفوق من عاش مؤمنا لفترة طويلة قد يكون مرتكباً فيها لبعض السيئت فينال عقابها .

مثال ذلك « مخيريق » فحينما خرج النبى صلى الله عليه وسلم إلى أحد قال مخيريق لليهود : ألا تنصرون محمداً والله إنكم لتعلمون أن نصرته حق عليكم فقالوا : اليوم يوم سبت فقال : لا سبت . وأخذ سيفه ومضى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقاتل حتى أثبتته الجراحة (أى لا يستطيع أن يقوم معها) فلما حضره الموت قال : أموالى إلى محمد يضعها حيث شاء . فلم يصل فى حياته ركعة واحدة ومع ذلك نال مرتبة الشهيد ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مخيريق سائق يهود وسلمان سائق فارس وبلال سائق الحبشة » .

وسبحانه يبلغنا هنا : « إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » ولله المثل الأعلى نرى فى حياتنا مجتمعاً قد تقوم فيه ثورة أو انقلاب ، ونجد قادة الثورة أو الانقلاب يرون واحداً يفعل ما شاء له فلا يقتربون منه إلى أن يتعرض للثورة بالنقد أو يحاول أن يصنع انقلابا ، هنا تتم محاكمته بتهمة الخيانة العظمى ، فما بالنا بالذى يخرج عن نطاق الإيمان كلية ويشرك بالله ؟ سبحانه لا يغفر ذلك أبداً ، ولكنه يغفر ما دون ذلك ، ومن رحمة الله بالخلق أن احتفظ هو بإرادة الغفران حتى لا يصير الناس إلى ارتكاب كل المعاصى . ولكن لا بد من توبة العبد عن الذنب . ونعلم أن العبد لا يتم طرده من رحمة الله لمجرد ارتكاب الذنب . ونعلم أن هناك فرقاً بين من يأتى الذنب ويفعله ويقترفه وهو يعلم أنه مذنب وأن حكم الله صحيح وصادق ، لكن نفسه ضعفت ، والذى يرد الحكم على الله . وقد نجد عبداً يريد أن يرتكب الذنب فيلتمس له وجه حل ، كقول بعضهم : إن الربا ليس حراماً . هذا هو رد الحكم على الله . أما العبد الذى يقول : إننى أعرف أن الربا حرام ولكن ظروفى قاسية وضروراتى ملحة . فهو عبد عاصٍ فقط لا يرد الحكم على الله ، ومن يرد الحكم على الله هو ـ والعياذ بالله ـ كافر .

« إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » ولننتبه إلى أن بعض المستشرقين الذين يريدون أن يعيثوا فى الأرض فساداً . ولكنهم بدون أن يدروا ينشرون فضيلة الإسلام ، وهم كما يقول الشاعر :

وإذا أراد الله نشر فضيلة
طويت أتاح لها لسان حسود

وحين يتكلمون فى مثل هذه الأمور يدفعون أهل الإيمان لتلمس وجه الإعجاز القرآنى وبلاغته .

إنهم يقولون : بَلَّغ محمد قومه « إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » لكن يبدو أن السهو قد غلبه فقال فى آية أخرى :

﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾

(من الآية ٥٣ سورة الزمر)

هم يحاولون نسبة القرآن إلى محمد لا إلى الله . ويحاولون إيجاد تضارب بين الآيتين الكريمتين . ونقول رداً عليهم : إن الواحد منكم أمى ويجهل ملكة اللغة ، فلو كانت اللغة عندكم ملكة وسليقة وطبيعة لفهم الواحد منكم قوله الحق :

﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾

(من الآية ٥٣ سورة الزمر)

وكان الواجب أن يفهم الواحد منكم أن الشرك مسألة أكبر من الذنب ؛ فالذنب هو أن يعرف الإنسان قضية إيمانية ثم يخالفها ، ولكن المشرك لا يدخل فى هذا الأمر كله ؛ لأنه كافر فى القمة . ولذلك فلا تناقض ولا تعارض ولا تخالف بين الآيتين الكريمتين . والمستشرقون إنما هم قوم لا يفقهون حقيقة المعانى القرآنية .

« إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد

ضل ضلالاً بعيداً » . والمشرك مهما أخذ من متع لحياته فحياته محدودة ، فإن بقيت له المتع فلسوف يتركها ، وإن لم تبق له المتع فهى تخرج منه . إذن ، هو إما تارك للمتع بالموت ، أو المتع تاركة له بحكم الأغيار ، فهو بين أمرين : إمّا أن يفوتها وإمّا أن تفوته. وهو راجع إلى الله ، فإذا ما ذهب إلى الله فى الآخرة والحساب ، فالآخرة لا زمن لها ، ولذلك ما أطول شقاءه بجريمته ، وهذا ضلال بعيد جداً . أما الذى يضل قليلاً فهو يعود مرة أخرى إلى رشده . ومن المشركين بالله هؤلاء الذين لا يجادلون فى ألوهية الحق ولكنهم يجعلون لله شركاء . وهناك بعض المشركين ينكرون الألوهية كلها وهذا هو الكفر . فهناك إذن مشرك يؤمن بالله ولكن يجعل له شركاء .

ولذلك نجد أن المشركين على عهد رسول الله يقولون عن الأصنام :

﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾

(من الآية ٣ سورة الزمر)

ولو قالوا : لا نذبح لهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ، مثلا ، لكان من الجائز أن يدخلوا فى عبادة الله ، ولكنهم يثبتون العبادة للأصنام ؛ لذلك لا مفر من دخولهم فى الشرك . ويقول سيدنا إبراهيم عن الأصنام :

﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾

(سورة الشعراء)

إنه يضع الاستثناء ليحدد بوضوح قاطع ويقول لقومه :

إن ما تعبدونه من الأصنام ، كلهم عدو لى ، إلا رب العالمين . كأن قوم إبراهيم كانوا يؤمنون بالله ولكن وضعوا معه بعض الشركاء . ولذلك قال إبراهيم عليه السلام عن الله :

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ ﴾

(سورة الشعراء)

إذن الشرك ليس فقط إنكار الوجود لله بل قد يكون إشراكاً لغير الله مع الله . ولنر من يعبدونه ويدعونه فى مصائبهم :

﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ ﴾

و« إن » هنا بمعنى ما ، فـ « إن » مرة تكون شرطية ، ومرة تكون نافية . مثل قوله فى موقع آخر :

﴿ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ﴾

(من الآية ٢ سورة المجادلة)

أى إن الحق يقول : «إن أمهاتهم إلاّ اللائى ولدنهم» . وكذلك « إنْ » فى قوله : « إن يدعون من دونه إلا إناثاً » ، وكان العرب ينسبون إلى المرأة كل ما هو هيّن وضعيف ولذلك قال الحق :

﴿ أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ ﴾

(سورة الزخرف)

فالإناث فى عرف العرب لا تستطيع النصر أو الدفاع ، ولذلك يقول الشاعر :

وما أدرى ولست أخال أدرى ... أقوم آل حصن أم نساء

والقوم هنا مقصود بهم الرجال لأنهم يقومون لمواجهة المشكلات فلماذا تدعون مع الله إناثاً ؟ . هل تفعلون ذلك لأنها ضعيفة ، أو لأنكم تقولون : إن الملائكة بنات الله ؟ . وكانوا يعبدون الملائكة . وعندما تريدون القسمة لماذا تجعلون لله البنات ؟ . على الرغم من أنه سبحانه خلق البنين والبنات .

ولذلك قال الحق :

﴿ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ ﴾

(سورة النجم)

أى قسمة جائرة لم يراع فيها العدل .

وعندما ننظر إلى الأصنام كلها نجد أن أسماءها أسماء مؤنثة :

﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ ﴾

(سورة النجم)

وكذلك كان هناك صنم اسمه « إساف » و« نائلة » ، فهل هذه الأصنام إناث ؟ وكيف تدعون النساء والنساء لا ينصرن ولا ينفعن ؟ . وهل ما تعبدون من دون الله أصنام بأسماء إناث ، أو هى نساء ، أو هى ملائكة ؟

والحق يقول : « إن يدعون من دونه إلا إناثاً » والأسلوب هنا أسلوب قطع . أى ما يدعون إلا إناثاً ، تماماً مثلما نقول « ما أكرم إلا زيداً » وهذا نفى الإكرام لغير زيد ، وإثبات للإكرام لزيد . فساعة يقول الحق : « إن يدعون من دونه إلا إناثاً » فغير الإناث لا يدعونهم ، ولذلك يعطف عليها الحق : « وإن يدعون إلا شيطاناً مريداً » .

واستخدم الحق فى صدر الآية أسلوب القصر ، وأسلوب القصر معناه أن يقصر الفعل على المقصور عليه لا يتعداه إلى غيره ؛ فهم يعبدون الإناث ، هذا قصر أول ، ثم قصر ثانٍ هو قوله الحق : « وإن يدعون إلا شيطاناً مريداً » .

وكان خدم الأصنام يدعون أن فى جوف كل صنم شيئاً يتكلم إليهم ؛ لذلك كان لابد أن يكون فى جوف كل صنم شيطان يكلمهم . . وكان ذلك لوناً من الخداع ، فالشياطين ليست جنّاً فقط ولكن من الإنس أيضاً .

فهناك سدنة وخدم يقومون على خدمة الآلهة ويريدون أن يجعلوا للآلهة سلطاناً ونفوذاً حتى يأتى الخير للآلهة كالقرابين والنذور ويسعد السدنة بذلك ؛ لذلك كانوا يستأجرون واحداً له صوت أجش يتكلم من وراء الصنم ويقول : اذبحوا لى كذا . أو هاتوا لى كذا . تماماً كما يحدث من الدجالين حتى يثبتوا لأنفسهم سلطاناً . وهكذا كان الذى يتكلم فى جوف هذه الأصنام إما شيطان من الجن، وإمّا شيطان من الإنس . والشيطان من « الشطن » وهو « البعد » .

ووصف الشيطان بأنه مريد يتطلب منا أن نعرف أن هناك كلمة « مارد » وكلمة

« مريد » . وكل الأمور التى تغيب عن الحس مأخوذة من الأمور الحسية . وعندما نمسك مادة « الميم والراء والدال » نجد كلمات مثل « أمرد » و « امرأة مرداء » و« شجرة مرداء » ، و« صرح ممرد » .

إن المادة كلها تدور حول الملمس الأملس . فأمرد تعنى أملس ؛ أى أن منابت الشعر فيه ناعمة . وصرح ممرد كصرح بلقيس أى صرح مصقول صقلاً ناعما لدرجة أنها اشتبهت فى أنه ماء ، ولذلك كشفت عن ساقيها خوفاً أن يبتل ثوبها . والشجرة المرداء هى التى لا يمكن الصعود عليها من فرط نعومة ساقها تماماً كالنخلة فإنه لا تبقى عليها الفروع ، ولذلك يدقون فى ساق هذه النخلة بعض المسامير الكبيرة حتى يصعدوا عليها .

والشيطان المريد هو المتمرد الذى لا تستطيع الإمساك به . إذن . فـ « مارد » و« مريد » و« ممرد » و« مرداء » و« أمرد » ، كلها من نعومة الملمس .

« وإن يدعون إلا شيطاناً مريداً » .

وعندما يحاول العصاة الإمساك بالشيطان فى الآخرة يقول لهم :

﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ﴾

(من الآية ٢٢ سورة إبراهيم)

وهو بذلك يتملص من الذين اتبعوه ؛ لأنه لم يكن يملك قوة إقناع أو قوة قهر ، فقط نادى بعضاً من الخلق فزاغت أبصارهم واتبعوه من فرط غبائهم .

والشيطان موصوف بأن الله طرده من رحمته . فالحق يقول :

﴿ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ ﴾

لماذا هذا اللعن ؟ لقد أذنب الشيطان وعصى الله . وآدم أذنب أيضا وعصى الله .

فلماذا لعن الله الشيطان ، ولماذا عفا الله عن آدم ؟ نجد الإجابة فى القرآن :

﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾

(سورة البقرة)

ونعرف بهذا القول : أنّ هناك فرقاً بين أن يرد المخلوق على الله حكماً ، وفعل المعصية للغفلة .

فحين أمر الحق إبليس بالسجود لآدم قال إبليس :

﴿ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾

(من الآية ١٢ سورة الأعراف)

وهذا رد للحكم على الله ، ويختلف هذا القول عن قول آدم وحواء ، قالا :

﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا ﴾

(من الآية ٢٣ سورة الأعراف)

وهكذا نجد أن آدم قد اعترف بحكم الله واعترف بأنه لم يقدر على نفسه . ولذلك فليحذر كل واحد أن يأتى إلى ما حرّم الله ويقول : لا ، ليس هذا الأمر حراما لكن إن كان لا يقدر على نفسه فليعترف ويقول : إن ما حرم الله حرام . لكنى غير قادر على نفسى . وبذلك يستبعد الكفر عن نفسه ، ويكون عاصياً فقط ولعل التوبة أو الاستغفار يذهبان عنه سيئات فعله . أما من يحلل ما حرّم الله فهو يصر على الكفر ، وطمس الله على بصيرته نتيجة لذلك .

وسبحانه وتعالى يصف الشيطان بقوله ـ سبحانه ـ : « لعنه الله » أى طرده من رحمته . وليتيقظ ابن آدم لحبائل الشيطان وليحذره ؛ لأنه مطرود من رحمة الله .

ولو أن سيدنا آدم أعمل فكره لفند قول الشيطان وكيده ، ذلك أن كيد الشيطان ضعيف . ولكن آدم عليه السلام لم يتصور أن هناك من يقسم بالله كذباً . فقد أقسم الشيطان :

﴿ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

وكانت غفلة آدم ـ عليه السلام ـ لأمر أراده الله وهو أن يكون آدم خليفة فى هذه الدنيا ؛ لذلك كان من السهل أن يوسوس الشيطان لآدم ولزوجه :

﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

وأغوى الشيطان آدم وحواء بأن الله قد نهاهما عن الأكل من تلك الشجرة حتى لا يكونا ملكين ، وحتى لا يستمرا فى الخلود . ولو أن آدم أعمل فكره فى المسألة لقال للشيطان : كل أنت من الشجرة لتكون ملكاً وتكون من الخالدين ، فأنت أيها الشيطان الذى قلت بخوف شديد لله :

﴿ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾

(من الآية ٣٦ سورة الحجر)

والحق يريد لنا أن نتعلم من غفلة آدم ؛ لذلك لا بد للمؤمن أن يكون يقظاً .

فسبحانه يقول عن الشيطان : « لعنه الله وقال لأتخذن من عبادك نصيباً مفروضا » .

والقرآن الكريم حين يعالج قضية ما فهذه القضية تحتاج إلى تدبر . ونلحظ أن إبليس قد تكلم بذلك ولم يكن موجوداً من البشر إلا آدم وحواء ، فكيف علم ما يكون فى المستقبل من أنه سيكون له أتباع من البشر ؟ وكيف قال : « لأتخذن من عبادك نصيباً مفروضاً » ؟ .

لقد عرف أنه مادام قد قدر على أبيهم آدم وأمهم حواء فلسوف يقدر على أولادهما ويأخذ بعضاً من هؤلاء الأولاد إلى جانبه ، قال ذلك ظناً من واقع أنه قدر على آدم وعلى حواء . والذين اتبعوا إبليس من البشر صدقوا إبليس فى ظنه . وكان هذا الظن ساعة قال : « لأتخذن من عبادك نصيباً مفروضاً » .

وأخذ إبليس هذا الظن لأنه قدر على آدم وحواء مع أن آدم وحواء قد أخذا

التكليف من الله مباشرة ، فما بالك بالأولاد الذين لم يأخذوا التكليف مباشرة بل عن طريق الرسل . إذن كان ظن إبليس مبنياً على الدليل فالظن ـ كما نعلم ـ هو نسبة راجحة وغير متيقنة ، ويقابلها الوهم وهو نسبة مرجوحة :

﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ ﴾

(من الآية ٢٠ سورة سبأ)

ولذلك قال إبليس أيضاً :

﴿ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

(من الآية ٦٢ سورة الإسراء)

وقال كذلك :

﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾

(سورة ص)

مادام إبليس قد قال : « لأتخذن من عبادك نصيباً مفروضاً » .

فهذا اعتراف بأنه لن يستطيع أن يأخذ كل أولاد آدم . والفرض ـ كما نعلم ـ هو القطع . ويقال عن الشيء المفروض : إنه المقطوع الذى لا كلام فيه أبداً .

وما وسيلة إبليس ـ إذن ـ لأخذ نصيب مفروض من بنى آدم ؟

ويوضح الحق لنا وسائل إبليس ، على لسان إبليس :

﴿ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَـَٔامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَـٰمِ وَلَـَٔامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ﴾

وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾

فى هذه الآية تفصيل لطرق أخذ إبليس لنصيب مفروض من بنى آدم . فإبليس هو القائل كما يحكى القرآن :

﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾

(من الآية ١٦ سورة الأعراف)

وعرفنا من قبل أنه لن يقعد إلا على الطريق الطيب ؛ لأن طريق من اختار السلوك السيىء لا يحتاج إلى شيطان ؛ لأنه هو نفسه شيطان ؛ لذلك لا يذهب إبليس إلى الخمارة ، ولكنه يقف على باب المسجد ليرى الناس وهى تفعل الخير فيوسوس لهم ، وفى هذا إجابة لمن يقولون : إن الوساوس تأتينى لحظة الصلاة . والصلاة - كما نعلم - هى أشرف موقف للعبد ؛ لأنه يقف بين يدى الرب ، لذلك يحاول الشيطان أن يلهى الإنسان عنها حتى يحبس عنه الثواب . وهذه الوساوس ظاهرة صحية فى الإيمان ، ولكنها تحتاج إلى اليقظة ، فساعة ينزغ الشيطان الإنسان نزغة فليتذكر قول الحق :

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾

(من الآية ٢٠٠ سورة الأعراف)

وعندما نستعيذ بالله فوراً يعرف الشيطان أنك منتبه له ، حتى ولو كنت تقرأ القرآن فى أثناء الصلاة ووسوس لك الشيطان ، اقطع القراءة واستعذ بالله ، ثم واصل القراءة والصلاة ، وحين يعرف الشيطان أنك منتبه له مرة واثنتين وثلاثاً فهو يبتعد عنك فلا يأتى لك من بعد ذلك إلَّا إذا أحسّ منك غفلة .

ويبين لنا الحق طريقة الشيطان فى أخذ النصيب المفروض من عباد الله فقال عن إبليس : « ولأضلنهم » . والإضلال معناه أن يسلك الشيطان بالإنسان سبيلاً غير مؤدٍ للغاية الحميدة ؛ لأنه حين يسلك الشخص أقصر الطرق الموصلة إلى الغاية المنصوبة ، فمعنى ذلك أنه اهتدى ، أما إذا ذهب بعيداً عن الغاية ، فهذا هو

الضلال . والحق سبحانه وتعالى بوضعه منهج الهداية أعطانا أقصر طريق مستقيم إلى الغاية ، فإذا ما انحرفنا هنا أو هناك ، فالانحراف فى البداية يتسع حتى ننتهى إلى غير غاية .

وضربنا قديماً هذا المثل وقلنا : إن هناك نقطة فى منتصف كل دائرة تسمى مركز الدائرة ، فإذا ما انحرف المتجه إليها بنسبة واحد على الألف من الملليمتر فتتسع مسافة ابتعاده عنها كلما سار على نسبة الانحراف نفسها ، برغم أنه يفترض فى أن كل خطوة يخطوها تهيىء له القرب إلى الغاية .

لقد ضربنا مثلاً توضيحياً بـ «الكشك» الذى يوجد قبل محطات السكك الحديدية ، حيث ينظم عامل « الكشك » اتجاهات القطارات على القضبان المختلفة ويتيح لكل قطار أن يتوقف عند رصيف معين حتى لا تتصادم القطارات ، ومن أجل إنجاح تلك المهمة نجد عامل التحويلات فى هذا « الكشك » يحرك قضيباً يكون سمكه فى بعض الأحيان عدداً من الملليمترات ، ليلتصق هذا القضيب بقضيب آخر وبذلك يسمح لعجلات القطار أن تنتقل من قضيب إلى آخر .

الضلال ـ إذن ـ أن يسلك الإنسان سبيلاً غير موصل للغاية ، وكلما خطا الإنسان خطوة فى هذا السبيل ابتعد عنها ، وهذا الابتعاد عن الغاية هو الضلال البعيد ، والإضلال من الشيطان يكون بتزيينه الشر والقبح للإنسان ليبعده عن مسالك الخير والفضيلة .

ومن بعد ذلك يأتى على لسان الشيطان ما قاله الحق فى هذه الآية : « ولأمنينهم » والأمانى هى أن ينصب الإنسان فى خياله شيئاً يستمتع به من غير أن يخطو له خطوة عمل تقربه من ذلك ، ومثال ذلك الإنسان الذى نراه جالساً ويمنى نفسه قائلا : سيكون عندى كذا . . وكذا وكذا ولا يتقدم خطوة واحدة لتحقيق ذلك .

ولذلك يقول الشاعر تسلية لنفسه :

مُنىً . . إن تكن حقاً . . تكن أحسن المنى
وإلا فقد عشنا بها زمناً رغداً

أى أنه استمتع بهذه الأمانى فى أحلام اليقظة سواء أكانت هذه الأحلام امتلاك قصر أم سيارة أم غير ذلك . وكل أمنية لا تحفز الإنسان إلى عمل يقربه منها هى أمنية كاذبة ، ولذلك يقال : « إن الأمانى بضاعة الحمقى » والشيطان يمنى الإنسان بأنه لا يوجد بعث ولا جزاء .

ومن بعد ذلك يقول الشيطان : « ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام » والبتك هو : القطع . والأنعام : هى الإبل والبقر والغنم ، أى قطع آذان الأنعام . والقرآن قال فى الأنعام :

﴿ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ﴾

(الآية ١٤٣ وجزء من الآية ١٤٤ سورة الأنعام)

لو كان الزوج يطلق على « الاثنين » لكان العدد أربعة فقط ، ويعلمنا التعبير القرآنى ويوضح لنا أن نفرق جيداً لنفهم أن معنى كلمة « زوج » ليس أبداً « اثنين » ، ولكن معناها : واحد معه غيره من نوعه أو جنسه . فيقال عن فردة الحذاء « زوج » لأن معها فردة أخرى ، ومثال آخر أيضا : كلمة « توأم » التى نظن أنها تعنى « اثنين » ، لكن المعنى الحقيقى أن التوأم هو واحد له توأم آخر ، فإذا ما أردنا التعبير عن الاثنين قلنا : « توأمان » .

وحين أورد من خطط الشيطان « ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام » فلهذا قصة . ونحن نعرف أن المنتفعين بالضلالات يصنعون لهم سلطة زمنية حتى يربطوا الناس بأشخاصهم هم . وكان المشرفون على الأصنام يقومون على خدمتها ، ولم يلحظ أحد أنه من الغباء تَقَبُّلُ فكرة أن يخدم البشر الآلهة ، فالإله هو القيوم على خلقه يرعاهم ويقوم بأسبابهم ، وكان هؤلاء الناس هم المنتفعين بخيبة الغفلة عند البشر ، وكانوا يعيشون سدنة ليأخذوا الخير ، وبطبيعة الحال فالشيطان من البشر أو الجن يجدها

وسيلة ، فيجلس فى جوف الصنم ويتكلم فيأخذ السدنة والخدم هذه المسألة لترويج الدعايات للصنم ، فيأتى الأغبياء له بالأنعام من الإبل والبقر والغنم فيذبحونها ويأكلونها . ولذلك كان السدنة دائماً وفى أغلب الحالات أهل سمنة لأنهم أهل بطنة ، والنبى صلى الله عليه وسلم قال :

(إن الله يبغض الحَبْرَ السمين)[1] .

فمثل هذا الحَبْرْ يستسهل أكل خير الناس والانتفاع به ، فهو ينتفع بضلالات الناس ، ومن ينتفع بالضلالة يرى أن حظه فى أن تستمر الضلالة ، مثله فى ذلك مثل المنتفع من تجارة المخدرات إنّه يتمنى أن يتعاطى الناس جميعهم المخدرات . . وعندما تقوم حملات لمقاومة المخدرات يغضب ويحزن .

ومثل ذلك أيضاً تاجر السوق السوداء الذى يصيبه الغمّ عندما تأتى البضائع على قدر حاجات الناس وتكفيهم . فكل فساد مستتر وراءه أناس ينتفعون به . وعندما يرى المنتفع بالفساد هبّة إصلاح يغضب ويحاول أن يجد وسيلة لاستمرار الفساد ، ولهذا كان السدنة ينفخون فى الأصنام لتصدر أصواتاً ليطلبوا من وراء ذلك مطالب من الأغبياء المصدقين لهم ، مثلهم مثل الدجالين الذين نسمع عنهم حيث يقول الواحد منهم لأهل المريض : إن على المريض عفريتاً ، والعفريت يطلب ناقة أو ذبيحة أو دما .

هكذا كان يفعل السدنة ، ويحاولون بشتى الطرق من الحيل والخدع حتى يأخذوا من الغافلين السذج الإبل والبقر والغنم . وعندما يقطع صاحب الإبل أو البقر أو الغنم أذن أى واحدة منها ، فهذا يعنى أنها منذورة للأصنام ، والأصنام بطبيعتها لا تأكل ولكن السدنة يأكلون .

وفى آية أخرى يقول فيها الحق :

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا ﴾

(من الآية ٥٩ سورة يونس)

---

(١) أخرجه الواحدى فى أسباب النزول ، وعند أبى نعيم فى الطب النبوى وعزاه أبو الليث السمرقندى فى بستانه لأبى أمامة الباهلى مرفوعا .

ويورد الحق أيضاً فى هذا الأمر :

﴿ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

فهل المحرم هو « الذكران » أو الأنثيان أو الذى اشتملت عليه أرحام الأنثيين ؟ .

لا شىء من هذه كلها محرّم ؛ فقد خلقها الله كلها رزقاً حلالاً . والنعمة نفسها تعرف وظيفتها ، ونلحظ فى الريف المصرى عندما تُختنق جاموسة أو بقرة أو خروف بالحبل . أو يصاب بأذى أو مرض فإنه ينام ويمد عنقه فيقال : « لقد طلب الحلال » ، كأن البهيمة تقول لصاحبها : الحقنى بالذبح لتستفيد من لحمى ونتعجب لأن الحمار مثلاً لا يفعل ذلك ؛ لأن لحمه غير محلل . لكن البهيمة تعرف فائدتها بالنسبة للإنسان فتمد رقبتها طالبة الذبح ، كما نعرف أنها فى أثناء حياتها تخدم الإنسان إما فى أن تحمل الأثقال ، وإمّا أن يأخذ منها الألبان أو الوبر أو الصوف أو الشعر ، ولحظة ما يدهمها ويغشاها ويصيبها خطر فهى تمد رقبتها كأنها تطلب الذبح ليستفيد الإنسان من لحمها ، فهى مسخرة للإنسان وتعرف ذلك إلهاما وتسخيراً .

ومادام الله قد جعل لنا كل هذا . . فلم نقبل تحريم غير المحرّم وتحليل غير الحلال ؟ لكن السدنة كانوا يفعلون الأعاجيب للسيطرة على الناس ، فإذا ما ولدت الناقة أربعة أبطن وجاءت بالمولود الخامس ذكرا يقول السدنة : يكفى أنها جاءت بأربعة بطون وأتت بالخامس فحلاً ذكراً ويشقون أذن الناقة ويتركونها ؛ وعندما يراها أحد ويجد أذنها مشقوقة فالعرف يقضى بألا تستخدم فى أى شىء ، لا فى الرضاعة ، ولا فى الحمل ولا يحلب لبنها ولا تمنع من المياه أو الكلأ وتسمى

« البحيرة » ويأخذها السدنة فى أى وقت ؛ لأنهم لا يريدون تخزين اللحوم ، يريدونها حية ليذبحوها فى الوقت الذى يتراءى لهم ، ولذلك قال الحق :

﴿ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ﴾

(من الآية ١٠٣ سورة المائدة)

والبحيرة ـ إذن ـ هى الناقة التى تبحر آذانها ـ أى تشق ـ فذلك يعنى أنها جاءت بأربعة أبطن تباعاً ثم جاءت بالذكر فى البطن الخامسة ويهبها صاحبها للأصنام . والبحيرة سائبة مع وجود سائبة أخرى ، وهى وإن لم تأت بأربعة أبطن ولا بالذكر فى البطن الخامسة ولكن صاحبها يقدمها نذراً أو هدية لأحد الأصنام . وتسمى « سائبة » لأن أحداً لا يقوم على شأنها ، ولكنها ترعى فى أى أرض وتشرب من أى ماء ولا أحد يأخذ من لبنها أو يركبها ، ويأخذها السدنة وقت احتياجهم للحم الطازج الغضّ . وإذا ولدت الشاة أنثى جعلوها لهم ، وإن ولدت ذكرا جعلوه لآلهتهم ، وإن ولدت ذكرا وأنثى لم يذبحوا الذكر لآلهتهم وقالوا عن الشاة : وصلت أخاها فهذه هى الوصيلة ؛ لأن الناس كانت تحتفظ بالإناث من البهائم فهى وعاء النسل ؛ لذلك فهبة الفحل للسدنة كان أمراً مقدوراً عليه . ويقول الشاعر :

وإنما أمهات القوم أوعية مستحدثات وللأحساب آباء

ونرى فى المزارع أن إناث المواشى تحتاج إلى فحل واحد ؛ وقد يكون فى البلدة كلها فحل واحد أو اثنان لإناث الماشية من النوع نفسه ، ويفرح الأطفال فى الريف حين تلد الماشية ذكراً ؛ لأنه سيتغذى قليلاً ثم يتم ذبحه ويأكلون منه . ويغضب الأطفال حين تلد الماشية أنثى لأنه سيتم تربيتها ، ولن يأكلوا منها .

أى أنهم قديماً عندما كانت الماشية تلد فى بطن واحد أنثى وذكراً لا يذبحون الذكر ويقولون : الأنثى وصلت أخاها ويضمن الذكر حياته ويستخدم كفحل ليلقح بقية الإناث ، ويقال عنها : الوصيلة .

هكذا نجد البحيرة هى الناقة التى أنجبت خمسة أبطن آخرها ذكر ، والسائبة وهى النذر من أول الأمر ، والوصيلة وهى التى ولدت أنثى ومعها ذكر ، فيقال وصلت الأنثى أخاها ، أى قدمت له الحماية . والحام هو الذكر الذى نتجت من صلبه عشرة

أبطن فلا يركب ولا يحمل عليه ، ولا يمنع من ماء ولا مرعى وقالوا : حمى ظهره .

وهناك من يتحذلق فى عصرنا قائلاً : أنا نباتى ، لا آكل اللحم ، على الرغم من أن الواحد منهم قد يذبح إنساناً ويدعى الحزن عند ذبح دجاجة ، ونقول لهؤلاء : انتبهوا ؛ إن الله قد سخر لنا هذه الأنعام وهى نفسها تحب أن ينتفع بها .

ومن وسائل الشيطان ما يقوله الحق : « ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام » وعرفنا أنهم كانوا يفعلون ذلك من أجل إرضاء سدنة الأصنام ، هؤلاء السدنة الذين أحبوا أن تظل هذه الأصنام وهذه الأنعام المرصودة من أجلها . ولذلك أقول دائماً : آه من أن يرتبط رجل دين بمسائل دنيا ؛ فهذا مصدر للخوف من أن يزيف الدين لمصلحة الأهواء .

ومن وسائل الشيطان ما يقوله الحق على لسان الشيطان : « ولآمرنهم فليغيرن خلق الله » . وكشف لنا الحق كيف صار للشيطان أمر على هؤلاء الناس ، مع أن الأمر يجب أن يكون لله وحده ، ونتساءل : كيف يغيرون من خلق الله ؟ وكل شيء هو من خلق الله .

والخلق ـ كما نعلم ـ إيجاد من عَدم ، وسبحانه خلق كل شيء وجعل لكل كائنٍ وظيفة ما ، فهو خلق عن حكمة لغاية ، وهذه الغاية موجودة فى علم الخالق أزلاً ـ ولله المثل الأعلى ـ نجد المستحدَث الصناعى فى الأسواق كغسالة الملابس مثلا ونعرف أن الذى صممها إنما صممها من أجل راحة الناس ، وقد فكر فى هذا الهدف قبل أن يصنع ويصمم الآلة التى تؤدى هذا العمل لتريح الناس من تعب غسل الملابس بأيديهم ، وكذلك من صمم « الميكرفون » أراد فى البداية هدفاً هو أن يصل الصوت لمن هو بعيد ، ثم بدأ البحوث والتطبيقات من أجل أن يصل إلى الغاية والقصد .

والحق سبحانه وتعالى خلق كل خلق من خلقه لغاية ، فإن استعملنا مخلوقه لغايته ، فلن نقع فى محظور تغيير خلق الله ، ولكن لو استعملنا المخلوق لغير الغاية فهذا هو التغيير لخلق الله ، وساعة نريد فهم لفظ من الألفاظ فلنبحث فى القرآن عن

نظائره ، وقد نجد فى القرآن نفسه ما يفسر القرآن نفسه ، فالحق يقول هنا : « فليغيرن خلق الله » ، وفى موقع آخر يقول :

﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ﴾

(من الآية ٥٤ سورة الأعراف)

والخلق المعروف نراه فى الكائنات ، وهناك ما لا نراه أيضاً ، والأمر مقصود به قوله الحق :

﴿ كُن فَيَكُونُ ﴾

(من الآية ٨٢ سورة يس)

وآية أخرى تقربنا أكثر من هذا الموضوع :

﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة الروم)

وهذا يعنى أن الخلق كله على أصل الفطرة . فإذا ما حاول أحد أن يغير الفطرة فهذا تغيير لخلق الله . ما الفطرة إذن ؟ . إنها الصفاء الأولىّ فى النفس والطبيعة . ومثال ذلك حين يوجد الإنسان فى بيئة لا تكذب فلن يعرف فى حياته الكذب . وعندما يوجد الإنسان فى بيئة لا تسرق فلن يعرف ما السرقة ؛ فالإنسان إنما يتعرف على الموبقات من النقص المجتمعى ، بدليل أن البلدان التى طبقت الشريعة الإسلامية وتم قطع عدد قليلٍ من الأيدى عقوبة وحداً فى السرقة انتهت فيها السرقة . ونشأ جيل لم ير سارقاً . ومن يترك شيئا فى مكان ما يظل فى مكانه إلى أن يعود صاحبه ليجده ، هذه هى الفطرة السليمة ، ودليلنا على أن الفطرة سليمة بطبيعتها هو أننا نجد أن الذى يحاول صنع أمر ما يخالف الفطرة إنما يتلصص ويستتر ؛ لأنه يعرف أن هذا الأمر غير سليم .

لقد ضربت المثل على ذلك بالرجل حين ينظر إلى زوجته ، إنّه ينظر بكل ملكاته ، أما إن نظر ـ والعياذ بالله ـ إلى محارم غيره فهو يتلصص ليختلس النظر بعيداً عن الآخرين . فالإنسان حين يرتكب إثماً يتكلف شيئاً متنافراً ومغايراً لطبيعته . والتكلف هو الإتيان بشىء خارج عن الفطرة الإنسانية . وتغيير كل ما يتعلق بالفطرة هو تغيير لخلق الله .

وصور الفساد لا تأتى إلا من هذه الناحية .

كيف ؟ .

إننا نرى الحق قد خلق الزوجين الذكر والأنثى . ونجد من الرجال من يستأنث ـ أى أنه يحاول أن يكون أنثى ـ وقد يتصرف كما تسلك المرأة وتتصرف ويتزين بزينتها ويتخنث ، هذا إنسان يريد أن يغير خلق الله . وكذلك قد نجد امرأة تريد أن تسترجل ، فهى تريد أن تغير خلق الله .

ولذلك. فإننا نرى أستاذاً عالماً هو الدكتور حسن جاد ـ أمده الله بالعافية ـ وهو شاعر وزميل لى ونشأنا معاً ، رأى هذه الظاهرة ، ظاهرة محاولة البعض تغيير خلق الله فقال قصيدة مشهورة جاء فيها :

من حيرتى من الذين اللاتى حرت بين الفتى وبين الفتاة

الشاعر يعلن حيرته ؛ لأنه لا يتعرف على الفارق بين الفتى والفتاة ، ففى بعض الأحيان صارا من « الذين واللاتى معاً » لأن الفتى يتشبّه بالفتاة ، والفتاة تتشبّه بالفتى . على الرغم من احتفاظ كل منهما بخصائص نوعه ، وبما يميزه عن النوع الآخر . وبعض النساء يقمن بإجراءات لتغيير الخلقة ، كنزع شعر الحواجب من منابته وإعادة رسم مكانه بوضع خط بالقلم الملون ، ويفضح ذلك نبتُ الشعر من جديد ، فتتحول إلى شكل قبيح وتنسى أن الجمال إبداع تقاسيم ، فقد يكون سرّ جمال واحدة أن يكون شعر الحاجبين كثيفا ، وقد يكون سرّ الجمال للمرأة اتساع الفم ، أو طول الأنف .

لقد سمعنا أن أنف كليوباترا لو كان قصيراً بعض الشيء لتغير وجه التاريخ . والحق سبحانه وتعالى كما وزع الأمزجة على العباد وزع أيضاً أسلوب الخلق بما يغطى هذه الأمزجة . ألا ترى فى الحياة اليومية شاباً يتقدم لخطبة فتاة فلا تعجبه ، أو لا يعجبها ، ويأتى آخر فيعجب بالفتاة نفسها وتعجب الفتاة به . هو سبحانه الذى أنشأ السيال العاطفى ليتواءم الخلق بهذا السيال . وقد تحاول فتاة أن تغير من خلق الله فتسبب بذلك فساداً للسيال العاطفى .

وقد تريد المرأة أن تجعل حمرة خديها فى لون الورد فتضع عليهما بعضاً من

المساحيق ، ألا تعلم هذه المرأة أن زوجها وأقاربها يعرفون أنها قد صنعت ذلك بمواد خارجية ، وماذا يكون موقفها عندما يراها زوجها فى الصباح وقد أفسدت الألوان بشرتها ، وماذا يكون موقفها عندما تتقدم بها السن وتكون المساحيق قد خنقت مسام جلدها ومنعت الجلد من التنفس ، ويتحول شكلها باستمرار سوء فعلها إلى كائن أقرب إلى وجه القرد والعياذ بالله ؟ لقد غيرت بسوء الفعل خلق الله .

وكذلك الأظافر التى يتم خنقها بطبقات من « البلاستيك » الملون . هل تظن واحدة أن هناك رجلاً قد يتصور أن هذا هو لون أظافرها الطبيعى ؟ . إن الأظافر ذات لون أراده الله بحكمه ، لها نظام ، فلماذا تحرم المرأة أظافرها من الحياة الطبيعية ومن نعمة تنفس الهواء ، فالأظافر تتنفس أيضا . وقد يفتى واحد بأنه يصح للمرأة أن تتوضأ بعد أن تضع هذا الطلاء ، وأقول : اتق الله ؛ فهذه ليست أصباغاً ، لأن الأصباغ تتخلل الجلد أو الظفر ولا يذهب لون الصبغة إلا بذهاب الجلد أو الظفر ـ مثل الحنة ـ وفى هذه الحالة يصل الماء فى الطهارة إلى الجلد ، أما طبقة البلاستيك التى على الظفر فلا تُزال إلا بمادة كيماوية ويمكن إزالتها وهى لون من الطلاء وليست صبغة ولا يصل الماء معها فى الغسل أو الوضوء إلى البشرة .

ومن تفعل ذلك إنما تخدع نفسها ومن يُعجب بها . ولنا أن نعرف أن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يعدل من مزاج الكون فيعطى للإنسان سكناً ومتعة ولكن بتوازن عاطفى وعقلى ، فلو أراد الله لخدّ المرأة التوهج لتثير غرائز الرجل لخلق الله الخدين على هذا الأسلوب ، لكنه أراد للخدود أن تكون بألوانها الطبيعية حتى تهيج الغرائز على قدر القوة التى فى الرجل ، وعندما تكبر المرأة نجد جمالها قد ذبل قليلاً على قدر نسبة ذبول قدرة الرجل ، فسبحانه يعطى على قدر الطاقة حتى لا تتحول المسألة إلى إهاجة للغرائز فقط .

إن هناك فرقا بين تصريف الغرائز وإهاجة الغرائز وإلهابها ، وما يحدث من وسائل التجميل هو تغيير لخلق الله . وكذلك المرأة التى تحدث وشماً[1] ، أو الرجل الذى يفعل ذلك إنما يغيران من خلق الله ، ولو كان الحق يرى أن مثل هذه الأعمال تزيد من الجمال لفعلها « فليغيرن خلق الله » .

---

(١) الوشم : ما يكون من غرز الإبرة فى البدن ، وذرّ ونثر مادة عليه تستخرج من نبات النيل تسمى : « النِّيلَج » حتى يَزْرَقَّ أثره أو يخضرّ .

ويقول الحق من بعد ذلك : « ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله فقد خسر خسرانا مبيناً » والولى للشيطان هو الذى يليه ويقرب منه . ومن فعل ذلك فقد ترك الأفضل وذهب إلى الأضعف الذى يورده مهاوى وموارد الهلاك ، ويخسر الخسران الواضح والمحيط من كل الجهات ، ولا انفلات من مثل هذا الخسران .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ ﴾

وهذا يعنى أن الشيطان يقدم الوعود الكاذبة لمواليه ويخبرهم بشىء يسرهم ، فالوعد هو أن يخبر أحد آخر بشىء يسرّه أن يوجد .

والمثال على ذلك نراه فى الحياة العادية فالإنسان منا يحب ماله الذى قد جاء بالتعب ، والصدقة فى ظاهر الأمر تنقص المال ، فيقول الحق :

﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ ﴾

(من الآية ٢٦٨ سورة البقرة)

لماذا ؟ .

لأن الشيطان يوسوس فى صدر صاحب المال قائلاً : إنك عندما تتصدق ببعض المال فمالك ينقص . وويل لمن يرضخ لوساوس الشيطان ؛ لأنه يورده موارد التهلكة ، والشيطان أيضاً يقدم الأمانى الكاذبة فى الوساوس : « ويمنيهم » . ومثال ذلك ما جاء على لسان المتفاخر على أخيه بلون من الاستهزاء والعياذ بالله :

﴿ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ ﴾

(سورة الكهف)

المتفاخر يقول : مادام الله قد أعطانى فى الدنيا ، ومادامت مهمة الله هى العطاء الدائم فلا بد أن يعطينى ربى فى الآخرة أضعاف ما فى الدنيا ؛ ذلك أن سعيد الدنيا هو سعيد فى الآخرة ، فماذا كان جزاؤه ؟.

لقد رأى انهيار زراعته وعرف سوء مصير الغرور ؛ لأنه استجاب لوعود الشيطان ، ووعود الشيطان ليست إلا غروراً « وما يعدهم الشيطان إلا غرورا » .

فما هو الغرور ؟. هناك « غُرور » ـ بضم الغين ـ ، و« غَرور » ـ بفتح الغين ـ . والغُرور ـ بضم الغين ـ هو الشيء يُصوَّر لك على أنّه حقيقة وهو فى الواقع وَهْم . والغَرور ـ بفتح الغين ـ هو من يفعل هذه العملية ، ولذلك فالغَرور ـ بفتح الغين ـ هو الشيطان ؛ لأنه يزين للإنسان الأمر الوهمى ، ويؤثر مثلما يؤثر السراب ؛ فالإنسان حين يرى انكسار الأشعة يخيل إليه أنه يرى ماء ، ويقول الحق عن ذلك :

﴿ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا ﴾

(من الآية ٣٩ سورة النور)

وكذلك الغُرور ، حيث يزين الشيطان شيئاً للإنسان ويوهمه أنه سيستمتع به . فإذا ما ذهب الإنسان إليه فلن يجد له حقيقة ، بل العكس ، ولذلك يفصل لنا الحق أعمال الكفار فيقول عنها :

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَـٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ ﴾

(سورة النور)

ويفاجأ الكافر بوجود الله الذى كان كافراً به ، ويصير أمام نكبتين : نكبة أنه كان ذاهباً إلى ماء فلا يجده فيخيب أمله ، والنكبة الثانية أن يجد الله الذى يحاسبه على الإنكار والكفر .

ويقول الحق :

﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ ﴾

(سورة الفرقان)

وقد يأتى واحد ويدعى لنفسه الإنسانية ويظن أنه يتكلم بالمنطق فيقول :

ـ هل هؤلاء الناس الذين قدموا للبشرية كل هذه المخترعات التى أفادت الناس كالمواصلات وغيرها ، أيصيرون إلى عذاب ؟. ونقول : هؤلاء سيأخذون جزاء الكفر ؛ لأن الواحد منهم قد عمل أعماله وليس فى باله الله . بل قام بتلك الأعمال وفى باله عبقرية الابتكار والإنسانية وهو يأخذ من الإنسانية التكريم ، وعليه أن يطلب أجره ممن عمل له وليس ممن لم يعمل له ، وينطبق عليه قول الرسول :

عن أبى هريرة قال : سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم يقول : (إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتى به فعرّفه نعمه فعرفها قال : فما عملت فيها ؟ قال : قاتلت فيك حتى استشهدت . قال : كذبت ولكنّك قاتلت لأن يقال جرىء فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار ، ورجل تعلم العلم وعلمه ، وقرأ القرآن فأتى به فَعّرفه نعمه فعرفها قال : فما عملت فيها ؟ قال : تعلمت العلم وعَلّمته ، وقرأت فيك القرآن . قال : كذبت ، ولكنك تعلمت العلم ليقال عالم ، وقرأت القرآن ليقال هو قارىء فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار ، ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله فأتى به فعّرفه نعمه فعرفها قال فما عملت فيها ؟ قال : ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلّا أنفقت فيها لك . قال : كذبت ولكنك فعلت ليقال هو جواد فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه ثم ألقى فى النار)[1] .

ولم يغمطهم الله جزاء أعمالهم فى الدنيا . فقد أخذوا من الدنيا كل التكريم .

ووزع سبحانه فضل هذه المواهب على الناس الذين فى بالهم الله ؛ لذلك ترى المسلم غير المتعلم يركب الطائرة ليحج بيت الله ويُسجل أحاديث الإيمان على شرائط ليسمعها من لم يحضر ويشاهد هذه الشعيرة ، إذن فهؤلاء الكافرون مسخرون للمؤمنين لأنهم أتاحوا لهم الانتفاع بعلمهم واكتشافاتهم ، والمؤمنون أيضاً مطالبون بأن يأخذوا بأسباب الله لينالوا كرم الله فى عطاء العلم ، بل إن ذلك واجب عليهم يأثمون إذا لم يقوموا به حتى لا يكونوا عالة على سواهم ، فلا يستذلون .

---

(١) أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه فى الجهاد . وأخرجه كذلك النسائى والترمذى وابن ماجه .

« وما يعدهم الشيطان إلا غرورا » وماذا يكون نصيب هؤلاء فى الآخرة ؟ يقول سبحانه :

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾ ﴾

وكلمة « مأوى » معناها المكان الذى يضطر الإنسان إلى أن يأوى إليه ، فهل هذا الاضطرار يكون اندفاعاً أو جذباً ؟ سبحانه يقول عن النار إنها ستنطق قائلة :

﴿ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة ق)

كأن النار ستجذب أصحابها . وهم لن يجدوا عنها محيصاً ، أى لا مهرب ولا مفر ولا معدى ، وكان باستطاعة الواحد منهم أن يفر من مخلوق مثله فى دنيا الأغيار ، ولكن حين يكون الأمر لله وحده فلا مفر .

﴿ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾

(من الآية ١٦ سورة غافر)

والمقابل لذلك يورده الحق :

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾ ﴾

وحين يأتى سبحانه بأمر يتعلق بالكفار وعقابهم فالنفوس مهيأة ومستعدة لتسمع عن المقابل ، فإذا كان جزاء الكفار ينفر الإنسان من أن يكون منهم ، فالنفس السامعة تنجذب إلى المقابل وهو الحديث عن جزاء المؤمنين أصحاب العمل الصالح . وسبحانه قال من قبل :

﴿ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾

(من الآية ١١٤ سورة النساء)

وهنا يقول : « سندخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار » . والمتيقن من الله والواثق به يعلم أنه لا توجد مسافة تبعده عن عطاء الله ، مثال ذلك حينما سأل النبىُّ أحد الصحابة وكان اسمه الحارث بن مالك الأنصارى : (كيف أصبحت يا حارث ؟) .

قال : أصبحت مؤمنا حقاً . لقد أجاب الصحابى بكلمة كبيرةالمعانى وهى الإيمان حقاً ؛ لذلك قال الرسول : انظر ما تقول فإن لكل شىء حقيقة فما حقيقة إيمانك » ؟

أجاب الصحابى : عزفت نفسى عن الدنيا فأسهرت لذلك ليلى وأظمأت نهارى ، وكأنى أنظر إلى عرش ربىّ بارزا وكأنى أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون وكأنى أنظر إلى أهل النار يتضاغون فيها (يتصايحون فيها) .

فقال : « يا حارث : عرفت فالزم ثلاثا »[1] .

والحق ساعة يقول : « سـ » وساعة يقول : « سوف » فلكل حرف من الحروف الداخلة على الفعل ملحظ ومغزى وكل عطاء من الله جميل . « والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار » .

والجنة ـ كما قلنا من قبل ـ على إطلاقها تنصرف إلى جنة الآخرة فهى الجنة بحق ، أما جنة الدنيا فمن الممكن أن يتصوّحَ نباتها وشجرها ويبس ويتناثر ، أو يصيبها الجدب ، أمّا جنة الآخرة فهى ذات الأكل الدائم ، وإن لم تطلق كلمة « الجنة » من

١ ـ رواه الطبرانى فى الكبير وأبو نعيم فى الحلية . وضعفه الدارقطنى وابن حبان .

أى قيد أو وصف بل قيدت ، فالقصد منها معنى آخر ؛ كقول الحق :

﴿ إِنَّا بَلَوْنَـٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة القلم)

وقوله سبحانه :

﴿ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ ﴾

(من الآية ٢٦٥ سورة البقرة)

والجنة بربوة هى البستان على مكان عال ، وهى ذات مواصفات أعلى مما وصل إليه العلم الحديث ؛ لأن الأرض إذا كانت عالية لا تستطيع المياه الجوفية أن تفسد جذور النبات المزروع فى هذه الأرض ، فيظل النبات أخضر اللون ، ويقول الحق عن مثل هذه الجنة :

﴿ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ ﴾

(من الآية ٢٦٥ سورة البقرة)

ويزيد على ذلك أنها بربوة ، وأنها تروى بالمطر من أعلى ، ومن الطل ، فتأخذالرّى من المطر للجذور،والطل لغسل الأوراق . كل ذلك يطلق على الجنة .

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى : « جنات تجرى من تحتها الأنهار » ويطمئننا سبحانه على احتفاظها بنضرتها وخضرتها ، وأول شىء يمنع الخضرة هو أن يقل الماء فتذبل الخضرة .

ونجد القرآن مرة يقول : « جنات تجرى تحتها الأنهار » وهذا يعنى أن منبع المياه بعيد . ومرة أخرى يقول : « جنات تجرى من تحتها الأنهار » ويعنى أن منبع المياه لن يحجزه أحد ؛ لأن الأنهار تجرى وتنبع من تحتها . ويعد الحق المؤمنين أصحاب العمل الصالح بالخلود فى الجنة ، والخلود هو المكث طويلاً ، فإذا قال الحق : « خالدين فيها أبداً » أى أن المكث فى الجنة ينتقل من المكث طويلاً إلى المكث الدائم .

وهذا وعد مَن ؟ « وعد الله حقاً ومن أصدق من الله قيلاً » . وحين يعدك من

لا يخرجه شيء عن إنفاذ وعده ، فهذا هو وعد الحق ـ سبحانه ـ . أما وعد المساوى لك فى البشرية فقد لا يتحقق ، لعله ساعة إنفاذ الوعد يغير رأيه ، أو لا يجد الوُجد واليسار والسَّعة والغنى فلا يستطيع أن يوفى بما وعد به ، أو قد يتغير قلبه من ناحيتك ، لكن الله سبحانه وتعالى لا تتناوله الأغيار ، ولا يعجزه شيء ، وليس معه إله آخر يقول له لا . إن وعده سبحانه لا رجوع فيه ولا محيص عن تحقيقه .

قول الله هنا « وعد الله حقاً ومن أصدق من الله قيلا » هو كلام منه ليوضح لكل واحد منا : أنا لا أريد أن أستفهم منك ، لكنه جاء على صورة الاستفهام لتكون الإجابة من الخلق إقرارا منهم بصدق ما يقوله الله ، أيوجد أصدق من الله ؟

وتكون الإجابة : لا يمكن ، حاشا لله ؛ لأن الكذب إنما يأتى من الكذاب ليحقق لنفسه أمراً لم يكن الصدق ليحققه ، أو لخوف ممن يكذب عنده ، والله منزه عن ذلك ، فإذا قال قولاً فهو صدق .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ ﴾

والأمنية ـ كما عرفنا ـ هى أن يطمح الإنسان إلى شيء ممتع مسعد بدون رصيد من عمل ، إنَّ الحق سبحانه وتعالى حينما استخلف الإنسان فى الأرض طلب منه أن يستقبل كل شيء صالح فى الوجود استقبال المحافظ عليه ، فلا يفسد الصالح بالفعل ، وإن أراد الإنسان طموحاً إلى ما يسعد ، فعليه أن يزيد الصالح صلاحاً .

والمثل الذى نضربه لذلك ، عندما يوجد بئر يشرب منها الناس ، فهذه البئر لها

حواف وجوانب وأطراف ، وتفسد البئر إذا جاء أحد لهذه الحوافى وأزاح ما فيها من الأتربة ليطمر البئر .

ومن يرد استمرار صلاح البئر فهو يتركها كما هى وبذلك يترك الصالح على صلاحه . وإن شاء إنسان أن يطمح إلى عمل مسعد ممتع له ولغيره فهو يعمل ليزيد الصالح صلاحاً . . كأن يأتى إلى جوانب البئر ويبنى حولها جداراً من الطوب كى لا يتسلل التراب إلى الماء أو على الأقل يصنع غطاءً للبئر ، فإن طمح الإنسان أكثر فهو يفكر فى راحة الناس ويحاول أن يوفر عليهم الذهاب إلى البئر ليملأوا جِرارهم وقِرَبهم فيفكر فى رفع المياه بمضخة ماصة كابسة إلى صهريج عال ، ثم يخرج من هذا الصهريج الأنابيب لتصل إلى البيوت ، فيأخذ كل واحد المياه وهو مرتاح ، إنه بذلك يزيد الصالح صلاحاً .

أما إن أراد الإنسان أن يطمح إلى ممتع دون عمل . . فهذه هى الأمانى الكاذبة . ولو ظل إنسان يحلم بالأمنيات ولا ينفذها بخطة من عمل . . فهذه هى الأمانى التى لا ثمرة لها سوى الخيبة والتخلف .

إذن فالأمنية هى أن يطمح إنسان إلى أمر ممتع مسعد بدون رصيد من عمل . ونعلم أن الحق سبحانه وتعالى أعطانا من كل شىء سببا ، ولنلحظ أن الحق قد قال :

﴿ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ ﴾

(سورة الكهف)

أى أن الإنسان مطالب بأن يصنع أشياء تُرَقِّى أساليب الحياة فى الأرض ، فالله ضمن للإنسان الخليفة مقومات الحياة الضرورية ، وعندما يريد الإنسان الترف والتنعم فلا بد أن يكدح . ومثال ذلك : لقد أعطى الحق الإنسان المطر فينزل الماء من السماء ، وينزل ماء المطر فى مجارٍ محددة ، حفرها المطر لنفسه ، وقد يكون فى كل مجرى تراب من صخور أو طمى ؛ لذلك يقوم الإنسان بترويق المياه ، ويرفعها فى صهاريج لتأتيه إلى المنزل ، وبدلاً من أن يشربها بيده من النهر مباشرة ، يصنع كوباً جميلا . وصنع الإنسانُ الكوبَ فى البداية من الفخار ، ثم من مواد مختلفة كالنحاس ثم البللور . وهكذا نجد أن كل ترف يحتاج إلى عمل يوصل إليه ، فليست المسألة بالأمانى .

وكذلك الانتساب إلى الدين ، ليست المسألة أن يمتثل الإنسان وينتسب إلى الدين شكلاً ، فالرسول صلى الله عليه وسلم جاء ليحكم بين الناس جميعاً ، ولا يمكن لواحد أن ينتسب شكلاً إلى الإسلام ليأخذ المميزات ويتميز بها عن بقية خلق الله من الديانات الأخرى ، لا ؛ فالإنسان محكوم بما يدين به . والمسلم أول محكوم بما دان به .

كذلك قال الحق : « ليس بأمانيكم » والخطاب هنا لمن ؟. إن كان الخطاب للمؤمنين فالحق يوضح لهم : يا أيها المؤمنون ليست المسألة مسألة أمانى ، ولكنها مسألة عمل ؛ لأن انتسابكم للإسلام لا يعفيكم من العمل ؛ فكم من أناس يعبرون الدنيا وتنقضى حياتهم فيها ولا يصنعون حسنة ، فإذا قيل لهم : ولماذا تعيشون الحياة بلا عمل ؟ يقولون : أحسنّا الظن بالله . ونسمع الحسن البصرى يقول لهؤلاء : ليس الإيمان بالتمنى ولكن ما وقر فى القلب وصدقه العمل ، إن قوماً ألهتهم أمانىّ المغفرة حتى خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم وقالوا : نحسن الظن بالله وكذبوا ، لو أحسنوا الظن بالله لأحسنوا العمل له .

وسبحانه يقول لهؤلاء : « ليس بأمانيكم » . أما إن كان الخطاب موجهاً لغير المؤمنين ؛ فالحق لم يمنع عطاء الدنيا لمن أخذ بالأسباب حتى ولو لم يؤمن . أما جزاء الآخرة فهو وعد منه سبحانه للمؤمنين الذين عملوا صالحاً ، وهو الوعد الحق بالجنة ، هذا الوعد الحق ليس بالأمانى بل إن الوصول إلى هذا الوعد يكون بالعمل .

إذن فقد يصح أن يكون الخطاب بـ « ليس بأمانيكم » شاملاً أيضا الكفار والمنافقين وأهل الكتاب . وكان للكفار بعض من الأمانى كقول المنكر للبعث :

﴿ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ ﴾

(سورة الكهف)

هذه هى أمانى الكفار . ولن يتحقق هذا الوعد بالجنة لأهل الكتاب ، فقد قال الحق عن أمانيهم :

﴿ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ﴾

(من الآية ١١١ سورة البقرة)

وقالوا :

﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾

(من الآية ٨٠ سورة البقرة)

كل هذه أمانى خادعة ؛ لأن منهج الله واحد على الناس أجمعين ، من انتسب للإسلام الذى جاء خاتماً فليعمل ؛ لأن القضية الواضحة التى يحكم بها الله خلقه هى قوله سبحانه : « من يعمل سوءاً يُجز به ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً » .

وأبو هريرة رضى الله عنه يقول : لما نزلت هذه الآية شق ذلك على المسلمين فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : « سدّدوا وقاربوا فإن فى كل ما يصاب به المسلم كفارة حتى الشوكة يشاكها والنكبة ينكبها »[1] .

وقال بعض العلماء : المراد بالسوء فى هذه الآية هو الشرك بالله ؛ لأن الله وعد أن يغفر بعض الذنوب . واستند فى ذلك إلى قوله الحق :

﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ﴾

(من الآية ٣٦ سورة فاطر)

كأن الجزاء المؤلم يكون للكفار ، أما الذين آمنوا ، فالإيمان يرفعهم إلى شرف المنزلة ليقبل الله توبتهم ويغفر لهم ، فسبحانه الحق جعل الصلاة إلى الصلاة كفارة لما بينهما ، وجعل صلاة الجمعة إلى صلاة الجمعة كفارة لما بينهما ، وجعل الحج كفارة لما سبقه ، وكل ذلك امتيازات إيمانية . أما جزاء الكفار فهو : « من يعمل سوءاً يُجز به ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً » .

ولا يقال فلان لا يجد إلا إذا بحث هذا الشخص عن شىء فلم يجده ، فالإنسان بذاته لا يستغنى ، ولكن من يعمل سوءا فليبحث لنفسه عن ولى أو نصير ولن يجد .

والولى هو الذى يلى الإنسان ، أى يقرب منه ، ومثلها النصير والمعاون ، ولا يلى

---

١ ـ رواه مسلم وأحمد والترمذى والنسائى من حديث سفيان بن عيينة .

الإنسان ولا يقرب منه إلا من أحبه . ومادام قد أحب قوىٌّ ضعيفاً ، فهو قادر على الدفاع عنه ومعاونته .

ولماذا أورد الحق هنا « الولى » ، و« النصير » ؟ . والولى ـ كما عرفنا ـ هو القريب الذى يلى الإنسان ، أما كلمة « نصير » فتوحى أن هناك معارك وخصومة بين المؤمن وغيره ، وهناك قوة كبرى قد يظهر للإنسان أنها لا تسأل عنه لأنه فى سلام ورخاء ، إن هذه القوة عندما تعلم أن هناك خصوماً للمؤمن تأتى لنصرته ، بينما لا يجد الكافر ولياً أو نصيراً ، ولن يجد من يقرب منه ولن يجد من ينصره إن عضته الأحداث ، وعض الأحداث هو الذى يجعل الناس تتعاطف مع المصاب حتى إن البعيد عن الإنسان يفزع إليه لينصره ، لكن أحداً لا ينصر على الله .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ ﴾

وجاءت كلمتا « ذكر » و« أنثى » هنا حتى لا يفهم أحد أن مجىء الفعل بصيغة التذكير فى قوله (يعمل) أن المرأة معفية منه ؛ لأن المرأة فى كثير من الأحكام نجد حكمها مطموراً فى مسألة الرجل ، وفى ذلك إيحاء بأن أمرها مبنى على الستر .

لكن الأشياء التى تحتاج إلى النص فيها فسبحانه ينص عليها . « ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى » . وجاء سبحانه هنا بلفظة (مِن) التى تدل على التبعيض . . أى على جزءٍ من كلّ فيقول : « ومن يعمل من الصالحات » ولم يقل: « ومن يعمل الصالحات » لأنه يعلم خلقه . فلا يوجد إنسان يعمل كل الصالحات ، هناك من يحاول عمل بعضٍ من الصالحات حسب قدرته . والمطلوب من المؤمن أن يعمل من الصالحات على قدر إمكاناته ومواهبه .

وتبدأ الأعمال الصالحة من أن يترك الإنسان الأمور الصالحة على صلاحها ، فإبقاء الصالح على صلاحه معناه أن المؤمن لن يعمل الفساد ، هذه هى أول مرتبة ، ومن بعد ذلك يترقى الإنسان فى الأعمال الصالحة التى تتفق مع خلافته فى الأرض ، وكل عمل تصلح به خلافة الإنسان فى الأرض هو عمل صالح ؛ فالذى يرصف طريقاً حتى يستريح الناس من التعب عمل صالح ، وتهيئة المواصلات للبشر حتى يصلوا إلى غايتهم عمل صالح ، ومن يعمل على ألا ينشغل بال البشر بأشياء من ضروريات الحياة فهذا عمل صالح .

كل ما يعين على حركة الحياة هو عمل صالح . وقد يصنع الإنسان الأعمال الصالحة وليس فى باله إله كعلماء الدول المتقدمة غير المؤمنة بإله واحد . كذلك العلماء الملاحدة قد يصنعون أعمالاً صالحة للإنسان ، كرصف طرق وصناعة بعض الآلات التى ينتفع بها الناس ، وقاموا بها للطموح الكشفى ، والواحد من تلك الفئة يريد أن يثبت أنه اخترع واكتشف وخدم الإنسانية ونطبق عليه أنه عمل صالحاً ، لكنه غير مؤمن ، لذلك سيأخذ هؤلاء العلماء جزاءهم من الإنسانية التى عملوا لها ، وليس لهم جزاء عند الله .

أما من يعمل الصالحات وهو مؤمن فله جزاء واضح هو :

﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ ﴾

(سورة النساء)

قد يقول البعض : إن عدم الظلم يشمل من عمل صالحاً أو سوءا ونجد من يقول : من يعمل السوء هو الذى يجب أن يتلقى العقاب ، وتلقيه العقاب أمر ليس فيه ظلم ، والحق هو القائل :

﴿ جَزَآءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا ﴾

(من الآية ٢٧ سورة يونس)

ومن يصنع الحسنة يأخذ عشرة أمثالها . وقد يكون الجزاء سبعمائة ضعف ويأتيه ذلك فضلا من الله ، والفضل من الله غير مقيد وهو فضل بلا حدود ، فكيف يأتى فى

هذاالمقام قوله تعالى : (ولا يظلمون نقيرا) وهم قد أعطوا أضعافاً مضاعفة من الجزاء الحسن ، ونقول : إن الفضل من الخلق غير ملزم لهم ، مثل من يستأجر عاملاً ويعطيه مائة جنيه كأجر شهرى ، وفى آخر الشهر يعطيه فوق الأجر خمسين جنيهاً أو مائة ، وفى شهر آخر لا يعطيه سوى أجره ، وهذه الزيادة إعطاؤها ومنحها فضل من صاحب العمل . أما الفضل بالنسبة لله فأمره مختلف . إنه غير محدود ولا رجوع فيه . وهذا هو معنى « ولا يظلمون نقيراً » ، فسبحانه لا يكتفى بجزاء صاحب الحسنة بحسنة ، بل يعطى جزاء الحسنة عشر أمثالها وإلى سبعمائة ضعف ، ولا يتراجع عن الفضل ؛ فالتراجع فى الفضل ـ بالنسبة لله ـ هو ظلم للعبد . ولا يقارن الفضل من الله بالفضل من البشر . فالبشر يمكن أن يتراجعوا فى الفضل أما الله فلا رجوع عنده عن الفضل .

وهو القائل :

﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾

(سورة يونس)

وأصحاب العمل الصالح مع الإيمان يدخلون الجنة مصداقاً لقوله تعالى : « فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا » والنقير هو : النقرة فى ظهره النواة ، وهى أمر ضئيل للغاية . وهناك شيء آخر يسمى « الفتيل » وهو المادة التى تشبه الخيط فى بطن نواة التمر ، وشيء ثالث يشبه الورقة ويغلف النواة واسمه « القطمير » .

وضرب الله الأمثال بهذه الأشياء القليلة لنعرف مدى فضله سبحانه وتعالى فى عطائه للمؤمنين .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ

وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾

وساعة نسمع استفهاماً مثل قوله الحق : « ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله » فحسن الاستنباط يقتضى أن نفهم أن الذى أسلم وجهه لله هو الأحسن ديناً ، وفى حديثنا اليومى نقول : ومن أكرم من زيد ؟. معنى ذلك أن القائل لا يريد أن يصرح بأن زيداً هو أكرم الناس لكنه يترك ذلك للاستنباط الحسن . ولا يقال مثل هذا على صورةالاستفهام إلا إذا كان المخبر عنه محدداً ومعيناً ، والقائل مطمئن إلى أنّ من يسمع سؤاله لن يجد جواباً إلا الأمر المحدد المعين لمسئول عنه . وكأن الناس ساعة تدير رأسها بحثاً عن جوابٍ للسؤال لن تجد إلا ما حدده السائل .

« ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله » والإجابة على مثل هذا التساؤل : لا أحد أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله . وهكذا نرى أن الله يلقى خبراً مؤكداً فى صيغة تساؤل مع أنه لو تكلم بالخبر لكان هو الصدق كله :

﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴾

(من الآية ١٢٢ سورة النساء)

وسبحانه يلقى إلينا بالسؤال ليترك لنا حرية الجواب فى الكلام ، كأنه سبحانه يقول :

ـ أنا أطرح السؤال عليك أيها الإنسان وأترك لك الإجابة فى إطار ذمتك وحكمك فقل لى من أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله ؟ وتبحث أنت عن الجواب فلا تجد أحسن ممن أسلم وجهه لله فتقول :

ـ لا أحد أحسن ممن أسلم وجهه لله . وبذلك تكون الإجابة من المخاطب إقراراً ، والأقرار ـ كما نعلم ـ سيد الأدلة .

راجع أصله وخرج أحاديثه الدكتور أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .

« ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله » ونعلم أن الكلمة إذا أطلقت فى عدة مواضع فهى لا تأخذ معنى واحداً . بل يتطلب كل موضع معنى يفرضه سياق الكلام ، فإذا قال الله تعالى :

﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾

(من الآية ١٠٦ سورة آل عمران)

فذلك لأن الوجه هو العضو المواجه الذى توجد به تميزات تبيّن وتوضح ملامح الأشخاص . لأننا لن نتعرف على واحد من كتفه أو من رجله ، بل تعرف الأشخاص من سمات الوجوه .

وعندما نسمع قول الحق :

﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾

(من الآية ٨٨ سورة القصص)

فإننا نتساءل : ما المراد بالوجه هنا ؟

إن أردنا الوجه الذى يشبه وجوهنا فهذا وقوع فى المحظور ، لأن كل شىء متعلق بالله سبحانه وتعالى نأخذه على ضوء « ليس كمثله شىء » نقول ذلك حتى لا يقولن قائل : مادام وجه الله هو الذى لن يهلك يوم القيامة فهل تهلك يده أو غير ذلك ؟ . لا ؛ إن الحق حين قال : « كل شىء هالك إلا وجهه » فالمقصود بذلك ذاته فهو سبحانه وتعالى منزه عن التشبيه وسبحانه القائل :

﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾

(من الآية ١١٥ سورة البقرة)

إذن فوجه الله ـ هنا ـ هو الجهة التى يرتضيها ، والإنسان يتجه بوجهه إلى الكعبة فى أثناء الصلاة . وإياك أن تظن أنك حينما تولى وجهك صوب الكعبة أنها وجه الله ؛ لأن الله موجود فى كل الوجود ، فأى متجه للإنسان سيجد فيه الله ، بدليل أننا نصلى حول الكعبة ، وتكون شرق واحد وغرب آخر ، وشمال ثالث ، وجنوب رابع ، فكل الجهات موجودة فى أثناء الطواف حول الكعبة وفى أثناء الصلاة ، والكعبة موجودة هكذا لنطوف حولها ، ولتكون متجهنا إلى الله فى جميع الاتجاهات .

﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾

(من الآية ١١٥ سورة البقرة)

أى الجهة التى ارتضاها سبحانه وتعالى .

ونحن هنا فى هذه الآية نرى قول الله : « ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله » . وأسلم وجهه أى أسلم اتجاهه ؛ لأن الإنسان حين يكون ذاهباً إلى قصد أو هدف أو غرض ، فيكون وجهه هو المتجه ؛ لأن الإنسان لا يسير بظهره . والوجه هنا ـ إذن ـ هو الاتجاه .

ولماذا جاء الحق بالوجه فقط ، برغم أن المؤمن يسلم مع الوجه كل الجوارح ؟ ؛ لأن الوجه أشرف الأعضاء ، ولذلك جعل سبحانه السجود أشرف موقع للعبد ؛ لأن القامة العالية والوجه الذى يحرص الإنسان على نظافته يسجد لله .

إذن أسلم وجهه لله ، أى أسلم وجهته واتجاهه لله ، ومعنى « أسلم » من الإسلام ، فـ « أسلم » تعنى : سلّم زمام أموره لواحد . وحين يسلم الإنسان زمامه إلى مساو له فهذه شهادة لهذا المساوى أنه يعرف فى هذا الأمر أفضل منه . ولا يسلم لمساو إلا إن شهد له قبل أن يلقى إليه بزمامه أنّه صاحب حكمة وعلم ودراية عنه . فإن لم يلمس الإنسان ذلك فلن يسلم له . وما أجدر الإنسان أن يسلم نفسه لمن خلقه ، أليس هذا هو أفضل الأمور ؟ .

إن الإنسان قد يسلم زمامه لإنسان آخر لأنه يظن فيه الحكمة ، ولكن أيضمن أن يبقى هذا الإنسان حكيما ؟ إنّه كإنسان هو ابن أغيار ، وقد يتغير قلبه أو أن المسألة المسلم له بها تكون مستعصية عليه ، لكن عندما أسلم زمامى لمن خلقنى فهذا منتهى الحكمة . ولذلك قلنا : إن الإسلام هو أن تسلم زمامك لمن آمنت به إلهاً قوياً وقادراً وحكيماً وعليماً وله القيومية فى كل زمان ومكان . وحين يسلم الإنسان وجهه لله فلن يصنع عملاً إلا كانت وجهته إلى الله .

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾

(من الآية ١٢٥ سورة النساء)

ولماذا جاءت كلمة « محسن » هنا ؟ وقد تكلم صلى الله عليه وسلم عن الإحسان ، ونعرف أننا آمنا بالله غيباً ، لكن عندما ندخل بالإيمان إلى مقام الإحسان ، فإننا نعبد الله كأننا نراه فإن لم نكن نراه فهو يرانا . والحوار الذى دار بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وأحد صحابته وكان اسمه الحارث فقال له : « كيف أصبحت يا حارث ؟ فقال : أصبحت مؤمنا حقا . فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : « انظر ما تقول ؛ فإن لكل شيء حقيقة فما حقيقة إيمانك ؟ » قال : عزفت نفسى عن الدنيا فأسهرت لذلك ليلى وأظمأت نهارى ، وكأنى أنظر إلى عرش ربى بارزا ، وكأنى أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها وكأنى أنظر إلى أهل النار يتضاغون فيها (يتصايحون فيها) فقال : « يا حارث عرفت فالتزم ثلاثا »[1] .

ويعرف الإنسان من أهل الصلاح أنّه فى لقاء دائم مع الله ، لذلك يضع برنامجاً لنفسه موجزه أنه يعلم أنه لا يخلو من نظر الله إليه (وهو معكم أينما كنتم) إنه يستحضر أنه لا يغيب عن الله طرفة عين فيستحيى أن يعصيه .

ويوضح الحديث ما رواه سيدنا عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ عندما سأل جبريل ـ عليه السلام ـ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقال له : فأخبرنى عن الإحسان ؟ قال : « أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك »[2] .

وعندما تتيقن أن الله ينظر إليك فكيف تعصيه ؟ أنت لا تجرؤ أن تفعل ذلك مع عبدٍ مساوٍ لك . . فكيف تفعله مع الله ؟!!

وتتجلى العظمة فى قوله الحق : « ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفاً » لماذا إذن « ملة إبراهيم » ؟ لأن القرآن يقول عن إبراهيم :

﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا ﴾

(من الآية ١٢٠ سورة النحل)

ومعنى كونه « أُمَّةً » : أنّه الجامع لكل خصال الخير التى لا تكاد تجتمع فى فرد إلا

١ ـ رواه الطبرانى فى الكبير وأبو نعيم فى الحلية . وضعّفه الدارقطنى وابن حبان .

٢ ـ من حديث طويل رواه الإمام مسلم .

إن وزعنا الخصال فى أمة بأكملها ؛ فهذا شجاع وذلك حليم والثالث عالم والرابع قوى ، وهذه الصفات الخيرة كلها لا تجتمع فى فرد واحد إلا إذا جمعناها من أمة . وأراد الحق سبحانه لإبراهيم عليه السلام أن يكون جامعاً لخير كثير فوصفه بقوله :

﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً ﴾

(من الآية ١٢٠ سورة النحل)

ويقول هنا عن ملة إبراهيم : « واتبع ملة إبراهيم حنيفاً » . والملة هى الديانة و« حنيفاً » أى « مائلا عن الباطل إلى الحق » . والمعنى اللغوى لكلمة « حنيف » أنّه هو « المائل » . وكان إبراهيم حنيفاً عن الباطل . ومتى تُرسل الرسل إلى الأقوام نعرف أن الرسل تأتى إذا طمّ الفساد وعمّ ، وحين تكون المجتمعات قادرة على إصلاح الفساد الذى فيها . . فالحق سبحانه يمهل الناس وينظرهم ، لكن إذا ما بلغ الفساد أَوْجَهُ ، فالحق يرسل رسولاً . وحين يأتى الرسول إلى قوم ينتشر فيهم الفساد ، فالرسول يميل عن الفساد ، بهذا يكون الميل عن الاعوجاج اعتدالا . « واتبع ملة إبراهيم حنيفاً » .

ويأتى الحق من بعد ذلك بالغاية الواضحة « واتخذ الله إبراهيم خليلاً » فما هى حيثيات الخُلَّة ؟ لأنه يتبع أفضل دين ، ويسلم لله وجهه ، وكان محسناً ، واتبع الملة ، وكان حنيفاً ، هذه هى حيثيات الخُلَّة . وكلها كانت صفات سيدنا إبراهيم عليه السلام .

لقد حدثونا أن جبريل عليه السلام قد جاء لسيدنا إبراهيم عندما ألقاه أهله فى النار ، فقال جبريل يا إبراهيم : ألك حاجة ؟ . فقال إبراهيم : « أما إليك فلا » ، فقال جبريل فاسأل ربك فقال : « حسبى من سؤالى علمه بحالى » فقال الله : « يا نار كونى بردا وسلاما على إبراهيم »[1] أى أنه لا يطلب من جبريل بذاته شيئاً . وتلك قمة الإسلام لله . كما أننا نعرف مدى أنس الناس بأبنائها ؛ ونعلم إن إسماعيل قد جاءه ولداً فى آخر حياته ، وأوضح له الحق أنه مبتليه ، وكان الابتلاء غاية فى الصعوبة ؛ فالابن لا يموت ؛ ولا يقتله أحد ولكن يقوم الأب بذبحه ، فكم درجة من الابتلاء مر بها إبراهيم عليه السلام ؟!

١ ـ من الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ، وذكر نحوه فى تفسير ابن كثير وفى الكشاف للزمخشرى .

وسار إبراهيم لتنفيذ أمر ربه ، ولذلك نقرأ على لسان إبراهيم عليه السلام :

﴿ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ﴾

(من الآية ١٠٢ سورة الصافات)

ويجعل الحق ذلك برؤيا فى المنام لا بالوحى المباشر . ولننظر إلى ما قاله إسماعيل عليه السلام . لم يقل : « افعل ما بدا لك يا أبى » ولكنه قال :

﴿ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾

(من الآية ١٠٢ سورة الصافات)

أى أن إسماعيل وإبراهيم أسلما معاً لأمر الله .

فماذا فعل الله ؟ :

﴿ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ ﴾

(سورة الصافات)

ولا يكتفى الحق بإعطاء إبراهيم إسماعيل ابناً ، وله فداء ، ولكن رزق الله إبراهيم بابن آخر هو إسحاق . « واتخذ الله إبراهيم خليلاً » .

وجلس العلماء ليبحثوا معنى كلمة « خليلاً » ، ويبحثوا ما فيها من صفات ، وكل الأساليب التى وردت فيها . والكلمة مأخوذة من « الخاء ولام ولام » . و« الخَل » ـ بفتح الخاء ـ هو الطريق فى الرمل ، وهو ما نسميه فى عرفنا « مدقاً » ، وعادة يكون ضيقاً ، وحينما يسير فيه اثنان فهما يتكاتفان إن كان بينهما ودّ عالٍ ، وإن لم يكن بينهما ودّ فواحد يمشى خلف الآخر . ولذلك سموا الاثنين الذين يسيران متكاتفين « خليل » فكلاهما متخلل فى الآخر أى متداخل فيه . والخليل أيضاً هو من يسد خلل

صاحبه . والخليل هو الذى يتحد ويتوافق مع صديقه فى الخِلال والصفات والأخلاق . أو هو من يتخلل إليه الإنسان فى مساتره ، ويتخلل هو أيضاً فى مساتر الإنسان . والإنسان قد يستقبل واحداً من أصحابه فى أى مكان سواء فى الصالون أو فى غرفة المكتب أو فى غرفة النوم . لكن هناك من لا يستقبله إلا فى الصالون أو فى غرفة المكتب ..

« واتخذ الله إبراهيم خليلاً » أى اصطفاه الحق اصطفاءً خاصاً ، والحب قد يُشارَك فيه ، فهو سبحانه يحب واحداً وآخر وثالثاً ورابعاً وكل المؤمنين ، فهو القائل :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ ﴾

(من الآية ٢٢٢ سورة البقرة)

وسبحانه القائل :

﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾

(من الآية ٧٦ سورة آل عمران)

وهو يعلمنا :

﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾

(من الآية ١٤٦ سورة آل عمران)

ويقول لنا :

﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

(من الآية١٤٨ سورة آل عمران)

ويقول أيضاً :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾

(من الآية ٨ سورة الممتحنة)

لكنه اصطفى إبراهيم خليلاً ، أى لا مشاركة لأحد فى مكانته ، أما الحب فيعم ، ولكن الخلَّة لا مشاركة فيها . ولذلك نرى رسول الله صلى الله عليه وسلم يخرج إلى

قومه قائلاً : (أما بعد أيها الناس فلو كنت متخذا من أهل الأرض خليلا لاتخذت أبا بكر بن أبى قحافة خليلا وإن صاحبكم خليل الله تعالى) يعنى نفسه[١] .

وإسماعيل صبرى الشاعر المصرى الذى كان أسبق من أحمد شوقى وكان شيخا للقضاة . التقط هذا المعنى من القرآن ومن الألفاظ التى دارت عليه فى القرآن ، ويقول :

ولما التقينا قرب الشوق جهده
خليلين زادا لوعة وعتابا
كأن خليلاً فى خلال خليله
تسرب أثناء العناق وغابا

وشاعر آخر يقول :

فضمنا ضمة نبقى بها واحداً

ولكن إسماعيل صبرى قال ما يفوق هذا المعنى : لقد تخللنا كأن بعضنا قد غاب فى البعض الآخر .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا ﴿١٢٦﴾ ﴾

وسبحانه أوضح فى آية سابقة أنه لا ولى ولا نصير للكافرين أو للمنافقين .

ويؤكد لنا المعنى هنا : إياكم أن تظنوا أن هناك مَهْرَباً أو محيصاً أو معزلاً أو مفراً ؛

١ ـ رواه مسلم وأحمد عن ابن مسعود وفى البخارى : (لو كنت متخذا خليلا غير ربى لاتخذت أبا بكر ولكن أخوة الإسلام ومودته) .

فلله ما فى السموات وما فى الأرض ، فلا السموات تُؤوى هارباً منه ، ولا مَن فى السموات يعاون هارباً منه ، وسبحانه المحيط علماً بكل شىء والقادر على كل شىء .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَن تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾ ﴾

« ويستفتونك » أى يطلبون الفتيا ، ونعرف أن الدين قد مرّ بمراحل منها قول الحق : (يسألونك) .

وهى تعبير عن سؤال المؤمنين فى مواضع كثيرة . ومرحلة ثانية هى : « ويستفتونك » . وما الفارق بين الاثنين ؟

لقد سألوا عن الخمر والأهلَّة والمحيض والإنفاق . والسؤال هو لرسول الله صلى الله عليه وسلم مع أنه قال :

« ذرونى ما تركتكم فإنما هلك من قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم فإذا أمرتكم بشىء فأتوا منه ما استطعتم وإذا نهيتكم عن شىء فدعوه »[1] .

---

١ ـ رواه الإمام مسلم وغيره .

أى أنه طلب منهم ألاّ ينبشوا وألاّ يُفتشوا فى أشياء قد يجلبون بها على أنفسهم تكاليف جديدة ، ومع ذلك سألوه عن رغبة فى معرفة أى حكم يحدد حركة الإنسان فى الحياة .

ولو كانوا لا يريدون تحديد حركة حياتهم فلماذا يسألونه ؟ . كان السؤال دليلاً على أن السائل قد عشق منهج الله فأحب أن يجعل منهج الله مسيطرا على كل أفعاله ، فالشىء الذى أجمله وأوجزه الله يجب أن يسأل عنه .

وأيضاً فالإسلام جاء ليجد عاداتٍ للجاهلية وللعرب ولهم أحكام يسيرون عليها صنعوها لأنفسهم فلم يغير الإسلام فيها شيئاً ، فما أحبوا أن يستمروا فى ذلك لمجرد أنه من عمل آبائهم ، ولكن أحبوا أن يكون كل سلوك لهم من صميم أمر الإسلام ؛ لذلك سألوه فى أشياء كثيرة .

أما الاستفتاء فهو عن أمر قد يوجد فيه حكم ملتبس ، ولذلك يقول الواحد فى أمر ما : فلنستفت عالماً فى هذا الأمر ؛ لأن معنى الاستفتاء عدم قدرة واحد من الناس أو جماعة منهم فى استنباط حكم أو معرفة هذا الحكم ، ولذلك يردون هذا الأمر إلى أهله .

والحق يقول :

﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ﴾

(من الآية ٨٣ سورة النساء)

الاستفتاء ـ إذن ـ يكون لحكم موجود ، ولكن المستفتى لا يملك القدرة على استنباطه . ولذلك نجد المجتمعات الإسلامية تخصص داراً للإفتاء ؛ لأن المؤمن قد لا يعلم كل الجزئيات فى الدين . وقد يعيش حياته ولا تمر به هذه الجزئيات ، مثل أبواب الوقف أو المضاربة أو الميراث ، فإن حدثت له مسألة فهو يستفتى فيها أهل الذكر . فالسؤال يكون محل العمل الرتيب ، أما الفتوى فهى فى أمر ليس المطلوب أن تكون المعرفة به عامة . ولذلك يتجه المستفتى إلى أهل الذكر طالباً الفتيا .

والحق يقول : (ويستفتونك فى النساء » كأنهم قالوا للرسول : نريد حكم الله فيما يتعلق بالنساء حلاً وحرمة وتصرفاً .

فكيف يكون الجواب ؟ : « قل الله يفتيكم فيهن » ولم يؤجل الله الفتوى لاستفتائهم بل سبق أن قاله ، وعلى الرغم من ذلك فإنه ـ سبحانه ـ يفتيهم من جديد .

فلعل الحكم الذى نزل أولاً ليس على بالهم أو ليسوا على ذكر منه .

فقال الحق :

﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ فِى يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ﴾

(من الآية ١٢٧ سورة النساء)

أى أن الحق يفتيكم فى أمرهن ، وسبق أن نزل فى الكتاب ، آية من سورة النساء . قال الحق فيها :

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ﴾

(من الآية ٣ سورة النساء)

وتوالت آيات من بعد ذلك فى أمر النساء .

فقوله الحق : « قل الله يفتيكم فيهن وما يتلى عليكم فى الكتاب » .

إنما يعلمنا أن الإنسان لا يصح أن يتعجل الاستفتاء فى شىء إلا إذا استعرض قبل ذلك ما عنده من علم لعله يجد فيه الجواب الذى يغنيه عن أن يستفتى .

ومع أن الاستفتاء فى أمر النساء جملة : صغيرات وكبيرات ، يتيمات وغير يتيمات فلماذا جاء الجواب فى يتامى النساء ؛ لأن النساء الكبيرات لهن القدرة على أن يبحثن أمورهن ، ولسن ضعيفات ، أمّا اليتيمة فهى ضعيفة الضعيفات ، وعرفنا معنى اليتيم ، واليتيم حيث لا يبلغ الإنسان المبلغ الذى يصبح فيه مستقلاً ، فلا يقال لمن بلغ حَدّ البلوغ سواء أكان رجلاً أم امرأة أنه يتيم ؛ لذلك جاء الجواب خاصاً بيتامى النساء ؛ لأن يتامى النساء هُنَّ دائماً تحت أولياء ، هؤلاء الأولياء الذين نسميهم فى

عصرنا بـ« الأوصياء » . وكان للأوصياء حالتان : فإن كانت البنت جميلة وذات مالٍ فالوصى يحب أن ينكحها ليستمتع بجمالها ويستولى على مالها . وإن كانت دميمة فالوصى لا يرغب فى زواجها لذلك يعضلها ، أى يمنعها من أن تتزوج ؛ لأنها إن تزوجت فسيكون الزوج هو الأولى بالمال .

فاحتاجت هذه المسألة إلى تشريع واضح . وها نحن أولاء نجد سيدنا عمر ـ رضى الله عنه ـ وكانت له الفراسات التى تسمى الفراسات الفاروقية جاءه واحد يسأله عن أمر يتيمة تحت وصايته ، فقال سيدنا عمر :

ـ إن كانت جميلة فدعها تأخذ خيراً منك ، وإن كانت دميمة فخذها زوجة وليكن مالها شفيعاً لدمامتها .

ويقول الحق :

﴿ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ ﴾

(من الآية ١٢٧ سورة النساء)

والذى كتب لهن إما أن يكون مهوراً . وإمّا أن يكون تركة ، وجاء القول الحكيم ليرفع عن المرأة عسف الولى . وجاء الأمر بهذا الأسلوب العالى الذى لا يمكن أن يقوله غير رب كريم ، ونجد مادة « رغب » تعنى « أحب » . فإذا ما كان الحال « أحب أن يكون » يقال : « رغب فيه » ، وإذا « أحب ألاّ يكون » فيقال : « رغب عنه » . ولذلك قال الحق :

﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ ﴾

(من الآية ١٣٠ سورة البقرة)

ومادامت « عن » جاءت كما فى الآية فما بعدها هو المتروك . لكن لو كان القول « رغب فى » فهو لأمر محبوب . وكلمة « ترغبون » فى هذه الآية نجدها محذوفة الحرف الذى يقوم بالتعدية حباً أو كرهاً ؛ لأنها تقصد المعنيين . فإن كانت الرغبة فى المرأة . . تصير « ترغبون فى » وإن كانت المرأة دميمة وزهد فيها فالقول يكون : « ترغبون عن » ولا يقدر أحد غير الله على أن يأتى بأسلوب يجمع بين الموقفين المتناقضين . وجاء الحق ليقنن للأمرين معاً .

ويأتى الحق من بعد ذلك بالقول : « والمستضعفين من الولدان » بجانب اليتيمات

وهو الصنف المستضعف الآخر ، أى اليتيم الذى لم يبلغ مبلغ الرجال ، وحينما يتكلم سبحانه عن الولاية والوصاية على مثل هؤلاء فهو يتكلم بأسلوبين اثنين ، وإن لم يكن للإنسان ملكة استقبال الأسلوب البليغ فقد يقول : هذا كلام متناقض ، لكن لو تمتع الإنسان بملكة استقبال الأسلوب البليغ فقد يقول : إن عظمة هذا الأسلوب لا يمكن أن يأتى به إلا رب كريم . فالحق قال :

﴿ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ﴾

(من الآية ٥ سورة النساء)

قال الله ذلك على الرغم من أن الأموال هى فى الأصل ملك للسفهاء ؛ فالمال ليس ماله إلى أن يعود إليه رشده ، وقد جعل الإسلام الأخوة الإيمانية للتكاتف والتكافل ، وساعة يرى المسلمون واحداً من السفهاء فهم يحجرون على سلوكه حماية لماله من سفهه ، والمال يصان ويحفظ ومطلوب من الوصىّ والولى أن يحميه ، هذا ما قاله الحق فى السفهاء .

والحق يتكلم فى اليتامى . فيقول سبحانه :

﴿ وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ﴾

(من الآية ٦ سورة النساء)

لأن السفيه أو المبذر ليس لأى منهما سلطة التصرف فى المال بل سلطة التصرف تكون للوصى ، وينتسب المال فى هذه الحالة للوصى لأنه القائم عليه والحافظ له ، لكن ما إن يبلغ القاصر الرشد فعلى الوصى أن يرد له المال .

ونحن أمام آية تضع القواعد لليتامى من النساء والمستضعفين من الولدان :

﴿ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ فِى يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴾

(من الآية ١٢٧ سورة النساء)

ما معنى القيامة لليتامى بالقسط ؟ والقسط ـ بالكسر ـ تعنى العدل . وتختلف عن « القَسط » ـ بفتح القاف ـ وهو يعنى الجور ، قَسَط ـ يقْسِط أى عدل ، وقسط يَقْسُط ، أى جار ، فالعدل مصدره « القِسط » بالكسر للقاف ، والجور مصدره « القَسط » بالفتح للقاف .

وبعض من الذين يريدون الاستدراك على كلام الله سفها بغير علم ـ قالوا :

ـ يأتى القرآن بالقسط بمعنى العدل فى آيات متعددة ، ثم يأتى فى موقع آخر ليقول :

﴿ وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ ﴾

(سورة الجن)

و« القاسطون » هى اسم فاعل من قسط ، ونقول : ومن قال لكم : إن « قسط » تستخدم فقط فى معنى « عدل » ، إنها تستعمل فى « عدل » وفى « جار » . وسبحانه يقول عن العادلين :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾

(من الآية ٤٢ سورة المائدة)

القاسط يذهب إلى النار ، وهى مأخوذة من « قَسَط يقسُط » . والمقسط يذهب إلى الجنة ، ومقسط مأخوذة من أقسط .

وعندما نرى « أقسط » نراها تبدأ بهمزة الإزالة ، أى كان هناك جور فأزلناه . أما القِسط ـ بالكسر ـ فهو العدل من البداية والمقسط هو الذى وجد جوراً فأزاله ، والذى يفصل بين الاثنين هو الفعل المضارع ؛ ففى العدل هو « يقسِط » . بكسر السين فى المضارع ، أما يقسُط ـ بضم السين فى المضارع ـ تعنى « يجور ويظلم » . ومن محاسن اللغة نجد اللفظ الواحد يُستعمل لأكثر من معنى ؛ ليتعلم الإنسان لباقة الاستقبال ، وليفهم الكلمات فى ضوء السياق .

وقديماً كانت اللغة ملكة لا صناعة كما هى الآن فى عصرنا . كانت اللغة ملكة إلى درجة أنهم إذا شكلوا الكتاب إلى المرسل إليه يغضب ، ويرد الكتاب إلى مرسله ويقول لمن أرسله : أتشك فى قدرتى على قراءة كتابك دون تشكيل ؟. فتشكيل

الكتاب سوء ظن بالمكتوب إليه ، وفى عصرنا نجد من يلقى خطاباً يطلب تشكيل الخطاب حتى ينطق النطق السليم .

والحق سبحانه وتعالى يقول : « وأن تقوموا لليتامى بالقسط » وجاء الحكم فى قوله الحق : (وآتوا اليتامى أموالهم) وسبحانه يتكلم فى المهور والأموال ويرتفع بالأمر إلى مرتبة اعتبار حسن التصرف فى أمور اليتامى من المسئولية الإيمانية ؛ فقد تكون اليتيمة لا مال لها وليست جميلة حتى يُطمع فيها أو فى مالها ، وفى هذه الحالة يجب على الولى أن يرعاها ويرعى حق الله فيها .

وقوله الحق : « وأن تقوموا لليتامى بالقسط » هو أمر بأن يقوم المؤمن على أمر اليتامى بالعدل ؛ لأن اليتيمة قد تكون مع الولى ومع أهله ، وقد يكون لليتيمة شىء من الوسامة ، فيسرع إليها الولى بعطف وحنان زائد عن أولاده ، وينبه الحق أن رعاية اليتيمة يجب أن تتسم بالعدل ، ولا تزيد . ويقول سبحانه :

« وما تفعلوا من خير فإن الله كان به عليماً » ليدلنا على أن أمر الفعل والقيام به ليس مناط الجزاء ، ولكن أمر النية فى الفعل هو مناط الجزاء ، فإياك أيها المؤمن أن تقول : فعلت ، ولكن قل : فعلت بنيّة كذا .

إن الذى يمسح على رأس اليتيم يكون صاحب حظ عظيم فى الثواب ، ومن يكفل اليتيم فهو مع النبى صلى الله عليه وسلم فى الجنة . والذى يقدر ذلك هو الله ـ سبحانه ـ العليم بالخفايا حسب نية الشخص الذى يقوم بهذا العمل ؛ فقد يتقرب واحد من يتيم ويتكلف العطف والحنان بينما يقصد التقرب إلى أم اليتيم ؛ لذلك فمناط الجزاء ومناط الثواب هو فى النيّة الدافعة والباعثة على العمل . ولا يكفى أن يقول الإنسان : إن نيّتى طيبة ، ولا يعمل ؛ فالحديث الشريف يقول :

(إنما الأعمال بالنيّات وإنما لكل امرىء ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه)[1] .

---

١ ـ رواه البخارى ومسلم وغيرهما من أصحاب السنن .

أى لا بد من ارتباط واقتران النيّة بالعمل ؛ لأن الله يريد منا أن نعمل الخير وبذلك يعدى الإنسان الخير من نفسه إلى غيره وهذا هو المطلوب ، فوجود النيّة للخير وحدها لا يكفى ، وإن افتقد الإنسان النيّة وأدّى العمل فغيره يأخذ خيره ولا يأخذ هو شيئاً سوى التعب . فإن أراد الإنسان أن يكون له ثواب فلا بد من وجود نيّة طيبة ، وعمل صالح .

ولم يقل الحق : « وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم » ؛ لأنه سبحانه عليم لا بعد أن نصنع العمل بل بكمال قدرته يعلم قبل أن نصنع الخير ، وكل شيء كان معلوماً لله قبل أن يخلق الوجود ، ولا ينتظر سبحانه إلى أن يقوم الإنسان بالعمل حتى يحصل ويحدث منه العلم . بل إنه ـ جل شأنه ـ يعلم كل شيء علما أزليّا ؛ لذلك قال : « فإن الله كان به عليماً » ؛ لأن كل أمر برز فى الوجود إنما كان على وفق ما علمه الله أزلاً قبل أن يوجد الوجود .

وفى المجال البشرى نرى المهندس يتلقى التعليمات من صاحب الأرض الخلاء ويقول له : صمم لى قصراً صغيراً على مساحة كذا ومكوناً من كذا حجرة . وعدد محدود من دورات المياه ، وبعد ذلك يصمم المهندس الرسم الهندسى على الورق حسب أوامر صاحب الأرض . وقد يكون صاحب الأرض دقيقا فطنا غايةً فى الدقة فيقول للمهندس : إننى أريد أن تصنع لى نموذجا صغيراً قبل البناء بحيث أرى تطبيقاً واقعياً بمقياس هندسى مصغر ، وأن تبنى الحجرات بقطاعات واضحة حتى أرى ألوانها وكيفيتها .

هكذا العالَم قبل أن يوجد ، كان معلوما علما تفصيليا بكل دقائقه وأبعاده عند خالقه ، والنماذج المصغرة التى يصنعها البشر قد يقصر البشر فيها عن صناعة شيء لعدم توافر المواد ، كالنجار الذى يقصر فى صنع حجرة نوم من خشب الورد لندرته ، فيستعيض بخشب من نوع آخر ، وذلك خلل فى علم وقدرة المنفذ . أما خلق الله فهو يبلغ تمام الدقة ؛ لأنه ـ سبحانه ـ هو الصانع الأول . هذا ما يجب أن نفهمه عندما نقرأ : « فإن الله كان به عليماً » .

وبعد ذلك يتكلم الحق عما يتعلق بالنساء فيقول :

﴿ وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ۚ وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾ ﴾

وساعة نرى « إن » وبعدها اسم مرفوع كما فى قوله :

﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ ﴾

(من الآية ٦ سورة التوبة)

فلنعرف أن « إنْ » هذه داخلة على فعل ، أى أن ترتيبها الأساسى هو : وإن استجارك أحد من المشركين فأجره.. وهنا فى هذه الآية : يكون التقدير : وإن خافت إمرأة من بعلها نشوزاً ، وما الخوف ؟. هو توقع أمر محزن أو مسىء ؛ لم يحدث بعد ولكن الإنسان ينتظره ، وحين يخاف الإنسان فهو يتوقع حدوث الأمر السىء . وهكذا نجد أنّ الخوف هو توقع ما يمكن أن يكون متعباً . وقوله الحق : « وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً » أى أن النشوز لم يحدث ولكن المرأة تخاف أن يحدث . ورتب الحق الحكم على مجرد الخوف من النشوز لا حدوث النشوز بالفعل ، وهذه لفتة لكل منا ألا يترك المسائل حتى تقع ، بل عليه أن يتلافى أسبابها قبل أن تقع ؛ لأنها إن وقعت ربما استعصى عليه تداركها وإن رأت المرأة بعضاً من ملامح نشوز الزوج فعليها أن تعالج الأمر .

ونلحظ أن الحق يتكلم هنا عن نشوز الرجل ، وسبق أن تكلم سبحانه عن نشوز المرأة :

﴿ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ ﴾

(من الآية ٣٤ سورة النساء)

ما النشوز ؟ عندما نسمع عن الموسيقى نجد من يقول : « هذه نغمة نشاز » أى أنها نغمة خرجت عن تسلسل النغم وإيقاعه . والأصل فيها مأخوذ مَن النشز ، وهو ما ارتفع وظهر من الأرض ، والمفروض فى الأرض أن تكون مبسوطة ، فإن وجدنا فيها نتوءا فهذا اسمه نشوز .

والأصل فى علاقة الرجل بزوجته ، أن الرجل قد أخذ المرأة سكناً له ومودة ورحمة وأفضى إليها وأفضت إليه ، واشترط الفقهاء فى الزواج التكافؤ أى أن يكون الزوجان متقاربين ؛ ولذلك قال الحق :

﴿ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ﴾

(من الآية ٢٦ سورة النور)

حتى الكفاءة تكون فى الطيبة أو الخبث ، فلا يأتى واحد بامرأة خبيثة ويزوجها لرجل طيب كى لا تتعبه ، ولا يأتى واحد برجل خبيث ويزوجه بامرأة طيبة كى لا يتعبها ؛ لأن الطيب عندما يتزوج طيبة تريحه وتقدره .

وكذلك الخبيث عندما يتزوج خبيثة فإنهما يتوافقان فى الطباع والسلوك ، وفى هذا توازن ، والخبيث إن لم يخجل من الفضيحة ، فالخبيثة لا تخجل منها أيضاً ، أما الطيب والطيبة فكلاهما يخشى على مشاعر الآخر ويحافظ على كرامته ، فإن خافت امرأة من بعلها نشوزاً أى ارتفاعاً عن المستوى المفترض فى المعاملة ، فى السكن والمودة والرحمة التى ينبغى أن تكون موجودة بين الزوجين ، وهى قد أفضت إليه وأفضى إليها ، فإن خافت أن يستعلى عليها بنفسه أو بالنفقة أو ينالها بالاحتقار ، أو ضاعت منه مودته أو رحمته ، هذا كله نشوز . وقبل حدوث ذلك على الزوجة الذكية أن تنتبه لنفسها وترى ملامح ذلك النشوز فى الزوج قبل أن يقع ، فإن كانت الأسباب من جهتها فعليها أن تعالج هذه الأسباب ، وترجع إلى نفسها وتصلح من الأمر . وإن كانت منه تحاول كسب مودته مرة أخرى .

« وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً » والإعراض يعنى أنه لم ينشز بعد ولكنه لا يؤانس الزوجة ولا يحدثها ولا يلاطفها على الرغم من أنه يعطيها كل حقوقها . وعلى المرأة أن تعالج هذه المسألة أيضاً . والقضية التى بين اثنين ـ كما قلنا ـ وقال الله عنهما :

﴿ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ﴾

(من الآية ٢١ سورة النساء)

وقال فى ذلك أيضاً :

﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾

(من الآية ١٨٧ سورة البقرة)

أى أن يغطى الرجل المرأة وتغطى المرأة الرجل فهى ستر له وهو ستر لها وحماية . ونعرف أن المرأة إن دخل عليها أبوها أو أخوها فهى تدارى أى جزء ظاهر من جسمها ، أما عندما يدخل عليها زوجها فلا تستر ولا تخفى شيئاً .

ويعرف كل رجل متزوج وكل امرأة متزوجة أن بينهما إفضاءً متبادلاً ، فقد أباح الله للرجل من زوجته ما لا يبيحه لأحد ، وكذلك المرأة ، فلا يقول الرجل أى نعت أو وصف جارح للمرأة ، وعلى المرأة أن تحافظ كذلك على زوجها . ولها أن تتذكر أنها اطلعت على عورته بحق الله ، واطلع على عورتها بحق الله .

والحق سبحانه وتعالى يريد أن ينهى هذا الخلاف قبل أن يقع ؛ لذلك أوجب على المرأة أن تبحث عن سبب النشوز وسبب الإعراض فقد تكون قد كبرت فى العمر أو نزلت بها علة ومرض وما زال فى الرجل بقية من فتوة . وقد يصح أن امرأة أخرى قد استمالته ، أو يرغب فى الزواج بأخرى لأى سبب من الأسباب ، هنا على المرأة أن تعالج المسألة علاج العقلاء وتتنازل عن قَسْمها ، فقد تكون غير مليحة وأراد هو الزَّواج فلتسمح له بذلك ، أو تتنازل له عن شىء من المهر ، المهم أن يدور الصلح بين الرجل وزوجته ، وهى مهمة الرجل كما أنها مهمة المرأة .

« فلا جناح عليهما أن يُصلحا بينهما صلحاً » والصلح هنا مهمة الاثنين معاً ؛ لأن كل مشكلة لا تتعدى الرجل والمرأة يكون حلها يسيراً ، والذى يجعل المشكلات صعبة هم هؤلاء الذين يتدخلون فى العلاقة بين الرجل والمرأة ، وليس بينهما ما بين الرجل والمرأة ، والرجل قد يختلف مع المرأة ويخرج من المنزل ويهدأ ويعود ، فتقول له الزوجة كلمة تنهى الخلاف لكن إن تدخل أحد الأقارب فالمشكلة قد تتعقد مِن تدخل من لا يملك سبباً أو دافعاً لحل المشكلة .

لذلك يجب أن ننتبه إلى قول الحق هنا : « فلا جناح عليهما أن يُصلحا بينهما » .

وأولى درجات الصلح بين الرجل والمرأة هو أن يقوم كل منهما بمسئوليته وليتذكر الاثنان قول الحق :

﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾

(من الآية ٢١٦ سورة البقرة)

وكذلك قول الحق سبحانه :

﴿ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾

(من الآية ١٩ سورة النساء)

ولا يظنن رجل أن هناك امرأة هى مجمع كل الجمال والخيرات ؛ لأن كل خصال الخير التى تتطلبها الحياة ، قد لا تتوافر فى المرأة الجميلة . بل قد توجد فى المرأة التى ليست على حظ من الحسن ؛ لأن ذات الحسن قد تستند إلى رصيد حسنها . أما التى ليس لها حظ من الحسن فهى تحاول أن تكون أمينة ومطيعة ومدبرة وحسنة التصرف مع أهل الزوج ؛ لأنها تريد أن تستبقى لنفسها رصيد استبقاء .

ولذلك نجد اللاتى ليس لهن حظ من الحسن هن الغالبية الكبيرة فى حمل أعباء تكوين الأسرة ، فلا يصح أن يأخذ الرجل الزاوية الوحيدة للجمال الحسّى ، بل عليه أن يأخذ الجمال بكل جوانبه وزواياه ؛ لأن الجمال الحسّى قد يأخذ بعقل الرجال ، لكن عمره قصير . وهناك زوايا من الجمال لا نهاية لها إلا بنهاية العمر .

وقد حدَّثونا عن واحد من الصالحين كانت له امرأة شديدة المراس والتسلط عليه ، وهو رجل طيب فقال لها : آه لو رأيتنى وأنا فى دروس العلم والناس يستشرفون إلى سماعى . لقد ظن أنها عندما تراه فى مجلس العلم سترتدع ، وتكون حنونة عليه .

وذهبت لحضور درس العلم ، ورآها ، وظن أن ذلك سيزرع هيبة له فى قلبها ، وعاد إليها آخر النهار وقال لها : لقد رأيتنى اليوم . فقالت : رأيتك ويا حسرة ما رأيت ، رأيت كل الناس تجلس باتزان إلا أنت فقد كنت تصرخ .

وحدثونا عن هذا الرجل أن الله كان يكرمه بالمدد جزاء صبره على امرأته ، وكان المريدون يرون إشراقات الله فى تصرفاته ، وماتت امرأته . وذهب المريدون ولم يجدوا عنده الإشراقات التى كانت عنده من قبل . فسألوه : لماذا ؟ فقال : ماتت التى كان يكرمنى الله من أجلها .

فكما أن المطلوب من المرأة أن تصبر على الرجل ، فالرجل مطلوب منه أن يصبر على المرأة . والذى يصبر عليها يؤتيه الله خيرها ، ولذلك قالوا : « إن عمران بن حطان كان من الخوارج وكان له امرأة جميلة وكان هو دميم الملامح ، فنظرت إليه زوجته مرة وقالت : الحمد لله فقال لها : على أى شى تحمدين الله ؟ قالت : على أنى وأنك فى الجنة . قال : لم ؟. قالت : لأنك رزقت بى فشكرت ، ورزقت بك فصبرت ، والشاكر والصابر كلاهما فى الجنة .

ولا يظنن واحد أنه سيجد امرأة هى مجمع الجمال والحسن فى كل شىء ، فإن كانت متدنية المستوى فى جانب فهى متميزة فى جانب آخر ، فلا تضيع الامتياز الذى فيها من أجل قصورها فى جانب ما . وزوايا الحياة كثيرة . وقلنا سابقاً : إنه لا يوجد أحد ابناً لله ، بل كلنا بالنسبة لله عبيد . ومادمنا جميعاً بالنسبة لله عبيداً وليس فينا ابن له . وسبحانه أعطانا أسباب الفضل على سواء ، فهناك فرد قد أخذ الامتياز فى جانب ، والآخر قد نال الامتياز فى جانب آخر ـ هذا النقص فى زاوية ما ، والامتياز فى زاوية أخرى ، أراد به الله أن يجعل مجموع صفات ومزايا أى إنسان يساوى مجموع إنسان آخر حتى يتوازن العالم .

فإن وجد الإنسان شيئاً لا يعجبه فى المرأة ، ووجدت المرأة شيئاً لا يعجبها فى الرجل ، فعلى الرجل أن يضم الزوايا كلها ليرى الصورة المكتملة للمرأة ، وأن تضم المرأة كل الزوايا حتى ترى الصورة المكتملة للرجل .

والرجل الذى ينظر إلى كل الزوايا يحيا مرتاح البال ؛ لأنه يرى من الزوايا الحسنة أضعاف الزوايا التى ليست كذلك ، والذى يرضى هو من ينظر إلى المحاسن . والذى يغضب هو من ينظر إلى المقابح . والعادل فى الغضب والرضا هو مَن ينظر إلى مجموع هذا ومجموع هذا ، إنّ الحق سبحانه وتعالى يريد أن تُبنى الأسرة على السلامة فيوضح لنا :

ـ لا تنتظر أيها الرجل ولا تنتظرى أيتها المرأة إلى أن يقع الخلاف ، فما أن تبدو البوادر فعليكما بحل المشكلات ، فليس هناك أحد قادر على حل المشكلات مثلكما ؛ لأنه لا يوجد أحد بينه وبين غيره من الروابط والوشائج مثل ما بين الرجل وزوجته ؛ لذلك قال سبحانه : « فلا جناح عليهما أن يُصلحا بينهما صلحاً » .

إننا فى بعض الأحيان نجد الصلح يأخذ شكلية الصلح ، أما موضوع الصلح وهو إنهاء الجفوة والمواجيد النفسية فقد لا يوجد ، والذى يعرقل الصلح هو أننا نقوم بالشكلية ولا نعالج الأسباب الحقيقية المدفونة فى النفوس ، والتى تتسرب إلى موضوعات أخرى ؛ لذلك يجب أن يكون الصلح ، ويتم بحقيقته كقول الله تعالى : « أن يُصلحا بينهما صلحاً والصلح خير » وعندما تتراضى النفوس يعم الخير على الزوجين وعلى المجتمع .

وبعد ذلك يتابع الحق : « وأحضرت الأنفس الشح وإن تُحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا » . يوضح لنا سبحانه : أنا خالقكم وأعلم طبائعكم وسجاياكم وأعلم أننى عندما أطلب من المرأة أن تتنازل عن شىء من نفقتها كمهرها أو هدية الخطبة الأولى « الشبكة » ، أو أن تتنازل له عن ليلتها لينام عند الزوجة الأخرى . وأعلم أن هذا قد يصعب على النفس ، وكذلك يصعب على الرجل أن يتنازل عن مقاييسه ، إياكم أن يستولى الشح على تصرفاتكم بالنسبة لبعضكم البعض . وجاء الحق فى آية وقال :

﴿ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾ ﴾

(سورة النساء)

وهنا يقول : « وأحضرت الأنفس الشح وإن تُحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا » وهناك فرق بين الحقوق التى قد يتمسك بها أحد الزوجين ، والإحسان الذى يَتطوع به . ونعرف ما فعله قاضٍ فاضل عندما قال لخصمين : أأحكم بينكما بالعدل أم بما هو خير من العدل ؟

فسأل واحد : وهل هناك خير من العدل ؟ فقال القاضى : نعم إنه الفضل . فالعدل إعطاء الحق فقط ، والفضل أن يتنازل الإنسان عن حقه بالتراضى لأخيه .

ويذيل الحق الآية : « وإن تُحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا » وسبحانه وتعالى يريد أن يحل مشكلة نفسية قد تتعرض لها الأسر التى لا توجد فيها خميرة عقدية إيمانية ، لا عند الرجل ولا عند المرأة ، ولو كانت هذه الأسر تملك الخميرة الإيمانية المسبقة وأخذت أحكام الله بحقها لما وجدت هذه المشكلة ، إنها مشكلة التعدد .

ظاهر الأمر أن الرجل حين يعدد زوجاته يكون محظوظاً ؛ لأنه غير مقيد بواحدة بل له إلى أربع، والمغبون هى المرأة ؛ لأنها مقيدة بزوج واحد ، فليست كل امرأة مهضومة ، لأن الزوجة الجديدة تشعر بالسعادة . وقد نجد امرأة قال لها زوجها : سأتزوج بثانية ، ورضيت هى بذلك ، بعد أن وازنت بين أمورها فاختارت خير الأمور .

روى أن امرأة أراد زوجها أن يطلقها لرغبته عنها ، وكان لها منه ولد فقالت لا تطلقنى ودعنى أقوم على ولدى وتقسم لى فقال : إن كان هذا يصلح فهو أحب إلىّ فأقرها . إذن فالغمة فى زواج الرجل من زوجة أخرى لا تعم كل النساء ، فإن أحدث الزواج الغم والحزن عند الزوجة الأولى فهو يحدث سروراً عند الزوجة الثانية . والمرأة معذورة فى ذلك لأن الرجل أخذ حكم الله فى أن يعدد ولم يأخذ مع هذا الحكم أن يعدل . والرجل يظلم المرأة حين يأخذ الحكم الذى فى صالحه وهو إباحة التعدد ولا يأخذ من مبيح التعدد وهو المشرع الأعلى ـ وهو الله ـ الأمر بأن يعدل بين زوجاته .

لقد جنحت المجتمعات لأنهم رأوا الرجل حين يتزوج بأخرى لا يلتفت إلا للزوجة الجديدة ، ويهمل القديمة وأولاده منها ؛ لذلك فالنساء معذورات فى أن يغضبن مِن هذه المسألة . ولو أن الرجل أخذ حكم الله بالعدل كما أخذ إباحة الله فى التعدد لحدث التوازن . وحين تعرف المرأة الأولى أن حقها لن يضيع لا فى نفسها ولا فى بيتها ولا فى رعاية أولادها . فهى تقول : « من الأفضل أن يكون متزوجاً أمام عينى بدلاً من أن يدس نفسه فى أعراض الناس » .

إذن فالذى يثير المسألة كإشكال أن الرجل يأخذ بعض الكتاب فيعمل به ويترك بعضه فلا يطبقه ولا يعمل به . والذين يأخذون إباحة الله فى التعدد لا بد أن يأخذوه

بأصوله التى وضعها الله فى إطار العدالة . وحين يكون للرجل امرأتان مثل سيدنا معاذ بن جبل ، فكل امرأة لها حق فى البيتوتة ، ليلة لزوجة وليلة لأخرى مثلا ، وكان ـ رضى الله عنه ـ لا يتوضأ عند واحدة فى ليلة الأخرى مع أن الوضوء قربة لله . والأعجب من ذلك عندما ماتت الزوجتان فى الطاعون ، أمر بدفن الاثنتين فى قبر واحد .

والحق سبحانه وتعالى هو الذى خلق الخلق وأمر بالعدالة فى المستطاع ، وعلى الرجل أن يعدل زَمَناً ، ويعدل نفقة ، ويعدل ابتسامة ، ويعدل مؤانسة ومواساة ، والرجل فى كل ذلك يستطيع ، لكنه لا يستطيع أن يعدل فى ميل القلب ، وهو أمر مكتوم ؛ لذلك قال الحق :

﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾ ﴾

أى أن العدل الحبّى مستحيل . وقال النبى عليه الصلاة والسلام : (اللهم هذا قَسْمِى فيما أملك فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك) ـ يعنى القلب ـ[1] .

إذن ففيه فرق بين ميل القلب وهو مواجيد نفسيه والنزوع النفسى . والعملية الوجدانية لا يقدر عليها أحد ، ولا يوجد تقنين يقول للرجل : « أحب فلانة » . . إلا إذا أراد الحب العقلى ، أما الحب العاطفى فلا . والذى يأمر به الشرع هو أن يحب الإنسان بالعقل ، أما حب العاطفة فلا تقنين له أبداً .

وقد يحب الإنسان الدواء المر بعقله لا بعاطفته ويسرّ الإنسان من صديق جاء بهذا

١ ـ رواه أحمد وأبو داود والدارمى .

الدواء من الخارج ؛ لأن الدواء سيشفيه بإذن الله .

إذن « ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل » ، ما هو كل الميل ؟ ويوضحه ـ سبحانه ـ بقوله : « فتذروها كالمعلقة » وهى المرأة التى لا هى أيّم أى لا زوج لها فتطلب الزواج ، ولا هى متزوجة فتستمتع بوجود زوج ، ويحجزها الرجل دون أن يمارس مسئوليته عنها ، فيوضح الحق : أنا لا أطلب منك أن تميل بقلبك هنا ، أو هناك ؛ لأن هذه المسألة ليست ملكاً لك ، ولكنى أريد العدالة فى الموضوعات الأخرى ؛ كأن تسوّى فى البيتوتة والنفقة ، ومطلوبات أولادك ، وأن تعدل بين أزواجك فى المؤانسة . أما المعنى الآخر وهو ميل القلب فأنا لا أكلف به .

وسبحانه حين يشرّع لخلقه أعلم بمن خلق ، وقد جعل لكل مخلوق منا عواطف ينشأ عنها ميل ، وجعل له غرائز ، وخيارات فى الانفعالات ولو أراد سبحانه أن يحجر على الميل لما خلقه ، ولكنه ـ جل وعلا ـ يطلق الميول لتتم بالميول مصالح الكون مجتمعة ، فحين يمنح القلب أن يحب ، يعلم سبحانه أن عمارة الكون تنشأ بالحب . فلو لم يحب العالم أن يكتشف أسرار الله فى خلقه لما حمّل نفسه متاعب البحث والاطلاع والتجربة ، وكل ما يترتب على ذلك من مشقات .

ولو لم يحب الإنسان إتقان عمله لما رأيت عملاً مجوَّداً . ولو لم يحب الإنسان أولاده لما تحمل المشقة فى تبعات تربيتهم . إذن فالحب له مهمة . والله لا يريد منا أن نمنع الحب . لكنه يريد منا أن نعلى مطالب الحب ، فنجعل للحب مجالاته المشروعة لا أن ينطلق الحب فى الكون ليعربد فى أعراض الناس .

إنك حين تجعل الحب موجهاً إلى خير لا يأتيك منه أو للناس شرّ . وعندما ننظر ـ مثلا ـ إلى دافع وغريزة حب الاستطلاع نجد أن الله قد خلقها فى الإنسان ليصعد ابتكاراته المسعدة فى الحياة . ولو لم توجد غرائز حب الاستطلاع لما تعب المكتشف فى أن يبتكر شيئاً أو يخترعه ويكتشفه حتى يريحنا نحن البشر ، ولما فكر الإنسان فى أن يستعمل البخار ليحمل عن الناس مشقات السفر ومشقات حمل الثقيل. إن هذا الاكتشاف أراحنا باختراع الباخرة أو القطار .

ولكن الله سبحانه وتعالى يريد أن يعلى غريزة حب الاستطلاع فينبغى أن نجعلها

فى مجالها المشروع فلا نجعلها تجسساً على عورات الناس مثلاً ، وكذلك جعل الله غريزة حب المال فى الإنسان ؛ لأن حب المال يدفع الإنسان إلى أن يعمل ، ويستفيد الناس من عمله أراد أو لم يرد . كذلك غريزة الجنس جعلها الله فى الإنسان ولها سعار ليحفظ بها النوع الإنسانى . إنّه سبحانه لا يريد منها أن تنطلق انطلاقاً يلغ فى أعراض الناس . إذن فالغرائز خلقها الله لمهمة . والشرائع جاءت لتحفظ الغرائز فى مجال مهمتها وتمنع عنها انطلاقاتها المسعورة فى غير المجالات التى حددها لها المنهج .

إذن فالميل أمر فطرى فى النفس البشرية وقد أوضح الحق سبحانه : أنا خلقت الميل ليخدم فى عمارة الكون ، ولكن أريد منكم أن تصعدوا الهوى وتعلوه فى هذا الميل ، وحين تعددون الزوجات . لا أطلب منكم البعد عن كل الميل ؛ لأن ذلك أمر لا يحكمه منطق عقلى ، ولكن أحب أن تحددوا الميل وتجعلوه فى مجاله القلبى فقط ، ولا يصح أن يتعدى الميل عند أحدكم إلى ميله القالبى .

أحب أيها العبد المؤمن من شئت وأبغض من شئت ، لكن لا تجعل هذا الحب يقود قالبك لتعطى من تحب خير غيره ظلماً ، وأبغض أيها العبد من شئت ، فلا يستطيع مقنن أن يقنن للقلب أن يبغض أو يحب ، لكن بغضك لا تعديه عن قلبك إلى جوارحك لتظلم من تبغض .

ولنا الأسوة فى سيدنا عمر بن الخطاب ـ رضوان الله عليه ـ حينما مرّ عليه قاتل أخيه ، ولفت نظره جليس له : هذا قاتل أخيك .

هنا قال عمر ـ رضى الله عنه ـ : وماذا أفعل به وقد هداه الله للإسلام ؟ كأن إسلام هذا القاتل قد أنهى المسألة عند عمر ـ رضى الله عنه ـ . وعندما جاء هذا القاتل لمجلس عمر ، قال له سيدنا عمر : إذا أقبلت علىّ إلوِ وجهك عنى ، لأن قلبى لا يرتاح لك . فسأل الرجل : أو عدم حبك لى يمنعنى حقاً من حقوقى ؟ . قال عمر : لا .

قال الرجل : إنما يبكى على الحب النساء . هذا عمر وهو الخليفة ، والرجل من الرعية . لكن عمر الخليفة يخاف من الظلم ، ويملك هذا الشخص وهو تحت إمرة وحكم الخليفة عمر ـ رضى الله عنه ـ قدرة الرفض لمشاعر الحب أو الكراهية ما دامت لا تمنع حقوقه كمواطن .

إن الحق سبحانه وتعالى حينما يخلق ميول القلوب يضع أيضاً القاعدة : إياك أيها المؤمن أن تعدى ميل القلب إلى القالب ، وليكن ميل القلب كما تحب . كذلك إن أنت أيها المؤمن تزوجت وبعد ذلك تزوجت امرأة أخرى فالمنهج لا يطلب منك أن تعدل العدل المطلق الذى ينصب على شيء لا تملكه وهو ميل قلبك . ولكن المنهج يضع لك القواعد التى يسير عليها سلوك قالبك . وعليك أن تعدل فى قسمة الزمن والنفقة والكسوة وبشاشة الوجه وحسن الحديث . ولا تخضع ذلك لميل القلب ، وبعد ذلك أنت وقلبك أحرار .

ونرى بعضا من الذين يحبون أن يظهروا بين الناس كفاهمين للقرآن أو دعاة تجديد ، يركبون الموجة ضد التعدد . ونقول : قبل أن يركب الواحد منكم الموجة ضد التعدد ، ويقف منه موقف الرافض له مدعيا أنه يفهم النص القرآنى ، إننا نقول له : عليك أن تبحث عن أسباب السخط على التعدد ، هى ليست من التعدد فى ذاته ، ولكنها تأتى من أن المسلم يأخذ إباحة الله للتعدد . ولا يأخذ حكم الله فى العدالة . فلو أن المسلم أخذ بالعدالة مع التعدد لما وجدنا مثل هذه الأزمة . ولذلك يقول الواحد من هؤلاء : إن الحق سبحانه وتعالى أمر بلزوم واحدة والاقتصار عليها عند خوف ترك العدل فى التعدد فقال :

﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً ﴾

(من الآية ٣ سورة النساء)

ثم جاء فى آية أخرى وقال : « ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم » .

ونقول : إن الواحد منكم إن أراد أن يفهم القرآن ، فعليه أن يعلم أن الحق سبحانه لم يقف فى هذه الآية عند قوله : (ولو حرصتم) إنما فرع على عدم الاستطاعة فى العدل فقال : « فلا تميلو كل الميل » إنه ـ سبحانه ـ فرع على عدم الاستطاعة فى العدل فأمر بعدم الميل كل الميل . وتلك حكمة المشرع الأول الذى يعلم مَن خلق وكيف خلق . ولو أن الحق لم يفرِّع على « ولن تستطيعوا » لجاز لهؤلاء الذين يركبون الموجة المطالبة بعدم التعدد أن يقولوا ما يقولون ؛ لذلك نقول لهم : انتبهوا إلى أن الحق سبحانه أوضح : عدم استطاعتكم للعدل هو أمر أنا أعلمه ، ولذلك أطلب منكم ألا تميلوا كل الميل وذلك باستطاعتكم . ومعنى هذا أنه سبحانه قد أبقى الحكم ولم يسلبه .

« فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة » . وفى هذا القول أمر بألا يترك الرجل زوجته الأولى كالمعلقة وهى المرأة التى لم يتحدد مصيرها ومسارها فى الحياة ، فلا هى بغير زوج فتتزوج ، ولا هى متزوجة فتأخذ قسمها وحظها من زوجها ، بل عليه أن يعطيها حظها فى البيتوتة والنفقة والملبس وحسن الاستقبال والبشاشة والمؤانسة والمواساة .

ويقول الحق من بعد ذلك : « وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان غفوراً رحيماً » .

وقوله : « تصلحوا » دليل على أنه كان هناك إفساد موجود والمطلوب أن نقوم بالبحث عن الأسباب التى جعلت الرجل يفسد فى علاقته الزوجية ليقضى عليها . وبعد ذلك على المسلم أن يستأنف تقوى جديدة فى المعاملة على ضوء ما شرع الله . وحين يصلح المسلم ما أفسد من جعل الزوجة الأولى كالمعلقة ويعطيها حقها فى البيتوتة والنفقة ورعاية أولادها والإقبال عليها وعلى الأولاد بصورة طيبة فالله سبحانه يغفر ويرحم ، ولا يصلح المسلم ما أفسد إلا وهو ينوى ألا يستأنف عملاً إلا إذا كان على منهج التقى ، ويجد الحق غفوراً لما سبق ورحيماً به .

وإن لم يستطع الرجل هذا ، ولا قبلت المرأة أن تتنازل عن شىء من قسمها ترضية له تكن التفرقة ـ هنا ـ أمراً واجباً . فليس من المعقول أن نحكم الحياة الزوجية والحياة الأسرية بسلاسل من حديد ، ولا يمكن أن نربط الزوجين بعدم الافتراق إن كانت القلوب متنافرة وكذلك لا نأمن على المرأة أن تعيش هكذا .

إن الذى يقول : لا يصح أن نفرق بين الزوجين ، نقول له : كيف تريد أن تحكم الحياة الزوجية بالسلاسل ؟ والزواج صلة مبناها السكن والمودة والرحمة ، فإن انعدمت هذه العناصر فكيف يستمر الزواج وكيف ترغم زوجاً على أن يعايش زوجة لا يحبها ولا يقبلها وترغم زوجة أن تعيش مع زوج لا تحبه ؟ إن التفريق بينهما فى مثل هذه الحالة قد يكون وسيلة أرادها الله سبحانه وتعالى ليرزق الزوج خيراً منها ويرزق الزوجة خيراً منه .

وكثيراً ما شهدنا هذا فى واقع الحياة ، وعاش الزوج مع الزوجة الحديدة سعيداً ، وعاشت الزوجة مع الزوج الجديد سعيدة ، أما الذين تشدقوا بمسألة عدم التفريق مع

استحالة الحياة الزوجية وهاجموا الإسلام فى هذا المجال . فهم يرددون ما كان عند أهل الغرب : من أن الزواج لا انفصال فيه .

إننا نرى العالم كله الآن بكل النصارى واليهود وغيرهم من الملل والنِّحَل يلجأون إلى الطلاق ؛ لأن الأحداث اضطرتهم إلى أن يشرعوا الطلاق ، فكأنهم ذهبوا إلى الإسلام لا على أنه إسلام ، ولكن على أنه الحل الوحيد لمشكلاتهم . فإذا ثبت أن الذين يهاجمون جزئية من جزئيات الدين يضطرون إليها تحت ضغط الأحداث فيجب أن ننبههم إلى عدم التسرع والعجلة والحكم على قضايا الدين الإسلامى بأنها غير صالحة ؛ لأن الحق أرغم من لم يكن مسلماً على أن ينفذ قضية إسلامية . فهو القائل :

﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾ ﴾

وسبحانه عنده الفضل الواسع ، وهو القادر أن يرزق الزوج زوجة صالحة تشبع كل مطالبه ، ويرزق الزوجة زوجاً آخر يشبع كل احتياجاتها ويقبل دمامتها لو كانت دميمة ، ويجعله الله صاحب عيون ترى نواحي الخير والجمال فيها . وقد نجد رجلاً قد عضته الأحداث بجمال امرأة كان متزوجاً بها وخبلته وجعلت أفكاره مشوشة مضطربة وبعد ذلك يرزقه الله بمن تشتاق إليه ، بامرأة أمينة عليه ، ويطمئن عندما يغترب عنها فى عمله . ولا تملأ الهواجس صدره ؛ لأن قلبه قد امتلأ ثقة بها وإن كانت قليلة الحظ من الجمال .

« وإن يتفرقا يغن الله كلاً من سعته وكان الله واسعاً حكيماً » فإياك أن تظن بأن الله ليس عنده ما يريح كل إنسان . فسبحانه عنده كل ما يريح كل الناس . وصيدلية منهج الله مليئة بالأدوية ، وبعض الخلق لا يفقهون فى استخدام هذه الأدوية لعلاج أمراضهم .

ومن الحكمة أنه سبحانه لا يرغم اثنين على أن يعيشا معاً وهما كارهان ؛ لأنهما افتقدا المودة والرحمة فيما بينهما .

ومن بعد ذلك يعقب الحق بآية :

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ ﴾

وسبحانه هو الذى يُرضى الزوج إن افترق عن زوجته ، ويرضى الزوجة إن افترقت عن زوجها ؛ لأنه ـ جل وعلا ـ خلق الدنيا التى لن تضيق بمطلوب الرجل أو المرأة بعد الانفصال بالطلاق ، فله ملك السموات والأرض وهو القادر على أن يرزق الرجل امرأة هى خير ممن فارق،ويرزق المرأة رجلا هو خير ممن فارقت ، فلا شىء خرج عن ملك الله وهو الواسع العطاء .

إننا كثيرا ما نجد رجلاً كان يتزوج امرأة ولا تلد ويشاع عنها أنها عقيم ، ويذهب الإثنان إلى معامل التحليل ، ويقال أحياناً : المرأة هى السبب فى عدم النسل ، أو : الرجل هو السبب فى عدم النسل ، ويفترق الاثنان ويتزوج كل منهما بآخر ، فتلد المرأة من الزوج الجديد ، ويولد للرجل من الزوجة الجديدة ؛ لأن المسألة كلها مرادات الله ، وليست أمور الحياة مجرد اكتمال أسباب تُفرض على الله بل هو المسبب دائماً فهو القائل :

﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا ۚ

إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾

(سورة الشورى)

كم صورة إذن عندنا لمثل هذا الموقف ؟ . يهب لمن يشاء إناثا ، ويهب لمن يشاء الذكور ، أو يزوجهم ذكراناً وإناثاً ، ويجعل من يشاء عقيماً ، هى بأربعة مقادير تجرى على الرجل والمرأة . وعندما يهب الله المؤمنَ الإناثَ يكون سعيداً . وكذلك عندما يهبه الذكور ، وعندما يهب الله لأسرة أبناء من الذكور فقط . فالزوجة تحن أن يكون لها ابنة . وإن وهب الحق لأسرة ذرّية مِن الإناث فقط ، فالمرأة والرجل يتمنيان الابن ، وإن أعطاهما الله الذكور والإناث نجدهما قد وصلا إلى الحالة التى تقر بها العيون عادة . والحالة التى تقر بها العيون عادة مؤخرة .

إن الحالة التى تزهد النفس فيها فالحق يقربها إلى أوليات الهبة ، فقال أولاً : « يخلق ما يشاء » ، وبعد ذلك : « يهب لمن يشاء إناثا » ثم ذكر عطاء الذكور ، ثم يأتى بالحالة التى يكون العطاء فيها فى القمة : « أو يزوجهم ذكراناً وإناثاً » .

وأخيراً يأتى بالقَدَر الرابع الذى يجريه على بعض خلقه وهو : « ويجعل من يشاء عقيماً » .

ولماذا يُسر الإنسان بقدرِ الله حينما يهبه الله الإناث أو الذكور ، ويزداد السرور بقدر الله حينما يهبه ـ سبحانه ـ الذكور والإناث . ولماذا لا تُسر إذن أيها الإنسان بقدر الله حينما يجعلك عقيماً ؟ أتعتقد أنك تأخذ القدر الذى تهواه ، وترد القدر الذى ليس على هواك ؟ إن المواقف الأربعة هى قَدَر من الله .

ولو نظر الإنسان إلى كل أمر من الأمور الأربعة لرضى بها .

إنّه سبحانه يخلق ما يشاء ويجعل من يشاء عقيماً ، إن قالها الإنسان باستقبال مطمئن لقدر الله فالله قد يقر عينه كما أقر عيون الآخرين بالإناث أو بالذكور ، أو بالذكور والإناث معاً . وأقسم لكم لو أن إنساناً ـ أو زوجين ـ أخذا قدر الله فى العقم كما أخذاه فى غيره من المواقف السابقة برضا إلا رزقهم الله ، لا أقول ببنين وبنات يرهقونهم فى الحمل والتربية وغيرها ، بل يرزقهم بأناس يخدمونهم ، وقد ربَّاهم

غيرهم ، والذى يجعل الأزواج المفتقدين للإنجاب يعيشون فى ضيق ، هو أنهم فى حياتهم ساخطون على قدر الله ـ والعياذ بالله ـ فيجعل الله حياتهم سخطاً . فهو القائل فى حديثه القدسى :

عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : قال النبىّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ : يقول الله تعالى : (أنا عند ظن عبدى بى ، وأنا معه إذا ذكرنى ، فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، وإن ذكرنى فى ملأ ، ذكرته فى ملأ خير منهم ، وإن تقرّب إلىّ بشبر تقربت إليه ذراعاً ، وإن تقرّب إلىّ ذراعا ، تقربت إليه باعا وإن أتانى يمشى ، أتيته هرولة)[1] .

إذن فالحق سبحانه وتعالى يقول : « ولله ما فى السموات وما فى الأرض » فإياك أن تقول كون الله سيضيق عن رزق الرجل المفارق لزوجته أو المرأة المفارقة لزوجها من عطاء الله لهما فما دام سبحانه قد قرر الفراق كحل لعدم توافق فى حياتهما معاً .. فهو سبحانه سيعطى عن سعة للزوج وعن سعة للزوجة . وعليك أيها المسلم أن تطيع منهج الحق كما أطاع كل ما فى السموات وكل ما فى الأرض ، ثم اسأل نفسك هذا السؤال : مَن يقضى مصالحك كلها ؟.

إنه الحق سبحانه الذى سخر أشياء ليست فى طوق قدرتك ، أأرغمت الشمس أن تشرق لك بالضوء والحرارة ؟. أأرغمت الماء أن يتبخر وينزل مطراً نقيًّا ؟

أأرغمت الريح أن تهب ؟ أضربت الأرض لتقول لها : غذّى ما أضعه فيك من بذر بالعناصر اللازمة له والمحتاج إليها لينتج النبات ؟. كل هذا ليس فى طوق إرادتك بل هو مسخر لك بأمر الله . وإن أردت الاستقامة فى أمرك ، لكنت كالمسخر فيما جعل الله لك فيه اختيار ولقلت لله : أنا أحب منهجك يا رب وما يطلبه منى سأنفذه قدر استطاعتى . فتكون بقلبك وقالبك مع أوامر المنهج ونواهيه ، فينسجم ويتوافق الكون معك كما انسجم الكون المسخر المقهور المسير .

« ولله ما فى السموات وما فى الأرض » ، وهذا تذكير بأن كل شىء مملوك لله وفى

---

(١) رواه البخارى فى كتاب التوحيد ، وأخرجه مسلم فى صحيحه بثلاث طرق .

طاعته ، فلا تشذ أيها الخليفة لله عن الكون ، فكل ما فيه يخدمك . ولتسأل نفسك : أتعيش فى ضوء منهج الله أم لا ؟ لأن الكون قد انسجم وهو مسخر لله ، ولم يحدث أى خلل فى القوانين الكلية ، وسبحانه القائل :

﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ۝٩ ﴾

(سورة الرحمن)

وهذا إيضاح من الحق تبارك وتعالى : إن أردتم أن تستقيم لكم أموركم الاختيارية فانظروا إلى الكون ، فالأشياء المسخرة لا يحدث منها خلل على الإطلاق ، ولكن الخلل إنما يأتى من اختيارات الإنسان لِغير منهج الله .

« ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله » يوضح سبحانه : لقد وصينا الذين أنزلنا إليهم المنهج من قبلكم ، ووصيناكم أنتم أهل الأمة الخاتمة أن التزموا المنهج بالأوامر والنواهى ؛ لتجعلوا اختياراتكم خاضعة لمرادات الله منكم حتى تكونوا منسجمين كالكون الذى تعيشون فيه ، ويصبح كل شىء يسير منتظماً فى حياتكم ، ولم يقل الحق هذه القضية للمسلمين فقط لكنها قضية كونية عامة جاء بها كل رسول : « ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم » .

ولم يقل : شرعنا للذين أوتوا الكتاب من قبلكم ، ولم يقل : فرضنا ، إنما قال : « ولقد وصينا » . وكلمة « وصية » تشعر المتلقى لها بحب الموصى للموصَى . « ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله » وتقوى الله تعنى أن نفعل أوامر الله وأن نتجنب نواهيه ؛ لنحكم حركة اختياراتنا بمنهج ربنا ، فإن حكمنا حركة اختياراتنا بمنهج الله صرنا مع الكون كأننا مسخرون لقضايا المصلحة والخير .

ومن بعد ذلك يقول الحق : « وإن تكفروا فإن لله ما فى السموات وما فى الأرض وكان الله غنياً حميداً » ومقابل الكفر هو الإيمان ، ومن يخرج عن الإيمان فالله غنى عنه ، فلا تعتقدوا أيها المخاطبون بمنهج الله أننى أستميلكم إلى الإيمان لأنى فى حاجة إلى إيمانكم ، لا ، لكنى أريد منكم فقط أن تكونوا مجتمعاً سليماً ، مجتمعاً سعيداً ، وإن تكفروا فسيظل الملك كله لله ، وستظل حتى ـ ولو كنت متمرداً ـ فى قبضة

مرادات ربك . فلن تتحكم فى مولد أو فى ممات أو فى مقدورات . فالكون ثابت وسليم . وجاء القرآن باللفت إلى انتظام الكون يقول الحق :

﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾ ﴾

(سورة ق)

وفى لحظة من اللحظات يأمر الحق كوناً من كونه فيختل نظامه فترى الأرض المستقرة وقد تزلزلت ، والتى قال عنها سبحانه :

﴿ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ﴾

(من الآية ١٥ سورة النحل)

وسبحانه هو الذى يملكها فيجعلها تضطرب ويُحدث فى موقع منها زلزالاً ، فتندثر المبانى التى عليه حتى تفهم أن الدنيا ليست محكومة حكماً آلياً ، بل محكومة بالأسباب ، وزمامها مازال فى قيومية المسبب ، ونلتفت مرة إلى بعض من الزوابع من التراب وهى تغلق المجال الجوى كله بحيث لا يستطيع واحد أن ينظر من خلاله ، وهذا لفت من الله لنا يوضح : لقد صنعت هذه القوانين بقدرتى ، ولن تخرج هذه القوانين عن طلاقة قدرتى .

ونرى بلاداً تحيا على أمطار دائمة تغذى الأرض ، فنجد الخضرة تكسو الجبال ولا نجد شبراً واحداً دون خصوبة أو خضرة أو شجر ، وقد يظن ظان أن هذه المسألة أمر آلى ، ويأتى الحق ليجرى على هذه المنطقة قدر الجفاف فيمنع المطر وتصير الأرض الخصبة إلى جدب ، وتنفق وتهلك الماشية ويموت البشر عطشاً ، وذلك ليلفتنا الحق إلى أن المسألة غير آلية ولكنها مرادات مُريد .

وفى موقع آخر من الكرة الأرضية نجد أرضاً منبسطة هادئة يعلوها جبل جميل ،

وفجأة تتحول قمة الجبل إلى فوهة بركان تلقى الحمم وتقذف بالنّار وتجرى الناس لتنقذ نفسها ، ولذلك علينا أن نعرف أن عقل العاقل إنما يتجلى فى أن يختار مراداته بما يتفق مع مرادات الله ، وعلى سبيل المثال . . لم يؤت العقل البشرى القدرة الذاتية على التنبؤ بالزلازل ، لكن الحمار يملك هذه القدرة .

« وإن تكفروا فإن لله ما فى السموات وما فى الأرض وكان الله غنياً حميداً » وصدر الآية بالمقولة نفسها : « ولله ما فى السموات وما فى الأرض » وذلك لتثبيت وتأكيد ضرورة الطاعة لمنهج الله حتى ينسجم الإنسان مع الكون . وتجىء المقولة مرة ثانية فى الآية نفسها ليثبت الحق أنه غنىّ ، ولا تقل إن المقولة تكررت أكثر من مرة فى الآية الواحدة ، ولكن قل : إن الحق جاء بها فى صدر الآية لتثبت معنى ، وجاءت فى ذيل الآية لتثبت معنى آخر ، فسبحانه هو الغنى عن العباد :

﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الكهف)

ومجىء « ولله ما فى السموات وما فى الأرض » لإثبات حيثية أن يطيع العبد خالقه . ومجىء « لله ما فى السموات وما فى الأرض » فى ذيل الآية لإثبات حيثية غنى الله عن كل العباد . والمقولة نفسها تأتى فى الآية التالية حيث يقول سبحانه :

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ ﴾

ومجىء المقولة لثالث مرة لطمأنة الإنسان أن الله يضمن ويحفظ مقومات الحياة . فلن تتمرد الشمس يوماً ولا تشرق . أو يتمرد الهواء ولا يهب . أو تضن الأرض عليك بعناصرها ؛ لأن كل هذه الأمور مسخّرة بأمر الله الذى خلقك وقد خلقها وقدّر فيها قوتك .

ولذلك يوضح ربنا : أنا الوكيل الذى أكفلكم وأكفيكم وأغنيكم عن كل وكيل .

والوكيل هو الذى يقوم لك بمهامك وتجلس أنت مرتاح البال . والإنسان منا عندما يوكل عنه وكيلاً ليقوم ببعض الأعمال يحسّ بالسعادة على الرغم من أن هذا الوكيل الذى من البشر قد يُخطىء أو يضطرب أو يخون أو يفقد حكمته أو يرتشى ، لكن الحق بكامل قدرته يطمئن العبد أنه الوكيل القادر ، فلتطمئن إلى أن مقومات وجودك ثابتة ؛ فسبحانه مالك الشمس فلن تخرج عن تسخيرها ، ومالك المياه ومالك الريح ومالك عناصر الأرض كلها . ومادام الله هو المليك فهو الحفيظ على كل هذه الأشياء . وهو نعم الوكيل ؛ لأنه وكيل قادر وليس له مصلحة .

وتعالوا نقرأ هذا الحديث :

فقد ورد أن أعرابيا جاء فأناخ راحلته ثم عقلها ثم صلى خلف رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ أتى راحلته فأطلق عقالها ثم ركبها ثم نادى اللّهم ارحمنى ومحمداً ولا تشرك فى رحمتنا أحداً . فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « أتقولون هذا أضل أم بعيره ألم تسمعوا ما قال ؟» قالوا : بلى ، قال : « لقد حَظرت[1] رحمة واسعة . إن الله ـ عز وجل ـ خلق مائة رحمة فأنزل رحمة يتعاطف بها الخلق جِنّها وإنْسها وبهائمها وأخّر عنده تسعاً وتسعين رحمة أتقولون هو أضل أم بعيره »[2] .

هو إذن كفى بالله وكيلاً وهو نعم الوكيل ، وهو يطمئن عباده ويبين أنه ـ سبحانه ـ هو القيوم،وتعنى المبالغة فى القيام ، إذن كل شىء فى الكون يحتاج إلى قائم ؛ لذلك فهو قيوم . ويوضح الحق لكل إنسان : أنِ اجتهد فى العمل وبعد أن تتعب نم ملء جفونك،لأنى أنا الحق لا تأخذنى سنة ولا نوم . فهل هناك وكيل أفضل من هذا ؟ . « وكفى بالله وكيلاً » .

ثم يأتى الحق بحيثية أخرى تؤكد لنا أنه غنى عن العالمين ، فلا يكفى أن يقول : إنه غنى وإنه خلق كل ما فى السموات وما فى الأرض ، وإن كفرت أيها الإنسان فالذنب عليك ، وإن آمنت فالإيمان أمان لك ، وأوضح : إياكم أيها البشر أن تعتقدوا أنكم خُلِقْتُم وشردتم وأصبحتم لا سلطان لله عليكم . لا . فالله سبحانه يقول :

---

(١) حظرت : منعت وحجرت .

(٢) رواه أحمد وأبو داود .

﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ ﴾

وبعض الفاقدين للبصيرة من الفلاسفة قالوا : صحيح أن الله قد خلقنا ولكنا خرجنا من دائرة نفوذه . لا ، بل سبحانه إن شاء لذهب بكم جميعاً وأتى بآخرين ، وما ذلك على الله بعزيز ، وهو القائل : « وكان الله على ذلك قديراً » .

حين نقرأ « كان » بجانب كلمة « الله » فهى لا تحمل معنى الزمن ؛ فالله قدير حتى قبل أن يوجد مقدور عليه ، فلم يكن قديراً فقط عندما خلق الإنسان ، بل بصفة القدرة خلق الإنسان ؛ لأن الله سبحانه وتعالى ليس له أغيار ؛ لذلك يظل قديراً وموجودا فى كل لحظة ، وهو كان ولا يزال .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾ ﴾

ومادام الرسل قد أبلغوا الإنسان أن عند الله ثواب الدنيا والآخرة فلمَ الغفلة ؟ ولمَ لا تأخذ الزيادة ؟ ، ولماذا نذهب إلى صفقة الدنيا فقط مادام الحق يملك ثواب الدنيا من صحة ومال وكل شيء ، وإن اجتهد الإنسان فى الأسباب يأخذ نتيجة أسبابه . فالحق يقول :

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ ﴾

(سورة الشورى)

ولم يقل الحق : إن « الآخرة » فى مقابلة للدنيا ؛ وأن من يأخذ الدنيا لن يأخذ الآخرة أو العكس ، بل يريد ـ سبحانه ـ للإنسان أن يأخذ الدنيا والآخرة معاً ، فيا من تريد ثواب الدنيا لا تحرم نفسك بالحمق من ثواب الآخرة . وكلمة « ثواب » فيها ملحظ ؛ فهناك أشياء تفعل لك وإن لم تطلب منها أن تفعل ، وتنتفع بعملها وإن لم تطلب من الأشياء أن تفعل . وهناك أشياء أخرى تنفعل بحركتك ، فإن تحركت وسعيت وعملت فيها تعطك .

مثال ذلك الأرض ، فإن بذرت فيها تخرج الزرع ، واختلافات الناس فى الدنيا تقدماً وتأخراً وحضارة وبداوة وقوة وضعفاً إنما تأتى من القسم الذى ينفعل للإنسان ، لا من القسم الذى يُفْعَل للإنسان . ويسخر له ، وتقدم بعض البشر فى الحضارة إنما جاء لأنهم بحثوا فى المادة والعناصر ، وأنجزوا إنجازات علمية هائلة فى المعامل ، فإن أردت أن تكون متقدماً فعليك أن تتعامل مع العناصر التى تنفعل لك ، والأمم كلها إنما تأخذ حضارتها من قسم ما ينفعل لها ، وهم والمتأخرون شركاء فقط فيما يُفعل لهم ويسخَّر لصالحهم .

وإن أردنا الارتقاء أكثر فى التحضر . . فعلينا أن نذهب إلى ما يُفْعل ويسخّر لنا ونتعامل معه حتى ينفعل لنا . . كيف ؟ .

الشمس تمدنا بالضوء والحرارة ، ونستطيع أن نتعامل مع الشمس تعاملاً آخر يجعلها تنفعل لنا ، مثلما جئنا بعدسة اسمها « العدسة اللاّمة » التى تستقبل أشعة الشمس وتتجمع الأشعة فى بؤرة العدسة ؛ فتحدث حرارة تشعل النار ، أى أننا جعلنا ما يُفْعَل لنا يتحول إلى منفعل لنا أيضاً . ويسمون ذلك الطموح الانبعاثى . والمطر يفعل للإنسان عندما ينزل من السماء فى وديان ، ويستطيع الإنسان أن يحوله إلى منفعل عندما يضع توربينات ضخمة فى مسارات نزوله فينتج الكهرباء .

إذن فحضارات الأمم إنما تنشأ من مراحل . المرحلة الأولى : تستخدم ما ينفعل لها ، والمرحلة الثانية : ترتقى فتستخدم ما ينفعل معها . والمرحلة الثالثة : تستخدم ما يفعل لها كمنفعل لها ؛ مثال ذلك استخدام الطاقة الشمسية بوساطة أجهزة تجمع هذه الطاقة ارتقاءً مع استخدام ما يفعل للإنسان لينفعل مع الإنسان .

وأسمى شيء فى الحضارة الآن هو أشعة الليزر التى تصنع شبه المعجزات فى دنيا الطب . وكلمة « ليزر » مأخوذة كحروف من كلمات تؤدى معنى تضخيم الطاقة بواسطةالانبعاث الاستحثاثى ، فكلمة « ليزر » ـ إذن ـ مثلها مثل كلمة « ليمتد » فاللام من كلمة . والياء من كلمة ، والميم من كلمة ، والتاء من كلمة ، والدال من كلمة ، وذلك لتدل على مسمّى .

وترجمة مسمّى « ليزر » هو تضخيم الطاقة عن طريق الانبعاث الاستحثاثى . ففيه انبعاث تلقائى هو مصدر الطاقة الذى يُفعل للإنسان وإن لم يطلبه ، أما الانبعاث الاستحثاثى فينتج عندما يحث الإنسان الطاقة لتفعل له شيئاً آخر . والانبعاث التلقائى متمثل فى الشمس فتعطى ضوءا وحرارة . وعندما جلس العلماء فى المعامل وصمموا العدسة التى تنتج هذه الأشعة أهاجوها وأثاروها وأخذوها ليصنعوا منها طاقة كبيرة . وهكذا أنتجوا أشعة الليزر التى هى تضخيم للطاقة عن طريق الانبعاث الاستحثاثى ، ولأن العنوان طويل فقد أخذوا من كل كلمة حرفاً وكوّنوا كلمة « ليزر » .

إذن فالارتقاءات الحضارية تأتى عن طريق تعامل الإنسان مع القسم الذى ينفعل للإنسان،واستحثاث واستخدام ما يُفعل له بطريقته التلقائية لينفعل معه كأشعة الشمس مثلا .

وجئنا بذكر كل ذلك من أجل أن نستوضح آفاق قول الحق : « من كان يريد ثواب الدنيا » . وكلمة « ثواب » إذن توحى بأن هناك عملاً ، فالثواب جزاء على عمل . فإن أردت ثواب الدنيا ، فلا بد أن تعمل من أجل ذلك . فلا أحد يأخذ ثواب الدنيا بدون عمل .
ومن عظمة الحق ولطفه وفضله ورحمته أن جعل ثواب الدنيا جائزة لمن يعمل ، سواء آمن أم كفر ، ولكنه خص المؤمنين بثواب باق فى الآخرة .

ولذلك يقال:« الدنيا متاع » . ويزيد الحق على ذلك : « فعند الله ثواب الدنيا والآخرة وكان الله سميعاً بصيراً » . ومن الحمق أن يوجد طريق يعطى الإنسان جزاءين ثم يقصر همته على جزاء واحد .

وهنا ملحظ آخر ؛ فحينما تكلم الحق عن ثواب الدنيا ، دل على أنه لا بد من العمل لنأخذ الدنيا ، ولم يذكر الحق ثواباً للآخرة ، بل جعل سبحانه الثواب للاثنين . . الدنيا والآخرة ، إذن فالذى يعمل للدنيا من المؤمنين إنما يأخذ الآخرة أيضاً ؛ لأن الآخرة هى دار جزاء ، والدنيا هى مطية وطريق وسبيل . فكأن كل عمل يفعله المسلم ويجعل الله فى باله . . فالله يعطيه ثواباً فى الدنيا ، ويعطيه ثواباً فى الآخرة .

ويذيل الحق الآية : « وكان الله سميعاً بصيراً » ـ إذن ـ فثواب الدنيا والآخرة لا يتأتى إلا بالعمل ، والعمل هو كل حدث يحدث من جوارح الإنسان ، القول ـ مثلاً ـ حدث من اللسان ، وهو عمل أيضاً ، والمقابل للقول هو الفعل . فالأعمال تنقسم إلى قسمين : إلى الأقوال وإلى الأفعال . ولتوضيح هذا الأمر نقرأ قول الحق :

﴿ كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ ﴾

(سورة الفجر)

وعندما سمع الأغنياء هذا القول عرفوا سلوكهم ، ولما سمع الفقراء هذا القول ، كأنهم قالوا : نحن لا نملك ما نطعم به المسكين ، فكان فى قوله تعالى : « ولا تحاضون على طعام المسكين » ما يوضح لهم الطريق إلى العطاء : أى حضوا غيركم على العطاء . أى أن الذى لا يملك يمكنه أن يكلم الغنى ليعطى المسكين ، والحض هو كلام . والكلام نوع من العمل .

والحق سبحانه وتعالى يستنفر المؤمنين لينصروا دين الله فيقول :

﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ ﴾

(سورة التوبة)

هو سبحانه أعفى الضعفاء والمرضى والذين لا يجدون ما ينفقون فى القتال وأسقطه عنهم ولم يحاسبهم عليه ، ولكن فى الآية نفسها ما يحدد المطلوب من هؤلاء ، وهو أن ينصحوا لله ورسوله . إذن فغير القادر يمكنه أن يتكلم بفعل الخير ويذكر به الآخرين

وينصح به ، هذا هو معنى قول الحق : « وكان الله سميعاً بصيراً » فسبحانه يسمع قول مَن لا يستطيع ولا يملك القدرة على سلوك ما ، وسبحانه بصير يرى صاحب كل سلوك .

إذن فثواب الدنيا يحتاج إلى عمل ، والعمل هو انفعال كل جارحة بمطلوبها ، فاللسان جارحة تتكلم ، واليد تعمل ، وكل جوارح الإنسان تعمل ، لكن ما عمل القلوب ؟ عمل القلوب لا يُسمع ولا يُرى ، ولذلك قال الحق عن إخلاص القلب فى حديث قدسى :

(الإخلاص سرّ من أسرارى استودعته قلب من أحببت من عبادى)[١] .

وهكذا نعرف أن نية القلوب خاصة بالله مباشرة ولا تدخل فى اختصاص رقيب وعتيد وهما الملكان المختصان برقابة وكتابة سلوك وعمل الإنسان ، ولذلك نجد الحق يصف ذاته فى مواقع كثيرة من القرآن بأنه لطيف خبير ، لطيف بعلم ما يدخل ويتغلغل فى الأشياء ، وخبير بكل شىء وقدير على كل شىء . ونجد الحديث الشريف يقول لنا :

(إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى . فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه)[٢] .

فالعمل يكون بالجوارح ، ومن الجوارح اللسان ، وحتى نضبط هذه المسألة لنفرق ما بين الفعل والعمل . نقرأ ونفهم هذه الآية :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ ﴾

(سورة الصف)

ونجد المقابل للقول هو الفعل . والكل عمل . ويأتى نوع آخر من الأعمال ، لا هو قول ولا هو فعل ، وهو « النية القلبية » . وعندما يقول الحق : إنه كان سميعاً بصيراً ، فالمعنى أنه سميع للقول ، وبصير بالفعل .

---

(١) رواه أبو القاسم القشيرى فى الرسالة من حديث على بن أبى طالب بسند ضعيف ، والآيات القرآنية والأحاديث الصحيحة كثيرة فى هذا الباب .

(٢) رواه البخارى ومسلم وغيرهما من أصحاب السنن .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ ﴾

وساعة ينادى الحق عباده المؤمنين قائلاً : يا أيها الذين آمنوا ، فكأنه يقدم حيثية الحكم الذى يأتى بعده ، ونحن نرى القضاء البشرى قبل أن ينطق بمنطوق الحكم ، يورد حيثيته ، فيقول : « بما أن المادة القانونية رقم كذا تنص على كذا ، حكمنا بكذا » . إذن : فالحيثيات تتقدم الحكم . وحيثيات الحكم الذى يحكم به الله هى الإيمان به ، مثل قول الحق :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ ﴾

(من الآية ١٨٣ سورة البقرة)

حيثية الكتابة هنا وفى أى حكم آخر هى إيمان العبد بالله رباً ، فليسمع العبد من ربه . وسبحانه لا يكلف كل الناس بالتكاليف الإيمانية ، ولكنه يكلف المؤمنين فقط . وهو يقول : « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط » فالمؤمن يدخل على الإيمان بقمة القِسط ، فالقسط هو العدل ، والعدل أن يعطى العادل كل ذى حق حقه . وحق الإله الواحد أن يؤمن به الإنسان ويعترف أنه إله واحد .

إن قمة القِسط ـ إذن ـ هى الإيمان . ومادام المؤمن قد بدأ إيمانه بقمة القِسط وهو الإيمان ، فليجعل القِسط سائداً فى كل تصرفاته . وإياك أن تجعل القسط أمراً أو حدثاً يقع مرة وينتهى ، وإلا لما قال الحق مع إخوانك المؤمنين : « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط » .

ولم يقل الحق لك مع إخوانك المؤمنين : كونوا قائمين بالقسط ، بل قال « كونوا قوّامين بالقسط » أى أن المطلوب هو الاستمرارية للسلوك العادل . فنحن نقول : « فلان قائم » و« فلان قَوَّام » . ونعرف أن كلمة « قَوَّام » هى صيغة مبالغة . وعلى ذلك يكون الأمر الإلهى لكل مؤمن : لا تقم بالقسط مرة واحدة فقط ، بل اجعله خصلة لازمة فيك ، ولتفعل القسط فى كل أمور حياتك . والقِسط كما علمنا من قبل فى ظاهر أمره هو العدل ، وأيضاً الأقساط هى العدل .

وقد أحدثت كلمة « القسط » ضجة عند العلماء ، وقلنا تعليقا على ذلك : إن المسألة بسيرة . . فقسط يقسُط قسوطاً أى جار وظلم ، فإذا أذهب الإنسان الجور والظلم يقال:« أقسط فلان » أى أذهب الجور . إذن : « القِسط ـ بكسر القاف ـ هو العدل الابتدائى ، لكن الإقساط هو عدل أزال جوراً كان قد وقع .

وهب أن أناساً جاءوا لقاضٍ فحكم بينهم بالعدل ، فهذا هو القِسط ، وقد يستأنف أحد الطرفين حكم المحكَمة الابتدائية ووجدت محكمة الاستئناف خطأ فى التطبيق فأصدرت حكماً بإزالة الجور ، وهذا الحكم الذى من الدرجة الثانية اسمه إقساط . وهكذا ينتهى جدل العلماء حول هذه المسألة ، فالقِسط عدل من أول درجة ، والإقساط يعنى أنه كان هناك جور فرُفِع ، لأنه مسبوق بهمزة اسمها « همزة الإزالة » ، فيقال : أعجم الكتاب . أى أن الكتاب كان فيه عجمة ، أى كان بالكتاب شىء مستتر وخفىّ عليهم فأزال ما به من عجمة . وتسمى قواميس اللغة « المعاجم » والواحد معجم أى يعطى معانى الألفاظ فيزيل خفاءها . وكذلك معنى « أقسط » أى أزال الجور .

والحق يقول : « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط » فأنت أيها المؤمن قد فعلت بالعقل أول مرتبة فى القسط ؛ ورددت الإيمان إلى الرب فهو المستحق له وعليك إشاعة كل القسط فى كل سلوكك .

« كونوا قوامين بالقسط شهداء لله » ولا يكفى أن يكون المؤمن قائماً بالقسط فقط ، بل لابد أن تكون الشهادة لله . لماذا ؟ .

هب أن رجلاً كافراً بالله ـ والعياذ بالله ـ ويقيم العدل بين الناس لكنه لا يدخل

بذلك العدل فى حيثية الإيمان ، فالذى يدخل فى حيثية الإيمان يكون قائماً بالقسط وفى باله الله وبذلك تكون الشهادة وإقامة حقوق الله لا لمنفعةٍ ولا لغايةٍ ولا لهوى ولا لغرضٍ ، وإنما ليستقيم كون الله كما أراد الله ، وإلا لو حكم أحد بهوى لفسدت الأرض ، والحق يقول :

﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾

(من الآية ٧١ سورة المؤمنون)

لذلك لا بد أن يكون المؤمن قوّاماً بالقسط وفى باله الله ، ولذلك فالقيام بالقسط وحده لا يكفى ، ونحن نسمع : فلان عادل ولو أنه من ديانة أخرى غير الإسلام أو كان ملحداً . ونقول : هذا العادل من أى دين أو عقيدة غير الإسلام يأخذ ثناء البشر لكنه لا يأخذ ثناء الله ولا ثوابه ، ولذلك فالقوّام بالقسط يجب أن يفعل بقصد امتثال أمر الله لينال الثواب من الله .

« كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم » والشاهد فى العادة هو من يشهد لمصلحة واحد ضد آخر ، وعندما يقر الشاهد بذنب فهو قد شهد على نفسه ، والشاهد لمصلحة واحد إنما يفعل ذلك ليرجح الحكم ، والشاهد على نفسه يقر بما فعل ، والإقرار سيد الأدلة . وشهادة الشاهد تقدم للقاضى الدليل الذى يرتب عليه الحكم . وهكذا يشهد المؤمن على نفسه .

وهناك معنى آخر : أنه يشهد على نفسه ولو كانت الشهادة تجر وبالا عليه ، وهذه المعانى من معطيات الإشعاعات القرآنية ؛ فالمؤمن يشهد على نفسه للإقرار ، وقد لا تكون الشهادة على النفس بل قد تكون الشهادة واجبة عليه يؤديها لمصلحة غيره ولا يخاف فيها الشاهد من السلطان حتى وإن جار السلطان على المؤمن وأصابه بوبال فى نفسه أو ماله ، ومن الناس من أصابه وبال فى نفسه أو أهله من السلطان لمجرد كلمة حق قيلت . فالسلطان قد لا يأخذ الإنسان بذنبه ، بل قد يأخذ أهل الإنسان بهذا الذنب . والحق يوضح للعبد : لا تهتم بذلك ولا تقولن سيعذبون العيال أو سيأخذون كل شىء ، إننى أنا الموجود المتكفل بعبادى .

ويطلب الحق من المؤمنين : « كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو

الوالدين والأقربين » . وحين يشهد الإنسان على نفسه فلن يكون أبوه أو أمه أو أحد أقاربه أعز منه .

ثم يدخل بنا الحق إلى أن استحثاثات مخالفة العدالة تدخل فيها الأهواء ، وحين يرجح إنسان الباطل غير الواقع على حق واقع ، فالمرجح هو هوى النفس ، ومنشأ الهوى أن يكون المشهود عليه غنياً فيخاف الإنسان أن يشهد عليه ، فيمنعه من خير ما .

ولذلك حدد الحق قوامة المؤمنين بالقسط والشهادة لله ولو على النفس أو الأب أو الأم أو الأقارب ، ولا يصح أن يضع أحد من المؤمنين ثراء أو فقر المشهود له أو عليه فى البال ، بل يجب أن يكون البال مع الله فقط ؛ لذلك قال : « إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا » .

وقد يقول قائل : إن الهوى قد ينحاز إلى الغنىّ طمعاً فى ثرائه ؛ فلماذا يذكر الله الفقير أيضاً ؟ ونقول : قد ينحاز الهوى إلى الفقير رحمةً بالفقير فيحدِّث الشاهد نفسه « أنه فقير ويستحق الرحمة » ؛ لذلك يحذرنا الحق من الانحياز إلى الغنى أو إلى الفقير .

ولا دخل للشهادة بثراء الثرى أو بفقر الفقير ؛ لأن العبد المؤمن ليس أولى أو أحق برعاية مصالح الناس من خالقهم ـ جل شأنه ـ ولذلك جاء بالحيثية الملجمة « فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا » أى أنك أيها العبد لم تخلق أحداً منهما ولكن الله خالق الاثنين وهو أولى بهما فليس لك أن تقيم شهادتك على الثراء أو على الفقر لأنك لست القَيِّم على الوجود .

والذى يفسد ويشوش على العدل هو الهوى ، والمثل العربى يقول : «آفة الرأى الهوى » . وإياكم أيها المؤمنون واتباع الهوى حتى لا تفسد قدرتكم على العدل وتجنحوا بعيداً عنه . والتاريخ العربى يحتفظ لنا فى ذاكرته حكاية رجل فاضل ذهب إلى الخليفة وقال له : أعفنى من القضاء ! فقال الخليفة : فمن يكون للقضاء إذن وأنت العادل الذى شهد له كل الناس بذلك ؟

فقال القاضى : والله يا أمير المؤمنين لقد عرف الناس عنى أنى أحب الرُّطب ـ أى البلح ـ وبينما أنا فى بيتى وإذا بالخادم قد دخل ومعه طبق من رطب وكنا فى بواكير الرطب ، ومن الطبيعى أن تكون النفس فى لهفة عليه مادامت تحبه ، ويتابع القاضى حكايته للخليفة : فقلت للخدام من جاء به ؟ فأجاب الخادم : إنه واحد صفته كذا وكذا فتذكرت أن مَن أرسل الرطب هو واحد من المتقاضين أمامى ، فرددت عليه الرطب ، ولما كان يوم الفصل فى قضية صاحب الرطب ، دخل الرجل علىّ فعرفته فوالله يا أمير المؤمنين ما استويا فى نظرى هو وخصمه على الرغم من أنى رددت الطبق . وهكذا استقال القاضى العربى المسلم من منصب القضاء .

ويتابع الحق سبحانه : « وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً » . أن تلووا فى الشهادة واللىّ هو التحريف . . أى تحرفوا الشهادة وتغيروها ، فإن الله بما تعملون خبير ، أو أن يُعْرِض الشخص عن أداء الشهادة لأنه يخاف من المشهود عليه ، لذلك يقال : إنه خائف من المشهود عليه ؛ لأن الشهادة ترجح حكم المشهود له ، لهذا فهو يعرض عن الشهادة ، وإن جاء للشهادة فهو يلف الكلمات ويلوى لسانه بها ، لذلك يقول الحق : « وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً » .

إذن فالذى يفسد العدل هو الهوى ، والهوى عمل القلب ، لذلك نحتاج إلى خبرة الخبير اللطيف . فعلينا أن نعلم أن النيات عمل القلوب ، وبذلك صار العمل ينقسم الآن أمامنا إلى ثلاثة أقسام : قول لسان ، وفعل بجوارح غير اللسان ، ونيات قلوب وهوى .

ومن بعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ

وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾

وقد يقول إنسان ما : كيف يقول الحق فى صدر هذه الآية منادياً المؤمنين بالإيمان فقال : آمنوا ، وبعد ذلك يطالبهم بأن يؤمنوا ؟ ونقول : نرى فى بعض الأحيان رجلاً يجرى كلمة الإيمان على لسانه ويعلم الله أن قلبه غير مصدق لما يقول ، فتكون كلمة الإيمان هى حق صحيح ، ولكن بالنسبة لمطابقتها لقلبه ليست حقاً . وتعرضنا من قبل لقول الحق :

﴿ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾ ﴾

(سورة المنافقون)

لقد شهد المنافقون أن رسول الله مرسل من عند الله ، هذه قضية صدق ، لكن الله العليم بما فى القلوب يكشف أمرهم إلى الرسول فيقول :

﴿ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴾

(من الآية ١ سورة المنافقون)

لقد وافقت شهادتهم بألسنتهم ما علمه الله . لكن القول منهم يخالف ما فى قلوبهم ، فشهد الحق إنهم لكاذبون . ويعلم سبحانه كذبهم فى شهادتهم ؛ لأن المنافق منهم لم يشهد صحيح الشهادة ؛ لأن الشهادة الحقة هى أن يواطىء اللسانُ القلبَ . وبعض من الأغبياء الذين يحاولون الاستدراك على القرآن قد عميت بصيرتهم عن الإحساس باللغة والفهم لأسرارها ؛ لذلك يتخبطون فى الفهم . فهم لا يعرفون صفاء التلقى عن الله . وقالوا : إن بالقرآن تضارباً ، ولم يعرفوا أن كذب المنافقين لم يكن فى مقولة:إن محمدًا رسول الله،ولكن فى شهادتهم بذلك ، وكذبهم الله فى قولهم: « نشهد » فقط ، فقد أعلنوا الإيمان بألسنتهم ولم تؤمن قلوبهم .

وإن أردنا أن نفهم أن الخطاب للمؤمنين عامة ، بأن يؤمنوا ، فهذا طلب للارتقاء

بمزيد من الإيمان ، ولنا فى قول الحق المثل الواضح فى حديثه للنبى ؛ قال الحق :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ ﴾

(سورة الأحزاب)

الحق هنا يقول للمتقى الأول محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اتق الله » ، أى يأمره بالقيام دائماً على التقوى .

إذن فمعنى قول الحق : « يا أيها الذين آمَنُوا آمِنُوا » أن الحق يخاطبكم بلفظ الإيمان . ويريد أن يتصل إيمانكم بعد كلامه الحق مع إيمانكم قبل كلامه ، فلا ينقطع ولا ينفصم خيط الإيمان أبداً . بل لا بد من المداومة على الإيمان ، وألا يترك مؤمن هذا الشرف . فإن رأى واحد منكم منادًى بوصف طُلبِ منه الوصفُ بعده فليعلم أن المراد هو المداومة .

ونعلم أن الحق هنا يخاطب مؤمنين ومنافقين وأهل كتاب ؛ لذلك فلا بد أن تشملهم الآية : « يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله » لأن الإنسان إن آمن بالله فقط ، فهذا يقتضى أن يبحث المؤمن بالله عن مطلوب الله ، ومطلوب الله إنما جاء به رسول ؛ لذلك فالإيمان بالله يقتضى أن يؤمن الإنسان برسول ، لأن قصارى ما يعطيك العقل أيها الإنسان أن تؤمن بأن وراء الكون إلهاً خلقه ويدبره . ولكن ما اسم هذا الإله ؟ لا يعرف الإنسان ذلك إلا عن طريق الرسول .

إن هذه أمور لا تعرف بالعقل ولكن لا بد من الإخبار بها ، وكذلك مطلوبات الله ، وكذلك جزاء المؤمنين على حسن إيمانهم ، ولذلك لا بد من مجىء رسول للبلاغ .

إذن فلا بد مع الإيمان بالله أن تؤمن بالرسول . ومادمت أيها المؤمن قد آمنت برسوله فلا بد أن تؤمن بالكتب التى جاءت على لسان الرسول . وهذه الكتب تقول لك : إن هناك خلقاً لله لا تراهم وهم الملائكة ، والمَلَكُ يأتى بالوحى وينزل به على الرسول ، على الرغم من أنك لم تر الملك فأنت تؤمن بوجوده .

إذن فالقمة الإيمانية هى أن تؤمن بالله ، ولازمها أن تؤمن برسول الله ، وأن تؤمن

بكتاب مع الرسول ، وأن تؤمن بما يقوله الله عن خلق لا تستطيع أن تدركهم كالملائكة . وهذا الأمر بالإيمان هو مطلوب من أهل الكتاب لأنهم آمنوا برسلهم ، ويطلب منهم أن يؤمنوا برسول الله وبما أنزل عليه .

ويترك الحق سبحانه وتعالى لخلقه أن يكتشفوا وجوداً لكائنات لم تكن معلومة لأنهم حُدِّثوا بأن فى الكون كائنات أبلغنا الله بوجودها ولا ندركها وهم الملائكة . ـ إذن ـ فالدليل عندهم يحثهم ويدفعهم إلى الكشف والبحث .

والمثال على ذلك الميكروب الذى لم تعرفه البشرية إلا فى القرن السابع عشر الميلادى ، وكان الميكروب موجوداً من البداية ، لكننا لم نكن ندركه ، وبعد أن توصلت البشرية إلى صناعة المجاهر أدركناه وعرفنا خصائصه وفصائله وأنواعه ، ومازالت الاكتشافات تسعى إلى معرفة الجديد فيه ، هو جديد بالنسبة لنا ، لكنه قديم فى وجوده .

ومعنى ذلك أن الله يوضح لنا : إذا حُدثتَ أيها الإنسان من صادق على أن فى الكون خلقاً لا تدركه أنت الآن فعليك بالتصديق ؛ فقبل اكتشاف الميكروب لو حدث الناسَ أحدٌ بوجود الميكروب فى أثناء ظلام العصور الوسطى لما صدقوا ذلك ، على الرغم من أن الميكروب مادة من مادة الإنسان نفسها لكنه صغير الحجم بحيث لا توجد آلة إدراك تدركه . وعندما اخترعنا واكتشفنا الأشياء التى تضاعف صورة الشىء مئات المرات استطعنا رؤيته ، فعدم رؤية الشىء لا يعنى أنه غير موجود .

فإذا ما حدثنا الله عن خلق الملائكة والجن والشيطان الذى يجرى فى الإنسان مجرى الدم ، فهنا يجب أن يُصدق ويؤمن الكافر والملحد بذلك ، لأنه يُصدق أن الميكروب يدخل الجسم دون أن يشعر الإنسان ، وبعد ذلك يتفاعل مع الدم ثم تظهر أعراض المرض من بعد ذلك ، وقد علم ذلك بعد أن تهيأت أسباب الرؤية والعلم . فإذا كان الله قد خلق أجناساً من غير جنس مادة الإنسان فلنصدق الحق :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ

وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ﴾

(من الآية ١٣٦ سورة النساء)

والمعروف أن الكتاب هو القرآن وهو عَلَمٌ عليه ، أما الكتاب الذى أنزل من قبل فلنعرف أن المراد به هو جنس الكتاب . . أى كل الكتب التى نزلت على الرسل السابقين على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولذلك يقال على « الـ » السابقة لكلمة الكتاب الثانية : « هى « الـ » الجنسية . والجنس كما نعلم ـ تحته أفراد كثيرة بدليل أن الحق سبحانه وتعالى يأتى بالمفرد ويدخل عليه الألف واللام ويستثنى منه جماعة ، مثال ذلك :

﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾

(سورة العصر)

نجد « الإنسان » هنا مفرد ، ودخلت عليه « الـ » ، واستثنى من الإنسان جماعة هم الذين آمنوا ، وهذا دليل على أن « الإنسان » أكثر من جماعة . ولذلك يقولون : إن الاستثناء معيار العموم . . أى أن اللفظ الذى استثنينا وأخذنا وأخرجنا منه لفظ عام .

ويطالبنا الحق بالإيمان بالكتاب أى القرآن ؛ فإذا أطلقت كلمة « الكتاب » انصرفت إلى القرآن ؛ لأن « الـ » هنا (للغلبة) ، مثال ذلك : يقال : « هو الرجل » ، وهذا يعنى أنه رجل متفرد بمزايا الرجولة وشهامتها وقوتها ، فإذا أطلقنا الكتاب فهى تعنى القرآن ؛ لأن كلمة الكتاب غلب إطلاقها على القرآن فلا تنصرف إلّا إليه ، أو أنه هو الكتاب الكامل الذى لا نسخ ولا تبديل له ، فـ« الـ » هنا للكمال أما الكتاب الذى أُنزل من قبل فهو يشمل التوراة والإنجيل وسائر الكتب ، والصحف المنزلة على الأنبياء السابقين .

« ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالاً بعيداً » أى إن آمن بالله وكفر ببقية ما ذكر فى الآية فهو كافر أيضا .

وكان بعض اليهود كعبدالله بن سلام ، وسلام بن أخته ، وسلمة بن أخيه ،

وأسد وأسيد ابنى كعب ، وثعلبة بن قيس ، ويامين بن يامين قد ذهبوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا : نحن نؤمن بك وبكتابك وموسى والتوراة وعزير، ونكفر بما سواه من الكتب والرسل ، فقال عليه الصلاة والسلام : « بل آمنوا بالله ورسوله محمد وكتابه القرآن وبكل كتاب كان قبله » فقالوا : لا نفعل . فنزلت فآمنوا كلهم[1] .

والخطاب والنداء يشمل أيضا المنافقين . أى يأيها الذين آمنوا فى الظاهرنفاقا ، أخلصوا لله واجعلوا قلوبكم مطابقة لألسنتكم ، فالنداء - إذن - يشمل المؤمنين ليستديموا ويستمروا على إيمانهم ، ويضم الكافرين من أهل الكتاب ليؤمنوا بكل رسول وبكل كتاب ، وهو أيضا للمنافقين ليخلصوا فى إيمانهم حتى تطابق وتوافق قلوبهم ألسنتهم .

إذن فمن يكفر بأى شىء ذكره الله فى هذه الآية فقد كفر بالله .

« ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالاً بعيداً » و« ضل » أى سار على غير هدى ، فعندما يتوه الإنسان عن هدفه المقصود يقال : ضل الطريق ، والذى « ضل ضلالاً بعيداً » هو من يذهب إلى متاهة بعيدة ، والمقصود بها متاهة الكفر .

وهناك ضَلال عن الهدى يمكن استدراكه ، أما الضلال البعيد والغرق فى متاهة الكفر فمن الصعب استدراكه ، والضُلاَّلُ متحدون فى نقطة البداية ، لكنهم فريقان يختلفان ، فأحدهما يسير فى طريق الإيمان وهو منتبه دائماً إلى غايته وهى رضاء الله بتطبيق مطلوباته ، ويحذر أن يخالف عن أمره ، والآخر انحرف من البداية فوصل إلى متاهة الكفر .

ويقول الحق من بعد ذلك :

---

(١) الكشاف لجار الله الزمخشرى .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴿١٣٧﴾ ﴾

وهؤلاء هم المنافقون الذين أعلنوا الإيمان وأبطنوا الكفر وقال الله عنهم :

﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

إذن ، هم حولوا الإيمان من عقيدة إلى مجرد كلمة تقال ، وكانوا فى غاية الحرص على تأدية مطلوبات الإسلام بالأعمال الظاهرية حتى يدفعوا عن إسلامهم الريبة . أما قلوبهم فهى مع الكفر ؛ لذلك أرادوا أن يُلَبِّسوا فى المنطق ويُدَلسُوا فيه .

﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾

(من الآية ١٤ سورة الحجرات)

ويفضحهم الحق أمام أنفسهم . وبالله عندما يعرفون أنهم مجرد مسلمين باللسان ولكن قلوبهم لم تؤمن ويخبرهم الرسول بذلك ويقول لهم بلاغاً عن الله : « قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم » . وكانوا أسبق الناس إلى صفوف الصلاة ، وعندما فضحهم الرسول وأوضح لهم : أنتم لم تؤمنوا ولكنكم أسلمتم فقط . هنا عرفوا أن محمداً قد عرف خبايا قلوبهم بلاغاً عن الله .

ولو قالوا : إن محمداً هو الذى عرف هذه الخبايا لما اقتصر اعترافهم به كرسول ، بَلْ رُبَّما تمادوا فى الغىّ وأرادوا أن يجعلوه إلهاً . ولكن رسول الله يحسم الأمر : ويبيّن لهم أن الله هو الذى أبلغنى ، بدليل أنه أمِر أن يقول لهم : « قل لم تؤمنوا » .

ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقر بأن هذا الأمر ليس فيه شيء من عنده بل هو مأمور بالبلاغ عن الله ربِّه . وفى عصرنا قال برنارد شو : إن الذين يكذبون أن محمداً رسول من عند الله يريدون أن يجعلوه إلهاً ، فمن أين أتى بهذه الأشياء التى لم تكن معلومة فى عصره ؟ . .

إن الناس جميعا مطالبون بالتصديق بمحمد رسولاً من عند الله ؛ لأنه قال عن أشياء لا يمكن أن يقولها واحد من البشر . والرسول صلى الله عليه وسلم بذاته يوضح بحسم هذا الكلام ويبيّن أن هذا ليس من عندى ، لكنه من عند الله .

« قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم » . وهذا كشف محرج ومنطقى لما فى قلوبهم ؛ لهذا قال السامعون للآية : الحمد لله أن هناك أملاً فى أن يدخل الإيمان قلوبنا . وقد دخل الإيمان فى قلوبهم بالفعل لأن كلمة (لمَّا) تفيد نفى الإيمان عنهم فى الزمن الماضى ولكنها تفيد أيضا توقع وحصول الإيمان منهم وقد حصل .

« إن الذين آمنوا ثم كفروا ، ثم آمنوا ثم كفروا ، ثم ازدادوا كفراً » أى ماتوا على الكفر ، أو آمنوا بموسى ، ثم كفروا بعيسى ، وجاء أناس آخرون آمنوا بعيسى ، وازدادوا كفراً بعدم الإيمان بمحمد ، فليس من بعد محمد صلى الله عليه وسلم استدراك .

ويخبرنا سبحانه بمصيرهم : « لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلاً » لأنهم دخلوا فى الإيمان مرة ثم خرجوا من الإيمان . ومعنى سلوكهم أنهم قصدوا الفتنة لأن الآخرين سيشاهدونهم وقد آمنوا ، وسيشاهدونهم وهم يكفرون ، وسيعللون ذلك بأنهم عندما تعمقوا فى المسائل العقدية كفروا وهم يفعلون ذلك ليهوِّنوا من شأن الإسلام ، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

هم إذن يقصدون الفتنة بإظهار الإيمان ثم إعلانهم الكفر وفى ذلك تشكيك للمسلمين ، ويكون مصير مَن تردّدَ بَيْنَ الإيمان والكفر ، وكان عاقبة أمرهم أنهم ازدادوا كفرا يكون مصيرهم ما جاء فى قوله : « لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلاً » فهم قد دخلوا فى الخيانة العظمى الإيمانية التى يحكمها قوله الحق :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾

(من الآية ٤٨ سورة النساء)

ويقول الحق عنهم هنا : « لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلاً » . والهداية ـ كما نعلم ـ ترد بمعانٍ متعددة . . فقد يكون المقصود منها الدلالة ، فإن شئت تدخل الإيمان وإن شئت لا ، ولا شأن لأحد بك . والمعنى الثانى هو المعونة ، أى يقدم لك الله ما يهديك بالفعل . وعندما تعرض القرآن لهذه المسألة قال :

﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة فصلت)

فسبحانه هنا قد دلهم على الهداية ، ولم يقدم لهم الهداية الفعلية لأنهم استحبوا العمى على الهدى ، فكأن الله قد دل على المنهج الذى يوصل الخير والبر لكل الناس ، فمن أقبل بإيمان فالحق يمده بهداية المعونة ويعاونه على ازدياد الهدى ، مصداقاً لقوله :

﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴾

(من الآية ١٣ سورة الكهف)

ولا نريد لهذا المثل أن يغيب عن الأذهان ؛ لذلك أؤكده دائما : شرطى المرور الواقف فى بداية الطريق الصحراوى . يسأله سائل : ذاهب إلى الإسكندرية عن الطريق ؛ فيدله على الطريق الموصل للإسكندرية ، هنا قام الشرطى بالدلالة ، ثم شكر الرجلُ الشرطىَّ وحمد الله على حسن شرح الشرطى ؛ ويحس ويشعر رجل المرور بالسعادة ، ويحذر الرجل المسافر من عقبات الطريق ، ويركب معه ليشير له على تلك العقبات حتى يتفاداها . أى أنه من بعد الدلالة قد حدثت المعونة . كذلك الحق يدل الناس على الإيمان وعلى المنهج ، فالذى يؤمن به يساعده ويخفف عليه

الطاعة ، قال الحق سبحانه فى شأن الصلاة :

﴿ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴾

(من الآية ٤٥ سورة البقرة)

إذن نحن نجد الهداية على مرحلتين : هداية الدلالة ، وهداية المعونة .

ويريد الحق لقضية الإيمان أن تكون قضية ثابتة متأصلة بحيث لا تطفو إلى العقل لتناقش من جديد . فمبدأ الإيمان لا يتغير فى مواكب الرسالات من سيدنا آدم إلى أن ختمها بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

وقال سبحانه :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ ﴾

(سورة النساء)

إذن سبحانه يريد من المؤمن أن يؤمن بالقمة العليا ، وهى الإيمان بالله واجب الوجود الأعلى ، وأن يؤمن بالبلاغ عنه كتاباً ، وأن يؤمن بالبلاغ عنه رسالة على لسان أى رسول . والذين يؤمنون مرة برسول ثم يكفرون برسول آخر ، أو الذين يؤمنون برسول ثم يكفرون بنسبة الصاحبة أو الولد لله ثم يزدادون كفراً بالخاتم وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس لهم مجال مع الهداية إلى الله ؛ لأن الإسلام جاء بالنهاية الخاتمة وليس للسماء من بعد ذلك استدراك ، وليس لأحد من بعد ذلك استدراك ، ولذلك قال فى أول الآية : « آمنوا ثم كفروا . ثم آمنوا . ثم كفروا » . وقال فى آخر الآية:« ثم ازدادوا كفرا » أى أنهم لم يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم وليس هناك مجال أن ينتظروا رسولاً آخر لينسخوا كفرهم بمحمد ويؤمنوا بالرسول الجديد .

ويوضح سبحانه : لم يكن الله ليهديهم لأنهم هم الذين صرفوا أنفسهم عنه ، فالله لا يمنع الهداية عمن قدم يده ومدّها إليه ، بل يعاونه فى هدايته ، أما من ينفض يده من يد الله فلا يبايعه على الإيمان فالله غنى عنه ، ومادام الله غنياً عنه فسيظل فى ضلاله ؛ لأن الهداية لا تكون إلا من الله . ولم يكن الله ليهديهم سبيلاً إلى هداية

أخرى ولا هادى إلا هو . ولم يكن الله ليهديهم سبيلاً إلى الجنة ؛ لأنهم لم يقدموا الأسباب التى تؤهلهم للدخول إلى الجنة .

ولذلك يشرحها الله فى آية أخرى :

﴿ لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴾

(من الآية ١٦٨ ومن الآية ١٦٩ سورة النساء)

وهكذا نجد طريق جهنم معبداً مُذَلَّلاً بالنسبة لهم .

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ﴾

سمة التردد والتذبذب بين الإيمان والكفر لا تأتى من أصيل فى الإيمان ، بل تأتى من متلون فى الإيمان ، تبدو له أسباب فيؤمن ، وبعد هذا تبدو له أغيار فيكفر . وذلك شأن المنافقين المذبذبين بين هؤلاء وهؤلاء . فيقول الحق : « بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً » .

ونحن نعلم أن المنافق هو الذى جمع بين أمرين : إعلان إسلام ، وإبطان كفر . والنفاق مأخوذ من نافقاء اليربوع ، وهى إحدى جحوره التى يستتر ويختفى فيها ، واليربوع حيوان صحراوى يخادع من يريد به شراً فيفتح لنفسه بابين ؛ يدخل أمام الرجل من باب ثم يخرج من باب آخر . فإن انتظره الرجل على باب فاليربوع يخرج من الآخر .

« بشر المنافقين » والبشارة هى الإخبار بشىء يسر سيأتى زمنه بعد . وهل المنافقون يبشرون ؟ لا . إن البشارة تكون بخير ؛ لذلك نتوقع أن ينذر المنافقون ولا يبشرون ، ولكن لله فى أساليبه البلاغية تعبيرات لتصعيد العذاب . فلو قال :

أنذرهم بعذاب أليم ، لكان الكلام محتملاً ، فهم ـ كمنافقين ـ مستعدون لسماع الشر . ولكن الحق يقول : « بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً » وذلك هو التهكم والاستهزاء والسخرية ، وهى من معينات البليغ على أداء مهمته البلاغية . ونسمع المفارقات أحياناً لتعطينا صورة أصدق من الحقيقة . فإذا جئت إلى بخيل مثلاً ، وقلت له : مرحباً بك يا حاتم . ماذا يكون موقف من يحضر هذا اللقاء ؟

أنت تنقله من واقع البخيل إلى تصور حاتم الطائى أصل الكرم . وبذلك نقلت البخيل نقلتين : نقلة من وضعه كبخيل ؛ ثم السخرية منه ؛ لأن قولك لبخيل ما : يا حاتم هو تقريع وتهكم وسخرية واستهزاء ، لأنك نقلته من وصف خسيس وحقير إلى وصف مقابل هو سَام ورفيع وعظيم تحقيرا له واستهزاء به ، ومن المقارنة يبدو الفارق الكبير . وإذا ما جئت مثلاً لرجل طويل جداً ، وقلت : مرحبا بك يا قزم . هذه هى المفارقة ، كما تقول لقصير : مرحبا يا مارد . أو إذا جئت لطويل لتصافحه ، فيجلس على الأرض ليُسلم عليك . . هذه أيضاً مفارقة . وإن جئت لرجل قصير لتصافحه فتجلس على الأرض لتسلم عليه فهذه هى السخرية والتهكم .

وهذه المفارقات إنما تأتى للأداء البلاغى للمعنى الذى يريده المتكلم ، فقول الحق : « بشر المنافقين » معناه : أنكم أيها المنافقون قد صنعتم لأنفسكم بالنفاق ما كنتم تحبون ، وكأنكم نافقتم لأنكم تحبون العذاب . ومادمتم قد نافقتم لأنكم تحبون العذاب ، فأنا أبشركم بأنكم ستتعذبون . والذى ينافق ألا يريد من ذلك غاية ؟ لذلك يصور له الحق أن غايته هى العذاب ، فقال الحق : « بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً » .

إنك حين تريد تصعيد أمر ما ، فأنت تنقل مخاطبك من شىء إلى الشىء المقابل وهو النقيض ، مثال ذلك : إنسان عطشان لأنه محجوز أو مسجون وأراد أن يشرب شربة ماء ، من الممكن أن يقول له الحارس : لا . ويجعله ييأس من أن يَأتى له بكوب ماء ، أما إن أراد الحارس تصعيد العذاب له فهو يذهب ويأتى بكوب ماء ويقربه منه ، فإذا مد السجين يده ليأخذ كوب الماء فيسكب الحارس كوب الماء على الأرض هذا هو تصعيد العذاب . وحين يقال:« بَشِّر » فالمستمع يفهم أن هناك شيئاً

يسر ، فإذا قال الحق : « بأن لهم عذاباً أليماً » فمعنى ذلك أن الغم يأتى مركباً . فقد بسط الحق أنفسهم بالبشارة أولاً ، ثم أنهاها بالنذارة .

وعلى سبيل المثال ـ ولله المثل الأعلى ـ يقول الأب لابنه : استذكر يا بنى حتى لا ترسب ، لكن الابن يستمر فى اللعب ثم يقول الأب : يابنى لقد اقترب الامتحان ولا بد أن تذاكر . ولا يأبه الابن لكلام الأب ، ثم يأتى الامتحان ويذهب الأب يوم اعلان النتيجة ، فيكون الابن راسباً ؛ فيقول الأب لابنه : أهنئك لقد رسبت فى الامتحان ! فقوله أهنئك تبسط نفس الابن ؛ لأنه يتوقع سماع خبر سار ، ويسمع بعدها لقد رسبت تعطيه الشعور بالقبض .

والحق سبحانه وتعالى يبلغ رسوله : « بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً » « بشر » لها علاقة بالمدلول الاشتقاقى ؛ لأن الانفعالات يظهر أثرها على بشرة وجهه ؛ فإن كان الانفعال حزنا فالوجه يظهر عليه الحزن بالانقباض ، وإن كان الانفعال سروراً فالوجه يظهر عليه السرور بالانبساط . وتعكس البشرة انفعالات النفس البشرية من سرور وبشاشة وإشراق أو عبوس وتجهم ، فالبشارة تصلح للإخبار بخبر يسر ، أو بخبر يحزن ويسىء ، ولكنها غلبت على الخبر السار ، وخصت النذارة بالخبر الذى يحزن وتنقبض النفس له .

« بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً » . والبشارة ـ كما قلنا ـ توحى بأن هناك خبراً ساراً ، فيأتى الخبر غير سار . وكما يقول الحق فى آية أخرى يصور بها عذاب الكافرين يوم القيامة وكيف أنّه يصعد العذاب معهم :

﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الكهف)

ساعة نسمع « وإن يستغيثوا يغاثوا بماء » نفهم أن برداً يأتى لهم أو رحمة تهب عليهم ، ولكن الإغاثة التى تأتى لهم هى :

﴿ كَٱلْمُهْلِ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الكهف)

ويتساءل السامع أو القارىء : هل هذه إغاثة أو تعذيب ؟ وهذا تصوير لتصعيد العذاب ؛ فالماء الذى يعطى لهم كالمهل يصعِّد الألم فى نفوسهم .

والعذاب ـ كما نعلم ـ يأخذ قوته من المعذِّب ، فإن كان المعذِّب ذا قوة محدودة ، كان العذاب محدوداً . وإن كان المعذِّب غير محدود القوة فالعذاب غير محدود ، فإذا ما نسب العذاب إلى قوة القوى وهو الله فكيف يكون ؟ والعذاب يوصف مرة بأنه أليم ، ومرة بأنه مهين ، ومرة بأنه عظيم ، هذه الأوصاف كلها تتجمع ولكل وصف منها جهة ؛ فالألم هو إحساس النفس بما يتعبها ، والعذاب العظيم هو العذاب الذى يبلغ القمة ، وقد يبلغ العذاب القمة ولكن المعذَّب يتجلد ، وعذاب الحق يفوق قدرة متلقى العذاب فلا يقدر أن يكتم الألم ؛ لأن درجة تحمل أى إنسان مهما تجلد لا تستطيع أن تدفع الألم ، ومع العذاب العظيم ، نجده أليما أيضا ، فيكون العذاب الأليم العظيم مؤلما للمادة ، لكن النفس قد تكون متجلدة متأبية ثم تنهار ، حينئذ يكون العذاب مهينا .

ولأن المنافقين والكفار غارقون فى المادية آثر الله وصف العذاب بأنه أليم لأن الإيلام يكون للمادة ، ثم يذكر الحق سبحانه وتعالى بعض الأوصاف للمنافقين فيقول :

﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ ﴾

وأول مظهر من مظاهر النفاق أن يتخذ المنافقُ الكافرَ ولياً له ؛ يقرب منه ويوده ، ويستمد منه النصرة والمعونة ، والمؤانسة ؛ والمجالسة ، ويترك المؤمنين . وعرفنا أن كل فعل من الأفعال البشرية لا بد أن يحدث لغاية تُطْلَب منه ، ولا يتجرد الفعل عن

الغاية إلا فى المجنون الذى يفعل الأفعال بدون أى غاية ، لكن العاقل يفعل الفعل لغاية ، ولهدف يرجوه . والمنافقون يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين لأى غاية ولأى هدف ؟

ويكشف الحق هذه المسألة فيوضح : أنهم يبتغون العزة من الكافرين ، ولذلك اتخذوهم أولياء من دون المؤمنين . ويلفتهم ـ جل شأنه ـ إلى جهلهم ؛ لأنهم أخذوا طريقاً يوصلهم إلى ما هو ضد الغاية .

فماداموا يبتغون العزة فليعرفوا أولاً : ما العزّة ؟ . العزة مؤخوذة من معنى مادى وهو الصلابة والشدة . فالأرض العَزَاز أى الصلبة التى لا ينال منها المعول ، ثم نقلت إلى كل شديد ، فكل شىء شديد فيه عِزّة . والمراد بها هنا : الغلبة والنصر ، وكل هذه المعانى تتضمنها العزة .

فإذا قيل : الله عزيز . . أى أنه سبحانه وتعالى غالب على أمره شديد لا يمكن أن يقدر على مِحاله أو مكره أو قوته أو عقابه أحد . وإذا قيل: فلان عزيز أى لا يُغلب ، وإذا قيل: هذا الشىء عزيز أى نادر ، ومادام الشىء نادراً فهو نفيس ، والمعادن النفيسة كلها أخذت حظها من ندرتها وقلتها .

وما دمتم أيها المنافقون تطلبون العزة ، ألا تطلبونها ممن عنده ؟ . أتطلبونها من نظائركم ؟ . وعندما تطلبون العزة فذلك لأنكم لا تملكون عزة ذاتية ، فلو كانت عندكم عزة ذاتية لما طلبتم العزة من عند الكافرين . وهذا دليل على فقدانهم العزة لأنهم طلبوها من مساوٍ لهم من الأغيار ، فالنافقون بشر ، والكفار بشر ، وبما أن كل البشر أغيار ، فمن الممكن أن يكونوا أعزاء اليوم وأذلاء غداً ؛ لأن أسباب العزة هى غنى أو قوة أو جاه ، وكل هذه من الأغيار .

فأنتم أيها المنافقون قد طلبتم العزة ممن لم يزد عليكم ، وهو من الأغيار مثلكم ، ولم تطلبوها من صاحب العزة الذاتية الأزلية الأبدية وهو الحق سبحانه وتعالى ، ولو أردتم العزة الحقيقية التى تغنيكم عن الطلب من الأغيار مثلكم فلتذهبوا إلى مصدر العزة الذى لا تناله الأغيار وهو الحق سبحانه وتعالى .

لذلك أوضح لهم الحق : إن أردتم أن تتعلموا طلب العزة فعليكم أن تغيروا من أسلوبكم فى طلبها ، فأنتم تتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين وتبتغون عندهم العزة وهم من أهل الأغيار ، والأغيار تتبدل من يوم إلى يوم ، فإن كان الكفار أغنياء اليوم ، فغداً لن يكونوا كذلك ، ولقد رأيتم كبشر أن الغَنِىَّ يفتقر ، ورأيتم قوياً قد ضعف ، وطلب العزة من الأغيار يعنى أنكم غير أعزاء ، ومع ذلك فأنتم تطلبون العزة من غير موضعها . فإن أردتم عزة حقيقية فاطلبوها ممن لا تتغير عزته وهو الحق سبحانه وتعالى : « فإن العزة لله جميعاً » .

وفى هذا القول تصويب لطلب العزة . وليطلب كل إنسان العزة إيمانا بالله ؛ فسبحانه الذى يهب العزة ولا تتغير عزته : « فإن العزة لله جميعاً » . وكلمة « جميعاً » هذه دلت على أن العزة لها أفراد شتى : عزة غنى ، عزة سلطان ، عزة جاه ، فإن أراد واحد أن يعرفها ويعلمها فهى ـ جميعا ـ فى الحق سبحانه وتعالى .

والمؤمنون فى عبوديتهم لله عبيد لإله واحد ؛ وقد أغنانا الله بالعبودية له عن أن نذل لأناس كثيرين . وسبحانه قد أنقذ المؤمن بالإيمان من أن يذل نفسه لأى مصدر من مصادر القوة ، أنقذ الضعيف من أن يذل نفسه لقوى ، وأنقذ الفقير من أن يذل نفسه لغنى ، وأنقذ المريض من أن يذل نفسه لصحيح .

إذن ساعة يَقول الحق : « فإنَّ العزة لله جميعا » فمعناها : إن أردت أيها الإنسان عزاً ينتظم ويفوق كل عز فاذهب إلى الله ؛ لأنه سبحانه أعزنا فنحن خلقه ، وعلى سبيل المثال نجد أن الحق لم يجعل الفقير يقترض ، بل قال :

﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ ﴾

(من الآية ٢٤٥ سورة البقرة)

وهنا يرفع الله عبده الفقير إلى أعلى درجات العزة . العبد الفقير لا يقترض ، ولكن القرض مطلوب لله ، ولذلك قال أحدهم لأحد الضعفاء : إنك تسأل الناس ، ألا تعف ولا تسأل ؟ . فقال : أنا سألت الناس بأمر الله ، فالسائل يسأل بالله ، أى أنه يتخذ الله شفيعاً ويسأل به . وعندما يطلب الإنسان العزة من مثيل له ، فهو يعتز بقوة هذا الكائن وهى قوة ممنوحة له من الله وقد يستردها ـ سبحانه ـ

منه . فما بالنا بالقوة اللانهائية لله ، وكل قوة فى الدنيا موهوبة من الله ، المال موهوب منه ، والجاه موهوب منه ، وكل عزة هى لله .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ ﴾

يأمر الحق المؤمنين أنهم إذا سمعوا بعضاً من الكافرين يهزأ بآيات الله أو يكفر بها فلا يقعدوا معهم إلا أن يتحولوا إلى حديث آخر ، وذلك حتى لا يكونوا مثل الكافرين لأنه سبحانه سيجمع المنافقين والكافرين فى جهنم ، وبذلك يحمى الله وحدهُ أهل الإيمان ، ويصونهم من أى تهجم عليهم ، فالذين يغارون على الإيمان هم الذين آمنوا ، فمادمت قد آمنت وارتضيت لنفسك الإسلام فإياك أن تهادن من يتهجم على الدين ؛ لأنك إن هادنته كان أعز فى نفسك من الإيمان ، ومادمت أيها المؤمن قد ارتضيت الإيمان طريقاً لك وعقيدة فلتحم هذا الإيمان من أن يَتَهَجَّم عليه أحد ، فإن اجترأ أحد على الإيمان بشىء من النقد أو السخرية أو الرمى بالباطل . . فالغيرة الإيمانية للمسلم تحتم عليه أن يرفض هذا المجلس .

وكان المؤمنون فى البداية قلة مستضعفة لا تستطيع الوقوف فى وجه الكافرين أو المنافقين ، فساعة يترك المؤمنون الكافرين أو المنافقين لحظة اللغو فى آيات الله ، فالكافرون والمنافقون يعلمون بذلك السلوك أن عِرض الإيمان أعز على المسلمين من مجالسة هؤلاء . أما إذا جالسهم مسلم وهم يخوضون فى الإيمان . . فهذا يعنى أنهم أعز من الإيمان ، والكافرون قد يجعلونها حديثاً مستمراً لسبر غور الإيمان فى قلوب

المسلمين . أما حين يرى الكافر مؤمناً يهب وينفر من أى حديث فيه سخرية من الإسلام ، هنا يعرف الكافر أن إيمان المسلم عزيز عليه .

وهذه الآية ليست آية ابتدائية إنما هى إشارة إلى حكم سبق ، ونعرف أنها نزلت فى المدينة ؛ فالحق يقول : « وقد نزَّلَ عليكم فى الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها » ومعنى هذا أن هناك آية قد نزلت من قبل فى مكة ؛ ويقول فيها الحق :

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

ويشير الحق هنا إلى أنه قد أنزل حكماً فى البداية ، وهو الحكم الذى نزل مع الكافرين فى مكة ؛ حيث استضعف الكافرون المؤمنين ، ولم يكن المنهج الإيمانى قد جاء بمنع المؤمنين أن يجالسوا الكافرين ، فقد كان بعض المؤمنين عبيداً للكافرين ، وبعض المسلمين الأوائل كان لهم مصالح مشتركة قائمة مع الكافرين وجاء الحكم : إن ولغ هؤلاء الكافرون فى الدين بالباطل فاتركوا لهم المكان .

وسبحانه هنا فى سورة النساء يذكر المؤمنين بأن حكم ترك الكافرين لحظة اللغو فى الإيمان هو حكم ممتد منقول للمؤمنين من البيئة الأولى حيث كنتم أيها المؤمنون مع المشركين عبدة الأصنام ، والحكم مستمر أيضاً فى المدينة حيث يوجد بعض أهل الكتاب . والتكليف من الله ، هو تكليف بما يطيقه الجنس البشرى ؛ فالإنسان عرضة لأن ينسى ، وعليه بمجرد أن يتذكر فليقم تاركاً هؤلاء الذين يخوضون فى آيات الله . وقد نزل فى القرآن أن إذا سمع المؤمنون من يكفر بآيات لله ويستهزىء بها فليغادروا المكان ، ونلحظ أن الذى نزل فى الآية الأولى ليس سماعاً بل رؤية :

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾

(من الآية ٦٨ سورة الأنعام)

ويأتى السماع فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها : « وقد نزل عليكم فى الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها » والمهم هو مجرد العلم سواء كان رؤية أو

سماعاً بأنهم يخوضون فى دين الله ؛ فقد يخوض أهل الشرك أو غيرهم من أعداء الإسلام بما يُرى ، وقد يخوضون بما يسمع ، وقد يخوض بعض المشركين بالغمز أو اللمز من فور رؤيتهم لمسلم .

وقوله الحق : « فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره » يوحى أنهم إذا ما خاضوا فى حديث غير الخوض فى آيات الله فليقعد المؤمنون معهم . وكان ذلك فى صدر الإسلام ، والمؤمنون لهم مصالح مشتركة مع المشركين وأهل الكتاب ، ولا يستطيع المجتمع الإسلامى آنئذ أن يتميز بوحدته ، فلو قال لهم الحق على لسان رسوله : لا تقعدوا مع الكافرين أو المشركين فوراً . لكان فى ذلك قطع لمصالح المؤمنين .

وكلمة « يخوضون » تعطى معنى واضحاً مجسماً ؛ لأن الأصل فى الخوض أن تدخل فى مائع . . أى سائل ، مثل الخوض فى المياه أو الطين ، والقصد فى الدخول فى سائل أو مائع هو إيجاد منفذ إلى غاية .

وساعة تخوض فى مائع فالمائع لا ينفصل حتى يصير جزءاً هنا وجزءاً هناك ويفسح لك طريقاً ، بل مجرد أن يمشى الإنسان ويترك المائع يختلط المائع مرة أخرى ، ولذلك يستحيل أن تصنع فى المائع طريقاً لك . أما إذا دخل الإنسان فى طريق رملىّ فهو يزيح الرمال أولاً ويفسح لنفسه طريقاً . ولا تعود الرمال إلى سَدّ الطريق إلا بفعل فاعل ، وأخذوا من هذا المعنى وصفَ الأمر الباطل بأنه خوض ؛ ذلك أن الباطل لا هدف له وهو مختلط ومرتبك ، والجدال فى الباطل لا ينتهى إلى نتيجة .

إذن « الخوض » هو الدخول فى باطل ، أو الدخول إلى ما لا ينتهى الكلام فيه إلى غاية . ويقرر العلماء : لا تخوضوا فى مسألة الصفات العلية ؛ لأنه لا يصح الخوض فيها ، والكلام فيها لن ينتهى إلى غاية . ولذلك يقول الحق فى موقع آخر بالقرآن الكريم :

﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ

تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ ۖ قُلِ اللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

لقد أبلغتهم يا محمد أن الذى أنزل الكتاب عليك هو الحق سبحانه وتعالى الذى أنزل من قبلُ التوراةَ فأخفيتم بعضها وأظهرتم البعض الآخر ، ثم بعد البلاغ اتركهم يخوضون فى باطلهم .

وفى موقع آخر يتكلم الحق من الخوض :

﴿ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ اسْتَهْزِءُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾

(سورة التوبة)

إذن الخوض هو الدخول فى مائع ، ومادمت قد دخلت فى مائع فلن تجد فيه طريقاً محدداً بل يختلط المدخول فيه بالمدخول عليه فلا تتميز الأشياء ، وأخذ منه الخوض بالباطل أو الخوض باللعب الذى ليس فيه غاية .

« وقد نزل عليكم فى الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يُكفر بها ويُستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره » .

وتأتى الكلمة التى ترهب المؤمن وترعبه : « إنكم إذاً مثلهم » أى إنكم إذا قعدتم معهم وهو يخوضون فى آيات الله تكفرون مثلهم ؛ لأنكم تسمعون الخوض فى الدين بالباطل ، ومن يرض بالكفر يكفر .

لقد أعطتنا الآية مرحلية أولية ، فإذا ما كانت البيئة الإيمانية مجتمعاً ذاتياً متكافلاً فليس لأحد من المؤمنين أن يجالس الكافرين ، ولا نواليهم إلا إذا والونا ؛ لأن

الجلوس معهم فى أثناء الخوض فى الدين يجرئهم على مناهج الله ، وعلى المؤمن أن ينهر أى ساخر من الدين . وعلى المؤمنين أن يعرضوا عمنّ ينحرف عن منهج الله أو يتعرض له . ولكن المجتمعات المعاصرة تكرم من يخوض بالباطل ؛ وفى ذلك إغراء للناس على أن يخوضوا فى الدين بالباطل .

لكن لو أعرضنا عن ذلك فسيلتمس الخارجون عن منهج الله وسيلة غير طريق الاجتراء على الدين والخوض بالباطل فى دين الله ومنهجه . وفساد المجتمع إنما يأتى من أننا نرى من يخوض فى دين الله بالباطل يكرمه البعض ويعطيه مكانة ومنزلة .

وقوله الحق : « وقد نزل عليكم فى الكتاب أن إذا سمعتم » نعلم منه وسيلة للإعلام البشرى هى أن يرى الإنسان فعلاً أو يسمع قولاً . فإن رأيت أيها المسلم فعلاً يشجع منهج الفساد فى الأرض فاعلم أن ذلك خوض فى دين الله بالباطل .

وقوله الحق : « فلا تقعدوا معهم » هو إيذان بالمقاطعة ؛ فلو أن إنساناً بهذا الشكل يسكن فى منزل ، ويذهب إلى البقال ليشترى منه شيئاً ليأكله فيرفض البيع له ، وكذلك الجزار ، وكذلك أى إنسان فى يده مصلحة لمثل هذا الخارج عن المنهج ، وبذلك تكون المقاطعة حتى يتأدب ، ويعلم كل إنسان أن المجتمع غيور على دينه الذى آمن به ، وأن الله أعز عليهم من كل تكريم يرونه فى مجتمعهم ، ولو أن كل واحد من هؤلاء المنحرفين والموغلين فى الباطل لو رأوا المجتمع وقد قاطعهم ووضع لهم حدوداً لذهبوا إلى الصواب ولبحثوا عن شىء آخر ومجال آخر يأكلون العيش منه ويطعمون أولادهم اللقمة الحلال من هذا العمل المشروع .

ويقول الحق : « إن الله جامع المنافقين والكافرين فى جهنم جميعا » ولا تستبطئوا هذه الحياة ؛ لأن المسلم لا يأخذ الأمور بعمر الدنيا كقرن أو اثنين أو حتى عشرة قرون ، بل عليه أن يعرف أن الدنيا بالنسبة له هى عمره فيها ، والعمر يمكن أن ينتهى فجأة ، ويعمل المسلم لا من أجل الدنيا فقط ، ولكن من أجل أن يلقى الله مسلما فى الآخرة ، والمؤمن يخشى أن يحشره الله مع المنافقين والكافرين فى جهنم ، وهذا مصير من يقبل السخرية أو الاستهزاء بدينه .

وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ ﴾

وقوله الحق : « الذين يتربصون بكم » وصف للمنافقين ، ويتربص فلان بفلان . أى أن واحداً يتحفز ليتحسس أخبار آخر ، ويرتب حاجته منه على قدر ما يرى من أخبار ، وعرفنا هذا المعنى من قوله الحق :

﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ﴾

(من الآية ٥٢ سورة التوبة)

ويتربص المنافقون بالمؤمنين لأنهم إن وجدوا خيراً قد أتى لهم فهم يريدون الاستفادة منه ، وإن جاء شر فالمنافقون يتجهون للاستفادة من الخصوم ، فظاهراً هم يعلنون الإيمان وهم فى باطنهم كفار . وهم يتربصون بالمؤمنين انتظاراً لما يحدث وليرتبوا أمورهم على ما يجىء .

« الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم » فإن فتح الله بنصره على المؤمنين فى معركة وأخذوا مغانم قال المنافقون : « ألم نكن معكم » ، فلابد لنا من سهم فى هذه الغنيمة . وإذا انتصر الكفار يذهبون إلى الكافرين مصداقاً لقول الحق : « وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين » .

هم يحاولون إذن الاستفادة من الكفار بقولهم : لقد تربصنا بالمؤمنين وانتظرنا ما يحدث لهم ، ولا بد لنا من نصيب . ويقول الحق على ألسنتهم : « قالوا ألم

نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين » واستحوذ على الشيء أى حازه وجعله فى حيزه وملكه وسلطانه . والحق هو القائل :

﴿ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ١٢ سورة المجادلة)

أى جعلهم الشيطان فى حيزه ، وقول المنافقين للكافرين : « ألم نستحوذ عليكم » يكشف موقفهم عندما تقوم معركة بين معسكرى الكفر والإيمان فيحاول المنافقون معرفة تفاصيل ما ينويه المؤمنون ، ولحظة أن يدخل المنافقون أرض المعركة فهم يمثلون دور من يأسر الكافرين حماية لهم من سيوف المؤمنين . ثم يقولون للكافرين : نحن استحوذنا عليكم أى منعناكم أن يقتلكم المؤمنون ، ويطلبون منهم الثمن .

ولنر الأداء البيانى للقرآن حين يقول عن انتصار المؤمنين : « فإن كان لكم فتح » أما تعبير القرآن عن انتصار الكافرين فيأتى بكلمة « نصيب » أى مجرد شيء من الغلبة المؤقتة . ثم يأتى القول الفصل من الحق : « فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً » .

وحين يرد الله أمر الكافرين والمؤمنين لا يرده دائماً إلى أمد قد لا يطول أجل السامع وعمره ليراه فى الدنيا ، فيأتى له بالمسألة المقطوع بها ؛ لذلك لا يقول للمؤمن : إنك سوف تنتصر . فالمؤمن قد يموت قبل أن يرى الانتصار . ولذلك يأتى بالأمر المقطوع وهو يوم القيامة حين تكون الجنة مصيرًا مؤكداً لكل مؤمن ؛ لأن الحياة أتفه من أن تكون ثمناً للإيمان .

ويعلمنا الرسول صلى الله عليه وسلم ألا نطلب الثمن فى الدنيا ؛ لأن الغايات تأتى لها الأغيار فى هذه الدنيا ، فنعيم الحياة إما أن يفوت الإنسان وإما أن يفوته الإنسان . وثمن الإيمان باقٍ ببقاء من آمنت به . إن القاعدة الإيمانية تقول : من يعمل صالحاً يدخل الجنة ، والحق يقول عن هؤلاء الصالحين :

﴿ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾

(من الآية ١٠٧ سورة آل عمران)

أى أن الجنة باقية بإبقاء الله لها ، وهو قادر على إفنائها ، أما رحمة الله فلا فناء لها لأنها صفة من صفاته وهو الدائم أبداً . وحين يقول الحق سبحانه وتعالى : « فالله يحكم بينكم يوم القيامة » أى لن يوجد نقض لهذا الحكم ؛ لأنه لا إله إلا هو وتكون المسألة منتهية . وقد حكم الحق سبحانه وتعالى على قوم من أقارب محمد صلى الله عليه وسلم ، لقد حكم الله على عم الرسول ، فقال فيه :

﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾ ﴾

(سورة المسد)

قول الحق سبحانه : « سيصلى ناراً ذات لهب » يدل على أن أبا لهب سيموت على الكفر ولن يهديه الله للإيمان ، مع أن كثيراً من الذين وقفوا من رسول الله مواقف العداء آمنوا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويشهد معسكر الكفر فقدان عددٍ من صناديده ، ذهبوا إلى معسكر الإيمان ، فها هوذا عمر بن الخطاب ، وخالد ابن الوليد ، وعكرمة بن أبى جهل وغيرهم كل هؤلاء آمنوا . فما الذى كان يدرى محمداً صلى الله عليه وسلم أن أبا لهب لن يكون من هؤلاء ؟ ولماذا لم يقل أبو لهب : قال ابن أخى : إننى سأصلى ناراً ذات لهب ، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وقلت كلمة الإيمان . لكنه لم يقل ذلك وعلم الله الذى حكم عليه أنه لن يقول كلمة الإيمان .

ألم يكن باستطاعة أبى لهب وزوجه أن يقولا فى جمع : نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، ويتم انتهاء المسألة ؟ ولكن الله الذى لا معقب لحكمه قد قضى بكفرهم ، وبعد أن ينزل الحق هذا القول الفصل فى أبى لهب وزوجه يأتى قول الحق فى ترتيبه المصحفى ليقول ما يوضح : إياكم أن تفهموا أن هذه القضية تنقض ، فسيصلى أبو لهب ناراً ذات لهب وامرأته حمالة الحطب ، وقال الحق بعدها مباشرة :

﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ ﴾

(سورة الإخلاص)

فلا أحد سيغير حكم الله . .

إذن فقوله الحق : « فالله يحكم بينهم يوم القيامة » أى لا معقب لحكم الله ،

فلا إله غيره يعقب عليه . « ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً » وهذه نتيجة لحكم الله ، فلا يمكن أن يحكم الله للكافرين على المؤمنين . ولن يكون للكافرين حجة أو قوة أو طريق على المؤمنين . وهل هذه القضية تتحقق فى الدنيا أو فى الآخرة ؟ ونعلم أن الحق يحكم فى الآخرة التى تعطلت فيها الأسباب ، ولكنه جعل الأسباب فى الدنيا ، فمن أخذ بالأسباب فنتائج الأسباب تعطيه ؛ لأن مناط الربوبية يعطى المؤمن والكافر ، فإن أخذ الكافرون بالأسباب ولم يأخذ المؤمنون بها ، فالله يجعل لهم على المؤمنين سبيلاً ، وقد ينهزم المؤمنون أمام الكافرين .

والحكمة العربية تعلمنا : إياك أن تعتبر أنّ الخطأ ليس من جند الصواب . لأن الإنسان عندما يخطىء يُصَحَّحُ له الخطأ ، فعندما يعلم المدرس تلميذه أن الفاعل مرفوع ، وأخطأ التلميذ مرة ونصب الفاعل ؛ فهذا يعنى أنه أخذ القاعدة أولاً ثم سها عنها ، والمدرس يصحح له الخطأ ، فتلتصق القاعدة فى رأس التلميذ بأن الفاعل مرفوع . وهكذا يكون الخطأ من جنود الصواب . والباطل أيضاً من جنود الحق .

فعندما يستشرى الباطل فى الناس يبرز بينهم هاتف الحق . وهكذا نرى الباطل نفسه من جند الحق ، فالباطل هو الذى يظهر اللذعة من استشراء الفساد ، ويجعل البشر تصرخ ، وكذلك الألم الذى يصيب الإنسان هو من جنود الشفاء ؛ لأن الألم يقول للإنسان : يا هذا هناك شىء غير طبيعى فى هذا المكان . ولولا الألم لما ذهب الإنسان إلى الطبيب .

علينا ـ إذن ـ أن نعرف ذلك كقاعدة : الخطأ من جنود الصواب ، والباطل من جنود الحق ، والألم من جنود الشفاء ، وكل خطأ يقود إلى صواب ، ولكن بلذعة ، وذلك حتى لا ينساه الإنسان . وتاريخ اللغة العربية يحكى عن العلامة سيبويه ، وهو من نذكره عندما يلحن أحد بخطأ فى اللغة ؛ فنقول : « أغضب المخطىء سيبويه » ؛ لأن سيبويه هو الذى وضع النحو والقواعد حتى إننا إذا أطلقنا كلمة الكتاب فى عرف اللغة فالمعنى ينصرف إلى كتاب سيبويه ؛ فهو مؤلف الكتاب .

وسيبويه لم يكن أصلاً عالم نحو ، بل كان عالم قراءات للقرآن ، حدث له أن كان جالساً وعيبت عليه لحنة فى مجلس ، أى أنه أخطأ فى النحو وعاب عليه من حوله

ذلك ، فغضب من نفسه وحزن ، وقال : والله لأجيدن العربية حتى لا ألحن فيها . وأصبح مؤلفاً فى النحو .

ومثال آخر : الإمام الشاطبى ـ رضى الله عنه ـ لم يكن عالم قراءات بل كان عالماً فى النحو ، وبعد ذلك جاءت له مشكلة فى القراءات فلم يتعرف عليها ، فأقسم أن يجلس للقراءات ويدرسها جيداً . وصار من بعد ذلك شيخاً للقراء . فلحنة ـ أى غلطة ـ هى التى صنعت من سيبويه عالماً فى النحو ، ومشكلة وعدم اهتداء فى القراءات جعل من الإمام الشاطبى شيخاً للقراء ؛ على الرغم من أن سيبويه كان عالم قراءات ، والشاطبى كان رجل نحو .

ولذلك أكررها حتى نفهمها جيداً : الخطأ من جنود الصواب ، والباطل من جنود الحق ، والألم من جنود الشفاء والعافية .

وقد نجد الكافرين قد انتصروا فى ظاهر الأمر على المؤمنين فى بعض المواقع مثل أحد ، وكان ذلك للتربية ؛ ففى « أحد » خالف بعض المقاتلين من المؤمنين رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت الهزيمة مقدمة للتصويب ، وكذلك كانت موقعة حنين حينما أعجبتهم الكثرة :

﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾

(من الآية ٢٥ سورة التوبة)

والشاعر العربى الذى تعرض لهذه المسألة قال :

إن الهزيمة لا تكون هزيمة ... إلا إذا لم تقتلع أسبابها
لكن إذا جهدت لتطرد شائباً ... فالحمق كل الحمق فيمن عابها

فعندما يقتلع الإنسان أسباب الهزيمة تصبح نصراً ، وقد حدث ذلك فى أحد ، هم خالفوا فى البداية فغلبهم الأعداء ، ثم كانت درساً مستفاداً أفسح الطريق للنصر .

فإن رأيت أيها المسلم للكافرين سبيلاً على المؤمنين فلتعلم أن الإيمان قد تخلخل فى نفوس المسلمين فلا نتيجة دون أسباب ، وإن أخذ المؤمنون بالأسباب أعطاهم النتائج . فهو القائل :

﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾

(من الآية ٦ سورة الأنفال)

فإن لم يعدّ المؤمنون ما استطاعوا ، أو غرّتهم الكثرة فالنتيجة هى الهزيمة عن استحقاق ، وعلى كل مؤمن أن يضع فى يقينه هذا القول الربانى :

﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾

(من الآية ٤٣ سورة فاطر)

إن إعلان الإيمان بالله ليس هو نهاية أى شىء بل هو البداية ، والمؤمن بالله يأخذ جزاءه على قدر عمله . ويغار الله على عبده المؤمن عندما يخطىء ، لذلك يؤدبه ويربيه ـ ولله المثل الأعلى ـ نجد أن الإنسان منا قد لا يصبر على مراجعة الدروس مع أولاده فيأتى بمدرس ليفعل ذلك ؛ لأن حب الأب لأولاده يدفع الأب للانفعال إذا ما أخطأ الولد ، وقد يضربه . أما المدرس الخارجى فلا ينفعل ؛ بل يأخذ الأمور بحجمها العادى . إذن فكلما أحب الإنسان فهو يتدخل بمقياس الود ويقسو أحيانا على من يرحم .

والشاعر العربى يقول :

فقسى ليزدجروا ومن يكُ حازما فليقس أحيانا على من يرحمُ

ومثال آخر ـ ولله المثل الأعلى ـ الإنسان إذا ما دخل منزله ووجد فى صحن المنزل أطفالاً يلعبون الميسر منهم ابنه وابن الجار ، وطفل آخر لا يعرفه ، فيتجه فوراً إلى ابنه ليصفعه ، ويأمره بالعودة فوراً إلى الشقة ، أما الأولاد الآخرون فلن يأخذ ابن الجار إلا كلمة تأنيب ، أما الطفل الذى لا يعرفه فلن يتكلم معه .

وهكذا نجد العقاب على قدر المحبة والود ، والتأديب على قدر المنزلة فى النفس .

ومن لا نهتم بأمره لا نعطى لسلوكه السيىء بالاً . وساعة نرى أن للكافرين سبيلاً على المؤمنين فلنعلم أن قضية من قضايا الإيمان قد اختلت فى نفوسهم ، ولا يريد الله أن يظلوا هكذا بل يصفيهم الحق من هذه الأخطاء بأن تعضهم الأحداث . فينتبهوا إلى أنهم لا يأخذون بأسباب الله .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ ﴾

نعرف واقع المنافقين أنهم يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر ؛ ويوضح الحق : إياكم أن تظنوا أن فى قدرة مخلوق أن يفعل شيئاً بدون علم الله ، وقد يمكر إنسان بك ، وهو يعلم أنك تعلم بمكره ، فهل هذا مكر ؟ لا ؛ لأن المكر هو الأمر الذى يتم خفية بتدبير لا تعلمه ، والأصول فى المكر ألا يعلم الممكور به شيئاً . والمنافقون حين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر يخادعون من يعلم خافية الصدور . وكان يجب أن يأخذوا درساً من معاملة الله بوساطة المؤمنين لهم ، فقد صان المؤمنون دم المنافقين ومالهم . وأجرى المسلمون على المنافقين أحكام الإسلام ، لكن ما الذى يبيته الله لهؤلاء المنافقين ؟ لقد بيت لهم الدرك الأسفل من النار . فمن الأقدر - إذن - على الخداع ؟

إن الذكى حقاً هو من لا يخدع من يعلم أنه قادر على كشف الخداع . وكلمة « خدع » تعنى مكر به مكراً فيبدى له قولاً وفعلاً ويخفى سواهما حتى يثق فيه . وبعد ذلك ينفذ المكر . وهناك كلمة « خدع » وكلمة « خادع » . والحق فى هذه الآية لم يقل إن الله يخدعهم ، بل قال : « يخادعون الله وهو خادعهم » .

و« خادع » تعنى حدوث عمليتين ، مثل قولنا : قاتل فلان فلانا . فالقتال يحدث

بين طرفين . وكذلك نقول : شارك فلان فلانا ؛ لأن مادة « فاعل » تحتاج إلى طرفين . لكن عندما نقول « قتل » ، فالفعل يحدث من جانب واحد . والخداع يبدأ من واحد ، وعندما يرى الشخص الذى يرُاد خداعه أن خصمه أقوى منه فإنه يبيت له خداعاً آخر . وتسمى العملية كلها « مخادعة » ، ويقال : خادعه فخدعه إذا غلبه وكان أخدع منه . ومن إذن الذى غلب ؟ إن الذى بيَّت الخداع رداً على خداع خصمه هو الغالب .

ولأن الخداع يحدث أولاً ، وبعد ذلك يتلقى « المخدوع » الأمر بتبييت أكبر ؛ فهو « خادع » ، والذى يغلب نقول عنه : « أخدعه » أى أزال خداعه . والله سبحانه وتعالى عاملهم بمثل ما أرادوا أن يعاملوا به المؤمنين ، فالمنافقون أظهروا الإيمان أولاً وأضمروا الكفر ، وأعطاهم الله فى ظاهر الأمر أحكام المسلمين ، وفى الباطن قرر أن يعذبهم عذاب الكافرين بل وأشد من ذلك ؛ لأنهم سيكونون فى الدرك الأسفل من النار .

« إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم » وإياك أيها المسلم أن تشتق من هذه العملية اسما لله وتقول « المخادع » ؛ لأن أسماء الله توقيفية أى لا نسمى الله إلا بالأسماء التى سمَّى بها نفسه . وسبحانه يفعل الفعل ، لكن لا تأخذ من هذا الفعل اسماً ، والحق يعطينا هنا « مشاكلة » ليوضح لنا أن المنافقين يمكرون ويبيتون شراً للمؤمنين ، وأنت أيها المسلم تعرف أن الإنسان إنما يبيت الشر على قدر طاقته التى مهما كبرت فهى محدودة بجانب طلاقة قدرة الله . ولذلك يفضح الله هذا الشر المبيت من هؤلاء المنافقين ، وهم حين يمكرون فالله بطلاقة قدرته يمكر بهم أى يبطل مكرهم ويجازيهم على سوء فعلتهم ، ولا نقول : « الله ماكر » . ولله أن يقول فى الفعل المشاكل ما يشاء .

« إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى » .

إن الغايات من الأحداث هى التى تضفى على الجوارح الإقبال على الأحداث ، فإذا كنت تحب الحدث الذى تقبل عليه فأنت تقبل عليه بكل اشتياق ولهفة . ويقيسون لهفة اللقاء لأنها تحدد درجة المحبة . والشاعر العربى يصف لقاء حبيب بحبيبته :

لقاء الاثنين يبين حَدَّهْ تلهف كَيْفٍ واستطالة مُدَّهْ

فلحظة اللقاء تبين ما بين الحبيبين من مودة ، فإن كانت المسألة بينهما عشر خطوات فهما يسرعان باللهفة فيقطعان العشر الخطوات فى ثلاث خطوات ، وهذا معناه تقصير زمن الابتعاد ، وكذلك تظهر الكيفية التى يتم بها السلام درجة المودة ، فقد يسلم أحدهما على الآخر ببرود أو بنصف ود ، أو بود كبير ، أو بود مصحوب بلهفة وأخذ متبادل بالأحضان ؛ وكذلك المدة التى يحتضن كلاهما الآخر ، هل هى دقيقة أو دقيقتان أو ثلاث ؟

إذن فالذى يبين قيمة الود : التلهف ، الكيفية ، المدة . وهذه العناصر الثلاثة أخذها الشعراء للتعبير عن المودة والحب بين البشر ، وقديماً كان الذين يُتَيَّمون بالنساء يسترون فى السلام مودتهم . وفى الحضارة الغربية التى سقطت فيها قيم الأديان نجد أن الرجل يتلقى المرأة بالقبلات .

وفى بعض البلاد نجد الرجل يصافح المرأة ، فهل يصافحها بتلهف ، وهل تبادله هذه اللهفة ؟ فإن وجدت الكف مفرودة ومبسوطة للمصافحة فقط فهذا سلام عادى . أما إذا ثنى أحدهما إصبعه البنصر على كف الآخر فعليك أن ترى أى طرف هو الذى قام بثنى أصبعه ليحتضن اليد كلها فى يده ، فإن كان ذلك من الرجل فاللهفة منه ، وإن كان من المرأة فاللهفة منها ، وإن كان من الاثنين فاللهفة منهما معا ، ثم ما المدة التى يستغرقها بقاء اليد في اليد ؟

وقد يحلو لكليهما أن يتكلما معاً ـ رجل وامرأة ـ وكأن الكلام قد أخذهما فنسى كل منهما يده فى يد الآخر .

سلام نوعين يبين حَدَّهْ تلهف كيف واستطالة مُدَّهْ

هكذا يقابل الإنسان الأحداث ، فإن كان الحدث ساراً فالإنسان يقبل عليه بلهفة . وإن كان غير ذلك فالإنسان يقوم إليه متثاقلاً . وكان المنافقون يقومون إلى الصلاة بتثاقل وتكاسل : « وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى » كأنهم يؤدون الصلاة كستار يخفون به نفاقهم ، ويسترون بها عن أعين المسلمين . ولم يكن قيامهم للصلاة

شوقاً إلى لقاء الله مثلما كان يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم لبلال ـ رضى الله عنه ـ طالبا منه أن يؤذن للصلاة :

« يا بلال أرحنا بالصلاة »[١] .

لأن المؤمن يرتاح عندما يؤدى الصلاة ، أما المنافق فهى عملية شاقة بالنسبة إليه لأنه يؤديها ليستتر بها عن أعين المسلمين ولذلك يقوم إليها بتكاسلٍ . « وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلاً » .

هم يقيمون الصلاة ظاهرياً أمام الناس ليخدعوا المسلمين وليشاهدْهم غيرهم وهم يصلون . وفى الصلاة التى يراءون بها الناس لا يقولون كل المطلوب منهم لتمامها ، يقولون فقط المطلوب قوله جهراً . كأن يقرأوا الفاتحة وبعض القرآن ولكنهم فى أثناء الركوع لا يسبحون باسم الله العظيم وكذلك فى السجود لا يسبحون باسم الله الأعلى .

ففى داخل كل منافق تياران متعارضان . . تيار يظهر به مع المؤمنين وآخر مع الكافرين . والتيار الذى مع المؤمنين يجبر المنافق على أن يقوم إلى الصلاة ويذكر الله قليلاً ، والتيار الذى مع الكافرين يجعله كسولاً عن ذلك ، ولا يذكر الله كثيرا .

وإذا ما حسبنا كم شيئا يجهر به المصلى وكم شيئاً يجريه سراً ، فسنجد أن ما يجريه المصلى سراً فى أثناء الصلاة أكثر من الجهر . ففى الركوع يقول : سبحان ربى العظيم ثلاث مرات ، ويقول : سبحان ربى الأعلى ، فى كل سجود ثلاث مرات ، أما المنافق فلا يذكر الله إلا جهراً ، وهو ذكر قليل . ونجد المنافق لا يفعل فعلاً إلا إذا كان مَرْئيا ومسموعا من غيره ، هذا هو معنى المراءاة . أما الأعمال والأقوال التى لا تُرَى من الناس ولا تُسمع فلا يؤديها .

ولا يهز المجتمعات ولا يزلزلها ويهدُّها إلا هذه المراءاة ؛ لأن الحق سبحانه يحب أن يؤدى المسلم كل عمل جاعلاً الله فى باله ، وهو الذى لا تخفى عليه خافية . ويلفتنا

---

(١) رواه الإمام أحمد فى مسنده .

إلى هذه القضية سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم حيث يقول عن الإحسان :

« أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك »[١] .

وإذا كان الإنسان يخجل من أن يغش واحداً مثله من البشر غشاً ظاهرياً فما بالنا بالذى يحاول غش الله وهو يعلم أن الله يراه ؟ ولماذا يجعل ذلك العبد ربه أهون الناظرين إليه ؟

وعندما يغش واحداً آخر واكتشف الآخر غشه فهو يعاقبه فما بالنا بغش الله ؟! ولذلك تجد الرسول صلى الله عليه وسلم ينقل لنا حال المرائى للناس فيقول : « إنَّ أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر ، قالوا وما الشرك الأصغر يا رسول الله ؟ قال : الرياء ، يقول الله ـ عز وجل ـ يوم القيامة إذا جازى العباد بأعمالهم اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون فى الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم الجزاء ؟»[٢] .

وقال صلى الله عليه وسلم :

« إن المرائى ينادى عليه يوم القيامة « يا فاجر » « يا غادر » «يا مرائى » ضل عملك وحبط أجرك فخذ أجرك ممن كنت تعمل له »[٣] .

إذن فالمنافق إنما يخدع نفسه ، هو يتظاهر بالصلاة ليراه الناس . ويزكى ليراه الناس ، ويحج ليراه الناس ، هو يعمل ما أمر الله به ، لكنه لا يعمله لله ، ولذلك قال القرآن :

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَـٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿٣٩﴾ ﴾

(سورة النور)

وقال عن لون ثان من نفاقهم :

---

(١) رواه مسلم من حديث جبريل .

(٢) رواه أحمد والبيهقى فى الشعب ، والطبرانى من رواية محمود بن لَبِيْد عن رافع بن خديج .

(٣) ابن أبى الدنيا واسناده ضعيف .

﴿ كَالَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾

(من الآية ٢٦٤ سورة البقرة)

والصفوان هو الحجر الأملس تماما وهو الذى ليس فيه خشونة ، لأن الحجر إن كان به جزء من خشونة وعليه تراب ثم سقط عليه المطر ، فالتراب يتخلل الخشونة . أما الحجر الأملس فمن فور نزول المطر ينزلق من عليه التراب . ومن يرائى المؤمنين عليه أن يأخذ أجره ممن عمل له .

ويستكمل الحق وصف الحالة النفسية للمنافقين فيقول :

﴿ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾ ﴾

والشيء المذبذب مثل المعلق فى خيط فيأخذه الريح إلى ناحية ليقذفه فى ناحية أخرى لأنه غير ثابت ، مأخوذ من « المذبة » ومنه جاءت تسمية « الذباب » الذى يذبه الإنسان فيعود مرة أخرى ، فمن سلوك الذباب أنه إذا ذُبّ عن مكان لا بد أن يعود إليه .

« مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء » فهل هم الذين ذبذبوا أنفسهم أم تلك هى طبيعتهم ؟ ولنتأمل عظمة الحق الذى سوى النفس البشرية ؛ ففى الذات الواحدة آمر ومأمور ، والحق يقول :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ﴾

(من الآية ٦ سورة التحريم)

أى أن الإنسان يقى نفسه بأن يجعل الآمر يوجه الأمر للمأمور ، ويجعل المأمور يطيع الآمر ، ودليل ذلك قول الحق عن قابيل :

﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة المائدة)

أى أن جزءًا من الذات هو الذى طوَّع بقية ذات قابيل لتقتل هابيل . فقد خلق الله النفس البشرية كملكات متعددة ، ملكة تحب الأريحية وأخرى تحب الشح ، والملكة التى تحب الأريحية إنما تطلب ثناء الناس ، والتى تحب الشح إنما تفعل ذلك ليطمئن صاحبها أنه يملك ما يغنيه . وكلتا الملكتين تتصارع فى النفس الواحدة ؛ لذلك يقول الحق : « قوا أنفسكم » فالنفس تقى النفس ؛ لأن الملكات فيها متعددة . وبعض الملكات تحب تحقيق المتعة والشهوة ، لكن هناك ملكة إيمانية تقول : تذكر أن هذه الشهوات عاجلة ولكنها عظيمة المتاعب فيما بعد .

إذن فهناك صراع داخل ملكات الإنسان ، ويوضح لنا الحق هذا الصراع فى قوله : (فطوعت له نفسه قتل أخيه) .

لأن قابيل أراد أن يقتل هابيل بغريزة الاستعلاء ، ونازعته نفسه بالخوف من الإثم . لقد دارت المراودة فى نفس قابيل إلى أن سيطرت غريزة الاستعلاء فأمرت بالقتل وطوعت بقية النفس . وهذا يكشف لنا أن النفس البشرية فيها ملكات متعددة ، كل ملكة لها مطلوب . والدين هو الذى يقيم التعايش السلمى بين الملكات .

مثال آخر : الغريزة الجنسية تقيم السعار فى النفس ، فيقوم الوعى الإيمانى بردع ذلك بأن تقول النفس الإيمانية : إياك أن تلغ فى أعراض الناس حتى لا تلغ الناس فى أعراضك ، ولماذا لا تذهب وتتزوج كما شرع الله ، ولا ترم أبناءك فى فراش غيرك ؛ لأن الغريزة مخلوقة لله فلا تجعل سلطان الغريزة يأمر وينهى .

وهكذا نرى أن النفس تضم وتشمل الملكات والغرائز ، ولا يصح أن يعدى الإنسان غريزة إلى أمر آخر ؛ لأنه إن عدى الشهوات فسدت الدنيا .

وعلى سبيل المثال نحن نستخدم الكهرباء التى تعطى لنا النور فى حدود ما يرسم لنا مهندس الكهرباء ، الذى وضع القطب الموجب فى مجاله وكذلك القطب السالب ، بحيث نأخذ الضوء الذى نريده أو تعطينا شرارة لنستخدمها كقوة لإدارة آلة ، لكن لو التقى القطب الموجب بالقطب السالب على غير ما صنع المهندس لحدثت قفلة كهربائية تسبب حريقاً أو فساداً . وكذلك النفس البشرية ، إن التقى الذكر مع الأنثى كما شرع الله فإن البشرية تسعد ، وإن حدث غير ذلك فالذى يحدث فى المجتمع يصير حريقاً نفسياً واجتماعياً لا حدود لآثاره الضارة ، وهكذا نرى أن النفس ليس فيها دافع واحد بل فيها دوافع متعددة .

ونجد غريزة الجوع تحرك النفس إلى الطعام ، ويستجيب الدين لذلك لكنه يوصى أن يأكل الإنسان بشرط ألا يتحول تناول الطعام إلى شره ، كما جاء فى الحديث : « بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه »[1] .

فالطعام لبقاء النوع . والإنسان محب للاستطلاع ، فيأمر الإسلام الإنسان بأن يستطلع أسباب الله فى الكون ليزيد من صلاح الكون ، وينهى الإسلام عن استخدام حب الاستطلاع فى التجسس على الناس ، وهكذا تتوازن الملكات بمنهج الإسلام ، وعلى المسلم أن يعايش ملكاته فى ضوء منهج الله معايشة سليمة حتى تكون النفس الإنسانية متساندة لا متعاندة ، لتعيش كل الملكات فى سلام ، ويؤدى كل جهاز مهمته كما أراد الله .

لكن المنافق يحيا مذبذباً وقد صنع ذلك بنفسه ، فقد أرخى لبعض ملكاته العِنان على حساب ملكات أخرى « مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء » إن الكافر يمتاز عن المنافق ـ ظاهرا ـ بأنه منسجم مع نفسه ، هو غير مؤمن بالإسلام ويعلن ذلك ولكنه فى حقيقة الأمر يتصارع مع فطرته التى تدعوه إلى الإيمان .

قد يقول قائل : وكيف يتساوى الذى أظهر الإيمان وأبطن الكفر مع الذى أعلن الكفر ؟ ونقول : الكافر لم يخدع الطائفة المؤمنة ولم يقل كالمنافق إنه مع الفئة المؤمنة

---

(١) من حديث رواه الترمذى والنسائى وابن ماجه .

وهو ليس معها ؛ بل يعلن الكافر كفره منسجماً مع نفسه ، لكن المنافق مذبذب خسيس فى وضعه الإنسانى والرجولى .

« مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلاً » .

والله لا يضل عبداً بشكل مباشر ؛ فسبحانه يُعلم خلقه أولاً بالرسل والمنهج ، لكنه يضل من يصر على عدم الإيمان ، لذلك يتركه على ضلاله وعماه . صحيح أن فى قدرة الله أن يأخذه إلى الإيمان قهراً ، لكنه سبحانه يترك الإنسان لاختياره .

فإن أقبل الإنسان على الله فسبحانه يعينه على الهداية ، أما إن لم يقبل فليذهب إلى تيه الضلال . ويزين له الدنيا ويعطيه منها لكنه لن يجد سبيلاً ؛ فسبيل الله واحد . وليس هناك سبيلان .

ونذكر هذه الحكاية ؛ لنعرف قيمة سبيل الله . كان الأصمعى ـ وهو مؤلف عربى له قيمة كبيرة ـ يملك أذناً أدبية تميل إلى الأساليب الجميلة من الشعر والنثر ، ووجد الأصمعى إنساناً يقف أمام باب الملتزم بالكعبة المشرفة ، وكان الرجل يدعو الله دعاء حاراً « يارب : أنا عاصيك ، ولولا أننى عاصيك لما جئت أطلب منك المغفرة ، فلا إله إلا أنت ، كان يجب أن أخجل من معصيتك ولكن ماذا أفعل » . وأعجب الأصمعى بالدعاء ، فقال : يا هذا إن الله يغفر لك لحسن مسألتك .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ ﴾

راجع أصله وخرج أحاديثه الدكتور أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .

لقد أخذ الحق على المنافقين أنهم يتخذون الكافرين أولياء من دون الله ؛ وكذلك أخذ المؤمنون على المنافقين أنهم اتخذوا من معسكر الكفر ولياً لهم من دون الله ومن دون المؤمنين ، ولهذا فأولى بالمؤمنين ألا يصنعوا ذلك ، ويوضح سبحانه : لقد أخذنا على المنافقين أنهم اتخذوا الكافرين أولياء من دون الله ، فإياكم أن تفعلوا مثلهم .

« يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطاناً مبيناً » .

وهذا أمر منطقى يستقيم مع منهج الإيمان ؛ لأنكم إن فعلتم ذلك . فإنما تقدمون الحجة ليعذبكم الله ، وتعلمون أن المنافق يعلن الإيمان بلسانه ويخفى الكفر فى قلبه ، فكيف يكون وضع المؤمن مع الكافر مثل وضع المنافق مع الكافر ؟ ذلك أمر لا يستقيم . ومن يفعل ذلك إنما يقدم حجة لله ليعذبه .

الحق سبحانه فى إرساله للرسل وفى تأييد الرسل بالمعجزات وفى إرساله المناهج المستوفية لتنظيم حركة الإنسان فى الحياة ، كل ذلك ليقطع الحجة على الناس حتى لا يقولن واحد : أنت لم تقل لنا يارب كيف نسير على منهج ما ؛ لذلك لم يترك ـ سبحانه ـ الإنسان ليفكر بعقله ليصل بفكره إلى وجود الله ، ويكتشف أن هناك خالقا للكون . لم يتركنا سبحانه لهذه الظنون ، ولكنه أرسل لنا الرسل بمنهج واضح ، من أجل ألا يكون للناس على الله حجة من بعد الرسل ، فلا يقولن واحد : أنت لم تنبهنى يارب ، والجهل بالقانون فى الشرع البشرى لا يعفى الإنسان من العقوبة إن ارتكب جرما ، لكن الله لا يفعل ذلك ؛ فهو أكرم على عباده من أنفسهم ، لذلك يرسل الرسول ليحمل المنهج الذى يبين الحلال من الحرام :

﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ﴾

(من الآية ٤٢ سورة الأنفال)

فلا يقولن واحد : لقد أخذنا الله على غرّة . وأنتم أيها المؤمنون إن اتخذتم الكافرين أولياء من دون المؤمنين وتقربتم إليهم ونصرتموهم فأنتم أكثر شرا من المنافقين ؛ لأن المنافق له أسبابه ، وفى أعماقه خيط من الكفر وخيط من الإيمان ، والحجة واضحة عليكم أيها المؤمنون ؛ فقد أبلغكم الحق المنهج وأعلنتم الإيمان به .

فإن صنعتم غير ذلك تعطون الحق الحجة فى أن يعذبكم .

« أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطاناً مبيناً » والسلطان المبين هو السلطان الواضح المحيط الذى لا يستطيع أن يدفعه أحد ، فإذا ما كانت هناك حجة ، قد يستطيع الإنسان أن ينقضها ، كالمحامى أمام المحاكم . لكن حجة الله هى سلطان مبين . أى لا تنقض أبداً .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ ﴾

ولنر دقة التربية الإيمانية . فلم يأت الحق بفصل فى كتابه عن المنافقين يورد فيه كل ما يتعلق بالمنافقين ، لا ، بل يأتى بلمحة عن المنافقين ثم يأتى بلقطة أخرى عن المؤمنين ، حتى ينفِّر السامع من وضع المنافق ويحببه فى صفات المؤمن ، وهنا يقول : « إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيراً » . والدرك مرة تنطق بسكون الراء ، وتنطق مرة بفتح الراء ، مثل كلمة « نهر » . والدرك دائماً فى نزول . والأثر الصالح يميز لنا ذلك بالقول :

« النار دركات كما أن الجنة درجات »[1] .

فالنزول إلى أسفل هو الدرك ، والصعود إلى أعلى هو صعود الدرج . وفى عصرنا نضع مستوى سطح البحر كمقياس ؛ لأن اليابسة متعرجة ، أما البحر فهو مستطرق .

ونستخدم فى الأمر الدقيق ـ أيضا ـ ميزان المياه ، وعندما تسقط الأمطار على الطرق تكشف لنا عمل المقاول الذى رصف الطرق ، هل أتقن هذا العمل أو لا ؟ ونحن نلقى دلوا من المياه فى الحمام بعد تبليطه حتى ينكشف جودة أو رداءة عمل

---

(١) تفسير الإمام ابن كثير .

العامل ، إذن هناك شيء يفضح شيئا آخر . والقول المصرى الشائع : « إن الذى يقوم بعمل المحارة هو الذى يكشف عامل البناء » . فلو أن الحائط غير مستو ؛ فعامل المحارة مضطر أن يسد الفجوات والميول حتى يستوى سطح الحائط . . والذى يكشف جودة عامل المحارة هو عامل طلاء الحائط ؛ لأنه إما أن يستخدم المعجون بكثرة ليملأ المناطق غير المستوية فى الحائط ، وإما أن يجد الأمر سهلا . والذى يكشف جودة أو رداءة عمل عامل الطلاء هى أشياء طبيعية مثل الغبار . والعامل الذى يريد أن يغش هو الذى يسرع بتسليم البناء ؛ لأن الغبار الذى يوجد فى الجو يمشى فى خط مستقيم ، وعندما يوجد جدار تم طلاؤه بمادة غير جيدة فالغبار يلتصق به ، وكأن الله قد أراد بذلك أن يفضح من لا يتقن عمله ، وكل شيء مرده إلى الله حتى يصل الخلق جميعا إلى الحق سبحانه مفضوحين ، إلا المؤمنين الذين يعملون صالحاً ، فهؤلاء يسترهم الله بعملهم الصالح .

« إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيراً » . وسبحانه وتعالى سبق أن عرض لنا صورة المنافقين المهزوزة التى لا ثبات لها على رأى ، ولا وجود لها على لون يحترمه المجتمع الذى يعيشون فيه فقال عنهم :

﴿ مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾

(من الآية ١٣٤ سورة النساء)

والذبذبة لون من أرجحة الشخصية التى لا يوجد لها مقوم ذاتى . وسبحانه وتعالى حين عرضهم هذا العرض المشوه ، يوضح : أن جزائى لهم حق يناسب ما فعلوه .

وقد هيأ الحق الأذهان ليجعلها مستعدة لقبول الحكم الذى أنزله عليهم حتى لا تأخذ الناس شفقة عليهم أو رحمة بهم ، وسبحانه حين يحكم حكما فهو يضمن بقيوميته ووحدانيته ألا يوجد منازع له فى الحكم . وكان من الممكن أن يقول سأجعله فى الدرك الأسفل من النار . ولن توجد قوة أخرى تنتشل المنافق ؛ لذلك أتبع الحق الحكم بقوله : « ولن تجد لهم نصيراً » أى أنه حكم مشمول بالنفاذ ، ولن يعدله أحد من خلق الله ، فسبحانه له الملك وحده ، وقد جعل سبحانه الملك فى الدنيا لأسباب الناس أيضاً ، أما فى الآخرة فلا مِلك لأحد ولا مُلك لأحد .

﴿ لِمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾

(من الآية ١٦ سورة غافر)

وبعد ذلك يتيح الحق لأقوام من المنافقين أن يعدلوا رأيهم فى المسألة وأن يعلنوا إيمانهم وأن يتوبوا عما فعلوه ، إنه ـ سبحانه ـ أتاح لهم أن يراجعوا أنفسهم ويحاسبوها فلم يغلق الباب دونهم بل قال :

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ ﴾

إذن فمن الممكن أن توجد فتحة خير قد تدفع الإنسان إلى التوبة ، وحتى لا يظن أحد أن الحكم هنا نهائى ، وذلك حتى لا يفقد الإنسان نفسه ويتورط فى مزيد من الشرور ، لذلك قال : « إلا الذين تابوا » أى تاب عن نفاقه الأول ، وإذا ما كان قد ترتب على نفاقه السابق إفساد فلا بد أن يصلح ما أفسده ويعتصم بالله ويُخْلِص لله نيّةً وعملاً . « إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله » . إذن فشروط النجاة من الدرك الأسفل من النار هى التوبة ، وإصلاح ما أفسد ، والاعتصام بالله ، وإخلاص دينه لله .

والتوبة هنا إقلاع عن النفاق ، وألا يترك المنافق الفساد الذى صنعه نفاقه بل عليه أن يحاول جاهداً أن يصلح ما أفسده بهذا النفاق . والاعتصام بالله كيف يكون ؟

لقد عرفنا من قبل أنهم كانوا يفعلون ذلك لابتغاء العزة عند الكافرين . . أى أن نفس المنافق تطمئن إلى هؤلاء الكافرين فيفزع إليهم ويعتز بشدتهم وبصلابتهم ؛ لذلك يوضح الله : انزعوا هذه الفكرة من رءوسكم وليكن اعتصامكم بالله وحده لأنه لا يُجِير أحد على الله ، واجعلوا العزة لله والمرجع إليه وحده .

والملاحظ أن الذى يتوب ويصلح ويعتصم بالله يكون قد استوفى أركان اليقين الإيمانى بالله ، لكن الحق يقول : « وأخلصوا دينهم لله » فلماذا أكد على الإخلاص

هنا ؟ لأن تدبير النفاق كان ينبع من قلوبهم أولا . ونعلم أن القلب قد يذنب ، فذنب الجارحة أن تعتدى ، مثال ذلك العين تذنب حين تعتدى على محارم الآخرين ، واللسان يذنب إن تعرض بالسب أو الشتم للناس . إذن . فكل جارحة لها مجال معصية ، وهنا مجال معصية القلب هو النفاق وهو الأمر المستور . إذن فقوله الحق : « وأخلصوا دينهم لله » جاء ليؤكد ضرورة الإخلاص فى التوبة عن النفاق ، والإخلاص محله القلب .

فكأن توبة القلوب غير توبة الجوارح ، فتوبة الجوارح تكون بأن تكف الجوارح عن مجال معاصيها . أما توبة القلب فهو أن يكف عن مجال نفاقه بأن يخلص . وبذلك أثبت الحق مزية المؤمنين الذين لم ينغمسوا فى النفاق . وجعل التائبين من المنافقين مع المؤمنين ، فكأن الأصل فى التنعيم وفى نيل الجزاء العظيم هو الوجود مع المؤمنين . « فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤت الله المؤمنين أجراً عظيما » .

ومن هنا نعلم أن الأجر العظيم يكون للمؤمنين . ومن يوجد مع المؤمنين ينال الأجر نفسه . وقد جعل الحق الجزاء من جنس العمل . وكان المنافقون ينافقون ليأخذوا من المؤمنين ظواهر الإسلام كصون المال والدماء وليعتبرهم الجميع ظاهريا وشكليا من المسلمين ، وهم حين نافقوا المسلمين أعطاهم المسلمون ما عندهم . وعندما تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا الدين لله جعلهم الله مع المؤمنين ، ويعطى سبحانه لأهل الإيمان أجراً عظيماً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾ ﴾

وسبحانه قد أوضح من قبل أن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ، واستثنى منهم من تاب وأصلح واعتصم بالله وأخلص ، ويتحدث هنا عن فكرة العذاب

نفسها ، ليجليها فيقول : « ما يفعل الله بعذابكم » وهذا استفهام ، والاستفهام أصلاً سؤال من سائل يتطلب جواباً من مجيب . وسبحانه وتعالى يريد أن يعرض قضية موثوقا بها فهو لا يأتى بها خبراً ، فهو القادر على أن يقول : أنا لا أفعل بعذابى لكم ولا أحقق لذاتى من ورائه شيئا ، فلا استجلب به لى نفعا ولا أدفع به عنى ضرا .

لكنه هنا لا يأتى بهذه القضية كخبر من عنده ، بل يجعل المنافقين يقولونها . مثال ذلك ـ ولله المثل الأعلى ـ يقول واحد لآخر : أنت أهنتنى . ومن الجائز أن يرد الآخر : أنا لم أهنك . وأقسم لك أننى ما أهنتك . وقد يضيف : ابغنى شاهداً . وهنا نجد مراحل المسألة تبدأ بالإبلاغ عن عدم الإهانة ، ثم القسم بأن الإهانة لم تحدث ، ومن بعد ذلك طلب شاهدًا على أن الإهانة المزعومة قد حدثت .

وقد يقول الإنسان رداً على من يتهمه بالإهانة : أنا أترك لك هذه المسألة ، فماذا قلت لك حتى تعتبره إهانة ؟ ومن يقول ذلك واثق أن من شعر بالإهانة لو أدار رأسه وفكره فلن يجد كلمة واحدة تحمل فى طياتها شبهة الإهانة .

ولو كان الإنسان واثقا من أنه أهان الآخر ، فهو يخاف أن يقيم الآخر دليلا على صحة اتهامه له ، ولكن حين يقول له : وماذا قلت لك حتى تعتبر ذلك إهانة ؟ . فعليه أن يبحث ولن يجد . وبذلك يكون الحكم قد صدر منه هو .

وإذا كان الله يقول : « ما يفعل الله بعذابكم » فهذا خطاب لجماعة كانت ستتعذب . وكانت فيهم محادة لله . ورضى الله شهادتهم ، فكأن هذه لفتة على أن العاصى يستحق العذاب بنص الآية : « ما يفعل الله بعذابكم » ، ومستعد لهذا العذاب لأنه محاد لله . ولكن الله يقبل منه ومن أمثاله أن يشهدوا . وهذا دليل على أن الإيمان الفطرى فى النفس البشرية ، فإذا ما حزبها واشتد عليها الأمر لم تجد إلا منطق الإيمان .

ويوضح الحق للمنافقين : ماذا أفعل أنا بعذابكم ؟ فلن يجدوا سببا خاصا بالله ليعذبهم ، فكأن الفطرة الطبيعية قد استيقظت فيهم ؛ لأنهم سيديرون المسألة فى نفوسهم .

وعلى مستوانا نحن البشر نرى أن الذى يدفع الإنسان ليعذب إنسانا آخر إنما يحدث ذلك ليشفى غيظ قلبه ، أو ليثأر منه ؛ لأنه قد آلمه فيريد أن يرد هذا الإيلام . أو ليمنع ضرره عنه . والله سبحانه وتعالى لا يمكن أن يكون فى أى موقع من هذه المواقع . فإذا أدار المنافقون هذه المسألة فطريا بدون إيمان فلن يكون جوابهم إلا الآتى : لن يفعل الله بعذابنا شيئا ، إن شكرنا وآمنا .

ونستخلص من ذلك أن الحق سبحانه وتعالى حين يريد عرض قضية يثبت فيها الحكم من الخصم نفسه ، يلقيها على هيئة سؤال . وكان من الممكن أن يجرى هذه المسألة خبرا ، إلا أن الخبر هو شهادة من الله لنفسه ، أما السؤال فستكون إجابته اقرارا من المقابل . وهذا يعنى أنهم كانوا عاصين ومخالفين . وكأنه سبحانه قد ائتمنهم على هذا الجواب ؛ لأن الجواب أمر فطرى لا مندوحة عنه . وحين يدير الكافر رأسه ليظن بالله ما لا يليق ، فلن يجد مثل هذا الظن أبدا .

« ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم وكان الله شاكرا عليما » . وإن لم يشكروا ولم يؤمنوا فما الذى يناله الحق من عذابهم ؟ ونعلم أن عظمة الحق أنه لا يوجد شى من طاعة يعود إلى الله بنفع ، ولا يوجد شىء من معصية يعود إلى الله بالضرر . ولكنه يعتبر النفع والضرر عائدين على خلق الله لا على الله ـ سبحانه ـ .

وسبحانه يريدنا طائعين حتى نحقق السلامة فى المجتمع ، سلامة البشر بعضهم من بعض . إذن فالمسألة التي يريدها الحق ، لا يريدها لنفسه ، فهو قبل أن يخلق الخلق موجود وبكل صفات الكمال له ، وبصفات الكمال أوجد الخلق . وإيجاد الخلق لن يزيد معه شيئا ، ولذلك قال فى الحديث القدسى :

« يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وانسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك فى ملكى شيئا ، يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وانسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئا ، يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وانسكم وجنكم قاموا فى صعيد واحد فسألونى فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندى شيئا إلا كما يُنقص المخيط إذا أدخل البحر . . »[1] .

---

(١) رواه مسلم وأبو عوانه وابن حبان والحاكم عن أبى ذر .

إذن فالطاعة بالنسبة لله والمعصية بالنسبة لله ، إنما لشيء يعود على خلق الله . ولننظر إلى الرحمة من الحق سبحانه وتعالى الذى خلق خلقاً ثم حمى الخلق من الخلق ، واعتبر سبحانه أن من يحسن معاملة المخلوق مثله فهو طائع لله ، ويحبه الله لأنه أحسن إلى صنعة الله .

« ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم » فإن تشكروا وتؤمنوا فلن يفعل الله بعذابكم شيئا . . أى فقد أبعدتم أنفسكم عن استحقاق العذاب .

وسبحانه يريد أن يعدل مزاج المجتمع وتفاعلات أفراده مع بعضهم بعضاً ، وذلك حتى يكون المجتمع ذا بقاء ونماء وتعايش . ونعلم أن لكل إنسان سمة وموهبة ، وهذه الموهبة يريدها المجتمع .

فمن الجائز أن يكون لإنسان ما أرض ويريد أن يقيم عليها بناء ، وصاحب الأرض ليس مفترضا فيه أن يدرس الهندسة أولاً حتى يصمم البناء ورسومه ، وليس مفترضا فيه أن يتقن حرفة البناء ليبنى البيت ، وكذلك ليس مفروضا فيه أن يتعلم حرفة الطلاء والكهرباء وغيرهما .

وكذلك ليس من المفروض فيمن يريد ارتداء جلباب أن يتعلم جز الصوف من الغنم أو غزل القطن وكيف ينسجه وكيف يقوم بتفصيله وحياكته من بعد ذلك ، لا ، لا بد أن يكون لكل إنسان عمل ما ينفع الناس . إذن فلكل إنسان عمل ينفع الناس به حتى يتحقق الاستطراق النفعى ، ولأن كلاً منا يحتاج إلى الآخر فلا بد من إطار التعايش السلمى فى الحياة . لا أن يكون العراك هو أساس كل شيء ؛ لأن العراك يضعف القوة ويذهب بها سدى ، وسبحانه يريد كل قوى المجتمع متساندة لا متعاندة ، ولذلك قال : « ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم » . أما إن لم تشكروا وتؤمنوا ، فعذابكم تأديب لكم ، لا يعود على الله بشيء .

ولماذا وضع الحق الشكر مع الإيمان ؟ لنعرف أولاً ما الشكر ؟ الشكر : هو إسداء ثناء إلى المنعم ممن نالته نعمتهُ ، فتوجيه الشكر يعنى أن تقول لمن أسدى لك معروفا : « كثر خيرك » ، وما الإيمان ؟ إنه اليقين بأن الله واحد .

لكن ما الذى يسبق الآخر . الشكر أو الإيمان ؟ إن الإيمان بالذات جاء بعد الانتفاع بالنعمة ، فعندما جاء الإنسان إلى الكون وجد الكون منظما ، ولم يقل له أحد أى شىء عن أى دين أو خالق . ألا تهفو نفس هذا الإنسان إلى الاستشراف إلى معرفة من صنع له هذا الكون ؟

وعندما يأتى رسول ، فالرسول يقول للإنسان : أنت تبحث عن القوة التى صنعت لك كل هذا الكون الذى يحيط بك ، إن اسمها الله ، ومطلوبها أن تسير على هذا المنهج . هنا يكون الإيمان قد وقع موقعه من النعمة . فالشكر يكون أولا ، وبعد ذلك يوجد الإيمان ، فالشكر عرفان إجمالى ، والإيمان عرفان تفصيلى . والشكر متعلق بالنعمة . والإيمان متعلق بالذات التى وهبت النعمة .

« ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم وكان الله شاكرا عليما » والحق سبحانه يوضح لنا : أنا الإله واهب النعمة أشكركم . كيف يكون ذلك ؟

لنضرب هذا المثل ـ ولله المثل الأعلى ـ أنت اشتريت لابنك بعضا من اللعب ، ولم تفعل ذلك إلا بعد ان استوفيت ضرورات الحياة ، فلا أحد يأتى باللعب لابنه وهو لم يأت له بطعام أو ملابس .

إذن فأنت تأتى لابنك باللعب بعد الطعام والملبس ليملأ وقت فراغه ، وهذا يعنى أن الضرورات قد اكتملت . وحين تقول لابنك : إن هذه اللعبة للعب فقط ، ستأخذها ساعة تحب أن تلعب ، وتضعها فى مكانها وقت أن تذاكر ، فكل شىء هنا فى هذا المنزل له مهمة يجب أن يؤديها . وهذا يعنى إنك كوالد تريد أن تؤدب ابنك حتى يلعب بلعبته وقت اللعب ولا يلعب بأى شىء غيرها فى المنزل ؛ لأنه لو لعب بكل شىء فى المنزل فلا بد من أن يكسر شيئا ، فلا مجال للعب فى التليفزيون أو فى الساعة أو الثلاجة أو الغسالة حتى لا تتعطل تلك الأجهزة .

وأنت كوالد تريد أن تفرق بين شىء يلعب به وشىء يُجد به . وأشياء الجد لا توجد إلا عند طلبها فقط ؛ فالغسّالة لا تستخدم إلا ساعة غسل الملابس ، والساعة لا نستخدمها إلا لحظة أن نرغب فى معرفة الوقت . والثلاجة لا تفتحها إلا ساعة

تريد أن تستخرج شيئا تأكله أو تشربه ، والوالد يأتى للابن بقليل اللعب ليضع له حدا بين الأشياء التى يمكنه أن يلعب بها وبين الأشياء التى لا يصح أن يلعب بها ، فأشياء المنزل يجب ألا يقرب منها الابن إلا وقت استعمالها . لكن بالنسبة للعبة فالابن يلعب بها عندما يحين وقت اللعب ، لكن عليه أن يحافظ عليها . وعندما يرقب الوالد ابنه ، ويجده منفذا للتعليمات ، ويحافظ على حاجات المنزل ، ويلعب بلعبه محافظا عليها . وإن لم يُعَلّم الأب ابنه ذلك فقد يفسد الابن لعبه .

وحين يقوم الابن بتنفيذ تعليمات أبيه فالأب يرضى عنه ويسعد به . وعندما تخرج لعبة جديدة فى السوق فالأب الراضى عن ابنه يشترى له هذه اللعبة الجديدة ؛ لأن الولد صار مأمونا ؛ لأنه يعرف قواعد اللعب مع المحافظة على أداة اللعب . ويعرف أيضا كيف يحافظ على حاجات المنزل . ويزداد رضاء الأب عن تصرفات الابن . وينشأ عن هذا الرضاء أن يشترى الأب لعبا جديدة . فإذا كان ذلك هو ما يحدث فى العلاقة ما بين الأب والابن ، وهما مخلوقان لله ، فما بالنا بالخالق الأعلى سبحانه وتعالى الذى أوجد كل المخلوقات ؟

إن الإنسان حين يضع كل المسائل فى ضوء منهج الله ، فالله شاكر وعليم ؛ لأن الله يرضى عن العبد الذى يسير على منهجه ، وعندما يرضى الرب عن العبد فهو يعطى له زيادة . فالله شاكر بمعنى أن البشر إن أحسنوا استقبال النعمة بوضع كل نعمة فى مجالها فلا تتعدى نعمة جادة على نعمة هازلة ، ولا نعمة هازلة على نعمة جادة ، فالله يرضى عن العباد .

ومعنى رضاء الله أن يعطى البشر أشياء ليست من الضرورات فقط ولكن ما فوق ذلك . فسبحانه يعطى الضرورات للكل حتى الكافر . ويعطى سبحانه ما فوق الضرورات وهى أشياء تسعد البشر .

إذن فمعنى أن الله شاكر . . أى أنه سبحانه وتعالى راض . ويثيب نتيجة لذلك ويعطى الإنسان من جنس الأشياء ويسمو عطاؤه ، مصداقا لقوله الحق :

﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾

(من الآية ٧ سورة إبراهيم)

فالشكر هنا موجه من العبد للرب ، والزيادة من الرب إلى العبد . وإياك أيها الإنسان أن تصنع الأشياء شكليا ، مثل الطفل الذى يصون لعبته لحظة أن يرى الأب . ومن فور أن يختفى الأب من أمام عينى الطفل فهو يفسد اللعبة ، والله ليس كالأب أبداً ، فالأب قدراته محدودة ، ولكن الله هو الخالق الأعلى الذى لا تخفى عليه خافية أبداً وسبحانه شاكر ، وهو أيضاً عليم .

ومن بعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ ﴾

إنه سبحانه وتعالى يريد أن يحمى آذان المجتمع الإيمانى من « قالات السوء » . . أى من الألفاظ الرديئة ؛ لأننا نعلم أن الناس إنما تتكلم بما تسمع ، فاللفظ الذى لا تسمعه الأذن لا تجد لسانا يتكلم به ، ونجد الطفل الذى نشأ فى بيت مهذب لا ينطق ألفاظا قبيحة ، وبعد ذلك تجىء على لسانه ألفاظ قبيحة وحينئذ نتساءل : من أين جاءت هذه الألفاظ على لسان هذا الابن ؟ ونعرف أنها جاءت من الشارع ؛ لأن البيئة الدائمة للطفل ليس بها ألفاظ رديئة ، وعندما يتقصى الإنسان عن مصدر هذه الألفاظ ، يعرف أن الطفل المهذب قضى بعضاً من الوقت فى بيئة أخرى تسربت إليه منها بعض الألفاظ الرديئة .

إذن فاللغة هى بنت المحاكاة . وما تسمعه الأذن يحكيه اللسان . ونعلم أن اللغة ليست جنسا وليست دما ، بمعنى أن الطفل الإنجليزى لو نشأ فى بيئة عربية ، فهو يتحدث العربية . ولو أخذنا طفلا عربيا ووضعناه فى بيئة إنجليزية فسيتكلم الإنجليزية .

واللغة الواحدة فيها ألفاظ لا يتكلم بها لسان إلا إن سمعها ، وإن لم يسمعها الإنسان فلن ينطق بها . والحق سبحانه وتعالى يريد أن يحمى المجتمع الإيمانى من قالات السوء التى تطرق آذان الناس لأنها ستعطيهم لغة رديئة ؛ لأن الناس إن

تكلمت بقالات السوء ، فسيكون شكل المجتمع غريبا ، وتتردد فيه قالات سوء فى آذان السوء ، فكأن الحق سبحانه يوضح : إياكم أن تنطق ألسنتكم بأشياء لا يحبها الله ، فليست المسألة أن يريح الإنسان نفسه فقط بنطق كلمة ، ولكن نطق هذه الكلمة سيرهق أجيالاً ؛ لأن من يسمع الكلمة الرديئة سيرددها ، وسيسمعها غيره فيرددها ، وتتوالى القدوة السيئة . ويتحمل الوزر الإنسان الذى نطق بكلمة السوء أولاً .

وقالات السوء هذه قد تكون بالحق وقد تكون بالباطل ، فإن كانت فى الحق مثلا فلن نستطيع أن نقول : إن كل الناس أهل سوء . وقد يبتدىء إنسان آخر بسباب ، ويجوز أن يدعى إنسان على آخر سبابا . إذن فالحق سبحانه وتعالى يريد أن يحمى الآذان الإيمانية من ألسنة السوء ، لذلك يقول : « لا يحب الله الجهر بالسوء من القول » ومقابلها بالطبع هو : أن الله يحب الجهر بالحسن من القول . وساعة يحبك الحق المجتمع هذه الحبكة الإيمانية ، أيعالج ملكة على حساب ملكة أخرى ؟. لا .

ونعلم أن النفس فيها حب الانتقام وحب الدفاع عن النفس وحب الثأر وما يروح به عن نفسه ويخفف ما يجده من الغيظ . والمثل العربى يقول : « من استُغْضِب ولم يغضب فهو حمار » ؛ لأن الذى يُستغضب ولا يغضب يكون ناقص التكوين ، فهل معنى ذلك أن الله يمنع الناس من قول كلمة سوء ينفث بها الإنسان عن صدره ويريح بها نفسه ؟ لا ، لكنه ـ سبحانه ـ يضع شرطاً لكلمة السوء هو : « إلا من ظُلِم » ؛ لأن الظلم هو أخذ حق من إنسان لغيره . وكل إنسان حريص على نفسه وعلى حقوقه . فإن وقع ظلم على إنسان فملكات نفسه تغضب وتفور ، فإما أن ينفث بما يقول عن نفسه ، وإما أن يكبت ويكتم ذلك .

فإن قال الله : « لا يحب الله الجهر بالسوء من القول » واكتفى بذلك ، لكان كبتاً للنفس البشرية . وعملية الكبت هذه وإن كانت طاعة لأمر الله لأنه لا يحب الجهر بالسوء من القول ، ولكن قد ينفلت الكبت عند الانفعال ، وينفجر ؛ لذلك يضع الحق الشرط وهو وقوع ظلم . فيوضح سبحانه : أنا لا أحب الجهر بالسوء من القول ، وأسمح به فى حدوده المنفثة عن غيظ القلوب ؛ لأنى لا أحب أن أصلح ملكة على حساب ملكة أخرى . ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« إن الغضب جمرة توقد فى القلب ألم تروا إلى انتفاخ أوداجه وحمرة عينيه فإذا وجد أحدكم من ذلك شيئا فإن كان قائما فليجلس ، وإن كان جالسا فلينم فإن لم يزُل ذلك فليتوضأ بالماء البارد أو يغتسل فإن النار لا يطفئها إلا الماء »[1] .

أى أن يتحرك الإنسان من فور إحساسه بالغضب ؛ فيغير من وضعه أو يقوم إلى الصلاة بعد أن يتوضأ أو يغتسل ؛ لأنه بذلك ينفث تنفيثاً حركياً ليخفف من ضغط المواجيد على النفس الفاعلة ؛ تماماً كما يفك إنسان صماماً عن آلة بها بخار ليخرج بعض البخار .

إذن فمن وقع عليه ظلم له أن يجهر بالسوء . والجهر له فائدتان : الأولى : أن ينفث الإنسان عن نفسه فلا يكبت ، وثانياً : أنه أشاع وأعلن أن : هذا إنسان ظالم ، وبذلك يحتاط الناس فى تعاملهم معه . وحتى لا يخدع إنسان نفسه ويظن أنه بمنجاة عن سيئاته ، فلو ستر كل إنسان الظلم الذى وقع عليه لاستشرى الظلم فى عمل السيئات . ولكن إياك أن تتوسع أيها العبد فى فهم معنى كلمة « ظلم » هذه ؛ لأن الذى ينالك ممن ظلمك إما فعل وإما قول . وعليك أيها المسلم أن تقيس الأمر بمقياس دقيق على قدر ما وقع عليك من ظلم .

﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾

(من الآية ١٩٤ سورة البقرة)

إذن فالحق سبحانه وتعالى لا يعطينا فى الاستثناء إلا على قدر الضرورة . ويوضح : إياكم أن تزيدوا على هذه الضرورة ، فإن كان ظلمكم بقول فأنا السميع . وإن كان ظلمكم بفعل فأنا العليم ، فلا يتزيد واحد عن حدود اللياقة .

وبذلك يضع الحق الضوابط الإيمانية والنفسية فأزاح الكبت وفى الوقت نفسه لم يقفل باب الطموح الإيمانى . لقد سمح للعبد أن يجهر إن وقع عليه ظلم . لكن إن امتلك الإنسانُ الطموحَ الإيمانى فيمكنه ألا يجهر وأن يعفو . إذن فهناك فارق بين أمر يضعه الحق فى يد الإنسان ، وأمر يلزمه به قسرا وإكراها عليه ؛ فمن ناحية الجهر ، جعل سبحانه المسألة فى يد الإنسان ، ويحب سبحانه أن يعفو الإنسان ؛ لأن المبادىء

---

(١) رواه البيهقى فى الشعب ، والترمذى من حديث أبى سعيد دون قوله (توقد) . ورواه أحمد وأبو داود .

القرآنية يتساند بعضها مع بعض . وسبحانه يقول :

﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾

(من الآية ٣٤ سورة فصلت)

فإن أباح الله لك أن تجهر بالسوء من القول إذا ظلمك أحدٌ ، فقد جعل لك ألاّ تجهر بل تعفو عنه ، وغالب الظن أن صاحب السوء يستخزى ويعرف أن هناك أناساً أكرم منه فى الخلق ، ولا يتعب إنسانٌ إلا أن يرى إنساناً خيراً منه فى شىء . وعندما يرى الظَالمُ أن المظلوم قد عفا فقد تنفجر فى نفسه الرغبة أن يكون أفضل منه .

إذن فالمبدأ الإيمانى : « ادفع بالتى هى أحسن » جعله الله مجالاً محبوباً ولم يجعله قسراً ؛ لأنك إن أعطيت الإنسان حقه ، ثم جعلت لأريحيته أن يتنازل عن الحق فهذا إرضاء للكلِ . وهكذا ينمى الحق الأريحية الإيمانية فى النفس البشرية ؛ لأنه لو جعلها قسراً لأصلح ملكة على حساب ملكة أخرى . ولذلك إذا رأيت إنساناً قد اعتدى على إنسان آخر ، فدفع الإنسان المعتدى عليه بالتى هى أحسن وعفا وأصلح فقد ينصلح حال المعتدى ، وسبحانه القائل : (ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم) .

فإذا تمادى من بعد ذلك فعلى الإنسان أن يعرف أن الله لا يكذب أبداً ، ولا بد أن الخلل فى سلوكك يا من تظن أنك دفعت بالتى هى أحسن .

قد يكون الذى دفع بالتى هى أحسن قد قال بلهجة من التعالى : سأعفو عنك ، ومثل هذا السلوك المتكبر لا يجعل أحداً وليًّا حميمًا . لكن إن دفع حقيقة بالتى هى أحسن تواضعاً وسماحة ، فلا بد أن يصير الأمر إلى ما قاله الله : (فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم) . والتفاعلات النفسية المتقابلة يضعها الله فى إطارات واضحة وسبحانه القائل :

﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾

(من الآية ١٩٤ سورة البقرة)

وذلك حتى لا يستشرى المعتدى أيضاً ، فهناك إنسان إذا تركناه مرة ومرة . يستشرى ، لكن إذا ما أوقفناه عند حده فهو يسكت ، وبذلك نرحم المجتمع من استشراء الفساد . ويُصعب الحق المسألة فى رد الاعتداء .

ويثور سؤال : من القادر على تحقيق المثلية بعدالة ؟ . ونجد على سبيل المثال إنسانا ضرب إنساناً آخر صفعة على الوجه ، فبأية قوة دفع قد ضرب ؟ وفى أى مكان ضرب ؟ ولذلك نجد أن رد العدوان على درجة المثلية المتساوية أمر صعب . ومادام المأمور به أن أعتدى بمثل ما اعتدى به على ؛ ولن أستطيع تحقيق المثلية ، ولربما زاد الأمر على المثلية ؛ وبعد أن كنت المعتدَى عليه صرت المعتدِى ، بذلك يكون العفو أقرب وأسلم .

والعمليات الشعورية التى تنتاب الإنسان فى التفاعلات المتقابلة يكون لها مواجيد فى النفس تدفع إلى النزوع . والعملية النزوعية هى رد الفعل لما تدركه ، فإن آذاك إنسان وأتعبك واعتدى عليك فأنت تبذل جهدًا لتكظم الغيظ ، أى أن تحبس الغيظ على شدة . فالغيظ يكون موجوداً ، ولكن المطلوب أن يمنع الإنسان الحركة النزوعية فقط . وعلى المغتاظ أن يمنع نفسه من النزوع ، وإن بقى الغيظ فى القلب .

﴿ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ ﴾

(من الآية ١٣٤ سورة آل عمران)

هذه مرحلة أولى تتبعها مرحلة ثانية هى :

﴿ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ﴾

(من الآية ١٣٤ سورة آل عمران)

فإذا كان المطلوب فى المرحلة الأولى منع العمل النزوعى ، فالأرقى من ذلك أن تعفو ، والعفو هو أن تخرج المسألة التى تغيظك من قلبك . وإن كنت تطلب مرحلة أرقى فى كظم الغيظ والعفو فأحسن إليه ؛ لأن من يرتكب الأعمال المخالفة هو المريض إيمانياً . وعندما ترى مريضاً فى بدنه فأنت تعاونه وتساعده وإن كان عدواً لك . وتتناسى عدواته ؛ فما بالنا بالمصاب فى قيمه ؟ إنه يحتاج منا إلى كظم الغيظ ، أو العفو كدرجة أرقى ، أو الاحسان إليه كمرحلة أكثر علواً فى الارتقاء .

إذن فالحق سبحانه وتعالى يبيح أن تعتدى بالمثل ، ثم يفسح المجال لنكظم الغيظ فلا نعتدى ولكن يظل السبب فى القلب ، ثم يرتقى بنا مرحلة أخرى إلى العفو وأن نخرج المسألة من قلوبنا ، ثم يترقى ارتقاء آخر ، فيقول سبحانه : (والله يحب المحسنين) ، ومن فينا غير راغب فى حب الله ؟ وهكذا نرى أن الدين الإسلامى يأمر بأن يحسن المؤمن إلى من أساء إليه .

وقد يتساءل إنسان : كيف تطلب منى أن أحسن إلى من أساء إلى ؟ والرد : أنت وهو لستما بمعزل عن القيوم ؛ فهو قيوم ولا تأخذه سنة ولا نوم ، وكل شىء مرئى له وكلاكما صنعة الله ، وعندما يرى الله واحداً من صنعته يعتدى عليك أو يسىء إليك فسبحانه يكون معك ويجيرك ، ويقف إلى جانبك لأنك المعتدَى عليه . إذن فالإساءة من الآخر تجعل الحق سبحانه فى جانبك ، وتكون تلك الإساءة فى جوهرها هدية لك .

وعندما نفلسف كل المسائل نجد أن الذى عفا قد أخذ أكثر مما لو كان قد انتقم وثأر لنفسه ؛ لأنه إن انتقم سيفعل ذلك بقدرته المحدودة ، وحين يعفو فهو يجعل المسألة لله وقدرته سبحانه غير محدودة ، إن أراد أن يرد عليه ، وبعطاء غير محدود إن أراد أن يرضى المعتدى عليه . هذا هو الحق سبحانه وتعالى عندما يلجأ إليه المظلوم العافى المحسن . وهو السميع العليم بكل شىء . ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾ ﴾

لقد عرفنا أن الحق لا يسمح لك بالجهر بالسوء من القول إلا إذا كنت مظلوماً . وهذا يعنى أن المسألة تحتمل الجهر وتحتمل الإخفاء ، فقال : « إن تبدو خيراً » أى إن تظهر الخير ، أو تخفى ذلك ، أو تعفو عن السوء . وكل هذه الأمور من ظاهر وخفى من الأغيار البشرية ، لكن شيئاً لا يخفى على الله . ولا يمكن أن يكون للعفو مزية

إيمانية إلا إذا كان مصحوباً بقدرة ، فإن كان عاجزاً لما قال : عفوت . وسبحانه يعفو مع القدرة . فإن أردت أن تعفو فلتتخلق بأخلاق منهج الله ، فيكون لك العفو مع القدرة . ولنا أن نعلم أن الحق لا يريد منا أن نستخزى أو نستذل ولكن يريد منا أن نكون قادرين ، ومادمنا قادرين فالعفو يكون عن قدرة وهذه هى المزية الإيمانية ؛ لأن عفو العاجز لا يعتبر عفواً .

والناس تنظر إلى العاجز الذى يقول : إنه عفا ـ وهو على غير قدرة ـ تراه أنه استخزى . أما من أراد أن يتخلق بأخلاق منهج الله فليأخذ من عطاءات الله فى الكون ، ليكون قادراً وعزيزاً بحيث إن ناله سوء ، فهو يعفو عن قدرة « فإن الله كان عفواً قديراً » .

وقلنا من قبل : إنك إذا لمحت كلمة « كان » على نسبة لله سبحانه وتعالى كنسبة الغفران له أو الرحمة ، فعلينا أن نقول : كان ولايزال ؛ لأن الفعل مع الله ينحل عن الزمان الماضى وعن الحاضر وعن المستقبل ؛ فهو سبحانه مادام قد كان ، وهو لا تناله الأغيار ، فهو يظل إلى الأبد .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ ﴾

وسبحانه يريد أن يجعل من قضية الإيمان قضية كلية واحدة لا أبعاض فيها ، فليس إعلان الإيمان بالله وحده كافياً لأن يكون الإنسان مؤمناً ؛ لأن مقتضى أن تؤمن بالله يحتاج إلى رسول يعرفك أن الخالق هو الذى سخر لك قوى الكون واسمه الله .

وأنت لا تهتدى إلى معرفة اسم القوة الخالقة لك إلا بوساطة رسول منزل من عند الله .

ونعرف أن عمل العقل فى الاستنباط العقدى عاجز عن معرفة اسم خالق الكون ؛ لأن الإنسان قد طرأ على كون منظم ، وكان من الواجب عليه أن يلتفت لفتة ليعلم القوة التى سبقت هذا الوجود وخلقته وأن الإنسان قد طرأ على وجود متكامل . وقد يسمع الإنسان من أبيه ـ مثلاً ـ أن هذا البيت بناه الأب أو الجد ، وذلك الشىء فعله فلان ابن فلان . لكن لم يسمع أحداً يقول له : « ومن بنى السماء ؟» ولم يسمع أحداً يقول : « ومن خلق الشمس ؟» ، مع أن الناس تدعى ما ليس لها ، فكيف يُترك أعظم ما فى كون الله بدون أن نعرف من أوجده ؟ .

إننا نجد الناس تؤرخ للشىء التافه أو المهم نسبياً فى حياتهم ، نجد دراسات عن تاريخ أحجار ، ودراسات عن تاريخ صناعة الأشياء ؛ تاريخ المصباح الكهربى الذى اخترعه اديسون وقام بتوليد الكهرباء من مصادر ضئيلة ويسيره ، باختصار ، نجد أن كل شىء فى هذا الوجود له تاريخ ، وهذا التاريخ يرجع بالشىء إلى أصل وجوده . وأنت إن نسبت أى صنعة مهما كانت مهمة أو تافهة نكتشف أن واحداً تلقاها عن واحد ، ولم يبتكرها هو دفعة واحدة .

إن كل مبتكر أخذ ما انتهى إليه سابقه وبدأ عملاً جديداً إلى أن وصلت المخترعات بميلادها ، ومن يصدق أن مصباحاً يُضىء وينطفىء ويحترق يصنعه إنسان ونعرف له تاريخاً ، وبعد ذلك ننظر إلى الشمس التى لم تخفت ولم تضعف ولم تنطفىء ولم تحترق ، والمصباح ينير حيزاً قليلا يسيرًا ، والشمس تنير كوناً ووجوداً ، ألا تحتاج الشمس إلى من يفكر فى تاريخها ؟

لقد سبق لنا أن قلنا : إن الإنسان حينما ينظر إلى الكون نظرة بعيدة عن فكرة الدين وبعيداً عن بلاغ الرسل عن الخالق وكيفية الخلق ومنهج الهداية ، فهو يقول لنفسه : تختلف مقادير الناس باختلاف مراكزها وقوتها فيما يفعلون ، هناك من يجلس على كرسى من شجر الجميز . وآخر على كرسى مصنوع من شجر الورد ، وثالث يجلس على حصيرة .

إن الإنسان يعيش بصناعات غيره من البشر حسب قدره ومكانته ؛ فالريفى أو البدوى يشعل النار بصك حديدة بحجر الصوان ويحتفظ بالنار لمدة ليستخدمها لأكثر من مرة ، وعندما يرتقى فى استخدام النار يستخدم « مسرجة » ، ولمّا ازداد تحضرا استخدم « مصباح جاز » بزجاج ولها أرقام تدل على قدرتها على الاضاءة .

فهناك مصباح رقم خمسة ، ورقمها دليل على قوتها الخافتة ، وتتضاعف قوة « المصباح » من بعد ذلك حسب المساحة المطلوب إنارتها . ولمّا ارتقى الإنسان أكثر استخدم « الكلوب » . ولمّا ارتقى أكثر استخدم الكهرباء أو النيون أو الطاقة الشمسية ، فإذا ما أشرقت الشمس فكل إنسان يطفىء الضوء الذى يستخدمه ، فنورها يغنى عن أى نور . وفى الليل يحاول الإنسان أن تكون حالة الكهرباء فى منزله جيدة خشية أن ينقطع سلك ما فيظلم المكان . فما بالنا بالشمس التى لا يحدث لها مثل ذلك .

إننا نجد الإنسان على مر التاريخ يحاول أن يرقى إلى فهم طلاقة قدرة الحق ، وإن لم يأت رسول ، أما أسماء القدرة الخالقة فلا يعرفها أحد بالعقل بل بوساطة الرسل . فاسم « الله » اسم توقيفى . فكيف يتأتى ـ إذن ـ مثل قول هؤلاء : سنؤمن بالله ونكفر برسله ؟ كيف عرفوا ـ إذن ـ أن القوة التى سيؤمنون بها اسمها الله ؟ لا بد أنهم قد عرفوا ذلك من خلال رسول ؛ لأن الإيمان بالله إنما يأتى بعد بلاغ عن الله لرسول ليقول اسمه لمن يؤمن به .

وهل الإيمان بالله كقوة خفية قوية مبهمة وعظيمة يكفى ؟ أو أن الإنسان لا بد له أن يفكر فيما تطلبه منه هذه القوة ؟ وإذا كانت هذه القوة تطلب من الإنسان أن يسير على منهج معين ، فمن الذى يبلغ هذا المنهج ؟

لا بد إذن من الرسول يبلغنا اسم القوة الخالقة ومطلوبها من الإنسان للسير على المنهج ، ويشرح لنا كيفية طاعة هذه القوة . فلا أحد ـ إذن ـ يستطيع أن يفصل الإيمان بالله عن الرسول ، وإلا كان إيمانا بقوة مبهمة . ولا يجترىء صاحب هذا اللون من الإيمان أن يقول : إن اسم هذه القوة « الله » ؛ لأن هذا الاسم يحتاج إلى بلاغ من رسول .

إذن فعندما يسمع أحدنا إنساناً يقول : أنا أؤمن بالله ولكن لا أؤمن بالرسل : علينا أن نقول له : هذا أول الزلل العقلى ؛ لأن الإيمان بالله يقتضى الإيمان ببلاغ جاء به رسول ؛ لأن الإيمان بالله لا ينفصل عن الإيمان بالرسول .

والحق سُبحانه وتعالى خلق آدم بعد أن خلق الكون وبقية المخلوقات ، ولا نجد من يدعى أن آدم هو أول من عمر هذا الوجود .

وما آدم فى منطق العقل واحد ولكنه عند القياس أوادم

ومن الممكن أن نقول : إن هناك خلقاً كثيرًا قد سبقوا آدم فى الوجود ، ولكن آدم هو أول الجنس البشرى . وعندما خلقه الله علمه الأسماء كلها حتى يستطيع أن يسير فى الوجود ، فلو لم يكن قد تعلم الأسماء لما استطاع أن يتحدث مع ولد من أولاده ، ولما استطاع ـ على سبيل المثال ـ أن يقول لابن من أبنائه : انظر أأشرقت الشمس أم لا ؟

إذن كان لا بد لآدم من معرفة الأسماء كلها من خلال معلم ؛ لأن اللغة بنت المحاكاة ؛ لأن أحداً لا يستطيع أن يتكلم كلمة إلا بعد أن يكون قد سمعها . والواحد منا سمع من أبيه ، والآباء سمعوا من الأجداد ، وتتوالى المسألة إلى أن تصل إلى آدم ، فممن سمع آدم حتى يتكلم أول كلمة ؟ لا بد أنه الله ، وهذه مسألة يجب أن يعترف بها كل إنسان عاقل . إذن قول الحق فى قرآنه :

﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾

(من الآية ٣١ سورة البقرة)

هو كلام منطقى بالإحصاء الاستقرائى ، وهو قول يتميز بمنتهى الصدق .

والإنسان منا عندما يعلم ابنه الكلام يعلمه الأسماء . أما الأفعال فلا أحد يعرف كيف تعلمها . الإنسان يقول لابنه : هذا كوب ، وهذه منضدة ، وذلك طبق ، وهذا طعام ، لكن لا أحد يقول لابنه : « شرب » معناها كذا ، و« أكل » معناها كذا . إذن فالخميرة الأولى للكلام هى الأسماء ، وبعد ذلك تأتى المزاولات والممارسات ليتعلم الإنسان الأفعال .

لقد ترك الحق لنا فى كونه أدلة عظيمة تناسب عظمته كخالق لهذا الكون . والرسول هو الذى يأتى بالبلاغ عنه سبحانه ، فيقول لنا اسم القوة : « الله » ، وصفاتها هى « كذا » ، ومن يطعها يدخل الجنة ، ومن يعصها يدخل النار ، ولو لم يوجد رسول نظل تائهين ولا نعرف اسم القوة الخالقة ولا نعرف مطلوبها ، وهذا ما يرد به على الجماعة التى تعبد الشمس أو تعبد القمر أو النجوم ونقول لهم : هل أنتم تعبدون الشمس ؟ لعلكم فعلتم ذلك لأنها أكبر قوة فى نظركم .

لكن هناك سؤال هو : « ما العبادة » ؟ الإجابة هى : العبادة طاعة عابد لمعبود ، فماذا طلبت منكم الشمس أن تفعلوه وماذا نهتكم ومنعتكم الشمس ألا تفعلوه ؟ ويعترف عبدة الشمس : لم تطلب الشمس منا شيئاً . وعلى ذلك فعبادتهم للشمس لا أساس لها ؛ لأنها لم تحدد منهجا لعبادتها ، ولا تستطيع أن تعد شيئا لمن عبدها ، فإله بلا منهج لا قيمة له . وهكذا نرى أن عبادة أى قوة غير الله هى عبادة تحمل تكذيبها ، والإيمان بالله لا ينفصل أبداً عن الإيمان بالقوة المبلغة عن الله إنها الرسل .

ويشرح الرسول لنا كيف يتصل بهذه القوة الإلهية ، وتشرح القوة الإلهية لنا كيفية اتصاله بالرسول البشرى بوساطة خلق آخر خلقته هذه القوة المطلقة ؛ لأن الرسول من البشر ، والبشر لا يستطيع أن يتلقى عن القوة الفاعلة الكبرى . ونحن نفعل مثل هذه الأشياء فى صناعتنا . ونعلم أن الإنسان عندما يريد أن ينام لا يرغب فى وجود ضوء فى أثناء نومه ، فيتخذ الليل سكنا ويتمتع بالظلمة ، لكن إن استيقظ فى الليل فهو يخاف أن يسير فى منزله بدون ضوء حتى لا يصطدم بشىء ، لذلك يوقد مصباحاً صغيراً فى قوة الشمعة الصغيرة ليعطى نفسه الضوء ، ونسميها « الوناسة » .

ولا نستطيع توصيل هذا المصباح الصغير بالكهرباء مباشرة ، وإنما نقوم بتركيب محول صغير يأخذ من القوة الكهربية العالية ويعطى للمصباح الصغير ، فما بالنا بقوة القوى ؟

إن الله جعل خلقاً آخر هم الملائكة ليكونوا واسطة بينه وبين رسله . وهؤلاء الرسل أعدهم سبحانه إعداداً خاصاً لتلقى هذه المهمة . إذن فالذين يريدون أن يؤمنوا بالله ثم يكفروا برسله نقول لهم : لا ، هذا إيمان ناقص . ووضع الحق

سبحانه وتعالى الإيمان بالرسل كلهم فى صيغة جمع حتى لا تفهم كل أمة أن رسولها فقط هو الرسول المنزل من عند الله ، بل لا بد أن تؤمن كل أمة بالرسل كلهم ؛ لأن كل رسول إنما جاء على ميعاده من متطلبات المجتمع الذى يعاصره ، وكلهم جاءوا بعقائد واحدة ، فلم يأت رسول بعقيدة مخالفة لعقيدة الرسول الآخر ؛ وإن اختلفوا فى الوسائل والمسائل التى تترتب عليها الارتقاءات الحياتية . وقد خلق الحق أولاً سيدنا آدم وخلق منه زوجته حواء ، اثنين فقط ثم قال سبحانه :

﴿ وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ﴾

(من الآية ١ سورة النساء)

كان الاثنان يعيشان معاً وأنجبا عدداً من الأبناء ، وتناسل الأبناء فصار مطلوباً لكل أسرة من الأبناء بيتاً ، وكل بيت فيه أسرة يحتاج إلى رقعة من الأرض ليستخرج منها أفراد الأسرة خيرات تكفى الطعام . وكل فرد يحتاج على الأقل إلى نصف فدان ليستخرج منه حاجته للطعام . وكلما كثر النسل اتسعت رقعة الوجود بالمواصلات البدائية ، فهذا إنسان ضاقت به منطقته فرحل إلى منطقة أخرى فيها مطر أكثر ليستفيد منه أو خير أكثر يستخرجه . وتنتشر الجماعات وتنعزل . وصارت لكل جماعة عادات وتقاليد وأمراض ومعايب غير موجودة فى الجماعة الأخرى . ولذلك ينزل الحق سبحانه وتعالى رسولاً إلى كل جماعة ليعالج الداءات فى كل بيئة على حدة . وسخر الحق سبحانه وتعالى بعض العقول لاكتشافات الكون ، وبعد ذلك يصبح الكون قطعة واحدة ، فالحدث يحدث فى أمريكا لنراه فى اللحظة نفسها فى مصر . وزادت الارتقاءات . ولذلك كادت العادات السيئة تكون واحدة فى المجتمع الإنسانى كله ، فتظهر السيئة فى أمريكا أو ألمانيا لنجدها فى مجتمعنا . إذن فالارتقاءات الطموحية جعلت العالم وحدة واحدة : آفاته واحدة ، وعاداته واحدة . وعندما يأتى الرسول الواحد يشملهم كلهم .

ولذلك كان لا بد أن يأتى الرسول الخاتم الجامع صلى الله عليه وسلم ؛ لأن العالم لم يعد منعزلاً ، ليخاطب الجمع كله ، وهو خير الرسل ، وأمته خير الأمم إن اتبعت تعاليمه . ومن ضرورة إيمان رسول الله والذين معه أن يؤمنوا بمن سبق من الرسل . والذين يحاولون أن يفرقوا بين الرسل هم قوم لا يفقهون . فاليهود آمنوا بموسى عليه السلام وأرهقوه وكفروا بعيسى . وعندما جاء عيسى عليه السلام آمن به بعض ،

وعندما جاء محمد صلى الله عليه وسلم آمن به بعض وكفر به بعض . ولذلك سمى الحق كفرهم بالنبى الخاتم : (ثم ازدادوا كفراً) . أى أنه كفر فى القمة ، فلن يأتى نبى من بعد ذلك . واكتمل به صلى الله عليه وسلم موكب الرسالات .

إذن فالمراد من الآية أن الإيمان فيه إيمان قمة ، تؤمن بقوة لكنك لا تعرف اسم هذه القوة ولا مطلوبات هذه القوة ولا ما أعدته القوة من ثواب للمطيع ولا من عقاب للعاصى . ولذلك كان ولا بد أن يوجد رسول ؛ لأن العقل يقود إلى ضرورة الإيمان بالله والرسل . وجاء الرسل فى موكب واحد لتصفية العقيدة الإيمانية لإله واحد ، فلا يقولن واحد : لقد آمنت بهذا الرسول وكفرت ببقية الرسل . والآية التى نحن بصددها الآن تتعرض لذلك فتقول :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ ﴾

(سورة النساء)

ونحن نعلم أن « كفر » معناها « ستر » . والستر ـ كما نعلم ـ يقتضى شيئا تستره ، والشىء الذى يتم ستره موجود قبل الستر لا بعد الستر . والذى يكفر بوجود الله هو من يستر وجود الله ؛ فكأن وجود الله قد سبق الكفر به . إذن فكلمة الكفر بالله دليل على وجود الله . ونقول للكافر : ماذا سترت بكفرك ؟ وستكون إجابته هى : « الله » . أى أنه آمن بالله أولاً .

« إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله » هم الحمقى ؛ لأن هذا أمر غير ممكن ، وكل رسول إنما جاء ليصل المرسل إليهم بمن أرسله . ولذلك نجد قوله الحق :

﴿ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ﴾

(من الآية ٧٤ سورة التوبة)

إنه حدث واحد من الله ورسوله . لذلك نجد أن الحمقى هم من يريدون أن يفرقوا بين الله ورسله : « ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض » لهؤلاء نقول : إن الإيمان قضية كلية ، فموكب الرسالة من الحق سبحانه وتعالى يتضمن عقائد واحدة

ثابتة لا تتغير . والحق يقول :

﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ ﴾

(من الآية ١٦٣ سورة النساء)

وهذا يؤكد أن قضايا العقائد إنما جاءت من نبع واحد لعقيدة واحدة . فماذا ـ إذن ـ يريدون بمسألة الإيمان ببعض الرسل والكفر بالبعض الآخر ؟ يريدون السلطة الزمنية . وكان القائمون على أمر الدين قديماً هم الذين يتصرفون فى كل أمر ، فى القضاء وفى الهندسة وفى كل شىء ، لذلك وثق فيهم الناس على أساس أنهم المبلغون عن الله الذين ورثوا النبوات وعرفوا العلم عن الله . ونجد العلوم الارتقائية فى الحضارات القديمة كحضارة قدماء المصريين كالتحنيط وغيرها تلك التى مازالت إلى الآن لغزاً ، إنما قام بأمرها الكهنة ، وهم ـ كما نعلم ـ المنسوبون إلى الدين . كأن الأصل فى كل معلومات الأرض هى من هبة السماء . لماذا إذن أخرج البشر وسنُّوا قوانين من وضعهم ؟ لقد فعل البشر ذلك لأن السلطة الزمنية استولى عليها رجال الدين .

ما معنى كلمة « سلطة زمنية » . كان الناس يلجأون إلى رجل الدين فى كل أمورهم ، ويفاجأ رجل الدين بأنه المقصود من كل البشر ، ويغمره الناس بأفضالهم ويعطونه مثل القرابين التى كانت تعطى للآلهة ، فيعيش فى وضع مرفَّه هو وأهله ويزداد سمنة من كثرة الطعام والمتعة . وعندما يأتى إليه أحد فى مسألة فهو يحاول أن يقول الرأى الذى يؤكد به سلطته الزمنية ، فإذا ما جاء رسول ليلغى هذه الامتيازات ، يسرع بتكذيبه ؛ ليظل ـ كرجل كهنوت ـ على قمة السلطة . ولذلك قال فيهم الحق :

﴿ ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾

(من الآية ٩ سورة التوبة)

أى استبدلوا بآيات الله ثمنا قليلا من متاع الدنيا . فأخذوا الشىء الحقير من متاع الدنيا وتركوا آيات الله دون أن يعملوا بها .

وعندما نبحث فى تاريخ القانون . نجد قانوناً إنجليزياً وآخر فرنسياً أو رومانياً ، ونجد أن المصادر الأولى لهذه القوانين هى ما كان يحكم به الكهنة . والذى جعل

الناس تنعزل عن الكهنة هو استغلالهم للسلطة الزمنية . والتفت البشر الذين عاصروا هؤلاء الكهنة أن الواحد منهم يقضى فى قضية بحكم ، ثم يقضى فى مثيلاتها بحكم مخالف ، ويغير من حكمه لقاء ما يأخذ من أجر ، فتشكك فيهم الناس ، وعرفوا أنهم يلوون الأحكام حسب أهوائهم ؛ لذلك ترك الناس حكم الكهنة ، ووضعوا هم القوانين المناسبة لهم .

إذن فالسلطة الزمنية هى التى جعلت من أتباع بعض الرسل يتعصبون لرسلهم . فإذا ما جاء رسول آخر ، فإن أصحاب السلطة الزمنية يقاومون الإيمان برسالته حتى لا يأخذ منهم السلطة الزمنية . ولذلك يعادونه ؛ لأن الأصل فى كل رسول أن يبلغ أتباعه والذين آمنوا به ، أنه إذا جاء رسول من عند الله فعليكم أن تسارعوا أنتم إلى الإيمان به .

﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

وهكذا أخذ الله الميثاق من النبيين بضرورة البلاغ عن موكب الرسالة حتى النبى الخاتم .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ ﴾

(سورة النساء)

أى أنهم يحاولون أن يفرقوا بين الله ورسله بأحكامهم التى كانوا يتبعون فيها أهواءهم للإبقاء على السلطة الزمنية ، من أجل أن يقيموا أمراً هو بين بين ، وليس فى الإيمان « بين بين » ؛ فإما الإيمان وإما الكفر . والنظرة إلى كل هذه الآية نجدها فى معظمها معطوفات ، ولم يتم فيها الكلام وهى فى كليتها مبتدأ ، لا بد لها من خبر ، ويأتى الخبر فى الآية التالية :

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّاۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ ﴾

و« الكافرون حقاً » مقصود بها أن حقيقة الكفر موجودة فيهم ؛ لأننا قد نجد من يقول : وهل هناك كافر حق ، وكافر غير ذلك ؟ نعم . فالذى لا يؤمن بكل رسالات السماء قد يملك بعضاً من العذر ، لأنه لم يجد الرسول الذى يبلغه . أما الذى جاءه رسول وله صلة إيمانية به ؛ وهذه الصلة الإيمانية لحمته بالسماء بوساطة الوحى ، فإن كفر هذا الإنسان فكفره فظيع مؤكد . « أولئك هم الكافرون حقاً » .

ونلحظ أن الحق ساعة يتكلم عن الكافرين لا يغزلهم عن الحكم والجزاء الذى ينتظرهم ، بل يوجد الحكم معهم فى النص الواحد . ولا يحيل الحق الحكم إلى آية أخرى : « أولئك هم الكافرون حقاً واعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً » وقد جاء هنا بالجزاء على الكفر ملتصقاً بالكفر ، فسبحانه قد جهز بالفعل العذاب المهين وأعَدّه للكافرين ولم يؤجل أمرهم أو يسوفه . ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« إن الجنَّة عرضت علىّ ولو شئت أن آتيكم بقطاف منها لفعلت »[1]

لقد أعد الحق الجنة والنار فعلاً وعرضها على الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولو شاء الرسول أن يأتى المؤمنين بقطاف من ثمار الجنة لفعل . فإياكم أن تعتقدوا أن الله سيظل إلى أن تقوم الساعة ، ثم يرى كم واحداً قد كفر فيعد لهم عذاباً على حسب عددهم ، أو كم واحداً قد آمن فيعد لهم جنة ونعيماً على قدر عددهم ، بل أعد الحق الجنة على أن كل الناس مؤمنون ولهم مكان فى الجنة ، وأعد النار على أن كل الناس كافرون ولهم أماكن فى النار . فيأتى المؤمن للآخرة ويأخذ المكان المعد له ، ويأخذ أيضاً بعضاً من الأماكن فى الجنة التى سبق إعدادها لمن كفر . مصداقاً لقوله الحق :

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾ ﴾

(سورة المؤمنون)

---

(١) رواه البخارى فى الأذان ، وابن ماجه فى الإقامة ، وأحمد .

فسبحانه لم ينتظر ولم يؤجل المسألة إلى حد عمل الإحصائية ليسأل من الذى آمن ومن الذى كفر ، ليعد لكل جماعة حسب تعدادها ناراً أو جنة ، بل عامل خلقه على أساس أن كل الذى يأتى إليه من البشر قد يكون مؤمناً ، لذلك أعد لكل منهم مكاناً فى الجنة ، أو أن يكون كافراً ، فأعد لكل منهم مكاناً فى النار . ونجد السؤال فى الآخرة للنار :

﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ ﴾

(سورة ق)

فالنار تطلب المزيد للأماكن التى كانت معدة لمن لم يدخلها لأنه آمن بالله . ويرث الذين آمنوا الأماكن التى كانت معدة لمن لم يدخل الجنة لأنه كفر بالله وبرسله وفرق بين الله ورسله وقال نؤمن ببعض ونكفر ببعض . ويأتى من بعد ذلك المقابل للذين كفروا بالله ورسله وهم المؤمنون ، هذا هو المقابل المنطقى .

والمجىء بالمقابلات أدعى لرسوخها فى الذهن . مثال ذلك عندما ينظر مدير المدرسة إلى شابين ، كل منهما فى الثانوية العامة ، فيقول : فلان قد نجح لأنه اجتهد ، والثانى قد خاب وفشل . هذه المفارقة تحدث لدى السامع لها المقارنة بين سلوك الاثنين .

وهاهو ذا الحق يأتى بالمقابل للكافرين بالله ورسله :

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾ ﴾

ويؤكد الحق هنا على أمر واضح : هو : « ولم يفرقوا بين أحد منهم » وكلمة « أحد » فى اللغة تطلق مرة ويراد بها المفرد ، ومرة يراد بها المفردة ، ومرة يراد بها المثنى مذكراً أو المثنى مؤنثاً أو جمع الإناث وجمع التذكير . وهكذا تكون « أحد » فى

هذه الآية تشمل كل الرسل ، بدليل قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾

(من الآية ٣٢ سورة النساء)

فكلمة أحد يستوى فيها المذكر والمؤنث والمثنى والمفرد والجمع . وكما قال الحق عن الذين يكفرون بالله ورسله أو يفرقون بين الرسل : « أولئك هم الكافرون حقاً وأعتدنا للكافرين عذابا مهيناً » . يقول الحق فى هذه الآية عن الذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم : « أولئك سوف يؤتيهم أجورهم وكان الله غفوراً رحيماً » فكل مقابل قد جاء معه حُكْمُه . ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ يَسۡـَٔلُكَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيۡهِمۡ كِتَٰبٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ فَقَدۡ سَأَلُواْ مُوسَىٰٓ أَكۡبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلۡمِهِمۡۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَعَفَوۡنَا عَن ذَٰلِكَۚ وَءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينٗا ﴿١٥٣﴾ ﴾

هذا خطأ منهم فى السؤال ، وكان المفروض أن يكون : يسألك أهل الكتاب أن تسأل الله أن ينزل عليهم كتاباً . وقد حاول المشركون فى مكة أن يجدوا فى القرآن ثغرة فلم يجدوا وهم أمة فصاحة وبلاغة ولسان ، واعترفوا بأن القرآن عظيم ولكن الآفة بالنسبة إليهم أنه نزل على محمد صلى الله عليه وسلم :

﴿ وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾

(سورة الزخرف)

هم اعترفوا بعظمة القرآن ، واعترافهم بعظمة القرآن مع غيظهم من نزوله على رسول الله صلى الله عليه وسلم جعلهم مضطربين فكرياً ، لقد اعترفوا بعظمة القرآن بعد أن نظروا إليه . . فمرة قالوا : إنه سحر ، ومرة قالوا : إنه من تلقين بعض البشر ، وقالوا : إنه شعر ، وقالوا : إنه من أساطير الأولين . وكل ذلك رهبة أمام عظمة القرآن . ثم أخيرا قالوا : (لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) .

ولكن ألم يكن هو القرآن نفسه الذى نزل ؟ إذن . فالآفة ـ عندهم ـ أنه نزل على محمد صلى الله عليه وسلم ، وذلك من الحسد :

﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾

(من الآية ٥٤ سورة النساء)

لأن قولهم لا يتسم أبداً بالموضوعية ، بل كل كلامهم بُعْدٌ عن الحق وتخبط . لقد قالوا مرة عن القرآن : إنه سحر ، وعندما سألهم الناس : لماذا لم يسحركم القرآن إذن ؟ فليس للمسحور إرادة مع الساحر . ولم يجدوا إجابة . وقالوا مرة عن القرآن : إنه شعر ، فتعجب منهم القوم لأنهم أمة الشعر ، وقد سبق لهم أن علقوا المعلقات على جدار الكعبة ، لكنه كلام التخبط .

إذن فالمسألة كلها تنحصر فى رفضهم الإيمان ، فإذا أمسكتهم الحجة من تلابيبهم فى شيء ، انتقلوا إلى شيء آخر .

ويوضح سبحانه : إن كانوا يطلبون كتاباً فالكتاب قد نزل ، تماماً كما نزل كتاب من قبل على موسى . وماداموا قد صدقوا نزول الكتاب على موسى ، فلماذا لا يصدقون نزول الكتاب على محمد ؟ ولا بد أن هناك معنى خاصاً وراء قوله الحق : « يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء » . ونعلم أن الكتاب نزل على موسى مكتوباً جملة واحدة ، وهم كأهل كتاب يطلبون نزول القرآن بالطريقة نفسها ، وعندما ندقق فى الآية نجدهم يسألون أن ينزل عليهم الكتاب من السماء ؛ وكأنهم يريدون أن يعزلوا رسول الله وأن يكون الكلام مباشرة من الله لهم ؛ لذلك يقول الحق فى موقع آخر :

﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ﴾

(من الآية ٣٢ سورة الزخرف)

الحق ـ إذن ـ قسم الأمور فى الحياة الدنيا ، فكيف يتدخلون فى مسألة الوحى وهو من رحمة الله : « يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء » . وهم قد نسبوا التنزيل إلى رسول الله ، ورسول الله ما قال إنى نزَّلْت ، بل قال : « أنزل علىّ » .

ويقال فى رواية من الروايات أن كعب بن الأشرف والجماعة الذين كانوا حوله أرادوا أن ينزل الوحى على كل واحد منهم بكتاب ، فيقول الوحى لكعب : « يا كعب آمن بمحمد » .

ويُنَزِّلُ إلى كل واحد كتاباً بهذا الشكل الخصوصى . أو أن ينزل الله لهم كتاباً مخصوصاً مع القرآن . وكيف يطلبون ذلك وعندهم التوراة ، ويوضح الله تسلية لرسوله صلى الله عليه وسلم : لا تستكثر منهم يا محمد أن يسألوك كتاباً ينزل عليهم لأنهم سألوا موسى أكبر من ذلك ، وطلبهم تنزيل الكتاب ، هو طلب لفعل من الله ، وقد سبق لهم الغلو أكثر من ذلك عندما قالوا لموسى : (أرنا الله جهرة) . وهم بمثل هذا القول تعدوا من فعل الله إلى ذات الحق سبحانه وتعالى ، لذلك لا تستكثر عليهم مسألة طلبهم لنزول كتاب إليهم ، فقد سألوا موسى وهو رسولهم رؤية الله جهرة : « يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم » .

ولحظة أن ترى كلمة « الصاعقة » تفهم أنها شىء يأتى من أعلى ، يبدأ بصوت مزعج . وقلنا من قبل أثناء خواطرنا حول آية فى سورة البقرة :

﴿ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ ﴾

(من الآية ١٩ سورة البقرة)

أى أنهم يضعون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق ، وهذا دليل على أن صوت

الصاعقة مزعج قد يخرق طبلة الأذن ، ودليل على أن ازعاج الصاعقة فوق طاقة الانسداد بأصبع واحدة ؛ لأن الإنسان ساعة يسد أذنيه يسدها بطرف الأصبع لا بكل الأصابع . وبلغ من شدة ازعاج الصوت أنهم كلما وضعوا أناملهم فى آذانهم لم يمتنع الصوت المزعج .

إذن فالصاعقة صوت مزعج يأتى من أعلى ، وبعد ذلك ينزل قضاء الله إما بأمر مهلك وإمّا بنار تحرق وإما بريح تدمر « فأخذتهم الصاعقة بظلمهم » والظلم هو أن تجعل حقاً لغير صاحبه ؛ ولا تجعل حقاً لغير صاحبه إلا أن تكون قد أخذت حقاً من صاحبه . وسؤالهم هذا لون من الظلم ؛ لأن الإدراك للأشياء هو إحاطة المُدْرِك بالمُدْرَك .

وحين تدرك شيئاً بعينك فمعنى ذلك أن عينك أحاطت بالشىء المدَرَك وحيَّزته بالتفصيل ، وكذلك الأذن عندما تسمع الصوت ، وكذلك الأنف عندما تشم الرائحة ، وكذلك اللمس لمعرفة النعومة أو الخشونة ، وكذلك الذوق ليحس الإنسان الطعم . إذن فمعنى الإدراك بوسيلة من الوسائل أن تحيط بالشىء المُدْرَك إحاطة شاملة جامعة .

فإذا كانوا قد طلبوا أن يروا الله جهرة ، فمعنى ذلك أنهم طلبوا أن تكون آلة الإدراك وهى العين محيطة بالله . وحين يحيط المُدْرِك بالمُدْرَك ، يقال قدر عليه . وهل ينقلب القادر الأعلى مقدوراً عليه ؟ حاشا لله . وذلك مطلق الظلم ونهايته ، فمن الجائز أن يرى الإنسان إنسانا ، ولكن لا يستقيم أبدا ولا يصح أن ينقل الإنسان هذه المسألة إلى الله ، لماذا ؟ لأنه سبحانه القائل :

﴿ لَا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ ﴾

(من الآية ١٠٣ سورة الأنعام)

ومادام الله إلها قادراً فلن ينقلب إلى مقدور .

ونحن إن أعطينا لواحد مسألة ليحلها ، فهذا معناه أن فكره قد قدر عليها . وأما إذا أعطيناه مسألة ولم يقدر على حلها ففكره لم يقدر عليها . إذن فكل شىء يقع تحت دائرة الإدراك ، يقول لنا : إن الآلة المدرِكة قد قدرت عليه .

والحق سبحانه وتعالى قادر أعلى لا ينقلب مقدوراً لما خلق . « فأخذتهم الصاعقة بظلمهم ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات » . وكان يكفى بعد أن أخذتهم الصاعقة أن يتأدبوا ولا يجترئوا على الله ، ولكنهم اتخذوا العجل من بعد أن جاوز الحق بهم البحر وعَبره بهم تيسيرا عليهم وتأييداً لهم وأراهم معجزة حقيقية ، بعد أن قالوا :

﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾

(من الآية ٦١ سورة الشعراء)

فقد كان البحر أمامهم وفرعون من خلفهم ولا مفر من هلاكهم ؛ لأن المنطق الطبيعى أن يدركهم فرعون ، وآتى الله سيدنا موسى إلهامات الوحى ، فقال :

﴿ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ ﴾

(سورة الشعراء)

لقد لجأ موسى إلى القانون الأعلى ، قانون الله ، فأمره الله أن يضرب بعصاه البحر ، ويتفرق البحر وتصير كل فرقة كالطود والجبل العظيم ، وبعد أن ساروا فى البحر ، وأغرق فرعون أمامهم ، وأنجاهم سبحانه ، لكنهم من بعد ذلك كله يتخذون العجل إلهاً !!

هكذا قابلوا جميل الله بالنكران والكفران . « ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات فعفونا عن ذلك وآتينا موسى سلطاناً مبيناً » والسلطان المبين الذى آتاه الله لموسى عليه السلام هو التسلط والاستيلاء الظاهر عليهم حين أمرهم بأن يقتلوا أنفسهم ، وجاءوا بالسيوف لأن الله قد أعطى سيدنا موسى قوة فلا يخرج أحد عن أمره ، والقوة سلطان قاهر .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا

مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾

إذن اجتراؤهم فى البداية كان فى طلب رؤية الله جهرة ، ثم العملية الثانية وهى اتخاذهم العجل إلها . ويعالج الله هؤلاء بالأوامر الحسية ، لذلك نتق الجبل فوقهم :

﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ﴾

(من الآية ١٧١ سورة الأعراف)

مثل هؤلاء لا يرضخون إلا بالآيات المادية ، لذلك رفع الله فوقهم الجبل ، فإما أن يأخذوا ما آتاهم الله بقوة وينفذوا المطلوب منهم ، وإما أن ينطبق عليهم الجبل ، وهكذا نرى أن كل اقتناعاتهم نتيجة للأمر المادى ، فجاءت كل الأمور إليهم من جهة المادة . « وقلنا ادخلوا الباب سجدا » . أى أن يدخلوا ساجدين ، وهذا إخضاع مادى أيضاً . وكان هذا الباب الذى أمرهم موسى أن يدخلوه ساجدين هو باب قرية أريحا فى الشام . « وقلنا لهم لا تعدوا فى السبت » وسبحانه قال عنهم :

﴿ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ ﴾

(من الآية ١٦٣ سورة الأعراف)

وكلمة « السبت » لها اشتقاق لغوى من « سبت » و« يسبت » أى سكن وهدأ . ويقول الحق سبحانه :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا ﴾

(من الآية ٤٧ سورة الفرقان)

أى جعل النوم سكنا لكم وقطعا لأعمالكم وراحة لأبدانكم . « وقلنا لهم لا تعدوا فى السبت » أى نهاهم الله أن يصطادوا فى يوم السبت . ويأتى يوم السبت فتأتيهم الحيتان مغرية تخرج أشرعتها من زعانفها وهى تعوم فوق الماء ، أو تظهر على وجه الماء من كل ناحية ، وهذا من الابتلاءات . « ويوم لا يسبتون لا تأتيهم » أى أن الأيام التى يكون مسموحاً لهم فيها بالصيد لا تأتى لهم الأسماك ، ولذلك يحتالون ويصنعون الحظائر الثابتة من السلك ليدخلها السمك يوم السبت ولا يستطيع الخروج منها .

لقد احتالوا على أمر الله . هكذا يبين الحق سبحانه وتعالى مراوغة بنى إسرائيل . وفعل الله بهم كل ذلك ولكنهم احتالوا وتمردوا وردّوه ، وحين يهادن الحق القوم الذين يدعوهم إلى الإيمان فسبحانه يُقدر أنه خلقهم ويُقدر الغريزة البشرية التى قد يكون من الصعب أن تلين لأول داع ، فهو يدعوها مرة فلا تستقبل ، فيعفو . ثم يدعوها مرة فلا تستقبل فيعفو ، ثم يدعوها مرة فلا تستقبل فيعفو . وأخذ الله عليهم العهد الوثيق المؤكد بأن يطيعوه ولكنهم عصوا ونقضوا العهد ، وبعد ذلك يقول لنا الخبر لنتعلم أن الله لا يمل حتى تملوا أيها البشر . فسبحانه يقول من بعد ذلك :

﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ ﴾

لقد نقضوا كل المواثيق والأشياء التى تقدمت . ومعنى الميثاق هو العهد المؤكد الموثق . ونقض الميثاق هو حله ، وهذا ما يستوجب ما يهددهم الله به ، وكفروا بآيات الله التى أنزلها لتؤيد موسى عليه السلام ، وقتلوا أنبياء الله بغير حق . وادعوا ـ تعليلاً لذلك ـ أن قلوبهم غلف لا تسمع للدعوى الإيمانية ، أى أن قلوبهم مغلفة مغطاة أى جُعل عليها غلافٌ ، بحيث لا يخرج منها ما فيها ولا يدخل فيها ما هو خارج عنها . وأرادوا بذلك الاستدراك على الله ، فقالوا : قلوبنا لا يخرج منها ضلال ولا يدخل فيها إيمان . وسبق أن تقدم مثل هذا فى قول الحق :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾ ﴾

(سورة البقرة)

ونقول : أهى القلوب خُلقت غلفاً . . أى أن القلوب خلقت مختوماً عليها بحيث لا يدخلها هدى ولا يخرج منها ضلال ، أم أنتم الذين فعلتم الختم وأنتم الذين صنعتم الغلاف ؟

وسبحانه أوضح فى آيتى سورة البقرة أنه جل وعلا الذى ختم على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة . فالختم على القلب حتى لا يتعرفوا إلى الدليل ؛ لأن القلب محل الأدلة واليقين والعقائد . والختم على الأسماع والأبصار هو الختم على آلات إدراك الدلائل البينات على وجود الحق الأعلى ؛ فمقر العقائد مختوم عليه وهو القلب ، ومضروب على الآذان وعلى البصر غشاوة ، فهل هذا كائن بطبيعة تكوين هؤلاء ؟ لا ؛ لأنه إذا كان هذا بطبيعة التكوين فلماذا خصَّهم الله بذلك التكوين ؟ ولماذا لم يكن الذين اهتدوا مختوماً لا على قلوبهم ولا على أسماعهم ولا على أبصارهم ؟

غير أن الواحد منهم يبرر لنفسه وللآخرين انحرافه وإسرافه على نفسه بالقول : « خلقنى الله هكذا » وهذا قول مزيف وكاذب ؛ لأن صاحبه إنما يكفر أولاً ، فلما كفر وانصرف عن الحق تركه الله على حاله ؛ لأن الله أغنى الشركاء عن الشرك ، فمن اتخذ مع الله شريكاً فهو للشريك وليس لله . إذن فالختم جاء كنتيجة للكفر .

وقدمت آيات سورة البقرة الحيثية : أن الكفر يحدث أولاً ، ثم يأتى الختم على القلب والسمع والبصر نتيجة لذلك . وهنا فى آية سورة النساء : « وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً » . فالكفر جاء أولاً ، وفى ذلك رد على أى إنسان يقول : « إن الله لا يهدينى » . ولا يلتفت إلى أن الله لا يهدى من كفر به ، وكذلك الفاسق أو الظالم ، والمثال الأكبر على ذلك إبليس الذى كفر أولاً ، وبعد ذلك تركه الله لنفسه واستغنى عنه .

ولنا هنا وقفة لفظية مع قوله الحق : « فبما نقضهم » لأن الفهم السطحى لأصول الأسلوب قد يتساءل : لماذا جاءت « ما » هنا ؟ وبعضهم قال : إن « ما » هنا زائدة . ونقول : إياك أن تقول إن فى كلام الله حرفاً زائداً ؛ لأن معنى ذلك أن المعنى يتم بغير وجوده ويكون فضولاً وزائدا على الحاجة ولا فائدة فيه ، ولكن عليك أن تقول : « أنا لا أفهم لماذا جاء هذا الحرف » ، خصوصاً ونحن فى هذا العصر نعيش

كأمة بلاغتها مصنوعة ، ولا نملك اللسان العربى المطبوع . ولولا أننا تعلمنا العربية لما استطعنا أن نتكلمها . أما العربى الفصيح الذى نزل عليه القرآن فقد كان يتكلم اللغة العربية دون أن يجلس إلى معلم ، ولم يتلق العلم بأن الفاعل مرفوع والمفعول منصوب بل تكلم اللغة بطبيعته وملكته .

أما نحن فنعيش فى زمن مختلف . وطغت علينا العجمة وامتلأت آذاننا باللحن ، وصرنا نُعلّم أنفسنا قواعد اللغة العربية حتى نتكلم بأسلوب صحيح .

وقد جاءت القواعد فى النحو من الاستنباط من السليقة العربية الأولى التى كانت بغير تعليم . واستقرأ العلماء الأساليب العربية فوجدوا أن الفاعل مرفوع والمثنى يُرفع بالألف ، وجمع المذكر السالم يُرفع بـ « الواو » ؛ وهكذا أخذنا القواعد من الذين لا قواعد لهم بل كانوا يتكلمون بالسليقة وبالطبيعة والملكة .

لقد سمع العربى قديماً ساعة نزل القرآن قوله الحق : « فبما نقضهم » ولم يتنبه واحد منهم إلى أن شيئاً قد خرج عن الأسلوب الصحيح ، ونعلم أن بعضاً من العرب كانوا كافرين برسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا يصدقون القرآن ، ولو كانت هناك كلمة واحدة تخرج عن المألوف فى اللغة لصرخوا بها وأعلنوها . ولكن القرآن جاء بالكلام المعجز على لسان محمد صلى الله عليه وسلم ليبلغهم به ، موضحاً : جئت بالقرآن معجزة تعجزون عن محاكاته ؛ مع أنكم عرب وفصحاء .

والمتحدَّى يحاول دائماً أن يتصيد خطأ ما ، ولم يقل واحد من العرب إن فى القرآن لحناً ، وهذا دليل على أن الأسلوب القرآنى يتفق مع الملكة العربية .

وقوله الحق : « فبما نقضهم » هى فى الأصل : بنقضهم الميثاق فعلنا بهم ما صاروا إليه ، و« ما » جاءت هنا لماذا ؟ قال بعض العلماء : إنها « ما » زائدة ، وهى زائدة للتأكيد . ونكرر : إياك أن تقول إن فى كلام الله حرفاً زائداً ، لقد جاءت « ما » هنا لمعنى واضح . والحق فى موقع آخر من القرآن يقول :

﴿ مَا جَآءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ﴾

(من الآية ١٩ سورة المائدة)

وقالوا : إن أصل العبارة « ما جاءنا بشير » ، وإن « مِن » جاءت زائدة حتى يتسق اللفظ . ونقول : لو أن العبارة جاءت كما قالوا لما استقام المعنى ، ولإيضاح ذلك أضرب هذا المثل ـ ولله المثل الأعلى ـ عندما يقول واحد : « ما عندى مال » فهذا نفى أن يكون عند القائل مال ، ولعل لديه قدًرا من المال القليل الذى لا يستأهل أن يسميه مالاً . ولكن إذا قال واحد : « ما عندى من مال » فالمعنى أنه لا يملك المال على إطلاقه أى أنه مفلس تماماً ، ولا يملك أى شيء من بداية ما يقال إنه مال . إذن « ما جاءنا بشير » ليست مثل قوله : « ما جاءنا من بشير » . فالمعنى أنه لم يأتهم أى رسول بشير أو نذير من بداية ما يقال إنه رسول .

إذن فقوله الحق : « فبما نقضهم ميثاقهم » أى بسبب نقض الميثاق فعلنا بهم كذا . لماذا إذن أثار العلماء هذه الضجة ؟ السبب فى ذلك هو وجود ما بعد « الباء » وقبل المصدر ، أى أنهم نقضوا العهد بكل صورة من صوره ، فنقضِ العهد والميثاق له صور متعددة فـ (ما) هنا استفهامية جاءت للتعجيب أى على أيَّة صورة من صور نقض ونكث العهد لعناهم ؟ لعناهم لكثرة ما نقضوا من العهود والمواثيق . والحق قد قال :

﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ ﴾

(سورة النساء)

ولم يقل : فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف ، طبع الله على قلوبهم . فوجود « بل » يدلنا على أن هناك أمراً أضربنا عنه . فنحن نقول : جاءنى زيد بل عمرو . أى أن القائل قد أخطأ ، فقال : « جاءنى زيد » واستدرك لنفسه فقال : « بل عمرو » . وبذلك نفى مجىء زيد وأكد مجىء عمرو .

والحق قال : « بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً » . كان المقتضى فى الأسلوب العادى أن يقول : « بكفرهم وبقتلهم الأنبياء طبع الله على قلوبهم » . ولكن سبحانه لم يقل ذلك لحكمة بالغة . وحتى نعرف تلك الحكمة فلنبحث عن المقابل لـ « طبع الله على قلوبهم » ، المقابل هو « فتح الله على قلوبهم بالهدى » .

وجاء قول الحق معبراً تمام التعبير عن موقفهم : (فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها) .

وهكذا نرى عظمة القرآن الذى يأتى بالمعنى الدقيق ويجب أن نفكر فيه ونتدبر كل كلمة منه .

الحق ـ إذن ـ يقدم الأسباب لما صنعه بهم بالحيثيات ، من نقضهم للميثاق ، وكفرهم بآيات الله ، وبقتلهم للأنبياء بغير حق ؛ لذلك لم يفتح الله عليهم بالهدى ، بل طبع الله على قلوبهم بالكفر . فوجود « بل » دليل على أن هناك أمراً قد نفى وأمراً قد تأكد . والأمر الذى نفاه الله عنهم أنه لم يفتح عليهم بالهدى والإيمان ، والأمر الذى تأكد أنه سبحانه قد طبع على قلوبهم بالكفر . وفى آية أخرى قال عنهم :

﴿ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾

(سورة البقرة)

فقلوبهم ليست غلفاً ، ولكن هى لعنة الله لهم وإبعاده لهم وطردهم واستغناؤه عنهم ؛ لذلك تركهم لأنفسهم فغلبت عليهم الشهوات . ولماذا ذيل الحق الآية بقوله : « فلا يؤمنون إلا قليلاً » ؟ لأن المقصود به عدم إغلاق باب الإيمان على إطلاقه أمام هؤلاء الناس ، وهو ـ كما عرفنا من قبل ـ « صيانة الاحتمال » . فقد يعلن واحد من هؤلاء إيمانه الذى خبأه فى نفسه ، فكيف يجد الفرصة لذلك إن كان الله قد قال عنهم جميعاً « طبع الله على قلوبهم » ؟

إن الذى يَرْغَبُ فى إعلان الإيمان منهم لا يجد الباب مفتوحاً ، ولكن عندما يجد الحق قد قال : « فلا يؤمنون إلا قليلاً » فهو يعلم أن باب الإيمان مفتوح للجميع . وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ ﴾

ويقول قائل : ألم يقل الحق من قبل إن « كفرهم » هو سبب من أسباب طبع الله

على قلوبهم ؟ وأقول : إياك أن تقول إن هناك كلمة فى القرآن مكررة لأن الذى يتكلم هو الله سبحانه وتعالى الذى لا ينسى شيئاً ، ولا يكرر من غير داع ، والكفر أيضاً على درجات ، مرة يكون الكفر بالله ، ومرة يكون الكفر بآيات الله ، وثالثة يكون الكفر بالرسل ، ورابعة يكون الكفر ببعض النبيين ، وخامسة يكون الكفر ببعض الكتب السماوية .

إذن فألوان الكفر شتى . والكفر فى الآية السابقة كان كفراً بآيات الله ، أما كفرهم فى هذه الآية فالحق يشرحه : « وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً » . لقد كفروا بعيسى عليه السلام ، وقالوا البهتان العظيم على مريم ، هذا كفر بآيات الله وبرسول من عند الله .

وقوله الحق : « وبكفرهم » هو عطف على « نقضهم » وعلى « كفرهم بآيات الله » وعلى « قتلهم الأنبياء » وعلى « قولهم قلوبنا غلف » . ونلاحظ هنا أن الحق لم يذكر الباء التى جاءت فى أول الآية السابقة حين قال : « فبما نقضهم ميثاقهم » .

وهذا يدل على أننا أمام مناط الرحمة من ربنا سبحانه وتعالى . فقد كان يكفى ارتكابهم لأى واحدة من هذه الأعمال المذكورة لكى يطبع الله على قلوبهم ، ولكنهم ارتكبوا كل الأعمال المذكورة مجتمعة ، ولم يرتكبوا فعلاً واحداً منها . وهذا دليل على أن الله لا يترصد لعبيده ، ولا يتصيد ويحتال ليوقعهم فى الكفر ولكن يحنن العباد إلى الإيمان .

لقد ارتكبوا أربعة أفعال جسيمة : نقضوا الميثاق ، وكفروا بآيات الله ، وقتلوا الأنبياء بغير حق ، وادعوا أن الله طبع على قلوبهم .

وحين جعل هذه الأفعال الأربعة جريمة واحدة فهذا فضل ورحمة منه .

وبعد ذلك يذكر لهم جريمة أخرى : « وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيما » وهنا نجد أنه سبحانه قد ساوى بين قولهم البهتان على مريم وبين كل الأفعال السابقة ؛ لأنهم اعترضوا على رسالة ونبوة عيسى عليه السلام وهو نبى من أولى العزم

من الرسل بأشياء قد تكون ضمن الأسباب التى فتنت بعض الناس فيه ، لقد خلقه الله خلقاً خاصاً . فسبحانه خلق الناس جميعاً من آدم عليه السلام الذى صوره الله من طين ثم نفخ فيه الروح ، وجاء الخلق من التزاوج .

أما عيسى عليه السلام فقد خلقه الله بطريقة خاصة ، فكيف كفروا به وكيف يتهمون أمه مريم عليها السلام وهى البتول ؟ .

ومن الجائز أن تُتهم المرأة وترمى وتوصف بكل شىء : كاذبة ، سارقة ، أو دميمة ، لكن الاتهام فى العرض : لا . والحق هنا يحدد موضوعين للكفر : قولهم البهتان على مريم وهو كفر بالله ، وكفرهم بعيسى الذى جاء بميلاد على غير طريقة الميلاد العادية على الرغم من أن هذا تكريم له ولذع لليهود الذين غرقوا فى المادية حتى إنهم قالوا : (أرنا الله جهرة) .

بل إن الحق رزقهم برزق غيبى لا يعرفون أسبابه : فى التيه رزقهم بالمن والسلوى ، والمن فى لون القشدة وطعم العسل الأبيض وهو شىء يقع على أوراق الشجر فى بعض البيئات ، والسلوى طائر يشبه السُّمانى ، وكانوا يأخذون المن من الأشجار ويجمعونه ويأكلونه رزقاً يأتيهم ولا يزرعونه ولا يتعبون فيه . لكنهم قالوا : لا ، نحن نريد أن نزرع نباتاً ينمو من الأرض ولا ننتظر الغيب ، لأن الغيب قد يضن علينا .

﴿ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا ﴾

(من الآية ٦١ سورة البقرة)

هم ـ إذن ـ لا يثقون بما فى يد الله ، ويريدون الأمر المادى ، ولذلك يلفتهم الحق سبحانه وتعالى لفتة قسرية ، ويأتى بأمر يناقض قانون المادة من أساسه ؛ وهو ميلاد عيسى عليه السلام بأسلوب غير تقليدى ، والإنسان يأتى إلى الدنيا من أب وأم ، ويأتى الحق بعيسى مخلوقاً من أم دون أب ، فانتقضت المادية ، وهم كماديين غفلوا عن الخلق الأول :

﴿ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾ ﴾

(سورة ق)

إذن فلماذا الفتنة فى عيسى عليه السلام ؟. لقد نقض أمامهم الأساس التقليدى المادى لمجىء الإنسان إلى الدنيا من ذكر وأنثى ، وجاء عيسى عليه السلام من أم دون أب . ليثبت سبحانه طلاقة القدرة وأنه جعل الأسباب للبشر ، فإن أراد البشر مُسَبَّباً فعليهم أن يأخذوا الأسباب ، أما سبحانه وتعالى فهو مسبِّبُ الأسباب وخالقها وهو القادر ـ وحده ـ على ايجاد الشىء بتنحية كل الأسباب .

ونعلم أن قضية الخلق دارت على أربعة أنحاء ، إما أن ينشأ الشىء من وجود الشيئين ، هذه هى الصورة الأولى . وإما أن ينشأ الشىء من عدم وجود الشيئين وهذه هى الصورة الثانية . وإما أن ينشأ الشىء من وجود الشىء الأول وعدم وجود الشىء الثانى ، وهذه هى الصورة الثالثة ، وإما أن ينشأ الشىء من وجود الشىء الثانى مع عدم وجود الشىء الأول ، وهذه هى الصورة الرابعة .

تلك هى الصور الأربع لوجود شىء ما . ولم يشأ الله أن يجعل الخلق ـ وهو الإنسان المكرم الذى سخر له الحق كل ما فى الكون ـ على نحو واحد ؛ حتى لا يقولن أحد : إن السببية مشروطة للوجود .

بل المسبَّب هو المشروط فى الوجود بدليل أنه سبحانه خلق آدم عليه السلام من غير أب ولا أم ، وخلقنا جميعاً نحن من أب وأم ، وخلق عيسى عليه السلام من أم دون أب ، وخلق حواء من أب دون أم .

هذه هى القسمة العقلية الواضحة ، فليست المسألة عنصرية موجودة ، ولكن قيمة واقتدار واجد . وقدرة الحق تتجلى أيضاً أمامنا حينما تكون الأسباب موجودة كالأب والأم . لكن يشاء سبحانه أن يكون الاثنان عقيمين فهو القائل :

﴿ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ﴾

(سورة الشورى)

إذن فليست المسألة مدار أسباب تُوجَد ، بل مسَبِّبٍ يريد أن يُوجِد ، وأراد الحق

أن يكون مجىء عيسى عليه السلام بهذه الصورة ليلفت بنى اسرائيل لعلهم يخرجون من ضلالات المادية ، فأوجده من أم دون أب ، فكان هذا آية على طلاقة قدرته ، ولكن اليهود استقبلوا هذه المسألة استقبالاً على غير مراد الله ، فكذبوا عيسى ، وقد حدث التكذيب من قبل أن يتكلم عيسى بالإنجيل . ووقفوا أمام رسالته بعنف ، والذى يدلنا على أنهم قوم كذابون ، هو رغبتهم فى استمرار السيطرة الدينية لهم ، وكان عندهم شريعة تقتضى الرجم للزانية ، فلماذا إذن لم يتهموا مريم بالزنا عندما ولدت عيسى ؟ ولماذا لم يعاقبوها حسب شريعة التوراة ؟ ولماذا انتظروا إلى أن يجىء عيسى عليه السلام بالإنجيل ليقولوا : يا فاعل يا ابن الفاعلة . كان انتظارهم دليلا على أن ميلاد عيسى عليه السلام كان آية بينة صدعتهم وصدتهم عن ذلك ، فقد نطق عيسى عليه السلام بعد ميلاده ولم تتكلم مريم قط ؛ لأن ما حدث أمر فوق منطقها ، وجهزها الله لهذا الموقف ، وأمرها بالصمت عندما يسألونها ، وأن تشير إلى المولود الذى فى المهد :

﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ ﴾

(سورة مريم)

وانبهروا انبهاراً فتت فيهم القوى ، فقوى الخصومة ساعة ترى هذا لا تجد إلا الانهيار ، فالحق أبلج ، والباطل لجلج . إذن كان الأمر بيدهم وفى توراتهم أن من يزن يرجم ، فلماذا لم يرجموا أم عيسى إذن ؟ . لابد أنهم صدموا بقوة جعلت موازين حقدهم تختل ، المعجزة الباهرة هى كلام عيسى ابن مريم فى المهد : (إنى عبدالله آتانى الكتاب وجعلنى نبياً) وجعلت المفاجأة أقوى الأقوياء فيهم ينهار ، وتخور قواه .

هذا من ناحية اليهود ، فماذا عن ناحية بعض أتباع عيسى عليه السلام ؟ . إن صبياً يتكلم فى المهد هو معجزة بكل المقاييس ، فكيف تخلو كتبهم من قول عيسى فى المهد : « إنى عبدالله » وكان لابد أن تكون الكلمة مدروسة بعناية ، وألا تنسى . وحفظ جنود الله سبحانه وتعالى الكلمة ، التى تؤكد بشرية عيسى عليه السلام .

وعندما نقول هذا الكلام فليس الهدف منه تصحيح عقائد أحد ، ولكننا فقط

نريد أن يتضح منطق الإيمان فى عقول المسلمين ، أما أبناء الديانات الأخرى فهم أحرار فيما يعتقدون ، والمهم بالنسبة لنا أن يكون ديننا وقرآننا متضحاً أمام أعيننا ، ولا يجرؤ أحد أن يميل به .

« وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيما » ونحن كمسلمين نستنكف أن نقول ما قالوه من بهتان على مريم البتول ، والبهتان هو الكذب الشرس . فهناك لون من الكذب قد يكون مقبولاً ، ولون من الكذب غير مقبول : فأن يقول قائل عن رجل ورع : إنه شرب الخمر ، والقائل يعلم أنه كاذب ، فهذا كذب ثقيل شرس ، يتحير ويتعجب من يسمعه ؛ وهذا هو البهتان . ولم يستح ويمتنع اليهود حينما رموا مريم ـ الطاهرة بأمر الله ـ بالبهتان مع أنهم علموا أن لمريم سابقة خير واستقامة .

لقد كان ماضى مريم ناصعاً ، عاشت فى المحراب متبتلة لمن خلقها ؛ لذلك يصف الحق هذا البهتان بأنه عظيم ؛ لأنه جرح مريم فى عرضها ، ولو رجعوا إلى تاريخهم قبل ميلاد عيسى من مريم لوجدوا أن كل واحدة من بنات بنى إسرائيل كانت تستشرف أن يكون النبى المولود بعد موسى من بطنها . وكانوا يعرفون أن النبى القادم من بعد موسى ستلده عذراء ، وأبلغ بنو إسرائيل بناتهم بكيفية مجىء النبى القادم عيسى ابن مريم ، تماماً مثل قضية البشارة برسول الله محمد صلى الله عليه وسلم :

﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾

(من الآية ٨٩ سورة البقرة)

ومن رحمة الله بمريم نفسها أن الله جعل لها التمهيدات التى تثبت لها أمام نفسها أنها بريئة ، وأن العملية كلها قد تمت بـ« كن » من الله ، لم يجعل الله المسألة سرّاً عن مريم فتحمل بأمر قوله : « كن » دون أن تدرى ، لا . بل أراد سبحانه أن تكون عملية مادية . وجاء الملك لمريم ونفخ فيها بالحمل . وعرفت هى السبب مادياً بالملك والنفخ حتى لا تتهم نفسها أو تشك بأن شيئاً قد حدث لها وهى نائمة أو غير ذلك .

لقد أراد الله المسألة على تلك الصورة ليجعلها أمراً يقطع الشك لديها ، وهى التى بُشرت به ـ إيناساً لها ـ عندما كانت صغيرة قبل البلوغ وجاءها زكريا وهو الكفيل لها والذى يأتيها بالطعام ودخل عليها المحراب فوجد عندها الرزق وسألها :

(أنى لك هذا) أجابت :

﴿ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة آل عمران)

لقد نطقت مريم البتول من قبل : « إن الله يرزق من يشاء بغير حساب » ومن الحساب أن يكون للمرأة زوج لترزق بالولد ، ولكن الله يرزق من يشاء بغير حساب . ومن العجيب أنها فى هذا القول نبهت زكريا إلى قضية كانت فى بؤرة شعوره ؛ ولذلك يقول الحق :

﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

إذن فقد شجعت مريم زكريا على أن يدعو ربه ، وتلك سلسلة تمهيدية ليطمئن إحساس مريم أن ولادتها لعيسى عليه السلام إنما جاءت بـ «كن » وجاء لها الحق بفاكهة الصيف فى الشتاء ، وعندما قالت لسيدنا زكريا : « إن الله يرزق من يشاء بغير حساب » تنبه ودخل من هذا الباب ، فدعا ربه على الرغم من علمه أن امرأته عاقر ، وأنه بلغ من الكبر عتياً ، ومفهوم لنا معنى قول الرجل عن نفسه إنه بلغ من الكبر عتيا ؛ أى أنه لم يعد يملك القدرة على الإنجاب . وهذه القضية تعطينا سبقاً قرآنيا لكثير من قضايا العلم :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا ﴾

(من الآية ٤ سورة مريم)

هذا القول هو أشبه بمذكرة تفسيرية لبلوغه من الكبر عتيا . ويثبت العلم الحديث أن العظام هى آخر وعاء لتغذية الإنسان ، فإن امتنع الإنسان عن الطعام فالدهون التى فى جسده تغذيه . وإن امتنع الماء عن الإنسان وهو المكوِّن لتسعين فى المائة من وزنه يمتص الإنسان الماء من خلايا الجسم والعضلات واللحم . ولذلك يقال فى المثل

العربى : سنة أذابت الشحم ، وسنة أفنت اللحم ، وسنة محت العظم .

فكأن البداية تكون التغذية من الشحم ومن بعد ذلك من اللحم ومن بعد الشحم واللحم يأخذ الجسم غذاءه من العظم . وهذه هى التى جاءت على لسان سيدنا زكريا : (قال رب إنى وهن العظم منى) . فآخر مخزن للتغذية لم يعد به ما يمكن أن يستمد منه زكريا طاقة الإنجاب .

وما الذى يغذيه العظم من الجسم ؟ إنه يغذى المخ ، وهو السيد الأعلى الذى يدير كل جارحة فى الجسم ، وتعمل كل جارحة فى خدمته ، ويعيش المخ بطبيعة الحال كل عمره فى خدمة الجوارح ، يرتب لها قدرات العمل والتفكير والإحساس والسلوك ، ومادام المخ موجوداً ، فكل شىء يتم تعويضه .

ولذلك يحاولون ـ الآن ـ تعريف الموت طبياً ، فيقولون : لا يحدث الموت مادامت خلايا المخ حية ؛ فإذا ماتت خلايا المخ فهذا هو الموت . ومن عجيب الأمر أن سيد الإنسان له مكان فى أعلى الجسم إنه هو المخ ، داخل الجمجمة ، أما النبات فسيده فى الجذور . وإن لم تجد الجذور مياها تذيب بها العناصر فى الأرض فالنبات يأخذ غذاءه من الورق ، وبعد أن يذبل الورق يأخذ النبات غذاءه من الفروع الصغيرة . وعندما تذبل تلك الفروع وتجف ولا ينقذ النبات إلا مجىء بعض الماء للجذور . وكذلك المخ بالنسبة للإنسان .

فكأن مريم شجعت سيدنا زكريا عندما قالت أمامه : (إن الله يرزق من يشاء بغير حساب) فدعا سيدنا زكريا الله أن يرزقه بالولد ، فجاءه الولد . وهذه القضية نطقت بها مريم وتمت تجربتها فى سيدنا زكريا . وبعد ذلك جاءها البشير بميلاد المسيح عيسى ابن مريم :

﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَـٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

كيف يصوغ القرآن هذه الصياغة ، وكيف تقول هى :

﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ﴾

(من الآية ٤٧ سورة آل عمران)

لقد كانت سيدتنا مريم البتول تحسن الاستقبال عن الله ، فساعة سمعت أن اسمه المسيح عيسى ابن مريم ، عرفت أن نسبه لها يعنى أنه بلا أب . وعرفت أن الحق سبحانه ما نسبه إليها إلا لأنه لا أب له .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ ﴾

ونلاحظ أن الآية تبدأ بواو العطف على ما قبلها ، وهو قوله الحق :

﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۚ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ ﴾

(سورة النساء)

ويعطف سبحانه على جرائمهم هذه الجريمة الجديدة : (وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله) وأكثر ما يدهش فى هذا القول هو كلمة « رسول الله » ، فهل هى هنا من قولهم ؟ إن كانوا قد قالوها فهذا دليل اللجاجة المطلقة ، ولو قالوا : إنهم قتلوه فقط لكان الجرم أقل وطأة ، ولكن إن كانوا قد عرفوا أنه رسول الله وقتلوه

فهذا جرم صعب للغاية . أو أن كلمة « رسول الله » هنا فى هذه الآية ليست من مقولهم الحقيقى وإنما من مقولهم التهكمى .

وأضرب المثل لأوضح هذا الأمر . . كأن يأتى شخص ذو قوة هائلة ومشهور بقوته ويأتى له شخص آخر ويضربه ويهزمه ويقول لجماعته : لقد ضربت الفتى القوى فيكم . إذن قد يكون قولهم : « رسول الله » هو من قبيل التهكم ، أو أن كلمة « رسول الله » هنا هى من قول الحق سبحانه وتعالى مضافاً إلى قولهم ليبشع عملهم .

« وقولهم : « إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله » فكأن الحق لم يشأ أن يذكر عيسى ابن مريم إلا مرتبطا أو موصوفاً بقوله : « رسول الله » لنعلم بشاعة ما فعلوه ، فعيسى ابن مريم رسول الله على رغم أنوفهم ، وخاصة أن الكلام فى مجال انكارهم وجحودهم لنعم الله ، وكفرهم بآيات الله ، وكأن الحق يسخر منهم ؛ لأنه ما كان الله ليرسل رسولاً ليبين منهجه للناس ثم يسلط الناس على قتله قبل أن يؤدى مهمته . وجاء بكلمة « رسول الله » هنا كمقدمة ليلتفت الذهن إلى أن ما قالوه هو الكذب .

وبعد ذلك يقول لنا سبحانه : « وما قتلوه وما صلبوه » . وكلمة « وما صلبوه » هنا هى لتوضيح أن مجرد ظنهم أنهم قتلوا المسيح جعلهم يشيعون ذلك ويعلنونه للناس ، وهم قد فعلوا ذلك قبل أن يتوجهوا إلى فكرة الصلب ، فقد قتلوا شخصاً شبهه الله لهم ولم يكن هو المسيح وصلبوه من بعد ذلك ، وبمجرد قتل هذا الشخص طاروا بخبر القتل قبل أن تبدأ فكرة الصلب . ويقطع الله عليهم هذا الأمر ، فيقول : « وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم » .

وقد لفتنا سبحانه من قبل إلى أن عملية ميلاد المسيح تم استقبالها من بنى إسرائيل بضجة ، فعلى رغم علمهم خبر مجىء المسيح بالميلاد من غير أب ، وعلى رغم أنهم علموا بناتهم الاستشراف أن يكون لأية واحدة منهن شرف حمل المسيح ، وعلى رغم ذلك قالوا البهتان فى مريم التى اصطفاها الله . وكذلك كان لمسألة الوفاة ضجة .

واقتران الضجتين : ضجة الميلاد وضجة الوفاة معاً فى رسالة السيد المسيح يدلنا

على أن العقل يجب أن تكون له وحدة تفسيرية ، فساعة يتكلم العقل عن قضية الميلاد بالنسبة لعيسى ابن مريم لا بد أن يستشعر الإنسان أن الأمر قد جاء على غير سنة موجودة ، وساعة يبلغنا الحق أن بنى إسرائيل بيتوا النية لقتل عيسى ابن مريم ، وأن الله رفعه إليه تكون المسألة قد جاءت أيضا بقضية مخالفة ، ولا بد أن نصدق ما بلغنا الله به ، وأن يتذكر العقل أن الميلاد كان مخالفاً ، فلماذا لا تكون النهاية مخالفة أيضاً ؟

وكما صدقنا أن عيسى ابن مريم جاء من غير أب ، لا بد أن نصدق أن الحق قد رفعه فى النهاية وأخذه ، فلم يكن الميلاد فى حدود تصور العقل لولا بلاغ الحق لنا ، وكذلك الوفاة لا بد أن تكون مقبولة فى حدود بلاغ الحق لنا . والميلاد والنهاية بالنسبة لعيسى ابن مريم كل منهما عجيبة . وإن فهمنا العجيبة الأولى فى الميلاد فنحن نعتبرها تمهيداً إلى أن عيسى ابن مريم دخل الوجود ودخل الحياة بأمر عجيب ، فلماذا لا يخرج منها بأمر عجيب ؟ وإن حدثنا الحق أن عيسى ابن مريم خرج من الحياة بأمر عجيب فنحن لا نستعجب ذلك ؛ لأن من بدأ بعجيب لا عجب أن ينتهى بعجيب .

وسبحانه وتعالى حكم وقال : « وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم » وكلمة « شبه لهم » هذه هى دليل على هوج المحاولة للقتل ، فقد ألقى شبهه على شخص آخر . وذلك دليل على أن المسألة كانت غير طبيعية ، ليس فيها حزم التبيّن من المتربصين القتلة . ونعلم أن الحواريين وأتباع سيدنا عيسى كانوا يلفون رءوسهم ويدارون سماتهم ، ولذلك قال الحق لنا : « ولكن شبه لهم » أى أنهم قد شبه لهم أنهم قتلوه .

واختلفت الروايات فى كلمة « شبه لهم » ، فمن قائل : إنهم حينما طلبوا عيسى ابن مريم ليقتلوه دخل خوخة ، والخوخة هى باب فى باب ، وفى البيوت القديمة كان يوجد للبيت باب كبير لإدخال الأشياء الكبيرة ، وفى هذا الباب الكبير يوجد باب صغير يسمح بمرور الأفراد ، وفى سقف البيت توجد فتحة وكوّة اسمها (روزنة) أو (ناروظة) .

فلما طلبوا عيسى دخل الخوخة ، ودخل خلفه رجل اسمه « تطيانوس » وعندما

رأى سيدنا عيسى هذا الأمر ألهمه الله أن ينظر إلى أعلى فوجد شيئاً يرفعه ، فلما استبطأ القومُ « تطيانوس » خرج عليهم فتساءلوا : إن كان هذا تطيانوس فأين عيسى ؟ وإن كان هذا عيسى فأين تطيانوس ؟

إذن فقد اختلط عليهم الشبه بين « تطيانوس » وعيسى ، وألقى الله شبه عيسى على « تطيانوس » فقتلوه . أو أن عيسى عليه السلام حينما دخلوا عليه كان معه الحواريون وقال لهم عيسى : أيكم يُلقى عليه شبهى وله الجنة ؟ فماذا إذن يريد الحوارى لنفسه أكثر من الجنة ؟ وقدم عيسى عليه السلام الجائزة الكبرى لأى مؤمن ، وقبل واحد من الحواريين هذه المهمة ، ويقال له « سرخس » . فألقى شبه المسيح عيسى عليه ، فقتل اليهود « سرخس » .

وقالوا : إنه حينما عرف بعض الذين ذهبوا لقتل عيسى أنه رُفع ، خافوا أن تنتشر حكاية رفع عيسى بين الناس فيؤمنوا برسالة عيسى ، وقد ينتقم الناس من الذين أرادوا قتله . ولذلك جاء القتلة بشخص وقتلوه وألقى على هذا القتيل شبه عيسى وأعلن القتلة أنهم قتلوا المسيح عيسى ابن مريم . أو أن القتيل هو واحد ممن باعوا نبى الله عيسى لليهود ، ولما رأى المشهد ووجد المتربصين بعيسى يدخلون على الحواريين وفيهم عيسى وسأل المتربصون الحواريين : أيكم عيسى ؟ فتيقظت ملكة التوبه فى نفس الذى وشى بعيسى وقاده تأنيب الضمير على خيانة الرسول إلى أن يقول : « أنا عيسى » . ولم يتصور المتربصون أن يجيب إنسان على قولهم : « أيكم عيسى » . إلا وهو عيسى بالفعل ؛ لأن مشهد المتربصين يوحي أنهم سيقتلون عيسى . وقتلوا الذى اعترف على نفسه دون تثبت . أو أن واحداً باع عيسى لقاء ثلاثين ديناراً وتشابه عليهم فقتلوا الواشى ، ولم يظفروا بعيسى ابن مريم . ونحن كمسلمين لا نهتم اهتماماً كبيراً بتلك الروايات . فالمهم أنهم قالوا قتلنا عيسى . وصلبناه .

وقرآننا الذى نزل على رسولنا صلى الله عليه وسلم قال : « وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم » . وقال الحق لنا : إنه رفع عيسى إليه ، وانتهت المسألة بالنسبة لنا ؛ لأننا كمؤمنين لا نأخذ الجزئيات الدينية أولاً فإن صدقناها آمنا ، لا . نحن نؤمن أولاً بمُنَزِّل هذه الجزئيات ونصدق من بعد ذلك كل ما جاء منه سبحانه ، وهو قال ذلك فآمنا به وانتهت المسألة .

إن البحث فى هذا الأمر لا يعنينا فى شىء ، ويكفينا أن الحق سبحانه وتعالى قال : « وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم » . ويدلنا هذا القول على عدم تثبت القتلة من شخصية القتيل ، وهو أمر متوقع فى مسألة مثل هذه ، حيث يمكن أن تختلط الأمور .

إننا نرى ذلك فى أية حادثة تحدث مع وجود أعداد كبيرة من البشر وأعينهم مفتوحة ، وعلى الرغم من ذلك تختلف فيها الروايات . بل وقد تكون الحادثة مصورة ومسجلة ومع ذلك تختلف الروايات ، فما بالنا بوجود حادثة مثل هذه فى زمن قديم لا توجد به كل الاحتياطات التى نراها فى زماننا ؟ إذن فاضطراب الآراء والروايات فى تلك الحادثة أمر وارد ، ويكفينا أن الحق سبحانه وتعالى قال : « وما قتلوه وما صلبوه » .

فعيسى باق ؛ لأن الحق لم يأت لنا بخبر موت عيسى . ويبقى الأمر على أصل ما وردت به الآيات من أن الله سبحانه وتعالى رفع عيسى ابن مريم . وكمسلمين لا نستبعد أن يكون الحق سبحانه وتعالى قد رفعه إلى السماء ؛ لأن المبدأ ـ مبدأ وجود بشر فى السماء ـ قد ثبت لرسولنا صلى الله عليه وسلم ، فقد حدثنا صلى الله عليه وسلم أنه عُرج به إلى السماء ، وأنه صعد وقابل الأنبياء ورأى الكثير من الرؤى ، إذن فمبدأ صعود واحد من البشر من الأرض وهو لايزال على قيد الحياة البشرية المادية إلى السماء أمر وارد . والخلاف يكون فى المدة الزمنية ، لكنه خلاف لا ينقض مبدأً ، سواء صعد وبقى فى السماء دقائق أو ساعات أو شهوراً . فإن حاول أحد أن يشكك فى هذه المسألة نقول له : كل أمر قد يقف العقل فيه يتناوله الحق سبحانه وتعالى تناولاً موسعاً . فسبحانه خالق رحيم لا يورد نصاً بحيث يتوقف العقل أمامه ، فإن قبل العقل النص كان بها ، وإن لم يقبله وجدت له مندوحة ، لأنه أمر لا يتعلق بصلب العقيدة .

فهب أن إنساناً قال إن عيسى لم يرفع بل مات ، فما الذى زاد من العقائد وما الذى نقص ؟ ذلك أمر لا يضر ولا ينفع . ومثل ذلك الإسراء ، جاء فيه الحق بالقول القرآنى :

﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى

بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

ولم يقل الحق أى قول فى أمر المعراج ، لأن الإسراء آية أرضية ، انتقل فيها الرسول صلى الله عليه وسلم من مكة إلى بيت المقدس . ونعلم أن رسول الله لم يذهب إلى بيت المقدس قبل الإسراء ، بدليل أن كفار مكة أرادوا إحراج الرسول فقالوا له : صف لنا بيت المقدس . وهم واثقون من عدم ذهابه إليه من قبل . وكان فى الطريق قوافل لهم رآها صلى الله عليه وسلم ، ووصف صلى الله عليه وسلم بيت المقدس وقال لهم عن أخبار قوافلهم . وجاءت القوافل مثبتة لصدق محمد صلى الله عليه وسلم .

إذن كان الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم آية أرضية يمكن أن يقام عليها الدليل . ولذلك جاء بها الحق صريحة فقال : (سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى) .

لكن المعراج لم يذكره الحق صراحة ، فلم يكن من قريش ولا من أهل الأرض من رأى سدرة المنتهى ، ولم يكن لأحد من أهل الأرض القدرة على أن يصف طريق المعراج .

إذن فالآيات التى يقف فيها العقل يتناولها القرآن تناولاً موسعاً رحمة بالعقول ؛ لأن الإنسان إن اعتقد بها فهذا أمر جائز ، وعدم الاعتقاد بها لا يؤثر فى أصل العقيدة ، ولا فى أصول التكليفات ، ومدارها التصديق . ومادام الحق سبحانه وتعالى قد فوض رسوله أن يعطينا أحكاماً . إن عملنا بها جزانا الله الثواب ، وإن لم نعمل بها نالنا العقاب « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » ، فكيف لا يفوضه فى أن يقول لنا بعضاً من الأخبار ؟!

ورسول الله صلى الله عليه وسلم فيما روى عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ وذكره البخارى فى صحيحه أنه قال :

« والذى نفسى بيده ، ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً ، فيكسر

الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد ، وحتى تكون السجدة الواحدة خيرًا من الدنيا وما فيها » . ثم يقول أبو هريرة : اقرأوا إن شئتم « وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً »(١) .

هذه أخبار أخبرنا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم . إذن لا توجد قضية عقدية تقف مستعصية أمام عقول المسلمين خاصة . أن البعض قد يقول : إن الحق سبحانه قد قال :

﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾

(من الآية ٥٥ سورة آل عمران)

وقد شرحنا من قبل فى خواطرنا عن سورة آل عمران كل الشرح لهذه المسألة . قلنا : إن علينا أن ننتبه إلى « واو العطف » بين « متوفيك » و« رافعك » .

ومن قال إن « واو العطف » تقتضى الترتيب ؟ إن « واو العطف » تقتضى الجمع فقط كقولنا : « جاءنى زيد وعمرو » ، هذا يعنى أن زيداً جاء مع عمرو . أو أن زيداً جاء أولاً ، أو أن عمراً جاء أولاً وتبعه زيد ، فـ « الواو » لا تقتضى الترتيب ، وإنما مقتضاها الجمع فقط

لكن إن قلنا « جاءنى زيد فعمرو » فزيد هو الذى جاء أولاً وتبعه عمرو ؛ لأن « الفاء » تقتضى الترتيب ، أما « الواو » فتأتى لمطلق الجمع ولا تتعلق بكيفية الجمع ، وسبحانه قال : « إنى متوفيك ورافعك إلىَّ » هذا الضرب من الجمع لا يدل على أن التوفى قد تم قبل الرفع ، ودليلنا أن الحق سبحانه أنزل فى القرآن آيات تدل على مثل هذا ، كقوله الحق :

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ ﴾

(من الآية ٧ سورة الأحزاب)

فسبحانه أخذ الميثاق من محمد صلى الله عليه وسلم وجمع معه سيدنا نوحاً وإبراهيم ، فهل هذا الجمع كان قائماً على الترتيب ؟ لا ؛ لأن نوحاً متقدم جداً فى

---

(١) أخرجه البخارى ومسلم .

الموكب الرسالى وسبق سيدنا رسول الله بسنوات طويلة ويفصل بينهما رسل كثيرون . إذن فـ « الواو » لا تقتضى الترتيب فى الجمع . ولماذا جاء الحق بأمر الوفاة مع أمر الرفع ؟ جاء الحق بذلك ليشعر عيسى أن الوفاة أمر مقطوع به ، لكن الرفع مجرد عملية مرحلية .

أو جاء قوله الحق : « إنى متوفيك ورافعك إلىَّ » ؛ لأن الإنسان المخلوق لله مكون ومركب من مادة وفى داخلها الروح ، وعندما يريد الحق أن ينهى حياة إنسان ما ، فهو يقبضه بدون سبب وبدون نقض فى البنية ، ويموت حتف أنفه ، أما إذا ما ضرب إنسان إنساناً ضربة عنيفة على رأسه فالمضروب أيضاً يموت ، لأن الروح لا تحل فى جسم به عطب شديد .

إذن فالحق أوضح لعيسى : أنا آخذك إلىّ وأرفعك متوفياً وليس بجسدك أىُّ نقضٍ لبنيتك أو هدم لها أو لبعضها ، بل آخذك كاملاً . فـ « متوفيك » تعنى الأخذ كاملاً دون نقض للبنية بالقتل .

ونحن ـ كما عرفنا من قبل ـ نفرق بين القتل والموت . فالموت هو أن تُقبض الروح حتف الأنف ، أما القتل فهو هدم للبنية فتزهق الروح ، والدليل على ذلك أن الحق فى كتابه الكريم قال :

﴿ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ﴾

(من الآية ١٤٤ سورة آل عمران)

إذن فحين قال بنو إسرائيل : إنهم قتلوا عيسى ابن مريم كذبهم الحق وقال : « وما قتلوه وما صلبوه » . ورفعه الله إليه كاملاً ، وسبحانه وتعالى يقول : (وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفى شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقيناً) . ويوضح الحق سبحانه وتعالى : لم يتيقنوا أنهم قتلوا عيسى ابن مريم ، لكنهم شكوا فيمن قُتل ، فلم يعرف المتربصون لقتله أقتلوا عيسى أو تطيانوس أو سرخس ؟

والحق سبحانه جاء هنا بنسبتين متقابلتين ، فبعد أن نفى سبحانه نبأ مقتل عيسى

ابن مريم قال : « وإن الذين اختلفوا فيه لفى شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن » . والنسبة الأولى المذكورة هنا هى الشك ، وهو نسبة يتساوى فيها الأمران . والنسبة الثانية هى اتباعهم للظن ، وهو نسبة راجحة . لقد بدأ الأمر بالنسبة إليهم شكاً ثم انقلب ظناً .

وينهى الحق ذلك بعلم يقينى « وما قتلوه يقيناً » وسبحانه ينفى بذلك أنهم قتلوه يقيناً ، واليقين ـ كما نعلم ـ هو الأمر الثابت المعقود فى الواقع والأعماق بحيث لا يطفو إلى الذهن ليناقش من جديد أو يتغير ، وله مراحل هى : مرحلة العلم ، واسمها علم اليقين ، ومرحلة العين ، واسمها عين اليقين ، ومرحلة الحقيقة ، واسمها حق اليقين .

وعندما يخبرنا واحد من الناس أن جزءا من نيويورك اسمه « مانهاتن » . وأن مانهاتن هذه هى جزيرة يصل تعداد سكانها إلى عشرة ملايين نسمة ، وفيها ناطحات سحاب ، وجاء هذا الخبر ممن لا نعرف عنه الكذب فيسمعه من لم ير نيويورك ، فيصير مضمون الخبر عنده علماً متيقناً ؛ لأن الذى أخبر به موثوق به . وإن جاء آخر ووجه للسامع عن نيويورك دعوة لزيارتها ولبى السامع الدعوة وذهب إلى نيويورك ، هنا تحول الخبر من « علم اليقين » إلى « عين اليقين » . وإن جاء ثالث وصحب السامع إلى قلب نيويورك وطاف به فى كل شوارعها ومبانيها ، فهذا هو « حق اليقين » .

وأسمى أنواع اليقين هو « حق اليقين » ، وقبلها « عين اليقين » ، وقبل « عين اليقين » « علم اليقين » . وحينما عرض سبحانه المسألة قال :

﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧ ﴾

(سورة التكاثر)

هو سبحانه يعطينا علم اليقين ، ويصدقه المؤمنون بهذا العلم قبل أن يروه ، وسيرى المؤمنون وهم على الصراط النارَ وذلك عين اليقين . أما مسألة دخول الذين يرون الجحيم إليها فأمر سكت عنه الحق ؛ لأن هناك من يدخل الجنة ولا يدخل

النار ، وهناك من يدخل النار ولا يدخل الجنة . والكافرون بالله هم الذين سيرون الجحيم حق اليقين . ويأتى « حق اليقين » فى موضع آخر من القرآن الكريم :

﴿ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ ﴾

(سورة الواقعة)

فكل مكذب ضال سينزل إلى الحميم ويصلى الجحيم ويعانى من عذابها حق اليقين . إذن فقوله الحق عن مسألة قتل عيسى ابن مريم : « وما قتلوه يقيناً » يصدقه الذين لم يشاهدوا الحادث ، تصديق علم يقين لأن الله هو القائل . والذين رأوا الحادث عرفوا أنهم لم يقتلوه ولكنهم شكوا فى ذلك . وأما من باشر عملية القتل لإنسان غير عيسى عليه السلام فهو الذى عرف حقيقة اليقين . والذى حدث هو ما يلى :

﴿ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ ﴾

لقد رفعه العزيز الذى لا يغلبه أحد على الإطلاق ، فهو القوى الشديد الذى لا ينال منه أحد ، فإذا كانوا قد أرادوا قتل رسوله عيسى ابن مريم ، فالله غالب على أمره ، وهو العزيز بحكمة .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ ﴾

و« إن » هنا هى « إن » النافية ، وهى غير « إن » الشرطية . وإليكم هذا المثال عن « إن » النافية من موضع آخر من القرآن حين قال الحق :

﴿ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ﴾

(من الآية ٢ سورة المجادلة)

يصحح الحق هنا الخطأ الذى وقع فيه هؤلاء الذين يظاهرون من نسائهم بقول الواحد منهم لزوجته : « أنت علىّ كظهر أمى » ، فيقول سبحانه :

﴿ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ﴾

(من الآية ٢ سورة المجادلة)

فيوضح سبحانه : ما أمهاتهم إلا اللائى ولدنهم . و« إن » فى هذه الآية التى نحن بصدد خواطرنا الآن عنها هى « إن » النافية .

كأن الحق يقول : ما من أهل الكتاب أحد إلا ليؤمنن به قبل موته . وهذا شرح لمعنى « إن النافية » . وقد يقول قائل : ما حكاية الضمائر فى هذه الآية ؟ فالآية بها أكثر من ضمير ، مثل قوله الحق : « وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته » وعلى من تعود « به » ؟ وعلى من تعود الهاء فى آخر قوله « موته » ؟ هل هو موت عيسى أو موت أى واحد من أهل الكتاب ، فالمذكور عيسى ، ومذكور أيضاً أهل الكتاب ، فيصح أن يكون القول كالآتى :

لن يموت واحد من أهل الكتاب إلا بعد أن يؤمن بعيسى ، ويصح أيضاً : لن يموت عيسى إلا بعد أن يؤمن به كل واحد من أهل الكتاب ، ولأن الضمير لا يعرف إلا بمرجعه ، والمرجع يبين الضمير . فإن كانت هناك ألفاظ سبقت . . فكل منها يصح أن يكون مرجعاً ، أو أن يعود الضمير على بعض مرجعه كقول الحق :

﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ﴾

(من الآية ١١ سورة فاطر)

والمعمَّر هو الإنسان الذى طعن فى السن ، ولا ينقص من عمر هذا المعمَّر إلا كما أراد الله ، والهاء فى « عمره » تعود إلى بعض من المعمَّر . ذلك أن كلمة « معمَّر »

مكونة من عنصرين هما « ذات الرجل » و« عمر الرجل » ، فلما عاد الضمير عاد على الذات دون التعمير ، فيكون المعنى هو : وما يعمَّر من معمَّر ولا ينقص من عمر ذات لم يثبت لها التعمير . وماذا يكون الحال حين يوجد مرجعان ؟ مثل قوله الحق :

﴿رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾

(من الآية ٢ سورة الرعد)

هنا نجد مرجعين : « السماء » و« العمد » فعلى أى منهما تعود الهاء الموجودة فى كلمة « ترونها » ، هل تعود « الهاء » إلى المرجع الأول وهو السموات ، أو للمرجع الثانى وهو « العمد » ؟ يصح أن تعود « الهاء » إلى السموات . . أى خلق السموات مرتفعة قائمة بقدرته لا تستند على شىء وأنتم تنظرون إليها وتشاهدونها بغير دعائم ، ويصح أيضاً أن تعود إلى العمد . أى بغير العمد التى نعرفها ولكن رفعها الحق بقوانين الجاذبية . أو رفع السموات « بغير عمد ترونها » أى أن العمد مختفية عن رؤية البشر . وهكذا يصح أن يُنسب الضمير ويعود إلى أحد المرجعين .

والآية التى نحن بصددها ، نجد أنه قد تقدم فيها شيئان هما المسيح وأهل الكتاب ، وفيهما ضميران اثنان . فهل يعود الضميران على عيسى ، أو يعودان على أهل الكتاب ؟ أو يعود ضمير منهما على عيسى والآخر على أهل الكتاب ؟ وأى منهما الذى يرجع على عيسى ، وأى منهما الذى يرجع على أهل الكتاب ؟ أو أن هناك مرجعاً ثالثاً لم يُذكر ويعلم من السياق هو محمد صلى الله عليه وسلم ، ونجد أن الضميرين قد يرجعان إلى المرجع الثالث ، أى إلى محمد صلى الله عليه وسلم الذى بشر بمجيئه عيسى ابن مريم ، وتواتر الأحاديث عن أن عيسى يوشك أن ينزل فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ، ولسوف يصلى عيسى ابن مريم خلف واحد من أمة رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم .

ولماذا التقى النصارى مع اليهود فى مسألة القتل والصلب ؟ هم معذورون فى ذلك ؛ لأن الحق لم يأت ببيان فيها آنئذ . وقوله : « وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم » يدل على أنهم معذورون إن قالوا ذلك . ولكن كان الواجبُ أن يتمردوا على مسألة الصلب هذه ، إن كان فيه ألوهية أو جزء من ألوهية ، وكان من الواجب أن يخفوا مسألة الصلب . ويأتى الإسلام ليبرىء عيسى عليه السلام من هذه المسألة ويعين أتباع عيسى على تبرئته منها .

ولكن لم يلتفت أتباع عيسى إلى قول الإسلام فى هذه القضية « ولكن شبه لهم » وكان يجب أن يلتفت إليها أتباع المسيح . وحين يقص الحق كل ذلك فهو يحكم من بعد ذلك حكماً إلهياً : (بل رفعه الله إليه) النصارى يقولون بالرفع ، ولكن بعد الصلب . ونحن المسلمين نقول بالرفع ولا صلب ، رفعه الله إليه وسينزل . وحكمة ذلك أنه لم يوجد رسول من الرسل السابقين فُتن فيه قومه فجعلوه بعضاً من إله أو إلهاً فلم تسكت السماء عن ذلك ، فرفعه سبحانه وسينزله ليسفه هذه القضية ، وبعد ذلك يجرى عليه قدر الله فى خلقه وهو الموت .

إن الذين يقفون فى هذه المسألة يجب ألا يقفوا ، لأن مسألة سيدنا عيسى عليه السلام بدأها الله بعجيبة خرقت النواميس لأنه وُلد من أم دون أب . فإن كنتم قد صدقتم العجيبة فى الميلاد ، فلماذا لا تصدون العجيبة فى مسألة الرفع ؟

وإن قال واحد منا : لقد مات عيسى عليه السلام . نقول : ماذا تقولون فى نبيكم محمد عليه الصلاة والسلام ؟ أصعد إلى السماء معروجاً به إليها ؟ ألم يكن رسول الله حياً بقانون الأحياء ؟ نعم كان حياً بقانون الأحياء . وظل رسول الله صلى الله عليه وسلم مدة وجيزة فى السماء ثم نزل إلينا ، إذن فالمسألة فى أن يذهب خلق من خلق الله بإرادة الحق وقدرته إلى السماء وهو حى ثم ينزل إلى الأرض وهو حىٌّ ليس عجيبة .

والخلاف بين رفع عيسى وصعود محمد صلى الله عليه وسلم بالمعراج خلاف فى المدة . وهذا لا ينقض المبدأ ؛ فالمهم أنه صعد بحياته ونزل بحياته ، وظل فترة من الزمن بحياته ، إذن فمسألة الصعود إلى السماء والبقاء فيها لمدة أمر وارد فى شريعتنا الإسلامية . ولتأكيد هذه المسألة يقول الحق :

﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ﴾

(من الآية ١٥٩ سورة النساء)

السامع السطحى لهذه الآية قد يقول : إنهم أهل كتاب ولا بد أن يكونوا قد آمنوا به ، وأقول : لا . لقد آمنوا به إيماناً مراداً لأنفسهم ، وليس الإيمان المراد لله ، آمنوا به إلهاً أو جزءًا من إله وهو ما يسمى لديهم بالثالوث ـ الآب والابن وروح القدس ـ ولكن الله يريد أن يؤمنوا به رسولاً وبشرًا وعبدًا .

وإذا قال الحق : « وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً » فمعنى هذا : ما أحد من أهل الكتاب إلا ويؤمن بعيسى عليه السلام رسولاً وعبداً وبشراً قبل أن يموت .

والضمير فى قوله:« إلا ليؤمنن به » يرجع إلى عيسى . والضمير الآخر الموجود فى « قبل موته » قد يرجع إلى عيسى أى قبل موت عيسى ولن يموت عليه السلام الموتة الحقيقية التى تنهى أجله فى الحياة إلا بعد أن يؤمنوا به عبداً ورسولاً وبشراً ، ولن يتحقق ذلك إلا إذا جاء بشحمه ولحمه ودمه ليقول لهم : أنتم مخطئون فى أنكم أنكرتم بشارتى بمحمد الخاتم ، وأنتم مخطئون فى اتهامكم لأمى ، والدليل على خطئكم هو أننى جئت مبشراً برسول للناس كافة هو محمد بن عبدالله ، وهأنذا أصلى خلف واحد من أمة ذلك الرسول . فلن يأتى عيسى ـ عليه السلام ـ بتشريع جديد بل ليصلى خلف واحد من المؤمنين بمحمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم .

وحين يصنع عيسى ابن مريم ذلك ، ماذا سيقول الذين فُتِنوا فيه ؟ لاشك أنهم سيعلنون الإيمان برسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، أو أن كل كتابى من الذين عاشوا فى المسافة الزمنية من بعد رفعه وحتى نزوله مرة أخرى سيعلن الإيمان بعيسى كبشر ورسول وعبد قبل أن يموت ولو فى غيبوبة النهاية عندما تبلغ الروح الحلقوم وتتردد فى الحلق عند الموت . فقد يصح أن تكون الآية عامة « وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته » ويعود الضمير فيها إلى كل كتابى قبل أن يموت .

إن النفس البشرية لها هوى قد يستر عنها الحقائق ويغلق دونها باب اليقين ويدفعها إلى ذلك غرور الحياة ، فإذا ما جاءت سكرة الموت بالحق ، انتهى كل شىء يُبعد الإنسان عن منهج الحق واليقين ؛ ولا تبقى إلا القضايا بحقها وصدقها ويقينها ، وتستيقظ النفس البشرية لحظة تظن أنها ستلقى الله فيها ويسقط غرور الحياة ، ويراجع الإنسان منهم نفسه فى هذه اللحظة ، ويقول : أنا اتبعت هوى نفسى . ولكن أينفع مثل هذا اللون من الإيمان صاحبَه ؟ لا ، لأن مثله فى ذلك مثل إيمان فرعون ، فقد قال حين أدركه الغرق :

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾

(من الآية ٩٠ سورة يونس)

فيسمع صوتَ الحق فى تلك اللحظة :

﴿ ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ ﴾

(سورة يونس)

فلم ينتفع فرعون لحظة الغرق بالإيمان .

ويقول ـ سبحانه ـ :

﴿ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾ ﴾

(سورة النساء)

ويذيل الحق الآية : « ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً » وهذا يؤكد أن عيسى عليه السلام سيشهد على من عاصروا نزوله فى الدنيا ، وسوف يشهد يوم القيامة على الذين ادعوا له بالألوهية :

﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ ﴾

(سورة المائدة)

ويعاود الحق سبحانه الكلام عن فظائع اليهود فيقول :

﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَـٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ ﴾

هو سبحانه يوضح أن تحريم بعض الطيبات على بنى إسرائيل جاء نتيجة لمواقف يعددها الله ، لقد ارتكبوا ما ارتكبوا من ذنوب كبيرة وظلموا أنفسهم وظلموا

غيرهم ، وصدوا عن دين الله ، بمعنى أنهم لم يدخلوا فى الإسلام .

وتستمر الحيثيات للتحريم لبعض الطيبات لتزيد على هذين الموقفين :

﴿ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ ﴾

وأى ظلم يتحدث عنه الحق فى قوله : « فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم » ؟ . الظلم معناه أن يحكم واحد لغير ذى الحق بحق ، وقمة الظلم أن يحكم واحد بأن لله شريكاً ، ولذلك قال سبحانه :

﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾

(من الآية ١٣ سورة لقمان)

وحيثيات حكم الله بتحريم أشياء كانت حلالاً لبنى إسرائيل متعددة . وحين يحرم الله شيئاً فمن المؤكد أنه محدود بالنسبة للمحلَّل ؛ فالمحرم قليل ، وبقية ما لم يذكره الله إنما يدخل فى نطاق الحلال .

مثال ذلك قوله الحق :

﴿ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ

ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾

(سورة الأنعام)

يورد الحق هنا المحرمات وهى أشياء محددة محدودة ، أما النعم كلها فحلال . ومن هذا الأمر نفهم اتساع مدى رحمانية الحق بالخلق ، فقد وهبنا الكثير والكثير من النعم التى لا تعد ولا تحصى ولم يحرم إلا القليل . وتحريم القليل جاء لتبقى كل نعمة فى مجالها .

فإذا قال إنسان : حرم الله هذا الشىء لأنه ضار نقول : ما تقوله جائز ، ولكن ليس الضرر هو سبب الحكم لِكل المحرمات ، فقد يحرم سبحانه أمراً لتأديب قوم ما . ـ ولله المثل الأعلى ـ نرى المسئول عن تربية أسرة قد يحرم على ولد فيها لوناً من الطعام أو جزءاً من مصروف اليد ويكون القصد من ذلك هو العقوبة .

ولماذا استحق بنو إسرائيل عقوبة التحريم ؟. لقد جاءوا من خلف منهج الله وأحلوا لأنفسهم ما حرم الله . وماداموا قد زاغوا فأحلوا ما حرم الله فالحق يرد عليهم : لقد اجترأتم على ما حرمت فحللتموه ، ومن حقى أن أحرم عليكم ما أحللت لكم قبل ذلك ، حتى لا يفهم الإنسان أنه بتحليله لنفسه ما حرم الله قد أخذ شيئاً من وراء الله فلا أحد يمكنه أن يغلب الله . ولذلك يحرم سبحانه عليه شيئاً من حلاله .

والتحريم إما أن يكون تحريم تشريع ، وإما تحريم طبع أو فطرة أو ضرورة . نجد الرجل الذى أسرف على نفسه فى تناول محرمات كالخمر ـ مثلاً ـ يحرم الله عليه أشياء كانت حلالاً له ، ويقول له الطبيب : تهرأ كبدك وصار من الممنوع عليك أن تأكل صنوفاً كثيرة من الطعام والشراب . وهكذا نرى ظلم الإنسان لنفسه ، وكيف نتج عنه تحريم أشياء كانت حلالاً له .

ومن أسرف على نفسه فى تناول صنف معين من الطعام كالسكر مثلاً فأكله فوق ما تدعو به الحاجة ، نجد سنة الله الكونية تقول له : لقد أخذت أكثر من حقك . وعطلت فى جسدك القدرة على حسن استخدام السكر فصرت مريضاً ، إياك أن

تتناول السكريات مرة أخرى . ويشتهى المريض السكر والحلوى ويملك القدرة على شرائهما ، ولكنها محرمة عليه ، وكأن الحق سبحانه وتعالى يقول له : بظلم منك لنفسك حرمت ما أحللته لك .

وآخر يملك الثروات والخدم والمزارع الشاسعة ، ويقوم له الآخرون بطحن الغلال ، ويأمر بأن يصنعوا له الخبز من أنقى أصناف الدقيق الخالى من أية قدر من « النخالة » ، ويصنعون له الخبز الأبيض ، ويأكله بينما الاتباع يصنعون لأنفسهم الخبز من الدقيق الأقل نقاوة ، فتقول له سنة الله : ستأكل الخبز المصنوع من النخالة بأمر الطبيب علاجاً لأمعائك لأنك أسرفت على نفسك فى أكل الخبز المصنوع من أنقى أنواع الدقيق وليأكل رعاياك وعمالك الخبز المصنوع من أفخر ألوان الدقيق ، فبظلم منك حرمنا ما أحل لك .

وعندما نَرى إنساناً قد حُرِمَ من نعمة من نعم الله التى هى حلال له ، نعلم أنه قد حلل لنفسه شيئاً حرمه الله عليه ، أو أسرف فى استعمال حق أحله الله له ، ولا أحد منا يفلت من رقابة الله . إذن فالتحريم قد يكون بالتشريع ، إذا كانت العقوبة التحريم من المشرع ، وقد يكون تحريماً بالطبع والفطرة إن كان فى الأمر إسراف من النفس .

ولنقرأ دائماً هذه الآية : « فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيراً » وكذلك الذين يأخذون مالاً بالربا ، لقد أخذوا الربا ليزيد مالهم ، لماذا تريدون المال ؟ . أتريدون المال لذات المال ؛ أم لهدف آخر ؟ . صحيح أن المال رزق ، لكنه رزق غير مباشر ؛ لأنه يَشْترى به الأشياء التى ينتفع بها الإنسان ، وهى الرزق المباشر . وقلنا قديماً : هب أن إنساناً فى صحراء ومعه جبل من ذهب لكن الطعام انقطع منه ، وجبل الذهب فى مثل هذه الحالة لا ينفع ، بل يصبح رغيف الخبز وكوب الماء فى تلك الحالة أغلى من الذهب . والذى يزيد ماله بالربا ، أيريد تلك الزيادة من أجل المتع ؟ . سبحانه يمحق ذلك المال ويُذهبه فى كوارث .

ومن أراد أن يبقى له ما أحل الله إلى أن يأتى أجله فعليه ألا يبيح لنفسه أى شىء

حرمه الله . وبذلك يظل متمتعاً بنعم الله عليه . فالحق هو القائل : (وما ربك بظلام للعبيد) .

الإنسان ـ إذن ـ هو الذى يظلم نفسه مصداقاً لقوله الحق :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَـٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

(سورة يونس)

وهكذا ظلم اليهود أنفسهم فحرم الله عليهم طيبات أُحِّلت لهم . ومن الذى نقل الأمر الطيب إلى أمر غير طيب ؟ . إنه الإنسان . ولكن هل نقل ذات الشىء أو حكم الشىء ؟ . لقد نقل حكم الشىء ، فجعل الشىء الحرام شيئاً حلالاً . « فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيراً » .

كيف يكون باستطاعتهم الصد عن سبيل الله ؟ . لقد ظلموا أنفسهم وأخذوا الربا وتلك أمور تجعلهم فى ناحية الضلال وفى جانب الباطل ، وليت الأمر وقف عند هذا . بل أرادوا أيضاً إضلال غيرهم ، وهذا هو مضمون الصد عن سبيل الله . وجعلهم هذا الأمر أصحابَ وزر آخر فوق أوزارهم ، فلم يكتفوا بضلالهم بل تحملوا أوزار إضلال غيرهم .

﴿ لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

(سورة النحل)

وقد يسمع متشكك هذا القول . فيتساءل : كيف يناقض القرآن بعضه فيقول :

﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾

(من الآية ١٦٤ سورة الأنعام)

ونقول : إن لكل وزر طريقاً وحساباً ، فالإنسان يحمل وزر ضلاله وحده إن لم يضل به أحداً غيره ، ولكن إن حاول إضلال غيره فهو يتحمل وزر هذا الإضلال .

ويقول الحق فى تكملة ظلمهم لأنفسهم : « وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم

أموال الناس بالباطل وأعتدنا للكافرين منهم عذاباً أليماً » ، وقد تعرضنا للربا من قبل . وقد أخذوا الرشوة ، وهو أكل لمال الناس بالباطل ؛ وكذلك السرقة ، والغش فى السلع ، كل ذلك أخذ مال من الناس بغير حق ، وما أخذ بغير الحق فهو باطل ، وأعد سبحانه لهم مسبقاً عذاباً أليماً . ولكل إنسان مقعدان : مقعد من الجنة إن قُدّر إيمانه ، ومقعد من النار إن قُدّر كفره ، ولا مجال للظن بإمكان ازدحام الجنة أو ازدحام النار ، فقد خلق الله مقاعد الجنة على أساس أن كل الناس مؤمنون ، وجعل مقاعد النار على أساس أن كل الناس كافرون .

ولذلك يقول الحق :

﴿ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾ ﴾

(سورة المؤمنين)

وحين يتبوأ المؤمن مقعده فى الجنة يورثه الله المقعد الآخر الذى أعده للكافر ؛ فقد كان للكافر قبل أن يكفر مقعدٌ فى الجنة لو اختار الإيمان . وقد أعد الحق العذاب الأليم لهم أى الشديد إيلامه ، وهو مهين أيضا أى أن فى قدرته قهر أى إنسان يتجلد للشدة ، فلا أحد يقدر على الجَلَد أمام عذاب الله .

وهل هذا هو كل ما كان من أهل الكتاب ؟ . ألم يوجد فى أهل الكتاب من كان يدير مسألة الإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم فى عقله ، ويبحث فى القضايا والسمات التى جاءت مبشرةً به صلى الله عليه وسلم فى التوراة والإنجيل ؟ . كان من بينهم من فعل ذلك ، ويورد الحق سبحانه وتعالى التاريخ الصادق ، فيستثنى من أهل الكتاب الراسخين فى العلم فيقول :

﴿ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ

أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾

إذن لم يعمم الله الحكم على أهل الكتاب ، الذى سبق بكفرهم وظلمهم لأنفسهم وأخذهم الربا وغير ذلك ، بل وضع الاستثناء ، ومثال لذلك « عبدالله بن سلام » الذى أدار مسألة الإيمان برسول الله فى رأسه وكان يعلم أن اليهود قوم بُهت .

فقال لرسول الله : إنى أومن بك رسولاً ، والله لقد عرفتك حين رأيتك كمعرفتى لابنى ومعرفتى لمحمد أشد .

ويقول الحق عن مثل هذا الموقف : « الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم » . ولا أحد يتوه عن معرفة ابنه ؛ كذلك الراسخون فى العلم يعرفون محمداً رسولاً من الله ومبلغاً عنه ، والراسخ فى العلم هو الثابت على إيمانه لا يتزحزح عنه ولا تأخذه الأهواء والنزوات . بل هو صاحب ارتقاء صفائى فى اليقين لا تشوبه شائبة أو شبهة .

« لكن الراسخون فى العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك » ، وقوله الحق:« بما أنزل إليك » هو القرآن ، وهو أصل يُرد إليه كل كتاب سابق عليه ، فحين يؤمنون بما أنزل إلى سيدنا رسول الله ، لابد أن يؤمنوا بما جاء من كتب سابقة .

والملاحظ للنسق الأسلوبى سيجد أن هناك اختلافاً فيما يأتى من قول الحق : « والمقيمين الصلاة » فقد بدأ الحق الآية : « لكن الراسخون فى العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك والمقيمين الصلاة » .

ونحن نعلم أن جمع المذكر السالم يُرفع بالواو وينصب ويُجر بالياء ، ونجد هنا « المقيمين » جاءت بالياء ، على الرغم من أنها معطوفة على مرفوع ، ويسمى علماء اللغة هذا الأمر بـ« كسر الإعراب » ؛ لأن الإعراب يقتضى حكماً ، وهنا نلتفت لكسر الحكم . والأذن العربية التى نزل فيها القرآن طُبِعَتْ على الفصاحة تنتبه لحظة كسر الإعراب .

لذلك فساعة يسمع العربى لحناً فى اللغة فهو يفزع . وكلنا يعرف قصة العربى الذى سمع خليفة من الخلفاء يخطب ، فلحن الخليفة لحنة فصرّ الأعرابى أذنيه ، أى جعل أصابعه خلف أذنيه يديرهما وينصبهما ليسمع جيداً ما يقول الخليفة ، ثم لحن الخليفة لحنة أخرى ، فهب الأعرابى واقفاً ، ثم لحن الثالثة فقال الأعرابى : أشهد أنك وُلِّيت هذا الأمر بقضاء وقدر . وكأنه يريد أن يقول : « أنت لا تستحق أن تكون فى هذه المكانة » .

وعندما تأتى آية فى الكتاب الذى يتحدى الفصحاء وفيها كسر فى الإعراب ، كان على أهل الفصاحة أن يقولوا : كيف يقول محمد إنه يتحدى بالفصاحة ولم يستقم له الإعراب ؛ لكن أحداً لم يقلها ، مما يدل على أنهم تنبهوا إلى السرّ فى كسر الإعراب الذى يلفت به الحق كل نفس إلى استحضار الوعى بهذه القضية التى يجب أن يقف الذهن عندها : « والمقيمين الصلاة » .

لماذا ؟ لأن الصلاة تضم وتشمل العماد الأساسى فى أركان الإسلام ؛ لأن كل ركن من الأركان له مدة وله زمن وله مناط تكليف . فالشهادة بأن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله يكفى أن يقولها المسلم مرة واحدة فى العمر ، والصوم شهر فى العام وقد لا يصوم الإنسان ويأخذ برخص الإفطار إن كانت له من واقع حياته أسباب للأخذ برخص الإفطار . والزكاة يؤديها المرء كل عام أو كل زراعة إن كان لديه وعاء للزكاة . والحج قد يستطيعه الإنسان وقد لا يستطيعه . وتبقى الصلاة كركن أساسى للدين . ولذلك نجد هذا القول الكريم :

﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ ﴾

(سورة المدثر)

وأركان الإسلام ـ كما نعلم ـ خمسة وهى واضحة ، ومن الجائز ألا يستطيع المسلم إقامتها كلها بل يقيم فقط ركنين اثنين ، كالشهادة وإقامة الصلاة . وحين يقول الحق : « والمقيمين الصلاة » . يلفت كل مؤمن إلى استمرارية الودادة مع الله ؛ فهم قد يودُّون الله شهراً فى السنة بالصيام ، أو يودُّون بإيتاء الزكاة كلما جاء لهم عطاء من أرض أو من مال ، أو يودون الله فقط إن استطاعوا الذهاب إلى الحج . وبالصلاة يودُّ المؤمن ربَّه كل يوم خمس مرات ، هى ـ إذن ـ إعلان دائم للولاء

لقد قلنا : إن الصلاة جمعت كل أركان الدين ، ففيها نقول:« أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله » ، ونعلم أننا نُزكى بالمال ، والمال فرع العمل ، والعمل يحتاج إلى وقت ؛ والإنسان حين يصلى يُزكى بالوقت . والإنسان حين يصلى يصوم عن كل المحللات له ؛ ففى الصلاة صيام ، ويستقبل المسلم البيت الحرام فى كل صلاة فكأنه فى حج .

إذن فحين يكسر الحق الإعراب عند قوله : « والمقيمين الصلاة » إنما جاء ليلفتنا إلى أهمية هذه العبادة . ولذلك يقولون : هذا كسر إعراب بقصد المدح .-فهى منصوبة على الاختصاص-ويخص به الحق المقيمين الصلاة ؛ لأن إقامة الصلاة فيها دوام إعلان الولاء لله . ولا ينقطع هذا الولاء فى أى حال من أحوال المسلم ولا فى أى زمن من أزمان المسلم مادام فيه عقل .

ويقول الحق من بعد ذلك : « والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر » كأن كل الأعمال العبادية من أجل أن يستديم إعلان الولاء من العبد للإيمان بالله . والإيمان ـ كما نعلم ـ بين قوسين : القوس الأول : أن يؤمن الإنسان بقمة الإيمان وهو الإيمان بالله . والقوس الثانى : أن يؤمن الإنسان بالنهاية التى نصير إليها وهى اليوم الآخر . ويقول سبحانه جزاءً لهؤلاء : « أولئك سنؤتيهم أجراً عظيماً » هو أجر عظيم ؛ لأن كل واحد منهم قد شذ عن جماعته من بقية أهل الكتاب ووقف الموقف المتأبى والرافض المتمرد على تدليس غيره ، ولأنه فعل ذلك ليُبيّن صدق القرآن فى أن الإعلام بالرسول قد سبق وجاء فى التوراة .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ

وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾

ونعلم أن الحق حينما يتكلم ، يأتى بضمير التكلم . وضمير التكلم له ثلاثة أوجه ، فهو يقول مرة : « إنا » ومرة ثانية : « إننى » وثالثة يخاطب خلقه بقوله : « نحن » . وهنا يقول : « إنا أوحينا إليك كما أوحينا » . ونشاهد فى موقع آخر من القرآن الكريم قوله الحق :

﴿ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ ﴾

(من الآية ١٤ سورة طه)

وفى موضع ثالث يقول :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾

(سورة الحجر)

لأن الذكر يحتاج إلى صفات كثيرة ومتنوعة تتكاتف لتنزيل الذكر وحفظه . وحين يخاطب الله خلقه يخاطبهم بما يُجلى مواقع الصفات من الكون الذى نعيش فيه . والكون الذى نعيش فيه يمتلىء بالكائنات التى تخدم الإنسان ، وهذه الكائنات قد احتاجت إلى الكثير لتهيىء للإنسان الكون قبل أن يوجد الإنسان ، وذلك حتى يأتى إلى الكون ليجد نعم الله له ؛ فالإنسان هو الذى طرأ على كون الله .

هذا الكون الذى صار إلى إبداع كبير احتاج إلى صفات كثيرة لإعداده ، احتاج إلى علم عن الأشياء ، وإلى حكمة لوضع كل شىء فى مكانه ، ولقدرة تبرزه ، وإلى غنى بخزائنه حتى يفيض على هذا الموقع بخير يختلف عن خير الموقع الآخر ، وساعة يكون العمل مُتطلباً لمجالات صفات متعددة من صفات الحق ، يقول سبحانه : « إنا » أو « نحن » . وعندما يأتى الحديث عن ذات الحق سبحانه وتعالى يقول : « إنى أنا الله » . ولا تأتى فى هذه الحالة « إنا » ولا تأتى « نحن » .

والحق هنا يقول : « إنا أوحينا إليك » أى أنه أوحى بمنهج ليصير الإنسان سيداً فى

الكون ، يصون نفسه والكون معاً ، وصيانة الكائن والكون تقتضى علماً وحكمة وقدرة ورحمة ؛ لذلك فالوحى يحتاج إلى صفات كثيرة متآزرة صنعت الكون . ورحمة من الله بخلقه أن جعل لهم مدخلاً فيقول على سبيل المثال :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ﴾

(من الآية ٢٧ سورة فاطر)

هو الذى أنزل من السماء ماء ، وليس لأحد من خلقه أى دخل فى هذا ؛ لأن الماء إنما يتبخر دون أن يدرى الإنسان ، ولم يعرف ذلك إلا منذ قرون قليلة . وعرفنا كيف يتكون السحاب من البخار ، ثم ينزل المطر من بعد ذلك . إذن لا دخل للإنسان بهذا الأمر ؛ لذلك يقول الحق : « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماءً » . ويأتى من بعد ذلك إنصاف الحق للخلق ، فيقول : « فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها » . ولم يقل : « فأخرجت » . بل أنصف الحق خلقه وهم المتحركون فى نعمه بالعقول التى خلقها لهم ، فسبحانه يقدر عمل الخلق من حرث وبذر ورى وذلك حتى يخرج الثمر .

إذن الأسلوب القرآنى حين يأتى بـ « إنى » يشير إلى وحدة الذات ، وحين يأتى بـ « إنَّا » يشير إلى تجمع صفات الكمال ؛ لأن كل فعل من أفعال الله يقتضى حشداً من الصفات علماً وإرادة وقدرة وحكمة وقبضاً وبسطاً وإعزازاً وإذلالاً وقهاريةً ورحمانيةً ؛ لذلك لا بد من ضمير التعظيم الذى يقول فيه النحويون : إن « نحن » و« نا » للمعظم نفسه . وقد عظم الحق نفسه ؛ لأن الأمر هنا حشد صفات يتطلبها إيجاد الكون والقيام على أمر الكون . ولذلك نجد بعض العارفين الذى لمحوا جلال الله فى ذاته وجماله فى صفاته يقولون :

فسبحان رب فوق كل مظنة .·. تعالى جلالاً أن يُحاط بذاته
إذا قال « إنى » ذاك وحدة قدسه .·. وإن قال « إنَّا » ذاك حشد صفاته

وعندما ننظر إلى هذه المسألة ، نجد أن الحق سبحانه وتعالى أنصف خلقه لعلهم يعرفونه ، فجعل لهم إيجاد أشياء وخلق أشياء . وحين يتعرض سبحانه لأمر يكون له فيه فعل ويكون لمن أقدره سبحانه من خلقه فيه فعل ، فهو يأتى بنون التعظيم لأنه ـ سبحانه ـ هو الذى أمدهم بهذه القدرات .

وحين أوجد الحق خلقه من عدم ، جعل لخلق من خلقه إيجاداً ؛ ولكنْ هناك فرق بين إيجاد المادة ، وإيجاد ما يتركب من المادة.فقد خلق سبحانه كل شيء من عدم ، ولكن جعل لخلقه أن يخلقوا أشياء لكن ليست من عدم . وما ضَنَّ سبحانه وتعالى عليهم بأن يذكرهم بلفظ الخلق فقال :

﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾

(من الآية ١٤ سورة المؤمنون)

فكأنه سبحانه وتعالى جعل من خلقه خالقين ، لكن الخالقين من خلقه لم يخلقوا من عدم محض ، وإنما كونوا مركّباً من موجود فى مواده . فأخذوا من مواد خلقها الله فركّبوا وأوجدوا . والإنسان الذى صنع كوب الماء لم ينشىء الكوب من عدم محض وإن كانت « الكلية » فى الكوب غير موجودة فجزئيات إيجاد الكوب موجودة ، فالرمل موجود فى بيئات متعددة ، وموجود أيضاً ما يصهر الرمل ، والعقل الذى يأخذ تلك العناصر ، والفكر الذى يصنع من الرمل عجينة ، ومصمم الآلات التى تصنع هذا الكوب موجود . إذن فقد أوجد الإنسان كوباً من جزئيات موجودة . فالفارق ـ إذن ـ بين خلق الله وخلق خلق الله ؛ أن الله خلق من عدم محض ، لذلك وصف ذاته بقوله : (فتبارك الله أحسن الخالقين) .

فأنتم أيها البشر إنما تخلقون من مخلوقات الله ولم تخلقوا من غير مخلوق لله ؛ فهو سبحانه وتعالى أحسن الخالقين . وكما أنصف الحق خلقه بأن نسب لهم خلقاً ، فلا بد من أن يصف نفسه بأنه أحسن الخالقين . وأيضاً إن خلق الخلق ـ كما قلنا وأنا لا أزال أكررها لتستقر ثابتة فى الأذهان ـ يجمد الشيء على ما أوجدوه عليه ، فيخلقون الكوب ليظل كوباً فى حجمه وشكله ولونه ، ولكنهم لم يخلقوا كوباً ذكراً وكوباً أنثى ليجتمعا معاً وينشئا أكواباً صغيرة تنمو وتكبر ، ولكن الله ينفخ بسرّ الحياة فى كل شيء فيوجده ، لذلك هو أحسن الخالقين .

ولو نظرت إلى كل شيء فى الوجود لوجدت فيه سر الذات الفاعلة ، فلو نظرت إلى ذات نفسك ، لوجدت لك وسائل إدراك ، لوجدت لك سمعاً ، ولوجدت لك عيناً ، ولوجدت لك أنفاً ولمساً وذوقاً ، ولكن لبعض الآلات تحكم فى اختيارك ، فأنت حين تفتح عينيك ترى وإن لم ترد أن ترى تغمض عينيك . ولكن إذا أردت

ألا تسمع ، أتستطيع أن تجعل فى أذنك آلة تقول « لا أسمع » ؟ وأنت تفتح فمك لتأكل وتتذوق ، ولكن أنت لا تفتح أنفك لتشم . أنت تمد يدك لتلمس . وقل لى بالله أى انفعال لك أن أردت أن تضحك ؟ ما الآلة التى فى بدنك تحركها لتضحك ؟ أنت لا تعرف شيئاً إلا سبباً مثيراً يضحك ، لكنك لا تعرف ما هى الآلات التى تعمل فى جسمك لتضحك . وكذلك حينما تبكى ما هى الآلات التى تعمل فى ذاتك لتجعلك باكياً ؟ أنت لا تعرف . ولذلك جعل الله الإضحاك والإبكاء مع الإيجاد بالحياة ، والعدم بالموت جعل ذلك له سبحانه وتعالى .

﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾﴾

(سورة النجم)

جعل الحق فى ذاتك الإنسانية أشياء تفعل ولكنك لا تعرف بأى شىء تفعل ولا بأى شىء تنفعل . والأذن ليس لها ما يسدها عن السمع ، لذلك لا يأمرك الحق بألا تسمع أى شىء ، ولكن الأثر الصالح يأمر : (لا تتسمّع إلى القيلة) .

لم يقل الأثر الصالح « لا تسمع إلى قيلة » لأن الإنسان لا يستطيع أن يصم أذنيه عما يدور حوله ، لكنه يستطيع ألا يتسمّع بألّا يلقى بأذنيه إلى ما يقال . إذن فقد جعل الحق التكليف فى مقدور اختيارات المسلم ولذلك قال :

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ﴾

(من الآية ٦٨ سورة الأنعام)

واستخدم هنا كلمة « رأيت » لأن المسلم لا يملك شيئاً يسد به أذنيه حتى لا يسمع حديث الذين يخوضون فى آيات الله ، لكن أمر الله الذين يسمعون ذلك أن يسيروا بعيداً معرضين عن هؤلاء الخائضين . وسبحانه يوضح لنا ما خفى عنا ، وكل شىء فى الكون وإن كان ظاهره أنه « يفعل » ، لكنه فى الحقيقة هو مقهور لما ينفعل لمرادات الله بأمر الله . ولذلك يقول العارفون بالله : من جميل إحسانه إليك أن فعل ونسب إليك .

فسبحانه وتعالى الذى يفعل كل شىء ، وليس على الإنسان إلا توجيه الآلة

الفاعلة . ومن عظمة الحق سبحانه وتعالى أن الإنسان حين يكون قوياً لا يمكنه أن يعطى قوته لضعيف ، فلا أحد منا يقول لضعيف : خذ قدراً من قوتى لتساعدك على التحمل ، بينما يوضح الله للضعيف عملياً : تعال إلى أعطك من مطلق قدرتى قدراً من القوة لتفعل .

إذن القوة فى المخلوق لا يعطيها أبداً لمثله ، بل يعطى أثرها . مثال ذلك عندما لا يستطيع شخص أن يحمل شيئاً ثقيلاً ، فيأتى آخر قوىّ ليحمله عنه ، والقوى بفعله إنما يعدى أثر قوته للضعيف ، لكنه لا يستطيع أن ينقل قوته إلى ذات الضعيف ليحمل الشىء الثقيل .

والله لا يعدى أثر قوته فحسب ولكنه يمنح ويعطى قوة إلى كل ضعيف يلجأ إليه وإلى كل قوى أيضاً . وسبحانه يتفضل بالغنى والسعة لكل غنى وفقير وبرحمته إلى كل رحيم ، وبقدرته لكل قادر ، وبحكمته لكل حكيم . إذن فكل هذه مستمدات من الحق سبحانه وتعالى . هذا هو كلامنا فى « إنّا » .

وحين يتكلم الحق قائلا : « أوحينا » فهو سبحانه يأتى بصيغة الجمع . وما الوحى ؟ قال العلماء الوحى : إعلام بخفاء ؛ لأن وسائل الإعلام شتى ، وسائل الإعلام هى التى تنقل قولاً يقوله المبلِّغ فيعلم السامع ، أو هو إشارة يشير بها فيفهم معناها الرائى . وهذه إعلامات ليست بخفاء . بل بوضوح . وعندما يقول : « أوحينا » فهو يعنى أنه قد أعلم ، ولكن بطريق خفى . وحين تطلق كلمة « وحى » يكون لها معانٍ شتى ، فكل إعلام بخفاء وحى . لكن من الذى أوحى فى خفاء ؟ ومن الذى أوحى إليه فى خفاء ؟ وما الذى أوحى به فى خفاء ؟ نجد أن الحق سبحانه وتعالى جاء فى أجناس الوجود ، وقال عن الأرض وهى الجماد :

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾﴾

(سورة الزلزلة)

أى أن الحق قد ضبط الأرض على مسافة زمن قيام القيامة ، فتتحدث عندئذ

ـ ولله المثل الأعلى ـ نحن نقدر العمر الافتراضى لما نصنع لينتهى فى وقت محدد . إذن فقد أوحى الله للجماد وهى الأرض .

ويترك لنا سبحانه فى صناعة المخلوقين ما يقرب لنا صنعة الخالق ، فعندما يريد الإنسان أن يستيقظ فى الثالثة صباحاً ، وهو وقت لم يعتد فيه هذا الإنسان على الاستيقاظ ، فهو يضبط المنبه ليصدر عنه الجرس فى الوقت المحدد ، كأن الإنسان بهذا الفعل قد أوحى للمنبه ، كذلك الحق صنع الأرض وأوحى لها : فى الوقت المحدد ستنفجرين بحكم تكوينى لك . ويوحى الحق إلى جنس الحيوان :

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾﴾

(سورة النحل)

هذا إعلام بخفاء من الله للنحل . فقد جعل الله فى تكوينها الغرزى ما يؤدى إلى ذلك . وهناك فرق بين التكوين الغرزى والتكوين الاختيارى ؛ فالتكوين الغرزى يسير بنظام آلى لا يعدل عنه ، أما التكوين الاختيارى فيصح أن يعدل عنه .

ومثال آخر على الآلية نجد الحاسب الآلى المسمى العقلى الإلكترونى ويقوم الإنسان بتخزين المعلومات فيه ، وهذا الحاسب الآلى لا يستطيع أن يقول لواضع المعلومات فيه : لا تقل هذه الحقيقة ، ولا يستطيع أن يمتنع عن إعطاء ما فيه لمن يطلب هذه المعلومات إن كان يعرف كيفية استدعائها . فلا اختيار للحاسب الآلى .

ويختلف الوضع فى العقل البشرى الذى يتميز بالقدرة على انتقاء المعلومات ويعرف كيف يدلى بهذه المعلومات حسب المواقف المختلفة ، ويتحكم بوعى فيما يجب أن يُستر وفيما لا يجب ستره ، بل إن العقل البشرى قد يكذب ويلون المعلومات . وهو قادر على تغيير الحقائق والتحكم فيها ، بينما الحاسب الآلى المسمى بعقل إليكترونى لا يقدر على ذلك ؛ لأنه يدلى بالمعلومات حسب ما تم « برمجته » به وتخزينه ووضعه فيه ، وهكذا يرتقى الإنسان فى الفكر .

والحق سبحانه وتعالى حين خلق الخلق ، أعطى لكل كائن الغرائز التكوينية التى

تناسبه ، أعطى الإنسان القدرة على الاختيار بين البديلات ، أما بقية الكائنات فقد أخذت حكم الغريزة . والكائن الذى يسير بحكم الغريزة لا اختيار له ، ولذلك تسير كل أموره مستقيمة بناموس ثابت .

ونرى هذا الأمر بوضوح فى حكم قهر السموات والأرض والكواكب التى لا اختيار لها ؛ فهى تسير حسب القوانين التى وضعها الله لها ، وكذلك النبات . فالإنسان قد يزرع شجرة فتنمو بالتسخير الغرسى الذى وضعه الله فيها ، وتمتد الشعيرات من الجذور فى باطن الأرض ؛ لتمتص ـ بتسخير الله لها ـ بعض العناصر المحددة فى التربة ، وينتفع نبات ما بمادة معينة قد لا تصلح لنبات آخر .

ويأتى علماء النبات ليعملوا فى حقل دراسات نمو النباتات ، وقد يكون بعضهم ضعيف الإيمان بالله ، أو أن قدرات الخالق لا توجد فى بؤرة شعوره دائماً . فيقول : إن النبات يتغذى حسب خاصية الأنابيب الشعرية . وخاصية الأنابيب الشعرية ـ كما نعرفها ـ هى صعود السائل إلى الأنابيب التى تكون الواحدة منها لا يزيد قطرها واتساعها على قطر الشعرة . ويصعد فيها السائل إلى ما فوق سطح الإناء . وكل سائل فى أى إناء إنما يأخذ استطراقاً واحداً . وعندما نضع الأنابيب الشعرية فى قلب هذا الإناء ، فالسائل يصعد داخل هذه الأنابيب فوق مستوى الإناء ؛ لأن الضغط الجوى داخل الأنابيب يختلف بالنسبة لحجم المياه عنها فى داخل الإناء . وظن العلماء أن النبات يتغذى بهذه الطريقة .

ونقول لهؤلاء : كيف هذا والنبات يختار عناصر معينة من السائل ؛ بينما الأنابيب الشعرية يصعد فيها الماء بكل العناصر الموجودة فى الماء ؟ . إنك أيها العالم الذى غاب الله عن بؤرة شعورك قد تدعى أن الطبيعة هى التى تفعل ذلك ، ولا تلتفت إلى حقيقة واضحة وهى أن النبات ينتقى بالتسخير الربانى الخاص بعضاً من العناصر الموجودة فى التربة ، لا بخاصية الأنابيب الشعرية .

وصدق القول الحق :

﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣﴾

(سورة الأعلى)

فسبحانه الذى قدر فهدى كل شىء إلى احتياجاته . ويقول الحق أيضاً :

﴿ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾

(من الآية ٤ سورة الرعد)

إذن فسبحانه يوحى لكل نبات بخاصية تكوين غريزى تختلف عن النبات الآخر ؛ لذلك نجد الفلاح يضع شجرة الفلفل بجانب عود القصب ، بجانب شجرة الرمان ، فنجد الفلفل يخرج وله مذاق حريف ، والقصب له مذاق حلو ، والرمان له مذاق فيه الحلاوة والحموضة ، إنه مختلف عن القصب وعن الفلفل ، وهذا الاختلاف لم يتم بخاصية الأنابيب الشعرية . ويقول آخر : هذا الاختلاف إنما حدث بظاهرة الانتخاب الطبيعى . ونقول : لماذا لا تقول الانتخاب الإلهى وتستريح ؟ .

إذن فالوحى هو إعلام بخفاء ، وقد يكون مطموراً فى تكوين الشىء بحيث إذا جاء وقته ينفعل ، تماماً مثلما يدق جرس المنبه فى الميعاد المحدد . والوحى إلى الحيوان يتحدد فى قوله الحق :

﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾

(سورة النحل)

ومن العجيب أن العالم الأمريكى الذى رصد حياته لدراسة النحل فى أطواره وأصنافه وأجناسه وبيئاته ، قال : أول إنتاج للنحل كان فى الجبال وأقدم عسل وجده الإنسان للنحل كان فى الخلايا التى عثر عليها فى الجبال . وبعد ذلك وجد الإنسان النحل وعسله فى الشجر العالى الذى لا يملكه ، ثم استأنس الإنسان النحل وأقام له البساتين والبيوت والخلايا ومما يعرشون . ولم يقرأ هذا العالم القرآن ليعرف المراحل الثلاث التى جاءت به ، لكنه درس بصدق البحث التجريبى ، وخرج بالنتيجة نفسها التى جاء بها القرآن . وفى كل وقت وزمان نجد عالماً من الكافرين يكتشف أشياء تؤيد وتؤكد قضية الإيمان عند المؤمنين . أما الوحى بالنسبة للإنسان فيأخذ أشكالاً أخرى ، يقول الحق :

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ ﴾

(من الآية ٧ سورة القصص)

ولم يأت إلى أم موسى رسول يُوحى إليها . لكن الأمر قد استقر فى ذهنها ، وقد تعب العلماء كثيراً ليقربوا معنى الوحى لأذهاننا ، فقالوا عنه : إنه عرفان يجده الإنسان فى نفسه ولا يعرف مصدره ، ومع هذا العرفان دليل أنه من الله . ولذلك لا يطلب العقل عليه دليلاً . والذى يصّدق على هذا هو أننا سمعنا قول الحق : « وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم » .

وبالله عليكم ، اجمعوا الدنيا كلها وقولوا لامرأة : إن خفت على ابنك فألقيه فى البحر ، هل تصدق الأم ذلك ؟! لا يمكن ، لكن أم موسى أخذت هذا الأمر كقضية مسلم بها ، فساعة دخل الإيحاء من الله إلى قلبها ، أو الإعلام بخفاء إلى وجدانها آمنت به ، ومادام الإعلام من الله فلا شيطان يزاحمه ، بل يدخل إلى النفس فتستقبله استقبال اليقين والإيمان بلا مناقشة . وألقت أم موسى بابنها بعد أن أرضعته . وأراد الله أن يطمئنها . فأوضح لها : أنا أصدرت الأمر إلى البحر ليلقى الرضيع إلى الساحل . وأصدرت الأوامر ليلتقطه العدو فرعون . وأصدرت الأوامر أن يقوم بيت فرعون بتربيته .

وبعد ذلك هناك وحى للحواريين . يقول الله :

﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ ﴾

(سورة المائدة)

وهناك وحى للملائكة كقول الحق :

﴿ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ ﴾

(من الآية ١٢ سورة الأنفال)

الوحى ينتظم ويشمل ـ إذن ـ كل أجناس الوجود بطريقة خفية عند عالم خفى

عنا ، وهم الملائكة ، وعالم ملحوظ لنا ولأمثالنا مثل الحواريين ، ومثل أم موسى .

وساعة يقول : « أوحينا » ينبهنا إلى أن الإعلام بخفاء أمر غير مقصور على الله ؛ ذلك أن الشياطين يوحون إلى أوليائهم :

﴿ وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَـٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾

(من الآية ١٢١ سورة الأنعام)

ويقول أيضاً عن الشياطين :

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَـٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

إذن الوحى هو إعلام بخفاء ، وليس الأمر مقصوراً على الحق سبحانه وتعالى ، بل يصح أن يكون الوحى من الله ، أو من الشياطين ، أو من جنود الشياطين .

وقد يكون الوحى إلى الجماد وإلى الحيوان وإلى الملائكة وإلى الإنسان .

وعندما نحدد معنى الوحى فإننا نقول :

الوحى فى اللغة إعلام بخفاء من أىّ ـ سواء أكان من الله أم من الشياطين ـ ولأىّ ما ـ سواء للأرض أو للحيوان أو للإنسان ـ وفى أىّ ـ سواء فى خير أو شر ـ.

وكلمة « وحى » تصلح لأى معنى من هذه المعانى بحيث إذا أطلقت انصرفت إليه . ولكن هى بالمعنى الشرعى لا تطلق إلاّ على الإعلام بخفاء من الله لرسوله ، ومثل ذلك حدث لمعنى الصلاة ، فالصلاة معناها اللغوى الدعاء ، وهناك الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم ، والصلاة المكتوبة هى الأقوال والأفعال ، وأخذ

الشرع معنى الصلاة واصطلح على أن كلمة الصلاة حين يطلقها الفقيه تنصرف إلى الأقوال والأفعال المخصوصة المبتدأة بالتكبير والمختتمة بالتسليم .

وفى هذا المعنى الشامل للصلاة نجد سيدنا عمر ـ رضى الله عنه ـ وقد دخل عليه حذيفة فسأله : كيف أصبحت ؟ . أجاب حذيفة : أصبحت أحب الفتنة وأكره الحق وأصلى بغير وضوء ولى فى الأرض ما ليس لله فى السماء . وغضب سيدنا عمر ، ولولا دخول سيدنا على بن أبى طالب لكان لسيدنا عمر شأن آخر مع حذيفة .

وسأل علىٌّ عمر : ما يغضبك يا أمير المؤمنين ؟ . قال عمر : سألت حذيفة كيف أصبحت فقال كذا وكذا . فقال على ـ كرم الله وجهه ـ : نعم يا أمير المؤمنين ، أصبح يحب الفتنة ، أى يحب ماله وولده ، فالحق قال : « إنما أموالكم وأولادكم فتنة » ، وهو يكره الموت والموت حق ومن فينا يحبه يا أمير المؤمنين ؟ وهو يصلى بغير وضوء على النبى صلى الله عليه وسلم ، وله فى الأرض زوجة وله ولد وهو ما ليس لله فى السماء .

إذن فقد أخذ حذيفة الفتنة على معنى مخصوص ، وكذلك الموت ، والصلاة . وضربت هذا المثل لأفرق بين المعانى الشرعية والمعانى اللغوية .

ونوضح الفارق بين معنى الوحى الاصطلاحى والمعنى اللغوى ، المعنى اللغوى للوحى هو : إعلام بخفاء من أىّ لأىّ بأى . والوحى بمعناه الشرعى : إعلام بخفاء من الله لرسوله . وكل الألوان الأخرى من الوحى نأخذها بالمعنى اللغوى .

وقوله الحق هنا فى الآية التى نحن بصددها : « إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح » . و« أوحينا » هنا قد جاءت للإعلام بخفاء من الله لرسول من رسله . ونعلم أن صفات الكمال للحق سبحانه وتعالى هى صفات الكمال المطلق . وكل الخلق مقدورون لقدرته سبحانه . ولا يمكن لأحد أن يتصل اتصالاً مباشراً بالأعلى المطلق . ولا يستطيع أحد أن يتحمل ذلك حتى الرسول . ولذلك يأتى الحق بنورانيِّين من الملائكة ليأخذوا منه ليعطوا للرسول . ويسبق ذلك إعداد الرسول لهذه المهمة .

إذن فالمسألة تمر بمراحل تصفية ، الأعلى يعطى للملائكة ، والملائكة يعطون للمصطفى من الخلق ، والمصطفى مصنوع على عين الله ليتلقى الوحى ، ومن بعد ذلك يعطى الرسول لغيره من البشر . وكل ذلك لتقريب مسافات الالتقاء . وعلى رغم تقريب مسافات الالتقاء تحصل الهزة من آخر مرحلة حين يستقبل من أدنى مرحلة ، فحين يستقبل الرسول الوحى من ملك تحدث له هِزّة . والرسول صلى الله عليه وسلم يقول عن أول لقاء له مع الوحى :

(حتى جاءه الحق وهو فى غار حراء فجاءه الملك فقال : اقرأ . قال : ما أنا بقارىء قال : فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى . فقال : اقرأ فقلت : ما أنا بقارىء فأخذنى فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى . فقال : اقرأ فقلت : ما أنا بقارىء فأخذنى فغطنى الثالثة ثم أرسلنى . فقال : اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق اقرأ وربّك الأكرم)[1] .

وكان جبينه يتفصد عرقاً ، ورجف فؤاده ودخل على زوجه خديجة بنت خويلد فقال : « زملونى زملونى » فزملوه حتى ذهب عنه الرَّوْع . وكان ذلك أمراً طبيعياً ؛ فهذا الملك جبريل متصل ببشر هو محمد بن عبدالله ولا بد أن يحدث ذلك للرسول ، وذلك حتى يتكيف ليستقبل من المَلَك .

لكن أتظل هذه الرجفة المتعبة ؟ . لا ، إن الوحى يَفتر لفترة وتذهب عنه متاعبه فيشتاق الرسول إليه ويصير قادراً على تحمل متاعبه ، مثل تفصد الجبين بالعرق ، ومثل الثقل فى الحركة حتى إذا جاءه الوحى وهو على دابة فهى تئط وتئن ، وإن جاءه الوحى وهو جالس وفخذه على فخذ واحد من الصحابة ، فيكاد ثقل الرسول يرض عظام الرجل ويكسرها ، كل ذلك من المتاعب تحدث للرسول فى أثناء الوحى ؛ لأن تغييراً كيماوياً يحدث فى بدنه صلى الله عليه وسلم ليتأكد أن الكلام الذى يتلقاه ليس كلاماً عادياً ، لكنه كلام قد جاء بإعجاز ، وأنه من عند الله .

---

(١) رواه البخارى من حديث عائشة أم المؤمنين .

راجع أصله وخرج أحاديثه الدكتور أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .

لقد كان للوحى صلصلة كصلصلة الجرس . وكأن هذا الصوت إعلان أن زمن وساعة الوحى قد جاءت فاستعد لها يا رسول الله . وعندما تعب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى البداية ، كان من رحمة الله به أن جعل الوحى يفتر عنه ، فيشتاق صلى الله عليه وسلم للوحى بسبب حلاوة ما أوحى إليه ، ويجعله هذا الشوق مستشرفاً للمتاعب . وعندما فتر الوحى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال خصومه : رب محمد ودعه وجَفاه . ولم يتذكروا أن لمحمد رباً إلاّ فى هذه المسألة بعد أن اتهموه بالكذب ولم يمتلكوا الذكاء حتى يعبروا عن هذا الأمر بتعبير لا يتناقض مع موقفهم السابق منه . وحين رأى الحق الإجهاد الحاصل لرسوله جعل الوحى يفتر ، حتى تبقى حلاوة ما يوحَى به ويذهب التعب ويشتاق رسول الله إلى ما يُوحى إليه .

إن الشوق وتلك المحبة يجعلان رسول الله لا يشعر بوطأة الألم المادى البشرى ، والإنسان منا حين يذهب إلى حبيب له يسير فى الشوك والوحل ولا يبالى . إذن ففتور الوحى كان لتربية الشوق فى نفسه صلى الله عليه وسلم ليستقبل الوحى ، ولينتبه كل منا حين يقرأ قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾ ﴾

(سورة الضحى)

أى أن ما سيأتى لك من بعد ذلك سيسرك . ويقول الحق بعدها :

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ ﴾

(سورة الشرح)

وحين عرض الحق هذه المسألة بهذه الكيفية أراد أن يبلغنا : لا تظنوا أن رب محمد ـ كما يقولون ـ قد جفاه ، لا ، بل يعده ليستقبل أكثر مما جاء من قبل ، فسنن الكون أمامكم ، لكن كفرهم أعمى أبصارهم وبصيرتهم ، ويقول سبحانه :

﴿ وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ ﴾

(سورة الضحى)

وسبحانه يقسم بما شاء على ما شاء . والضحى هو ضحوة النهار وهى محل الحركة

والكدح والجهد والجد والتعب ، والليل محل الراحة والسكون .

كأن الحق يوضح : إنكم إن نظرتم فى آية الكون لوجدتم أن الله قد جعل الضحى للكدح والليل لنسكن فيه ، وفتور الوحى هو سكون ليعاود محمد نشاطه فى حركة الوحى الجديدة ، هو الحق ـ سبحانه ـ يقسم : « والضحى . والليل إذا سجى . ما ودعك ربك وما قلى » أمجىء الليل بعد النهار ضن من الله على الناس بالنهار ؟ لا ، إنما الليل عطاء من الله ليسكنوا وليستقبلوا النهار الجديد .

وأنزل سبحانه الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها حينما سأل اليهود النبى صلى الله عليه وسلم أن ينزل عليهم كتاباً من السماء : (يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة) .

فيأمره الحق أن يوضح : أنا قد أوحى الله إلىَّ كما أوحى إلى الرسل السابقين ، فهل أنتم شككتم فى وحى الله لموسى ؟ أشككتم فى وحى الله لمن سبق موسى ؟ صحيح أنكم شككتم فى مسألة عيسى ، لكن لنضع الأمر الذى تكذبون فيه جانباً ولنأخذ ما أنتم مصدقون به ، فيقول سبحانه : « إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده » .

إذن فأنت يا محمد لست بدعاً فى هذه المسألة : « إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده » ويمر العلماء على هذه المسألة مروراً سريعاً ، لكننا نقف عندها ونقول : قد يوحى هذا القول أن أول وحى كان لنوح . والحقيقة أن الوحى الأول كان لآدم من قبل ، لكنْ هناك فارق بين الوحى لآدم والوحى للأنبياء من بعده .

ومثال ذلك نوح ، فنوح طرأ على أمته وكانت أمته موجودة ثم جاء هو إلى هذه الأمة مبشراً ونذيراً . أما آدم عليه السلام فقد طرأت عليه أمته ، لذلك لم يرسله الله بمعجزة ، فهو أب للجميع . والأبناء يقلدون الآباء ، بل حتى أبناء الملاحدة يقلدون آباءهم . وقد أوحى الله لآدم وقال له : (فإما يأتينكم منى هدى فمَن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) وإرسال الهدى لآدم هو مجىء الوحى إليه .

ولماذا جاء نوح فى هذه الآية أولاً ؟ لأن نوحاً عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام قد

طرأ على أمته ؛ لذلك احتاج إلى وحى وإلى معجزة . وأرسل الله نوحاً إلى الناس كافة ؛ لعموم الموضوع ، فلم يكن هناك من البشر غيرهم . لكنَّ محمداً صلى الله عليه وسلم أرسله الله للناس كافة ؛ لأن الإسلام هو الدين الخاتم . وكان قوم محمد موجودين . وكذلك كان غيرهم موجوداً .

« إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم » . لماذا قال الحق : « والنبيين من بعده » أى من بعد نوح ؟ ، ولماذا قال : « وأوحينا إلى إبراهيم » وذكر أسماء الأنبياء من بعد إبراهيم ؟

يقول العلماء : هنا عطف خاص على عام لزيادة التنبيه على شرف هؤلاء ، « وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبوراً » ، وكأن الحق يقول : حين يسألك اليهود ـ يا محمد ـ أن تنزل عليهم كتابا من السماء قل لهم : إن الله أوحى إلىَّ كما أوحى إلى الأنبياء السابقين ؛ فلست بدعا من الرسل . وحتى لو أنزل إليهم محمد كتاباً فى قرطاس ولمسوه بأيديهم لقالوا : هذا سحر مبين ، كما قال :

﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَـٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

فالمُنْكِر يريد الإصرار على الإنكار فقط . وليست المسألة جدلاً فى حق وإنما هى لَجَاج فى باطل .

ويتابع سبحانه وتعالى أسماء الأنبياء الذين أوحى الله إليهم : « وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبوراً » ونلحظ أنه جل وعلا ذكر الوحى عاماً ؛ لكنه حينما جاء لداود ذكر اسمَ كتابِه « الزبور » ولم يأت فى الآية بأسماء الكتب المنزلة على الرسل السابقين مثل نزول التوراة على موسى ، والإنجيل على عيسى ؛ لأن ما جاء به داود فى الزبور أمر تُجمع عليه كل الشرائع ، وهو تحميد الله والثناء عليه فلم توجد فى الزبور أية أحكام .

وقد يقول قائل : إن عيسى أيضاً لم تنزل عليه أحكام فى الإنجيل . ونقول : لأن الإنجيل يلتحم بالتوراة ؛ وجاء بالوجدانيات الدينية وكانت التوراة موجودة قبله وفيها الأحكام . ولذلك فمن عجيب أمر أهل الكتاب من يهود ونصارى ، أنهم على رغم اختلافهم فى قمة الأمور وهى مسألة عيسى وأم عيسى ، جاءوا آخر الأمر ليلتقوا ويسموا الكتابين « العهد القديم والعهد الجديد » ويَعْتبروهما كتاباً واحداً يسمونه الكتاب المقدس .

وما معنى « الزبور » ؟ المادة كلها مأخوذة من « زَبَرَ البئر » ، فعندما يقوم الناس بحفر بئر ليأخذوا منها الماء ، يخافون أن ينهال التراب من جوانبها عليه فتطمر البئر ؛ لذلك يصنعون لجدران البئر بطانة من الحجارة ، وفى الريف المصرى نجد أنهم يصنعون تلك البطانة من الأسمنت .

وكلمة « زَبَرَ البئر » تؤدى معنى كل عملية لإصلاح البئر ؛ ثم أخذ الناس هذه الكلمة فى معانٍ مختلفة ، فسموا العقل « زَبْرًا » لأنه يعقل الأمور . وإذا كان السياج من الحجارة يعقل التراب عن البئر ويمنعه ، فكذلك العقل يحمى الإنسان من الشطط وليضبط الإنسان حريته فى إطار مسئوليته ليفكر ، ويعقل الغرائز عن الفكاك بالإنسان إلى الشتات والضلال . ويخطىء الناس فى بعض الأحيان فى فهم معنى « العقل » ؛ ويظنون أن العقل هو إطلاق الحبل على الغارب للأفكار دون انتظام أو مسئولية ، ونقول : افهموا أولاً معنى كلمة العقل حتى تعرفوا مهمته .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ ﴾

والرسل الذين ذكرهم الله فى الآية السابقة ليسوا كل الرسل الذين يجب الإيمان

بهم تفصيلا فحسب ، فكما علمونا فى الأزهر الشريف يجب أن نؤمن بخمسة وعشرين رسولا وقد نظمهم بعض الشعراء فى قوله :

فى تلك حجتنا منهم ثمانية
من بعد عشر ويبقى سبعة وهمو
إدريس ، هود ، شعيب ، صالح ، وكذا
ذو الكفل ، آدم ، بالمختار قد ختموا

وفى سورة الأنعام نجد قوله الحق :

﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

وفى هذه الآيات ثمانية عشر رسولاً ، وبالإضافة إلى سبعة هم إدريس وهود وشعيب وصالح وذو الكفل وآدم ومحمد صلى الله عليه وسلم ، هم إذن خمسةوعشرون رسولاً ذكرهم الله ، لكن الآية التى تسبق الآية التى نحن بصددها لم يذكر الله كل أسماء الرسل . وذكر أسماء بعض الرسل فى سورة الأنعام وبعضهم فى سورة هود وبعضهم فى سورة الشعراء . ويقول الحق :

﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ ﴾

(سورة النساء)

أى أن الخمسة والعشرين رسولاً ليسوا كل الرسل الذين أرسلهم الحق إلى الخلق ، فقد قال :

﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾

(من الآية ٢٤ سورة فاطر)

أى أنه قد قص علينا أعلام الرسل الذين كانت أممهم لها كثافة أو حيّز واسع أو لرسلهم معهم عمل كثيف ، ولكن هناك بعض الرسل أرسلهم سبحانه إلى مائة ألف أو يزيدون مثل يونس عليه السلام :

﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾﴾

(سورة الصافات)

وكان العالم قديماً فى انعزالية . ولم يكن يملك من وسائل الالتقاء ما يجعل الأمم تندمج . وكان لكل بيئة داءاتها ، ولكل بيئة طابع مميز فى السلوك ، ولذلك أرسل الله رسولاً إلى كل بيئة ليعالج هذه الداءات ، ولا يذكر الداءات الأخرى حتى لا تنتقل من مجتمع إلى مجتمع آخر بالأسوة . وحين علم الحق بعلمه الأزلى أن خلقه بما أقدرهم هو سبحانه على الفكر والإنتاج والبحث فى أسرار الكون سيبتكرون وسائل الالتقاء ؛ ليصير العالم وحدة واحدة ، وأن الشىء يحدث فى الشرق فيعلمه الغرب فى اللحظة نفسها ، وأن الداءات ستصبح فى العالم كله داءات واحدة ؛ لذلك كان ولابد أن يوجد الرسول الذى يعالج الداءات المجتمعة ، فكان صلى الله عليه وسلم الرسول الخاتم والرسول الجامع والرسول المانع .

﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾﴾

(سورة النساء)

ويتكلم الحق سبحانه عن تاريخ النبوات مع قومهم بكلمة « قصصنا » ولذلك حكمة ، فالقصص معناه أنه لا عمل فى الأحداث للرسول ، بل تأتى الأحداث فى السياق كما وقعت . وسبحانه يعلم أزلاً أن خلقه سيبتكرون فناً اسمه « فن القصص » .

ومن العجيب أنهم يسمونه فن القصص ، وينسج المؤلفون حكايات خيالية أو حكايات ليس لها واقع . وعندما يأتون إلى التاريخ الواقع يزيد المؤلف جزءا من الأحداث أو يضيف من خياله أشياء ، ويقولون هذه متطلبات إتقان فن القص ،

ويحرمون أنفسهم من أمانة النقل . ولذلك يأتى الحق ليوضح لنا أن القص الخاص بالرسل وبغيرهم فى القرآن قصص واقعى ، حقيقى ، حدث فعلاً .

وكلمة « القصص » مأخوذة من قص الأثر أى أن نسير مع القدم كما تَذهب ، فلا نذهب هنا ولا نذهب هناك . وحكايات الأنبياء فى القرآن واقعية . ومن رواية الحق لا من رواية الخلق ، وثمة فارق بين ما يرويه الحق لخلقه ليسيروا على المنهج . وما يرويه الخلق بعضهم لبعض للتسلية أو غير ذلك . ونجد روايات الخلق تزدحم فى بعض الأحيان بخيال البشر ، مثل روايات جورجى زيدان عن الإسلام والأنبياء ، وعندما سألوه لماذا أضاف من عنده إلى الواقع ، أجاب الإجابة التقليدية : فعلت ذلك من أجل الحبكة القصصية .

ويجب أن نميز ونفرق بين روايات الخلق وقصص الحق ونضعه فى بؤرة الشعور حتى لا يُدخل أحد من خياله على قصص القرآن ما ليس فيه ، وحتى لا يأتى واحد ذات يوم ويقول : إن كل القصص واحد . فنحن فى القرآن لسنا أمام مؤلف ، بل أمام الخالق الأعلى الذى يروى لنا ما يعلمنا . وسبحانه علم أزلاً ما سيدور فى كونه ، لذلك قال :

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾ ﴾

(سورة يوسف)

وسبحانه قد قص على الرسول صلى الله عليه وسلم فى القرآن أحسن القصص ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم سيعالج أجناس العالم التى توزعت على جميع الرسل من إخوانه ، ومادام عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم سيكون مع كل الأجناس البشرية الذين تفرقوا من قبل على الرسل من إخوانه ، فلا بد أن يوضح سبحانه للرسول صلى الله عليه وسلم ولأمته من بعده : أنّه حدث مع الرسول فلان كذا ، وكان مبعوثاً إلى قوم كان موقفهم منه كذا ، وكانت داءات ذلك المجتمع هى كذا وكذا . ومحمد صلى الله عليه وسلم ـ كما نعلم ـ موْكولٌ إليه علاج كل أجناس البشر وكذلك أمته من بعده ، ولابد أن يعرفوا أخبار كُلِّ المجتمعات والرسل : (نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين) .

إذن فكلمة « قصص » تدل على أنها حكايات لحركة العقيدة التى كانت مع كل الرسل . والتاريخ ـ كما نعلم ـ هو ربط الأحداث بأزمانها ، فمرة نجعل الحدث هو المؤرَّخ له ، ثم نأتى بأشخاص كثيرين يدورون حول الحدث . ومرة نجعل الشخص هو الأصل والأحداث تدور حوله ، فإذا قلنا كلمة « سيرة » فنعنى أننا جعلنا الشخص هو محور الكلام ؛ ثم تدور الأحداث حوله . وإن أرخنا للحدث ، نجعل الحدث هو الأصل ، والأشخاص تدور حوله .

مثال ذلك : عندما نأتى لنتكلم عن حدث الهجرة ؛ نجعل هذا الحدث هو المحور ، ونروى كيف هاجر رسول الله ومعه أبو بكر ، وكيف هاجر عمر بن الخطاب وغيره من الصحابة ، وبذلك تكون الهجرة هى المحور وكيف دار الأشخاص حول هذا الحدث الجليل .

ومثال آخر : عندما نروى سيرة من السير ، مثل سيرة النبى صلى الله عليه وسلم ، نجعل النبى صلى الله عليه وسلم محور الحديث والتاريخ ، ونروى كيف دارت الأحداث فى حياته .

إذن فأخبار وقصص الرسل تكون هى المحور ونلتقط الأحداث التى مرت عليهم ؛ لأن الرسالات حين تأتى الناسَ بمنهج السماء ؛ تنقسم إلى قسمين : قسم نظرى يريد الحق أن يعلمه لخلقه بواسطة الرسول ، وهو القسم العلمى ، فتلك قضايا يجب أن يعلموها . وقسم عملى ؛ لأن الحق يريد من خلقه أن يعلموا ويريد منهم ـ أيضا ـ بعد أن يعلموا أن يطوعوا حركة حياتهم على ضوء ما علموا . فليست المسألة رفاهية علم ، ولكنها مسئولية تطبيق ما علموا فى محور « افعل » و« لا تفعل » . ولو كانت المسألة أن يعلم الخلق فقط ، لكان من الممكن أن نقول : ما أيسرها من رحلة .

لقد وجدنا كفار قريش عندما طلب الرسول منهم أن يشهدوا أن لا إله إلا الله ، قاوموا ذلك . ولو كانوا يعلمون أنها مجرد كلمة تقال لقالوها . لكنهم عرفوا مطلوب الكلمة ، وعرفوا أنه لن توجد سيادة ولا عبودية ولا أوامر لأحد غير الله ، ومعنى ذلك المساواة المطلقة بين العباد .

إذن فكل تكليف من السماء إنما نزل ، والقصد من العلم به هو العمل به ، أى توظيف العلم تطبيقاً ، فلا قيمة لعلم دون عمل . وعندما يبلغ الرسول القوم : هذا هو الحكم ، ومطلوب من كل واحد منكم أن يطوِّع حركة حياته على ضوء هذا الحكم . وتجىء الأحكام دائماً فى طاقة البشر .

وهناك أناس قد علموا وعملوا وهذه هى قصصهم ، هذه قصة فلان وقصة فلان . فالقصص يعطينا الجانب العملى المطلوب للمنهج ، ولذلك قصَّ لنا الحق قصص الرسل فى القرآن . ويبلغنا الحق بالنسب الإيمانى ، ويعلمنا النسب المعترف به عند الأنبياء ، فيحكى قصة نوح عليه السلام ، عندما أُوحى إليه بضرورة أن يصنع السفينة ، وسَخِر قومُه منه ، وبعد أن صنعها جاءه الأمر الإلهى بأن يحمل فيها من كل زوجين اثنين . ويقول الحق :

﴿ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ ﴾

(سورة هود)

قوله الحق « إلا من سبق عليه القول » كان يجب ألا تمر على فطنة نوح ؛ ذلك لأنها تتضمن أن هناك أناساً من أهله لن يؤمنوا ، فيقول لابنه :

﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾

(من الآية ٤٢ سورة هود)

وكان الرد :

﴿ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ﴾

(من الآية ٤٣ سورة هود)

فقال نوح :

﴿ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ﴾

(من الآية ٤٣ سورة هود)

وبعد أن غرق ابن نوح وابتلعت الأرض ماءها ، نادى نوح ربه فقال :

﴿ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾

(من الآية ٤٥ سورة هود)

نحن ـ إذن ـ أمام لقطة قصصية فى قصة نوح . يلفتنا بها الحق إلى مسألة بنوة الرسالات ، فالبنوة هنا منهجية . ومن يتبع النبى هو الذى يكون من نسبه . ومن لا يتبع النبى فليس من نسبة ؛ لذلك قال الحق : (يا نوح إنه ليس من أهلك) . فأهل النبوة هم الذين اتبعوا منهج النبى . ويشرحها لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما قال عن سلمان الفارسى :

(سلمان منا أهل البيت)[1] .

ولم يقل : إن سلمان عربى ، أو إنّه من المسلمين ، لكنه قال : إنه من أهل البيت . وقد أوضح الحق ذلك فى قصة ابن نوح : (إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح) .

وخاض فى معنى « ليس من أهلك » بعض الخائضين باللغو وقالوا : إن أم ابن نوح قد فعلت السوء ، ولهؤلاء نقول : استغفروا ربكم وانظروا إلى حيثية الحكم :

﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ﴾

(من الآية ٤٦ سورة هود)

إذن فنسبة الأبناء للآباء من الأنبياء نسبة عمل لا نسبة دم ولا نسبة عن زواج أو إنجاب ، أما الذين قالوا السوء فى امرأة نوح فعليهم أن يستغفروا الله ، فالحق

---

(١) رواه الحاكم فى المستدرك . والطبرانى فى الكبير عن عمرو بن عوف .

سبحانه منزه عن التدليس على رسوله . وهب أن أم الولد قد فعلت ذلك ـ معاذالله ـ فما ذنب الولد حين تصير أمه إلى هذا ؟ لا دخل للولد بذلك ، لكن قول الله : « إنه عمل غير صالح » يدل على أن ثبوت البنوة الإيمانية يكون بالعمل فقط .

ولننظر إلى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم لأهله وعشيرته . . فعن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال : لما نزلت (وأنذر عشيرتك الأقربين ، جعل النبى صلى الله عليه وسلم يدعو بطون قريش بطنا بطنا : يا بنى فلان أنقذوا أنفسكم من النار حتى انتهى إلى فاطمة فقال : يا فاطمة ابنة محمد انقذى نفسك من النار لا أملك لكم من الله شيئا غير أن لكم رحمًا سأبلها بِبلالها)[1] .

ويضرب الله المثل فى الزوجات ؛ فيقول :

﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾

(سورة التحريم)

وليس المقصود بالخيانة هنا الخيانة الجنسية ؛ لكن لنستدل على أن الرسول وإن كان رسولاً ليس له من القدرة على أن يقهر زوجه وامرأته على عقيدة ؛ فهى تملك حرية الاعتقاد ؛ فلا ولاية هنا للرجل على المرأة فى العقيدة حتى إن ادعى الألوهية ؛ كفرعون مثلاً يقول الحق عن امرأته :

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ ﴾

(سورة التحريم)

هذه اللقطات تدلنا على أن قضية الإيمان لا ينفع فيها النسب أو الزواج . فالابن هو العمل الصالح ، والحيثية فى ذلك قول الحق عن ابن نوح : « إنه عمل غير صالح » فلم يذكر ذات الابن ولكنه ذكر العمل .

ولكل نبى قصة يذكرها الحق ليتضح المنهج فى أذهان الناس . ويأتى الله بالمثل فى

---

(١) رواه الإمام أحمد . ورواه مسلم فى الإيمان ، والبخارى فى الأدب والترمذى فى التفسير والنسائى فى الوصايا .

المصطفَيْنَ الأخيار الذين اصطفاهم الله لهداية الناس مثل قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام . الذى يبتليه ـ سبحانه ـ فى أول حياته بالإحراق فى النار . كان إبراهيم شاباً يمتلىء بالأمل فى الحياة ، فماذا كان من إبراهيم ؟

أراد الحق نجاة إبراهيم من النار . وتركهم يتمكنون منه ويضعونه فى قلب النار . ولم تمطر السماء لتطفىء النار ، وكل ذلك لتكون حجة الحق واضحة ، وحتى يكون كيد الله كاملاً لهؤلاء الكافرين . إن إبراهيم عليه السلام لم يهرب منهم ، ولم تمطر السماء ، بل ظلت النار ناراً ويعطل سبحانه ناموس النار حين دخول إبراهيم إليها .

(روى عن أبى بن كعب عن النبى صلى الله عليه وسلم أن إبراهيم حين قيدوه ليلقوه فى النار قال : لا إله إلا أنت سبحانك رب العالمين ، لك الحمد ولك الملك لا شريك لك . قال : ثم رموا به فى المنجنيق من مضرب شاسع فاستقبله جبريل فقال : يا إبراهيم ألك حاجة ؟ قال : أما إليك فلا . فقال جبريل فاسأل ربك . فقال : حسبى من سؤالى علمه بحالى.فقال الله : يا نار كونى برداً وسلاماً على إبراهيم)[1] .

وفى هذا غيظ ودحض لمكر الذين مكروا بإبراهيم . إذن يعطينا الحق فى القصص القرآنى المثل لنجمع من حياة كل رسول العبر ونستفيد منها ، لنكون بحق خير أمة أخرجت للناس ؛ لأننا أخذنا تجارب كل رسول وجعلناها منهجاً لنا فى حياتنا .

وقد ابتلى الحق إبراهيم فى أول حياته فى نفسه ، وابتلاه فى أخريات حياته فى ابنه ، ونجح إبراهيم فى الابتلاء الأول حين كانت حياته أهم بالنسبة إليه من كل شىء ، وحين يتقدم فى السن ، فمن المفروض أن تكون كل حياته لمن بعده من الأبناء فيبتليه الله فى ابنه . لم يقل له : إن ابنك سيموت وعليك بالصبر . ولم يقل له : إن واحداً سيقتل ابنك وعليك بالصبر ؛ بل يأمره بذبح ابنه ، تلك قمة الابتلاء . لأنه لم يأت بوحى مباشر كالنفث فى القلب أو الكلام من وراء حجاب أو يرسل له الله ملكا يبلغه ما يريد ، بل برؤيا منامية : (قال يا بنى إنى أرى فى المنام أنى

---

(١) تفسير القرطبى وذكر نحوه ابن كثير فى تفسيره والزمخشرى فى الكشاف .

أذبحك) . ويقول إبراهيم لابنه المسألة كما رآها فى المنام . والرؤيا عند الأنبياء حق .

وقد يقول قائل : ولماذا لم يرد إسماعيل على أبيه بأن هذه المسألة هى مجرد رؤيا ؟ ولماذا لم يأخذ إبراهيم ولده على غرة دون أن يقول له ؟.

ونقول : إن إبراهيم من فرط وشدة حنانه وحبه لابنه آثر أن ينال الابن الثواب العظيم والجزاء الجليل بأن يقتل ويقدم حياته امتثالا لأمر الله ، فقال إبراهيم :

﴿ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ﴾

(من الآية ١٠٢ سورة الصافات)

وها هوذا قول إسماعيل :

﴿ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾

(من الآية ١٠٢ سورة الصافات)

ولم يقل إسماعيل لأبيه : « افعل الذبح » ولكنه قال : « افعل ما تؤمر » أى أن إسماعيل لم يأخذ الكلام على أنه كلام من أبيه ، بل أخذه كأمر من الله . ولو أخذه أبوه على غرة قد يتحرك قلب الابن غيظاً على أبيه وحقداً عليه فيعتدى على الأب ، وهنا نجد حنان الأب على الابن جعله يخبره بالأمر الآتى من السماء ؛ والشأن فى حنان الأب على الابن أن ييسر له كل أمور حياته . أما حنان الحنان فهو تيسير كل خير بعد مماته ، لذلك لم يشأ إبراهيم أن يحرم إسماعيل من الامتثال لأمر الله ؛ فينال الاثنان معاً شرف الامتثال لله . وأعطاه كل الحنان فى الزمان الأبقى والزمان الأخلد فى الدار الآخرة ؛ حتى نعلم أن الحق سبحانه وتعالى لا يريد منا إلا الامتثال لقضائه وقدره ، ويقول الحق :

﴿ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ ﴾

(سورة الصافات)

هذا شرف الامتثال فى التسليم لله . . ففى البداية أسلم إبراهيم أمره لله ، وعندما عرض الأمر على ابنه سلم الابن أمره لله ، فنال الاثنان منزلة الشرف فى التسليم لأمر الله . ونجح الاثنان فى الاختبار ، فقال الحق :

﴿ وَنَـٰدَيْنَـٰهُ أَن يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ ﴾

(سورة الصافات)

لقد أنقذ الحق إبراهيم وابنه من مسألة الذبح ، ولهذا نقول دائماً : لا يُرفع قضاء من الله على خلقه إلا أن يستسلم الخلق للقضاء ، والذين يطيلون أمد القضاء على نفوسهم هم الذين لا يرضون به . وأتحدى أى إنسان أن يكون الله قد أجرى عليه قضاء مرض فيرضى به ويعتبر أن ذلك صحة اليقين ، ولا يرفع الله عنه المرض . فالإنسان بالصحة يكون مع نعمة الله ، ولكنه بالمرض يكون مع الله .

فقد حدثنا أبو هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن الله عز وجل يقول يوم القيامة : يا بن آدم مرضت فلم تعدنى . قال : يارب كيف أعودك وأنت رب العالمين ؟ قال : أما علمت أن عبدى فلاناً مرض فلم تعده !! أما علمت أنك لو عدته لوجدتنى عنده ؟)[1] .

من إذن يجرؤ على الزهد فى معية الله ؟ وعندما يعرف المريض أنه فى مرضه الذى يتأوه منه هو فى معيةالله لاستحى أن يقول : « آه » ، ولكننا لا نطلب من المريض ألا يقول « آه » ، ولكن نطلب منه أن يتوجه إلى الله ويقول : « ولكن عافيتك أوسع لى » .

وقول الحق : (فلما أسلما وتله للجبين) هذا القول يدلنا على أن القضاء لا يُرفع إلا بالرضا به ، فإن رأينا واحداً قد استمر معه القضاء فلنعلم أنه لم تحن ولم تأت عليه لحظة رضى فيها بالقضاء . ولم يرفع الله القضاء فقط عن إبراهيم ، ولم يُفْد إسماعيل فقط بذبح عظيم ، بل بشر الله إبراهيم بولد آخر هو إسحاق :

﴿ وَبَشَّرْنَـٰهُ بِإِسْحَـٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ ﴾

(سورة الصافات)

وها هى ذى لقطة أخرى نأخذها من القصص القرآنى مع سيدنا موسى ؛ لنتبين ماذا يصنع المنهج الإيمانى فيمن اقتنع به ، وحدثت هذه القصة فى وقت تهيئة سيدنا

---

(١) من حديث أبى هريرة رواه مسلم فى صحيحه فى كتاب البر .

موسى للرسالة ، حدثت هذه الواقعة وهو ذاهب إلى شعيب ، ولم يكن رسولاً بعد ، مما يدل على أن فطرية الإيمان كانت موجودة عنده ، وأن الله قد صنعه على عينه ، لقد ورد ماء مدين ووجد الفتاتين تذودان وتطردان الماشية عن الماء ، فماذا دار بينه وبينهما من حوار ؟. وكيف كانت رؤيته لهما أولاً :

﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ ﴾

(سورة القصص)

وفى قول المرأتين : « لا نسقى حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير » قدر من المبادىء فخروجهما من البيت سببه أن الأب شيخ كبير ، ومع أنهما فى ضرورة وخرجتا للعمل فلم تنس واحدة منهما أنها أنثى يجب أن تحترم أنوثتها فقالتا : « لا نسقى حتى يصدر الرعاء » أى أنهما ستسقيان من بعد أن يذهب الزحام من الرجال حول البئر . إذن فقد أخذت بنتا شعيب الضرورة فى حجمها ولم تتخذ إحداهما من الضرورة حجة لإهدار الأنوثة والتزاحم للوصول إلى البئر . فماذا حدث من موسى ؟. (فسقى لهما) .

تلك الهمة الإيمانية التى وجُدت فى موسى قبل أن يصير رسولاً ، وذلك ما يوضحه لنا الحق حتى لا يقول إنسان : كيف أكون مثل رسول من عند الله ؟.

كأن الهمة الإيمانية التى وصَفتها تلك اللقطة القصصية توقظ مسئولية كل مؤمن ليسلك مثل هذه السلوك . فعندما يرى امرأةً قد خرجت عن محيط بيتها لأى عمل ، فعليه أن يقضى لها حاجتها حتى ترجع إلى بيتها وذلك دون أن يتخذ من ذلك ذريعة ووسيلة إلى أمر ينزل بهمته وينال من مروءته . ولو انتشرت بيننا تلك الهمة الإيمانية لما وجدنا امرأة فى الطريق إلا للضرورة . لقد أوضحت لنا تلك اللقطة القصصية حرص المرأة على موضعها وموقعها من الستر ، فتقول واحدة من المرأتين لأبيها شعيب بعد أن استقدمه ليجزيه أجر ما سقى لهما :

﴿ يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴾

(من الآية ٢٦ سورة القصص)

كأن المرأة لا يحل لها أن تتحرك فى الكون هذا اللون من الحركة الواسعة ، ويسمع شعيب وهو الرجل العاقل لابنته فكيف يستأجر رجلاً وعنده ابنتان ، فيفكر شعيب ويعثر على الحل الصحيح بفطنة إيمانية ، فيستدعى موسى ويقول له :

﴿ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖ ﴾

(من الآية ٢٧ سورة القصص)

وفى مثل هذه الحالة سيكون موسى متزوجاً بواحدة ومُحَرَّماً على الأخرى .

وهذه اللقطات القصصية نلتفت إليها لنتعلم منها الفطنة الإيمانية . وها نحن أولاء مع موسى وقد ناداه الحق ليجعله رسولاً ، ولنر صفاء النفس الإيمانية وهى تتلقى مهمة الرسالة ؛ إن موسى يرغب فى أن يكون أداؤه للرسالة كاملاً ؛ لذلك يطلب من الحق أن يرسل معه أخاه هارون :

﴿ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّي لِسَانٗا فَأَرۡسِلۡهُ مَعِيَ رِدۡءٗا يُصَدِّقُنِيٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ ﴾

(سورة القصص)

هو يرشح معه هارون للرسالة لأنه حريص على النجاح فى دعوته لأن لسانه ثقيل لرتَّة ولُثغة وتردد فى النطق من أثر الجمرة التى أصاب بها لسانَه وهو صغير ، والرسالة تحتاج إلى بيان وبلاغة فيطلب مساعدة أخيه ولم يستنكف ذلك . فما بالنا بما هو حادث وحاصل فى أيامنا ، حين يختار الحاكم رئيساً للوزراء فلا يطلب معاونة الأكْفَاء ، بل قد يخشى أن يكون له نائب له كفاية عالية فوق كفاءته .

واللقطات القصصية فى القرآن تعلمنا الكثير ، وأراد الحق أن يثبت بها للأمة المحمدية دقة المنهج الإيمانى ، فمادام قد أرسل لنا منهجاً لنعلمه ، فهو يطلب منا أن نطبق هذا المنهج ونوظفه فى حياتنا . وليس ذلك بدعا ، بل هو موجود فى قصص الرسل الذين عَلِموا المنهج فطبقوه فى ذواتهم أولاً ؛ لأن الآفة أن نعلم العلم ولا نطبقه .

وفى زماننا يقال ويشاع : إن التعليم الدينى فى المدارس لا يأتى بثمار طيبة فى سلوك

الطلاب . ونقول لمن يرددون ذلك : أنتم لا تفهمون طبيعة التعليم الدينى ؛ فتعليم الدين لا يمكن أن يتساوى مع تعليم الجغرافيا أو الهندسة وغيرهما من العلوم ؛ لأننا عندما نعلم طالباً الهندسة فهو يستطيع أن يكون عالماً متفوقاً فيها ويأخذ المعطيات والنظريات ويتفوق فى المجال الهندسى ، ولكن لم تطلب منه أية نظرية هندسية أن يعدل سلوكه فى الحياة بأن ترشده فى السلوك اليومى : افعل كذا ولا تفعل كذا .

فالنظريات الهندسية لا تتدخل فى حياة الطلاب ، لكن الطالب عندما يتعلم الدين إنما يتعلم أن يفعل الأمر الدينى ، ولا يفعل الأشياء المنهى عنها . والصعب فى التعليم الدينى هو التطبيق العملى . وعندما لا يرى التلميذ التطبيق العملى من الذين يعلمونه الدين أو من الأسرة ، فإنه لا يتعلم الدين ، فيقال للطالب : الدين ينهى عن الكذب ، لكن الطالب يجد الكذب سلعة رائجة فى المجتمع . ويقول الدين له : الصلاة عماد الدين وتنهى عن الفحشاء والمنكر ، ولا يجد الطالب من يصلى أمامه أو يجد من يصلى ولا يقيم عمارة الدين باتباع ما تأمر به الصلاة من نهى عن المنكر ، إذن ففشل التعليم الدينى لا يأتى من ناحية غياب المعلم ولكن من عدم وجود التطبيق العملى للسلوك الدينى .

ونعود للقص القرآنى . جاء القصص ليوضح لنا التطبيق للجانب النظرى من الدين ، وطبَّقهُ الرسل على أنفسهم . وأنتم يا أمة الإسلام لستم أقل من أحد ، بل أنتم خير أمة أخرجت للناس ، وعليكم أن تأخذوا الخير الذى حدث فى موكب الرسالات كلها وتطبقوه فى ذواتكم .

هذا هو معنى قوله الحق : « ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك » . وقد جاء لنا القرآن بعيون القصص حتى نأخذ منها لقطات العبرة . ويقول قائل : ومن هو الرسول ؟

يقول العلماء : هناك رسول وهناك نبى . وأقام بعضهم مشكلة حول هذا الأمر ، فقال بعضهم : كل رسول نبى ولا عكس . ونقول لأصحاب هذا الرأى : لو نظرنا إلى المعنى اللغوى والمعنى الاصطلاحى لأرحنا أنفسنا جميعاً ، فالقرآن يقول :

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ ﴾

(من الآية ٥٢ سورة الحج)

إذن فالنبى أيضاً مرسل من الله ، وعلى ذلك فكلاهما ـ النبى والرسول ـ مرسل من عندالله ، لكنْ يوجد فرق بين أن يرسل الحق تشريعاً مع رسول ، ويكون هذا التشريع مستوعباً لأشياء وأحكام لم تكن موجودة فى الرسالة السابقة عليه ، وبين أن يأتى إنسان مصطفى من الله ليطبق فقط ما جاء فى الرسالات السابقة ، فالأنبياء قد أرسلهم الله ليكونوا نموذجاً تطبيقياً للشرع السابق عليهم ولم يَأتوا بشرع جديد ، لكن الرسول هو من أرسله الله بشرع جديد ليعمل به وأمره الحق بتطبيقه . هذا هو الزائد فى مهمة الرسول .

إن الحق أرسل الرسل بالشرع والتبليغ والتطبيق ، وأرسل الحق الأنبياء ليكونوا الأسوة السلوكية فيطبقوا ما أرسل به الرسل السابقون عليهم ، وهذا أمر لا يأتى إلا فى الأمم التى لها سجل فِى المكابرة مع الرسل .

ولذلك نجد أن اللجاجة دفعت بنى إسرائيل إلى التفاخر بأنهم أكثر الأمم أنبياء ، صحيح أنهم أكثر الأمم أنبياء . لكن علينا أن نعرف أن النبوات والرسالات إنما تأتى لتشفى الناس مما بهم من داءات ؛ فعندما نقول عن إنسان إنّه أكثر الناس تردداً على الأطباء ، فمعنى ذلك أن أمراضه كثيرة ، وكذلك بنو إسرائيل كانت داءاتهم كثيرة . وكثرة الرسل إليهم لا ترفع من منزلتهم . بل تدل على كثرة أمراضهم .

إذن فالرسول والنبى كلاهما مرسل . والفارق أن الرسول معه تشريع سماوى ليبلغه ويطبقه ، والنبى مرسل للتطبيق ، فإن جئنا لمعنى الرسول اصطلاحياً ؛ فهو الموحى إليه بشرع يعمل به وأمره الله بتبليغه . ويذيل الحق الآية : « وكلم الله موسى تكليماً » ولاشك أن موسى كان من هؤلاء النبيين الذين شملهم قوله الحق : « إنا أوحينا » . ولسائل أن يسأل فيقول : ولماذا خص الله موسى بقوله : « وكلم الله موسى تكليماً » ؟ .

ونقول : الوحى الذى يوحى الله به لأنبيائه هو الوحى الاصطلاحى الشرعى الذى نتكلم عنه دون الوحى اللغوى الذى سبق أن أفضنا فيه . والحق سبحانه وتعالى قد بين الطريقة التى يخاطب بها أنبياءه المصطفين لأداء رسالتهم إلى خلقه ، فقال :

﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ﴾

(من الآية : ٥١ سورة الشورى)

إذن ، فطريقة التقاء الحق بالأنبياء ؛ إما أن تكون بالوحى ، وإما أن تكون من وراء حجاب ، وإما أن تكون بإرسال رسول كجبريل عليه السلام . فإذا ما نظرنا إلى الآية وجدنا أن الوحى ينقسم إلى ثلاثة أقسام : وحى خاص ، وكلام من وراء حجاب ، وإرسال رسول ، وكل هذه الأقسام الثلاثة تدخل فى إطار الوحى « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً » .

أى ما كان لبشر أن يكلمه الله إلا إلهاماً وقذفا فى القلب ، أو يكلمهُ « من وراء حجاب » وهو كلام من الله يسمعه الرسول ، لكنه لا يرى المتكلم وهو الله . أما الوحى بواسطة الرسول ، فهو نزول جبريل إلى الرسول بما أوحى به الله .

فإذا ما نظرنا إلى قوله الحق : « وكلم الله موسى تكليماً » فكأنه سبحانه قد خصه بهذه العبارة ليدل على أنه أوحى لموسى بطريقين ، أولاً : بالطريق الذى أوحى به إلى غيره من الأنبياء ، ثانياً : بالطريق الخاص وهو كلام الله الذى بدأ به موسى بالوادى المقدس .

وقوله الحق : « تكليماً » يدفعنا إلى التساؤل : لماذا جاء الحق بالمصدر هنا ؟ . لأن مطلق الوحى بأى وسيلة سماه الله كلاماً . إذن فالنفخ فى الرُّوع كلام ، والكلام من وراء حجاب كلام ، وإرسال الرسول بالوحى كلام . والكلام هو ما يدل على مراد المتكلم من المخاطب ، بدليل أن الله سمى الوحى فى صوره الثلاث كلاماً « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه ما يشاء » .

والخفاء فى الوحى إما أن يكون خفاء فى الأسلوب ، أى لا يسمعه أحد غير الرسول ، وقد لا يسمعه الرسول ويكون بقذف الكلام فى رُوع الرسول وقلبه وهو يؤدى مؤدى الكلام أى الدلالة على ما فى نفس المتكلم الذى يريد نقله للمخاطب .

أما أن يقول الحق : إنه « تكلم » مع موسى ، فهذا نقل من الخفاء إلى العلن ، أو يرسل الحق رسولاً بالكلام الموحى به . وحين قال سبحانه : « وكلم الله موسى تكليماً » إنما ينبهنا إلى أن الوحى لموسى ليس من الكلام الذى قسمه الحق فى قوله : « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا » ؛ لأن الله قال فى كلامه لموسى : « وكلم الله موسى تكليما » .

ووقف العلماء هنا وقفة عقلية وقالوا : كيف يتكلم الله إذن ؟ . ونقول : إن كل وصف لله ويوجد مثله لخلقه إنما نأخذه بالنسبة لله فى إطار : (ليس كمثله شىء) فإن قلت : إن لله وجوداً وللإنسان وجوداً ، فوجود الإنسان ليس كوجود الله ، وإن قلنا : إن لله علماً ، وللإنسان علماً ، فعلم الإنسان ليس كعلم الله ، وإن قلنا : إن لله قدرة ، وللإنسان قدرة ، فقدرة الإنسان ليست كقدرة الله ، وإن قلنا : إن لله استواء على العرش وللإنسان استواء على الكرسى ، فاستواء الله ليس كاستواء الإنسان . إذن فلابد أن تؤخذ كل صفة من صفات الله التى يوجد مثلها فى البشر فى إطار قوله :

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾

(من الآية ١١ سورة الشورى)

وبذلك ينتهى الخلاف كله فى كل ما يتعلق بصفات الحق .

فالحق له يدان وله وجه ، ولكن لا يمكن للإنسان أن يصور يد الله كيد البشر ، بل نأخذها فى إطار « ليس كمثله شىء » وكذلك وجه الله . ومادمنا نأخذ صفات الله فى إطار « ليس كمثله شىء » فلا داعى للمعركة الطاحنة بين العلماء فى الصفات وفى تأويل الصفات ، ولا داعى أن ينقسم العلماء إلى عالم يؤوّل الصفات وعالم لا يؤول ؛ لا داعى أن يقول عالم : إن يد الله هى قدرته فيؤول ، وعالم آخر لا يؤول ويقول : لا . إن لله يداً ويسكت . ونقول للعالم الذى لا يؤول : قل : إن لله يداً وهى تناسب قوله : « ليس كمثله شىء » . وإذا كنا نحن قد عرفنا فى عالمنا أن الأشياء تختلف مواجيدها فى الناس باختلاف الناس ، فلا بد من أن نعرف أن الله لا مثيل له .

وعلى سبيل المثال : يتلقى الإنسان دعوة لمائدة عمدة قرية ما ، فيقدم له ألوان

طعام تناسب مقام القرية ومنصب القيادة فيها ، ويتلقى الإنسان دعوة لمائدة محافظ مدينة فيقدم له طعاماً يناسب مقام المدينة ومنصب القيادة فيها . ويتلقى الإنسان دعوة رئيس الدولة فيقدم له طعاماً يناسب مقام الدولة وهيبة منصب القيادة فيها ، إذن لا تتساوى مائدة طعام العمدة فى قرية مع مائدة طعام المحافظ مع مائدة طعام رئيس الدولة ، فإذا كان فى البشر يوجد الشىء الواحد وهو ملون بألوان مقامات المخلوقين فكيف لنا بمقامات الخالق ؟! « ليس كمثله شىء » .

فإذا كان الحق قد أخبرنا أنه كلم موسى تكليماً فى قصة الوادى عندما آنس موسى ناراً وذهب إلى النار . فقال الحق :

﴿ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَۖ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنۡهَا مَن لَّا يُؤۡمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرۡدَىٰ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة طه)

قال له الحق كل ذلك ، وبدأه سبحانه بالكلام . وبعد ذلك جاء لموسى الوحى على طريقة مجىء الوحى للأنبياء .

والحق سبحانه وتعالى أوحى لنبيه صلى الله عليه وسلم على شتى ألوان الوحى . فقد جاء الوحى لرسول الله إلهاماً ، وجاء الوحى لرسول الله من وراء حجاب ، وجاء الوحى لرسول الله من خلال رسول .

ومثال الوحى إلهاماً هو الحديث القدسى ، وكذلك التشريع النبوى الذى تركه لنا الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومثال الوحى من وراء حجاب هو التكليف بالصلاة ، فلم تفرض الصلاة بواسطة جبريل ، بل فرضت من الله مباشرة .

ولا أدخل فى نقاش لا جدوى منه حول : أحين فرض الحق على رسوله الصلاة كلمه وسمع منه رسول الله ، أم أن رسول الله قد رأى الله وهو يتكلم معه . لا داعى

للخوض فى أمر لم يخبرنا الله عن كيفيته ، والأدب مع الله يقتضى ذلك . قال تعالى : « ولا تقف ما ليس لك به علم » .

وإن القرآن لم يثبت بأية طريقة من طرق الوحى إلا بإرسال رسول ، فكل وحى القرآن جاء بواسطة جبريل ، فلم تأت آية بالنفخ فى الرُّوع . إنما جاء بالنفخ فى الروع الحديث القدسى ؛ لأن النفخ فى الروع قد يتصور واحد أنه خاطر من الجن أو أمثال ذلك . وجاءت كل الآيات القرآنية بواسطة جبريل ؛ بمقدمات بدنية ، ويحدث تغير كيماوى فى نفس رسول الله فلا يشك أبدًا فى أنه جبريل . وأراد الحق أن يكون الوحى بالقرآن بطريقة لا شك فيها .

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يسمع صوتاً كصلصلة الجرس ؛ وبعد ذلك يتفصد جبين الرسول عرقاً ، ويثقل جسم رسول الله حتى إن كان على دابة فهى تئط وتئن ويثقل عليها وتكاد أن يمس بطنُها الأرض . وإن كان رسول الله يلاصق فخذه فخذ أحد الصحابة ، فيكاد أن يرض فخذ الصحابى ، وتلك علامات مادية كونية ، لا يمكن أن يحدث فيها لبس .

ولقد قالوا من قبل استنادا إلى ظاهر قوله :

﴿ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ ﴾

(سورة طه)

لو لم يرسل الحق الرسول لكان لهم حجة . ونقول للعلماء : لنفهم هذه المسألة حتى نوضح لكم أنكم تختلفون فى أمر كان يجب عليكم ألا تختلفوا فيه . أبالعقل يعلم الإنسان مطلوب الله منه ؟ أم أن العقل يهدينى إلى وجود قوة أعلى خلقت هذا الكون وتدبره ؟ . وما اسم هذه القوة ؟ . وما مطلوب هذه القوة ؟ . أيعرف العقل ثواب من يتبع المنهج وعقاب من يخرج عن المنهج ؟ . كل هذه أمور لا يعرفها العقل ، فالعقل حجة فى الإيمان بقوة عُليا فوق ذلك الكون وهى التى خلقته وتدبره وتديره ، أما الرسول فهو مبلغ بمطلوبات المنهج واسم القوة التى أرسلت والشرائع التى يجب أن يسير على هداها الإنسان ، إذن فليس هناك خلاف بين الرأيين .

وأسأل : من الذى اكتشف الكهرباء ؟ . إنه العقل البشرى الباحث وراء أسرار الله فى الكون ، ولا أحد يجهل هذه المسألة . وكذلك أسأل : من أول من تكلم فى النسبية ؟ إنه أينشتين . وإن سألنا : من أول من تكلم فى الجاذبية الأرضية ؟ . إسحاق نيوتن ، وكل واحد اكتشف شيئاً فى الكون صرنا نعرفه . والذى صمم توليد الكهرباء التى تنير وتضىء وندير بها المصانع ، وجعل من سوق الكهرباء صناعة رائجة تعمل فيها القدرات المالية ليشترى الإنسان مصابيح تنير حيزاً محدوداً ، ومصانع تعمل فى خدمة الإنسان .

أبالله عليكم تعرفون اسم مصمم مولدات الكهرباء ومصمم ومكتشف المصباح الكهربائى ، ولا تدرون اسم من خلق الشمس التى تنير نصف الكرة الأرضية كل نصف يوم . ولم يَدَّع أحد لنفسه صناعة الشمس ، ولا يوجد ابتكار فى الكون إلا ومعلوم مَن أبدع هذا الابتكار . فالذى صنع المصباح إنما ينير به حيزاً محدوداً مهما كبر ضوء المصباح ، وبعد محيط دائرى معلوم يتلاشى الضوء ويصير الأمر إلى ظلمة ، فما بالنا بالشمس التى تنير نصف الكرة الأرضية كل نصف نهار .

إن خلق الشمس يحتاج إلى قدرة تناسب خلقها ، وتحتاج إلى حكمة تناسبها ، وليس لهذه الشمس محيط من الزجاج ينكسر ونغيره مثلما نفعل مع المصابيح . كان لابد للعقل البشرى أن يفهم أن هذه الكائنات التى فى الكون لها صانع يناسبها . ولا يمكن أن يكون صانعها من الخلق ويسكت عن حقه فى صناعة هذه المعجزات ، ونحن نرى بعضاً من الناس فى بعض الأحيان تدعى ملكية ما ليس لها ، فإذا ما جاء الخالق وأبلغنا بواسطة الرسل بصناعته للكون ولم يوجد له مُعارض ، فهل هذه الأشياء والكائنات من خلقه أو لا ؟ . إنها من خلقه إلى أن يوجد له معارض .

هذه هى مهمة العقل أى أنّه يهتدى إلى القوة التى تخلق وتدبر أمر هذا الكون ولا يغنى العقل عن الرسل ، ولكن العقل يؤمن فى القمة الإيمانية بأن هناك قوة مبهمة عالية تناسب عظمة هذا الكون الذى طرأ عليه الإنسان ، ولا يعرف اسم القوة ولا يعرف مطلوب القوة فى « افعل » ، و« لا تفعل » ، ولا يعرف العقل ماذا ادخرت القوة من ثواب للمحسن وعقاب للمسيء . لذلك لابد من وجود رسول .

إن الحجة ـ إذن ـ تكون من شقين : الشق الأول الخاص بالعقل هو فى الإيمان بالقوة العليا المبهمة ، والشق الثانى الخاص بالرسل هو الإيمان بالبلاغ عن الله اسما وصفة ومطلوباً وجزاء ، هكذا نرى فاتفقوا أيها العلماء ولا ضرورة للخلاف .

أقول ذلك حتى لا يتمادى الذى يتصيدون لدين الله وأضيف : اتفقوا أيها العلماء على أشياء محددة لأنكم تشتتون الناس بهذه الخلافات ؛ فالرسول هو الحجة فى الأشياء التى لا دخل للعقل فيها .

ونعرف تاريخياً أن آفة الفلسفة أنها تضع وتتخذ عدداً ضيقاً من المجالات لتبحث فيها ، وكانت الفلسفة قديماً هي أمُّ العلوم مجتمعة ، فالهندسة كانت فرعاً منها ، وكذلك كل الرياضيات ، وأيضاً المواد العلمية كالكيمياء والفيزياء وكذلك أصول اللغات .

لكن عندما رأى العلماء أصحاب التجارب المعملية أن الفلاسفة يدخلون فى متاهات نظرية ولا يدخلون إلى مجال التجارب العلمية التطبيقية ، تركوا الفلاسفة وأسسوا العلوم التجريبية منفصلة عن الفلسفة . وأنتج العلم التجريبى لنا كل هذه الاختراعات والاكتشافات المعاصرة التى تسهل علينا الحياة ونستفيد منها .

لقد ظل الفلاسفة على حالهم يبحثون فى النظريات بعيدين عن مجال التجارب العلمية التطبيقية . ولا تلتقى مدرسة فلسفية بمدرسة أخرى ؛ لأنهم يختلفون حيث الجهل طبيعة مسيطرة على الغيب الذى يبحثون عنه ولا يمكن الاهتداء أبداً إلى أسرار الغيب ، إنما الغيب يبلغ به الرسل .

والمثال الذى أضربه دائماً وأكرره حتى يستقر فى الأذهان : لنفترض أننا نجلس فى حجرة ثم دق الجرس ، هنا تستوى عقولنا جميعاً فى أن طارقاً بالباب ، ولا نختلف فى هذا الأمر . لكن عندما ندخل فى تصور من الطارق ؟ يقول واحد : « الطارق رجل » وثانٍ يقول : « الطارق امرأة » وثالث يقول : « الطارق رجل شرطة » ورابع يقول : « صديق لنا » وخامس يقول : « بشير » وسادس يقول : « نذير » ، يحدث ذلك لأننا دخلنا إلى متاهات التصور . وأقول : هذه الأمور لا تُترك للعقل ، فلو

أردتم راحة أنفسكم لآمنتم بالتعقل ، تعقل أن هناك طارقاً بالباب ، ثم تتركون للطارق أن يعلن عن نفسه ويقول لكم : أنا فلان واسمى كذا وصفتى كذا وجئت إليكم من أجل كذا ، وبذلك نتفق جميعاً .

لكن الفلاسفة أدخلوا التصور فى التعقل . ولا يمكننا أن نعرف اسم الخالق بالعقل أبداً ولا مطلوبه . بل لابد أن يبلغ عن نفسه ، فإذا انشغل العقل بأن هذا الكون العظيم لابد له من قوة خالقة ، فلماذا لا تبلغنا عن نفسها ؟ . وإذا ما جاء رسول من أجل أن يحل اللغز الوجودى الذى يعيشه البشر فيبلغنا أن القوة الخالقة اسمها الله . هنا أراح الحق النفس البشرية بما كانت تتمنى أن تعرفه ، ومن عقل العاقل أن يفرح بمجىء الرسول ويستشرف إلى السماع عنه ؛ لأن الرسول إنما جاء يحل اللغز الشاغل للنفس البشرية من تفسير مَن خلق الكون بهذه الدقة ، وما هى مطلوبات هذه القوة ؟

ويحسم الرسول الخلاف عندهم ويحل اللغز الشاغل للبال . ولذلك نرى الإمام عليا ـ كرم الله وجهه ـ أمام سؤال من أحدهم :

ـ أعرفت محمداً بربك ؟ أم عرفت ربك بمحمد ؟ .

فأجاب الإمام علىّ وكان باب العلم : لو عرفت ربى بمحمد لكان محمد أوثق عندى من ربى ، ولو عرفت محمداً بربى لما احتجت إلى رسول ، ولكنى عرفت ربى بربى وجاء محمد فبلغنى مراد ربى منى .

هكذا حدد لنا سيدنا علىّ المسألة . . فالعقل الفطرى يؤمن بقوة مبهمة وراء هذا الكون هى التى خلقت وهى التى رزقت وهى التى أمدت بقيوميتها وقدرتها ، وبعد ذلك تجىء الرسل من أجل تعريفنا باسم القوة ومطلوبها منا .

والذين يختلفون حول دور العقل فى الحجة ودور الرسول فى الحجة ، عليهم ألا يتوهوا فى متاهات نحن فى غنى عنها ؛ لأن العقل لا يمكن أن يكون الحجة بمفرده ، والرسول إنما هو مبلغ عن القوة ، وقد يقول قائل : إذن لابد لكل رسول من رسول ، وقد يبلغ التفلسف الطريق المسدود .

لكن عندما نعلم أن الحق قد صنع كل رسول على عينه معصوماً ليبلغ ، وعلى سبيل المثال نجد سيدنا محمد بن عبدالله استطاع أن يصنع أمة فى ثلاث وعشرين سنة ليمتد خيرها إلى يوم القيامة ، فعل صلى الله عليه وسلم ذلك مبلغاً عن الله ليهدى أمته إلى كيفية عمل الطيب والابتعاد عن العمل الخبيث . وخلق الله محمداً على خُلق عظيم . وهكذا نعرف أن الحق قد أراح العقل من ضرورة البحث عن اسم القوة الخالقة ومطلوبها فأرسل الرسل .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ ﴾

نعرف أن البشارة تكون بأمر سار يأتى من بعد . والنذارة هى إخبار بأمر مسىء يأتى من بعد . والعزيز سبحانه لا يُغلب . والحكيم سبحانه وضع كل شىء فى موضعه ، لماذا ؟ . لأن الرسل يبشرون وينذرون بأن هناك جنة وناراً وحساباً ، فإياكم أن تظنوا أن الذى كفر بقادر على أن يصنع شيئاً لنفسه ؛ والله عزيز وغنىٌ عن خلقه جميعاً .

ونعلم أن الحق لا يجرم سلوكاً إلا بنص ، وقبل أن يعاقب فهو يضع القواعد التى لا يصح الخروج عنها . وحين يقول الحق : « وكان الله عزيزاً حكيماً » فعزته وحكمته هى التى أتاحت لنا أن نعرف منهجه . ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ

بِعِلْمِهِۦۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾

وساعة نسمع « لكن » فمعنى ذلك أن هناك استدراكاً . وقوله الحق : « لكن الله يشهد » نأخذ منها بلاغاً من الحق . خصومك يا محمد لا يشهدون أنك أهل لهذه الرسالة ، ويستدرك الله عليهم ويوضح لهم أنه سبحانه هو الذى خلق الإنسان وهو أعلم بقانون صيانته . ومنهج الله إلى البشر بواسطة الرسل هو قانون صيانة ذلك الإنسان .

وإذا كان أهل الكتاب لا يشهدون بما أنزل الله إلى رسوله صلى الله عليه وسلم وينكرون ما فى كتبهم من البشارة بمحمد صلى الله عليه وسلم كرسول خاتم ، فإن الله يشهد وكفى بالله شهيداً .

لقد أنزل القرآن بعلمه ، وهو الذى لا تخفى عليه خافية ، وهو الذى خلق كل الخلق ويعلم ـ وهو العليم ـ ما يصلح للبشر من قوانين . وفى أعرافنا البشرية نجد أن الذى يصنع الصنعة يضع قانون صيانتها لتؤدى مهمتها كما ينبغى ، كذلك الله الذى خلق الإنسان ، هو سبحانه الذى وضع له قانون صيانته بـ« افعل » و« لا تفعل » . ولذلك يقول الحق :

﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾

(سورة الملك)

ونجد الإنسان منا يذهب بساعته إلى عامل إصلاح الساعات فيكشف عليها ويقرر ما فيها من فساد ، فما بالنا بخالق الإنسان . إنّ العبث الذى يوجد فى العالم سببه أن الناس قد استقبلوا خلق الله لهم ، ولم يدع أحد أنه خلق نفسه أو خلق غيره ، ومع ذلك يحاولون أن يقننوا قوانين صيانة للإنسان خارجة عن منهج الله .

ونقول : دعوا خالق الإنسان ، يضع لكم قانون صيانة الإنسان بـ« افعل »

ولا « تفعل » وإن أردتم أن تشرِّعوا ، فلتشرعوا فى ضوء منهج الله ، وإن حدث أى عطب فى الإنسان فلنرده إلى قانون صيانة الصانع الأول وهو القرآن ؛ لأن المتاعب إنما تنبع من أن الإنسان يتناسى فى بعض الأحيان أنه من صنعة الله ، ويحاول أن يصنع لنفسه قانون صيانة بعيداً عن منهج الله ، والذى يزيل متاعب الإنسانية هو أن تعود إلى قانون صيانتها الذى وضعه الخالق تبارك وتعالى .

« لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون » والملائكة تشهد لأنها نالت شرف أن يكون المبلغ لرسول الله منهم وهو جبريل عليه السلام ، وهم أيضاً الذين يحسبون حسابات العمل الصالح أو الفاسد للإنسان ويكتبونها فى صحيفته ، وهم كذلك الذين حملوا ما فى اللوح المحفوظ وبلغوا ما أمروا بتبليغه وهم يعرفون الكثير « وكفى بالله شهيداً » لماذا لم يقل الله هنا وكفى بالله وبالملائكة شهوداً ؟. لأن الحق سبحانه وتعالى لا يأخذ شهادة الملائكة تعزيزاً لشهادته .

ونحن لا نأخذ شهادة الملائكة تعزيزاً لشهادة الله وإلا كانت الملائكة أوثق عندنا من الله . وسبحانه يؤرخ شهادة الناس وشهادة الملائكة ، لكنك يا رسول الله تكفيك شهادة الله .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّواْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ ﴾

إنّ كُفر الكافر إنما يعود عليه ، وهو يملك الاختيار بين الكُفر والإيمان ، لكن أن يصد الكافر غيره عن الإيمان فهذا ضلال متعدّ ؛ لقد ضل فى نفسه ، وهو يحاول أن يضل غيره ؛ لذلك لا يحمل وزره فقط ولكن يحمل أوزار من يضلّهم .

وكيف يكون الصدّ عن سبيل الله ؟. بمحاولة أهل الضلال أن يمنعوا آيات الهُدى

من أن تصل إلى آذان الناس ، فيقولوا ما رواه الحق عنهم :

﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾

(من الآية ٢٦ سورة فصلت)

ولو فهموا معنى هذه الآية لما قالوا ما جاء فيها ، فقولهم : « لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه » أى اصنعوا ضجة تشوّش على سماع القرآن ، وهم قد علموا أن هذا القرآن عندما يصل إلى الأسماع فإنه يبلغ الهداية ، ولو كان القرآن غير مؤثر لما قالوا ذلك ، إذن هم يعترفون بأنهم يُغلَبُون عندما يصل صوت القرآن إلى آذان البشر المدعوين إلى الهداية .

« إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله قد ضلوا ضلالاً بعيداً » . كان يكفى أن يقول الحق « قد ضلوا » ، لكنه جاء بالمصدر التأكيدى « قد ضلوا ضلالاً بعيداً » أى إنه الضلال بعينه ، وهو فوق ذلك ضلال بعيد .

وعندما ننظر فى كلمة « بعيد » ، نعرف أن الشىء البعيد هو الذى بينه وبين مصدره مسافة زمنية طويلة . والذى يضل قصارى ضلاله أن ينتهى بانتهاء حياته ، لكن الذى يعمل على إضلال غيره فهو يجعل الضلال يمتد ، أى أن الضلال سيأخذ فى هذه الحالة زمناً أكبر من حياة المُضل ، ويتوالى الضلال عن المضلين أجيالاً ، وهكذا يصبح الضلال ممتداً .

والضلال المعروف فى الماديات البشرية هو ـ على سبيل المثال ـ أن يسير الإنسان إلى طريق فيضل إلى طريق آخر . وقصارى ما يضل فيه هو أن يذهب إلى مفازة ـ أى صحراء ـ ولا يجد ماء ولا طعاماً فيموت . لكن الضال المضل يجعل ضلاله يأخذ زمن الدنيا والآخرة وبذلك يكون ضلاله ممتداً .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ

لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ
خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾

والحديث هنا يبدأ عن الكفر والظلم « إن الذين كفروا وظلموا » . والكفر هو ستر الوجود الأعلى ، والظلم معناه أنهم عاشوا بمنهج بشرى لا يؤدى لهم متاعاً ولا سعادة فى حياتهم الدنيا ، وبذلك يكونون قد ظلموا أنفسهم . ومن بعد ذلك يقودهم هذا المنهج إلى عذاب الآخرة . والذى كفر ستر وجود الله وحرم نفسه بستر الوجود الأعلى من المنهج الذى يأتى به الله إنه بذلك قد ضل ضلالاً بعيداً . وسبحانه القائل :

﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾

(من الآية ١٢٣ سورة طه)

وهناك آية أخرى يقول فيها الحق :

﴿ فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

(من الآية ٣٨ سورة البقرة)

والذى يأخذ بهوى نفسه وبمنهج البشر فإن له معيشة ضنكا ضيقة شديدة . ولا يظنن ظان أن الذى يأخذ ويتناول الأمور بهواه قد أخذ انطلاقاً بلا حدود وراحة لا نهاية لها ، لا ؛ لأن الذى يفعل ذلك قد يرتاح مرة لكنه يقابل التعب ويعيش فيه ولا ينفك عنه من بعد ذلك ، وهكذا يظلم نفسه .

وقد يقول قائل : لقد ظلموا أنفسهم ، ومعنى ذلك أنه لا بد من وجود ظالم ومظلوم . فمن هو الظالم ومن هو المظلوم ؟ . كل واحد منهم الظالم . وكل واحد منهم المظلوم ؛ لأن الإنسان مركب من ملكات متعددة ، ملكة شهوات تريد أن تنطلق إلى الشهوات ، وملكة قيم تريد أن يحفظ الإنسان نفسه ويسير على صراط القيم المستقيم .

وفى حالة من يكفر ولا يتبع منهج الله إنما يترك الفرصة لملكة الشهوات أن تظلم

ملكة القيم . والإسلام إنما جاء ليوازى بين الملكات لتتساند فى النفس البشرية ، فلا يطغى سيال ملكة على سيال ملكة أخرى .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾ ﴾

(سورة النساء)

هذا هو حكم الحق فى الذين يكفرون ويظلمون أنفسهم ، لن ينالوا مغفرة الله وليس أمامهم إلا طريق جهنم خالدين فيها أبدا .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُواْ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾ ﴾

فبعد أن وصف لنا ـ بإيجاز محكم ـ سلسلة المعارك التى نشأت بين الرسول واليهود مرة ، ومرة أخرى بينه وبين المشركين ، وها هوذا سبحانه يخاطب الناس جميعاً ، ليصفى مركز منهج الله فى الأرض ، فيقول منبهاً كل الناس : لقد جاءت رسالة محمد عليه الصلاة والسلام تصفية لكل الرسالات التى سبقت ، وعلى الناس جميعاً أن يميزوا ، ليختاروا الحياة الإيمانية الجديدة ؛ لأن الرسول قد جاء بالنور والبرهان ، البرهان الذى يرجح ما هو عليه صلى الله عليه وسلم على ما هم عليه ، والنور الذى يهديهم سواء السبيل .

لقد كان الناس قبل رسول الله على مِلَلٍ وعلى أديان ونحل شتى ، فجاء البرهان

بأن الإسلام قد جاء ناسخاً وخاتماً . والبرهان هو تعاليم هذا الدين وأدلته ، فلا حجة لأحد أن يتمسك بشيء مما كان عليه . وجاء محمد بالنور الذى يهدى الإنسان إلى سواء السبيل ، وهذه تصفية عقدية شاملة ، أو كما نقول بالعامية « أوكازيون إيمانى » تتخلص به البشرية من كل ما يشوب عقائدها ، ولتبدأ مرحلة جديدة .

« يا أيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم » والحق هو الشيء الثابت الذى لا يتغير مهما تغيرت عليه الظروف ؛ لأن الحق صدق له لون واحد ، فإذا ما رأيتم جميعاً حادثة واحدة ، ثم جاء كل واحد منكم فأخبر بها إخبار صدق فلن تختلف رواية الحادثة من واحد لآخر . أما إن سولت نفس بعض الناس لهم أن يتزيدوا فى الحادثة فكل واحد سيحكى الحادثة على لون مختلف عن بقية الألوان ، وقد يسافر خيال أحدهم فى شطحة الكذب ويسترسل فيه .

إذن فالذى لا يتغير فى الحق هو أن يحكوا جميعاً الرواية الواحدة بصدق ولو كانوا ملايين الناس ، لكن إن سولت نفوس بعضهم الكذب وحسنته له وأغرته به لاختلفت الرواية ؛ لأن الكذب مشاع أوهام ولا حقيقة له . والحق سبحانه وتعالى يوضح لنا : لقد جاءكم الرسول بالحق مهما تغيرت الظروف والأحوال ، ومهما جئتم إليه من أى لون ، سواء فى العقديات أو فى العباديات أو فى الأخلاق أو فى السلوك . وستجدون كل شيء ثابتاً لأنه الحق .

ويضرب الحق سبحانه وتعالى لنا مثلاً فى هذا الحق :

﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ﴾

(من الآية ١٧ سورة الرعد)

كل وادٍ يأخذ ماء على قدر حجمه ، وساعة ينزل السيل من الجبال يحمل معه التراب والقش والأشياء التى لا لزوم لها ،وهو ما نسميه « الريم » وهو الزَّبَد الرابى . وكذلك الحديد أو النحاس أو الذهب الذى نصنع منه الحلى أو أدوات المتاع ، وعندما نضع هذه المعادن فى النار ، نجد الزَّبَد يفور على سطح هذه المعادن

عندما تنصهر ، وتسمى هذه الأشياء الخبث . ويوضح الحق لنا كيف يضرب الحق والباطل :

﴿ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾

(من الآية ١٧ سورة الرعد)

ومهما اختلطت بالحق أشياء فهو كحق يبعد ويطرد هذه الفقاقيع والخبث وينحيها عنه . فإن علا الباطل يوماً على الحق فلنعلم أنه علو الزَّبَد الذى يذهب جفاء مرميا به ومطروحا ، وسيظل الحق هو الحق . وسبحانه يقول : « يا أيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم فآمنوا خيراً لكم » . والإيمان هو اعتناق العقيدة بوجود الإله الأعلى ، والبلاغ عنه بواسطة الرسل ، وأن للحق ملائكة ، وأن هناك بعثاً بعد الموت ، وحساباً . ويقتضى الإيمان أن نعمل العمل وَفق مقتضياته وذلك هو اختيار الخير ، ولنعلم جيداً أن الإيمان لا ينفصل عن العمل .

وماذا يحدث لو لم يؤمن الناس ؟ ها هوذا الحق يقول : « وإن تكفروا فإن لله ما فى السموات والأرض وكان الله عليماً حكيماً » وسبحانه غنى ، وسيظل كَونُه الثابت ـ بنظرية القهر والتسخير ـ هو كونه ، ولن يتغير شىء فى الكون بكفر الكافرين ، سوى سخط الكون عليهم لأنه مسخر لهم ؛ لأن الكون ملك لله ، ولن تتغير السماء ولا النجوم ولا القمر ولا المطر ولا أى شىء .

ونقول لك : لو نظرت إلى الدنيا لوجدت الفساد فيها ناشئاً مما فعلته وأحدثته يد الإنسان على غير منهج الله ، أما الشىء الذى لم تدخل فيه يد الإنسان فهو لا يفسد ، ولم نر يوماً الشمس وقد عصيت عن الشروق أو الغروب ، وكذلك القمر لم تختل حركته ، وكذلك النجوم فى الأفلاك ، وتسير الرياح بأمر خالقها ، وكل شىء فى الكون منتظم الحركة ، اللهم إلا الأشياء التى يتدخل فيها الإنسان ، فإذا كان قد دخلها بمواصفات منهج الله فهى منسجمة مع نفسها ومع الكون ، وإن دخلها بغير مواصفات منهج الله فلن تستقيم ، بل تفسد .

ولذلك قال الحق :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾

(من الآية ١١ سورة الرعد)

إن الأمر الفاسد إنما يأتى من داخل نفوس البشر عندما يضلون عن منهج الله ، ولذلك نقول : أشكى الناس أزمة ضوء ؟ . لا ؛ لأن الشمس ليست فى متناولنا ، وكذلك لم يشك الناس أزمة هواء ، لكنهم يشكون أزمة طعام ؛ لأن الطعام ينبت من الأرض ، فإما أن يكسل الإنسان مثلاً فلا يعمل ، وإما أن يعمل ويخرج ثمراً فيأخذه بعضهم ويضنوا ويبخلوا ولا يعطوه لغيرهم ، وهذا سبب من أسباب الفساد الناشىء فى الكون .

وجاء الحق لهم بما يمكن أن يكون فتحاً يدخلون فيه بالإيمان بمنهج الرسول الخاتم ، ويكفرون عن أخطائهم مع أنبيائهم ومع محمد صلى الله عليه وسلم ، يقول سبحانه :

﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴿١٧١﴾ ﴾

يبدأ الحق بأمر موجه لأهل الكتاب: « لا تغلوا فى دينكم » والغلو هو الخروج عن حد الاعتدال فى الحكم ، لأن كل شىء له وسط وله طرفان ، وعندما يمسك شخص طرفاً نطلب منه ألا يكون هناك إفراط أو تفريط . وقد وقع أهل الكتاب فى هذا

المأزق ، فلم يأخذوا الأمر بالاعتدال دون إفراط وتفريط ، لقد كفر اليهود بعيسى واتهموا مريم بالزنا ، وهذا غلو فى الكُرْه ، وغالى النصارى فى الحب لعيسى فقالوا : إنه إله أو ابن إله أو ثالث ثلاثة ؛ وهذا غلو ، ويطلب الحق منهم أن يقفوا من أمر الدين موقف الاعتدال : « لا تغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق » .

إن أمر المنهج لا يحتاج إلى غلو ، ولذلك جاء محمد صلى الله عليه وسلم من عند الله بالدين الوسط الذى يضع كل أمر فى نصابه . وشرح لنا بإخبارات النبوة وإلهامها ما سوف يحدث للإمام على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ ، وقد حدث ما تنبأ به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فالخوارج كفَّروا علياً ، والمسرفون بالتشيع قالوا : إنه نبى ، وبعضهم زاد فى الإسراف فجعله إلهاً .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلىّ ـ كرم الله وجهه ـ :

« إن فيك من عيسى مثلا . أبغضته اليهود حتى بهتوا أُمَّهُ ، وأحبته النصارى حتى أنزلوه المنزل الذى ليس له » .

وكما قال سيدنا على ـ كرم الله وجهه ـ : « ألا وإنه يهلك فىّ اثنان : محبٌ يقرظنى بما ليس فىّ ، ومبغض يحمله شنآنى على أن يبهتنى ، ألا إنى لست بنبىّ ولا يوحى إلىّ ، ولكنى أعمل بكتاب الله وسنة نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما استطعت ، فما أمرتكم من طاعة الله فحق عليكم طاعتى فيما أحببتم وكرهتم »[1] .

وقد أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم علياً أن المحب الذى يغالى فى حبه ليس مع علىّ وكذلك الكاره المبغض ؛ فالذى يحب عليا بغلو جعل منه إلهاً أو رسولاً ، والذى أبغض علياً جعله كافراً . وكذلك النصارى من أهل الكتاب جاءوا إلى عيسى فأحبوه بغلو وجعلوه إلهاً أو ابن إله أو ثالث ثلاثة ، فيقول لهم الحق : « لا تغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله » . وقوله الحق : « عيسى ابن مريم رسول الله » رد على غلو اليهود الذين رفضوا الإيمان بعيسى ، وقالوا فى عيسى وأمه البهتان العظيم .

---

١ ـ رواه الإمام أحمد فى مسنده .

وقوله الحق عن عيسى ابن مريم : « رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه » رد على غلو النصارى الذين نصبوه إلهاً أو جعلوه ابناً لله أو ثالث ثلاثة ، فعيسى عليه السلام هو ابن مريم وعندما بشرها به الحق وقالت :

﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾

(من الآية ٤٧ سورة آل عمران)

قالت ذلك بفطنة الصديقية التى جعلتها تنبه إلى أنها لم يمسسها بشر ، ومادام الحق قد نسبه إليها فليس له أب ، سيولد عيسى دون أن يمسسها بشر ، ويوضح سبحانه ذلك عندما يقول : « إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه » . فعيسى روح من الحق ؛ لأنه سبحانه قال :

﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾

(من الآية ٩١ سورة الأنبياء)

وما معنى « كلمته » ؟ . هذا القول يدل على أن الروح نفخت ثم جاءت كلمة « كن » التى قال عنها سبحانه :

﴿إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾

(من الآية ٤٧ سورة آل عمران)

لقد احتاج وجود عيسى إلى أمرين : « روح » و« كن » . والشبهة عند النصارى مردها إلى أن عنصر الذكورة لم يلمس مريم ؛ وقالوا : مادام الله قد قال : إن عيسى روح منه فهو جزء من الله ، ونسوا أن كل شيء من الله ، وسبحانه القائل :

﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾

(من الآية ١٣ سورة الجاثية)

فهل هذا يعنى أن « الأرض » قطعة من الله وكذلك الشمس ؟ . لا . فإذا كانت الشبهة قد جاءت من غياب عنصر الذكورة مع وجود عنصر الأنوثة لكان من الواجب منطقياً أن تكون الشبهة فى آدم قبل أن تكون الشبهة فى عيسى ؛ لأن آدم جاء من غير ذكورة ولا أنوثة ؛ فلا أب له ولا أم له ؛ لقد قال القرآن بمنتهى البساطة ومنتهى الوسع :

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

ولا يملك أحد القيد على فضل الله ووسعه ، ومسألة آدم كانت أدق ، لكن الله بتفضله يساوى بين خلق عيسى وخلق آدم ، وهذا هو التلطف فى الجدل . وأخبرنا سبحانه عن عيسى أنه جاء بأمر منه ، وقال فى آدم :

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الحجر)

إذن فآدم قد احتاج إلى الأمرين نفسيهما : «كن » ، و« النفخ فيه من الروح » ، وعندما ننظر إلى هذه المسألة نجد أننا لا بد أن نتعرض لقضية خلق آدم ، حتى نعرف كيف تسلسلت مسألة الخلق ، سواء أكان الخلق ملائكة أم خلق آدم أم خلق حواء أم غيرهم من الخلق ، كذلك خلق عيسى . لقد كان خلق آدم غيباً عن آدم ، وليس لآدم نفسه ولا لمن جاء بعده أن يتكلم كيف خُلق ؛ لأن هذه مسألة لا دخل لأحد بها ، ويقول لنا الحق محذرا من أن نستمع إلى قوم يقولون بغير ذلك عن الخلق فقال :

﴿ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ ﴾

(سورة الكهف)

ولا يمكن ـ إذن ـ أن نستمع إلى هؤلاء الذين افترضوا أن أصل الإنسان قرد أو غير ذلك ؛ لأن الذى يتكلم عن الخلق بغير علم من عند الله ، فهو يتكلم فى أمر لم يشهده . والخلق الأول أمر لا يمكن أن يدخل المعمل التجريبى ؛ لأن المعمل التجريبى إنما يحلل مواد موجودة بالفعل . إذن فالحكم على أمور بغير ما أخبرنا بها الله أمر باطل . ولم يكن هناك أحد مع الله ساعة خلق الخلق ليقول لنا كيف تم ذلك . وعَلِمْنا هذه المسائل بإخبار الخالق لنا فهو الأعلم بنا ، والخالق أخبرنا أنه خلقنا من ماء وتراب وطين وحمأ مسنون وصلصال كالفخار ، وحدثنا بذلك فى آيات متعددة . والذين يريدون أن يكذبوا القرآن يقولون : إن القرآن لم يأت بخبر واحد عن خلق

الخلق ، فمرة يقول إن الخلق كان من ماء ومرة كان من تراب ، ومرة كان من طين ، ومرة كان من صلصال .

ونقول : أحين يتكلم الحق عن مراحل الخلق فهل فى هذا تضاد ؟ . أصل الخلق ماء ، خلطه الحق بتراب ، وبعد وضع الماء على التراب صار الإثنان طيناً ، ثم إذا تركنا الطين إلى أن يختمر ، يصير حمأ مسنوناً ، وبعد ذلك يصير صلصالاً ، ومن بعد ذلك خلق منه الحق آدم . إذن فكل شىء تكلم عنه سبحانه فى خلق آدم إنما يتفق مع كل الآيات التى جاءت عن هذا الخلق . وهو القائل عن آدم :

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الحجر)

وبعد صنع الله القالب الذى يشبه التمثال الذى نراه ، ولكن تنقصه الحركة والحياة ، فيأتى النفخ فى الروح بكلمة « كن » . إذن نحن نحتاج إلى روح وإلى كلمة . والروح عنصر وجودى . وعندما تختلط بالقالب تحدث الحياة ، ولا بد من بعد ذلك من الإرادة بكلمة « كن » . ولذلك نجد الإنسان قد يصنع نفس خلطة الإنسان الكيماوية لكنها لا تصير إنساناً ؛ لأن الأمر ينقص الإذْن بميلاد الإنسان .

وساعة يتكلم الحق عن خلق آدم وهو أمر لم نشهده ، فذلك من رحمته بنا ، ويترك لنا سبحانه فى الكون دليلاً على صدقه عن خلق آدم ، فإذا كنا لم نشهد خلق الحياة فنحن نشهد نقيض الحياة وهو الموت ، الذى يحدث فيه أولاً خروج الروح ، ومن بعد ذلك ينتفخ الجسم كأنه الحمأ المسنون ، ثم يتبخر الماء ، وبعد ذلك يتحلل إلى تراب . هذه هى مراحل الموت التى تبدأ من خروج الروح ويتصلب الجسم إلى أن يَرِم ثم يتبخر الماء ، وتبقى العناصر فى الأرض .

وإذا كنا لم نعرف كيف بدأت الحياة ، فنحن نعرف كيف انتهت الحياة أمامنا بالأمر المشهدى ، وجعل سبحانه أمر انتهاء الحياة أمامنا دليلاً على صدقة فى إخبارنا بالحياة وكيف بدأت ؛ لأن نقض الحياة يكون بالموت ، ونقض أى شىء إنما يتم على عكس طريقة بنائه . وآخر أمر دخل فى الإنسان هو الروح ، ولذلك فهى أول ما يخرج من الإنسان عند الموت . وبعد ذلك يتصلب الجسم ، وبعد ذلك يصير رمة وهى الحمأ المسنون . وبعد ذلك يتبخر الماء ويبقى أخيراً التراب .

وقد حللوا الإنسان حديثاً . فوجدوا فيه عناصر كثيرة ، ثم حللوا طينة الأرض الخصبة التى يخرج منها الزرع الذى يقتات منه الإنسان ، فوجدوا هذه الطينة مكونة من هذه العناصر .

ومن العجيب أن العناصر المكونة للإنسان هى نفسها المكونة لطين التربة الخصبة ، مما يدل على تأكيد الصدق فى أن الله خلقنا من طين ، وجعل استبقاء حياتنا مما يخرج من هذا الطين بعناصره المختلفة ، حتى يمد كل عنصر من الطين كل عنصر من الوجود الإنسانى . ولما قاموا بتحليل الإنسان مقارناً بتحليل التربة وجدوا أن أضخم عنصر فى تكوين الإنسان هو الأوكسجين ونسبته على ما أذكر سبع وستون بالمائة ، وبعده عنصر الكربون ، ونسبته على ما أذكر تسع عشرة بالمائة ، إلى أن تنتهى العناصر المكونة للإنسان والتربة إلى المنجنيز ونسبته تقل عن واحدة بالمائة ، وأهم هذه العناصر هو :

الأوكجسين ، الكربون ، الهيدروجين ، النتروجين ، الكلور ، الكبريت ، الكالسيوم ، والفوسفور ، والبوتاسيوم ، الصوديوم ، الحديد ، اليود ، والسيلوز ، والمنجنيز . هذه هى أهم وأكثر العناصر المكونة لتركيب الإنسان وهى العناصر نفسها الموجودة فى تركيبة الطين وبعضها عناصر مكونة للمركبات العضوية وبعضها عناصر غير عضوية وبعضها عناصر وظائفها ثابتة ومعروفة.ويسأل أهل الذكر فى تفاصيل ذلك .

وبطبيعة الحال فالذين قاموا بتحليل التربة وعناصر الإنسان لم يكونوا علماء دين ، ولم يكن فى بالهم إقامة الدليل على صدق الله فى القرآن ، ذلك أن بعضهم يجهل مسألة القرآن كلها ، ولكن الحق سبحانه وتعالى أجرى على لسان رسوله حديثاً يشرح لنا حقيقة إثبات صحة كل ما فيه ولو جاء على لسان رجل فاجر ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر)[1] .

فسبحانه ـ إذن ـ أراد أن ينصر الدين بالكافرين ، وجعل بعضاً منهم يصلون إلى أشياء لو أنهم علموا أنها ستخدم قضايا الهدى لما أعلنوها . ومن حكمة الله أن جعل الكافرين غير قادرين على إغفال نصرة الدين ، وجعل سبحانه بعضاً منهم يخدمون

---

(١) رواه البخارى فى الجهاد والقدر ، ورواه مسلم فى الإيمان ورواه أحمد ، والدارمى فى السيرة .

الدين على رغم أنوفهم . ونريد أن نأخذ من هذه المسألة فهماً عميقاً ، يتسم باللطف والسماحة ، فإذا كان الله قد خلق الإنسان الأول من طين ، وهناك آية أخرى قال عنها الحق :

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الحجر)

وآية ثالثة قال فيها سبحانه :

﴿ كُن فَيَكُونُ ﴾

(من الآية ٤٧ سورة آل عمران)

إذن فخلق آدم احتاج إلى أمرين : النفخ من روح الحق ، والأمر « كن » ، وهما الأمران أنفسهما فى مسألة خلق عيسى ، روح من الحق ، وكلمته التى ألقاها إلى مريم ، وهذه دليل صدق لقوله الحق :

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ﴾

(من الآية ٥٩ سورة آل عمران)

والحق قد قص لنا أنه خلق آدم من طين وصنع القالب وسواه بيديه :

﴿ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ ﴾

(سورة ص)

فإذا كان الهيكل الذى خلقه الله ونفخ فيه الروح ، ودبت فيه الحياة ثم تناسل النسل من آدم إلى أن تقوم الساعة ، فهل مجىء عيسى على الصورة التى جاء بها يكون أمراً عسيراً على الله ؟ . لا . وساعة أنجب آدم أول ذرية له ؛ ألم يخرج لحظتها حيوان منوى من آدم إلى البويضة فى رحم حواء ؛ وأراد به الله ميلاد أول نسل من آدم وهو جزء من آدم ، وهذا الحيوان المنوى له مادة وله حياة ، ومادته معروفة ، وحياة هذا الحيوان المنوى هى التى تسمح له بالحركة لتلقيح البويضة ، هذه المادة مخلوقة من آدم ، والحياة التى فيه من روح آدم ، وآدم نفسه خلقه الله بيديه ، وهذا إثبات أن الحيوان المنوى هو جزء مما خلقه الله بيديه وهو آدم ، وفى الحيوان المنوى حياة مما نفخه

الله من روحه ، وانتقل إلى رحم حواء وأخصب البويضة وولدته حواء ، واستمر ميلاد حيوانات منوية حية تخصب بويضات حية ليستمر الخصب والنسل والأحفاد .

إننا إذا سلسلنا نسل آدم إلى أن تقوم الساعة ، فكل ذرة من ذرات من يوجد آخر الدنيا مكونة من شيء به خلق من خلق الله فى القالب ، وفيه شيء من نفخ الله فى الروح ؛ ولم يطرأ عليه موت أبداً ؛ فلو طرأ عليه موت أو فناء لما صلح أن ينجب مثله . وهكذا نعلم أن كل واحد فينا به جزء من القالب الذى صنعه الله بيديه ، وفيه جزء من نفخ الروح .

وأكرر المثل الذى أضربه دائماً ليستقر فى أذهان الناشئة ؛ لو جئنا بسنتيمتر مكعب من سائل ملون مركز ، وأضفناه إلى لتر من الماء ، ثم أخذنا قطرة من لتر الماء سنجد بها جزءا ضئيلاً من السنتيمتر المكعب الملون . وإذا أخذنا هذه القطرة وأضفناها إلى برميل من المياه فيصير فى البرميل جزء من السنتيمتر المكعب الملون . وإذا أخذنا من البرميل قطرة من المياه ، وأضفناها إلى البحر فإن جزءا من السنتيمتر الملون يصير بالبحر . إذن فكل نسل آدم ـ إلى أن تقوم الساعة ـ فيه جُزَيْء ـ من آدم عليه السلام .

ونلحظ أن كثيراً من المفكرين والمثقفين فى الغرب صاروا يبتعدون عن فكرة بنوة عيسى لله . وعندما يدخلون فى نقاش حول هذه المسألة يقولون:إنها بنوة حب . وإذا كانت المسألة بنوة حب ، فالله يحب جميع عباده ونصير نحن مثل المسيح ويصير المسيح مثلنا . فالخلق كلهم عيال الله ، والحديث القدسى يقول :

(الناس كلهم عيال الله وأحبهم إلى الله أنفعهم بعياله)[1] .

ولو أخذنا هذا القول بالدقة التجريبية المعملية نجد أن هذا القول صدق وحق ؛ لأننا جميعاً قد صدرنا عن قدرة الله وإرادته وكل منا فيه شيء من صنع الله منذ بداية خلق آدم ، إذن هو بشر مثلنا ويتميز عنا بأن السماء اختارته رسولاً . أما القول بالثالوث . فبعضهم يقول : نقصد بالثالوث ثالوث الصفات . وهل ثالوث الصفات

---

(١) رواه ابن عدىّ عن ابن مسعود . ورواه مسلمٌ فى العتق .

تأتى فيه إضافيات ؟. كالقول « بالآب والابن والروح القدس » ؟ لن يوجد أب إلا إذا وُجد ابن ، ولن يوجد ابن إلا إذا وجد أب .

إننا نعلم أن هناك حقائق ثابتة وهناك حقائق إضافية ؛ فالإنسان يكون ابناً وأباً ، فهو ابن بالنسبة لوالده ، وهو أب بالنسبة لابنه ، وكل هذه صفات إضافية ، وصفات الحق يُفترض فيها أنها تجتمع لا أن تكون إضافية ، وعندما يقال : « الأب والابن والروح القدس » فهذا القول لا يحمل صفات إلهية ، بل صفات إضافية ، وحاول بعضهم أن يقول : « إن فاتحة الكتاب يوجد فيها التثليث ؛ لأنكم تقولون بسم الله الرحمن الرحيم ، أنتم تفتتحون القرآن بثلاث صفات هى الله والرحمن والرحيم » وقلت لهم : نحن نقول « بسم الله الرحمن الرحيم » ولا نقول « بسم الله و الرحمن والرحيم » .

وما الذى يجعل الحق يُنجب ابناً منذ أكثر من ألف وتسعمائة سنة ؟. ثم يترك سبحانه الأزمان السابقة على ميلاد المسيح محرومة من ميلاد ابن له ؟. لماذا يترك الله الأزمان كلها بدون ابن لله ، ويختص البشرية بابن له منذ حوالى عشرين قرناً فقط ؟. ثم ما المدة الزمنية التى شرفها الله بابنه بأن أوجده فيها ؟

أتكفى ثلاثة وثلاثون عاماً فقط ـ وهى عمر المسيح ـ لتشريف البشرية بوجود ابن الله ؟. ولماذا يحرم الله ـ إذن ـ بقية الأزمان من بدء الخليقة إلى يوم القيامة من هذا الشرف ؟.

ونسأل أيضاً لماذا يريد أى كائن إنجاب ابن ؟. إنه يرغب ذلك ليضمن استبقاء الحياة ؛ لأن الإنسان يعرف أنه سيموت ، والحق سبحانه وتعالى هو الذى خلق الموت والحياة وهو الباقى أبدا ، وليس فى حاجة لاستبقاء حياته فى أحد من البشر . ويؤكد لنا ذلك فى سورة الإخلاص .

﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤ ﴾

(سورة الإخلاص)

وهم يقولون:« إله واحد » ، ومرة أخرى يقولون:« إله أحد » . وواحد لا تساوى « أحد » والدارسون للغة والمنطق يعرفون أن هناك شيئاً اسمه « الكل » وشيئاً اسمه « الجزء » وشيئاً اسمه « الكلى » وشيئاً اسمه « الجزئى » .

« فالكلى » يطلق على ماله أفراد مثل الإنسان : كخالد ومحمد وعلىّ ، و« الكل » يُطلق على ماله أجزاء ، مثال ذلك الكرسى نجده مكوناً من أشياء ؛ كالخشب والغراء والمسامير وغير ذلك من مواد . فالكرسى ـ إذن ـ « كُلٌّ » لأنه مصنوع من مواد كثيرة . وحقيقة الخشب تختلف عن حقيقة المسمار ؛ لذلك فالكرسى « كُلٌّ » لأنه مكون من أشياء كثيرة مختلفة الحقائق . ولا يصح أن نطلق على أى شىء من مكونات الكرسى اسم « كُل » . فلا نقول:« المسمار كرسى » أو « الخشب كرسى » ؛ لأن الكرسى يُطلق على مجموع الخشب والمسامير والغراء والطلاء فى شكل وترتيب معين .

ومثال آخر ، كلمة « إنسان » وهى كلمة تطلق على كثيرين ، ولأن الحقائق متفقة نطلق على الإنسان كلمة « كُلّى » .

ويصح أن نطلق على أى كائن يتمتع بالصفات المتفق عليها للإنسان لقب إنسان ، فنقول محمد إنسان وزيد إنسان ، وعلىٌّ إنسان . « فالكل » له أجزاء ، وللـ« كلى » جزئيات ، ويكون الكل شيئا واحداً ولكنه ذو أجزاء ، فقد يكون عندنا كرسى واحد . ولكن لهذا الكرسى أجزاء .

وهل نقول على الحق سبحانه وتعالى:انه « كل » أو « كلى » ؟ . لا نقول على اسم الحق « كل » أو « كلى » ؛ لأنه اسم لا يطلق على كثيرين فليس كليا لأنه واحدٌ ، وليس له أجزاء ؛ لأنه أحد ، وليس له أفراد لأنه واحد . فلا يقال لله سبحانه وتعالى « كل » أو « جزء » أو « كلى » أو « جزئى » ، فلو كان كُلِّياً لكان ـ كما قلنا ـ له أفراد ولو كان « كُلًّا » لكان له أجزاء ، ولكن الله واحد لا أفراد له ، وأحد لا أجزاء له .

ولذلك يَرُدُّ القرآن على أى قائل بغير هذا ، فيقول :

﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ﴾

(سورة الإخلاص)

ويقول أيضاً :

﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾

(من الآية ١٦٣ سورة البقرة)

وقد قلت كل ذلك لنفهم قوله الحق :

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا ﴾

(من الآية ١٧١ سورة النساء)

وقوله الحق:« انتهوا » أى اقضوا على كلمات الباطل ، و« خيراً لكم » أى تمسكوا بكلمات الحق ، وفى قوله:« انتهوا خيراً لكم » تخلية وإبعاد لكلمات الباطل ، نأخذ ذلك من قوله : (انتهوا) وتحلية لكلمات الحق ونأخذها من قوله ـ سبحانه ـ : (خيراً لكم) .

ويقول الحق : « إنما الله إله واحد » أى أنه سبحانه لا أفراد له ، ويضيف : « سبحانه أن يكون له ولد » ، وساعة نسمع كلمة « سبحانه » فلنفهم أنها تنزيه للذات الخالقة .

ولذلك نجد كلمة « سبحانه » تأتى فى الأمور العجيبة التى يقف فيها العقل ، وعلى الرغم من وجود كفار فى هذا الوجود ، وعلى الرغم من وجود مجترئين على الله فى هذا العالم ، وعلى الرغم من وجود من ينعتون البشر بألفاظ الألوهية ، إلا أن إنساناً واحداً لم يجترىء على أن يقول لمخلوق كلمة:« سبحانك »،ولذلك نقول لله عز وجل « سبحانك أيضاً فى سبحانك » . كذلك لم نجد أحداً من أى ملة أو عقيدة أو دين قد سمى نفسه باسم « الله » ، وهو سبحانه يتحدى به حتى الكفرة والملاحدة أن يسمى هذا الاسم لمسمى أى مسمى . وبالله هل يوجد واحد من المتبجحين الكافرين يسمى ابناً له « الله » ؟ .

حتى هذه لم توجد ؛ لأن هذا الكافر غير واثق أنه على حق . ومن الجائز أن يفعل ذلك فتحدث له كارثة . ولو كان هناك كافر واحد مؤمن بما يقول بأنه لا إله لهذا الكون لسمّى ابناً له « الله » . لكن أحداً لا يجترىء على هذه :

﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾

(من الآية ٦٥ سورة مريم)

وكان هذا التحدى موجوداً من قبل أن تنزل هذه الآية . فماذا عن الذى جاء بعدها بزمن ؟ وهل اجترأ أحد على أن يسمى ابناً له « الله » ؟ لم يجترىء أحد على هذه أيضاً على الرغم من أنهم يسمون بكل شىء ؛ وكان عندنا فى القرية واحد أطلق على ابنته اسماً طويلاً عجيباً . لقد سمّاها « ورد انتشى فى دندشة روح الفؤاد والملك وفا » وهو حرّ فى ذلك ، لكن لم يجرؤ أحد على الإطلاق أن يسمى ابنه « الله » ، وهذا دليل على أن الملاحدة والكفار على باطل . ويخاف أى منهم أن يجترىء على هذه المسألة ، ويتحدى الحق بسبحانك ويتحدى بالذات « الله » ، ولذلك فليقل كل واحد « سبحانك » وهو مطمئن ، « ولا تقال إلا لك » ، واستقرئوا وتتبعوا المدائح التى قيلت للناس جميعاً ، أقال واحد من البشر لواحد من البشر « سبحانك » ؟

ما قالها أحد قط . وهكذا يتحكم الله فى أمر للإنسان اختيار فيه ، ولا يجرؤ إنسان على إطلاق هذه الأسماء على أحد من البشر . « إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما فى السموات وما فى الأرض » و« الولد » كما نعلم يكون مما فى السموات أو مما فى الأرض ؛ فكيف يكون له وملكه ، وهو ابنه ؟ إن هذا الادعاء لا يستقيم أبداً ، ولذلك يذيل الحق الآية : « وكفى بالله وكيلا » .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾﴾

مصدر الشرف للإنسان أن يحس ويشعر بتجلى الله عليه بعبوديته له ، وسبحانه عندما أراد أن يتجلى على نبينا الخاتم صلى الله عليه وسلم ويسرى به إلى المسجد الأقصى ؛ قال :

﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ ﴾

(من الآية ١ سورة الإسراء)

ولم يقل : « سبحان الذى أسرى برسوله » ولكنه قال : « سبحان الذى أسرى بعبده » ؛ لأن « العبودية » عطاء علوى من الله ، فكأن سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم عندما تناهى فى العبودية لله نال تناهى الخير ، فمن إذن يستنكف أن يكون عبداً لله ؟ لا يستنكف المسيح ذلك ، وكذلك الملائكة لا تستنكف أن تكون عبيداً لله . « ولا الملائكة المقربون » ويسمون ذلك ارتقاء فى النفى ، مثلما يقول فلاح : لا يستطيع شيخ الخفر أن يقف أمامى ولا العمدة .

إذن فالملائكة فى الخلق أحسن من البشر . ولذلك قال الحق : « لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون » وقال بعض العلماء : إن خواص البشر أفضل من خواص الملائكة ، وعوام الملائكة أفضل من عوام البشر والأصل فى اللغات أن توضع الألفاظ أولاً لمحسّات ، ثم تنتقل من المحسّات إلى المعنويات ؛ لأن إلف الإنسان فى أول تكوين المدركات له إنما يكون بالحسّ ، كما قال الحق :

﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾

(سورة النحل)

إذن مادام سبحانه قد قال : « لا تعلمون شيئا » فالذى يأتى من بعدها إنما يأتى كوسيلة للعلم ، وهى حواس السمع والإبصار والقدرة على تكوين الخبرة . ومثال ذلك عندما ندرس فى الفقه موضوع الغصب . والغصب هو أن يأخذ أحد حق غيره قهراً وعلانية ، وهو غير السرقة التى يأخذها السارق خفية . وغير الخطف ؛ لأن الخطف هو أن تمتد يد لتشد شيئاً من أمام صاحبه ويجرى الخاطف بعيداً ، أما الغصب فهو الأخذ عنوة .

وكلها ـ الغصب ، والسرقة ، والخطف ـ هى أخذ لغير الحق . والغصب مأخوذ من أمر حسىّ هو سلخ الجلد عن الشاة . وسُمِّىَ أخذ الحق من صاحبه غصباً ، كأنه أخذ للجلد . ونقل المعنى من المُحسّات إلى المعنويات . وفى الآية التى نحن بصددها يقول الحق : « لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون » . و« يستنكف » مثلها مثل « يستفهم » ، ومثل « يستخرج » .

إذن فهناك مادة اسمها « نكف » ، و« النَّكْف » عملية حسّية تتمثل فى أن يزيل الإنسان دمعة العين بأصبعه . ولنفرض أن إنساناً يعلم أن له كرامة فى البيت وجاء له ظرف نفسى جعله يبكى ، فدخل عليه ابنه أو زوجته ، فهو يحاول إزالة الدمع بأصبعه . « واستنكف » معناها أزال « النَّكْف » . والنكف معناه أن يزيل الدمع بأصبعه . وإزالة الدمع بالأصبع تعنى أن صاحب الدمع يستكبر أن يراه أحد باكياً لأنه مقهور على أمر قد كان ، وهذه العملية لا تحدث إلا عندما يريد الإنسان أن يستر بكاءه عن أحد .

وانتقلت هذه الكلمة من المعنى الحسىّ إلى أى مجال فيه استعلاء ، مثلما يستنكف إنسان أن يسير فى طريق إنسان آخر ، أو أن يجلس مع آخر ، أو يجلس فى مقعد أقل من مقعد آخر .

ويشرح ذلك المعنى الدارج بأن المسيح لا يجد غضاضة أن كان عبداً لله ، ولا يستكبر على ذلك بل هو يُشرف به . والملائكة المقربون أيضاً تشرف بهذا الأمر ، والملائكة المقربون هم الذين لا يعلمون شيئاً عن هذا العالم وليس لهم عمل إلا التسبيح لله ؛ لأنهم عرفوا العبودية لله . وهى عبودية ليست لمن يَسْتَذِل ، لكنها لمن يُعزّ ، وليست عبودية للذى يأخذ ولكنها للذى يعطى . والذى يستنكف من ذلك لا يعرف قيمة العبودية لله ؛ لذلك لا يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ، ولا الملائكة المقربون .

ويضيف الحق : « ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً » المستنكفون ؛ أو الذين على طريقة الاستنكاف ، ومن يشجعهم على ذلك ؛ كل هؤلاء يصيرون إلى جهنم .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ ۖ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾ ﴾

لماذا لم يأت الله بشرط الآية الثانى الذى يتحدث عن المستنكفين والمستكبرين مقدماً على شطر الآية الأول ؟ . ولماذا لم يواصل الحديث عن الذين استنكفوا واستكبروا ليستكمل ما جاء بشأنهم فى الآية السابقة ويبين كيف أن مصيرهم إلى العذاب حيث لا يجدون من دون الله ولياً ولا نصيراً ، ثم بعد ذلك يحدثنا عن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ؟ .

ذلك أن الحق ساعة يتكلم عن جماعة خرجت عن المنهج فهو لا يمنحهم ثواب هؤلاء الذين لم يخرجوا عن المنهج ، فيأتى أوّلاً بثواب الطائعين ليستشرف إليه الخارجون عن طاعة الله ، ثم يحرمهم من هذا الثواب لتكون حسرة الخارجين عن المنهج أشد . « والضد يظهر حسنه الضد » .

لقد قال الحق : « فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله » ونعلم أن الأجر على العمل . لماذا الفضل إذن ؟ . لقد عرفنا من قبل أن العمل جاء فيه حديث شريف :

(لن يُدخل أحداً عمله الجنة ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : لا ، ولا أنا إلا أن **يتغمدنى الله بفضل ورحمة ، فسددوا وقاربوا ولا يتمنين أحدكم الموت ، إما محسنا**

فلعله أن يزداد خيرا ، وإما مسيئا فلعله أن يستعتب)[١] .

والحق قد قال :

﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ ﴾

(من الآية ٥٨ سورة يونس)

وفطن الناس إلى ذلك فقالوا : « اللهم بالفضل لا بالعدل » ؛ لأن الفضل هو الذى يعطينا المنازل المتميزة ، وقد يضيعنا العدل .

ويقول الحق مرة أخرى عن هؤلاء الذين استنكفوا واستكبروا : « وأما الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذاباً أليماً ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً » أى أنهم لن يجدوا من يشفع لهم عند الله ، ولا من ينصرهم ولا أحد بقادر أن يرد عنهم العذاب .

وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ ﴾

والبرهان هو الإعجاز الدال على صدق المبلغ الأخير عن الله ، وهو الحجة الدامغة .

وقد يقول قائل : ما هو البرهان وما هو النور ؟ . ونعلم أن كل رسول يأتى بمعجزة تثبت صدق بلاغه عن ربه قد تكون المعجزة بعيدة عن المنهج ، ثم يعطيهم الرسول المنهج ببلاغ من الله ؛ مثال ذلك أن معجزة سيدنا موسى كانت العصا لكن منهجه هو التوراة . إذن فالمعجزة هى البرهان على صدق الرسول فيما بلغ عن ربه ، وقد

(١) رواه البخارى فى كتاب الطب . والرقاق ، ومسلم فى المنافقين ، وابن ماجه فى الزهد والدارمى فى الرقاق ، وأحمد .

لا يكون للمعجزة صلة بالمنهج ، فعيسى عليه السلام كانت معجزته إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله ومنهجه الإنجيل .

أما رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم وهو النبى الخاتم فقد تجلت معجزته فى أنها عين منهجه ، إنّها القرآن ولم تنفصل المعجزة عن المنهج ؛ لأنه رسول عام إلى الناس كافة وإلى أن تقوم الساعة . هذا هو البرهان . أما « النور » فقد جاء أيضاً من أمر حسّى ؛ لأن النور يمنع الإنسان من أن يتعثر فى مشيته أو أن يخطىء الطريق أو أن يصطدم بالأشياء فيؤذيها أو تؤذيه . إذن النور الموجود فى القرآن هو حقائق القيم ، أما نور الله فى الماديات فهو أمر معروف للكافة .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾ ﴾

لقد آمنوا بالله واعتصموا به ، ما معنى الاعتصام ؟ . قديماً كان الرجل عندما يقع فى هوة يصرخ ليجذبه إنسان خارج الهوة بيده ، وهذا هو الأصل فى الاعتصام ، أى يستمسك الإنسان بمن ينقذه من هاوية أو كارثة ، والحق يعطى الأسباب ، فإذا جاءت الشمس وسار فيها إنسان فقد أعطاه الله الشجرة ليستظل بها . وإذا ما نزل المطر فيمكن أن نستتر منه بمظلة ، وإذا عطش إنسان فالله يعطيه سبباً ليأخذ كوب ماء ، والعاقل هو الذى يذكر عند كل سبب من أوجد السبب .

فإياك أيها المؤمن أن تغتر بالأسباب ؛ لأن عدم الاغترار بالأسباب يحمى الإنسان . فعندما تأتيه أمور فى ظاهرها شر ، فمادام مجريها عليك هو الله فهى خير بالتأكيد ، لكنك لا تعلم .

وما أضل علم الإنسان فى كثير من المسائل ؛ فالإنسان قد يحسب أمرا أنّه هو الحسن ، فيظهر له بعد حين أنه السوء ، وقد يعتبر إنسان أمرا هو السيىء ، فيظهر له بعد حين أنه الحسن ، ولا يوجد واحد منا إلا وفى حياته أشياء كان يظنها خيرا ؛ فإذا بها شر ، أو كان يظنها شراً فإذا بها خير . والشر هو ما يأتيه الإنسان لنفسه بعمله ، أما الأمور التى تقع على الإنسان فحكمتها تمشى على مقتضى علم الله لا على مقتضى هوى البشر .

إننا نجد من يقول : إننى أدعو الله بكذا ولا يستجيب لى . ونقول : إنك تدعو بأشياء تظنها الخير لك ؛ لكن الله يعلم أن هذه الأشياء ليست هى الخير ؛ لذلك لا يعطيها لك ، فإن كنت مؤمناً بالله ومعتصماً به فأنت تهمس لنفسك : ألِىَ فى هذا الأمر مدخل أم لا مدخل لى فيه ؟ . فإذا كان لك فيه مدخل فاللوم على نفسك . وإن كان الله قد أجراه عليك فهو خير لك ولله حكمة فى ذلك .

وحَظِّى من الدنيا سواء لأننى
رضيت بحكم الله فى العسر واليسر
فإن أقبلت كان الجزاء على النجا
وإن أدبرت كان الجزاء على الصبر

« فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم فى رحمة منه وفضل ويهديهم إليه صراطاً مستقيماً » . وماداموا قد آمنوا بالله واعتصموا به فسيهديهم صراطه المستقيم ، وعاقبة الهداية وثمرتها فسرها وبيّنها قوله الحق :

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة محمد)

وقال لنا الرسول صلى الله عليه وسلم :

(من عمل بما عَلِم ورّثه الله عِلْمَ ما لم يعلم)[1] .

أى يصير مأموناً على العلم ؛ لأن العلم الذى أخذه عن الله وظّفه فى خدمة غيره ،

(١) أبو نعيم فى الحلية ، اتحاف السادة المتقين للزبيدى ، ورواه السيوطى فى الدرّ المنثور والقرطبى فى التفسير ، والفوائد المجموعة للشوكانى .

ولم يدخره أو يعطله . ويختتم الحق سبحانه وتعالى سورة النساء بقوله :

﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿١٧٦﴾ ﴾

والاستفتاء هو طلب الفتيا . ومعناها إرادة معرفة حكم شرعى لله فى أمر لا يجد السائل علماً له فيه . وكان الصحابة يستفتون رسول الله ، مع أنه صلى الله عليه وسلم قال لهم :

(ذرونى ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم ، فإذا أمرتكم بشىء فأتوا منه ما استطعتم ، وإذا نهيتكم عن شىء فدعوه)[1] .

وجاء القرآن فى كثير من الآيات بـ « يسألونك » . كأن الحق يعلمنا أن الصحابة أرادوا أن يثبتوا أنهم أحبوا منهج الله فأرادوا أن يبنوا حياتهم كلها على منهج الله ، ولو كانوا قد كرهوا منهج الله لما سألوا ، لقد وجدوا أن الإسلام قد جاء ، ووجد أشياء فى

---

(١) رواه أحمد والنسائى ومسلم وابن ماجه عن أبى هريرة .

الجاهلية وأقرها ، ووجد أشياء قام بتغييرها ؛ ولم يرد الصحابة أن يصنعوا الأشياء على أنّها امتداد لصنع الجاهلية ، بل أرادوا أن يصنعوها على أنها حكم للإسلام ؛ لذلك جاءت أسئلتهم الكثيرة . والفتوى تكون فى حكم . والسؤال يكون فى حكم وفى غير حكم . وهم يطلبون الفتوى فى الكلالة ، ودقة القرآن فى إيجاز السؤال : « يستفتونك قل الله يفتيكم فى الكلالة » وقد تقدم من قبل الحديث عن الكلالة :

﴿ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً ﴾

(من الآية ١٢ سورة النساء)

إلا أن الذى تقدم هناك كان عن الصلة من ناحية الأم ، وسؤال جابر بن عبدالله كان عن الصلة من ناحية الأب .

فعن جابر بن عبدالله ـ رضى الله عنه ـ قال :

(مرضت مرضا فأتانى النبىّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأبو بكر وهما ماشيان فوجدانى أغمى علىّ ، فتوضأ النبىّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم صبّ وَضوءه علىّ فأفقت فإذا النبىّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقلت يا رسول الله كيف أصنع فى مالى ؟ كيف أقضى فى مالى ؟ فلم يجبنى بشىء حتى نزلت آية الميراث »[1] .

وفى رواية أخرى عن الإمام أحمد فقلت : إنه لا يرثنى إلا كلالة ، فكيف الميراث ؟ فأنزل الله آية الفرائض . وبعض العلماء قال : إن كلمة « كلالة » مأخوذة من كلال التعب ، لأن الكلالة فى الشرع هو من ليس له ولد ولا والد ، والإنسان بين حياتين ؛ حياة يعولها والد ، وعندما يكبر ويضعف تصير حياته يعولها ولد ؛ لذلك فالذى ليس له والد ولا ولد يعيش مرهقاً ؛ فليس له والد سبق بالرعاية ، وليس له ولد يحمله فى الكبر ؛ لذا سمى بالكلالة .

وبعضهم قال : إنها من الإكليل ؛ أى التاج . وهو محيط بالرأس من جوانبه والمقصود به الأقارب المحيطون بالإنسان وليس لهم به صلة أعلى أى من الآباء ، أو من أدنى أى من الأبناء .

---

١ ـ أخرجه البخارى .

« إن امرؤ هلك ليس له ولد وله أخت فلها نصف ما ترك وهو يرثها إن لم يكن لها ولد » أى إن الكلالة هى أن يموت أحد وله أخت شقيقة أو أخت من أب فهى ترث النصف ؛ وإذا ماتت هذه الأخت فالأخ يرثها سواء أكان شقيقاً أم أخاً لأب . وإن ترك الرجل الكلال أختين أو أكثر فلهما الثلثان مما ترك ذلك الأخ . وإن كان له إخوة من رجال ونساء ، فها هوذا قول الحق : « وإن كانوا إخوة رجالاً ونساء فللذكر مثل حظ الأنثيين » . أى أن للذكر من الإخوة مثل حظ الأنثيين .

ويختم الحق الآية : « يبين الله لكم أن تضلوا والله بكل شىء عليم » .

أى أنه الحق يبين أحكامه خشية أن يصيب القوم الضلال . وقد علم سبحانه أزلاً بكل سلوك ، وكل خافية ، وهو العليم أبداً بما ينفع الناس جميعاً . وبذلك انتهينا بعون الله من خواطرنا فى سورة النساء .

سُورَةُ المَائِدَةِ

نستقبل الآن سورة المائدة التى تلى سورة النساء فى الترتيب المصحفى . ونعلم أن القرآن له ترتيبان ؛ ترتيب نزول ، وترتيب مصحف . وربما يحلو لبعض الناس الذين يحاولون أن يأخذوا على الإسلام شيئاً أن يقولوا : لماذا لم يرتب القرآن حسب نزوله بحيث يبدأ بأول آية نزلت منه ، وينتهى بآخر آية نزلت فيه ؟

ونقول : نزل القرآن لا كتاب منهج فقط ، لكنه منهج ومعجزة ، ورسالته صلى الله عليه وسلم جامعة لجميع الأمم فى جميع العصور إلى أن تقوم الساعة ؛ لأنها جامعة ومانعة فلن يأتى بعد الرسول رسول ؛ لذلك ينفرد صلى الله عليه وسلم بمعجزة تبقى بقاء رسالته إلى أن تقوم الساعة ، وبمنهج يغطى كل أقضية الحياة إلى أن تقوم الساعة .

وكان الرسل يرسلون إلى أمم مخصوصة فى أمكنة مخصوصة لزمان مخصوص ؛ لأن العالم كان فى شبه انعزال لعدم وجود الآلات التى تيسر الالتقاء بين الناس ، وشاء الله سبحانه أن يختم الرسالات برسالة محمد صلى الله عليه وسلم لتكون على موعد مع رشد العقل البشرى فى أن يجعل العالم كله وَحدة بحيث إن ظهر داء فى الشرق فهو ينتقل إلى الغرب فى الوقت نفسه ولذلك يجب أن يكون العلاج والمعالج واحداً .

أما رسولنا صلى الله عليه وسلم فقد انفرد بمعجزة تبقى ، وتظل موجودة مع المنهج ، ليستطيع كل متبع لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقول : منهج الإسلام هو القرآن ومعجزة نبى الإسلام هى القرآن ، لكن لو جاءت المعجزة على طبيعة وطريقة ونمط المعجزات السابقة لإخوانه السابقين من الرسل لانتهت بانتهاء زمانها بحيث تصبح خبراً وتاريخاً ، ونحن نعلم أن البحر قد انشق لموسى نعرفه خبراً ولكن لم نشهده مشهداً ، ونعرف أن عيسى عليه السلام أبرأ الأكمه والأبرص وأحيا الموتى بإذن الله ، ولكننا لا نرى ذلك الآن إلا خبراً ، ولولا أننا نؤمن بالقرآن ، وهو الذى قصّ علينا مثل هذه الأمور ربما كنا نتوقف فيها .

والذين يقولون إن الإعجاز كان للبلاغة والفصاحة وللمنطق وللبيان وأمة العرب أمة بيان نقول : لقد فاقت هذه المعجزة ما كان لدى العرب من بلاغة وفصاحة وأعجزهم وأفحمهم القرآن ، وعندما نقلنا المنهج إلى الإنجليز أو الفرنسيين أو الألمان أو إلى الإيطاليين أو إلى أية أمة من العالم ظل المنهج على إعجازه .

وهكذا نرى أن الله قد أراد أن يكون فى القرآن جانب يظل معجزاً لكل الأقوام ، وهى المعجزات التى لا تختلف فيها اللغات ولا تختلف فيها الأمم ، وهى المعجزات العقلية ، بمعنى أن يخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أمته الأمية ، وهو الأمى لم يُعرف له نشاط فى علم ولا نشاط فى ثقافة ؛ ويأتى بأشياء تتحقق بعد مضى القرون ويعترف بها الذين لا يؤمنون بأنه جاء بها من عند الله .

لقد حاول بعضهم أن يرفعوا محمداً إلى مرتبة الألوهية ؛ ذلك أنه قال بأشياء منذ أربعة عشر قرناً وتتحقق الآن ، لا يقولها إلا عالم بما يكون فى كونه ، ولكنهم عرفوا أن رسول الله أقرّ ببشريته . وينزل بالمنهج مواكبا للأحداث ، وينزل بالمعجزة فى مسألة الكونيات التى تشترك فيها كل الأمم والتى لا تختص بلغة دون لغة .

نزل المنهج ليحكم العالم من أمة أمية ، لم ترق إلى وضع وسنّ قانون أو دستور ولم تتعود على ذلك . فقد كانت أمة من الرُّحل وسكان الصحراء لم يجمعها قانون واحد ، بل كان لكل قبيلة قانون ، ولكل بطن قانون ، ولكل أسرة فى كل بطن قانون . وجاء الرسول مبعوثا من عند الله إلى الأمة الأمية لينشىء لها منهجاً يغطى كل أقضية الحياة إلى أن تقوم الساعة . وإذا ما فزع قوم من قضية من قضايا مجتمعهم لا يجدون حلاً لها إلا حلاً لو نظرنا نحن إليه لوجدنا أنه إما أن يتطابق مع ما جاء به الإسلام ، وإمّا أنه لا يخرج عن إطار الإسلام وأحكامه .

وإذا كان القرآن فى الأحكام قد جاء حسب الأحداث التى وقعت ، فهذا من إرادة الحق للخير بمن نزل فيهم القرآن . ونجد فى القرآن أسئلة سيتعرض لها رسول الله ، وكثرة الأسئلة التى تعرض لها رسول الله تُعتبر من الظواهر الصحية فى الإيمان ؛ لأن الذين سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بيان أحكام بأشياء . أرادوا ـ كما قلنا ـ إقامة حياتهم على ضوء المنهج الذى عشقوه ، ولم يكونوا كبنى إسرائيل الذين قال رسول الله فى شأنهم :

(إنما أمروا بأدنى بقرة ولكنهم لما شدّدوا شدّد الله عليهم ، وأيم الله لو أنهم لم يستثنوا لما بُيِّنت لهم آخر الأبد)[1] .

---

١ ـ تفسير الإمام ابن كثير .

أى لو لم يقولوا : (وإنا إن شاء الله لمهتدون) . لما اهتدوا إلى تلك البقرة .

وهناك أشياء أقرّها الإسلام كما كانت فى الجاهلية لأنها أمور عقلية ومنطقية ؛ لأن الإسلام لم يأت ليزيل نظماً عاصرها ، وإنما جاء ليزيل الفساد فقط . أما الصالح بطبيعته فليبق . وإن لم يكونوا قد اهتدوا إليه فالإسلام يشرح لهم الأمر ؛ لذلك كان لابد أن ينزل نص قرآنى لكل أمر كبير فى حياتهم ، وحين يجىء النص القرآنى بعد أن تتطلبه الأحداث ، يتمكن فى القلوب . وضربنا مثلاً لذلك :

هب أن رجلاً لديه صندوق أدوية بالمنزل ، وطرأ على بعض أهله حالة صحية تستدعى دواءً معيناً ؛ ولأن الرجل لا يعرف موضع هذا الدواء ، فإنه يبحث محتويات الصندوق جميعاً ليهتدى إلى الدواء المطلوب ، وقد يمضى وقت طويل ولا يهتدى إلى ما يريد . لكن لو أن هذا الرجل لا يملك أى دواء بالصندوق ، وأصاب ابنه صداع يسير فإنه يطلب أن يشتروا له قرصاً من الأسبرين من الصيدلية . فهذا القرص قد جاء لحالة الصداع وعلاجها وانتهى الأمر .

إذن فعندما يأتى الحل عند وقوع الحادثة فهو تثبيت لليقين . وقد يكون الحل موجوداً فى القرآن . لكنه يغيب عنهم ولا يستطيعون الوصول إليه . ولهذا ترك الحق الأحداث تجرى وجعلهم يلتفتون ويتجهون إلى السماء لتنجدهم بالحل . ويأتى الحل عند الحادثة فلا يصير فى الأمر خلاف أو تعب . لذلك كان لا بد أن يكون للقرآن نزول حسب الأحداث ، وحين تتم الأحداث ويتم المنهج بعد ثلاث وعشرين سنة من بدء نزول القرآن يشاء الله سبحانه أن يكون ترتيب القرآن ترتيباً مصحفيا .

إن كلا من الترتيب المصحفى والترتيب النزولى يعطى معجزة للقرآن ولمحمد صلى الله عليه وسلم ؛ فيه سور طوال ، وآيات كثيرة ، ويعلمه جبريل : ألحق هذه الآية بالمكان الفلانى . ويقرأ النبى هذه الآيات فى الصلاة ويزيد عليها الآيات الجديدة ، وتتجلى عظمة الرسول حين يصلى بالآيات ويزيد عليها بما نزل عليه ، وتلك مسألة مقصودة . ويقف رسول الله صلى الله عليه وسلم للصلاة معتمداً على أن الذى أنزل عليه القرآن قال له :

﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝ ﴾

(سورة الأعلى)

وعندما يقرأ الرسول فهو يقرأ الذى نزل عليه فى اليوم نفسه متصلا بما نزل عليه من عام قبل ذلك ، وتلك معجزة بكل المقاييس ؛ لأن الفرد العادى إذا تكلم فى موضوع ما لعشر دقائق ثم يسأله أى فرد من بعد ذلك بساعة : هل تسمح بإعادة ما كنت تقول منذ ساعة ؟ . فإنه لن يستطيع أن يتذكر بالحروف والمعانى ما قاله من قبل . لكن ها نحن أولاء أمام رسول يأمر صحابته أن يكتبوا ويأمر الحافظين للقرآن أن يحفظوا ، ثم يقف فى الصلاة ليقرأ الآية التى نزلت من عام ملحقة بآية نزلت بعدها بستة أشهر ملحقة بآية نزلت بعدها بشهر ، ملحقة بآية نزلت بعدها بالأمس . وكان هذا دليلاً على أن أمر هذا القرآن ليس بيد محمد ، بل بأمر رب محمد صلى الله عليه وسلم ، الذى رتّب حروف القرآن ليقرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم مصداقاً لقوله الحق :

﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝ ﴾

(سورة الأعلى)

ويأتى جبريل كل عام ليرتب مع محمد صلى الله عليه وسلم القرآن ويدارسه فى رمضان . ويأتى جبريل فى رمضان الأخير فى العام الأخير من حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ليعرض عليه القرآن مرتين .

إذن فالمسألة ليست نزول قرآن فحسب ، ولكنها نزول للقرآن ثم ترتيب للقرآن على صورة تخالف الحالة والصورة التى نزل عليها . فلو كان القرآن قد ترتب حسب النزول ، لقال بعضهم إنه مجرد تعبير عن مواقف مختلفة . لكن الحق أراد أن يعيد ترتيب القرآن ليكون معجزة أبدية . فالقرآن ليس بأمر محمد صلى الله عليه وسلم . وكل حرف نزل بهذا الترتيب مقصود به إثبات أن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو المبلغ بالقرآن ، فما كان لعقل بشرى أن يرتب هذا الترتيب . بل رتبه الذى أنزل القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم ، إنه الله ـ سبحانه ـ وتعالى جل شأنه .

وهكذا جاءت سورة المائدة بعد سورة النساء فى الترتيب المصحفى ، وعندما ننظر إلى « سورة المائدة » . نعلم أولاً ما معنى المائدة ؟ إنها الخوان عليه الطعام والشراب

أو الطعام نفسه ، وقد سميت بهذا الاسم لأن عيسى عليه السلام دَعَا ربّه أن ينزل مائدة من السماء بعد أن ألح الحواريون عليه بأن ينزلها الله فقال سبحانه حكاية عن عيسى عليه السلام .

﴿ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾

(من الآية : ١١٤سورة المائدة)

ويختار الحق المناسبة الجميلة فيبدأ سبحانه وتعالى هذه السورة بقوله :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ ۚ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾ ﴾

البداية ـ إذن ـ عن ضرورة الوفاء بالعقود وتحليل تناول بهيمة الأنعام كطعام . وسورة المائدة ـ كما نعلم ـ جاءت فى الترتيب المصحفى بعد سورة النساء التى تتضمن الكثير من العقود الإيمانية ؛ فقد تضمنت سورة النساء عقود الإنكاح والصداق والوصية والدَّين والميراث ، وكلها أحكام لعقود ، فكأن الحق سبحانه وتعالى من بعد سورة النساء يقول لنا : لقد عرفتم ما فى سورة النساء من عقود ، فحافظوا عليها وأوفوا بها .

ونلحظ أن سورة البقرة جاءت بعدها سورة آل عمران ، وفى كلتيهما حديث عن الماديين من اليهود ، وسورة النساء والمائدة تواجه أيضاً المجتمع المدنى بالمدينة بعد أن كان القرآن بمكة يواجه مسألة تربية وغرس العقيدة الإلهية الواحدة والنبوات . وقد خدمت سورة البقرة وسورة آل عمران مسألة العقيدة المنهجية والأنبياء ، وسورة النساء تتضمن حسم العقيدة الحكمية .

وها نحن أولاء أمام سورة المائدة التى يقول فيها الحق : « يا أيها الذين آمنوا أوفوا

بالعقود » والحق يخاطب المؤمنين بالاسم الموصول ، ولم يقل : يا أيها المؤمنون » ، وهذا يدل على أن الإيمان ليس أمراً عابراً يمر بالإنسان فترة من الزمن ؛ ولكن الإيمان أمر يتجدد بتجدد الفعل حتى ينفذ المؤمن الأحكام التى جاء بها العقد الإيمانى . وحين يتوجه الحق بخطابه للذين آمنوا ، إنما يؤكد لنا أنه لا يقتحم على أحد حياته ليكلفه ، وإن كان سبحانه كرب للعالمين قد خلق الخلق وأوجد الوجود وسخّره للخلق .

الله ـ سبحانه وتعالى ـ لم يستخدم هذا الحق ليأمر البشر بالإيمان ، بل دعا الناس جميعاً أولاً إلى الإيمان ، فمن آمن ينزل إليه التشريف بالتكليف ويكون القول الحق : « يا أيها الذين آمنوا » أى يا من آمنتم بالله إلهاً . والإله لابد له من صفات تناسب الألوهية ، كطلاقة القدرة والجاه والحكمة والقهر . وسبحانه لا يكلف مَن لم يؤمن به ، بل يدعو من لم يؤمن إلى الإيمان ، ولذلك نجد أن كل آيات الأحكام تبدأ بالقول الحق : « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم » ؛ لأن لكل إيمان تبعة .

« يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود » ونعرف أن اللغة بها أسرة ألفاظ ؛ فـ « أوفوا » على سبيل المثال فيها « وفى » . والمضارع هو « يفى » ، وفى أفعالها « أوفى » و« وَفَّى » ، حسب المراحل المختلفة قوة وضعفاً وكثرة وقلة ، مثال ذلك قوله الحق :

﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ ﴾

(سورة النجم)

وقد قام سيدنا إبراهيم عليه السلام بالكثير من الإنجاز :

﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾

(من الآية ١٢٤ سورة البقرة)

ولا بد أن يكون قوله الحق : « وإبراهيم الذى وفَّى » شرحاً لما قام به إبراهيم من مواجهة الابتلاء، فالتوفية هى الإتمام . والحق يقول : « يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود » أى عليكم يا من آمنتم بالله أن تتموا العقود . والتمام إما أن ينطلق إلى الأفراد ويشملها فلا ينقص فرد ، وإما أن يلتفت إلى الكيفيات فلا تختل كيفية ، هذا هو التمام . وقد يأتى إنسان بكل فصول الكتاب ويقرأها ، فيكون قد وفى قراءة كل الأجزاء ، ولكن الحق يريد أن يتقن الإنسان تنفيذ كل جزئية فى كتاب التكليف .

وسبحانه طلب منا أن نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وأن نقيم الصلاة وأن نؤتى الزكاة وأن نصوم رمضان وأن نحج البيت إن استطعنا إلى ذلك سبيلا ، وقد يؤدى شخص كل هذه الأعمال وبذلك يكون قد قام بآداء التكليف ، لكن هناك إنسان آخر يؤدى كل جزئية بتمامها فلا يختصر شيئاً منها بل إنّه يوفيها بلا تدليس .

والحق هنا يخاطب المؤمنين : « يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود » أى أننا أمام « إيمان » و« عقد » . وشرحنا معنى الإيمان ، أما العقد فهو العلاقة الموثقة بين طرفين ، وعلى كل طرف أن يلتزم بما عليه وأن يأخذ ما له . وسمى العقد عقداً ؛ لأن العقد هو الربط ، أى شىء لا ينحل من بعد ذلك . ولذلك نسمى ما يستقر فى مواجيد الناس ونفوسهم « عقيدة » . لأنها الأمر المعقود ، وليس الأمر الطارىء الذى يأتى اليوم وينتهى غداً . والشىء المعقود فى نظر الفقه هو الأمر الذى لا يطفو إلى العقل ليُبحث من جديد ، بل إنه مستقر وثابت فى القلب . ويأمر سبحانه بالوفاء بالعقود . والعقود - كما نعلم - هى جمع لـ « عقد » وبالإسلام عقود كثيرة ، تبدأ بالعقد الأول وهو عقد الذر :

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾

(من الآية ١٧٢ سورة الأعراف)

ويريد سبحانه الوفاء بهذا العهد الأول فلا يأتى الإنسان ساعة التطبيق ويفر منها ، ثم نأتى إلى عهد الاستخلاف فى الأرض وبه استخلف فيها آدم وذريته من بعده ، وإياك أن تظن أنك الأصيل فى الكون حين تدوم لك الأسباب وتدين لك بعض الوقت . لا تظن أن الأشياء قد دانت لك بمهارتك أنت فقط ، وحين تبذر البذور فى الأرض وتروى الأرض فاعلم أن الزرع ينبت بتسخير الله أرْضَه لك .

وإياك من الظن لحظة تركب المهر أنك الخيال الفارس الذى روّض المهر ، لا ، إنه تسخير الحق للفرس . ونجد الفرس فى بعض الأحايين يجمح ليقع الفارس من فوق ظهره ، لعلنا ننتبه إلى الجزئية التى لا يصح أن تغيب عنا ، فلو لم يذلل الله الخيل لنا لما استطعنا أن نركبها .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾

(سورة يس)

وعلى المؤمن أن يتذكر أيضاً أن الحق سبحانه ذلل الجمل لصاحبه ، وجعل الطفل الصغير يأمر الجمل فيرقد على الأرض ؛ ليضع عليه الأحمال الثقيلة ، ويأمره فيقوم . أما إن واجه الثعبان أو الحية فهو لا يجرؤ على تذليلهما ، وهذا لفت من الحق للخلق لقدرته المطلقة ؛ فقد ذلل لهم الكبير ، وأفزعهم أضعاف ذلك من الثعبان ذى الجسم الصغير .

﴿ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾

(سورة يس)

ومن التذليل يأتى رضوخ بقية الكائنات للإنسان ؛ فالحمار عند الفلاح يحمل السماد للأرض من بقايا فضلات الإنسان والحيوان ، ولا ينطق الحمار معترضاً ، ويأتى الفلاح ليرتقى فى حياته ويصير شيخاً للخفر ، فيأمر أن يستحم الحمار ، ويشترى له السرج ليركبه وهو ذاهب للقاء المأمور فى المركز ، ولم يعص الحمار فى الحالتين . إنه التذليل .

إياك أن تظن أن مهارتك وحدها أيها الإنسان هى التى ذللت لك الكائنات ، فلو اعتمد الأمر على المهارة وحدها ، لذلل الإنسان البرغوث الصغير الذى يهاجمه فى أى وقت ، وقد يفزعك ذلك البرغوث الصغير طوال الليل . وقد تسهر أسرة بأكملها من أجل قتل برغوث واحد .

﴿ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾

(من الآية ٧٣ سورة الحج)

ولذلك أمرنا الحق أن نقول قبل البدء فى أى عمل « بسم الله الرحمن الرحيم » . وإياك أن تقبل على العمل بقوتك وحدها . فالعمل إنما ينفعل لك لأنه سبحانه قد أخضعه لك . وأنت تبدأ العمل باسم الله لأنه سبحانه الذى استخلفك وأخضع لك الكائنات المذللة .

ثم هناك ذلك العهد الذى قال فيه الحق لآدم :

﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾

(من الآية ١٢٣ سورة طه)

والعهد الذى قال فيه الحق :

﴿ فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

(من الآية ٣٨ سورة البقرة)

وهذا عهد لكل البشر ، والمسلمون عاهدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى العقبة بأن ينصروه ويمنعوا عنه ما يمنعون عن أنفسهم . وعاهدوا الرسول فى الحديبية .

إن الحق سبحانه يأمر بالوفاء بكل العقود ، وكل ما نتج عن قمة العقائد وهو الإيمان بالله ؛ فما جاء من الله الذى آمنت به يُعتبر عقداً أنت شريك فيه ، لأن القعد يكون دائماً بين طرفين ، ولم يرغم الله أحداً على الإيمان به ، ولكن الإنسان يؤمن بالله اختياراً . ومادام المؤمن قد آمن بالله من طوع اختياره ، فلا بد أن يتبع منهجه .

ومن آمن هو الذى يذهب إلى الحق قائلاً : يارب إن ما تأمر به سأفعله . وهذا اعتراف بالعقد . وكتابة أى عقد إيمانى هو تنفيذ لهذا العقد والتوقيع مع الله ، وبذلك يشترك العبد مع الله فى هذا التعاقد ؛ لأن إيمان العبد بالله يجعله طرفاً فى العقد . والإله يشرع له ، وينفذ العبد التشريع ليتلقى الجزاء الأوفى .

العقد إذن قد يكون بين العبد وربِّه ، أو بين العبد وخلق الله المساوين له ، أو بين العبد ونفسه ، لكنهم أطلقوا على العقد الذى بين الإنسان ونفسه اسماً هو « العهد » وهو النذر ، كأن ينذر العبد الصيام أو الصلاة ، ويجب على العبد تنفيذ ما نذر به مادام عاهد الله على ذلك . والعقد الذى بين العبد وغيره من البشر وكذلك العقد بينه وبين نفسه إنما ينبعان من العقد الأساسى وهو العقد الأول . . إنّه الإيمان بالله .

إذن فقوله الحق : « أوفوا بالعقود » أى نفذوا ما أمر الله به حلالاً ، وامتنعوا عن

الشيء الذى جعله الحق حراماً . ولا داعى ـ إذن ـ للاختلاف فى معنى « العقود » والتساؤل : هل هى العقود التى بين العبد وربه ، أو بين العبد والناس ، أو بين العبد ونفسه ، فكل ما نبع من العقد القمة هو عقد على المؤمن وإلزام عليه أن يوفى به .

« يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود أحلت لكم بهيمة الأنعام » سبحانه يستهل السورة بالوفاء بالعقود ، ثم إعلان تحليل بهيمة الأنعام . ونعرف أن الإنسان قد طرأ على الكون ، وأنه سبحانه قد خلق الكون أولاً . ثم خلق الإنسان فيه ، وهذا من رحمة الله بالإنسان فلم يخلق الإنسان أولا ، بل خلق له الشمس وأعد الكون قبل أن يخلق الإنسان ، وحين طرأ الإنسان على الكون وجد فيه قوام الحياة من الجماد ومن النبات ومن الحيوان .

وقمة المسخرات للإنسان هي الحيوان ؛ لأن الجماد والنبات يخدمان الحيوان ، ويشترك الحيوان مع الإنسان فى أنّ له حياة ودماء وجوارح . وجاء الحق هنا بالإعلان عن أعلى المنزلة فى خدمة الإنسان وهو بهيمة الأنعام « أحلت لكم بهيمة الأنعام » ويأمرنا بأن نوفى بالعقود ، وله سبحانه وتعالى كل الحق فقد قدم لنا الثمن بخلق الكون مسخراً لنا وقمة المخلوقات المسخرة هى الأنعام . كأن « أحلت لكم بهيمة الأنعام » حيثية مقدمة من الحق . ونلحظ أنه جاء هنا بصيغة المبنى للمجهول فى « أحلت » ؛ لأن الإيمان جعلنا طرفاً فى أن تكون بهيمة الأنعام حِلاً لنا .

ووقف العلماء عند « بهيمة الأنعام » . وفى اللغة العربية نجد صيغة « فعيل » التى تأتى بمعنى « فاعل » وتأتى بمعنى « مفعول » ، مثلما نقول « الله رحيم » أى أنه راحم ؛ هو « فاعل » ، ونقول « فلان قتيل » أى مقتول أى مفعول به . و« بهيمة الأنعام » هنا تأتى بأى معنى ، أهى بمعنى فاعل أو بمعنى مفعول ؟ ، و« بهيمة » إن نظرنا إلى أنها مبهمة ، لأن أمورها مجهولة يصعب إدراكها علينا ولا نعرف حركتها أو إشاراتها أو لغاتها التى تتفاهم بها فتكون فعيلة بمعنى مفعولة . وتصلح أن تكون فعيلة بمعنى فاعل ؛ لأنها لا تفهم ، ونحن المبهمون عليها . ونقول : هى محكومة بالتسخير .

ولم يصنف الإنسان طعامها وهو العلف إلا بعد أن رآها وهى سائبة حرة تتجه إلى العلف لتأكله ، إذن فهى التى علمت الإنسان صنف طعامها . فلا يقولن إنسان :

إنها بهيمة لا تفهم ، وليعرف أنها لم تخلق لتفهم مسائل الإنسان ، لأنها مسخرة له وقد يتعلم هو منها .

ودليلنا أن الله امتن على بعض المصطفين من خلقه بأن علمهم منطق الطير ، فقد حزّ فى نفس الهدهد أن رأى ملكة سبأ وقومها يسجدون للشمس من دون الله ، وهو الطائر فقد فهم أن السجود لا يكون إلّا لله الواحد القهار لا للشمس ، وهكذا نرى الإنسان يتعلم الكثير من أخلاق الحيوانات وعاداتها ؛ ولذلك نجد هواة تربية الحيوانات يتعرفون على طعام هذه الحيوانات بعد أن يتتبعوها ويعرفوا ماذا تأكل ، وعن أى شيء تبتعد ، والفلاح يقدم البرسيم للجاموس ولا يقدم له النعناع ؛ لأنه رأى الجاموس وهو حرّ لا يأكل النعناع بل يأكل البرسيم ، وقال الحق على لسان النمل :

﴿ ٱدْخُلُوا۟ مَسَـٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ ﴾

(من الآية ١٨ سورة النمل)

نحن إذن الذين لا نفهم لغة النمل ، ونجد البهيمة محكومة بالغريزة ، لكن الإنسان يملك العقل ، لكنه يغطى عقله بالهوى .

وقول الله : « أحلت لكم » دليل على أن الذى أحلها ، جعل التحليل لها فى التسخير بدليل أن الحبل إن التف حول رقبة جاموسة أو رقبة خروف وقبل أن يختنق نجد الحيوان يمد رقبته ، فيقول الناس : لقد طلب الحلال ، فنادوا الجزار . وكأنه ـ وهو الحيوان ـ يطلب الذبح لينتفع الناس به ، وكأنه يحس بالخسارة إن ضاع لحمه بلا فائدة ، وهذا دليل على أنه مذلل ، أما الحيوان غير المحلل فمن العجيب أنه لو حدث معه ذلك لما مد رقبته .

والأنعام هى المذكورة فى قوله الحق :

﴿ ثَمَـٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ﴾

(من الآية ١٤٣ سورة الأنعام)

وكذلك قول الرحمن :

﴿وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ﴾

(من الآية ١٤٤ سورة الأنعام)

إنها ثمانية أزواج ؛ ثم ألحق رسول الله صلى الله عليه وسلم الظباء وحمر الوحش ، ولم يحرم إلا كل ذى ناب كالسباع وكل ذى مخلب من الطير ، ولو لم يقيد الله هذا التحليل لانصرف بدون قيد ، ولأسأنا إلى أنفسنا بأكل الميتة والموقوذة والمتردية ، ولكن الحق أنقذنا من ذلك وحرم علينا تلك الأشياء الضارة .

« يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود » إذن فمن حق الله عليكم أيها المؤمنون أن توفوا بالعقود ؛ لأنه قدم لكم الكون بكل أجناسه وكل عناصره لخدمتكم . وأحلّ أقرب الأجناس إلى الإنسان لما فيه من حياة وحس وحركة ، فيقول : « غير محلى الصيد وأنتم حُرمٌ إن الله يحكم ما يريد » ولو لم يضع الحق ذلك التشريع لأكَل الإنسان ـ وهو مُحْرِمٌ ـ بهيمة الأنعام ، وقد حرم سبحانه الصيد فى أثناء الإحرام ، وكذلك فى حمى الحرم . والحَرَم ـ كما نعلم ـ مركزه الكعبة ، وحول الكعبة المسجد .

وتختلف مناطق الإحرام وتسمى الميقات المكانى ، فالميقات المكانى للحج والعمرة لمن كان خارج الحرم (ذو الحليفة) وذلك للمتوجه من المدينة وهى (آبار على) ، والجحفة وهى الآن (رابغ) للمتوجه من مصر والشام المغرب ، و(يَلَمْلَم) للمتوجه من تهامة ، و(قَرْن المنازل) للمتوجه من نجد اليمن ونجد الحجاز ، و(ذات عرق) للمتوجه من المشرق والعراق وغيره .

أما الميقات المكانى للحج لمن بمكة فهو مكة نفسها ، أما ميقات العمرة المكانى لمن بالحرم فهو الخروج لأدنى الحل وهى الجعرانة ثم التنعيم (مسجد عائشة) ثم الحديبية .

والميقات الزمانى للحج شوال وذو القعدة وعشر ليال من ذى الحجة ، أما ميقات العمرة الزمانى فهو جميع السنة إلاّ إذا كان محرما بحج أو بعمرة أخرى أو كان ذلك قبل النفر لانشغاله بالرمى والمبيت فيمتنع الإحرام بها . والتنعيم والجعرانة والحديبية ، تلك هى حدود الحرم . والصيد فى حدود الحرم حرام ، فى كل زمان وعلى كل إنسان ، أما فى غير الحرم ، فالصيد حرام لمن كان محرماً فقط ، وغير المحرم من حقه الصيد .

وبذلك يؤدب الحق سبحانه وتعالى خلقه ويجعلهم على ذكر دائم للمنهج فيأتى لهم فى مكان ويقول لهم : الصيد محرم فى هذا المكان ، والطعام والشراب محرم فى هذا الزمان ؛ كصوم رمضان . وعدة الشهور عندنا كمسلمين اثنا عشر شهرا . أربعة منها حُرُم . ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب .

وفى الميقات يحرم الصيد على الحاج فقط ، وهذا انضباط إيمانى . وعندما يأتى الإنسان إلى الميقات فهو يحرم ، أى يغير وضعه ويلبس لباساً خاصا بالحج ، يلبسه كل الناس ليكون الكل سواسية ؛ لأن الناس إنما يتميزون بهندامهم وهيئاتهم ، فيأمر سبحانه أن يطرح الإنسان هذا التمايز من فور الإحرام . وما كان من الحلال أن يفعله المسلم قبل الميقات وقد منعه الإسلام منه لا يجرؤ على أن يفعله بعد الميقات والإحرام .

ويستطيع المسلم قبل الميقات أن يحلق ويتطيب ويصطاد ويقطع من النبات ؛ لكنه ما إن يبدأ الإحرام يمتنع عن ذلك حتى يستعد لما يشحن أعماقه بالوجود مع المنعم لا مع النعمة ، هذا هو التهيؤ للدخول إلى بيت المنعم ، ولذلك يضع المسلم النعمة على جانب ليبقى مع المنعم . ويمنع الإنسان أن يصيد فى الحرم محرماً كان أو غير محرم ليشعر الكل أن الحرم لله فقط . وتستعد كل النفوس للقاء المهابة . ويمتنع الإنسان من أول الميقات عن أشياء كثيرة بداية من الصيد والاستمتاع بالحقوق الزوجية ؛ ثم يدخل منطقة يحرم فيها الصيد على كل الناس كرمز للمهابة .

ويحج المسلم فى حياته مرة واحد كأداء للفريضة ؛ وفى كل مرة تحج وتقصد بيت ربّك يوضح الله لك فيها : لا تنشغل بالنعم لأنك ذاهب إلى المنعم ، ويمحو سبحانه بالحج كل الذنوب . « غير محلى الصيد وأنتم حُرُم » فإن أردناها محرمين فهى صحيحة ، وإن أردناها للحرم فهى صحيحة ؛ لأن الصيد محرم فى منطقة الحرم للحاج أو لغيره .

ويذيل الحق الآية : « إن الله يحكم ما يريد » وسبحانه بدأ الآية بقوله:« يا أيها الذين آمنوا » هكذا نرى أن التذييل منطقى يتفق فيه آخر الآية مع صدرها ؛ لأن الله حين يخاطب المؤمنين الذين آمنوا به ، فمن لوازم الإيمان أن ينفذوا حكم الله الذى

آمنوا به ، ومادام المؤمن قد آمن بالله إلهاً فليتجه إلى ما يريده الله من أحكام ليفعلها لكن عمومية الآية قد تجعل واحداً يعزل عجز الآية عن صدرها ، رغبة فى التشكيك فى الإسلام ، فيقول : إن الله يقول إنه يحكم ما يريد ، وقد أراد من الناس من يؤمن ومن لا يؤمن ، فكيف يقول: « يحكم ما يريد » ، بينما لا يؤمن الكل ؟ .

ونقول : لا تعزل عجز الآية عن صدرها ؛ لأن الله إنما يخاطب فى هذه الآية من آمن به رباً ، ومن آمن بالإله يعمد ويقصد ويتجه إلى ما يريده الله من حكم ليطبقه . ولا يعتقدن أحد أنّ الكافرين خارجون عن إرادته سبحانه فى قوله : « إن الله يحكم ما يريد » فالذى تمرد على حكم الله يقتضيه المنطق أن يظل متمرداً على حكم الإله .

لكن المتمرد على حكم الله التكليفى الشرعى لا يجرؤ ولا يملك أن يكون منطقياً مع نفسه ، فإن حكم الله عليه بالضعف . فليقل للضعف : لا ، أنا لن أضعف وأنا قوى . لا أحد يملك من مثل هذا الأمر شيئاً . المتمرد يأخذه ملك الموت وهو غير مريض ، فماذا إذن يصنع تمرد المتمرد إزاء الموت ؟

إذن هناك أمور يخضع فيها الإنسان ـ كل إنسان ـ لحكم الله . وخضوع الإنسان لحكم الله فى بعض الأمور أقوى من خضوع المؤمن لها ؛ لأن المؤمن حين آمن بالله يستقبل الموت ـ على سبيل المثال ـ كحكم من الله ، أما المتمرد الذى لا يصلى ولا يؤدى أى أمر تكليفى ، ويتعرض للأغيار بما فيها الموت ، فهو يعانى من كل ذلك مشقّة وَحِدّة تفوق حدة استقبال المؤمن للأغيار أو الموت .

إذن فقوله الحق : « إن الله يحكم ما يريد » هو قضية عامة ؛ لأن الذى تمرد على حكمه سبحانه فيما له فيه اختيار ،كان من الواجب أن يكون منطقياً مع نفسه ، فيتمرد على حكم يجريه الله عليه ، وذلك بعكس كثير من الأحكام الوضعية فإنها لا تقوى على هذا التمرد ، ويكون هنا حكم الله أقوى ؛ لأن المتمردلن يجرؤ على الرد على أمر الله . فلا يظنن ظان أن الله جعل للاختيار فى العبد طلاقة ، لكنه جعل للاختيار فى العبد تقييداً ، وللقدرة القادرة طلاقة ، فإن تمرد متمرد على الإيمان ؛ فلن يجرؤ على التمرد فى أشياء أخرى . إذن فالله يحكم ما يريد .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا ۚ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُواْ ۚ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ ۘ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢﴾ ﴾

بداية هذه الآية تقول : « يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله » وهى تأتى بعد آية أَحَلّت أشياءَ ، كأن الحق يقول للعبد : مادمت قد أعطيت فأنا أمنع عنك ؛ أعطيتك أشياء وأمنعك أشياء . وسبحانه حين يحظر على الإنسان شيئاً ويمنعه منه ؛ فهو يعطى هذا الشىء لأخ مؤمن ، ومادام الأمر كذلك فلا يستطيع ولا يصح أن تنظر إلى الشىء المسلوب منك فقط بل انظر إلى المسلوب من غيرك بالنسبة لك .

وعلى سبيل المثال حين يأمرك الحق : « لا تسرق » ، فأنت شخص واحد ، ويقيد سبحانه حريتك بهذا الأمر ، وقيد فى الوقت نفسه حرية كل الناس بالنسبة إليك . وعندما تقارن الأمر بالنسبة لنفسك تجد أنك المستفيد أساساً ؛ لأن كل الناس ستطبق حكم الله بألا يسرقوا منك شيئاً ، وفى هذا خدمة لكل عبد . وهب أن واحداً سرق ، إنه لن يستطيع أن يسرق من كل الناس . ولو سرق ألف من الناس شخصاً واحداً فما الذى يبقى له ؟!

وحين يأمر الحق العبد ألا ينظر إلى محارم غيره ، فظاهر الأمر أنّه تقييد لحركة

العبد ، لكن الواقع أنه سبحانه قيد حركة الناس كلها من أجل هذا العبد ، وأمرهم ألا ينظروا إلى محارم غيرهم .

إذن ساعة ترى أيها المسلم نهياً أمر به الله ، فلا تصب النهى عليك . ولكن صب النهى أيضا على كل الناس بالنسبة لك ـ وساعة يقول الحق: «ياأيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله » أى لا تجعلوا شعائر الله حلالاً . والشعائر هى معالم الدين كلها . ونقول « هذه الدولة شعارها النسر » معنى ذلك أننا إذا رأينا الشعار نعرف البلد . وكذلك أعلام الدول ، فهذا علم لمصر ، وذاك علم لانجلترا ، وثالث علم لفرنسا ، وكل محافظة فى مصر ـ على سبيل المثال ـ تضع لنفسها شعاراً وعلماً ، إذن فالشعار هو المَعْلَم الذى يدل على الشيء . وشعائر الله هى معالم دين الله المتركزة فى « افعل » و« لا تفعل » زماناً ومكاناً ، عقائد وأحكاماً .

لكن الشعائر غلبت على ما نسميه مناسك الحج ، وأول عملية فى مناسبك الحج هى الإحرام ، أى لا نهمل الإحرام . ومن شعائر الحج الطواف ، فلا تحل شعائر الله ، ووجب عليك أن تطوف حول البيت ، وكذلك السعى بين الصفا والمروة ، والوقوف بعرفات ، ورمى الجمار ، كل هذه شعائر الله التى أمر ألا يحلها المؤمنون ، أى أمر ـ سبحانه ـ ألا يتهاونوا فيها ؛ لأن هذه الشعائر هى الضابط الإيمانى . وأن ننظر إلى أن أمر الله لكل حاج أو معتمر بالإحرام هو أمر بالعزلة لبعض الوقت عن النعمة ؛ لأن الإنسان يذهب للحج فى رحلة إلى المنعم . وأن الإنسان يغير ملابسه بملابس موحدة ولا يتفاضل فيها أحد على أحد ؛ لأن الناس فى الحياة اليومية تتفاضل بهندامهم ، وتدل الملابس على مواقعهم الاجتماعية . وعندما يخلعون جميعاً ملابسهم ويرتدون لباساً موحداً ، تكون السمة المميزة هى إعلان الولاء لله .

وكذلك عندما يأتى الأمر بألا يقص الإنسان شعرة منه سواء أكان عظيماً فى مجتمعه أم فقيراً ويتراءى الناس جميعاً وينظر بعضهم إلى بعض فيجدون أنهم على سواء على الرغم من اختلاف منازلهم وأقدارهم وتكون ذلة الكبير مساوية لذلة الصغير . وذلك انضباط إيمانى لا بين الإنسان والمساوى له ، ولكنه الانضباط مع الكون كله ، بكل أجناسه . فالشجرة بجانب الحرم محرم على كل إنسان أن يقطعها أو يقطع جزءا منها . وبذلك يأمن النبات فى الحرم ، وكذلك الحمام والحيوانات وأيضاً يأمن

الإنسان ؛ لأن الجميع فى حَرمِ رب الجميع ، وتلك مسألة تصنع رعشة ورهبة إيمانية فى النفس البشريةِ . وتكون فترة الحج هى فترة الانضباط الإيمانى . وتتوافق فيها كل أجناس الوجود . فالإنسان يتساوى مع الإنسان ولا يلمس الحيوانَ وكذلك النباتَ ، ويبقى الجماد وهو خادم الجميع من أجناس الكون ؛ لأن الحيوان يخدم الإنسان ، والنبات يخدم الحيوان ، والجماد يخدم الكل ، وهو خادم غير مخدوم . ويصنع الحق حماية للجماد فى الكعبة نفسها ، فيأمر الناس باستلام الحجر الأسود أو بتقبيله إذا تيسر ذلك أو بالإشارة إليه .

فهذا السيد العالى ـ الإنسان ـ على النبات والحيوان يأتى إلى جماد فيعظمه ويوقره ، فالذى لا يستطيع تقبيل الحجر الأسود عليه تحيته بأن يشير إليه بيده ، حتى يكون الحج مقبولاً منه ؛ لذلك يتزاحم الناس للذهاب إلى الحجر الأسود ، وهكذا يكون الجماد مصوناً فى بيت الله الحرام . ويعوضه الله بأن جعله منسكاً ، وجعله شعيرة وجعل الناس تزدحم عليه وتقبله بينما لا يقبل الإنسان الحيوان أو النبات ، لكنه يقبّل الجماد أدنى الأجناس . وهذه قمة التوازن الوجودى . فالإنسان المختار المتعالى على الأجناس يذهب صاغراً لتقبيل أو استلام الحجر الأسود بأمر الله .

ويرجم الإنسان حجراً آخر هو رمز إبليس ، وذلك حتى يعرف الإنسان أن الحجرية ليست قيمة فى حد ذاتها ، ولكنها أوامر الآمر الأعلى ، حتى لا يستقر فى ذهن الإنسان تعظيم الحجر ، فالحاج يقبل حجراً ويرجم ويرمى حجراً آخر .

« يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله » ؛ لأن الله جعل الشعائر لتحقق الانضباط الإيمانى ، وبقاء ذكر الاستخلاف لله فلا يدعى أحد أنه أصيل فى الكون ، بل الكل عبيد لله . والوجود كله هو سلسلة من الخدمة ؛ فالإنسان يخدم الإنسان ، والحيوان يخدم الإنسان ، والنبات يخدم الإنسان والحيوان ، والجماد يخدم الكل ؛ لكن لا أحد أفضل من أحد ، بل الجماد نفسه مسبح بحمد الله ، وقد لا يسبح الإنسان .

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾

(سورة الأحزاب)

وهذا الأمر بعدم الحل لشعائر الله جعل كل شعيرة تأخذ حقا من التقدير والاحترام ، ولا يظنن ظان أن شعيرة من الشعائر ستأخذ لذاتها تقديساً ذاتياً ، بل كله تقديس موهوب من الله ويسلبه الله .

« لا تحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام » أى لا تحلوا الشهر الحرام ، أى عليكم أن تحرموا هذا الشهر الحرام ، فقد جعله الله شهراً حراماً لمصلحة الإنسان ، ويحمى به سبحانه عزة وذلة الإنسان أمام عدوه ، يحمى انكسار نفس الضعيف أمام القوى . فالقوىّ القادر على القتال قد تهفو نفسه إلى أن يتوقف عن الحرب فترة يلتقط فيها الأنفاس ، ولو فعل ذلك لكان إعلاناً للتخاذل أمام الخصم ، ولذلك يأتى الحق بزمان يقول فيه : أنا حرمت الحرب فى الأشهر الحرم . هنا يقول المقاتل : لقد حرم الله القتال فى الأشهر الحرم ، وتلك حماية للإنسان ، وليذوق لذة الأمن والسلام والطمأنينة ؛ فقد يعشق الإنسان القوى السلامَ من بعد ذلك .

لماذا إذن جاء الحق هنا بالشهر الحرام بينما نحن نعرف أن الأشهر الحرم أربعة ؟ إن نظرنا إلى الأشهر الحرم كجنس فهى تطلق على كل شهر من الشهور الأربعة ، وإذا اعتبرنا الشهر الحرام أشهر الحج وهى شوال وذو القعدة وعشر ليال من ذى الحجة ، فالمعنى صحيح ونعرف أن الأشهر الحرم أربعة ، ثلاثة متصلة ، وهى ذو القعدة وذو الحجة والمحرم وواحد منفصل هو رجب ، وسبحانه وتعالى يعلم أن كل فعل من الأفعال لابد له من زمان ولابد له من مكان . فحين لا يوجد حدث ، لا يوجد زمان ولا مكان ، ولم يأت الزمان والمكان إلا بعد أن أحدث الله فى كونه شيئاً . ولا يقولن واحد : متى كان الله ولا أين كان الله ؛ لأن « متى » و« أين » من مخلوقات الله . وجعل سبحانه لكل حدث زماناً ومكاناً . ولذلك يأتى الحق سبحانه وتعالى ليحمى عزة الناس وليجعل لهم من تشريعه الرحيم ستاراً يستتر فيه ضعيفهم ، ويراجع فيه قويُّهم لعله يرعوى ويرجع عن غيّه وظلمه فأوجد أماكن محرمة ، وأزمنة محرمة ، والأماكن المحرمة هى التى عند الحرم :

﴿ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ﴾

(من الآية ٩٧ سورة آل عمران)

حيث يُؤَمِّن الإنسان أخاه الإنسان إذا ما دخل الحرم . وكذلك فى الزمان جعل سبحانه الأشهر الحرم .

لقد أخذ الحق الحدث للزمان والمكان . وكان القوى قديماً يحارب ويقترب من النصر . وعندما يهل الشهر الحرام يستمر فى الحرب ، ثم يعلن أن الشهر الحرام هو الذى سيأتى بعد الحرب ، ولذلك يأمر سبحانه بعدم تغيير زمان الشهر الحرام ؛ لأن الله يريد بالشهر الحرام أن ينهى سعار الحرب .

وبعد ذلك يقول الحق : « ولا الهدى » والهدى هو ما يهدى إلى الحرم ؛ وهو جمع هدية ، وهناك من يقدم للكعبة هدية ، ومجموع الهدايا تسمى هدياً . وهدى الحرم إنما جعله الله للحرم ؛ فالحرم قديماً كان بوادٍ غير ذى زرع ، ولم تكن به حيوانات كثيرة . وكانوا يأتون بالهدى معهم عندما يحجون ، لذلك حرم الله الاقتراب من الهدى لأنها هدايا إلى الحرم . والحجيج أفواج كثيرة ، وعندما يأتى أناس كثيرون فى وادٍ غير ذى زرع يحتاجون إلى الطعام ، ولا يصح أن يجعل المؤمن الهدى لغير ما أُهدى إليه ، فقد يشتاق إنسان صحب معه الهدى إلى أكل اللحم وهو فى الطريق إلى الكعبة فيذبحه ليأكل منه ؛ وهذا الفعل حرام ؛ لأن الهدى إنما جاء إلى الحرم ويجب أن يُهدى ويقدم إلى الحرم . وعلى الإنسان أن يصون هدى غيره أيضاً .

« ولا القلائد » وهى جمع « قلادة » والقلادة هى ما تعلق بالرقبة . وقديماً كان الذاهب إلى الحج يخاف على الهدى أن يشرد منه ، لذلك كانوا يضعون حول عنق الهدى قلادة حتى يعرف من يراه أنه « هدى » ذاهب إلى الحرم . والهدى الأول هو الهدى العام الذى لا قلائد حول عنقه ، والقلائد تعبر عن الهدى الذى توجد حول رقابه قلائد وتدل عليه وتكون علامة على أنه مهدى إلى الحرم ، وقد يكون النهى هنا حتى عن استحلال القلادة التى حول رقبة الهدى حتى لا تضيع الحكمة . والحق سبحانه وتعالى حين يعبر بعبارة ما فهو يعبر بعبارة تؤدى المعنى ببلاغة .

وكانوا قديماً عندما لا يجدون قلادة يأخذون لحاء الشجر وقشره ويقطعون منه قطعة ويربطونها حول رقبة الهدى ، وذلك حتى يعرف الناس أن هذا هدى ذاهب إلى الحرم . ويضمن سبحانه اقتيات الوافد إليه . لا من القوت العادى ولكن يطعمه من اللحم أيضاً ، ويجعل ذلك من ضمن المناسك . أليس هو من دعا هؤلاء الناس إلى الحج ؟ أليس هؤلاء هم ضيوف الرحمن ؟!

إن الإنسان منا يقوم بذبح الذبائح لضيوفه ، فما بالنا بالحق الأعلى سبحانه

وتعالى ؟ لذلك جعل الهدى طعاماً لضيوفه . وتزدحم الناس فى منى وعرفات بكثرة لا حدود لها ، ولابد أن يكرمهم الله بألذ وأطيب الطعام ، والفقير يذهب إلى المذبح ويأخذ من اللحم أطيبه ويقوم بتجفيفه فى الهواء والشمس ويخزنه ليطعم منه طويلا وهو ما يعرف ويسمى بالقديد . والحق سبحانه وتعالى يأتى بالحكم بطريقة لها منتهى البلاغة ، فهو يحرم حتى قلادة الهدى أن يلمسها أحد .

ويقول سبحانه : « ولا الشهر الحرام ولا الهدى ولا القلائد ولا آمّين البيت الحرام يبتغون فضلاً من ربهم ورضواناً » أى لا تمنعوا أناساً ذاهبين إلى بيت الله الحرام ولا تصدوهم عن السبيل ، فهم وفد الله . وقد جاء هذا القول قبل أن يُنَزِّل الحق قوله :

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ ﴾

(من الآية ٢٨ سورة التوبة)

وكان غير المسلمين يحجون بيت الله الحرام من قبل نزول هذه الآية ، فلم يكن الحكم قد صدر . ونتساءل : هل الكافرون بالله يبتغون فضلاً من الله.؟. نعم ففضل الله يغمر الجميع حتى الكافر ، لكن رضوان الله لا يكون على الكافر . والفضل من التجارة التى كانوا يتاجرون بها ، وفضل الله موجود حتى فى أيامنا هذه على الكفار أيضاً .

لكن كيف يتأتى رضوان الله على الكافر ؟ . إنه رضوان الله المتوهم فى معتقدهم . فهم يعتقدون أنهم يفعلون ذلك إرضاء لله . وتتجلى دقة القرآن حين يقول : « فضلاً من ربهم ورضوانا » ، فلم يقل : فضلاً من الله ورضواناً ؛ لأن العبد المؤمن هو من يختص بتنفيذ التكاليف الإيمانية .

ولله عطاءان : عطاء الربوبية ، فهو المربى الذى استدعى إلى الكون المؤمن والكافر ـ وسبحانه ـ سخر الأسباب للكل ؛ هذا هو عطاء الربوبية ، فالشمس تشرق على المؤمن والكافر ، والأسباب قد تعطى المؤمن والكافر ، أما عطاء الألوهية فيتمثل فى « افعل » و« لا تفعل » . ويقول الحق هنا : « يبتغون فضلاً من ربهم » . إذن فجناحا المنهج الإيمانى ـ افعل ولا تفعل ـ ليست فى بالهم . ومن بعد ذلك يقول الحق : « وإذا حللتم فاصطادوا » أى إذا انتهى الإحرام ، وبعد أن يخرج الحاج من الحرم ويتحلل من إحرامه فمن حقه أن يصطاد .

« ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام » وقبل أن ينزل تحريم زيارة المشركين للبيت الحرام كان من حسن المعاملة ألا يأخذ المؤمنون الكفار الذين يزورون البيت الحرام فيعتدوا عليهم انتقاماً لما فعله الكفار من قبل ؛ لذلك أمر الحق المؤمنين ألا يقولوا : ها هم أولاء قد جاءوا لنا فلنرد لهم الصاع صاعين مثلما فعلوا معنا فى صلح الحديبية عندما منعونا من البيت الحرام . لأنكم أيها المؤمنون قد أخذتم من الله القوامة على منهجه فى الأرض ، والقائم على منهج الله فى الأرض يجب ألا تكون له ذاتية ولا عصبية أسرية ، ولا عصبية قبلية ؛ لأنه جاء ليهيمن على الدنيا كلها ، ومن الصَّغار أن ينتقم المؤمن من الكافر عندما يأتى إلى بيت الله . ولا يليق ذلك بمهمة القوامة على منهج الله .

ولذلك قال الحق لرسوله :

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ ﴾

(سورة النساء)

وحينما أمر الحق رسوله أن يحكم بين الناس فذلك الحكم يقتضى عدم تمييز المؤمن على الكافر ؛ لأن المسلمين هم القُوَّام ، وهم خير أمة أخرجها الله للناس كافة . ولو فهم الناس أن خير الأمة الإسلامية عائد عليهم لما حاربوها .

فنحن ـ المسلمين ـ لسنا خيراً لأنفسنا فقط ، ولكننا أمة لخير الناس جميعاً . ولذلك قال الحق : « لا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا » أى لا يصح أن يحملكم الغضب على قوم أن تعتدوا عليهم لأنهم صدوكم عن المسجد الحرام عام الحديبية . وعندما يسمع الكافر أن الله سبحانه وتعالى يوصى من آمن به على من كفر به ماذا يكون موقفه ؟ إنه يلمس رحمة الرب . وفى ذلك لذع للكافر لأنه لم يؤمن ، لكن لو اعتدى المؤمن على الكافر رداً على العدوان السابق ، لقال الكافر لنفسه : لقد رد العدوان .

أما حين يرى الكافر أن المؤمن لم يعتد امتثالاً لأمر الله بذلك ، عندئذ يرى أن الإسلام أعاد صياغة أهله بما يحقق لهم السمو النفسى الذى يتعالى عن الضغن والحقد والعصبية ، ويعبر الأداء القرآنى عن ذلك بدقة ، فلم يأت الدين ليكبت عواطف أو

غرائز ولا يجعل الإنسان أفلاطونياً كما يدعون . ولم يقل : اكتموا بغضكم ، ولكنه أوضح لنا أى : لا يحملكم كرههم وبغضهم على أن تعتدوا عليهم . فسبحانه لا يمنع الشنآن ، وهو البغض ، لأنه مسألة عاطفية .

فسبحانه يعلم أن منع ذلك إنما يكبت المؤمنين وكأنه يطلب منهم الأمر المحال . لذلك فالبغض من حرية الإنسان . ولكن إياك أن يحملك البغض أو الكره على أن تعتدى عليهم .

ونرى سيدنا عمر يمر عليه قاتل أخيه زيد بن الخطاب ، يقول له أحدهم : هذا قاتل زيد ، فيقول عمر : وماذا أصنع به وقد هداه الله إلى الإسلام ، فإذا كان الإسلام جبّ الكفر ألا يجب دم أخٍ لعمر ؟ ولكن عمر ـ رضى الله عنه ـ يقول لقاتل أخيه :

عندما ترانى نحّ وجهك عنى . قال ذلك لأنه يعرف دور العاطفة ويعرف أنه لا يحب قاتل أخيه ، فقال قاتل أخى عمر : وهل عدم حبك لى يمنعنى حقاً من حقوقى ؟ فقال عمر : لا . بل تأخذ حقوقك كلها . فقال قاتل أخى عمر : لا ضير ؛ إنما يبكى على الحب النساء . فالإيمان هو الذى منع عمر من أن ينتقم من قاتل أخيه .

« ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا » أى أنه سبحانه لا يمنع مواجيد المؤمنين ووجدانهم وضمائرهم وقلوبهم التى تنفعل بالبغض والكره ؛ لأنه يعلم أن ذلك لا يطيقه الإنسان ؛ لأنها أمور عاطفية . والعواطف لا يقنن لها بتشريع . ولكن اعلموا أن هذه العواطف لا تبيح لكم الاعتداء .

وهكذا يتدخل الإسلام فى الحركة الإنسانية ليفعل الإنسان أمراً أو يتجنب فعل أمر ما ؛ فالإسلام لا يتدخل إلا فى النزوع وهى تعبير عن مرحلة لاحقة للإدراك الذى يسبب للإنسان العاطفة محبة أو كراهية ، ثم يعبر الإنسان عن هذه العاطفة بالنزوع ؛ لأن مظاهر الشعور ثلاثة : إدراك ، ووجدان ، ونزوع ، فحين يمشى إنسان فى بستان فيه أزهار ويرى الوردة فهذا إدراك ، ولا يمنع الإسلام هذا

الإدراك . وعندما يعجب الإنسان بالوردة ويحبها فهذه حرية ، لكن أن تمتد اليد لتقطف الوردة فهذا ممنوع .

إن التشريع لا يتدخل فى العملية النزوعية فقط إلا فى مجال واحد وهو ما يتعلق بالمرأة . إن الإسلام يتدخل من أولى المراحل من مرحلةالإدراك . فالرجل حين يرى امرأة جميلة فهذا إدراك ، وعندما ينشغل قلبه بحبها فهذا وجدان ، لكن أن يقترب منها الإنسان فهذا نزوع .

لقد رأف الحق بالرجل أن أمره أن يغض البصر من البداية ؛ لأن الإنسان لن يستطيع مطلقاً أن يفصل بين الإدراك والوجدان والنزوع . فكل من الإدراك والوجدان يصنعان تفاعلاً فى التركيب الكيماوى للرجل . فإما أن يعف الإنسان نفسه ويكبت أحاسيسه ، وإما ألا يعف فيلغ فى أعراض الناس ، لذلك يخدم الشرع الإنسان من أول الأمر حين يأمره بغض البصر :

﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ﴾

(سورة النور)

هنا يتدخل الشرع من أول مرحلة الإدراك ، فبعدها لا يمكن فصل النزوع عن المواجيد ؛ لأن رؤية المرأة تحدث تفاعلاً كيماوياً فى نفس الرجل ، وكذلك الرجل يحدث تفاعلاً كيماوياً فى نفس المرأة . أما الوردة فلا تحدث مثل هذا التفاعل . ويستطيع الإنسان اقتناء زهرية للورود .

إذن فالمراد أن الحق سبحانه وتعالى لم يمنع المؤمن أن تجيش عواطفه البشرية بالبغض وبالكره ؛ لأن ذلك انفعال مطلوب للإيمان . وبعض من أعداء الإسلام يقول : آيات القرآن تتعارض ؛ لأنه يقول :

﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا

﴿ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ﴾

(من الآية ٢٢ سورة المجادلة)

والنسب الإيمانى يمنع ذلك .

ويقول القرآن فى موضع آخر

﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾

(من الآية ١٥ سورة لقمان)

والذى يتعمق جيداً يعرف أن المعروف يصنعه الإنسان مع من يحب ومن لا يحب . أما الودّ فهو عمل القلب ، وهذا ما نهى عنه الله بالنسبة للمشركين به ، أما المعروف فالمسلم مطالب أن يفعله حتى بالنسبة لمن يكرهه .

« ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام » إذن فالحق لم يمنع البغض . ولكنه منع النزوع المترتب على الشنآن ولو وُجد سبب من الأسباب كما حدث فى صلح الحديبية . وبعد ذلك يأمر : « وتعاونوا على البر والتقوى » .

وهذه الآية هى التى تجعل مسألة الإيمان قضية عالمية ، وكلمة « تعاون » على وزن « تفاعل » ، والتفاعل يأتى من اثنين ؛ مثلما نقول « تشارك » ؛ فهى تقتضى اثنين ؛ كأن نقول : تشارك زيد وعمرو أو : شارك زيد عمراً أو شارك عمرو زيداً . وكلاهما متساو . . اللهم إلا تغليب واحد بأن يأتى فاعلا مرة ومفعولا مرة ثانية ، والفاعل فى هذه الحالة فاعل ومفعول فى آن واحد ، والمفعول أيضاً فاعل فى الوقت نفسه .

ومثال ذلك قولنا « قاتل فلان فلاناً » أى أن الاثنين اشتبكا فى قتال أى مفاعلة . وساعة يأتى اثنان فى فعل واحد ، فهناك فاعل ومفعول . وهناك فرق بين أن تقول : أعن فلاناً ، فالمطلوب هنا أمر لواحد بالمعاونة لآخر .

راجع أصله وخرج أحاديثه الدكتور/ أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .

وهذا يختلف عن القول : تعاون مع فلان ، أى أن تتشاركا معاً فى المعاونة . ومسائل الحياة أكثر من أن تستوعبها موهبة واحدة . فأنت حين تبنى بيتاً تحتاج إلى من يحفر الأساس ويبنى الجدران . ومن يصنع الطوب ومن يصنع الأسمنت ومن يصنع الحديد ، ولا يستطيع إنسان واحد أن يتعلم كل هذه الحرف ليبنى بيتاً ، لكن التعاون خصص لكل إنسان عملا يقوم به ، فهناك متخصص فى كل جزئية يحتاج إليها الإنسان فى حياكة الملابس ، والطب ، والصيدلة وغيرها من أوجه احتياجات الحياة ، والحق يأمر : « وتعاونوا » ليسير دولاب الحياة ويستفيد الإنسان من كل المواهب لقاء إخلاصه فى أداء عمله ، و« تعاونوا » هى أن تأتى بشىء فيه تفاعل ما ، ومعنى الشىء الذى فيه تفاعل أنه يوجد « مُعين » و« مُعان » .

ولكن المعين لا يظل دائما معينا ، بل سينقلب فى يوم ما إلى أن يكون مُعانا ، والمعان لا يظل مُعانا ، بل سيأتى وقت يصير فيه مُعينا ، وهذا هو التفاعل الذى تحتاج إليه أقضية الحياة التى شاءها الله للإنسان الخليفة فى الأرض والمطالب أن يعبد الله الذى لا شريك له ، وأن يعمر هذه الأرض . ولا تتأتى عمارة الأرض إلا بالحركة فيها ، والحركة فى الأرض أوسع من أن تتحملها الطاقة النفسية لفرد واحد ، بل لا بد أن تتكاتف الطاقات كلها لإنشاء هذه العمارة .

إننا حين نبنى عمارة واحدة نستخدم أجهزة كثيرة لطاقات كثيرة بداية من المهندس الذى يرفع مساحة القطعة من الأرض ويرسمها ، وإن شاء الترقى فى صنعته يصنع نموذجا مجسدا لما يرغب فى بنائه ، وبعد ذلك يأتى الحافر ليحفر فى الأرض ، ثم من يضع الأساس ، ومن يضع الحديد . ومن يصنع « الخرسانة » المسلحة .

ثم يأتى من يرفع البناء ، ومن يقوم بالأعمال الصحية من توصيلات للمياه والمجارى ، ثم يأتى من يصمم التوصيلات الكهربائية ، وهكذا تتعاون طاقات كثيرة لبناء واحد ، ولا تتحمله طاقة إنسان واحد .

إذن فالتعاون أمر ضرورى للاستخلاف فى الحياة . ومادام الاستخلاف فى الحياة يقتضى من الإنسان عمارة هذه الحياة ، وعمارة الحياة تقتضى ألا نفسد الشىء الصالح بل نزيده صلاحا ، وحين يقول الحق : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على

الإثم والعدوان » أى أنه يريد كوناً عامراً لا كوناً خرباً . والشىء الصالح فى ذاته يبقيه على صلاحه . إذن فعمارة الحياة تتطلب منا أن نتعاون على الخير لا على الإثم .

والبر ، ما هو ؟ البر هو ما اطمأنت إليه نفسك ؛ والإثم ما حاك فى صدرك وخشيت أن يطلع عليه أحد ، فساعة يأتى إليك أمر تريد أن تفعله وتخاف أن يراك غيرك وأنت ترتكبه فهذا هو الإثم ، لأنه لو لم يكن إثما لأحببت أن يراك الناس وأنت تفعل ذلك . إذن قوله الحق : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » هو أمر لكل جماعة أن تتعاون على الخير ، وهذه مناسبة لأقول لكل جماعة :

تعاونوا معاً بشرط ألا تجعلوا لجمعياتكم نشاطاً يُنسب إلى غير دينكم . مثال ذلك الجمعيات المسماة بـ «الروتارى» أو « الماسونية » ويقال : إن نشاطها خيرى . ونقول : كل جمعية خيرية على العين والرأس ولكن لماذا تكونونها وأنتم تقلدون فيها الغرب ؟ لماذا لا تصنعون الخير باسم دينكم فيعرف العالم أن هذا خير قادم من بلاد مسلمة . والخير كل الخير ألا نأخذ هذه الأسماء الأجنبية ونطلقها على جمعياتنا حتى لا يظنن ظان أن الخير يصنعه غيرنا . وإن كان للواحد منا طاقة على العمل الخيرى ؛ فليعمل من خلال الدين الإسلامى . وليعلم كل إنسان أن الدين طلب منا أن تكون كل حياتنا للخير . وهذا ما يجب أن يستقر فى الأذهان حتى لا يأخذ الظن الخاطىء كل من يصيبه خير من هذه الجمعيات بأن الخير قادم من غير دين الإسلام .

إننا مكلفون بنسبة الخير الذى نقوم به إلى ديننا ؛ لأن ديننا أمرنا به وحثنا عليه ، وليعلم كل مسلم أنه ليس فقيراً إلى القيم حتى يتسولها من الخارج ، بل فى دين الإسلام ما يغنينا جميعاً عن كل هؤلاء . وإذا كنا نفعل الخير ونقدم الخدمة الاجتماعية للناس فلماذا نسميها هذا الاسم وننسبها إلى قوم آخرين ، ولنقرأ جميعاً قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾

(سورة فصلت)

فعلى الإنسان منا أن يعمل الخير وهو يعلن أن الإسلام يأمره بذلك ، ولا ينسب

عمل الخير إلى « الروتارى » أو غير ذلك من الجمعيات . فنسبة الخير من المسلم إلى جمعيات خارجة عن الإسلام حرام على المسلم ؛ لأنه تعاون ليس لله ، والحق يقول : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » هو يريد منا أن نبنى الخير وأن نمنع الهدم ، وعلى كل منا أن يعرف أنه لا يستطيع وحده أن يقيم كل أبنية الخير .

وقد نسأل الفقير صاحب الثوب الواحد من أين أتى برغيف الخبز ، فيشير إلى بقال أعطاه هذا الرغيف . ونلتفت إلى أن الله قد سخر هذا البقال أن يأتى بالخبز ليشترى منه كل الناس ، ويتصدق ببعضه على الفقير . وهذا تيسير أراده الله . وعندما نذهب إلى المخبز ، نجد أن الدقيق جاء إلى المخبز من المطحن ، وفى المطحن نجد عشرات العمال والمهندسين يعملون من أجل طحن الدقيق الذاهب للمخبز ليعجنه واحد ، ويخبزه آخر ، ويبيعه ثالث .

ويجب أن نلتفت هنا إلى قدرة الله الذى سخر بعضا من الممولين الذين فكروا فى خير أنفسهم واشتروا هذه الآلات الضخمة للطحين وإنضاج الخبز ، وهى آلات لا يستطيع الفرد أن يشتريها بمفرده ، لارتفاع ثمنها وتأتى من الدول الأجنبية ، وتلك الدول فيها من المعامل والعلماء الذين يدرسون الحركة والطاقة من أجل تصميم هذه الأجهزة ، ليأكل الإنسان رغيفاً واحداً .

هذه هى مشيئة الحق من أجل أن تنتظم كل حركة الحياة ؛ فالرغيف يعرضه البقال ، وعمل فيه الخباز ومن قبله الطحان ، والعجان ومن استورد الآلة ؛ ومن صممها ، وشاركت فيه المدرسة التى علمت المهندس الذى صمم الآلة ؛ كل ذلك عمل فيه تعاون من أجل خدمة رغيف الخبز ، على الرغم من أن الإنسان منا لا يفكر فى رغيف الخبز إلا ساعة أن يجوع .

إذن فحركة الحياة كلها تم بناؤها على التعاون . لكن ماذا إن تعاون الناس على الإثم ؟ إنهم إن فعلوا ذلك يهدمون الخير ؛ لأن التعاون على الإثم إنما يبدأ من كل من يعين على أمر يخالف أمر الله ، وأوامر الله تنحصر فى « افعل » و « لا تفعل » ، ما ليس فيه « افعل » و« لا تفعل » فهو مباح ، إن شئت فعلته وإن شئت لا تفعله .

والذى يأمر بتطبيق « افعل » ويحزم الأمر مع « لا تفعل » وينهى عنه ويجرِّم من يفعله هو متعاون على البر والتقوى .

ومن يعمل ضد ذلك ؛ يتعاون على الإثم والعدوان ؛ لأنه ينقل الأفعال من دائرة « افعل » إلى دائرة « لا تفعل » . وينقل النواهى من « لا تفعل » إلى دائرة « افعل » ؛ هذا هو التعاون على الإثم .

وقوله الحق : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » ضَمِن عمارة الكون وضَمِن منع الفساد فى الكون . فالذى يرتشى والذى يسهل عملية الرشوة ، وهو الوسيط والسفير بين الراشى والمرتشى ويُسمَّى الرائش والذى يحمل الخمر والذى يدلس ، كل هؤلاء متعاونون على الإثم والعدوان ، حتى البواب الذى يجلس على باب عمارة ويعلم أن بها شقة تدار لأعمال مشبوهة ويأخذ ثمن ذلك هو متعاون على الإثم .

نقول لكل هؤلاء : إياكم أن تفتنوا بما يدره عليكم فعل الإثم ؛ لكن لننظر مصير كل منكم فلن يترك الله أمثالكم دون أن ينهى الواحد منهم حياته بمأساة ، حتى المرأة التى استنزفت الناس بجمالها ، تنتهى حياتها بالضنك من العيش ثم لا تجد مأوى إلا القلوب الرحيمة التى لم تفتتن بهذا الجمال ولم تتمتع به فى الحرام ؛ لأن الرجل إن نظر إلى امرأة أعانته على الإثم سيتذكر كل المصائب التى جاءته منها فيكرهها .

لقد أراد الحق بهذا عدالة فى الكون ليستقيم ، وكل من يأخذ شيئا من إثم يكتوى بنار هذا الإثم فى الحياة ، وكل فرد فيكم مطالب بعمل حصر وإحصاء للمال الذى جاءه من عرقه وحلاله ويكتبه ، والقرش الذى جاءه من حرام . وبعد ذلك يقوم بعمل حصر وإحصاء للكوارث التى أصابته . وكم كلفته من مصاريف .

إنه لو فعل ذلك لوجد أن الكوارث تأخذ كل الحرام وتجور على المال الذى كسبه من حلال . ولا تختلف هذه المسألة أبداً ولا يتركها الله للآخرة ؛ فسبحانه يريد أن يعدل نظام الكون ، وإلا كيف يشهد من لا يؤمن بيوم الحساب قدرة الله على إجراء التوازن فى كونه ؟ إن الحق أراد الحساب فى الدنيا حتى لا يعربد من لا يؤمن بيوم الحساب فى كون الله .

إن كل معربد سوف يرى مصير معربد سبقه . كذلك الذين يتمتعون بثمرات الإثم فى هذه الدنيا يجب أن يفطنوا إلى نفوسهم قبل أن يفوتهم الأوان ، المعذور فقط هم الأطفال الذين لا نضج لهم ولا دراية ؛ لأنهم يعيشون من أموال الإثم . لكن ما إن يبلغ الولد الرشد وكذلك البنت ثم ترى مالا يتدفق عليها من مصادر غير حل ، عليها أن تستحى من شراء « فستان » من هذا المال أو أن تأكل منه لقمة خبز ، وليفطن الإنسان أن الله قد أباح للإنسان أن يسأل عن مصدر المال حتى لا يأخذ لنفسه من المال الموبوء الخبيث . وأن يسأل الإنسان الصدقة خير من أن يصرف على نفسه مالاً موبوءا . ولن يترك الحق مثل هذا الإنسان سائلا أبداً .

وليكتب كل واحد منكم هذا القول الكريم أمامه : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » . وليجعلها ميزاناً يزن بها صور الذين يراهم فى الكون ؛ حتى ولو كانت صورة سائق التاكسى الذى يدلس على رجل وامرأة فى طريق مظلم ويأخذ أجراً على هذا ، ليحسب هذا الرجل النقود التى ستأتى من هذا الباب ، وليحسب النقود التى ستخرج على ألم فيه ، أو ألم فيمن يرعى من ولد أو بنت .

« وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » وصور العدوان شتى يعانى منها المجتمع وتهزه بعنف ، عدوان على الوقت لأن الإنسان يأخذ أجراً على العمل ولا يقوم به ، وعدوان يضرُّ به إنسانا بأن يأخذ حقه أو أن يرتشى ، كل ذلك عدوان . وحتى يصير المجتمع مجتمعا إيمانيا سليما لا بد أن يحافظ على قضية الاستخلاف فى الأرض ، وأن يعلم أن هذا يقتضى عمارة الكون وعدم الإفساد فيه .

« ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب » فكأن هذه المخالفات السابقة التى تحدث هى نتيجة عدم التعاون على البر ، ونتيجة التعاون على الإثم والعدوان ، ولهذه المخالفة عقاب شديد ، أما التقوى فمعناها أن نفعل ما أمر به الله أن نفعله ، وأن ننتهى عما نهى الله عنه ، فلا ننقل فعلاً من دائرة « لا تفعل » إلى دائرة « افعل » وكذلك العكس . وبذلك نجعل بيننا وبين الجبار وقاية .

وبعض السطحيين قد ينظر إلى بعض من آيات القرآن ويقول : إن بها تناقضاً ؛ فيقولون : بعض من آيات القرآن تقول : « اتقوا النار » ، وبعض الآيات تقول :

« اتقوا الله » فهل للنار وقاية ؟ وهل لله وقاية ؟ وهؤلاء لا يفهمون أن « اتقوا » تعنى : اجعل وقاية بينك وبين ما يؤذيك ويتعبك ، فـ «اتقوا الله » تعنى اجعل بينك وبين عقاب الله وقاية وهى الدرع التى يقيمها الإنسان بتنفيذ أوامر الله بـ « افعل » والامتثال لنواهى الله بـ « لا تفعل » .

وعندما تجعل بينك وبين الله وقاية ، فأنت تجعل بينك وبين غضب الله وقاية ، وهكذا تتساوى « تقوى الله » مع « اتقاء النار » .

ويذيل الحق الآية « إن الله شديد العقاب » . إنّ ما يجعل الناس تتهاون فى التعاون على البر ويجترئون على الإثم أنهم لا يجدون من مجتمعاتهم رادعاً ، ولو وجدوا الردع من المجتمع لحمى المجتمع أفراده من الإثم . وإن صار للمجتمع وعى إيمانى لقاطع المخالفين وأشعرهم بأنهم منبوذون ، وساعة يرى أمثال هؤلاء الناس أنهم منبوذون من المجتمع الإيمانى فهم يرجعون إلى المنهج الحق .

فما يغرى الناس على الجرائم الكبيرة إلاّ تهاون المجتمع فى الجرائم الصغيرة . ولذلك يلفتنا الحق أنه لن يترك الأمر كما تركه بعض من خلقه ؛ لأن الخلق قد يجاملون وقد لا يقفون أمام ما يفعله بعضهم من آثام ، لكن الله شديد العقاب ، سيأتى العقاب فى وقت ليس للفرد فيه جاه من مال أو حسب أو نسب يحميه من الله ، فإن أطمعك ضعف المجتمع فى أن تتعاون على الإثم فعليك أن تخاف الله ؛ لأن عقابه شديد .

وكيف يأتى العقاب إلى المذنب ؟ لا نعرف ؛ لأننا لسنا آلهة ، ونجد العقاب يتسلل إلى المذنب فى نفسه كمرض مؤلم لا يصرف المذنب فيه ما عنده من مال فقط ، لكنه قد يسأل الناس ليعالج نفسه ، أو يعالج من يحب . وجنود عقاب الله قد لا تتأخر للآخرة بل تتسلل إلى حياة المذنب دون أن يعرفها وهذه هى شدة العقاب .

وبعد ذلك يأتى الحق بأمر تحريم أشياء بعد أن حلل الله أشياء فى قوله : « أحلت لكم بهيمة الأنعام » . لقد أراد الحق سبحانه وتعالى أن يبين تخصيصا لما أحل من الأنعام . . فقد حلل الله من الضأن اثنين ومن المعز اثنين ومن الإبل اثنين ومن البقر

اثنين . وألحق الرسول بها الظباء وبقر الوحش ، وكل ذات أربع من حيوان البحر ، وكان قول الله : « إلا مايتلى عليكم » مؤذناً بأن هناك تحريماً قادماً سيأتى ، ويبين الحق بالقرآن ما يحرمه الله :

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾ ﴾

الآية تبدأ بقوله : « حرمت عليكم الميتة » ونلحظ أن البداية فعل مبنى للمجهول. على الرغم من أن الفاعل فى التحريم واضح وهو الله. ولم يقتحم سبحانه على أحد ، فالإنسان نفسه اشترك فى العقد الإيمانى مع ربه فألزمه ـ سبحانه ـ والعبد من جانبه التزم ؛ لذلك يقول الحق : « حرمت » ، حرمها سبحانه كإله وشاركه فى ذلك العبد الذى آمن بالله إلها .

والميتة هى التى ذهبت منها الحياة أو خرجت منها الروح بدون نقض للبنية ، أى ماتت حتف أنفها ، فذهاب الحياة له طريقان : طريق هو الموت أى بدون نقض بنية ، وطريق بنقض البنية ؛ فعندما يخنق الإنسان كائنا آخر يمنع عنه النفس وفى هذا إزهاق للروح بنقض شىء فى البنية ؛ لأن التنفس أمر ضرورى ، وقد يزهق الإنسان

روحا آخر يضربه بالرصاص ؛ لأن الروح لا تحل إلا فى جسد له مواصفات خاصة .

لكن هناك جوارح يمكن أن تبقى الروح فى الجسم دونها ، والمثال على ذلك اليد إن قطعت ، أما إن توقف قلب الإنسان فقد يشقون صدره ويدلكون هذا القلب فينبض مرة أخرى بشرط أن يكون المخ مازال حيا ، وأقصى مدة لحياة المخ دون هواء سبع دقائق فى حالات نادرة . فما أن يصاب المخ بالعطب حتى يحدث الموت . ولذلك عرف الأطباء الموت الإكلينيكى بأنه توقف المخ . إذن فهناك موت ، وهناك قتل ، وفى كليهما ذهاب للروح .

وفى الموت تذهب الروح أولاً ، وفى القتل تذهب الروح بسبب نقض البنية . والميتة هى التى ذهبت منها الحياة بدون نقض البنية ، ومن رحمة الله أن حرم الميتة ؛ لأنها ماتت بسبب لا نراه فى عضو من أعضائها ، حتى لا نأكلها بدائها .

وكذلك حرم الدم ، وهو السائل الذى يجرى فى الأوردة والشرايين ويعطى الجسم الدفء والحرارة وينقل الغذاء ، وللدم مجالان فى الجريان ؛ فهو يحمل الفضلات من الكلى والرئة ، وهناك دم نقى يحمل الغذاء ، والأوعية الدموية بها لونان من الدم : دم فاسد ودم صالح . وعندما نأخذ هذا الدم قد يكون فيه النوع الصالح ويكون فيه أيضاً النوع الذى لم تخرج منه الشوائب التى فى الكلى والرئة ، ولذلك يسمونه الدم المسفوح ، أى الجارى ؛ وكانوا يأخذونه قديما ويملأون به أمعاء الذبائح ويقومون بشيه ويأكلونه .

وهناك دم غير فاسد ، مثال ذلك الكبد ، فهو قطعة متوحدة ، وكذلك الطحال ، والنبى صلى الله عليه وسلم قال :

(أحلت لكم ميتتان ودمان ، فأما الميتتان : فالسمك والجراد ، وأما الدمان : فالكبد والطحال)[1] .

إذن فالكبد والطحال مستثنيان من الدم ، لكن إذا جئنا للدم المسفوح فهو حرام . والحكمة فى تحليل السمك والجراد هى عدم وجود نفس سائلة بهما ، فليس

---

(١) رواه أحمد وابن ماجه والدارقطنى .

فى لحمها دم سائل ، وعندما نقطع سمكة كبيرة لا ينزل منها دم . بل يوجد فقط عند الأغشية التى فى الرأس ولا يوجد فى شعيراته . وعندما يموت السمك ويؤكل فلا خطر منه ، وكذلك الجراد .

ويأتى بعد ذلك فى سلسلة المحرمات « ولحم الخنزير » . ولا يقولن مؤمن : لماذا حرم الله لحم الخنزير ؟ لقد ذهب العلم إلى كل مبحث ليعرف لماذا حرم الله الميتة وكذلك الدم حتى عرف العلماء أن الله لا يريد أن ينقل داء من حيوان ميت إلى الإنسان ، وكذلك حرم الله الدم لأن به فضلات سامة « كالبولينا » وغيرها .

ولكل تحريم حكمة قد تكون ظاهرة ، وقد تكون خافية . والقرآن قد نزل على رسول أمى فى أمة أمية لا تعرف المسائل العلمية الشديدة التعقيد ، وطبق المؤمنون الأوائل تعاليم القرآن لأن الله الذى آمنا به إلها حكيما هو قائلها ، وهو يريد صيانة صنعته ؛ وكل صانع من البشر يضع قواعد صيانة ما صنع . ولم نجد صانع أثاث ـ مثلا ـ يحطم دولاب ملابس ، بل نجده باذلا الجهد ليجمل الصنعة ، ومادام الله هو الذى خلقنا وآمنا به إلها ؛ فلا بد لنا أن ننفذ ما يأمرنا به ، وأن نتجنب ما نهانا عنه ، ولا يمنع ذلك أن نتلمس أسباب العلم ، رغبة فى ازدياد أسباب الإيمان بالله ومن أجل أن نرد على أى فضولى مجادل ، على الرغم من أنه ليس من حق أحد أن يجادل فى دين الله ؛ لأن الذى يرغب فى الجدال فليجادل فى القمة أولاً ؛ وهى وجود الله ، وفى البلاغ عن الله بواسطة الرسول ؛ فإن اقتنع ، فعليه أن يطبق ما قاله الله . فالدين لا يمكن أن نبحثه من أذنابه ، ولكن يبحث الدين من قمته . ونحن ننفذ أوامر الله . ولذلك نجد أول حكم يأتى لم يقل الحق فيه : يا أيها الناس كتب عليكم كذا ، ولكن سبحانه يقول : « يا أيها الذين آمنوا » أى يا من آمنت بى خذ الحكم منى .

وأكرر المثل الذى ضربته سابقاً : أثمن ما عند الإنسان صحته ، فإذا تعرضت صحته للاختلال فهو يدرس الأسباب ؛ إن كان يرهقه الطعام يختار طبيبا على درجة علم عالية فى الجهاز الهضمى ، ويكتب الطبيب الدواء ، ولا يقول المريض للطبيب : أنا لن أتناول هذا الدواء إلا إذا قلت لى لماذا وماذا سيفعل هذا الدواء .

إذن فالعقل مهمته أن ينتهى إلى الطبيب الذى اقتنع به ، وما كتبه الطبيب من تعاليم فعليك تنفيذها ، وكذلك الإيمان بالله ، فمادام الإنسان قد آمن بالله إلها فعليه أن ينفذ الأوامر فى حركة الحياة بـ « افعل » و «لا تفعل » ، والمريض لا يناقش طبيبا ، فكيف يناقش أى إنسان ربه : « لم كتبت على هذا » ؟

والطبيب من البشر قد يخطىء ؛ وقد يتسبب فى موت مريض ، وعندما نشك فى قدرة طبيب ما نستدعى عدداً من الأطباء لاستشارة كبيرة . وننفذ أوامر الأطباء ، ولا يجرؤ أحد أن يناقش الله سبحانه وتعالى بل نقول : كل أوامرك مطاعة .

إننا ننفذ أوامر الأطباء فكيف لا ننفذ أوامر الله ؟ إن الإنسان يضع ثقته فى البشر الخطائين ، ولا يمكن ـ إذن ـ أن تعلو على الثقة فى رب السماء ؛ لذلك فالعاقلون هم الذين أخذوا أوامر الله وطبقوها دون مناقشة ؛ لأن العقل كالمطية يوصل الإنسان إلى عتبة السلطان ، ولكن لا يدخل معك عليه ، وحين تسمع من الله فأنت تنفذ ما أمر به .

« حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير » وقد أثبتت التحليلات أن بلحم الخنزير دودة شريطية ودودة حلزونية وعددا آخر من الديدان التى لا يقهرها علاج .

والمحرمات من بعد ذلك « وما أهل لغير الله به » أى رفع الصوت به لغير الله كقولهم : باسم اللات والعزى عند ذبحه ، ولا يقال عند ذبحه:« الله أكبر بسم الله » ؛ لأن الإنسان منتفع فى الكون الذى يعيش فيه بالأجناس التى طرأ عليها ، لقد وجد الإنسان هذه الأجناس فى انتظاره لتخدمه لأنه خليفة الله فى الأرض ، والحيوان له روح ولكنه يقل عن الإنسان بالتفكير ، والنبات تحت الحيوان ، والجماد أقل من النبات . وساعة يأخذ الإنسان خدمة هذه المسخرات ، فعليه أن يذكر الخالق المنعم ، وعندما يذبح الإنسان حيوانا ، فهو يذبحه بإذن الأكبر من الإنسان والحيوان والكون كله ، يذبحه باسم الخالق .

إن هناك من ينظر إلى اللحم قائلاً : أنا لا آكل لحم الحيوانات لأنى لا أحب الذبح للحيوان شفقة ورحمة ، لكن آكل النبات . ونقول : لو أدركت ما فى النبات من حياة أكنت تمتنع عن أكله ؟ لقد ثبت فى عصرنا أن للنبات حياة ، بل وللجماد حياة أيضاً ؛ لأنك عندما تفتت حصوة من الصوان أو أى نوع من الأحجار ، فأنت تعاند بدقات

المطرقة ما فى تلك الحصوة من تعانق الجزيئات المتماسكة ، وقد تفعل ذلك وأنت لا تدرى أن فيها حياة .

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة الإسراء)

والصالحون من عباد الله يعرفون ذلك ويديرون أعمالهم وتعاملهم مع ما سواهم من المخلوقات جميعا ـ حيوان أو جماد ـ على أنها مسبّحة لذلك لا يمتهنون الأشياء ولا يحتقرونها مهما دقت وحقرت وإنما يتلطفون معها حتى لو ذبحوا حيوانا فإنهم يرحمون ذلك الحيوان فلا يشحذون ولا يسنون السكين أمامه ولا يذبحون حيوانا أمام حيوان آخر فضلا على أنهم يطعمون ويسقون ما يريدون ذبحه لأنهم يعلمون أنه مسبح ولكنهم فعلوا فيه ما فعلوا لأن الله أباح لهم ذلك ليستديموا حياتهم بأكله فهم أهل تكليف من الله، أما ما عداهم فهم أهل تسخير .

« وما أهل لغير الله به » تشرح لنا أن الحق هو الذى حلل لنا أن نأكل من الذى له حس وحركة ، كالحيوان الذى يتطامن للإنسان فيذبحه ، ولا بد للإنسان أن يعرف الشكر لواهب النعمة ، فـ « بسم الله الله أكبر » تؤكد أنك لم تذبحه إلا باسم من أحله لك .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾

(سورة يس)

إذن فالأكل من ضمن التذليل ، وعندما تذبح الحيوان لا بد أن تذكر من ذلل لك ذلك . ويحرم الحق أكل المنخنقة ، أى الحيوان الذى مات خنقاً ؛ لأن قوام الحياة ثلاثة ؛ طعام ، شراب ، هواء ، وهذا من حكمة الخالق الذى خلق الصنعة ورتب الأمر حسب الأهم والمهم ، فالإنسان قد يصبر على الجوع إلى ثلاثين يوماً ؛ لأن ربنا سبحانه وتعالى قدر لك ـ أيها الإنسان ـ ظروف الأغيار ، فجعل فى جسمك مخزونا لزمن قد تجوع فيه ، وجعل للإنسان شهوة إلى الطعام ، وغالبا لا يأكل الإنسان ليسد الرمق فقط ، ولكن بشهوة فى الأكل .

إن ربنا يوضح لنا : أنا أحترم شهوتك للطعام ، ولتأخذ حركتُك الضروريَّ لها

من الطاقة ، والزائد سيُخزن فى الجسم كدهون ولحم ، فإن جاء يوم لا تجد فيه طعاماً أخذت من الدهون المخزونة طاقة لك . وهذه من دقة الصنعة ، وإن قارنتها بسيارة صنعها الإنسان إذا ما فرغ منها الوقود فإنها تقف ولا تسير ، أما صنعة الخالق فهى لا تقف إن توقف الطعام بل تستمر إلى ثلاثين يوماً ، وربما حن على الإنسان قلب إنسان آخر فأحضر له الطعام ، وربما احتال الإنسان ليخرج من مأزق عدم وجود الطعام .

إن المرأة العربية وصفت الشدة والعوز فقالت : « سنة أذابت الشحم ، وسنة أذهبت اللحم ، وسنة محت العظم » أى أن الأمر درجات ، فالإنسان يتغذى من دهنه ثم من لحمه ثم من عظامه ، ويصبر الإنسان على الماء مدة تتراوح ما بين ثلاثة ، وعشرة أيام ، حسب كمية المياه المخزونة فى الجسم . أما الهواء فلا يصبر عنه الإنسان إلا بمقدار الشهيق والزفير ، فإن حُبس الهواء عن الإنسان مات . فالنَفَس هو أهم ضرورة للحياة ، ولذلك نجد من حكمة الحق سبحانه أنه لم يملّك الهواء لأحد ؛ لأن أحداً لو امتلك الهواء بالنسبة لإنسان آخر فقد يمنع عنه الهواء لحظة غضب فتنتهى منه الحياة .

واللغة العربية فيها من السعة ومن دقة الأداء ما يدل على أن هناك أسرارا للمعانى ، تلتقى عند شىء ما ، فمثلاً إذا قلت : نَفْس ، أو نفيس ، أو نَفَس ، نجد أنها ثلاث كلمات مكونة من مادة واحدة هى « النون والفاء والسين » ، النفْس هى اتصال الروح بالمادة فتنشأ الحياة بها ، ويلهم ربنا النفس فجورها وتقواها ، والنَّفَس : وهو الريح تدخل وتخرج من فم وأنف الحى ذى الرئة حال التنفس ولا تدوم الحياة إلا به ، ومادام أساس الحياة هو النفَس فيجب ألا تكون حياتك إلا من أجل نفيس ، ويجب أن تحترم خلق الله لك وألا يكون سعيك فى الدنيا إلا من أجل نفيس ، ولا نفيس إلا الإيمان .

وفى اللغة العربية أمثلة كثيرة لما يسمى بالجناس ، فنحن نسمى الأكل فى الميعاد « وجبة » ، ونسمى المسئولية « واجبا » ونسمى دقة القلب « الوجيب » . ولذلك عندما أراد الشعراء أن يتفننوا جاء واحد منهم بلفظين متماثلين ولكل منهما معنى مختلف فقال :

رحلت عن الديار لكم أسير وقلبى فى محبتكم أسير

فأسير فى الشطر الأول بمعنى أمشى ، وأسير فى الشطر الثانى من البيت بمعنى مأسور ومقيد .

فالمنخنقة إذن هى التى منع عنها النفس ، ومادام مَنْع النفس أوصلها إلى الخنق فهى إلى الموت ، فلماذا جاء ذكرها مرة أخرى بعد الميتة ؟ لقد جاء ذكر المنخنقة لأن الإنسان قد يلحقها بالذبح ، فإن سال منها دم ، وطرفت فيها عين أو تحرك الذيل فهى حلال . أما إن لم يلحقها الإنسان وذبحها ولم يسل منها دم فهى حرام ، ويحرم الحق الموقوذة ، وهى البهيمة التى يتم ضربها بأى شىء إلى أن تصل للموت ، فهى قد ماتت ، بنقض بنية وكذلك المتردية التى وقعت من ارتفاع حتى ماتت ، وكذلك « النطيحة » أى التى نطحها حيوان آخر إلى أن ماتت . « وما أكل السبع » وهو ما يبقى من أكل السبع من لحم ما افترسه من حيوان مأكول ، « إلا ما ذكيتم » ، والذكاة هى الذبح الذى يسيل منه الدم وتأتى بعده حركة من المذبوح . والمقصود بقوله : « إلاما ذكيتم » هو المنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة ، فإن أدركها الإنسان وذبحها وسال منها دم وصدرت منها حركة فهى حلال .

هذا هو رأى على بن أبى طالب ـ كرم الله وجهه ـ وهو مفتى الإيمان . وابن عباس ـ رضى الله عنه ـ وهو حَبْرُ الأمة قال ـ أيضا ـ فى قوله الحق : « إلا ما ذكيتم » هو استثناء لغير الميتة والدم ولحم الخنزير ومقصود به المنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة . وهذا يوضح لنا أن هناك حيوانات شرسة قد لا يقوى الإنسان عليها . وأحياناً قد يقدر الإنسان عليها فيقوم بتكتيفها بالحبال ، وأحيانا يضربها بآلة لتختل وتضعف قليلا ويتملكها الجزار ليذبحها .

ونلاحظ أن الحق لم يحدد الحيز من الجسم الذى أصيبت فيه الموقوذة سواء أكان البطن أم الرأس أم الظهر ، فالحيوان المضروب رميا بالحجارة قد تأتى الأحجار فى الرأس أو البطن أو الظهر ، فمن الجائز أن يضرب الإنسان الحيوان الشرس ليستطيع أن يذبحه .

والحجة عندنا فى التحليل أو التحريم هى : أيسيل منها الدم ساعة الذبح أم لا ؟

وهل يصدر عن جسمها حركة ولو طرفة عين ؟ فإن توافر ذلك فى الذبيحة فهى حلال ، وهكذا نعرف أن قوله الحق : « إلا ما ذكيتم » هو استثناء لغير الثلاثة الأول وهى : الميتة والدم ولحم الخنزير ومعها ما أهل لغير الله به لأنه محرم بطبيعة الإيمان العقدى .

« وما أكل السبع إلا ماذكيتم وما ذبح على النصب » ويحرم الحق ما أكله السبع إلا إذا كان الحيوان الذى أكله السبع لم يمت واستطاع واحد أن يذبحه الذبح الشرعى . وسبحانه يحرم ما لم يذبح بالأسلوب الشرعى ، فلا يحل ذَبْح بعظم أو بِسِنّ والذى ذبح على النصب ، أى المذبوح على الأحجار المنصوبة كالأصنام فهو حرام ، والكلام هنا عقدى ، والتحريم هنا بعارض عقدى .

و« النُّصُب » من الألفاظ التى وردت مفرداً ووردت جمعاً . فـ « نصُب » هى جمع ، مثلما نجمع كلمة « حمار » ونقول « حُمُر » ، وفى هذه الحالة يكون مفردها « نِصاب » ، ومرة تكون « نصب » مفرداً ، مثلها مثل « طُنُب » وهو الحبل وجمعها « أطناب » أى حبال ، وفى هذه الحالة يكون جمع « نُصُب » هو « أنْصَاب » .

والنُّصُب هى حجارة كانت منصوبة حول الكعبة يذبح عليها المشركون الذبائح تقرباً للآلهة . والتحريم هنا بسبب عقدى مثله مثل تحريم ما أهل لغير الله به ، فما أهل لغير الله فيه شرك بالله فافتقد ذكر الله الذى ذلل للإنسان هذا الحيوان القريب من الإنسان فى الحس والحركة وغير ذلك . وكذلك أيضاً ما ذبح على النصب محرم ؛ لأن النصب غير واهب ولا معط ، والواجب أن نتقرب إلى الواجد الواهب .

« وأن تستقسموا بالأزلام » واستقسم أى طلب القسمة ، وكانت القسمة فى بعض الأحيان عملية محرجة فيريدون إلصاقها بغيرهم ، وهنا يقال : « إن الأزلام هى التى أمرتنى » . والأزلام هى قداح من الخشب مكتوب على بعضها : « أمرنى ربى » ومكتوب على البعض الآخر : « نهانى ربى » وبعض من هذه القداح غفل بغير كتابة . وكان المشرك إذا أراد السفر فهو يذهب إلى سادن الكعبة أو الكاهن ، ويخرج السادن أو الكاهن الأزلام من الكيس ، ويحرك القداح ويختار المشرك قِدْحاً ، فإن قرأ عليه « أمرنى ربى » يسافر إلى المهمة التى يريدها ، وإن لم يقرأ عليه ووجده غفلا فهو يعيد الكَرَّةَ ؛ فإن وجد « نهانى ربى » لا يسافر .

ونسأل : من هو الرب الذى أمر ؟ هل هو الرب الأعلى ، أو الرب الذى كانوا يعبدونه ؟ وأى إله كانوا يقصدون ؟ إن كان المقصود به الإله الأعلى ، فمن أدراهم أن الله أمر بهذا السفر أو نهى عن ذلك السفر ؟ إن ذلك كذب على الله . وإن كان الذى أمر هو الرب الذى يعبدونه ، فهذا أمر باطل من أساسه ، إذن فـ « استقسم » أى أنّه طلب حظه وقسمته بواسطة القداح . وكان الاستقسام يتم فى مسائل الزواج أو عدم الزواج ، والكلام هنا فى هذه الآية عن الأكل ؛ فالسياق عن تحليل ألوان الطعام فلماذا هذا الاستقسام ؟

من هذا نعرف أنهم كانوا فى الجاهلية يخضعون للون من الاستقسام بالأزلام ، كانت عندهم عشرة قداح وكان مكتوبا عليها أسماء ، فواحد على سبيل المثال مكتوب عليه « الفذ » وعليه علامة واحدة . أى أن الذى يسحب هذا القدح يأخذ نصيبا واحداً ؛ أما المكتوب عليه « التوأم » فيأخذ نصيبين ، والمكتوب عليه « الرقيب » يأخذ ثلاثة أنصباء ، والمكتوب عليه « الحِلس » يأخذ أربعة أنصباء ، والمكتوب عليه « النافر » يأخذ خمسة أنصباء ؛ والمكتوب عليه « المُسْبل » يأخذ ستة أنصبة ، والمكتوب عليه « المُعلّى » يأخذ سبعة أنصبة ، والباقى ثلاثة أنواع مكتوب على كل واحد منها إما « المنيح » وإمّا « السفيح » وإمّا « الوغد » .

وعندما يقومون بذبح الجمل كانوا يقسمونه إلى ثمانية وعشرين نصيباً بعدد الأنصبة التى ينالها الأشخاص السبعة الأوائل ، أما من خرج لهم « المنيح » أو « السفيح » أو « الوغد » فلا نصيب لهم ويدفعون ثمن الذبيحة .

إذن فقوله الحق : « وأن تستقسموا بالأزلام » أى أن مسألة طلب القسمة بواسطة الأزلام هو أسلوب مجحف وحرام ، وهو لون من الميسر ، والاستسقام بالأزلام خلاف القرعة ، فالقرعة تكون بين اثنين متساويين ولا يريد أحدهما أن يظلم الآخر ، فيخرجا الهوى من الاختيار .

مثال ذلك : اثنان من البشر يملكان بيتاً ، وتحرى كل منهما العدل فى القسمة ويلجآن إلى القرعة بأن يكتب كل منهما اسمه فى ورقة ثم يضعا الورقتين فى إناء ضيق ويحضر طفل صغير لا يعرف المسألة ويغمض عينيه ويشد ورقة من الاثنتين ، فيأخذ كل واحد النصيب الذى حددته القرعة .

ومثال آخر : الرجل المتزوج بأكثر من واحدة ، عليه أن يقرع بين النساء إن أراد صحبة إحداهن فى سفر ، والقرعة هنا حتى لا تغضب واحدة من الزوجات ، وحتى لا يكون الهوى هو الحكم ، وبذلك يخرج من دائرة لوم مَن لا تخرج قرعتها .

ولنا فى رسول الله صلى الله عليه وسلم الأسوة الحسنة ، فعندما أراد صلى الله عليه وسلم ألا يكسر خاطر أى واحد من الأنصار عندما هاجر إلى المدينة ، وتطلع كل واحد من الأنصار إلى أن ينزل رسول الله فى بيته ، وحاول كل واحد أن يمسك بزمام الناقة وأن يجعلها تقف أمام بيته ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(خلوا سبيلها فإنها مأمورة)[1] .

فعندما تميل الناقة وتقف عند أى بيت لن يقول أحد : إن النبى آثر فلاناً على فلان . جعلها الرسول فى يد من لا يقدر أحد على أن يخالفه عليه ، وكذلك فالاستخارة غير الاستقسام . إذن فالاستقسام بالأزلام هو المحرم شرعاً ؛ لأنها عملية غير مناسبة وهى ظالمة ، ووردت هنا فى سياق ألوان الطعام .

ويقول سبحانه عن كل تلك الألوان من المحرمات ؛ إنَّ ارتكابها فسق . « ذلكم فسق » والفسق هو الخروج عن الطاعة . والمعانى ـ كما علمنا من قبل ـ مأخوذة من المحسّات ؛ لأن إلف الإنسان فى أول إدراكاته بالمحسات ، فهو يرى ويسمع ويشم ، وبعد ذلك تأتى الأمور العقلية .

وأصل الفسق هو خروج الرطبة عن قشرتها ؛ فالبلحة عندما تترطب تنكمش الثمرة داخل القشرة وتخرج منها عندئذ يقال : « فسقت الرطبة » أى خرجت من قشرتها ، وكذلك من يخرج عن منهج الله يسمونه فاسقاً ؛ تماماً مثل الرطبة ، وفى هذا رمزية تدل على أن شرع الله سياج يحيط بالإنسان ؛ فالذى يخرج عن منهج الله يكون فاسقاً . وإياك أيها المسلم أن تخرج عن شرع الله ؛ لأن الرطبة عندما تخرج عن القشرة فالذباب يحوم حولها ويصيبها التراب وتعافها النفس ، فَكَان دين الله كإطار يحمى الإنسان بالإيمان .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ، وأخرجه ابن كثير فى البداية والنهاية ، وابن سعد فى الطبقات الكبرى .

وهذه الأحكام كلها تبنى قضية الدين ، قضية عقدية فى الألوهية ، قضية البلاغ عن الألوهية بواسطة الرسالة . وأحكام تنظم حركة المجتمع بالعقود والأمانات والأنكحة وغيرها ، كل هذه الأحكام تصنع هيكل الدين العام . وقد مر هيكل الدين العام بمرحلتين : المرحلة المكية وكان كل هدفها التركيز على العقيدة والإيمان بوحدانية الله والنبوات والبلاغ عن الله ، وبعد ذلك فى المرحلة المدنية جاءت سورة النساء وسورة المائدة لتتكلما عن الأحكام .

وبالعقيدة وبالبلاغ عن الله وبالأحكام يكتمل الدين ؛ لذلك يقول الحق : « اليوم يئس الذين كفروا من دينكم » كأن الكافرين كان لهم أمل فى أن يحبطوا هذا الدين وأن يبطلوه وأن ينقضوه ، وكذلك المؤمنون بأديان سابقة أو بكتب سابقة كانوا يحبون أن يطرأ على القرآن الأفعال التى مارسوها مع كتابهم من النسيان والترك والتحريف ، وسبحانه هو القائل عن أصحاب الكتب السابقة :

﴿ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ ﴾

(من الآية ١٣ سورة المائدة)

إذن فقد أرادوا أن ينسى المسلمون ـ أيضاً ـ حظاً من القرآن ، لكن الحق يخبر بأنهم يئسوا أن ينسى المسلمون حظا مما ذكروا به ؛ لأن الصحابة حفظوا القرآن فى الصدور وكتبوه فى السطور ومن لسان الرسول مباشرة . ولم يحدث مثلما حدث مع الرسل السابقين . فقد تم تسجيل هذه الكتب المنزلة عليهم بعد ثلاثة أو أربعة قرون ، بل أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بكتابة القرآن من فور نزول كل نجم من الآيات ، وكان يأمر بوضع الآيات بترتيب معين .

إن على الذين كفروا أن ييأسوا من أن ينسى المسلمون حظاً مما ذكروا به . وهؤلاء القوم من أهل الكتاب لم ينسوا حظاً مما ذكروا به فقط ، بل أيضاً حرفوا الكتاب عن مواضعه وكتموا ما أنزل الله :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ ﴾

(من الآية ١٧٤ سورة البقرة)

وهم يئسوا من أن يكتم المسلمون ما أنزل الله ، بدليل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يأتى بحكم فى شىء ، ثم يغير الله ذلك الحكم ، فلا يستحى رسول الله أن يبلغ : أن الحكم الذى قلته لكم قد غيره الله لى . وهل يستنكف أن يعدل الله له ؟وهذا دليل على أمانة البلاغ عن الله ، لذلك يئس الكافرون بألوانهم المختلفة من أن ينسى المؤمنون حظا مما ذكروا به ؛ لأن تسجيل القرآن كان أمينا بصورة لا نهاية لها ، وظل القرآن مكتوباً فى السطور ومحفوظاً فى الصدور .

والحق يعلن عن يأس الكفار من مشركين وأهل كتاب بقوله : « اليوم يئس الذين كفروا من دينكم » يئسوا لأن المراحل التى مرت بالكتب السابقة لن تمر بهذا الدين . وقد توهم أهل الكتاب أن الإسلام سيمر بما طرأ عليهم ، وظن بعضهم أن المسلمين سيصيرون إلى ما صار إليه أهل الكتاب من ترك لدينهم وإهدار له . وكذلك ظن بعض كفار قريش أن المسلمين سيصيرون إلى ما صار إليه أهل الكتاب ، فقد كانت عندهم التوراة وهم مع ذلك لا يتبعون كتابهم ، فيرد الحق على كل هؤلاء : اليوم يئس الذين كفروا من دينكم » .

وقوله : « اليوم » يعنى الزمان الذى مضى والزمان المستقبل ، فقد أتم الله دين الإسلام ورضيه لنا وفتحت مكة للمسلمين ودخل الناس فى دين الله أفواجا . وصار القرآن مكتوباً ومحفوظاً . وبذلك تأكد يأس الكافرين والمشركين أن يُنسى القرآن أو أن يُكتم القرآن ؛ لأن من أنزل عليه الكتاب ، كان إذا جاء أمر يتعلق به فهو يقوله . وعندما مال قلب المسلمين ذات مرة إلى تبرئة المسلم الذى سرق وأن تلصق التهمة باليهودى البرىء ، هنا نزل من القرآن قوله :

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ ﴾

(سورة النساء)

لقد أمر الحق أن يكون النبى هو الحكم العدل حتى ولو كان حكماً ضد مسلم . ويأمر الحق رسوله أن يستغفر الله إن كان قد ألم به خاطر أن ينصر المسلم الخائن على اليهودى الذى لم يسرق ، إنها سماحة دين الإسلام .

« اليوم يئس الذين كفروا من دينكم » . ولقد تم دين الله . ودخل الناس إلى الإسلام أفواجا . ولن يُنسى القرآن . ولن يكتم القرآن أحد . ولن يحرف القرآن أحد . ولن يحدث للقرآن ما حدث للكتب السابقة من نسيان وكتمان وتحريف ، أو الإتيان بأشياء أخرى والقول والزعم بأنها من عند الله ، وهى ليست من عند الله . إذن فقد يئس الذين كفروا من أن يتزيد المسلمون فى دينهم . ولن توجد بين المسلمين تلك المثالب والعيوب التى ظهرت فى الأقوام السابقة .

« اليوم يئس الذين كفروا من دينكم » لقد يئسوا من أن يُغلب الإسلام ، بل إن الإسلام سَيَغْلب . وأرادوا أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره .

« اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم » وقد حكم سبحانه ألا يأتى أمر يحقق لأعداء الإسلام الشماتة به ، أو أن تتحقق لهم الفرصة فى انكسار الإسلام ، فلا تخشوهم أيها المسلمون لأنكم منصورون عليهم ، ولن تدخلوا فى أسباب الخيبة التى دخلوا فيها . وعليكم أيها المؤمنون بخشية الله .

ولو أراد أحد تغيير شىء من منهجه سبحانه فسيلقى العقاب ، وسبحانه لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، فكتاب الله معكم وترك فيكم رسول الله صلى الله عليه وسلم منهجه ، فإن خالفتم المنهج فستتلقون العقاب ، كما هزم الله المسلمين فى أُحد أمام المشركين لأنهم خالفوا المنهج . فما نفعهم أنهم كانوا مسلمين منسوبين للإسلام بينما هم يخالفون عن أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم . إذن فلا خشية من المسلمين لأعدائهم . ولكن الخشية تكون لله ، فإن خفتم فخافوا الله وحافظوا على تنفيذ منهج الله . ومادام سبحانه هو الآمر : لا تخش أعداء الله لأنه زرع فى قلوبهم اليأس من أن ينسى المسلمون المنهج ، أو أن يتزيدوا فى الدين ، أو يكتموا الدين ، فهم لا يحرفونه ولا يزيدون فيه . إذن فالعيب كل العيب ألا تطبقوا منهج الله .

« اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا فمن اضطر فى مخمصة غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم » والإكمال هو أن يأتى الشىء على كماله ، وكمال الشىء باستيفاء أجزائه ، واستيفاء كل جزء للمراد منه . وقد أتم الله استمرار النعمة بتمام المنهج .

لقد رضى الحق الإسلام ديناً للمسلمين . ومادام رضى سبحانه الإسلام منهجاً، فإياكم أن يرتفع رأس ليقول : لنستدرك على الله ؛ لأن الله قال : « أكملت » فلا نقص . وقال : « أتممت » فلا زيادة . وعندما يأتى من يقول : إن التشريع الإسلامى لا يناسب العصر . نرد : إن الإسلام يناسب كل عصر ، وإياك أن تستدرك على الله ؛ لأنك بمثل هذا القول تريد أن تقول : إن الله قد غفل عن كذا وأريد أن أصوب لله ، وسبحانه قال : « أكملت » فلا تزيد ، وقال : « أتممت » فلا استدراك ، وقال : « ورضيت » فمن خالف ذلك فقد غَلَّب رضاه على رضا ربه .

إن الخالق سبحانه هو أعلم بخلقه تمام العلم ، ويعلم جل وعلا أن الخلق ذو أغيار ، وقد تطرأ عليهم ظروف تجعل تطبيق المنهج بحذافيره عسيراً عليهم أو متعذراً فلا يترك لهم أن يترخصوا هم ، بل هو الذى يرخص ، فلا يقولن أحد : إن هذه مسألة ليست فى طاقتنا . فساعة علم الحق أن هناك أمراً ليس فى طاقة المسلم فقد خففه من البداية . ومادمنا ذوى أغيار ، وصاحب الأغيار ينتقل مرة من قوة إلى ضعف ، ومن وجود إلى عدم ، ومن عزة إلى ذلة ؛ لذلك قدر سبحانه أن يكون من المؤمنين بهذا المنهج الكامل من لا يستطيع القيام لمرض أو مخمصة ، فرخص لنا سبحانه وتعالى : « فمن اضطر فى مخمصة غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم » .

إذن فالحق قد ذكر أن شيئاً من الأغيار قد يطرأ على النفس البشرية ، ومادام استبقاء الحياة يتطلب القوت ، والإنسان قد يمر بمخمصة وهى المجاعة التى تسبب الضمور فى البطن ، هنا يرخص الحق للجائع فى مخمصة أن يأكل الميتة أو ما فى حكمها بشرط الاضطرار لاستبقاء الحياة ، فلا يقول واحد على سبيل المثال :

أنا مضطر لأن أتعامل مع البنك بالربا لأنى أريد أن أتاجر فى مائة ألف جنيه وليس معى إلا ألف جنيه . وهذا ما هو حادث فى كل الناس . هنا أقول : لا . عليك بالتجارة فى الألف التى تملكها ولا تقل أنا مضطر للتعامل فى الربا . فالمضطر هو الذى يعيش فى مجاعة وإن لم يفعل ذلك يموت أو يموت من يعول . وقد رخص الشرع للإنسان الذى لا يملك مالاً أن يقترض من المرابى إن لم يجد من يقرضه ليشترى دواء أو طعاماً أو شيئا يضطر إليه لنفسه أو لمن يعول . والإثم هنا يكون على المرابى ، لا على المقترض لأنه مضطر .

ولذلك قال الحق : « فمن اضطر فى مخمصة غير متجانف لإثم » ، أى أنه كاره للإثم وإن ذهب إليه . ولذلك يباح للمضطر على قدر دفع الضرورة . لدرجة أن رجال الشريعة قالوا : إن على الإنسان المضطر ألا يأكل من الميتة أو ما فى حكمها بالقدر الذى يشبع ، بل يأخذ أقل الطعام الذى يمسك عليه رمقه ويبقى حياته فقط . فإذا كان يسير فى الصحراء فعليه ألا يأخذ من الميتة أو ما فى حكمها إلاَّ قدراً يسيراً لأنه لا يجد شيئاً يتقوت به .

إذن فمعنى اضطر فى مخمصة شرط أن يكون غير متجانف لإثم ، أى لا يكون مائلاً إلى الإثم فرحا به ، فعليه ألا يأخذ إلا على قدر الضرورة . ومادام على قدر الضرورة فهو لن يحمل معه من هذه الأشياء المحرمة إلا ما يقيم أوده ويمسك روحه . والمضطر هو من فقد الأسباب البشرية . وسبحانه وتعالى قد بسط أسبابه فى الكون ومد بها يديه إلى خلقه ، وأمر الأسباب : استجيبى لهم مؤمنين كانوا أو كافرين ، فالذى يزرع ويحسن الزراعة والرى والبذر والحرث فالله يعطيه ، والذى يتقن عمله كتاجر تتسع تجارته وتزيد أرباحه .

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ﴾

(من الآية ٢٠ سورة الشورى)

إن عطاء الأسباب هو عطاء الربوبية . والمضطر هو من فقد أسبابه . ولذلك فالحق يجيب المضطر إذا دعاه . وقد يقول قائل : إننى أدعو الله ولا يجيبنى . ونقول : إنك غير مضطر لأنك تدعو ـ على سبيل المثال ـ بأن تسكن فى قصر بدلاً من الشقة التى تسكنها ، وأنت تدعو بأن يعطيك الله سيارة فارهة وأنت تملك وسيلة مواصلات عادية . فالمضطر ـ إذن ـ هو الذى فقد الأسباب ومقومات الحياة .

﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ ﴾

(من الآية ٦٢ سورة النمل)

وقد ضربنا من قبل المثل ـ ولله المثل الأعلى ـ بتاجر يستورد بضائع تصله من الخارج فى صناديق ثقيلة . تحملها السيارات الضخمة ، ويقوم أحد العمال أمامه بحمل صندوق ضخم ، فغلب الصندوق العامل . وهنا يقفز التاجر ليسند العامل .

وهذه هى المساندة فى المجال البشرى ، إذن فلا يَردّ واحد أسبابَ الله من يده ويقول من بعد ذلك : يارب أعنى ؛ لأن الله فى تلك اللحظة يوضح للعبد : إنّ عندك أسبابى ومادامت أسبابى موجودة ، فلا تطلب من ذاتى إلا بعد أن تنفد أسبابى من عندك ؛ لذلك يباح للمضطر أن يأخذ القدر الذى يردّ به السوء عن نفسه .

« فمن اضطر فى مخمصة غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم » ومادام سبحانه قد رخص لنا ذلك ، فما الداعى أن يذيل الآية بمغفرته ورحمته ؟ ولنفهم أن الإنسان يأخذ الغفر مرة على أنه ستر العقاب عنه ، وقد يكون الغفر سترَ الذنب عن العبد لأن الله رحيم . وهذا ما يشرح لنا ما قاله الحق لرسوله :

﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ ﴾

(من الآية ٢ سورة الفتح)

فسبحانه يغفر بستر العقاب ، ويقدم الغفر لستر الذنب فلا يقارفه الإنسان ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۙ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤﴾ ﴾

فبعد أن بين الحق ما حرم وما أحل ، نجد أن المحَلَّلَ غير محصور ، بل المحصور هو المحرم ؛ لأن الحق حينما حرم عشرة أشياء ، فإن هذه الأشياء العشرة ليست هى كل الموجودات فى الكون ، فالموجودات فى الكون كثيرة . وسبحانه وتعالى حين خلق آدم وجعله يتناسل ويتكاثر للخلافة فى الأرض ؛ قدر فى هذه الأرض مقومات استبقاء الحياة لذلك النوع .

والاستبقاء نوعان : استبقاء حياة الذات للإنسان ، واستبقاء حياة نوع الإنسان ، واستبقاء حياة الذات تكون بالتنفس والشراب والطعام ، واستبقاء حياة النوع تكون بالإنكاح والتناسل .

إذن يوجد بقاءان لاستمرار الخلافة : البقاء الأول : أن تبقى الحياة وذلك بمقوماتها ، والبقاء الثانى : أن يبقى نوع الحى وذلك بالتكاثر . وحتى تبقى الحياة ويتكاثر الإنسان لا بد من وجود أشياء وأجناس تخدم الإنسان وتعطيه الطاقة .

وطمأننا سبحانه وتعالى على الرزق حينما قال :

﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ ﴾

(سورة فصلت)

وهو بذلك يخبرنا بأنه قدر فى الأرض أقواتها ، وقدر هذه الأقوات للإنسان الخليفة فى الأرض ، لتقيت الإنسان لهذه الحياة ، ويُبقى الإنسان نوعه بالإنكاح . وحين يعد العبد النعم التى وفرها له الحق يجدها لا تحصى . ولم يحاول الإنسان على طول تاريخه أن يحسب ويحصى نعم الله فى الأرض ؛ لأن الإقبال على الإحصاء يكون نتيجة المظنة بالقدرة على الإحاطة بالنعم . وقد عرف الإنسان بداية أنه لا يقدر على الإحاطة بنعم الله ؛ فلم يجرؤ أحد على أن يعدها . ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾

(من الآية ٣٤ سورة إبراهيم)

وقد استخدم « إن » وهى للأمر المشكوك فيه . إذن فهى نعم كثيرة لا نقدر على إحصائها . ونسأل : أيقول الحق لنا النعم المحللة أم الأشياء المحرمة ؟ وبما أن المحلل كثير لا نهاية له ، وبما أن المحرم محصور ؛ لذلك يورد لنا الأشياء المحرمة . وقد بين لنا الحق عشرة أشياء محرمة من النعم . ونلاحظ أن الحق سبحانه وتعالى

حينما تكلم عن عدم قدرة الإنسان على إحصاء نعمه سبحانه وتعالى قال فى آية :

﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ ﴾

(سورة إبراهيم)

وقال فى آية أخرى :

﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ ﴾

(سورة النحل)

وظاهر كلام الناس يقول : إنها عبارات تقال وتتكرر ، ولكننا نقول : يجب أن ننتبه إلى أن النعمة تحتاج إلى من يعطيها وهو المُنعِم ، ومن تعطى له وهو المنعم عليه . إذن فنحن أمام ثلاثة عناصر : نعمة ، ومُنعِم ، ومُنْعَم عليه . أما من جهة النعمة وأفرادها فلن يقدر البشر على إحصائها لأنها فوق الحصر . ومن جهة المنعم فهو غفور رحيم . ومن جهة المنعم عليه فهو ظلوم كفار . لماذا يأتى الله لنا بمثل هذه الحقائق ؟

إنه سبحانه لو عاملنا بكفرنا وجحودنا وظلمنا لمنع النعمة ، ولكن استدامة نعمة الله علينا فضل منه ورحمة لأنها تشملنا حتى ولو كنا ظالمين وكنا كفارا ؛ لذلك كان من اللازم أن يأتى بهاتين الآيتين ، فمن ناحية النعمة لن نقدر على حصرها . ومن ناحية المنعم فهو غفور رحيم . ومن ناحية المنعم عليه فهو ظلوم كفار . ولذلك فعندما يرتكب الإنسان ذنبا فإن أهل الإيمان يقولون له : لا تيأس ؛ فربك هو ، هو ، إنه غفور رحيم . ولذلك لا تستحى أيها العبد أن تطلب من ربك شيئا على الرغم من معصيتك ، فالله غفور رحيم . وعندما ننظر إلى مقومات الأشياء ، فإننا نعرف المقوم الأساسى .

لكن هناك مقومات تخدم المقوم الأساسى . ومثال ذلك نحن نأخذ القمح وندرسه ، ونصنع من حبوب القمح دقيقا لنصنع منه خبزاً . ويحتاج القمح إلى مقومات كثيرة حتى يخرج من الأرض ـ وهو مقوم أساسى ـ إن القمح يحتاج إلى رى منتظم وحرث وخلاف ذلك ، إذن فالذى خلقنا قدر لنا هذه الأشياء ، ومادام قد قدر لنا كل هذه الأشياء ، فعلينا أن نسمع تعاليمه . وهو قد أوضح : إياك أن تظن أن كل ما خلقت من خلق فأنا مُحِلّه لك ؛ لأنى قد أخلق خلقاً ليس من طبيعته أن

تتناوله ، وليس من طبيعتك أن تتناوله ، ولكن لهذا المخلوق عمل فيما تتناوله كالحرث والرى والتسميد للقمح ، إنها وسائل وأسباب للحصول عليه . فإذا ما قال قائل : مادام هو سبحانه قد خلق هذه المحرمات فلماذا حرمها ؟

ونقول : هذه الأشياء ليس لها عمل مباشر فيك ولكن لها عمل آخر فى الكون . وإذا كنا نحن البشر نصنع آلة ما ، ويقول المخترع لنا : قد صممت هذه الآلة ـ على سبيل المثال ـ لتدار بالديزل ، وآلة أخرى تدار بالبنزين ، والبنزين أنواع ، ولو جئنا للآلة التى تدار ببنزين ووضعنا لها سولارا ، ما الذى يحدث لها ؟ إنها تفسد ، هذا فى المجال البشرى فما بالنا بخالق البشر ؟

لقد صنع الحق صنعته وهى الإنسان ووضع المواصفات التى تسير هذه الآلة ، وعلينا أن نخضع لتعاليمه حتى لا تفسد حياتنا فلا نخرج عن تلك التعاليم ؛ لأنك عندما تخالف وتخرج عما وضعته لصنعتك من نظام ، فالآلة التى من صناعتك تفسد .

وفى حياتنا آلاف الأمثلة . . فالذى صنع الكهرباء ووضع العلامات للأسلاك السالبة والأسلاك الموجبة ، لنأخذ الضوء أو الحركة . وإذا ما حدث خطأ فى هذه التوصيلات الكهربية ؛ نفاجأ بحدوث قطع فى الكهرباء ، وقد تحدث حرائق نتيجة شرارة من الاتصال الخاطىء .

إذن فكل تكاثر وإنجاب من كل سالب وموجب أى ذكر وأنثى لا بد أن يكون على مواصفات من صنعه وإلا يحدث قطع ودمار ، فإن تزوجنا بشرع الله ورسوله ، استقامت الحياة ، وإن حدث شىء على غير شرع الله ، تشتعل الحرائق فى الكون .

ولذلك تجد العجب أمامك عندما تشهد عقد قران ، تجد ولى الزوجة وهو مبتسم منشرح يوجه الدعوات للناس لأن شابا جاء يتزوج ابنته ويقدم الحلوى ، لكن لو كانت هذه العروس تجلس فى المنزل وحاول شاب أن يتلصص لرؤيتها ، فما الذى يحدث فى قلب والدها ؟ إنه يغلى من الضيق والغضب والتوتر ومن الذى يتلصص لأنه ذهب إلى الفتاة بغير ما أحل الخالق . لكن عندما يدق الباب ويخطبها من أبيها ؛

فالأب يفرح ، فقد جاء فى الأثر : (جدع الحلال أنف الغيرة) .

ونجد الأب ينتقل من موقف الغيرة إلى موقف الفرح يوم زفاف ابنته ، وتذهب الأم صباح اليوم التالى للزفاف لترى حالة ابنتها ولتطمئن ، هل الابنة سعيدة أو لا ؟ إذن . فلا يقولن أحد:إن الله خلق أشياء فلماذا حرمها ؟، لأن الله خلق تلك الأشياء ولها عمل فيما أحل ، ومادام سبحانه قد جعل لهذه الأشياء عملاً فيما أحل . فليس لك دخل إلا بالحلال .

ولذلك يقول الحق رداً على تساؤل المؤمنين : « يسألونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات » أى أن كل طيب قد حلله الله ، وكل خبيث حرمه الله ، فلا تقولن : هذا طيب فيجب أن يكون حلالاً ، وهذا خبيث فيجب أن يكون حراما ، ولكن قل : هذا حلال فيجب أن يكون طيبا ، وهذا حرام فيجب أن يكون خبيثا . وإياك أن تحكم أولا بأن هذا طيب وهذا خبيث ثم تبنى على ذلك التحريم والتحليل ، فأنت لا تعرف مثلما يعرف خالقك عن كيفية وجدوى ترتيب الأشياء بالنسبة لك ، حتى لا تقع فى دائرة الذين يستطيبون المسائل الضارة ؛ كهؤلاء الذين يتناولون المخدرات والسموم والخمور ، بل يجب أن تحرص على فهم ما أحل الله فستراه طيبا ، وترفض ما حرم الله لأنه خبيث ، فلا تظن أبداً أن كل طيب ظاهريا محلل لك ؛ لأن هذا الشىء الطيب فى ظاهره قد يكون خبيثا .

وعليك أن تترك تحديد الطيب والخبيث لخالقك ، فهو أدرى بك وبالمناسب لك . أمّا أنت فتعرف الشىء الطيب من تحليل الله له . وتعرف الخبيث من تحريم الله له . والحكم هنا يكون للتكليف ، فالله هو الذى خلق ، والله هو الذى يعلم الصالح للإنسان . فالمسألة إذن ليست العناصر ؛ ولكنها إرادة الخالق لتلك العناصر ، فهو الذى قدر فهدى .

الخلاصة إذن فى هذا الموضوع هى : أن الحق أحل للمؤمنين الطيبات وكل شىء أحله الله يكون طيباً ، وكل شىء حرمه الله يكون خبيثاً ، فلا تنظر أنت إلى الآراء البشرية التى يقول بعضها على شىء إنه طيب فيكون حلالاً ، وإن ذلك الشىء خبيث فيكون حراماً ، فأنت وغيرك من البشر لا يعرفون ترتيب الأشياء ولا فائدتها

ولا مضرتها بالنسبة لك . والدليل : أن البشر يتدخلون فى بعض الأحيان فى تحريم أشياء بالنسبة لبعضهم البعض ، فنجد الطبيب يقول للمريض : أنت مريض بالسكر فلا يصح أن تتناول النشويات والسكريات .

فإذا كنا نسمع كلام الطبيب وهو من البشر ، أفلا يجدر بنا أن نستحى ونستمع لأمر الخالق ؟! بل نتجاسر ونسأل : لماذا حرمت علينا يا رب الشىء الفلانى ؟ وقد يخطىء الطبيب لكن الله لا يمكن أن يخطىء . فهو ربنا المأمون علينا ، فما أحله الله يكون الطيب وما حرمه يكون الخبيث ، وهذه قضية يتعرض لها أناس كثيرون ، فعلى سبيل المثال نسمع من يستشهد الاستشهاد الخاطىء وفى غير موضوعه بقول الحق :

﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾

(من الآية ٢٨٦ سورة البقرة)

ويقول : إن عملى يأخذ كل وقتى . ولا فسحة عندى لإقامة الصلاة ، والله لم يكلفنا إلا ما فى الوسع . ونقول : وهل أنت تقدر الوسع وتبنى التكليف عليه ؟ لا . عليك أن تسأل نفسك : أكلفك الله بالصلاة أم لا ؟ . فإذا كان الحق قد كلفك بالصلاة ، وغيرها من أركان الإسلام فهو الذى علم وسع الإنسان فى العمل . ويجب أن تقدم التكليف أولاً لتعرف طاقة الوسع من بعد ذلك . وكذلك أسأل نفسك عما حلله الله واعرف أنه طيب وما حرمه الله فهو خبيث .

« يسألونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات » وإذا سألنا ما تلك الطيبات ؟ عرفنا أنها غير ما حرم الله ، فكل غير محرم طيب ، أو أنهم سألوا عن أشياء سيكون الجواب السابق هو الإجابة الطبيعية لها ، وقدم الله الإجمال الذى سبق أن شرحناه . وبعد ذلك يكون المسئول عنه فى مسألة الصيد بالكلاب ، فجاء لهم بالبيان فى مسألة الصيد بالكلاب . وكانت تلك مسألة مشهورة عند العرب فى الجاهلية ، وكذلك صيد الطيور . فقال : « قل أحل لكم الطيبات وما علمتم من الجوارح » فقد وضع الحق القضية العامة أولاً ، ثم خصص بعد ذلك .

لقد كانت مسألة صيد الجوارح موضوع سؤال من عدى بن حاتم ـ رضى الله عنه ـ عن الصيد بالكلاب وبالطيور . وعلينا أن نحسن الفهم عن القرآن بحسن

الفهم عن النص ، فالحق يقول هنا : « أحل لكم الطيبات وما عَلَّمْتُم من الجوارح » فهل الكلاب والفهود والنمور التى تصطاد بواسطتها هى المحللة لنا لأننا علمناها الصيد ؟ لا . « أحل لكم الطيبات » هى قضية منتهية . وبعد ذلك فهنا كلام جديد هو : « وما علمتم من الجوارح مكلبين تعلمونهن مما علمكم الله فكلوا مما أمسكن عليكم » .

إذن فالذى أُحل هو ما أمسكت ما علمت من الجوارح ، وليست الجوارح التى يعلمها الإنسان ، أى أن الحق أحل لنا الطيبات وأكل ما أمسكت علينا الكلاب التى علمناها الصيد . و« الجوارح » مفردها « جارح » ومعناها « كاسب » ، ولذلك تسمى أيدينا جوارح ، وعيوننا جوارح ، وآذاننا جوارح ؛ لأننا نكسب بها المدركات . فالعين جارحة تكسب المرئى ، والأذن جارحة تكسب المسموع . والأنف جارحة تكسب المشموم . واللمس جارحة لأننا نكسب بها الملموس . ويقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ﴾

(من الآية ٦٠ سورة الأنعام)

و« ما جرحتم » أى ما كسبتم ، إذن فالجارحة هى الكاسبة . وقوله الحق : « وما علمتم من الجوارح » مقصود به الحيوانات التى نعلمها كيف تصطاد لنا ، وسميت جوارح ، لأنها كاسبة لأصحابها الصيدَ ، فالإنسان يطلقها لتكسب له الصيد ، أو أنها فى الغالب تجرح ما اصطادته . وكلا المعنيين يصح ويعبرٍ .

والأصل فى ما عَلّم الإنسان من الجوارح هو الكلاب ، وألحق بالكلاب غيرها مثل الفهود والنمور والصقور . والحق قال : « وما علمتم من الجوارح مكلبين تعلمونهن مما علمكم الله » أى ما بذلتم من جهد فى تدريب هذه الجوارح للصيد ، فالإنسان لا يطلق الكلب أو الصقر ليصطاد ، لكنه يقوم ـ أولاً ـ بتدريب الحيوان على ذلك .

ومثال ذلك : عندما يقوم مدرب القرود بتدريب كل قرد على الألعاب المختلفة ، وكذلك مدرب « السيرك » الذى يقوم بتدريب الأسود والفيلة ، فهذا الفيل الضخم يقف بأربعة أرجل على اسطوانة قطرها متر واحد ، وذلك كله ممكن بالتدريب بما علمكم الله وألهمكم أيها البشر وبما أعطاكم من طول البال وسعة الحيلة .

وننتبه هنا إلى نقطة هامة : إن الإنسان يقوم بتدريب الحيوان على ألعاب ومهام مختلفة ولكن الفيل ـ على سبيل المثال ـ لا يقدر على تدريب ابنه الفيل الصغير على الألعاب نفسها . وهذا هو الفارق بين الإنسان والفيل ، فابن الإنسان يتعلم من والده وقد يتفوق عليه ، لكن تدريب الحيوان مقصور على الحيوان نفسه ولا يتعداه إلى غيره من الحيوانات من الجنس نفسه أو الذرية فلا يستطيع الحيوان الذى دربّته وروّضته وعلمته أن ينقل ذلك إلى ذريته ونسله فلا يستطيع أن يعلم ابنه .

وكلمة « مكلب » تعنى الإنسان الذى يعلم الكلاب ويدربها على عملية الصيد . وقال البعض : إن « مكلب » أى الرجل الذى يقتنى الكلاب ؛ لكنا نقول : إن الإنسان قد يقتنى الكلاب لكنه لا يقوم بتدريبها ، إذن المكلب هو الذى يحترف تدريب الكلاب ، ومثله مثل سائس الخيل الذى يدرب الخيل ؛ فالحصان يحتاج إلى تدريب قبل أن يمتطيه الإنسان أو قبل أن يستخدمه فى جر العربات .

ولماذا ذكر الله « المكلبين » ولم يذكر مدربى الفهود ؟ . لأن الغالب أن الكلب شبه مستأنس ، أما استئناس الفهد فأمر صعب بعض الشىء . و« مكلبين » تعنى المنقطعين لتعليم الكلاب عملية الصيد . ويعرف معلم الكلاب أن الكلب قد تعلم الصيد بأنه إذا ما أغراه بالصيد فإن الكلب يذهب إليه . وإذا ما زجره المدرب فهو يرجع من الطريق . وإذا ما ذهب الكلب إلى الصيد بعد تعليمه وتدريبه وأمره المدرب أن يحمل الصيد ويأتى ؛ فالكلب يطيع الأمر . ويأتى بالصيد سليماً ولا يأكل منه . فهذه أمارة وعلامة على أن الكلب تعلم الصيد ويمكن تلخيصها فى هذه الخطوات : إذا أرسلته للصيد ذهب ، وإذا زجرته انزجر ، وإذا استدعيته جاء ويأتى بالصيد سليماً لا يأكل منه . فإن أكل الكلب من الصيد فهو غير معلم ؛ لأنه أمسك الصيد على نفسه ، ولم يمسكه على صاحبه . ولذلك حدد الحق عملية الصيد بقوله عن الحيوانات التى تؤدى هذه المهمة : « مما أمسكن عليكم » .

ومن ضمن عملية التدريب هناك إطار إيمانى ، فالتدريب العضلى هو عملية يعلمها المكلِّب للكلب ، أما الإطار الإيمانى فهو ذكر اسم الله على الصيد : « واذكروا اسم الله عليه » وذلك حتى يكون الصيد حلالاً ، ولا يقع فى دائرة « ماأهل لغير الله به » . وإذا ما هجم الكلب على الصيد وقتله ، يكون الصيد حلالاً ، إن كان

صاحب الكلب قد قال : « بسم الله والله أكبر » قبل أن يرسل الكلب إلى الصيد . وإن لم يذكر اسم الله فعليه أن ينتظر إلى أن يعود الكلب بالصيد ، فإن كان فى الصيد الحياة فليذكه أى يذبحه ، ويذكر اسم الله ، وإن مات الصيد قبل ذلك فلا يأكل منه . وكذلك إذا ما اصطاد الإنسان بالبندقية . . إن ذكر اسم الله أولاً وقبل أن يطلق الرصاصة فليأكل من الصيد .

« يسألونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات » هذه هى القضية العامة ، ومن بعد ذلك يحدد لنا الحق ألا نأكل الكلاب ، ولكن هذه الكلاب التى نعلمها الصيد وتصطاد لنا ما نأكله بشرط أن تذكر اسم الله على الصيد قبل إطلاق الكلب للصيد ، أو بعد أن تذبح الصيد الذى اصطاده الكلب ، فذكر اسم الله مسألة أساسية فى تناول النعم ، لأننا نذكر المذلل والمسخر ، ولا يصح أن نأخذ النعمة من وراء صاحبها دون أن نتذكره بكلمة .[1] .

ويذيل الحق الآية بقوله : « واتقوا الله إن الله سريع الحساب » وتقوى الله فى هذا المجال تعنى ألا يؤدى الإنسان هذه الأمور شكلياً ، وعلى المؤمن أن يتقى الله فى تنفيذ أوامره بنية خالصة ودقة سلوك ؛ لأنه سبحانه سريع الحساب بأكثر من معنى ، فمهما طالت دنياك فهى منتهية . ومادام الموت هو نهاية الحياة فالحياة قصيرة بالنسبة للفرد . وإياك أن تستطيل عمر الدنيا ؛ لأن عمر الدنيا لك ولغيرك فلا تحسب الأمر بالنسبة إليك على أساس عمر غيرك الذى قد يطول عن عمرك . إذن مدة الحياة محدودة ، ومادام الموت قد جاء ، فعلى المؤمن أن يتذكر قول رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« إذا مات أحدكم فقد قامت قيامته »[2] .

والإنسان منا يعرف من خبر القرآن أن الموت مثل النوم . لا يعرف الإنسان منا كم ساعة قد نامها ، ونعرف من خبر أهل الكهف أنهم تساءلوا فيما بينهم :

﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ

---

(١) وذهب بعض الفقهاء إلى حل الأكل من الذبيحة أو الصيد الذى لم يذكر اسم الله عليه واكتفى بالتسمية عند الأكل ، هذا إذا لم يكن الذبح أو الصيد قد أهل بِه لغير الله .

(٢) ابن أبى الدنيا فى الموت وأخرجه المتقى الهندى فى كنز العمال ، والزبيدى فى اتحاف السادة المتقين .

يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ ﴾

(من الآية ١٩ سورة الكهف)

إذن هم لم يتبينوا أنهم ناموا ثلاثمائة عام وتسعة أعوام إلا بعد أن سألوا، وكذلك من يموت فهو لن يدرى كم مات إلا يوم البعث . أو أنه سبحانه سريع الحساب أى أن له حساباً قبل حساب الآخرة ، وهو حساب الدنيا . فعندما يرتكب العبد المخالفات التى نهى عنها الله ، ويأكل غير ما حلل الله ، فهو سبحانه قادر على أن يجازى العبد فى الدنيا فى نفسه بالأمراض أو التعب أو المرض النفسى ، ويقف الأطباء أمام حالته حائرين . وقوله الحق : « إن الله سريع الحساب » يصح أن تكون السرعة فى الحساب فى الدنيا ويصح أن تكون فى الآخرة .

أو أنه سبحانه سريع الحساب بمعنى أنه يحاسب الجميع فى أقل من لمح البصر ، فالبعض يظن ظناً خاطئاً أنهم سيقفون يوم القيامة فى طابور طويل ليتلقى كل واحد حسابه . لا ، هو سبحانه يحاسب الجميع بسرعة تناسب طلاقة قدرته . ولذلك عندما سئل الإمام على ـ كرم الله وجهه ـ : كيف سيحاسب الله كل الناس فى وقت واحد ويقال إن مقداره كنصف يوم من أيام البشر ؟ . فقال الإمام على : فكما يرزقهم جميعاً فى وقت واحد هو قادر على حسابهم فى وقت واحد .

فسبحانه لم يجعل البشر تقف طابورا فى الرزق ، بل كل واحد يتنفس وكل واحد يأكل ، وكل إنسان يسعى فى أرض الله لينال من فضله . ولا أحد بقادر على أن يحسب الزمن على الله ؛ لأن الزمن إنما يُحسب على الذى يحدث الحدث وقدرته عاجزة ، لذلك يحتاج إلى زمن .

إننا عندما ننقل حجراً متوسط الحجم من مكانه فإن ذلك لا يكلف الرجل القوى إلا بعضاً من قُوَّته ، لكن هذا العمل بالنسبة لطفل صغير يحتاج إلى وقت طويل ، فما بالنا بخالق الإنسان والكون ؟ وما بالنا بالفاعل الذى هو قوة القوى ؟ هو لا يحتاج إلى زمن ، وهو سريع الحساب بكل المعانى .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟
ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ
ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ
إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ
وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ
عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٥﴾ ﴾

سبحانه يبدأ الآية بتكرار الأمر السابق : « اليوم أحل لكم الطيبات » . وأعادها حتى يؤكد على أن الإنسان لا يصح أن ينظر إلى الأمر الطيب إلا من زاوية أنه محلل من الله .

وبعد أن تكلم الحق سبحانه عن كيفية تناول المحللات ، وأسلوب التعامل مع الصيد . تأتى هنا لوقفة ، فسبحانه يقول : « وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم » فهل كل طعام أهل الكتاب حل لنا ؟ إن بعضهم يأكل الخنزير . لا ، بل الحلال من طعام أهل الكتاب هو الطعام الذى يكون من جنس ما حلل الله لكم ، ولا يستقيم أن يستنكف الإنسان من أنه طعام أهل كتاب ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يجعل من الإنسان الذى ارتبط بالسماء ارتباطا حقيقيا كالمسلمين ، ومن ارتبطوا بالسماء وإن اختلف تصورهم لله ، يريد سبحانه أن يكون بينهم نوع من الاتصال لأنهم ارتبطوا جميعا بالسماء ، ويجب أن يعاملوا على قدر ما دخلهم من إيمان باتصال الأرض بالسماء .

إياك أن تقول بمقاطعة أهل الكتاب لا ، ولكن انظر إلى طعامهم فإن كان من جنس الطعام المحلل فى الإسلام فهو حلال . ولا يصح أن تمنع واحداً من أهل الكتاب من طعامك ؛ لأن الله يريد أن ينشىء شيئا من الألفة يتناسب مع الناس الذين سبق أن السماء لها تشريع فيهم ويعترفون بالإله وإن اختلفوا فى تصوره .

وضرب لنا ـ سبحانه ـ المثل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ففى أول مجىء الدعوة الإسلامية ، واجهت معسكرا ملحدا يعبد النار ، ولا يؤمن بالإله وهو معسكر فارس ؛ ومعسكراً يؤمن بالإله وهو معسكر الروم ؛ كانت هناك قوتان فى العالم : قوة شرقية وقوة غربية . وعندما يأتى رسول ليأخذ الناس إلى طريق الله ، فلا بد أن يكون قلبه وقلوب المؤمنين معه مع الذين آمنوا بإله وبمنهج ورسالة ، ولا يكون قلبه مع الملاحدة الذين يعبدون غير الله .

ولنر العظمة الإيمانية فى الرسول عليه الصلاة والسلام . نجد الذين يؤمنون بالله ويكفرون به كرسول أولى عنده ممن يكفرون بالله . ولذلك عندما قامت الحرب بين فارس والروم كانت الغلبة أولا لفارس . وكانت عواطف الرسول والذين آمنوا معه مع الروم ؛ لأنهم أقرب إلى معسكر الإيمان الوليد وإن كانوا يكفرون بمحمد فقد كانوا يؤمنون بالله ، وأن هناك منهجا وهناك يوم بعث ، ولذلك يضربها الحق مثلا فى القرآن ليعطينا عدة لقطات ، وأولى هذه اللقطات هى أن المسلمين فى جانب من عنده رائحة الإيمان ، فيقول سبحانه :

﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ﴿٣﴾
فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصۡرِ
ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ ﴾

(سورة الروم)

وتبدأ هذه الآيات بخبر عن هزيمة الروم ، ثم نبوءة من الحق بأنهم سيغلبون فى بضع سنين . ويوم نصرهم سيفرح المؤمنون بنصر الله . وتنظر القوة الإسلامية التى جاءت لتؤسس دينا واسعا جامعا مانعا إلى معركة بين دولتين عظميين كلتيهما على أقصى ما يكون من الرقى الحضارى ، هذه القوة الإسلامية تتعاطف مع الروم وتحزن ـ القوة الإسلامية ـ لأن الفرس قد غَلَبت . فيأتى الحق بالخبر اليقين وهو سَتَغْلِبُ الروم .

وبالله من الذى يستطيع أن يحكم فى نهاية معركة بين قوتين عظميين ؟ إنه حكم لا يستغرق يوما ، حتى ولو كان قائله عرف أن هناك مددا قادما للقوة التى ستنتصر ،

إنه حكم يستغرق بضع سنين . فمن الذى يستطيع أن يتحكم فى معركة ستحدث بعد بضع سنين ؟ لا يستطيع الرسول صلى الله عليه وسلم أن يجازف بهذا الحكم ، وهو لا يعرف استعدادات كل قوة وحجم قواتها وأسلحتها ، لكن الأمر يأتى كخبر موثق من الله :

﴿ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِى بِضْعِ سِنِينَ ﴾

(سورة الروم)

وهذا كلام موثق ، لأنه قرآن مسطور يقرأه المؤمنون تعبداً . وعندما سمع أبو بكر الصديق هذه الآية ، قال : لقد أقمت رهاناً بأن الروم ستنتصر بعد ثلاث سنين ، وطالبه الرسول صلى الله عليه وسلم أن يمد مدة الرهان لأن الله قال : « فى بضع سنين » والبضع ما بين الثلاث إلى التسع ، ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم لسيدنا أبى بكر ـ رضى الله عنه ـ فزايده فى الخطر ومادّه فى الأجل فجعلت مائة قلوص (ناقة) إلى تسع سنين . كأن هذا الأمر قد لقى الوثوق الكامل من المؤمنين ؛ لأن الله سبحانه وتعالى قد أخبر بالنصر .

لقد أوردنا ذلك هنا حتى نفهم أن عواطف الرسول صلى الله عليه وسلم كانت مع الذين يؤمنون بكتاب وبرسول . ونحن هنا نجد الحق يحلل لنا مطاعمة أهل الكتاب حتى تكون هناك صلة بيننا وبين من يؤمن بإله وبمنهج السماء : « وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم » .

وأوضح الحق سبحانه ذلك فى آيات أخرى حينما قال :

﴿ لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٨ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٩ ﴾

(سورة الممتحنة)

فسبحانه يريد أن نوازن فى أسلوب تعاملنا فلا نساوى بين ملحد مشرك ومؤمن بصلة السماء بالأرض وإن كفر برسول الله . وأن يكون هناك قدر محدود من التواصل الإنسانى . فالذى يحل للمؤمنين من طعام أهل الكتاب هو الذى يكون حلالا فى منهج الإسلام . ويجب أن ينتبه المسلم إلى أن بعض أطعمة أهل الكتاب تدخلها الخمور وعليه الامتناع عن كل ما هو محرم فى ديننا وليأكل من طعامهم ما هو حلال لدينا . فلا يشرب المسلم خمراً ، ولا يأكل المؤمن لحم الخنزير .

والطعام كما نعلم وسيلة لاستبقاء الحياة . وها هوذا ينتقل إلى استبقاء النوع وهو التناسل ؛ فقد أحل الله لنا أن نتزوج من بناتهم « والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذى أخدان » .

والمحصنة لها معنيان : وهى إما أن تكون الحرة فى مقابل الأمة ، وإما أن تكون المتزوجة ؛ لأن الإحصان يعنى الوقاية من أن تختلط اختلاطا غير شريف . وكانت الحرة قديما لا تفعل الفعل القبيح . وكان البغاء مقصورا على الإماء ؛ لأن الأمة لا أب لها ولا أخ ولا عائل ، وهى مُهْدَرة الكرامة . ولذلك نجد أن هنْدا زوجة أبى سفيان عندما سمعت عن الزنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم تساءلت : يا رسول الله أَوَ تزنى الحرة ؟! كأن الحرة لم تكن لتزنى فى الجاهلية ؛ لأن الحرة تستطيع أن تمتنع عكس غيرها .

والمحصنة أيضاً هى المتزوجة . ويساوى الحق بين المحصنة من المؤمنات والمحصنة من أهل الكتاب ، والمراد هنا الحرة العفيفة ويشترط وضع المهر لكل واحدة منهن . وبعض العلماء يقول : عندما تتزوج مسلمة يكفى أن تسمى لها المهر ، لأن الدين الواحد يعطى الأمان العهدى ، أما الزواج من كتابية فيجب أن يحدد الإنسان المهر وأن يقرره وأن يوفى بذلك . فالإيتاء هو أن يسمى الإنسان المهر ويقرره ويشهد عليه الشهود . ويستطيع أن يجعل الإنسان المهر كله مؤخراً . والشرط أن يكون الرجل محصناً أى متعففاً .

ويحدد الحق : « غير مسافحين ولا متخذى أخدان » أى صدائق لهم دون زواج ،

والسفح هو الصب . والمرأة البغى هى من يسفح معها أى رجل ، والخدن هى الخليلة أو العشيقة دون زواج ، والخدن كذلك يطلق على الذكر كما يطلق على الأنثى . وإياك أن تفكر فى أمر إقامة علاقة زواج متعة ، بل لا بد أن يكون الإقبال على الزواج بنية الزواج التأبيدى لا الزواج الاستمتاعى .

ويقول الحق من بعد ذلك : « ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله وهو فى الآخرة من الخاسرين » ؛ لأن فائدة الإيمان أن يستقبل المؤمن الأحكام ممن آمن به إلها وينفذها . فإن سترت شيئا من أحكام الله التى آمنت بها فقد كفرت بالإيمان . والحق لا يضره أن يكفر الناس جميعا ؛ لأنه هو الذى خلق الخلق بداية وهو متصف بكل صفات القدرة والكمال .

إذن فالعالم كله لا يضيف إلى الله شيئا ، فقبل أن يخلق الله الإنسان كانت كل صفات الكمال موجودة لله . وكل ثمار الطاعة والعبادة والإيمان إنما تعود على الإنسان . فإن جاء الإنسان إلى الأحكام التى شرعها الله له ، وستر حكما منها فكأنه كفر بقضية الإيمان . وإن أنكر جزئية من جزئيات الإيمان ، فهذا لون من الكفر ، ويا ليت من يفعل ذلك أن يقول : « إن هذه الجزئية صحيحة ولكن لا أقدر على نفسى » .

ففى هذه الحالة يكون الإنسان مؤمنا عاصيا يستغفر الله أو يتوب ، أما الكفر فلا . والكفر بالإيمان يؤدى إلى حبط العمل . وهذا دليل على أن الحق يخاطب إنسانا يلتزم فى بعض الأشياء ولا يلتزم فى البعض الآخر . وهنا يوضح الحق للإنسان : إن ما أديت من خير فى أعمالك سيذهب بثوابه ويحبط جزاءه ما منعت تنفيذه من أحكام الله ، وجاء الحق بكلمة « حبط » التى تدل على أن العمل بطل وذهب ذهابا لا يعود . فالماشية حين تأكل طعاما لم ينضج بعد وإن كان من جنس ما تطعم مثل البرسيم فى بدايته ويسمى « الرِّبة » ، هذا اللون من الطعام عندما ترعى فيه البهائم يحدث لها انتفاخ فى البطن وتموت .

والعرب تسمى هذا الداء الحُباط . فالحَبَط إذن هو انتفاخ البطن فى الماشية التى تأكل أكلا غير مناسب لها . ويظن صاحبها أنها قد سمنت بينما هى تموت فى الواقع .

وكذلك يكون العمل على غير ما شرع الله . والحق بدأ قضايا الإيمان فى هذه السورة بقوله :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ ﴾

(من الآية ١ سورة المائدة)

فكل عقد إيمانى يتعلق بالوحدانية لله وبالبلاغ عن الله ، وكل عقد عُقد بين المؤمنين بعضهم بعضا ، وكل عقد عقده الإنسان بينه وبين نفسه ؛ هذه العقود مطلوب الوفاء بها ، ومن يكفر بهذه الأشياء فقد حبط عمله . وحبط العمل يأتى نتيجة أن الإنسان أنهى عمله وختمه بهذا اللون من الكفر وظن أنه عمل عملا صالحا . لكن العمل يحبط تماما كما تذهب البهيمة لترعى شيئا لا يتناسب معها فينتفخ بطنها . فيخيل للرائى أن ذلك شبع وأن ذلك عافية ، ثم لا تلبث أن تنفق وتموت . كذلك عمل الذى يكفر بالإيمان ، يظن أنه عمل شيئا ولكن ذلك الشىء متلف له . والآيات القرآنية تكلمت عن هذا المعنى كثيرا ؛ فالحق يقول عن الكافرين بالله :

﴿ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا ﴾

(من الآية ٣٩ سورة النور)

ونعلم أن السراب هو شىء من انعكاسات الضوء يخدع الرائى السائر فى الصحراء فيظن أنه ماء ، ويسير إليه الإنسان فلا يجده ماء ، هكذا يكون عمل الذى يكفر بآيات الله . إنها أعمال تبدو متوهمة النفع . وقول الحق سبحانه : « ووجد الله عنده » أى أن مثل هذا الإنسان يفاجأ بوجود الله ، كأن مسألة وجود الإله لم تكن بخياله من قبل ، والإنسان لا يأخذ أجره إلا لمن عمل له . فهل عمل الواحد من هؤلاء لله حتى يأخذ منه أجراً ؟. لا . لم يعمل لله ، ولذلك نجد أن بعض السطحيين فى الفهم يقولون : كيف لا يجزى الله الجزاء الحسن هؤلاء العلماء الذين اخترعوا العلاجات للأمراض ، والعلماء الذين ابتكروا الأشياء التى تنفع الناس ؟ كيف لا يحسن الله جزاءهم فى الآخرة ؟

ونقول : لقد فعلوا ذلك ولم يكن الله فى بالهم ، كان فى بالهم الإنسانية ، وقد أعطتهم الخلود فى الذكرى وأقامت لهم التماثيل ومنحتهم أوسمة ووضعت فيهم

المؤلفات لتمدحهم . هم قد عملوا للناس فأعطاهم الناس . وهؤلاء الكافرون بتقدمهم فى العلوم ؛ مسخرون للإنسان المؤمن ؛ فالمؤمن يستفيد من الكهرباء ، وينتفع بها المسلمون ليقرأوا القرآن والعلم والذكر . ويستفيد المسلم من الطائرات فيذهب بها إلى الحج وزيارة المدينة المنورة ، وينتفع بها كذلك فى شئون دنياه ، وعلى المؤمنين أن يأخذوا بالأسباب حتى لا يكونوا أذلة وعالة على غيرهم . والحق يسخر علم الكفار للمؤمنين ، ولا يثاب الكفار على هذا العمل من الله . ولذلك يقول الحق عن أعمالهم مرة :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَـٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ ﴾

(سورة النور)

ومرة أخرى يقول الحق :

﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَـٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَـٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾ ﴾

(سورة إبراهيم)

وها هوذا سبحانه وتعالى يقول :

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَـٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ﴾

(سورة الكهف)

إذن فالإنسان الذى يستر الإيمان بعضه أو كله ، هو إنسان حابط العمل ، وهو فى الآخرة من الخاسرين ؛ لأن النجاح فى الآخرة نتيجة لعمل الدنيا . ومادام قد عمل لغير الله فى الدنيا فلا بد أن يكون من الخاسرين فى الآخرة .

وقوله الحق : « وهو فى الآخرة من الخاسرين » يوضح لنا ضرورة ألا نخدع ويغرر

بنا لأن بعضاً من الكافرين يكسب بعضاً من الشهرة والجاه والثروة نتيجة اختراعاتهم ؛ فكل ذلك أمور فانية ، وهم مستسلمون لسنة الله ، فإما أن يفوتهم النعيم وإما أن يفوتوا النعيم . والحساب الختامى يكون فى الآخرة ، فالكافر وإن أخذ شيئاً من الكسب فى ظاهر هذه الحياة الدنيا فهو خاسر فى الآخرة .

وبعد ذلك ينتقل الحق ليربط لنا كل قضايا الدنيا رباطاً وافياً . فبعد أن يتكلم عن مقومات الحياة وعن مقومات النوع بالإنكاح وغيره ، يوضح : كل هذه نعم أعطيتها لكم وأريد أن آخذ بأيديكم بعد أن بينت لكم فضل هذه النعم عليكم ؛ لتلتقوا بصاحب كل هذه النعم . هو سبحانه يريد أن يأخذنا من مشاغل الدنيا لنلقى المنعم . وحتى تلقى أيها المسلم الإله المنعم ـ سبحانه ـ فلا بد أن تعد نفسك لهذا اللقاء ؛ لأنها ليست مسألة طارئة ؛ فلا بد من الإعداد الروحى والإعداد البدنى والإعداد المكانى والإعداد الزمانى .

إن الإعداد البدنى يكون بالطهارة . والإعداد الزمانى هو مواقيت الصلاة . والإعداد المكانى هو وجود مكان طاهر لإقامة الصلاة وإعداد اتجاهى بتحديد وجهة الصلاة إلى القبلة . وهذه كلها مواصفات تهيىء النفس البشرية للوقوف بين يدى من أنعم على الإنسان بكل النعم . ولذلك نقول : إن الصلاة إعلان استدامة الولاء الإيمانى للخالق الممد المنعم ؛ فهو الذى خلق من عدم وأمد من عدم . وقد فرض الحق سبحانه وتعالى الصلاة خمس مرات فى اليوم ؛ ليقطع على الإنسان سبيل الغفلة عنه . وإذا ما أراد الإنسان أن يلقى الله فى الأوقات التى بين الصلوات ؛ وأراد أن يعلن استدامة الإيمان وهو يقوم بأى عمل غير الصلاة فليذكر الله ؛ لأننا نعرف القاعدة الشرعية القائلة :

[ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب] .

مثال ذلك أن الإنسان حين يصلى فهو يحتاج إلى قوة . والقوة تتولد فى الجسم نتيجة تناول الطعام . إذن عملية صناعة الطعام أمر واجب وكل ما يترتب على ذلك عملية واجبة . ولذلك عندما يأتى واحد ويقول : أريد أن أنقطع للعبادة وأعتزل حركة الحياة . لنقل له : افعل ذلك بشرط واحد هو ألا تنتفع بحركة متحرك واحد

فى الحياة ، ولا تتناول أى طعام ، ذلك أن الرغيف الذى يقدمه لك إنسان هو من عمل بشر كثيرين لم ينقطعوا عن الحياة . ولنقل أيضاً : لماذا ترتدى هذا الجلباب ؟ . إنه نتيجة حركة حياة بشر آخرين ، فهناك من زرع القطن وآخر حلج هذا القطن وثالث حوله إلى غزل ورابع نسجه وخامس قام بتفصيل هذا الجلباب . ولتنظر إلى ما خَلْف كل واحد من آلات . وإياك أن تنتفع بحركة واحد مشغول بالأسباب مادمت قد قررت الانقطاع عن حركة الحياة .

إن الشغل بالأسباب عبادة ؛ لأن العبادة لا تتم إلا به . وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب . ولذلك فَتَعَلُّم المهارات المفيدة للحياة هو فرض كفاية ؛ والفرض الواجب على الإنسان : أحد اثنين : إما فرض عين وهو الأمر المكلف به الفرد ولابد أن يؤديه ولا يجوز أن يؤديه أحدٌ نيابة عنه ؛ كالصلاة ، وإما فرض كفاية : وهو ما لا يتم الواجب إلا به لذلك كان واجباً ، فكل منا يريد الطعام .

لذلك لا بد من تقسيم العمل ، فهذا يزرع وهذا يصنع ، فلا بد من زراعة القمح ولا بد من إقامة المطاحن ولا بد من إقامة الأفران . ولا بد من مهندسين يصممون هذه الآلات . وكل ذلك أمور تسهل للإنسان أن يمتلك القوة لأداء الصلاة ؛ وأن يقف بين يدى الحق ليؤدى الصلاة . إذن فكل ذلك أمر واجب ، وهو فرض كفاية . أى أنه فرض إذا قام به البعض سقط عن الباقين ، وإن لم يقم به بعضنا يكون الإثم على الجميع .

ومثال آخر هو الصلاة على الميت هى فرض كفاية ، فمن يصلى على الميت فهو يؤدى عنا ، وإن لم يصل أحد على الميت يكون الإثم على كل مسلم ، هكذا تتسع رقعة الإثم . وكل الأعمال التى لا يتم الواجب إلا بها فهى واجب ، ولذلك فهى فرض كفاية ، إن قام به البعض سقط الطلب عن الباقين ، وإن لم يقم به البعض فالإثم على الجميع .

وما موقف ولى الأمر فى هذا ؟ . على ولى الأمر أن يفرض القيام بفرض الكفاية على أحد الناس ، وإلا تعطلت الواجبات التى نقول عنها : إنها واجبات دينية . فحين يذهب المسلم إلى السوق فلا يجد خبزاً ؛ يضعف ولا يملك الفكاك من

المجاعة ؛ ولن يقدر على الصلاة أو العمل لينتج أو يجد ادخاراً يكفيه أن يحج . إذن : ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب ؛ لذلك نجد الحق سبحانه وتعالى حينما حثنا على أداء الصلاة فى يوم الجمعة يقول :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٩ ﴾

(سورة الجمعة)

هو سبحانه يخرجنا من العمل إلى الصلاة ، ولم يخرجنا إلى الصلاة من فراغ ، لنلتفت إلى دقة الأداء القرآنى حين يقول الحق : « وذروا البيع » وحين يذر الإنسان البيع ، فهو يذر الشراء من باب أولى ؛ لأن البيع والشراء وجهان لعملية واحدة . والخلاف فقط أن المشترى قد يشترى السلعة وهو كاره لأن يشترى ؛ لأنه يستهلك نقوده فيما يشتريه ، أما البائع فيريد أن يحصل على ثمن البيع فوراً ، وغالبا ما يحصل على ربح من وراء ذلك ، وتلك هى قمة الكسب . فكسب الزارع ـ على سبيل المثال ـ يأتيه بعد شهور من الزراعة . وكسب الموظف يأتيه أول الشهر . لكن البائع يحصل على الكسب فوراً . ولذلك يأمرنا الحق أن نذر البيع إذا سمعنا نداء الصلاة يوم الجمعة ، وماذا بعد انتهاء الصلاة ؟ .

ها هوذا الحق يقول :

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝١٠ ﴾

(سورة الجمعة)

إذن فلا يقولن أحد أنا منقطع طوال حياتى للصلاة . فلن يستطيع أحد أن يذهب إلى الصلاة ما لم يكن يملك مقومات حياته . ومقومات الحياة تقتضى أن يضرب الإنسان فى الأرض . ولا بد أن يبتغى الإنسان من فضل الله . إذن ، فالسعى فى الأرض هو عبادة ؛ لأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب . ويريد الحق سبحانه وتعالى ألا يعزل قضية تتعلق بمقومات الحياة طعاماً وإنكاحاً عن الصلاة . فيأتى الحق سبحانه وتعالى بشروط الوضوء استعداداً للصلاة بعد أن يتحدث عن

أحكام تحليل الأطعمة وتحريم بعضها ، وبعض من أحكام النكاح ، وذلك لنعرف أن مسئوليات الإيمان كلها مترابطة ، فلا يصح أن نعزل عملاً ونقول: هذا عمل تعبدى وذاك عمل غير تعبدى .

والمؤلفون عندما يضعون الكتب فى الفقه ويخصصون أقساماً فى هذه الكتب للعبادات وأقساماً للمعاملات ، فهذا التقسيم تقسيم تصنيفى تأليفى ، لكن كل ما يطلبه الكون لينصلح فهو عبادة لخالق هذا الكون ، بدليل أنه قال : « فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع » وهذا أمر . ويتلوه أمر آخر : « فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض » .

إن الإنسان لا ينفذ أمراً ويهمل أمراً آخر ، ولكن عليه بمقتضى الإيمان أن ينفذ الأمرين معاً ، فإن تأخر الإنسان فى أى من الأمرين فهو مذنب ؛ لذلك يخبرنا سبحانه ـ من بعد الحديث عن النعم التى أنعم بها علينا ـ بما أحل لنا من بهيمة الأنعام ، وبما قص علينا من الزواج من المحصنات ؛ ها هوذا يدخلنا إلى رحابه بالاستعداد للصلاة لأنه واهب كل النعم . ويأمرنا بالاستعداد للصلاة وأن يعد كل واحد منا نفسه لها .

وهذا الإعداد يؤهل المسلم ليلقى الحق فقال :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ

فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم
مِّنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ
وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ
تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾

سبحانه يأمرنا بوضوح محدد : إذا أردتم القيام إلى الصلاة فلا بد لكم من تنفيذ عملية الوضوء .

وتتعرض الآية إلى الأركان الأساسية فى الوضوء . وقد يلتبس الأمر على بعض الناس ولا يستطيع أن يميز بين سنن الوضوء وأركان الوضوء ؛ لأن السنن تقتضى أن يغسل الإنسان يديه ثم يتمضمض ، ثم يستنشق الماء وهكذا . هذه هى السنن التى تمتزج بالأركان الأساسية للوضوء .

ويبدأ الحق أركان الوضوء الأساسية بقوله : « فاغسلوا وجوهكم » والغسل يتطلب إسالة الماء على العضو وأن يقطر منه الماء بعد ذلك . والمسح هو اللمس بالماء ليصيب العضو ولا يتقطر منه الماء ؛ إنه مجرد بلولة بالماء . والحق سبحانه وتعالى حينما تكلم فى هذه الآية عن الوضوء ، تكلم عن أشياء تُغسل وعن شىء يُمسح . فالأمر بالغسل يشمل الوجه واليدين إلى المرافق والرجلين إلى الكعبين . والأمر بالمسح يشمل بعض الرأس . والغسل قد يكفى مرة أو اثنتين أو ثلاثا ليتأكد الإنسان تماما من الغسل ، ولكن إذا كانت المياه قليلة فيكفى أن يغسل الأجزاء المطلوبة مرة وأن يتأكد أنه قد غسل المساحات المطلوبة .

إن الزيادة على المرة الواحدة إلى ثلاث مرات أمر مسنون لا واجب وغسل الوجه معروف تماما للجميع ، فالوجه هو ما به المواجهة . والمواجهة تكون من منبت الشعر إلى الذقن ، وتحت منتهى لحييه وهما العظمان اللذان تنبت عليهما الأسنان السفلى ، هذا فى الطول، وفى العرض يشمل الوجه ما بين شحمتى الأذنين. ولا أحد يختلف فى

تحديد الوجه ، ولذلك أطلق الحق الوجه ولم يعينه بغاية ، فلم يقل : اغسل وجهك من كذا إلى كذا ؛ ولكنه أمر بغسل الوجه ، فلا اختلاف فى مدلول الوجه لدى الجميع . والكل متفق عليه ، هذا إذا ما بدأنا بالفروض الأساسية . لكن إذا ما بدأنا بالسنن فنحن نغسل الكفين إلى الرسغين أولا ثم نتمضمض ونستنشق .

وبعض العارفين بالله يقول عن هذه المقدمات التى هى من السنن : إنها لم تأت اعتباطا ؛ لأن تعريف الماء هو : السائل الذى لا لون له ولا طعم ولا رائحة ، وإن تغير أى وصف من هذه الأوصاف يَكون السائل قد خرج عن المائية . فساعة تأخذ الماء بيديك ستطمئن على لون الماء ، وتعرف أنه لا لون له ، وعندما تتمضمض فأنت تطمئن إلى أنه لا طعم له ؛ وعندما تستنشق فأنت تطمئن على أن الماء لا رائحة له ، وبذلك تطمئن إلى أن الماء الذى تستعمله فى الوضوء يكون قد استوفى الأوصاف قبل أن تبدأ فى عمل المطلوب من أركان الوضوء التى يطلبها الله ، والسنة تقدمت هنا على الأركان لحكمة هى أن توفر للإنسان الثقة فى الماء الذى يتوضأ منه . وبعد ذلك يغسل الإنسان الوجه من منابت شعر الرأس وتحت منتهى لحييه وذلك طولا وما بين شحمتى الأذنين عرضًا .

وبعد غسل الوجه قال الحق : « وأيديكم إلى المرافق » وميز الحق هنا الأيدى بتحديد المساحة المطلوب غسلها بأنها إلى المرافق ، أى أنه زاد غاية لم توجد فى الوجه ، ولكن جاء الأمر بغسل اليدين إلى المرافق ؛ لأن اليد تطلق فى اللغة ويراد بها الكف ، مثال ذلك فى حكم الحق على السارق والسارقة :

﴿ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا ﴾

(من الآية ٣٨ سورة المائدة)

وتطلق اليد أيضا ويراد بها الكف والساعد إلى المرفق . وتطلق اليد أيضا ويراد بها إلى الكتف . فلليد ثلاث إطلاقات . ولو أن الحق قد أمر بغسل اليد ولم يحدد الغسل بـ « إلى المرافق » لغسل البعض كفيه فقط ، وغسل البعض يديه إلى المرافق ، ولغسل البعض يديه إلى الكتفين ؛ ولأن الحق يريد غسل اليد على وجه واحد محدد ؛ لذلك قال : « وأيديكم إلى المرافق » .

إذن فساعة يريد الحق شيئا محددا ، فهو يأتى بالأسلوب الذى يحدده تحديدا يقطع

الاجتهاد فى هذا الشيء . وكلمة « إلى » تحدد لنا الغاية ، كما أن « مِن » تحدد الابتداء ، ولكن هل تدخل الغاية هنا أم لا ؟ هل تدخل المرافق فى الغسل أم لا ؟ إنَّ « إلى » قد تدخل الغاية ومرة أخرى لا تدخل الغاية .

فمثال إدخالها الغاية قوله تعالى :

﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ ﴾

(من الآية ١ سورة الإسراء)

هل أسرى الحق برسوله صلى الله عليه وسلم إلى المسجد الأقصى ولم يدخله ؟ لا أحد يعقل ذلك . إن « إلى » هنا تقتضى أن تدخل الغاية ؛ لأن الرسول صلى الله عليه وسلم كان قد ذهب إلى المسجد الأقصى بمراد الإسراء إليه والدخول والصلاة فيه . ويقول سبحانه :

﴿ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ﴾

(من الآية ١٨٧ سورة البقرة)

فهل يدخل الليل فى الصيام ؟ لا ، لأننا لو أدخلنا الليل فى الصوم لصار فى الصيام وصالٌ أى نصل الليل بالنهار صائمين . إذن فمع « إلى » تجد الغاية تدخل مرة ، وتجدها لا تدخل مرة أخرى . واختلف بعض العلماء حول المرفق هل يدخل فى الغسل أو لا ؟ وصار فى عموم الاتفاق أن يدخل المرفق فى الغسل احتياطيا ؛ لأن أحداً لا يستطيع تحديد المرفق من أين وإلى أين . ونعرف أن هناك احتياطات للتعقل ، فمرة نحتاط بالاتساع ومرة نحتاط بالتضييق .

مثال ذلك عندما نصلى فى البيت الحرام . ونحن نعرف أن الكعبة بناء واضح الجدران ، وبجانب جدار من جدران الكعبة يوجد الحطيم وهو حجر إسماعيل وهو جزء من الكعبة يحيطه قوس . وعندما يصلى إنسان حول الكعبة ، هل يتجه إلى الحطيم أم إلى بناء الكعبة ؛ لأنه مقطوع بكعبيته ، والاحتياط هنا احتياط بالنقص ، فنتوجه إلى الكعبة وهى البناء العالى فقط ، ولكن عند الطواف . فإننا نطوف حول

الكعبة والحطيم ، أى ان الاحتياط هنا يكون بالزيادة ؛ لأننا إذا ما طفنا حتى من وراء المسجد فهو طواف حول البيت الحرام .

إذن فالاحتياط يكون مرة بالنقص ومرة يكون بالزيادة . وفى مجال الوضوء يكون غسل المرافق هو احتياط بالزيادة ؛ ذلك أن « إلى » تكون الغاية بها مرة داخلة ، ومرة تكون الغاية بها غير داخلة .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى من بعد ذلك : « وامسحوا برءوسكم » الأسلوب هنا يختلف ؛ فالمطلوب هو المسح . كان المطلوب أولاً هو الغسل للوجه على اطلاقه ؛ لأنه لا خلاف على الوجه ، ثم غسل اليدين إلى المرافق ، وتم تحديد الغاية لأن الحق يريد الغسل لليدين على لون يقطع الجدل والاجتهاد فيه . ولو قال الحق : « امسحوا رءوسكم » مثلما قال : « اغسلوا وجوهكم » لما كان هناك خلاف . لكن لو قال : « امسحوا بعض رءوسكم » فهل يوجد خلاف ؟ نعم فذلك البعض لم يحدد . ولو قال : « امسحوا ربع رءوسكم » فهل يوجد خلاف ؟ نعم قد يوجد خلاف لأن تحديد الربع عسير وشاق .

لماذا إذن اختار الحق هنا هذا الأسلوب « امسحوا برءوسكم » مع أن فى الآية أساليب كثيرة ، منها أسلوب مجرد عن الغاية ، وأسلوب موجود به الغاية ، وهذا الأسلوب لا هو مجرد ولا هو موجود به الغاية ؟ وقال الحق : « امسحوا برءوسكم » ولنا أن نبحث عن كيفية استعمال حرف (الباء) التى تسبق « رءوسكم » .

إن « الباء » فى اللغة تأتى بمعان كثيرة . قال ابن مالك فى الألفية :

بالباء استعن وعد عوض الصق
ومثل « مع » و« من » و« عن » بها انطق

ومقصود بها أن تعطى الحرية للمشرع ؛ لأن الباء تأتى لمعان كثيرة ، للاستعانة مثل : كتبت بالقلم ، ولتعدية الفعل اللازم نحو : ذهبت بالمريض إلى الطبيب ، وللتعويض مثل : اشتريت القلم بعشرين جنيها ، والالتصاق نحو : مررت بخالد ، وتأتى بمعنى « مع » مثل : بعتك البيت بأثاثه أى مع أثاثه ، وبمعنى « من » مثل : شرب بماء النيل أى من ماء النيل ، وبمعنى « عن » مثل قوله تعالى : « سأل سائل بعذاب واقع » أى عن عذاب واقع ، وتأتى أيضا للظرفية نحو : ذهبت إلى

فلان بالليل أى فى الليل ، وتكون للسببية نحو : باجتهاد محمد منح الجائزة أى بسبب اجتهاده ، إلى غير ذلك من المصاحبة نحو : « فسبح بحمد ربك » أى سبح مصاحبا حمد ربك .

إن الذى يقول : امسحوا بعض رءوسكم ولو شعرة ، فهذا أمر يصلح ويكفى وتسعفه الباء لغة ، والمسح يقتضى الإلصاق ، والآلة الماسحة هى اليد . وهناك من يقول: نأخذ على قدر الأداة الماسحة وهى اليد أى مسح مقدار ربع الرأس .

إذن كل حكم من هذه الأحكام يصلح لتمام تنفيذ حكم مسح الرأس ، ولو أن الله يريدها على لون واحد لأوضح ما أراد ، فإن أراد كل الرأس لقال : « امسحوا رءوسكم » كما قال : « فاغسلوا وجوهكم » ، وإن كان يريد غاية محددة ، لحدد كما حدد غسل اليدين إلى المرفقين . ومادام سبحانه قد جاء بالباء ، والباء فى اللغة تحتمل معانى كثيرة ؛ لذلك فمن ذهب إلى واحدة منها تكفى ، لأن أى غاية محتملة بالباء أمر صحيح .

والأمر هنا أن يتفهم كل منفذ لحكم محتمل ألا يُخَطِّىءَ الحكم الآخر . بل عليه أن يقول : هذا هو مقدار فهمى لحكم الله . والله ترك لنا أن نفهم بمدلول الباء كما أرادها فى اللغة . وقد خلقك الحق أيها الإنسان مقهورا لأشياء لا قدرة لك فيها ؛ كحركة الجوارح ، وكالأشياء التى تصيب الإنسان كالموت .

إن هناك أشياء أنت مخير فيها ، ولذلك كان تكليف الحق لك مبنيا على هذا ؛ ففى أشياء يقول لك : « افعل كذا » أو « لاتفعل كذا » وفى أشياء أخرى يترك لك حرية التصرف فى أدائها . وذلك حتى يتسق التكليف مع طبيعة التكوين الإنسانى . فلم يَصُب الله الإنسان فى قالب حديدى . ولنا فى سلوك الرسول صلى الله عليه وسلم القدوة الحسنة ؛ هذا الرسول الذى أوكل إليه الحق إيضاح كل ما غمض من أمور الدين ؛ فقال له الحق :

﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة النحل)

وحينما كان الرسول صلى الله عليه وسلم مع المؤمنين فى غزوة الأحزاب التى قال عنها الحق :

﴿ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ ﴾

(سورة الأحزاب)

هذه المعركة كانت قاسية ، حرك الحق فيها الريح وتفرق فيها أعداء الإسلام ، وصرف الحق الأحزاب ورجع الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة . وكان من المفروض أن يرتاح المؤمنون المقاتلون . لكن قبل أن يخلعوا ملابس الحرب جاء جبريل إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وقال : أوَ قد وضعت السلاح يا رسول الله ؟ قال : نعم : فقال جبريل : فما وضعت الملائكة السلاح بعد ، وما رجعت الآن إلا من طلب القوم ، إن الله عز وجل يأمرك يا محمد بالمسير إلى بنى قريظة فإنى عامد إليهم فمزلزل بهم . فـ (أمر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مؤذنا فأذن فى الناس : « لا يصلين أحدٌ العصرَ إلا فى بنى قُريظة فأدرك بَعْضِهُم العصرُ فى الطريق ، فقال بعضهم لا نصلى حتى نأتيها وقال بعضهم بل نصلى لم يُرِدْ منا ذلك فذُكر للنبى صلى الله عليه وسلم فلم يُعَنِّف أحدًا منهم »[1] .

هى مسألة كبرى إذن . والتزاما بأمر النبوة خرج الصحابة إلى مواقع بنى قريظة . وكادت الشمس تغرب وهم فى الطريق ؛ وانقسموا إلى قسمين ؛ قسم قال : ستغيب الشمس ولم نصل العصر فلنصله قبل أن تغيب الشمس . وقال القسم الثانى : لقد أمرنا النبى ألا نصلى العصر إلا فى بنى قريظة ، ولن نصليه إلا هناك وإن غابت الشمس . وصلى القسم الأول ولم يصل القسم الثانى .

وعندما ذهبوا إلى المشرع وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم وذكروا له الأمر لم يعب على أى جانب منهم شيئا ، وأقر هذا وأقر ذاك . وتلك فطنة النبوة ، فالنبى صلى الله عليه وسلم يعلم أن كل حدث من الأحداث يتطلب زمانا ويتطلب مكانا ، والذين صلوا نظروا إلى عنصرية الزمن ، وخافوا أن تغيب الشمس قبل ذلك . والذين لم يصلوا نظروا إلى عنصرية المكان فلم يصلوا العصر إلا فى مواقع بنى قريظة . وأقر رسول الله الأمرين معا .

إن هذا يدلنا على أن هناك أشياء يتركها الحق قصدا دون تحديد قاطع لأنه يحبها على أى لون ، مثال ذلك أن فعل من يمسح ربع رأسه فى الوضوء جائز ، وفعل من يمسح رأسه كلها جائز ، وجاء الحق بالباء الصالحة لأى وجه من وجوه مسح الرأس ،

---

(١) رواه البخارى فى صلاة الخوف وفى المغازى .

وكذلك شأن الخلافات فى الأمور الاجتهادية . وإذا كانت القاعدة الشرعية تقول : « لا اجتهاد مع النص » فهذا لا يكون إلا مع النص الذى لا يحتمل الاجتهاد .

وليس كل التشريع هكذا ؛ لأنه سبحانه أوضح ما لا يحتمل الاجتهاد ، وأوضح ما يحتمل الاجتهاد ؛ وحينما كلف الله عبده الإنسان بتكليفات ، إنما كلفه بما يتناسب وتكوينه ، وكما أن تكوين الإنسان فيه أشياء هو مقهور عليها . فهناك الأحكام التى لا اختيار له فيها ، وهناك أمور اختيارية ، وما وصل إليه المجتهد هو حق وصواب يحتمل الخطأ ، وما وصل إليه غيره خطأ يحتمل الحق والصواب . وكل ما وصل إليه طرف من الاجتهاد حق لأن النبى صلى الله عليه وسلم صوّب من صلى العصر قبل أن يصل إلى أرض بنى قريظة ، وصوب كذلك من صلى العصر بعد أن وصل إلى مواقع بنى قريظة . فالرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ اعتبر فعل كل فريق منهما صوابا .

ويقول الحق من بعد الأمر بمسح الرأس : « وأرجلكم » . وكان سياق النص يقتضى كسر اللام فى « أرجلكم » ولكن الحق جاء بالأرجل معطوفة على غسل الوجه واليدين . وغير معطوفة على « برءوسكم » وهذا يعنى أن الرجلين لا تدخلان فى حيز المسح ؛ إنما تدخلان فى حيز الغسل .

ونبه الحق بالحركة الإعرابية على أنها ليست معطوفة على الجزء المصرح بمسحه ، ولكنها معطوفة على الأعضاء المطلوب غسلها . ولم يأت الحق بالممسوح فى جانب والمغسول فى جانب ليدل على أن الترتيب فى هذه الأركان أمر تعبدى وإلا لجاء بالمغسول معا والممسوح معا ، ويحدد الحق أيضا غسل الرجلين إلى الكعبين : « وأرجلكم إلى الكعبين » . والرجل تطلق على القدم ، وتطلق على القدم والساق إلى أصل الفخذ . ويريد سبحانه غسل الرجلين محدودا إلى الكعبين .

وحتى نعلم أن هذه مسائل تعبدية ؛ عرفنا أن اليد تطلق على الكف ، ومن أطراف الأصابع إلى الكتف يطلق عليه « يد » أيضا ، والمرفق فى اليد هو الحد الوسط ، و« الكعبين » هو الحد الأول فى الساق ؛ لأن الوسط بعد الساق هو الركبة . إذن . ترتيب المسألة فى اليدين كف وساعد وعضد ؛ والمرفق فى وسط اليد ، وفى الرجلين يقف الأمر عند الحد الأول وهو الكعبان . هى ـ إذن ـ مسألة تعبدية وليست مسألة قياسية .

ويبين الحق لنا أنه إذا أراد أمراً بدقة فهو يحدده بلا تدخل أو خلاف . أما إذا جاء بأمر غير واضح فهو إذْنٌ منه سبحانه أن نجتهد فيه لنشعر أن لنا بعض الاختيار فى بعض ما تعبدنا الله به ، وكله داخل فى مرادات الله ؛ لأن إيراد النص ـ شاملا ـ لكل المفهومات هو إذْنٌ بهذا المفهوم وإذْنٌ بذلك المفهوم .

« فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برءوسكم وأرجلكم إلى الكعبين وإن كنتم جنبا فاطهروا » . إنّ الوضوء شرع لغير الجنب . أى أنه لمن يُحْدِث حدثا أصغر . وهناك فرق بين إخراج ما ينقض الوضوء وهو ما يؤذى ، وبين إخراج ما يُمتع ، فإنزال المنى أو حدوث الجماع يقتضى الطهارة بالاغتسال . ونعلم أن الإنسان حين يستمتع بطعام ؛ أو يستمتع برائحة ، أو بأى شىء هو محدود بوسيلة الاستمتاع به ، أما الاستمتاع بالجماع فلا يعرف أحد بأى عضو أدرك لذته . وهى مسألة معقدة إلى الآن . ولا يعرف أحد كيف تحدث ، مما يدل على أن جميع ذرات التكوين الإنسانى مشتركة فيها . ومادام الأمر كذلك فالطهور يقتضى أن يغسل الإنسان كل جسمه :

« وإن كنتم جنبا فاطهروا وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم » .

وقد يقول قائل : أليست « لامستم النساء » كالجنابة ؟

ونقول : إن الذى يجىء هنا هو حكم ثان يوضح لنا ما ينوب عن المياه ، لأن الحق يرتب لِعبادة لا تسقط عن المكلف أبداً ، لذلك لن يكلفه بشىء قد لا يجده ، فقد لا يجد الإنسان المياه ، وعليه إذن بالتيمم ؛ لأن الصلاة عبادة لا تسقط أبدا عن المكلف حتى فى حالة مرضه الذى لا يستطيع أن يحرك معه أى عضو من جسمه ، هنا يسمح سبحانه للمريض أن يصلى جالسا ، أو مستلقيا أو يصلى بالإيماء برأسه ، أو يصلى بأهداب عينيه ، وحتى مريض الشلل عليه إجراء خواطر الصلاة وأركانها على قلبه ؛ لأن فرض الصلاة عبادة لا تسقط أبدا عن الإنسان مادام فيه عقل .

إننا نعرف أن الصلاة هى الركن الوحيد من أركان الإسلام الذى يتطلب الاستدامة ، فيكفى المرء أن يقول الشهادة مرة واحدة فى العمر ، ويسقط الصوم عن

الإنسان إن كان مريضا ، ويطعم غيره ، أو يؤديه فى أوقات أخرى إن كان مريضا مرضا مؤقتا أو على سفر . وقد لا يؤدى الإنسان الزكاة لأنه فقير ، وكذلك الحج لا يجب على من لم يملك الاستطاعة من مال أو عافية ، ولا تبقى من أركان الإسلام غير الصلاة فإنها لا تسقط أبداً .

إن عظمة الصلاة توضحها كيفية تشريعها ؛ لأن تشريعات أركان الإسلام كانت بالوحى ، أما تشريع الصلاة فقد جاء وحده بالمباشرة ولم يقل الله لجبريل : « قل للنبى التكليف بالصلاة » . بل استدعى الله النبى صلى الله عليه وسلم إليه وكلفه بالصلاة .

وقلنا من قبل ـ ولله المثل الأعلى ـ حين يريد الإنسان أن يقدم أمراً لمرءوسيه ، فالموضوع قد يأخذ دوره فى الأوراق اليومية التى تنزل منه إليهم . أما إذا كان الموضوع مُهمًا فهو يتصل بالقائد التنفيذى للمرءوسين ويوضح مدى أهمية الموضوع ، أما إذا كان الموضوع غاية فى الأهمية فالرئيس يستدعى القائد التنفيذى للمرءوسين ويبلغه أهمية الموضوع . إذن فكيفية إنزال التكليف تكون على قدر أهمية الموضوعات فما بالنا ـ إذن ـ بركن استدعى الله فيه محمداً إلى السماء ليكلفه به ؟

وقد رأينا أن بعض التكليفات تجىء إلى رسول الله بالإلهام أن يفعله ، وبعضها جاء بالوحى من جبريل أن يفعله ، أما الصلاة فقد فرضها الله عندما استدعى محمداً إلى السماء إلى الرفيق الأعلى وفرض الله عليه الصلاة بالمباشرة ، وعلى أمة محمد أن تؤدى هذا الفرض خمس مرات فى اليوم ، ولا تسقط أبداً . ولذلك جعلها الحق فارقة بين المسلم والكافر ، إن المسلم ساعة أذان الصلاة يقوم إلى الصلاة ، وهى استدعاء من الخالق لمن خلقه ليحضر فى حضرته كل يوم خمس مرات . وأنت حر بعد ذلك ألا تبرح لقاء ربك ! ولا يمل الله حتى يمل العبد .

وإياكم أن تجعلوا للزمان مع الله تخطيطا ؛ فتقولوا : هذا للعمل والضرب فى الأرض ، وذلك لذكر الله ؛ فمع ضربكم فى الأرض لتبتغوا من فضل الله ، إياكم أن تنسوا الله ؛ لأن ذكر الله أمر دائم فى كل حركة يقصدها الإنسان لعمارة هذا الوجود ، وقد أراد الحق منا بوجودنا أن نعبده وحده لا شريك له :

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ ﴾

(سورة هود)

إذن فكل ما يؤدى إلى عمارة الكون والارتقاء به هو أمر عبادى ، والحق سبحانه وتعالى يربط « العبادة » الاصطلاحية فى الفقه بحركة الحياة كلها . ونجد مثالا لذلك حينما تكلمنا فى سورة البقرة عن الأسرة كما جاء فى قوله تعالى :

﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾ ﴾

(سورة البقرة)

ذلك أمر الدنيا ومصالح الأسرة ، وهو كلام فى شئون تنظيم الأسرة ، ثم ينقلنا من بعد الكلام فى تنظيم الأسرة إلى أمر نقول عنه إنه العبادة وهو قوله الحق :

﴿ حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ۖ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾ ﴾

(سورة البقرة)

ثم يعود بعد ذلك إلى شئون تنظيم الأسرة فيقول سبحانه :

﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ﴾

(من الآية ٢٤٠ سورة البقرة)

إذن فقد أخرجنا من كلام فى نظام الأسرة إلى الصلاة ، ثم عاد بنا مرة أخرى إلى نظام الأسرة حتى تتداخل كل الأمور لتكون عبادة متماسكة متحدة فلا تقول : « هذه عبادة وتلك ليست عبادة » ، وأيضا ؛ لأن الكلام فى الصلاة وسط كلامه عن أمور الأسرة ينبهنا : إذا ذهبت إلى الصلاة فربما هدَّأت الصلاة من شِرة غضبك وحماسك ونزلت عليك سكينة تعينك ألا تنسى الفضل بينك وبين زوجك .

فى هذه السورة ـ سورة المائدة ـ صنع الحق معنا مثلما صنع فى سورة البقرة ؛ فبعد أن تكلم فى أشياء وقص علينا أمر النعمة ، ها هوذا يدخل بنا إلى رحاب المنعم ، إلا إنه سبحانه لم يدخلنا على المنعم إلا بتهيئة طهورية . طهارة أبعاض ؛ كالوضوء بأن نغسل الوجه ونغسل اليدين إلى المرفقين ونمسح على الرأس ونغسل الرجلين إلى الكعبين . وأحكم فى أشياء وترك للاجتهاد مدخلا فى أشياء ، أحكمها فى ثلاثة ؛ غسل الوجه ، وغسل اليدين إلى المرفقين ، وغسل الرجلين إلى الكعبين ، لكنه حينما تكلم عن الرءوس لم يقل : « امسحوا رءوسكم » ولا : « امسحوا ربع رءوسكم » ، ولا « امسحوا بعض رءوسكم » مما يدل على أن للمجتهد أن يفهم فى « الباء » ما تتيحه اللغة من « الباء » . إذن أعطانا الحق أشياء محكمة وأشياء للاجتهاد . وبعد طهارة الأبعاض يذكرنا بطهارة البدن من الجنابة .

ونلتفت إلى الكلام الذى تقدم حيث أورد الحق فيه ما أحل لنا من بهيمة الأنعام من طعام وشراب ، ثم تكلم فى النكاح حتى أنه وسع لنا دائرة الاستمتاع ودائرة الإنسال بأن أباح لنا أن نتزوج الكتابيات ، وفى هذا توسيع لرقعة الزواج فلم يقصر الزواج على المسلمات .

ولما كان الطعام الذى أحله الله ينشأ عنه ما يخرج منا من بول وغائط ، والنكاح الذى أحله الله يغير كيماوية الجسد ؛ لذلك جعل الله الوضوء لشىء ، والجنابة لها شىء آخر ؛ فعن الطعام ينشأ الأخبثان ، وعن الجماع أو خروج المنى ينشأ الحدث الأكبر ؛ فكان ولا بد بعد أن يتكلم عن طهارة الأبعاض فى الحدث الأصغر أن يتكلم عن التطهير الكلى فى الحدث الأكبر ؛ فقال : « وإن كنتم جنباً فاطهروا » .

الله سبحانه وتعالى يريد لنا أن نستديم اتصالاتنا به ولم يشأ أن يجعل الوسيلة للصلاة بأمر الماء فقط ؛ لأننا قد نفقد الماء وقد يوجد الماء ولا نقدر على استعماله ؛

فلم يشأ الحق أن يقطع الصلة بأن يجعل الوسيلة الوحيدة للتطهر هى الماء ، فأوجد وسيلة أخرى . فإن فقدت الماء أيها الإنسان فلا بد أن تدخل إلى لقاء الله بنية تطهير آخر وهو التيمم . هذا أمر لا يفقده من عاش على الأرض . إذن فعندنا تَطَهُّر بالماء وعندنا تَطَهُّر بالتراب . لذلك يقول سبحانه :

« وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لا مستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً » فإن كان الإنسان مريضاً لا يقدر على استعمال الماء ، أو كان على سفر ولا يجد الماء ؛ أو جاء أحد من الغائط ، أى من قضاء الحاجة فى مكان غويط وهو الوطىء المنخفض من الأرض ، وكانت العرب قديماً تفعل ذلك حتى لا يراهم أحد ويكونوا فى ستر ، رجالاً أو نساءً ، وحتى بعد ملامسة النساء . إن لم يجد الإنسان بعدها ماء فالتيمم هو البديل ، وإياكم أن تقولوا إن الماء هو الوسيلة الوحيدة للتطهر ، فقد جعل للماء أيضاً خليفة وهو التراب . والتراب أوسع دائرة من الماء . فكأنه سبحانه وتعالى يريد أن يديم علينا نعمة اللقاء به . ولكى يديم علينا نعمة اللقاء به جعل للماء ـ الذى يكون محصوراً ـ خليفة وهو التراب وهو غير محصور .

ولا نريد أن ندخل فى متاهات الخلاف عن الطهارة من ملامسة النساء ، بين اللمس والملامسة ؛ فاللمس لا يقتضى المفاعلة ، أما الملامسة فتقتضى المفاعلة . واقتضاء المفاعلة ينقل المسألة من مجرد اللمس إلى معنى آخر هو الجماع .

وفى حالة الجنابة وعدم وجود الماء فالتيمم هو البديل « فتيمموا صعيدا » و« الصعيد » هو ما صعد على وجه الأرض من جنس الأرض بحيث لا تدخله صناعة الإنسان كالتراب والحجر ، لكن الطوب الأحمر (الأُجُرّ) الذى نصنعه نحن فليس من الصعيد الصالح للتيمم ؛ لأن صنعة الإنسان قد دخلته .

والأركان المفروضة فى طهارة الأبعاض أربعة ، أما طهارة الجسم فهى طهارة واحدة تشمل كل الجسم . وفى حالة التيمم جعل الحق الطهارة استعداداً للصلاة عوضاً عن الوضوء بمسح الوجه واليدين ، وكذلك فى الطهارة من الجنابة . ونلحظ أنه سبحانه جاء بالمسح فى الوضوء على بعض من الرأس كإيناس متقدم ، وذلك حتى يكون لنا إلف بالمسح حينما نتيمم .

« فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج » وجعل الحق الطهارة بالماء أو التراب إزالة للحرج ؛ فالإنسان الذى لن يجد ماء سيقع فى الحرج بالتأكيد ؛ لأنه يريد أن يصلى ولا يجد وسيلة للطهارة . وإذا كان عنده القليل من الماء ليشرب فهل يتوضأ أو يستديم الحياة ويُبقى على نفسه بشرب الماء ؟. ولا يريد الله أن يُعْنت خلقه ولا أن يوقعهم فى الحرج ، بل خفف عليهم وجعل عنصر التراب يكفى كبديل للماء . « ولكن يريد ليطهركم » .

وإياك أن تفهم أن الطهارة هى للتنظيف ، لأن معنى الطهارة لو اقتصر على التنظيف لكانت الطهارة بالماء فقط ، فلماذا إذن نمسح وجوهنا بالتراب ؟ إن هذا يوضح أن الطهارة غير النظافة ، فلو قال قائل : سأنظف نفسى بـ« الكولونيا » . نقول له : لا . ليس هذا هو المطلوب . والله لا يطلب نظافة بهذا المعنى ، ولكن يطلب التطهير . والتطهير يكون بشرط من تدخل عليه ـ وهو الله سبحانه ـ وقد وضع الحق لذلك أمرين : إما بالماء وإما بالتيمم بالتراب . فالطهارة تجعل المرء صالحاً ليستقبل ربه على ضوء ما شرع به . والذى يضع الشرط لذلك هو الله وليس أنت أيها العبد . وسبحانه قد أوضح أن العبد يكون طاهراً بالماء أو بالتراب ، وبهذه الطهارة يكون صالحاً لاستقبال الله له . وأعاد الله الإنسان فى قربه منه إلى أصل إيجاده وهو الماء والتراب .

« وليتم نعمته عليكم » والإنسان مغمور بنعم كثيرة . فهب أن إنساناً غاب عنه أبوه لكن خير الأب يصله كل يوم من مال وطعام وشراب ووسائل ترفيه ، وبذلك يأخذ الإنسان نعمة الغاية من وجود أب له . ومع ذلك يشتاق هذا الإنسان المستمتع بنعمة والده الغائب إلى أن يكون مع والده ، هذا هو تمام النعمة بين الأب والابن وكلاهما مخلوق لله ، فما بالنا بتمام النعمة من الخالق لعباده ؟

إن العبد الصالح يتمنى أن يرى مَن أنعم عليه ؛ لذلك وضع الحق شرط الطهارة للقائه . وعندما يحضر الإنسان لحضرة ربه بالصلاة ويكبر : « الله أكبر » فهو منذ تلك اللحظة يوجد فى حضرة الله . وإذا كانت الفيوضات تتجلى على الإنسان من نعمة مخلوق مثله سواء أكان أخاً أم أباً أم قريباً وهى نعمة مادية يراها الإنسان سواء أكانت طعاماً أم شراباً أم لباساً . فما بالنا بفيوضات المنعم الخالق الذى أنعم على

الإنسان ، إنها فيوضات من غيب ؛ فكرمه لك غيب كالاعتدال فى المزاج والعافية ورضا النفس وسمو الفكر .

إذن فقوله الحق : « وليتم نعمته عليكم » أى أنكم عشتم قبل ذلك مع نعمة المنعم ، وسبحانه يدعوكم إلى لقاء المنعم ، ذلك تمام النعمة . وأضرب هذا المثل ـ ولله المثل الأعلى ـ إننا نجد الابن ينظر إلى هدايا الأب الغائب ويقول : أنا لا أريد هذه الأشياء ولكنى أريد أبى .

إن تمام النعمة ـ فى المستوى البشرى ـ أن يرى الإنسانُ المنعِمَ عليه وهو إنسان مثله ، أما تمام النعمة على المخلوق من الخالق فيستدعى أن يتطهر الإنسان بما حدده له الله وأن يصلى فيلقى الله .

« وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون » ساعة نسمع : أنا فعلت ذلك وذلك لعلك تشكر ، فهذا يعنى أنك إن فعلت ما آمرك به فستجد أمراً عظيماً . والأمر الطبيعى يقتضى أن تَشْكُر عليه كأن ما فعله الله للإنسان يوجب عند الإنسان نعمة أخرى لا يمكن أن يستقبلها إلا بالشكر ، مثلما قال الله :

﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾

(سورة النحل)

إنّ السمع والأبصار والأفئدة هى منافذ الإدراك . ومادام الحق قد خلقنا ولا نعلم شيئاً ، وجعل لنا أدوات الإدراك . وأوضح : أنا خلقت لك هذه الأدوات للإدراك لعلك تشكر ، أى تلمح آثارها فى نفسك مما يربى عندك ملكة الإدراك للمدركات .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى

وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾

وللإنسان أن يسأل : وما هو الذكر ؟ . الذكر هو حفظ الشيء أو استحضاره ، فإذا كان حفظ الشيء فهو حفظ لذاته ، لكن الاستحضار يكون لمعنى الشيء . إذن فهناك فرق بين حفظ الشيء واستحضار الشيء ، هذا هو معنى الذكر . وقد يكون الذكر بمعنى القول ؛ لأنك لا تقول الشيء إلا بعد أن تستحضره . ولذلك نجد فى تكوين الجهاز العصبى الأعلى ذاكرة ، وحافظة ، ومخيلة .

ومن عجيب أمر التكوين الخلقى أن تمر أحداث على الإنسان فى زمن مضى ولا يذكرها الإنسان لمدة طويلة تصل إلى سنوات ، ثم يأتى للإنسان ظرف من تداعى المعانى فيذكر الإنسان هذا الشيء الذى حدث منذ عشرين عاماً .

إذن فالشيء الذى أدركه الإنسان منذ عشرين سنة على سبيل المثال لم يذهب ، ولو ذهب ما ذكره الإنسان ، لكنه غاب فقط عن الذهن عشرين عاماً أو أكثر ؛ فلما تداعت المعانى تذكره الإنسان . ومعنى ذلك أن هذاالشيء كان محفوظاً عند الإنسان وإن توارى عنه مدة طويلة .

فالذاكرة ـ إذن ـ معناها أن يستدعى الإنسان المحفوظ ليصير فى بؤرة شعوره . مثال ذلك : حادث وقع بين إنسان وآخر منذ أكثرمن عشرين عاماً . ونسى الإنسان هذا الحادث . فلما التقى بصديقه ، وجلسا يتذاكران الماضى تذكر الصديق الحادث الذى حدث له منذ أكثر من عشرين عاماً .

إذن فالحادثة لم تذهب من الذاكرة ، ولكنها محفوظة موجودة فى حواشى الشعور البعيدة ، وكلما بعد الإنسان فى الزمن يبدو وكأنه نسى الحادثة ، لكن عندما يأتى تداعى المعانى فالحادثة تأتى فى بؤرة الشعور . فإذا ما جاءت فى بؤرة الشعور من حواشى الشعور حيث مخزن الحافظة ، يتذكرها الإنسان . وهذه هى قوة الخالق جل وعلا .

وقد يسجل أحدنا على شريط تسجيل بعضاً من الكلام . ومن بعد ذلك يحب أن يسجل كلاماً آخر على الشريط نفسه فيمسح الكلام الذى سجله أولاً ، ولكن ذاكرة الإنسان تختلف ، فساعة تأتى المسائل فى بؤرة شعوره فالإنسان يتذكرها . وإذا ما جاءت مسألة أخرى بعدها فلا بد أن تتزحزح المسألة الأولى من بؤرة الشعور إلى حاشية الشعور ؛ لأن بؤرة الشعور لا تستقبل إلا خاطراً واحداً ، فإن شغلت بؤرة الشعور بخاطر آخر فهى تحفظ الخاطر الأول فى حواشى الحافظة . ولا يمسح خاطر خاطراً آخر . فإن أراد الإنسان أن يستدعى الخاطر القديم ، كان ذلك فى مقدوره ، وهذا هو الفارق بين تسجيل الخالق وتسجيل المخلوق .

وبعد ذلك نجد أن التذكر يكون للمعانى ، فالذى يخزن فى ذاكرة الإنسان ليس أَجْرَاماً ، فلو كانت أجراماً لما وسعها المخ . ولهذا فالمعانى لا تتزاحم فيه ، بل تتراكم بحيث إذا ما جاء تداعى المعانى فالإنسان يتذكر ما يريد أن يذكره ، وذلك لا يمكن أن يحدث إلا إذا كان المخ من صنع الخالق الأعلى . ومادامت المعانى ليس لها حيز فالإنسان يقدر على حفظها فى الذاكرة .

الإنسان قد يجلس ليتذكر أسماء الجبال فى العالم فيقول : من جبال العالم قمة « إفريست » ، وجبال « الهمالايا » ، وجبل « أحد » وجبل « ثور » . وساعة يتذكر هذه الأسماء فهو يتصور معانيها ، فالموجود فى ذهن الإنسان معانى هذا الكلمات وليس أجرام هذه الكائنات ؛ لذلك فلا تزاحم أبداً فى المعانى بل تظل موجودة ومختزنة فى الذاكرة وحاشية الشعور .

وإياكم أن تفهموا أن إنساناً يملك من الذكاء ما يحفظ به الشىء من مرة واحدة : وآخرَ أقل ذكاء يحفظ بعد قراءة الشىء مرتين ، وثالثاً يحفظ عن ثلاث مرات لا ؛ لأن الإنسان يملك ذهناً كآلة التصوير يلتقط من مرة واحدة ، لكن لو أخذ الإنسان صورة لمكان وجاء شىء يضبب عدسة الصورة فهو يعيد التصوير ، وكذلك الذهن إن أراد الإنسان أن يأخذ لقطة لشىء ما لتستقر فى بؤرة الشعور وفى بؤرة الشعور شىء آخر ، فالشىء لا يستقر فى الذهن ، بل لا بد من قراءة مضمون اللقطة مرة ثانية ليؤكد الإنسان المعلومات لتنطبع فى بؤرة الشعور .

ومثال ذلك الطالب الذى يدخل ساحة المدرسة التى يُعقد بها الامتحان . وقبل أن

يدق جرس الامتحان بخمس دقائق يأتى له واحد من زملائه ويقول له : هل ذاكرت الموضوع الفلانى . فيقول الطالب : لا لم أستذكره . فيقول الصاحب : هذا الموضوع سيأتى منه سؤال فى الامتحان . فيخطف الطالب كتابا ويقرأ فيه هذا الموضوع لمرة واحدة . هذا الطالب فى هذه اللحظة لا يتذكر ماذا سيأكل على الغداء هذا اليوم ، أو من سيقابل . بل يعرف أنه بصدد أمر فرصته ضيقة ، ويركز كل ذهنه ليستقبل ما يقرأه . وفى لحظة واحدة يحفظ هذا الموضوع . وإذا جاء الامتحان ووجد السؤال فهو يجيب عليه بأدق التفاصيل . وقد نجد طالبا آخر جلس لأيام يحاول استذكار هذا الدرس بلا طائل .

إذن فالذهن يلتقط مرة واحدة ، شريطة ألا يستقبل الإنسان ما يقرأه أو يسمعه من معلومات والذهن مشغول بأشياء أخرى . والدليل على ذلك : أن الإنسان قد يسمع القصيدة مرة واحدة أو يسمع الخطبة مرة واحدة فيحفظ من القصيدة أكثر من بيت ، أو يحفظ من الخطبة أكثر من مقطع ؛ لأن ذهن الإنسان فى تلك اللحظة كان خاليا فالتقط الأبيات التى حفظها ، وكذلك الخطبة ، أما بقية أجزاء القصيدة أو الخطبة فقد يكون الذهن شرد إلى أشياء أخرى . ولذلك يحاول الإنسان أن يكرر الاستماع والإصغاء والقراءة أكثر من مرة ليهيىء ويعد بؤرة الشعور ، فيحفظ الإنسان ما يريد .

إذن فالذهن يلتقط مرة واحدة ، أما الذاكرة فهى تتذكر أى تستحضر المعانى التى قد تختفى فى الحافظة ، ولا شيء يضيع فى الحافظة أبدا ، بحيث إذا جاء الاستدعاء طفت المعانى على السطح . كأن انطباعات الإنسان فى نعم الله لا تُنسى أبدا . وهى موجودة عند الإنسان ، ولكنها تريد من الإنسان أن يستدعيها من الحافظة ويطلبها .

ولنر دقة الأداء القرآنى : « واذكروا نعمة الله عليكم » سبحانه يقول هنا « نعمة » مع أن نعم الله كثيرة ، ولكن الله قد آثر أن يأتى بالمفرد ولم يأت بالجمع . وذلك ليبين للإنسان أن أية نعمة فى أية زاوية من حياة الإنسان تستحق أن يذكرها الإنسان ؛ فنعم الله كثيرة ،ولكن ليتذكر الإنسان ولو نعمة واحدة هى نعمة الإيجاد من عدم ، أو نعمة البصر ، أو السمع . وكل نعمة من هذه النعم تستحق من الإنسان أن يتذكرها دائما ، ولا تطرد نعمة نعمة أخرى ، فما بالنا إذا كانت النعم كثيرة ؟

ولو تمعن الإنسان فى كل نعمة لاحتاجت إلى أن يتذكرها دائما ، أو أن النعمة اسم للجنس كله ، لأن المفرد يطلق على كل الجنس ، مثل الإنسان فإنها تطلق على كل فرد من أفراده مثل محمد وعلى وخالد .

وكلمة « النعمة » قد تُنسب إلى سببها كنعمة سببها مروءة واحد من البشر ، وهى محدودة بمقدار الأثر الذى أحدثته . لكن نحن هنا أمام نعمة المسبب وهو الله ، ولا بد أن تناسب نعمة الله جلال وجمال عظمته وعطائه .

« واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذى واثقكم به » و« واثق » تقتضى أمرين : فالإنسان طرف الاحتياج والفقر والأخذ ، والرب صاحب الفضل والعطاء والغنى ، إنه هو الربوبية وأنت العبودية ، وهو الحق القائل :

﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ﴾

(من الآية ٤٠ سورة البقرة)

إذن فـ « واثقكم » تعنى التأكيد من طرفين ؛ لأن « واثق » على وزن « فاعَلَ » ، ولا بد فى « فاعَلَ » أن تكون من اثنين . ومثال ذلك « شارك » تقولها لاثنين أو أكثر ؛ فنقول : « شارك زيد عمراً » ؛ وكذلك « قاتل زيد عمراً » . وحين يقول الحق : إنه « واثق عباده » أى أنه شاركهم فى هذا الميثاق وقبله منهم . لكن أى ميثاق هذا ؟

ونحن نعرف الميثاق الأول الذى هو ميثاق الذر :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

وهو ميثاق الفطرة قبل أن توجد النفس وشهواتها . وبعد ذلك هناك ميثاق العقل الذى نظر به الإنسان إلى الوجود واستطاع أن يخرج من تلك الرؤية بأن الوجود محكم ومنظم وواسع ، ولا بد لهذا الوجود من واجد وهو الله . وبعد ذلك ميثاق الإيمان بالله ، فالرسول صلى الله عليه وسلم حينما عرض منهج الإسلام آمن به بعض

الناس ، أى أخذ منهم عهداً على أن ينفذوا مطلوبات الله ، ألم يأخذ الرسول عهداً فى العقبة حين قالوا له :

خذ لنفسك ولربّك ما أحببت . فتكلم ـ رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ فتلا القرآن ودعا إلى الله ورغّب فى الإسلام ثم قال : « أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم » فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال : نعم والذى بعثك بالحق لنمنعنّك مما نمنع منه أُزُرنا فبايعنا يا رسول الله فنحن أبناء الحرب وأهل الحلقة (السلاح) ورثناها كابرا عن كابر[1] .

وحدث هذا ـ أيضا ـ عند بيعة الرضوان تحت الشجرة . إذن فمعنى « واثقكم به » إما أن يكون العهد العام الإيمانى فى عالم الذر ، وإما أن يكون العهد الإيمانى الذى جاء بواسطة الرسل .

« وميثاقه الذى واثقكم به إذ قلتم سمعنا وأطعنا » وحين يؤمن الإنسان يقول : سمعت وأطعت ، وهكذا تنتهى مسألة التعاقد . ويتبع الحق ذلك بقوله : « واتقوا الله إن الله عليم بذات الصدور » . واتقوا أى اجعلوا بينكم وبين صفات الجلال من الله وقاية ، فالمطلوب منا أن نلتحم بمنهج الله إلتحاما كاملا ، وعلينا كذلك أن نجعل بيننا وبين صفات غضب الله وقاية . وعرفنا أن قوله الحق : « اتقوا الله » متساوٍ مع قوله : « اتقوا النار » ، وقد يقول قائل : وهل للنار أوامر ونواه ؟

ونقول : أحسن الفهم عن ربك واجعل بينك وبين غضب الله وقاية ، فالنار جند من جنود الله . وسبحانه يوضح : اجعلوا بينكم وبين صفات الجلال وقاية ؛ لأن الحق له صفات جلال هى الجبروت والانتقام والقهر ، وللحق صفات جمال فهو الغفور الرحيم المغنى ، الحكيم إلى غير ذلك من صفات الجمال ، إذن فلنجعل بيننا وبين صفات الجلال وقاية تقينا من جنود صفات الجلال ومنها النار .

وقلنا من قبل: إن الرسول صلى الله عليه وسلم أبلغنا أنه فى الليلة الأخيرة من رمضان يتجلى الجبار بالمغفرة . والنظرة السطحية تتساءل : ولماذا لم يقل : يتجلى الغفار

---

(١) رواه أحمد وذكر فى السيرة النبوية لابن هشام .

بالمغفرة ؟ ذلك أن (الجبار) صفة من صفات الجلال التى تقتضى معاقبة المذنب ، والذنب متعلق بصفات الجلال لا بصفات الجمال ، إذن فالمنطق يقتضى أن يقف المذنب أمام شديد الانتقام ؛ لأن المقام يناسب صفات الجلال ، ولكن علينا أن نتذكر جيدا أن الله يرخى العِنان للمذنب لعله يتوب ، وأن الله يفرح بتوبة عبده وأن رحمته تَغْلب غضبه .

ويذيل الحق الآية : « إن الله عليم بذات الصدور » والتقوى ـ كما نعلم ـ لا تنشأ من الأفعال المحسة المدركة فقط ، بل تنشأ أيضا فى الأحوال الدخيلة المضمرة . ومثال ذلك نية سيئة ونية حسنة . فالحقد ، الحسد ، التبييت ، المكر ، كل ذلك صفات سيئة ؛ فإياكم أن تقولوا إن التقوى للمدركات فقط ؛ بل للمحسات أيضا . وعمل القلوب له دخل فى تقوى الله . ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾

إنّ الحق ـ كما علمنا ـ حين ينادى المؤمنين بقوله : « يا أيها الذين آمنوا » إنه سبحانه لم يقتحم على الناس تصرفاتهم الاختيارية لمنهجه ، بل يلزم ويأمر من آمن به ويوجب عليه ؛ فيوضح : يا من آمنت بى إلها حكيما قادرا خذ منهجى . ولكن الحق يقول : « يا أيها الناس » حين يريد أن يلفت كل الخلق إلى الاعتقاد بوجوده ، أما من يؤمن به فهو يدخل فى دائرة قوله الحق : « يا أيها الذين آمنوا » وهذا النداء يقتضى بأن يسمع المؤمن التكليف ممن آمن بوجوده .

ونعلم أننا جميعا عبيد الله ، لكن لسنا جميعا عباد الله . وهناك فرق بين « عبيد » و« عباد » . فالعبيد هم المرغمون على القهر فى أى لون من ألوان حياتهم ، ولا يستطيعون أن يدخلوا اختيارهم فيه . قد نجد متمرداً يقول : « أنا لا أؤمن بإله » ولكن هل يستطيع أن يتمرد على ما يقضيه الله فيما يجريه الله عليه قهرا ؟ فإذا مرض وادعى أنه غير مريض فما الذى يحدث له ؟ أيجرؤ واحد من هؤلاء المتمردين على ألا يموت ؟!! لا أحد يقدر على ذلك .

إذن فكل عبد مقهور لله ، وكلنا عبيد الله يستدعينا وقتما يريد ويجرى علينا ما يريد بما فوق الاختيارات . أما « العباد » فهم الذين يأتون إلى ما فيه اختيار لهم ويقولون لله : لقد نزعنا من أنفسنا صفة الاختيار هذه ورضينا بما تقوله لنا « افعل كذا » و« لا تفعل كذا » . إذن فالعبيد مقهورون بما يجريه عليهم الحق بما يريد ، والعباد هم الذين يرضون ويكون اختيارهم وفق ما يحبه الله ويرضاه ؛ إنهم أسلموا الوجه لله . فهم مقهورون بالاختيار ، أمّا العبيد فمقهورون بالإجبار .

« يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله » . و« قوام » صفة مبالغة والأصل فيها قائم ، فإن أكثر القيام نطلق عليه كلمة « قوام » . ومثال ذلك رجل لا يحترف النجارة وجاء بقطعة من الخشب وأراد أن يسد بها ثقبا فى باب بيته ؛ هذا الرجل يقال له : « ناجر » ولا يقال له : « نجار » ، ذلك أن تخصصه فى الحياة ليس فى النجارة . وكذلك الهاوى الذى يخرج بالسنارة إلى البحر ؛ واصطاد سمكتين ؛ يقال له : « صائد » لكنه ليس صياداً ؛ لأن الصيد ليس حرفته .

إن الحق يطلب من كل مؤمن ألا يكون قائما لله فقط ، ولكن يطلب من كل مؤمن أن يكون قواما ؛ أى مبالغ فى القيام بأمر الله . والقيام يقابله القعود . وبعد القعود الاضطجاع وهو وضع الجنب على الأرض ثم الاستلقاء ، وبعد ذلك ينام الإنسان . ونحن أمام أكثر من مرحلة : قائم وقاعد ومستلق ، ونائم . والنائم ليس عليه تكليف . والمستلقى هو المستريح على ظهره والحق يقول :

﴿ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ﴾

(من الآية ١٠٣ سورة النساء)

أى اجعلوا الله دائما على بالكم ؛ فالإنسان يملك فى حالته الطبيعية نشاطا يمكنه أن يقوم ويقعد ؛ فإن قيل : « قام فلان بأمر القوم » أى أنه بذل كل جهد لإدارة أمور الناس ، والقيام فى حركات الناس أصعب شىء . وسبحانه لا يريد منا أن نكون قائمين فقط ؛ بل يريد أن نكون قوامين . ومادمنا قوامين فلن تخلو لحظة من قيامنا أن نكون لله ؛ لله توجها . لا نفعا ؛ لأن أية حركة من أى عبد لا تفيد الله فى شىء ؛ فالله خلق خلقه بمجموع صفات الكمال فيه ، ولم ينشىء خلقه له صفة جمال أو كمال جديدة . وعندما يؤدى الإنسان أى عمل لله فهو يؤديه طاعة وتقربا لله . وإذا أراد الله من المؤمنين أن يكونوا قوامين لله ، عندئذ تكون كل حركات المجتمع الإيمانى حركات ربانية متساندة متصاعدة . وإذا كانت حركات المجموع الإيمانى متساندة فسوف تكون النتيجة لهذه الحركة سعادة البشرية ؛ فالإنسان إذا ما كان قواما فهو قوام لنفسه وللآخرين .

والمراد أن نكون مداومين على قيامنا فى كل أمر لله . ولا تعتقد أيها المؤمن أنك تعامل خلق الله ، إنما تعامل الله الذى شرع لك ليضمن لك ويضمن منك ، فأنت إن طولبت بالأمانة ، فقد طولب كل الناس بالأمانة فيما هو خاص بك لا بغيرك ، وحين ينهاك الله عن الخيانة فقد أمر الحق الناس جميعاً بالانتهاء عن الخيانة لك .

إذن إن نظرت إلى تكليفات الله لوجدتها لصالحك أنت.فلا يظنن ظان أن الدين إنما جاء ليقف أمام نفسه هو ، فالدين وقف أمام النفس لدى الناس جميعاً ، فحين يأمرك : ألاّ تمد يدك إلى مال غيرك فأنت واحد من الناس ، وفى هذا القول أمر موجه لكل الناس : لا تمدوا أيديكم إلى مال فلان لتسرقوه . فانظر إلى أن الحق حين شرع عليك شرع لك . ولذلك يجب أن يكون كل قيامك لله سبحانه . ولذلك يظهرالحق سبحانه وتعالى فى بعض خلقه أشياء وأحداثاً تُفهم الناس أن الذى يعمل لخلق الله مسلوب النعيم ، و الذى يعمل لله يكون موصول النعيم ؛ فنجد الواحد من الناس يقول : « لقد فعلت لفلان كذا وكذا وكذا وأنكرنى » . نقول له : أنت تستحق لأنك صنعت له ، ولكنك لو صنعت لله لكفاك الله كل أمر . ولذلك يقول الحق عن هؤلاء الذين صنعوا لله :

﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا ﴾

(من الآية ٣٠ سورة آل عمران)

إذن فالمؤمن يجب أن يوضح حركة قيامه وينميها ؛ بمعنى أن يجعل كل حركته لله ؛ فإن كانت كل حركته لله ، فالله سبحانه لا يضيع أجر من أحسن عملا . والخاسرون هم الذين يعملون للناس ؛ لأن الناس لا يملكون لهم نفعاً وربما تخلوا عنهم وربما أضمرت وحملت قلوبهم الضغن والحقد لمن أحسن إليهم ، وربما تحولوا إلى أعداء لهم ، فالمصنوع له الجميل قد يعطيه الله بعضاً من الجاه ، وحين يلقى صانع الجميل بعد ذلك قد تتخاذل نفسه وتذل ، ونرى فى بعض الأحيان واحداً يجلس بين الناس وقد أخذته العزة ، ثم يدخل عليه إنسان كان له فضل عليه ، وساعة يراه يكره وجوده فى مجلسه ، ويتمنى ألا يحدث هذا اللقاء ، وإذا ما لقيه بعد ذلك فى طريق فهو يشيح بوجهه ؛ لأن الذى صنع الجميل يسبب حرجاً له ، ويجعل نفسه تتضعضع ، وهو يريد أن يستكبر على الناس . إذن فالله يوضح : اعملوا لله ؛ لأنه لا يضيع عنده شيء . واعلموا أن الله رقيب عليكم ولن يضيع عملٌ عنده .

وعندما سئل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن الإحسان قال : (أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك)[1] .

أتستطيع أنت أيها الإنسان أن تصنع فى إنسان آخر ما يسوؤه أمامه ؟ . أنت تسيء إلى الآخر من وراء ظهره . فلماذا إذن يُسيء الواحد منكم إلى الله بالعصيان ، وهو الناظر إليكم جميعاً ؟

إذن حين يريد الحق سبحانه وتعالى أن تحسن معاملة نفسك وغيرك فعليك أن تحتسب كل عمل لك عند الله . فقد سخر لنا الحق كل الوجود وأعطانا كل مقومات الحياة ، ويوضح لكل واحد منا : يا عبدى اجعل كل قيامك لله ؛ ولا تكن قائماً فقط ولكن كن قوّاماً . . بمعنى أنه مادامت فيك بقية من العافية للعمل فاعمل ، ولا تعمل على قدر حاجتك فقط ، ولكن اعمل على قدر طاقتك ؛ لأنك لو عملت على قدر حاجتك فإن الذى لا يقدر على العمل لن يجد ما يعيش به .

إذن فاعمل على قدر طاقتك لتتسع حركتك للناس جميعاً . ويكون الفائض من

---

(١) رواه البخارى . باب سؤال جبريل عن الإيمان بالإسلام والإحسان ، ورواه مسلم فى كتاب الإيمان .

عملك لغيرك . وحين يقول سبحانه : « كونوا قوّامين لله شهداء بالقسط » يعلمنا ألا نضيع مجهودنا هباء ، بل نوجه المجهود للعمل ونقوم به لوجه الله ، لأنه سبحانه لا ينسى أبداً جزاء عبده ، وهو الذى يرد كل جميل . إنه ـ سبحانه ـ يقول : « هل جزاء الإحسان إلا الإحسان » .

ويقول أيضا :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

(من الآية ١٢٠ سورة التوبة)

وحين يكون الواحد منا قوّاماً لله يكون قد استغل حركة وجوده لخير خلق الله ، وهذا العمل مطلوب منك . ولا يكفى أن تكون حركتك محصورة فى ذلك ، بل يجب أن تمتد أيضا حركة حياتك لتكون شاهداً بالعدل . وكذلك توجه للعدل من تحدثه نفسه أن ينحرف . وحين تكون قوّاماً لله فهذا أمر حسن ، وعليك أن تحاول إقناع غيرك بأن يكون قيامه لله بأن تكون شاهداً بالقسط والعدل . وحين تكون شاهداً بالقسط والعدل لا يتمادى ظالم فى ظلمه . فالذى يجعل الظالم يشتد ويستشرى ظلمه ويتفاقم شره هو أنه يجد من يدلسون على العدالة ويسترون ويخفون العيوب ويخادعون الناس .

لكن لو وُجِد الإنسان الذى ينير الطريق أمام العدالة لما وجد ظلم . لكن الظالم يحب من يدلس عليه ؛ فيقول لنفسه : إن فلاناً ارتكب جريمة مثل جريمتى ونال البراءة . وتدليس الشهادة يقود إلى خراب المجتمعات . ولو أن المجتمع حينما يرى أن شهادة أفراده هى شهادة بالقسط وشهادة بالعدل ، فإن كل فرد فى المجتمع إذا هَمَّ بظلم يرتدع قبل أن يفعل الظلم ، ولكان الظالم ينال عقابه ويصير مثالاً لارتداع غيره . والمؤمن مطالب أولاً بالقيام لله بإصلاح ذاته ، ومطالب ثانياً أن يشهد بالقسط والعدل لإصلاح غيره .

وكلمة « القسط » تأتى منها اشتقاقات كثيرة ، وهى من الألفظ التى قد تدل على العدل وقد تدل على الجور ، وهى من الألفاظ التى تستعمل فى الأمر وفى نقيضه . وهذا من محاسن اللغة . ويتطلب ذلك أن يمحص السامع الكلمة ويتعرف على معناها بما يتطلبه السياق .

« وقَسَطَ » معناها « عدل » . والفعل المضارع لها هو يقسط . والمصدر « قِسطا » ، ومرة يكون المصدر « قُسوطا » . والمصدر هو الذى قد يحول المعنى من العدل إلى الجور . فالقِسط بمعنى العدل . وقَسَطَ يَقْسِطُ قُسُوطاً . أى جار وظلم . هنا نجد الفعل يأتى بالمعنى وضده ؛ حتى يمتلك السامع اليقظة والفطنة التى تجعله يعرف التمييز بين معنى العدل ومعنى الجور .

وحين نقول « أقسط » فإنها بمعنى عدل ، وهنا ننتبه إلى ما يلى : أن هناك فرقاً بين عَدْلٍ يأتى من أول الأمر وذلك هو القِسط ، وهناك حكم ظالم يحتاج إلى حكم آخر يزيل الظلم . وذلك الذى نستعمل له « أقسط » أى أزال الظلم ، فكأن جوراً كان موجوداً وأزاله الحكم . فالقِسط ـ إذن ـ هو العدل الابتدائى . ولذلك نسمع قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ ﴾

(سورة الجن)

والقاسطون هنا هم الظالمون ، فالقسط هنا من قسط يقسط قُسوطا .

وفى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها يقول الحق : « شهداء بالقسط » أى شهداء بالعدل . واللباقة فى السامع هى التى توجه اللفظ إلى معناه المراد من خلال السياق ، فالسامع للقرآن يُفْترض فيه الأريحية اللغوية بحيث يستطيع أن يفرق بين الشىء والمشابه له من شىء آخر . إذن فهناك قسط وأقسط ، قسط بمعنى عدل ، وأقسط بمعنى أقام القسط بإزالة الجور . والقسوط معناه الجور .

والحق يقول : « إن الله يحب المقسطين » و« المقسطين » هى جمع « مُقسط » ؛ من : أقسط أى أزال الظلم والجور ، إذن فالذى يرجح المعنى هنا سياق الكلمة ومصدرها . وقد يراد بالكلمة المعنى المصدرى . والمعنى المصدرى لا يختلف باختلاف منطوقه ، فيقال : « رجل عدل » ويقال : « امرأة عدل » . ويقال : « رجلان عدل » ، ويقال : « امرأتان عدل » ، و« رجال عدل » ، و« نساء عدل » . إذن فإن أردنا بالكلمة المصدر فهى لا تتغير فى المفرد والمثنى وجمع المذكر وجمع المؤنث . والقرآن الكريم يقول :

﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ ﴾

(من الآية ٤٧ سورة الأنبياء)

وهناك قول آخر :

﴿ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ ﴾

(سورة الشعراء)

وفى الريف المصرى نجد أن التاجر يصنع لنفسه الموازين من الأحجار ، فيعاير قطعة من الحجر بوزن الكيلو جرام ، ويعاير قطعاً أخرى لأجزاء الكيلو جرام ؛ ومن كثرة الاستعمال وملامسة الحجر يعرف التاجر أن الحجر يتآكل ، لذلك يعيد وزن الأحجار التى يستعملها فى الميزان كل فترة متقاربة من الزمن . ويقال : إنه يعاير الأوزان . وسمى القسطاس ؛ فالقسطاس هو الذى تعاير به الموازين ، فإذا صنع الإنسان شيئاً للميزان مما يتآكل أو يتأثر باللمس فيجب عليه أن يعايره كل فترة حتى لا يظلم أحداً ولو بمقدار اللمسة الواحدة . ولذلك يقول الحق : « ذلكم أقسط عند الله » « أقسط » هنا معناها « أعدل » . فموازين الله غير موازين البشر ، فموازين البشر قد يحدث فيها اختلاف . ونرى بعض التجار ينقصون الميزان بأن يضعوا شيئاً تحت كفة الميزان أو غير ذلك من الخدع ، لكن الحق هو العادل الحق . وهو صاحب الميزان الأعدل وهو القائل : « ذلكم أقسط عند الله » .

جاءت هذه الآية لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أصدر حكماً ؛ وهو حكم صحيح وعادل بقواعد البشر ، فأوضح الحق له الحكم الأقسط ، صحيح أن عدلك يا رسول الله لا يدخله هوى ولا يميل به غرض أو شهوة . ولكن العدل عند الله أكثر دقة وله مطلق الدقة . وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم هذا الحكم بمنطق القسط البشرى فى أمر زيد بن حارثة وكان مولى لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان عبداً لخديجة ـ رضى الله عنها ـ وهبته لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبعد فترة علم أهل زيد بخبر اختطافه وبيعه كعبد وكيف آل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجاء أهل زيد إلى رسول الله وطالبوا بابنهم . ورفض زيد أن يعود معهم وأراد أن يبقى مع رسول الله ، وأراد رسول الله أن يكرم زيداً الذى فضله على أبيه وأهله مصداقاً لقول الله :

﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾

(من الآية ٦ سورة الأحزاب)

لذلك كان لا بد للنبى صلى الله عليه وسلم أن يقدر زيد بن حارثة ؛ فأعتقه ودعاه « زيد بن محمد » تكريماً له ، على عادة العرب فى تلك الأيام . لكن الله يريد أن يلغى مسألة التبنى :

﴿ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ﴾

(من الآية ٤ سورة الأحزاب)

وأجرى الله الأحداث ليصحح مسألة التبنى لكل العرب ، وكان بداية تطبيق ذلك على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وينزل القول الحق :

﴿ ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ٥ سورة الأحزاب)

لم ينف الله القسط عن محمد ، ولكن الأقسط يأتى من عند الله . ويطيب الله خاطر زيد بعد أن عاد إليه اسمه الفعلى منسوباً لأبيه لا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويكافىء الله زيداً بأن يجعل اسمه هو الاسم الوحيد فى الإسلام الذى يذكر فى القرآن ويتعبد المؤمنون بتلاوته إلى أن تقوم الساعة :

﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا ﴾

(من الآية ٣٧ سورة الأحزاب)

لقد صار اسمه فى القرآن يتلوه المسلمون إلى قيام الساعة . وفى ذلك كل السلوى . إذن فـ « أقسط عند الله » جاءت فى محلها ، وإذا كان الحق سبحانه وتعالى قد طلب منا أن يكون قيامنا مبالغاً فيه ؛ أى ألا نترك فرصة لعمل الخير وأن نبالغ فى الدقة فى أداء العمل ، وأن نَعْدل فى المجتمع بأن نكون شهداء بالقسط . وبذلك يأخذ كل إنسان حقه فلا يقدر قوى أن يظلم ضعيفاً ؛ لأن الضعيف سيجد أناساً يشهدون معه بالحق .

وإياكم أن تدخلوا الهوى فى مقاييس العدل . وهب أن المسألة تتعلق بعدوكم أو بخصومكم فالعدل هنا أكثر أهمية وأكثر وجوبا .

« ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا » . أى لا يحملنكم بغض قوم على ألا تعدلوا فتعتدوا عليهم ، فمن له حق يجب أن يأخذه . ونعرف القصة التى حدثت ، عندما سرق مسلم درع مسلم آخر وأراد السارق وأهله أن يلصقوا التهمة بيهودى وأن يبرىء نفسه ، ولكن الله أنزل قرآناً :

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ ﴾

(سورة النساء)

أى لا تكن يا محمد لصالح الخائنين مخاصما للبرآء . وقوله الحق هنا : « ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا » أى لا يحملنكم بغض قوم على ألا تعدلوا ، وإلا سيكون البغض لصالح عدوكم ، وبغض المؤمن إذا حمله على اتباع هواه سيكون لصالح العدو ؛ لأن الله سيعاقب المؤمن لو أدخل الهوى والبغض فى إقامة الميزان العادل . فتحكيم البغض والعِداء والهوى يكون لصالح الخصوم ؛ لذلك لا يحملنكم أيها المؤمنون شنآن - أى بغض - قوم على ألا تعدلوا .

ويضيف الحق : « اعدلوا هو أقرب للتقوىٰ » والعدالة حين تُطلب مع الخصم هى تقريع لذلك الخصم لأنه خالف الإيمان . ومن المؤكد أن الخصم يقول لنفسه : إن عدالة هذاالمسلم لم تمنعه من أن يقول الحق ولا بد أن عقيدته تجعل منه إنساناً قوياً ، وأن دينه الذى أمره بذلك هو نعم الدين .

إذن ساعة تحكم أيها المؤمن بالعدل لخصمك فأنت تقرعه لأنه ليس مؤمناً ، لكن لو رأى خصمك أنك قد جُرت ولم تذهب إلى الحق ، فأنت بذلك تشجعه على أن يبقى كافراً ؛ لأنه سيعرف أنك تتبع الهوى . أما إذا رآك وأنت تقف موقفاً يرضى الله مع أنه خصم لك ، فهو يستدل من ذلك على أن العقيدة التى آمنت بها هى الحق ، وأنك تقيم الحق حتى فى أعدائك . وهكذا يقرع الخصمُ العقدى نفسَه ، وقد يلفته ذلك إلى الإيمان .

« اعدلوا هو أقرب للتقوى » أقرب إلى أى تقوى ؟ أأقرب إلى تقوى المؤمن ؟ أم أن الخصم يكون أقرب إلى التقوى حين يرى المؤمن مقيماً للعدل والحق ، فلعله

يرتدع ويعاود نفسه ويقول : إن الإيمان قد جعل هذا المسلم يتغلب على البغض وحكم بالحق على الرغم من أنه يعلم أننى عدو له .

ولنا فى قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام الأسوة الحسنة ، فقد جاءه رجل غريب يسأله طعاماً أو مبيتاً ، فسأله إبراهيم عن دينه . فوجده كافراً ، فلم يجب مسألته . وسار الرجل بعيداً ، فأنزل الله سبحانه على إبراهيم وحياً : أنا قبلته كافراً بى ومع ذلك ما قبضت نعمتى عنه . وسألك الرجل لقمة أو مبيتَ ليلةٍ فلم تجبه . وجرى سيدنا إبراهيم خلف الرجل واستوقفه ، فسأل الرجل سيدنا إبراهيم ؛ ما الذى حدث لتغير موقفك ، فقال سيدنا إبراهيم : إن ربى عاتبنى فى ذلك . فقال الرجل : نعم الرب إله يعاتب أحبابه فى أعدائه ، وآمن الرجل .

وهذا يوضح لنا معنى « أقرب للتقوى » فقد صار الرجل الكافر أقرب للتقوى . إذن : فالمعنى النفسى الذى يصيب خصمك أو من يبغضك أو من بينك وبينه شنآن ، حين يراك آثرت الحق على بغضك له ، يجعله يلتفت إلى الإيمان الذى جعل الحق يعلو الهوى ويغلبه ويقهره ، ويصير أقرب للتقوى . وأيضاً من يشهد بالقسط هو أقرب للتقوى .

ويذيل الحق الآية بقوله : «واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون» فهو ـ سبحانه ـ الخبير بما نعمل . وإياك أيها المؤمن أن تصنع ذلك لشهرة أن يُقال عنك إنك رجل حكمت على نفسك . ولكن اعمل من أجل الله حتى وإن كان الموقف يستحق منك الفخر .

إن كثيرا من الناس يحكمون بالظلم ليشتهروا بين الناس بالعدل ، كيف ؟ لنفرض أنه قد عُرضت عليك قضية هى خصومة بين ابنك وابن جارك ؛ الشجاعة الأولى تفرض أن تحكم لابن جارك وهو غير محق على ابنك ، لكن الشجاعة الأقوى أن يكون الحق لابنك وتحكم له ، أما إن حكمت لابن جارك ـ وهو غير محق ـ ففى هذه الحالة تكون قد حكمت بالظلم لتشتهر بين الناس بالعدل !

يجب أن يكون الحق أعز عليك من ابنك وابن جارك ، وإياكم أن تعملوا أعمالاً

ظاهرها عدل وباطنها رياء ؛ لأننا نعلم أن لكل جارحة من الجوارح مجالاً تؤدى فيه وظيفتها ؛ فاللسان أداؤه ووظيفته القول ، والأذن فعلها أن تسمع ، والأنف أداؤه أن يشم ، ويجمع الجميع العمل . فالعمل إما أن يكون قولاً وإما أن يكون فعلا .

قال تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣ ﴾

(سورة الصف)

إذن فالقول محله اللسان ، والفعل محله بقية الجوارح ، والاثنان يجمعهما العمل .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ۝٩ ﴾

وعندما نتأمل كلمة « وعد » نجدها تأتى ، وتأتى أيضاً كلمة « أوعد » و« وعد » وكذلك أوعد إذا لم تقترن بالموعود به ، تكون وَعَد للخير ، و« أَوْعَد » للشر . ولكن لو حدث غير ذلك وجئت بالموعود به ، فالاثنان متساويان ، فيصح أن تقول « وعدته بالخير » ويصح أيضاً أن تقول « وعدته بالشر » . لكن إن لم تذكر المتعلق ، فإن « وعد » تستعمل فى الخير . و« أوعد » تستعمل فى الشر . والشاعر يقول :

وإنِّى إنْ أوعدته أو وعدته
لمُخْلِفُ إيعادى ومُنْجِزُ موعدى

وحين يقول : « وعد الله » فهذا وعد مطلق لا إخلال به ؛ لأن الذى يخل بالوعد هو الإنسان الذى تعتريه الأغيار ؛ فقد يأتى ميعاد الوفاء بالوعد ويجد الإنسان نفسه فى

موقف العاجز أو موقف المتغير قلبياً ، لكن ساعة يكون الله هو الذى وعد فسبحانه الذى لا تداخله الأغيار ، بل هو الذى يُجرى الأغيار ، لذلك يكون وعده هو الوعد الخالص الذى لا توجد قوة أخرى تحول دون أن ينفذ الله وعده . أما وعد البشر فقد تأتى قوة أخرى تعطل هذا الوعد .

« وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة » سبحانه وتعالى يوضح أن مغفرته لكل عباده ولا يختص فقط الصالحين الورعين بل إنه يوجه حديثه إلى هؤلاء الذين ارتكبوا المعاصى فإن تابوا ، فلهم مغفرة ؛ لأن درء المفسدة مقدم على جلب المصلحة ؛ فأنت قد تكون جالسا ويأتى واحد جهة اليمين ليقدم لك تفاحة ، وفى اللحظة نفسها التى تمتد يدك لتأخذ التفاحة تلتفت لتجد إنساناً آخر يريد أن يصفعك ، أى اتجاهات سلوكك تغلب ؟ . لا بد أنك سترد على من يضربك أولا . والحق يزيل الذنوب أولاً بالمغفرة . ونجده سبحانه وتعالى يأتى بأشياء تلفت القلب فهو يقول :

﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾

(من الآية ١٨٥ سورة آل عمران)

فالخطوة الأولى للفوز هى الزحزحة عن النار ، والخطوة التالية بعد ذلك هى دخول الجنة . فسبحانه يمنع المفسدة ويقدم دفعها ودرأها على جلب المنفعة ؛ لذلك يقول الحق بداية : « لهم مغفرة » . والإنسان منا ساعة تأتى له الخواطر يفكر فى أشياء يطمح إليها ، وهناك أشياء يخاف منها . وينشغل الذهن أولاً بما يخاف منه ، يخاف من المفسدة ، يخاف من عدم تحقيق الآمال . إذن فدرء المفسدة مقدم على جلب المصلحة .

« لهم مغفرة وأجر عظيم » . وكل أجر على عمل يأخذ عمره بقدر حيزه الزمنى ، فأجر الإنسان على عمله فى الدنيا يذهب ويزول ؛ لأن الإنسان نفسه يذهب إلى الموت ، أما أجر الآخرة فهو الباقى أبداً ، وهو أجر لا يفوت الإنسان ولا يفوته الإنسان ، ذلك هو الأجر العظيم .

وحين يتكلم الحق عن معنى من المعانى يتعلق بالإيمان والعمل الصالح تكون

النفس مستعدة ؛ لأن هناك تأميلا فى الخير وترهيباً من الشر ؛ لذلك يتبع الحق هذه الآية بآية أخرى فيقول :

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٠﴾ ﴾

وحين نسمع قوله : « أصحاب الجحيم » تتزلزل النفوس رهبة من تلك الصحبة التى نبرأ منها ، فالصحبة تدل على التلازم وتعنى الارتباط معاً ، وألا يترك أحدهما الآخر ؛ كأن الجحيم لا تتركهم ، وهم لا يتركون الجحيم ، بل تكون الجحيم نفسها فى اشتياق لهم . وللجحيم يوم القيامة عملان ؛ العمل الأول : الصحبة التى لا يقدر الكافر على الفكاك منها ، والثانى : لا تترك الجحيم فرصة للكافر ليفك منها . ويقول الحق عن النار :

﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ ﴾

(سورة ق)

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ ﴾

والذكر ـ كما عرفنا ـ يعنى استحضار الشىء إلى الذهن ؛ لأن الغفلة تطرأ على

الإنسان وعليه ألا يستمر فيها . وبعض أهل الإشراق والشطح يتلاعبون بالمواجيد النفسية فيقول واحد منهم : يعلم الله أنى لست أذكره . وحين يسمع الإنسان مثل هذا القول قد يوجه لصاحبه التأنيب والنقد العنيف ، لكن القائل يحلل الأمر التحليل العرفانى فيكمل بيت الشعر بالشطر الثانى :

« إذْ كيف أذكره إذْ لست أنساه » .

وهنا ترتاح النفس ، ويقول الحق هنا أيضاً : « نعمة الله » ولم يقل : « نعم » ؛ لأن كل نعمة على انفراد تستحق أن نشكر الله عليها ؛ فكل نعمة مفردة فى عظم وضخامة تستحق الشكر عليها ، أو أن نعمة الله هى كل فيضه على خلقه ، فأفضل النعمة أنه ربنا ، وسبحانه يقول : « اذكروا نعمة الله عليكم إذ همّ قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم » . ومادام قد جاء بـ « إذ » فالمراد نعمة بخصوصها ؛ لأن « إذ » تعنى « حين » فالحق يوضح : اذكروا نعمة الله عليكم فى ذلك الوقت الذى حدثت فيه هذه المسألة ، لأنه جاء بزمن ويطلب أن نذكر نعمته فى هذا الموقف ، إنه يذكرنا بالنعمة التى حدثت عندما همّ قوم ببسط أيديهم إليكم .

وهناك « قبض » لليد و« بسط » لليد . والبسط المنظور أن ترى النعمة . وفى الآية تكون النعمة هى كف أيدى الكافرين ، ذلك أن أيديهم كانت ممدودة بالسوء والشر . ولو وقفنا عند بسط اليد ؛ لظننا أنه سبحانه قد جعل من أسباب خلقه معبراً للنعم علينا أى أن نعم الله تعبر وتصل إلينا عن طريقهم وبأيديهم ، لكن هذا ليس مرادا من النص الكريم ؛ لأننا حين نتابع قراءة الآية ، نعرف أن كف أيديهم هو النعمة ، فهؤلاء القوم أرادوا أن يبسطوا أيديهم بالإيذاء . ويقولون عن بذاءة اللسان : « بسط لسانه » ويقولون أيضاً : « بسط يده بالإيذاء » .

ونعرف أن الحق جاء بـ «إليكم » أو « عنكم » وكلاهما فيه ضمير يعود على المؤمنين مع النبى صلى الله عليه وسلم ، فالمؤمنون ملتحمون بمنهج النبى صلى الله عليه وسلم ، فإذا همّ قوم أن يبسطوا أيديهم إلى رسول الله ، ففى ذلك إساءة للمؤمنين برسول الله ؛ لأن كل شىء يصيب رسول الله ، يصيب المؤمنين أيضاً . وكانت هناك واقعة حال فى زمن مقطوع وسابق، فهل يعنى الحق سبحانه وتعالى بحادثة بنى

النضير ، وكان بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبنى النضير معاهدة ألا يعينوا عليه خصوم الإسلام وإذا حدث قتل من جهة المسلمين فعلى بنى النضير المعاونة فى الدية ، وكان النبى قد أرسل مسلماً فى سرية فقتل اثنين من المعاهدين خطأ ، فطالبوا بدية للقتيلين . ولم يكن عند النبى ؛ مالٌ فذهب إلى بنى النضير كى يساعدوه بدية القتيلين ، فقالوا له : « مرحبا » نطعمك ونسقيك وبعد ذلك نعطيك ما تريد ، ثم سلطوا واحداً ليرمى الرسول بحجر . فصعد الرجل ليلقى على الرسول صخرة ورسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قاعد إلى جانب جدار من بيوتهم فأخبر الحق رسوله فقام خارجاً ، ولم ينتظر شيئا .

« إذ همّ قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم » لقد أخبر الحق نبيه بما يبيتون قبل أن يتمكنوا من الفعل . و « الهمّ » هو حديث النفس ، فإذا ما خرج إلى أول خطا النزوع فذلك هو القصد ، و« الهم » هو الشىء الذى يغلب على فكر الإنسان فى نفسه ويكون مصحوباً بغم .

وفى اللغة الدارجة نسمع من يقول : « أنا فى هم وغم » ؛ لأن « الهم » هو الأمر الذى لا يبارح النفس حديثاً ويسبب الغم . فالهم هو العدو الذى لا يقدر أن يقهره أحد ؛ لأنه يتسرب إلى القلب ، أما أى عدو آخر فالإنسان قد يدفعه ، ونعرف عن سيدنا الإمام على ـ رضوان الله عليه وكرم الله وجهه ـ أنه كان مشهوراً بأنه المفتى ؛ فهو يُستفتى فى الشىء فيجيب عليه ، لدرجة أن سيدنا عمر نفسه يقول : « قضية ولا أبا حسن لها » أى أنها تكون قضية معضلة إذ لم يوجد أبو حسن لها فيحلها ، وكان سيدنا عمر يستعيذ من أن يوجد فى مكان لا يوجد به سيدنا على . وعندما عرف الناس عنه ذلك تساءلوا : من أين يأتى بهذا الكلام ؟ . فجاءوا بلغز وانتظروا كيف يخرج منه . فقالوا : إن الكون متسع وفيه أشياء أقوى من كل الأشياء ، وقوى تتسلط على قوى ، وحاولوا الاتفاق على شىء أقوى من كل الأشياء ؛ فقال واحد : الجبل هو أقوى الأشياء . وقال الآخر : لكنا نقطع منه الأحجار بالحديد . وبينما هم يسلسلون هذه السلسلة جاء سيدنا على فقالوا له : يا أبا الحسن ما أشد جنود الله ؟ .

فأجاب سيدنا على ـ كرم الله وجهه ـ كأنه يقرأ من كتاب بدليل أنه عرف جنود الله وعرف الأقوى وحصر عددهم ، وقال سيدنا على : أشد جنود الله عشرة .

وكأنه انشغل بهذه المسألة من قبل ، ودرسها .

قال : الجبال الرواسى والحديد يقطع الجبال ، والنار تذيب الحديد ، والماء يطفىء النار ، والسحاب المسخر بين السماء والأرض يحمل الماء ، والريح يقطع السحاب ، وابن آدم يغلب الريح يستتر بالثوب أو الشىء ويمضى لحاجته ؛ والسُّكر يغلب ابن آدم ، والنوم يغلب السكر ، والهم يغلب النوم ، فأشد جنود الله الهم . ولا يمكننا أن نمر على كلمة « الهم » فى القرآن إلا أن نستعرض مواقعها فى كتاب الله . وأهم موقع من مواقعها نتعرض له من أسئلة الكثيرين فى رسائلهم وفى لقاءاتنا معهم هو مسألة يوسف عليه السلام حينما قال الحق سبحانه وتعالى بخصوص مراودة امرأة العزيز له :

﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة يوسف)

ولنحقق هذه المسألة ، فالذين يستبعدون على سيدنا يوسف عليه السلام هذا الأمر ، يستبعدون على صاحب العصمة أن يُفكر فى نفسه ، وإن كان التفكير فى النفس لم يبلغ العمل النزوعى فهو محتمل . بل قد يكون التفكير فى الشىء ثم عدول النفس عنه أقوى من عدم التفكير فيه ؛ لأن شغل النفس بهذا الأمر ثم الكف يعنى مقاومة النفس مقاومة شديدة . ولكنهم يُجلّون ويعظمون ـ أيضاً ـ سيدنا يوسف عن أن يكون قد مر بخاطره هذا الأمر فضلاً على أن يوسف ـ عليه السلام ـ لم يكن قد أرسل إليه، أى أنه لم يكن رسولا آنذاك .

الآية تقول :

﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا ﴾

(من الآية ٢٤ سورة يوسف)

أى أن امرأة العزيز هى التى بدأت المراودة ليوسف عليه السلام فهل تم نزوع إلى العمل ؟. لا ؛ لأن النزوع إلى العمل يقتضى أن يشارك فيه سيدنا يوسف . إذن فـ « همت به » أى صارت تحب أن تصنع العملية النزوعية وجاء المانع من سيدنا يوسف . وبالنسبة للمُرَاوَدِ وهو سيدنا يوسف ، قال الحق :

﴿ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة يوسف)

ونضرب لذلك مثلاً حتى نفهم هذا ؛ إذا قال لك قائل : أزورك لولا وجود فلان عندك ، هذا يعنى أن القائل لم يزرك ، وبالقياس نجد أن يوسف عليه السلام رأى البرهان فلم يهم . فمن أراد أن ينزه يوسف حتى عن حديث نفسه نقول : الأمر بالنسبة لها أنها همت به ، وحتى يتحقق الفعل كان لا بد من قبول لهذا الأمر ، وصار الامتناع لكنّه ليس من جهتها بل جاء الامتناع من جهته . وهو قد همّ بها لولا أن رأى برهان ربه .

لماذا جاء الحق : بأنه همَّ بها لو أن رأى برهان ربه ؟ جاء الحق بتلك الحكاية ليدلنا على الحكمة فى امتناع يوسف عن موافقته على المراودة ، فلم يكن ذلك عن وجود نقص طبعى جسدى فيه ، ولولا برهان ربه لكان من الممكن أن يحدث بينهما كل شىء . وأراد الحق أن يخبرنا أن رجولته كاملة وفحولته غير ناقصة واستعداده الجنسى موجود تماماً ، والذى منعه من الإتيان لها هو برهان ربه ، إنه امتناع دينى . لا امتناع طبيعى . وبذلك يكون إشكال الفهم لمسألة الهم عند امرأة العزيز ويوسف قد وضح تماماً .

ونعود إلى الآية التى نحن بصددها : « إذ همّ قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم » وكلمة « قوم » إذا سمعتها ففيها معنى القيام ، والقيام هو أنشط حالات الإنسان . وكما أوضحنا من قبل نجد الإنسان إما أن يكون قائما وإما أن يكون قاعدا وإما مضطجعا وإما مستلقيا وإما نائما . ونجد أن الراحات على مقدار هذه المسألة ، فالقائم هو الذى يتعب أكثر من الآخرين ؛ لأن ثقل جسمه كله على قدميه الصغيرتين ، وعندما يقعد فإن الثقل يتوزع على المقعدة . وإذا اضطجع فرقعة الاحتمال تتسع . ولذلك يطلقونها على الرجال فقط ؛ لأن من طبيعة الرجل أن يكون قواماً ، ومن طبيعة المرأة أن تكون هادئة وديعة ساكنة مكنونة . فالقوم هم الرجال ، ومقابل القوم هنا « النساء» . إذن فالنساء ليس من طبيعتهن القيام .

والشاعر يقول :

وما أدرى ولست إخال أدرى
أقوم آل حصن أم نساء

وحين يقول الحق : « إذ همّ قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم » فمعنى ذلك أنّه لم يكن هناك نساء قد فكرن فى أن يؤذين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونجد هنا أيضاً أن البسط مجال تساؤل ، هل البسط يعنى الأذى أو الكرم ؟.

والحق يقول :

﴿ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾

(من الآية ٢٧ سورة الشورى)

هذا (فى مجال العطاء) أما فى مجال الأذى فالحق يقول على لسان ابن آدم لأخيه :

﴿ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ﴾

(من الآية ٢٨ سورة المائدة)

والأيدى لاتطلق إلا إذا أردنا حركة نزوعية تترجم معنى فى النفس سبق أن مرّ على العقل من قبل ، فمد الأيدى يقتضى التبييت بالفكر ، وهكذا نعرف أن القوم قد بسطوا أيديهم إلى رسول الله والمؤمنين .

وعندما ننظر فى التاريخ المحمدى مع أعدائه ، نجد الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾

(سورة الأنفال)

أى أنهم قعدوا للتبييت . ونحن لا نعرف ذلك التبييت إلا إذا امتدت الأيدى للعمل ، فقد مكروا وبيتوا للشر وأرادوا أن يثبتوا رسول الله أى أرادوا تحديد إقامته بحبسه أو تقييده أو إثخانه بالجراح حتى يوهنوه ويعجزوه فلا يستطيع النهوض والقيام أو يقتلوه أو يخرجوه من بلده . بإثباته ومنعه فلا يبرح ، أو يخرجوه من المكان كله أو يقتلوه ، فماذا كان الموقف ؟

لقد هموا أن يبسطوا إليه أيديهم . وبسط اليد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم

يؤذى المؤمنين كلهم ، لأنه لا يستقيم أمر المؤمنين إلا برسول الله ، فلو بسط الكفار أيديهم إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، لكان معنى ذلك بسط أيديهم على الكل . ويأتى التاريخ المحمدى بأمور يبسط فيها الكافرون أيديهم بالأذى إلى رسول الله وإلى المؤمنين ويكف الله أيديهم ويمكر بهم أى يجازيهم على ذلك بالعقاب .

والمكر ـ كما نعلم ـ هو الشجر الملتف بعضه على بعضه الآخر حيث لا نعرف أى ورقة تنمو من أى جذع أو فرع . والمكر فى المعانى هو التبييت فى خفاء . وهو دليل ضعف لا دليل قوة . فالأقوياء يواجهون ولا يبيتون ؛ ولذلك يقال : إن الذى يكيد لغيره إنما هو الضعيف ؛ لأن الإنسان الواضح الصريح القادر على المواجهة هو القوى . ونجد البعض يجعل ضعف النساء دافعا لهن على قوة المكر استنادا لقول الحق :

﴿ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾

(من الآية ٧٦ سورة النساء)

وإلى قول الحق :

﴿ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾

(من الآية ٢٨ سورة يوسف)

فلا يكيد إلا الضعيف . ومن لا يقدر على المواجهة فهو يبيت ، ولو كان قادراً على المواجهة لما احتاج إلى ذلك . وقد يمكر البشر ويبيتون بخفاء عن غيرهم . لكنهم لا يقدرون على التبييت بخفاء عن الله ، لأنه عليم بخفايا الصدور . وأمر الحق فى التبييت أقوى من أمر الخلق ؛ لذلك نجد قوله سبحانه :

﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة الأنفال)

راجع أصله وخرج أحاديثه الدكتور/ أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .

ولنلحظ أن تبييت الله خير . وقد أراد الحق سبحانه وتعالى أن يُعلم أعداء الإسلام أنه بعد هذا التبييت لن تنالوا من رسولى ، لن تنالوا منه بكل وسائلكم سواء أكانت تعذيباً لقومه أم تبييتا له . وعلى الرغم من أنهم بيتوا كثيراً إلا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج من بيته فى مكة إلى المدينة وهم نائمون :

﴿ فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾

(من الآية ٩ سورة يس)

ونجد العجب فى كف أيدى الكافرين عن رسول الله . فكل أجناس الوجود قد اشتركت فى عملية كف أيدى الكافرين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم سواء أكانت تلك الأجناس جماداً أم نباتاً أم حيواناً أم إنساناً ، نثر رسول الله التراب وهو جماد فأغشى به الكافرين ، وصار التراب من جنود الله .

وها هى ذى أسماء بنت أبى بكر تحمل الطعام لهم فى الغار وهى ترعى الغنم ، والأغنام تجد الحشائش فترعاها وتزيل الأثر الذى أحدثه ركب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

لقد اشترك النبات فى كف أيدى الكافرين عن رسول الله ، وكذلك الأغنام وهى من الحيوان ، وكذلك فرس سراقة التى ساخت وغاصت قوائمها فى الأرض ، ثم الحمامة التى بنت عشها على الغار ، وكذلك العنكبوت الذى بنى بيته على الغار ، ورضخت كل جنود الله لأمر الله فشاركت فى عملية كف أيدى الكافرين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

والأعجب من ذلك أن الحق سبحانه وتعالى قد كف أيدى الكافرين بالكافرين ، فالرسول الذى جاء ليهدى الخلق ويسير بهم إلى النور من الظلمات ، نجد الذى يهديه فى طريقه إلى المدينة هو أحد الكفار . وهكذا نرى أن هداية المعانى تستخدم هداية المادة ، والرسول هو الحامل لهداية المعانى يستخدم هداية المادة ممثلة فى ذلك الكافر . ونعرف أن من جنود الإسلام فى دار الهجرة كان اليهود - برغم أنوفهم - ألم يقولوا للأوس والخزرج : سيأتى من بينكم نبى نتبعه ونقتلكم معه قتل عاد وإرم ؟ فلما سمع الأوس والخزرج أن نبياً ظهر فى مكة ، قالوا : هذا هو النبى الذى توعدتنا به

اليهود ، فلا يسبقنكم إليه ، فسبقوا إليه وأسلموا وبايعوه ، فقد ورد أن يهودا كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قبل مبعثه ، فلما بعثه الله من العرب كفروا به وجحدوا ما كانوا يقولون فيه . فقال لهم معاذ بن جبل وبشر بن البراء بن معرور وداود بن سلمة : يا معشر يهود اتقوا الله وأسلموا فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد صلى الله عليه وسلم ونحن أهل شرك وتخبروننا بأنه مبعوث وتصفونه بصفته ، فقال سلام بن مشكم أخو بنى النضير : ما جاءنا بشىء نعرفه وما هو بالذى كنا نذكر لكم[١] .

ثم كانت المدينة داراً للهجرة .

هكذا نرى أن الباطل يخدم الحق ، والكفر يخدم الإيمان ، فها هوذا عبدالله بن أريقط ـ وكان كافراً ـ يضع نفسه كدليل للرسول وصاحبه أثناء الهجرة ولا ينظر إلى الجُعْل الذى رصدته قريش لمن يأتيها بمحمد . هكذا نجد أن كف الأيدى كانت له صور كثيرة .

وقد تعرض رسول الله صلى الله عليه وسلم لأشياء ومواقف رآها الصحابة ، ونشأت له خوارق من الحق سبحانه وتعالى تؤيد صدقه ، وشاهد تلك الخوارق بعض الصحابة ولا نقول عنها معجزات ؛ لأن معجزة الإسلام إلى قيام الساعة هى القرآن . ولكن رسول الله لم تخل حياته من بعض المعجزات الكونية مثل التى حدثت لغيره من الرسل . وأرادها الحق لا للمسلمين عموماً ولكن شاهدها بعضهم كما شاهدها بعض الكفار ؛ لأن رسول الله كان فى حاجة إلى أن يؤكد له الله أنه رسول الله . فها هوذا سيدنا جابر بن عبدالله يقول :

« كان بالمدينة يهودى وكان يسلفنى فى تمرى إلى الجذاذ ، وكان لجابر الأرض التى بطريق رومة فجلست[٢] فخلا[٣] عاما فجاءنى اليهودى عند الجذاذ[٤] ولم أجذ منها شيئا ، فجعلت استنظره[٥] إلى قابل فيأبى فأخبر بذلك النبى صلى الله عليه وسلم

(١) تفسير ابن كثير عن محمد بن إسحاق مرويا عن ابن عباس.

(٢) فجلست : أى فتأخرت الأرض عن الإثمار ، وفى رواية فخاست أى خالفت ما كان معهودا منها من التمر

(٣) فخلا : أى تأخر السلف عاما .

(٤) الجذاذ : (بكسر الجيم وفتحها وبالذال المعجمة ويجوز إهمالها) زمن قطع تمر النخل .

(٥) أستنظره : أطلب منه أن يمهلنى .

فقال لأصحابه : امشوا نستنظر لجابر من اليهودى ، فجاءونى فى نخلى فجعل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يكلم اليهودى فيقول : أبا القاسم لا أُنظره ، فلما رأى النبى صلى الله عليه وسلم قام فطاف فى النخل ثم جاءه فكلمه فأبى ؛ فقمت فجئت بقليل رطب فوضعته بين يدى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأكل ثم قال : أين عريشك يا جابر ، فأخبرته فقال : افرش لى فيه ففرشته ، فدخل فرقد ثم استيقظ فجئته بقبضة أخرى فأكل منها ثم قام فكلم اليهودى فأبى عليه ، فقام فى الرطاب فى النخل الثانية ثم قال : يا جابر ، جذ واقض ؛ فوقف فى الجذاذ فجذذت منها ما قضيته وفضل منه فخرجت حتى جئت النبى صلى الله عليه وسلم فبشرته فقال : أشهد أنى رسول الله »[1] .

مثال آخر : كان الماء قليلاً عند قوم من الصحابة فيغمس رسول الله يده فى الماء ويشرب كل الناس . وهل يجرؤ أحد من الذين رأوا تلك المعجزة أن يجادل فيها ؟ طبعاً لا ، لكن هل هذه المعجزة لنا ؟ إن وثقنا فيمن أخبر فلن نستكثر على الله أن يكثر الماء لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، ولكن نحن نعلم أن الله قد تكفل بحفظ القرآن ليكون هو المعجزة الباقية فقال تعالى : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » وقال : « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » .

وقد ثبت أن رسول الله جمع قليلا من الزاد ودعا ما شاء الله أن يدعو وأطعم به جيشا . والذى عاش بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم له أن يصدق تلك المعجزات أو لا يصدقها ، ولكن على المؤمن الذى علم مقام ومكانة الرسول عند ربه ، أن يصدق تلك الخوارق متى ثبت ذلك بطريق يقينى قطعى ، ولذلك لا ضرورة لإقامة الجدل مع هؤلاء الذين ينكرون المعجزات الكونية . ونقول لهم : ليس أحدكم مسئولا بهذه المعجزات ، أنت مسئول بمعجزة القرآن فقط . والخوارق التى وقعت إما أن تكون بغرض تثبيت رسول الله مصداقا لقوله الحق :

﴿ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾

(من الآية ٣٢ سورة الفرقان)

---

(١) رواه البخارى ومسلم (متفق عليه) .

وإما أن تكون لتثبيت أصحاب رسول الله ؛ فقد كانت الأهوال تمر عليهم وتزلزلهم :

﴿ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ ﴾

(سورة الأحزاب)

وكان لا بد أن ترسل السماء لهم آيات لتثبت أقدامهم فى الإيمان .

والخلاصة أن كل الخوارق الكونية التى حدثت لرسول الله صلى الله عليه وسلم ليس المقصود بها عامة المسلمين ، ولكن المقصود بها من وقعت له أو وقعت أمامه ، ونفض بذلك أى نزاع حول تلك الخوارق ؛ لأن المعجزة الملزمة للجميع هى كتاب الله سبحانه وتعالى .

وقد همّ بالأذى كثير من أعداء الرسول صلى الله عليه وسلم . ألم ترد امرأة من اليهود أن تسمّه وكف الله يديها ؟ وحكاية بنى النضير الذين أرادوا أن يلقوا عليه الحجر ، فقام قبل أن يلقى مندوب بنى النضير الحجر عليه صلى الله عليه وسلم .

وها هو ذا صفوان بن أمية له ثأر عند رسول الله من غزوة بدر يستأجر عمير ابن وهب الجمحى ويقول له : اذهب إلى المدينة واقتل محمداً وعلىّ دينك ، أنا أقضيه عنك وعيالك مع عيالى أواسيهم ما بقوا .

ويذهب عمير إلى المدينة ويدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : « ما جاء بك يا عمير ؟ قال : جئت لهذا الأسير الذى فى أيديكم فأحسنوا إليه ـ وكان له ابن أسير لدى المسلمين ـ قال : فما بال السيف فى عنقك ؟ فقال : قبحها الله من سيوف وهل أغنت عنا شيئا ؟ قال : أصدقنى ما الذى جئت له ؟ قال : ما جئت إلا لذلك . فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : بل قعدت أنت وصفوان بن أمية فى الحِجر فذكرتما أصحاب القليب من قريش ثم قلت لولا دين علىّ وعيال عندى لخرجت حتى أقتل محمداً فتحمل صفوان بدينك وعيالك على أن تقتلنى له ، والله حائل بينك وبينى فقال عمير . أشهد أنك رسول الله . قد كنا يا رسول الله نكذبك بما كنت تأتينا به من خبر السماء وما ينزل عليك من الوحى .

وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان ، فوالله إنى لأعلم ما آتاك به إلا الله ، فالحمد لله الذى هدانى للإسلام »[١] .

ومثال آخر : ما رواه سيدنا جابر ـ رضى الله عنه ـ فى غزوة ذات الرقاع . « قال : جاء رجل يقال له غورث بن الحارث فقام على رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسيف فقال : من يمنعك منى ؟ قال : الله . فسقط السيف من يده فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم السيف وقال : (ومن يمنعك منى) ؟ فقال : كن خير آخذ . قال : تشهد أن لا إله إلا الله ؟ قال : لا ، ولكن أعاهدك على ألا أقاتلك ولا أكون مع قوم يقاتلونك . فخلى سبيله فأتى أصحابه وقال : جئتكم من عند خير الناس »[٢] .

وعندما سمع الرجل لأول مرة أن الله هو الذى يمنع الرسول منه وقع السيف من يده ، ذلك أن ذرات الكفر فى الرجل تزلزلت وعاد إلى إيمان الفطرة ، وعندما أمسك النبى بالسيف وسأل الرجل : من يمنعك منى ؟ لم يقل الرجل:« هبل » أو « اللات » أو « العزى » فالرجل يعلم أن مسألة الأصنام كذب فى كذب ، ولو كان مؤمناً بآلهته لقال أحد أسمائها . وعندما تزلزلت ذرات الكفر فى كيانه عاد إلى الفطرة الأولى التى لا تكذب أبداً . وإن كذب الإنسان على الناس جميعاً لا يكذب على نفسه . وكلمة « الله » هى التى زلزلت كفر الرجل وأعادته إلى الحق .

وفى معركة بدر نجد أن سيدنا أبا بكر الصديق كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بينما ابنه عبدالرحمن كان مع الكفار ، وبعد أن أسلم ابنه بفترة جلس الولد مع أبيه يتسامران ، فقال الابن : لقد رأيتك يوم أحد فصدفت[٣] عنك فقال أبو بكر : لكنى لو رأيتك ما صدفت عنك[٤] . فقد رأى ابن أبى بكر والده ولم يقتله ، ولاشك أن مقارنة نفسية باطنية فكرية قد حدثت بين معزة أبيه وبين مكانة هبل أو تلك الحجارة ، وعرف ابن أبى بكر أن والده أفضل بكثير من تلك الأحجار . ولكن

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام عن ابن إسحاق عن محمد بن جعفر بن الزبير عن عروة بن الزبير .

(٢) البيهقى عن جابر وفى البداية (٤/٨٤) .

(٣) صدفت عنك : أعرضت عنك .

(٤) أخرجه ابن أبى شيبة عن أيوب وأخرج الحاكم عن أيوب نحوه .

أبا بكر حينما يقول : ولو كنت رأيتك لقتلتك ، فالمقارنة النفسية هنا تكون بين الإيمان بالله وبين الابن ، ومن المؤكد أن الإيمان يغلب فى نفس أبى بكر . وكل من أبى بكر وابنه كان منطقيا مع نفسه .

ومثال آخر : « عن جابر بن عبدالله أنه غزا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ قبل نجد فلما قفل رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ قفل معه فأدركتهم القائلة ـ شدة الحر فى وسط النهار ـ فى وادٍ كثير العضاه ـ شجر عظيم له شوك ـ فنزل رسول الله ، وتفرق الناس فى العضاه يستظلون بالشجر ونزل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ تحت سَمُرَة فعلق بها سيفه ، قال جابر : فنمنا نومة فإذا رسول الله يدعونا فجئناه فإذا عنده أعرابى جالس فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إن هذا اخترط سيفى وأنا نائم فاستيقظت وهو فى يده صلتاً فقال لى : من يمنعك منى ؟ فقلت له : الله . فها هوذا جالس ثم لم يعاقبه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ »[1] .

ولماذا حدث ذلك ؟ لأن الفطرة المستلهمة بدون تدخل من أحد تنضح بالإيمان . وها نحن أولاء نرى الصحابة فى العهد الأول حينما اضطهدوا فى مكة وهاجروا هجرتهم الأولى إلى الحبشة ؛ هل ذهبوا إليها خبط عشواء ؟ أو ذهبوا بتخطيط نبوى كريم ؟ لقد درس النبى أولاً الأرض التى تصلح لاستقبالهم ويقبلهم فيها أهلها كمهاجرين . ودرس النبى أوضاع الجزيرة العربية ووجد أن قريشا تتمكن من كل قبيلة فى الجزيرة العربية عندما يأتى موسم الحج ، لذلك لن توجد القبيلة التى تحمى المهاجرين فيقول لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد وهى أرض صدق ، حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه »[2] .

---

(١) رواه البخارى فى المغازى وعند ابن إسحاق بعد قوله : (الله) فدفع جبريل فى صدره فوقع السيف من يده فأخذه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقال : من يمنعك منى . قال : لا أحد . وعند الواقدى أنه أسلم ورجع إلى قومه فاهتدى به خلق كثير .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام عن ابن إسحاق .

وبالفعل ذهب المسلمون إلى الحبشة مهاجرين . وحاولت قريش أن تسترد المسلمين من أرض النجاشى . وأرسلت قريش بعثة لاستردادهم ورفض النجاشى . وسمع النجاشى عن النبى صلى الله عليه وسلم وعلم أنه النبى الذى بشر به الإنجيل . ولاشك أن النجاشى قد أسلم لأن النبى صلى الله عليه وسلم صلى على النجاشى عندما مات . وكان إسلام النجاشى مكافأة له من الله ؛ لأنه حمى المؤمنين بالله وبرسوله عنده . وما أعظم المكافأة التى نالها النجاشى أن يموت على الإسلام وأن يصلى عليه سيدنا رسول الله صلاة الغائب .

إن كل هذا من كف أيدى الكافرين عن المؤمنين وعن رسول الله ، ومن أجل أن يثبت الحق للجميع أن المؤمنين على حق وأن الله لن يخذلهم ، فلا يخطر ببال المؤمنين أن عدوهم أقوى منهم ؛ فالله أقوى من خلقه . « فكف أيديهم عنكم » وكف أيدى الكافرين عن المؤمنين لأنه ـ سبحانه ـ يعد المؤمنين ليكونوا حملة منهجه إلى الخلق . ولذلك يجب أن يداوم المؤمنون على تكاليف الإيمان وتقوى الله ليكف الله أيدى الكافرين عنهم ، فلا يتغلب كافر على مؤمن فى لحظة من اللحظات إلا إذا كان المؤمن قد تخلى عن شىء فى منهج الله ؛ لأن الحق لا يقول قضية قرآنية ثم يترك القضايا الكونية التى تحدث فى الحياة لتنسخ هذه القضية القرآنية . لقد قال :

﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾

(سورة الصافات)

إذن فعندما ترى جنداً من المسلمين قد انهزموا فلتعلم أنهم قد تخلوا عن منهج الله فتخلى الله عنهم ، بدليل أن بعضاً من المسلمين ساعة لم ينفذوا ما أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم غلبهم الكفار ، فالله لا يغير سنته من أجل أناس نُسبوا إليه ولم ينفذوا تعاليم منهجه . والحق يقول :

﴿ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾

(من الآية ٧ سورة محمد)

ويقول سبحانه :

﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ ﴾

(من الآية ١٥٢ سورة البقرة)

إنك إن انتسبت إلى الإسلام فيجب أن تنتسب إلى الإسلام بحق ، وإن رأيت المؤمنين قد دخلوا معركة وانهزموا فلتبحث مصادر تخليهم عن منهج الحق ، فسبحانه يقول :

﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

لقد أصاب المقاتلين مع النبى شىء ، فلم يضعفوا ولكنهم صبروا وطلبوا من الحق أن يغفر لهم ذنوبهم ، لقد عرفوا مصادر ضعفهم واستعانوا بالله على هذا الضعف ، فماذا فعل الله لهم ؟. نصرهم سبحانه بأن آتاهم ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين . وكل ذلك السلوك الإيمانى الذى يقى من الهزيمة وكيد العدو ، هو من تقوى الله ، حتى يظل المؤمنون فى معية الله . وعندما يكون المسلم فى معية الله لا يجرؤ خلق من خلق الله أن ينال منه . وننظر إلى الهجرة كمثال لذلك ؛ لنجد أن سيدنا أبا بكر كان حريصاً على حماية النبى صلى الله عليه وسلم . فعن أنس بن مالك قال : « لما كان ليلة الغار ، قال أبو بكر : يا رسول الله دعنى فَلادخُل قبلك فإن كانت حيّة أو شيء كانت لى قبْلك . قال : ادخل ، فدخل أبو بكر فجعل يلتمس بيديه فكلما رأى جُحراً جاء بثوبه فشقه ثم ألقمه الجحر حتى فعل ذلك بثوبه أجمع ، قال : فبقى جحر فوضع عقبه عليه ثم أدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : فلما أصبح قال النبى صلى الله عليه وسلم : « فأين ثوبك يا أبا بكر ؟» فأخبره بالذى صَنع فرفع النبى صلى الله عليه وسلم يده فقال : « اللهم اجعل أبا بكر معى فى درجتى يوم القيامة » فأوحى الله تعالى إليه « إن الله قد استجاب لك »[1] .

ويرى أبو بكر الكفار وهم يمرون أمام الغار فيقول لرسول الله : « لو أن أحدهم

(١) أبو نعيم فى الحلية .

نظر تحت قدميه لأبصرنا ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما »[١] .

وفى ذلك رد كامل ؛ لأن الاثنين فى معية الله ، ومادام المؤمن فى معية من لا تدركه الأبصار فلن تدركه الأبصار ، كيف ؟. نحن لا نعرف كل أسرار الله ولكنه القادر الأعلى .

وفى حياة البشر نجد الطفل الصغير قد يخرج بمفرده فيصيبه غيره من الأطفال بالضرر ؛ ولكن إذا خرج الطفل مع عائله ، مع أبيه مثلاً أو مع أخيه الأكبر ، فالأطفال لا يقتربون منه ؛ فما بالنا ونحن جميعاً عيال الله ؛ وماذا يحدث عندما نتشبث بمعية الله ؟. إذن فتقوى الله هى التى تجعل المؤمن فى معية ربه طوال الوقت . ومن يُرِدِ المؤمن بسوء فإن جنود الله تحمى المؤمن . ويذيل الحق الآية : « وعلى الله فليتوكل المؤمنون » . وإياكم أن تقولوا:إننا بلا عَدَد أو عُدَّة . إنك مسئول أن تعد ما تقدر عليه وتستطيعه وأترك الباقى لله :

﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ ﴾

(من الآية ٦٠ سورة الأنفال)

ويقول التاريخ الإيمانى لنا إنه كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله . وقد يقول قائل : هذه المسألة مادية تحتاج إلى عدد وعُدد . ونرد : إن الحق قد طالب بأن نعد ما نستطيعه لا فوق ما نستطيعه . وهو سبحانه عنده من الجند اللطيف الخفىّ الدقيق الذى لا يُرى :

﴿ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ ﴾

(من الآية ١٢ سورة الأنفال)

ومادام الله قد ألقى الرعب فى قلوب الأعداء فالمسألة تنتهى ولا تفلح عُدد أو عَدَد . ويكون التوكل على الله بعد أن يعد الإنسان ما يستطيعه وهو الاستكمال الفعَّال للنصر ، ولنعلم أن التوكل غير التواكل . إن المتوكل على الله يقتضى أن يعلم الإنسان أن لكل جارحة فى الإنسان مهمة إيمانية ، أن تطبق ما شرع الله ؛ فالأذن تسمع ، فإن سمعت أمراً من الحق فأنت تنفذه ، وإن سمعت الذين يلحدون فى

---

(١) متفق عليه .

آيات الله فأنت تعرض عنهم . واللسان يتكلم ، لذلك لا تقل به إلا الكلمة الطيبة ؛ فلكل جارحة عمل ، وعمل جارحة القلب هو اليقين والتوكل ، ولنتذكر أن السعى للقدم ، والعمل لليد والتوكل للقلب ، فلا تنقل عمل القلب إلى القدم أو اليد ؛ لأن التوكل الحقيقى أن تعمل الجوارح وتتوكل القلوب ، وكم من عاملٍ بلا توكل فتكون نتيجة عمله إحباطاً .

إننا نجد الزارع الذى لا يتوكل على الله ينمو زرعه بشكل جيد ومتميز ثم تهب عليه عاصفة أو يتغير الجو فيصيبه الهلاك وتكون النتيجة **الإحباط** . واحذر إهمال الأسباب ؛ أو أن تفتنك الأسباب ؛ لأنك إن أهملت الأسباب فأنت غير متوكل بل متواكل . تنقل عمل القلب إلى الجوارح . وإذا قال لك واحد : أنا لا أعمل بل أتوكل على الله ، قل له : هيا نر كيف يكون التوكل . وأحضر له طبق طعام يحبه . وعندما يمد يده إلى الطعام ، قل له : اترك الطعام يقفز من الطبق إلى فمك .

ويجعل الحق سبحانه وتعالى من قصص الرسل على رسول الله صلى الله عليه وسلم تثبيتاً للإيمان وتربية للأسوة وإنماء لها ، حتى لا يضيق صدر الرسول صلى الله عليه وسلم بما يفعله اليهود أو المشركون ، فإن كان قد حدث معك ـ يا محمد ـ شيء من هذا الإنكار والإيلام ، فقد حدث الكثير من تلك الأحداث مع الرسل من قبلك ، فيقول سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن

تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ
فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾

يُذَكِّر الحق هنا رسوله بالميثاق الذى أخذه من بنى إسرائيل . وقد يكون المقصود هو ميثاق الذر أو يكون المراد بالميثاق ما جاء فى قوله تعالى :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾

(سورة آل عمران)

أو أن يكون المراد بالميثاق هو ما بينه بقوله سبحانه :

﴿ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ ﴾

(من الآية ٦٣ سورة البقرة)

ويقول سبحانه : « وبعثنا منهم اثنى عشر نقيباً » ولنر « التكتيك » الدينى الذى أراده الحق ، فهو لا يجمع أجناس الخلق المختلفة على واحد من نوع منها ؛ لأن ذلك قد يعرض الدعوة لعصبية ؛ فاختار سبحانه اثنى عشر نقيباً على عدد الأسباط حتى لا يقولن سبط : كيف لا يكون لى نقيب ؟. وحسم الله الأمر ، ولم يجعله محلاً للنزاع ؛ فجعل لكل سبط نقيباً منهم . والنقيب هو الذى يدير حركتهم العقدية والدينية . وساعة نسمع كلمة « نقيب » نعرف أنها من مادة « النون و القاف والباء » ، « والنقب » هو إحداث فجوة لها عمق فى أى جسم صلب .

إن اختيار الحق لكلمة نقيب ، يَدل على أن النقيب الصادق ينبغى أن يكون صاحب عينين فى منتهى اليقظة حتى يختار لكل فرد المهمة التى تناسبه ويركز على كل فرد بما يجعله يؤدى عمله بما ينفع الحركة الكاملة . وبذلك يكون كل فرد فى السبط له عمله ومكانه المناسب . ولا يتأتى ذلك إلا بالتنقيب ، أى معرفة حالة كل واحد وميوله فيضعه فى المكان المناسب .

إذن فالنقيب هو المنقب الذى لا يكتفى بظواهر الأمور بل ينقبها ليعرف ظروف وأسباب كل واحد . واختار الحق من كل سبط نقيباً ، ولم يجعل لسبط نقيباً من سبط

آخر حتى يمنع السيطرة من سبط على سبط ، ويمنع أن يكون النقيب على جهالة بمن يريد حركتهم من الأسباط الآخرين .

ونحن نسمع فى حياتنا اليومية وصفاً لإنسان : فلان له مناقب كثيرة ، أى أن له فضائل يذكرها الناس ، كأنّ على صاحب الفضائل ألا يتباهى بها بنفسه بل عليه أن يترك الناس لينقبوا عن فضائله ، ولذلك كانت كنوز الأرض وكنوز الحضارات مدفونة ننقب عليها ، أما ما يظهر على سطح الأرض فتذروه الرياح وعواملُ التعرية ولا يبقى منه شىء .

إذن فكلمة « نقيب » فى كل مادتها تدور حول الدخول إلى العمق ، لذلك تصف الرجل الفاضل : فلان له مناقب أى إن نقبت وجدت له فضائل تذكر ، وقد أعطاه الله موهبة الخير ولا يتعالم بها ، بل يدع الناس هم الذين يحكمون ويذكرون هذه الصفات . ومن نفس المادة « النقاب » أى أن تغطى المرأة وجهها .

وقوله الحق:« إنى معكم » يعطيهم خصلة إيمانية ، فلا يظنن أحد أنه يواجه أعداء منهج الله بذاته الخاصة بل بمعونة الله فلا يضعف أحد أو يهن مادام مؤمناً ، وكما قال الحق :

﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾

(من الآية ٦٠ سورة الأنفال)

وبعد أن يعد المؤمنون ما استطاعوا فليتركوا الباقى على الله .. وجاء أيضاً قوله : « وقال الله إنى معكم » أى أن كل نقيب على سبط ليس له مطلق التصرف ، ولكن الله يوضح : « أنا معكم وسأنظر كيف يدير كل نقيب هذه المسائل » أى أنه سبحانه وتعالى مطلع على واقعكم ، فليس معنى الولاية أن يكون للوالى مطلق التصرف فى جماعته ؛ لا ؛ لأن الله رقيب . وقوله الحق : « إنى معكم » تدل على أن من ولى أمراً فلا بد أن يتابعه ويراه .

وبعد ذلك قال : « لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلى وعزرتموهم وأقرضتم الله قرضاً حسناً لأكفرن عنكم سيئاتكم » . و« لئن » تضم شرطاً وقسماً ، كأن الحق يقول : وعزتى لئن أقمتم الصلاة وفعلتم كذا وكذا ليكونن الجزاء أن أكفر

عنكم السيئات . ودلت « اللام » على القسم ، ودلت « إن » على الشرط فهى « إن » الشرطية .

والقسم ـ كما نعلم ـ يحتاج إلى جواب ، والشرط يحتاج إلى جواب أيضاً ، فالواحد منا يقول للطالب : إن تذاكر تنجح . والواحد منا يقول:« والله لأفعلن كذا » ، و« الله » هى القسم . و« لأفعلن » جواب القسم المؤكد باللام . وحين يأتى القسم فى جملة بمفرده فجوابه يأتى ، وحين يأتى الشرط بمفرده فى جملة فجوابه يأتى أيضاً . ولكن ماذا عندما يأتى القسم مع الشرط ؟ هل يأتى جوابان : جواب للشرط وجواب للقسم ؟ . عندما تجد هذه الحالة فانظر إلى المقدم منهما ، هل هو القسم أو الشرط ؟؛ لأن المقدم منهما هو الأهم ؛ فيأتى جوابه ، ويغنى عن جواب الثانى . والمتقدم هنا هو القسم ، تماماً مثل قولنا :

ـ لئن قام زيد لأقومن ، وهنا يكون الجواب جواب القسم ، أما إن قلنا : إن قام زيد والله أكرمْه ، فالجواب جواب الشرط ؛ فقدم الشرط على القسم . هذا إن لم يكن قد تقدم ما يحتاج إلى خبر كالمبتدأ أو ما فى حكمه ، فإن جاء والخبر أى المحتاج إلى الخبر فالشرط هو الراجح ، أى فالراجح أن نأتى بجواب الشرط ونحذف جواب القسم ؛ لأن الشرط تأسيس والقسم توكيد . وابن مالك فى الألفية يوضح هذه القاعدة :

واحذف لدى اجتماع شرط وقسم
جـواب مـا أخّـرت فـهـو مُلْتَـزَمْ
وإن تـوالـيـا وقَـبْـلُ ذو خـبـر
فـالشرط رَجِّحْ مـطلقـا بـلا حَـذَرْ

والقسم قد تقدم فى هذه الآية ، لذا نجد الجواب هنا جواب القسم ، وهو : « لأكفرن عنكم سيئاتكم » .

وقوله الحق : « أقمتم الصلاة » يوضح أن الإقامة تحتاج إلى أمرين ؛ فروض تؤدى ، وكل فرض فيها يأخذ حقه فى القيام به . وبعد ذلك « وآتيتم الزكاة » وفى كتب الفقه نضع الصلاة ، والزكاة فى باب العبادات . وجاء التقسيم الفقهى لتسهيل إيضاح الواجبات ، لكن كل مأمور به من الله عبادة ؛ لأن العبادة هى أن تطيع مَن

تعبد فى كل ما أمر به ، وأن تجتنب ما نهى عنه ، فكل أمر إلهى هو عبادة .

وقلنا من قبل : إن الحق سبحانه قال :

﴿ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ﴾

(من الآية ٩ سورة الجمعة)

وقوله تعالى :

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ١٠ سورة الجمعة)

هنا نجد أمراً تعبدياً أن نترك البيع إلى الصلاة ، وأمراً تعبدياً ثانياً أن ننتشر فى الأرض ابتغاء لفضل الله بعد انقضاء الصلاة ، وأى إخلال بالأمرين ، إخلال بأمر تعبدى ؛ فأنت مأمور أن تتحرك فى الأرض على قدر قوتك حركةً تكفيك وتفيض عن حاجتك ليعم هذا الفائض على غيرك .

وقوله الحق : «وآمنتم برسلى وعزرتموهم » أى أن ينعقد الإيمان فى القلب فلا يطفو الأمر بعد ذلك لمناقشته ، وأن تعزروا الرسل ، أى وقرتموهم ونصرتموهم ، والعَزْر فى اللغة معناه المنع ، ولكن المنع هنا مراد به أن يمنع الناس عن رسول الله من يريده بسوء ؛ فإن أراد أحد من الأعداء السوء برسول من الله فليمنع المؤمنون هذا العدو عن الرسول صلى الله عليه وسلم .

وأنت فى حياتك إن كان لك حبيب أراده إنسان بسوء ، وكنت لا تدركه لأنه بعيد عنك فأنت تتمنى أن تأخذ صاحبك وتحميه من أن يناله العدو . لكن إن كان العدو أمامك فأنت تصده عن حبيبك . فالعزر هو المنع ، أى أن تمنعه من عدوه وتحول بينه وبينه ، أو تمنع عدوه من أن يناله بشر . والرسول بالنسبة للمؤمنين به تكون حياته أغلى من حياتهم ، ففى أثناء المنع قد يصاب أحد المؤمنين ، وفى ذلك تعظيم للرسول ونصرة له وتوقير .

نقول ذلك حتى نرد على الذين يتصيدون ويقولون : علماء المسلمين لا يتفقون على شىء ، فمرة يقولون : إن « عزرتموهم » معناها « نصرتموهم » ، ومرة أخرى

يقولون : إن « عزرتموهم » معناها « منعتموهم » . ونقول : كل المعانى هنا ملتقية ، فالعزر هو الرد والمنع ، إما بمنع العدو عن الرسول ، وإمّا أن يمنع الناس الرسول من أن يناله العدو ، أو الاثنان معاً ، ويجوز أيضا أن يكون معنى « عزرتموهم » هو نصرتموهم . وكذلك يجوز أن يكون معناها « وقرتموهم » ؛ لأن التعظيم والتوقير هما السبب فى نصرة الإنسان للرسول .

وبعد ذلك يقول الحق : « وأقرضتم الله قرضاً حسناً » . ويدبر الحق لنا سياسة المال ، سواء للواجد أو لغير القادر ، فالواجد يوضح له الحق : لا تجعل حركة حياتك على قدر حاجتك ، بل اجعل حركة حياتك على قدر طاقتك ، وخذ منها ما يكفيك ويكفى مَن تعول ، والباقى رُدّه على مَن لم يقدر . ولو جعل كل إنسان حركة حياته على قدر حاجته ، فلن يجد من لا يقدر على الحركة ما يعيش به . ولنذكر جيداً أن الحق سبحانه وتعالى قد قال :

﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤ ﴾

(سورة المؤمنون)

وحين قال سبحانه : والذين هم للزكاة فاعلون، ليس معناها مجرد أداء زكاة، بل تعنى أن يتحركوا فى الحياة بغرض أن يتحقق لهم فائض يخرجون منه الزكاة ، وإلا فما الفارق بين المؤمن والكافر ؟ الكافر يعمل ليقوت نفسه ويقوت من يعول وليس فى باله الله ، أما مزية المؤمن فهو يعمل ليقوت نفسه ، ويقوت من يعول ويبقى لديه فائض يعطيه للضعيف ؛ فكأن إعطاء الضعيف كان فى باله ساعة الفعل . وهذا هو المقصود بقوله الحق :

﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤ ﴾

(سورة المؤمنون)

أى أن كل فعل للمؤمن يُقصد منه أن يكفيه ويكفى أن يزكى منه . وهناك حق آخر فى المال غير الزكاة ؛ بأن يسد به ولى الأمر ما يحتاج إليه المجتمع الإيمانى بشرط أن يقيم ولى الأمر كل شرع الله .

والزكاة هى إخراج المال على نحو مخصوص ، أما الصدقة فهى غير محسوبة من الزكاة لكنها فوق الزكاة . وهناك القرض ، وهو المال الذى تتعلق به النفس ، لأن الإنسان يقدمه لغيره شريطة أن يرده ، ولذلك قيل إن القرض أحسن من الصدقة ، ذلك أن المقترض لا يقترض إلا عن حاجة ، أما الذى تتصدق عليه فقد يكون غير محتاج ، ويسأل دون حاجة ، وأيضاً لأن نفس المتصدق تخرج من الشىء المتصدق به ولا تتعلق به ، أما الذى يقدم القرض فنفسه متعلقة بالقرض وكلما صبر عليه نال حسنة ، وكلما قدم نَظِرَةً إلى ميسرة فهذا له أجر كبير ، هكذا يكون القرض أحسن من الصدقة .

فالحق يريد أن تفيض حركة الحياة بالكثير . وكيف يقول سبحانه : « وأقرضتم الله قرضا حسنا » وهو الواهب لكل النعم وهو الولى لكل النعم ؟ وكيف يهب الحق للإنسان النعم ، ثم يقول له : أقرضنى ؟

هو سبحانه وتعالى يحترم حركة الإنسان وعرقه مادام قد ضرب فى الأرض وسعى فيها ، فالمال مال الإنسان ، ولكن أخا الإنسان قد يحتاج إليه ، ولذلك فليقرضه ويعتبر سبحانه هذا قرضاً من الإنسان لله . ونحن نجد عائل الأسرة يقول لأحد أبنائه : بما أنك تدخر من مصروف يدك فأعط أخاك ما يحتاج إليه واعتبر ذلك قرضا عندى ، صحيح أن العائل هو الذى أعطى المال لكل من يعول ، فما بالنا بالذى أوجدنا جميعا ، وهو الحق سبحانه وتعالى ؟ لقد وهب كلاً منا ثمرة عمله واعتبر تلك الثمرة ملكاً لصاحبها . ويعتبر فوق ذلك إقراض المحتاج إقراضاً له .

ويصف الحق القرض بأنه حسن حتى لا يكون فيه مَنٌّ ، أو منفعة تعود على المقرض وإلا صار فى القرض ربا. ولنا الأسوة الحسنة فى أبى حنيفة عندما كان يجلس فى ظل بيتِ صاحبٍ له . واقترض صاحب هذا البيت من أبى حنيفة بعض المال . وجاء اليوم التالى للقرض وجلس أبو حنيفة بعيداً عن ظل البيت ، فسأله صاحب البيت لماذا ؟ أجاب أبو حنيفة : خفت أن يكون ذلك لونا من الربا . فقال صاحب البيت : لكنك كنت تقعد قبل أن تقرضنى . فقال أبو حنيفة : كنت أقعد وأنت المتفضل على بظل بيتك فأخاف أن أقعد وأنا المتفضل عليك بالمال .

والقرض الحسن هو الذى لا يشوبه مَنٌّ أو أذًى أو منفعة ؛ ولأن القرض دَيْنٌ ، وضع الحق القواعد :

﴿ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ﴾

(من الآية ٢٨٢ سورة البقرة)

فالحق يحمى المقترض من نفسه ؛ لأنه إذا علم أن الدين مكتوب ، يحاول جاهداً أن يتحرك فى الحياة ليسد هذا الدين ، ويستفيد المجتمع من حركته أيضاً .

وعندما يُكتب القرض فهذا أمرٌ دافع للسداد وَحّاثٌ عليه . لكن إن لم يكتب القرض فقد يأتى ظرف من الظروف ويتناسى القرض . ولو حدث ذلك من شخص فلن تمتد له يد من بعد ذلك بالمعاونة فى أى أزمة ، فيريد الحق أن يديم الأسباب التى تتداول فيها الحركة ، ولذلك يقال فى الأمثلة العامية : من يأخذ ويعطى يصير المال ماله . ويكون مال الدنيا كلها معه ، ولذلك يقول الحق :

﴿ وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ ﴾

(من الآية ٢٨٢ سورة البقرة)

وفى ذلك حماية للنفس من الأغيار ، ولم يمنع الحق الأريحية الإيمانية فقال :

﴿ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَـٰنَتَهُۥ ﴾

(من الآية ٢٨٣ سورة البقرة)

وهكذا يحمى الله الحركة الاقتصادية . ونجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الرحيم بالمؤمنين ، وقد بلغه أن واحداً قد مات وعليه دين ، فقال للصحابة : صلوا على أخيكم . لكنه لم يصل على الميت . وتساءل الناس لماذا لم يصل رسول الله على هذا الميت وما ذنبه ؟ كأن رسول الله أراد أن يعلم المؤمنين عن دين المدين فلم يمنع الصلاة ، ولكنه لم يصل عليه حفزا للناس ودَفْعاً لهم إلى أن يبرئوا ذمتهم بسداد وأداء ما عليهم من دين . وقال :

« من أخذ أموال الناس يريد أداءها ، أدى الله عنه . ومن أخذها يريد إتلافها أتلفه الله »[1] .

فمادام قد مات وهو مدين وليس عنده ما يسد الدين ؛ فربما كان لا ينوى رد الدين ، وأن نفسه قد حدثته بألا يرد الدين .

(١) رواه البخارى وأحمد من حديث أبى هريرة .

وفى فلسفة هذا الأمر نفسياً نجد أن المقترض عندما يقترض شيئا كبيرا لا يستطيع أن يتجاهله أو ينساه ، ثم لا يمر بذهن الذى أقرض أن فلاناً مدين ، بل وقد تبلغ الحساسية بالذى قدم القرض ألا يمر على المقترض حتى لا يحرجه . ونثق أن الله قد قذف هذا الخاطر فى نفس المقرض لأن المقترض يريد أن يسدد القرض . أما إن تحرك قلب الدائن على المدين ، وجلس يفكر فى قيمة الدين ، فليُفهم أن عند الذى اقترض بعض ما يسدد به الدين ، أى أن المدين عنده القدرة على الوفاء بالدَّيْن أو ببعضه ، ذلك أن الله لا يُحرج من يَجِد ويجتهد فى السعى لسداد دينه .

« وأقرضتم الله قرضا حسنا » . وقد يقول قائل : كان السياق اللفظى يقتضى أن يقول : « أقرضتم الله إقراضا » ؛ لكن الحق جاء بالقرض الحسن ؛ لأن الإقراض هو العملية الحادثة بين الطالب للقرض والذى يقرض . وسبحانه يضع القرض الحسن فى يده ، ولنا أن نتصور ما فى يد الله من قدرة على العطاء . ومثل ذلك قوله الحق :

﴿ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة نوح)

و« أنبتكم » تعبر عن عملية الإنبات ، والأرض تخرج نباتا لا إنباتا. فمرة يأتى الله بالفعل ، ويأتى من بعد ذلك بالمصدر من الفعل ؛ لأنه يريد به الاسم . و« أنبت » يدل على مغنى وينشىء الله لكم منها نباتا .

وهكذا قال الله عن القرض : « وأقرضتم الله قرضا حسنا لأكفرن عنكم سيئاتكم » وفى ذلك جواب للقسم ، ومن بعد ذلك يقول سبحانه : « ولأدخلنكم جنات تجرى من تحتها الأنهار » وقد تكلمنا من قبل كثيرا عن الجنات . ويذيل الحق الآية الكريمة بقوله : « فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل » ألم يكن الذى كفر من قبل ذلك قد ضل سواء السبيل ؟ بلى ، إنه قد ضل فعلا ، ولكن الذى ضل بعد أن جاء ذكر تلك النعم والثواب فيها فالضلال أكثر . وكلمة « سواء » نقرأها فى القرآن ونراها فى الاستعمالات اللغوية ؛ كمثل قوله الحق :

﴿ لَيْسُوا۟ سَوَآءً ﴾

(من الآية ١١٣ سورة آل عمران)

وسواء معناها وسط ، ومتساوون . والمعانى ملتقية ؛ لأنه عندما يكون هناك وسط فمعنى ذلك أن هناك طرفين . ومادام الشيء فى الوسط فالطرفان متساويان ، وعندما نقول:وسط ، فهذا يقتضى أن نجعل المسافة بينه وبين كل طرف متساوية . ولذلك يجب أن ننتبه إلى أن كثيراً من الألفاظ تستعمل فى شيء وفى شيء آخر ، وهذا ما يسمى بالمشترك اللفظى . . أى اللفظ واحد والمعنى متعدد ، مثال ذلك قوله الحق :

﴿ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ﴾

(من الآية ١٤٤ سورة البقرة)

والشطر هو الجهة . والشطر هو النصف . النصف هو الجهة بمعنى أن توجه إنسان ما إلى الكعبة يقتضى أن يكون الإنسان واقفاً فى نقطة هى مركز بالنسبة لدائرة الأفق . وهذه النقطة بالنسبة لمحيط الأفق تقطع كل قطر من أقطارها فى المنتصف تماماً . إذن . فعندما يقول:الجهة ، نقول : صدقت ، وعندما يقول النصف . نقول : صدقت .

« فقد ضل سواء السبيل » والقرآن قد نزل على أمة تعيش فى البادية وطرقها بين الجبال ، وقد يكون الطريق معبّداً من ناحية ، وقد يكون الطريق بين هاويتين . وقد يكون الطريق بين جبلين ، ومن يأخذ بالأحوط فهو يمشى فى الوسط . ولذلك قال الإمام على ـ كرم الله وجهه ـ : اليمين والشمال مضلة وخير الأمور الوسط ؛ لأن الإنسان قد يتجه يميناً فيقع . أو يتجه شمالاً فيقع ؛ أو تقع عليه صخرة . ونجد الوالد ينصح ابنه فيقول له : امش ولا تلتفت يميناً أو يساراً واتجه إلى مقصدك . ونجد الحق يصف الطريق الذى يمشى عليه المؤمن يوم القيامة :

﴿ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ ﴾

(سورة الصافات)

وسواء الجحيم هو نقطة المنتصف فى النار ؛ أى أنه لا يستطيع الذهاب يميناً أو شمالاً . ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا

قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن
مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ وَلَا تَزَالُ
تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَٱعْفُ عَنْهُمْ
وَٱصْفَحْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾

وساعة يقول الحق: « ميثاقاً » فالميثاق يتطلب الوفاء . فهل وفوا بهذا الميثاق ؟ . لا ، لقد نقضوا المواثيق فلعنهم الله . واللعن هو الطرد والإبعاد ، والحق فى ذلك يقول : « فبما نقضهم ميثاقهم لعنّاهم » أى بسبب نقضهم الميثاق لعنهم الله . لقد أثار وجود « ما » هنا بعض التفسيرات ، فهناك من العلماء من قال : إنها زائدة ، وهناك آخرون قالوا : إنها « صلة » . ولكن الزيادة تكون عند البشر لا عند الله . ولا يمكن أن يكون بالقرآن شىء زائد ؛ لأن كل كلمة فى القرآن جاءت لمقتضى حال يحتم أن تكون فى هذا الموضع . فها هوذا الحق يخبرنا بما وصى به لقمان ابنه :

﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾

(من الآية ١٧ سورة لقمان)

وفى آية أخرى يقول سبحانه :

﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾

(سورة الشورى)

فى الآية الأولى لم يورد « اللام » لتسبق « مِن » ، وفى الآية الثانية أورد « اللام » لتسبق « مِن » ، وليس ذلك من قبيل التفنن فى العبارات ، فقوله : « واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور » دعوة للصبر على مصيبة ليس للإنسان غريم فيها ، كالمرض ، أو موت أحد الأقارب ، وهذه الدعوة للصبر تأتى هنا كعزاء وتسلية ، أما قوله الحق : « ولمن صبر وغفر إن ذلك لَمِن عزم الأمور » فالدعوة للصبر هنا مع الغفران تقتضى وجود غريم يسبب للإنسان كارثة .

هنا يطلب الله من المؤمن أن يغفر لمن أصابه وأن يصبر . ومادام هناك غريم ؛ فالنفس تكون متعلقة بالانتقام ، وهذا موقف يحتاج إلى جرعة تأكيدية أكثر من الأولى ؛ فليس فى الموقف الأول غريم واضح يُطلب منه الانتقام ، أما وجود غريم فهو يحرك فى النفس شهوة الانتقام ، ولذلك يؤكدها الحق سبحانه وتعالى : إن ذلك لمن عزم الأمور » . ويقول سبحانه فى موقع آخر :

﴿ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ ﴾

(من الآية ١٩ سورة المائدة)

وعندما يقوم النحاة بإعراب « بشير » فهم يقولون : « إنها فاعل مرفوع بضمة مقدرة على آخرة منع من ظهورها حركة حرف الجر الزائد . إنه التفاف طويل ، ولا يوجد حرف زائد ، فالإنسان يقول : ما عندى مال . وهذا القائل قد يقصد أنه لا يملك إلا القليل من المال لا يعتد به . وعندما يقول الإنسان « ما عندى من مال » فـ « من » هنا تعنى أنه لا يملك أى مالٍ من بداية ما يقال له مال.ولذلك فـ «مِن » هنا ليست زائدة ، ولكنها جاءت تعنى لمعنى . إذن « ما جاءنا من بشير » أى لم يأت لنا بداية من يقال له بشير .

وها هو ذا قول الحق :

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ﴾

(من الآية ١٥٩ سورة آل عمران)

وقد يحسب البعض أن « ما » هنا حرف زائد ، ولكنا نقول : ما الأصل فى الاشتقاق ؟ . إن الأصل الذى نشتق منه هو المصدر . ومرة يأتى المصدر ويراد به الفعل ، كقول القائل : « ضرباً زيدا » أى « اضرب زيدا » . ومجىء المصدر هنا قول مقصود به الفعل ، وكذلك قوله الحق : « فبما نقضهم ميثاقهم لعنّاهم » .

مادام النقض مصدراً فمن الممكن أن يقوم مقام الفعل . ومادام المصدر قد قام مقام الفعل فمن الجائز أن يأتى فعل آخر ، فيصبح معنى القول : فبما نقضوا ميثاقهم لعنّاهم . إذن « ما » تدل هنا على أن المصدر قد جاء نيابة عن فعل . وبقيت « ما » لتدل على أن المصدر من الفعل المحذوف ، أو أن « ما » جاءت استفهامية للتعجيب . . أى فبأى نقض من ألوان وصور نقضهم للعهد لعناهم ؟ وذلك لكثرة ما نقضوا من العهود على صور وألوان شتى من النقض للعهد .

وقوله الحق : « فبما نقضهم ميثاقهم لعنّاهم » . والنقض هو ضد الإبرام ؛ لأن الإبرام هو إحكام الحكم بالأدلة . والنقض هو حل عناصر القضية ، كأن العهد الموثق الذى أخذه الله عليهم قد نقضوه . ونحن نسمى العقيدة الإيمانية عقيدة ، لماذا ؟ ؛ لأنها مأخوذة من عقد الشيء بحيث لا يطفو ليناقش من جديد فى الذهن . كذلك الميثاق إنه عهد مثبت ومؤكد . وعندما ينقضونه فهم يقومون بحله ، أى أنهم أخرجوا أنفسهم عن متطلبات ذلك العقد . وجاء اللعن لأنهم نقضوا الميثاق .

« وجعلنا قلوبهم قاسية » وهم عندما نقضوا المواثيق ، طبع الله على قلوبهم ؛ لأنه لم يطبع على قلوبهم بداية ؛ فقد كفروا أولاً ، وبعد ذلك تركهم الله فى غيهم وضلالهم وطبع على القلوب فَمَا فيها من كفر لا يخرج ، والخارج عنها لا يدخل إليها . و« قاسية » تعنى صُلبة . وفيها شدة . والصلابة مذمومة فى القلوب وليست مذمومة فى الدفاع عن الحق ؛ لأننا نقيس كل موجود على مهمته . فعندما يكون كل موجود على مهمته يكون كل الكون جميلاً . مثال ذلك ؛ نحن لا نقول عن الخُطاف ذمًّا فيه إنه أعوج . فالخُطَّاف لا بد له من العوج ؛ لأن ذلك العوج مناسب لمهمته ، إذن فعوج الخطاف استقامة له . وكذلك القسوة غير مذمومة شريطة أن تكون فى محلها ، أما إن جاءت فى غير محلها فهى مذمومة . إن القلوب القاسية مذمومة ؛ لأن الحق يريد للقلوب أن تكون لينة :

﴿ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ٢٣ سورة الزمر)

والقسوة مأخوذة من القَسىِّ وهو الصلب الشديد ، ونعرف أن الدنانير كانت تضرب من الذهب والدراهم تضرب من الفضة . وعندما يفحصها الصيرفى قد يُخرج واحداً منها ويقول : هذا زيف أو زائف لأنه قد سمع رنينها ، أهى صلبة فى الواقع أم لا ؟. وعندما تكون صلبة يقال لها : دراهم قاسية .

إنّ الذهب لين . والفضة لينة . فعندما نقول : إن هذا ذهب عيار أربعة وعشرين أى ذَهَبٌ ليس به نسبة من المواد الأخرى التى تجعله قابلاً للتشكيل ؛ لأنه عندما يكون ذهباً صافياً على إطلاقه فلن يستطيع الصائغ أن يصوغ منه الحلى ؛ لذلك يخلطه الصائغ بمعدن صُلب ، حتى يعطيه المعدن درجة الصلابة التى تتيح له

تشكيل الحلى منه . وتختلف نسبة الصلابة من عيار إلى عيار فى الذهب وكذلك الفضة . والمصوغات المصنوعة من عيار مرتفع من الذهب ليست عرضة للتداول ، كالسبائك الذهبية .

وإذا ما دخل المعدن الصلب إلى الذهب أو الفضة جعلها قاسية ؛ أى صلبة . الصلابة ـ إذن ـ فيما يناسبها محمودة . وفيما لا يناسبها مذمومة كصلابة القلوب وقسوتها .

ويقول الحق : « يحرفون الكلم عن مواضعه » مثل ذلك نقلهم أمر الله الذى طلب منهم أن يقولوا:« حطة » فقالوا:« حنطة » « ونسوا حظاً مما ذكروا به » وكانت وسائل النسخ فى الكتب التى سبقت القرآن هى نسيان حظٍّ مما ذكروا به ، والنسيان قد يكون عدم قدرة على الاستيعاب ، لكنه أيضاً دليل على أن المنهج لم يكن على بالهم . فلو كانت كتب المنهج على بالهم لظلوا على ذكر منه ، كما أنهم كتموا ما لم ينسوه ، والذى لم ينسوه ولم يكتموه حرّفوه ولووا ألسنتهم به . وياليت الأمر اقتصر على ذلك ، ولكنهم جاءوا بأشياء وأقاويل وقالوا إنها من عند الله وهى ليست من عند الله :

﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾

(سورة البقرة)

هى أربعة ألوان من التغيير ، النسيان ، والكتم ، والتحريف ، ودسّ أشياء على أنها من عند الله وهى ليست من عند الله .

ولنا أن نتأمل جمال القول الحكيم : « ونسوا حظاً مما ذكروا به » فهم على قدر كبير من السوء بدرجة أنستهم الشىء الذى يأتى لهم بالحظ الكبير ، مثل نسيانهم البشارات بمحمد عليه الصلاة والسلام وكتمانها ، ولو كانوا قد آمنوا بها ، لكان حظهم كبيراً ؛ ذلك أنهم نسوا أمراً كان يعطيهم جزاء حسناً ، إذن فقد جنوا على أنفسهم ؛ لأن الإسلام لن يستفيد لو كانوا مهتدين أو مؤمنين والخسار عليهم هم ، ولم يدعهم الله ويتركهم على نسيانهم ليكون لهم بذلك حجة ، بل أراد أن يذكرهم بما نسوه . وكان

مقتضى ذلك أن ينصفوا أنفسهم بأن يعودوا إلى الإيمان ؛ لأن الحق ذكرهم بما نسوا ليحققوا لأنفسهم الحظ الجميل . وقد يراد أنهم تركوا ذلك عامدين معرضين عنه مُغْفِلين له عن قصد .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

(من الآية ١٣ سورة المائدة)

أى أن خيانتهم لك يا رسول الله ولأتباعك ولمنهج الله الحق فى الأرض ستتوالى ، ولا أدل على ذلك مما حدث منهم ضد رسلهم أنفسهم مع أنهم من بنى جلدتهم ومن عشيرتهم ، إنهم من بنى إسرائيل مثلهم ، فما بالك بنبى جاء من جنس آخر ليقتحم عليهم سلطتهم الزمنية ؟

إذن فخيانتهم لله متصورة.و« خائنة » بمعنى « خيانة » مثلها مثل « قائلة » وهى القيلولة أى المسافة الزمنية بعد الظهر ، وفعلها : قال يقيل أى نام وسط النهار أو « خائنة » أى « نفس خائنة » . أو « خائنة » مثل امرأة خائنة ، أو « خائنة » مبالغة كما نقول « راوٍ » و« راوية » ونحن نعنى رجلاً ، أو نقول « جماعة خائنة » .

إذن فالكلمة الواحدة هنا مستوعبة لكل مصادر الخيانة منهم ، رجل أو امرأة أو جماعة أو كل هؤلاء . والذى يتكلم هنا هو رب العالمين ، ويتكلم للعرب وهم أهل فصاحة ، إنه أداء لغوى عال .

ومن فرط دقة القرآن وصدقه يأتى الحق بقوله : « إلاّ قليلاً منهم » طبقا لقانون صيانة الاحتمال . فحين يخاطب الله رسوله صلى الله عليه وسلم ليبين له موقف اليهود منه ، ألا يُحتمل أن يُوجد قوم من اليهود يغلبهم الفهم العميق فيفكروا فى أن يؤمنوا بهذا الرسول ، ويهدئوا من شراسة ظنهم به ؟ وقد فكر بعضهم وأعلن الإسلام .

وهؤلاء القوم عندما يسمعون أحكام الله على اليهود أجمعين ، ألا يقولون : وما لنا

ندخل فى هذه الزمرة ؛ ونفكر فى أن ننطق بالإيمان ؟ فكأن قوله : « إلا قليلا منهم » صان قانون الاحتمال أن يكون إنسان منهم فكر فى الإيمان . ومن فكر فى الإيمان فسوف يجد قوله الحق : « إلا قليلا منهم » وسيرى هذا الإنسان فى نفسه أن القرآن دليل نزل على نور . وقد كان وأعلن قليل منهم إسلامه ، وماذا يكون موقفه صلى الله عليه وسلم بعد أن يخبره الحق : بأنك ستتعرض مستقبلا لخيانتهم ؟ ألا يحرك ذلك نفسية رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين عليهم ، فإذا فعل اليهود خائنة فلا بد أن ينتقموا منهم ، وتطبيقا للقاعدة الأساسية فى رد العدوان بأن من يعتدى عليك فاعتد عليه .

لم يشأ الله ـ سبحانه ـ أن يترك الموقف لعواطف البشر مع البشر بل قال : « فاعف عنهم واصفح إن الله يحب المحسنين » والعفو هو كما نقول : فلان عفَّى على آثارى ، أى أن آثارك تكون واضحة على الأرض وتأتى الريح لتمسحها فتعفى على الأثر . والأمر بالعفو أى امسح الأثر لذنب فعلوه . والخطيئة التى ارتكبوها عليك أن تعتبرها كأنها لم تحدث ، ولكن أيظل أثرها باقيا عند رسول الله ؟ لا ، فالأمر بالصفح يأتى وهناك فرق بين أن تمحو الخطيئة وتبقى أثرها فى نفسك وتظل فى حالة من الغيظ والحقد .

والحق هنا يأمر بالعفو أى إزالة أثرها ويأمر بالصفح أى أن تُخْرِجَ أثر الخطيئة من بالك ؛ لأن الإنسان منا له مراحل ؛ المرحلة الأولى بعد أن يرتكب أحدهم ذنبا فى حقه ، فلا يقابل العدوان بمثله ، وهذا هو العفو ، والمرحلة الثانية : ألا يترك أثر هذا الذنب يعمل فى قلبه بل يأتى الصفح حتى لا ينشغل قلب المؤمن بشىء قد عفا عنه ، والمرحلة الثالثة : فرصة مفتوحة لمن يريد أن يتمادى فى مرتبة الإحسان وترقى اليقين والإيمان بأن يحسن الإنسانُ إلى من أساء إليه . وهذه المراحل الثلاث يوضحها قوله الحق :

﴿ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

(من الآية ١٣٤ سورة آل عمران)

وعملية الإحسان مع المسىء أو المعتدى : أهى عملية منطقية مع النفس الإنسانية ؟ قد تكون غير منطقية مع النفس الإنسانية ، ولكنك أيها الإنسان لا تشرع

لنفسك ، إنما الذى يشرع لك هو الأعلى من النفس الإنسانية . والخالق يقول لك : لو علمت ما قدَّمه لك من أساء إليك لأحسنت إليه . لأنك إن أسأت إلى خلق من خلق الله فالذى يثأر ويأخذ الحق لمن أسىء إليه هو رب هذا المخلوق . ويأتى الله فى صف الذى تحمل الإساءة .

إذن فإساءة العدو لك جعلت الله فى صفك وفى جانبك ، ألا يستحق ذلك المسىء أن نشكره ؟ ألا تقول لنفسك القول المأثور : ألا تحسن إلى من جعل الله فى جانبك . إذن هذا هو التشريع : « إن الله يحب المحسنين » والإحسان هنا خرج بالترقى الإيمانى عن مرحلة :

﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾

(من الآية ١٩٤ سورة البقرة)

والإحسان أن تفعل شيئا فوق ما افترضه الله ، ولكن من جنس ما افترضه الله ؛ والمحسن الذى يدخل فى مقام الإحسان هو من يعبد الله كأنه يراه فإن لم يكن يراه فهو سبحانه وتعالى يرى كل خلقه . ونعرف قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة الذاريات)

ما الذى جاء بالإحسان هنا ؟ وتكون الإجابة :

﴿ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة الذاريات)

وهل يكلف الله خلقه ألا يهجعوا إلا قليلا من الليل ؟ لا . فقد كلف الله المسلم بالصلاة ، وأعلمه بأنه حر بعد صلاة العشاء ، وله الحق أن ينام إلى الفجر ، فإن سمع أذان الفجر فليقم إلى صلاة الفجر . لكن المحسن يريد الارتقاء بإيمانه فيزيد من صلواته فى الليل . ويضيف الحق مذكرا لنا بصفات المحسنين :

﴿ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

(سورة الذاريات)

أكلف الله الخلق بأن يستغفروا بالأسحار ؟ لا . بل إن الرسول يجيب على رجل سأله عن الفروض الأساسية المطلوبة منه ، فذكر له أركان الإسلام ومن بينها الصلوات الخمس المكتوبة ، فقال الرجل : والله لا أزيد على هذا ولا أنقص فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : « أفلح إن صدق »[1] .

ويضيف الحق فى استكمال صفات المحسنين :

﴿ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ ﴾

(سورة الذاريات)

ونلحظ أن الحق هنا لم يقل : « حق معلوم » إنما قال : « حق للسائل والمحروم » فالحق المعلوم هو الزكاة ، أما المحسن فللسائل والمحروم فى ماله حق غير معلوم ، وذلك ليفسح سبحانه المجال للطموحات الإيمانية ، فمن يزد فى العطاء فله رصيد عند الله . والحق يقول : « فاعف عنهم واصفح إن الله يحب المحسنين » ؛ لأن الإحسان إليهم يهيج فيهم غريزة العرفان بالجميل ، فيستل ذلك الإحسان الحقد من قلوبهم ، ويفتحون آذانهم وقلوبهم لكلمة الحق :

﴿ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾

(من الآية ٣٤ سورة فصلت)

لأن العداوة لا تشتد إلا إذا وُجد مُؤجج لها من عداوة فى المقابل . فعندما تعامل عدوك بالحسنى ولا ترد على عدائه بالعدوان فكم من الزمن يصير عدواً لك ؟ إنه اعتدى مرة وسَكَتَّ أنت عليه ، واعتدى ثانية وسكت أنت عليه . لا بد أنه يهدِّىء من نفسه .

إذن فالعداوة لا تتأجج إلا إذا قابلتها عداوة أخرى . ولذلك نرى ما حدث فى المعركة التى قامت بين فرعون وسيدنا موسى عليه السلام حين أراد الله أن يجعل العداوة لا من جهة واحدة ولكن من جهتين اثنتين لتكون معركة حامية ؛ لأن العداوة لو كانت من جهة واحدة لهدأ الطرف المعتدى :

﴿ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾

(من الآية ٨ سورة القصص)

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب الإيمان .

فهل هم التقطوه ليكون عدواً ؟ لا . لقد التقطوه ليكون قرة عين . ولكن قدر الله سبق . كان الأمل فى أن يصير موسى قرة عين آل فرعون ، ولكن الله أراد أن يقوموا بتربيته ، ثم يصير من بعد ذلك عدواً لهم . وهكذا يتضح لنا أن تدبير السماء فوق تدبير الأرض . وموسى السامرى مثلاً ربته السماء بواسطة جبريل ، وولدته أمه منقطعا فى الصحراء ، فكان جبريل ينزل عليه بما يطعمه إلى أن كبر ، وموسى ابن عمران ذهب إلى فرعون ليربيه ، لكن موسى السامرى ـ الذى رباه جبريل ـ صار كافراً ، وموسى بن عمران الذى رباه فرعون أصبح رسولاً إلى بنى إسرائيل . وكلا القدرين أرادهما الله ، ولذلك يقول الشاعر :

إذا لم تصادف فى بريق عناية
فقد كذب الراجى وخاب المؤمل
فموسى الذى رباه جبريل كافر
وموسى الذى رباه فرعون مرسل

كأن آل فرعون قد قاموا بتربية موسى بن عمران ليكون عدواً لهم لا قرة عين . والعداوة تكون من جهة موسى لفرعون ، وتجىء العداوة من فرعون لموسى ، فيقول الحق :

﴿فَأَقْذِفِيهِ فِي ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ﴾

(من الآية ٣٩ سورة طه)

هكذا صارت العداوة من طرفين . والحق سبحانه وتعالى أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يصفح عن الخيانات التى تحدث منهم ، لعل الوعى الإيمانى يستقيظ فيهم ، ويقولون : لم يعاملنا بمثل ما عاملناه به ، ويعترفون به نبياً رحيماً رءوفاً كريماً ، ولا يقفون فى وجه دعوته . لكن أيظل العفو والصفح هما كل التعليمات الصادرة من الحق إلى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ؟ لا . فقد مر الأمر الإلهى بمرحليات متعددة ؛ فالرسول يستقطب النفس الإنسانية بأن يستعبدها بالإحسان ، فإن لم يستعبدها الإحسان فلا بد أن يشمر النبى عن الساعد ويفعل ما يأمره به الله ، ولنقرأ قوله الحق :

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ

بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ﴾

(من الآية ١٠٩ سورة البقرة)

إذن فهناك أمر خفى هو :

﴿ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ﴾

(من الآية ١٠٩ سورة البقرة)

وسبحانه قد أمر بأن يتركهم الرسول مع الصفح والعفو لمرحلة قادمة يأتى فيها الأمر بتأديبهم . وهذه عملية إنسانية فطرية عرفها العربى الجاهلى وخَبَرها قبل أن يأتى الإسلام ؛ فقد كان العربى يحسن إلى عدوه مرة وثانية وثالثة ، وعندما يجد أن الإحسان لم يثمر ثمرته ؛ يقاتل العدو ، وكما قال الشاعر :

أناة فإن لم تغن قدم بعدها
وعيداً فإن لم يغن أغنت عزائمه
من الحلم أن تستعمل الحزم دونه
إذا لم يسع بالحلم ما أنت عازمه

وقال الشاعر :

صفحنا عن بنى ذهل
وقلنا القوم إخوان
عسى الأيام أن يرجعـ
ـن قوماً كالذى كانوا
فلما صَرَّحَ الشر
وأضحى وهو عريان
مشينا مشية الليث
غَدَا والليث غضبان
بضرب فيه تأييم
وتفجيع وإرنان
وطعن كفم الزق
غَدَا والزق ملآن
وفى الشر نجاة حيـ
ـن لا ينجيك إحسان
وبعض الحلم عند الجهـ
ـل للذلة إذعان

ومثل ما جرى للنبى صلى الله عليه وسلم مع اليهود ، حدث مع النصارى وأورد الحق سبحانه وتعالى هذا فقال :

﴿ وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

لقد قالوا إنهم نصارى . وأخذ الحق الميثاق منهم ، إما ميثاق الذر وإما ميثاقهم لنبيهم عيسى ابن مريم ، فنسوا حظاً مما ذكروا به وتركوا ما أمرهم به الإنجيل ونقضوا الميثاق ، فتفرقوا فى عداء ملحوظ فِرَقاً شتى ، وجاء أمر الله كما وعد :

﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ ﴾

كأن الحق سبحانه وتعالى يعطيهم الفرصة والعذر حتى لا يقولن واحد منهم : لم يبلغنى عنٍ رسولى شىء . وهناك فترة لم يأت فيها رسول . وها هوذا رسول من الله يأتى حاملاً لمنهج متكامل . ومجىء الرسول يمنحهم ويعطيهم فرصة لتجديد ميثاق الإيمان . وهم قد أخفوا من كتبهم بعض الأحكام . مثل الرجم والربا ، وقال بعض من بنى إسرائيل فى الربا ما ذكره القرآن عنهم :

﴿ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ ﴾

(من الآية ٧٥ سورة آل عمران)

أى أنهم أقروا الإقراض بالربا لمن هم على غير دينهم ، ولكن لا ربا فى تعاملهم

مع أبناء دينهم . وأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يلم الشمل وأن يجمع أيديهم مع يده ؛ لأنه نبى انتظروه ولهم فى كتبهم البشارة به . وأن يقف الجمع المؤمن أمام موجة الإلحاد فى الأرض حتى يسيطر نظام السماء على حركة الأرض ؛ لذلك قال الحق : « قد جاءكم من الله نور » . ومعنى ذلك أن كتمانهم لبعض منهج الله قد صنع ظلمة فى الكون . ومادامت قد حدثت ظلمانية فى الكون ، وخاصة ظلمانية القيم ، إذن فالكون صار فى حاجة إلى من ينير له الطريق . ونعرف أن النور هو ما نتبين به الأشياء .

وحين يعرض الحق لنا قضية النور الحسى يريد أن يأخذ بيدنا من النور الحسى إلى النور المعنوى ؛ فالنور الحسى يبدد ظلام الطريق حتى لا نصطدم بالأشياء أو نقع فى هوة أو نكسر شيئاً ، لكن عندما يحمل الإنسان نوراً فهو يمشى على بينة من أمره . والنور الحسى يمنع من تصادم الحركات فى المخلوقات ، حتى لا تبدد الطاقة ، فتبديد الطاقة يرهق الكون ولا يتم إنجاز ما .

إن الشمس فى أثناء النهار تضىء الكون ، ثم يأتى القمر من بعد الشمس ليلقى بعضاً من الضوء ، وكذلك النجوم بمواقعها تهدى الناس فى ظلمات البر والبحر . وجعل الله هذه الكائنات من أجل ألا تتصادم الحركة المادية للموجودات ، فإذا كان الله قد صنع نوراً مادياً حتى لا يصطدم مخلوق بمخلوق ، فهو القادر على ألا يترك القيم والمعانى والموازين بدون نور ، لذلك خلق الحق نور القيم ليهدى الإنسان سواء السبيل ، فإذا كان الكافر أو الملحد يتساوى مع المؤمن فى الاستفادة بالنور المادى لحماية الحركة المادية فى الأرض ، ولم نجد أحداً يقول:أنا فى غير حاجة للانتفاع بالنور المادى ، ونقول للكافرين والملاحدة : مادمتم قد انتفعتم بهذا النور فكان يجب أن تقولوا : إن لله نوراً فى القيم يجب أن نتبعه . ويلخص المنهج هذا النور بـ « افعل ولا تفعل » .

فالمنهج ـ إذن ـ نور من الله . ولنقرأ :

﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾

(من الآية ٣٥ سورة النور)

إنه يأخذ بيدنا فى الطريق بالنور المادى الذى يستفيد منه الكل ، سواء من كان

مؤمنا أو غير ذلك ، ويضرب سبحانه لنا مثل النور .

﴿ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾

(من الآية ٣٥ سورة النور)

والمشكاة هى الطاقة التى توجد فى الجدار وهى غير النافذة ، إنّها كوة فى الجدار يوضع فيها المصباح الزيتى أو « الكيروسينى » وتوجد فى المبانى البدائية قبل أن يخترع الإنسان المصابيح الكهربية والثريات . ولا تتجاوز مساحة الكوة ثلاثين سنتيمترا ، وطولها أربعون سنتيمتراً ولا يزيد عمقها على خمسة عشر سنتيمتراً ؛ أما الحجرة فمساحتها تزيد أحياناً على ثلاثة أمتار فى الطول والعرض والارتفاع .

ويتحدث الحق عن الكوة فقط ولا يتحدث عن الحجرة . وأى مصباح فى الكوة قادر على إنارة الحجرة . ولننتبه إلى أن هذا المصباح غير عادى ، فهو مصباح فى زجاجة . ونعرف أن المصباح الذى فى زجاجة هو من الارتقاءات الفكرية للبشر . فالمصابيح قديماً كانت بدون زجاجة وكان يخرج منها ألسنة من السّناج « الهباب » الذى يُسوّد ما حولها ، فالسِّناج أثر دخان السراج فى الحائط وغيره . وقد ينطفىء المصباح لأن الهواء يهب من كل ناحية ، ثم وضع الإنسان حول شعلة المصباح زجاجة تحمى النار وتركز النور وتعكس الأشعة ويأخذ المصباح من الهواء من خلال الزجاجة على قدر احتياج الاشتعال .

﴿ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ﴾

(من الآية ٣٥ سورة النور)

أى أن النور من هذا المصباح أشد قوة ؛ لأن الزجاجة تعكس أشعة المصباح وتنشر الضوء فى كل المكان . والزجاجة التى يوجد فيها هذا المصباح ليست عادية :

﴿ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ ﴾

(من الآية ٣٥ سورة النور)

والكوكب نفسه مضىء ، وتكون الزجاجة كأنها هذا الكوكب الدرى فى ضيائه ولمعانه . والمصباح يوقد من ماذا ؟ .

﴿ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ ﴾

(من الآية ٣٥ سورة النور)

وهذا ارتقاء فى إضاءة المصباح من زيت شجرة زيتون ، والشجرة غير عادية :

﴿ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ ﴾

(من الآية ٣٥ سورة النور)

فهى شجرة يتوافر لها أدق أنواع الاعتدال :

﴿ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ﴾

(من الآية ٣٥ سورة النور)

ذلك هو من قدرة الله فى نور الكونيات المادية ، ولذلك فليس من المعقول أن يترك القيم والمعنويات بدون نور . فكما اهتدى الإنسان فى الماديات فينبغى أن يفطن إلى قدرة الحق فى هداية المعنويات ، بدليل أن الله قال :

﴿ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾

(من الآية ٣٥ سورة النور)

يهدى الله بنور القيم والمنهج والمعانى من يريد . وقد يهتدى الملحد بنور الشمس المادى إلى الماديات ولكن بصره أعمى عن رؤية نور المنهج والقيم ؛ لذلك يوضح سبحانه أن هناك نوراً إلهياً هو المنهج . وضرب هذا المثل ليوضح المعانى الغيبية المعنوية بالمعانى الحسية . ونحن على مقاديرنا نستضىء ، فالفقير أو البدائى يستضىء بمصباح غازى صغير ، والذى فى سعة من العيش قد يشترى مولداً كهربياً . وكل إنسان يستضىء بحسب قدرته . ولكن عندما تشرق الشمس فى الصباح ما الذى يحدث ؟ .

يطفىء الإنسان تلك المصابيح ، فالشمس هى نور أهداه الله لكل بنى الإنسان ، ولكل الكون . كذلك إذا فكرنا بعقولنا فيما ينير حياتنا فكل منا يفكر بقدرة عقله . ولكن إذا ما نزل من عند الله نور فهو يغنى عن كل نور آخر . وكما نفعل فى الماديات نفعل فى المعنويات :

﴿ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۚ يَهْدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ﴾

(من الآية ٣٥ سورة النور)

والذى يدلنا على أن النور الثانى هو نور القيم الذى يكشف لنا بضوء « افعل ولا تفعل » أن الله قال بعد ذلك :

﴿ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ ﴾

(من الآية ٣٦ سورة النور)

ولو بحثت عن متعلق الجار والمجرور لم تجده إلا فى قوله : (فى بيوت أذن الله أن ترفع) كأن النور على النور يأتى من مطالع الهدى فى مساجده . فهى بيوت لله نقبل عليها ليفيض منها نور الحق على الخلق .

﴿ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾

(سورة النور)

وكلمة « لا تلهيهم تجارة » لا تعنى تحريم التجارة ، فالإنسان الصادق لا تلهيه التجارة عن ذكر الله . وليكن الله على بال المؤمن دائما ، فعندما يكون الإنسان على ذكر لله فالله يعطيه من مدده .

إذن يا أهل الكتاب قد جاءكم النور ، وبين لكم الرسول كثيراً مما تختلفون فيه . وتسامح عن كثير من خطاياكم ، ويريد أن يجرى معكم تصفية شاملة . فعليكم أن تلتفتوا وتنتبهوا وتُعَدِّلوا من موقفكم من هذا الدين الجديد . ولتبحثوا ماذا يريد الله بهذا المنهج . والله قد ضرب المثل بالنور ، وهذا النور يهدى إلى « افعل ولا تفعل » . ومن الذى يقول لنا إن هذا النور قادم من الله ؟ إنه الرسول ، ومن الذى يدلنا على أن الرسول صادق فى البلاغ عن الله ؟ الذى يدل على صدقه هو قول الله :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ ﴾

(سورة النساء)

فالذى جاء أولا من ربكم هو البرهان على أن رسول الله صادق فى البلاغ عن

الله ، وليبلغنا أن الكتاب قد جاء بالمنهج . والقرآن يتميز بأنه البرهان على صدق النبى وهو المنهج النورانى ؛ لأن البرهان هو الحجة على صدق الرسول فى البلاغ عن الله .

ونعرف البرهان فى حياتنا التعليمية أثناء دراسة مادة الهندسة عندما نقابل تمرينا هندسيا فنأخذ المعطيات وبعد ذلك ننظر إلى المطلوب إثباته . ونعيد النظر فى المعطيات لنأخذ منها قوة للبرهنة على إثبات المطلوب . وإن كانت المعطيات لا تعطى ذلك فإننا نتجه إلى خطوة أخرى هى العمل على إثبات المطلوب . وهذا الكون فيه معطيات ، وهو كون محكم ، ونلمس إحكامه فيما لا دخل لحركتنا فيه :

﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ﴾

(من الآية ٤٠ سورة يس)

كون موزون بالسماء والأرض وحركة الرياح وغير ذلك ، وتلك الأمور التى لا دخل للإنسان فيها نجد القوانين فيها مستقيمة تمام الاستقامة وكمالها . فإن أراد الإنسان أن يأخذ المعطيات من الكون ، فليأخذ فى اعتباره النظر إلى الأمور التى للإنسان دخل فيها ولسوف يجدها تتعرض للفساد ؛ لأن الهوى فى البشر له مدخل على هذه الأشياء . لكن الخالق الأعلى لا تطوله ولا تتناوله أمور الهوى . ولذلك يقول سبحانه :

﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ ﴾

(سورة الرحمن)

فلا السماء تنطبق على الأرض ، ولا كوكب يزاحم كوكبا آخر . ويبين لنا الحق كيفية السير بنظام الكون :

﴿ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨ ﴾

(سورة الرحمن)

فإن أردتم أن تكون حركتكم منتظمة فانظروا إلى ما لأيديكم دخل فيه واصنعوه كصنع الله فيما ليس لأيديكم مدخل فيه .

﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ۝٩ ﴾

(سورة الرحمن)

فإن كنتم معجبين باتزان الكون الأعلى فذلك لأنه مصنوع بنظام دقيق . وإذا كان الحق قد وضع لنا نظاما دقيقا هو المنهج بـ « افعل كذا ولا تفعل كذا » فذلك حتى لا تفسد حركتك الاختيارية إن اتبعت المنهج ، وتصرفت فى حياتك بمنهج الله ويكون الميزان معتدلاً . إذن فقد أعطانا الحق معطيات عندما ينظر الإنسان فيها نظرا فطريا بدون هوى فإنها تأخذ بيده إلى الإيمان . وهذه الكائنات الموزونة لا بد لها من خالق ؛ لأن الإنسان طرأ عليها ولم تأت هى من بعد خلق الإنسان . ولا أحد من البشر يدعى أنه صنع هذا الكون .

إذن لا بد من البحث عمن صنع هذا الكون الدقيق ، والدعوى حين تسلم من الضعف ، أتكون صادقة أم غير صادقة ؟ تكون صادقة تماما . والله هو الذى قال إنه خلق السماء والأرض والكون . ولم يأت مدع آخر يقول لنا : إنه الذى خلق . إذن يثبت الأمر لله إلى أن يوجد مدعٍ ، ومع توالى الأزمنة وتطاولها لم يدع ذلك أحد .

وكان لا بد أن تكون مهمة العقل البشرى أن يفكر ويقدح الذهن ليتعرف على صانع هذا الكون ، وكان لا بد أن يتوجه بالشكر لمن جاء ليحل له هذا اللغز .

وقد جاءت الرسل لتحل هذا اللغز ولتدلنا على مطلوب عقلى فطرى ، ولو أننا سلسلنا الوجود لوجدنا أن الإنسان هو سيد هذا الوجود ؛ لأن كل الكائنات تعمل وتجهد فى خدمته . وأجناس الوجود كما نعرفها التى تخدم الإنسان هى الحيوان ويتميز عنه الإنسان بالعقل ، وهناك جنس تحت الحيوان هو النبات فيه النمو ، وهناك جنس أدنى وهو الجماد . وكل هذه الأجناس مهمتها خدمة الإنسان . والجماد ليس هو الشىء الجامد ، بل الهواء جماد والشمس جماد والتربة جماد ، وكل ذلك يمارس مهمته فى الوجود لخدمة الأجناس الأعلى منها ويستفيد الإنسان منها جميعا والحيوان يستفيد من الجماد وكذلك النبات يستفيد من الجماد ، والحيوان يستفيد من النبات والجماد ، والمحصلة النهائية لخدمة الإنسان .

أليس من اللائق والواجب ـ إذن ـ أن يسأل الإنسان نفسه من الذى وهبه هذه المكانة ؟ فإذا جاء الرسول ليحل هذا اللغز ويبلغنا أن الذى خلق الكون هو الله وهذه صفاته ، ويبلغنا أن هذا المنهج جاء من الله ويحمل معه معجزةً هى دليل صدقِ

البلاغِ عن الله ، وهى معجزة لا يقدر عليها البشر ، ويتحدى الرسول البشر أن يأتوا بمثل معجزته . إذن فلا بد أن يؤمن كل البشر لو صَدَقُوا الفهم وأخلصوا النية .

ما هو البرهان إذن ؟ البرهان هو المعجزة الدالة على صدق الرسول فى البلاغ عن الله . هذا البلاغ عن الله الذى بحث عنه العقل الفطرى وآمن أنه لا بد أن يكون موجودا ، لكنه لم يتعرف على أنه « الله » . إن الرسول هو الذى يبلغنا عن اسم الخالق ، وهو الذى يقدم لنا المنهج .

إذن فمجىء الرسل أمر منطقى تحتمه الفطرة ويحتمه العقل . ولذلك أنزل الحق النور العقدى ، أنزل ـ سبحانه ـ المنهج ليحمى المجتمع من الاضطراب ، ولذلك يقول الحق :

﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ ﴾

(من الآية ٧١ سورة المؤمنون)

إذن فالدين جاء من الله ليتدخل فى الأمور التى تختلف فيها الأهواء ، فحسم الله النزاع بين الأهواء بأن انفرد سبحانه أن يشرع لنا تشريعا تلتقى فيه أهواؤنا ، ولذلك يقول صلى الله عليه وسلم : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به »[1] .

أى أن تتحد الأهواء تحت مظلة تشريع واحد ؛ لأن كل إنسان إن انفرد بهواه ، لا بد أن نصطدم ، ولا نزال نكرر ونقول : إن خلافات البشر سواء أكانت على مستوى الأسرة أم الجماعة أم الأمة أم العالم ، جاءت من اختلاف الأهواء ، ولكن الأشياء التى لا دخل للأهواء فيها فالعالم متفق فيها تماما ، بدليل أننا قلنا : إن المعسكر الشرقى السابق والمعسكر الغربى الحالى اختلفا بسياستين نظريتين ، هذا يقول : « شيوعية » ؛ وهذا يقول : « رأس مالية » .

إنه لا يوجد معمل مادى كى ندخل فيه الشيوعية أو الرأسمالية ونرى ما ينفعنا . إنَّها أهواء ، لذلك تصادما فى أكثر من موقع ، وانهزمت الشيوعية وبقيت آثارها تدل

---

(١) أخرجه الديلمى .

عليها . لكن الأمور المادية المعملية . لم يختلفوا فيها . ونقول الكلمة المشهورة : « لا توجد كهرباء روسى ولا كهرباء أمريكانى » . « ولا توجد كيمياء روسى ولا كيمياء أمريكانى » ؛ فكل الأمور الخاضعة للتجربة والمعمل فيها اتفاق ، والخلاف فقط فيما تختلف وتصطدم فيه الأهواء .

فكأن الله ترك لنا ما فى الأرض لنتفاعل معه بعقولنا المخلوقة له ، وطاقاتنا وجوارحنا المخلوقة له ، ويوضح : إن التجربة المعملية المادية لن تفرقكم بل ستجتمعون عليها . وسيحاول كل فريق منكم أن يأخذ ما انتهى إليه الفريق الآخر من التجارب المادية ولو تلصصها ، ولو سرقها ، أما الذى يضركم ويضر مجتمعكم فهو الاختلاف فى الأهواء . وليت الأمر اقتصر على الاتفاق فى الماديات والاختلاف فى الأهواء ، لا ، بل جعلوا مما اتفقوا عليه من التجارب المادية والاختراعات والابتكارات وسيلة قهرية لفرض النظرية التى خضعت لأهوائهم . فكأننا أفسدنا المسألة . . أخذنا ما اتفقنا فيه لنفرض ما اختلفنا عليه .

إن الحق سبحانه وتعالى أعطانا كل هذه المسائل كى تستقيم الحياة ، ولا تستقيم الحياة إلا إن كان الحق سبحانه وتعالى هو الذى يحسم فى مسائل الهوى ، ولذلك حتى فى الريف يقولون : « من يقطع إصبعه الشرع لن يسيل منه دم » ؛ لأن الذى يقول ذلك مؤمن ، أى أن الحكم حين يأتى من أعلى فلا غضاضة فى أن نكون محكومين بمن خلقنا وخلق لنا الكون ، وتدخلت السماء فى مسألة الأهواء بالمنهج : افعل هذا ولا تفعل هذا ، لكن ما ليس فيه أهواء أوضح سبحانه : أنتم ستتفقون فيها غصبا عنكم ، بل ستسرقونها من بعضكم ، إذن فلا خطر منها .

إن الخطر فى أهوائكم . ولذلك اذكروا : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أمهات المسائل التى يترتب عليها حسن نظام المجتمع كما يريده الله كان ـ عليه الصلاة والسلام ـ يتحمل هو التجربة فى نفسه ، ولا يجعل واحداً من المؤمنين به يتحمل التجربة ، فمسألة التبنى حين أراد ربنا أن ينهيها حتى لا يدعى واحد آخر أنه ابنه وهو ليس أباه ، أنهاها الله فى رسوله صلى الله عليه وسلم :

﴿ لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة الأحزاب)

وفى مسألة الماديات والأهواء يقول أنس بن مالك رضى الله عنه: إن النبى صلى الله عليه وسلم مر بقوم يلقحون فقال : « لو لم تفعلوا لصلح » قال : فخرج شيصا ، فمر عليهم فقال : « ما لنخلكم » قالوا : قلت كذا وكذا قال : « أنتم أعلم بأمر دنياكم »[1] . إنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ تركهم لتجربتهم .

السماء ـ إذن ـ لا تتدخل فى المسائل التجريبية ؛ لأنه سبحانه وهب العقل ووهب المادة ووهب التجربة ، ورأينا رسول الله يتراجع عما اجتهد فيه بعد أن رأى غيره خيرا منه كى يثبت قضية هامة هى أن المسائل المادية المعملية الخاضعة للتجربة ليس للدين شأن بها فلا ندخلها فى شئوننا ، فلا نقول مثلاً : الأرض ليست كروية ، أو أن الأرض لا تدور . فما لهذا بهذا ؛ لأن الدين ليس له شأن بها أبداً ، وهذه مسائل خاضعة للتجربة وللمعمل وللبرهان وللنظرية ، بل دخل الدين ليحمينا من اختلاف أهوائنا ؛ فالأمر الذى نختلف فيه يقول فيه : افعل كذا ولا تفعل كذا بحسم ، والأمر الذى لم يتدخل فيه بـ« افعل ولا تفعل » أوضح لك : سواء فعلته أم لم تفعله لا يترتب عليه فساد فى الكون ، وخذوا راحتكم فيما لم يرد فيه « افعل ولا تفعل »، وأريحوا أنفسكم واختلفوا فيه ؛ لأن الخلاف البشرى مسألة فى الفطرة والجبلّة والخلقة .

وهنا يقول : « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين » و« النور » أهو الكتاب أم غيره ؟. وفى آية أخرى يقول :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ﴿١٧٤﴾ ﴾

(سورة النساء)

وهذا القول يدل على أن النور هنا هو « القرآن » وجمع بين أمرين ؛ برهان . . أى معجزة ، ونور ينير لنا سبيلنا .

« فآمنوا بالله ورسوله والنور الذى أنزلنا » والإيمان بالله مسألة تطبيقية مرحلية . « الله » هو قمة الإيمان و« رسوله » هو المبلغ عن الله ؛ لأنه جاء لنا بالنور . إلا أن أهل الشطح يقولون : النور مقصود به النبىّ صلى الله عليه وسلم، ونقول: نحن لا نمانع

(١) رواه مسلم وأحمد وابن ماجه .

أنه نور ، وإن كان النص يحتمل أن يكون عطف تفسير ، وحتى لا ندخل فى متاهة مع بعض من يقولون : لا ليس الرسول نوراً ، لأنه مأخوذ من المادة وسنجد من يرد عليهم بحديث جابر : ما أول ما خلق الله يا رسول الله ؟ قال له : نور نبيك يا جابر .

فعن جابر بن عبدالله قال : قلت يا رسول الله بأبى أنت وأمى أخبرنى عن أول شىء خلقه الله تعالى قبل الأشياء . قال : « يا جابر إن الله خلق قبل الأشياء نور نبيّك من نوره فجعل ذلك النور يدور بالقدرة حيث شاء الله ولم يكن فى ذلك الوقت لوح ولا قلم ولا جنّة ولا نار ولا مَلَك ولا سماء ولا أرض ولا شمس ولا قمر ولا جنى ولا إنسى »[1] .

وحتى لا ندخل فى مسألة غيبية لا تستوى الأذهان فى استقبالها ونفتن بعضنا . ويقول فلان كذا ويقول علان كذا . هنا نقول:من تجلى له أن رسول الله نور ، نور ، نور ، فليعرفها هو ويلزمها . وليس من المفروض أن يقنع بها أحداً كى لا ندخل فى متاهة ، وعندما يتعرض أحد لحديث جابر ـ رضى الله عنه ـ نسأل : أهو قال : أول خلق الله نبيك يا جابر أم نور نبيك يا جابر ؟ . قال الحديث : نور نبيك ولم يقل النبى نفسه الذى هو من لحم ودم ، فمحمد صلى الله عليه وسلم من آدم وآدم من تراب ؛ لذلك ليس علينا أن نتناول المسائل التى لا يصل إليها إلا أهل الرياضات المتفوقة ، حتى لا تكون فتنة ؛ لأن من يقول لك : أنت تقول:النور هو رسول الله ، ونقول : على العين والرأس ، فرسول الله نور ولاشك ؛ لأن النور يعنى ألا نصطدم ، وجاء محمد صلى الله عيه وسلم بالمنهج كى ينير لنا الطريق ، والقرآن منهج نظامى ، والرسول منهج تطبيقى ، فإن أخذت النور كى لا نصطدم ، فالحق يقول :

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾

(من الآية ٢١ سورة الأحزاب)

إذن فسنأخذ بالمنهج النظرى الذى هو القرآن ، ونأخذ بالمنهج التطبيقى .

« قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين » و« مبين » أى محيط بكل أمر وكل شىء مصداقاً لقوله الحق :

---

(١) رواه عبدالرزاق بسنده عن جابر وذكر فى كتاب كشف الخفا .

﴿ مَا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ﴾

(من الآية ٣٨ سورة الأنعام)

أى مما تختلف فيه أهواؤكم ، وسُئل الإمام محمد عبده ، وهو فى باريس : أنتم تقولون « ما فرطنا فى الكتاب من شىء » فكم رغيفاً فى أردب الدقيق ؟. فقال : انتظروا : واستدعى خبازاً وسأله : كم رغيفا فى أردب القمح ؟. فقال له : كذا رغيف . فقالوا له : أنت تقول إنه فى الكتاب . فقال لهم : الكتاب هو الذى قال لى :

﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾

(من الآية ٤٣ سورة النحل)

إن قوله:« ما فرطنا فى الكتاب من شىء » أى مما تختلف فيه الأهواء أو تفسد فيه حركة الحياة فى الأرض . فربنا هو ـ سبحانه ـ جعل أناساً تتخصص فى الموضوعات المختلفة .

« قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين » يعنى : يا أهل الكتاب انتبهوا إلى أن هذه فرصتكم لنصفى مسألة العقيدة فى الأرض وننهى الخلاف الذى بين الدينين السابقين ونرجع إلى دين عام للناس جميعاً ، ولا تبقى فى الأرض هذه العصبية حتى تتساند الحركات الإنسانية ولا تتعاند ، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الفتح)

انظر كيف يجمع الإسلام بين أمرين متناقضين : فلم يجىء الإسلام كى يطبع الإنسان ليكون شديداً ؛ لأن هناك مواقف شتى تتطلب الرحمة ، ولم يطبعه على الرحمة المطلقة لأن هناك مواقف تتطلب الشدة ، فلم يطبع الإنسان فى قالب ، ولكنه جعل المؤمن ينفعل للحدث .

ويقول الحق :

﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾

(من الآية ٥٤ سورة المائدة)

أى لا تقل إنّه طبع المؤمن على أن يكون ذليلاً ولا طبعه ليكون عزيزاً ، بل طبعه ليكيّف نفسه التكييف الذى يتطلبه المقام ، فيكون مرة ذليلاً للمؤمن وعزيزاً على الكافر . وقال الإسلام لنا :

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾

(من الآية ١٤٣ سورة البقرة)

أى لا بد أن تعرف الطرفين أولاً ، ثم تحدد ، لأن الوسط لا يعرف إلا بتحديد الطرفين ؛ فاليهودية بالغت فى المادية ، والنصرانية بالغت فى الروحانية والرهبانية :

﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا ﴾

(من الآية ٢٧ سورة الحديد)

وعندما سئل سيدنا عيسى عن مسألة ميراث قال : « أنا لم أبعث مورثاً » ؛ لأنه جاء ليجدد الشحنة للطاقة الدينية ، وبرغم الخلاف العميق بين اليهودية والنصرانية جاء أهل الفكر عندهم ليضعوا العهد القديم والعهد الجديد فى كتاب واحد ، ومع ذلك فقد جاء من اعتبر الإسلام خصماً عنيفاً عليهم على رغم أن الإسلام ليس خصماً إنما جاء ليمنح الناس حرية الاختيار ، وعندما ننظر إلى المنهج المادى والمنهج الروحانى نجد أن اليهود أسرفوا فى المادية وقالوا :

﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾

(من الآية ٥٥ سورة البقرة)

لقد أسرفوا فى المادية لدرجة أن المسألة المتعلقة بقُوتِهم حينما كانوا فى التيه وأنزل ربنا عليهم المن والسلوى ، و« المن » كما نعرف طعام مثل كرات بيضاء ينزل من السماء على شجَر أو حجر ينعقد ويجف جفاف الصمغ وهو حلو يؤكل وطعمه يقرب من عسل النحل ، وجاء لهم الحق بالسلوى وهو طائر يشبه الدجاج وهو السُّمانى فقالوا :

﴿ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ ﴾

(من الآية ٦١ سورة البقرة)

إننا نريد مما تخرجه الأرض من بقلها ، والذى دعاهم إلى غلوهم فى الأمر المادى أنهم قالوا : قد لا يأتى المن ، وقد لا نستطيع صَيد الطير ، نحن نريد أن نضمن

الطعام . إذن فالغيبيات بعيدة عنهم فهم قد أسرفوا فى هذه المادية وأراد الحق سبحانه وتعالى أن يعدل هذا النظام المادى المتطرف فأنزل منهجية روحانية متمثلة فى منهج عيسى عليه السلام ، وشحنهم بمواجيد دينية ليس فيها حكم مادى ، كى تلتحم هذه بتلك ويصير المنهج مستقيماً ، لكن الخلاف دب بينهم ، فكان ولا بد أن يأتى دين جديد يجمع المادية المتعقلة الرزينة المتأنية ، والروحانية المقسطة التى لا تفريط فيها ولا إفراط ، إنها الروحانية المتلقاة من السماء دون ابتداع دين يأتى بالاثنتين فى صلب دين واحد . فقال لنا :

﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الفتح)

وهذه كلها قيم تعبدية . فيكون هؤلاء ماديين وروحانيين فى آن واحد . ويتابع الحق :

﴿ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الفتح)

كأن الله ضرب فى التوراة مثلاً لأمة محمد صلى الله عليه وسلم : يا من أسرفتم فى المادية سيأتى رسول ليعدل ميزان العقائد والتشريع ، فتكون أمته مخالفة لكم تماماً . فأنتم ماديون وقوم محمد ركع سجد ، يبتغون فضلاً من الله ورضوانا سيماهم فى وجوههم من أثر السجود . أى : مافقدتموه أنتم فى منهجكم سيوجد فى أمة محمد . ويقول الحق :

﴿ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الفتح)

فمثلهم فى التوراة ما فُقد عند اليهود ؛ ومثلهم فى الإنجيل ما فُقد عند النصارى . إذن فدين محمد صلى الله عليه وسلم جمع بين القيم المادية والقيم الروحية فكان ديناً وسطاً بين الاثنين . فقال : « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين » أى

انتهزوا الفرصة لتصححوا أخطاءكم ولتستأنفوا حياة صافية تربطكم بالسماء رباطاً يجمع بين دين قيمى يتطلب حركة الدنيا ويتطلب حركة الآخرة .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ يَهْدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ ﴾

ومادام الله هو الذى يهدى فسبحانه منزه عن الأهواء المتعلقة بهم ، وهكذا نضمن أن الإسلام ليس له هوى . لأن آفة من يشرع أن يذكر نفسه أو ما يحب فى ما يشرع ، فالمشرع يُشترط فيه ألا ينتفع بما يشرع ، ولا يوجد هذا الوصف إلا فى الله لأنه يشرع للجميع وهو فوق الجميع .

« قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ، يهدى به الله من اتبع رضوانه » إنَّ من اتبع رضوانه يهديه الله لسبل السلام ، إذن ففيه رضوان متبع ، وفيه سبل سلام كمكافأة . وهل السلام طرق وسبل ؟. نعم ؛ لأن هناك سلام نفس مع نفسها ، وهناك سلام نفس مع أسرتها ، هناك سلام نفس مع جماعتها ، هناك سلام نفس مع أمتها وهناك سلام نفس مع العالم ، وسلام نفس مع الكون كله ، وهناك سلام نفس مع الله ، كل هذا يجمع السلام . إذن فسُبل السلام متعددة ، والسلام مع الله بأن تنزه ربك أيها العبد فلا تعبد معه إلهاً آخر ، ولا تلصق به أحدا آخر . . أى لا تشرك به شيئا ، أو لا تقل : لا يوجد إله .

ولذلك نجد الإسلام جاء بالوسط حتى فى العقيدة ؛ جاء بين ناس تقول : لا يوجد إله ، وهذا نفى ؛ وناس تقول : آلهة متعدة ؛ الشرّ له إله ، والخير له إله ،

والظلمة لها إله ، والنور له إله ، والهواء له إله ، والأرض لها إله !!

إن الذين قالوا بالآلهة المتعددة : استندوا على الحس المادى ونسى كل منهم أن الإنسان مكون من مادة وروح ، وحين تخرج الروح يصبح الجثمان رمّة ؛ ولم يسأل أحدهم : نفسه ويقول : أين روحك التى تدير نفسك وجسمك كله هل تراها ؟، وأين هى ؟. أهى فى أنفك أم فى أذنك أم فى بطنك أين هى ؟، وما شكلها ؟. وما لونها ؟. وما طعمها ؟. أنت لم تدركها وهى موجودة . إذن فمخلوق لله فيك لا تدركه فهل فى إمكانك أن تدرك خالقه ؟. إن هذا هو الضلال . فلو أُدْرِك إلهٌ لما صار إلهاً ؛ لأنك إن أدركت شيئاً قدرت على تحديده ببصرك ، ومادام قد قدرت على تحديده يكون بصرك قد قدر عليه ، ولا ينقلب القادر الأعلى مقدوراً للأدنى أبداً .

وحينما أراد الله أن يدلل على هذه الحكاية قال :

﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

(سورة الذاريات)

انظر فى نفسك تجد روحك التى تدير جسدك لا تراها ولا تسمعها ومع ذلك فهى موجودة فيك ، فإن تخلت عنك صرت رمة وجيفة، فمخلوق لله فيك لا تقدر أن تدركه ، أبعد ذلك تريد أن تردك مَنْ خَلَقَ ؟ إن هذا كلام ليس له طعم ! والاتجاه الآخر يقول بآلهة متعددة ؛ لأن هذا الكون واسع ، وكل شىء فيه يحتاج إلى إله بمفرده ، فيأتى الإسلام بالأمر الحق ويقول : هناك إله واحد ؛ لأنه إن كان هناك آلهة متعددة كما تقولون ، فيكون هناك مثلا . إله للشمس وإله للسماء وإله للأرض وإله للماء وإله للهواء ، حينئذ يكون كل إله من هذه الآلهة عاجزا عن أن يدير ويقوم على أمر آخر غير ما هو إله وقائم عليه ولنشأ بينهم خلاف وشقاق يوضح ذلك قوله تعالى :

﴿ لَذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾

(من الآية ٩١ سورة المؤمنون)

فإله الشمس قد يفصلها عن الكون ، وإله الماء قد يمنعه عن بقية الكائنات ، ويحسم الحق الأمر فيقول :

﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

ويقول سبحانه : (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) .

إذن فالنواميس التى تراها أيضاً محكومة بالإله الواحد ، ويأتى الرسول ليقول لك : هناك إله واحد ، ويبلغنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا إله إلا الله ، و« لا إله » نفت أنه لا آلهة أبداً . وبعدها قال : إلا الله ، وهذه من مصلحة الإنسان حتى لا يكون ذليلاً وخاضعاً وعبداً لإله الشمس أو لإله الهواء أو لإله الماء . وقال الحق :

﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الزمر)

فربنا يريد أن يريحنا من « الخَيْلة » ، والوهم والاضطراب والتردد . . إنه إله واحد ، وعندما يحكم الله حكماً فلا أحد يناقضه ، وسبحانه يهدينا بما يشرعه لنا ؛ لأنه سبحانه ليس له هوى فيما يشرع ؛ لأن معنى الهوى أن تجعل الحركة التى تريدها خادمة لك فى شىء ، والله لا يحتاج إلى أحد لأنه خلق الوجود كله قبل أن يخلق الخلق ، وليس لأحد ممن خلق ـ مهما أوتى من العلم ورجاحة العقل أن تكون له قدرة أو أى دخل فى عملية الخلق أو تنظيمه .

« يهدى به الله من اتبع رضوانه » ، مادام قد اتبع رضوانه فيهديه إلى سبل السلام ، إذن فإن هناك هدايتين اثنتين : يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ، وقال فى آية أخرى :

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة محمد)

فإياك أن تظن أن التقوى لن تنال ثوابها وجزاءها إلا فى الآخرة ؛ لأنه كلما فعلت أمراً وتلتفت وجدت آثاره فى نفسك ، تصلى تجد أمورك خَفَّت عن نفسك ، فلا ترتكب السيئة فى غفلة من الناس ، قلبك لا يكون مشغولاً بأى شىء ، ويحيا

المؤمن فى سلام مع نفسه أبداً . إذن فسبل السلام متعددة : سبل السلام مع الله ، سبل السلام مع الكون كله ، سبل السلام مع مجتمعه ، سبل السلام مع أسرته ، سبل السلام مع نفسه .

ويقول الحق :

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾

(من الآية ١٥٣ سورة الأنعام)

إذن فهناك سبل سلام وسبل ضلال .

وفى هذه الآية يقول الحق : « ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم » ، والظلمات هى محل الاصطدام ، وعندما يخرجهم من الظلمات إلى النور يرون الطريق الصحيح الموصل إلى الخير ، والطريق الموصل إلى غير الخير . وبعدما يخرجون من الظلمات إلى النور تكون حركاتهم متساندة وليست متعاندة ، ولا يوجد صدام ولا شىء يورثهم بغضاء وشحناء ، أو المراد أنّه يهديهم إلى الصراط المستقيم وهو الجنة .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾

وقال سبحانه من قبل :

﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ﴾

(من الآية ١٤ سورة المائدة)

فمن اتبعوا اليعقوبية قالوا شيئاً ، والنصرانية قالت شيئاً ، والملكانية قالت شيئاً ثالثاً ؛ فجاء بالقمة : « لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم » .

ويأتى قوله سبحانه : « قل » ، رداً عليهم : « فمن يملك من الله شيئاً » أى من يمنع قدر الله أن ينزل بمن جعلتموه إلهاً « إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعاً » .

لقد زعموا أن الله هو المسيح عيسى ابن مريم وفى هذا اجتراء على مقام الألوهية المنزهة عن التشبيه وعن الحلول فى أى شىء . وفى هذا القول الكريم بلاغ لهؤلاء أن أحداً لا يستطيع أن يمنع إهلاك الله لعيسى وأمه وجميع من فى الأرض . فهو الحق الملك الخالق للسموات والأرض . وما بينهما يخلق ما يشاء كما يريد . فإن كان قد خلق المسيح دون أب ؛ فقد جاءنا البلاغ من قبل بأنه سبحانه خلق آدم بدون أب ولا أم ، وخلق حواء دون أم ، جلت عظمته وقدرته لا يعجزه شىء . إن عيسى عليه السلام من البشر قابل للفناء ككل البشر .

« ولله ملك السموات والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء » جاء الحق هنا بالسماء كنوع علوى والأرض كنوع سفلى ، وقوله : « يخلق ما يشاء » يرد على الشبهة بإيجاز دقيق : « يخلق ما يشاء » ؛ لأن الفتنة جاءت من ناحية أن عيسى عليه السلام مُيّز فى طريقة خلقه بشىء لم يكن فى عامة الناس ؛ فأوضح الحق : لا تظنوا أن الخلق الذى أخلقه يشترط علىّ أن تكون هناك ذكورة وأنوثة ولقاح ، هذا فى العرف العام الذى يفترض وجود ذكورة وأنوثة ، وإلا لكان يجب أن تكون الفتنة قبل عيسى فى آدم ؛ لأنه خلق من غير أب ولا أم . إذن فالذى يريد أن يفتتن بأنه من أم دون أب ، كان يجب أن يفتتن فى آدم لأنه لا أب له ولا أم . ويوضح لهم : الله يخلق ما يشاء فلا يتحتم أو يلزم أن يكون من زوجين أو من ذكر فقط أو من أنثى فقط .

إن ربنا سبحانه وتعالى له طلاقة القدرة فى أن يخلق ما يشاء ، وقد أدار خلقه على

القسمة العقلية المنطقية الأربعة : إما أن يكون من أب وأم مثلنا جميعاً ، وإما أن يكون بعدمهما مثل آدم ، وإما أن يكون بالذكر دون الأنثى كحواء ، وإما أن يكون بالأنثى دون الذكر كعيسى عليه السلام ، فأدار الله الخلق على القواعد المنطقية الأربعة كى لا تفهم أن ربنا يريد مواصفات خاصة كى يخلق بل هو يخلق ما يشاء . والدليل على ذلك أن الزوجين يكونان موجودين مع بعضهما ومع ذلك لا يُنْجِبُ منهما ، فهل هناك اكتمال أكثر من هذا ؟!

﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ﴾

(سورة الشورى)

إذن فالمسألة ألا يُفرض على ربنا عناصر تكوين ، لا ، بل هى إرادة مُكَوِّن لا عنصرية مَكَوَّن . إنه « يخلق ما يشاء » ، ومشيئته مطلقة وقدرته عامة . ولذلك لا بد أن يأتى القول : « والله على كل شىء قدير » .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ ﴾

وهل كل اليهود قالوا : نحن أبناء الله ؟ هل كل النصارى قالوا : نحن أبناء الله ؟ لا . فبعض من اليهود قال : إن عزيراً ابن الله وبعض النصارى قالوا : إن

عيسى ابن الله ، وجاء مسيلمة الكذاب وادّعى النبوة ، وكان كل أهل مسيلمة يقولون : نحن الأنبياء ، أى منا الأنبياء حتى أنصار سيدنا عبدالله بن الزبيرأبى خبيب، قال أنصاره : نحن الخبيبيون أى نحن أتباع ابن الزبير الذى هو أبوخبيب، فكانوا ينسبون لأنفسهم ما لغيرهم . فمعنى « نحن أبناء الله » يعنى : نحن أشياع العزير ، الذى هو ابن الله ؛ ونحن أشياع عيسى الذى هو ابن الله . هذه نأخذ لها دليلاً من القرآن ، نعرف قصة مؤمن آل فرعون :

﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَـٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَـٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾

(سورة غافر)

والقوم جماعة . بالله أكان القوم كلهم ملوكا ؟ . لا ، فالذى كان ملكاً هو فرعون فقط . لكن مادام فرعون هو الملك ، فيكون كل الذين كانوا أتباعا وأنصارا له ومن شيعته ملوكا لأنهم يعيشون فى كنف ورعاية الملك . وأيضاً قال لليهود : « وجعلكم ملوكاً » ، ولذلك عندما أرادوا أن يحددوا معنى « ملك » قالوا : إن « الملك » هو الرجل الذى عنده دار واسعة وفيها ماء يجرى ، وواحد آخر قال : « الملك » هو الذى يكون عنده حياة رتيبة وعنده من يخدمه ولا ينشغل بخدمة نفسه فى بيته ، وفى الخارج يخدم نفسه . وقال آخر : من عنده مال لا يحوجه للعمل الشاق ، فهو ملك ، ولذلك قال سيدنا الشيخ عبدالجليل عيسى فى هذه المسألة : لا تستعجبوا ذلك فالأميون ينطقون وبلسانهم يقولون : هذا ملك زمانه ، أى رجل مرتاح لا يعمل أعمالا شاقة وعنده النقود يصرفها كما يريد . إذن فأبناء الله يعنى ليس

كلهم أبناءه ، ولذلك قال الله لرسوله صلى الله عليه وسلم : « قل » رداً عليهم : « فَلِمَ يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق » ، وستدخلون فى مشيئة المغفرة .

« يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء » ، ولن تخرجوا عن المشيئة الغافرة أو المشيئة

المعذبة ، « ولله ملك السموات والأرض وما بينهما وإليه المصير » .

ويقول الحق تصفية للمسألة العقدية فى الأرض :

﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ وَنَذِيرٞۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١٩﴾ ﴾

ورسولنا هو محمد صلى عليه وسلم ويبين لكم ـ يا أهل الكتاب ـ ما اختلفتم فيه أولاً وما يجب أن تلتقوا عليه ثانياً ، وما زاده الإسلام من منهج فإنما جاء به ليناسب أقضية الحياة التى يواجهها إلى أن تقوم الساعة . وقد جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم على فترة من الرسل ، ومعنى الفترة : الانقطاع . وفترة من الرسل أى على زمن انقطعت فيه الرسالات ، وهى الفترة التى بينه صلى الله عليه وسلم وبين أخيه عيسى عليه السلام ، وقام الناس بحسابها فقال بعضهم : إنها ستمائة سنة وقال البعض : خمسمائة وستون عاماً . ولا يهمنا عدد السنين ، إنما الذى يهمنا هو وجود فترة انقطعت فيها الرسل ، اللهم إلا ما كان من قول الحق سبحانه :

﴿ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ إِذۡ جَآءَهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱثۡنَيۡنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزۡنَا بِثَالِثٖ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُواْ مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُواْ رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة يس)

هؤلاء المرسلون أهم مرسلون من قبل الله بين عيسى وبين محمد صلى الله عليه

وسلم ؟ . أم هم مرسلون من قبل عيسى عليه السلام إلى أهل أنطاكية ؟ . وقد كفر الناس أولاً بهذين الرسولين ، فعززهم الحق بثالث .

وقال الناس لهم :

﴿ قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ ﴾

(سورة يس)

وهنا قال الرسل :

﴿ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة يس)

فما الفرق بين « إنا إليكم مرسلون » وبين « ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون » ؟ . إن الأخبار دائماً تُلقى من المتكلم للسامع لتعطيه خبراً ، فإن كان السامع خالى الذهن من الخبر ، ألقى إليه الكلام بدون تأكيد . وأما إن كان عنده شبه إنكار ، ألقى إليه الكلام بتأكيد على قدر إنكاره . فإن زاد فى لجاج الإنكار يزيد له التأكيد . فأصحاب القرية أرسل الله إليهم اثنين فكذبوهما ، فعززهما بثالث ، وهذا تعزيز رسالى ، فبعد أن كانا رسولين زادهما الله ثالثاً ، وقال الثلاثة :

﴿ إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴾

(من الآية ١٤ سورة يس)

صحيح ثمة تأكيد هنا . لأن الجملة إسمية ، وسبقتها « إنّ » المؤكدة ؛ فلما كذبوهم وقالوا لهم: «ماأنتم إلا بشر مثلنا وماأنزل الرحمن من شىء» وكان هذا لجاجاً منهم فى الإنكار فماذا يكون موقف الرسل ؟ أيقولون : « إنا إليكم مرسلون » كما قيل أولاً ؟ . لا . إن الإنكار هنا ممعن فى اللجاجة والشدة ، فيأتى الحق بتأكيد أقوى على ألسنة الرسل :

(ربنا يعلم) .

وذلك القول فى حكم القسم ؛ هذا هو التأكيد الأول ، والتأكيد الثانى :

(إنا إليكم لمرسلون) .

وكما نعلم فـ « إن » هنا مؤكِدّة ، واللام التى فى أول قوله : « لمرسلون » لزيادة التأكيد . وحين تأتى كلمة تدور على معانٍ متعددة ، فالمعنى الجامع هو المعنى الأصلى ، وكذلك كلمة « فترة » ، فالفترة هى الانقطاع . فإن قلت مثلاً : ماء فاتر أى ماء انقطعت برودته ، فالماء مشروط فيه البرودة حتى يروى العطش . وعندما يقال : ماء فاتر أى ماء فتر عن برودته ، ولذلك يكون قولنا : « ماء فاتر » أى ماء دافىء قليلاً ؛ أى ماء انقطعت عنه البرودة المرغبة فيه .

ويقال أيضاً فى وصف المرأة : فى جفنها فتور أى أنها تغض الطرف ولاتحملق بعينيها باجتراء . بل منخفضة النظرة . إذن فالفترة هى الانقطاع . ولقد انقطعت مدة من الزمن وَخَلَتْ من الوحى ومن الرسل . وكان مقتضى هذا أن يطول عهد الغفلة ، ويطول عهد انطماس المنهج ، ويعيش أهل الخير فى ظمأ وشوق لمجىء منهج جديد ، فكان من الواجب ـ مادام قد جاء رسول ـ أن يرهف الناس آذانهم لما جاء به ، فيوضح الحق أنه أرسل رسولاً جاء على فترة ، فإن كنتم أهل خير فمن الواجب أن تلتمسوا ما جاء به من منهج ، وأن ترهفوا آذانكم إلى ما يجىء به الرسول صلى الله عليه وسلم لسماع مهمته ورسالته .

وقد أرسل الله إليهم الرسول على فترة حتى يقطع عنهم الحجة والعذر فلا يقولوا : « ما جاءنا من بشير ولا نذير » فقد جاءهم ـ إذن ـ بشير وجاءهم نذير . والبشير هو المعلم أو المخبر بخير يأتى زمانه بعد الإخبار . ومادام القادم بشيراً فهو يشجع الناس على أن يرغبوا فى منهج الله ليأخذوا الخير . ولا بد من وجود فترة زمنية يمارس فيها الناس المنهج ، ولا بد أيضاً أن توجد فترة ليمارس من لم يأخذوا المنهج كل ما هو خارج عن المنهج ليأتى لهم الشر .

مثال ذلك قول الأستاذ : بَشِّرْ الذى يذاكر بأنه ينجح . وعند ذلك يذاكر من الطلاب من يرغب فى النجاح ، أى لابد من وجود فترة حتى يحقق ما يوصله إلى ما يبشر به . وكذلك النذارة لا بد لها من فترة حتى يتجنب الإنسان ما يأتى بالشر .

« قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير » . ومجىء « أن تقولوا » إيضاح بأنه لا توجد فرصة للتعلل بقول:« ما جاءنا من بشير ولا نذير » .

ويقول الحق : « فقد جاءكم بشير ونذير والله على كل شيء قدير » وسبحانه وتعالى القدير أبداً . فقد جعل الخلق يطرأون على كون منظم بحكمة وبكل وسائل الخير والحياة على أحسن نظام قبل أن يطرأ هؤلاء الخلق على هذا الكون ، فإذا ما طرأ الخلق على هذا الخير ، أيتركهم الخالق بدون هداية ؟ . لا . فسبحانه قد قدر على أن يُوجد خلقه كلهم ، ويعطى لهم ما يحفظ لهم حياتهم ويحفظ لهم نوعهم .

ألا يعطى الحق الخلق إذن ما يحفظ لهم قيمهم ؟ .

إنه قادر على أن يعطى رزق القوت ورزق المبادىء والقيم وأن يوفى خلقه رزقهم فى كل عطاء . وإرسال الرسل من جملة عطاءات الحق لعلاج القيم . ثم يرجع ثانية إلى قوم موسى ولكنه فى هذه المرة يجعل المتكلم رسولهم :

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾

وساعة تسمع « إذ » فاعلم أنها ظرفية تعنى « حين » كأن الحق يقول : اذكر حين قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم . ويقول الحق لرسوله ذلك لأن هذا اللون من الذكر يعين الرسول صلى الله عليه وسلم على تحمل ما يتعرض له فى أمر الدعوة والرسالة سواء من ملاحدة أو من أهل كتاب .

إن الحق حينما قال : « وإذ قال موسى لقومه » أى اذكر يا محمد ، أو أذكر يا من تتبع محمداً ، أو اذكر يا من تقرأ القرآن إذ قال موسى لقومه : يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم . ولا يقول موسى لقومه : « يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم » إلا إذا كان قد رأى منهم عملاً لا يتناسب مع النعم التى أنعم الله بها عليهم ، وذلك ـ ولله المثل الأعلى ـ كما يقول الواحد منا لولد عاق : اذكر ما فعله والدك معك . ولا يقولن

الواحد منا ذلك إلا وقد بدرت من الابن بوادر لا تتناسب مع مقدمات النعم ومقدمات الفضل عليه . فكأن قوم موسى قد أرهقوه وتحمل منهم الكثير ؛ لدرجة أنه قال لهم على سبيل الزجر ما قد يجعلهم يفيقون وينتبهون ويفطنون إلى ذكر نعمة الله عليهم ، ومعنى ذكرالنعمة هو الاستماع إلى منهج الله وتنفيذ أوامر الحق واجتناب النواهى .

« وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم » وعرفنا أن « النعمة » يقصد بها الجنس والمراد بها النعم كلها، أو كأن كل نعمة على انفرادها خليقة وجديرة أن تُذكر وتُشكر ، والدليل على أن النعمة يراد بها كل النعم أن الله قال :

﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾

(من الآية ٣٤ سورة إبراهيم)

ومادام عدّ النعمة لا نستطيع معه أن نعرف إحصاءها ؛ فهى نعم متعددة . إذن فالمراد بالنعمة كل النعم لأنها اسم جنس .

« وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم » وذكر النعمة يؤدى إلى شكر المنعم ويؤدى أيضاً إلى الاستحياء من أن نعصى من أنعم ، ويجعلنا نستحى أن نأخذ نعمته لتكون معينا لنا على معصيته . « اذكروا نعمة الله عليكم » وهى نعم كثيرة تمتعوا بها ، ألم يفلق الحقُ لهم البحرَ :

﴿ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ﴾

(من الآية ٦٣ سورة الشعراء)

وبعد أن ضرب الماء بالعصا :

﴿ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴾

(من الآية ٦٣ سورة الشعراء)

فقد صار الماء السائل جبالاً . وضرب لهم الحجر ؛ بأمر الله فانفجرت منه المياه :

﴿ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ﴾

(من الآية ٦٠ سورة البقرة)

إنها عجائب كثيرة تتجلى فيها قدرة الخالق الأعظم ، وتبين القدرة مجالات تصرفها ، فقد ضرب موسى البحر فصار كل فرق كالطود العظيم ، وكأن الماء صار صخرا . وضرب موسى الصخر فتفجرت المياه . إنها عجائب القدرة . ألم يظللكم بالغمام ؟ ألم ينزل عليكم فى التيه المن والسلوى ؟ وكل هذه النعم ألا تستحق الذكر لله والشكر لله والاستحياء من أن تعصوه أو أن ترهقوا الرسول الذى جاء لهدايتكم ؟

إن كل هذه النعم تستحق الشكر ، والشكر ذكر . « اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً » وكلما أدركتهم غفلة فإن الحق يرسل لهم نبياً كأسوة سلوكية . ولم يغضب عليهم ولم يقل : أرسلت لهم رسولا واثنين وثلاثة وأربعة . ولم يهتدوا ، بل كلما عصوا الله واستعصت داءاتهم أرسل لهم رسولا ، مثلهم فى ذلك مثل المريض الذى لا يضن عليه عائله بطبيب أو بطبيبين أو ثلاثة أو أربعة ، بل كلما لاحظ عائله شيئا فإنه يرسل له طبيباً . وفى ذلك امتنان ؛ لأن الله أرسل إليهم كثيراً من الرسل . وكان عليهم أن يعلموا أن داءاتهم قد كثرت وصار مرضهم مستعصيا ؛ لأنه لو لم يكن المرض مستعصيا ؛ لما كانوا فى حاجة إلى هذه الكثرة من الأطباء والأنبياء . ومع ذلك رحمهم الله وكلما زاد داؤهم أرسل لهم نبيا .

ولم يكتف الحق بأن جعل فيهم أنبياء ؛ بل قال : « وجعلكم ملوكا » وليس معنى ذلك أنهم كلهم صاروا ملوكاً ؛ ولكن كان منهم الملوك . « والملك » كلمة أخذت اصطلاحاً سياسياً ، فكل إنسان مالك ما فى حوزته ؛ مالك لثوبه ، أو مالك اللقمة التى يأكلها ، أو مالك البيت الذى ينام فيه ، لكن المَلِك هو الذى يملك وَيُمِلك مَن مَلك .

إذن فكل واحد عنده القدرة أن يملك شيئاً ويملك مَن مَلَك يكون مَلِكاً ، فرجل عنده رُعيان يقومون برعى القطعان من الماشية التى يملكها ، وعنده أناس يخدمون فى المنزل وأناس يعملون فى المزرعة ، وعنده أكثر من سائق ، وعنده أناس كثيرون يأتمرون بأمره ولا يدخلون عليه إلا بإذنه ولا يتكلف فى لقائهم أى حرج أو مشقة ، هذا الرجل لا بد أن يكون ملكاً . إذن فقد أعطاهم الحق نعمة وفيرة .

والنبى صلى الله عليه وسلم يحدد الملكية الواسعة التى تحدد الفرد تحديداً إيمانياً

فقال : « من أصبح منكم آمنا فى سربه معافًى فى جسده ، عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها »[١] .

ومادام قد حيزت له الدنيا بحذافيرها بهذه الأشياء فهو ملك . وقد أعطاهم هذه المسائل أى جعلهم ملوكاً . « وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين » أى أنه سبحانه أعطاهم ما لم يعطه لأحد مِمَّن حولهم ؛ ووالى عليهم ذلك العطاء ، ألم يعط ـ سبحانه ـ نبى الله سيدنا سليمان وهو من بنى إسرائيل مُلْكاً لا ينبغى لأحد من بعده ؟ تلك الواقعة لم يقلها موسى عليه السلام لأنها حدثت من بعد موسى بأحد عشر جيلاً .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ ﴾

وهذا بلاغ من موسى بما أوحى الله به إليه ، ومتى حدث ذلك ؟ نعرف أن صلة بنى إسرائيل بمصر كانت منذ أيام يوسف عليه السلام ، وعندما جاء يوسف بأبيه وإخوته وعاشوا بمصر وكونوا شيعة بنى إسرائيل ، ومكن الله ليوسف فى الأرض وعاشوا فى تلك الفترة . والعجيب أن المس القرآنى للأحداث التاريخية فيه دقة متناهية ، ولم نعرف نحن تلك الأحداث إلا بعد مجىء الحملة الفرنسية إلى مصر . فعندما جاءت تلك الحملة صحبت معها بعثة علمية . وكانت تلك البعثة تنقب عن المعلومات الأثرية ليتعرفوا على سر حضارة المصريين ، وسر تقدم العرب القديم ، الذى سبق أوربا بقرون ، وأخذت منه أوربا العلوم والفنون ، فى حين صار هذا العالم العربى إلى غفلة .

إن العرب المسلمين هم الذين اخترعوا أشياء ذهل لها العالم الغربى ، ويحكى لنا

---

(١) أخرجه الترمذى .

التاريخ عن هدية من أحد ملوك العرب إلى شارلمان ملك فرنسا وكانت الساعة دقاقة ، وظن الناس من أهل فرنسا أن بهذه الساعة الدقاقة شيطانا . وفكرة تلك الساعة أن العالم الذى صممها وضع فيها إناء من الماء به ثقب صغير تنزل منه القطرة بثقلها على شيء يشبه عقرب الساعة ، فتتحرك الساعة دقيقة واحدة من الزمن . وكانت الساعة تسير بنقطة الماء . وكان ضبطها فى منتهى الدقة . وحين رآها الناس فى بلاط شارلمان ملك فرنسا ظنوا أن بداخلها شياطين . وهذا نموذج من نماذج كثيرة لا حصر لها ولا عدد تدخل فى نطاق قوله الحق :

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾

(من الآية ٥٣ سورة فصلت)

وحينما جاء الفرنسيون إلى القاهرة كان معهم تلك البعثة العلمية ومعهم مطبعة ، وعرض هؤلاء العلماء الفانوس السحرى ، وجعلوا الناس البسطاء يذهلون من تقدمهم العلمى . واسترت تلك الحملة بعروض أقرب إلى « الأكروبات » . وكان عمل العلماء هو البحث عن سر حضارة المصريين والمسلمين ؛ لأنهم يعلمون أن الحضارة الإسلامية انتقلت إلى مصر بالإضافة إلى حضارة المصريين القدماء .

لقد كانوا يعرضون ألعابهم السحرية العلمية بدرب الجماميز ، وذلك حتى ينبهر الناس بالحضارة الفرنسية . وكان علماؤهم فى الوقت نفسه يكتشفون ما نقش على حجر رشيد ، وهو الحجر الذى اكتشفه ضابط فرنسى شاب اسمه شامبليون ، وعلى هذا الحجر كتبت الكلمات الهيروغليفية . واستطاع شامبليون أن يفصل أسماء الأعلام الهيروغليفية ومن خلال ذلك استطاع أن يصل إلى أبجدية تلك اللغة . وكأن الله أراد أن يسخر الكافرين بمنهج الله ليؤيدوا منهج الله .

إن فى كل لغة شيئا اسمه « منطق الأعلَام » ومثال ذلك أن يوجد اسم رجل أو أمير أو إنسان ، فهذا الاسم مكون من حروف لا تتغير ، مثال ذلك نأخذه من اللغة الإنجليزية ؛ كان اسم رئيس وزراء انجلترا فى وقت من الأوقات هو « تشرشل » هى كلمة إذا ترجمناها ترجمة حرفية لم تدل على صاحبها ولم تعرفنا به لأننا عندما نترجمها نكتفى بكتابة الاسم بالحروف العربية بدلاً من اللاتينية .

إذن فالأعْلَام لا يتغير نطقها .

وكشف شامبليون عن الحروف التى لم تتغير . واهتدى إلى فك طلاسم حروف اللغة الهيروغليفية ؛ فعرف كيف يقرأ المكتوب على حجر رشيد ، واستطاع أن يقدم لنا بدايات اكتشاف تاريخ مصر القديمة . واستطاع أن يقرأ اللغة المرسومة على ذلك الحجر .

ولنا أن نرى عظمة القرآن حينما تعرض للأقدمين . . تعرّض لعادٍ وتعرّض لثمود وتعرض لفرعون . تعرض لتلك الحضارات كلها فى سورة الفجر ، فقال سبحانه وتعالى :

﴿ وَٱلْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝٤ هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ ۝٥ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ﴾

(سورة الفجر)

وإرم ذات العماد هى التى فى الأحقاف ـ فى الجزيرة العربية ـ ولم نكتشفها بعد ، ولم نعرف عنها حتى الآن شيئاً ، وهى التى يقول عنها الحق :

﴿ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝٨ ﴾

(سورة الفجر)

ثم يتكلم بعدها عن فرعون :

﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ۝١٠ ﴾

(سورة الفجر)

والأهرام أقيمت بالفعل على أوتاد ، وكذلك المسلات المصرية القديمة والمعابد . وغيرها من العجائب التى بهرت الناس فى مختلف العصور .

﴿ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝٨ ﴾

(سورة الفجر)

ثم جاء بحضارة ثمود .

﴿ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝٩ ﴾

(سورة الفجر)

وقد رأينا هذه الحضارة التى كان الناس أثناءها ينحتون البيوت فى الصخر ، كما رأينا حضارة مصر . وحضارة عاد هى التى لم نرها حتى الآن ؛ ولا بد أن تكون مطمورة تحت الأرض . ونعرف أن الهبة الرملية الواحدة عندما تهب فى تلك المناطق تطمر القافلة كلها ، فما بالنا بالقرون الطويلة التى مرت وهبت فيها آلاف العواصف الرملية ، إذن لا بد أن ننقب كثيراً لنكتشف حضارة عاد . والحق تكلم عن حضارة مصر القديمة فقال : (وفرعون ذى الأوتاد) ، وعندما تكلم عن موسى عليه السلام ، تكلم ـ أيضاً ـ عن المعاصرين له وكان أحد هؤلاء الفراعنة ، فقال سبحانه لموسى ولأخيه هارون عليهما السلام :

﴿ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ ﴾

(سورة طه)

ويذهب موسى إلى فرعون حتى يخلص بنى إسرائيل من ظلم فرعون . ولماذا ظلمهم فرعون ؟ نحن نعرف أن كل سياسة تعقب سياسة سابقة عليها تحاول أن تطمس السياسة الأولى ، وتعذب من نصروا السياسة الأولى ، وتلك قضية واضحة فى الكون . وهذا ما يتضح لنا من سيرة سيدنا يوسف الذى صار وزيراً للعزيز ودعا أباه وأمه وشيعته إلى مصر ، ولم تأت سيرة فرعون فى سورة يوسف .

وعندما تكلم القرآن على رأس الدولة فى أيام يوسف قال :

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ ﴾

(من الآية ٥٤ سورة يوسف)

لم يقل الحق : « فرعون » على الرغم من أنه قال قبل ذلك عنه إنه : « فرعون » وأيام موسى ذكر فرعون ، لكن فى أيام يوسف لم يأت بسيرة فرعون إنما جاء بسيرة مَلِك . وعندما جاء اكتشاف حجر رشيد ، ظهر لنا أن فترة وجود يوسف عليه السلام فى مصر هى فترة ملوك الرعاة أى الهكسوس الذين غَزَوْا مصر وأخذوا الْـمُلْكَ من المصريين وحكموهم وصاروا ملوكاً ، وسمى عصرهم بعصر الملوك .

وقال القرآن : (وقال الملك ائتونى به) . ولم يأت بذكر لفرعون . وعندما استرد الفراعنة ملكهم وطردوا ملوك الرعاة ، استبد الفراعنة بمن كانوا يخدمون الملوك وهم بنو إسرائيل . هكذا تتأكد دقة القرآن عندما ذكر فرعون لأنه كان الحاكم أيام موسى ، لكن فى زمن يوسف سمى حاكم مصر باسم الملك . وتلك أمور لم نعرفها

إلا حديثاً . ولكن القرآن عرفنا ذلك . وكانت تحتاج إلى استنباط . وهى تدخل ضمن الآيات التى لا حصر لها فى قوله الحق :

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾

(من الآية ٥٣ سورة فصلت)

فسبحانه وتعالى بعد أن أيد موسى بالآيات وأغرق فرعون ، هنا قال لهم موسى :

﴿ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ ﴾

(سورة المائدة)

فقد انتهت المهمة بتخليص بنى إسرايل من فرعون ، وخلصوا أهل مصر من فرعون . وكانت الدعوة لدخول الأرض المقدسة . وكلمة الأرض إذا أطلقت صارت علماً على الكرة الجامعة . ووردت كلمة « الأرض » فى قصة بنى إسرائيل فى مواضع متعددة لمواقع متعددة .

فها هوذا قول الله فى آخر سورة الإسراء :

﴿ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ ﴾

(من الآية ١٠٤ سورة الإسراء)

فهل هناك سكن إلا الأرض ؟ إن أحداً لا يقول : اسكن كذا إلا إذا حدد مكاناً من الأرض ؛ لأن السكن بالقطع سيكون فى الأرض ، فكيف يأتى القول : « اسكنوا الأرض » ؟ والشائع أن يقال : اسكن المكان الفلانى من المدن ، مثل : المنصورة أو أريحا ، أو القدس . وقوله الحق : « اسكنوا الأرض » هو لفتة قرآنية ، ومادام الحق لم يحدد من الأرض مسكوناً خاصاً ، فكأنه قال : ذوبوا فى الأرض فليس لكم وطن ، وانساحوا فى الأرض فليس لكم وطن ، أى لا توطن لكم أبداً ، وستسيحون فى الأرض مقطعين ، وقال سبحانه :

﴿ وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ﴾

(من الآية ١٦٨ سورة الأعراف)

وحين يأتى القرآن بقضية قرآنية فلنبحث أأيدتها القضايا الكونية أم عارضتها ؟ القضية القرآنية هنا هى تقطيع بنى إسرائيل فى الأرض أمما ، أى تفريقهم وتشتيتهم ولم يقل القرآن : « أذبناهم » بل قال : « قطعناهم » وتفيد أنه جعل بينهم أوصالاً ولكنهم مفرقون فى البلاد. وعندما نراهم فى أى بلد نزلوا فيها نجد أن لهم حيا مخصوصا، ولا يذوبون فى المواطنين أبداً ، ويكون لهم كل ما يخصهم من حاجات يستقلون بها ، فكأنهم شائعون فى الأرض وهم مقطعون فى الأرض ولكنهم أمم ، فهناك « حارات » وأماكن خاصة لليهود فى كل بلد .

حدث ذلك من بعد موسى عليه السلام ، لكن ماذا كان الأمر فى أيام موسى ؟ قال لهم الحق : « ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم » أى بعد رحلتكم مع فرعون اذهبوا إلى الأرض التى كتبها الله لكم . ونلحظ هنا أن كلمة « الأرض المقدسة » فيها تحييز وتحديد للأرض .

ولكن ما معنى « مقدسة » ؟ المادة كلها تدل على الطهر والتطهير . فـ « قَدَّس » أى طهّر ونزّه ، ومقدسة يعنى مطهرة . والألفاظ حين تأتى تتوارد جميع المادة على معانٍ متلاقية . ففى الريف المصرى نجد ما نسميه « القَدَس » أو « القادوس » وهو الإناء الذى يرفع به الماء من الساقية ، وكانوا يستعملونه للتطهير ، فالقادوس فى الريف المصرى هو وعاء الماء النظيف . وعندما يقال : « مقدسة » أى مطهرة .

إن من أسماء الحق « القُدُّوس » ، ويقال : «قُدِّس الله » أى نزه ، فالله ذات وليست كذات الإنسان ، وله سبحانه صفات منزهة أن تكون كصفاتك ، وهو سبحانه له أفعال ، ولكن قدسه وطهره منزهة أن تكون كأفعالك . فذات الحق واجبة الوجود وذات الإنسان ممكنة الوجود ؛ لأن ذات الإنسان طرأ عليها عدم أول ، ويطرأ عليها عدم ثانٍ ، وهو سبحانه واجب الوجود لذاته ، والإنسان واجب لغيره وهو قادر سبحانه أن ينهى وجود العبد . ولله حياة وللإنسان حياة ، لكن أحياتك أيها الإنسان كحياة الله ؟ لا .

إن حياته سبحانه منزهة وذاته ليست كذاتك ، وصفاته ليست كصفاتك ، فأنت قادر قدرة محدودة وله سبحانه طلاقة القدرة ، وهو سبحانه سميع والعبد سميع ؛ لكن سمع البشر محدود وسمعه سبحانه لا حدود له .

إذن فصفاته مقدسة ، ولذلك فعندما تسمع أنه سبحانه سميع عليم فليس سمعه كسمعنا ،وله فعل غير فعلنا . وعندما يقول الحق : إنه فعل ، ففعله منزه عن التشبيه بفعل البشر ؛ لأن البشر من خلق الله ، وفعل البشر معالجة ، ويكون للفعل بداية ووسط ونهاية ويفرغ من الأحداث على قدر الزمن . ونحن نحمل الأشياء فى أزمان متعددة ويحتاج من يحمل الأشياء إلى قوة . ولكن فعل الحق مختلف ، إنه فعل بـ « كن » لذلك قال :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ ﴾

(سورة ق)

أى أنه سبحانه وتعالى منزه عن التعب ، فهو يقول : « كن فيكون » ولذلك قلنا فى مسألة الإسراء:إننا يجب أن ننسب الحدث إلى الله لا إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، حتى نعرف أن الذين عارضوا رسول الله فى مسألة الإسراء كانوا على خطأ ؛ فقد قالوا : أنضرب لها أكباد الإبل شهراً وتدعى أنك أتيتها فى ليلة ؟!

إن رسول الله لم يدع لنفسه هذا الأمر ، لأنه لم يقل : سريت من مكة إلى بيت المقدس » حتى تقولوا : أنضرب لها أكباد الإبل شهراً وتدعى أنك أتيتها فى ليلة » .

لكن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : أُسْرِىَ بى . أى أنه صلى الله عليه وسلم ليس له فعل فى الحدث . والفعل إذن لله . ومادام هو من فعل الله فهو لا يحتاج إلى زمن ؛ لذلك كان يجب أن يفهموا على أى شىء يعترضون . ولكنا نعرف أن الله سبحانه وتعالى أراد لهم أن يفهموا على تلك الطريقة ؛ لأنه سيأتى أناس من المتحذلقين المعاصرين ويقولون : « إن الإسراء كان بالروح » نقول لهم : بالله لو قال محمد للعرب : أنا سريت بروحى أكانوا يكذبونه ؟ تماما مثلما يقول لنا قائل : « أنا كنت فى نيويورك الليلة ورأيتها فى المنام » فهل سيكذبه أحد ؟ لا . إذن لقد كذب العرب لأنهم فهموا أنه أُسْرِىَ به بمعنى كاملٍ . . أى كان الإسراء بالجسد والروح معا ، بدليل أنهم قارنوا فعلاً بفعل ، وحدثاً بحدث ، ونقلة بنقلة ، وقالوا قولهم السابق . لقد جاءت هذه المسألة لتخدم الإسلام .

إذن فـ « قدوس » يعنى مطهر ومنزه . وساعة ترى شيئاً مخالفاً لقضية العقل اقرنه

بفعلٍ الله ، ولا تقرنه بفعلك أنت أيها العبد ؛ لأن الفعل يتناسب مع قوة الفاعل طرداً أو عكسا . فإن كان الفاعل صاحب قدرة قوية . فزمنه أقل . مثال ذلك : نقل أردب من القمح من مكان إلى مكان ، فإن كان الذى يحمل الأردب طفلاً فلن ينقل الأردب إلا قدحا بقدح ؛ وإن كان رجلا ناضجا سينقل الأردب « كيلة بكيلة » . وإن كان صاحب قوة كبيرة قد ينقل الأردب كله مرة واحدة . إذن فالزمن يتناسب مع القوة تناسبا عكسيا . فإن كثرت القوة قل الزمن . وهات أى فعل بقدرة الله فلن يستغرق أى زمن .

إذن قدس الله فى كل شىء . والأرض المقدسة هى المطهرة ، وذلك بإرادة الحق سبحانه ، تماما كما أراد سبحانه أن تكون بقعة من الأرض هى الحرم ، لا يتم فيها الاعتداء على صيد أو نبات أو اعتداء بعضكم على بعض ، وهل ذلك كلام كونى أو كلام تشريعى ؟

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا﴾

(من الآية ٦٧ سورة العنكبوت)

لو كانت المسألة إرادة كونية ، فكان لا بد ألا يحدث خلل أبداً وألا يعتدى أحد على أحد. وما الفرق بين الكونى والتشريعى؟ إن الكونى يقع لأنه لا معارض فى الأمور القهرية ، فالحق يريد أن يكون عبداً طويل القامة ، فتلك إرادة كونية تحدث ولا دخل للعبد بها . ولكن إن أراد الحق أن تكون طائعا مصليا ، فتلك إرادة تشريعية . والإرادة تكون تشريعية فيما إذا كان للمريد اختيار ، يصح أن يفعلها ويصح ألا يفعلها ، لكن الإرادة الكونية هى فيما لا إرادة للإنسان فيه وواقع على رغم أنف الإنسان .

والله سبحانه وتعالى يريد الحرم آمناً . وتلك إرادة تشريعية لأنه حدث أن أهيج فيه أناس ولم يأمنوا . ولو كانت إرادة كونية لما حدثت أبداً . لذلك فهى إرادة تشريعية ، فإن أطعنا ربنا جعلنا الحرم آمنا ، وإن لم نطعه فالذى لا يطيع يهيج فيه الناس ويفزعهم ويخيفهم . فمراد الله عز ومطلوبه شرعا « أن يكون الحرم آمنا » .

«ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم » فهل هذه الأرض المقدسة كتبها الله لهم

كتابة كونية أو كتابة تشريعية ؟ إن كانت كتابة كونية لكان من اللازم أن يدخلوها ولكنه قال :

﴿ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ﴾

(من الآية ٢٦ سورة المائدة)

إذن هى إرادة تشريعية وليست إرادة كونية . فإن أطاعوا أمر الله وتشجعوا ودخلوا الأرض المقدسة فإنهم يأخذونها ، وإن لم يطيعوه فهى محرمة عليهم . إذن فلا تناقض بين أن يقول سبحانه : إنه كتبها لهم ، ثم قوله من بعد ذلك : إنها محرمة عليهم ، لقد كتبها سبحانه كتابة تشريعية . فإن دخلوها بشجاعة ولم يخافوا ممن فيها واستبسلوا ووثقوا أن وراءهم إلهاً قوياً سيساندهم ؛ فإنهم سيدخلونها ، أما إن لم يفعلوا ذلك فهى محرمة عليهم .

﴿ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ ﴾

(سورة المائدة)

وجاءت الأرض هنا أكثر من مرة :

﴿ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ ﴾

(من الآية ١٠٤ سورة الإسراء)

وعرفنا مراد ذلك القول . والدقة هنا أنه سبحانه جاء بأمر السكن فى الأرض لبنى إسرائيل أى فى الأرض عموما ومحكوم عليهم أن يكونوا قطعا ومشردين .

﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾

(من الآية ١٠٤ سورة الإسراء)

أى أنه سبحانه يجمعهم من كل بلد ويجىء بعد ذلك وعد الآخرة الذى جاء فى أول سورة الإسراء :

﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

لأن الحق حينما قال :

﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ ﴾

(من الآية ١ سورة الإسراء)

أى أنه سبحانه وتعالى يدخل بهذه الآية المسجد الأقصى فى مقدسات الإسلام . وأوضح الحق لهم : يا أيها اليهود أنتم ستعيشون فى مكان بعهد من رسولى ، ولكنكم ستفسدون فى المكان الذى تعيشون فيه وسيتحملكم القوم مرة أو اثنتين وبعد ذلك يسلط الله عباداً له يجوسون خلال دياركم ويشردونكم من هذه البلاد .

والحق يبلغنا : نحن أعلمنا بنى إسرائيل فى كتابهم ما سيحدث لهم مع الإسلام :

﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

وبعض الناس يقولون : إن هذا كان أيام بختنصر ؛ ونقول لهم : افهموا قول الحق : « فإذا جاء وعد أولاهما » وكلمة « وعد » لا تأتى لشىء يسبق الكلام بل الشىء يأتى من بعد ذلك . إذن فلم يكن ذلك فى زمان بختنصر . فـ « إذا » الموجودة أولاً هى ظرف لما يُستقبل من الزمان ، أى بعد أن جاء هذا الكلام . ثم هل كان بختنصر يدخل ضمن عباد الله ؟ . إن قوله الحق : « عباداً لنا » مقصود به الجنود الإيمانيون ، وبختنصر هذا كان فارسيا مجوسيا .

وهذا القول الحكيم يشير إلى الفساد الأول مع رسول الله بعد العهد الذى أعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم أجلاهم . وهل هى تقتصر على هذه ؟ يقول سبحانه :

﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ

ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

ولنا أن نسأل : وهل لم يفسد بنو إسرائيل فى الأرض إلا مرتين ؟ . لا ، لولا أنهم لم يفسدوا فى الأرض سوى مرتين ، لكان ذلك بالقياس إلى ما فعلوه أمراً طيباً ؛ فقد أفسدوا أكثر من ذلك بكثير . ولابد أن يكون إفسادهم فى الأرض المقصودة هو الفساد الذى صنعوه بالأرض التى كانت فى حضانة الإسلام ، وسبحانه قد قال : « بعثنا عليكم عباداً لنا أولى بأس شديد » فمادام يوجد « عباد الله » خالصو الإيمان وأعدوا العدة فلا بد أن يتحقق وعد الله ، لكن إذا ما تخلى الناس عن هذا الوصف ؛ فعلى الناس الذين يعانون من إفساد بنى إسرائيل أن يتلقوا ما قاله الله :

﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ ﴾

(من الآية ٦ سورة الإسراء)

فكأن الكَرَّة لا ترد إلا إذا كان القوم المؤمنون على غير مطلوب الإيمان . فإذا ما تساءل بعض المؤمنين : ولماذا تجعل يا الله الكَرَّة لبنى إسرائيل ؟ . تكون الإجابة : لأنكم أيها الناس قد تخلفتم عن مطلوب العبودية الخالصة لله . ومادمنا قد تخلفنا عن مفهوم « عباد الله » فلا بد أن تحدث لنا تلك السلسلة الطويلة التى نعرفها من عدوان بنى إسرائيل . ونحن الآن فى مواجهة اليهود فى مرحلة قوله الحق :

﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ ﴾

(من الآية ٦ سورة الإسراء)

فإذا كنا عباداً لله فلن يتمكنوا منا . والله سبحانه وتعالى حينما يتكلم بقضية قرآنية فلا بد أن تأتى القضية الكونية مصدقة لها .

ولو استمر الأمر بدون كرّة من اليهود علينا ، بينما نحن قد ابتعدنا عن منهجنا وأصبح كل يتبع هواه ، لكانت القضية القرآنية غير ثابتة . ولكن لا بد من أن تأتى أحداث الكون مطابقة للقضية القرآنية . ولذلك رأينا أن بعض العارفين الذين نعتقد قربهم من الله حينما جاء أحدهم خبر دخول اليهود بيت المقدس سجد لله .

فقلنا : « أتسجد لله على دخول اليهود بيت المقدس » . فقال : نعم . صدق ربنا

لأنه قد قال : « وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة » هكذا قال الحق ، وهل يكون دخول لثانى مرة إلا إذا كان هناك خروج من أول مرة ؟ . لقد حمد ذلك العارف بالله ربنا لأن قضايا القرآن تتأكد بالكونيات ، فإذا ما قال الحق :

﴿ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ ﴾

(من الآية ٦ سورة الإسراء)

فليست المسألة أنهم لكونهم يهوداً لا يعطيهم الله الكَرَّةَ . ولكن القضية هى أننا عندما نكون عباداً لله حقيقة . . اعتقادا وسلوكا . . قولا وعملا ننتصر عليهم .

﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

وهم أغنياء لأنهم يديرون معظم حركة المال فى العالم المعاصر . ولأنهم جميعاً فى الجيش المدافع عن دولتهم . وذلك معنى بنين وأكثر نفيرا . النفير هو ما يستنفره الإنسان لنجدته ؛ لأن قوة ذاته قاصرة عن الفعل . واليهود ليسوا قوة ذاتية بمفرد دولتهم ، ولكن وراءهم أهم قوى فى العالم المعاصر .

إذن فقوله الحق :

﴿ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ ﴾

(من الآية ٦ سورة الإسراء)

قول صدق وحق .

وقوله الحق :

﴿ وَبَنِينَ ﴾

(من الآية ٦ سورة الإسراء)

قول صدق وحق .

وقوله الحق :

﴿ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴾

(من الآية ٦ سورة الإسراء)

قول صدق وحق .

ثم بعد ذلك يحسم الله قضيته ويقول لليهود :

﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾

(من الآية ٧ سورة الإسراء)

وهل تستمر الكرَّةَ يارب ؟ .

لا . فها هوذا الحق سبحانه يقول :

﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ ﴾

(من الآية ٧ سورة الإسراء)

كأن الحق يعطينا البشارة بأننا سننتصر ؛ ويكون الانتصار مرهونا بتنفيذ القاعدة التى شرعها الله بأن نكون عباداً لله حقا ، عندئذ سَيَكِلُ الله لنا تنفيذ وعده لليهود :

﴿ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ ﴾

(من الآية ٧ سورة الإسراء)

وأشرف ما فى الإنسان هو الوجه ، وعندما نكون عباداً لله سنسوء وجوههم ، وفوق ذلك :

﴿ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ﴾

(من الآية ٧ سورة الإسراء)

ولم يأت الحق بذكر المسجد من قبل ، فها هوذا قوله الكريم :

﴿ وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

إذن فالحق هنا لم يأت بذكر المسجد فى أول مرة . فكيف يكون دخولنا المسجد إذن ؟ . لقد دخلنا المسجد الأقصى أول مرة فى الامتداد الإسلامى فى عهد عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه . والمسجد الأقصى أيام عمر بن الخطاب لم يكن فى نطاق بنى إسرائيل ، ولكن كان فى نطاق الدولة الرومانية ، فدخولنا المسجد أول مرة لم يكن نكاية فيهم . ولكن الحق جاء بالمرة الثانية هنا والمسجد فى نطاق سيطرة بنى إسرائيل :

﴿ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾

(من الآية ٧ سورة الإسراء)

سنكون نحن إذن عبادًا لَلَّهِ ذوى البأس الشديد الذين سندخل المسجد الأقصى كما دخلناه أول مرة ، وجاء الحق سبحانه بالمسجد هنا ؛ لأن دخول المسجد أول مرة لم يكن إذلالاً لليهود ، فقد كانت السلطة السياسية فى ذلك الزمن تتبع ـ كما قلنا ـ الدولة الرومانية .

ويضيف الحق من بعد ذلك :

﴿ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ﴾

(من الآية ٧ سورة الإسراء)

وحتى نتبر ما يُعْلُونه ـ أى نجعله خرابا ـ لا بد أن تمر مدة ليعلوا فى البنيان .

وعلينا أن نعد أنفسنا لنكون عباداً لله لنعيش وعد الآخرة وقد جعلها الله وعدا تشريعياً ، فإذا عدنا عباداً لله فسندخل المسجد ونتبر ما علوا تتبيرا ، والحق سبحانه وتعالى فى آيات سورة المائدة التى نحن بصدد خواطرنا عنها يأتى بلقطة عن بلاغه لسيدنا موسى بعد خروجه مع قومه من مصر ، فقال :

﴿ يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿٢١﴾ ﴾

(سورة المائدة)

وقلنا إن الكتابة هنا تشريعية وليست كونية ، فلو كان الأمر كونياً لدخلوا الأرض

المقدسة بدون عقبات وبدون صراع وبدون قتال . والدليل على أن الكتابة تشريعية هو قوله الحق : « ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين » أى أنكم إن ارتددتم على أدباركم انقلبتم خاسرين . فإن أطعتم الله ودخلتم الأرض دون إدبار ، فستدخلون الأرض ، وإن لم تفعلوا فلن تدخلوها . إذن ليست كتابة الأرض هنا كونية ، ولكنها تشريعية .

وقوله الحق : « ولا ترتدوا على أدباركم » يشرح لنا طبيعة مواجهة الخصم ؛ فالإنسان حين يواجه خصمه فهو يواجهه بوجهه . فإن فرّ الخصم من أمامه فهو يولى أدباره . والتولى على الأدبار يكون على لونين : لون هو الإدبار من أجل أن ينحرف الإنسان إلى جماعة وفئة لتشتد قوتهم ويقووا على هزيمة العدو أو يصنع مكيدة ؛ ليعيد مواجهة الخصم ، ولون آخر وهو الفرار وذلك مذموم ، ومن المعاصى الموبقات المهلكات . وفى ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ١٦ سورة الأنفال)

فالارتداد على الأدبار ليس مذموماً إن كان من أجل حيلة أو صنع كمين للعدو . وفى هذه الحالة لا بأس أن يرتد الإنسان ، أما خلاف ذلك فهو مذموم . وهل الارتداد على الأدبار رجوع بالظهر إلى الوراء مع الاحتفاظ بالوجه فى مواجهة الخصم ؟. أو هو التفات بالوجه ناحية الدبر وفرار من العدو ؟. كلا الأمرين يصح . وقد جاء الأمر إلى بنى إسرائيلَ بعدم الفِرار ليدخلوا الأرض فماذا كان موقفهم مادامت الكتابة لهذا الأمر تشريعية ؟.

﴿ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

كيف إذن يعلنون هذا التمرد على أمر الحق ؟. وكيف علموا أن فيها قوماً جبارين ؟. ولنا أن ننتبه إلى أن الحق قد قال من قبل :

﴿ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ﴾

(من الآية ١٢ سورة المائدة)

فقد ذهب النقباء أولاً وتجسسوا ونقبوا وعرفوا قصة هذه الأرض المقدسة ، وأن فيها جماعة من العمالقة الكنعانيين . وساعة رأوا هؤلاء القوم ، قالوا لأنفسهم : هل سنستطيع أن نقاوم هؤلاء الناس ؟ إن ذلك أمر لا يصدق ؛ لذلك لن ندخلها ماداموا فيها . إذن فقد تخاذلوا وارتدوا على أدبارهم . « قالوا يا موسى إن فيها قوماً جبارين » .

وساعة أن تسمع كلمة « جَبَّار » تجدها أمراً معنوياً أُخذ من المحسات ؛ فالجبارة هى النخلة التى لا تطولها يد الإنسان إذا أراد أن يجنى ثمارها . وعندما تكون ثمار النخلة فى متناول يد الإنسان حين يجنى ثمارها فهى دانية القطوف ، أما التى لا تطولها يد الإنسان لحظة الجنى للثمار فهى جَبَّارة ؛ لذلك أخذ هذا المعنى ليعبر عن الذى لا يقهر فسمى جباراً ، وقد يكون الجبار مُكرِهاً ولكن على الإصلاح ، وفى بلادنا نطلق على من يصلح كسور العظام « المجبراتى » .

أى أنه يجبر العظام على أن تعود إلى مكانها الطبيعى . وقد يتألم الإنسان من ذلك ، ولكن فى هذا إصلاح لحياة الإنسان . و« الجَبَّار » اسم من أسماء الله ؛ لأنه سبحانه يَقْهَر ولا يُقهَر . وقد يُكرهنا سبحانه وتعالى حتى يصلحنا . ويختبرنا بالابتلاءات حتى يمحصنا وتستوى حياتنا .

إذن فـ « الجبار » صفة كمال فى الحق لأنه يستعمل جبروته فى الخير ويقهر الظالمين والمعاندين والمكابرين ، وذلك لمصلحة الأخيار الطيبين . وهو سبحانه وتعالى لا يُقهَر . فعندما يكون فى صف جماعة فإن أحداً لا يغلبهم ، أما الجبار كصفة فى الخلق فهى مذمومة ؛ لأن التجبر هنا بدون أصالة كالبناء الأجوف . فالمتجبر قد يصيبه قليل من الصداع فيرقد متوجعاً .

إننا نرى أمثلة لذلك فى حياتنا ، نجد المتجبر يصاب بأزمة قلبية فيحمل على نقالة

إلى المستشفى ، ونجد جباراً آخر يصاب بقليل من المغص ، فيجرى وهو ممسك ببطنه فيضحك عليه الأطفال . ويقولون له ما معناه : العب بعيداً فلست جباراً ولا فتوة ولا أى شيء . والجبار إن أراد أن يكون كذلك فعليه أن يكون صاحب رصيد مستمر ، فلا تراه يوماً غير جبار . ولا يكون التجبر صفة ذاتية إلا لله سبحانه وتعالى .

ويقول الحق : « وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها » وساعة نسمع « لن » تسبق الفعل فلنعرف أنها للنفى . والنفى قد يأخذ زمناً طويلاً ، وقد يأخذ زمناً تأبيدياً . والفرق بين الدخول فقط والدخول التأبيدى ، أن الدخول الأول له زمن ينهيه ، والدخول الثانى لا زمن له لينهيه كدخول المؤمنين الجنة .

وإذا عين الدخول بغاية كقولهم : « وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها » أى أن النفى التأبيدى مرتبط بغاية وهى خروج القوم الجبارين . والتأبيد هنا إضافى لأنهم قالوا : إنهم لن يدخلوا الأرض فى مدة وجود الجبارين .

« فإن يخرجوا منها فإن داخلون » ونقول : وهل الأمم التى تخطو إلى الشر وتمارسه يمتنع فيها وجود عناصر الخير ؟ . لا ؛ لأن الحق يبقى بعضاً من عناصر الخير حتى لا ينطمس الخير ، وهذا ما يوضحه الحق فى بنى إسرائيل عندما قالوا لموسى هذا القول ، فقد خالفهم رجلان منهم :

﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾

وهما رجلان يخافان النكوص عن أمر الله ، بينما بنو إسرائيل - كمجموع - لم يفهموا عن الله

حق الفهم ؛ لأنهم لو نفذوا أمر الله لهم بالدخول إلى الأرض المقدسة ولم ينكصوا لمكنهم الله من ذلك . لكن لم يفهم عن الله فيها إلا رجلان . وهما كالب ، ويوشع بن نون ، أحدهما من سبط يهوذا والآخر من سبط افرايم ، وهما ابنا يوسف عليه السلام ، فقد قالا : مادام الله قد كتب لكم الدخول ، فهو لا يطلب منا إلا قليلاً من الجهاد .

فحين يأمر الله الإنسان بعمل من الأعمال ، فيكفيه أن يتوجه إلى العمل اتجاهاً والمعونة من الله . وسبحانه يقول للعبد :

(أنا عند ظن عبدى بى وأنا معه إذا ذكرنى . فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، وإن ذكرنى فى ملأٍ ، ذكرته فى ملأ خير منهم ، وإن تقرّب إلىّ بشبر تقربت إليه ذراعاً ، وإن تقرب إلىّ ذراعاً تقربت إليه باعاً ، وإن أتانى يمشى أتيته هرولة)[1] .

فإذا كان الشأن فى المشى أن يتعب الذاهب والسائر ، فالله لا يريد أن يرهق بالمشى من يقصده ويطلبه ؛ لذلك يُهرول فضله ورحمته ـ سبحانه ـ إلى العبد . فالرغبة الأولى أن يكون العمل لك أنت أيها العبد . ومن عظائم فضل الله أنه فعل ونسب إليك . وسبحانه يسعد بالعبد الساعى إليه . وأضرب هذا المثل ـ ولله المثل الأعلى ـ لنفترض أنك أردت أن تمسك سيفاً ، لماذا لا تحلل المسألة ؟ . السيف الذى تمسكه ، صنعته من الحديد ، والحديد استخرجته من الأرض .

والحق قال :

﴿ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ ﴾

(من الآية ٢٥ سورة الحديد)

إن الحق هو الذى أنزل الحديد ، وهو الذى علمنا كيف نصقل الحديد ونشكله بالنار :

﴿ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنْ بَأْسِكُمْ ﴾

(من الآية ٨٠ سورة الأنبياء)

---

(١) رواه البخارى ومسلم (متفق عليه) .

وأنا أريد من علماء وظائف الأعضاء أن يحددوا لنا ساعة أن يمسك الإنسان بشيء وليكن السيف . فبأى عضلة يمسك الإنسان السيف ؟. وكيف يأمرها الإنسان بذلك ؟. وكم عضلة وكم خلية عصبية تحركت من أجل أداء هذا الفعل ؟. على الرغم من أن الإنسان بمجرد إرادته أن يمسك شيئاً . فهو يمسك به . والإنسان إذا ما مشى خطوة واحدة ، فبأى العضلات بدأ المشى .

إن الإنسان عندما يحرك ذراعاً آلياً فى جهاز آلى ؛ يصمم عشرات الوصلات والأدوات والدورات الكهربية من أجل تحريك ذراع آلى ، فكم إذن من عضلات فى الإنسان تتحرك بالسير لخطوة واحدة ؟ إن الكثير جداً من أجهزة الإنسان تتحرك بالسير لخظوة واحدة . إن الكثير جداً من أجهزة الإنسان تتحرك لمجرد الإرادة منه !!. فإذا كانت إرادة الإنسان تفعل لمجرد أن يريد سواء أكانت هذه الإرادة هى الإمساك بالسيف أم حتى المشى لخطوة واحدة ، أم حتى الإمساك بالقلم بين الأصابع للكتابة . فليعلم الإنسان أن الإرادة عطاء من الله والإنسان لا يستطيع تحديد مواقع إرادته من جسده فما بالنا بالحق حين يريد أمراً ؟

ولنعد إلى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها الآن :

﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾

(سورة المائدة)

لقد أنعم الله على هذين الرجلين بحسن الفهم عن الله ، فقالا لبنى إسرائيل : ساعدوا أنفسكم بدخول هذه الأرض وسينصركم الله . ومثل الرجلين كمثل الأم التى طلب منها ابنها أن تدعو له بالنجاح ، فقالت الأم لابنها : سأدعو لك ولكن عليك فقط أن تساعد الدعاء بالإقبال على الاستذكار . وكأن الخوف من مخالفة أمر الله نعمة على هذين الرجلين ، وكأن الفهم عن الله لعباراته نعمة .

« ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون » كأنهم بمجرد الدخول سيغلبون هؤلاء العمالقة . فلم يطلب الله منهم قتال هؤلاء العمالقة . بل ساعة يراهم القوم الجبارون يدخلون عليهم فجأة فسوف يذهلهم الرعب .

وهم عندما نسجوا الأساطير حول هذه القصة قالوا : إن أحد هؤلاء العمالقة واسمه عوج بن عناق خرج إلى بستان خارج المدينة ليقطف بعض الثمار لرئيسه ؛ فخطف اثنين من هؤلاء الناس وخبأهما فى كمّه ، وألقاهما أمام رئيسه وهو يقدم الفاكهة إليه وقال الرجل العملاق لرئيسه : هذان من الجماعة التى تريد أن تدخل مدينتنا . هذه هى المبالغة التى صنعها خوفهم من هؤلاء العمالقة ، برغم أن رجلين منهما أحسنا الفهم عن اللّه بقولهما : « ادخلوا عليهم الباب » ؛ لأن هذا هو مراد الله ، وهو الذى يحقق لهم النصر .

وبعض المفسرين قالوا فى شرح هذه الآية : إن الرجلين اللذين قالا ذلك ليسا من بنى إسرائيل ؛ لأن هؤلاء المفسرين فهموا القول الحكيم : « قال رجلان من الذين يخافون » قالوا هما رجلان من الذين يخاف منهم بنو إسرائيل ، وقالا لبنى إسرائيل: لا يُخيفكم ولا يُرهبكم عظم أجسام هؤلاء فإن جنود الله ستنصركم :

﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾

(من الآية ٣١ سورة المدثر)

ويختتم الحق الآية بهذا التذييل : « وعلى اللّه فتوكلوا إن كنتم مؤمنين » أى لا تتوقفوا عند حساب العدد فى مواجهة العدد ، والعُدة فى مواجهة العُدة ، ولكن احسبوا الأمر إيمانياً لأن اللّه معكم « إن تنصروا الله ينصركم » .

وهو سبحانه القائل :

﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾

(سورة الصافات)

وعلى المؤمن باللّه أن يضع هذا الإيمان فى كف قوته . فإن كان هؤلاء الناس من بنى إسرائيل المأمورين بدخول تلك الأرض مؤمنين بحق فليتوكلوا على اللّه .
فماذا قال هؤلاء القوم :

﴿ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا

فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾

كأن خلاصة قولهم لموسى عليه السلام : لا ترهق نفسك معنا ووفّر عليك جهدك فنحن لن ندخل هذه الأرض ، مادام هؤلاء العمالقة فيها . وإن كنت مصرّاً على دخولنا هذه الأرض فاذهب أنت وربك فقاتلا ونحن بانتظاركما هنا قاعدون . هكذا بلغ بهم الخوف أن سخروا من موسى وربّ موسى . وهكذا وصل بهم الاستهزاء إلى تلك الدرجة المُزرية . ولم يكن ذلك بالأمر الجديد عليهم فقد قالوا من قبل :

﴿ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾

(من الآية ١٥٣ سورة النساء)

ومن قبل ذلك أيضاً عبدوا العجل . فماذا يقول موسى :

قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾

وكان هارون أخاً لموسى عليه السلام ومُرسلاً مثله ؛ فكأن موسى عليه السلام قد أعلن عدم ثقته فى هؤلاء القوم الذين أرسله اللّه إليهم ؛ حتى ولا يوشع بن نون ولا كالب ، وهما الرجلان اللذان قالا لبنى إسرائيل : إنه يكفى دخول الباب لتهزموا هؤلاء الناس العمالقة . لكن أكانت نفس أخيه مملوكة له ؟ أم أنه قال ما فحواه : إنى لا أملك إلا نفسى وكذلك أخى لا يملك إلا نفسه ، أما بقية القوم فقد سمعت منهم يارب أنهم لن يدخلوا هذه الأرض مادام بها هؤلاء العمالقة . إذن فأنا وأخى فى طرف وبقية القوم فى طرف آخر ، لذلك افصل بيننا وبين هؤلاء القوم الفاسقين .

والحق سبحانه وتعالى فى هذا التعبير القرآنى يأتى بهذه الكلمات على لسان سيدنا

موسى والتى تحتمل أن يرقّ لها قلب واحد من أتباع موسى عليه السلام فيقول لموسى : إننى معك . ولذلك جاء قول موسى : « فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين » . ومعنى الفاسقين ـ كما عرفنا ـ هم من خرجوا عن الإيمان ، كما تفسق الرطبة ؛ فالبلحة عندما ترطّب فإن قشرتها تتسع عن حجمها ؛ فتخرج الرطبة من قشرتها ؛ ويقال فسقت الرطبة ؛ فكأن الإيمان كالجلد والجلد كالقشرة . وهو كغلاف يحيط بالإنسان . وعندما يفسق الإنسان عن الإيمان فهو يخرج عن قانون الصيانة ، وكذلك كان فسق بنى إسرائيل ؛ لذلك قال الحق :

﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾

فهل كان التحريم مدته أربعون عاما ؟ أو أنه قال : « إنها مُحرّمة عليهم » وانتهى الأمر لأنهم تأبّوا على أن يدخلوها ؟ . ولذلك فكل الذين قالوا : « لن ندخلها أبداً ماداموا فيها » لم يعش منهم أحد ليدخل هذه الأرض . وبعد ذلك صدر الحكم الآتى : « أربعين سنة يتيهون فى الأرض » فهل هذا القول هو استئناف للقول السابق فيكون ظرفاً لـ « مُحرّمة » . أو هو حكم منفصل ؟ .

تصح هذه ، وتصح تلك . والتيه هو كما نقول : فلان تاه أى سار على غير هدى ولا يعرف لنفسه مدخلاً ولا مخرجاً ، والواحد عندما يدخل فى مجال متشعب المسالك ومتعرج الطرقات ، فهو لا يعرف كيفية الخروج منه ، هذا هو التيه . ولكن كم فرسخاً هى مساحة التيه ؟ . حدّدها العلماء بستة فراسخ [والفرسخ قدر ثلاثة أميال] . كيف يتيهون فى تلك المساحة الضيقة من الأرض ؟

لقد أراد الله ذلك ، لأنهم ساعة يمشون ويرهقون فينامون ويأتى عليهم الصباح ليجدوا أنفسهم عند النقطة التى بدأوا منها ، وكانوا يضعون العلامات لإيضاح الطريق ، لكنهم كل صباح كانوا يجدون العلامات قد انتقلت من مكانها . وظلّوا

على هذا الوضع وفى هذا التيه إلى الأمد والوقت الذى حدده الله وهو أربعون سنة يتيهون فى الأرض . وحين يؤدبّ الله عاصياً يحفظ له من القوت والرزق ما يبقى به حياته ولو كان كافرا؛ لأنه سبحانه هو الذى استدعاهم إلى الوجود، ولهذا لم يضنّ عليهم فى التيه بما لم يضنّ به على الكافرين به سبحانه .

إذن حفظ الحياة أمر ضرورى . وعندما يرتكب إنسانٌ مَا ذَنباً كبيراً فى حق المجتمع فإننا نضعه فى السجن ، ولكننا نطعمه ونسقيه ، وعندما يرتقى المجتمع الإنسانى ، فهو يوفّر للسّجين عملاً يتناسب مع مواهبه ويحبس عنه حُرية الحركة فى المجتمع ، والسجين المذنب يظل فى السجن ، ولكنه يأكل ويشرب وينام ويعمل ، فقط تختلف المسألة فى النقطة المهمة فى الحياة وهى أن يتحرك المتحرك وفق حريته ، فما بالنا بالحق الأعظم عندما سجنهم فى التيه ؟. لقد أطعمهم الله وسقاهم وأنزل عليهم المَنّ والسَّلوى .

وقد يقول قائل : إن الله قد أنزل عليهم المَنّ والسَّلوى ليعيشوا كُسَالى وغَرقى فى التَكبر والغرور . ونقول : لا . فذلك الإجراء الإلهى من ضمن حكمه البالغة أن يطيل عليهم الوقت . فلو أنه سبحانه وتعالى قد جعلهم يزرعون ويحرثون لانشغلوا بأمور الحياة اليومية ، لكن الحق أراد أن يُطيل عليهم الإحساس بالزمن . فالمسألة ليست طعاماً وشراباً . ولكن هناك كرامة فوق الطعام وفوق الشراب .

إننا نرى ذلك عندما نسمع عن اعتقالات لبعض الأفراد الذين أساءوا للمجتمع . وتسمح لهم السلطات بالطعام الذى يأتيهم من منازلهم . ولكنَّ هؤلاء المعتقلين يشعرون بالضيق من تقييد الحركة . إذن أراد الحق لهم عقاباً صارماً فى فترة التيه . ولذلك نجد بعضهم يحسب المسألة والزمن فى فترة التيه ، فيقول الواحد منهم ما ذكره الحق :

﴿ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى ﴾

(من الآية ١٤٢ من سورة الأعراف)

وبعد أن رحل موسى عن القوم عبدوا العجل الذى صنعه لهم موسى السامرىّ ، وعاد إليهم موسى وعاتب أخاه هارون العتاب القاسى ، وعاقبهم ربهم على كفرهم أربعين سنة. كأن كل يوم من عبادة العجل صار سنة من العقاب فى التيه . ولأنه رَبٌّ ورحيم لم يتركهم دون أن يحفظ لهم حياتهم بالقوت ، فكان القوت هو المَنّ والسَّلوى . هل كان موسى عليه السلام معهم فى التيه أم لا ؟ وهل مات معهم فى التيه أم لا . ؟ تلك أسئلة لا تهمنا الإجابة عنها بالرغم من أن بعض العلماء قد شغلوا أنفسهم بها ؛ فتلك أمور لا تنفع ولا تضر . المهم أن بنى إسرائيل لم يدخلوا أريحا إلا على يد يوشع بن نون بعد الأربعين سنة :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾

(سورة المائدة)

ولنا أن نقرأ هذا القول الحكيم كما يلى : « قال ربِّ إنى لا أملك إلا نفسى وأخى فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين . قال فإنها مُحَّرمة عليهم » . وهذا الوقف يعطينا الفهم بأن الأرض المقدسة صارت مُحرّمة عليهم إلى الأبد . وبعد ذلك يأتى أمر الله بعقابهم فى التيه أربعين سنة : « أربعين سنةً يتيهون فى الأرض فلا تأسَ على القوم الفاسقين » . أما لو قرأنا هذا القول الحكيم كما يلى : « قال ربِّ إنى لا أملك إلا نفسى وأخى فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين » فهذه القراءة تتيح لنا الفهم بأن مدة العقوبة لهؤلاء القوم الفاسقين أربعون سنة فى التيه . ودخلوا بعدها مدينة أريحا .

ويأمر الحق موسى ألَّا يحزن على هؤلاء القوم الفاسقين ، ذلك أن موسى عليه السلام عندما دعا الله بقوله : « فافرق بيننا » انتابه قدرٌ من الضّيق من هذا الدُّعاء وقال لنفسه : لماذا لم ادعُ لهم بالهداية بدلاً من أن أدعو بالفراق ؟ ، ولذلك قال له الحق : « فلا تأس على القوم الفاسقين » أى فلا تحزن عليهم لأنهم أَوْلَى بالعذاب لفسقهم ومخالفاتهم .

راجع أصله وخرج أحاديثه الدكتور/ أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾

وساعة يتلو الإنسان ـ أى يقرأ ـ فهو يتكلم بترتيب مارآه من صُور؛ ذلك أن الإنسان عندما يرى أمراً أو حادثة فهو يرى المجموع مرة واحدة ، أو يرى كل صورة مكّونة للحدث منفصلة عن غيرها . وعندما يتكلم الإنسان فهو يرتّب الكلمات ، كلمة من بعد كلمة ، وحرفاً من بعد حرف ؛ إذن فالمتابعة والتلاوة أمر خاص بالكلام . « واتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق » والنبأ هو الخبر المهم ، فنحن لا نطلق النبأ على مطلق الخبر . ولكن النبأ هو الخبر اللافت للنظر . مثال ذلك قوله الحق :

﴿ عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢﴾ ﴾

(سورة النبأ)

إذن فكلمة « نبأ » هى الخبر المهم الشديد الذى له وقع وأثر عظيم .

« واتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق » وساعة نسمع قوله الحق : « بالحق » فلنعلم أن ذلك أمر نزل من الحق فلا تغيير فيه ولا تبديل . ولذلك قال سبحانه :

﴿ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ﴾

(من الآية ١٠٥ سورة الإسراء)

أى أن ما أُنزل من عند الله لم يلتبس بغيره من الكلام ، وبالحق الجامع لكل أوامر الخير والنواهى عن الشّر نزل . وعندما يقول سبحانه : « واتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق » فسبحانه يحكى قصة قرآنية تحكى واقعة كونية . ومادام الله هو الذى يقصّ فهو سيأتى بها على النموذج الكامل من الصدق والفائدة . ولذلك يسمّيه سبحانه « القصص الحق » :

﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ﴾

(من الآية ٦٢ سورة آل عمران)

ويُسمّيه سبحانه :

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ ﴾

(من الآية ٣ سورة يوسف)

وسبحانه يقول : « واتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق إذ قرّبا قرباناً فتقبّل من أحدهما ولم يتقبّل من الآخر » ونعرف أن آدم هو أول الخلق البشرى ، وأن ابنى آدم هما هابيل وقابيل ، كما قال المفسرون . وقد قرّب كل منهما قرباناً . والقُربان هو ما يتقرب به العبد إلى الله ، و« قربان » على وزن « فعلان » . فيقال : « كَفَر كُفرانا » و« غَفَر غُفرانا». وهى صيغة مبالغة فى الحدث . وهل قدّم الاثنان قرباناً واحداً ؛ أم أن كلا منهما قدّم قرباناً خاصّاً به ؟ مادام الحق قد قبل من واحد منهما ولم يتقبّل من الآخر فمعنى ذلك أن كلاًّ منهما قدّم قرباناً منفصلاً عن الآخر ؛ لأن الله قبل قربان واحد منهما ولم يتقبل قربان الآخر .

و« القربان » مصدر . والمصادر فى التثنية وفى الجمع وفى التذكير والتأنيث لا يتغير نطقها أو كتابتها . فنحن نصف الرجل بقولنا : « رجل عدل » وكذلك « امرأة عدل » و« رجلان عدل » و« امرأتان عدل » و« رجال عدل » و« نساء عدل » . إذن فالمصدر يستوى فيه المفرد والمثنى والجمع والمذكر والمؤنث . ونعلم أن آدم هو أول الخلق الآدمى ، وجاءت له حواء ؛ وذلك من أجل اكتمال زوجية التكاثر ؛ لأن التكاثر لا يأتى إلا من ذكر وأنثى :

﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾

(من الآية ٤٩ سورة الذاريات)

فكل موجود أراد له الحق التكاثر فهو يخلق منه زوجين .

﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾

(من الآية ٣٦ سورة يس)

ونرى ذلك حين نقوم بتلقيح النخلة من طلع ذكر النخل . وهناك بعض الكائنات لا نعرف لها ذكراً وأنثى ؛ إما لأن الذكر غير موجود تحت أعيننا ، ولكن يوجد على بعد والريح هى التى تحمل حبوب التلقيح :

﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾

(من الآية ٢٢ سورة الحجر)

فتأتى الريح بحبوب التلقيح من أى مكان لتخصب النبات ، وإما أن الذكورة والأنوثة يوجدان معاً فى شىء واحد أو حيز واحد ، مثال ذلك عُود الذّرة ؛ حيث نجد ذكورته وأنوثته فى شىء واحد ؛ فقمّة العود فيها الذكورة ويخرج من كل « كوز » ذرة قدراً من الخيوط الرفيعة التى نسمّيها « الشّوشة » . وهذه هى حبال الأنوثة . وينقل الهواء طلع الذكورة من سنبلة الذرة إلى « الشوشة » ، وكل شعرة تأخذ من حبوب اللقاح كفايتها لتنضج الحبوب ، وعندما تلتصق أوراق كوز الذرة ولا تسمح بخروج الخيوط الرفيعة لحبال الأنوثة ، ولا تصلها حبوب اللقاح ، فيخرج كوز الذرة بلا نضج وبلا حبوب ذرة . وعندما نمسك بكوز الذرة ونفتحه قد نجد بعضا من حبوبه ميتة وهى تلك التى لم تصلها حبوب اللقاح ؛ لأنها لم تملك خيطا من الحبال الرفيعة لتلتقط به حبوب اللقاح . وحبّة الذّرة التى لم يخرج لها خيط رفيع لالتقاط حبوب اللقاح لا تنضج . إذن فكل شىء فيه الذكورة والأنوثة .

﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا ﴾

(من الآية ٣٦ سورة يس)

وكذلك قوله : (وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى) .

وكل ما يقال له شىء لا بد له من ذكر وأنثى ، حتى المطر لا بد أن يلقح فلو لم يتم تلقيح المطر بالذرات لما نزل المطر ، وحتى الحصى فيه ذرات موجبة وذرات سالبة . وعندما اخترعنا الكهرباء واكتشفنا الموجب والسالب ارتحنا . إذن فعندما يقول الحق :

﴿ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾

(سورة الذاريات)

وقوله سبحانه :

﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

(سورة يس)

وهذا أول علم للعرب ، فلم يكونوا من قبل القرآن أمّة علم .

وقد أوصل القرآن كل العلم للعرب حتى فاقوا غيرهم ، عندما أخذوا بأسباب الله ، لكن عندما تراخوا وواصل غيرهم الأخذ بالأسباب تقدمت الاكتشافات ، وهذه الاكتشافات نجدها مطمورة فى القرآن :

﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

(سورة يس)

إذن فكل ما يجدُّ ويحدث ويكتشف من شىء فيه موجب وسالب أى ذكورة وأنوثة ؛ يدخل فى نطاق :

﴿ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾

(من الآية ٣٦ سورة يس)

والإنسان سيد الوجود لا بد له من زوجين ذكر وأنثى وذلك للتكاثر لا للإيجاد ، أما الإيجاد فهو لله سبحانه وتعالى الذى أوجد كل شىء مِن لا شىء . وعندما جاء آدم وحواء وبدأ اللقاح والتكاثر أخذ عدد سكان الأرض فى النمو . ولو أننا رجعنا بالأنسال فى العالم كله رجعة متأخرة نجد العدد يقل إلى أن يصل إلى آدم وحواء . مثال ذلك لو عدنا إلى الوراء مائة عام لوجدنا تعداد مصر لا يتجاوز خمسة ملايين نسمة على الأكثر ، ولو عدنا إلى الوراء قروناً أكثر فإن التعداد يقل ، إلى أن نصل إلى الخلق الأول الذى خلقه الله وهو آدم وخلق له حواء . فالإنسان بمفرده لا يأتى بنسل .

إذن عندما نجرى عملية الإحصاء الإنسالى فى العالم ونرجع بها إلى الوراء ، نعود

إلى الخلق الأول . وكذلك كل شيء متكاثر سواء أكان حيواناً أم نباتاً . وعندما نسير بالإحصاء إلى الأمام فإننا سنجد الأعداد تتزايد ، وتكون القفزة كبيرة . وعندما يبلغنا الحق أنه خلقنا من نفسٍ واحدةٍ وخلق منها زوجها وبثَّ منهما رجالاً كثيراً ونساء ، فإن عِلم الإحصاء إنما يؤكد ذلك . والتكاثر إنما يأتى بالتزاوج . والتزاوج جاء من آدم وحواء . وأراد الحق أن يرزق آدم بتوائم ليتزوج كل توأم بالتوأم المخالف له فى النوع من الحمل المختلف . أى يتزوج الذكر من الأنثى التى لم تولد معه فى بطن واحدة .

وجاء ربّنا لنا بهذه القصة كى يبين لنا أصل التكاثر بياناً رمزياً . أوضح سبحانه : أن التباعد الزوجى كان موجوداً ، ولكنه التباعد الإضافى ، صحيح سيكون هذا الولد أخا للبنت هذه ، وهذه البنت أخته ؛ لكن حين تكون مولودة مع هذا ، وتأتى بطن ثانٍ فيها ذكر وأنثى ، فسيكون فيها بُعد إضافى ، فتتزوج البنت لهذا البطن بالذكر فى البطن الثانى . والذكر للبطن الثانى للبنت فى البطن الآخر ، وهذا هو البُعد الإضافى الذى كان مُتاحاً فى ذلك الوقت ؛ لأن العالم كان لا يزال فى بداية طفولته الواهية .

ونلحظ مثل هذا الأمر فى الريف ، حين يقول فلاح لآخر : « الذرة بتاعك خايب » ، يقول الفلاح الثانى : إنى آخذ من الأرض التى أخذت منها الذرة وأعطيها تقاوى منها ، فأنا قد زرعت فداناً من ذرة ، وأحجز كيلتين أو ثلاثا أستخدمها تقاوى لأزرعها ، فتخرج الذرة ضعيفة ، فيقول الفلاح الناضج : يا شيخ هات من ذرة جارك . فيكون ذرة جارى فيه شيء من البُعد . وبعد ذلك تصير النوعية واحدة ، فيقول الفلاح الناضج : هات من بلد أخرى . وبعد ذلك من بلد ثالثة ، ولذلك فالتهجين والتكاثر كيف نشأ ؟ من أين نأتى بالتقاوى ؟ كلما جئنا بها من الخارج يكون الناتج قوياً .

كذلك التزاوج ليكون فى هذه الزوجية مواهب ، ولذلك فطن العربى قديماً لها ، ومن العجيب أن هذا العربى البدوى الذى لم يشتغل بثقافة ولم نعرف له تعليما ولا علماً، يهتدى إلى مثل هذه الحقيقة اهتداءً يجعلها قضية عامة فطرية . ويريد أن يمدح رجلاً بالفتوة ، فيقول عنه :

فتى لم تلده بنتُ عمٍ فيضوى ... وقد يضوى سليل الأقارب

كيف اهتدى هذا الشاعر لهذه ؟! وبعد ذلك يقول :

تجاوزت بنت العمِّ وهى حبيبة إلىّ
مخافة أن يضوى على سليلها

أى هو يحبها ، لكنه تجاوزها ، حتى لا يضوى سليلها .

ولذلك يقول الشاعر فى هذه القضية :

أنصح من كان بعيد الهم
تزويج أولاد بنات العم
فليس ينجو من ضوى وسقم

الشاعر العربى الذى ليس فى أمة مثقفة ولا تعرف التهجين ولا تعرف هذه الأشياء ، انتبه إلى هذه المسألة ، كيف ؟ إما أن يكون قد اهتدى إليها فى واقع الكون فوجد أن زواج القريبات يُنشىء نسلاً ضعيفاً ، وإما أن يكون ذلك من رواسب الديانات السابقة القديمة والعظات الأولى التى ظل الإنسان محتفظاً بها ، فإذا أراد الله أن يبدأ تكاثر فلا بد أن يتزوج أخ بأخته ، ولكن سبحانه يريد أن نتباعد ، نعم أخ وأخت لكن نتباعد فنأخذ البطن المختلف ، ولذلك حينما جاءوا لينسبوا قصة ابنى آدم قابيل وهابيل ، صحيح اختلفوا . مثلا : « سِفْر التكوين » تكلم ، ونحن نأخذ من « سفر التكوين » لأن التغيير فيه لا يهمهم . فقد كان التغيير فى المسائل التى تهمهم ، كمسألة نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم ، إنما المسائل الأخرى لا تهم ، ومع ذلك ففيها أيضا الكثير .

إنهم يقولون : إن هابيل هو أول قتيل فى الإنسانية وقتله « قابيل » وبعض القصص تقول : لم يكن يعرف كيف يُميته أو يقتله ، فالشيطان مَثَّل له بأنه جاء بطير ووضع رأسه على حجر ثم أخذ حجرا آخر فضرب به رأسه حتى قتله ، فعلّمه كيف يقتل ، مثلما سيأتى الغراب ويعلّمه كيف يدفن ، أما مسألة كيف يقتل هذه لم تأت عندنا ، إنما كيف يدفن فقد جاءت عندنا .

﴿ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ﴾

(من الآية ٣١ سورة المائدة)

فهذا هو أول من توفّى وقتل ، لكن كيف تقولون : إنه لم يكن يعرف القتل حتى جاءه الشيطان وعلّمه كيف يقتل أخاه ؟ نقول : أنتم لم تنتبهوا . فالحق قال :

﴿ لَئِنْ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾

فقابيل - إذن - فاهم للقتل ، فلا تقل إنه تعلم القتل ، صحيح مسألة الدفن هذه جديدة ، والقصة جاءت لتثبت لنا كيف بدأ التكاثر ، ليجمع الله فيه بين الزوجين البُعد الإضافى ؛ لأن البُعد غير الإضافى غير مُمكن فى هذا الوقت فتكون هذه بالنسبة لهذا أجنبية ، وهذا بالنسبة لهذه أجنبى إلى أن يتوسع الأمر ، وبعد ذلك يُعاد التشريع بأن الأخت من أى بطن محرّمة على أخيها تحريماً أبديًّا ، وبعد ذلك نتوسع فى الأمر وننقله إلى المحرمات الأخريات من النسب والرضاع فلا بد أن لهذه القصة أصلا . هم قالوا نقرب قرباناً . . لماذا ؟ « إذ قربا قرباناً فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر » .

لماذا يريدان أن يُقرِّبا قُرباناً ؟ قالوا:ان أخت قابيل التى كانت فى بطن معه كانت حلوة وجميلة ، وأخت هابيل لم تكن جميلة ، فطبقا لقواعد التباعُد فى الزوجية كان على هابيل أن يأخذ أخت قابيل ، وقابيل يأخذ أخت هابيل ، فَحَسد قابيل أخاه وقال : كيف يأخذ الحلوة ، أنا أولى بأختى هذه . وكان سيدنا آدم مازال قريب العهد بالوحى ، فقال : قربوا قرباناً وانظروا . لأنه يعلم جيداً أن القربان سيكون فى صف التباعد. « إذ قربا قرباناً فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر ». وبعض المفسرين يقول : والله نحن لم نعرف طريقة التقبّل هذه . نقول له : فلنبحث عن « قُربان » فى القرآن . ننظر ما هو القُربان ؟ قد وردت هذه الكلمة فى القرآن فى أكثر من موضع . قال :

﴿ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ ﴾

(من الآية ١٨٣ سورة آل عمران)

والحق يقول لهم ردًّا عليهم :

﴿ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِي قُلْتُمْ ﴾

(من الآية ١٨٣ سورة آل عمران)

« وبالذى قُلتم » ما هو ؟ إنه القُربان الذى تأكله النار . إذن كان القُربان معروفاً والاحتكام إلى قربان وتأكله النار علامة التقبّل من السماء ويكون صاحبه هو المُقرَّب ، والقُربان فى مسألة هابيل وقابيل لكى يعرف كل منهما من يتزوج الحلوة ومن يتزوج الأخرى ، وتقبل الله قربان هابيل . لكن أرضِى المهزوم ؟ لا ، بل حَسَده ، وهذا أول تأب على مُرادات الحق فى تكليفه . « فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر » . وقالت لنا القصص : إن هابيل كان صاحب ضرع أى ماشية وبذلك يكون عنده زبْد ولبن وجبن ، وحيوانات للحم ، والثانى صاحب زرع ، وقالوا : إن قابيل قدّم شِرار زرعه ، وهابيل قدّم خيار ماشيته . « فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر » . « قال لأقتلنك » وسبحانه قال : « أحدهما » ولم يقل قابيل أو هابيل ، « إذ قربا قرباناً فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر » . فقوله : « قال لأقتلنك » من الذى قال ؟ الذى قال هو من لم يتقبل قربانه ؛ لأنه لم يحقق مُراده وغرضه .

« قال لأقتلنك قال إنما يتقبل الله من المتّقين » . وهل هذا الرّد مُناسب لقوله : « لأقتلنك » ؟ نعم ؛ لأن « لأقتلنك » بسبب أن قربانك قُبِل وقربانى لم يُقبَل . قال: فما دخلى أنا بهذه العملية ؟ الدخل فى العملية للقابل للقربان ، فأنا ليس لى دخل فيها ، وربّنا لم يتقبله لأن الله لا يتقبل إلا من المتقين . وهو يعلم أنك لست بمتقٍ ؛ فلن يتقبل منك لأنك تأبيت عن حكاية الزواج بابنة البطن المخالف ، وهذا أول تمرُّد على منهج الله وعلى أمره لذلك قال هابيل : لا تلُمنى فأنا لا دخل لى فى القربان المتقبل ؛ لأن هذا من عند الله . والله لم يظلمك ؛ لأن ربنا يتقبل من المتقين . وأنت لست بمتقٍ ؛ لأنك لم ترْضَ بالحكم الأول فى أن تبتعد البطون « إنما يتقبل الله من المتقين » .

﴿ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾

(سورة المائدة)

وكلمة « البسط » ضد « القبض » ، وهناك : « بسط له » ، و« بسط إليه » .

وتجد « بسط له » كأن البسط لصالح المبسوط له .

﴿ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ ﴾

(من الآية ٢٧ سورة الشورى)

ولم يقل : « إلى عباده » بل قال : « لعباده » ، إذن فالبسط لصالح المبسوط له ولذلك لا يكون بإلى إلاّ فى الشر ، وشرحنا من قبل هذه المسألة فى قوله الحق :

﴿ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ ﴾

(من الآية ١١ سورة المائدة)

إذن فالذى يبسط لك يعطيك نفعا والذى يبسط إليك يكون النفع له هو .

« لئن بسطت إلى يدك لتقتلنى ما أنا بباسط يدى إليك لأقتلك » . وبيّنت « لتقتلنى » مدلول « إلىّ » . والعلة لا عجز عن مقابلة قوّتك بقوة ، لا ، وإنما لأننى أخاف الله ، فليس فى هذا تقصير فى الدفاع عن نفسى لأننى أريد أن أُحَنِّنك تحنيناً يرجعك إلى صَوابك . وساعة يأتى واحد يريد أن يقتل واحداً يقول له : والله لن أقاتلك لأننى أخاف ربنا .

إذن فبيِّن له أن خَوفه من الله مسألة مُستقرة فى الذهن حتى ولو كانت ضد استبقاء الحياة ، وقد يعرفها فى نفسه لأن أخاه كان يستطيع أن يقدّم دفاعاً قويا ، لقد ردّ الأمر إلى الحقّ الأعلىٰ . فلا تقل كان هابيل سَلبيًا لا . إنه صعّد الأمر إلى الأقوىٰ .

ويقول الحق :

﴿ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

و« تبوء » أى ترجع من صفقة قتلى بأن تحمل إثم تلك الفعلة وتنال عقوبتها

و« إثمك » وكذلك الإثم الذى كان من أجله أنك أردت أن تقتلنى ؛ لأنك تأبيت على المنهج ، حين لم يتقبل ربنا قربانك . فقد أثمت فى عدم قبولك التباعُد المطلوب فى الزوجية . إذن فأنت عندك إثمان : الإثم الأول : وهو رفضك وعدم قبولك حكم الله ومنهجه وهو الذى من أجله لم يَقبل الله قربانك ، والإثم الثانى : هو قتلى وأنا لا دخل لى فى هذه المسألة ؛ لأن الظالم لا بد أن يأخذ جزاءه .

إن هابيل يقول: « إنى أريد أن تبوء بإثمى وإثمك » لم يتمن أن يكون أخوه عاصياً. بل قال : إن كان يعصى بهذه يبوء بإثمى ويأخذ جزاءه ؛ فيكون قد تمنى وأراد له أن يعود إلى العقاب ويناله إن فعل وهو لا يريده أن يفعل .

« إنى أريد أن تبوأ بإثمى وإثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين » وجزاء الظالمين تربية عاجلة للوقوف أمام سُعارات الظلم من الظالمين ؛ لأن الحق لو تركها للآخرة لاستشرى الظُلم ، والذى لا يؤمن بالآخرة يصبح مُحترفاً للظُلم ، ولذلك قلنا من قبل : إن الحق سبحانه وتعالى ضرب لنا ذلك المثل فى سورة « الكهف » حينما ذكر لنا قصة ذى القرنين : الذى آتاه الله من كل شىء سببا فأتبع سببا ، وبعد ذلك بين لنا مُهمة من أوتى الأسباب واتبع الأسباب ، وجعل قضيته فى الأرض لعمارة الكون وصلاحه ، وتأمين المجتمع . ماذا قال :

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ ﴾

(من الآية ٨٦ سورة الكهف)

هذا فى رأى العين ، فحين تكون راكباً البحر . ترى الشمس تغرب فى الماء ، هى لا تغرب فى الماء ؛ لأن الماء هو نهاية امتداد أفقك .

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ ﴾

(سورة الكهف)

إذن فقد خيره : إما أن تعمل هذا وإما أن تعمل ذاك .

﴿ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ﴾

(من الآية ٨٧ سورة الكهف)

ذلك هو القانون الذى يجب أن يسير فى المجتمع . حتى لا أترك لمن لا يؤمن بإله ولا يؤمن بآخرة أن يستشرى فى الظلم . فَلْيأخذ عقابه فى الدنيا .

﴿ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ ﴾

(من الآية ٤٧ سورة الطور)

أى قبل الآخرة لهم عذاب.ولذلك حين يرى الناس مصرع الظالم ، أو ترى الخيبة التى حدثت له فهم يأخذون من ذلك العظة ، وجيلنا نحن عاصر ظالمين كثيرين نكل بعضهم ببعض ؛ ولو مُكِّن المظلومون منهم ما فعلوا بهم ما فعله بعضهم ببعض ، وأراد الحق أن يجرى عذابهم أمامنا لتتضح المسألة .

﴿ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ﴾

(من الآية ٨٧ سورة الكهف)

ولا ينتهى أمره بذلك ، وبعد ذلك يُردّ لمن ؟ يُردّ لله :

﴿ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴾

(من الآية ٨٧ سورة الكهف)

يعنى عذاب الدنيا؛إن عذابها سيكون محتملا لأنه عذاب منوط بقدرة العاجزين ، إنما العذاب فى الآخرة فهو بقوة القادر الأعلى :

﴿ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ﴾

(سورة الكهف)

تلك هى مهمة الله القوى المتين : إنّ الذى يظلم يضربه على يده ، والذى يحسن عمله يعطيه الحوافز .

والحق يقول هنا فى الآية التى نحن بصددِ خواطرنا عنها :

﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾

ولا يقال : طوعت الشيء إلا إذا كان الشيء متأبيا على الفعل ، فلا تقل : أنا طوّعت الماء ، إنما تقول : طوّعت الحديد ، وقوله : « فطوَّعَت له نفسه قتل أخيه » فهل نفسه هى التى ستقتل وهى نفسه التى طوَّعَت ؟

ولننتبه هنا أن الإنسان فيه ملَكتان اثنتان ؛ ملكة فطرية تُحبّ الحق وتُحبّ الخير ، وَملَكَة أهوائية خاضعة للهوى ، فالملكتان تتصارعان .

« فطوَّعَت له نفسُه قَتْلِ أخيه » كأن النفس الشريرة الأهوائية تغلبت على الخيِّرة ، فكأن هناك تجاذبا وتصارعاً وتدافعاً ؛ لأن الإنسان لا يحب الظلم إن وقع عليه . لكن ساعة يتصور أنه هو الذى يظلم غيره فقد يقبل على ذلك .

« فطوَّعتَ له نفسه » إنه لايزال فيه بقيّة من آثار النُّبوة ؛ لأنه قريب من آدم ، ولاتزال المسألة تتأرجح معه ، والشر من الأخيار ينحدر ، والشر فى الأشرار يصعد . فقد تأتى لرجل طيب وتثير أعصابه فيقول : إن رأيته لأضربنه رصاصة أو أصفعه صفعتين ، أو أوبِّخه ، والشرِّير يقول : والله إن قابلته أبصق فى وجهه ، أو أضربه صفعتين ، أو أضربه رصاصة . إذن فالشر عند الشرِّير يتصاعد ، ويجد العملية لا تكفى للغضب عنده فيصعدها . إنما نفس الخير تُنفِّس عن غضبها وبعد ذلك ينزل عنها بكلمة ، ولذلك نلاحظ فى سورة سيدنا « يوسف » :

﴿ إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ﴾

(من الآية ٨ سورة يوسف)

والعجيب أنهم جاءوا بالتعليل الذى ضدّهم ؛ كى يعرفك أن الهوىٰ والغضب والحسد والحقد تقلب الموازين ، « ونحن عُصبة » هذه تدل على أنهم أقوياء . وهى التى جعلت أباه يعقوب يعطف على الصغير . أنتم تقولون : « ليوسف وأخوه أحب

إلى أبينا منا » نعم ؛ لأنه صغير ، وسألوا العربى : مالك تُحب الولد الصغير ، قال : لأن أيامه أقصر الأيام معى ، البكر مكث معى طويلاً ، فأنا أعوض للصغير الأيام التى فاتته ببعض الحب وأعطيه بعض الحنان ، قولهم : « نحن عُصبة » هذه ضدهم ، مما يدل على أن الرجل ساعة تختلط عليه موازين القيم ، يأتى بالحُجّة التى ضده ويظن أنها معه ! وبعد ذلك يقولون :

﴿ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾

(من الآية ٨ سورة يوسف)

واتفقوا . فبدأوا بقولهم :

﴿ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ ﴾

(من الآية ٩ سورة يوسف)

وقالوا :

﴿ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا ﴾

(من الآية ٩ سورة يوسف)

ولأنهم أسباط وأولاد يعقوب تنازلوا عن القتل والطرح فى الأرض وقال قائل منهم :

﴿ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ ﴾

(من الآية ١٠ سورة يوسف)

وهل يرتب أحد النجاة لمن يكرهه ؟

كأن النفس مازال فيها خير ، فأولا قالوا : « اقتلوا يوسف » هذه شدة الغضب . أو « اطرحوه أرضاً » يطرحونه أرضاً فقد يأكله حيوان مفترس ، فقال واحد : نلقيه فى غيابة الجب ويلتقطه بعض السيارة ، إذن فالأخيار تتنازل .

« فطوَّعَت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين » . ونعرف الخسران فى قضية التجارة ؛ لأن هناك مكسبًا وهناك خسارة ، و« مكسب » أى جاء رأس المال

بزيادة عليه ، و« الخسارة » أى أن رأس المال قد قلَّ ، فلماذا قتل أخاه وكان أخوه الوحيد وكان يأنس به فى الدنيا ؟ إن هذا حدث من حكاية البنت . فقد أراد أن يأخذ أخته الحلوة ويترك الأخرى ، ولما قدّما القربان ولم يقبل منه تصاعد الخلاف وقتل أخاه ، إذن فَفَقد رأس المال ، بينما كان يريد أن يكسب « فأصبح من الخاسرين » .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾

ونعرف السوءة وهى ما تَتَكرّهه النفس . وهى من « ساء ، يسوء ، سوءا » أى يتكره ، وسمينا « العَورة » سَوْءَة ؛ لأنها تتكره .

« فبعث الله غُراباً يبحث فى الأرض » . هل بعثه الله حتى يُرِى قابيل كيف يوارى سوءة هابيل ، أم أن الغراب هو الذى سيقول له ؟ كلا الأمرين متساو ؛ لأن ربنا هو الذى بعث ، فإن كنت ستنظر للوسيلة القريبة فيكون الغُراب ، وإن كنت ستنظر لوسيلة الباعث يكون هو الله ؛ فالمسألة كلها واصلة لله ، وأنت حين تنسب الأسباب تجدها كلها من الله .

« قال يا ويلتى » . ساعة تسمع كلمة « يا ويلتى » يكون لها معنيان فى الاستعمال : المعنى الأول للويل : هو الهلاك ، وإن أردنا المبالغة فى الهلاك نأتى بتاء التأنيث ونقول : ويلة ، ولذلك عندما نحب أن نبالغ فى وصف عالم نقول : فلان عالم وفلان علاّم وفلان عَلاَّمة ، وتأتى التاء هنا لتؤكد المعنى ، إذن فالويل : الهلاك ، و«ويلة » تعنى أيضا الهلاك ، وماذا تعنى « يا ويلتى » ؟

إننا نعرف أن النداء يكون بـ « يا » فكيف تُنادى الويل والهلاك ؟ وهل يُنادىٰ غير العاقل ؟ نعم ، يُنادىٰ ؛ لأنه مادام « الويل » و« الويلة » : الهلاك . كأنك تقول : أنا لم أعد أطيق ما أنا فيه من الهم والغم ، ولا يُخلصنى فيه إلا الهلاك ، يا هلاكى تعال فهذا وقتك ! إذن فقوله : « يا ويلتى » يعنى يا هلاك تعال ، والمتنبى فطن لهذه المسألة وقال :

كفى بك داء أن ترى الموت شافيا
وحسب المنايا أن يكنّ أمانيا

فأى داء هذا الذى تقول فيه : يارب أرحنى بالموت !! إذن فالذى يراه من ينادى الهلاك هو أكثر من الموت . المعنى الأول : أنك تنادى الهلاك أن يحضر ؛ ولذلك يقول الحق :

﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ﴾

(من الآية ٤٩ سورة الكهف)

إنهم يتمنّون الموت ؛ وكذلك قال قابيل : « يا ويلتى » .

وهل تأتيه الويلة عندما يطلبها ؟ لا ، فقد انتهت المسألة وصار قاتلاً لأخيه .

والمعنى الثانى: أن تأتى « ياويلتنا » بمعنى التعجب من أمر لا تعطيه الأسباب، وهناك فرق بين عطاء الأسباب وبين عطاء المُسبّب . فلو ظل عطاء الأسباب هو المُتحكّم فى نواميس الكون ، لكان معنى هذا أن الحق سبحانه قد زاول سلطانه فى مُلْكه مرة واحدة ، وكأنه خلق الأسباب والنواميس وتركها تتحكم ونقول : لا . فبطلاقة القدرة خلقت الأسباب ، وهى تأتى لتثبيت ذاتية القدرة وقيّوميّتها ، فيقول الحق حينما يشاء : توقفى يا أسباب .

إذن فهناك أسباب وهناك مُسبّب . والأمر العجيب لا تعطيه الأسباب . وحين لا يعطى السبب يتعجب الإنسان ، ولذلك يَرُدّ الأمر إلى الأصل الذى لا يتعجب منه . وها هو ذا سيدنا إبراهيم عليه السلام عندما جاءه الضيوف وقدم لهم الطعام

ورأى أيديهم لا تصل إليه نكرهَم ونفر منهم ولم يأنس إليهم وأوجس منهم خِيفة . ويقول الحق عن هذا الموقف :

﴿ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (٢٨) فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ (٢٩) ﴾

(سورة الذاريات)

وقال الحق أيضاً فى هذا الموقف :

﴿ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ (٧١) ﴾

(سورة هود)

وهنا قالت امرأة سيدنا إبراهيم :

﴿ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾

(من الآية ٧٢ سورة هود)

أى أن الأسباب لا تعطى ، ورُدّت إلى المُسبّب . (أتعجبين من أمر الله) ؟ كان لك أن تتعجبى من الأسباب لأنها تعطلت ، أما حين تصل الأسباب إلى الله ، فلا عجب .

وقال سيدنا زكريا عليه السلام مثل قولها ؛ فحين رأى السيدة مريم وهو الذى كَفلها ، وكان يجىء لها بمطلوبات مقومات حياتها ، وفُوجىء بأن عندها رزقا من طعامٍ وفاكهة . فسألها :

﴿ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ﴾

(من الآية ٣٧ سورة آل عمران)

كيف يقول لها ذلك ؟ لا بد أنه رأى شيئا عندها لم يأتِ هُو به ، وهنا ردَّت عجبه لتنبهه بالحقيقة الخالدة :

﴿ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة آل عمران)

ويشاء الحق أن تقولها سيدتنا مريم وهى صغيرة السن ، وكأنها تقول ذلك كتمهيد ؛ لأنها ـ كما قلنا سابقا ـ ستتعرض لمسألة لا يمكن أن يحلها إلا المُسبِّب ، فسوف تلدِ بدون رُجولة ، وهى مسألة عجيبة ، لذلك كان لا بد أن تفهم هى وأن تنطق :

﴿ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة آل عمران)

وكأن الحق ينبئها ضمناً بأن عليها أن تتذكّر أنها هى التى قالت هذه الكلمة ؛ لأن المستقبل سوف يأتى لك بأحداث تحتاج إلى تذكُر هذا القول . وهى التى تُذكِرّ سيدنا زكريا عليه السلام بهذه الحقيقة . ولنر دِقّة إشارة القرآن إلى الموقع الذى ذكرت له مريم فيه تلك الحقيقة :

﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ﴾

(من الآية ٣٨ سورة آل عمران)

كأن ساعة سمع هذه المسألة قرّر أن يدعو الله بأمنيته فى المحراب نفسه . وهل كان سيدنا زكريا لا يعرف تلك الحقيقة ؟ كان يعرفها ، ولكن هناك فرق بين حكم يكون فى حاشية الشعور ، وبين حكم يكون فى بؤرة الشعور .

وقول مريم لزكريا : « هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب » جعل القضية تنتقل من حاشية الشعور إلى بؤرة الشعور .

﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ﴾

(من الآية ٣٨ سورة آل عمران)

لماذا لم يدعُ ربَّه من البداية ؟. كان سيدنا زكريا سائراً مع الأسباب ورتابة الأسباب قد تذهل وتُشغل عن المُسبِّب ، وعندما سمع من مريم : « يرزق من يشاء بغير حساب » أراد أن يدخل من هذا الباب ، فدعا ربه ؛ وبشّره الحق بأنه سيأتى له بذرّية ، وتعجّب زكريا مرّة أخرى من هذا الأمر شارحاً حالته :

﴿ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ ﴾

(من الآية ٤٠ سورة آل عمران)

ومادمت يا زكريا قد دعوت الله أن يهبك الذُرّية وقفزت قضية رزق الله لمن يشاء من حاشية شعورك إلى بؤرة شعورك . فقد جاء أمر الله :

﴿ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ ﴾

(من الآية ٩ سورة مريم)

إذن فلا بحث فى الأسباب والمسببات . فهى إرادة الله . ويوضح الحق حيثيّات « إن الله يرزق من يشاء بغير حساب » ويأتيك بالولد ؛ فيقول سبحانه :

﴿ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴾

(من الآية ٩ سورة مريم)

وكل هذه مقدمات من مريم ومن سيدنا زكريا الكفيل لها ؛ ذلك أن سيدنا زكريا سوف يكون عنصراً شاهداً عندما يأتيها الولد من غير أب وتلد ، وهو كفيل لها ، وهو الذى سيتعرض لهذا الأمر .

ولماذا كل هذا التمهيد ؟ ؛ لأن خرق الأسباب وخرق النواميس وخرق السُنن إنما حدث فى أمور أخرى غير العِرْض ، لكن عند مريم سيكون ذلك فى العرِض وهو أقدس شيء بالنسبة للمرأة ، لذلك لابد من كل هذه التمهيدات . إذن ، هو أمر عجيب لكنه ليس بعجيب على الله .

وها هوذا قابيل يقول : « يا ويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب » كأن عملية الغراب أظهرت لقابيل أنه لم يعرف شيئاً يفعله الطائر الذى أمامه ، فها هى ذى مسألة يفعلها غراب ولا تفعلها أنت يا قابيل ، لقد امتلكت قدرة لتقتل بها أخاك ، لكنك عاجز أن تفعل مثل هذا الغراب . فقابيل لا يقولها ـ إذن ـ إلا بعد أن مرّ بمعنى نفسىّ شديد قاسٍ على وجدانه .

لقد قدر على أخيه وقتله وهو لم يعرف كيف يواريه ، بينما عرف الغراب كيف يوارى جثة غراب آخر . وهكذا أصبح قابيل من النادمين « فأصبح من النادمين » .

إن علينا أن ننتبه إلى الفارق بين « نَدَمٍ » و« نَدَمٍ » . وعلى سبيل المثال : هناك إنسان قد جرؤ على حدود الله وشرب الخمر بالنقود التى كان عليه أن يشترى بها طعام

الأسرة . وعندما عاد إلى منزله ووجد أهله فى انتظار الطعام ، ندم لأنه شرب الخمر ، فهل كان ندم الرجل على أنه عصى الله ، أو ندم لأنه لم يشتر الطعام لأهله ؟. لقد ندم على عدم شراء الطعام وذلك ندم مرفوض ، ليس من التوبة .

وقد يكون هذا الشارب للخمر قد ارتدى أفخر ثيابه وخرج فشرب الخمر ووقع على الأرض ، وهنا ندم لأن شُرب الخمر أوصله إلى هذا الحال ؛ فهل ندم لأنه عصى ربه ؟. أو ندم لأنه صار هُزْأة بين الناس ؟. وكذلك كان ندم قابيل ، لقد ندم على خيبته ؛ لأنه لم يعرف ما عرفه الغراب .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾

نجد الحق قال:إنه قد كتب على بنى إسرائيل ما جاء بهذه الآية من قانون واضح ؛ لأن معنى كلمة « من أجل » هو « بسبب » ؛ و« أَجْل » مِن أَجَل شرا عليهم يَأْجُلُه ،،أى جنى جناية ؛ أى من جريرة ذلك .

أو من هذه الجناية شرعنا هذا التشريع : « من قتل نفساً بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً » . إذن فساعة تسمع « من أجل » فاعرف أنها تعنى « بسبب ذلك » أو « بوقوع ذلك » أو « بجريرة ذلك » أو « بهذه الجناية كان ذلك » .

ولكن هل هذا الكَتْب خاص ببنى إسرائيل ؟ . بعض العلماء قال:إن ابنى آدم ليس ابنى آدم مباشرة ؛ ولكنهما من ذُرّية آدم وهما من بنى إسرائيل . ونَردّ : من هو إسرائيل أولاً الذى نُسب إليه أبناء إسرائيل ؟ . إنه يعقوب بن إسحاق ؛ بن إبراهيم ، وإبراهيم يصل إلى نوح بأحد عشر أباً ويصل نوح إلى شيث . وبعد ذلك **إلى آدم ؛ فهل كانت كل هذه السلسلة لا تعرف كيف تدفن الميت إلى أن جاء بنو إسرائيل ؟**

طبعاً لا ؛ ومادام الحق أوضح أنه سبحانه قد بعث غُراباً يبحث فى الأرض ليُرِيَه كيف يُوارى سَوْءَة أخيه ، فهذا دليل على أن هابيل هو أول إنسان تَمَّ دفنه ، ومن غير المقبول ـ إذن ـ أن نقول:إن الإنسان لم يعرف كيف يوارى جثمان الميّت إلى أن وصلت **البشرِّية إلى زمن بنى إسرائيل ، وأنهم هم الذين علموا البشرية ذلك !**

ولماذا جاء الحق هنا ببنى إسرائيل ؟ . سبب ذلك أن بنى إسرائيل اجترأوا لا على قتل النفس فقط بل اجترأوا على قتل النفس الهادية ، وهى النفس التى تحمل رسالة النّبوة ، ولذلك كان التخصيص ، فقد قتلوا أنبياءهم الذين حملوا لهم المنهج التطبيقى ؛ لأن الأنبياء يأتون كنماذج تطبيقية للمناهج حتى يلفِتوا الناس إلى حقيقة تطبيق منهج الله . الأنبياء ـ إذن ـ لا يأتون بشرع جديد ، ولكنهم يسيرون على شرع من قبلهم . فلماذا قتل بنو إسرائيل بعضاً من الأنبياء ؟ لقد تولّدت لدى بنى إسرائيل حفيظة ضد هؤلاء الأنبياء .

ونعلم أن الإنسان الخيّر حين يصنع الخير ويراه الشرّير الذى لا يقدر على صناعة الخير فتتولد فى نفس الشرّير حفيظة وحقد وغضب على فاعل الخير . ففاعل الخير كلما فعل خيراً إنما يلدغ الشرّير ، ولذلك يحاول الشرّير أن يُزيح فاعل الخير من أمامه . وكان الأنبياء هم القدوة السلوكية ، وقد قال الحق عن بنى إسرائيل :

﴿ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ ﴾

(من الآية ٩١ سورة البقرة)

وجاء الحق هنا بـ «من قبل » هذه الحكمة ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان فى عداءٍ مع اليهود ، وقد تَهبّ عليهم الخواطر الشرّيرة فيحاولون قتل النّبى .

وقد حاولوا ذلك . مثلما أرادوا أن يلقوا عليه حجراً ، ودسُّوا له السّم ، ولذلك قال الله : « من قبل » أى إن قدرتكم على قتل الأنبياء كانت فى الماضى ؛ أما مع محمد المصطفى فلن تُمكَّنُوا منه .

ويقول سبحانه : « من أجل ذلك كتبنا على بنى إسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً » . وهذا توضيح لإرادة الحق فى تأسيس الوحدة الإيمانية ليجعل من المجتمع الإيمانى رابطة يوضحها قول رسول الله فيما رواه أبو موسى الأشعرى عنه :

(المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً) .

وإياك أن تنظر إلى مجترىء على غيرك ، بالباطل ، وتقف مكتوف اليدين ؛ لأن الوحدة الإيمانية تجعل المؤمنين جميعاً كالجسدالواحد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسّهر والحُمى . فإن قَتل إنسان إنساناً آخر ووقف المجتمع الإيمانى موقف العاجز . فهذا إفسادٌ فى الأرض ، ولذلك يجب أن يقابل المجتمع مثل هذا الفعل لا على أساس أنه قتل نفسا واحدة ، بل كأنه قتلٌ للناس جميعاً ما لم يكن قتل النفس لقصاص أو إفساد فى الأرض .

ويكمل الحق سبحانه الشق الثانى من تلك القضية الإيمانية : « ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً » ، وهذه هى الوحدة الإيمانية ، فمن يعتدى على نفس واحدة بريئة ، كمن يعتدى على كل الناس ، والذى يسعف إنساناً فى مهلكة كأنه أنقذ الناس جميعاً .

وفى التوقيع التكليفى يكون التطبيق العملى لتلك القاعدة ، فالذى يقتل بريئاً عليه لعنة الله وغضبه ويعذبه الله ، وكأنه قتل الناس أجمعين ، وإن نظرنا إليها من ناحية الجزاء فالجزاء واحد .

« ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا » . وسبحانه وتعالى يريد ألا يستقبل المجتمع الإيمانى مجترئاً بباطل على حق إلا أن يقف كل المجتمع أمامه ، فلا يقف

المعتدَى عليه بمفرده ؛ لأن الذى يُجرِّىء أصحاب الشّر هو أن يقول بعض الناس كلمة « وأنا مَالِى » .

و« الأنا مالية » هى التى تُجرِّىء أصحاب الشرور ، ولذلك اقرأوا قصة الثيران الثلاثة : الثور الأسود والثور الأحمر والثور الأبيض ، فقد احتال أسد على الثورين الأحمر والأسود ، فسمحا له بأكل الثور الأبيض . واحتال الأسد على الثور الأسود فسمح الثور الأسود للأسد بأكل الثور الأحمر ؛ وجاء الدور على الثور الأسود ؛ فقال للأسد :

ـ أُكِلتُ يوم أُكِلَ الثور الأبيض . كأن الثور التفت إلى أن « أنا ماليته » جعلته ينال مصرعه . لكن لو كان الثيران الثلاثة اجتمعوا على الأسد لقتلوه .

وهاهوذا الحديث النبوى الشريف الذى يمثل القائم على حدود الله والواقع فيها :

عن النعمان بن بشير رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « مثل القائم فى حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها وكان الذين فى أسفلها إذا استقوا من الماء مرّوا على من فوقهم فقالوا: لو أنا خرقنا فى نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا . فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا وإن أخذوا على أيديهم نجَوْا ونجوا جميعاً »[1] .

كذلك مثل القائم على حدود الله ومثل الواقع فيها ، فكأن الحق سبحانه وتعالى يقول لنا : لا تنظر إلى أن نفساً قتلت نفساً بغير حق ، ولكن انظر إليها كأن القاتل قتل الناس جميعاً ؛ لأن الناس جميعاً متساوون فى حق الحياة . ومادام القاتل قد اجترأ على واحد فمن الممكن أن يَجترىء على الباقين .

أو أن يكون فعله أُسْوَة لغيره ، ومادام قد اسْتَن مثل هذه السُّنة ، سنجد كل من يغضب من آخر يقتله ، وتظل السلسلة من القتلة والقتلى تتوالى .

---

(١) رواه البخارى فى الشركة والشهادات ، ورواه الترمذى فى الفتن ، ورواه أحمد فى مسنده .

والحديث النبوى يقول :

« من سن فى الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شىء ، ومن سن فى الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شىء » .

إنه الاحتياط والدقة والقيد : « من قتل نفساً بغير نفس أو فساد فى الأرض » ولو كان التشريع تشريعاً بشرياً فمرّت عليه هذه المسألة يمكن أن يستدركها بعد ذلك بشرح أو تعديل ، ولكن المُشرّع الأعلى لا يستدرك .

« من قتل نفساً بغير نفس أو فساد فى الأرض » . فكأن من قتل نفساً بنفس أو بفساد فى الأرض ، لا يقال عليه : إنه قتل الناس جميعاً ، بل أحيا الناس جميعاً ؛ لأن التجريم لأى فعل يعنى مجىء النص الموضح أن هذا الفعل جريمة ، وبعد ذلك نضع لهذه الجريمة عقوبة . ولا يمكن أن تأتى لواحد ارتكب فعلاً وتقول له : أنا أؤاخذك به وأعاقبك عليه بغير أن يوجَد نص بتجريم هذا الفعل .

وهناك توجد قاعدة شرعية قانونية تقول : « لا تجريم إلّا بنص ولا عُقوبة إلّا بتجريم » . أى أننا نُرتّب العقوبة على الجريمة ، أو ساعة يُجرّم فعل يُذكر بجانب التجريم العقوبة ، فهل القصد هو عقاب مُرتكب الجُرم ؟ لا إنما القصد هو تفظيع العقاب حتى يراه كل إنسان قبل أن يرتكب الجريمة ، والهدف هو منع الجريمة ، ولذلك تجد الحكمة البشرية القائلة : « القتل أنفى للقتل » ، وبطبيعة الحال لا يمكن أن ترقى تلك الحكمة إلى قول الحق :

﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾

(من الآية ١٧٩ سورة البقرة)

لأننا يمكن أن نتساءل : أىّ قتل أنفى للقتل ؟ . وسنجد أن المقصود بالحكمة ليس القتل الابتدائى ولكن قتل الاقتصاص . وهكذا نجد الأسلوب البشرى قد فاتته اللمحة الفعّالة فى منع القتل الموجودة فى قوله الحق : « من قتل نفساً بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً » . وكلمة « أحياها » لها أكثر من معنى . وبالتحديد لها معنيان : المعنى الأول : أنه أبقى فيها

الروح التى تحرك المادة ، والمعنى الثانى : إحياء الروح الإيمانية ، مصداقاً لقول الحق :

﴿ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة الأنفال)

ولنا أن نلتفت إلى أن الحق وضع الفساد فى الأرض مُستحقاً لعقوبة القتل . والفساد هو إخراج الصالح عن صلاحيته ، والمطلوب منا إيمانياً أن الأمر الصالح فى ذاته علينا أن نُبقيه صالحاً ، فإن استطعنا أن نزيده صلاحاً فلنفعل وإن لم نستطع فلنتركه على صلاحه .

ولماذا جاء الحق بعقابٍ للفساد فى الأرض ؟. مدلول الأرض : أنها المنطقة التى استخلف الحق فيها البشرَ ، وساعة يقول الحق : « أو فساد فى الأرض » فمعنى ذلك أن كل فساد عائد على كل مظروف فى الأرض . وأول مظروف فى الأرض أو السيد لها هو الإنسان . وعندما نفسد فى الإنسان ، فهذا معناه قتل الإنسان .

إذن لا بد أن يكون الفساد فى أشياء أخرى : هى الأكوان أو الأجناس الأخرى ؛ الحيوانات والنباتات والجمادات . والفساد فى هذه الكائنات بكون بإخراجها عن مستحوزها ملكيةً ، كأن تسطو جماعة على بضاعة إنسان آخر ، أو أن يأخذ واحد ثمار زرع لأحد ، أو أن يأخذ بعضاً من إنتاج منجم منجنيز أو حديد أو خلافه .

إن الفساد نوعان : فساد فى الأرض وهو متعلق بالمظروف فى الأرض ، والمظروف فى الأرض سيد وهو الإنسان ، والفساد فيه قتله أو أن تُسبب له اختلالاً فى أمنه النفسى كالقلق والاضطراب والخوف . ونلحظ أن الحق سبحانه قد امْتَنّ على قريش بأنه أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف .

إذن فمن الفساد تفزيع الناس وترويعهم وهو قسمان : قسم تُفَزِّع فيه مَن لك عنده ثأر أو بينك وبينه ضغينة أو بُغض ، أو أن تُفَزِّع قوماً لا علاقة بينك وبينهم ولم يصنعوا معك شيئاً . فمن يعتدى على إنسان بينه وبينه مشكلة أو عداوة أو بغضاء ، لا نُسمّيه خارجاً على الشريعة ؛ بأخذ حقه ، ولكنه لا يستوفى فى حقه بيده بل لا بد

من حاكم يقوم بذلك كى ينضبط الأمر ويستقيم ، إنه يخرج على الشريعة فقط فى حالة العُدوان .

أما الذى يذهب للاعتداء على الناس ولم يكن بينه وبينهم عداء ؛ فهذه هى الحرابة . كأن يخرج ليقطع الطريق على الناس ويخيف كل من يلقاه ويُسبِّب له القلق والرّعب والخوف على نفسه وماله ، والمال قد يكون من جنس الحيوان أو جنس النبات أو جنس الجماد . وذلك ما يسميه الشرع حرابة وستأتى لها آية مخصوصة .

إذن . فالفساد فى الأرض معناه إخراج صالح عن صلاحه مظروف فى الأرض ، والمظروف فى الأرض سيده الإنسان ، والإفساد فيه إما بقتله أو إهاجته وإشاعة الرّعب فيه ، وإما بشىء مملوك له من الأشياء التى دونه فى الجنسية مثل الزروع أو النباتات أو الحيوانات . فكأن الفساد فى الأرض ـ أيضاً ـ يؤهل لقتل النفس :

« منْ قتل نفساً بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جَميعاً » . أى أن القتل بغير إفساد فى الأرض ؛ هو القتل الذى يستحق العقاب . أما القتل بإفساد فى الأرض فذلك أمر آخر ؛ لأن هناك فارقا بين أن يُقتل قِصاصاً أو أن يقتل حدًّاً من المُشرِّع ؛ وحتى عفو صاحب الدم عن القاتل فى الحرابة وقطع الطريق لا يشفع فى ذلك ولا يسقط الحد عن الذى فعل ذلك؛لأنها جريمة ضد المجتمع كله .

ويتابع سبحانه : « ولقد جاءتهم رُسلنا بالبيّنات ثم إن كثيراً منهم بعد ذلك فى الأرض لمسرفون » والمُسرف هو المُتجاوز للحَد ، وهو من لا يأخذ قدر تكوينه وموقعه فى الوجود ، بل يحاول أن يخرج عن قدر إمكاناته فى الوجود .

مثال ذلك : رجل حاول أن يسطو على حق غيره فى الوجود ؛ متخطياً منزلة الاعتدال فلا يأخذ حقه فقط . مثل قطاع الطريق أو النهابين يأخذون عرق غيرهم وتعودوا أن يعيشوا كذلك وبراحة . والمصيبة لا تكون فى قاطع الطريق وحده ، ولكن تتعداه إلى المجتمع . فيقال : إن فلاناً يجلس فى منزله براحة وتكفيه ساعة بالليل ليسرق الناس .

إن الأمـر لا يقف عند حدود ذلك الإنسان إنما يتعـدّاه إلى غيره . ويحيا من

يملك مالاً فى رُعب ، وعندما يُفجَع فى زائد ماله ، يفقد الرغبة فى أن يتحرك فى الحياة حركة زائدة تُنتج فائضاً لأنه لا يشعر بالأمن والأمان . وعندئذ يفقد العاجز عن الحركة فى المجتمع السند والعون من الذى كان يتحرك حركةً أوسع . إذن من رحمة الله أنه فتح أمام البشر أبواب الآمال فى التملُّك ، مادام السعى إلى ذلك يتم بطرق مشروعة .

ونضرب هذا المثل ـ ولله المثل الأعلى ـ : الرجل المُرابى الذى يُقرض مُحتاجاً مائة جنيه ، كيف يطلب المرابى زيادة مِمّن لا يجد شيئا يقيم به حياته ؟ إنه بذلك يكون قد أعطى مَن وجد أزيد مما أخذ منه مع فقره وعجْزه . إن ذلك هو الإسراف عينه .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ ﴾

أول شىء فى الحرب هو الاستيلاء ؛ فمعنى أن يحارب قوم قوماً غيرهم أى يرغبون فى الاستيلاء على خيرات أو ممتلكات الطرف الآخر . فكيف يحارب قومٌ اللَّهَ وهو غيب ؟ . وأول حرب للَّه هى محاولة الاستيلاء على سلطانه ، وهو تشريعه . فإن حاولت أيها الإنسان أن تشرع أنت على غير منهج الله فأنت تريد أن تستولى على حق الله فى التشريع . وهذه أول حرب لله .

والذين يحاربون الله أَهُمُ الذين يريدون أن يستولوا على ملك الله ؟ لا ؛ لأن يد الله فى مُلكه أزلا ، وستبقى أبدًا وسبحانه لن يسلّمه لأحد من عباده . فعلى ماذا

ـ إذن ـ يريدون الاستيلاء ؟. إنهم يريدون تزييف تشريعات الله ، بينما سبحانه هو المُشرّع وحده . والتشريع ـ كما قلنا ـ هو قانون صيانة للصّنعة . إذن لماذا لا نترك خالق الإنسان ليضع القواعد التى تصون البشر ؛ لذلك فأول افتيات يفعله الناس أنهم يُشرّعون لأنفسهم ؛ لأن قانون صيانة الإنسان يضعه خالق الإنسان ، فإذا ما جاء شخص وأراد أن يضع للإنسان ـ الذى هو منه ـ قانون صيانة نقول له : إنك تستولى على حق الله .

وكيف يحاربون الرسول ؟.

نعرف أن الرسول صلى الله عليه وسلم له وضعان ؛ فالله غيب ؛ لكن الرسول كان مشهداً من مشاهدنا فى يوم من الأيام ، وقد حورب بالسيف ، وعندما انتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى أصبحت حربه كحرب الله ، فنأخذ سلطته فى التشريع ، وهى السلطة الثانية ونقول لها : نحن سنشرع لأنفسنا ولا ضرورة لهذا الرسول ، أو أن يقول نظام ما : سنأخذ من كلام الله فقط وذلك ما ينتشر فى بعض البلدان . ونقول لكل واحد من هؤلاء : أتؤدى الصلاة ؟. فيقول : نعم . نسأله : كم ركعة صليت المغرب ؟. فيجيب ثلاث ركعات . نسأله : من أين أتيت بذلك ؟. ومن أين عرفت أن صلاة المغرب ثلاث ركعات وهى لم تذكر فى القرآن الكريم ؟. هنا سيصمت .

ونسأله : كيف تخرج الزكاة وبأى حساب تحسبها ؟ فيقول : أخرج الزكاة بقدر اثنين ونصف بالمائة فى النقدين والتجارة مثلا .

نقول له : كيف ـ إذن ـ عرفت ذلك ؟. وأيضا كيف عرفت الحج ؟. إذن فللرسول صلى الله عليه وسلم مهمة ، وحرب النبى تكون فى ترك قول أو فعل أو تقرير له عليه الصلاة والسلام .

ومثال ذلك هؤلاء الذين يقولون : إن أحاديث رسول الله كثيرة . ونقول لهم : كانت مدة رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة وعشرين عاماً وكل كلامه حديث ، فكل كلمة خرجت من فمه حديث شريف ، ولو كنا سنحسب الكلام فقط لكان مجلدات لا يمكن حصرها ، وكل كلام سمعهُ وأقرّه من غيره حديث ، وكل

فعل فعله غيره أمامه وأقرّه ولم يعترض عليه حديث ، فكم تكون أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ . وكيف يستكثر بعض الناس قدراً من الأحاديث التى وصلتنا بعد قدر هائل من التنقية البالغة ؟ ؛ لأنهم قالوا : لأن نبعد عن رسول الله ما قاله خير من أن ندخل على رسول الله ما لم يفعله . إنهم يدعون أن هذا حفظ للإسلام ولكن فاتهم أن الله حافظ دينه ، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد وضع القواعد لغربلة الأحاديث فقال :

« من كذب على مُتعمداً فليتبوّأ مقعده من النار »[1] .

وها هوذا البخارى ينقل عن المعاصرين لرسول الله صلى الله عليه وسلم والذين قابلوه ، وسيدنا مُسلم يعتبر المعاصرة كافية لأنّها مظنّة المقابلة وتحرى كل منهما الدقة الفائقة . وأى شخص كان به خدشة سلوكية لا يؤخذ بقوله ، ولذلك عندما حاول البعض أن ينال من الأحاديث وقال أحدهم : « أنا يكفينى أن أقول لا إله إلا الله » ، تساءلت : كيف لا يذكر أن محمداً رسول الله ؟ وكيف يمكن أن يؤدى الأذان للصلاة ؟ وكيف يؤدى الصلاة ؟ وكيف يمكن أن يفهم قول الحق :

﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ ﴾

(من الآية ٧ سورة الحشر)

وهذا تفويض من الله فى أن يكون لمحمد صلى الله عليه وسلم تشريع .

وكذلك الاجتراءات على الأئمة ، هم يجترئون أولاً على النبى ثم يزحفون على الدين كله . وجاء فيهم قول الحق : « إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فساداً » أى يخرجون الصالح بذاته عن صلاحه ليكون فاسداً . الجزاء أن يُقَتَّلوا أو يُصَلَّبُوا ، وهذا التفعيل فى قوله : (أن يقتلوُّا أو يصلَّبوُا) جاء للشدة والتقوية ؛ حتى يقف منهم المجتمع الإيمانى العام موقف القائم على هذا الأمر ، والسلطة الشرعية قامت عن الجميع فى هذا الأمر ، كما يقال : إن النائب العام نائب عن الشعب فى أن يرفع الدعوى ، حتى لا ينتشر التقتيل بين الناس ، دون أن يفقهوا حكمة كل أمر .

« أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من

(١) رواه أحمد والترمذى والحاكم عن على كرم الله وجهه .

الأرض » . وهل « أو » هنا تخييرية ، أو أنّ هنا ـ كما يقال ـ « لف وينشر » ؟ واللف هو الطى . والنشر هو أن تبسط الشيء وتفرقه .

فما اللف ، وما النشر ـ إذن ـ ؟ مثل ذلك ما يقوله الشاعر :

قلبى وجفنى واللسان وخالقى . .

لقد ذُكر مُتعدّد ولكن الأحكام غير مذكورة ، هذا هو اللف ؛ فجمع المبتدءات دون أن يذكر لكل واحد منها خبره ؛ ثم جاء بالأحكام على وفق المحكوم عليه . فأكمل بيت الشعر بقوله :

راضٍ وباكٍ شاكرٌ وغفورُ

ولنقرأ البيت كاملاً :

قلبى وجفنى واللسان وخالقى
راضٍ وباكٍ شاكرٌ وغفورُ

والحق يقول :

﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ ﴾

(من الآية ٧٣ سورة القصص)

فقوله : « لتسكنوا فيه » راجع إلى الليل ، وقوله : « ولتبتغوا من فضله » راجع إلى النهار . وهنا جاء باللف ، ثم جاء بالنشر .

والفساد ـ كما نعلم ـ له صُور متعددة ، فالفساد فى الإنسان قد يعنى قتله . أو قتله وأخذ ماله . أو الاستيلاء على ماله دون قتله . أو إثارة الرعب فى نفس الإنسان دون أخذ ماله أو قتله . فكأن كلمة الفساد طوى فيها ألوان الفساد ، نفس تقتل ، أو نفس تقتل مع مال يُسلب ويؤخذ ، أو مال يُؤخذ دون نفس تقتل ، أو تخويف وتفزيع .

ويقول الحق : « أو ينفوا من الأرض »، والنفى معناه الطرد والإبعاد ، والطرد لا يتأتى إلا لثابت مُستقر ، والإبعاد لا يتأتى إلا لمُتمكن . إذن ، فقبل أن يُنفى لا بد

أن يكون له ثبوت وتمكُّن فى موضع ما ، وهو ما نسميه اصطلاحاً السكن ، أو الوطن ، أو المكان الذى يقيم به الإنسان لأنه ثابت فيه . ومعنى ثابت فيه . أى له حركة فى دائرته ، إلا أنه يأوى إلى مكانٍ مُستقر ثابت ، ولذلك سُمى سكناً ؛ أى يسكن فيه من بعد تحركه فى مجالاته المختلفة . ومعنى النفى على هذا هو إخراجه من مسكنه ومن وطنه الذى اتخذه موطناً له وكان مجالاً للإفساد فيه . ولكن إلى أى مكان نُخرج إليه هذا الذى نحكم عليه بالنفى ؟ قد يقول قائل : أنت إن أخرجته من مكان أفسد فيه وذهبت به إلى مكان آخر فقد تشيع فساده !

لا ؛ لأن النفى لا يتيح له ذلك الإفساد ، ذلك أن التوطن الأول يجعل له إلفاً بجغرافية المكان ، وإلفاً بمن يخيفهم ؛ فهو يعرف سلوك جيرانه ويعرف كيف يخيف فلانا وكيف يغتصب بضاعة آخر وهكذا. ولكنه إن خرج إلى مكان غير مستوطن فيه فسوف يحتاج إلى وقت طويل حتى يتعرف إلى جغرافية المكان ومواقع الناس فيه ، ومواطن الضعف فيهم . وعلى ذلك يكون النفى هو منعٌ لإفساد الفاسد .

وحين يقول سبحانه : « أو ينفوا من الأرض » نعرف أن كلمة « الأرض » لها مدلول ونسمى الأرض الآن : الكرة الأرضية . وكانوا قديماً يفهمونها على أنها اليابسة وما فيها من مياه ، وبعد أن عرفنا أن جَوَّ الأرض منها صار جو الأرض جزءا من الأرض . ولذلك قلنا فى المقدسات المكانية : إن كل جو يأخذ التقديس من مكانه ؛ فجو الكعبة كعبة ؛ بدليل أن الذى يصلى فى الدور الثالث من الحرم ؛ ويتجه إلى الكعبة . يصلى متجها إلى جو الكعبة . ومن يستقل طائرة ويرغب فى إقامة الصلاة يتجه إلى جو الكعبة ، وعندما ازدحم الحجيج وصار المسعى لا يتسع لكل الحجيج أقاموا دوراً ثانياً حتى يسعى الناس فيه . إذن فالمسعى ليس هو المكان المحدد فقط ، ولكن جوه أيضا له قدسية ؛ فإن بنينا كذا طابقا فهى تصلح أيضا كمسعى .

إذن فجو الأرض ينطبق عليه ما ينطبق على الأرض . ولذلك كانوا يُحرمون ـ قبل أن يوجد طيارون مسلمون ـ أن يُحَوِّم فى جو الحرم طيار غير مسلم ؛ لأن الطيار غير المسلم مُحرم عليه أن يدخل الكعبة والحرم . ومادام هناك إنسان ممنوع من دخول الكعبة فهو أيضا ممنوع من الطيران فى جَوّ الكعبة .

لأن جَوّ المكان يأخذ قُدسية المكان أو حكمه ؛ فالجَوّ من الأرض ، ونعرف أن الغلاف الجوى يدور مع الأرض . ومن هذا نعرف العطاءات القرآنية من القائل لكلامه وهو سبحانه الخالق لكونه . ومادام القائل للقرآن هو الخالق للكون ، إذن لا يوجد تضارب بين حقيقة كونية وحقيقة قرآنية . وإنما يوجد التضارب من أحد أمرين : إما أن نعتبر الأمر الذى لايزال فى طور النظرية حقيقة فى حين أنها لم تصبح حقيقة بعد ؛ وإما أن نفهم أن هذا حقيقة قرآنية ، على الرغم من أنه ليس كذلك ، فإذا كان الأمر هو حقيقة كونية بحق وحقيقة قرآنية بحق ، فلا تضارب على الإطلاق . ودليل ذلك على سبيل المثال قول الحق سبحانه :

﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ ﴾

(من الآية ٣٤ سورة لقمان)

ويأتى العلم الحديث بالبحث والتحليل ، ويقول بعض السطحيين :

لا ، إن العلم يعرف ما فى الرّحم من ذكر أو أنثى . ونقول : نحن لا نناقش ذلك ؛ لأنها حقيقة كونية وهى لا تتصادم مع الفهم الصحيح للحقيقة القرآنية ؛ لكننا نسأل : متى يعرف العلماء ذلك ؟ هم لا يعرفون هذا الأمر إلا بعد مُضى مُدة زمنية ، ولكن الحق يعلمه قبل مرور أية مدة زمنية . ثم مَن قال : إن الحق يقصد بـ«ويعلم ما فى الأرحام» ذكراً أو أنثى فحسب؟ وهل لمدلولها وجه واحد؟ لا ، بل له وجوه متعددة فلن يعرف أحد أن ما فى الرحم سيكون من بعد إنسانا طويلاً أو قصيراً ؛ ذكيا أو غبيّاً ؛ شقيّاً أو سعيداً ؛ طويل العمر أو قصير العمر ؛ حليماً أو غضوباً . فلماذا نحصر « ما » فى مسألة الذكر والأنثى فقط ؟

إنه هو سبحانه يعلم المستقبل أزلاً قبل أن يعلم أى عالم وقبل أن يحصل العالم على أية عينة . ثم هل تذهب كل حامل إلى الطبيب ليفحص معملياً ما الذى تحمله فى بطنها ؟ طبعاً لا ، ونحن لا نعلم ماذا فى بطنها ولكن الخالق الأعظم يعلم . ثم هل تذهب كل النساء الحوامل فى العالم لطبيب واحد ؟ بالطبع لا ، ولكن الخالق الأعظم يعلم ما فى كل الأرحام .

إذن فالحقيقة القرآنية لم تصطدم بأية حقيقة كونية ، لكن الصدام يحدث عندما

نفهم فهما خطأ أن الحقيقة القرآنية فى قوله الحق : « ويعلم ما فى الأرحام » مقصود به العلم بالذكر والأنثى فقط .

ومثال آخر ، يقول الحق :

﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا ﴾

(من الآية ١٩ سورة الحجر)

ويُخطىء البعض الفهم عن الله فيظن أن المقصود بذلك أن الأرض بساط أمام الإنسان . وقد ثبتت للبشر حقيقة كونية هى أن الأرض كروية بالأدلة خلال رحلة ماجلان ثم بالقواعد الخاصة بوضع الأعمدة ؛ وظهور أعالى الأشياء قبل أسافلها وغير ذلك ، ثم صارت فى عصرنا مُشاهدة من الأقمار الصناعية . إذن هذه الحقيقة الكونية لا كلام فيها ، وكان الخطأ هو فهم مدلول الحقيقة القرآنية والفهم الصواب فى مدلول الحقيقة القرآنية الخاصة بقوله تعالى : « والأرض مددناها » ؛ إننا كلما وقفنا فى مكان نجد أرضا ، أى أن الأرض لا نهاية لها وليس لها حافة .

إذن فسبحانه قد مَد الأرض أمام الإنسان بحيث إذا سار الإنسان فى أى اتجاه ؛ يجد أرضاً . ولا يتأتى ذلك إلا إذا كانت الأرض كروية . لهذا كان الخطأ فى فهم مدلول الحقيقة القرآنية ؛ لأن التضارب إنما ينشأ من فهم أنها حقيقة كونية وهى ليست كذلك ، أو من فهم أنها حقيقة قرآنية على نحو خاطىء ، إنهما لا تتعارضان ، فالقائل هو الخالق عينه . ولهذا عرفنا متأخراً أن الجو من الأرض وأن الغلاف الجوى يدور مع الأرض ، وكنا نقول : سرنا على الأرض ، لكنه سبحانه قال وهو العليم :

﴿ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾

(من الآية ١١ سورة الأنعام)

وهو سبحانه علم أزلاً أن الجو جزء من الأرض . فمهما سار الإنسان على اليابسة ففوقه الغلاف الجوى . إذن فالإنسان إنما يمشى فى الأرض وليس على الأرض . أما إن سار الإنسان فوق الغلاف الجوى فهو يسير فوق الأرض .

ونعود إلى قوله الحق : « أو ينفوا من الأرض » وقد عرفنا أن النفى هو الطرد والإبعاد ، فأى أرض ينفون منها وإلى أى أرض ؟ ولا يكون الطرد إلا لمستقر

ولا الإبعاد إلا لثابت . وحتى فى اللغة نعرف ما يسمى النفى والإثبات . وكل ذلك مأخوذ من شىء حِسى ؛ فعندما نأخذ الماء من البئر ننُزل إلى قاع البئر دلواً ، وكل دلو ينزل إلى البئر له « رِشاء » وهو الحبل الذى ننُزل بواسطته الدلو .

إننا ساعة نُخرج الدلو من البئر ، يكون قد أخذ من الماء على قدر سعته وحجمه . فهل لدينا حركة ثابتة نستطيع بها المحافظة على استطراق الماء إلى تمام حافة الدلو ؟ طبعاً هذا أمر غير ممكن ؛ بل نجد قليلا من الماء يتساقط من حوافى الدلو ، وهذا الماء المتساقط يُسمى « النَّفِى » ؛ لأننا لا نستطيع استخراج الدلو وهو ملآن لآخره بحركة ثابتة مستقرة بحيث تحافظ على استطراق الماء .

إن الماء ـ كما نعلم ـ له استطراق دقيق إلى الدرجة التى جعلت البشر يصنعون منه ميزاناً للاستواء . ومن « النَفْى » تؤخذ معان كثيرة ، فهناك « النفاية » وهى الشىء الزائد . إذن كيف يكون النفى من الأرض ؟ وهل نأخذ الأرض بمفهومها العام أو بمعناها الخاص ؟ أى الأرض التى حدث فيها قطع الطريق ؟

إن أخذناها بالمعنى الخاص فالنفى يكون لأى أرض أخرى . وإن أخذنا الأرض بالمعنى العام فكيف يكون النفى ؟ ونرى أن الحق سبحانه قد قال فى موضع آخر من القرآن :

﴿ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ ﴾

(من الآية ١٠٤ سورة الإسراء)

هم بلا جدال يسكنون فى الأرض . وجاء هذا القول لمعنى مقصود ، ونعرف أننا لا نذكر السكن إلا ويكون المقصود تحييز مكان فى الأرض ، كأن يقول قائل : « اسكن ميت غمر » أو « اسكن الدقهلية » أو « اسكن طنطا » ، وهذا تحديد لموقع من الأرض للاستقرار ، والمعنى المقصود إذن أن الحق يبلغنا أنه سيقطعهم فى الأرض تقطيعاً بحيث لا يستقرون فى مكان أبدا . وذلك مصداقا لقول الله :

﴿ وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ﴾

(من الآية ١٦٨ سورة الأعراف)

فليس لهم وطن خاص . وتمت بَعْثَرَتُهم فى كل الأرض ، وهذا هو الواقع الذى

حدث فى الكون . أُوجِدَ لبنى إسرائيل استقرار فى أى وطن ؟ . لا . وحتى الوطن الذى أقاموه بسبب وعد بلفور لم يترك الحق أمره . بل أعطى وعده للمؤمنين بأن يدخلوا المسجد إذا ما أحسنوا العمل لاسترداده . ومازال اليهود بطبيعتهم شتاتاً فى أنحاء الأرض . ولهم فى كل وطن حىّ خاص بهم . وتحتفظ كل جماعة منهم فى أى بلد بذاتيتهم ولا يذوبون فى غيرهم :

﴿ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

وحين يأتى بهم الحق فى الجولة الآخرة سيأتون لفيفاً أى مجتمعين ؛ لأن الأُمّة المؤمنة حين يقوّيها الله لتضرب على هؤلاء القوم ضربة لا بد أن يكونوا مُجتمعين . وكأن الله قد أراد أن يكون هذا « الوطن القومى » حتى يتجمعوا فيه وبعد ذلك يرسل الضربة عليهم لأنه جاء بهم لفيفاً ؛ لذلك لا نحزن لأنه قد صار لهم وطن ، فقد جاء بهم لفيفاً .

ونعود إلى الآية التى نحن بصددها . كيف يكون النفى من الأرض ؟ حين يريد الله تحييز مكان فهو يقول على سبيل المثال :

﴿ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ﴾

(من الآية ٢١ سورة المائدة)

إذن فقد نفى غيرها . وهو يقول أيضاً :

﴿ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ﴾

(من الآية ١١٠ سورة الأعراف)

وكان المقصود بها مصر .

فإذا أخذنا الأرض بالمعنى العام فحكمها حُكم « اسكنوا الأرض » . والنفى هو صورة من صور العقوبات للإفساد ، والإفساد فى الأرض ينقسم إلى أربعة أقسام ؛ قتل ، قتل وأخذ مال ، أخذ مال فقط ، ترويع . وقد زاد رسول الله صلّى الله عليه وسلم شيئاً وفعله فى سيرته ، فقد جاء لنا بأمر جديد فى أمر الإفساد . وكان على

العلماء أن يتنبهوا له ، فأول نفى حصل فى الإسلام كان نفى رسول الله الحَكَم بن أبى العاص من المدينة إلى الطائف ؛ لأن الحكم ـ والعياذ بالله ـ كان يُقلّد مِشْيَة النبىّ باستهزاء ، وكان النبى صلّى الله عليه وسلم إذا مشى تكفأ تكفؤاً كأنما يَتحدَّر من صَبَب . فقد كانت مشية النبى مشية خاصة . وعلم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الحَكَمَ يقلد مِشيته فى استهزاء والتفت النبى ـ ذات مرة ـ فجأة ، فوجد الحكم يقلده فى مِشيته فنفاه من المدينة إلى الطائف ، وظل الحكم فى الطائف طوال حياة رسول الله صلىّ الله عليه وسلم . فلما جاءت خلافة أبى بكر الصديق ، ذهب أهل الحَكَم إلى أبى بكر ، فقال :

ـ ما كنت لأحلّ عقدة عقدها رسول الله صلى الله عليه وسلم . وذهبوا إلى عمر بن الخطاب فلم يوافق . وعندما جاءت خلافة عثمان وكان رضى الله عنه حَيياً وخجولاً فقال : لقد أخذت كلمة من رسول الله صلىّ الله عليه وسلم تحمل شبهة الإفراج عنه . ويفرج عنه عثمان بن عفان رضى الله عنه .

وأثناء حياة الحَكَم فى الطائف كان يربى بعض شُويهات وبعض غُنيمات وكان يرعاها عند جبيلات الطائف . وكان لهذه المسألة آثار من بعد ذلك . فأنتم تعلمون أن معاوية رضى الله عنه أنجب يزيد الذى تولّى الخلافة من بعده . وانتقلت الخلافة بعد يزيد لآل مروان بن الحَكَم .

وكان خالد بن يزيد الذى ترك الخلافة لمروان عالماً كبيراً فى الكيمياء وله أخ اسمه عبدالله ، وكان لعبدالله جياد يتسابق بها . وكان لولد من أولاد عبدالملك بن مروان جياد أيضاً ، وجرت جياد عبدالله مع جياد ابن عبدالملك فى مضمار سباق ، فلما جاءت خيل عبدالله لتسبق . . حدث خلاف بين عبدالله وابن عبدالملك ؛ فنهر ابن عبدالملك عبدالله ، فذهب عبدالله واشتكى لأخيه خالد . وهنا ذهب خالد لعبدالملك بن مروان ، وقال له :

ـ لقد حدث من ابنك لأخى كذا وكذا . وكان عبدالملك فصيحاً فى العرب وما جربوا عليه لحناً أبداً . وربّى أولاده على ألا يلحنوا فى اللغة . وكان له ولد اسمه الوليد غير قادر على استيعاب النطق الصحيح للغة دون لحن .

فلما دخل خالد إلى عبدالملك أراد أن يجد فيه شيئاً يعيبه به ، قال عبدالملك لخالد : أتكلمنى فى عبدالله وقد دخل علىّ آنفاً فلم يخل لسانه من اللحن ؟

وقال خالد ـ معرضا بالوليد ـ : والله يا عبدالملك لقد أعجبتنى فصاحة الوليد . فقال عبدالملك : إن يكن الوليد يلحن فإن أخاه سليمان لا يلحن . فقال خالد : وإن كان عبدالله يلحن فإن أخاه خالداً لا يلحن .

فقال عبدالملك : اسكت يا هذا فلست فى العيرِ ولا فى النفير .

وأظن أن قصة العير والنفير معروفة . فالعير هى التى كانت مع أبى سفيان وعليها البضائع من الشام وتعرض لها رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم نجا بها أبو سفيان . والنفير هم الجماعة التى استنفرها أبو سفيان من مكة لأنه خاف من المسلمين وكانت زعامتهم لعتبة . فالعير كانت زعامته لأبى سفيان والنفير كانت زعامته لعتبة بن ربيعة ، وكان عتبة هو جدّ خالد لأمه ، وأبو سفيان هو جدّه لأبيه . فقال خالد : ومن أولى بالعير وبالنفير منى ، جدّى أبو سفيان صاحب العير ، وجدى عُتْبة صاحب النفير ، ولكن لو قلت غنيمات وشويهات وجبيلات وذكرت الطائف ورحم الله عثمان لكان أولى . وأسكته .

إذن . فالنفى كان أول عقاب أنزله الرسول صلىّ الله عليه وسلم ، فهل ما فعله « الحَكَم » يُعتبر فساداً ؟ . ونقول : إن كل فساد إنما يترتب على الفساد الذى يمس رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكان الحَكَم يستهزىء بمِشية رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد يقول مُشرّع ما : إن السجنْ يقوم مقام النفى ونقول : لا ، إن السجن الآن فيه الكثير من الرفاهية . فقد كان السجن قديماً أكثر قسوة . والهدف من السجن الإبعاد لتخفيف شرور المُفسِد وإن كان لا يبعده عن مستقره ووطنه . وذلك أمر متروك للحاكم يفعله كيف يشاء وخاصة إذا لم يكن هناك أرض إسلامية متعددة . بحيث يستطيع أن ينفيه من أرض إلى أرض أخرى .

ويتبع الحق هذا بقوله : « ذلك لهم خزى فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب عظيم »

وهذا القول لاحق لعقاب محدد للمفسدين فى الأرض المحاربين لله ورسوله وهو : « أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض » . وهذه العقوبات خزى لهم .

إن كلمة « خزى » ترد فى اللغة بمعنيين ؛ مرة بمعنى الفضيحة ، « خَزِىَ ، يَخْزَى ، خِزياً » ، أى انفضح ، ومرة ثانية هى « خَزِى ، يَخْزَى ، خَزاية وَخَزْى » بمعنى استحى . والمعنيان يلتقيان ، فمادام قد افتضح أمر عبدٍ فهو يستحى مما فعل . وتلك الأفعال خزى ، كالذى قطع طريقاً على أناس آمنين ، ونقول لمثل صاحب هذا الفعل : إن قوّتك ليست ذاتية بل قوّة اختلاسية ؛ فلو كانت قُوّتك ذاتية لاستطعت أن تتأبّى لحظة أن يأخذوك ليقتلوك أو يصلبوك أو يقطعوا يدك ورجلك . فقد اجترأت على العُزَّل الذين ليست لهم استطاعة الدفاع عن أنفسهم ، وفى هذا خزى لك . خصوصاً وأنت ترى من كانوا يخافونك وأنت تنال العقاب . وخزيك الآن هو مقدمة لعذاب آخر فى الآخرة ، فسوف تنال عذاباً عظيماً .

« ذلك لهم خزى فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب عظيم » . وكل جزاء فى الدنيا إنما يأتى على قدر طاقات البشر فى العقاب ، ولكن ماذا إذا وكُلّوا إلى طاقة الطاقات ؟ . ها هى ذى عدالة الحق تتجلّى ، فهو سبحانه وتعالى يفسح المجال للمُسرفين على أنفسهم ؛ أولاً بالتوبة ؛ لأن الله الرّحيم بعباده لو أخذ كل إنسان بجريرة فعلها أو عاقب كل صاحب ذنب بذنبه لاستشرى فى الأرض فساد كل من ارتكب ذنباً لأنه يئس من رحمة الله فتشتد ضراوته وقسوته . وسبحانه فتح باب التوبة لكل من أسرف على نفسه . وإن لم توجد التوبة لصار المُسرف فاقِدا . وهب أن واحداً من الذين فعلوا ذلك استيقظ ضميره ، فإن تاب قبل أن تقدروا عليه فهناك حُكْم ، أما إن تاب بعد أن يقدر عليه المجتمع فلا توبة له .

ويقول الحق :

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ ۖ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾

ومادام الإنسان قد تاب وقام بتسليم نفسه دون أن يقدر عليه المجتمع فقبول التوبة حَقٌّ له ، ويجب أن نأخذ « أن الله غفورٌ رحيم » فى نطاق ما جعله الله لنفسه ، أما ما جعله الله لأولياء المُعتدى عليهم فلا بد من العقاب للمعتدى إن طلبه أصحابه .

« إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن الله غفورٌ رحيم » . والقرآن يجعل من المنهج الإيمانى عجينة واحدة . لذلك يُقسّم المسائل إلى فصول كالتقنينات البشرية التى تُبوّب ؛ لذلك نجد القرآن يعامل الأقضية وكأنها فُرص استيقاظ للنفس ؛ لذلك يأخذ النفس إلى أمرٍ توجيهى بالطاعة .

وضربنا من قبل المثل حينما تكلم القرآن عن مسائل الأسرة فى سورة البقرة :

﴿ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾ ﴾

(سورة البقرة)

ومن بعد ذلك يأتى إلى أمر الصلاة :

﴿ حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ۖ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾ ﴾

(سور البقرة)

وضع الله ـ إذن ـ الصلاة بين أمرين من أمور الأسرة ، حيث قال من بعد أمره بالحفاظ على الصلاة حتى أثناء القتال :

﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ۚ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ ﴾

(من الآية ٢٤٠ سورة البقرة)

وجاء بأمر الحفاظ على الصلاة بين المشكلات الأسرية ، وذلك ليجعل الدين لبنة واحدة ، وأيضاً لأن النفس المشحونة بالبغضاء وزِحام أمور الزواج والوصيّة والطلاق ؛ هذه النفس عندما تقوم إلى الصلاة لله فهى تهدأ . ولنا فى رسول الله صلىّ الله عليه وسلم أسوةٌ حسنة . فقد كان إذا حَزَبَه أمرٌ واشتد عليه قام إلى الصلاة .

إذن فالحق سبحانه وتعالى لا يأتى بأمور الدين كأبواب منفصلة ، باب للصلاة ، وآخر للصوم ، وثالث للزكاة ، لا . بل يمزج كل ذلك فى عجينة واحدة . ولذلك فعندما أنزل بالمفسدين المحاربين لله عقاب التقتيل والتصليب والتقطيع والنفى . كان ذلك لتربية مهابة الرُّعب فى النفس البشرية . وساعة يستيقظ الرُّعب فى النفس البشرية يقول الحق :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَـٰهِدُوا۟ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

لقد أخرجنا من جَوٍّ صارمٍ وحديث فى عقوباتٍ إلى تقوى الله . والتقوى ـ كما نعرف ـ أن يجعل الإنسان بينه وبين ما يؤذيه وقاية .

وعرفنا أن الحق سبحانه الذى يقول « اتقوا الله » هو بعينه الذى يقول « اتقوا النار » ، وعرفنا كيف نفهم تقوى الله . بأن نجعل بيننا وبين الله وقاية . وإن قال قائل :

إن الحق سبحانه يطلب منا أن نلتحم بمنهجه وأن نكون دائماً فى معيَّته . فلنجعل الوقاية بيننا وبين عقابه . ومن عقابه النار .

إذن فقوله الحق : « يا أيها الذين آمنوا اتّقوا الله » أى أن نتقى صفات الجلال ،

والنار من خلق الله وجنده . وقوله سبحانه : « وابتغوا إليه الوسيلة » أى نبحث عن الوُصْلة التى تُوصّلنا إلى طاعته ورضوانه وإلى محبّته . وهل هناك وسيلة إلا ما شرَّعه الله سبحانه وتعالى ؟ وهل يتقرَّب إنسان إلى أى كائن إلا بما يعلم أنه يُحبّه ؟ .

وعلى المستوى البشرى نحن نجد من يتساءل : ماذا يُحب فلان ؟ . فيقال له : فلان يُحب ربطات العُنق ؛ فيُهديه عدداً من ربطات العُنق . ويقال أيضاً : فلان يحب المسبحة الجيدة ، فيحضر له مسبحة رائعة . إذن كل إنسان يتقرّب إلى أى كائن بما يُحب ، فما بالنا بالتقرب إلى الله ؟ . وما يُحبه سبحانه أوضحه لنا فى حديثه القدسى :

(من عادى لى وليًّا فقد آذنته بالحرب ، وما تقرّب إلىَّ عبدى بشىء أحبّ إلىَّ مما افترضته عليه ، وما يزال عبدى يتقرّب إلىَّ بالنوافل حتى أحبّه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها ، وإن سألنى لأعطينه ولئن استعاذنى لأعيذنه)[1] .

فالحق سبحانه وتعالى يفسح الطريق أمام العبد ، فيقول سبحانه فى الحديث القدسى :

(ما يزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل) .

أى أن العبد يتقرب إلى الله بالأمور التى لم يلزمه الحق بها ولكنها من جنس ما افترضه سبحانه ، فلا ابتكار فى العبادات . إذن فابتغاء الوسيلة من الله هى طاعته والقيام على المنهج فى « افعل » و« لا تفعل » .

والوسيلة عندنا أيضاً هى منزلة من منازل الجنة . والرسول صلّى الله عليه وسلم طلب منا أن نسأل الله له الوسيلة فقال :

(إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ثم صلّوا علىّ فإنه من صلّى علىَّ صلاة

---

(١) رواه البخارى فى الرقاق ، ورواه ابن ماجه فى العين .

صلى الله عليه بها عشراً ثم سلوا الله لى الوسيلة فإنها منزلة فى الجنة لا تنبغى إلا لعبدٍ من عباد الله وأرجو أن أكون أنا هو فمن سأل الله لى الوسيلة حلّت له الشّفاعة)[1] .

ولا نريد أن ندخل هنا فى مجال التوسل بالنبى أو الأولياء ؛ لأنها مسألة لا يصح أن تكون مثار خلاف من أحد . فبعضهم يحكم بكفر هؤلاء .

ونقول لمن يكفر المتوسلين بالنبى أو الولى : هذِّبوا هذا القول قليلاً ؛ إنّ حدوث مثل هذا القول هو نتيجة عدم الفهم ، فالذى يتوسل إلى الله بالنبى أو الولى هو يعتقد أن له منزلة عند الله . وهل يعتقد أحد أن الولىّ يجامله ليعطيه ما ليس له عند الله ؟. طبعا لا . وهناك من قال : إن الوسيلة بالأحياء مُمكنة ، وأن الوسيلة بالأموات ممنوعة . ونقول له : أنت تضيق أمراً مُتسعاً ؛ لأن حياة الحى لا مدخل لها بالتوسل ، فإن جاء التوسل بحضرته صلّى الله عليه وسلم إلى الله ، فإنك قد جعلت التوسل بحبك لمن علمت أنه أقرب منك إلى الله ؛ فحُبك له هو الذى يشفع . وإياك أن تظن أنه سيأتى لك بما لا تستحق .

والجماعة التى تقول : لا يصح أن نتوسل بالنبى ؛ لأن النبى انتقل إلى الرفيق الأعلى ، نقول لهم : انتظروا قليلاً وانتبهوا إلى ما قال سيدنا عُمر ـ رضوان الله عليه ـ ؛ قال : كنا فى عهد رسول الله إذا امتنع المطر نتوسل برسول الله ونستسقى به . ولما انتقل رسول الله صلّى الله عليه وسلم ، توسل بعمه العباس . وقالوا : لو كان التوسل برسول الله جائزاً بعد انتقاله لما عدل عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ عن التوسل بالنبى بعد انتقاله ، وذهب إلى التوسل بعم النبى . ونسأل : أقال عمر « كنا نتوسَّل بنبيك والآن نتوسَّل إليك بالعباس؟أم قال:والآن نتوسل إليك بعم نبيك » ؟ .

ولذلك فالذين يمنعون ذلك يوسعون الشقة على أنفسهم ؛ لأن التوسُّل لا يكون بالنبى فقط ولكن التوسل أيضاً بمن يمت بصلة إلى النبى صلّى الله عليه وسلم . فساعة يتوسل واحد إلى غيره يعنى أنه يعتقد أن الذى توسل به لا يقدر على شىء، إننى أتوسل به إلى الغير لأنى أعرف أنه لا يستطيع أن ينفذ لى مطلوبى . إذن فلنبعد

---

(١) رواه أحمد ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى .

مسألة الشرك بالله عن هذا المجال ، ونقول : نحن نتوسل به إلى غيره لأننا نعلم أن المتوسل إليه هو القادر وأن المتوسل به عاجز . وهذا هو منتهى اليقين ومنتهى الإيمان .

ولكن المتوسَّل به قد ينتفع وقد لا ينتفع ، وعندما توسَّل سيدنا عمر بالعباس عَمّ النبى كان يفعل ذلك من أجل المطر . والمطر فى هذه الحالة لا ينتفع به رسول الله لذلك جاء بواحدٍ من آل البيت وكأنه قال : « يا ربِّ عمُّ نبيك عطشان فمن أجله نريد المطر » .

إذن فتوسُّل عمر بن الخطاب بعم النبى دليل ضد الذين يمنعون التوسل بالنبى بعد الانتقال إلى الرفيق الأعلى . وحتى نخرج من الخلاف . نقول : إن العمل الصالح المتمثل فى « افعل كذا » و« لا تفعل كذا » هو الوسيلة الخالصة . وبذلك نخلص من الخلاف ولا ندخل فى متاهات .

« ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة وجاهدوا فى سبيله لعلكم تفلحون » ولنر الإيثار الإيمانى الذى يريد الحق أن يُربّيه فى النفس المؤمنة بتقوى الله التى تتمثل فى الابتعاد عن مَحارِمه ، وابتغاء الوسيلة إلى الله فى اتباع أوامرِه .

إن الدِّين لم يأتِكَ من أجل نفسك فحسب ، ولكن إيمانك لن يصبح كاملاً إلا أن تُحب لأخيك ما تحبه لنفسك ، فإن كنت قد أحببت لنفسك أن تكون على المنهج فاحرص جيداً على أن يكون ذلك لإخوانك أيضاً . وإخوانك المؤمنون ليسوا هم فقط الذين يعيشون معك ، ولكن هم المقدر لهم أن يوجدوا من بعد ذلك . ولذلك عليك أن تجاهد فى سبيل الله لتعلو كلمة الله . وهكذا تتّسع الهِمَّةُ الإيمانية ، فلا تنحصر فى النفس أو المعاصرين للإنسان المؤمن . ولذلك يضع لنا الحق الطريق المستقيم ويوضحه ويبيّنه لنا .

وكانت بداية الطريق أن المؤمن بالله حينما وثق بأن لله نعيماً وجزاءً فى الآخرة هو خير مما يعيشه قدَّم دمه واستشهد ؛ لذلك قال صحابى جليل : أليس بينى وبين الجنة إلا أن أدخل هذه المعركة فإما أن أقتلهم وإما أن يقتلونى . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم .

وألقى الصحابى تمرات كان يأكلها ودخل المعركة .

لا بد إذن أنه قد عرف أن الحياة التى تنتظره خير من الحياة التى يعيشها ؛ ومع ذلك لم يضع الله الجهاد كوسيلة فى أول الأمر ، بل ظل يأمرهم بالانتظار والصبر حتى يُرَبِّىَ من يحملون الدعوة . فلن يجعلها سبحانه عملية انتحارية .

وبعد ذلك نرى أثناء رحلة الدعوة للإسلام أن صحابياً يحزن لأنه فى أثناء القتال قد أفلت منه عَمرو بن العاص ، وأن خالد بن الوليد قد هرب . وتثبت الأيام أن البشر لا يعرفون أن علم الله قد ادّخر خالداً وأنجاه من سيف ذلك الصحابى من أجل أن ينصر الإسلام بخالد . وكذلك عَمرو بن العاص قد ادَّخره الله إلى نصرٍ آخر للإسلام .

إذن فالجهاد فى سبيل الله ضمانٌ للمؤمن أن يظل المنهج الذى آمن به موصولاً إلى أن تقوم الساعة ، وذلك لا يتأتّى إلا بإشاعة المنهج فى العالم كله . والنفس المؤمنة إذا وقفت نفسها على أن تجاهد فى سبيل الله كان عندها شىء من الإيثار الإيمانى . وتعرف أنها أخذت خير الإيمان وتُحب أن توصّله إلى غيرها ، ولا تقبل أن تأخذ خير الإيمان وتحرم منه المعاصرين لها فى غير ديار الإسلام ، وتحرص على أن يكون العالم كله مؤمناً ، وإذا نظرنا إلى هذه المسألة نجدها تمثل الفهم العميق لمعنى الحياة ، فالناس إذا كانوا أخياراً استفاد الإنسان من خيرهم كله ، وإذا كانوا أشراراً يناله من شرِّهم شىء .

إذن فمن مصلحة الخيِّر أن يشيع خيره فى الناس ؛ لأنه إن أشاع خيره فهو يتوقع أن ينتفع بجدوى هذا الخير وأن يعود عليه خيره ؛ لأن الناس تأمن جانب الرجل الطيب ولا ينالهم منه شر . لأنه يحب أن يكون كل الناس طيبين وعلى ميزان الإيمان ؛ لأنهم إن كانوا على ميزان الإيمان فالطيب يستفيد من خيرهم . أما إن بقى الناس على شرِّهم وبقى الإنسان الطيب على خيره ، فسيظل خير الطيب مبذولاً لهم ويظل شرُّهم مبذولاً للطيب .

إذن من حكمة الإيمان أن « يعدّى » الإنسان الخير للغير . وإن دعوة المؤمن إلى سبيل الله ، ومن أجل انتشار منهج الله لا بد من الإعداد لذلك قبل اللقاء فى

ساحات المعارك ؛ فقبل اللقاء مع الخصم فى ساحة المعركة لا بد من حُسْنِ الإعداد . وعندما يعدّ المؤمن نفسه يجد أن حركة الحياة كلها تكون معه ؛ لأن الدعوة إلى الله تقتضى سُلوكاً طيباً ، والسُلوك الطيب ينتشر بين البشر ، وهنا يقوى معسكر الإيمان ، فيرتقى سلوكاً وعملاً ، وعندما يقوى معسكر الإيمان يمكنه أن يستخرج كنوز الأرض ويحمى أرض الإيمان بالتقدم الصناعى والعلمى والعسكرى . والحق يقول :

﴿ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ ﴾

(من الآية ٢٥ سورة الحديد)

سبحانه أنزل القرآن وأنزل الحديد ، ويتبع ذلك :

﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ﴾

(من الآية ٢٥ سورة الحديد)

وجاء معنى البأس من أجل ذلك ، وهذا هو السبب الثانى الذى أوصانا به الحق :

إياكم أن تأخذوا منهج الله فقط الذى ينحصر فى « افعل ولا تفعل » ولكن خذوا منهج الله بما يحمى منهج الله وهو التقدم العلمى باستخراج كنوز الأرض وتصنيعها كالحديد مثلاً ، فسبحانه كما أنزل القرآن يحمل المنهج ، فقد أنزل الحديد وعلى الإنسان مهمة استنباط الحديد والمواد الخام التى تُسَهِّل لنا صناعة الأجهزة العلمية ونقيم المصانع التى تنتج لنا من الحديد فولاذاً ، ونحوِّل الفولاذ إلى دروع ، ونصنع أدق الأجهزة التى تهيِّىء للمقاتل فُرصة النصر . وكذلك نَدّخر المواد الغذائية لتكفى فى أيام الحرب .

إذن حركة الحياة كلها جهاد ، وإياك أن تقصر فكرة الجهاد عندك على ساحة المعركة ، ولكن أعدّ نفسك للمعركة ؛ لأنك إن أعددت نفسك جيّداً وعلم خصمك أنك أعددت له ، ربما امتنع عن أن يحاربك . والذى يمنع العالم الآن من معركة ساخنة تدمره هو الخوف من قِبَل الكتل المتوازنة لأن كل دولة تُعدّ نفسها للحرب . ولو أن قوة واحدة فى الكون لهدمت الدنيا .

وقول الحق : « وجاهدوا فى سبيله » نأخذه على أنه جهاد فى سبيل منهج الله ؛

وندرس هذا المنهج ونفهمه وبعد ذلك نجاهد فيه باللسان وبالسِّنان ، ونجاهد فيه بالكتاب ونجاهد فيه بالكتيبة .

إذن فقوله الحق : « وجاهدوا فى سبيله » يصنع أمة إيمانية مُتحضرة ، حتى لا تترك الفرصة للكافر بالله ليأخذ أسباب الله وأسراره فى الكون . فمن يعبد الإله الواحد أولى بسرّ الله فى الوجود ، ولو فرضنا أنه لن تقوم حرب ، لكننا نملك المصانع التى تنتج ، وعندنا الزراعة التى تكفى حاجات الناس ، عندئذ سنحقق الكفاية . وما لا تستعمله فى الحرب سيعود على السلام . ويجب أن تفهموا أن كل اختراعات الحياة التقدمية تنشأ أولاً لقصد الحرب . وبعد ذلك تهدأ النفوس وتأخذ البشرية هذه الإنجازات لصالح السلام .

ومن بعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ ﴾

الحق سبحانه تحدث من قبل عن العقوبات والقصاص والتقتيل والتقطيع ، ثم ينقلنا من هذا الجو إلى أن نتقى الله ونبتغى إليه الوسيلة ونجاهد فى سبيله حتى نفلح ، وكان لا بد أن يأتى لنا الحق بالمقابل ، فالعقاب الذى جاء من قبل كقصاص وقتل هو عقاب دنيوى . ولكن ما سيأتى فى الآخرة أدهى وأمرّ .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ ﴾

(سورة المائدة)

ولنا أن نتصور الجماعة الكافرة التى تتكبر فى الدنيا ويعتلون ويرتفعون بالجبروت ،

فماذا عن موقفهم يوم القيامة ؟ . لقد أقمتم الجبروت بقوَّتكم على غيركم ، وها هى ذى القُوّة تضيع وتفلت . لقد كانت القوة تعيش معكم فى الدنيا بالأسباب الممنوحة من الله لكم . ولم تَضنّ عليكم سُننْ الله أن ترتقوا ، وسبحانه قد خلق السُنَن ومن يبحث فى أسباب الله ، ينلْ نتيجة ما بذل من جهد ، لكن ها هوذا يوم القيامة ، وها أنتم أولاء تعرفون أن الأسباب ليست ذاتية . وأن قوَّتكم لم تكن إلا عطاءً من الله . ها أنتم أولاء أمام المشهد الحىّ ، فلو أن ما فى الدنيا جميعاً معكم وحتى ولو كان ضعف ما فى الدنيا وتريدون أن تقدِّموه فِدْيةً لكم من عذاب جهنم فالله لا يتقبله ، وتلك قِمَّة الخِزْى ، ولن يستطيعوا تخليص أنفسهم من عذاب جهنم .

وهذا المشهد يجعل النفس تستشعر أن المسألة ليست لعباً ولا هزلاً ، ولكن هى جِدّ فى منتهى الجِدّ . وعلى الإنسان أن يقدِّر العقوبة قبل أن يستلذّ بالجريمة . والذى يجعل الناس تستشرى فى الإسراف على أنفسهم ، أن الواحد منهم يعزل الجريمة عن عقوبة الجريمة . ولو قارن الإنسان قبل أن يسرف على نفسه العقوبة بالجريمة لما ارتكبها . وكذلك الذى يكسل عن الطاعة ؛ لو يقارن الطاعة بجزائها لأسرع إليها .

وأضرب هذا المثل ـ ولله المثل الأعلى ـ نفترض أن إنساناً فى صحراء نظر إلى أعلى الجبل ورأى شجرة تفاح ، واسْتَدَلّ على التفاح بأن رأى تُفاحة عَطبة واقعة على الأرض ، وقال الرجل لنفسه : هأنذا أرى مصارع الناس ؛ فهذا يصعد إلى الجبل فيقع من على حافته . وذلك تهاجمه الذئاب . وثالث يتوه عن الطريق . كل ذلك على أمل أن فى الشجرة ثماراً . ولا بد لى من أن أختار الطريق السليم إلى الثمار . والطريق إلى ثمار الدنيا الطاعة لمنهج الله ، وهو الطريق إلى ثمار الآخرة .

وأيضاً : الطالب المجتهد الذى يتغلب على النعاس ويتوضأ ويُصلّى ويخرج إلى مدرسته فى برد الشتاء ليحصل الدروس . ويعود إلى المنزل لتقدّم له أمه الطعام ، ولكنه مشغول بالدرس . إن هذا الشاب يستحضر نتيجة هذا الجهد ؛ لذلك فكل تعب فى سبيل التعلّم صار سهلاً عليه ، ولو أهمل ونام ولم يقم مبكراً إلى المدرسة ، وإن استيقظ وخرج من المنزل ليتسكع فى الطرقات مع أمثاله ؛ يكون فى مثل هذه الحالة غير مُقدِّر للنتيجة التى تقوده إليها الصَّعْلَكة . والعيب فى البشر أنهم يعزلون

العمل عن نتيجته ، ويفصلون بين الجريمة وعقوبتها ، والطاعة عن ثوابها . إنّنا لو وضعنا النتيجة مقابل العمل لما ارتكب أحد معصية ولا أهمل أحد فى طاعة .

ولنا أن نتصور مشهد الجبارين فى الدنيا وهم فى نار الآخرة ، هم بطشوا فى الدنيا ونهبوا، ولنفترض أن الواحد منهم قد امتلك كل ما فى الدنيا ـ على الرغم من أنّ هذا مستحيل ـ وفوق ذلك أخذ مثل ما فى الدنيا معه ويريد أن يقدمه افتداء لنفسه من عذاب جهنم فيرفضه الحق منه « ما تقبل منهم ولهم عذاب أليم » وتلك هى قمة الخزى التى يجب أن يبتعد عنها الإنسان .

وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾ ﴾

وكلما مَسَّهم لفحُ النار يريدون أن يخرجوا منها ، لكن كيف تأتى لهم إرادة الخروج من النار . لا بد ـ إذن ـ أن لحظة لفحها عليهم وتقلبهم هنا وهناك تدفعهم ألسنة اللهب إلى القرب من الخارج فيظنون أن العذاب قد انتهى . ألم يقل الحق سبحانه من أجل أن يضع أمامنا التجسيد الكامل لبشاعة الجحيم :

﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الكهف)

هذا القول يُوحى أولاً بأن رحمةً ما ستصل إليهم ، ولكن ما يأتى بعد هذا القول يرسم الهول الكامل ويجسده :

﴿ يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الكهف)

وهذه قمة الهول . وهناك فرق بين الابتداء المُطمع والانتهاء المُوئِس .

مثال ذلك السجين العطشان الذى يطلب كوب ماء . ويستطيع السجّان أن يقول له : لا. ليس هناك ماء .أما إذا أراد السجان تعذيبه بأكثر من ذلك فهو يقول له : سآتى لك بالماء ويحضر له كوباً من ماء زلال ، ويمد السجين يده لكوب الماء ، لكن السجان يسكب كوب الماء أرضاً . هذا هو الابتداء المُطْمع والانتهاء المُوئِس . وكذلك رغبتهم فى الخروج من النار ؛ فلا إرادة لهم فى الخروج إلا إذا كانت هناك مظنة أن يخرجوا نتيجة تقليب ألسنة اللهب لهم ، ولذلك يقول الحق أيضاً عن هؤلاء :

﴿ فَبَشِّرْهُم ﴾

(من الآية ٢١ سورة آل عمران)

وتثير البُشرى فى النفس الأمل فى العفو ، فيفرحون ولكن تكون النتيجة هى :

﴿ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾

(من الآية ٢١ سورة آل عمران)

وهكذا يريد لهم الحق صدمة الألم الموئس بعد الرجاء المطمع .

﴿ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾ ﴾

(سورة المائدة)

وبعد ذلك ينقلنا الحق إلى قوله سبحانه :

﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ ﴾

جاء الحق من قبل بعقاب قطاع الطريق والمفسدين فى الأرض ، وهنا يأتى بقضية أخرى يريد أن يصون بها ثمرة حركة المؤمن فى مجتمعه ؛ لأن الإيمان يجب من المؤمن أن يتحرك ، وحتى يتحرك الإنسان لا بد أن يضمن الإنسان ثمرة حركته . أما إن تحرك الإنسان وجاءت الثمرة ثم جاء من يأخذها فلا بد أن يزهد المتحرك فى

الحركة ، وحين يزهد الإنسان فى الحركة يتوقف تقدم الوجود ؛ لذلك من حظنا أن تستمر حركة الحياة ، ولا تستمر حركة الحياة إلا إذا أمن الإنسان على حركته ، وأن تكون حركته فيما شرع الله .

وحين يتحرك الإنسان فيما شرع الله ويكسب من حلال ؛ فليس لأحد دخل ؛ لأن حركة هذا الإنسان تفيد المجتمع سواء أكان ذلك فى باله أم لم يكن .

وقلنا من قبل : إن الرجل الذى يملك مالاً يكتنزه يجد الحق يأمره بأن يستثمر هذا المال ؛ لأنه سبحانه أمر بفتح أبواب الخير لمن يجد المال ، فيدفع بخاطر بناء عمارة شاهقة فى قلب صاحب المال ، فيقول الرجل لنفسه : إن المال عندى مكتنز فلأبنى لنفسى عمارة ، ويزين له الحق هذا الأمر . ويفكر الرجل فى أن يبنى عمارة من عشرة طوابق وفى كل طابق أربع شقق ، وليكن إيجار كل شقة مائة جنيه . وهو حصيلة شهرية لا بأس بها .

لقد حسب الرجل المسألة وهو لا يدرى أن الله سبحانه وتعالى يقذف فى باله الخواطر ، فيُسرع ليشترى قطعة الأرض . وبعد ذلك يأتى بمن يُصمّم بنيان العمارة ومن يقوم بالبناء ، وتخرج النقود المكتنزة . وهكذا نرى أن الثرى قبل أن ينتفع بعمارته كان غيره قد انتفع بماله حتى أكثر طبقات المجتمع فقرا . ويحدث كل ذلك بمجرد الخاطر . ولكل إنسان خواطره ، فالبخيل له من يسرف فى ماله ، والكريم له من يكتنز من ماله . وإياك أن تظن أن هناك حركة فى الوجود خارجة عن إرادة الله . فالحق يقول :

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ ﴾

(من الآية ٨٩ سورة آل عمران)

وهم يفعلون ذلك لأن الذنوب تطاردهم ، فيعوضون ذلك بإصلاح أعمالهم . ولذلك نجد أن الخير إنما يأتى من المسرفين على أنفسهم فيريدون إصلاح أمورهم وليس هناك من يستطيع أن يأخذ شيئاً من وراء الله .

﴿ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾

(من الآية ١١٤ سورة هود)

كأن الحق سبحانه وتعالى بمجرد الخواطر يدفع الناس إلى ما يريد . نعم . فهو غيب قيّوم ؛ ولذلك يكون تدبيره فى الكون غيباً . وفى قرانا يخصّصون يوماً للسّوق ونرى ساحته فى اليوم المُخصص ونتأملها فنتعجب من إبداع مُحرّك الكون ؛ ففى الصباح يسير رجال إلى السوق ومعهم عصيّهم ولا يحملون شيئاً . وهؤلاء ذاهبون لشراء ما يحتاجون إليه ، وآخرون يسوقون أمامهم العجول أو الحمير ، وهؤلاء يذهبون لبيع بضائعهم . ونرى نساء تحمل كل واحدة منهُن صنفاً من الخضار فنعرف أنهن يذهبن للبيع فى السوق . ونرى أخريات يحملن سِلالاً فارغة ، ونعرف أن كلاً منهن ذاهبة للشراء . وفى آخر النهار نرى المسألة معكوسة ، من كان يحمل فى الصباح شيئاً حمله غيره ، فمن الذى هيّج الخواطر ليذهب من يرغب فى البيع إلى السوق ليبيع ؟

من الذى حرّك الشارى للشراء ؟ هو الحق سبحانه يحقق للرّاغب فى البيع أن يوجد المشترى ، ويحقق للراغب فى الشراء أن يوجد البائع . إنه ترتيب الحىّ القيّوم . ونسمع من يقول : لقد أنزلنا فى السوق اليوم عشرين طناً من الطماطم وأربعين طناً من الكوسة . وغيرها من الأطنان . ونجد آخر النهار أن كل شىء قد بيع . إنها خواطر الله المتوازنة فى الناس والتى توازن المجتمع .

إذن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يحمى حركة المُتحرّك . ويُريد أيضاً ألاّ يقتات الإنسان أو يتمتّع بغير مجهود ؛ لأن من يسرق إنما يأخذ مجهود غيره . وهذا الفعل يُزَهِّدُ الغير فى العمل .

إن فى الإسلام قاعدة هى : عندما تكثر البطالة يقال لك لا تتصدق على الناس بنقود من ملكك ، ولكن افتح أى مشروع ولو لم تكن فى حاجة إليه كأن تحفر بئراً وتردمها بعد ذلك وأعط الأجير أجره حتى لا يتعوّد الإنسان على الكسل ، بل يجب تعويده على العمل ، ومن لا يقدر على العمل فلا بد له من ضمان . فضمان الإنسان لقوته يكون من عمله أولاً ، فإن لم يكن قادراً على العمل ، فضمانه من أسرته وقرابته ، فإن لم توجد له أسرة أو قرابة ، فأهل محلّته مسئولون عنه ، وإن لم يستطع أهل القرية أو المحلّة أن يوفّروا له ذلك ، فبيت المال عليه أن يتكفّل بالفقراء .

إذن فالأرضية الإيمانية تَحُثّنا على أن نضمن للإنسان العمل ، أو نعوله ونقوم بما

يحتاج إليه إن كان عاجزاً . ولكن الآفة أن بعضاً من الناس يحبُّون عملاً بذاته ، فهذا يرغب فى التوظّف فى وظيفة لا عمل فيها ، ونقول له :

فى العالم المعاصر أزمة عمالة زائدة فتعلّم أى مهارة ؛ فما ضنت الحياة أبداً على طالب قوت من عمل .

ولنا فى رسول الله صلّى الله عليه وسلم الأُسْوَة حين أقام أول مزادٍ فى الإسلام . عندما جاء له رجلٌ من الأنصار يسأله ، فقال له :

(أما فى بيتك شىء . قال الرجل : بلى ، حِلْسٌ نلبس بعضه ونبسط بعضه ، وقَعْبٌ ـ أى قدح ـ نشرب فيه من الماء . قال : إيتنى بهما . فأتاه بهما . فأخذهما رسول الله صلّى الله عليه وسلم بيده وقال : من يشترى هذين ؟ قال رجل : أنا آخذهما بدرهم . قال : من يزيد على درهم ؟ ـ مرتين أو ثلاثاً ـ قال رجل : أنا آخذهما بدرهمين . فأعطاهما إياه ، وأخذ الدرهمين وأعطاهما للأنصارى وقال : اشتر بأحدهما طعاماً فانبذه ـ أى ألْقِهِ ـ إلى أهلك ، واشتر بالآخر قَدُوماً فائتنى به)[1] .

إذن أشار النبى صلّى الله عليه وسلم على الرجل وأمره بأن يحضر الحِلْس الذى ينام عليه والقدح الذى يشرب فيه ، حتى يعرف الرجل أنه تَاجَر فى شىء يملكه ، لا فى عطاء من أحد . وجاء الرجل إلى حضرة النبى عليه الصلاة والسلام ووجد أن النبى قد سوّى له يداً للقدوم وقال للرجل :

(اذهب فاحتطب وبعْ ، ولا أرينَّك خمسة عشر يوماً)[2] .

وذهب الرجل يحتطب ويبيع امتثالاً لأمر النبى صلّى الله عليه وسلم وجاء بعد خمسة عشر يوماً وقد أصاب عشرة دراهم ، فاشترى ببعضها ثوباً وببعضها طعاماً .

فقال النبى صلّى الله عليه وسلم :

(هذا خير لك من أن تجىء المسألة نكتة فى وجهك يوم القيامة)[3] .

---

(١) رواه أبو داود فى الزكاة ، وابن ماجه فى التجارات ورواه أحمد .

(٢) ، (٣) رواه أحمد وأبو داود فى الزكاة وابن ماجه فى التجارات .

هذه هى التربية .

إذن فالغرض الأساسى أن يحمى الإسلام أفراد المجتمع ، فالذى لا يجد قُوتَه نساعده بالرأى وبالعلم والقدرة والقوة . والخير أن نعلّمهم أن يعملوا لأنفسهم . ولذلك جاء الحق لنا بقصة ذى القرنين المليئة بالعِبَر :

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ ﴾

(سورة الكهف)

أى أنه لا توجد صلة للتفاهم . ولكنهم قالوا :

﴿ قَالُواْ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ ﴾

(سورة الكهف)

وها هو ذو القرنين يعلن أنه فى غير حاجة إليهم ، ولكن يكلفهم بعمل حتى يحقق لهم مُرادهم :

﴿ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ ﴾

(سورة الكهف)

ومن العجيب أن القرآن عندما يحكى أمراً فهو لا يحكيه إلا لهدف ، هم طلبوا من ذى القرنين أن يبنى سدّاً ، لكنه اقترح أن يجعل لهم رَدماً ، ما الفرق ؟ لقد تبين من العلم الحديث أن السَدّ قد تحدث له هزّة من أى جانب فينهدم كله ، أما الرَدْم فإن حدثت له هزّة يزددْ تماسكاً . ولم يعمل ذو القرنين لهم ، ولكن علّمهم كيف يصنعون الرَّدْم ، وذلك حتى لا يعيشوا مع الإحساس بالعجز . وهكذا يُعلّمنا القرآن أن الإنسان لا بد له من عمل . لكن ماذا إن سَرَق ؟.

أولاً ما هى السَّرقة ؟ إنها أخذُ مالٍ مقوّم خفية . فإن لم يكن الأخذ خفية فهو اغتصاب ، ومرة أخرى يكون خطفاً ، ومرة رابعة يكون اختلاساً .

فالأَخْذُ له أنواع مُتعددة ؛ فالتاجر الذى يقف فى دكانه ليبيع أى شىء ، وجاء طفلٌ صغير وخطف قطعةً من الحلوى وجرى ولا يستطيع التاجر أن يطول الطفل أو أن يقدر على الإمساك به ، هذا خَطْف . أما الذى يغتصب فهو الذى قهر صاحب الشىء على أن يتركه له . أما الاختلاس فهو أن يكون هناك إنسان أمين على مال فيأخذ منه ، أما السرقة فهى أخذ لمال مقوَّم خفية وأن يكون فى حرز مثله ؛ أى يكون فى مكان لا يمكن لغير المالك أن يدخله أو يتصرف فيه إلا بإذنه . أما الذى يترك بابه مفتوحاً أو يترك بضاعته فى الشارع فهو المُقصّر ، فكما يأمرنا الشرع بألا يسرق أحد أحداً ، كذلك يأمر بعدم الإهمال ، بل لابد للإنسان أن يعقل أشياءه ويتوكّل . وسبحانه هو المُشرّع العَدْل الذى يُقيم اليقظة على الجانبين . حدّد الشّرع السرقة بما قيمته ربع دينار . وربع الدينار فى ذلك الزمن كان يكفى لأن يأكل إنسان هو وعياله ويزيد ، بل إن الدرهم كان يكفى أن يقيم أود أسرة فى ذلك الوقت .

وكيف نقوِّم ربع الدينار فى زماننا ؟ . إن كان لا يكفى لمعيشة ، فيجب أن ترفع النصاب إلى ما يُعيش ، ومادام الدينار كان فى ذلك الزمان ذهباً ؛ فربع الدينار ترتفع قيمته . وقديماً كان الجنيه الذهب يساوى سبعة وتسعين قرشاً ونصف القرش . أما الجنيه الذهب حاليا فهو يساوى أكثر من مائتين وسبعين جنيهاً ، وقد يكون هناك إنسان يسرق لأنه محتاج أو جائع ، ولذلك وضع الشرع له قدرا لا يتجاوزه المحتاج لحفظ حياته وحياة من يعول هو الدرهم . وسرقة الدرهم لا حد فيها كما لا إثم فيها ، وذلك إذا استنفذ كل الطرق المشروعة فى الحصول على القوت ، ونعرف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطى الدرهم للرجل وقال :

(اشتر طعاماً لك ولأسرتك) .

وكان الدرهم ـ كما قلنا ـ يكفى فى ذلك الزمن . والدرهم جزء من اثنى عشر جزءا من الدينار ، فربع الدينار ثلاثة دراهم ، والدرهم يسياوى فى زمننا هذا أكثر من عشرين جنيها .

والسطحيون يقولون : إن سيدنا عمر ألغى حَدّ السّرقة فى عام الرّمادة ؛ ونقول لهم : لا . لم يسقط عمر بن الخطاب الحد ، فالحد باقٍ ولكنه لم يدخل الحادثة التى حصلت فيها يوجب الحد . والحادثة التى حدثت فى عام الرمادة أو عام الجوع هى

وجود الشبهة . وبفطنته كأول أمير للمؤمنين ، لم يدخل الحوادث فيما يوجب الحد . وفى مسألة عبدالرحمن بن حاطب بن أبى بلتعة . عندما سرق غلمانه ، فماذا حدث ؟ قال الغلمان لعمر : كنا جوعى ولم يكن ابن أبى بلتعة يعطينا الطعام . ودرأ سيدنا عمر الحَدَّ بالشُّبهة .

إذن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يحمى حركة المتحرك وثمرة حركة المتحرك . ، لكن بعض السطحيين فى الفهم يقولون مثل ما قال المعرّى :

يد بخمس مئين عسجد وُدِيَتْ
ما بالها قطعت فى ربع دينار
تناقضٌ ما لنا إلا السكوت له
وأن نعوذ بمولانا من النار

وهنا ردّ عليه العالِم المؤمن فقال :

أنت تعترض لأننا نعطى دِية اليَد خمسمائة دينار ، وعندما يسرق إنسان . نقطع يد السارق لأنها أخذت ربع دينار .

وقال العالم المؤمن :

عِز الأمانة أغلاها وأرخصها
ذُل الخيانة فافهم حكمة البارى

ونلاحظ أن التشريعات الجنائية وتشريعات العقوبات ليست تشريعات بشرية ، لكنها تشريعات فى منتهى الدقة . بالله لو أن مُقنّنا يقنن للسارق أو السارقة ، ويُقَنّن للزانى والزانية ماذا يكون الموقف ؟

إن الذى يتكلم هو رب العالمين ، فقال هنا : « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم » . والسرقة عادة ما تكون رغبة فى الحاجة وهى غالبا ما تكون من عمل الرجل . أما فى الزانى والزانية ، فلو أن الرجل لم يُهَيج ويستثر بجمال امرأة لما فكر فى الزِّنا . إذن فهى صاحبة البا ية . وينص سبحَانه على العقوبة وجاء بالحكمة . وعندما يُشرع للقصاص وهى الحالة التى يغلى فيها دم أقارب القتيل ، فيقول :

﴿ فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ﴾

(من الآية ١٧٨ سورة البقرة)

ولنر الحَنانَ الموجود فى كلمة « أخيه » . ولا نجد تقنينا يدخل التحنين بين سطوره ، إلا تقنين الرَّب الذى خلق الإنسان وهو أعلم به .

« والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما » . هذا ما انتهى إليه حَد السَّرقة فى تشريعات السماء ، وحتى فى زمن سيدنا موسى كان السَّارق يُستَرَق بسرقته ؛ أى يتحوَّل الحُرّ إلى عَبد نتيجة سرقته . ولذلك نلاحظ ونحن نقرأ سورة سيدنا يوسف :

﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ﴾

(من الآية ٧٠ سورة يوسف)

و« السقاية » هى الإناء الذى كان يشرب فيه الملك ، وكان اسمها « صواع الملك » وأخذوها ليكيلوا بها . وبعد أن جعل السقاية فى رحل أخيه ، ماذا حدث ؟

﴿ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ ﴾

(سورة يوسف)

وهنا قال إخوة يوسف بأنهم لم يأتوا ليفسدوا فى الأرض ، لذلك ترك لهم يوسف الأسلوب فى تحديد الجزاء ، ولم يحاكمهم بشرع الملك :

﴿ قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾

(سورة يوسف)

لقد جعلهم يعترفون ، ويحاكمهم حسب شريعتهم لأن شرع الملك أن من يسرق شيئا عليه أن يغرم ضعفى ما أخذ .

وهذا ما يوضح معنى قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ﴾

(من الآية ٧٦ سورة يوسف)

أى أنها حيلة ليستبقى يوسف أخاه معه . ولو استعمل قانون مصر فى ذلك الزمن لما أخذ أخاه معه . وهذا كيد لصالح يوسف ؛ لأن « اللام » تفيد الملكية أو النفعية . وأضاف إخوة يوسف قائلين :

﴿ قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ ﴾

(من الآية ٧٧ سورة يوسف)

ولماذا قالوا ذلك ؟ أصل هذه المسألة أن يوسف كان يحيا عند عمته . وعندما كبر وأرادوا أن يأخذوه أرادت العمة أن تستبقيه فدست فى متاعه تمثالاً . أو منطقة كانت لها من أبيها إسحاق وادعت أنها فقدت ذلك ؛ ففتشوا الولد فعثروا معه على الشىء الذى ادعت عمته سرقته فاستبقته بشرع بنى إسرائيل . وكان جزاء السرقة فى الشريعة هو الاسترقاق . ونُسِخ هذا الشرع وجاءت آية حد السرقة تأكيداً للنسخ . وإن لم يكن قد نُسخ فهذه الآية هى بداية للنسخ . « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاءً بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم » .

والسُّنة هى التى تبين لنا كيفية القطع ، وكان القطع لليد اليمنى؛لأنها عادة التى تباشر مثل ذلك العمل . وفى إحدى رحلاتى إلى أمريكا ، حدثنى أخ مسلم ضمن جماعة تحضر إحدى محاضراتى وقال : إن التَّيَمُّن يجب أن يكون فى كل شىء ، فلماذا يأكل البعض بيده اليسرى ؟

قلت : إن هذه مسألة تكوينية بدليل أن بعض الناس أجهزتها تختلف ، فليست المسألة ميكانيكية . وأضفت : إن من خيبة بعض الاختراعات البشرية أنها لا تخطىء كالحاسب الآلى . ولو كان ينتقى ويختار لأمكن أن يخطىء ، أما العقل فهو يعرف الانتقاء . وقلت : إننى أطلب من السائل أن يقف . فلما وقف طلبت منه أن يتقدم جهتى فلما تقدم جهتى مَد رجله اليمنى ، فقلت تعليقا على هذا : « إنه تكوين خلقى » . ولذلك فالذى عنده ولد تتأبى عليه يمينه فإياك أن تُرغِمه على ذلك لأن مثل هذه العملية أرادها الخالق لتَشُذَّ فى الخلق ، ولتظهر قدرة الخالق .

فلا داعى لقهر الابن الذى تتأبى عليه يَمينه ؛ لأن العلماء قالوا إن مراكز السيطرة ليست فى اليد ولكن فى المخ . وقد أوجد الحق تلك الأمور فى الكون حتى نفهم أن

خالق الكون لم يخلق الكون وتركه بسننه ، لا . إنه يخرق السنن كلما أراد . لكن لو تأبى إنسان على استعمال اليد اليمنى فى الأكل مثلا وهو قادر على ذلك فإنه يكون مخالفا لسنة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومجافيا للفطرة .

« فاقطعوا أيديهما جزاءً بما كسبا نكالا » وإذا سمعنا كلمة « كسب » فهى تعنى الأخذ لأكثر من رأس المال . والسارق يكسب السيئة لأنه أخذ ما فوق الضرورة . والنكال : العقاب أو هو العبرة المانعة من وقوع الجرم سواءً لمن ارتكب الجريمة وكذلك لمن يراها . والحق يقول عن بعض الأمور :

﴿ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

(من الآية ٢ سورة النور)

وضرورة الإعلان عن تنفيذ عقوبة الفعل المؤثم من أجل الاعتبار والعظة ، فالتشريع ليس من بشر لبشر ، إنما تشريع خالق لمخلوق . والخالق هو الذى صنع الصنعة فلا تتعالم على خالق الصنعة . والشريعة لا تقرر مثل هذا العقاب رغبة فى قطع الأيدى ، بل تريد أن تمنع قطع الأيادى .

وإن ظل التشريع على الورق دون تطبيق فلن يرتدع أحد . والذين قالوا « قطع الأيدى فعل وحشى » ، نقول لهم : إن يداً واحدة قطعت فى السعودية فامتنعت كل سرقة . وإذا كان القتل أنفى للقتل ؛ فالقطع أنفى للقطع ، أما عن مسألة التشويه التى يتلطنون بها فحادثة سيارة واحدة تشوه عدداً من الناس وكذلك حادثة انفجار لأنبوبة « بوتاجاز » تفعل أكثر من ذلك . فلا تنظروا إلى القصاص مفصولا عن السرقة إن انتشرت فى المجتمع . وإبطاء القائمين على الأمر للإجراءات التى يترتب عليها العقوبات يُنسى المجتمع بشاعة الجريمة الأولى ، وعندما يحين وقت محاكمة المُجرم تكون الرحمة موجودة .

لكن إن وُقِّعَ العقاب سَاعَة الجُرم تنته المسألة . وساعة يسمع اللصوص أننا سنقطع يد السارق ، سيفكر كل منهم قبل أن يسرق ولا يرتكب الجُرم ؛ لأن المُراد من الجزاء العبرة والعِظة ومقصد من مقاصد التربية وتذكرة للإنسان بمطلوبات الله عنده إن أخذته الغفلة فى سياسة الحياة فالجزاء هنا نكالا أى عقابا و« نكولا » وهو

الرجوع عن فعل الذنب أى العبرة المانعة من وقوع الجُرم . فكأن الجزاء كان المقصود منه أن يرى الإنسان من قطعت يده فيمتنع عن التفكير فى مثل ما آلت إليه هذه الحالة .

أو أن يحافظ الذى قُطعت يده على ما بقى من جوارحه الباقية ؛ لأنه قد قُطعت يمينه وإن عاد قُطِعت يساره ، فإن عاد قُطِعت رجله اليمنى ثم إن عاد قطعت رجله اليسرى ويكون النكال لمنع الرجوع للجريمة ، وهو إما رجوع ممن رأى العقوبة تقع على السارق أو الرجوع من السارق نفسه إن رأى أى جارحة من جوارحه قد نقصت . فيحرص أن تظل الجوارح الباقية له . ويعامل الحق خلقه بسُنة كونية هى : أن من يأخذ غير حقه يُحرم من حَقه . ومثال ذلك قوم من بنى إسرائيل قال الله حكما فيهم : لقد استحللتم ما حرمته عليكم فلا جزاء لكم إلا أن أضيق عليكم وأحرم عليكم ما أحللت لكم . فقال :

﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ﴾

(من الآية ١٦٠ سورة النساء)

إذن ليس فى قدرة أحد أن يضحك على الله أو أن يخدع الله أو أن يأخذ ما ليس حقا له . فإن أسرف الإنسان فى تعاطى أشياء حرمها الله عليه فسيأتى وقت يحرمه الله فيه من أشياء حللها له كالذى أسرف فى شُرب الخمر أو فى تناول المواد المخدِّرة التى تغيب عن الوعى ، يبتليه الحق بما يجعله محروماً من مُتع أخرى كانت حلالا . وإن أسرف الإنسان مثلا فى تناول الحلوى . فإن المرض يأتيه ، ويحرم الله عليه أشياء كثيرة .

ولو قاس المسرف على نفسه ما أحله لنفسه بما حرمه الله عليه لوجد الصفقة بالنسبة له خاسرة . فالذى أسرف بغير حق فى أن يأكل مال أحد ، يرى ماله وهو يضيع أمام عينيه . ولنا فى ذلك المثل . كان السادة فى الريف ـ قديما ـ يقومون بتنقية الدقيق إلى درجة عالية حتى يصبح فى تمام النقاء من « الردة » . ويسمون هذا النوع من الدقيق « الدقيق العَلاَمَة » وكانوا يأكلون منه ويتركون البقية من الدقيق مختلطا بالردة ليأكله الخدم أو الفقراء ، فتأتى فترة يُحرم الأطباء عليهم هذا الدقيق الأبيض ، ولا يجد الواحد منهم طعاما إلا الدقيق « السِّن » الذى كان يرفضه قديما فعلينا ـ إذن ـ أن ننظر إليها كقضية سائدة فى الكون كله ، ولنجعل قول الله أمامنا :

﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ﴾

(من الآية ١٦٠ سورة النساء)

فأنت إن أخذت كسب يد واحدة يحرمك الحق من يدٍ لا من كسب . فإن زدت حرمك الله من جارحة أخرى ، وهكذا . وتلك سُنَّة كونية تعدل نظام الكون بالنسبة للناس ، وخصوصا من يستبطئون جزاء الآخرة ، ومن يُغْريهم ويَغُرهم ويطمعهم حِلْم الله عليهم .

وأنت إذا ما نظرت وصنعت لنفسك رُقعة جغرافية فى البيئة التى تعيش فيها فى أسرتك ، أو حيك ، أو بلدك أو أمتك ، فأنت تجد قوما قد حرموا بأنفسهم من غير أن يحرم عليهم أحد ، فتجد واحداً مصاباً ـ والعياذ بالله ـ بالبولينا : ولا يقدر أن يأكل قطعة من اللحم ، أو آخر مصابا بمرض السكر ؛ وتراه غير قادر على أن يأكل قطعة من الحلوى ، أو ملعقة من العسل . لأن أحداً لن يستطيع أن يأخذ شيئا بدون علم الله . وصنع الله ذلك لأنه عزيز لا يُغلَب . فإياك أن تظن أن بإمكانك أخذ شيء من وراء شرع الله أو تظن انك خدعت شرع الله ، فهو سبحانه عزيز لا يُغلَب أبداً . ونرى فى حياتنا الذين يأخذون أموالاً بغير حق رشوةً أو سرقةً أو اختلاساً ، نرى مصارف هذه الأشياء أو الرشاوى أو الأموال قد ذهبت وأنفقت فى مهالك ومصائب ؛ إننا نجدها قد أخذت ما أخذوه من حرام ،ومالت وجارت على ما كسبوه من حلال . وأريد من المسرفين على أنفسهم أن يضعوا لأنفسهم كشف حساب ، فيكتبوا فى ناحية القرش الذى كسبوه من حرام ، ويكتبوا فى ناحية أخرى كل قرش كسبوه من حلال . وليشاهد كل مسرف على نفسه فى أكل حقوق الناس المصائب التى سيبتليه الله بها ، ولسوف يجد أنه قد صرف لمواجهة المصائب كل الحرام وبعضا من الحلال . ولذلك قال الأثر الصالح : « من أصاب مالا من نهاوش أذهبه الله فى نهابر »[1] .

وكنت أعرف اثنين من الناس ، ولكل واحد منهما ولد فى التعليم . وكنت أجد أحدهما يعطى ولده خمسة قروش . فيقول الابن لأبيه : « معى مصروف الأمس » .

---

(١) رواه القضاعى عن أبى سلمة الحمصى مرفوعا ، وعزاه الديلمى ليحيى بن جابر وليس صحابيا ، والمعنى من أصاب مالا من غير حله أذهبه الله فى مهالك وأمور متبدّدة .

وكان الآخر يعطى ولده عشرة قروش فيقول الابن له : « إنها لا تكفى شيئاً » . وشاء الحق أن يجمعنا نحن الثلاثة فى مكتب يتبع وزارة الرى بالزقازيق ، فلما جئنا لنخرج إذا برئيس كتاب تلك المصلحة يأتى بظرف أصفر كبير به أشياء كثيرة ويناوله لواحد منها ، فسألته : ما هذا ؟ فقال : بعض من الورق الأبيض وبعض من ورق النشاف وعدد من الأقلام حتى يكتب الأولاد واجبهم المدرسى . فقلت له : هذا سر خيبة أولادك الدراسية وإسرافهم والدروس الخصوصية التى تدفع فيها فوق ما تطيق وسر قول ابنك لك : إن القروش العشرة لا تكفى شيئا . أما الشخص الآخر فابنه يقول له : لا أريد مصروف يد اليوم لأن معى خمسة قروش هى مصروف أمس ولا أريد أن آخذ دروسا خصوصية لأنى أحب الاعتماد على نفسى .

وسبحانه الحق القيوم لا تأخذة سنة ولا نوم . ويقول لنا بلاغا :

قال أبو الجلد : « أوحى الله تعالى إلى نبى من الأنبياء : قل لقومك : ما بالكم تسترون الذنوب من خلقى وتظهرونها لى ؟ إن كنتم ترون أنى لا أراكم فأنتم مشركون بى ، وإن كنتم ترون أنى أراكم فَلِمَ تجعلوننى أهون الناظرين إليكم »[1] .

إذن قوله الحق : « جزاء بما كسبا نكالا من الله » واضح تماما ، ويردف الحق قوله هذا : « والله عزيز حكيم » . وسبحانه عزيز لا يغلبه أحد ، حتى الذى يسرق ، إنما يسرق الرزق المكتوب له ؛ لأن العلماء اتفقوا على أن الشىء المسروق رزق أيضا لأنه يُنتفَع به . ووالله لو صبر لجاءه وطرق عليه بابه . فإياكم أن تحتالوا على قدر الله ؛ لأنه حكيم فى تقديره .

وكلمة « حكيم » لها فى حياتنا قصة ، كنا ونحن فى مقتبل حياتنا التعليمية نحب الأدب والشعر والشعراء ، وبعد أن قرأنا للمعرى وجدنا عنده بعضا من الشعر يؤول إلى الإلحاد ، فزهدنا فيه وخصوصا عندما قرأنا قوله فى قصيدته :

تحطمنا الأيام حتى كأننا
زجاج ولكن لا يعاد لنا سبك

---

(١) أورده ابن رجب فى شرحه فى كتاب (جامع العلوم والحكم) .

وأخذنا من ذلك القول أنّه ينكر البعث ؛ فقلنا : يغنينا الله عنه . ولكن صديقنا الشيخ فهمى عبداللطيف ـ رحمه الله ـ رأى المعرى فى الرؤيا وكان مولعا بالمعرى ، فجاء إلى ذات صباح ونحن فى الزقازيق وقال لى : يا شيخ لقد رأيت المعرى الليلة فى الرؤيا وهو غاضب منك أنت لأنك جفوته . فقلت : أنا جفوته لكذا وكذا وأنت تعلم السبب فى ذلك . وقال الشيخ فهمى عبداللطيف : هذا ما حصل .

وقلت لنفسى : يجب أن أعيد حسابى مع المعرى ، وجئنا بدواوينه « سقط الزند » و« لزوم ما لا يلزم » . ووجدنا أن للرجل عُذراً فى أن يعتب علينا ؛ لأن آفة الناس الذين يسجلون خواطر أصحاب الفكر أنهم لا ينظرون إلى تأريخ مقولاتهم ، وقد قال المعرى قوله الذى أنكره عليه وقت أن كان شابا مفتونا بفكره وعندما نضج قال عكسه . وكثير من المفكرين يمرون بذلك ، مثل طه حسين والعقاد ، بدأ كل منهما الحياة بكلام قد يؤول إلى الإلحاد ولكنهما كتبا بعد النضج ما يحمل عطر الإيمان الصحيح ؛ لذلك لا يصح لمن يحكم عليهم أن يأخذهم بأوليات خواطرهم التى بدأوها بالشّك حتى يصلوا إلى اليقين . وجلست أبحث فى المعرى الذى قال :

تحطمنا الأيام حتى كأننا
زجاج ولكن لا يعاد لنا سبك

فوجدته هو نفسه الذى قال بعد أن ذهبت عنه المراهقة الفكرية :

زعم المنجم والطبيب كلاهما
لا تحشر الأجساد قلت إليكما
إن صح قولكما فلست بخاسر
أو صح قولى فالخسار عليكما

كأنه عاد إلى حظيرة الإيمان :

وكذلك قال المعرى :

يد بخمس مئين عسجد وُدِيَتْ
ما بالها قُطِعَت فى ربع دينار

وقال بعد ذلك :

تناقض ما لنا إلا السكوت له
وأن نعوذ بمولانا من النار

وقلت للشيخ فهمى عبداللطيف : للمعرى حق فى العتاب وسأحاول أن أعاود قراءة شعره ، والأبيات التى أرى فيها خروجا سأعدلها قليلا . وعندما جئت إلى ذلك البيت . قلت : لو أنه قال ـ وأنا أستأذنه ـ :

لحكمةٍ ما لنا إلا الرضاء بها
وأن نعوذ بمولانا من النار

فَلكل شيء حكمة . وحين نرى طبيباً يمسك طفلا قلبه لا يتحمل المُرقد ـ أى البنج ـ أثناء إجراء عملية جراحية ، فهل يظن ظان أن الطبيب ينتقم من هذا الطفل ؟ طبعا لا ، إذن فلكل شيء حكمة ، ويجب أن ننظر إلى الشيء وأن نربطه بحكمته . والله عزيز أى لا يغلبه أحد ولا يحتال عليه أحد . وهو حكيم فيما يضع من عقوبات للجرائم ؛ لأنه يزن المجتمع نفسه بميزان العدالة . ومن بعد ذلك يفتح الحق سبحانه باب التوبة رحمة لمن يتوب ورحمة للمجتمع ؛ لذلك يقول الحق :

﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ٣٩﴾

والسارق ظالم ، لأنه أخذ حق غيره ، فإن تاب أى ندم على الفعل وعزم على ألا يعود شريطة ألا تكون التوبة بالكلام فقط ، بل يصلح ما أفسده ، هنا تُقبَل التوبة . ولكن كيف يفعل ذلك ؟

إذا كان الشيء المسروق فى حوزته فعليه أن يرده إلى صاحبه . وإن كان قد تصرف

فيه فعليه أن يأتى لصاحب الشىء ويستحله ويقول له : كنت فى غفلة نفسى وفى زهوة الشيطان منى ففعلت كذا وكذا . وأعتقد أن أى إنسان سرق من إنسان آخر وبعد فترة اعترف له وطلب العفو منه فأنا أقسم بالله أنه سيعفو عنه راضيا . وبذلك يستحل الشىء الذى أخذه . لكن ماذا إن كان السارق لا يعرف صاحب الشىء المسروق . كلص « الأتوبيسات » ؟

إن كان قد سرق محفظة نقود من شخص ووجد العنوان يستطيع أن يرد الشىء المسروق بحوالة بريدية من مجهول تحمل قيمة المبلغ المسروق ويطلب فيها السماح عن السرقة . وإن لم يعرف من سرقه فعليه أن يقول : الله أعلم بصاحب هذا المبلغ وأنا سأتصدق به فى سبيل الله وأقول : يارب ثوابه لصاحبه .

إذن فوجوه الإصلاح كثيرة . وإن كان يخجل من رد الشىء المسروق فليقل : فُضُوح الدنيا أهون من فُضُوح الآخرة . وفى القرآن تأتى آيات كثيرة عن التوبة :

﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ﴾

(من الآية ١١٨ سورة التوبة)

كأن توبة الله مكتوبة أولا ؛ ثم يتوب العبد من بعد ذلك . وسبحانه يقول :

﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ ﴾

(من الآية ٨٢ سورة طه)

وللتوبة ـ كما نعلم ـ ثلاث مراحل . فالحق حين شرع التوبة كان ذلك إذنًا بها . وبعد ذلك يتوب العبد ، فيتوب الله عليه ويمحو عنه الذنب ويكون الغفران بقبول الله للتوبة . ولذلك يقول الحق : « فإن الله يتوب عليه إن الله غفور رحيم » .

وَصِفَةُ المغفرة وصِفَةُ الرحمة كل فى مطلقها تَكُون لله وحده ، وهى توبة للجانى ورحمة للمجنى عليه . وكلمة « إن الله غفور رحيم » توضح لنا أنه سبحانه له طلاقة القدرة فى أن يغفر وأن يرحم . فإياك أن تقول : إن فلانا لا يستحق المغفرة والرحمة ؛ لأنه سبحانه مالك السماء والأرض ، وهو الذى أعطى للبشر ما يستحقون بالحق الذى أوجبه على نفسه ، وله طلاقة القدرة فى الكون ؛ ولذلك يقول من بعد ذلك :

﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾ ﴾

ويستخدم الحق سبحانه من أساليب البيان ما يخرجنا عن الغفلة ، فلم يقل : « الله له ملك السموات والأرض » ، ولو كان قد قال ذلك لكان الأمر خبراً من المتكلم وهو الله ، ولكنه يريد أن يكون الخبر من المُخاطَب إقراراً من العبد . ولا يخرج الخَبَر مَخرج الاستفهام إلا وقائل الخبر واثِقٌ من أن جواب الاستفهام فى صالحه ؛ والمثال على هذا هو أن يأتيك إنسان ويقول : « أنت تهملنى » . فتقول : أنا أحسنت إليك .

ولكن إن أردت أن تستخرج الخَبَر منه فأنت تقول : ألم أُحْسِن إليك ؟ وبذلك تستفهم منه ، والاستفهام يريد جوابا . فكأن المسئول حين يجيب عليه أن يدير ذهنه فى كل مجال ولا يجد إلا أن يقول : نعم أنت أحسنت إلىّ . ولو جاء ذلك من المتكلم لكانت دعوى ، لكن إن جاءت من المُخاطَب فهى إقرار ، ومثال ذلك قول الحق :

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ ﴾

(سورة الشرح)

إنه خَبرٌ من المتكلم والإقرار من المتلقى . وقد يقول قائل ولماذا لم يقل الحق : « أشرحنا لك صدرك » ؟ كان من الممكن ذلك ، ولكن الحق لم يقلها حتى لا يكون فى السؤال إيحاء بجواب الإثبات بل جاءت بالنفى .

وفى وقوله الحق :

﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾ ﴾

(سورة المائدة)

نجد منطوق الآية ليس دعوى من الحق ، ولكنه استفهام للخلق ليديروا الجواب على هذا ، فلا يجدوا جواباً إلا أن يقولوا : « لله ملك السموات والأرض » . وهذا أسلوب لإثبات الحجة والإقرار من العباد ، لا إخباراً من الحق : « ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض » ، وقد يقول إنسان : إن هناك أجزاء من الأرض ملكا للبشر . ونقول : صحيح أن فى الأرض أجزاء هى ملك للبشر ، ولكن هناك فرق بين أن يملك إنسان ما لا يقدر على الاحتفاظ به . . كملك البيت والأرض ، إنه مِلْك ـ بكسر الميم ـ لمالك . وهناك « مُلْك » ـ بضم الميم ـ لِمَلِكٍ هو الله . وفى الدنيا نجد أن لكل إنسان ملكية ما . ولكن المَلِك فى الأرض يملك القرار فى أملاك شعبه ، وهذا فى دنياالأسباب ، أما فى الآخرة فالأسباب كلها تمتنع :

﴿ لِمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾

(من الآية ١٦ سورة غافر)

فلا أحد له مُلكٌ يوم القيامة .

« ألم تعلم أن الله له مُلك السموات والأرض يُعذّب من يشاء ويغفر لمن يشاء » والقارىء بإمعان للقرآن يجد فيه عبارات تجمع بين أمرين أحدهما يتقدم ، والآخر يتأخر . ويأتى الأمر فى أحيان أخرى بالعكس . ولكن هذا القول هو الوحيد فى القرآن الذى يأتى على هذا النسق ، فكل ما جاء فى القرآن يكون الغفران مقدّماً على العذاب ؛ لأن الحق سبحانه قال فى الحديث القدسى :

(إن رَحمتى سبقت غَضبى)[1] .

فلماذا جاء العذاب فى هذه الآية مقدماً على الغُفران : « يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء » هل السبب هو التّفنّن فى الأساليب ؟ لا ؛ لأن جمهرة الآيات تأتى بالغفران أولاً ، ثم بالوعيد بالعذاب لمن يشاء سبحانه . ولننظر إلى السّياق . جاء الحديث أولاً عن السارق والسارقة ، وبعد ذلك عمّن تاب . فالسرقة إذن تقتضى التعذيب ، والتوبة تقتضى المغفرة ، إذن فالترتيب هنا منطقى .

---

(١) رواه البخارى فى التوحيد وبدء الخلق ، ورواه مسلم فى التوبة ورواه الترمذى فى الدعوات ، وابن ماجه فى المقدمة .

ونلحظ أن هذا القول قد جاء بعد آية السرقة وبعد آية الإعلام بأن له مُلْكَ السموات والأرض . ولذلك كان لا بد من تذييل يخدم الاثنين معاً . ليؤكد سيطرة القدرة . وحين يريد الحق أن يرحم واحداً . فليس فى قدرة المرحوم أن يقول : « لا أريد الرحمة » . وحين يعذب واحداً لن يقول المعذَّب ـ بفتح الذال ـ : « لا داعى للعذاب » . فسيطرة القدرة تؤكد أنه لا قدرة لأحد على رَدّ العذاب أو الرحمة . إذن فالآية قد جاءت لتخدم أغراضاً مُتعددة . فإن حسبناها فى ميزان الأحداث فللحق كل القدرة . وإن حسبناها فى ميزان الزمن ، فكيف يكون الأمر ؟ .

نعرف أن التعذيب للسّرقة قسمان . . تعذيب بإقامة الحَدّ ، وفى الآخرة تكون المغفرة . إذن فالكلام منطقى مُتّسق .

إننى أقول دائماً : إياكم أن تُخدَعوا بأن الكافر يكفر ، والعاصى يعصى دون أن ينال عقابه ؛ لأن من تعوَّد أن يتأبَّى على منهج الله ، فيكفر أو يعصى لا بد له من عقاب . لقد تمرَّدَ على المنهج ، ولكنه لا يجرؤ على التَمرُّد على الله .

إن الإنسان قد يتمرد على المنهج فلا يؤمن أو لا يقيم الصلاة ، لكن لا قدرة لإنسان أن يتمرّد على الله ، لأنه لا أحد يقدر على أن يقف فى مواجهة الموت ، وهو بعضٌ من قُدْرةِ الله . وسبحانه وتعالى يحكم ما يريد . وقد أراد أن يوجِد للإنسان اختياراً فى أشياء ، وأن يقهر الإنسان على أشياء ، فيا من مرَّنت نفسك على التمردّ على منهج الله عليك أن تحاول أن تتمرّد على صاحب المنهج وهو الله . ولن تستطيع لا فى شكلك ولا لونك ولا صحتك ولا ميعاد موتك . وليفتح كل مُتَمرِّد أذنيه ، وليعرف أنه لن يقدر على أن يَتمرَّد على صاحب المنهج وهو الله . إذن صدق قول الله : « والله على كل شىء قدير » .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَـٰرِعُونَ

فِي ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ
تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ ۛ سَمَّٰعُونَ
لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ
يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ
أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُواْ ۚ وَمَن
يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ
أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ
لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ
عَظِيمٌ ﴿٤١﴾

نأتى فى النِّداء بحرف الإقبال وهو « يا » وندخله على « المُنادى » أى أنك تطلب إقباله . فهل نطلب إقباله لمجرد الإقبال أو لشىء آخر ؟ مثال ذلك قول الحق :

﴿ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾

(من الآية ١٥١ سورة الأنعام)

إذن النِّداء هنا لتلاوة التكليف عليهم . وحين يُنادى الحق سبحانه وتعالى أشرف من ناداهم وهم رُسُله ، نجد أنه نادى كل الرُّسل بمُشخصاتهم العَلَمِيّة . (يا آدم) ، والمُشخص العَلَمى هو الاسم ، وهو لا يعطى وصفاً إلا تشخيص الذات بدون صفاتها .

وكذلك نادى الحق إبراهيم عليه السلام :

﴿ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ﴾

(سورة الصافات)

وكذلك نادى الحق نوحاً :

﴿ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ ﴾

(من الآية ٤٨ سورة هود)

وكذلك نادى الحق موسى عليه السلام :

﴿ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة القصص)

وكذلك نادى الحق عيسى ابن مريم عليه السلام :

﴿ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ﴾

(من الآية ١١٦ سورة المائدة)

كُل الرُّسُل ناداهم الحق بالمُشَخَّص العَلَمى الذى لا يعطى إلا التشخيص ، ولكن رسول الله صلّى الله عليه وسلم خاتم الرُّسُل ما ناداه الله باسمه أبداً ، إنما ناداه الله بالوصف الزائد عن مُشَخَّصات الذات فيقول : (يا أيّها الرسول) ، ويقول : (يا أيّها النبى) .

حقًّا إنّ الجميع رُسُل ، ولكنه سبحانه يريد أن يبلغنا أن محمداً صلّى الله عليه وسلم هو الرسول الذى جاء ناسخاً للكُلّ ومؤمناً بالكُلّ ، هو الذى يستحق النّداء بالوصف الزائد عن مُشَخّصات الذات : « يا أيّها الرسول » . وهو الرسول الذى تقوم عليه الساعة . ولذلك نجد خطاب الحق لرسوله دائما : « يا أيّها الرَّسُول » أو : « يا أيُّها النبى » ، وهذا نوع من التكريم .

والحق يقول هنا : « يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر » . أى لا تحزن يا رسول الله من الذين يسارعون فى الكفر . وحين يخاطب الحق رسوله فى ألا يحزن ، علينا أن نعرف على ماذا يكون الحزن ؟ . سبحانه يوضح لرسوله : إياك أن تحزن لأنى معك فلن ينالك شر خصومك ولا يمكن أن أختارك رسولاً وأخْذُلَك ، إنهم لن ينالوا منك شيئاً .

وقد يكون حزن النبى صلى الله عليه وسلم حزناً من لون آخر ، اسمه الحزن المُتَسَامِى الذى قال فيه الحق :

﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ ﴾

(سورة الكهف)

لأن الحق لو شاء أن يجعلهم مؤمنين لما جعل لديهم القدرة على الكفر .

﴿ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾ ﴾

(سورة الشعراء)

وهل الله يريد أعناقا ؟ لا . بل يريد قلوباً ؛ لأن سيطرة القُدرة بإمكانها أن تفعل ما تريد ، بدليل أن السماء والأرض والجبال وكل الكائنات أتت للخالق طائعة . فلا يمكن أن يتأبى الكون على خالقه . والقدرة أفادت القهر وأفادت السيطرة والعزة والغلبة فى سائر الكون ، ولكن الله أَحب أن يأتى عبده ـ وهو السيد ـ للإيمان مختاراً ؛ لأن الإيمان الأول هو إيمان القهر والقدرة ، ولكن الإيمان الثانى هو إيمان المحبة .

وقد ضربنا من قبل المثل على ذلك ولنوضحه : هب أن عندك خادمين ربطت أحدهما فى سلسلة لأنك إن تركته قليلاً يهرب ، وعندما تريده تجذب السلسلة فيأتى ، إنه يأتى لسيطرة قُدرتك عليه والقهر منك ، أما الخادم الآخر فأنت تتركه حُرّاً ويأتيك من فور النداء . فأيهما أحب إليك ؟ لاشك أنك تحب الذى يجىء عن حُب لا عن قهر . وكل أجناس الكون مُسخَّرة بالقدرة ، وشاء الحق أن يجعل الإنسان مُختاراً لذلك قال :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ﴾

(من الآية ٧٢ سورة الأحزاب)

إذن فقد رفضت كل الأجناس حمل الأمانة . خوفا وإشفاقا من أنها قد لا تستطيع القيام بذلك . والحق يقول لرسوله : « لا يحزنك » فأمّا إذا كان الحزن بسبب الخوف على المنهج منهم ، فالحق ينصره ولن يمكنهم منه . وأما إن كان الخوف عليهم فلا ؛

لأنه سبحانه خلق الإنسان مختاراً غير مقهور على القيام بتعاليم المنهج ، وسبحانه يُحب أن يعرف من يأتيه حُباً وكرامة .

ويقول الحق لرسوله محمد صلّى الله عليه وسلم : « لا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر » .

وهذه رُبوبية التعبير ، فنحن نعلم أن السرعة تكون إلى الشىء ، لا فى الشىء كما قال الحق :

﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ ﴾

(من الآية ١٣٣ سورة آل عمران)

ولكن هنا نجده يقول : « يسارعون فى الكفر » . ولو قال الحق : « يسارعون إلى الكفر » لكان قد ثبت لهم إيمان وبعد ذلك يذهبون إلى الكُفر ، لا . الحق يريد أن يوضح لنا : أنهم يسارعون فى دائرة الكفر . ويعلمنا أنهم فى البداية فى الكفر ، ويسارعون إلى كفر أشد . ونعرف أن « فى » فى القرآن نستطيع أن نضع من أجلها المجلدات . فقد قلنا من قبل قال الله تعالى : (سيروا فى الأرض) .

ولم يقل سبحانه سيروا على الأرض .

والحق سبحانه : وتعالى يقول :

﴿ وَلَا تُؤْتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ﴾

(من الآية ٥ سورة النساء)

وهى ليست أموال المخاطبين ، ولكنها فى الأصل أموال السفهاء . ولكن سبحانه يبلغنا أن السُّفهاء غير مأمونين على المال ، ولذلك يأتى الحق بالوصىّ والقيّم على المال ويأمره أن يعتبر المال ماله حتى يحافظ عليه . ويأمره بألا يخزن المال ليأكل منه السَّفيه ؛ لأن المال إن أكل منه السَّفيه ودفع له الزكاة ، قد ينضب وَينْفد . لذلك قال الحق :

﴿ وَلَا تُؤْتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا ﴾

(من الآية ٥ سورة النساء)

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا ﴾

(من الآية ٥ سورة النساء)

لم يقل ارزقوهم منها ، ذلك أنه سبحانه شاء أن يعلمنا أن الرزق مطمور فى رأس المال ويجب أن يتحرك رأس المال فى الحياة حتى لا ينقص بالنفقة ، وحتى لا تستهلكه الزكاة ، وحتى يبلغ السَّفيه رُشده ويجد المال قد نما . هذه بعض من معطيات « فى » . وهناك آية الصَّلب :

﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ ﴾

(من الآية ٧١ سورة طه)

بعض المفسرين يقولون فى هذه الآية : « لأصلبنكم على جذوع النخل » ونقول : إن الذين قالوا ذلك لم يُفسّروا هذه الآية وكان يجب أن يقولوا فى تفسير ذلك :

لأصلبنكم على جذوع النخل تصليباً قوياً يدخل المصلوب فى المصلوب فيه . ومثال ذلك لو جئنا بعدو ثقاب وربطناه على الأصبع بخيط رفيع وأوثقنا الربط ، فعود الثقاب يغوص فى الأصبع حتى يصير وكأنه داخل الأصبع . وعندما يقول الحق : « ولأصلبنكم فى جذوع النخل » فيجب ألا نفهم هذا القول إلا على أساس أنه تصليب على جذوع النخل تصليباً قوياً يُدْخِلُ المصلوب فى المصلوب فيه . وتلك هى العِلّة فى وجود « فى » وعدم وجود « على » .

والحق يقول هنا : « لا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر » فكأن المسارعة إما أن تكون بـ « إلى » وإما أن تكون بـ « فى » . فإن كانت بـ « إلى » فهى انتقال إلى شىء لم يكن فيه ساعة بدْء السرعة ، وإن كانت بـ «فى » فهى انتقال إلى عمق الشىء الذى كان فيه قبل أن يبدأ المسارعة .

« لا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم » فالإيمان محلّه القلب ، والإسلام محلّه الجوارح ؛ ولذلك قال سبحانه :

﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا ﴾

(من الآية ١٤ سورة الحجرات)

إنهم يسارعون إلى الصف الأول فى الصلاة وهذا إسلام ، أما الإيمان فمحلّه القلب . إذن فالذين قالوا بأفواههم آمنا ، لهم أن يعرفوا أن منطقة الإيمان ليست الأفواه ولكنها القلوب . وهم قالوها بأفواههم وما مرّت على قلوبهم . وماداموا قد قالوا بأفواههم آمنا وما مرّت على قلوبهم فهؤلاء هم المنافقون ، ومعنى ذلك أنهم فى كل يوم ستظهر منهم أشياء تُدخِلهم فى الكفر ؛ لأنهم من البداية قد أبطنوا الكفر ، وبعد ذلك يسارعون فى مجال الكفر .

« من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ومن الذين هادوا » هم إذن صنفان اثنان يسارعان فى الكفر ؛ المنافقون الذين قالوا بأفواههم آمنا ، والذين هادوا . ويصفهم الحق بقوله : « سماعون للكذب » وساعة تسمع مادة « السين والميم والعين » فهذا يعنى أن الأذن قد استقبلت صوتاً من مُصَوِّت ، هذا المُصوِّت إما أن يكون مُتكلماً بالكلام الحقّ فيجذ من الأذن الإيمانية استماعاً بإنصات ؛ ثم يتعدى الاستماع إلى القبول ؛ فيقول المؤمن : أنا استمعت إلى فلان ، لا يقصد أنه سمع منه فقط ولكن يقصد أنه سمع وقبل منه ما قال .

إننا نعلم أن كثيراً من الورعين يسمعون كذباً ، لكن الفيصل هو قبول الكذب أو رفضه . وليس المهم أن يكون الإنسان سامعاً فقط ، ولكن أن يصدق ما يسمع . ونرى فى الحياة اليومية إنساناً يريد أن يصلح شيئاً من أثاث منزله فيأتى بالأدوات اللازمة لذلك ، ويقال هنا عن هذا الرجل :« نجر فهو ناجر » ولا يقال له : « نجّار » ؛ لأن النجار هو من تكون حرفته النّجارة .

إذن كلمة : سامع للكذب لا تؤدى المعنى ، ولكن « سمّاع » تؤدى المعنى ، أى أن صناعته هى التسمّع ، وعندما يقول الحق : « سمّاعون للكذب سمّاعون لقوم آخرين لم يأتوك » أى ألِفُوا أن يقبلوا الكذب . وكيف يكون مزاج من يقبل الكذب ؟. لا بد أن يكون مزاجاً مريضاً بالفطرة .

وما معنى الكذب هنا ومن هم السمّاعون ؟ إما أن يكون المقصود بهم الأحبار والرهبان الذين قالوا لأتباعهم كلاماً غير ذى سندٍ من واقع من أجل الحفاظ على مراكزهم . وإما أن يكونوا سماعين للكذب لا لصالحهم هم ، ولكن لصالح قوم

آخرين . كأنهم يقومون بالتجسس . والتجسس ـ كما نعلم ـ يكون بالعين أو بالأذن . وتقدمت هذه الوسائل فى زماننا حتى صار التجسس بالصوت والصورة . وكأن الحق يريد أن يبلغنا أنهم سماعون للكذب ، أى أنهم يسمعون لحساب قوم آخرين . والقوم الآخرون الذى يسمعون لهم هم القوم الذين أصابهم الكبر والغرور واستكبروا أن يحضروا مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم . وهم فى الوقت نفسه لا يطيقون الانتظار ويريدون معرفة ماذا يقول رسول الله ، لذلك يرسلون الجواسيس إلى مجلس النبى صلى الله عليه وسلم لينقلوا لهم .

أولئك السماعون للكذب هم سماعون لحساب قوم آخرين لم يأتوا إلى مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم تكبُّراً . وهؤلاء المتكبرون هم كبار اليهود ، وهم لا يذهبون إلى مجلس رسول الله حتى لا يضعف مركزهم أمام أتباعهم . وعندما يُنقَل إليهم الكلام يحاولون تصويره على الغرض الذى يريدون ، ولذلك يقول عنهم الحق : « يُحرِّفون الكَلم من بعد مواضِعهِ » . أى أنهم يُحرِّفون الكلام بعد أن استقر فى مَواضعه ويستخرجونه منها فيهملونه ويزيلونه عن مواضعه بعد أن وضعه الله فيها وذلك بتغيير أحكام الله ، وقال الحق فيها أيضاً من قبل ذلك :

﴿ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ﴾

(من الآية ١٣ سورة المائدة)

أى أنهم حَرَّفُوا الكلام قبل أن يستقر . « سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك يحرفون الكلم من بعد مواضعه يقولون إن أوتيتم هذا فخذوه » وهم الذين يقولون لأتباعهم من جواسيس الاستماع إلى مجلس رسول الله : « إن أوتيتم هذا فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا » . فكأنهم أقبلوا على النبى بهذا ، فإن أخذوا من رسول الله معنى يستطيعون تحريفه فعلوا . وإن لم يجدوا ما يحرفونه فعليهم الحذر .

ومن دراسة تاريخ القوانين الوضعية نعرف معنى السلطة الزمنية . فالقوانين التى تواضع عليها بشر ليحكموا بها نظام الحياة تأخرت فى الظهور إلى الواقع عن نظام الكهنة ، فقد كان الكهنة يَدَّعُون أن لهم صلة بالسماء ولذلك كان الحكم لهم ، أى أن التقنين فى الأصل هو حكم السماء والذى جعل الناس تتجه إلى وضع قوانين خاصة بهم أنهم جربوا الكهنة فوجدوهم يحكمون فى قضية ما حُكْماً . وفى القضية المشابهة يحكمون حُكْماً آخر . لقد كان كلام الكهنة مقبولا عندما ادعوا لأنفسهم

الانتساب إلى أحكام السماء . لكن عندما تضاربت أحكامهم خرج الناس على أحكام الكهنة ورفضوها ووضعوا لأنفسهم قوانين أخرى .

والحكاية التاريخية توضح لنا ذلك : فقد زَنَى أحد أتباع ملك فى العصر القديم وحاولوا أن يقيموا عليه الحد الموجود بالتوراة . لكن الملك قال للكهنة : لا أريد أن يُرجَم هذا الرجل وابحثوا عن حكم آخر .

ورضخ الكهنة لأمر الملك وقالوا : نُحَمِّم وجه الزَّانى - أى نُسَوِّد وجْهه بالحُمم وهو الفحم - ونجعله يركب حماراً ووجه إلى الخلف ونطوف به بين الناس بدلاً من الرَّجم . وهكذا أعطت السلطة الزمنية السياسية الأمر للسلطة الزمنية الدينية ليُغيِّروا فى القوانين . فلما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة حاولوا أن يستغلوا وجوده فى استصدار أحكام فيها هوادة ولين . وعرضوا عليه بعضا من القضايا من أجل ذلك ، فإن جاء الحكم بالتخفيف قبلوه ، وإن كان الحكم مُشدّداً لم يقبلوه . وتكررت مسألة الزِّنا . وحاولوا الحصول على حكم مخفف من سيدنا رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم .

وجاء رسول الله بالحكم الذى نزل من السماء وهو الرَّجم . ولكنهم قالوا للرَّجم لا . يكفى أن نجلده أربعين جلدة وأن نُسَود وجهه وأن نجعله يركب حماراً ووجهه للخلف ويُطاف به . وهنا سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم :

أليس عندكم رجل صالح له علم بالكتاب ؟ وهنا صمتوا . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل تعرفون شابا أمرد أبيض أعور يسكن « فدك » يقال له : « ابن صوريا » . فقالوا : نعم ، هو أعلم يهود على وجه الأرض . فأمر الرسول بإحضاره ليرى الحُكم النازل فى الزِّنا بالتوراة ، وجاء الرجل وناشده رسول الله بالذى لا إله إلا هو وبحق من أرسل موسىٰ ، وبحق من أنزَل التوراة على موسىٰ ، وبحق من فلق البحر ، وبحق من أغرق فرعون ، وبحق من ظللهم بالغمام . وأراد صلى الله عليه وسلم أن يُزلزل فيه كل باطل وأن يشحنه بالطاعة حتى ينطق الحق ، فقال ابن صوريا : نعم نجد الرَّجم للزِّنا . وهنا سَبَّ اليهود الرجل الصالح .

لقد أرادوا أن يحصلوا على حُكم مُخفف من رسول الله ليُنقذوا الزانى صاحب المقام

العالى ، وكذلك الزانية ذات الحسب والنسب ؛ لذلك قال الحق على لسانهم : « إن أوتيتم هذا ». أى التخفيف المراد فخذوه، وإن وجدتم العقاب القاسى فاحذروه ولا تقبلوه .

إذن فهم لم يذهبوا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ابتغاء الحق ولكنهم يبتغون التخفيف . فإن وافق الحكم هواهم قالوا : إن محمداً هو الذى حَكَم ، ومن العجيب أنهم أعداء لمحمد وكافرون به . وبرغم ذلك يُحكِّمونه .

هذه الواقعة يرويها الإمام مسلم رضى الله عنه وهى : « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى يهودى ويهودية قد زنيا فانطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى جاء يهود فقال : ما تجدون فى التوراة على مَنْ زنى ؟ قالوا : نسوِّدُ وجوههما ونحمِّمهما ونحملهما ونخالف بين وجوههما ، ويُطاف بهما ، قال : (فأتوا بالتوارة فاتلوها إن كنتم صادقين) قال : فجاءوا بها ، فقرأوها ، حتى إذا مرّ بآية الرجم وضع الفتى الذى يقرأ يده على آية الرجم وقرأ ما بين يديها وما وراءها ، فقال له عبدالله بن سلام وهو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم: مُرْهُ فليرفع يده، فرفع يده فإذا تحتها آية الرجم، فأمر بهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فرُجما ، قال عبدالله بن عمر : كنت فيمن رجمهما فلقد رأيته يقيها من الحجارة بنفسه »[1] .

إنهم يريدون الحكُم السهل الهين اللين . وقال البعض : إن سبب نزول هذه الآية هى قصة القَوَد . والقود هو القصاص .

وقصة القود فى إيجاز هى ـ كما رواها الإمام أحمد وأبو داود وغيرهما عن ابن عباس رضى الله عنه ـ أن طائفتين من اليهود هما بنو النضير وبنو قريظة كانتا قد تحاربتا فى الجاهلية ، فقهرت بنو النَّضير بنى قُريظة ، فكانت النَّضير وهى العزيزة إذا قتلت أحداً من بنى قُريظة وهى الذَّليلة لم يُقِيدوهم أى لم يعطوهم القاتل ليقتلوه بقتيلهم . إنما يعطونهم الديَّة . وكانت قُريظة إذا قَتَلت أحداً من بنى النَّضير لم يرضُوا منهم إلا بالقود . فلما قدم النبى صلىٰ الله عليه وسلم المدينة تحاكموا إليه فى هذا الأمر فحَكَم بالتَّسوية بينهم ، فسَاءَهم ذلك ولم يقبلوا . وأى قصة منها هى مؤكِّدة للمعنى .

---

(١) رواه مسلم .

ومن بعد ذلك يقول الحق : « ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا » والفتنة هى التعذيب بالنار ، وسبحانه يقول :

﴿ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ﴾

(سورة الذاريات)

والفتنة أيضاً هى الابتلاء والاختبار ، ويقال : « فتنت الذهب » أى وضعت الذهب فى بوتقة وحوَّلته بالحرارة العالية من جسم صُلب إلى سائل حتى تستخلصه من المواد العالقة الشائبة التى فيه ليصير نقياً . والفتنة فى ذاتها ليست مذمومة . ولكن المذموم منها هو النتيجة التى تصل إليها ؛ أينجح الإنسان فيها أم يرسُب ؛ لأن الاختبارات التى يمر بها الإنسان كلها هى فتنة ، والذى ينجح تكون الفتنة بالنسبة إليه طيبة . والذى يرسُب ويفشل فالفتنة بالنسبة إليه سيئة . وعندما يريد الله فتنة بشر أى يريد اختبارهم : أيأتون طوعا واختياراً أم لا ؟

ومادام الحق سبحانه وتعالىٰ أعطىٰ للإنسان قدرة الاختيار حتى يُثبت صفة المحبوبية فسبحانه أراد ذلك ، ولا أحد بقادر أن يجعل الإنسان مقهوراً . وقد أراده الله مُختاراً وأن يبتلى وأن يختبر . أينجح أم يرسُب ، أيكون مُؤمناً أم كافراً :

« ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا » . وجعل سبحانه ذلك قانونا لخلقه بمنتهى الوضوح ، وهناك جانب فى الإنسان مُسَخَّر ، وجانب آخر مُخيَّر . « ومَن يُرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا » . أى أن أحداً لا يجرؤ أن يغير نواميس الكون ولن يغير الله نواميس الكون من أجل أى أحد ؛ لأن النواميس لا بد أن تسير كما أرادها الله حتى على رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم .

وقد عرفنا ما حدث فى أُحُد ؛ عندما تخاذل الرُّماة ولم يستمعوا إلى نصيحة القائد الأعلىٰ سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ؛ أَغَيَّر الله سُنَّته من أجل وجود حبيبه معهم ؟ لا ، وانهزموا على رغم وجود رسول الله معهم ؛ لأن الله أراد للسُّنة الكونية أن تسير كما هى من أجل إصلاح الأمر . فلو فُرِض أنهم انتصروا من أجل خاطر النبى ، ماذا يكون الموقف فى أوامره صلى الله عليه وسلم فيما بعد ؟ كان من الممكن أن يقول شخص منهم : « خالفناه وانتصرنا » . إذن لا بد لسُنَّة الله أن تُنَفَّذ .

﴿ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

(من الآية ٤١ سورة المائدة)

لماذا لم يرد الله أن يُطهِّر قلوبهم ؟ لأنهم منافقون . وفى قلب المنافق مرض . وعندما تأتى أحداث ينتفع بها المسلمون فالمنافق يزداد حِقداً ومَرضا لأنّ قلبه مُمتلىء بالغل ، ولا يريد الله تطهير قلب إنسان إلا أن يقبل على الله ولذلك قال تعالى :

﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾

(من الآية ٢٦٤ سورة البقرة)

وقال سبحانه :

﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾

(من الآية ٨٦ سورة آل عمران)

فهل عدم هداية الله لهم نشأت أولاً ، ثم نشأ الكُفر ، أو نشأ الكُفر منهم فجاء عدم الهداية ؟ نعلم أن عدم الهداية مرتبة على أنه ظالم أو كافر ، وقلنا من قبل: إن هناك إرادة كونية وإرادة شرعية . والإرادة الكونية هى ما يحدث فى كون الله . ولا شىء قد حدث في كون الله غصبا عن الله . والاختيار خلقه الله فى الإنسان ليصير الإنسان مُخيراً بين الكُفر والإيمان . ومادام الحق قد خلق الإنسان مُختاراً لهذا أو لذلك إذن فهو سبحانه مُريد كَوْنيًّا ما يصدر عن الإنسان اختياراً كفراً أو هدايةً . لكن أمُريد هو سبحانه ذلك شرعاً ؟ لا .

إن الشرع أمر سماوى إما أن يُنفّذه العبد وإما أن يعصيه . ونعرف أن هناك أشياء مُرادة كونياً وأشياء مُرادة شرعيا . والمُراد الكونى هو الذى يكون : أما الإنسان فقد خلقه الله وله الاختيار ، فالذى يسرق لا يسرق غصبا عن الله ولكن ما أعطاه له الله من اختيار ومن طاقة ، إما أن يوجهها إلى الخير وإما إلى الشر .

ونحن حين ننظر إلى الساعة التى نضعها حول المعصم وقد صنعها الصانع صالحة

لأن يديرها الإنسان على توقيت أى بلد ، فهل هذا يتم غصبا عن الصانع ؟ لا . وكذلك جهاز « التليفزيون » ؛ إن أذعنا فيه برامج دينية فهو صالح للهدف ، وإن أذعنا فيه حفلة راقصة فهو صالح لذلك أيضا . والذى صنع التليفزيون جعله صالحاً لهذا ولذاك ، المهم هو توجيه الطاقة وكذلك الإنسان . والإرادة الكونية هى كل ما يكون فى ملك الله ، والإرادة الشرعية هى كل ما يكون فى شرع الله « افعل ولا تفعل » . ومادام هناك أمرٌ كونى وأمر شرعى فالكون قد أوجده الله لخدمة المؤمن والكافر والعاصى ، لكن الأمر الشرعى جعله الله للمؤمن .

إذن فإيمان المؤمن أراده الله كونا ؛ لأنه سبحانه قد وضع الإيمان منهجا ، وأراد الله إيمان المؤمن شرعا . وكفر الكافر لم يتم غصبا عن الله . ولكن الإنسان بخلْقِه مختاراً . صار كُفره أمراً كونياً ، ولكنه غير مُراد شرعاً ، فكفر الكافر مُراد كونا غير مُراد شرعا . وإيمان الكافر غير مُراد كوناً وكفر المؤمن غير مُراد كونا . وبهذا نكون أمام أربعة أقسام فى المُراد كونا وشرعا . وهذه هى القسمة العقلية .

إذن من يُرِد الله فتنته كوناً فلا راد لإرادة الله ؛ فإذا لم يطع الشرع ، فذلك لأنه مخلوق صالح للطاعة وصالح للمعصية .

وأضرب هذا المثل ـ ولله المثل الأعلىٰ ـ الوالد يعطى لابنه جنيها ويقول له : أنت حُر فى هذا المبلغ فإن اشتريت مصحفا أو كتاب دين أو شيئاً تأكله أنت وإخوتك فسأكافئك وأستأمنك على أشياء كثيرة . أما إن اشتريت ورق اللعب المُسمّى « كوتشينة » فسأغضب منك .

وحين يذهب الولد ليشترى ورق اللعب المُسمّى « كوتشينة » ، هل اشترى ذلك غصبا عن أبيه ؟ لا . لكن الولد يصبح غير محبوب من أبيه . هذا هو الفارق بين المُراد كونا والمُراد شرعا . وبين المُراد كونا لا شرعا . والمُراد شرعا لا كونا .

« أولئك الذين لم يَرِد الله أن يُطهِّر قلوبهم » كان ذلك كونا ؛ لأنه سبحانه خلقهم قابلين للتطهير وقابلين لغيره ، فإن فعلوا أى شىء فهم لن يفعلوه غَصبا عن الله ؛ لذلك يذيل الحق الآية : « لهم فى الدنيا خزى ولهم فى الآخرة عذاب عظيم » فكأن

معنى ذلك أن فى قلوبهم أشياء ضد الطهارة ، ولهم فى الدنيا خزى . والخزى يطلق على الفضيحة ويطلق على الاستحياء ، والمعنيان يلتقيان . وهنا فى مجال هذه الآية : أى خزى وأى فتنة ؟ إنهما فئتان ؛ المنافقون واليهود . وكان المنافقون كلما فعلوا شيئا ينفضح . وعندما يبيِّتون أى شىء فإن الله يخبر رسوله بما يبيِّتون .

﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة محمد)

وكذلك الذين هادوا : يأتيهم الخزى أى الافتضاح ، أى أن يصيروا إلى المُسترذل بعد أن كانوا فى المُستحسن . والرسول صلى الله عليه وسلم دخل المدينة واليهود سادة هذه البقعة ؛ سادتها علما لأنهم أهل كتاب ، أما الأوس والخزرج فأميون لا يعرفون شيئا. وكان اقتصاد المدينة فى أيدى اليهود، من مال وصنعة وزراعة. وعنجهية الجاه. وعندما يأتى الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة يجدهم السادة ، ثم ينفضح أمرهم وكذبهم ، ويتم إجلاؤهم ، وتُسبىٰ نساؤهم ويُقتل بعضهم . وعندما يدبرون كيدا لرسول الله ، يفضحهم الله ، وكل ذلك خزى ، وليس الخزى هو الجزاء الوحيد لهم ، بل يلقون فى الآخرة عذاباً أليماً .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ ۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾

وفى اللغة ألفاظ مفردة ، مثال : « سجنجل » وتفتح القاموس فتجد معناها

« البلور » ، وكذلك الصفا والمروة ؛ وعندما تبحث فى القاموس عن كلمة « مروة » تعرف أن معنى اللفظ بعيد عن النسبة ، فأول عمل للغة أن تعرف معنى الألفاظ بعيداً عن نسبتها . ومهمة القاموس أن يشرح لك معنى اللفظ بعيداً عن النسبة دون إثبات أو نفى ، مثال ذلك « الجو » معناها هو ما يحيط بك من هواء أو غير ذلك ، لكن القاموس لايشرح هل الجو مُكفهر أو صافٍ أو باردٌ .

وإن تقدمنا مرحلة أخرى وأخذنا اللفظ لنصنع له نسبته ، كأن نقول : « الجو صحو » ، هنا ننتقل من فهم معنى كلمة « جَوّ » ، إلى أننا نسبنا الصحو إليه . والكلام المفيد يأتى فى النِسب . ولا تأتى النِسب إلا بعد معرفة معانى الألفاظ . والنِسب تعنى أن ننسب شيئا إلى شىء ، كأن نقول : « محمد مجتهد » هنا نسبنا لمحمد الاجتهاد ، وذلك بعد أن عرفنا معنى كلمة « محمد » بمفردها ، ومعنى « مجتهد » بمفردها .

إذن الكلام المفيد يتأتى فى النسب . وقد تكون الإفادة بضميمة كلمة إلى ما سبقها ، فعندما يسألك إنسان : « من عندك » ؟ فتقول : « محمد » ؛ هذا القول أفاد ؛ لأنه انضم إلى كلمة أخرى فصار المعنى : « محمد عندى » .

إذن هناك نسب ، والنسب هى أن تنسب حكماً إلى شىء إما إيجابا وإما نفياً .

والنسبة تنقسم إلى قسمين ؛ نسبة واقعة ، ونسبة غير واقعة . وإن كانت النسبة واقعة فهل تعتقدها ؟ وهل تستطيع أن تقيم عليها دليلاً ؟ إن كانت النسبة الواقعة ومقام عليها الدليل تكون علماً . وإن كانت نسبة وواقعة وأنت تعتقدها ولا تستطيع أن تدلل عليها ، فهذا تقليد ، مثل الطفل الذى يقلد أباه فيقول : « الله أحد » ، والطفل فى هذه الحالة لا يستطيع أن يقيم على هذه النسبة دليلاً .

إن العلم أعلى مراتب النسب لأنه نسبة معتقدة وواقعة وعليها دليل . أما إذا كانت نسبة معتقدة وغير واقعة ، فهذا هو الجهل ؛ لأن الجاهل هو الذى يعرف الشىء على غير وجهه الصحيح . أما الأمى فهو الذى لا يعرف شيئا ونجد صعوبة فى الشرح للجاهل ، مثال ذلك الذى يقول الأرض مبسوطة ويدافع عنها ، إنه يقول نسبة يعتقدها ، ولكنها غير الواقع لأنها كروية .

راجع أصله وخرج أحاديثه الدكتور أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .

والجهل ـ إذن ـ أن تعرف نسبة تعتقدها وهى غير واقعة . ولا يرهق الدنيا غير الجاهل ، لا الأمى ؛ لأن الأمى له عقل فارغ يكفى أن تقول له الحقيقة فيصدقها ، أما الجاهل فيحتاج إلى أن نخلع من أفكاره الفكر الخاطىء ونضع له الفكر الصحيح .

أما إن كانت النسبة غير واقعة . فالنفى فيها يساوى الإثبات ، وهذا هو الشك . وإن كانت هناك نسبة راجحة فهو الظن . والنسبة المرجوحة هى الوهم . إذن هناك عدد من النسب : نسبة علم ، نسبة تقليد ، نسبة جهل ، نسبة شك ، نسبة ظن ، نسبة وهم . وعلى ذلك يكون الكذب نسبة غير واقعة ، فإن كنت تعتقدها فأنت من الجاهلين .

ويقابل الكذب الصدق ، وعندما يقول الحق : « سماعون للكذب » . فالنسبة هنا غير مطابقة للواقع . ويقتنص الملبِّسون بعض النسب التى تأتى فى بعض من أسلوب القرآن ويقولون : فى القرآن كلام لو مَحَّصناه لوجدناه غير دقيق . مثال ذلك :

﴿ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ ﴾

(من الآية ١ سورة المنافقون)

كلام المنافقين هنا قد طابق كلام الله ، ولكن لماذا يقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَكَـٰذِبُونَ ﴾

(من الآية ١ سورة المنافقون)

النسبة واحدة ، لكن الله يكذب المنافقين . وإن فطنا إلى قول الله حكاية عنهم :

﴿ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ١ سورة المنافقون)

أى أن الله يُكذِّب شهادتهم ، لأن محمداً رسول الله بالفعل ، ولكنهم كاذبون لأنهم لا يعتقدون ذلك ، فالشهادة هى ما يوافق اللسان ما فى القلب .

إذن قوله الحق : « سماعون للكذب أكالون للسُّحت » أى أن عملهم الاستماع

للكذب ، وأكل السُّحت وكأنهم يرهقون إن أكلوا حلالاً ، وأكّال صيغة للمبالغة ؛ وتكون إما فى الحدث ، وإما فى تكرار أنواع الحدث . فيقال : « فلان أكال » ، و« فلان أكول » وهو الإنسان الذى يأكل بشراهة أو يأكل كثيراً ، والمبالغة - إذن - إما أن تكون فى الحدث وإما فى تكرير الحدث .

« أكّالون للسُّحت » ومادة « سَحت » تعنى « استأصل ومحا » ، ولكنها تزيد أنها استأصلته استئصالاً لم يبق له أثراً وتعدى الاستئصال إلى ظرفه . مثال ذلك عند ظهور بقعة من زيت أو طعام على ثوب ، نستطيع استئصال البقعة ، ونستطيع المبالغة فى استئصالها إلى أن تنحت من الثوب . والسُّحت استئصال مبالغ فيه لدرجة الجوْر على الأصل قليلاً . أى يستأصل الذى جاء ومعه بعض من الأصل أيضاً ؛ لذلك جاء المفسرون إلى هذا المعنى فى شرح الرِّبا لأن الله يصفه بالقول :

﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ ﴾

(من الآية ٧٦ سورة البقرة)

والربا فى مفهومنا أنه زيادة ، ولكن الحق أوضح لنا أنه ليس بزيادة ؛ لأنه يَدْخل ويستأصل ويأكل ويكحت أصل المال . وظاهر الرِّبا الزيادة وباطنه محق واستئصال .

أما الزكاة فظاهرها نقص ، ولكنها نماء ، وبذلك نرى اختلاف مقاييس الخلق عن مقاييس الحق . والمثل الواضح : أن النفس تلتفت دائماً إلى رزق الإيجاب ، ولا تلتفت إلى رزق السلب . فرجل راتبه خمسمائة جنيه ، وآخر راتبه مائة جنيه ، صاحب الراتب البالغ الخمسمائة فتح الله عليه أبواباً تحتاج إلى ألفٍ من الجنيهات ، والذى يأخذ مائة جنيه سَدَّ الحق عنه أبواباً لا تأخذ منه كل راتبه بل يتبقى له عشرة جنيهات .

هناك - إذن - رزق إيجاب يزيد الدخل ، ورزق سلب أن يسلب الحق عنك المصارف فى المصائب والمهالك ويبارك لك فيما أعطاك .

والسُّحْت هو كل شىء تأخذه من غير طريق الحلال ؛ كالرشوة أو الربا أو السرقة أو الاختلاس أو الخطف . وكل أنواع المقامرة والمراهنة ، كل ذلك اسمه سُحْت .

« سماعون للكذب أكّالون للسُّحت » وهذا القول دليل على أن أُذُنَهُم اعتادت سماع الكذب ويقبلون عليه . وعندما نقول نحن فى الصلاة : « سمع الله لمن حمده » ، أى أننا ندعو الله أن يقبل الحمد . وهم سماعون للكذب أى يقبلون الكذب . والسماع جارحة ، والأكل بناء ما به الجارحة لأنه مقوم لها . مثلما يأكل لينمو ، وإن كان ناضجاً يحفظ له الطاقة والقدرة .

فالنمّو ـ إذن ـ معناه أن يدخل جوفه أكثر مما يخرج منه . وبعد فترة يدخل إلى جسمه على قدر ما يخرج منه ، ثم الشيخوخة نجد فيها أن ما يخرج أكثر مما يدخل . وماداموا سماعين للكذب أكّالين للسُّحت ، فهم فى بوارٍ دائم ، لأن أكل السُّحْت حيثية من حيثيات الاستماع المصدِّق للكذب ؛ لأنهم قد بنوا ذرات أجسادهم من حرام ، فكيف ترفض آذانهم الكذب ؟ بل آذانهم تستدعى الكذب ، وألسنتهم تحترفه . وعيونهم تستدعى المحارم ، وأيديهم تستدعى السرقة ، إنها الأبعاض التى بناها أصحابها من حرام .

ولم يقل الحق عنهم : « سامعون » ، بل قال : « سماعون » أى جعلوا صناعتهم أن يتسمعوا ، وهم الجواسيس ، وإلا فإذا كان الأمر غير ذلك لكان كل من سمع كذبا يُعَد من هؤلاء . والقول مقصود به من جعل السماع صنعة له ، ولا يجعل إنسان السماع صنعة له إلا إذا كان عينا لغيره ، والعين للغير يتلصص على أمانة المجالس ، ولكل مجلس أمانة . فإذا ما حضر إنسان مجلسا فليس له أن ينقل ما فى ذلك المجلس إلى غيره إلا أن يكون ذلك هو صناعته ، وتلك هى مهمته .

« سماعون للكذب أكّالون للسُّحْت » وهنا قضيتان . فهل السماع للكذب سببه أكل السُّحت ، أم أكل السُّحت سببه السماع للكذب ؟

إن الحق سبحانه وتعالى حينما خلق الإنسان من طينة الأرض وصوره على شكل آدم نفخ فيه من روحه ؛ وحين صوره من طينة الأرض جعل كل مقومات حركة حياته من طبيعة طينة الأرض ، فإذا ما أخذ الإنسان شيئاً من حِلٍّ ، اعتدلت الذرات فى نفسه على الهيئة التى خلقها الله . وإن تدخل فيها بحرام جعل فى الذرات اختلالا تكوينيا . وهذا الاختلال التكوينى هو الذى جعل آكل الحرام سماعا للكذب . ولو لم

يكن فيه ذلك الاختلال التكوينى الذى صنعه بنفسه لما سمع الكذب أبداً .

أو أنه عندما أكل السُّحْت صار سماعا للكذب . أو سمع كذبا فصار أكَّالاً للسُّحْت . ولنلاحظ أن الحق لم يقل : « آكل للسُّحْت » ، ولم يقل : « سامع للكذب » ؛ ولكنه قال : « سماعون للكذب أكَّالون للسُّحت » أى أنهم تعودوا سماع الكذب وتعودوا أكل السُّحت ، فالواحد منهم أخذ حراما من أول الأمر ، وعندما صار أكالا وسمَّاعًا للكذب فى آن واحد ، اختلت ذرَّات تكوينه ، ولم يعد فى أعماقه نور ليرفض الكذب . بل أقبل عليه ، ويغريه الكذب ثانية بأن يأكل السُّحْت ، والأمر دائر بين سماع كذب وأكل سحت .

وقضية الكذب هى قضية صراع الباطل مع الحق . ومادام الكذب غير مطابق لوازع كونى أو لواقع منهجى تكليفى فهذا يصنع خللاً فى الكون . وحينما أراد الحق سبحانه وتعالى أن يضرب لنا المثل فى ذلك جاء بالمثل فى أمرٍ حسى حتى نراه جميعا :

﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا ﴾

(من الآية ١٧ سورة الرعد)

أى أن كل وادٍ تحمَّل على قدر طاقته . ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ﴾

(من الآية ١٧ سورة الرعد)

فقبل أن ينزل السيل من على الجبال إلى الوديان ، يأخذ كل الأشياء التى تضادفه على الجبل من آثار الرياح ، ومن أوراق النبات ، فينزله إلى الوادى ، وتلك هى الأشياء التى تصنع الزَّبَد ونقول عنه فى لغتنا العامية : « الرَّغاوى » .

﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ﴾

(من الآية ١٧ سورة الرعد)

و« رابياً » أى عائماً وعاليا وطافيا فوق المياه ، لماذا ؟ لأنه مادام زبداً ففيه فقاقيع هواء تجعل حجمه أكبر من وزنه . وتصبح كثافته أقل من المياه ؛ لذلك يطفو فوقها . وماذا يكون الموقف بعد ذلك ؟

﴿ فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ﴾

(من الآية ١٧ سورة الرعد)

ومن العجيب أنه سبحانه جعل المثلين فى الماء والمضاد له وهو النار ، فالماء يأتى بزبد وغثاء يطفو على المياه ، وكذلك النار حين ندخل فيها المعادن . ومن رأى الحداد ينفخ فى كيره على قطعة من الحديد يرى الخبث ، والمواد الغريبة الممتزجة بالحديد والتى تنفصل أثناء الصهر عن الحديد ليصير صافيا . إذن فهناك زبد فى الحديد تخرجه النار عند صهره ، وزبد يطفو فوق الماء .

﴿ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ﴾

(من الآية ١٧ سورة الرعد)

ولهذا نرى الباطل وقد أتى عليه زمن ليطفو فوق السطح ، ويخرج الخَبَث طافيا على أصيل الحديد . لكن أيظل الباطل كذلك ؟ يُطمئِننا الحق أنه يحمى الحق فيقول :

﴿ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾

(من الآية ١٧ سورة الرعد)

وحين نرى الباطل وقد طفا على السطح نفاجأ بعد وقت من الزمن أن الزبد ينتهى ويصبح الماء صافياً ، وكذلك الزبد الذى يطفو على الحديد ، ينفضه الحديد ليبقى صافياً . فإذا رأينا الباطل مرة يعلو ، فلنعلم أنه لا بقاء لهذا العُلو ؛ لأن ما ينفع الناس يمكث فى الأرض .

ولماذا لا يُعلن الحق عن نفسه من البداية ؟ أراد الله ذلك ليجعل الباطل من جنود الحق ، ولو لم يَعَض الباطل الناس ويُتعبهم أيتجهون إلى الحق ؟ لا ؛ لذلك كان لا بد أن يأتى إليهم الباطل ويتعبهم ليبحثوا عن الحق . وهكذا نرى الباطل كجندى من جنود الحق . وضربنا المثل من قبل وعرفنا أن الألم عند المريض من جنود العافية ، فلولا ذلك الألم لاستشرى الداء دون أن يشعر المريض ، فكأن الألم يلفته إلى موضع الداء ويدفعه للبحث عن وسائل الشفاء . وبذلك يتعرف على حلاوة العافية .

إذن فالباطل من جنود الحق والألم من جنود الشفاء ؛ لأن أمور الحياة لو سارت على وتيرة واحدة لما عرف الإنسان أوجه الحياة ، فلو لم يأتِ الألم إلى المريض لأكله المرض . فإذا كان الألم من جنود الشفاء ، فالكفر أيضاً من جنود الإيمان ؛ لأننا عندما نرى الكُفر ونشهد آثار الكُفر فساداً فى المجتمع ، نتساءل : ما الذى يخلِّصنا من ذلك ؟ ونعرف أن الذى يخلصنا من الفساد هو الإيمان .

وأكرِّر دائماً : كلمة الكُفر بذاتها هى الدليل الأول على الإيمان ؛ لأن الكُفر هو السَّتْر ، ومادام الكفر هو السَّتر ، والكافر يستر الإيمان ، وظهور الكفر على السطح دليل وجود الإيمان فى الأصل .

ومادام الحق قد قال : « سماعون للكذب أكّالون للسُّحت » فلا بد بعد هذا التشخيص أن يرسم لرسوله أسلوب التعامل معهم : « فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئاً » . فأنت يا رسول الله بالخيار بين أن تحكم بينهم فى القضية التى جاءوا من أجلها أو تعرض عنهم ، فليس عليك تجاههم إلزام ما ؛ لأنهم السماعون للكذب الأكّالون للسُّحْت . وهم حينما يأتونك يا رسول الله طلباً لحكم إنما يفعلون ذلك لا رغبة فى معرفة الحق ولا هم يلتمسون العدل . بل جاءوك مظنة تيسير أمر الباطل وأكل السُّحت لنفوسهم . وقد طلبوا الحكم فى قضية الزِّنا وعندهم فى التوراة كان الرَّجم عقاباً للزنا .

لقد ذهبوا لرسول الله لأنهم أرادوا أن يستروا حكم الزِّنا فى التوراة ، والاكتفاء بالجلد وتسويد وجه الزانى وركوبه حماراً فى الوضع العكسى بحيث يكون وجهه فى اتجاه الذيل وقفاه فى اتجاه رأس الحمار ، وأن يطوفوا بالزانى وهو على هذه الهيئة حول البلدة . ولما لم يسمعوا ذلك الحكم من الرسول ابتعدوا عنه . إذن هم يطلبون التخفيف لأنهم كانوا سماعين للكذب وأكّالين للسُّحت . ولأن الذى سيطبق عليه الحد رجل له جاه وله مكانة وهم يريدون التقرب إليه بتخفيف العقاب عنه . وهل هناك تعارض بين قول الحق فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها وبين قول الحق :

﴿ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾

(من الآية ٤٨ سورة المائدة)

لا تعارض . والبعض يقول : إن فى قوله الحق : « فاحكم بينهم بما أنزل الله » إلزاماً . ونقول : المعنى الواضح هو أنك يا رسول الله ، إن رجحت جانب أن تحكم وتقضى بينهم فاحكم بما أنزل الله ، ولننظر إلى الأداء القرآنى لأن المتكلم إله وحكيم : « فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم » . ونلحظ أن الأمر هنا جاء بطريقة تؤكد أن الإعراض ممكن ؛ لأنهم أرادوا أن يحكم لهم رسول الله على هواهم ، وطمأنه الله بأنه سيحميه من شرهم إن أعرض عنهم ، وكأن الحق يقول لرسوله : إياك أن تفكر حين تعرض عنهم أنهم سينالونك بالشر لأنك لم تحقق لهم التيسير الذى ابتغوه عندك « وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئا » وإياك أن تجعل الضرر منهم مُرجِّحاً للحكم ؛ فأنت بالخيار ؛ إما أن تحكم وإما أن تعرض . ولا تخش من شرهم لأن الذى أرسلك يحميك .

« وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين » والحكم فى هذه الآية يأتى كالقوس فى البداية وفى النهاية ، والحكم بينهم يكون بالقسط ؛ أى بالعدل . والعدل ليس كما يراه الهوى ولكن حسب ما أنزل الله . أى أن الله يحب الذين يزيلون الجور . ومادام الحكم بالعدل يأتى ليزيل الجور ، فكأنه كان من قبل جورٌ مُقنن ؛ إذن فـ « أقْسَط » أى أزال جورًا مقننًا وأعاد توازن الميزان ليعود الانسجام بين الإنسان والكون . والكون كله يسير بميزان ؛ الأرض تدور والشمس تؤدى مهمتها ، ولا كوكب يصطدم بكوكب آخر :

﴿ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾

(من الآية ٤٠ سورة يس)

فإن أردتم أن تستقيم لكم أموركم الاختيارية ، فانظروا إلى الأمور الإجبارية التى حولكم ، فإن كانت بنظام وميزان واعتدلت الأمور ، اعدلوا - إذن - فى إدارة شئونكم حتى تنسجموا كما انسجم الكون ، ولذلك نقرأ قوله تعالى :

﴿ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝٦ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨ ﴾

(سورة الرحمن)

أمامكم الموازين العليا فى الكون ، ولا تستطيعون إفسادها لأنها تسير بنظام لا دخل لكم به ؛ لذلك عليكم أن تتعلموا منها وأن تديروا أمور حياتكم بميزان حتى تستقيم أموركم الاختيارية .

﴿ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ۝٩ ﴾

(سورة الرحمن)

فإن رأيت حولك كونا غير مُضطرب ، وغير مُتصادم ، ويؤدى حركته دون تعارض أو تصادم ، فافهم أنه قائم على ميزان الحق ، ووضع سبحانه لك ميزاناً فى الأمور الاختيارية ، والمرجحات الاختيارية هى أحكام التكليف من الله ، فإن أردت أن تستقيم لك الأمور الاختيارية فسر بها على الميزان الذى وضعه الله .

ثم يلفتنا الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك بقوله :

﴿ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ۝٤٣ ﴾

يوضح سبحانه : كيف يأتون طلبا للحكم منك وعندهم التوراة ، وهم لم يؤمنوا بك يا محمد رسولاً من الله ، فكيف يرضاك من لم يؤمن بك حَكَما ؟ لا بد أن فى ذلك مصلحة مناقضة لما فى التوراة ، ولو لم تكن تلك المصلحة مناقضة لنفذوا الحكم الذى عندهم ، وهم إنما جاءوا إليك يا رسول الله طمعا فى أن تعطى شيئا من التسهيل وظنوا ـ والعياذ بالله ـ أنك قد توفر لهم أكل السُّحت وسماع الكذب .

« وكيف يحكمونك وعندهم التوراة » وهى مسألة عجيبة يجب أن يُفطن إليها ؛ لأن عندهم التوراة فيها حكم الله ، فلو حكموك فى أمر ليس فى التوراة لكان الأمر مقبولاً ، لكن أن يحكموك فى أمر له حكم فى التوراة ، وبعد ذلك يطلعك الله عليه

لتكشفه فتقول يا رسول الله : هاتوا ابن صوريا ليأتى بحكم التوراة . ويعترف ابن صوريا بوجود حكم الرَّجم فى التوراة . إذن هم رغبوا فى الاحتيال ، وأراد الله أن يثبت لرسوله صلى الله عليه وسلم لوناً فى الإعلام عن هؤلاء المارقين على أحكام الله ، هم يعلمون أن الرسول أُمّى ، لم يقرأ ولم يكتب ، فمن الذى أخبره بالحكم الموجود بالتوراة ؟

إذن أخبره من أرسله ، وإذا كانوا قد أرادوا البحث عن حكم مُخفَّف فالحق أراد ذلك ليكون سَبباً من أسباب الخزى لهم .

﴿ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾

(سورة المائدة)

وهذا دليل على أن الرسول عندما حكم بغير مطلوب تيسيرهم . أعرضوا عن الحكم . ولو كانوا طالبين للحكم بادىء ذى بدء لقبلوا الحكم بالرجم كما قاله لهم رسول الله ، لكنهم غير مؤمنين حتى بتوراتهم .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

الهدى هو الطريق أو الدرب المُوصِّل للغاية . وتأتى على الطريق أحقاب الليل والنهار ، فالطريق مُظلم ليلاً ، وقد تعترض السائر فيه عقبات ، أو قد لا يمشى السائر فى سواء السبيل أى وسط الطريق ، فيقع فى حفرة أو يصطدم بحجر .

ويوضح الحق هنا : لقد صنعت لكم الدرب وأنرته لكم حتى لا تصطدموا بشىء أو تأتى لكم عقبات ، وتمثَّل ذلك فى المنهج الذى جاء به موكب الرُّسل كلهم . وقديما كان العالم مفككا ، متناثر الجماعات ، فلا توجد مواصلات ، وتعيش كل جماعة فى انعزال وشبه استقلال ، فإن حصلت داءات فى بقعة ما تظل محصورة فى هذه البقعة ، ويأتى رسول ليعالج هذه الداءات ، فهذا يعالج أمر عبادة الأصنام ، وذلك يعالج مسألة الكيل والميزان ، وثالث يعالج الأمور المنظمة للحياة الزوجية عند اليهود .

هذه الداءات كانت متعددة بتعدد الجهات ، وعندما أراد الحق سبحانه أن يبصر الناس بأسرار كونه ليستنبطوا منها ما يقرب المسافات ويمنع المشقات لتلتقى الأمم . وعندما تلتقى الأمم لا يوجد فصل بين الداءات ، فالداء الواحد يحصل فى الشرق لينتقل إلى الغرب . وكأن الداءات تتحد فى العالم أيضاً .

إذن لا بد أن يجىء الرسول الجامع ليعالج الداءات كلها ، فيأتى صلّى الله عليه وسلم الجامع المانع ، فإذا ما قال الحق : إنه أنزل التوراة فيها هدى ونور ، فالإنجيل أيضاً فيه هدى ونور ،.وكل هدى ونور فى أى كتاب إنما هو للداءات الموجودة فى البيئة المنعزلة . مثال ذلك أن سيدنا إبراهيم كان موجوداً ، ومعه فى الزمن نفسه سيدنا لوط . وها هوذا سيدنا موسى كان موجودا . وكذلك سيدنا شعيب ، إذن كانت الرُّسل تتعاصر فى بعض الأحيان لأن كلا منهم يعالج داء معينا . وهكذا كانت الرسالات تأتى محدودة الزمان ومحدودة المكان .

أما محمد صلى الله عليه وسلم فقد بعثه الله للناس كافة بكل أجناسهم وتقوم على منهجه الساعة ؛ لذلك لم تعد الأرض فى حاجة إلى رسول آخر ، وصار من المنطقى أن يكون هو الرسول الخاتم .

« إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا » لماذا إذن يأتى

الحق بإسلام الأنبياء هنا ؟ جاء سبحانه بأمر إسلام الأنبياء تشريفا للإسلام لأنه جوهر منهج كل نبى .

إننا نجد الشعراء يتفننون فى هذا المعنى :

ما إن مدحت محمداً بمقالتى
لكن مدحت مقالتى بمحمدِ

والشاعر الآخر يقول :

قالوا أبو الصقر من شيبان قلت لهم
كلا لعمرى ولكن منه شيبان

فالقبيلة بالنسبة لأبى الصقر هى التى تنتسب إليه وليس هو الذى ينتسب إليها .

ويردف قائلا :

وكم أبٍ قد علا بابن ذُرَا شرفٍ
كما علا برسول الله عدنان

إذن فالنبيون عندما يصفهم الحق بأنهم أسلموا ، إنما يريد الحق أن يشرف الإسلام بأن النبيين أسلموا قيادهم وزمامهم إلى الله لأنهم وجدوه الخير لهم . وإسلام النبيين هو الإسلام بمعناه الكامل ، أى هو الانصياع لأوامر الله ، فكلما فكر نبى منهم فى أن هناك شراً سيأتى له بسبب دعوته ، أو أن يضطهده أحد ، أو يحلو لأحدٍ أن يسىء إليه فهو يسلم أمره لله ؛ لأن الرسول منهم إنما يقول كلمة الحق ولا يبالى بما يحدث بعدها .

« يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا » وهم يحكمون بالتوراة بين الذين هادوا ، أى من يهود ، وكذلك يحكم بها الربانيون والأحبار . والربانى منسوب للرب ، أى أن كل تصرفاته منسوبة إلى الله . والأحبار هم العلماء حملة أوعية العلم ، لكن هل ينفذونه أو لا ينفذونه فهذا شىء آخر . صحيح أن كل عالم وعاءُ

علم ، لكن قد ينتفع هو بعلمه ، وقد لا ينتفع ، لكنه ينقل علمه إلى من ينتفع به . ولذلك يقول أحد العلماء :

فخذ بعلمي ولا تركن إلى عملٍ
واجْنِ الثمار وخلِّ العود للنار

فلا تقل : إن هذا العالم يقول لنا كذا وكذا ، ونراه فى تصرفاته عكس ما يقول ، لأن عليك أن تأخذ ثمرة العلم ، واترك العود للنار . ولكن على العالم أن يكون أول من يمتثل ويطبق ما يقوله حتى لا يعذب ولا يدخل تحت قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا لِمَ تقولون ما لا تفعلون ، كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون » .

« والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله » وعرفنا أن التوراة فيها نور وهدى ويحكم بها النبيون والربانيون والأحبار بالوسيلة التى طلب الله منهم أن يحفظوها ، وبما طلبه رسولهم منهم أن يحفظوا هذه التوراة . وقال الحق : « استحفظوا » ولم يقل : « حفظوا » ليبين لنا الفارق بين كل كتاب سابق للقرآن وبين القرآن ؛ لأننا عرفنا أن كل رسول قد جاء بمعجزة تدل على أنه صادق البلاغ عن الله .

ولكل الرسل من السابقين على رسول الله معجزة منفصلة عن المنهج ، مثال ذلك سيدنا موسى فمعجزته العصا وفلق البحر ، أما منهجه فهو التوراة . وسيدنا عيسى معجزته إبراء الأكمه والأبرص ، والمنهج الذى جاء به هو الإنجيل . أما سيدنا رسول الله فمعجزته هى عين منهجه ، وهى القرآن . وكان الأمر الموجود بالنسبة لكل رسولٍ مرتبطا بزمانه وجماعته ومحتاجا إلى معجزة مناسبة ومنهج مناسب ، لكن الرسول الذى أرسله الله إلى الناس جميعا وخاتما للأنبياء لا بد أن تظل معجزته عين منهجه بحيث يستطيع أى مسلم أن يقول حتى قيام الساعة : محمد رسول الله وهذه معجزته وهى عين منهجه .

وسيظل القرآن معجزة ظاهرة إلى أن تقوم الساعة ؛ لأن الله أرادها مختلفة عن بقية المناهج والمعجزات . فالمعجزات السابقة كانت كعود الثقاب الذى يشتعل مرةً

واحدة ؛ فمن رآه لحظة الاشتعال فالأمر بالنسبة إليه واضح ، أما من لم يره فهو لن يصدق تلك المعجزة إلا أن يخبره من يصدقه . وقد استحفظ الله الربانيين والأحبار بالتوراة ، أى طلب منهم أن يحفظوها ، وكان هذا أمراً تكليفياً ، والأمر التكليفى عُرضة لأن يُطاع وعُرضة لأن يُعصى . واستحفظهم الله التوراة والإنجيل :

﴿ فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ ﴾

(من الآية ١٤ سورة المائدة)

وصار أمر المنهج منسياً . وليس على بالهم كثيراً ؛ لأن الأمر إذا توارد على البال واستقر دائما فى بؤرة الشعور يظل فى الذهن ، لكن النسيان يأتى عندما يكون الأمر بعيداً عن البال .

والحق طلب منهم أن يحفظوا المنهج ، ولكنهم ـ ماعدا النبيين ـ لم ينفذوا ، وكل أمر تكليفى يدخل فى دائرة الاختيار ، ولذلك نجد أن الأحبار والربانيين قد نسوا ، وما لم ينسوه كتموه . وأول مرحلة من مراحل عدم الحفظ أنهم نسوا ، والمرحلة الثانية هى كتمان ما لم ينسوه ، والثالثة هى : ما لم يكتموه حرَّفوه ولووا به ألسنتهم . وياليتهم اقتصروا على هذه المراحل فقط ، ولكنهم جاءوا بأشياء وقالوا : هى من عند الله وهى ليست من عند الله :

﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ٧٩ سورة البقرة)

إذن فالحفظ منهم لم يتم ؛ لذلك لم يدع الله القرآن للحفظ بطريق التكليف ؛ لأنه سبحانه اختبر البشر من قبل ، ولأنه أراد القرآن معجزة باقية ؛ لذلك لم يكل الله سبحانه أمر حفظه إلى الخلق ، ولكنه تكفل ـ سبحانه ـ بأمر حفظ القرآن :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾

(سورة الحجر)

ومصداق هذا النص ، أن بعضاً من المسلمين أسرفوا على أنفسهم فى هجر منهج الإسلام ومنهج القرآن إلا أنك تجد عجباً ، فبمقدار بُعدهم عن منهج الإسلام تطبيقاً يحافظون على القرآن تحقيقاً ، فيكتبون القرآن بكل ألوان الكتابة وبكافة الأحجام ، فهناك حجم ذهبى ترتديه النساء فى صدورهن ، وحجم يوضع فى اليد ، وبعد ذلك

نجد الكفرة أنفسهم يخترعون طريقة لكتابة القرآن فى صفحة واحدة .

إذن فالله يُسخر لحفظ القرآن حتى من لم يكن مسلماً . وتلك خواطر من الله . ونحن نرى كل يوم من يبتعدون بسلوكهم عن المنهج لكنهم يرصدون المال لحفظ القرآن . ونجد القرآن محققاً بألف وسيلة حفظ : الرجل يضع فى سيارته مصحفاً ، وفى حجرة نومه مصحفاً ، وقد تكون المرأة سافرة وصدرها مكشوف ولكنها تعلق مصحفاً ذهبياً . وهذا يثبت لنا أن حفظ القرآن ليس أمراً تكليفياً . بل هو إرادة الله .

فلو كان الأمر تكليفياً لكان نسيان القرآن وارداً ؛ لأن المسلمين ابتعدوا فى بعض أمورهم عنه كمنهج ، ويناسب ذلك أن ينفصلوا عنه حفظاً . ولكن الأمر صار بالعكس . فعلى الرغم من بُعد المسلمين عن المنهج ، لكن حفظ القرآن لا يقل أبداً ، ومن العجيب أن الكثيرين من المسرفين على أنفسهم ، إن سمع واحد منهم أن شيئاً يمس المصحف ، يقيم الدنيا ويقعدها ، فالمسألة ليست مسألته ، ولكنها مسألة الحافظ جل شأنه . وإن حدث أى تحريف يسير فى القرآن من أعداء الإسلام ، نجد أمة الإسلام تقف وقفة رجل واحد . ولقد أراد بعض المدلسين أن يدسوا على القرآن ما ليس فيه وجاءوا إلى آية فى سورة الفتح وهى :

﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الفتح)

وقالوا : « محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم » وكأنهم يرغبون فى زيادة التكريم لرسول الله ، فلما عرف المسلمون ذلك قامت ضجة وأحرقوا تلك المصاحف . ومنع المسلمون التحريف مهما كان باب الدخول إليه .

« فلا تخشوا الناس واخشون » والخشية : خوف متوَهَّم ممن تظن أنه قادر على الضر ، ولا أحد غير الله قادر على النفع والضر ؛ لذلك لا يصح أن يخاف الإنسان مِن سواه ، أما أن تظن أن السلطان أو القريب منه قادر على الضر ، فهذا أمر غير صحيح ، وليخشَ كل إنسان الحق سبحانه وهو جل وعلا نصحنا أن تكون الخشية منه دون سواه .

وإن غيَّر أحد أحكام المنهج من أجل السلطان أو أقارب السلطان أو أصدقاء

السلطان فذلك عين الفساد . والآفات والشرور تأتى من ذلك . بل قد لا يدرى السلطان شيئاً عن ذلك، وقد يتدخل قريب للسلطان ـ دون علم السلطان ـ ليطلب من العلماء تغيير بعض من المنهج ولا يستسلم له إلا الضعاف منهم ، وقد فطن سيدنا عمر رضى الله عنه إلى هذا الأمر فقال : إن الفساد قد لا يأتى من السلطان ، ولكن من الذين حول السلطان .

والخشية هنا تكون من غير الله ، ولذلك كان سيدنا عمر يجمع أقاربه والملتفين حوله ويقول لهم : لقد اعتزمت أن أصدر كذا وكذا فوالذى نفسى بيده من خالفنى منكم إلى شىء من هذا جعلت نكالاً للمسلمين .

هذا هو أسلوب من أراد أن يخدم ويحكم ولا يحمل أوزاراً ، ونرى صور الفساد إنما جاءت نتيجة مخالفة القاعدة الحكيمة : « فلا تخشوا الناس واخشون » .

ويتابع الحق من بعد ذلك : « ولا تشتروا بآياتى ثمناً قليلاً » وثمن آيات الله مهما بولغ فى تقييمها فلن يتجاوز نفعه هذه الدنيا ؛ لأن الدنيا ـ كما قلنا سابقا ـ لا تقاس بعمرها الحقيقى أى إلى أن يُفنى الله البشر ، وإنما دنيا كل حىّ تقاس بعمره فيها .

فهب أن الحياة طالت لملايين السنين فما نفع الفرد المحدود العمر بهذه الملايين من السنين ؟ إذن فدنيا كل إنسان هى مقدار عمره فى الحياة . وعمر الفرد فى الدنيا له حد محدود غير معروف لأحد غير الله ، فلكل أجل كتاب . ولذلك تجد واحداً يعيش متوسط الأعمار وهو سبعون عاماً . ويختلف العمر من إنسان لآخر ، وقد يموت آخر عند الستين وثالث يموت فى الأربعين ورابع يموت فى المائة ، وخامس يموت وهو طفل رضيع .

إذن فدنيا الفرد قد تكون لحظة . ومادامت مسألة العمر لا يحكمها زمن ولا يحكمها سبب فهى ـ إذن ـ بإرادة الحق غيب .

وأقضية الموت فى الوجود جعلها الله شائعة فى كل زمن ولم يجعلها الحق بعد الميلاد . بمعنى أن يولد الإنسان ليموت من بعد ذلك ، لا ، فقد يموت الكائن

البشرى وهو جنين فى بطن أمه ؛ فهذا حمل يسقط من بعد ساعة ، وذاك حمل يسقط من بعد شهر أو شهور ، وجعل الحق لنا ذلك لنأخذ من الأمر الغيبى وهو الجنين فى البطن مراحلَ تكوينه . إنه يعطينا شكل الجنين بعد نصف ساعة من التكوين ، ويعطينا شكل الجنين من بعد ساعة . وكل الأزمنة فى الحياة والموت موجودة . وعندما نحلل تلك الأشكال نجد أمامنا كل أطوار الجنين ، وكل أطوار الحياة ليكون ذلك واضحا جليا حتى لا يحسب أحد لنفسه عمراً فى هذه الدنيا .

ومادام الثمن الذى يأخذه المرتشون ليغيّروا آيات الله وأحكامه سينفعهم فى هذه الدنيا ، وأعمارهم فى هذه الدنيا محدودة ، كان عليهم أن يتذكروا أن حياتهم زمنياً قليلة بالنسبة لعمر الدنيا . وحتى يقوم الإنسان بعملية اقتصادية لا بد أن يتعرّف إلى أن عمره محدود بقدر سنوات مجهولة بالنسبة له فى هذه الحياة ، وهو عمر محدود مهما طال . وإن قارنها الإنسان بالحياة فى العالم الآخر فسيجد أن عمره الدنيوى منهى ، فإن قايضه بعمر غير منهى هو عمره فى الآخرة ، فذلك هو الفوز العظيم ؛ لأن وجود الإنسان فى الدنيا مظنون ، ووجود الإنسان بالنسبة للآخرة متيقن . ونعيم الفرد فى الدنيا هو على قدر إمكاناته ولو فى السلب . ونعيم الإنسان فى الآخرة ينسب إلى طلاقة قدرة الله سبحانه وتعالى .

إذن فأى صفقة تكون هى الرابحة ؟ محدود مقابل غير محدود ، ومظنون مقابل متيقن ، ونعيم على قدر مكنة وسلطان الفرد ولو بالسلب مقابل نعيم على قدر طلاقة قدرة الحق ، أى صفقة هى الرابحة ؟ إذن فصفقة الدنيا قليلة بالنسبة لما وعد الله به المتقين . ومن بعد ذلك يقول الحق : « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون » .

ماذا يعنى الحكم بما أنزل الله ؟ .

نعلم أن الحق سبحانه وتعالى جعل لكل قضية مخالفة فى الكون حكماً ، فإذا أردت أيها الإنسان أن تحكم فى أمرٍ فعليك أن تبحث عن جوهره بسلسلة تاريخ هذا الأمر . ونجد أن قمة كل الأمور هى العقيدة ، وهو وجود الواجب الأعلى وهو الله ، فإن حكمت بأنه غير موجود فذلك هو الكفر . وإن آمن الإنسان بالله ثم جاء إلى أحكام

الله التى أنزلها وقال : لا ، ليس من المعقول أن يكون الحكم هو هكذا . فهذا لون من رد الحكم على الله وهو لون من الكفر .

أما إن آمن الإنسان بالحكم وقال : إننى أصدق حكم الله ، ولكن لا أقدر على نفسى فهل هذا كفر ؟ أم هذا ظلم ؟ . إنه ليس كفراً ، ويكون ظلماً إن كان حكماً بين اثنين . وهو فسق إن كان بين الإنسان وبين نفسه ؛ لأنه يفسق عن الحكم كما تفسق الرطبة عن قشرتها .

فالفاسق هو من له إطار من التكليفات ويخرج عن هذا الإطار كالرطبة التى خرجت من قشرتها . ومادامت الرطبة قد خرجت من قشرتها فهى عرضة للتلوث .

إذن فإن سمعت قول الله :

﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة المائدة)

وعندما تسمع :

﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾

(من الآية ٤٥ سورة المائدة)

وعندما نسمع :

﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾

(من الآية ٤٧ سورة المائدة)

فتذكر أحكام الله وحاول أن تقدر على نفسك . وقيل : إن ذلك لليهود ؛ لأن الحق قال :

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة المائدة)

وقيل : إن الثانية جاءت للنصارى الذين لم يحكموا بالإنجيل .

ولنا أن نقول رداً على مثل هذه الأقوال : أمن الممكن أن يكون ذلك للأديان السابقة على الإسلام وليس موجوداً بالإسلام ؟ ذلك أمر لا يقبله العقل أو المنطق ، فهى آيات نزلت فى مناط الحكم عامة . فإن حكم إنسان فى قضية القمّة وهى العقيدة بغير الحق ، فذلك هو الكفر . وإن ردّ الإنسان الحكم على منشئه ـ وهو الحق الأعلى ـ فهذا لون من الكفر . وإن آمن الإنسان بالقضية وهو مؤمن بالإله فغلبته نفسه فهذا هو الفسق . وإن حكم إنسان بين اثنين وحاد ومال عن حكم الله فهذا هو الظلم .

إذن فـ « كافرون » و« ظالمون » و« فاسقون » تقول لنا : إن الألفاظ اختلفت باختلاف المحكوم به . فلا يقولن أحد : إن تلك آية نزلت لتلك الفئة ، وتلك الآية نزلت لفئة أخرى ، وثالثة نزلت لفئة ثالثة ، ولكنها أحكام عامة لمناط التكليف عامة . والحق قال فى بداية كل حكم « ومَن » ومَن كما نعلم كلمة عامة . والدليل على ذلك أن من يحكم بغير ما أنزل الله إنما هو يشترى بآيات الله ثمناً قليلاً ورد الحكم على الله . وقال الحق فى الآية اللاحقة :

﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ ﴾

(من الآية ٤٥ سورة المائدة)

إنها أحكام تتعلق بجرائم ، وعقوبات على جرائم ، وهنا يكون الحكم بغير ما أنزل الله ظلماً . إذن فالأمر يختلف حسب المحكوم عليه .

وحينما تعرضنا لقضية الخلق الأول وهو خلق آدم ، وطلب الله من الملائكة المكلفين بتدبير أمور الخلق فى الأرض أن يسجدوا لآدم . وقلنا إن هذا السجود هو رمزية لأن يكونوا فى خدمة آدم ؛ لأن كل مظهر من مظاهر القوة فى الكون لا نرى الملك الذى يديره ، فكل قوة لها ملك معين ، ولأن ذلك الأمر من الغيب فنحن لا نراه ، إنها ملائكة مدبرات أمر . وحين يبلغهم الحق أن الطارىء على الكون وهو آدم ، وأنهم فى خدمته ، ومن أجل ذلك أمرهم بالسجود لآدم . ولذلك نجد أن بعضاً من الملائكة الذين ليسوا من المدبرات أمرا لم يشملهم الأمر . ويكلم الحق إبليس عندما رفض السجود قال سبحانه :

﴿ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴾

(من الآية ٧٥ سورة ص)

إن « العالين » هم الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون ولا يدرون ولا يعلمون بأمر آدم ، فقد سأل الحق إبليس : أأنت مستكبر عن السجود أم أنت من العالين الذين لم يشملهم أمر السجود ؟ وقلنا إن إبليس لم يكن من الملائكة ، لأنه بنص القرآن :

﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓ﴾

(من الآية ٥٠ سورة الكهف)

ولذلك لا يصح أن يكون « إبليس » محل خلاف أهو من الملائكة أم لا ! فهو ليس من الملائكة . وفى القرآن نص صريح يثبت جنسية إبليس . وهو من الجن . وكان من المختارين ، له أن يطيع أو أن يعصى . لأن الجن داخلون فى قانون الاختيار . فإن ألزم الجنّى نفسه بمنهج الله إلزاماً يتساوى به مع الملائكة وجب عليه أن يقوم بذلك . ولكنه لم يفعل . وكان من الواجب أن يطيع إبليس الأمر . ومادام الحق هو الذى أمر بالسجود ، فالأدنى وهو إبليس كان عليه أن يسجد ؛ لأن المراتب محفوظة كما نعلم ، فرئيس الجمهورية عندما يدخل على الوزراء فهم يطيعون أمره ، وإن كان يجلس مع الوزراء بعض وكلاء الوزارات فهم يطيعون أوامره ؛ ذلك أنهم يدخلون فى الأمر من باب أولى . ولو كان إبليس أعلى من الملائكة لكان أولى له أن يستجيب لأمر الخالق الأعلى ولا يعصى ويتأبى ، أما وإنّه كان أقل من الملائكة فكان لا بد من باب أولى ـ أن ينصاع لأمر الله . لكن إبليس علل أمر عدم السجود ، فقال :

﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾

(من الآية ١٢ سورة الأعراف)

وفى آية أخرى قال سبحانه :

﴿ءَأَسۡجُدُ لِمَنۡ خَلَقۡتَ طِينٗا﴾

(من الآية ٦١ سورة الإسراء)

وحين يتأبّى كائن على الحكم ، أيتأبّى على الحكم الأصم ، أى على الحكم من حيث هو حكم دون النظر إلى الحاكم ، أم على مَن حكم بالحكم وهو الأعلى سبحانه ؟ . تأبى إبليس على من حكم بالحكم ، ولذلك طرده الحق من الجنة وصار ملعوناً . لكن آدم عصى ربه وقرب من الشجرة التى نهاه الله عنها . ومن رحمة الله

تعالى أنه جعل فى التكليفات مقدمات تنطبق على حالة المكلف نفسه ، فلم يقل الحق لآدم : لا تأكل من الشجرة . ولكنه قال :

﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ ﴾

(من الآية ٣٥ سورة البقرة)

لأن الحق علم أن آدم إنسان ، والإنسان من الأغيار ، وهو عندما يرى الشجرة بثمارها قد لا يقدر على نفسه ، ولذلك كان من الأفضل ألا يقرب من هذه الشجرة . وسبحانه يريد أن يحمى الإنسان ؛ لأن التكليفات التشريعية لا يرفعها الحق ، ولا يُعفى المكلف من القيام بها إلا فى الأمر الذى ليس للإنسان فيه اختيار ، ولذلك أراد الحق أن يحمى الإنسان من الاقتراب من تلك الشجرة حتى لا تغريه وجاء الحق بمثل هذا الأمر فى الخمر فلم يقل : لا تشربوا الخمر . ولكنه قال :

﴿ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ ﴾

(من الآية ٩٠ سورة المائدة)

لأن الإنسان لو جلس فى مجلس خمر ورأى السُّكارى قد سعدوا وضحكوا فقد تراوده نفسه على شرب الخمر . إذن فالأمر بالاجتناب هنا أبلغ من « لا تشربوه » . ونجد أن تكليفات الحق إنما تأتى للعمل النزوعى ، ومعنى العمل النزوعى أن يتحرك الإنسان للعمل . أما بالنسبة للإدراكات فمن الجائز أن يدرك الإنسان الأمر . ويترك الحق لنا حرية حب من نشاء وكراهية من نشاء . ولكن هذا الحب لا يصح أن يصدر عنه عمل نزوعى فنجامله بالباطل . وكذلك الكراهية فليس هناك أمر بالكراهية ، ولكن إن كره إنسان إنساناً فلا يصح أن يظلمه . فالمنهىّ عنه هو الظلم ، ولذلك قال الحق :

﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ﴾

(من الآية ٨ سورة المائدة)

أى لا يحملنكم بغض قوم على ألا تعدلوا . إذن فالحق لم يحرم البغض لأنه مسألة عاطفية . ولكن التحريم ينحصر على الإقدام على عمل يخل بميزان العدل مع من تكره . ويجب أن يؤمن الإنسان إيماناً جازماً بأن من ظلمه بمعصية ، فلا يجازيه الإنسان إلا بطاعة الله . وآدم أكل من الشجرة ، فهو - إذن - قد تجاوز مسألة

الاقتراب إلى مسألة الأكل من الشجرة ؛ لأنه لو قرب منها لكان مخالفاً ، فما بالنا وهو قد أكل منها أيضاً ؟ إذن فقد أوغل آدم فى المعصية ، لكنه قال : (ظلمنا أنفسنا) .

وهذا اعتراف واضح بأن حكمك يا الله هو الحكم الحق ، لكنى لم أقدر على نفسى يا ربى . إذن فهو لم يَرُدَّ الحكم على الله ، ولكنه اعترف بأنه لم يقدر على تنفيذ الحكم ، لذلك أعطاه الله كلمات ليقولها فيتوب عليه . وسبحانه هو الذى علم آدم كيف تكون التوبة . فآدم ـ إذن ـ ليس كإبليس الذى رد الحكم على الله ؛ لأن آدم قال : أنا لم أقدر على نفسى .

إذن فمن لم يحكم بما أنزل الله رادّاً للحكم على الله ومخطّئاً لله ـ سبحانه ـ فهو كافر . وإن كان حكماً بين اثنين وحكم بغير ما أنزل الله فهو ظالم . أما إن كان حكماً على النفس ولم يقدر عليه الإنسان فهذا فسق . وكل وصف جاء حسب حكمه . ولا داعى ـ إذن ـ للجدل ولا للخلاف ولا ادعاء أن هناك قولاً يقصد به اليهود ، وآخر ورد فى النصرانية ، ولا يصح أن يزين الإنسان الباطل لأحد ، لأن ورود الحكم بما أنزل الله فى الإسلام أمر جازم يوجب الالتزام به .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾

لقد كتب الحق على اليهود فى التوراة التى وصفها من قبل بأنها هدى ونور ، كتب

وأوجب عليهم أن النفس بالنفس ، وعلينا أن نأخذ كل أمر وما يناسبه من الحدث . أى أن النفس تُقتل بالنفس . ولكن عندما يقول الحق : « والعين بالعين » ، فهل يعنى ذلك أن تقتل العين؟ لا . ولكن العين تقلع مقابل عين . وكذلك « والأنف بالأنف » . أى الأنف المجدوعة ، مقابل جدع أنف أخرى . وكذلك قوله الحق : « والأذن بالأذن » أى إصابة أذن بالصمم مقابل إصابة أذن بالصمم . إذن فلكل ما يقابله . فهناك النفس تقتل بالنفس وهناك العين تفقأ بالعين ، وكذلك الأمر فى جدع الأنف ، وصلم الأذن .

إن تعبيرات اللغة واسعة تعطى لكل وصف ما يناسبه . فالإنسان مثلاً قد يكون جائعاً . ولكن إلى ماذا ؟ إن كان جائعاً لطعام فهو جوعان . وإن أراد خصوصية أكل ويشتهيه كاللحم فلا يقال له:جوعان ، ولكن يقال « قَرِم » . وإن كان يشتهى اللبن يقال له : « عَيْمان » ، وإن كان فى حاجة للماء يقال له : « عطشان » . وإن كان جائعاً للجنس فهو « شَبِق » .

وذلك يكشف لنا أن الإنسانية تحتاج إلى أمور متعددة ، وكل أمر له اسم . وكل شيء له تعبير . ومثال آخر : يقال:فلان جلس ، أى قعد . وهذا فى المعنى العام . ولكن الجلوس يكون عن اضطجاع . أما قعد ، فهى عن قيام ، أى كان قائماً وقعد . ولذلك قال الحق : « قياماً وقعوداً » .

ومثال آخر : يقال : « نظر » و« رمق » و« لمح » ؛ وكل كلمة لها موقفها ؛ فالنظر يكون بجميع عينيه . و« رَمِق » أى لحظ لحظا خفيفاً . و« لَمَحَ » أى اختلس النظر إليه . وكذلك قوله الحق معناه : أننا كتبنا عليهم فيها أن النفس مقتولة بالنفس ، والعين مفقوءة بالعين ، والأنف مجدوعة بالأنف ، والأذن مصلومة بالأذن ، والسن مخلوعة بالسن . وبعد ذلك يقول الحق عن الجروح : « والجروح قصاص » لأن الجرح قد يكون فى أى مكان . والقصاص يكون بمثله ومساوياً للشيء ، وهو مأخوذ من قص الأثر ؛ أى السير تبعاً لما سارت عليه القدم السابقة دون انحراف . ولما كان القصاص هو أمر مطلوب فيه المماثلة فذلك أمر صعب ، صحيح أن الحق قال :

﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾

(من الآية ١٩٤ سورة البقرة)

لكن القصاص أمر صعب ، فالصفعة من يد جائع متهافتة بعكس الصفعة التى تأتى من يدٍ صاحبُها فى منتهى النشاط والقوة . فكيف يكون القصاص مناسباً لقوة الذى فعل الفعل ؟

إذن لا يصح أن يدخل الإنسان فى متاهة . ويمكنه أن يتصدق بالقصاص فلا يأخذه . ونحن نعلم حكاية « تاجر البندقية » ذلك المرابى اليهودى الذى أقرض نقوداً مقابل رطل من لحم صاحب القرض ، وكتب الاثنان التعاقد وجاءا بالشهود . ولم يستطع الرجل أن يُسدّد المال فى الميعاد ولكن القاضى أنار الله بصيرته . فقال : خذ الرطل من لحم الرجل ولكن إن أنقصت أوقية فسنأخذها منك أو إن زدت أوقية فسنأخذها منك . فقال المرابى : لا أريد .

وقد قنن الحق للجريمة ، ولم يغلق سبحانه باب الطموحات الإيمانية ، فقال : « فمن تصدق به فهو كفارة له » . ومعنى « تصدق » أنه دفع وأعطى شيئا غير مستحق ، ولا واجب عليه أى تبرع به ابتغاء وجه الله . إن الذى يتعب البشر فى تقنيناتهم أنهم يطيلون إجراءات التقاضى ، فساعة تقع جريمة يستمر التحقيق فيها بواسطة القضاء لأكثر من عام فتنبهت بشاعة الجريمة فى النفس البشرية. ومن الواجب كذلك أن يكون الأمر لولى القصاص ؛ لأنك إن مكنته أرضيت نفسه بأول شفاء . وساعة يُعطى الإنسان ذلك الحكم فقد يزهد فيه ؛ لأن الأمر حين يكون فى يده ويقدر على القصاص فمن المحتمل أن يعفو .

وسيظل المتصدَّق عليه طيلة حياته يدين بحياته أو بجارحة من جوارحه لصاحب القصاص . وبدلاً من إيعازات الثأرات تنشأ المودة . وحين يشرع المشرع الأعلى يوضح لنا : لا تحكم بأنك دائماً معتدى عليك ، بل تصور مرة أنك معتد ، ألا تحب فى مثل هذه الحالة أن يتصدق عليك صاحب القصاص ؟ فإذا أرادت الحكومات أن تنهى الثأرات فلهم فى التشريع الأعلى الحكم الواضح .

وفى صعيد مصر ، ساعة يُقتل إنسان نجد الذى عليه الثأر يأخذ كفنه ويذهب إلى العائلة الطالبة للثأر ، ولحظة يدخل عليهم حاملاً كفنه بيديه ، تشفى النفوس من طلب الثأر . ويحيا ، وصاحب الثأر متفضل عليه بالعيش « فمن تصدق به فهو كفارة

له » تكون الصدقة هنا من ولى القصاص . والفعل « تصدق » يحتاج إلى اثنين هما : « متصدِّق » و« متصدَّق عليه » . وسبحانه الحق يكفر عن المتصدق من الذنوب بقدر ما تسامح فيه لأخيه ، وهنا يحنن الله الخلق بعضهم على بعض ؛ لذلك تأتى المسألة هنا من ناحية صاحب القصاص لترغبه فى التصدق .

وينهى الحق الآية بقوله : « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون » وعرفنا من قبل ضرورة الحكم بما أنزل الله . وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾

وقفينا أى أتبعنا ، فعيسى جاء من بعد موسى ، فعندما يمشى رجل خلف رجل نجد أن قفا الأول يكون فى وجه الثانى . وعندما يقول الحق : « وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقاً لما بين يديه » أى مصدقاً لموسى الذى جاء بالتوراة . « وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور » . وعرفنا أن « الهدى والنور » يناسبان البيئة التى نزلت إليها تلك الهداية وذلك النور .

إن هناك مقولات اسمها « المقولات الإضافية » ، كأن يقول إنسان فى قرية لابنه : أشعل الضوء . ويشعل الولد المصباح الكيروسينى ؛ أما إذا قال إنسان فى مدينة لابنه : أضىء النور ، فالابن يضغط على الزر ليضىء المصباح الكهربائى . وهذه الإضافات قد تجعل اللفظ يحمل معنيين . ومثال آخر أكثر وضوحاً : يسكن الإنسان فى منزل ما ، ويعرف أن السقف عال بالنسبة له ، ولكنه أرض بالنسبة لأصحاب الدور الثانى ، إنه علو وسفل وهذا هو المعنى الإضافى . وكذلك عندما

نقول : فلان ابن فلان ، فهذا لا يمنع أن هذا الابن يكون أباً بالنسبة لابنه .

إذن « هدى ونور » هى معان إضافية . وكل « هدى ونور » يناسب البيئة التى نزل فيها . فالبيئة المادية الأولى كانت فى حاجة إلى تقنين ، لذلك جاءت التوراة ، ومن بعد ذلك صارت هذه البيئة المادية فى حاجة إلى طاقة روحية ؛ لذلك جاء الإنجيل بكل الروحانيات ، وعندما سئل عيسى ابن مريم عليه السلام فى قضية الميراث قال : أنا لم أرسل مورِّثاً ، فهو يعلم أنه جاء بشحنة روحية فيها مواجيد ومواعظ .

ويتابع الحق من بعد ذلك :

﴿ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾

والحق أنزل فى الإنجيل أن الأحكام تؤخذ من التوراة . أى أن الإنجيل تضمن إلى جانب روحانياته أسس الأحكام الموجودة فى التوراة . ولذلك أوضح الحق : من لم يحكم بما أنزل الله فهو فاسق مادام قد خرج على الطاعة . فإن خرج أحد على الطاعة فى أمر الألوهية والربوبية فهو كافر . ومن خرج على الأحكام بالنسبة للحكم بين الناس فهو ظالم . إذن فالمسألة كلها متداخلة ، فالشرك ظلم عظيم أيضاً .

وبعد أن تكلم الحق عن التوراة والإنجيل ، جاء بما نزل إلى النبى الخاتم :

﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَاحْكُم بَيْنَهُم

بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ
ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ
ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ
ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ
جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾

وساعة نسمع كلمة « أنزلنا » نعرف أن هناك تشريعاً جاء من أعلى . وهناك من يريد أن يلبس الناس أهواءه ، فيقول : إن الإسلام دين تقدمى ، أو يقول : الإسلام دين رجعى ، وكلاهما يحاول أن يلبس الإسلام بما ليس فيه ، ونقول : لا تقولوا ذلك ولكن قولوا الإسلام فوقى ؛ لأنه جاء من الله ، فإن كان للتقدمية مزايا فهو تقدمى ، وإن كان للرجعية مزايا فهو رجعى ، وإن كان لليمين مزايا فهو يمينى وإن كان لليسار مزايا فالإسلام يسارى ؛ فقد جاء الإسلام بالاستطراق الاجتماعى والتقدم العلمى الأصيل ؛ لأن مفهوم التقدم هو أن يرتقى الإنسان بنفسه ارتقاءً متقدماً يجعل الناس متكافئين .

إن الإسلام ليس تقدمياً فقط بالنسبة للحياة الدنيا ولكن بالنسبة لحياة أخرى خالدة فوق هذه الحياة . إن الذين يناقشون تلك الأفكار لا يحسنون فهم أفكارهم سواء أكانت تقدمية أم رجعية أم يمينية أم يسارية . ونرى أن المناهج المعاصرة التى تسبب كل هذا الصراع فى الدنيا من شرق وغرب هى : الرأسمالية والشيوعية والاشتراكية والوجودية وغيرها .

وعندما ننظر ـ على سبيل المثال ـ إلى القائمين على أمر الثورة الشيوعية عام ١٩١٧ ، نجد قولهم : إنهم مازالوا فى بداية الطريق إلى الشيوعية ، ولكنه اختيار الطريق الاشتراكى .

كان يجب أن يتجهوا إلى ما نادوا به ، ولكن ها نحن أولاء نرى أنهم كلما تقدموا فى الزمن تراجعوا عن أفكارهم الأولى . حتى انقلبوا على أنفسهم . وذلك دليل على أن المنهج الذى اتخذوه لأنفسهم غير صحيح .

والمنهج الرأسمالى أظل كما هو ؟ لا ؛ لأن الأحداث قد اضطرت الرأسمالية أن تعطى العمال حقوقاً وبذلك لم تبق لرأس المال شراسته . كما سارت الشيوعية إلى معظم أساليب الرأسمالية . والرأسمالية سارت إلى بعض من أساليب الاشتراكية وهما - إذن - يريدان أن يلتقيا . ولكن الإسلام أوجد هذا اللقاء من البداية ، فاحترم رأس المال ، واحترم العمل . وكل إنسان لزم حدوده . وضمن وجود واستمرار حركة الحياة . ولذلك نجد أن الرأسمالية تقول : يجب أن توفر الحوافز للعمل . ولم تصل الشيوعية أيضا إلى مداها ، بل قامت بإهدار حقوق الناس ، ثم ماذا عن الذين لم تمتد إليهم يد الشيوعية - قبل أن توجد - وكان فيهم من يستغل الناس ؟

كان العقل يحتم أن تؤمن الشيوعية بأن هناك آخرة يعاقب فيها من استغلوا الناس من قبل ، ومن مصلحتهم إذن أن توجد آخرة . وكان من اللازم أن يكونوا متدينين . وكذلك الرأسمالية التى لا تعترف إلا بالربح المادى ، امتلأت مجتمعاتها بالضحايا الذين فقدوا المعنويات . وقول الحق : « أنزلنا » يعتبر أن هناك منهجاً نزل من أعلى . وحين نأخذ معطيات البيان القرآنى ، نجده سبحانه يبلغنا تعاليمه : « قل تعالوا » . أى ارتفعوا إلى مستوى السماء ولا تهبطوا إلى حضيض الأرض .

ولذلك قال الحق : « وأنزلنا إليك الكتاب بالحق » ونرى أن آيات القرآن تتآزر وتخدم كل منها الأخرى . ونزول الكتاب بالحق يحتاج إلى صدق دليل أنه ينزل من الله حقا ، وأن تأتى كل قوانين الحق فى حركة الحياة بالانسجام لا بالتنافر ، وهناك آية تشرح كلمة « الحق » :

﴿ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ﴾

(من الآية ١٠٥ سورة الإسراء)

أى أنه نزل من عند الله وليس من صناعة بشر . (وبالحق نزل) أى نزل بالمنهج من عند الله الذى يقيم منطق الحق فى كل نفس وكل مكان ، ويَضمن كل حق يقيم حركة الحياة .

وهنا أجملت الآية ، فقالت : « وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب » أى أن القرآن مصدق للكتب السماوية السابقة . وما الفارق بين كلمة « الكتاب » الأولى التى جاءت فى صدر الآية ، وكلمة « الكتاب » الثانية ؟

إننا نعلم أن هناك « ال » للجنس ، و« ال » للعهد ، فيقال « لقيت رجلا فأكرمت الرجل » ، أى الرجل المعهود الذى قابلته . فكلمة الكتاب الأولى اللام فيها للعهد أى الكتاب المعهود المعروف وهو القرآن ، وكلمة الكتاب الثانية يراد بها الجنس أى الكتب المنزلة على الأنبياء قبله ، فالقرآن مهيمنٌ رقيبٌ عليها ؛ لأنها قد دخلها التحريف والتزييف .

كلمة « الحق » ـ إذن ـ تعنى أن كتاب الله الخاتم لكتبه المنزلة وهو القرآن قد نزل بالحق الثابت فى كل قضايا الكون ومطلوب حركة الإنسان . ونزل بالحق بحيث لم يصبه تحريف ولا تغيير .

إذن فالحق هو فى مضمونه وفى ثبوت نزوله . وقد نزل القرآن بعد كتب أنزلها الله متناسبة مع الأزمنة التى نزلت فيها ؛ لأنه سبحانه خلق الخلق لمهمة أن يشهدوا أن لا إله إلا الله ، وأن يعمروا هذا الكون بما أمدّهم به من عقل يفكر ، وطاقات تنفّذ ، ومادة فى الكون تنفعل ، فإن أرادوا أصل الحياة مجرداً عن أى ترقٍ أو إسعاد فلهم فى مقومات الأرض ما يعطيهم ، وإن أرادوا أن يرتقوا بأنفسهم فعليهم أن يُعملوا العقل الذى وهبه الله ليخدم الطاقات التى خلقها الله فى المادة التى خلقها الله ، وحينئذ يأخذون أسرار الله من الوجود .

إن أسرار الله فى الوجود كثيرة ، وتفعل لنا وإن لم نعرف نحن السر . فنجد الجاذبية التى تمسك الأفلاك تفعل لنا ، وإن لم نكن قد اكتشفنا الجاذبية إلا أخيراً . والكهرباء السارية فى الكون سلباً وإيجاباً تعمل لنا وإن لم نعرف ما تنطوى عليه من سرّ .

إن الحق سبحانه حين يريد ميلاد سر فى الكون سبحانه يمد الخلق بأسباب بروز هذا السر . واعلموا أن كل سر من أسرار الكون المسخر للإنسان له ميلاد كميلاد

الإنسان نفسه ، إما أن يصادف ـ هذا الميلاد ـ عمل العقل فى مقدمات تنتهى إليه ، وحينئذ يأتى الميلاد مع مقدمات استعملها البشر فوصلوا إلى النتيجة ، تماماً مثل التمرين الهندسى الذى يقوم الطالب بحله بعد أن يعطيه الأستاذ بعضاً من المعطيات ، ويستخدمها التلميذ كمقدمات ليستنبط ما يريد المدرس أن يستنبطه من مطلوب الإثبات . فإن صادف أن العقل بحث فى الشىء معملياً وتجريبياً وصل ميلاد السر مع البحث . وإن جاء ميلاد السر فى الكون ، ولم يشغل الإنسان نفسه ببحث مقدمات توصل إليه ، وأراد الله ذلك الميلاد للسر فماذا يكون الموقف ؟

أيمنع الله ميلاد السر لأننا لم نعمل ؟ . لا . بل يخرج سبحانه السر إلى الوجود كما نسمع دائماً عن مصادفة ميلاد شىء على يد باحث كان يبحث فى شىء آخر، فنقول: إن هذا السر خرج إلى الوجود مصادفة .

وإذا نظرت إلى الابتكارات والاختراعات وأمهات المسائل التى اكتشفت لوجدتها من الصنف الثانى ، ونجد المفكر أو العالم وقد غرق فى بحث ما ، ثم يعطيه الله سراً من أسرار الكون لم يكن يبحث عنه ، فيقال عن الاكتشاف الجديد : إنه جاء مصادفة، وحينما جعل الله لكل سر ميلاداً ، فهو قد أعطى خلقه حياة من واسع فضله ، وأعطاه قدرة من فيض قدرته وأعطاه علماً من عنده (وعلمناه من لدنا علما) ، ووهبه حكمة يُؤتى بها خيرا « ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا » . وهو سبحانه وتعالى يريد من خلقه أن يتفاعلوا مع الكون ليبرزوا الأشياء ، وإذا كان سبحانه يريد منا أن ننفعل هذا الانفعال فلا بد أن يضع المنهج الذى يصون طاقاتنا وفكرنا مما يبددهما .

والذى يبدد أفكار الناس وطاقاتهم هو تصارع الأهواء ، فالهوى يصادم الهوى ، والفكرة قد تصادم فكرة ، وأهواء الناس مختلفة ؛ لذلك أراد الحق سبحانه وتعالى أن يضمن لنا اتفاق الأهواء حتى نصدر فى كل حركاتنا عن هوى واحد ؛ وهو ما أنزله الخالق الأعلى الذى لا تغيره تلك الأهواء . أما ما لا تختلف فيه الأهواء فتركنا لكى نبحث فيه ؛ لأننا سنتفق فيه قهراً عنا . ولذلك نقول دائما : لا توجد اختلافات فى الأفكار المعملية التجريبية المادية ، فما وجدنا كهرباء روسية ، وكهرباء أمريكية لأن المعمل لا يجامل . والمادة الصماء لا تحابى . والنتيجة المعملية تخرج بوضوحها واحدة .

إننا نرى اتفاق العلماء شرقاً وغرباً فى معطيات المادة التجريبية وتحاول كل بلد أن يسرق من البلد الآخر ما انتهى إليه من نتائج لتدخلها على حضارتها ، بينما يختلف الأمر فى الأهواء البشرية ، فكل بلد يحاول أن يبعد هوى الآخر عن حدوده ؛ لأن الأهواء لا تلتقى أبداً ، والحق قد وضع حركة الحياة لتنفعل بـ « افعل كذا » و« لا تفعل كذا » مما تختلف فيه الأهواء ليضمن اتحادنا وعدم تعاند الطاقات فينا . بل تتساند معاً .

﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾

(من الآية ٧١ سورة المؤمنون)

إذن فمنهج الله فى كونه إنما جاء لينظم حركة الإنسان فيما تختلف فيه الأهواء . أما الحركة فيما لا تختلف فيه الأهواء فقد تركها سبحانه حرة طليقة : لأن البشر يتفقون فيها قهراً عنهم ، لأن المادة لا تجامل والمعمل لا يحابى .

ولذلك قلنا : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بعثه الله نبياً خاتماً أعطى بـ « افعل ولا تفعل » . أما بالنسبة للأمر المادى المعملى فقد جعل أمره فى ذات النبى صلى الله عليه وسلم . فعندما قَدِمَ النبى صلى الله عليه وسلم المدينة كان أهلها يأبرون النخل ؛ أى يلقّحونه ليثمر . فمر النبى صلى الله عليه وسلم بقومٍ يلقحون فقال : « لو لم تفعلوا لصلح » .

فلم يأْبُروا النخل ، فخرج شيصا ؛ أى بُسْراً رديئاً ، وخاب النخل . ومرّ بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ما لنخلكم ؟ قالوا : قلت كذا وكذا . فقال صلى الله عليه وسلم : « إن كان ينفعهم ذلك فليصنعوه ، فإنى إنما ظننت ظناً فلا تؤاخذونى بالظن ولكن إذا حدثتكم عن الله شيئاً فخذوا به فإنى لن أكذب على الله عز وجل » .

وفى رواية أنه صلى الله عليه وسلم قال :

« إنما أنا بشر ، إذا أمرتكم بشيءٍ من دينكم فخذوا به وإذا أمرتكم بشيء من رأيى فإنما أنا بشر » .

ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ليعلنها قضية كونية مادية تجريبية معملية : (أنتم أعلم بأمر دنياكم)[١] .

أى أنه صلى الله عليه وسلم ترك للأمة إدارة شئونها التجريبية ، ولم يكن ذلك القول تركا للحبل على الغارب فى شئون المنهج ، فقد وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم الفيصل فيما تتدخل فيه السماء ، وفيما تتركه السماء للبشر ، وأعمار الناس ـ كما نعلم ـ تختلف ، فنحن نقول للإنسان طفولة ، وله فتوة ، وشباب ، وله اكتمال رجولة ونضج ؛ لذلك يعطى الحق من الأحكام ما يناسب هذا المجتمع ؛ يعطى أولاً الاحتياج المادى للطفولة ، وعند عصر الفتوة يعطيه المسائل الإدراكية ، وعندما يصل إلى الرشد يعطيه زمام الحركة فى الكون على ضوء المنهج ، فكانت رسالة الإسلام على ميعاد مع رشد الزمان ، فأمِن الحق سبحانه أتباع محمد صلى الله عليه وسلم ، أن يقفوا ليحموا حركة الإنسان من أهواء البشر . وكانت الرسل تأتى من عند الله بالبلاغ للمجتمعات البشرية السابقة على الإسلام . وكانت السماء هى التى تؤدب . ولكن عندما اكتمل رشد الإنسانية ، رأينا الرسول يبلغ ، ويوكِّله الله فى أن يؤدب من يخرج على منهج الله فى حركة الحياة ، لأنه صلى الله عليه وسلم أصبح مأموناً على ذلك .

وإذا نظرت إلى الكون قديماً لوجدته كوناً انعزالياً ، فكل جماعة فى مكان لا تعلم شيئاً عن الجماعة الأخرى ، وكل جماعة لها نظامها وحركتها وعيشها وداءاتها . والإسلام جاء على اجتماع للبشر جميعاً . فقد علم الله أزلاً أن الإسلام سيجىء على ميعاد مع إلغاء فوارق الزمن والمسافات ، وأن الداء يصبح فى الشرق فلا يبيت إلا وهو فى الغرب ، وكذلك ما يحدث فى الغرب لا يبيت إلا وهو فى الشرق .

إذن فقد اتحدت الداءات ولا بد أن يكون الدواء واحداً فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم جامعاً للزمان وجامعاً للمكان ومانعا أن يجىء رسول آخر بعده ، وأن العالم قد وصل إلى قمة نضجه . فإذا ما جاء الإنسان ليعلم منهج الله بـ « افعل » ولا « تفعل » ، وجد أن المنهج محروس بالمنهج ، بمعنى أن الكتب السابقة على القرآن فيها « افعل » و« لا تفعل » ، والقرآن أيضاً فيه « افعل » و« لاتفعل » لكن المنهج

---

(١) رواه مسلم عن أنس وعائشة .

السابق على القرآن كان مطلوباً من المنزل إليهم أن يحافظوا عليه ، ومادام قد طلب الحق منهم ذلك فكان من الواجب أن يمتثلوا لطاعته لكنهم تركوا المنهج . فكل منهج عرضة لأن يطاع وعرضة لأن يعصى ، ولم يحفظوا الكتب وحدث فيها التحريف بمراحله المختلفة والتى سبق أن ذكرناها وهى النسيان وهو متمثل فى قوله الحق :

﴿ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ ﴾

(من الآية ١٣ سورة المائدة)

وما لم ينسوه كتموا بعضه ، فقال الحق فيهم :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ ﴾

(من الآية ١٥٩ سورة البقرة)

وما لم يكتموه حرفوه ولووا ألسنتهم به وقال الحق :

﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ ﴾

(من الآية ٧٨ سورة آل عمران)

ولم يقتصروا على ذلك بل وضعوا من عندهم أشياء وقالوا إنها من عند الله . وكان أمر حفظ كتب المنهج السابقة موكولاً لهم ولذلك قال الحق عنهم :

﴿ بِمَا ٱسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة المائدة)

أى أن الحق طلب منهم أن يحافظوا على المنهج ، وكان يجب أن يطيعوه ولكن أغلبهم آثر العصيان . فلما عصى البشر المنهج ، لم يأمن الله البشر من بعد ذلك على أن يستحفظهم على القرآن ، وكأنه قال : لقد جُرِّبْتم فلم تحافظوا على المنهج ، ولأن القرآن منهج خاتم لن يأتى له تعديل من بعد ذلك فسأتولى أنا أمر حفظه :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾

(٩ سورة الحجر)

ومادام الحق هو الذى يحفظ المنهج فالقرآن مهيمن على كل الكتب ؛ لأنه سبحانه وتعالى قد ضمن عدم التحريف فيه . إذن فالكتاب المهيمن هو القرآن ، ومادام القرآن هو المهيمن فهو حقيقة ما يسمى بالكتاب .

ودليل العهد هو قول الحق : « وأنزلنا إليك الكتاب » أما قوله : « ومصدقا لما بين يديه من الكتاب » فالمقصود به الزبور والتوراة والإنجيل وصحف إبراهيم وموسى ، ثم جاء القرآن مهيمناً على كل هذه الكتب .

وساعة نجد وصفاً وصف به غير الله وسمى به الله نفسه فما الموقف ؟ نعرف أن لله صفات بلغت فى تخصصها به مقامها الأعلى بالله ، مثل قولنا : « الله سميع » والإنسان يسمع ، و« الله غنى » ويقال : « فلان غنى » ؛ فإذا سمى الحق باسم وجد فى الخلق ، فليس من المتصور أن يكون هذا صفة مشتركة بين العبد والرب ، ولكننا نأخذ ذلك فى ضوء : « ليس كمثله شىء » .

إن أى اسم من هذه الصفات على إطلاقه لا ينصرف إلا لله ، فإن قلت : « الغنى » على إطلاقه فهو اسم لله ، وإن قلت : « الرحيم » على إطلاقه فهو اسم لله . فإذا أطلق اللفظ من أسماء الله على اطلاقه فهو لله ، واسم « المهيمن » يطلق هنا على القرآن وهو اسم من أسماء الله . ومن معنى « مهيمن » أنه مسيطر .

ومن أمثلة الحياة أننا نرى صاحب مصنع يطلق يد مدير فى شئون العمل ، وهذا يعنى أنه مؤمن ومسيطر وأمين ، ولا بد أن متنبه ، أى رقيب ، وهو شهيد ، إذن فالذين فسروا كلمة « مهيمن » على أنه مؤمن قول صحيح .

والذين فسروا كلمة : « مهيمن » على أنه « مؤتمن » قول صحيح . والذين فسروا كلمة : « مهيمن » بأنه « رقيب » قول صحيح . والذين فسروا كلمة : « مهيمن » بأنه « شهيد » قول صحيح . والذين فسروا كلمة : « مهيمن » بأنه قائم على كل أمر قول صحيح . وإذا رأيت اختلافات فى تفسير اسم واحد من أسمائه ـ سبحانه ـ فلتعلم أن الحق يصدق عليه كل ذلك ، وباللازم لا يكون « رقيباً » إلا إذا كان « شهيداً » ، ولا يكون شهيداً إلا إذا كان قائماً على الأمر ، ولا يكون كل ذلك إلا إذا كان مؤمناً ومؤتمنا .

إذن فـ « مهيمن » هو قيم وشاهد ورقيب . ومادام القرآن قد جاء مصدقاً لما بين يديه من الكتاب فعلى أى مجال يهيمن ؟ نحن نعرف مدلول الكتاب بأنه نزل من عند الله، فإن بقى الكتاب الذى نزل من عند الله كما هو فالقرآن مصدق لما به، أما إن لعبت فى ذلك المنهج أهواء البشر فالقرآن مهيمن لأنه يصحح المنهج وينقيه من أهواء البشر . « فاحكم بينهم بما أنزل الله » . و« احكم » مأخوذة من مادة « حكم » ، و« الحَكَمة » هى قطعة الحديد التى توضع فى فم الحصان ونربطها باللجام ؛ حتى نتحكم فى الحصان . والحكمة هى ألا تدع المحكوم يفلت من إرادة الحاكم .

وحين يقول الحق : « فاحكم بينهم بما أنزل الله » فهل يحدث ذلك أيضا مع غير المؤمنين ؟ نعم . فإذا ما جاء إليك يا رسول الله أناس غير مؤمنين وطلبوا أن تحكم بينهم فاحكم بما أنزل الله . ولذلك قال الحق :

﴿فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾

(من الآية ٤٢ سورة المائدة)

لكن لماذا جاءوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم برغم عدم إيمانهم به ؟

جاءوا إلى الرسول ليحكم بينهم ؛ لأنهم ألفوا أن يبيحوا ما حرم الله بشهوات الدنيا وأخذوا لأنفسهم سلطة زمنية ، وماداموا قد أخذوا لأنفسهم سلطة زمنية أنستهم حكم الله . وأرادوا ـ على سبيل المثال ـ أن يخرجوا على حكم الرجم وتخفيفه ، ولذلك ذهبوا إلى النبى ، فإن حكم هو بالتخفيف أخذوا بالحكم المخفف ، وإذا لم يحكم بالتخفيف فهم لن يأخذوا الحكم ، هم ذهبوا إليه صلى الله عليه وسلم بقصد التيسير وقالوا له : أنت تعلم أن لنا سلطاناً وأن لنا نفوذاً ونحن نريد أن تحكم لنا لأنك عندما تحكم لنا سنؤمن بك وبعد ذلك تأتى إليك باقى جماعتنا ليؤمنوا بك ويتبعوك .

لقد رفض رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك تطبيقاً لقول الحق : « فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم » فإذا كان عندهم كتاب التوراة مصونًا من التحريف ، فالرسول يشير عليهم بالحكم الموجود فى التوراة ، ولذلك عندما استدعى صلى الله عليه وسلم أعلم علمائهم بالتوراة حاول بعضهم أن يضع يده على

السطور التى بها الحكم ؛ فالحكم بما أنزل الله يكون من التوراة إن لم يبدل ، أما إذا كان الحكم قد بدله الناس فالحكم من القرآن ؛ لأن القرآن هو المهيمن . « فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم » لأنهم بهذه الأهواء يريدون أن ييسروا على أنفسهم ليستبقوا لأنفسهم السلطة الزمنية ، ووصفهم الحق :

﴿ ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾

(من الآية ٩ سورة التوبة)

هم ـ إذن ـ يريدون أن يستبدلوا بآيات الله مصلحتهم فى الحكم . ويقول الحق : « ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا » ، وإن افترضنا أن بعضا من التوراة لم يحرف ، وبه حكم أراد الإسلام أن يبدله ، فأى أمر يتبع ؟ إن الاتباع هنا يكون للقرآن لأنه هو المهيمن ؛ فسبحانه أراد بالقرآن أن يصحح ويعدل ويغير .

إن مناهج الأديان فى العقائد ثابتة لا تغيير فيها ، وأما ما يتصل بالأحكام التى تحكم أفعال الإنسان فالله سبحانه وتعالى ينزل حكماً لقوم يلائمهم ثم ينزل حكما آخر يلائم قوماً آخرين . ولذلك نجد أن سيدنا عيسى قال :

﴿ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ﴾

(من الآية ٥٠ سورة آل عمران)

أى أن هناك أشياء كانت محرمة فى دين اليهود . وجاء عيسى عليه السلام ليحلل بعضاً من هذه المحرمات ، وكان التحريم مناسباً بنى إسرائيل فى بعض الأمور ، وجاء المسيح عيسى ابن مريم ليحلل لهم بعضاً من المحرمات ، وكان تحريم بعض الأمور لبنى إسرائيل بهدف التأديب :

﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَـٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ﴾

(من الآية ١٦٠ سورة النساء)

إذن فقد يكون تحريم الشىء بسبب الضرر الناشىء منه ، أو بهدف التأديب ؛ لأن الإنسان أحل لنفسه ما حرمه الله عليه .

« لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا » والشرعة هى الطريق فى الماء . والمنهج هو الطريق فى اليابسة . ومقومات حياة الإنسان هى من الماء ومن الغذاء الذى يخرج من الأرض ، فكذلك جعل الحق سبحانه وتعالى فى القيم هذين الاثنين ، الشرعة والمنهاج ، ومادام سبحانه قد جعل لكل منا شرعة ومنهاجاً ، فلماذا قال فى موضع آخر من القرآن :

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا ﴾

(من الآية ١٣ سورة الشورى)

معنى هذا القول هو الاتفاق فى أصول العقائد التى لا تختلف أبداً باختلاف الأزمان . ففى بدء الإسلام نجد أنه جاء ليؤصل العقيدة أولاً بلا هوادة ، فنادى بوحدانية الله ، وعدم الشرك به ، وصفات الكمال المطلق فيه ، وعدم تعدد الآلهة . أما بقية الأحكام الفعلية فقد جعلها مراحل . وكان يخفف قليلاً فقليلاً . إذن فالمراحل إنما جاءت فى الأحكام الفعلية ، أما العقائد فقد جاءت كما هى وبحسم لا هوادة فيه .

إذن فقوله الحق : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً » . هذا القول مقصود به العقائد . ومادام قد شرع لنا فى الدين ما وصى به نوحاً ، فهذا توصية بأفعال تتعلق أيضا بزمن نوح ، وسبحانه الذى وضع لنا المنهاج الذى نسير عليه فى زماننا . إذن فالأمران متساويان . والمهم هو وحدة المصدر المشرِّع .

ويقول الحق : « ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة » . فلو شاء لجعل « افعل » ولا «تفعل » واحدة فى كل المناهج ، ولكن ذلك لم يكن متناسباً مع اختلاف الأزمان والأقوام الانعزالية قبل الإسلام بداءاتها المختلفة ؛ لذلك كان من المنطقى أن تأتى الأحكام مناسبة للداءات .

﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ﴾

(من الآية ٤٨ سورة المائدة)

وسبحانه وتعالى لو شاء لجعلنا أمة واحدة فى « افعل » و« لاتفعل » ولكنه

ـ سبحانه ـ لم يرد ذلك حتى لا يألف الناس العبادة وتصير كالعادة عندهم ، فحينما يألف الناس أداء العبادات ، فهم بذلك يحرمون لذة التكليف والإيمان بالتكليف ، فكان لا بد أن يأتى التشريع مناسبا لكل زمان . وذلك ليفرق بين قوم وقوم ، ففى الصوم ـ على سبيل المثال ـ نجد أن الحق يسمح لنا بالطعام والشراب والجنس فى الفترة ما بين الإفطار والسحور ؛ فالحق يأتى إلى الشىء الرتيب ويأتى فيه أمر الله بالامتناع عنه لفترة زمنية معينة . ولا يقرب المؤمن هذه المحرمات فى زمان معين ، ولا يقرب غيرها فى أى زمان ومكان . مثل شرب الخمر ، أو أكل لحم الخنزير . والمؤمن لا يقرب هذه الأشياء بطبيعة اختياره . ويأتيه الصوم ليعلمه ويدربه على الانصياع للتكليف فيحرمه الحق من الطعام طول نهار شهر رمضان وكذلك الشراب والجنس .

المسألة ـ إذن ـ ليست رتابة أبداً . بل هى ابتلاء واختبار البشر « ولكن ليبلوكم فيما آتاكم » والابتلاء ـ كما نعلم ـ ليس أمراً مذموماً فى ذاته ، هو مذموم باعتبار ما تؤول إليه نهايته ، ومادام سبحانه يبتلينا فيما آتانا فيجب أن نكون حكماء وأن نتسابق إلى الخير :

﴿ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾

(من الآية ٤٨ سورة المائدة)

والتسابق إلى الخيرات إنما يكون بهدف النجاح فى الابتلاء ، والنجاح يعطينا أكثر مما ننال بعدم الانصياع . إذن فالابتلاء فى مصلحتنا ؛ لأنه يعطى الناجحين فيه نجاحاً أخلد ، وقصارى ما يزينه الشيطان للناس أو ما تتخيله نفوس الناس ، أن تمر الشهوة العابرة وتنقضى فى الدنيا العابرة . وبعد ذلك يأتى العذاب المقيم . وعندما نوازن هذا الأمر كصفقة نجدها خاسرة ، لكن إن نجحنا فى ابتلاء الله لنا فذلك هو الفوز العظيم : « فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون » .

أى تسابقوا فى الوصول إلى الخيرات ، لأن الخير إنما يقاس بعائده ، فإياكم أن تفهموا أن الله حَرمَكم شهوات الدنيا لأنه يريد حرمانكم ، ولكنه حرمكم بعضاً من شهوات الدنيا لأنها مفسدة . وكان التحريم لزمن محدود ليعطيكم نعيم ومتع الآخرة المُصلحة فى زمن غير محدود ، وهذا هو كل الخير .

« إلى الله مرجعكم جميعاً » والكل يرجع إلى الله سواء الملتزم أو المنحرف ، وأمام الحق نرى القول الفصل : « فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون » . ومادام هناك اختلاف فلا بد أن يوجد من أخذ جانب الخير ومن أخذ جانب الشر ، ولو أن الله قال لنا : « ستأخذون الخير » وسكت عن الشر لكان ذلك كافياً ، لكنه يعطينا الصورة الكاملة . ويتبع ذلك قول الحق :

﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾

وقد يقول قائل : إن الله سبحانه وتعالى قال من قبل :

﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾

(من الآية ٤٨ سورة المائدة)

وتكون الإجابة : أن الحق بيّن إن القرآن قد نزل مهيمناً ، وعلى الرسول أن يباشر مهمة التنفيذ ؛ لذلك يأتى هنا قوله : « وأن احكم بينهم بما أنزل الله » بلاغاً للرسول وإيضاحاً : أنا أنزلت إليك الكتاب مصدقاً لما بين يديه من الكتب السابقة ومهيمناً فاحكم ، فإذا جاءك قوم بشىء مخالف لما نزل من القرآن ، فاحكم بينهم بالقرآن . والذى زاد فى هذه الآية هو قوله الحق : « واحذرهم أن يفتنوك » والحذر هو احتياط الإنسان واحترازه ممن يريد أن يوقع به ضرراً فى أمر ذى نفع ، والذى يرغب الضر قد يزين لنفسه ولغيره الضر كأنه الخير ، على الرغم من أن ما فى باطنه هو كل الشر .

إذن فالحذر هو ضرورة الانتباه لمن يريد بالإنسان شراً حتى لا يدخل عليه ضُرّاً فى صورة نفع ، كأن يأتى خصم ويقول لك : سأضع لك كذا وافعل من أجلك كذا وكذا . يجب عليك هنا أن تقول له : لا .

والحذر ـ إذن ـ يقتضى عقلاً مركباً ، ولذلك كانوا يعرفون الحذر من الغراب . فها هوذا الغراب يعلم ابنه فى قصة شعبية فيقول الغراب لابنه :

احذر الإنسان ؛ لأن الإنسان عندما ينحنى ليلتقط شيئاً من الأرض فهو يلتقط قطعة من الطوب ليرميك بها . وهنا يقول الغراب الصغير لوالده : وماذا أفعل لو كان هذا الإنسان يخبىء قطعة الطوب فى جيبه ؟ إنها قصة توحى بأن الغراب حذر بفطرته .

ونرى مثل ذلك فى مظاهر الأشياء كالمرابى الذى يزين للناس أن يضعوا أموالهم عنده ويعطيهم فائدة تبلغ عشرين بالمائة ، هذه صورة شىء ينفع ولكنها ضارة بالفعل ؛ لأنها تزيد المال ظاهراً ولكن ينطبق عليها قول الله : (يمحق الله الربا) .

وهذا أمر ضار يزينه الخصم وكأنه أمر نافع . والحق يطلب من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكون حذراً ، فماذا يكون المطلوب من الأتباع ؟ . إنه الحذر نفسه ؛ لأن أفضل البشر وَجَّهَهُ الله إلى الحذر : « واحذرهم أن يفتنوك » لأن الصورة التى دخلوا بها هى صورة تزين الخداع ، فقد قالوا : نحن جئناك لتحكم لنا ، فإن حكمت لصالحنا فلسوف نتبعك ، وهذا أمر يبدو فى صورة شىء نافع . وجاء القول الحق ليحسم هذه المسألة : « واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك » وهنا يحذر الله رسوله من الفتنة عن بعض ما أنزله إليه سبحانه .

ويتابع الحق : « فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وإن كثيراً من الناس لفاسقون » وهم إن تولوا ، فاعلم أن الله يحميك أن تنزلق إلى شبهة باطل. فهم قد اختاروا أن يوغلوا فى الكفر ، وفى الابتعاد عن منهج الله ، وسيصيبهم ببعض عذابه مقابل ذنوبهم ، وسبحانه لا يصيبهم ظلماً ، بل يصيبهم ببعض الذنوب التى ارتكبوها . وهو أعلم بهم ، لأنه الأعلم بالناس جميعاً .

ويختم الحق الآية بقوله : « وإن كثيراً من الناس لفاسقون » أى خارجون عن طاعة كتبهم ورسلهم ؛ لأن طاعة الكتب السابقة على القرآن تنص على ضرورة الإيمان بالرسول النبى الأمين صلى الله عليه وسلم . ويقول الحق :

﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ

يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

إذن فطريق الفلاح كان مكتوباً فى التوراة والإنجيل ، وكان الأمر باتباع محمد صلى الله عليه وسلم النبى الأمى موجوداً فى الكتب السابقة على القرآن ، وكانت البشارة بمحمد رسولا من عند الله يأمر بكل الخير وينهى عن كل الشر ويحل للناس كافة الأشياء التى تُحْسِن الفطرة الإنسانية استقبالها ، ويحرم عليهم أن يزيفوا ويغيروا المنهج الذى جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وألا يستسلموا للعناد ، فقد جاء محمد صلى الله عليه وسلم ليزيل عنهم عبء تزييف المنهج . فمن اتبع نور رسول الله صلى الله عليه وسلم أحس بالنجاة والفوز . ومن لم يتبع هذا النور فهو الخارج عن طاعة كتاب السماء . ومحاولة إنكار رسالة رسول الله محكوم عليها بالفشل ، فالعارفون بالتوراة والإنجيل يعرفون وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم من هذه الكتب .

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ﴾

(سورة البقرة)

ونعلم جميعاً ما فعله عبدالله بن سلام عندما جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليعلن إسلامه . قال عبدالله بن سلام :

ـ لأنا أشد معرفة برسول الله صلى الله عليه وسلم منّى بابنى .

فقال عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ : وكيف ذلك يا بن سلام ؟ .

قال عبدالله بن سلام : لأنى أشهد أن محمداً رسول الله حقاً ويقيناً وأنا لا أشهد

بذلك على ابنى لأنى لا أدرى ، أحداث النساء . فقال عمر بن الخطاب :

ـ وفقك الله يا ابن سلام .

ولكن بعض علماء بنى إسرائيل وأحبارهم كتموا البشارة برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد كانوا يرجون الرئاسة والطمع فى الهدايا التى كان يقدمها الناس إليهم . لذلك عمدوا إلى صفة رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم وكتموها . وماداموا قد فعلوا ذلك فلنعلم أن الله يريد أن يصيبهم ببعض ذنوبهم .

ونلحظ أن الحق حين أجرى على لسان رسوله خطاباً إلى اليهود . ولم يأت على لسانه صلى الله عليه وسلم اتهام شامل لليهود ، بل اتهام لبعضهم فقط ، وإن كان هذا البعض كثيراً ، فلنعلم أن ذلك هو أسلوب صيانة الاحتمال ؛ لأن بعضهم يدير أمر الإيمان بقلبه . صحيح أن كثيراً منهم فاسقون ، ولكن القليل منهم غير ذلك . فها هوذا أبو هريرة رضى الله عنه ينقل لنا ما حدث :

ـ زنى رجل من اليهود بامرأة وقال بعضهم لبعض اذهبوا بنا إلى هذا النبى فإنه نبى مبعوث للتخفيف فإن أفتانا بفتيا دون الرجم قبلناها واحتججناها عند الله وقلنا فتيا نبى من أنبيائك . فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس فى المسجد مع أصحابه فقالوا : يا أبا القاسم ما ترى فى امرأة ورجل زنيا ؟ . فلم يكلمهم حتى ذهب إلى مِدْراسهم .

وهناك طلب رسول الله صلى الله عليه وسلم من شاب رفض أن يتكلم بالكلام غير الصدق الذى يتكلمه قومه . وقال الشاب : إنا نجد فى التوراة الرجم . وحكم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالرجم .

عن البراء بن عازب قال : مُرَّ على النبى صلى الله عليه وسلم بيهودى مُحَمَّماً مجلودًا ، فدعاهم فقال : هكذا تجدون الزانى فى كتابكم ؟ قالوا : نعم ، فدعا رجلا من علمائهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنشدك بالله الذى أنزل التوراة على موسى أهكذا تجدون حدّ الزانى فى كتابكم ؟ قال : لا ، ولولا أنك نشدتنى بهذا

لم أخبرك ، نجده الرجم ولكنه كثر فى أشرافنا فكنا إذا أخذنا الشريف تركناه ، وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحدّ ، فقلنا : تعالَوْا فلنجتمع على شيء نقيمه على الشريف والوضيع فاجتمعنا على التحميم والجلد مكان الرجم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (اللهم إنى أول من أحيا أمرك إذْ أَمَاتُوه) ، فأمر به فرُجم فأنزل الله : (يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر) إلى قوله : (وإن أوتيتم هذا فخذوه) يَقُولون ائتوا محمدًا فإن أمركم بالتحميم والجلد فخذوه ، وإن أفتاكم بالرجم فاحذروا[1] .

إذن فالكثير منهم فاسقون ، والقليل منهم غير فاسق لأنهم يديرون فكرة الإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم. فلو أن الاتهام كان شاملاً للكل بأنهم فاسقون ؛ لما أحس الذين يفكرون فى أن يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم وبالنور الذى جاء به . وعندما قال الحق : « وإن كثيراً منهم فاسقون » يعني أن الذين يديرون فى رؤوسهم فكرة الإيمان برسول الله سيجدون النور واضحاً فى كلماته .

ونتساءل : لماذا أرادوا أن يلووا أحكام الله ليحققوا لأنفسهم سلطة زمنية وثمناً تافهاً من تلك الأشياء التى يتقاضونها ، لماذا يفعلون ذلك ؟

ها هوذا قول الحق سبحانه :

﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾

والجاهلية هى نسبة إلى جاهل . ولو كانت نسبة مأخوذة من الجهل لجاء القول « جهلية » ، لكن الحق يقول هنا : « جاهلية » نسبة إلى جاهل . وحتى نعرف معنى الجاهل بالتحديد لا بد لنا أن نتذكر ونستعيد تقسيم النسب الذى قلناه قديماً ، ونعرف أن كل لفظ نتكلم به له معنى ، وساعة نسمع اللفظ فالمعنى يأتى إلى الذهن

---

(١) رواه مسلم .

إفرادياً . مثلما نسمع كلمة « جبل » فيقفز إلى الذهن صورة الجبل ، لكن لا توجد حالة واضحة للجبل ؛ لأن الكلمة لم تكن مصحوبة بحكم .

إذن فهناك معنى للفظ ، ولكن هذا المعنى لا يستقل بفائدة . ولكن إن قلنا إن القاهرة مكتظة بالسكان ، أو أن مرافقها متعبة ، هنا نكون قد أتينا بحكم يوضح لنا ماذا نقصد بقولنا القاهرة .

إن هناك فرقا بين اللفظ حين يؤدى إلى معنى مفرد لا حكم له ، وبين لفظ له حكم ، ولذلك نجد العربى القديم حين يأتيه لفظ بلا حكم لم يكن ليقبله . وها هوذا رجل عربى قال : أشهد أن محمداً رسولَ الله ـ بفتح اللام فى كلمة « رسول » ـ وبهذا القول تكون « رسول الله » صفة لمحمد وليس فيها الخبر المطلوب . لذلك قال عربى آخر : وماذا يصنع محمدا ؟ ليلفت القائل إلى أنه لم يتلق الخبر . إذن كل لفظ له معنى ، وهذا المعنى مفرد ولا بد له من نسبة .

مثلما نقول لصديق : « محمد » ، ويعرف هذا الصديق محمدا ، فيسألك : « وما لمحمد » ؟ وبقوله هذا إنما يطلب الخبر ليعرف ماذا حدث له أو منه ، فتقول : « محمد زارنى أمس » . وهكذا تكتمل الفائدة .

إذن فكل لفظ من الألفاظ المفردة له معنى حين يفرد . فإذا ما جاء الحكم تنشأ عنه النسبة . وإن كانت النسبة واقعة ويعتقدها قائلها ؛ ويستطيع إقامة الدليل عليها فهذه نسبة علم ؛ لأن العلم نسبة مجزوم بها وواقعة ونستطيع إقامة الدليل عليها تماما مثلما نقول : « الأرض كروية » حيث توحى الكلمة أولاً بصورة الأرض وأضفنا إليها نسبة هى « كروية » لأننا نعتقد أنها كروية والواقع يؤكد ذلك ، فإذا ما جئنا بالدليل عليها فهذه نسبة علم . إذن فالعلم نسبة مُعتقَدة وواقعة وعليها دليل .

أما إذا كانت النسبة واقعة ومعتقدة ولا نستطيع التدليل عليها فذلك هو التقليد مثلما يكرر الطفل عن والده بعضاً من الحقائق ولكنه لا يستطيع إقامة الدليل عليها ، إنه يقلد من يثق به ، إذن فالمرحلة الأقل من العلم هى التقليد . أما إذا كان الإنسان يعتقد أن النسبة قد حدثت ولكن الواقع غير ذلك ، فهذا هو الجهل ، فالجهل ليس

معناه أنك لا تعرف ، ولكن أن تعرف قضية مناقضة للواقع . والجاهل يختلف عن الأمى ، فالأمى هو الذى لا يعرف ، أما الجاهل فهو الذى يعرف قضية مخالفة للواقع ومتشبث بها .

« أفحكم الجاهلية يبغون » والحق هنا يتساءل : هل يرغبون فى الاستمرار بالاعتقاد الخاطىء الجاهل ؟ والأمر مع الأمى ـ كما عرفنا ـ يختلف عن الأمر مع الجاهل ؛ لأنه يكفيك أن تقول للأمى العلم الذى تريد تعليمه إياه ويقبله منك ، أما الجاهل فلا بد للتعامل معه من عملين . . الأول أن تجعله يحذف ويستبعد من باله القضية الخاطئة ، والثانى أن تجعله يقتنع بالقضية الصحيحة . والذى يرهق الدعاة إلى الدين هم الجهلة هؤلاء الذين يعتقدون اعتقاداً خاطئاً يتضمن قضايا باطلة .

لكن ماذا إن كانت النسبة مجالاً للنفى ومجالاً للإثبات ؟ إن كان النفى مساوياً للاثبات فهى نسبة شك . وإن غلب الإثبات فهذا ظن . وإن كان النفى راجحاً فذلك هو الوهم . وهكذا يتضح لنا أن قضية الجهل قضية صعبة ، والذى يسبب التعب فى هذه الدنيا هم الجهلة ؛ لأنهم يعتقدون فى قضايا خاطئة . فإذا كان هناك حكم من الله . فلماذا لا يرتضون إذن ؟ أيريدون حكم الجاهلية ؟ وكان أهل الكتاب أنفسهم يسفهون حكم الجاهلية .

ولنلحظ أن هذا التسفيه كان فى زمن المواجهة بين الجاهلية وبين أهل الكتاب . وكانوا يستفتحون على أهل المدينة ومكة . وكثيراً ما قالوا : لقد أظّلنا عهد نبى سنتبعه ونقتلكم به قتل عاد وإرم . ولكن ما إن جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى قالوا العكس ، ماذا قالوا للجاهلين ؟ هاهوذا الحق يخبرنا بما قالوا :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ ﴾

(سورة النساء)

وقد ذهب بعض من أحبار اليهود إلى قريش ، وسألهم بعض من سادة قريش : أنتم أهل الكتاب وأهل العلم القديم فأخبرونا عنا وعن محمد . فقال الأحبار :

ما أنتم وما محمد ؟ فقال سادة قريش : نحن ننحر الكوماء[١] ونسقى اللبن على الماء ونفك العانى[٢] ونصل الأرحام ونسقى الحجيج وديننا القديم ودين محمد الحديث . فقال الأحبار : أنتم خير منه وأهدى سبيلا . وبذلك زوروا القول .

وينقل الرواة قصة أخرى فى هذا الموضع ، أن واحداً من أحبار اليهود قال لأبى سفيان : أنتم والله أهدى سبيلاً مما هو عليه . وقال الأحبار ذلك حسداً لرسول الله .

إذن فهل يرتضى أهل الكتاب حكم الجاهلية ؟ لا . ولكنه التناقض والتضارب . وماداموا قد تناقضوا مع أنفسهم صار من السهل أن يتناقضوا مع الكتاب الذى نزل إليهم . ولذلك يتساءل الحق :

« أفحكم الجاهلية يبغون » ثم يأتى من بعد ذلك بالمقابل وهو قوله : « ومن أحسن من الله حكماً » . وسبحانه لم يقل : إن الأحسن فى الحكم هم المسلمون لجواز أن يكون من المسلمين من ينحرف ، لذلك رد الأمر إلى ما لا يتغير أبداً وهو حكم الله . وحين يقرر سبحانه ذلك فإنه ـ أزلا ـ يعلم أنه سيأتى قوم مسلمون وينحرفون عن المنهج .

ونحن نرى فى بعض الأحيان سلوكاً منحرفاً من مسلم ، فهل نلصق هذا السلوك بالإسلام ؟ لا . بل ننظر إلى حكم الله فى كتابه . وعندما نرى أن حكم الله يجرم فعلاً وله عقوبة ، فالعقوبة تقع على المسلم المنحرف أيضاً . والمثال قوله الحق :

﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا ﴾

(من الآية ٣٨ سورة المائدة)

وهذا الحكم يطبق على المسلم وغير المسلم ، إذن فلا نقول هذا حكم المسلمين وذلك حكم الجاهلية . ولكننا نقول : إنه حكم صاحب المنهج وهو الله .

ونلحظ أن هناك استفهاماً فى قوله الحق : « ومن أحسن من الله حكماً » . والاستفهام هو نقل صورة الشىء فى الذهن ، لا نقل حقيقة الشىء . وساعة يطلب

---

(١) الكوماء : الناقة العظيمة السَّنام .

(٢) العانى : الأسير .

المتكلم من المخاطب أن ينقل إليه الفهم ، هنا نقول : هل كان المتكلم لا يعلم الحكم ؟ قد يصح ذلك فى الحياة العادية . وقد نراه حين يقول إنسان لآخر :

من زارك أمس ؟ فنكون أمام حالة استفهام عن الذى زاره ، تلك هى حقيقة الاستفهام ، لكن ما بالنا إذا كان الذى يتكلم ويستفسر لا تخفى عليه خافية ، إنه ـ سبحانه ـ يطلب منا أن نجيب على سؤاله : « ومن أحسن من الله حكماً » . وتلك عظمة الأداء .

وأضرب مثالاً آخر ـ ولله المثل الأعلى ـ عندما يأتيك إنسان ويدعى أنك لم تحسن إليه لأنه كان سجيناً مثلاً وأنت الذى أخرجته من السجن . فتقول له : من الذى ذهب ودفع عنك الكفالة وأخرجك من الحبس ؟

إنك أنت الذى فعلت ولا تريد أن تقول له : لقد فعلت من أجلك كذا وكذا ، ولكنك تريده هو أن ينطق بما فعلته له ، ولا تقول ذلك إلا وأنت واثق أنه لن يجد جواباً إلا الاعتراف بأنك أنت الذى صنعت له كذا وكذا ، وبذلك تصبح المسألة إقراراً وليس إخباراً .

« أفحكم الجاهلية يبغون » فالحق عالم أنهم حين يديرون رءوسهم فى الجواب ، لن يجدوا إلا أن يقولوا : يارب أنت أحسن حكماً . وهذا إقرار منهم وإخبار أيضاً . أما عند المؤمن فالأمر يختلف تماماً ؛ لأن المؤمن يعترف ويقر بفضل الله عليه .

« ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون » فالذى يفهم أن حكم الله هو الأفضل هم القوم الذين دخلوا إلى مرحلة اليقين . ونعلم أن مراحل اليقين تتفاوت فيما بينها ، فعندما يخبرك إنسان صادق فى قضية ما فأنت تعلم هذه القضية . كأن يقول لك : لقد ذهبت إلى نيويورك . وهذه المدينة تقع على عدد من الجزر وبها عمارات شاهقة والعنف منتشر فيها . والناس تبدو وكأنها ممسوسة من فرط الهوس على الثروة . وحين تسمع هذا الصادق فأنت تأخذه على محمل الجد وتعتبر كلامه يقيناً وهذا هو علم اليقين ، أى أنه إخبار من إنسان تثق فيه لأنه صادق .

وبعد ذلك يأتى هذا الإنسان ليوجه لك الدعوة ، فتركب معه الطائرة ، وتطير

الطائرة على ارتفاع يساوى أربعين ألف قدم ، وبعد إحدى عشرة ساعة تهبط الطائرة قليلاً ؛ لترى أضواء مدينة صاخبة ، ويقول لك صاحبك : هذه هى نيويورك ، وتلك هى ناطحات السحاب . هكذا صار علم اليقين عين يقين .

وعندما تنزلان معاً إلى شوارع نيويورك فأنتما تسيران إلى جزيرة مانهاتن . وتصعد إلى برج التجارة أعلى ناطحات السحاب فى نيويورك ، وهذا هو حق اليقين .

إذن : فمراحل اليقين ثلاث : علم يقين : إذا أخبرك صادق بخبر ما ، وعين يقين : إذا رأيت أنت هذا الخبر ، وحق يقين : إذا دخلت وانغمست فى مضمون وتفاصيل هذا الخبر . وقديماً قلت لتلاميذى مثالاً محدداً لأوضح الفارق بين ألوان اليقين ، قلت لهم : لقد رأيت فى أندونيسيا ثمرة من ثمار الموز يبلغ طول الثمرة الواحدة نصف المتر . وبالطبع صدقنى التلاميذ ؛ لأنهم يصدقون قولى . وقد نقلت لهم صورة علمية . وصار لديهم علم يقين . وبعد ذلك أدخل إلى غرفة وأفتح حقيبة وأخرج منها ثمرة الموز التى يبلغ طولها نصف المتر . وبذلك يصير علم اليقين عين يقين . وبعد ذلك أمسكت بسكين وقمت بتقشير ثمرة الموز ووزعت على كل واحد منهم قطعة . وهكذا صار لديهم حق يقين . وحين يطلق الحق « اليقين » فهو يشمل الذى علم والذى تحقق .

فأهل الأدلة ، علموا علم اليقين ، وأهل المرائى والمشاهدات علموا عين اليقين ، وأهل الفيوضات والتجليات وصلوا إلى حق اليقين . والمؤمنون بالله يقول الواحد منهم : أنا بمجرد علم اليقين موقن تماماً ولا أنتظر حق اليقين لأنى لا أجرؤ على التكذيب ؛ لذلك نجد أن سيدنا الإمام عليا ـ كرم الله وجهه ـ يقول : لو انكشف عنى الحجاب ما ازددت يقيناً .

والحق سبحانه وتعالى يعطينا هذه الصورة فى قوله الحق :

﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧ ﴾

(سورة التكاثر)

والبداية تكون علم اليقين ، ثم نرى الجحيم ونحن نسير على الصراط فتصير عين اليقين ، ومن لطف الله أنه جعلنا ـ نحن المسلمين ـ لا نراها حق اليقين . وهو القائل :

﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾

(من الآية ٧١ سورة مريم)

هو يعطينا صورة الجحيم . لكن حينما أراد الحق أن يعطينا صورة حق اليقين ، فقد جاء بها فى قوله الحق :

﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

(سورة الواقعة)

كل ذلك مقدمة ليقول الحق :

﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ ﴾

(سورة الواقعة)

وما يذكره الحق هنا عن منزلة المصدق المؤمن إن هذه المنزلة هى الجنة ويرى ذلك عين اليقين . أما منزلة المكذب الكافر ، فله مكانه فى النار ؛ لذلك سيرى كل الناس النار كعين اليقين . أما من يدخله الحق النار ـ والعياذ بالله ـ فسيعانى منها حق اليقين ، وسينعم المؤمنون بالجنة حق اليقين .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ

لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾

نلحظ أن الخطاب هنا للذين آمنوا . والمنهى عنه هو اتخاذ اليهود والنصارى أولياء . وما معنى الولىّ ؟ . الولىّ هو الناصر وهو المعين . وهذا القول مأخوذ من ولى يلى ؛ أى يقف فى جانبه . ونسمى الذى ينوب عن المرأة فى عقد النكاح « الولىّ » . وكذلك « ولىّ المقتول » . والمراد هو : يا من آمنتم لاحظوا تماماً أنكم أصحاب مهمة وهى أن تخرجوا الضلالات من البشر ، هذه الضلالات تمثلت فى تحريف ديانات كان أصلها الهدى فصارت إلى ضلال ، فإياكم أن تضعوا أيديكم فى أيديهم لطلب المعونة والنصرة .

إذن قوله الحق : « لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء » هو حكم تكليفى . وحيثية الإيمان بالله . فما دمت قد آمنت بالله فكل من تقدح أنت فى إيمانه بمخالفته لمنهج ربه لا يصح أن يكون مؤتمناً على نصرتك ؛ لأنه لم يكن أميناً على ما معه فهل تتوقع منه أن يعينك على الأمانة التى معك ؟ لا ؛ لأنه لم يكن أميناً على ما نزل عليه من منهج . والولاية نصرة ، والنصرة انفعال الناصر لمساعدة المنصور . وهل تجد فيهم انفعالاً لك ينصرك ويعينك ، أو يتظاهرون بنصرتك ، ولتعلموا أنهم سيفعلون ما قاله الحق :

﴿ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا ﴾

(من الآية ٤٧ سورة التوبة)

إنهم لو دخلوا فى صفوفكم لفعلوا فيكم مثلما يفعل المنافقون ، فما بالنا بالذين خانوا أمانة الكتب المنزلة عليهم ؟ إذن فالموالاة والنصرة والمعونة يجب أن تكون من متحد معك فى الغاية العليا . وما دام هناك من يختلف مع الإسلام فى الغاية العليا وهى الإيمان فلا يصح أن يأمنه المسلم . وسبحانه يقول : « بعضهم أولياء بعض » .

وقد يتساءل الإنسان : كيف يقول الحق فيهم :

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ ﴾

(من الآية ١١٣ سورة البقرة)

ويقول سبحانه أيضاً :

﴿ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ ﴾

(من الآية ١١٣ سورة البقرة)

ويقول جل شأنه :

﴿ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ﴾

(من الآية ١١٣ سورة البقرة)

نحن ـ إذن ـ أمام ثلاثة أقسام ؛ يهود ، ونصارى ، ومشركون ، وقد قال مشركو قريش مثل قول أهل الكتاب بشقيهم برغم أنهم فى خلاف متضارب وكل منهم ينكر الآخر ، وسبحانه قال :

﴿ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ ﴾

(من الآية ١٤ سورة المائدة)

فكيف من بعد ذلك يقول سبحانه : « بعضهم أولياء بعض » ؟ وهذا أمر يحتاج إلى وقفة إيمان لنرى الصورة كاملة ، ونعلم أن الذين يخالفون منهج الحق قد يصح أن يكون بينهم خلاف على السلطات الزمنية ، لكنهم عندما يواجهون عملاقاً قادراً على دحر كل بنيان أكاذيبهم يتفقون معاً . وهذا ما نراه فى الواقع الحياتى : معسكر الشرق ـ الذى كان ـ يعادى معسكر الغرب ، ولكن ما إن يجىء شىء يتصل بالإسلام حتى يتفقوا معاً على الرغم من هزيمة المعسكر الشرقى ؛ لأن الإسلام بمنهجه خطر على هؤلاء وهؤلاء وعلى سلطاتهم ولكنه فى الحقيقة رحمة بهم إنه يخرجهم من الظلمات إلى النور وهم يتصرفون فى ضوء ما قاله الحق : « بعضهم أولياء بعض » .

وعندما ينفرد كل منهم بالآخر فإنه ينطبق عليهم قول الحق :

﴿ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ ﴾

(من الآية ١٤ سورة المائدة)

هكذا نفهم طبيعة العلاقات بين أعداء الإسلام .

ويقول الحق : « ومن يتولهم منكم فإنه منهم » أى أن من يتخذهم نصراء ومعينين

فلا بد أنّه يقع فى شرك النفاق ؛ لأنه سيكون مع المسلمين بلسانه ومع أعداء الإسلام بقلبه .

ويذيل الحق الآية بقوله : « إن الله لا يهدى القوم الظالمين » ونعرف أن الظلم هو نقل حق إلى غير صاحبه ، وأعلى مراتب الظلم هو الشرك بالله ، وهو الظلم العظيم ؛ فالحق يقول :

﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾

(من الآية ١٣ سورة لقمان)

ذلك أن الإنسان حين يظلم إنساناً آخر ويأخذ منه شيئاً ليعطيه لآخر فهل هناك إنسان يقدر على أن يأخذ من الله شيئا ؟ لا ، فالإنسان لا يستطيع أن يظلم الله ، لكنه ينال عقوبة الشرك وهذا ظلم خائب للنفس والذى يشرك بالله لا يأخذ إلا الخسار ، وذلك هو كل الخيبة .

لأن الظلم حينما يحقق للظالم نفعاً فهو ظلم هين ، ولكن الظلم العظيم هو أن يشرك إنسان بالله ولا يأخذ إلا العقاب الصارم . فإذا كان المشرك يتأبّى على منهج الله فى الأشياء فهل يجرؤ على أن يتأبّى على قدريات الله غير الاختيارية فيه كالموت مثلاً ؟ .

والحق يأمر الإنسان بالإيمان . ومتعلقات الإيمان من شهادة بوحدانيته وإيمان برسله وكتبه واليوم الآخر وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت من استطاع إليه سبيلا . والمشرك يتأبّى على الإيمان والتكاليف فهل يجرؤ على التأبى على المرض أو الموت ؟. لا ؛ لذلك فهو يظلم نفسه ظلماً خائباً . والحق سبحانه لا يهديه ؛ لأن معنى الهداية هو أن يجد الإنسان من يدله على الطريق الموصل للغاية . فهداه أى دلّه على الطريق الموصل للغاية . ولا يتجنّى سبحانه على خلقه فلا يهديهم ، بل الذين ظلموا أنفسهم ولم يؤمنوا هم الذين لا ينالون عناية الحق سبحانه وتعالى باختيارهم .

والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾

المجال هنا كان عن النهى عن اتخاذ أهل الكتاب أولياء من دون الله ، ومن سمع هذا النهى وفى قلبه الإيمان نفّذ النصيحة . ولكن الذى طمس المرض - وهو النفاق - قلبه فهو الذى يتولاهم . وهو يسارع إلى هذه الولاية . ونعرف أن المسارعة هى تقليل الزمن فى قطع المسافة الموصلة للغاية فإذا كانت هناك مسافة تقتضى السير لمدة خمس عشرة دقيقة فالمسارعة تفرض على الإنسان أن يقطعها فى وقت أقل من ذلك . وهناك « يسارع إلى » و« يسارع فى » ، مثل قول الحق :

﴿ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾

(من الآية ١٣٣ سورة آل عمران)

والغاية هنا هى المغفرة من الله وعلى المؤمن أن يسارع إليها ، أما عندما يقال : (يسارع فى كذا) أى أنه كان فى الأصل منغمساً فى هذا الموضوع . وعندما يقول الحق : « يسارعون فيهم » أى كأنهم كانوا مع هؤلاء الكفار من البداية ، ولذلك فالمسارعة فى ظرفيتهم . وبذلك يتهافتون عليهم . والعلّة العامة أن فى قلوبهم مرضاً جعلهم يبتكرون ويلفقون أسباباً ، هذه الأسباب هى « نخشى أن تصيبنا دائرة »

والموالاة هنا من الخوف أن تدور الدوائر ، ونحتاج إليهم لأن عندهم الأموال والسلاح ، وهذا ما قاله المنافق عبدالله بن أبىّ ؛ فقد قال : أنا رجل أخشى الدوائر . أى أنه يخشى الأحداث والمصائب . مثلما نقول : « الأيام دول » . ولكن كلمة « دول » هى انتقالية وقد لا يكون فيها ضرر ، أما « دوائر » فهى انتقالية فيها ضرر . وعكس ذلك ما قاله عبادة بن الصامت قال رضى الله عنه :

- أنا سآخذ ولاية الله ورسوله والمؤمنين وسأنفض عنى ولاية اليهود والنصارى .

وأورد الحق قول المنافق : « نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتى بالفتح » وساعة نسمع كلمة « الفتح » ، فلنعرف أدلّ مدلولاتها أنه الحكم .

﴿ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ ﴾

(من الآية ٨٩ سورة الأعراف)

أى احكم يا رب بيننا وبينهم .

إذن فقوله الحق : « فعسى الله أن يأتى بالفتح أو أمر من عنده » أى الحكم الذى يضع حدّاً لمسألة موالاة أهل الكتاب والذين لا يعلمون .

والأمر من عند الله هو حكم من الله أيضاً . يخاطب المؤمنين به . والمؤمن بالله له أعمال تؤدى كأسباب إلى مسببات ، وقد يأتى للمؤمنين أشياء بدون مقدمات منهم ، وهى الفضل من الله . إذن فعسى الله أن يأتى بالفتح ، أى بأسباب أنتم تصنعونها وتعدّون ما استطعتم من عِدَّة وعُدَّة وتؤذونهم ، ولذلك قال فى آية أخرى :

﴿ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ ﴾

(من الآية ٦ سورة الحشر)

مثال ذلك ما حدث لبنى النضير ، فكان الإجلاء ، واستولى المسلمون على أرض بنى قريظة ، وهذا هو الفتح من عند الله . وسبحانه - إذن - يعامل المؤمنين معاملتين : الأولى أن يصنع المؤمنون مقدمات تؤدى إلى نتائج :

﴿ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ ﴾

(من الآية ١٤ سورة التوبة)

وهنا جعل الحق قتال المؤمنين سبباً ، أما الثانية فهى الأمر من عنده بالنصرة بالربوبية .

وساعة تسمع « عسى » و« لعل » فهذا معناه الرجاء . والرجاء أن المتكلم يرجو أن يقع ما دخلت عليه « عسى » . مثال ذلك قولنا : (عسى أن تكرم زيداً) . ومن يقولها إنما يرجو سامعها أن يكرم زيداً ، وهذا يعني أن القائل ليس فى يده إكرام زيد . أما إذا قال القائل : (عسى الله أن يكرم زيداً) ، فهذا نقل للرجاء من البشر

إلى الله . والقائل هنا بشر ويتكلم عن بشر ، والمرجو هو الله ، وقدرة الله أوسع من كل قدرة . هنا ندخل فى اتساع دائرة الرجاء فما بالنا إذا كان المتكلم هو الله ؟ إذن فهذا إطماع من كريم لا بد أن يتحقق .

ونتعرف بذلك على درجات الرجاء : رجاء من بشر لبشر ، رجاء بشر من إله لبشر ، رجاء إله من إله لبشر ، ولأن الرجاء الأخير من المالك الأعلى لذاته فهو الذى يعطى « فعسى الله أن يأتى بالفتح أو أمر من عنده » وقد تحقق ذلك فى واقع الأمر ، وساعة قالوا : نخشى أن تصيبنا دائرة ونحن نحتفظ بالعلاقة مع أهل الكتاب من أجل الولاية والنصرة . جاءت من بعد ذلك النصرة بالفتح وبأمر من الله ، فماذا كان موقفهم ؟

صار الموقف هو « فيصبحوا على ما أسروا فى أنفسهم نادمين » أى أنهم صاروا إلى الندم . وبذلك صار قولهم : « نخشى أن تصيبنا دائرة » هو كشف لما فى قلوبهم من مرض النفاق ، وقد خلعوا على المرض وعبروا عنه بهذا الكلام سترا لما فى قلوبهم ، فكأن الذى أسروه فى نفوسهم هو كراهية هذا الدين وكراهية هذا المنهج وأنهم لا يحبون أن يستعلى هذا المنهج على غيره .

إذن فالحق سبحانه وتعالى يدلنا على أن القول الذى نشأ منهم : « نخشى أن تصيبنا دائرة » لم يكن هو السبب المباشر . ولكن السبب هو المرض فى قلوبهم . والمرض : أنهم لا يحبون أن ينتصر منهج الإسلام ؛ لأنهم يعيشون على ثروات المخالفين للدين ، وساعة تكون السيطرة للإسلام ينتهى ثراؤهم . وكذلك كان أهل الكتاب فى المدينة قبل أن يأتى الإسلام كانوا أصحاب العلم والمال والجاه ، وكانت الأوس والخزرج يأخذون منهم المال بالربا ويشترون منهم السلاح ، ويأخذون منهم العلم . ولما جاء الإسلام ضاع من اليهود كل ذلك فتمكن من قلوبهم المرض ؛ لأن الإسلام سلبهم السلطة الزمنية ، هذه السلطة التى جعلتهم يحرفون كتب الله . فإذا كانوا قد دخلوا مع الله فى تحريف كتبه ، أفلا يدخلون معكم - أيها المسلمون - فى عداوة ويلبسون عليكم بأنهم يعينون وهم يُخَذِّلون ؟

« فيصبحوا على ما أسروا فى أنفسهم نادمين » وساعة يسمعون هذا القول الربانى

وهو قرآن يتلى ويتعبد بتلاوته ويُقرأ فى المساجد ويسمعونه ، ولم يكن هناك فتح ، ولم يكن هناك أمر ، ويخبرهم الله بمصيرهم : « فيصبحوا على ما أسروا فى أنفسهم نادمين » ومعنى ذلك أنه سبحانه كتب الذى فى نفوسهم . مثلما قال من قبل : « ويقولون فى أنفسهم » . أى أنهم قالوا فى أنفسهم وسمعهم الخالق . ولو لم يقولوا فى أنفسهم لأعلنوا أنهم لم يقولوا ذلك ، لكنهم بهتوا حين كشفهم الحق وفضحهم وسجل ما فى أنفسهم وأورد مضمون القول ، وكان من اللازم أن يعترفوا بمضمون القول ، وكان لا بد لهم أن يتجهوا إلى الإيمان . لكنهم لم يفعلوا فصاروا إلى الندم . بنص الآية التى نزلت قبل أن يأتى فتح أو أمر من الله .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ۚ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾

هنا يرى المؤمنون رأى العين ندم هؤلاء . والندم انكسار القلب فى الحاضر على تصرف سابق مثلما يرتكب إنسان حماقة وتظهر آثارها من بعد ذلك ، فيقول : يا ليتنى لم أكن قد فعلت ذلك . إنه انكسار نفس على تصرف سابق . وانكسار النفس يتضح على بشرة الوجه . وساعة يأتى الفتح تجد المنافقين وأهل الكتاب مكبوتين كبتاً قسرياً وهو الكبت الذى لا يجرؤ صاحبه عليه فيدعى أنه فرحان ، إنه قسرى بإلحاح بِنْيَة ، وظهور أثر ذلك على وجوههم .

وهنا يفطن المؤمنون إلى ذلك فيقولون : « أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم » . ولو كان هؤلاء المنافقون من الصادقين لفرحوا ولكانت أساريرهم متهللة ، ولظهرت عليهم الغبطة . لكنهم صاروا عكس ذلك ، صاروا نادمين مكبوتين .

« ويقول الذين آمنوا أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم حبطت » أى حبط عملهم وقولهم : « إنا معكم » . والحبط هو ـ كما قلنا ـ الانتفاخ الذى يصيب البهيمة التى تأكل طعاماً غير مناسب لها ، فيظن الناس أنها قد سمنت ولكنهم يلتفتون فيجدون أنها مصابة بانتفاخ قاتل .

« حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين » والخسارة فى معناها الواضح أن يقل رأس المال . لقد فعل المنافقون ذلك ليستروا أنفسهم وراء المسلمين ولم يسلم لهم هذا الأمر وانكشفوا .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ ﴾

والخطاب هنا للمؤمنين ، وكل نداء مثل هذا قد يجىء بعده حكم من الأحكام أو بشارة من البشارات أو وعيد للمخالف . والذى يأتى فيه شبه إشكال وليس بإشكال ، هو أن يأتى هذا القول ويكون ما بعده أمر بالإيمان كقوله الحق : « يا أيها الذين آمنوا آمنوا » فسبحانه يناديهم كمؤمنين ويطلب منهم الإيمان ، ومثال ذلك قول القائل : « يا قائم قم » برغم أن المفروض أن يكون القول : « يا قائم اجلس » أو « يا قائم تعال » ، أو « يا قائم انصرف إلى فلان » ، فكيف إذن يقول الحق : « يا أيها الذين آمنوا آمنوا » . هنا نقول : ما الإيمان ؟ الإيمان هو استقرار العقيدة فى القلب فلا تطفو للذهن لتناقش من جديد . ونسمى ذلك عقيدة ، أى أمراً معقوداً فى القلب .

إذن فالحق سبحانه وتعالى حينما يخاطب مؤمناً ويطالبه أن يؤمن ، فمعنى ذلك أن

الحق يقول : أنت آمنت قبل أن أناديك وبسر الإيمان ناديتك فحافظ على هذا الإيمان دائما . وجدد دائماً إيمانك لأننى ناديتك بوصف الإيمان الذى عرفته فيك .

إن الحق يوضح : يا أيها الذين آمنوا داوموا على إيمانكم ولتكن كل لحظة من لحظات حياتكم المقبلة فى إيمان عالٍ مرتقٍ قبل أن أتكلم معكم بوصف الإيمان أنتم آمنتم أولاً فناديتكم فحافظوا على ذلك واثبتوا على إيمانكم .

ومعنى قوله : « من يرتد منكم عن دينه » أى من يتراجع منكم عن الإسلام فسيأتى الله بعوض عنه ، وسيأتى بقوم لن يكونوا مثل هؤلاء المرتدين . إذن فمن يرتد فعليه أن يفهم أنه لن ينقص جند الله واحداً ؛ لأن الذى أذن لشرعه أن ينزل على رسول ونبى خاتم لن يجعل هذا الرسول وهذا المنهج تحت رحمة أغيار الناس . فإن خرج أناس عن المنهج فالله يستبدل بهم غيرهم . وفى هذه الآية أسلوب يخالف آية البقرة فى الوجه الإعرابى ، وسبحانه يقول فى آية البقرة :

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾ ﴾

(سورة البقرة)

هنا وجدنا الحق يقول : « ومن يرتدد منكم عن دينه » أما فى الآية التى نحن بصددها فى سورة المائدة فهو سبحانه يقول : « من يرتد منكم عن دينه » ونجد الأسلوبين مختلفين . والحكمة العليا فى أن الحق سبحانه وتعالى يأتى فى كتابه بآيات متحدة فى المعنى إلا أن وجه الإعراب فيها يختلف ليدلنا أن القرآن نزل إلى الناس كافة . وقبل أن ينزل القرآن كانت هناك لغتان : لغة تميم ، ولغة الحجاز .

وكان الخلاف بين اللغتين محصوراً فى الكلمة التى بها تضعيف ، أى فيها حرفان

من شكل واحد أى متماثلان . وكلمة « يرتد » بها « دالان » وأصلها «يرتدد » . و« يرتد » بها مِثْلان والنطق بهما صعب . ولذلك حاول الناس فى مثل هذه الحالة أن يدغموا مِثْلًا فى مثل . ولذلك كان من اللازم أن نُسكن الحرف الأول من المثلين . والمفروض أن « الدال » الثانية ساكنة ؛ لأن « مَن » شرطية جازمة . والدال الأولى أصلها بالكسر . ولا بد من الإدغام . والإدغام يقتضى إسكان الحرف الأول . إذن فمن أجل الإدغام نفعل ذلك .

ونحن نعلم أن الساكنين لا يلتقيان ، وكان تسكين الحرف الأول لأنه ضرورى للإدغام ، أما الحرف الساكن الآخر فهو الطارىء . فنتصرف فيه ، ولذلك نحركه بالفتح حتى نتخلص من التقاء الساكنين . ولذلك نقول : « من يرتد » بالفتح .

وجاء لى ذات مرة سؤال يقول : كيف يأتى القرآن بـ « يرتد » بالنصب أى بالفتح ؟ وقلت : إنها ليست « فتحة نصب » والسائل يفهم أن « مَن » إما اسم موصول ، وإمَّا هى « مَن » الشرطية ، فلو كانت اسماً موصولاً ؛ لكان القول « من يرتدُ » ـ بالضم ـ وإن كانت « مَن » الشرطية لجاءت بالتسكين ولأن ما قبلها جاء ساكناً للإدغام تخلصنا من السكون بالفتحة وهى « فتحة » التخلص من ساكنين ، لأنه ـ كما قلنا ـ لا يلتقى ساكنان .

والذى يُظهر لنا ذلك هو آية البقرة التى قال فيها الحق : « ومن يرتدد » بدليل أنه عندما عطف قال : « فيمت » بالجزم عطفا على يرتدد . أما السبب فى أن جواب الشرط واضحٌ فى آية المائدة أنه لم يأت فعل جوابى أو عطف ، وجواب الشرط هو قول الحق : « فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه » ويدل على ذلك دخول الفاء على كلمة سوف لكن لو كان الحق قد قال : من يرتد منكم عن دينه يأت الله بقوم يحبهم ويحبونه كان يمكن الفهم بسرعة أن « مَن » شرطية ، لأن كلمة « يأت » جاءت مجزومة بحذف آخرها ، ومن هنا يتضح أن الفتحة فى « يرتد » هى فتحة التخلص من التقاء الساكنين .

وما السبب فى أن الحق يأتى بآية على هذا النسق ، وآية أخرى على ذاك النسق ؟ نحن نعلم أن القرآن قد نزل بلغة قريش . وكانت قريش تمتلك السيادة . ولم تكن

هناك قبيلة بقادرة على مواجهة قريش . ونعرف جميعاً أن رحلة قريش إلى اليمن لم يكن ليجرؤ إنسان أن يتعرض لها ، وكذلك فى رحلة قريش إلى الشام ؛ لأن قريشا تستوطن حيث يوجد بيت الله الحرام الذى يحج إليه كل عربى . ويوم أن يتعرض أحد لقوافل قريش فعليه أن ينتظر العقاب له أو لقبيلته ، إذن فالبيت الحرام هو الذى أوجد لهم تلك المهابة لذلك ينبههم الحق إلى ذلك عندما قال فى سورة الفيل :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝٥ ﴾

(سورة الفيل)

وقد تم وعيد الله لأصحاب الفيل ، لأنهم أرادوا هدم بيت الله الحرام . ثم يتبع الحق سورة الفيل بقوله فى سورة قريش ؛

﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ ﴾

(سورة قريش)

ليوضح سبحانه أنه من ضمن أسباب صيانة بيت الله الحرام أن حفظ سبحانه لقريش الأمان فى رحلة الشتاء والصيف ، ولو انهدم البيت الذى يحقق لقريش السيادة لهجم الناس على القرشيين من كل جانب ؛ لأنه القائل فى شأن من قصدهم لهدم بيت الله الحرام .

﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝٥ ﴾ ﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ ﴾

(الآية ٥ سورة الفيل والآية ١ سورة قريش)

وما دامت تلك المسألة قد صنعها الله لقريش ، فلا بد لهم من عبادة رب هذا البيت :

﴿ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ۝٤ ﴾

(سورة قريش)

إذن فقريش أخذت السيادة بين العرب بمكانة البيت ، وأخذت السيادة أيضاً فى اللغة ، وكانت كل أسواق العرب تعقد هناك ، وأشهرها سوق عكاظ ، وكان ينصب فى قريش خلاصة اللغات الجميلة من القبائل المختلفة . وهكذا أخذت اللغة

المصفّاة المنتقاة ، فكل شاعر كان يقدم أفضل ما عنده من شعر . وكل خطيب كان يأتى بأحسن ما عنده من خطب . وبذلك كانت قريش تسمع أجود الكلمات . ولهذا كانت اللغة التى عندهم هى اللغة العالية . ولذلك عندما جىء لزمن كتابة القرآن كانت الوصية :

إن اختلف عليكم شىء فاكتبوه بلغة قريش ؛ لأن لغة قريش أخذت من اللغات محاسنها . وبنو تميم والحجاز كانوا مختلفين فى بعض الأشياء . ولذلك كنا نسمع ـ عندما نتعلم الإعراب ـ قول المعلم وهو يسألنا : هل « ما » حجازية أو تميمية ؟ وهذا يدلنا على أن هناك خلافاً بين النطق فى القبيلتين .

وفى الآية التى نحن بصددها ندغم ونقول : « من يرتد » وفى آية البقرة ننطقها دون إدغام فنقول : « ومن يرتدد » .

وكأن الحق جاء بآية على لغة الحجاز وآية على لغة تميم ، وذلك برهان جديد على أن القرآن لم يأت ليحقق سيادة لقريش ، إنما هو للناس كافة ؛ لذلك نجد من كل لهجة كلمة ، ليتضح أن القرآن لعموم الناس جميعهم .

وعندما نقرأ قول الحق :

﴿مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾

(من الآية ٥٤ سورة المائدة)

نعلم أنه سبحانه يعلمنا أنه قادر على أن يأتى بأهل إيمان غير الذين ارتدوا عنه ، تماماً كما أخبرنا من قبل :

﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾

(من الآية ٢١٧ سورة البقرة)

والقول هنا : خبر عن مصير المرتد إلى جهنم بعد أن تقوم الساعة .

ولكن القول : « من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه » يدل على أن إجراءً سيحدث قبل أن تقوم القيامة . ومن ذا الذى يستطيع أن يتصور أن إلهاً ينزل قرآنا يتحدى به ثم يأتى فى القرآن بقضية مازالت فى الغيب ويجازف بها ، إن لم تكن ستقع ؟. والحق يقول : « فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه » و« سوف » تخبرنا بموقف قادم سيأتى من بعد ذلك . ونقول هنا : من الذى يستطيع أن يتحكم فى اختيارات الناس للإيمان ؟. لا أحد يستطيع أن يتحكم فى اختيارات الناس للإيمان إلا الله سبحانه وتعالى ، فهو الذى يتحكم ويحكم ويخبرنا بأنه سوف يأتى أناس يؤمنون بدلاً من المرتدين .

أما إن ارتد أناس ، وانتظروا أن يروا البديل لهم ، ولم يأت فماذا يكون الأمر ؟ لا بد أن تنصرف الناس عن الدين . ولم يكن الحق ليجازف ويجرى على لسان محمد بأن قوماً سيرتدون وهو لا يعلم أيأتى قوم مرتدون ؟ والعلم جاء فى هذه الآية كما جاء فى كل القرآن من الله جل وعلا . وقد قالها الحق قضية كونية : « فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه » . وهل هناك قوم يحبهم الله وهم لا يحبونه ؟ ونقول : إن هذا لا يحدث مع الله ، وإن كان يحدث فى الحياة البشرية مثلما قال الشاعر العربى :

أنت الحبيب ولكنى أعوذ به
من أن أكون محباً غير محبوب

وشقاء المحبين إنما يأتى من أن العاشق يحب أحداً ، وهذا الحبيب لا يبادله الحب ؛ لذلك يظل العاشق باكياً طوال عمره . ولنا أن نلحظ أن حب الله هو السابق فى هذا القول الكريم : « فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه » ؛ لأن هذه هى صفة الانكشاف للعلم ، لقد علم الحق أنهم سيتجهون إليه فأحبهم ، وعندما جاءوا فعلوا ما جعلهم محبوبين لله ، ثم ما هو الحب ؟. إنه ودادة القلب . وقلنا الكثير من قبل فى أمر ودادة القلب . ونعرف أن هناك لوناً من الحب يتحكم فيه العقل . ولوناً آخر من الحب لا يتحكم فيه العقل ولكن تتحكم فيه العاطفة .

ومثال هذا عندما نذهب إلى طبيب ويصف لنا دواء مراً غير مستساغ الطعم ، ونجد الإنسان الموصوف له الدواء يذهب إلى الصيدلية للسؤال عن الدواء ، فإن لم

يجده فهو يلف ويدور ويسأل فى كل صيدليات البلد فإن لم يجده فهو يوصى المسافر إلى الخارج لعله يأتى له بالدواء . وإذا جاء له صديق بهذا الدواء فهو يمتلىء بالامتنان بالسرور . أيقبل المريض على الدواء غير المستساغ بعاطفته أم بعقله ؟ إنه يقبل على الدواء غير المستساغ الطعم ويحبه بعقله . والحب العقلى ـ إذن ـ هو إيثار النافع .

ومثال ذلك نجد الوالد لابن غبى يحب ابناً ذكياً لإنسان غيره .

الوالد ـ هنا ـ يحب ابنه الغبى بعاطفته . ولكنه يحب ابن جاره لأنه يمتلك رصيداً من الذكاء . إذن هناك حب عقلى وحب عاطفى . وهذا ما يحدث فى المجال البشرى لكن بالنسبة لله فلا .

وعندما يقول الحق : « فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه » أى أنهم يحبون الله بعقولهم ، وقد يتسامى الحب إلى أن يصير بعاطفتهم ، وقد يُجرب ذلك حين يجرى الله على أناس أشياء هى شر فى ظاهرها ، ولكنهم يظلون على عشقٍ لله . ومعنى ذلك أن حبهم لله انتقل من عقولهم إلى عاطفتهم . وسيدنا عمر جرى معه حل هذا الإشكال . كيف ؟

لقد قال صلى الله عليه وسلم : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه »[١] .

وهناك من قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم إنه أحب إليه من ماله وولده لكن عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ قال : أنت أحب إلىّ من مالى وولدى أما نفسى فلا وأعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم القول : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه »[٢] .

وهنا علم عمر ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقصد الحب العقلى ؛ لأن عمر رضى الله عنه علم أيضا أن الحب العاطفى لا يكلف به ، ولذلك قال عمر : الآن أحبك عن نفسى ، فرد رسول الله صلى الله عليه وسلم : الآن

(١ ، ٢) رواه أحمد ٣٣٦/٤ والسيوطى فى الدر المنثور ٢٢٣/٣ .

يا عمر . أى كأنه فى هذه اللحظة قد اكتمل إيمان عمر . إذن فحب الله لا تقل فيه أيها المؤمن هل هو حب عقلى أو حب عاطفى ؟؛ لأن المراد بحب الإله هو دوام فيوضاته على من يحب ، هذا فى الدنيا ، أما فى الآخرة فالحق يلقاه فى أحضان نعمه ويتجلى عليه برؤيته :

﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾

(من الآية ٢٦ سورة يونس)

والحسنى هى الجنة . أما الزيادة فقد قال المفسرون : إنها رؤية المحسن .

« فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه » وعندما يقول الحق : « فسوف » فلنعلم أن ما يأتى بعدها هو من إعلامات النبوة التى جاءت على لسان محمد فى قرآن الله ؛ لأن ذلك الأمر قد حدث كما جاء فى قرآن الله ، فقد ارتد قوم وانقسموا فى الردة إلى قسمين ؛ قسم ارتد على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقسم ارتد على عهد أبى بكر ، ومنهم من ارتد على عهد عمر . وحين تنظر إلى ما بعد « سوف » لا بد أن تعرف أن هناك امتداداً زمنياً .

وأول الارتداد كان فى اليمن ، وكان ذلك بعد حجة الوداع وفى حياة النبى صلى الله عليه وسلم .

وكان فى اليمن كاهن مشعوذ اسمه عَبْهَلة بن كعب ، ويقال له : ذو الخمار ، أو ذو الحمار فى رواية أخرى ، وهو الذى يعرف فى كتب التاريخ الإسلامى باسم الأسود العنسى . هو أحد الكذابين اللذين ذكرهما النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله : « بَيْنما أنا نائم إذ أوتيتُ خزائن الأرض ، فوُضع فى يدىّ سواران من ذهب فكبر علىّ وأهمّنى ، فأوحِى إلىَّ أن انفخهما فنفختهما فطارا فأوّلتهما الكذابَيْن اللذين أنا بينهما صاحب صنعاء وصاحب اليمامة »[1] .

وكان لهذا الكاهن حمارٌ روّضه صاحبه رياضة من لون خاص تماماً كتدريب

(١) رواه البخارى فى التعبير والمناقب والمغازى ، ورواه مسلم فى الرؤيا ، والترمذى فى الرؤيا ، وابن ماجه فى الرؤيا ، وأحمد ٢٦٣/١ .

القرود ، فكان يقول له : قف . فيقف . ويقول له : سر . فيسير . واعتبر هذا الكاهن أن مثل هذا الأمر للحمار هو معجزة . أو كان الرجل اسمه « ذو الخمار » أى أنه كان يرتدى خماراً على وجهه . ومن العجيب أن أى مرتد لم يطالبه من يتعبه بعلامة صدقه فى النبوة .

إن أول شيء فى التأكد من صحة قول أى إنسان : « أنا نبى » أن يسأله الناس عن علامة الصدق فى النبوة وأن يتعرفوا على معجزته ، لكنا لا نجد ذلك فى مرتد أبداً . وكيف لا يسأل الناسُ الذين يتبعون المرتد عن نفسه وعن دعواه أنه نبى وعن معجزته التى تدل على صدق رسالته ، وهو ما يحدث مع أى رسول ، كيف يؤمن أناس بفرد بدون معجزة ؟ .

هنا نذهب إلى الجانب النفسى من الأمر ونقول : إن التدين أمر فطرى والإنسان الذى ليس له دين يغضب ويحزن عندما نقول له : يا قليل الدين . ولذلك نجد أن المبطل من هؤلاء يقول : أنا على دين . إنه لا يتصور أنه مبطل بلا دين . ولذلك قال الحق :

﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾

(سورة الكافرون)

فكأن الأصل فى الفطرة الأصلية أن الدين ضرورة للإنسان ، وما دام الأمر كذلك فلماذا لا يقبل كل الناس على الدين ؟ لأن الدين ليس مجرد اسم أو صفة ، ولكنه التزام بتكاليف . والذى يجعل الناس فى خشية من الدين هو مشقة التكاليف ؛ لذلك فعندما يأتى إنسان ويقول : أنا نبى ومعجزتى أننى خففت عليكم الصلاة والزكاة والصيام وأبحت لكم النظر إلى نساء بعضكم .

لا بد أن يسيل لعاب أصحاب الهوى الذين لا بصيرة لهم ويقولون : إن مثل ذلك لدين جميل ، ويستسلمون ويخدعون أنفسهم بأنهم متدينون ورغم تحللهم من بعض التزامات التدين ، إن المرء ليتعجب من مدعى النبوة فى الزمن القديم وحتى عصرنا هذا لأننا لم نجد أحداً من المثقفين قد وقف أمام مدع وقال له :

ما معجزتك ؟ ولكن الكل سأل : ما منهجك ؟ وعندما سأل أهل اليمن ذا الخمار : ما منهجك ؟

كانت إجابته: إنه أسقط عنهم بعض التكليفات بداية من تقليل الصلاة والزكاة إلى إباحة الاختلاط بنساء غيرهم . واستراح بعضهم لذلك المنهج وذهلوا وغفلوا عن طلب المعجزة . وكل الذين ادعوا النبوة كانوا من هذا الصنف . ولذلك نجد أن كل مدع للنبوة يحاول التخفيف من المنهج ، فهناك من خفف الزكاة . وجاءت امرأة اسمها سجاح خففت الصلاة . وجاء ثالث ليخفف الربا فيبيحه . لكن أحداً منهم لم يأت بمعجزة . واتبعه بعضهم لمجرد تسهيل المنهج . ومدعى النبوة إنما يرضى النفوس التى لا تطيق ولا تقوى على مشقة المنهج بأن تكون متدينة ملتزمة به .

ومثال ذلك ما حدث فى الإسكندرية عندما ظهر مدع للنبوة . وأباح منكراً مثيراً ، وتبعه بعض من المتعلمين الذين أرادوا دينا على هواهم ، وكذلك كان الأمر فى البداية . وعندما جاء ذو الخمار ، أو ذو الحمار ، وهو كما قلنا : مشعوذ ، وكان كما يصفه المؤرخون يسبى قلوب من يسمع منطقه وكان يريهم الأعاجيب ، واستطاع بذلك أن يستولى على مُلْك اليمن ، وأعلن ارتداده . وغلب على صنعاء وعلى ما بين الطائف إلى البحرين . وجعل يستطير شره استطارة الحريق .

وكان سيدنا معاذ بن جبل هو الوالى على اليمن من قِبَل النبى صلى الله عليه وسلم ، فأخبر سيدنا معاذ بن جبل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : إن كاهناً اسمه ذو الخمار أو ذو الحمار ، قد ارتد .

ويذهب سيدنا معاذ إلى حضرموت . وهناك يأتيه كتاب من النبى صلى الله عليه وسلم يأمره فيه أن يبعث الرجال لمصاولة ذى الخمار . ويحتال المسلمون للنهوض بما أمرهم به رسول الله صلى الله عليه وسلم . وبعد ذلك يدخل على ذى الخمار رجل ديلمى اسمه فيروز فيقتله على فراشه .

وعلى الرغم من بعد المسافة بين اليمن والمدينة ، إلا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فى ليلتها : « قتل الليلة الأسود العنسى »[1] .

وبعد ذلك يأتى الخبر فى آخر الشهر أن مدعى النبوة قد قتل . وتلك من إعجازات

---

(١) كنز العمال .

النبوة . إذن فقد تعرض المؤمنون على زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم للهزة فى العقيدة بحكاية ذى الخمار أو ذى الحمار . وكانت قصة ذى الخمار كالمصل الواقى الذى يربى المناعة ، وأخبرهم الله بها أولاً : « من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه » .

وذلك ليعطى الحق سبحانه وتعالى المؤمنين مناعة إيمانية وكأنه يقول للمؤمنين : لا تظنوا أنكم لن تتعرضوا إلى هزات عقدية دينية بل ستتعرضون . وكأن الرسول صلى الله عليه وسلم يقول : قد يجوز أن يفهم الناس أنى وأنا حى أقوم على منهج الله فى الأرض فإذا أنا مت ربما ارتدوا عن الدين .

ورسول الله عندما يبلغ ذلك للمؤمنين عن الله ـ سبحانه ـ إنما كان ذلك بقصد تربية المناعة . فلو فوجىء المسلمون بالردة ولم يكن الله قد خبرهم بها لما كان عندهم احتياط مناعى . والاحتياط المناعى هو أول عملية فى الوقاية . ونعلم أن العلم المعاصر استطاع فصل الميكروب أو الفيروس المسبب لمرض وبائى ، ويقوم العلماء بإضعاف هذا الميكروب أو الفيروس ، ثم يوضع قليل من هذا الميكروب أو الفيروس بعد إضعافه فى الجسم البشرى ، فتتحرك فى الجسم أجهزة الوقاية والحماية لتقاتل هذا الميكروب أو الفيروس وتنتصر عليه ، وبذلك تمتلك قوى الوقاية والحماية داخل الجسم القدرةَ على مقاومة هذا المرض ، وهكذا أراد الحق بهذا القول الكريم : « من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه » . إذن فحين يوجد الارتداد ، لا يفاجأ المسلمون بهذا الارتداد ، ويثقون تماماً أنه بمجرد مجىء الارتداد فإن وعد الله الآخر يجىء : « فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه » فلا فزع عند المؤمنين ساعة يحدث الارتداد ولا زلزلة فى النفوس . وساعة يأتى الارتداد يقول المؤمن :

إن الذى صدق فى أنه يحدث الارتداد ، سيصدق فى قوله : « فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه » . وإذا رأيت « السين » تسبق قولاً فإن هذا يعنى أن الزمن الذى يفصل بين الحدث والحدث قريب وقليل مثل قوله الحق :

﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾

(من الآية ١٤٢ سورة البقرة)

أما عندما تقرأ « سوف » فأعلم أن الزمن الذى يفصل بين الحدث والحدث متسع وبعيد . ولذلك نحن نرى أن الردة قد امتدت فى عهد أبى بكر ـ رضى الله عنه ـ وفى عهد عمر ـ رضى الله عنه ـ .

وما هى ذى مواصفات القوم الذين يأتى بهم الله فى قوله : « فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم » ؟ إنها مواصفات ست : يحبهم الله ، ويحبون الله ، أذلة على المؤمنين ، أعزة على الكافرين ، يجاهدون فى سبيل الله ، لا يخافون لومة لائم .

وكيف يكون الإنسان المؤمن ذليلاً وعزيزاً فى آن واحد ؟ لأن الحق لا يريد أن يطبعنا على لون واحد من الانفعال ، ولكنه يريد لنا أن ننفعل تبعاً للموقف . فعندما يحتاج الموقف إلى أن يكون المؤمن عطوفاً فالمؤمن يواجه الموقف بالعاطفة . وعندما يحتاج الموقف إلى الشدة فالمؤمن يواجه الموقف بالشدة . وإن احتاج الموقف إلى الكرم ، فالمؤمن يقابل الموقف بالكرم . فالمسلم ـ إذن ـ ينفعل انفعالاً مناسباً لكل موقف ، وليس مطبوعا على انفعال واحد . ولو انطبع المؤمن على موقف ذلة دائمة فقد يأتى لمواجهة موقف يتطلب العزة فلا يجدها ولو طُبع المؤمن على عزة دائمة فقد يأتى لمواجهة موقف يتطلب الذلة فلا يجدها ؛ لذلك جعل الحق قلب المؤمن ليناً قادراً على مواجهة كل موقف بما يناسبه .

والمؤمن عزيز أمام عدوه لا يُغلب ، ويجابهه بقوة . والمؤمن يخفض جناح الذل من الرحمة لوالديه امتثالاً لأمر الحق سبحانه :

﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة الإسراء)

وهل إذا خفض المؤمن جناح الذل لوالديه . أيخدش ذلك عزته ؟ لا . بل ذلك أمر يرفع من عزة الإنسان . والحق يريد المؤمن أن يكون غير مطبوع على لون واحد من الانفعال ، ولكن لكل موقف انفعاله . وحين ينفعل المؤمن للمواقف المختلفة فهو يميز ما يحتاج إليه كل موقف « أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين » ويقال فى اللغة : « ذليل لفلان » فلماذا ـ إذاً ـ يقول الحق هنا : « أذلة على المؤمنين » ،

و« على » تفيد العلو . والذلة تفيد المكانة المنخفضة ، فكيف يأتى هذا التعبير ؟ لقد جاء هذا القول على هذا الشكل لحكمة هى : أن المؤمن ما دام يحب الله ويحبه الله . وساعة يكون فى ذلة لأخيه المؤمن فهذا يرفع من قدره . وهى ليست ذلة بالمعنى المتعارف عليه ، ولكنه لين جانب وعطف ورحمة . إذن فقوله الحق : « أذلة على المؤمنين » يعنى أن المؤمنين يعطفون على غيرهم من المؤمنين حتى يبدو هذا العطف وكأنه ذلة . وبعض العلماء يقول : إن المادة « ذال » و« لام » تدل على معنيين متقابلين ، مثال ذلك قوله الحق :

﴿ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ ﴾

(من الآية ٧٢ سورة يس)

أى جعلناها خاضعة لتصرفهم . وهذا التذليل ليس بقهرٍ من الإنسان للأنعام ولكنه بتسخير من الله . وهى ميسرة لخدمة الإنسان . ومثال آخر . قوله الحق :

﴿ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ﴾

(من الآية ٦٩ سورة النحل)

أى متطامنة مهيأة . إذن فهذه ذلة اللين . وهناك « ذُل » ـ بضم الذال ـ وهو ضد العز . وهناك « ذِل » ـ بكسر الذال ـ وهو اللين . إذن فالذل بكسر الذال هو ضد الصعوبة ؛ أى اللين . والذُّل ـ بضم الذال ـ هو ضد العز ، فإذا أردنا ذلّة اللين ؛ فذل المؤمن للمؤمن من الذِّل، وإن أردنا الذلة التى هى ضد العز، فهى من الذُّل . وعندما يكون المؤمن على ذِلة للمؤمن . فهى ذِلة اللين والعطف . وعندما يريد الحق الشىء ليتدانى للمؤمن ولا يتعبه ، فهو يقول :

﴿ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ ﴾

(سورة الحاقة)

وفى آية أخرى يقول سبحانه :

﴿ وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴾

(من الآية ١٤ سورة الإنسان)

أى ذُلِّيت عناقيدها . فالفاكهة تنزل إلى المكان الذى يوجد فيه المؤمن . وإن وقف المؤمن لطال بيده أن يقطف الثمار . وإن اضطجع لاستطاع أن ينال أيضاً من الثمار

لأنها تتدانى له . وإن نام المؤمن لتدانى قطاف الثمار إلى مكانه وبذلك يستطيع أن يأكل منها فى أى وقت وعلى أى وضع .

وهنا يأتى الحق بالقول الحكيم : « أذلة على المؤمنين » أى أن ذلة المؤمن لأخيه المؤمن ترفع منزلته . وبها يكون المؤمن أهلاً لأن ترفع منزلته ؛ لأنه مصطفى بأن الله يحبه وأنه يحب الله ، ولا توجد رفعة أكثر من هذه رفعة . ولذلك نجد القول المأثور : (من تواضع لله رفعه) .

أى من تواضع وفى باله الله فإن الله يرفعه .

« أعزة على الكافرين » وهذا هو الوصف الثالث للمؤمنين فى تلك الآية بعد قوله الحق : (فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين) .

إن المؤمن عزيز على الكافرين بأنه لا يُغلب ، وما دام هو يعرف ذلك فهو ينضم إلى الجهاد فى سبيل الله . « يجاهدون فى سبيل الله » وكلمة « الجهاد فى سبيل الله » تخصص لوناً من الجهاد ، فالإنسان قد يجاهد حمية أو دفاعاً عن جنسيته أو أى انتماء آخر ، وكل هذه الانتماءات فى عرف الدين لا قيمة لها إلا إذا نبعت من الانتماء إلى منهج الله ، لتكون كلمة الله هى العليا .

وعندما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أفضل القتال :

فيما جاء عن أبى موسى رضى الله عنه قال : جاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : الرجل يقاتل للمغنم والرجل يقاتل للذكر والرجل يقاتل ليُرَى مكانه ، فَمَنْ فى سبيل الله ؟ قال : « مَنْ قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله »(١) .

وما دام المؤمن محبوباً من الله ويحب الله وذليلاً على المؤمنين وعزيزا على الكافرين ،

---

(١) رواه البخارى فى الجهاد ، ومسلم فى الإمارة ورواه أحمد .

ما دام الأمر كذلك فعندما يتولى مؤمن أمر قيادة غيره من المؤمنين فلا أحد منهم يأنف أن يكون تحت قيادته . وبذلك يخرج المؤمن عن دائرة الاستعلاء والاستكبار ؛ لأنه يجاهد فى سبيل الله . ولو جاءه إنسان ليلومه على ذلك فهو لا يسمح له ، وكأنه سبحانه يوضح : تنبهوا جيداً إلى أن القوم الذين يحبهم الله ويحبون الله والذين هم أذلة على المؤمنين وأعزة على الكافرين ويجاهدون فى سبيل الله فلا نظن أنهم بمنأى عن سخرية الساخرين ، وهزؤ المستهزئين ، ولوم اللائمين ليردوهم عن هذه العملية .

ولذلك يقول الحق : « ولا يخافون لومة لائم » وقد وضح ذلك على مر تاريخ الإسلام وجاء الحق بقوم يحبهم ويحبونه وهم أذلة على المؤمنين وأعزة على الكافرين وجاهدوا فى سبيل الله وما خافوا لومة لائم .

وساعة نستقرىء هذه الآية نجد أن « سوف » ابتدأ مدلولها الأول فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم . وحين سئل رسول الله عن القوم الذين يحبهم الله ويحبون الله وفيهم هذه الصفات ؛ أشار بيده مرة إلى أبى موسى الأشعرى ، وقال صلى الله عليه وسلم : « هم قوم من هذا »[1] .

وعندما نزل قوله تعالى :

﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾

(من الآية ٣ سورة الجمعة)

سأل أبو هريرة ـ رضى الله عنه ـ رسول الله صلى الله عليه وسلم : من هم يا رسول الله ؟ . فوضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده على سلمان ثم قال : « لو كان الإيمان عند الثريا لناله رجل من هؤلاء »[2] .

وقد حدثت الردة الأولى فى اليمن ، وكانت فى قوم أبى موسى الأشعرى ، وكتب رسول الله إلى معاذ بن جبل ـ كما أوضحنا ـ وبعد ذلك تطوع فيروز الديلمى ودخل على من كان يدّعى النبوة ذى الخمار أو ذى الحمار ، وقتله . وأخبر رسول الله صلى الله

---

(١) حديث شريف صححه الحاكم ورواه الطبرى فى التفسير .

(٢) رواه البخارى ومسلم فى فضائل الصحابة وأحمد ٢/٤١٧ .

عليه وسلم ليلتها بالأمر . ولكن خبر القتل جاء بعد أن انتقل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى . وكانت تلك من علامات النبوة .

وحدث ـ أيضاً ـ فى زمانه صلى الله عليه وسلم أن ادّعى مسيلمة الكذاب أنه نبى . وكتب مسيلمة إلى رسول الله كتاباً ، يقول : مِن مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله .

ولم يقدر على نزع صفة النبوة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وجاء فى كتاب مسيلمة : « أما بعد . فإن الأرض نصفها لى ونصفها لك » كأنه قد فهم أن المسألة بالنسبة لرسول الله تحتاج إلى قسمة ، فكتب إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم كلمات فيها هبات النبوة :

(من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين)[1] .

ولم يسمع مسيلمة كلام رسول الله ، وجهزت الحملة لترسل إليه لتأديبه . وجاء عهد أبى بكر ـ رضى الله عنه ـ ، وكانت المعركة على أشدها . وجاء « وحشى » الذى قتل حمزة ـ رضى الله عنه ـ فى موقعة أحد . وأراد أن يكفر عن سيئاته فذهب وقتل مسيلمة . ولذلك كان يقول كلمته المشهورة : أنا قتلت فى الجاهلية خير الناس ـ يقصد حمزة ـ وقتلت فى الإسلام شر الناس ـ يقصد مسيلمة ـ وانتهى أمر مسيلمة .

وجاء إنسان ثالث فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم اسمه « طليحة بن خويلد » من بنى أسد وادّعى النبوة ، وكلّف رسول الله صلى الله عليه وسلم مَن ذهب إليه وكان « خالد بن الوليد » وساعة علم الرجل أن خالداً هو الذى جاء لقتاله لاذ بالفرار ، ولكنه من بعد ذلك أسلم وحسن إسلامه .

ونلاحظ أننا ننطق « الردة » بكسر الراء ، وصفاً لتلك الأمور التى حدثت وقوبلت

---

(١) رواه أبوحنيفة فى مسنده ، وابن سعد فى الطبقات الكبرى ص ١٨٠ برواية الإمام الحصكفى .

هذه المقابلة . ولا نسميها « رد » فتح الراء ، لأن الرد ـ بفتح الراء ـ يكون عودة إلى حق ، أما الردة ـ بكسرة الراء ـ فتكون إلى باطل ، مثال ذلك قوله سبحانه وتعالى :

﴿ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾

(من الآية ٥٩ سورة النساء)

أما الذى يرتد فهو يرتد إلى باطل .

ومن العجيب أن كلمة « الردة » التى جعلها الإسلام علامة على الانتقال من الإيمان إلى الكفر يستخدمها أعداء الإسلام الذين لا يؤمنون بأديان ما ، فعندما يترك الشيوعية أحد أتباعها يقولون : لقد حدثت رِدة . وكان من الواجب لو أنهم أصحاب مبادىء أصيلة أن يختاروا لفظاً آخر لكن لا يوجد فى اللغة لفظ يعبر عن الرجوع إلى الباطل إلا كلمة « ردة » وكذلك كلمة « منبر » لا توجد ـ أيضاً ـ إلا فى الإسلام ، وهو موقف الواعظ من المصلين يوم الجمعة . وعندما يأتون إلى تصنيف جماعة متطرفة إلى اليسار فهم يقولون : « منبر اليسار » ونقول : لماذا تأخذون هذه الكلمة من عندنا ؟ .

ومثال آخر عندما يكتب كاتب : هذه الراقصة تتعبد فى محراب الفن . ونقول : لماذا تستخدم كلمة « محراب » ؟ . عليك أن تبحث عن كلمة أخرى . وكل ذلك يدل على أن كلمات الإيمان هى الكلمات المعبرة ولذلك يذهبون إليها .

ويؤخذ فى ظاهر الأمر على الإسلام أن من يرتد يُقتل .

ونقول : أيظن أحد أن هذه ضد الإسلام ؟ لا إنها لصالح الإسلام ؛ لأن الإنسان إذا علم أنه عندما يقبل على الإسلام فهو يقبل على الدين الكامل ؛ لأن من يخرج عليه يهدر دمه ويقتل . وعلى من يفكر فى الدخول إلى الإسلام أن يحتاط لحياته . إذن فالإسلام لا يسهل لأحد الدخول فيه ، ولكنه يصعب عملية الدخول . وينبه كل فرد إلى ضرورة الانتباه قبل الدخول فى الإسلام ؛ لأنه دخول إلى دين كامل وليس لهواً أو لعباً .

إن على من يرغب فى الدخول فى الإسلام أن يفكر جيداً وأن ينتهى إلى الحق ؛

لأن حياته ستكون ثمن الرجوع عن الإسلام وهذا دليل على جدية هذا الدين وعدم السماح بالعبث فى عمليات الدخول فيه . وحين يصعب الإسلام عملية الدخول فيه إنما يعطى فرصة الاختيار ليعلم من يختار الدين الإسلامى أن يعى أن الرجوع عن الإسلام ثمنه الحياة . وساعة يطلب دين أن يفكر الإنسان جيداً قبل أن يدخل فيه فهل فى ذلك خداع أو نصيحة ؟ إنها النصيحة وهى عملية لصالح الإسلام ، وهى أمر علنى ليعلم كل داخل فى الإسلام أن هذا هو الشرط .

ولو أن الإسلام يريد تسهيل المسألة لقال : تعال إلى الإسلام واخرج متى تريد . لكن الدين الحق لا يخدع أحداً . وسبحانه يقول :

﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ﴾

(من الآية ٤٢ سورة الأنفال)

وتكلمنا من قبل عن الردات التى حدثت فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن كلمة « سوف » التى جاءت فى قوله : « فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه » تدل على الامتدادية . وقد حدثت ردة فى عهد أبى بكر ـ رضى الله عنه ـ وظهر سبعة ادّعوا النبوة ، مثال ذلك : « بنو فزارة » قوم عيينة بن حصن ارتدوا وأرسل إليهم أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ من حاربهم . وكذلك قوم غطفان ارتدوا .

وكذلك قوم قرّة بن هبيرة بن سلمة ، وكذلك بنو سُلَيْم . قوم الفجاءة بن عبد ياليل ، فأرسل لهم أبو بكر من يؤدبهم . وبنو يربوع قوم مالك بن نويرة ، وبعض من بنى تميم الذين ادعت فيهم النبوّة سجاح بنت المنذر والتى تزوجت مسيلمة . وكذلك « كِندة » قوم الأشعث بن قيس ، وكذلك قوم الحُطَم بن ضبيعة وهم بنو بكر بن وائل فى البحرين . وقضى عليهم سيدنا أبو بكر مما جعل كثيراً من القوم يقولون : إن القوم الذين يحبهم الله ويحبون الله وفيهم كل تلك الأوصاف هم أبو بكر ومن معه . ولكن أيمنع ذلك أن كل جماعة سيكون فيها مثل أبى بكر ـ رضى الله عنه ـ ؟ لا . ومثال ذلك على بن أبى طالب ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوم خيبر :

عن سلمة بن الأكوع رضى الله عنه قال : كان على رضى الله عنه تخلف عن النبى

صلى الله عليه وسلم فى خيبر ، وكان به رمد فقال : أنا أتخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرج على فلحق بالنبى صلى الله عليه وسلم فلما كان مساء الليلة التى فتحها فى صباحها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لأعطين الراية ـ أو ليأخذنّ ـ غداً رجلٌ يحبه الله ورسوله ، أو قال : يحب الله ورسوله . يفتح الله عليه . فإذا نحن بعلىٍّ وما نرجوه ، فقالوا هذا على ، فأعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم ففتح الله عليه »[1] .

وفى عهد سيدنا عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ لم تحدث إلا ردة واحدة ، جاءت من الغساسنة بقيادة جبلة بن الأيهم وهم من الشام وكانوا موالين للروم ، وكان جبلة هو رئيسهم وأسلم وجاء ليطوف بالبيت الحرام بهيلمانٍ كزعيم للغساسنة . وكان لهم العظمة فى الجياد والملابس . وكان يرتدى رداءً طويلاً فوطىء أحد الناس رداءه ؛ فسقط ، فلطمه جبلة ، وأبلغ الرجل عمر بن الخطاب . وقال عمر بن الخطاب : إنه القصاص . وقال سيد الغساسنة : إنى أشترى هذه اللطمة بألف دينار ولم يقبل الرجل فعرض سيد الغساسنة ألفين من الدنانير فرفض الرجل ، فزادها إلى عشرة آلاف ولم يقبل الرجل .

وقال جبلة لعمر : أنظرنى حتى أفكر فى المسألة . فلما أنظره عمر ، هرب الرجل إلى الشام وتنصر . هكذا يتضح لنا آفاق كلمة « سوف » وأى زمن تأخذ ، إن لها امتدادات حتى زماننا .

إن الردة فى زماننا جاءت من فارس ممثلة فى البهائية والبابية ، وهدف المرتد يكون جاه الدنيا ، إن كان يريد الحكم ، ووسيلة المرتد تيسير التكليف لمن يتبعه فى الارتداد . ومن يدعى لنفسه النبوة والقدرة على الإتيان بتشريع جديد إنما يطلب لنفسه جاه الدنيا ، والذى يتبع ذلك المدعى للنبوة إنما يقصد لنفسه تيسير التكليف .

ولماذا تيسير التكليف ؟ ؛ لأن الإنسان مؤمن بفطرته ودليل ذلك أننا إذا واجهنا إنساناً غير مؤمن ، وقلنا له : أنت قليل الدين . يغضب ويثور ؛ لأنه لا يتصور أن ينزع أحد منه أنه متدين بشكل ما . ونرى إنساناً قد يسرف على نفسه كثيراً لكنه

---

(١) رواه البخارى ـ واللفظ له ـ فى الجهاد وفى فضائل أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، ورواه مسلم فى فضائل الصحابة ، والترمذى فى المناقب ، وابن ماجه فى المقدمة ، وأحمد ١/٩٩ ، ٨٥ .

ساعة يسمع إنساناً آخر يسب الدين يثور ويغضب ويتحول إلى مدافع عن دين الله ، وتلك هى الفطرة الإيمانية التى فطر الله كل الناس عليها . والذى يجعل الدين أمراً شاقاً على النفس البشرية ليس فطرة الدين ، ولكنه تكليف التدين ؛ لأنه أمر يدخل فى الاختيار . وقد جعل الحق التكليفات الإيمانية كلها فى مناط الاختيار البشرى ، ولم يشأ أن تكون أمراً قهرياً . ولو شاء سبحانه أن يجعل كل الناس مؤمنين لما قدر أحد على الكفر :

﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝٣ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ۝٤﴾

(سورة الشعراء)

فليس فى قدرة أحد أن يتأبى على الله ، ولكنه شاء أن يجعل تكاليف الإيمان مسألة اختيارية . والإنسان حر فى أن يفعل تكاليف الإيمان أو لا يفعلها ، وفى كلتا الحالتين سيلقى الجزاء . مثال ذلك : « اللسان » خلقه الله صالحاً أن يقول : « لا إله إلا الله محمد رسول الله » ، وهذا اللسان نفسه صالح لأن يقول : ـ والعياذ بالله ـ « أنا لا أؤمن بالله » .

ولا يعصى اللسان صاحبه ، فقد خلقه الله مجهزاً للتعبير عن مكنونات قلب الإنسان وخاضعا لإرادة الإنسان . ومثال آخر من مصنوعاتنا نحن : جهاز التليفزيون الذى صممه البشر ليكون آلة منقادة ومسخرة لما يرسله الإنسان فيه من برامج ، فإن أرسل الإنسان فى جهاز التليفزيون أفلاماً وبرامج دينية وعلمية تستكشف آيات الله فى الكون وتثبت قيم الإنسان على الإيمان فهذا اختيار إيمانى . وإن أرسل الإنسان أفلاماً خليعة تحض على المجون والفسق فهذا اختيار يلحق الإنسان بدائرة المفسدين فى الأرض .

إذن فالحق خلق الإنسان صالحاً لتطبيق تكاليف الإيمان وصالحاً للخروج عن التكليف . وحين يأمر الله عباده أن يطبقوا أو ينفذوا التكليف الإيمانى فهو يعلم أن قدرة الإنسان تسع التكليف ؛ لأنه العليم بعباده ، ولو لم يكن باستطاعتهم تنفيذ التكليف لما كلفهم به . وكلنا نعرف الفرق بين « العباد » و« العبيد » ؛ فكل الكائنات عبيد لله ، والإنسان من عبيد الله إن كان متكبراً على التكليف ، وإن خرج

على التكليف فهو مسير فى أمور لا يقدر على الخروج منها ، فلا يستطيع أحد بإرادته أن يتوقف عن التنفس ، وهو ـ كما نعلم ـ أحد العمليات التى تجرى على الرغم من الإنسان .

ولا أحد يستطيع أن يتنفس عندما ينتهى أجله . كذلك لا أحد يستطيع أن يقاوم المرض إن أصابه . إذن فكِبْر الإنسان وخروجه عن طاعة الله فى أشياء لا تعنى أنه خارج فى مطلق أموره عن الله ؛ لأن الحق فعال لما يريد ، فلا أحد يتحكم فى بدايته حين يولد ، ولا أحد يتحكم فى نهايته حين يموت ، وهناك أمور بين قوسَىْ الميلاد والموت ما من أحد بقادر على التحكم فيها ، وإرادة الاختيار إنما توجد فى بعض الأمور فقط . أما كل ما عدا ذلك فهو قهرى ، وكلنا عبيد لله فى ذلك . لكن الحق تعالى أعطى لنا الاختيار فى بقية أمور الحياة .

والذكى حقاً هو من يسأل ربه : لقد خلقتنى يارب مختاراً . وماذا تحب أنت أن أفعل ؟ هنا يجد الإنسان نفسه أمام أوامر الله ونواهيه وأمام المنهج بمطلوباته ، هذا المنهج الذى يوضح للمؤمن ما الذى يمكن أن يفعله وما الذى يمكن أن يتجنبه . ويقول المؤمن : إننى أخرج من اختيارى إلى مرادك يارب . والعبد الذى يتنازل عن اختياره إلى مراد خالقه هو واحد من العباد الذين وصفهم الحق بأنهم عباد الرحمن .

ونرى فى حياتنا العادية نموذجا لما يحدث بين رب الأسرة وأفرادها ، فرب الأسرة يقول لأبنائه : أنتم تريدون التنزه ، فأى مكان تحبون الذهاب إليه ؟

يجيب أحد أفراد الأسرة : لنذهب إلى المكان الفلانى . ويجيب آخر : أنت حر فى أن تصحبنا إلى أى مكان تريد ، المهم فقط أن تكون معنا . ومن المؤكد أن الذى يقول مثل هذا القول لرب الأسرة ينال منزلة رفيعة فى قلبه . فإذا كان هذا يحدث بين إنسان وإنسان مثله فما بالنا بالاستحسان الذى يناله العبد حين يقول ذلك لخالقه الأكرم ؟ لا بد أن ينال منزلة راقية ؛ لأنه قد خرج من دائرة العبيد إلى دائرة العباد الذين قال عنهم الحق :

﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا

﴿ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴿٦٤﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ ﴾

(سورة الفرقان)

هؤلاء هم عباد الرحمن الذين يحبهم ويحبونه . أما الذى يتمرد على منهج الله فعليه أن يعرف أنه غير قادر على أن يتمرد على قدر الله . وأراد الحق أن يعطينا مناعة إيمانية حين قال : « من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه » وتتجلى تلك المناعة فى أن المؤمن لا بد أن يلتفت إلى هؤلاء الذين يرتدون عن دين الله بادعاء أنهم أنبياء من بعد محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

إن هذه الآية توضح لنا ما جد وما يجد من أمر هؤلاء المرتدين ، والواحد منهم يعلن : أنا نبى مرسل . ويَجِدُ هذا النبى المزيف من يستمع له ويصدقه ويتبعه ، ولا يجد من يسأله : إن كنتَ نبياً فما معجزتك ؟ لكنه يجد من يصدقون هذا الزيف لهوى فى نفوسهم .

هذا الهوى يتلخص فى أن مثل هذا النبى المزيف يأتى بمنهج ميسر يخدع به أتباعه الذين يخدعون أنفسهم بأن الواحد منهم متدين ، لكنّه يتبع منهاجاً ضالاً . وكثير من الذين ادعوا أنهم أنبياء وأنّه هو المهدى المنتظر لم يسألهم أحد : ما المعجزة الدالة على صدق نبوتكم ؟ لأن النبى المزيف من هؤلاء يلهى الناس بالتخفيف من التكليف .

إننا نجد بعضاً من المثقفين أو الذين يدعون أنهم يعملون عقولهم فى كل شىء يتبعون هؤلاء الدجالين . وقد رأينا منذ أعوام قليلة العجب العجاب ، عندما ادعى أحدهم النبوة . وآمن به واتبعه عدد من الرجال والنساء . وكانت المرأة المتزوجة تدخل على هذا النبى المزيف لتقبله ويقبلها من شفتيها وأمام زوجها . أين نخوة الرجل - إذن - فى مثل هذا الموقف ؟ إنه التدليس الضال الذى يدعى لنفسه الهداية ، إنها هداية إلى الجحيم .

وهل تنبع تلك التيارات من الإسلام ؟ لا ، بل تأتى من قوم يبغضون الإسلام ،

ويصطادون الرجل الذى تظهر عليه المواهب والمخايل ، ويقنعونه بأنه يمكن أن يلعب دور النبى المزيف .

مثال ذلك الهندى ميرزا غلام أحمد الذى جاء بالقاديانية . ونعلم أن الإنجليز قد استعمروا الهند لسنوات طويلة ، وكانوا يعتبرونها درة التاج البريطانى . ونعلم أن خصوم الإسلام وعلى رأسهم الاستعمار يحاولون أن ينالوا من الإسلام ؛ لأنهم رأوا أن التمسك بالدين أتاح للمسلمين فتح الأمبراطوريات لا بالسيف ولكن بحماية حق الاعتقاد .

إذا كانت الدعوة قد نشأت فى الجزيرة العربية ؛ فقد امتدت إلى آفاق الأرض . وانهزمت الفرس والروم أمام الذين يحملون راية « لا إله إلا الله محمد رسول الله » . ومن بعد ذلك نجد أن الذين هزموا التتار هم المسلمون ، وكذلك اشتعلت الحروب الصليبية فى حملات متتابعة ، ولكن المقاتلين تحت راية الإسلام أنزلوا بهم الهزيمة الضارية .

إن الذى أرهق الاستعمار من الإسلام طاقة الإيمان والقتال فى سبيله ولذلك جاء ميرزا غلام أحمد وحاول أن يضعف القدرة على الجهاد عند المسلمين ، فقال : لقد جئت لكم لألغى الجهاد من العقيدة الإسلامية . وجرؤ ميرزا غلام أحمد ، وأعلن إلغاء القتال . والحق يقول فى كتابه الكريم :

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ﴾

(من الآية ٢١٦ سورة البقرة)

وسبحانه بقدرته يمهل ولا يهمل . وجاء وباء الكوليرا فى الهند سنة ١٩٠٨ ليقضى على غلام أحمد وينهى وجوده تأكيداً لقوله الحق :

﴿ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾

(من الآية ٥٤ سورة المائدة)

وظهر أيضاً فى فارس وهى موطن سلمان الفارسى مَن ادعى لنفسه النبوة ، وكان من الذكاء بحيث حاول التسلل إلى الإسلام ؛ لينقلب عليه من بعد ذلك ، قال الرجل : أنا الباب ومن بعدى سيأتى المهدى .

وعندما سأله الناس : وماذا تحمل من منهج ؟ أجاب : جئت لأخفف عنكم بعض التكاليف ؛ لأن الإسلام صار بتكاليفه لا يناسب العصر . واتبعه أناس ، وثار عليه أناس . ومن اتبعوه ، ذهبوا إليه بغية تخفيف المنهج ، ومن ثاروا عليه كانوا من القوم الذين يحبهم الله ويحبونه ، وجاءوا له بالعلماء يناقشونه ويحاجونه فاعترف بأنه مخطىء وأعلن التوبة فى المسجد الكبير . وعند ذلك تركه الناس .

لكن هذا الرجل وجد من يلتقطه ليعيده إلى ضلاله وتضليله ، التقطه قنصل روسيا فى فارس ، وهيأ له ملجأ ، وأوعز إليه أن يعلن أن توبته إنما كانت هرباً من القتل . واستطاع هذا الباب ، واسمه على محمد الشيرازى أن ينال دعاية واسعة وخاصة بعد أن انضمت إلى دعوته فتاة اسمها « قرة العين » وكانوا يلقبونها بالطاهرة . ووقفت لتخطب خطبة فى الناس . ومن يقرأ تلك الخطبة يعرف إلى أى انحلال كان يدعو ذلك الباب .

وأعلنت هذه المرأة أن الإسلام قد انقضت مدته كدين ، وأن الباب قد اختفى لفترة ؛ لأنه فى انتظار شرع جديد ، وأن العالم يمر بفترة انتقال ، وصار ينزل المنهج الجديد على الباب . وقالت تلك « الطاهرة » : إنّ التشريع المختص بالمرأة ، والذى جاء إلى الباب هو :

« المرأة زهرة خُلِقَت لتُشَمّ ولِتُضَمّ »
« فلا يمنع ولا يُحَدّ شامّها ولا ضامّها »

وما دامت المرأة زهرة إذن فهى تجنَى وتقطَف « وإلى الأحباب تُهَدى وتتحف . . إلى أن تقول فى نهاية خطابها : لا تحجبوا حلائلكم عن أحبابكم (!!)

ومن يرغب فى أن يعرف مسلسل الفضائح الخلقية التى جاءت فى خطاب « قرة العين » تلك فليقرأ كتاب « نقطة الكاف » للباب الكاشانى طبعة لندن صفحة ١٥٤ . هذا ما جاء به الباب من بعد أن أعلن إلغاء الإسلام :

لا تحجبوا حلائلكم عن أحبابكم فإنه الآن لا منع ولا حد ، خذوا حظكم من الحياة ، فإنه ليس بعد الممات شىء . وهذه خلاصة الانحلال الذى جاء به هذا

المدعو بالباب ، لقد أعلن أنه لا حساب ولا يوم آخر ، وأن المرأة عرضها مشاع تضم وتشم . والغريب أن بعضاً من المتزوجين قد اتبعوه . وقالوا عن أنفسهم : إنهم متدينون ، لقد أخذوا ظاهر الأمر واعتبروا الفسوق الذى جاء به هذا الباب وأسموه دينا بعد أن سهل لهم بتعاليمه الفساد ، فأخذوا الانحلال عن التكاليف ، وادعو أن ذلك دين (!!)

هكذا أراد خصوم الإسلام للإسلام . وقنصل روسيا القيصرية هو الذى شجع هذا الرجل وحماه فى عام واحد وستين ومائتين بعد الألف من الهجرة . وبرغم ذلك حكم أهل فارس بإعدامه بعد موجة السخط العارم ، ولم يستطع أن ينقذه أحد ، وتم إعدامه فعلاً . والذين قرأوا أقواله لحظة الإعدام عرفوا كيف أنه تذلل وخضع وبكى . ولو كان مبعوثاً بحق من عند الله لما تذلل وخضع وطلب النجاة . ولامتلأ بالسرور والحبور ؛ لأنه ذاهب إلى الله .

لقد عرف هذا الرجل الدجال إلى أى عقاب سيذهب ؛ لذلك بكى واسترحم . ولما قتل الباب ، أعلن واحد من رجاله وهو ميرزا حسين أن الكتاب الذى جاء به الباب كتاب كاذب ، وكان اسمه « البيان » . وقال ميرزا حسين على : إنه جاء بكتاب اسمه « الأقدس » . كأن المسألة كلها خداع للناس وتبرير الخداع .

ولو رجعنا إلى كتاب يسمونه « بهجة الصدور » لمؤلفه حيدر بن على البهائى لوجدنا كل الانحرافات الممكنة ، فالبهاء يقول : استر ذهبك وذهابك ومذهبك ، أى لا تجعل أحداً يعرف ثروتك ، ولا إلى أى مكان تذهب ولا تقل للناس : إنك بهائى حتى لا يقتلوك . واعتبر البهائيون أن القرآن قد انتهت مدته وأن كتاب « الأقدس » هو كتاب فوق القرآن .

ويقرر كتاب « الأقدس » أن القدس لا بد أن تكون وطناً لليهود وأن موسى سيد الرسل جميعاً . ومما يدلنا على أن ذلك الرجل كان صنيعة الاستعمار والصهيونية ، أنهم أقاموا له حفل تكريم فى بريطانيا ومنحوه وسام الفروسية الإنجليزى ؛ لأنه رجل خدم الاستعمار .

ونجد أن شيخنا رشيد رضا الذى نقل لنا تاريخ الإمام محمد عبده يروى قصة لقاء بينه وبين ذلك المدعو « بهاء » فى بيروت ، وحكى الشيخ رشيد عن الإمام محمد عبده أن هذا البهاء كان يأتى للصلوات الخمس ويصلى الجمعة . وعندما سأله عن تلك المسألة المسماة بالبهائية . أجاب بأنها محاولة للتقريب بين الشيعة وأهل السنة . وعندما أمرت الدولة العثمانية بمحاكمة ذلك البهاء توسط قنصل روسيا فاكتفوا بنفيه إلى بغداد . وعاش فترة فيها ثم مات وقام الأمر من بعده لابنه عباس المسمى عبدالبهاء .

لقد كانت البداية برجل سمى نفسه الباب صاحب كتاب البيان وقال فيه : « ملعون مطرود من يدعى أنه جاء بشريعة بعد شريعتى إلا بعد مرور ألف سنة » . وما إن تمر سبع سنوات حتى جاء رجل ثان يسمى نفسه البهاء ، وأعلن أنه جاء بشريعة جديدة ، ويعقد الوصية لابنه المسمى « عبدالبهاء » . ثم يكون الأمر من بعده إلى ابنه المسمى « شوقى أفندى » وكان يقيم بعكّا . هكذا انفضحت أكاذيبهم . ورئيس البهائية الحالى هو يهودى اسمه بترسون .

إذن فالردة عن الإسلام لم تكن نابعة من نفوس المسلمين ولكن مدفوع إليها من خصوم الإسلام الذين يأخذون أى رجل ملحد فيه بعض من الذكاء وينفخون فيه بدعاياتهم حتى يشوهوا دعوة الإسلام . وأقاموا مراكز لمثل هذه الانحرافات فى بلجيكا وأمريكا وانجلترا . وحاولوا النفاذ إلى البلاد الإسلامية لينشروا فيها دعوتهم ومبادئهم . وكانوا يأخذون المرأة كنقطة هجوم على الإسلام . ويتهمون الإسلام بأنه يضع المرأة فى الحريم ، ويحبسها فى خيمة وإلى آخر تلك الدعايات التى تشوه تكريم الإسلام للمرأة .

ومن العجيب أنى سمعت بأذنى من واحدة هى بنت لتلك الحضارة الغربية . تقول : كنت أتمنى أن أكون مسلمة وأمًّا لشاب مسلم .

فعلينا نحن المسلمين ألا ننخدع بتلك الدعايات وتلك المذاهب التى تتسلل من باب تخفيف المنهج والمراد بها قتل قيم الإسلام التى تحمى الإنسان وتحترم مشاعره ؛ لذلك يجب أن ننتبه إلى دعوات المتسللين إلى مجتمعاتنا بغية هدم ديننا : وعلى

الحكومات أن تضرب على أيدى العابثين بدين الله لا أن تترك مسائل الدين لهبّات الأفراد . وكل منا مطالب بأن يرد عن دين الله كل دخيل عليه وكل محاولة لوضع أمور ليست من الدين فى شىء . وجزى الله قضاء مصر خيراً حينما تصدوا لمثل هذه الدعوات ووقفوا دفاعاً عن الإسلام لتبيين وإيضاح كل أمر دخيل عليه ، فدستور الدولة ينص على أن مصر بلد مسلم ، وإن كانت بعض التقنينات فى دور التشريع . وجزى الله قضاة مصر عنا خيراً ، فقد وضحوا تلك المسائل وبينوها . وعرفنا بسلوكهم أن خميرة الإيمان هى التى تحكم سلوك المسلم الحق ، وإن تخلت عنه بعض القوانين التى عليه أن يحكم بها .

وكلما حدث حادث من تلك الحوادث لنا أن نتذكر القول الصدق من الله :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾

(من الآية ٥٤ سورة المائدة)

وكل هذه الحركات المناوئة للإسلام تنتهى ويبقى الإسلام قوياً بأبنائه الذين يحبهم الله ويحبونه . هؤلاء الذين وصفهم الحق :

﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖ ﴾

(من الآية ٥٤ سورة المائدة)

ويذيل الحق سبحانه هذا القول الكريم :

﴿ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾

(من الآية ٥٤ سورة المائدة)

نعم إنه فضل من الله ؛ لأنهم ما داموا يحبهم الله ويحبون الله وهم أذلة على المؤمنين وأعزة على الكافرين فقد جعلهم سبحانه حملة لواء منهجه لتكون كلمة الله هى العليا . وذلك تفضل من الله . ولنعلم أن الخير لا يعود منا على الله ؛ لأنه سبحانه هو واهب كل خير ، ولم يأت لنا الخير من بعد خلقنا ، ولكن نحن الذين طرأنا على الخير ، نحن طرأنا على الأرض ، وعلى السماء بما فيهما من كل كنوز الخير ،

ففى الأرض العناصر والمعادن والقوت ، وفى السماء الشمس والقمر والنجوم ، وكل ذلك فضل الخالق على المخلوق .

إن فضل الله يؤتيه سبحانه وتعالى من يشاء وتتسع قدرته لكل مطلوب ؛ لذلك لا يمن المؤمن على الله بإيمانه ، فليس عند الله أزمة فى الذين يؤمنون به ، وهو قادر على أن يأتى بقوم يحملون دعوته ، فإذا ما ارتفعت رأس الباطل فهذا دليل على أن قطافها قد حان ؛ لأن الزبد يذهب جفاء وما ينفع الناس يمكث فى الأرض .

فكأن الله حين يندب المؤمنين لمهمة إيمانية فلا يقال : إن المؤمنين إنما يفعلون ذلك لمصلحة ربهم . لا ، ولكن ذلك فضل من الله على المؤمنين حين يختارهم لمهمة حمل البلاغ عن الله ، ويعود الخير إلى المؤمنين ثمرة مضاعفة . إذن فحين يكون اختيار الله للمؤمن لمهمة إيمانية فهذا فضل من الله على المؤمن . ونعرف أن الفضل هو الأمر الزائد عن العدل فالحق سبحانه وتعالى قد قال :

﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾

(سورة يونس)

وكل تكليف من الحق للخلق هو فضل من الله ؛ لأنك إن نظرت إلى كل تكليف من الحق للخلق لوجدت أن التكليف إنما يعود لصالح الخلق وما دامت الفائدة من التكليف تعود إلى الخلق فليس من المطلوب إذن أن يثاب الخلق المؤمنون المكلفون ، لكن الله يأبى أن يكلف خلقه بتكاليف ويذهبون إلى هذه التكاليف بطاعة ومحبة دون أن يجازيهم على ذلك بحسن الثواب . ولهذا نجد الحق يقول :

﴿قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾

(من الآية ١٧ سورة الحجرات)

المنّة إذن لله حين تفضل على الخلق الذين أطاعوه بحسن حياتهم فى إطار تكاليفه الإيمانية ، وفوق ذلك هناك الثواب ، وهذا هو عين التفضل من الحق على الخلق المؤمنين :

﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾

(سورة يونس)

وساعة نسمع « بفضل الله » فلنعلم أن فضل الله لا حدود له . وقد نجد من يقول : ولكن الحق سبحانه وتعالى قال :

﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ﴾

(سورة النجم)

ونقول : لنفترض أن إنساناً مات ، ونجد الأمر من الخالق سبحانه وتعالى بأن نصلى عليه ؛ لندعو له بالرحمة . ودعاؤنا للميت بالرحمة يأتى له بخير أكثر مما فعل هو فى حياته ، ولولا أن صلاتنا على الميت تثيب الميت وتثيبنا فى آن واحد لولا ذلك ما أمرنا الحق بأداء هذه الصلاة .

وقد يقول قائل : هذا الخير الذى يأتى إلى الميت من دعاء المصلين عليه ليس من سعى الميت .

ونقول : إن « اللام » فى قوله الحق :

﴿ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾

(من الآية ٣٩ سورة النجم)

هذه اللام تفيد الاستحقاق والملكية . وهو قول كريم يحدد العدل ولا يحدد الفضل . ونضرب مثلاً من حياتنا نحن البشر ـ ولله المثل الأعلى ـ تجد السيد يقول للخادم عنده : إن لك أجراً عندى يساوى مائة جنيه . ثم يجىء السيد فى آخر الشهر ويقول للخادم : خذ مائة وخمسين جنيهاً . العدل إذن هو أن يأخذ الخادم أجره وهو مائة جنيه ، ولكن الخمسين جنيهاً الزائدة هى الفضل الزائد عن الأجر .

إننا حين يأمرنا الحق سبحانه وتعالى بأن نصلى على الميت فهذا تفضل من الله على الميت وعلينا أيضاً . هذا لون من تفضل الله على خلقه . وسبحانه يجازى كل إنسان بما عمل ويمنحه فوق ذلك ، ومن قصّر فى شىء من العمل . ويصلى عليه الناس ويدعون له بالرحمة فتفيض رحمة الله على العبد وعلى غيره من العباد . وهذا هو مناط قول الحق :

﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾

(سورة يونس)

وعندما نحقق فى هذا الموقف وحده نجد أن الجزاء يكون أفضل من العمل . وما الذى يجعل المؤمن يصلى على ميت مؤمن ؟ . إنه إيمان هذا الذى مات وإيمان من مات ملك له ، وعلى ذلك فملكية المؤمن لإيمانه تمتد بعد أن يموت لتشمل صلوات ودعاء من صلوا عليه .

وذلك يدخل فى فضل الله :

﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾

(من الآية ٥٤ سورة المائدة)

وما دامت المسألة فضلاً من الله يشمل كل مؤمن فلا بد أن الحق عنده من السعة ما يعطى الكل . وسبحانه واسع عليم . والحديث القدسى يقول : « يا عبادى ، لو أن أوّلكم وآخركم ، وإنسكم وجنّكم ، قاموا فى صعيد واحد فسألونى فأعطيت كل إنسان مسألته ، ما نقص ذلك مما عندى إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر . يا عبادى ، إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ، ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنّ إلا نفسه »[1] .

إذن فخزائن الله ملأى لا تنفد . وسعة الحق مطلقة .

ولهذا نحن أيضاً نجد أن الحب فى الله يزداد دائماً ، فساعة نشاهد اثنين يتحابان فى الله ، فحبهما يزداد كل يوم ؛ لأنه الحب فى الله . أما إن كان الحب لأمر محدود فذلك الحب ينتهى ويترك كل منهما الآخر بانتهاء السبب لذلك الحب .

ولنأخذ قضية واضحة أمامنا : من كان يحب فى الله فالحب لغير المحدود لا حدود له . ومن كان يحب فى غير الله ، فالحب هنا لمحدود ويرتبط طردا وعكسا بمدى الإثراء من هذا المحدود . ومن يحب لغرض من أغراض الدنيا يقيس ما يعطيه لمن يحب ، فإن زاد ما يعطيه على ما يأخذه يحس بالخسارة . وعندما نتبادل الحب فى الله فلا شىء ينقص عند الله أبداً ؛ لأنه سبحانه يعطى الاثنين معاً اللذين يتحابان فيه . وسبحانه العليم أزلاً ، وصاحب القدرة الذى يعطى كل إنسان المناط الذى يستحقه .

---

(١) رواه مسلم فى باب تحريم الظلم ، والترمذى ، وابن ماجه .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾

وحين نهانا الحق عن أن نتخذ اليهود والنصارى أولياء فعلينا أن نأخذ بالقياس أن النهى إنما يشمل كل خصوم ديننا ، فلا نتخذ أيّاً من أعداء الدين وليّاً لنا ؛ لأنه سبحانه وتعالى لم يتركنا بغير ولاية ، وهو وليّنا وكذلك الرسول صلى الله عليه وسلم والذين آمنوا .

إذا أردنا المقارنة بين ولاية الله وولاية أعداء الله فلنعرف أن كل عدو لله له قدرة محدودة لأنه من البشر . أما ولاية الله لنا فلها مطلق القدرة . وأى عدو له قد يتظاهر لنا بالولاية نفاقاً . أما ولاية الله لنا فلا نفاق فيها لأنه لا قوة أعلى منه . وإن كان الحق قد منعنا أن نتخذ من أعدائه أولياء فذلك ليحررنا من الولاية المحدودة ليعطينا الولاية التى لا تتغير وهى ولايته سبحانه وتعالى : « إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا » وهكذا يكون التعويض فى الولاية أكبر من كل تصور . وساعة نرى « إنما » فلنعرف أن هناك ما نسميه « القصر » أو « الحصر » .

مثال ذلك نقول : « إنما الكريم زيد » : كأن القائل قد استقرأ آراء الناس ولم يجد كريماً إلا زيداً ، وكأنه يقول : « زيد كريم وغير زيد ليس بكريم » واختصر الجملتين فى جملة واحدة بقوله : « إنما الكريم زيد » وأثبت بهذا القول الكرم لزيد ونفاه عن غيره . أما إن قال القائل : « زيد كريم » فهذا القول لا يمنع أن يكون غيره من الكرماء .

إن الحق سبحانه يحصر الولاية فى قوله : « إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا » وهو قد نهانا من قبل عن ولاية أهل الكتاب ، وعن ولاية كل من لا توجد عنده مودة أو محبة تعين المؤمن على مهمته الإيمانية . فلو كان عند أحد من أهل الكتاب أو الملاحدة محبّة ومودّة تُعين المؤمن على أداء مهمته لما بقى هذا الإنسان على منهجه

المحرّف أو على إلحاده ، بل إن ذلك سيجعله يذهب إلى الإيمان برسالة الإسلام .

إننا نجد بقاء الكافر على كفره أو إلحاده أو عدم إيمانه برسالة محمد صلى الله عليه وسلم دليلا على أنه لم يستطع الوصول إلى الهداية أو أنه ـ إن كان من أهل الكتاب ـ لم يستطع أن يكون مأموناً على الكتاب الذى نزل إلى نبيّه وفيه البشارة بمحمد صلى الله عليه وسلم فكيف ـ إذن ـ يعين إنسان مثل هذا إنساناً مسلماً ؟ . إنه لا يستطيع أن يعين ولا أن يوالى ولا أن يكون على هداية ؛ لأنه لم يستطع أن يهدى نفسه . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : « لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم ، وقولوا آمنّا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إليكم » .

لأن الذى لا يستطيع أن يهدى نفسه لن يستطيع هداية غيره .

وحين نهانا النبى صلى الله عليه وسلم عن سؤال أهل الكتاب كان يعلم أنهم فى ريب من أنفسهم ، وفى ضلال وخلط ، فهم إما يخلطون الحق بالباطل ، وإما فى غيظ من الذين آمنوا ؛ لذلك نهانا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نسألهم ، وهذا هو الاحتياط للدين ، فقد يسألهم المؤمن سؤالاً ، فيجيبون بصدق ، فيكذبهم المسلم ، وقد يجيبون بكذب فيصدقهم المسلم ؛ لذلك لا يصح ولا يستقيم أن يسألهم المسلم أبداً عن شىء ؛ لأنه عرضة لأمر من اثنين : إما أن يصدق بباطل ، وإما أن يكذب بحق . وأهل الكتاب أنفسهم قد تضاربوا ، ألم يقل الحق على ألسنتهم :

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ ﴾

(من الآية ١١٣ سورة البقرة)

وكذلك قالت النصارى :

﴿ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ ﴾

(من الآية ١١٣ سورة البقرة)

إذن فأى الموقفين نصدق ؟ أنصدق رأى اليهود فى النصارى ؟ أم نصدق رأى النصارى فى اليهود ؟ ولا نستطيع أن نكذب رأى اليهود فى النصارى ، ولا نستطيع

أن نكذب رأى النصارى فى اليهود ، إذن فحين يقول الحق سبحانه : « إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا » فعلينا أن نفهم أنه سبحانه وتعالى ما دام قد نهاكم عن أن تتخذوا أولياء من دون الله فلن يترككم أيها المؤمنون دون ولى . بل منعكم فقط من ولاية من لا يمكن أن يكون صادقاً فى معونتكم ولا فى نصرتكم .

لقد أراد سبحانه أن يكون هو بطلاقة قدرته وليكم ، ورسول الله أيضاً وليكم ، وكذلك الذين آمنوا . ونجد من يقول : الحق هنا قد عدد الولاية فيه سبحانه وتعالى وفى الرسول صلى الله عليه وسلم وفى المؤمنين ، لماذا لم يقل ـ إذن ـ : أولياؤكم هم الله والرسول والذين آمنوا ؟

ونقول : هل كانت للرسول ولاية منفصلة عن ولاية الله والمؤمنين ؟ وهل كانت للمؤمنين ولاية منفصلة عن ولاية الله والرسول ؟ . لا ؛ لأن الولاية كلها منصبة لله ، فلم يعزل الحق الرسول عن ربه ، ولا عزل المؤمنين عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولم يقسم الولاية إلى أجزاء ، بل كلها ولاية واحدة وأمر واحد ، ونلحظ أن الخطاب فى « كاف الخطاب » هو للجمع : « إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا » ، و« كاف » الخطاب هنا تضم المؤمنين ومعهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فالله سبحانه وتعالى ولى الرسول وولى المؤمنين ، والرسول ولى المؤمنين . وجاء فى المؤمنين قول الحق :

﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾

(من الآية ٧١ سورة التوبة)

كم درجة من الولاية هنا إذن ؟ الله ولى الرسول وولى المؤمنين . ذلك أنه سبحانه شاء بفضله ألا يعزل الولاية أو يقسمها بل جعلها ولاية واحدة ، والرسول صلى الله عليه وسلم ولى المؤمنين ، والمؤمنون بعضهم أولياء بعض ؛ لذلك نجد أن كل مؤمن مطلوب منه معونة ونصرة أخيه المؤمن .

إن الإنسان ـ كما نعلم ـ ابن أغيار ، وما دام الإنسان ابناً للأغيار فعلينا أن نعرف أن المؤمنين لن يظلوا كلهم فى حالة توجيه النصيحة . ولن يظلوا جميعهم فى حالة تلقٍ للنصيحة . وكل واحد منهم يكون مرة ناصحاً ومرة يكون منصوحاً ، فساعة يصيب

الضعف مؤمناً فى جزء من المنهج يجد أخاه المؤمن قد هبّ لنصحه ليعتدل . وساعة يصيب الضعف الناصح فى جزء من منهجه فالمنصوح السابق يهب لنصح أخيه ليعتدل . والذى خلق الخلق وهو أعلم بهم ، ويعلم كيف تستوعب الأغيار الخلق ، وكيف أن كل إنسان له خواطره وله ظنونه وله مواقف ضعف وله مواقف قوة . إنه ـ سبحانه ـ لم يطلب من الناس أن يوصوا بالخير فحسب ولكنه قال :

﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾

(من الآية ٣ سورة العصر)

لماذا إذن التواصى بالحق ؟ ؛ لأن سبل الحق شاقة ، ولأن أصحاب الحق يلاقون المتاعب من أصحاب الباطل ؛ لذلك لابد أن يؤازر أصحاب الحق بعضهم بعضاً فيقول الإنسان من أهل الحق لأخيه ما يساعده على التمسك بما هو أعز من الراحة والصحة والمال . ولا بد أن نجعل الحق واضحاً فى حياتنا وسلوكنا ، وأن يتذاكر أهل الحق بما حدث لغيرهم وكيف صبروا ، هكذا يكون التواصى بين المؤمنين .

وتلك هى ولاية المؤمنين بعضهم لبعض : (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض) .

إذن فقوله الحق : « إنما وليكم الله » هو ما يسمونه فى اللغة « أسلوب الحصر » ، أى لاولى لكم غير الله . وحين يُرَدّ الإنسان من الولاية المحدودة القدرة ويجعل العوض له فى غير محدود القدرة فذلك كسب كبير للعبد ، ولذلك يقول صلى الله عليه وسلم : « من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب الآخرة ، ومَن ستر على مسلم ستره الله فى الدنيا والآخرة ، والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه »(١) .

كيف تكون أنت أيها العبد فى عون أخيك ؟ يتحقق لك ذلك عن طريق أن تقدم لأخيك المؤمن المعونة والنصرة والمؤازرة والتواصى . وتقدم لأخيك من وقتك وطاقتك وقدرتك ومالك ما يعينه . وإياك أن تحسب المسألة بأنك كنت تستطيع أن تفعل كذا وكذا فى الوقت الذى أعطيته لأخيك المؤمن ، بل يجب أن تحسبها بأن الله هو الذى

---

(١) رواه الترمذى فى الحدود ، وأبو داود فى الأدب ، وابن ماجه فى المقدمة وأحمد ٢/٢٥٢ ، ٤١٤ .

أعطاك الوقت والمال والجهد وأنت لا تفعل شيئاً بقدرتك أنت ، وأن قدرتك المحدودة عندما تعطى بعضاً منها لأخيك فأنت تصل قوتك المحدودة بصاحب القوة غير المحدودة وهو الله . وبذلك يكون الله فى عونك وتكون أنت الأكثر كسباً . فمن يرد الله بجانبه فلا بد أن يكون مع الخلق دائماً بالمعونة ، وبهذا السلوك يرتقى المؤمن إلى أعلى درجات الذكاء .

« إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا » وسبحانه يريد أن يبين لنا مميزات أصحاب الإيمان ؛ لأننا حين نتعرف على شعب الإيمان وصفاته الجميلة إنما نميز بهذه الصفات المؤمنين من غيرهم . وإقامة الصلاة هى الصفة الغالبة فى وصف الذين يؤمنون بالله ؛ لأن الصلاة هى الصلة المتجددة بإعلان الولاء لله خمس مرات فى كل يوم . والنبى صلى الله عليه وسلم قال :

« بُنى الإسلام على خمس ؛ شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت »[١] .

وهذه الأركان الخمسة هى الدعائم والأسس التى تقام عليها عمارة الإسلام . وأى بيت لا يقوم بالأسس وحدها ، ولكن هناك أشياء أخرى كثيرة وعشرات الفضائل والمطلوبات غير الأسس ، وإذا ما راجع كل واحد منا علاقته بأسس الإسلام فلسوف يجد أنه يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله مرة واحدة فى العمر ، ومن بعد ذلك يقيم الصلاة . ثم يؤتى الزكاة ، لكن إن كان فقيراً فهو معفًى من أداء الزكاة . وحتى الذى يؤدى الزكاة فهو يؤديها فى وقت واحد فى السنة . ومن بعد ذلك يصوم رمضان . لكن المريض أو المسافر أو الذى له عذر فهو يفطر ويقضى الصوم ؛ ويفدى عن الصيام المريض الذى لا يرجى شفاؤه والعجوز الذى تصيبه بالصوم مشقة شديدة . ومن يحج البيت يفعل ذلك مرة واحدة فى العمر إن استطاع إلى ذلك سبيلا .

هذه هى أركان الإسلام ، وفيها إعفاءات كثيرة للمسلم . اللهم إلا الصلاة فهى أساس يتكرر ولذلك يقول صلى الله عليه وسلم : « رأس الأمر كله الإسلام وعموده الصلاة »[٢] .

---

(١) رواه البخارى ومسلم فى الإيمان وأحمد ٢/٢٦ ، ٩٣ والحميدى والطبرانى .

(٢) رواه الترمذى فى الإيمان ورواه أحمد .

ويقول صلى الله عليه وسلم : « بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة »(١) .

ويقول صلى الله عليه وسلم : « إن العهد الذى بيننا وبينهم الصلاة ، فمن تركها فقد كفر »(٢) .

لذلك لا تسقط أبداً ، فنحن نصلى ونحن قيام ، ونصلى ونحن قعود ، ونصلى ونحن على جنوبنا . ونصلى ونحن غير قادرين على أية حركة ، نصلى بالإيماء . ومن لا يقدر على هز رأسه بحركات الصلاة فى أثناء المرض الشديد فهو يصلى بعينيه . ومن أصابه ـ والعياذ بالله ـ شلل جعله لا يقدر على تحريك جفنيه بحركات الصلاة فهو يصلى بالخواطر وبالوعى أى يجرى أركان الصلاة على قلبه.أما من ذهب عنه الوعى فقد سقطت عنه الصلاة .

ولذلك يقول الحق : « والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة » ويقول بعد ذلك : « ويؤتون الزكاة » ؛ لأن إيتاء الزكاة معناه تقوية أثر حركتك لغيرك وتعدية أثر هذه الحركة للضعيف عنك ، وحينما تزكى إنما تعطى مالاً ، والمال هو ناتج من أثر حركتك فى الوجود ، وعطاؤك من مالك بالزكاة يدل أيضاً على الإيمان . ثم يذيل الحق الآية بقوله : « وهم راكعون » . وهل الركوع هنا بمعنى الركوع فى الصلاة ؟ أو بمعنى الخضوع لكل تكاليف منهج الله ؟ أو أنها نزلت هنا فى مناسبة خاصة لحالة خاصة ؟

هناك رواية تقول : إن عبدالله بن سلام جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : إن قوماً من قريظة والنضير قد هجرونا وفارقونا وأقسموا ألا يجالسونا ولا نستطيع مجالسة أصحابك لبعد المنازل . وشكا عبدالله مما يلقاه من اليهود ، فنزلت تلك الآية :

﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ

(١) رواه مسلم وأبو داود والترمذى وابن ماجه عن جابر .

(٢) رواه أحمد وأبو داود عن حذيفة .

وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾

(سورة المائدة)

فقال بن سلام : رضينا بالله وبرسوله وبالمؤمنين أولياء . وتزيد الرواية فى موقع آخر : وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المسجد والناس بين قائم وراكع ودخل إنسان إلى المسجد وسأل الصدقة فلم يعطه أحد فقال الرجل : أشهد الله أنى جئت إلى مسجد رسول الله وطلبت الصدقة وما أعطانى أحد شيئاً ، وسمعه على ابن أبى طالب ـ كرم الله وجهه وكان يصلى ـ فمد على يده بحيث يراها الرجل وأشار له أن يأخذ من يده الخاتم كصدقة ، فأخذه الرجل . وسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم السائل فقال : هل أعطاك أحد شيئاً . فأجاب الرجل نعم خاتما ، وأشار إلى على بن أبى طالب . وهنا نزلت الآية بتمامها :

﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾

(سورة المائدة)

وأياً كانت المناسبة التى نزلت فيها الآية ، فالركوع معناه الخضوع ، والخضوع يكون لكل تكاليف منهج الله . فإذا كنا نقول : فلان ركع لفلان فهذا معناه أن فلاناً قد خضع لفلان .

ومن بعد ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾

ونلحظ أن الحق أوضح فى الآية السابقة : إن الله هو الولى ، وهنا تكون أنت أيها العبد المؤمن من الذين يتولاهم الله ، تماماً مثل قوله : (يحبهم ويحبونه) .

وحين يكون الله فى معونتك فهو يعطيك من قدرته غير المحدودة فكيف تتولى أنت الله ؟ ويكون القول الحاسم فى هذا الأمر هو قول الحق :

﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ﴾

(من الآية ٧ سورة محمد)

والحق فى الآية التى نحن بصددها جاء بالمقابل لما جاء فى الآية السابقة عليها فهو القائل من قبل : (إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا) .

وفى هذه الآية يأتى بالمقابل فيقول سبحانه :

﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾

(سورة المائدة)

هذه المقابلة توضح لنا كيف ينصر الله العبد ، وكيف ينتصر العبد لله . ولم يقل سبحانه فى وصف من يتولى الله ورسوله والذين آمنوا : إنهم الغالبون فقط ، ولكنه أورد هذه الغلبة فى معنى عام فقال : « فإن حزب الله هم الغالبون » .

وكلمة « حزب » معناها : جماعة التف بعضهم مع بعض على منهج يرون فيه الخير. ولا يمكن أن يجتمع قوم بقوة كل فرد فيهم بفكر كل فرد منهم إلا إذا كان هذا الأمر هو خيراً اجتمعوا عليه ، إذن فحزب الله فى أى وضع وفى أى تكوين ولأيَّةِ غايةٍ هو الحزب الغالب . وعلى المستوى الفردى نجد فى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا حزَبه أمر قام إلى الصلاة »[1] .

فما معنى حَزَبه هنا ؟ معناه أمر أتعبه وأرهقه وفكر فيه كثيراً . وبذلك يعلمنا رسول الله ألا نقصر رؤيتنا على رأينا وحده ، ولكن لنلجأ إلى الله . فنهزم الأمر الذى يحزبنا ولا نقدر عليه بأن نقيم مع الله حزباً بالصلاة .

إننا عندما نأخذ من سنة رسول الله المثل والقدوة نعرف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن يحزبُه أمر يتعلق بدنياه وإنما أمر يتعلق بمنهج الله وبالدين ؛ لذلك

(١) رواه أحمد وأبو داود عن حذيفة .

يذهب رسول الله إلى من يعطيه ويعطى أهل الإيمان كل الطاقة . إنّه يذهب إلى الصلاة . ويعلن أن أسبابه قد انتهت ولم يعد يقوى على تحمل هذا الأمر الذى حَزَبَهُ ، ولأن الله لا يغلبه شيء ؛ لذلك فسبحانه يرفع الهمَّ عن رسوله صلى الله عليه وسلم ، ويغلب كل أمر صعب . وإن حَزَبَنا هذا الأمر فى نفوسنا فسنجد العجب .

إذن فحين تعز الأسباب على المؤمن فى أمر ما ويكون قد أعطى كل جهده ومازال هذا الأمر يحزب المؤمن ويشتد عليه ويرهقه فعلى المؤمن أن يقوم إلى الصلاة ، وييسر الحق هذا الأمر للمؤمن بالخير . والمؤمن عندما يحزبه أمر ما إنما يذهب بالصلاة إلى المسبب وهو الله ، لكن على المسلم ألا يذهب إلى الله إلا بعد أن يستنفد كل الأسباب ، فالأسباب إنما هى يد الله الممدودة ، ولا يمكن للمؤمن أن يرفض يد الله ويطلب ذات الله ، فإن انتهى الأخذ بالأسباب فليذهب إلى المسبب :

﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾

(سورة النمل)

وسبحانه الذى يجيب المضطر وهو الذى يكشف السوء وهو الذى جعل البشر خلفاء فى الأرض ، وسبحانه لا شريك له فى ملكه ، وهو القائل :

﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾

(سورة النمل)

وإذا قال قائل : ولكنى أدعو الله ولا يستجيب لى . ونقول : أنت لم تدع دعوة المضطر ؛ لأنك لم تستنفد الأسباب . وعليك أن تستنفد الأسباب كلها . فإن استنفدت الأسباب فالحق يجيبك ما دمت مضطراً .

إذن فحزب الله عندما يَغْلِب إنما يعطينا قضية مكونة من « إن المؤكِّدة واسمها وخبرها » وهذه قضية قرآنية وهى تختلف عن القضية الكونية التى تصف واقع الحياة . ويقول الحق :

﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾

(سورة المائدة)

وسبحانه يعلم ما يكون فى كونه ، ولن تختلف قضية القرآن عن قضية واقع الكون . وساعة تجد قوماً تجمعوا وفى صورتهم الرسمية الشكلية أنهم رجال الله ، ولا يَغْلِبُون فعلينا أن نعرف أنهم خدعوا أنفسهم وخدعوا الناس بأنهم حزب الله وواقع الحال أنهم ليسوا كذلك ؛ لأنه سبحانه قال :

﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾

(سورة الصافات)

وهذه قضية قرآنية . ونأخذ الأمر دائماً بسؤال : هل غلبت أم لم تغلب ؟ فإن كنت قد غلبت فإن جنديتك لله صادقة . وإن لم تكن فأنت تخدع نفسك بأنها جنديّة لله وهى ليست كذلك . ولنا المثل الواضح من حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما كان بين صحابته فى موقعة أُحُد وأمر الرُّماة أن يقفوا موقفاً خاصاً ، فلما وجد الرّمَاة استهلال نصر المؤمنين على الكافرين ، وأن الذين يحاربون أسفلهم يأخذون الغنائم ، ذهبوا هم أيضاً إلى الغنائم وخالفوا أمر الرسول حينما قال لهم : « إذا رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم ، وإن رأيتمونا هَزَمْنا القوم فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم »[1] .

فلما خالفوا أمر رسول الله أكانوا جُنوداً لله بحق ؟ لا ، بل اختلت جُنديتهم لله . ولم يمنع وجود رسول الله فيهم سُنَّة الله الإيمانية فى كونه ألا تقع ، ولو ظلوا مُنتصرين على الرغم من أنهم خالفوا الرسول لهان أمر رسول الله فى نظرهم ؛ لذلك أراد الحق أن يُوقِع بهم ألم الهزيمة المؤقتة من أجل أن يتأدبوا ، وحتى يَعضُّوا على أمر سيدهم وسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالنّواجذ . وقد أورد الحق ذلك الأمر ورسول الله فيهم من أجل مصلحة الإسلام ، فلو نصرهم على الرغم من مخالفتهم لرسول الله لجرأهم ذلك على أن يخالفوا .

---

(١) رواه ابن إسحق فى السيرة .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾

والهُزُوُ هو السُّخرية والتَّنكيت . وهُزْء أهل الكتاب من أهلِ الحق لون من الانفعال العكسى . فساعة يرى بعض من أهل الباطل واحداً ملتزماً يُصلّى ولا يُحملق فى النساء قد يصفونه بصفات غير لائقة ؛ لأنهم لا يستقبلون التزامه إلا بلونٍ من السخرية ، وحتى لا يفهم أنه خيرٌ منهم ، وقد يضلونه فيتبعهم .

ولنفرض أن ثلاثة من الشباب جمعت بينهم الصداقة ثم انحرف منهم اثنان والْتزم واحد منهم . وكان لأحد المنحرفين أُخت فيطلب زميله المنحرف يد هذه الأخت ، ويأتى له الصاحب الذى لم ينحرف ليطلب الأخت نفسها ، هنا نجد الأخ لا يوافق على زواج أخته بالمنحرف ، بل يوافق على زواجها من الذى لم ينحرف ؛ لأنه لن يخدع نفسه . وعندما يعاتبه المنحرف فهو يرد عليه : وهل أستأمنك على أختى ؟ أنا أعرفك حق المعرفة .

وهكذا نرى أن القيم هى القيم . وعندما يكون هناك إنسان على حق ويلتقى بأناس على باطل نجدهم لا يتركونه وشأنه ، ولأنهم لن يستطيعوا أن يكونوا مثله فلا أقل من أن يهزأوا منه حتى يحتفظوا لأنفسهم بفسادهم . وعندما ننظر إلى العادات الضّارة التى تنتشر ، مثل شمّ الهيروين أو تدخين المخدرات نجد أن الذى وقع فى مصيدة هذه المصائب يريد أن يجر غيره إلى مثل هذا المستنقع . ونجد فى القرآن ما يقوله لنا خالق الطباع والعليم بها :

إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

(سورة المطففين)

مثل قول أهل الباطل للمؤمن : احملنا إلى الجنة على جناحك . أو : أتريد أن تكون وليّاً .

﴿ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ ﴾

(سورة المطففين)

ويرجع الواحد منهم إلى أهله فيحكى بسرور : لقد قابلنا إنساناً غارقاً فى الإيمان وسخرنا منه :

﴿ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُواْ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾

(سورة المطففين)

بل قد نجد أن أهل الإضلال يتهمون المؤمن بأنه على ضلال ، فماذا يكون العقاب يوم الحشر ؟

﴿ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

(سورة المطففين)

وكأن الحق يسأل المؤمنين : ألم آخذ لكم حقكم ؟ إذن فالذين يتخذون الدين هُزُواً ولعباً . وادعوا الإيمان نفاقاً . إياكم أن تأمنوا لهم .

ولقد حذرنا الحق بداية :

﴿ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾

(من الآية ٥١ سورة المائدة)

وهنا أمر بعدم اتخاذ الذين يتخذون الدين مادة للهزء أولياء ، وعلى المؤمنين اليقظة

والحذر ؛ لأن الحق يقول : « واتقوا الله إن كنتم مؤمنين » فإن كنتم مؤمنين حقاً فعليكم الأخذ بيقظة الإيمان ، عليكم ألا توالوا اليهود والنصارى وكذلك من يتمسح فى الإيمان نفاقاً ويريد الانتفاع بمزايا الإسلام ليأخذ حقوقه الظاهرية وقلبه مع غير المؤمنين .وتقوى الله تبدأ من أن ينفذ المؤمن المنهج ، ويحاول أن يستبقى للمنهج مناعة اقتداره أمام خصومه بألا يُدخل المؤمنُ فى حماية المنهج من لا يؤمن من اليهود والنصارى والكافرين والمنافقين .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾

والنداء هو دعوة بجهر . ومقابل النداء المناجاة . وتثبت هذه الآية أن الأذان مشروع بالقرآن ، وفى ذلك رد على الذين يقولون : إن الأذان قد شرع بالسنة . أو أن القرآن بهذه الآية قد أقر تشريع الأذان .

«وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزواً ولعباً » ذلك أنهم كانوا يقولون عن الأذان : لقد صاحوا صياح الحمير . ووصفهم الحق بقوله : « ذلك بأنهم قوم لا يعقلون » والعقل ـ كما نعلم ـ هو الأداة التى تؤدى مهمة الاختيار ما بين البدائل ؛ أى أن يختار الصالح من الأمور فيدرس مزايا كل أمر ومضاره ويختار الأمر الرابح .

إن الهوى هو الذى يدفع العقل إلى أن يختار أمراً مخالفاً . فيجنح بالعقل إلى الضلال . وآفة الرأى الهوى . ولا يميل الإنسان عن جادة الصواب إلا إذا أراد أن يخدم هواه . ولذلك لا بد أن يكبح المؤمن جماح هواه بعقله ، والعقل مأخوذ من عقال البعير ، فصاحب الجمل يقيد ساقه بقطعة من الحبل حتى لا يجمح . ويحتاج الإنسان إلى العقل ليكبح جماح الهوى ، ولينقذ الإنسان من الضلال لا أن يبرر

الهوى . والذين يريدون العقل تحرراً من الفكر نقول لهم : أنتم لا تفهمون معنى كلمة العقل . فقد جاءت كلمة العقل لتمنع الهوى لا ليجترىء الإنسان بهواه على رأيه وسلوكه المستقيم ، والعقل هو الذى يمنع الفكر من أن يكون مبرراً للهوى .

فلو كانوا يعقلون لقلنا لهم : إن الأعمال التى تنادون بها عمر نفعها مظنون وقد تنفعكم فى دنياكم ، وعمر الدنيا لا يستطيع أحد أن يحدده بالنسبة لنفسه ، فدنيا الفرد قد لا تزيد على مائة سنة . ودنيا الإنسان هو عمره فيها . وقد ستر الله سبب الموت وكيفيته عن الخلق حتى يعرف الإنسان أن عمره مظنون وقد ينتهى قبل أن تطرف عينه . ولو كانوا يعقلون لما باعوا آخرتهم بدنياهم . ولو عقلوا لأداروا مسألة البدائل فى رءوسهم ولعلموا أنهم بموقفهم هذا من قضية الإيمان والإسلام إنما يقفون موقفاً خاسراً ليس فى مصلحتهم .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾

و« قُلْ » هى خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم . وحين يخاطب الحق الرسول ، فالخطاب أيضاً لأمته صلى الله عليه وسلم ، فنقول نحن أيضاً :

﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴾

(من الآية ٥٩ سورة المائدة)

و« نَقَم يَنْقِم » أى كره منى أن أفعل هذا ، فلماذا تكرهون إيماننا يا أهل الكتاب ؟ هل الإيمان مما يكره ؟ وجاء الحق هنا بسؤال لا يقدرون على الإجابة عنه ، فنحن آمنا بالله وبرسله وما أنزله علينا وما أنزل من قبل ، فما الذى يُكره فى هذا ؟ وأبلغ سيدنا

محمد صلى الله عليه وسلم اليهود أننا نؤمن بالله وبالرسل ومنهم سيدنا عيسى ابن مريم عليه السلام ، فغضبوا منه كثيراً . فكيف يكره أهل الكتاب إيمان المسلمين بالله ؟

مثال ذلك عندما يدعوك إنسان إلى تصرف غير مستقيم أو إلى الذهاب إلى مكان مشبوه فترفض ذلك فيكرهك هذا الإنسان ، فتقول له : أتكره فى سلوكى أن أكون مستقيماً ؟ ونعلم أن الإنسان الأمين هو ثروة لمن يعرفه والذى يستحق النقمة والكراهية هو الفعل الضار ، أما الإيمان بالله فهو أمر محبوب لأنه يُعلم الإنسان الأدب مع كل خلق الله ، ويعلم الإنسان الحفاظ على أعراض الناس ، ويعلم الإنسان ألاّ يعتدى على أموال ودماء الناس ولا يغتاب الناس ، ولا يرتشى ، وأن يخلص فى العمل وألا يكذب فى ميعاد ، فأى شىء فى هذا يستحق الكراهية ؟

إذن ، فمن يكره إنساناً لأى سبب من هذا فهو كره بلا منطق ، وكان من الواجب أن يكون سبب الكره سبباً للمحبة . وقد يأتى من يقول لك : ليس فى فلان من عيوب إلا كذا .

وقد يورد سبباً معقولاً . ولكن لا يقول أحد أبداً : لا عيب فى فلان إلا أنه شهم ؛ لأن الشهامة لا يمكن أن تكون عيباً ، كأن القائل قد أعمل ذهنه حتى يكتشف عيباً ، لم يجد إلا صفة رائعة ، وقال عنها : إن كنت تعتبر هذه الصفة عيباً فهذا هو عيبه . ويسمون ذلك من أساليب الأداء الأدبى عند العرب وهو تأكيد المدح بما يشبه الذم ، فيقول قائل : لا عيب فى فلان إلا كذا . وساعة يسمع السامع هذا يظن أن العيب الذى سيورده هو صفة قبيحة فيفاجأ بأنها خصلة جميلة . وبذلك يؤكد القائل المدح بما يشبه الذم : « قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل وأن أكثركم فاسقون » .

أنتم تقولون : إنكم أهل كتاب وعندكم التوراة ، وكان يجب أن تعلموا كيف يشذب الإيمان النفوس ويدفع عنها الشر ؛ لأن لكم سابقة فى الإيمان ، فقد آمنتم بالله وبالرسل السابقين على موسى وآمنتم بموسى ، والمسلمون آمنوا بالله وآمنوا بما أنزل إليهم وآمنوا بالرسل ومنهم موسى وعيسى ومحمد صلى الله عليهم وسلم فكيف يُكره ذلك ؟

وإن كان هذا مما يُكره فعلينا كمؤمنين أن نسألكم : لماذا تنكرون علينا ذلك ؟ لاشك أنكم تنكرون علينا إيماننا بالله لأنها قضية غير واضحة فى أذهانكم . ولو كانت واضحة فى أذهانكم ما كرهتم إيماننا . إذن فمسألة الإيمان بالله غير مستقرة فى وجدانكم كأهل كتاب بدليل أنكم تكرهون من آمن بالله ، ودليل ذلك أنكم أنزلتم الله منزلة لا تليق بكماله ، فجسمتموه وقلتم :

﴿ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾

(من الآية ٥٥ سورة البقرة)

وقلتم :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ﴾

(من الآية ١٨١ سورة آل عمران)

وقلتم :

﴿ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴾

(من الآية ٦٤ سورة المائدة)

إذن فأنتم تكرهون لنا أن نؤمن بالله إيماناً يليق بكمال الله ؛ لأنكم لم تؤمنوا بالله صحيح الإيمان ، ولو طابق إيماننا إيمانكم ما كرهتمونا . وكذلك لم تؤمنوا بالكتب بدليل أنكم حرفتموها . ولم تؤمنوا بالرسل لأنكم وقفتم من عيسى عليه السلام هذه المواقف . إذن فأنتم تنقمون منا وتكرهون أموراً لا تُكره عند الطبع السليم ، وهذا دليل على أن طبعكم هو المختل . وإذا كنتم تكرهون هذا الإيمان فماذا تملكون لمن تكرهون ؟ لا قوة لكم لتفعلوا لنا أى شىء . ولكن حين يكرهكم الله فماذا يفعل بكم ؟ إنكم حين تكرهوننا لا تملكون قدرة لعقابنا ، لكن الذى يكرهكم هو الله وعنده القدرة المقتدرة لينتقم لنا منكم .

إذن فكراهيتكم لنا لا قيمة لها . وإذا كنا نجاريكم ، والمجاراة لون من جدال الخصوم فماذا يعنيكم من كوننا مؤمنين ؟

مثال ذلك أن يتهمك إنسان بأنك بخيل فتقول له : هب أننى بخيل فعلاً فماذا يعنيك من هذا ؟ وهذا ما نسميه مجاراة الخصوم ؛ لذلك نقول لأهل الكتاب : هب أن لكراهيتكم لنا رصيداً وأنكم تستطيعون إيذاءنا ، فلكم شر من هذا وهو عقاب

الله ، وسنرى ماذا سيحدث لكم عندما يكرهكم الله . وهو قادر على كل شيء . وعلى فرض أن إيذاءكم لنا هو شر ، فالأكثر فاعلية هو عقاب الحق لكم ؛ لأنه عندما يكرهكم يقدر أن يعاقبكم بما شاء . إذن فالصفقة ـ صفقة كراهيتكم لنا ـ خاسرة من ناحيتكم .

ولذلك قال الحق :

﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ ﴾

فإن سلمنا جدلاً أنكم يا أهل الكتاب تعتبرون كيدكم لنا سيصيبنا بشر . على الرغم مِن أنكم لا تملكون أن تجازونا بشيء . وها هوذا الحق يخبركم على لسان رسوله بالأكثر شراً من هذا ، وهى العقوبة التى يصنعها الله لكم وهو قادر على إنزالها بكم وهى الأكثر ضرراً . وهذا لون ـ كما قلنا ـ من مجاراة الخصم . ويعلمنا الله ذلك على لسان رسوله فيقول لخصومه :

﴿ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة سبأ)

والرسول على الهدى بالقطع وخصومه على ضلال بالقطع ، ولكن رسول الله يسلم الأمر طالباً من خصومه أن يراجعوا أنفسهم ليناقشوا القيم التى يدعو إليها الإسلام . وسيجدون أن قيم الإسلام هى الهدى وأنهم على ضلال . ونعلم أن الهدى والضلال لا يجتمعان ، فنحن كمسلمين على هدى ، وأنتم على ضلال . ووسيلة التمييز أن يحكم الإنسان عقله فى المسألة ، وبذلك يرى مَن الذى على هدى ومَن الذى على ضلال . فأنت لا تناقش الخصم فى أصل الدعوى ، ولكن سلم

للخصم جدلاً . والتمييز النهائى هو الفيصل . وسيجد المميز حيثية ضلال الخصم واضحة وضوح حيثية هدى المسلمين .

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾

(سورة المائدة)

فإن كنتم تعيبون علينا أو تكرهوننا أو تأخذون إيماننا سُبَّة فهذا أمر لا يُكره الإنسانُ من أجله ؛ لأنكم تدعون أنكم مؤمنون بالله . وكذلك لا يمكن أن يُسب الإنسان من أجل الإيمان بما أنزله الله فى كتاب ؛ لأنكم أيضاً تقولون إنكم مؤمنون بالتوراة . وتقولون إنكم مؤمنون بالأنبياء السابقين على موسى . والخلاف أن عيسى عليه السلام جاء بعد نبيكم فكفرتم به ، لكننا آمنا به فنحن منطقيون مع أنفسنا ومع ربنا .

والحق يبلغنا : « وأن أكثركم فاسقون » . ونعرف أن صيانة الاحتمال تقتضى ألا يحكم الحق عليهم جميعاً بأنهم فاسقون ؛ لأن فيهم بعضاً من الناس تراودهم نفوسهم بالإيمان بالله وبالإسلام ؛ لذلك لم يكن الحق أبداً ليعمم الحكم على كل أهل الكتاب بالفسق ؛ ليعطى الفرصة لمن يفكر أن يعلن إيمانه .

ومن بعد ذلك يأتى الخبر على لسان الرسول بعقابهم : « قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله » إذن فهناك أمر أكثر ضرراً لكم لأنه ما كان يصح أن تكرهوا إيماننا ، والأكثر ضرراً من هذا هو لعنة الله « من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير » ويأتى سبحانه بالأوصاف التى فيهم ، من لعنة الله لهم وغضبه عليهم وجَعْلِه بعضًا منهم قردة وخنازير . وكيف يأتى الله بمثل هذه الأوصاف كمثوبة ؟ إن هذا لون من فتح باب الرجاء والأمل ثم يصدمهم من بعد ذلك تماماً مثل قوله تعالى :

﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾

(من الآية ٢١ سورة آل عمران)

والعذاب الأليم يُنذر به ، وكذلك اللعنة لا يمكن أن تكون ثواباً ، لكن الأسلوب القرآنى يعطى النفس المخالِفة لوناً من الانبساط ، ثم يعطيها اللون المناقض له من الانقباض ، ليكون ذلك أبلغ فى الانقباض وأكثر إيلامًا .

ومثال ذلك ـ كما قلنا من قبل ـ المسجون الذى يطلب كوب ماء فيأتى له الحارس بكوب الماء ويقربه من فمه ثم يسكب كوب الماء على الأرض ، هذه العملية زرعت فى نفس السجين الأمل فى الارتواء أولا ، ثم يكون سكب الماء على الأرض سبباً فى التعذيب والإمعان فيه ، لكن لو رفض الحارس أولاً تقديم الماء لعاش السجين فى اليأس وهو إحدى الراحتين .

ونرى ذلك أيضا فيمن ينتظر حكماً قد يكون إعداماً وقد يكون براءة ، وتكون فترة الانتظار هى المليئة بالقلق . وعندما يضعون المنتظر فى الميزان يجدون وزنه فى انخفاض . وبعد الحكم بإعدامه يبدأ وزنه فى الزيادة ؛ لأن اليأس إحدى الراحتين . إذن فانبساط النفس ومجىء القبض بعدها هو الأمر الأنكى والأشد قسوة على النفس ، ولذلك يقول الحق :

﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾

(من الآية ٢١ سورة آل عمران)

هذه البشارة تأتى بالانبساط للنفس ويتلوها الانقباض ، ومثل قول الحق :

﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الكهف)

أى أنه قد وقع عليهم لون من العذاب يستدعى الإغاثة ، ومن بعد ذلك يغاثوا لا بما ينقذهم ولكن بما يزيد عذابهم .

وساعة يسمعون « يغاثوا » تنفرج أساريرهم وتسكن وتطمئن نفوسهم ، وبعد ذلك يحدث الانقباض بسماعهم : « بماء كالمهل يشوى الوجوه » ، إذن فكلمة « مثوبة » تأتى لهم بشىء من الانبساط يتلوه العذاب .

هذا وإنّ أفعل التفضيل يأتى على صورة « أفعل » ، « أكرم » ، « أجود » ، « أشجع » فهذا لون من زيادة الصفة فى طرف عنها فى الطرف الآخر . اللهم إلا كلمات قليلة جاءت فى اللغة على غير صيغة التفضيل منها كلمة « خير » وكلمة « شر » فلم تأت منهما كلمة « أَخْيَر » بمعنى أكثر خيراً . ولا كلمة أشر بمعنى أكثر شرا ، ومرة تأتى كلمة « خير » ويقابلها الخير الأقل . والذى يميز المعنى هو وجود كلمة

« من » كقولنا : « فلان خير من فلان » . أما إن قيل : فلان خير » فمقابله هو « شر » لأنه لا توجد كلمة « أخير » .

وهكذا نجد كلمة « خير » تأتى للوصف مرة وتأتى للمبالغة فى الوصف مرة أخرى ، والفاصل للتمييز بين الاثنين هو وجود « مِن » . فيقال : فلان خير من فلان ومثلها فى ذلك كلمة شر.وقد ورد استعمال كلمة خير للتفضيل ولغير التفضيل فى قوله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٧٠ ﴾

(سورة الأنفال)

والحديث النبوى يقول : « المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفى كلٍّ خير »[1] .

إن فى كل مؤمن خيراً . ولكن فى المؤمن القوى خير أكثر مما فى المؤمن الضعيف . والمثال على أن كلمة « خير » . تقابل كلمة « شر » ، هو قول الحق :

﴿ وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ هُوَ خَيۡرٗا لَّهُمۖ بَلۡ هُوَ شَرّٞ لَّهُمۡۖ ﴾

(من الآية ١٨٠ سورة آل عمران)

و« خير » هنا ليست أفعل التفضيل ولكنها للوصف العادى ؛ وإذا جاءت « مِن » تعرف أنها للتفضيل ، وعدم الإتيان بلفظة « مِن » يدلنا على أنها للوصف العادى ومقابله كلمة « شر » . وهنا يقول الحق : « قل هل أنبئكم بشر من ذلك » . وجاءت كلمة « بشر » هنا للتفضيل ولا يعنى ذلك أن المؤمنين فى « شر » ولكنها مجاراة للخصم . واعتبار أن ما يقوله الخصم مقبول جدلاً . وهناك الأكثر شراً فى الواقع وعند الله وهو المراد من قوله تعالى :

﴿ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيۡهِ وَجَعَلَ مِنۡهُمُ ٱلۡقِرَدَةَ وَٱلۡخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَۚ أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ (من الآية ٦٠ سورة المائدة)

---

(١) رواه أحمد ٢ / ٣٧٠ ومسلم فى القدر والبيهقى فى السنن الكبرى ، وابن ماجه فى الزهد ومالك فى الموطا (التمهيد لابن عبدالبر ٢٨٧/٩) .

لماذا إذن يكون مصير هؤلاء إلى شر ؟ لأنهم كرهوا سلوك المؤمنين ولم يستطيعوا أن ينفسوا عن الغِل الذى فى صدورهم بعقوبة المؤمنين . ولكن الله يكرههم ويملك لهم العقوبة ويكون مصيرهم هو المصير الذى يوضحه الحق فى قوله : « لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير » واللعنة هى الطرد من الرحمة . والطرد من الرحمة يعنى حرمانهم من الخير .

ومثال ذلك ـ ولله المثل الأعلى ـ عندما يكون هناك خادم فى خدمة إنسان ما وهو يسكن ويأكل ويلبس على حساب السيد ، فإذا لم يؤد هذا الخادم حقوق الخدمة على وجهها المطلوب ، لا يرضى عنه سيده ، ويطرده من الخدمة ، وحين يطرد الإنسان خادمه فهو يُعْلن للناس أن هذا الخادم لم يؤد حق الخدمة ، فلا يستخدمه أحد بعد ذلك . وهذا هو الغضب . وبهذا نعرف الفرق بين أن يُطرد من الرحمة فقط ولا يعقب ذلك شيء ، أو أن يستمر الغضب بالإعلان عن السبب فى الإخراج من الرحمة ، فهذا معناه أن الله بعد أن طردهم يلاحقهم بغضبه وسخطه وأن لعنه لهم لا ينفك عنهم .

والله سبحانه وتعالى يعلن لأهل الكتاب : إن طردى لكم من رحمتى وتواصل غضبى عليكم هو شر عظيم . وغضب الله ـ كما نعلم ـ يترتب عليه أشياء فى كل حركة من حركات حياتهم ، إنه يمنع الهُدى أن ينفذ إلى قلوبهم ، بأن يختم على قلوبهم فلا يدخلها الإيمان ، ولا يخرج منها الكفر . أو أن يجعل منهم القردة والخنازير . وإن تساءلنا : كيف يكون نسلهم ؟ نعرف أن الذى يُمسخ لا يَتناسل ، إنه يُمسخ إلى أن يُرى مسخاً ثم يؤخذ إلى الموت .

وهل هم الذين اعتدوا فى السبت أو الذين عبدوا العجل أو الذين كفروا بعد نزول مائدة عيسى ؟ إنهم كل هؤلاء . أو أنهم قردة ، أى فى خصال القردة ، كالطيش وخفة الحركة وانكشاف العورة ، أو طبائعهم وخصالهم كالخنازير ، فهؤلاء لهم خبث ونتن وزخم كزخم الخنزير . وأهم ميزة فى الخنزير أنه لا يغار على أنثاه . وهذه موجودة فيهم . وتفشت فيهم عادة تشغيل بناتهم فى الدعارة وغير ذلك من أعمال الباطل .

وهكذا نفهم قوله الحق : « وجعل منهم القردة والخنازير » إما على أساس أنه المسخ الحقيقى . والمسخ الحقيقى لا يظل متماثلاً ممسوكاً وإنما يكون المسخ لزمن محدود يراه الناس ممسوخاً ثم يموت وينتهى ، وإما أن نفهمها على أن سلوكهم كسلوك القردة والخنازير .

ويتابع الحق : « وعبد الطاغوت » والعبادة إنما هى طاعة العابد للمعبود فيما أمر به وفيما نهى عنه . والطواغيت هم الذين يزينون لهم الشر والنفاق وأكل السحت والإثم . ويكون مصيرهم هو قوله الحق : « أولئك شر مكاناً وأضل عن سواء السبيل » وهذا هو الواقع الذى يعيشون فيه وهو شر كله ، وهم لا يفكرون فى السير فى الطريق السليم .

وعندما نقرأ قول الحق كاملاً فى هذه الآية :

﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ ﴾

(سورة المائدة)

نعرف أنهم فى حالة غفلة عن مسار الهدى الموصل للحق ؛ لأن « سواء السبيل » هو الأمر المستوى الموصل للغاية . وكانت طرق العرب إما فيها رمال وإما بين الجبال ، وكانوا يختارون السير فى وسط الطريق حتى لا ينالهم أذى من جرف هاوٍ من الرمال فيقع بهم أو أن تقع عليهم صخرة من جبل .

ولذلك قال الحق :

﴿ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ ﴾

(سورة الصافات)

أى أنه فى وسط الجحيم . ويقول الحق بعد ذلك عن الذين غضب عليهم :

﴿ وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾ ﴾

وهؤلاء هم الذين اتخذوا الدين هزواً ولعباً وسخرية . وهم ساعة يدخلون على المؤمنين يدخلون ومعهم الكفر . وعندما جلسوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم خرجوا أيضاً بالكفر . أى أنّ الكفر قد لازمهم داخلين وخارجين . وكأن جلوسهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يزدهم أى شىء . وكان من الممكن أن يدخل إنسان على مجلسه صلى الله عليه وسلم ، وهو كافر ، وبعد ذلك تمسّه عناية الهداية فيخرج مؤمناً .

ومثال ذلك : فضالة بن عمير الليثى الذى جاء ليقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عام الفتح . وعندما مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بفضالة قال له : ما كنت تحدث به نفسك ؟ فقال : لا شىء ، كنت أذكر الله عز وجل . فضحك النبى صلى الله عليه وسلم وقال : أستغفر الله لك . ووضع يده عليه السلام على صدر فضالة . فكان فضالة يقول : والله ما رفع يده عن صدرى حتى ما أجد على ظهر الأرض أحب إلى منه (١) .

لقد مسته العناية ، فقد دخل ـ أولاً ـ بكفره وخرج ـ ثانياً ـ بعميق الإيمان . لكن هؤلاء دخلوا بالكفر وخرجوا بالكفر ، كأن الدخول كان نفاقاً ، بدليل قوله الحق : « والله أعلم بما كانوا يكتمون » وهذا القول دليل نفاقهم ، فقد أعلنوا الإيمان لكنهم دخلوا بالكفر وخرجوا بالكفر . وكانوا يكتمون أن الدخول إلى رسول الله هو محض نفاق . وهذه خاصية لمن قالوا آمنا ، ولكن كان دخولهم إلى الإسلام نفاقاً ؛ لأن كفرهم أمر مستقر فى قلوبهم لا يتزحزح ، وكان يكفى فى الأسلوب أن يقول الحق :

(١) رواه ابن عبدالبر فى الدرر وابن حجر فى الإصابة .

وقد دخلوا بالكفر وخرجوا به ، ولكنه قال : « وهم » وذلك تحديداً لهويتهم الكافرة ، فكأن عملية الدخول بالكفر والخروج بالكفر هى عملية مسبقة ؛ لذلك يكشفهم الحق : « والله أعلم بما كانوا يكتمون » .

وجاء سبحانه بأفعل التفضيل « أعلم » فكأن رسول الله صلى الله عليه وسلم من إشراقات الله عليه وتنويره له كان يعلم أيضاً أنهم منافقون . ولكن علم رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يصل إلى علم الحق سبحانه وتعالى فعلم الله ذاتى وعلم رسوله فيض منه ـ سبحانه ـ .

إذن فقوله الحق : « والله أعلم » لم يمنع أن هناك أناساً قد علموا أنهم منافقون . وقد استقر فى ذهن النبى أنهم منافقون وأن الله أعلم بما كانوا يكتمون . والكتم هو حبس الإحساس النفسى أن يخرج وأن يظهر واضحاً ، ومحاولة الكتم عملية غير طبيعية لأنها قسرية . ويكاد كفرهم أن يظهر ويخرج فيحاولون أن يكتموه لأنهم يحرصون ألا ينكشفوا ، ولكن علم الله لا تخفى عليه خافية .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾

والمسارعة فى الإثم تعنى أنهم من بداية الأمر فى الإثم ، ويسارعون فيه ، أى أنهم كانوا على أولية الإثم ويجرون إلى آخرية الإثم ، فضلالهم واضح من البداية ، وكأن خلقهم الكفر يفضحهم ، برغم محاولتهم كتمان ذلك . ويجدون أنفسهم مسارعين إلى فعل الإثم ، أى أن عملهم ينزع إلى الكفر ، ويجعلهم الحق يغفلون عن الكتمان ، فتبدو منهم أشياء هى أكثر فضيحة من القول ، ذلك أن الإثم مراحل : مرحلة قول ، ومرحلة فعل . والفعل أكثر فضحاً من القول .

« وترى كثيراً منهم يسارعون فى الإثم والعدوان » ويقول الحق : « كثيراً منهم »

صيانة لاحتمال أن يوجد الإيمان فى قلب القليل منهم ، وذلك لتبرئة أى إنسان يفكر فى الإيمان . وهم أيضاً يسارعون فى العدوان ، فإذا كان الإثم هو الجُرم على أى لون كان ، فالعدوان هو إثم يأخذ به إنسان حقاً لغيره ، مثال ذلك الإنسان الذى يحقد ، إثمه لنفسه ولذلك يعانى من تضارب الملكات حتى يبدو وكأنه يأكل بعضه بعضاً .

إن الحقد ـ كما نعلم ـ جريمة نفسية لم تتعد الحد . ويقال عن الحقد : إنه الجريمة التى تسبقها عقوبتها ، عكس أى جريمة أخرى ، فأى جريمة تتأخر عقوبتها عنها إلا الحقد والحسد ، فتنال عقوبة الحقد صاحبها من قبل أن يحقد ؛ لأن الحاقد لا يحقد إلا لأن قلبه ومشاعره تتمزق عندما يرى المحقود عليه فى خير . ولذلك يقال فى الأثر : « حسبك من الحاسد أنه يغْتَمّ وقت سرورك » .

إذن فمن يرتكب إثماً فى نفسه لا يتعدى أثر إثمه إلى غيره ، أما الذى يرتكب العدوان فهو ينقل حق إنسان إلى غيره . وهو قسمان ؛ هناك من يعتدى ليعطى حقا لغير ذى حق . وهناك من يعتدى بالسكوت على الظالم ، فالظالم تتملكه شهوة الظلم ، لكن من يرى الظالم ويسكت ولا ينهاه فهذا عدوان أيضاً ؛ لأن الظالم عنده وفى نفسه ما يدفعه إلى أن يظلم ، أما الشاهد الذى يصمت فليس عنده فى نفسه ما يدفعه إلى أن يُسكته . فمن ـ إذن ـ الأكثر شرّاً ؟ إنه الذى يصمت عن تنبيه الظالم إلى أنه يظلم .

« وترى كثيراً منهم يسارعون فى الإثم والعدوان » نلحظ أن كلمة « سارع » مثلها مثل كلمة « نافس » تدل على أن هناك أناساً فى سباق ؛ كأنهم يتسابقون على الإثم والعدوان ، كأن الإثم والعدوان غاية منصوبة فى أذهانهم ، ومتفقة مع قلوبهم .

« وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يعملون » والسحت هو كل مال مصدره حرام ، سواء أكان رشوة أَمْ ربا أم سرقة أم اختلاساً أم خطفاً أم اغتصاباً ، كل تلك الألوان وما ماثلها من السحت إنها أخذ لحق الغير . وأخذ حق الغير له صور متعددة ، فإن أخذه أحد خفية فتلك هى السرقة . وإن سارع إنسان لخطف شىء من بضاعة إنسان آخر فهذا هو الخطف . وإذا لحق به صاحب البضاعة وتجاذبا وتشادًّا فهذه المجاذبة تخرج بالخطف إلى دائرة الغضب . وإن كان الإنسان أميناً على شىء وأخذه فهذا هو

الاختلاس ، وكل ذلك أكل مال بالسحت . وبئس هذا اللون من العمل .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾

والربانيون هم الذين يُنسبون إلى الرب فى كل تصرفاتهم ، وكذلك الأحبار الذين يعرفون الدين ، ولا هؤلاء ولا أولئك ينهون هؤلاء الناس من أهل الكتاب عن ارتكابهم الإثم وأكلهم السحت ، فكيف يُنَصَّبُ هؤلاء الربانيون والأحبار أنفسَهم قادة للضمير الدينى دون أن يقوموا بواجبهم بوعظ الناس ؟ وفى هذا تأكيد على أن الربانيين والأحبار إنما يريدون فقط سلطة الهيمنة على الناس .

والربانيون هم رؤساء النصارى،والأحبار هم رؤساء اليهود . وكان من بين اليهود والنصارى من تتملكه شهوات أكل السحت والظلم وقول الإثم ، فلماذا لم يتحرك المنسوبون إلى الله للنهى عن ذلك وهم الذين أخذوا حظهم فى الدنيا من أنهم منسوبون إلى حماية منهج الله من انحرافات البشر ؟. ألم يكن من واجبهم نهى الظالمين والآثمين عن الظلم والإثم ؟

إن الذى يظلم له شهوة فى أن ينتفع من الظلم ، أما أنتم أيها الربانيون والأحبار فلماذا لا تتحركون لوقف ذلك ؟ لاشك أنهم قد امتلأوا سروراً من هذا الإثم وذلك العدوان وأكل السحت ، ومبعث سرورهم أن الواحد من هؤلاء لو كان سليماً فى تصرفاته وأحكامه لغار على المنهج ، لكنه يقبل الانحراف ؛ لأن من مصلحته أن ينحرف غيره حتى لا يلومه أحد . وجاء الحق بـ« لولا » فى أول هذه الآية تحضيضية أى يقصد بها الحث على الفعل . . أى كان يجب أن ينهاهم الربانيون والأحبار عن

أكل السحت وقول الإثم والعدوان . ثم تتجلى دقة الأداء القرآنى ـ كما هو دائماً ـ فى قوله الحق : « لبئس ما كانوا يصنعون » .

ونذكر أن تذييل الآية السابقة قال فيه الحق عن سلوك العامة من أهل الكتاب : « لبئس ما كانوا يعملون » ، إذن فالحق يفرق بين بئس عن صناعة وبئس عن عمل . وبئس الربانيون والأحبار هو بئس الصناعة . ونعلم أن كل جارحة من جوارح الإنسان لها حدث خاص بها : فالعين حدثها أن ترى ، والأذن حدثها السمع ، واليد اللمس ومناولة الفعل ، والرِّجل تسعى ، واللسان مجال عمله الكلام . والجوارح تنقسم إلى قسمين : اللسان وحدثه القول ، وبقية الجوارح أحداثها أفعال ، بدليل أن الله يقول :

﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ ﴾

(سورة الصف)

إذن فالقول مقابله الفعل . والقول عمل ، والفعل عمل . ومادام هناك قول وفعل من عامة أهل الكتاب فى ذلك المجال لذلك يقول الحق : « لبئس ما كانوا يعملون » .

وقال عن الربانيين والأحبار : « لبئس ما كانوا يصنعون » لإيضاح الفرق بين من يعمل ومن يصنع ، فمن فُتق ثوبه وجاء بإبرة وخيط ليصلحه ، فهو خائط ، ولكن الذى يحترف ذلك هو « الخيَّاط » ؛ فصاحب الحرفة هو من يأخذ وصفها لأنه يجيدها ، أما الذى يمارسها لمرة واحدة فلا يأخذ من الصنعة إلا بقدر ما يدل على أنه لم يتقنها .

وكان الربانيون والأحبار قد اتخذوا أمر الدين والكهنوت صناعة بتجويد كبير . وذلك هو الذى جعل السلطة التقنينية فى العالم كله تنتقل من منهج السماء إلى منهج الأرض . وحينما نرجع إلى تاريخ القانون نجد أن الأصل فى التقنين كان من الكهنة الذين كانوا منسوبين إلى الله وخبر السماء ، وهم الذين كانوا يحكمون بين الناس ، لكنهم أفسدوا ، ورأى المجتمع أنهم يحكمون فى قضية بحكم ، ثم فى قضية مشابهة يحكمون بنقيض الحكم السابق، وأنهم ارتشوا فى سبيل ذلك، ومايزوا بين الناس، وعرف الناس أن الكهنة غير مأمونين على العدالة ؛ لذلك تركوا الكهنة وبدأوا يضعون

قوانين خاصة بهم بعيدة عن حكم الكهنة . وهكذا انتقلت المسألة من تقنينات وحكم الكهنة إلى المجتمع الذى لم يعد يتمسك بالدين بسبب انحرافات أحكام الكهنة عن العدل وأنهم باعوا الأحكام لصالح من يدفع أكثر ، أو يحكمون لصاحب النفوذ . وهكذا صارت المسألة صناعة لهم . وبئست تلك الصناعة .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟
بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ
كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا
بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا
لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ
لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾

ونعرف أن اليد جارحة حرة الحركة تنفعل يميناً وتنفعل شِمالاً وتنفعل إلى أسفل وإلى أعلى ، ولها من الأصابع ما جعل الله لكل أصبع مع زميله مهمة . وليلاحظ كل منا أصابعه فى أثناء أى عمل ، سيجدها تتباعد وتتقارب بحركة إرادية منسجمة لتؤدى المهمة . وخلقة الأصابع بالمفاصل والعُقل وحجم كل عقلة يختلف عن الأخرى ؛ لتؤدى المهمة بانسجام . وساعة تعوّق هذه الجارحة عن أداء مهمتها فأنت بذلك تكون قد غللتها ، أى ربطتها عن التصرف المطلوب منها .

ومعنى قوله : « يد الله مغلولة » أى أن يد الله ـ والعياذ بالله ـ مشلولة الحركة .

وقد قالوا ذلك قبل ظهور سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقبل زحف الإسلام عليهم لينقض باطلهم . وحدث أن تفرغوا لصناعة آلات الحرب وبناء الحصون والزراعة ، وانشغلوا عن الزراعة فخابت محاصيلهم وجاء وقت الحصاد فلم يجدوا ، فقال « فنحاص » وهو واحد من اليهود : لماذا قبض الله يده عنا ؟ إن يد الله مغلولة . ونلحظ أن الذى قال ذلك هو شخص واحد ، ولكن الحق يقول هنا : « وقالت اليهود يد الله مغلولة » . ومعنى ذلك أن « فنحاص » عندما قال ذلك سمعوه وسرّهم ما قال ، ووافقوه عليها .

أو أنهم حينما شاهدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أول الهجرة وقد آخى بين المهاجرين والأنصار ، وكانت تمر على المسلمين الليالى دون طعام فيراهم اليهود فيتندرون على تلك الحال ويقولون : إن يد الله مغلولة عن محمد وآله .

أو أنهم قالوا : إن يد الله مغلولة فى الآخرة عن عقابنا ؛ لأنه سيعقابنا أياماً معدودة . والذى يبيح لنفسه أن يجعل الله منفعلاً لأحداث خلقه إنما يكفر بالله ؛ لأنه يُنزلُ الله من مكانته . فإذا كانت يد الله مغلولة ، فهذا الرباط والغَلُّ والمنع يكون من خَلْق الله . وكيف يقدر خلقٌ من خلق الله أن يربط يد الله ؟ . لقد اجترأوا على مقام الألوهية وهذا من سوء الأدب ، تماماً كما قالوا :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ﴾

(من الآية ١٨١ سورة آل عمران)

وحينما قالوا : « يد الله مغلولة » وردّ الحق عليهم : « بل يداه مبسوطتان » وقال قبلها : « غلت أيديهم » فهل يدعو الحق عليهم ؟ طبعاً لا ؛ لأنه هو المصدر الذى يتجه إليه الخلق بالدعاء وهو القادر على كل الخلق . ولكن الحق حين روى ما قالوه إنما ينبه الذهن الإيمانى الذى يستقبل كلامه أنه ساعة يجد وصفاً لا يناسب الله فعليه أن يدفع هذا الكلام حتى قبل أن يرى الرد عليهم .

« وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم » وهذا يعلمنا أننا إذا سمعنا وصفاً لا يليق فلا بد أن ندحضه ؛ لأن الحق لا يدعو على عبيده ؛ لأن الدعاء هو أن يرفع عاجز طلبه إلى قادر لينفذ المطلوب له .

إذن فإن قالها الحق فهى إما أن تكون خبراً ، وإما تعليماً لنا ، فإذا كانت خبراً نلحظ أن الله كتب عليهم البخل ساعة قالوا هذا ومنذ لحظة هذا القول ، وإن كان القصد هو تعليمنا ، فنحن نتعلم الأدب الإيمانى ، ونرد أى وصف لا يليق بجلال الله .

وهذه المسألة لها نظير ، فعندما علم الحق سبحانه وتعالى تشوّق رسوله والمؤمنين أن يذهبوا إلى المسجد الحرام ؛ قال لرسوله :

﴿ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾

(من الآية ٢٧ سورة الفتح)

وهل هذا إخبار من الله ، أو هو تعليم لنا ؟ . إنه تعليم لنا أن نفعل ذلك عندما نشتاق إلى فعل . وكذلك هنا : « وقالت اليهود يد الله مغلولة » لذلك يعلمنا سبحانه أن نقول : « غلت أيديهم » مثلما علمنا أن نقول : « إن شاء الله » حتى ننسب كل قدر لله . وقد حاول الفلاسفة أن ينسونا تقدير المشيئة ، فقالوا : إن الله خلق النواميس والأكوان وجعل لها قوانين تعمل فى الكون . وهل زاول الحق سلطانه ساعة خلق النواميس ثم ترك الأمور لذاتها ؟ لا ؛ لذلك جاء سبحانه بمعجزات تخرق النواميس ليدلنا على أن النواميس لم تأخذ هى الكلمة للتصرف بل إن يد الله مازالت فى كونه ، فالنار ـ على سبيل المثال ـ التى تحرق يأتيها الأمر :

﴿ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا ﴾

(من الآية ٦٩ سورة الأنبياء)

والماء الذى يُغرق يأتيه الأمر :

﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ ﴾

(سورة الشعراء)

وقال :

﴿ فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ ﴾

(من الآية ٧٧ ، ٧٨ سورة طه)

والعصا التى خلقت من غصن شجر جاف ، تتحول إلى أفعى ، أى نقلها كلها

إلى جنس آخر ، من نباتية إلى حيوانية . هذا هو خرق النواميس .

ويقول الحق عن هؤلاء الذين ادعوا أن يد الله مغلولة : « غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا » أى أنهم طردوا من رحمة الله ، لأنهم هم الذين بشروا على أنفسم وقالوا إن يد الله مغلولة ، وسبحانه قادر أن يمنع عطاءه عنهم .

ويتابع سبحانه : « بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء » ، وهو يعطى من يريد ، وكلمة « اليد » فى اللغة تطلق على الجارحة وتطلق على النعمة ، فيقول الرجل : إن لفلان علىّ يداً لا أنساها ؛ أى أنه قدم جميلاً لا يُنسى . واستعملت اليد بهذا المعنى لأن جميع التناولات تكون باليد . وتُطلق اليد ويراد بها الملكية فيقول سبحانه :

﴿ أَوْ يَعْفُوَاْ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ﴾

(من الآية ٢٣٧ سورة البقرة)

أى الذى يملك أن يُنكِح المرأة ، هو الذى يعفو . وفى القتال نجد القول الحكيم :

﴿ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ ﴾

(من الآية ١٤ سورة التوبة)

أو تطلق اليد على من له ولاية فى عمل من الأعمال ، لذلك نجد الحق قد قال :

﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ﴾

(من الآية ٧٥ سورة ص)

وآدم هو الخلق الأول وكلنا من بعده مخلوقون بالتناسل من الزوجية . وقدكرّم الله الإنسان بأنه خلقه بيديه ، وخلق كل شيء بـ« كن » . إذن : كلمة « اليد » تطلق على معانٍ متعددة . والرسول يقول : « المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم »[1] .

أى عندما تجتمع الأيدى تكون هى اليد القادرة . وعندما نقرأ كلمة « يد الله » فهل نحصرها فى نعمته أو ملكه ؟

---

(١) رواه أحمد وأبو داود والبيهقى فى السنن الكبرى والحاكم فى المستدرك والمتقى الهندى فى كنز العمال وابن كثير فى التفسير .

﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ﴾

(سورة الملك)

والله سبحانه وتعالى أعلم بذاته فلنقف عند الوصف ، نعم له يد ، وله يدان ، وإياك أن تتصور أن كل ما يتعلق بالله مثل ما يتعلق بك ؛ لأن الأصل أن لك وجوداً الآن ، ولله وجود ، لكن وجودك غير وجود الله ، وكذلك يده ليست كيدك . حتى لا نشبه ونقول : إن له يداً مثل أيدينا ، فلنقل إن المراد باليد هو القدرة أو النعمة ، والهدف الراقى هو تنزيه الحق . وهناك من يقول : إن لله يداً ولكن ليست كأيدينا لأننا نأخذ كل ما يأتى وصفاً لله على أنه « ليس كمثله شىء » والتأويل ممكن . مثلما بيّن الحق : أنه قد صنع موسى على عينيه .

وتأخذ أى مسألة تتعلق بوصف الله إما كما جاءت ، بأن له يداً ولكن ليست كالأيدى ، وله وجود لا كالوجود البشرى ، وله عين ليست كالأعين ، ولكن كل وصف لله نأخذه فى إطار « ليس كمثله شىء » . وإما أن نأخذ الوصف بالتأويل ، ويراد بها النعمة ويراد بها القدرة . ويقول الحق : « بل يداه مبسوطتان » والمراد هنا هو « النعمة » . ولم يكتف سبحانه بأن يرد بأن له يداً واحدة تعطى . لا ، بل يرد بما هو أقوى مما يمكن ، فهو يعطى بيديه الاثنتين ، وهو القائل :

﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾

(من الآية ٢٠ سورة لقمان)

إنه يُعطى الظاهر ويُعطى الباطن . وإياك أن تقول تلك اليد اليمنى وتلك اليد اليسرى ؛ لأن كلتا يدى الله يمين . « بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء » أى أنه سبحانه لا يمكن أن يكون بخيلاً ، حتى وإن منع الحق فذلك منح وعطاء وإنفاق ؛ لأن الذى يطغى بنعمة ، قد يذهب به الطغيان إلى بلاء وسوء مصير ؛ لذلك يقبض سبحانه عنه النعمة ليعطيه الأمن من أن ينحرف بالنعمة . ولذلك نجد القول الحق فى سورة الفجر :

﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ۝١٥ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ۝١٦ ﴾

(سورة الفجر)

ورد الحق بعد ذلك بقوله : (كلا) .

فلا الإعطاء هنا للإكرام ، ولا المنع للإهانة . فكيف يكون الإعطاء دليل الإكرام وقد يعطيك الله ولا تؤدى حق النعمة ؟ وكيف يكون المنع دليل الإهانة وهو قد منعك من وسيلة انحراف ؟ إذن فهو قد أعطاك بالمنع ـ فى بعض الأحيان ـ إنه قد أعطاك الأبقى وهو الهداية . إذن فمنعه أيضاً عطاء .

« بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء » والناس تنظر دائماً إلى عطاء الله بعطاء الإيجاب ، ولا تنظر عطاء السلب أى المنع ، وهو أن يصرف عنك الحق مصرف سوء . وسبق أن ضربت المثل بالرجل الذى تحرى الحلال فى مصدر ماله ويتقى الله فى عمله ويأخذ دخله ويدير حركة حياته فى إطار هذا الدخل ، وقد يعود هذا الرجل إلى منزله فيجد حرارة الابن مرتفعة قليلاً ، ولأن ماله حلال وذرات جسمه تعرف أن ماله حلال ؛ لذلك يستقبل الأمر بهدوء ويعرض الابن على طبيب فى مستوصف خيرى بقروش قليلة ، فيصف الطبيب دواء بقروش قليلة ويتم شفاء الابن .

هذا الرجل يختلف حاله عن حال رجل آخر أتى بماله من السحت ، وساعة يرى حرارة ابنه قد ارتفعت نجد باله يدور بين ألف خاطر سوء ، ويدور الرجل بابنه على الأطباء ولا يصدق طبيباً واحداً .

الرجل الأول رزقه الله الاطمئنان بمنع هواجس الحِدَّة من قلبه وخواطره ، أما الرجل الثانى فهو ينفق أضعاف ما أكله من سحت . إذن « بل يداه مبسوطتان » أى أن هناك عطاء السلب . والعطاء الذى يحبه الإنسان هو عطاء المال وهو عطاء يذهب إلى الفانية . أما المنع فهو يمنع الإنسان من ارتكاب آثام . وبعد ذلك يأخذ الإنسان نعيمه فى الآخرة . ونحن نجد كثيراً من الناس تدعو ، ولكنهم لا يعلمون أن الله قد أعطى بالمنع .

يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

لذلك يعطى الحق أحياناً أشياء يكون العبد قد ألح عليها ، وبعد ذلك يتبين الإنسان أنها شر ، كأن الحق ساعة منع الإنسان لفترة كان ذلك صيانة له .

« بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء » إذن فكله إنفاق . وسبحانه ينفق كيف يشاء ، فلا يبخل أبداً حتى وإن منع ، فالمنع فى موضعه الصحيح هو عين الإنفاق ، وهكذا يكون عطاء الله عطاء النعمة ظاهرة كانت أو باطنة . فإن أردت بـ « اليد » القدرة فيدا الله مبسوطتان بالثواب لقوم وبالعقاب لقوم آخرين ، وهو سبحانه وتعالى يعطى لحضرة النبى صلى الله عليه وسلم المناعة الإيمانية ضد كل متمرد عليه ، أو ضد كل متأبٍ ومستكبر من الكافرين أو من أهل الكتاب .

فكأنه سبحانه وتعالى يوضح : وطِّنْ نفسك يا محمد ولتوطن أمتك نفسها على أن هؤلاء الكفرة لن يكتفوا بالقدر اليسير والقليل من الكراهية لك ، بل كلما جاءت لك نعمة بزيادة الهدى من الله سيحسدونك ، وسيبغضونك ، وسيزداد تمردهم وحقدهم عليك ، فوطن نفسك على ذلك . وفى هذا ما يعطى مناعة إيمانية ، يسد كل منافذ وسوسة النفس ويجعل النفس على استعداد لاستقبال ما يحدث حتى ولو كان من المكاره .

ولنقرب هذا الأمر من الذهن . لا تشبيهاً ولكن لمجرد تقريب الأمر من الذهن ـ ولله المثل الأعلى ـ لننظر إلى ما حدث فى أوروبا فى أثناء الحرب العالمية الثانية ، كانت انجلترا تخوض الحرب ضد النازية ، وكانت الأهوال تتساقط من الطائرات على المدن الإنجليزية . وجاء تشرشل ليقود الحرب فقال للإنجليز : إن الهول والصعاب هى التى تنتظركم فوطنوا أنفسكم على مواجهة الشدائد .

وإذا كان هذا قد حدث فى حرب بين شعبين ، فما بالنا بالحق سبحانه وتعالى وهو يعلم ضرورة التمحيص لأمته التى تحمل راية المنهج الكامل للهداية . كان لا بد إذن من أن يوطن نفس رسوله ونفوس المؤمنين معه على مواجهة الحسد والبغض والحقد والمكر والتبييت .

ويقول الحق : « وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة » . ولا يأتى قول الحق : « بينهم » إلا إذا كان هناك طائفتان ، والمقصود إما الطوائف اليهودية فيما بينها ، وإما طوائف النصرانية فيما بينها ، أو بين اليهودية والنصرانية ، خصوصاً أن هذه الآيات مستهلة بقوله الحق : « يا أهل الكتاب » . فإذا كانت لليهود فالعداوة والبغضاء قائمة بين طوائفهم بعضها مع بعضها الآخر . وإذا كانت للنصارى فالعداوة والبغضاء حاصلان فيما بين طوائفهم ، وإن كانت بين اليهود كقسم وبين النصارى كقسم فهى مسألة ممكنة . وهذه العداوة والبغضاء لا تنتهى أبداً بل هى قائمة بينهم إلى يوم القيامة .

ويقول الحق : « كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله » وهذا خبر عما وقع فى حضن الإسلام ، ومثال ذلك خروج « بنى قينقاع » على العهد بعد أن جمعهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سوق بنى قينقاع وقال لهم :

« يا معشر اليهود أسلموا قبل أن يصيبكم الله بما أصاب قريشا »[1] .

فرفضوا وقالوا : يا محمد لا يغرنك من نفسك أن قتلت نفرا من قريش كانوا أغماراً لا يعرفون القتال ، إنك والله لو قاتلتنا لعرفت أنّا نحن الناس وأنك لم تلق مثلنا . فنزل فيهم قول الحق :

﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٢﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

فكان « بنو قينقاع » أول اليهود الذين نقضوا ما بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحاربوا فيما بين موقعتى بدر وأحد .

وكان سبب ذلك أن امرأة من العرب قدمت بجلب لها ـ بضاعة ـ لتبيعها فى سوق « بنى قينقاع » ، فجلست إلى صائغ يهودى بالسوق ، وحاول اليهود إجبارها على كشف وجهها ، فأبت ، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها ، وهى

(١) رواه ابن إسحاق وابن كثير فى التفسير .

لا تشعر به ، فلما قامت انكشفت سوءتها ، فضحكوا بها فصاحت المرأة . فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله ، وشدت اليهود على المسلم فقتلوه ، وحدثت بذلك الفتنة ، لكن الله أطفأ الفتنة وأجلى « بنى قينقاع » ، ثم « بنى النضير » وكان لهم - قبل ذلك - التجمع القوى فى المدينة بالثراء والعلم . وقاتل المسلمون « بنى قريظة » وأجلوا أهل خيبر ، وتملك واستولى المسلمون على وادى القرى . حدث هذا فى حضن الإسلام فماذا حدث فى غير حضن الإسلام ؟

لقد رأيناهم أيام المجوس وقد أهلكهم بختنصر ، وكذلك تيتوس الرومانى . ورأيناهم مقطعين فى الأرض فى كل زمان ومكان . وقد يقول قائل : إذا كان الحق قد قال : « كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله » فلماذا لا تنطفىء الحرب الحالية بيننا وبينهم ؟ ونقول : إن الذى يطفىء نيران الحرب لا بد أن يكون من جنود الله . وعندما نصبح جنوداً لله فلسوف تنطفىء هذه الحرب .

والمثال القريب منا هو انتصارنا فى العاشر من رمضان . لقد كان انتصارنا بالعمل تحت راية « الله أكبر » وقد جزى الله بالخير الضباط والجنود الذين كانوا يعلمون أن العتاد فى جانب العدو كان أكبر من عتادنا ، لكن النتيجة كانت فى صالحنا لأننا دخلناها تحت ظل « الله أكبر » .

أما الذين ادعوا أنه انتصار حضارى فنقول : عن أى حضارة تتحدثون ؟ والإسلام هو نبع الحضارة المتوازنة ، وليس الادعاء بالحضارة هو الخروج عن منهج الله . إننا إن ثبتنا على مبدأ « الله أكبر » لا كشعار ولكن كتطبيق لأطفأ الله نيران أى حرب .

ويترك سبحانه فى كونه السنن التى تعطى التجارب الواقعية لمن يتشكك فى الإيمان . ومثال ذلك ما حدث من مخالفة لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم من بعض المقاتلين فى غزوة أحد فكادت الهزيمة تلحق بهم . وفى غزوة حنين قالوا : لن نُغلب اليوم من قلة ولذلك يقول سبحانه :

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾

(سورة التوبة)

وقد ترك الله هذه السنن الكونية ليلفت أى غافل عن الدين أن الخصم ينال منه ؛ فالغفلة تؤدى إلى الانحراف ، والانحراف لا يمكن أن يؤدى إلى النصر . هكذا يحذر الحق معسكر الإيمان . أما معسكر الكفر فالحق يريد له الذلة ، فيعطيه فى بعض اللحظات نصراً على المؤمنين فى أوقات غفلتهم ، وما أن يُفيق المؤمنون من الغفلة حتى تأتى ضربتهم لمعسكر الكفر . وتأتى الضربة وقت أن يكون معسكر الكفر فى علو وغلو . ولنا فى المثل الريفى الإيضاح .

يقول المثل : لا يقع مؤمن من على حصيرة ، والمقصود أن التواضع يحمى الإنسان من وهم العلو والكبر ؛ لأن الذى يقع هو الذى يتخيل أنه علا فى الأرض ولذلك يعميه الله عن الحرص ، ويأتى قوله :

﴿ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴾

(من الآية ٧ سورة الإسراء)

أى أن يتم العصف بكل شىء . وأهل السياسة عندما يريدون أن ينزلوا بخصومهم العقاب يرفعون خصومهم ويمدون لهم فى حبال الصبر والإمهال حتى يعلو الخصم كثيرا ثم ينكشف ويظهر سوء سلوكه فيقع أمام الناس . ولذلك نجد القرآن صريحاً مطلق الصراحة فى هذا المجال :

﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

فسبحانه يمد ويملى لهم ليأخذوا وليبنوا وليترفوا ، وليفرحوا بما أخذوا ، ومن بعد ذلك يفتح الله عليهم أبواب كل شىء . وأمثلة ذلك فى الحياة كثيرة .

لقد رأينا الدول القوية تساعد خصومنا ، واتفق المعسكر الشرقى والمعسكر الغربى لسنوات على مساعدة الخصم ، وقلنا لهم : أنتم الآن فى مقام : (فلما نسوا ما ذكروا

به) . وأنتم أيها الخصوم قد تنتقلون إلى مقام : (حتى إذا فرحوا بما أوتوا) . وسوف تنتقلون من بعد ذلك إلى مقام : (أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون) .

وقد حدث أن سقط الاتحاد السوفيتى بأكمله ، وأخذهم الله بغتة بأيدى أناس منهم ، وكثيراً ما تحدث الكوارث لمن يضطهد أهل الإيمان . إذن : فلا داعى لأن يغتر أحد بما وصل إليه .

ويقول الحق :

﴿ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾

(من الآية ٦٤ سورة المائدة)

وهم مكبوتون دائماً . فالحق لايُمَكّنهم من كل أهوائهم . لذلك يسعون فى الأرض فساداً بأساليب الاختفاء . ومن يقرأ « بروتوكولات صهيون » يجد اعترافاتهم بأنهم أصحاب النظريات التى تقود إلى الأفكار الخاطئة كالماركسية والوجودية والداروينية وهى أمور مرتبة من قبل ليظهر أثرها الضار فى الشعوب غير اليهودية . أما اليهود فقد حصنوهم ضد هذه المبادىء الفاسدة ، هكذا أرادوا التبييت ضد العالم ، وهكذا يكون سعيهم بالفساد بين الناس . وإذا نظرنا إلى الانحراف الحالى فى الكون فإننا نجدهم وراءه .

فالرأسمالية الشرسة من اليهود . والشيوعية الشرسة من اليهود . وهؤلاء الذين يدعون أنهم أنبياء من بعد رسول الله إنما يحدث لهم ذلك بفعل اليهود ، وكذلك الجمعيات التى تتخفى وراء أسماء « الماسونية والروتارى والليونز » ، كلها من اليهود . ومع ذلك نتلفت إلى قوم يقولون إنهم متحضرون ويفخرون بأنهم أعضاء فى الروتارى ، ونسألهم : ماذا تفعلون فى تلك الأندية ؟ . يقولون : نقوم بالأعمال الخيرية والخدمات . ونقول لهم : لماذا لا تفعلون أعمال الخير باسم الإسلام ؟ . وهل تظنون أن هناك خيراً يأتى من خارج الإسلام ؟!

ويكتشف الكون كل فترة من الزمن أن الفساد الذى فيه إنما هو بسبب هؤلاء الناس وبسبب مكائدهم ؛ لذلك يصيبهم الحق بالكوارث كل فترة من الزمن ؛ لأنهم يسعون فى الأرض فساداً . وهذا السعى فى الأرض بالفساد إنما يأخذ صوراً متعددة ، مرة يأخذ شكل النظريات العلمية ، ومرة يأخذ شكل التطرف فى الأنظمة السياسية من رأسمالية شرسة أو شيوعية شرسة ، وكل ذلك تخريب لحياة الناس . والناس حين تجرب نظاماً فهى تقيس نجاحه أو فشله بمقدار ما يعود عليها من خير أو من شر .

لقد كانت روسيا ـ على سبيل المثال ـ تمد العالم بالقمح من سيبيريا . ولكنها الآن تشكو قلة الزراعة وتنتظر من يبيع لها القمح . وعلى الجانب الآخر نجد الرأسمالية الشرسة تطحن أبناء تلك البلدان فى الحياة غير المسئولية باسم الحرية . وقد شهدت ألمانيا ـ مثلاً ـ قسمة عاصمتها القديمة « برلين » إلى قسمين ، ولكل قسم حياة ، وشهدت إعادة التوحيد لأرض ألمانيا بما يصاحبه من مشكلات جمة .

وقد تذهب بعض المجتمعات إلى أيدى أناس لهم شراسة أشد كالحزب الحاكم فى كل دولة لا تتبع منهاجاً متوازناً ، ونجد رجال هذا الحزب كهيئة تأخذ الدعوة ونقيض الدعوة حتى لا يتمرد عليهم أحد ، فعَرق العامل فى أيديهم ومصنع الرأسمالى فى أيديهم وهم يعيشون حياة الأمراء ولا يجرؤ أحد على أن يسألهم .

ومثال ذلك أيضاً نظرية الوجودية التى تدعو كل إنسان ليثبت وجوده ، وصاحبتها موجة من الانحلال اللا مسئول ، ذلك أنهم لم يفهموا إثبات الوجود على أساس أنه مسئولية العمل الصالح فى الكون ، ولكن فهموا الأمر على أنه انطلاق غرائز على الرغم من أن المفترض فى كل إنسان إذا أراد أن يمد يده ، فعلى يده أن تتوقف حيث يوجد أنف إنسان آخر . لكن هؤلاء الناس عاملوا الناس كأطفال ، تماماً كما يأتى الأب لابنه بلعبة يلعب بها ولتكن آلة تليفون ، يقدمها الأب لابنه ليستغل طاقته قبل أن يكون مكلفاً ، ولكن الأب لا يسمح للابن أن يلعب بآلة التليفون الحقيقية ، وهؤلاء الناس يأخذون الكبار إلى اللعب واللهو حتى لا يتدخل الكبار فى أمور الجد .

ومثال ذلك لعبة كرة القدم ، إنهم ينفخون فيها بالبطولة وينقلون قوانين الجد إلى اللعب . وقبل المباراة بثلاث ساعات تجد قوات الأمن قد سدّت الطرق إلى الملعب

الذى يشهد المباراة . ولو أخطأ الحكم خطأ تافهاً فإنّ الجمهور يثور ويهيج . لكن عندما يخطىء الحكام والحكومات ألف خطأ فلا أحد يتكلم ، لماذا ؟ . لأنكم نقلتم قوانين الجِد إلى اللعب واللهو وتركتم الجِد بلا قوانين .

مثال آخر : نجد كل فاكهة أو محصول أو صناعة فى الوجود يقيمون لها الاحتفالات ويتوجون عليها ملكة ، ملكة الكروم ، ملكة القمح ، ملكة الأزياء ، وكل ذلك من أجل إبراز مفاتن النساء ، ولا يوجد تكريم للعقول التى تنتج . وعلى سبيل المثال نجد ملابس الشباب الرياضية تغطى جسد الشباب من الذكور ، لكنهم لا يفعلون ذلك بالنسبة للإناث ، لماذا لا يغطون أجساد البنات أيضاً أثناء ممارسة الرياضة ؟ . والغرض ـ بطبيعة الحال ـ هو دغدغة أعصاب الناس ، وكل ذلك إفساد فى الأرض .

« ويسعون فى الأرض فساداً » ومن العجيب أن سعيهم للفساد يلبسونه ثوب الحق وثوب الارتقاء وثوب الحضارة . ويأتى أناس من المسلمين ويشجعون مثل هذا الفساد ، وينسون الحقيقة البديهية وهى : « والله لا يحب المفسدين » فسبحانه وتعالى قد خلق الكون على هيئة الصلاح ، فإذا استقبلت خير الله بصلاح الوجود الذى طرأت أنت عليه فأنت تحسن حياتك وعملك ، أما إن لم ترد صلاح الكون فعليك ألا تأتى بفساد .

والحق خلق الكون على نظام دقيق ، ونرى ذلك فى الأشياء التى لا دخل للإنسان فيها ، ونجدها فى منتهى الدقة والاستقامة ، الشمس والكواكب والفصول والرياح ، لكن الفساد يأتى عندما تدخلت يد البشر بغير منهج الله . إذن فالفساد هو الذى يصرف الناس عن منهج الله . ونجد بعضاً من الناس يركبون رءوسهم ويظنون أن ما يفعلونه هو الصلاح ، فينطبق عليهم قول الحق :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

(سورة البقرة)

هذا هو حكم الحق فيهم . . إنهم يدّعون الصلاح ، ولكن يجب عليهم أن يرتدعوا فلا يفسدوا . ومن بعد ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٦٥) ﴾

هذا القول يدل على أن أهل الكتاب جميعاً فى غير حظيرة الإيمان ، والحق يوضح لهم : إن فسادكم كان سابقاً على ظهور الإسلام ، ولهذا جاء الإسلام ليخرج الناس من فسادكم أنتم . لقد كان لكم منهج من الله ولكنكم حرّفتموه ، وإن لكم رسلا أرسلهم الله إليكم ولكنكم أسأتم إليهم ، وطقوساً دينية ابتدعتموها . وجاء الإسلام لا ليهدى الملاحدة فقط ، ولكن ليهدى أيضاً الذين أضلهم أرباب أهل الكتاب . وكانوا من بعد الإسلام يحاربون الإسلام بالاستشراق ، وكانوا يؤلفون الكتب ليطعنوا الإسلام . لكنهم وجدوا أن الناس تنصرف عنهم ؛ لذلك جاءوا بمن يمدح الإسلام ويدس فى أثناء المديح ما يفسد به عقيدة المسلمين .

إننا نجد بعضاً من المؤلفات تتحدث عن عظمة الإسلام تأتى من الغرب ، ولكنهم يحاولون الطعن من باب خفى كأن يقولوا : إن محمداً عبقرى نادر فى تاريخ البشرية ويبنون كل القول على أساس أن ما جاء به محمد هو من باب العبقرية البشرية ، لا من باب الرسالة والنبوة . ونجد مثالاً على ذلك رجلاً أوروبياً يؤلف كتاباً عن مائة عظيم فى العالم ويضع محمداً صلى الله عليه وسلم على رأسهم جميعاً . ونقول له : شكراً : ولكن لماذا لم تؤمن أنت برسالة محمد بن عبدالله ؟

إن شهادتهم لنا لا تهمنا فى كثير أو فى قليل . لقد هاجمونا من قبل بشكل علنى . ويحاولون الآن الهجوم علينا بشكل مستتر . وهم أخذوا بعضاً من أبناء البلاد الإسلامية ليربوهم فى مدارس الغرب وجامعاته من أجل أن يجعلوا من هؤلاء الشباب

دعاة لقضاياهم فى إفساد المسلمين ، ولم ينجحوا إلا مع القليل ؛ لذلك نقول لشبابنا : احذروا أن تكونوا المفسدين وتدعوا أنكم المصلحون ، فلا تأخذوا المسألة بالطلاء الخارجى ولكن انظروا إلى عمق القضايا ، وتذكروا قول الحق :

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ ﴾

(سورة الكهف)

علينا أن نرقب كل فساد فى الكون ، وسنجد أن لأصابع أعداء الإسلام أثراً واضحاً . لقد كان من اجتراء الصهيونية إلى حد الوقاحة أن تقول : ليطمئن شعب الله المختار ، فثمانون فى المائة من وسائل الإعلام فى العالم خاضعة لإرادتنا ولا يمكن أن يُعلم فيها إلا ما نحب أن يُعْلَم . والحق سبحانه وتعالى عندما يقول :

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ ﴾

(سورة المائدة)

فسبحانه وتعالى بهذه الآية يقدم الفرصة لهؤلاء الناس حتى يدخلوا إلى حظيرة الإيمان ويستغفروا الله عن خطاياهم الماضية وليبدأوا حياة جيدة على نقاء وصفاء بدلاً من التحريف والتضليل . وليعرفوا معرفة حقة قوله تعالى فى رسوله : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » .

هذا القول يجب أن يتهافت إليه غير المسلمين مع المسلمين ليأخذوا من ينبوع الرحمة ، وفى ذلك تصفية عقدية شاملة تتيح لكل إنسان أن يبدأ طريق إصلاح نفسه .

وقوله الحق : « ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا » إنما يدعوهم إلى الإيمان ، والتقوى . والإيمان محله القلب ، أى أن يستقر فى القلب الاعتقادُ بوجود إله أعلى ، وأن نؤمن بالبلاغ عن الإله الأعلى بواسطة الرسل ، وأن نؤمن بالرسل وبالمناهج التى جاءوا بها ، وأن نتبع هذه المناهج ، وأن نؤمن بأن المرجع إلى الله ، هذا الإيمان

ينعكس على الحركة الإيمانية فى الأرض ، ويحقق الإيمانُ مع التقوى اتجاهَ الإنسان إلى الصالح من العمل . وأن يبتعد عن غير الصالح من العمل اتباعاً لقول الحق :

﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣ ﴾

(سورة العصر)

ولذلك نجد قولاً لأحد العلماء الصالحين من العرب هو : إن الإيمان كالْعُمُد والأعمال كالأطناب . وعرف أن كل بيت له أساس من الأعمدة ، وله أوتاد تثبته . والخيمة العربية هى بيت من القماش السميك على عمود من الخشب وتشد الخيمة إلى الأوتاد بحبال ، وهذه الحبال هى الأطناب ولا تقوم الخيمة إلا إذا ربطت بأحبال وشدت إلى أوتاد . وكان العربى يفك هذه الخيمة ، ويحملها على ظهر بعيره لينصبها فى أى مكان . وكان العربى يختار القماش الذى إن نزل عليه المطر ، يمتص الماء ويمنع سقوطه داخل الخيمة .

إذن فالإيمان عمود ، والأعمال أطناب . وهكذا تكون دعوة الحق لأهل الكتاب حتى يؤمنوا ويتقوا الله حتى يكفر عنهم سيئاتهم ، والكفر ـ كما نعرف ـ هو الستر والتغطية والعفو هو محو الأثر ، كأن الحق سيغطى على سيئاتهم ثم يمحو أثرها وذلك بأن يعفو عنها ؛ لأن الإسلام إنما جاء رحمة يجب أن تستغل ليكفر الحق عن سيئاتهم التى ضللوا بها شعوبهم .

لقد كان من الواجب عليهم أن يعرفوا أن مجىء رسول الله صلى الله عليه وسلم هو فرصة للتراجع عن الكفر والبهتان . وقد جاء صلى الله عليه وسلم ليقيم تصفية عقدية فى الكون ، فالملحد يجب عليه أن يتعرف على خالق الوجود ويؤمن به ، والمبدل لمنهج الله ينبغى أن يعود إلى منهج الله . وتلك هى التصفية العقدية الشاملة . ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم

مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾

أى أنهم لو طبقوا التوراة والإنجيل دون تحريف ، وآمنوا بالقرآن لكان خيرا لهم . والتوراة كتاب اليهود ، والإنجيل كتاب عيسى عليه السلام ، وقد أنزل الله بعد ذلك الكتاب الجامع المانع وهو القرآن الكريم ، وأراد لهم الحق بالإيمان بما جاء فى التوراة والإنجيل من بشارة برسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأن الإيمان بالتوراة والإنجيل - من قبل تحريفهما - إنما يقود إلى الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم وبما أنزله الله إليه. واليهود - كما عرفنا - هم الذين توعدوا العرب بمجىء رسول الله ، لكن العرب سبقوهم إلى الإيمان بمحمد بن عبدالله « وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به » .

لقد كانوا - أهل كتاب - يملكون المدخل الطبيعى للإيمان بالقرآن وهو الإيمان بالتوراة الصحيحة والإنجيل الصحيح ؛ لأن فيهما نعت رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكان سيدنا عبدالله بن سلام وكان من أحبار اليهود يقول : « لقد عرفت محمداً حين رأيته كمعرفتى لابنى ومعرفتى لمحمد أشد » . وحينما يعد الحق أهل الكتاب إن آمنوا واتقوا بأن يكفر عنهم السيئات ويدخلهم جنات النعيم ، فسبحانه لن يكفر عنهم سيئاتهم ويقيهم من عذاب النار فحسب ، ولكن سيمحو هذه السيئات ويدخلهم الجنة . وسبحانه هو الأعلم بهم ، ويعلم أن منهم الماديين المرتبطين بالدنيا لذلك جاء لهم بخير الإيمان فى الدنيا فقال :

« ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم » فسبحانه يمد لهم أيضاً يد الأسباب فى الدنيا ، والمؤمن هو من يرتقى فى الأخذ بالأسباب فيأخذ نعيم الدنيا والآخرة ، أما الكافر فيأخذ الأسباب دون أن يشكر الخالق عليها .

لقد أراد الحق لأهل الكتاب أن يحسنوا الإيمان أولاً بصحيح التوراة وبصحيح الإنجيل حتى يكون ذلك هو المدخل الطبيعى للإيمان بالقرآن ، فهذا هو السبيل إلى تكفير السيئات بألا يدخلوا النار بل ويدخلون الجنة فى الآخرة . وهم بالإيمان لا يأخذون خير الآخرة فقط بل يأخذون خير الدنيا أيضاً ؛ لأن الحق لا يضن على مجتهد فى الأسباب ، وهو القائل :

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ ﴾

(سورة الشورى)

فمن بقى منهم على الكفر يأخذ من أسباب الدنيا ولكنه لا يأخذ أبداً من عطاء الآخرة :

﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ ﴾

(سورة الفرقان)

وبذلك يوضح الحق مصير أهل الكفر فى الآخرة أولاً ، ويوضح من بعد ذلك مصيرهم فى عاجل الدنيا ، فإن أخذوا بالأسباب أعطاهم الله نتائج الأسباب ، وهو سبحانه الذى يحتفظ بطلاقة القدرة ، فقد يعطل الأسباب ويسلب الأشياء خواصها ، فالمزارع قد يأخذ بكل الأسباب من حرث للأرض وتسميد لها وانتقاء لسلالة البذور ، ولكنَّ إعصاراً قد يهب فيقتلع كل شىء أو فيضاناً يغرق الزرع ، أو حشرة فتاكة كدودة القطن تأكل المحصول . إذن ، فالأسباب وراءها مُسَبِّبٌ له طلاقة القدرة ، وسبحانه هو الذى وضع القوانين الكونية ، وهو ـ أيضا ـ الذى يسلبها خواصها .

فأنت أيها الإنسان سيد الكون بإرادة الله ومقهور فى كثير من الأقضية لقهرية الجبار . صحيح أن لك بعض الاختيارات فى بعض الأشياء ، ولكن هناك قهريات فى أمور لا دخل لك فيها ، فالمرض قد يقتل ، والحادث المفاجىء قد يقتل ، وتلك أشياء من قهريات الله التى تخرج الإنسان عن الأسباب .

إن الحق سبحانه يرينا أن بلاداً كانت دائمة المطر ثم أصابها الجفاف ، لماذا ؟ لأن

الناس تغتر من رتابة النعمة ، ولذلك يمسك الحق الكون بيده ، وهو سبحانه لا يسلمه لأحد أبداً . لذلك يأتى فى بعض الأحاديين ويقبض أسبابه حتى لا يفتن الإنسان بالأسباب ورتابتها .

وأمثلة ذلك فى حياتنا كثيرة ، نرى المزارع الذى يملك عشرات الأفدنة فتهاجمها الدودة فتأتى على الأخضر واليابس ، بينما جاره الذى لا يملك إلا قطعة يسيرة وقليلة من الأرض تطرح الخير كله لصاحبها ؛ لأنه دفع ما يسميه أهل الريف « غفرة الأرض » أى زكاتها . والدودة فى هذه الحالة تكون هى من جنود الحق فتأكل المال الباطل ولا تلمس المال الحلال .

﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾

(من الآية ٣١ سورة المدثر)

ولذلك يقدم الحق أسبابه لمن يسعى فيها ، ويزيد للمؤمن . ويقول : « ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم » والرزق ـ كما علمنا ـ قسمان : قسم مباشر وقسم يأتى بالرزق المباشر ، والرزق المباشر هو ما ننتفع به على الفور ، كطعام نأكله أو ماء نشربه ، أما الرزق الآخر فهو المال الذى قد نشترى به الرزق المباشر . وجاء سبحانه بأمور الحياة الواقعية حتى نفهم أن المنهج إنما نزل لينظم حركة الإنسان فى هذه الحياة ، والآخرة هى الجزاء على حسن العمل فى الدنيا .

وبعد أن وعدهم ـ سبحانه ـ بالجنة جزاءً للإيمان يمد لهم الأسباب فى الدنيا رخاءً وسعةً وترفاً وسعادة . ونجد من يسأل : وكيف يأكلون من فوقهم ؟ ونقول : إن الأكل هو المظهر الأساسى لحياة الإنسان ؛ لأن كل حركة يصنعها الإنسان هى فرع عن وجود حياته . ووجود حياة الإنسان يتوقف على ثلاثة عناصر مهمة هى الأكل والشرب والتنفس . فإذا ما أردنا استبقاء الحياة والتناسل فلا بد من توفير لهذه المصادر الثلاثة .

إننا عندما ننظر إلى ترتيب الثلاثة فى الأهمية نجد أن الإنسان قد يصبر على الطعام

شهراً . وقد يصبر على الماء مدة تتراوح ما بين ثلاثة أيام وعشرة أيام ، أما التنفس فلا يطيق الإنسان ألا يجد الهواء لمدة دقائق .

ومن رأفة الحق بالخلق أن جعل الحيازة لهذه الأنواع المقومة لاستبقاء الحياة تترتب حسب أهميتها . لذلك نرى من يملك على إنسان آخر طعامه ويتحكم فيه ، لكن الحق يجعل فى جسد الإنسان ما قد يقيته شهراً . ونرى أن الحيازة فى الماء أقل من الحيازة فى الطعام ، لذلك لم يُمَلِّكْها الحق إلا نادراً ؛ ذلك أن الإنسان لا يطيق الصبر على العطش إلا لمدة تتراوح ما بين ثلاثة أيام وعشرة أيام . وأما الهواء فلم يجعله الحق ملكا لأحد على الإطلاق ؛ لأن الإنسان لا يمكن أن يستغنى عنه إلا بمقدار الشهيق والزفير ، ولا يستطيع الإنسان أن يدخره فى حجم رئتيه ؛ لذلك لم يأمن الحق أحداً من الخلق على ملكية الهواء .

وقوله الحق : « لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم » مقصود به أن الاستقامة فى تطبيق منهج الله تُخْضِعُ الأسباب الكونية لهم ، أما إذا ما تمرد الإنسان على منهج الله فقد يعطيه الله زهرة الحياة الدنيا ثم يأخذه أخذ عزيز مقتدر ، فالنواميس الكونية لم تنعزل عن يد الحق .

لذلك يخاطب ـ سبحانه ـ الخلق خطاباً ، فإن انفعلوا للخطاب ، يسرّ لهم كل ما سخّره لهم فى الكون . وإن لم ينفعلوا فهو ممسك الأسباب ويمكنه أن يخرق قوانينها ، فلا الأرض ولا الهواء ولا أى شىء خرج عن طاعة الله ، فإذا ما تمردت جماعة على نعم الله أو على الله فسبحانه يجعلهم نكالاً لغيرهم ويقبض عنهم الأسباب .

والإنسان سيد هذه الكائنات فى هذا الكون ، وهو منفعل ـ أيضاً ـ بقدرة ربه وقد يمرض ، وقد يموت ، وقد ينكسر ، وقد يغرق ، فإذا كان الإنسان وهو المنفعل بـ« كن » من ربه فكيف حال الأشياء الأدنى منه ؟ . إنها أيضاً منصاعة بـ« كن » . والحق قادر أن يقول للأرض : كونى جدباً ، وهو القادر على أن يوقف المطر لأنه هو سبحانه الذى يجعل الأشياء تسير سيراً رتيباً . ألم يقل الحق سبحانه وتعالى فى خطابه لكل خلقه عن الأرض : (بأن ربك أوحى لها) . فإذا كان الحق قد أوحى للأرض

لتبرز الكنوز أو تحدث الزلازل ، فما بالنا بكل شيء آخر ؟ . إن كل شيء إنما يسير بأمر الله ، ذلك أن كل شيء يسبح بحمد الله ، ولكن الإنسان لا يفقه لغات غيره من الكائنات : (ولكن لا تفقهون تسبيحهم) .

وخطاب الله لكل خلقه يفهمه المنفعل له من أى جنس من أجناس الوجود ، ولو علمك الله هذا الانفعال ، لسمعت لغة الكائنات الأخرى . مثال ذلك سيدنا سليمان عليه السلام الذى سمع قول نملة لبقية النمل :

﴿ ٱدْخُلُوا۟ مَسَـٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ ﴾

(من الآية ١٨ سورة النمل)

وماذا قال سليمان من بعد ذلك ؟ .

قال سليمان :

﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ ﴾

(من الآية ١٩ سورة النمل)

وهو سبحانه القائل :

﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ﴾

(من الآية ٧٩ سورة الأنبياء)

والهدهد قال فى القرآن :

﴿ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾

(من الآية ٢٥ سورة النمل)

إذن فكل كائن فى الوجود يعرف قضية الإيمان وقضية التوحيد . وكل من فى الوجود ينفعل لربه . وهكذا كل الأشياء التى تحفظ للإنسان حياته أو نوعه . فماذا عن حال من يتمرد على الله ؟ . إنه سبحانه قد يقول للأسباب : انقبضى عنه . ونرى ذلك فى حال بعض البلاد على ألوان مختلفة ، فالبلاد التى تقع فى منطقة يعرف عنها أنها دائمة المطر ، يخرق الله طبيعة البيئة فتصير إلى جفاف ، وغيرها التى تستطيع أن تصل إلى الفضاء الخارجى . لا تقدر على مواجهة إعصار ، وذلك ليتأكد لنا أن يد المكوّن ـ سبحانه ـ فوق أسباب الكون .

لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : « ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم » أى أن يأتى الخير من كل

ناحية . فإذا كان يراد بالأكل الأكل المباشر ، فالمطر هو الذى ينزل من أعلى يروى الأرض فيخرج الزرع ، وكذلك النخل يعلونا ويأتينا بالتمر ، وكذلك أشجار الفاكهة من برتقال وتفاح وغير ذلك . أما ما تحت الأقدام فهى الخضراوات ، والفواكه التى تنمو دون أن يكون لأى منها ساق على الأرض كالبطيخ والشمام وغير ذلك .

ولنا فى سقوط الفاكهة من على أشجارها العالية بعد تمام النضج الحكمة البالغة ، فالرزق الذى طاب وإن لم تسع إليه يأت إليك تحت قدمك .

وإن توسعنا فى فهم قوله الحق : « لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم » . فلله أسرار فوق الأسرار ، وله فيما تحت الأرض أسرار . ألَا نأخذ كل شىء يعيننا على الحياة من طبيعة الأرض سواء أكان حديداً أم نحاساً أم بترولاً ؟ . وهكذا نجد أن كل شىء فى الوجود يخدم بقاء نوع الإنسان أو استبقاء حياته هو من عطاء الله .

إذن فلو أن أهل الكتاب أقاموا التوراة والإنجيل والقرآن وساروا على المنهج لوهبهم الله كل خير . ويؤكد الحق هذا المعنى فى آية أخرى فيقول : (ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض) .

ونرى أن الحق قد أفاء على بعض الناس من النعمة الشىء الواسع والكثير ومن بعد ذلك يطغى أهلها بالنعمة فيمهلهم ربنا إلى أن يعلو أمرهم ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر . وحياتنا المعاصرة خير شاهد على ذلك ؛ فكل بلد أخذت نعمة الله لتحاج بها الله وتكون ضد منهج الله نجدها تبوء بالفساد . ويأتى بأس أهلها فيما بينهم شديداً ويخربون بيوتهم بأيديهم . وكم من بلاد كانت متعة الناس أن يذهبوا إليها للترف أو الانفلات . ثم يأتى بأس أهلها بينهم وتخرب بأيدى أبنائها . وفى واقع الكون ما يؤيد صدق ذلك ، وكأن الحق يقول لنا : اعتبروا يا أولى الأبصار .

ويقول سبحانه :

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ ﴾ (من الآية ١١٢ سورة النحل)

والمراد بالقرية ليس قرية الريف التى نتعارف عليها اليوم ؛ لأن القرية فى عرف العربى القديم هى المكان الذى يقابل العاصمة . وكانت البيئة العربية قديماً بيئة « التبدّى » أى أنهم يقيمون فى البادية وينتقلون من مكان إلى مكان ، ولم يكونوا متوطنين فى مكان واحد . وكانت عاصمة البدو هى القرية التى تتكون من عدد صغير من البيوت . ولذلك يسمى القرآن الكريم « مكة » بأم القرى . ويضرب الله مثلاً بالقرية الآمنة المطمئنة التى يأتيها رزقها واسعا من كل مكان ، أى أن خيرها ليس ذاتياً ولا نابعاً منها ولكن يأتيها من كل مكان . وفى العصر الذى نعيشه نجد أن خير الدنيا يصب فى قلب بعض القرى ، وما إن يكفر أهل القرية بأنعم الله فما الذى يحدث ؟

﴿ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ ﴾

(من الآية ١١٢ سورة النحل)

وهذا واقع نراه فى كثير من البلاد التى أخذت نعمة الله فبدلتها كفراً فأحلوا قومهم دار البوار . ويرينا سبحانه القرى التى يلبسها الحق لباس الجوع والخوف . وعندما ننظر إلى قول الحق : « لباس » نرى أن الجوع له لذعة ، واللباس له شمول ويلفهم الجوع كما يلفهم الثوب ، وكذلك الخوف فتصير كل جارحة فيهم خائفة : أى أن الحق سلط عليهم الجوع فلا يجدون موادّ الاقتيات . وكذلك الخوف يأتيهم فإما أن يكون الخوف بسبب بأسهم فيما بينهم لأن عداوة بعضهم بعضا شديدة ، وإما أن يكون الخوف من عدو خارج عنهم . وهذا واقع معاصر .

وكيف يكون الكفر بنعم الله ؟ الكفر بنعم الله إما أن يكون بمعنى ستر النعمة . واستعمالها فى معاصى الله ، ومثله مثل الكفر بالله أى ستر وجود الله ، وقد يكون الكفر بنعمة الله بالتكاسل عن استنباط النعمة من مظانها . وفساد العالم الآن يأتى من أناس كُسالى عن استنباط نعم الله المطمورة فى كونه ، وأناس يجدّون فى استنباط نعم الله ويحبسونها لأنفسهم ولا يعطون منها الضعاف ، ويستخدمون النعمة فى المعاصى . إذن فقوله الحق :

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

وقوله الحق : « ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم » . هو حكم عام ؛ فهل وُجِدَ من يؤديه ؟ . نعم ؛ هناك أناس منهم عرفوا ذلك وساروا إلى السبيل المستقيم ، وعن هؤلاء يقول سبحانه : « منهم أمة مقتصدة » والمقتصد هو الذى يسير فى السبيل القاصد ، وهو السبيل المستقيم إلى الغرض فلا ينحرف هنا أو هناك .

إذن قوله الحق : « منهم أمة مقتصدة » . أى منهم أمة تسير إلى أغراضها وإلى غايتها على الطريق المستقيم . وهذه إشارة إلى أن بعضاً من أهل الكتاب يفعل ذلك ، والبعض الآخر لا يفعل ، وهذا القول أشار أيضاً إلى أن الحق سبحانه وتعالى لا يُخلى وجوده وكونه من خلية خير فيه ، وقد تكون خلية الخير هذه من أضعف الناس الذين لا شوكة لهم فى الدنيا ولا جاه ولا قوة . ولولا هؤلاء الناس لهدّ الله الأرض ومن عليها . ويوضح الرسول صلى الله عليه وسلم هذا الأمر بقوله : « لولا عبادٌ لله رُكع ، وصبية رضع ، وبهائم رُتّع لصُبّ عليكم العذاب صبا ثم رُصَّ رَصّا »[1] .

كأننا مكرمون فى هذا العالم من أجل الضعاف فينا . وكأن الحق لا يحجب الخير عن كونه ، بل يجعل فى الكون ذرات استبقاء للخير . ولذلك نجد من يقول : إذا بالغ الناس فى الإلحاد زاد الله فى المد . وقد تجد بلداً كلها من الملاحدة ، وتجد فيها عبداً واحداً متبتلاً لربه ، ويكون هذا الرجل هو الذى يستبقى الله من أجله هواء تلك البلدة وماءها . ولذلك قال سبحانه : « منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء ما يعملون » .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن

(١) رواه الطبرانى فى المعجم الكبير والبيهقى فى السنن الكبرى .

لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾

تبدأ الآية بخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم . ومن عظمة رسولنا المصطفى عليه الصلاة والسلام وعلو مكانته عند من اصطفاه خاتماً لرسالاته فى الأرض أن الله ذكر الرسل فى خطابه لهم بنداء أسمائهم فقط كقوله الحق :

﴿ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ﴾

(من الآية ٣٣ سورة البقرة)

أو قوله الحق :

﴿ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة القصص)

أو قوله الحق :

﴿ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ﴾

(من الآية ١١٦ سورة المائدة)

أو قوله الحق :

﴿ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ ﴾

(من الآية ٤٨ سورة هود)

فسبحانه ينادى كل رسول له بالاسم المشخص للذات بصرف النظر عن أى صفة ، لكن رسول الله لم يُنَاد باسمه أبداً بل ناداه الحق بالمشخص للوصف : « يا أيها الرسول » . أو قوله الحق : « يا أيها النبى » .

فكأنك يا رسول الله قد اجتمعت فيك كل مسائل الرسالة لأنك صاحب الدين الذى سينتهى العالم عنده ولا يكون بعد ذلك لله فى الأرض رسالة إلا فهم يؤتيه الله لأحد فى كتاب الله .

ومن عظمة الرسول صلى الله عليه وسلم أن الله أقسم بحياته ، على الرغم من أن الحق لا يقسم بحياة أحد من البشر إلا رسوله ، فقد أقسم بحياته . وهو سبحانه

يقسم بما يشاء على ما يشاء ، أقسم بالريح والضحى والليل والملائكة ، لكنه ما حلف بحياة بشر أبداً إلا حياة محمد صلى الله عليه وسلم :

﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾

(سورة الحجر)

أى وحياتك يا محمد هم فى سكرتهم يعمهون أى يترددون حيارى . ويقول الحق هنا مخاطباً الرسول : « يا أيها الرسول » . ومادام محمد هو الرسول الخاتم الذى جاء مصدقاً لما بين أيديهم من الكتب ، فمعنى هذا أن كل خير فى أى كتاب سبق القرآن موجود فى القرآن وفيه أيضا زيادة مما تتطلبه مصالح الحياة المستجدة . ومادام الخطاب للرسول فهذا يعنى أنه رسول مرسل من قبل الله بمنهج لخلقه ليبلغه لهم : « بلغ ما أنزل إليك من ربك » . وكيف يقول الحق لرسوله : « بلِّغ » وهو يعلم أن مهمة الرسول هى البلاغ ؟

لقد أراد سبحانه بذلك إخبار الناس أنه إن أبلغهم بما يكره بعضهم فهو يبلغ التزاماً بأمر الله ، فهو لا يقول من عنده ، ذلك أن الرسول عليه البلاغ ، فإن أبلغ أحداً ما يكدره فليس له مصلحة فى ذلك . ويورد سبحانه ذلك حتى إذا بَلَّغ الرسول حكماً من الأحكام فعليهم أن يستقبلوا الحكم على أساس أنه قادم من الله . وسبحانه يعلم أن رسوله لا يكتم البلاغ ولكن ليجعل لرسوله العذر عند البشر ، فهو سبحانه حين يخاطبهم بشىء قد يكرهونه ، فهو بلاغ من الله : « يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته » . أى أنه إن لم يفعل ولو فى جزئية يسيرة من المنهج فهذا معناه أن البلاغ ناقص والله يريد أن يكون البلاغ كاملاً بالدين المتكامل .

إن التركيبة الإيمانية تقتضى أن يأتى القول بهذه الطريقة حتى ينسجم البلاغ بشكل كامل ؛ فقد نزل المنهج بكليته ، ويجب أن يُطبق بكليته من أجل أن ينصلح الكون وحتى لاتفسد حركة الإنسان فى الكون، فقد أنزل سبحانه المنهج وأحكمه ليسير العالم على حسب تصميمه له دون أن يختل . ولذلك يقول الحق : « وإن لم تفعل فما بلغت رسالته » . وبذلك يعطى الحق رسوله المناعة الكاملة . فلم يأت برسالة محمد صلى الله عليه وسلم إلا لخير الناس .

لقد سبق أنَ خلق الله آدم وأعطاه المنهج . وكان على آدم أن يبلغ المنهج إلى الذرية وقد فعل ، لكنَّ بعضاً من أجيال بنى آدم غفلت عن المنهج ؛ فيبعث الحق الرسل لتذكر بالمنهج . ولا يأتى رسول إلا بعد أن يكون الفساد قد فشا وانتشر بين الناس . وقد جعل الله فى النفس الإنسانية نفساً لوامة ، ونفساً تأمر بالسوء ، ونفساً مطمئنة .

إن مهمة النفس اللوامة هى أن ترد على كل ما توسوس به النفس الأمارة بالسوء . لكن إن لم تلم النفس اللوامة ، فالنفس الآمرة بالسوء تتمادى ولا يردعها رادع . أما النفس المطمئنة فهى النفس التى تطمئن إلى منهج الله . ومثال ذلك الإنسان الذى تلح عليه شهوته لارتكاب معصية ما فيرتكبها ، ومن بعد ذلك يندم ويلوم نفسه ، ويتوب عن المعصية ، هذا الإنسان يردع نفسه ذاتياً . لكن إن سيطرت النفس الأمارة بالسوء فلا رادع .

وماذا إذا ساد الفساد بين عموم الناس ؟ وماذا لو لم يتناهَوْا عن المنكر الذى يفعلونه ؟ هنا لا بد أن يرسل الحق رسولاً بمعجزة جديدة ليأخذ العالم إلى منطق الرشاد ومنهج الحق .

ولا يختار الحق الرسول إلا إذا علم الرسول أنه مبلغ عن الله . وسبحانه فى الآية التى نحن بصددها يعطى رسوله المعذرة إن بلغ قومه شيئاً يسوؤهم ، فما على الرسول إلا البلاغ فى قوله : « وإن لم تفعل فما بلغت رسالته » . ونعرف أن الرسالة تقتضى : المرسِل وهو الله ، والمرسَل إليهم وهم الخلق ، ومرسَلاً وهو النبى صلى الله عليه وسلم والمرسَل به وهو ما نزل على الرسول ليبلغه . وفى كل أمر مثل هذا نجد أن كلمة « أرسل » تتعدى إلى مفعولين ؛ المرسَل : مثال ذلك أرسلت فلاناً إلى فلان ، والمرسل إليه : وهو فلان . إذن فهنا مفعولان اثنان ، أولهما تعدى الفعل إليه بذاته والآخر تعدى إليه الفعل بحرف الجر .

وحرف الجر هنا هو : « إلى » . وبطبيعة الحال يعرف الرسول أنه مرسَل إلى الناس من الله رعاية لمصالحهم ؛ فليس فى أمر الرسالة شىء لصالح الله . وإن رأيت تعدياً بـ « إلى » فهو لتحديد الغاية المرسل إليها ، مثل قوله الحق :

﴿ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴾

(من الآية ٤٩ سورة آل عمران)

وهذا يوضح أن عيسى ـ عليه السلام ـ جاء مبعوثاً بمنهج إلى بنى إسرائيل لصالح بنى إسرائيل . ومثلما يقول الحق : وأرسلناك للناس رسولا » . أى لصالح الناس . و« اللام » هنا تفيد المعنيين ؛ النفعية والغاية .

« بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته » أى أنه صلى الله عليه وسلم إن لم يبلغ الرسالة كاملة فمعنى ذلك أن البلاغ يكون ناقصاً . ومعاذ الله أن يكون بلاغ رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أنقص شيئاً ، فمنهج الله كل متكامل .

وقد يقول قائل : ولكن الناس قد لا تؤدى فروض الله فى مواعيدها ، والمثال على ذلك هو الصلاة . ونقول : إن هذا عجز فى إدارة الناس لحياتهم حسب منهج الله . ومن واجب المجتمعات أن تنظم حركة الناس اليومية من بعد صلاة الفجر إلى الظهر . وفى ذلك قدر هائل من الحيوية والنشاط ، وينتهى العمل عند الظهر ، فلا تتصادم حركة الناس مع منهج الله ، ولا توجد عرقلة ولا نشاز فى حركتهم .

ثم يقول الحق : « والله يعصمك من الناس » . وكان لا بد أن يأتى هذا القول الحكيم ؛ لأننا نعرف أن الرسول لا يجىء إلا بعد أن يعم الشر ويسود الفساد ، ذلك أنه لو لم يسد الفساد ، ولم يعم الشر لاكتفى الله بالمجتمع ليردع بعضه بعضاً ، أو يكتفى الحق بأن تردع النفسُ اللوّامةُ النفسَ الأمارةَ بالسوء لتستوى النفس المطمئنة على عرش السلوك البشرى .

لكن عندما يعم الفساد الكونَ . فالسماء ترسل الرسول بمنهج يصلح حال البشرية . وبطبيعة الحال لن يترك المجتمعُ الشريرُ الرسولَ لحاله بل يقاومه ؛ لأن مثل هذا المجتمع يريد أن تكون كفة الكون غير متوازنة ؛ لأن هناك منتفعين بالفساد والشر ، وهم المدافعون عن الفساد ، فإن جاء من ينصف الضعفاء والمظلومين فلا بد أن يتعرض للمتاعب التى تأتيه من قبل الأقوياء المفسدين .

إن هذه المتاعب تبدأ أول ما تبدأ فى النفس ؛ ولأن الرسول مخاطب من الله فيمكنه أن يتحملها ؛ لأن الحق قد أعده لهذه المهمة ، ومثل تلك المتاعب تأتى أيضاً للأتباع ، لذلك يمدهم الله بالمدد الذى يجعنهم يتحملونها . والحق يحفظ للرسول ذاته على الرغم من كل ما يحدث : « والله يعصمك من الناس » .

فكأن الحق يقول لرسوله : اطمئن يا محمد ؛ لأن من أرسلك هداية للناس لن يخلى بينك وبين الناس . ولن يجرؤ أحد أن ينهى حياتك . ولكنى سأمكنك من الحياة إلى أن تكمل رسالتك . وإياك أن يدخل فى رُوعك أن الناس يقدرون عليك ، صحيح أنك قد تتألم ، وقد تعانى من أعراض التعب فى أثناء الدعوة ، ولكن هناك حماية إلهية لك . ونحن نعلم قدر المتاعب التى تعرض لها الرسول صلى الله عليه وسلم . ألم تكسر رَباعيته[1] صلى الله عليه وسلم فى غزوة أحد ؟ ألم يشج وجهه ؟ ألم تدم أصبعه فيقول : « إن أنت إلا أصبع دميت وفى سبيل الله ما لقيت »[2] .

لكن قول الحق سبحانه لرسوله : « والله يعصمك من الناس » لم يكن المقصود هو منع الجهاد فى سبيل الله والمعاناة فى سبيل نشر الدعوة . ولكن الحق يبين لرسوله : إن أحداً غير قادر على أن يأخذ حياتك .

ولم يمنع سبحانه المتاعب عن رسوله الكريم حتى لا يكون هناك أحد الداعين إلى الله لا يتحمل من الآلام أكثر مما تحمل رسوله صلى الله عليه وسلم ، ولننظر ونستمع جيدا إلى ما ترويه عائشة أم المؤمنين ـ رضى الله عنها ـ حول هذه الآية إنّها قالت :

« سهر رسول الله ذات ليلة وأنا إلى جنبه ، فقلت : يا رسول الله ما شأنك ؟ قال : (ليت رجلاً صالحاً من أصحابى يحرسنى الليلة) . قالت : وبينما نحن فى ذلك إذ سمعت صوت سلاح فقال صلى الله عليه وسلم : من هذا ؟ فقالوا : سعد وحذيفة جئنا نحرسك. فنام صلى الله عليه وسلم حتى سمعت غطيطه ونزلت هذه

---

(١) الرَّبَاعيَّة : السن بين الثنية والناب .

(٢) رواه البيهقى فى دلائل النبوة .

الآية فأخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم رأسه من قُبّة أدَم وقال : « انصرفوا أيها الناس فقد عصمنى الله »[١] .

وهناك باحثة بلجيكية عكفت على دراسة سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى وصلت إلى هذه النقطة ، فتوقفت عندها لتقول : لو كان هذا الرجل يخدع الناس جميعاً ما خدع نفسه فى حياته ، ولو لم يكن واثقاً من أن الله يحرسه لما فعل ذلك كتجربة واقعية تدل على ثقته فى خالقه . وأضافت الباحثة البلجيكية : ولذلك أنا أقول بملء اليقين : « أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله » . لقد أسلمت المرأة لمجرد وقوفها عند لمحة واحدة من لمحات حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ويقول الحق من بعد ذلك : «إن الله لا يهدى القوم الكافرين » . ونعرف أن الهداية تعنى الدلالة الموصلة إلى الغاية ، وهى أيضا المعونة التى توصل طالب الهداية إلى الغاية . وكان الكفار الذين يبيتون للرسول وينهكون أنفسهم فى المكر والتفكير والتبييت ، فيقطع الحق سبحانه وتعالى عليهم كل سبيل ، وينصره عليهم ، ويأتى التطبيق العملى لنصر الله للمؤمنين فى بدر :

﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ٢٤٩ سورة البقرة)

لقد بيتوا ، ولكن عند المواجهة لم يقدروا على محمد صلى الله عليه وسلم وصحبه ولم يستطعوا إيذاءه ، برغم المكر والتبييت ؛ لأن الحق قطع عليهم كل سبيل لإيذاء محمد ، ولن توجد وسيلة من وسائل اللؤم والخبث قادرة على قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد تمثل ذلك يوم خرج رسول الله مهاجراً وغطى الله أبصار فتيان القبائل الذين حملوا سيوفهم ليقتلوا محمداً وليفرق دمُه بين القبائل فلم يبصروه لأن الله جعل على أبصارهم غشاوة .

إذن فكلما فكروا فى طريقة سد الله عليهم منافذ تنفيذ فكرتهم . وكأنه يقول لهم : لن تستطيعوا مصادمة محمد فى منهجه لا بالعلن ولا بالدس ولا بالخفية ، بل أنتم

---

(١) رواه القرطبى ، وروى مسلم قالت : ـ أى السيدة عائشة ـ فبينما نحن كذلك سمعنا خشخشة سلاح (أى صوته) فقال : من هذا ؟ قال سعد بن أبى وقاص فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم : ما جاء بك ؟ فقال وقع فى نفسى خوف على رسول الله صلى الله عليه وسلم فجئت أحرسه فدعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم نام .

ـ أيها الكفار ـ تخدمون الدعوة من حيث تريدون هدمها ، فقيامكم ضد محمد فى بداية الدعوة كان لإثبات أن الحق جل وعلا أراد أن يشتد عود الدعوة بكفر أهل قريش . وعندما أردتم قتل محمد وأن يتفرق دمه بين القبائل خرج محمد سالماً وأغشى الله أبصار الذين أرادوا القتل ، وهاجر صلى الله عليه وسلم . وفى الطريق إلى الهجرة يكون دليله من الكفار وهو عبدالله بن أريقط . كان ذلك لنعلم أن الكفر كان وسيلة الهداية إلى طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم .

عبدالله بن أريقط وهو كافر لا تغريه المكافأة أن يشىَ ويسعى بالرسول لدى مشركى مكة . ولكنهم لم يتخذوا من كل ذلك عبرة . وكذلك الغنم تُعفِّى الأثر ، والأرض تشد قوائم فرس سراقة لتغوص وتسوخ فيها .

إذن فكل جنود الله فى صف محمد بن عبدالله . وهكذا رأينا كيف لم يهد الحق القوم الكافرين إلى الغاية التى أرادوها وهى التمكن من محمد صلى الله عليه وسلم ، وأيضاً لا يهديهم الله إلى الإيمان . ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾

و« قل » ـ كما نعرف ـ هى خطاب له صلى الله عليه وسلم ، وما يلى ذلك بلاغ من الله لأهل الكتاب إنهم بلا منهج لأنهم لم يقيموا التوراة والإنجيل بل حرفوهما ، ولم يؤمنوا بالقرآن ، وهو المنهج الكامل المنزل على محمد بن عبدالله .

وحين يقول الحق : « لستم على شيء » فكلمة « شيء » تقال لأدنى فرد من أى جنس ، فالقشة شيء ، وورقة الشجرة شيء ، وما يطلق عليه شيء - إذن - هو الأقل .

وقوله الحق : « لستم على شيء » أى إياكم أن تظنوا أنكم حين تقومون بتنفيذ جزء من تعاليم التوراة والإنجيل وتخفون الباقى وتهملونه تكونون قد أخذتم شيئاً من الهداية ، لا ؛ فأنتم لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وتؤمنوا بالكتاب الذى أنزل على محمد . والمنهج ليس عرضة لأن تأخذوا منه ما يعجبكم وأن تتركوا ما لا يعجبكم .

وعندما يقال : « لستم على شيء » . ونعرف أن الشيء هو أقل مرتبة فى الوجود ، ولذلك نقول : شيء خير من لا شيء . ويقال بالعامية : هاش خير من لاش و« هاش » هو الهالك من ثياب المنزل الممزقة ، أى أن الذى يملك ملابس ممزقة أفضل ممن لا يملك شيئاً على الإطلاق .

وقوله الحق : « لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم » هو إيضاح لهم أنهم فى المرتبة الأدنى من الكائنات لأنهم بلا منهج . ويضيف : « وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً » أى أنهم لن يظلوا على درجة واحدة ثابتة من الطغيان والكفر ، بل كلما أنزل الحق إليك آية يا محمد ، وكلما نصرك الله فى أمر ازدادوا هم طغياناً وكفراً . وكان من المفروض أن زيادة نزول الآيات لرسول الله صلى الله عليه وسلم تكون إضعافاً لتشددهم وترقيقا لقلوبهم ، لكنه سبحانه أراد أن تشتد شراستهم وحقدهم فى أمر الاعتراف بالإسلام .

وقد حدث من خالد بن الوليد وكان فارس الجاهلية ضد الإسلام أن قال لعمرو ابن العاص : لقد استقر الأمر لمحمد . واتجه الاثنان إلى الإسلام على الرغم من أن كلا منهما يعرف قوته ومكانته بين قومه . وبعد أن رأى خالد وعمرو أن الخيبة هى نصيب الواقف ضد محمد مهما علا شأنه ، ذهبا إلى الإسلام ، وهذا هو موقف المتدبر للأمر دون حقد ولَدَد . أما الذى يزدحم بالمعاناة حقداً ولدداً فتزيده آيات الله لنصرة

منهجه حقداً ولدداً وطغياناً ؛ لأن الله شاء ألا يهديهم . ولذلك تصير كل آية فى صف الإيمان والمؤمنين مصدرَ إثارةٍ وغيظ ومرارة فى نفوس أهل الكفر . وهكذا يوطن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره تجاه هؤلاء الكفار .

إنك يا رسول الله لا تواجه طاقة محدودة ولكنك تواجه طاقة من الشر النامى . وكل آية إنما تهدى الذى فى أعماقه بذرة من خير ، أما الذى ينتفى الخير من داخله فالمسألة تزيده شراسة فى قلبه. إن الشرير يُصَعِّد الشر ويزداد جُرمه وإثمه، أما الخير فينزل من قِمّةِ الجرم إلى أقل درجة . ولنا المثل فى قصة سيدنا يوسف عليه السلام ، فالحق يقول على لسان إخوة يوسف :

﴿ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾

(من الآية ٨ سورة يوسف)

ومن بعد ذلك قالوا لأبيهم : « مالك لا تأمنا على يوسف » . ثم أخذوا فى التبييت والتدبير وقالوا : « أرسله معنا غداً يرتع ويلعب » . وكان أول تدبير لهم هو ما قاله الحق حكاية عنهم : « اقتلوا يوسف » .

ومعنى القتل هو إزهاق الروح ، وهذه أعلى درجات الشر ، لكنهم يتراجعون عنها ويقولون : « أو اطرحوه أرضاً » . فهم لم يرغبوا فى قتله ، واكتفوا بأن يتركوه فى مكان بعيد ، وتصوروا أن بعض السيارة قد يلتقطه فيبعدون يوسف عن أبيه . إذن هم بدأوا التدبير قتلاً ، ثم انتهوا بالتفكير لنجاة يوسف :

﴿ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ ﴾

(من الآية ٩ سورة يوسف)

والمرحلة الثالثة قولهم : « ألقوه فى غيابة الجب » والجب فيه مياه ، وهناك أناس كثيرون يذهبون إلى مصادر المياه . هكذا يورد الحق لنا كيفية نمو الخير من بطن الكيد .

إذن . فقوله الحق : « وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً » أى أن الكثير منهم سيواصل رحلة التصعيد فى الشر ، فوطن نفسك يا محمد على ذلك .

ونلحظ أن الحق قد وضع صيانة لاحتمال أن تفكر قلة منهم فى الإيمان ، لذلك لم يشملهم كلهم بالحكم ، ولكن الحكم شمل الكثرة من هؤلاء الكافرين . ولذلك يقول الحق لرسوله : « فلا تأس على القوم الكافرين » أى لا تحزن عليهم يا رسول الله . فعلى الرغم من عداوة وشراسة من صادموا دعوته صلى الله عليه وسلم ومحاولتهم كل تلك المحاولات ، كان لا يكف عن الدعاء لهم : « اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون »[1] . وكان لا يكف عن القول : « لعل الله يخرج من أصلابهم من يعبد الله »[2] وقد تم ذلك بالفعل .

وكان الصحابة بعد الغزوات الأولى يقول كل منهم للآخر : أنا حزين لأن عمرًا أفلت منى ولم أقتله . فيقول الآخر : وأنا حزين لأن عكرمة أفلت منى . ويقول الثالث : وأنا لا أدرى كيف أفلت منا خالد بن الوليد . ولم يمكن الحق الصحابة الأوائل من هؤلاء المقاتلين الأشاوس لأنه يدخرهم للإسلام ، فكان عدم تمكين المسلمين من هؤلاء تمكيناً للإسلام ليحملوا السيف للإسلام مدافعين وناشرين لدعوته . وها هوذا عكرمة بن أبى جهل يتلقى الطعنة الأخيرة فى حياته فيضع رأسه على فخذ خالد بن الوليد ويسأله : أهذه ميتة ترضى عنى رسول الله ؟ إذن فقد أراد الله من عدم تمكين المسلمين منهم فى أوائل الغزوات أن يكونوا جندًا للإسلام بقدراتهم القتالية فاستبقاهم أحياء ليخدموا الدعوة . ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾

---

(١) أخرجه الزبيدى فى إتحاف السادة المتقين ، والسيوطى فى الدر المنثور .

(٢) رواه البخارى فى بدء الخلق ، ومسلم فى الجهاد .

هم - إذن - أربعة ألوان من الذين لم يؤمنوا برسالة رسول الله . وهذه الآية وردت فى صورتها العامة ثلاث مرات ، مرة فى سورة البقرة ، ومرة هنا فى سورة المائدة ، ومرة فى سورة الحج .

ففى سورة البقرة يقول الحق :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾

(سورة البقرة)

ولنلحظ أن كلمة « الصابئين » فى هذه الآية منصوبة .

وفى سورة المائدة نجد قول الحق :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّـٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾

(سورة المائدة)

ولنلحظ أن كلمة « الصابئون » هنا مرفوعة ومقدمة على كلمة « النصارى » .

وفى آية سورة الحج يقول الحق :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة الحج)

هنا إخبار عن أربعة ، وزاد الحق عليهم اثنين فى آية الحج ، ونجد أن الإخبار يختلف ، وكذلك يختلف الأسلوب ، فمرة تتقدم النصارى على الصابئين ، ومرة تتقدم الصابئون على النصارى . ومرة تكون الصابئون مرفوعة ، ومرة تكون منصوبة بالياء .

وأما اختلاف الإخبار ، فهو سبحانه يخبرنا فى سورة البقرة فيقول :

﴿ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

(من الآية ٦٢ سورة البقرة)

والخبر فى سورة المائدة هو :

﴿ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

(من الآية ٦٩ سورة المائدة)

والخبر فى سورة الحج هو :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾

(من الآية ١٧ سورة الحج)

والآيات الثلاث فى مجموعها تتعرض لمعنى واحد ، ولكن الأساليب مختلفة وكذلك الغايات فيها مختلفة .

ونلحظ هنا أن الحق قال : « آمنوا » والإيمان هنا هو الإيمان اللفظى أى بالفم وليس بالقلب ، والمتصفون بذلك هم المنافقون والذين هادوا ، هم أتباع موسى ، والنصارى هم أتباع عيسى ، والصابئون ليسوا أتباعاً لأحد فقد كانوا أتباعاً لنوح ثم صبأوا عن ديانة نوح وعبدوا الكواكب ، أو هم قوم عدلوا عن اليهودية والنصرانية وعبدوا الملائكة . والمجوس وهم عبدة النار . إذن فالحق يريد أن يجرى تصفية إيمانية فى الكون ، فمن يبادر ويدخل فى هذه التصفية . يسلم من شر ما فعله قبل مجىء الإسلام ، ذلك أنهم أضلُّوا أناساً أو حكموا بالظلم .

والحق فى سورة البقرة يقول : (فلهم أجرهم عند ربهم) أى أنه ـ سبحانه ـ غفر لهم ما فعلوا من سوء وجزاهم على عملهم الصالح الذى لم يحبطوه ويذهبوه بعمل السيئات والآثام . هذا ما يتعلق بالآيتين . . آية سورة البقرة ، وآية سورة المائدة ، ونلاحظ أن آية سورة المائدة لم يرد فيها قوله : (فلهم أجرهم عند ربهم) ولعل ذلك راجع إلى الاكتفاء بذكرها فى سورة البقرة ، وذلك له نظير فى القرآن الكريم . . كحمل المطلق على المقيد ونحو ذلك .

أما آية سورة الحج فهى التى يأتى فيها الحكم : « إن الله يفصل بينهم يوم القيامة » كأنهم لن يؤمنوا ولن يعملوا الصالح ، فتكون هذه هى التصفية العقدية فى الكون .

وقد جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصفى المسألة الإيمانية فى الأرض ويقول عن المؤمنين بألسنتهم وهم المنافقون : « إن الذين آمنوا » وهو ابتداء الخبر ، وتكون فيه « الذين آمنوا » فى محل نصب لأنه اسم « إن » كما يقول النحاة ، وهو سبحانه قال هنا : و« الصابئون » وهى معطوفة على منصوب . وهذا كسر للإعراب . إنّ الإعراب يقتضى أن تكون الكلمة منصوبة فتكون « الصابئين » لماذا إذن عدل الحق عن إنزال الكلمة حسب سياقها من الإعراب وأنزلها بكسر الإعراب مع أنه فى آية أخرى قال : (إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين) .

لقد جاءت هنا فى مكانها ودون كسر للإعراب ، وهى قد جاءت مرة قبل كلمة « النصارى » وجاءت مرة أخرى بعد كلمة « النصارى » . وهنا لا بد أن نتعرف على زمنية الصابئين ، فقد كانوا قوماً متقدمين قبل مجىء النصرانية ، فإن أردنا أن نعرف زمانهم نجد القول الحق يقدمهم على النصارى ، وإن أردنا أن نعرف منزلتهم فإننا نقرؤها فى موضع آخر فى القرآن ونجدهم يأتون بعد « النصارى » . إذن فعندما أرّخ الحق لزمانهم جاء بهم متقدمين ، وعندما أرّخ لكمّهم وعددهم ومقدارهم يؤخرهم عن النصارى ؛ لأنهم أقل عدداً فهم لا يمثلون جمهرة كثيرة كالنصارى .

وجاء بها الحق مرة منصوبة ومرة مرفوعة ، لنعرف ونلتفت إليهم . وكسر الإعراب كان لمقتضى لفت الانتباه . وكان الصابئة قوماً يعبدون الكواكب والملائكة ، وهذا لون من الضلال .

إذن فهناك اليهود الذى عرفوا أن هناك إلهاً ، وجاء موسى عليه السلام مبلغاً عنه ، وهناك النصارى الذين عرفوا أن هناك إلهاً ، وجاء عيسى ابن مريم ـ عليه السلام ـ مبلغاً عنه ، وهناك المنافقون الذى أعلنوا الإيمان بألسنتهم ولكن لم يلمس الإيمان قلوبهم .

وأراد الحق أن يلفتنا إلى أن الصابئين هم قوم خرجوا عن دائرة التسليم بوجود إله خالق غيب ، ويحدثنا الحق أنه يغفر لهم إن آمنوا وعملوا صالحاً . فالإيمان بالله شرط أساسى لقبول العمل الصالح والإثابة عليه . وجاء بهم متقدمين على النصارى احتراسا وتوقيا من مظنة أنه لا يعفو عنهم إن آمنوا وعملوا العمل الصالح .

ونلحظ أنها جاءت أيضاً فى معرض جمع الله فيه بينهم وبين من يعبدون أغياراً من دون الله ؛ لأن من يلصق ألوهية بغير الله يكون كمن عبد الكواكب وخرج عن التوحيد .

إنه سبحانه وتعالى يتيح لكل إنسان أن يدخل حظيرة الإيمان ويقيم تصفية عقدية يدخل فيها الكل إلى رحاب الإيمان ويقطعون صلة لهم بالشرك . فلو آمن المنافقون واليهود والنصارى والصابئون وعملوا الصالحات فلهم الأجر والمثوبة من الله ولا خوف عليهم من عذاب الآخرة ولا يحزنون على ما فاتهم من الدنيا ، وجاء العمل الصالح بعد الإيمان ؛ لأن الإيمان إذا لم يقترن بعمل صالح يكون عرضة للسلب والعياذ بالله ولا فائدة فيه ، وسبحانه يريد أن يسيطر الإيمان على حركة الحياة بالعمل الصالح فيأمر كل مؤمن بصالح العمل حتى يكون لهم الأجر عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

أما الذين يصرّون على موقفهم الكفرى ، فإن الله يفصل بينهم يوم القيامة لأنه على كل شىء شهيد . وكلمة « يفصل » تدلنا على أنه سبحانه وتعالى سيصدر الحكم الذى يبين صاحب الحق من غيره . ونعرف أن الذى يحكم إنما يحكم ببينة . والبينة هى الإقرار ، والإقرار ـ بلغة القانون ـ سيد الأدلة . أو الحكم بشهود ، أو الحكم باليمين ، وهو سبحانه يفصل بين المواقف المختلفة . والفصل هو القضاء بحكم . وعندما يكون الذى يحكم هو الذى شهد ، فهو العادل . لذلك قال الحق : « إن الله على كل شىء شهيد » .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾

والميثاق هو العهد المؤكد الموثق ، الذى يقتضى الوفاء الشديد . ولا تُوثق العهود إلا مظنة المخالفة . والمواثيق فى الإيمان بالله كثيرة . فهناك الميثاق الأول عندما كنا جميعاً فى ظهور الآباء .

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا ﴾

(من الآية ١٧٢ سورة الأعراف)

أو الميثاق الذى أخذه الله لنصرة رسول الله صلى الله عليه وسلم :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

أو الميثاق الخاص الذى أخذ على كل أمة . وفى كل جزئية من جزئيات الدين يؤخذ ميثاق ، فنحن فى الإسلام مأخوذ علينا الكثير من المواثيق . وكذلك رأينا النبى وقد أخذ لنفسه الميثاق فى العقبة ، رأى الرسول أن ما يربطه بالأوس والخزرج الكثير ، كما يربطه بكل قوم يحنون إلى الوحدة تحت راية إيمان واحد ، وكان اليهود

يعتبرون عرب الأوس والخزرج مجرد همج وخدم يعملون لهم ، وارتأوا السيادة لأنفسهم . وكلما اختلفوا معهم هددوهم بمجىء رسول قادم سيؤمنون به وسيقتلونهم تقتيلاً .

وكان كل من الأوس والخزرج يحاول أن يستميل اليهود إليه ؛ فالأوس حالفت بنى قريظة . وحالف الخزرج بنى قينقاع وبنى النضير . وتلقى الاثنان الوعيد من اليهود بعد ظهور النبى القادم ، وذلك ما جعل كلاً من الأوس والخزرج يُسرع إلى التعرف على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجاء فى موسم الحج نفر من ستة رجال ودعاهم صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام فآمنوا به صلى الله عليه وسلم وقالوا : إنا تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم فعسى أن يجمعهم الله بك فسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك ونعرض عليهم الذى أجبناك إليه من هذا الدين فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك .

وجاءوا فى العام الذى يلى ذلك إلى موسم الحج وزادوا حتى صاروا اثنى عشر رجلاً . وكانت المعاهدة ألا يشرك منهم أحد بالله وألا يسرق وألا يزنى وألا يقتل أولاده وألا يأتى ببهتان يفتريه بين يديه ورجليه ، ولا يعصى رسول الله فى معروف . وعادوا إلى المدينة ومعهم مصعب بن عمير يعلمهم القرآن . وفى العام الثالث جاء ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان هما نسيبة بنت كعب أم عمارة ، وأسماء بنت عمرو بن عدىّ ، وكانت مبايعتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وزاد من ذلك إرباك قريش ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم :

(أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم) فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال : نعم والذى بعثك بالحق نبيا لنمنعنك مما نمنع منه أزرنا فبايعْنا يا رسول الله ، فنحن والله أبناء الحرب وأهل الحلْقَة (السلاح) وتكلم أبو الهيثم بن التيهان فقال : يا رسول الله إن بيننا وبين الرجال حبالاً وإنا قاطعوها - يعنى اليهود - فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟ فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : « بل الدم الدم والهدم الهدم ، أنا منكم وأنتم منى أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم » . وبسط يده صلى الله عليه وسلم فبايعوه . وكانت بيعة العقبة ميثاقاً يضمن لأهل البيعة الجنة إن أوفوا به . وقد أوفوا . وهذا

لون من العهود والمواثيق . وحين يخبرنا الحق هنا أنه أخذ من بنى إسرائيل الميثاق ، فمعنى ذلك أن هناك عهداً موثقاً مؤكداً :

﴿ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾

(سورة المائدة)

وقد أخذ الحق الميثاق وأرسل رسلاً بالمنهج ، لكنهم كلما جاء إليهم رسول تباحثوا : هل المنهج الذى جاء به على هواهم أو لا ؟ . فإن لم يكن المنهج على هواهم قتلوا الرسول أو كذبوه على الرغم من أن الميثاق عهد مؤكد باتباع الرسول إن جاء بمعجزة ومنهج بلاغاً عن الله وتنفيذاً له فى حركة الحياة .

لكنّ بنى إسرائيل كانوا يتمردون على مناهج الرسل لأنها لا تأتى بما تهواه أنفسهم . وأول التمرد التكذيب . وهو أول خطوة فى طريق الإخلال بالميثاق ، ولم يكتفوا بالتكذيب ، إنما حاولوا حصار الرسول حتى لا يصل المنهج إلى آذان تهتدى به . ولذلك لا يكتفون بالتكذيب بل قد يقتلون الرسول لأنه جاء بما لا تهوى أنفسهم .

ما هو الهوى أولاً ؟ . هو من مادة « الهاء والواو والألف المقصورة التى ترسم ياء » ونجدها منطوقة مرة هَوى ومرة هواء . ومرة « هوى » بضم الهاء وكسر الواو وتشديد الياء ، وكلها تدل على التغلغل والانحياز . والهوَى هو لطف الشىء فى النفس والميل إليه . فالشىء تستلطفه فى نفسك فتنزع إليه نزوعاً وقد يكون غير مستحب أو غير مقبول ولا مشروع .

وهل كل الهوى كذلك ؟ . لا ، لأن هناك هوى الإيمان الذى علمنا إياه رسول الله صلى الله عليه وسلم حين يقول : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به »[1] .

إذن فمن الممكن أن يتجه الهوى إلى الخير . وهو الهوى الذى يحمل النفس على أن يسير الإنسان تبعاً للحق . أما الهواء فهو الذى يتنفسه الإنسان ويستخلص منه

(١) رواه البغوى فى شرح السنة ، والتبريزى فى مشكاة المصابيح والمتقى الهندى فى كنز العمال .

الأوكسجين ليغذى به الجسم وتسير به الحياة . ولذلك يقول الأثر : وأقبلْت كالنَّفَس المرتَدِّ .

إنه الإقبال الرقيق ، فنحن نعرف أننا إن أكلنا شيئاً نحبه فإننا نشعر بطعمه ، وعندما نشرب شيئاً نحبه فنحن نتذوق طعمه ، أما التنفس فهو أمر لا إرادى ، فعندما نتنفس شيئاً نحبه يكون إحساساً لطيفاً .

وهناك نطق ثالث ويعبر عن السقوط ، وهو الهُوِىّ من هَوى يهوى - بالكسر للواو - ولذلك يقال : هُوِىّ الدلو ، أى نزول الدلو إلى المياه التى فى البئر . فأى نوع من الهوى تقصده الآية ؟

يقول الحق : « كلما جاءهم رسول بما لا تهوَى أنفسهم فريقاً كذبوا وفريقاً يقتلون » إذن فالهوى الذى يُتَحَدّث عنه هنا هو هوى النفس المجردة عن المنهج ، وهو الذى يتحكم فى حركة هذه النفس ويقودها إلى غير طاعة الله . وهل ترك الحق النفس الإنسانية دون عاصم لها ؟ لا ؛ لأنه أنزل الرسل تحمل منهجاً ملخصه « افعل » و«لا تفعل » . وهكذا يمكن أن يصير المنهج قَيِّماً على خواطر النفس .

لكن مادام الحق قد أراد أن يكون المنهج قَيِّماً على خواطر النفس ، فلماذا أوجد النفس ؟ . لقد أوجد سبحانه النفس لأن وجودها ينبنى عليه أن يَهوَى إنسان الحق والحلال لاستبقاء النوع وتجويد العمل لحلال الرزق . إذن فالغريزة تكون موجودة وقد خلقها الله لمهمة ، ولكنه يعصمها بالمنهج من الخروج عن مهمتها .

ويقول قائل : مادام الله قد خلق غريزة الجنس . . فلماذا لا نتركها لتعبر عن نفسها ؟ ونقول له : اتق الله واعلم أن الغريزة الجنسية إنما جاءت لبقاء النوع ، واستخدامها فيما يغضب الله فناء للنوع وانحراف يعاقب عليه المنهج .

وكذلك أوجد الحق غريزة حب الطعام ليقيم الإنسان حياته ولم يوجدها للقضاء على الحياة بالنهم والتخمة والشره . وكذلك غريزة حب الاستطلاع ليست موجودة للتجسس على الناس ، ولكن هى لاستكشاف أسرار الكون واستنباط الجديد فيما

ينفع الناس . إذن فكل غريزة إنما توجد من أجل مهمة ، فإن خرجت عن مهمتها ، فالشرع يتحكم ويقول : لا . إن هناك إطاراً يمكن أن تستخدم فيه الغرائز ، والشرع إنما يأتى لا ليمحو الغزائر ، ولكن ليعلِىَ من الغرائز ليستعملها الإنسان فيما ينفع لا فيما يضر .

ويقال فى المثل العربى : « آفة الرأى الهوى » فإذا ما وقف اثنان أمام القاضى وأحدهما مظلوم والآخر ظالم فالقاضى العادل هو الذى يرفع الظلم عن المظلوم حتى وإن كان له هوى مع الظالم . ولذلك نجد الحق قد عصم رسوله فقال :

﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ ﴾

(من الآية ٣ سورة النجم)

والسطحيون هم الذين لا يلتفتون إلى عظمة هذا الأداء البيانى ويتساءلون : مادام الحق يصوب لمحمد فكيف إذن لا ينطق عن الهوى ؟ ونقول : أنتم لا تحسنون الفهم عن الله ولا عن رسول الله ، فعندما صوّب الله لرسوله لم يكن الرسول قد خرج عن حكم أراده الله ، ولم يعدل حكماً لله حسب هواه الشخصى ، وإنما هو ببشريته صلى الله عليه وسلم كان يصل إلى حكمٍ ما ويراه ثم ترى السماء تعديلاً له ، فينطق محمد بالتعديل كما أنزله الله . ولم يخالف صلى الله عليه وسلم ربه فى أى أمر . وجاء كل تصويب لله فى أشياء لم يسبق فيها لله حكم ، وكان كل تصويب قد جاء لاجتهاد بشرى من رسول الله ، ولم يكن فى ذلك أى هوى .

وحين قال الحق : (وما ينطق عن الهوى) . إنما يبلغنا أنه لم يكن عند محمد حكم من الله فخالفه الرسول صلى الله عليه وسلم اتباعاً لهوى ، فمعنى الهوى أن يكون هناك منهج ثم يعدل عنه ، وكل التصويبات التى صوّبها الله جاءت فى أمور لم يكن فيها حكم . ولهذا نجد تصويب الحق لرسوله يتسم باللطف ، فيقول سبحانه :

﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٤٣ ﴾

(سورة التوبة)

وهذا العفو لم يكن نتيجة لمخالفة حكم من أحكام السماء ، ولكن هو عفو سمح ؛ لأن رسول الله أخذ بالاجتهاد البشرى فى الأمور التى لم يكن فيها حكم الله ، وهو قول الحق :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ﴾

(من الآية ١ سورة التحريم)

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم قد حرّم أموراً على نفسه ، ولم يحرمها على الناس ، وهنا يوضح له الحق : لا تحرم على نفسك ما أحللتُ لك . إذن هذا أمر لمصلحة الرسول . وعندما جاء زيد بن حارثة ليخير بين أن يكون مع رسول الله كعبد له، وأن يكون مع أهله، آثر زيدٌ رسول الله ، فكافأه صلى الله عليه وسلم بأن جعله فى مقام الابن ، وكان التبنى معروفا عند العرب ، ونادى الناس زيدا بزيد بن محمد ، فلما أراد الله أن يبطل التبنى قال : (ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله) .

وكلمة « أقسط » تعنى أعدل ، ومعناها أن القسط أيضاً فى دائرة العدل . وعندما يقال : فلان له القسط ، أى له العدل . إذن فالقسط أولاً لرسول الله ، والأكثر قسطاً هو حكم الله ، فكأنك يا محمد قمت بالقسط عند البشر ، ولكن الله يريد لك الأقسط .

إذن فقوله الحق سبحانه : (وما ينطق عن الهوى) . هو قول لا يستدرك عليه من مخالف لمنهج الإسلام ، فإذا ما قال مخالف لمنهج الإسلام : إن الله يصوب لمحمد ، فكيف لا ينطق محمد عن الهوى ؟. نقول : وهل تعرف معنى الهوى ؟ إن الحكم بالهوى يعنى أنّه وجد حكما لله فيعدل الحكم لهواه ، ولم يحدث ذلك من سيدنا ومولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكل تصويب من الله لم يأت على لسان رجل آخر ، إنما جاء على لسان رسول الله نفسه . وهذه هى منتهى الأمانة فى البلاغ عن الله .

والحق يقول عن بنى إسرائيل : « كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم فريقاً كذبوا وفريقاً يقتلون » إذن فهم فريقان : منهم من لا يقبل على الإيمان بالمنهج لهوى فى نفسه فيكذب . ومنهم من تمتلىء نفسه باللدد وشدة الخصومة على الرسول ، ويخشى أن يحيا الرسول لإبلاغ قوم آخرين ، فيحاول أن يقتل الرسول .

والتكذيب هو أول نقطة فى اللدد ، ثم هناك من يترقى فى اللدد ويخشى أن يصل البلاغ إلى قوم آخرين فيحاول أن يقتل الرسول . والتكذيب هو إنكار لقول أو فعل . أما القتل فهو إزالة لأصل الحياة . والذى يقتل هو الأكثر لدداً .

وتتجلى دقة القرآن حين يأتى الحق بصيغة الماضى ، لفئة وصيغة المضارع لفئة أخرى : « فريقاً كذبوا وفريقاً يقتلون » لأن التكذيب هو تأبٍ من المكذَّب ، أما القتل فهو تأبٍ على وجود الرسول مِن الذين يكذبون . والأبشع هو القتل ؛ لأنه إزالة لكل أثرٍ من آثار وجود المقتول . وجاء التكذيب فى صيغة الماضى . وجاء فى المسألة البشعة بصيغة المضارع .

فالحدث حين يكون بشعاً فهو يبرد بعد مرور فترة من الزمن . وهذا ما يجعل المجتمع يثور عندما تحدث جريمة بشعة ، ولكن ما إن تمر عليها عشر سنوات ويصدر الحكم بقتل المجرم لا ينفعل الناس ، بل منهم من يتعاطف مع المجرم . ولذلك يحذرنا الحق أن ننسخ من الأذهان صورة قتلهم للرسل ، بل يجب أن نستحضر بشاعته دائما فلا نعطف على الذين قتلوا الرسل ، وقد قال علماء العربية : إن التعبير بالفعل المضارع يكون لاستحضار صورة الفعل .

وساعة يأمر القاضى العادل بالقصاص من إنسان قتل إنساناً آخر ، فهو لا يجعل القتل حدثاً منسياً لأنه ماض ، بل يستحضره فى ذهنه وكأن دمه مازال ينزف ومكان الطعنة واضحاً ؛ لأنه لا يأخذ شيئاً مستوراً بالماضى ، بل يأخذ شيئاً واقعاً فى الحال . وكأن الحق يأمرنا باستحضار صورة ما حدث أمامنا . ومثال آخر لاستحضار الصورة : نجد الحق يقول لنا :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾

(من الآية ٦٣ سورة الحج)

إنه أنزل الماء ، لكنه يتبع ذلك :

﴿ فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ﴾

(من الآية ٦٣ سورة الحج)

هو سبحانه يستخدم الفعل المضارع لتظل الصورة فى أذهاننا مستحضرة فى الحال وفى الاستقبال . والحق يقول : « فريقاً كذبوا وفريقاً يقتلون » وكيف يقول الحق : إنهم يقتلون الرسل ، والرسل لا تقتل ،وأنه سبحانه يريد أن يجعل لهم من العمر ما يمكنهم من تمام البلاغ عنه ، إن الأنبياء فقط هم الذين يجوز عليهم القتل ؟ ونقول : إن الأنبياء رسل أيضاً بدليل أن الحق قال :

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ ﴾

(من الآية ٥٢ سورة الحج)

إن كليهما مرسل ، والفرق أن الرسول يصحب وينزل معه منهجه ، والنبى مرسل كنموذج هداية بمنهج قد سبق . ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُواْ وَصَمُّواْ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ وَٱللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾ ﴾

« وحسب » إن كانت بفتح الحاء وكسر السين فمعناها الظن ، وإن كانت بفتح الحاء وفتح السين فبمعنى « عد » ، والحسبان هو أن تظن وترجع وجود الشىء . والذين أخذ عليهم الله الميثاق وهم ـ بنو إسرائيل ـ ظنوا أن تكذيب الرسل وقتلهم لا يكون فتنة . ويعنى أنهم لم يعلموا علم اليقين ، وقد رجحوا ألا تكون فتنة . والأصل فى الفتنة ـ كما قلنا ـ عرض الذهب على النار ليتم تنقيته من الشوائب . والفتنة ـ كما نعرف ـ هى الاختبار ، إما أن ينجح فيه الإنسان وإما ألّا ينجح . فكيف جاءهم الظن أن هذا ليس اختباراً ؟ لقد جاءهم هذا الظن من الخطأ الذى وقعوا فيه عندما قالوا :

﴿ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ﴾

(من الآية ١٨ سورة المائدة)

والخطأ الذى تمادوا فيه عندما قالوا :

﴿ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ﴾

(من الآية ٨٠ سورة البقرة)

لقد ظنوا أن الحق سيعاقبهم فقط على عبادة العجل ولن يعاقبهم على أى شىء آخر . وكان هذا ظناً خاطئاً . إن المنهج لم يأت لينجى أناساً بذواتهم مهما فعلوا ، ولكن المنهج جاء ليحاسب كل إنسان حسب ما عمل . ومن العجيب أنهم ظنوا الظن الخاطىء ولم يقوموا بحساب الأمر بحسابه الصحيح على الرغم من أنهم أهل تفوق فى العد والحساب ، فالحساب هو الذى يضمن صحة أمر أو يكذبه . ومن العجيب أن من رحمة الحق بالخلق ساعة يؤاخذهم فهو يقول : لك كذا وعليك كذا . لكن ساعة يرزقهم فهو يرزقهم بغير حساب .

ولكنهم لم يلتفتوا إلى ذلك وقال عنهم الحق : « وحسبوا ألا تكون فتنة » أى ظنوا أن ذلك الأمر لا اختبار فيه وأنهم غير محاسبين عليه. ونعرف أن « أَنْ » تنصب الفعل. وقال لى سائل : لقد سمعت قارىء القرآن فى المذياع ينطقها « وحسبوا ألا تكونُ فتنة » .

وقلت له : إن هناك ثلاثة من أكابر القراء فى صدر الإسلام هم : « أبو عمرو » و« حمزة » و« الكسائى » ، وكان لكل منهم أسلوب متميز . وعندما نعلم أن « أنْ » تنصب الفعل لا بد أن يكون الفعل الذى يليها لا يدل على العلم واليقين والتبين ، « فأن » بعد العلم لا تنصب ، كقوله الحق :

﴿ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾

(من الآية ٢٠ سورة المزمل)

وألفية ابن مالك تقول : (وبلن انصبه وكى كذابأَنْ لا بعد علم) . أما « أن » التى من بعد ظن فمن الممكن أن تنصب ومن الممكن أن يُرفع الفعل بعدها ، فالذى رجح وجود الفعل وأدركه إدذراكا راجحا يرفع ، والذى لم يكن لديه هذا الإدراك الراجح ينصب ، والرفع هو قراءة الكسائى وأبى عمرو وحمزة . فقد بنوا الأمر على أنَّ الرجحان يقرب من اليقين . ومادام قد حدث ذلك تكون « أَنْ » هنا هى « أن » المؤكدة ، لا « أن » الناصبة ويسمونها أن المخففة من الثقيلة فأصلها أنَّ . « وحسبوا

ألا تكون فتنة » . وتأتى « فتنة » بالرفع لأنها اسم تكون . و« تكون » من « كان » . و« كان » لها اسم مرفوع وخبر منصوب . وهى هنا ليس لها خبر ؛ لأنها مِن « كان التامة » . فهناك « كان الناقصة » وهناك « كان التامة » . ونقول ذلك حتى نتقن فهم القرآن ، مثلما نقرأ قوله الحق :

﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ﴾

(من الآية ٢٨٠ سورة البقرة)

و« كان » فعل ماض ، و« ذو عسرة » اسم كان التامة ؛ لذلك لا خبر لها ؛ لأن المقصود هو القول : وإن وُجِد ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة . ولا بد لنا أن نعرف ما معنى « تام » وما معنى « ناقص » ؟ نعلم أن كل لفظ ننطق به يدور حول أمرين اثنين ، إما لفظ مهمل وغير مستعمل وإمّا لفظ مستعمل . والمستعمل هو الذى له معنى يصل إلى الذهن ساعة ننطقه ويستقل به الفهم ، فإن كان لا دخل للزمن فيه فهو الاسم ككلمة « أرض » و« شمس » و« قمر » . وهناك لفظ لا يستقل بالفهم كحرف الجر « فى » مثلاً . صحيح أنه يدل على شىء فى شىء ؛ ولكنه لا يستقل بالفهم ؛ لذلك لا بد أن ينضم لشىء ، كقولنا : الماء فى الكوب أو قولنا : التلميذ فى الفصل . فإن كان للفظ معنى ومستقل بالفهم ، والزمن له دخل فيه فهو الفعل .

مثال ذلك قولنا : السماء . إن السماء كانت فى الماضى وهى فى الحاضر وهى فى المستقبل . إذن فالزمن لا دخل له بها ، وكلمة : كَلوُا نجدها تأتى من الأكل ، وهى معنى مستقل بالفهم والزمن جزء منه . ولفظ « فى » يدل على معنى غير مستقل بالفهم فلا بد من أن ينضم لشىء آخر .

إذن كلٍ لفظ له معنى ، وهذا المعنى قد يكون مستقلاً بالفهم أو غير مستقل ، فإن كان مستقلاً بالفهم فإننا نسأل : هل الزمن جزء منه ؟ وفى هذه الحالة يكون « فعلا » وإن لم يكن الزمن جزءًا منه فهو الاسم . وإن كان غير مستقل بالفهم ويريد شيئاً آخر ليستقيم المعنى فهو « حرف » .

راجع أصله وخرج أحاديثه الدكتور أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .

وهكذا تعرف الألفاظ . والفعل هو « معنى زائد عليه زمن » كقولنا : أكل ؛ فهى تعنى تناول إنسان طعامًا فى زمن ماضٍ ، وهكذا نفهم قولنا : « كان » . فإن قلنا : « كان » بمعنى حدوث شيء فى الماضى ، كقولنا : « كان زيد مسافرًا » فهى ناقصة . وفى ضوء هذا نفهم قول الحق :

﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ﴾

(من الآية ٢٨٠ سورة البقرة)

فإن أردت الوجود فقط من غير شيء جديد طارىء عليه ، فالفعل يكون تاماً لا يحتاج إلى خبر . وإن أردت الوجود مع أى شيء آخر فهو الفعل الناقص الذى تكمله بخبر . مثل قوله تعالى : « وحسبوا ألا تكون فتنة » أى ألا توجد فتنة ، فهى لا تحتاج إلى خبر .

وكان مثل بنى إسرائيل كمثل التلميذ الذى يذهب إلى المدرسة ولا يعلم أن فيها اختباراً آخر العام فيُمضى الوقت فى غير تحصيل ولا جد ولا اجتهاد بل فى لهو ولعب ، وكان هذا حسباناً خاطئاً ؛ لأن المنهج لم يأت اعتباطاً ، ولكنه جاء كنظام حركة للحياة ليعمله المؤمن . وكان المفروض أن يستقبلوا المنهج على حسب تعاليم المنهج . ومن العجيب أنهم ظنوا ولم يحسبوا بالحساب على الرغم من أنهم أهل علم بالحساب ، فهم حسبوا ـ بكسر السين ـ وما حسبوا ـ بفتح السين ـ وكان المفروض أن يقوموا بالحساب ، فالحساب هو الذى يضمن صحة المسائل .

وكل شيء عند الله يكون بالحساب ، حساب للعبد وحساب على العبد . « وحسبوا ألا تكون فتنة » أى ظنوا أنها ليست اختباراً . وظنوا أن الرسالات والمناهج هى مسألة لا اختبار لهم فيها ، فلما عرفوا تعاموا عن ذلك وصموا آذانهم عنه . ونعلم أن وسائل الإدراك فى النفس البشرية هى السمع والأبْصار والأفئدة :

﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾

(سورة النحل)

إذن فوسائل الإدراك : سمع ، وبصر ، وفؤاد . وما تراه العين هو تجربة الإنسان بنفسه . أما ما يسمعه الإنسان فهو تجربة كل غير له . وبذلك يكون السمع أكثر اتساعاً من العين . والسمع هو وسيلة الإدراك التى توجد أولاً فى الإنسان حين يولد . ونجد المولود لا يهتز عندما يقترب شىء من عينيه ؛ لأنه لا يرى بدقة وقد يستمر ذلك لمدة عشرة أيام ومن بعد ذلك يبدأ فى الرؤية . لكن الطفل إذا سمع صوتاً بجانب أذنيه ينفعل ، كأن حاسة السمع هى التى توجد أولاً ، ولذلك يأتى لنا الحق بذكر السمع أولاً ومن بعد ذلك الأبْصار ثم الأفئدة .

« فعموا وصموا » وهو سبحانه يسألهم أولاً عن التجربة الشخصية فيهم ، ولم يسألهم عن الذى سمعوه عن غيرهم فقط ، « فعموا » أى لم يروا حتى الأمور المتعلقة بهم ، ولم ينظروا فى آيات الكون ولم يسمعوا البشير ولا النذير ولا المنهج من الله ولا اتفقوا على تنفيذه . وسبحانه يعاتبهم أولاً على ما يتعلق برؤياهم هم ، فالأذن تسمع من الغير ؛ لذلك أخذ عليهم أولاً أنهم لم يستعملوا عيونهم . وحتى لو افترضنا أنهم لم يروا آيات الكون بأنفسهم فما بالهم لا ينظرون وقد جاءهم الرسول ودعاهم لينظروا فى كون الله وأن يعتبروا .

فإذا كانوا أولاً فى غفلة فلم يروا ، فلماذا لم ينتبهوا ويسمعوا سماع إذعان وانقياد عندما جاءهم البشير والنذير لينبههم ؛ لذلك « فعموا وصموا » منطقية جداً هنا . وبعد ذلك قبل الله منهم ، وأنجاهم من فرعون وفلق لهم البحر ، وعبروا ، ولكنهم بمجرد خروجهم من البحر ، ومروا على قوم يعكفون ويلزمون ويقبلون على أصنام لهم يعبدونها . قالوا لموسى : نريد إلهاً كما لهم آلهة . وأمرهم موسى أن يتوبوا وقبل الله توبتهم . مع كثرة ما ارتكبوا من ذنوب . ومن بعد ذلك يتوب الله عليهم . « ثم تاب الله عليهم » .

والتوبة هى فتح مجال للنفس السوية لتنطلق فى الخير من جديد ، فلو لم يتب الله على من أذنب فماذا يكون موقف المذنب بلا توبة ؟ إنه يتمادى ويحس أنه ذاهب فى طريق الشر بلا عودة . وحين يقبل الحق توبة المذنب ، فذلك معناه أنه سبحانه يريد أن يحمى المجتمع من شره . والتوبة مراحل : الأولى حين يشرع الله التوبة ، والثانية : أن يتوب العبيد . والثالثة : هى قبول الله للتوبة . وهذا ما جاء به الحق :

﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ﴾

(من الآية ١١٨ سورة التوبة)

ماذا تعنى توبة الله عليهم ؟ سبحانه لن يتوب عليهم توبة القبول إلا بعد أن يتوبوا . إذن فتوبة الله عليهم الأولى هى التشريع لهم بالتوبة ، ثم توبتهم ، ثم قبول الحق للتوبة . لكن هؤلاء عموا وصموا ، وعلى الرغم من ذلك لطف الله بهم . فماذا حدث منهم بعد ذلك ؟ عموا وصموا مرة أخرى « ثم تاب الله عليهم ثم عموا وصموا كثير منهم والله بصير بما يعملون » .

و« عموا » مأخوذة من الفعل « عمى » ، ومثلها مثل « أكلوا » و« شربوا » و« حضروا » ، فأين الفاعل ؟ الفاعل هو « واو الجماعة » . وابن مالك قعّد لهذه المسألة ، فساعة تسند الفعل إلى اثنين أو إلى جماعة ، فلا بد أن تجرد الفعل من علامة التثنية أو الجمع ، فلا تقول : « قاما زيد وعمرو » ولكن تقول : « قام زيد وعمرو » ، ولا نقول : « قاموا التلاميذ » بل نقول : « قام التلاميذ » ، لأن مدلول « الواو » هو مدلول « التلاميذ » ؛ قال ابن مالك :

وجرد الفعل إذا ما أسندا لاثنين أو جمع كـ«فاز الشهدا»

أى أن الفعل إذا أسند لمثنى أو مجموع وجب تجريده من العلامة التى تدل على التثنية أو على الجمع . أما كلمة كثير فتعرب إما على أنها البدل من واو الجماعة ، وإما على إضمار مبتدأ أى العُمْىُ والصُّم كثير منهم ، وإما على أنها فاعل ويكون ذلك قد جاء على لغة طائفة من العرب وهم بنو الحارث بن كعب ، وهؤلاء قد يأتون بعلامة تدل على التثنية أو الجمع إذا أسند الفعل إلى اسم ظاهر مثنى أو مجموع مثل : قاموا الرجال وسافرا محمد وعلى .

وحمل بعضهم قوله تعالى : « وأسروا النجوى الذين ظلموا » على هذا ، وكان قول الحق : « كثير منهم » صيانة للاحتمال بأن قلة منهم تدير أمر الإيمان فى قلوبهم ، وكلمة « كثير » جاءت حتى ننتبه إلى أن الحق سبحانه وتعالى لا يهمل أبداً القلة التى تدير أمر الإيمان فى خواطرهم . ليؤكد ويعاضد ما جاء فى قوله تعالى : « وأن أكثركم لفاسقون » . « ثم عموا وصموا كثير منهم والله بصير بما يعملون » و« بصير » مثلها مثل « عليم » ، أى شاهد وليس مع العين أين . ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ ﴾

وهناك ثلاث آيات تتعرض لهذه المسألة : « لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم » . والآية الثانية :

﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ﴾

(من الآية ٧٣ سورة المائدة)

والآية الثالثة :

﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ﴾

(من الآية ١١٦ سورة المائدة)

إذن فالخلاف فى المسألة جاء على ثلاث صور ؛ طائفة تقول : المسيح هو الله . وطائفة تقول : إن المسيح هو إله مع اثنين آخرين . وطائفة تقول : إن المسيح هو وأمه إلهان . ولكل طائفة رد . والرد يأتى من أبسط شىء نشاهده فى الوجود للكائن الحى ، فالإنسان ـ كما نعرف ـ سيد الكون والأدنى منه يخدمه . فالإنسان يحتاج إلى الحيوان من أجل منافعه ، وكذلك يحتاج إلى النبات والجماد ، هذا السيد ـ الإنسان ـ يحتاج إلى الأدنى منه . والحق سبحانه وتعالى أراد أن يرد على تأليه سيدنا عيسى وسيدتنا مريم ، فقال :

﴿ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ﴾

(من الآية ٧٥ سورة المائدة)

وهذا استدلال من أوضح الأدلة . لا للفيلسوف فحسب ولكن لكل المستويات ، فماداما يأكلان الطعام فقد احتاجا إلى الأدنى منهما . والذى يحتاج إلى الأدنى منه لا يكون الأعلى ولا هو الواحد الأحد . والمتبعون لهذه الفرق الثلاثة مختلفون .

والحق سبحانه وتعالى يقول : « ولا تقولوا ثلاثة » وكلمة « ثالث ثلاثة » تستعمل على أنه واحد من ثلاثة لكنه غير معين . فكل ثلاثة يجتمعون معاً ، يقال لكل واحد منهم إنه « ثالث ثلاثة » . وليس هذا القول ممنوعاً إلا فى حالة واحدة ، أن نقول : ثالث ثلاثة آلهة ؛ لأن الإله لا يتعدد . ويصح أن نقول كلمة : « ثالث اثنين » لأن الله يقول :

﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ ﴾

(من الآية ٧ سورة المجادلة)

إذن فمن الممكن أن نقول : هو رابع ثلاثة ، أو خامس أربعة أو سادس خمسة . وهو الذى يصير الثلاثة به أربعة أو يصير الأربعة به خمسة أو يصير الخمسة به ستة . إننا إن أوردنا عدداً هو اسم فاعل وبعد ذلك أضفناه لما دونه ، فهذا تعيين بأنه الأخير . فإن قال قائل : الله رابع ثلاثة جالسين.فهذا قول صحيح . لكن لو قلنا إنهم آلهة.فهذا هو المحرم والممنوع ؛ لأن الإله لا يتعدد .

ويلاحظ أن الحق لم يقل : ما يكون من نجوى اثنين إلّا هو ثالثهم ؛ لأن النجوى لا تكون إلا من ثلاثة ، فإن جلس اثنان معاً فهما قد يتكلمان معاً دون نجوى ؛ لأن النجوى تتطلب ألا يسمعهم أحد . والنجوى مُسَارَّة ، وأول النجوى ثلاثة ، ولذلك بدأها الحق بأول عدد تنطبق عليه . فإن قلت : « ثالث ثلاثة » فهذا قول صحيح إن لم يكونوا ثلاثة آلهة .

والحق أراد أن يدفع هذا القول بالبطلان حين قال : « كانا يأكلان الطعام » . والطعام مقوم للحياة ومعطٍ للطاقة فى حركة الحياة ؛ لأن الإنسان يريد أن يستبقى الحياة ويريد طاقة ، والطعام أدنى من الإنسان لأنه فى خدمته ، فإذا ما كانا يأكلان الطعام فهما فى حاجة للأدنى . وإن لم يأكلا فلا بد من الجوع والهزال .

ولذلك فهما ليسا آلهة . بعضهم يقول : « كانا يأكلان الطعام » هى كناية عن شيء آخر هو إخراج الخبث . ونقول : ليس إخراج الخبث ضرورياً لأن الله سيطعمنا فى الجنة ولا يخرج منا خبث . فهذا ليس بدليل . ويرتقى الحق مع الناس فى الجدل ، فاليهود قالوا فى المسيح ـ عليه السلام ـ ما لا يليق بمكانته كنبى مرسل وقالوا فى مريم عليها السلام ما لا يليق باصطفائها من الحق .

واليهود إذن خصوم المسيح . وأنصار المسيح هم الحواريون ! فإذا كان لم يستطع أن يصنع من خصومه ما يضرهم ولا مع حوارييه ما ينفعهم فكيف يكون إلهاً ؟ والنص القرآنى يقول عن مريم :

﴿ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

والمسيح نفسه كان دائماً مع الله خاشعاً عابداً . والذى يعبد إنما يعبد من هو أعلى منه ؛ فالإله لا يعبد ذاته . وإذا كان هذا قول من ينتسبون إلى السماء إيماناً بإله وإيماناً بمنهج ، فماذا عن قول الذين لا ينتسبون إلى السماء من الملاحدة الذين ينكرون الألوهية ؟.

إذن كان من الواجب أن يؤمن المنسوبون إلى السماء بواسطة مناهج وبواسطة أنبياء وأن يصفوا هذه المسائل فيما بينهم . وعلى سبيل المثال كان العالم موجوداً ومداراً قبل المسيح فمن إذن كان يدير العالم من قبل ميلاده ؟ ولذلك أراد الحق سبحانه جل جلاله أن يحسم الموقف . والقرآن يعلمنا :

﴿ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة سبأ)

أيمكن أن يكون المتناقضان محقين ؟ لا ؛ لأن أحدهما لا بد أن يكون على هدى ولا بد أن يكون الآخر على ضلال . ولذلك نقول : كلامكم لا يلزمنا وكلامنا لا يلزمكم . ونفوض الأمر إلى الإله الذى نؤمن به . وحتى نصفى هذه المسألة نذكر قول الحق :

﴿ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾

(من الآية ٦١ سورة آل عمران)

ونقول : اجعل لعنتك على الكاذبين . حتى تخرجنا من هذا الخلاف ولا تجعل واحداً منا يسيطر على الآخر ، فأنت صاحب الشأن ، فها نحن أولاء بأنفسنا ونسائنا وأولادنا ندعو دعاءً واحداً : اجعل لعنة الله على الكاذبين منا . وما تلاعن قوم وابتهلوا إلا وأظهر الله المسألة فى وقتها . ولم يقبل أحد من أهل الكتاب هذه المباهلة ، والحق يقول :

﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ ﴾

إذن فالذين لا يعلنون التوبة عن ذلك يقعون فى الكفر ويعذبون . ثم يقول الحق :

﴿ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ ﴾

فكأن هذا القول يقتضى التوبة واستغفار الحق .

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾

و« أفك » يعنى انصرف أو صُرف ، أى يصرفهم غيرهم . وهذا يعنى أن هذا إيعاز من الشيطان ؛ لأن المسيح عليه السلام ما هو إلا رسول مثل من سبقوه من الرسل وأمه (صدِّيقة) مصدِّقة بما جاء به ، والدليل على بشريتهما أنهما يحتاجان كسائر البشر لما يَقوِّم حياتهما من طعام وشراب وكساء ، والألوهية المدّعاة منهم تتنافى مع هذا الاعتقاد وهذا هو الإفك بعينه الذى يتصادم مع العقل المجرد عن الهوى . يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ ﴾

والعقل يستنكر أن نعبد أحداً غير الله ، فغيره لا يملك أن يصنع الضر للخصوم ، ولا النفع لنفسه أو لأشياعه وأنصاره بدليل أن الأعداء فعلوا ما فعلوه وما ملك عيسى عليه السلام أو الحواريون أن يضروهم ولا استطاعوا أن يفعلوا شيئاً ينفعون به أنفسهم .

ويختم الحق الآية بقوله : « والله هو السميع العليم » . وكلمة « السميع » تدل على قول . وكلمة « العليم » تدل على شىء يدور فى الخواطر ، والشىء الذى يدور فى الخواطر أهو حراسة سلطة زمنية جعلتهم يقولون هذا الكلام ؟ إنه سبحانه العليم

بذلك . فإن كان قد حصل كلام فهو قد سمعه ، وإن كانت قد دارت خواطر فى النفس فهو يعلمها ؛ لأن العاقل قبل أن يتكلم لا بد أن يدير الكلام فى النفس . وكل كلام لا بد له من نزوع . وهو سبحانه السميع العليم أزلا وأبدًا .

ويقول الحق :

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ ﴾

عندما يوجد شىء مشترك بين النصارى واليهود يحدثهم الله بقوله : «يا أهل الكتاب» أما الشىء الخاص فهو يتحدث به لكل فئة بمفردها . والغلو هو أن يتطرف إنسان فى حكم ما إيجاباً أو سلباً . وهو إما الإفراط فى المنزلة العالية وإما التفريط فى المنزلة الدنيا . ولذلك نجد المتناقضات دائماً فى الغلو . ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لسيدنا علىّ ـ كرم الله وجهه ـ : « يا علىّ ، يهلك فيك رجلان . . محب غال ومبغض غال » ويقول : « يا علىّ لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق »[1] .

ويقول : (يا على ستقاتلك الفئة الباغية)[2] .

إن هناك من أحب سيدنا عليًا إلى درجة أنهم اعتبروه نبياً وقالوا : إن الوحى أخطأ عليًا وجاء إلى رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم أو اعتبروا عليًا إلهاً !! وكل ذلك غلو ، فقد أحبوه إلى منزلة فيها غلو وإفراط .

---

(١) رواه الطبرانى فى الأوسط .

(٢) رواه المتقى الهندى فى كنز العمال ، والخوارزمى فى جامع المسانيد .

أما الخوارج فقد قالوا عن سيدنا على : إنه كافر . جاء الغلو ـ إذن ـ من ناحية المحبين فجعلوه نبياً أو فوق ذلك مما يدخلهم فى الشرك، أو من المبغضين القائلين بتكفيره وإخراجه من دائرة الدين ، ولذلك يجب ألاّ نغلو فى الدين فلا نحب إنساناً ونرفعه فوق مستوى البشر ، ولا نبغض إنساناً وننزل به إلى الحضيض . بل يجب أن نعطى كل واحد قدره ومقداره الذى وضعه الله فيه ؛ لأن وضع الله له هو تكريمه :

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ ﴾

(سورة المائدة)

وجاء مثل هذا القول فى آية أخرى :

﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ﴾

(من الآية ١٧١ سورة النساء)

وحتى نفهم أن مسألة الغلو إنما جاءت فى ادعاءات ألوهية البشر ؛ قال الحق بعد ذلك :

﴿ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾

(من الآية ١٧١ سورة النساء)

فلا داعى للغلو بنسب الألوهية له أو أنه ثالث ثلاثة . فإن كنتم متشككين ووصلتم إلى هذا الشك بسبب عدم عنصر الذكورة فى مجىء عيسى ، فافهموا أن كل الأشياء جاءت بـ « كن » ؛ لأنه وإن وُجدت مقدمات للإنسان ، فَرَقٌ هذه المسألة إلى واحد لم يأت من إنسال ، وستصل إلى آدم وآدم من تراب ؛ إذن كل الكون كلمة . وإن وجدت أسباباً فمما طمره الله فى الكلمة الأولى ، فحين يجىء إنسان أُنشىء بكلمة فلا تقولن : إن هذا شىء عجيب ؛ لأن الكون كله إنما نشأ بكلمة :

﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾

(سورة يس)

وإن كانت الفتنة قد نشأت فى ظاهر الأمر من أن المسيح ليس له أب فى عالم الإنسال وقانون التناسل ، فما كان يجب أن تكون الشبهة فى هذا ؛ لأنه مخلوق من أم ، وآدم مخلوق بلا أب ولا أم . وكان يجب أن تكون الفتنة فى آدم أكبر . والكلمة من الله تنشىء حياة . والحياة إدخال روح فى مادة لتهبها الحركة والحس ومقومات

الحياة . إذن فالكلمة تقال من الله فتأتى الروح لتدخل فى المادة : (وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه) . « وروح منه » مثلها مثلما قال فى آدم :

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

(سورة الحجر)

إذن فآدم كلمة ، وآدم روح منه ، وكذلك المسيح ، فلا شبهة هنا ولا شبهة هناك . ويطلب الحق من المنسوبين إلى السماء : (انتهوا خيراً لكم) . فإذا كنتم منسوبين إلى السماء فلا تذبذبوا أفكار الناس بمثل هذه المسائل ، وكان يجب أن تقفوا بعيسى عندما أراد الله له من تكريم ؛ لأن التكريم هو أن يكون أسوة حسنة ، فلو كان من جنس آخر غير البشر لامتنعت الأسوة فيه ؛ لأن الأسوة إنما تكون من جنس من يتبعها ، فلو رآه الناس خاشعاً متعبداً لما استطاعوا أن يفعلوا مثله لو كان من مادة أخرى غير مادة البشر .

وقلت مرة : لو أن إنساناً رأى أسداً يفترس فى الغابة ويصول ويجول على الحيوانات ، أيفكر واحد من الرائين أن يجعل نفسه أسداً ؟ . لا . لكن لو رأى فارساً مثله شجاعاً فى حرب يصول ويجول فى الأعداء فهو يقلده ويحاول أن يكون مثله . إذن فالأسوة لا تكون إلا مع وحدة الجنس ، فلو أنه لم يكن من جنس البشر لما صلح أن يكون رسولاً .

« قل يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم غير الحق » لقد جاء الحق هنا بالحديث شاملاً لكل أهل الكتاب ؛ لأن كلا منهما جاء بطرفى الأمور . . فاليهود اتهموا سيدتنا البتول المصطفاة مريم بما ليس فيها ، وأولئك جاءوا بالمغالاة فى الجهة الأخرى ؛ لذلك يأمرهما الحق بعدم المغالاة ؛ لأن الحق لا يتعاند ؛ فهو شىء ثابت لا يتغير أبداً ولا يتعارض . والإنسان إن رأى حدثاً من الأحداث بعينيه ثم طُلب منه أن يحكيه فهو يحكيه الآن ويحكيه غداً ويحكيه بعد عام وتظل روايته واقعاً لأنه شهده وهذا هو الواقع المشهود يفرض نفسه عليه ، لكن الكاذب لا يذكر ذلك ، وقد يقول قضية ويكون فيها كاذبا فلا بد أن يغير من الحقيقة عندما يحكيها لمرة ثانية . ولذلك يقال « إن كنت كذوباً فكن ذكوراً » .

إن الذى يحكم الحق هو واقعة ؛ لأن المتكلم به يستقرىء واقعاً . لكن الكاذب لا يستقرىء واقعاً فلا يعلم ماذا كذب فى المرة الأولى . ونذكر الكاذب الذى جلس يقول : مرة كنا سائرين وخرجنا من القرية ذاهبين إلى المدينة لنأتى بحاجات عيد الفطر . وكانت الدنيا قمراً كالظهر وقوله : « قمراً كالظهر » هى التى تكشف كذبه ، فكيف يكون فى ليلة العيد قمرٌ ، وأول ليلة فى عيد الفطر هى أول ليلة فى شوّال ، وليس فيها أى قمر ، الهلال يكاد يكون مخفياً .

إذن فالذى يستوحى واقعاً لا يتغير كلامه لأنه حق . والذى يستوحى غير الواقع لا يذكر ماذا قال فيخلط . لذلك لا يقولن إنسان غير الحق لأن قوله سيتضارب . وإذا تضارب هذا القول فى مسألة الألوهية فإن الناس قد تشك فى منهج السماء الذى يتبعونه . وإذا شك الناس فى منهج السماء فسيكون عليكم وزر إضلال الناس ؛ لأن الذى يتعرض لهذه القضية يجب ألا يجرب الناس عليه أى شىء من المخالفة . ولذلك قال سيدنا إبراهيم عليه السلام :

﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾

(من الآية ٥ سورة الممتحنة)

لماذا قال سيدنا إبراهيم هذا الدعاء ؟ ؛ لأنه إن قال شيئاً ثم عمل بما يناقضه فقد يتصور من يراه أنه ـ والعياذ بالله ـ كذاب .

« قل يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل » ويا ليتهم ضلوا فقط فى ذواتهم بل هم يحاولون إضلال غيرهم . لذلك قال سبحانه :

﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم ﴾

(من الآية ١٠٩ سورة البقرة)

وسبحانه يوضح لهم : لا تفعلوا ذلك حتى لا تضلوا ؛ لأن وزرك أن تعمل ، وهناك وزر آخر هو أن تُضَلِّل غيرك . ولذلك يقول الحق :

﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾

(من الآية ٢٥ سورة النحل)

قال الحق ذلك مع أنه قال : (ولا تزر وازرة وزر أخرى) . وحتى نفهم الأمر علينا أن نعرف أن الوزر الأول هو وزر الضلال ؛ والثانى هو وزر الإضلال .

« ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا » أى لا تقلدوا أناساً اتبعوا الهوى . والهوى هو لُطف موقع الشيء وقربه إلى النفس فيصنعه الإنسان على طريقة لا تنبغى . ولذلك كل كلمة « هوى » فى القرآن جاءت فى مجال الخسران والضلال . وعندما نقرأ قوله الحق : (ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله) .

وهو القائل سبحانه : (واتبع هواه فتردى) .

وقد جاء الهوى فى قول الرسول صلى الله عليه وسلم : (لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به)[1] .

أى أن المطلوب أن يطوِّع الإنسان هواه لمطلوب الله . ومادام قدْ طوَّع هواه لمطلوب الله ، فهذا يعنى أن هواه الشخصى قد امتنع . « ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل » . إنّ هذا هو النهى عن اتباع الهوى الذى يضل ويكون سبباً فى الإضلال عن سواء السبيل .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾

(١) رواه البغوى فى شرح السنة ، والتبريزى فى مشكاة المصابيح ، والمتقى الهندى فى كنز العمال .

الحق سبحانه وتعالى يعطى لرسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة تصبره على ما يلاقيه من خصومه من أهل الكتاب ، وكأنه يقول له : إن هذا الأمر ليس بدعاً وليس عجيباً ؛ لأن تاريخ أهل الكتاب الطويل يؤيد هذا ، فها هوذا موقفهم من نبى الله داود ، وكذلك موقفهم من عيسى ابن مريم عليه السلام . وهذا يجعل لك أسوة بهؤلاء الرسل الذين نالهم من أذى هؤلاء . فالمسألة ليست خاصة بك وحدك ، وإنما هى طبيعة فيهم ، ويبسط سبحانه فى التسرية عن رسوله صلى الله عليه وسلم حتى يجعل موقفه موقف الصلابة الإيمانية التى لا تخاف ولا تهتز ، فينسب هذه الأشياء لنفسه فيقول :

﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

فمرة قالوا عن الرسول : إنه مجنون ، ومرة أخرى قالوا : « ساحر » وثالثة قالوا : « كذاب » . وهم يعرفون كذبهم ، فهم على الرغم من اتهامهم للرسول بالكذب والجنون والسحر إلا أنهم لا يأمنون أحداً على مصالحهم إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهو الأمين دائماً . وكان لهم أن يتعجبوا من موقفهم هذا ، ومن صدهم عن دين الله بالكفر ، وعلى الرغم من ذلك فعندما يكون هناك شيء ثمين ونفيس فلا يُؤمَن عليه إلا محمد بن عبدالله .

ما هذا الأمر العجيب إذن !!

لقد عرفوا صدق النبى صلى الله عليه وسلم وحقيقة رسالته ـ ما فى ذلك ريب ـ ولكن لأن لهم أهواء أصرّوا على الضلال تمسكاً بالسلطة الزمنية . هم يعرفون أن محمدا هو الأمين . ولذلك نرى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يدع علياً ـ كرم الله وجهه ـ ويتركه فى مكة ليؤدى الأمانات التى كانت عنده لهؤلاء جميعاً .

إذن (قد نعلم إنه ليحزنك الذى يقولون فإنهم لا يكذبونك) . أى أنك يا رسول الله عندهم الصادق . أنت عندهم يا رسول الله الأمين . أنت عندهم يا رسول الله

فى منتهى السمو الخلقى . ولو لم تقل إنك رسول من الله لكانوا قد رفعوك إلى أعلى المنازل . ولكنك ببلاغك عن الله زلزلت سلطتهم الزمنية .

ولقد حاولوا أن يثنوك عن الرسالة ، فعرضوا عليك الملك ، وعرضوا عليك الثراء ، ولو كنت تقصد شيئاً من ذلك لحققوا لك ما تريد . ولكنك تختار البلاغ الأمين عن الله .

لقد عرضوا عليك الملك طواعية . وعرضوا عليك الثروة . وزينوا لك أمر السيادة فيهم شريطة أن تتخلى عن الرسالة . لكنك تختار السبيل الواضح الذى لا لبس فيه على الرغم مما فيه من متاعب ، تختار السبيل الذى يكلفك أمنك وأمن من يتبعك . إنك تتبع ما أنزل إليك من ربك .

ومن بعد ذلك جاءوا ليحاصروك فى الشِّعب ليمارسوا معك الحصار الاقتصادى بتجويعك وتجويع من معك ، ومع هذا كله ما تنازلت عن البلاغ . وكان يجب أن يفطنوا إلى أنك لا تطلب لنفسك شيئاً ، لا المال ولا الجاه بل أنت رسول من الله لا تأكل من صدقة أحد ، لا أنت ولا أهلك . وكان يجب أن يتساءلوا : لماذا تدخل بنفسك إلى هذه الحرب الضارية ؛ فلا أنت طالب جاه ولا أنت طالب مال ، ولا أنت طالب لمتعة من تلك المتع . وكان يجب أن يأخذوا العبرة ، فهم يعرضون عليه كل هذه الأشياء ، وهو يرفضها ، لأنه خاتم الأنبياء ؛ لذلك يتمثل فيه خير كل من سبقه من الأنبياء . يتمثل فيه على سبيل المثال ما قاله سليمان لوفد بلقيس ملكة سبأ :

﴿ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم ۖ بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴾

(من الآية ٣٦ سورة النمل)

إذن كان يجب على الناس أن يفطنوا إلى أن النبوة حينما تأتى إنما تأتى لتلفت الناس إلى السماء وإلى منهجها ولتنتظم حركة حياتها فى الكون ، وأن المنتفع أولاً وأخيراً بالمنهج هم أنفسهم ؛ لأنهم هم الذين يشقون بمخالفتهم منهج الله .

وليجرد كل إنسان نفسه من كل شىء ولينظر إلى المنهج ولسوف يجد أنه فى صالحه . فها هوذا سليمان الذى دانت له الدنيا وأُعْطِىَ ملكاً لم يعطه الله لأحد من

بعده فسخر الله له الريح وسخر له الجن يفعلون له ما يشاء . وكان سليمان يعطى الدقيق النقى للعبيد ليستمتعوا بالطيبات ، ويأكل هو ما تبقى من نخالة الدقيق ، وكان ذلك دليلاً من الله أن هذه المناهج ليست لصالح نبى ، ولكن كل نبى إنما يريد بالمنهج صالحَ مَن أُرسل إليهم .

وكانت مقاومة أهل الكتاب لنبى الله داود ، وكيف أنهم اعتدوا فى يوم السبت فدعا عليهم داود عليه السلام فمسخهم الحق قردة ، ولعنهم فى الزبور ، وكذلك قالوا الإفك فى مريم البتول ولعنهم الله فى الإنجيل ، ولم يكن اللعن إلا بناءً على ما فعلوا ؛ لذلك يذيل الحق الآية بالقول : « ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون » .

والعصيان ـ كما نعلم ـ هو العصيان فى ذات الإنسان وفى أموره الخاصة التى لا تتعدى إلى الغير ، أما الاعتداء فهو أيضاً معصية ولكنها متعدية إلى الغير . مثال ذلك : الحاقد إنما يعاقب نفسه ، أما السارق أو المرتشى فهو يضر بغيره . إذن فهناك معصية وهناك عدوان ، المعصية تعود على صاحبها دون أن تتعدى إلى الغير ، أما العدوان فهو أخذ حق من الغير للنفس ، وضرر يرتكبه الفرد فينتقل أثرة إلى الغير .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾

ونعلم أن حراسة منهج الله تعطى الإنسان السلامة فى حركة الحياة على الأرض . وقد جعل الحق سبحانه فى النفس البشرية مناعة ذاتية ، فساعة توجد فى الإنسان شهوة على أى لون سواء فى الجنس أو فى المال أو فى الجاه ، فقد يحاول الوصول إليها بأى طريق ، ولا يمنعه من ذلك إلا الضمير الذى يفرض عليه أن يسير فى الطريق الصحيح . هذا الضمير هو خميرة الإيمان ، وهو الذى يلوم الإنسان إن أقدم على

معصية ، هذا إن كان من أصحاب الدين .

ولنا أن ندقق فى هذا القول القرآنى لأنه يحمل الوصف الدقيق للنفس البشرية فى حالتها المتقلبة ، فها هوذا قابيل يتحدث عنه القرآن :

﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة المائدة)

ومن بعد ذلك ، قتل قابيل هابيل ، ثم هدأت النفس من سعار الغضب وسعار الحقد ، وانتقل قابيل إلى ما يقول عنه القرآن :

﴿ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة المائدة)

فبعد أن غواه غضبه إلى أن قَتَل أخاه وسلبه الحياة . يبعث الله له غرابا ليريه كيف يوارى سوأة أخيه ؛ لأنه لم يكن يعرف كيف يوارى جثمان أخيه . وانتقل بالندم من مرحلة أنه لم يرع حق أخيه فى الحياة فأراد أن يرعى حق مماته ، إذن فالنفس البشرية وإن كانت لها شهوات إلا أن لها اعتدالا مزاجيا يتدخل بالندم عندما يرتكب الإنسان إثماً أو معصية . ولذلك تجد كثيراً من الناس تعانى من متاعب لأنهم ارتكبوا معاصى ، لكنهم يريدون الاعتراف بها لأى إنسان وأى إنسان يتلقى الاعتراف ليست لديه القدرة على تدارك آثار تلك المتاعب ؛ لأنها وقعت وانتهى الأمر .

لكن لماذا يريد الإنسان أن يعترف لآخر بمعاصيه ؟ . إنه اعتراف للتنفيس ؛ لأن كل حركة فى النفس البشرية ينتج عنها تأثير فى النزوع ، فعندما يغضبك أحد فأنت تنزع إلى الانتقام ، ولهذا يأمرك الشرع حين يغضبك أحد أن تغير من وضعك وقل : « حسبنا الله ونعم الوكيل » . حتى تصرف الطاقة السعارية عندك ، فإن أغضبك أحد وأنت قائم فاقعد ، وإن كنت قاعدا فاضطجع ، وإن كنت ثابتاً فى مكان فلتسر بضع خطوات . والشرع حين يطلب منك أن تتحرك لحظة الغضب فذلك ليزيل من جسدك بعض الطاقة الفائضة الزائدة التى تسبب لك الغليان فتقل حدّة الغضب .

ولذلك فالشاعر العربى ينصح كل مستمع للشكوى ألا يرد السماع بل يصغى لصاحب الشكوى ؛ لذلك يقول :

ولا بد من شكوى إلى ذى مروءة
يواسيك أو يسليك أو يتوجع

وحينما تظهر المشاركة لصاحب الشكوى فأنت تريحه ، وتهديه إلى الاطمئنان . وينصح الشاعر صاحب الشكوى أن يضعها عند ذى المروءة ؛ لأن ذا المروءة إنما يعطيك أذنه ومشاعره وهو جدير أن تستأمنه على السرّ ، وكأن الأسرار فى خِزانة لن يعرف أحد ما بداخلها ، وبمثل هذا الاعتراف يريح الإنسان نفسه ، ويصرف انفعاله إلى شيء آخر . وعندما تكرر النفس البشرية فعل السوء ، ولا تجد من ينهها أو ينهاها ، فالسوء يعم وينتشر ، هنا تتدخل السماء بإرسال رسول .

ويوضح الحق أن السبب فى إرسال رسول لهؤلاء الناس أنهم كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ، والتناهى عن المنكر إنما يكون بالتواصى بالحق والتواصى بالصبر ، ولا يظنن المؤمن أنه بمنجاة عن خاطر السوء فى نفسه لأن كلاً منا بشر . وعرضة للأغيار ، ومن لطف الله لحظة أن يهب خاطر السوء على مؤمن أن يجد أخاً خالياً من خواطر السوء فيواصيه بالحق ويواصيه بالصبر ؛ لأن الفرد إن جاءه سعار الشهوة فى اللحظة التى يجيء فيه السعار نفسه عند صديق له فقد يتفقان على المنكر ، أما إن جاء سعار الشهوة لإنسان وكان صديقه مؤمناً خاليا من خواطر السوء ، فهو ينهاه ويوصيه بالحق والصبر . وهكذا . يتبادل المؤمنون التناهى بالتواصى ؛ فمرة يكون الإنسان ناهياً ، ومرة أخرى يكون الإنسان منهياً .

وكذلك أعطى الله هذه المسألة كلمة التواصى :

﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣ ﴾

(سورة العصر)

ولم يخصص الحق قوماً ليكونوا الناهين ، وقوماً آخرين ليكونوا المنهيين ، لا ، بل كل واحد منا عرضة أن يكون ناهيا إن اتجهت خواطر صاحبه إلى الحرام ، وعرضة أيضا لأن يكون منهياً إن كانت نفسه تتجه إلى الحرام ، وبذلك نتبادل النهى

والتناهى ، ويسمون ذلك « المفاعلة » مثلما نقول : « شارك زيد عمرا » ، ولا يشارك الإنسان نفسه إنما يشارك غيره ، ومعنى هذا أن هناك شخصا قد كان فاعلا مرة ، ومرة أخرى يكون مفعولاً ، وكيف تكون صيغة التفاعل هذه ؟ . إنها مثل « تشارك » و« تضارب » أى أن يأتى الفعل من اثنين . ومن السهل إذن أن ينهى إنسان صديقاً له أو ينهاه صديق له ، وقد نفسرها على أن الجميع ينهى نفسه بفعل القوة الخفية الفطرية التى توجد فى كل نفس ، أى أن كل نفس تنهى نفسها . إذن فالتفاعل إما أن يكون فى النفس وإما أن يكون فى المجتمع .

« كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه » ولننتبه هنا إلى أنهم قد فعلوا المنكر بالفعل ، فكيف يكون التناهى عن المنكر ؟ . يمكن أن نفهم العبارة على أساس أنهم كانوا لا يتناهون عن منكر أرادوا فعله ، أى أن الإنسان منهم كان يرى زميلاً له يتهيأ لارتكاب منكر فلا ينهاه . ومثلها فى ذلك قوله الحق :

﴿ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ ﴾

(من الآية ٦ سورة المائدة)

وهذا القول لا يعنى أبداً أن يتوضأ الإنسان بعد أن يدخل فى الصلاة . إنما يعنى أن نبدأ الوضوء لحظة الاستعداد للصلاة ، يعنى إذا أردتم القيام إلى الصلاة وأداءها .

وقوله الحق : « كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه » يجعلنا فى حالة انتباه وفراسة إيمانية ويقظة . ويلتفت كل منا إلى نفسه ويرقبها ويراقبها ، وإلى أى اتجاه تسير ، فلا يترك الإنسان نفسه تتجه إلى أى مكان موبوء أو فعل غير مستقيم . وكذلك ينتبه الإنسان إلى أصدقائه وأخلائه حتى نتناهى عن أى منكر فلا نقع أبداً فى دائرة هذا الحكم « كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون » فكأننا جميعاً علينا أن نحيا فى يقظة إيمانية ، وأن نقول :« لا » لكل بادرة ولأى حركة من حركات المنكر .

« كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون » وساعة نسمع « لبئس » فلنعرف أن اللام إذا سبقت فهى للقسم ، وحين يقسم الله فهذا تأكيد

للقضية ، فهل هذا تأكيد على طريقتنا نحن البشر ؟ . لا . فليس أحد منا كالله ، ونحن فى حياتنا نعرف الأدلة على الحق ، إما إقرار ، وإما شهادة ، وإما قسم .

والقاضى لا يحكم إلا بإقرار المتهم أو بشهادة الشهود ، أو باليمين ، وحين يأتى الحق بالحكم فهو يأتى به على معرفة بالخلق . وعدم التناهى عن المنكر هو فعل وقول معا . وبما أن الحق لم يقل : لبئس ما كانوا يقولون ، ذلك أن القول مقابل للفعل ، وكلاهما أيضاً عمل ، فالقول عمل جارحة اللسان ، والفعل هو عمل الجوارح كلها ، ويجمع القول والفعل وصف « العمل » . ونلحظ أن المسألة لا تقتصر على القول ، إنما هى عمل قد نتج عن فعل .

ولنر الحديث النبوى القائل : « من رأى منكم منكراً فليغيّره بيده وإن لم يستطع فبلسانه وإن لم يستطع فبقلبه وهذا أضعف الإيمان »[1] .

وقوله الحق : « لبئس ما كانوا يفعلون » دليل على أنهم كانوا يفعلون المنكر والقبيح قولاً وعملاً .

ويتابع الحق من بعد ذلك فيقول :

﴿ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾

ونلحظ الفارق بين أن يخبر الحق رسوله بأمور حدثت من قبل مثل قوله الحق :

﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ﴾

(من الآية ٧٨ سورة المائدة)

---

(١) رواه أحمد ، ومسلم ، وأبو داود ، والنسائى والترمذى ، وابن ماجه عن أبى سعيد .

وبين الواقع الذى يجرى فى زمن رسول الله ؛ فالخبر الأول هو خبر عن أمر صدر منهم مع من سبق من الرسل ، لكن هناك أشياء يا رسول الله أنت تراها بنفسك ، وهذا دليل على أن كفرهم لم يكن نزوة وانتهت ، لا ، بل كفرهم أصبح ملكة فيهم انطبعت عليها نفوسهم ، كيف ؟ نعلم أن الإسلام حينما جاء واجه معسكرات شتى ، وهذه المعسكرات كانت تفسد حركة الإنسان فى الحياة ، والحق سبحانه وتعالى خلق الكون مسخّراً للإنسان ويريد أن يظل الإنسان حارساً لصلاح الكون أو أن يزيد صلاح الكون وألا يسمح بتسرب الفاسد إلى الصالح .

إن هذا هو مراد الحق من وجود منهج للإنسان . وهدف المنهج أن يحمى حركة الحياة كلها من الفساد وأن يزيد صلاحية الكون ، فعملنا فى الكون دائماً لصالحنا ؛ ولا يوجد عمل يفعله مخلوق يأتى للحق سبحانه وتعالى بصفة زائدة على كمالاته ـ سبحانه ـ ؛ لأن الحق له كمال الصفات ، وهو الذى خلقنا وأوجدنا وأمدنا ، وتكليفنا منه لم يزده سبحانه شيئا ، فهو ـ سبحانه ـ مستغن بذاته عن جميع خلقه .

جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ إذن ـ ليحارب معسكرات هى معسكر أهل الشرك فى مكة ، ومعسكر أهل الكتاب ، وكان المفترض فى أهل الكتاب أن لهم صلة بالسماء ولهم إلف بمناهج الرسل . وبمعجزات الرسل وعندهم البشارة برسول الله صلى الله عليه وسلم فى كتبهم ، ومعسكر المنافقين الذين ظهروا بعد أن قويت شوكة الإسلام ، فأعلنوا الدخول فى الإسلام وهم لم يؤمنوا بل أضمروا الكفر .

وعندما نتوقف عند معسكر أهل الكتاب ، كان من الطبيعى أن ينتظر منهم رسول الله أن يؤمنوا لأنه جاء بالمنهج الذى يقوى من صلة السماء بالأرض ، لو كانوا صادقين وحريصين على تلك الصلة . وخصوصاً أنهم كثيراً ما تباهوا بمقدم النبى قبل أن تأتى الرسالة . وكانوا يقولون للأوس والخزرج :

لقد أظل زمان نبى يخرج بتصديق ما قلنا ، يأتى سنتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم .

وفى ذلك جاء قول الحق :

﴿ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ﴾

(من الآية ٨٩ سورة البقرة)

وقالت لهم كتبهم : إن النبى إنما يأتى فى أرض ذات نخيل ، وهذا ينطبق على مكان مبعثه صلى الله عليه وسلم . إذن فقد عرفوا المكان ، وعرفوا الصفات ، وعرفوا الجبهات التى سيحارب فيها لأنه سبق لأنبيائهم أن حاربوا فيها . وعندما جاء محمد رسولاً من عند الله اهتزت سلطتهم الزمنية ، وأرادوا أن يستبقوها بتحريفهم منهج السماء . وجاء محمد صلى الله عليه وسلم بالمنهج الربانى ليعيد حركة الكون إلى الإيمان . ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة بينما كانوا ينسجون الإكليل كتاج لملك ينصبونه .

هكذا أوقف رسول الله سلطتهم الزمنية ولم يعد لهم الجاه ، ووحّد الأوس والخزرج ، وكان اليهود يعيشون على الشقاق بينهما ، ببيع الأسلحة والإقراض بالربا . ومع مجىء محمد صلى الله عليه وسلم تهدم بنيان سلطتهم ؛ لذلك حاولوا أن يشجعوا خصوم رسول الله وهو مازال فى مكة ليهزموا الدين الجديد حتى لا يزحف الدين إلى المدينة ويهدر سلطانهم .

وفى ذلك جاء القول الحق :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

والثمن القليل هو الأبهة والرئاسة وسدة الحكم . وها هوذا كعب بن الأشرف كبير يهود وله ثراء ولسان ، يخرج إلى قريش ليناقشهم فى ضرورة وأد الدين الجديد والقضاء عليه . فقالت له قريش : إنك من أهل الكتاب. ولك صلة بالسماء .

فيقول لهم : إنكم أهدى من محمد سبيلا !! كيف يصير المشركون عبدة الأصنام أهدى من محمد سبيلا ؟.

وهكذا نرى قوله الحق : « ترى كثيراً منهم يتولون الذين كفروا » . لقد تحالفوا مع معسكر الشرك الذى كان بينهم وبينه خصومة حتى لا تتسرب السلطة من أيديهم . وتعاونوا مع الذين أشركوا لإيقاف زحف الدين الجديد .

﴿ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾

(سورة المائدة)

ويتولونهم أى ينصرونهم ويعينونهم ويدعون أنهم على حق ، وكأن الدين الجديد على باطل . ويقسم الحق هنا أنه بئس ما زينت لهم النفس الأمارة بالسوء ، لأنهم افتقدوا النفس اللوامة ، وغلبت عليهم النفس الأمارة بالسوء .

وتتابع الآية : « أن سخط الله عليهم وفى العذاب هم خالدون » وينشأ عن السخط الابتعاد عن طريق الهداية . والبعد عن طريق الهداية يقود إلى العذاب الخالد . كأن الحق يوضح لهم : على فرض أنكم أخذتم متاعاً قليلا فى الحياة ، ولكنكم أتيتم لأنفسكم بمتاعب أزلية تنتظركم فى الآخرة .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾ ﴾

فلو كان عندهم إيمان بالله حقيقة وبالمنهج المنزل من الله ، ما اتخذوا أهل الشرك أولياء ، ولكن كثرة هؤلاء أهل فسق . ونلحظ أن الكثير فاسق ، وهذا يعنى أن القليل غير فاسق .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

الحق سبحانه وتعالى يُقْسم لرسوله صلى الله عليه وسلم أن واقع الحياة مع فرقتين كاليهود والنصارى سيتجلى واضحاً على الرغم من أن كل جانب منهما مخالف لرسول الله فى ناحية ، فمواجيد هؤلاء الناس وأهواؤهم مختلفة ولكنهم اتفقوا جميعا فى الهدف .

فاليهود أشد عداوة لأنهم أخذوا سلطة زمنية جعلتهم السادة فى المنطقة ، أما النصارى فلم تكن لهم سيادة ولا سلطة زمنية وكانوا عاكفين فى صوامعهم وبيعهم يعبدون الله . والجانب الذى ليس له سلطة زمنية لا يعادى من جاء ليسحب من أهل الجور سلطتهم الزمنية ويقيم العدل بين الناس . فما العلّة فى ذلك ؟

يقول الحق : « ولتجدن أقربهم مودّة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا » . و« القسيسون » جمع قَس وهو المتفرغ للعلم الربانى . و« الرهبان » هم الذين تفرغوا للعبادة . فكأن القسيس مهمته أن يعلم العلم . والراهب مهمته أن ينفذ مطلوب العلم ويترهبن .

إننا نجد هنا أن الحق سبحانه وتعالى قد امتن بشيئين وبذلك جعلهم أقرب مودة للذين آمنوا ، امتن سبحانه بأن منهم قسيسين يحافظون على علم الكتاب ، وامتن بأن منهم رهباناً ينفذون مدلول المطلوب من العلم ، وبذلك صاروا أقرب مودة للذين آمنوا إن ظلوا على هذا الوضع ؛ لأن العلّة تدور مع المعلول وجوداً وعدماً . ومادام قد عللها ـ سبحانه ـ بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون فذلك لأنهم لا يتطاولون إلى رئاسة وليس لهم تكبر أو ترفع ؛ لأن طبيعة دينهم تعطيهم طاقة روحية كبرى حتى إنهم يقولون : « من ضربك على خدّك الأيمن أدر له خدّك الأيسر » . وهذا يعطيهم شحنة إيمانية نراها ناضحة عليهم .

« ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون » وقد جاء واقع الكون مؤيداً لهذا ، فمواقف اليهود من رسول الله صلى الله عليه وسلم معروفة حتى إنهم نزلت بهم الخسّة وتمكن منهم الحقد ودفعهم الغدر أن أرادوا أن يلقوا عليه حجراً ليقتلوه وحاولوا دسّ السّم له .

وحين تجد إنساناً لا يجد طريقا إلى الخلاص من خصمه إلا بأن يقتله ، فيمكنك أن تواجهه قائلاً : أنت لا تملك شجاعة تواجهه بها فى حياته ، ولو كنت تملك تلك الشجاعة ما فكرت فى أن تقتله . وهذا دليل على أنه أضعف منه وليس أشجع منه ، فلو كان قوياً لكان عليه أن يواجه هذا الخصم مواجهة فى حركة حياته ولا يفكر فى قتله ؛ لأن الضعيف هو من يرى أن حياة الخصم ترهقه .

لقد كان اليهود أهلاً لهذا الضعف فى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم . ونعلم أنه صلى الله عليه وسلم حينما جهر بدعوته اتبعه بعض من الناس ، ولكن هؤلاء المؤمنين الأوائل عانوا من اضطهاد أهلهم وذويهم . حتى إن البيت الواحد انقسم ، مثال ذلك تجد أن أم حبيبة السيدة رملة وهى بنت أبى سفيان تؤمن بينما والدها هو شيخ الكفرة آنذاك ، وتذهب أم حبيبة مع زوجها إلى الحبشة ويحرص سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على هذه الخلايا الإيمانية لأنه يعلم أنها ستفرخ الإيمان من بعد ذلك . وبتلك الهجرة إلى الحبشة أراد صلى الله عليه وسلم أن يحمى بذور الإيمان لتكون هى مركز انتشار الإيمان من بعد ذلك ؛ لأنهم سوف يؤدون مهمة إيمانية ، والشجاعة ـ كما نعلم ـ تقتضى الحرص . وشاعرنا أحمد شوقى ـ رحمه الله ـ

قال فى إحدى مقطوعاته النثرية التى سمّاها « أسواق الذهب » : ربما تقتضيك الشجاعة ، أن تجبن ساعة ؟

وهذه الشجاعة لا تكون على العدو فقط ولكنها تكون شجاعة فى مواجهة النفس ، مثال ذلك : لو أن جماعة من الأقوياء كانوا جالسين معاً فى جلسة سمر ، ثم دخل عليهم صعلوك يحمل مسدساً ، وقام بتوجيه السباب لكل منهم ، هنا يتحايل عليه هؤلاء إلى أن يتمكنوا منه ليعاقبوه .

إذن فالشجاعة تقتضى أن يجبن الإنسان لحظة إلى أن يتمكن من الخصم . وهذه هى الكياسة والحيلة ، فالإيمان ليس انتحاراً ، بل يقتضى الإيمان ألا يدخل المؤمن معركة إلا وعنده حسبان فى الكسب . وها هوذا حضرة النبى صلى الله عليه وسلم يسمى خالد بن الوليد « سيف الله المسلول » فى معركة لم ينتصر فيها خالد ، ولكنه انتصر انتصاراً سلبياً بأن عرف كيف يسحب الجيش ، فالأمرُ بسحب الجيش يحتاج إلى قوة أكثر مما يحتاج إليه النصر . فالمنتصر تكون الريح معه . أما المهزوم فتكون الريح ضده .

ونجد القرآن الكريم يقول :

﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة الأنفال)

إذن فالمناورة والكيد من المهارة القتالية لأنها تتيح من بعد ذلك القدرة على مواجهة العدو .

وينير النور الإلهي بصيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم فيستعرض الأرض كلها حتى يختار مكاناً آمناً يذهب إليه هؤلاء المؤمنون ، فيختار الحبشة . لم يشأ صلى الله عليه وسلم أن يأمرهم بالذهاب إلى أى قبيلة من القبائل ؛ لأنه يعلم أن كل قبائل الجزيرة تخشى قريشاً ، فموسم الحج جامع للقبائل تحت سيادة قريش . ومن يقف

ضد إرادة قريش فسيتعرض للمتاعب . وعلى ذلك لن يأمن رسول الله على خلايا الإيمان أن يذهبوا إلى أى قبيلة . واستقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم الأرض كلها ، واختار الحبشة ، لماذا ؟ .

ها هى ذى كلمات رسول الله صلى الله عليه وسلم باقية إلى زماننا : « إن بها ملكاً لا يُظلم عنده أحد فأقيموا ببلاده حتى يجعل الله لكم مخرجاً مما أنتم فيه »[١] .

وفى حديث الزهرى : لما كثر المسلمون ، وظهر تعذيب الكفار ـ قال عليه الصلاة والسلام : « تفرقوا فى أرض الله فإن الله سيجمعكم ، قالوا : إلى أين نذهب ؟ قال : إلى ها هنا وأشار بيده إلى أرض الحبشة »[٢] .

وتسللوا فى جنح الليل إلى الطريق متجهين إلى الحبشة . وعندما علمت قريش بالخبر حاولت أن تقطع عليهم الطريق لتعيدهم إلى مكة لتواصل الحملة عليهم والتنكيل بهم لصدهم عن الإسلام . ولكن الحق أراد أمراً مختلفاً وكان الطريق سهلاً ، ووصلوا إلى الحبشة ، وأنجاهم الله من كيد الكافرين .

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يملك ـ بما علمه له ربه ـ الخبرة الكاملة بالرقعة الأرضية ويعرف من يظلم من الحكام ومن لا يظلم . وصدق رسول الله فى فراسته الإيمانية ، فحينما ذهب المؤمنون المهاجرون إلى الحبشة وجدوا أنهم دخلوا دار أمن ، أمنوا فيها على دينهم . وجن جنون قريش وأرادوا استرداد هؤلاء القوم من النجاشى ملك الحبشة فأرسلوا صناديدهم ومعهم الهدايا والتحف لملك الحبشة .

سافر عمرو بن العاص وعبدالله بن أبى ربيعه ، وعمارة بن الوليد بن المغيرة . وطلب وفد قريش من النجاشى أن يسلمهم هؤلاء المهاجرين إلى الحبشة ، وحاولوا الدس للمهاجرين عند النجاشى ، فاتهموا المسلمين المهاجرين أنهم قوم تركوا دين الآباء واعتنقوا ديناً جديداً يعادى الأديان كلها . ويقولون فى عيسى بن مريم قولاً

---

(١) رواه ابن إسحاق .

(٢) رواه عبدالرزاق .

لا يليق به أو بأمه . ورفض النجاشي أن يصدق حرفاً واحداً ، وطلب أن يسمع من هؤلاء المهاجرين . فتقدم جعفر بن أبي طالب وقال :

« أيها الملك كنا أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش ونقطع الأرحام ونُسيء الجوار ، ويأكل القوى منا الضعيف . فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات ، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من الله وحده لا نشرك به شيئاً ، وحرّمنا ما حرّم علينا وأحللنا ما أحلّ لنا ، فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان وترك عبادة الله تعالى وأن نستحل ما كنا عليه من الخبائث ، فلما قهرونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك ، وآثرناك على من سواك ، ورجونا ألا نظلم عندك » .

وثبت للنجاشي أن المسيح بشهادة القرآن نبي نقي طاهر العرض . وهكذا لم يستمع إلى وشاية وفد قريش . وامتلأ قلب النجاشي بالإيمان ولم يستكبر مع أنه ملك ووقف أمام محاولات قريش للنيل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . وعندما سمع ما نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم من سورة مريم قال : إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة .

وعرف رسول الله أن الإيمان قد خامر قلب النجاشي ، بدليل أن أم حبيبة بنت أبي سفيان عندما هاجرت مع زوجها إلى الحبشة وتنصر الزوج لكنها بقيت على دينها على الرغم من أنّها كانت تحبه خالص الحب ، وهنا انفصلت أم حبيبة عن زوجها وذلك حتى يثبت الحق أن ـ هجرتها ـ كانت لله .

وأراد الله على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم أن يكرمها وأن يكرم النجاشي على موقفه من عدم تسليم المؤمنين إلى وفد قريش وموقفه من أنه شهد للإسلام بأنه يخرج

من نفس المشكاة التى خرج منها إنجيل عيسى عليه السلام ؛ لذلك يجعله رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ولى نكاحه لأم حبيبة ؛ لأنه مأمون على ما عَرَف من الإنجيل ، ومأمون على ما سمع من القرآن فى مريم ، ومأمون على أنه لم يسلم المهاجرين ؛ لذلك اختاره وكيلاً عنه فى زواجه من أم حبيبة بعد أن تنصر زوجها . وتلك حادثة واحدة أضاءت أكثر من موقف : موقف أم حبيبة التى أثبتت أنها لم تذهب إلى الهجرة تبعاً لزوجها ، فلو تبعت زوجها لتنصّرت كما تنصر . وأضاءت أن رسول الله كان لا ينطق عن الهوى حين قال مسبقاً عن النجاشى : إنه لا يظلم عنده أحد . وعندما يبلغ الرسول نبأ وفاة النجاشى فهو ـ صلى الله عليه وسلم ـ يصلى عليه صلاة الغائب .

﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

(سورة المائدة)

وهذا امتنان من الله بأن جعل منهم القسيسين الذين يعلمون وهذا تكريم للعلم والرهبان الذين ينفذون منطوقات العلم . إذن فلنعلم أننا يجب أن نفرق بين العَالِم الذى قد يُكتفى بأخذ العلم عنه إن لم يكن يعمل به ، وأن نحترم الذين يعبدون الله تطبيقاً للعلم بالله ونترك هؤلاء الذين لا يعملون بعلمهم لينالوا جزاءهم ، ولكن علينا أن نأخذ بعلمهم ونعمل به .

فخـذ بعلمى ولا تـركن إلى عمـلى
واجنِ الثـمار وخـلِّ العـود للنـارِ

ونجد أن قوله الحق : « ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً » حيثية تجعلهم أقرب مودّة للمسلمين . فهل الرهبانية ممدوحة عند الله ؟ . وإذا كانت ممدوحة عند الله فلماذا قال سبحانه :

﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا

فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾

(سورة الحديد)

هو سبحانه يحدثنا عن موكب الرسل إلى أن وصل إلى عيسى عليه السلام وما جاء به من الإنجيل وكيف أودع فى قلوب الذين اتبعوه شفقة شديدة ورقة وعطفاً وابتدعوا الرهبانية زيادة منهم فى العبادة ولم يفرضها الله عليهم ، لكنهم التزموها ابتغاء رضوان الله ؛ لكن منهم من حافظ عليها والكثير منهم فسق عنها . وسبحانه حين يفرض أمراً تعبدياً فعلى المؤمن أن يؤديه . ويزيد ثواب المؤمن إن ترقى فى التعبديات . لكن إن ترقى الإنسان فى التعبد فعليه أن يعطى هذا الترقى حقه لأنه ألزم به نفسه أمام الله . إذن فالمأخوذ عليهم ليس ابتداع الرهبانية ، ولكن عدم رعاية بعضهم لها حق الرعاية .

« ذلك أن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون » إذن فمنهم من يرصد حياته للعلم ، ومنهم النموذج التطبيقى العملى وهم الرهبان ، وليس فيهم الاستكبار أو العلو ، ومادام فيهم ذلك فهذا يعنى أنهم لا يطلبون السلطة الزمنية . وسيظلون أقرب إلينا مودة مادامت فيهم هذه الحيثية . فإن تخلوْا عن واحدة منها وأصابوا سلطة زمنية فهذا يعنى أنهم تخلوْا عن الصفة التى حكم الله لهم بسببها بأنهم أقرب مودة . وإن تمسكوا بها على العين والرأس .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ

ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾

هذه دقة الأداء القرآنى الذى جاء من قبل أن يجهد المفكرون أنفسهم فى دراسة ظواهر وأحوال النفس البشرية فى مجال علم النفس بالبحث والاستقراء والتجارب ، وأثر ذلك فى وظائف الأعضاء . لقد قال العلم : إن لكل آلة وظيفة ، فالعين ترى ، والأذن تسمع ، واللسان يتذوق ويتكلم ، والأنف يشم ، واليد تلمس ، وقال العلماء فى البداية : إن هذه هى الحواس الخمس الظاهرة ، وكلمة « الظاهرة » هذه إنما جاءت للاحتياط ؛ لأن هناك أموراً يشعر بها الإنسان ولكن لا يدرك كيفية ولا مصدر شعوره بها مثل الجوع أو العطش ، أو فى أثناء المقارنة بين شيئين أيهما أكثر ثقلاً .

لقد حاول العلماء إدراك كيفية تمييز الإنسان بين ثقل وثقل آخر ، فقالوا : إن هناك حاسة اسمها حاسة العضل ، فعندما يحمل الإنسان شيئاً ما فإنه يجهد العضلات لدرجة تمكنه من التمييز بين درجات الجهد . وعرفوا أيضاً أن هناك حاسة اسمها حاسة البين ، وهى الحاسة التى يميز بها الإنسان درجة نعومة أو سمك أى نوع من القماش حتى ولو كان السمك يبلغ الواحد من العشرة من الملليمتر .

إذن فهناك حواس كثيرة يمكن للإنسان الإدراك بها ، وهناك حواس تترك بعضاً من الأثر فى النفس البشرية كآثار الحب والميل أو البغض والنفرة ، ومقرها الوجدان . كإدراك حلاوة طعم شىء أو كراهة شىء آخر ، فإذا استطاب الإنسان شيئاً أخذ منه مرة ثانية ، وهذا العمل هو نزوع يتبع الوجدان الذى يتبع الإدراك .

إذن فهناك إدراك يدرك . وهناك وجدان يجد ، وهناك نزوع ينزع . مثال ذلك إدراك وردة جميلة المنظر واللون فى بستان.هذا الإدراك قد يصيب من القلب عشقاً وحباً ؛ أى وجداناً ، وأنت حر فى أن تدرك ما شئت ، وأن تجد ما شئت ، لكن ليس لك أن تمد يدك لتقطف الوردة ؛ لأن الشرع يحرم ذلك . وحارس البستان أيضاً يمنعك من ذلك . هذا على الرغم من أن أحداً لا يمنعك من أن تنظر إلى الوردة وتستمتع بجمالها . فالإدراك ـ إذن ـ مباح ، والوجدان أمر مباح .

أما النزوع فهذا هو الأمر الذى تتدخل فيه الشريعة . ولنا أن نكرر أن الإدراك مباح والوجدان مباح إلا فى إدراك جمال الأنوثة ، فالشرع يتدخل من البداية . فأنت قد تدرك جمال المرأة فتجد فى نفسك حباً وميلاً ، فإذا نزعت فكيف يمكنك أن تضبط نفسك ؟ فأنت بعد الإدراك والوجدان إما أن تنزع وإما أن تكبت . وإن نزعت انتهكت أعراض الناس ، وإن كبتّ ، أصابك القهر والألم ؛ لذلك يتدخل الشرع فى هذه المسألة من بدايتها فيمنعك تحريماً من أن تدرك ، وذلك بأمر واضح هو غض البصر ؛ لأن المسألة الجنسية من الصعب أن تفصلها عن بعضها ، فالإدراك يمكن فصله عن الوجدان ، والنزوع يمكن فصله عن الوجدان والإدراك فى أمر الوردة . أما فى المسألة الجنسية فهى سعار . . إما أن يقابله الإنسان بأن يعف وإما أن يلغ . فإن عف الإنسان فهو يكبت ويتوتر ، وإن ولغ الإنسان فى أعراض الناس فهذا أمر يسبب هتك أعراض الناس . ولذلك يمنع الشرع من البداية مسألة الإدراك .

وقد جاءت هذه الآية الكريمة قبل أن يأتى علماء النفس ليفسروا أمور الإدراك والوجدان والنزوع ، فهاهوذا الحق يقول : « وإذا سمعوا » وهذا إدراك بحاسة الأذن . وما المسموع ؟ يجيب القرآن : « ما أنزل إلى الرسول » . وهذا هو سبب الوجدان الذى يأتى فى قوله : « ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق » . فكيف يكون نزوعهم بعد هذا الوجدان ؟ إنهم : « يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين » ، هذه هى العملية النزوعية . والقرآن الذى نزل من أربعة عشر قرناً ، جاء بترتيب الإدراك والوجدان والنزوع قبل أن يأتى به العلم . فساعة سمعوا بالأذن ، حدث شىء فى الوجدان ، والتغير الذى فى الوجدان له علامات ظهرت فى عيونهم التى فاضت بالدمع .

وهنا نميز بين أمرين : الأول هو اغروراق العين بالدمع ، أى أن تمتلىء العين بالدمع لكن لم تصل درجة التأثر إلى أن تسقط الدموع من العين ، ويقال : « اغرورقت عين فلان » أى امتلأت عينه بالدموع ولكنها لم تسقط . والثانى وهو فيض الدموع من العين ، والفيض لا يكون إلا نتيجة امتلاء الظرف بالمظروف ، فكأن الدمع قد ملأها امتلاء ، تماماً مثلما نملأ إناء أو كوباً إلى النهاية فيزيد ويفيض .

إذن كان سبب كل ذلك أنهم عرفوا أن القرآن من الحق . ونلحظ أن « مِنْ » تتكرر فى الأداء هنا . « وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق » . فـ « من » تسبق الدمع . و« من » مدغومة فى « ما » فصارا معا « مِمَّا » و« مِن » تسبق الحق .

« وتفيض من الدمع » فـ « مِن » هنا هى : « مِن » الابتدائية . و« مما عرفوا » هنا « مِن » السببية أى بسبب أنهم عرفوا أن هذا القرآن منزل من الحق سبحانه . و« من الحق » للتبعيض ، أى عرفوا بعضاً من الحق ؛ لأنهم لم يسمعوا كل القرآن .

إذن جاءت « مِنْ » ثلاث مرات ، وكل مرة لها مجال لتؤدى إلى المجموع البيانى الذى يصف المظاهر الثلاثة للإدراك والوجدان والنزوع . وهذه المراتب هى مظاهر الشعور التى انتهى إليها العلم التجريبى حين أراد أن يتعرف إلى وظائف الأعضاء ومدى تغلغلها إدراكاً ووجداناً ونزوعاً .

والنزوع هو الذى يهمنا هنا ، لقد قالوا : « فاكتبنا مع الشاهدين » والإيمان أمر يعود إليهم . أما الكتابة مع الشاهدين فهى أمر يعود على الآخرين ، فكأن المؤمن ينال حظاً عالياً ، إنه يؤمن لذاته ، ثم من بعد ذلك يكون وعاء ولساناً يبلغ منهج الإيمان إلى غيره لأنه لا يكون شاهدًا إلا إذا كانت شهادته امتداداً لشهادة الرسول وهذا مصداق لقوله سبحانه وتعالى :

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

أى إنكم يا أمة محمد أفضل أمة أخرجت للناس لا حسباً ولا نسباً ولكن اتباعاً لمنهج ، ومن يتبع المنهج بـ « افعل » و« لا تفعل » فهو الذى يطبق عملية الإيمان بالله . ومن أهل الكتاب من يؤمن بالله فيصير مسلماً ، ولكن الكثير منهم يخرج عن حدود الإيمان . وهناك آية أخرى يقول فيها الحق :

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا
وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ
وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ
لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ ﴾

(سورة البقرة)

إذن فالأمة التى تتبع منهج الإسلام ـ وهو منهج الاعتدال ـ هى الأمة المهتدية التى تسير إلى العمل الصالح الصحيح وتعمل به وتطبقه ، لأنه المنهج الذى ينسخ ما قبله ويصححه ، والرسول صلى الله عليه وسلم هو المهيمن على كل من سبقه من الرسل ، وحياته وما جاء فيها من سلوك هو سنة إيمانية تهدى المؤمنين إلى الطريق المستقيم . وجاءت فى هذه الآية مسألة تحويل القبلة لتعلم المسلمين أن الأمر الأول بالاتجاه إلى بيت المقدس كان اختباراً ينجح فيه من يذعن لصاحب كل أمر وهو الله ، وكان ذلك من الأمور الشاقة إلا على من وفقه الله إلى الهداية ، ثم جاء من بعد ذلك الأمر بتحويل القبلة إلى الكعبة وهى أول بيت وضعه الله للناس .

إذن فمادمنا شهداء ، ومادام الرسول شهيداً علينا ، فالرسول إنما يشهد أننا بلغنا وننال منزلتين : منزلة تلقى البلاغ عن الرسول ، ومنزلة الإبلاغ من بعد ذلك إلى غيرنا من الناس . والمؤمن لا يكون شهيداً إلا إذا كانت شهادته امتداداً لشهادة الرسول صلى الله عليه وسلم . هذه الشهادة التى جاء بها الحق فى وصف أمة المؤمنين :

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ
وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

فأنتم يا أمة محمد أفضل أمة أخرجها الله للناس بشرط أن تتبعوا المنهج بـ « افعل » و« لا تفعل » . تأمرون بالطاعات وتنهون عن كل ما نهى عنه الدين ، وبذلك تكونون قد طبقتم المنهج الدال على صدق إيمانكم بالله إيماناً صحيحاً صادقاً . ولو

صدق أهل الكتاب مثلكم فى إيمانكم ، لكان خيراً لهم مما هم عليه . لكنّ بعضاً منهم يدير أمر الإيمان فى قلبه ، والكثير منهم يخرج ويفسق عن مقتضى الإيمان .

إذن فهم عندما قالوا : « آمنا فاكتبنا مع الشاهدين » ، فذلك إقرار بأن الإيمان كان إيمان ذات وإيمان بلاغ إلى الغير . وهم بذلك قد دخلوا الإسلام وصاروا من أمة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهاهوذا الرسول صلى الله عليه وسلم يقول : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه »[1] .

وهاهوذا الحق يحدد لنا قيمة الكلمة الطيبة المبلغة عن الله :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

(سورة إبراهيم)

إن الكلمة الطيبة هى شجرة لها من الثمار ما ينفع الناس وتظلل بظلها الحنون سامعها ، ولها أصل ضارب الجذور فى الأرض . ولها فروع تعلو إلى اتجاه السماء . وتعطى الثمار فى كل زمن بإرادة خالقها . وهذا المعنى المحسوس مادياً يضربه الله كمثل للناس حتى يعرفوا قيمة المعانى السامية . إذن سيظل صاحب قولة الحق فى بلاغ منهج الإيمان إلى الناس يقطف ثمار هذه الكلمة ما بقى إنسان مؤمن إلى أن نلقى الله .

« فاكتبنا مع الشاهدين » والشاهد هو المبلغ . وعندما يطلب مؤمن من الله أن يكتبه مع الشاهدين فهو يطلب لنفسه المكانة مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين . فالشهيد ليس هو من قتل فقط ، إنما الشهيد هو من يعطى شهادته . والشهيد فى معركة إيمانية تفقده حياته هو إنسان أعطى شهادة على أن ما ذهب إليه أثمن من حياته كلها . وهو فى ذلك يعطى شهادة عملية . ومن بعد ذلك يقول الحق :

---

(١) رواه البخارى فى كتاب الإيمان .

﴿ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾

عندما يأتى التعجب هنا فهذا معناه أن الإنسان يجب أن يعلم أن إيمانه بالله مسألة تعطينا الخير لأنفسنا . فحين نؤمن بالله يقابلنا الحق بفيض الكرم من اطمئنان وخير وعطاء . فإياكم أيها الناس أن تعتقدوا أن الإيمان جاء ليحجب حرياتكم أو أنه يمنع عنكم اشتهاء الأشياء ، ولكن الإيمان جاء ليعلى الحرية ، ويعلى الشهوة فلا يأخذها الإنسان عابرة تنتهى بانتهاء الدنيا ولكن ليأخذها الإنسان خالدة ما بقيت السموات والأرض .

إذن فالدين إنما جاء بالنفعية العاقلة ؛ لأن العاقل إنما يأخذ على مقدار عمره من نفع يسير لا يضر أحداً ، وإن كان يضر النفس أو الغير فالدين يأمر بترك هذا النفع ، ذلك أن النفع إما أن يفوت الإنسان أو يفوته الإنسان . والذكى هو من يؤثر نفع غيره على نفع نفسه .

مثال ذلك أن يأتيك سائل يسألك الطعام لأنه لم يأكل منذ يومين ، ولا يكون فى جيبك إلا جنيه واحد فتعطيه له ، إنك بذلك تؤثره على نفسك ، فتكون ضمن من قال فيهم الحق سبحانه :

﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ ﴾

(سورة الحشر)

وبمثل هذا السلوك يكون الإنسان قد اقتدى بالأنصار الذين استضافوا المهاجرين وأخلصوا الإيمان فأحبوا أهله ، ولا يجدون حقدًا أو حسدًا فيما خُصّ به المهاجرون

من مال الفيء وغيره ، وكان جل همهم أن يسعد المهاجرون وقد سبق أن آثروهم بأشياء كانت لهم وارتضوا لأنفسهم عدم البخل ، فوقاهم الله شر البخل فكانوا من الفائزين . والمتصدق بجنيه إنما يأخذ من الله عشرة أمثاله ، وهذه نفعية كبرى . وعندما أمرنا الشرع بغض البصر عن محارم الغير ، والمنفذ لذلك يحفظه الله ويغض الجميع عيونهم عن محارمه ، أليست هذه نفعية ؟ إذن فمن الحمق أن يظن إنسان أن الدين يقيد الحرية ، لأن الدين إنما يعلى الحرية وينميها ، وينمى الانتفاع عند المؤمن بأن يحول بينه وبين النفعية الحمقاء .

ودائماً أضرب هذا المثل : لنفترض أن رجلاً له ولدان ؛ الأول منهما يستيقظ صباحاً من النوم فيفعل مثلما علمه أبوه : يتوضأ ويصلى ويتجه إلى دراسته بعد أن يتناول إفطاره ، أما الابن الثانى فلا يستيقظ إلا بصعوبة ويظل يتناوم إلى أن يأتى الضحى ثم يخرج من المنزل إلى المقهى . إن كلاً من الولدين أراد النفع لنفسه ، الأول أراد النفع الآجل ، والثانى أراد النفع العاجل ، وبعد أن تمر عشر سنوات يتخرج الابن الأول ليكون مفلحاً وناجحا فى الحياة ، ولكن الابن الثانى يظل صعلوكاً فاشلاً ، إذن فكلاهما نظر إلى النفعية ولكن المنظار مختلف .

وإياكم أن تفهموا أن هناك إنساناً لا يحب نفسه ، لا . كلنا نحب أنفسنا . ولكن هناك من يحب نفسه حباً يعطى لها طول البقاء ، فيجد ويجاهد ، وقد يكون شهيداً ، وآخر أحب نفسه بضيق أفق فحافظ على حياته بالجبن وهو قد مات ألف مرة فى أثناء هذا الجبن ، وفقد كرامته حرصاً على حياة لن يزيد فى مقدارها يوماً واحداً . والمتنبى يقول :

أرى كلنا يبغى الحياة لنفسه حريصاً عليها مستهاماً بها صبا
فحب الجبان النفس أورده التُّقَى[1] وحب الشجاع النفس أورده الحربا

ولذلك فالمتأمل بعمق فى أمر الدين يقول لنفسه : « ومالنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق » ، والمؤمن يرى أنه من العجيب ألا يؤمن لأنه يطمح إلى مكانة المؤمن . « ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين » إذن فالمؤمن يطلب مكانة الإنسان الصالح .

---

١ ـ التقى : الحذر والخوف

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾

إنها كلمة الحق التى تقال فى كل مكان وزمان . قالها نجاشى الحبشة وله سلطان لأهل الجاه من قريش الذين استبد بهم باطلهم ؛ لذلك كان لهذه الكلمة وزنها ، فعندما سمع ما نزل من القرآن من سورة مريم قال : إن هذا والذى جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة . إذن فهى كلمة حق لها وزن ، والله سبحانه وتعالى يجزل العطاء لكل من ساند الحق ولو بكلمة فهو سبحانه (الشكور) الذى يعطى على القليل الكثير ، و(المحسن) الذى يضاعف الجزاء للمحسنين .

ولنا أن نعرف أن للقول أهمية كبرى لأنه يرتبط من بعد ذلك بالسلوك . وكان قول النجاشى عظيماً ، لكن العمر قد قصر به عن استمرار العمل بما قال . فقد قال كلمته وجاءه التوكيل من رسول الله ليعقد للرسول على أم حبيبة بنت أبى سفيان فعقد عليها وكيلا عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأمهرها من ماله ثم مات ، ولم تكن أحكام الإسلام قد وصلت إليه ليطبقها ؛ لذلك كان يكفيه أنه قال هذا القول ، ولذلك صلى عليه النبى صلاة الغائب .

وهناك قصة « مخيريق » اليهودى . لقد تشرب قلبه الإسلام وامتلأ به وكان فى غاية الثراء فقال لليهود : كل مالى لمحمد وسأخرج لأحارب معه . وخرج إلى القتال مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقتل فمات شهيداً ، وهو لم يكن قد صلى فى حياته كلها ركعة واحدة . إذن فمجرد القول هو فتح لمجال الفعل .

« فأثابهم الله بما قالوا جنات تجرى من تحتها الأنهار » والحق يريد أن يؤكد لنا أن كل حركة إيمانية حتى ولو كانت قولاً إنما تأخذ كمالها من عمرها . ونعلم أن الإيمان فى مكة كان هو الإيمان بالقول . ذلك أن الناس آمنت ولم تكن الأحكام قد نزلت ، فغالبية الأحكام نزلت فى المدينة . وعلى ذلك أثاب الله المؤمنين لمجرد أنهم قالوا كلمة الإيمان ، حدث ذلك ولم يكن قد جاء من الحق الأمر بالبلاغ الشامل وهو قوله الحق :

﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ ﴾

(من الآية ٢١٤ سورة الشعراء)

فهؤلاء قد جزاهم الله حسن الثواب وسمّاهم « محسنين » وكذلك فعل النجاشى ، فقد ذهب إلى الإيمان دون أن توجه له دعوة وكان ذلك قبل أن يكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم الدعوة للملوك ليؤمنوا ، وعلى هذا فالنجاشى محسن ؛ لأنه قفز إلى الإيمان قبل أن يطلب منه . وساعة يتكلم الحق عن منزلة من منازل الإيمان فهو أيضاً يتعرض للمقابل ، وذلك لتبلغ العظة مراميها الكاملة . فإذا تحدث عن أهل الجنة فهو يعقبها بحديث عن أهل النار ، وإذا تحدث عن أهل النار فهو يعقبها بحديث عن أهل الجنة ؛ لأن النفس الإنسانية تكون مستعدة للشيء ومقابله .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾ ﴾

ونعرف أن كلمة « صاحب » وكلمة « صحبة » وكلمة « أصحاب » ، هذه الكلمات تدل على الملازمة ، والملازمة فى الحياة تكون اختيارية لا قهرية ؛ فلا أحد يصاحب أحداً بالقهر .

ونفهم من قوله : « أصحاب الجحيم » أن هذا يعنى العشق المتبادل بين النار وأهلها ، وليس هذا مرادا ، فهو إما أن يكون على سبيل السخرية والاستهزاء بهم ، وإما أن يكون المراد هو الملازمة التامة والمصاحبة الدائمة التى لا تنفك ولا تنتهى . وبعد أن تكلم الحق عن المشركين وتكلم عن اليهود وتكلم عن النصارى . فهو يتكلم عن المؤمنين ، إنه ينفض أذهاننا أولاً ليزيل عنها ما علق بها من أمر المخالفين ومناهجهم ، ويأتى لنا من بعد ذلك بالأحكام ، وقد فعل ذلك فى هذه السورة التى تبدأ بآية العقود :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ ﴾

(من الآية ١ سورة المائدة)

وعقد الإيمان هو ما يرتفع ويسمو على ما يقوله المشركون ويخرج عما يقوله اليهود والنصارى . ومن بعد ذلك نلاحظ أن الحق بعد أن تكلم عن ضرورة الوفاء بالعقود ، فهو يلزم المؤمنين بالمنهج الذى يحمى حركة الحياة . وحركة الحياة يتم استبقاؤها أولاً بالطعام والشراب . لذلك قال :

﴿ أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ﴾

(من الآية ١ سورة المائدة)

ومن بعد استبقاء حركة الحياة بالطعام والشراب ، ها هوذا يقول : « حرمت » . وهنا لنا وقفة ، فعندما يحلل الله شيئاً من أجناس الوجود ؛ وحينما يحرم شيئاً آخر من أجناس الوجود فللسائل أن يسأل بعقلانية ويقول : مادام الحق قد حرم هذه الأشياء فلماذا أوجدها ؟ ونعلم فى حياتنا العادية أن كل صانع إنما يحدد خصائص لصنعته . ومثال ذلك صانع الطائرة يصمم طائرته ويحدد الوقود اللازم لها ، ولا يمكن أن تسير بوقود سيارة ، فإذا كانت الآلات التى من صنع البشر تفسد إن استخدمنا لها ما لا يناسبها . فكيف إذن نقول لصانعنا : لماذا خلقت الأشياء التى لا تناسبنا ؟ لا بد أن لها مهمة فى الكون واستخداماً آخر يجعلها تنتج الأشياء المفيدة لنا . مثال ذلك سمّ الحيّة ، إنه يقتل الإنسان ، ولكن الله ألهم الإنسان القدرة على استخراج السّم من الحيّة لقتل بعض الميكروبات .

إذن فالعالم قد خلقه الله بتركيب معين . ومثال ذلك نجد التمساح وهو راقد على الشاطىء والطيور تلتقط من فمه بعضاً من غذائها ولا يؤذيها ؛ لأن هذه الطيور هى

التى تنبه التمساح إذا جاء صياد ليقتنصه ، فالطيور تحرص على مصدر قوتها وتحافظ على حياة التمساح . والكهرباء نستخدمها فى مجالها ، أما فى عكس مجالها فهى تصعق وتدمر .

إذن فليس للإنسان أن يسأل لماذا حرم الله أشياء على الإنسان ؟؛ لأن لتلك الأشياء دورة فى الحياة . ولا يصح أن ننقل الوسيلة لتكون غاية . والحق أراد بالحلال والحرام أن ينتفع الإنسان بالصالح له. مثال ذلك أن حرم الله أكل لحم الخنزير . والخنزير إنما وُجد ليأكل ميكروبات . إذن فليس للإنسان أن يُحَوِّل الوسيلة إلى غاية . ويعطى الحق كل يوم للإسلام قوة تأييد تأتيه من خصوم الإسلام .

ومثال ذلك : إننا نجد أن الأمراض تنتشر بنسب عالية فى الأمم التى تستهلك لحم الخنزير ، وتشرب الخمر ، وهناك مرض اسمه « تشمع الكبد » ينتشر فى تلك البلدان ، فهل كنا نؤخر تنفيذ أمر الله إلى أن تنشأ المعامل وتقول لنا نتائج أكل الخنزير ؟ أو كان يكفى أن نحرم على أنفسنا ما حرم الله ؟ إن علينا أن ننفذ أوامر الله صيانة لنا :

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾

(من الآية ٥٣ سورة فصلت)

وكل يوم تظهر لنا آية تؤكد صدق إيماننا بالله ؛ لذلك فلا يقولن أحد : لماذا خلق الله تلك الأشياء المحرمة ؟ لقد خلقها الله وسيلة لا غاية . ومثال ذلك أن خلق الله لنا البترول لنستخرج منه الوقود ؛ فهل أحد منا يقدر على شرب البترول ؟! إذن فالتحليل والتحريم لصالح الإنسان . فإن خرج الإنسان عن ذلك فلا يلومن إلا نفسه . ولذلك يقول الحق :

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا ﴾

(من الآية ٥٩ سورة يونس)

كأن الحق يستنكر أن نصنع من حلال ما خلق أشياء محرمة . وأن نحرم أشياء حللها الله . كترك البحيرة والسائبة والوصيلة ؛ وكلها أرزاق من الله . هو سبحانه خالق كل الأشياء وهو الذى يحدد نفعها وعدم نفعها للإنسان . والبحيرة هى الناقة

التى كانوا يشقون أذنها حتى لا يتعرض لها أحد بعد أن تكون قد نتجت خمسة أبطن آخرها ذكر ، وكانوا يطلقونها فى المراعى لا تُركب ولا تُحلب ولا يُمنع عنها مرعى أو ماء . وكانوا يقولون إنها للآلهة . وعندما نستكشف آفاق من يستفيد منها ، كنا نجد الكهنة هم الذين يستفيدون منها . وكذلك السائبة وكانوا يتركونها تطوعاً لا يركبها أحد ولا يحلبها أحد وكان المستفيد منها الكهنة أيضاً . وكذلك الوصيلة وهى الأنثى التى جاءت فى بطن واحد مع ذكر وقالوا وصلت أخاها فلم يذبحوا الذكر لآلهتهم . وكذلك كانوا يطلقون الفحل الذى نتج من صلبه عشرة أبطن وقالوا قد حمى ظهره فلا يركب ، ولا يحمل عليه ولا يمنع من ماء ولا مرعى ، والحق سبحانه وتعالى يوضح لنا : أنا لم أحرم هذه الأشياء فلماذا تحرمونها ؟

هو سبحانه قد حرم الميتة والدم لأنه هو الذى حدد وبيّن ما هو حلال وما هو حرام . وسبحانه الذى يرزق الرزق فيكون مرة رزقاً مباشراً ومرة يكون رزقاً غير مباشر . ولذلك جاء الحق بالقول الكريم :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾

إذن فأمر التحريم موكول إلى خالق الآلة الإنسانية ، وأمر التحليل موكول إلى خالق الآلة الإنسانية . وأنت أيها الإنسان لا تتدخل فى ذلك أبداً . لأن تدخل الإنسان يكون أحياناً بتحريم ما أحل الله ، وأحياناً يكون تدخل الإنسان بتحليل ما حرم الله .

إياك أيها الإنسان أن تحرم ما أحل الله لك ، وإياك أن تحلل ما حرم الله عليك . ونحن هنا أمام مراحل عدة ، لا تعتقد أن هناك أمراً حلله الله هو حرام ، ولا تقل إن هناك أمراً حلله الله هو حرام ، ولا تمتنع عن أمر حلله الله ظناً أنه حرام ، ولا تُفْتِ بأمر حلله الله على أنه حرام ، ولا تجعل أمراً حلله الله فتحرمه على نفسك ، فلا ينذر

أحد ألا يأكل لحم الضأن أو البرتقال ـ على سبيل المثال ـ لأن النذر فى ذلك ليس حلالاً ، لأن تحريم الأشياء المحللة بالنذر هو أمر محرم . ولذلك علمنا الحق قائلاً لرسوله :

﴿ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ﴾

(من الآية ١ سورة التحريم)

لا بد لنا أن نعى ذلك الأمر وأن نعرف مراحله : لا تعتقد ، لا تقل ، لا تمتنع ، لا تُفْتِ ، لا تنذر ، لماذا ؟ لأن فى ذلك اعتداء .

يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾

(من الآية ٨٧ سورة المائدة)

وما الاعتداء ؟ إنه تجاوز الحد فيما حرم الله أو فيما حلل الله . أى أن الله يحب من يقف عند الحدود . وهو سبحانه يقول مرة :

﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ﴾

(من الآية ١٨٧ سورة البقرة)

ومرة يقول :

﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ﴾

(من الآية ٢٢٩ سورة البقرة)

ففى المنهيات : لا تقترب . وفى ما أحله الله : لا تتعدَّ ؛ لذلك جاء القول على لسان الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم : « الحلال بين والحرام بين وبينهما مُشْتَبهات لا يعلمها كثير من الناس فمن اتقى المُشْتَبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع فى المشتبهات وقع فى الحرام كراعٍ يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه ، ألا وإن لكل ملكٍ حمىً ألا وإن حمى الله تعالى فى أرضه محارمه ، ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب »[1] .

(١) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى وابن ماجه عن النعمان بن بشير .

إذن فكل كائن له مميزات وله مهمة فى الوجود . وأنت أيها الإنسان لا تقلب الوسيلة إلى غاية ، فهناك كثير من المخلوقات هى وسائل ولا تصلح أن تكون غايات ؛ ولذلك أمرنا الحق بأن نأخذ ما ننتفع به مباشرة وأن نترك الأشياء التى حرمها علينا؛ فلا نقرب ـ على سبيل المثال ـ لحم الخنزير؛ لأن الخنزير مخلوق ليخلصك من الميكروبات ، فإن أكلته تكون قد قلبت الوسيلة إلى غاية . وعليك أيها الإنسان أن تحتفظ بالوسيلة كوسيلة وأن تحتفظ بالغاية كغاية . والذى يحدد لك ذلك هو من صنعك . . إنه الله .

ودليل ذلك أن خصوم الإسلام يكتشفون كل يوم المميزات التى جاء بها الإسلام فيتجهون إليها . إن الله بتحريمه وبإيماننا بهذا التحريم منعنا من متاعب التجربة إلى أن تثبت ، والكفار الذين لم يؤمنوا اضطرتهم الظروف إلى تناوله ، وعلى ذلك فكل شىء محلل أو محرم بأوامر الله يظهر لنا فائدته أو ضرره طبقاً لقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾

(سورة فصلت)

إذن فلا اعتقاد فى شىء حلال أنه حرام ولا قول بمثل ذلك ولا امتناع عنه ولا يفتى إنسان بمثل ذلك . ويأتى الأمر : « ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين » . ونعرف أن الاعتداء إنما هو أن نتجاوز الحد فيما حرم أو فيما حلل ، والحق سبحانه يحب من يقف عند حدود الله . فلا يقربها الإنسان حتى لا تحدثه نفسه بمعصية . وعندما يبتعد المسلم عنها فهو يتقى الشبهات .

والحق يبين لنا لقد أحللت لكم كذا وحرمت عليكم كذا وهو الخالق . فيجب أن نأخذ من الخالق مواصفات ما يبقى لنا الحياة ، هذا الإبقاء هو ما نصنعه نحن حينما نخترع آلة توفر علينا الحركة وتعطينا الثمرة بأقل مجهود ، فحين يصنع الصانع آلة من الآلات يصنع لها ما يوجد لها الطاقة لتقوم بعملها ، ولا يستطيع المستعمل لهذه الآلة أن يغير وقود هذه الطاقة ، فإن غير نوع الطاقة ، فالآلة لا تؤدى مهمتها . فما بالنا بالذى خلق ؟

إنه حين يوضح أنّ هذه الآلة لا تصلح إلا بما أحللت ، ولا يصح أن تدخل عليها ما حرمت عليك . هنا يجب أن نطيع الخالق ؛ لأنه هو الذى يعلم ما يصلح لنا وما لا يصلح . ولم يدع أحد فى الكون أنه خلق نفسه ، فلنرد اقتياتنا وحفظ حياتنا إلى خالقنا ، ولنأخذ ما حلله ونبعد عما حرمه ، فالآلة ـ الإنسان ـ تصلح بأن تفعل الحلال وأن تترك فعل الحرام . إذن هناك أشياء تُفعل ، وهناك أشياء لا تُفعل . وهناك أشياء لم يأت فيها الحل أو الحرمة ، فإن أقبل عليها الإنسان فهى تصلح ، وإن لم يقبل عليها الإنسان فهى تصلح أيضاً . والحق سبحانه وتعالى يوضح : أنكم لم تخلقوا هذه الآلة ـ الإنسان ـ وأنا الذى خلقتها ، فأنا أعلم بما يعطيها مدد الطاقة ومدد البقاء ، فإن صنعتم غير ذلك كنتم معتدين .

ولذلك يخاطب الحق الذين آمنوا بأنه خلقهم من عدم وأمدهم من عدم ورزقهم لاستبقاء حياتهم ونوعهم ، وعليهم أن يأخذوا من الله هذه الأحكام : « لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم » . وسبحانه يوضح : إن الذى يؤمن بأنى إله فليأخذ منى مواصفات استبقاء حياته . وعندما يقول سبحانه ذلك فلا بد أن يكون هناك سبب داعٍ لهذا القول ولما نزل قوله ـ سبحانه ـ :

﴿ * لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

(سورة المائدة)

الحق جاء فى هذا القول الكريم بحيثيات مدحهم وحيثيات قربهم من مودتنا ، فمنهم القسيسون والرهبان الذين زهدوا فى الحياة . ولما سمع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك بكوا واجتمع عشرة من الصحابة فى بيت عثمان بن مظعون الجمحى ، وفيهم أبو بكر الصديق وعمر وعلى بن أبى طالب وعبدالله بن مسعود وعبدالله بن عمر وأبو ذر الغفارى وسالم مولى أبى حذيفة والمقداد بن الأسود وسلمان الفارسى ومعقل بن مقرن ، واتفقوا على أن يصوموا النهار ويقوموا الليل ولا يناموا على الفرش ولا يأكلوا اللحم ولا الودك أى الدسم . ويجبوا المذاكير ويسيحوا فى الأرض كما يفعل الرهبان ، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فجمعهم

فحمد الله وأثنى عليه فقال : « ما بال أقوام قالوا كذا وكذا لكنى أصلى وأنام وأصوم وأفطر وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتى فليس منى »[١] .

وأنزل الحق سبحانه وتعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾

(من الآية ٨٧ سورة المائدة)

وكلمات الرسول صلى الله عليه وسلم لصحابته وللناس منطقية ، فإذا كانوا يريدون أن يمتنعوا عن طيبات ما أحل الله حتى يعلنوا الزهد مثل السابقين عليهم ، ومن يريد الرهبنة ألا يصلى ؟ إنه يقيم الصلاة ؛ والصلاة لا بد لها من حركة ، والحركة لا بد لها من قوة ، والصلاة لا بد لها من ستر العورة ، وستر العورة يقتضى اللباس ، وهذا اللباس يحتاج إلى تفكير من أين يأتى هذا . القماش يأتى من تاجر أقمشة ، وتاجر الأقمشة لا بد أنه يأتى به من المصانع التى تنسجه ، والمصانع التى تنسجه لا بد أن تأتى به من المصانع التى غزلته ، والمصانع التى غزلته لا بد أن تأتى به من المحالج التى حلجت ، ثم لا بد من الحيوانات التى أخذ منها إن كان صوفاً ، وأن تربى وتربيتها تحتاج إلى زراعة . إذن فكل هذه الأشياء تتطلب حركة واسعة ، أنت لا تشعر بها إلا حين تحتاج إلى الثوب . فإن كنت تريد أن تنقطع للعبادة فإياك أن تنتفع بحركة من يقيم أركان الإسلام ، ويتحرك فى الحياة فى ضوء منهج الله ساعياً إلى الرزق ، وهذا أمر لا يتأتى .

وأيضاً ، ألا يأكل الذى يريد الانقطاع إلى العبادة ؟ إنه يأكل ليقوم إلى الصلاة . وكلنا يعرف كيف يجىء رغيف الخبز . صحيح أن الإنسان يذهب إلى المخبز ليشترى رغيف الخبز ، والمخبز جاء بالدقيق من المطحن . والمطحن جاءته الغلال من المخازن ، والغلال جاءت من الذى زرع . والذى زرع احتاج إلى آلات تحرث وآلات تغرس وإلى آلات تجنى ، وبعد ذلك احتاج إلى أشياء أخرى كالسماد وغيره ، إن هذا يحتاج إلى طاقة هائلة .

---

(١) رواه مسلم ورواه البخارى بلفظ : « فقال أحدهم : أما أنا فأصلى الليل أبدا وقال آخر : أنا أصوم الدهر ولا أفطر وقال آخر : أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدا . . » .

إذن فالإنسان فى حركته فى الصلاة محتاج إلى كل هذه الأعمال ، فإياك أن أردت أن تعتزل الحياة أن تنتفع بعمل من لم يعتزل الحياة . والعمل الذى لا يتم الواجب إلا به فهو واجب . ولذلك يكون على ولى الأمر إن رأى حرفة يتطلبها الوجود الإنسانى والوجود الإيمانى ولم يذهب إليها أناس طوع أنفسهم عليه أن يلزم قوماً بأن يفعلوها . وكل صناعة هى فرض كفاية إن قام بها البعض سقطت عن الباقين . وإن لم يقم بها البعض أثم الجميع .

إذن فلا بد من حركة الحياة . وحركة الحياة تُسْلم حلقة إلى حلقة أخرى . فلا تأخذ الثمرة وأنت مع ذلك تعتزل الحياة . والحق سبحانه وتعالى يقول : « لا تحرموا طيبات ما أحل الله » . إنكم إن فعلتم ذلك تكونوا قد أخذتم صفة المشرع واعتديتم على حقه فى أن يحلل وأن يحرم ، وهذا اعتداء .

وإذا كان الله قد حرم أشياء وحلل أشياء فهذا بمقتضى صلاحية الأشياء المحللة للإنسان . وعلى الإنسان أن ينظر إلى الأشياء الموجودة المحرمة على أنها رزق غير مباشر لأنها وسيلة إلى رزق مباشر ، كما عرفنا أننا نستخلص من سم الثعبان علاجاً ، إذن فالثعبان مخلوق لمهمة تخدم الإنسان . والعالم كله حلقات ، حيوانات تستفيد من أذى بعضها إلى أن يصل الخير كله إلى المؤمن ، فلا يقولن إنسان « لماذا خلق إذا كان قد حرم » .

فلا تعتد لتحلل ما حرمه الله وتحرم ما حلله الله ، فبترك الاعتداء ينتظم الوجود ، وحين ينظر الإنسان إلى الغابة يجد أن لكل حيوان مهمة مع غيره ، هذه المهمة تؤدى إلى الصلاح فيما يصلح للإنسان . لقد حرم الحق بعض الأشياء كرزق مباشر ، لأنها رزق غير مباشر . والرزق المباشر هو ما يأكله الإنسان مباشرة وما يلبسه ، والرزق غير المباشر هو وسيلة إلى الرزق المباشر ، وما حرمه الله هى أشياء مخلوقة كوسائل إلى صحة غيرها .

« يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا » أى لا تجعلوا الحرام حلالاً ، ولا تجعلوا الحلال حراماً ، و« لا تعتدوا » أى كلوا من الطيبات دون

أن تتجاوزوا الحد ، وهذا هو معنى قوله الحق :

﴿ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ﴾

(من الآية ٣١ سورة الأعراف)

ومن بعد ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾

أولا نسأل : ما هو الرزق ؟ الرزق هو ما انتفع به . فالذى تأكله رزق ، والذى تشربه رزق ، والذى تلبسه رزق ، والذى تتعلمه رزق ، والصفات الخلقية من حلم وشجاعة وغيرها هى رزق ، وكل شىء ينتفع به يُسمى رزقاً .

ولكن حين يقول الحق : « وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيباً » فهو ينصرف إلى ما يطعمه الإنسان . وحين يقول سبحانه ذلك فالمقصود به أن يأكل الإنسان من الرزق الحلال الطيب . إذن فهناك رزق حرام ، مثال ذلك اللص الذى يسرق شيئا ينتفع به ، هذا رزق جاء عن طريق حرام ، ولو صبر لجاءته اللقمة تسعى إلى فمه لأنها رزقه . أو الرزق هو ما أحله الله ، وهنا اختلف العلماء وتساءل البعض : هل الرزق هو الحلال فقط والباقى ليس رزقاً ؟ وتساءل البعض الآخر : هل الرزق هو ما ينتفع به ومنه ما يكون حلالاً ومنه ما يكون حراماً ؟ الحق يقول :

﴿ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا ﴾

(من الآية ٨٨ سورة المائدة)

كلوا ما رزقكم هذا أسلوب ، « ومما رزقكم الله » هذا أسلوب آخر. فـ ما رزقكم الله أى نأكله كله ، وهذه لا تصلح ؛ لأننا لا نأكله كله طبعا بل إننا سنأكل بعضه ؛ لأن الذى يؤكل ويطعم إما أن يكون صالحاً لإيجاد مثله ، وإما أن

يكون غير صالح لإيجاد مثله ، فعندما يحتفظ الإنسان بالدقيق مثلاً فهو لا ينتج سنبلة قمح ، إذن يجب علينا أن نأكل بعضا ونستبقى بعضا صالحا لأن ينتج مثله ، فعندما نحتفظ بالقمح فهو يصلح أن يأتى بسنابل القمح ؛ لذلك جاء الأمر بأن نأكل بعض ما رزقنا الله حتى نحتفظ ببعض الرزق لا نأكله ، وهذا يعنى أن نحتفظ بامتداد الرزق ، فلو أكل الإنسان كل القمح الذى عنده فكيف يحدث إن أراد أن يزرع ؟ إذن فاستبقاء الرزق يقتضى أن نحتفظ ببعض الرزق لنصنع به امتداداً رزقياً فى الحياة .

والرزق الحلال هنا نوعان : ما يصلح لامتداده فيجب احتجاز بعض منه من أجل أن يستخدمه الإنسان فى استجلاب رزق آخر . وما لا يصلح لامتداده كالدقيق مثلاً . نأكل بعضه ونحتفظ ببعضه لمن لا يقدر على الحركة . ولذلك نجد الحق فى سورة يوسف يقول عن رؤيا الملك :

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾

(سورة يوسف)

هنا قال أهل تفسير الرؤيا :

﴿ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾

(سورة يوسف)

إنه اضطراب فى الجواب ؛ لأن كونها أضغاث أحلام أنها لا معنى لها ، وقولهم بعد ذلك : « وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين » فمعنى ذلك أن لها تأويلا وقد كان لها تأويل ، ثم مَن الذى رأى الرؤيا ؟ إنه الملك . ويأتى الحق بيوسف مفسراً للرؤيا . إذن فلا ضرورة أن يكون الرائى مؤمناً ولا صالحاً . وقد يقول قائل : كيف يطلعه الله على مثل هذه المسائل ؟ ونقول : قد تكون الرؤيا إكراماً للرائى ، وقد تكون الرؤيا إكراماً للمعبر الذى يعرف التأويل ، وهى هنا إكرام للمعبر وهو سيدنا يوسف . وعرف سيدنا يوسف كيف يفك « شفرة » الرؤيا . والعجيب فى الرؤيا أن البقر الهزيل يأكل البقر السمين . وهنا قال يوسف :

﴿ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾

(من الآية ٤٧ سورة يوسف)

أى كلوا البعض وليكن قليلا قليلا ، لا تسرفوا فيه لتنتفعوا فى السبع الشداد وهن سنين الجدب لتأكلوا فيها ما جمعتموه فى سنين الخصب ، اتركوا البعض الآخر . لاستمرار النوع . وتبين أن أفضل وسيلة لحفظ حبوب القمح فى عصرنا هى أن نتركه فى سنابله وكذلك الذرة نتركها فى غلافها . وكان تعبير الرؤيا دقيقاً لأنه يريد أن يستبقى للناس حياتهم فى زمن الجدب ، ويستبقى لهم كذلك الضرع الحيوانى ، فتأكل الناس الحب ، وتأكل الماشية التبن المتبقى ، وكذلك ضمن الحق مقومات الحياة لكل ما يلزم للحياة . ونلحظ أن المأكول فى هذه الآية هو القليل ، أما الباقى فهو الكثير فى سنابله ، هذا فى أيام الرخاء ؛ فماذا عن أيام الجدب ؟

﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾

(سورة يوسف)

أى أن الناس ستأكل فى أعوام الجدب الكثير من الحبوب التى فى المخازن ويجب أن يحتفظوا بقليل مما يحصنون فى هذه المخازن ، وذلك لاستبقاء جزء من القمح للزراعة .

إذن فـ (من) فى قول الحق سبحانه وتعالى : (وكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً) للتبعيض أى كلوا بعض ما رزقكم الله ، فإن كانت الأشياء مما يكون بقاؤها سبباً لامتداد نوعها فالنوع يكون متصلاً . مثال ذلك رجل عنده بذور البطيخ وزرعها ، وبعد أن جاءت الثمار أكلها هى والبذور فمن أين يزرع فى العام القادم ؟ كان يجب أن يحتفظ ببعض منها لتكون بذوراً . وكان يجب أن يحتفظ بجزء من البطيخ ليعطى منه الجار أو المحتاج .

إذن فقول الحق سبحانه وتعالى : « مما رزقكم الله » تصلح لاستبقاء النوع وتصلح لصرف الزائد إلى غير القادر . « واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون » أى أنك حين تتقى من تؤمن به إلهاً فليس فى ذلك غضاضة ؛ لأنك آمنت أنه إله وقوى ، والغضاضة فى أن تأتمر بأمر مُساوٍ لك ، أما الانقياد والائتمار لأمر الأعلى منك ، فهذا لا يكون سبباً فى الغضاضة إنما هو تشريف لك وتكريم .

ونجد الحق يشرع لنا ذلك فى قصة سيدنا موسى مع السحرة ، فألقى موسى عليه السلام عصاه ، ورآها السحرة حية . والساحر ينظر إلى الشيء الذى تم سحره فيراه على حقيقته وصورته الأصلية ، أما المسحورون بالرؤية فهم الذين يرون الشكل المراد لهم رؤيته . ورأى السحرة حبالهم مجرد حبال ؛ وعصا موسى هى التى صارت حية . هنا عرفوا أنها مسألة أخرى فماذا قالوا ؟ :

﴿ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾

(سورة الشعراء)

لقد عرفوا أن هذا أمر خارج عن نطاق البشرية . إذن فما كان من أمر السحرة تجاه قوم فرعون هو تخييل للنظر :

﴿ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ ﴾

(من الآية ٦٦ سورة طه)

وقال الحق :

﴿ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ ﴾

(من الآية ١١٦ سورة الأعراف)

أما موسى عليه السلام فحين ألقى العصا أول مرة ووجدها حية خاف لأنه رأى فى ذلك قلبا للحقيقة . أما عند السحرة فليست حبالهم حيات حقيقية ولكنها سحر لأعين الناس أى تخييل للناظر . ومثال آخر هو سيدنا سليمان عندما أرسل لبلقيس ملكة سبأ . وجاء رسوله يقول لها :

﴿ أَلَّا تَعْلُواْ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾

(سورة النمل)

فماذا قالت لحاشيتها من رجال القتال ؟ :

﴿ مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ ﴾

(من الآية ٣٢ سورة النمل)

وهنا عرفت الحاشية أن المسألة تتطلب رأياً سياسياً ؛ فقالوا :

﴿ قَالُوا نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾

(سورة النمل)

الرأى إذن هو من حق السياسى الذى يزن الأمور بموازين العقل وموازين الاحتمال الواقعة وموازين رد الفعل . وأدارت بلقيس المعركة سياسياً ، فأرسلت هدية من مقام ملكة ، فإن راقته الهدية فهو طالب دنيا ويريد خيرها ، وعندما وصل رسلها بالهدية ، ماذا قال سليمان ؟

﴿ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾

(سورة النمل)

وهنا عرفت بلقيس أن الإسلام أمر ضرورى ، وهاهى ذى الدقة لنعرف أن الأمر من المساوى هو الذى يعطى عزة فى الآمر وذلة فى المأمور ، أما إذا كان الأمر من غير المساوى ومن الأعلى ـ سبحانه ـ فلا ذلة فيه لأحد . وكان إيمان بلقيس إيماناً ملوكياً . فقالت :

﴿ وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾

(سورة النمل)

إنها لم تقل أسلمت لسليمان وإنما قالت : « وأسلمت مع سليمان لله » . إذن فلا غضاضة فى إيمانها . وذلك حتى لا يظن شعبها أنها ذهبت به إلى حضيض الذلة فى أن يحكمهم إنسان آخر . لكن هى وسليمان محكومان لله رب العالمين ، ولا غضاضة فى ذلك : ونعود إلى قوله جل شأنه :

﴿ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾

(من الآية ٨٨ سورة المائدة)

أى اجعلوا للإيمان حيثية ، ومادمت قد آمنت وتأتمر بأمر من تؤمن به . فأنت لا تؤمن إلا بمن تثق فى أنه يستحق الإيمان . وقوله أولاً فى الآية السابقة :

﴿ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾

(سورة المائدة)

وقوله فى تذييل هذه الآية :

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾

(من الآية ٨٨ سورة المائدة)

هو تسوير وإحاطة لطاعة بإيمانين ؛ إيمان خوطبوا به ، وإيمان أقروا به . ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ ۖ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾

عندما ننظر فى قول الحق : « لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم » نعرف أن « يؤاخذ » من « آخذ » ويأخذ من أخذ ، فإن قلت : « أخذت فلاناً بكذا » فذلك دليل على أنك أنزلت به نكالاً لأنه لم يدخل فى تعاقد خيرى معك ، ولكن أن تقول : « آخذته » . كأن المفاعلة حدثت بأن دخل معك فى عقد الإيمان ولذلك يأخذ الحق

الكافرين أخذ عزيز مقتدر . ولكنه يؤاخذ المؤمنين ، لماذا ؟ لأن المؤمنين طرف فى التعاقد ، أما الكافرون فليسوا طرفاً فى التعاقد ؛ لذلك يأخذهم أخذ عزيز مقتدر .

إذن فالمؤاخذة غير الأخذ ، المؤاخذة هي إنزال عقوبة بمن له معك عهد فخالفه بعمل جريمة نُصَّ عليها ؛ فلا يؤاخذه أبداً بجريمة لم ينص عليها ، ولا يتم توقيع عقاب على أحد دون تحذير مسبق . ولذلك ففى القانون المدنى يقولون : لا عقوبة إلا بجريمة ولا جريمة إلا بنص .

إذن لا بد من النص أولاً على العقاب على الجريمة ؛ لأن النص على فعلٍ ما بأنه جريمة يجعل الإنسان يراجع نفسه قبل الإقدام على مثل هذا الفعل . أما عدم وجود نص على أن ذلك الفعل جريمة يجعل الإنسان حراً فى أن يفعله أو لا يفعله لأنه فعل مباح .

وعلينا أن نلحظ التعاقد فى قوله الحق : « لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم » . وعندما ننظر إلى معنى : « اللغو » نجده الشيء الذى يجرى على اللسان بدون قصد قلبى ؛ مثل قول الإنسان فى اللغة العامية : لا والله أو : والله أن تأتى للغداء معنا ، هذا هو اللغو . أى هو الكلام من غير أن يكون للقلب فيه تصميم . وسبحانه وتعالى قد خلقنا وهو الأعلم بنا علم ـ سبحانه ـ أن هناك كلمات تجرى على ألسنتنا لا نعنيها . ودليل ذلك أن الأم التى تحب وحيدها قد تدعو عليه ، لكن ذلك بلسانها ، أما قلبها فيرفض ذلك . ولهذا يقول المثل الشعبى : أدْعى على ابنى وأكره من يقول آمين .

إذن الحق سبحانه وتعالى علم بشريتنا ، وعلم أن اللسان قد يأتى بألفاظ لم تمر على قلبه فيقول سبحانه : « لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم » واتبع الحق ذلك : « ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان » . وساعة نرى كلمة : « ولكن » نعرف أن هناك استدراكاً ، والاستدراك هو إثبات ما يتوهم نفيه أو نفى ما يتوهم ثبوته . وساعة نرى كلمة « عقَّدتُم » فهى دليل على أنها عملية جزم قلبية ، وأن الإنسان قبل أن ينطق بالقسم قد أدار المسألة فى ذهنه وخواطره وانتهى إلى هذا الرأى .

إذن فاللغو هو مرور كلمة على اللسان دون أن تمر على القلب ، وضربنا مثلاً على ذلك وهو دعاء الأم على وحيدها . ونحن نرى أن هناك ألفاظاً كثيرة تمر على ألسنة قد تؤدى إلى الكفر ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم المبلغ عن الله يضع لنا صدق النية فيقول : (أخطأ من شدة الفرح) . قالها رسول الله تعليقاً على رجل قال : « اللهم أنت عبدى وأنا ربك »[1] .

هذا هو اللغو . ومن رحمة الله بنا أنه يعفو بعميق وواسع رحمته فيقول لنا : « لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان » . وكلمة « عقَّدتم » دليل على أن اللسان لم يعقد شيئاً فحسب ولكن عقده بأحكام قوى . فساعة تبالغ فى الحدث فأنت تأتى له باللفظ الذى يدل على المعنى تماماً بتمكين وتثبيت . وعلى ذلك فكلمة « عقَّد » غير « عَقَدَ » إذن فكلمة « عقَّد » أى أن الإنسان قد صنع عقدة محكمة . ومثال على التأكيد قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ ﴾

(من الآية ٢٣ سورة يوسف)

قد يقول قائل : ألم يكن يكفى أن يقول الحق سبحانه : « وغَلَقَت الأبواب » ؟ ونقول : لا . إن الحق قد أتى بالفعل الذى يؤكد إحكام الإغلاق . فإغلاق الأبواب يختلف من درجة إلى أخرى ؛ فهناك غلق للباب بلسان « طبلة » الباب ؛ وهناك غلق بالمزلاج ، وقوله الحق : « وغلَّقت الأبواب » أى أن امرأة العزيز بالغت فى غلق الأبواب . وكذلك قوله الحق : « عقَّدتم الأيمان » . أى جالت فى قلوبكم جولة تُثَبِّت صدق نيتكم فى الحلف . وهناك صورة أدائية أخرى تلتقى مع هذه الصورة فى المعنى ، حين قال الحق سبحانه :

﴿ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾ ﴾

(سورة البقرة)

ونلحظ هنا أن القلوب قد كسبت ، فما الذى تكسبه القلوب فى مثل هذه الحالة ؟ نعرف أن الكسب هو وجود حصيلة فوق رأس المال . والكسب الزائد فى القسم ،

---

١ ـ من حديث رواه الإمام مسلم .

هو أن يؤكد الإنسان بقلبه هذا القسم ؛ أى أن القسم انعقد باللسان والقلب معاً وسبب نزول آية سورة المائدة (لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم » أن الصحابة الذين حرموا على أنفسهم طيبات المطاعم والملابس والمناكح وحلفوا على ذلك فلما نزل قوله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾

(سورة المائدة)

قالوا : كيف نصنع بأيماننا ؟ فنزلت هذه الآية أى أن تحريم الحلال لغو لا كفارة فيه ، ونعلم أن الإنسان لا يصح له أن يحلف على شىء ليس له دخل فيه ؛ كقول إنسان ما : والله لن أصلى . إن مثل هذه اليمين لا تنعقد ، ولذلك لا كفارة لها . لكن إن قال : والله لأشربن الخمر . هنا نقول له : امتثل إلى ما جاء فى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها فليأت الذى هو خير وليكفر عن يمينه »[1] .

والحق سبحانه وتعالى يقول : « ولكن يؤاخذكم بما عقَّدتم الأيمان » إذن فهناك استدراك يتعلق باليمين المؤكدة وهى تستدعى المؤاخذة . فكيف تكون المؤاخذة وهى عقوبة ، على الرغم من أنه لا عقوبة إلا بنص ؟ إن الحق سبحانه وتعالى ستر العقوبة ومنعها بالكفارة : « فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام » . والكفارة هى ستر للعقوبة . فهل معنى ذلك أن الإنسان تلزمه الكفارة مادام قد عقَّد الأيمان ؟ لا ، تكون الكفارة فقط حين تحنث فى القسم فلم تبر فيه . فتكون الكفارة فى هذا المجال كالآتى : إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم ، أو كسوتهم ، أو تحرير رقبة ، أو صوم ثلاثة أيام لمن لم يجد .

---

(١) رواه أحمد ومسلم والترمذى عن أبى هريرة .

والمناسب فى الكفارة يختلف فى مفهوم المفتين باختلاف الحانث ، ومثال ذلك أن خليفة فى الأندلس حلف يميناً وأراد أن يؤدى عن اليمين كفارة ، فجاء إلى القاضى منذر بن سعيد وسأله عن كفارة هذه اليمين ؛ فقال : لا بد أن تصوم ثلاثة أيام . وكان يجلس شخص آخر فأشار للقاضى إشارة فلم يعبأ القاضى منذر بن سعيد بتلك الإشارة . وخرج القاضى ومعه ذلك الشخص ، فسأل القاضى : يا أبا سعيد ، إن فى نفسى شيئاً من فتواك ؛ لماذا لم تقل للخليفة إن كفارة اليمين عتق رقبة أو إطعام عشرة مساكين ؟ فقال القاضى منذر بن سعيد : أمثل أمير المؤمنين يزجر بعتق رقبة أو إطعام عشرة مساكين ؟

وهذا يدلنا على أن القاضى منذر بن سعيد قد أجهد نفسه ليختار الكفارة التى تزجر . وهذا يعلمنا أن الكفارة فى جانب منها زجر للنفس وفى جانب آخر جبر للذنب . وقد رجح القاضى منذر بن سعيد جانب الزجر على جانب جبر الذنب ؛ لأن الخليفة لن يرهقه إطعام عشرة مساكين أو كسوتهم أو عتق أكثر من رقبة[1] .

وفى الإطعام لعشرة مساكين من أواسط ما نطعم به الأهل ، قد يقول قائل : هل الأوسطية هنا للكمية أو الكيفية ؟ ونقول : يراعى فيها الكمية والكيفية . فإن كانت وجبة الإنسان مكونة من رغيف واحد فليعرف أن مِن أهله مَن يأكل فى الوجبة الواحدة ثلاثة أرغفة فيكون الأوسط فى مثل هذه الحالة رغيفين مع ما يكون من أدم كلحم ودسم . وكذلك الكسوة ؛ أن يكسو الإنسان الذى يكفر عن يمين عشرة مساكين بما يستر العورة وتصح به الصلاة ؛ كإزار ورداء أو قميص وعمامة ، أو أى ملابس تسترهم . وهانحن أولاء نجد أن كفارة تحرير رقبة تأتى فى المرتبة قبل الأخيرة ويأتى بعدها قول الحق : « فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام » . إذن فالحق لم يرتب الكفارة وإنما علينا أن نختار منها الكفارة الملائمة .

ويأتى الحق من بعد ذلك بالقول : « واحفظوا أيمانكم » والحفظ هو عدم التضييع . أما كيف نحفظ أيماننا ؟ فنقول : إن على الإنسان ألا يجرى اليمين على لسانه ، هذه واحدة . والثانية : أن يحاول الإنسان ألا يحنث فى اليمين . وهذا

---

(٢) الجمهور على أنه لا يكفر بالصيام إلا إذا عدم هذه الثلاثة الأشياء وهى : الإطعام والكسوة ، وعتق الرقبة .

يقتضى ألا يحلف الإنسان على شيء يقوله بلسانه ويخضعه لقلبه إلا إذا كان على ثقة من أنه سيجند كل جوارحه للقيام بهذا العمل الذى أقسم أن يقوم به ، وهذا هو معنى قوله الحق : « واحفظوا أيمانكم » .

ويذيل الحق الآية الكريمة : « كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تشكرون » . والشكر هو الثناء من المُنْعَم عليه على المُنْعِم بالنعمة ، فكأن هذه التشريعات تستحق منا الشكر ؛ لأنها جعلت اللغو غير مؤاخذ عليه ، ولأنها جعلت اليمين الذى عقَّدته له كفارة ، وفى كل من الأمرين تيسير يستحق الشكر لله .

ويتابع الحق القول :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾

ساعة تسمع كلمة : « إنما » فاعلم أنهم يسمونها فى اللغة « أداة قصر » كقولنا : إنما زيد مجتهد ، وهذا يعنى أننا قَصَرْنا زيداً على الاجتهاد . لكن إن قلنا : إنما المجتهد زيد ، فنحن فى هذه الحالة قَصَرْنا الاجتهاد على زيد . وساعة تقصر إنساناً على وصف فذلك يسمونه : « قصر موصوف على صفة » ، وعندما نقول : إنما زيد شاعر . فهذا يعنى أن زيداً شاعر فقط وهو ليس بكاتب أو خطيب . أما إن قلت : إنما الشاعر زيد ، فهذا يعنى أنه لا يوجد شاعر إلا زيد ؛ فكأنك نفيت عن الآخرين أنهم شعراء ، وأن زيداً فقط هو الشاعر ويحتمل أن يكون كاتباً وخطيباً وعالماً مع كونه شاعراً . إذن فساعة ترى « إنما » فاعرف أنها أداة من أدوات القصر .

والحق سبحانه يقول هنا :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾

(سورة المائدة)

أى إن الخمر والميسر والأنصاب والأزلام كلها رجس من عمل الشيطان . والرجس هو الشيء الردىء الخبيث القذر . والقذارة والخبث هما من الأمور التى قد تكون حسية مثل الخمر ، وقد تكون معنوية كالأنصاب والأزلام ؛ وجمع الحق سبحانه فى هذه الآية الأمرين معاً . ولم يقل إن الخمر هى عصير العنب أو عصير التفاح ، إنما جاء بالخمر التى تشمل كل ما يخامر العقل ويستره . وتعجب بعض العلماء من أن هذه الآية نزلت فى البلاد التى ليس فيها شيء من عصير العنب ، ذلك أنهم ظنوا أن عصير العنب فقط هو الذى يستر العقل ، لكن الحق جاء بالتحريم الشامل لكل ما يستر العقل . لماذا إذن تكون الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجساً من عمل الشيطان ؟

إنّ الحق سبحانه وتعالى قد خلق الإنسان وجعله خليفة فى الأرض وسخر له كل شيء فى الوجود وطلب منه أن يعبده وحده وأن يعمر هذه الأرض . وأراد الحق أن يضمن للإنسان سلامة أشياء متعددة ؛ سلامة نفسه فلا يُعتدى عليها بالقتل أو غير ذلك ، وسلامة عقله فلا يُجنى عليه بما يستر آلية الاختيار بين البدائل ، وسلامة عرضه فلا يَلغ فيه أحد وحتى تأتى الأنسال التى تعمر الكون وهى أنسال طاهرة ، وسلامة ماله حتى يحفظ على الإنسان أثر حركته فى الحياة وحتى لا يأخذ غيره أثر حركته ، وذلك حتى لا يزهد العامل فى العمل ولا يعود الطاقات أن تأخذ من غير عملها فتكسل وتتواكل ، فالإنسان إذا ما اعتاد أن يأخذ من غير عمل صار العمل صعباً عليه ، وهكذا كانت صيانة المال لا تبدد طاقة ولا تهدر حقا ، ولا تعطى غير ذى حق حقا لغيره ، وهكذا حتى لا يشيع العجز الاصطناعى فى الكون . ولذلك قال الحق وهو مانح كل مال :

﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾

(من الآية ٢٤٥ سورة البقرة)

أى أنه ـ وهو المانح سبحانه وتعالى ـ قد احترم حركة الإنسان فلا يستمرىء أحد البطالة . وعندما تنتشر البطالة فإن الإسلام يعالج الأمر بحكمة بالغة ؛ فهو يطلب من الوالى أن يسبب لهم الأسباب ليعملوا . وذلك حتى لا يتعودوا على الأخذ بغير عمل لئلا تكون مصيبة على المجتمع . وأراد سبحانه بالشريعة السمحاء أن يحمى الإنسان من كل ما يبدده ، فحينما حرم الخمر ، أى منع عن الإنسان ستر العقل ، ذلك أن ميزة الإنسان على الحيوان هى العقل .

إن الإنسان يختلف عن الحيوان بأنه يحفظ حياته بالعقل ، أما الحيوان فيحفظ حياته بالغريزة . ولذلك فالحيوان لا يملك إلا رداً واحداً إذا ما تم الاعتداء عليه ؛ الكلب يعض المعتدى والقطة تخمش المعتدى ، أما الإنسان فعندما يعتدى عليه أحد فهو يختار بين بدائل للرد على العدوان ، إما أن يضرب وإما أن يقتل وإما أن يسامح .

ومثال لذلك نراه فى الريف ، عندما يحاول راكب الحمار أن يجبر الحمار على القفز على قناة صغيرة فيها مياه يرفض الحمار ذلك تماماً ومهما ضربه راكبه فهو يرفض القفز ؛ لأن غريزته تمنعه من ذلك . أما الإنسان فقد ينتابه الغرور ويظن أنه قادر على القفز فوق القناة فيقفز لكنه قد يقع فى المياه . وتوجد المجازفة عند الإنسان ، لكنها لا توجد عند الحيوان بمقتضى الغريزة .

ومثال آخر من عالم الحيوان . نجد ذكر الجاموس يقترب من الأنثى ليشمها فإن وجدها حاملاً لا يقربها ، هكذا الحيوان . أما الإنسان فلا . والحمار يتناول طعامه من البرسيم مثلا ما يشبعه ولا يزيد أبداً فى الطعام مهما ضربه صاحبه ؛ لأنه محكوم بالغريزة ، أما الإنسان فقد يأكل فوق طاقته .

وهكذا نجد الغريزة هى التى تعصم الحيوان ، والعقل هو الذى يعصم الإنسان . ولذلك لا يملك الحيوان القدرة على الاختيار ، ولكن ميزان غرائزه لا يختل أبداً . أما ميزان الغرائز عند الإنسان فقد يختل .

لقد ميز الله الإنسان عن الحيوان بالاختيار بين البدائل بالعقل ، ولذلك لا يصح ولا يستقيم من الإنسان أن يطمس هذه القدرة بالخمر . فإن طمس قدرة الاختيار ، فإن غرائزه فى هذه الحالة لا تنفعه لأنها غير مؤهلة لحمايته، ولذلك نجد الذى يطمس عقله يضع نفسه فى مرتبة أقل من الحيوان ؛ لأن الحيوان تحميه الغريزة ، والإنسان يحفظه عقله ، وهو فى هذه الحالة قد طمسه وغطاه ، وقد حرم الله الخمر لأنها تستر العقل . وكل ما يستر العقل خمر حتى ولو كان أصله حلالاً ؛ وذلك لأن العقل هو مناط التكليف . وكذلك حرم الله الميسر .

ولنر دقة الاسم الذى اختاره الله للقمار ، إنه « المَيْسر » ولم يسمه « المعسِر » ذلك أن أحداً لا يقبل على الميسر وهو يظن أنه سوف يخسر ، وكل من يلعبون القمار إنما يفعلون ذلك على أمل الكسب ؛ لذلك جاء بالاسم الذي يعبر عن حالة اللاعب للقمار إنه يلعب على وهم الكسب ، وإن كسب فالمكسب يُغْريه بالمزيد من اللعب . والخسران يغرى باللعب أكثر لعل كسباً يعوض الخسارة التى منى بها . وقد يبيع اللاعب للميسر كل ما يملك كى يعوض خسارته ومع ذلك فالكسب من الميسر هين على النفس تبدده وتنفقه فيما لا ينفع بل قد ينفقه فيما يضر، فالمكسب ليس له والخسارة محسوبة عليه . والذين يلعبون الميسر مع بعضهم بعضاً لا تربطهم صداقة أو محبة . فكل منهم حريص على أن يأخذ ما فى جيب الآخر . وهذا اللون من اللعب يعطل القدرة على الكسب الحلال ؛ لأن الكسب الحلال يحتاج إلى حركة فى الكون . والميسر يشل حركة الكاسب لأنه يزهد فى العمل . والخسران يشل حركة الخاسر لأنه مهما سعى فى الأرض فقد لا يستطيع أن يسدد ديونه .

إذن فالحق سبحانه وتعالى يريد أن يضمن للناس ألا ينتفع أحد بشىء إلا بنتيجة كده وعمله . والحق يريد أن يكون جسد كل إنسان من ناتج عرقه فى عمل مشروع وكذلك أجساد من يعول . وأبلغنا أيضاً أن الأنصاب رجس من عمل الشيطان . والأنصاب ثلاثة قِداح كانت توجد عند الكاهن ؛ قِدْح مكتوب عليه أمرنى ربى ، والقِدح الثانى : مكتوب عليه نهانى ربى ، والقدح الثالث : غفل من الكتابة أى خالٍ منها فلا علامة فيه . فإن كان فى نية إنسان السفر أو الزواج أو التجارة فهو يذهب إلى الكاهن ليضرب له هذه القداح . فإن خرج القِدح المكتوب عليه أمرنى ربى فعل ،

وإن خرج نهانى ربى لم يفعل . أما إن خرج القدح الغفل فهو يعيد ضرب القداح حتى يخرج أحد القدحين : إما الذى يحمل الأمر ، وإما الذى يحمل النهى . ولم يتساءل أحد لماذا عندما يخرج القدح الغفل لا يعتبر أن هذا أمر خارج عن نطاق التحريم . ويؤخذ على أنه إباحة واختيار يعمل أو لا يعمل . لقد أنساهم الحق ذلك حتى يدلنا على أن ذلك أمر كاذب جاء به الكهنة من عندهم . فإن سألهم سائل : من الإله الذى أمر ونهى ؟ هنا يقول القائل منهم : الله هو الذى أمر وهو الذى نهى . (والله يعلم إنهم لكاذبون) .

والحق سبحانه وتعالى حين ينهانا عن تلك الأمور فهو يريد للإنسان أن ينمى ملكة الاختيار بين البدائل . وعلى الإنسان أن يستنبط وأن يحلل وأن يعرف المقدمات فيدرسها ويحلل الخطوات ليصل إلى النتائج . لا أن يعطل القوة المدركة التى تختار بين البديلات ، فالخمر تستر العقل ، وكذلك الميسر يضع الإنسان بين فكى الوهم ، وكذلك الأنصاب تعطل القدرة على السعى والرضوخ للكهنة . وعندما تسأل شارب الخمر : لماذا تشربها ؟ يجيب : إننى أريد أن أستر همومى . وستر الهموم لا يعنى إنهاءها . ولكن مواجهة الهموم هى التى تنهى الهموم بالأسباب المتاحة للإنسان . فإن لم تقو أسبابك فالجأ إلى المسبب فى إطار قول الحق :

﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾

(من الآية ٦٢ سورة النمل)

وعندما تستنفد أسبابك وتلجأ إلى الله فهو يعينك على الأمر الشاق المسبب للهموم . ولنا فى الرسول صلى الله عليه وسلم القدوة . فقد كان إذا حزبه أمر قام إلى الصلاة . ومعنى « حزبه » أى خرج عن نطاق أسبابه . ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يلجأ إلى رب الأسباب . وقد نجد من يقول : إننى أدعو الله كثيراً ولكنه لا يستجيب لى .

ونقول له : إما لأنك قد دعوت فى غير اضطرار ، وإما لأنك لم تلتفت إلى الأسباب ، وأنت حين تتجنب الأسباب فأنت ترفض يد الله الممدودة لك بالأسباب . وأنا أتحدى أن يوجد مضطر أنهى الأسباب ، ولا يأتى له الفرج . وأنت حين تدعو بحاجة وتتأخر عليك ، نقول لك : إنك دعوت بغير اضطرار .

وكثيراً ما أضرب هذا المثل ـ ولله المثل الأعلى المنزه دائماً ـ وأقول:هب أن تاجراً من تجار الجملة الكبار يجلس أمام المخازن التى يملكها وجاءت السيارات الشاحنة بصناديق بضائعه . والعمال يحملون البضائع ليضعوها فى المخازن . وفجأة رأى عاملاً من عماله يكاد يقع بالصندوق الذى يحمله ، هنا نجد التاجر يهب بلا شعور لنجدة العامل . فما بالنا بالحق الذى خلق لنا الأسباب ؟ إنك إن استنفدت الأسباب فإن الله يعينك مصداقاً لقوله :

﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ ﴾

(من الآية ٦٢ سورة النمل)

إذن فالخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان . والأزلام هى نوع من الميسر ؛ فقد كانوا يحضرون الناقة أو الجزور ويذبحونها ويقسمونها إلى ثمانية وعشرين قسماً ويخصصون لإنسان نصيباً وللثانى نصيبين وللثالث ثلاثة أنصبة ، وللرابع أربعة أنصبة وللخامس خمسة أنصبة ، وللسادس ستة أنصبة ، والسابع له سبعة أنصبة . وكانوا يأتون بالقِداح السبعة . قدح اسمه « الفذ » ويأخذ الفائز به نصيباً ، والقدح الثانى : « التوأم » ويأخذ نصيبين ، والقدح الثالث اسمه « الرقيب » يأخذ ثلاثة . والقدح الرابع اسمه « الحِلْس » يأخذ أربعة . والخامس هو « النافر » ويأخذ خمسة . والسادس اسمه « المُسْبِل » ويأخذ ستة . والسابع اسمه « المُعَلَّى » ويأخذ سبعة أنصبة . وهناك ثلاثة قداح هى المنيح والسفيح والوَغْد ، وهؤلاء الثلاثة لا يأخذون شيئا بل يدفعون ثمن الذبيحة . وذلك رجس من عمل الشيطان .

إن النفس العاقلة لا تقبل على مثل هذه الأعمال ، بل لا بد أن يحرك أحد تلك الأطماع ، ذلك أن المخالفات إنما تنشأ من أمرين ؛ إما أن تكون من النفس ، وإما أن تكون من الشيطان . والمخالفة التى تكون من النفس هى التى تحقق شهوة من نوع خاص بحيث إذا زحزحت النفس عنها فهى تريدها . والمخالفة التى من نزغ الشيطان تختلف ، فقد يوعز الشيطان لإنسان بالسرقة ، فيرفض ، فيعرف الشيطان أن لهذا الإنسان مناعة ضد هذه المعصية ، فيوعز بمعصية أخرى ، فإذا وجد مناعة انتقل إلى معصية ثالثة ؛ لأن وسوسة الشيطان تطلب الإنسان عاصياً على أى لون من الألوان .

فإذا وقفت عند معصية بذاتها فاعلم أن ذلك من عمل نفسك ، وإن انتقلت بالوسوسة من معصية عزت على الشيطان إلى معصية أخرى فاعلم أنها من عمل الشيطان ولا دخل للنفس بها . والعاقل الذى يتمعن فى كل تلك المسائل المحرمة يرى أن الخمر والميسر والأنصاب والأزلام هى أمور لا تستطيبها النفس غير المنزوغة من الشيطان ، فكأن قوله الحق : « رجس من عمل الشيطان » يدلنا على أن العاقل لا يمكن أن يصنع هذه الأشياء .

ويذيل الحق الآية : «فاجتنبوه لعلكم تفلحون » . ويأمرنا سبحانه باجتناب الرجس الذى جمع الخمر والميسر والأنصاب والأزلام ، والاجتناب هو أن يعطى الإنسان الشيء المجْتَنَب جانبه ، أى المنع للذرائع والأسباب والسد لها ؛ لأنك إن لم تجتنبها فمن الجائز أن قربك منها يغريك بارتكابها . وبعض الناس يظنون أن الخمر لم يأت لها تحريم وإنما جاء الأمر فيها بالاجتناب .

ونقول لهم : إن التحريم هو النص بعدم احتسائها ، وأما الاجتناب فهو أقوى من التحريم لأنه أمر بعدم الوجود فى مكانها . فإذا كان الحق قد قال فى قمة العقائد :

﴿ فَٱجْتَنِبُواْ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة الحج)

فقد قال هنا اجتنبوا الرجس الذى يجمع الخمر والميسر والأنصاب والأزلام . والحق سبحانه وتعالى واجه العادات التى شاعت قبل الإسلام ليخلع الفاسد منها ولم يجابهها دفعة واحدة وذلك لتعلق النفس بها والإلف لها ، وإنما كان التحريم لها بالتدريج . لقد حزم الإسلامُ الأمرَ أولاً فى مسائل العقائد ، أما الأمور التى تترتب على إلف العادة فكان تحريمها على مراحل .

وحين يقول الحق سبحانه وتعالى عن شيء إنه : « رجس » ، فذلك حكم الحق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . ونحن نقبل هذا الحكم حتى ولو لم نفهم نحن معنى الرجس ، أو لم نتأكد مادياً من أن الشيء المحرم هو من الرجس ، ذلك أنه يكفى فى ذلك حكم الله الذى يرضخ له العبد المؤمن الذى قبل التكليف من

ربه ؛ لأن ربه مُؤتمن على كل مصالحه . ومادام الحق قد قال عن شيء إنه رجس ، فهو رجس ولا جدال فى ذلك .

أقول ذلك لأن بعضًا يظل متصيداً لأى ثغرة مفتعلة متسائلا : كيف يكون ذلك العمل أو ذلك الشيء من الرجس ؟ ونقول : إننا نرضخ لحكم الله تعالى وننفذ ما أمر به ، فهو إله مأمون على كل الخلق ، وتثبت لنا الأيام دائماً صدق قول الحق فى أن الأشياء التى قال عنها سبحانه إنها رجس ، هى من الرجس فعلاً ، فحين يقول سبحانه لخلقه : افعلوا كذا ، لا نسأله : وما علة ذلك التكليف ، ولكننا ننفذ أمر الحق ، ونكتشف فى أعماقنا فائدة ذلك التكليف .

أما عندما يكلفنا عبد مساوٍ لنا بشيء فلا بد أن نسأل : لماذا ؟ والعبد المساوى لنا عليه أن يقدم لنا العلة لأى فعل يطلب منا القيام به ، ولكننا لا نسأل الله عن علة التكليف لنا ؛ لأننا نؤمن بأنه إله حكيم ، والأيام ستثبت لنا أن قول الله حق . ومثال على ذلك نجد أن الذى لا يشرب الخمر امتثالاً لنهى الله عن ذلك الفعل ، هو إنسان مستقيم السلوك ، طاهر القصد ، ولا يتأتى منه نشاز فى الكون . أما الذى يشرب الخمر فهو معوج السلوك ، غير طاهر القصد ، ويتأتى منه نشاز فى الكون . وقد أثبتت التجربة أن شارب الخمر إنما يصاب بأمراض فى الكبد ويعانى من ارتباك فى إدارة حياته وكلماته . نحن نقرأ قول الله سبحانه :

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ﴾

(من الآية ٢٨٢ سورة البقرة)

والتقوى ـ كما علمنا ـ أن نجعل بيننا وبين غضب الله وقاية ؛ لذلك نفعل ما أمرنا به . وحين نفعل أوامر الإله الحق فإننا نتعلم حكم الله فى الفعل . ومثال ذلك قوله الحق :

﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ﴾

(من الآية ٤٥ سورة العنكبوت)

ونحن نعرف كيف تنهانا الصلاة عن الفحشاء والمنكر ؛ لأننا نسلم وجوهنا وقلوبنا لله فننفذ ما أمر به . وكذلك نجد فى الزكاة نماء . ونجد الحج يصفى النفس من أى

كبر ويغسل الذنوب . وكل فعل أمر به الحق نجد له الأثر فى نفوسنا بعد أن نقوم به . أما إن فعلت الحكم للعلة فذلك يبعد بك عن مرتبة الإيمان .

ونجد أن الطبيب يأتى لشارب الخمر بصورة ملتقطة للكبد بواسطة الموجات الصوتية أو الأشعة فيجد شارب الخمر صورة كبده وقد امتلأت بالتهرؤ وصارت عرضة لأمراض كثيرة ثقيلة وربما تعطلت وظائف الكبد فى بعض الأحيان ، وهنا يأمر الطبيب شارب الخمر أن يمتنع عن شرب الخمر . فهل امتناع شارب الخمر فى مثل هذه الحالة هو امتناع بسبب الإيمان أو بسبب الأمر الطبى ؟ إنه امتناع بسبب الأمر الطبى ، ويستوى فى ذلك المسلم العاصى والكافر . ولكن المؤمن الذى يمتنع عن شرب الخمر ابتداءً ، فهو قد امتنع لا لعلة الأمر ولكن لأن الأمر من الله ، وهو يتبع أوامر الحق دون سؤال عن العلة . والمؤمن يأخذ الحكم من الله دون طلب تعليل منه ليشرح له أسباب المنع فى سلوكه .

والحق سبحانه قال : (إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه) والعداوة المسبقة بين الشيطان وأبينا آدم عليه السلام بينها ـ سبحانه ـ بقوله للملائكة :

﴿ ٱسْجُدُواْ لِآدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ ﴾

(من الآية ٣٤ سورة البقرة)

وكان الشيطان موجوداً مع الملائكة ، وكان الأولى أن يسجد هو ؛ لأن الأمر إذا كان للجنس الأعلى وهو الملائكة ، فيجب أن ينسحب على الأدنى ، لكنه عصى وقال :

﴿ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ ﴾

(من الآية ٦١ سورة الإسراء)

إذن فالعداوة مسبقة بين آدم والشيطان ، فكيف إذن نقبل نحن أبناء آدم وسوسته ؟ وكيف نقبل نزغه ؟ وكيف نقبل إغراءه ؟ لا بد إذن أن نتجنب ذلك لأنه رجس ومن عمل الشيطان ، حتى ننجو من كل سوء ، ويأتى لنا كل فلاح .

ويقول الحق :

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ ﴾

لم يأت الحق هنا بالأنصاب أو الأزلام ؛ لأن المؤمنين لا يعتقدون فيها وانتهوا منها ، والخطاب هنا موجه للمؤمنين .

إذن لماذا قرن الحق التكليف بالنهى عن الخمر والميسر ـ من قبل ـ بالأنصاب والأزلام ؟ قال سبحانه ذلك ليبشع لنا الأمر ، فوضع الخمر والميسر مع الأنصاب والأزلام ، ولنفهم أن الحكم بالنهى عن الخمر والميسر جاء ليقرنهما بالأنصاب والأزلام ، ومادموا مؤمنين فلا بد أنهم قد انتهوا عن الأنصاب والأزلام .

ويقول سبحانه : « إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء » . والإرادة هى تخصيص الممكن ببعض ما يجوز عليه ، وتتعلق الإرادة بمريد ، فهل يقدر على إنفاذ ما يريد أم لا يقدر ؟ إن كان يقدر على إنفاذ ما يريد ، فالقدرة تكون من بعد الإرادة .

وحينما يريد سبحانه وتعالى ، فالقدرة تبرز المراد ، فقدرته لا تتخلف ولا مراده يتخلف ؛ لأن كل شىء منفعل له سبحانه وتعالى ، وتختلف المسألة عند الإنسان والشيطان ، فالإنسان يريد ، ولكن أله القدرة على إنفاذ ذلك ؟ أحيانا تكون له بعض من القدرة على إنفاذ ما يريد ، وأحياناً لا .

والشيطان يريد ، لكن أيقدر على إنفاذ ما يريد ؟ إنه يقدر فى حالة إطاعة الإنسان له . وهكذا تكون إرادة الشيطان ، وهو يحب أن تحدث المعصية من الإنسان ،

ويتمنى الشيطان ذلك ، ويخطط لذلك . لكن الفعل لا يأتى إلى الوجود إلا إذا وافق الإنسان على طاعة الشيطان .

إذن فالإرادة إن كانت ممن يقدر على الإرغام والإبراز فهى تظهر العمل فوراً ، والقادر المطلق هو الله ، وهو يحكم ما يريد ، ولذلك يأتى قوله الحق :

﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾

(سورة يس)

لكن خلقه حين يريدون فالأشياء لا تنفعل لهم انفعالها لخالقها ؛ لأن إرادة المخلوقات تقتضى أن ينفذ الإنسان على قدر طاقته ، وهى مهما زادت محدودة . وإرادة الشيطان تحتال على الإنسان حتى يفعل ما يتمناه ، ولا يستطيع الشيطان أن يُكره الإنسان قهراً على فعل ما ، ولكنه يزين له الفعل . فليس للشيطان سلطة الإكراه ليقهر الإنسان على فعل ، وليس للشيطان قدرة على الإقناع أو الإتيان بأدلة تجعل الإنسان يفعل مراد الشيطان وهو راضٍ عن عمله . ولذلك يقول الشيطان فى الآخرة للمذنبين : إن الذنب ذنبهم .

﴿ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ﴾

(من الآية ٢٢ سورة إبراهيم)

هكذا يعلن الشيطان أنه غير قادر على البشر ، لا بالقهر ولا بالحجة ، إنّه فقط زين لهم الأمر ، فمن كانت له شهوة فالشيطان يزينها له فيرتكب الذنب . ويعلن الشيطان :

﴿ مَآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ﴾

(من الآية ٢٢ سورة إبراهيم)

ويعترف الشيطان أنه مهما صرخ مستغيثاً ـ يوم القيامة ـ فلن يجد من يغيثه ، وكذلك أصحاب الذنوب الذين اتبعوه سيصرخون ولن يجدوا من الشيطان عوناً ينجيهم من العذاب . و« أصرخ فلان فلاناً » أى ذهب ليزيل صراخه وينجده .

إذن فقول الحق : « إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء » يشرح لنا أن إرادة الشيطان هى إرادة تزيين ، لا إرادة قدرة على القهر أو الإقناع . وإذا

سمعت كلمة « يوقع » ، فافهم أن هناك شيئين الأصل فيهما الالتحام ، وهناك من يريد أن يجعل بينهما شيئاً يفصل هذا الالتحام . ولذلك يقال : « فلان مشى بالوقيعة » أى أنه أراد أن يصنع فجوة وشرخاً بين اثنين الأصل فيهما الالتحام .

وكلمة « بينكم » تفيد الانفصال . وهذا الانفصال هو الذى توضع فيه الوقيعة . لماذا ؟ لأن المؤمنين إخوة ، ولأن المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا ، والشيطان يسعى بالخمر والميسر بأن يمشى بالوقيعة بين المؤمنين . ونجد مجالس الخمر فيها هذا ؛ فالشاربون معاً كثيراً ما تقوم بينهم المعارك ويدور بينهم السباب . ولاعبو الميسر يأخذ بعضهم مال بعض ، وهكذا يتحولون من وحدة كالبنيان إلى فرقة وتحدث بينهما العداوة والبغضاء .

وما الفرق بين العداوة والبغضاء ؟ العداوة هى انفصال متلاحمين حدثت بينهما عداوة وبغضاء . والبغضاء هى انفعال القلب بشىء مكروه .

كأن البغضاء توجد فى الصدور بعد حصول العدوان ، فكأن العداوة تكون هى المنطقة الوسط التى باعدت بين هذين الشخصين بعد أن استسلما لنزغ الشيطان . وهذان الاثنان كان يجمعهما من قبل الصفاء والمودة والحب والأخوة الإيمانية .

والعداوة فى هذه الحالة تأخذ من مشاعر كل طرف ؛ لأن العداوة إن كانت من طرف واحد فعمرها قصير ، ولكنها تطول إن كانت بين طرفين . ولذلك تكون المعركة حامية بين عدوين يستشعر كل منهما العداوة للآخر . وهى تكون عداوة مؤججة وملتهبة إن لم يتدخل طرف ثالث ليحسم بالحق بين الاثنين ، فيخزى الذى على الباطل ويأخذ الحق منه ويعطيه لصاحبه ، وهنا يحس صاحب الحق أن هناك من ينصره . وبهذا تحسم العداوة وتنقضى . لكن إن لم يجد الطرفان رادًّا ولا رادعاً ، تظل العداوة متوهجة . ولذلك حينما عرض الحق أمر موسى عليه السلام وأمر فرعون ، قال عن موسى :

﴿ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ ﴾

(من الآية ٨ سورة القصص)

والتقطوا موسى لماذا ؟

﴿ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾

(من الآية ٨ سورة القصص)

فهل عرفوا هم من البداية أنه عدو ؟ لا ، لقد التقطوه ليكون قرة عين لهم ، ولكن الله أفسد مرادهم . فاللام فى قوله : « ليكون » هى لام الغاية والعاقبة وليست لام العلة الفاعلة ، وقد أثبت سبحانه بذلك أن فرعون ليس إلهاً ، وأن أتباعه كانوا قوماً مغفلين لا فطنة لهم . فلو كان فرعون إلهاً لعرف أن هذا الوليد الذى سيربيه سيكون عدواً له .

والعداوة هنا هل هى من ناحية موسى فقط تجاه فرعون ؟ لا ، إنها عداوة بين الله وموسى كطرف ، وفرعون كطرف . لذلك قال :

﴿ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ ﴾

(من الآية ٣٩ سورة طه)

ولم تنته هذه العداوة إلا بغرق فرعون . والحق ينبهنا : (إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر) و« فى » هنا هى للسببية كقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « دخلت امرأة النار فى هرة ربطتها فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض حتى ماتت »[1] .

ونقول فى حياتنا اليومية : أُخذ فلان إلى الحبس لمدة أعوام فى قطعة مخدرات . أى أنه أوقع نفسه فى المكروه بسبب شىء ما . وقوله الحق : « فى الخمر والميسر » دلت على أن العداوة والبغضاء مظروفة فى الخمر والميسر . ويقول بعد ذلك : « ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون » .

إن ذكر أى أمر يعنى أن يكون هذا الأمر فى بؤرة الشعور دائماً ، فكل معلومة يذكرها الإنسان تكون فى بؤرة شعوره ، ومن بعد ذلك تتحرك لتحل محلها معلومة أخرى . وعندما يكون بال الإنسان مشغولا بشىء فهذا الشىء لا يتزحزح من بؤرة الشعور إلى حاشية الشعور إلا بعد أن يأتى أمر آخر يشغل البال .

(١) رواه أحمد والبخارى ومسلم وابن ماجه عن أبى هريرة .

ولذلك نقول : إياكم أن تعتقدوا أن الذهن يفهم أى أمر من مرة واحدة أو من مرتين أو من ثلاث مرات . لا ، بل يفهم الذهن من مرة واحدة كآلة التصوير ، والمهم أن يكون ساعة التقاط المعلومة خالياً من غيرها ؛ ولذلك كنا نعرف أن إخواننا المكفوفين الدارسين معنا أقدر على الاستيعاب الحفظى منا نحن المبصرين ؛ لأن المبصر عندما يكون بصدد مسألة قد تنشغل عيناه بشىء ، فتكون بؤرة شعوره مشتتة . أما الأعمى فبؤرة شعوره تذكر فقط ما يسمعه .

وهكذا نعرف ما هو « الذكر » . والخمر تطمس العقل وتستره فكيف يذكر الله إذن ؟ وكذلك الصلاة ، وهى خير الذكر ، تسترها الخمر عنا . وكذلك الميسر الذى يلوح فيه الوهم بالكسب كالسراب ، فيلهث اللاعب خلف اللعب لعله يكسب ، ويفقد القدرة على ذكر الله والصلاة .

ولأن العداوة مسبقة بين الإنسان والشيطان ، نجد الشيطان قد قال فيما يحكيه الحق عنه :

﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾

(من الآية ٨٢ سورة ص)

قد عرف الشيطان كيف يقسم ؟ أقسم بعزة الله أن يغوى خلقه ، فلو أن الله أراد عباده لما أخذهم الشيطان .ويذيل الحق أمر الخمر والميسر بقوله : « فهل أنتم منتهون » . هذا استفهام ، وهو طلب فهم الشىء ، هذا ما نعرفه عندما يكون الاستفهام من البشر ، ولكن عندما يصدر هذا الاستفهام من الله لنا ، فهذا أمر الآمر سبحانه وتعالى . كيف ؟ إن هناك أمراً من الآمر هو حكم لازم . وهناك أمر يريده الله من المأمور ليأمر به نفسه .

وهى ثقة من الآمر الأعلى فى الإنسان المؤمن الذى يتلقى مثل هذا الأمر . ومثال ذلك ـ ولله المثل الأعلى ـ يقول الأب لأحد أبنائه : إن إهمالك لدروسك سيجعلك تنال غضبى واحتقار زملائك لك وتتأخر عن غيرك ، فهل ستنتهى من اللعب واللهو أو لا ؟ ولم يقل : انته عن اللعب ؛ لأن الأب أراد أن يأتى بالحيثيات حتى يحكم الابن بنفسه ، وحتى يدير المسألة بمقابلها ، ولا يجد إلا أن يقول : لقد انتهيت عن اللعب .

وهنا جاءت المسألة أيضا على هذا الشكل ، فبدلاً من أن تكون حكماً من الله أصبحت حكماً من العبد المأمور . وهذا أبلغ أنواع الحكم ؛ لأن المتكلم يلقى بالأمر فى صيغة سؤال ، ليدير المسئول كل جواب فلا يجد إلا الجواب الذى يريده السائل . ومثال ذلك عندما فتر الوحى عن حضرة النبى صلى الله عليه وسلم وقال أهل قريش : إن رب محمد قد قلاه وأبغضه وكرهه ، ثم نزل الوحى على رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى :

﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ ﴾

(سورة الضحى)

ويتابع الوحى :

﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ ﴾

(سورة الضحى)

وعندما يستقرىء النبى صلى الله عليه هذه المسألة يجيب : نعم يارب أنت وجدتنى يتيماً فآويتنى . وهذا يسمونه مشاركة المأمور فى علة الآمر . وهذه أبلغ أنواع الأمر .

وعندما يقول الحق : « فهل أنتم منتهون » يعلم المخاطبون ماذا يريده الله ، فيقولون : نعم انتهينا يا ربنا . وبالغوا كثيراً فى هذا الانتهاء ، فالإمام علىّ ـ كرم الله وجهه ـ يقول : لو وقعت قطرة منها فى بحر ثم جف البحر ، ونبت فيه الكلأ واندلع لسانى من الجوع ما قربته . ولم يكن هذا أمراً مفروضاً ، ولكنها المبالغة فى الانتهاء على أقصى صورة .

وهاهو ذا سيدنا عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ يقول : لو وقعت قطرة منها على يدى لحرمتها على نفسى . وهكذا كان رد فعل قول الحق : « فهل أنتم منتهون » . وبذلك تم حسم مسألة الخمر . ونعرف أن التكليف فى تحريم الخمر جاء متدرجاً ، والتكاليف الإيمانية إنما تأتى على لسان رسول ، والرسول لا يأتى إلا إذا عم الفساد فى المجتمع ، وفى ذوات البشر فى آن واحد . فلا نجد من يلوم نفسه ، أو يتدخل ليرد آخر عن فساده ؛ هنا تتدخل السماء بإرسال رسول ، ولا تصب السماء كل أحكامها فى أول الأمر ، ولكنها تدعو من خلال الرسول بالإيمان بالله الواحد حتى

يتلقوا منه الحكم . فالإيمان بوحدانية الله هو قمة العقيدة التى لا هوادة فيها .

لكن فى الأمور التى تتعلق بالأحكام ، فالأحكام تُغيِّر أوضاعاً عرفية وأوضاعاً اجتماعية متداولة بين الناس . فإذا أراد الله أن يغير عادة بحكم فهو يأتى بهذه المسألة تدريجا ؛ لأنه سبحانه وتعالى يتلطف مع خلقه برحمته .

ومثال ذلك : كان الرجل يملك المال فلا يعطى أباه ولا أمه ، إنما يعطى المال لأولاده ؛ لأنه يعرف أن والده منته وسيموت قريبا ، وأن الابن هو الذى يستقبل الحياة ، ولذلك فالابن يأخذ كُلَّ المال . هنا قال الحق : لا ، إنك أنت يا صاحب المال قد تموت قبل أبيك فاترك له شيئاً .

﴿ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ ﴾

(من الآية ١٨٠ سورة البقرة)

لقد أراد أن يخرجهم من عدم العطاء إلى الوصية التى تكون منهم . وبعد أن استقرت الأحكام ، قرر الحق للوالدين نصيباً من الميراث . إذن جاء الأمر أولاً بتلطف فى الخروج عن حكم الإلف والعادة والعرف ؛ حتى لا يخرجهم إخراجاً قسرياً . والحق سبحانه وتعالى لا يريد أن يجعل المال دُولة بين الأغنياء فحسب أى يتداولوه دون غيرهم ، بل يريد أن يجعل المال دولة بين الناس . لذلك جاء الميراث .

إننا عندما نحسب ميراث ألف فدان مثلا نجده قد ذاب وتقلص وتناثر خلال ثلاثة أجيال إلى فدانين وخمسة أفدنة . وهذا تدرج أجيالى لا قسرى . حتى يرتب الإنسان حياته وحياة أبنائه ، فيترك المالك لأولاده ميراثاً وخيرًا ليديروا العمل فيه . أما الذى لا يملك فهو يعطى لأبنائه حرفة أو وظيفة . لذلك يذيب الدِّينُ المسألةَ المالية والعقارية أو الإقطاع كما يقولون ، لا بالقسر حتى لا تحدث للمجتمع هزة حقد أو هزة توتر ؛ لأن الذى جمع ماله من عرقه ومن اجتهاده ساعة يرى المال قد خرج منه إلى من لم يعرق ومن لم يجد ، فهو يحقد ، والحق يقول :

﴿ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾ ﴾

(من الآية ٣٦ والآية ٣٧ سورة محمد)

وساعة يحدث الضغن فى المجتمع فإن كل استقرار وود ينتهى . وهذا هو منتهى التلطف فى رعاية العادات . وكانت الخمر ومجالسها عادة موجودة عند العرب ، وكان من الصعب أن يخرجهم منها مرة واحدة . لذلك جاء تحريمها بتدرج وبتلطف والذكى والفطن عندما يسمع الآية التالية يعرف أن الله قد بيت للخمر تبييتاً محكما للقضاء عليها وذلك بتحريمها ، يقول الله تعالى :

﴿ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ﴾

(من الآية ٦٧ سورة النحل)

فسبحانه يقول : « ورزقاً حسناً » ، ولم يصف السكر بأنه حسن . ومعنى هذا أن أخذ الرزق وتخميره واتخاذه سكراً هو إتلاف للحسن . وجاء الحق بـ (السكر) أولاً ليخبرنا أنهم كانوا يأخذون من الرزق أولاً النصيب الذى يجعلونه خمراً . ومن بعد ذلك يطرح الحق الأمر كعظة من الواعظ للموعوظ ، والعظة ليست إلزاماً ، إنما هى إبداء رأى حكيمٍ لغيره ، وهذا أول التبيت للدخول إلى تحريمها ، ثم يقول الحق :

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ ﴾

(من الآية ٢١٩ سورة البقرة)

وهكذا رجح الحق جانب الإثم على جانب المنفعة . ومن بعد ذلك يأتى للصلاة ، ولم يكن هناك حكم جازم بعدم شرب الخمر قبل الصلاة إلى أن قام واحد للصلاة وهو سكران ، ونعوذ بالله مما قال ، قال : قل يا أيها الكافرون أعبد ما تعبدون . لقد اضطرته الخمر أن يخطىء فى القمة العقدية ، لذلك جاء الأمر :

﴿ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ ﴾

(من الآية ٤٣ سورة النساء)

ونعلم أن المسلم يصلى خمسة فروض فى اليوم ، وحتى لا يقرب الإنسان الصلاة وهو سكران فهذا يقتضى أن يمر النهار كله تقريبا دون خمر إلى ما بعد العشاء . وبذلك أطال الحق المسافة الزمنية التى يمتنع فيها عن تعاطى الخمر . وفى ذلك حبس للنفس عن المعتاد عليه حتى يألف الشخص المعتادُ تركَ ما اعتادَهُ . ومن بعد ذلك يطلبون

من الرسول رأياً شافياً فى الخمر فيأتى قوله الحق :

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ ﴾ (سورة المائدة)

لقد كان هذا هو التدرج الذى يخرجهم من الإلف والعادة فى أعمالهم ، فيأتى الأمر بالتحريم وكأنه صادر منهم . ويردف الحق سبحانه وتعالى ذلك الحكم الجزئى فى الخمر والميسر فكأنه يقول : مادامت المسألة كما علمتم منى بأن هذا رجس ومن عمل الشيطان فلا تعينوا الشيطان على نفوسكم وأخلصوا فى عبادة الحق وحده ، ويقول ـ سبحانه ـ بعد ذلك :

﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٩٢﴾ ﴾

لقد نقل الله الحكم بعدما انتهى من هذه الجزئية إلى حكم عام هو طاعة الله وطاعة الرسول . وأنت ساعة تستقرىء أمر الله بالطاعة فأنت تجدها فى صور متعددة . فمرة يقول :

﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ﴾

(من الآية ٩٢ سورة المائدة)

فقد كرر الأمر بالطاعة لله وللرسول ، فالإطاعة لله فى الحكم العام ، وإطاعة الرسول فى تفصيله ، ومرة يقول سبحانه :

﴿ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ﴾

(من الآية ٣٢ سورة آل عمران)

إنه هنا لا يكرر أمر الطاعة ، فهناك أمر للطاعة ، وهناك مطاع ، وهناك مطيع والمطيع ، هم المخاطبون ، فهو هنا يوحد أمر الطاعة ، والمطاع هنا هو الله ،

والرسول يأتى معطوفا على لفظة الجلالة .

ومرة يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ﴾

(من الآية ٥٦ سورة النور)

نحن إذن أمام حالات للطاعة : الأولى : وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول ، والثانية : أطيعوا الله والرسول ، والثالثة : أطيعوا الرسول ، ومرة واحدة فقط يعطف على ذلك « أولى الأمر » فيقول جل وعلا :

﴿ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾

(من الآية ٥٩ سورة النساء)

وحين قال الحق :

﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ﴾

(من الآية ٩٢ سورة المائدة)

فهو يكرر الأمر بالطاعة عند الله وعند الرسول ، لكن عند أولى الأمر لم يأت سبحانه بأمر : « أطيعوا » ؛ ذلك أن طاعة أولى الأمر تكون من باطن الطاعتين : طاعة الله ، وطاعة الرسول ؛ فلا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق . وإذا قال الحق : « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول » تكون طاعة الله فى الحكم العام ، وطاعة الرسول فى تفصيل الحكم . والمثال قوله الحق :

﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ ﴾

(من الآية ٩٧ سورة آل عمران)

هنا نطيع الله فى الحكم العام ، ونطيع الرسول فى تفصيل الحج . لأن التفصيل لم يأت فى القرآن ، والرسول صلى الله عليه وسلم قال : « خذوا عنى مناسككم » . وعندما يتوحد الأمران : « أطيعوا الله والرسول » فهذا يعنى أن هناك أمراً واحداً قد صدر من الله ، وصدور وحصول الفعل من الرسول يكون للقدوة والأسوة وتوكيدا للحكم .

وإذا كان لله أمر بالإجمال وللرسول أمر بالتفصيل فسبحانه يقول : « وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول » . وإذا كان الأمر للرسول فقط ولم يرد فيه شىء من الله فهو أمر

صدر بتفويض من الله بناء على قوله الحق :

﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾

(من الآية ٧ سورة الحشر)

وهكذا نجد أنه لا تلتبس طاعة بطاعة ولا تتناقض طاعة مع طاعة . والحق هنا يقول : « وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا » . لماذا هذا التحذير ؟ يأتى هذا التحذير ليعلمنا الله أن الشيطان لن يدعنا ندخل فى مجال طاعة الله وطاعة الرسول ، وسيحاول جاهداً أن يُلبِّس علينا الأمر . فعندما يعرف الشيطان ميلاً فى نفس إنسان إلى لون من الشهوات ، يدخل إليه من باب المعاصى . وإن كان الإنسان قد أوصد بعض السبل أمام الشيطان فلا يستطيع مثلا إغراءه بالسرقة أو شرب الخمر ، لا يتركه بل يدخل إليه من باب الطاعة ، فيأتى الشيطان إلى الإنسان لحظة الوضوء وينسيه هل غسل هذه اليد أو تلك ، وهل أسبغ الوضوء أم لا ؟ أو يأتى الشيطان إلى المؤمن لحظة الصلاة فينسيه عدد الركعات أو عدد السجدات ، وهكذا يدخل الشيطان للمؤمن من ناحية الطاعة .

ومعنى قوله سبحانه : « واحذروا » أى احذروا أن يحتال الشيطان عليكم ؛ لأنه سيحاول أن يدخل لكم من كل مدخل ، يدخل على المسرف على نفسه بالمعصية ، وأشد أعمال الشيطان على المؤمنين هى أن يدخل عليهم من باب الطاعة . ولذلك قال الحق : « واحذروا » وكثيراً ما نجد الإنسان منا ينسى موضوعاً ما ، وحين يأتى إلى الصلاة فهو يتذكر هذا الموضوع . والشيطان لا يترك الإنسان فى مثل هذه الحالة ، فقد أقسم الشيطان فقال :

﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾

(من الآية ٨٢ سورة ص)

وقال الحق سبحانه :

﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ﴾

(من الآية ١٦ سورة الأعراف)

إنه أقسم أن يقف على الطريق المستقيم لا على الطريق المعوج . ومثال ذلك عندما يتصدق إنسان بصدقة قد يعلنها ويقول : لقد تصدقت أكثر من فلان . وهكذا يضيع

منه الأجر . الشيطان يحاول ـ إذن ـ أن يدخل علينا من باب لا نفطن إليه وهو باب الطاعة . وأروى لكم هذه القصة حتى تعرفوا مدى تَدَخل الشيطان ، وقد حدثت مع الإمام أبى حنيفة رضى الله عنه . فقد جاء إليه من يسأله الفتوى فى أمر غريب ؛ قال السائل : ضاعت منى نقودى ، فقد دفنتها فى مكان من الأرض ، ونزل السيل فطمس مكان النقود وأزال الحجر الذى وضعته علامة على مكانها . فقال الإمام أبو حنيفة : اذهب الليلة بعد صلاة العشاء وقف أمام ربك إلى أن يطلع الفجر ، وقل لى ماذا سوف يحدث . وعندما جاءت صلاة الفجر جاء الرجل متهللاً إلى أبى حنيفة وقال : وجدت مالى .

فسأله أبو حنيفة : كيف ؟ قال الرجل : بينما أنا أقف للصلاة تصورت مكان وضع النقود ، ومتى نزل السيل ، وكيف سار ، وهكذا قست المسافة وقدرتها إلى أن عرفت موقع النقود . فضحك الإمام وقال : والله لقد علمت أن الشيطان لن يدعك تتم ليلتك مع ربك . هكذا ترى كيف يدخل الشيطان من باب الطاعة . ولذلك قال الحق :

﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحۡذَرُواْ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٩٢﴾ ﴾

(سورة المائدة)

أى فإن أعرضتم عمّا كلفتكم به فاعلموا أنكم بتوليكم وإعراضكم لن تضروا الرسول ؛ لأن الرسول ما كلف إلاّ أن يقوم بالبلاغ المبين ، وإنما ضررتم أنفسكم حين أعرضتم عما كلفتم به . إن الحق يعلم أزلاً أن بعضاً من عباده قد يقول : إن هذا الحكم لم يَرِد فى القرآن ؛ لذلك جاء بالأمر بطاعة الرسول . وهكذا صارت للرسول طاعة مستقلة ، وأرادها الله حتى يَرُدّ مقدماً على الذين يسألون عن نص فيه كل تفصيل . بينما نجد هذه التفاصيل فى السنة النبوية الشريفة . ومثال ذلك عدد ركعات كل صلاة ، إنها لم تَرِدْ فى القرآن ، ولكننا عرفناها تفصيلاً من الرسول . وفَوَّض الحق رسوله فى التشريع :

﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ ﴾

(من الآية ٧ سورة الحشر)

فسبحانه قد علم أزلاً أن هناك من سيدَّعى أنه لن يطيع إلا القرآن . ولذلك قال الرسول صلى الله عليه وسلم : (يوشك أن يقعد الرجل منكم على أريكته يحدث بحديثى فيقول : بينى وبينكم كتاب الله عز وجل ، فما وجدنا فيه حلالا استحللناه ، وما وجدنا فيه حراما حرمناه . وإن ما حرم رسول الله كما حرم الله)[١] .

أى أن الرسول هو المبلغ عن ربه ، وأن علينا أن نحذر الشيطان إذا أراد أن يدخل علينا من باب الطاعة . ولكن لماذا قال الحق : « فإن توليتم » ؟ وعن أى شىء يكون التولى ؟

قال الحق ذلك ليوضح لنا أن الإنسان له الاختيار فى أن يذهب إلى الطاعة ، وله الاختيار فى أن يذهب إلى المعصية . وإن تولى الإنسان عن الطاعة إلى المعصية ، وعن الإيمان الذى جاء به الرسول الذى بلغ عن الله إلى البقاء فى الكفر ، فليعلم ذلك الإنسان أن الرسول قد أوفى مهمته وأداها . فالمطلوب من الرسول أن يبلغ المنهج ، وقد بلغ صلى الله عليه وسلم بلاغاً مبيناً ، محيطاً ، واضحاً ، ومستوعباً لكل أقضية الحياة .

لقد أبلغنا صلى الله عليه وسلم مطلوب الله منا أن نؤمن بإله واحد ، قادر ، حكيم ، له كل صفات الكمال ، ذلك هو الأمر الأول فى العقيدة . وأبلغنا صلى الله عليه وسلم أن نبتعد عما كان عليه العرب من الأنصاب ، ومن الأوثان ، ومن الأصنام . وبلاغ الرسول صلى الله عليه وسلم يطلب منا إيماناً ، وعملاً ، والعمل ينقسم إلى قسمين : عمل إيجابى ، وعمل سلبى . ويتركز العمل الإيجابى فى « افعل كذا » ، إذا لم تكن تفعله ، أما العمل السلبى فهو أن تكف عما نهاك عنه الله ، ونهاك عنه الرسول صلى الله عليه وسلم .

إذن أول مطلوب الإيمان هو الاعتقاد فى الإله الواحد ، وأن نكف عن عبادة الأوثان والأصنام ، والطلب ـ كما نعرف ـ هو أن تنشىء كلاماً تطلب به مِن مخاطبك أن يفعل شيئاً لم يكن مفعولاً وقت طلبه . فإذا أوضح الحق : لا تعبد الأوثان ، فهذا

---

(١) رواه أحمد والدارمى وأبو داود والترمذى وابن ماجه .

طلب لفعل ، وهو أن نكف عن عبادة الأوثان . وحين يأمرنا الحق بالصلاة والصوم والزكاة وحج البيت ، فهذا طلب لأفعال . وطلب الفعل يقال له : « أمر » . وطلب الكف عن فعل يقال له : « نَهْى » .

وأنت إذا نظرت إلى كل التكاليف فى الإسلام ، تجدها لم تأت مرة واحدة ، وإنما جاءت على مدار ثلاثة وعشرين عاماً . فعندما جاء الإسلام آمن به أناس ، ولم يكن قد صدر إليهم تنفيذ أى من الأحكام التى وردت على مدار سنوات الرسالة ، وإنما كان المطلوب منهم بعضاً يسيراً منها ، وكانوا يؤدونها ، منهم من بلغه فقط ضرورة الإيمان بالإله الواحد ، وآمن بذلك ثم وافاه الأجل وكانت له الجنة . ومنهم من امتدت حياته ، فزادت عليه أحكام جديدة فنفذها ، وكان إسلامه بذلك إسلاماً تاماً .

إذن ، فالتمام فى الإسلام هو تنفيذ كل عمل جاء فى الأحكام التى أدركها المسلم . فإن لم يكن المسلم قد أدرك إلا حكماً واحداً ونفذه فله كل ما وعد الحق به . ومثال ذلك : « مخيريق اليهودى » الذى أسلم وأوصى بماله للنبى صلى الله عليه وسلم . فلما كان يوم أُحُد ، وقف فى قومه قائلاً : يا معشر يهود ، والله لقد علمتم أن نصر محمد عليكم لَحَقٌّ . فلم يجيبوه ، فأخذ سيفه وعدته وقال : إن أصبت فمالى لمحمد يصنع فيه ما يشاء . ثم خرج إلى القتال فقاتل حتى استشهد . ولم يكن قد نفذ أى حكم من أحكام الإسلام ، لكنه قاتل فنال شرف الشهادة ، وقال عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم : (مُخَيْرِيق خير يهود)[1] .

ولا بد لنا أن نفرق دائماً بين « أركان الإسلام » والمطلوب من المسلم . ونعلم جميعاً أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : (بنى الإسلام على خمسٍ : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والحج ، وصوم رمضان)[2] .

---

(١) رواه ابن سعد فى الطبقات الكبرى ، وأبو نعيم فى دلائل النبوة ، وابن كثير فى البداية والنهاية ، وابن عساكر فى تهذيب تاريخ دمشق .

(٢) رواه أحمد والبخارى ومسلم والترمذى والنسائى عن ابن عمر .

راجع أصله وخرج أحاديثه الدكتور/ أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .

هذه هى أركان الإسلام . أما المسلم فقد يختلف المطلوب منه ، فالمطلوب من المسلم أن يشهد مرة واحدة فى حياته أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . ومطلوب منه دائماً أن يقيم الصلاة مهما تكن حالته . لكن فرض الزكاة قد يسقط عنه إن كان لا يملك مالاً . وقد يسقط عنه الصوم إن كان مريضا مرضا لا يرجى شفاؤه أو كان كبير السن لا يقدر على الصوم وعليه فدية طعام مسكين ، أما المريض الذى يرجى شفاؤه وكذلك المسافر فيقضيان الصوم بعد زوال العذر ومثلهما الحائض والنفساء . وقد يسقط عنه الحج لأنه لا يملك المال الكافى . هكذا تختلف أركان الإسلام من مسلم لآخر ، وهكذا نعرف أن من عاش فى بدايات الإسلام ونفذ القليل من الأحكام التى نزلت حتى مات أو استشهد ، فقد أدى مطلوب الإسلام منه .

وعندما نزلت مسألة النهى عن الخمر ، والميسر ، ذهب أناس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليسألوه عن مصير زملائهم وإخوتهم فى الإيمان الذين ماتوا أو استشهدوا قبل أن ينزل تحريم الخمر والميسر . ومجرد السؤال هو دليل اليقظة الإيمانية ، فالإنسان لا يكون مؤمناً حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه . وهنا أنزل الحق سبحانه وتعالى القول الكريم :

﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾

لقد أنزل الحق هذه الآية ليُطَمْئِن المؤمنين السائلين عن الحكم فى إخوانهم الذين ماتوا أو استشهدوا وكانوا يشربون الخمر قبل نزول الحكم بتحريمها . « ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا » و« طعموا » لا تخص الطعام فقط ولكن تشمل وتضم الشراب أيضاً ، فالحق يقول :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ ﴾

(من الآية ٢٤٩ سورة البقرة)

وعلى ذلك فالماء طعام ، بمعنى أن طعمه يكون فى الفم . وهكذا عرف المسلمون السائلون عن إخوانهم الذين ماتوا أو استشهدوا أن إسلامهم كان مقصوراً على الأحكام التى نزلت فى أثناء حياتهم ، فقد نفذوا المطلوب منهم بعدم عبادة الأصنام . وقد يكون منهم من مات قبل أن تفرض الصلاة ، أو مات قبل أن تنزل أحكام الزكاة أو الصوم ، ولذلك لم يفعلوها . وعلى ذلك يكون عملهم الصالح هو تنفيذ التعاليم التى نزلت إليهم . لقد اتقوا الله فنفذوا مطلوب الإيمان على قدر ما طلب منهم الحق ، آمنوا بالإله المكلِّف وجعلوا بينهم وبين الله وقاية بأن نفذوا مطلوبه سبحانه أمراً ونهياً .

والإيمان له قمة هى أن يؤمن الإنسان بالله وملائكته وكتبه ورسله ، وبعد ذلك بالأحكام التى تنزل من السماء . واختلف العلماء فيما بينهم فى مسألة زيادة الإيمان ونقصانه ، فمن العلماء من قال : إن الإيمان لا يزيد ولا ينقص . ومن العلماء من قال : إن الإيمان يزيد وينقص . والذين قالوا بأن الإيمان لا يزيد ولا ينقص ، إنما نظروا إلى الإيمان بالقمة العقدية وهى الإيمان بالله . والذين قالوا بأن الإيمان يزيد وينقص إنما نظروا إلى الإيمان بالأحكام التى ينزلها الله ، وأخذوا ذلك من قوله الحق :

﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾

(سورة التوبة)

فكل آية تنزل بأحكام جديدة فهى تزيد الإيمان . فعندما نزل الحكم بالزكاة آمن به المسلمون وطبقوه . ومنهم ممن لم يكن يملك المال فلم يطبق الحكم على الرغم من أنه آمن به .

فالمسلم يؤمن بالحكم ، وإن كان مستطيعاً فهو يفعله ، وإن كان غير مستطيع فهو لا يفعله . ولهذا كانوا يستبشرون بالأحكام التى تنزل بها الآيات . وعلى ذلك يكون خلاف العلماء خلافا على جهة منفكة ، ونلحظ أن الحق يقول :

﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾

(سورة المائدة)

إذن ، فهنا ثلاث مراحل : هناك من أدرك حكماً فاتقى الله وآمن وعمل صالحاً ، وبعد ذلك انتقل وأفضى إلى ربه فلا جناح عليه ، وهناك من عاش ليعاصر أحكاماً أخرى فآمن بها وعمل بها ، وهناك من عاش ليعاصر أحكاماً قد زادت فعمل بها أيضاً . والإيمان الأول ارتبط بالعمل الصالح ، وكذلك الإيمان الثانى الذى جاء فى الآية . ثم يأتى الإيمان الثالث مرتبطاً بالإحسان .

والإحسان كما نعلم له وجهان : الأول أن يعبد المؤمن الله كأنه يراه ، وكلما جاء تكليف ، يحسن المؤمن فى أدائه ، كأنه يرى الله ، وإن لم يكن يراه فإنه يحس أنه سبحانه يراه . وإذا ما استوعب المسلم كل أحكام الله التى استوعبت بدورها كل أقضية الحياة ، فهو يحسن أداء هذه الأحكام . والوجه الثانى للإحسان أن يزيد المؤمن فى أداء هذه التكاليف فوق ما فرض الله ، وهى النوافل . وبذلك لا يكتفى المؤمن بتصديق الأحكام التى نزلت ، بل يزيد من جنسها . والحق يقول :

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة الذاريات)

وجاء الحق بالتعليل وهو :

﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴾

(من الآية ١٦ سورة الذاريات)

ووجه إحسانهم أن الواحد منهم لا يقف عند ما كلفه الله به ، بل يزيد على ما كلفه الله من جنس ما كلفه سبحانه ، فالحق قد فرض على المسلم خمسة فروض ، والمحسن هو من يزيد ويتقرب إلى الله بالنوافل . وفرض سبحانه على المسلم صوم رمضان ، والمحسن هو من يؤدى صيام رمضان بتمامه ويزيد بصوم أيام أخرى من العام . وفرض سبحانه

على المسلم زكاة مال بقدر اثنين ونصف فى المائة وهو ربع العشر ، والمحسن قد يزيد الزكاة إلى أكثر من ذلك . وفرض سبحانه على المسلم حج البيت إن استطاع إلى ذلك سبيلا ، والمحسن هو الذى يزيد مرات الحج .

إذن ، فالمحسن هو من عشق التكليف من الله ، وعرف منزلة القرب من الله ، فوجد أن الله قد كلفه دون ما يستحق ـ سبحانه ـ منا فزاد من العمل الذى يزيده قرباً من الله . ويضيف الحق فى وصف المحسنين :

﴿ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة الذاريات)

ولم يكلفنا سبحانه بألا نهجع إلا قليلاً من الليل . كلفنا فقط بأن نصلى العشاء ، وبعد ذلك قد ننام لنصحو لنصلى الصبح ، أما المحسن الذى عرف حلاوة الخلوة مع الله فهو لا يهجع إلا قليلاً من الليل . ويضيف الحق سبحانه فى وصف المحسنين :

﴿ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

(سورة الذاريات)

ولم يكلف الله المسلم بالاستغفار فى السحر ، لكن المحسن يفعل ذلك ويضيف الحق سبحانه :

﴿ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ ﴾

(سورة الذاريات)

ولم يقل سبحانه : إنه حق معلوم ؛ لأن الحق المعلوم هو الزكاة . وهذه المراحل الثلاث هى التى تُدخل المؤمن فى مرتبة الإحسان . ولذلك نجد الحق فى آخر مرحلة فى الآية التى نحن بصددها يتحدث عن الإحسان : « ثم اتقوا وأحسنوا » أى أن يزيد الإنسانُ المؤمنُ من جنس ما فرض الله . ووقت أن كان التكليف فى دور الاستكمال فكل حكم يأتى كان يستقبله المؤمن بإيمان وعمل . أما الذين أدركوا كل التكاليف خلال الثلاثة والعشرين عاماً ـ المدة التى مكثها وعاشها رسول الله صلى الله عليه وسلم رسولا ثم انتقل إلى الرفيق الأعلى ـ فقد استوت عندهم التكاليف ، وإذا ما أرادوا الإحسان فلا بد لهم من الزيادة من جنس التكليف .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبۡلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلصَّيۡدِ تَنَالُهُۥٓ أَيۡدِيكُمۡ وَرِمَاحُكُمۡ لِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٩٤﴾ ﴾

وهذا انتقال لحكم جديد ، فبعد أن تكلم الحق فيما أحله لنا وقال سبحانه :

﴿ أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ﴾

(من الآية ١ سورة المائدة)

وبعد أن تكلم الحق سبحانه فيما حرم علينا من الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلا ما ذكى وذبح وحرَّم ما ذبح للأصنام وما استقسم بالأزلام وكذلك الخمر والميسر ، أراد أن يعطينا محرمات من نوع خاص ، وحتى نعرف هذه المحرمات لا بد لنا أن نعرف أن هناك أشياء محرمة فى كل زمان وكل مكان ، كالخمر والميسر والزنا وغير ذلك من النواهى الثابتة ، سواء أكانت عبادة أصنام أم أزلام أم غير ذلك من أكل الميتة والدم ولحم الخنزير ، وهناك محرمات فى أزمنة خاصة ، أو فى أمكنة خاصة . والفعل ، أى فعل ، لا بد له من زمن ولا بد له من مكان .

نحن مأمورون بالصلاة فى زمانها فى أى مكان طاهر وصالح للصلاة فيه ، وكذلك الصوم يتحكم فيه الزمان ، أما الحج فالذى يتحكم فيه هو الزمان والمكان . وأما العمرة فالذى يتحكم فيها هو المكان ؛ لأن الإنسان يستطيع أن يعتمر فى أى زمان - غالبا - ويتكلم سبحانه هنا عن نهى فى مكان خاص وفى زمان خاص ، فالصيد ليس محرماً إلا فى حالة أن يكون الإنسان حُرُماً .

ونعلم أن كلمة و« حُرُم » هى جمع « حَرَام » ، والحرام إما أن يكون الإنسان فى المكان الذى يبدأ فيه بالتحريم . ومثال ذلك منطقة رابغ التى يبدأ عندها الإحرام بالنسبة لسكان مصر ، فإن وصلت إلى هذا المكان وبدأت فى عمل من أعمال الحج أو العمرة فأول عمل هو الإحرام . ومن لحظة الإحرام حتى ولو أحرمت من بلدك أو بيتك لا يحل لك الصيد . و« الحرم » أيضاً هو وصف للمكان حتى وإن لم يكن الإنسان حاجاً ، فالصيد محرم فى الحرم ، والحرم له حدود بينها الشرع ، فالصيد فيه حرام على المُحْرِم وغير المحْرِم . ونعلم أن أمة محمد صلى الله عليه وسلم قد جعل الحق لها الأرض كلها مسجداً وطهوراً .

وعلى ذلك فأى مكان يصلح للصلاة ، ويصلح أن نقرأ فيه العلم ، ويصلح أن نقيم عليه مصنعاً ويصلح أن نزرعه . إذن فأى أرض تصلح أن تكون مسجداً لأنها مكان للسجود . ولكن المسجد بالمعنى الاصطلاحى هو المكان المخصص للصلاة . أما المسجد الحرام فمركزه الكعبة وحولها الطواف وحول ذلك جدران الحرم . ويقع المسجد الحرام فى دائرة الحرم ، والتى تبدأ من التنعيم والجعرانة والحديبية والجحفة وغيرها ، هذه حدود الحرم . فالإنسان إذا ما جاء إلى ميقات الحج عند رابغ مثلاً فهو لا يصطاد ؛ لأنه أصبح فى دائرة الحرم ، فالصيد محرم عليه حتى ولو لم يكن حاجاً أو معتمرا .

والحج ـ كما نعلم ـ هو رحلة فرضها الله مرة واحدة فى العمر يخرج إليها المسلم الذى يحيا فى كل مكان مع نعمة المنعم . وعندما يخرج المسلم إلى الحج فهو يتحلل من كل النعم التى تصنع له التمييز ليستوى مع كل خلق الله . وأول سمة مميزة للإنسان هى الملابس ، لذلك يخلع المسلمون ملابسهم ويرتدون لباساً موحداً يتساوون فيه . وحين يترك المسلم النعمة كلها فذلك لأنه ذاهب إلى المُنْعِم .

ومن بعد ذلك يريد الحق أن يؤدبنا تأديباً إيمانياً مع الوجود كله . ويصفى الله فى الحج هذه المسألة كلها ، فالكل سواء فى ملابس تكاد تكون واحدة ، وكلهم شُعْثٌ غُبْر ، وكلهم يقولون : « لبيك اللهم لبيك » . هكذا تتم تصفية التفاوت فى الإنسان بالإحرام .

ومن بعد ذلك ننظر إلى الجنس الأدنى وهو الحيوان ، ويعلمنا الحق الأدب مع هذا الجنس فيأتى بتحريم صيده . ويعلمنا الأدب مع الزرع الذى تحت الحيوان فيمنع المسلم من قطع شجر الحرم . وهكذا تصفى كل هذه المسألة ، وتصبح العبودية مستطرقة فى الجميع .

وتزول فى الحج كل الألقاب والمقادير المتباينة من فور اتجاههم إلى الحج ، وحول الكعبة يرى الخفيرُ الوزيرَ وهو يبكى ، ويشعر الجميع أن الكل سواء ، والحق يقول :

﴿ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ﴾

(من الآية ٩٧ سورة آل عمران)

فالحيوان يأمن وكذلك النبات ، هذا ما أمر به الحق فى دائرة الحرم ؛ لأن ذلك تدريب للإنسان على أن يخرج من النعمة إلى المنعم . ومن بعد ذلك يدخل إلى المسجد ويطوف حول الكعبة . ونجد الإنسان ـ سيد الوجود ـ يقف من كل ما يخدمه فى الوجود موقفاً مختلفاً ، فالحيوان يأخذ كرامته وكذلك النبات ، وكذلك الجماد يأخذ أيضاً كرامته ، فمن عند الحجر الأسود يبدأ الطواف سبعة أشواط .

فى الحج ينفض الإنسان أى طغيان عن نفسه ويتساوى مع كل الناس ، ينفض طغيانه أمام الجنس الأدنى وهو الحيوان فحرّم عليه صيده ـ ونعلم أن الحيوان يغذى الإنسان ـ وينفض أيضا طغيانه مع النبات ـ والنبات يغذى الإنسان ـ فحرّم قطعه . وينفض الحق كبرياء الإنسان أمام الجماد ـ وهو أحط الأجناس ـ فأمر الحق الإنسان أن يستلم الحجر الأسود أو أن يقبله ، وإن لم يستطع من الزحام فعليه الإشارة للحجر ، ومن لم يستطع استلام الحجر أو تقبيله فقد يخيل إليه أن حجه لم يقبل وذلك زيادة منه فى التعلق بالمناسك والاحتياط فى أدائها .

كل ذلك حتى يحقق الله سبحانه وتعالى استطراق العبودية ، ودائماً نجد من يتساءل : وكيف نقبل الحجر على الرغم من أن الله قد نهانا عن الوثنية وعبادة الأصنام ؟ ونقول : إن الحجرية ليست لها قيمة فى هذا المجال ، ولكن رب الإنسان والحيوان والنبات والحجر هو الذى أمرنا بذلك ، بدليل أننا نرجم حجراً آخر هو رمز

إبليس ، والعبد فى أثناء أداء المشاعر ـ إنما ينتقل من مراد نفسه إلى مراد ربه ، فيقبل ويعظم حجراً ويرجم حجراً آخر ، وهكذا صفيت العبودية بالنسبة للناس فاستطرقوا ، وصُفيت العبودية بالنسبة للحيوان والنبات والجماد .

ويلفتنا سيدنا عمر رضى الله عنه فيقول للحجر الأسود : « أنا أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا أنى رأيت رسول الله يقبلك ما قبلتك » .

كأن سيدنا عمر رضى الله عنه يعلمنا حتى لا يقول أحد : إنها وثنية ، فالوثنية أن تعبد حجراً بمرادك ، أما الحجر الأسود فنحن نعظمه بمراد الله .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبۡلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلصَّيۡدِ تَنَالُهُۥٓ أَيۡدِيكُمۡ وَرِمَاحُكُمۡ لِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٩٤﴾ ﴾

(سورة المائدة)

ما الفرق بين ما تناله الأيدى وما تناله الرماح ؟ . ما تناله الأيدى هو صغار الأفراخ والأشياء السهلة اليسيرة ، أما ما تناله الرماح فهو ما تصطاده بجهد وبالرمح وحسن تصويبه . وقال الحق:« ولنبلوكم » لأن هناك فارقاً بين أن يلح الإنسان على المعصيية فيفعلها ، وبين أن يصل إلى منزلة لا يلح فيها على معصية ، بل قد تقع عليه المعصية ، وإن وقعت عليه المعصية فهو لا يرتكبها .

كأن الحق يبتلينا مادمنا لا نلح على المعصية ، ويريد أن يرى ماذا سيكون التصرف منا إن جاءت المعصية إلينا فهل نفعلها أو لا ؟ . فإن كان الإيمان قوياً فلا أحد يقرب المعصية . ولذلك يبتليكم الله بشىء من الصيد المحرّم عليكم بأن يجعله فى متناول أيديكم .

حدث ذلك فى الحديبية لقد كاد الصيد يضع نفسه بين أيدى المؤمنين ولم يقربوه وكان هذا اختباراً . ونعلم أن الابتلاء غير مذموم فى ذاته ، إنما المذموم فيه الغاية منه ؛ لأن الابتلاء اختبار ، وقد ينجح إنسان ، وقد يفشل إنسان آخر . وكأن الحق قد ابتلى المؤمنين بأن جعل الصيد يتكاثر أمامهم حتى يقوى عود الإيمان فى قلب المؤمن فلا يتهافت على المعصية وتتكون لديه المناعة وذلك . « ليعلم الله من يخافه بالغيب »

وسبحانه وتعالى العالم بكل شيء قبل أن يحدث . لكن هناك فرق بين علم وعلم ، إن علم الله أزلى لا يتخلف ، ولكن هذا العلم ليس حجة على الناس ؛ لأن الحجة على الناس هو ما يقع منهم فعلاً ، ولذلك كان الابتلاء .

وأسوق هذا المثل ـ ولله المثل الأعلى ـ إن الوالد قد ينظر إلى أحد أبنائه ويقول : إنه يلعب طول السنة ومن الأفضل ألا ندخله الامتحان ؛ لأنه سوف يرسب . ولا يدخل الابن الامتحان ، ولكن الوقاحة تصل به إلى الحد الذى يقول فيه : لو كنت دخلت الامتحان لكنت من الناجحين.ولو كان والده أدخله الامتحان ورسب ، لكان هذا الرسوب حجة عليه .

إذن فعلم الحق لا يلزمنا الحجة ، إنما العلم الواقعى هو الذى يلزمنا بها .

وقد حدثت هذه الابتلاءات فى النبوّات كثيراً . ومثال ذلك ابتلاء الحق لليهود بتحريم الصيد يوم السبت ، فكانت الحيتان تأتى فى هذا اليوم مشرعة وكأنها تلح عليهم أن يصطادوها . وفى الأيام الأخرى لا تأتى الحيتان ، فيحتالون لعصيان الأمر باختراع نوع من الشباك السلكية تدخل فيها الحيتان ، وتظل حية ومحبوسة فيها إلى يوم الأحد فيأخذونها . وتكون حيلتهم هى دليل الغباء منهم ؛ لأن الصيد قد تم بالنية والعمل والاستعداد المسبق . وكان الابتلاء فى الإسلام بشيء من الصيد . « ليعلم الله من يخافه بالغيب فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم » . وقد علمنا من قبل قوله الحق :

﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ﴾

(من الآية ٢٢٩ سورة البقرة)

فإن كانت المسائل مأمورات فعلينا أن ننفذها . وإن كانت نواهى فيجب ألا نقربها حتى لا نقع فيها فتكون حجة علينا ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (الحلال بين والحرام بين وبينهما مشتبهات لا يعلمها كثير من الناس فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام كراع يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه . ألا وإن لكل ملك حمى ، ألا وإن حمى الله فى أرضه محارمه)[1] .

---

(١) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه عن النعمان بن بشير .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ ۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾ ﴾

أى لا تقتلوا الصيد إن كنتم قد أحرمتم بالحج أو بالعمرة أو بهما معا ، وإن لم تحرموا فالصيد محرّم أيضاً فى حدود منطقة الحرم . وسبحانه قد جعل الحرم زماناً والحرم مكاناً . وهو فَيْءٌ يلجأ إليه الناس من غرور عزة قوم على حساب ذلة قوم آخرين . وقديماً كان يحارب بعضهم بعضا ، ولذلك جعل الحق أربعة أشهر حرماً فى الزمان ، أى لا قتال فيها ، وذلك حتى يستريح المتعب من الحرب ، ويستريح من يخاف على عزته ، أو يذوق فيها الجميع لذة السلام والأمن ، وقد يستمرون فى ذلك الاستمتاع بالسلام والأمان . وكذلك جعل الحق الحرم أيضاً مكاناً آمناً ، لا يتعرض فيه أحد لأحد . وكان الإنسان يقابل فى الحرم قاتل أبيه فلا يتعرض له ، كل ذلك ليحمى عزة الناس أن تنكسر أمام غيرهم .

ومثال ذلك طرفان كلاهما على خلاف مع الآخر ، وكل منهما يرغب فى الصلح مع الطرف الآخر . وهنا يتدخل أى إنسان من الخارج فينجح ؛ لأن الطرفين ميالان للصلح . وكل منهما يريد إنهاء الحرب ولكن تأخذه العزة بالإثم وتستولى عليه الحمية ويأنف أن يبدأ خصمه بطلب الصلح .

وقد أراد الحق أن تكون هناك فى الأشهر الحرم فرصة للائتلاف والصلح وذلك بأن يلجأ الناس إلى البيت الحرام حتى تنفض البشرية عن نفسها البغضاء وحتى يرتاح البشر من القتال ، فتصدر الأحكام فى رويّة واتزان وهدوء أعصاب .

ويقول الحق جل وعلا :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ ۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾ ﴾

(سورة المائدة)

ولا يعتبر الشيء صيداً إلا إذا كان مما يؤكل . أما إذا كان الشيء المصاد لا يؤكل كالسبع وغيره فقد قال بعض العلماء : لا يمنع ولا يحرم ولكنا نقول : إن الصيد هو كل ما يصاد سواء ليؤكل أو حتى غير مأكول ، وذلك لنعلم أنفسنا وجوارحنا وأعضاءنا الأدب ونحن حرم . ومعنى « حُرُم » هو أن نكون محرمين أو فى الحرم ، والحرم له حدود معروفة . وداخل الحرم ممنوع على الإنسان أن يصطاد أى شيء من لحظة بلوغه ميقات الحج و العمرة .

إذن فحيز الصيد محدود بالنسبة لكل من دخل الحرم المكّى الشريف سواء أكان محرماً أم لا . وحيز الصيد بالنسبة لمن أراد الحج أو العمرة هو أكثر رقعة واتساعا ، ذلك أن التحريم يبدأ من حين الاحرام بالحج أو بالعمرة أو بهما . ولكن ماذا يكون الحكم إن اعتدى إنسان على الحكم واصطاد ؟

« ومن قتله منكم متعمداً » . لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم ألحق قتل الخطأ بالعمد ، وذلك حتى ينتبه كل مسلم إلى كل فعل وهو محرم ، أو وهو فى البيت الحرام .

هب أنك أردت أن تحك جلد رأسك بأظافرك وأنتِ محرم ، هنا قد يتساقط بعض

شعرك ؛ فإن ثبت ذلك فعليك هدى للكعبة أو صوم أو إطعام مساكين ؛ لأن الحق يريد لك حين تحرم أن تنتبه بكل جوارحك إلى أن كل حركة من حركاتك محفوظة ومحسوبة عليك ، ولتكن فى منتهى اليقظة الإيمانية ، وأى خطأ مهما يكن يسيراً يوجب الفدية . لذلك من قتل وجب عليه الجزاء لتعديه على شىء حرمه الله . والجزاء محدد بنص القول الحق : « فجزاءٌ مثل ما قتل من النعم » وعند المثلية وقف العلماء أيضاً : أتكون المثلية بالقيمة ، أو المثلية فى الشكل ؟.

والمثلية فى القيمة تعنى أن تقوِّم الشىء المقتول بثمنه ، وتشترى بالثمن شيئاً من الأنعام وتذبحها . والمثلية فى الشكل تعنى أن نشبه الشىء المقتول بمثيل له مما يذبح ويكون أقرب إلى شكله . ودليل ذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم حينما قتل مسلم ضبعاً أمر المسلم أن يفدى بكبش . والصحابة رضوان الله عليهم : على ، عمر ، وعثمان وعبدالله بن عمر أمروا رجلاً قتل نعامة أن يفديها ببدنة:ناقة أو بعير لأنها تشابه النعامة فى العلو . وحينما قتل إنسان ظبياً فداه بشاة ، والظبى أو الغزال هو الذكر ، والغزالة هى الأنثى ، وعندما قتل غزالاً صدر الحكم بالفداء بعنزة . ومن قتل « يربوعاً » ـ وهو من الزواحف وأكبر من الفأر قليلاً ـ صدر الحكم أن تكون الفدية « الجفرة » وهى ولد الماعز بعد أن يستغنى عن لبن أمه ويستطيع الأكل .

إذن ، فالمثلية هنا مثلية الشكل . وقال أبو حنيفة بإباحة أن تكون المثلية بالقيمة إن لم يوجد الشبيه . وعلى ذلك فالذى يصطاد من أجل أن يطعم نفسه يدفع ثمن الخطأ لغيره من المحتاجين . وإن كانت المثلية بالقيمة فالذى يحدد هذه القيمة أناس لهم بصيرة وهما اثنان من ذوى العدل . « يحكم به ذوا عدل منكم هدياً بالغ الكعبة » وهم الذين لا يميلون عن الحق ، ويقيمون الميزان .

ويأمرنا الحق أن نحكم بالإنصاف لنكون من ذوى العدل ، أى أن الإنسان حين يواجه خصمين فهو يعطى نصفه لخصم ونصفه الآخر للخصم الثانى ، فلا يميل بالهوى ناحية أحدهما . ولا يدير الإنسان وجهه إلى خصم أكثر مما يديره للآخر .

وإن سأل أحد : كيف نأتى بذوى العدل ؟ ونقول : انظر إلى عدالتهما فى نفسيهما ولنر تصرفات الإنسان هل هى مستقيمة أو لا ؟ وهل هو مسرف أو معتدل سواء فى

الطعام أو الغضب أو فى أى لون من ألوان السلوك ؟ ومن كان مأموناً على نفسه فهو مأمون على غيره ، ويجب كذلك أن يكون من ذوى الخبرة فى هذا الأمر ، ولذلك يجب أن ينتبه الناس إلى هذه المسائل لأننا نرى أن موجة من النفاق للشباب تسود بعض المجتمعات ، فنسمع أصواتاً تقول : إن الشباب يجب أن يتولى القيادة .

ونقول لأصحاب هذه الأصوات : تمهلوا ودققوا النظر فى مثل هذا القول ؛ لأن الشباب عليه أن يزاول عمله الخاص فى فترة الشباب ، وعلينا ملاحظته وهو يؤدى عمله فإن نجح ورأينا فيه أمانة على حركة نفسه ، وعدلاً مع نفسه وعدم إسراف على نفسه فإننا نرشحه من بعد ذلك ليخدم أمته بعد أن يثبت أنه مأمون فى عدالة نفسه . ولا يصح أن نجرب فى الأمة مَن لا يَستند إلى رصيد من الخبرة السابقة .

إنه لا يصح أن نولى الأمر فى أى قطاع لمن أطلقوا عليهم : الأطفال المعجزة . ومن يريد أن يجرب فليجرب فى نفسه ، وفيما يملك ، لا فى الأمم والشعوب . وعلى الشاب أن يبدأ حياته بنشاط جدى لذاته ، ليستخلص النفعية القريبة منه وألا يغش نفسه ، فإن نجح فى ذلك ، نأخذ منه بعض الوقت أو كل الوقت لخدمة أمته بعد أن يثبت لنا أنه قد وصل إلى النضج العقلى الكافى ، وقد زادت تجاربه وفقد شهية الطموح الشخصى والمتع الصغيرة ، ووصل إلى القدرة على التجرد ليحكم بين الناس .

فإذا كان الحق قد أمرنا أن نختار ذوى العدل للحكم فى رقبة شاة ، فما بالنا برقاب الناس ومصالح الناس ؟

نحن ـ إذن ـ مطالبون بأن نميز ذوى العدل بين الناس من خلال مراقبة حركة الإنسان مع نفسه وعلى نفسه وعلى أهله ، وعندما نكتشف أنه صار مأموناً على نفسه ، هنا نستطيع أن نوليه أمور غيره بالخدمة العامة ، وذلك حتى لا تخيب الأمة ، فالأمم إنما تخيب باختيارٍ غير مدروس لقيادات المواقع المختلفة فيها .

ولنا أن نلحظ فى عملنا دقة المعانى التى جاءت فى القرآن الكريم ، فنحن هنا فى أمر شاة أو حيوان نستصدر الحكم من ذوى العدل . « فجزاء مثل ما قتل من النعم

يحكم به ذوا عدل منكم هدياً بالغ الكعبة » وما يحكم به ذوا العدل إنما يذهب كله للكعبة ؛ ليأكله الموجودون فى البيت الحرام لعبادة الرحمن . وقد أراد الله أن يضمن قوت الذين يسكنون وادياً غير ذى زرع حتى من أغلاط الذين يعتدون على ما حرَّمَ الله صيده من الحيوان .

ولكن ما الحل إذا ما كان المخطىء لا يملك القدرة على أن يقدم هدياً بالغ الكعبة ؟

والحق سبحانه لا يترك مثل هذه الأمور دون بيان أو تفصيل ، فهاهوذا يضع الكفارة بإطعام مساكين ، يحدد عددهم الاثنان من ذوى العدل . ومن لا يستطيع إطعام مساكين فليصم أياماً بعدد الفقراء الذين كانوا يستحقون الطعام لو أخرجه . « أو كفارة طعام مساكين أو عدل ذلك صياماً ليذوق وبال أمره » والوبال هو الثقل والعاقبة .

ولماذا الوبال ؟ لأن الإنسان حين يدفع من ماله ثمن شراء المثل لما قتل سيعز عليه ماله ، وأيضاً إن أطعم مساكين فهو سيشترى الطعام بمال يعز عليه ، وكذلك يسبب له الصيام الإرهاق . إن هذا اللون من الكفارة يذيق الإنسان وبال ما فعل . وأراد الحق بذلك ألا يجعل الإحساس مجرد أمر شكلى ، أو أن تظل الإساءة أمراً شكلياً . وشاء سبحانه أن يرتب النفع للإحسان والضر للإساءة ، حتى تستقيم الأمور فى الكون . ولنا فى قصة ذى القرنين المثل الواضح على ذلك :

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ ﴾

(سورة الكهف)

لقد مكن الحق لذى القرنين فى الأرض ، وأعطاه من كل شىء سببا . ومع ذلك لم يركن ذو القرنين إلى ما أعطى فلم يتقاعس ولم يكسل ، بل يخبرنا الحق :

﴿ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ ﴾

(سورة الكهف)

لقد أخذ ذو القرنين من تمكين الله له فى الأرض ، وأخذ من عطاء الله له بشىء من كل سبب ، إنه أخذ طاقةً وإحساساً بالمسئولية ليواصل مهمته :

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ ﴾

(سورة الكهف)

لقد بلغ مغرب الشمس فى نظر عينيه ، لأن الإنسان عندما يقف وقت الغروب فى خلاء فالشمس تغرب أمامه وكأنها تسقط فى آخر الأفق . والحقيقة أن ذلك هو نهاية قدرة البصر . وجاء التفويض لذى القرنين : إما أن يعذب هؤلاء القوم ، وإما أن يعاملهم بالحسنى . وليقس عمل كل إنسان منهم ، وليجاز كل إنسان منهم حسب عمله . وهو لا يفعل ذلك عن هوى ، لأنه ممكن فى الأرض من الحق سبحانه وتعالى ؛ لذلك قال الحق :

﴿ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ ﴾

(سورة الكهف)

وكل إنسان ـ حتى النفعى ـ حين يرى أن ارتكاب العمل السيىء يأتى له بالمتاعب والخسارة ، يرجع عنه ولو لم يكن مؤمناً باليوم الآخر . أما من يؤمن باليوم الآخر ويعمل عملاً صالحاً فماذا تكون نوعية معاملته ؟ هاهو ذا الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ﴾

(سورة الكهف)

إنه ينال التكريم والتشجيع ، فالتكريم والتشجيع يجب أن ينالهما صاحب الحق فيهما لا المنافق أو المتمسح بالأبواب . هكذا يكون دستور كل متمكن فى الأرض . وهكذا تكون رعاية أوامر الله ونواهيه . وحين أمرنا الحق بتحريم الصيد فى البيت الحرام أو على المحرم ووضع عقوبة لمن أخطأ ، فهو سبحانه وتعالى عادل معنا ، فلا عقوبة إلا بنص ولا تجريم إلا بعد النص ، ولذلك قال سبحانه : « عفا الله عما سلف ومن عاد فينتقم الله منه والله عزيز ذو انتقام » . فسبحانه يعفو عما سلف ، أما من عاد ليرتكب نواهى الله فى هذا المجال فيعاقبه الحق ، فلا يقبل منه هدى

ولا إطعام مساكين ولا صوم ؛ لأن فى تكرار المخالفة إصراراً عليها ، لذلك ينتقم منه الله ، وهو العزيز الذى لا يُغْلَب .

وبعد أن تكلم الحق عن صيد البر وحكمه ، أراد أن يوضح لنا أن ذلك الحكم لا ينسحب على كل صيد . فسبحانه حرم صيد البر إن كنا حرماً ، أو فى دائرة الحرم . ويجىء قول الحق :

﴿ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾

وهذا قول دقيق يبين تحليل صيد البحر وطعامه ، وتحريم صيد البر على المحرم كما حرمّ الصيد فى دائرة الحرم على المحرم وغير المحرم ؛ لأن المسألة ليست رتابة حِلٍ ، ولا رتابة حُرمة ، إنما هى خروج عن مراد النفس إلى مراد الله . وصيد البحر هو ما نأخذه بالحيل ونأكله طرياً ، وطعام البحر هو ما يعد ليكون طعاماً بأن نملحه ولذلك قال : « متاعاً لكم وللسيارة » . ولهذا جاء الحق بطعام البحر معطوفاً على صيد البحر . والشىء لا يعطف على نفسه ، فإذا ما جاء العطف فهو عطف شىء على شىء آخر ؛ فالعطف يقتضى المغايرة .

إذن فالمقيم يأكل السمك الطرى والذى فى سيارة ورحلة فليأخذ السمك ويجففه ويملحه طعاماً له ، مثلما فعل سيدنا موسى مع الحوت . ولكنْ هناك ألوان من الصيد ليست للأكل ، كاللؤلؤ والمرجان والحيوانات التى نستخرجها من البحر لعظامها وأسنانها وخلاف ذلك ، فماذا يكون الموقف ؟ لقد أباح لنا سبحانه الاستمتاع بكل صيد البحر . وجاء هذا التحليل هنا بأسلوب اللف والنشر ، مثلما قال الحق :

﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ ﴾

(من الآية ٧٣ سورة القصص)

وكلنا يعرف أن الليل للراحة والنهار للتعب . والليل يسلم للنهار ، والنهار يسلم لليل . إذن فالمسكن يعود إلى الليل ، وابتغاء الفضل بالكد يعود إلى النهار . إذن فقد جاء الحكم على طريق اللف والنشر المرتب ، وأوضحت من قبل كيف أن الشاعر العربى قد فعل ذلك فقال :

قلبى وجفنى واللسان وخالقى ... راضٍ وباكٍ شاكرٌ وغفورُ

فالقلب راض ، والجفن باكٍ ، واللسان شاكر ، والخالق غفور ، ولكن الشاعر جاء بالأحكام منشورة بعد أن لف الكلمات الأربع الأولى . أى أنه طوى المحكوم عليه مع بعضه ثم نشر الأحكام من بعد ذلك . وفى حياتنا ـ فى أثناء السفر ـ نشترى الهدايا للأبناء ونرتبها حسب ورود الأبناء إلى حياتنا ، أى أننا نلف الهدايا ثم ننشرها من بعد ذلك . وبعد أن حلل الحق صيد البحر جاء بتحريم صيد البر إن كنا حُرُماً ، وذلك تأكيد جديد على تحريم صيد البر فى أثناء الإحرام أو الوجود فى الحرم .

ويذيل الحق الآية بقوله : « واتقوا الله الذى إليه تحشرون » أى اجعلوا بينكم وبين عذاب الله وقاية ؛ لأنكم لستم بقادرين على تحمل عذاب النار ، فالحق ـ كما قلنا من قبل ـ له صفات جمال ، وهى التى تأتى بما ييسر وينفع كالبسط ، والمغفرة والرحمة ، وله سبحانه وتعالى صفات القهر مثل : الجبار وشديد العقاب وغيرها . وكل صفة من صفات الحق لها مطلوب . فعندما يذنب الإنسان فالتجلى فى صفات الله يكون لصفات الجلال ، ومن جنود صفات الجلال النار .

إذن فإياكم أن تظنوا أنكم انفلتم من الله ، فمساحة الحرية الممنوحة لكل إنسان تقع فى المسافة بين قوسين : قوس الميلاد ، وقوس الموت ، فلا أحد يتحكم فى ميلاده أو وفاته . إياك ـ إذن ـ أيها الإنسان أن تقع أسير الغرور ؛ لأنك مختار فيما بين القوسين . ومحكوم بقهرين ، قهر أنه قد خلقك بدءا ، وقهر أنك ستعود إليه ـ سبحانه وتعالى ـ نهاية .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَـٰٓئِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ ﴾

« جعل » تعنى بَيَّن ووضَّح ، فقال:إن الكعبة محرمة ولها كرامة تستحق من المؤمن أن يأمن فيها . أو « جعل » تعنى إيجاد صفات للأشياء بعد أن تكون ذات المادة موجودة ، مثل قوله الحق سبحانه :

﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾

(من الآية ٧ سورة النحل)

أى أنه سبحانه خصص جزءا من خلايا الإنسان ليكون عيناً ، وجزءا آخر ليكون أذناً ، وجزءا ثالثاً ليكون لساناً . والحق هنا يقول : « جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس » . ونعرف أن كل الأسماء للمعنويات مأخوذة من المُحسات .

والكعب هو الشيء الناتىء الخارج عن حد المتساوى . ومثال ذلك الكعب فى القدم يكون مرتفعاً . وكذلك الفتاة نطلق عليها : « طفلة » وهى دون البلوغ ، وعند البلوغ وظهور الثديين نقول إنها : «كَعَاب وكاعب » ، أى أن ثدييها قد صارا مرتفعين ، والكعبة نتوء ، والنتوء ارتفاع ، وهذا الارتفاع هو علامة البيت ، فالبيت هو مساحة من الأرض ، أما الارتفاع فهو يحدد الحجم .

ومثال ذلك عندما نريد حساب مساحة الأرض ؛ نقيس الطول والعرض ، ونضرب الطول فى العرض حتى نحسب المساحة . أما إذا كان هناك ارتفاع فهذا يعنى الانتقال من المساحة إلى الحجم . والحق سبحانه يقول :

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ ﴾

(من الآية ١٢٧ سورة البقرة)

أى أن سيدنا إبراهيم بعمله إنما أراد أن يصنع للبيت ارتفاعاً وحجماً ، وهذا البناء يدل على صناعة حجم لمساحة من الأرض . إذن فالكعبة هى البيت بعد أن صار له ارتفاع . وكلمة « بيت » تعنى المكان الذى أعد للبيتوتة ، فالإنسان يضرب فى الأرض طيلة نهاره وعندما يحب أن يستريح يذهب إلى البيت .

فالله جعل الكعبة بيتاً للناس حتى يستريحوا فيه من عناء حياتهم ومشقة كدحهم لأنه بيت ربهم باختيار ربهم ، لا باختيارهم ، فكل مسجد هو بيت لله ولكن باختيار خلق الله ، أما الكعبة فهى بيت الله باختيار الله ، وهى قبلة لبيوت الله التى قامت باختيار خلق الله .

« جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس » وكلمة « البيت الحرام » تدل على أن له حرمات كثيرة . وجعل الله الكعبة بيتاً حراماً لكل المسلمين قياماً . والقيام هو الوقوف ، والوقوف هو القيام على الأمر . والقائم على أمرٍ ما يحفظ له قوام حياته ووجوده .

وهكذا نفهم أنه سبحانه أراد أن تكون الكعبة هى البيت الحرام ليحفظ على الناس قوام حياتهم ، بالطعام والشراب واستبقاء النسل ودفع الأذى ، وفوق ذلك له سيطرة وسيادة وجاه وتمكين ، ولذلك يعطى الإيمان الحياة الراقية ، فالحياة مسألة يشترك فيها المؤمن والكافر ، وتبدأ بوجود الروح فى المادة فتنتقل المادة إلى حالة الحس والحركة ، والمؤمن هو من يرتقى بحياته فيعطى لها بالإيمان منافع ، ويسلب عنها المضار ، فيأخذ السيادة ، وبذلك تتصل حياته الدنيا بحياته فى الآخرة ، فلا تنتهى منه الحياة أبداً .

لقد جعل الحق سبحانه وتعالى الكعبة البيت الحرام قياماً للناس . . أى قواماً لحياتهم سواءً الحياة الدنيا أو حياة الآخرة ، الحياة المادية التى تنتهى بالموت ، والحياة التى تبدأ بالآخرة . والحق سبحانه يقول عن ذلك :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة الأنفال)

هكذا يكون الإيمان بالله وصلاً لحياتين : الحياة المادية فى الدنيا ، وحياة الآخرة . وأراد الحق بذلك دفع الأذى وجلب النفع والجاه والسيطرة للمؤمنين ، ونعرف أن البيت الحرام هو أول بيت وضع للناس :

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

كذلك نعرف أن إبراهيم عليه السلام هو الذى أقام القواعد من البيت ، أما البيت نفسه فقد أقيم من قبل ذلك . ومادام الحق سبحانه قد قال :

﴿ وُضِعَ لِلنَّاسِ ﴾

(من الآية ٩٦ سورة آل عمران)

فمعنى ذلك أن الله لم يحرم الناس من قبل إبراهيم أن يكون لهم بيت . فالناس معناها البشر من آدم إلى أن تقوم الساعة ، وأقام إبراهيم خليل الرحمن البُعْد الثالث وهو رفع القواعد للبيت الحرام . والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ ﴾

(من الآية ٢٦ سورة الحج)

أى أن الحق سبحانه وتعالى أظهر مكان البيت لإبراهيم عليه السلام ، ونعرف أن إبراهيم أشرك ابنه إسماعيل فى إقامة القواعد من البيت ، ونعلم أن إسماعيل قد جاء إلى هذا المكان رضيعاً مع أمه ، وقال إبراهيم بعد أن رفع القواعد متوجها إلى ربه بالدعاء :

﴿ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة إبراهيم)

لقد عرف إبراهيم مكان البيت وأنه بوادٍ غير ذى زرع ، لا ماء فيه ولا نبات . وجاء الحق بهذه الكناية لنعرف أنه لا حياة بدون زرع ، والماء لازم للزرع . وبذلك يكون إبراهيم عليه السلام قد لبى نداء الله بأن يأتى إلى مكان ليس به أى نعمة تقيم الحياة ، ولا يوجد فيه إلا المنعم ، ولذلك نرى سيدتنا هاجر عليها السلام عندما تتلقى الأمر من إبراهيم بالسكن مع ابنها فى ذلك المكان تناديه : يا إبراهيم إلى من تتركنا ؟ فيقول

لها : إلى الله . تقول : رضيت بالله . هنا تركته سيدتنا هاجر ليمشى كما أراد ، فالله لن يضيعها لا هى ولا ابنها ؛ لأنها قالت : رضيت بالله .

وقص رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ علينا قصتها ، والسعى الذى قامت به بين الصفا والمروة ، وكيف كانت ثقتها فى أن الخالق الأكرم لن يضيعها لا هى ولا ابنها ، بل سيرزقهما ، فتسعى بين الصفا والمروة لعلها تجد طيراً يدلها على موقع للماء ، وتعود إلى المروة لعلها تجد قافلة تسير . إنها تأخذ بالأسباب مع علمها أنها فى صحبة المسبب الأعظم . وسعت سبعة أشواط . وهى الأنثى وفى تلك السن ، وذلك من لهفتها على توفير شربة ماء لطفلها .

السعى ـ كما نعرفه ـ عملية شاقة . ولو أن الله أعطاها الماء على الصفا أو على المروة لما أثبت لها كلمتها : « إن الله لا يضيعنا » . ولكن الحق يعطيها الماء عند قدمى طفلها الرضيع . وبذلك يكون سبحانه قد نبهنا وأرشدنا إلى قضيتين : أما الأولى فإن الإنسان يلزمه أن يسعى على قدر جهده ، وأما الثانية فهى أن السعى لا يعطى بمفرده الثمرة ، ولكن الثمرة يعطيها الله . وجعل الله من السعى بين الصفا والمروة تعليماً لنا بدرس عملى تطبيقى أن نأخذ بالأسباب ولا ننسى المسبب ؛ لأن فتنة الناس تأتى من الغرور بالأسباب .

﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧ ﴾

(سورة العلق)

إنه لا يصح أبداً أن تعزلك الأسباب عن المسبب ، ولا تقل سأبقى مع المسبب إلى أن تأتينى الأسباب ، لا ، كُنْ دائماً مع الأسباب ، وتذكر دائما المسبب . ولذلك نقول : إن الجوارح تعمل ، ولكن القلوب تتوكل . وهذا هو المغزى من عطاء الحق سبحانه الماء لهاجر عند قدمى ابنها ، وبذلك تستجاب دعوة إبراهيم التى دعا بها الله :

﴿ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ۝٣٧ ﴾

(سورة إبراهيم)

لقد دعا إبراهيم عليه السلام بالرزق من الثمرات ، لأن الوادى غير ذى زرع . ولذلك جعل الحق أفئدة الناس تهوى إلى الكعبة وإلى البيت الحرام . يقول ـ سبحانه ـ :

﴿ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا ﴾

(من الآية ٥٧ سورة القصص)

وكلمة « يُجبى » تدلنا على أن الناس لا تأتى بهذه الثمرات اختياراً إلى البيت الحرام الذى جعله الله قياماً لحياة من يوجد فيه ، بل يأتون بالثمرات قهراً .

وهناك أناس لهم مزارع كبيرة وحدائق وفيرة الثمار فى الطائف وفى غيرها من البلاد ، وعندما يريد إنسان الشراء من نِتاج مزارعهم يقولون له : إنه مخصص لمكة فإن أردت شراءه فاذهب إلى مكة .

لقد استجاب الحق لدعاء إبراهيم : (فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم) . و« تهوى » ـ بكسر الواو ـ تدل على السقوط من حالق . . أى من مكان مرتفع شاهق . وكأن الشوق إلى الكعبة يجعل الإنسان مقذوفاً إليها . ولذلك نجد الكَلِف بالحج ـ المحب له والمتعلق به ـ تشتاق روحه إلى الحج .

وعلينا أن نفرق بين « يَهْوَى » . . أى يحب الذهاب ، و« يَهوِى » بكسر الواو أى يذهب بالاندفاع ، فالإنسان إن سقط من مكان عالٍ لا يستطيع أن يقول : سأتوقف عند نقطةٍ ما فى منتصف مسافة السقوط ؛ لأن الذى يقع من مكان لا يقدر على أن يمسك نفسه . ولذلك قال الحق :

﴿ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة إبراهيم)

وهذا دليل على أن الْهُوىَّ ليس من صنعة الجسم ، ولكنه من صنعة الأفئدة . والأفئدة بيد الله ـ سبحانه ـ هو الذى جعلها تهوِى ، والكعبة هى البيت الحرام ، وهى قوام لحياة الناس ، وسبحانه القائل :

﴿ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ﴾

(من الآية ٩٧ سورة آل عمران)

فالداخل إلى الكعبة آمن حتى ولو كان قاتلاً . وكان الرجل يلتقى بقاتل أبيه فى الكعبة فلا يتعرض له ، إذن فقد أعطى الحق لهم من مقومات الحياة الشىء النافع وحجب عن الموجود منهم الضر .

وأما السيادة والجاه فقد عرفنا أن قريشاً سادت العرب وكان رجالها سدنة وخدماً لبيت الله ، والكل يأتى إليهم فلا أحد يتعرض لقوافلهم الذاهبة إلى الشام أو اليمن . وإلا فمن يتعرض لقوافل قريش فإن قريشاً تستطيع الانتقام منه عندما يأتى إليها . وكان ذلك قمة السيادة . إذن فمقوم الحياة إما أن يأتى بنافع كالرزق ، وإما أن يمنع الضار ؛ وذلك بالأمن الذى يصيب كل داخل إليها ، وكذلك بالسيادة التى أخذتها قريش على العرب جميعاً . وأعطى الله المثل لقريش على حمايته للكعبة ، عندما جاء أبرهة ليهدم الكعبة :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴿١﴾ ﴾

(سورة الفيل)

ورد سبحانه كيد أصحاب الفيل ؛ لأنهم لو هدموا الكعبة لضاعت السيادة من قريش ، ولذلك قال الحق وصفاً لذلك :

﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾ ﴾ ﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ﴿٢﴾ ﴾

(الآية ٥ سورة الفيل والآية ١ ، ٢ سورة قريش)

جعل الحق أصحاب الفيل كعصف مأكول أى كتبن أو نحوه أكلته الدواب وألقتهُ رَوْثا ، فعل ـ سبحانه ـ ذلك حتى تألف قريش وتطمئن إلى أن الكعبة لن يمسها سوء ، وإلى أن رحلات الشتاء والصيف مصونة بحكم حاجة كل القبائل إلى الحج . وقال سبحانه :

﴿ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴿٤﴾ ﴾

(سورة قريش)

أى أسبغ عليهم النعمة بالطعام وسلبهم المضرة بالخوف ، وأبقى لهم السيادة والجاه بخدمة الكعبة التى جعلها الله للناس جميعاً قياما وأمنًا ؛ لأن الذين يذهبون إلى حج البيت يُكفر عنهم سبحانه سيئاتهم ويخرجون من الذنوب كيوم ولدتهم أمهاتهم ، وهذا قيام لحياتهم الأخروية أيضاً .

إذن جعل الله البيت الحرام قياماً لكل ألوان الحياة ، والبيت الحرام مكان كما نعلم . وجعل الحق الشهر الحرام أيضاً قياماً للحياة ، والشهر الحرام هو زمان كما نعلم . والشهر الحرام هو أحد الأشهر الحرم الأربعة : شهر منها فرد أى غير متصل بغيره من الأشهر الحرم وهو رجب ـ ولذلك يسمى رجب الفرد ـ وثلاثة سرد أى متتابعة يلى بعضها بعضًا وهى : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم . والمراد بالشهر الحرام هو الجنس لكل شهر من الأشهر الحرم .

ونعلم أن كل حدث من الأحداث يحتاج إلى فاعل . والفاعل يحتاج إلى زمن ليفعل فيه الفعل ، وإلى مكان يفعل فيه ، وإلى سبب يدعو إلى الفعل ، وإلى قدرة تبرز هذا الفعل . ولذلك نذكر جميعاً قول الحق سبحانه :

﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾

(سورة الكهف)

فإياك أن تقول : إنى فاعل ذلك غداً إلا بعد أن تتبعها بقولك : « إن شاء الله » . ولا يمنعنا هذا أن نخطط لمستقبلنا . فمادمنا قد استعنا بالمشيئة ، فلنا أن نخطط لحياتنا . ونقول : « إن شاء الله » لأن عناصر الفعل : فاعل ، ومفعول يقع عليه الفعل ، وزمان ، ومكان ، وسبب ، وقدرة تبرز الفعل . ولا أحد منا يملك واحداً من هذه العناصر ، فأنت أيها الإنسان لا تملك وجود ذاتك غداً ، ولا تملك وجود المفعول غداً ، ولا تملك الزمان ، ولا تملك المكان ، ولا تملك السبب ؛ لأنه من الجائز أن يتغير ، ولا تملك القدرة على الفعل ، فقد تسلب منك القدرة قبل أن تفعل الفعل .

إذن ، فأنت لا تملك من عناصر الفعل شيئاً . فلا تجازف وتقول : أنا أفعل ذلك غداً . بل أسندها إلى من يملك كل العناصر ، وقل : « إن شاء الله » ، وبذلك لا تكون كاذباً .

وهنا فى هذه الآية يوجد عنصران : المكان ، الزمان ، المكان هو البيت الحرام ، والزمان هو الشهر الحرام ، والذى يحدث الفعل فيه نسميه : المفعول فيه ، وهو إما ظرف مكان وإما ظرف زمان . وأراد الحق سبحانه بذلك أن يؤكد ما فيه قيام الناس زمانا ومكانا ، فلو أنه سبحانه لم يفعل ذلك بالنسبة للزمان وهو الأشهر الحرم ، والمكان وهو الحرم ، لاستمرت الحرب بين قبائل العرب إلى ما لا نهاية . ولذلك أراد بالأشهر الحرم أن يعطى للعقل فرصة للتأمل فى أسباب الحرب ، ويعطى كل إنسان من العرب الراحة من القتال . وكان كل عربى فى ذلك الزمن يهتم بالاستعداد للقتال اهتمامه بالطعام والشراب ، فكل منهم تربى على الفروسية والقتال والضرب بالرمح والمبارزة بالسيف .

وحينما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم لينساح بالدعوة فى أرض الله صحب معه الكثير من الرجال الذين لم يكونوا فى حاجة إلى التدريب على أعمال الحرب ، فقد كان كل الناس تقريباً جاهزين للقتال . وكأن الله سبحانه أراد للإسلام أن ينهى الثأر بين القبائل ، وأن يستفيد الإسلام من استعداد كل عربى للقتال . واستفاد الإسلام أيضاً من أن أمة العرب كانت ـ غالباً ـ متبدية ؛ بيت كل إنسان منهم على ظهر البعير ، يشد رحاله ، وينصب خيمته وينام ؛ لأن الناس إنما ارتبطوا بالأوطان عندما بنوا المنازل ، فمن بنى لنفسه بيتاً فى مكان ما فهو يشتاق إلى ما بناه .

وكأن الحق قد أعدهم للانسياح بكلمة الله فى الأرض فلا يحزن لترك مكان إلى مكان آخر ، بل إن الشخص منهم كان يذهب إلى البلاد ويتوطن فيها ليؤصل الوجود الإسلامى . فكان كل واحد منهم نواة الخير للأمم التى انساحوا إليها ؛ فمن ذهب منهم إلى الشام توطن فيها ولم يصعب عليه فراق الجزيرة . وكذلك من ذهب إلى مصر وغيرها من البلدان .

إذن فقد أراد الحق بحرمة الأشهر الحرم والبيت الحرام أن يرتاح العرب من القتال بدلاً من أن تهلك الحربُ الحرثَ والنسلَ ، وأراد الحق ذلك قياماً للناس ، واستبقاءً للنوع .

وكذلك حرم الله : « الهدى والقلائد » والهدى هو الذى يُهْدَى للحرم فيأكله

الناس هناك ، ذلك لأن الحرم موجود بوادٍ غير ذى زرع . والهدى هو البهيمة التى يتطوع بها أى إنسان ويضع حول عنقها قلادة من لِحاء وقشر الشجر أو غير ذلك ، وعندما يرى الناس القلادة يعرفون أن تلك البهيمة مهداة للحرم فلا يقربها أحد حتى صاحبها وإن قرصه وعضه الجوع ، وفى ذلك قيام للناس .

وتتابع الآية : « ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض وأن الله بكل شىء عليم » ، و« ذلك » تشير إلى الأمور التى تقدمت كلها ، و« لتعلموا أن الله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض » أى أنه مدبر لهم ما يحفظ حياتهم فى كل حالٍ من أغيار الحياة ؛ فقد رتب سبحانه لهم حفظ الأرواح ، وحفظهم من الجوع ، وآمنهم ، وحفظ لهم السيادة ، كل ذلك بتدبيره وهو الحكيم . لقد دبر كل شىء أزلاً ، وأتت الأمور على وَفْق ما دبر من خير ومصلحة ، فإذا كان كل ذلك قد فعله سبحانه وتعالى فلأنه الأعلم والأحكم .

وقد حدث كل ذلك بعلمه وحكمته ، ونؤمن أن ما لا نعرفه قد فعله وصنعه ـ أيضاً ـ بهذه الحكمة المطلقة وذلك العلم المطلق . « ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض وأن الله بكل شىء عليم » لقد رتب حياة الناس فى الجزيرة وحول البيت الحرام على الرغم من أنهم قبل الرسالة كانوا يعبدون الأصنام ، ولكنه هداهم بالرسالة المحمدية . ولذلك قال : « اعلموا أن الله شديد العقاب وأن الله غفور رحيم » فسبحانه جعل البيت أمنا وأماناً ، وهذا إخبار شرعى لا إخبار كونى .

والفرق بين الإخبار الكونى والإخبار الشرعى أن الإخبار الكونى لا بد أن يحدث لأنه لا دخل للناس به ، أما الإخبار الشرعى فهو أمر يجب أن يقوم الناس بتنفيذه ، فإن أطاع الناس الخبر القادم من الله جعلوا البيت آمنا ، وإن أساءوا جعلوه غير آمن .

وفى زماننا القريب عندما اعتدى شاب يدعى جهيمان على الحرم ، تساءل الناس : كيف يعتدى إنسان على الحرم وقد أراده الله حرماً آمناً ؟ وقلنا : إن أمر الله بجعل البيت حرماً آمنا هو أمر شرعى ينفذه المؤمنون إن أطاعوا ، وإن لم ينفذوه فهم غير مؤمنين . والمثال على الأمر الشرعى والكونى قوله الحق :

﴿ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ ﴾ (من الآية ٢٦ سورة النور)

إنَّنا نجد فى الحياة خبيثاً يتزوج امرأة طيبة ، ونجد طيباً يتزوج خبيثة . وهذا يثبت لنا أن قوله الحق : « والطيبات للطيبين » هو أمر شرعى بأن نزوج الطيب طيبة مثله ، وهو واجب التنفيذ إن كنا مؤمنين بالمنهج ، أما إن خالفنا المنهج فإننا نزوج الطيب خبيثة والطيبة خبيثاً ، وبذلك يختل التكافؤ فى الأسرة ، وتصير حياة المجتمع جحيماً ، ومن أجل أن نحفظ للمجتمع توازنه علينا أن نزوج الطيب للطيبة وأن نترك الخبيثة للخبيث ، حتى لا تكون حياتنا فى فتنة . وينبهنا سبحانه إلى ضرورة مراعاة أوامره الشرعية فيقول لنا سبحانه :

﴿ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾ ﴾

أى تيقظوا لأحكام الله ، وكونوا طوع ما يريد ، فمن يخالف الله فعليه أن يعرف أنه سبحانه وتعالى شديد العقاب . ومن كان يطيع الله فليعلم أنه سبحانه غفور رحيم . وجاء سبحانه بصفة من صفات الجلال لتتقابل مع صفتين من صفات الجمال ، فصفة : « شديد العقاب » تتقابل مع صفتى : « غفور رحيم » ؛ لأن كل الناس ليسوا أخياراً ، وكل الناس ليسوا أشراراً ؛ لذلك جاء للأخيار بما يناسبهم من المغفرة والرحمة ، وجاء للأشرار بما يناسبهم من شدة العقاب ، وغلبت رحمته ومغفرته غضبه وعقابه ، ونلحظ ذلك من مجىء صفة واحدة من صفات الجلال : (شديد العقاب) ويقابلها صفتان من صفات الجمال وهما : (غفور رحيم) .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾

الرسول هو المبعوث من المرسِل الحق سبحانه إلينا نحن العباد . والحق سبحانه هو الفاعل الأول ، المطلق الذى لا فاعل يزاحمه ، والمفعول الأول بالرسالة هو الرسول صلى الله عليه وسلم ، والمفعول الثانى هو نحن . وهناك فى النحو المفعول معه ، وهناك أيضا المفعول له ، والمفعول فيه ، والمفعول به ، وأيضا يوجد المفعول إليه والمثال على المفعول إليه قوله تعالى :

﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ ﴾

(من الآية ٦٣ سورة النحل)

وفيه أيضا المفعول منه . والمثال على المفعول منه هو قوله الحق :

﴿ وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا ﴾

(من الآية ١٥٥ سورة الأعراف)

و« قومه » هى مفعول منه . لأنه اختار من قومه سبعين رجلا ممن لم يعبدوا العجل ليعتذروا عمن عبد العجل ويسألوا الله أن يكشف عنهم البلاء .

إن مهمة الرسول صلى الله عليه وسلم هى البلاغ (ما على الرسول إلا البلاغ) ، أما تنفيذ البلاغ فهو دور المؤمنين برسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن أدوْها فلهم الجنة ، وإن لم يؤدُّوها فعليهم العقاب . وأراد الحق أن يكون البلاغ من رسوله مصحوبا بالأسوة السلوكية منه صلى الله عليه وسلم ، فالرسول يبلغ وينفذ أمامنا ما بلغ به حتى نتبعه ، ولذلك قال الحق :

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾

(من الآية ٢١ سورة الأحزاب)

وهذا ما ينقض ادعاء الألوهية لبشر . فلو كان هناك إله رسول لقال الناس : كيف نتبع هذا الرسول وله من الصفات والخصائص ما يختلف عنا نحن البشر ؟ إن الرسول لا يستقيم ولا يصح أن يكون إلها لأنه هو الأسوة والقدوة للمرسل إليهم . إنه يصلى ويصوم ويزكى ويحج ويفعل غير ذلك من الأفعال ، ويأمر مَن أرسل إليهم أن يتبعوه فيما يفعل ، فلو كان إلها فإن المرسَل إليهم - وهم البشر - لا يقدرون على أن يفعلوا مثل ما يفعل ؛ لأنه إله وطبيعته تختلف عن طبيعتهم ولذلك لا يستطيعون

التأسى والاقتداء به ، فالأسوة لا تتأتى إلا إذا كان الرسول من جنس المرسل إليهم .. أى يكون بشرا بكل أغيار البشر .

والحق سبحانه قال :

﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾﴾

(سورة الإسراء)

أى أن البشر تساءلوا ـ جهلاً ـ عما يمنع الله ـ سبحانه ـ أن يرسل لهم رسولاً من غير جنس البشر ، ولماذا أرسل لهم رسولاً من جنسهم البشرى ؟ وهنا يأتى الأمر من الله سبحانه :

﴿قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾﴾

(سورة الإسراء)

وبهذا يبلغ الحق رسله ضرورة إبلاغ الناس أن الرسول لهم لا بد من أن يكون من جنس البشر ؛ لأن الملائكة لا يمشون مطمئنين فى الأرض . ولو جاء الرسل من الملائكة لقال البشر : لن نستطيع اتباع ما جاء به الملائكة لأنهم لا يصلحون أسوة لنا ؛ لأنهم من جنس آخر غير جنس البشر ، ثم إن الملائكة من خلق الغيب ، فكيف يبعث الله للبشر هذا الغيب ليكون رسولاً ؟ ولو حدث ذلك فلا بد أن يجعله الحق فى صورة بشرية .

ففى آية أخرى يقول الحق :

﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾﴾

(سورة الأنعام)

إنهم طلبوا أن ينزل الله عليهم مَلكاً ، ولو استجاب الله لهم وأرسل رسوله ملكاً لتجسد المَلَك فى صورة بشرية ، وهم من بعد ذلك قد يستمرون على الكفر ويعاندون ولا يؤمنون ، عندئذ يحق عليهم عذاب الله ويهلكهم . إذن فمهمة الرسول هى البلاغ ولنا فيه الأسوة .

وتتابع الآية : « والله يعلم ما تبدون وما تكتمون » كأنه سبحانه وتعالى يحذرنا من أن نأخذ شكل الإيمان دون أن نؤمن حقيقة ؛ لأن الأمر الشكلى قد يجوز على أجناس البشر أن ينخدعوا فيه ، ولكن الله ينظر إلينا بقيوميته ، فسبحانه لا تأخذه سنة ولا نوم . وفى هذا القول تحدّ للمنافقين من أنه سبحانه سيحاسبهم ، فإن كتم الإنسان الكفر فى قلبه وأظهر الإيمان الشكلى ، فسوف ينال عقاب الله ، وعلى الرسول صلى الله عليه وسلم ومعه جماعة المؤمنين أن يحكموا على ظاهر الأمر وأن يتركوا السرائر لله .

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ينهانا عن أن نحكم بكفر إنسان أعلن الإيمان ولو نفاقاً . وقد أبلغنا صلى الله عليه وسلم أنه بشر ، وعرف أن البشرية محدودة القدرة . ولذلك قال : « إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إلىّ فلعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضى له على نحو ما أسمع ، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هى قطعة من النار فليأخذها أو ليتركها »[1] .

هكذا يحذرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نظن فيه قدرة فوق قدرة البشر . وعندما قتل صحابى رجلاً أعلن الإيمان قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هلا شققت عن بطنه فعلمت ما فى قلبه »[2] .

إذن فنحن لنا الظاهر ، أما السرائر فأمرها موكول إلى الله . ولذلك يقول الله : « والله يعلم ما تبدون وما تكتمون » . ونعلم أن ظاهرة النفاق تعطى للمنافق حقوق المسلم الظاهرة الموقوتة بحياته وزمنه ، ولكن الباقى فى الحياة الأخرى طويل ينال فيه جزاء ما أبطن من كفر . والكتمان غير الإخفاء ، فكتم الشىء يعنى أن الشىء ظاهر الوضوح ولكن صاحبه يكتمه ، أما الإخفاء فهو ما يدور بالخواطر ، ويمكن أن يخفيه الإنسان ، ولكنه مع مرور الوقت لا يستطيع ذلك ، فالشاعر العربى يقول :

وَمَهْمَا تكُنْ عِنْدَ امرىءٍ من خَليقةٍ
وإن خالَها تَخْفَى على الناس تُعْلَمِ

(١) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه .
(٢) رواه مسلم وأبو داود وابن ماجه وأحمد .

ويقال : يكاد المريب أن يقول خذونى .

ومادام الحق يعلم كُلّ ما يبدى البشر وكل ما يكتمون ، وهو شديد العقاب ، وغفور ورحيم ، ويجازى على الحسنة بعشر أمثالها ، ويجازى على السيئة بمثلها ، فماذا علينا أن نفعل ؟ يأتينا القول الفصل فى أمر الله لرسوله أن يخبرنا :

﴿ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾

إذن فالخبيث لا يستوى أبداً مع الطيب ، بدليل أن الإنسان منا إذا ما ذهب لشراء سلعة فهو يفرز البضاعة ليختار الطيب ويبتعد عن الخبيث . وهذه قضية كونية مثلها تماماً مثل عدم تساوى الأعمى والبصير ، وعدم استواء الظلمات والنور . ويأتى الحق إلى المحسات ليأخذ منها ما يوضح لنا الأمر المعنوى . ولذلك يحذرنا أن نغتر بكميات الأشياء ومقدارها ، فإن الطيب القليل هو أربى وأعظم وأفضل من الكثير الخبيث . والأمر الطيب قد يرى الإنسان خيره فى الدنيا ، ومن المؤكد أن خيره فى الآخرة أكثر بكثير مما يتصور أحد ؛ لأن عمر الآخرة لا نهاية له ، أما عمر الدنيا فهو محدود .

وكثير من الناس عندما يحضرون قسمة ما ، فكل واحد يرغب فى أن يأخذ لنفسه النصيب الأكبر ؛ لأن الإنسان تغريه الكثرة . وهذا الطمع يشيع الخبث فى جميع ما يأخذه الطامع ، فالذى يطمع فى حفنة من قمح ـ على سبيل المثال ـ تزيد على حقه ، فهو يفسد حياته بهذا الشىء الخبيث . وذلك كخلط الماء الطاهر بماء نجس فتغلب النجاسة على الماء . إذن فلا يصح أن نحكم على الأشياء بكميتها وقَدْرِها ، ولكن يجب أن نحكم على الأشياء بكيفيتها وصفتها وبعمرها فى الخير .

والمثال الذى لا أمل من تكراره هو التلميذ الذى يكد لمدة عشرين عاماً فهو يتخرج إنساناً له مكانة لائقة ، أما التلميذ الذى يقضى عشرين عاماً فى اللعب واللهو فهو يتلقى وينال مستقبلا فاشلا مؤلما . إذن ، على كل منا أن يقدر النفعية بديمومتها ، ولا يغتر بكثرة الخبيث .

والمثال يتكرر فى حياتنا ولا بد أن نضعه أمام أعيننا لنرعى الله ولا ننساق كما ينساق كثير من الناس إلى هلاكهم ، فبعض الناس لا يرتضون قسمة الله فى مواريثهم ، فيعطى بعضُهم للذكور ولا يعطى للإناث . أو يقلل من نصيب الإناث . ونقول لمن يفعل ذلك : أنت لا تعلم ماذا تفعل . ولو أن ابنك الذكر يعلم أن يد الله فى الأشياء لقال لك : ارحمنى ولا تزدنى ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى قال :

﴿ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ﴾

(من الآية ١١ سورة النساء)

ولذلك يجب أن ينتبه الناس إلى أن قسمة الله هى أعدل قسمة ، وإياك أن تظلم ابناً لك أو قريباً بزيادة فوق ما قدره الله له ؛ لأن هذا عين الظلم . فإن فاتت على المورِّث وهو حى نقول لمن أخذ : احذر ولا تقبل ما هو فوق شرع الله وأَعِدْ ما هو فوق حقك . افعل ذلك برجولة الإيمان . وإياك أن تظن أن الذى سيديم الستر لأولادك هو هذه الزيادة التى ليس لك حق فيها ؛ لأنك بهذه الزيادة ستقطع الأرحام وتغرس بذور الكراهية والبغض .

ولو نظرت إلى هذه المسألة وأقمتها على ما شرعه الله فستجد أن الرزق سيفيض عليك من كل جانب مادمت قد راعيت حق الله فى إرادته التى حكم بها لينشأ الاستطراق الأسرى وتظهر العدالة الربانية ؛ لذلك يجب ألا يجترىء أحد على قسمة الله ؛ لذلك أقول لكل من يقرأ هذه الكلمات ويفكر فى الاجتراء على قسمة الله : تُب إلى الله ولا يصح أن تشوه استقامتك الإيمانية . وإياك أن يظن إنسان أنه كأب يمكنه أن يحتاط لأبنائه . فكثيراً ما رأينا أناساً تركهم أهلهم أغنياء وصاروا فى عوز وفاقة وفقر ، ورأينا أناساً تركهم أهلهم فقراء ، وأفاض الله عليهم من رزقه ، فسبحانه القائل :

﴿ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ ﴾

(سورة النساء)

إذن فعلى المؤمن أن يحذر الكثرة إن كان بها شيء خبيث . ولنا العبرة فى الحكاية التى حدثت مع أبى جعفر المنصور حينما بويع للخلافة ، وذهب الناس يهنئونه بإمارة المؤمنين ، ودخل عليه سيدنا مقاتل بن سليمان وكان أحد الواعظين .

هنا قال أبو جعفر لنفسه : جاء ليعكر علينا صفو يومنا ، سأبدأه قبل أن يبدأنى وقال له : عظنا يا مقاتل . قال مقاتل : أعظك بما رأيت أم بما سمعت ؟

ذلك أن السمع أكثر من الرؤية ، فالرؤية محدودة ومقصورة على ما تدركه العين ، لكن السمع متعدد ؛ لأن الإنسان قد يسمع أيضاً تجارب غيره من البشر .

قال أبو جعفر : تكلم بما رأيت . قال : يا أمير المؤمنين ، مات عمر بن عبدالعزيز وقد ترك أحد عشر ولداً ، وخلف ثمانية عشر ديناراً كُفن منها بخمسة ، واشتروا له قبراً بأربعة ، ثم وزع الباقى على ورثته . ومات هشام بن عبدالملك ، فكان نصيب إحدى زوجاته الأربع ثمانين ألف دينار ، غير الضياع والقصور . كان نصيب الزوجات الأربع هو ثلاثمائة وعشرون ألف دينار ، وهذا هو ثُمن التركة فقط . والله يا أمير المؤمنين لقد رأيت بعينى هاتين فى يوم واحد ولداً من أولاد عمر بن عبدالعزيز يحمل على مائة فرس فى سبيل الله ، وولدا من أولاد هشام بن عبدالملك يسأل الناس فى الطريق .

إذن فعلى كل منا أن يعرف أنه لم يدخل الدنيا بثروة ، وعليه أن يتأدب مع الله ويرعى حق الله ، ولا يتدخل فى قسمة الله .

﴿ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾

(سورة المائدة)

على المسلم ـ إذن ـ أن يستحضر كل ملكاته العقلية حتى يميز الخبيث من الطيب ويرفض الشيء الخبيث ؛ لأننا لو تدبرنا الحكم بعقولنا لوصلنا إلى أن حكم الله هو الحكم الحق العادل .

(لعلكم تفلحون) والفلاح ـ كما نعلم ـ مأخوذ من أمر محس وهو فلح الأرض ، فالإنسان يأخذ حبة قمح ويزرعها فتعطيه سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة . والحق سبحانه يسمى لنا كل عمل الآخرة بالفلاح ؛ لأن الكلمة لها وقعها الجميل ، فإذا كانت الأرض ، وهى مخلوقة من مخلوقات الله بما تحتويه من كل العناصر اللازمة للزرع واللازمة لكل حياة ، هذه الأرض تعطينا لقاء حبة قمح سبع سنابل ، فى كل سنبلة مائة حبة ، فكم يعطيك خالق الأرض ؟ فاتق الله أيها المسلم ولا تتدخل فى قسمة الله ، وضع أمامك هذا التوجيه الحكيم الذى ورد فى الأثر : شرّكم من ترك عياله بخير وأقبل على الله بشرٍّ .

وعلى الأبناء الذين ابتلوا بهذا أن يراجعوا الأمر بنخوة إيمانية ؛ لأن الأب حينما أحب ابناً له وزاد له فى الميراث كان أحمق الحب ، وعلى الابن أن يحترم عاطفة الحب ، وأن يجازى الأب عنها ويرحمه ، فيعيد الأمر إلى نصابه ويعطى كل ذى حق حقه حتى لا يتعرض أبوه لعذاب النار الذى سيناله نتيجة تدخله لصالحه فى قسمة الله .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ﴾

وهذا نهى عن السؤال ، والنبى صلى الله عليه وسلم قال : « ذرونى ما تركتم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم فإذا أمرتكم بشىء فأتوا منه ما استطعتم وإذا نهيتكم عن شىء فدعوه »(١) .

ونعرف أن بنى إسرائيل شددوا على أنفسهم عندما أخذوا يماطلون فى أمر ذبح البقرة ، وتساءلوا عن لونها ، وشددوا فشدد الله عليهم . ولو أنهم ذبحوا أى بقرة لكانت مقبولة منهم ، لكنهم شددوا فشدد الله عليهم حتى جاءت البقرة الموصوفة ملكاً ليتيم، كان هذا اليتيم ابناً لرجل صالح وكانت له عِجْلة فأتى بها موضعا كثير الشجر والمرعى وقال : اللهم إنى استودعتكها لابنى حتى يكبر وعندما ساوموا اليتيم على ثمنها باعها لهم بملء جلدها ذهباً .

وقد شدد بعض الناس فى سؤال رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل عبدالله بن حذافة بن قيس السهمى الذى سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم : من أبى ؟

فأجاب رسول الله : أبوك حذافة . ولو فرضنا أن هذا السائل كان ينسب لغير أبيه ألا يكون فى ذلك فضيحة لأمه وقد قالت له أمه : ما رأيت أعق منك قط ، أكنت تأمن أن تكون أمك قد قارفت ما قارف أهل الجاهلية فتفضحها على رءوس الناس .

لقد أراد الحق أن يخفف من أسئلة الناس فى الأمور التى تؤدى بهم إلى المشقة والتعب وتسىء إليهم وتقبل الحق من رسوله أسئلة المؤمنين عن القواعد الشرعية مثل سؤالهم عن الخمر والأهلة والحيض والشهرالحرام وغيرها . أما الأسئلة الأخرى فقد قال الحق فى شأنها : « عفا الله عنها والله غفور حليم » .

ذلك أن البعض استمرأ السؤال وكأنه يمتحن النبى صلى الله عليه وسلم . ولذلك جاء الأمر بألا يتعمد المؤمنون السؤال عما ستره الله عنهم كى لا ينفضح عرضهم . « وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم » فإن نزل القرآن وهو يحمل الإجابة كان بها . وإن لم تأت الإجابة فلا يقولن أحد : إن النبى ليس عنده جواب . أو هى سؤال عن الأشياء التى اقترحوها ادعاء منهم أنها تثبت صدق النبوة فقد حكى الله عنهم :

(١) رواه مسلم والترمذى والنسائى وابن ماجه وأحمد .

﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

لقد ظهر من هذا القول سوء النية المبيتة منهم ، فالرسول لن يأتى بالآيات ، بل تأتيه الآيات بالأمر المكلف به ؛ لأن الرسول لا يختار ما يُؤْتى به من آيات ، ولكن الحق هو الذى يرسل الآيات المناسبة .

ولذلك يقول الحق :

﴿ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾

والحق لم يرسل هذه الآيات رحمة بمن سألوا الرسول صلى الله عليه وسلم عنها فقد سأل قوم عن ناقة وعقروها فأبادهم الله . وقوم عيسى عليه السلام سألوا عن مائدة ونزلت عليهم وتوعدهم الحق بعدها إن لم يؤمنوا . وكانت سنة الله مع خلقه إن اقترحوا هم آية ولم يصدقوها فإن الحق يهلكهم أو يعذبهم . ويعطى سبحانه أمة محمد صلى الله عليه وسلم ضماناً :

﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾

(من الآية ٣٣ سورة الأنفال)

إذن فالأسئلة التى سألوا عنها لم يجبهم عنها لأنه سبحانه قد عفا عنها . والعفو ـ كما نعلم ـ مأخوذ من عفّى الأثر أى أذهب الأثر . وعفو الله من مغفرته ورحمته .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ۙ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾

وهذه الآية جاءت فى السورة التى أحل الله فيها بهيمة الأنعام ، وحرّم منها ما حرّم . فهو سبحانه الذى خلق الإنسان ، وخلق له ما يستبقى حياته من قوت ، وما يستبقى نوعه بالتزاوج . وإذا كان الحق هو الذى جعل الإنسان خليفة فى الأرض فقد أعدّ له كل هذه المقومات للحياة من قبل آدم عليه السلام ، أعدّ سبحانه لخلقه الأرض والسماء والماء والهواء ، ومما ذخر وخبّأ وأوجد فى الأرض من أقوات لا تنتهى إلى يوم القيامة .

ولنا أن نلتفت إلى فارق مهم بين « الخلق » ، وبين « الجَعْل » . فالخلق شىء ، والجعل شىء آخر . والخلق هو إيجاد من عدم . والجَعْل هو توجيه مخلوق لله إلى مهمته فى الحياة . فخلق الله لا يخلقون شيئاً ، إنما الخلق والإيجاد له سبحانه . وعلينا ـ نحن الخلق ـ أن نخصص كل شىء لمهمته فى حياته التى أرادها الله ، أى أن نترك « الجعل » لله ولا نتدخل فيه ، بمعنى أن الخالق سبحانه وتعالى خلق الخنزير ـ على سبيل المثال ـ ليأكل من القاذورات وليحمى الإنسان من أمراض وأضرار كثيرة ، وعلى الإنسان ـ إذن ـ أن يخصص الخنزير لهذه المهمة فلا يحوّله إلى غير مهمته كأن يأكله مثلا ؛ لأن تحويل مهمة مخلوق لله إلى غير مهمته هو أمر يضر بالإنسان الذى أراده الله سيداً مستخلفاً فى الكون .

وأبلغ سبحانه الناس أنه قد أحل أشياء وحرّم أشياء ، وعلى الإنسان أن يرضخ لما حلله الله فيقبل عليه ، وأن يرضخ بالابتعاد عما حرّم الله . والخالق سبحانه وتعالى هو الذى « خلق » وهو الذى « جعل » وهو القائل :

﴿ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ ﴾

(من الآية٩٧ سورة المائدة)

وهو القائل :

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَـٰتِ وَٱلنُّورَ ﴾

(من الآية ١ سورة الأنعام)

والحق سبحانه وتعالى ينهانا عن أن نجعل له أنداداً :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

(سورة البقرة)

فسبحانه وتعالى موجود وواحد أحد ، فلا يصح أن تجعلوا له أنداداً ؛ لأن ذلك عبث . ويثبت لنا سبحانه أن قضية الفساد فى الأرض تنشأ من تعدى الناس إلى الجعل المخلوق لله فيحولونه إلى غير ما خلقه الله له .

والخَلْقُ فى حياتهم اليومية يحرصون على أن يستخدموا الأشياء فيما هى مخصصة له . ومثال ذلك : أنت تستقبل من صانع الجبن قالباً من جبن . وتستقبل من صانع الصابون قالباً من الصابون ، ثم تجىء بالجبن والصابون إلى المنزل ، فتخبر أهل البيت بأن الجبن للأكل والصابون للغسيل ، ويطيع الجميع هذه التوجيهات . لكن إن استخدم أحد الصابون للأكل والجبن للغسيل يحدث إفساد فى صحة أفراد الأسرة . وكذلك جعل الحق سبحانه وتعالى لنا أبناء من أصلابنا ، فكيف نأخذ أبناء من غير أصلابنا لنجعلهم أبناء لنا ؟ إن هذا خطأ فى الجَعْل .

ولذلك قال الحق :

﴿ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ﴾

(من الآية ٤ سورة الأحزاب)

إنّ الدعىّ هو فى حقيقة أمره من غير صلبك ، وزوجتك ليست أمّاً له ، فكيف تجعله ابنا لك ، وتمكنه من أن يجلس فى حجر امرأة غير أمه ويشب على ذلك وينظر إلى غير محارمه على أن ذلك حلال ومباح له ، إنه بذلك يفقد التمييز بين الحلال والحرام ؛ لذلك فالتبنى إفساد فى الجعل .

إن كل فساد ينشأ فى الكون حينما نجعل مخلوقاً لله فى مهمة غير تلك التى جعلها الله له . والحق سبحانه وتعالى يبلغنا أنه الذى خلق الإنسان ، وخلق له ما يقيته ، وما يحفظ نوعه ، فعلينا أن نتبع ما يأمر به الحق من اتباع ما هو حلال ، والابتعاد عما هو حرام . وإن قال قائل : ولماذا حرّم الله بعض الأشياء التى خلقها ؟ ونقول : إن الذى خلقها جعلها لمهمة غير التى يريد الإنسان أن يوجهها له ، ومثال ذلك تحريم أكل لحم الخنزير .

والإنسان منا إذا ما رأى صورة من معيشة الحيوانات فى الغابة . يتعجب ، ففضلات حيوان هى غذاء لحيوان آخر . وسم الثعبان هو حماية وعلاج . ونعرف أن الإنسان يستخلص سم الثعبان ليستخرج منه علاجاً لبعض الأمراض ولقتل بعض الجراثيم .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾

(سورة يونس)

كيف إذن نجعل من أنفسنا مشرعين نحلل الحرام ونحرم الحلال ؟ إن الله الذى خلق كل شىء لم يمنحنا الإذن بذلك . وعلينا أن نسلم بأن كل شىء مخلوق لمهمة

فلا يصح أن نوجه شيئا إلى غير مهمته . وتوجيه أشياء إلى غير ما جعلت له أنتج آثاراً ضارة ، ومثال ذلك استخدامنا لمبيدات الحشرات فى الحقول ، تلك المبيدات أبادت الضار فى نظرنا ، وأبادت النافع أيضاً . وعلى الإنسان - إذن - أن ينتبه جيداً فلا يساوى بين الحرام والحلال ، وأن ينتبه تماماً فلا يتعدى الجعل المخلوق لله . يقول سبحانه :

﴿ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ۙ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾

(سورة المائدة)

والبحيرة هى الناقة التى تُشق أذنها كعلامة على أنها محرّمة فلا يتعرض لها أحد ، لا تُرد عن مرعى ، ولا تُرد عن ماء ، ولا يُشرب لبنها ، ولا يُركب ظهرها ، ولا يُجز صوفها ؛ لأنهم قالوا : نُتجت خمسة أبطن آخرها ذكر . و« السائبة » وهى الناقة التى يقدمها الرجل إن برىء من مرضه أو قدم من سفره كنذر سائب ، فلا يربطها ، وتأكل كما تريد ، وتشرب ما تريد ، وتنام فى أى مكان ، ولا أحد يتعرض لها أبداً ، وقد سميت « سائبة » بمعنى مأخوذ من الماء السائب . ونعرف أن صفة الماء وطبيعته الأساسية هى الاستطراق ، فإن سقط الماء على قمم الجبال فهو يملأ الوديان أولاً ، ثم يصعد إلى الأعالى ، هكذا يكون استطراق الماء ما لم يتحكم فيه الإنسان بإقامة السدود والمضخات وشبكات توزيع المياه .

والوصيلة هى الناقة التى تصل أخاها ، فالناقة عندما تحمل وتضع المولود ، هنا ينظر أصحاب الناقة إلى جنس المولود ، فإن كان ذكراً أكلوه ، أما إن كان المولود أنثى فهى لهم يستبقونها لأنها وعاء إنجاب لنتاج جديد ويكفى فحل واحد لإخصاب عشرات الإناث . فإن نتجت الناقة فى بطن واحد ذكراً وأنثى فإنهم لا يذبحونهما ويقال : « وصلت الأنثى أخاها » فحرمته علينا .

وفى ريفنا المصرى نجد الأطفال يتمنون أن يأتى وليد الجاموسة أو البقرة ذكراً حتى يأكلوا من لحمه وحتى يشربوا من لبن الجاموسة أو البقرة كما يهوون . ذلك أن الطفل

ينظر إلى مصلحته المباشرة ، أما الكبار فهم يتمنون دائما أن يكون وليد البهيمة أنثى ؛ لأن الأنثى وعاء لنتاج جديد .

والـ« حام » هو الفحل الذى يُحمى ظهره من أن يُركب ، ويتركونه لينطلق كما يريد . وهو الذى لقح عشرة أجيال من الإناث ، أو هو الذى نتجت من صلبه عشرة أبطن . وكان من الضوابط لهذه العملية أن يعرفوا أن حفيد هذا الفحل ـ ابن ابنه ـ يمكنه أن يلقح .

وكل هذه المسائل : البحيرة ، والسائبة ، والوصيلة ، والحام ، هى من اختراعات أهل الكفر الذين يفترون على الله ، فالحق سبحانه وتعالى خلق هذه الأنعام ليستمتع الإنسان بأكلها وشرب لبنها وتسخيرها إلى ما يفيده .

ومعنى « يفترى الكذب » أى أنه يختلق كذباً ويدعيه ليطرأ به على صدق ليخفيه . فالكذب ستر لحقيقة كانت قائمة . والحقيقة القائمة منذ أن خلق الله الخلق أن هذه الأنعام جميعها مسخرة لخدمة الإنسان ، وأبلغ سبحانه آدم بمنهجه ، وكان من المفروض أن يبلغ كل جيل الجيل الذى يليه ، لكن طول الزمن والغفلة هما السببان وراء نسيان الناس لبعض الأحكام ؛ لذلك بعث الله الرسل ليذكروا الناس بالمنهج ، وليزيلوا الكفر عن وعى الناس ، فالكافرون أناس ستروا منهج الله ، وستروا البلاغ عن الله ، وهم بذلك يفترون الكذب على الله .

ومثال ذلك قصة دخول الأصنام إلى الكعبة ، فقد سافر رجل اسمه عمرو بن لُحَىّ إلى بلاد الشام ، فوجد أوثاناً وأصناماً فنقل منها صنما يقال له : « هبل » إلى مكة ، وكان هو أول من أدخل الأصنام إلى مكة . وكما فعل عمرو بن لُحَىّ فعل غيره بوضع قوانين وقواعد لم يأت بها الله ، كالوصيلة والبحيرة والسائبة والحام . وكان ذلك افتراءً على منهج الله وتغييراً لمنهج الحق ، وعلى فرض أنه لا منهج قد وصلهم من الله ، ألم يكن من ضرورة التعقل أن ينظروا فى أمر هذه البدع والضلالات ؟

إن الحق سبحانه وتعالى لم يمنع العقل من أن يصل إلى حقيقة كونية سليمة . ولكن قد يجهد العقل ويتعب بالتجربة الطويلة حتى يصل إلى حقيقة ما . لذلك أراد

سبحانه حماية الناس من شقاء التجارب القاسية فأنزل منهجه ليحدد الحرام من الحلال . قال سبحانه :

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

(سورة التوبة)

ويقول فى موضع آخر من القرآن الكريم :

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ ﴾

(سورة الفتح)

ولقائل أن يقول : لماذا إذن وُجد فى العالم أديان أخرى . كاليهودية والنصرانية ، ولماذا إذن هناك ملاحدة مادام الله قد قرر ألا يوجد مع الإسلام دين آخر ؟

ونقول : أنت لم تفهم مراد الآيتين الكريمتين ، إن الحق سبحانه يقرر مرة أن الدين سيظهر ولو كره المشركون ، ومعنى ذلك أن هناك كافرين ومشركين ، وأهل ديانات أخرى وسيظهر الإسلام عليهم ، ويجعله الله هو السائد بالحجة والبرهان وبشهادة الكافرين والملحدين والوثنيين أنفسهم ؛ لأن أمور الحياة ستتعبهم فى كل قضايا حياتهم ، ولا يجدون حلولاً لهذه المتاعب إلا بأن يذهبوا إلى قضية الإسلام ، لا لأنه إسلام ، ولكن لأن أسلوب وقواعد الإسلام هى التى ستخلصهم من مشكلاتهم ، ولجوؤهم إلى أقضية تتفق مع الإسلام ـ مع كفرهم بالإسلام ـ هو شهادة قوية على أن الإسلام جاء دين الفطرة ، ودين العقل ، وأن الكل سيحتاج إليه قهراً عنه . ومن لم يأخذه ديناً فسيضطر إلى أن يأخذه نظاماً .

وإذا كان الحق سبحانه قد ذيل الآية الكريمة التى نحن بصدد خواطرنا الإيمانية عنها بقوله عز وجل : « وأكثرهم لا يعقلون » فلأنه سبحانه ينبهنا إلى أنهم لو تعقلوا الأمر لما جعلوا البحيرة والسائبة والوصيلة والحام من المحرمات عليهم .

ولنا أن نتساءل : أجعلتم هذه الأشياء حراماً تكريماً لها أم زهداً فيها ؟ . فإن كان هو الزهد ، فمعنى ذلك أنهم أخرجوها عما خلق الله ؛ لأن الله خلقها لنأكل لحمها

وننتفع بها . وإن كان هو التكريم ، فهل من التكريم أن يترك الإنسان الحيوان الذى خدمه دون حماية من ذئب ، ودون طعام يعده له ويتركه يلغ فى أرض الغير ؟ . إن هذا أسلوب يدل على عدم الوفاء للحيوان الذى خدم الإنسان ، ومثل هذا السلوك لا يستبقى حياة هذا الحيوان ، بل يعرضها للخطر ، لهذا يأبى العقل السوىُّ هذا الزهد وذلك التكريم . فإن كان عمرو بن لُحَىٍّ أو غيره قد جاءوا بأشياء وتقاليد لم يجعلها الله ، فعلينا أن نشكر الحق سبحانه لأنه جاء بالإسلام ليعدل من هذه المسائل .

والمدقق للنظر فى آيات القرآن يجدها تمثل برنامجاً مطمْئِناً لحياة الإنسان على الأرض ، وكأنها حاسب آلى يضبط إيقاع حركة الإنسان فى الأرض بدقة تتفوق بكل المقاييس على دقة أى حاسب آلى من صنع البشر ، ذلك المسمى « كمبيوتر » . إن هناك « كمبيوتر » إلهياً يهدى الإنسان من أن يضل أو يُضل ، فالسماء تعدل للإنسان سلوكه إن ذهب بعيداً عن الصراط المستقيم . ولا يقولن إنسان : إنما أنا أتبع ما كان عليه آبائى . لأن الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۚ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾

بل على الإنسان إن يلتفت إلى أن أول تغيير لمنهج الله كان من أحد الآباء الذين أصابتهم الغفلة . وقول الإنسان : إنما أتبع ما كان عليه آبائى ، هو قضية منقوضة ؛ لأن الذى غيّر أول تغيير لم يقل:(حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا) لأنه لم يقلد أباً له ، وأيضا فمن المحتمل أن الآباء لم يعقلوا ما غيروه من منهج الله ولم يهتدوا إلى الحق .

وفى موضع آخر من القرآن الكريم يقول تبارك وتعالى :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾

(سورة البقرة)

إن الآية التى نحن بصدد خواطرنا الإيمانية عنها : (وإذا قيل لهم تعالوا) لم يقل الله فيها اتبعوا ولكن قال : (تعالوا) أى ارتفعوا كأنهم انحطوا وتسفَّلوا بقولهم : (حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا) إنهم بذلك يرفضون وينكرون كل ما يأتى إليهم من غير طريق تقليد الآباء ، فقد قفلوا الطريق وسدوه على أنفسهم .

أما آية سورة البقرة : (بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا) فيحتمل أن يقولوا : ونتبع كذلك ما جاء به الدين ، فالنكير أشد على من قال : (حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا) .

وعلى هذا فالاستدراك من الله فى كل آية من الآيتين جاء مناسبا لحالهم . كيف ذلك ؟ لأن الذى لا يعقل يمكن أن يعلم عن طريق شخص آخر استخرج واستنبط واكتشف ، فإنه إن فاته التعقل لم يفته أن يأخذ العلم من غيره ، أما الذى لا يعلم فقد باء ورجع بالجهل ؛ لأنه لم يصل إلى العلم بنفسه ، وكذلك لم يتعلم من غيره .

وجاء ـ سبحانه وتعالى ـ بهمزة الإنكار لمسألة اتباع الآباء دون منهج الله . ونلحظ أن الحق جاء بعملية الهداية كأمر مشترك فى الآيتين ، ذلك أن الهداية من السماء ، أما التعقل والعلم فهما عمليتان إنسانيتان .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا

فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾

والحق سبحانه قد قال من قبل :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴾

(من الآية ١٠٤ سورة المائدة)

والقولان يدلان على أن هناك فريقين : فريقا يسير على الضلال ، وفريقا يسير على الهداية . وهناك معركة بين الفريقين . فهل تدوم هذه المعركة طويلاً ؟ نعم ستظل هذه المعركة طويلاً ؛ لأن أهل الضلال لا يحبون أن يحب المؤمن لأخيه ما يحب لنفسه ، وكذلك فهم يستفيدون من فساد الكون .

والمؤمن يحب الطاعة ويحاول أن يجعل أخاه المؤمن مُحباً للطاعة ، فإن رآه على مُنكر فإنه ينهاه عنه ويدفعه إلى المعروف ، فالخير حين يكون من الإنسان ينفع سواه ، وقد يتأجل نفعه هو لنفسه إلى الآخرة . وخير المؤمن يفيد المجتمع ويضر أهل الضلال . وصدق المؤمن يفيد المجتمع ويضر أهل الضلال . ونزاهة المؤمن يستفيد منها المجتمع ، وتضر أهل الضلال . أما إن كان المجتمع فاسداً فالمؤمن يشقى بفساد هذا المجتمع .

إذن فمن مصلحة المؤمن أن يعدى الخير منه إلى سواه ، حتى ينتشر الخير ويعود الخير إلى المؤمن من حركة الخير فى المجتمع . ولذلك قال الحق سبحانه : « عليكم أنفسكم » أى الزموا أنفسكم ، وكأن نفوس المؤمنين وحدة واحدة . وهو تعبير عن ضرورة شيوع الرتابة الإيمانية المتبادلة . ومثل هذا الأمر جاء فى التعامل مع أموال السفهاء ؛ لقد قال الحق :

﴿ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ ﴾

(من الآية ٥ سورة النساء)

لأن السفيه لا حق له فى إدارة ماله حتى يرشد ؛ لأن المال فى الواقع هو مال كل المسلمين ، وعليهم إدارته لينتفع به كل المسلمين . وتكون إدارة الأمر أولاً بالنصح ،

فإن لم يرتدع السفيه فليرفع عليه أقرب الناس إليه قضية حجر ، ذلك لأن أى شر ينتج من سلوك السفيه بماله إنما يعود على المجتمع ، وعلى هذا فالمال يظل مال الناس يقومون على إدارته إلى أن يعود السفيه إلى رشده فيعود له حق التصرف فى ماله .

﴿ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ﴾

(من الآية ٦ سورة النساء)

لم يقل الحق إذن : « فادفعوا إليهم أموالكم » ذلك أن الرشيد أصبح مأموناً على ماله ؛ لذلك يعود المال إلى السفيه من فور عودته إلى الرشد . وكذلك قول الحق : « عليكم أنفسكم » أى أنكم يا جماعة المؤمنين كل منكم مسئول عن نفسه وعن بقية النفوس المؤمنة ، ومن الهداية أن نقوّم الذى على فساد . ولا يقولنّ مؤمن : « وأنا مالى » . وتتابع الآية « لا يضركم من ضل إذا اهتديتم » فمادمتم قد حاولتم تقويم الفساد فأنتم قد أديتم ما عليكم فى ضوء قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان »(١) .

ولكن كيف يكون التغيير بالقلب ؟ أى أن يكون تصرف الإنسان المؤمن هو المقاطعة لمن يخرج على منهج الله ، فإن قاطع كلُّ المؤمنين أىَّ خارج على منهج الله فلا بد أن يرتدع ، وعلى المؤمن ألا يقابل منحرفاً أو منحرفة بترحيب أو تعظيم ، فالتغيير بالقلب أن يكون التصرف السلوكى الظاهرى مطابقاً لما فى القلب ، فيحس فاعل المنكر أنه مستهجن من غيره . وقد يستسهل الناس أمور الشر أولاً إذا ما صادفهم من ينافقهم بمجاملات فى غير محلها ، لكن لو استشعر فاعل المنكر أنه مقاطع من جماعة المسلمين وإن لم تضربه على يده ، فلا بد أن يرتدع ، والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾

(من الآية ٦٨ سورة الأنعام)

أى أنك ساعة تعرض عن الذين يخالفون منهج الله ، وساعة يعرض غيرك عنه ، فإن ذلك يؤذيه ، ولا يجعل الناسَ يستشرون فى الشر ويتفاقم ويعظم ضررهم إلا

---

(١) رواه أحمد ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه .

احترام المجتمع لهم . والمثال فى القرى نجد أن الذى يمتلك بندقية ينال احتراماً ومجاملات تجعله يتجبر بسلاحه ، ولو أن الناس أعرضت عنه لضاعت هيبته ولعاد مرة أخرى يسلك السلوك الملتزم . وما المقياس فى أمر التغيير بالقلب ومعاملة فاعل المنكر بعدم مودة ومحبة ؟

نقول : علينا أن نستمع إلى قول النبى صلى الله عليه وسلم حين سئل مرة عن هذه الآية : « عليكم أنفسكم » ، فقال : « بل ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر ، حتى إذا رأيت شحاً مطاعاً وهوى متّبعاً ودنيا مُؤثَرة وإعجاب كل ذى رأى برأيه ، فعليك ـ بخاصة نفسك ـ ودع عنك العوامّ فإن من ورائكم أياماً الصابر فيهن مثل القابض على الجمر ، للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلاً يعملون كعملكم »[1] .

وأنت حين لا تُولى منحرفاً عن منهج الله مودة ، ورحمة ، ومعروفاً تكون قد ألزمت نفسك بالإيجابية .

وإذا سأل المؤمن : وكيف يقاوم الإنسان ؟ . أجاب العلماء : من فرّ من اثنين ، فقد فرّ . ومن فرّ من ثلاثة لم يفرّ . أى أن الإنسان فى القتال إن واجهه شخصان ففِراره هَربٌ من المواجهة . وأما إن فرّ الإنسان وهو يواجه ثلاثة من الأعداء ، فهذه حماية للنفس وليست فِراراً . واستنبط العلماء هذا الحكم من وعد الله بنصر المؤمنين إن كان أعداؤهم مثليهم أى كعددهم مرتين وذلك من قول الحق تعالى :

﴿ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾

(سورة الأنفال)

هى إذن نسبة الرجل إلى الرجلين ، فإن فرّ مؤمن من أمام اثنين فى أثناء القتال فقد خرج عن موعود الله بالنصر له ويسمى فاراً ويبوء ويرجع بغضب الله ويكون مآله جهنم ؛ لأن الله قد قال : (فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين) فقد وعد الله المقاتل المؤمن الصابر بالنصر إذا كان يقابل اثنين من الكفار . لكن إن هرب

---

(١) رواه أبو داود والترمذى .

من مواجهة ثلاثة فقد فعل ما يحمى حياته ؛ لأن الدين لا يدعو إلى الانتحار ؛ لذلك نقول لمن يبغون تغيير المنكرات فى الدنيا : لا ترموا بأنفسكم إلى التهلكة ولا تقاتلوا عدوّاً يغلبكم بكثرته . واتبعوا قول النبى الصادق الأمين على استمرار أمته مادامت تتمسك بمنهج الله .

وتغيير المنكر بالقلب يتمثل ـ كما قلنا ـ فى مقاطعة المنحرف مصداقا لقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم » ونلاحظ أن « على » حرف جر ، والكاف للخطاب ، والميم للجمع ، و« أنفسكم » منصوبة . فعليكم هى « اسم فعل » أى هى ليست اسماً على حقيقته وليست حرفاً على حقيقته ، بل هى حرف دخل على ضمير فأدى مؤدى اسم الفعل ، أو هو اسم فعل منقول من الجار والمجرور .

« عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم » أى الزموها ، وحافظوا عليها ، ومن الهداية أن نعرف كيف نواجه القضايا بالعقيدة الإيمانية ، فينظر المؤمن إلى الكمية العددية للمهتدين ، والكمية العددية للضالين . فإن كانت الكمية العددية مساوية فلتقبل على المواجهة . وإن كانت الكمية الضالة ضعف الكمية المؤمنة فلتُقْبِل الكمية المؤمنة على المواجهة أيضاً . وإن كانت الكمية الضالة أكثر من الضعف فالمؤمن معذور إن حمى نفسه بعدم المواجهة ، ولكن عليه أن يقاطع كل منكر أو فاعلَ المنكر .

كلنا نعرف تماماً أن كل فرد يحب أن تكون له مكانة فى المجتمع . فإن رأى الإنسان أن الصيت و المكانة والذكر الحسن للصادق المستقيم فالإنسان يتجه إلى أن يكون صادقاً مستقيماً . وإن رأى الفرد أن المكانة فى المجتمع تكون للكاذب المنحرف فهو يتجه إلى أن يكون كاذباً منحرفاً ؛ لذلك فعلى المؤمنين ألا يكرّموا إلا من يسير على المنهج الصالح . فقد روى الإمام أحمد قال : قام أبو بكر الصديق رضى الله عنه فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس إنكم تقرأون هذه الآية : (يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم) وإنكم تضعونها على غير موضعها ، وإنى سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : (إنّ الناس إذا رأوْا المنكر ولا يغيرونه يوشك الله ـ عز وجل ـ أن يعمهم بعقابه) .

« لا يضركم من ضل إذا اهتديتم إلى الله مرجعكم جميعاً » ويطمْئِن الحق المؤمنين إلى أنهم إن قابلوا الضرر فى حياتهم فليعلموا أن هذه الحياة ليست هى كل شىء ، بل هناك حياة أخرى نرجع فيها إلى الله ، فمن كان فى جانب الله أعطاه الله خلوداً أبدياً فى النعيم ، ومن كان ضد منهج الله أعطاه الله عذاب الجحيم . وقال الحق ذلك لأن المؤمن لا يضمن نفسه فى كثير من المواقف ، فقد يدخل معركة وفى نيته الإخلاص لكنه قد ينحرف ، فيصيبه الضرر على قدر ما انحرف .

وعلى الذين يسيرون فى ضوء منهج الله دائماً أن يحتفظوا بتلك القضية فى بؤرة شعورهم . ولنا فى رسول الله صلى الله عليه وسلم الأسوة الحسنة حينما كان فى غزوة أحد ، وأمر الرماة ألا يبرحوا أماكنهم وإن رأوا المؤمنين فى انتصار ورأوا الأعداء فى هزيمة . واتجه الرماة إلى الغنائم من فور أن رأوا انتصار المؤمنين ، فلم ينصرهم الله وهم على مخالفة لرسول الله صلى الله عليه وسلم . وبذلك تعلم المؤمنون الدرس : أن يطيعوا الله والرسول فى كل خطوة .

ولو أن الله سبحانه لم يقل : « إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم تعملون » . فماذا يكون موقف الذين لم يشهدوا نصراً لجند الله ، وهم قد دخلوا المعارك الأولى واستشهدوا ؟ . لقد علموا من البداية أن المرجع إلى الله وأنه سيعطيهم حياة أخرى ، وسينبئهم الله بما فعلوا . والإنباء هنا بمعنى الجزاء والتكريم .

وكما ساس الحق حياة المؤمن وهو يتحرك فى الحياة الدنيا ، فإنه سبحانه يسوس حياة المؤمن بما يضمن له الحياة الآخرة فى نعيم الخلد والجنة ، لذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ

فَأَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِۚ تَحۡبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ لَا نَشۡتَرِي بِهِۦ ثَمَنٗا وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ وَلَا نَكۡتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡأٓثِمِينَ ﴿١٠٦﴾

الحق - سبحانه - كما ساس ودبر حياة المؤمن الدنيوية ، دبر وتولى - جل شأنه - حياته الأخروية ليلفته إلى أنه يجب عليه ألا ينظر إلى حياته العاجلة فقط ولكن عليه أن يدبر أمر نفسه فيما يستقبله من أمر الحياة الآخرة ، ففى لحظة مواجهة الموت عليه ألا ينسى الوصية إن كان مديناً لأحد أو كان له دين عند أحد . وكذلك إن سافر الإنسان ضرباً فى الأرض فعليه أن يوصي حتى لا يضيِّع على ورثته حقاً لهم ، أو يسدد ما عليه من دين ليبرىء ذمته ، وأن يُشْهِد على وصيته اثنين من المسلمين ، أما إذا كان الإنسان يصاحب فى السفر أناساً غير مسلمين فعليه أيضاً أن يُشهدهم على الوصية ، ولم يترك الحق لنا فى هذا الأمر أى عذر ، بل لا بد من شهادة اثنين . والشهادة هى الأمر المشهود فى الحاضر ، ومثال ذلك قوله الحق :

﴿ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُ ﴾

(من الآية ١٨٥ سورة البقرة)

أى أن الإنسان إذا حضر الشهر وأدركه فليصم . والشهادة تأتى بمعنى الرؤية مثال ذلك قوله تعالى :

﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖۖ وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ وَلۡيَشۡهَدۡ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢﴾ ﴾

(سورة النور)

أى أن يحضر مشهد الجلد جماعة من المؤمنين . وتأتى الشهادة أيضاً بمعنى الحكم :

﴿ قَالَ هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ فَصَدَقَتۡ

وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾

(سورة يوسف)

إذن فالشهادة تأتى بمعانٍ متعددة . والأصل فيها المشهد ، أى الشىء الذى تشاهده . والوصية ـ كما نعلم ـ هى إيصاء بأمر يهم الموصى بالنسبة للموصى إليه . والمؤمن يوصى بالخير . ويسمعه من لا يرث ، أى الذى ليس له شرعاً نصيب فى التركة ، لكن قد يكون لغير الوارث سبب من أسباب المنفعة مع المورِّث . وعلى الرغم من ذلك فالسامع للوصية يبرىء ذمته فيبلغ ما سمع إلى الورثة ؛ لأن الوصية هى مسألة فى نفس الموصى ، وقد لا يكون لها حيثية عند من يسمعها أو يتلقاها ولكنها ذات حيثية فى نفس الذى يقولها ؛ لذلك يجعل الله الوصية قبل الدين فى قوله الحق :

﴿ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ﴾

(من الآية ١٢ سورة النساء)

إن ذلك يحدث على الرغم من أن الدَّيْن مقدم على الوصية ؛ لأن الدين حق والوصية تبرع . ويريد الحق ذلك ؛ لأن الدين له مُطالِب سيطالب به ، ولكن الموصى إليه قد لا يكون صاحب حق ولكنه يتلقى تبرعاً بالوصية ، أو يكون حقه لدى الموصى غير موثق بصك أو شهادة ؛ لذلك يقدمه الحق سبحانه وتعالى ليجعلنا نهتم بأمر الوصية . أو يكون الذى وصى بشىء قد عاش فى الحياة ويعلم مَنْ مِنَ الناس أثر فى حياته علمياً أو أدبياً أو خلقياً أو اجتماعياً ؛ لذلك يريد الله سبحانه وتعالى ألا يبارح الإنسان الحياة إلا بعد أن يؤدى المؤمن هذا الحق الأريحى لمن كان له عليه يَد فى دنياه . وهذه مسألة قد لا تشغل الورثة ، بل قد يكرهونها . لكن صاحب الوصية هو الذى يعلم حيثياتها .

ولذلك أراد الحق سبحانه وتعالى أن يؤكد أمر الوصية حتى فى الوقت الذى يَعز فيه التأكيد ، فأمر الإنسان أن يوصى بها إن كان بين أهله وقومه ، ويؤكد الحق أهمية الوصية أيضاً إن كان الإنسان مسافراً ، فإن أحس باقتراب الموت فله أن ينادى اثنين من أهل دينه ويوصيهما . وإن لم يجد أحدًا من أهل دينه فليُسْمِع وصيته اثنين من غير أهل دينه ، ولذلك مناسبة :

فقد حدث أن رجلا مسلماً اسمه بديل بن أبى مريم مولى العاص بن وائل السهمى ، كان على سفر مع غير مسلمين وحضرت له مقدمات الموت فكتب ورقة ووضعها مع كل ما معه من متاع ـ احتياطياً ـ ونادى على اثنين من غير المسلمين وهما تميم الدارى وعدىّ بن بدّاء ، وأوصاهما أن يسلما متاعه لأهله ، ومات الرجل . لكنَّ الاثنين فتحا المتاع ووجدا فيه إناءً مفضضاً ومُذَهَّبا وله قيمة ، فأخذاه وباعاه بألف درهم واقتسما المبلغ ، وسلما المتاع لأهل الميت الذين عثروا على الورقة المكتوب فيها كل التفاصيل بما فيها خبر الإناء الثمين . وسأل أهل الميت الشخصين اللذين سلما المتاع عن الإناء فأنكرا أى معرفة به ، وأنكرا أيضا أنهما رأيا صاحب الإناء يبيعه . وبعد فترة عثر أهل الميت على الإناء معروضاً للبيع . وعرفوا أن البيع الأول كان من الشخصين اللذين حضرا موت صاحب الإناء . فذهب أهل الميت إلى رسول الله يعرضون عليه مسألة خيانة الأمانة فى أمر الوصية ، فنزل قوله الحق :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَأَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْءَاثِمِينَ ﴿١٠٦﴾ ﴾

(سورة المائدة)

إنه أمر من الله لرسوله أن يحضر هذان الاثنان من بعد أن يؤديا صلوات دينهما وأن يقسما بالله ، وأن يأتى أهل الميت ومعهم الورقة وليكشف الرسول الحق من الباطل . وقد أسلم تميم الدارى من بعد ذلك وقص القصة وأحضر الخمسمائة درهم التى كانت فى ذمته والتى أخذها ثمنا لنصف الإناء وأحضر الخمسمائة درهم الأخرى التى عند عدى ليردا ثمن الإناء كله إلى أهل الميت .

ولماذا قال الله : « تحبسونهما من بعد الصلاة » ؟ إنه أمر بأن نحتجزهم من بعد الصلاة ؛ لأن الإنسان عادة بعد أن يؤدى الصلاة سواء أكان من أهل الكتاب أم من غيرهم تصفو نفسه بالاستعداد للصدق بعد أن وقف بين يدى الله ، ويكون فى هذه الحالة أقل اجتراءً على الكذب ؛ لذلك يقول الحق سبحانه : « يا أيها الذين آمنوا

شهادة بينكم » . أى الشهادة التى يختلف فيها الناس وتختلف فيها الأقوال بين طرفين ، ذلك أن كلمة « بين » تعنى انفصال كائنين فيصير كل منهما طرفاً .

إن هذه الشهادة تحتاج إلى الفصل بين وجهتى النظر . والذى يقوم بهذا الفصل هو من يستجوب الاثنين اللذين من ذوى العدل من المسلمين أو من غير المسلمين ، ويتم الاستجواب من بعد أداء الصلاة . فإن صار الأمر الذى شهدا فيه واضحاً ، كان بها . وإن لم يكن قولهما واضح الصدق وفيه شك وريبة ، فعلى الشاهدين أن يقسما بالله أنهما لا يشتريان بآيات الله ثمنا حتى لا يكونا من الآثمين .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَـٰنِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَـٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَـٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾

فإن ظهر أن الشاهدين قد حرفا وصية الميت أو أخفيا بالكذب بعضاً من تفاصيلها ، فلنا أن نستدعى اثنين من أقرب الناس للميت فيقسمان بالله أن الشاهدين السابقين قد كذبا فى الشهادة ، وأن هذا الاتهام بالكذب ليس افتراءً ولكنه قائم على الحقيقة ، ولو ظهر أن شهادتهما فيها كذب فهما المستحقان لعقاب من يظلم غيره .

وبذلك يفسح الحق لنا المجال أمام إقامة العدل بأن نستقصى الصدق ، فإن ظهر لنا بدليل ما كذب الشاهدين اللذين حضرا موت صاحب الوصية ، فلنأت بشاهدين

من أولياء الميت بدلا منهما . وكلمة « عثر » تعنى الوقوع على شىء على غير قصد . فإن عرفنا أن الإثم ظاهر من شهادة هذين الشاهدين ، فلنا أن نستقصى الصدق فى شهادة اثنين غيرهما من أهل الميت .

وفى الواقعة التى نزلت فيها الآية ، قام عمرو بن العاص والمطلب بن أبى وداعة السهمى فأقسما بالله أن الشاهدين السابقين قد كذبا وأن الشهادة التى يقدمانها هى شهادة الحق لا اعتداء ولا جور فيها على أصحاب الشهادة الأولى . ولماذا كل ذلك ؟ لأن الهدف هو أن تأتى الشهادة على الوجه الصحيح لها ، فيقول الحق :

﴿ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾

إن الشهود الأُوَل الذين قدموا الشهادة لأنهم حضروا لحظة الوصية عندما قالها الميت يقدمون شهادتهم بعد أن يؤدوا الصلاة وبعد أن يقسموا أن ما يقولونه هو الحق . ولا بد لهم أن يحرصوا على صدق القول بدلاًمن أن يفتضح أمر كذبهم . والشهادة كما نعرف تطلق على أى أمر نحضره . والشهادة ـ كما نعلم ـ تُطلق على متلازمات متعددة يجمعها كلها كلمة « الحضور » كقوله الحق :

﴿ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ ﴾

(الآية ٢٧ وجزء من الآية ٢٨ سورة الحج)

أى أن نداء الحج يسمعه الناس فيأتون من كل مكان وعلى كل وسائل النقل وقد تكون صعبة حتى يشهدوا منافع لهم . وسبحانه وتعالى يقول :

﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾

(من الآية ١٨ سورة آل عمران)

وشهادة الله هى حكم من الله . والملائكة أيضاً تشهد ، وشهادتهم هى شهادة الإقرار . وكل ذلك ناشىء من أمر حاضر يستقرئه الشاهد . ونحن نرى الشاهد يقف أمام المحكمة ، فتسأله النيابة فيقول ما رأى ، ويسأله محامى الخصم فيقول ما رأى ، ويسأله محامى الدفاع فيقول ما رأى . ومادام الشاهد صادقاً فلن يخشى محاورة أى طرف يسأله . والأطراف التى تسأل الشاهد تطلب منه أن يأتى بالواقعة على أساليب مختلفة . ومادامت الواقعة صادقة تظل كما هى مهما تنوعت الأسئلة وتغيرت الأساليب ؛ لأن الشاهد الصادق يستوحى واقعاً لا يتغير ، أما الشاهد الكاذب فهو يلف ويدور ويغير من أقواله . ولهذا نرى وكيل النيابة اللبق الحاذق يبحث فى ذاكرة الشاهد عن أدق الخفايا .

وهكذا نعرف أن الشهادة تطلق على الحضور . أما إذا كان الشاهد هو الذى يملك الحكم فشهادته حكم . ومثال ذلك قول الحق سبحانه : « شهد الله » . إن الله يشهد أى يحكم .

وفى قصة سيدنا يوسف عليه السلام نرى كيف أوقع الحق بإخوة يوسف عندما أخذوا أخا يوسف الصغير معهم فى الرحلة إلى مصر . وكيف دبر يوسف لهم أمراً ليحتجز أخاه معه . وكيف كان الصراع بين إخوة يوسف خوفاً على أبيهم بعد حجز الأخ الصغير . فيقول لهم شقيقهم الأكبر كما أخبر القرآن الكريم :

﴿ ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

(سورة يوسف)

ونعرف أن إخوة يوسف كذبوا فى المرة الأولى عندما فعلوا فعلتهم الشنعاء ضد يوسف لكنهم صدقوا فى المرة الثانية التى احتجز فيها شقيق يوسف . ولذلك طلبوا أن يسأل والدهم إما أهل القرية التى كانوا بها وإما رفاقهم فى القافلة .

لقد أخبروا أن أخاهم قد استخرج من وعائه بعض من أدوات الملك وهو الصواع الذى كان يكال به ولهذا جاءت شهادتهم هذه المرة مطابقة للواقع ، وهو ما أخبروا به .

إذن فالشهادة هى الفيصل فى التنازع . ولذلك يوصى النبى صلى الله عليه وسلم ألا يشهد الرجل على أمرٍ إلا بعد أن يكون قد رآه رأى العين ، كما يرى الشمس : « على مثلها فاشهد أو فدعْ »(١) .

الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ٧٠ ﴾

(سورة آل عمران)

وهكذا نعلم أن الشهادة كلها تدور حول الحضور والشهود . ولهذا تأتى الشهادة فى لوازم متعددة ، فهى مرة تعنى الحضور ، وهى مرة تأتى بمعنى الحكم ، وثالثة بمعنى الإقرار . وكلها معانٍ ملتقية .

والشهادة تتطلب أمرين : الأول هو حضور الشاهد لحظة وقوع المشهود به ، والثانى هو أمانة النقل ، ولذلك جعل الله فى بعض الأحكام شهادة اثنتين من النساء تعدل شهادة رجل واحد . وقد يقول قائل : كيف يساوى الإسلام بين شهادة رجل جاهل أو أمى وشهادة امرأتين قد تكون كل منهما على درجة عالية من الثقافة والعلم ؟

ونقول : إن المسألة فى الشهادة ليست عمل عقلٍ ، ولكنها أمانة نقل ، وأمانة النقل لا شأن لها بالثقافة ، فالشهادة تحتاج إلى حضور الحادثة ، ثم إن المرأة يكون دائما أمرها مبنياً على الستر وعدم التهجم على الرجال . فقد تقع حادثة وتوجد امرأة بجانب هذه الحادثة ، وبطبيعة الحال لن تتجاسر وتتقدم وتسأل لمعرفة كل التفاصيل ، على العكس من الرجل الذى يرى الحادثة ، فيحاول أن يعرف كل

---

(١) رواه الديلمى والطبرانى عن ابن عمر ، قال النجم : أورده الرافعى أن النبى صلى الله عليه وسلم سئل عن الشهادة ؟ فقال للسائل : ترى الشمس ؟ قال : نعم . قال : على مثلها فاشهد أو فدَعْ . وقال الحاكم والبيهقى عن ابن عباس ـ مرفوعا ـ : « إذا علمت مثل الشمس فاشهد وإلا فدَعْ » .

ما جرى . وحين أراد الحق الشهادة من امرأتين ، لم يطلب ذلك لضعف الثقة فى المرأة أو زيادة الثقة فى الرجل ، ولكن لأن الشهادة ليست ابتكار عقل ولكنها حضور مشهد وأمانة نقل .

إن البعض يحاول أن يروج لمثل هذه القضايا وكأنها وسيلة للتهجم على بعض من الداعين لله ، ولذلك أقول لهم : يجب أن يفهم الإنسان منكم الفارق بين عداوته مع بعض الداعين إلى الله وأن يتعدى حدوده إلى أن يحاد الله ؛ لأن الإنسان منهم لا يرد الحكم على الداعية ، وإنما يرد الحكم على الله .

وأمر الحق سبحانه فى شهادة اثنين من الرجال أن يؤديا الصلاة ، ثم يتم حبسهما لفترة ، وبعد ذلك يتم استدعاؤهما للشهادة ، فإن رد أهل الميت شهادتهما فى أمر الوصية فيتم استدعاء اثنين من أولياء الميت لأداء الشهادة فى شأن الوصية ، كل ذلك لماذا ؟ من أجل أن تأتى الشهادة على وجهها الصحيح الذى يُظهر كلَّ الحقيقة .

ويذيل الحق القول الكريم : « واتقوا الله واسمعوا والله لا يهدى القوم الفاسقين » وذلك بلاغ للمؤمنين كافة وإلى الناس عامة ؛ لأن الله لا يهدى إلا من تطامن إلى منهج الله ، أما من يفسق فلن يعينه الله ، ذلك أن الله لا يعين كافراً ولاظالماً ولا فاسقاً . أما من آمن بالله ، فالحق سبحانه وتعالى يعينه على هذا المنهج ويهديه إلى الصراط المستقيم .

ولماذا أنزل الله هذه الآيات بعد أن أجرى الأحداث التى تتطلبها ؟نعرف أن الحكم إن نزل فى ظرف يتطلبه ، تكون النفس إليه أشوق وبه أعلق ، مثال ذلك : كوب الماء الذى يتناوله العطشان ، إنه يتناوله بشوق ولهفة . عكس الإنسان الذى يتناول كوب الماء وهو غير عطشان ، فقد يضعه فى مكان قريب منه دون أن يشربه ، وكذلك الدواء الذى يُؤتى به للمريض لحظة معاناته القصوى من المرض ، إنه يقبل عليه بلهفة مهما كان مر الطعم ، وهكذا جاءت بعض أحكام القرآن مناسبة لأحداث وقعت لتكون اللهفة على التطبيق موجودة فى النفوس المؤمنة .

ويقول الحق تعالى من بعد ذلك :

﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾ ﴾

وينبهنا الحق سبحانه هنا إلى ضرورة أن نستعد لليوم الذى يجمع الله فيه الرسل يوم الحساب ، أى أننا علينا أن نراعى الالتزام فى تكاليف المكلف الأعلى فى كل عمل من أعمال الحياة ؛ لأنه سبحانه سوف يسأل الرسل فى ذلك اليوم : « ماذا أُجِبتم » ؟ أى كيف استجاب الناس إلى المنهج الذى دعوتم إليه ؟ وفى هذا تقريع لمن خالف الرسل . ونعلم أن الحق سبحانه وتعالى قد قال :

﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ ﴾

(سورة النساء)

ونعلم ـ كذلك ـ أن يوم المشهد الأعظم سيأتى رسولنا ـ صلى الله عليه وسلم ـ شهيداً على أمته وعلى كل الرسل السابقين عليه ، ومثال ذلك فى حياتنا ـ ولله المثل الأعلى ـ نجد الأهل ينتظرون الابن على باب لجنة الامتحان ويسألونه : كيف أجبت ؟ .

إن الأهل يطلبون من الابن أن يعطيهم تقدير الموقف إجمالياً . أما إن سألوه بماذا أجبت ؟ فمعنى هذا أنهم يطلبون منه أن يحكى لهم ماذا أجاب تفصيلياً عن كل سؤال . وسؤال الحق لرسله : « ماذا أجبتم » فى الظاهر هذا سؤال للرسل ، وفى الحق إنه للمخالفين ، وكأن هذا تقريع لمن لم يؤمنوا برسالات الرسل ، ذلك أن مهمة الرسل هى البلاغ عن الله .

وبماذا يجيب الرسل يومئذ عن الله ؟ هم يجيبون الإجابة الدقيقة المتضمنة لكل أدب الإيمان : « لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب » ونجد من يتساءل : كيف ـ إذن ـ يقولون : « لا علم لنا » على الرغم من أن هناك من استجاب لدعوتهم ومن لم يستجب لها ؟ ونقول : لأن الآخرة فيها حساب على نوايا القلوب والسرائر ، لقد علم الرسل بالأمور العلنية من أقوال وسلوك ، ولكن الحق يحاسب على حسب النية

والسلوك ، وهو سبحانه الأعلم بالسرائر وما تخفى الضمائر ، وأيضا فالأنبياء قد علموا الذين آمنوا بالمنهج وكانوا معاصرين لهم ، ولكن ليس لهم علم بمن كفر أو آمن بعد أزمنتهم ، وإجابة الرسل هى قمة الأدب مع الله ، ذلك لأن كلا منهم قد علم أن معرفة الله شاملة وعلمه قد وسع كل شيء ، ولذلك جاء قولهم : « إنك أنت علام الغيوب » .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾ ﴾

لماذا إذن يجمع الله كل الرسل ويسألهم سؤالاً على الإجمال ، ثم لماذا يأتى بعيسى ابن مريم ليسأله سؤالاً خاصاً عن حادثة مخصوصة ؟

أزاد الحق بذلك أن يعلمنا أنه سيسأل الرسل سؤالاً يوضح لنا أدب الرسل مع الحق ، ويبين لنا تقريع الحق لمن كفروا بالمنهج ، أما سؤاله سبحانه وتعالى لعيسى ابن مريم ، ذلك السؤال الخاص عن الحادثة المخصوصة ، فمرد ذلك إلى أن بعض الذين آمنوا به قد وضعوه فى موضع الألوهية أو بنوّة الألوهية ، وفى ذلك تعدٍ على التنزيه المطلق للحق سبحانه وتعالى . ونعلم أن قصارى ما صنعت الأمم السابقة أن بعضهم كفر بالرسل ، وبعضهم كذب الرسل ، لكن لم يدع أحد من هذه الأمم أن الرسول الذى جاء هو إله ، لم يقل ذلك أحد وإن كان بعض فرق اليهود قد قالوا : إن عزيرا هو ابن الله وهذه الفرقة قد انقرضت ولم يبق يهودى يقول ذلك ، وسبحانه قد جعل الشرك به قمة الكفر الذى لا غفران له .

(من الآية ٤٨ سورة النساء)

فكأن عيسى عليه السلام سيواجه السؤال ضمن الرسل ، ثم يسأله الحق سؤالاً خاصاً به . ويقدم الحق السؤال لعيسى ابن مريم بعد أن ذكّره بعدد من النعم التى أنعم بها سبحانه وتعالى عليه وعلى أمه مريم عليه وعليها السلام :

﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾ ﴾

(سورة المائدة)

ونجد هنا أن الحق سبحانه وتعالى يعدد بعضاً من نعمه على سيدنا عيسى وهى : التأييد بروح القدس وهو سيدنا جبريل عليه السلام ، والكلام فى المهد بما يبرىء أم عيسى السيدة مريم عليها السلام مما ألصقوه بها من اتهامات ، وتعليم الحق له

الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل . وأنه سبحانه قد أقدره على أن يصنع من الطين كصورة الطير بإذن منه سبحانه وأن ينفخ فيه فيصير طيراً بإذنه سبحانه ، وكذلك أقدره الحق سبحانه أن يبرىء الأعمى من العمى . وأن يعيد إلى الأبرص لون جلده الطبيعى ويشفيه ، وأجرى على يديه تجربة إعادة الموتى إلى الحياة بإذن منه سبحانه ، وكذلك منع الحق عن عيسى ابن مريم كيد اليهود وكف أيدى الذين أرادوا صلبه وقتله على الرغم من أنه جاء لهم بالمعجزات السابقة حتى يؤمنوا فآمن بعض منهم وكفر الذى قال : عن تلك المعجزات : إنها مجرد سحر .

وعندما نتأمل بالخواطر أمراً واحداً من تلك الأمور نجد أن قدرة الحق سبحانه وتعالى لها تمام الوضوح الظاهر ، فمجرد كلام عيسى فى المهد هو معجزة ، والمهد - كما نعلم - هو الفراش المريح للطفل يعده له الأهل ساعة أن يولد ؛ لأن الطفل لا قدرة له على أن يتزحزح من مكانه إن كان هناك شىء بارز فى مهده يضايقه ؛ لأن الطفل يملك الحس ولكن لا قدرة له على مدافعة ما يتطلبه الحس .

إن الطفل المولود لا يستطيع مثلا أن يمد يده ليزيل الحصوة الناتئة من الأرض تحت المهد لذا يمهدون فراشه ويوطئونه له . إنه مجرد روح فى جسد صغير لا حول ولا قوة له إلا استبقاء الحياة بالتعلق بثدى الأم ، فإن تكلم طفل فى المهد ، فمعنى ذلك أنه امتلك إرادة يسيطر بها على كل جسمه إلى الدرجة التى يمكنه أن ينطق بها الكلام ، وهذا لا يحدث أبداً . ونجد الأهل يمهدون الفراش للطفل ، لأنهم يعلمون أن أقصى تعبير عن الانفعال هو أن يبكى . وإذا ما تمكنت حشرة صغيرة من لدغ الطفل كالبرغوث أو البعوضة فالطفل لا يملك إلا البكاء .

وقد تكلم عيسى فى المهد بعد أن أقدره الحق على ذلك . ثم جاء الحق بحقيقة هى المقابل للمهد وهى الكلام فى الكهولة . فإن كان قد تكلم فى المهد إعجازاً ليبرىء أمه البتول فإنه سوف يتكلم كهلاً مبلغاً عن الله . ولم يتكلم عيسى ابن مريم وهو فى المهد إلا بما قاله الحق فى القرآن الكريم :

﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا

﴿ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾

(سورة مريم)

قال عيسى عليه السلام فى المهد هذه الكلمات ليبرىء أمه الصدِّيقة ، ذلك أنهم اتهموها فى أعز شيء لديها ، ولذلك لم يكن ليجدى أى كلام منها . وإنقاذاً لها أبلغها الحق عن طريق جبريل أو عيسى عليهما السلام أن تقول :

﴿ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴾

(من الآية ٢٦ سورة مريم)

وسبحانه وتعالى يعلم أن ميلاد عيسى من أم لم يمسسها رجل هو خرق لناموس الكون فى الحمل ، وكذلك أراد الحق أن يكون هناك خرق للناموس فى الكلام فيتكلم عيسى فى المهد بكلام معجز له معنى . وعلمه الحق الكتاب : « وإذ علمتك الكتاب » أى علمه الله الكتابة ، وعلمه التوراة ، وأنزل عليه الإنجيل ، وألهمه الحكمة وهى الكلام المحكم الصواب بإلهامات الله ومقابلها فى الإسلام أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم .

وجاءت دقة الأداء القرآنى لتمنع أى تصور لتدخلٍ من ذات عيسى فيما أجراه الله على يديه وذلك منعاً للفتنة فقال الحق : « وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير » إذن فعيسى لا يخلق الطير ولكن يصنع من الطين مثل هيئة الطير ، فالحق وحده هو الذى يخلق الطير ؛ فلأنه الإله فهو الذى يخلق خلقاً عاماً ، أما البشر فبإمكانهم أن يخلقوا أشياء ويشكلوها كمثل المخلوقات ، لكنها ليست مخلوقات .

إننا نرى ذلك فى التماثيل التى ينحتها المثَّال من الصخر أو يشكلها من الطين كهيئة الجمل أو العصفور ، لكنه لا يملك أن ينفخ فيه الروح ، وقد يخترع الإنسان أشياء مثل الكوب من الرمل المصهور المنقى ، لكننا لم نسمع عن خلق كوب ذكر وكوب أنثى ليتوالد من الإثنين نسل من الأكواب !

إننا نرى دائماً أن خلق الإنسان لشيء إنما يظل معقوداً على حاله فلا ينسل ولا ينمو ولا يحس ، والخالق الأعظم يخلق من عدم ، أما أنت أيها الإنسان فتصنع أشياء مما

وهبك الله من أشياء موجودة مطمورة فى الأرض أو ظاهرة . ولم يضن سبحانه عليك بل أطلق عليك بأنك خلقت ، ولكن لتنتبه إلى أنه سبحانه وتعالى أحسن الخالقين .

إذن فعيسى صَنَع من الطين مثل هيئة الطير ، وكان ذلك بإذن من الله ، ونفخ فيه فكان طيرا بإذن الله.والفارق بين قدرة الحادث وهو العبد ، وقدرة الباقى القدير وهو الرب أمران . الأول : أن الحق سبحانه وتعالى حينما يقدر أمرا فهو يستطيعه بطلاقة قدرته أن يُقدر بعضًا من خلقه على أن يفعل الشيء ، لكن العبد لا يستطيع أن يقدر عبداً آخر أن يصنع شيئاً مثل الذى يصنعه .

والمثال على ذلك : نجد الطفل إن أراد أن يحمل كرسياً فهو لا يقدر ، ويأتى شاب قوى ليحملَ الكرسى للطفل ، هذا الشاب إنما يعدى أثر قوته إلى الطفل ولم يُعَدِّ لَهُ قوته ولم ينقلها له ، ويبقى الطفل ضعيفا كما هو ، أما الحق سبحانه وتعالى فهو يُقْدِرُ من يريد على ما يريد . فبعظمته سبحانه يعدى من قدرته إلى من لا يقدر لِيَقْدر . والعظمة إذن فيما فعل المسيح هى أن الحق سبحانه أراد له أن يحيى فنفخ فى الطين فصار طيراً بإذن الله . وقدْ سبق سيدنا إبراهيم سيدنا عيسى فى ذلك عندما سأل الله :

﴿ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾

(من الآية ٢٦٠ سورة البقرة)

فسأله الله :

﴿ أَوَلَمْ تُؤْمِن ﴾

(من الآية ٢٦٠ سورة البقرة)

فقال إبراهيم : « بلى » أى أنه آمن ، وأضاف :

﴿ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾

(من الآية ٢٦٠ سورة البقرة)

والكلام هنا جهته منفكة ، فإبراهيم قد آمن ، والإيمان اطمئنان القلب إلى عقيدة ما ، وما جرى زاد إبراهيم تيقناً . ولم يسأل إبراهيم ربه : أتحيى الموتى ولكن إبراهيم أقر أولاً بقدرة الحق على الإحياء وتساءل عن الكيفية . وطلب الكيفية لا شأن له

بالإيمان ؛ لأن الكيفية تتطلب تجربة . فأمره الحق أن يأتى بأربعة من الطير وضمها إليه ليتعرف عليها جيداً . وأن يقطعها إبراهيم بيديه ويضع كل قطعة على جبل ويناديها ، فتأتى القطع بنداء إبراهيم وقد صارت هى الطير نَفْسَهَا التى كانت من قبل .

وهكذا أراد الله لعيسى عليه السلام أن يصنع من الطين مثل هيئة الطير بإذن الله وأن ينفخ فيها بإذن الله فيصير الطين طيراً . وأراد الله لعيسى أن يبرىء الأكمه أى الذى ولد أعمى . وقد يقول قائل : إن فى عصرنا يتم ترقيع القرنية ويمكن أن يَرَى ويبصر بعض من الذين ولدوا بلا قدرة على الإبصار . ونقول : إن ما يحدث فى عصرنا هو سبق وتقدم علم بناء على تجارب ، أما ما حدث مع عيسى فكان خرقاً للناموس وأراده الله معجزة . وكذلك أراد الله أن يجرى على عيسى شفاء الأبرص أى الذى أصابه بياض كالرقع فى بشرته . وكذلك كف بنى إسرائيل عنه عندما أرادوا إيذاءه وقتله . وعندما رأوا كل ذلك آمن بعضهم ، وكفر البعض واتهموا عيسى عليه السلام بأنه ساحر . وكان ذلك منهم كذبا وافتراء عليه ؛ لأنه نبى مرسل بمعجزات واضحة .

وفى هذه الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها نجد الحق سبحانه وتعالى يسرد نعمه على سيدنا عيسى عليه السلام . وسرد النعمة على الرسول ليس المقصود منه تنبيه الرسول إلى النعمة ، فالرسول يعلم النعم جيداً لأنها جرت عليه ، ولكنه تقريع لمن رأى هذه الأحداث والنعم ولم يلتزم الإيمان بالله بعدها ، وقد أجرى سبحانه كل هذه النعم على عيسى عليه السلام وأيده الله بما يقوى ويزكى رسالته إلى قومه . فكانت نعمة أولاً عليه ، لأنه مصطفى ، مختار ، مؤيد . ونلحظ أن هذه الآيات والنعم تنقسم إلى قسمين : قسم يقنع أصحاب العقول والألباب والفكر والمواجيد النفسية . وقسم يقنع القوم الماديين الذين لا يؤمنون بملكوت الله فى غيب الله . والقسم الأول الذى يقنع أصحاب العقول والألباب هو تعليم الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل .

والقسم الثانى الذى يقنع الماديين هو الأمور المادية الحسية التى يتعرف من يراها على أنها لا يمكن أن تجرى على يد بشر ، كأن يخلق من الطين كهيئة الطير ثم ينفخ فيه

فيكون طيراً ، وإحياء الموتى ، وإبراء الأكمه والأبرص . وهذه الآيات خرق للناموس المادى ، ولذلك يتبع الحق كل واحدة منها بذكر كلمة : « بإذنى » أى أن هذه المعجزات لم تكن لتحدث لو لم يأذن بها الله . ولم يذكر الحق ذلك بالنسبة للآيات الأخرى لأنها أمر ظاهر ومعروف ، حتى يكون الأمر واضحاً أمام كل إنسان ممن يحبون عيسى ويرتفعون به إلى مقام أعلى من مقام النبوة المؤيدة ممن أرسله . وحتى لا يخدع قوم عيسى فى هذه الآيات ويظنوها مزية مطلقة له ، ولكنها مجرد آيات معجزات لإثبات صدق الرسالة عن الله .

إن عيسى عليه السلام حينما أخذ كل قطعة من الطين ليصور منها طيراً وينفخ فيها فتكون طيراً لم يفعل ذلك بقدرته وإرادته ، وإنما حدث ذلك بإذن من الله ، ولم يحترف عيسى تلك المسألة ، وكذلك كان إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله ، وكل ذلك خرق لناموس المادة ، لذلك كرر الحق القول بأن هذا الخرق كان بإذن منه سبحانه حتى نعرف أن عيسى لم يأخذ من قدرة الله طلاقة له بل انحصر الأمر فى هذه المسائل التى أذن الله فيها فقط .

إننا نجد أن كل خرق لناموس الغيب عند الأنبياء أو الأولياء ، أو من يعطيهم الله هذه الإشراقية ، هذا الخرق إنما هو لتكريم النبى أو الولى أو الذى تشرق عليه فيوضات الله ، وعلينا أن نعرف أن الله لم يعط إنساناً واحداً القدرة على العلم بالغيب مطلقاً ، إنما يطلع الحق بعضاً من خلقه بهبة من تجلياته على شىء جزئى . فالحق سبحانه وتعالى هو مالك الغيب :

﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ﴾

(من الآية ٥٩ سورة الأنعام)

ولم نر إنساناً علاماً للغيب ولكن يُعْلِمُهُ الله بغيب من بعض غيبه ، حتى نعلم أنها أحداث وقتية يتجلى الله فيها بفضله ، ليثبت حالة من الحالات ، ثم يظل الإنسان مع الناموس العام فى كون الله . والناموس الكونى هو الأمور والقوانين التى أطلقها الله فى الكون لتعمل لخدمة المؤمن والكافر والطائع والعاصى . ومثال ذلك شروق الشمس وغروبها ، وحركة السحاب حاملاً المطر ، ووجود الأرض بعناصرها القابلة للزراعة . وخرق الناموس يكون بإذن من الله للرسل والأنبياء والأولياء ؛ إننا نجد

كل ذلك آيات من الحق لإثبات صدق الرسول فى البلاغ عنه ، وهذا الإثبات مشروط بشروط : أولها أن يكون النبوغ قد بلغ درجة قصوى فى هذا المجال الذى تحدث فيه تلك المعجزة ، والمثال على ذلك : خرق الحق سبحانه لناموس العصا وهى فرع من شجرة وجعل موسى عليه السلام يلقيها فإذا هى حية تسعى . وما أجراه الله على عصا موسى لم يكن سحراً ولكنه نقلها من جنس إلى جنس فى عصر نبغ فيه الناس فى السحر ، ونعلم أن موسى أنس إلى ربه فقال وأطنب وأسهب وأطال :

﴿ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى ﴾

(من الآية ١٨ سورة طه)

وعرف موسى من بعد مقام الأنس والانجذاب مقامَ الخشية فأوجز قائلاً :

﴿ وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴾

(من الآية ١٨ سورة طه)

لقد عرف موسى عليه السلام أنه يخاطب مولاه فأطال الأنس ، به وعرف أيضاً مراعاة المقامات وانتقل من الانجذاب والأنس إلى مقام الرهبة فقال : (ولى فيها مآرب أخرى) .

وجاء الأمر بإلقاء العصا :

﴿ أَلْقِهَا يَـٰمُوسَىٰ ﴾

(من الآية ١٩ سورة طه)

وهنا خرجت العصا عن ناموسها الذى يعلمه موسى عليه السلام فلم تعد للتوكؤ والهش على الغنم ، ولكنها تنتقل من جنس الخشب إلى جنس الحيوان فتصير حيّة :

﴿ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ ﴾

(سورة طه)

ولذلك كان لا بد أن تُدهش المسألةُ موسى عليه السلام ، لذلك أوجس خيفة . ولكن موسى عندما عرف سرّ عصاه لم يوجس خيفة بل تحدى السحرة الذين جاء بهم فرعون فى يوم الزينة ، وعرف موسى أنه ليس بساحر مثلهم ولكن الله أتاه معجزة

ستبهر حتى السحرة ، فالسحرة يعلمون أن عملهم تخييل وليس تغييراً للأشياء ، أما الحق فهو يغير الأشياء نفسها . لقد جاء السحرة بناء على أمر فرعون إلى يوم الزينة ، ويعلمنا القرآن بلمحات جانبية أن نظام السخرة كان موجوداً ، ولذلك طالب السحرة بأجرهم إن هم غلبوا موسى :

﴿ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴾

(من الآية ١١٣ سورة الأعراف)

وعلى الرغم من اختلاف مواهب هؤلاء السحرة ورقى كل منهم فى فرع من فروع السحر ، إلا أنهم جميعاً سجدوا للحقيقة عندما ألقى موسى عصاه وقالوا :

﴿ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾

(سورة الشعراء)

وهكذا عرفوا أن ما فعله موسى ليس قدرة بشرية ولكنه قدرة فوق قدرة البشر . إنها المعجزة التى يجريها الله على يد الرسل لإثبات صدقهم فى إدعائهم أنهم رسل من الله . وكذلك نبغ قوم عيسى عليه السلام فى الطب . ولم يجرؤ أحدهم على أن يشفى بكلمة واحدة الأكمه والأبرص أو أن يخرج الميت من موته إلى الحياة . وعلى الرغم من تقدمهم فى الطب لم يستطع أحدهم أن يفعل ذلك . والحق سبحانه يسهل المعجزات على رسله ، والمثال فى الإسلام هو الإسراء برسولنا ونبينا صلى الله عليه وسلم ، وحَدَثَ الإسراء فى لمح البصر ، ونحن فى زماننا نرى التقدم الآلى والفنى قد اخترع الصواريخ التى يمكن أن تختصر الوقت لمثل الرحلة من مكة إلى القدس ولكنها تمت بوساطة آلة تعمل وبأجهزة أعدت بنظام دقيق بعد تجارب مضنية ، ولكن الحق عندما أراد لم يكن الأمر سوى كلمة منه تصير معجزة فى التو واللحظة . ولنحفظ ذلك جيداً : إن المعجزة خرق اقتدار لا سبق ابتكار أى أنها خرق لنواميس الكون حادث من اقتدار المقتدر ـ سبحانه ـ ولم يحدث ذلك من ابتكار واختراع واكتشاف مكتشف .

ويُسلّى سبحانه عيسى عليه السلام بذكر هذه البينات ، لكنَّ الكافرين من قوم عيسى عليه السلام قالوا إنها سحر : « فقال الذين كفروا منهم إن هذا إلا سحر مبين » . ونعلم أن الحق خلق الخلق وجعل الإيمان أمراً فطرياً فيهم ، ثم تأتى الغفلة فتبهت جزئية من جزئيات الإيمان ، وتتلوها غفلة أخرى فتبهت جزئية أخرى ، وتأتى غفلة ثالثة فتصير إلى الران وهو ما يغطى القلب فلا تنفذ إليه الهداية ، وذلك بسبب

ما كسبوا وفعلوا من الذنوب : « كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون » .

ولنستمع إلى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذى رواه حذيفة :

« حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثين قد رأيت أحدهما وأنا أنتظر الآخر . حدثنا أن الأمانة نزلت فى جذر قلوب الرجال ، ثم نزل القرآن فعلموا من القرآن وعلموا من السنة ، ثم حدثنا عن رفع الأمانة قال : ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل الوَكْت (أى الأثر اليسير من الشىء) ثم ينام النومة فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل المَجْل (أى أثر العمل فى الكف) كَجَمْرٍ دحرجته على رجلك فنَفِط فتراه مُنْتَبِراً (أى متورّماً) وليس فيه شىء ، ثم أخذ حصاةً فدحرجها على رجله ، فيصبح الناس يتبايعون فلا يكاد أحد يؤدى الأمانة حتى يقال إن فى بنى فلان رجلاً أميناً حتى يقال للرجل ما أجلده ، ما أظرفه ، ما أعقله ، وما فى قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان ، ولقد أتى علىّ زمان وما أبالى أيّكم بايعت ، لئن كان مسلماً ليردنّه علىّ دينه ، ولئن كان نصرانياً أو يهودياً ليردنّه على ساعيه ، وأمّا اليوم فما كنت أبايع منكم إلا فلاناً وفلاناً »[1] .

وها هوذا الحديث الثانى الذى حدثنا به حذيفة عن رفع الأمانة والفتنة . قال حذيفة :

« كنا عند عمر فقال : أيكم سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر الفتن ؟ فقال قوم : نحن سمعناه . فقال : لعلكم تعنون فتنة الرجل فى أهله وجاره . قالوا : أجل . قال : تلك تكفِّرها الصلاة والصيام والصدقة ، ولكن أيكم سمع النبى صلى الله عليه وسلم يذكر الفتن التى تموج موج البحر ؟ قال حذيفة : فأسكت القوم ، فقلت : أنا . قال : أنت لله أبوك . قال حذيفة : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« تعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عوداً فأى قلب أشربها نُكِت فيه نكتة سوداء ، وأى قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء حتى تصير على قلبين على أبيض مثل

---

(١) رواه البخارى فى الرقاق والفتن ، ومسلم فى الإيمان ، والترمذى فى الفتن وابن ماجه فى الفتن ، وأحمد .

الصفا فلا تضره فتنة مادامت السموات والأرض ، والآخر أسود مرْبادّاً كالكوز مُجَخِّياً - أى مقلوباً - لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً إلا ما أشرب من هواه » .

قال حذيفة : وحدثت أن بينك وبينها باباً مغلقاً يوشك أن يكسر .

قال عمر : « أكَسْراً لا أبا لك ، فلو أنه فُتح لعله كان يُعاد »(١) .

هكذا كان حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم عن رفع الأمانة وضياع المناعة الإيمانية من النفس البشرية . وأراد سبحانه للمناعة الإيمانية أن تبقى فى عباده ، لذلك تدخل بالرسل حتى تتكون المناعة ويكبح المجتمع جماح كل فرد . تحدثه نفسه بفتنة .

وعندما كان يتم الفساد فى الأرض . نجد الحق يرسل الرسول ليعيد البريق إلى النفس اللوامة ، ويحيى فى المجتمع القدرة على أن يتناسق السلوك فيه على ضوء منهج الله . ولذلك نجد أن المقاومة التى تحدث للرسل إنما تحدث من الذين يستمتعون بالفساد وبآثار الفساد . وحين يأتى منهج الهداية فهو يأخذ بأيدى المظلومين ويغضب منه الظالمون الأقوياء الجبابرة ، ولذلك يهاجمون الرسل والمنهج القادم من الله ؛ لأن هذا المنهج سيقطع عليهم سبل الفساد الذى يدر عليهم عائداً هو فى نظرهم كبير .

لقد رأينا صناديد قريش وقد تصدوا للدعوة ، فمحمد صلى الله عليه وسلم جاء بالمساواة بين كل البشر . لقد كانوا يعرفون أن مجرد النطق بـ« لا إله إلا الله محمد رسول الله » يعنى فقدانهم لسلطان إرهاب الناس والقبائل . ولو كانت المسألة مجرد كلمة تقال ، ويبقى الأمر على ما كان عليه لقالوها ، ولكنها كانت كلمة تغير من الأمر سياسياً واقتصادياً واجتماعياً ، ولا يبقى من جبروت لأحد ، فكل الناس سواسية . لذلك تصدى صناديد قريش لدعوة الإسلام . وهكذا نجد أن كل رسول يأتى يبرز له من يعاديه من أصحاب الفساد والجبابرة فى الأرض ، مصداقاً لقول الحق سبحانه وتعالى :

---

(١) رواه مسلم .

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ ﴾
(من الآية ١١٢ سورة الأنعام)

والمثال على ذلك هو إرادة الحق فى أن يجعل صيحة الإيمان فى الجاهلية تأتى أولاً إلى أذن سادة العرب جميعاً وهم قريش الذين لا يجرؤ أحد على التعرض لهم ، لكن النصر لا يأتى لمحمد وهو فى مكة حيث كانت مقام السيادة ؛ لأن النصر لو حدث فى أول الدعوة ومحمد صلى الله عليه وسلم يحيا بين قومه فى مكة لقال قائل : لقد حدث النصر من قوم ألفوا السيادة وأرادوا أن يسودوا العالم كله لا الجزيرة العربية وحدها ، وأن قريشاً قد ساندت محمداً لاستبقاء هذه السيادة وبسطها على غيرهم ، ولكنه ـ سبحانه ـ جعل مقام النصر ينبع من المدينة المنورة .

إنّ الصرخة أولاً جاءت فى أذن السادة ثم التف حولها المستضعفون فى الأرض الذين لا يستطيعون حماية أنفسهم ، ثم هاجروا وقوّاهم الله من بعد ذلك على الأقوياء .

إننا نجد كل داعٍ إلى الله يأتى إنما يريد استبقاء خير النبوات حتى لا يأتى الران على القلوب ، وإن استبقاء هذا الخير يغضب منه الجبابرة والمنحرفون الذين يريدون السيادة على العالم بفكرهم . والداعية إلى الله الذى لا تجد له عدوًا يصيبه بالسوء حظه من ميراث النبوة ضعيف ، والداعية الذى له أعداء له من ميراث النبوة الشىء الكثير .

والكافرون بعيسى عليه السلام عندما رأوا قوة الآيات التى جاء بها عيسى عليه السلام . قالوا : « إنْ هذا إلا سحر مبين » وهذا يعنى أن معجزات عيسى عليه السلام قد أحفظتهم وأغضبتهم وأحنقتهم وملأت مشاعرهم بالخيبة . إنّه قول من قوم يكرهون منهج الحق ، وعلى ذلك يكون كفر الكافر نعمةً يدعم بها الحق الداعى إليه ؛ لأن ذلك يحفزه ويدفعه إلى الدفاع عن دين الله ، فمقاومة الإيمان تظهر قوة المؤمن بالعقيدة التى يؤمن بها .

ويقول الحق سبحانه وتعالى من بعد ذلك :

﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ ﴾

وكلمة الحَوَارِىّ مأخوذة من المحسات . فالحُوَّارَى تطلق على الدقيق النقى الخالص . وأطلقت على كل شىء نقى بصفاء خالص ، و« الحَوَارِى » هنا تعنى المخلص والمحب لمنهج الخير . وسبحانه يقول : « وإذ أوحيت » والوحى بمعناه العام هو الإعلام بخفاء ؛ أى أن الحق ألهمهم أن يؤمنوا برسالة عيسى المبلغ عن الله ، أى أعلمهم بخواطر القلب التى أعلم بها أُمَّ موسى أن تلقى ابنها فى اليم ليلقيه اليم إلى الساحل ، وهو غير الوحى للرسول ، فالوحى إلى الرسول هو الوحى الشرعى بواسطة رسول مبلغ عن الله هو سيدنا جبريل عليه السلام ، أما وحى الله إلى أم موسى أو إلى الحواريين فهو استقرارخاطر إيمانى يلتفت بعده الموحَى إليه ليجد الواقع يؤيد ذلك . وعندما لا يصادم إلهامُ القلبِ أمرًا واقعا ولا يجد الإلهام ما يصادمه فى نفس الإنسان ، فهذا لون من الوحى ، أى هو إعلام بخفاء ، كأن يتوقع الرجل مَقْدَم صديق من سفر ، أو لوناً من الطعام يشتهيه فيجده على المائدة .

إذن فالإلهام وارد من الله لخلق الله مادام لا يصادم شيئا فى النفس أو فى الواقع ؛ لأن الإلهام الذى يقابل صداماً ليس من الله . فالشياطين يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا .

إن الله أوحى للحواريين أن يؤمنوا به وبرسالة عيسى عليه السلام . وبمجرد مجىء عيسى وسماعهم أنه رسول من الله أعلنوا الإيمان به وصاروا من خلصائه . وساعة نرى : « إذ » فلنفهم أن معناها تذكر وقت الحدث الذى قال فيه الحواريون : نحن آمنا بعيسى نبياً من عند الله وأشهدوه أنهم مسلمون .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ ﴾

كأن عيسى قال لهم : عليكم بتقوى الله فلا تسألوه هذه الآية ، لأنكم مادمتم قد أعلنتم الإيمان فأنتم لا تقترحون على الله آية لإثبات صدق رسوله ، وحسبكم ما أعطاه الله لى من آيات لصدق رسالتى . وعليكم أن تلزموا أنفسكم بالمنهج الذى أعلنتم أنكم مؤمنون به .

وقد توقف العلماء عند قولهم : « هل يستطيع ربك » وتساءل العلماء : كيف كان هذا القول ، وخصوصاً أن معناه الظاهرى : أيقدر ربك ؟ وكيف للحواريين أن يقولوا ذلك بالرغم من أنهم أشهدوا عيسى عليه السلام بأنهم مسلمون ؟ وقال العلماء أيضاً : إن من يتكلم فى اللغة عليه أن يكون متبصراً باشتقاقات الألفاظ واستعمالات الألفاظ وسمات الألفاظ ، وكلمة « يستطيع » بمعنى يطيع كما قالوا : استجاب بمعنى أجاب ، وكأن معنى سؤالهم : أيستجيب الله وينزل علينا مائدة من السماء ؟ و« استطاع » تقابل : « استجاب » وسبحانه وتعالى هو القادر على كل شىء ، وهو الذى يطيعه كل شىء ، وهو الذى يرضخ لحكمه كل شىء ، والحق لا يطلب ، إنما يأمر مصداقا لقوله تعالى :

﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾

(سورة يس)

الله سبحانه وتعالى لا يقول لشىء كن إلا ويعلم أنه يطيع ، ولا يأمره الحق أن يطيع إلا ويكون استعداده الانفعالى أنه حين يسمع قول الله : « كن » فلازم أن يكون ، والمثال على هذا هو قوله سبحانه وتعالى :

﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ ﴾

(سورة الانشقاق)

إنها لن تنتظر إلا سماع الأمر فقط . وساعة تسمع الأمر فهى تنفعل ، ومعنى تنفعل أى تطيع . وكل الكون مطيع لخالقه سبحانه وتعالى . أو يكون معنى هل يستطيع : هل يفعل . وذلك من باب التعبير عن المسبب بالسبب ؛ إذ الاستطاعة من أسباب إيجاد الفعل . وقيل المراد : هل تستطيع سؤال ربِّك من غير صارف ولا مانع يمنعك عن سؤاله ؟ فقد قرأ الكسائى وغيره هل تستطيع ربَّك بنصب كلمة (ربَّك) وأصلها هل تستطيع سؤال ربِّك ، فحذف المضاف (سؤال) وأقيم المضاف إليه وهو كلمة رب مقامه فنصب. وقال الزمخشرى : ما وصفهم الله بالإيمان والإخلاص ، وإنما حكى ادعاءهم . وقولهم : (هل يستطيع) كلام لا يتأتَّى مثله من مؤمنين معظمين لربهم .

وقال الحواريون ما جاء به القرآن الكريم :

﴿ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ ﴾

وكأنهم أرادوا أن يتشبهوا بسيدنا إبراهيم خليل الرحمن عندما سأل الله عن كيفية إحياء الموتى ليطمئن قلبه . لقد آمنوا بعلم اليقين ، ويريدون الآن الانتقال إلى عين اليقين ؛ لذلك سألوا عن المائدة التى صارت بعد ذلك حقيقة واضحة .

وهكذا نعرف أن هناك فارقا بين أن يؤمن الإنسان بذاته ، وأن يشهد بالإيمان عند غيره . فالذى يشهد بالإيمان عند غيره يحتاج إلى يقين أعمق .

ويخبرنا الحق بما قاله عيسى عليه السلام ـ وهو يختلف عن قولهم فى هذه المائدة ـ قال سبحانه :

﴿ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾

وقوله الحق : « مائدة من السماء » إنما يعنى أن هناك لله موائد منصوبة فى الأرض . والكون كله مائدة فيها من الخير الكثير إن استطاع الإنسان أن يكد ويكدح .

والإنسان منا عندما يكد ويكدح ويستخرج من الأرض الزرع ويرعى الحيوانات فإنه يأتى إلى زوجه بمخزون قد يكفيهم كأسرة لمدة عام من دقيق وأرز وعسل وسكر وزيت ، فتأخذ الزوجة طيراً فتذبحه وتطهو معه الخبز والخضراوات .

إذن فالكون كله مائدة الله المنصوبة والتي يأخذ منها كل إنسان على قدر عمله . وكلمة « مائدة » لا تطلق إلا على الخوان وعليه طعام . أما إن كانت بغير طعام فنطلق عليها « خواناً » ؛ لأن « المائدة » مأخوذة من مادة « الميم والألف والدال » والمائدة تميد أى تضطرب من كثرة ما عليها من أشياء . أو هى تعطى مما عليها من أشياء . فالمائد هو المُعْطى .

وقول عيسى عليه السلام يمتلىء بكل المعانى القيمة ، فهو يطلب أن تكون المائدة مناسبة لعيد يفرح به الأولون والآخرون وآية من الحق سبحانه وتعالى ، ويطلب من فضل ربوبية الرازق أن يرزقهم ، ويعترف بامتنان أن الحق هو خير الرازقين .

والمقارنة بين قول الحواريين وقول عيسى تدلنا على الفارق بين إيمان المبلغ عن الله ، وإيمان الذين تلقوا البلاغ عن عيسى . إيمان عيسى هو الإيمان القوى الناضج . أما إيمان الحواريين فهو إيمان ناقص ، لقد كانت قوة إيمان عيسى نابعة من أنه يتلقى عن الله مباشرة ، أما الحواريون فليسوا كذلك ، على الرغم من أنهم آمنوا بالبلاغ

عن الله وتم ذلك بواسطة رسول ، ولذلك يعلو الرسول على المؤمنين ببلاغه فى سلم الإيمان درجة أعلى . إنه يتلقى عن الله ، ولهذا صحح عيسى عليه السلام طلبهم من الله وهو يدعو ربه .

إنه رسول مُصطفى مُجتَبى ؛ لذلك يضع الأمور فى نصابها اللائق فيقول : « اللهم ربنا» و« اللهم » هى فى الأصل « ياالله » ، وعندما كثر النداء بها حذفنا منها حرف النداء وعوضناه بالميم فى آخرها ، فصارت : « اللهم » . وكأن هذا اللفظ : « اللهم » تتهيأ به نفس الإنسان لمناجاة الله فى تقديس وثقة فى أنه سبحانه يستجيب ، وهو نداء يقوم على عشق العبد لمولاه ، فلا يوسط بينه وبين اسم ربه أى حرف من حروف النداء .

إننا نلحظ أن عيسى عليه السلام قدم كلامه لله بصفة الألوهية : « اللهم » فهو كنبى مرسل يعلم تجليات صفة الله . وهى تجليات عبادة من معبود إلى عابد . أما تجليات كلمة « رب » فهى تجليات تربية من رب إلى مربوب ، والفارق بين عطاء الألوهية للخلق ، وعطاء الربوبية ، هو أن عطاء الألوهية تكليف من معبود إلى عابد . والعابد يطيع المعبود فيما يأمر به وفيما ينهى عنه ، أما عطاء الربوبية فهو سبحانه المتولى للتربية للأجسام والعقول والمواهب والقلوب ، والرب هو رب للمؤمن وللكافر . ويتولى الرب تربية الكافر على الرغم من إنكار الكافر للألوهية . فسبحانه يربى الماديات التى تقيم حياته .

ولذلك نجد الحق سبحانه وتعالى يقول عن هؤلاء الكافرين :

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

(سورة لقمان)

والحق سبحانه يبلغ نبيه صلى الله عليه وسلم أن يسأل الكفار عمن خلق السموات والأرض ، ولن يجدوا إجابة على ذلك إلا قولهم : إن الله هو الخالق . وهى إجابة الفطرة الأولى . ونرى فى حياتنا أكثر من مثل على ذلك ـ ولله المثل

الأعلى ـ عندما يسأل الأطفال عن شيء من الذى أحضره ؟ فإننا نجد الإجابات تتسلسل إلى أن تصل إلى أن معطى كل شيء هو الله ، فإن سأل الطفل أمه : ماذا سنأكل ؟ وتجيب الأم ـ على سبيل المثال ـ سنأكل بامية مثلاً . ويسأل الطفل : من أين ؟ تجيب الأم : اشتراها والدك من بائع الخضر . ويسأل الطفل : ومن أين جاء بها بائع الخضر ؟ تقول : الأم : من تاجر فى السوق . يسأل الطفل : ومن أين جاء بها التاجر ؟ تجيب الأم : من الفلاح الذى حرث الأرض وبذر فيها بذور البامية . يقول الطفل : من الذى خلق الأرض وأنبت النبات ؟ تقول الأم : إنه الله ربنا خالق كل شيء .

لقد وصلت الأم بحوارها مع الطفل إلى عطاء الربوبية الذى يستوى فيه المؤمن والكافر ، والمؤمن هو الذى يأخذ بجانب عطاء الربوبية عطاء الألوهية أيضاً ، وهو التكليف . فعطاء الألوهية يعطى المؤمن عطاء الربوبية مضافاً إليه العطاء الذى لا ينفد ، إنه يعطى المؤمن زمانا لا يموت فيه ونعمة لا يتركها ولا تتركه ، ويأخذ المؤمن بالمنهج يقين الإشراق والإقبال على العمل فى ضوء منهج الله .

لقد قال عيسى ابن مريم داعياً الله : « اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء » وألزم عيسى نفسه بنداء الألوهية أولاً معترفاً بالعبودية لله ملتزماً بالتكليف القادم منه ثم جاء بنداء الربوبية . فيا من أنزلت علينا التكليف ويا من تتولى تربيتنا نحن ندعوك أن تنزل علينا مائدة من السماء . وأخذ نداءه زاوية القيم ثم زاوية المادية وهى الرزق ، لكن الحواريين قدموا بشريتهم فطلبوا من المائدة الأكل والطعام فقالوا : (نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين) ، أما عيسى ابن مريم بصفائية اختياره رسولاً فقد أخر الطعام عن القيم فقال : (اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين) .

صحيح أن الرزق يمس الأكل ، ولكن الرزق ليس كله أكلاً . فالرزق هو كل شيء تحتاج إليه وتنتفع به ، فالأكل رزق ، والشرب رزق ، والملبس رزق ، والعلم رزق ، والحلم رزق ، وكل شيء تنتفع به هو رزق من عند الله ، ولذلك جاء عيسى

بالكلمة العامة التى يدخل فيها الأكل وتتسع لغيره . ويجيب الحق على دعاء عيسى ابن مريم :

﴿ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾

وساعة يقول الحق : « إنى » فهو يستخدم نون الإفراد . ونعلم أن هناك أسلوبين لحديث الحق سبحانه عن نفسه . إنه ساعة يتحدث عن وحدانيته يأتى بنون الإفراد فيقول سبحانه :

﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ ﴾

(من الآية ١٤ سورة طه)

وساعة يتحدث سبحانه وتعالى عن سيال القدرة الشاملة العامة لكل صفات الكمال التى تتطلب إيجاد الشىء يأتى بنون التعظيم فيقول :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾

(سورة الحجر)

وهو سبحانه أراد هنا أن يعطينا معنى التوحيد فقال : (قال إنى منزلها عليكم) . ذلك أن المائدة ستنزل من السماء ، ولا يقدر على ذلك إلا الله وحده سبحانه وتعالى .

ويتبع الحق ذلك بقوله : « فمن يكفر بعد منكم فإنى أعذبه عذابا لا أعذبه أحداً من العالمين » . فسبحانه يرسل رسله بعد أن يجتبيهم ، وإياك أيها العبد أن تقول : إن فلاناً بذاته من الرسل أفضل من فلان ؛ لأن الحق هو الأعلم برسله : « الله أعلم حيث يجعل رسالته » . وعلينا أن نتبع الرسل ، وعندما حاول بعض من أهل

الجاهلية التعجب من شأن القرآن الذى نزل على محمد صلى الله عليه وسلم كما يخبر القرآن الكريم فى قوله تعالى :

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾

(سورة الزخرف)

وقال أهل الجاهلية : لماذا لم ينزل القرآن على رجل عظيم من مكة أو من الطائف؟! قالوا ذلك استهزاء بشأن محمد صلى الله عليه وسلم . وقال الحق سبحانه وتعالى فى ذلك القول الفصل ، فليس لأحد أن يختار الرسول ؛ لأن الرسول مُصطفى من الله ، ولا يملك أحد من البشر أن يختار رسولاً من أصحاب السلطان أو الجاه .

وسبحانه وتعالى يعد كل رسول الإعداد اللائق لمهمته ، ومقام الرسالة والنبوة هو الأعلى فى الدنيا والآخرة . والحق سبحانه ـ وهو المنظم لأمور خلقه ـ قسّم المَواهب ـ رحمة منه ـ فيما بين العباد ليتساندوا ويتآزروا ويحتاج كل منهم إلى عمل الآخر . وحين يرسل سبحانه رسولاً فهو يختار الآية المناسبة له وللعصر الذى جاء فيه ، وما اقترح قوم آية وجاء بها الله ، ثم لم يؤمن الذين اقترحوا الآية بعد مجيئها إلاّ أنزل الحق سبحانه بهم العذاب الأليم . وحين يطلب اتباع الرسول آيات معينة ، إنما يحمل هذا الطلب فى طياته التفلّت والتحلل من الالتزام بمنهج الله ، كأن الذين يطلبونها يصرون على الكفر بالرسول على الرغم من طلبهم الآية ، ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ۚ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

وكذلك اقترح قوم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتيهم بآيات غير آيات القرآن ، على الرغم من أن آيات القرآن تقنع كل من له عقل يفكر وقلب يحس ،

وسنة الله مع الذين يطلبون الآيات ثم لا يؤمنون بها واضحة وهى العذاب الشديد ، ومثال ذلك قوم ثمود الذين طلبوا ناقة للدلالة على صدق رسالة صالح عليه السلام ، وعندما حدثت المعجزة كفروا بها فعاقبهم الله شر العقاب .

وبعض من قوم الرسول صلى الله عليه وسلم غالوا فى طلب آيات غريبة :

﴿ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

وكان محمد صلى الله عليه وسلم رحيماً بآله وعشيرته ، لذلك لم يطلب من الحق آيات غير التى أنزلها الله عليه . وعيسى عليه السلام دعا بأدب الرسل أن ينزل المائدة . واختلف العلماء أأنزل الحق سبحانه وتعالى المائدة أم لم ينزلها ؟ .

إن هناك من تمسكوا بقول الحق سبحانه : « قال الله إنى منزلها » ، وهناك من قالوا : إن الحق سبحانه وضع شرطاً لنزول المائدة ، وهو إنزال العذاب بهم إن لم يؤمنوا ، فتراجعوا عن طلب إنزالها ومن قالوا بنزول المائدة اختلفوا فى مواصفاتها ، فمنهم من قال : إن المائدة نزلت وعليها سمكة مشوية من غير فلوس وقشور ولا شوك فيها : ذلك أنها مائدة من السماء ومعها خمسة أرغفة ، وعلى كل رغيف شىء مما يعرفون : رغيف عليه عسل ، وآخر عليه زيتون ، وثالث عليه سمن ، ورابع عليه جبن ، وخامس عليه قديد من اللحم .

ومن بعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ ﴾

ونعرف أن هذا هو الحوار الذى سوف يدور بين الحق وبين عيسى ابن مريم عليه السلام يوم يجمع الحق سبحانه وتعالى الرسل :

﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾ ﴾

(سورة المائدة)

وقد يقول قائل : ولماذا جاء الحق سبحانه وتعالى بهذا الحوار فى صيغة الفعل الماضى ؟ :

﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ١١٦ سورة المائدة)

وكلنا يعرف أن لكل حدث زمناً ومكاناً . وزمان الحدث هو يوم القيامة . ومكان هذا الحدث فى ساحة المشهد والحشر ، وسبحانه هو خالق كل زمن وكل مكان ، وله أن يتحدث عن أى أمر بأى صيغة شاء ، سواء أكانت صيغة الماضى أم الحاضر أم المستقبل ، فقد أوجد كل شىء من ماضٍ وحاضرٍ ومستقبل ، وبيده أمر كل ما خلق ومَن خلق . وهو أزلى قيوم ، أما نحن بنو الإنسان فأمر الزمن يختلف ، الزمن بالنسبة لأفعالنا هو واحد من ثلاثة ؛ ماضٍ : أى أن يكون الحدث قد وقع قبل أن أتكلم ؛ مثل قولى « قابلنى زيد » ، ومعنى ذلك أن الفعل قد تم وصار محققاً .

راجع أصله وخرج أحاديثه الدكتور أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .

وحاضر : أى أن يكون الحدث فى حالة وقوعه ، أى يحصل الآن مثل قولى : « يقابلنى زيد » وأنت تقصد الحال أى أنه يقابلنى الآن .

إن معنى ذلك أن العين ترى زيداً وليس مع العين أين . ومستقبل : أى أن يكون الحادث سوف يقع كقولى:« سيقابلنى زيد » . وهنا لا يملك الإنسان نفسه أن يحدث منه الحدث ، ولا يملك ألا يقع على الإنسان الذى سوف يقابله أمرٌ قد يمنعه من إتمام الحدث ، ولا يملك الإنسان أن يظل السبب للمقابلة قائماً . إذن فمع المستقبل لا يصح للإنسان أن يحكم بشىء ، لأنه لا يملك أى عنصر من عناصر الحدث . والذى يملك هذا هو الحق سبحانه وتعالى وحده . ولذلك يعلمنا القرآن شرف الصدق فى الكلمة بقوله تعالى :

﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾

(الآية ٢٣ وجزء من ٢٤ سورة الكهف)

وعلى الإنسان أن يحترم قدرته المحدودة ، وأن يتذكر دائماً قدرة الحق سبحانه وتعالى عليه . وهذا لا يعنى أن الحق سبحانه يمنعنا من التخطيط للمستقبل ، لا ، بل يطلب منا أن نخطط وأن ندرس كل الاحتمالات ، وعلينا أن نقول : « إن شاء الله » ؛ لأننا بذلك نقدم مشيئة مَن يملك كل أمر وهو الله ـ سبحانه وتعالى ـ .

وقد حاول بعض المستشرقين من أعداء الإسلام أن ينفذوا بسمومهم إلى عقول المسلمين بالتساؤل عن عدم ترتيب الأفعال على نسق حدوثها فى بعض من آيات القرآن ، فقال قائل منهم : كيف يقول الحق ـ سبحانه ـ :

﴿ أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾ ﴾

(سورة النحل)

وهذا خبر عن يوم القيامة فكيف يأتى به الله على صيغة الماضى ، ثم يقول بعد ذلك : « فلا تستعجلوه » ؟ واستعجال الشىء لا يكون إلّا إذا لم يكن قد حدث ، فكأن فى الكلام تناقضاً ، ذلك لأنه يقول : أتى ، ويقول بعد ذلك:فلا تستعجلوه ؟

ونقول : إن الذى يتكلم هو الحق سبحانه وتعالى وليس إنساناً مثلك محكوماً بأزمانه . بل المتكلم هو صاحب كل الأزمان وخالقها . وعندما يقول سبحانه : « أتى

أمر الله » فمعنى ذلك أن أمر الله آتٍ لا محالة ، لأنه لا قدرة تخرج مراده على ألاّ يكون . وأى فعل من الحق سبحانه وتعالى إنما يتجرد عن ملابسات الزمان وعن ملابسات المكان ، فإن كنا نقرأ على سبيل المثال قوله تعالى :

﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾

(من الآية ١٠٠ سورة النساء)

فليس معنى ذلك أن مغفرة الله ورحمته قد مضى زمانها وانقضى وقتها . ولكن لنقل : كان الله غفوراً رحيماً ولا يزال غفوراً رحيماً ، فسبحانه وتعالى غفور ورحيم قبل أن يوجد من يغفر له ويرحمه ، ومن باب أولى يكون غفورا رحيما بعد أن يوجد من يستحق المغفرة والرحمة . وسبحانه منزه عن أن تعتريه الأحداث فيتغير ؛ لأن الزمن مخلوق من الله ، فلا تقل متى أو أين ؛ لأنهما به وجدا . والحق يأتى بالماضى لأنه متحقق الوقوع ، ليثبت حدوث أمر لم يحدث بعد ، ذلك لأن الله إذا قال عن شيء إنه سيحدث فلا بد أن يحدث .

ويؤكد الحق سبحانه فى أى كلام عن عيسى ابن مريم على أنه « ابن مريم » وهنا يسأل الحق عيسى ـ عليه السلام ـ : « أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله » ونعرف أن السؤال إنما يأتى دائماً على وجهين : إما سؤال يعرف به السائل ما كان يجهله فيريد أن يعلمه من المسئول ، كقول القائل : أقابلك فلان أمس ؟ وإما أن يأتى السؤال لا ليعلم السائل من المسئول ، ولكن ليقرر السائلُ المسئولَ .

ومثال ذلك ـ ولله المثل الأعلى ـ يسأل التلميذ أستاذه ليتعلم منه وليخبره الأستاذ بعلم جديد وخبر جديد . وأيضاً يسأل الأستاذ التلميذ ليقرره بالحقيقة ويوافقه عليها لتستقر لدى التلميذ . وسؤال الله عيسى من النوع الأخير ؛ ليكون ذلك حجة على من قال بألوهية عيسى أو بنوته لله . وحاول بعض المستشرقين أن يشككوا فى القرآن فقالوا : إن هناك تناقضاً فى القرآن ـ والعياذ بالله ـ واستندوا على ذلك بقول الحق :

﴿ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

(سورة الصافات)

أى أن الحق يقرر أن كل كائن مسئول عما يفعل ويعتقد ، ولكنه سبحانه يقول فى موضع آخر من القرآن الكريم :

﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ ﴾

(سورة الرحمن)

فهل معنى ذلك أنهم لن يُسألوا ؟ لا ، بل سوف يُسألون ليقرروا ما فعلوا لا ليعلم الله منهم ما فعلوا ، فهو سبحانه عليم بكل شيء . وهؤلاء المستشرقون لا يعلمون أن السؤال يرد عند العرب على وجهين ، وجه ليعلم السائل ، ووجه ليقرر المسئول ، وسؤال الحق للناس يوم القيامة ليقرروا ما فعلوا وما كان منهم ؛ لأن الإقرار سيد الأدلة ، وليس سؤال الحق سبحانه هو سؤال من يرغب فى أن يعلم فسبحانه عليم بكل شيء ، وعلى الإنسان أن يحتفظ بالمقام الذى وضعه فيه ربه ، وكذلك كان عيسى ابن مريم . وكذلك يكون سؤال الله لعيسى ، إنه لتقريع وتأنيب وتوبيخ من قالوا عن عيسى ما لم يبلغهم إياه .

إن عيسى عليه السلام لم يبلغهم ولم يطلب منهم أن يتخذوه هو وأمه إلهين من دون الله ؛ لأن عيسى ابن مريم ، إنما يبلغ ما أُوحى إليه من ربه فقط ، ولهذا تأتى إجابة عيسى رداً على أى تزَيُّد من الأتباع : « قال سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق » وساعة نسمع « سبحانك » فلنعرف أنها إجمال التنزيه لله ، وهو تنزيه أن يشابهه خلق من خلق الله ، فلله وجود ، وللإنسان وجود ، ولكن إياك أيها الإنسان أن تقول : إن وجودى كوجود الله ؛ لأن وجود الله ذاتى ، ووجودك غير ذاتى وكل ما فيك موهوب لك من الله ؛ لذلك فلا غناك مثل غنى الله ، بل غناه ذاتى وغناك موهوب منه سبحانه ، ولا أى صفة من صفاتك كصفات الله ، فله سبحانه مطلق القدرة والقوة ، وعليك أن تأخذ كل شيء يتعلق بالله فى نطاق « سبحانه » « وليس كمثله شيء » .

وكذلك يكون تنزيه عيسى لربه وخالقه : « سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق » فعيسى ابن مريم يعلم أن الرسول المصطفى من الله ليس له أن يقول إنه إله . ويرد عيسى على ذلك بقضية متفق عليها : « إن كنت قلته فقد علمته » لأن الكل متفق على أن الله يعلم كل ما يبدر من العباد من سلوك وأقوال وأفعال « يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور » . والكل يعلم ارتفاع الحق وتنزهه عن أن يوجد له معلوم جديد لم يعلمه من قبل . والكل يعلم ـ كذلك ـ أن الله يعلم خفايا الصدور ؛ لذلك يقول عيسى : « تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك » ويقرر أن الحق

العليم بكل شيء يعلم أن ذلك لم يخطر له على بال ، وهذه هى العلة فى إيراد ثلاث صور فى هذه الآية .

الصورة الأولى هى قوله سبحانه وتعالى : « سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق » وهذا تنزيه من عيسى لربه،والصورة الثانية هى قول عيسى : « إن كنت قلته فقد علمته » . والصورة الثالثة هى : « تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك » . إذن فلا شيء من عند عيسى ، وقد يسأل سائل : وماذا يكون فى النفس ؟ الذى يكون فى النفس هو ما أسِرُّ به ولم يظهر ؛ لأن النفس تُطلق مرة ويراد بها الذات التى تضم الروح والجسد معا ، وعندما تُطلق على ذات الله فنحن ننزهها عن أن تكون أبعاضاً ، ولكنها ذاته المأخوذة فى نطاق التنزيه . والمثال هو قول الحق :

﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ﴾

(من الآية ٥٤ سورة الأنعام)

وهكذا يكون فهمنا لمجيء كلمة « نفس » منسوبة لله ، إنه المنزه أن يكون مثلنا ، فلله وجه ولنا وجه ، ولكن وجه الله نفهمه فى نطاق « ليس كمثله شيء » وكذلك يد الله وكذلك كل صفات الله . ونعلم أن لله أسماء أعلمنا ببعضها ، وعَلَّم بعضاً من خلقه بعضها ، واستأثر ببعضها لذاته . وهناك بعض من الصفات لله تأتى لمجرد المشاكلة ، كقول الحق :

﴿ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَـٰدِعُهُمْ ﴾

(من الآية ١٤٢ سورة النساء)

ولا نقول أبداً : إن الله مخادع ، ولكن الصفة هنا جاءت للمشاكلة لذكرها فى مقابلة يخادعون الله . ولذلك لا نأخذ منها اسماً لله ، بل إنه جاء للرد على ما يبدر من أعداء الله .

ويختم عيسى ابن مريم قوله : « إنك أنت علاّم الغيوب » و« علاّم » هى مبالغة فى ذات الحدث ، ومبالغة فى تكرير الحدث ، فهو سبحانه يعلم غيب كل واحد من خلقه وغيب كل ما فى كونه ، وهكذا جاء القرآن برد عيسى عليه السلام وهو رد يستوعب كل مجالات الإنكار على الذين قالوا مثل هذا القول .

ويتابع القرآن على لسان عيسى عليه السلام ما يناقض ما قاله بعض من أتباعه

فيقول :

﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ ﴾

لقد عرض سيدنا عيسى عليه السلام ـ من خلال قوله لربه تبارك وتعالى ـ المنهج الذى جاء به على الناس جميعا وبلغه تمام البلاغ ، فقد أبلغ أنه عبد لله وأنه رسوله ، ومادام الحق علاّم الغيوب فهو أعلم بكل شىء حتى بما فى النفس ، كأنه يثبت أيضاً أن نفسه لم تحدثه بأى خاطر من تلك الخواطر . ويعلن أنه لم يبلغ إلا ما أمر به الله .

﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ ﴾

(سورة المائدة)

والشهيد هو الرائى الذى لا عمل له فى تحريك المشهود إلى غير ما شهده .

ويقول عيسى ابن مريم عليه السلام : « فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم » وأمر توفية الحق لرسالة عيسى ورفعه إليه ، قد ذكرناه من قبل فى خواطرنا ولكن أضيف الآن بعضاً من اللمحات ؛ لأنى أرى أنّ من حق كل قارىء أو متلقٍ لهذه الخواطر أن يجد الخلاصة الملائمة التى تغنيه عن الرجوع إلى ما سبق من قول فى هذا الأمر ، وذلك حتى تتصل المعانى فى ذهن القارىء .

لقد كان لميلاد عيسى عليه السلام ضجة ، وكذلك كان لمسألة توفّى الله له ضجة . ولقد شبه الله لقتلة عيسى أنهم قتلوه ، فعندما أرادوا أن يقتلوه دخل خوخة ،

والخوخة هى باب فى باب ، وهذا نظام البيوت القديمة حيث يوجد باب كبير لإدخال الأشياء الكبيرة وفى هذا الباب الكبير يوجد باب صغير يسمح بمرور الأفراد . وفى سقف هذا البيت فتحة . وعندما دخل رجل يدعى « تطيانوس » طالباً لعيسى عليه السلام نظر عيسى لأعلى ووجد شيئاً قد رفعه ، واستبطأ القوم تطيانوس وخرج عليهم من بعد ذلك ، فتساءلوا : إن كان هذا تطيانوس فأين عيسى ؟ وإن كان هذا عيسى فأين تطيانوس ؟

إذن فقد اختلط عليهم الشبه بعد أن ألقى الله شبه عيسى على تطيانوس . أو أن عيسى حينما دخلوا عليه كان معه الحواريون وقال عيسى للحواريين : أيكم يُلقى شبهى عليه وله الجنة ؟ . وكان كل حوارى يعلم أنه لا رسالة له مثل عيسى عليه السلام ، فماذا إذن يريد الحوارى لنفسه أكثر من الجنة ؟ . وتقدم « سرخس » فألقى عليه شبه المسيح عليه السلام وقتل اليهود سرخس . أو أن الذين ذهبوا لقتل عيسى وعرفوا أنه رفع فخافوا أن تنتشر حكاية رفع عيسى بين الناس فيؤمنوا به ، ولهذا جاء القتلة بشخص وقتلوه . أو أن القتيل هو واحد ممن باعوا عيسى لليهود وتيقظت فى نفسه ملكة التوبة فقدم نفسه بدلاً وفداءً للرسول .

ومسألة التوفى ـ كما نعلم ـ هى الأخذ كاملاً دون نقض للبنية بالقتل ، ونحن ـ المسلمين ـ نعرف أن الحق رفع محمداً صلى الله عليه وسلم بالإسراء والمعراج إلى السموات وعاد إلينا مرة أخرى ليكمل رسالته ؛ لذلك نصدق أمر رفع عيسى وأن الله توفاه ، أى استرده كاملاً دون نقض للبنية ، وأنه سيعود مرة أخرى ليصلى خلف مؤمن بالله وبمحمد رسول الله .

وإن أمر الرفع فى الإسلام مقبول . فقد رفع الله رسوله صلى الله عليه وسلم بالمعراج ، ودار بينه وبين إبراهيم عليه السلام حوار ، وكذلك دار حوار بينه وبين يحيى عليه السلام ، وآدم عليه السلام وغيرهم من الأنبياء ، وفرض الحق الصلاة على أمة المسلمين فى تلك الرحلة .

نحن ـ إذن ـ نصدق تماماً مسألة صعود الإنسان بشحمه ولحمه إلى السماء كأمر وارد وحاصل ، أما طول المدة أو عدمها فذلك لا ينقض المبدأ .

أما مسألة ارتباط نزول عيسى ابن مريم إلى الأرض بقيام الساعة ، فالنصوص فى هذه المسألة من القرآن الكريم محتملة وغير قطعية الدلالة ، وقد وردت فى السنة النبوية المطهرة ولكنها غير معلومة من الدين بالضرورة فلا نكفر من يتأبى عليه فهمها وقد أراد الحق سبحانه الرحمة بالخلق ؛ لذلك فكل شىء يقف فيه العقل ولا يزيد به حكم من الأحكام يأتى به الله فى أسلوب لا يسبب الفتنة . فإن صدقنا أن عيسى رفع فلن يزيد ذلك علينا حكماً ولن ينقض حكماً ، ولذلك جاء الحق سبحانه بمسألة الإسراء بنص قطعى ، أما مسألة المعراج فلم تأت نصّاً فى القرآن بل جاءت التزاماً لأن الحق سبحانه قال :

﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ ﴾

(سورة النجم)

وهكذا فالإسراء آية أرضية ، والمعراج آية سماوية.والآية الأرضية يمكن أن يقيم رسول الله الدليل عليها ، وقد ذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيت المقدس ووصفه لهم بقوله سبحانه :

﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ ﴾

(من الآية ١ سورة الإسراء)

لقد ذكر النبى صلى الله عليه وسلم أوصاف القوافل التى رآها فى طريق العودة ، إذن كان الإسراء آية أرضية ، أما الآية السماوية وهى المعراج فجاءت التزاماً . وكذلك أمر رفع عيسى عليه السلام ، فمن يرى أن ذلك جاء من طلاقة قدرة الله فهو يصدق ذلك . ومن يقف عقله نقول له : إن وقوف عقلك لا يخرجك عن الإيمان واليقين . وعندما نتأمل بالدقة اللغوية كلمة « توفيتنى » نجد « توفاه » قد تعنى أماته ، فالحق سبحانه يقول :

﴿ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ﴾

(من الآية ١١ سورة السجدة)

والحق سبحانه وتعالى يقول أيضاً :

﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا

﴿ ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾

(من الآية ٤٢ سورة الزمر)

إنه سبحانه يسمى النوم وفاة ، وسماه ـ أيضا ـ موتاً . وهو أمر فيه إرسال وفيه قبض . ومعنى الموت فى بعض مظاهره غياب حس الحياة ، والذى ينام إنما يغيب عن حس الحياة ، إذن فمن الممكن أن تكون الوفاة بمعنى النوم . ويقال أيضاً عن الدَّين توفيت دَينى عند فلان أى أخذت دَينى كاملاً غير منقوص . وكذلك أمر قتل المسيح قال فيه الحق جل وعلا القول الفصل :

﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ﴾

(من الآية ١٥٧ سورة النساء)

ونعرف أن الموت يقابله القتل أيضاً ، فالحق يقول :

﴿ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ﴾

(من الآية ١٤٤ سورة آل عمران)

فالموت هو خروج الروح مع بقاء الأبعاض سليمة ، أما القتل فهو إحداث إتلاف فى البنية فتذهب الروح . وقد قال الحق على لسان المسيح : « فلما توفيتنى » أى أخذتنى كاملاً غير منقوص . وهذه مسألة لا تنقض الرفع . ونعلم أن كل ذلك سيكون مجالاً للحوار بين عيسى ابن مريم والحق سبحانه يوم المشهد الأعظم جاء به القرآن لنا ليخبرنا بالذى يُثبِّت صدق الإيمان .

إن عيسى عليه السلام يقول عن نفسه : إنه مجرد شهيد على قومه فى زمن وجوده بينهم ، ولكن بعد أن رفعه الله إليه فالرقابة على القوم تكون لله ، فالحق سبحانه شهيد دائماً ورقيب دائماً ، ولكن عيسى ببشريته يقدر أن يشهد فقط ، والله القادر وحده على أن يشهد ويغير ويمنع . ويخبرنا الحق من بعد ذلك بما جاء على لسان عيسى ابن مريم فى قوله الكريم :

﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾

ولقائل أن يقول : أليس فى ذلك الأمر إشكالٌ واضح ؟ . لقد ادّعى بعض أتباع عيسى أنهم أبلغوا من عيسى أن يتخذوه هو وأمه إلهين من دون الله . فكيف يطلب لهم عيسى المغفرة فى هذه الآية .

ونقول : إن عيسى لم يقل : « يا رب اغفر لهم » ولكنه قال : « إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم » أى أن عيسى قد ترك الأمر لطلاقة المشيئة الإلهية ، وهو كرسول من عند الله يعلم أن رحمة الله سبقت غضبه ، وأن له سبحانه طلاقة القدرة ، فلا قدرة تقيده فطلاقة المشيئة موجودة . وهم عباد لله باختيارهم .

إننا نعرف أن كل خلق الله هم عبيد الله . ولكن المطيعين لله والمؤمنين به خاصة هم عباد الله . إذن فالخلق نوعان : عباد الله ذهبوا لله إيماناً ومحبة وطاعة ، والنوع الثانى هم العبيد الذين يُقهرون لقاهرية سيدهم ، وحتى الكافر لم يكفر رغما عن الله . بل كفر بما آتاه الله من قدرة اختيار فى أن يفعل أو لا يفعل ، وكان الحق قادراً على أن يخلق خلقاً لا يعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يأمرهم به الله . وقد فعل الحق ذلك مع الملائكة .

لكن قدرة القهر تثبت لله صفة القهار على المقهور ولا تثبت صفة المحبة ، فالمحبة تأتى من أن يكون المخلوق مختاراً أن يؤمن أو أن يكفر ، ثم يختار الإيمان . إنه بذلك آمن بالمحبة لا بالقهر . وهكذا يريد الله خلقه المؤمنين به . إن كل الوجود ـ ما عدا الإنسان ـ مقهور ، ولا يقدر على المعصية : الشمس ، والقمر ، والمطر ، والهواء ، والسحاب وكل ما فى الكون مقهور لله .

إذن لو أراد الله خلقاً مقهورين على الإيمان به ما استطاع أحد من خلقه أن يكفر به ، ولكن الحق أراد أن يثبت صفة القهر فيما دون الإنسان ، أما فى الإنسان فقد خلقه الله مختاراً بين الكفر والإيمان حتى يأتى بعض من العباد ليصنعوا ما يحبه الله ويرضاه ويتبعوا منهج الله ، وهم يعلمون أن الله لم يكلفهم ما لا طاقة لهم به . فلا يكلف ـ سبحانه ـ أحداً بأن يموت أو يمرض ، ولا يكلف فاقد آلة الاختيار وهى العقل ، ولا يكلف من لم يبلغ رشد العقل ؛ لأن التكليف للإنسان لا يتم إلا بوجود

ثلاثة شروط : الأول : أن يوجد العقل ، والثانى : أن يكون العقل فى تمام النضج وهو الرشد ، والثالث : ألا تكون هناك قوة تهدد حياته وتقهره على فعل ما .

وهكذا نعلم أن هناك ثلاثة يخرجون من دائرة التكليف . وهم: المجنون وغير ناضج العقل لأنه لم يبلغ الرشد ، والمقهور بفعل فاعل . وقد أعطى الحق مع التكليف الثواب على الطاعة والعقاب على المعصية ، وبذلك ليس لأحد عندالله حجة ، ومن دخل التكليف طائعاً فهو من عباد الله . ومن عصى الله وخرج عن التكليف فهو من العبيد المقهورين فى كل شىء فيما عدا التكاليف التى خيّروا فيها .

إذن فالعباد هم الذين دخلوا العبادية بأن وازنوا بين الإيمان ونقيضه الكفر . . أى بين المراد لله وغير المراد لله . فكيف إذن يقول عيسى ابن مريم على الرغم من علمه بكفرهم : « إن تعذبهم فإنهم عبادك » ؟ . ونقول : إن معنى « العباد » و« العبيد » الذى شرحناه سابقاً هو وضع الإنسان فى الدنيا وما يكون عليه فيها ، ولكن الحوار الذى نقرؤه فى القرآن بين عيسى عليه السلام والحق سبحانه وتعالى يكون فى الآخرة ، وكلنا فى الآخرة عباد طائعون .

وعندما نستقرىء كلمة « عباد » فى القرآن نجد أن العباد هم الصفوة المختارة التى اختارت مراد الله فوق اختيارهم فاستوت مع المقهور تماماً . ومثال ذلك قول الحق سبحانه :

﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا ﴾

(من الآية ٦٣ سورة الفرقان)

إنه يأتى هنا بالخصال الجميلة لهذه الصفوة من العباد . والشيطان نفسه يعلن عدم استطاعته إغواء العباد المخلصين كما يقرر القرآن الكريم :

﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾

(سورة ص)

أما فى الآخرة فكلنا عباد ، وها هوذا الحق سبحانه يخاطب الذين أضلوا غيرهم بقوله تعالى :

﴿ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى ﴾

(من الآية ١٧ سورة الفرقان)

إن الكل عباد لله يوم القيامة ، والكل ينفذ مراد الله ، ولا ولاية لأحد على أى شىء من أبعاضه وجوارحه ، فالعين التى كانت مسخرة للعبد فى الدنيا تأتمر بأمر العبد فيختار أن يرى الحلال أو يرى الحرام ، هذه العين تسترد حريتها من صاحبها فلا ولاية له عليها فى اليوم الآخر ، وكذلك اليد واللسان والجلد والقدم ، وكل الأبعاض . وتكون النفس الإنسانية فى الدنيا كقائد لكل الأبعاض والجوارح تنفذ أوامر الإنسان سواء للخير أو للشر ، وسواء للطاعة أو للمعصية . لكن هذه الأبعاض والجوارح تنطلق يوم القيامة لتشهد على كل ما فعل الإنسان ، فليس لأحد مراد غير مراد الله :

﴿ لِمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾

(من الآية ١٦ سورة غافر)

لقد انتهت مرادات البشر وبقى مراد الله فصار الكل عباداً لله . وعلى هذا فليس هناك إشكال فى قول عيسى : « إن تعذبهم فإنهم عبادك » . ونعلم أيضاً أن كلمة « عبيد » تشملنا كلنا فيما نحن غير مخيرين فيه مثل إرادة التنفس أو ميعاد الميلاد أو ميعاد الموت ، ولكن المؤمنين يرتقون من « العبيدية » إلى « العبادية » بتنفيذ منهج الله ، أما الكافرون والعصاة فهم يعصون الله بما لهم من اختيار ويسيرون فى درب العصيان معاندة لمنهج الله . وحتى يثبت الحق لنا جميعاً أن الكافرين مجرد عبيد فهو يصيبهم بالمرض والفاقة والآلام النفسية العميقة ولا يجرؤ واحد منهم أن يصادم مراد الله فى هذه الأحداث التى يجريها عليهم . ولذلك فالمؤمن يشكر الحق باختياره لأن الله حماه بأدوات الاختيار وجوداً ونضجاً وعدم إكراه .

ولنا أن نلحظ أننا كلنا فى يوم القيامة ـ كما قلنا من قبل ـ نصير عباداً لله فلا مراد لأحد فينا على أى شىء ، وكل المراد يكون لله ، وقد أورد الحق سبحانه ما جاء على لسان عيسى عليه السلام فقال : « إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم » وهذا التذييل لكلمات عيسى ابن مريم لم يأت باعتذار أو طلب الحنان من الله على الذين كفروا بالله وأشركوا به ، فالعزيز الحكيم هو الذى لا يغلب على

أمره ولا تسيطر عليه قوة ولا تحمى هؤلاء الناس قوة من دون الله ، فهو القادر العزيز ، إن شاء غفر لهم فلا راد لمشيئته .

وبعض السطحيين الذين يتلمسون الأخطاء فى القرآن قالوا : ألم يكن الأجدر أن يقول عيسى : إن تغفر لهم فإنك أنت الغفور الرحيم ؟ . ونرد على هؤلاء السطحيين فنقول : إن كل كلمة فى القرآن جاذبة لمعناها ، وكل معنى فى القرآن عاشق لكلمته . ولذلك جاء التذييل فى هذه الآية بما يخدم طلاقة المشيئة فى تعذيبهم أو فى الغفران لهم ، فإن عذبهم فليس هناك قوة ثانية تستطيع أن تحميهم من عذابه ؛ لأنه ـ سبحانه ـ عزيز ، وإن غفر لهم فلا توجد قوة أعلى تسأله : كيف غفرت لهم وقد كانوا كافرين ؟

إذن فسبحانه لا يسأل عما يفعل لأنه عزيز حكيم . وأيضا فقولهم : كان الأنسب أن يقول : فإنك أنت الغفور الرحيم . نقول لهم : هى تناسب قوله : (وإن تغفر لهم) ولكنها لا تناسب « إن تعذبهم » فكان لابد أن يأتى تذييل الآية بما يناسب « إن تعذبهم » وبما يناسب قوله تعالى :« وإن تغفر لهم » .

والحق بعد ذلك يقول :

﴿ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ ﴾

نعرف أن هناك صدقاً ينفع يوم القيامة وهو الصدق الموصول بصدق الدنيا . وهناك صدق لا ينفع يوم القيامة ومثال ذلك قول إبليس اللعين كما يحكى القرآن الكريم :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ﴾

(من الآية ٢٢ سورة إبراهيم)

مثل هذا الصدق لا ينفع أحداً ؛ لأن الآخرة ليست دار التكليف . لكن الصدق الموصول بصدق الدنيا هو قول عيسى عليه السلام : « إن كنت قلته فقد علمته » . ولذلك يقول الله فى الصدق الموصول : (هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم) .

ذلك أن صدق الصادقين يوم القيامة هو صدق موصول بصدقهم فى زمن التكليف وهو الدنيا ويتلقون رضاء الله : « لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً رضى الله عنهم ورضوا عنه » وإن تساءل إنسان : كيف يرضى العبد عن ربه ؟ .

نقول : إن العباد المؤمنين عندما يعاينون الجزاء المعد لهم فى الآخرة يمتلئون بالحبور ويقولون :

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ﴾

(من الآية ٧٤ سورة الزمر)

هذه الآية التى تتحدث عن يوم ينفع الصادقين صدقهم بقوله : « ذلك الفوز العظيم » كأن هناك فوزاً سطحياً ، وفوزاً عظيماً . والفوز السطحى : هو ما يعطيه الإنسان لنفسه فى دار التكليف من متعة قصيرة العمر والأجل فيبدو ظاهرياً وكأنه قد فاز ، وفى الحقيقة ليس هو الفوز العظيم لأن الندم سيعقبه ، وأى لذة يعقبها الندم ليست فوزاً ؛ لأن الدنيا بكل ما فيها من نعيم هو نعيم على قدر إمكانات الإنسان وتصوره ، وهو نعيم مهدد بشيئين ؛ أن يزول النعيم عن الإنسان ، وكثيراً ما رأينا منعمين زال عنهم النعيم ، أو أن يترك الإنسان هذا النعيم بالموت ، ونرى ذلك كثيراً . أما النعيم الذى هو الفوز العظيم فهو النعيم الموصول الذى لا يمنعه أحد ، ولا يقطعه شىء . ويختم الحق سبحانه سورة المائدة بقوله :

﴿ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٢٠﴾ ﴾

والسماء والأرض هما ظرفان للوجود وللكائنات كلها من أبراج وكواكب وشمس وقمر ونجوم وهواء وغمام وماء وحيوان وإنسان . فالأرض وهى المُلْك الأسفل الذى نراه وما فيه من أقوات وحيوان وإنسان . والسماء وما تحوى وتضم من الملكوت الأعلى ، هما جميعا لله مِلْكا ومُلْكاً فهو ـ سبحانه ـ الذى يملك كل شىء ويملك كذلك المالك للشىء . وقول الحق : « لله ملك السموات والأرض » ينطبق مع قول المسيح عيسى ابن مريم :

﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾

(سورة المائدة)

أى أنه ليس لشىء من خلق الله أن يخرج عن مرادات الله ، أما فى الدنيا فقد جعل الله أسبابها فى أيدى الناس ، رزق إنسان فى يد إنسان آخر ، ومَلَّك بعضنا أمر بعض ، فهناك مالك الطعام ومالك الثوب ، ولكن ليس كل مالك مَلِكاً ؛ لأن المَلِك هو الذى يملك المالك ، وهذه سنن الكون . وفى الآخرة هناك مالك واحد هو مالك يوم الدين . فكأن الحق أنهى هذه السورة بالحديث عن نهاية الحياة ؛ لأنه سبحانه قد بدأها بالحديث عن أحكام الله فقال :

﴿ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ ۚ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ ﴾

(من الآية ١ سورة المائدة)

لقد تكلم سبحانه فى الأحكام عن الصيد فى البر والصيد فى البحر وعن الحلال والحرام من الأنعام وعن النكاح ، وعن كل ما يتعلق بمسئوليات الحياة ، ومَلَّكَ بعضنا أمر بعض ، لكن فى اليوم الآخر فالمسألة مختلفة . فبدأ السورة بأمر هو : (أوفوا بالعقود) .

إن كل أمرٍ ورد من الآمر الأعلى ، فالمأمور يفعل أو لا يفعل . فهناك من الناس من يؤمن ومن يعصى ، ومعنى ذلك أن المأمورين لهم حرية الاختيار ، فلو كان الأمر لا بد أن يفعل دون اختيار لكان الآمر قد خلق الخلق وهم مفطورون على أن يفعلوا فيكون بذلك قد قهرهم ، لكن الآمر الأعلى ترك هذه الأوامر لاختيار البشر ، وهم صالحون للطاعة والوفاء بالعقود ، وهم صالحون للمعصية .

لقد بدأ سبحانه السورة بمنطقة الاختيار فى الإنسان التى خلقها الله لينشأ عنها التكليف . وأوضح بعد ذلك أن للاختيار أمداً محدوداً سينتهى ، ويجمع الله الناس يوم ينفع الصادقين صدقهم ويكون الأمر كله لله .

ويختم الحق السورة بقوله سبحانه : « لله ملك السموات والأرض » أى أنه سبحانه يملك الكون كله ، والكون ـ كما نعلم ـ مكون من أجناس متعددة . وأول جنس فى الكون هو الخادم الذى لا يُخْدَم هو الجماد ، والجماد قد يكون ماءً أو جبالاً أو حديداً ، أو شمساً ، أو قمراً ، أو نجوماً ، كل هذه جمادات ، أى ليس لها حس . وهذه الجمادات تخدم أول ما تخدم النبات . والنبات يخدم الحيوان ، والحيوان يخدم الإنسان .

هكذا يكون الجماد خادماً لكل ما يعلوه من نبات وحيوان وإنسان . النبات يخدم الحيوان والإنسان . والحيوان يخدم الإنسان . وكل هذه الأشياء التى تخدم الإنسان لا اختيار لها وكلها مقهورة لخدمة الإنسان ؛ فالشمس لم تغضب يوماً على البشر فلم تمدهم بحرارتها ولا المطية تأبّت على صاحبها .

والإنسان فيه قسمان : قسم مقهور للحق فلا يستطيع الإنسان أن يتحكم فيه أو يسيطر عليه مثل المرض أو الموت وهو فى ذلك يشترك مع الحيوان والنبات والجماد ، وقسم يكون الإنسان فيه مختاراً وهو تطبيق المنهج .

إننا إذا نظرنا إلى الجانب الذى قهر فيه الحق الإنسان نجده لمصلحة الإنسان . فالإنسان لا يختار أن يتنفس ولا أن يسرى الدم فى عروقه ولا أن تعمل كليتاه ، إنه مقهور فى كل ذلك . ومن رحمة الله بالخلق أن جعلهم مسيّرين ومقهورين فى هذه النواحى ، فلم يجعل تنفس أحد بيد صاحبه ولا جعل القلب يعمل بإرادة الإنسان . والإنسان ـ إذن ـ يُخيّر فى مسائل التكليف فقط . وكأن الحق يذكر الإنسان أن منطقة الاختيار هى عقد بين المؤمن وربه ؛ لأن الاختيار سيسلب من العباد يوم القيامة ، ويكون كل العباد مقهورين ويصير الكائن البشرى مثل الجماد والنبات والحيوان . ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٢٠﴾ ﴾ (سورة المائدة)

إنّ الإنسان يوم القيامة سيصير بلا اختيار لأن الحق استعمل « ما » هنا وهى تدل على الأشياء غير العاقلة أى التى لا اختيار لها . كأن العقل له عمل فى الدنيا وهو التمييز بين البدائل ، أما فى الآخرة فالكل متساوٍ أمام خالقه . وعلمنا من قبل الفارق بين « مُلْك » و« ملكوت » . وكلنا يقرأ قول الحق :

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾

(من الآية ٧٥ سورة الأنعام)

كأن الحق ينبهنا إلى أن العالم فيه ما يقع تحت الإحساس والإدراك ، وفيه ما لا يقع تحت الإحساس والإدراك . فالذى يقع تحت الحس والإدراك هو عالم المُلْك . والذى لا يقع تحت الحس والإدراك هو عالم الملكوت . ولا نعرف عن عالم الملكوت إلا ما أخبرنا به الله . وهناك فى عالم الملك ما يخفيه الله عنا ، وسبحانه وحده هو القادر على كل شىء ، والحق يطلب منا أن نعتبر بما فى العالم المشهود من ظواهر . وله سبحانه مطلق العلم بعالم « الملكوت » أى ببواطن هذه الظواهر غير المشهودة . و« الملك » و« الملكوت » موجودان فى الدنيا والآخرة ، إلا أن المُلْك ظاهر والملكوت خفى .

ويوزع الحق سبحانه وتعالى أسباب الملك فى الدنيا بين أيدى خلقه ، ويملك التصرف فيما بين أيدينا وفيما خفى عنا ، ويشاء الحق أن ينهى هذه المسألة من مبررات الخلافة للإنسان على الإنسان فى الأرض فيقول : « لله ملك السموات والأرض وما فيهن » فلله الملكوت ، ولكم بعض الملك أيها العباد فى ظواهر نسبة الأشياء إلى أسبابها وذلك فى الدنيا ، أما يوم القيامة فكل شىء ينتهى إلى الله .

ولكن لماذا قال الحق : « وما فيهن » على الرغم من أن الحق استخلف الإنسان فى الأرض ، والإنسان عاقل وكان من حقه أن يُغلّب فيأتى القول : ومن فيهن ؛ لأن (مَن) للعاقل ، لقد أراد الحق بذلك أن ينبئنا أن الكل أصبح لا اختيار له ، وأصبح مقهوراً على المراد منه فقد تساوى الجميع عاقلهم وغير عاقلهم فيقول لنا : « وما فيهن وهو على كل شىء قدير » .

وبهذه الآية ختمت سورة المائدة . وهى سورة مدنية ، وهى من آخر ما نزل من القرآن الكريم . وفيها التشريع . وفيها التكاليف . وفيها الأحكام . وفيها ما يتعلق بكل السور المدنية من بيان اعوجاج أهل الكتاب .

ومن بعد ذلك جاءت سورة الأنعام ، وهى مكية . وجاءت المكية بعد المدنية فى الترتيب المصحفى حسب ما انتهى إليه آخر عرض للقرآن فى آخر رمضان من حياة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم مع جبريل عليه السلام . ومن المعلوم أن القرآن له « ترتيب نزولى » و« ترتيب مصحفى » . والترتيب النزولى حسب ما نزلت سور القرآن فى مكة أو المدينة . ورب قائل يقول : إن الحق أنزل هذا القول الكريم فوق عرفات وهو قوله سبحانه :

﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ﴾

(من الآية ٣ سورة المائدة)

فكيف يقال ذلك ؟.

نقول : لنفهم معاً معنى الاصطلاح القائل : « مدنى » و« مكى » ، هناك آيات من القرآن نزلت بالمدينة ، وآيات أخرى نزلت بمكة ، وآيات ثالثة نزلت فيما بينهما ، وآيات رابعة نزلت بين السماء والأرض . وجاء الاصطلاح « مكى » على الآيات التى نزلت قبل الهجرة ، وجاء الاصطلاح « المدنى » على الآيات التى نزلت من بعد الهجرة ، وإن نزلت بمكة .

وأراد الحق أن يكون للقرآن ترتيب نزولى وترتيب مصحفى ، وقد شاء سبحانه أن يعدل بالقرآن ميزان الكون الإنسانى المضطرب ، واضطراب الكون الإنسانى إنما يكون بواسطة أناس لا يؤمنون بإله ، أو بأناس يؤمنون بإله ويشركون معه غيره فيعبدون أوثاناً ، ويقولون : « ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » أو بأناس يعبدون النار ، أو بأناس تابعين لمنهج سماوى ولكن حرفوا فيه قليلاً أو كثيراً .

إننا نجد أن الأقرب إلى الإيمان بالله هم الأجناس الذين آمنوا بالرسالات السابقة على رسول الله ، فقد جاءتهم الرسل ومعهم المعجزات ، ومعهم كتب المناهج ، والمنطق يقتضى أن يكون هؤلاء هم الأقرب للإيمان من غيرهم ، ولذلك كان من المطلوب أن نواجه أولاً الوثنيين ونصفى المعركة مع أهل الكتاب من بعد ذلك ؛ لأن أهل الكتاب لهم إلف بنزول منهج السماء إلى الأرض بواسطة الرسل .

إذن ففى نزول القرآن كانت الأمور المكية التى تتعلق بالعقيدة الأساسية هى الظاهرة . وهى الاعتراف بألوهية واحدة تحكم الكون . أما فى المدينة فقد ناقش الرسول صلى الله عليه وسلم أهل الكتاب فى كل أمور الدين بعد أن استتب أمر التوحيد .

لقد كان هذا الترتيب منطقياً مع هذه الحقيقة . فقد كان فى العالم موجتان اثنتان : موجة إلحاد ، وموجة تغيير فى منهج الله السماوى . ولذلك كانت قلوب المسلمين مع قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أهل الكتاب ؛ لأنهم على الأقل يؤمنون بإله ، وأن الإله يرسل الرسل ومعهم المنهج الإلهى والمعجزات الدالة على صدق رسالتهم ، وحتى الذين انحرفوا من أهل الكتاب كانوا يتمسحون فى هذا الكتاب المنزل إليهم بالرغم من أنهم حرفوه .

لقد وجدنا الرسول صلى الله عليه وسلم يقف بجانب الروم عندما واجهوا فارس . وعندما هزمت الروم حزن المسلمون وفرح الكفار ؛ لأن الروم كانوا أهل كتاب ، إنهم كانوا نصارى ، وكانت هزيمتهم تعنى انهزام منطق السماء أمام منطق الإلحاد ؛ لذلك حزن المسلمون ، وفرح الكفار . وأراد الله أن يصور لنا الموقف ، وأن يوجه قلوبنا إلى الذين يؤمنون أيضاً بأن هناك إلهاً حتى ولو كانوا قد أخطأوا فى تصور هذا الإله وفى البلاغ عنه ، أو أخطأوا فى تأويل ما جاءت به الرسل فقال سبحانه :

﴿ الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ﴾

(سورة الروم)

إنّ المسلمين يفرحون بنصر الروم على فارس ؛ لأن الروم لهم علاقة بالسماء ، والرسل ، والمناهج ، والوحى . وجعل الله الأمر واضحاً هكذا لكى يبين موقفنا وليجعلها إعجازاً لكتابه ولرسوله ؛ لأن الرسول صلى الله عليه وسلم كان موجوداً بمقر الدعوة وهو الجزيرة العربية ، وليس عنده سفارات ولا مخابرات ولا مكتب حربى حتى يأتيه بالأخبار وينبئه عن استعدادات الروم التى تُجرى لرد الهزيمة .

هذا الرسول يتنبأ بخبر معركة قادمة بين الفرس والروم ، وينتصر فيها الروم ، معركة تحدث بعد سبع أو تسع سنوات . وعندما راهن سيدنا أبو بكر رضى الله عنه المشركين على ذلك ، وجعل بينه وبينهم خمس سنين أجلاً لغلبة الروم وظهورهم على الفرس ، ذكر ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم ، فقال له : « البضع ما بين الثلاث إلى التسع فزايده فى الخطر وماده فى الأجل » فكانت مائة بعير إلى تسع سنين .

إن الرسول صلى الله عليه وسلم يتكلم كلام الواثقين ، لأنه ينقل الخبر عن الله ، وجعله الله قرآناً يتلى ويصلى به ، ومحفوظاً أبد الدهر ، ولا يمكن أن يكذب هذا القائل إنه ـ سبحانه ـ هو الذى يملك ميزان الكون كله ، وأى إنسان من رجالات الحرب المعاصرين لا يمكنه أن يتنبأ بمصير معركة قادمة ، على الرغم مما قد يُجمع لها ويحشد من معلومات عن القوة والعدة والعتاد . ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم يبلغ عن الله وهو واثق تمام الوثوق مما يبلغ .

وقد واجه الرسول صلى الله عليه وسلم الخصم الإلحادى ، وكان قلبه مع أهل الكتاب ، ونرى أيضاً أن أهل الكتاب كانوا يستبشرون بمجىء الرسول صلى الله عليه وسلم . ألم يقل بعض أهل الكتاب وهم اليهود فى المدينة للأوس والخزرج : قد أظل زمان نبى يُبعث وسنتبعه ونقتلكم قتل عاد وإرم . ولكنهم كفروا بالرسول صلى الله عليه وسلم من بعد ذلك ؛ لأنه سيسلب منهم السيادة ، والسلطة الزمنية .

إذن فنزول القرآن أولاً كان فى مكة ، ومن بعد ذلك نزل فى المدينة . لكن فى الترتيب المصحفى ـ كما قلنا ـ جاءت المدنيات أولاً ، وبعد ذلك جاءت المكيات . وذلك حسب ما أراد الله عندما راجع رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن مع جبريل عليه السلام فى رمضان الأخير من حياة الرسول الكريم .

إنَّ أصل الإيمان واحد ، وهو الإيمان بإله ، ووحى ، ورسل ، ومنهج ، وكل ذلك له فائدة إقامة نظام يحكم الحياة . وهو نظام ضرورى لتنصلح حال الحياة سواء آمن الناس بإله أو كفر بعضهم . وجاء هذا النظام الذى يحكم الحياة فى السور المدنية أولاً ولم يغفله الحق فى بعض السور المكية . إنّ الحق شاء لرسوله أن يوحد القلوب

المؤمنة بإله واحد أولاً ليواجهوا معسكر الإلحاد . ولكن هناك من اختلف وتخلف عن مؤازرة موكب الإيمان .

وهكذا تنتهى خواطرنا حول سورة المائدة ، ومع أن سورة المائدة مدنية وسورة الأنعام مكية إلا أن السياق بين تذييل المائدة وافتتاح الأنعام فيه اتساق واضح . فالحق يقول فى آخر سورة المائدة :

﴿ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٢٠﴾ ﴾

ويقول سبحانه فى أول سورة الأنعام :

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ﴾

(من الآية ١ سورة الأنعام)

فسبحانه وتعالى قدير ويملك كل الكون ، ولم يأخذ ذلك الملك افتئاتا أو ادعاء ، ولكنه جل شأنه هو الذى خلق السموات والأرض وهو الذى جعل الظلمات والنور .

سورة الأنعام (٦)

مكية

ويبدأ سبحانه سورة الأنعام بقوله تعالى :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ ﴾

وساعة تسمع كلمة الحمد ، فعليك أن تفهم أنها كلمة المدح والثناء والشكر . فالحمد أمر فطرى موجود ونوجهه لله ، فقد أخذ ـ سبحانه ـ بأيدينا ووضح وبين لنا أن الحمد لله حتى لا نختلف فى مجال توجيهه ؛ لأنه سبحانه هو الذى أمد كل إنسان بشىء من أسبابه .

وحين تسأل أحداً عن شىء فإن سلسلات ما أمدك به منسوبة لله . إذن فكل حمد يجب أن يتوجه إلى الله .

وأضرب هذا المثل : هب أن إنساناً وقعت به طائرة فى مكان ما موحش ، لا يوجد به أى شىء من أسباب الحياة ، وأراد أن يأكل ويشرب ويستتر حتى ينام ، لكنه لم يجد شيئاً من هذا . وأخذته سنة من النوم ثم استيقظ فجأة فوجد مائدة عليها كل أطايب الطعام والشراب ، وبجانب ذلك وجد خيمة فيها فراش وغطاء وصنبور للغسيل . وساعة يرى كل ذلك فهو لا يبدأ فى استخدام أى شىء قبل أن يتساءل عن مصدره ، لأنه يريد أن يشكر الذى أنعم عليه كل هذه النعم السابغة . فكأنك أيها الإنسان حين واجهت الكون ووجدت أشياء تخدمك ولا عمل لك فيها ، ولا للسابقين عليك عمل فيها ؛ لأن أحداً لم يدعها لنفسه ، فوجدت شمساً تشرق ، وهواءً يهب ، وماءً يروى ، وأرضاً تُزرع ، وغير ذلك من كل ما يخدمك ، وأخبرك

الحق أنه هو الذى منحك كل هذا ألا تشكره إذن ؟

إن البشرية عندما استفادت من المصباح الكهربى قامت الضجة لتكريم اديسون الذى اخترعه ، فما بالنا بخالق الشمس التى تنير الكون كله ؟ إن الاختراعات البشرية تخلد أصحابها وتقوم الضجة لتكريمهم . فما بالنا بخالق الكون كله ؟ ما بالنا نكرم صانع المصباح الذى ينير مساحات ضيقة مهما اتسعت بالقياس إلى الأرض ويغفل بعضنا عن تنزيه خالق الشمس التى تنير الأرض فى النهار وتختفى نصف اليوم حتى يستريح الإنسان ؟ ولكنها تسير سيرا دائما ، فإن غابت عنك فقد أشرقت على غيرك فهى فى فلكها تسبح .

إذن فالحمد لله حينما استقبل الإنسان هذا الوجود ، ووجد كل مقومات الحياة التى لا يمكن أن تخضع لقوة بشر ، ولا لادعاء بشر . إن الحمد أمر واجب الوجود وإن اختلف الناس حول من يوجه له الحمد . إننا نوجهه إلى الله تعالى لأنه هو واهب النعم .

وسور القرآن التى بدأها الخالق بالحمد لله خمس سور هى : الفاتحة ، والأنعام ، والكهف ، وسبأ ، وفاطر ، وتتركز حول شيئين : تربية مادية بإقامة البنيان بالقوت أو بقاء النوع بالتزاوج أو بتربيتهم تربية روحية قيمية ، فيمدهم بمنهج السماء . فمرة يقول الحق : « الحمد لله رب العالمين » . وكلمة « رب » تعنى أنه تولى تربية الخلق إلى غاية ومهمة ، والتربية تحتاج إلى مقومات مادية ومقومات معنوية ، روحية ومنهجية ؛ لذلك يأتى بها الحق شاملة للكون كله كما فى فاتحة الكتاب :

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ﴾

(سورة الفاتحة)

فهو سيد كل العالمين ومالكهم ومربيهم ، وهو الذى ينشئهم التنشئة التى تجعلهم صالحين لأداء مهمتهم فى الحياة بقوة البنيان وببقاء النوع بالتزاوج وبقوة القيم . ومرة ثانية يأتى الحق بالمنهج وحده ، مثل قوله الحق سبحانه :

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ ﴾

(من الآية ١ سورة الكهف)

ومرة أخرى يأتى الحق بالأشياء المنظورة فقط فيقول :

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ﴾

(من الآية ١ سورة الأنعام)

إنه سبحانه يأتى هنا بأشياء تختص بالمادة المنظورة ، كالسموات والأرض ، والظلمات والنور ، وهى أشياء يمكنك أن تراها بوضوح ، ومرة يأتى الحق بأشياء غير منظورة مع الأشياء المنظورة كقوله الحق :

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ﴾

(من الآية ١ سورة فاطر)

ويأتى بالمجموع كله فى فاتحة الكتاب ، ويأتى بالمنهج فقط كما فى سورة الكهف ، ويأتى بالكون المادى كما فى سورة الأنعام ، ويأتى بالكون المادى والمعنوى كما فى سورة فاطر .

إذن فالحمد مُسْتَحَقٌ مستحق ، ويُوجه لله حتى ولو كانت أسبابه الظاهرة من غير الله ؛ لأن كل أسباب الدنيا والكون تنصرف أخيراً إلى الله . وهنا ـ فى سورة الأنعام ـ خص الحق الحمد لله خالق السموات والأرض بما فيهما من كائنات ، وأتى من بعد ذلك بالظلمات والنور . والخلق كما نعلم إيجاد من عدم . والجعل يأتى لشىء مخلوق ويوجه إلى الغاية منه . ولذلك قال الحق : « وجعل الظلمات والنور » والظلمة أمر عدمى ، والنور أمر إيجادى ، والنور يبدد الظلمة .

إذن فالأصل هو وجود الظلمة التى تختلف فى ألوانها ، مثال ذلك : ظلمة الكهف ، وظلمة البحر ، وظلمة البر ، ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ﴾

(من الآية ٤٠ سورة النور)

إنها يده يعرف اتجاهها ولكنه لا يكاد يراها . إذن فالحق يخصص الحمد هنا لخلق السموات والأرض لأنها ظرف كل الكائنات . وقال العلماء : لا تأخذ الظلمة على

أنها الظلمة المادية التى لا ترى فيها الأشياء لا غير ، ولا تأخذ النور على أنه النور الحسى الذى ترى به الأشياء فقط ، ولكن لنأخذ الظلمات والنور على الأمر المعنوى والأمر الحسى كذلك ـ وسبحانه ـ جعل الظلمات فى هذه الآية جمعا وجعل النور مفردا ، لأن الظلمات تتعدد أسبابها لكن النور ليس له إلا سبب واحد .

والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾

(من الآية ١٥٣ سورة الأنعام)

والسبل هى جمع ، وسبيل الله مفرد لأنه واحد . كأن سبل الشيطان متعددة ، وسبل الناس كذلك متعددة حسب أهوائهم ، لكن سبيل الله واحد ؛ لذلك يجعل الهداية نوراً والضلال ظلمات .

« وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون » ونقول : ـ ولله المثل الأعلى ـ إنك أيها الإنسان عندما يفيض الله عليك ويجعل من بين يديك ما تعديه من جميل إلى غيرك فأنت تقول : أنا صنعت لفلان كذا وكذا ثم ينكر من بعد ذلك . كأن « ثم » تأتى هنا للاستبعاد . إن « ثم » تأتى للعطف مثل حرف « الفاء » . ولكن الفاء تكون للجمع بين شيئين ليست بينهما مسافة زمنية ، مثال ذلك قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ﴾

(سورة عبس)

ومن يحب إنساناً ومات هذا الإنسان فهو يعجل بدفنه ، وذلك حتى لا يرم ويتعفن أمامه . ولذلك يقول الحق سبحانه من بعد الإقبار :

﴿ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ ﴾

(سورة عبس)

كأن فترة زمنية قد تطول حتى تقوم القيامة فينشر الحق خلقه . وقد يكون البعد بُعْدَ رتبة أو منزلة ، ولذلك يأتى الحق بـ « ثم » هنا كفاصلة بين خلق السموات والأرض ، وجعل الظلمات والنور ، وبين الذين كفروا بربهم ، « ثم الذين كفروا

بربهم يعدلون » إنهم الذين يساوون الله بغيره . ونستطيع أن نجعل « يعدلون » من متعلقات كفرهم . . أى أنه بسبب كفرهم يسوون الله بغيره . أو يكون المراد أنهم يعدلون أى يميلون عن الإله الحق إلى غير الإله ، أو يجعلون لله شركاء . وهو قول ينطبق على الملحدين أو المشركين بالله . لقد أوجد سبحانه السموات والأرض من عدم وليس لأحد أن يجترىء ليقول لله : كيف خلقت السموات والأرض ؟ لأنه سبحانه يقول فى آية أخرى :

﴿ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ ﴾

(سورة الكهف)

وأوجد سبحانه السموات والأرض من عدم ، فالسماء والأرض ظرف للكون وتم خلقهما قبل الإنسان وقبل سائر الخلق ، ولم يشهد خلقهم أحد من الخلق ، فلا يصح أن يسأل أحد عن كيفية الخلق ، بل عليه أن يأخذ خبر الخلق من خالقهما وهو الله . وقد أتى بعض الناس وقالوا : إن الأرض انفصلت عن الشمس ثم بردت ، وهذا مجرد ظنون لا تثبت ؛ لأن أحداً منهم لم ير خلق السموات والأرض . وهؤلاء هم أهل الظنون الذين يدخلون فى قوله تعالى :

﴿ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾

(من الآية ٥١ سورة الكهف)

لقد قال القرآن ذلك من قبل أن يأتى هؤلاء . وكأنه سبحانه يعطينا التنبؤ بمجىء هؤلاء المضلين قبل أن يوجدوا ، فهم لم يشهدوا أمر الخلق ، بل طرأوا ـ مثلنا جميعاً ـ على السموات والأرض ، وكان من الواجب ألا يخوضوا فى أمر لم يعرفوه ولم يشاهدوه . وكذلك قولهم عن خلق الإنسان كقرد وهم لم يكونوا مع الله لحظة خلق الكون والإنسان ، ولا كانوا شركاء له ، ولذلك يعلمنا الحق الأدب معه فيقول سبحانه :

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

وعلينا أن نأخذ خبر الخلق عن الله القائل :

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ ﴾

هو سبحانه يأتى لنا بأمر الخلق فأوضح أنه خلقنا من طين ، بعد أن تكلم عن أمر خلق السموات والأرض ، وهو ـ سبحانه ـ قد أخبرنا من قبل ذلك أنه خلقنا من تراب وحمأ مسنون ومن صلصال كالفخار ، وهى متكاملات لا متقابلات ، وكذلك أوضح الحق أنه خلق كل شىء من ماء ، فاختلط الماء بالتراب فصار طيناً ثم حمأ مسنوناً ثم صلصالاً كالفخار وكلها حلقات متكاملة . ونحن لم نشهد الخلق ولكنا نتلقى أمر الخلق عنه ـ سبحانه ـ ونعلم أن الطين مادة للزرع والخصوبة .

وعندما قام العلماء بتحليل الطين وجدوه يحتوى على العديد من العناصر ، وأكبر كمية من هذه العناصر هى الأوكسجين ، ثم الكربون ، ثم الهيدروجين ، ثم الفلور ، ثم الكلور ، ثم الصوديوم ، ثم المغنسيوم ، ثم البوتاسيوم ، ثم الحديد ، ثم السيلوز ، ثم المنجنيز وغيرها .

والعناصر فى هذا الكون أكثر من مائة ، ولكنها لا تدخل كلها فى تركيب الإنسان ، إنما تدخل فى تركيب ما ينفع الإنسان من بناء وزينة وغير ذلك . مصداقاً لقوله الحق سبحانه وتعالى :

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾

(من الآية ٥٣ سورة فصلت)

لقد قام أهل الكفر من العلماء بهذا التحليل وذكروا تلك النتائج التى أخبرنا بها الرسول الكريم فى الكتاب المعجز الباقى المحفوظ بأمر الله كحجة مؤكدة . وصان الحق لنا هذه الحجة حتى يأتى عالم غير مؤمن ويتوصل إلى بعضٍ من الحقائق الموجودة

فى القرآن .

ولم يحضر أحد منا لحظة الخلق ، ولكنا نشهد الموت وهو نقض للحياة ، ونقض الشيء يكون على عكس بنائه . ونرى من يهدمون بناءً يبدأون بهدم آخر ما تم بناؤه وتركيبه ، فيخلعون الزجاج أولاً وهو آخر ما تم تركيبه ، ثم الأخشاب ، ثم الأحجار ، كذلك نقض الحياة بالموت . تخرج روح الإنسان أولاً ثم بعد ذلك ييبس ويجف ليصير صلصالاً كالفخار ثم حمأ مسنوناً أى يصيبه النتن والعفن ثم يتبخر منه الماء فيصير تراباً . ولذلك نحن نصدق الذى خلقنا فى أمر خلقنا ونصدقه فى أمر السموات والأرض ، وعندما يقول قائل بغير ذلك ، نقول له كما أخبر القرآن الكريم :

﴿ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ ﴾

(سورة الكهف)

ويخبرنا الحق هنا بقضية الأجل : « ثم قضى أجلاً وأجل مسمى عنده ثم أنتم تمترون » ولا أحد فينا يعلم أجله مهما عرض نفسه على الأطباء ، والأجل الأول هو الأجل المحدد لكل منا ، والأجل المسمى عنده هو زمن البرزخ ومن بعده نبعث من قبورنا ، ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ﴾

(من الآية ١٨٧ سورة الأعراف)

وقد يعرف الإنسان مجيء مقدمات نهايته واقتراب موته بواسطة ما كشف الله عنه من أسراره بواسطة تقدم العلماء . فليس هذا من الغيب وفى بعض الحالات يصح هذا المريض ويشفى ويبرأ ، ويقولون : قد حدثت معجزة . أما الأجل المسمى فلا نستطيع أن نعرفه ، وحدد الحق سبحانه ذلك فى خمس مسائل :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾

(من الآية ٣٤ سورة لقمان)

وقد تكلم الحق عن المكان ولم يتكلم عن الزمان : « ثم قضى أجلاً » أى قضى أجلاً لكل واحد ، ثم جعل أجلاً لكل شيء مسمى . والآجال فى الآحاد تتوارد إلى أن يأتى أجل الكل وهو يوم القيامة ، « ثم أنتم تمترون » والدلائل التى أوردها الحق كفيلة بألا تجعل أحداً يشك ، ولكن هناك من يمارى فى ذلك بعد كل هذه المقدمات .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾ ﴾

والله هو علم على واجب الوجود ، وهو الاسم الذى اختاره الله لنفسه شاملاً لكل صفات الكمال ، والصفات الأخرى نحن نسميها الأسماء الحسنى : مثل القادر ، والسميع ، والبصير ، والحى ، والقيوم ، والقهار ، كلها صفات صارت أسماء لأنها مطلقة بالنسبة لله . وهذه الصفات حين تنصرف على إطلاقها فهى لله ، ومن الجائز أن تضاف فى نسبتها الحادثة إلى غير الله . أما اسم « الله » فلا يطلق إلا على الحق سبحانه وتعالى .

ويتحدى الله الكافرين به أن يسمى أحدهم أى شيء غيره بـ « الله » .

﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴾

(من الآية ٦٥ سورة مريم)

وسمع الكافرون ذلك ولم يجرؤ أحدهم أن يسمى أى شيء باسم « الله » . وهو لون من التحدى باقٍ إلى قيام الساعة ولا يجرؤ أحد أن يقول عكسه أو أن يقبله فيسمى شيئاً أو كائناً غير الله بـ « الله » .

ولا نعرف شيئاً وجد بذاته أزلا وقبل أن يوجد الكون إلا الله ، أما أتفه الأشياء فى حياتنا والتى نعتبرها من غير الأساسيات فهى لا توجد بذاتها بل لا بد من صانع لها . فكوب الماء مثلاً لا يؤدى ضرورة قصوى فى الحياة ؛ لأن الإنسان يستطيع أن يشرب الماء بكفه أو بفمه مباشرة ، هذا الكوب احتاج من الإنسان إلى علم وإمكانات وقدرة وحكمة . وجاء العلم للإنسان بما وهبه الله للإنسان من قدرة بحث عن المادة التى فى الكون ، فنظر الإنسان إلى الرمل واكتشف وسيلة لصهر الرمال ، واكتشف وسيلة لتنقية الزجاج بمواد كيماوية ، واكتشف أسلوباً آلياً لإنتاج هذه الأكواب .

لقد أخذت رحلة صناعة الكوب من الإنسان رحلات علمية وصناعية كبيرة ، وهو غير ضرورى كضرورة قصوى فى الحياة ، إنما هو من الترف ، فما بالنا بالضروريات من شمس ، وقمر وهواء وماء ؟ هذه الأشياء ـ إذن ـ لا بد لها من صانع . وإذا كان صانع أتفه شىء فى حياة الإنسانية يذهب إلى إدارة لتسجيل اختراعه ؛ ليستفيد منها ، فما بالنا بالذى صنع كل شىء ، ولم يصنعها ليستفيد منها ولكن ليستفيد خلقه منها .

إن البشرية تعرف من صنع المصباح وتاريخه ، وأين ولد ، وأين عاش ، وأين تعلم . فما بالنا بالذى صنع الشمس والنجوم والأرض والإنسان ؟ ورحمنا الحق فدل على نفسه وأخبرنا أنه سبحانه الذى خلق . ولم يأت أحد ليعارضه سبحانه ويدعى صناعة الكون ، ومادام لا يوجد شىء له أثر إلا بمؤثر ، فلا بد لنا أن نعرف أنه سبحانه مادام قد قال : إنه هو الذى خلق وأبدع ولم تنشأ معارضة له فإن قوله هو الصدق . وإن كان هناك صانع للكون ولم يعلم أن الله قد أخبرنا أنه سبحانه الذى خلق الكون فذلك الصانع النائم التائه عما صنع لا يصلح أن يكون إلهاً . وإن كان قد علم أن الله أخبرنا أنه سبحانه خلق لنا الكون ولم يجرؤ هذا الصانع على أن يبلغنا بالحقيقة فهذا ـ الصانع المدعى ـ ليس له حق فى الألوهية .

أما الحق سبحانه ، فقد أعلمنا وعلمنا بالدليل القطعى أنه الذى خلق الكون ، ومادام الأمر كذلك فيجب أن نستمع له ، والترجمة العملية لسماع الحق هى عبادته وطاعته فيما أمر وفيما نهى ، بل إن عالم الملكوت الذى لا ترونه يعبده سبحانه . وكل شىء فى الوجود مؤتمر بأمره ويسبح بحمده .

﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

وتدل السموات السبع والأرض وكل مَن فيهن من مخلوقات على دقة الصنعة وعلى ملكية الله لها وتنزهه سبحانه وتقدسه بأنه لا شريك له ، وكل شيء له وسيلة للتسبيح والتنزيه ، ولكنا لا نرى ذلك ولا نفهمه ولا نفقهه . ويبلغنا الحق هنا أنه المعبود الموجود فى كل الوجود . « وهو الله فى السموات وفى الأرض يعلم سركم وجهركم » ومادام معبوداً فينبغى أن يكون مطاعًا فى الأوامر والنواهى . ولكن بعضنا يطيع ، وبعضنا يعصى . ولذلك رتب الحق على الطاعة جزاء : إما نعيماً وإما عقاباً . وهناك فارق بين وجود الشيء وإدراك الشيء ، وإياك أن تخلط بين إدراك الوجود ، والوجود ، فالذى لا تدرك وجوده إياك أن تقول إنه غير موجود .

ومثال ذلك ما نراه على مر تاريخ البشرية . لقد ترك الخالق لخلقه فى الوجود أسراراً يستنبطونها فتبرز لهم بالمنافع وكانت قبل أن يعرفها البشر ويقفوا عليها تؤدى مهمتها فى الوجود . ومثال ذلك الجاذبية الأرضية ؛ لقد كانت موجودة قبل اكتشاف الإنسان لها وتؤدى عملها قبل أن يعرفها الإنسان ، وجاء ذكرها فى القرآن بشكل لا يثير بلبلة ساعة نزل القرآن :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ ﴾

(سورة فاطر)

أوجد الحق قوانين الجاذبية لتمارس السموات والأرض أعمالها ويحفظها بقدرته من الزوال ، وجعل من الجاذبية نظاماً بديعاً يحفظ الكون من الاختلال . إذن فالجاذبية كانت موجودة ، ولم يعرفها الإنسان إلا مؤخراً ، وهكذا نعرف أن هناك فارقاً بين وجود الشيء وبين إدراك الشيء .

فإذا قيل لك :

﴿ لَا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

فأنت أيها المؤمن تصدق ذلك ؛ فذات الحق لا تبصرها العيون وهو يعلم كل ما هو خفى عنك ولا تدركه عيونك . وفى الكون أشياء قد لا ندركها على الرغم من أنه سبحانه وتعالى خلقها وعملت فى خدمتك ، وبعد أن أدركتها ظلت تعمل فى خدمتك ، فإن حدثك الحق بشىء لا تدركه فلا تقل : مادام هذا الشىء غير مدرك فهو غير موجود . وعلى سبيل المثال أنت لا تدرك الكهرباء ، ولا الجاذبية ، ولا قمة أسرار الحياة وهى الروح التى تعطيك سر الحياة ، وتنفعل بها كل جوارحك ، وإن خرجت الروح صرت جثة هامدة ، إن أحداً لا يعرف مكان الروح ولا يدركها ، ولا سمعها أحد أو شمها أو ذاقها أو لمسها . إن الروح موجودة فى ذاتك ولا تدركها ، هأنتذا ـ إذن ـ لا تستطيع أن تدرك مخلوقاً لله فكيف تدرك خالقك وهو الله ؟ إنك لو أدركته لما صار إلهاً ؛ لأنك إن أدركت شيئاً فقد قدرت عليه جوارحك ، ويصير مقدوراً عليه لعينك أو ليدك ، والقادر المطلق لا ينقلب مقدوراً أبداً ، ومن عظمته أنه لا يُدرك .

مثال آخر : الرؤيا التى تراها وتتحرك فيها . هل الرؤيا موجودة فى جسمك ؟ أو ماذا ؟ والحِلْم وهو الصبر على غيرك بأن تتحمله وتعطف عليه وتضحك له ، هذا الحلم يجعلك تنفعل . فهل تدرك أنت هذا الحلم ؟ إنه معنى من بعض المعانى فى نفسك التى تحرك جوارحك ولا تدركها ، مثله مثل الشجاعة التى تصول بها وتجول ولا تراها محيزة ، ولا تعرف شكلها أو لونها أو طعمها ، فالأعلى الذى يدير هذا الكون غير مدرَك بالأبصار . والذى يُتعب الناس أنهم يحاولون الجمع بين الإدراك والوجود ، ولذلك نقول : ابحث أيها الإنسان فى كونك ولسوف تجد فارقاً بين الإدراك والوجود .

ونعلم أن اسم الله نفسه وهو لفظ ننطقه لنفهم ونستدل به على أنه الخالق الأعلى وهو متحدًى به . وأنت أيها الإنسان قد اخترعت ـ على سبيل المثال ـ التليفزيون وكان من قبل أن يوجد معدوماً لا اسم له ، وصار له اسم منذ أن أوجده الإنسان ، صالحاً لمهمة معينة ، أما اسم الله فهو موجود وقديم من قبلك وأخبرك به الرسل ، وهو سبحانه وتعالى له اسم فى كل لغة من اللغات ، ووجود هذا الاسم فى كل

اللغات بنطق مختلف هو دليل على أسبقية وجود الذات وهو الله . وبعد ذلك جاء الكفر ، وعرفنا أن الكفر كان محاولة لستر الوجود الأول ، وبذلك دلت كلمة الكفر على الإيمان . والذى يرهق الإنسان هو محاولته لحصر الموجود الأعلى فى شكل طبقاً لإمكانات وحدود البشر . ولا أحد يستطيع أن يحصر وجوده سبحانه فى شكل معين ؛ لأن من عظمته أننا لا نقدر على تصوره ، والإيمان به سبحانه يدل عليه وهو يقول عن نفسه ما شاء . وأحب أن تحفظوا هذا المثل وتضربوه لصغاركم :

لنفترض أن إنساناً يجلس مع أسرته فى حجرة ، ثم طُرق الباب ، وكل من يجلس فى الحجرة يتيقن أن طارقاً بالباب ولا يختلف أحد منهم فى هذه المسألة . فيقول أحد الأبناء : « الطارق محمد » ويقول الثانى : « إنه محمود » ويقول ثالث : « لا ، إنه إبراهيم » فتقول الزوجة : « إن الطارق امرأة » ، لكن أحد الأبناء يقول : « لا ، إنه رجل » فيقول الأب : « لعله شرطى جاء يسألنى عن أمر » ترد الزوجة : « توقع خيراً ، إنك تصنع كل خير ولا بد أن يأتى لك كل طارق بخير » . هنا اختلفت الأسرة لا فى تعقل الطارق ، ولكن فى تصور الطارق . يقول الأب : « بدلا من الحيرة لنسأله من أنت ؟ » ، فيجيب الطارق : « أنا فلان » .

وهكذا الكون ، طرأ الإنسان عليه وتساءل من الذى خلقه . ذلك أن الإنسان جاءته الغفلة بعد أن عرف آدم ربه وبعد أن أشهد الحق ذرية آدم أنه ربهم . ثم أرسل الحق الرسل ليبلغوا الخلق منهجه واسمه وصفاته . وأراد سبحانه بذلك ألا يرهق خلقه ، وأبلغ الناس من خلال الرسل أنه الخالق الأكرم .

وآفة الفلاسفة أنهم لم يكتفوا بتعقل الإله ، بل أرادوا أن يتصوروه ، وهذا أمر غير ممكن . لذلك نقول : علينا أن نستمع إلى الحق يقول ما شاء عن نفسه ولا داعى للخلاف . وسبحانه وتعالى يقول : « وهو الله فى السموات وفى الأرض » وإياك أيها المسلم أن تفهم أن السماء والأرض هنا ظرفية ، لأن الظرفية وعاء وحيز ، وإذا كنت لم تعلم مكان روحك فى جسدك ، فكيف تعلم مكان الله ؟ لقد قصد الله بذلك القول أنه معبود فى السموات ومعبود فى الأرض .

ولنلحظ أن بعض آيات القرآن توقف الذهن عندها كى تظل الأذهان دائماً مشغولة بكلمات الله ، ولو جاء القرآن بكلمات يسهل على الفهم العادى إدراك

معانيها لما تجددت معانى الكتاب العظيم فى كل زمان ، وكأن الحق قد قصد ذلك حتى يتثبت الناس فى كل العصور من إيمانهم . وها هم أولاء بعض من الذين يحاولون الخوض فى القرآن تساءلوا عن معنى قوله الحق :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ ﴾

(سورة الزخرف)

تساءلوا عن معنى التكرار أنه إله فى السموات وإله فى الأرض . وظن بعض السطحيين أنه قصد القول بأن هناك إلهاً فى السموات وإلهاً آخر فى الأرض ، ولم يفطنوا إلى أن المعنى المقصود هو : أنه إله يعبد فى السماء ويعبد فى الأرض ، وهو صاحب الحكمة المطلقة فى كل أفعاله وهو المحيط بكل كونه . وأن الحق إنما يريد بهذا القول أن يشغل الأذهان به .

ونقول أيضا لهؤلاء الذين لم يفهموا المعنى : هناك قاعدة فى اللغة تحدد النكرة وتحدد المعرفة ؛ فعندما نقول : « جاءنى الرجل » فهذا الرجل يكون معروفاً للقائل والسامع . ولكن عندما نقول : « جاءنى رجل » فهذا غير معروف للسامع وقد يكون معروفاً للقائل . وإذا قلنا : « جاءنى رجل وأكرمت رجلاً » فمعنى ذلك أن القائل يتحدث عن رجلين ؛ أحدهما جاء ، والآخر كان موضع التكريم . أما إن قال القائل : « جاءنى رجل فأكرمت الرجل » فالحديث هنا عن رجل واحد . إذن فالنكرة إن أعيدت نكرة تكون مختلفة ، والنكرة إن أعيدت معرفة تكون هى بعينها . وعندما قال الحق سبحانه :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ﴾

(من الآية ٨٤ سورة الزخرف)

تصور البعض أن « إله » نكرة ، عندما أعيدت صارت غيرها ، ولو كان الأمر كذلك لفسدت الدنيا . ولكن القاعدة الغالبة من العلماء عرفوا روح النص . وقال أهل العلم بالتوحيد : لا بد لنا أن نلتفت إلى أنه سبحانه قال : « وهو الذى » ، وكلمة « الذى » اسم موصول واحد يدلنا على أن الحق صلته بالسماء وبالأرض واحدة ، ولهذا نقول لمن وقفوا عند هذه الآية : لا تبحثوا عن النكرة المكررة بمعزل عن الاسم الموصول ، لأن الاسم الموصول معرفة .

« وهو الله فى السموات وفى الأرض يعلم سركم وجهركم » إنه إله واحد يعلم السر والجهر ، ويترتب على هذا أساس الثواب والعقاب . فلا تظن أيها الإنسان أنك تفلت من حساب ربك ، وإن كان سبحانه يعلم السر فمن باب أولى أن يعلم الجهر . ولو قال إنه يعلم السر فقط لظن بعض الناس أنه سبحانه لا يعلم إلا المستور لكونه ـ سبحانه ـ غيبا ، ونقول : لا . هو ـ جل شأنه ـ وإن كان غيبا إلا أنه يعلم الغيب ويعلم المشهد ، أو أنه ـ سبحانه ـ لم ينتظر علمه إلى أن يبرز الشىء جهرا بل هو بكمال علمه وطلاقة إحاطته يعلمه من أول ما كان سرًا ويعلمه ويحيط به بعد أن برز وظهر ووجد وكأنه ـ سبحانه ـ يؤرخ للعلم فى ذات الإنسان الواحد « يعلم سركم وجهركم » .

وهو سبحانه يعلمنا أنه لا يقف عند السر فقط :

﴿ وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ ﴾

(سورة طه)

إنه ـ سبحانه وتعالى ـ يعلم السر من قبل أن يكون سراً . وكل أمر قبل أن يصبح جهراً يكون سراً ، وقبل أن يكون سراً هو أخفى من السر . ويذيل الحق تلك الآية بقوله : « ويعلم ما تكسبون » والكسب إنما ينشأ من عملية تجارة فى رأس مال ما والزائد عليه يكون هو الكسب ، وقد يكون الكسب خيراً أو شراً ، فالذى يكسب شراً هو الذى يأخذ فوق ما أحل الله له .

والكسب كذلك يكون خيراً ، فإن قدّم الإنسان حسنة يكسب عشر حسنات . والمتكلم هو الله الذى له الحمد لأنه خالق السموات والأرض والظلمات والنور . ولكن الكافرين يترصدون لكلمة التوحيد ، ويأتيهم الخبر بأن الحق خلقنا من طين ، ويعلم السر وما هو أخفى من السر ، ويعلم ما نكسب من خير أو شر ، ولا يؤثر ذلك كله فى المنصرفين عن دعوة الحق من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا يميلهم ويعطفهم إلى الصراط المستقيم ؛ لذلك يقول سبحانه :

﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ ﴾

كأن الآيات الدالة على صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم فى صدق البلاغ عن ربه لا تقنعهم ، بل يعرضون عنها . مع أن الواجب كان يقتضى أن يرهفوا الآذان لما يحل لهم لغز الحياة . ومازال الإعراض مستمراً حتى زماننا هذا بالرغم من أننا توصلنا إلى معرفة العمر الافتراضى لبعض الأشياء التى من صناعتنا مثل مصباح الكهرباء الذى يتغير بعد كل فترة ، وغيره من الأجهزة ، ولكنا لا نعرف العمر الافتراضى للشمس ولم تحتج إلى صيانة ذات مرة ، ولم نجد من يسأل : « وكيف يحدث كل هذا الإعجاز ؟ » .

وقد أتى الرسول صلى الله عليه وسلم ليبين لنا أن الذى خلق الخلق كله يخبرنا بمطلوبه ويفسر لنا الكون ، ولكن الإنسان يعرض عن ذلك .

إن أول « مطب » يقع فيه الإنسان ، أنه تأتيه الآيات التى تدل على لغز هذا الوجود من خالق الوجود ، وكيفية تدبير الكون قبل وجود الإنسان ، وكيفية جعل ما فى الكون من قوت يقيم به حياته ويستبقى نوعه ، وبرغم ذلك ينصرف عن سماع كل ذلك . إن الكفار لم يعرضوا فقط ، بل انتقلوا إلى المرحلة الثانية وهى التكذيب ، فلم يكتفوا بترك خبر الإيمان والإعراض عنه ولكنهم يزيدون فى ذلك ما يوضحه الحق بقوله :

﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾ ﴾

فهذا خروج من الإعراض إلى التكذيب ، فالإعراض أمر سلبى ، والتكذيب هو الوقوف إيجابياً فى موقف الضد والصد عن سبيل الله ، ثم ينتقلون إلى المرحلة الثالثة وهى الاستهزاء . إننا إذن أمام ثلاث مراحل : إعراض ، تكذيب ، استهزاء . وكل ذلك لعلهم يصرفون المتّبع عن الاتباع . ومثال ذلك ما ضربه الحق لنا فى أمر نوح :

﴿ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾
وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا
فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾

(سورة هود)

فقد أوحى سبحانه إلى نوح البلاغ الحق وأمره أن يصنع الفلك تحت عنايته سبحانه وألا يخاطبه فى شأن الكافرين الظالمين الذين لم يستجيبوا لدعوة الله . ويَشْرَع نوح فى إنشاء الفُلْك ، ولكن الكافرين يستهزئون به لجهلهم ولعدم الوثوق من الغرض والهدف . ويسخر نوح من كل من يسخر منه .

ومثال آخر وهو انتصار الإسلام بعد أن كان أهل الكفر قوة ، ولكن المتكبر الطاغى منهم يأتى بعد صلفه وكبريائه صاغراً ، ومنهم من قتل وأسر وذاق مرارة الذل النفسى . وقد كانوا من قبل يستهزئون برسول الله صلى الله عليه وسلم . ومثال على ذلك الوليد بن المغيرة ، وهو السيد فى قومه ، يأتى فيه قول الحق :

﴿ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة القلم)

وكان الوليد صاحب ثراء من المال ومنعة وقوة من البنين ، وأعرض عن القرآن وسخر منه . فجعل الحق منه أمثولة للناس ، وطبع على أنفه علامة لازمة افتضح بها ، وكانت سُبَّةً له وعاراً لا يفارقه كلما ذكر .

وقد نزل هذا القول فى القرآن وقت ضعف المسلمين ، ثم يأتى خبر ضربه على أنفه الذى هو محل الأنفة والكبرياء والعنجهية ، ثم تأتى بدر ليرى المسلمون تحقيق ذلك ، إنه كلام إلهى متحدًى به ومتعبد بتلاوته . وهكذا تصدق كل قضية يأتى بها الله .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٦﴾ ﴾

هذا ما شاهدته قريش فى رحلات الشتاء والصيف . رأوا آثار عاد قوم هود وبقايا ثمود قوم صالح . وكانت إمكانات عاد وثمود أكبر من إمكانات قريش . إن قريشاً لا سيادة لها إلا بسبب وجود الكعبة ، ولو كان الحق ترك أبرهة يهدم الكعبة لما مكن لهم فى الأرض . ها هى ذى حضارات قد سبقت وأبادها الحق سبحانه وتعالى ، ويوضح القرآن ذلك :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ ﴾

(سورة الفجر)

إنها حضارات كبيرة لها صِيت وخبر فى آذان الدنيا مثل حضارة الفراعنة . وكل ذلك الصولجان لا يحميه أحد من أمر الله . وزالت الحضارات وأصبحت أثرا بعد عين ، وصدق عليها قول الحق :

﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾

(سورة العنكبوت)

والحق يجازى كل كافر الجزاء الوافى ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يخبر قومه بما حدث لغيرهم من أقوام آخرين « أو لم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن » والقرن عادة هو الجيل الذى يحكمه زمن محدود أو حال محدود ، فإن نظرنا إلى الزمن فالقرن مائة سنة كأقصى ما يمكن ، والجيل الذى يعيش هذا القدر يرى حفيده وقد صار رجلاً . ونعلم أن نوحاً عليه السلام عاش تسعمائة وخمسين سنة ، يقول سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا ﴾

(من الآية ١٤ سورة العنكبوت)

وحياة نوح على طولها تسمى قرناً . إذن فالقرن هو جيل يجمعه ضابط إما زمنى وإما معنوى ، والقرن الزمنى مدته مائة سنة ، أما القرن المعنوى فقد يكون عمر رسالة أو مُلْك .

ويخبر الحق أهل الكفر بأنه قد قدر على غيرهم وأبادهم بعد أن مكن لهم فى الأرض وذلك بألوان مختلفة من أنواع التمكين : « وأرسلنا السماء عليهم مدراراً وجعلنا الأنهار تجرى من تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرناً آخرين » ، وهذا الخبر يأتى من السماء بما حدث لقوم سابقين مثل قوم سبأ ، فقد قال عنهم الحق فى موضع آخر من القرآن الكريم :

﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ ﴾

(سورة سبأ)

ومسكن سبأ باليمن آية دالة على قدرة الله ؛ حديقتان وارفتان عن يمين وشمال ؛ ليأكل أهل سبأ من رزق الله ويشكروا نعمة الله . وكان لهم سد مأرب ، ووهبهم الله القدرة لبنائه ، فقطعوا من الجبال التى ليس لهم عمل فيها ليحجزوا ماء المطر الساقط من السماء ، كل شىء إذن فعلوه وإنما فعلوه لأن الله قد أراده ، وهم أعرضوا عن أمرين : عن الرزق الوفير الذى منحهم الله إياه وأرادوا أن يعتمدوا على أنفسهم كما فعل قارون حيث قال : (إنما أوتيته على علم عندى) . ظنوا أنهم قادرون على رزق أنفسهم وكذلك لم يشكروا الله ، ولذلك أرسل الله عليهم سيل العرم ، أى أنه عقاب من جنس العمل ، وهكذا تكون عاقبة الإعراض والكفر بنعم الله . فقد

سلط الله عليهم حيوانا من أضعف الحيوانات وأحقرها وهو الفأر فنقب السد فأغرق أموالهم ودفن بيوتهم .

ويخبر الحق رسوله بكل هذه الأخبار ليلفت بها وينبه إليها قومًا رأوا آثار حضارة عاد وثمود ، والرؤية سيدة الأدلة ، وطالبهم الرسول بها حتى يعرفوا عاقبة الإعراض والتكذيب والاستهزاء ، ولم يطلب الحق من رسوله إلا البلاغ فقط ، أما إيمان القوم فليس مكلفاً به صلى الله عليه وسلم ، إن هؤلاء قد خافوا من سيطرة « لا إله إلا الله » فهم الذين صنعوا من أنفسهم آلهة وتسلط بعضهم على بعض . فتخيل القوى أنه إله على الضعيف . وتخيل الغنى أنه إله على الفقير ، وتخيل العالم أنه إله على الجاهل ، أما « لا إله إلا الله » فهى تساوى بين الناس جميعاً ، وهم يرفضون ذلك لأنهم يريدون السيادة . . ومثال ذلك قولهم :

﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾

(سورة الزخرف)

فهم لم يجرؤوا على الطعن فى القرآن ، إنما طلبوا أن تكون السيادة لغنى من أغنياء القريتين مكة أو الطائف . وتناقض هذا القول مع عملهم وسلوكهم مع الرسول ، فقط حفظوا كل نفيس حرصوا عليه عند محمد صلى الله عليه وسلم . ولو كان الواحد منهم يرى شيئاً أو مغمزًا فى أمانة رسول الله لما فعلوا ذلك . ولكن الواحد منهم بالرغم من التكذيب بمحمد لم يكن يأتمن إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فالإنسان حينما تقع مصلحته أمام تكذيبه فهو يغلب مصلحته على تكذيبه .

ويبين الحق سبحانه أن إعراض هؤلاء ، وتكذيب هؤلاء واستهزاء هؤلاء ، لا يمت إلى حقيقة أمرك يا رسول الله ، ولا إلى حقيقة القرآن فى شىء ، وإنما هو العناد ، مثلهم مثل آل فرعون الذين جحدوا آيات الله على الرغم من أن أعماقهم رأت هذه الآيات بيقين لا تكذيب فيه .

﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ ﴾

(سورة النمل)

فقد أنكر قوم فرعون رسالة موسى عليه السلام مع أنهم تأكدوا من صدقها ، ولكنهم أنكروها بالاستكبار والعلو والظلم ، فكانت عاقبتهم من أسوأ العواقب ، وهذا هو حال المنكرين دائماً لآيات الله .

وهاهم أولاء منكرون جدد لرسالة رسول الله . يقول الحق سبحانه وتعالى فيهم :

﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ ﴾

هذا الكتاب ـ القرآن ـ لو نزل إلى هؤلاء المكذبين مكتوباً فى ورق من المحس المشاهد فلمسوه بأيديهم لقالوا ما قاله كل مكذب ، إنه سحر ظاهر . وقد طالب المكذبون الرسول صلى الله عليه وسلم أن ينزل عليهم كتاباً من السماء ليقرأوه كشرط من ضمن شروط أخرى قال عنها الحق مصوراً جحودهم :

﴿ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

فبعد أن وضح لهم إعجاز القرآن حاولوا زوراً ، واقترحوا من الآيات ليؤمنوا ، كأن يفجر لهم الرسول صلى الله عليه وسلم ينبوعاً فى أرض مكة لا ينقطع ماؤه ، أو يكون لرسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة بستان من نخيل وعنب . تتخلله الأنهار ، أو أن يدعو رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تُنزل السماء عليهم قطعاً كعذاب شديد ، أو أن يتجسد لهم الله والملائكة ليرَوْهم رأى العين ، أو أن يكون

لرسول الله بيت من ذهب مزخرف ، أو أن يصعد إلى السماء ويأتيهم بكتاب من الله يقرر صدق رسالته ، ولكن الله برحمته واتساع حنانه ينزه ذاته أن يتحكم فيه أحد أو أن يشاركه فى قدرته فيعلن لهم على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم قوله ـ سبحانه وتعالى ـ :

﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾

(من الآية ٩٣ سورة الإسراء)

لأن الذى يبعث الآيات هو رب العالمين ، ولا أحد يجرؤ أن يفرض على الله آياته . ورسول الله صلى الله عليه وسلم هو مُستَقْبِل لآيات الله لا مقترح للآيات ، ذلك أنه صلى الله عليه وسلم يعلم أن من يقترح على الله آية ثم تأتى فيكذب بها يصيبه ويناله الهلاك ، هذه سنة الله ، ورسول الله يعلم أنه النبى الخاتم ؛ لذلك لن يطلب أى آية من الله حتى لا ينزل عقاب الله من بعدها إن كذبوا بها . ويبلغ الحق رسوله عتو المتجبرين المنكرين واستكبارهم .

﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

الحق يعلم أن قلوب بعض المنكرين قد صارت غفلاً لا يدخلها الإيمان ولا يخرج منها الباطل ـ كما أراد هو لهم ـ فلو نزَّل إليهم كتاباً فى قرطاس ليكون فى مجال رؤية العين ولمسوه بأيديهم فلن يؤمنوا . ويأتى أمر لمس الكتاب بالأيدى ؛ لأن اللمس هو الحاسة التى يشترك فيها الجميع حتى الأعمى منهم ، وبرغم ذلك فسيكذبون قائلين : « إن هذا إلا سحر مبين » ومثل هذا الرد لا ينبع عن عقل أو تدبر أو حكمة . ولا يتناسب مع القوم الذين عُرفوا بالبلاغة والفصاحة ، وبحسن القول وصياغته ؛ لأن السحر إنما يغير من رؤية الناس للواقع ، ومادام رسول الله صلى الله عليه وسلم متهماً بالسحر منهم فلماذا لم يسحرهم هم ، ولماذا استعصوا هم بالذات على السحر ؟ والمسحور ليس له عمل ولا إرادة مع الساحر ، ولو كان محمد صلى الله عليه وسلم ساحراً لصنع من السحر ما يجعلهم يؤمنون .

إن من العجيب وهم أبصر الناس بفن القول ، وهم أهل النبوغ فى الأداء ،

ويعرفون القول الفصل والرأى الصحيح ويميزون بين فنون القول : خطابةً ، وكتابةً ، ونثراً ، وشعراً ، والقول المسجوع ، والقول المرسل ، من العجيب أنهم يقفون أمام معجزة القرآن مبهوتين لا يعرفون من أمرهم رشداً ، فمرة يقولون : إنه سحر ، ومرة يقولون : إنه كلام كهنة ، وثالثة يقولون : إنه كلام مجنون .

والقرآن ليس بسحر ، لأنه يملك من البيان ما يملكون وفوق ما يملكون ويحسنون ، ولايفعل رسول الله معهم ما يجعلهم يؤمنون على الرغم منهم، وليس القرآن كذلك بكلام كهنة؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم نشأ بينهم ويعلمون أنه الصادق الأمين الذى لم يتلق علماً من أحد ، فضلا عن أن كلام الكهان له سمت خاص وسجع معروف ، والقرآن ليس كذلك . ويعلمون أنه كلام رجل عاقل ، فكلام المجنون لا ينسجم مع بعضه ، وهاهوذا الحق يقول فى رسول الله صلى الله عليه وسلم :

﴿ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤ ﴾

(سورة القلم)

وقد أعد الله رسوله ليستقبل النبوة بقوة العقل ، لا بسفه الرأى ، وله فى إبلاغ رسالة ربه ثوابٌ لا مقطوع ولا ممنوع ، وهو على الخُلق العظيم . والخُلُقُ العظيم - كما نعلم - هو استقبال الأحداث بملكات متساوية وليست متعارضة ولا يملك ذلك إلا عاقل . وقد شهدوا هم بخُلُق محمد صلى الله عليه وسلم ، فكيف يأتى هذا الخلق العظيم من مجنون ؟ وكيف يصدر السلوك المتصف بالسلامة والصلاح والخير من مجنون ؟ كانت - إذن - كل اتهاماتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم تنبع من إصرارهم على الكفر ، لا من واقع لمسوه ، فكل ما قالوه فى رسول الله هم أول الناس الذين شهدوا عكسه ولمسوا نقيضه .

وجاءوا - إصراراً على الكفر - يطلبون آية أخرى :

﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ۝٨ ﴾

ما المَلَك ؟ المَلَك جنس جعله الله من الغيب ، ونحن لا نؤمن به إلا لأن الله الذى آمنا به قال : إن له ملائكة مثلما قال : إن هناك جنّاً ، والملائكة من جنس الغيب ، والجن مستور عنا . وهؤلاء المنكرون الجاحدون يطلبون نزول مَلَك حتى يؤمنوا . إذن فهم قد عرفوا أن هناك غيباً وأن فطرتهم الأولى تحمل أثراً من منطق السماء لكنهم ينكرون ، وقولهم بالمَلَك دليل على أن فى أعماقهم رواسب من دين إبراهيم ودين إسماعيل ، وبقيت تلك الآثار فى النفوس لأنها مسألة لا تمس السيادة ، ولو أنزل الحق لهم ملَكاً لما آمنوا أيضاً ، فهم مكذبون . ولا يريد الحق أن يطبق عليهم سنته بنزول الآية التى يطلبونها حتى لا ينزل بهم عقابه إن كفروا بها . فلو أنزل الحق عليهم ملَكاً كما يطلبون ثم كفروا لقضى الأمر وأهلكوا بدون إمهال . إذ لو تجلى المَلَك لهم وظهر على طبيعته ما تحملته كياناتهم البشرية .

ولقد نزل المَلَكُ بآثاره الدامغة وهو غيب أنزله ـ سبحانه وتعالى ـ بالوحى على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفعل فى رسول الله ما فعل ، ولم يظهر من عمله مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أثره فحسب . وهاهوذا رسول الله يشرح لنا ذلك لحظة مجىء الملك أول مرة فى غار حراء :

قال الملك : اقرأ .

(فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال : اقرأ . فقلت ما أنا بقارىء ، فأخذنى فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال : اقرأ . فقلت ما أنا بقارىء ، فأخذنى فغطنى الثالثة حتى بلغ منى الجهد . ثم أرسلنى ، فقال : (اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم) . ورجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيته يرجف فؤاده ودخل على زوجه السيدة خديجة بنت خويلد ، فقال : (زملونى زملونى) . فزملوه حتى ذهب عنه الروع . وأخبرها الخبر وقال : « لقد خشيت على نفسى » فقالت خديجة ـ رضى الله عنها ـ وهى تعدد صفات وخلق رسول الله العظيمة : « كلا والله لا يخزيك الله أبداً ؛ إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكَلّ ، وتكسب المعدوم وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الدهر »[1] .

---

(١) رواه البخارى .

هكذا كان الإيمان الأول من خديجة من فور أن عرفت خبر الوحى . ويطمئن الحق رسوله من بعد ذلك قائلاً :

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤ ﴾

(سورة الشرح)

وشرح الله صدر رسوله فصار هذا الصدر مهبط الأسرار والعلم وحط عن ظهر الرسول الكريم الأعباء الثقال ، وارتبط اسم الرسول صلى الله عليه وسلم بأصل الإيمان والعقيدة حتى صار اسم رسول الله مقروناً باسمه ـ جل شأنه ـ فى الشهادة الأولى للإسلام « أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله » .

إذن كان هذا حال رسول الله حين تجلَّى له المَلَكَ لا بالحقيقة الملكية ، ذلك أن هناك فارقاً بين البنيان البشرى والبنيان الملكى . فالبنيان البشرى يستقبل الأشياء المادية التى تناسب تكوينه ، فإن جاءت له طاقة أعلى منه فلا يمكنه أن يستقبلها إلا إذا أعد الله المَلَك وصوَّره بصورة تجعله قابلاً للإرسال ، وأعد الله الرسول ليكون قابلاً للاستقبال . ونعلم جميعاً قصة موسى لما جاء لميقات ربه ، وقال الله فى وصف ذلك اللقاء :

﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٤٣ ﴾

(سورة الأعراف)

والمانع لرؤية الله هو عدم قدرة الإنسان على الإحاطة البصرية بالله ، فعندما تجلى الله للجبل المتماسك الصلب صار الجبل دكاً ، أى مفتتاً وخر موسى عليه السلام مصعوقاً من هول ما رأى ، ولما أفاق تاب إلى الله وأعلن أنه أول المؤمنين به سبحانه . فإذا كان الإنسان قد صعق من تجلى الحق للجبل ، فكيف يقدر على أن يتجلى الحق له ؟

إننا نعلم أن كل تكوين له قدرة استقبال لما يناسبه من أشياء ، وضربنا لذلك مثلاً من دنيانا العملية ـ ولله المثل الأعلى دائماً وهو منزه عن كل مثال ـ نجد الإنسان منا عندما يدخل الكهرباء إلى بيته لرغبته فى الانتفاع بقانون النور والضوء لمدة أطول وبفوائد الكهرباء المتعددة ، ولكنه عندما يريد أن ينام فهو يطلب الانتفاع بقانون الظلمة ، فيطفىء المصابيح ، ويضع مصباحاً صغيراً لا يتحمل أن يأخذ الطاقة مباشرة من الكهرباء من مصدرها القوى ؛ لذلك يأتى الإنسان بمحول للطاقة فيستقبل المحول طاقة الكهرباء العالية من مصدرها ويخفضها بصورة تناسب المصباح الصغير . وهكذا نحتفظ بضوء ضعيف فى الليل لنستفيد من قانون الظلمة لننام .

وقد امتن الحق علينا أنه خلق النور وخلق الظلام ، وكل منهما له مهمة . فإذا كان خَلْقُ النور والضوء والكهرباء قد أتاح للإنسان بناء حضارة ، فالظلام أتاح للإنسان أن يرتاح وتسكن نفسه فيقوم ممتلئاً بالنشاط والحيوية . وإذا كنا نحتفظ فى الليل ببصيص نور لا يزعج ، فنحن نفعل ذلك حتى لا نحطم الأشياء أو نصطدم بها إذا ما قمنا فى الليل لقضاء حاجة .

وكذلك الإنسان . . إنه لا يستطيع بضعفه أن يأخذ عن الله مباشرة . ومن رحمة الحق بالخلق أن جعل بينه وبين الخلق وسائط ، بتلقى المَلَك عن الله ، والملك وسيط ، والمَلَك ينقل إلى الرسول المصطفى ، والرسول المصطفى وسيط ، ومن تغفيل أهل الكفر أنهم طالبوا بإنزال ملك رسول . ويرد الله عليهم فى موضع آخر من القرآن الكريم :

﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

لقد طالبوا ـ جهلا ـ أن ينزل إليهم ملك رسول بالهدى ، ويأمر الحق رسوله أن يرد عليهم بأنه لو كان بين البشر ملائكة . . أى لو كان هناك ملائكة يمشون فى الأرض لنزل إليهم الملك كرسول . ولما كان هذا غير حاصل ، فقد أرسل الحق

رسولاً من البشر ؛ لأن المفروض أن يُبلغ الرسول وأن يكون كذلك أسوة سلوكية للمنهج ، بأن يطبق المنهج على نفسه ، فلو نزل ملك كرسول وطبق المنهج على نفسه لقال له البشر : إنك مَلَك تقدر على ما لا نقدر عليه وأنت لا تصلح أسوة لنا ؛ لذلك كان لا بد أن يكون الرسول من جنس المرسل إليهم أنفسهم حتى يكون أسوة لهم وقدوة .

إن هذا هو ما يبطل الادعاء بألوهية عيسى عليه السلام أو بنوته لله ؛ لأن عيسى عليه السلام طالبهم أن يفعلوا مثله . وأراد الحق ببشرية الرسل أن يؤكد القدوة والأسوة فى الرسل ، ولذلك قال : « ولو أنزلنا ملكاً لقضى الأمر » ؛ لأن البشر لا يستطيعون استقبال إشعاعات وإشراقات المَلَك لأنهم غير معدِّين لاستقبال تلك الإشعاعات والإشراقات . ولذلك يقول الحق :

﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ ﴾

إذن فلو أراد الله أن يبعث رسولاً من الملائكة لجعله على هيئة البشر لعدم استطاعتهم معاينة المَلَك على صورته الأصلية ، وقد يهلكون عند رؤيته (وللبَسنا عليهم ما يلبسون) أى ولخلطنا عليهم بتمثيله رجلا ما يخلطون هم على أنفسهم فإنهم سيقولون ـ حينئذ ـ إنما أنت بشر ولست بملك ، وقد أنزل الله المَلَك على صورة البشر كما حدث من خليل الله إبراهيم عليه السلام يقول تعالى :

﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ ﴾

(سورة الحجر)

لقد أنزل الله الضيف من الملائكة على إبراهيم عليه السلام فخاف منهم بعد أن قرَّب العجل ورآهم لا يأكلون إلى أن قالوا له ما يطمئنه من خبر ببشارة من الله ، بأن

يولد له الغلام إسحاق من زوجته « سارة » بعد أن رزقه الله من قبل إسماعيل من « هاجر » .

وكذلك أنزل الحق إلى مريم البتول مَلَكا وتمثل لها بشراً سوياً لينبئها بحملها بعيسى عليه السلام . إذن فالمَلَكَ يتجسد فى صورة بشرية عندما يرسله الله فى مهمة إلى البشر ؛ لأن الملك لا يأتى إلى البشر على حقيقته . ومن امتنان الله على رسوله أنه أعطى له الفرصة ليرى جبريل على حقيقته مرة عند سدرة المنتهى ، ومرة حين تجسد له على هيئة دحية الكلبى ومرة فى صفة رجل مسافر جاء يسأل الرسول عن الإسلام والإيمان ، وحدثنا عنه عبدالله بن عمر قائلاً :

(حدثنى أبى عمر بن الخطاب قال : بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد حتى جلس إلى النبى صلى الله عليه وسلم فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه . قال : يا محمد ، أخبرنى عن الإسلام ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا . قال : صدقت . قال : فعجبنا له يسأله ويصدقه . قال : فأخبرنى عن الإيمان ؟ قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره . قال : صدقت . قال : فأخبرنى عن الإحسان ؟ قال : أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك . قال : فأخبرنى عن الساعة ؟ قال : ما المسئول عنها بأعلم من السائل . قال : فأخبرنى عن أمارتها ؟ قال : أن تلد الأمة ربتها وأن ترى الحفاة العراة العالة رِعاء الشاء يتطاولون فى البنيان . قال : ثم انطلق فلبثت ملياً ثم قال لى : يا عمر أتدرى من السائل ؟ قلت : الله ورسوله أعلم . قال : فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم)[1] .

---

(١) رواه مسلم فى كتاب الإيمان ، وهذا الحديث من الأحاديث التى تفرّد بها مسلم عن البخارى ورواه ابن حيان فى صحيحه وخَرَّجَا فى الصحيحين من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما بارزا للناس ، فأتاه رجل فقال : ما الإيمان فقال : الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه وبلقائه ورسله وتؤمن بالبعث الآخر . . . » إلخ ورواه أحمد فى مسنده ، ورواه الترمذى وفيه أنه بدأ بالسؤال عن الإيمان .

إذن ، فنحن ببشريتنا لا نستطيع رؤية الملَك إلا بعد أن يجسده الله بشراً . ولذلك قال الحق : « ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً وللبسنا عليهم ما يلبسون » إذن فاللبس موجود بدليل أن الله أرسل الملائكة فى صورة بشر لإبراهيم عليه السلام ومريم ابنة عمران ومحمد صلى الله عليه وسلم وهو جالس بين قومه .

ويسلى الحق سبحانه وتعالى رسوله من بعد ذلك قائلاً :

﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ ﴾

هنا يخبر الله رسوله أن أهل الكفر كثيراً ما سخروا من قبلُ بالرسل السابقين وأخزاهم الله بالعذاب الذى أنذر به أهل التكذيب للرسل ، فالذين يسخرون بخبر السماء يحيطهم سبحانه بالعذاب جزاء لما كانوا يستهزئون .

ويقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ﴾

نعلم أن الحق لم يقل أبداً : سيروا على الأرض ؛ لأن الأرض ظرف يسير فيه الإنسان ، والإنسان مظروف فى الأرض . وقد حدث هذا البلاغ من الله قبل أن نصل بالعلم إلى معرفة أن الأرض كروية ومعلقة فى الهواء ، والهواء يحيط بها ، وأن الهواء هو أقوات الإنسان بما فيه من أوكسجين وبما يغذى النبات من ثانى أوكسيد الكربون ، ونعلم أن الإنسان يصبر على الطعام لأسابيع ويصبر على الماء لأيام

ولا يصبر على انقطاع الهواء عنه للحظات . ولذلك لا يملِّك الله الهواء لأحد أبدا ، وهكذا عرفنا أن الهواء من جنس الأرض . وعندما يسير الإنسان فالهواء يحيطه ، وعلى ذلك فهو يسير فى الأرض . وهذا من الإعجاز الأدائى فى القرآن ونقرأ قوله الحق :

﴿ فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾

(من الآية ٣٦ سورة النحل)

وهنا فى سورة الأنعام يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

ما الفرق بين الاثنتين ؟ خصوصاً ونحن نعلم أن الفاء من حروف العطف وكذلك « ثم » هى أيضاً من حروف العطف وكلتاهما حرف يُفيد الترتيب ، ولكن الفارق أن الفاء تعنى الترتيب مع التعقيب أى من غير تراخٍ ومضى مدة . . مثل قولنا : جاء زيد فعمرو ، أى أن عَمْراً جاء من فور مجىء زيدٍ من غير مهلة . ولكن « ثم » تعنى طول المسافة الزمنية الفاصلة بين المعطوف والمعطوف عليه ، فعندما يقول الحق :

﴿ فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾

(من الآية ٣٦ سورة النحل)

فكأن النظر والتدبر هو المراد من السير وبذلك يكون سيرَ الاعتبار .

ويقول الحق : « قل سيروا فى الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين » يعنى أن الإنسان قد يسير فى الأرض للتجارة أو الزراعة أو لأى عمل ، وعليه أن يتفكر فى أثناء ذلك وأن يتأمل . إذن فهناك سير للاعتبار وسير للمصلحة . والسير للاعتبار يعنى أن يأخذ الإنسان العبرة مباشرة ، أما السير للمصلحة فهو أن يأخذ الإنسان العبرة ضمن المصلحة . وكان سير قريش بقوافلها إلى الشام واليمن يجعلها قادرة على أن ترى آثار المكذبين سواء من أهل ثمود أو قوم عاد أو غيرهم . وكان عليهم أن يأخذوا العبرة فى أثناء سعيهم لتجارتهم .

ويقول الحق لرسوله صلى الله عليه وسلم من بعد ذلك :

﴿ قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

كأن الحق يعلِّم رسوله السؤال والجواب ؛ حتى يتعلم الناس من خلال ذلك أن كُلَّ المُلْك لله ؛ لأنهم مهما بحثوا عن مالك للكون فلن يجدوا إلا الله ، حتى المكذبين منهم قال الحق عنهم :

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ﴾

(سورة العنكبوت)

وعلى الرغم من شركهم بالله لا يقدرون إلا على الإقرار بأن الله هو خالق كل شيء ؛ لأن الإنسان قد يغتر بما لذاته من اختيار ، لكن عندما ينظر لما يقع على ذاته من اضطرار فهو يتعرف فوراً على الإيمان . وقد يختار الإنسان أشياء لكنَّ هناك أحداثاً تقع عليه لا اختيار له فيها وذلك لينبه الحق خلقه أنه فعال لما يريد وأنه يحكم هذا الكون وأن الاختيار ما كان إلاّ ليختبر الإنسان نفسه باتباع تكاليف الله .

والأحداث ثلاثة : حدث يقع عليك ، وحدث يقع فيك ، وحدث يقع منك . وما يقع عليك ليس لك فيه اختيار ، وما يقع فيك لا اختيار لك فيه ، ولا يبقى لك إلا ثلث الأحداث وهو ما يقع منك . وأنت محكوم فى ذلك بقوسين لا اختيار لك فيهما : قوس الميلاد وقوس الموت ، إذن فالأمر كله لله .

ويطمئن الحق خلقه قائلاً : « كَتبَ على نفسه الرحمة » وهو قول ليُطَمِئن به الحقُّ عبادَه حتى لا يظن الناس أن الله يعاقبهم دون حساب ؛ لأنه الحليم ذو الفضل وهو القائل :

﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ ﴾

(من الآية ٥٨ سورة يونس)

ويعفو سبحانه عن الكثير ، وباب رحمته وفضله مفتوح ويفسح التوبة لكل عاصٍ . ومن فضل الله أنه جعل بعضاً من الكفار يقفون فى بداية الإسلام ضد المسلمين ثم يكونون من بعد ذلك سيوفاً للإسلام ، وسبحانه الرحيم الذى يجمعنا للحساب يوم القيامة الذى لا ريب فيه ولا شك ، ونسير جميعاً مدفوعين إلى ذلك اليوم ويأتى الكافر على رغم أنفه ، والمؤمن يتيقن رحمة الله وفضله ويفرح بلقاء ربه .

والكافر ـ والعياذ بالله ـ قد خسر نفسه بعمله مصداقا لقوله الحق : « الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون » وخسران النفس مترتب على عدم الإيمان ؛ لأننا لو نظرنا إلى الغايات وإلى الوسائل لوجدنا أن الوسيلة تأتى قبل الغاية ، ولكن فى التحضير العملى الغاية تتضح قبل الوسيلة ؛ فالذى يستذكر إنما يستحضر فى ذهنه الغاية وهى النجاح ، فيبذل الجهد لينجح ؛ لأننا نعلم أن كل شرط هو واقع بين أمرين ، بين جواب دافع ، وجواب واقع ؛ فالنجاح دافع للمذاكرة ، والمذاكرة تجعل النجاح واقعاً ، ويقول ابن الرومى :

ألا مَنْ يُرِينى غايتى قَبْلَ مَذْهبى
ومِنْ أين والغاياتُ بعد المذاهبِ ؟

وهذا القول منه غير سديد ؛ لأن الإنسان عليه أن ينتبه إلى الغاية وأن يتعرف على الوسيلة التى توصله إلى الغاية ، فإذا كانت الغاية أن يذهب الإنسان إلى الله ، والوسيلة هى المنهج ، فلماذا الحيرة إذن ؟ وهكذا نعلم أن الذين لم يؤمنوا قد خسروا أنفسهم لأنهم لم يميزوا الغاية الدافعة وهى الذهاب إلى الله والنزول على حكمه ، عن الغاية الواقعة وهى الوسيلة ، وسبحانه قد يسرها لعباده إذ قد أتى لهم بالمنهج الذى يسيرون عليه .

ويقول الحق سبحانه وتعالى من بعد ذلك :

﴿ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣﴾ ﴾

إن من عظمة الموجود الأعلى الواجب الوجود أنه يتكلم عن نفسه بضمير الغيب وهو سبحانه القائل فى أول بعض الآيات : « قل هو الله » .

و« قل » هى أمر ، فكأن الحق حين يقول : « هو » فلا يمكن أن تطلق « هو » إلا على الله ولا تنصرف إلا لله . « وله ما سكن فى الليل والنهار » وكلمة « سكن » هى من مادة السين والكاف والنون ، وتأتى لمعان متعددة ؛ فتكون من السكنى أى الاستيطان ، وتكون من السكون الذى هو ضد الحركة . والمثال على الاستيطان هو قول الله لآدم :

﴿ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ ﴾

(من الآية ٣٥ سورة البقرة)

إن الحق سبحانه يقول هنا : « وله ما سكن فى الليل والنهار » فكأن الليل والنهار ظرف ، وكل الوجود مظروف فيه . وظرفية الليل والنهار تأتى على ظرفية المكان وهو الأرض . وكل مكان فى الأرض يأتى عليه الليل والنهار . فإن أردنا الاستيطان فى السكن فهى موجودة ، وإن أردناها من السكون ـ وهو ضد الحركة ـ فهى موجودة ؛ ذلك أن كل متحرك يؤول إلى ساكن ، والإنسان سيد الحركة ثم يموت أو يسكن فى الأرض . وهكذا نرى أن الجنس الأعم الذى يشملهما معًا هو « ما سكن » ولذلك قال الحق :

﴿ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

وحينما يقول : « وله ما سكن فى الليل والنهار » ، فهو يتكلم عن الزمان ، واحتوائية الزمان للزمانيات ، أى للأشياء التى تحدث فى هذا الزمان . والإنسان كما نعلم حدث . وكل ما يطرأ عنه حدث ، وكل ما فى الكون حدث ، وقد أحدثه الحق الواجب الوجود .

ومادام الحدث قد وُجد فلا بد له من زمان ولا بد له من مكان . أما مكان الحدث فهو السماء والأرض ، وما بينهما . وأما زمان الحدث فهو الليل والنهار .

إذن فالحق قد تكلم عن خلق الزمان من بعد أن أعلن لنا أنه خالق المكان .

﴿ قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ ﴾

(من الآية ١٢ سورة الأنعام)

وهكذا نعلم أن الزمان والمكان قد وُجِدا عندما شاء الله أن يحدث هذا الكون . ولا تقل أبداً أيها الإنسان : أين كان الله قبل أن يخلق الكون ؟ ؛ لأن « أين » هى بحث عن مكان ، و« متى » هى بحث عن زمان . و« أين » و« متى » إنما وجدتا بعد وجود الحدث فى الكون . والكون هو ظرف قار أى شىء ثابت . والزمان هو ظرف غير قار ، لأنه يكون مرة ماضياً ، ومرة يكون حاضراً أو مستقبلاً .

والحق سبحانه عندما قال : « وله ما سكن فى الليل والنهار » أى أن له الظرفين : القار وغير القار . . أى له ـ سبحانه ـ الساكن وكذلك له ما يتحرك فى الكون ؛ لأن كل متحرك يؤول أمره إلى سكون . أو أن قوله الحق : « وله ما سكن فى الليل والنهار » أى ما حل فى الليل والنهار ، أى له سبحانه ما حل فى الليل والنهار متحركاً كان أو ساكناً .

والحق يذيل هذه الآية بقوله : « وهو السميع العليم » فالسمع متعلق بالمسموع أى الذى له حركة ، والعلم متعلق بالمسموع والمنظور والمشموم وكل شىء من آلات الإدراك ؛ لذا جاء قوله ـ سبحانه ـ : (وهو السميع العليم) ليشمل المتحرك والساكن ، فسبحانه لا يعزب ولا يغيب عنه شىء .

ونعلم أنه إذا أخبر الحق عن نفسه بصفة من صفات يوجد مثلها فى البشر فنحن نأخذها فى إطار « ليس كمثله شىء » . فأنت أيها الإنسان لك سمع فيقال عنك : سميع . ولك علم فيقال : عليم . ولك بصر فيقال : مبصر . ولك قدرة فيقال : قادر . وقد تكون ذا مال وفير فيقال : غنى . ولك وجود فيقال : موجود . وأنت حى فيقال : حى .

لكن أهذه الصفات التى فيك هى عين الصفات التى فى الله ؟ لا ؛ لأن صفات الله إنما نأخذها فى إطار « ليس كمثله شىء » . ونحن نشاهد ذلك فى أنفسنا ؛ فالإنسان منا له حال حياة ، وحال موت . وفى حال الحياة له حالتان : حالة يقظة ، وحالة نوم . وفى حالة اليقظة نحن نرى بقانون البصر ، ولهذا البصر حدود ؛ فهو محكوم بقانون الضوء ، وكذلك السمع محكوم بقانون الصوت والموجة والذبذبة .

ومع ذلك فالإنسان ينام ويغمض عينيه ويرى رؤيا فيها ألوان حمراء وخضراء وغيرها ، فبأى شيء أدركت الألوان وعينك مغمضة ؟ إذن فمادام فى البشر رؤيا بدون عين فلا تقل عن رؤيا الله لنا إن له عيوناً مثل عيوننا ، بل هو يرى فى إطار « ليس كمثله شيء » . إنه سبحانه وتعالى قيوم يحكم عبادَه فى الزمان والمكان فى حالة يقظتهم وفى حالة نومهم .

ومثال من حياتنا اليومية ، نحن نجد الرجل وزوجه ينامان فى فراش واحد ، وقد يرى الرجل فى المنام أنه يواجه أعداءه ، وترى الزوجة نفسها محاطة بسعادة الأبناء والأحفاد ، ويستيقظ كل منهما ليحكى ما رأى فى أكثر من ساعة ، على الرغم من أن مخ الإنسان لا يعمل فى أثناء النوم إلا لسبع ثوان .

إذن ، ففى النوم تلغى المعية وكذلك الزمن ، والمكان . فإذا كانت تلك هى القوانين التى تحكم الإنسان ، فعلينا أن نعرف أن خالق كل القوانين وهو الحق لا يمكن إدراك صفاته ، وعلينا أن نأخذها فى إطار : « ليس كمثله شيء » .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ ﴾

والهمزة هنا فى « أغير » يسمونها همزة الإنكار كقول قائل : أتسب أباك ؟ إنها ليست استفهاماً بقدر ما هى توبيخ ولوم . وكذلك : « أغير الله أتخذ ولياً » . أى أن الحق يأمر رسوله أن يستنكر اتخاذ ولى غير الله .

إن اتخاذ الله كولى هو أمر ضرورى ؛ لأن الإنسان تطرأ عليه أحداث تؤكد له أنه ضعيف وله أغيار ، وساعة ضعف الإنسان لا بد أن يأوى إلى من هو أشد منه قوة

ولا يتغير . إن الولى ـ وهو الله ـ قوته لا يمكن أن تصير ضعفاً ، وغناه لا يمكن أن ينقلب فقراً ، وعلمه لا يمكن أن يئول إلى جهل . إنه مُغيِّر ولا يتغير . ولذلك فمن نعمة الله على خلقه أنه جعل من نفسه وليّاً لهم ، فهو صاحب الأغيار .

والحق سبحانه وتعالى يعلِّم خلقه أن يكونوا أهل حكمة ؛ يضعون الأمور فى نصابها ويتوكلون عليه ، فهو الحى الذى لا يموت . ونلحظ أن الحق هنا يأمر رسوله بالبلاغ عنه . وتتجلى هنا دقة الأداء القرآنى فيأتى البلاغ كما نزل من الحق حرفياً . مثال ذلك قول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ﴾

(سورة الإخلاص)

ويبلغنا الرسول صلى الله عليه وسلم بالنص القرآنى كما نزل عليه ، مبتدئا بكلمة « قل » ويبلغه الرسول لنا بأمانة البلاغ عن ربه . وهو هنا يقول : « قل أغير الله أتخذ ولياً » . وهو الإله الذى جاءت كمالاته فى الآيات السابقة ؛ الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور وله ما سكن فى الليل والنهار ، هذا الإله الحق هو الجدير بالعبادة .

ويريد الحق لرسوله أن يستخرج من الناس الإجابة ، لا أن يقول هو : لا أتخذ وليا غير الله ، وسبحانه يأمر رسوله أن يسألهم : « قل أغير الله أتخذ ولياً » . وليكن السؤال مطروحاً منك يا رسول الله تبليغا عن الله ، وتعطى لهم الحرية فى الإجابة ، وسيكون الجواب كما تريد .

وعندما يسمع الإنسان مثل هذا السؤال لا بد أن يسأل نفسه ويدير عقله كى يجد جواباً . ولن يجد الإنسان جواباً سوى أن يقول : ليس لى وَلِىٌّ غير الله ؛ فالولى هو القريب الذى ينصر الإنسان فى ضعفه ، وإن استصرخه جاء لينقذه .

ولا يستصرخ الإنسان أحداً إلا إذا انتابه حادث جلل ، فإذا ما جاء القوى ليغيث صاحب الصرخة فهو يطمئن إلى أن من جاءه سيعينه ويخلصه . واتخاذ الولى أمر فطرى فى الكون ، والأمر المنكر أن يجعل الإنسان لنفسه ولياً غير الله . ونحن ـ المؤمنين ـ يتخذ بعضنا بعضاً أولياء فى إطار الولاية لله مصداقاً لقوله الحق :

﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ ﴾

(سورة التوبة)

ويتبادل المؤمنون والمؤمنات المحبة والنصرة طبقاً للتعاقد الإيمانى بينهم وبين الحق سبحانه وتعالى ، ويأمر بعضهم بعضاً بأوامر المنهج ، وينهى بعضهم بعضاً عن المحظورات التى حرمها الله ويتواصلون مع الحق بإقامة الصلاة . ويؤدون حق الله فى مالهم بالزكاة ، ويطيعون الله ويمتثلون أوامر رسوله ، وهم بذلك ينالون وعد الله الحق بالرحمة ، وهو سبحانه القادر على رعايتهم ، وهو حكيم فى صيانتهم ، عزيز لا يغلبه أحد .

إذن فأنت تطلب الولى لحظة الضعف ، ولحظة الشدة ، ولا يوجد إنسان استوت له كل زوايا الحياة فيصير قوياً لا يضعف أبداً ، أو يصير غنياً لا يفتقر أبداً . ونعلم أن الإنسان من الأغيار ، فلم نر قوياً ثبتت له قوته ، ولا غنياً ثبت له ثراؤه ؛ فالإنسان ابن الأغيار ، وتأتى له حالات فوق قدرته ؛ لذلك فهو يسأل عمن يعينه ويساعده . والمؤمن يحب أيضاً أن يكون قوياً ليساعد غيره ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى قد وزع المواهب على خلقه فى الكون ليضمن بقاء الولاية واستمراريتها ، فأنت فى احتياج إلى عمل إنسان آخر ؛ لأنك ضعيف فى ناحية وغيرك قوى فيها ، الطبيب يحتاج إلى المهندس ، والمهندس يحتاج إلى الطبيب ، والطبيب والمهندس يحتاجان إلى الفلاح ، والفلاح يحتاج إلى عمل المهندس والطبيب ، والطبيب والمهندس والفلاح يحتاجون إلى عمل المحامى .

هكذا وزع الله المواهب فى الكون ، ولم يجعل من إنسان مجمعاً لكل المواهب . وذلك حتى يتساند المجتمع لا بالتفضل والتكرم بل بتساند الحاجة . فكل إنسان هو سيد فى زاوية ما من زوايا الحياة ، وبقية الزوايا يسودها غيره من البشر ، ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ

﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾﴾

(من الآية ٣٢ سورة الزخرف)

هذا هو الإعلان من الله سبحانه وتعالى بأنه وزع المواهب بين البشر ليتساندوا ويُسخر بعضهم بعضاً فى قضاء حوائج بعضهم بعضًا لتنتظم أمور الحياة . وفى هذا التقسيم رحمة من الحق بالخلق . فلو تساوى الناس فى الذكاء ، وصاروا كلهم من العباقرة ، فمن هو الذى سيتولى أمور تنظيم الشوارع ؟ ومن الذى سيقوم بأعمال وصيانة المبانى ورعاية وإطعام الحيوان والقيام على أمره ونحو ذلك من الأمور التى لا تنتظم الحياة إلا بها ؟ .

وكلنا يرى الرجل الذى ينزح آبار المجارى ويخرج فى الصباح قائلاً : يا فتاح يا عليم ، يارزاق يا كريم . ويطلب بئراً جديداً من المجارى لينزحه حتى يكسب قوت نفسه وعياله . وكل منا مضطر ومحتاج إلى غيره ، وهذا هو معنى :

﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾

(من الآية ٣٢ سورة الزخرف)

إذن فاتخاذ الولى هو أمر فطرى . والإيمان بالله يعطينا ذكاء اختيار الولى . فالإنسان المؤمن عليه أن يختار الولى الذى يجده عندما يحتاج إليه ؛ لذلك فعليه أن يختار ولاية الله ، ولا يختار ولاية الأغيار . فيسخر الله للمؤمن حتى عدوه ليخدمه . لذلك يبلغنا الحق على لسان رسوله : « قل أغير الله أتخذ ولياً » والذين ينكرون علينا أن نتخذ الله وليا ويريدون أن نتخذ غيره يرون فى أنفسهم المثل . . فقد يخيب رجاؤهم ، فالإنسان منهم قد يتخذ إنساناً مثله ولياً ، وساعة يحتاج إليه يجده مريضاً ، أو غائباً أو تغير قلبه عليه ، لكن المؤمن يختار الله وليه لأنه الذى لا يغيب ولا يتغير ، ولا يضعف . ولا ينكر القرآن أن يتخذ الإنسان له ولياً من البشر ، ولكن الحق يدلنا على أنه الولى الحق ، وأن المؤمن عليه أن يتخذ إخوته المؤمنين أولياء له ؛ لأنها ولاية من الله وفى الله .

وأنت أيها المسلم حين تختار الحق سبحانه وتعالى ولياً لك فهو الذى يُحْضر لك كل زوايا المواهب ويعدُّها ويهيئها لتكون فى خدمتك ؛ لأنه سبحانه وتعالى « فاطر السموات والأرض وهو يطعم ولا يطعم » وقد خلق الحق السموات والأرض على غير

مثال . وسبحانه قد أبدع هذا الكون دون نموذج مسبق . وحين أراد سيدنا عيسى عليه السلام أن يثبت لقومه معجزته جاء بالطين وجعله كهيئة الطير ، إذن فهناك مثال سبقه ووجده واتبعه . وعيسى إنسان من الخلق ، أما خالق كل الخلق فقد خلق السموات والأرض على غير مثال . وأنت أيها الإنسان قد لا تلتفت إلى مسألة خلق السموات والأرض لأنك تراهما كل لحظة بصورة رتيبة ، وقد تظن أنها مسألة سهلة ، ولكن الحق سبحانه يقول :

﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾

(سورة غافر)

وهو سبحانه يقسم أن خلق السموات والأرض مسألة أكبر وأدق من خلق الناس لكن أكثر الناس لا تعلم ذلك .

فسبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾

(سورة الذاريات)

وفى قوله (وإنا لموسعون) إشارة إلى خلق هذا الكون المرئى وغير المرئى ؛ لأن هناك الكثير من الأجرام والمجموعات الشمسية ، وما وراء ذلك من اتساع ذلك الكون ما لا يدركه العقل ولا يمكنه تحديده ، وهذه السعة المذهلة هى من قدرة الله سبحانه وتعالى . (وإنا لموسعون) .

ونجد الحق يستخدم كلمة : « فاطر » مرة فى شىء مُصْلِح ، وأخرى فى شىء مفسد . والمثال للشىء المصلح هو ما يقوله الحق هنا : « فاطر السموات والأرض » أى أنه خالق السموات والأرض على غير مثال سابق وباقتدار محكم .

ويقول الحق سبحانه فى موضع آخر :

﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴿١﴾ ﴾

(سورة الانفطار)

أى أن الحق ينبه هنا إلى يوم الهول الأعظم الذى تنشق فيه السماء وتتساقط فيه

الكواكب فلا يؤدى أى شىء منها مهمته ؛ لأن الله ـ سبحانه ـ سلبها ما كانت به صالحة .

ويقول أيضاً :

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ﴾

(سورة الملك)

فالحق لا يعجز عن شىء ، وهو الخالق لسبع سموات بإتقان بعضها فوق بعض ، فلا يرى الناظر أى خلل فى هذا الخلق ، وليُعِد الإنسان النظر إلى السماء فلن يجد أى خلل من شقوق أو فروق .

و« فطور » هنا معناها شقوق . إذن فالحق ـ بتمام قدرته ـ يعطى الشىء من الصفات ما يجعله صالحا لأداء ما خُلِق له فلا يظنن ظان أنه خرج عن قدرة خالقه ـ سبحانه ـ وخلق السموات والأرض بتمام إبداع وإحكام ، وهو القادر على أن يفطرهما ويجعلهما غير صالحتين فى أى وقت شاء ، ومثلهما الشمس تُكَوَّر ، والنجوم تُطْمَس ، والجبال تنسف .

وقال عالم من العلماء : ما فهمت كلمة « فاطر » إلا حين جاء أعرابى ، وقال : فلان ينازعنى فى بئر أنا فطرته . أى أن الأعرابى هو الذى بدأ حفر البئر . إذن فاطر السموات والأرض . . أى الذى خلقهما على غير مثال . وسبحانه وتعالى القائل :

﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۚ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

(سورة الأنبياء)

وهذا القول الحكيم لم يصل إلى فهمه العميق من سبقونا ، لكن إنسان هذا العصر الذى نعيشه فهمها بعد أن توصل العلماء إلى أن السموات والأرض كانتا كتلة واحدة وفصلَهُما الحق بإرادته . وجعل من الماء حياة لكل كائن حى .

إذن هو سبحانه قادر على كل شىء ، ولا يخرج شىء عن نطاق قدرته . وهو

سبحانه قبل أن يمتن علينا بخلق الحياة فهو يحذرنا أن يأخذنا الغرور بهذه الحياة ، ولذلك قال :

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ۝٢ ﴾

(سورة الملك)

وكأنه ينبه الإنسان إلى أن يستقبل الحياة ، ليعرف أنه سبحانه أوجد ناقض الحياة وهو الموت ، فإياك أن تأخذ الحياة على أنها تعطيك قوة الحركة والإدراك والإرادة برتابة وأبدية ؛ لأن هناك ناقض الحياة وهو الموت .

وها هوذا سبحانه يقول فى موضع آخر من القرآن الكريم :

﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ۝٥٨ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ۝٥٩ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۝٦٠ عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٦١ ﴾

(سورة الواقعة)

والإنسان لا يرى الحيوانات المنوية المقذوفة منه فى رحم زوجه ، ولا أحد يقدر على ذلك ويرعاه حتى يصير جنينا ثم بشرا ، ولكن الحق هو المقدر والخالق ، إنّه القادر الذى أعطانا الحياة وقدّر علينا الموت ولا غالب له ، إنه يبدل صورنا حين يريد ، ويخلق غيرنا وينشئنا فى صور لا نعرفها ، وهو الواهب للحياة ، وهو الذى ينزعها بالموت .

ويقول لنا :

﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ۝٦٣ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ۝٦٤ ﴾

(سورة الواقعة)

هنا ينبهنا جل وعلا إلى أن الزرع الذى نأكله ، والثمار التى نجنيها من الأرض ليس لنا فيها إلا إلقاء البذور ، وهو سبحانه الذى أودع فى البذرة عجائب مختزنة ، ففى البذرة ما يقيتها إلى أن يوجد لها جذير يمتص غذاءها من الأرض ، فتنمو لها

ساق ، ثم تقوى الجذور ، وتشتد الساق . ولا عمل للإنسان إلا إلقاء البذرة وحرث الأرض . ومع ذلك احترم الحق عمل الإنسان فقال :

﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾

(سورة الواقعة)

وعن الماء يقول الحق :

﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾

(سورة الواقعة)

هذا الماء العذب الذى نشربه إنما أنزله الله من السحاب الممطر . وعملية الإمطار هذه غاية فى التعقيد . والماء السارى فى الأنهار إنما جاء من المطر الذى تم إنزاله من السماء . فقد أرسل الحق أشعة الشمس لتبخر الماء من البحار ، وتتجمع فى سحب ثم يجرى الله عليها أمره من مرور تيارات هواء باردة فتسقط مطرا .

ونحن عندما نقطّر كوب ماء فى معمل ، نأتى بموقد وإناء ووقود ، ونضع الماء المراد تقطيره فيتبخر ، ثم نكثف قطرات البخار بواسطة تيار من الهواء البارد . ومثل هذه العملية تكلفنا الكثير من العمل الذهنى والمادى لبناء مثل هذا الجهاز حتى نقطر كوباً من الماء ، فما بالنا بالمطر الذى ينزل مدراراً وسيولاً .

إننا نجد ثلاثة أرباع الكرة الأرضية من ماء ، إنه ـ سبحانه ـ بسطه على رقعة واسعة ، حتى يسهل البخر . وإذا ما نثرنا كوب ماء على سطح متسع فى أبرد مكان فلسوف يتبخر . وهذا الانتشار المسطح للمياه هو الذى يسهل عملية البخر .

ويصعد البخار من مياه المحيطات والبحر إلى أعالى الجو ثم يتكثف فى صورة قطرات صغيرة من الماء تتساقط كمطر يتفاوت من منطقة إلى أخرى . وسبحانه قد أعدّ لكل أمر عدته . وهو أيضاً القادر على أن يذهب صلاح هذا الماء .

ويقول لنا الحق :

﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَـٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَـٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾

(سورة الواقعة)

ويذكرنا هنا سبحانه بأنه الذى خلق النار التى نشعلها ، وقد جاء بالمصدر الأول للوقود ، وهى الأخشاب التى كانت أشجاراً خضراء وبعد ذلك جفت وصارت أخشاباً نوقدها ونشعل فيها النار . وفى كل ذلك تتجلّى لنا قدرة الحق سبحانه وتعالى ، فنسبح باسمه العظيم :

﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ﴾

(سورة الواقعة)

وننزهه سبحانه وتعالى عن أن يكون له شريك فى أمور الخلق والكون .

إذن فعندما يقول الحق سبحانه مبلغاً رسوله :

﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا ﴾

(من الآية ١٤ سورة الأنعام)

هذا السؤال يجبرنا على أن ندير أمر اختيار الولى فى رءوسنا وأن نُعْمِلَ أفكارنا ، وأن نعرف أن اتخاذ الولى أمر وارد على النفس البشرية ، ولكن من الذى يستحق أن نتخذه وليّاً ؟ ونجد فى تربية الحق لنا ما يعيننا على استبناط الفكرة السليمة والرأى الرشيد حين يقول لنا :

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ ﴾

(من الآية ٥٨ سورة الفرقان)

ونعلم أن الإنسان لو اتخذ وليّاً من البشر فهذا البشر عرضة للموت ، فتحس أيها الإنسان أنك وحيد فى هذا الكون ، ولكنك عندما تتوكل على الله فهو حىّ لا يموت أبداً ، وهو سبحانه : « فاطر السموات والأرض وهو يطعم ولا يطعم » وهو الذى خلق السموات والأرض على غير مثال ، وهو الذى يطعمنا من مطمور كنوز الأرض التى أرادها قوتاً لنا . ولماذا جاء الحق هنا بمسألة الطعام ؟ إن الطعام لون من الرزق ،

والرزق ـ كما نعلم ـ رزق ينتفع به مباشرة ؛ ورزق يأتى لنا بما ننتفع به مباشرة . فلو أن إنساناً فى صحراء ومعه جبل من الذهب الخالص ولم يجد كوب ماء ولا رغيف خبز ، فجبل الذهب لا يساوى شيئاً .

إن جبل الذهب رزق ولكن لا ينتفع به مباشرة . والرزق الذى ننتفع به مباشرة هو الطعام والشراب والكسوة . ونحن نحتاج إلى الطعام والشراب كل يوم ، ونحتاج إلى ملابس جديدة مرة كل ستة أشهر فى المتوسط . إذن فالرزق المباشر هو المقوّم الأساسى للحياة .

والولى الذى ينصر لابد أن تتوافر فيه القدرة على الإطعام الذى يمدنا بالقدرة التى هى أساس الحياة إنها طاقة استمرار الإنسان على الأرض. فالأم تطعم طفلها وهى تَطْعَم أيضاً بما يأتيها زوجها من طعام . والحق سبحانه وتعالى وحده هو الذى يُطعم كل الخلق ولا يُطعمه أحد . وحينما نسلسل كل عطاء فى الدنيا نجده يئول إلى الله تعالى .

إذن فلا تجعل وليّك فى الوسائط ، بل اجعله فى الغايات ؛ لأن الوسائط كلها راجعة فى الحقيقة إلى الله ، ويأتى الأمر من الحق لرسوله : « قل إنى أمرت أن أكون أول من أسلم ولا تكونن من المشركين » .

وهذا الأمر يجىء من الأمر الأعلى وهو الله . فالرسول لم يقل : إن هذا الأمر منه ؛ لأنه بشر مثلنا ، وسبحانه أبلغ رسولنا أن يكون هو أول من أسلم ، وأن ينال شرف الالتزام بمبادىء الإسلام ، والمثال على ذلك أن كل قائد مسلم هو القدوة لغيره ، فها هوذا طارق بن زياد الذى فتح الأندلس وهى مُلْك عريض ، ونزل من السفن وقال لجنوده : أنا لم آمركم أمراً أنا عنه بنجوةٍ ـ أى أنا بعيد عنه ـ بل أنا معكم ، واعلموا أنى عندما يلتقى الجمعان حامل بنفسى على طاغية القوم « لزريق » فقاتِلُهُ إن شاء الله . إنه لم يأمر بأمر لم يطبقه على نفسه ، بل طبقه على نفسه أولاً ، وآفة الأوامر أن كل إنسان يأمر أمراً ولا يطبقه على نفسه .

ومن قبل ذلك كان سيدنا عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ قد حكم نفسه أولاً فحكم الدنيا ، لقد جمع أقاربه أولاً وقال لهم : إنى سأشرع للمسلمين ، والذى

نفسى بيده من خالفنى منكم إلى شىء فيه لأجعلنه نكالا للمسلمين .

لقد أراد عمر ـ رضوان الله عليه ـ أن يَحْكم أقاربه أولاً ضارباً المثل لولى أى أمر ليحكم أقاربه أولاً ، وأن يحذرهم أن يستغلوا اسمه ، ليستقيم الأمر بين المسلمين ؛ لأن الآفة أننا نجد الكثير من الناس تتكلم فى الإسلام ، ويريد كل إنسان من غيره أن يكونوا مسلمين بينما هو لا يطبق على نفسه مبادىء الإسلام . والحق سبحانه وتعالى أنزل لرسوله الأمر : « قل إنى أمرت أن أكون أول من أسلم ولا تكونن من المشركين » .

ومعنى « أسلم » أى ألقى زمام حياته إلى من يثق فى حكمته وعدله وهو الحق سبحانه وتعالى. وعندما كنا صغارا كنا نلقى زمام أمورنا لمن يتولى تربيتنا، ونرى الآباء والأمهات وهم يتعبون ويشقون ، نطيع أوامرهم إلى أن نصل إلى المراهقة فتنمو فينا الذاتية ، ونجدالمراهق وهو يرفض مثلاً ارتداء البنطلون القصير ويرتدى البنطلون الطويل . ويختار ألوان ملابسه فى ضوء الأزياء الحديثة السائدة . وبعد ذلك يبدأ الشاب فى إدارة أموره بنفسه .

وآفة حياتنا أننا نهمل تربية الأبناء وهم صغار ، ثم نأتى لنقول : هيا لنربى الشباب متناسين أن الشباب مرحلة تمتلىء بطاقة يمكن أن يستغلها المجتمع ، والتربية السليمة زمانها الطفولة . « قل إنى أمرت أن أكون أول من أسلم ولا تكونن من المشركين » . وها هوذا سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ينقل عن رب العزة ، ويخبرنا أنه صلى الله عليه وسلم أول المسلمين ، وأنه تلقى الأمر بعدم الشرك بالله .

فإياكم أيها المسلمون أن تتعاظموا على مثل هذا الأمر ؛ لأن المصطفى المختار هو أول من أمره الحق بذلك ، وإياك أيها المسلم أن تجد غضاضة فى أن تتلقى أمراً من خالقك ؛ لأن الغضاضة قد تأتيك عندما يصدر إليك أمرٌ من مساوٍ لك ، لكن التوجيه الصادر من الحق لا بد أن يلزمك وترتضيه نَفْسُك ويطمئن به قلبك ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم يجهد نفسه عندما يقابل حادثة ليس فيها حكم الله ، ويأتى الرسول صلى الله عليه وسلم بحكم من عنده ، فإن كان الحكم صحيحاً فإن الحق ينزل من القرآن ما يؤكده ، وإن احتاج الحكم إلى تعديل ، فإن الحق سبحانه ينزل التعديل اللازم للحكم ، ويبلغنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بتعديل الحق

سبحانه وتعالى له ولا يجد غضاضة فى ذلك ، بل يبلغنا ببشاشة وصدق وأمانة أنَّه البلاغ عن الله .

والحق سبحانه وتعالى قد مَنَّ على رسوله صلى الله عليه وسلم عندما لم يعدل فى الحكم احتراماً لاجتهاده صلى الله عليه وسلم فيقول سبحانه :

﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾﴾

(سورة التوبة)

لقد أذن رسول الله صلى الله عليه وسلم لبعض المنافقين بالتخلف عن القتال قبل أن يتبين أمرهم ليعلم الصادق منهم ـ فى عذره ـ من الكاذب . وجاء العفو من الله لأن الرسول صلى الله عليه وسلم اجتهد ببشريته وأبلغنا الرسول بما أنزله الله .

ونحن فى حياتنا اليومية ـ ولله المثل الأعلى ـ نفتح كراسة الابن فنجد أن فيها شطباً بالقلم الأحمر ، فنسأل الابن : من الذى فعل ذلك ؟ فيقول الابن : صوب لى المدرس الأول هذا الموضوع . هو لم يتحدث عن تصويب المدرس ، ولكن عن تصويب من هو أعلى من المدرس . وهذا شرف للتلميذ . فما بالنا بالمصوِّب الأعلى سبحانه وتعالى . وهاهوذا الرسول صلى الله عليه وسلم يتلقى عن الله :

﴿قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾﴾

إنه الرسول المصطفى والمجتبى والمعصوم يعلن أنه يخاف الله ؛ لأن قدر الله لا يملكه أحد ، ولا يغير قدر الله إلا الله سبحانه وتعالى ، وقد علق الخوف على شرط هو عصيان الله . لكن مادام لم يعص ربه فهو لا يخاف . ووجود « إن » يدل على تعليقٍ على شرط ولا يتأتى ذلك من الرسول المعصوم لأنه لا يعصى الله .

وقد أراد الحق أن يبين لنا أن المعصوم لا يتأتى منه عصيان الله . لكن هذا القول

يأتى على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم لنعلم أن هناك عذاباً عظيماً توعد به الله من يعصيه . وهو عذاب يلح على العاصى حتى يأتى إليه . ولهذا العذاب خاصية أن تكون بينه وبين العاصى جاذبية كجاذبية المغناطيس لغيره من المواد . ونجاة الإنسان من العذاب تحتاج إلى من يصرف عنه هذا اللون القاسى من العذاب ، يقول الحق سبحانه عنه :

﴿ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ ﴾

فكأن من لا يُصرف عنه هذا العذاب هو من ينجذب إلى قوة العذاب ؛ لأن لنار جهنم شهيقاً يجذب ويسحب إليه الذين قُدِّرَ عليهم العذاب ويقول سبحانه :

﴿ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ﴿٧﴾ ﴾

(سورة الملك)

والذين يكفرون بالله لهم العذاب الذى يبدأ بسماع شهيق جهنم فى أثناء فورانها . والشهيق كما تعلم هو قوة تجذب وتسحب الهواء إلى الأنف والصدر ، فما بالنا بقوة شهيق جهنم وهى تسحب وتجذب الذين وقع عليهم الأمر بالعذاب ؟

وهذه النار نفسها ترد على سؤال الحق لها عندما تسمع قوله :

﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ ﴾

(سورة ق)

إذن فقوة العذاب التى جعلها الله مهمة لجهنم هى التى تلح وتندفع لطلب المزيد من عقاب الكافرين . وسبحانه خلق كل شىء ليؤدى مهمة ، والنار مهمتها أن تمتثل لأمر الحق تبارك وتعالى عندما يأمرها بمباشرة مهمتها ؛ لذلك فهى تلح فى طلب الذين سيتلقون العذاب ، ولا تخرج النار أبدا عن أمر الله وقدره ، فإن صَرَف الحق

العذاب عن عبد من العباد فالنار تمتثل لذلك الأمر . « من يصرف عنه يومئذٍ فقد رحمه » وسبحانه فعال لما يريد ، وهو إن حاسبنا بالعدل فكل منا سيمسه شيء من عذاب جهنم ؛ ولكن رحمة الله هى التى تجعل النار لا تمس المؤمنين ؛ لأنه سبحانه وتعالى يعفو عن كثير ؛ ولأن للنار شهيقا ، فهى تستنشق المكتوب عليهم العذاب ، ونعلم أن الشهيق يتم بسرعة أكبر من الزفير . والشهيق فى الحياة يكون للهواء .

والسبب ازدياد سرعة الشهيق عن الزفير أن فى الشهيق مهمة استدامة الحياة الأولى وهى إمداد الجسم بالهواء ، والإنسان ـ كما نعلم ـ لا يصبر على الهواء إلا لأقل مدة ممكنة . ومن رحمة الله أنه لم يملِّك الهواء لأحد . وهذا الشهيق الذى يعطى الحياة فى الأرض يوجد ـ أيضا ـ فى الآخرة وهو منسوب إلى النار ، إنها تشهق لتبتلع العصاة ، وهى بذلك تؤدى مهمتها الموكولة لها . ونعرف أيضاً أن النار تؤدى مهمتها بغيظ طبقاً لما قاله الحق سبحانه :

﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ﴾

(من الآية ٨ سورة الملك)

فهل تؤدى النار مهمتها وهى غير راضية عنها ؟ وهل تختلف النار عن كل كائنات الحق التى تؤدى مهمتها بسعادة وانسجام ؟ إن النار تَمَيَّزُ من الغيظ لأن الكافر من هؤلاء لم يعرف قيمة الإيمان ، وللنار مشاعرمثل بقية المخلوقات . وللكون كله مشاعر ؛ فالكون ـ على سبيل المثال ـ قد فرح بميلاد محمد صلى الله عليه وسلم ؛ فالأرض والسماء والنجوم والشجر وكل الكون فرحت بمقدم الرسول الكريم ؛ لأن كل هذه الكائنات مسخرة للإنسان وهى مسبحة لله وطائعة بطبيعتها ، مثلما يأتى البشير ليهدى الإنسان إلى الصراط المستقيم ليجعله طائعاً ، فهى تفرح بمقدم هذا البشير .

ونعرف أن المكان الذى يوجد به الإنسان ، هذا المكان يفرح إن كان الإنسان فيه طائعاً ، وهذا المكان نفسه يحزن إن كان الإنسان عاصياً ، ويضج المكان ـ أى مكان ـ بوجود أى عاصٍ فيه . ونرى ذلك واضحاً فى قول الحق سبحانه وتعالى عن قوم فرعون :

﴿ كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا

فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

(سورة الدخان)

والأرض التى كان بها قوم فرعون كان لها مشاعر ، والجنات والأنهار والعيون وكل النعم التى ينعم بها الإنسان لها مشاعر وأحاسيس ، وهى تغضب وتسخط وتضج بوجود الكافرين بنعمة الله فيها ، ولذلك لا تبكى السماء والأرض على الخسف والتنكيل بهؤلاء العصاة الكافرين المشركين ، بينما تبكى السماء والأرض إن فارقها مؤمن ، ولنا فى قول الإمام على ـ كرم الله وجهه ـ إيضاح لهذا ؛ فقد قال : إذا مات المؤمن بكى عليه موضعان : موضع فى السماء ، وموضع فى الأرض . أما موضعه فى السماء فهو مصعد عمله الطيب ، وأما موضعه فى الأرض فهو موضع مُصلاّه .

وفى الحديث : « إذا مات أحدكم عُرض عليه مقعد بالغداة والعشى ، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة ، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار ، يقال له : هذا مقعدك حتى يبعثك الله إليه يوم القيامة »(١) .

إذن فموضع صعود عمل الإنسان فى السماء يحزن ؛ لأن هناك فقداناً لعمل صالح يمر فيه ، وموضع صلاة الإنسان يفقد سجود إنسان خشوعاً لله ، ولكل الكائنات المخلوقة لله مشاعر ، وكل شىء فى الكون يؤدى مهمته بقانون التسيير والتسخير لا قانون التخيير ، الإنسان ـ فقط ـ هو الذى يحيا بقانون التخيير فى بعض أحواله ؛ لأنه قادر على الطاعة ، وقادر على المعصية . ولذلك فعندما نرى السجود لله فى القرآن فإننا نسمع قول الحق :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿١٨﴾ ﴾

(سورة الحج)

---

(١) رواه البخارى ومسلم والترمذى وابن ماجه عن ابن عمر .

إذن فكل الكائنات تسجد له ماعدا كل أفراد الإنسان ؛ فكثير منه يسجد لله وكثير منه يحق عليه العذاب لأنه لا يطيع الحق . ومن يعص منهج الله غير مؤمن به يطرده الله من رحمته ، ومن يهنه الله بذلك فليس له تكريم أبداً . وقد أجمع الكون على السجود لله ، إلا الإنسان فمنه الصالح المنسجم بعمله مع خضوع الكون لله ، ويفرح به الكون ، ومنه من يغضب منه الكون لأنه يعصى الله .

إن اللغة العربية توضح لنا ذلك ؛ فالعرب يقولون : فلان نَبَتْ به الأرض من النَّبْوَة وهى الجفوة والبعد والإعراض . . أى أن الأرض تكره شخصاً بعينه ؛ لأنه لا انسجام للأرض مع كائن عاصٍ .

ويقول الحق عن الذين يصرف عنهم العذاب من فرط رحمته بعباده لأنهم أطاعوه وكانت معاصيهم تغلبهم فى بعض الأحيان فيتوبون عنها :

﴿ مَن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

ونعلم أن هذا الفوز هو أرقى درجات الفوز ؛ ذلك أن الفوز درجات ؛ فالفوز فى الدنيا كالنجاح أو المال أو غير ذلك هو فوز مُعرَّض لأن يضيع . وهو عُرضة لأن يترك الإنسان أو يتركه الإنسان ، لكن فوز الآخرة هو الفوز الدائم الذى لا ينتهى .

وهذا هو الفارق بين نعم الدنيا ونعم الآخرة ، والإنسان يتنعم فى الدنيا على قدر تصوره للنعيم ، فنجد الريفى ـ مثلاً ـ يتصور النعيم أن تكون له مِصطبة أمام داره يجلس عليها ، وعدد من القلل التى تمتلىء بالماء النقى ، فإذا ما انتقل هذا الريفى إلى المدينة فهو يتصور النعيمَ فى منزل متسع فيه أثاث فاخر وأدوات كهربائية من ثلاجة وغير ذلك ، إذن فإمكانات النعيم مختلفة على حسب تصور الإنسان ، أما نعيم الآخرة فهو نعيم لا يفوته الإنسان ولا يفوت الإنسان ؛ لأنه نعيم من صنع الخالق الواسع العطاء . . إن الجنة فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، ولذلك فالفوز بنعيم الآخرة هو الفوز المبين .

والحق سبحانه وتعالى هو المحيط بكل شىء عِلْمًا واقتدراً :

﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ ﴾

والضر هو ما يصيب الكائن الحى مما يخرجه عن استقامة حياته وحاله . فعندما يعيش الإنسان بغير شكوى أو مرض ويشعر بتمام العافية فهو يعرف أنه سليم الصحة ؛ لأنه لا يشعر بألم فى عيونه أو ضيق فى تنفسه أو غير ذلك ، لكن ساعة يؤلمه عضو من أعضاء جسمه فهو يضع يده عليه ويشكو ويفكر فى الذهاب إلى الطبيب . إذن فاستقامة الصحة بالنسبة للإنسان هى رتابة عمل كل عضو فيه بصورة لا تلفته إلى شىء .

ويلفت الحق أصحاب النعم عندما يرون إنساناً من حولهم وقد فقد نعمة ما ، فساعة تسير فى الشارع وترى إنسانا فقد ساقه فأنت تقول : « الحمد لله » لأنك سليم الساقين . كأنك لا تدرك نعمة الله فى بعضٍ منك إلا إن رأيتها مفقودة فى سواك . وهكذا نعلم أن من الآلام والآفات منبهاتٌ للنعم . وأيضاً قد تصيب منغصات الحياة الإنسان ليعلم أنه لم يأخذ نعم الله كلها فيقول العبد لحظتها : يا مفرج الكروب يارب ، ولذلك تجد الإنسان يقول : « يارب » حينما تأتيه آفة فى نفسه ويفزع إلى الله . وقد قالها الله عن الإنسان :

﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

(سورة يونس)

فالإنسان عندما يحس ضعفه إذا ما أصابه مكروه لا يمل دعاء الله ، سواء أكان الإنسان مضطجعا أم قاعداً أم قائماً ، وعندما يكشف الحق عنه الضر قد ينصرف عن جانب الله ، ويستأنف عصيان الله وكأنه لم يدع الله إلى كشف الضر ، وهذا هو سلوك المسرفين على أنفسهم بعصيان الله . والنفس أو الشيطان تزين للعاصى بعد انكشاف الضر أن يغوص أكثر وأكثر فى آبار المعاصى وحمأة الرذيلة .

وقد ينسب الإنسان كشف الضر لغير الله ، فينسب انكشاف الضر إلى مهارة

الطبيب الذى لجأ إليه ، ناسياً أن مهارة الطبيب هى من نعم الله . أو ينسب أسباب خروجه من كربه إلى ما آتاه الله من علم أو مال ، ناسياً أن الله هو واهب كل شيء ، كما فعل قارون الذى ظن أن ماله قد جاءه من تعبه وكده وعلمه ومهارته ، ناسياً أن الحق هو مسبب كل الأسباب ، ضرًا أو نفعا ، فسبحانه هو الذى يسبب الضر كما يسبب النفع .

ويلفت الضر الإنسان إلى نعم الحق سبحانه وتعالى فى هذه الدنيا . وإذا ما رضى الإنسان وصبر فإن الله يرفع عنه الضر ؛ لأن الضر لا يستمر على الإنسان إلا إذا قابله بالسخط وعدم الرضا بقدر الله . ولا يرفع الحق قضاء فى الخلق إلا أن يرضى خلق الله بما أنزل الله ، والذى لا يقبل المصائب هو من تستمر معه المصائب ، أما الذى يريد أن يرفع الله عنه القضاء فليقبل القضاء .

إن الحق سبحانه يعطينا نماذج على مثل هذا الأمر ؛ فهاهوذا سيدنا إبراهيم عليه السلام يتلقى الأمر بذبح ابنه الوحيد ، ويأتيه هذا الأمر بشكل قد يراه غير المؤمن بقضاء الله شديد القسوة ، فقد كان على إبراهيم أن يذبح ابنه بنفسه ، وهذا ارتقاء فى الابتلاء . ولم يلتمس إبراهيم خليل الرحمن عذراً ليهرب من ابتلاء الله له ، ولم يقل : إنها مجرد رؤيا وليست وحياً ولكنها حق ، وقد جاءه الأمر بأهون تكليف وهو الرؤيا ، وبأشق تكليف وهو ذبح الابن ، ونرى عظمة النبوة فى استقبال أوامر الحق . ويلهمه الله أن يشرك ابنه إسماعيل فى استقبال الثواب بالرضا بالقضاء :

﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾

(سورة الصافات)

لقد بلغ إسماعيل عمر السعى فى مطالب الحياة مع أبيه حين جاء الأمر فى المنام لإبراهيم بأن يذبح ابنه ، وامتلأ قلب إسماعيل بالرضا بقضاء الله ولم ينشغل بالحقد على أبيه . ولم يقاوم ، ولم يدخل فى معركة ، بل قال :

﴿ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ﴾

(من الآية ١٠٢ سورة الصافات)

لقد أخذ الاثنان أمر الله بقبولٍ ورضا ؛ لذلك يقول الحق عنهما معاً :

﴿ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَـٰدَيْنَـٰهُ أَن يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَـٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَـٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ ﴾

(سورة الصافات)

لقد اشترك الاثنان فى قبول قضاء الله ، وأسلم كل منهما للأمر ؛ أسلم إبراهيم كفاعل ، وأسلم إسماعيل كمنفعل ، وعلم الله صدقهما فى استقبال أمر الله ، وهنا نادى الحق إبراهيم عليه السلام : لقد استجبت أنت وإسماعيل إلى القضاء ، وحسبكما هذا الامتثال ، ولذلك يجىء إليك وإلى ابنك اللطف ، وذلك برفع البلاء . وجاء الفداء بِذِبْحٍ عظيم القدر ، لأنه ذِبْحٌ جاء بأمر الله . ولم يكتف الحق بذلك ولكنَّ بَشر إبراهيم بميلاد ابن آخر :

﴿ وَبَشَّرْنَـٰهُ بِإِسْحَـٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ ﴾

(سورة الصافات)

لقد رفع الله عن إبراهيم القدَر وأعطاه الخير وهو ولد آخر . إذن فنحن البشر نطيل على أنفسنا أمد القضاء بعدم قبولنا له . لكن لو سقط على الإنسان أمر بدون أن يكون له سبب فيه واستقبله الإنسان من مُجريه وهو ربه بمقام الرضا ، فإن الحق سبحانه وتعالى يرفع عنه القضاء . فإذا رأيت إنساناً طال عليه أمد القضاء فاعلم أنه فاقد الرضا .

ونلحظ أن الحق هنا يقول : « وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يمسسك بخير فهو على كل شىء قدير » الله سبحانه وتعالى يعلم أن أى عبد لا يتحمل أن يضره الحق ؛ فقوة الحق لا متناهية ولذلك يكون المس بالضر ، وكذلك بالخير ؛ فالإنسان فى الدنيا لا ينال كل الخير ، إنما ينال مس الخير ؛ فكل الخير مدخر له فى الآخرة . ونعلم أن خير الدنيا إما أن يزول عن الإنسان أو يزول الإنسان عنه ، أما كل الخير فهو فى الآخرة .

ومهما ارتقى الإنسان فى الابتكار والاختراع فلن يصل إلى كل الخير الذى يوجد فى

الآخرة ، ذلك أن خير الدنيا يحتاج إلى تحضير وجهد من البشر ، أما الخير فى الآخرة فهو على قدر المعطى الأعظم وهو الله سبحانه وتعالى . إذن فكل خير الدنيا هو مجرد مس خير ؛ لأن الخير الذى يناسب جمال كمال الله لا يزول ولا يحول ولا يتغير ، وهو مدخر للآخرة . ولا كاشف لضر إلا الله ؛ فالمريض لا يشفى بمجرد الذهاب إلى الطبيب ، لكن الطبيب يعالج بالمهارة الموهوبة له من الله ، والذى يَشفى هو الله .

﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ ﴾

(سورة الشعراء)

لأن الحق سبحانه وتعالى قد خلق الداء ، وخلق الدواء ، وجعل الأطباء مجرد جسور من الداء إلى الدواء ثم إلى الشفاء ، والله يوجد الأسباب لِيُسرَّ ويُفْرِح بها عباده ، فيجعل المواهب كأسباب ، وإلا فالأمر فى الحقيقة بيده ـ سبحانه وتعالى ـ . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تَدَاوَوْا عبادَ الله فإن الله تعالى لم يضع داء إلا وضع له دواء غير داء واحد : الهِرَم »[1] .

ونحن نرى أن الطبيب المتميز يعلن دائماً أن الشفاء جاء معه ، لا به . ويعترف أن الله أكرمه بأن جعل الشفاء يأتى على ميعاد من علاجه . إذن فالحق هو كاشف الضر ، وهو القدير على أن يمنحك ويَمَسَّك بالخير . وقدرته لا حدود لها .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ ﴾

وقد رتب سبحانه وتعالى الكون والخلْق بأسباب ومسببات . وكل شىء موجود هو واسطة بين شىء وشىء ، فالأرض واسطة لاستقبال النبات ، والإنسان واسطة بين أبيه وابنه ، ولنفهم جميعاً أنَّ الحقَ ، فوق عباده ، إنه غالب بقدرته ، يدير الكون بحكمة وإحاطة علم ، وهو خبير بكل ما خفى وعليم بكل ما ظهر .

---

(١) رواه أحمد وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه وابن حبان والحاكم عن أسامة بن شريك .

وهو القائل :

﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

سبحانه وتعالى له مطلق القدرة على أن يرسل العذاب من السماء أو من بطن الأرض ، أو أن يجعل بين العباد العداء ليكونوا متناحرين ليدفع بعضهم بعضا حتى لا تفسد الأرض (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض) .

فإياك أن تظن أيها الإنسان أن الحق حين يملِّك بعض الخلق أسباباً أنهم مالكو الأسباب فعلاً ، لا ؛ إن الحق سبحانه أراد بذلك ترتيب الأعمال فى الكون . ولذلك ساعة نرى واحداً يظلم فى الكون فإننا نجد ظالماً آخر هو الذى يؤدب الظالم الأول . ولا يؤدب الحق الشرير على يد رجل طيب ، إنما يؤدبه عن طريق شرير مثله :

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

لأنه سبحانه وتعالى يُجل المظلوم من أهل التقوى أن يكون له دور فى تأديب الظالم ، إنما ينتقم الله من الظالم بظالم مثله أو أقوى منه . وهذا ما نراه على مدار التاريخ القريب والبعيد ، فحين يتمكن العبد الصالح من الذين أساءوا إليه يقول ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما دخل مكة حيث قال : « يا معشر قريش ما ترون أنى فاعل بكم ؟ قالوا : خيرًا ، أخ كريم وابن أخ كريم ، قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء »[1] .

أما إذا أراد الله الانتقام من شرير فهو يرسل عليه شريراً مثله يدق عنقه ، أو يجدع أنفه ، أو يذله حتى لا ينتشر ويستشرى الفساد ؛ فسبحانه القاهر فوق عباده ، وهو

---

(١) رواه البيهقى فى سننه ١١٨/١ وفى تاريخ الطبرى ٦١/٣ .

قهر بحكمة وبعلم وليس قهر استعلاء وقهر جبروت وسيطرة . وحتى نوضح ذلك قد يجرى الله على أحد عباده قَدَرًا بأن ينكسر ذراع ولده فيسوق الرجل ولده إلى طبيب غير مجرب ليقيم جبيرة لذراع الابن ، وتلتئم العظام على ضوء هذه الجبيرة فى غير مكانها ، فيذهب الرجل بابنه إلى طبيب ماهر فيكسر يد الطفل مرة أخرى ليعيد وضع العظام فى مكانها الصحيح .

إن هذا الكسر كان لحكمة وهي استواء العظام ووضعها الوضع السليم . ولا يغيظ عبد من العباد الخالق أبداً ، ولكن الحق ينتصف للمغيظ . ونعلم أن الإنسان مخير بين الإيمان والكفر ، فإن كفر وعصى فليس له فى الآخرة إلا العذاب ، إلا أن الله يجرى عليه قَدَر المرض فلا يستطيع أن يتمرد عليه ؛ لأنه سبحانه قاهر فوق عباده بدليل أنه متحكم فى أشياء لا خيار للعباد فيها . ومادام الإنسان منا محكومًا بقوسين ولا رأى له فى ميلاده أو موته فلماذا ـ إذن ـ التمرد بالعصيان على أوامر الله ؟ ولنعلم أن الحق هو القاهر فوق عباده بقهر الحكمة وسبحانه يضع لكل أمر المجال الذى يناسبه وهو خبير بمواطن الداءات ، ويعالج عباده منها على وفق ما يراه .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدُۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ قُل لَّآ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ ﴾

لقد اختلف الرسول صلى الله عليه وسلم مع القوم المناوئين له . والاختلاف يتطلب حكماً وبينة . والشهود هم إحدى البينات ، فما بالنا والشاهد هو الله ؟! إنه الشاهد والحكم والمنفذ . وشهادة الله لا تحايل فيها ، وحكمه لا ظلم فيه ، وإرادته

لا تظلم عبداً مثقال ذرة ، ولا شهادة ـ إذن ـ أكبر من شهادة الحق لرسوله بأنه رسول من الله . ولو شاء الحق لجعلكم كلكم مؤمنين ، لكنه أراد للإنسان الاختيار . وحنان الرسول صلى الله عليه وسلم على البشر هو الذى جعله يتمنى إيمانهم ، لكن الحق يقول للرسول صلى الله عليه وسلم :

﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝٣ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ۝٤ ﴾

(سورة الشعراء)

أى أن الحق يأمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يشفق على نفسه وألاّ يقتلها بالحزن عليهم لعنادهم وعدم إيمانهم . ولو أراد الحق لجعلهم جميعاً مؤمنين بآية منه ؛ فمهمة الرسول هى البلاغ فقط . ولو شاء الحق لقهر الخلق جميعاً على الإيمان به كما سخّر الكون ليخدم الإنسان وليسبح الكون بحمد الله . لكنه سبحانه ترك للخلق الاختيار حتى يأتى إيمانهم مثبتاً صفة المحبوبية لله ؛ لأن إيمان المختار هو الذى يثبت تلك المحبوبية . والرسول صلى الله عليه وسلم إنما هو نذير وبشير بهذا القرآن المُنزَّل عليه بالوحى .

والنذارة تأتى هنا لأن المجال مجال شهادة ؛ لأن الشهادة إنما تكون على خلاف ، فهو صلى الله عليه وسلم يدعو إلى الإيمان ، والمناوئون له يدعون إلى الكفر وإلى الشرك ، وشهادة الله أكبر من كل شهادة أخرى . لذلك يقرر الحق هنا بأن الرسول نذير بالقرآن . وهذا الخطاب موجه لتبليغ المعاصرين لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولمَن وصله بعد ذلك أى شىء من القرآن ، فكأنه قد رأى النبى صلى الله عليه وسلم ووصله البلاغ عنه . فقد قال ـ سبحانه ـ : (ومن بَلَغَ) أى لأنذركم به وأنذر كل من بلغه القرآن من البشر جميعا .

وبوجه الحق على لسان رسوله سؤالاً استنكارياً للمناوئين فيقول : « أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى ». إنه سؤال من سائل يثق أن من يسمع سؤاله لا بد أن ينفى وجود آلهة أخرى غير الله . إنه سؤال يستنبط الإقرار من سامعه . والمثال على هذا ما عرضه الحق على رسوله من أمر قد حدث فى عام ميلاده فيقول :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴾

(سورة الفيل)

ونعلم أن النبى صلى الله عليه وسلم لم ير ما حدث فى عام الفيل ؛ لأنه عام ميلاده ، ولكن حين يخبره الله بذلك فمعنى هذا أنه بلاغ عن الله ، والبلاغ عن الله يجعل الخبر القادم منه فوق الرؤية وأوثق وآكد منها . وهنا يأتى السؤال الاستنكارى : « أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى » . وعندما أعجزهم هذا السؤال فى بعض مراحل الدعوة قال بعضهم :

﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ﴾

(من الآية ٣ سورة الزمر)

وكأنهم أخيراً يعترفون أن المتقرَّب إليه هو الله ، ولكن الحق يحسم أمر الشرك فيقول على لسان رسوله : « قل لا أشهد قل إنما هو إله واحد وإننى برىء مما تشركون » فالرسول صلى الله عليه وسلم لا يشهد بأى آلهة غير الله ، وألقى إليهم السؤال الاستنكارى لعلهم يديرون رءوسهم ليهتدوا إلى صحيح الإجابة التى يوجزها الحق فى قوله للرسول : « قل إنما هو إله واحد وإننى برىء مما تشركون » .

إن الكلام هنا موجه إلى فئة من المناوئين لرسول الله من عبدة الأوثان ، وهم بعض من الكافرين برسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والبعض الآخر هم بعض من أهل الكتاب ، هؤلاء الذين تغافلوا عن الكتب المنزلة إليهم ، وغابت عنهم الخمائر الإيمانية التى كانت ترد العاصى عن معصيته ، فانتشر الفساد فى الكون . لذلك أرسل الحق رسوله صلى الله عليه وسلم لأن العاصى لم يجد من يرده ، واختفت من المجتمع فى ذلك الوقت النفس اللوامة ، وسادت فيه النفس الأمارة بالسوء .

إن الحق سبحانه لم يترك أمر الرسول غائباً عن البشر، فقد كان الرسول فى كل أمةٍ ينبىء ويخبر عن الرسول الذى يليه حتى يستعد الناس لاستقبال النذير والبشير ، ولذلك كانت كل الرسالات تتنبأ بالرسل القادمين حتى لا يظنوا أن مدّعيا اقتحم عليهم قداسة دينهم ، ولأن الإسلام جاء ديناً عاماً ، فلم يأت الخبر فقط بمحمد صلى الله عليه وسلم فى الكتب السابقة ، ولكن جاءت أوصافه وسماته أيضا واضحة وبّينه فيها .

إن الذين قرأوا هذه الأوصاف لو أخرجوا أنفسهم عن سلطتهم الزمنية لآمنوا على الفور برسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما فعل « عبدالله بن سلام » رضى الله عنه حين قال : لقد عرفته حين رأيته وعرفته كابنى ، ومعرفتى لمحمد أشد.ونسى هؤلاء أنهم هم الذين نُصروا برسول الله صلى الله عليه وسلم دون أن يدروا ؛ فقد كانوا يستفتحون به على الأوس والخزرج ، وقالوا للأوس والخزرج : قَرُب مجىء نبى منكم سنؤمن به ونتبعه ونقتلكم به قتل عاد وإرم . وأسرع الأوس والخزرج للإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم قائلين :

لعل هذا هو النبى الذى توعدتنا به يهود ، هيا نسبق إليه .

إذن فرسول الله صلى الله عليه وسلم لم يقتحم العالم بهذا الدين ، بل عَرَفَ نبأ مقدمه وبعثه وصورته ونعته كلٌ من له صلة بكتاب من كتب السماء . إنهم يعلمون أنه الرسول الخاتم الذى ختمت به أخبار السماء إلى الأرض .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾

إذن فرسول الله معلوم مقدماً من أهل الكتاب كمعرفتهم لأبنائهم ، ولكنّ بعضاً منهم فضل السلطة الزمنية على الإيمان برسول الله فخسروا أنفسهم ؛ لأن الخسارة ـ كما نعرف ـ هى ضياع لرأس المال أو نقصانه . وهم خسروا أنفسهم لأن تلك النفوس كان يجب أن تحرص على مصلحة الأرواح التى جاء محمد صلى الله عليه وسلم لإصلاحها . إنهم بذلك قد منعوا الخير عن أنفسهم بتفضيل سلطان الدنيا الزائل على الإيمان بالله ، وفى ذلك خيبة كبرى .

راجع أصله وخرج أحاديثه الدكتور/ أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .

الله يعلمنا أن الإيمان إنما هو كسب للنفس ، فإياك أيها المؤمن أن تظن أن قولك : « لا إله إلا الله » هو سند لعرش الله . لا ، إنها سند لك أنت ؛ لأنه لا إله إلا هو خَلَق الكون والخَلْقَ بصفات الكمال والقدرة والعلم والحكمة ، واعتراف الخلق بألوهية الله وحده لا تزيد من كمال الله ولكنها تفيد العباد الذين آمنوا فيحسنون استقبال الأمر بعمارة الكون ، لتسير حركة الحياة فى ضوء منهج الله فينسجموا مع الكون كله المسبح لله .

وحين يقول الحق :

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

فهو يخبر أهل مكة أن الصيحة الإيمانية التى صاح بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى آذانهم لم تكن صيحة مفاجئة للكون ، ولكنها صيحة بُشِّر بها على لسان كل رسول ، وإذا كان أهل مكة قد بعدت صلتهم بالرسل والأنبياء وكانوا على فترة من الرسل ، فهم بجوارهم لأهل كتاب فى المدينة يعلمون هذه الحقيقة التى جاء بها رسلهم مؤكدين للعهد الذى أخذه الله عليهم ؛ لأننا نعلم أن الحق سبحانه وتعالى حين خلق الخلق واستعمرهم فى الأرض أرادهم موهوبين من قدرته سبحانه قُدْرَةً ، ومن غناه سبحانه غِنىً ، ومن علمه الكامل علماً ، ومن حكمته المطلقة حكمةً ، ومن رحمته الكاملة رحمةً ، ومن قاهرية الله قهراً ؛ لأن الكون لا يمكن أن يستقيم إلا إن وُجدت فيه هذه المتكاملات وإن كانت متناقضة ؛ لأن لكل صفة مجالها الذى تعمل فيه .

وأضرب هذا المثل ـ ولله المثل الأعلى ـ نجد الإنسان منا حين يرحم ولده دائماً يفسد الولد وإن لم يقس عليه مرة فأبوته ناقصة ، إذن ، فلا يمكن أن يكون المهيمن على الخلق رحيماً فقط ، وإنما يجب أن يكون قاهراً أيضاً ؛ لأن الموقف قد يتطلب القهر . ولا يريد الحق سبحانه وتعالى أن يطبع خلقه على خلق واحد ، ولكنه سبحانه يريد أن يجعلهم ينفعلون للمواقف المختلفة ؛ فالموقف الذى يتطلب رحمة ، يكونون فيه رحماء ، والموقف الذى يتطلب قسوة وشدة يكونون فيه قساة ، ولذلك يقول الحق فى المؤمنين :

﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الفتح)

إن الحق يحدثنا عن خلق المؤمنين . إنه سبحانه لم يطبعهم على الشدة ؛ لأن المواقف قد تتطلب رحمة ، ولكن الشدة مطلوبة لمواجهة أهل الباطل . ولم يطبعهم الحق على اللين ، لكن اللين مطلوب فيما بينهم ؛ لأن كلا منهم يرجو رحمة الله وفضله ؛ ففى الموقف الذى يتطلب رحمة ؛ هم رحماء . وفى الموقف الذى يتطلب شدة هم أشداء ، ولذلك يقول الحق سبحانه أيضاً عن المؤمنين :

﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾

(من الآية ٥٤ سورة المائدة)

ولم يجعل الحق المؤمن ذليلاً على إطلاقه ، ولا عزيزاً على إطلاقه ، ولكنه جعله ذليلاً على أخيه المؤمن ، لين الجانب رحب الأخلاق . وجعله عزيزاً على الكافرين المتأبين على الله .

إذن ، فسبحانه يريد من خَلْقه أن يكونوا على خُلُقِ الحق سبحانه وتعالى ، ولذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم فيما رواه عمار بن ياسر رضى الله عنه : « حُسْن الخلق خُلُق الله الأعظم »[1] ورُوِى : (تخلقوا بأخلاق الله) .

إن لله سبحانه وتعالى قدرة حكيمة ، فخذوا أيها المؤمنون قدرته واستعملوها بحكمة ، ولله علم فحاولوا أن تكونوا عالمين ، ولله رحمة فحاولوا أن تكونوا رحماء ، والله جبار فإذا تطلب الموقف منكم أن تكونوا جبارين فافعلوا ، لأن سياسة الأرض وسياسة المجتمع قد لا تصلح إلّا بهذا .

ومادام الحق قد أراد من الخلق أن يعمروا هذا الكون فلابد أن يضمن لهم منهجاً سليماً يرتكز على « افعل » و« لا تفعل » ، فإن نحن أخذنا منهج الله فنحن نأخذ ما يمكن أن نسميه بالعرف الحاضر : « قانون الصيانة » فلنفعل ما قال الله افعلوا ،

---

(١) رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط .

ولنترك ما قال الله فى شأنه لا تفعلوا حتى تؤدى الآلة الإنسانية مهمتها كما يريد الله لها أن تكون .

إن الفساد إنما ينشأ من أنك أيها الإنسان تنقل الأعمال من نطاق « افعل » إلى نطاق « لا تفعل » ، والأعمال التى يجعلها الله فى نطاق « لا تفعل » تجعلها أنت فى نطاق « افعل » . فإن طلب الله أن نقيم الصلاة بـ « افعل » فكيف نجعلها فى نطاق « لا تفعل » بعدم الصلاة ؟، وإن طلب الله منا ألا نشرب الخمر فكيف نشربها إذن ؟ .

إن الخلل الإيمانى الذى يحدث فى الكون إنما ينشأ من نقل متعلقات « افعل » إلى « لا تفعل » ، ومن نقل متعلقات « لا تفعل » إلى « افعل » ، أما ما لم يَرِد فيه « افعل » و« لا تفعل » فقد ترك الله لاختيارك إباحة أن تفعله أو لا تفعله ، لأن الكون لا يفسد بشىء منها .

وإذا نظرت إلى منهج الله فى « افعل » و« لا تفعل » فأنت تجد أن الحق سبحانه لم يقض على حريتك ولم يقض على اختيارك ، وإنما ضبطك ضبطاً محكماً فيما ينشأ فيه فساد الكون ، أما الذى لا ينشأ منه فساد فإن شئت فافعله وإن شئت فاتركه . وزود الحق كل البشر بهذا المنهج من لدن آدم إلى أن تقوم الساعة . وأخذ سبحانه على نفسه الوعد بعدم تعذيب أمة لم يبعث لها رسولاً ، ولذلك توالى الموكب الرسالى . لماذا ؟ لأن الغفلة تتمكن من الإنسان ؛ فقد يتناسى الإنسان مرة الشىء الذى يحد حركته ويتكرر التناسى إلى أن يصير نسياناً ، فيشاء الحق أن يرسل رسولاً لكل فترة لينبه إلى قانون صيانة الإنسان ، إلى أن جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأمن الله أمةَ محمد أن تكون هى المبلغة بمنهج الله إلى أن تقوم الساعة . ولذلك أخذ سبحانه من النبيين ميثاقاً للبلاغ عن رسالة النبى الخاتم :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

إذن فقد أخذ الله العهد على كل نبى أن يبلغ قومه أن يؤمنوا برسالة الرسول الذى توافق دعوته دعوتهم ، وأخذ الحق الإقرار من كل نبى على ذلك ، وشهد الأنبياء على أنفسهم وشهد الله عليهم ، وبلغوا ذلك إلى أقوامهم . إذن فنصرة النبى الخاتم موجودة فى كل رسالة سابقة على الإسلام ، وكان على كل رسول أن يعطى إيضاحاً بذلك العهد لقومه ، وأن يأخذ عليهم العهد بنصرة الرسول القادم إليهم ، ويبلغهم أن من تمام الإيمان أن يؤيِّدوا ذلك الرسول إن هم عاصروه .

ويخصص الحق هنا أهل الكتاب الذين نزلت إليهم التوراة والإنجيل وهما أصحاب الديانتين العظيمتين اللتين سبقتا الإسلام : « الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم » أى أنهم يعرفون محمداً صلى الله عليه وسلم بالبشارة به ، وبالإخبار عنه ، وبالنعت لشكله وصورته ، فإذا كان كفار قريش على فترة من الرسل فليسألوا أهل الكتاب . وقد سمع الأوس والخزرج من أهل الكتاب أن هناك نبياً قادماً سيؤمنون به ويتبعونه ويقتلون به العرب قتل عاد وإرم . إذن فالصيحة الإيمانية على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم لم تكن مفاجئة للكون ، وإن كتمها الذين كفروا من أهل الكتاب ، هؤلاء الذين جاء فيهم قول الحق سبحانه :

﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَـٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾

(سورة البقرة)

لقد انتابت الآفة التى تنكر هذا البلاغ عن الله بعضاً من أهل الكتاب ، فقد أخذوا ، وهم المبلغون عن الله ، السلطة الزمنية ورأوا فيها الحظ والجاه والنعيم ، فمنهم القضاة وإليهم يلجأ الناس لمعرفة الحكم فى الدماء ، وكذلك يأخذون الصدقات . وألفوا حياة السيادة والنعيم . وها هى ذى دعوة جديدة جاءت لتسلب منهم هذه السيادة ، وبالرغم من أنهم كانوا المبشرين بها من قبل ، إلا أن الدعوة عندما جاءت تزلزلت بها سلطتهم الزمنية ، ولذلك بدأوا العداء .

إذن فالآفة هى أخذ سلطة زمنية من باطن سلطة الله ثم يدعى أنها سلطة الله . وعندما ننظر إلى التاريخ الدياني فى العالم نجد أن السلطة الزمنية فى الأديان التى

سبقت الإسلام هى التى أرهقت الكون ؛ لأن الحق سبحانه حينما خلق الكون طمر فيه أسراراً تعمل فى خدمة الإنسان وإن لم يدر بها الإنسان . وطموحات الإنسان العلمية هى التى تجعله يهتدى إلى هذه الأسرار ويكتشف القوانين التى تعمل بها ؛ مثال ذلك قانون الجاذبية ، وقانون السالب والموجب ، كل هذه قوانين موجودة فى الكون ، تماماً كما خلق الله الأرض كروية وكما جعل الشمس هى مصدر الحرارة والدفء والنور والإشراق .

ويأخذ العلماء من تلك المقدمات ليصلوا إلى اكتشاف قوانين هذه الأجرام وقوانين هذا الكون . وحين يصل العالم الذكى إلى اكتشاف قانون ما فإنه يقول : لقد اكتشفت كذا ، وهذا تعبير فطرى دقيق ، ولا يقول أبداً : لقد ابتكرت كذا ؛ لأنه يعلم أن ما اكتشفه كان موجوداً فى الكون ولكن لا يعرفه . وعدم معرفة الإنسان بقانون موجود فى الكون لا يمنع الفائدة من الوصول إلى الإنسان ، وإن كانت المعرفة بالقانون تزيد من إمكان الإفادة منه .

فالإنسان يتمتع بوجود الشمس قبل معرفة ما بها من طاقة ، ولكن عندما تخصص العلماء فى دراسة الشمس عرفوا أن الإنسان يمكن أن يستفيد بهذه الطاقة أكثر من فائدته التقليدية بها ، ولذلك صارت هناك بعض المدن تنير شوارعها بالطاقة الشمسية ، وصارت هناك بعض المبانى تدفىء حجراتها بالطاقة الشمسية وتسخن المياه أيضاً بهذه الطاقة . ولم يمنع هذا الاكتشاف أن يستفيد الأمى أو البدوى فى الصحراء من نور الشمس . وكذلك الكهرباء ، والأدوات الكهربائية والمنزلية التى يمكن للجاهل الاستفادة منها ، مثل استفادة الخبير بها ، صحيح أن الأمى لا يعرف كيف تدور المصانع التى تنتج أجهزة التليفزيون ولكنه يستفيد برؤية التليفزيون . والتليفزيون ليس إلا ترجمة مادية لمجموعة من القوانين العلمية اكتشفها الإنسان ووضعها موضع التطبيق لصناعة هذه الآلة التى يستفيد بها الإنسان .

ولكل سر ميلاد تماماً كميلاد الإنسان . وإذا جاء ميعاد ميلاد السر ولم يكن هناك من يبحث عنه ، فسبحانه يكشفه لأى بشر بالمصادفة ، وكثيراً ما نسمع أن عالماً كان يبحث فى مجال ما ولكنه اكتشف سرا غير الذى كان يبحث عنه . ولذلك يقول الحق فى آية الكرسى :

﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ﴾

(من الآية ٢٥٥ سورة البقرة)

فأنت أيها الإنسان لا تحيط علماً بأسرار الكون إلا إذا أذن الله ؛ وهناك عشرات الآلاف من الأمثلة على ذلك بداية من قاعدة أرشميدس التى تسير عليها البواخر والغواصات ، إلى قانون الجاذبية الأرضية الذى اكتشفه نيوتن عندما وقعت تفاحة أمامه بالمصادفة ، إلى اكتشاف البنسلين ، إلى غير ذلك من أسرار هذا الكون . وإذا كانت هناك علوم لها مقدمات ، فهناك أيضا علوم ليس لها مقدمات ؛ إن الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ ﴾

(سورة الجن)

فسبحانه وتعالى عالم الغيب فلا يظهر غيبه لأحد إلا لرسول يختاره الحق ليعلم بعضاً من الغيب ، ويحميه الله ويعصمه ويحفظه بالملائكة لتحول بينه وبين وساوس الشياطين وتخليطهم حتى يُبلِّغ ما أوحِىَ به إليه . وحين يريد الحق أمرا محكما لا اختيار لأحد فيه فإنه ينزل به رسولاً إلى الخلق ليهديهم بـ « افعل » و« لا تفعل » . وهذه مسألة غير متروكة للبحث فيها ، ولكنها تأتى بإذن من الله حتى لا تتعارض أهواؤنا ؛ فسبحانه علم أن الأهواء بين البشر قد تتعارض ولا تتساند فيرسل الرسل من عنده سبحانه بالمنهج ليستقيم أمر البشر .

إن النشاطات الذهنية التى يصل بها البشر إلى أسرار فيها رفاهية الحياة ، هى أسرار بنت التجربة والمعمل ، والمعمل لا يجامل ، فلا توجد كيمياء روسية وأخرى أمريكية ، إنما كل قوانين المواد تستنبط فى المعمل .. ولذلك نرى الدول تتسابق كل يحاول أن يسرق ما عند الآخر بواسطة الجواسيس . أما فى مجال الحركة الاجتماعية فالدول تقيم سدوداً بينها وبين المبادىء ؛ فالغرب لا يسمح بدخول نظريات اجتماعية من الشرق ، والشرق لا يسمح بذلك أيضاً . ويختلف هذا الأمر فى البحث العلمى ؛ فقوانين البحث العلمى عن أسرار الكون يحاول كل طرف امتلاكها . وإن لم يستطع حاول أن ينقلها عن غيره .

ويعلمنا الحق أن نبحث فى كل آيات الكون ولا نعرض عنها ، فيقول لنا :

﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾

(سورة يوسف)

فسبحانه يلفتنا إلى أن كل آية وكل ظاهرة من الظواهر تتطلب منا أن ننظر فيها بحكمة وإمعان ؛ لأننا قد نستنبط منها أشياء تريحنا . ومثال ذلك قوة البخار ، اكتشفها رجل وطورها آخر حتى صارت تلك القوة البخارية فى خدمة البشرية كلها . وكذلك الذى اخترع العجلة أفاد البشرية فى نقل عشرات الأوزان عليها واختصار زمن الرحلات ، كل ذلك إنما جاء من تأمل آيات الله فى الكون بإمعان وتدبر . لقد جعل الحق البحث فى آيات الكون مشاعاً للمؤمنين والكفار ، وهو حق لمن يبحث فى أسراره . وهذه هى قضية العلم . أما قضية الدِّين فأمرها مختلف ؛ لأن الخبر فى قضية الدين يأتى من الله بواسطة رسول . أما البحث فى الكون وأسراره العلمية فالحق يقول فيه :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ ﴾

(سورة فاطر)

إن الحق يلفتك أيها الإنسان إلى أنه أنزل من السماء ماء فأنبت وأخرج به من الأرض النباتات التى تحمل ثماراً مختلفة الألوان ومختلفة الطعم . وجعل الجبال مختلفة الأشكال والألوان ، وبعضها ضعيف وبعضها قوى . ويختلف لون الجبل عن الآخر بما فيه من مواد مطمورة . وهذه الجبال كلها من أصل واحد ولكن فروعها متباينة لخدمة الإنسان .

لقد خلق الحق سبحانه الأنعام مختلفة الألوان والأشكال والأحجام ، وكذلك الناس مختلفون فى اللون والشكل . والعلماء هم الذين يتدبرون ذلك فيخشون الله

الصانع العليم . إذن فأمر الدين محسوم من الحق . والرسل مبلغون عن الله ، وكذلك أهل العلم بالدين ، وأهل العلم بالدين مبلغون عن الله لا متكلمون بلسان الله ؛ لأن بعض البشر قد يخلطون أهواءهم مع كلمات الله ويقولون : إن هذا هو كلام الله ، وهذا خطأ فاحش وذنب كبير .

إن ما حدث فى القرون الوسطى ـ على سبيل المثال ـ كان خلطاً بين البحث العلمى وما ينزل الحق من منهج ؛ فعندما جاء عالم مثل « جاليليو » ليبحث فى طبيعة الكواكب أرادوا أن يحرقوه ، وعندما أراد عالم آخر أن يتكلم فى طبيعة الأرض حبسوا حريته . وعندما حكمت الكنيسة العالم الغربى بهذا الأسلوب تأخر العالم كله وعاش فى عصور من الظلام ، وعندما اتصل هؤلاء القوم بالمسلمين تحرروا من خزعبلات تلك القرون الوسطى وتعلموا حرية البحث العلمى من العرب وارتقت أوروبا بذلك الأسلوب العلمى الذى طرحه الإسلام وأثبته علماء المسلمين .

إن السبب فى تأخر أوروبا وجهلها هم أهل الكهنوت والدين ، بل إن نفور الأوروبيين من الدين كان بسبب معرفتهم أن رجال الدين عندهم يمقتون الحياة والتقدم الحضارى ـ حماية لنفوذهم وسلطتهم الزمنية والروحية ـ وأراد بعض من أهل أوروبا أن يأخذوا كل الأديان بجريرة رجال الكهنوت عندهم . ونسى الذين حملوا على الدين ـ كل الدين ـ أن رجال الكهنوت افتأتوا وادعوا ذلك على النصرانية ، ونسبوه إليها ؛ فالمسيح لم يقل لهم ذلك ، ولكنهم كرجال كهنوت أفسدوا الحياة بالسلطة الزمنية التى كانت لهم وكانت النتيجة أن أخذ البعض من فساد سلطة الكنيسة حجة على فساد الدين .

ولهؤلاء نقول : إن الدين لا يتدخل فى أى أمر من أمور الحياة العلمية ولا يفسدها أبداً ، بل نجد أن الحق قد أمرنا بالبحث فى آياته وأن نزيد من البحث . وهاهوذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرنا بأن نبحث عن شئون الدنيا على ضوء التجربة . وأراد الله أن يفصل بين أمور العلم التجريبى وأمور الدين ، وأراد أن يحمى دينه من تدخل أى فئة تدعى أنها تملك كلام الله فتخلط بين أهوائها والبلاغ عن الله سبحانه .

مثال ذلك ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أمر تلقيح النخيل . ونعرف

أن تلقيح النخيل يتم حين نأخذ طلع الذكورة ونلقح به الأنوثة من النخيل فيخرج التمر ناضجاً ، وإن لم يحدث ذلك فالنخيل تنتج ثماراً غير ناضجة . والسر فى إنتاج النخيل لثمارغير ناضجة أن التلقيح قد تم بواسطة الريح التى تنقل القليل من حبوب اللقاح ، ولكن التلقيح اليدوى للنخيل هو الذى يزيد من جودة الثمار ، وقال الرسول صلى الله عليه وسلم مرة للصحابة ما يمكن أن يفهم منه ألا يقوموا بتلقيح النخيل وحدث نتيجة ذلك أن النخيل لم يثمر الثمار المرجوة بل أثمر شيصاً أى ثماراً غير مكتملة النضج ، واستند الرسول فى ذلك إلى قول الحق :

﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ ﴾

(من الآية ٢٢ سورة الحجر)

وهذا قول صحيح صادق حكيم نجد آثاره فى السحاب الذى يتحول إلى مطر نتيجة اتصال الموجب بالسالب ، ونجده فى معظم النباتات من قمح وفاكهة وذرة وغير ذلك . فطلع الذكر ينتقل بواسطة الريح إلى عناصر الأنوثة فى النباتات القريبة فتلقحها وتنقل الرياح كذلك اللقاح الخفيف . واللقاح عندما يكون ثقيل الوزن يحتاج فى بعض الأحيان إلى جهد من الإنسان لينقل خلايا الذكورة إلى خلايا الأنوثة ، ومثال ذلك النخيل . ولذلك عندما علم رسول الله صلى الله عليه وسلم بقلة إنتاج النخيل فى العام الذى لم يلقح فيه بعض الصحابة نخيلهم . . قال صلى الله عليه وسلم لهم : « أنتم أعلم بأمر دنياكم »[1] .

وبهذا حسم الرسول صلى الله عليه وسلم الأمر ولم يعد لرجال الدين أن يتدخلوا فى أى أمر لا تستقيم به الحياة إلا بناء على التجربة المعملية . ولذلك يقال عن الإسلام : إنه دين العلم ؛ لأنه أتاح لرجال العلم أن ينطلقوا فى تأمل آيات الله فى هذا الكون ، بل دعاهم وأمرهم أن يستنبطوا أسرار هذا الكون . أما فى أمور السلوك البشرى وحركة المجتمع فقد أنزل الحق من المنهج ما يكفى لعدم استعلاء أحد على أحد ، وأن نضبط السلوك الإنسانى بتعاليم المنهج الإيمانى .

لقد جاء المنهج الإيمانى فى كل الرسالات ، وكانت الرسالة الخاتمة هى رسالة محمد ابن عبدالله ، وكانت البشارة به موجودة فى التوراة والإنجيل . ويقول الحق :

---

(١) رواه مسلم عن أنس وعائشة رضى الله عنهما .

« الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم » فهل عمل أهل الكتاب بمقتضى هذه المعرفة ؟ لا ؛ ذلك أن بعضاً منهم خافوا أن تؤخذ منهم سلطتهم الزمنية ، وأكبر مثال على ذلك هو عبدالله بن أُبى الذى كان رأس النفاق فى الإسلام والذى كان يستعد لتولى مُلْك المدينة قبل مجىء الرسول صلى الله عليه وسلم إليها . وكان هناك من أهل الكتاب من عمل بهذه النبوءة ، مثال ذلك : عبدالله بن سلام رضى الله عنه . ولم يظلم القرآن أحداً ، بل قال عن بعض أهل الكتاب :

﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾

(سورة المائدة)

إذن لم يظلم الحق الذين آمنوا من أهل الكتاب عندما وجدوا أن منهج الإسلام مطابق لما جاء إليهم . لكن بعض أهل الكتاب كفر وعادَى رسول الله صلى الله عليه وسلم خوفاً على السلطة الزمنية التى كانت لهم .

وعندما ننظر إلى التاريخ نجد أن السلطة الزمنية كانت فى وقت من الأوقات لرجال الدين مثلما حدث فى أوروبا ، ولكن حدث استغلال من جانب رجال الدين للناس ، وأفسد رجال الكهنوت فى الأرض ، فتمرد عليهم البشر وخرجوا عن طاعتهم ليقننوا لأنفسهم القوانين . ولأنهم كانوا يحكمون بالأهواء لا بالشرع فقد كان الحكم يتذبذب عند رجال الكهنوت فى الأمر الواحد حسب شخصية من يرتكب هذا الأمر ، فمن يدفع لهم ينال العفو ، ومن لم يدفع ينال العقاب ! لقد أخذوا متاع الدنيا القليل ولم ينفذوا ما أمرهم به الله فخرج الناس على سلطانهم .

ومن هنا لم يعترف بعض من البشر برسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى جاءت البشارة به وعرفوه بالإيضاح والنعت ولكنهم أنكروه لأنه يسلبهم ما حصلوا عليه من الانتفاع بالمال والسلطة فخسروا أنفسهم وظلوا على الكفر ؛ لقد قال فيهم الحق : « الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون » . لقد خسروا أنفسهم ؛ لأنهم اشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً . وخسارة النفس تفوق خسارة المال ؛ لأن خسارة المال مردودة ويمكن أن تتدارك فيكسب الإنسان بعد خسارة ، ولكن خسارة النفس أمرها كبير . ونعلم أن الصفقة الإيمانية لا تعزل عمل الدنيا عن حساب الآخرة . والمؤمن

الحق هو من يربط الدنيا بالآخرة . لكنَّ بعضاً من أهل الكتاب أحبوا الدنيا على الآخرة وفصلوا بين الاثنتين فأخذوا حظاً قليلاً من الحياة الدنيا وخسروا الآخرة .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۗ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

إنهم افتروا على الله الكذب عندما فعلوا ذلك : نسوا حظاً مما ذكروا به ، وكتموا بعضاً من الكتب المنزلة إليهم ، وحرفوا الآيات المنزلة إليهم ، وجاءوا بأقوال من عندهم ونسبوها إلى الله . ولذلك نجد الحق سبحانه يقول عنهم :

﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾

(سورة البقرة)

إن الحق يتوعدهم بالعذاب لأنهم باعوا الدين لقاء ثمن قليل فى الدنيا ، وادعوا على الله الكذب فنسبوا إليه ما لم ينزله ، ولذلك فالويل كل الويل لهم ؛ لأنهم انحطوا إلى أخس دركات الظلم وكذبوا الكذب المتعمد فى كلية ملزمة وهى الإيمان بالله وبالكتب المنزلة والرسل .

والافتراء هو الكذب المتعمد بغرض نسبة شيء إلى الله لم يقله ، وهم قد فعلوا ذلك ، ولهذا لا يفلح الظالمون سواء ظلموا الناس بأخذ أموالهم أو الإساءة إليهم ، أو ظلموا أنفسهم بالشرك بالله وهو أعظم الظلم (إن الشرك لظلم عظيم) .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

الحق سبحانه يذكرنا بيوم الحشر ، يوم يسأل الله الذين أشركوا وكذبوا وافتروا الكذب على الله : أين الذين عبدتموهم وأشركتموهم معى ؟ إن الله لن يترك الناس سدى ، بل كل عمل يفعله الإنسان فى الدنيا محصى عليه وسيسأل عنه يوم القيامة . سيسأل الله المشركين عن الذين عبدوهم من دون الله كذباً : أين هؤلاء الآلهة التى أشركها الكافرون فى العبادة مع الله ؟ ولماذا لا يتقدمون لإنقاذ عبيدهم من العذاب الذى يصليه الله لهم ؟! ويقرع سبحانه المشركين ، ويحشرهم مع ما عبدوهم من دون الله من الأصنام والأوثان وفى ذلك قمة الإهانة لهم ولتلك الآلهة .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾

ونعرف أن الفتنة هى الاختبار . وللفتنة وسائل متعددة ؛ فأنت تختبر الشىء لتعرف الردىء من الجيد ، والحقيقى من المزيف . ونحن نختبر الذهب ونفتنه على النار وكذلك الفضة . وهكذا نرى أن الفتنة فى ذاتها غير مذمومة ، لكن المذموم والممدوح هو النتيجة التى نحصل عليها من الفتنة ؛ فالامتحانات التى نضعها لأبنائنا هى فتنة ، ومن ينجح فى هذا الامتحان يفرح ومن يرسب يحزن . إذن فالنتيجة هى التى يفرح بها الإنسان أو التى يحزن من أجلها الإنسان ، وبذلك تكون الفتنة أمراً مطلوباً فيمن له اختيار . وأحيانا تطلق الفتنة على الشىء الذى يستولى على الإنسان بباطل .

إن الحق يحشر المشركين مع آلهتهم التى أشركوا بها ويسألهم عن هذه الآلهة

فيقولون : (والله ربنا ما كنا مشركين). وهمْ فى ظاهر الأمر يدافعون عن أنفسهم، وفى باطن الأمر يعرفون الحقيقة الكاملة وهى أن المُلْك كله لله ، ففى اليوم الآخر لا شركاء لله ؛ ذلك أنه لا اختيار للإنسان فى اليوم الآخر . ولكن عندما كان للإنسان اختيار فى الدنيا فقد كان أمامه أن يؤمن أو يكفر . وإيمان الدنيا الناتج عن الاختيار هو الذى يقام عليه حساب اليوم الآخر ، أما إيمان الاضطرار فى اليوم الآخر فلا جزاء عليه إلا جهنم لمن كفر أو أشرك بالله فى الدنيا . ولو أراد الله لنا جميعاً إيمان الاضطرار فى الدنيا لأرغمنا على طاعته مثلما فعل مع الملائكة ومع سائر خلقه .

لقد قهر الحق سبحانه كل أجناس الوجود ماعدا الإنسان ، وكان القهر للأجناس لإثبات القدرة ، ولكن التكريم للإنسان جاء بالاختيار ليذهب إلى الله بالمحبة .

والمشركون بالله يفاجئهم الحق يوم القيامة بأنه لا إله إلا هو ، ويحاولون الكذب لمحاولة الإفلات من العقوبة فيقولون : (ما كنا مشركين) . وهم قد كذبوا بالله فى الحياة فعلاً ويريدون الكذب على الله فى اليوم الآخر قولاً ، ولكن الله عليم بخفايا الصدور وما كان من السلوك فى الحياة الدنيا ، ويوضح لهم فى الآخرة أعمالهم ويعاقبهم العقاب الأليم .

وحين يسألهم الحق : « أين شركاؤكم » ؟ ففى هذا القول استفهام من الله ، والاستفهام من العليم لا يقصد منه العلم ، وإنما يقصد به الإقرار مِن المسئول . وفى حياتنا اليومية يمكننا أن نرى السؤال من التلميذ لأستاذه ؛ ليعلم التلميذ ما يجهل . ونرى السؤال يرد مرة بعد أخرى من الأستاذ لتلميذه لا ليعلم ما لم يعلم ، ولكن ليقرر التلميذ بما يعلمه وما تعلمه من أستاذه . فإذا سأل الحق خلقه سؤالاً ، أيسألهم سبحانه ليعلم ؟ حاشا لله أن يكون الأمر كذلك . وإنما يسأل الحق عباده ليكون سؤال إقرار . والإقرار هنا فيه تبكيت أيضاً ، لأنه سؤال لا جواب له ، فمعاذ الله أن يوجد له شركاء . وعندما يقول الحق لهم : (أين شركاؤكم) ؟ فمعنى ذلك هو الاستبعاد أن يوجد له سبحانه شركاء . وبذلك يوبخهم ويبكتهم الحق على أنهم أشركوا بالله ما لا وجود له .

لقد أشركوا بالله فى الدنيا لمجرد التخلص من موجبات الإيمان . وها هم أولاء فى

المشهد العظيم يعرفون قدر كذبهم فى الدنيا ، فلا ملك لأحد إلا الله ، ولا معبود سواه ، فينطقون بما يشهدون : « والله ربنا ما كنا مشركين » .

ولقائل أن يقول : ولكن هناك فى موضع آخر من القرآن نجد أن الله يقول فى حق مثل هؤلاء :

﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

(سورة المرسلات)

إنهم فى يوم الهول الأكبر يعرفون أنهم كذبوا فى الدنيا ، وهم لا ينطقون بأى قول ينفعهم ، ولا يأذن لهم الحق بأن يقدموا أعذاراً أو اعتذاراً . ونقول لمن يظن أن المكذبين لا ينطقون : إنهم بالفعل لا ينطقون قولاً يغيثهم من العذاب الذى ينتظرهم ، وهم يقعون فى الدهشة البالغة والحيرة ، بل إن بعضاً من هؤلاء المكذبين بالله واليوم الآخر يكون قد صنع شيئاً استفادت به البشرية أو تطورت به حياة الناس ، فيظن أن ذلك العمل سوف ينجيه ، إن هؤلاء قد يأخذون بالفعل حظهم وثوابهم من الناس الذين عملوا من أجلهم ومن تكريم البشرية لهم ، ولكنهم يتلقون العذاب فى اليوم الآخر لأنهم أشركوا بالله . ولم يكن الحق فى بالهم لحظة أن قدموا ما قدموا من اختراعات ، ولذلك يقول الحق :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ۗ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ ﴾

(سورة النور)

وهكذا نعلم أن أعمال الكافرين أو المشركين يجازيهم الحق سبحانه عليها بعدله فى الدنيا بالمال أو الشهرة ، ولكنها أعمال لا تفيد فى الآخرة . وأعمالهم كمثل البريق اللامع الذى يحدث نتيجة سقوط أشعة الشمس على أرض فسيحة من الصحراء ، فيظنه العطشان ماء ، وما إن يقترب منه حتى يجده غير نافع له ، كذلك أعمال الكافرين أو المشركين يجدونها لا تساوى شيئاً يوم القيامة . والمشرك من هؤلاء يعرف حقيقة شركه يوم القيامة . ولا يجد إلا الواحد الأحد القهار أمامه ، لذلك يقول كل واحد منهم : « والله ربنا ما كنا مشركين » . إن المشرك من هؤلاء ينكر شركه . وهذا الإنكار لون من الكذب .

إن المشركين يكذبون ، ويقول الحق سبحانه عنهم :

﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

(سورة المجادلة)

وحين يبعثهم الحق يوم القيامة يقسمون له أنهم كانوا مؤمنين كما كانوا يقسمون فى الدنيا ، لكن الله يصفهم بالكذب ، لقد كان بإمكانهم أن يدلسوا على البشر بالحلف الكاذب فى الدنيا ، ولكن ماذا عن الله الذى لا يمكن أن يدلس عليه أحد .

وهكذا نرى أن فتنة هؤلاء هى فتنة كبرى :

﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

ويقول الله لرسوله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك :

﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

ويلفت الحق نظر رسوله صلى الله عليه وسلم بدقة إلى عملية سوف تحدث يوم القيامة ، وساعة يخبر الله بأمر فلنصدق أنه صار واقعاً وكأننا نراه أمامنا حقيقة لا جدال فيها . وسبحانه يقرر أنهم كذبوا على أنفسهم . ونعرف أن كل الأفعال تتجرد من زمانيتها حين تنسب إلى الله سبحانه وتعالى ، فليس عند الله فعل ماضٍ أو حاضر أو مستقبل .

والمثال على ذلك قوله الحق :

﴿ أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾ ﴾

(سورة النحل)

وليس لقائل أن يقول : كيف يقول الحق إن أمره قد أتى وذلك فعل ماضٍ ، ثم ينهى العباد عن استعجاله ، والإنسان لا يتعجلُ إلا شيئاً لم يحدث ، ليس لقائل أن يقول ذلك ؛ لأن المتكلم هو القوة الأعلى ولا شيء يعوق الحق أن يفعل ما يريد . أما نحن العباد فلا نجرؤ أن نقول على فعل سوف نفعله غداً إننا فعلناه ، ذلك أن غداً قد لا يأتى أبداً ، أو قد يأتى الغد ولا نستطيع أن نفعل شيئاً مما وعدنا به ، أو قد تتغير بنا الأسباب . وعلى فرض أن كل الظروف قد صارت ميسرة فأى قوة للعبد منا أن يفعل شيئاً دون أن يشاء الله ؟ . ونحن ـ المؤمنين ـ نعرف ذلك وعلينا أن نقول كما علمنا الله :

﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾

(من الآية ٢٣ وجزء من الآية ٢٤ سورة الكهف)

وهكذا يضمن الإنسان منا أنه قد خرج من دائرة الكذب . وحينما يقول الله لرسوله : « انظر » ويكون ذلك على أمر لم يأت زمان النظر فيه ؛ فرسول الله يصدق ربه وكأنه قد رأى هذا الأمر . إن الحق يصف هؤلاء الناس بأنهم : « كذبوا على أنفسهم » أى أن كذبهم الذى سوف يحدث يوم القيامة هو أمر واقع بالفعل . وقد يكذب الإنسان لصالحه فى الدنيا . لكن الكذب أمام الله يكون على حساب الإنسان لا له .

ويتابع الحق : « وضلِ عنهم ما كانوا يفترون » ومعنى هذا أنهم يبحثون فى اليوم الآخر عن الشركاء ولكنهم لا يقدرون على تحديد هؤلاء الشركاء لأنهم قالوا أمام الله : « والله ربنا ما كنا مشركين » وغياب الشركاء عنهم أمام الله هو ما يوضحه ويبيّنه قول الله : « وضل عنهم ما كانوا يفترون » فـ « ضل » هنا معناها « غاب » . ألم يقولوا من قبل :

﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ ۚ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٠﴾ ﴾

(سورة السجدة)

أنهم كمنكرين للبعث يتساءلون باندهاش : أإذا غابوا فى الأرض واختلطوا بعناصرها يمكن أن يبعثهم ربهم من جديد ؟ . فهم لا يصدقون أن الذى أنشأهم أول مرة بقادر على أن يعيدهم مرة أخرى . ونعرف أن كلمة « ضل » لها معانٍ متعددة .

لكن معناها هنا « غاب » ، وحين يسألهم الله : أين شركاؤكم ؟ ، ينكرون كذباً أنهم أشركوا ، لقد ضل عنهم ـ أى غاب عنهم ـ هؤلاء الشركاء . والإنسان يعبد الإله الذى ينفعه يوم الحشر ، وعندما يغيب الآلهة عن يوم الحشر فهذا ما يبرز ضلال تلك الآلهة وغيابها وقت الحاجة إليها ، ولا يبقى إلا وجه الله الذى يحاسب من أشركوا به .

و« ضل » يقابلها « اهتدى » ، و« ضل » أى لم يذهب إلى السبيل الموصلة للغاية ، و« اهتدى » أى ذهب إلى السبيل الموصلة إلى الغاية . ومن لا يعرف السبيل الموصلة إلى الغاية ، يكون قد ضل أيضا ، ولكن هناك من يضل وهو يعلم السبيل الموصلة إلى الغاية وهذا هو الكفر . وعندما يتكلم الحق عن الذين كفروا يصفهم بأنهم ضلوا ضلالاً بعيداً ؛ لأن الطريق إلى الهداية كان أمامهم ولم يسلكوه ، وهذا هو ضلال القمة . وقد يكون الإنسان مؤمناً لكن مقومات الإيمان ضعيفة فى نفسه فيعصى ربه .

ويقول الحق عن مثل هذا الإنسان :

﴿ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴾

(من الآية ٣٦ سورة الأحزاب)

إنه ضلال دون ضلال وكفر دون كفر القمة . لكن ماذا عن الذى يضل لأنه لا يعرف طريق الهدى ؟ إن ذلك هو ما يظهر لنا من قصة سيدنا موسى عليه السلام ، فحين قال الحق لموسى وهارون عليهما السلام :

﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة الشعراء)

أصدر الحق الأمر إلى موسى وهارون بالذهاب إلى فرعون ليرسل معهما بنى إسرائيل ، فماذا عن موقف فرعون ؟ . ماذا قال فرعون ؟ :

﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ ﴾

(سورة الشعراء)

هنا يريد فرعون أن يمتن على موسى عليه السلام ، ويذكره بأنه رباه فى قصره إلى أن كبر ومع ذلك لم يرع موسى ذلك وقتل رجلاً من قوم فرعون ، وكان ذلك فى نظر فرعون لوناً من الجحود بنعمته ، وها هوذا يعتدى مرة أخرى على ألوهية فرعون بدعوته للإيمان بالإله الحق الذى لا يتخيله الفرعون ، ويلتقط موسى الخطأ الجوهرى فى سلوكه فى ذلك الوقت . إن الخطأ لم يكن الكفر بفرعون ، ولكن الخطأ كان هو القتل فيقول :

﴿ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ ﴾

(سورة الشعراء)

وهكذا نعرف أن موسى لحظة قَتْلِه رجلا من عدوه لم يكن عنده طريق الهدى ، بل كان ضلاله حاصلا من عدم معرفته أن هناك طريقاً آخر إلى الهدى . وهاهوذا الحق سبحانه وتعالى يخاطب رسوله صلى الله عليه وسلم :

﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ ﴾

(سورة الضحى)

أى لم يكن عندك يا رسول الله طريق واضح إلى الهدى قبل الرسالة ، فليس معنى الضلال هنا الانحراف ، ولكن معناه أنه قبل نزول الوحى لم يكن يعرف أى طريق يسلك . وقد يكون الضلال نسياناً ، ومادام الإنسان قد نسى الحقيقة فهو ضال ، والمثال قول الحق :

﴿ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ﴾

(من الآية ٢٨٢ سورة البقرة)

هنا يقرر الحق أن شهادة المرأة تحتاج إلى ضمانٍ وذلك بتأكيدها بشهادة امرأة أخرى ؛ لأن المرأة بحكم تكوينها لا تستطيع أن تضع أنفها فى كل تفاصيل ما تراه ، بل هى تسمع سمعاً سطحياً ، ولذلك لا تكتمل الصورة عندها ، وعندما تجتمع مع شهادة المرأة شهادة امرأة أخرى ، فكل منهما تذكر الأخرى بتفاصيل قد تكون فى منطقة النسيان ؛ لأن نفسية المرأة وطبيعة تكوينها مبنية على الصيانة والتحرز من أن توجد فى مجتمع فيه شقاق .

وعندما يصف الحق هؤلاء المشركين فى يوم القيامة فهو يقول : « وضل عنهم

ما كانوا يفترون » أى غاب عنهم ما كانوا يكذبون ويدعون أنهم شركاء لله ، والمشركون هم المؤاخذون والمحاسبون على اتخاذ الشركاء ، فقد يكون بعضهم قد اتخذ شريكاً لله لا ذنب له فى تلك المسألة ، كاتخاذ بعضهم عيسى عليه السلام شريكاً لله . وعيسى عليه السلام منزه عن أن يشرك بالله أو يشرك نفسه فى الألوهية . والحق قد قال :

﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ ﴾

(سورة المائدة)

بل إن الأصنام نفسها التى اتخذها المشركون أرباباً تقول : عبدونا ونحن أعبد لله من القائمين بالأسحار .

إذن فالخطأ يكون ممن أشركوا بالله لا من الأحجار العابدة لله المسبحة له لأنها مسخرة وميسرة لما خلقت له . لقد تخيل أحد الشعراء حواراً دار بين غار ثور وغار حراء ، يقول غار ثَوْر :

كم حسدنا حراء حين ثوى الرو
ح أميناً يغزوك بالأنوار

وعندما أذن الحق بالهجرة اختبأ النبى بغار ثَوْر ، فقالت بقية الأحجار :

فحراءٌ وثورُ صارا سواءً ... بهما أشفع لدولة الأحجار
عبدونا ونحن أعْبَدُ لِلّهِ ... من القائمين بالأسحار
تخذوا صمتنا علينا دليلا ... فغدونا لهم وقود النار
قد تَجَنّوْا جهلاً كما قد تجنَّـ ... ـوْهُ على ابْنِ مريمٍ والحوارِى
للمُغالِى جزاؤُه والمغالَى ... فيه تُنْجيه رحمةُ الغفارِ

إذن ، فهاهى ذى الحجارة تقول : إنها بريئة من الشرك بالله وهى أعبد لله من القائمين بالأسحار ، وصمت الحجارة الظاهر اتخذه البعض دليلاً على أن الحجارة رضيت بأن يعبدوها ، لكن الحجارة تصير هى أحجار جهنم المعدة لمن كفر بالله ، وكان التجنى من العباد على الأحجار مثل التجنى على عيسى ابن مريم . والذين غالوا فى عبادة الأحجار أو البشر لهم عقاب ، أما الأحجار والبشر الذين لا ذنب لهم فى ذلك فهم طامعون فى مغفرة الله ورحمته .

إذن فالضلال هنا يكون ضلال الذين اتخذوا شريكاً لله . ولكن الشريك المُتَّخَذ لا يقال له: ضل إلا على معنى أنه غاب عنهم فى يوم كان أملهم أن يكون معهم ليحميهم من عذاب الله .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾

إن من هؤلاء من يستمع إلى القرآن لا بهدف التفهم والهداية ، ولكن بهدف تلمس أى سبيل للطعن فى القرآن ، فكأن قلوبهم مغلقة عن القدرة على الفهم وحسن الاستنباط وصولاً إلى الهداية ، وهم يجادلون بهدف تأكيد كفرهم لا بنية صافية لاستبانة آفاق آيات الحق والوصول إلى الطريق القويم .

ونعلم أن السورة كلها جاءت لتواجه قضية الأصنام والوثنية والشرك بالله ، ونعلم أن المعجزة التى جاءت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم هى القرآن ، وهو معجزة كلامية ، تختلف عن المعجزات المرئية التى شاهدها المعاصرون لموسى عليه السلام :

كشق البحر بالعصا أو رؤية العصا وهى تصير حية تلقف كل ما ألقاه السحرة ، أو معجزة عيسى عليه السلام من إبراء الأكمه والأبرص ، فهذه كلها معجزات مرئية ومحددة بوقت ، أما معجزة رسول الله فهى معجزة مسموعة ودائمة .

إن السمع هو أول أدوات الإدراك للنفس البشرية . إنه أول آلة إدراك تنبه الإنسان ، إنه آلة الإدراك الوحيدة التى تُستصحب وقت النوم وتؤدى مهمتها ؛ لأن تصميمها يضم إمكانات مواصلة مهمتها وقت النوم . ونعلم أن الحق حينما أراد أن يقيم أهل الكهف مدة ثلاثمائة وتسع سنين ضرب على آذانهم حتى يكون نومهم سباتاً عميقاً ، فهم فى كهف فى جبل ، والجبل فى صحارى تهب عليها الرياح والزوابع والأعاصير ، فلو أن آذانهم على طبيعتها لما استراحوا فى النوم الذى أراده الله لهم ، ولذلك ضرب الله على آذانهم وقال سبحانه :

﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ﴾

(سورة الكهف)

ومعجزة رسول الله ـ إذن ـ جاءت سمعية وأيضاً يمكن قراءتها . وحين يتلقى الإنسان بلاغاً فهو يتلقاه بسمعه ، ويستطيع من بعد ذلك أن يقرأ هذا البلاغ ويتفقه فيه ، ولا أحد يعرف القراءة إلا إذا سمع أصوات الحروف أولاً ثم رآها من بعد ذلك ، لقد تميزت معجزته صلى الله عليه وسلم بسيد الأدلة فى وسائل الإدراك الإنسانى ، وهو السمع ، والحق يقول : « ومنهم من يستمع إليك » .

إن هناك فارقا بين « يسمع » و« يستمع » ، فالذى يسمع هو الذى يسمع عرضاً ، أما الذى « يستمع » فهو الذى يسمع عمداً . والسامع دون عمد ليس له خيار ألاّ يسمع ، إلا إذا سد أذنيه . أما الذى يستمع فهو الذى يقصد السمع . وهم كانوا يستمعون للقرآن لا بغرض اكتشاف آفاق الهداية ولكن بغرض الإصرار على الكفر وذلك بقصد تصيد المطاعن على القرآن .

ويقول الحق سبحانه : « وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه » و« الأكنة » جمع « كنان » وهى الغطاء أو الغلاف . ويتابع الحق : « وفى آذانهم وقراً » أى جعلنا فى آذانهم صمماً ، كأنهم باختيارهم الكفر قد منعهم الله أن يفهموا القرآن ، ونعلم أن

جميع المعاصرين لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قد سمعوا لرسول الله ومنهم من آمن ومنهم من ظل على الكفر . ونعرف أن لكل فعل مستقبلاً . ويمكن للمستقبل أن يؤمن وبذلك يكون الفعل قد أتى ثمرته ، وقد يكون المستقبِل مصراً على موقفه السابق فلا يؤمن ، وهنا يكون الفعل لم يؤت ثمرته ، والفاعل واحد ، لكن القابل مختلف . وكان بعض الكافرين يسمعون القرآن ثم يخرجون دون إيمان :

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ ﴾ (سورة محمد)

إنهم ككفار يستمعون للقرآن ، ثم ينصرفون ليقولوا فى استهزاء للمؤمنين الذين علموا وآمنوا : أى كلام هذا الذى يقوله محمد ؟ . وهؤلاء المستهزئون هم الذين ختم الله على قلوبهم بالكفر ، وانصرفوا عن الهداية إلى الضلال . والمتكلم بكلام الله هو رسول الله مبلغاً عن الله ، والسامع مختلف ؛ فهناك سامع مؤمن يتأثر بما يسمع ، وهناك سامع كافر لا تستطيع أذنه أن تنقل الوعى والإدراك بما سمع . لكن القرآن للذين آمنوا هدى وشفاء ، أما الذين لا يؤمنون به فآذانهم تصم عن الفهم وأعماقهم بلا بصيرة فلذلك لا يفهمون عن الله ، وتجد نفس المؤمن تستشرف لأن تعلم ماذا فى القرآن . أما الذى يريد أن يكون جباراً فى الأرض فهو لا يريد أن يلزم نفسه بالمنهج .

وحتى نعرف الفارق بين هذين اللونين من البشر ، نجد المؤمن ينظر إلى الكون ويتأمله فيدرك أن له صانعاً حكيماً ، أما الكافر فبصيرته فى عماء عن رؤية ذلك . وحين يستمع المؤمن إلى بلاغ من خالق الكون فهو يرهف السمع ، أما الكافر فهو ينصرف عن ذلك .

وكان صناديد قريش أمثال أبى جهل وأبى سفيان ، والنضر بن الحارث ، والوليد ابن المغيرة ، وعتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وحرب بن أمية ، كل هؤلاء من صناديد قريش يجتمعون ويسأل الواحد منهم النضر قائلاً : يا نضر ما حكاية الكلام الذى يقوله محمد ؟

وكان النضر راوية للقصص التى يجمعها من أنحاء البلاد ، فهو قد سافر إلى بلاد فارس والروم وجاب الجزيرة من أقصاها إلى أقصاها ، فقال : والله ما أدرى ما يقول محمد إلا أنه يقول أساطير الأولين .

ويتجادل النضر وأبو سفيان وأبو جهل مع رسول الله ، وهذا الجدال دليل عدم فهم لما جاء من آيات القرآن . ولم يجعل الله الوقر على آذانهم قهراً عنهم ، بل بسبب كفرهم أولاً ، فطبع الله على قلوبهم بكفرهم ، واستقر مرض الكفر فى قلوبهم وفضلوه على الإيمان فزادهم الله مرضاً ، وقال فيهم الحق سبحانه :

﴿ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾

(من الآية ٢٥ سورة الأنعام)

والأساطير هى جمع أسطورة ، والأسطورة شىء يسطر ليتحدث به من العجائب والأحداث الوهمية . وكأن الحق سبحانه وتعالى يكشفهم أمام أنفسهم وهو يحاولون أن يجدوا ثغرة فى القرآن فلا يجدون . وقال الله عنهم قولاً فصلاً :

﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾

(سورة الزخرف)

فهم يعلمون عظمة القرآن فكيف يقولون إنه أساطير الأولين ؟ لقد كانوا من المعجبين بعظمة أسلوب القرآن الكريم فهم أمة بلاغة ، ولكنهم يعلمون أن مطلوبات القرآن صعبة على أنفسهم . كما أنهم أرادوا أن يظلوا فى السيادة والجبروت والقهر للغير ، والقرآن إنما جاء ليساوى بين البشر جميعاً أمام الحق الواحد الأحد .

لقد جاءت حوادث قسرية بإرادة الله لتكون سبباً للإيمان ، مثلما حدث مع عمر ابن الخطاب رضى الله عنه عندما علم أن أخته قد أسلمت فذهب إليها وضربها حتى أسال منها الدم . وإسالة الدم حركت فيه عاطفة الأخوة فأزالت صلف العناد ، فأراد أن يقرأ الصحيفة التى بها بعض من آيات القرآن ، وتلقى الأمر من أخته بأن يتطهر فتطهر وجلس يستمع ، وبزوال صلفه وعناده وبتطهره صار ذهنه مستعداً لفهم

ما جاء بالقرآن ، وذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعلن إيمانه بالله ربا وبمحمد صلى الله عليه وسلم وبرسالته الخاتمة .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ۖ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾

والكافر من هؤلاء إنما ينأى عن مطلوب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يريد أن يهتدى ، ويمعن فى طغيانه فينهى غيره عن الإيمان ، فكأنه ارتكب جريمتين : جريمة كفره ، وجريمة نهى غيره عن الإيمان .

لقد كانت قريش على ثقة من أن الذى يسمع القرآن يهتدى به ، لذلك أوصى بعضهم بعضاً ألا يسمعوا القرآن ، وإن سمعوه فعليهم أن يحرفوا فيه أو أن يصنعوا ضجيجاً يحول بين السامع للقرآن وتدبره .

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾

(سورة فصلت)

إنهم واثقون من أن القرآن يقهرهم بالحجة ويفحمهم بالبينات ، وأنهم لو استمعوا إليه لوجدوا فيه حلاوة وطلاوة تستل من قلوبهم الجحود والنكران . وكأنهم بذلك يشهدون أن للقرآن أثراً فى الفطرة الطبيعية للإنسان ، وهم أصحاب الملكة فى البلاغة العربية . ومع ذلك ظل الكافرون على عنادهم بالرغم من عشقهم للأسلوب والبيان والأداء . ولم يكتفوا بضلال أنفسهم ، بل أرادوا إضلال غيرهم ، فكأنهم يحملون بذلك أوزارهم وأوزار من يضلونهم ، ولم يؤثر ذلك على مجرى الدعوة ولا على البلاغ الإيمانى من محمد عليه الصلاة والسلام ؛ ذلك أن الحق ينصره على الرغم من كل هذا ؛ فهو سبحانه وتعالى القائل :

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا

لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾

(سورة الصافات)

وحين يقول الحق سبحانه :

﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ۖ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

نعرف أن المقصود بذلك القول هم المعارضون لدعوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد عارضوها لأنها ستسلبهم سلطتهم الزمنية من علو ، وجبروت ، واستخدام للضعفاء . وذلك ما جعلهم يقفون من الدعوة موقف النكران لها والكفران بها .

وماداموا قد وقفوا من الدعوة هذا الموقف ، فلم يكن من حظهم الإيمان ، ولأنهم نأوا وبعدوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد خسروا ، أما غيرهم فلم ينأ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بل إنه أوى إلى الله فآواه الله .

إنّ هؤلاء الجاحدين المنكرين لدعوة رسول الله وقفوا أمام دعوته وصدوا الناس عنها ونهوهم عن اتباعها ؛ لأن هذه الدعوة ستسلبهم سلطتهم الزمنية من علو وجبروت واستخدام الضعفاء وتسخيرهم فى خدمتهم وبسط سلطانهم عليهم . هذا - أولا - هو الذى دفعهم إلى منع غيرهم ونهيهم عن اتباع الإسلام ، ثم هم - ثانيا - ينأون ويبتعدون عن اتباع الرسول ، - إذن - فمن مصلحتهم - أولا - أن ينهوا غيرهم قبل أن ينأوا هم ؛ لأنه لو آمن الناس برسول الله وبقوا هم وحدهم على الكفر أيستفيدون من هذه العملية ؟ لا يستفيدون - إذن - فحرصهم - أولا - كان على ألا يؤمن أحد برسول الله لتبقى لهم سلطتهم .

وجاء الأداء القرآنى معبراً عن أدق تفاصيل هذه الحالة فقال : « وهم ينهون عنه وينأوْن عنه » فالبداية كانت نهى الآخرين عن الإيمان برسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم بعد ذلك ابتعادهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فصار حظهم أن يظلوا على كفرهم فكان الخسران من نصيبهم ، بينما آمن غيرهم من الناس .

وهكذا نرى أن الأداء القرآنى جاء معبرًا دائماً عن الحالة النفسية أصدق تعبير ،

فقول الحق : « وهم ينهون عنه » قول منطقى يعبر عن موقف المعارضين لرسول الله أما قوله الحق : « وينأون عنه » فهذا تصوير لما فعلوه فى أنفسهم بعد أن منعوا غيرهم من اتباع الدعوة المحمدية والرسالة الخاتمة . فهم بذلك ارتكبوا ذنبين : الأول : إضلال الغير ، والثانى : ضلال نفوسهم . وبذلك ينطبق عليهم قول الحق سبحانه :

﴿ لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم ﴾

(من الآية ٢٥ سورة النحل)

ولا يقولن أحد : إن هذه الآية تناقض قول الحق سبحانه :

﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾

(من الآية ١٥ سورة الإسراء)

ذلك لأن الوزرين : وزرهم ، ووزر إضلالهم لغيرهم من فعلهم .

ويتابع الحق : « وإن يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون » ونرى أن الذى يقف أمام دعوة الحق والخير لينكرها ويبطلها ويعارضها ويحاربها إنما يقصد من ذلك خير نفسه وكسب الدنيا وأخذها لجانبه ، ولكنهم أيضاً لن يصلوا إلى ذلك ، لماذا ؟

لأن الله غالب على أمره :

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾

(سورة الصافات)

والحق سبحانه وتعالى لا يهزم جندَه أبداً ، ولا بد أن يهلك أعداء دعوته بسبب كفرهم وصدهم عن سبيل الله فهم فى الحقيقة هم الذين يهلكون أنفسهم بأنفسهم . وسيظل أمر الدعوة الإيمانية الإسلامية فى صعود . وسيرون أرض الكفر تنتقص من حولهم يوماً بعد يوم . ولذلك يقول الحق فى آية أخرى :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾

(من الآية ٤١ سورة الرعد)

أى أن أرض الكفر تنقص وتنقص والله يحكم لا معقب لحكمه ، ولذلك يشرح القرآن فى آخر ترتيبه النزولى هذه القضية شرحاً وافياً . ويعلمنا أن نقطع كل علاقة لنا مع الكافرين ، فيقول سبحانه :

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ ﴾

(سورة الكافرون)

وهكذا نرى أن قطع العلاقات أمر مطلوب بين فريقين : فريق يرى أنه على حق ، وفريق ثانٍ أنه على باطل . وقد يكون قطع العلاقات أمراً موقوتاً . وقد تضغط الظروف والأحداث إلى أن نعيد العلاقات الدنيوية ثانية ، ولكن قطع العلاقات لا بد أن يكون مؤيداً فى شأن العقيدة ولا مداهنة فى هذا ، ولذلك قالها الحق مرتين :

﴿ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ ﴾

(سورة الكافرون)

فالمؤمن يرى الحاضر والمستقبل ، ويعلم استحالة أن يعبد ما يعبده الكافرون ، واستحالة أن يعبد الكافرون ما يعبد .

وقد يقول قائل : إن القرآن فى ترتيبه النزولى لا بد ألا يتعارض مع واقعه ، ولكننا نرى فى قوله تعالى : (لا أعبد ما تعبدون ، ولا أنتم عابدون ما أعبد) وكررها مرتين ، إنه بذلك يكون قد أغلق الباب أمام الكافرين فلا يؤمنون مع أن بعضهم قد دخل فى دين الله . نقول نعم : إنه لا يتعارض ؛ لأن الحق لم يغلق الباب أمام الكافرين الذين أراد الله أن يؤمنوا ، بدليل أنه قال جلّ وعلا :

﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ۝٣ ﴾

(سورة النصر)

إذن فالمسألة لن تجمد عند ذلك ؛ فمعسكر الإيمان سيتوسع ، وسيواجه معسكر الكافرين وسيدخل الناس فى دين الله أفواجاً . ولكن هناك من قضى الله عليهم ألا يؤمنوا ليظلوا على كفرهم ويدخلوا النار ، فقال سبحانه من بعد ذلك :

﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾ ﴾

(سورة المسد)

إذن فأبو لهب ومن على شاكلته سيدخل النار ولن يدخل فى دين الله أبدًا .

ويجىء قوله الحق :

﴿ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ ﴾ (سورة النصر)

هذا القول يفتح باب الأمل ، ونرى دخول عمر بن الخطاب وعمرو ابن العاص ، وعكرمة بن أبى جهل إلى الإسلام . ومجىء سورة المسد من بعد سورة النصر فى الترتيب المصحفى كما أراد الله ، يعلمنا أن هناك أناساً لن يدخلوا الجنة لأنهم مثل أبى لهب وزوجه .

وتأتى من بعدها سورة الإخلاص :

﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾ ﴾

(سورة الإخلاص)

إنه لا إله مع الله ينقض ما حكم به الله ، ولن يعقب أحد على حكم الله . إذن فمن كفر وأشرك بالله يكون من الذين خسروا أنفسهم وأهلكوها وما يشعرون .

ومن بعد ذلك يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾

عندما ننظر إلى قول الحق : « ولو ترى إذ وُقِفوا على النار » ، هنا لا نجد جواباً ، مثل ما تجده فى قولك : لو رأيت فلاناً لرحبت به أو لو رأيت فلاناً لعاقبته . إن فى كلٍ من هاتين الجملتين جواباً ، لكن فى هذا القول الكريم لا نجد جواباً ، وهذا من عظمة الأداء القرآنى ؛ فهناك أحداث لا تقوى العبارات على أدائها ، ولذلك يحذفها الحق سبحانه وتعالى ليذهب كل سامع فى المعنى مذاهبه التى يراها .

وفى حياتنا نجد مجرماً فى بلد من البلاد يستشرى فساده وإجرامه فى سكانها تقتيلاً وتعذيباً وسرقة واعتداءات ، ولا أحد يقدر عليه أبداً ، ثم يمكّن الله لرجال الأمن أن يقبضوا عليه ، فنرى هذا القاتل المفسد يتحول من بعد الجبروت إلى جبان رعديد يكاد يقبل يد الشرطى حتى لا يضع القيود فى يديه . ويرى إنسان ذلك المشهد فيصفه للآخرين قائلا : آه لو رأيتم لحظة قبضت الشرطة على هذا المجرم ، وهذه العبارة تؤدى كل معانى الذلة التى يتخيلها السامع ، إذن فحذف الجواب دائماً تربيب لفائدة الجواب ، ليذهب كل سامع فى تصور الذلة إلى ما يذهب . لأن المشاهد لو شاء لحكى ما حدث بالتفصيل لحظة القبض على المجرم وبذلك يكون قد حدد الذلة والمهانة فى إطار ما رأى هو ، ويحجب بذلك تخيّل وتصوّر السامعين .

أما اكتفاء المشاهد بقوله : آه لو رأيتم لحظة قبض الشرطى على هذا المجرم . . فهذا القول يعمم ما يُرى حتى يتصور كل سامع من صور الإذلال ما يناسب قدرة خياله على التصور . وهكذا أراد القرآن أن يصور هول الوقوف على النار فأطلق الحق « لو » بلا جواب حين قال :

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

وقد أراد البعض أن يتصيد لأساليب القرآن ، ومنهم من قال : كيف تقولون إن القرآن عالى البيان ، فصيح الأسلوب ، معجز الأداء ، وهو يقول ما يقول عن شجرة الزقوم ؟

إن القرآن الكريم يقول عن هذه الشجرة :

﴿ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ ﴾

(سورة الصافات)

إن كل شجرة تحتاج إلى ماء وهواء ، وفيها حياة تظهر باخضرار الأوراق ، فكيف تخرج هذه الشجرة من النار ، أليس فى ذلك شذوذ ؟ ثم تتمادى الصورة . . صورة الشجرة ، فيصف الحق ثمارها بقوله الحق :

﴿ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾

(سورة الصافات)

نحن لم نر شجرة الزقوم ، ولم نر رأس الشيطان . ويَسْخَرُ الذين يتصيدون للقرآن فى أقوالهم : بما أن أحداً من البشر لم يشهد رأس الشيطان ، وكذلك شجرة الزقوم ، فكيف يشبه الله المجهول بمجهول؟ وتساءلوا بطنطنة : ماذا يستفيد السامع من تشبيه مجهول بمجهول ؟ ونقول رداً عليهم : إن غباء قلوبكم وفقدان طبعكم لملكة اللغة العربية هو الذى يجعلكم لا تفهمون ما فى هذا القول من بلاغة .

وحين نقرب المثل نقول : هب أن إنساناً أقام مسابقة بين رسامى « الكاريكاتير » فى العالم ليرسم كل منهم صورة للشيطان ، ويوم تحديد الفائز ستوجد أكثر من صورة للشيطان ، وستفوز أكثر الصور بشاعة ، ذلك أن الفوز هنا ليس فى الجمال ، ولكن الفوز هنا فى مهارة تصوير القبح . وهكذا تتعدد أمامنا صور القبح ، فما بالنا بالحق سبحانه وتعالى وقد أراد إطلاق الخيال لتصور شجرة الزقوم ، وكذلك تصور رأس الشيطان ؟ أراد الحق بهذا الأسلوب البليغ إشاعة الفائدة من إظهار بشاعة صورة الشجرة التى يأكل منها أهل الكفر .

وكذلك هنا قوله الحق : « ولو ترى إذ وقفوا على النار » والذى يحدث لهؤلاء

الوقوف على النار لا يأتى خبره هنا ، بل يكتفى الحق بأن يعبر لنا عن أننا نراهم فى مثل هذا الموقف ؛ لأن اليوم الآخر هو يوم الجزاء ؛ إما إلى الجنة وإما إلى النار . والجنة - كما نعلم من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم - إن فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . ونعلم أن رؤية العين محدودة ، ورقعة السمع أكثر اتساعاً ، ذلك أن الأذن تسمع ما تراه أنت وما رآه غيرك ، لكن عينيك لا تريان إلا ما رأيته أنت بمفردك ، ولا يكتفى الحق بذلك بل يخبر رسوله صلى الله عليه وسلم أن فى الجنة ما لا يخطر على قلب بشر ، أى أن فى الجنة أشياء لا تستطيع اللغة أن تعبر عنها ؛ لأن اللغة تعبر عن متصورات الناس فى الأشياء . والمعنى يوجد أولاً ثم يوجد اللفظ المعبر عنه .

وهكذا نعلم أن ما فى الجنة من نعيم لا توجد ألفاظ تؤدى كل ما تحمله للمؤمن من معان ، وكذلك نعلم أيضاً أن فى النار عذاباً لم توضع له ألفاظ لتعبر عنه . ولو أن الحق سبحانه وتعالى قال : « ولو ترى إذ وقفوا على النار » لرأينا أمراً مفزعاً مخيفاً مذلاً إلى آخر تلك الألفاظ الدالة على عمق العذاب لما أعطى ذلك الأثر نفسه الذى جاء به حذف الجواب .

وعندما نقرأ « وُقِفوا » نعرف أن فيه بناء وكيانا موجودًا ، وأن هناك من أوقفهم على النار ، وهم كانوا مكذبين فى الدنيا بالنار ، ثم وجدوا أنفسهم يوم القيامة ضمن من وقّفهم الله على النار ليروا العذاب الذى ينتظرهم ، ويطلعوا على النار اطلاع الواقف على الشىء ، كذلك يوقفهم الحق على النار التى أنكروها فى الدنيا ؛ فقد جاءهم الخبر فى الدنيا ، فمن صدق وعلم أن من أخبره صادق ، فذلك علم يقين ، وإن تجاوز الإنسان مرحلة العلم ورأى صورة محسة للخبر ، فهذا عين يقين . والمؤمن بإخبار ربه وصل إلى الأشياء بعلم اليقين من الله ، لأنه يصدق ربه ، ولذلك فالإمام على - كرم الله وجهه - يقول : « لو انكشف عنى الحجاب ما ازددت يقينا » ؛ لأنه مصدق بلاغ به .

لكن ماذا عن المكذبين ؟ إن الإنسان يرى علم اليقين فى اليوم الآخر وهو عين يقين ، ويشترك فى ذلك المؤمن الكافر . ولكن الكافر يرى النار عين اليقين ويدخلها ليحترق بها فيحس بها وهذا هو « حق اليقين » .

هكذا نعلم أن النار « عين اليقين » يراها المؤمن والكافر ، والنار كـ « حق اليقين » يعاينها ويعذب بها الكافر فقط ، أما المؤمن فى الجنة فيحس « حق اليقين » لأنه يعيش ويسعد بنعيمها . ويصور سبحانه ذلك فى قوله :

﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧ ﴾

(سورة التكاثر)

وجاء حق اليقين فى قوله تعالى :

﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۝٨٨ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ۝٨٩ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ۝٩٠ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ۝٩١ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ۝٩٢ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ۝٩٣ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ۝٩٤ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ۝٩٥ ﴾

(سورة الواقعة)

وماذا يصنعون وهم المكذبون عندما يرون النار عين اليقين ؟ لا بد أنهم يخافون أن يعانوا منها عندما تصبح حق اليقين ، لذلك يقولون :

﴿ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

(من الآية ٢٧ سورة الأنعام)

إنهم يتمنون العودة إلى الدنيا ليستأنفوا الإيمان . والتمنى فى بعض صوره هو طلب المستحيل غير الممكن للإشعار بأن طالبه يحب أن يكون ، كقول القائل :

ألا ليت الشباب يعود يوماً فأخبره بما فعل المشيب

أو قول القائل :

ليت الكواكب تدنو لى فأنظمها
عقود مدحٍ فما أرضى لكم كلمى

وهم قالوا : « يا ليتنا نرد » فإن كانوا قالوا هذا تمنياً فهو طلب مستحيل ويتضمن أيضا وعداً بعدم التكذيب بآيات الله ، فهل هم قادرون على ذلك ؟

لا ؛ لأن القرآن الكريم قد قال فى الآية التالية :

﴿ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

إنهم يطلبون العودة إلى الدنيا لا لينفذوا الوعد فى طلبهم المستحيل ؛ لأنهم سيفعلون مثلما فعلوا من قبل ، كفراً ونكراناً وجحوداً . إنهم لجأوا إلى هذا القول من فرط الخوف مما أعده الله لهم . بعد أن ظهر لهم كل ما كانوا يفعلونه فى الدنيا من كفر وجحود . ويقال عن يوم القيامة « يوم الفاضحة » ؛ لأن كل إنسان سيجد كتابه فى عنقه ، ويقال له :

﴿ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

فإذا كنا فى الدنيا نسجل الأحداث بالصوت والصورة فما بالنا بتسجيل الحق لنا ؟ ويرى الإنسان مَكْرَه يوم القيامة بالصوت والصورة ، وكل فعل فعله سيراه بطريقة لا يمكن معها أن ينكره ، وكأن الحق يوضح لكل عبد : أنا لن أحاسبك بل سأترك لك أن تحاسب نفسك . ويفاجأ الإنسان أن جوارحه تنطق لتشهد عليه : الأيدى تنطق بما فعل ، واللسان ينطق بما قال ، والقدم تحكى إلى أين ذهب بها صاحبها ، فهذه الجوارح التى كانت تنفعل لمراد صاحبها فى الدنيا ، يختلف موقفها فى الآخرة ولا تنفذ فى اليوم الآخر مراد الإنسان بل مراد من أعطى الإنسانَ المرادَ .

﴿ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾

(من الآية ١٦ سورة غافر)

مثال ذلك ـ ولله المثل الأعلى ـ نجد السرية أو الكتيبة المقاتلة لها قائد يحكم

الجنود ، فإن أعطاهم أوامر خاطئة فهم ينفذونها ، وبعد انتهاء المعركة يسألهم القائد الأعلى ، فيقولون سلسلة الأوامر الخاطئة التى أصدرها قائدهم المباشر .

فإياك أن تظن أيها الإنسان أن أبعاضك مؤتمرة بقدرتك عليها دائما ، إن سيطرتك عليها أمر منحك الله إياه ، ويسلبه منك متى شاء فى الدنيا . ويأتى يوم القيامة لتنتهى سيطرتك على الأبعاض . وأنت ترى فى الدنيا بعضاً من صور سلب السيطرة على الأبعاض لتتذكر قدرة الواهب الأعلى ؛ فأنت ترى من لا يرى ، وترى من فقد السيطرة على جارحة أو أكثر من جوارحه ، وذلك تنبيه من الله على أن سيطرة الإنسان على الجوارح إنما هى أمر موهوب من الله . وقول الحق سبحانه عن الكافرين : « بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل » يفضح تدليسهم فى الحياة الدنيا ، ثم يجيب الله على تمنيهم السابق الملىء بالذلة والمسكنة ، التمنى بالعودة إلى الدنيا ، فيقول سبحانه : « ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون » .

فهم كاذبون فى الوعد بأن يؤمنوا لو عادوا إلى الدنيا ، يوضح ذلك قول الحق سبحانه :

﴿ وَقَالُوٓاْ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

إنهم لم يأخذوا فى أثناء حياتهم الإيمان كإيمان استدلال بكوْن منظم مرتب محكم التكوين ، إنهم لم يلتفتوا إلى أن هذا النظام والإحكام والترتيب موجود فى علاقات البشر بعضهم ببعض سواء أكانوا مؤمنين أم ملاحدة ، ونعلم أن هناك صفات يشترك فى كراهتها كل الناس مؤمنهم وملحدهم ؛ فالملحد إن سرق من زميله ، ألا يعاقب ؟ إنه يتلقى العقاب من مجتمعه ، وفى كل المجتمعات هناك ثواب وعقاب ، بل هناك جزاء بإحسان . والإيمان لا يمنع أن يصطلح الناس على شىء من الإحسان ، والمحرومون من الإيمان تلجئهم الأحداث أن يضعوا القانون لينظموا الثواب والعقاب .

إننا نجد أن تجريم المخالف للخير والجمال وإصلاح الكون هو أمر فطرى

وضرورى للإنسان ؛ فهم يجرمون أفعال السوء بعد أن تعضهم الأحداث ولا يلتفتون إلى أن المنهج السماوى جاء بالثواب والعقاب على كل فعل يحمى كرامة الإنسان . ويوم القيامة يقفون فى صَغار وفى اضطرار ليروا ما فعلوا :

﴿ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

فهم لو رُدُّوا إلى الدنيا بما كان لهم فيها من اختيار فسيفعلون مثلما فعلوا ، ولم يقولوا مثل هذا القول فى اليوم الآخر إلا لأنهم مقهورون . وكانوا من قبل يقولون :

﴿ وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

ففى دنياهم كانوا لا يؤمنون إلا بحياة واحدة هى الدنيا . ولم يلتفتوا إلى أن الإنسان يحيا فى الدنيا على قدر قوته ، وويل للضعيف من القوى . والقوى إنما يخاف من قانون يعاقبه ، أو يخاف من إله سيعاقبه على الذنب مهما أخفاه ، ولذلك نجد القاضى المؤمن يقول دائماً : لئن عمَّيتم على قضاء الأرض ، فلا تعمّوا على قضاء السماء .

ومن غباء أهل الكفر أنهم يسمون الحياة على الأرض « الحياة الدنيا » وهى فى حقيقتها دنيا ، وماداموا قد حكموا وعرفوا أنها « دنيا » فلا بد أن يقابلها حياة عليا . إنّ كل ذلك يحدث لهم عندما يقفون على النار ، والنار جند من جنود الجبار ، فما بالك بهم حين يقفون أمام خالق النار ورب العالمين ؟

ويقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

هم ـ إذن ـ قد خافوا وارتبكوا وطلبوا العودة للحياة الدنيا ؛ لأن ما شاهدوه هول كبير ، فما بالك إذا وقفوا على الله ؟ إنه موقف مرعب . وإذا كان الحق قد حذف من قبل الجواب عندما أوقفهم على النار ؛ فالأولى هنا أن يحذف الجواب ، حتى يترك للخيال أن يذهب مذاهب شتى . . إنه ارتقاء فى الهول .

وهكذا نرى التبكيت لهم فى قول الحق لهم : « أليس هذا بالحق » ؟ إنهم يفاجأون بوجود إله يقول لهم بعد أن يشهدوا البعث ويقفوا على النار : « أليس هذا بالحق » ؟ وسبحانه وتعالى لا يستفهم منهم ولكنه يقرر ، وقد شاء أن يكون الإقرار منهم ، فيقولون : « بلى » لأن الأمر لا يحتاج ـ إذن ـ إلى مكابرة . و« بلى » حرف يجعل النفى إثباتاً .

ويطرح الحق هذه المسألة بالنفى حتى لا يظن ظان أن هناك تلقيناً للجواب . ويصدر حكم الحق : « فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون » وهكذا يذوقون العذاب الذى كانوا به يكذبون . وذوْق العذاب ليس من صفة القهر والجبروت ؛ لأن الله لا يظلم مثقال ذرة ، ولكن بسبب أنهم قدموا ما يوجب أن يعذبوا عليه .

ويقول الحق سبحانه وتعالى من بعد ذلك :

﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ ﴾

إن كل رأس مال يحتاج إلى عمل يزيده ، لكن أن يكون العمل قد أضاع المال ، فهذا يعنى الخسارة مرتين : مرة لأن رأس المال لم يبق عند حده بل إنه قد فنى وذهب وضاع ، وثانية لأن هناك جهداً من الإنسان قد ضاع وأضاع معه رأس المال .

إذن فقد خسر الذين كذبوا بلقاء الله ؛ لأنهم باعوا الآجل الطويل العمر بالعاجل القصير العمر . وكل إنسان منا يريد أن يثمّر عمله ويحاول أن يعطى قليلاً ليأخذ كثيراً .

وعلى سبيل المثال نجد الفلاح يقتطع مقدار كيلتين من أرادب القمح التى فى مخزنه ليبذرها فى الأرض بعد أن تُحرث . وهذا يعنى النقص القليل فى مخزن هذا الفلاح ، ولكنه نقص لزيادة قادمة ؛ فعندما وضع البذور فى الأرض المحروثة نجد الحق سبحانه وتعالى ينبتها له أضعافاً مضاعفة . والفلاح بذلك يبيع العاجل القليل من أجل أن يأخذ الآجل الكبير .

وهذه أصول حركة العاقل الذى يزن خطواته ، فإن أراد أن يزيد الثمار من حركته ، فعليه أن يبذل الجهد . أما إن كانت الحركة لا تأتى له إلا بالقليل فلن يتحرك . ولأن العاقل لا يحب الخسارة نجده يوازن دائماً ويقارن بين ما يبذله من جهد والعائد الذى سيأتى إليه . أما الذين كفروا بلقاء الله فهم قد خسروا أنفسهم ، لأنهم لم يوازنوا بين حياتين : حياة مظنونة ، وحياة متيقنة ؛ لأن مدة حياتنا الدنيا مظنونة غير متيقنة .

إننا لا نعرف كم سنحيا فيها ؛ فمتوسط عمر الإنسان على الأرض هو سبعون عاماً على سبيل المثال ، ولكن أحداً لا يعرف كم عمره فى الدنيا بالضبط ، وله أجل محدود . إنه فانٍ وذاهب وميّت ، ولكن حياة الآخرة متيقنة لا أجل لها ، إنها دائمة ، ونعلم أن نعيم الدنيا بالنسبة للإنسان هو على قدر الأسباب الموجودة لديه ، أما نعيم الآخرة فهو على قدر طلاقة قدرة المسبب وهو الله ، وعلى هذا تكون خسارة الذين كفروا كبيرة وفادحة ودامية ؛ لأنهم لم يتاجروا مع الله :

﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا ﴾

(من الآية ٣١ سورة الأنعام)

ونعلم أن « حتى » هى جسر بين أمرين ؛ فالأمر الذى نريد أن نصل إليه هو غاية ، كقول إنسان ما : « سرت حتى وصلت المنزل » ، والمنزل هنا هو غاية السير .

والذين كفروا ، كان كفرهم وتكذيبهم موصلاً إلى الخسران ، فمجىء الساعة بغتة ليس هو نهاية المطاف ، ولكنه وصول إلى أول الخسران ؛ لأن خسرانهم لا ينتهى من فور مجىء الساعة ، ولكنه يبدأ لحظة مفاجأة الساعة لهم . فهم يفاجأون بوقوع ما كانوا يكذبون به . ويعلمون جيداً أن ما صنعوه فى الدنيا لا يستوجب إلا العذاب .

وهنا تبدأ الحسرة التى لا يقدرون على كتمانها ، ولذلك يقولون : « يا حسرتنا على ما فرطنا فيها » . . أى على تفريطنا وإسرافنا فى أمرنا وذلك فى أثناء وجودنا فى الدنيا . وبذلك نعرف أن عدم التفريط فى الدنيا والأخذ بالأسباب فيها أمر غير مذموم ، ولكن التفريط فى أثناء الحياة الدنيا هو الأمر المذموم ؛ لأنه إضاعة للوقت وإفساد فى الأرض .

إننى أقول ذلك حتى لا يفهم أحد أن الاستمتاع فى الدنيا أمر مذموم فى حد ذاته ، وحتى لا يفهم أحد أن الآخرة هى موضوع الدين ؛ لأن الدنيا هى موضوع الدين أيضا ، والجزاء فى الآخرة إنما يكون على ألوان السلوك المختلفة فى الدنيا ؛ فمن يحسن السلوك فى الدنيا ينال ثواب الآخرة ومن يسىء ينال عقاب الآخرة . ولذلك لا يصح على الإطلاق أن نقارن الدين بالدنيا .

إن علينا أن نعلم خطأ الذين يقولون : « دين ودنيا » فالدين ليس مقابلاً للدنيا . بل الدنيا هى موضوع الدين . أقول ذلك رداً على من يظنون أن سبب ارتقاء بعض البلاد فى زماننا هو أن أصحابها أهملوا الدين وفتنوا بما فى الدنيا من لذة ومتعة فعملوا على بناء الحضارات .

نقول : إن الإقبال على الدين بروح من الفهم هو الذى يبنى الحضارات ويُثاب المصلح فى الدنيا يوم الجزاء ، ولنا أن نعرف أن المقابل للدنيا هو الآخرة ، والدين يشملهما معاً ؛ يشمل الدنيا موضوعاً ، والآخرة جزاءً . والذين يفتنون بالدنيا ولا يؤمنون بالآخرة هم الذين يقولون يوم القيامة : « يا حسرتنا على ما فرطنا فيها وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم » . والأوزار المعنوية فى الدنيا ـ وهى الذنوب ـ ستتجسم بحسيات وذلك حتى تكون الفضيحة علنية ؛ فمن سرق غنمة يُبعث يوم القيامة وهو يحملها على ظهره ، ومن سرق بقرة يُبعث يوم القيامة وهو يحملها على

كتفه وهى تخور ، وكذلك من سرق طناً من حديد عمارة سيبعث يوم القيامة وهو يحمله على ظهره ، وكذلك يفضحه الله يوم القيامة .

وهكذا يكون موقف أهل النار ؛ لذلك يقول الحق : « ألا ساء ما يزرون » ونعلم أنهم لا يحملون أوزارا فقط بل يحملون من أوزار الذى اتخذهم قدوة له ، فهذا وزر الإضلال ويعرفون ـ جميعا ـ أن حمل الوزر يتجسد فى الإحساس بعبئه ؛ فقد قادتهم هذه الأوزار إلى الجحيم ، ونعلم أن نتيجة كل عمل هى الهدف منه ، فمن عمل صالحاً سيجد صلاح عمله ، ومن أساء فسيجد عمله السيىء .

إننا نرى الأمثلة العملية لذلك فى حياتنا اليومية ؛ فهذان شقيقان يعملان بالزراعة ، وكل منهما يملك فدانين من الأرض مثلا : الأول منهما يقوم مع طلوع الفجر ليعتنى بأرضه ويحرثها ويحمل إليها السباخ ويعتنى بمواقيت الرى ويسعى إلى يوم الحصاد بجد واهتمام . والآخر يسهر الليل أمام شاشة التليفزيون ، ولا يقوم من النوم إلا فى منتصف النهار ، ولا يخدم أرضه إلا بأقل القليل من الجهد . ثم يأتى يوم الحصاد فينال الأول ناتج تعبه من محصول وفير ، وينال الآخر محصولاً قليلاً بالاضافة إلى الحسرة التى يتجرعها بسبب إهماله وكسله . إذن فالعاقل هو من يدرس ما تعطيه حركته فى الحياة . ويختار نوعية الحركة فى الحياة بما يضمن له سعادة الدنيا والآخرة ، واطمئنان النفس فى الدنيا والآخرة .

إن من ينام ولا يذهب إلى عمله هو إنسان يحب نفسه ، ومن قام فى بكرة الفجر إلى عمله يحب نفسه أيضاً ، ولكنّ هناك فارقاً بين حب أحمق عقباه الندم ، وحب أعمق لمعنى الحياة وعقباه الجزاء الوافر .

والحق سبحانه وتعالى يقول لنا :

﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾

هكذا تكون الحياة بالنسبة لمن يقف عند وصفها على أساس أنها « الحياة الدنيا » إنها لا تزيد على كونها لهواً ولعباً . واللعب ـ كما نعلم هو مزاولة حدث ونقضه فى آن واحد ، والمثال على ذلك الطفل على شاطىء البحر قد يقيم بيتاً من الرمال ثم يهدمه ، إنه لم يقم ببناء بيت من الرمال إلا ليهدمه . واللعب عملية يُقصد بها قتل وقت فى عمل قد يُنقض ، فالبناء والنقض فى هذه الحالة لعب ولا يشغل اللعبُ الإنسان عن الواجب . أما اللهو فهو قتل الوقت فى عمل قد ينقض ويشغل الإنسان عن الواجب أيضا .

والطفل الصغير ـ على سبيل المثال ـ يتلقى من والديه بعض اللعب ليقضى وقته معها وقد يخربها ويهدمها وقد يعيد بناءها . ولعب الطفل هو لهو فى الوقت نفسه ؛ لأن الطفل غير مكلف بواجب . وما إن يدخل إلى المدرسة وتصير لديه بعض من المسئوليات نجد الأسرة تعلمه أن يفرق بين وقت أداء مسئولياته ووقت اللعب ؛ لأنه إن لعب فى وقت أداء المسئوليات صار لعبه لهواً ؛ لأنه شَغَله عن أداء مسئولية مطلوبة منه .

وكذلك الحياة الدنيا مجردة من منهج الذى خلقها وخلق الإنسان فيها هى لهو ولعب ، أما إن أخذ الإنسان الحياة بمواصفات من خلقها فهى حياة منتجة للخير فى الدنيا وفى الآخرة . والذى خلق الحياة الدنيا جعلها بالنسبة لنا مزرعة للآخرة . والمؤمن ـ إذن ـ له حياتان : حياة صلاح فى الدنيا ، وحياة نعيم فى الآخرة ؛ لأنه يعيش الحياة الدنيا على مراد مَن خلقه .

ومن العجيب أن من خلقنا لم يكلفنا إلا بعد أن يصل الإنسان منا إلى البلوغ ، أى أن يكون الإنسان صالحاً لإنجاب إنسان مثله إن تزوج . ويأتى التكليف متناسباً مع النضج وعند تمام العقل . وسمح الحق لنا أن نلعب فى سنوات ما قبل النضج ، ولكن لا بد أن يكون مثل هذا اللعب تحت إشراف من الكبار حتى نمكن للعب أن يتحول إلى دُرْبة تفيدنا فى مجالات الحياة ، ويجعلنا نعرف كيف وصلنا فى العصر الحديث إلى درجة من التقدم فى صناعة اللعب التى يتعلم منها الطفل ، ويمكن أن يقوم بتفكيكها وإعادة تركيبها ، وحتى الكبار نجدهم فى زماننا يتعلمون قيادة السيارات فى حجرات مغلقة وأمامهم شاشة تليفزيون ؛ وكأنهم فى طريق حقيقى وفى شارع مزدحم بالسيارات ، ومَن يتقن هذا التدريب العملى يخرج إلى قيادة السيارة .

وهكذا نجد أن التدريب مفيد للإنسان ، يعلم الصغار اللعب الذى ينفعهم عندما يكبرون ، وكذلك يفيد التدريب الكبار أيضاً .

وعندما أوصانا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نعلم أبناءنا ركوب الخيل والسباحة والرماية، كانت الخيل ـ فى زمن الرسالة ـ هى إحدى الأسلحة المهمة ليركبها الداعون إلى الله المجاهدون فى سبيله . وحين طلب منا أن نعلم الأبناء السباحة فهذا بناء للجسم والقوة يفيد الشاب ويعلمه مواجهة الصعاب ، وحين طلب منا أن نعلم الأبناء الرماية فذلك لأن تحديد الهدف مادياً أو معنوياً ومعرفة الوصول إليه أمر مطلوب من كل شاب . وكل هذه ألعاب ولكنها ليست لهواً ، إنها ألعاب ممتعة ويمكن أن تستمر مع الإنسان بعد أن يكلف . قال عليه الصلاة والسلام : « علموا أبناءكم السباحة والرماية »[1] . فماذا عن ألعاب عصرنا وزماننا ؟

إننا نجد أن لعبة كرة القدم قد أخذت اهتمام الرجال والنساء والكبار والصغار ، وهى لعبة لا تعلم أحداً شيئاً ، لأنها لعبة لذات اللعب ، وهى لعبة تعتدى على وقت معظم الناس ، وأخذت تلك اللعبة كل قوانين الأمور الجادّة . فهى تبدأ فى زمان محدد ، ويذهب المشاهدون إليها قبل الموعد بساعتين ، وتجند لها الدولة من قوات الأمن أعداداً كافية للمحافظة على النظام مع أنها من اللهو ولا فائدة منها للمشاهد . وقد تمنع وتحول وتُعَطِّل البعض عن عمله والبعض الآخر عن صلاته . يحدث كل ذلك بينما نجد أن بعضاً من ميادين الجد بلا قانون .

وأقول ذلك حتى يُفيق الناس ويعرفوا أن هذه اللعبة لن تفيدهم فى شىء ما . وأقول هذا الرأى وأطلب من كل رب أسرة أن يُحكم السيطرة على أهله ، وينصحهم بهدوء ووعى حتى ينتبه كل فرد فى الأسرة إلى مسئولياته ولنعرف أنها لون من اللهو ، وتأخذ الكثير من وقت العمل وواجبات ومسئوليات الحياة ، حتى لا نشكو ونتعب من قلة الإنتاج .

إن على الدولة أن تلتفت إلى مثل هذه المسائل ، ولنأخذ كل أمر بقدره ، فلا يصح أن ننقل الجد إلى قوانين اللعب ، ولكن ليكن للجد قانونه ، وللعب وقته وألا ننقل

---

(١) رواه الديلمى فى مسند الفردوس وأبو نعيم فى الحلية .

اللعب إلى دائرة اللهو ؛ لأن معنى اللهو هو أن ننصرف إلى عمل لا هدف له ولا فائدة منه . وإن نظرنا إلى الحياة مجردة من منهج الله فهى لعب ولهو .

ونلتفت هنا إلى دقة الحق حين جاء باللعب أولاً ثم باللهو من بعد ذلك ، ثم يقول : « وللدار الآخرة » وفى هذا لفت واضح إلى أن الإنسان حين ينعزل عن منهج الحق فى الحياة تفاجئه الأحداث بالانتقال المفاجىء إلى جد واضح ؛ لذلك فلنأخذ الحياة فى ضوء منهج الله ؛ لأنه سبحانه حين أبلغنا أنه خلق الإنسان من طين ، وصوره ونفخ فيه من روحه فقد أعطاه الحق بذلك حياة أولى ، يشترك فيها المؤمن والكافر ، والطائع والعاصى وكل إنسان له حس وحركة وفكر وإرادة . وأرسل الله الرسل بالمنهج من أجل أن تسير الحياة إلى الغاية منها وهى الحياة الثانية وهى الدار الآخرة فإنها الحياة الكاملة الباقية ، ونسمع قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة الأنفال)

إن الحق سبحانه وتعالى يقدم لنا حياة عالية دائمة تخلف الحياة التى تنتهى . والذى يتوقف عن أخذ منهج الله فى حياته يكتفى بمثل ما يأخذ الحيوان من الحياة وهى النفخ فى الروح ، لكن الذى يأخذ بمنهج الله يأخذ الحياة العالية . . حياة الخير والجمال والإصلاح والإحسان . ونعلم أن الجمال فى الحياة هو الجمال الذى لا يورث قبحاً . والخير الحقيقى هو الذى يعمم خير الله على العباد ، فلا يأخذ الإنسان الخير لنفسه ويترك شروره للآخرين ؛ لذلك أقول : لا تأخذ أيها المسلم الخير لنفسك على حساب الشر للآخرين ؛ لأنك لا تحب أن يحقق الآخرون الخير على حسابك ، والذى يحب أن ينطلق بشروره فى الناس فليستقبل الشر من غيره . ومن يحب أن يأخذ الخير من الناس فليعطهم من خيره حتى يبقى الوجود جميلاً . إذن فالحياة بدون منهج الله تكون قبيحة ؛ لأن القوى يعيث فيها فسادًا بقوته وينزوى الضعيف إلى الإحساس بالذلة والضياع .

لكن الحق سبحانه أراد الحياة للمؤمنين فى ضوء منهجه ، وعندما يطبقون تكاليفه بـ « افعل » و« لا تفعل » فهم يصونون الحياة من الفساد حسب أوامر الخالق الأعلى للحياة ، فهو سبحانه الذى أوجدنا ووضع لنا قوانين صيانة الحياة . وحين منع مؤمنا واحداً من الشر ، فهو قد منع وحرم على كل إنسان مؤمن من أن يصنع شراً لأخيه ،

وبذلك حمى الإنسان من الشر . وإنما خص الله المؤمنين بالنداء والدعاء ؛ لأنهم أهل الاستجابة والطاعة ؛ أما ما عداهم من أهل الكفر والشرك فقد تأبوا على الله وعصوه ولم يؤمنوا به . وحين يأمر الله المؤمن بالخير ، فهو يأمر المؤمنين جميعاً بأن يصنعوا الخير لهم ولغيرهم . وبذلك يكسبون حياة مطمئنة ؛ لذلك يقول سبحانه : « استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم » .

فالذين لا يستجيبون لله ولا لرسوله حين يدعوهم لما يحييهم يظلون فى الحياة الدنيا غارقين فى اللهو واللعب ، إنهم كالموتى . وحتى نعرف أن الحق سبحانه أراد لنا - نحن المؤمنين - الحياة العالية ؛ إنه - سبحانه - قد سمى المنهج الذى يرسم لنا الأوامر والنواهى بالروح : « وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا » . وسمى الحق سبحانه وتعالى بهذا المَلَكَ الذى نزل بالوحى :

﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ ﴾

(سورة الشعراء)

إذن فالحياة التى تعطى الإنسان الحس والحركة هى الحياة الأولى التى يلعب ويلهو من خلالها ، وليست هى الحياة المرادة لله ؛ لأن الحياة المرادة لله هى الحياة الإيمانية ولذلك سماها الحق سبحانه الحيوان أى الحياة الكاملة وسمى المنهج روحاً .

﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

إن مجرد التعقل يعطى الإنسان الخير ، والتعقل هو محاولة فهم نواميس الكون من الأسباب والمسببات ، ونحن نرى نور الشمس يعمّ النهار ويشيع الضوء والدفء ، وغياب الشمس وظهور القمر يحقق صفاء السكون ويهدى الناس فى ظلمات البر والبحر ، وجريان الماء يروى الإنسان والزرع ، وحركة الرياح تحرك السحب وتقود السفن وتساعد فى حركة الملاحة فى الجو والبحر وتلقح النبات ، وكل ذلك أسباب أرادها الله حتى يتحقق التوازن فى الكون . والإنسان يأخذ حظه من الحياة بالأسباب التى يعمل فيها ولا يأخذ الإنسان من أسباب غيره .

صحيح أن هناك أناساً يعيشون بلا أسباب ويأخذون تعب غيرهم ، ولكن عليهم أن يحذروا الله ، فإياك أيها المسلم أن تبنى لحمك ولحم أولادك من استغلالك

لغيرك ؛ ذلك أن أغيار الحياة ستمر عليك وقد تصير قوتك إلى ضعف ، وتأمين الإنسان لضعفه إنما يكون بإخراج الزكاة للضعيف ، ومساعدته ومعاونته فى كل ما يحتاج إليه ، ونجد غير المؤمنين وقد أخذوا فكرة التأمين من الزكاة ، فأنت تدفع للفقير زكاتك لتؤمن نفسك كمؤمن ، وهم أخذوا هذه الفكرة ليحولوها إلى تأمين على الحياة ، وبذلك تدخلوا فى قدر الله .

لكن الحق أراد بالزكاة أن يطمئن المجتمع كله لا أن يطمئن من يؤمن على نفسه فقط . ونعلم أن الذى يخيف الإنسان ويجعله يكدس المال ويجمعه ويكنزه هو الخوف من الضعف ، لكن لو أعطى الغنى بعضاً من المال للفقير لأشاع الاطمئنان فى نفسه ونفوس الضعفاء .

والذى يجعل الناس تلهث فى الحياة للادخار لأبنائها هو عدم اقتناعهم بالتكافل الاجتماعى الذى شرعه الإسلام . وهم يرون اليتيم وهو يضيع فى المجتمع ، لكن لو آمن الناس فى المجتمع بالتكافل الاجتماعى لوجد كل يتيم أبوة المجتمع كله له .

والإنسان الذى يلهث وراء الكسب من أجل أن يؤمن مستقبل أولاده قد يحول أولاده إلى يتامى لأنه مشغول عن تربيتهم ، ولذلك يقول أمير الشعراء شوقى رحمة الله عليه :

ليس اليتيم من انتهى أبواه من
هم الحياة وخلفاه ذليلا
إن اليتيم هو الذى تلقى له
أمّاً تخلت أو أباً مشغولا

إن على المجتمع أن يأخذ قضية الخير من قول الحق سبحانه : « استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم » . فكما أحيا الحق الأجسام بالروح التى نفخها فى القالب الطينى فصار لها حس وحركة ، فهو قد أنزل المنهج أيضاً روحاً من عنده لترتقى به روح الحس والحركة ، حتى لا يصير الإنسان كالأنعام أو أضل سبيلا :

﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

والدار الآخرة خير ؛ لأن الدنيا مهما طالت فهى منتهية ، لكن الحياة الآخرة خلود أبداً ، ونعيمنا فى الدنيا نأخذه بالأسباب ، ولكن نعيم الآخرة نأخذه على قدر سعة ورحابة قدرة الله . وآفة الدنيا حتى بالنسبة لأهل النعيم والقوة والثراء هى الخوف من الفقر أو الموت ، لكن فى الآخرة لا يفوت أهل الجنة النعيم ولا يفوتون النعيم .

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

لقد شرح الحق حال الكفار وموقفهم فى الآخرة حين يقفون على النار ، ويقفون أمام الله ، ومن بعد ذلك يوجه الحديث إلى الرسول صلى الله عليه وسلم الذى تقع عليه مشقة البلاغ من الله لهؤلاء الكفار ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم حزيناً لأن قومه لا يذوقون حلاوة الإيمان ، وهو الرسول الذى قال عنه الحق سبحانه وتعالى :

﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾

(سورة التوبة)

وكان صلى الله عليه وسلم يحرص على أن يكون كل الناس مؤمنين ، ويتألم لمقاومة بعض الناس دعوة الإيمان ، إنه صلى الله عليه وسلم كان حريصًا على الكافر ليؤمن على الرغم من أن مهمة الرسول هى البلاغ فقط ، ولو شاء الحق أن يجعل الناس كلهم مؤمنين لأنزل عليهم آية تجعلهم جميعاً مؤمنين :

﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾ ﴾

(سورة الشعراء)

لكن الحق سبحانه وتعالى لا يريد خضوع أعناق ، وإنما يريد خضوع قلوب . إنه ـ سبحانه ـ يريد أن يأتى الناس طواعية واختياراً ليثبتوا الحب للخالق ؛ لذلك يقول الحق لرسوله صلى الله عليه وسلم : « قد نعلم إنه ليحزنك الذى يقولون » وساعة نسمع : « قد » فلنعرف أن ما يأتى بعدها هو أمر محقق ، ويأتى ذلك إذا دخلت على الفعل الماضى فهى فى هذه الحالة تأتى لتسبق أمراً تحقق ، ومرة تأتى للتقليل أو للتكثير إذا دخلت على الفعل المضارع الذى يدل على الحال أو الاستقبال ، فإذا كان العامل والمعمول بينهما ارتباط سبب . . فهذا للتكثير ، وإذا كان ظاهر الأمر غير مرتبط ارتباطاً واضحاً . . فهذا للتقليل . والمثال على الارتباط الذى يدل على التكثير هو قول القائل : قد ينجح المُجدّ ؛ لأن المجِدَّ والنجاح مرتبطان ارتباط سببية ، ولكن قد يكون هناك حادث مفاجىء لأحد المجدين فلا يستطيع النجاح ، كأن يمرض يوم الامتحان ، ولكن احتمال الصحة أكثر من احتمال المرض فكانت للتكثير .

والمثال على مجىء « قد » للتقليل هو قول القائل : قد ينجح الكسول ، أى أن الكسول قد ينجح بالمصادفة وبدون أسباب منطقية ، كأن يقرأ عدداً من الدروس ليلة الامتحان فيأتى فيها الامتحان فينجح ، إذن فـ « قد » إذا دخلت على الماضى تكون للتحقيق ، وإن دخلت على المضارع فهى للتكثير إن كانت منطقية الأسباب ، وهى للتقليل إن كانت غير منطقية الأسباب . ولكن كلنا يعلم أن علم الله هو علم أزلى ، ولا قوة ولا أمر يخرجان عن معلوم الله . إذن فـ « قد » هنا للتحقيق وهى داخلة على الفعل المضارع ، فالحق أراد أن يبلغنا أنه علم أزلاً بما حدث وجاء بـ « قد » لنستحضر صورة الفعل :

« قد نعلم إنه ليحزنك الذى يقولون » . والحزن هو خروج النفس من سياق انبساطها ؛ فالإنسان يكون غاية فى الاستقامة والسرور عندما يكون كل جهاز من أجهزته يؤدى مهمته ، فإن حدث شىء يخل بعمل أحد الأجهزة فذلك يورث الحزن . أو يكون الحزن انفعالا لمجىء وحصول أمر غير مطلوب للنفس .

لقد كان مطلب الرسول صلى الله عليه وسلم أن يؤمن كل الذين استمعوا إلى البلاغ عنه ، لكن البعض قاوم الإيمان ، والبعض اتهم الرسول بالسحر أو الجنون أو قول الشعر ، وها هوذا الحق يسلى رسوله فيقول : « قد نعلم إنه ليحزنك الذى

يقولون » أى إنك يا محمد لا بد لك أن تعلم أن أقوالهم هذه ليست متعلقة بك ؛ لأنك ـ بإجماع الآراء عندهم ـ أنت الصادق الأمين . وهم إنما يكذِّبون بآياتى التى أرسلتها معك إليهم ؛ لأن ماضيك معهم هو الصدق والأمانة ، بدليل أن الكافر منهم كان لا يأمن أحداً على شىء من أمواله ونفائسه إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم . والإنسان لا يغش نفسه فيما يخصه . فكأن الله يريد أن يتحمل عن رسوله ؛ لأن من يوجه إهانة للرسول إنما يوجهها للمرسِل له وهو الله جلت قدرته .

ولذلك يقول الحق : « قد نعلم إنه ليحزنك الذى يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون » وسبحانه يبين لنا أن رسوله صلى الله عليه وسلم كان حريصاً أشد ما يكون الحرص على أن تستجيب أمته لداعى الحق ، حتى يتأكد لدى المؤمنين قول الحق سبحانه وتعالى فى رسوله :

﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾

(سورة التوبة)

ولا معنى للحرص إلا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب ألا يفلت أحد من قومه عن منهجه وعن دينه . ولكن الحق سبحانه وتعالى جعل أمر الدين اختيارياً حتى يعلم من يجىء له طواعية ويقدر ألا يجىء ، ومن لا يجىء وهو قادر أن يجىء .

إن الحق سبحانه وتعالى له سنن كونية فى الكون يجريها على كل الخلق . وقد يتساءل قائل : وما الذى يجعل الحق سبحانه وتعالى يترك للكفر به مجالاً فى دنياه ؟ ولماذا يجعل الحق سبحانه وتعالى للشر مجالاً فى دنياه ألا يحكمها بهندسة حكيمة ؟ ونقول : لو لم يوجد للشر مضار تُفْزِع الناسَ لما عرفوا للحق حلاوة . إذن فوجود الشر ، ووجود الكفر ، وآثار الكفر فى الناس جبروتاً وقهراً واستذلالاً ينادى فى الناس أنه لا بد من الإيمان ، وأنه لا بد من وجود الخير . فلو لم يكن للشر مكان فى الكون فما الذى يلفت الناس إلى الخير ؟ ولذلك تجد أن هبات الإيمان عند المؤمنين لا تأخذ فتوتها إلا حين تجد قوماً من خصوم الإيمان يهيجون المؤمنين ويؤذونهم ويستفزونهم . أما إذا صارت الدنيا إلى رتابة فربما فتر أمر الإسلام فى نفوس المسلمين . ولذلك نجد المؤمنين بالله فى غيرة دائمة ؛ لأن هناك من يكفر بالله . فيقول لرسوله : « قد نعلم

إنه ليحزنك الذى يقولون » وكأنه سبحانه يبلغنا أنه أراد كونه ليكون فيه المؤمن والكافر .

لذلك إن تساءلت ـ أيها المسلم ـ كيف يكون فى الأرض كافرون ؟ فلك أن تعلم أنهم من خلق الله أرادهم الحق أن يختاروا الكفر فلم يختاروا الكفر قهرا عنه ـ سبحانه ـ وكان سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يحزن لأن هناك أناساً لم يؤمنوا ، فيسليه الحق سبحانه وتعالى ، بأنه يعلم أنه يحزنه الذى يقولون من الكفر ومن اتهامات لرسول الله . ألم يقولوا إنه ساحر ؟ ألم يقولوا إنه مجنون ؟ ألم يقولوا إنه كاذب ؟ ألم يقولوا إنه كاهن ؟ ألم يقولوا إنه شاعر ؟ وسبحانه وتعالى يعلم ما قالوا ويعلم أن هذه الأقوال تحزن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويريد الحق سبحانه أن يرفع ويدفع هذا الحزن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيبلغه أنهم لا يكذبونك يا رسول الله ؛ فأنت تعرف منزلتك عندهم وهى منزلة الصادق الأمين ، ولا يجرؤ أحد على تكذيبك ولكنهم يجحدون بآيات الله . وهل هناك تسلية أكثر من ذلك ؟ لا يمكن أن توجد تسلية أكثر من ذلك .

ونعلم أن ما قاله أهل الشرك عن رسول الله هو قول مردود ، فهم أمة البلاغة والفصاحة والبيان ، فكيف يقولون إن القرآن شعر وهم أصحاب الدراية بالأساليب مرسلها ، ومسجوعها ، ونظمها ، ونثرها ؟

أمن المعقول أن يلتبس عليهم أسلوب القرآن بالشعر ؟ من المؤكد أن هذا غير ممكن . ولقد قالوا عن النبى صلى الله عليه وسلم : إنه ساحر ، فكيف سحر الذين آمنوا به ولم يسحر الباقين ؟ ولو كان ساحراً لسحرهم أيضاً ، وبقاؤهم على الكفر ينقض هذا . وقالوا كاذب ، فهم بقولهم هذا يكذِّبُون أنفسهم لأنهم يعرفون عنه أنه الصادق الأمين ، وهاهوذا الحوار بين الأخنس بن شريق وأبى جهل .

قال الأخنس : يا أبا الحكم ، ما رأيك فيما سمعت من محمد ؟ فقال أبو جهل : ماذا سمعت ! وهنا نسمع قول الغيرة والحسد والبغض ، نسمع عن تلك الأمور البعيدة عن موضوع الرسالة النورانية المحمدية فيقول أبو جهل : تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف ، أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوْا فأعطينا حتى إذا تحاذينا على الركب وكنا كفرسى رهان قالوا منا نبىّ يأتيه الوحى من السماء فمتى

ندرك مثل هذا ! والله لا نؤمن به أبدًا ولا نصدقه . فقام عنه الأخنس وتركه . إذن هى مسألة غيرة غاضبة على مناصب وسلطة زمنية ، ولذلك يرد الله عليهم قائلاً :

﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ﴾

(من الآية ٣٢ سورة الزخرف)

وهاهوذا الحق يسلى رسوله صلى الله عليه وسلم ويقول له :

﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

إنهم ظالمون ، لأن الظلم نقل حق إلى غير مستحقه . وأبشع أنواع الظلم هو الشرك ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى هو المستحق وحده للعبادة ، والظلم الأخف وطأة هو أن ينقل الإنسان حقاً مكتسباً أو موهوبا إلى غير صاحبه وهذا ظلم موجود بين الناس . وقد نقل المشركون حق الذات الإلهية إلى غير مستحقها من أوثان وأصنام ، أما المؤمنون فهم الذين اعترفوا بحق الذات الإلهية فى العبادة .

وهناك نوع آخر من الظلم أريد أن أتحدث عنه ، وهو أن يظلم الإنسان اسمه ، كأن يكون والده قد سماه « مهدياً » ولكنه يملأ الدنيا فسادا بإيذاء نفسه وبإيذاء الآخرين . نقول لمثل هذا الإنسان : إن الواجب يقتضى منك أن تحترم أمل والدك فيك ، فلا تظلم اسمك « مهديا » ولتكن هناك عدالة بين الاسم والمسمى وذلك بأن يكون سلوكك متوافقا مع الاسم الذى سماك به أبوك .

أما إن كان أبوه قد سماه « مهديا » ولم يلقنه أى شىء من تعاليم الهدى والدين ، ثم خرج الشاب إلى الدنيا ليملأها بالشقاء لنفسه ولغيره ثم اهتدى من بعد ذلك فهذا شاب استطاع أن يتعلم الهداية فصار اسمه على مسماه .

وقد كنا فى الثلاثينيات من هذا القرن نسمع التحذيرات ونحن نزور القاهرة :

« إياكم أن تطأوا بأقدامكم شارع عمادالدين لأن كل الموبقات فى هذا الشارع » . وتعجبت أن يكون اسم الشارع « عمادالدين » ويكون مكاناً للموبقات فقلت فى ذلك :

وأقبح الظلم بعد الشرك منزلة
أن يَظْلم اسمًا مُسمّىً ضده جُبِلا
فشارع كعماد الدين تسمية
لكنه لعناد الدين قد جُعلا

وفى الحياة كثير من حالات الأسماء يظلمها أصحابها . ولكن أكبر وأقبح درجات الظلم هو الشرك بالله « ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون » والجحد هو إباء اللسان وترفعه وعدم رضاه بأن ينطق بكلمة الحق ، فلو أن المشركين خلوْا إلى أنفسهم واستعرضوا مسائل محمد ومسائل الرسالة لوجدوا أن قلوبهم مقتنعة بأنه صادق وأنه رسول وأن المنهج إنما جاء للهداية . لكن ألسنتهم غير قادرة على الاعتراف بذلك .

ولذلك يأمر المنهج الإيمانى أن على الواحد منا إن أراد أن يناقش قضية أهى حق أم باطل فلا يصح أن نناقشها فى حشد من الناس ، ولكن فلنناقشها أولاً فى نفوسنا لنتبين الحق فيها من الضلال ، ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ﴾

(من الآية ٤٦ سورة سبأ)

كأن الحق يهدينا إلى كيفية التمييز ، فإما أن نناقش أنفسنا ، وإما أن يتناقش اثنان حتى يمكن أن يقتنع أحدهما برأى الآخر دون أن يشهد ثالث هزيمته فيكابر ويجادل . وقد نصح الحق بذلك هؤلاء الذين اتهموا رسول الله أن به ـ والعياذ بالله ـ مسًّا من الجنون ؛ فالجنون هو أن تحدث الأفعال بلا مقدمات وبدون تدبر أو نظر فى آثارها وتكون خالية من حكمة فاعلها . أما العاقل فهو الذى يرتب الأفعال بحكمة ويوازن ويدرس وينتهى به عقله وحكمته إلى حسن ما يفعل ويعامل الناس بانسجام وسوية خلقية عالية ، فهل أحد من المشركين أخذ على رسول الله صلى الله عليه وسلم أى

سلوك يمكن أن يشير إلى عدم ترتيب الأفعال ؟ لا .

ولذلك يقول الحق :

﴿ نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤ ﴾

(سورة القلم)

إن الخلُق العظيم يتنافى مع الجنون . وكذلك فعل كل قوم مع رسولهم ، إنَّهم رمَوْه بالسفه والجنون . فكلما جاء رسول لقومه بمنهج حق ليطمس معالم الباطل قابله قومه بمثل تلك المقابلة . ونعرف أن السماء لا تتدخل بالنبوات والمعجزات إلا حين يطم الفساد وتنطمس النفس المؤمنة . فالمؤمن فيه خميرة الخير فيندفع إلى فعل الخير . وإن حدثته نفسه بفعل معصية وفَعَلَها ، فإن نفسه اللوامة تؤنبه على ذلك ، لكن إن انطمست نفسه ولم تعد تلوم ، صارت نفسه الأمارة بالسوء هى المسيطرة وإن لم يجد من يقول له فى المجتمع : لا تفعل ذلك . . فالمجتمع كله يكون قد فسد . « كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه » .

إذن السماء لا تتدخل برسالة أو معجزة أو منهج إلا حين يطم الفساد . ومادام قد طم الفساد فهناك من يستفيد من هذا الفساد . وحين يأتى الرسول من أجل أن يمنع الفساد فهذا الرسول يمنع عن المفسدين استغلال الناس ويحول بينهم وبين الاستفادة من الفساد . ولذلك كان لكل رسول مقاومة من المفسدين وكانوا يقولون :

﴿ وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ ﴾

(من الآية ٢٧ سورة هود)

وأتباع كل رسول هم المظلومون الذين يحتاجون إلى منقذ . أما الجبابرة فهم يخاصمون الرسول ويقاومونه ، ويستقبله هؤلاء الجبابرة بإيذاء يتناسب مع مهمته . فإن كانت مهمته لقبيلة فالإيذاء يأتيه من هذه القبيلة . وإن كانت مهمته أوسع من ذلك فإنه يلقى من صنوف العذاب ألواناً .

ومادام محمد صلى الله عليه وسلم رسولاً إلى الناس كافة فعليه أن يجد المتاعب

الكثيرة ويتحملها . وقد أعده الله وهيأه لذلك ، وقد أخذ الرسل السابقون من الإيذاء على قدر دعوتهم . أما رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو للناس كافة ، ولا رسالة من بعده ، لذلك يتجمع ضد هذا الرسول وهذه الرسالة أقوام كثيرون . ولذلك يقولون له الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِي الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾

فإذا كان الرسل الذين سبقوك قد كُذِّبوا وصبروا على ذلك ، وهم رسل لقومهم أو لأمة خاصة ، ولزمان خاص ، فماذا عنك يا خاتم الرسل وأنت للناس كافة وللأزمان عامة ؟ .إن عليك أن تتحمل هذا ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى قد اختارك لهذه المهمة وهو العليم أنك أهل لها . والحق كفيل بنصر رسله فلا يتأتى أن يترك الشر أو الباطل ليغلب الرسل ، ومادام سبحانه وتعالى قد بعث الرسول فلا بد أن ينصره . فهو القائل :

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾

(سورة الصافات)

ومادامت قد سبقت كلمة الله للرسل فلا مبدل لكلمات الله ، ولا أحد بقادر على أن يعدِّل فى المبادىء التى وضعها الله بقوله سبحانه تعالى :

﴿ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِي الْمُرْسَلِينَ ﴾

(من الآية ٣٤ سورة الأنعام)

وقد قص الحق سبحانه على رسوله قصص المرسلين . ولم يكتف بالقول لرسوله أن الرسل السابقين عليه قد كذبتهم أقوامهم ، ولكن أورد الحق لرسوله ما حدث لكل

رسول ممن جاء ذكرهم بالقرآن الكريم وماذا حدث للرسول ـ أى رسول ـ من ثبات أمام الأعداء ، ثم بيّن أن كلمة الحق قد انتصرت دائماً . وقد روى الحق بعضاً من قصص الرسل فقال :

﴿ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾

(من الآية ٧٨ سورة غافر)

ومن بعد ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾

إنك يا محمد رسول من عند الله ، ومعك منهج هو معجزتك الدالة على صدق ما جئت به ، فإن كبر عليك إعراضهم وعظم عليك أن يتولوا ويعرضوا عنك فإن استطعت أن تصنع لنفسك نفقاً فى الأرض لتأتيهم بآية أو أن تبنى سلماً لتصعد به إلى السماء طلباً لهذه الآية فافعل ، ولكنك لن تستطيع ذلك لأن ذلك فوق حدود قدرتك وسيلقى المشركون والمنافقون العذاب لأنك جئت يا رسول الله تبدد من صولجان سلطتهم الزمنية وتقيم العدل الإيمانى . ولذلك حاولوا السخرية منك وإيذاءك .

وقد طلب الكافرون من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينزل إلى الأرض ليفجر لهم منها ينبوعاً ، وطلبوا إليه أن يصعد إلى السماء وأن يجعلها تسقط عليهم كسفا وقطعا لتهلكهم . وهذه أشياء لم تكن فى مكنة واستطاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولذلك يقول له الحق سبحانه وتعالى ما يقفل عليه أبواب الحزن ويقضى على أسباب الأسى والأسف عنده بسبب إعراضهم ، وأن يعرف أن السخرية والمقاومة هى مسألة طبيعية بالنسبة لكل رسول من الرسل ، وأنت يا رسول الله أولى

بهذا لأن مهمتك أضخم من كل الرسل . ونلحظ أن الحق سبحانه يحذف هنا جواب « إن » فهو يقول :

﴿ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ﴾

(من الآية ٣٥ سورة الأنعام)

ولم يقل الحق : فافعل ذلك ، كأن المسألة هى تهدئة للرسول ؛ لأن الجواب فى مثل هذه الحالة معلوم ؛ فالرسول لا يجبر أحداً على الإيمان . وإعراض هؤلاء القوم أمر مقصود لواجب الوجود حتى يختبرهم ولو أراد قهرهم لفعل ، فلا أحد يتأبى على الله ، فالكون كله مطيع لله ، الشمس ، والقمر ، والنجوم ، والهواء ، والماء ، والجبال ، والأرض ، وكل ما فى الكون مطيع لله بما فى ذلك الحيوان المسخر لخدمة الإنسان . ولكنه ـ سبحانه ـ أعطى الاختيار للإنسان ليأتى إلى الله محباً .

ونعلم أن الحق قد ترك بعضاً من المسخرات غير مذللة ليثبت للإنسان إنه لم يذلل الأشياء بحيلته ، ولكنه ـ جل شأنه ـ هو الذى خلقها وذللها له ؛ لذلك نرى الجمل الضخم يجره طفل صغير ، ونرى أى رجل مهما تكن قوته يأخذ الحذر والاحتياط من ثعبان صغير .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾

(سورة يس)

ولو لم يذللها الله فلن يستطيع أحد أن يقترب منها . وأضرب هذا المثل دائماً ، عندما قال قائل : لماذا خلق الله الذباب ؟ فقال رجل من أهل الإشراق : ليذل به الجبابرة ؛ فسلطانهم لا يمتد إلى هذه الحشرات . لقد أعطى الحق الإنسان عزَّة السيادة ، وعلمه أيضاً أن يتواضع للخالق .

ويبلغ الحق سبحانه وتعالى رسوله :

﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴾

(من الآية ٣٥ سورة الأنعام)

أى أنه سبحانه لو شاء لجعل الناس كلهم مؤمنين . وقد يقول قائل : كيف يخاطب الله رسوله فيقول له : « فلا تكونن من الجاهلين » ؟ ونقول : إن الحق حين يقول لرسوله ذلك فهو يقولها لا من مظنة أن يفعلها الرسول ؛ فالرسول معصوم من الجهل ، ولكن هو قول فيه تنزيه للرسول عن أن يكون فى مثل هذا الصنف من الجاهلين .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

و« يستجيب » معناها أنهم يطيعون أمر الآمر ونهى الناهى . وهناك فارق بين « الاستجابة » و« الإجابة » ؛ فـ « الاستجابة » هى : أن يجيبك من طلبت منه إلى ما طلبت ويحققه لك ، و« الإجابة » هى : أن يجيبك من سألت ولو بالرفض لما تقول ، وقد يكون الجواب ضد مطلوب ما سألت . ويقول الحق : « إنما يستجيب الذين يسمعون » أى أن الذين يستجيبون لنداء الحق هم الذين يسمعون بآذانهم وقلوبهم مصدقة ؛ لأن هناك فارقاً بين سماع ظاهره سماع وباطنه انصراف ، وبين سماع ظاهره طاعة وباطنه محبة لهذه الطاعة . ونعلم أن استقبال المسموع شىء ، وانفعال الإنسان بالمسموع شىء آخر .

وعندما يتحد حسن الاستماع مع انفعال الحب لتنفيذ ما سمعه الإنسان فهذا ما يطلبه الإيمان . والمؤمنون هم الذين يستمعون لكلمات الله بانفعال الحب ، وهم يختلفون عن هؤلاء الذين يسمعون الكلام من أذن ويخرجونه من الأذن الأخرى ، ويتركون الكلمات بلا تطبيق ، ولا يبقى فى النفس الواعية من آثار الكلام شىء .

وهكذا نرى أن الله قد صنع وخلق فى الإنسان من الحواس ما تهديه وترشده إلى الإيمان أو إلى الكفر ؛ فالأذن عند المؤمن تسمع ، والقلب يصدق ، والعقل يمحص ويؤمن . أما الكافر فأذنه تسمع وقلبه يعارض ، وعقله يبحث فى أسباب الكفر رغبة

فيه وسعيًا إليه ، ولذلك لا تؤدى حواسه مهامها بانسجام ، وكأن الذين يسمعون ولا يستجيبون هم من الموتى . فالأمر - إذن - ليس مقصورًا على السمع بل المطلوب أن يكون هناك سماع انفعال بالمسموع وانصياع له ، ولا تظن أن الله يعجز عن أن يجعل الذى لا يسمع سماع طاعة يهتدى ويستقيم ، فلا شيء ولا كائن يتأبى على الله ؛ لأنه سبحانه يحيى الموتى .

ومادام هو سبحانه يحيى الموتى فهو لا يطلب إيماناً جبرياً . إنما يطلب إيمان الاختيار والاقتناع ، وهو سبحانه لو شاء لأنزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين ، وسبحانه يطلب قلوباً لا قوالب . إذن فالذين يستجيبون لداعى الإيمان هم الأحياء حقاً ، أما الذين لا يستجيبون فهم فى حكم الأموات ، وهم من بعد موتهم وانتهاء حياتهم سيبعثهم الله ليسألهم عن أفعالهم فى الحياة الدنيا . وعندما يرجعون إلى الله سوف يجدون الحساب . ونعلم أن المرجع أخيراً ودائماً إلى الله . ومن يرجع إلى الله وعمله طيب يتعجل الجزاء الطيب ويتشوق ويتشوف إليه ، أما من يرجعه الله قَهْراً فهو يخشى الجزاء الأليم .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ۚ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يُنَزِّلَ آيَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾

إن الله سبحانه يوضح لنا مواصلتهم للجدل ، وطلبهم لآية ما . والآية هى الأمر العجيب الذى يبعثه الله على يد نبى ليثبت صدقه فى تبليغه عن الله . وكأنهم لا يريدون أن يعترفوا أن القرآن آيات بينات على الرغم من اعترافهم بعظمة القرآن ، فقد قالوا :

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾

(سورة الزخرف)

ولكنهم لم يعترفوا بالقرآن كآية معجزة ؛ لأنهم عرفوا أن الرسل السابقين قد نزل كل منهم بآية معجزة منفصلة عن المنهج الذى جاء به ، فموسى عليه السلام معجزته العصا ، ويده التى أخرجها من جيبه فكانت بيضاء من غير سوء ، وشق البحر ، ومنهجه التوراة ، وعيسى عليه السلام كانت معجزته التكلم فى المهد بإذن الله ، وإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله ، وجاء بالإنجيل مكملاً بالروحانيات تلك الماديات التى ملأت نفس اليهود . وبعد أن قالوا عن رسول الله إنه يفترى الكذب تحداهم الحق أن يأتوا بمثل القرآن ثم نزل بهم إلى أن يأتوا بعشر سور من مثله ثم إلى أن يأتوا بمثل سورة واحدة من أقصر سوره . إذن ، فالافتراء وارد عليكم أيضا ، فكما أن محمدًا افترى فيمكن أن تفتروا أنتم كذلك فيما نبغتم وتفوقتم فيه من أساليب البلاغة . إن القرآن قد تحداهم ومادام قد تحداهم فإنه معجزة ؛ لأن الأصل فى المعجزة التحدى ، ويتحداهم الله أن يأتوا بسورة من مثل سور القرآن فلا يستطيعون ، إنه يتحداهم فى أمر اللغة ، وهم سادة اللغة وهم النابغون فيها .

جاء القرآن ليتحداهم فى مجال نبوغهم ، ولكنّ بعضاً من العرب طالب رسول الله صلى الله عليه وسلم بمعجزة حسية كونية يرونها . وأعماهم الحمق عن معرفة أن المعرفة الحسية موقوتة التأثير ، من يراها يقول إنها معجزة ، ومن لم يرها قد يصدق وقد يكذب . ونحن ـ المسلمين ـ لا نصدق المعجزات الحسية إلا لأن القرآن أوردها ؛ ولأن القرآن قد جاء للناس كافة ؛ لذلك لم يكن من المعقول أن يكون المنهج الخاتم منفصلاً عن معجزة النبى الذى جاء به .

جاء القرآن ـ إذن ـ معجزة لرسول الله وهو آية معنوية دائمة أبداً بما فيه من أحكام ونظم ، وآيات كونية وقضايا علمية ، وإذا كان الخلق يختلفون فى اللغات فما تضمنه القرآن من معجزات لن تنقضى عجائبه إلى يوم القيامة . وكل يوم نستنبط من آيات الله معجزات جديدة تُخرس كل مكذب ، لأنها معجزات كونية ، ومن العجيب أن بعض الذين يستنبطونها ليسوا من المسلمين ، ولا هم من المؤمنين بالقرآن .

ولكنّ بعضاً من المشركين لم يكتف بالقرآن على أنه آية ومعجزة دالة على صدق الرسول ، وطالبوا بمعجزة حسية . فهل كان ذلك الطلب للآية حقيقيا يرجون من ورائه معرفة الحق والإيمان به أو كان مجرد سبب يختفون وراءه حتى لا يؤمنوا ؟ إن كان

طلب الآية هو أمرًا حقيقياً نابعًا من قلوبهم فإننا نأخذ بأيديهم ونرشدهم ونهديهم ونقول لهم : إن الرسل التى جاءت بمعجزات غير كتاب المنهج كانوا رسلاً إلى أمم مخصوصة وفى زمان محدود ، فجاءت معهم آيات كونية تُرَى مرة واحدة وتنتهى ، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء لعموم الزمان ، ولعموم المكان ، ولذلك لا تصلح أن تكون آيته ومعجزته حسية ؛ حتى لا تنحصر فى الزمان والمكان المحددين ، وشاء الحق أن تكون معجزة رسول الله صلى الله عليه وسلم هى المنهج الدائم . وكنز القرآن أظهر وكشف من الآيات الكونية ما تحقق من علم ورآه البشر ، وما سيظل يكتشفه البشر إلى أن تقوم الساعة . ولذلك قال الحق :

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾

(من الآية ٥٣ سورة فصلت)

أى أن البشر سيريهم الله وسيكشف لهم من آياته حتى يظهر ويستبين لهم وجه الحق ، وإن كنتم تقترحون آية لمجرد التمحك والتلكؤ فى إعلان الإيمان ، فلتعلموا أن أقواماً غيركم اقترحت الآيات وأنزل الحق هذه الآيات ومع ذلك كفروا :

﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴾

(من الآية ٥٩ سورة الإسراء)

مثلما طلب قوم صالح الناقة ، فجاءهم بالناقة ، فكذبوا بتلك الآية وعقروا الناقة : « فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها » . إذن فمسألة طلب الآيات قد سبقت فى أمم سابقة ، وسبحانه قادر على إنزال الآيات ، ولكن أكثر المشركين لا يعلمون . وسيقولون مثلما قال الذين تكلم فيهم الحق سبحانه :

﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴾

(من الآية ٥٩ سورة الإسراء)

ولقد أنزل الحق سبحانه القرآن على رسوله صلى الله عليه وسلم وفيه آيات كثيرة عظمت وجلت عن أن تحصى وتحصر ، ولو أنهم اقترحوا آية وحققها الله لهم ولم يؤمنوا لكان حقاً على الله أن يبيدهم جميعاً . ولقد أعطى الله رسوله صلى الله عليه وسلم وعداً بألا يهلكهم وهو صلى الله عليه وسلم فيهم : « وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم » .

إذن فعدم استجابة الله لإنزال آية لهم هو نوع من الحرص عليهم ، ذلك أن منهم من سيؤمن ، ومنهم من سيكون من نسله مؤمنون يحملون المنهج ويقومون به إلى أن تقوم الساعة لأنهم أتباع وحملة الرسالة الخاتمة .

وبعد ذلك يأتى الحق بالبيان الارتقائى :

﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾

إنه سبحانه يوضح لنا : أنا أعطى الآيات التى أعلم أن الفطرة السليمة تستقبلها كآية وتؤمن بها . وأنزلت لكم القرآن لتؤمنوا بالرسول الذى يحمله منهجاً يُصلح حياتكم . وقد جعلتكم سادة للكون ؛ تخدمكم كل الكائنات ، لأنكم بنو آدم . وكان الأجدر بكم أن تنتبهوا إلى أن الحيوان فى خدمتكم ، والنبات فى خدمة الحيوان وخدمة الإنسان ، وكل كائنات الوجود تصب جهدها المسخر لخدمتكم . فإذا كنتُ قد جئتُ للأجناس كلها وجعلتُها دونكم وأعطيتها ما يصلحها ويقيمها ووضعت لها نظاماً ، وأعطيتها من الغرائز ما يكفى لصلاح أمرها حتى تؤدى مهمتها معكم على صورة تريحكم فإذا كان هذا هو شأننا وعملنا مع من يخدمكم فكيف يكون الحال معكم ؟ إننى أنزلت المنهج الذى يصلح حياة من استخلفته سيداً فى الأرض .

﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

وكل الدواب دون الإنسان أعطاها الإله الإيمان بالفطرة ، وهداها إلى الرزق بالغريزة . وميز الإنسان فوق كل الكائنات بالعقل ، ولكن الإنسان يستخدم عقله مرة استخداما سليما صحيحا فيصل إلى الإيمان ، ويستخدمه مرة استخداما سيئا

فيضل عن الإيمان . وكان على الإنسان أن يعلم أنه تعلم محاكاة ما دونه من الكائنات ؛ فقابيل تعلم من الغراب كيف يوارى سوأة أخيه . ومصمم الطائرات تعلم صناعة الطيران من دراسة الطيور . إذن كان يجب أن يتعلم الإنسان أن له خالقاً جعل له من الأجناس ما تخدمه ليطور من حياته ومن رعاية كرامته بعد الموت . والمثال ما قالته نملة لبقية النمل :

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ ﴾

(من الآية ١٨ سورة النمل)

إن النمل أمة لها حرس ، قالت حارسة منهم هذا القول تحذيراً لبقية النمل .

والله سبحانه يقول :

﴿ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة الإسراء)

إذن فكل أمة من تلك الأمم الكثيرة التى خلقها الله فى الكون تسبح بحمده ، ولكن لا يفهم أحد لغات تلك الأمم . وأعلمنا الله أنه علم سيدنا سليمان لغات كل الأقوام وكل الأمم المخلوقة لله ، ولذلك عندما سمع سيدنا سليمان ما قالته النملة : تبسم « ضاحكاً من قولها » .

وهكذا علمنا أن الله أعطى أذن سليمان عليه السلام ما جعلها تمتلك حاسية التقاط الذبذبة الصادرة من صوت النملة وتفهم ما تعطيه وتؤديه تلك الذبذبة ، لذلك تبسم سليمان عليه السلام من قولها ؛ لأن الله علمه منطق تلك الكائنات . ولو علمنا الله منطق هذه الكائنات لفقهنا تسبيحهم لله ، ونحن لا نفقه تسبيحهم لأننا لم نتعلم لغتهم . ومثال ذلك ـ ولله المثل الأعلى ـ قد يسافر إنسان عربى إلى بلاد تتحدث الإنجليزية وهو يجهل تلك اللغة ، فلا يفهم مما يقال شيئاً . إذن لو علمك الله منطق الطير ، ومنطق الجماد ، ومنطق النبات ؛ لعلمت لغاتهم .

ألم يقل الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ ﴾

(من الآية ٧٩ سورة الأنبياء)

إن الجماد ـ الجبال ـ تسبح مع داود . وكذلك الطير ؛ فهاهوذا الهدهد قد عرف قضية التوحيد ، وحز فى نفسه أنه رأى ملكة سبأ وقومها يسجدون للشمس من دون الله :

﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة النمل)

إذن فالهدهد قد عرف قضية التوحيد ، وعرف أن للشيطان مداخل على الكائن الحى ، وعرف أن السجود إنما يكون لله سبحانه وتعالى :

﴿ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾

(من الآية ٢٥ سورة النمل)

إذن كل الكائنات هى أمم أمثالنا . وقد يقول قائل : ولكن هناك كائنات ليست فى السماء ولا فى الأرض ، مثل الأسماك التى فى البحار ؟ ونقول : إن الماء ثلاثة أرباع الأرض والسمك يسبح فى جزء من الماء الذى هو جزء من الأرض . فهو يسبح فى جزء من الأرض ، فسبحانه الذى خلق الدواب فى الأرض ، وخلق الطيور . وخلق الأدنى من هذه الأمم وهداها إلى مصلحتها ومصدر حياتها : « الذى خلق فسوى . والذى قدر فهدى » .

ونرى العلماء يحاولون الآن اكتشاف لغة الأسماك ، واكتشاف كل أسرار مملكة النحل ونظامها ، وكيف تصير أعشاش النمل مخازن فى الصيف لقوت الشتاء . ودرسوا سلوك النمل مع حبة القمح ، وكيف تخلع النملة خلايا الإنبات من بذرة القمح ، لأن خلايا الإنبات إن دخلت مع حبة القمح إلى مخزن غذاء النمل قد تنبت وتدمر جحر النمل . وهكذا نرى صدق الحق الأعلى :

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ ﴾

(سورة الأعلى)

وقرون الاستشعار فى النملة تثير العلماء ؛ لأن النملة الواحدة ترى على سبيل المثال

قطعة السكر ، فلا تقربها ولكنها تذهب لاستدعاء جيش من النمل قادر على تحريك قطعة السكر . ووجد العلماء أن وزن الشيء الذى يتغذى به النمل إن زاد على قدرة نملة ، فهى تستدعى أعدادا من النمل ليؤدوا المهمة .

وتساءل العلماء : من أين للنملة إذن هذه القدرة على تحديد الكتلة والحجم والوزن ؟ إن تحديد العدد الذى يحمل حجما محددا يثير الغرابة والعجب ، فكيف يمكن أن نتصور أن النمل يفرق بين شيئين يتحد حجمهما ويختلف وزنهما ككتلة من حديد وأخرى تماثلها فى الحجم من الأسفنج ؟ إن النمل يستدعى لكتلة الحديد أضعاف ما يستدعيه لحمل كتلة الأسفنج مع اتحادهما فى الحجم ؛ إنها من قدرة الحق الذى خلق فسوى والذى قدر فهدى .

ثم إنك تلتفت إلى الحيوان فتجد الذكر والأنثى ، وتجد أن الجمال كله فى ذكور الحيوان ، بينما لا يكون الأمر كذلك فى إناث الحيوان ، والكثرة الغالبة هى من الإناث والقلة فى الذكور ، ولا يقرب الذكر أنثاه إلا فى موسم معين ، وإلى أن يأتى موسم التلقيح تنصرف الأنثى إلى إعداد العش وتهيئته لما عساه أن يوجد من نتاج ، وهذه العملية لحكمة عالية ربما تكون لبقاء نوع الحيوان حتى يعين الإنسان فى إعمار الأرض .

وفى عالم الطير نجد الطيور تبنى العش بفن جميل لاستقبال الفرخ الذى خرج من البيض وتفرش له العش بأنعم الأشياء ، إنها تفعل ذلك بإتقان جيد وبصورة ربما يعجز البشر أن يعمل مثلها . ثم نجد فى دنيا الحيوان والطير أن الكائن ما إن يبلغ القدرة على الاعتماد على نفسه فلا تعرف الأم ابنها من ابن غيرها . إذن فكل المخلوقات أمم أمثالنا أرزاقاً وآجالاً ، وأعمالاً ، فصدق الله إذ يقول : « ما فرطنا فى الكتاب من شيء » .

وقد يكون المراد من الكتاب هنا هو اللوح المحفوظ ، ولكننا نقول : إنه القرآن . وكل شيء موجود ومذكور أو مطمور فى القرآن الكريم . وذكر القرآن أن هذه الأمم تعرف التوحيد ، وأنهم يسبحون لله . والعلم المعاصر يكتشف فى كل دقيقة حقائق هذا الكون المنظم . ونجد العقل يهدينا إلى أن نوجد أشياء لصالح حياتنا ، ولكن عندما نتبع الهوى فإننا نفسد هذا الكون . إن الله ـ سبحانه ـ جعل للخادم من دواب

الأرض نطاقًا للعمل والرزق والأجل بحكم الغريزة ، وكذلك جعل للطير ، ولكل الكائنات :

ويقول الحق سبحانه وتعالى فى محكم آياته الكريمة :

﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾

(من الآية ٣٨ سورة الأنعام)

إذن كل شىء يحشر يوم القيامة . ألم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه أبو هريرة رضى الله عنه : « لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء[1] من الشاة القرناء »[2].

أى أن الحق سبحانه يقتص من الشاة ذات القرون التى نطحت الشاة التى بلا قرون ويعوضها عن الألم الذى أصابها . وبعد أن يأخذ كل كائن من غير الإنس والجن حَقَّه يصير إلى تراب . أما الذين يسمعون ولا يستجيبون فهم المكذبون بالآيات ، ولذلك يقول عنهم الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾ ﴾

والصمم آفة تصيب الأذن فلا تسمع . والبكم آفة تصيب اللسان فلا ينطق . والبكم مرتبط بالصمم ؛ لأن الإنسان لا يتكلم إلا إذا سمع ؛ لأن اللغة بنت المحاكاة ؛ فالإنسان لا يتكلم إلا إذا سمع .

إن البشر ينشأون فى بيئات مختلفة اللغة ولا يتكلمون إلا باللغة التى نشأوا فى

---

(١) الجلحاء : هى التى لا قرن لها ، بعكس القرناء .

(٢) رواه مسلم والترمذى وأحمد بن حنبل .

بيئتها ؛ لأن اللغة ليست دماً ولا جنساً . بل اللغة سماع . وما تسمعه الأذن يحكيه اللسان . ولا يقرأ الإنسان إلا إذا سمع وعرف ارتباط ما يسمع بما يرى ؛ لذلك نعرف أن السمع هو المنفذ الأول للإدراك ، ولهذا كان الصمم قبل البكم .

ولكن هل الإدراك مرتبط بالصمم والبكم فقط ؟ لا ، إن الإنسان يسمع أولاً ، ثم يرى ، ثم يتذوق ، ثم يشم ، ثم يلمس ، ثم تأتى له المعلومات العقلية . والمثال على ذلك أن كل إنسان يعرف أن النار محرقة ، وهو لم يعرف هذا إلا لأنه وجدها قد لمست كائناً وأحرقته . ومثال آخر : يتفق الناس على أن صوت العندليب جميل ، وهذا الاتفاق جاء من سماع الناس لصوت العندليب . إذن فالمعلومات العقلية تأتى نتيجة للمعلومات الحسية .

« صم وبكم فى الظلمات » إنهم بلا قدرة أيضاً على إبصار الهداية من أى ناحية ؛ صم لا يسمعون لكلمة الحق ، وبكم لا ينطقون ، وفى ظلمات لا يهتدون إلى إدراكات الأشياء ولا إلى الإيمان . وكل ذلك مردود إلى المشيئة : « من يشأ الله يضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم » لكن هل اقتحمت المشيئة على الناس وقهرتهم ؟ لا ؛ لأن الحق قال :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾

(من الآية ٢٨ سورة غافر)

وقال سبحانه أيضاً : « والله لا يهدى القوم الظالمين » إذن ، فبتقديمهم الظلم ، والفسق ، والكفر ، وقد فعلوا ذلك اختياراً فصار المرض واستقر فى قلوبهم وزادهم الله مرضاً ، وهو سبحانه أغنى الأغنياء عن الشرك به ، فمن أشرك مع الله شيئاً فهو له . ويأتى من بعد ذلك أمر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم :

﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾

و« أرأيتكم » مكونة من استفهام وفعل ، ومن ضمير وهو لفظ التاء المفتوح

للمخاطب كقولك : « أرأيت فلاناً » وكأنك تقول له : « إن كنت قد رأيته فأخبرنى عنه » ، وعندما تقول للمخاطب ذلك فأنت تستفهم منه عن شىء رآه وأبصره وبعد ذلك تأتى بكاف الخطاب ، فكأنك تقول له:أخبرنى عنك ، فيكون المعنى أخبرونى عن أنفسكم ، وهكذا تكون : « أرأيتكم » معناها : أخبرونى عن حالكم إخبار من يرى . فالأمر إذن لرسول الله ليسأل المشركين أن يخبروه ماذا يفعلون عندما يصيبهم الضر أو أى شىء فوق الأسباب ، هل هم يدعون اللات والعزى ؟

لا ، إنهم لا يستطيعون وقت الخطر الداهم أن يكذبوا على أنفسهم ، إنما ينادون الله الذى لا يعلنون الإيمان به . ولو كانوا صادقين مع كفرهم لما نادوا الله ، بل كان يجب أن ينادوا آلهتهم ؛ لكنهم فى لحظة الخطر يقولون : « يارب » كأنهم يعرفون أنه لا منقذ لهم إلا هو سبحانه . وهكذا ينكشف أمامهم كذب كفرهم وشركهم بالله . ولا أحد يغش نفسه ، حتى الدجال الذى يدعى ممارسته شفاء الناس ، إن أصابه مرض نجده يلجأ إلى طبيب متخصص متعلم . فلا أحد يغش نفسه ، وساعة يمس الخطر ذات الإنسان نجد الحقيقة تنبع من الإنسان نفسه .

ويسألهم النبى صلى الله عليه وسلم : مَنْ يدعونه لحظة الخطر ؟ إنهم يدعون الله . وكأنهم لا يثقون فى آلهتهم :

﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا ﴾

(من الآية ١٢ سورة يونس)

لكن ماذا يحدث عندما يعود للقلب غلظته ؟

﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ﴾

(من الآية ١٢ سورة يونس)

لماذا إذن يطلب من الله النجدة وقت الخطر ، ولا يتبع التكليف ؟ يأتى الأمر إلى الرسول ليسألهم من تدعون لحظة الخطر ؟ ويأتى الجواب أيضاً من الحق سبحانه وتعالى :

﴿ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ ﴾

إنكم ـ أيها المشركون ـ لا تدعون إلا الله أن يكشف عنكم الضر ، فإن رأى أن من الحكمة أن يجيب دعاءكم أجابه . وإن رأى أن من الحكمة ألا يجيب فهو لا يجيب . وهم يدعون الله وينسون آلهتهم ومن أشركوهم بالعبادة مع الله .

ويقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾

لقد أرسل الحق لأمم سابقة رسلاً بالآيات والمنهج ، فكذبتهم أقوامهم ، فأخذهم الله بالشدائد والأحداث التى تضر إما فى النفس ، وإما فى المال ، بالمرض ، بالفقر ، لعلهم يتضرعون إلى الله سبحانه وتعالى .

إذن فالحق حين يمس الإنسان بالبأساء أى بالشدائد أو بالضراء ، أى بالشىء الذى يضر ويؤذى ، إنما يريد من الإنسان أن يختبر نفسه ، فإن كان مؤمناً بغير الله فليذهب إلى من آمن به ، ولن يرفع عنه تلك البأساء أو ذلك الضر إلا عندما يعود إلى الله . وعندما يتضرع إلى الله قد لا يقبل الله منه مثل هذا التضرع ويقول سبحانه :

﴿ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾

إنه ـ سبحانه ـ يحثهم ويحضهم على أن يتضرعوا ويتذللوا إلى الله ليرفع عنهم ما نزل بهم ، ولكن قلوبهم القاسية تمنعهم حتى فى لحظة المس بالضر أن يلجأوا إلى الله خوفاً من اتباع التكليف . إن قسوة القلب تكون بالصورة التى لا ينفذ إليها الهدى وكما قال الحق :

﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

(سورة المطففين)

أى صارت قلوبهم مغلقة ومغطاة بعد أن طبع الله وختم عليها فلا تقبل الخير ولا تميل إليه ، فلا يؤمنون .

ويتابع الحق القول الكريم :

﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

إنهم عندما نسوا ما جاءهم من تذكير الحق لهم بالمنهج والتوحيد من خلال الرسل إنه ـ سبحانه ـ يصيبهم بالعذاب الذى يفاجئهم به فيقعون فى حيرة تأخذ عليهم ألبابهم وتشتت قلوبهم وتقطع رجاءهم .

والرسل إنما تأتى لتذكر ؛ لأن الإيمان موجود بالفطرة . ولكن الغفلة هى التى تخفى الإيمان . والإنسان يحيا فى كون ملىء بالنعم ولا دخل لأحد بها ، ولا يد لأحد فيها ، ولم يدعها أحد لنفسه ، كان يجب على هذا الإنسان أن يعيش دائماً فى رحاب الحمد لله ، مولى هذه النعمة .

والتذكير من الحق لعباده يكون بالنعم أو الرسل الذين يأتون بالرسالات المتوالية . وهب أن إنساناً قد غفل عن نعمة الله فى الطعام ، ثم جاءت لحظة الجوع ، فجلس

يشتهى الطعام فمنحه الله ذلك الطعام فكيف ينسى لحظة الشبع من وهب له هذا الطعام .

« فلما نسوا ما ذكروا به » إما أن يكون هو الإخبار بواسطة الرسل الذين يذكرون الناس بأن المنعم هو الله ، وأن الله أنزل المنهج ليصلح الكون به ، وإما أن يكون بواسطة النعم التى تمر على الإنسان فى كل لحظة من اللحظات ؛ لأنها تنبه الإنسان إلى أن هناك من أعطاها . مثال ذلك ساعة يستر الإنسان عورته وجسده بلباس جميل ، ألا يتساءل عن الذى وهب الصانع تلك الموهبة التى صمم بها الزى . إذن كيف يأخذ الإنسان النعمة ولا يتذكر المنعم ؟ إن الله سبحانه لا يحرمهم من النعم ساعة أن تركوا شكرها ، بل يفتح عليهم أبواب كل شىء ، أى يعطيهم من النعم أكثر وأكثر ، فيترفون ويعيشون فى ألوان من حياة العز والصحة والسعة والجاه والسيطرة والمكانة . ثم ما الذى يحدث ؟ « أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون » .

وقلنا من قبل هذا المثل الريفى : لا يقع أحد من فوق الحصير . ولكن الحق يعلى الكافر المشرك فى بعض الأحيان ثم يأخذه بغتة فيقع ليكون الألم عظيماً . فإن رأيت إنساناً أسرف على نفسه ووسع الحق عليه فى نظام الحياة . إياك أن تفتن وتقول : آه إن الكافر الظالم يركب أفخر السيارات ويعيش فى أبهى القصور ، لا تقل ذلك لأنك سترى نهاية هذا الظالم البشعة .

وانظر إلى دقة التعبير فى قول الحق تبارك وتعالى : « فتحنا عليهم أبواب كل شىء » لقد فتح عليهم . . أى سلط عليهم ، لا فتح لهم . ويقول الحق سبحانه فى موقع آخر من القرآن الكريم : « إنا فتحنا لك فتحاً مبينا » .

وهكذا نعرف أن الفتح لك غير الفتح عليك ؛ لأن الفتح على أحد يعنى الاستدراج إلى إذلال قسرى سوف يحدث له . ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة الأنعام)

إن القبض يأتى لحظة الفرح . وكثيراً ما نرى مثل هذه الأحداث فى الحياة ،

نلتفت إلى كارثة تحدث للعريس أو العروس فى يوم الزفاف . ويصدق قول الشاعر :

مشت الحادثات فى غرف الحمراء
مشى النعى فى دار عرس

وهذا يشرح القول الكريم :

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً﴾

(من الآية ٤٤ سورة الأنعام)

وعندما ندقق فى كلمة : « بما أوتوا » فإننا نجد أن ما حصلوا عليه من نعمة إنما جاءهم كتمهيد إلهى ييسر هذه المسائل ، ثم يأخذهم الحق بغتة ، أى أن الحادث الضار يأتى بدون مقدمات ؛ لأن مجىء المقدمات قد يجعل الإنسان يتيقظ ويحتاط أو يتوقع ذلك . ونعرف أن الحق يقول فى موقع آخر من القرآن الكريم :

﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً﴾

(من الآية ٤٧ سورة الأنعام)

أى أن العذاب قد يأتى مرة بغتة ، وقد يأتى مرة أخرى جهراً . والعذاب يأتى بغتة عقاباً ، ويأتى جهرة حتى لا يقولن أحد : لولا أنّ مجىء العذاب بغتة لكان قد احتاط لذلك الأمر . ويأتيهم العذاب وهم مبلسون أى يائسون لا منجى ولا منقذ ولا خلاص لهم .

ويتابع الحق ما يحدث لهؤلاء :

﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾

ومادام هؤلاء القوم قد نسوا ما ذكِّروا به ، وفتح الله عليهم أبواب كل شىء ثم فرحوا بما أوتوا وأخذهم الحق بغتة ، كل ذلك يلفتنا إلى أنه يجب علينا أن نحمد الله لأنه يربى الخلق بالنقمة والنعمة ويطهر الكون من المفسدين ، وقطع دابر المفسدين

مصيبة لهؤلاء المفسدين ، ونعمة من نعم الله على المؤمنين . وقد يتساءل البعض : كيف يأتى القرآن بالنقم وكأنها نعم ؟

ونجد الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾ ﴾

(سورة الرحمن)

إنها نقم يتحدث عنها الحق كإرسال الشواظ من نار ونحاس ، وهى نقم بالنسبة للكافرين وعليهم ، وهى نعم للمؤمنين . ونعلم أن التهويل فى أمر العذاب يجعل الناس ترتدع ، وهذا الوعيد نعمة من الله . وحين يتجلى الحق بنعمه على خلقه ويقطع دابر الظالمين ، يقول المؤمنون الحمد لله :

﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

ويعود الحق إلى استنطاقهم بالإخبار عن المرئيات :

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾

هنا يأمر الحق نبيه صلى الله عليه وسلم أن يستنطقهم : ماذا يفعلون إن سلب الله السمع وغطى قلوبهم بما يجعلها لا تدرك شيئاً ، وسلب منهم نعمة البصر ، هل هناك إله آخر يستطيع أن يرد لهم ما سلبه الحق سبحانه منهم ؟ لقد أخذوا نعمة الله

واستعملوها لمحادَّة الله وعداوته ، أخذوا السمع ولكنهم صموا عن سماع الهدى ، وأخذوا الأبصار ولكنهم عموا عن رؤية آيات الله . ومنحوا القلوب ولكنهم أغلقوها فى وجه قضايا الخير . فماذا يفعلون إن أخذ الله منهم هذه النعم ؟ هل هناك إله آخر يلجأون إليه ليستردوا ما أخذه الله منهم ؟

وترى فى الحياة أن الحق قد حرم بعضاً من خلقه من نعم أدامها على خلق آخرين . إن فى ذلك وسيلة إيضاح فى الكون . وإياك أن تظن أيها الإنسان أن الحق حين سلب إنساناً نعمة ، أنَّه يكره هذا الإنسان ، إنه سبحانه أراد أن يذكر الناس بأن هناك منعماً أعلى يجب أن يؤمنوا به . فإن أخذ الحق هذه النعم من أى كافر فماذا سيفعل ؟ إنه لن يستطيع شيئاً مع فعل الله .

وهاهوذا النبى يوضح لهم بالبراهين الواضحة ، ولكنهم مع ذلك يُعْرِضون عن التدبر والتفكر والإيمان « ثم هم يصدفون » .

والمؤمن حين يرى إنساناً من أصحاب العاهات فهو يشكر الله على نعمه ، إن الحق ـ سبحانه ـ بواسع رحمته يعطى صاحب العاهة تفوقاً فى مجال آخر . ولنذكر قول الشاعر :

عميت جنيناً والذكاء من العمى
فجئت عجيب الظن للعلم موئلا
وغاض ضياء العين للقلب رافداً
لعلم إذا ما ضيع الناس حصلا

إننا قد نرى أعمى يقود ببصيرته المبصرين إلى الهداية . ونرى أصم كبيتهوفن ـ على سبيل المثال ـ قد فتن الناس بموسيقاه وهو أصم . وهكذا نجد من أصيب بعاهة فإن الله يعوضه بجودٍ وفضل منه فى نواحٍ ومجالات أخرى من حياته .. ولا يوجد إله آخر يمكن أن يعوض كافراً ابتلاه الله ؛ لأن الله هو الواحد الأحد : « انظر كيف نصرف الآيات ثم هم يصدفون » ، أى انظر يا محمد وتعجب كيف نبّين لهم الآيات ونصرفها من أسلوب إلى أسلوب ما بين حجج عقلية وتوجيه إلى آيات

كونية وترغيب وترهيب وتنبيه وتذكير ومع ذلك فإن هؤلاء الكافرين لا يتفكرون ولا يتدبرون ، بل إنهم يعرضون ويتولون عن الحق بعد بيانه وظهوره .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾

ونلحظ أن « تاء الضمير » فى هذه الآية قد فتحت ، بينما الآية السابقة لها جاءت فيها « تاء الضمير » مضمومة ، حيث يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

ونلحظ أيضاً أن الآية التى نحن بصددها الآن تأتى فيها كاف الخطاب : « أرأيتكم » بينما الآية السابقة لها لا تحمل كاف الخطاب « أرأيتم » ونعرف أن كل لفظة من هذه الألفاظ قد جاءت لتؤدى معنىً لا يؤدى بغيرها ، وإن تشابهت الأساليب ، فقوله : (أرأيتكم) يشمل ويضم ضمير المخاطب وهو التاء المفتوحة ويشمل أيضا كاف الخطاب والجمع بين علامتى الخطاب (التاء) و(الكاف) يدل على أن ذلك تنبيه على شىء ما عليه من مزيد . إنه تنبيه إلى أن هلاكهم سيكون هلاك استئصال وإبادة ، ومرة يقول الحق : « أرأيتم » أى أخبرونى أنتم وأعلمونى إعلاماً يؤكد لى صدق القضية ، ويأتى الاستفهام هنا من مادة « أرى » و« رأى » .

إن السبب فى ذلك أنك حين تستفهم عن شىء إما أن يكون المستفهم منه قد حضر حدوث الشىء ، وإما أن يكون المستفهَم منه لم يحضر حدوث الشىء . فإن كان قد حضر حدوث الشىء فإنك تقول له : أرأيت ما حدث لفلان وفلان ؟ فيقول لك : نعم رأيت كذا وكذا وكذا . وإن كان المستفهَم منه لم يعلم بالأمر ولم يره فهو

يجيب بالنفى ، وهذا ما يحدث بين البشر ، لكن حين يكون الاستفهام من الله ، ويكون الحادث المستفهَم عنه قد حدث من قبل وجود المستفهَم منه ، فالإيمان يقتضى أن يجيب المستفهم منه عن هذا الحادث بـ « نعم » .

ومثال ذلك قول الحق سبحانه وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴿١﴾ ﴾

(سورة الفيل)

وهذا خطاب من الله لرسوله صلى الله عليه وسلم عما حدث لأصحاب الفيل فى عام ولادته صلى الله عليه وسلم ، ولم يكن الحدث موضع رؤية لرسول الله صلى الله عليه وسلم . ولقائل أن يقول : كيف يخاطب الله رسوله باستفهام عن حادث لم يره ؟ ونقول : إن الحق بهذا الاستفهام يوضح لرسوله : اسمع منى ، وسماعك منى فوق رؤية عينيك للحدث ، فإذا ما قلت لك : « ألم تر » فمعناها : اعلم علماً يقينياً ، وهذا العلم اليقينى يجب أن تثق فى صدقه كأنك رأيته رؤية العين وفوق ذلك أيضاً فإن عينك قد تخدعك أو تكذب عليك ، ولكن حين يخبرك ربك لا يخدعك ولا يكذب عليك أبداً .

إذن فالحق يريد أن يخرج هذه الأساليب مخرج اليقين . وأضرب هذا المثل ـ ولله المثل الأعلى ـ فحين يحاول إنسان قد أحسنت إليه كثيراً أن يجحد إحسانك ، فأنت لا تقول له : أنا أحسنت إليك ، ولكنك تقول له : أرأيت ما فعلته معك يوم كذا ، ويوم كذا ؟ وهنا يبدو كلامك كاستفهام منك ، لأنك واثق أنه حين يدير رأسه فى الجواب فلن يجد إلا ما يؤيد منطقك من وقوفك إلى جانبه ، وإحسانك إليه ، ولن يجد إلا أن يقول لك : نعم رأيت أنك وقفت بجانبى فى كل المواقف التى تذكرها . وفى مثل هذا القول إلزام لا من موقع المتكلم ، ولكن من واقع المخاطب .

وبعد أن تكلم الحق عن تعنت الكافرين أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعدم اكتفائهم بالآيات التى أنزلها الله مؤيدة لصدق رسوله صلى الله عليه وسلم ، ثم تماديهم فى اقتراح آيات من عندهم ، وقد اقترحوها فى شىء من الصفاقة والسماجة ، فقالوا :

﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

وكلها أسئلة مليئة بالتعنت ، والحق سبحانه وتعالى هو الذى اختار القرآن معجزة ومنهجاً لرسوله صلى الله عليه وسلم . ويعلم سبحانه صدق رسوله فى البلاغ عنه ، لكل ذلك يبين الحق لرسوله أن يبلغ هؤلاء الكافرين أنه سبحانه وتعالى لن يعود عليه أى نفع أو ضر نتيجة إيمانهم به سبحانه ، لكن النفع بالإيمان يكون للعباد ويعود خيره إليهم ؛ لأنه سبحانه وتعالى له صفات الكمال كلها قبل أن يخلق الخلق . إنها له أزلا وأبدًا .

فبصفات الكمال ـ علماً وقدرة ؛ وحكمة ؛ وإرادة ـ خلق الخلق جميعا . فإياكم أيها الناس أن تفهموا أن إيمانكم بالله يزيده صفة من صفات الجلال أو الجمال ، وإنما الإيمان عائد إليكم أنتم ، فإذا كان منكم متكبرون ومتعنتون ، فالحق سبحانه لا يترك من تكبر وتعنت ليقف أمام منهجه الذى يحكم حركة الحياة فى الأرض ، ولكنه سبحانه يأخذ أهل التكبر والتعنت أخذ عزيز مقتدر . واستقرئوا أيها الناس ما حدث لمن كذبوا رسل الله ، وماذا صنع الله بهم ؟ إنه بقدرته سبحانه وتعالى يستطيع أن يصنع معكم ما صنعه معهم . وإذا ما استقرأتم قصص الرسل مع المكذبين لله وجدتم العذاب قد جاء للقوم بغتة ، فهاهوذا الحق يقول عن قوم عاد :

﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ

ٱلْآخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة فصلت)

لقد تكبر قوم عاد على سيدنا هود عليه السلام والذين آمنوا معه ، وظنوا أنهم أقوى الأقوياء ، وغفلوا عن قدرة الخالق الأعلى وهو القوى الأعظم وأنكروا آيات الله ، فماذا كان مصيرهم ؟ فاجأهم الحق بإرسال ريح ذات صوت شديد فى أيام كلها شؤم ليذيقهم عذاب الهوان والخزى والذل فى هذه الدنيا ، ويقسم الحق بأن عذاب الآخرة أشد خزيا ؛ لأنهم فى هذا اليوم لا يجدون ناصرا لهم لأنهم كفروا بالذى ينصف وينصر وهو الحق جلت قدرته .

وماذا عن قوم ثمود ؟ لقد بين لهم الحق طريق الهداية . لكنهم اختاروا الضلال واستحبوا لأنفسهم الكفر على الإيمان ، وكذبوا نبى الله صالحاً عليه السلام وعقروا الناقة ، فنزلت عليهم الصاعقة لتحرقهم بمهانة بسبب ما فعلوا من تكذيب لرسولهم .

﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة فصلت)

وماذا فعل الحق بأصحاب الفيل ؟ لقد جاء قوم أبرهة لهدم الكعبة ، فاستقبلتهم الطير الأبابيل . . أى التى جاءت فى جماعات كثيرة متتابعة بعضها فى إثر بعض بحجارة من طين متحجر محرق قد كتب وسجل عليهم أن يعذبوا به :

﴿ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ ﴿٥﴾ ﴾

(سورة الفيل)

وكل حدث من تلك الأحداث أجراه الله بغتة . ومعنى البغتة أن يفاجىء الخطبُ القومَ بدون مقدمات علم به . وهناك أيضاً من الأحداث الجسام أنزلها الله بالكافرين جهرة ، فهاهم أولاء قوم فرعون يغرقهم الله علناً . وكذلك قارون أهلكه الله جهرة :

﴿ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ ﴾

(سورة القصص)

لقد أخذ قارون نعمة الله ونسبها إلى نفسه ، وصار مفتونا بما امتلك ، وغرق فى الغرور ، فماذا فعل الله به ؟ خسف الله به جهرة وأمام أعين الذين تمنوا مكانه . إذن فمن الممكن أن يأتى عذاب الله بغتة للكافرين به أو يأتيهم بالعذاب جهرة . وما السبب فى التلوين بين « بغتة » و« جهرة » ؟ البغتة تثبت لمن يعبد غير الله أنه مخدوع فى عبادته لغير الله ، لأنه لو كان يعبد إلهاً حقاً لما قبل هذا الإله أن يعذب أتباعه من حيث لا يشعر . إذن فالبغتة تثبت عجز المعبودين من أصنام وغيرها ، فقد عجزت تلك الأصنام أن تحتاط للعابدين لها . وقد يقول قائل منهم : لقد جاءنا العذاب فجأة ، لكن لو جاء لنا مواجهة لكنا قادرين على مواجهته والوقوف أمامه .

فيأتى الله أيضاً بالعذاب جهرة فلا يستطيعون مواجهته فتنقطع حجتهم ، وعلى الرغم من ذلك تموت فى قلوب هؤلاء المعاندين القدرة على إبصار ضرورة الإيمان . ويعامل سبحانه خصوم رسولنا ـ صلى الله عليه وسلم ـ مثل هذه المعاملة ، فعندما عانده القوم جاءهم الله سبحانه بأمور معجزة لعلهم يتفكرون .

فهاهم أولاء قد اتفقوا على قتله قبل الهجرة ، ويقفون على باب بيته ، ويُخرجه الحق من بينهم وهم لا يبصرون ، ولا يفلحون فى التآمر على رسول الله ، ولا ينجح لهم تبييت ضد رسول الله ، ويكون مكر الله فوق كل مكر يريد به أعداء الرسول صلى الله عليه وسلم إيذاءه به . وهم قد ذهبوا إلى الجن ليسحروا له ، لكن لا هذا السحر قد نفع ، ولا ذاك التبييت أتى بنتيجة . وكانت تكرمة الله لرسوله صلى الله عليه وسلم فوق كل شيء . ويقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

ويكون تذييل الآية ـ أيضاً ـ على هيئة استفهام ، والاستفهام هنا ـ كما علمنا من قبل ـ إنما جاء ليؤكد المعنى ، وليكون الإقرار من أفواه من يتلقون هذا الاستفهام وعن يقين منهم ، وليكون الاعتراف منهم إجابة بالإقرار ، والإقرار ـ كما نعلم ـ هو سيد الأدلة .

وهب أن صاعقة نزلت أو خسفاً حدث فيه عذاب ، فكيف ينجى الله المؤمنين به من هذا العذاب أو ذلك الخسف ؟

إن الهلاك فقط يكون للقوم الظالمين ؛ لأن الهلاك هو إعدام الحياة للحى المتمتع بالحياة ، والذى لا يؤمن إلا بهذه الدنيا إذا جاءته مصيبة لتهلكه فهو يشعر بمرارة الخسران ؛ لأنه لا يعتقد ولا يؤمن بالحياة الأخرى ، لكن المؤمن الذى يتيقن أن له إلهًا وأنه سيعود إليه ليحاسبه ويجزيه عن إيمانه خير الجزاء إن حدثت له محنة فى طى محنة كبرى للكافرين فهو يذهب إلى الجنة ويكون ذلك منحة له لا محنة عليه لتستمر حياته إلى خلود .

وهكذا نجد أن الهلاك إنما يحدث للقوم الظالمين فقط لأنه يُفْقِدهم كل ما كانوا يتمتعون به فى دنياهم وليس لهم فى الآخرة إلا البوار والخسران والعذاب الدائم ، أما غير الظالمين فالحق سبحانه وتعالى ينقلهم إلى حياة خالدة هى خير من هذه الحياة ، إذن فالمؤمنون إنما يتلقون فيوضات الله عليهم فى النعماء وفى البلاء أيضاً .

ويتكلم الحق سبحانه وتعالى فى الآية التالية عن التصور الإيمانى الذى يجب أن

يرسخ فى أذهان المؤمنين برسول مبلغ عن الله ، وعندما يسمع العقل الطبيعى الفطرى البلاغ عن الرسول فهو يصدقه فوراً ؛ لأن الفطرة عندما ترى فساد الكون ، وترى أن هناك من جاء بمنهج لإصلاح الكون لا بد أن تتجه إلى الإيمان بالمبلغ عن الله وهو الرسول . وعندما ترى الفطرة أن الكون كله قد تم إعداده لخدمة الإنسان ، لا بد لها أن تتساءل عن الخالق لهذا الكون وعن المنهج الذى يجب أن تسير عليه لصيانة هذه النعمة ، نعمة الوجود فى الكون .

ويقتضى الإحساس السليم من الإنسان أن يتعرف إلى حقيقة واضحة ، وهى أن الإنسان قد طرأ على الكون ، وأن هذا الكون ملىء وغنى بالخيرات ، ولم يدع أحد أبداً أنه خلق السموات أو الأرض أو الماء أو الهواء . ولا بد أن يدور فى خلد صاحب الفطرة السليمة تساؤل عن هذا الخالق الأكرم الذى وهب للإنسان حق الاستخلاف فى كل هذا الكون . فإذا ما جاء رسول ليقطع هذا القلق وذلك الصمت ويقول : أنا جئتكم لأخبركم بمَن خلقكم ، وبمن خلق السموات ، وبمن خلق الأرض ، وبمن رزقكم هذا الرزق .

هنا تنصت الفطرة إلى سماع الخبر الذى كانت تستشرف له . وإذا ما جاء هذا الرسول مؤيداً بآية من الله ومعجزة لا يقدر عليها البشر ، فالعقل البشرى يعترف اعتراف الإقرار على الفور ؛ لأنه وجد حاجته عند ذلك الرسول .

ولكن على الذين يؤمنون بما جاء به الرسول ، وعلى الرسول نفسه ، وحتى على الكافرين به ، عليهم جميعاً ألا يتعدوا الحدود ، وألا يضعوا أى رسول فى مكان أعلى من منزلته ، لأنه رسول من الله ، إنه واحد من البشر تفضل الله عليه بالوحى واصطفاه للمهمة التى جاء بها . ولا بد للجميع أن يفهم أن الرسول مبلغ عن الله فقط ، وأنه لا يستطيع أن يأتى بالآيات التى يقترحها بعض من القوم ؛ لأن الرسول لا يقترح الآيات ولا يصنعها ، الرسول مقصور على أداء الأمانة الموكلة إليه وهى أمانة البلاغ عن الله . ولذلك يقول لنا الحق :

﴿ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾

فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾

أى أن الحق سبحانه لم يعط الرسل قدرته ليفعلوا ما شاءوا ، ولكنهم فقط مبلّغون عن الله ، فلا يطلبن منهم أحد آيات ؛ لأنهم لا يستطيعون أن يأتوا بالآيات ، وكل رسول يعلم أنه من البشر ، وهو يستقبل عن الله فقط ، ولذلك فلنأخذ الرسل على أنهم مبشرون ومنذرون « وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين » .

ونعرف أن البشارة هى الإخبار بما يسر قبل أن يقع . والسبب فى البشارة هو تهيئة السامع لها ليبادر إلى ما يجعل البشارة واقعاً بأن يمتثل إلى المنهج القادم من الإله الخالق . ونعرف أن الإنذار هو الإخبار بما يسوء قبل أن يقع ليحترز السامع أن يقع فى المحاذير التى حرمها الله .

والبشارة ـ كما نعلم ـ تلهب فى الراغب فى الفعل والمحب له أن يفعل العمل الطيب ، والإنذار يحذر ويخوف من يرغب فى العمل السيىء ليزدجر ويرتدع . إذن فمهمة الرسل هى البشارة والإنذار ، فلا تخرجوا بهم أيها الناس إلى مرتبة أخرى أو منزلة ليست لهم فتطلبوا منهم آيات أو أشياء ؛ لأن الآيات والأشياء كلها من تصريف الحق تبارك وتعالى ، ومن سوء الأدب أن نُخطّىء الله فى الآيات التى أرسلها مع الرسل ونطلب آيات أخرى . إنكم بهذا تستدركون على الله .

ويبيّن الحق لنا حدود مهمة الرسل فيقول :

﴿ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾

(من الآية ٤٨ سورة الأنعام)

هذا هو عمل الرسل ، فماذا عن عمل الذين يستمعون للرسل ؟ إن الحق يقول :

﴿ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

(من الآية ٤٨ سورة الأنعام)

فالمطلوب ـ إذن ـ من الذين يستمعون إلى الرسل أن يقبلوا على اختيار الإيمان ، وأن يستمعوا إلى جوهر المنهج وأن يطبقوه . فمن آمن منهم وأصلح فلا خوف عليه لأنه قد ضمن الفوز العظيم ، ولا يصيبه أو يناله حزن ، لأن ناتج عمله كله يلقاه فى كتابه يوم القيامة . والإيمان هو اطمئنان القلب إلى قضية عقدية لا تطفو إلى الذهن لتناقش من جديد . ولذلك نسمى الإيمان عقيدة ، أى شيئاً انعقد عقداً لا ينحل أبداً .

إنّ على المؤمن بربه أن يستحضر الأدلة والآيات التى تجعل إيمانه بربه إيماناً قوياً معقوداً ؛ وهذا من عمل القلب . ويعرف المؤمن أن عمل القلب لا يكفى كتعبير عن الإيمان ؛ لأن الكائن الحى ليس قلباً فقط ، ولكنه قلب وجوارح وأجهزة متعددة ، وكل ما فى الكائن الحى المؤمن يجب أن ينقاد إلى منهج ربه ، فلا بد من التعبير عن الإيمان بأن يصلح الإنسان كل عمل فيؤديه بجوارحه أداء صحيحا سليما .

إننى أقول ذلك حتى يسمع الذى يقول : إن قلبى مؤمن وسليم . لا ، فليست المسألة فى الإيمان هكذا ، صحيح أنك آمنت بقلبك ولكن لماذا عطلت كل جوارحك عن أداء مطلوب الإيمان ؟ لماذا لا تعطى عقلك فرصة ليتدبر ويفكر ويخطط ويتذكر ، لماذا لا تعطى العين الفرصة لتعتبر وتستفيد من معطيات ما ترى ؟ وكذلك اليد ، واللسان ، والأذن ، والقدم ، وكل الجوارح .

والإصلاح هو عمل الجوارح ، فيفكر الإنسان بعقله فى الفكرة التى تنفع الناس ، ويسمع القول فيتبع أحسنه ، ويصلح بيديه كل ما يقوم به من أعمال . ويعلم المؤمن أنه حين أقبل على الكون وجده محكماً غاية الإحكام ، ويرى الإنسان الأشياء التى لا دخل له فيها فى هذا الكون وهى على أعلى درجات الصلاحية الراقية ، فالمطر ينزل فى مواسمه ، والرياح تهب فى مواسمها ومساراتها ، وحركة الشمس تنتظم مع حركة الأرض ، وكل عمل فى النواميس العليا هو على الصلاح المطلق .

راجع أصله وخرج أحاديثه الدكتور أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .

إن الفساد يأتى مما للإنسان دخل فيه ، فالهواء يفسد من بناء المنازل المتقاربة ، وعدم وجود مساحات من الخضرة الكافية ، ويفسد الهواء أيضاً بالآلات التى تعمل ولها من السموم ما تخرجه وتدفعه من أثر عملية احتراق الوقود . وعندما صنع الإنسان الآلات نظر إلى هواه فى الراحة ، وغابت عنه أشياء كان يجب أن يحتاط لها ، ومثال ذلك : « عادم » السيارات الذى يزيد من تلوث البيئة ، ورغم اكتشاف بعض من الوسائل التى يمكن أن تمنع هذا التلوث . إلا أن البعض يتراخى فى الأخذ بها .

ونحن حين نأخذ بقمة الحضارة ونركب السيارات فلماذا ننسى القاعدة التى تقوم عليها الحضارة وهى الدراسة العلمية الدقيقة لنصنع الآلات ونأخذ من الآلات ما يفيد الناس ، فنعمل على الأخذ بأسباب تنقية البيئة من التلوث ونمنع الأذى عن حياة الناس . فالعادم الذى من صناعتنا ـ مثل عادم السيارات والآلات ـ يفسد علينا الهواء فتفسد الرئة فى الإنسان .

إن علينا أن نعرف أن من مسئولية الإيمان أن ننظر إلى الشىء الذى نصنعه وكمية الضر الناتجة عنه ، وكل إنسان يحيا فى مدينة مزدحمة إنما يضار بآثار عادم السيارات على الرغم من أنه ليس فى مقدور كل إنسان أن يشترى سيارة ليركبها ، فكيف يرتضى راكب السيارة لنفسه ألا يصلح من تلك الآلة التى تسهل له حياته ويصيب بعادمها الضر لنفسه ولغيره من الناس ؟ لذلك فعلى المسلم ألا يأخذ الحضارة من مظهرها وشكلها بل على المجتمع المسلم أن يعمل على الأخذ بأسباب الحضارة من قواعدها الأصلية ، وأن يدرس كيفية تجنب الأضرار حتى لا نقع فى دائرة الأخسرين أعمالا ، هؤلاء الذين قال فيهم الحق سبحانه :

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ ﴾

(سورة الكهف)

ولنا أن نأخذ المثل الأعلى دائماً من الكون الذى خلقه الله لنصونه ، إن عادم وأثر وناتج أى شىء مخلوق لله يفيد الإنسان ويفيد الكون حتى فضلات الحيوان يُنتفع بها فى تسميد الأرض وزيادة خصوبتها . وهكذا نعرف معنى : « فمن آمن وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

فالإيمان عمل القلب ، والإصلاح عمل الجوارح ، ولذلك يجب أن نصلح فى الكون بما يزيد من صلاحه . ولنعلم أن الكون لم يكن ناقصاً وأننا بعملنا نستكمل ما فيه من نقص ، ليس الأمر كذلك ، ولكننا أردنا أن نترف فى الحياة ، ومادمنا نريد الترف فلنزد من عمل العقل المخلوق لله فى المواد والعناصر التى أمامنا وهى المخلوقة لله . وأن نتفاعل معها بالطاقات والجوارح المخلوقة لله ، مادمنا نريد أن نتنعم نعيماً فوق ضروريات الحياة .

ومثال ذلك أننا قديماً وفى أوائل عهد البشرية بالحياة ، كان الإنسان عندما يعانى من العطش ، يشرب من النهر ، وبعد ذلك وجد الإنسان أنه لا يسعد بالارتواء عندما يمد يده ليأخذ غرفة من ماء النهر ، فصنع إناءً من فخار ليشرب منه الماء ، ثم صنع إناءً من الصاج ، ثم صنع إناء من البلور ، فهل هذه الأشياء أثرت فى ضرورة الحياة أو هى ترف الحياة ؟

إنها من ترف الحياة . فإن أردت أن تترف حياتك فلتُعمل عقلك المخلوق لله فى العناصر المخلوقة لله ، بالطاقة والجوارح المخلوقة لله ، وبذلك يهبك الله من الخواطر ما تستكشف به آيات العلم فى الكون . ومثال ذلك : أن أهل الريف قديماً كانوا يعتمدون على نسائهم ليملأن الجرار من الآبار أو الترع ثم تقوم سيدة البيت بترويق المياه . وعندما ارتقينا قليلاً ، كان هناك من الرجال من يعمل فى مهنة السقاية ، ويمر بالقرب المملوءة بالماء على البيوت . وعندما قام أهل العلم بالاستنباط والاعتبار اكتشفوا قانون الاستطراق ، فرفعوا المياه إلى خزانٍ عالٍ ، وامتدت من الخزان « مواسير » وأنابيب مختلفة الأقطار والأحجام ، وصار الماء موجوداً فى كل منزل ، هذا ما فعله الناس الذين استخدموا العقول المخلوقة لله .

وكان الناس من قبل ذلك يكتفون بالضرورى من كميات المياه ، فالأسرة كانت تكتفى بملء قربة أو قربتين من الماء ، ولكن بعد أن صارت المياه فى كل منزل ، أساء الكثير من الناس استخدام المياه ، فأهدروا كميات تزيد عن حاجتهم ، وتمثل ضغطاً على « مواسير » الصرف الصحى ، فتنفجر ويشكو الناس من طفح المجارى .

إن على المسلم أن يرعى حق الله فى استخدامه لكل شىء ، فالماء الذى يهدره الإنسان قد يحتاج إليه إنسان آخر ، وعندما نتوقف عن إهداره ، نمنع الضرر عن

أنفسنا وعن غيرنا من طفح « مواسير » الصرف الصحى . وليحسب كل منا ـ على سبيل المثال ـ كم يستهلك من مياه فى أثناء الوضوء . إن الإنسان منا يفتح الصنبور ويغسل يديه ثلاثاً ويتمضمض ثلاثاً ، ويستنشق ثلاثاً ، ويغسل وجهه ثلاثاً ، ويغسل ذراعيه ثلاثاً ، ويمسح برأسه ، ويغسل أقدامه . ويترك الإنسان الصنبور مفتوحا طوال تلك المدة فيهدر كميات من المياه ، ولو فكر فى حسن استخدام المياه التى تنزل من الصنبور لما اشتكى غيره من قلة المياه . فلماذا لا يفكر المسلم فى أن يأخذ قدراً من المياه يكفى الوضوء ويحسن استخدام الماء ؟ وكان الإنسان يتوضأ قديماً من إناء به نصف لتر من الماء ، فلماذا لا نحسن استخدام ما استخلفنا الله فيه ؟

على الإنسان منا أن يعلم أن الإيمان كما يقتضى أويوجب ويفرض الصلاة ليصلح الإنسان من نفسه ، يقتضى ـ أيضاً ـ إصلاح السلوك فلا نبذر ونهدر فيما نملك من إمكانات ، وأن ندرس كيفية الارتقاء بالصلاح ، فلا نتخلص من متاعب شىء لنقع فى متاعب ناتجة من سوء تصرفنا فى الشىء السابق ، بل علينا أن ندرس كل أمر دراسة محكمة حتى لا يدخل الإنسان منا فى مناقضة قوله الحق :

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

أى عليك أن تعرف أيها المسلم أنك مسئول عن السمع والبصر والقلب وستسأل عن ذلك يوم القيامة ، لذلك لا يصح أن تتوانى عن الأخذ بأحسن العلم ليحسن قولك وفعلك . وبذلك لا يكون هناك خوف عليك فى الدنيا أو الآخرة ؛ لأنك آمنت وأصلحت ، وأيضاً لا حزن يمسك فى الدنيا ولا فى الآخرة : (فمن آمن وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) .

إنك بذلك تصون نفسك فى الآخرة وفى الدنيا أيضا ؛ لأنك تسير فى الحياة بإيمان وتصلح فى الدنيا متبعاً قوانين الله . وإن رأيت أيها المسلم متعبة فى الكون فاعلم أن حكماً من أحكام الله قد عطل ، إن رأيت فقيراً جائعاً أو عرياناً فاعلم أن حقاً من حقوقه قد أكله أو جحده غيره ؛ لأن الذى خلق الكون ، خلق ما يعطيه الغنى من فائض عنه للفقير ليسد عوزه ، لكن الغنى قبض يده عن حق الله ، وأيضاً جاء قوم

يتسولون بغير حاجة للتسول ، والفساد هنا إنما يأتى من ناحيتين : ناحية إنسان استمرأ أن يبنى جسمه من عرق غيره ، أو من إنسان آخر غنى لا يؤدى حق الله فى ماله ، بذلك يعانى المجتمع من المتاعب .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾

والذين كذبوا بآيات الله هم إما من كذب الرسول فى الآيات الدالة على صدقه وهو المبلغ عن الله ، وهؤلاء دخلوا فى دائرة الكفر . وإمّا هم الذين كذبوا بآيات المنهج ، فلم يستخدموا المنهج على أصوله وانحرفوا عن الصراط المستقيم والطريق السوى . وهؤلاء وهؤلاء قد فسقوا ، أى خرجوا عن الطاعة ، ونعلم أن كلمة « الفسق » مأخوذة من خروج « الرطبة » عن قشرتها عندما يصير حجمها أصغر مما كانت عليه لاكتمال نضجها . والذى يفسق عن منهج الله هو الذى يقع فى الخسران ؛ لأن منهج الله هدفه صيانة الإنسان المخلوق لله بـ « افعل كذا » و« لا تفعل كذا » .

إن الإنسان يفسق عندما لا يفعل ما أمره الله أن يفعله ، أو يفعل ما نهاه الله عن أن يفعله . ونجد الإنسان منا يخاف على جهاز التسجيل أو جهاز التليفزيون من أن يفسد فيتبع القواعد المرعية لاستخدامه . فلا يمد ـ مثلاً ـ جهازاً من الأجهزة الكهربية بنوعية من الطاقة غير التى يحددها الصانع ، فإن قال الصانع : استخدم كهرباء مقدارها مائتان وعشرون فولتاً حتى لا تفسد الآلة فالإنسان ينصاع لما قاله الصانع ، فما بالنا بالإنسان ، إن الله ـ جلت قدرته ـ خلق الإنسان ووضع له قوانين صيانته . إذن فمن يفسد فى قوانين صيانة نفسه يمسه العذاب ، وكلمة يمسهم العذاب تعطى وتوحى بأن العقوبة تعشق أن تقع على المجرم ، كأن العذاب سعى إليه ليناله ويمسه وهاهوذا قول الحق عن النار .

﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ ﴾

(سورة الملك)

وهو سبحانه القائل عن النار :

﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ ﴾

(سورة ق)

إذن فالعقوبة نفسها حريصة على أن تنفذ إلى من أساء . ولذلك يلح العذاب فى أن يمس الذين فسقوا . ويأتى الحق هنا بكلمة « المس » لحكمة ، ذلك أن عقوبة الله لا تقارن بعقوبة البشر .

فالإنسان يعاقب إنساناً بمقياس قدرته وقوته ، وليس لأحد من الخلق أن يتمثل قدرة الله فى العذاب ، ولذلك يكفى المس فقط ، لأن التعذيب يختلف باختلاف قدرة المعذِّب ، فلو نسبنا التعذيب إلى قدرة الله لكان العذاب رهيباً لا طاقة لأحد عليه .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾

و« قل » ـ كما نعلم ـ هى أمر من الله لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، والرسول يبلغ ما أمر به الله ، وكان يكفى أن يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : لا أقول لكم عندى خزائن الله . لكنها دقة البلاغ عن الله ، إنّ القرآن توقيفى بمعنى أن كل كلمة فيه نزلت من الله كما هى وبلغها الوحى الأمين لسيدنا رسول الله ، وبلغها لنا صلى الله عليه وسلم كما هى ، ويدل ذلك على أن أحداً لا يملك التصرف حتى فى اللفظ ، بل لابد من أمانة النقل المطلقة .

وأبلغنا الرسول صلى الله عليه وسلم أن الحق قد أرسله هادياً ومبشراً ونذيراً بآية دالة على صدق البلاغ عنه وهى القرآن . وكان يجب على مَن يستقبل هذا البلاغ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن يستقبله بحق فلا يطلب منه إلا ما يتمشى مع الوصف الذى ادعاه صلى الله عليه وسلم لنفسه . فليس من حق أحد أن يطلب من الرسول آيات غير التى أنزلها الله ؛ لأنه صلى الله عليه وسلم لم يدَّع إلا أنه مبلغ عن الله ، فيجب أن تكون المقابلة له فى إطار هذا الادعاء .

وقد تجاوز الكافرون ذلك عندما طلبوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم آيات أخرى ، كتفجير بعض الأرض ينابيع مياه ، أو أن يكون له بيت من زخرف ، ولذلك يوضح له الحق سبحانه أن يبلغهم أنه لا يملك مع الله خزائن السموات والأرض ، فكيف تطلبون بيوتا وقصورا ، وكيف تطلبون معرفة الغيب حتى تقبلوا على النافع وتتجنبوا الضار ؟ . ألا يكفيكم المنهج الإلهى الذى يهديكم إلى صناعة كل نافع لكم ويجنبكم كل أمر ضار بكم ؟ ثم إن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يقل لهم إنه يعلم الغيب . وهو بشهادتهم هم يقولون عنه ما جاء بالقرآن الكريم :

﴿ وَقَالُواْ مَالِ هَـٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّـٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ ﴾

(سورة الفرقان)

لقد سخروا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وطالبوا أن تكون له آيات أخرى ، وتساءلوا كيف يمكن أن يزعم أنه رسول وهو يأكل الطعام كما يأكلون ، ويغشى الأسواق لكسب العيش كما يفعل البشر ، ولو كان رسولاً لكفاه الله مشقة كسب العيش ، ولأنزل إليه مَلكاً يساعده فى البلاغ عن الله ، أو يلقى إليه الله من السماء بكنز ينفق منه ، أو تكون له حديقة غناء يأكل من ثمارها .

هذا ما قاله كبار المشركين الذين ظلموا أنفسهم بالكفر ، وأرادوا أن يصدوا الناس عن الإيمان بدعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمرة يتهمونه بأنه مسحور ، ومرة بأنه مجنون ، وثالثة بأنه يهذى ، ورابعة بأنه كذاب ، وخامسة بأنه يتلقى القرآن

من أعاجم ، ويدحض الحق كل هذه الأكاذيب وكل تلك الافتراءات التى ضلوا بها وأضلوا بها سواهم . إنه صلى الله عليه وسلم رسول من الرسل :

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾ ﴾

(سورة الفرقان)

إن الرسل من قبلك يا رسول الله كانت تأكل الطعام ، وتكسب العيش من العمل ويترددون على الأسواق ، فإذا كان المشركون يعيبون عليك ذلك ويحاولون إضلال الناس بكل الأساليب ، فأنت ومن معك يا رسول الله من المؤمنين سيكتب الله لكم النصر ويَجْزِى كُلاً بما عمل . ثم إن الآيات التى يطلبها المشركون من رسول الله كانت كلها تعنتاً ؛ فهو لم يقل لهم : إنه ملك . لقد قال لهم : إنه رسول مبلغ عن الله ، وكل ما يؤديه هو صدق الأداء عن الله ، فكيف يطلبون منه أشياء لا تتعلق إلاّ بملكية الله لخزائن الأرض ؟ وكيف يطلبون منه أن يعلمهم الغيب ؟ وكيف ينتقدون أنه رسول وبشر يأكل ويتزوج ويمشى فى الأسواق ؟

إن كل تلك الأقوال دليل التعنت ؛ لأنهم قد طلبوا أشياء تخرج عن مجال ما ادعاه رسول الله لنفسه من أنه رسول مبلغ عن الله ، إنهم طلبوا الخير النافع والينابيع التى تجرى ، والجنات والقصور ، وأشياء كلها ليست فى مقدور رسول مبلغ عن الله ؛ لأن الذى يهبها هو الله سبحانه وتعالى .

وكلمة « خزائن » هذه مفردها « خِزانة » وهى الشىء الذى يكنز فيه كل نفيس ليخرج منه وقت الحاجة . ولا تقل : خِزانة إلا لشىء جعلته ظرفاً لشىء نفيس تخاف عليه من أن تخرجه فى غير أوانِ وزمان إخراجه . وخزائن الأرض كلها يملكها الله ، فهو سبحانه وتعالى القائل :

﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ ﴾

(سورة الحجر)

إذن فالحق جاء بالقضية الكلية ، وهى أن أسرار الله ونفائسه فى الكون هى بيد الله فى خزائنه ، وهو سبحانه يجليها ويظهرها ويكشفها لوقتها . كيف ؟ إن الحق سبحانه وتعالى تكلم عن بدء الخلق ، وتكلم عن خلق السموات والأرض ، وتكلم عن هذا الموضوع كلاماً مجملاً تفسره الآيات الأخرى . فالحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ ﴾

(سورة فصلت)

يأمر الحق رسوله أن يبلغ هؤلاء المشركين كيف يكفرون بالله الذى خلق الأرض فى يومين وكيف يجعلون له شركاء وهو الخالق للأرض التى هى مناط الحركة لابن آدم . لقد خلق فيها سبحانه ما يقيت ابن آدم وتقوم به حياته إلى أن تقوم الساعة . والقوت ـ كما نعلم ـ هو الذى يبقى للإنسان حياته وإن أراد الترف فلا بد له من الطموح فى الحياة . وهو سبحانه جعل فى الأرض رواسى ـ أى جبالاً ـ وبارك فى الأرض وفى الرواسى . ثم جاء بتقدير الأقوات بعد ذكر الرواسى وهى الجبال ، فكأن الجبال فى حقيقة أمرها هى مخازن القوت . وقد يقول قائل : كيف ذلك ؟

ونقول : إن الواقع قد أثبت هذه الحقيقة ؛ فأنت إن نظرت إلى الأنهار التى تجرى ، لوجدتها تتكون من الماء الذى تساقط من الأمطار على الجبال ، فالمياه المكونة من ذرات صغيرة دقيقة تنزل على هذه الجبال لتفتتها ، وكأن المياه هى « المِبْرَد » الذى يزيل من سطح الجبال هذه الرمال المليئة بالعناصر الغذائية للأرض ، وهو ما نسميه نحن « الغرين » ، والغرين ـ كما نعلم ـ هو ما ينزل مع المياه من سطوح الجبال إلى مجرى النهر ، وباندفاع المياه فى مجرى النهر تنتقل المادة الخصبة إلى الأرض ، وتتكون تلك الطبقة الخصبة التى تتغذى منها النباتات . ولو شاء الحق سبحانه وتعالى لجعل سطح الأرض كله مستوياً ، وفيه الخصوبة التى تنبت النبات .

لكن حكمته سبحانه شاءت أن تصنع للنبات غذاءه بهذه الطريقة . فأنت إذا

ما نظرت إلى النبات وجدته يختلف من نوع إلى نوع فى أسلوب امتصاصه للعناصر الغذائية اللازمة له ، فهناك نوع من النبات يمتص غذاءه من عمق نصف المتر ، ونوع ثانٍ يأخذ غذاءه من عمق المتر ، وهكذا . وإن لم نأت للأرض المزروعة بسماد أو مخصبات أو غرين ، فإن الأرض تضعف ؛ لأن الحق يريد لعملية الزراعة أن تستمر وتمتد وتتوالى ، فجعل الجبال مكونة بشكل صُلب ، وتمر على الجبال عوامل التعرية من حرارة وبرودة وتشققات ثم ينزل عليها المطر فيذيب من سطوح الجبال بعضاً من تلك المواد الغذائية اللازمة للأرض ، تنتقل هذه المواد الغذائية عبر المياه إلى الأرض ، وبهذا يتوالى الإمداد بالخصب من الجبال إلى الأرض . وهكذا نجد أن الجبال فى حقيقتها هى مخازن لخيرات الله .

وهل مقومات الحياة زرع فقط ؟ لا ؛ لأنك إن نظرت إلى نموذجٍ مصغرٍ للكرة الأرضية ، ستجده يشبه البطيخة الكبيرة ، وإن جئت لتقطع مثلثاً من محيط القشرة إلى مركز البطيخة ، وجعلت هذا المثلث يشبه الهرم ، ثم أخذت منها مثلثاً آخر من أى ناحية سواء أكان من ناحية الأرض الخصبة ، أم من البحار أم من الجبال أم من الوديان ، أم من الصحارى ، ثم نظرت من بعد كل ذلك إلى الخير المطمور فى كل جزء من هذه الأجزاء لوجدته مساوياً للجزء الآخر . لماذا ؟ لأن الحياة لا تعتمد على ألوان محصورة من القوت ، ولكنها تحتاج فى عمارتها إلى أدوات ومواد الحضارة من حديد وبترول ومنجنيز وغير ذلك من كنوز الأرض التى تقوم عليها الحضارة .

إننا نجد هذه الخيرات مكنوزة إما فى الجبال وإما فى الصحارى . ولكن كل خير من هذه الخيرات له ميعاد ، وله ميلاد . وأنت لو قست ووزنت الخيرات الموجودة فى أى مثلث هرمى من الأرض من مركزها إلى محيطها ، وقارنتها بوزن قياس الخيرات الموجودة فى مثلث هرمى آخر مساوٍ له من الكرة الأرضية نفسها ، لوجدت الخيرات متساوية فى كل من المثلثين . ولكن لكل لون من هذه الخيرات ميلاد وميعاد .

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ ﴾

(سورة الحجر)

فما يقال له شىء ، فإن له خزانة عند الله يُنْزِلُ منها سبحانه بقَدَر . ونرى ذلك من قمة الوجود ، وهو العقل ، إن العقل شىء ، وله خزائن عند الله ، فما كان موجوداً من أفكار من عشرة قرون لدى البشرية جميعا لا يقاس بكمية الأفكار التى يمتلكها.

العقل الجمعى للعالم الآن ، ذلك أن كل جيل قد استفاد مقدماتٍ من أفكار الجيل السابق له ليصل إلى نتاج جديد . إذن فهناك خزائن للأفكار وللخواطر . وكذلك كل شيء فى الوجود له عند الله خزائن لا ينزل منها إلا بِقَدَر معلوم : « وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم » .

وساعة يريد الحق أن يظهر ميلاد سر ما ، فهو سبحانه يهيىء الأسباب لذلك . وعلى سبيل المثال ـ ولله المثل الأعلى ـ كنا قديما نقطع الأخشاب من الأشجار لنصنع منها وقوداً ، وكنا بعد أن نقطع الأخشاب نخشى عليها من الفساد ، لذلك وضع الحق بعضاً من إلهاماته للعقل البشرى حتى يستطيع تحويل الخشب إلى فحم ليضمن الإنسان صيانة الخشب ، وليضمن وجود مصدر للطاقة هو الفحم النباتى . ومن بعد ذلك اكتشف الإنسان الفحم الحجرى . ومن بعد ذلك اكتشفنا البترول ، كل ذلك من خيرات الطاقة كان مكنوزاً فى الأرض ، ولم يكتشفه الإنسان إلا بعد أن أعطاهم الله الاستعداد لاستقبال هذا الخير ، وسيظل عطاء الله قائماً إلى أن تقوم الساعة . فمع الفحم دخلنا عصر البخار ، ثم دخلنا عصر الكهرباء ، ثم دخلنا عصر الذرة .

وكل هذه الأشياء كان لكل منها ميلاد ، ولكل منها مكان فى خزائن الله ، وعندما ينزل الله أى خاطر من الخواطر على عبد من عباده فإن العبد يأخذ بالأسباب ويكتشف ميلاد السر المكنوز . وكل لاحق يأخذ من خير السابق ويبنى عليه ، وهكذا ينمو الخير دائماً .

والأشياء فى خزائن الله إما أن تكون مطمورة وإما أن تكون محكمة إحكاماً رقمياً ، وعلى سبيل المثال ، هذا هو الراديوم الذى اكتشفته « السيدة كورى » ، أظهره الله على يديها فى وقت الحاجة إليه . وكان العلماء قبل اكتشاف الراديوم يعلمون أن هناك عنصراً لم يعرفوه له تركيب ذرى معين ؛ لأن عناصر الكون مصنوعة بحكمة جليلة كبيرة . وقد ينزل الشيء شائعاً فى غيره ، ومثال ذلك أن تقطف وردة وتستمتع بأريجها وجمال منظرها إلى أن تذبل ، وقد يغيب عنك أن الوردة مكونة من تركيب معين ، فالرطوبة هى التى تعطى الوردة نضارة ، وكل شيء فى الوردة هو من مادة الأرض ، وعندما تذبل الوردة فهى تعود إلى عناصر الأرض بعد أن تتبخر منها المياه وتذهب كبخار مع غيرها من المتبخرات إلى السحاب الذى تحركه الرياح فيسقط مطراً .

وهكذا نجد أن قطرات المياه التى كانت فى الوردة تبخرت وانضمت إلى السحاب ، قد عادت مرة أخرى إلى الأرض من خلال المطر ، ومادة الماء نفسها لم تزد ولم تنقص منذ أن خلق الله الخلق فى هذا الكون ، ونحن ننتفع بهذا الماء ، وعندما ينتهى انتفاع إنسان بجزء من المياه فالماء يعود من خلال عمليات أرادها الله إلى خزانة الماء فى الكون . وليسأل الإنسان منا نفسه : كم طناً من الماء قد شربته فى حياتك ؟ وستجد أنك قد شربت وانتفعت بمئات أو بآلاف من الأطنان ، وخرج منك الماء فى شكل عرق أو بول أو مخاط ، أو غير ذلك . وكم بقى من الماء فى جسمك ؟

إنها نسبة قد تزيد على تسعين بالمائة من وزن جسمك أياً كان الوزن ، ومن بعد أن يأتى أجلك كما قدره الله ، فتتبخر كمية المياه التى فى هذا الجسم لتنضم إلى السحاب ثم تنزل مع المطر . إذن فكمية المياه لم تنقص فى الكون ولم تزد ، وهذا ما نسميه الرزق المخزون بالتحول ، تماماً كما تبخرت كمية المياه التى فى الوردة ، وتبخرت رائحتها فى الجو وكذلك مادتها الملونة ذابت فى الأرض . وساعة نزرع شجرة ورد تأخذ كل وردة لونها من المواد الملونة المخزونة فى الأرض . إذن فكل شىء إما مخزون بذاته فى خزائن الله ، وإما مخزون بعناصره المحولة إلى غيره . وكل الوجود على هذا الشكل . وحركة الحياة هى بين الاثنين .

إن الإنسان ـ على سبيل المثال ـ من لحم ومن دم ، والبقرة أيضاً من لحم ودم ، ويموت الإنسان ليعود إلى الأرض ، ويستفيد الإنسان من الحيوان ، وتعود كل مادة الحيوان إلى الأرض . وتدخل العناصر فى دورة جديدة . إذن هى خزائن للحق ، إما محولة ، وإما خزائن حافظة ؛ فالشىء الذى نستنبطه بحالته هو فى خزائن حافظة ، والشىء الذى يدور فى غيره ويرجع إلى الأصل هو فى خزائن محولة .

ومن رحمة الحق بالخلق أنه لم يملك خزائن الأرض أو السموات لأحد من البشر حتى لا يستعلى إنسان على آخر . ولم يعط الحق حتى للرسل أى حق للتصرف فى هذه الخزائن ؛ لأن الرسل بشر ، وقد احتفظ الحق لنفسه بخزائن الأرض والسموات ليطمئننا على هذه الخزائن . ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّيٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

الحق سبحانه يعلم أن الإنسان مطبوع على الحرص الشديد أو البخل ، وهو سبحانه الغنى الكريم ؛ لذلك ينزل ما يشاء من خزائنه لعباده حتى ينتفعوا . ولم يدع الرسول صلى الله عليه وسلم الخزائن لنفسه ، فكيف يطالبه المشركون بما فى خزائن الله ، وهو صلى الله عليه وسلم يوضح ذلك ويوضح أيضاً أنه لا يعلم الغيب :

﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ ﴾

(من الآية ٥٠ سورة الأنعام)

وهو بذلك صلى الله عليه وسلم ينفى عن نفسه أى صفة من صفات الألوهية ؛ لأن الخزائن الكونية هى فى يد الله ، وكذلك ينفى عن نفسه علم الغيب . ولقائل أن يقول : ولكن ماذا عن الأشياء والأحداث التى كان يخبرنا بها سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم . وهى أحداث مستقبلية ؟

ونقول : إن ذلك ليس علماً بالغيب ، ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم مُعَلَّم غيب ، أى أن ربنا سبحانه وتعالى قد علمه ، ومثال ذلك قول القرآن الكريم :

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

إن الحق سبحانه هو الذى علَّم رسوله صلى الله عليه وسلم تلك الأخبار التى كانت من أنباء الغيب ، ويحسم الحق هذه المسألة عندما يقول :

﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ ﴾

(سورة الجن)

فسبحانه وتعالى هو وحده عالم الغيب ، ولا يُطْلِع أحداً من خلقه على الغيب.

إلا الرسول الذى يرتضيه الله ليخبره ببعض من الغيب ، ويحفظ الحق رسوله فى أثناء ذلك بملائكة حفظة تحميه من تعرض الجن لما يريد إطلاعه عليه لئلا يسترقوه ويهمسوا به إلى الكهنة قبل أن يبلغه الرسول وحتى يصل الوحى إلى الناس خالصا من تخليط الجن وعبثهم .

إذن فالرسول مُعَلَّم غيب وليس عالم غيب . والغيب ـ كما نعلم ـ هو ما غاب عن الحس ، ولم توجد له مقدمات تدل عليه ، فهناك أشياء تغيب عنك ولكن لها مقدمات ، فإن التزمت بالمقدمات من بدايتها يمكنك أن تصل إلى النتيجة . مثال ذلك : إن أعطيت تلميذاً مسألة حسابية ليقوم بحلها ، وعندما يحل التلميذ هذه المسألة فهو لم يعلم الغيب ، ولكنه أخذ المقدمات والمعطيات ، وبحث عن المطلوب ، وأخذ يرتب المعلومات ليستنبط منها النتيجة .

وكذلك حال الذين اكتشفوا أسراراً فى الوجود ، أعلموا غيباً ؟ لا ، إنهم فقط استخدموا بعضاً من المقدمات التى كانت موجودة أمامهم فى الكون ، وتوصلوا إلى نتائج جديدة ، صحيح أن هذه النتائج كانت غائبة عنا ، ولكن مقدماتها كانت موجودة ، وكذلك كل النظريات الهندسية ؛ كل نظرية نجدها تعتمد على سابقتها ، وكل نظرية ـ حتى أعقدها وأصعبها ـ هى ملاحظة لأمر بدهى فى الكون . وكل علم من العلوم له مقدمات إن بحث فيها باحث فإنه يصل إلى النتائج الجديدة ، وهذا ما نسميه « غيبا إضافيا » ، أى كان غيباً فى وقت ما لكنه غير غيب فى وقت آخر ، ولذلك يُنسب هذا العلم إلى البشر دائماً ، ولنقرأ قول الحق سبحانه :

﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ﴾

(من الآية ٢٥٥ سورة البقرة)

والإحاطة بالعلم كلها لله ، وهو سبحانه الذى يأذن لبعض من خلقه بالإحاطة ببعضٍ من هذا العلم ، وكل سر من أسرار هذا الكون لا يولد إلا بإذن منه سبحانه وتعالى ، وهو سبحانه يوفق العلماء أن يبحثوا فى المقدمات ليصلوا إلى النتائج . ولكن ماذا عن العلم الذى لا توجد له مقدمات ؟ هذا من الغيب المطلق الذى لا يظهره الحق لأحد إلا لمن ارتضى من رسول .

أقول ذلك حتى لا يخطىء أحدنا فيظن أن إخبار إنسان لإنسان بمصير شىء ضاع

منه هو معرفة للغيب ، فقد يكون هذا غيباً بالنسبة لصاحب الشيء الضائع ، ولكنه ليس غيباً بالنسبة للص الذى سرقه ، ولا هو غيب بالنسبة للشخص الذى أخفى المسروقات ، ولا هو غيب بالنسبة للجان المحيطين باللص ، إذن فهذا ليس غيباً مطلقاً ، ولكنه غيب معلوم للغير . إذن فخزائن الحق سبحانه وتعالى ملأى بكل أنواع الخير التى تؤدى للإنسان مهمة البقاء فى الأرض سواء من جهة الضرورات أو الأشياء الترفية .

﴿وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ﴾

(من الآية ٥٠ سورة الأنعام)

إذن فالرسول صلى الله عليه وسلم ينفى عن نفسه بقول الحق ثلاثة أشياء : منها شيئان ينفيان الألوهية عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهى ملكية خزائن الكون ، وعلم الغيب ، وشيء ثالث وهو أنه ليس مَلَكاً ، فهل يعنى ذلك أن المَلَك أرفع من النبى ؟ لا ، ولكنهم قالوا له: إنه يمشى فى الأسواق ويتكسب العيش بالعمل ، والمَلَك لا يفعل ذلك . ولكن الرسول بالطبع أرقى منزلة من المَلَك ؛ لأنه يقوم بهداية الإنس والجن ويتبع ما يوحيه إليه مِلكُ الملوك ، وهو الحق سبحانه وتعالى : « إن أتَّبِعُ إلا ما يوحى إلىّ » .

إنه من فرط ارتفاعه فى الصدق المبلغ عن الله يعلن حقيقته صلى الله عليه وسلم بأنه من البشر ، والبشر ابن أغيار ، ويعلم شيئاً ، ويجهل شيئاً ، ومن مصلحة المرسل إليهم أن يكون الرسول متبعاً لا مبتدعاً ، ذلك أنه ينقل لهم تكاليف الخالق بألفاظها لا أفكار البشر التى قد تتغير أو تتبدل . فلو ابتدع لابتدع فى إطار بشريته ، وفى ذلك نزول لا ارتقاء ، لكنه فى الاتباع يأتى بالارتقاء للبشر ؛ لأنه يتبع ما أوحى به الإله الذى اصطفاه رسولاً . ولذلك كانت الأمية فى رسول الله صلى الله عليه وسلم شرفًا له ولنا . أما أُمِّيَّة الإنسان العادى فهى عيب ، إنما أُمِّيَّة محمد صلى الله عليه وسلم هى الكمال .

و« أُمّىّ » ـ كما نعلم ـ تعنى أنه كما ولدته أمه ، لم يأخذ ثقافة ولم يتعلم من أحد من البشر ، لكن علمه وثقافته فوقية كلها . إن ذلك وحى من الله ، وهو صلى الله عليه وسلم عندما يعلن أنه نبى أمى ، فهذا معناه أن كل ما دخل فى ذهنه لم يأخذه عن أحد من خلق الله ، وإنما كل ما جاء إلى هذا الذهن قد أخذه رسول الله عن الله .

وهكذا تكون أميته شرفا لنا ، ولكن الأمية فينا ـ نحن المسلمين ـ تخلف يجب أن نعمل جميعاً على القضاء عليها : « إن أتَّبِعُ إلا ما يوحى إلىّ » . والرسول صلى الله عليه وسلم لا ينطق عن الهوى بل يبلغ ما جاء به الوحى .

ويذيل الحق الآية بقوله :

﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾

(من الآية ٥٠ سورة الأنعام)

وساعة يأتى الحق بقضية يستخدمها كمثل ، فلا بد أن يأتى بقضية متفق عليها حتى من الخصوم المواجهين له ؛ فهم يعرفون أن الأعمى لا يستوى مع البصير ، تماماً مثلما لا يستوى الظل والحرور أو الظلمات والنور . إن الفطرة لا تقبل الخلاف فى هذه الأمور . والعمى ـ كما نعرف ـ هو عدم الرؤية لمن مِن شأنه وحاله أن يرى ، فلا يقول إنسان عن حجر : إن الحجر أعمى ؛ لأن الأحجار لا تبصر .

إذن لا نقول العمى إلا كوصف لمن يفترض فيه أن يرى . وماذا تفعل عدم الرؤية فى الأمر المحس ؟ إن عدم الرؤية يؤذى الإنسان لأنه كائن متحرك . فقد يقع فى حفرة أو يصطدم بشىء يؤذيه ، وبإقرار الجميع نعرف أن الأعمى تضطرب حركته ويتعرض للمتاعب ، والذى يحمى الإنسان من ذلك أن يكون مبصراً أو مستعيناً بمن يبصر حتى يمكن أن يستقبل المرئيات .

وكان العلماء قديماً يظنون أن الإبصار هو نتيجة خروج شعاع من العين ليذهب إلى الشىء المرئى ، ونقض هذه القضية عالم إسلامى هو ابن الهيثم الذى علم العلماء أن الشعاع إنما يخرج من المرئى إلى عين الرائى بدليل أن الشىء المرئى لا يراه الإنسان فى الظلام . والعمى يمنع العين من استقبال الشعاع ، ولا يختلف أحد فى أن العمى مهلك وضار ومتعب ، والإبصار مريح . وكأن الحق يقول للخلق : إياكم أن تظنوا أن حياتكم كلها تعتمد على المحيط المحس ، لا ، إن هناك قيما إن لم يعرفها الإنسان فهو يتعثر ويضطرب ويتخبط .

إذن فمنهج السماء قد جاء ليهدى النفس البشرية إلى القيم ، كما يهدى النور الحسى الإنسان إلى المحسات . فإذا كان البصر هو وقاية للإنسان لتفادى العقبات ،

فكذلك المنهج هو الذى يبين للإنسان ألا يصطدم بالعقبات فى الأمور المعنوية . والإنسان يحيا بقيمه ، بدليل أن الأعمى قد يجد من يقوده من المبصرين ، ولكنه قد لا يجد هدايته فى هداية مهتد . إذن فالإنسان قد يستغنى عن البصر ، ولكنه لا غنى له عن الهدى ؛ لأن الضلال سيصيبه ، والضلال فى القيم أبلغ وأشد قسوة من الضلال فى الأمور المحسّة .

« قل هل يستوى الأعمى والبصير أفلا تتفكرون » هناك تفكر ، وتذكر ، وتدبر . التفكر هو شغل العقل ابتداء بأمر ظاهر ، يريد أن يستنبط منه شيئاً . وعندما يقول إنسان لآخر : فكر فى هذا الأمر . . أى أدر عقلك فى كل ما يتعرض لهذا الأمر . والذى يطلب من آخر التفكير فى هذا الأمر كأنه واثق من أن الذى يتفكر فى أمر لن يصل إلا إلى الرأى الذى قاله مَن عرض عليه التفكر . وأما التذكر فهو أن يصل الإنسان إلى حكم انتهى إليه بالتفكر ثم نسيه ، ويأتى مَن يلفت الذهن إلى ذلك الحكم الذى انتهى منه فكرياً .

إذن فالفكر يأتى بحكم أَوَلِيٍّ ناضج . والتذكر يأتى بحكم كان معلوماً للإنسان ولكنه غفل عنه . أما التدبر فهو ألا يكتفى الإنسان بالنظر إلى واجهة الأمور ولكن إلى ما وراء ذلك أيضاً ؛ لأن كل شىء له واجهة ، وقد تخفى الواجهة ما خلفها ، لذلك يطلب الحق من الإنسان أن ينظر إلى أعقاب الأشياء وأقفائها ، أى يدير الأمر على كل جهاته ولا يكتفى بالنظر إلى واجهاتها ، مثلما يشترى الإنسان شيئاً من تاجر أمين ، ويعرض التاجر على المشترى مواصفات الشىء بأمانة ويطلب منه أن يختبر الشىء حسب مواصفاته ، لكن التاجر الغشاش يحاول أن يخفى المواصفات لأنه يريد خداع المشترى .

وعندما يطلب الحق منا أن التفكر والتذكر والتدبر إنما يوقظ فينا المقاييس الحقيقية التى نصل بها إلى المطلوب الذى يريده الله . ولذلك يقول الحق :

﴿ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ

رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾

أى أنذر بالوحى ـ الذى تتبعه ـ هؤلاء الذين يخشون يوم اللقاء مع الله . والإنذار ـ كما نعلم ـ هو إعلام بشىء مخيف قبل وقوعه لنتفادى أن يقع . وما المراد بهؤلاء الذين يطلب الحق من رسوله إنذارهم بالوحى ؟ فى أول الإسلام كان إقبال بعض المؤمنين على العمل الإيمانى ضعيفاً ، ومادام فى قلوبهم إيمان ، ويخشون لقاء الله فالوحى إنذار لهم بضرورة العمل الإيمانى الجاد . كما يجوز أن يكون الإنذار بالوحى لأهل الكتاب ؛ لأنهم يعرفون أن هناك يومًا آخر سيلقون فيه الله . وقد يكون الإنذار لإنسان يؤمن بالبعث ولكنه يشك فى الأنبياء وشفاعتهم ، فهذا الصنف قد يحمله التخويف والإنذار إلى أن يعيد النظر فى قضية الإيمان ويتقبل النبأ الصدق الذى جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولنا أن نأخذ الإنذار بالوحى على أى وجه من الوجوه السابقة . ولكن هل يخاف المؤمن أن يحشر إلى الله ؟ لا . إن المؤمن إنما يخاف أن يحشر مجرداً من الولى والناصر . إذ فى الحقيقة ليس هناك أحد يحمى وينصر من الله ، ولا شفيع يخلص من عذاب الله إلا بإذنه (من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه) وهذا ما يعتقده المؤمنون .

وقد حدد الحق ذلك فى قوله :

﴿ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾

(من الآية ٥١ سورة الأنعام)

إنهم هم المؤمنون الذين آمنوا بالله ، وبرسوله ولكنهم قصروا فى بعض المطلوبات والتكاليف التى ينطوى عليها قوله الحق : (فمن آمن وأصلح) .

هؤلاء المؤمنون عندما يجيئهم الإنذار فهم قد يصلحون من أمورهم خوفاً من الحشر بدون ولى ولا شفيع . المؤمن ـ إذن ـ له أمل أن يكون يوم الحشر فى ولاية الله ورحمته ، وهؤلاء هم من قال عنهم الحق :

﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾

(سورة التوبة)

وإن كانت الآية الكريمة تتناول وتشمل غيرهم من أهل الكتاب وتشمل وتضم أيضا الذين يؤمنون بالبعث ولكنهم لم يتبعوا أنبياء .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾

نعرف أن الحق سبحانه وتعالى خلق الإنسان واستعمره فى الأرض ، وجعله طارئاً على هذا الوجود الذى أودع الله له فيه كل ما يلزمه من مقومات حياته وإسعاده .

وأراد الحق من البشر أن يكون فيهم استطراق عبودى بحيث لا يوجد متعال على مستضعف ، ولا يوجد طاغ على مظلوم ، حتى تستقيم حركة الحياة استقامة يعطى فيها كل فرد على قدر ما هيىء له من مواهب . فإذا ما اختل ميزان الاستطراق البشرى ردهم الحق سبحانه وتعالى إلى دليل لا يمكن أن يطرأ عليه شك ، والدليل هو أنكم أيها البشر تساويتم فى أصل الوجود من تراب ، وتساويتم فى العودة إلى التراب ، وتتساوون فى موقفكم يوم القيامة للحساب ، فلماذا تختلفون فى بقية أموركم ؟ إن التساوى يجب أن يوجد . وهاهوذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يحرص على أن تهتدى الأمة وكان يكلف نفسه فوق ما يكلفه به ربه ، فيعاتبه ربه لأنه كان يشق على نفسه حرصا على إيمان قومه .

وقد يظن بعض الناس أن عتاب الله لنبيه لتقصير ، ونرد على هؤلاء : ليفهم الإنسان منكم هذا اللون من العتاب على وجهه الحقيقى ، فهناك فرق بين عتاب لمصلحة المعاتَب ، وعتاب للومه وتوبيخه ؛ لأن المعاتَب خالف وعصى ، ونضرب هذا المثل ـ ولله المثل الأعلى ـ أنت فى يومك العادى إن نظرت إلى ابنك فوجدته يلعب ولا يذهب إلى المدرسة ولا يستذكر دروسه ، فأنت تعاتبه وتؤنبه لأنه خالف المطلوب منه، ولكنك إن وجدت ابنك يضع كل طاقته ويصرف ويقضى أوقات راحته فى المذاكرة ، فأنت تطلب منه ألاّ يكلف نفسه كل هذا العناء ، وتخطف منه الكتاب وتقول له : اذهب لتستريح . أنت فى هذه الحالة تلومه لمصلحته هو ، فكأن اللوم والعتاب له لا عليه . إذن قد حُلّ هذا الإشكال الذى يقولون فيه : إن الله كثيراً ما عاتب رسوله ، ونوضح أن الحق قد عاتب الرسول له لا عليه ؛ لأن الرسول وجد طريق الإيمان برسالته يسير سيرا سهلاً بين الضعفاء ، ولكنه شغل نفسه وأجهدها رجاء أن يتذوق المستكبرون المتجبرون حلاوة الإيمان ، وجاء فى ذلك قول الحق :

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ ﴾

(سورة عبس)

إذن فالعتاب هنا لصالح من ؟ إنه عتاب لصالح رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحين يقول الحق سبحانه وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١ ﴾

(سورة التحريم)

إن الآية تشير إلى أمر أغضب النبى صلى الله عليه وسلم ، فامتنع عن بعض ما ترغب فيه النفس البشرية من أمور حللها الله . والعتاب هنا أيضاً لصالح رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولشدة حرصه صلى الله عليه وسلم على هداية القوم أجمعين ، كان يحب أن يعامل الطغاة بشىء من اللين ليتألف قلوبهم . ولكن الطغاة لا يريدون أن يتساووا مع المستضعفين ، فقد مرّ الملأ من قريش ووجدوا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم خبّاب بن الأرتّ وصهيباً وبلالاً وعماراً وسلمان الفارسى وهم

من المستضعفين ، فقالوا : يا محمد رضيت بهؤلاء من قومك ؟ أهؤلاء الذين منَّ الله عليهم من بيننا ؟ أنحن نصير تبعا لهؤلاء ؟ اطردهم فلعلك إن طردتهم أن نتبعك .

وكأنهم يقولون له : إنك قد اكتفيت بهؤلاء الضعفاء وتركتنا نحن الأقوياء ولن نجلس معك إلا أن تبعد هؤلاء عنك لنجلس ، فما كان من رسول الله صلى الله عليه وسلم ببديهية الإيمان إلا أن قال : ما أنا بطارد المؤمنين . إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرف أن هناك من أمثالهم من قالوا لغيره من الأنبياء مثل قولهم . فقد قال قوم نوح عليه السلام له ما حكاه القرآن الكريم :

﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾

(سورة هود)

وحاول بعض من أهل الكفر أن يعرضوا موقفاً وسطاً على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقالوا : إذا نحن جئنا فأقمهم من عندك لنجلس معك فإذا قمنا من عندك فاجعلهم يجلسون . ووجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذا الرأى حلاً وسطاً يمكن أن يقرب بين وجهات النظر ، واستشار صلى الله عليه وسلم عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ فقال عمر : لو فعلت حتى ننظر ما الذى يريدون . وطالب أهل الكفر من أثرياء قريش أن يكتب لهم رسول الله كتاباً بذلك ، وجىء بالدواة والأقلام ، وقبل الكتابة نزل قول الله :

﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

ورمى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالصحيفة التى جىء بها ليكتبوا عليها كلاماً يفصل بين جلوس سادة قريش إلى مجلس رسول الله وجلوس الضعفاء أتباع رسول الله . والنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إنما مال إلى ذلك من الكتابة طمعا فى إسلام هؤلاء المشركين وإسلام قومهم بإسلامهم رحمة بهم وشفقة عليهم ، ورأى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن ذلك لا يفوت أصحابه شيئا ولا ينقص لهم قدراً فمال إليه فأنزل الله

الآية ونهاه عما همّ به من الطرد ، لا أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد أوقع ذلك وطردهم وأبعدهم ، ثم دعا بعد ذلك بالضعفاء فأتوه .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل ذلك يجلس مع المستضعفين ، وإن أحب ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يقوم من المجلس قام ، ولكن الله أراده أن يكرم هؤلاء القوم المستضعفين بعد أن نهاه عن طردهم ، وأن يكرمهم سبحانه بما أهيجوا فيه ، وجاء أمر إلهى آخر بألا يقوم رسول الله من مجلسه مع المستضعفين حتى يقوموا هم ، فقال الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ ﴾

(سورة الكهف)

وعندما نزلت هذه الآية قال صلى الله عليه وسلم : « الحمد لله الذى جعل فى أمتى من أمرنى أن أصبر نفسى معهم »[١] .

وبهذا القول الكريم أراد الحق سبحانه وتعالى إكرام الضعفاء والمستضعفين . ويقول سلمان الفارسى وخباب بن الأرتّ فينا نزلت ، فكان ـ رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ يقعد معنا ويدنو مَنا حتى تمس ركبتنا ركبته ، وكان يقوم عنا إذا أراد القيام فنزلت : (واصبر نفسك مع الذين يدعون بهم) فترك القيام عنا إلى أن نقوم فكنا نعرف ذلك ونعجله القيام . أى أنهم هم الذين كانوا يقومون أولاً من مجلس رسول الله ، فقول الحق : « ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه » هذا هو قول الله ـ سبحانه ـ أمر به رسول الله ومأمور به كذلك كل إنسان من بعد رسول الله ، وفى هذا قمة التكريم للدائمين على ذكر الله من المستضعفين ؛ لأنهم أهل محبة الإيمان وهم الذين سبقوا إليه .

---

(١) رواه الهيثمى فى مجمع الزوائد ورواه الطبرانى ، قال الهيثمى : ورجاله رجال الصحيح .

وهاهوذا أحد خلفاء المسلمين وقد جاءه صناديد العرب الذين أسلموا ، واستأذنوا فى الدخول إليه ، فلم يأذن لهم حتى أذن لضعفاء المسلمين . فورم أنف كل واحد من هؤلاء الصناديد وقالوا :

ـ أيأذن لهؤلاء ويتركنا نحن ؟ لقد صرنا مسلمين . فقال قائل منهم يفهم ويفقه أمر الدين : أكلكم ورم أنفه أن يؤذن لهؤلاء قبلكم ، لقد دعوا فأجابوا ، ودعيتم فتباطأتم ، فكيف بكم إذا دعوا إلى دخول الجنة وأبطىء دخولكم .

إنّ هؤلاء الضعفاء يريدون بالطاعة وجه الله ، وكلمة « وجه الله » تدل على أن الإيمان قد أُشْرِب فى قلوبهم ، وأنهم جاءوا إلى الإيمان فِراراً بدينهم من ظلم الظالمين وطغيان الطغاة الذين كانوا يريدونهم على الكفر والضلال . إنهم قد حلا لهم الإيمان ، وحلا لهم وجه الله ، وحلا لهم أن يؤجل لهم كل الثواب إلى الآخرة .

وحين نسمع قول الحق : « يريدون وجهه » فهذا وصف لله بأنّه ـ جل شأنه ـ له وجه ، ونطبق فى هذه الحالة ما نطبقه إذا سمعنا وصفاً لله ، إننا نأخذ الوصف فى إطار قوله الحق : (ليس كمثله شىء) .

ويطلق الوجه ويراد به الذات ، لأن الوجه هو السمة المميزة للذوات . فأنت إن قابلت أناساً قد غطوا وجوههم واستغشوا ثيابهم وستروا بها رءوسهم فلن تستطيع التمييز بينهم .

ويقال : فلان قابل وجوهَ القوم . أى التقى بالكبار فى القوم . والحق سبحانه وتعالى يقول : (كل شىء هالك إلا وجهه) ، ويقول الحق سبحانه : « ما عليك من حسابهم من شىء » وفى هذا القول حرص على كرامة المستضعفين ؛ فقد يقول قائل :

لقد استجار هؤلاء الضعفاء بالدين حتى يفروا من ظلم الظالمين وليس حباً فى الدين ، فيوضح الحق : ليس هذا عملك ، وليس لك إلا أن تأخذ ظاهر أعمالهم وأن تكل سرائرهم إلى الله .

﴿ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾

(من الآية ٥٢ سورة الأنعام)

وكأن الحق يوضح لرسوله : لو كان عليك من حسابهم من شيء لجاز لك أن تطردهم ، ولكن أنت يا رسول الله تعلم أن كلَّ واحد مَجْزِيٌّ بعمله إن خيرا فخير وإن شرا فشر ، وقد أنزل الله عليك القول الحق : « ولا تزر وازرة وزر أخرى » . إذن فلكل إنسان كتابه . قد سطر وسجّل فيه عمله ويجازى بمقتضى هذا ، ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَا ۗ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾

نحن هنا أمام « بعضين » : بعض قد استعلى أن يجتمع ببعض آخر مستضعف عند رسول أرسله الله . ويمتحن الله البعض بالفتنة ، والفتنة هى الاختبار . إن بعضاً من الناس يظن أن الفتنة أمر مذموم ، لا ، إن الفتنة لا تذم لذاتها ، وإنما تذم لما تؤول إليه . فالاختبار ـ إذن ـ لا يذم لذاته ، وإنما يذم لما يؤول إليه . وتأتى الفتنة ليُرى صدق اليقين الإيمانى ، وهاهوذا الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿٣﴾ ﴾

(سورة العنكبوت)

إن الحق سبحانه يختبر مدى صدق الإنسان حين يعلن الإيمان ، إنه ـ سبحانه ـ يختبرهم بالمحن والنعم ، وقد اختبر الحق الأمم السابقة بالتكاليف والنعم والمحن ويظهر ويبرز إلى الوجود ما سبق أن علمه سبحانه أزلاً ، ويميز أهل الصدق فى الإيمان

عن الكاذبين فى الإيمان . فمن صبر على الاختبار والفتنة فقد ثبت صدقه ويقينه ، ومن لم يصبر فقد دلّ بعمله هذا على أنه كان يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به ورضى ، وإن أصابه شر وفتنة انقلب على وجهه ونكص على عقبيه فخسر الدنيا والآخرة .

إذن فالفتنة مجرد اختبار . والوجود الذى نراه مبنى كله على المفارقات ، وعلى هذه المفارقات نشأت حركة الحياة . ويجب الإيمان بقدر الله فى خلقه ؛ فهذا طويل ، وذاك قصير ، هذا أبيض ، وذاك أسود ، هذا مبصر وذلك أعمى ، هذا غنى ، وذلك فقير ، هذا صحيح ، وذلك سقيم ، وذلك ليكون كل نقيض فتنة للآخر .

فالمريض ـ على سبيل المثال ـ فتنة للصحيح ، والصحيح فتنة للمريض ، ويستقبل المريض قدر الله فى نفسه ولا ينظر بحقد أو غيظ للصحيح ، ولكن له أن ينظر هل يستعلى الصحيح عليه ويستذله ، أو يقدم له المساعدة ؟ والفقير فتنة للغنى ، وهو ينظر إلى الغنى ليعرف أيحتقره ، أيجرحه ، أيستغله ؟ والغنى فتنة للفقير ، يتساءل الغنى أينظر إليه الفقير نظرة الحاسد . أم الراضى عن عطاء الله لغيره . وهكذا تكون الفتن .

إن من البشر من هو موهوب هبة ما ، وهناك من سلب الله منه هذه الهبة ، وهذا العطاء وذلك السلب كلاهما فتنة ؛ لنؤمن بأن خالق الوجود نثر المواهب على الخلق ولم يجعل من إنسان واحد مجمع مواهب ؛ حتى يحتاج كل إنسان إلى مواهب غيره ، وليقوم التعاون بين الناس ، وينشأ الارتباط الاجتماعى .

وعندما يخلق الله الإنسان بعاهة من العاهات فهو سبحانه يعوضه بموهبة ما . هكذا نرى أن العالم كله قد فتن الله بعضه ببعض ، وكذلك كانت الجماعة المؤمنة فتنة للجماعة الكافرة ، وكانت الجماعة الكافرة فتنة لرسول الله ، ورسول الله فتنة لهم . فساعة يرى رسول الله الكفار وهم يجترئون عليه ويقولون :

﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾

(سورة الزخرف)

يعرف أن هؤلاء القوم يستكثرون عليه أن ينزل عليه هذا القرآن العظيم ، وفى

هذا القول فتنة واخْتبار لرسول الله ، وهو يصبر على ذلك ويمضى إلى إتمام البلاغ عن الله ولا يلتفت إلى ما يقولون ، بل يأخذ هذا دليلاً على قوة المعجزة الدالة على صدق رسالته .

والجماعة التى استكبرت وطلبت طرد المستضعفين هم فتنة للمستضعفين ، والمستضعفون فتنة لهم ، فلو أن الإيمان قد اختمر فى نفوس المستكبرين لما استكبروا أن يسبقهم الضعاف إلى الإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم .

إذن فكلنا يفتن بعضنا بعضًا . وكل إنسان عندما يرى موهوباً بموهبة لا توجد لديه فليعلم أنها فتنة له وعليه أن يقبلها ويرضى بها فى غيره . وما عُبِدَ الله بشىء خيرا من أن يحترم خلق الله قدر الله فى بعضهم بعضًا ، ولذلك يختبرنا الحق جميعاً ، فإن كنت مؤمناً بالله فاحترم قدر الله فى خلق الله حتى يجعل الله غيرك من الناس يحترمون قدر الله فيك .

والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

ووجه الفتنة هنا أن قومًا طلبوا طرد المستضعفين وقالوا كما حكى الله عنهم : « أهؤلاء مَنَّ الله عليهم من بيننا » ؟ كأنهم تساءلوا عن المركز الاجتماعى للمستضعفين من المؤمنين ، ويأتيهم الرد من الله : « أليس الله بأعلم بالشاكرين » . فسبحانه هو العليم أزلاً بالبشر ، ولا يقترح عليه أحد ما يقرره . وقد سبق للذين كفروا أن قالوا : « لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » .

وجاءهم الرد من الحق سبحانه وتعالى فقال :

﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ﴾

(من الآية ٣٢ سورة الزخرف)

وهكذا نعلم أن الحق سبحانه وتعالى لم يضع مفاتيح الرسالة فى أيدى المشركين أو غيرهم ، ليوزعوا هم الأمور ويقوموا بتدبير الأمر . بل هو سبحانه وتعالى الذى يوزع المواهب فى البشر رزقاً منه ليعتمد كل إنسان على الآخرين فى مواهبهم التى يعجز عنها ، ويعتمد عليه الآخرون فى موهبته التى يعجزون عنها . ومسألة النبوة هى اصطفاء إلهى يكبر ويسمو على كل مقامات الدنيا . ويدل السياق إذن على أن بعضاً من كبار العرب طلبوا أن يطرد رسول الله صلى الله عليه وسلم بعضاً من المستضعفين ، فأراد الله أن يطمئن المستضعفين بشىء عجل لهم به فى الدنيا وإن كان قد جعله لبقية المؤمنين فى الآخرة . لذلك يقول الحق :

﴿ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا فَقُلْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ ﴾

لقد كان طلب الطرد لهؤلاء المستضعفين فيه إهاجة لكرامتهم ولمنزلتهم ولأنهم دون الأثرياء ووجهاء القوم ، فيطمئنهم الحق بالسلام منه فى الدنيا فيأمر رسوله : « فقل سلام عليكم » . ونفهم من السلام أنه الخلو من الآفات النفسية والآفات الجسدية ، فكأن الحق سبحانه أراد أن يعوضهم بالسلام القادم من الله « فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة » ونرى كلمة : « الرحمة » تتردد كثيراً فى القرآن الكريم ، فهاهوذا الحق يقول فى موقع آخر :

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

ما الفارق إذن بين الشفاء والرحمة ؟ الرحمة : ألا يبتلى الله الإنسان بمرض ، إنها الوقاية ، أما الشفاء فهو أن يزيل الحق أى مرض أصاب الإنسان . وهذا هو البرء بعد العلاج .

إذن ففى القرآن شفاء ورحمة ، أى وقاية وعلاج . والذى يلتزم بمنهج القرآن لا تصيبه الداءات الاجتماعية والنفسية أبداً ، والذى تغفل نفسه وتشرد منه يصاب بالداء الاجتماعى والنفسى ، فإن عاد إلى منهج القرآن فهو يُشفى من أى داء . وحين يأمر سبحانه رسوله أن يقول لهؤلاء الذين أهيجوا بطلب طردهم على الرغم من إيمانهم برسالة رسول الله : « سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة » فهذا يعنى أن ما حدث لهم فى هذا الأمر هو آخر ابتلاءاتهم ، وقد أخذوا بهذه الإهاجة سلاما دائما ، ومادام الله قد كتب على نفسه الرحمة فكأنه وقاهم مما يصيب به غيرهم .

وإذا سمعت قول الله : « كتب ربكم على نفسه الرحمة » فالكتابة تدل على التسجيل ، ولا أحد يوجب على الله شيئاً لأنه خالق الكون ، وله فى الكون طلاقة المشيئة ، فلا أحد يكتب عليه شيئاً ليلزمه به ، ولكنه سبحانه هو الذى أوجب على نفسه الرحمة . ونأخذ كلمة « نفسه » فى إطار « ليس كمثله شىء » ، ذلك أن النفس عند البشر هى الجسم والدم والحركة والحياة ، ولكن ماذا عندما تأتى كلمة « النفس » منسوبة إلى الله ؟ المراد ـ إذن ـ هو الذات الإلهية . وإن لم تأخذ مراد الكلمة بهذا المعنى فأنت تدخل إلى مخالفات كثيرة وقانا الله وإياك شرورها .

وأؤكد هذا المعنى ليستقر فى ذهن كل مؤمن ، أن النفس بالنسبة للكائن الحى غيرها بالنسبة لله ، ولا بد أن نأخذ أى شىء منسوب إلى الله فى إطار « ليس كمثله شىء » ؛ لأن النفس بالنسبة للكائن الحى عبارة عن امتزاج الروح بالمادة ، والمادة مكونة من أبعاض . وإن لم تأخذ المراد من نفس الله على ضوء « ليس كمثله شىء » ، فأنت ـ والعياذ بالله ـ تنفى عن الحق « الأحدية » .

ونعرف أن للحق سبحانه وتعالى « وصفين » يتحدان فى المادة وفى الحروف : الأول هو « واحد » . والآخر هو « أحد » . والسطحيون فى الفهم يظنون أن « واحدًا » معناها « أحد » . ونقول : لا ، إن « واحدًا » لها مدلول ، و« أحدًا » لها مدلول آخر . فعندما نقول : « إن الله واحد » أى لا يوجد فرد ثانٍ من نوعه فليس له مثيل ولا شبيه ولا نظير . وعندما نقول : « إن الله أحد » أى أنه لا يتكون من أبعاض يحتاج بعضها إلى البعض الآخر لتكوين الكل ؛ لأن الشىء قد يكون واحدًا وليس أحدًا . ولذلك نؤكد الفارق بين : « واحد » و« أحد » ، وحتى يعرفه كل

مؤمن جيداً فهو ـ سبحانه ـ واحد لا يوجد فرد ثان يشاركه فى وحدانيته ، فهو واحد لا شريك له ، وهو أحد جل وعلا أى ليس له أبعاض يحتاج بعضها إلى بعض . وسبق أن أوضحنا أن هناك شيئا اسمه : « كل » وشيئا آخر اسمه : « كلى » . والكل هو المكون من أجزاء ، كل جزء منها لا يؤدى الحقيقة ، وإنما لا يُؤدى الكل إلا بضميمة الأجزاء بعضها إلى بعض .

ومثال ذلك الكرسى : إنه مكون من خشب ومسامير وغراء ، فلا يقال للخشب كرسى ، ولا يقال للمسامير كرسى ، ولا يقال للغراء كرسى . ولكن يقال للشىء المصنوع من كل هذه الأشياء على هيئة محددة : إنه كرسى . إذن فـ « الكل » له أجزاء تجتمع لتكوّنه . والكلّى يمكن أن تطلق على الإنسان ، ولكن فى الجنس البشرى هناك أفراد كثيرون له .

وعلى ذلك فالحق سبحانه وتعالى ليس « كُلًّا » أى لا أجزاء له لأنه أحد ، وليس « كلياً » لأنه لا شىء مثله ؛ فسبحانه وتعالى واحد أحد . ولهذا نفهم جميعاً أن كل شىء منسوب إلى الله ينبغى أن يكون فى إطار : (ليس كمثله شىء) .

ونحن لا نفهم مراد كلمة « النفس » بالنسبة لله كما نفهمها بالنسبة للبشر ؛ لذلك فنفس الله ليست كنفس البشر ؛ لأن الله غنى لا يحتاج إلى غيره ، وهو ـ سبحانه ـ ليس مكوناً من أجزاء ، فهو سبحانه له كل الكمال والجلال فى وحدانيته وأحديته وفى سائر صفاته وأفعاله . وحين يقول سبحانه : « كتب ربكم على نفسه الرحمة » . قد يتساءل إنسان : وما مدلول الرحمة ؟

وتأتى الإجابة فى قوله الحق : « أنه من عمل منكم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فأنه غفور رحيم » . والحق حينما أنزل منهجاً من السماء فالمنهج يضم نصوصاً للتجريم كنصوص عقاب الزانى أو اللص ، وغير ذلك ، ولا يمكن أن تأتى عقوبة إلا إذا جاءت بعد تجريم ، مثال ذلك الرشوة والنميمة وكل مخالفة للمنهج ، فلا عقاب إلا بجريمة ، ولا جريمة إلا بنص . والحق الذى خلق الخلق يعلم أن بعضا من خلقه يكون من ضعاف النفوس ، وقد تغلب إنساناً نفسُه فيرتكب ذنباً أو معصية ، والمثال على ذلك قول الحق :

﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ ﴾

(سورة المائدة)

هذا هو عقاب السارق والسارقة .

وكذلك يقول الحق عن الزانى والزانية :

﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ﴾

(سورة النور)

مامعنى إنزال مثل هذه النصوص ؟ معنى إنزال مثل هذه النصوص أن الحق سبحانه وتعالى يعلم أن الإنسان قد يضعف فى بعض مطلوبات الدين فيقع فى معصية ، ولابد أن يوجد عقاب عليها . واحترم الحق بذلك تكوين الإنسان عندما منحه الاختيار ، فوضع الثواب والعقاب . وكما وضع الحق النص على الجرائم وعقوبتها فهو سبحانه وتعالى قد فتح باب التوبة لخلقه ، حتى لا يكون الذى عصى الله مرة واحدة فاقداً للأمل ، حتى لا يشقى المجتمع بهؤلاء العصاة . وشرع الحق التوبة للخلق ليرحمهم من شرور من ارتكبوا المعاصى ، وليرحم أيضاً أصحاب المعاصى ماداموا قد تابوا عنها . وقد يرحم الله بعض خلقه من المعاصى فيحفظهم منها .

وهو الحق القائل :

﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

(من الآية ١١٨ سورة التوبة)

سبحانه - إذن - يهدى إلى التوبة ويعفو ، وهو عظيم الرحمة بالعباد التوابين .

ومن ظواهر رحمة الله سبحانه :

﴿ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

(من الآية ٥٤ سورة الأنعام)

والسوء هو الأمر المنهي عنه من الله . هل هناك من يعمل السوء بجهالة ؟ . بعضنا يفهم الجهالة فهماً سطحياً على أساس أنها « عدم العلم » ؛ لا . إنّ الذى لا يعلم هو الأمى الخالى الذهن ، والجهالة غير الجهل ، فالجهل هو أن يعلم الإنسان حكماً ضد الواقع ، كأن يكون مؤمناً بعقيدة تخالف الواقع . ومعالجة الجهل تقتضى أن ننزع منه هذه العقيدة التى هى ضد الواقع ثم نقنعه بالعقيدة المطابقة للواقع .

والذى يسبب المتاعب للناس هم الجهلة ؛ لأن الجاهل يعتقد فى قضية ويؤمن بها وهى تخالف الواقع . وعندما جاء العلماء عند هذا القول الحكيم : (من عمل منكم سوءاً بجهالة) . قالوا : إن الجهالة هى السفه والطيش ، والطيش يكون بعدم تدبر نتائج الفعل . والسفه ألا يقدِّر الإنسان قيمة ما يفوته من ثواب وما يلحقه من عقاب . وقد يكون الإنسان مؤمناً ، لكنه يرتكب السوء لأنه لم يستحضر الثواب والعقاب ويرتكب من السوء ما يحقق له شهوة عاجلة دون التمعن فى نتائج ذلك مستقبلاً ، ولو استحضر الثواب والعقاب لما فعل ذلك السوء .

ويمكن أن نفهم أيضاً الجهالة على أنها ارتكاب الأمر السيىء دون أن يبيت له الإنسان أو يخطط ، وذلك كأن يخطط إنسان السفر إلى باريس لتحصيل العلم ، وعندما وصل إلى هناك جاءت له امرأة فى غرفته فى الفندق وهى فى كامل فتنتها وزينتها ، وألحت عليه لارتكاب الفحشاء ، فلم يقدر على نفسه . هذا فعل للسوء بجهالة ؛ لأنه لم يخطط لذلك السوء ، وهو يندم من بعد ذلك ، ولا يحكى عن ذلك الفعل بفخر أبداً .

هناك فارق ـ إذن ـ بين هذا الإنسان وإنسان آخر بحث فى عناوين بيوت اللذة فى باريس قبل أن يسافر إليها ، إنه بذلك يخطط لفعل المنكر وارتكاب الفحشاء . ويصر على السوء ، ويتفاخر به ولا يندم على ما فعل ؛ هذا الصنف من البشر لا يغفر له الله إن استمر على هذا الحال حتى شارف الموت أو أدركه الموت ، ولذلك يقول الحق :

﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة النساء) .

لأن الحق سبحانه إنما يقبل توبة من ارتكب الذنب فى حالة الحماقة والطيش ، ويقبلون على التوبة فوراً ، هؤلاء يقبل الحق توبتهم ، أما الذين لا يندمون على فعل السوء فيقول الحق عنهم :

﴿ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾ ﴾

(سورة النساء)

إن الذين لا يُقبلون على التوبة من فور ارتكاب الذنب وينتظر الإنسان منهم مجىء الموت ليتوب قبله أى وهو فى حالة الغرغرة ـ وهى تردد الروح فى الحلق عند الموت ـ هؤلاء لا تقبل لهم توبة ، وكذلك الذين يموتون على الكفر ـ والعياذ بالله ـ وقد أعد الله لكليهما عذاباً أليماً .

والحق سبحانه قد وضح لنا قبل ذلك فقال :

﴿ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

(من الآية ٥٤ سورة الأنعام)

إذن فالتوبة يجب أن يتبعها إصلاح وصلاح ؛ ذلك أن الحسنات يذهبن السيئات ، والحق سبحانه غفور لا يعاقب على ذنب تاب عنه العبد ، ورحيم لأنه يثيب على الفعل الحسن ، بل إنه يثيب الإنسان الذى يكرر ندمه على فعل سيىء ويكتب له عن ذلك حسنة . بل إنه ـ بسعة رحمته ـ يبدل سيئاته حسنات .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾

وساعة تسمع قوله الحق : « وكذلك نفصّل الآيات » فاعلم أن هناك تفصيلاً

سبلى ذلك يشابه تفصيلاً سبق . والآيات السابقة قد فصّل الله فيها أموراً كثيرة ؛ فصّل لنا حجة وصحة وحدانية الله سبحانه ، وفصّل لنا صحة النبوة ، وفصّل لنا صحة القضاء والقدر . ومن بعد ذلك كله يعطينا الحق المقاييس التى تقرر الحقائق التى ينكرها أهل الباطل ؛ فيفصّل لنا فى العقائد ، ويفصّل لنا فى حركة الحياة والحركة العبادية التى نؤدى بها تكاليف الإيمان . وكما فصل لنا سبحانه صحة الوحدانية وصحة النبوة ، وصحة القضاء والقدر ، يفصل لنا الآيات التى تقرر الحقائق :

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

ونقرأ « سبيل » فى بعض القراءات مرفوعة ، أى أن سبيل المجرمين يظهر ويستبين ويتضح ، وتقرأ فى بعض القراءات منصوبة ، أى أنك يا محمد تستبين أنت السبيلَ الذى سيسلكه المجرمون .

وكلمة « سبيل » وردت فى القرآن مؤنثة مثل قوله الحق :

﴿ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾

(من الآية ٤٥ سورة الأعراف)

ووردت أيضاً فى بعض الآيات مذكرة :

﴿ وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ﴾

(من الآية ١٤٦ سورة الأعراف)

ويريد الحق بذلك أن يعلمنا أن القرآن الذى نزل بلسان عربى مبين قد استقبلته قبائل من العرب ، بعضها لها السيادة كقبيلة قريش لأنها تسكن مكة ، والكعبة فى مكة وكل القبائل تحج إلى الكعبة .

ويريد أن ينهى سبحانه هذه السيادة ، ولذلك جاء القرآن ببعض الألفاظ التى تنطقها القبائل الأخرى ، ومثال ذلك كلمة « سبيل » التى تؤنث فى لغة « الحجاز » ، وجاء به مرة كمذكر ؛ كما تنطقها « تميم » . ولم يأت الحق بكل ألفاظ القرآن مطابقة

لأسلوب قريش ، حتى لا تظن قريش أن سيادتها التى كانت لها فى الجاهلية قد انسحبت إلى الإسلام ، فقد جاء القرآن للجميع . (وكذلك نفصل الآيات ولتستبين سبيل المجرمين) . أى أن الله سيعامل كل إنسان على مقتضى ما عنده من اليقين الإيمانى .

والمعاندون لهم المعاملة التى تناسبهم ، وكذلك المصرّ على الذنوب ، والمقدم على المعاصى ، وهى تختلف عن معاملة المؤمن . ولكنها فى إطار العدل الإلهى . إذن فلكلٍ المعاملة التى تناسب موقعه من الإيمان .

والمقابلون للمجرمين هم المؤمنون . فإذا استبنت سبيلَ المجرمين ، أو إذا استبان لك سبيلُ المجرمين ألا تعرف المقابل وهو سبيل المؤمنين ؟ .

وحين يذكر الحق شيئا مقابلاً بشىء فهو يأتى بحكم شيء ثم يدع الحكم الآخر لفهم السامع ، فإذا كان الحق قد بين سبيل المجرمين لعناً وطرداً ، فسبيل المؤمنين يختلف عن ذلك ، إنه الرحمة والتكريم . ومثال على ذلك ـ ولله المثل الأعلى ـ أنت تقول للتلميذ الذى يواظب على دروسه ويذاكر فى وقت فراغه من المدرسة : إن سبيلك هو النجاح . ومن يسمع قولك هذا يعرف أن الذى لا يواظب على دروسه ولا يذاكر فى وقت فراغه من المدرسة تكون عاقبة أمره الرسوب والخيبة .

وهكذا يترك الحق لفطنة السامع لكلامه أن يأتى بالمقابل ويعرف أحكام هذا المقابل : فإذا كان الحق قد قال : « ولتستبين سبيل المجرمين » فهذه إشارة أيضاً لسبيل المؤمنين من رحمة وتكريم . ونعلم أن القرآن قد جاء على أبلغ الأساليب . وهى أساليب تقتضى أن تعرف معطى كل لفظ وكل حرف حتى نفهم مقتضيات المقامات والحالات التى تطابق كل مقام . ومثال على ذلك قول الحق سبحانه :

﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ ﴾

(من الآية ١٣ سورة آل عمران)

لقد ترك الحق لفطنة السامع لهذه الآية أن يعرف أن الفئة الكافرة تقاتل فى سبيل الشيطان، وأن الفئة التى تقاتل فى سبيل الله هى الفئة المؤمنة، وترك لنا الحق أن

نعرف صفة الإيمان للفئة التى تقاتل فى سبيل الله من مقابل ذكره أن الفئة الأخرى كافرة . وأن الفئة الكافرة تقاتل فى سبيل الشيطان لأنه ذكر لنا أن الفئة الأولى تقاتل فى سبيل الله .

وكذلك هنا قال الحق : « ولتستبين سبيل المجرمين » . ومنها نستبين أيضاً سبيل غير المجرمين وهم المؤمنون ، فسبيل المؤمنين الرحمة والتكريم .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قُل لَّا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾

نحن نعرف أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يعبد أى صنم قبل الإسلام ، وكان ذلك نابعا من اقتناع فطرى . ومع ذلك جاءه النهى عن مثل تلك العبادة ، لماذا ؟ . جاء الأمر بذلك النهى حتى نتبين الفرق بين أمر العادة وأمر العبادة . فقد علمنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يعبد الأصنام استجابة لفطرته السليمة التى فطره الله وخلقه عليها ، وانتقل ذلك من إلف الفطرة إلى التكليف العبادى :

﴿ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾

(من الآية ٥٦ سورة الأنعام)

لقد كانوا يَدْعون الأصنام والأوثان ويعبدونها من دون الله . ولو ناقشنا هذه المسألة فطرياً ، نجد سخف هذا اللون من التفكير . لماذا ؟ ؛ لأن الأصنام حجارة كان يقوم بنحتها أهل الجاهلية ويعبدونها . إذن فهم قد خلقوا ما يعبدونه . وهذا مناف للفطرة ؛ لأن الكائن إنما يتجه بالعبادة إلى خالقه . ثم هناك نقطة ثانية ، إن الإنسان منهم إذا ما نظر إلى الأصنام فله أن يتساءل : من أى أجناس الوجود هى ؟ . إنها من جنس الجماد . والجماد ـ كما نعرف ـ هو أدنى الأجناس . وكل جنس من الأجناس له

مشخص يميزه عن الجنس الآخر إما بارتفاع ترق وإما بنزول تدن . وقمة أجناس الوجود هى الإنسان الذى كرمه الحق بالحس والحركة والتفكير . ويلى الإنسان مرتبةً جنسُ الحيوان الذى له الحس والحركة دون التفكير . ويلى جنس الحيوان مرتبةً النبات ، وهو الذى له النمو دون الحركة والتفكير .

وعندما تُسلب من النبات غريزة النمو يصير جماداً . إذن ترتيب الأجناس من الأعلى إلى الأدنى هو كالتالى : الإنسان ثم الحيوان ، ثم النبات ثم الجماد . وكل جنس من هذه الأجناس له خصائصه ، ويأخذ الجنس الأعلى خاصية زائدة .

وأدنى الأجناس هو الجماد الذى يخدم النبات ، والنبات يخدم الحيوان والإنسان . والحيوان يخدم الإنسان . وهكذا نجد أن أعلى الأجناس هو الإنسان بينما أدناها هو الجماد . فكيف يأخذ أعلى الأجناس وهو الإنسان رباً له من أدنى الأجناس وهو الجماد ؟ .

إن تحكيم الفطرة فى ذلك الأمر ينتهى إلى حكم واضح هو سخف هذا اللون من التفكير . وفطرة رسول الله صلى الله عليه وسلم من قبل البعثة هدته إلى رفض ذلك ، وجاءت البعثة لتجعل من إلف عادة رسول الله وفطرته أمر عبادة للرسول صلى الله عليه وسلم ولكل من اتبعه .

﴿ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قُل لَّا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ ﴾

(من الآية ٥٦ سورة الأنعام)

إذن فمسألة عبادة المشركين للأصنام لا تنبع من هدى ولكنها خضوع إلى هوى ؛ لأن الهدى هو الطريق الموصل للغاية المعتبرة ، والهوى هو خواطر النفس التى تحقق شهوة . ولهذا نرى بعضاً من الذين يريدون إضلال البشر قد خرجوا بمذاهب ليست من الدين فى شىء ، مثل القاديانية والبهائية والبابية ، وغير ذلك من تلك المذاهب ، هؤلاء الناس يدعون التدين ، وعلى الرغم من ذلك يقدمون التنازلات فى أمور تمس الأخلاق ، ورأينا مثل ذلك فى بعض من القضايا التى نظرتها المحاكم أخيراً ، كالذى يدعى التدين ويقبِّل كل امرأة ، ولا ينظم العلاقة بين الناس بقواعد الدين ، ولكن يطلق الغرائز حسب الهوى . وذهب إليه أناس لهم حظ كبير ومرتبة من التعليم ،

وقد أوهموا أنفسهم بخديعة كبرى ، وظنوا أنهم أخذوا بالتدين ، بينما هم يأخذون حظ الهوى المناقض للدين .

﴿ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴾

(من الآية ٥٦ سورة الأنعام)

أى أنك يا رسول الله عليك بإبلاغ هؤلاء المشركين أنك لا تتبع أهواءهم التى تقود إلى الضلالة ؛ لأن من يتبع مثل تلك الأهواء ينحرف عن الحق ، ولا يكون من المهتدين .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ۚ مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾

هنا يبلغ الحق رسوله صلى الله عليه وسلم أن تركه لعبادة الأصنام وإن كان أمراً قد اهتدى إليه صلى الله عليه وسلم بفطرته السليمة ، فإنه قد صار الآن من بعد البعثة عبادة ؛ لأن اصطفاء الحق له جعله يتبين هدى الله بالشريعة الواضحة فى « افعل » ولا « تفعل » ؛ فالرسول صلى الله عليه وسلم هو الأسوة الحسنة للناس ، ويؤدى كل فعل حسب ما شرع الله ، ويتبعه المؤمنون برسالته .

ومثال على ذلك من حياتنا المعاصرة : لقد نزل القرآن بتحريم الخمر ، والمؤمنون لا يشربون الخمر لأن الحق نهى عن ارتكاب هذا الفعل . ونجد الأطباء الآن فى كل بلدان العالم يحرمون شرب الخمر لأنها تعتدى على كل أجهزة الإنسان : الكبد ، والمخ ، والجهاز العصبى ، والجهاز الهضمى . ونجد « أفلاما » تظهر أثر كأس الخمر على صحة الإنسان . وقد يرى إنسان غير مؤمن مثل هذا « الفيلم » فيمتنع عن الخمر

امتناع ابتغاء المصلحة لا امتناع التدين . ولكن علينا نحن ـ المسلمين ـ أن نقبل على مثل هذا الامتناع لأنه من الإيمان .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾

(سورة فصلت)

هكذا نعرف أنه لا أحد أحسن قولاً ممن يمتثل إلى أوامر الحق لأنه مُقرّ بوحدانية الحق سبحانه ، ويعمل كل عمل صالح ويقرّ بأن هذا العمل هو تطبيق لشريعة الله :

« قل إنى على بينة من ربى » وهذا القول يدلنا أننا دون بينة من الله لا نعرف المنهج ، ولكن ببينة من الله نعلم أنه إله واحد أنزل منهجاً « افعل » و« لا تفعل » . وجاء الحق هنا بكلمة « ربى » حتى نعرف أنه الخالق الذى يتولى تربيتنا جميعاً . ومادام سبحانه وتعالى قد خلقنا ، وتولى تربيتنا فلا بد أن نمتثل لمنهجه . وقد أنزل الإله تكليفاً لأنه معبود ، وهو فى الوقت نفسه الرب الذى خلق ورزق ، ولذلك نمتثل لمنهجه ، أما المكذبون فماذا عنهم ؟

﴿ وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ۚ مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴾

(من الآية ٥٧ سورة الأنعام)

فالذين كذبوا بالله اتخذوا من دونه أنداداً ، ولم يمتثلوا لمنهجه ، بل تمادى بعضهم فى الكفر وقالوا ما رواه الحق عنهم :

﴿ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾

(سورة الأنفال)

وعندما نناقش ما قالوه ، نجد أنهم قالوا : « اللهم » ، وهذا اعتراف منهم بإله يتوجهون إليه . ومادامو قد اعترفوا بالإله فلماذا ينصرفون عن الامتثال لمنهجه وعبادته ؟ . هم يفعلون ذلك لأنهم نموذج للصلف والمكابرة المتمثل فى قولهم : « إن

كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم » .

ألم يكن من الأجدر بهم أن يُعملوا العقل بالتدبر ويقولوا : إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه .

ونجد أيضاً أنهم لم يردوا على رسول الله فلم يقولوا : اللهم إن كان هذا هو الحق من عند محمد بل قالوا : « اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك » . إنهم يردُّون أمر الله ويطلبون العذاب ، وتلك قمة المكابرة ، والتمادى فى الكفر وذلك بطلبهم تعجيل العذاب ، ولذلك يقول لهم رسول الله : (وكذبتم به ما عندى ما تستعجلون به) .

والاستعجال هو طلب الإسراع فى الأمر ، وهو مأخوذ من « العَجَلة » وهى السرعة إلى الغاية ، أى طلب الحدث قبل زمنه . ومادامو قد استعجلوا العذاب فلا بد أن يأتيهم هذا العذاب ، ولكن فى الميعاد الذى يقرره الحق ؛ لأن لكل حدث من أحداث الكون ميلادا حدده الحق سبحانه :

﴿ مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴾

(من الآية ٥٧ سورة الأنعام)

إن الحكم لله وحده ، فإن شاء أن ينزل عذاباً ويعجل به فى الدنيا كما أنزل على بعض الأقوام من قبل فلا راد له ، وإن شاء أن يؤخر العذاب إلى أجلٍ أو إلى الآخرة فلا معقب عليه .

ومن حكمة الحق أن يظل بقاء المخالفين للمنهج الإيمانى تأييداً للمنهج الإيمانى . ويجب أن نفهم أن الشر الذى يحدث فى الكون لا يقع بعيداً عن إرادة الله أو على الرغم من إرادة الله ، فقد خلق الحق الإنسان وأعطاه الاختيار ، وهو سبحانه الذى سمح للإنسان أن يصدر منه ما يختاره سواءً أكان خيراً أم شراً . إذن فلا شيء يحدث فى الكون قهراً عنه ؛ لأنه سبحانه الذى أوجد الاختيار . ولوأراد الحق ألَّا يَقْدِر أحد على شر لما فعل أحد شراً . ولكنك أيها المؤمن إن نظرت إلى حقيقة اليقين فى فلسفته لوجدت أن بقاء الشر وبقاء الكفر من أسباب تأييد اليقين الإيمانى .

كيف ؟ لأننا لو عشنا فى عالم لا يوجد به شر لما كان هناك ضحايا ، ولو لم يوجد ضحايا لما كان هناك حثٌ على الخير وحضّ ودفع إليه . ولذلك تجد روح الإيمان تقوى حين يهاج الإسلام من أى عدو من أعدائه ، وتجد الإسلام قد استيقظ فى نفوس الناس ، فلو لم يوجد فى الكون آثار ضارة للشر ، لما اتجه الناس إلى الخير . وكذلك الكفر من أسباب اليقين الإيمانى ، فعندما يطغى أصحاب الكفر فى الأرض فساداً واستبداداً ، نجد الناس تتدرع باليقين وتتحصن بالإيمان لأنه يعصم الإنسان من شرور كثيرة . إذن فوجود الشر والكفر هو خدمة لليقين الإيمانى .

﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَـٰصِلِينَ ﴾

(من الآية ٥٧ سورة الأنعام)

نعم إن الحكم لله لأنه سبحانه يفصل بين المواقف دون هوى لأنه لا ينتفع بشىء مما يفعل ، فقد أوجد الحق هذا الكون وهو فى غنى عنه ؛ لأن لله سبحانه وتعالى كل صفات الكمال ولم يضف له خلق الكون صفة زائدة ، وقد خلق سبحانه الكون لمصلحة خلقه فقط . ويبلغنا الرسول :

﴿ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾

هذا بلاغ من رسول الله لكل الخلق بأن أحداث الكون إنما يجريها الحق بإرادته وبمواقيت لا يعلمها إلا هو سبحانه ، وهو ـ جل وعلا ـ الذى يأذن بها . . أى قل لهم أيها النبى : لو كان فى قدرتى وإمكانى ما تستعجلون به من العذاب لانتهى الأمر بينى وبينكم ولأهلكتكم بعقاب وعذاب عاجل غضبا لربى وسخطا عليكم من تكذيبكم به ـ سبحانه ـ ولتخلصت منكم سريعا ، لكن الأمر ليس لى ، إنه إلى الله الحكيم الذى يعلم ما يستحقه الظالمون . ويقول ـ سبحانه ـ فى موضع آخر من القرآن الكريم :

﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾ ﴾

(سورة هود)

وحكمة الله ـ إذن ـ هى التى اقتضت تأجيل العذاب إلى وقت يحدده الله ، وفى هذا ما يجعل بعضاً من الكافرين يجترئون على الله ويوغلون فى الكفر ويقولون : ما الذى يمنع عنا العذاب ؟

إنهم يقولون ذلك استهزاءً وسخرية ، ولا يعلمون أن العذاب آت حتماً ولا خلاص لهم منه ؛ لأن الله صادق فى وعده ووعيده وسيأتيهم العذاب لأنهم استهزأوا وسخروا فلا مناص لهم عنه ولا مهرب لهم منه .

وفى موقع آخر يقول الحق :

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾

(سورة العنكبوت)

وهكذا نرى تحدى الكفار لرسول الله صلى الله عليه وسلم ليأتيهم بالعذاب ، لكنه تحدٍ مردود عليه بأن الحق هو الذى يقرر ميلاد كل أمر ولسوف يأتيهم العذاب فجأة ، وهو واقع لا محالة وإن جهنم ستحيط بهم ، وسيغمرهم العذاب من أعلاهم ومن أسفلهم ، ويسمعون صوت المَلَك الموكل بعذابهم : ذوقوا عذاباً أنكرتموه وهو جزاء أعمالكم .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ ﴾

و « مفاتيح » هى إما جمع لِمفْتح أو جمع لَمفْتح . و« المِفْتح » هو آلة الفتح ، ومثلها مثل « مِبرد » أى آلة البرد . وآلة الفتح هى المفتاح . و« مَفتح » هو الشىء الذى يقع عليه الفتح مثل الخِزانة ، ونعلم أن بعض الأسماء تأتى على وزن « مِفْعل » أو « مفعال » . فإذا أخذنا « مفاتح » على أساس أنها جمع لِمفتح ، فمعنى ذلك أن الحق سبحانه وتعالى يملك المفاتيح التى تفتح على الغيب . وإن أخذنا « مفاتح » على أساس أنها جمع « مَفْتح » أى خِزانة فمعنى ذلك أن الحق عنده خزائن الغيب . وكلا الأمرين لا زمان له . والخزائن لا يوضع فيها إلا كل نفيس وهو مخزون لأوانه ولكل خزانة مفتاح . يقول الحق عن قارون :

﴿ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ ﴾

(من الآية ٧٦ سورة القصص)

هكذا نعلم أنه لا يوجد مخزون إلا وهو كنز . وعند الحق مفاتح الغيب ، والغيب هو ما غاب عنك ، وهو نوعان : أمر غاب عنك ومعلوم لغيرك ؛ وهو غيب غير مطلق ولكنه غيب إضافى .

ومثال ذلك ، عندما يقوم نشال بسرقة حافظة نقودك وأنت فى الطريق ، أنت لا تعرف أين نقودك ، ولكن اللص يعرف تماماً مكان ما سرق منك . هكذا ترى أنه يوجد فارق بين غيب عنك ، ولكنه ليس غيباً عن غيرك .

ولكن هناك ما يغيب عنك وعن غيرك ، ولهذا الغيب مقدمات إن أخذ الإنسان بها فهو يصل إلى معرفة هذا الغيب ، وهذا ما نراه فى الاكتشافات العلمية التى تولد أسرارها بأخذ العلماء بالأسباب التى وضعها الله فى الكون ، وهو لون من الغيب الإضافى . وهناك لون ثالث من الغيب هو الغيب المطلق ، وهو الغيب الذى لا يعلمه إلا الله ، مثل ميعاد اليوم الآخر ، وغير ذلك من الغيب الذى يحتفظ الله به لنفسه .

ولذلك نقول : إنه لا يوجد أبداً فى هذه الدنيا عالِمُ غيب إلا الله . وعنده سبحانه مفاتح الغيب ، هذا الغيب الذى لا نحس به حساً مشهوداً بالمدركات ، أو كان غيباً بالمقدمات أى أنه ليس له أسباب يمكن لأحدٍ أن يأخذ بها .

ويقول الحق :

﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

الحق سبحانه وتعالى ـ إيناساً لخلقه ـ حينما يأتى لهم بأمر غير محس لهم ، فإنه يوضح ذلك بالمحس . وعالم المشهد المحس إما مسموع وإما مرئى وإما متذوق وإما ملموس . وهناك عالم الغيب ، فقد يصطفى الله بعضاً من خلقه ليلقى إليهم هبَّاتٍ من فيضه وعطائه توضح بعض الأمور ، ومثال ذلك العبد الصالح الذى سار معه موسى عليه السلام وقال :

﴿ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾

(من الآية ٨٢ سورة الكهف)

ومثل هذه الهبَّة تأتى لتثبت لصاحبها أنه على علاقة بربه ، ولا يعطى الحق سبحانه هذه الهبات لتصبح عملاً ملازما للإنسان ، وجزءاً من طبيعته بحيث نذهب إليه فى كل أمر فيخبرنا بما ينبغى علينا أن نقوم به . إن الأمر ليس كذلك بل هى مجرد هبات صفائية ، يمنحها ـ سبحانه ـ وينزعها ويمنعها ؛ فسبحانه عنده مفاتح كل الغيب ، ويأتى لنا بالعالم المحسوس : « ويعلم ما فى البر والبحر » . وأتى الحق بالبر أولاً قبل البحر ، والبر محس لكل الناس بما فيه من جمادات ونباتات وأشجار وحيوانات وأناس وبلاد وطرق . وهناك من البلاد ما لا تطل على بحار أبداً ، ولذلك جاء الحق بالبر أولاً ، ثم جاء بالبحر الذى يمكن أن يُشاهد ، ولكن عالم البحر أخفى من عالم البر . وعوالم البحر تأخذ من مسطح الكرة الأرضية مساحات كبيرة للغاية وكل يوم نكتشف فى عالم البحار جديدًا .

ومن بعد ذلك يردنا الحق إلى البر مرة أخرى فيقول :

﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا ﴾

(من الآية ٥٩ سورة الأنعام)

إلى هذه الدرجة يوضح لنا الحق علمه الأزلى ؛ فسبحانه يعلم كل ما يتعلق بورقة شجرة بعد أن تؤدى مهمتها من التمثيل الكلورفيلى وتغذية الشجرة وإنضاج الثمار ثم سقوطها على الأرض . والسقوط كما نعرفه هو هبوط شيء مادى إلى أسفل ، وفسره العلماء من بعد ذلك بالجاذبية الأرضية .

وعندما تسقط الورقة من الشجرة تكون خفيفة الوزن ، والحق سبحانه وتعالى هو المتصرف فى الأجواء التى تحيط بمجال هبوطها ، وحركة الريح التى تحركها . ولماذا جاء الحق بمسألة الورقة هذه ؟ جاء لنا الحق بمثل هذا المثل لنعلم أنه عندما ذيل الحق سبحانه الآية السابقة بقوله :

﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾

(من الآية ٥٨ سورة الأنعام)

إن هذا التذييل قد احتاج إلى أن يشرحه لنا الحق بأن يعلم أوقات تحركات كل ورقة من أية شجرة ، وهذا يدل على كمال الإحاطة والعلم ، فضلا على أن هذه الأمور لا يترتب عليها ثواب ولا عقاب ، فكيف بالأمور التى يترتب عليها الثواب والعقاب ؟ لا بد أنه سبحانه وتعالى يعلمها ويفصل فيها .

﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْأَرْضِ ﴾

(من الآية ٥٩ سورة الأنعام)

إنه سبحانه أيضاً يعلم بالحبة التى تختفى فى باطن الأرض وأحوالها .

ويقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ﴾

(من الآية ٥٩ سورة الأنعام)

أى أنه جلت قدرته يعلم أمر كل كائن فى هذا العالم ؛ لأن كل كائن فى هذه الدنيا إما رطب وإمّا يابس ، وسبحانه لا يعلم ذلك فقط ولكن كل ذلك معلوم له ومكتوب أيضاً . ويشرف على حركة تلك الكائنات الملائكةُ المدبرات أمرا ، وحين تجد الملائكة أن حركة الكون تسير بنظام محكم دقيق على وَفق ما فى الكتاب ، فإنها لا تفتر عن تسبيح الله ليلاً أو نهاراً :

﴿ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾

(سورة الأنبياء)

وللحق مُلك السموات والأرض ، ومن حقه وحده أن يُعبَد ، ولا تتكبر الملائكة عن عبادته والخضوع له ولا يشعرون بالملل من العبادة والتنزيه له سبحانه . وأنت أيها العبد تكون فى بعض الأمور مقهوراً ولك فى بعض الأمور اختيار ، وهو سبحانه عالم بما ستختار .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾

نعلم جميعاً أن النوم ليس عملية اختيارية ، وفى بعض الأحيان نرى من يسلط الله عليه الهموم فلا يعرف النوم طريقاً إلى جفونه . ونعلم أن النوم عملية قسرية يخلقها الله فى الإنسان لتردعه عن الحركة بعد أن يستنفد كل قدرته على التحرك . والنوم لون من الردع الذاتى .

ولماذا جعل الحق النوم كالوفاة ؟

يعرف البعض أن الوفاة فى معناها هى فصل الروح عن الجسد . وكأن الحق يقول لنا : إياكم أن تظنوا أن وجود الروح فى الجسد هو الذى يعطى للإنسان الحياة والحركة والتصرف ، لا ، إننى سأحتفظ بالروح فى الجسد ولا أقدره على التصرف

الاختيارى ، وذلك حتى لا تفتتنوا فى الروح ؛ لأن هناك أجهزة لا دخل لاختيارك فيها مثل نبض القلب والتنفس ، وغير ذلك من حركات أجهزة الجسم . وضرب لنا الحق المثل بأهل الكهف الذين أنامهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا :

﴿ وَلَبِثُواْ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا ﴿٢٥﴾ ﴾

(سورة الكهف)

النوم ـ إذن ـ نعمة من الله جعلها فى التكوين الذاتى ، ولذلك إذا أردت أن تنام فليس ذلك بمقدورك ولكنه بمقدور الحق . إنه يقال عن النوم : ضيف إن طلبته عنّتك ـ أى أتعبك ـ وإن طلبك أراحك . ويأتى النوم للمتعب حتى ولو نام على حصى ، وقد لا يأتى النوم لمن يتهيأ له ولو كان على فراش من حرير .

والحق سبحانه يقول :

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾

(سورة الروم)

النوم ـ إذن ـ آية كاملة بمفردها ، ولا يأتى النوم بالليل فقط ، ولكن يأتى بالنهار أيضاً ؛ لأن هناك أعمالاً تتطلبها حركة الوجود ويقوم بها أناس فى أثناء الليل ؛ لذلك ينامون بالنهار .

ويتوفانا سبحانه بالليل ويعلم ما جرحنا فى أثناء النهار ، ثم يرسلنا إلى أجل يعلمه هو سبحانه ، ثم يبعثنا فى يوم القيامة لينبئنا بكل أعمالنا . وسمّى الحق النوم وفاة ، وسمى الاستيقاظ بعثا ؛ لأن الإنسان فى مثل هذه الأحوال لا يملك حركته الاختيارية . ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما وقف ليعلن بعثته بعد ثلاث سنوات من الدعوة سرّاً :

(إنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد) إنكم لتموتن كما تنامون ، ولتبعثن كما تستيقظون ، ولتجزون بالإحسان إحساناً ، وبالسوء سوءاً ، وإنها لجنة أبداً أو لنار أبداً) .

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : صعد النبى صلى الله عليه وسلم الصفا ذات يوم فقال : « يا صباحاه » فاجتمعت إليه قريش قالوا : مالك ؟ قال أرأيتم لو أخبرتكم أن العدوّ يصبّحكم أو يمسّيكم أما كنتم تصدقونى ؟ قالوا : بلى ، قال : « فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد » فقال أبو لهب : تبا لك ألهذا جمعتنا ؟ فأنزل الله سبحانه : « تبت يدا أبى لهب »(١) .

والحق سبحانه إما أن يشل الجوارح ويعطلها ويمنعها من الحركة ، أو يأخذ الروح من الجسد ، فعندما يشل الجوارح ويمنعها ينام الإنسان ، وعندما يأخذ الروح ويمسكها يحدث الموت . ولذلك يجب أن نفهم أن للنوم قانوناً ، ولليقظة قانوناً ، وللموت قانونا ، ولكل قانون قواعده ، فلا قانون اليقظة كقانون النوم ، ولا قانون النوم كقانون الموت ، ولا قانون البعث كقانون الموت . فهناك يقظة ، ونوم ، وموت وبعث ، ومن الخطأ أن نأخذ قانون حالةٍ ما لنطبقه على الحالة الأخرى .

إن الحق يضرب لنا المثل الواضح فينا : فالإنسان منا له حالة من اليقظة تسيطر الروح فيها على حركته الاختيارية ، وعندما ينام تعجِز الروح عن الحركة الاختيارية وتبقى الحركات الاضطرارية . فعندما ينام الإنسان قد يرى بعضاً من الرؤى والأحلام يقابل فلاناً ويراه مرتدياً زياً معيناً بألوان معينة ، فبأى شىء أدرك الألوان وعيونه مغمضة ؟ ، إذن فهناك وسائل إدراك غير العين . وكذلك الزمن يأخذ حظه فى أثناء اليقظة ، لكن فى أثناء النوم يرى الإنسان حلماً فى سبع ثوان ويحكيه فى نصف ساعة . وقد ينام اثنان فى فراش واحد ، أحدهما يحلم بأنه التقى بالأحباب والأصحاب ويأكل ويشرب ويسعد ويأنس ، والآخر يحلم بأنه التقى بأعدائه وعانى منهم ومن عراكه معهم ، إذن فالزمن اختلف وكذلك المعيّة . وهكذا اختلف قانون النوم عن قانون اليقظة . وكذلك يختلف قانون الموت عن قانون الحياة :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

---

(١) رواه البخارى والترمذى فى التفسير والبيهقى فى الدلائل وأحمد والطبرى .

والجارحة كما قلنا هى التى تعمل ليكسب الإنسان . إذن فقد جاء لنا الحق بكل حالات اليقظة والنوم والموت والبعث . ولكل حالة قانونها ، ونحن نعرف قانون اليقظة وقانون النوم لأننا نتعرض لهما ، فإذا قيل لنا : إن هناك قانوناً للموت فنحن نقيس ذلك على ترقي القوانين من اليقظة إلى النوم ، وعندما يقال لنا : إن هناك بعثاً فنحن نصدق أيضاً .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ﴾

والقاهر هو المتحكم بقدرة فائقة محيطة مستوعبة . ولقائل أن يقول : مادام الحق هو القاهر فكيف يكفر الكافر وكيف يعصى العاصى ؟ . ونقول : إن الكافر يكفر بما خلق الله فيه من اختيار وكذلك تكون معصية العاصى . ولكن الحق أوجد فى الإنسان اضطراريات وقهريات تدلنا على أنه سبحانه فعال لما يريد . ولا أحد من المتمردين على منهج الله يجرؤ أن يسحب هذا التمرد على ما يجريه الله عليه من مرض أو موت .

والمتمرد أو الكافر إنما يختار من باطن الاختيار الذى خلقه الله فيه ، والله هو الحاكم للميلاد والموت ولا شيء للإنسان فيهما ، وكذلك هو سبحانه له تصريف أمور الغنى والفقر ، ولا يجرؤ متمرد على أن يتمرد على المصائب التى تحدث له وإن تمرد على منهج الله ؛ لأن التمرد هو من باطن خلق الله للاختيار الذى أودعه فى الإنسان .

﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ﴾

(سورة الأنعام).

وحين يتكلم الحق سبحانه عن ذاته ونفسه ، قد يتكلم بضمير المتكلم . فيقول :

﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ ﴾

(من الآية ١٤ سورة طه)

وقد يقول سبحانه :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾

(سورة الحجر)

ومرة يتكلم عن ذاته بما نسميه نحن ضمير الغيبة مثل قوله هنا :

﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ﴾

(من الآية ٦١ سورة الأنعام)

لأن ضمير المتكلم معه دليله ، إنّ المتكلم يقول : أنا ، ويخاطبك فيقول : أنت . لكن الذى يتكلم بضمير الغيبة لابد أن يعود الضمير على مرجع لهذا الضمير . وحين يتكلم الحق عن ذاته بما يسمى لدينا ضمير الغيبة فإنه ـ سبحانه ـ يريد أن يبين لنا أنه فى أجلىَ مجال المشاهدة والحضور ؛ فكأنه إذا قال « هو » لا تنصرف إلا إلى ذاته العليا ؛ فكأنه لا يوجد مرجع ضمير إلا هو ، ولذلك يقول :

﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ﴾

(سورة الإخلاص)

وسبحانه يقول : « هو » قبل أن يذكر المرجع ، وهو « الله » ؛ مع أن الأصل فى المرجع أن يتقدم ، ولكنه يقول :

﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ﴾

(سورة الإخلاص)

فكأنه إذا أُطلِق هذا الضمير فلا ينصرف إلا إلى ذاته . وحين يتكلم بضمير التكلم نراه يتكلم عن ذاته بضمير الإفراد فيقول :

﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ ﴾

(من الآية ١٤ سورة طه) .

ويقول مرة أخرى :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾

(سورة الحجر)

لماذا ؟. إنه سبحانه إن تكلم عن فعل من أفعاله نجد أن كل فعل من أفعاله يتطلب صفات الكمال كلها فيه ، لأنه يتطلب علماً بما يتكلم به ، ويتطلب قدرة لإبرازه ، ويتطلب حكمة ، ويتطلب صفات كثيرة ، فإذا قال سبحانه :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾

(سورة الحجر)

فالتنزيل فعل ، والفعل يقتضى صفات متعددة . فلابد أن يأتى بضمير التعظيم وهو الجمع ؛ لأن كل صفات الكمال متجلية فى التنزيل . ولكن إن تكلم عن الذات فى التوحيد لا يأتى بضمير الجمع أبداً ؛ لأنه يريد أن تنفى عن ذاته أنه متعدد ؛ لأنه هو الواحد الذى لا شريك له ، فحين يتكلم عن الذات يقول :

﴿ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ ﴾

(من الآية ١٤ سورة طه)

وحين يتكلم عن الذكر يقول :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ ﴾

(من الآية ٩ سورة الحجر)

ففى مجال التعظيم والتنزيل الذى يتطلب تجلى كثير من صفاته ـ جل شأنه ـ يأتى بضمير الجمع ، وفى التوحيد والتفرد ونفى الشريك يأتى بضمير الإفراد .

هنا يقول سبحانه :

﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ﴾

(من الآية ٦١ سورة الأنعام)

وكلمة « قاهر » إذا سمعتها تتطلب مقهوراً . ومادام هناك قاهر ومقهور ففى ذلك

ميزانان بين مجالين . ومادام هو قاهراً ففى أى مجال وبأية طريقة سيكون الطرف الثانى مقهوراً له ؟ إننا نعلم أن كل شىء فى الكون مقهور له ، فقد قهر العدم فأوجد ، وقهر الوجود فأعدم . وقهر الغنى فأفقر ، وقهر الفقر فأغنى . وقهر الصحة فأمرض ، وقهر المرض فأصح .

إذن فكل شىء فى الوجود مقهور لله حتى الروح التى جعلها الله مصدر الحس والحركة للإنسان يقهرها سبحانه . فإذا جاء إنسان وقتل إنساناً آخر بأن ضربه على المكان الذى لا توجد عند عدمه وفقده حياة بأن أذهب صلاحيته للبقاء تنسحب الروح . وهذا يوضح لنا أن الروح فى الجسم هى المسيطرة ، لكن مَن ينقض البنية التى تسكنها الروح يُذْهبُ الروح ويخرجها من الجسم . ومرة يقهر المادة بالروح ، فيأخذ الروح من غير آفة ومن غير أية إصابة ويتحول الجسم إلى رمّة . إذن فسبحانه يقهر الروح ، ويقهر المادة ، ولا توجد متقابلات فى الوجود عالية ومتأبية ومتمردة عليه ـ سبحانه ـ :

﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ﴾

(من الآية ٦١ سورة الأنعام)

والقاهر هو المتحكم بقدرة شاملة على المقهور . وانظر أى تقابل فى الحياة تجده مدينا وخاضعا لصفة القهر. «وهو القاهر فوق عباده» وكلمة «فوق» تقتضى مكانية. ولكن المكانية تحديد ، ومادام القهر يتطلب قدرة فهل يعنى ذلك أن القادر لابد أن يكون فى مكان أعلى ؟ لأننا نجد ـ على سبيل المثال ولله المثل الأعلى ـ من يضع قنبلة تحت العمارة العالية ويقهر من فيها . إذن فالقهر لا يقتضى الفوقية المكانية ، إذن فالفوقية المرادة هى فوقية الاستعلاء ، ونحن عندما تكلمنا عن الحق سبحانه وتعالى أوضحنا أن نلتزم بإطار « ليس كمثله شىء » فهو ذات لا ككل الذوات . وصفاته ليست ككل الصفات ، وكذلك نأتى ونقول فى فعله ، وعلى سبيل المثال نجد خلق الله يحتاجون إلى زمن ويحتاجون إلى علاج ، وكل جزئية من الفعل تحتاج إلى جزئية من الزمن ، لكن هو سبحانه إذا فعل أيحتاج فعله إلى زمن ؟ لا ؛ لأنه لا يفعل بعلاج ، ولا يجلس ليباشر العملية ، إنما يفعل سبحانه بـ « كن » ، إذن القهر فى قوله : « وهو القاهر فوق عباده » هو قهر الاستعلاء .

ولذلك يقول لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ينزل ربنا إلى السماء الدنيا كل ليلة لآخر رمضان » .

ففى أية ليلة ينزل فيها الله ؟ ليلتك أم ليلة المقابل لك ؟ أم الليلة التى تشرق الشمس فيها فى مكان ، وتغيب عن مكان آخر ؟ إذن ، فكل واحد من المليون من الثانية ينشأ ليل وينشأ نهار ، وهكذا نعلم أن الله معك ومع غيرك ، باسطا لك ولغيرك يده .

﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾

(من الآية ٦٤ سورة المائدة)

لذلك لا تفهم قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها »[١] . لا تفهم ذلك بتخصيص ليل معين أو نهار معين ؛ لأن يده مبسوطة فى كل زمان وفى كل مكان وليس كمثله شيء .

« وهو القاهر فوق عباده » . وعباده من مادة العين والباء والدال ، ومفردها « عَبْد » ، وجمعها يكون مرة « عبيدًا » وأخرى « عِبادًا » . و« العباد » هم المقهورون لله فيما لا اختيار لهم فيه ، وهم أيضا المنقادون لحكم الله فيما لهم فيه اختيار ؛ لأن الإنسان مقهور فى بعض الأمور ولا تصرف له فيها : لا تصرف له فى نَفَسه ، ولا تصرف له فى نبضات قلبه ، ولا تصرف له فى حركة المعدة ، ولا تصرف له فى حركة الأمعاء ، ولا تصرف له فى حركة الحالبين ، ولا تصرف له فى حركة الكُلْيَة ، وكلها مسائل تشمل المؤمن و الكافر ، والكل مقهور فيها .

إن من رحمة الله أننا مقهورون فيها ولا رأى لنا ؛ لأنه لو كان لنا رأى فى مثل هذه الأمور لكان لنا أن نسأل : كيف ننظم عملية تنفسنا فى أثناء النوم ؟ . إذن فمن رحمة الله أن منع عنا الاختيار فى بعض الأمور التى تمس حياتنا . ومن رحمة الله أن كلًّا منا مقهور فيها ، فمن يستطيع أن يقول لمعدته : اهضمى الطعام ؟ ومن يستطيع أن يأمر الكلى بالعمل ؟!! .

إذن فكل أمر مقهور فيه الإنسان ، هو فيه منقاد لله ولا اختيار له . أما الأمر الذى لك فيه اختيار فهو مناط التكليف . ولذلك لا يقول لك المنهج : « افعل » إلا وأنت

---

(١) رواه أحمد ومسلم عن أبى موسى فى التوبة ، ورواه النسائى فى التفسير .

صالح ألا تفعل ، ولا يقول لك « لا تفعل » إلا وأنت صالح أن تفعل .

إذن الأمور الاختيارية هى التى وردت فيها « افعل » و« لا تفعل » . وهى الأمور التى فيها التكليف . ومن يطع ربنا فى منهج التكليف يصبح وكأنه مقهور للحكم ، ويكون ممن يسميهم الله « عِبادًا » ، فكأنهم تنازلوا عن اختيارهم فى الأحكام التكليفية ، وقالوا : يارب لن نفعل إلا ما يريده منهجك . وكل منهم ينفذ حكم الله فيما له فيه اختيار ألا ينفذه . أما العبيد فهم من يتمردون على التكليف ، فالمؤمنون بالله هم عباده . ولذلك يقول الحق :

﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾

(من الآية ٥٣ سورة الزمر)

ويوضح سبحانه سمات هؤلاء العباد فيقول :

﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ ﴾

(سورة الفرقان)

هؤلاء هم العباد الذين تنازلوا عن اختيارهم فى الفعل ، وقبلوا أن يكونوا مأمورين ومطيعين لله فيما كُلفَّ به ، وهم فى الأمور التى لا اختيار لهم فيها يكونون مثل بقية الكائنات ، فكل الخلق والكون عبيد الله ، فيما لا اختيار لهم فيه أمّا المؤمنون به فهم عباد الله . ولكن آية واحدة فى القرآن وهى التى تثير بعض الجدل فى مثل هذا الموضوع . ساعة يقولِ الحق سبحانه وتعالى عما يحدث فى الآخرة :

﴿ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ ﴾

(من الآية ١٧ سورة الفرقان)

وكأن « عبادى » هنا أطلقت على الضالين ، ونقول : نعم ؛ لأن الكل فى الآخرة عباد ؛ إذ لا اختيار لأحد هناك . لكن فى الدنيا فالمؤمنون فقط هم العباد ، والكافرون عبيد لأنهم متمردون فى الاختيارات .

﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً ﴾

(من الآية ٦١ سورة الأنعام)

ومع مجىء معنى القهر يرسل الحق حفظة ، وإذا كان القهر يعنى الغلبة والتملك والسيطرة والقدرة ، فهو قهار على عباده وأيضاً يرسل عليهم حفظة .

ويقول فى موقع آخر :

﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ ﴾

(من الآية ١١ سورة الرعد)

وهكذا يكون قهر الله لنا ، لمصلحتنا نحن ؛ لأن الضعيف حين يقهره جبار ، يمكنه أن يقول : الله هو القهار الأعلى ، وفى هذا تذكير للقوى نسبياً أن هناك قهاراً فوق كل الكائنات ، فالله قهار فوق الجميع ، وبذلك يرتدع القوى عن قهره ، فيمتنع عن الذنب ، وتمتنع عنه العقوبة ، وفى ذلك رحمة له .

﴿ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً ﴾

(من الآية ٦١ سورة الأنعام)

وجاء معنى « الحفظة » فى القرآن فى قوله الحق :

﴿ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ ﴾

(سورة ق)

فكل لفظ له رقيب عتيد ، حفظة أى ملائكة يحفظون ويحصون أعمالكم ويسجلونها وهم الكرام الكاتبون ، وكلما تقدم العلم أعطانا فهما للمعانى الغيبية ، وإن كانت المعانى الغيبية التى نستقبلها عن الله دليلنا فيها السماع ، ففيه رقيب وعتيد يكتبان فقط ، هكذا قال ربنا فآمنا بما قال وانتهت المسألة ، وهذا هو المطلوب . ولذلك قال الحق :

﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ ﴾

(من الآية ٣ سورة البقرة)

لأن الإيمان لو كان بالمشهد فما الفرق - إذن - بين الناس ؟ إن الإيمان فى كماله وقمته هو الإيمان بالغيب ، فإذا قال الحق سبحانه وتعالى :

﴿ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ ﴾

(سورة ق)

فهذا خبر عن الملائكة الذين يكتبون الحسنات ، ويكتبون السيئات . وحين ننظر إلى البشر ، نجدهم يتفاوتون ويرتفع بعض منهم على بعض فى صفات وقدرات ، وكلما تقدم الزمن عرف الإنسان سراً من أسرار الله يترقى به . وقديماً عندما صنعوا جهاز التسجيل كان حجمه كبيراً ثم تقدم العلم حتى صغر حجم المسجل ، إذن كلما تقدمت الصنعة صغرت الآلة ، لدرجة أنهم صنعوا مسجلاً فى حجم الساعة ، ثم صنعوا آخر فى حجم « فص الخاتم » ، وصنعوا مسجلاً يشبه الحبوب ، وينثرونها فى أى مكان عندما يريدون التقاط أسرار جماعة أو أسرار مجلس ، إذن كلما قويت قدرة الصانع دقت الصنعة . فإذا نسبتها لله ، فأين دقة الذى صنعته أنت بجانب دقة صنعة الله ؟

فإذا كان واحد من البشر قد استطاع أن يأتى بمسجلات غير مرئية مع أن قدرته محدودة ، وحكمته فى الصنعة محدودة ، فإذا قال ربك : إن هناك ملائكة لن تراهم وستحصى عليك أعمالك وهم غيب فقل على العين والرأس ، وسبحانه القائل :

﴿ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ ﴾

(سورة الإنفطار)

وهنا يقول الحق :

﴿ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ ﴾

(من الآية ٦١ سورة الأنعام)

وعندما أراد العلماء أن يعرِّفوا الموت قالوا : الموت سهم أرسل ، وعمُرك بقدر سفره إليك ، هو إذن سهم قد انطلق ، لكن عمرك يُقدَّر بمقدار سفره إليك ، وحين يقول الحق : « حتى إذا جاء أحدكم الموت » فهو ينسب الموت لمن ؟ . لقد أبهم الله زمانه ، وأبهم مكانه ،وأبهم سببه ، وأبهم قدره ، وهذا الإبهام هو أشد أنواع

البيان ؛ لأنه مادام قد أبهمه فى كل هذه الأمور يجب أن نستعد للقائه فى كل زمان ، وفى كل مكان ، وبأى سبب .

وإياك أن تتعجب لأنه يحدث فى أى سن ، فإبهام الحق له هو أكبر بيان ؛ لأنه سبحانه لو حدده زماناً أو مكاناً أو سناً أو سبباً ؛ لكان على الإنسان أن ينتظر الموت ، لكن الحق شاء هذا الابهام وهو أقوى أنواع البيان ، ليلفتك ويحثك على أن تنتظره فى أى زمان وفى أى مكان وبأى سبب وفى أى سن ، وبهذا يكون الموت واضحاً أمامنا جميعاً ، ولذلك تخشى ارتكاب أى ذنب حتى لا تقبض روحك وأنت على الذنب ؛ لأنك لا تحب أن تلقى الله وأنت عاصٍ .

وعندما يؤذن لصلاة الظهر ولم تصلِّه ، قد تقول : إن وقته ممتد ، وتجد من يقول لك : اضمن لى أنك ستعيش إلى أن ينتهى وقت الظهر . ولذلك يقول النبى صلى الله عليه وسلم : عندما سأله عبدالله بن مسعود رضى الله عنه قائلا : أىّ الأعمال أفضل ؟ قال : الصلاة على وقتها ، قلت : ثم أىٌّ ؟ قال : بّر الوالدين ، قلت : ثم أى ؟ قال : الجهاد فى سبيل الله »[1] .

إنك لا تضمن من عمرك أن تعيش إلى آخر الوقت . ولذلك عندما نقول : إن الإبهامات من أقوى أنواع البيان فيجب أن نصدق ذلك ؛ لأن البعض يقول : ولماذا لم يبين الله لنا ذلك ؟ ودائماً أقول : لقد أوضح الله ما أبهم ، فإن الإبهام هو أقوى بيان ، ألم نر إنسانا ذهب لطبيب ليعالجه فى مسألة فكان الطبيب سبب موته ؟ لقد رأينا ذلك . لقد أخذ هذا الإنسان بالأسباب ولم يمنع ذلك أن قدر الله قد نفذ فيه . ولذلك قال شوقى ـ رحمة الله عليه ـ :

أسد لعمرك من يموت بظفره عند
اللقاء كمن يموت بنابه
إن نام عنك فكل طب نافع
أو لم ينم فالطب من أذنابه

---

(١) رواه البخارى ومسلم .

فقد يخطىء الطبيب ـ مثلا ـ فى إعطاء حقنة فتنتهى الحياة ويقولون : خطأ الطبيب إصابة الأقدار .

مصداقا لقوله تعالى :

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا ﴾

(من الآية ٦١ سورة الأنعام)

وعندما تأتى كلمة « توفّى » تجدها فى القرآن دائرة على ثلاثة ألوان : اللون الأول هو قول الحق :

﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾

(من الآية ٤٢ سورة الزمر)

وقوله سبحانه :

﴿ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ﴾

(من الآية ١١ سورة السجدة)

ومرة يقول الحق سبحانه :

﴿ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا ﴾

(من الآية ٦١ سورة الأنعام)

سبحانه ـ إذن ـ ينسب الموت له ولملك الموت ، ولرسله .

وهل الرسل يأخذون الأرواح ويقبضونها إلا بإذن من ملك الموت ؟. إنهم جنوده ، فلا أحد يميت دون إذن من الله . فأخذ الأرواح وقبضها إلى الله أمراً ، وإلى ملك الموت وسيلة وواسطة . وإلى الرسل تنفيذاً .

﴿ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾

(من الآية ٦١ سورة الأنعام)

من أين يأتى التفريط ؟. لقد تقدم فى هذه الآية شيئان اثنان : حفظة يحفظون

عليك تصرفاتك وفعالك ، وهم يأخذون الروح أيضاً . وهؤلاء الملائكة لا يفرطون فى هذه المهمة أو تلك . وحين ننظر فى مادة الـ « فاء » ، والـ « الراء » والـ « طاء » نجدها تأتى مرة « فرّط » ، ومرة « أفرط » . ومن العجيب أنها تأتى للمتقابلين ؛ ففرَّط فى الشىء أى أهمله ، وأفرط فى الشىء أى جاوز الحد والقدر فى الحدث .

وهنا يقول الحق سبحانه : « وهم لا يفرِّطون » أى لا يهملون ولا يقصرون . وفى إحدى قراءات القرآن نجد من يقرأ : « لا يفرطون » بالتخفيف ، والمقصود أنهم لا يتجاوزون الحد . ولذلك نجدالحق يقول :

﴿ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾

(من الآية ٣٤ سورة الأعراف)

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾ ﴾

وكلمة « ردوا » تفيد أن كان لهم التقاء به أو لا ، وبعد ذلك سوف يرجعون ، كيف ؟ لقد كانوا منه إيجاداً ثم ردوا إليه حسابا ثوابا وعقابا ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى هو القائل :

﴿ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ ﴾

(من الآية ٥٥ سورة طه)

« ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق » وكلمة « مولى » تعنى أنه هو الذى يليك ، ولا يليك إلا من هو قريب منك . وهذا القريب قد يكون مُنْجِداً لك إن حدث لك ما يفزعك وهو الذى يعينك ، وهكذا أخذت كلمة « مولى » معنى القريب ، والناصر والمعين الذى تفزع إليه فى شدائدك ، وقد يوجد لك مولى فى الدنيا وهو من الأغيار . ومن الجائز أن يتغير قلبه عليك، ومن الجائز أن تنالك الأحداث التى هى فوق قدرته

وطاقته، ومن الجائز أن يكون لك مولى تنشده وتطلبه لنصرتك فيرفض ؛ لأن خصْمك له بهذا المولى ولاء أقوى وأشد فيقف بجانب خصمك وقد يوهمك أنه معك لكن قلبه ليس معك .

لكن هناك فى الآخرة مولى حق واحد « وردوا إلى الله مولاهم الحق » وتطلق كلمة « مولى » على السيد حين يعتق عبده . وحين يعتقنا ربنا من النار أليس فى ذلك أعظم ولاية ؟ . إنه المولى الحق ، فلا توجد قوة أعلى منه وهو لا يتغير ؛ لأن الأغيار من طبيعة الخلق .

وحين يطلب منك الحق أن تُعمل عقلك لأنك حين تعتمد على واحد ينفعك فى أمورك فأنت تتوكل عليه ، وتطلب مساعدته ، وهنا يأمرك الحق بأن تتوكل على الحىّ الذى لا يموت ، ولا تتكل على واحد من الأغيار فقد يصبح الصباح فتجده قد خلا بك وتخلّى عنك . أما إذا كان مولاك هو الحق فلن يخذلك .

« ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ألا له الحكم » . ولماذا جاء بكلمة « الحكم » هنا ؟ ؛ لأننا فى دنيا الأغيار قد يسند سبحانه بعض الأحكام إلى بعض خلقه ؛ فهذا يحكم ، وذلك يتصرف ، وآخر يصدر قراراً بالتعيينات ، وكلها أحكام ، أما فى الآخرة فالحق يقول :

﴿ لِمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾

(من الآية ١٦ سورة غافر)

وأنت فى الدنيا تملك ، ويكون رزق ابنك ـ على سبيل المثال ـ من يدك ، وتملك أن تصدر قراراً بترقية من هو أقل منك ، وتملك أن تخيط الثوب لغيرك إن كانت تلك مهنتك ، ففى الدنيا كل منا يملك بعضاً من أسباب الآخر . لكن فى الآخرة لا يوجد شىء من هذا :

﴿ لِمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾

(من الآية ١٦ سورة غافر)

وساعة تسمع « ألا له الحكم » فـ « ألا » فى اللغة أداة تنبيه لما يأتى بعدها ، ولماذا

تأتى أداة التنبيه هنا ؟ لأن الحكم القادم بعدها حكم مهم . والكلام ـ كما نعرف ـ واسطة بين متكلم ومستمع ؛ لأن المتكلم ينقل أفكاره وخواطره ومطلوباته إلى السامع . وهو قبل أن يتكلم يدير الأمر فى رأسه : أيتكلم أم لا ؟ لكن السامع يفاجأ بكلام المتكلم ، والمتكلم قبل أن ينقل خواطره توجد فى خياله نسبة ذهنية ، أى أنه يعايش مشروع الكلام ويتدبره قبل أن يتكلم ، أما السامع فهو يفاجأ ، وعندما تريد أن تقول أمراً مُهمًّا فأنت تحاول أن تضمن انتباه السامع حتى لا تفلت منه أية جزئية من كلامك ، فتقول : « ألا » لتشد انتباه السامع تماماً . والحق هنا يقول : « ألا » ليأخذ انتباه السامع ، ويأتى بعدها قوله : « له الحكم » .

إذن : ساعة تسمع « ألا » فاعرف أن فيها تنبيهاً لأمر قادم « ألا له الحكم » . والحكم : هو الفصل بين أمرين ، ويختلف الفصل بين أمرين باختلاف الحاكم ؛ فإن كان الحاكم له هوى فالحكم يميل ، لكن الفصل بين الأمرين يجب أن يكون بلا هوى ، فالحكم بالميزان يقتضى أن تكون له كفة هنا وكفة تقابلها ، وساعة ما نضبط الميزان نحاول أن نوازن الكفتين لنفصل بين مسألتين ملتحمتين ، ومادمنا نريد التساوى فنحن نسمى ذلك : الإنصاف ، أى أن نقف فى النصف دون ميل أو حيْف .

« ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين » وساعة يسمع إنسان « ألا له الحكم » فالواحد منا يعلم أنه سبحانه يحكم بين الخلق بداية من آدم إلى أن تنتهى الدنيا ، وكل واحد منا تتشابك مسائله مع غيره ، ومادام لله الحكم فليس لغيره معه حكم ، ويحكم بين الخلق جميعا وفعله لا يحتاج إلى زمن ، ونتذكر هنا الإمام عليّا ـ كرّم الله وجهه ـ حين قالوا له : كيف يحاسب ربنا الناس جميعا فى وقت واحد ، وبمقدار حلب شاة كما قال بعضهم ؟ فقال الإمام علىّ : « كما يرزقهم فى وقت واحد يحاسبهم فى وقت واحد » ، وهذه مسألة سهلة ليس فيها أدنى صعوبة أبداً . وقديماً عندما كانوا ينيرون الطرقات كانوا يشعلون المسارج : هنا مسرجة ، وهناك مسرجة ، وعلى البعد مسرجة ثالثة ، وكان الوقاد يمشى ليشعل المسارج . . إلخ ، وارتقى العقل البشرى المخلوق لله واستطاع أن ينير الطرقات بالطاقة الكهربائية أو الطاقة الشمسية وفى وقت واحد .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ ﴾

المتعب للخلق أن تأتى الظلمة وتكون فى مهمة النور ، وأن يأتى النور فى مهمة الظلمة ، فلكل من الظلمات والنور دور ومهمة فى الحياة . ولذلك قلنا فى أول السورة حين تكلم الحق سبحانه وتعالى قائلاً :

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ﴾

(من الآية ١ سورة الأنعام)

لقد ظن البعض أن المفترض أن يقول سبحانه : وجعل النور والظلمات ، ولكن لنتلمس القول الحق ، ولنعترف أن مهمة الظلمة تتساوى مع مهمة النور ، وعلى الإنسان أن يعى مهمة الظلمة ، وكلنا يعرف مهمة النور الذى يعيننا على السعى على أمور حياتنا ، ويتطلب السعى طاقة ، ولا يمكن أن تأتى الطاقة إلا بعد سكون وهدوء واطمئنان وراحة ؛ لذلك فالراحة تحتاج إلى ظلمة لينام الإنسان ويستريح ، إذن فالظلمة نعمة من نعم الله ، والذى يتعب الإنسان أن يغير ويبدل فيجعل النور مكان الظلمة ، ويجعل الظلمة مكان النور ، وهذا خروج عن مهمة كل متقابلين . وحين ينشىء الحق المتقابلات لا ينشئها على أنها تتضاد ، أو على أنها تتعاند ، ولكنه ـ سبحانه ـ يريد متكاملا يعين متكاملاً ، فلا شىء يهدم شيئاً مقابلاً له ، بل كل متكامل يساعد الآخر . ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ ﴾

(سورة الليل)

وقد جاء سبحانه بالليل أولاً ، والنهار ثانياً ، ولكل منهما مهمة ، ولا يمكن أن تؤدى مهمة النهار على حقيقتها إلا إن جاءت مهمة الليل فأدّيت على حقيقتها . وهات إنساناً لم يأخذ من الليل الراحة والسكون والهدوء ، وعانى من قرص ولسْع

الناموس أو البراغيث ، أو من ضجيج وخلافه ، ولم ينم ، ثم فى الصبح تجده نصف نائم ، نصف مرهق ، غير قادر على التركيز أو كما يقولون « مذهول » .

إذن فمن أجل حركة الضوء لابد أن توجد الظلمة :

﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ ﴾

(سورة الليل)

الليل والنهار ـ إذن ـ نعمتان ، وكل نعمة تساوى الأخرى ، وإياك أن تقول هذه ضد تلك ، أو أنها جاءت لتعاندها ، لا . لقد جاءت كل منهما لتساند الأخرى . وفى سورة الليل يتابع الحق :

﴿ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ۝٣ ﴾

(سورة الليل)

لقد جاء سبحانه أيضاً بمتقابلين ، وإياك أن تظن أنهما متعاندان فقد جعلهما الله متكاملين لتنجح الحياة . وإن تعاندا تفسد الحياة . ومادام الليل له مهمة والنهار له مهمة ، إذن فالذكر له مهمة ، والأنثى لها مهمة . وإن خَلَطت المهمتين ينتج الفساد .

﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ۝٣ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ۝٤ ﴾

(سورة الليل)

ويقول الحق هنا :

﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ۝٦٣ ﴾

(سورة الأنعام)

والظلمة ـ إذن ـ هى عدم النور . ولم يقل الحق إن طلب النجاة يكون من ظلمة واحدة ، وإنما طلب النجاة من ظلمات متعددة ، وهى ظلمات متراكمة ؛ لأن الظلمة

إذا ما غُشيت بظلمة ثانية ، ثم بظلمة ثالثة ، حينئذ تصير ظلمات مركبة بعضها فوق بعض .

والحق سبحانه قال : « ظلمات البر والبحر » ، وحتى نعرف أهى ظلمات حسّية أم ظلمات معنوية لابد لنا أن نعرف الظلمة فى معناها الحسى ، إنها ما يؤدى إلى عدم الاهتداء إلى الحركة المنجية ، إذن فكل أمر يؤدى إلى عدم الاهتداء ـ حسّياً أو معنوياً ـ هو ظلمة ؛ لأن الإنسان فى هذه الحالة يسير فى أموره بغير اهتداء ، والأحداث والكوارث التى يصعب على الناس أن يعرفوا طريق النجاة منها تُعتبر ظلمة ، سواء أكانت ظلمة حسّية أمْ معنوية .

والحق سبحانه وتعالى يقرب لنا المعنويات بالأمور الحسّية ، والمراد بالظلمات هنا هى الأحداث والكوارث والنوازل التى تضيق أسباب البشر عن النجاة منها . والإنسان حريص دائماً على نفع نفسه ، وتظهر التناقضات فى أفعال إنسان عن أفعال إنسان آخر لاختلاف كل منهما فى تقييم وتقدير النفعية . والمثال على ذلك واضح ونضربه دائماً هو : مثال التلميذ الذى يذهب صباحاً مبكراً إلى مدرسته ، وينتبه إلى أساتذته ، ويعود إلى منزله ليؤدى واجبه ، ويخرج من لذيذ الكسل ليجد لذة فى العمل ، إنَّه بذلك يحب نفسه ويريد النفع لها . أما التلميذ الذى ينام ويوقظه أهله فلا يستيقظ ، وإذا أيقظوه فهو يخرج من البيت ليتسكع فى الطريق ، مثل هذاالتلميذ يحب نفسه حباً أحمق لأنه يريد اللذة العاجلة التى تعقبها سلسلة من الآلام الآجلة . إنه ينتظر مستقبلاً لا كرامة له فيه عكس التلميذ المجد الذى يتبوأ المكانة اللائقة به .

والمثال الواضح أيضاً فى الريف هو الفلاح الذى يقضى وقته على المقهى ويسهر الليل أمام التليفزيون ويترك الأرض بلا حرث ولا رى ولا تسميد ، ولا يمكن أن تنتج الأرض التى يفلحها محصولاً مساوياً لأرض الفلاح الذى يأخذ بأسباب الله فيحرث الأرض وينتظم فى ريها فى المواعيد المحددة ، ويضع السماد المقرر لها ؛ لأن الذى أخذ بأسباب الله وتعب وبذل جهداً لا بد أن يعطيه الحقُّ الرزقَ الوفيرَ . أما الذى يكسل عن أداء عمله فقد أحب نفسه حباً أحمق قصير الأجل ، وأما الذى أخذ بأسباب الله وأقبل على عمله بحب وتقدير فقدد أحب نفسه حباً أعمق ، فيه نفع له ولغيره .

إن كل حركة يصنعها الإنسان فى الحياة إنما يريد بها نفع نفسه ، ولكنْ هناك اختلاف فى تقديرالنفعية بين إنسان وآخر ، والعاقل من يرى النفعية الآجلة المجدية ويعمل لها . وهاهوذا المتنبى الشاعر العربى يقول :

أرى كلنا يبغى الحياة لنفسه
حريصا عليها مستهامًا بها صبّاً
فحب الجبان النفس أورده التقى
وحب الشجاع النفس أورده الحربا

حب الشجاع لنفسه ـ إذن ـ جعله طموحاً إلى الحياة الخالدة كشهيد فى سبيل الله ، وحب الجبان لنفسه جعله أسير الخوف على الحياة الفانية . فإذا ما صُدم الإنسان بأحداث ونوازل وكوارث نرى نفعيته وهى تحركه إلى البحث عن أسباب للنجاة ، ويعتمد على أسبابه أو أسباب من هو قريب منه ، أما إذا عزّت أسباب البشر . وكان غافلاً عن الله ، فإن الأحداث والمصائب والكوارث تعيده وتذكره بخالقه فيقول : « يارب » ، وبذلك لا يبيع نفسه رخيصاً . لكن إن خدع مثل هذا الإنسان نفسه من البداية وأعرض عن الله وتمرد على ربّه ووجد نفسه أمام الكوارث فهو يسلم أمره لله فى وقت الشدة ، فإن انجاب وانكشف عنه الضر عاد إلى كفره وتمرده . ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾

(سورة الإسراء)

ونجد الذين يقابلون الأهوال وتنتهى أسبابهم لا يكذبون على أنفسهم . بل يتجهون فطرياً إلى الحق القادر على الأخذ بأيديهم . فلحظة أن تضطرب سفينة وتحيطها عواصف الموج والرياح ، وتختل آلاتها لا تجد إلا كلمة : يارب . يارب . يارب على ألسنة كل ركابها بداية من « القبطان » والقائد إلى أصغر راكب بها ، وتجد من يتمتم بآيات القرآن توسلاً إلى الله للنجاة . وكذلك لحظة أن تضطرب طائرة فى الجو ، ولا يعرف قائدها طريقاً للنجاة لا يقفز إلى أذهان الركاب وطاقم الطائرة إلا نداء التضرع إلى الله .

ولهذا يقول لنا الحق سبحانه : « ضل من تدعون إلا إياه » ودعوة الإنسان ربّه ومولاه هى الوسيلة الأولى من وسائل اليقين ، ونعلم أن أحداث الحياة تتراوح ما بين أمرين ؛ أمر يبسط ويسعد الإنسان ، وأمر يقبض ويضيق على الإنسان ويشقى به ، فأما الذى يبسط ويسعد فهو إدراك الجمال ، والنعمة والراحة ، والسعادة ، والإحساس بالرضى . وأما الذى يضيِّق على الإنسان ويشقيه فهو يريد أن يفلت منه وينجو .

ولنا العبرة الكاملة من الفطرة التى فطر الله الإنسان عليها ، فالإنسان بفطرته إن رأى ما يسعده ، لا يجد تعبيراً أقوى من أن يقول : « الله » . وهى صيحة التقدير والتقديس لله الذى أعطاه موهبة إتقان العمل . وتتجلى العبرة الكاملة أيضاً عندما يدهم الإنسان الخطر فيقول بفطرته : « يارب » . إذن فلا ملجأ إلا إلى الله .

« قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر » ؟ ويتضمن السؤال الحقيقة التى لا بد أن يقررها السامع لهذا السؤال وهى : إن الله هو المنجى من ظلمات البر والبحر . وحين يأمر الحق رسوله أن يقول هذا التساؤل للكافرين فهو سبحانه عليم بأن إجابة الفطرة هى التى ستغلب على ألسنة الكافرين ويعترفون به سبحانه وحده بأنه هو المنجى من ظلمات البر والبحر . والكون ـ كما نعلم ـ إما بر وإمّا بحر . ولقائل أن يقول : ولكن هناك كوارث جديدة فى عصرنا هى كوارث الجو . ؟

ونقول : يجب أن تفهم أن كل جو يأخذ حكم مكانه . فجو البر من البر ، وجو البحر من البحر ، ومثال ذلك ما نراه عند الصلاة فى المسجدالحرام ؛ فنحن نرى المصلين يؤدون الصلاة حول الكعبة أو فى الدور والطابق الأول أو الثانى أو الثالث من المبانى المقامة كمسجد حول الكعبة . ونلحظ أن ارتفاع الكعبة لا يزيد على ارتفاع دور واحد من أدوار المبانى التى حولها . والمصلون يتجهون فى صلواتهم فى تلك الأدوار إلى جو الكعبة ، ذلك أن جو المكان المقدس هو مقدس أيضا ، وجو الحرم من الحرم .

ومثال آخر هو السعى بين الصفا والمروة ؛ فالمسلم يسعى بين الصفا والمروة فى الدور الأرضى ، وهناك الآن دور ثان أقيم للسعى . وهكذا نرى أن جو المسعى

مسعى أيضاً . وقديماً كان محرّماً على الطائرات أن تطير فى جو مكة أو المدينة . حدث ذلك أيام أن كان الطيارون من غير المسلمين ، وذلك حتى لا يطير غير المسلم فى الجو المقدس . أما الآن فقد صار مسموحاً للطيارين المسلمين أن يقودوا طائراتهم في أجواء مكة والمدينة المنورة .

فالجو له حكم المكان سواء أكان المكان براً أم بحراً .

« قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعاً وخفية » إن الدعاء بالفطرة يتجه إلى الله ، والدعاء هو طلب لشيء . والطلب يقتضى طالباً ، ومطلوباً ، ومطلوبا منه . والطالب هو من يدعو . والمطلوب منه هو من ندعوه ونسأله . والمطلوب هو الشيء الذى نتضرع بالدعاء رجاء أن يحدث . والطلب لون من الأمر ، لكن إذا ما جاء الطلب من الأدنى إلى الأعلى فلا تقل إنه أمر ، بل هو دعاء .

وفى اللغة عندما نسأل الطالب أن يقوم بإعراب « رب اغفر لى » ، نجد الذى استذكر دروسه دون تفقه يقول : « اغفر فعل أمر » ، أما الطالب المتفقه فى فهم دينه مع إجادة لدراسته فيقول بأدب الإيمان : اغفر هى فعل دعاء ؛ لأن الطلب إن صدر من الأدنى إلى الأعلى فهو دعاء ، وإن صدر من المساوى للمساوى فهو التماس ، وإن صدر من الأعلى إلى الأدنى فهو أمر .

وحين ننظر إلى الحالة النفسية لمن تحيطه الكوارث والأحداث والنوازل وتضغط عليه الظروف ولا يجد من ينقذه ، هل مثل هذا الإنسان يأمر أو يدعو إنه يدعو بطبيعة الحال ، ويدعو بتذلل وامتثال وخضوع ، وهذا معنى الدعاء . . إنه السؤال بتضرع وخضوع . والتضرع يقتضى قولاً ، ويقتضى فعلاً . ويكون التضرع بالوجدانيات والسلوكيات .

ويخطىء من يظن أن هناك تضرعاً بالقول دون أن يربط ذلك بفعل . فعندما تكون فى موقع قوة أو نفوذ ويسألك سائل أن تتفضل عليه بشيء ، فهذا منه تضرع بالقول . لكن عندما تكون فى موقع قوة أو نفوذ ويسألك سائل أن يفعل لك أمراً ، فهذا تضرع بالقول والفعل . وفى لحظة الخطر يدعو الإنسان ربه ولا يمكن أن يكون

فى قلبه ذرة من نفاق ؛ لأن الحق يقول : « تدعونه تضرعاً وخفية » . والتضرع خفية يكون بالقلب أيضاً . وليس فى ذلك رياء ؛ لأن القلب لا اطلاع لأحد عليه إلا الخالق البارىء ، والمثال على ذلك ما فعلته امرأة أوربية قرأت تاريخ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ووصلت فى قراءتها إلى أسباب نزول قوله الحق :

﴿ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾

(من الآية ٦٧ سورة المائدة)

ووجدت أن هذا القول الكريم قد نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان نائماً بعد ليلة من السهر ، فقالت له عائشة رضى الله عنها : ألا من رجل صالح يحرسنا الليلة ؟ وبينما هى تقول ذلك حتى سمعت صوت السلاح ، وكان ذلك إعلانا عن مقدم سعد وحذيفة وقالا :

جئنا نحرسك يا رسول الله . ونام رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى سمعت سيدتنا عائشة غطيطه ، ثم نزل عليه الوحى بهذا القول الكريم :

﴿ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾

(من الآية ٦٧ سورة المائدة)

فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم من النوم وقال : انصرفوا أيها الناس فقد عصمنى الله .

وعندما قرأت المرأة الأوربية هذه الحكاية فى تاريخ محمد صلى الله عليه وسلم وأحسنت الفهم لها أعلنت إسلامها على الفور قائلة : لو كان محمد يخدع الناس جميعاً ما خدع نفسه فى حياته . لقد أدركت هذه المرأة بالفطنة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن ليصرف عنه الحرس لو لم يثق تمام الثقة فى أن الله يحميه ، وأنه سبحانه قادر على أن يحفظه . والإنسان لحظة الخطر إنما يدعو الله تضرعاً وخفية . والدعاء ـ كما علمنا ـ يحتاج إلى قول وفعل ووجدان . وهذه الأركان الثلاثة تتوافر فى قوله الحق :

﴿ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾

(من الآية ٦٣ سورة الأنعام)

فكلمة (تدعونه) : قول و(تضرعا) : فعْل لأنه خشوع وخضوع ـ و(خفية) : انكسار القلب وخشيته و« أنجانا » تدل على التعدد ؛ لأن الفعل للتجدد والحدوث وأيضا قوله : (قل الله يُنَجِّيكم) يدل على التكثير ، أى أنه لا ينجِّى مرة واحدة ولكنه ينجِّى لمرات كثيرة . ويأتى لنا سبحانه بصور كثيرة لقدرته على أن ينجِّينا إما بتكرار النجاة أو بتعدى النجاة من موقف لموقف . وتكرار النجاة هو أن يكون الحدث واحداً وينجى الحق فيه أفراداً كثيرين ، أو يكون الحدث واحداً والطالب للنجاة منه فرداً واحداً ، ويكرر الله نجاته من هذا الحدث . إن الحق سبحانه ينجِّى الفرد أو الجماعة من الأحداث أو الكوارث المختلفة . وسبحانه القائل :

﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ﴾

(من الآية ١٢ سورة يونس)

إن الإنسان إذا ما أصابه الضر فى نفسه أو ماله أو نحو ذلك ، أحس بضعفه ودعا ربه فى أى حالة من حالاته ـ سواء أكان مضطجعا أم قاعداً أم قائماً ـ حتى يكشف الله عنه هذا البلاء ، وعندما يستجيب الله لدعاء هذا الإنسان ينسى هذا الإنسان فضل الله عليه كأنه لم يدع الله أن يزيل عنه الضر .

والحق سبحانه يقول :

﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

وسبحانه ـ هنا ـ يُذَكِّر المشركين ومن كان على شاكلتهم أنهم عندما يصيبهم الضر فى البحر يغيب عنهم كل من كانوا يدعونه سواء من الأصنام أو غيرها ولا يلجأون إلا لله حتى ينجيهم من الغرق ويخرجهم إلى البر ، ومن بعد ذلك يعودون إلى الشرك بالله والجحود بنعمته سبحانه .

وكذلك هنا فى هذه الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها .

﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

لقد دعوا الله بالتضرع والتذلل أن ينجِّيهم من ظلمات البر والبحر ، ووعدوا أن يكونوا من الشاكرين ، ولكن ماذا كان موقفهم بعد أن أنجاهم الله ؟

يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾

إن الحق ينجيهم من الظلمات المادية فى البر البحر ، وسبحانه بعلمه الأزلى يعلم أنهم بعد النجاة سيعودون إلى ما نهاهم عنه من شرك به ؛ لأن الإنسان بطبيعته عندما يجد حياته مكتفية بما يملكه قد يقع فيما قاله الحق تبارك وتعالى :

﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ ﴾

(سورة العلق)

والإنسان قد يتجاوز حدوده ويتكبر على من حوله ، بل وعلى ربه إن رأى نفسه صاحب ثراء ، ولا يعصم الإنسان من مثل هذا الموقف إلا الإيمان بالله ؛ لأن الإنسان بدون منهج الله يسبح فى بحر الغرور والتكبر ، ولكن من يحيا فى ضوء منهج الله فهو يعرف كيف يرعى الله فى كل إمكانات أو ثراء يمنحه له الله ، وينشر معونته ليستظل بها المحتاج غير الواجد . ولذلك نجد أن كلمة « الإنسان » إذا أطلقت تقترن بالخسارة .

﴿ وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ ﴾

(سورة العصر)

أى أن الإنسان على إطلاقه فى خُسْر . ولكن الحق يستثنى مَن ؟ .

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾ ﴾

(سورة العصر)

إذن فالإنسان المعزول عن منهج الله هو الذى يحيا فى خسران ، لكن من يعيش فى رحاب المنهج هو الذى لا يخسر أبداً . والإنسان حين يعيش دون منهج يصدر ويحدث منه ما رواه الحق سبحانه :

﴿ فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾

(سورة الزمر)

لأن الذى يعيش دون منهج يدعو الله إن أصابه الضرّ ، فإذا ما أنجاه الله ادّعى أن النجاة إنما كانت بأسباب امتلكها هو ، وإذا ما أعطاه الله نعمة من النعم زاد فى الادعاء وزعم أن هذه النعمة مصدرها علم من عنده هو ولا ينسب ذلك إلى الموجد الحقيقى وهو الله ، إنّه نسى أن كل نعمة هى مجرد اختبار من الله .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾

وكلمة « قادر » تعنى تمام التمكن وأنه لا قدرة ولا حيلة لأحد حيال قدرة الله ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى يملى للقوم الظالمين ويمد لهم الأمر ثم يأخذهم بغتة بالعذاب ، وقد يأتى العذاب من فوقهم كما جاء لقوم أبرهة الذين أرادوا هدم

الكعبة ، فسلط عليهم طيراً أبابيل ، ترميهم بحجارة من سجيل ، جعلتهم كعصف مأكول ، وهناك من أخذهم الحق بالصيحة ، وهناك من أهلكهم بريح صرصر عاتية ، وكل ذلك عذاب جاء من فوق تلك الأقوام .

أما قارون فقد خسف الله به وبداره الأرض ، وكذلك قوم فرعون أغرقتهم المياه ، وهذه هى التحتية . فالعذاب قد يأتى من فوق أو من تحت الأرجل حسّياً ، وقد يأتى أيضاً من فوقيّة أو تحتيّة معنوية ، ومثال ذلك العذاب الذى يسلطه الله على الطغاة الكبار المستبدين ، وقد يأتى العذاب من الفئات الفقيرةالتى تعيش أسفل السلم الاجتماعى .

﴿ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ﴾

(من الآية ٦٥ سورة الأنعام)

والمقصود بلبس الأمر أى خلطه بصورة لا يتبينها الرائى . و« شيعاً » هى جمع « شيعة » . والشيعة هم : المتعاونون على أمر ولوكان باطلا ، ويجمعهم عليه كلمة واحدة وحركة واحدة وغاية واحدة . والمقصود بقوله الحق : « أو يلبسكم شيعاً » أى أن كل جماعة منكم تتفرق ويكون لكل منهم أمير ، وتختلط الأمور بين الاختلافات المذهبية التى تختفى وراء الأهواء ، وبذلك يذيق الله الناس بأس بعضهم بعضاً .

ولماذا كل ذلك ؟ لأن الناس مادامت قد انفرطت عن منهج الله نجد الحق يترك بعضهم لبعض ويتولى كل قوم إذاقة غيرهم العذاب . ولكن أغير ذلك فى ملك الله ونواميسه الثابتة من شىء ؟ أبداً ، فالسماء هى السماء ، والأرض بعناصرها هى الأرض ، والشمس هى الشمس ، والقمر هو القمر ، والنجوم هى النجوم ، والمطر هو المطر .

إن الذى يحدث فقط هو أن يذيق الله الناس بعضهم بأس بعض ، ويصير كل بعض من الناس ظالماً للبعض الآخر . وعندما نرى الناس تشكو ، نعلم أن الناس كلها مذنبة ، ومادام الكل قد أذنب وخرج عن منهج الله فلابد أن يسلط الحق بعضنا على بعض حتى يعرف الجميع أنهم قد انفلتوا عن منهج الله لذلك يلقون المتاعب ، ولن يرتاحوا إلا إذا عادوا إلى أحضان منهج الله ؛ لأن منهج الله يمنع أن يتكبر إنسان مؤمن على أخيه المؤمن . والكل يسجد لإله واحد . ولهذا وضع الحق لنا العبادات

الجماعية حتى يرى الضعيف فى سلطان الدنيا القوى فى السلطان وهو يشترك معه فى السجود للإله الواحد .

مثال ذلك ما نراه من طواف الناس حول الكعبة فى ملابس الإحرام ، إن من بين الذين يطوفون قوما من وجهاء الناس وأصحاب الرتب العالية والمنازل الرفيعة ، ومن بين هؤلاء أيضا نجد الذين لا يحتلون إلا المكانة الضئيلة ، ويرى الضعيف نفسه مساوياً لمن فى المركز الاجتماعى القوى . الكل يقف أمام ربّه وهو ذليل ويمسك بأستار الكعبة باكياً . ويريد سبحانه بذلك استطراق العبودية ، ويذل الإنسان المؤمن أمام الله وأمام الناس حتى ينمحى الغرور بين المؤمنين ويكون الناس جميعا أمام الله وفى بيته على سواء .

﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

وها نحن أولاء نرى كيف أن الحق يلبس الناس شيعاً ، إننا نرى المنسوبين إلى الإسلام يذبح بعضهم بعضاً لسنوات طويلة . وإذا كان هؤلاء وأولئك طائفتين مؤمنتين تتقاتلان فأين الطائفة الثالثة التى تفصل بين الطائفتين مصداقاً لقوله الحق :

﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ ﴾

(سورة الحجرات)

هاهوذا الدم المنسوب إلى الإسلام يسيل ، ويزداد عدد الضحايا ، ومن العجيب أن الآخرين يقفون موقف المتفرج ، أو يمدون كل طائفة بأدوات الدمار . وذلك يدل على أن المسألة طامة وعامة .

والقاعدة التى قلناها من قبل لا تتغير ، القاعدة أنه لا يوجد صراع بين حقين ؛

لأنه لا يوجد فى الأمر الواحد إلا حق واحد . ولا يطول أبداً الصراع بين الحق والباطل ؛ لأن الباطل زهوق وزائل . ولكن الصراع إنما يطول بين باطلين ؛ لأن أحدهما ليس أولى من الآخر بأن ينصره الله .

ومثال آخر كنا نراه فى بلد كلبنان ـ إبان الحرب الأهلية ـ وكان الصراع الدائر هناك يكاد يوضح لنا أن كل فرد صار طائفة بمفرده ، وكل إنسان منهم له هواه ، وكل إنسان يذيق غيره العذاب ويذوق من غيره العذاب .

﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾

(من الآية ٦٥ سورة الأنعام)

وينوع سبحانه الحجج والبراهين ويأتى لهم بالأحداث والنوازل حتى يتبين للجميع أنه لا راحة أبداً فى الانفلات عن منهج الله حتى يفقهوا . والفقه هو شدة الفهم . والمقصود أن نأخذ ونتفهم العظة من كل الآيات التى يجريها الحق أمامنا عسانا نرجع إلى مراد الله .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ ﴾

ما الذى كذب به القوم ؟ المقصود هو القرآن أو المنهج عامة ؛ لأن المنهج الإيمانى يشمل القرآن ويشمل ما آتى به الرسول عليه الصلاة والسلام . فالقرآن معجزة مشتملة على الأصول . وجاء الرسول صلى الله عليه وسلم بالسنة ليبين ويشرِّع . ولذلك نرد على هؤلاء الذين يطلبون كل حكم من الأحكام من القرآن ونقول :

إن القرآن جاء معجزة تتكلم عن أصول العقيدة ، والرسول صلى الله عليه وسلم جاء بالتشريعات التى تكمل المنهج ، ومثال ذلك عدد الصلوات فى كل فرض من الفروض الخمسة وعدد ركعات كل فرض من فروض الصلوات الخمس . إن القرآن

لم يذكرها ، ولكن أوضحها لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهو القائل فى حديث شريف : « صلوا كما رأيتمونى أصلى »[١] .

والرسول صلى الله عليه وسلم مفوض بالتشريع بنص القرآن الكريم :

﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾

(من الآية ٧ سورة الحشر)

ونحن نصلى كما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. ونزكى بنصاب الزكاة الذى حدده رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونحج إلى بيت الله الحرام كما حج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد أنزل سبحانه القرآن ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم هو أول من طبق القرآن والسنة .

﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة النحل)

أى أن هناك من الأمور العقدية التى أنزلها الحق مجملة فى القرآن وفصلها للمؤمنين رسول الله صلى الله عليه وسلم بتكليف من الحق . وطاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم واجبة بنص القرآن وهى ضمن طاعة الحق سبحانه وتعالى ، فالحق يقول مرة :

﴿ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ﴾

(من الآية ٣٢ سورة آل عمران)

وهنا طاعة الرسول غير مكررة إنها ضمن طاعة الله .

ويقول سبحانه مرة أخرى :

﴿ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ﴾

(من الآية ٥٤ سورة النور)

أى أن هناك أمراً بإطاعة الله وأمراً بإطاعة الرسول .

---

(١) رواه البخارى ، والبيهقى ، والدارقطنى فى السنن .

ومرة ثالثة يقول سبحانه : (وماءاتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) .

وكل ذلك حتى نستوعب الأحكام التى التقت السنة فيها بكتاب الله .

وحين قال الحق :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ ﴾

(من الآية ٥٩ سورة النساء)

فهو سبحانه لم يأت بطاعة مستقلة لأولى الأمر ولكنه جعلها طاعة من باطن طاعتين هما : طاعة الله ، وطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم .

ونعود إلى معنى الآية التى نحن بصددها :

﴿ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوۡمُكَ وَهُوَ ٱلۡحَقُّۚ قُل لَّسۡتُ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ ﴿٦٦﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

إذن فالذى كذب بوجود الله وكذب بالقرآن هو مكذب للمنهج أيضا . فالمكَذَّب به هنا هو الحق ، والحق هو الشىء الثابت الذى لا يتغير ، وفى حياتنا اليومية تحدث واقعة ما ويأتى أكثر من شاهد عِيانٍ لها فلا نجدهم يختلفون فى رواية الواقعة لأنهم يستوحون واقعا ، لكن إن كان بعض من الشهود لم يروْا الواقعة التى يشهدون عليها تجدهم مضطربين فى الأقوال . ولذلك نجد وكيلِ النيابة يحاول استنباط كل الوقائع من أفواه الشهود ؛ لأن الحق قد يختفى قليلا وراء بعضٍ من الضباب لكن لا يدوم اختفاؤه طويلا بل يظهر جلياً ناصعاً .

والحق يضرب لنا المثل فيقول سبحانه :

﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدٗا رَّابِيٗاۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيۡهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبۡتِغَآءَ حِلۡيَةٍ أَوۡ مَتَٰعٖ زَبَدٞ مِّثۡلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة الرعد) .

الماء ـ إذن ـ ينزل بأمر الله من السماء فتستمر به حياة النبات والحيوان والإنسان ، ويأخذ كل وادٍ على قدر حاجته . وعندما ينزل السيل فهو يصحب معه بعضاً من الشوائب التى تطفو على المياه ، ومثل تلك الشوائب يَطفو ـ أيضاً ـ عندما يُصهر الذهب أو أى معدن ويُسمى الخبث . هكذا يطفو الباطل كالزَّبَدِ ويذهب جُفاء مطروحا ومرميا به بعيدا أو ينزل على جوانبه ، أما الحق الذى ينفع الناس فهو يبقى فى الأرض . وتكذيب القوم للحق من الله وللقرآن وللمنهج الإيمانى هو البهتان ، والرسول صلى الله عليه وسلم ليس بوكيلٍ على المكذبين ولا يلزمهم أن يصدقوا ، فالوكيل هو الله الحق الذى يعاقب كل مكذِّب له ، ومهمة الرسول صلى الله عليه وسلم هى البلاغ .

« وكذّب به قومك » ، وكلمة « قومك » هذه هى تقريع فظيع لهم ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء منهم ، وعرفوه صادقاً أميناً مدة أربعين عاماً قبل الرسالة ، وما جرّبوا عليه كذباً ، ومقتضى مكثه معهم هذا التاريخ الطويل كان يفرض عليهم أن يتساءلوا من فور بلاغهم بالرسالة : أنه لم يكذب علينا قط ونحن من الخلق ، أيكذب على الخالق ؟ . ولكن الهوى أعمى بصيرتهم ، ولذلك يقول الحق عن هذا البلاغ :

﴿ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة يونس)

أى قل لهم يا محمد : لو أراد الله ألا ينزل قرآنا علىّ من لدنه وألاَّ أبلغكم وأعلمكم به ما أنزله وما تلوته عليكم ، ولكنه أنزله وأرسلنى به إليكم . وعندما يمتن الله على الذين أرسل إليهم رسوله صلى الله عليه وسلم فهو يقول سبحانه :

﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾

(سورة التوبة)

وبرغم تكبر وعناد وتكذيب المشركين من قوم رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فإنه عندما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة ترك علياً بمكة ليسلم للناس أماناتهم . فهل هناك حمق أكثر من حمق هؤلاء الذين كذبوا برسول الله صلى الله عليه وسلم . أيكون أمينا معهم ولا يكون أمينا مع ربه ؟

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾

والنبأ هو الخبر المهم ، فليس كل خبر نبأ ، ذلك أن هناك المثير من الأخبار التافهة التى يتساوى فيها العلم الذى لا ينفع بالجهل الذى لايضر . ومثال على الخبر المهم هو قوله الحق :

﴿ عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾ ﴾

(سورة النبأ)

إذن فلكل نبأ مستقر ، والمستقر هو ما طُلب القرار فيه . والنبأ مظروف والمستقر مظروف فيه . والمظروفية تنقسم قسمين : مظروفية زمان ، ومظروفية مكان . أى أن الحق سبحانه وتعالى جعل لكل حدث زمانا ومكانا يقع فيهما الخبر . وسوف يعلم الإنسان مستقر كل خبر عندما يأذن الحق بميلاد هذا المستقر الذى يُعلن فيه الخبر .

النبأ ـ إذن ـ هو الخبر العظيم المدهش . ولا أعظم من تجلى السماء على الأرض بمنهج جديد ينقذها مما هى فيه من ضلال ، وهو منهج عام لكل زمان ولكل مكان . إذن هو نبأ عظيم ؛ لأنه يخلص دنيا الناس من جبابرة الأرض ، ويلفت كل الناس إلى منهج يخرجهم جميعاً من أهوائهم . فلا أضر بالمجتمع من أن يتبع كل إنسان هواه ؛ لأن هوى كل نفس يخدم شهواتها ، والشهوات متضاربة ، فإذا حكّم كل إنسان هواه فلن تجد فى الأرض قضية متفقاً عليها . ولذلك تكفل الحق سبحانه وتعالى للإنسان بمسألة تنظيم المنهج وهو الأمر الذى تختلف فيه الأهواء . وأما الأمر الذى تلتقى فيه الأهواء وهو استنباط ما فى الأرض من كنوز واستكشاف ما فى الكون من أسرار فقد تركه الحق للإنسان ليستنبطه بالعقل الذى خلقه الله ، من الكون

الذى خلقه الله ، وليسعد الإنسان بتلك الأسرار التى يستكشفها فى الكون .

ويؤكد لنا واقع الحياة هذه القضية ، ونجد طموح العقل البشرى عندما فكر فى مادة الكون استنبط منها الأسرار وأنجز الكثير من الاكتشافات العلمية . ولم تختلف الدول والمعسكرات فى تلك المجالات ، بل التقت كل الأهواء عند هذه الاكتشافات ، فلا توجد ـ كما قلنا ـ كهرباء روسية وأخرى أمريكية ، ولا نجد « كيمياء انجليزية » وأخرى « فرنسية » ، ولذلك تجد الأنظمة السياسية والاجتماعية على اختلافها تلتقى فى مجالات العلم وتتفق ولا تختلف حتى إن بعضها قد يسرق من البعض الآخر ما توصل إليه . ولا نجد فى عالم المادة والمعمل والتجربة اختلافات بين نظام سياسى ونظام آخر ، بل تلتقى الأهواء عند القوانين المكتشفة والمأخوذة من مادة الكون ، وهو الأمر الذى تركه الله للناس ليكونوا أحراراً فيه ، يفكرون ، وينظرون ، ويتأملون ، ويبتكرون ، ويصلون إلى أسرار فى الكون تخفف عنهم تبعات الحياة ، وتؤدى لهم غايات السعادة فى الوجود بأقل مجهود .

ولكننا نجد الصراع العنيف على الجانب الآخر ـ جانب المبادىء والمنهج ـ وهو صراع لا يهدأ أبداً ؛ لأنه صراع الأهواء فيما لم تحكمه تجربة مادية ، وهم يختلفون خلافات عميقة ، الرأسمالية تختلف عن الاشتراكية ، وتتنوع الخلافات بين كافة المذاهب التى أنتجتها الأهواء : الشيوعية ، الوجودية ، الاشتراكية ، الرأسمالية ، وكل هذه المسائل لم تحكمها تجربة أو معمل لذلك كان الخلاف . ومن المؤسف أن البشر قد استغلوا ما اتفقوا فيه من ابتكارات علمية فى فرض النظم التى اختلفوا عليها .

وقد أوضح الحق سبحانه لرسوله صلى الله عليه وسلم هذا الأمر ؛ إنه جل وعلا قد ترك عقول البشرية حرة فى كل ما يخضع للتجربة ، ولكنه نظم حياة الإنسان على الأرض فى ضوء المنهج الإيمانى ؛ لأن الإسلام جاء فى إثر ديانة حاول القائمون على أمرها من الكهنة أن يفرضوا سيطرة الكهنوت على العقل البشرى فى أسرار الكون .

والمثال على ذلك واضح تماماً فى التاريخ البشرى ، ففى العصر الذى تأخرت فيه أوروبا وسُمى « عصر الظلمات » كان المسلمون فى الشرق باتباعهم لمنهج الله يعيشون

فى عصر النور ؛ لأن الإسلام علمهم مجال استعمال العقل وقدراته على استنباط أسرار الله فى الكون ، وجاء سبحانه بهذا الدين وهو النبأ العظيم ليوضح لنا فى مسيرة هذا الدين كل عبرة ، وكأنه يقول لنا :

إن هذا الدين قد بدأ ضعيفاً والذين آمنوا به قلة مستضعفة لا يستطيعون حماية أنفسهم بل تلمسوا الحماية وطلبوها عند ملك غريب فى الحبشة ، وعلى الرغم من ذلك أنتصروا لأنهم أخذوا بهذا الدين .

وقال صلى الله عليه وسلم مقالة ربه :

﴿ لِكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

ومعنى « مستقر » أى ميلاد يستقر فيه . أى لا تتعجلوا الأحداث ، ولا تجهضوها ؛ فإن شاء الله سيكون لهذا الدين انتشار ، وهذا الانتشار له ميلاد فى زمان وميلاد فى مكان ، أما زمانه فإلى أن تقوم الساعة ، وأما مكانه فالأرض كلها ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء رسولاً للناس كافة ، وخاتما للنبيين والمرسلين .

ويؤيد الحق سبحانه قضية « لكل نبأ مستقر » بأن يشهد الواقع من الحقائق ما يؤكد ذلك . ومثل ما حدث فى الزمن القريب المعاصر لميلاد الدعوة الإسلامية . فحينما جاء الإسلام آمن به قلة مستضعفة ، ولما نزل قوله سبحانه :

﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ ﴾

(سورة القمر)

قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : أى جمع هذا الذى سيهُزم ويولون الدبر ونحن لا نستطيع حماية أنفسنا ؟ فلما جاء يوم بدر ورأى مصارع القوم كما قالها رسول الله صلى الله عليه وسلم بلاغاً عن الله قال عمر بن الخطاب : صدق الله ، لقد هُزم الجمع وولَّوْا الدبر . ونجد كل قضية قرآنية محفوظة ومسجلة فى السطور ، يحفظها الله حتى لا يكون للناس على الله حجة ؛ لأنه سبحانه القائل :

﴿ لِكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

فلو لم يكن الواقع يؤيد أن لكل نبأ مستقراً ، ولكل حدث ميلاداً زماناً ومكاناً ، فماذا يظن الناس الذين يستقبلون القرآن ؟ لذلك أتى الحق بكل قضية قرآنية ومعها دليلها ، وأعطى الحق بعضاً من الحقائق الموثقة بالأحداث زماناً ومكاناً ليتأكد قوله الحق :

﴿ لِكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

وقد علمت الدنيا وانتصر الإسلام . لقد شاء الحق أن يربى حامل الدعوة الأول ـ عليه الصلاة والسلام ـ ويعلم معه صحابته رضوان الله عليهم ، يعلمهم منطقاً ليسايروا به أحداث الكون .

ونعلم أن الحق سبحانه وتعالى كان يُنزل الرسل بالأديان على فترات ، وعندما الفساد فى الأرض ينزل الحق منهجه على رسول ليهدى الناس إلى الصراط المستقيم ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى جعل فى كل نفس بشرية تعادلاً ذاتياً ، فإذا اشتهى الإنسان شهوة يحرمها الدين ، وقضى الإنسان هذه الشهوة ، وهدأت شِرّة وحدّة المعصية فى نفسه ، فالإنسان يؤنب نفسه ويوبخها . ولكن النفس قد تستمرىء الشهوات ، وينعدم الوازع الذى يردع الإنسان .

وإذا انعدم الوازع فى فرد واحد فلن ينعدم فى المجتمع ، ونجد من الناس من يحمل المجتمع على المعروف ، ويوجه صاحب النفس التى استمرأت المعصية إلى التوبة والخير . أما إذا عم الفساد فى الفرد وفى المجتمع فماذا يكون الموقف ؟

لا بد أن تتدخل السماء برسول جديد ، ومنهج جديد . ويأتى الرسول الجديد ومعه المنهج اللازم لإصلاح الكون . ولا يتبع الرسول الجديد إلا المستضعفون القلة ، وأهل البصيرة من أهل القوة حتى لا يظن ظان أن الضعفاء لاذوا بالدين ومالوا إليه بسبب ضعفهم . ويحذر الحق المؤمنين وكأنه يقول : إنكم تواجهون باطلاً

عض الناس وأرهقهم وأعنتهم ، وحين يعضّ الباطل المجتمعات فالذى ينتفع من ذلك هم أهل الباطل ، والذى يشقى بذلك هم أهل الحق ، فلكل فساد طبقة منتفعة به . وحين توجد الطبقة المنتفعة بالفساد . وحين توجد كلمة الحق فإن المنتفعين بالفساد ينظرون إلى نفوذهم الذى سينحسر حتماً عندما تسود كلمة الحق .

وحين ينتصر الحق لا بد أن يزول الفساد ومعه كل نفوذ أهل المفاسد . لذلك يقف المنتفعون من الفساد ضد الدين الجديد ليحافظوا على مكانتهم فى المجتمع . ويقول الحق تهذيباً للمؤمنين ، وتأديباً لغير المؤمنين :

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾

وبهذا القول يوضح الله لرسوله صلى الله عليه وسلم : اعلم أن ما جئت به سيخاض فيه ، ويقال مرة إنه سحر ، ومرة إنه شعر ، وثالثة إنه كهانة ، ورابعة يتهمونك بالكذب ، ولا يقول ذلك إلا المنتفعون بفساد الكون ، فإذا ما جاء مصلح فسيجعلونه عدواً لهم . لذلك لابد أن تحافظ على أمرين . . الأمر الأول : أن الذين اتبعوك ـ وهم ضعاف ـ قد لا يستطيعون مواجهة القوة الظالمة ؛ لذلك لا تحملهم ما لا طاقة لهم به ولكن تَرَيَّثْ ؛ فإن لكل نبأ مستقراً ، والأمر الثانى : أنك إذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم وبيِّن لهم الجفوة فلا تقبل عليهم ، ولا توادهم ، ولا تستمع إليهم ، ولا يسمع إليهم أصحابك ، لماذا ؟ ؛ لأنهم يخوضون فى آيات الله . ولكن أيستمر هذا الإعراض عنهم طَوال الوقت ؟ ، لا ، فالإعراض عنهم إنما يكون فى أثناء خوضهم وتكذيبهم لآيات الله ، أما فى غير ذلك من الأوقات فاعلم أن آذانهم فى حاجة إلى سماع صيحة من الحق ، لذلك انتهز فرصة عدم خوضهم فى دينك وفيك ، ولقّنهم ما تبشر به ، ولقّنهم كذلك ما تنذر به ؛ لأنك إن تركتهم على ضلالهم فإن قضية الإيمان تصير بعيدة عنهم ، وأنت مهمتك البلاغ ، والله يريد الخير لكل خلقه .

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ﴾

(من الآية ٦٨ سورة الأنعام)

وكلمة « الخوض » هذه تشعرنا بمعنى فى منتهى الدقة ؛ لأن الخوض فى أصله هو الدخول فى الماء الكثير . والماء الكثير ساتر لما تحت قدمى الذى يخوض فيه ، ومادام قد ستر ما تحت قدميه فهو لا يدرى إلى أى موقع تقع قدماه ، وربما وقعتا فى هوّة ، لكن الذى يسير فى غير ماء فالطريق واضح أمامه ، يضع قدمه حيث يرى فيها ثباتاً واستقراراً وعدم إيذاء . وأخذوا من ذلك المعنى وصف الكلام بالباطل ، لأنه خوض بدون اهتداء . ولذلك يقول الحق :

﴿ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾

(من الآية ٩١ سورة الأنعام)

ولماذا وصف فعلهم هذا بأنه لعب ؟

ذلك لأن اللعب هو شغل النفس بشىء غير مطلوب وكان فى قالب الجد . ولكن إذا كان هذا الشىء يؤدى إلى نبوغ فى مجال من مجالات الحياة فنحن ندرب أبناءنا عليه فى فترة ما قبل البلوغ . ومثال ذلك تدريب الأبناء على السباحة والرماية. وركوب الخيل . وما إن يبلغ الإنسان فترة البلوغ حتى تصير له مهمة فى الحياة ، ويصبح عليه أن يتحمل المسئولية ، فلا يضيع وقته فى اللعب أو فيما يلهيه عن أداء الواجب .

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ﴾

(من الآية ٦٨ سورة الأنعام)

والنفس البشرية لها أغيار . وهذه الأغيار قد تنسيها بعض التوجهات . لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم موعود من ربه بعدم النسيان .

﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ ﴾

(سورة الأعلى)

فإذا كان هذا بالنسبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم فكيف نفهم قول الحق هنا :

﴿ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

(من الآية ٦٨ سورة الأنعام)

إننا نفهم هذا القول على أساس أنه تعليم لأمة محمد صلى الله عليه وسلم ، وحينما ينزل أمر من السماء فرسول الله أولى الناس بتطبيقه ، فإذا كان الرسول يُخاطَب : « وإما ينسينك الشيطان » فإذا ما نسى إنسان لغفلة من الغفلات ، فليأخذ علاج الله للنسيان ، وهو ألا يقعد مع هؤلاء القوم الذين يخوضون فى آيات الله فى أثناء خوضهم ، ولكن عليه أن يتركهم ويعرض عنهم . إذن فالحق سبحانه وتعالى احترم خلقه ؛ لأنه وهو العليم بهم ، خلق لكل إنسان ملكة حافظة ، وملكة ذاكرة ، وملكة مخيلة ، وكل ملكة من هذه الملكات تؤدى مهمة : فالملكة الحافظة تحفظ المعلومات ، والذاكرة تأتى بالمعلومات المحفوظة القديمة لتجعلها فى بؤرة الشعور . ولو لم يكن هناك نسيان لما استطاعت فكرة أن تدخل فى ذهن الإنسان ؛ لأن العقل لا ينشغل إلا بقضية واحدة فى بؤرة الشعور . وحتى تدخل قضية أخرى فى بؤرة الشعور ، لا بد أن تتزحزح القضية الأولى من بؤرة الشعور إلى حاشية الشعور .

لذلك لا بد من نسيان خاطر ما ليحل محله خاطر آخر . ولو ظل الإنسان ذاكراً لقضية من القضايا فى نفسه لصار من المحال أن تدخل قضية جديدة أخرى . ولهذا خلق الله النسيان ، أى انتقال قضية ما من بؤرة الشعور إلى حاشية الشعور . والإنسان منا يتذكر شيئاً حدث من عشرين عاماً ، ثم يمر هذا الحادث بالخاطر فجأة ، ويتساءل الإنسان ، كيف ؟ ويعرف الإنسان أن هذا الحادث كان محفوظاً ومصوناً فى دوائر شعورية بعيدة . ولذلك نجد الإنسان عندما يريد استعادة معنى من المعانى فهو يترك لنفسه فرصة لاستعادة هذا الخاطر أو ذلك المعنى ، ولذلك يسمون هذه المسألة « تذكر » .

﴿ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

(من الآية ٦٨ سورة الأنعام)

ولماذا ينسب الحق النسيان للشيطان ؟ ، لأن حقائق الحق فى دينه هى الصدق ،

ولا يصح أن تغيب أبداً عن بال المؤمن ، وهى لا تغيب عن بال المؤمن إلا بعمل الشيطان ، فالشيطان يزين الأمر الذى يحبه الإنسان ويشغله عن أمر آخر ، فإذا ما نزغ الشيطان لينسى الإنسان ، وتذكر الإنسان أن هذا من نزغ الشيطان فليستعذ بالله من الشيطان ولا يقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين .

وأنت حين تفعل ذلك وتنفر من هؤلاء القوم الظالمين فأنت تلفتهم إلى أن ما عندك من يقين إيمانى هو أعز عندك مما فى مجالسهم من حديث وما يكون لديهم من نفع . وبذلك تنتفع أنت بهذه التذكرة وهم أيضاً يلتفتون إلى أهمية الإيمان وأفضليته عند المؤمن على ما عداه .

وما كان الحق سبحانه وتعالى ليفرض على المؤمنين مقاطعة المشركين فى أثناء فترة ضعف المؤمنين فى بداية الدعوة . وكان المؤمنون يلتقون فى المسجد الحرام ، وكان المشركون يذهبون أيضاً إلى الكعبة قبل فتح مكة ، فهى مكان حجيجهم ، فهل يقاطع المسلمون المسجد الحرام فى بداية الدعوة الإسلامية ولا يلتقون ؟ قطعاً لا . ولكن كان المسلمون يذهبون للقاء فى المسجد الحرام ، وإذا جاء الذين يخوضون فى آيات الله فهم يعرضون عنهم . ووزر الخائضين على أنفسهم . ولذلك يقول الحق :

﴿ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾

أى أنك إذا كنت معهم وخاضوا فى الحديث فقمت من مجلسهم أو نسيت وقعدت ثم تذكرت فقمت ، فأنت تلفتهم إلى أنّ ما أقامك من مجلسهم هو شىء أكثر أهمية من هذا المجلس ، إنه احترام تكليف الله فيما أمرك به ونهاك عنه ، وليس عليك ولا على الذين يتقون الله من أوزار هؤلاء الظالمين من شىء ، وليس عليكم من حسابهم من شىء ، ومجرد قيامكم من مجلسهم هو تذكرة لهم لعلهم يتفكرون فى منطق الحق ويخشون الله ويبعدون أنفسهم عن الوقوع فى الباطل حتى يكونوا فى وقاية من عذاب الله وسخطه .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾

قلنا ـ من قبل ـ : إن اللعب هو الاشتغال بما لا يفيد لقتل الوقت . وعرفنا أن اللعب مجاله قبل التكليف أى قبل سن البلوغ . وإذا شغلك اللعب عن شىء مطلوب منك فهو لهو ؛ لأنك لهيت عن أمر واجب عليك ، فاللهو ـ إذن ـ هو الترويح عن النفس بما لا تقتضيه الحكمة .

وقوله الحق : « وغرتهم الحياة الدنيا » هو تصوير لا يوجد أبرع منه ؛ لأنهم من أصحاب العقول التى تغتر بالحياة الدنيا فهى عقول تائهة ؛ فالعقل الناضج يفهم الدنيا على أنها أقل شأناً من أن تكون غاية ، ولكنها وسيلة أو مجال وطريق ومزرعة إلى الآخرة .

وعلى العقل الناضج أن يعاملها دون نسيان مهمتها ، وآفة الناس أنهم جعلوا الوسائل غايات ، وغاية وجود الناس على الأرض أن يعمروها بالعمل الصالح وعبادة الحق ، فمن انحرف عن ذلك فله عقابه يوم الغاية الكبرى ، وهو يوم الحساب .

إننا نعلم أن غاية الإنسان من الحياة الدنيا ليست أن يعيش عمراً طويلاً ، ولا أن

ينال المناصب ، ولا أن يحصل على الثراء ، ولا أن ينال القوة ، فكل ذلك من الأغيار ، والأغيار تختلف من إنسان إلى آخر .

وما نختلف فيه نحن البشر ليس غاية لوجودنا ، والغاية للوجود الإنسانى لابد أن تكون واحدة . وأن نتفق فيها جميعاً ، هذه الغاية هى ما نصير إليه بعد الموت . ونجاح كل عمل بمقدار ما يقرب الغاية منه . ولذلك فالمؤمن الحق يرى استقبال البشر لقضية الموت استقبالاً أحمق ، فعندما يموت شاب فى العشرين نجد من يقول : « إنه لم يستمتع بشبابه » والمؤمن الحق يرد على مثل هذا القول متسائلاً : أين تريد أن يستمتع بشبابه ؟ . ويجيب أصحاب الفهم السطحى : لقد مات قبل أن يستمتع بشبابه فى هذه الدنيا .

ويقول المؤمن الحق : وهل هذه الدنيا هى الغاية ؟ . إنها ليست الغاية ، بل الغاية هى الحياة الأخرى . ومنْ مات قبل التكليف فقد أنقذه الله من الحساب وأوطنه الجنة يتلقى نعيمها الدائم . فلماذا - إذن - هذه المبالغة فى الحزن على أى ميت ؟ . والذى يقترب من الغاية يحب هذه الغاية . وهب أن إنساناً غايته أن يذهب إلى الإسكندرية ، والوسيلة إليها قد تكون حصاناً أو عربة أو طائرة ، فكل شىء يقربه من الغاية يكون هو الأفضل .

فإذا كان الله يريد أن يأخذ بعضاً من خلقه وهم فى بطون أمهاتهم ، فهذه إرادته ، والذى ذهب من بطن الأم إلى القبر قرب من الغاية ، وخلص من المراحل التى كانت تحمل فى طياتها الفتنة . ودخل الجنة .

وهب أن الوليد عاش إلى عمر المائة وصار شيخاً ومر بكل اختبارات الفتنة واستقام على المنهج ، فإلى أين مصيره ؟ إنه إلى الجنة .

إذن فعلينا أن نستقبل كل قدر لله بحب : قدر الميلاد أو قدر الخروج من الدنيا ، ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾

(سورة الملك) .

إنه سبحانه لم يقل إنه خلق الحياة والموت ، لا ، بل قال : « خلق الموت والحياة » وذلك حتى يستقبل كل منا الحياة ، ويسبقها فى الذهن ما ينقض هذه الحياة وهو الموت . إذن فهذه هى الغاية التى يتفق فيها كل الجنس البشرى ، أما ما عداها فهى أغيار نختلف فيها .

لذلك لا تقل إن الغاية من ابنك أن ينجح فى القبول للإعدادية ثم يحصل على الشهادة الإعدادية ، ثم يحصل على الثانوية العامة ، ثم يحصل على ليسانس الكلية أو بكالوريوس التخرج أو درجة الماجستير أو درجة الدكتوراه ، ثم يصير صاحب شأن فى الحياة ، لا تقل ذلك ؛ لأن كل ذلك ليس غاية فى الحياة ، ولأن الغاية هى ما لا يوجد بعدها بعد ،ولكن علينا أن نقوم بإعمار الأرض كما أمرنا الله ولكن لا نجعلها هى الغاية .

ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ ﴾

(سورة الحديد)

هذه هى الحياة الدنيا ، ولذلك يجب أن نحيا دائماً على ضوء ما ينجينا من العذاب وهو ذكر الله ، إن الحق سبحانه يقول :

﴿ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ ﴾

(من الآية ٧٠ سورة الأنعام)

والذكر هنا مقصود به التذكير بالقرآن وهو المنهج النازل من السماء وطبقه رسول الله ، وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم من الذكر أيضا ، أو الذكر هنا مقصود به العذاب الذى ينتظر من يخالف المنهج ، وقوله الحق : « وذكر به » ، يدل على أن منطق الفطرة يقتضى أننا نعرف أن الحق لا يمكن أن يعامل المتقين فى الدنيا كما يعامل

المنحرفين . ومثال ذلك الإنسان الذى يخوض فى أعراض الناس ويظلمهم لا يتصور أبدًا أن يلقى من الحق ـ سبحانه ـ المعاملة التى يعامل بها الإنسانَ الملتزم بمنهج الإيمان ؛ فالفطرة تقول لنا : إن الحق يجازى كل إنسان بعمله ، سواء أكان الجزاء فى الدنيا أم فى الآخرة . ومن المأثور عن بعض العرب أنه قال : لن يموت ظلوم حتى ينتقم منه الله . ومن بعد ذلك مات رجل ظلوم ولم ير فيه الناس انتقام السماء ، فقال الرجل العربى :

والله إن وراء هذه الدار دارًا يُجازى فيها المحسن بإحسانه والمسىء بإساءته .

« وذكر به أن تبسل نفس بما كسبت » والبَسْلُ معناه : المنع ، والمنع له صورتان : الأولى منع حركة حياة حى . . أى أن تحبسه فى مكان محدد يتحرك فيه ، والثانية : منع من أصل الحياة . . أى أن تهلكه وتزهق روحه ، « تبسل نفس بما كسبت » أى تُمنع نفس بما كسبت ، والمنع إما بالهلاك أو بالحبس حبساً يديم عليها العذاب . والحبس ـ فى أعراف البشر ـ هو وضع إنسان فى مكان لكفه عن ظلم غيره ، أى أننا نمنع شرور إنسان عن المجتمع بوضعه فى الحبس .

وعندما جاء الإسلام لم يحبس فرداً إنما حبس المجتمع عن فرد ، وهذا عقاب أكبر وأشد ؛ فقد ترك الإسلام المجرم حرّاً فى المجتمع ولكنه حبس المجتمع عنه ؛ فالمجرم يمشى فلا يجد من يكلمه أو يضحك له أو يفرح معه أو يشاركه حزنه .

وحدث ذلك عندما حبس المؤمنون أنفسهم عن ثلاثة تخلفوا عن الغزو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إن إنساناً منهم جاء ليقرب امرأته فرفضت . وحاول ثانٍ أن يسلم على ابن عمه فما رد عليه السلام فجلس يبكى . وقاطع كل الناس هؤلاء الثلاثة ، وهذه هى عظمة الإسلام ، لقد سجن المجتمع عن المجرم فتعذب المجرم بقطيعة المجتمع له .

« وذكر به أن تبسل نفس بما كسبت » أى ذكر بالقرآن أو بالمنهج أو بعاقبة مخالفة الإنسان للمنهج . والعقاب إما حبس وإما هلاك ، وذلك بسبب ما تكسب النفس . والكسب فى اللغة معناه زيادة على رأس المال . وللكلمة اشتقاق ثان وهو « اكتسب » . ومرة تأتى الكلمتان فى معنى واحد ، فالكسب يحدث دون افتعال ودون

تعب أو مشقة ، أما الاكتساب فهو يحدث بافتعال وبمعالجة وعنت ؛ لأن الذى يصنع المحرَّم يأخذ أكثر من قدرة ذاته ، فيكون قد اكتسب . أما الذى يأخذ الأمر المشروع له فهو قد كسب . ولكن بعض الناس تأخذ ما اكتسبوه باحتيال ومكر ويظنون أنه كسب وهذا هو الشر ؛ لأنه يأخذ غير المشروع له ويحلله لنفسه ، ويعتبره كسباً لا اكتساباً .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ﴾

(من الآية ٢٨٦ سورة البقرة)

إن « لها » أى لصالح النفس ؛ لأنها أخذت ما هو حق لها . و« عليها » أى ضد النفس ؛ لأنها افتعلت فى أخذ ما ليس حقاً لها . ومثال ذلك : نظرة الرجل إلى زوجته ، إنها نظرة طيبة إلى حلال طيب . لكن نظرة الرجل إلى امرأة غريبة قد تحتوى من الافتعال الكثير ؛ فهو يتلصص ليراها ، ولا يرغب فى أن يراه أحد وهو يختلس النظر إليها ، وهذه كلها انفعالات مفتعلة .

ومثال آخر : سيدة البيت عندما تدخل إلى مطبخها فتتناول شيئاً لتأكله ، إنها تأكل من حلال مال زوجها ، أما الخادمة فعندما تريد أن تأخذ قطعة من اللحم من المطبخ دون علم أهل البيت فهى تتلصص ، وتحاول معرفة عدد قطع اللحم ، وقد تتساءل بينها وبين نفسها : ألم تقم ربة البيت بحصر عدد قطع اللحم ؟ ولذلك فهى تأخذ من كل قطعة لحم قطعة صغيرة . وهذا افتعال يتعب الجوارح ؛ لأن مثل هذه الأمور تتعب ملكات الإنسان ، إنّه يحاول أن يرضى ملكة واحدة فيتعب كل ملكاته الأخرى .

﴿ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ﴾

(من الآية ٧٠ سورة الأنعام)

إذن فهذه النفس التى تحبس وتسلم نفسها إلى الهلكة والعذاب بسوء كسبها ليس لها من دون الله ولى ولا شفيع ، ولا يُقبل منها عدل . وهذه مراحل متعددة تبدأ بقوله الحق : « ليس لها من دون الله ولى » والولى هو الذى ينصرك إن كنت فى مأزق .

ومأزق الآخرة كبير ، فماذا عن الإنسان الذى ليس له ولاية ؟ إنه العذاب الحق .

والمرحلة الثانية « ولا شفيع » أى ليس له من يشفع عند من يملك النصرة وهو الله ؛ فالذى يحبك إن لم ينصرك بذاته فإنه قد يشفع لك عند من يستطيع أن ينصرك . وهذا أيضاً لا يوجد لمن لم يتذكر ويتعظ ولم يتبع المنهج الإيمانى .

والمرحلة الثالثة « وإن تعدل كل عدلٍ لا يؤخذ منها » أى أنه لا تقبل منه فدية . فهذه المنافذ الثلاثة قد سُدّت ولا سبيل للنجاة لهؤلاء الذين قال فيهم الحق : « أولئك الذين أبسلوا بما كسبوا » أى أهلكوا أو حُبسوا فى الجحيم حبساً لا فِكاك منه ، وليس هذا فقط ولكن الحق يقول أيضاً : « لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون » .

إن كلمة « شراب » إذا سمعناها فإننا نفهم منها الرِّى . ولكن الحق هنا يتبع كلمة « شراب » بتحديد مصدر هذا الشراب ، إنه « من حميم » ليحدث ما يُسمى « انبساط » و« انقباض » ؛ فالشىء الذى يسرّ الإنسان تنبسط له النفس . والشىء الذى يحزن الإنسان تنقبض له النفس . ولو أن الأمر المحزن جاء بداية فى هذا القول الكريم لانقبضت النفس فى المسار الطبيعى ، لكن الحق شاء أن يأتى أولاً بكلمة من يسمعها تُسر نفسه وهى « شراب » ثم تبعها بما يقبض النفس « من حميم » ليكون الألم ألمين : ألم زوال السرور ، وألم مجىء الحزن .

ويصور القرآن فى موضع آخر هذه الصورة فيقول :

﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الكهف)

وتنبسط النفس حين تسمع الجزء الأول وهو : « وإن يستغيثوا يغاثوا » ولكنها تنقبض فور سماعها « بماء كالمهل يشوى الوجوه » .

وصورة أخرى عندما يقول الحق :

﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾

(من الآية ٣٤ سورة التوبة)

وتنبسط النفس ـ كما علمنا ـ حينما تسمع خبر البشارة ؛ لأن البشارة تأتى للأمر المفرح ، وتنقبض عندما تعلم أن البشارة هى بالعذاب الأليم . إذن فقد جاء الحق بالانبساط ، وجاء بالانقباض . وهذه سنة من سنن الله فى التأديب . ومثال على ذلك : عندما يرتكب إنسان مظالم كثيرة ، وتفاقم واستفحل شره ويريد الله أن ينتقم منه ، إنه سبحانه لا ينتقم منه وهو على حاله الطبيعى ، إنما يرفع الحق ـ سبحانه ـ هذا الظالم إلى درجات عالية ثم يخسف به الأرض .

ولذلك يقول الحق :

﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً ﴾

(من الآية ٤٤ سورة الأنعام)

وساعة تسمع « فتحنا عليهم » فأنت تخاف ؛ لأن الفتح هنا « عليهم » وليس « لهم » . لكنك ساعة تسمع قوله الحق :

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ ﴾

(سورة الفتح)

فإنك تحس بالانشراح والسرور ؛ لأن الفتح هنا لصالح المتلقى وليس عليه . هكذا يريد الحق أن يَصْلَى المتجبرون العذابَ المضاعفَ :

﴿ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾

(من الآية ٧٠ سورة الأنعام)

والعذاب هنا نتيجة لما فعلوه وليس فعل جبار متسلط . أما غيرهم من المتساوين معهم فى الملكات ، واختاروا الخير فآمنوا بالمنهج وطبقوه على أنفسهم فقد نالوا الخير بما فعلوا ، والتكوين الإنسانى فى ذاته صالح لفعل الخير ولفعل الشر ، وسنة الحق واضحة جلية :

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾ ﴾

(سورة الزلزلة)

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ قُلْ أَنَدْعُوا مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ ﴾

هذه الآية تبدأ بسؤال عن عبادة الأصنام أو غيرها ، ما الذى صنعته تلك الأصنام أو غيرها لمن عبدها ؟ وماذا صنعت لمن لم يعبدها ؟ . وهذا أول منطق فى بطلان ألوهية غير الله ، فمن عبد الشمس مثلا ماذا أعطته الشمس ؟ ومن كفر بها كيف عاقبته الشمس ؟ . إنها تشرق لمن عبدها ولمن لم يعبدها . والصنم الذى عبدوه ، ماذا صنع لهم ؟ لا شىء . وهذا الصنم لم يُنْزِل عقاباً على مَنْ لم يعبده ، بل إن الذى انتفع هو من لم يعبد الأصنام ؛ لأنه أعمل فكره ليبحث عن خالق لهذا الكون .

وهكذا نجد النفع والضر إنما يأتيان من الإله الحق : « ونرد على أعقابنا بعد إذ هدانا الله » والإنسان دائماً حين يسير فهو يقطع خطوة إلى الأمام فيقصر المسافة أمامه ، أما من يُرَدُّ على عقبه فهو من يرجع هذه الخطوة التى خطاها .

وهذا حديث المؤمنين الذين يرفضون أن يعودوا إلى عبادة غير الله لأنهم آمنوا وساروا فى طريق الهدى ، وليس من المنطق أن يرتدوا على أعقابهم وأن ينقلبوا خاسرين .

« كالذى استهوته الشياطين فى الأرض » كلمة « شيطان » مقصود بها عاصى الجن . والجن جنس مقابل للإنس ، وما دام فى الإنس طائعون وعاصون فكذلك فى الجن طائعون وعاصون .

والحق قال :

﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ۝٢ ﴾

« سورة الجن »

إذن فمن الجن من هو مؤمن . ومن الجن من هو عاصٍ . والعاصى من الجن يُسمى شيطاناً . وإياك أن تنكر أيها المسلم وجود الشيطان لأنك لا تراه ، لأن الشيطان من المخلوقات التى ذكرها الله من عالم الغيب ، وحجة وجودها هو تصديقك لمن قال عنها ، وهناك فرق منطقى وفلسفى بين وجود الشىء وبين إدراك وجود الشىء . والذى يتعب الناس أنهم يريدون أن يوحدوا ويربطوا بين وجود شىء وإدراكه . وهناك فارق بين أن يوجد أو يدرك ؛ ذلك أن هناك ما يكون موجوداً ولكنه لا يُدرك .

﴿ قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ﴾

« من الآية ٧١ سورة الأنعام »

جاء هذا التصور فى صورة استفهام . إنّ الحق طلب من رسوله أن يقوله ، فكأن الصورة : أن قوماً هداهم الله إلى الحق فدُعُوا إلى أن يعبدوا غير الله ويدعوا مالا ينفع ولا يضر ، فيردوا على أعقابهم ، أى بعد الهداية ، وهذه هى صورة الحيرة والتردد ؛ لأنهم كانوا على هدى ، ثم دُعُوا إلى أن يعبدوا من دون الله مالا ينفع ولا يضر . وأراد الحق سبحانه وتعالى أن يعطينا صورة لهذه الحيرَة ، ولهذا التردد ، فقال : « كالذى استهوته الشياطين » .

و « استهوته » من مادة « استفعل » وتأتى دائماً للطلب ؛ كقولنا « استفهم » . أى طلب الفهم ، و « استخرج » . أى طلب الإخراج للشىء ، « فاستهوته » طلبت هُوِيَّه . أى جعلته يتقبّل ما تريد واستولت عليه دون أن يكون لديه أى دليل أو حجة على صحة ما تدعوه إليه بأن صار عجينة تشكله الشياطين كما تشاء ، وترد مادة « الهاء والواو والياء » لمعانٍ ، إن مُدَّت ؛ فهى الهواء الذى نتنفسه ، وما به أصل الحياة ، وإن قُصِرَت ؛ فإنها هى الهَوَى وهو ميل النفس إلى شىء ، أو تكون هُوِيًّا أى سقوطاً .

إذن فالمادة تأتى إما للهواء إن كانت ممدودة ، وإن كانت بالقصر فهى من الهَوَى أو من الهُوِىّ ؛ كأن تقول : « هَوَى ، يَهْوِى ؛ هُوِيًّا . أى سقط من علوٍّ إلى أسفل ، وهَوِىَ ، يَهْوَى ، هَوًى . أى أحبَّ ، وهكذا نعرف أن « استهوته » أى طلبت هُويَّه أو هواه أى ميل نفسه إلى اتباع الهَوَى ، وحين تستهوى الشياطين الإنسان فهى تريد أن تجتذبه إلى ناحية هواه ، وتوقظ الهوى فى النفس ، وبذلك تدعوه ليَهْوِى . والحق يقول :

﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ﴾

« سورة الحج »

وحين يخرّ عبد من السماء ، إما أن تتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق ، وحين تأتى إلى الهَوَى والهُوِىّ فاعلم أن الهوى يجذبك إلى ما يضرك ، ولذلك لا تسلم منه إلا أن يكون هواك تبعا لما جاء به الحق . ولكن إن اتبعت هواك فلابد أن يؤدى بك إلى الهُوِىّ :

﴿ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَـٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ ﴾

« من الآية ٧١ سورة الأنعام »

وما هى الحَيْرة ؟ هى التردد بين أمر ومقابله . وعرفنا من قبل أن الحَيْرة فى هذه الآية جاءت لمن اهتدى وسار خطوة للمنهج ثم رُدَّ على أعقابه ورجع ، ولكن له أصحاب يدعونه إلى الهدى ، فهو بين شيطان يستهويه ، وأصحاب يدعونه للمنهج ؛ لذلك يكون حيران : بين هاوية ونجاة ، والشىء الذى يهوى لا استقرار له ، وحين نرى ـ على سبيل المثال ـ حجراً يهوى للأرض نجده يدور ، ولا اتجاه له . وهذه صورة معبرة ، ويأتى له القول الفصل :

﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ﴾

« من الآية ٧١ سورة الأنعام »

فمن يتبع إذن ؟ إنه يتبع الذين يدعونه إلى منهج الحق سبحانه وتعالى ؛ لأن الهدى

هو المنهج والطريق الموصل للغاية ، والصنعة لا تضع غاية لنفسها ، بل الذى يضع الغاية هو من صنعها ، وسبق أن قلت : إنّ التليفزيون لا يقول لنا غايته ، ولا يعرف كيف يصون نفسه ، بل يضع ذلك مَنْ صنعه ، وكذلك الإنسان عليه أن يأخذ غايته مِمَّن خلقه ، والذى يفسد الدنيا أن الله خلق ، لكن الناس أرادوا أن يضعوا لأنفسهم قانون الصيانة ، لذلك نقول : إن علينا أن نأخذ قانون الصيانة ممن خلقنا ، وهدى الله هو هدى الحق .

وجاءت « الهدى » هنا لتعطينا يقيناً إيمانياً فى إله واحد ، وحين توجد عقيدتنا فى إله واحد ، لا تختلف أهواؤنا أبداً ؛ لأنه هو الذى يضع لنا القانون ، وساعة يضع لنا القانون ويكون كلٌّ مِنَّا خاضعا لقانونه ، لا يذل أحد منا لأحد آخر ؛ فأنا وأنت عبيد لإله واحد ، ولا غضاضة عليك ولا غضاضة علىّ . وحين يُريد البشر أن يسير الناس على أفكارهم فإن صاحب الفكر يريد أن يُذِل الآخرين له ويأخذهم على منهجه وعلى مبدئه ، وهو فى الحقيقة ليس أفضل منهم ، ولذلك تجد الهداية الحقة حين نخضع جميعاً لإله واحد ، ويتساند المجتمع ويتعاضد ولا يتعاند ، ويتوجه الهوى إلى محبة منهج الله .

﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ ﴾

« من الآية ٧١ سورة المؤمنون »

ولهذا جاء الدين ؛ لأن الشرع لا يقرر شيئاً ضد الإنسان .

ونذكر جميعاً قصة ملكة سبأ وسيدنا سليمان عليه السلام حينما قالت : (وأسلمت مع سليمان) . ولم تقل:أسلمت لسليمان بل أسلمت مع سليمان لله ، فلا غضاضة أن تكون قد أسلمت فهى ليست تابعة لسليمان ، بل تابعة لرب سليمان ، إذن حين يأتى التشريع من أعلى ، لا غضاضة لأحد فى أن يؤمن ، ولا يظن واحد أنه تبع لآخر بل كلنا عبيد لله . وحين نكون جميعاً عبيداً لواحد نكون جميعاً سادة .

ويتمثل الهدى فى الإيمان بإله واحد ، ونأخذ هذا الإيمان بأدلتنا العقلية . إننا ندخل عليه من باب العقل ، ونسلم أمرنا له ؛ لأنه هو أعلم بما يصلحنا .

﴿ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

« من الآية ٧١ سورة الأنعام »

وقوله تعالى :

﴿ وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾

هنا تجد الأمر بثلاثة أشياء : نُسْلِمُ لرب العالمين ، ونقيم الصلاة ، ونتقيه سبحانه ، لماذا ؟ ؛ لأن كل الأعمال الشرعية التى تصدر من الجوارح لابد أن تكون من ينابيع عقدية فى القلب .

وكيف نسلم لرب العالمين ؟ . أى نفعل ما يريد وننتهى عما ينهى عنه ، ثم نقيم الصلاة وهو أمر إيجابى ، ونتقى الله أى نتقى الأشياء المحرمة وهو أمر سلبى ، وهكذا نجد أن الهدى يتضمن إيماناً عقدياً برب نسلم زمامنا له ؛ لتأتى حركتنا فى الوجود طبقاً لما رسم لنا فى ضوء « افعل » و « لا تفعل » ، وحركتنا فى الوجود إما فعل وإما ترك . والفعل أن نقوم بسيد الأفعال وهو الصلاة ، والترك أن نتقى المحارم ، وهذا كله إنما يصدر من الينبوع العقدى الذى يمثله قوله : ﴿ لنسلم لرب العالمين ﴾ .

والحق سبحانه وتعالى حينما يأمر بفعل أو ينهى عن شىء فهو يعلم أنك صالح للفعل وللترك ، فإذا قال لك : افعل كذا ، فأنت صالح ألا تفعل ، وإذا قال : « لا تفعل كذا » ، فأنت صالح أن تفعل ، ولو كنت لا تصلح لأن تفعل لا يقول لك : افعل ؛ لأنك مخلوق على هيئة تستطيع أن تفعل وتستطيع ألا تفعل ، وهذا هو الاختيار المخلوق فى الإنسان ، أما بقية الكون كله فليس عنده هذا الاختيار .

مثال ذلك : الشمس ، إنها ليست حرّة أن تشرق أو لا تشرق ، الهواء ليس حراً أن

يهب أو لا يهب ، والأرض فى عناصرها ليست حرّة فى أن تكتمها أو لا تكتمها ، لكن الإنسان مميز بقدرته على أن يختار بين البدائل ؛ لذلك لابد أن يكون صالحاً للأمرين ، والخطأ إنما يأتى من أن تنقل مجال « افعل » فى « لا تفعل » . أو مجال « لا تفعل » فى « افعل » . والمؤمن يأخذ منطقية « افعل » فى مجال « الفعل » ، ومنطقية « لا تفعل » فى مجال الترك .

وحين تنظر إلى الإنسان تجد أن التكليف الإلهى يناسب التكوين البشرى . وأنت تشترك مع الجماد فى أشياء ، ومع النبات فى أشياء ، ومع الحيوان فى أشياء ، وتتفوق على الكل بقدرة الاختيار التى منحك الله إياها .

ولتوضيح هذا الأمر أقول : لنفترض أن واحداً أخذك إلى مكان مرتفع ثم تركك فى الجو عندئذ تسقط على الأرض ، وهكذا تجد أن قانون الجماد ينطبق عليك ؛ فليس لك إرادة أن تقول : « لا أريد أن أقع » وهكذا نرى الجمادية فيك ، وانظر إلى « النمو » الذى لا تتحكم ولا تقدر أن تقول : « سأنمو اليوم بزيادة فى الطول قدرها نصف الملليمتر » بل أنت لا تعرف كيف تنمو ، وأنت لا تعرف كيف ينبض قلبك ، ولا سرّ الحركات الدودية للأمعاء ، ولا حركة المعدة ، أو عمل الكبد ، أو حركة التنفس التى بها تقوم الحياة ، وكل ذلك أمور قهرية ، ومن رحمة الله بنا أنها قهرية ، فلو كانت اختيارية لتحكم فيها غيرك .

إذن من رحمته بنا سبحانه أن جعلنا مقهورين فى هذه المسائل ، ومسخرين فيها ، وبعد ذلك خلق لنا الاختيار فى التكليف ، افعل ، ولا تفعل ، والتكليف من الله سبحانه وتعالى فى الأفعال التى تقع من الإنسان لا فى الأفعال التى تقع على الإنسان ؛ لأن الأفعال التى تقع من الإنسان هى التى فيها اختيار ويبحثها العقل أولاً ، لينفذها الإنسان بعد ذلك . ولذلك لا يكلف ربنا إلا العاقل الناضج ؛ لأنه لا توجد قوة تقهره على غير ما يختار . أما المجنون فليس عليه تكليف ؛ لأنه لم يُدرْ المسألة فى رأسه قبل أن يفعل ، وكذلك من لم ينضج ؛ لأنه لم يصل إلى قوة الفهم الكامل ، وكذلك المقهور على فعل بقوة إنسان أو سلطان أقوى منه .

وهكذا نعلم أن التكليف لا يلزم الإنسان فى تلك الحالات حيث لا يوجد عقل أو يكون العقل غير ناضج ، أو أن يوجد قهر .

ويتابع الحق : ﴿ وهو الذى إليه تحشرون ﴾ ولو أن المسألة ـ مسألة الإيمان ـ مجرد مظهر لا جوهر لما ترتب عليها نتيجة ، ولكن لننتبه إلى أن هناك غاية . وأضرب هذا المثل ـ ولله المثل الأعلى ـ نجد التلميذ مثلاً إن حضر الدرس أو لم يحضر ، استمع إلى المدرس أو لا ، ذاكر أو لم يذاكر ، ألا يظهر كل ذلك فى شهادة نهاية العام ؟ .

إذن فالحساب قائم على كل فعل ؛ لأنك تتمتع أيها الإنسان بخاصية الاختيار ، أى أنك صالح لتفعل أو ألاَّ تفعل ، ولذلك يرشدك الإيمان إلى العمل الصالح ؛ لأن هناك غاية ؛ إنَّك ستصير إلى من يحاسبك على أنك نقلت « افعل » فى مجال « لا تفعل » ، أو « لا تفعل » فى مجال « افعل » . فإن كنت لا تأخذ أمور الإيمان لصلاحية حياتك فخذها خوفاً من الجزاء والحساب .

ثم يقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾ ﴾

والحق هو الشىء الثابت الذى لا يتغير ، وما دام الحق هو الشىء الثابت الذى لا يتغير فلننظر إلى خلق السماء والأرض ، يقول سبحانه :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ﴾

« من الآية ٤١ من سورة فاطر »

وحين ننظر إلى الأفق نجد السماء من غير عمد ، وهذه مسألة عجيبة ، ولذلك يقول سبحانه :

﴿ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾

« من الآية ٢ من سورة الرعد »

وهنا يقول الحق : ﴿ خلق السموات والأرض ﴾ وذلك حتى نعرف أن خلق السموات والأرض ليست عملية سهلة وهو سبحانه القادر ؛ إنّه خلقك أنت بخلق عجيب ، وأعجب منه خلق السموات والأرض ، فهو القائل :

﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ ﴾

« من الآية ٥٧ من سورة غافر »

وحين ينظر الإنسان فى تكوينه يجد أشياء عجيبة ، ويتحقق من قول الله :

﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

« سورة الذاريات »

وحين تتأمل السماء والأرض تجد دقة الخلق ، فكأنه سبحانه قد جعل نفسك مقياساً ، إنك ستعلم أحوالها تباعاً وأنك سَتُهْدَى مع الأيام ، إلى سر جديد فى هذه النفس ، هذا السر لم يعرفه الأولون ، لكنك حين تتقدم فى البحث العلمى وآلات السبر وآلات الاختبار تتعرف وتكتشف هذا الجديد .

مثال ذلك ما يسمى بالاستطراق ، وكلنا رأينا الأوانى المستطرقة التى نضع فيها سائلا ينفذ فى أنابيب متعرجة وأخرى مستقيمة ، فيرتفع السائل فيها بمستوى واحد وهو ما نسميه بظاهرة الاستطراق ، وهناك استطراق مائى ، ويوجد أيضاً استطراق حرارى ، ويتمثل الاستطراق الحرارى حين نأتى بالمدفأة فى الشتاء ونجلس فى الغرفة ، ونشعر بالحرارة التى تشع من المدفأة ، وأنت تجد نفسك محتفظاً بدرجة حرارتك العادية وهى سبع وثلاثون درجة . ومن العجيب أنها تتساوى فى البشر جميعا حتى فى القطب الشمالى والقطب الجنوبى !! فلماذا لم تستطرق درجة حرارتك مع

الجو؟ ولماذا لم يأخذ الجو البارد من حرارتك لتتساوى درجات الحرارة؟ .

إن ذلك يثبت أن لك ذاتية تجعلك وحدة مستقلة عن الكون الذى تحيا فيه ، وتظل درجة حرارتك عند خط الاستواء ٣٧ درجة ، وفى القطبين ٣٧ درجة ، هذا عجيب ، والأعجب من ذلك أن أجزاء جسمك المختلفة تختلف فيها درجة الحرارة ، فلو أن درجة حرارة العين ٣٧ درجة لانصهرت ؛ لذلك نجد أن درجة حرارة العين تسع درجات فقط ، وهناك الكبد الذى تبلغ درجة حرارته أربعين درجة ، وكل أعضاء جسمك وهى مجموعة فى شكل واحد ومع ذلك لا تستطرق فيها درجة الحرارة . ولذلك قال الحق : ﴿ وفى أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ .

ومثال آخر من عملية التنفس ، فحين تدخل ذرة من غبار فى مجرى النفس نجد السعال قد هاجم الإنسان ليطرد هذه الذرة وتجد أنك قد سعلت قسراً إلى أن تطرد هذه الذرة ، فهل أنت قد سعلت بقرار منك ؟ لا ، بل هو عمل لا إرادى خاضع لنظام دقيق لا يمكن أن يصممه إلا خالق له مطلق الحكمة ، وعلى سبيل المثال نجد الكبد محوطا بتغليفات متتابعة ليحتفظ بحرارته التى تبلغ أربعين درجة ؛ لأنه لا يؤدى مهمته إلا عند هذه الدرجة . وكذلك نجد أنّ الأذن هى أول عضو يشعر بالبرودة ؛ لأن درجة حرارتها قليلة ، وهكذا أراد الصانع الأعلى . كما جاء فى قوله تعالى :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ﴾

« من الآية ٧٣ سورة الأنعام »

لقد خلق الحق السموات والأرض بقوانين ثابتة لا تتغير إلا بمشيئته ، فهو القائل :

﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾

« سورة يس »

فيامَنْ تريد النظام دليلاً على حكمة الخاق الموجد خذها فى النظام الأعلى . ويا من تريد الشذوذ دليلاً على سيطرة الحق فوق الميكانيكية ، خذها فى الأفراد ؛ لأنه

لو حصل شذوذ فى الكون الأعلى لفسدت السموات والأرض ، لكن عندما يوجد أعمى واحد من ألف إنسان ، فلا يحدث خلل فى الكون ، ولذلك نجد الشذوذ إنما يأتى فيما فيه عوض ، والنظام يأتى فيما فى تركه فساد . كما يقول سبحانه :

﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ﴾

« من الآية ٧٣ سورة الأنعام »

وبذلك نرى الإيجاد الأول بالحق ، وأيضاً حين يهدم سبحانه السماء والأرض وينهى الدنيا ويزيلها ، فتمور السماء ، والكواكب تنتثر وتتساقط ؛ فإن ذلك يحدث أيضاً بالحق ، فليس الخلق والإيجاد وحده دليلاً على عظمة الخالق بل إنهاء الخلق وإفناؤه وإزالته أيضا دليل عظمة ؛ لأنه سبحانه قال فى البدء : « كن » فكان الكون ، وفى النهاية يقول : « كن » فيكون إنهاء الخلق ليعطى للمحسن جزاء إحسانه ، ويحاسب المسىء ؛ لأن المحسن قد يشقى بإحسانه طول عمره ، ولابد له من ثواب ، والمسىء لن يأخذ راحته بل يأخذ عقاباً . فمن الخير والعظمة أن تنتهى الحياة ليأتى يوم الحساب لينال كلٌّ جزاءه .

إذن فخلق السموات والأرض حق ويوم يقول كن فيكون قوله الحق ، فالحق فى الإيجاد والحق فى الإعدام ، إنّه حاصل فى بدء الخلق ، وفى نهايته .

﴿وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾

« من الآية ٧٣ سورة الأنعام »

وهل كان الملك يوماً لغير الله ؟

فى هذا المقام علينا أن ننتبه إلى أن فيه مِلْكاً ، ويقال لصاحبه مالك ، وفيه مُلك ويقال لصاحبه مَلِك . والمِلك ما تملكه ؛ فقد تملك جلبابك الذى ترتديه . أما المُلْك فهو أن تملك من يَمْلك ، فهذا اسمه مُلك ، وربنا سبحانه وتعالى فى دنيا الأسباب جعل لكل واحد منا مِلكاً ، وجعل لبعضٍ علينا مُلكا فبقوا ملوكاً ، لكن فى الآخرة لا يوجد شىء من هذا ، لذلك يقول الحق :

﴿ لِمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾

« من الآية ١٦ من سورة غافر »

وفى الدنيا قد تملك مثلاً أن توظفنى عندك وتعطينى أجراً ، وقد تملك أنك تطبخ لى طعامى أو تعطينى طعاماً ، أو تملك أنك تخيط جلبابى ، لكن فى الآخرة لا يملك أحد لأحد سبباً ؛ لأننا نحيا فى الدنيا بالأسباب التى منحنا الله إياها ، وفى الآخرة بالمسبب وحده دون أسباب .

﴿ وله الملك يوم ينفخ فى الصور ﴾ ولو سلسلتها قبل أن ينفخ فى الصور تجد الملك أيضاً لله ولكن بوسائط ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى جعل الأرض أرض معاش ، وهناك الآخرة إنّها أرض معاد ، لذلك قال :

﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ ﴾

« من الآية ٤٨ من سورة إبراهيم »

والأرض التى نحيا عليها مخلوقة لنستعمرها ، ونحرث جزءاً منها لنزرعه ، ونبنى بيوتاً على جزء آخر ، وهكذا تكون المسألة كلها أسبابا يتوافق بعضها مع بعض ؛ فأنا لا أستطيع أن أحرث إلا بمحراث ، وكذلك من يرغب فى استخراج عنصر الحديد من الأرض يقيم منجماً ، ومن يرغب فى استخراج البترول يأتى بالآلات التى تستكشف أماكنه ، ولا أحد يستطيع أن يملك كل أسباب حياته بل توجد فى يده زاوية واحدة ، وباقى الزوايا فى أيدى بقية الخلق .

وحين تسلسل الأسباب التى نحيا بها سنرجع للحق سبحانه وتعالى ، فحين تنتهى يد المخلوق وأسبابه تضيق به فإن يد الخالق جلت قدرته مبسوطة إليه دائما ، وإياك أن تغرك الأسباب ولكن سلسل الأسباب إلى أن تنتهى إلى الله .

ولو سلسلت كل ظاهرة من ظواهر الكون لوصلت إلى منطق الحق ؛ فالطفل الصغير يرقب ظاهرة فى البيت ، هى زر فى الحائط ، عندما يضغطون عليه بأصبع واحدة يضىء المصباح ، فيقلدهم ، وحين يراه أخوه الذى يدرس الإعدادية يقول له :

لا تصدق أن الضوء يأتى من هذا الزر بل هناك سلك قادم من خارج المنزل يربط بين صندوق الكهرباء والمنازل ، وحين يسمعهما من هو أعلى منهما علماً يشرح لهما أن الكهرباء الموجودة داخل هذا الصندوق قادمة من المولد الكبير الذى فى موقع ما من المدينة ، وقد صنعته المعامل والعقول حتى ينتهى الشرح فيصل إلى فكرة التيار المكهرب المستخلص من شلالات الأنهار مثلا .

إذن فكل ظاهرة تراها أمامك وراءها حلقات غيبية لو سلسلتها لوصلت إلى الحق سبحانه وتعالى ، وسبحانه قد احترم دنيانا وجعلنا نفهم أن بعضنا له مُلك ، ولكن نقول لكل مَلِك : إن هذا المُلك ليس بذاتك ؛ لأنه لو كان بذاتك لما سلبك أحد هذا المُلْك أبداً . وسبحانه القائل :

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ ﴾

« من الآية ٢٦ من سورة آل عمران »

إذن فليس هناك من له المُلْك بذاته إلا الله .

والحق يقول هنا :

﴿ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾

« من الآية ٧٣ من سورة الأنعام »

ينفخ فى الصور تفيد الإيذان بمقدم أمر ما ، فبعد النفخة الأولى يموت من كان حيًا ، وبعد النفخة الثانية يصحو الموتى ويقومون .

وكلمة ﴿ عالم الغيب والشهادة ﴾ تشرح لنا أنه سبحانه ما دام عالم الغيب فمن باب أولى أنه يعلم المشهود . وهذا تعبير دقيق ، وإنّه يعلم الغيب ويعلم الشهادة وعلمه يترتب عليه جزاء لا عن تحكم ، ولكن عن حكمة .

ويذيل الحق الآية بقوله سبحانه : ﴿ وهو الحكيم الخبير ﴾ والحكيم هو الذى يضع كل أمر فى مكانه ، والخبير هو من يعلم كل شىء بإحاطة تامة ، وسبحانه ليس بحاجة إلى أن يظلم أحداً ؛ لأن من يظلم إنما يريد أن ينتفع بالشىء الموجود لدى المظلوم ،

وربنا لا ينتفع بحاجة من هذه ، بل ينفعنا جميعاً ، ولذلك إذا نظرت إلى الإيمان تجده كله عزّة ، وأنت تجد الناس تكره كلمة « عبودية » ، وتقوم حروب من أجل تحرير البشر من عبودية البشر ، أما عبودية بشر للحق فأمرها مختلف ؛ لأن العبودية للبشر ، نجد فيها أن السيد يأخذ خير عبده ، ولكن العبودية لله نجد فيها أن العبد يأخذ خير سيده ، وهكذا تكون العبودية لله عزّة ، أما العبودية للبشر فهى ذلة .

ولذلك نجد الله سبحانه وتعالى قد امتن على نبيه بصفة العبودية فقال :

﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ ﴾

« من الآية ١ من سورة الإسراء »

فقد أخلص صلى الله عليه وسلم العبودية لله ، فأخذ من فيوضات الحق بما يناسب عبوديته .

والحق سبحانه يوضح لكل عبد : نم ملء جفنيك ؛ فأنا لا تأخذنى سنة ولا نوم ، وأنا قيوم ، وإن احتجت منى إلى شىء ما فادعنى وسأمد لك يد العون بما يناسبك ، فهل فى هذه العبودية لله شىء غير العزّة ؟ !

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ ﴾

والحق سبحانه وتعالى يعطى له صلى الله عليه وسلم ما يسليه ويصبّره على مشقات الدعوة ؛ لأن الدعوة للإسلام فى أوله أرهقت رسول الله وأصحاب رسول الله ، فيريد سبحانه أن يعطيهم مُثُلاً حدثت للرسل ، وهنا يأتى الحق بخبر عن أبى الأنبياء سيدنا إبراهيم :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ﴾

« من الآية ٧٤ من سورة الأنعام »

وساعة أن تسمع « إذ » فافهم أن « إذ » ظرف ، أى واذكر جيداً الوقت الذى قال فيه إبراهيم لأبيه آزر « أتتخذ أصناماً آلهة » ؟ وما دمت تذكر هذه ، ففى التذكرة تسلية لك عما يصيبك فى أمر الدعوة . وهنا وقف العلماء وقفة طويلة ، وتساءل بعضهم : هل آزر هو أبو إبراهيم ، أو أن والده هو تارخ ؟ .

وقلت من قبل : إن الأبوة تمثل ما هو أصل للفرد ؛ فالأب ، والجد ، وجد الجد أب ، وأطلقت الأبوة على المساوى للأب ، مثل العم . وجاء مثل هذا فى القرآن حين قال الحق سبحانه :

﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ ﴾

« من الآية ١٣٣ من سورة البقرة »

وآباء هنا جمع ، وإذا ما عددنا هؤلاء الآباء نجدهم : إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ، والكلام من يعقوب ، وأبوه إسحاق ، وإسحاق بن إبراهيم ، وبرغم ذلك جاء سيدنا إسماعيل وسط هؤلاء الآباء ، فكأنك إن وزعتها قلت : « إبراهيم أب ، ويبقى اثنان : هما إسماعيل وإسحاق . وإسماعيل هو أخ لإسحاق ، كأن القرآن نطق بأن العم يطلق عليه أب .

وأقول ذلك لأصفى مسألة وقع فيها اللغط الكثير ؛ فالبعض من العلماء قال : هل كان آزر أباً لإبراهيم ؛ والحديث الشريف يقول :

« خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح من لدن آدم إلى أن ولدنى أبى وأمى ولم يصبنى من سفاح الجاهلية شىء »(١) .

---

(١) رواه ابن عدى فى الكامل ، ورواه الطبرانى فى الأوسط عن على رضى الله عنه .

فكأن النبى صلى الله عليه وسلم أخبر أنه من سلسلة نسب مُوَحِّد لا يمكن أن يكون للشرك فيه مجال ، وآزر كان مشركاً ، وما دام الحق يقول فى آية أخرى : ﴿ إنما المشركون نجس ﴾ . فلو أن آزر الوالد الحقيقى لإبراهيم لكان سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم من ذريته . وأرى أنه عمّه ؛ لأن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : « ما زلت أتنقل من أصلاب الطاهرين إلى أرحام الطاهرات » ، وهو قول يدل على أن نسبه الشريف مطهر من الشرك من جهة الآباء ومن جهة الأمهات ، إذن فلا يصح أن نعتقد أن أبا إبراهيم هو آزر ؛ لأنه كان على هذا الوضع مشركا ، لكن كيف تفسر قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر ﴾ ؟ .

نقول : إننا نأخذ اللغة ، ونأخذ استعمالات القرآن فى معنى الأبوة . والقرآن صريح فى أن الأبوة كما تطلق على الوالد الحقيقى الذى ينحدر الولد من صلبه تطلق كذلك على أخى الوالد أو عمه . والدليل على ذلك أن القرآن الذى قال : « لأبيه آزر » هو بعينه القرآن الذى قال :

﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ ﴾

« من الآية ١٣٣ من سورة البقرة »

إذن آباء هى جمع أب ، وأقل الجمع ثلاثة : إبراهيم إذن وكذلك العم إسماعيل يطلق على كل منهما أب ، وأيضا إسحاق وهو والد يعقوب ، هؤلاء هم الآباء المذكورون فى هذه الآية .

وهنا نفهم أن أبوة إسماعيل ليعقوب إنما هى أبوة عمومة ؛ لأن يعقوب بن إسحاق ، وإسحاق أخو إسماعيل . إذن فقد أطلق الأب وأريد به العم ، ويدلنا الرسول صلى الله عليه وسلم على ذلك حينما أُخِذَ عمه العباس أسيراً فقال : ردوا علىّ أبى ؛ وأراد عمّه العباس .

وبعد ذلك نأتى لنقول : إننا حين نطلق كلمة الأب فى أعرافنا نعلم أن اللغة التى نتكلمها لغة منقولة بالسماع ، مركوزة فى آذاننا ، ينطق بها لساننا ، والعامية وإن كانت

تحرف الفصيح إلا أن أصولها منقولة عن أسلافنا وآبائنا ، وهم حين يريدون الأب الحقيقى يقولون له أب ولا يأتون باسمه الشخصى ؛ فإذا جاء لك إنسان وقال لك : أبوك موجود ؟ . ولم ينطق باسم الوالد فهو يقصد والدك فعلاً . لكن افرض أن لك عَمًّا ، فيقول لك السائل : أبوك محمد موجود ؟ .

لقد جاء هنا بتحديد الاسم العلم حتى ينصرف الذهن إلى السؤال عن العم ؛ لأنه لو أراد الأب الحقيقى لما ذكر اسمه واكتفى بالسؤال عنه بالأبوة فقط ، إذن فلو قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه ﴾ . ولم يحدد العَلَم لقلنا إن آزر هو والد إبراهيم وليس عمّه وبذلك يكون هو جد رسولنا ، ولكن القرآن حدد الاسم وقال : « لأبيه آزر » أى ميّز اسم الشخص ليخرج الأب الحقيقى من كلمة أب ، وبذلك تنتهى الخلافيّة فى هذه المسألة .

ولماذا يطلب الحق سبحانه من سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يذكر ﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه ﴾ ؟ لأن رسول الله جاء على فترة من الرسل وجاء فى الأمة التى واجهت الدعوة أول مواجهة وهى أمة العرب وعلى رأسها قريش ، وهو صلى الله عليه وسلم إن كان قد جاء على فترة من الرسل ، إلا أن إبراهيم يعيش فى عقائد هؤلاء القوم ؛ لأن كل أمور إبراهيم النسكية كانت فى هذا المكان ، فمثلاً همّه بذبح ابنه وفداء السِماء لابنه كانا فى هذا المكان ، ورفعه للكعبة كان فى هذا المكان ، والكعبة هى مركز السيادة لقريش ، ولولا الكعبة لكانت قريش كسائر القبائل .

لقد أراد الحق أن يوضح لقريش أن السيادة التى أخذتموها على العرب كافة جاءت لكم بسبب الكعبة وهذا البيت ، فلو لم يوجد هذا البيت وهذه الكعبة ، لكنتم قبيلة من القبائل ، لا مهابة لكم ولا سلطان ، ولا جاه ، ولكنكم تعلمون أن تجارتكم تذهب إلى الشمال وإلى الجنوب ، ولا يتعرض لها أحد بسوء أبداً ؛ لأن الذين يتعرضون لكم سواء منهم من كان فى الشمال أو فى الجنوب سيأتون فى يوم ما إلى الكعبة هذه ليؤدوا مناسك الحج وستتمكنون منهم فى أثناء وجودهم فى البيت . ولذلك قلنا حينما تعرضنا إلى قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ

طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾ ﴾

« سورة الفيل »

إن الحق أتبعها بالقول :

﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ﴿٢﴾ ﴾

« سورة قريش »

إذن لو أن البيت تعرض للهدم من أبرهة الحبشى لسقطت مهابة قريش ، وقد نصرهم الله لتظل لقريش رحلة الشتاء والصيف ، ولذلك قال :

﴿ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴿٤﴾ ﴾

« سورة قريش »

إن رب هذا البيت هو الذى أعزهم وحماهم بوجود هذا البيت الذى رفعه إبراهيم .

إذن فالقوم وإن كانوا يعبدون الأصنام إلا أن لهم صلة عقدية بإبراهيم ، فأراد الحق سبحانه وتعالى أن يدخل إلى قلوبهم بالحنان الذى يعرفونه لإبراهيم الذى هو سبب هذا العزّ وسبب هذا الجاه والسيادة وأيضاً لأن المواجهة العقدية إنما جاءت أولاً لعبادة الأصنام ، والمسألة فى سيدنا إبراهيم كانت كذلك فى عبادة الأصنام ، فهناك ـ إذن ـ ارتباطات متعددة فأتى الحق هنا بقصة سيدنا إبراهيم ليرقق بها قلب هؤلاء .

﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناماً آلهة ﴾ والأصنام هى شىء من الحجارة يصنع على مثال حى ، أما الوثن فهو قطعة من حجر خام لم يشكل أو يعالج أو يصنّع كانوا يقدسونه ، وهكذا نعرف الفارق بين الصنم والوثن ، وكيف دخلت فكرة الأصنام على عقول الناس ؟ ومن أين جاءت ؟ .

نعلم أن الناس لهم أسباب مباشرة فى الحياة ؛ فالإنسان حين يتطلب الضوء يرى الشمس قد أشرقت ، وفى الليل يرى القمر قد طلع ، ويرى الجبال تعطى له الصلابة والقوة ، ويقيم فيها بيوتاً .

إذن ففيه أشياء يرى الإنسان فيها السببية الظاهرة ، فيعتقد أنها الفاعلة . وحين يرى هذه الأشياء ويظن أنها الفاعلة يظن أن لها قداسة سواء أكانت الشمس أم القمر . إذن فقبل أن توجد أصنام وجدت كواكب وكانوا يعبدونها . بدليل أن الحق يقول :

﴿ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ﴾

« من الآية ٧٤ سورة الأنعام »

وبعد ذلك يأتى فى النقاش ولا يأتى بسيرة الأصنام :

﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ﴾

« من الآية ٧٦ من سورة الأنعام »

إذن فقد كانت هناك علاقة بين الأصنام وبين الكواكب ، والأصل فيها أن الإنسان حينما يرى شيئاً ينفعه ، ينسب إليه كل نفع يحصل عليه ويرى له قوة يحترمها فيه ، ولم ينتبه الإنسان إلى أن خالق هذه الأشياء غيب ، فَعَبَدَ الشىء الظاهر له ، وعندما وجد الإنسان أن الكواكب تأفل وتغيب قال بعض الناس : لنقيم أصناماً تذكرنا بها ، وصار هناك صنم يمثل الشمس ، وصنم يمثل القمر ، وآخر يمثل النجم الفلانى ، أى أن الأصنام إنما جعلت لتذكر بالأصل من الكواكب ، ولذلك أقول دائما : يجب على الناس ألا تغفل عن المسبب لأنه سبحانه ـ هو وراء الأسباب ، وكلما ارتقى العقل يسلسل الأسباب ، إلى أن تنتهى إلى مسبب ليس وراءه سبب ، وإذا انتهت يد المخلوق وعجزت فى الأسباب تبدأ يد الخالق ؛ فالذين يفتنون بالأسباب هم الذين ينظرون إليها على أنها الفاعلة بذاتها .

ولذلك حينما أغفلت وسترت قضية الدين فى أذهان الناس بدأوا ينظرون إلى ما حولهم وما ينفعهم ، فتوجهوا بالعبادة له ، وكانوا قبل الرسالة يحجون إلى الكعبة ويحبون الكعبة ، وحين يغتربون فى كثير من الرحلات يأخذون قطعة من حجر من نوعية أحجار الكعبة فى الرحلة الطويلة ، وحين يراها أحد من هؤلاء يطمئن ، ولكن بطول الزمن انفردت هذه الأشياء بتقديس خاص يعزلها عن الأسباب .

وهكذا عرفنا أن سيدنا إبراهيم خليل الرحمن كانت له عند العرب هذه المكانة ،

وكذلك عند أهل الكتاب حتى أنهم ادعوا انتسابه لهم فبعضهم قال : إن إبراهيم كان يهودياً ، وقال الآخرون: إنه كان نصرانياً ، وجاء القرآن وهو يواجه كفار قريش ، وكذلك أهل الكتاب فيأتى الله بقصة سيدنا إبراهيم ليعطينا قضية العقائد ويوضحها توضيحاً يؤنسهم بمن له فى نفوسهم ذكر .

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ ﴾

« الآية ٧٤ سورة الأنعام »

والضلال أن تريد غاية فتضل الطريق إليها ، وكان الناس عندهم غاية فى ذلك الزمان أن يقدسوا ، ويقدروا من ينعم عليهم بالنعم . إلا أنهم أخطأوا الطريق ووقفوا عند السبب ، ولم يذكروا ولم يدركوا ما وراء السبب ، ومن هنا جاء الضلال المبين . فكان من طبيعة الإنسان أنه يتقدم بالولاء وبالخضوع وبالشكر لمن يرى نعمة منه عليه ، لكنهم ضلوا الطريق ؛ لأنهم ساروا فى النعمة فى حلقات الأسباب ، ولم يصلوا بالأسباب إلى المسبب . وهذا ضلال مبين لأنه فتنة خَلْقٍ فى خَلْق ؛ فالإنسان الأول الذى جاء وأقبل على عالم مخلوق له ، وأقبل على أرض وأقبل على شمس ، وأقبل على قمر ، وأقبل على نجوم ، وأقبل على سحاب يمطر له الماء ، وأقبل على جبال تمده بالأقوات كان من الواجب عليه أن يلتفت لهذه المسألة ؛ لأنه لم يصنعها ولا ادّعى أحد أنه صنعها ، أما كان من الواجب أن يفكر تفكيراً يسيرا فيمن خلق له هذه الأشياء ؟ !

إن أتفه الأشياء تحتاج إلى صانع ، مثال ذلك الكوب الذى نشرب فيه الماء لا يكون كوباً أمام أى واحد فينا إلا بعد أن انتقل وتقلب فى مراحل متعددة ممن اكتشف المادة وممن صهرها كيماوياً وممن أنفق عليها إلى أن وصل إلى الكوب ، وكذلك المصباح ، إن نظرنا إلى الأجهزة التى خَلْفَه وأسهمت فى إيجاده لوجدناها أجهزة كثيرة من إمكانات مالية إلى قدرات علمية ،من ماديات موجودة فى الأرض إلى أن وصل إلى هذا المصباح الذى يتغير كل فترة ، فما بالنا بالشمس التى تنير نصف الكون فى

وقت ، ونصف الكون الآخر فى وقت آخر وليس لها قطع غيار ، ولم تقصر يوماً فى أداء مهمتها .

وكثيراً ما درسنا فى المدارس قصة من اخترع المصباح « أديسون » وكانت قصة هذا الاختراع تفيض بإعجاب من يكتبون عنها ولم نجد من يدرس لنا ـ بإعجاب وإيمان ـ دقة الشمس التى تنير الكون ، فالآفة أننا نقف فقط عند حلقات الأسباب ، والوقوف عند حلقات الأسباب هو وقفة عقلية سطحية ، ومن أجل أن نزيد من عمق الفهم لابد أن نسلسل السبب وراء السبب وراء السبب إلى أن نصل إلى مسبب ليس وراءه سبب . وأن نرهف آذاننا لمن يأتى ليحل لنا هذا اللغز ويقول لنا : لقد خلق الله كل الكون من أجلكم وصفاته سبحانه أنه لا مثيل له فى قدرته ومطلق حكمته ، ومطلوبه هو منهجه .

إذن فالرسل قد جاءوا رحمة لينقذونا ويبينوا لنا هذا اللغز . فإذا جاء الحق سبحانه وتعالى وأوضح : أنا الذى خلقت السموات ، وأنا الذى خلقت الأرض ، وأنا الذى سخرت لك كل ما فى الكون ، فهذه دعوة ، والدعوة إما أن تكون حقيقية فتعلن الإيمان به سبحانه ، وإما غير حقيقية ، فنسأل : من خلق الكون ـ إذن ـ غير الله ؟ . ولماذا لم يقل لنا صفاته ، ولم يرسل لنا بلاغاً عنه ؟ . ولأن أحداً لم يفعل ذلك إذن فالألوهية تثبت لمن أبلغنا عن ذاته وصفاته وصنعته عبر الرسل ، فلم يوجد معارض له ، وحين قال سبحانه : أنا إله واحد ، وأنا خلقت الكون ، وسخرته لكم فنحن نصدق هذا البلاغ .

ويريد الحق سبحانه وتعالى أن يبين لنا ألا نقف عند الأسباب فقط حتى لا نقع فى ضلال مبين ، ومن الواجب أن نبحث عما وراء الأسباب إلى أن تنتهى إلى شىء لا شىء بعده ننتهى إلى مسبب الأسباب ومالك الملك ـ جلت قدرته .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾

أى كما اهتدى إبراهيم إلى أن عبادة الأصنام ضلال مبين فسيريه الله ملكوت السموات والأرض ما دام قد اهتدى إلى أن هناك إلهاً حقًا ، فالإله الحق يبين له أسرار الكون :

والملكوت صيغة المبالغة فى الملك ، مثلها مثل « رحموت » . وهى صيغة مبالغة من الرحمة ، والملكوت تعطينا فهم الحقائق غير المشهودة ، فالذى يمشى وراء الأسباب المشهودة له يأخذ الملك ؛ لأن ما يشهده ويحسّه هو أمامه ، والملكوت هو ما يغيب عنه ، إذن ففيه « ملك » ، وفيه « ملكوت » ، الملك هو ما تشاهده أمامك ، والملكوت هو ما وراء هذا الملك .

والمثال هو ما قاله سيدنا إبرهيم حينما تكلم على الشركاء لله قال سبحانه :

﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ ﴾

« سورة الشعراء »

ولنلحظ هنا أن الأساليب مختلفة ، فهو يقول : ﴿ الذى خلقنى ﴾ ولم يقل : « الذى هو خلقنى » ، ثم قال ﴿ فهو يهدين ﴾ لأن أحداً لم يدّع أبداً خلق الإنسان ، وهى قضية مسلمة لله ولا تحتاج إلى تأكيد ، أما هداية الناس فهناك من يدعى أنه يهدى الناس . وما يُدَّعَى من البشر يؤكد بـ « هو » . وما لا يُدَّعَى من البشر كالخلق والإماتة والإحياء لا يؤتى فيه بكلمة هو .

ويتابع سيدنا إبراهيم : ﴿ والذى هو يطعمنى ويسقين ﴾ وهنا قفز سيدنا إبراهيم من كل الأسباب والحلقات الظاهرية إلى الحقيقة ، وعرف الغيب ﴿ وإذا مرضت فهو يشفين ﴾ وهو بذلك يميز بين الوسيلة للشفاء وهم الأطباء المعالجون والشافى الأعظم وهو الله ـ تبارك وتعالى ـ لأن الناس قد تفتن بالأسباب وتقول : إن الطبيب هو من

يشفى ، ولذلك ينتقل سيدنا إبراهيم من ظواهر الأسباب إلى بواطن الأمور ، وينتقل من ظواهر الملك إلى باطن الملكوت حتى نعرف أن الطبيب يعالج ولكنه لا يشفى ، بدليل أننا كثيراً ما رأينا من يذهب للطبيب ويعطيه الطبيب حقنة فيموت المريض ، وبذلك يصير الطبيب فى مثل هذا الموقف من وسائل الموت :

سبحان من يرث الطبيب وطبه
ويرى المريض مصارع الأسين

إذن ، ﴿ فهو يشفين ﴾ أى أن الشفاء من الله والعلاج من الطبيب .

وبذلك جاء سيدنا إبراهيم بالأشياء التى يمكن أن يفتن الإنسان فى أسبابها وأكدها بـ « هو » .

وحين ننظر إلى إبراهيم عليه السلام فى قصة العقيدة نجده قد أخذ سلطاناً كبيراً يعترف به جميع الأنبياء ؛ لأن ربنا قال فيه : ﴿ وإبراهيم الذى وفّى ﴾ .

وكذلك قال سبحانه :

﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾

« من الآية ١٢٤ من سورة البقرة »

أى إنك يا إبراهيم مأمون أن تكون إماماً للناس ، وببشرية إبراهيم وبظاهر الملك . سأل الله أن تكون الإمامة فى ذريته ، وقال : ﴿ ومن ذريتى ﴾ .

أى اجعل من ذريتى أئمة ، فيقول الحق :

﴿ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

« من الآية ١٢٤ من سورة البقرة »

لأن مسألة الإمامة ليست وراثة دم ، ولا يأخذها إلا من يستحقها . وقلنا : إن سيدنا إبراهيم جاء بهاجر وابنه إسماعيل منها وأسكنهما بواد غير ذى زرع عند البيت المحرم ، ويقول القرآن على لسانه :

﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾

« سورة إبراهيم »

أى أن سيدنا إبراهيم عليه السلام وعى مسألة تعليم الحق له لأسرار الملكوت ، وظل فى ذهن سيدنا إبراهيم ، أن الحق سبحانه ـ لا يعطى الإمامة من ظلم ثم أوضح له أنه يجب أن تفرق بين خلافة النبوة ، وعطاء الربوبية فى الطعام . ويتمثل ذلك فى دعاء سيدنا إبراهيم :

﴿ وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُم بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ ﴾

« من الآية ١٢٦ من سورة البقرة »

فكأن إبراهيم حين طلب الرزق من الثمرات لمن آمن بالله واليوم الآخر لم يفرق فى دعائه بين عهد النبوة والإمامة ، ومطلوبات الحياة ، فيقول له الحق : ﴿ ومن كفر . . ﴾ .

أى أنه سبحانه سيرزق بالطعام من آمن ومن كفر ؛ لأن الطعام ومقومات الحياة من عطاءات الربوبية ، أما المناهج فهى من عطاءات الألوهية ، والله سبحانه وتعالى رب لجميع الناس ؛ لأنه هو الذى استدعاهم جميعاً : المؤمن والكافر ، والطائع والعاصى ، وما دام هو الذى استدعاهم إلى الوجود فهو لا يمنعهم الرزق .

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾

« سورة الأنعام »

وكل من يسير على قدم إبراهيم عليه السلام يرتبط ويتعلق بذات الحق سبحانه وتعالى ، وفيه فرق بين الارتباط والتعلق بالذات ، والارتباط والتعلق بالصفات ؛ والذى يعبد الله لأنه رزّاق ، ولأنه مُغْنٍ هو مُن يرتبط بالصفات . أما من يرتبط بالله لأنه إله فقط وإن أفقره فهو من يرتبط بالذات ، وحين صفى سيدنا إبراهيم نفسه من كل

العقائد السابقة أوضح له الحق : أنت مأمون على أسرار كونى ، وأعطاه الحق الكثير كما يعطى لكل من يخلص فى الارتباط بخالقه يعطيه ربنا عطاءات من أسرار كونه . ويضرب الحق سبحانه لنا كثيراً من المُثُل فى القرآن فيقول :

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ﴾

« من الآية ٢٨٢ من سورة البقرة »

أى أنك ما دمت مأموناً على ما عرفت من أحكام الحق لحركة حياتك وتنفذه فإن الحق يعتبرك أميناً على أسراره ، ويعطيك المزيد من الزيادة .

ومعنى « تتقى » أى أن تلتحم بمنهج الحق ، وإذا التحمت بالمنهج الحق كنت فى الفيوضات الدائمة التى لا تنقضى من الحق ؛ لأن الذى فى معيته لابد أن يخلع الحق عليه من واردات وعطاءات صفاته ما يجلى صلته بربه ويطمئنه عليه ، ومثال ذلك ما حدث فى « قصة الهجرة » ، تجد الرسول صلى الله عليه وسلم وسيدنا أبا بكر فى الغار ، ويقول أبو بكر لرسول الله : لو نظر أحدهم تحت قدمه لرآنا ، وهذه قضية كونية مؤكدة ، ويرد عليه الرسول صلى الله عليه وسلم بما ينقله من القضية الكونية الظاهرة الواضحة إلى عالم الملكوت الخالص ، ويقول : (يا أبا بكر ، ما ظنك باثنين الله ثالثهما[1] .

أى أنه يقول له : اطمئن ، لن يرانا أحد ؛ لأننا فى معية الله ، وسبحانه لا تدركه الأبصار . وحين يكون الضعيف فى معية القوى فقانون القوى هو الذى يتغلب ، فلا يصبح الضعيف ضعيفاً ، فحين يكون هناك ولد بين الأطفال الذين فى مثل سنّه ويضطهدونه ويؤلمونه ويؤذونه ، ثم يرونه فى يد أبيه لا يجرؤ أحد منهم أن يأتى إلى ناحيته ، والناس لا يقدر بعضهم على بعض إلا إذا انفلتوا من معية الله ، .ومَن فى معية الله لا يجترىء عليه أحد أبداً . ولذلك يرسل لنا ربنا قضايا الملك وقضايا الملكوت ، ويمثلها فى رسول من أولى العزم من الرسل مع عبد صالح آتاه الله شيئاً من علمه وفيضه لأنه اتقاه .

---

(١) رواه البخارى ومسلم .

يقول الحق سبحانه :

﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ ﴾

« سورة الكهف »

إن هذا العبد قد أخذ منهج الرسول الذى جاء به واتبعه ، فأداه حق الأداء فاتصل بالحق فأعطاه الحق من لدنه علماً . وحين ننظر فى هذه القضية نتعجب لأننا نجد سيدنا موسى - ينظر فى عالم الملك بينما ينظر من آتاه الله من لدنه رحمة ومن عنده علما ينظر من عالم الملكوت ، وموسى معذور ؛ لأنه ينظر فى دائرة الأسباب ، والعبد الصالح معذور هو الآخر لأنه ينظر فى دائرة ثانية ، ولذلك سيقول العبد الصالح : ﴿ وما فعلته عن أمرى ﴾ .

أى أن المسألة ليست من ذاته ، بل هو مأمور بها . وحين ننظر إلى تقدير موقف كل منهما للآخر نجد العبد الصالح يقول : ﴿ إنك لن تستطيع معى صبرا ﴾ . أى أن العبد الصالح يعذر موسى ، ويضيف :

﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ ﴾

« سورة الكهف »

فيقول القرآن على لسان موسى :

﴿ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ ﴾

« سورة الكهف »

فها هو ذا الرسول الذى جاء ليبلغ المنهج يطيع عبداً صالحا طبق المنهج من رسول سابق ونفذه كما يحب الله ، والتحم بالمنهج ، وجاء لنا ربنا بهذه القصة مع رسول من أولى العزم . ويتلقى موسى عليه السلام الأمر من العبد الصالح :

﴿ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ ﴾

« سورة الكهف »

لماذا ؟ لأن العبد الصالح يعلم أن موسى سيتكلم عن عالم الملك ، وهو يتكلم من عالم الملكوت .

وحين ركبا السفينة ، وخرقها العبد الصالح ، والخرق إفساد ظاهرى فى عالم المُلْك . يوضح سيدنا موسى للعبد الصالح أن هذا الفعل إخلال بالقانون ، وكيف يعتدى على السفنية بالإفساد ؟ فيرد العبد الصالح : ألم أقل إنك لن تستطيع معى صبراً ، وليست لك طاقة على مثل هذه المسائل ، فيتذكر موسى ، ثم تأتى حكاية الغلام ، وحكاية الجدار .

وحين ندقق النظر فى هذه الأمور نجد عالم الملكوت يصحح الأمور الشاذّة فى عالم الملك ؛ فخرق السفينة إفساد ظاهرى لكن إذا علم موسى أن هناك مَلِكاً يأخذ السفن السليمة الصالحة ويستولى عليها غصبا وهذه السفينة لمساكين يعملون فى البحر ، ويريد العبد الصالح أن يحافظ لهم على السفينة فيخرقها حتى لا يأخذها المغتصب ؛ وحين يقارن الملك المغتصب بين سفينة سليمة وسفينة مخروقة . فلن يأخذ السفينة غير السليمة ، ويمكن لأصحابها إصلاحها .

إذن لو علم موسى بهذه المسألة ، ألا يجوز أن يكون موسى هو الذى كان يقوم بخرق السفينة ؟ إنه كان سيخرقها ، إذن لو علم صاحب نظرية الملك ما فى نظرية الملكوت من أسرار ، لفعل هو الفعل نفسه . وحين نأتى لقتل الغلام ، لابد من التساؤل : وما ذنب الغلام ؟ فيفسر العبد الصالح الأمر :

﴿ وَأَمَّا ٱلْغُلَـٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَـٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ ﴾

« سورة الكهف »

والأبوان قد يدللان هذا الابن ، ويطعمانه من مال حرام ، ويكون فتنة لهما ، فقتل الغلام ليظلا على الإيمان ، وعجلّ ربنا بالولد إلى الجنة مباشرة .

وفى مسألة الجدار تجد الخلاف بين رؤية عالم المُلْك ، ورؤية عالم الملكوت . ففى ظاهر الأمر أنهما حين أتيا أهل القرية طلباً للطعام ، وطلب الطعام شهادة صدق

على الضرورة ، لأنه ليس طلباً للنقود ، فقد يطلب أحد النقود ليدخرها ، لكن من يقول : « أعطنى رغيفاً لآكل » فهذه آية صدق الضرورة فى طلب الطعام . ولكن أهل القرية أبوا أن يضيفوهما ، إذن هم لئام لا كرام . ويرى العبد الصالح جداراً يريد أن ينقض ، وآيلاً للسقوط فأقامه ، وغضب سيدنا موسى ، سبب غضبه أنه والعبد الصالح استطعما هؤلاء فلم يطعموهما ، فكيف تبنى جداراً لهم ؟ ! وكان يصح أن تأخذ عليه أجراً ، وغضب سيدنا موسى سببه ظاهر ، لكن العبد الصالح يشرح المسألة :

لقد أقام الجدار لأن أهل القرية لئام ولم يعطونا طعاماً ، ولو وقع الجدار وظهر الكنز تحته أمام لئام بهذا الشكل لسرقوه من أصحابه ، وهم أطفال ، وقد بناه العبد الصالح بهندسة إيمانية ألهمه الله بها بحيث إذا بلغ الولدان الرشد يقع الجدار . أى أنه بناء موقوت ، مثلما نضبط المنبه على وقت محدد ، كذلك الجدار بحيث إذا بلغ الولدان الرشد يقع الجدار ويأخذان الكنز .

وهذا يوضح لنا الخلاف بين عالم المُلْك ، وبين عالم الملكوت ؛ فعالم الملكوت هو الذى يغيب عنا وراء الأسباب . وكثير من الناس يقف عند الأسباب ، ولا ينتقل من الأسباب إلى السبب المباشر ، إلى أن ينتهى إلى مسبب ليس بعده سبب .

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾

« سورة الأنعام »

فهل تيقن أو لم يتيقن ؟ .

و« موقنين » جمع « موقن » والجمع أقله ثلاثة ، واليقين ينقسم إلى ثلاث مراحل : يقين بعلم من تثق فيه لأنه لا يكذب ؛ ويقين بعين ما تخبر به ، ويقين بحقيقة المُخْبَر به . وحين عرض الحق سبحانه وتعالى هذه المسألة فى سورة التكاثر قال :

﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴿٥﴾ ﴾

« سورة التكاثر »

إذا أخبرتكم فهذا الخبر هو الصورة العلمية ، وكان يجب أن يكون ما أخبركم به علم اليقين .

﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧ ﴾

« سورة التكاثر »

لأننا سوف نرى النار فى الآخرة ، لكن لم تأت حقيقة اليقين ، وجاءت حقيقة اليقين فى سورة الواقعة :

﴿ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ۝٩٠ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ۝٩١ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ۝٩٢ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ۝٩٣ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ۝٩٤ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ۝٩٥ ﴾

« سورة الواقعة »

وسيدنا إبراهيم عليه السلام كان حقا من الموقنين فى كل أدوار حياته ؛ لأن الله أعلمه ما وراء مظاهر الملك ، ما وراء مظاهر الأشياء ؛ وعواقبها . فمثلا عندما أُخذ ليطرح فى النار جاء له جبريل ليقول : ألك حاجة ؟ قال سيدنا إبراهيم : أمّا إليك فلا .

ويقول ذلك وهو يعرف أن النار تحرق ، ولكن هذا ظاهر المُلك ، وظواهر الأشياء ، وسيدنا ابراهيم يعلم أن الذى خلقها جعلها محرقة ، ويستطيع ألا يجعلها محرقة ، وهو متيقن به ، ولذلك لم يطفىء الله النار بظاهر الأسباب ولكن جعلها الله ليّاً لأعناق خصومه ، فأوضح الحق : يانار أنا خلقت فيك قوة الإحراق ، وأنا أقول لك الآن : لا تحرقى .

﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ۝٦٩ ﴾

« سورة الأنبياء »

إذن فإبراهيم يعرف هذه الحقائق المختفية وراء المُلك الظاهر ، وهذا من الابتلاءات الأولى فى حياته ، ويملك أن يرد على سيدنا جبريل لحظة أن سأله قبل أن

يلقوا به فى النار : ألك حاجة ؟ فيقول إبراهيم : أمَّا إليك فلا .

ثم يأتى له الابتلاء فى آخر حياته بذبح ولده . ونعلم أن الإنسان تمر عليه أطوار تكوين ذاتيته ، وأحياناً تكون الذات هى المسيطرة ، وفى طور آخر تبقى ذاتية أولاده فوق ذاتيته ، أى أنه يحب أولاده أكثر من نفسه . يتمنى أن يحقق لأولاده كل ما فاته شخصياً . فلما كبر إبراهيم ووهبه الله الولد يأتيه الابتلاء بأن يذبح ابنه.إنه ابتلاء شديد قاس ، وهو ابتلاء لا يأتى بواسطة وحى بل بواسطة رؤيا . وكلنا نعلم أن رؤيا الأنبياء حق . لكن إبراهيم يعلم أن الحق سبحانه وتعالى لا يطلب من خلقه إلا أن يستسلموا لقضائه ، ولذلك إذا رأيت إنساناً طال عليه قضاء ربه فى أى شىء ؛ فى مرض ، فى مصيبة ، فى مال ، أو غير ذلك فأعلم أنه لم يرض بما وقع له ، ولو أنه رضى لانتهى القضاء . فالقضاء لا يُرفع حتى يُرضى به ، ولا يستطيع أحد أن يلوى يد خالقه . إذن فالناس هم الذين يطيلون على أنفسهم أمد القضاء .

ولذلك عرف سيدنا ابراهيم هذه القضية : قضية فهمه لعالم الملكوت . فلما قيل له:« اذبح ابنك » لم يرد أن يمر ابنه بفترة سخط على تصرف أبيه ؛ لأنه إن أخذه من يده وفى اليد الأخرى السكين فلابد أن تكون هذه اللحظة مشحونة بالسخط ، فيحرم من الجزاء ، فيبين له المسألة . ويقول القرآن حكاية عن إبراهيم :

﴿ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ ﴾

« من الآية ١٠٢ من سورة الصافات »

وهذا القول يريد به إبراهيم أن ينال ابنه ثواب الاستسلام وهو دليل محبة إبراهيم لولده ، فماذا قال إسماعيل :

﴿ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾

« من الآية ١٠٢ من سورة الصافات »

قال إسماعيل ذلك ليأخذ عبودية الطاعة . ويؤكد القرآن رضاء إبراهيم وابنه بالقضاء فيقول :

﴿ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ ﴾

« سورة الصافات »

وهذا القبول بالقضاء هو ما يرفعه . لذلك يقول القرآن بعدها :

﴿ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ ﴾

« سورة الصافات »

ويفدى الله إسماعيل بذبح عظيم ، ولا يقتصر الأمر على ذلك بل يرزق الله إبراهيم بولد آخر ؛ لأنه فهم ملكوت السموات والأرض ، وعرف نهاية الأشياء . فإذا ما أصيب الإنسان بمصيبة فما عليه إلا أن يرضى ويقول : مادامت هذه المصيبة لا دخل لحركتى فيها ، وأجراها علىّ خالقى فهى اختبار منه ـ سبحانه ـ ولا يوجد خالق يفسد ما خلق . ولا صانع يفسد ما صنع ، ولابد أن لذلك حكمة عنده لا أفهمها أنا ، لكنى واثق فى حكمته .

إن طريق الخلاص من أى نائبة من النوائب أن يرضى المؤمن بها ، فتنتهى . ومن تحدث له مصيبة بأن يموت ولد له ، ويظل فاتحاً لباب الحزن فى البيت ، وتبكى الأم كلما رأت من فى مثل سنّه فسيظل باب الحزن مفتوحا ، وإن أرادوا أن يزيل الله عنهما هذا الابتلاء فليقفلا باب الحزن بالرضا . وليعلم كل مؤمن أن ما أخذ منه هو معوض عنه بأجر خير منه ، والمأخوذ الذى قبضه الله إليه وتوفاه معوض بجزاء خير مما يترك فى الدنيا ، ولذلك يقال : المصاب ليس من وقعت عليه مصيبة وفارقه الأحباب ، بل المصاب من حُرِم الثواب ، فكأنه باع نكبته بثمن بخس .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾

و« جن » تفيد الستر والتغطية ، ومنها « الجنون » أى ستر العقل ، و « جن الليل » أى أظلم وستر عنك ، فلا ترى غيرك ولا غيرك يراك . و« الجنَّة » كذلك لأن فيها الأشجار والأشياء التى تستر من يمشى فيها ، إذن المادة كلها تفيد الستر .

وكلمة « كوكب » تفيد أنه يأخذ ضوءه من غيره ، ونفهم من الآية أن إبراهيم كان فى ظلمة ثم طلع الكوكب فرآه ، ثم غاب الكوكب أى انتقل من بزوغ وطلوع إلى أفول ، وقديماً كانوا يعبدون الكواكب والنجوم ، فجاء لهم إبراهيم من جنس ما يعبدون ، وقال : « لا أحب الآفلين » .

ويتابع الحق بعد ذلك :

﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ ﴾

وهنا قال إبراهيم عليه السلام : هذا ربى ، ووقف العلماء هنا وتساءلوا : كيف يقول إبراهيم هذا ربى ، وهى جملة خبرية من إبراهيم ، وكيف يجرى إبراهيم على نفسه لفظ الشرك ، وأراد العلماء أن يخلصوا إبراهيم من هذه المسألة . ونقول لهؤلاء العلماء : جزاكم الله كل خير ، وكان يجب أن تؤخذ هذه المسألة من باب قصير جداً ؛ لأن الذى قال : إن إبراهيم قال : هذا ربى ، هو الذى قال فى إبراهيم :

﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾

« من الآية ١٢٤ سورة البقرة »

إذن فقوله ﴿ هذا ربى ﴾ لا تخدش فى وفائه الإيمانى ، ولابد أن لها وجهاً . ونعلم أن القوم كانوا يعبدون الكواكب ، ويريد إبراهيم أن يلفتهم إلى فساد هذه العقيدة ، فلو أن إبراهيم من أول الأمر قال لهم : يا كذابون ، يا أهلَ الضلال ، وظل يوجه لهم

السباب لما اهتموا به ولا سمعوا له . لكن إبراهيم استخدم ما يسمى فى الجدل بـ « مجاراة الخصم » ؛ ليستميل آذانهم ويأخذ قلوبهم معه ، وليعلموا أنه غير متحامل عليهم من أول الأمر ، فيأخذ بأيديهم معه .

مثال ذلك فى حياتنا ، تجد رجلاً له ابنة وجاء لها خطيب ، وهذا الخطيب قصير جداً ، بينما البنت ـ ما شاء الله ـ طويلة ، وحين جاء الخطيب ليراها وتراه تقول لأمها : هذا خطيبى ؟ ! وهذا القول يعنى أنها تنكر أن يكون هذا القصير عنها هو خطيبها ، وحين قال إبراهيم : ﴿ هذا ربى ﴾ معناه إنكار أن يكون مثل هذا الكوكب أو ذلك القمر أو تلك الشمس هى الرب .

ونلحظ أنه يحدد لهم مصير من يعبد تلك الكواكب ، فقال : ﴿ لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين ﴾ ، وفى هذا معرفة بمن على هدى أو على ضلال ، ويكون قوله : ﴿ هذا ربى ﴾ لونا من التهكم ؛ لأنهم قالوا بما جاء به القرآن على لسانهم : ﴿ أهذا الذى يذكر آلهتكم ﴾ .

فكأنه قال : سلمنا جدلاً أنه ربكم ، لكنه يأفل ويغيب عنكم ، وقوله : ﴿ لا أحب الآفلين ﴾ يعنى أنه غير متعصب ضدهم .

وكذلك حين يقول الحق :

﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾

وهكذا يثبت له أن كل كوكب ـ حتى الشمس ـ مصيره إلى أفول ، فكأنه قد وصل بهم بالمنطق إلى أن عبادة الكواكب لا تصلح ، واستخدم المنطق الذى يحقق نيته فى

أن ينكر هذه الربوبية ، ويستأنس به آذان من يسمعه . وهناك أشياء يجعلها الحق سبباً مبرراً لارتكاب أشياء كثيرة ، إلا أننا نعقد مقارنة بين بعضهم البعض مثلما قال الحق :

﴿ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا ﴾

« من الآية ١٠٦ سورة النحل »

وقد جاءت بعد قوله سبحانه :

﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ ﴾

« من الآية ١٠٦ سورة النحل »

فإذا كان الله قد أباح إجراء كلمة الكفر على لسان المؤمن المطمئن لينجى حياته وهو فرد ، أفلا يصح لإبراهيم أن يقول لهم : ﴿ هذا ربى ﴾ بما تحتمل من أساليب حتى ينجى أمة بأسرها من أن تعبد الأصنام ؟ .

إذن فقول إبراهيم ﴿ هذا ربى ﴾ يؤخذ على محملين : ألم يقل الله سبحانه وتعالى بنفسه عن نفسه :

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى ﴾

« من الآية ٤٧ من سورة فصلت »

وسبحانه يعلم أنّه لا شركاء له ، ولكن الشركاء هم مِن زعْم المشركين .

ورسول الله صلى الله عليه وسلم حينما كان ينادى فى بعض القوم : « يا إله الآلهة » لأنه يعلم أن قوماً قد ألهوا ظواهر طبيعية فى الكون لما يرون من الخير فيها ، فأراد أن ينبههم إلى أن هناك إلهاً حقًا .

ويوضح القرآن عدم جدوى الشرك حين يقول :

﴿ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾

« من الآية ٩١ سورة المؤمنون »

ويقول سبحانه :

﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ ﴾

« سورة الإسراء »

والحق سبحانه وتعالى يقول للكافر الذى كان يعتز بجاهه فى دنياه :

﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ ﴾

« سورة الدخان »

فهل هذا القول اعتراف بأن الكافر عزيز كريم أو هو قول تهكمى ؟ . إنه تهكم ؛ لأن الكافر لو كان عزيزاً كريماً عند نفسه لما كفر ولما استقر فى الجحيم .

وكان المنطق فى اللغة أن يقول : فلما رأى الشمس بازغة قال هذه ربى ؛ لأن الشمس مؤنثة ، ولكنه قال : ﴿ هذا ربى ﴾ كما قال فى القمر وفى غيره من الكواكب ، فجعل الأمر على سياق أو حالة واحدة ، أو هو بهذا القول يريد أن ينزه كلمة الرب تنزيها مطلقاً عن أن تلحق بها علامة التأنيث ؛ لأن علامة التأنيث فرع التذكير ، وأيضاً لأن الشمس ليست مؤنثاً حقيقياً ، بل هى مؤنث مجازى ، ولذلك يفطن العلماء إلى هذه المسألة فيقولون : إنك إذا أعطيت واحداً صفة العلم ، وقلت : فلان عالم ، أما إذا صار علمه ملكة عنده فنقول : « فلان عليم » ؛ ولذلك يقول الحق :

﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾

« من الآية ٧٦ من سورة يوسف »

وإذا كان العالم متمكناً من علمه بشكل غير مسبوق نقول عنه : « علاَّم » . والحق سبحانه يصف نفسه فيقول :

﴿ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾

« من الآية ١١٦ من سورة المائدة »

ولم يقل العلماء فى وصف الله علاّمة ، وإن كان هذا الوصف أبلغ احترازا من أن تلحق علامة التأنيث صفة من صفات الله ـ عز وجل ـ .

وحين تأفل الشمس يقول سيدنا إبراهيم :

﴿فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾

« من الآية ٧٨ سورة الأنعام »

وجاء الأمر صريحاً لأنه سبق المسألة بالترقيات الجدلية التى قالها ، وحين يسمعها أى عاقل فلابد أن يعلن اتفاقه فى هذا الأمر ، ولذلك قال : « إنى بريء مما تشركون » . ولأنه كإنسان مؤمن لن يغش نفسه ، وبالتالى لن يغش قومه ، وهذا ما ينبه العقل حين يعطيه الله هبة الهداية .

والبراءة من الشرك تخلية عن المفسد ، والتخلية تعنى أن تنفك أو تنقطع عن العمل المفسد ، وبعد ذلك تدخل فى العمل المصلح .. العمل الإيجابى .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾

والسموات والأرض هما المظهر الأول للكون الذى طرأ عليه الإنسان ؛ لأن الكون طرأ عليه الإنسان ـ الخليفة فى الأرض ـ ووجد كل الخيرات والمسخرات ، ولذلك يوضح الحق سبحانه وتعالى : إياكم أن تقولوا إنى خلقتكم فقط ، بل خلقت لكم الكون .

﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾

« من الآية ٥٧ من سورة غافر »

ويقدم سيدنا إبراهيم برهانه لقومه ، إنه يعبد الله وحده الذى خلق السموات والأرض ، رافضاً كل فساد فى الكون ، ويتمثل هذا فى قوله ﴿ حنيفاً ﴾ ، و « الحنف » فى اللغة هو ميل فى القدمين ، ونجد القدم مقوسة إلى الخارج . وهذا يعنى أنه لا يسير على طريق الفساد الموجود فى الكون ؛ لأن السماء تتدخل بالرسالات حين يطم الفساد فى الأرض ، وحين يأتى الرسول مائلاً عن الفساد فهو يسير معتدلاً ؛ لأن الميل عن الفساد اعتدال واستقامة .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾

وحاجّه أى حاججه بإدغام الجيمين فى بعضهما . أى أن كل طرف يقول حجة والطرف الآخر يرد عليه بالحجة ، فإذا كنت فى نقاش وكل واحد يدلى بحجته ، فهذا اسمه الحِجاج ، أو الجدل المبطل ، أى أنك تبطل كلامه وهو يبطل كلامك .

﴿ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ﴾

« من الآية ٨٠ سورة الأنعام »

وإذا كان إبراهيم قد جادلهم بمجاراة أفكارهم وأثبت بطلانها ، فكيف يجادلونه إذن ؟ . كأن الغرض من الحِجاج صرف إبراهيم عن دينه الحنيف الذى ارتآه فى قوله سبحانه :

﴿ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾

« سورة الأنعام »

ويرد عليهم :

﴿ أَتُحَـٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ﴾

« من الآية ٨٠ سورة الأنعام »

أى أن مسألة الإيمان قد حُسمت . فقد آمن إبراهيم بالله ويعلن للقوم : « ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربى شيئاً » وهذا القول يدل على أنهم قد هددوه ؛ لأن كلمة « الخوف » جاءت ونفاها عن نفسه . ويعلنها إبراهيم قوية : « ولا أخاف ما تشركون به » أى لا أخاف من الكواكب التى تأفل سواء أكانت نجماً أم قمراً أم شمساً أم تلك الأصنام التى تعبدونها فليس لها نفع ولا ضر ، والضر والنفع هما من صنع الله فقط .

ولذلك تتجلى الدقة فى الأداء العقدى فيقول الحق على لسان إبراهيم عليه السلام :

﴿ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾

« من الآية ٨٠ سورة الأنعام »

فإن شاء الحق أن يُنزل على عبدٍ كوكباً يصعقه أو يحرقه فهذا موضع آخر لا دخل لمن يعبد الكواكب به ، ولا دخل للكواكب فيه أيضا ؛ لأن النافع والضار هو الله ، فحين يشاء الله الضر ، يأتى الضر ، وحين يشاء النفع يأتى النفع .

﴿ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ﴾

« من الآية ٨٠ سورة الأنعام »

أى اذكروا جيداً ، وافرقوا بين فعل يقع من فاعلٍ ، وفعل يقع من آلة فاعلها غير تلك الآلة ، فحين يشاء الله أن يوقع على إنسان كوكباً ، أو صخرة فليست الصخرة هى التى صنعت وقوعها ، ولا الكوكب هو الذى أسقط نفسه ، إنما الفاعل هو الله :

﴿ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾

« من الآية ٨٠ سورة الأنعام »

وقوله ﴿ أفلا تتذكرون ﴾ يدل على أن قضايا العقائد مأخوذة بالفطرة ، وإقبال النفس على الشهوات هو ما يطمس آثار هذه الفطرة ، فليس المطلوب منك أيها الإنسان إنشاء فكرة عقدية بل المطلوب منك أن تتذكر فقط ، والتذكر أمر فطرى طبيعى ؛ لأن الإنسان الخليفة فى الأرض هو الذى تناسل من آدم إلى أن وصل إلينا ؛ فقد جاء آدم إلى الأرض ومعه منهج سماوى ينظم به حركة الحياة ، ولقن آدم المنهجَ لأولاده ، وكذلك فعل أبناء آدم مع أولادهم ، ولكن المناهج تنطمس ؛ لأن المناهج تتدخل فى أهواء الناس وتثنيهم عن شهواتهم وتصدهم عن المفاسد فيعرضون عنها أو يتجاهلونها ، إذن فهى عرضة أن تُنسى ، والرسالات إنما تذكر بالمنهج الأصلى الذى أخذناه عن الحق سبحانه وتعالى ، لذلك يعلنها إبراهيم :

﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ﴾

يقول لهم سيدنا إبراهيم : أنا لا أخاف إلا الله ، ولا أخاف ما أشركتم أنتم به مما لا يضر ولا ينفع . و « كيف » هنا تأتى للتعجيب ؛ لأن المنطق أن نخاف من الله وحده الذى يضر وينفع . وحين تدور مجادلة تستيقظ فى كل طرف ذاتية المجادل ، وهناك من يستنكفون من الحق ، ليس لأنه حق لكن لخوفهم أن ينهزموا أمام واحد مثيل لهم ، ومن يريد أن يصل إلى الحقيقة بدون استعلاء لا يعطى الحكم بما يحرك الذاتية فى الخصم المجادل ؛ لذلك لم يقل سيدنا إبراهيم : أنا أم أنتم أحق بالأمن ؟ بل قال : « فأى الفريقين أحق بالأمن » مثلما علم ربنا سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقول :

﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾

«من الآية ٢٤ من سورة سبأ»

وهذا منتهى الحيدة فى الجدل ، فلم يصرح بأن منهجهم هو الضلال وأن منهجه هو الصواب المستقيم ثقة منه أنهم حين يستعرضون منهجه ويستعرضون منهجهم سيحكمون بأنه صلى الله عليه وسلم على هدى وأنهم على ضلال . وهذا هو الجدل الارتقائى ، مثلما يعلم الحق رسوله ليقول لخصومه :

﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾

«سورة سبأ»

هل يفعل الرسول جرائم ؟ حاشا لله أن يفعل ذلك فهو المعصوم .

وكأن الرسول صلى الله عليه وسلم يقول لهم : اسألوا عنى إن كنت أجرمت ؛ ولم يقل لهم وصفا لأعمالهم : « ولا نسأل عما تجرمون » بل قال : « ولا نسأل عما تعملون » . فلم يأت بمسألة الإجرام بالنسبة لهم ؛ وجاء بها بالنسبة له ، لأنه واثق أنهم إن أعادوا دراسة القضية فكرياً وعقدياً وعاطفياً فيستنتهون إلى الإيمان بمنهجه . وهذا منتهى اللطف فى الجدل .

ويتجلى اللطف فى الجدل فى قوله الحق :

﴿فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

«من الآية ٨١ سورة الأنعام»

والعِلْمُ هو أن تأخذ قضية تعتقدها ولها واقع وتستطيع أن تدلل عليها ، وإن اختل شرط فيها فهذا خروج عن العلم ، ومثال ذلك ألفاظ اللغة ؛ كل لفظ وضع لمعنى ، وساعة تسمع اللفظ وأنت تعرف اللغة تفهم المعنى ؛ فحين أقول : الشمس . تتصور أنت الشمس فى ذهنك ، وكذلك الأرض والماء والجبل . فأنت عرفت مدلول هذه الألفاظ بدون أن تكون هناك نسبة . ونعلم أن هناك فرقاً بين معنى اللفظ مفرداً ، وما يعطيه ويفيده اللفظ إذا جاء فى نسبة .

فإذا جاء اللفظ فى نسبة فلابد أن توجد قضية ، فإذا قلنا الشمس محجوبة بالغيم فهذه قضية ، أو قلنا : الشمس تغيب فهذه قضية أخرى وهنا نسبنا شيئاً لشىء ، ولكننا قبل أن نأتى بالقضايا النسبية لابد أن يكون للفظ معنى فى ذاته ، وهذه اسمها معانى اللغة ، وتضم من خلالها لفظا إلى لفظ فتنشأ نسبة أو قضية شريطة أن نعرف معنى مفرداتها ، وبعد ذلك نعرف النسب ، وهى ما نقول عنه : مبتدأ وخبر ، موضوع ومحمول ، مسند ومسند إليه ، فعل وفاعل أى أمر منسوب إلى أمر .

والعلم ـ كما قلنا ـ هو قضية واقعية ، تعتقدها وتستطيع أن تدلل عليها . وإن اختل أمر من هذا لا يكون علماً ، فإن كنت تعتقد فى قضية إلا أنها غير واقعية ، فهذا كذب . وعندما أقول : إن هناك من يعتقدون أن الأرض كروية فهل الواقع كذلك أو لا ؟ . وإن كنت تعتقد شيئاً وهو واقع ، ولم تستطع أن تدلل عليه فهذا تقليد ، وإن لم يكن الشىء متيقنا وقد تساوى فيه الطرفان فهذا هو الشك . وإن كان هناك طرف راجح عن طرف آخر فهو الظن . والطرف المرجوح هو ما يسمى بالوهم . وكل قضايا نسبية لا تخرج عن هذه .

وقول إبراهيم : « إن كنتم تعلمون » أى تتيقنون من قضية نسبية واقعة معتقدة تستطيعون أن تدللوا عليها .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

حينما سمع صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية اشفقوا على أنفسهم ؛ لأنهم استعرضوا حركة أعمالهم فوجدوها لا تخلو من ظلم ، وخافوا أن يكونوا من غير الداخلين فى « أولئك لهم الأمن » . وشق عليهم ذلك ، فرفعوا أمرهم

إلى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأوضح لهم صلى الله عليه وسلم مُطَمْئِناً : إن ذلك الظلم هو الذى قال الله فيه :

﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾

« من الآية ١٣ من سورة لقمان »

والآية تدل بمعطياتها على أن ذلك الظلم هو المتعلق بالإيمان لا بالعمل ؛ لأننا نعلم أن التقاء الإنسان بربه مشروط أولاً بعقيدة القمة ، وهى أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن تشهد أن محمداً رسول الله ؛ ومعناها : لا معبود بحق إلّا الله ، أو لا أمر لأحد فى خلق الله إلا لله ، ولا فعل لأحد من خلق الله إلا من الله ، ولا استمداد لأحد قدرة وعلماً وحكمة وقبضاً وبسطاً إلا من الله ، تلك هى دائرة الإيمان العقدية .

ويقول الحق : ﴿ ولم يلبسوا إيمانهم بظلم ﴾ فكأن هذه المسألة هى منطقة الظلم ، أما العمل فسبحانه فصَّل لنا بين إيمان ينفجر عنه العمل وعمل تنفجر عنه الطاقات فقال سبحانه :

﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ﴾

« سورة العصر »

والعطف فى قوله : ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ يقتضى المغايرة ، فالإيمان شىء وعمل الصالحات شىء آخر ، إذن فالإيمان عمل ينبوعى فى القلب ، ولكن العمل ناشىء عن الالتزام الذى شرعه الإيمان فيه ، وعلى المؤمن أن يتنبه إلى أن الله واحد فى ذاته ، وواحد فى صفاته ، وواحد فى أفعاله ، لا ندّ له ولا شريك معه ؛ فإن وجدت صفة فى الله ووجدت صفة مثلها فيك فاعلم أن الصفة فى الله فى دائرة « ليس كمثله شىء » . فلا قدرة كقدرته ، ولا ذات كذاته ، ولا فعل كفعله . فإن اختل شىء من ذلك فى اليقين فهذا ظلم واقع فى الإيمان .

فمثلاً : أنت تقبل على الأشياء بالطاقات المخلوقة لك من الحق سبحانه وتعالى ، وقبل أن تفعل أى فعل لابد أن يمر على بالك نسبة ذهنية ، قبل أن تكون نسبة قولية أو فعلية . هذا هو العمل المنوط بك والمطلوب منك ، أما العمل الذى لا يمر ببالك

فلست مسئولا عنه ، مثال ذلك : هب أنك سائر فى الطريق ، ثم وجدت حفرة تكاد تسقط فيها ، فهناك أمر غريزى لحفظ الإنسان فيبعد رجله ، وهو لا يستطيع فى هذه المسألة أن يمررها بباله . وتلك أعمال نسميها الأعمال الاضطرارية أو الغريزية أو القسرية . ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(كل أمر ذى بال لا يبدأ ببسم الله الرحمن الرحيم أقطع)[1]
« حديث شريف »

وقال صلى الله عليه وسلم : (كل أمر ذى بال لا يبدأ فيه بالحمد لله أقطع)[2]
« حديث شريف »

و « ذى بال » أى كل أمر تفعله بعد أن يمر ببالك أن تفعله يجب أن تذكر فيه اسم الله . ويغفل أناس كثيرون عن هذه المسألة فنقول لهم : منطقياً لابد أن تضعوا هذا الأمر فى بالكم لأن الفعل الذى لا يمر ببالك هو فعل أعطى الله غريزتك ـ بدون أمر ـ أن تفعله . ومثال ذلك إذا أكل الإنسان ثم نزل شىء فى قصبته الهوائية غير الهواء ؛ نجده يسعل بلا شعور حتى يخرج هذا الشىء ، لأنها عملية قسرية . أما الأمر ذو البال فهو الذى تمر ببالك نسبته الذهنية ثم يمر بالفعل ، إن كان قولاً تقوله ، وإن كان فعلاً تفعله ؛ فمطلوب منك فيه ابتداء أن تسمّى الله ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى يطلب منا ألا تشغلنا الأسباب عن المسبب لها .

فأنت مثلاً حين تزرع الأرض تحرثها ، ثم تضع البذرة وتغطيها ، ثم ترويها وبعد ذلك ينبت الزرع . ألك فى ذلك شىء ؟ . إنه ليس لك إلّا تجميع فعل ؛ فالبذرة مخلوقة لله ، والتربة التى وضعت فيها البذرة مخلوقة لله ، والعناصر الموجودة فى الأرض لتغذى النبات مخلوقة لله ، والخاصية الموجودة فى البذرة لتمتص شيئاً ينمّى جذيرها ثم تنفلق الحبة ، كل هذه أسباب ليس لك فيها شىء أبداً . ولكن الله احترم فعلك فقط فقال سبحانه :

---

(١) رواه عبدالقادر الرهاوى فى الأربعين عن أبى هريرة .
(٢) رواه ابن ماجة والبيهقى فى السنن عن أبى هريرة .

﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾

« سورة الواقعة »

ثم قال سبحانه :

﴿ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾

« سورة الواقعة »

ومن مخصصات الإيمان أنك حين تقبل على أى شىء ذى بال ألا تنسى من سخر لك هذا ، فليس فى قدرتك أن تفعل لنفسك وبنفسك أى شىء إلا بإرادة الله ، وإذا ما فعلت ذلك وتذكرت من سخر لك هذا تكون قد نسبت الأمر كله له سبحانه .

ونحن فى قوانيننا الوضعية ساعة يجلس القاضى ليحكم بين الناس حُكماً وهناك سلطة تنفذ هذا الحكم فهو يقول : « باسم الشعب » أو « باسم القانون » ، إذن الشعب أو القانون هو الذى أعطاه الصلاحية لأن يحكم هذا الحكم ، فما هى القدرة التى جعلتك تحكم على الأشياء أن تنفعل لك ؟ لابد أن تقول إذن : باسم الله الذى سخر لى هذا ، فإذا أقبلت على عمل بغير ذلك ، تكون مفتاتا ومختلقا ومدعيًا أمراً لا تستطيعه ؛ لأنه ليس فى سلطتك ولا فى قدرتك أن تسخر الكائنات لك .

إن الحق سبحانه وتعالى هو الذى سخر لك الكائنات ، فعليك أن تذكر اسم الحق لتنفعل لك تلك الكائنات ، ومن يغفل عن ذلك فقد لبَّس وخلط إيمانه بظلم . وإذا ما رأيت ثمرة من ثمارك إياك أن تقول كما قال قارون : « أوتيته على علم عندى » بل اذكر وقل : ﴿ ما شاء الله ﴾ ؛ لأنك إن قلت : « أوتيته على علم » فالحق قد قال فى شأن قارون :

﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ ﴾

« من الآية ٨١ من سورة القصص »

أين ذهب علم قارون الذى جاء به ؟ .

إذن فكل أمر من الأمور يجب أن تنسبه لله ، فإن اختل شىء فيك من هذه المسألة

فاعلم أنك لبَّست وخلطت إيمانك بظلم ، والحق سبحانه وتعالى يطلب منا ذلك حتى تكون النعمة مباركة إقبالاً عليها أو انتفاعاً بها ، ولا ينشأ من العمل الذى تعمله مبتدئاً بـ ﴿ بسم الله ﴾ إلا ما يعينك على طاعته ، ويعينك على بر ، ويعينك على خير ، ولا تصرفه إلا فى عافية .

وبعد ذلك يؤهلك مجموع هذه الأشياء فى كل حركاتك وأعمالك إلى أن تأخذ أمناً آخر أجمع وأتم وأكمل من أمن الدنيا ؛ إنّك تأخذ أمن الآخرة بأن تدخل الجنة .

إذن « أولئك لهم الأمن » أى الذين لم يلبسوا إيمانهم بظلم ، والحق سبحانه وتعالى يريد منا أن نتصل دائماً بمنهجه ؛ لأن إمدادات الله سبحانه وتعالى مستمرة ، ورحماته وتجلياته لا تنقطع عن خلقه أبداً ؛ لأنه قيوم أى إنه بطلاقة قدرته وشمول قيوميته يقوم سبحانه باقتدار وحكمة على كل أسباب مخلوقاته ، فكن دائما فى صحبة القيوم ؛ ليتجلى عليك بصفات حفظه ، وصفات قدرته ، وصفات علمه ، وصفات حكمته . فرسول الله صلى الله عليه وسلم قال لبلال : (يا بلال حدثنى بأرجى عمل عملته فى الإسلام فإنى سمعت دفَّ[1] نعليك بين يدىّ فى الجنة . قال : ما عملت عملا أرجى عندى من أنّى لم أتطهر طهورا فى ساعة من ليل أو نهار إلاّ صليت بذلك الطهور ما كتب لى أن أصلى)[2] .

ويقول ـ صلى الله عليه وسلم ـ : (إذا توضأ العبد المسلم أو المؤمن فغسل وجههُ خرج من وجهه كل خطيئة نظر إليه بعينيه مع الماء أو مع آخر قطر الماء ، فإذا غسل يديه خرج من يديه كل خطيئة كان بطشتها يداه مع الماء أو مع آخر قطر الماء فإذا غسل رجليه خرجت كل خطيئة مشتها رجلاه مع الماء أو مع آخر قطر الماء حتى يخرج نقيًا من الذنوب)[3] .

---

(١) الدفّ بالفاء : صوت النعل وحركته على الأرض .
(٢) متفق عليه واللفظ للبخارى .
(٣) رواه مسلم .

إذن الحق سبحانه وتعالى يريد منا أن نتصل بمنهجه اتصالاً وثيقا ؛ ليعطينا ، لا ليأخذ منا ؛ لأن الفرق بين عبودية البشر للبشر والعبودية الخالصة لله أن البشر يأخذ خير عبده ، ولكن عبوديتنا لله تعطينا خيره من خزائن لا تنفد ، نأخذ منه كلما ازددنا له عبودية ، إذن الحق دائماً يريد أن يصلنا به .

﴿ أولئك لهم الأمن ﴾ الأمن فى الدنيا ، والأمن بمجموع ما كان فى الدنيا مع الأمن فى الآخرة .

ولقائل أن يقول : هناك أناس لا يسمون باسم الله ، ولا يخطر الله على بالهم ، ويتحركون فى طاقات الأرض ومادتها ، وينعمون بها ويسعدون ، وقد يسعدون بابتكارات سواهم . ونقول : نعم هذا صحيح ؛ لأن فيه فرقاً بين عطاء الفعل ، والبركة فى عطاء الفعل . إذا زرع الكافر فالأرض تعطى له ، وإذا قام بأى عمل يأخذ نتيجته ، لكنه لا يأخذ البركة فى العطاء .

وما هى البركة فى العطاء ؟ البركة فى العطاء أن يكون ما أخذته من هذا العطاء لا يعينك على معصية ، بل دائماً يعينك على طاعة . ونحن نرى كثيراً من الناس يصدق عليهم قوله سبحانه : ﴿ أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها ﴾ فإياك أن تغالط وتقول : إنهم لا يقولون : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ ومع ذلك فهم قد أخذوا طيبات الحياة الدنيا ، إنك حين تنظر إليهم تجد كل مرتقيات حضارتهم ، وطموحات بحوثهم واكتشافاتهم تتجه دائماً إلى الشر ، لم يأت لهم ابتكار إلا استعملوه فى الشر إلى أن يأذن الله فيشغلهم عن أشيائهم بما يصب عليهم من العذاب والنكبات ولهم فى الآخرة العقاب على شركهم وكفرهم .

إذن ﴿ أولئك لهم الأمن ﴾ أى إنّ هؤلاء الذين لم يخلطوا إيمانهم بشرك لهم الأمن فى جزيئات أعمالهم والأمن المتجمع من جزيئات أعمالهم يعطى لهم الأمن فى الجنة . ﴿ وهم مهتدون ﴾ والهداية هى الطريق الذى يوصل إلى الغاية . ولا يقال لك إنك موفق فى الحركة إلا إذا أدت بك هذه الحركة إلى غاية مرسومة فى ذهنك من نجاح بعد المذاكرة والاجتهاد . ولا مخلوق ولا مصنوع يحدد غايته ، فاترك لله تحديد

مهمتك ، فسبحانه هو الذى خلقك ، وفى عرف البشر ، لا توجد صنعة تحدد مهمتها أبداً ، بل إن الصانع هو الذى يحدد لها الغاية منها ؛ فالغاية توجد أولاً قبل الصنعة ، وما دامت الغاية موجودة قبل الصنعة فمن الذى يشقى بالتجارب إذن ؟

فى الابتكارات العلمية المعملية المادية التى تنشأ من التفاعل مع المادة نجد أن الذى يشقى بالتجربة أولاً هو العالم ، وأنت لا تعلم التجربة إلا بعد ما تظهر نتائجها الطيبة ، والمسائل النظرية التى تتعب العالم يأتى التعب منها لأنها ليست مربوطة أولاً بالماديات المقننة وبمعرفة الغاية ، ولا بمعرفة الوسيلة لهذه الغاية . فمن المهتدى إذن ؟

إن المهتدى هو من يعرف الغاية التى يسعى إليها ، والوسيلة التى تؤهله إلى هذه الغاية . وإذا حدث له عطب فى ملكات نفسه ، يستعين فى إصلاح العطب ويلجأ إلى من صنع هذه الملكات ، وهو الله سبحانه ، كما يرد الإنسان الآلة التى تتعطل لصانعها . ونجد كثيراً من الشعراء يسرحون فى خيالهم فيقول الواحد منهم :

ألا من يرينى غايتى قبل مذهبى
ومن أين للغايات بعد المذاهب ؟

ونقول له : من خلقك أوضح لك الغاية .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ ﴾

والحجة هى البرهان القائم لإثبات القضية المطلوب إثباتها . وكأن الحق سبحانه وتعالى يريد منا حين نحاجج أن تكون لنا غاية فى الحجاج ، ونحن نعلم أن الغاية فى

الحجاج إن تعدت موضوع الحجاج نفياً أو إثباتاً فهى تهريج ، وينحصر الأمر فى أنك تريد الانتصار على خصمك وأن يحاول خصمك الانتصار عليك ، لكن عليك إذا ما دخلت الحجاج أن تجعل الغاية الأصيلة هى الأساس ، وكما يقولون تحديد وبيان محل النزاع ؛ لأن الحق لابد أن يكون أعزّ منك ومن خصمك عندك ، ولذلك نجد أن الحق سبحانه وتعالى يوضح : إياكم أن تتناظروا فى قضية تناظراً جماهيرياً ، لماذا ؟ لأن الصوت الجماهيرى يلتبس فيه الحق مع الباطل ، والله سبحانه وتعالى يريد من كل صوت أن يكون محسوباً على صاحبه ، ومثال ذلك عندما يقوم تظاهر كبير ويهتف فيه بسقوط أحد لا يتعرف أحد على من بدأ الهتاف .

والذى جعل العرب يخسرون أنهم حين استقبلوا الدعوة كانوا يعقدون اجتماعات جماهيرية ، ينقدون فيها أقوال رسول الله فتاهت منهم القدرة على الحكم الموضوعى .

ولذلك يقول ربنا :

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ﴾

« من الآية ٤٦ سورة سبأ »

أى أن تجتمعوا وفى وجهتكم الله ، ومن عنده قوة فليناقش بالحجة أقوال رسول الله موضوعاً ، وتاريخاً ، ومنطقاً . ولا يمكن أن يجتمع اثنان ليبحثا مسألة وفى بالهما الله فقط ـ إلا وينتهيان فيها إلى رأى موحد . ولذلك جاء التفاوض السرى فى العصر الحديث مستمداً من تلك القاعدة الإيمانية .

﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ ﴾

« سورة الأنعام »

وأول قوم إبراهيم أبوه آزر ، إنه حاجّهم فى الكواكب والقمر والشمس والتماثيل ،

وبعد ذلك انتصر بالحجة على كبيرهم وهو الملك أو السلطان ، وهو النمروذ حين أراد أن يناظره فى قوة الإحياء والإماتة .

ويريد الحق أن نتعلم من حكمة سيدنا إبراهيم ، إنك إذا رأيت خصمك يدخل فيما لا يمكن أن ينتهى فيه الجدل فانقله إلى المستوى الذى لا يستطيع منه خلاصا ولا فكاكا ، فلا يغلبك ؛ فالملك النمروذ قال له :

﴿ أَنَا۠ أُحْيِۦ وَأُمِيتُ ﴾

« من الآية ٢٥٨ من سورة البقرة »

وكان باستطاعة سيدنا إبراهيم أن يقول : أنت لا تميت بل تقتل ، والقتل غير الموت ؛ لأنك تنقض البنية ، لكنه لم يرد أن يطيل الجدل ، وأراد أن يكون الجدل مقتضباً ، ويسقطه على الحجة ويلزمه بها من أقصر طريق ، فقال الله :

﴿ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ ﴾

« من الآية ٢٥٨ من سورة البقرة »

فماذا كانت نتيجة الجدل ؟ يقول الله سبحانه :

﴿ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ﴾

« من الآية ٢٥٨ من سورة البقرة »

وكل هذه حجج يوضحها قول الله سبحانه :

﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ ﴾

« سورة الأنعام »

لقد أعطى الله سبحانه إبراهيم الحجة على قومه ، أى كانت له عليهم درجات وسمو وارتفاع ؛ لأن إقامة الحجة على الغير انتصار ، والانتصار رفع لدرجة موضوعك ، ورفع أيضا لموضوع عملك . وسبحانه لا يشاء إلا عن حكمة ، ولا يشاء

إلا عن علم ؛ لأنه إن أطلقنا المشيئة لواحد من البشر فقد يفعل الفعل بدون حكمة وبدون علم ، أما الحق فينبئنا بأن مشيئته هى عن حكمة وعلم لصالح الخلق ؛ لأن مشيئته مبنية لا على هوى ، ولا على نفع من أحد ، فالله سبحانه له كل صفات الكمال والجلال والجمال قبل أن يخلق الخلق .

إن خَلْق الخلق وإيمانهم لا يزيد فى ملك الله ، وإن عصوا لا ينقص من ملك الله شىء ، ولكن الحكمة قد تفوت عن بعض الخلق فلا يهتدون إليها ، وسبحانه حين يجرى أمراً على خلقه ثم يقبلونه وإن لم يعلموا علته يريهم جل وعلا الحكمة فى الفعل الذى كان غير مقبول لهم ؛ لأنه سبحانه خلق الخلق ويعلم أزلاً أن للخلق أهواء ومرادات ، ولو أعطى كل مخلوق مراده لأعطاه على حساب غيره ، والحق سبحانه عادل فلا ينفع واحداً ويتعب الآخر .

والحق بحكمته يعلم ما يصلح أمر خلقه ، فلا يستجيب لدعوة حمقاء من عبد ، فسبحانه يعلم أنه ليس فى صالح العبد أن يلبى له هذا الطلب . ولذلك يقول الحق :

﴿ وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾ ﴾

« سورة الإسراء »

إن العبد يقول : يا رب اصنع لى كذا ، يسّر لى هذا الأمر ، وهو خير فى عرفه ، وقد يكون هو الشر ؛ لأن الإنسان عجول . لذلك يقول سبحانه :

﴿ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴾

« من الآية ٣٧ من سورة الأنبياء »

إن الحق جل وعلا يضبط مرادات الخلق ؛ فالصالح يجريه عليهم .

﴿ نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم ﴾ وكلمة ﴿ رب ﴾ حينما ترد لابد أن نفهم منها معنى الخلق والتربية ، وساعة تأتى كلمة « الألوهية » فلنعلم أنها للتكليف ؛ لأن الله هو المعبود المطاع إن أمر أو نهى ، ولكن الرب هو من خلق وربَّى ، وتعهد ، وأعطاك مقومات حياتك . إذن عطاء الربوبية شىء ، وعطاء الألوهية شىء آخر ،

وعطاء الربوبية يأخذه المؤمن والكافر ، والطائع والعاصى ؛ لأن الله هو الذى استدعاهم للوجود ، وجعل الكون مسخراً لهم ، لكن عطاء الألوهية يتمثل فى « افعل كذا » و « لا تفعل كذا » ، وهذا يدخل فى منطقة الاختيار . فالذى يكفر بالله ويحسن الأخذ بالأسباب يأخذ نتائجها ، ومن يؤمن بالله ولا يحسن الأخذ بالأسباب لا يأخذ النتائج ؛ لأن الاستنباط فى الكون من عطاء الربوبية .

ويقول الحق :

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾

إننا نعرف أن إسحاق هو الابن الثانى لسيدنا إبراهيم بعد إسماعيل ، ويعقوب ابن إسحاق ، وساعة ترى الهِبَة افهم أنها ليست هى الحق ، فالهبة شىء ، و « الحق » شىء آخر . الهبة . إعطاء معطٍ لمن لا يستحق ؛ لأنك حين تعطى إنساناً ما يستحقه فليس ذلك هبة بل حقاً .

والحق سبحانه وتعالى يوضح : إياكم أن تعتقدوا أن أحداً من خلقى له حق عندى إلا ما أجعله أنا حقاً له ، ولكن كل شىء هِبة منى . والقمة الأولى فى الهبات والعطايا هى قمة السيادة الأولى فى الكون للإنسان ، ثم التكاثر من نوعيه الذكر والأنثى ، حيث الذريَّة من البنين والبنات . يقول سبحانه :

﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ ﴾

« سورة الشورى »

فهبة الأولاد لا تأتى من مجرد أنه خلق الرجل والمرأة ، وأنّ اللقاء بينهما يوجد الأولاد بل يقول سبحانه :

﴿ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا ﴾

« من الآية ٥٠ من سورة الشورى »

فلو أن المسألة مجرد إجراء ميكانيكى لجاء الأولاد ، لكن الأمر ليس كذلك ؛ فمن يفهم فى الملكوت تطمئن نفسه أن ذلك حاصل عن حكمة حكيم يعرف أنها هبة من الله ، حتى العقم هو هبة أيضاً ؛ فالذى يستقبله من الله على أنه هبة ويرضاه ، ولم ينظر إلى أبناء الغير بحقد أو بحسد سيجعل الله كل من تراه أبناء لك بدون تعب فى حمل أو ولادة ، وبدون عناية ورعاية منك طول عمرك . ومن يرض بهبة الله من الإناث سيجد أنهن رزق من الله ويبعث له من الذكور من يتزوج الإناث ويكونون أطوع له من أبنائه ؛ لأنه رضى . إذن لابد أن تأخذ الهبة فى العطاء ، والهبة فى المنع .

والحق يوضح : أنا وهبت لإبراهيم إسحاق ، ومن وراء إسحاق يعقوب ، والإنسان منا يعرف أن الإنسان بواقع أقضية الكون ميّت لا محالة ، وحين يكبر الإنسان يرغب فى ولد يصل اسمه فى الحياة وكأنه ضمن ذلك ، فإن جاء حفيد يكون الجد قد ضمن نفسه جيلاً آخر . ولكن لنعرف قول الحق :

﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ ﴾

« سورة الكهف »

وبقاء الذِّكْرِ فى الدنيا لا لزوم له إن كان الله يحط من قدر الإنسان فى الآخرة !!

ونلحظ أن الحق قال فى موقع آخر :

﴿ فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ ﴾

« من الآية ٥ والآية ٦ سورة مريم »

وامتن الله على إبراهيم لا بإسحاق فقط بل بيعقوب أيضاً ، وفوق ذلك قال : ﴿ كلا

هدينا ﴾ أى أنهما كانا من أهل الهداية . ﴿ ونوحا هدينا من قبل ﴾ أى أن الهداية لا تبدأ بإسحاق ويعقوب ، بل بنوح من قبل . ﴿ ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزى المحسنين ﴾ .

ويتابع الحق :

﴿ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾

ولم يأت الحق بالثمانية عشر نبياً متتابعين بل قسمهم بحكمة ، فيقول :

﴿ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾

ولا يقتصر الأمر على هؤلاء بل يقول سبحانه :

﴿ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ ۖ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ﴾

وأنت إن نظرت إلى هؤلاء الثمانية عشر نبياً المذكورين هنا ، ستجد أنهم من الخمسة والعشرين رسولاً الذين أمرنا بالإيمان بهم تفصيلا . وقد جمعوا فى قول الناظم :

فى تلك حجتنا منهم ثمانية
من بعد عشر ويبقى سبعة وهمو

إدريس هود شعيب صالح . وكذا
ذو الكفل آدم بالمختار وقد ختموا

والحق سبحانه وتعالى لم يجعل من الأنبياء ملوكا إلا اثنين : داود وسليمان حتى يعطينا فكرة أن الله إذا أراد أن يقهر خلقاً على شيء لا يقدر عليه أحد يبعث مَلِكاً رسولاً ؛ لأن المَلِك لا يقدر عليه عبد لأنَّ القدرة معه ، والمجتمع آنذاك كان فى حاجة إلى ملك يدير أمره ويضبط شأنه ، وسبحانه لا يريد الإيمان بالقوة والخوف والرهبوت إنما يريده بالاختيار ، ولذلك جعل أغلب الأنبياء ليسوا ملوكاً .

وفى الحديث : « أفملكا نبيا يجعلك أو عبداً رسولاً »[1] فاختار أن يكون عبدا رسولا ؛ لأن الملك يأتى بسلطانه وبماله ، وقد يطغى .

وأراد الحق أن يكون سليمان وداود من الأنبياء وهما ملكان ، وتتمثل فيهما القدرة وسعة الملك والسلطان . أمّا أيوب فقد أخذ زاوية أخرى من الزوايا وهى الابتلاء والصبر مع النبوة ، وكل نبى فيه قدر مشترك من النبوة ، وفيه تميّز شخصى . وكذلك يوسف أخذ الابتلاء أولاً ، ثم أخذ الملك والسلطان فى النهاية . وموسى وهارون أخذا شهرة الاتْبَاع ، ونكاد لا نعرف من الأديان إلا اليهودية والنصرانية ، أما زكريا ويحيى وعيسى وإلياس فقد أخذوا ملكة الزهد .

وأما إسماعيل واليسع ويونس ولوطاً فقد أخذوا ما زخرت به حياتهم من عظيم الفعال وكريم الخصال والسلوك القويم والقدوة الطيبة وبقى لهم الذكر الحسن .

إذن فهناك زوايا متعددة للأنبياء .

وعندما وقف العلماء عند « عيسى » هل يدخل فى ذريتهم ، وجدوا من يستنبط ويقول : من ذريتهم من ناحية الأم .

وإنما أمهات القوم أوعية
مستحدثات وللأحساب آباء

---

(١) رواه أحمد ٢/٢٣١ .

والعنصر البشرى فى عيسى هو الأم . وبمثل هذا احتج أبو جعفر محمد الباقر أمام الحجاج حين قال له : أنتم تدعون أنكم من آل رسول الله ومن نسله ، مع أن رسول الله ليس له ذرية ! .

قال له الإمام الباقر رضى الله عنه : كأنك لم تقرأ القرآن .

قال له : وأى شىء فى القرآن ؟

قال اقرأ : « ومن ذريته ..... » إلى أن تقرأ : « وعيسى » ، فعيسى من ذرية نوح ، من أب أمْ من أمّ ؟ .

قال له : من أمّ . فقال له : نحن كذلك من ذرية محمد صلى الله عليه وسلم .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾

« ذلك » إشارة إلى شىء تقدم ، والمقصود به الهدى الذى هدينا به القوم ، وهو هدى الله . ونجد كلمة « هدى » تدل على الغاية المرسوم لها طريق قصير يوصل إليها ، وربنا هو الذى خلق ، وهو الذى يضع الغاية ، ويضع ويوضح ويبيِّن الطريق إلى الغاية ، وحين يضاف الهدى إلى الله فهو دلالة على المنبع والمصدر أى هدى من الله . وكلمة « هدى » مرة تضاف إلى الواهب وهو الحق ، وتضاف إلى الأنبياء . يقول الحق : ﴿ فبهداهم اقتده ﴾ .

وذلك إشارة إلى المنهج الذى أنزله الله على الرسل .

إذن فالحق سبحانه وتعالى يهدى الناس جميعاً بدلالتهم على الخير ، والذى يقبل

على هذه الدلالة احتراماً لإيمانه يعينه الله ، ويزيده هدى ، وسبحانه يريد أن يثبت للإنسان أنه جعله مختاراً ، فإن اخترت أى شىء فأنت لم تختره غصباً عن ربنا ، إنما اخترته بمن خلقك مختاراً . ولا يوجد فعل فى الكون يحدث على غير مراد الله ، ولو أراد الله الناس جميعاً مهديين لما استطاع واحد أن يعصى ، إنما أرادهم مختارين ، وكل فعل يفعله أى واحد منهم ، فهو مراد من الله لكنّه قد يكون مرادًا غير محبوب ، ولذلك قال العلماء : إن هناك مراداً كوناً ، ومراداً شرعاً . وما دام الشىء فى ملك الله فهو مراد لله ، والمراد الشرعى هو المأمور به ، وما يختلف عن ذلك فهو مراد كونى ، جاء من باب أنه خلقك مختاراً .

ومثال ذلك ـ ولله المثل الأعلى ـ أنت تعطى ابنك جنيهاً ، والجنيه قوة شرائية . فأخذ الجنيه ونزل السوق وهو حر ليتصرف فيه ، وتقول له : اسمع . إن اشتريت به مصحفاً أو كتاباً جميلاً أو بعضاً من الحلوى وأكلتها أنت وإخوتك فسأكون مسروراً منك ،وسأكافئك مكافأة طيبة ، وإن اشتريت « كوتشينة » ، أو صرفت الجنيه فيما لا أرضى عنه فسوف أغضب منك ولن أعطيك نقوداً .

أنت بهذا القول أعطيت ابنك الحرية . وساعة ينزل السوق ويشترى « كوتشينة » فهو لم يفعل ذلك قهراً عنك لأنك أنت الذى أعطيته الاختيار ، لكنك قلت له : إنك تطلب منه أن يحسن الاختيار ، وسبحانه وتعالى قد جعل الإنسان مختاراً ، فإن اختار الهداية أجزل له العطاء ، وإن اختار الضلال عاقبه عليه . . .

وبالنسبة للأنبياء جاءت لهم الهداية من الله دلالة لهم وأقبلوا على مرادات الحق فأعطاهم هداية أخرى ؛ وذلك بأن يعشّقهم فى العمل ويحبب إليهم فعل الخير ، وبعد ذلك يوضح سبحانه : إياكم أن تظنوا أن هناك من يفلت منى ؛ لأنهم لو أشركوا لأحبطت أعمالهم .

إذن فالحق لم يخلق الخلق مرغمين على عمل الطاعة بل خلقهم مختارين فى التكاليف ، حتى ينالوا لذة اختيار منهج الله و لو أشركوا لحبط عملهم و ﴿ لو ﴾ حرف امتناع لامتناع ، وهذا دليل على أنهم لم يشركوا ولذلك لم يحبط عملهم ، و « الحبط » هو الإبطال للعمل .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾

والكتاب هو المنهج ، والحكم وهو ما أعطاه الله لبعضهم من السيطرة والغلبة ، والنبوة ؛ أى أنّه جعلهم نماذج سلوكية للبشر .

﴿ فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين ﴾ وسبحانه وتعالى أعطانا نماذج من المهديين فى الرسل ، والأنبياء ؛ وفيمن اجتباهم من آبائهم وذرياتهم وإخوانهم ؛ فهؤلاء القوم الذين جئت لتأخذ بيدهم من الظلمات إلى النور ، فإن امتنع بعض الناس عن الهداية فسيوكل الله قوماً آخرين ليحملوا المناهج ليكونوا عنصر الخير الباقى إلى أن تقوم الساعة .

وَمَنْ القوم ؟ . قال بعضهم المشار إليه هم قريش ، والمقصود من قوله : ﴿ فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين ﴾ هم أهل المدينة أى الأنصار . أو المقصود من النص الكريم كل ممتنع وكافر وكذلك كل مقبل على الله وطائع له أى إن يكفر بها طائفة يوكل الله من يقوم بها ويدافع عنها ويحميها ؛ لأن الله لا ينزل قضية الخير فى الخلق وبعد ذلك يطمسها بل لابد أن يبقيها كحجة على الخلق .

﴿ فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ﴾ وهذا يدل على أن أهل الخير دائما وكلاء عن الله ؛ لأن الذى يمد يده بالمعونة لضعيف من خلق الله ؛ هذا الضعيف قد استدعاه الله إلى الوجود ، ومن يمد يده بالمعونة فقد جعل من نفسه وكيلاً لربنا ؛ لأنه يقوم بالمطلوب له ـ سبحانه ـ وجعل من نفسه سبباً له ؛ لأن الله رب الجميع ، ومربى الجميع ، وراعى الجميع ، ورزّاق الجميع . وليثق من يقوم بالخير ويجعل من نفسه

وكيلاً عن الله فى أن يشيع الخير فى خلق الله ، ليثق أن الله سيكرمه أضعاف أضعاف ما أعطى .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾

و﴿ هدى الله ﴾ هنا أيضا هو هداية دلالة ، وهداية معونة ؛ بدليل أنه قال : ﴿ فبهداهم اقتده ﴾ والخطاب لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأن « أولاء » أى المشار إليهم هم المتقدمون ، و« الكاف » خطاب للنبى صلى الله عليه وسلم .

﴿ أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده ﴾ وحين نقرأ هذا القول الكريم نقول ﴿ اقتد ﴾ ولا نقول ﴿ اقتده ﴾ ولا تنطق الهاء إلا فى الوقف ويسمونها « هاء السّكت » ، لكن إذا جاءت فى الوصل لا ينطقَ بها ، وكل واحد من هؤلاء الرسل السابق ذِكْرهم له خصلة تميز بها ، وفيه قدر مشترك بين الجميع وهو إخلاص العبودية لله والإيمان بالله وأنّه واحد فى ذاته وفى صفاته وفى أفعاله ، وكلهم مشتركون فى هذه الأصول ، وتميّز كل منهم بخصلة فى الخير ؛ فسيدنا سليمان وداود أخذا القدرة والسلطان والملك ، وأيوب أخذ القدرة فى الصبر على البلاء ، ويوسف أخذ القدرة فى الصبر والتفوق فى الحُكم ، وسيدنا يونس أخذ القدرة كضارع إلى الله وهو فى بطن الحوت ، وإسماعيل كان صادق الوعد .

والمطلوب إذن من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكون مُقتدياً بهم جميعاً ، أى أن يكون كسليمان وكداود وكإسحاق وكيعقوب وكأيوب وكيوسف وكيونس . وأن يأخذ خصلة التميز من كل واحد فيهم وأن يشترك معهم فى القضية العامة وهى

التوحيد لله . وبذلك يجتمع كل التميز الذى فى جميع الأنبياء فى سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وإذا أُمِرَ رسول الله صلى الله عليه وسلم أمراً من ربه فلابد أن نعتقد أنه صلى الله عليه وسلم قد نفذ الأمر ، وما دام أنه صلى الله عليه وسلم قد اجتمعت فيه مزايا الأنبياء فحق له أن يكون خاتم النبيين والمرسلين .

﴿ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَـٰلَمِينَ ﴾

« من الآية ٩٠ سورة الأنعام »

ولماذا يُطْلَب الأجر ؟ أنت لا تطلب أجراً ممن فعلت أمامه أو له عملاً إلا إذا كان العمل الذى فعلته يعطيه منفعة تستحق أن تُعطى وتُمنح عليه أجراً ، فكأن ما يؤديه صلى الله عليه وسلم إلى الأمة كان يستحق عليه أجراً ، لكنه صلى الله عليه وسلم يبلغ عن ربّه : قل لهم : إنك نزلت عن هذا الأجر .

وقارنوا بين مَن يقدم لأى واحد منكم منفعة قد لا تأخذ من وقته نصف ساعة فى جزئية من جزئيات الحياة ، ومن يقوم بعمل ينفعكم فى مدًى يتعدى الدنيا إلى أن يصل إلى الآخرة ثم يقول : أنا لا أريد منكم أجراً .

وعدم طلب الأجر حصل من كل الرسل إلا رسولين اثنين ؛ فلم يرد فى القرآن أن قالاها ، وإذا ما جئت لسورة الشعراء مثلاً تجد أن الحق تكلم عن موسى ، وتكلم عن إبراهيم ، ثم تكلم بعد ذلك عن بقية الرسل ولم تأت كلمة الأجر فى قصة إبراهيم وكذلك فى قصة موسى عليهما السلام.لكن جاء ذكر الأجر فى غيرهما ، يقول سبحانه :

﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾

« سورة الشعراء »

وقال جل شأنه :

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾﴾

« سورة الشعراء »

وعندما تستقرىء سورة الشعراء تجد الأنبياء كلهم ، وتجد مع قول كل منهم ﴿ وما أسألكم عليه من أجر ﴾ ، إلا سيدنا موسى ، وسيدنا إبراهيم ، لماذا ؟ ونقول : إن من ينزل عن الأجر ، هو من يقدم لهم منفعة .

وفى موسى عليه السلام نجد أنّه قد وجهت وقدمت وسيقت له المنفعة من فرعون الذى قام بتربيته ، كأنه قد أخذ الأجر مقدماً ، لذلك لم يقل موسى لفرعون « لا أسألك أجراً » ؛ لأن القرآن جاء بقول فرعون :

﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا ﴾

« من الآية ١٨ سورة الشعراء »

وكذلك لم تأت مسألة الأجر فى قصة سيدنا إبراهيم لأنه خاطب أباه آزر ، ولم يكن من المقبول أن يقول له:« لا أسألك أجرا » . وهكذا انطمست مسألة الأجر فى قصة سيدنا إبراهيم وقصة سيدنا موسى ، وبقيت فيما عداهما ، مما يدل على أن القرآن موضوع بأدق تفاصيله بحكمة ؛ لأن من يتكلم هو ربنا . ويمتاز سيدنا رسول الله أيضا ويقول : « لا أسألكم أجراً » إلا آية واحدة استثنى فيها هذا النفى :

﴿ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ ﴾

« من الآية ٢٣ سورة الشورى »

والمودة هى فعل الخير الناشىء عن محبة قلب ، أما فعل الخير الذى لا ينبع من محبة فى القلب فهو فعل معروف ؛ لأن المعروف يضعه الإنسان مع من يُحب ومن لا يُحب . ولذلك قال ربنا :

﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾

« من الآية ١٥ سورة لقمان »

المعروف ـ إذن ـ هو عمل امتداده خير سطحى . والرسول حين يطلب المودة فى القربى فهل هى قُرباه صلى الله عليه وسلم أو المودة فى قُرباكم ؟ هى القُربىٰ على إطلاقها ، وهى القُربىٰ أيضا للمتكلم وهو الرسول الذى يبلغ عن الله .

وإن صُنِّفت على أنها « إلا المودة فى القُربىٰ » أى القربى للمتكلم وهو سيدنا رسول الله لما استطعنا أن نُوفيه أجراً . أما حين يتحمل كل واحد منا مجالاً من الخير والمعروف فى قومه ، هنا تتلاحم دوائِر الخير فى الناس جميعاً .

ويذيل الحق الآية بقوله : « إن هو إلا ذِكْرى للعالمين » وهى ما تعطينا اجتماع الدوائر ويصير كل واحد مُهْتَماً بأقاربه ويتنازع الناس ويتنافسون فى مودة القُربىٰ ، وكل منهم يحرص على أن يوسع دائرة القربى . هنا يعم الخير ويدوم الود ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۙ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ ﴾

الكلام عن الذين رفضوا وتأبّوا عن الإيمان بالله . فيأتى الأمر للرسول صلى الله عليه وسلم بأن يوضح لهم بأنهم لم يعطوا الله حق قدره ، ومعنى القدْر معرفة المقدار ، وحق قدره سبحانه لا نقدر عليه نحن البشر ، لذلك نقدره على قدر طاقتنا أو على قدر ما طلب منا ، وكما قال رسول الله :

(سبحانك لا نحصى ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك)(١)

والإنسان منا حين يثنى على واحد فهذا دليل أنه قد قيّم قدره بقيمة الثناء ، وحين نقيّم قدر الله فعلينا أن نعرف أن صفات الكمال كلها فيه وهى لا تتناهى ولا يمكن أن تحصىٰ . ومن رحمة الحق سبحانه وتعالى أنه تحمَّل عنا صيغة الثناء عليه : كى لا يوقعنا فى حرج ، فليس لبشر من قُدرة أن يحيط بجمال الله أو بجلاله حتى يثنى عليه بما يستحقه ، وإن أحاط عبد بذلك ـ ولن يحيط ـ فمن أين له العبارة التى تؤدى هذا الثناء ؟ ولا يوجد بليغ أو أديب يستطيع أن ينمق العبارات التى تكفى لتقدير هذا الثناء على الله ، فأوضح لنا الحق من خلال رسوله : أنا حملت عنكم هذه المسألة حتى تكونوا كلكم سواسية ، قال رسول الله :

(سبحانك لا نحصى ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك)

وفى كلمة « الحمد لله » وحدها يتساوىٰ الناس جميعاً . ومن رحمته سبحانه أن سوّى بين الناس فى معرفة صيغة الثناء عليه . ويأتى الحق هنا بالزاوية التى نفى فيها أنهم ما قدروا الله حق قدره . لماذا ياربِّ لم يقدروك حق قدرك ؟ وتأتى الإجابة :

﴿ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ﴾

« من الآية ٩١ سورة الأنعام »

أى أنهم أنكروا أن يكون الله قد اختار من بعض خلقه مَن يجعلهم أهلاً لتلقِّى منهجه لإبلاغه إلى خلقه . ويأتى الرد من الحق لرسوله رداً عليهم :

﴿ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ﴾

« من الآية ٩١ سورة الأنعام »

إذن لابد أن يكون القائلون هذا يؤمنون بأن موسىٰ نُزِّل عليه كتاب لتكون الحُجَّة فى موضعها . وكُفار مكة كانوا غير مؤمنين بأى رسول ، لكنهم يعلمون أن هناك من هم أهل كتاب ، بدليل أنهم قالوا :

---

(١) رواه مسلم فى الصلاة وأبو داود فى الصلاة والوتر والنسائى فى قيام الليل والترمذى فى الدعوات وابن ماجة فى الدعاء ومالك فى الموطأ فى مس القرآن ورواه أحمد فى المسند ١/٩٦ ، ١١٨ .

﴿ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ﴾

« من الآية ١٥٧ سورة الأنعام »

ونقول : لو دققت النظر فى السورة فقد ينطبق الأمر على واحد مخصوص من الذين غلبتهم الحُجّة . وفى تاريخ السيرة نجد واحداً من الأحبار كان دائب الخوض فى الاسلام ، وكان اسمه « مالك بن الصيف » فلقيه رسول الله صلى الله عليه وسلم . والحَبْر هو عالم اليهود والمفترض فيه أن يكون من الزهاد فيهم منقطعا للعلم إلا أنه كان سميناً على الرغم من أن من عادة المنقطعين للعبادة وإلى العلم أنهم لا يأخذون من الزاد إلا ما يقيت ، ويقُيم الأود لأنه قد جاء فى التوراة : « إن الله يبغض الحبْر السّمين » .

فلما علم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن مالك بن الصيف ـ وهو من أحبار اليهود ـ يخوض كثيراً فى الإسلام قال له : أفى توراتكم « إن الله يبغض الحَبْر السّمين » فبهت الرجل ، وقال : « ما أنزل الله على بشرٍ من شىء » يعنى ما أنزل الله على بشرٍ من شىء من الذى أنت تقوله ، وهكذا نعلم أن مثل هذا القول قد يأتى من أهل كتاب ، وحين قال مالك هذه القولة قام عليه رجال من اليهود وقالوا له : كيف تقول : « ما أنزل الله على بشرٍ من شىء » فقال لهم : أغضبنى محمد ، فرددت على الغضب بباطل .

وهنا قال من سمعه من اليهود : إذن أنت لا تصلح أن تكون حبْراً لأنك فضحتنا . وعزلوه ، وجاءوا بكعب بن الأشرف وولّوه مكانه .

﴿ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾

« من الآية ٩١ سورة الأنعام »

الكتاب إذن هنا هو الكتاب الذى أنزله الله على موسى وهو التوراة وقد جعلوه

قراطيس ، أو جعلوه أوراقاً منفصلة يظهرون منها ما يُريدون ، ويخفون منها ما لا يُريدون مثلما فعلوا فى مسألة الرّجم كعقاب للزّنا . إذن فقد سبق لهم كتمان ما أنزل الله عليهم ، وبيّن الحق ذلك فى آيات متعددة :

﴿ فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ ﴾

« من الآية ١٤ سورة المائدة »

والذى لم ينسوه كَتَموا بعضه وأظهروا بعضه ، والذى لم يكتموه حرَّفوه ولووا به ألسنتهم ، إذن فهناك نسيان ، وكتمان ، وتحريف . وليتهم اقتصروا على هذا ووقفوا عنده بل جاءوا بأشياء من عندهم وقالوا هى من عند الله :

﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾

« من الآية ٧٩ سورة البقرة »

ويتابع الحق سبحانه :

﴿ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾

« من الآية ٩١ سورة الأنعام »

فإن كان الكلام فى كُفّار مكة فقد جاءهم القرآن بما لم يعلموا لا هم ولا آباؤهم ؛ لأن الإسلام جاء على فترة من الرسل . وإن كان فى أهل الكتاب فهو قول صدق ؛ لأنهم لما كتموا أشياء فضح القرآن ما كتموه وما حرفوه . وجاء القرآن فعدل لهم ، فكأنهم عُلِّموا الحق ، لينسخوا به الباطل الذى غيّروه وحرفوه ، وقوله الحق: ﴿ قل الله ﴾ أى أن الذى أنزل الكتاب هو الله .

وساعة يأتى الحق سبحانه وتعالى بصيغة الاستفهام نعلم أن الاستفهام الحقيقى بالنسبة لله مُحَال ، لأنه يعلم كل شىء ، وإنما يجىء باستفهام يقال له : « الاستفهام الإنكارى » أو « الاستفهام التقريرى » وهو يأتى بهذه الصيغة لأنه يريد جواباً فيه الإقرار من المعاندين ، فإن لم يقولوا واحتاروا أو خجلوا أن يقولوا فقل أنت لهم يامحمد :

﴿ قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾

« من الآية ٩١ سورة الأنعام »

و« الخوض » هو الدخول فى الماء الكثير ، الذى لا تستبين العين فيه موضع القدم ، وربما نزل فى هوّة ، ثم استعمل واستعير للخوض فى الباطل .

والحق سبحانه وتعالى يقول : « ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون » أى أن هذا لعب منهم ولن يستطيع الصمود أمام الدعوة ، فالدعوة سائرة فى طريقها ، ولن يتمكنوا منها أبداً ، فكل الذى يصنعونه هو خوض فى باطل ولعب لا جدوى منه ولا صلة له بالجد . ولكن هل معنى هذا أن يتركهم محمد ؟ لا ؛ لأنه حين يجد آذانا منهم ينبههم ويذكّرهم ، ثم بعد أن ينفتح الأمر للإسلام ، فالذى يقيم فى جزيرة العرب لا يقبل منه إلا الإسلام أو السيف ؛ لأن المعجزة جاءت مباشرة بقرآن يعلم الكل إعجازه ، وسبحانه قد أنزل التوراة من قبل وأنزل القرآن مباركا ، فالحق يقول بعد ذلك :

﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾

وكلمة « أنزلنا » الأصل فيها نون وزاى ولام ، وتستعمل بالنسبة للقرآن استعمالات متعددة ؛ فمرة يقول سبحانه :

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ ﴾

« سورة القدر »

ومرة يقول عز وجل :

﴿ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴾

« من الآية ١٠٦ سورة الإسراء »

ومرة يسند النزول للقرآن :

﴿ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ﴾

« من الآية ١٠٥ سورة الإسراء »

ومرة يسنده إلى من جاء به :

﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ ﴾

« سورة الشعراء »

هذه إذن تعابير متعددة ، وما دواعى هذا الاشتقاق ونحن نعلم أن القرآن لم ينزل جملة واحدة على رسول الله صلى الله عليه وسلم وإنما نزل جملة واحدة إلى السماء الدنيا من اللوح المحفوظ ليباشر القرآن مهمته فى الوجود الجديد ، وكان ينزل كل نجم من النجوم حسب الأحداث . و« أنزل » هنا للتعدية أى نقل من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا ليباشر مهمته ، ولذلك يقول سبحانه : ﴿ إنا أنزلناه فى ليلة القدر ﴾ .

ونعلم أن القرآن نزل فى ليلة القدر وفى غير ليلة القدر ، ولكنه نزل فى ليلة القدر جميعه إلى سماء الدنيا ، ثم نزل منجماً ومفصّلا فى بقية أيام الثلاث والعشرين سنة التى عاشها صلى الله عليه وسلم بعد نزول الوحى ، فإذا ما أراد أنه أنزله من اللوح المحفوظ يأتى بـ « همزة التعدية » وإذا أراد النزول والموالاة يقول : « نزّل » لأن فيها التتابع ، وإذا نسبه لمن نزل به يأتى بـ « نَزَل » لأن القرآن لم ينزل وحده بل نَزَل به الروح الأمين ، إذن فكلها مُلتقية فى أن القرآن نَزَل أو أنزِل ، أو نُزِّل . وكلمة « نَزَل » تعطينا لمحة ، وهو أنه جاء من أعلى ، ويستقبله الأدنى . وساعة يطلب الحق منا أن ننصت لإنزال حكم يقول لنا عز وجل :

﴿ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾

« من الآية ١٥١ سورة الأنعام »

ومعنى « تَعالَوْا » أى ارتفعوا ؛ لأننا نعيش على الأرض ، وإياكم أن تشرّع الأرض لكم ؛ لأن تشريع الأرض إذا لم يكن فى ضوء منهج الله فهو حضيض . والله يريد تشريعا عالياً ، ولابد لكم من أن تتلقوا من السماء أحكامكم ؛ حتى لا تتيهوا ولا تضلوا فى باطل تشريعات لا تدور فى إطار منهج الله .

والحق يقول هنا : « وهذا كتاب أنزلناه مبارك » وهو قول يصدق على القرآن فقط برغم أن كل الكتب السماوية السابقة كانت كتب منهج ، وكانت المعجزة منفصلة عن المنهج ؛ فمعجزة موسى عليه السلام ـ كما نعرف ـ هى العصا ، ومنهجه التوراة ، وعيسى عليه السلام معجزته إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله ومنهجه الإنجيل . لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم تميّز بأن معجزته عين منهجه ، لأن كل دين من الأديان السابقة كان لزمن محدود ، فى مكان محدود . وجاء صلى الله عليه وسلم بالدين الجامع المانع ، لذلك جاءت المعجزة هى المنهج ، فلو أن معجزته صلى الله عليه وسلم كانت من جنس معجزات السابقين ؛ أى كانت كونية مرئية لانتهت . ونحن لم نصدق معجزات الأنبياء السابقين إلا لأن القرآن قالها وصارت خبراً ، وكل منها تليق بالزمن المحدود والمكان المحدود . لكن الإسلام جاء ليعم كل الأزمنة وكل الأمكنة ، ولذلك لزم أن تكون المعجزة مستصحبة للمنهج ؛ حتى يستطيع من يأتى بعد عصر النبوة إلى قيام الساعة أن يقول : مُحمد رسول الله وتلك معجزته .

والقرآن مُبارك ، ونحن فى أعرافنا حين نتكلم بالعامية نأتى بالكلمة التى هى من نفْح ونضح الاستعمالات الفصيحة التى سمعناها ، فنجد من يقول : « والله هذا الأكل فيه بركة ؛ فهو مصنوع لاثنين وأكل منه أربعة وفاض وزاد » . إذن ، « البركة » أن يعطى الشىء أكبر من حجمه المنظور .

وبركة القرآن غالبة ومهيمنة ، ولو قاس كل إنسان حجم القرآن بحجم الكتب الأخرى لوجد حجم القرآن أقل ، ومع ذلك فيه من الخير والبر والمبركات والتشريعات والمعجزات والأسرار ما تضيق به الكتب ، ونجد من يؤلف ويفسر فى أجزاء متعددة ، ومع ذلك ما استطاع واحد ان يصل إلى حقيقة المراد من الله ؛ لأن القرآن لو جاء وأفرغ عطاءه فى القرن الذى عاش فيه الرسول فقل لى بالله : كيف تستقبله القرون الأخرى ؟ ! إنه يكون استقبالا خاليا من العناية به لأنه سيكون كلاماً مكرراً .

إذن فقد بيّن فيه كل شيء ومنه أخذ كل إنسان وزمان قدر ذهنه ، ولو أن القرآن يراد تفسيره لما فسّره أحد غير من انفعل له نزولاً عليه وهو سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أيستطيع واحد بعد ذلك ان يقول شيئا فى التفسير ؟ ! إذن لو فسره الرسول صلى الله عليه وسلم لجمّده لأنه لا يجرؤ أحد أن يأتى بتفسير بعد الرسول .

وقد علم الرسول صلى الله عليه وسلم أن عطاءات القرآن لا تتناهى ، لذلك لم يفسّره . بل أوضح بما تطيقه العقول المعاصره حتى لا ينصرفوا عنه . ولو كان القرآن قال : إن الأرض كرة وتدور حول الشمس ، أكان يصدقه أحد ؟ إن هناك حتى الآن من ينكر ذلك . ونجد القرآن يشير ويلمح إليها إلماحا خفيفاً إلى أن تتسع العقول لها . فيقول الحق :

﴿ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ﴾

« من الآية ٥ سورة الزمر »

ومادام الليل يأتى وراء النهار ، والنهار يأتى وراء الليل فى شبه كرة ؛ فالذى يأتى عليه الليل والنهار شكل الكرة . فكأن كلاً من الليل والنهار دائر وراء الآخر حول كرة ، إذن فالحق يعطى اللمحة بميزان حتى تتسع العقول للفهم . ويقول القرآن :

﴿ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ﴾

« من الآية ١٤٢ سورة البقرة »

وهذا قول واضح ؛ لأن كل واحد منا يعرف المشرق والمغرب . لكن حين يقول الحق :

﴿ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ ﴾

« سورة الرحمن »

أكان يفهمها المعاصر لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ نعم ، لأنه ساعة ما يقول : إن الشمس أشرقت من المكان الفلانى ، وغابت عن مكان آخر ، فساعة شروقها عندك تغرب عندى ، وساعة تغرب عندك تشرق عندى ، وهكذا يصير كل مشرق معه مغرب ، إذن فقد صدق قول الله « رب المشرقين ورب المغربين » .

ونعلم أن الشمس لها مشرق كل يوم ، ومن زار فى الصعيد المعبد الذى توجد به ٣٦٥ طاقة ـ فتحة ـ وتطلع الشمس فى كل يوم من طاقة معينة ولا تطلع من الطاقات الأخرى يتأكد من أن الشمس لها فى كل يوم مشرق . إذن هناك مشارق ومغارب ، وصدق الله القائل : رب المشارق والمغارب .

إن القرآن يخاطبنا بأسلوب يحتمله العقل المعاصر ، وإذا ما جدّ جديد نجد الأمر مكنوزاً فى القرآن ، ونجد تأويلا جديداً لا ينسخ التأويل الآخر ولكنه يرتقى به .

إذن فرسول الله صلى الله عليه وسلم لم يشأ أن يفسر القرآن التفسير الكامل ؛ لأنه كان لابد أن يفسّره بما تطيقه العقول المعاصرة له ، وإن فسّره بما تطيقه العقول المعاصرة له فمعنى ذلك أنه لن يعطى العقول التى تأتى بعد غذاء من القرآن ؛ لذلك ترك صلى الله عليه وسلم القرآن دون تفسير إلا فى النزر اليسير . وتجد ذلك فى آيات الكون ، أما فى الأحكام فالأمر محدد .

لكن فى الأشياء التى يتجدد فيها العلم فقد تركها . ولذلك قال النبى عليه الصلاة والسلام عن القرآن : « لا تنقضى عجائبه » وكأنه يلفتنا إلى أن عجائبه لا تنقضى ولا تنتهى ، وكل يوم يعطى عجائب جديدة . إذن فالقرآن مُبارك بحكم ما هو مكنوز فيه إلى قيام الساعة . وأنت تلتفت إلى الناس فتجدهم يتعبون فى اكتشاف أسرار الكون ، وتجد القرآن قد مسّ ما يبحثون عنه مسّاً خفيفاً .

﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾

« من الآية ٩٢ سورة الأنعام »

وساعة تقول : « بين يدى الشىء » أى الشىء الذى يسبق ، والكتب السابقة هى التى نزلت بين يدى القرآن أى قبله ، والمقصود بها الكتب المعروفة المشهورة وهى التوراة والإنجيل إذ هما الكتابان الباقيان إلى الآن .

والقرآن يصدق الذى بين يديه ولا يعنى ذلك تصديق المحرّف بل تصديق « الأصيل » . ولذلك نجد عبد الله بن سلام وغيره حينما جاءوا للإسلام اعترفوا بذلك ، ويقول عبد الله بن سلام لرسول الله صلى الله عليه وسلم : انشرح صدرى

للإسلام ، ولكنى أعلم أن اليهود قوم بهت ـ أى أنهم مكابرون ـ فأنا أريد أن تسألهم عنى قبل أن أسلم ، فقال رسول الله لهم : ما تقولون فى عبد الله بن سَلَام ؟ قالوا : حِبْرنا وابن حِبْرنا وشيخنا ورئيسنا . . . إلخ .

فقال الرجل : أشهد أن لا إله إلا الله وأن مُحمداً رسول الله . هنا بدأوا فى كيل السباب لسيدنا عبد الله بن سَلَام فقال : ألم أقل لك يا رسول الله إنهم قوم بهت ؟

وقوله الحق : ﴿ مُصدق الذى بين يديه ﴾ أى أنك إذا ما أردت أن تعرف صدق هذه القضية فهات ما لا حاجة لهم فيه إلى تكذيبه ، وستجد القرآن قد جاء موافقاً له . مثال ذلك حين جاء القرآن بالرَّجْم . هم حاولوا أن يخففوا حكم الرَّجْم ؛ لأن امرأة زنت وأرادوا أن يجاملوها . فرفعوا أمرها للنبى وقال بعضهم لبعض : إنْ حَكَم بعدم الرَّجم فهذا خير لنا ولها ، ومن العجيب أنهم غير مؤمنين بمحمد بينما يريدون الحُكم منه ، فيقول لهم الرسول عليه الصلاة والسلام : هاتوا الكتاب ، ويأتون بالصحف الموجودة عندهم ، فوجدوا آية الرَّجْم ؛ إذن فالقرآن مُصدق الذى بين يديه من غير المكتوم ، ولا المُحرَّف ، ولا المُؤَوَّل .

وإذا ما نظرت إلى القضايا التى يلتفتون إليها ، ولكنها تمر أمامهم خاطفة ، تجد أنت هذه القضايا وسيلة يريد الله بها أن يكشف الفساد والكذب والتجبر ، حتى لا يطمس أهل الباطل معالم الحق . ومثل هذه القضايا تحتاج إلى المُحقق اللَّبق . ونجده سبحانه جاء فى التوراة بمثل للأمة المحمدية ، ويكرر هذا المثل فى القرآن حين يقول سبحانه :

﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾

« من الآية ٢٩ سورة الفتح »

وحين ننظر إلى كلمة « أشدّاء » ، وكلمة « رُحماء » ، نجد فى ظاهر الأمر تناقضا فى الطباع ، أما المدقق المحقق فيعلم من هذا القول أن الإسلام لا يطبع المسلم على لون واحد ؛ لأنه يريد منه كل الألوان ، فلو خلقه شديداً لفقدته مواطن الرحمة ، ولو فطره وخلقه رحيماً لفقدته مواطن الشدة . والإسلام يطلب من المسلم الالتزام

بالقيم الروحية والمادية لتحرس كل منهما الأخرى ؛ لأن المسلمين لو راحوا للمادة فقط لصارت حضارتهم شرسة ، ولو راحوا للقيم لما استطاعوا أن يقيموا حضارة تبقى وتدوم ، والحق يريد حضارة تجمع بين الاثنين ؛ الروح والمادة ، لذلك يجمع الإسلام بين الاثنين ؛ الروح والمادة ؛ لأن اليهود فى فهمهم لها افتقدت الروح ، والنصرانية فى فهمهم لها غرقت فى الروحانيات وافتقدت المادة ، وجاء القرآن مُصدقًا لما بين يديه ، وهكذا جاءت الآية بالبلاغ عن أهل الكتاب .

ويتابع البلاغ لأهل قريش قاطنى مكة فيقول : ﴿ ولتنذر أم القرى ﴾ ، ونعرف أن أم القرى تعنى مكة ، وقد حاول البعض أن يتخذ من هذه الآية حُجّة ليقول : إن القرآن قد نزل لجماعة العرب فقط ، ولهؤلاء نقول : أنتم لم تحسنوا الفهم لمعطيات اللفظ ، ولنسأل : ما الحَول أولاً ؟ . الحول هوالمحيط الذى حول النقطة ، أىّ نقطة وكل نقطة ، وحول كل نقطة قُطْر وقد يكون القطر ٢٠ كيلومترا ، وقد يكون مائة كيلو متر ، وكلما بعدت المساحة فهى حول هذه النقطة ، إذن فكلمة الحول تشمل كل ما حوله ، وحول كل مكان يشمل كل مكان .

ولماذا سميت أم القرى ؟ ؛ إما لأن « هاجر » لما نزلت بابنها الرضيع بوادٍ غير ذى زرع ، وبعد ذلك تكاثر الناس فصارت هى أم القرى ، أو لأن فيها الكعبة ، وكل الناس يؤمّونها ، أو لأن الحاجّ يأتيها من كل صوب كما يهب ويسرع الأبناء ويلوذون بأمهم .

﴿ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ﴾

« من الآية ٩٢ سورة الأنعام »

من ـ إذن ـ الذى يؤمن بهذا الكتاب الذى أنزل مصدقًا لما بين يديه لينذر به أم القرى ومن حولها ، ومن هم الذين يؤمنون بالآخرة ؟ ولماذا جاء الربط بين أم القرى وما حولها وبين الذين يؤمنون بالآخرة ؟ . لأن أحداً لن يذهب لتعاليم القرآن ليأخذها وينفذها إلا من يؤمن بأن هناك يوماً نذهب فيه جميعاً إلى الآخرة .

راجع أصله وخرج أحاديثه الدكتور / أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .

لذلك يخاف فيهرب من المعاصى ، ويرغب فى الطاعة ؛ لأن هناك ثواباً وعقاباً ، أما الذى لا يؤمن بالآخرة فلا يسمعك ولا ينصاع ولا ينقاد لك حين تأمره بالعفة ؛ لأنه لا يرى ثواباً أو عقاباً ولا ينتهى عن السرقة أو الكبر أو الموبقات جميعاً ؛ لأنه لا يخاف من الآخرة ؟ .

إذن فالذى يملكنا جميعاً هو الآخرة والخوف منها ، ومن لا يؤمن بالآخرة يقول : أنا غير مُلزم بشىء ، ولا شىء يقيّد حريتى . ثم لماذا أقيّد حريتى ؟ !

وهنا نقول : أنت تأخذ الأمر بسطحية ، فعلى فرض أن فى قوانين السماء ما يقيد حريتك ، لكنه لا يقيد حريتك وحدك ، إنه يقيد حرية الكل ، فإن قيد حريتك بالنسبة للناس ، فهذه القوانين السماوية تقيد حرية الناس بالنسبة لك ، فحين ينهاك الدين عن السرقة ، وعن النظر إلى محارم الغير فهو يقول للناس كلها : لا تسرقوا من فلان ولا تنظروا إلى محارم فلان ، وبذلك تأخذ حقك كاملاً ، وبهذا تعيش فى نظام متساوٍ لا تتعب فيه ؛ لأن الجارى والمطبق عليك جارٍ على غيرك مع جريانه عليك .

لكن من يؤمنون بالآخرة هم كل واحد يريد أن ينجى نفسه من العقاب ، ومن الوعيد . ويدخل نفسه فى الوعد وفى الثواب . فمثلا ـ ولله المثل الأعلى ـ حين نقول للولد : اذهب لتلقى العلم ، قد يرد : أنا لا أريد شهادة ، فيجبره والده فى البداية أن يستذكر ، ثم نجد الشاب بعد مشوار المذاكرة يخاف من الرسوب وأن عليه أن يجتهد وأن ينجح . أما إن لم يوجد امتحان فى آخر العام فالمذاكرة وعدمها سواء لديه . فمن أقرب ـ إذن ـ إلى الاستجابة لنداء العدل والخير؟ إنه من يؤمن بالآخرة .

﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾

(من الآية ٩٢ سورة الأنعام)

ولماذا جاء بالحفاظ على الصلاة هنا ؟ . نحن نعلم أن الصلاة هى عماد الدين ، من أقامها فقد أقام الدين ، وحين نحلل الأمر تحليلاً طبيعياً نجد أن الناس تنفر من الطاعات لأنها تأخذ زمناً يحبون أن يقضوه فى اللعب ، وحين نقول لواحد مثلاً : اترك

عملك وصل . قد يرد : لا ؛ لأنى حين أترك عملى يضيع علىَّ كذا . ولو كان طبيباً لذكر عددا من مرضى سيكشف عليهم ، ولو كان عاملاً لقال : إن توقف الآلة فى أثناء الصلاة يجعلنى أخسر كثيراً .

وهنا نقول : يا أخى تعال إلى الطاعة ، والبركة تعوض لك ما تظن أنك تخسره ، وإذا نظرت إلى أركان الإسلام تجدها بالنسبة لانشغال الزمن بها لا تأخذ الكثير من الوقت ؛ فشهادة أن لا إله إلا الله مُحمد رسول الله لا تحتاج منك إلا إلى أن تقولها مرة واحدة ، وهذا ركن لم يستغرق زمناً طويلاً بالنسبة لأدائه ، والزكاة لا تأخذ منك إلا ما تعطيه يوم الحصاد ، وهذا يستغرق وقتا قليلا ، وكذلك زكاة المال آخر العام ، والصوم شهر فى السنة ، وإذا كان زمن الصوم أوسع قليلاً إلا أنه وقت لا يمر إلا كل عام . والحج مرة فى العمر إن كنت مستطيعاً .

إذن أنت تجد التكاليف الركنية فى الإسلام بالنسبة للأزمان وقتها يسير وقليل لمن يحرص عليها ، لكن الصلاة تؤدى فى كل يوم خمس مرات ، ورقعتها بالنسبة للزمن أوسع . وأداؤها يحتاج إلى طهارة من حدث أو جنابة وكذلك طهارة المكان ؛ لذلك جاءت الصلاة ركناً أصيلاً فى الإسلام . وأنت لا تعرف الإنسان إن كان مسلماً إلا إذا سمع الأذان وقام يصلى . لذلك هى الفارقة بين المسلم وغير المسلم ؛ لأن الأركان الأخرى أزمانها محصورة ، ومع أنها كذلك إلا أنها أخذت من التشريع حظها من الركنية الأصيلة .

إنّ كل تشريعات الإسلام أركاناً وفروعاً جاءت بالوحى إلا الصلاة ؛ فقد جاءت بالمبَاشرة ؛ لأن الصلاة دعاء الخالق خلقه لحضرته ؛ لذلك كان لابد أن يكون تشريعها بهذه الصورة الفريدة ، تشريعاً جاء بالحضرة الإلهية .

وشىء آخر ، ما دامت الصلاة هى العمدة فى الدين فكأن الصلاة تقول للأركان الأخرى : أنا أجمعكم وأضمكم وأشملكم جميعا ؛ فالمسلم فى أثناء الصلاة يقول : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . والمسلم يصوم فى أثناء الصلاة عن شهوتى البطن والفرج بل وتكون الصلاة صوماً لا عن الأكل والشرب ، وشهوة الفرج

فقط بل هى إمساك عن كل حركة ، وفى الصلاة زكاة ؛ لأن الزكاة تعنى أن تخرج بعضاً من مالك ، والمال فرع العمل ، والعمل فرع الوقت . وأنت حين تصلى إنما تزكى بالأصل وهو وقت العمل ، وأنت فى الصلاة تتوجه إلى الكعبة كما يتجه الحاج والمعتمر ، إذن ففى الصلاة كل أركان الإسلام مجتمعة .

إذن فأهمية الصلاة أنها قد اندمج فيها كل أركان الإسلام ، وبها يتحقق الاستطراق الاجتماعى للخلافة فى الأرض ؛ لأن الخلافة فى الأرض تقتضى مواهب متعددة ، وطاقات متعددة ، ولا يمكن لخليفة واحد فى الأرض أن يكون مجمع هذه المواهب بل لابد أن تتفرق المواهب فى المتفرق والشتيت من الناس ، فلا يمكن أن يكون الإنسان الواحد مهندساً وطبيباً ومحامياً وصانعاً وحارثاً وزارعاً وتاجراً . ولذلك وزع الله سبحانه وتعالى مقتضيات الخلافة فى الأرض على الخلفاء فى الأرض توزيعاً يجعل الالتقاء ضرورياً وليس تَفضُّلياً ، بحيث تكون أنت فى حاجة إلى مواهب ليست عندك فتذهب لصاحبها . وصاحبها أيضا يحتاج إلى مواهب عندك ليست عنده فيأتى إليك .

وانظروا إذا شاء واحد أن يستغنى فى بعض الأشياء التى يقوم بها الغير كم يتعب ؟ ، فإذا ما أتعبه السباكون وآلموه فى الأجور . وحاول تعلم السباكة ، ولابد له أن يتعلمها من سباك . وكذلك حياكة الملابس . ومعنى ذلك أن الله أبقى المواهب متفرقة مشتتة فى الخلق ليحتاج كل خلق إلى كل الخلق . والناس لا تنظر إلى جهة التميّز إلا إلى شىء واحد هو : الغِنى .

ونقول الغِنى المالى أو العقارى هونوع فقط من المواهب ؛ لأنك مثلاً إذا نظرت إلى العَالِم الذى يظل عشرين عاماً يستوعب العلم ، ثم يقابله من يستفتيه فى فتوى فيقولها له مجاناً ، لو علم هذا السائل ماذا تكلف الأستاذ الذى أفتاه طوال عشرين سنة بحثاً فى الكتب وسماعاً من الأساتذة واستنباطاً من الأحكام لدفع مكافأة لهذه الفتوى ؛ لأن العالِم كان مُسخراً لمدة عشرين عاماً لتأخذ أنت الفتوى فى نضجها النهائى فى يسر وسهولة وتنتفع بها .

وحين نرى من يمسح الحذاء ، ونجد صاحب الحذاء وهو يمد رجله والآخر يمسح الحذاء تقول لنفسك : لماذا كل هذا الزهو لصاحب الحذاء ، ولماذا هذا الانكسار لماسح الأحذية ؟ . وأقول : أنت رأيت صاحب الحذاء وقت راحته ، ورأيت ماسح الأحذية وهو فى وقت عمله . ولو عرفت كيف جاء صاحب الحذاء بالنقود التى سيدفعها لماسح الأحذية لعلمت أنه كان مسخراً له ساعة كان يعمل ليحصل على النقود ليعطى منها ماسح الأحذية ، ولذلك قال الحق :

﴿ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ﴾

(من الآية ٣٢ سورة الزخرف)

والناس لا تنظر فى التسخير إلا لِلغنى والفقير ، ونقول : خذوا التسخير على أن كل واحد فى الكون مُسخّر فى الموهبة التى عنده ، ومُسخّر له فى المواهب التى ليست عنده . وأراد الحق سبحانه وتعالى أن يربط الناس بهذا ربطاً قسرياً وليس تفضّلياً ؛ لأن من عنده أولاد يريدون أن يأكلوا وامرأة تحتاج إلى أن تَطْعَم ولا يملك نقوداً ، وليس أمامه من عمل سوى نزح المجارى ، فيأتى بأدوات نزح المجارى ، ويؤدى العمل ليعول من يعولهم ، ولولا ارتباطه بضرورة الحياة له ولمن يعول لما عمل فى مثل هذا العمل ، إذن فهو مربوط ربطاً ضرورياً ليؤدى خدمة فى الكون . ولو كان كل البشر يعيشون فى رغد العيش أكان هناك من يتطوع لينزح المجارى ؟ لا يحدث ذلك أبداً ، لأنه عمل لا يأتى بالتفضل بل بالاحتياج .

وهكذا نرى أن الخلافة فى الأرض تقتضى استطراقاً ، وهذا الاستطراق لا يدوم كثيراً ؛ فمرة تكون القوة لإنسان ثم تذهب منه ، ومرة يكون الثراء لإنسان ثم ينحسر عنه هذا الغِنىٰ ، ولذلك أخبرنا الحق أنه جعل الأيام دُوَلاً بين الناس ليستقيم العالم بارتباط الضرورة فى بعض الأعمال ، وإن بدا لنا أن هناك مواهب تميز بين الناس فى شكلهم ، وفى هندامهم ، وفى مطيتهم ، تجد الطبيب يعمل فى أكثر من مكان ، وإن سار على رجليه لتعب ، لذلك يشترى سيارة ، ويظن من يراها أن السيارة امتياز لا مثيل له ، متناسياً أن هذه السيارة تقضى مصالح الرجل ليخدم الآخرين .

مثال آخر : أنت إن نظرت إلى كوب الشاى الذى تشربه بمزاج وليس لضرورة

حيوية ، وإن جاءك من يقدم لك الشاى ليقول : إن الشاى قد نفد من المقهى ، فتعطيه جنيهاً وتقول : هات كيساً من الشاى من عند البقال ، ويذهب الغلام ليحضر علبةالشاى فيجد البقال وكأنه قد جهزها له ، وأنت لا تعرف أن علبة الشاى هذه قد أخذت وقتا وعملا من اثنين أو ثلاثة لتصل إليك ؛ لأن الحق قد كلف أناساً ليزرعوا الشاى فى بعض البلاد ، وأناساً آخرين يستوردونه ، ثم تأتيك علبة الشاى لتصنع منها كوباً لتشربه .

إذن فالمسألة كلها تسخيرات ؛ لذلك توجد الفوارق الاجتماعية التى تقتضيها أعمالنا ، ويذيب الحق هذه الفوارق بأن جعل فى الصلاة استطراقاً للجميع ، وتلتفت ساعة يقول المؤذن : (الله أكبر) أن الكل قد جاء ، الغنى قبل الفقير ، والخفير مع الأمير ، ويخلع الجميع أقدارهم خارج المسجد مع نعالهم ليتساوَوْا فى الصلاة ، ومن له رئيس يتكبر عليه يراه وهو ساجد مثله لله ، فتريحه لحظة استطراق العبودية .

ولنفرض أن كلاً منا سيصلى بمفرده فى الصلاة اليومية ، لكن عندما يؤذن المؤذن لصلاة الجمعة ، يأمرنا الحق أن نَذَر ونترك كل شىء لنؤدى صلاة الجمعة معاً . ويرى الضعيف عظيماً يتضرع مثله إلى الله ، ويرى القوى نفسه وبجانبه الضعيف ، وحين يعود كل منا إلى عمله تسقط أقنعة القوة والزهو ؛ لأننا جميعاً نقف أمام خالق واحد وكلنا سواء .

إن هذا هو الاستطراق الاجتماعى ؛ لأننا حين نرقب بعضنا فى أثناء الصلاة نجد أنفسنا فى حضرة الرَّب الذى أعد لنا الكون ، وسخّره لنا ، وأعطانا الطاقات ، وأعطانا المواهب ، وإذا تأملنا واحداً له وظيفة كبيرة جداً ، فأنت حين ترغب فى لقائه تكتب التماساً ، ويُنْظَر فى الالتماس ، فإمّا أن يوافقوا وإمّا لا يوافقوا على لقائك به . وإن وافقوا يسألوك : فى أى أمر ستتكلم ؟ وسيُحدد لك الوقت الذى ستجلس فيه معه وليكن ثلاث دقائق مثلا ، وحين تجلس إليه وتنسى نفسك يقوم هو ليدلك على أن المقابلة انتهت ، لكن ربنا يقول لنا : تعالَوْا لى فى أى وقت ، وكلمونى فى أى شىء ، وأنا لا أملّ حتى تملُّوا ، وأنتم يا عبيدى مَنْ تنهون المقابلة ، وهذا عطاء كثير جداً . يغدقه المولى عز وجل على عباده .

فهل هناك ربوبية أفضل من هذه ؟ .

إذن فالصلاة إذا نظرت إليها وجدت أنها : جماع كل فضائل الدين وفيها كل الفضائل للمجتمع » ؛ لذلك جعلها الله عماد الدين .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ ۖ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾

ساعة يأتى الحق بأسلوب استفهامى فليس الهدف أن يستفهم . إنه ـ سبحانه ـ لا يريد أن يأتى الخبر من عنده ، وهو يقدر أن يقول : الذى يفترى ظالم ، لكنه هنا يأتى بالاستفهام الذى يؤكد أنه لا يوجد أظلم من الذى يفترى على الله كذباً ، ويعرض الله القضية على المؤمنين وكأنه يسأل ليعرض كل مؤمن القضية على ذهنه ويستنبط الجواب . إن الذى يفترى على زميله والمثيل له كذباً نُوقِع به العقاب ، فما بالك بمن يفترى على الله ؟ وحين تسمع أنت هذا الكلام : (ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً) . وتستعرض الأمر فلا تجد أظلم منه ، وهكذا يستخرج الله الحكم من فَم المقابل .

وكيف يفترى إنسان الكذب على الله ؟ كأن يبلغ الناس ويدَّعى ويقول : أنا نبى

وهو ليس كذلك . هنا تكون الفرية على الله ، وإياك أن تظن أنه يكذب على الناس ، لا ، إنه يكذب على الله ؛ لأنه أبلغ أن الله قد بعثه وهو لم يبعثه .

و « الافتراء » : كذب مُتعمَّد مقصود ، وينطبق ذلك على النبوات التى ادعيت ؛ من مثل مسيلمة الكذاب ، سجاح ، طليحة الأسدى ، الأسود العنسى ؛ كل هؤلاء ادعوا النبوة ، ومع ذلك لم يسألهم أحد عن المعجزة الدالة على نُبوّتهم ؛ لأن كل واحد منهم عندما أعلن نبوته جاء بما يُخفّف عن الناس أحكام الدين .

فواحد قال : أنا أخفف الصلاة ، والزكاة لا داعى لها . لذلك تبعهم كل من أراد أن يتخفف من أوامر الدين ونواهيه ، موهما نفسه بأنه مُتدين ، دون أن يلتزم بالتزامات التدين ، وهذا هو السبب فى أن أصحاب النبوات الكاذبة ، والادعاءات الباطلة يجدون لهم أنصاراً من المنافقين ؛ فالواحد من هؤلاء الأتباع قد يكون مثقفاً ثم يصدق نبياً دجالاً ، وتسأل التابع للدجال وتقول له : أسألت مدَّعى النبوة هذا ما معجزتك ؟ ـ وهذا أول شرط فى النُبوَّة ـ ولم نجد أحداً سأل هذا السؤال قط ، لماذا ؟

لأن التديّن فطرة فى النفس ، ولكن الذى يصعِّب التدين هو الالتزامات التى يفرضها التدين ، وعندما يرى التابع الضعيف النفس أن هناك من يُريحه من الالتزامات الدينية ، ويفهمه أنه على دين ، ويقلل الالتزامات عليه ، لذلك يتبعه ضعاف النفوس ، وتصبح المسألة فوضى .

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ ﴾

(من الآية ٩٣ سورة الأنعام)

هناك من ادعى وقال : أنا نبى ، وقال : سأنزل مثل هذا القرآن ، فماذا قال هذا المدَّعى وهو « النضر بن الحارث » يقول ـ فى أمة أذنها أذن بلاغية ، تتأثر بموسيقى اللفظ ـ : « والطاحنات طحنا والعاجنات عجنا والخابزات خبزا » !! ولماذا لم يأت بالمسألة من أولها ويقول : « والزارعات زرعا والحارثات حرثا » ثم يقول مَن ادعى أنه أوحى إليه : « والعاجنات عجنا والخابزات خبزا » ، وكان عليه أن يتبعها أيضاً :

« والأكلات أكلا والهاضمات هضما » .

وطبعاً كان هذا الكلام لوناً من هراء فارغ ؛ لأن الحق إنما أنزل كلامه موزونا جاذباً لمعانٍ لها قيمتها فى الخبر ، ولذلك نزل القول الحق : ﴿ أو قال أوحى إلىّ ولم يوح إليه شىء ﴾ ، وقد جاء واحد هو عبد الله بن سعد بن أبى سرح القرشى وكان أخا لسيدنا عثمان من الرضاعة وكان كاتباً لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقعد فى حضرة النبى . فنزلت الآية :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ﴾

(سورة المؤمنون)

وانبهر بالأطوار التى خلق فيها الحق الإنسان فقال : ﴿ تبارك الله أحسن الخالقين ﴾ . فقال له رسول الله : اكتبها فقد نزلت . واغْترّ الرجل وقال : إن كان محمدٌ صادقاً لقد أوحى إلىّ كما أوحى إليه ؛ وإن كان كاذباً لقد قلت كما قال ، فأهدر رسول الله دمه . وقال لصحابته : من رآه فليقتله . وفى عام الفتح جاء به عثمان رضى الله عنه ، وقال : يا رسول الله ، اعف عن عبد الله . فسكت رسول الله . قال عثمان رضى الله عنه : اعف عنه . فسكت رسول الله . وكررها ثالثا : اعف عنه يا رسول الله . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم .

وكان لسيدنا عثمان منزلة خاصة عند رسول الله ، وأشار الرسول لسيدنا عثمان ابن عفان ، فأخذ الرجل وانصرف ، فلما انصرف قال الرسول لصحابته : ألم أقل لكم من رآه فليقتله ؟ قال سيدنا عباد بن بشر : يا رسول الله لقد جعلتُ إليك بصرى ـ أى وجَّهت عينى لك ـ لتشير علىّ بقتله ، فقال رسول الله لعباد بن بشر : « ما ينبغى لرسول أن تكون له خائنة الأعين » وأسلم ابن أبى سرح وحسن إسلامه .

ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله ، وما هى عقوبات هؤلاء الذين يفترون على الله الكذب ، ويحاولون التغرير بالناس مدّعين أن الله أنزل عليهم وحياً ؟

يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾

(من الآية ٩٣ سورة الأنعام)

وساعة تسمع « لو » هذه تعرف أنها شرطية ، وأنت تقول ـ مثلا ـ لوجاءنى فلان لأكرمته . وحين نقرأ القرآن نجد كثيراً من « لو » ليس لها جواب ، لماذا ؟ لأن الإتيان بالجواب يعنى حصر الجواب فى دائرة منطوقة ، فإن أردت الجواب الذى لا يمكن للفظ أن يحصره فأنت تتركه للسامع مثلما تجد شاباً يلعب دور الفتوة فى الحارة ويتعب سكانها ، ثم وقع فى أيدى الشرطة وأخذوه ليعاقبوه ، فيقول واحد ممن رأوه من قبل وهو يرهق أهل الحارة : آه لو رأيتم الولد الفتوة وهو فى يد الشرطة !

أين جواب الشرط هنا ؟ إنه لا يأتى ؛ لأنه يتسع لأمر عجيب يضيق الأسلوب عن أدائه .

والحق سبحانه وتعالى يقول هنا : « ولو ترى إذ الظالمون فى غمرات الموت » لم يقل لى : ماذا ترى ؟ لأنك سترى عجباً لا يؤديه اللفظ . و«الغمرات » هى الشدة التى لا يستطيع الإنسان منها فكاكاً ولا تخلصاً .

ويتابع الحق : « والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم » فهل هم ملائكة الموت الذين يقبضون الروح ؟ أو الكلام فى ملائكة العذاب ؟ إنها تشمل النوعين : ملائكة قبض الروح وملائكة العذاب .

«و الملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم » كأن ملائكة قبض الروح

تقول لهم : إن كنتم متأبّين على الله فى كثير من الأحكام لقد تأبّيتم على الله إيماناً ، وتأبّيتم على الله أحكاماً ، وتأبّيتم على الله فى تصديق الرسول ، فهاهو ذا الحق قد أمرنا أن نقبض أرواحكم ، فهل أنتم قادرون على التمرد على مرادات الحق ؟ إن كنتم كذلك فليظهر كل منكم مهارته فى التأبّى على قبض روحه ، أو أن الملائكة يبالغون فى النكاية بهم كأن نقول لواحد : اخنق نفسك وأخرج روحك بيديك أو : أخرجوا أنفسكم من العذاب الذى يحيق بكم .

و«عذاب الهون » هو العذاب المؤلم وفيه ذلة . وأساليب العذاب فى القرآن متعددة ، فيقول مرة : « من العذاب المهين » أو وأعد لهم « عذاباً مهيناً » أو ولهم «عذاب أليم » فمرة يكون العذاب مؤلماً لكن لا ذلة فيه ، ومرة يكون العذاب مؤلماً وفيه ذلة . وكما أن النعمة فيها تعظيم فالنقمة فيها ذلة . وأضرب هذا المثل ــ ولله المثل الأعلى ، فالله سبحانه منزّه عن أى تشبيه ــ : قد نجد حاكماً يعتقل إنساناً ويأمر بأن يجلس المعتقل في قصر فخم له حديقة ، لكن حين يأتيه الطعام ، يقول له الحارس : خذ اتسمم ، وفى ذلك إهانة كبيرة .

ولماذا يذيقهم الحق العذاب المهين ؟ تأتى الإجابة من الله : « بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون » . كأن يقول واحد: أوحي إلى ولم يوح إليه شىء . وهم أيضاً يستكبرون على الآيات التى يؤمن بها العقل الطبيعى ، ويقول الحق :

﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾

(من الآية ١٤ سورة النمل)

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ

وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ
شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَد
تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ
﴿٩٤﴾

وقوله الحق : « ولقد جئتمونا فرادى » أي أن كلاً منكم يأتى إلى الله فرداً عما كان له فى دنياه من مال أو ولد أو أتباع ، جاء كل منهم لله وليس معه الأصنام التى أدّعى أنها شركاء لله ، واتخذهم شفعاء له . و«فرادى » جمع « فرْدَان » أو « فريد » مثل « سكارى » جمع « سكران » و« أسارى » جمع « أسير » ، إنهم يأتون إلى الله زُمرا وجماعات ، ولكن كل منهم جاء منفرداً عما كان له فى الدنيا من مال وأهل وولد وأتباع ، بدليل أنه قال : « وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم » .

و« خوَّله » أى جعل له خَدَمًا من الأتباع ومن المريدين ، ومن المقدَّر والمضيَّق عليهم فى الرزق ومن العائشين فى نعمته ، جاء كل منهم منفردا عما له فى الدنيا كما خلقكم الله أول مرة ، أى كما دخلتم فى الدنيا !

﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾

(من الآية ٩٤ سورة الأنعام)

وقوله الحق : « جئتمونا » أى كأن الإنسان الذى أذنب يكاد يقدم نفسه للعذاب معترفاً أنه يستحق هذا العذاب إقراراً منه بالذنب ، فكأن الإنسان يبلغ منه الحزن على ما فعله والتوبيخ لنفسه التى انصرفت عن الحق فيقول لنفسه : أنت تستحقين العذاب .

﴿ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ

أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ ﴾

(من الآية ٩٤ سورة الأنعام)

« البيْن » هو ما يفصل أو ما يصل . فعندما نجد اثنين قاعدين وبينهما « بين » فهذا البين فاصل وواصل . فإن اعتبرته واصلاً ، أقول : تقطّع هذا ، أى وقع التقطع بينكما ، و انفصمت الروابط بينكم وتشتت جمعكم ، وإن كان البين فاصلا فقد وصلوا أنفسهم بالأصنام .

وماذا كانت صلة هؤلاء بالأصنام التى يشركونها فى العبادة ؟ كانوا يقدمون لها القرابين ، وغير ذلك . وهذه الأصنام وكل من جعلوه شريكا مع الله سيفر منهم يوم القيامة . وهكذا يتحقق قوله الحق : « لقد تقطّع بينكم »

ويواصل سبحانه : « وضلَّ عنكم ما كنتم تزعمون » ، و« ضلّ » أى تاه وغاب ، ماكنتم تبحثون عنهم فلا تجدونهم مصداقا لقوله الحق :

﴿ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ ﴾

(من الآية ١٦٦ سورة البقرة)

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾

بعد ما تكلم الحق عن التوحيد والنبوات ، ومن كانوا يعاكسون ويعارضون ويناوئون تلك النبوات ويكذبونها وقالوا فيها الإفك أراد الله أن يلفت خلقه إلى ما أعدّه لهم استبقاء لحياتهم ، وكيف سخّر لهم كل الكون بما فيه.. جماداً ونباتاً وحيواناً ، وكأنه سبحانه يوضح : إن كنت لا ترى أن

الخالق يستحق عبادتك فانظر إلى ما أنعم عليك به من النعم ، ومادام العبد المخلوق له كل نعم الخالق الأعلى فلماذا لا يسمع كلمته سبحانه ؟ أيها المخلوق أنت تتربى على مائدة الرحمن وهو خالقك فانظر وتأمل واعرف .

« إن الله فالق الحب والنوى » وساعة تسمع لفظ الجلالة : أى علم واجب الوجود وهو الله ، فعليك أن تأخذ لفظ الجلالة بكل ما يدل عليه من صفات الجلال وصفات الجمال ما عرفته وما لم تعرفه ؛ لأنه سبحانه خلق الكون كله وهوقيُّوم عليه ، وهذا الخلق وتلك القيّوميةفعل يقتضى صفات متعددة تقتضى قدرة ، وحكمة ، وعلماً واسعاً ورحمة ، وبسطاً وقبضاً وغير ذلك ، وبدلاً من أن يأتى لك بصفات القدرة ، وصفات الجمال و يذكرها ويعددها لك يقول سبحانه عن نفسه : « الله » ؛ لأنه الاسم الجامع لكل صفاته . ونحن نقول في بدء كل عمل : بسم الله ، وفى ذلك إيجاز لما يحتاج إليه أى عمل ، لأن أى عمل يحتاج إلى قدرة ، فتقول : باسم القادر ، ويحتاج إلى علم فتقول : « باسم العليم » ويحتاج إلى حكمة فتقول : « باسم الحكيم » ويحتاج عزة فتقول : « باسم العزيز » وقد يحتاج الى قهر عدوك لأنك قد تدخل معه في حرب فتقول : « باسم القاهر » إذن كل عمل يحتاج إلى حشد من صفات الكمال والجلال يخدم الفعل ، فبدلاً من أن نقول باسم القادر وباسم الحليم وباسم العليم وباسم القابض، يوفر عليك سبحانه كل ذلك فتقول : بسم الله ؛ لأن اسم الجلالة وهو «الله» هو الجامع لكل صفات الكمال .

« إن الله فالق الحب والنوى » ، فالق أى شاقق ، جاعل الحب والنوى كل منهما فلقتين . « والحب » ما لا نواة له مثل الشعير والقمح والأرز . وهناك ما له نوى مثل البلح والخوخ ، وتجد فى قلب النواة شيئا آخر . وهناك نوع آخر له بذور مثل البطيخ ، وفى كل بذرة تجد فيها شيئا ، فيوضح لك الحق سبحانه وتعالى : إن عظمتى تتجلّى فى أننى أخلق الحب وأخلق النوى ، وهناك حبوب مفلوقة جاهزة ، مثل حبة الفول مثلاً وحبة العدس .

وأنت إذا ما نظرت إلى هذه العملية وجدت شيئا عجباً !!

فحين تأتى لنـواة البلح أو حبـة الشعير ، وتضعهـا فى الأرض فى بيئـة استخراجها ، وبقليل من الـرطوبة ، تجد الفلقتين قد خـرج منهما نبتة وتكاد النواة أن تنفلق ليخرج منها الـزبان الضعيف بين الفلقتين ويتكون ما يسمى بالجذير . وهكذا تجد سّر الحيـاة يأتى من الفلقتين ، وإن نزعت هذا الجذير تنتهى الحيـاة . ولـذلك وجـدنـا من يتعجب حين اقتحم أعشـاش النمل ووجـد فى العش قطعـاً صغيرة مفتتة بيضـاء بجـانب العش ، واكتشفـوا أن هذه هى زبـانات الحب الـذى يدخله النمل للعـش ، فلو أن النمل أدخل الحبوب كـاملة فقد تأتى لفحـة من رطوبة فتكبر هذه الحبـة ، وتنمو وتصير شجـرة تفتك بـالعش ، فمن الـذى هدى النمل إلى أن تفعل هكـذا ؟ إنـه الله. ونجد النمل يفلق حبة نبات « الكزبـرة » إلى أربع قطع لأنه لو قطعها إلى اثنتين قد تنبت ، من الذى علمه ؟ إنه سبحانه :

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ ﴾

(سورة الأعلى)

والعجيب أنك حين تـرى النبتـة الضعيفـة سـاعـة أن تخرج إلى الحيـاة وهي التى ستكون من بعد ذلك جذراً إنها هشـة وضعيفة إن أمسكتها بيدك تسحقهـا ، لكنهـا تخترق قلـب الأرض الصلبـة التـي لـو ضربتهـا بسكين لانكسرت السكين ، لكن الجذير الضعيف يـدخل فى قلب الصخر والأرض ، فأى قـوة أعطته ذلك ؟ أي قـوة تخرق له الأرض ؟ وهل الجذيـر هو الـذى خرق الأرض أو خُـرِقَت له ؟ لقـد خرق الحق الأرض للبذرة لتستخـرج منها غـذاء للـزرع ، إنّها قـدرة الحق سبحانـه « فـالق الحب » الـذى ادخـر فى فلقتين اثنتين قـوتاً للنبـات إذا مستـه رطوبـة تتغـذى عليهـا الزريعـة إلى أن تربى الجذور ، ويستمد النبـات غذاءه من الفلقتين إلى أن يثبت ويتمكن فى الأرض ثم تتحور الفلقتان إلى ورقتين خضراوين .

ويتابع الحق سبحـانه : « يخرج الحى من الميت ومخرج الميت من الحي ». وحين تأمل العلماء هذا القول وأرادوا أن يوضحـوا لنا ما الحى ؟ وما الميت؟

فات الجميع أن يعرفوا ما هى الحياة ؟ الحياة هى قيام الموجود بما يؤدى به مهمته ، فحياة الإنسان فيها حركة وحس وجرى ، ثم هناك حياة ثانية في الحيوان ، وحياة ثالثة فى النبات ، وحياة ذات طابع مختلف فى الجماد . مثلما علمونا فى المدارس حين كان المدرس يمسك بقضيب ممغنط ليجذب برادة الحديد ، حتى الحديد الصلب فيه لون معين من الحياة . وكلنا رأينا في المدارس الأنبوبة الزجاجية التى وضعوا فيها برادة الحديد وكيف تتأثر بقضيب المغناطيس . وتعتدل وتصير فى مستوى واحد ، وهكذا نعرف أن الحياة هى الطاقة الموجودة فى كل كائن ليؤدى مهمته حتى الأحجار تختلف فيها أشكال الحياة ، فهناك حجر يأخذ شكل الرخام ، وآخر يأخذ شكل المرمر ، وكل لون من الأحجار له شكل من أشكال الحياة .

ونقرأ فى القرآن :

﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ﴾

(من الآية ٤٢ سورة الأنفال)

وجاء الحق بمقابل الهلاك وهو الحياة ؛ فالهلاك ضد الحياة والحياة ضد الهلاك ، ويقول سبحانه فى آية أخرى :

﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾

(من الآية ٨٨ سورة القصص)

إذن مادام كل شىء هالكا ، فكل شىء فيه حياة ، والخطأ أن تظن أن كل حياة تتشابه فى الحس والحركة مع الإنسان ، لا ، إن الحياة فى كل شيىء بحسبه ، إلى أن تقوم القيامة ، فكل شىء حي له حياة تناسبه ، وحين نسمع :

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة الإسراء)

نقول : نعم كل من يسبح بحمده يقول قولاً ، وإياك أن تقول إنّه تسبيح دلالة ؛ لأن بعضهم يقول : إن هذا تسبيح دلالة على الخالق ، ونقول : لو أن الذى يقصده الله تسبيح دلالة على خالق لما قال : « ولكن لا تفقهون تسبيحهم » .

إذن فلا أحد منا يفهم لغة التسبيح ، وعرفنا من قبل حين سمع سليمان عليه السلام قول النملة وتبسم لها ضاحكاً ، وكذلك ما سمعه من الهدهد، وكذلك تسخير الجبال لتسبح مع داود عليه السلام .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

إن كل كلمة لها دلالتها ومعناها . فكلمة العلم تدلنا على إحاطة علمه بكل شىء فى الوجود ، وكلمة الحكمة تدلنا على أن كل شىء منه يصدر عن حكمة . وكلمة الرزاق تدلنا على أن كل مرزوق فى الوجود إنما أخذ من فيضه وخيره ، وهكذا إلى ما لا نهاية لكماله من صفات ذاته . وكلمة « الله » تدل على كل صفات الجلال والجمال والكمال ، فإذا قال : « الله » فهذا الاسم : يشمل القادر ، العالم ، الحكيم ، القدير ، وكل صفات الحق ما علمت منها ومالم تعلم ، ما دامت ذاته سبحانه وتعالى متصفة بكل صفات الكمال ، فالواجب أن يكون كل فعل يصدر عن ذاته المتصفة بالكمال له مطلق القدرة والجمال والكمال .

إذن فحين يقول الحق ذلك فإنما يلفتنا إلى أن كل شىء كائن فى الوجود إنما هو من خلق الله ، وأن له حياة تناسب مهمته ؛ فالإنسان له حياة تناسب مهمته . والحيوان له حياة تناسب مهمته . والنبات له حياة تناسب مهمته . والجماد له حياة تناسب مهمته . وإذا نظرت إلى الأشياء كلها بهذا المعنى وجدت أن كل موجود فيه حياة ، ولكن الحياة الكاملة بكل مقوماتها وجدت فى الأعلى من المخلوقات وهو الإنسان ، والله سبحانه وتعالى خلق فى الإنسان الحياة حساً وحركة ، ثم أعطاه حياة أخرى هى التى تُصعّد

حياته وتجعل لحياته قيمة ؛ لأن حياتنا التى نعيشها إنما يتمتع بها المؤمن والكافر ، وقصارى ما فيها أن تعطينا الحس والحركة قدر عمرنا فى الحياة ، ولكن حياة الإيمان بما يبعثه الله لنا من منهج على يد الرسول . تعطينا حياة أوسع ، وأخلد ، وأرغد ، وهذه هى الحياة الحقة ، ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾

(من الآية ٦٤ سورة العنكبوت)

وهذه هى الحياة الحقيقية وقول الحق : « إن الله فالق الحب والنوى » هو المقدمة الأولى للحياة ، ثم تكلم عن الحياة وأنه يخرج حياً من ميت، وهو هنا قد خاطبنا على مقدار أوليات علمنا بالأشياء ؛ فالشىء إذا لم يكن له حس وحركة نعتبره ميتاً لكن لو نظرت إلى الحقيقة لوجدت كل شىء فى الوجود له حياة . مصداق ذلك قوله جلت قدرته : « كل شىء هالك إلا وجهه »

ومادام كل شىء هَالِكاً فكل شىء قبل أن يهلك كان فيه حياة .

والله سبحانه القائل :

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

ولماذا جاء فى هذه الآية بـ « تخرج » وجاء فى الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها قوله : « ومخرج الميت من الحى » ؟ إنّ الذين بحثوا هذا البحث نظروا نظرة سطحية فى المقابلة الجزئية فى الآية ، وهى : « يخرج

الحى من الميت » وقال : « ومخرج الميت من الحى » ونسوا أنه سبحانه قال: إنه يخرج الحى من الميت ؛ لبيان أن الله فالق الحب والنوى ليخرج الحى من الميت أى أن الله فلق وشق الحب والنوى لأجل أن يخرج الحى من الميت ..

ثم قال : « ومُخرج الميت من الحى » هو مقابل لفالق ، فلا تأخذها مقابلة للجزئية فى الآية ؛ ولأن الاسم يدل على الثبوت ، والفعل يدل على الحدوث ؛ فالحق سبحانه وتعالى له صفة فى ذاته ، وصفة في متعلقات هذه الذات ؛ فهو سبحانه وتعالى رَزّاق ، قبل أن يكون له مخلوق يرزقه . هو رزاق ، وبعد ما خلق من يرزقه هو رازق ؛ لأنه هو الخالق ، والخالق صفة للذات وإن لم يوجد المتعلق ، وهو سبحانه المحيى قبل أن يوجد من يحييه ؛ لأن صفته فى ذاته أنه يحيى ، ومميت قبل أن يميت من يريد أن يميته ؛ لأن الصفة موجودة فى ذاته .

وسبحانه فالق الحب والنوى أى قبل أن يوجد الحب والنوى الذى يفلقه، ومخرج الحي من الميت هو صفة ثابتة فى ذاته قبل أن يوجد متعلِّقها. وله صفة ـ أيضاً ـ بعد أن يوجد المتعلق ، فإن أراد الصفة قبل أن يوجد المتعلَّق جاء بالاسم : « فالق ومخرج » . وإن كان يريد الصفة بعد أن توجد ، يقول : « يخرج » ، « يخرج » .

ويذيل الحق الآية :

﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾

(من الآية ٩٥ سورة الأنعام)

و« ذا » اسم إشارة لما تقدم ، وهو سبحانه فالق الحب والنوى ومن يخرج الحى من الميت ومخرج الميت من الحى وهو الله . والكاف فى قوله : « ذلكم » لمن يخاطبهم وهم نحن ، أما اللام من « ذلكم » فهى للبعد والميم للجمع . فحين يريد الحق أن يخاطب رسوله ، يقول :

﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾

(من الآية ٢ سورة البقرة)

ولكنه هنا يخاطبنا فيقول : « ذلكم » إشارة إلى قول الحق سبحانه وتعالى : الله ، وفالق ، ومخرج ، والخطاب لجمهرة المخاطبين بالقرآن . فإذا كان الله بهذه الصفات فكيف ينصرفون عن الإيمان به وتوحيده ؟ وذكر لنا أول مقوم من مقومات الحياة وهو النبات وهو مانأكله ، فإذا كان الحق سبحانه وتعالى هو الذي خلق الحب وخلق النوى ليخرج الحي من الميت وهو مخرج الميت من الحي فهو أولى بأن يكون إلهاً معبودا فكيف تصرفون عنه ؟! وإلى من تصرفون ؟! إلى من توجد فيه صفات أرقى من هذه الصفات ؟!! لا يوجد من فيه صفات مثل هذه ، ولا أرقى من هذه الصفات .

وإذا سمعت كلمة : « أنَّى » فافهم منها أنها تأتى للتعجيب ، تأتى وتطلب أن يدلنا واحد على كيفية انصرافهم عن الله وتوحيده مع وضوح الدلالات والبراهين .

ومرة يقول الحق سبحانه :

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ ﴾

(من الآية ٢٨ سورة البقرة)

هو سبحانه يخاطب الناس ويقول لهم : كيف تكفرون بالله ؟ فالله فى ذاته يستحق ألا يكفر به ؛ لأنه هو الذى خلق من عدم ، وأمدّ من عُدْم ، ولم يشاركه أحد أو ينازعه فى هذا الأمر ، وإليه نرجع جميعاً ، فكيف تكفرون به ؟ وهذا تعجيب كبير ؛ لذلك يقول سبحانه هنا : « فأنّى تؤفكون » أى فكيف تصرفون عن الحق وتعدلون عنه إلى الباطل فتعبدون ـ مع الله ـ إلها آخر بعد أن تعلموا أن هذه الصفات له ـ سبحانه ـ وليست لغيره ؟ وكل تعجيب يأتى فى « أنّى » مثل قوله الحق :

﴿أَنَّىٰ يُحْيِـۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾

(من الآية ٢٥٩ سورة البقرة)

أى كيف يحيى هذه الله بعد موتها ؟

ويقول سيدنا زكريا لسيدتنا مريم : (أنّى لك هذا)

إذن فالتعجيب ملازم لكلمة « أنّى » فكأن الصفات التي تقدمت صفات موجبة للإيمان بالله واحداً قهاراً مريداً عالماً حكيماً نرجع إليه جميعاً ، فقولوا لنا : كيف تكفرون بهذا الإله ؟ وإلى من تذهبون إذا كان هذا الإله يُكفر به ؟ أهناك شيء ادّعى أنه خلق وأنه رزق ؟ . لو أن شيئاً ادّعى أنه خلق أو رزق كنا نعذركم ، لكن لم يدّع شيء فى الوجود بأنه خلق أو رزق ، والدعوة تثبت لصاحبها ما لم يقم لها معارض .

« فأنّى تؤفكون » وكلمة « أنّى تؤفكون » تعنى كيف تُصرفون انصرافاً كذباً ؛ لأن « الإفك » . معناه الكذب المتعمّد .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾﴾

وسبحانه يأتى بآية أخرى من الآيات المعجزة كما جاء بالآية الأولى فى أنه هو الذى خلق لنا ما يقيم حياتنا .

« فالق الإصباح وجعل الليل سكناً » . ومعنى « فالق » أي جعل الشيء شقين ، وهما نعمتان متقابلتان لا تكفى واحدة عن الأخرى ، إذ

لابد أن يوجد إصباح ويوجد الليل سكناً ؛ لأن الإصباح هو زمان وضوح الأشياء أمام رؤية العين ؛ لأننا نعلم أن الظلمة تجعل الإنسان يضطرب مع الأشياء ، فإن كنت أقوى من هذه الأشياء حطمتها ، وإن كانت أقوى منك حطمتك. إن السير في الظلمات التى لا يوجد فيها نور يهدى الإنسان إلى مرائيه قد يؤدى إلى خسارة الأشياء .

إننّا فى الصباح نعمل ونسعى فى الأرض ، ونملأ الدنيا حركة . فإذا ما أصابنا الكد والتعب والنَّصَب من الحركة فالمنطق الطبيعى للكائن الحى أن يستريح ويهدأ ويسكن لا بحركته فقط ولكن بسكون كل شيء حوله ؛ لأنك إن كنت ساكناً ويأتى لك ضوء فهو يؤثر فى تكوينك ، ولذلك يقولون الآن : إن « الأشعة » التى يكتشفون بها أسرار ما فى داخل جسد الإنسان تترك آثاراً .

إذن فالإشعاع الصادر من الشمس يمنعه عنك الله ليلاً حتى يستريح الجسم من كل شيء ، من كل حركة ناشئة فيه ، ومن حركة وافدة عليه ، وهكذا تكون نعمة سكون الليل وظلمته مثل نعمة الصباح ، وكلاهما تتمم الأخرى ، ولذلك قلنا : إن الحق سبحانه وتعالى فى أول السورة قدّم الظلمات على النور :

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ﴾

(من الآية ١ سورة الأنعام)

لأنك أنت لا تستطيع أن تنتفع بحركتك فى النور إلا إذا كنت نشيطاً ومرتاحاً أثناء الليل . فإن لم ترتح كنت مرهقاً ولن تستطيع العمل بدقة فى حركة النهار . إذن فالظلمة مقصودة فى الوجود . ولذلك فالحضارة الراقية هى التى تنظم حياة الإنسان ليعمل نهاراً ويستريح ليلاً ، حتى لا يستأنف عمله فى الصباح مكدوداً . ومن يزور ريف مصر هذه الأيام يفاجأ بأن أهل الريف قد سهروا طوال الليل مع أجهزة الترفيه ، ويقومون إلى العمل في الصباح وهم مكدودون مرهقون .

ونقول : لنأخذ الحضارة من قمتها ، ولا نأخذ الحضارة من أسفلها ؛

فحين تذهب إلى أوروبا تجد الناس تخلد وتسكن ليلاً ، ومن يسير فى الشارع لا يسمع صوتاً ولا يجد من يخرج من بيته ، ولا تسمع صوت ميكروفون فى الشارع ؛ حتى ينال كل إنسان قسطه من الهدوء ، ويختلف الأمر فى بلادنا : فالشوارع تمتلىء بالضجيج ، والمريض لا يستطيع أن يرتاح ، ومن يذاكر لا يجد الهدوء اللازم ، ومن يتعبد تخرجه الضوضاء من جوّ العبادة ، ونجد من يصف ذلك بأنه نقلة حضارية !!

ونقول : لتأخذ كل نعمة من نعم الله على قدر معطياتها فى الوجود النافع لك ، وحين يأتى الليل عليك أن تطفىء المصباح حتى تهجع ولاتتشاغب فيك جزئياتك وتكوينك .

وسبحانه يقول : « فالق الإصباح » . و« فالق » ـ كما قلنا ـ تعنى شاقق ، فهل الإصباح ينفلق ؟ . وبماذا ؟. ونقول : إن « فالق » هى اسم فاعل ، مثلما نقول : « قاتل الضربة » أى أن الضربة من يده قاتلة .

و« فالق الإصباح » معناها أن الصباح ينفلق عن الظلمة ؛ لأن الظلمة متراكمة وحين يأتى الإصباح فكأنه فلق الظلمة وشقها ليخرج النور ، وتعنى « فالق الإصباح » أيضاً أن الفلق واقع على الإصباح فيأتى من بعده الظلام ، وهذه من دقة الأداء البيانى فى القرآن ؛ لأن الذى يتكلم إله .

وامرؤ القيس قال :

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلى
بصبحٍ وما الإصباح منك بأمثل

والصبح والإصباح معناهما واحد .

هل الصبح من طلوع الشمس ؟ أو الصبح من ظهور الضوء قبل أن تشرق الشمس ؟ يأتى الإصباح أولاً وهو النور الهادىء ، ونجد أطباء العيون بعد إجراء جراحة ما لإنسان فى عينيه يقومون بفك الأربطة التى

تساعد الجرح على الالتئام ، يفكـونها بالتدريج حتى لا يخطف الضوء البصر فـوراً ، ومـن رحمة الله أن خلق فترة الصبح بضـوئهـا الهادىء قبل أن تطلع الشمس بضـوئها كلـه دفعة واحـدة . فكأن الصبح جاء ليفلق ظلمـة الليل فلقاً هادئاً ، ثم جاءت الشمس ففلقت الصبح .

إذن الإصبـاح فالق مـرة لأنه شقّ الظلمـة وفلقها، ومفلـوق مرة أخـرى ؛ لأن الظلمـة جـاءت بعده . إذن فـاسم الفـاعل قـد أدى مهمتين.. المهمـة الأولى : فـالق الإصبـاح . أي دخل بضـوء الشمس . وإن قلنا : إصبـاحـه فالق ، أى ظلمـة الليل الأولى انفلقت . إذن فالإصباح فالق مـرة ، ومفلوق مـرة أخرى. وسبحـانه حين يقـول : « فـالق الإصباح وجعل الليل سكنـاً » يريد أن يعطى شقين اثنين ؛ لأنه هو فى ذاته فالق الإصباح . فيأتى بالاسم ليعطى لها صفـة الثبـوت ، ثم جـاء بـــ « وجعل الليـل سكنـاً » صفـة الحدوث بعـد وجـود المتعلّق . فإذا أراد الصفـة الـلازمة لـه قبل أن يـوجـد المتعلّق يأتى بالاسم . وإن أراد الصفة بعد أن وجد المتعلّق يأتى بالفعل .

ولذلك نجد القرآن الكريم يصور الثبات فى قوله الحق :

﴿ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ﴾

(من الآية ١٨ سورة الكهف)

الكلب هنا على هـذه الصورة الثـابتة ، وحين يريـد القرآن أن يأتى بـالصفة التى تتغير ، يأتى بالفعل :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ﴾

(من الآية ٦٣ سورة الحج)

وكان القيـاس أن يقول : فأصبحـت الأرض مخضرة ؛ لأنه قـال : «أنزل» لكنه يأتى بالتجدد الذى يحدث « فتصبح الأرض مخضرة » .

ويتـابـع الحق : « والشمس والقمـر حسبـانـا » ونحن نعـرف الشمس والقمـر وجاء بعـد ذلك بكلمـة « حسبانـا » ، على وزن فُعْـلان ، وهذا مـا

يدل عادة على المبالغة مثلما تقول : فلان والعياذ بالله كفر كفرانا . ومثلما تدعو : غفر الله لك غفرانا . فحين تحب أن تبالغ تأتى بصيغة فُعْلان . وجاء القرآن بكلمة « حسبان » فى موضعين اثنين فيما يتصل بالشمس والقمر جاء بها هنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها « والشمس والقمر حسبانا » ، وفى سورة الرحمن يقول الحق سبحانه :

﴿ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ ﴾

(سورة الرحمن)

وما الفرق بين التعبيرين ؟ «حسبان» هنا تعنى أن تحسب الأشياء ، فنحن نحسب السنة بدورة الشمس بـ ٣٦٥ يوم وربع اليوم ، وهى تمر بالبروج فيها خلال هذه المدة ، والقمر يبدأ برؤيته كل شهر فى ثمانية وعشرين يوماً وبعض اليوم ، ونحن نحسب بالشمس اليوم ، ونحسب بها العام ، ولكنا نحسب الشهر بالقمر ، وأنت لاتقدر أن تحسب الشهر بالشمس ، بل تحسب الشهر بالقمر لأنه يظهر صغيراً ثم يكبر ويكبر ويكبر . ولذلك يثبت رمضان عندنا بالقمر لا بالشمس . واليوم نثبته بالشمس .

وهكذا عرفنا أن الشمس والقمر يقومان ويعملان فى حسابنا للأيام والشهور ، والاثنان حسبان : الشمس لها حساب ، والقمر له حساب وإذا ما نظرت إلى كلمة «حسبان» تفهم أن الشمس والقمر ، كليهما مخلوق ليحسب به شىء آخر ؛ لأنهما خلقتا بحسبان ، أى أنهما قد أريد بهما الحساب الدقيق ، لأن الشمس مخلوقة بحساب ، وكذلك القمر .

وتعال إلى الساعة التى نستعملها ، ألا يوجد بها عقرب للساعات ، وآخر للدقائق ، وثالث للثوانى ؟. وهذا أقل ماقدرنا عليه ، وإن كان من الممكن أننا نقسم الثانية إلى أجزاء مثلما عملنا فى المساحات ؛ فهناك المتر ، والسنتيمتر ، والملليمتر ، ثم بعد ذلك قلنا الميكروملليمتر . إذن ، كلما نرتقى فى التقدم العلمى نحسب الحساب الأدق . ولم تكن الشمس والقمر حساباً لنا نحسب بهما الأشياء إلا إذا كانت مخلوقة بحساب .

إنك حين تنظر إلى ساعتك تدرك قفزة عقرب الثوانى ولكنك لا تدرك

حركة عقرب الدقائق ، وكذلك لا تدرك حركة عقرب الساعات ، وكل من العقارب الثلاثة يدور «بزمبلك» وترس معين . إن اختلت الحركة فى زمبلك أو ترس ، ينعكس هذا الخلل على بقية العقارب ، والثانية محسوبة على الدقيقة ، والدقيقة محسوبة على الساعة .

وهكذا فإن لم تكن الساعة مصنوعة بهذا الحساب الدقيق فهى لن تعمل جيداً . وهكذا لا نعتبر الساعة معيارا لحساب أزماننا إلا لأنها فى ذاتها خلقت بحساب . والحق سبحانه يقول : « الشمس والقمر بحسبان » أى لنحسب بهما لأنهما مخلوقتان بحسبان . أى بحساب دقيق ، ولماذا لم يقل الحق حساباً وجاء بحسبان هنا ، وحسبان فى آية سورة الرحمن ؟. ذلك لأن الأمر يقتضى مبالغة فى الدقة ، فهذا ليس مجرد حساب ، لكنه حسبان .

ويذيل الحق الآية بقوله : «ذلك تقدير العزيز العليم» ، وكلمة «العزيز» تفيد الغلبة والقهر فلا يستطيع أحد أن يعلو عليه ؛ فهذه الأجرام التى تراها أقوى منك ولا تتداولها يدك ، إنها تؤدى لك مهمة بدون أن تقرب منها ؛ فأنت لا تقترب من الشمس لتضبطها ، مثلما تفعل فى الساعة التى اخترعها إنسان مثلك ، والشمس لها قوة قد أمدها الله خالقها بها ولاشىء فى صنعته ولا فى خلقه يتأبى عليه . فهذا هو تقدير العزيز العليم ، وهو سبحانه يعطينا حيثيات الثقة فى كونها حسبانا لنحسب عليها . فهو جل وعلا خالقها بتقدير عزيز لايغلب ، وهو عزيز يعلم علما مطلقا لانهاية له ولا حدود . ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾

وبعد أن أوضح سبحانه أنه قد خلق الشمس والقمر بحسبان لتكون حساباً بتقدير منه ، وهو العزيز العليم ، إنه ـ سبحانه ـ يصف لنا مهمة النجوم فقال : « لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر » ، والنجوم هى

الأجرام اللامعة التى نراها فى السماء لنهتدى بها فى ظلمات البر والبحر ؛ ومن رحمته بنا وعلمه أن بعض خلقه ستضطرهم حركة الحياة إلى الضرب فى الأرض ؛ والسير ليلاً فى الأرض أو البحر مثل من يحرسون ويشيعون الأمن فى الدنيا ولايمكن أن يناموا بالليل . بل لابد أن يسهروا لحراستنا ، كل ذلك أراده الله بتقدير عزيز حكيم عليم ، ولذلك ترك لنا النجوم ليهتدى بها هؤلاء الذين يسهرون أو يضربون فى الأرض أو يمشون فى البحر بسفنهم ، وهم يحتاجون إلى ضوء قليل ليهديهم ، ولذلك كان العرب يهتدون بالنجوم ؛ يقول الواحد منهم للآخر : اجعل النجم الفلانى أمام عينيك ، وسر فوق الحى الفلانى . واجعل النجم الفلانى عن يسارك وامش تجد كذا ،أو اجعل النجم الفلانى خلفك وامش تجد كذا .

إذن لو طمّت الظلمة لمنعت الحركة بالليل ، وهى حركة قد يضطر إليها الكائن الحى ، فجعل الحق النجوم هداية لمن تجبرهم الحياة على الحركة فى الليل .

وعلى ذلك فالنجوم ليست فقط للاهتداء بها فى ظلمات البر والبحر ؛ لأنه لوكان القصد منها أن نهتدى بها فى ظلمات البر والبحر ، لكانت كلها متساوية فى الأحجام ، لكنا نرى نجماً كبيراً ، وآخر صغيراً ، وقد يكون النجم الصغير أكبر فى الواقع من النجم الكبير لكنه يبعد عنا بمسافة أكبر، وعلى ذلك لا تقتصر الحكمة من النجوم على الهداية بها فى حركة الإنسان براً وبحراً ، فليست هذه هى كل الحكمة ، هذه هى الحكمة التى يدركها العقل الفطرى أولا ؛ لذلك يأتى الحق فى أمر النجوم بقول كريم آخر ليوضح لنا ألا تحصر الحكمة فى الهداية بها ليلا براً وبحراً فيقول : «وعلامات وبالنجم هم يهتدون» فلم يقل ـ سبحانه ـ يهتدون فى ظلمات البر والبحر . إذن ـ النجوم ـ لها مهمة أخرى ، إنه جلت قدرته يقول :

﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ ﴾

(سورة الواقعة)

وكل يوم يتقدم العلم يبين لنا الحق أشياء كثيرة ، فها هو ذا المذنب الذى يقولون عنه الكثير ، وها هى ذى نجوم جديدة تكتشف تأكيداً لقول الحق :

﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾

(سورة الذاريات)

أى أنه سبحانه قد خلق عالماً كبيراً . وأنت أيها الإنسان قد أخذت منه على قدر إدراكاتك وامتداداتك فى النظر الطبيعى الذى لا تستخدم فيه آلة إبصار ، وأخذت منه بالنظر المعان الذى تستخدم فيه التليسكوب والميكروسكوب ، وغير ذلك من اقمار صناعية . ولذلك يقول الحق سبحانه : « فلا أقسم بمواقع النجوم وأنه لقسم لوتعلمون عظيم » وبعض العلماء يقول : إن كل إنسان يوجد فى الوجود له نجم ، وترتبط حياته بهذا النجم ، وحين يأفل النجم يأفل قرينه على الأرض ، وهناك نجوم لامعة ندرك خفقانها ، ونجوم أخرى غير لامعة وبعيدة عنا ، ويقال إنها تخص أناساً لايدرى بهم أحد لقلة تأثيرهم بأعمالهم فى الحياة . ويتقدم العلم كل يوم ويربط لنا أشياء بأشياء وكأن الحق يوضح : إننى خلقت لكم الأشياء مِمّا قَدَرْتم بعقولكم أن تصلوا إلى شىء من الحكمة فيها ، ولكن لا تقولوا هذه منتهى الحكمة ، بل وراءها حِكَم أعلى ، فسبحانه هو الحكيم القادر ، إنك قد تدرك جانبا يسيرا من حكم الله ، ولكن عليك أن تعلم أن كمال الله غير متناهٍ ، ولايزال فى ملك الله ما لا نستطيع إدراك حكمته إلى أن ينهى الله الأرض ومن عليها .

ويقول الحق سبحانه فى تذييل الآية : «قد فصّلنا الآيات لقوم يعلمون » والآية هى الشىء العجيب ، وتطلق على آيات كونية :

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة فصلت)

وتطلق كلمة «آية» على الطائفة من القرآن التى لها فاصلة . إذن هناك آيات قرآنية ، وآيات كونية ، والآيات الكونية تعتبر مفسرة للآيات القرآنية؛ فتفصيل الآيات فى الكون مانراه من تعددها أشكالاً وألواناً وحكماً وغايات. وتفصيل الآيات فى القرآن هو ماينبهنا إليه الحق فى قرآنه وليلفت النظر إلى أن ذلك التفصيل فى آيات الكون وذلك الخلق العجيب الحكيم

الذى لايمكن أن يكون إلا لإله قادر حكيم يستحق أن يكون إلهاً موحَّدا ، ويستحق أن يكون إلها معبوداً ،

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ ﴾

وقد تكلم سبحانه لنا ـ أولاً ـ عن الآيات المحيطة بنا والتى بها قوام حياتنا من فلق الحب والنوى ، وبعد ذلك تكلم عن الشمس والقمر ، ثم تكلم عن النجوم ، كل هذه آيات حولنا ، ثم يتكلم عن شىء فى ذواتنا ليكون الدليل أقوى ، إنه ـ سبحانه ـ يأتى لك بالدليل فى ذاتك وفى نفسك ؛ لأنّ هذا الدليل لايحتاج منك إلى أن تمد عينيك إلى ماحولك ، بل الدليل فى ذاتك ونفسك ، يقول سبحانه :

﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

(سورة االذاريات)

أى يكفى أن تجعل من نفسك عَالَماً ، هذا العالم موجود فيه كل ما يثبت قدرة الحق ، وأحقيته بأن يكون إلهاً واحداً ، وإلهاً معبوداً .

« وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة » ينطبق على هذا القول أنه إخبار من الله ، وأنه ـ أيضا ـ استقراء فى الوجود ، الذى نسميه التنازل للماضى ؛ لأنك لو نظرت إلى عدد العالَم فى هذا القرن ، ثم نظرت إلى عدد العالم فى القرن الذى مضى تجده نصف هذا العدد ، وإذا نظرت إليه فى القرن الذى قبله ، تجده ربع تعداد السكان الحاليين . وكلما توغلت فى الزمن الماضى وتذهب فيه وتبعد ، يقل العدد ويتناهى إلى أن نصل إلى «نفس واحدة » ، وهذا ماذكره الله لنا ، ولقائل أن يقول : كيف تكون نفساً واحدة وهو القائل :

﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾

(سورة الذاريات)

ونقول: إن الحق سبحانه وتعالى خلق النفس الواحدة ، وأوضح أيضاً أنه خلق من النفس الواحدة زوجها ، ثم بدأ التكاثر . إذن فالاستقراء الإحصائى فى الزمن الماضى يدل على صدق القضية . وكذلك كل شىء متكاثر فى الوجود من نبات ومن حيوان . تجدها تواصل التكاثر وإن رجعت بالإحصاء إلى الماضى تجد أن الأعداد تقل وتقل إلى أن تنتهى إلى أصل منه التكاثر إنّه يحتاج إلى اثنين :

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا ﴾

(من الآية ٣٦ سورة يس)

ولماذاجاء الحق هنا بقوله : «من نفس واحدة » ولم يقل زوجين ؟ أوضح العلماء أن ذلك دليل على الالتحام الشديد ؛ لأننا حين نكون من نفس واحدة فكلنا ـ كل الخلق ـ فيها أبعاض من النفس الواحدة ، وقلنا من قبل : إننا لو أتينا بسنتيمتر مكعب من مادة ملونة حمراء مثلاً ثم وضعناها فى قارورة ، ثم رججنا القارورة نجد أن السنتيمتر المكعب من المادة الحمراء قد ساح فى القارورة وصار فى كل قطرة من القارورة جزء من المادة الملونة ، وهب أننا أخذنا القارورة ووضعناها فى برميل ، ثم رججنا البرميل جيداً سنجد أيضاً أن فى كل قطرة من البرميل جزءاً من المادة الملونة ، فإذا أخذنا البرميل ورميناه فى البحر فستنساب المادة الملونة ليصير فى كل قطرة من البحر ذرة متناهية من المادة الملونة .

إذن مادام آدم هو الأصل ، ومادمنا ناشئين من آدم ، ومادام الحق قد أخذ حواء من آدم الحى فصارت حية ، إذن فحياتها موصولة بآدم وفيها من آدم ، وخرج من آدم وحواء أولاد فيهم جزء حى ، وبذلك يردنا الحق سبحانه إلى أصل واحد ؛ ليثير ويحرك فينا أصول التراحم والتواد ، والتعاطف .

ويقول سبحانه : « فمستقر ومستودع » والمستقر له معان متعددة

يشرحها الحق سبحانه وتعالى فى قرآنه . وفى قصة عرش بلقيس نجد سيدنا سليمان يقول :

﴿ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا ﴾

(من الآية ٣٨ سورة النمل)

وأجاب على سيدنا سليمان عفريت من الجن وكذلك أجاب من عنده علم من الكتاب . ويقول الحق سبحانه :

﴿ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ ﴾

(من الآية ٤٠ سورة النمل)

مستقر هنا إذن تعنى حاضراً ؛ لأن العرش لم يكن موجوداً بالمجلس ، بل أحضر إليه . وفى مسألة الرؤية التى شاءها الحق لسيدنا موسى عليه السلام :

﴿ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي ﴾

(من الآية ١٤٣ سورة الأعراف)

ونعلم أن الجبل كان له استقرار قبل الكلام ، إذن فـ «استقر» تأتى بمعنى حضر ، وتأتى مرة أخرى بمعنى ثبت .

والحق يقول :

﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾

(من الآية٢٤ سورة الأعراف)

وذلك بلاغ عن مدة وجودنا فى الدنيا ، وكذلك يقول الحق :

﴿ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا ﴾

(من الآية٢٤ سورة الفرقان)

إذن فالجنة أيضاً مستقر ، وكذلك النار مستقر للكافرين ، يقول عنها الحق :

﴿ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾

(سورة الفرقان)

إذن فمستقر تأتى بمعنى حاضر ، أو ثابت ، أو كتعبير عن مدَّة وزمن الحياة فى الدنيا ، والجنة أيضاً مستقر ، وكذلك النار . ولذلك اختلف العلماء ونظر كل واحد منهم إلى معنى ، منهم من يقول : «مستقر » فى الأصلاب ثم استودعنا الحق فى الأرحام . ومنهم من رأى أن «مستقر » مقصود به البقاء فى الدنيا ثم نستودع فى القبور .

ونقول : إن الاستقرار أساسه « قرار » حضور أو ثبات ، وكل شىء بحسبه ، وفيه استقرار يتلوه استقرار يتلوه استقرار إلى أن يوجد الاستقرار الأخير ، وهو مايطمع فيه المؤمنون .

وهذا هو الاستقرار الذى ليس من بعده حركة ، أما الاستقرار الأول فى الحياة فقد يكون فيه تغير من حال إلى حال ، لقد كنا مستقرين فى الأصلاب ، ثم بعد ذلك استودعنا الحق فى الأرحام ، وكنا مستقرين فى الدنيا ثم استودعنا . فى القبور . حتى نستقر فى الآخرة . إن كل عالم من العلماء أخذ معنى من هذه المعانى . والشاعر يقول :

وما المال والأهلون إلا ودائع

ولابد يوماً أن ترد الودائع

ونلحظ أن هناك كلمة « مُسْتَقَرّ » وكلمة « مستودع » ، و« مستودع » هو شىء أوقع غيره عليه أن يودع . لكن « مُسْتَقَرّ » دليل على أن المسألة ليست خاضعة لإرادة الإنسان . فكل واحد منا «مُسْتَقَرّ » به .

ويقول الحق : «قد فصّلنا الآيات لقوم يفقهون » والتفصيل يعنى أنه جاء بالآيات مرة مفصلة ومرة مجملة ؛ لأن الأفهام مختلفة ، وظروف الاستقبال للمعانى مختلفة ، فتفصيل الآيات أريد به أن يصادف كل

تفصيل حالة من حالات النفس البشرية ؛ لذلك لم يترك الحق لأحد مجالاً فى ألاّ يفقه ، ولم يترك لأحد مجالاً فى ألاّ يتعلم ، ونلحظ أن تذييل الآيتين المتتابعتين مختلف ؛ فهناك يقول سبحانه :

﴿ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾

(من الآية ٩٧ سورة الأنعام)

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾

(من الآية ٩٨ سورة الأنعام)

و« الفقه » هو أن تفهم ، أى أن يكون عندك ملكة فهم تفهم بها مايقال لك علماً ، فالفهم أول مرحلة والعلم مرحلة تالية .

وأراد الحق بالتفصيل الأول فى قوله : « لقوم يعلمون » الدعوة للنظر فى آيات خارجة عن ذات الإنسان ، وهنا أى فى قوله سبحانه : «لقوم يفقهون» لفت للنظر والتدبر فى آيات داخلة فى ذات الإنسان .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ
نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ
حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ
وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ
مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى

﴿ذَٰلِكُمْ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾﴾

كان السياق يقتضى أن يقول سبحانه : أنزل من السماء ماء « فأخرج » لكنه هنا قال : «فأخرجنا » ؛ لأن كل شىء لايوجد لله فيه شبهة شريك ؛ فهو من عمله فقط ، ولا يقولن أحد إنه أنزل المطر وأخرج النبات لأن الأرض أرض الله المخلوقة له ، والبذور خلقها الله ، والإنسان يفكر بعقل خلقه الله وبالطاقة المخلوقة له . وأنت حين تنسب الحاجات كلها إلى صانعها الأول ، فهو إذن الذى فعل ، لكنه احترم تعبك ، وهو يوضح لك: حينٌ قال : « فأخرجنا » أى أنا وأسبابى التى منحتها لك ، أنا خلقت الأسباب ، والأسباب عملت معك . فإذا نظرت إلى مسبب الأسباب فهو الفاعل لكل شىء . وإن نظرت إلى ظاهرية التجمع والحركة فالأسباب التى باشرها الإنسان موجودة ؛ لذلك يقول : «فأخرجنا »

وسبحانه جل وعلا قد يتكلم فى بعض المواقف فيثبت للإنسان عملا لأنه قام به بأسباب الله الممنوحة له ، ولكنه ينفى عنه عملا آخر ليس له فيه دخل بأى صورة من الصور ؛ مثل قوله الحق :

﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾﴾

(سورة الواقعة)

سبحانه هنا ينسب لنا الحرث لأننا قمنا به ولكن بأسباب منه ـ سبحانه ـ فهو الذى أنزل لنا الحديد الذى صنعنا منه المحراث وهدانا إلى تشكيله بعد أن ألانه لنا بالنار التى خلقها لنا ، وبالطاقة التى أعطانا إياها، أما الزراعة فليس لأحد منا فيها عمل ولذلك يقول سبحانه :

﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا﴾

(من الأية ٦٥ سورة الواقعة)

هنا ــ سبحانه ــ أتى باللام فى قوله تعالى : (لجعلناه) للتأكيد ؛ لأن الإنسان له فى هذا الأمر عمل ، إنه حرث وتعهد مازرعه بالرىّ والكد

حتى نما وأثمر ، لكن قد تصيبه آفة تقضى عليه ، فالأسباب وإن كانت قد عملت إلاأنها لاتضمن الانتفاع بثمرة الزرع ، ذلك لأن الأسباب لا تتمرد ، ولاتتأبى على الله ولاتخرج عليه ، إنها تؤدى مايريده منها الله ، وقد يعطلها سبحانه . أما فى قوله تعالى : « أفرأيتم الماء الذى تشربون أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون لونشاء جعلناه أجاجا » ، إنه سبحانه لم يقل لجعلناه ، لأنه ليس لأحد فيه عمل لذلك لم يؤكده باللام .

ويقول سبحانه :

﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَـٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَـٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾

(سورة الواقعة)

إن كل شىء يذكره الحق يذكر معه أيضاً ما ينقضه ، ذلك حتى لايُفْتَن الإنسان بوجود الأشياء ، وعليه أن يستقبل الأشياء مع إمكان إعدامها . وإذا ما كان الإنسان هو الذى يحرث فالحق بطلاقة قدرته قد يجعل النبات حطاماً ، ومن قبل قال عن مقومات الحياة :

﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَـٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾

(سورة الواقعة)

ثم جاء سبحانه بما ينقضه فقال : « **نحن قدرنا بينكم الموت** » . أما عن النار فلم يقل ـ سبحانه ـ إنه يقضى عليها ويخمدها ويطفئها ، إنه ـ جل شأنه ـ أبقاها ليعلمنا ويذكرنا بنار الآخرة «نحن جعلناها تذكرة » أى لابد أن نتركها أمامكم حتى لا يغيب عنكم العذاب الأخروى « ومتاعا للمقوين » أى ونتركها ـ دون نقض لها وذلك لأمر آخر هو المنفعة فى لدنيا للذين ينزلون أماكن خالية قفراء أو للذين خلت بطونهم وأوعيتهم ومزاودهم من الطعام لأن النار تنفعهم وتساعدهم على إعداد طعامهم استبقاء لحياتهم :

﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ ﴾

(من الآية ٩٩ سورة الأنعام)

والشيء هو ما يُخْبَر عنه ؛ الهباءة شيء ، والذرة شيء وكل حاجة اسمها شيء ، ومعنى نبات كل شيء : أن كل حاجة مثل النبات تماماً . رأينا الحجارة التى يقول عنها العلماء هذه جرانيت ، وتلك رخام وتلك مرمر ، ولو نظرت إلى أصلها وجدتها أعمارًا للحجارة ، طال عمر حجر ما فصارا فحماً ، وطال عمر آخر فصار جرانيتاً ، وهكذا . وكل حاجة لها حياة لتثبت لنا القضية الأولى ، وهى :

﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾

(من الآية ٨٨ سورة القصص)

أو نبات كل شيء ترون فيه نمواً وحياة ، والعقل الفطرى يأخذها هكذا، لكن العقل المستوعب يأخذ منها قضايا كثيرة ، ويتغلغل فى الكون ويجد الآية سابحة معه وهو سابح معها .

ويتابع سبحانه : « فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حبّاً متراكباً » وإذا قلت كلمة « خَضِر » فقد تعنى اللون المعروف لنا وهو الأخضر ، لكن «خضر» فيها وصف زائد قليلاً عن أخضر ؛ لأن «أخضر» يخبر عن لون فقط ، واللون متعلقه العين ، لكن « خضر » يعطى اللون ، ويعطى الغضاضة ونعرفها «بالجس» . وحين تلمسه تجد النعومة .

إذن «خضر» فيها أشياء كثيرة ؛ «لون» متعلق العين ، «وغضاضة» نعرفها بالجس وفيها نعومة نعرفها باللمس . وهذا اللون الأخضر يكون داكناً جداً أى أن خضرته شديدة حتى إنها تضرب إلى السواد ؛ لذلك نسمع من يقول : «سواد العراق» أى الأرض الخصبة التى فى العراق ، ويسمونها سواد العراق لأنها خضراء خضرة شديدة ولذلك تكون مائلة إلى السواد ، ويقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَامَّتَانِ ﴿٦٤﴾ ﴾

(سورة الرحمن)

و «مدهامة» أى مثل دهمة الليل ؛ كأنها من شدة خضرتها صارت كدهمة الليل . ويتابع الحق «خضراً نخرج منه حبّاً متراكباً» والحب هو

ماليس لـه نواة مثل حبة الشعير وحبـة القمح وحبة العدس وحبة اللـوبيا . و«متراكبا» تعنى أنه حب مرصوص متساند .

« ومن النخل من طلعهـا قنـوان دانية» والنخل عنـد العـرب لـه مكانـة عـالية لأنـه يعطى لهم الغذاء الـدائم فيذكـرهم به «ومن النخل من طلعهـا قنوان دانية» .

و «الطلع» هو أول شىء يبدو من ثمر النخل ، وهو مانسميه فى الريف «الكـوز الأخضر» وهو فى الـذكر من النخل الـذى يسمى «الفحل» ويوجـد أيضـاً فى الأنثى ، وأول مـايبـدو من ثمـر النخـل يسمى الطلع ، ثم ينشق الطلع ويخرج منه القنـو أو العزق أو العرجـون ، وهو الجزء الذى توجـد فيه الشماريخ التى يتعلق بها البلح .

والطلع إذن هـو الثمرة الأولى للنخلـة قبل أن تنشق ويطلع منها القنـوان وهو «السباطة» كما نسميها فى الريف .

«قنوان دانية» ويصفهـا الحق بأنها دانية لأنك حين تنظر طلع النخل أول ما يطلع تجده ينشق ويحمى نفسه بشـوك الجريد حتى لا تأكله الحشرات ثم يثقل وينحنى ويكاد ينـزل على الأرض فيكون دانياً قريبا ، فإن كـانت هناك «سباطة» شاذة تجد من يجنيها يُدخل يده بين الشوك ليصل إليها . وسبحانه يترك لنا فلتـات لنعرف نعمـة الله فى أنه جعلها تتـدلى لأنها لو كـانت كلها دانية . قـد لا يلتفت إليها ، لذلك يترك واحدة بين الشـوك ليتعب الإنسان حتى يحصل عليها لتعـرف أنه سبحانـه قد دنّى لك الباقى وهـذه نعمة من الله .

ويُطلق الطلع مـرة على الأكمام و «الكِم» هو مـا تـوجد فى قلبـه الثمار ، ومرة يطلق على الثمر نفسه :

﴿ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ ﴾

(سورة ق)

وأنت تـرى البلح نـازلاً من «الشماريخ» ، وكـل شمـروخ بـه عـدد من

البلح، ثم ترى «الشمروخ» متصلاً بالأم ، وفى ذلك ترى عظمة الهندسة العجيبة فى ترتيب الثمار . وكل شىء محسوب فى هذا الأمر بهندسة عجيبة وعندما ننظر إلى ما تعلمناه فى حياتنا حين نصمم شبكة توصيل المياه وشبكة الصرف الصحى ، إنّ شبكة المياه التى تعطينا الماء الذى نستخدمه ، وشبكة الصرف الصحى التى تأخذ الزائد من المياه والفضلات . عندما تنظر إلى هذه الشبكة أو تلك تجد هندسة كل منها دقيقة ؛ لأن أى غفلة فى التصميم تسبب المتاعب . فحين تريد توصيل المياه إلى حارة ؛ فأنت تستخدم ماسورة قطرها كذا بوصة ، وفى الحارة هناك عطفات فتحضر لكل عطفة ماسورة أقل قطراً من الأولى ، ثم ماسورة أقل للبيوت ، وماسورة أقل بكثير لكل شقة ، لقد قام المهندسون بحساب دقيق لهذه المسائل .

فإذا كانت هذه هى هندسة البشر ، فما بالنا بهندسة الخالق ؟ أنت تجد العزق : وهو حامل الرطب يأخذ من النخلة ، وكل نخلة فيها كذا «سباطة» وفى كل «سباطة» هناك «الشماريخ» ، ثم هناك البلح وكل بلحة تأخذ شعرة لغذائها . وهكذا نجد كل شىء محسوباً بدقة بالغة . إنها هندسة كونية عجيبة مصنوعة بقول الحق : كن ، وصدق الله القائل :

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ ﴾

(سورة الأعلى)

« وهو الذى أنزل من السماء ماء » وكلمة «وهو الذى أنزل من السماء ماء» لم نكن نعرف ماوراءها ، كنا نعرف فقط أن السماء هى كل ما علاك فأظلك ، والماء يأتى من السحاب ، وكلنا نرى السماء تمطر . وكلنا نعرف التعبير الفطرى الذى يقول : غامت السماء ، ثم أمطرت ، وهناك من قال: تضحك الأرض من بكاء السماء لأنها تستقبل الماء الذى يروى مابها من بذور . لكن ماوراء عملية الإنزال هذه ؟

إن هناك عملية أخرى تحدث فى الكون دون شعور منا ، عرفناها فقط حين تقدم العلم وحين قمنا بتقطير المياه ، فأحضرنا موقداً ووضعنافوقه قارورة ماء ، وحين وصل إلى نقطة الغليان خرج البخار ، وسار البخار فى

الأنابيب ومرت الأنابيب فى أوساط باردة فتكثفت المياه ونزلت ماء مقطراً ، ومثل ذلك يحدث فى المطر ، وانظر كم يكلفنا كوب واحد من الماء المقطر الذى نشتريه من الصيدلية ؟ وقارن ذلك بالسماء التى تنزل بماء منهمر ، ولا ندرى كيف صُنع . ولذلك يقول الحق :

﴿ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾

(سورة الواقعة)

هكذا ينزل الماء من السماء ، ولم نكن نعرف كيف يحدث ذلك وسبحانه يقول هنا :

﴿ وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ﴾

(من الآية ٩٩ سورة الأنعام)

وحين يقول سبحانه «مشتبها وغير متشابه» نصدق ، مثال حبة الخوخ ، هناك حبة من نوع نسميه «الخوخ السلطانى» ، حين تمسك بالثمرة الواحدة تنفلق لتخرج البذرة نظيفة ، وحبة أخرى نفلقها نحن فتجد البذرة فيها بعض لحم الفاكهة ونجد فيها أيضا بعضاً من الألياف . وهذه لها لون والأخرى لها لون ، هذه لها طعم وتلك لها طعم مختلف .

﴿ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ﴾

(من الآية ٤ سورة الرعد)

هذا ليعرف الإنسان أن طلاقة القدرة تحقق ما يريده الخالق ، وبعد ذلك تلتفت فتجد الفصائل ، فهذا برتقال منه بسرّة ، ومنه برتقال بلدى . وبرتقال بدمّه ثم اليوسفى . ولذلك سنجد فى الجنة مايحدثنا عنه سبحانه فيقول :

﴿ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ﴾

(من الآية ٢٥ سورة البقرة)

وحين يأكل منه ساكن الجنة يكتشف أن لفاكهة الجنة طعما مختلفا . ومن طلاقة القدرة أنه بعد التحليلات التى قام بها العلماء المعملبون ــ جزاهم الله عنا خيراً ــ لـ «حبة العنب» وجدو أن القشرة التى تغلفها لها طبيعة «البارد» و«اليابس» ، واللحم لحبة العنب طبيعته مختلفة «حار رطب» ثم البذرة «بارد يابس» ، وهذه ثلاث طبائع فى الحبة الواحدة ، وهذا شىء عجيب التكوين . وكذلك «الأترجة» وهى فاكة كالنارنج تجد القشرة «حارة يابسة» ، واللحم فيها «بارد رطب» ، والسائل الذى فى اللحم «بارد يابس» والبذرة «حار يابس» ، طبائع أربعة فى الشىء الواحد ، كيف ؟ وبأية قدرة؟

إن العلماء قد تعبوا حتى عرفوا تكوينها ليظهروا لنا المسالة ، وتلتفت لتجد ثمرة تأكل ظاهرها ، وباطنها بذرة ، وثمرة ثانية تأكل ما فى داخلها كالجوز أو اللوز ، وتقشر القشرة وتلقيها ، والخوخة تأكل لحمها وتترك بذرتها ، وذلك لتعرف أن المسألة ليست آلية خلق بل إبداع خالق . وتجد الشىء له اللون ، واللون بلا طعم ، ثم الرائحة المميزة وكل ذلك دليل على طلاقة القدرة . وهذا هو السبب فى أن الحق سبحانه وتعالى حينما يتكلم عن ثمار الجنة يأتى بثمار مثلها فى الدنيا ؛ لأنه لو أحضر ثماراً ليس لها مثيل فى الدنيا لقال الإنسان : هذه طبيعة الثمار ، ولو وجدت فى الدنيا لكان لها طعم مماثل . لكن هاهى ذى تتشابه ، وطعومها مختلفة .. إنها طلاقة القدرة .

ويقول الحق : « انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه » الحق سبحانه وتعالى لايعطى الإنسان حتى يملأ بطنه فحسب لا ،ولكنه يغذى كل الملكات فى النفس الإنسانية حتى ملكات الترف ، وملكات الجمال ، وملكات الحسن ، فيوضح لك قبل أن تأكل : انظر للثمر وشكله ! لتغذى عينيك بالمنظر الجميل حين ترى الثمرة طالعة وتتبعها حتى تنضج ، إنّها مراحل عجيبة تدل على أن الصانع قيّوم ، وكل يوم لها شكل مختلف وحجم مختلف ، وإن أكلتها اليوم فستجد طعمها يختلف عما إذا أكلتها بعد ذلك بيوم ، وهذا دليل على أن خالقها قيّوم عليها . مادامت كل لحظة من اللحظات فيها شكل ، وفيها لون وفيها طعم وفيها رائحة جديدة .

«انظـروا إلى ثمـره إذا أثمـر وينعـه»، و «ينعـه» أى وصلت إلى النضج وذلك إشاعـة للتمتع بنعم الكون لأن النظر إلى الثمـر لايعنى أننى أملكه ، فقـد أراه فى حقل جـارى وأنظـر لـه وأتمتع بشكلـه . إذن فـالحق سبحـانـه وتعالى يـريد أن يشيع الانتفاع بنعـم الله حتى عند غير واجدهـا ، لأن أحداً لن يمنعنى من أن أنظـر ، فأنبسـط ، فمن نـاحيـة الكمال الإنسـانى هنـاك غـذاء لملكـات النفس ؛ لأن النفس ليست ملكـات جـوع وعطش فقط بل هى ملكات متعـددة ، وكل ملكة لها غـذاؤها . ولـذلك فقبل أن يقول لى : إن الخيل والبغال تحمل الأثقال .. قال سبحانه :

﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝﴾

(سورة النحل)

إذن فهو يعطينى فائدة حمل الأثقال ؛ لأن حمل الأثقال لمن يملكها ، إنما الذى لايملكها فهو يرى الحصان يسير بجمال ، فيسعد برؤيته فيتمتع بما لا يملك ، هذه إشاعة لنعم الله على خلق الله .

ويذيل الحق الآية الكريمة بقوله : « إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون »

أى يؤمنون بـأن الإله الذى آمنوا به يستحـق بصفات الجلال والجمال فيه أن يُـؤْمَن به ، وكلما رأى الإنسـان خلقـاً جميـلاً قال : الله ، إذن أنـا إيمانى صحيح والآيات تؤكـد صدق إيمانى بالإله الـذى خلق كل هذا ، وكل يوم تبدو لى حـاجة عجيبة تزيـدنى إيماناً ، وعقلى الذى وهبـه الله لى هدانى إلى الإيمان بهذا الإله.

ومن العجيب أن هناك من جعلوا لله شركاء !! إلـه له كل هذه الصفات من أول فـالق الحب والنـوى ، وفـالق الإصبـاح ، وجعل الليل سكنـاً ، والشمس ، والقمر ، حسبانـاً وبحسبان ، والنجوم نهتدى بها فى ظلمات البر والبحـر ، وأنزل لنـا من السماء ماء ، وأخـرج لنـا النبات منـه خضر ، كل هـذه المسـائل كـان يجب أن تكـون صارفـة للنـاس إلى أن الله وحـده هـو الخالق المستحق للعبـادة ، ولا تتجه أبـداً بـالعبادة أو بـالإيمان بغيره ، لكن

هناك من جعلوا لله شركاء ، وجاء بها سبحانه بعد كل ذلك حتى يحفظنا ويغضبنا عليهم لنحذرهم ونتقيهم .

وإذا أحفظنا عليهم استحمدنا أى أستوجب علينا حمده إذْ أنه هدانا إلى الإيمان ، فنقول : الحمد لله الذى هدانا إلى الإيمان :

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾

ومادة الجن هى « الجيم » و « النون » وكلها تدل على الستر والتغطية والتغليف ، ومنها الجنون ، لأن العقل فى هذه الحالة يكون مستوراً ، ونحن لانرى الجن ، فهم مستورون ، والملائكة كذلك ، والمادة كلها مادة « الجيم » و « النون » تدل على اللف والتغطية .

« وجعلوا لله شركاء الجن » و « الجن » هو الخفى من كل شىء ، والجن ــ كما تعلمون ــ هم خلق من خلق الله فسبحانه خلق الإنس وخلق الجن ، خلق الجن مستوراً حتى لانعتقد أن خلق الله لحى كائن ، يجب أن يتمثل فى هذا القالب المادى ، بل سبحانه يخلق ما شاء كما شاء ، فيخلق أشياء مستورة لاتُرى ، ولها حياة ، ولها تناسل ، ويخلق أشياء مستورة ، ولا تناسل لها : كل ذلك بطلاقة قدرة الحق سبحانه ، ليقرب لنا هذه القضية؛ لأن عقولنا قد تقف فى بعض الأشياء التى لاتدرك ولاترى ؛ لأننا لانعلم وجوداً لشىء إلا إذا أحسسناه .

إن الحق سبحانه يوضح ذلك . فإياك أن تظن أنك تستطيع أن تدرك

كل ما خلقه الله ، فليس حسك هو الوسيلة الوحيدة للإدراك لأن حسك له قوانين تضبطه ، فأنت ترى ، ولكنك ترى بقانون ، بحيث إذا بعد المرئى عنك امتداداً فوق امتداد بصرك فلا تراه وكذلك أذنك تسمع ، فإن بعد الصوت أو مصدر الصوت عنك بحيث لاتصل الذبذبة إليك ، فلاتسمع ، كذلك عقلك ، قد تفهم أشياء ولا تفهم أشياء أخرى ، ثم ضرب لنا فى وجودنا المادى أمثالاً تقرب لنا ذلك الخلق الخفى من الجن ومن الملائكة .

لقد وجدنا العقل البشرى قد هداه الله الذى قدر فهدى ، إلى أن يكتشف شيئاً اسمه « الميكروب » و « والميكروب » كائن حى دقيق جداً بحيث إن البصر العادى لا يدركه ، ولكنه كان موجوداً ، وفعل الأفاعيل فى الناس ودخل فى أجسامهم دون أن يشعروا كيف دخل وعمل فيهم وفى صحتهم ماعمل من الهلاك والموت مثل أمراض الطاعون والكوليرا وغيرها ، ومع ذلك فالميكروب كان موجوداً ومن جنس وجودنا ، أى هو مادة وله حياة وله فعل ، وله نفوذ فى الهيكل الذى يدرك وهو الإنسان .

وهكذا رأينا أن شيئاً خفياً لايدرك ويهدد إنساناً ضخماً يدرك ، فهل معنى اكتشاف الميكروب أننا أوجدناه ؟ لا ، إن وجود الميكروب شىء ، وإدراك وجوده شىء آخر ، وإذا حللنا « الميكروب » نجد أنه من مادة الإنسان ولكنه دقيق جداً حتى إن العين المجردة لاتراه ، فلما اكتشف المجهر وكبرناه عرفناه ، وهذا الكائن الحى إن كنت لاتراه ، فعدم رؤيتك له سابقاً لاتعنى أنه غير موجود ، بل هو موجود ولكنك لم تدركه ، ثم اكتشفت ــ أيها الإنسان ــ آلة جعلتك تدركه ، ولنعرف أن وجود شىء لايعنى أنك من الضرورى أن تدركه ، فإذا قال الله لك : لى ملائكة من خلقى ، ولى جن من خلقى ، ولكنكم لا ترونهم وهم يرونكم ، نقول : صدقت ياربى ، لأن شيئا من جنس مادتنا كان موجوداً ولا نراه ثم بعد ذلك رأيناه .

إذن فالأشياء التى نكتشفها الآن هى دليل على صدق البلاغ القرآنى بما

أخبر به من الأمور الغيبية ، الجن مستور ، والمادة كلها - كما بيّنا - تدل على الستر ، فالجنون غياب العقل ، وجن الليل ، أى ستر وغطى ، والجنة لأن فيها أشجاراً وغير ذلك بحيث لا يظهر الذى يسير فيها فتكون ساترة لمن يدخلها .

إذن المادة كلها تدل على الستر ، وهل الذى نتعجب منه أنهم جعلوا الجن شركاء ، أو أن التعجيب ليس من جعل الجن شركاء بل من اتخاذ مبدأ الشركاء ، سواء أكان جناً أم غير جن ، إن التعجيب هنا من المبدأ نفسه ، فنحن لا نعترض فقط على أن الجن شركاء ، بل نحن نعترض على المبدأ نفسه ، أن يكون لله شريك من جن أو من ملائكة أو من غير ذلك ، ولهذا قدم المجعول - وهو الشريك - على المجعول منه - وهو الجن - مع أن العادة أن يقدم المجعول منه على المجعول ، فتقول جعلت الطين إبريقاً: أى أن الطين كان موجوداً ، وأخذت منه الذى لم يكن موجوداً وهو الإبريق.

ثم هل كان الشركاء موجودين وطرأ الجن عليهم ؟ أو كان الجن موجوداً وطرأ الشركاء عليهم ؟ فى هذه الحالة كان يجب القول : وجعلوا الجن لله شركاء ، إذن فالعجيبة ليس فى أن يكون الجن شركاء ، العجيبة فى المبدأ نفسه ، وكيف ترد فكرة الشركاء على أذهانهم سواء أكان الشركاء من الجن أم من غير ذلك ، ولهذا قال سبحانه : « وجعلوا لله شركاء » وساعة تسمعها تقول : أعوذ بالله« جعلوا لله شركاء » !! ولا يهمك من هم الشركاء ؛ لأن مطلق مجىء شريك لله هو الأمر العجيب ، سواء كان من الجن أم من الملائكة وكيف جعلوا الجن شركاء ؟ ألم يقل الحق فى كتابه إن إبراهيم قال :

﴿ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ﴿٤٤﴾ ﴾

(سورة مريم)

وما هى العبادة ؟ العبادة هى أن يطيع العابد المعبود فيما يأمره به ، وماداموا يطيعون الشياطين فى وسوستهم فكأنهم عبدوهم ، ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾

(الآية ٤٠ سورة سبأ)

فقالت الملائكة :

﴿ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ ﴾

(سورة سبأ)

وكيف كانوا يعبدون الجن ؟ إنهم كانوا يطيعونهم فيما يأمرونهم به وينهونهم عنه ؛ لأن العبادة هى الطاعة ، وأنت أيها العابد لاتقترح العبادة بل تنظر فيما طلب منك أن تتقرب به إلى المعبود ، إذن « افعل ولاتفعل» هى الأصل .

« وجعلوا لله شركاء الجن » ولماذا جاءوا لله بشركاء ؟ لماذا لم يعبدوهم وحدهم ويستبعدوا الله من العبادة ؟ لأن وجود شريك دليل على الاعتراف بالله أيضا فلماذا جعلوا له شركاء ؟ ولماذا لم يلحدوا وينكروا ويكفروا بالله وتنتهى المسألة ؟ لا . لم يفعلوا ذلك ؛ لأنهم رأوا أن الشركاء ليس لهم مطلوبات تعبدية وحين عبدوها ــ مثلا ـ لم تقل لهم «افعلوا» و«لاتفعلوا» وليس هناك منهج لاتباعه ، لكن أحداثا فوق أسبابهم ولايستطيعون لها دفعا قد تحدث فلمن يجأرون ؟ أللآلهة التى يعتقدون كذبها وبهتانها وأنها لاتنفع ولاتضر ؟ لذلك احتفظوا باعترافهم بالله ليلجأوا إليه فيما لايقدرون على دفعة لاهم ولامن اتخذوهم شركاء ، ولذلك يقول الحق :

﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا ۖ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ﴾

(من الآية ١٢ سورة يونس)

كأنه يريد عبادة الله للمصلحة فقط .

« وجعلوا لله شركاء الجن » . ومن العجيب ــ إذن ــ أنهم جعلوا لله شركاء ، مع أن الله هو الذى خلق العابد والمعبود ، والتعجيب من أمرين اثنين : أن يجعلوا شركاء لله من الجن أو من الملائكة ، والعجيبة الأخرى أنه « خلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم » وما معنى خرقوا له ؟ معناها أنهم اختلقوا ؛ لأن الخرق إيجاد فجوة فى الشىء المستوى على قانون السلامة ، ولذلك قال فى السفينة :

﴿ أَخَرَقَتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا ﴾

(من الآية ٧١ سورة الكهف)

وخرقوا له . أى عملوا خرقا فى الشىء السليم الذى تأبى الفطرة أن يكون .

﴿ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ ﴾

(من الآية ١٠٠ سورة الأنعام)

أما القسم الذى ادّعى أن للهالبنين فهم أهل الكتاب ؛ إنهم قالوا ذلك :

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة التوبة)

أما من جعلوا لله البنات ، فهم بعض العرب الذين كانوا يعتقدون أن الملائكة بنات الله .

﴿ أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ﴾

(من الآية ٤٠ سورة الإسراء)

وقال سبحانه :

﴿ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ ﴾

(سورة الصافات)

وسبحانه القائل :

﴿ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ ﴾

(سورة النجم)

وهناك من العرب من جعل بين الله وبين الجن صلة نسب مصداقا لقوله الحق :

﴿ وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ﴾

(من الآية ١٥٨ سورة الصافات)

لقد افتروا على الحق وادّعوا أن اتصالاً بين الله وبين الجِنّة فخلقت وولدت الملائكة .

﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

ولماذا يقول الحق : « بغير علم » لأن العلم يؤدى إلى النقيض ، فالعلم قضية استقرائية معتقدة واقعة يقام عليها الدليل ، وهذا شىء لاواقع له ، ولايمكن أن يوجد عليه دليل لذلك فهو قول بغير علم بل هو بجهل . هى إذن جهالة بأن يصدقوا فى حاجة وأنها واقعة وهى ليست واقعة ، ولايقام عليها دليل لأنها غير موجودة ، ولو استقام الدليل عندهم بفطرتهم المستقبلة لأدلة البيان وأدلة الكون لتبرأوا مما اعتقدوا ، ولرفضوا أن يتخذوا لله شركاء .

وقد عرض الحق قضية طرأت على الأفكار المشوشة وقالوا: «شركاء» فقال : «سبحانه» ، أى تنزيها له عن الشرك فى الذات وفى الصفات ، وفى الأفعال ؛ لأن ذاته ليست ككل الذوات ، وأفعاله ليست ككل الأفعال ، وصفاته ليست ككل الصفات ، ولذلك تأتى «سبحانه » فى كل أمر يناقض

نواميس الكون الموجودة . وخذ كل أمر يتعلق بالإله الحق فى إطار «سبحانه» . ولذلك حينما جاء الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة إلى بيت المقدس ثم عرج به فى ليلة واحدة وكان ذلك أمرا عجيبا ، أمرنا الحق أن نتقبلها فى إطار قوله الحق :

﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ ﴾

(من الآية ١ سورة الإسراء)

إنّ محمدا عليه الصلاة والسلام لم يقل : أنا سَرَيت من مكة إلى بيت المقدس ، إنما قال: « أُسْرِى بى » ، ومادام قد أسرى به فالقانون فى الاسراء هوقانون الحق سبحانه . فحدّها فى إطار سبحانه ، وهو القائل :

﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾

(من الآية ٣٦ سورة يس)

ثم يأتى بما هو أوسع من إدراكك فيقول :

﴿ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾

(من الآية ٣٦ سورة يس)

كأننا سوف نعلم فيما بعد أشياء فيها زوجية ، وقد أزاح الكشف العلمى فى القرن العشرين بعضا من ذلك ، فعرفنا الموجب والسالب فى الكهرباء والالكترونات ، وقوله : « ومما لايعلمون» يفسح المجال لقضايا الكون التى تحدث بنشاطات العقول المكتشفة .

﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

فـ (سبحانه) تنـزيها له وتقديسا عن أن يقاس بـالكائن الموجود . تعالى اسمه ، وتعالت ذاته ، وتعالت صفـاته وأفعاله « عما يصفون » بأوصاف لا تليق بذاته .

وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ﴾

والحق سبحانه وتعالى قال فى آيات أخرى :

﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ ﴾

(من الآية ٥٧ سورة غافر)

فإن كنت تـرى فى نفسك عجـائب كثيرة ، وكل يـوم يعطيـك العلم التشريحى أوعلم وظائف الأعضـاء سرا جديـدا فلا تتعجب من هـذا الأمر ؛ لأن السماء والأرض إيجاد من عدم ، وسبحانه هنـا يقول : « بديع » أى أنه ـ سبحانه ـ خلقهما على غير مثال سابق ، فمن الناس من يصنع أشياء على ضوء خبرات أو نماذج سابقة ، لكن الحق سبحـانه بديع السموات والأرض، وقد عـرفنا بالعلم أن الأرض التى نعيش عليهـا وهى كوكب تـابع من توابع الشمس ، وقديما كانوا يقولـون عن توابع الشمس إنها سبعة ، ولذلك خدع كثير من العلماء والمفكرين وقالوا : إن السبعـة التوابع هى السموات ، فأراد الحق أن يبطل هذه المسألة بعـد أن قالوا سبعة ، فقـد اكتشف العلماء تابعا ثـامنـا للشمس ، ثم اكتشفـوا التـاسع ، ثم صـارت التـوابع عشرة ، ثم زاد الأمـر إلى توابع لانعـرفها . وأين هـذه المجموعـة الشمسية من السمـوات ؟ وكلهـا مجرد زينة للسماء الـدنيـا ، وعنـدما اكتشفت المجـاهـر والآلات التى

تقرب البعيد رأينا «الطريق اللبنى» أو «سكة التبانة» ووجدناها مجرة وفيها مجموعات شمسية لاحصر لها ، وجدنا مليون مجموعة مثل مجموعتنا الشمسية . هذه مجرة واحدة ، وعندنا ملايين المجرات ، ونجد عالما فى الفلك يقول : لو امتلكنا آلات جديدة فسنكتشف مجرات جديدة .

ولنسمع قول الله :

﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾

(سورة الذاريات)

إذن يجب أن نأخذ خلْق السموات والأرض فى مرتبة أهم من مسألة خلق الناس .

﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

ومادام سبحانه بديع السموات والأرض ، وهو بقدرته الذاتية الفائقة خلق السموات والأرض الأكبر من خلق الناس ، إذن فإن أراد ولدا لطرأ عليه هذا الابن بالميلاد ، ولايمكن أن يسمى ولدا إلا إذا وُلِد ، وسبحانه منزه عن ذلك ، ثم لماذا يريد ولدا ، وصفات الكمال لن تزيد بالولد ، ولم يكن الكون ناقصا قبل ادّعاء البعض أن للحق سبحانه ولدا . إن الكون مخلوق بذات الحق سبحانه وتعالى ، والناس تحتاج إلى الولد لامتداد الذكرى، وسبحانه لايموت ؛ مصداقا لقوله :

﴿ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾

(من الآية ٨٨ سورة القصص)

والبشر يحتاجون إلى الإنجاب ليعاونهم أولادهم ، وسبحانه هو القوى الذى خلق وهو حى لايموت ؛ لذلك فلامعنى لأن يُدّعى عليه ذلك

وماكان يصحّ أن تناقش هذه المسألة عقلا ، ولكن الله ـ لطفا بخلقه ـ وضّح وبين مثل هذه القضايا .

يقول جل وعلا : « ولم تكن له صاحبة » . وماذا يريد الحق من الصاحبة ؟ إنه لايريد شيئا ، فلماذا هذه اللجاجة فى أمر الألوهية ؟ . فلا الولد ولا الصاحبة يزيدان له قدرة تخلق ، ولا حكمة ترتب ، ولا علما يدبر، ولاأى شىء ، ومجرد هذا اللون من التصور عبث ، فإذا كان الشركاء ممتنعين ، والقصد من الشركاء أن يعاونوه فى الملك ؛ إله يأخذ ملك السماء، وإله آخر يأخذ ملك الأرض . وإله للظلمة ، وإله للنور . مثلما قال الاغريق القدامى حين نصّبوا إلهاً للشر . وإلهاً للخير ، وغير ذلك . والحق واحد أحد ليس له شركاء يعاونونه فما المقصود بالولد والصاحبة ؟ أعوذ بالله! ألايمتنع ويرتدع هؤلاء من مثل هذا القول :

« وهو بكل شىء عليم » فسبحانه هو الخالق للكون والعليم بكل مافيه ولايحتاج إلى معاونة من أحد .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾

انظر التقديم بكلمة رب ، قبل « لا إله إلا هو » كلمة « رب » هذه هى حيثية « لا إله إلا هو » ؛ لأن إلهاً تعنى معبودا ، ومعبودا يعنى مُطاعا، ومطاعا يعنى له أوامر ونواهٍ ، ولماذا ولأى سبب ؟ .. السبب أنه الرب المتولى الإيجاد والتربية . ومن الواجب والمعقول أن نسمع كلامه ؛ لأنه هو الرّب والخالق وهو الذى يرزق ، بدليل أننا حين نسأل أهل الكُفْر فى غفلة شهواتهم : من خلق السموات والأرض ؟ تنطق فطرتهم ويقولون :

الله هو الذى خلق السموات والأرض . أما إن كان السؤال موجها فى محاجاة مسبقة فأنت تجد المكر والكذب .

وحين تريد أن تنزع منهم قضية صدق وتضع وتبطل قضية كذب فلتأخذهم على غفلة ودون تحضير فيقولون إن الذى خلق هو الله .

ورأينا الآلات التى صمموها ليكتشفوا الكذب ، وليروا العملية العقلية التى تجهد الكذاب ، أما صاحب الحق فلا يُجْهد ؛ لأن صاحب الحق يستقرىء واقعا ينطق به ولايصيبه الجهد ، لكن الذى يكذب يجهد نفسه ويتردد بين أمور ويضطرب ولايدرى بأيها يأخذ ويجيب بإجابات متناقضة فى الشىء الواحد .

﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

ومادام هو خالق لكل شىء وهو الباقى فهو الأحق بالعبادة ؛ لأن العبادة ــ كما قلنا ــ معناها طاعة الأمر وطاعة النهى ــ ومادام سبحانه الذى خلق فهو الذى يضع قانون الصيانة للإنسان والكون ، وإن خالفت المنهج يفسد الكون والإنسان ، وإذا فسد الكون أو الإنسان فأنت تلجأ إلى منهج الخالق لتعيد لكل منهما صلاحيته ؛ لذلك هو الأولى بالعبادة . (ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو) .

وهذه شهادة شهد بها لذاته قبل أن يخلق كل شىء ، وقبل أن يخلق الملائكة ، وشهدت بها ملائكته ، وشهد بها أولو العلم .

﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ﴾

(من الآية ١٨ سورة آل عمران)

إذن فالله شهد بألوهيته من البداية ، ومن أسمائه « المؤمن » ونحن مؤمنون بالله ، وربنا المؤمن بأنه إله واحد ، وهذا الإيمان منه أنه إله واحد ،

يخاطب كل شيء يريده وهو يعلم أن أى شيء لا يقدر أن يخالفه ، إنه يخاطبه بقوله : « كن فيكون » ولأنه إله واحد يعلم أن أحداً أو شيئاً لم يخالفه ، لذلك يباشر ملكه وهو العليم بأن الغير خاضع لأمره ولا يمكن أن يتخلف عن مراداته ، أو نقول:« مؤمن » لما خلق ولمن خلق ، أى منحهم الأمن والأمان فهو سبحانه القائل :

﴿ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴿٤﴾ ﴾

(سورةقريش)

لقد أوضح الحق سبحانه لنا : أنتم خلقى فإن أخذتم منهجى أطعمكم من الجوع وآمنكم من الخوف . (ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء) .

إذن فالمنطق يفرض علينا عبادته سبحانه ، والأمر المنسجم مع المقدمة ، أن لا رب ، ولا إله إلا هو ، إنه خالق كل شيء ؛ لذلك تكون عبادته ضرورة ، ويتمثل ذلك أن تطيعه فيما أمر ، وفيما نهى .

﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴾

(من الآية١٠٢ سورة الأنعام)

وهذه دقة الأداء البيانى فى القرآن ، فنحن فى أعرافنا نقول : فلان وكيل لفلان أى يقوم لصالحه بالأمور التى يريدها ، وسبحانه ليس وكيلاً لك ، بل هو وكيل عليك ؛ لأن الوكيل لك ينفذ أوامرك ، لكن هو وكيل عليك، مثل الوصى على القاصر هو وكيل عليه ، ويقول للقاصر : افعل كذا فيفعل ، وسبحانه وكيل علينا ، ولذلك نحن نطلب منه وهو الذى يستجيب لدعائنا بالخير ، فلا ينفذ رغباتنا الطائشة ، ونجد الأحمق من يقول : لقد دعوت الله ولم يستجب لى ، ونقول : إنك تفهم الاستجابة أنها تؤدى لك مطلوبك ، وسبحانه أعلم بما يناسبك لأنه وكيل عليك ويعدل من تصرفاتك ، وساعة تطلب حاجة ، إن كان فيها خير يعطيها لك، وإن كنت تظن أنها خير ، لكنها ستأتى بالشر لايعطيها لك .

وعلى من يدعو ألايتعجل الإجابة . قال صلى الله عليه وسلم : «يستجاب لأحدكم مالم يَعْجَل ، يقول : قد دعوت فلم يستجب لى »[١] .

« وهو على كل شىء وكيل » أى سواء أكان هذا الشىء مختاراً أم غير مختار ؛ لأن المختار قد يختار شراً ، ولأن الله وكيل عليه يقول له : لا ، وغير المكلف ولا اختيار له ، مقهور لإرادة الله مثل النار ، فهى مأمورة أن تحرق ، لكنه أمرها ألا تحرق سيدنا إبراهيم وتبقيه سليماً .

وتأتى الآية التالية لتؤكد دواعى عظمته سبحانه فيقول :

﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ ﴾

ولماذا لا تدركه الأبصار ؟ لأن البصر آلة إدراك لها قانونها بأن ينعكس الشعاع من المرئى إلى الرائى ويحدده ، فلو أن الأبصار تدركه لحددته ، وأصبح من يراه قادراً عليه ، ولصار مقدورا لكم ؛ لأنه دخل فى إدراككم. فلو أنك أدركت الله لكان الله مقدوراً لبصرك ، والقادر لا ينقلب مقدوراً ابداً ، إذن فمن عظمته أنه لا يُدْرَك : أنت قد ترى الشمس ، ولكن أتدعى أنك أدركتها ؟! لا ، لأن الإدراك معناه الإحاطة، وحين يقال «أدركه » أى لم يفلت منه ، ولذلك عندما سار قوم فرعون وراء موسى وقومه قال أصحاب موسى : (إنا لمدركون).

أى لا فائدة ؛ لأن البحر أمامنا ، إن تقدمنا نغرق ، وإن تأخرنا أهلكونا وقتلونا . إذن « مُدرك » يعنى محاطا به . فإذا أحاطت الأبصار بالله انقلب البصر قادرا ، وصار الله مقدورا عليه . والقادر بذاته ــ كما قلنا ـ لاينقلب مقدورا لخلقه أبدا .

---

(١) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى وابن ماجه عن أبى هريرة .

﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

وكل ماعدا الله محتاج إلى الله لبقاء كينونته ، وكينونته سبحانه ليست عند أحد ؛ لذلك « لاتدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار » لأنه إن قدر على الأبصار كلها فهو قادر بذاته ، والباقى مقدور له ؛ لأنه مخلوق له ، ومادام مخلوقا له يكون مقدورا عليه ولم يطرأ على المخلوقين شىء جديد يجعلهم قادرين بذواتهم (لاتدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار) .

وقد وقف العلماء وقفة كبيرة واختلفوا : هل الإنسان يرى ربه أو لايراه سواء فى الدنيا أم فى الآخرة ؟ بعضهم قال : لا أحد يرى الله بنص الآية: « لاتدركه الأبصار » ونقول : لكن هناك آيات فى القرآن تقول :

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ ﴾

(سورة القيامة)

و « ناظرة » تضمن الرؤية وتفيدها ، وأيضا فالله يعاقب من كفر به بأن يحتجب عنه ؛ لأنه القائل :

﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ﴾

(سورة المطففين)

فالكافرون محجوبون عن رؤية الله عقابا لهم . ولو اشتركنا معهم وحجبنا كما حجبوا فما ميزتنا كمؤمنين ؟ ، إذن فالعلماء لم ينتبهوا إلى أن هناك فرقا بين الأداء القرآنى وما يقولون ؟ وحين يحتج عالم منهم بأن رؤية الله غير ممكنة لأن ربنا سبحانه قال لموسى :

﴿ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي ﴾

(من الآية ١٤٣ سورة الأعراف)

فلماذا لم يلتفت هذا العالم إلى قول الحق :

﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ﴾

(من الآية ١٤٣ سورة الأعراف)

إذن فالله يتجلى لبعض خلقه ، أما أن يراه الخلق فى الدنيا فلا ؛ لأن تكويننا غير مؤهل لأن يرى الحق ، بدليل أن الأصلب والأقوى منا وهو الجبل حينما تجلى ربه عليه اندك . فلما اندك الجبل خر موسى صعقا ، فإذا كان موسى قد خر صعقا لرؤية المتَجلَّى عليه وهو الجبل فكيف لو رآه ؟! إذن فهو غير معد له .

لقد اختلف العلماء عند هذه الآية ، وتجلَّى خلافهم إلى أبعد حد ؛ فمنهم مجيز للرؤية ، ومنهم منكر لها ، وأرى أن خلافهم فى غير محل نزاع ؛ لأنهم تكلموا عن الرؤية ، والكلام هنا عن نفى الإدراك ، والإدراك إحاطة ؛ والرؤية تكون إجمالاً ، إنما الإحاطة ليست ممكنة ، وعلى تقدير أن الرؤية والإدراك متحدان فى المفهوم نقول : لماذا يكون الخلاف فى أمر الآخرة؟ لو أن الخلاف فى أمر الرؤية فى الدنيا لكان هذا كلاماً جميلاً ، ولكن الخلاف جعلتموه فى الآخرة .

إن آيات القرآن صريحة فى أن رؤية الحق سبحانه وتعالى من نعم الله على المؤمنين ، وهى زيادة فى الحسنى عليهم ، وحجبه سبحانه عن الكفار لون من العقوبة لهم ونقول ـ إيضاً ـ : لماذا لا تقولون إن الإدراك سيوجد فى الآخرة بكيفية ليست موجودة فى دنيانا ؟ لأننا فى هذه الدنيا معدُّون إعداد أسباب ـ وفى الآخرة سنكون معدين إعداداً لغير أسباب .

أنت هنا إذا أحببت أن تشرب تطلب الماء أو تذهب للماء وتشرب ، وحين تريد أن تأكل الشىء الفلانى ، تقول لأهل البيت : اصنعوا لى كذا أو تشترى ما تريده ، إنما هناك فى الآخرة بمجرد أن يخطر ببالك ماتشتهيه تجده أمامك ، وهذا قانون جديد لا ارتباط له بقانون الدنيا ، فلماذا لايكون فى تكويننا فى الآخرة أيضاً قانون يمكن به أن نرى الله وفى إطار ليس كمثله شىء ؟

إن فى الآخرة قضـايا يتفق الجميع على أنها تخالف قوانين الدنيـا ونواميس العالم المعاصر لنـا الآن فى الأكل والشرب ، والتخلص من الفضلات ، لكن فى الآخـرة سنأكل ونشرب ولكن لن تـوجـد فضـلات ؛ لأنك أنت الآن تطهى وتهضم ، وفى الهضم أنت تأخـذ بعض الطعـام ويبقى منـه فضـلات لابـد أن تخرج ، لكن الطهـى والهضم فى الآخـرة بـ « كـن » وليس لـه فضلات ، إنـه طعام بقدرة القادر ، فى الجنـة كل ماتريده ستنـاله دون أن ينفـد ، وفى الـدنيـا أى شىء يـؤخذ منـه ينقص ، أمـا فى الآخـرة فـلاشىء ينقص لأن له مدداً من القيومية .

ويعقب الحق سبحانـه وتعالى بعـد القضيتين : « لاتدركه الأبصـار وهو يـدرك الأبصـار » فيقـول : « وهـو اللطيـف الخبير » ولطيف تنـاسب «لاتـدركه الأبصـار » و « خبير » يناسب « وهـو يدرك الأبصـار » ولطيف لها معنى خـاص ، فالشىء اللطيف يستعمـل فى دقيق التكوين ـ ولله المثل الأعلى ـ إن الميكروب لم نعرفه إلا مـؤخراً لأنه بلغ من اللطف والدقة بحيث لاتـدركـه العين ، لكـن عنـدمـا اخترعنـا الميكـروسكـوب رأينـاه ،وإن دق الميكـروب عن ذلك فلن نـراه ، وقـد اكتشفنـا « الفيروس » ونحاول معـرفـة المزيـد عن خصـائصـه ، إذن كلما دق الشىء يلطف ولا يمكن أن نـراه، فـالشىء إذا لطف شرف وعلا ونقـول ـ ولله المثل الأعلى ـ : فـلان لطيف المعشر ، والحق سبحانه لطيف فى ذاته ويلطف بعباده .

إنك ساعـة ما تسمع « لاطف » فهذا اسم فـاعل ، مثلها مثل «آكل»، وحين نقـول : « لطيف فهى مبـالغة فى اللطف ؛ لأنـه لاطف بكل إنسـان وكل كـائن وهذا يحتـاج إلى مبـالغـة ، ولذلك نقـول : رحيم ، وهى صيغـة مبـالغة ؛ لأنـه يسبغ رحمته على عبـاده ، وأول مظهـر من مظاهـر اللطف ، هـو تدبير أمـورهم الدقيقـة تدبيراً يحقق مصـالحهم فى وجودهم . إننـا حين ندير كوب ماء لكل إنسان ندبر الكثير فما بالنا بتدبير اللطيف بعباده ؟

لقد خلق لنا الأرض ثلاثة أرباعهـا ماء ، والربع يابس ، لأنه جل وعلا يريـد أن يوسع رقعـة الماء لأن المياه كلما اتسعت رقعتهـا ، كان البخـر فيها أسهل وأكثر ، لكن لـو كانت الميـاه عميقة ومساحتهـا قليلة فالبخـر يكون على مستوى السطح فقـط ، وهنـا لايأتى السحـاب بما يكفى الخلق من

الماء . لقد وسع الله سبحانه رقعة الماء كى يتبخر الماء ثم ينعقد كسحب فى السماء ، ويصادف منطقة باردة لينزل لنا المياه العذبة لنشرب منها ، وتشرب أنعامنا ، ونسقى الزرع ، وكل ذلك من لطف التدبير .

ومن مظاهر اللطف فى الحق نجد أموراً لاتوصف ، ولذلك كل واحد من العلماء انفعل لزاوية من زوايا لطف الله على خلقه .. فواحد قال : هو « سبوغ النعم » وقال الثانى : « دقة التدبير » وقال الثالث : إن من مظاهر لطف الحق أنه يستقل كثير النعم على خلقه ، فالنعم التى منحها خلقه قليلة لأن خزائنه ـ سبحانه ـ ملأى وعطاياه لاتنفد ولا يعتريها نقص، ولذلك قال سبحانه :

﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾

(من الآية ٧ سورة إبراهيم)

أى أن نعمه الكثيرة على عباده قليلة ، وفى المقابل : يستكثر قليل الطاعة من خلقه أى يعتبرها ـ تفضلاً منه ـ كثيرة ؛ لأنه هو الذى يجزى الحسنة بعشر أمثالها .

إذن فمظاهر اللطف لا حصر لها ، وعلى قدر دقة اللطف تكون ذقة مأتاه وإحصائه ، فهو اللطيف الذى إذا ناديته لبَّاك ، وإذا قصدته آواك ، وإذا أحببته أدناك ، وإذا أطعته كافاك وإذا أعطيته وأقرضته من فضله وماله الذى منحك عافاك ، وإذا أعرضت عنه دعاك فهو القائل :« يابن آدم إن ذكرتنى فى نفسك ذكرتك فى نفسى ، وإن ذكرتنى فى ملأ ذكرتك فى ملأ خير منهم ، وإن دنوت منّى شبراً دنوت منك ذراعاً ، وإن دنوت منّى ذراعاً دنوت منك باعاً ، وإن أتيتنى تمشى أتيتك أهرول »[1] وكلها مظاهر لطف . وهو المنادى : « توبو إلى الله » والرسول صلى الله عليه وسلم هو القائل : «لله أشد فرحاً بتوبة عبده من أحدكم إذا سقط على بعيره قد أضله بأرض فلاة»[2] وإذا قربت من الله هداك .

---

(١) رواه أحمد عن أنس .

(٢) رواه البخارى ومسلم عن أنس .

ويأتى عالم آخر ممن انفعلوا بصفات اللطف ، فيقول : الذى يجازيك إن وفيت ، ويعفو عنك إن قصرت ، وعالم آخر يضيف إلى معانى اللطف فيقول : من افتخر به أعزه ، ومن افتقر إليه أغناه ، وعالم ينفعل انفعالاً آخر بمظاهر اللطف فيقول : من عطاؤه خير ، ومنعه ذخيرة .. أى أنه لو منع عبده شيئا فإنه يدخره له فى الآخرة ، كل هذه مظاهر للطف ، وهذا مناسب لقوله الحق : « لاتدركه الأبصار » إن لطفه سبحانه يتغلغل فيما لا نستطيع أن ندركه ، وحين تحلل أنت أى أمر قد لا تصل إلى فهم النعمة ، وإن وصلت فأنت لاتقدر أن تؤدى الحمد على تلك النعمة .

وقوله الحق : « وهو يدرك الأبصار » مناسب لكلمة « خبير » ، ونحن فى حياتنا نسمع كلمة « خبير » فعندما نقابل أى مشكلة من المشكلات نجد من يقول : نريد أن نسمع رأى الخبير فيها ، وفى القضاء نجد القاضى يستدعى خبيراً ليكتب تقريراً فى أمر يحتاج إلى من هو متخصص فيه وعليم به ، إذن فالخبير فى مجال ما هو الذى يعرف تفاصيل الأمر ، فما بالنا بالخبير الأعلى الذى لايستعصى عليه شىء فى ملكه ، وهو الذى يدرك الأبصار ، فقوله : « لاتدركه الأبصار » يناسبها قوله : « لطيف » تماماً كما أن « وهو يدرك الأبصار » يناسبها « خبير » ، وهذا مايسمونه فى اللغة « لف ونشر » وهو أن يأتى بأمرين أو ثلاثة ثم يأتى بما يقابلها ، مثال ذلك قوله الحق :

﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴾

(من الآية ٧٣ سورة القصص)

فمن مظاهر رحمته بنا سبحانه أن جعل لنا الليل والنهار ، ثم قال :

﴿ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ ﴾

(من الآية ٧٣ سورة القصص)

لنسكن فى الليل ، ونبتغى فضله فى النهار ، وهذا اسمه - كما قلنا - «لف ونشر» .

ويقول الحق ـ سبحانه ـ بعد ذلك :

﴿ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ ﴾

وبصائر جمع بصيرة ، والبصيرة للمعنويات والإشراقات التى تأتى فى القلوب كالبصر بالنسبة للعين ، و « الكون » يعطيكم أدلة الإبصار ، والقرآن يعطيكم أدلة البصائر ، فكما أن الله هدى الإنسان فحذره ونهاه عن المعاصى ومنحه النور الذى يجْلِى له الأشياء فيسير على هدى فلا يرتطم ولا يصطدم ، كذلك جعل المعنويات نوراً ، والنور الأول فى البصر يأخذه الكافر والمؤمن ، وكلنا شركاء فيه مثله مثل الرزق ، لكن النور الثانى فى البصائر يأخذه المؤمن فقط ، ولذلك يقول ربنا :

﴿ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾

(من الآية ٩ سورة الحديد)

وهو نور الهداية فى بصائر المعنويات ، فيوضح : أنا خلقتكم خلقاً ووضعت لكم قوانين لصيانتكم . فقانون الصيانة فى ماديات الدنيا للمؤمن والكافر ، وقانون الصيانة فى معنويات الحياة خاصة بالمؤمن .

وهو القائل :

﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾

(من الآية ٤٠ سورة النور)

ونعلم أن البصائر من المعنويات والمجىء للأمر الحسّى ؛ كقولنا : «جاء زيد » أو «جاء عمرو » ولك أن تتصور البصائر وهى تأتى ، قال الحق :

﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ ﴾

(من الآية ١٥ سورة المائدة)

إنه سبحانه قد أعطانا نورا صحيحا واضحا وهو يأتى إلينا بمشيئته .

« قد جاءكم بصائر من ربكم » أى أنها بلغت من تكوينها أنها أصبحت كأنها أشياء محسّة تجىء ، ولا يصح أن تقولوا إنها لم تصلكم لأنها تجىء من الرب الذى خلقنا بقدرته وأمدنا فى كل شىء بقيّوميته ، ومن لوازم الربوبية أن يعطى ما يهدى ، وقد حكم الله أن البصائر جاءتنا ، وحكم بأن رسوله قد بلّغ ؛ فسبحانه أعطى لرسوله ، والرسول ناولنا ، فالحق قد شرع ورسوله قد بلغ وبقى أن تؤدوا ولاعذر لكم من المشرع الأعلى الذى خلق وهو الرب . ولا من المبلغ المعصوم وهو الرسول .

ويقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ﴾

(من الآية ١٠٤ سورة الأنعام)

ولله المثل الأعلى ، نجد الولد يدخل البيت فيجد أمه ويقول لها : ماذا أعددت لنا من طعام ؟ فتقول : لاشىء . فيقول الابن : لقد بعث أبى اللحم والأرز والخضار ، فكأنه يقول لها : أين عملك يا أمى ؟

وربنا سبحانه يوضح : أنا خلقتكم ، وعملت لكم قانون صيانة ، وأرسلت لكم رسولاً تعرفون عنه أنه صادق فى بلاغه ، وأدى هذه الرسالة ، لذلك فالباقى من المسألة عندكم أنتم ، وكل واحد عليه أن يؤدى ما عليه من عمل ، إن أبصر فلنفسه ، وإن عمى فعليها . فإياكم أن تفهموا أنى كلفتكم بما يعود علىّ فى ذاتى ، ولا مايزيد من سلطانى شيئا ؛ لأن خيرها لكم أنتم ، ولا آمن على التشريع ممن لايفيد من التشريع ؛ لأن من يستفيد منه قد يشرّع لمصلحته ، أما الحق فهو مأمون على التشريع لأنه غير منتفع به .

يقول سبحانه :

﴿ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ﴾

(من الآية ١٠٤ سورة الأنعام)

ولأن الرسول عليه البلاغ فقط والحق قد حفظه وعصمه من الكفر وهو يبلغكم المنهج ، وقد خلق الله كل إنسان مختارا وهو بهذا الاختيار يُدخل نفسه فى الحكم أو يخرج نفسه من الحكم ، وسبحانه لم يبعث الرسول جباراً بل بعثه رحيماً ؛ لذلك يقول الله فى حق رسوله صلى الله عليه وسلم : «وما أنا عليكم بحفيظ » والحفيظ من أسماء الله ، وهو الحفيظ لأنه شرَّع ليحفظ الخلق ويريد أن يجعلهم على مثال حسن واعٍ . والرسول هو المبلغ والحق يقول :

﴿ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ﴾

(من الآية ٤٥ سورة ق)

إذن فكل واحد حر يدخل نفسه فى الحكم أو يخرج نفسه من الحكم . وقد حارب الرسول ليحمى الاختيار بدليل أن البلاد التى فتحها الإسلام تجد بعضاً من سكانها قد ظلوا على كفرهم ولم يرغمهم أحد على الإيمان .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾

«كذلك نصرّف » . أى أنه يأتى لنا بالحال بعد الحال ويكرر ويعيد ، وتأتى الحادثة من الحوادث وينزل فيها تشريع ، ويرقق قلوبهم ، ويأتى بنماذج من الرسل ، ومواقف أممهم منهم حتى نصادف فى كل حال قلباً مستقبلاً لأنه إن قال مرة واحدة وسكت وكان هناك أناس قلوبهم منصرفة

فعندمـا يكرر الأحـداث وينزل فيهـا من التشريع والمواعظ فقد تـرق قلوبهم للإيمان وتستوعب القلوب الهداية .

«وكذلك نصرف الآيـات وليقولـوا درست»ما معنى : «وليقـولوا درست»؟ إننـا نعلم أن السماء تتـدخل حين يطم الفسـاد ، لكن إن وجـد فى الـذات الإنسانية نفس لـوّامة فهى مَنَاعة للنفس ووقايـة لها . فإن فعل الإنسان ذنباً تلـومـه نفسـه فيرجع ، وإن اختفت النفس اللـوّامـة وصـارت النفس أمّـارة بالسوء ، امتنع فى المجتمع الأمر بـالمعروف والنهى عن المنكر ، فمعنى ذلك أن الفساد قد طمّ . وهنا تتدخل السماء وتأتى ببيان جديد ومعجزة جديدة.

أن الفسـاد لا يتأتى إلا من وجـود طبقات تطحن فى طبقـات ، والـذين يُطحنـون بالفسـاد هم من يستقبلون المنهج بشـوق ، لكن الطاحن المستفيـد من الفسـاد هـو الـذى يعـارض المنهج . ولـذلـك فإن كل جماعـة حـاربت الرسل هم من الطاحنين للناس ، لكنّ المطحونين إنما يريدون من ينقذهم .

إذن فكل صـاحب دعوة سماوية جعـل الله له عدوّا مـن المجرمين ؛ لأن السماء لم تتدخل إلا حين صار الإجرام لا مقـاوم له . وهكذا يجعل الله لكل نبى ورسـول عدوا من المجـرمين ، وهذا العدو يفتـن به الناس ، ويميـل له ضعـاف العقـائد. والحق يصرف الآيـات حـالاً بعـد حـال حتى لايثبت مع الداعى الحق إلا المؤمنون الصادقون .

ولـذلك تجد أن الإسـلام قـد جاء وغـربل الأمـور ؛ فمثـلاً تأتى حـادثـة الإسراء فمن كـان إيمانـه مهتـزا ينكـر الإسراء ، وذلـك من أجل أن يـذهب الزبد ويبقى مـن يحمل الدعوة بمنهج الحق . أما من كـان إيمانه ضعيفاً أو كان يعبد الله على حرف فالإسلام لا يرغبه .

﴿ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا ﴾

(من الآية ٤٧ سورة التوبة)

إذن فـالحق سبحانـه وتعالى قـد صرّف الآيات لينصر المطحـونين، وحينما قال الرسـول صلى الله عليه وسلم ذلك قالوا درست وادعوا أنه كـان قاعداً فى الجبل ، وتعلم من أعجمى . ولذلك نجد الحق يقول :

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾

(من الآية ١٠٣ سورة النحل)

ويأتى الرد من الحق :

﴿لِسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾

(من الآية ١٠٣ سورة النحل)

إن سيدنا عمر رضى الله عنه حينما كان فى الطواف جاء عند الحجر الأسود وقال : « والله إنى لأقبلك وإنى أعلم أنك حجر وأنك لاتضر ولاتنفع ولولا أنى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم قبَّلك ماقبلتُك»(١).

فعل سيدنا عمر ذلك حتى يعلمنا إذا ماجاء بعضٍ الناس وقال : ماسبب علة تقبيل الحجر الأسود ؟فيكون الجواب حاضراً : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم فعل ذلك وهذا تشريع .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾﴾

وساعة يتكلم متكلم لمخاطب بأمر هو فيه وقائم عليه ومؤدٍ له فلابد أن نفهم حقيقة المراد ، مثلما يقول الحق سبحانه:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟﴾

(من الآية ١٣٦ سورة النساء)

---

(١) رواه مسلم

وبأى شىء نادى الله خلقه المؤمنين هنا ؟ لقد قال : « يا أيها الذين آمنوا » ، فكيف يقول : « آمنوا » ؟ لقد ناداهم لأنهم آمنوا إيمانا استوجب خطابهم بالتكليف ، والإنسان ابن أغيار . فيوضح أن الإيمان الذى استقبلتم به التكليف من خطابى داوموا أيضا عليه ، وجاء الأمر هنا بدوامه ، أى كما آمنتم إيمانا جعلكم أهلا للتكليف فى مخاطبتكم وقلت لكم يأيها الذين آمنوا : الزموا هذا وداوموا على إيمانكم . وقوله الحق: «اتبع ماأوحى إليك » هو قول لرسول متبع ، إذن فهو يحمل الأمر بالمداومة على الاتباع ، ولايحزنك مايقولون يامحمد ؛ لأنك مؤيد من ربك ويتولى الدفاع عنك ويلقنك الحجة .

﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ﴾

(سورة الفرقان)

ويقول الحق بعد ذلك موجها حديثه لرسول الله صلى الله عليه وسلم : (اتبع ما أوحى إليك من ربك لا إله إلا هو وأعرض عن المشركين) .

ونعلم أن الوحى هو إعلام بخفاء ، وكل وحى هو إعلام بخفاء وقد أوحى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بصور شتى ، ولكن كل مايتصل ويختص بالقرآن كان بواسطة جبريل : وقوله الحق (اتبع ما أوحى إليك من ربك لا إله إلا هو وأعرض عن المشركين) .

أى أنه لايوجد إله إلا هو سبحانه ، ولايمكن أن تغير أنت المنهج النازل إليك منه ، وعليك أن تعرض عن المشركين ، فلا تجالسهم ، ولا تخالطهم ، ولا تودهم . إنه إعراض الفطنة والإرشاد والبلاغ .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا ۗ وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾ ﴾

الحق سبحانه وتعالى يعطينا قضية لابد أن نستصحبها فى تاريخنا الإيمانى، والقضية هى : أن أىَّ كافر لم يكفر قهرا عن الله ، وإنما كفر لأن الله أرخى له الزمام بالاختيار أى خلقه مختارا ، ولذلك فالكافر إنما يفعل كل فعل بما آتاه الله من الاختيار لاغصبا عن ربنا أو قهرا ، بدليل أن الكون الذى نحيا فيه مقهور بالأمر ، لايمكن أن يختار إلا مراد الله منه ، وكل مافى الكون يسير إلى مراد الله .

إذن فمن كفر لم يكفر قهرا عن الله ؛ لأن طبيعة الاختيار ممنوحة من الله. وحين اختص الله الإنسان بالاختيار وضع المنهج الذى يرتب عليه الثواب والعقاب . ولذلك نزل التكليف بـ«افعل» و « لا تفعل » . وسبحانه إن أراد قهرا فقد قهر كل الأجناس فى الكون ؛ قهرها بطول العمر، وأنها تؤدى مهمتها كما أراد الله منها ، إنّه قهر الشمس ، وقهر القمر ، وقهر النجوم ، وقهر الماء ، وكل حاجة فى الكون مقهورة له حتى الملائكة خلقهم :

﴿ لَا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ ﴾

(من الآية ٦ سورة التحريم)

إذن صفة القهر أخذت متعلقها كاملا . ولكن أيريد الله من خلقه أن يكونوا مقهورين على مايريد ؟ لا ، بل يريد سبحانه أن يكونوا فاعلين لما يحبه ، وإن كانوا مختارين أن يفعلوا ما لايحبه ، كأن خلق القهر فى الأجناس كان لإثبات طلاقة القدرة ، وأنه لايمكن لمخلوق أن يشذ عن مراد الله منه . وبقى الاختيار فى الانسان ليدل على أن أناسا من خلقه سبحانه يذهبون إليه جل وعلا وهم قادرون ألا يذهبوا إليه ، وهذه تثبت صفة المحبة .

وحين يختار المختار الطاعة ، وهو قادر ألا يطيع،ويختار الإيمان وهو قادر أن يكفر فقد جاء إلى الله محبة لاقهرا ، ولذلك يقول ربنا لرسوله صلى الله عليه وسلم :

﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝٣ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ۝٤ ﴾

(سورة الشعراء)

أى أشفق على نفسك أن تقتلها حسرة وحزنا على عدم إيمان قومك بما جئت به من عند ربك ، أتريد يامحمد أن أقهرهم ؟ أتريد أعناقا أوقلوبا؟ إنك يامحمد تعلم أن منهجك النازل إليك من ربك يريد قلوبا ، والقلوب تأتى بالاختيار . فلوشئنا إيمانهم لأنزلنا معجزة تأخذ بقلوبهم فيؤمنون قهرا عليهم .

ولذلك إذا خُدِشَ الاختيار بفقد أى عنصر من عناصره يزول التكليف. بدليل أنه لاتكليف على فاقد العقل ؛ لأن آلة الاختيار عندنا هى العقل . وكذلك لاتكليف لمن لم ينضج بل يتركه الحق إلى أن ينضج . ويصير قادرا على إنجاب مثله وأن يصل إلى التكوين الكيماوى السليم . ويمنع عنه الإكراه بأى قوة أعلى منه تقهره على أن يفعل شيئا على غير مراده ، وهنا يأتى التكليف .

إذن فالتكليف يحتاج إلى أمور ثلاثة : وجود عقل ، لذلك فلا تكليف لمجنون ، وعقل رشيد ناضج ، فقبل البلوغ لاتكليف ولا إكراه حتى يسلم الاختيار ، لماذا ؟ تأتى الإجابة من الحق سبحانه :

﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ﴾

(سورة الأنفال)

ويقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ

عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾

وتتضمن هذه الآية الكريمة منهجا ضروريا من مناهج الدعوة إلى الله ، هذه الدعوة التى حملها الرسل السابقون ، وختمهم الحق برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجعلها سبحانه ختما لاتصال السماء بالأرض ؛ لذلك كان لابد من أن يستوعب الإسلام كل أقضية تتعلق بالدعوة إلى الله يحملها أمينا عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والأمة المحمدية . التى شرفها الله سبحانه وتعالى بأن جعل فيها من يحملون أمانة دعوة الله إلى الخلق امتدادا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فكل مسلم يعلم حكما من أحكام الله مطلوب منه أن يبلغه لغيره ؛ فرب مُبلَّغ أوعى من سامع . حتى وإن كان الله لم يوفقه للعمل بما جاء فيما بلغ . فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه ، فإذا فاته أن يعمل فالواجب ألا يفوت من يعلم قضية من قضايا دينه ثواب البلاغ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الخلق، ولكن عليه أن يعمل ليكون قدوة سلوكية يتأسى به غيره حتى لايقع تحت طائلة قوله تعالى : « كبر مقتا عند الله أن تقولوا مالا تفعلون » .

وإن كان بعض الشعراء يلحون على هذه المسألة . فيقولون :

وخذ بعلمى ولا تركن إلى عملى

واجن الثمار وخلّ العود للنار

إذن فالبلاغ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر ضرورى ، وهو امتداد لشهادة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنه بلغ صلى الله عليه وسلم عن الحق مراده من الخلق . وبقى أن يشهد الناس الذين اتبعوا هذا الرسول أنهم بلغوا إلى الناس ماجاءهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم:

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾

(من الآية ١٤٣ سورة البقرة)

إذن فكما أن الرسول سيشهد بأنه بلغنا ، فمن صميم المنهج أن يشهد أتباعه أنهم بلغوا الناس ، فإن حدث تقصير فى البلاغ إلى الناس ، فستكون المسئولية على من اتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يؤد أمانة الرسول عليه الصلاة والسلام إلى الناس أجمعين . ومنهج الدعوة منهج صعب ؛ لأن الدعوة إلى الله تتطلب أن يأخذ الداعى يد الذين ينحرفون عن منهج السماء اتباعا لشهوات الأرض ، وشهوات الأرض جاذبة دائما للخلق ؛ لأنها تحقق العاجل من متع النفس . واتباع منهج الدين ــ كما يقولون ـ يحقق نفعا آجلا . وفى هذا القول ظلم للدين ؛ لأن الدين قبل أن يحقق للناس متعة آجلة ، فهو يحقق ــ أيضا ــ المتعة العاجلة ؛ لأن الناس إن تمسكوا بمنهج الله فى « افعل ولا تفعل » يعيشون حياة طيبة لاحقد فيها ، ولا استغلال ، ولا ضغن ولاحسد ولاسيطرة ، ولاجبروت ، فيصبح الناس جميعا فى أمان .

إذن فلاتقولوا إن الدين ثمرته فى الآخرة بل قولوا ليست مهمة الدين هى الآخرة فحسب بل مهمة الدين هى الدنيا أيضا ، والآخرة إنما هى ثواب على النجاح فى هذه المهمة ؛ لأن الله إنما يجازى فى الآخرة من أحسن العمل فى الدنيا . ومن اتبع منهج الله كما قال الله « فلنحيينه حياة طيبة » ومن أعرض عن منهج الله فإن له معيشة ضنكا . ويحدث ذلك قبل الآخرة، ثم يأتى يوم القيامة ليتلقى العقاب من الله :

﴿ وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾

(سورة طه)

فإذا كان الدين يأخذ بالناس من شهواتهم الهابطة إلى منهج الله العالى ، فتكون مهمة الداعى شاقة على النفس ، ولذلك قالوا : إن الناصح بالخير يجب أن يكون لبقا ؛ لأنه يريد أن يخلع الناس مما أحبوا وألفوا من الشر ؛ لذلك يجب على الداعى ألا يجمع عليهم إخراجهم مما ألفوا بأسلوب يكرهونه بل لابد أن يثير جنانهم ورغبتهم فى اتباع المنهج ، ولذلك جاءت هذه الآية :

﴿ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

لقد قال الحكماء : النصح ثقيل فلا ترسله جبلا ولاتجعله جدلا ، والحقائق مُرّة ، فاستعيروا لها خفة البيان . والخفة فى النصح تؤلف قلب المنصوح ، وحسبك منه أن تخلعه عما ألف وأحبّ . إلى مالم يتعود ، فلايكون خلعه مما ألف بأسلوب عنيف . ولذلك يعلمنا الحق هذه القضية حين ندعو الخصوم إلى الإيمان به ، وهؤلاء الخصوم يتخذون من دون الله أندادا ؛ أى جعلوا الله ومعه شركاء . إنهم إذن أرادوا المتعة العاجلة بالابتعاد عن المنهج ، ثم احتفظوا بالله مع الشركاء ؛ لأنه قد تأتى لهم ظروف عصيبة ، لاتقدر أسباب الأرض على دفعها ، ومن مصلحتهم أن يكون لهم إله قادر على أن ينجيهم مما هم فيه . فهم لايكذبون أنفسهم . والحق سبحانه هو القائل فى مثل هؤلاء إن أصروا على الشرك :

﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ ﴾

(سورة الأنبياء)

حصب جهنم إذن هم المشركون ومعهم الأصنام التى كانوا يعبدونها وستكون وقودا للنار التى يعذبون بها . وبعض من الناس السطحيين يظن أن هذا عذاب للأحجار ، لا ، بل هى غيرة ونقمة وغضب من الأحجار على خروج المشركين عن منهج الله فى توحيد الله . فتقول الأحجار : لقد كنتم مفتونين بى ولذلك سأكون أنا أداة إحراقكم .إننا نجد المفتونين فى الآلهة من البشر أو الآلهة من الأشجار أو الآلهة من الكواكب أوالآلهة من الأحجار يصيبهم الله بالعذاب ، والأحجار التى عبدوها تقول كما قال بعضهم فيها شعرا :

عبدونا ونحن أعبد لـ ـلّه من القائمين فى الأسحار

واتخذوا صمتنا علينا دليلا وغدونا لهم وقود النار

للمغالى جزاؤه والمغالى فيه تنجيه رحمة الغفار

ولذلك يأتى الأمر بألا نسبّ ما يعبده الذين أشركوا بالله ؛ لأن الأصنام لاذنب لها ، والواقع كان يقتضى أن تتلطفوا بالأحجار فهى لاذنب لها فى المفتونين بها . والحق سبحانه وتعالى يعلمنا ويوضح لنا ألا نظلم المتَّخذ إلها؛ لأنه معذور ، والسب هو ذكر القبيح ، والشتم ، والذم ، والهجاء ، إنك إن سببت وقبحت ماعبدوه من دون الله فإن العابد لها بغباوته سيسب إلهك فتكون أنت قد سببت إلها باطلا ، وهم سبّوا الإله الحق ، وبذلك لم نكسب شيئا ؛ فانتبهوا .

ويحذرنا القرآن من الوقوع فى ذلك فى قول الله تبارك وتعالى :

﴿ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾

(من الآية ١٠٨ سورة الأنعام)

وهم سيفعلون ذلك عَدْواً وعدوانا وطغيانا بغير علم بقيمة الحق وقدسيته سبحانه وتعالى ؛ لذلك يجب أن نصون الألسنة عن سب آلهتهم حتى لانجرىء الألسنة التى لاتؤمن بالله على سب الله .

إن الحق سبحانه يريد أن يعلمنا اللطف فى منهج الدعوة ؛ لأنك تريد أن تحنن قلوبهم لتستميلهم إلى الايمان ولن يكون ذلك إلا بالأسلوب الطيب .

صحيح أن المؤمنين معذورون فى حماسهم حين يدخلون فى مناقشة مع المشركين ولكن ليتذكر المؤمن القيمة النهائية وهى الخير للدعوة . وليسأل الله أن يرزقه الصبر على المشركين ، ويعلمنا الحق كيف نسير فى منهج الدعوة ، وعلى سبيل المثال نجد سيدنا نوحا عليه السلام الذى لبث فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاما . وظل يدعو ويتحنن فى الدعوة ، إلى أن قالوا له فى آخر المطاف : أنت تفترى هذا الكلام من عندك ، فعلمه اللهسبحانه وتعالى أن يقول :

﴿ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴾

(من الآية ٣٥ سورة هود)

ويقول الحق سبحانه معلما رسول الله صلى الله عليه وسلم :

﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة سبأ)

أى من الذى يعطيكم قوام الحياة ؟ . وأنت حين تسألهم سؤالا يناقض ماهم عليه . فيتلجلجون ، فيسعف الله رسوله فيوضح سبحانه ويأمره أن يقول لهم :

﴿ قُلِ ٱللَّهُ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة سبأ)

و « إنا » أى رسول الله ومن معه . « أو إياكم » المقصود بها الكافرون بالله ، ولم يقل لهم أنا وحدى على هدى وأنتم على ضلال ، بل قال: منهجنا ومنهجكم لايتفقان ، ولابد أن يكون هناك منهج على هدى ومنهج على ضلال ، ولن أقول مَن هو الذى على هدى ومَن هو الذى على ضلال؛ لأن محمدا صلى الله عليه وسلم واثق من أنهم لو أداروا المسألة على عقولهم وعلى بصائرهم : فلن يجدوا جوابا إلا أن رسول الله على الهدى وأنهم على الضلال . فتركهم هم ليقولوها .

ولنتأمل أيضا قوله الحق سبحانه:

﴿ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

(سورة سبأ)

لم يقل الحق إنهم هم الذين يجرمون ، بل جعل الجرم - إن صح - على المؤمنين ، وجعل العمل - وإن فسد - مع الكافرين .وعلى الأقل كانت المساواة تقتضى ولانسأل عما تجرمون ولكنه لم يقل ذلك . وهذا هو الأدب

العالى واللطف ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى يريد ألايترك الرسول لغرائزهم مكانا للإباء عليه ، وألا يجدوا وسيلة لينفروا من الدعوة . ولهذا يعلمنا هذا الأسلوب فيقول :

﴿ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾

(من الآية ١٠٨ سورة الأنعام)

وبذلك نحقق لطف الجدل . ويقول سبحانه :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ﴾

(من الآية ١٩٤ سورة الأعراف)

وإن كنتم تريدون كشف حقيقة تلك الأصنام فهى أيضا مخلوقة لله وهى تعبده ، واسألوهم ولن يجيبوا ، وهم لا أرجل لهم يمشون عليها ، ولا لهم أيد يبطشون بها ، ولا لهم أعين يبصرون بها ، ولا لهم آذان يسمعون بها، وفوق ذلك :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ﴾

(من الآية ٧٣ سورة الحج)

وهل هناك ما هو أقل من الذباب فى عرفكم ؟ نعم ، يقول الحق :

﴿ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ﴾

(من الآية ٧٣ سورة الحج)

فإن جاءت ذبابة وحطت على ما تأكل ، أتستطيع أن تسترجع منها شيئاً ؟ لن تستطيع ، وإن كنت جباراً وفتوة فامسك الذبابة وخذ منها الطعام الذى أخذته ، لن تستطيع ،ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴾

(من الآية ٧٣ سورة الحج)

وهذا هو الجدل الذى يجعل المجادل يخجل من نفسه ، لكن إذا ثرت فى وجهه وتعصبت فأنت تجعل له عذراً فى الحفيظة عليك والغضب منك والهجوم عليك ، وفى الانصراف عن منهج الله ، ونسأل الله أن يعطينا طول البال وسعة الحلم والأناه على الجدل اللطيف .

﴿ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ﴾

(من الآية ١٠٨ سورة الأنعام)

وحين يعلمنا الحق الجدل اللطيف للدعوة فهذا تزيين للدعوة ، والدعوة فى ذاتها جميلة ؛ لذلك لابد أن يكون عرضها جميلاً .

والمثال من حياتنا : أنت تذهب إلى التاجر وعنده بضاعة قد تكون متميزة جداً لكنه لا يرتبها ولايحسن عرضها ؛ لذلك قد تنفر منه وتذهب إلى تاجر آخر قد تكون بضاعته أقل جودة ، لكنه يحسن عرضها ، وهذا هو التزيين أى تصعيد الحسن ، ولذلك سُمِّى الحلى وما تتجمل به المرأة زينة والمرأة قد تمتلك أنوثة جميلة ، وهى مع جمالها تقوم بتزيين نفسها بالحلى ، وبالجواهر والملبس الراقى ، وكان العربى حين يمتدح امرأة بقمة جمالية يقول : هذه غانية ، أى استغنت بجمالها عن أن تتزين ؛ لأن ما سوف تداريه بالعقد أجمل من العقد .

والتزيين إذن جمال العرض للاستمالة والانجذاب ، ونحن حين نزين أمراً فإننا نعطيه وقاراً وحسناً ونزيده جمالاً : (كذلك زينا لكل أمة عملهم) والأمة : هى الجماعة التى لها انتماء يجمع أفرادها ، مثل أمة العرب ..أى أن المنتمين إليها هم العرب والأمة الإنجليزية أى أن المنتمين إليها إنجليز ، أما أمة الإسلام فيدخل فيها العرب ، والعجم ، والأسود والأبيض ، والأصفر ، وهى أوسع رقعة ، فإن كانت الأمم السابقة زينت لتناسب عصراً محدوداً وزمناً محدوداً ،ومكانا محدوداً فنحن نزينكم تزييناً يناسب كل أذواق الدنيا؛ لأنكم ستواجهون كل هذه الأمم ، فلابد أن يكون فى دعوتكم استمالة لهذا ولهذا ولهذا .

وفى بدء الدعوة ـ وكانت حينئذ ضعيفة نجد ـ رسول الله صلى الله عليه وسلم يلتفت إلى الأمة ، فيكون بلال الحبشى هو من يؤذن ، ونجده يقول عن ـ سلمان وهو فارسى ـ : سلمان منا آل البيت (١) ويأتى سيدنا عمر يقول عن صهيب ـ وهو رومى ـ : نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه ، أى أن عدم عصيانه لله طبيعة فيه حتى وإن لم يكن يخاف عقاب الله .

فإذا كنا قد زينا لكل أمة من الأمم الماضية عملهم فتزيين أمتكم يجب أن يكون مناسباً لمهمتها زماناً ومكاناً وأجناساً ، وألواناً ، ولغات ، ولابد أن نزينكم أيضاً بحسن أسلوب العرض لمنهج الدعوة . ويجب أن يتناسب مع جمالها ، وأنتم أولى بالتزيين ؛ لأنكم مستوعبون لكل حضارات الدنيا ، وانتماءات الدنيا ، فيجب أن يكون تزيينكم مناسباً لمهمتكم .

﴿ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ ﴾

(من الآية ١٠٨ سورة الأنعام)

أى أننا وضحنا لهم منهج نقل الدعوة إلى الغير ، وما ينال المحسن والمطيع من ثواب فى الآخرة ، والمؤمنون حينما ينعمون بنعيم الآخرة فهذا نعيم بغير حدود ؛ لأنه على قدر طلاقة قدرة الحق سبحانه وتعالى ، وهم حين يتنعمون بكل هذه النعم يستشرفون إلى لقاء المنعم به ،ويتجلى الله عليهم .

وكما زينا للأمم السابقة أعمالهم قد زيناكم لأنكم أمة الإجابة ، وهذا التزيين الخاص يربى الدعاة إلى منهج الله ، ولو فطن غيركم إلى ما فى منهجكم من زينة لبحثوا فى هذا المنهج ولقام كل منهم باستقراء الوجود الذى بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله ولوجد أن لكل كائن مهمة ، ولانضم إلى المنهج التعبدى .

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾

(سورة الذاريات)

---

(١) رواه الطبرانى فى الكبير والحاكم فى المستدرك .

و « ليعبدون » تعنى أن يطيعوا فى « افعل كذا » « ولاتفعل كذا » وإذا قال الحق : « كذلك زينا لكل أمة عملهم » فمعنى ذلك أنه سبحانه قد بين العمل بفوائده .

وأنت حين تتأمل ظواهر الوجود حولك تجد أن من تميز عليك بموهبة إنما أراده الحق على هذا التميز لينفعك أنت ، ويتجلى هذا الأمر فى كل المهن : فالنجار الحاذق والمتقن تعود صنعته عليك ، ومصمم الملابس الذى يتقن عمله سيعود خير صنعته عليك ، ومن مصلحة كل إنسان أن يكون غيره متفوقا ؛ وأن يكون هو أيضاً متفوقاً فى عمله ، وأن يحمد ربنا لأن خيره سيعود على غيره أيضاً ، وبذلك نحيا فى مجتمع راقٍ يتكون من أمم وطوائف مثالية ، إذن فالمتفوق فى شىء يجب ألا يحقد على غيره من أبناء المجتمع ؛ لأن خير تفوقه سيعود على كل فرد فيه ومن المصلحة أن يصير الكل إلى التفوق .

فإذا قال الله : « كذلك زينا لكل أمة عملهم » أى جعل الله لكل منا عملا فى الحياة ، ولابد أن ينتفع به فى الدنيا ، وينتفع به فى الآخرة أيضاً ويأخذ كل منا ثواب الله عليه ، فالذى يأخذ التزيين يقبل على العمل ، والذى لا يأخذ التزيين فعليه الذنب ، وكل واحد إنما يزين عمله على مقدار الطموح الذى يطلبه لنفسه ، ونحن نرى أمثلة لذلك فى الحياة، ونلتفت لنجد إنساناً له دخل محدود ، لكنه يفتح على نفسه أبواباً من الترف أكثر من اللازم ، ولا يدخر شيئاً ويحقق لنفسه المتعة العاجلة ، ونجد إنساناً آخر يعيش على قدر الضروريات ويدخر لنجده من بعد ذلك قد طور من أسلوب حياته بالسكن اللائق ومتع الحياة . إن الأول زين له عمله الترف العاجل ، والثانى زين له عمله الترف المقنن ، فإياك أن تنظر إلى شهوة العاجلة ، ولكن انظر إلى الجدوى التى تأتى منها .

﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

(من الآية ١٠٨ سورة الأنعام)

ومادام المرجع لمن أوجد العمل منهجاً فى « افعل » و « لاتفعل » والمرجع لمن وضع التزيين فى العمل لتأخذ المنهج الكريم منه ، وعلى مقدار

ما أخذت من منهجه تأخذ من كرامته .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ ﴾

« وأقسموا بالله » ، هنا قَسَمٌ : ومُقْسَمٌ به ، ومُقْسِمٌ ، ومقْسَمٌ عليه.. فالمقْسَمُ به هو الله : والمقسِم هم الجماعة المخالفون لرسول الله ، ولماذا يقسمون ؟ لقد أقسموا حين أخذهم الجدل بمنطق الحق فغلبهم .. هم أقسموا بالله وقد دعاهم الرسول صلى الله عليه وسلم إلى عبادته ، و«جهد أيمانهم » تعرف منها الجهد وهو المشقة أى أنهم بالغوا فى القسم مبالغة تجهدهم ليبينوا لمن يقسمون هم أنهم حريصون على أن يبروا بالقسم، فأفرغوا جهدهم ومشقتهم فى القسَم ، وهذا معناه أنهم أعلنوا أنهم يقسِمون قسماً محبوبا هم ، والمحبوب لهم أكثر أن ينفذوا هذا القسم ،وهذا يدل فى ظاهره على إخلاصهم فى القسم .

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ ﴾

(من الآية ١٠٩ سورة الأنعام)

ألم يأت الرسول صلى الله عليه وسلم بآية واضحة ؟ لقد جاءهم بأعظم آية وهى القرآن ، وعدم عرفانهم بذلك هو أول مصيبة منهم ، ألم يقل لكم : إنى رسول بعد أن أعلن الآية وهى نزول القرآن وأنتم تعرفون أنه صادق فى التبليغ عن الله . . وكان ذلك هو قمة المماحكة منهم ، وساروا على ذلك حين اقترحوا هم الآيات على الله ، ألم يقولوا :

﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن

نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

وأراد الحق بذلك أن يبين لنا أنّ القسم الذى أقسموه هو قسم مدخول فقد قالوا: « كما زعمت علينا » والزعم ـ كما نعلم ـ مطية الكذب وهذا أول خلل فى القسم .

ويقول الحق :

﴿ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾

(من الآية ٩ سورة سبأ)

هم إذن غير مؤمنين بالآية الأصيلة وهى القرآن ، فيتحدوْنه فى أنه ينزل بالوحى ، فيحذرنا الحق أن نصدق زعمهم ، فهو القائل :

﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

وحتى إن نزلت الآية فلن يصدقوا ؛ فالحق هو القائل :

﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾ ﴾

(سورة الحجر)

ولو أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد سحركم .. فلماذا لم يسحرهم ليؤمنوا بالله ؟ .

وهكذا نرى أن الحق قد ذكر لنا فى كتابه أن كل مايقولونه فى هذه

المسألة هو مروق وهروب من الاستجابة للدعوة ؛ لأنه لاتوجد آية أعظم من الآية التى نزلت عليهم وهى القرآن ، وكل الآيات التى اقترحوها لاتسمو على هذه الآية ؛ لأنهم أمة نحو وصرف وبلاغة وبيان وأدب ، فجاء لهم بالمعجزة التى تفوقوا فيها . وهم لم يتفوقوا فى الأشياء التى ذكروها واقترحوها . إننا نأتى لهم بمعجزة من جنس ماتفوقوا فيه ؛ لأن المعجزات دائما تأتى على هذا الأساس ؛ فكل قوم تفوقوا فى مجال يأتى الله لهم بشىء يتفوق عليهم فى مجال تفوقهم ليثبت صدق الرسول فى البلاغ عنه .

ولقد قلنا : إن المعجزات تأتى خرقا لنواميس الكون الثابتة لأن نواميس الكون لها قوانين عرفها البشر ، وأصبحت متواترة أمامهم ؛ فإذا ماجاء أمر يخرق الناموس السائد المعترف به بينهم يلتفتون متسائلين كيف خرق الناموس وذلك ليعرف كل واحد منهم أن الذى خلق الناموس هو الذى خرق الناموس ؛ لكى يثبت صدق هذا البلاغ عنه . وقد جاءتكم المعجزة من جنس مانبغتم فيه ، والذى يدل على ذلك أنهم لايتكلمون فى المعجزة بل فى المنهج وفى شخص من جاء بالمنهج ، تجدهم يقولون :

﴿ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ﴾

(من الآية ٨ سورة الأنعام)

فيوضح القرآن أن المَلك بطبيعة تكوينه لا يُرى منكم ؛ هو يراكم وأنتم لاترونه ، وإذا أرسلنا ملكا فكيف تعرفونه ؟ إذن سيتطلب إرسال ملك أن نخلع عليه وضع البشر ، وأن ينزله الحق فى صورة بشر ، وإن نزل فى صورة بشر فستقولون : إنه ليس بشرا ولسنا ملزمين بما جاء به :

﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

وكان سيدنا جبريل ــ على سبيل المثال ـ ينزل إلى رسول الله أحيانا فى صورة رجل قادم من السفر ويقعد ويتكلم مع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لم يأت جبريل عليه السلام ـ إذن ــ بطبيعة تكوينه بل جاء

بطبيعة البشر . وهناك خلق آخر مثل الجن . ونحن لانقدر أن نرى الجن ، ولانستطيع بقوانيننا وقوانين الجن أن نراه ، لكن إن أراد الجن أن يرينا نفسه فهو يتشكل بشكل مادى يرى ؛ يتشكل بشكل حيوان ، يتشكل بشكل قطة ، يتشكل بشكل جمل ، يتشكل بشكل رجل ، وهكذا ، ولوكانت هذه المسألة غير مقيدة بتقنين يحفظ توازن الأمر بين الجنسين ــ الإنس والجن ـ لتعب الناس ؛ لأنه ساعة يظهر جن للإنسان ويقف أمامه ثم يختفى يسود الرعب بين البشر على الرغم من أن الجن تخاف من الإنسان أكثر مما نخاف نحن منهم ؛ لأن الجن يعرف أن قانونه يسمح له أن يتشكل بشكل إنس أو أى شكل مادى ، وحينئذ يحكمه قانون الإنس وإن التقى بشخص معه مسدس ــ مثلا ــ فقد يضربه بالرصاص ويقتله ، ولذلك يخاف الجن أن يظهر للإنسان مدة طويلة ، وإنما يظهر كومضة البرق ويختفى ؛ لأنه يخاف كما قلنا ــ من الإنسان . إذن فالتوازن موجود بين الجن والإنس . ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(إن عفريتا من الجن جعل يفتك على البارحة ليقطع علىّ الصلاة وإن الله أمكننى منه فَذَعَتّهُ ، فلقد هممتُ أن أربطه إلى جنب سارية من سوارى المسجد حتى تصبحوا تنظرون إليه أجمعون أوكلكم ثم ذكرت قول أخى سليمان : « رب اغفرلى وهب لى ملكا لاينبغى لأحد من بعدى » فردَّه الله خاسئا ، وفى رواية : « والله لولا دعوة أخى سليمان لأصبح موثقا يلعب به وِلدان أهل المدينة »(١) .

وهكذا نعلم أن القوم إذا اقترحوا آية ، ثم جاء الله بالآية ، فإن كذبوا بها أخذهم أخذ عزيز مقتدر ولايؤجل ذلك للآخرة .

والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾

(من الآية ٣٣ سورة الأنفال)

(١) رواه مسلم واللفظ له فى الصلاة فى كتاب المساجد ، ورواه البخارى فى الصلاة ، ورواه أحمد ومعنى (يفتك) : يأخذ فى غفلة وخديعة وفى رواية (تفلّت) ومعنى (فذعته) بذال معجمة وتخفيف العين المهملة أى خنقته وفى رواية أخرى (فدعته) بالدال المهملة أى دفعته دفعاً شديداً ومعنى (سارية) إسطوانة

إذن فحتى الكفار به نالهم شيء من رحمته .

﴿ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْآيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ (سورة الأنعام)

هنا يبلغ الحق رسوله أن يقول لهم : أنا لاآتى بالآيات من عندى ولاآتى بها بقانون قدرتى ؛ لأن قانون قدرتى مساوٍ لكم . ولست متفوقا عنكم غير أنه يوحى إلىّ وأبلغكم ما أرسلت به إليكم . إنّ الله هو الذى يناولنى آيات القرآن ، ولا يوجد خلق يقترح على الله الآية ؛ لأن ماسبق فى الرسالات السابقة يؤكد أن الحق إذا ما استجاب لآية طلبها الخلق ولم يؤمنوا فسبحانه يهلكهم ويستأصلهم أو يغرقهم أويرسل عليهم ريحا صرصرا أو يخسف بهم الأرض ، والحق هو القائل :

﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْآيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴾

(من الآية ٥٩ سورة الإسراء)

إذن فبعض أهل الرسالات السابقة اقترحوا الآيات وحققها الله لهم ثم كذبوا بها . إذن فالتكذيب هو الأصل عندهم .

والمفروض أن تأتى الآية كما يريدها الله لا أن يقترحها أحد عليه . ولذلك يأمر الحق رسوله أن يبلغهم : « قل إنما الآيات عند الله » ثم يأتى خطاب جديد لأناس يختلفون عن المشركين هم المؤمنون ، فيقول الحق لهم: « وما يشعركم أنها إذا جاءت لايؤمنون » فكأنهم حينما قال أهل الشرك ذلك أراد المؤمنون أن يخففوا عنتهم مع رسول الله فقالوا له : يارسول الله ، اسأل الله أن ينزل لهم آية حتى نرتاح من لجاجتهم ، فيتجه الله بالرد على من قرظ هذا السؤال موضحا : أنتم مؤمنون وظنكم حسن ، وفكرتكم طيبة فى أنكم تريدون أن تكسروا حدة العنت ، لكن مايشعركم : أى مايعلمكم أن الآية التى اقترحوها إن جئت بها لايؤمنون . فكأن المؤمنين أيدوا قول هؤلاء المشركين فى طلب الآية منعا للجاج .

راجع أصله وخرج أحاديثه الدكتور/ أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .

والنص القرآنى جاء بقوله الحق : « لا يؤمنون » وجاء العلماء عند هذه المسألة واختلفوا ، وجزى الله الجميع خيرا ؛ لأنها أفهام تتصارع لتخدم الإيمان . ونسأل : ما الذى يجعل الأسلوب يجىء بهذا الشكل ؟ ونقول : إنها مقصودات الإله حتى نعيش فى القرآن . لا أن نمر عليه المرور السريع . والأسلوب فى قوله : « وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون » هو دليل على أنه ليس لكم علم . وقلنا : إن الشعور يحتاج إلى إدراك ومواجيد ونزوع ، فعلى أى أساس بنيتم شعوركم هذا ؟ أنتم أخذتم ظاهر كلامهم ، ولكن الحق يعلم ويحيط بما يخفون ويبطنون . وكأنه سبحانه يوضح أن طلب الآية إنما هو تمحيك . وأنتم لا تعلمون أن الله إن جاء لهم بالآية فلن يؤمنوا .

وبعض من المفسرين قال : إن (لا) زائدة ومنهم من كان أكثر تأدبا فقال : (لا) صلة لأنهم خافوا أن يقولوا : (لا) زائدة وقد يأخذ البعض بمثل هذا القول فيحذفها ، لذلك أحسنوا الأدب ؛ لأن الذى يتكلم هو الإله وليس فى كلامه حرف زائد بحيث لو حذفته يصح الكلام ، لا . إنك إذا حذفت شيئا فالكلام يفسد ولا يؤدى المراد منه ؛ لأن لله مرادات فى كلامه ، وهذه المرادات لابد أن يحققها أسلوبه . والمثال فى حياتنا أن يقول لك واحد : « ما عندى مال » أو ما عندى من مال ؟ إن « من مال » هنا ابتدائية أى ما عندى من بداية ما يقال : إنه مال ، أما من يقول : « ما عندى مال » أى ليس عنده ما يعتد به من المال الذى له خطر وقيمة ، بل عنده قروش مما لا يقال له : مال . إن فى جيبه القليل من القروش .

و « لا » فى هذه الآية جاءت لأن الحق يريد أن يقول للمؤمنين : ما يعلمكم يا مؤمنون أننى إذا جئت لهم بالآية يؤمنون ، فكأنه سبحانه ينكر على المؤمنين تأييد مطلب الكافرين . وقد تلطف الحق مع المؤمنين وكرم حسن ظنهم فى التأييد لأنهم لا يؤيدون الطلب حبا فى الكفار ، بل حبا فى النبى والمنهج ، وكأن الحق يقول لهم : أنا أعذركم لأنكم تأخذون بظاهر جهد اليمين « وأقسموا بالله جهد أيمانهم » ومبالغتهم فيه . ولا أنكر عليكم تصديقكم لظاهر قولهم ؛ لأن هذا هو مدى علمكم ، وما أدراكم أننى إذا جئت بالآية أنهم أيضا لن يعلنوا الإيمان . ولو كنتم تعلمون ما أعلم لعرفتم أنهم لن يؤمنوا . إذن حين جاء الأسلوب بـ « لا يؤمنون » فـ « لا » حقيقية وليست زائدة . ومن أجل أن يطمئن الحق المؤمنين أظهر لهم أن علمه الواسع يعلم حقيقة أمرهم يقول :

﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾

وحين تقول : أنا أقلب السلعة فهذا يعنى أنك تفحصها . والحق يبلغنا هنا : أنا قلبت قلوبهم على كل لون ولن آخذ بظاهر الفؤاد ، بل بلطفى وعظيم خبرتى أعلم الباطن منهم فاطمئنوا إلى أن حكمى هو الحكم الحق الناتج من تقليب لطيف خبير .

وقد يكون هنا معنى آخر ، أى أن يكون التقليب لونا من التغيير ؛ فمن الجائز أنهم حينما أقسموا بالله جهد أيمانهم كانوا فى هذا الوقت قد اقتربوا من الإيمان ولكن قلوبهم لا تثبت على عقيدة . بل تتقلب دائما . ومادامت قلوبهم لا تثبت فأنى لنا بتصديقهم لحظة أن أقسموا بالله جهد أيمانهم على إعلان الإيمان إن جاءت آية ؟ وهل فيهم من يملك نفسه بعد مجىء الآية أيظل أمره كذلك أم يتغير ؟ . لأن ربنا مقلب القلوب وما كنت تستحسنه أولا قد لا تستحسنه ثانيا . حين « نقلب أفئدتهم وأبصارهم » أى أن الحكم قد جاء عن خبرة وإحاطة علم (ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة) .

إن الإيمان يحتاج إلى استقبال آيات كونية بالبصر ، وبعد أن تستقبل الآيات الدالة على عظمة الإله تؤمن به ويستقر الإيمان فى فؤادك . وسبحانه يوضح لنا أنه يقلب أفئدتهم وأبصارهم ، هل يبصرون باعتبار واقتناع ؟ أو هى رؤية سطحية لا فهم لهم فيها ولا قدرةمنهم على الاستنباط ؟ وهل أفئدتهم قد استقرت على الإيمان أو أن أبصارهم قاصرة وقلوبهم قاصرة ؟

﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

إذن فهم لا يؤمنون ويسيرون إلى ضلالهم . فإن جاءت آية فلن يؤمنوا ، وفى هذا عذر للمؤمنين فى أنهم يرجون ويأملون أن تنزل آية تجعل من أقسموا جهد الإيمان أن يؤمنوا .

لماذا ؟ لأن الحق قال : « كما لم يؤمنوا به أول مرة » ، أى أنهم لم يتغيروا ولذلك يصدر ضدهم الحكم « ونذرهم فى طغيانهم يعمهون » والطغيان هو تجاوز الحد ، وهم قد تجاوزوا الحد هنا فى استقبال الآيات ، فقد جاءتهم آيات القرآن وعجزوا عن أن يأتوا بمثلها ، وعجزوا عن أن يأتوا بعشر سور ، وعجزوا عن أن يأتوا بسورة ، وكان يجب ألا يطغوا ، وألا يتجاوزوا الحد فى طلب الاقتناع بصدق الرسول .

« ونذرهم فى طغيانهم يعمهون » و « العمه » هو التردد والحيرة ، وهم فى طغيانهم يترددون ، لأن فيهم فطرة تستيقظ ، وكفرا يلح ؛ يقولون لأنفسهم : أنؤمن أو لا نؤمن ؟ والفطرة التى تستيقظ فيهم تلمع كومضات البرق ، وكان يجب ألا يترددوا : أو « ونقلب أفئدتهم وأبصارهم » فى النار ؛ لأن البصر لم يؤد مهمته فى الاعتبار ، والقلب لم يؤد مهمته فى الفقه عن الله ، فيجازيهم الله من جنس ما عملوا بأن يقلب أبصارهم وقلوبهم فى النار .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾ ﴾

هنا يوسع الحق المسألة . فلم يقل : إنهم سوف يؤمنون ، بل قال : « ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة » مثلما اقترحوا ، أو حتى لو كلمهم الموتى ، كما قالوا من قبل :

﴿ فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾

(سورة الدخان)

ويأتى القول : « وحشرنا عليهم كل شىء » و « الحشر » يدل على سوق بضغط مثلما نضع بعضا من الكتب فى صندوق من الورق المقوى ونضطر إلى أن نحشر كتابا لا مكان له ، إذن : الحشر هو سوق فيه ضغط ، وهنا يوضح الحق : لو أننى

أحضرت لهم الآيات يزاحم بعضها بعضا وقدرتى صالحة أن آتى بالآيات التى طلبوها جميعا لوجدت قلوبهم مع هذا الحشر والحشد تضن بالإيمان .

« وحشرنا عليهم كل شىء قبلا » و« قبلا » هى جمع « قبيل » ، مثل سرير وسُرُر .

« وحشرنا عليهم كل شىء قبلا » . وهذا يعنى أن الحق إن جاء لهم بكل ما طلبوا من آيات ، وكأن كل آية تمثل قبيلة والآية الأخرى تمثل قبيلة ثانية ، وهكذا . فلن يؤمنوا ، أو « قُبُلا » تعنى معاينة أى أنهم يرونها بأعينهم ، لأن فى كل شىء دُبُرا وقُبُلاً ؛ والقُبُل هو الذى أمام عينيك ، والدبر هو من خلفك . فإن حشرنا عليهم كل شىء مقابلا . ومعاينا لهم فلن يؤمنوا . وإن أخذتها على المعنى الأول أى أنه سبحانه إن حشد الآيات حشدا وصار المُعْطَى أكثر من المطلوب فلن يؤمنوا . وإن أردت أن تجعلها مواجَهةً ، أى أنهم لو رأوْا بعيونهم مواجهة مَن أمامهم فلن يؤمنوا .

﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾

(من الآية ١١١ سورة الأنعام)

وجاء الحق هنا بمشيئته لأن له طلاقة القدرة التى إن رغب أن يرغمهم على الإيمان فلن يستطيعوا رد ذلك ، ولكن الإرغام على الإيمان لا يعطى الاختيار فى التكليف ولذلك قال سبحانه :

﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝٣ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ۝٤ ﴾

(سورة الشعراء)

والله لا يريد أعناقا تخضع ، وإنما يريد قلوبا تخشع . لذلك يذيل الحق الآية بقوله : « ولكن أكثرهم يجهلون » . والجهل يختلف عن عدم العلم ، بل الجهل هوعلم المخالف ، أى أن هناك قضية والجاهل يعلم ما يخالفها ، أما إن كان لا يعلم القضية فهذه أمية ويكفى أن نقولها له حتى يفهمها فورا . لكنْ مع الجاهل هناك مسألتان : الأولى أن نزيل من إدراكه هذا الجهل الكاذب ، والأخرى أن نضع فى

إدراكه القضية الصحيحة ، وما دام أكثرهم يجهلون . فهذا يعنى أنهم قد اتبعوا الضلال .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾

« و كذلك » إشارة من الحق سبحانه وتعالى إلى الرسل والأنبياء ليعطى الأسوة للرسول بإخوانه السابقين له فى موكب الرسالات ، فلست بدعا ـ يا محمد ـ فى أنك رسول يُواجَه بأعداء ، فكل رسول من الرسل ووجه وقوبل بهؤلاء الأعداء .

وهل فَتّ أعداء الرسل فى عضد مَن أرسل إليهم وأضعفوا قوتهم وأوهنوا عزائمهم وأثنوهم عن دعوتهم ؟ أو ظل الرسل أيضا صامدين ؟ . . إنهم صمدوا وأيدهم الله ونصرهم وإذا كنت أنت خاتم الرسل ، وسيد المرسلين ، والمعقب على رسالات سبقتك ولا معقب على رسالتك فلابد أن يكون الأعداء الذين يواجهونك مناسبين للمهمة التى تؤديها . وإياك أن تظن أن المقصد فى هذه العداوة أننا تركناهم أعداء لمجرد العداء ، لا ، بل نحن قد أردنا هذه العداوة لصالح الدعوة ؛ لأن الإنسان إذا ما كان فى منهج خير وأهاجه الشر يتحمس لمزيد من الخير . ولذلك لا تجد الصحوات الإيمانية إلا حين يجد المؤمنون تحديا من خصومهم ، هنا تجد الصحوة الإيمانية قد استيقظت لأن هناك خصوما يتحدونها ، ولو لم يكن هناك خصوم لبقيت الصحوة فاترة . وهذا ما نراه حين يوجد من خصوم الإسلام من أى لون من ألوانهم مَن يتحدى أى قضية من قضايا الدين . فى هذه الحالة نجد حتى غير الملتزم بمنهج الإسلام يغار على الدين .

إذن فالعداوة لها فائدة ، وإياك أن تظن أن فى أى مظهر فى الوجود يُغلب الله على مراداته فى كونه ، والشر له رسالة لأنه لولا أن الشر موجود ويصاب الناس من أذاه لما تحمس الناس للخير ، فالذى يجعلنا نتحمس للخير هو وجود الشر ، وأوضحنا من قبل أن الباطل جندى من جنود الحق ؛ لأن الباطل حين يعض ويعربد فى الناس يتساءل الناس متى يأتى الحق لينقذنا ، وأنك ساعة ترى مريضا يتألم إياك أن تظن أن الألم قد جاءه دون سبب ، بل الألم جندى من جند الشفاء . وكأن الألم يقول لمن يصيبه : يا إنسان تنبه أن عطبا فى هذا المكان فسارع إلى علاجه . ولذلك نجد أعنف الأمراض وأشرسها وأخبثها ، هى الأمراض التى تأتى بلا ألم يسبقها ، ولا تظهر أعراضها إلا بعد أن يستعصى شفاؤها ، وهكذا نرى أن الألم جندى من جنود العافية .

وحين يكون لك عدو فى الحارة أو فى البلدة وعيونه مركزة عليك فأنت تخاف أن تقع منك هَنة وعيب حتى لا يشنّع عليك ؛ لذلك تسير على الصراط المستقيم لأنك لا تريد أن تنصره على نفسك .

والشاعر القديم ، الذى أعجبه الشعر فشطره . يقول لك :

عداى لهم فضل علىّ ومنة ... فعندى لهم شكر على نفعهم ليا
فهم كدواء والشفاء بمرّه ... فلا أبعد الرحمن عنى الأعاديا
همُ بحثوا عن زلّتى فاجتنبتها ... فأصبحت مِمّا دنس العرض خاليا
وهم أججوا جهدى ولكن ببغضهم ... وهم نافسونى فاكتسبت المعاليا

لذلك لابد أن تنظر إلى كل شىء بحكمة إيجاد الحكيم له فقد شاء الحق أن يوجد الأعداء للدعوة الإسلامية حتى تنتصر وتقوى .

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

وجعل الحق سبحانه وتعالى الأعداء للأنبياء ، مهيِّجين ومثيرين للنبى ولأتباعه ؛ لأن الأمر إذا حصلت فيه معارضة من مخالف أججت فى نفس المقابل قوة حتى لا يهزم

أمامه ولا يغلب أمام منطقه . ولذلك قال الحق : « وكذلك جعلنا » أى أنهم لم يتطوعوا بالعداوة إنما هو تسخير للعداوة « جعلنا لكل نبى عدوًّا » .

وكيف يجعل الله لكل نبى عدوًّا ؟ إنه يفعل ذلك بما أودع فى الناس من الاختيار ، وما داموا مختارين فالذى اختار الهدى يكون نصيراً للنبى ، والذى اختار الضلال يكون عدوًّا للنبى .

إذن فهم لم يكونوا أعداء بطبيعتهم ، وإنما بما أودع الله فيهم من الاختيار .

وإذا كان الله هو الذى أودع الاختيار فقد أراد أن يحقق مشيئته فى قوله :

﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ﴾

(من الآية ٤٢ سورة الأنفال)

ولو شاء الله ألا يكون للنبوة أعداء لفعل ذلك ؛ لأن له طلاقة القدرة ، ولكن ذلك سيكون بالقهر ، والله لا يريد قهراً للعقلاء ، وإنما يريد أن يذهبوا إليه بمحض اختيارهم ؛ أى وهم قادرون على ألا يذهبوا . وكلمة « عدو » فى ظاهرها أنها مفرد ، ولكنها تطلق على الواحد ، وتطلق على الاثنين ، وتطلق على الجماعة ، فتقول : « هذا عدو لى » ؛ و « هذه عدو لى » ؛ ولا تقل « عدوة » ، وتقول : وهذان عدو لى ، وهاتان عدو لى ، وهؤلاء عدو لى ، لأن كلمة « عدو » تطلق على الذكر والأنثى وتقال للمفرد وللمثنى ، وللجمع .

اقرأوا قول الحق :

﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾

(سورة الشعراء)

واقرأوا قول الحق :

﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾

(من الآية ١٢٣ سورة طه)

ولم يقل أعداء ، إذن فكلمة « عدو » تطلق على المفرد والمفردة ، والمثنى والمثناة ،

وعلى جمع المذكر ولجمع المؤنث . لكن بعض الذين يحبون أن يكونوا مستدركين على كلام الله . يقول الواحد منهم : كيف يقول : « فإنهم عدو لى » ، أو « اهبطوا بعضكم لبعض عدو » ؟! ويقول سبحانه وتعالى :

﴿ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾

(من الآية ٢٢ سورة الأعراف)

والشيطان عدو ، وهم عدو . وبعد ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا ﴾

(من الآية ١٠٣ سورة آل عمران)

ونقول له : أنت قد فاتك أن الذى يتكلم هو الرب الأعلى . والعداوة نوعان ، فإذا تعدد العدو ، وجمعته مصلحة واحدة فى معاداة المعادى يكونون وحدة فى العداوة فهم عدو واحد لاجتماعهم على سبب واحد فى العداوة . لكن إذا تعددت أسباب العداوة فالأمر يختلف ، فقد يكون لك عدو لأن مظهرك أحسن منه ، وعدو آخر لأنك أذكى منه ، وعدو ثالث لأنك أغنى منه . فلتعدد الأسباب صار كل واحد منهم عدوًّا برأسه وجمع على أعداء لتعدد سبب العداوة .

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ﴾

(من الآية ١١٢ سورة الأنعام)

وشياطين الإنس والجن كما يقول النحاة بدل من عدو و « شياطين » جمع شيطان وهو اللعين المطرود ، البغيض ، سواء أكان من الإنس أم من الجن .

« يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً » والوحى ـ كما نعرف ـ هو إعلام بخفاء ، ولماذا يوحى بعضهم إلى بعض ؟ لأن غلبة الحق لا تجعلهم قادرين على أن يتجاهروا ؛ لذلك يتآمرون مع بعضهم البعض ، لكن الناس المحقين فى قضية يتحركون فى علانية . ولا يستخفون من الناس .

« يوحى بعضهم إلى بعض » ومن الذى يوحى ؟ ومن الذى يوحى إليه ؟ ليس لنا دخل بهذا الموضوع ، إنما الوحى : هو إعلام بخفاء ، إن كان إلهاماً فى النفس ، أو إن كان بالإشارة أو بالدس ، أو إن كان بالوسوسة ، أو إن كان بواسطة رسول نحن لا نراه ، كل ذلك أساليب الوحى الشامل للخير والشر .

وإذا كان الوحى من شياطين الجن فهل يوحون إلا بِشَرّ ؟ نعم . وكذلك هناك شياطين من الإنس يوحون أيضاً بشرّ . مصداقاً لقوله الحق : « يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول » وزخرف القول ، المقصود به أنهم يدخلون على المسائل بالتزيين ، فيزينون للناس الشهوة ، ولذلك سماها ربنا « وسوسة » ، ونعلم أن المعانى حين يؤخذ لها ألفاظ تؤخذ من الأشياء الحسيّة ، والوسوسة هى صوت الحلى ، وقد اختار الله لما يفعله الشياطين من الإنس والجن اللفظ الموحى بالمعنى المراد لأن وسوسة الحلى تغرى بالنفاسة وعظم القيمة ، والوسوسة طريقها هو الخفاء .

« يوحى بعضهم إلى بعض » وهم شياطين من الإنس والجن ، إنس يوحى لإنس بأن يزين له المعصية والشهوة ، وكثيراً ما يقع ذلك .

وجنّى يوحى لجنّى ؛ لأن الجن مكلَّف أيضاً . وكذلك يوحى الجن للإنس

« يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول » الزخرف . هو الشىء المزين ظاهره لكن باطنه فاسد ، ولذلك قال عز وجل :

﴿وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾

(من الآية ٣٥ سورة الزخرف)

أى أموراً مزخرفة ظاهراً ، لكن ليس لها عمق أو عمر أو نفاسة .

﴿يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾

(من الآية ١١٢ سورة الأنعام)

وذلك ليغروهم ويخدعوهم ليفعلوا ويقترفوا المعصية ، وإن لم يأتوا للمعصية بكلمات تزخرفها وتزينها فلن يستطيعوا أن يدخلوا بها على الناس ؛ لذلك يعرضون ويبدون محاسن المعصية فى ظاهر الأمر ، مثال ذلك أنك لا تجد من يقول لآخر :

اشرب الخمر لتصاب بتليف الكبد مثلا !! ولكن هناك من يقول : احتس الخمر ليذهب همك وتنشط نفسك ويكثر فرحك .

« زخرف القول غروراً » أى ليغروهم ؛ بإظهار فائدة موهومة فيه ، ويسترون عن الناس مضرّة هذا الشىء ومهالكه .

ويتابع سبحانه : « ولو شاء ربك ما فعلوه » إنّ الحق سبحانه وتعالى هوالذى أعطى خلقه اختياراً فى أن يكونوا مؤمنين أو أن يكونوا كافرين ، مهديين أو ضالين ، فى نور أو فى ظلمة . ويأتى الوقت الذى يثيب فيه سبحانه أو يعاقب ؛ لذلك فهو ـ جل شأنه ـ لا يرغمهم على فعل ثم يعاقبهم عليه ؛ لأنه هو العدل . ولذلك نجد من يقول : لماذا العقاب ولا شىء فى الكون يقع على غير مشيئةالله ؟ ونقول : نعم كل شىء من فعل الله ؛ لأن سبب الاختيار من الله . وسبحانه هو الذى خلق الاختيار . فالكافر لا يقدر أن يؤمن إلا إن شاء الله ، لكن المطلوب منه أن يؤمن لأن طبيعته صالحة للكفر وصالحة للإيمان .

إذن خلق الله الإنسان مختاراً فى أن يفعل أو لا يفعل فى بعض الأمور ، فالذى ينظر إلى أن كل فعل من الله أى ليس بطاقة من عبد ، نقول له : صح رأيك . ومن يقول : إن هذا الأمر من العباد نقول له أيضاً : صح موقفك ؛ لأن ربنا خلق الإنسان صالحاً لأن يحصل منه كذا ويحصل منه كذا . فإن أردت الحقيقة تجد كل فعل يأتى من الله ، فأنت ـ على سبيل المثال ـ لم تخلق القوة التى لليد لترتفع ، ولا خلقت القوة للأصابع لتنقبض . وإذا أردت أن تقبض يدك . فما هى العضلات التى تتحرك لتفعل الانقباض ؟ أنت لا تعرف . إنّك تقبض يدك بمجرد إرادة منك أن تقبضها ، والذى خلق لك هذه القوة يأمرك ألا تستعملها فى قهر الآخرين ، ولكن عليك أن تستعملها فيما يفيد الناس . واليد صالحة للضرب وللعمل الطيب وأنت لم تخلق الطاقة التى فى اليد ،ولا خلقت الانفعال فيها لإرادتك .

« ولو شاء ربك ما فعلوه » أى لو شاء عدم فعله لفعل ؛ لأن له طلاقة القدرة فلا يقدر أحد أن يخرج عن مراده أبداً . ونحن نرى السماء والأرض وكل ما دون الإنسان مسخراً ، ثم لماذا نأخذ أمثلة من السماء والأرض والنبات والجماد والحيوان ؟ خذ المثال من نفسك . أنت فيك أشياء ليس لك سيطرة عليها ، ولا اختيار لك عليها ، ألك اختيار أن تمرض ؟ . لا .

ألك اختيار أن يقع عليك حجر وأنت تمشى ؟ . لا .
ألك اختيار فى أن يصيبك سائق سكران ؟ . لا .

ألك اختيار فى أن تموت أو لا تموت ؟ . لا . لقد جعل الله فيك الأمرين الاثنين : قهرك فى أمور والقهرية تثبت له ـ سبحانه ـ القدرة وطلاقتها ، وجعلك مختارا فى أشياء ، والاختيار يثبت صحة التكليف .

ويتابع الحق مذيلاً الآية : « فذرهم وما يفترون » لأن افتراءهم وكذبهم وزعمهم الباطل لن يغير من حقيقة الأمر شيئاً ، وهم يرون أن افتراءهم يعوق الدعوة ، لا ، فقد صار افتراؤهم وكيدهم وعداوتهم للنبى وقوداً مهيّجاً للدعوة ؛ لأنه يخلص الدعوة من الشوائب ويصهر المؤمنين بها ويخرج منهم خصال الشر ويملأهم بخلال الخير .

﴿ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾

(من الآية ١٧ سورة الرعد)

ولو لم يكن هناك مهيّجات لهذه المسائل لدخل الدعوة العاطل والباطل ولاندس فينا من لا يعرف قيمة الإيمان ؛ لذلك يمحص الله الدعوة بالأعداء وبالقوم الذين يقفون أمامها حتى لا يكون فى حملة الدعوة أحد من ضعاف العقائد وضعاف الإيمان ، وهم الذين يخرجون هرباً من مسئوليات الإيمان ولا يبقى إلا أصحاب الرسالة الذين يخلصون الصدق مع الله وينقيهم الله بواسطة الأعداء . ولذلك قال :

﴿ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا ﴾

(من الآية ٤٧ سورة التوبة)

فمن الحكمة أنه ـ سبحانه ـ ثبط عزيمتهم وضعّف رغبتهم فى الانبعاث والخروج معكم .

﴿ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾

(سورة التوبة)

وهنا يقول الحق : « يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول » وزخرف القول هو لون من الأداء له سُمَّاع ، ومن يسمعونه قد لا يؤثر فى قلوبهم ولا فى نفوسهم ، ومرة أخرى يسمعونه ويكون عندهم ميل وليس عندهم عقيدة ثابتة راسخة إلى هذا القول .

وكيف يسلك هؤلاء الناس :

﴿ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾

كأن من يؤمن بالآخرة لا يقرب منه الزخرف أبداً ولا يميل إليه . وإن زُينت له معصية فإنه يتساءل : كم ستدوم لذة هذه المعصية ؟ دقيقتين ، ساعة ، شهراً ؛ وماذا أفعل يوم القيامة الذى يكون فيه الإنسان إمّا إلى دخول الجنة وإمّا إلى دخول النار . إذن فمن يؤمن بالآخرة لا تتقبل أذنه ولا فؤاده هذا الزخرف من القول ، ولا يتقبله إلا من لا يؤمن بالآخرة ، وهو لا يعرف إلا الدنيا ، فيقول لنفسه : فلتتمتع فى الدنيا فقط ، ولذلك لو استحضر كل مؤمن العقوبة على المعصية ما فعلها ، وهو لا يفعلها إلا حين يغفل عن العقوبة . وإذا كنا فى هذه الدنيا نخاف من عقوبة بعضنا بعضاً ، وقدراتنا فى العقوبة محدودة ، فما بالنا بقدرة الرب القاهرة فى العقوبة ؟! ولذلك نجد الذين يجعلون الآخرة على ذكر من أنفسهم وبالهم إذا عرضت لهم أى معصية ، يقارنونها بالعقاب ، فلا يقتربون منها . (ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة وليرضوه وليقترفوا ما هم مقترفون) .

والإصغاء هو ميل الأذن إلى المتكلم ؛ لأنك قد لا تسمع من يتكلم بغير إصغاء ، وحين يسير الإنسان منا فى الطريق فهو يسمع الكثير ، لكن أذنه لا تتوقف عند كل ما يسمع ، بل قد تقف الأذن عندما يظن الإنسان أنه كلام مهم . ولذلك يسمونه التسمع لا السمع ، وهذا هوالإصغاء . ولذلك يقول النبى عليه الصلاة والسلام : من تسمع غانية ـ أى امرأة تغنى بخلاعة ـ ولم يقل : « من سمع » ، والإنسان منا قد يسير ويذهب إلى أى مكان والمذياع يذيع الأغانى ، ويسمعها الإنسان ، وآلة إدراك

السمع منطبقة وليست مفتوحة ؛ فهو لا يتصنت ، وآلة إدراك الانطباقية أو الانفتاحية مثل العين ؛ فالعين لا ترى وهى مغمضة ، إنها ترى وهى مفتوحة ، والعين تغمض بالجفون أما الأذن فليس لها جفون يقول لها : لا تسمعى هذه ، وهذه اسمعيها .

إذن فالسمع ليس للإنسان فيه اختيار ، لكن التسمع هو الذى له فيه اختيار .

﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾

(سورة الأنعام)

كأن فيه شيئا ينبع طلب السمع فيه من الفؤاد ، أى يوافق ما فى الأعماق ، وشيئا آخر يمر عليه الإنسان مر الكرام غير ملتفت إليه . والأفئدة هى القلوب ، صحيح أن الآذان هى التى تصغى ، لكن القلوب قد تتسمع ما يقال ، وكأن النفس مستعدة لهذه العملية ؛ لأنها لا تؤمن بأن هناك آخرة وعندها استعداد لأن تأخذ لذة الدنيا دون التفات للآخرة . ولذلك ينقل الحق سبحانه الإصغاء من الأذن إلى الفؤاد وهذا إدراك .

﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾

(من الآية ١١٣ سورة الأنعام)

ثم تأتى المرحلة الثانية والمرحلة الثالثة :

﴿وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾

(من الآية ١١٣ سورة الأنعام)

وقد يصغى إنسان ، ثم تتنبه نفسه اللوامة ، ويمتنع عن الاستجابة . لكن هناك من يصغى ويرضى وجدانه ويستريح لما يسمع ، ثم ينزع للعمل ليقترف الإثم . وهذه ثلاث مراحل : الأولى هى : « ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة » . ثم المرحلة الثانية : « وليرضوه » ، ثم المرحلة الأخيرة : « وليقترفوا » أى يرتكبوا الإثم ، وهذه المسألة حددت لنا المظاهر الشعورية التى درسها علماء النفس فالإدراك ؛ « لتصغى » ، والوجدان ؛ « ليرضوه » ، والنزوع ؛ « ليقترفوا » .

وقبل أن يولد علم النفس جاء القرآن بوصف الطبيعة البشرية بمراحلها المختلفة من إدراك ووجدان ، ونزوع ، والشرع لا يتدخل عند أى مظهر من مظاهر شعور المرء إلا عند النزوع إلا فى حالة واحدة حيث لا يمكن فصل النزوع عن الوجدان وعن الإدراك ؛ لذلك يتدخل الشرع من أول الأمر ، وهو ما يكون فى عملية نظر الرجل إلى المرأة ؛ لأنك حين تنظر تجد فى نفسك : تحبها وتعشقها تفتن بها ، ومحرم عليك النزوع ، فحين تتقدم ناحيتها يقول لك الشرع : لا . ولأن هذا أمر شاق على النفس البشرية ، ولا يمكن فصل هذه العمليات ؛ لأنه إن أدرك وَجِد ، وإن وَجِد نزع ، فأمر الحق بالامتناع من أول الأمر :

﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ ﴾ (من الآية ٣٠ سورة النور)

﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ ﴾ (من الآية ٣١ سورة النور)

إذن فقد منع الإدراك من بدايته ولم ينتظر حتى النزوع ، لماذا ؟ لأن الإدراك الجمالى فى كل شىء يختلف عن الإدراك الجمالى فى المرأة . الإدراك الجمالى فى المرأة يُحدث عملية كيماوية فى الجسم تسبب النزوع ، ولا يمكن فصلها أبدا . (ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة وليرضوه وليقترفوا ما هم مقترفون) .

وساعة ما نقول : « ما » ويأتى الإبهام فهذا دليل على أن هناك أموراً كثيرة جدًّا . ولذلك يقول الحق :

﴿ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴾ (من الآية ٧٨ سورة طه)

أى أنه أمر لا يمكن أن تحدده الألفاظ ، مثله مثل قوله : (وليقترفوا ما هم مقترفون) .

أى أن كل واحد يقترف ويكتسب ويعمل ويرتكب ما يميل إليه ؛ فهناك من يغتاب أو يحسد أو يسرق وغير ذلك من شهوات النفس التى لا تحدد ؛ لذلك جاء لها باللفظ الذى يعطى العموم .

وما دامت المسألة فى نبوّة واتباع نبوّة ، وفى أعداء شياطين من الإنس والجن

ويوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً إذن فهذه معركة ، وحتى يتم الفصل فيها لابد من حاكم يحكم . فأوضح الحق : يا محمد أنا أرسلتك ، ولك أعداء وسيكيدون لك بكذا وكذا ويبذلون قصارى جهدهم فى إيذائك ومن اتبعك ، فإياك أن تبتغى حكما غيرى ؛ لأنى أنا المشرع وأنا من أحكم ، وأنا الذى سوف أجازى .

لماذا ؟ لأن الخلاف على ما شرع الله ، ولا يستقيم ولا يصح أن يأتى من يقول مراد المقنن كذا ، أو المفسر الفرنسى قال كذا ، والمفسر الإنجليزى قال كذا ، لا ، إن الذى يحكم هو من وضع القانون ، ومراداته هو أعلم بها ، والحق الواضح هو أعلم به ، وسبحانه هو من يحكم ، والرسول صلى الله عليه وسلم يقول :

(إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إلى فلعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضى له على نحو ما أسمع ، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هى قطعة من النار فليأخذها أو ليتركها)[1] .

أى إياك أن يقول واحد : إن النبى قد حكم ؛ لأن النبى صلى الله عليه وسلم قد حكم بظاهر الحجة ، وقد يكون واحد من المختصمين قوى الحجة ، والآخر لا يجيد التعبير عن نفسه . إذن فالحكم هو الله لأنه هو الذى قنن ، وما دام هو الذى قنن وهو الذى يحكم بينكم ، فليطمئن كل إنسان يتخاصم مع غيره ؛ لأن القضية يفصل فيها أعدل العادلين وأحكم الحاكمين .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾

فسبحانه هو من يحكم وهو من قنن ، وهو من يعلم القانون ويعلم من يتبع

---

(١) رواه مالك وأحمد والبخارى ومسلم وأبو داود والنسائى والترمذى وابن ماجه .

القانون ، ومن يخالف القانون . وساعة تقول : « أفغير الله أبتغى حكما » . فهذا دليل على أنك واثق أن مجيبك لن يقول لك إلا : لا تبتغى حكما إلا الله ، ولذلك يطرح المسألة فى صيغة استفهام ، ويقول صلى الله عليه وسلم : مبلغا عن ربه : « وهو الذى أنزل إليكم الكتاب مفصلا » ، ولم يقل رسول الله : وهو الذى أنزل علىّ الكتاب ، بل قال مبلغاً عن رب العزة : « وهو الذى أنزل إليكم الكتاب » كأن العداوة ليست لمحمد وحده ، لكنها العداوة لأمة الإيمان كلها ، والحكم لأمة الإيمان كلها . ومع أن القرآن نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم أولاً ، ولكن مهمته البلاغ إلى الناس والغاية منه للمؤمنين كلهم ، وهكذا تكون العداوة للنبى عداوة للمؤمنين كلهم ، ولذلك أنزل عليه الحق هذا التساؤل : « أفغير الله أبتغى حكماً » كما أنزل عليه من قبل القول الحق :

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ ﴾

(من الآية ١١٢ سورة الأنعام)

إذن فعدو النبى هوعدو للمؤمنين به والمتبعين له ، لكن قمة العداوة تكون للنبى المرسل من الحق :

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾

(من الآية ١١٤ سورة الأنعام)

وكلمة « من ربك بالحق » فيها إغراء للمؤمنين بأن كل الأمر يعود عليكم أنتم بالفائدة ؛ لأن غاية إنزال الكتاب لكم أنتم ، والكتاب جاء بهذا المنهج لصالحكم ولن يزيد فى صفات الله صفة ، ولن يزيد فى ملك الله ملكا . بل الغاية أنتم .

﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ ﴾

(من الآية ١١٤ سورة الأنعام)

وسبحانه لم ينزل الكتاب إلا بتفصيل لا تلتبس فيه مسألة بأخرى :

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾

(من الآية ١١٤ سورة الأنعام)

والمقصود هنا بالذين آتيناهم الكتاب اليهود والنصارى ؛ لأنهم يعلمون صفاتك يا رسول الله ويعلمون نعتك ويعلمون الكثير من كتابك فكل ما يتعلق بك موجود عندهم لكن الآفة أنهم اعتنقوا دينين : دينا يعلن يبدونه ويظهرونه ، ودينا يُسَرّ به ، فما يسر به لا يعلنونه ويُحرِّمون السؤال فيه ، ولا يقبلون فيه نقاشاً ، وعندما تصل إلى الحقيقة وتعرضها عليهم لا يقبلونها ، وما الذى جعلهم يلتوون هكذا ؟ لأن لهم حالين اثنتين : حال أيام أن كانوا يعاديهم من لا يؤمن بالسماء ومنهج السماء كعبدة الأوثان والمشركين . وقال فيه الحق :

(وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا)

(من الآية ٨٩ سورة البقرة)

لقد كانوا من قبل أعداء للذين كفروا وأشركوا فكان همهم وشغلهم الشاغل أن ينتصروا على هؤلاء الكافرين ، وقالوا :

(أظل زمان نبى نتبعه ونقتلكم معه قتل عاد وإرم)

وحينما جاءهم ما عرفوا كفروا به لأنهم :

(اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا)

(من الآية ٩ سورة التوبة)

وكان الثمن هو بقاء السلطة فى أيديهم ، وعندما تأتى النبوة تنزع منهم السلطة ، فليس فى الإسلام سيطرة لرجال الدين ولا كهنوت . وكانوا يريدون أن تستمر سيادتهم ، فاشتروا بآيات الله ثمنا قليلا .

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾

(من الآية ١١٤ سورة الأنعام)

وهم يعلمون أنه منزل من ربك بالحق ، وهم يعلمون أن الذى يشيعونه هو باطل . إذن فهناك علم بينهم وبين نفوسهم ؛ وعلم آخر يقولونه للآخرين . وقوله الحق : « فلا تكونن من الممترين » أى الشاكين فى أن أهل الكتاب يعلمون أن القرآن منزل من عند ربك بالحق . هذا خطاب للنبى صلى الله عليه وسلم ، ونعلم أنه إذا طلب المتكلم من المخاطب أمرا هو فيه فالمراد المداومة عليه والزيادة ؛ لأن هناك أموراً قد تزلزل الإيمان ؛ لذلك يأتى الأمر بالثبات ، أو هو إهاجة له ، أو هو تسلية للمؤمنين إذ قال لهم لا تمتروا ولا تشكوا .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ ﴾

وكلمة « تمت » تدل على أن المسألة لها بداية ولها خاتمة ، فما المراد بالكلمة التى تمت ؟ . أهى كلمة الله العليا بنصر الإسلام وانتهاء الأمر إليه ؟ أو هو تمام أمر الرسالة حيث قال الحق :

﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾

(من الآية ٣ سورة المائدة)

أو « كلمة ربك » المقصود بها قرآنه ؟ . ونرى أن معنى « تمت » استوعبت كل أقضية الحياة إلى أن تقوم الساعة ، فليس لأحد أن يستدرك على ما جاء فى كتاب الله حكماً من الأحكام ؛ لأن الأحكام غطت كل الأقضية . ولفظ « كلمة » مفردة لكنها تعطى معنى الجمع . وأنت تسمع فى الحياة اليومية من يقول : وألقى فلان كلمة طيبة قوبلت بالاستحسان والتصفيق . هو قال كلمات لكن التعبير عنها جاء بـ « كلمة » إذن « تمت كلمة ربك » المقصود بها المنهج الذى يشمل كل الحياة ، واقرأ قوله الحق :

﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ﴾

(من الآية ٥ سورة الكهف)

أهى كلمة أو كلمات ؟ إنها كلمة ولكن فيها كلمات . إذن لفظ « كلمة » تطلق ويراد بها اللفظ المفرد ، وتطلق ويراد بها الكلام . والكلمة فى الأصل لفظ مفرد ، أى لا يكون معها لفظ آخر ، ولكنها تدل على معنى ، فإذا كان المعنى غير مستقل بالفهم ؛ ويحتاج إلى ضميمة شىء إليه لنفهمه فهذا حرف ، وأنت تقول : « فى » وهو لفظ يدل على الظرفية ، إلا أنه غير مستقل بالفهم ؛ لأن الظرف يقتضى مظروفاً ومظروفاً فيه ، فتقول : « الماء فى الكوب » لتؤدى المعنى المستقل بالفهم . وكذلك ساعة تسمع كلمة « مِن » تفهم أن هناك ابتداء ، وساعة تسمع كلمة « إلى » تعلم أن هناك انتهاء . وإن كان يدل على معنى فى نفسه وهو غير مرتبط بزمن فهو الاسم . وإن كان الزمن جزءًا منه فهو « الفعل » . أمَّا « الكلام » فهو الألفاظ المفيدة .

وحين تسمع كلمة « سماء » تفهم المعنى ، وكذلك حين تسمع كلمة « أرض » وهو معنى مستقل بالفهم . وحين تسمع كلمة « كتب » فهى تدل على معنى مستقل بالفهم ، والزمن جزء من الفعل ، فكتب تدل على الزمن الماضى و « يكتب » تدل على الحاضر و « سيكتب » تدل على الكتابة فى المستقبل . إذن فـ « الكلمة » لفظ يدل على معنى فإن كان غير مستقل بالفهم فهو حرف . و « الكلمة » قد يقصد بها الكلام .

وقوله الحق : « تمت كلمة ربك » تعنى الكثير . فإن إردت بها القرآن فالمقصود هو كلمة الله . وكلام الله نسميه « كلمة » لأن مدلوله كلمة واحدة . انتهت وليس فيها تضارب ، هذا إن أردنا بها القرآن ، ولتفهم أن القرآن قد استوعب كل شىء ، وكل قضية فى الوجود وأيضاً لم ينس أو بدّل فيه حرف ؛ بل بقى وسيبقى كما أُنْزِل ؛ لأن الآفة فى الكتب التى نزلت أنهم كتموا بعضها ونسوا بعضها ، وحرّفوا بعضها ، وكان حفظها موكولاً إلى المكلَّفين ، ومن طبيعة الأمر التكليفى أنه يطاع مرة ، ويعصى مرة أخرى . وإن أطاعوا حافظوا على الكتب ، وإن عصوا حرفوها بدليل قوله الحق :

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۖ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة المائدة)

و « استحفظوا » أى طلب منهم أن يحافظوا عليه ، وهذا أمر تكليفى عرضة أن يطاع ، وعرضة أن يعصى ، لكن الأمر اختلف بالنسبة للقرآن فقد قال الحق :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾

(سورة الحجر)

فسبحانه هو من يحافظ على القرآن ، وليس ذلك للبشر لأن القرآن معجزة ، والمعجزة لا يكون للمكلَّف عمل فيها أبداً .

إذن فقوله الحق : « تمت كلمة ربك » المقصود بها أن تَطْمَئِن على أن القرآن الذى بين يديك إلى أن تقوم الساعة هو هو لن تتغير فيه كلمة ، بدليل أنك تتعجب فى بعض نصوص القرآن ، فتجد نصًا مساويا لنص ، ثم يختلف السياق ، فيقول الحق :

﴿ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ ﴾

(سورة المدثر)

ومرة أخرى يقول سبحانه :

﴿ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ ﴾

(سورة عبس)

ومرة أخرى يقول :

﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ ﴾

(سورة الإنسان)

فهذا لون ونوع من المتشابه من الآيات ليقول لنا الحق :

﴿ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ﴾

(سورة القيامة)

والحق يقول :

﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ ﴾

(سورة المؤمنون)

وفى آية أخرى يقول :

﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٣٤ ﴾

(سورة المعارج)

وكل ذلك يدلك على أن كل كلمة وصلتك كما أنزلت ، وبذلك تكون كلمة ربك قد تمت . أو قول الله : « وتمت كلمة ربك » ليدل على أن كلمة الله هى العليا ، ولذلك تلاحظ أن « كلمة الله هى العليا » لم يجعلها الحق جعلاً ، وإنما جاءت ثبوتاً ، وسبحانه القائل :

﴿ وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ﴾

(من الآية ٤٠ سورة التوبة)

هذا السياق الإعرابى حصل فيه كسر مقصود ، والسياق فى غير القرآن أن يقول : وجعل كلمة الله هى العليا ، ولكنه سبحانه يقول :

(وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا)

وسبحانه أراد بذلك أن نفهم أن كلمة الله هى العليا دائماً وليست جعلاً . وهذا دليل على أن كلمته قد تمت .

ونلحظ أن قول الحق : « وتمت كلمة ربك » تأتى بعد « أفغير الله أبتغى حكماً » ، واستقرىء موكب الرسالات من لدن آدم ، وانظر إلى حكم الله بين المبطلين

والمحقين ، وبين المهتدين والضالين : إنه الحق القائل :

﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا ﴾

(من الآية ٤٠ سورة العنكبوت)

والحاصب هو الريح التى تهب محملة بالحصى وكانت عقوبة لقوم عاد .

﴿ وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ ﴾

(من الآية ٤٠ سورةالعنكبوت)

وهم قوم ثمود ، يسميها مرة الصيحة ، وأخرى يسميها الطاغية :

﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ ﴾

(سورة الحاقة)

ومرة يخسف بهم الأرض مثلما فعل مع قارون : (فخسفنا به وبداره الأرض) .

وكذلك : (ومنهم من أغرقنا) .

وقد أغرق الله قوم فرعون وكذلك أغرق ـ من قبلهم ـ المكذبين لنوح . إذن كل قوم أخذوا حكم الله عليهم ، لكنك يا محمد مختلف عنهم وكذلك أمة محمد التى أصبحت مأمونة على الوصية ، وعلى المنهج ، ولذلك قال الحق :

﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾

(من الآية ١٥ سورة الإسراء)

وبعد أن بعث الحق رسوله صلى الله عليه وسلم قال :

﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾

(من الآية ٣٣ سورة الأنفال)

إذن « تمت كلمة ربك » ، وهى الفصل النهائى :

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا

﴿هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾

(سورة الصافات)

وأنتم المنصورون لأنكم منسوبون إلى منهج غالب ، والنصر للمنهج الغالب يقتضى الإخلاص ، فإن تنصروا المنهج باتباعه ينصركم من أنزل المنهج ، فهو القائل :

﴿لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾

(من الآية ٢١ سورة المجادلة)

وما قاله كان هو الواقع وما جاء به الواقع كان مطابقاً للكلام .

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾

(من الآية ١١٥ سورة الأنعام)

أى وافق الواقع الكونى ما قال الله به . وكيف كان الواقع صادقاً وعادلاً فى آن واحد ؟ لنفرض أنك أحضرت مدرساً خصوصيًّا لولدك ، وصادف أنه هو الذى يدرس فى المدرسة وهو الذى يدرس لابنك ثم قلت له : أريد أن ينجح الولد فى الامتحان . ووعد المدرس بذلك ثم جاء الامتحان ونجح الولد ، فتكون كلمة المدرس قد صدقت . لكن هل هذا عدل ؟ قد يكون المدرس هو واضع الأسئلة ولمّح للولد بالأسئلة ، ويكون النجاح حينئذٍ غير عادل ، لكن كلمة الله تجىء مطابقة لما قال ، موقعها مطابق لما قال ، وهى كذلك عدل ؛ لأنه سبحانه أوضح الثواب والعقاب : (وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلا) . لأنه لا مبدل لكلمات الله ، ولا يوجد إله آخر يعارضه فله سبحانه طلاقة القدرة .

أما بالنسبة للبشر فقد علَّم الله عباده احتياط الصدق فى كلامهم ؛ فأوصاهم :

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾

(الآية ٢٣ ومن الآية ٢٤ سورة الكهف)

لأن فعل ذلك غداً والإتيان به وإحداثه هو أمر يتعلق بالمستقبل الذى لا نتحكم فيه ، فاحم نفسك وقل : « إن شاء الله » ، فإن لم يحدث يمكنك أن تقول : لم يشأ

ربُّنا حدوث ما وعدت به ، وبذلك يحمى الإنسان نفسه من أن يكون كاذباً ويجعل نفسه صادقاً فلا يتكلم إلاَّ على وفق ما عنده من قوانين الفعل وعدم الفعل ؛ لأنه عندما تقول : « أفعل ذلك غداً » . ماذا ستفعل غداً وأنت لا تضمن نفسك وحياتك وظروفك ؟! لكن الله إذا قال : « سأفعل » فله طلاقة القدرة .

﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

ومادامت الكلمات ستتحقق والحكم سيصدر فهذا دليل على أنه سبحانه سميع لما قالوه فى عداوتهم ، وعليم بما دبروه من مكائدهم ، وهو القائل من قبل :

﴿ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ﴾

(من الآية ١٢١ سورة الأنعام)

أى ليعلموهم بخفاء ، فإن كان كلامهم ظاهراً فهو مسموع ، وإن كان بخفاء فهو معلوم .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ ﴾

و « من فى الأرض » المقصود بهم المكلفون ؛ لأنهم هم من يتميزون بالاختيار ولهم أوامر ونواهٍ ، فما دون الإنسان لا أمر له ، و «أكثر» لا يقابلها بالضرورة كلمة « قليل » أو « أقل » ، ومادام القول هو : « أكثر » . فقد يكون الباقون كثيراً أيضاً ، وأمّا كثير فإنها ، تعطى له كميته فى ذاته وليست منسوبة إلى غيره ، ولذلك كنا نسمع من يقول : مكتوب على محطة مصر أو على « المطار » أو على « الميناء » ، يا داخل

مصر منك كثير ، أى إن كنت رجلاً طيبًا فستجد مثلك الكثير ، وإن كنت شريرا فستجد مثلك الكثير أيضاً .

ويقول الحق :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ﴾

(من الآية ١٨ سورة الحج)

فكل الكائنات مقهورة مسخرة ، وعند الناس انقسم الأمر ؛ لأن لهم اختياراً ، فراح أناس للطاعة وذهب أناس للمعصية ، فلم يقل الحق: والناس ، بل قال « وكثير من الناس » ، ولم يقل الحق : وقليل حق عليه العذاب ، لكنه قال : « وكثير حق عليه العذاب » فهؤلاء كثير وهؤلاء كثير ، وإن نظرت إليهم فى ذاتهم فهم كثير ، والآخرون أيضاً إذا نظرت إليهم تجدهم كثيراً . ولماذا يقول الحق : « وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله » ؟

« الطاعة » ـ كما نعرف ـ استجابة للأمر فى « افعل » ، والنهى فى « لا تفعل » إذا قال الحق للإنسان افعل كذا ؛ فالإنسان صالح لأن يفعل وأن لا يفعل ، وإن قال « لا تفعل » فالإنسان صالح أن يفعل ، وأن لا يفعل ، وإن كان هناك شىء لا تقدر عليه فلن يقول لك : افعله . والإنسان عادة حين يؤمر أو يُنهى إنما يؤمر وينهى لمصلحته ، فإن لم يوجد أمام مصلحةٍ معارض من منهج إلهى فهذا من مصلحته أيضاً ؛ لأن الله أجاز له حرية الفعل والترك . ويوضح الحق : من رحمتى أن جعلت لكم تشريعاً ؛ لأننا لو تركنا الناس إلى أهوائهم فسيأمر كل واحد من الذين لهم السيطرة على الناس بما يوافق هواه ، وسينهى كل واحد من الناس بما يخالف هواه ؛ لذلك نعصم هذا الأمر بالمنهج . حتى لا يتضارب الخلق ولا يتعاكس هواك مع هوى أخيك . ومن المصلحة أن يوجد مطاع واحد لا هوى له ، ويوجد منهج يقول للجميع « افعلوا كذا » و « لا تفعلوا كذا » وبذلك يأتى الاستطراق لنفهم جميعاً . ولذلك يقول الحق :

﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ١١٦ سورة الأنعام)

فهناك أناس مؤمنون وهم أصحاب الفطرة السليمة بطبيعتهم ؛ لأن الخير هو الفطرة فى الإنسان ، وقد جاء التشريع لينمى فى صاحب الفطرة السليمة فطرته أو يؤكدها له ، ويعدل فى صاحب النزعة السيئة ليعود به إلى الفطرة الحسنة .

والذين يضلون عن سبيل الله ماذا يتبعون ؟ يقول الحق : (إن يتبعون إلا الظن) .

كل واحد منهم يظن أن هذا الضلال ينفعه الآن ، ويغيب عنه ما يجر عليه من الوبال فيما بعد ذلك .

و « الظن » ـ كما نعلم ـ هو إدراك الطرف الراجح ويقابله الوهم وهو إدراك الطرف المرجوح والظن هنا ، هو ما يرجحه الهوى :

﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾

(من الآية ١١٦ سورة الأنعام)

و « إن » ـ كما نعرف ـ تأتى مرة جازمة : إن تفعلْ كذا تجدْ كذا ، وتأتى مرة نافية ، مثل قوله الحق :

﴿ مَا هُنَّ أُمَّهَـٰتِهِمْ إِنْ أُمَّهَـٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّـٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ﴾

(من الآية ٢ سورة المجادلة)

أى : ما أمهاتهم ؛ فـ « إن » هنا نافية . وقوله الحق : « إن يتبعون إلا الظن » أى ما يتبعون إلا الظن . هم إما أن يتبعوا الظن وإمّا أن يخرصوا . (فالخارص) هو من يتكلم بغير الحقيقة ، بل يخمن تخميناً ، كأن ينظر إنسان إلى آخر فى سوق الغلال ويسأله : كم يبلغ مقدار هذا الكوم من القمح ؟ . فيرد : حوالى عشرة أرادب أو اثنى عشر أردباً ، وهو يخمن تخميناً بلا دليل يقينى أو بلا مقاييس ثابتة ، أو يقول كلاماً ليس له معنى دقيق .

فإذا اتبعت الناس فسوف يضلونك . لأنهم لا يملكون دليلاً علميًّا ، ولا حقًّا يقينيًّا ، بل يتبعون الظن إن كان الأمر راجحاً ، ويخرصون ويخمنون حتى ولو كان الأمر مرجوحاً .

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾ ﴾

وساعة ترى « هو » هذه فاعرف أنها تَرُدّ وتجيب على ما يمكن أن يقال ، فهناك من يقول : أنا سوف أرى تصرفات فلان ، ولأنك من البشر فمهما علمت عنه فأنت محدود الإدراك ؛ لأنك سترى تصرفات فقط ، ولن ترى انفعالات قلبه وتقلبات عقله ، ولكن الحق سبحانه وتعالى هو الأعلم ؛ لأن الميزان كله عنده ، إنّه يدرك الظاهر والباطن ، وهو سبحانه يقول هنا : « أعلم » وهناك « عليم » ، و « العليم » هو من يرى ظاهر الأمر ويحيط به ، لا الخافى منه ، أما الذى يرى الظاهر والخفى فهو أعلم .

ولذلك كان النبى صلى الله عليه وسلم فى مسائل كثيرة يعامل الناس بعلانيتهم ، ويترك سرائرهم إلى الله . وعندما قتل مسلم رجلاً أعلن الإسلام ، سأله صلى الله عليه وسلم لماذا ؟ ، قال : لأنه أعلن الإسلام نفاقاً . فقال صلى الله عليه وسلم : أشققت عن قلبه ؟! .

وسبحانه وتعالى « أعلم » ؛ لأنه يعلم الظاهر والباطن ، ويعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور .

ويقول الحق :

﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ ﴾

﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ

وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾

ما الذى أدخل هذه المسألة فى هذا السياق ؟ لقد تكلم الحق عن أن هناك أعداء لكل نبى يلتمسون ثغرة فى منهجه ليتكلموا فيها ، وهذه هى مهمتهم التى هيأها الله لهم ، فحين يقولون الاعتراضات نجد المنهج يرد عليهم وبذلك تنتفع الدعوة إلى أن تقوم الساعة .

مثال ذلك نجد الجماعة الذين عارضوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الإسراء والمعراج ، فحين قال لهم : إننى أسرى بى إلى المسجد الأقصى وعرج بى إلى السماء فى ليلة واحدة ، التمسوا له ثغرة لينفذوا منها ويضللوا غيرهم وقالوا له : أتدّعى أنك أتيتها فى ليلة ونحن نضرب إليها أكباد الإبل شهراً ؟!! لكنْ أبو بكر الصديق قال : إن كان قال فقد صدق ، وهذا هو الإيمان الذى يحسن استقبال الأمر المخالف للنواميس . ويجادلون أبا بكر ، فيقول : أنا صدقته فى خبر السماء فكيف أكذبه فى ذلك ، ما دام قال فقد صدق ، وهذا كلام منطقى .

لكنَّ المعارضين لرسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا : أتدّعى أنك أتيتها فى ليلة ، ونحن نضرب إليها أكباد الإبل شهراً ! فأعطى صلى الله عليه وسلم لهم الأمارات ووصف لهم العِير التى فى الطريق ، وغير ذلك من العلامات التى تجعل من الأمر حجة إلى يوم القيامة ، ولو مرّت مسألة الإسراء والمعراج من غير أن يعترض أحد من الأعداء ، لما وجدنا الحرارة فى تصديقها .

إننا نجد حاليًّا من يقول : وهل من المعقول أنه صلى الله عليه وسلم راح إلى بيت المقدس وجاء فى ليلة ؟ لابد أن ذلك كان حلماً . لو لم يقولوا هم هذا ما كنا عرفنا الرد ؛ إنما هم قالوها حتى نعرف الرد ويظل الرد رادعاً إلى أن تقوم الساعة ، وهذه هى المهمة التى جعلها الله للأعداء ؛ لأنه صلى الله عليه وسلم لو قال لهم : إننى

حلمت أنى رحت بيت المقدس . أكان هناك من يعترض على أن يحلم النبى حتى ولو قال : إنه ذهب إلى آخر المعمورة إنه لا يجرؤ واحد أن يكذبه ، لكنهم ماداموا قد كذبوه ، ورفضوا تصديق الإسراء فهذا دليل على أنهم فهموا من الذهاب أنه ليس ذهاب رؤيا وإنما ذهاب قالب ، لقد فهموا عنه أنه قد انتقل بجسده من مكة إلى بيت المقدس ، ولذلك كذبوه ، وهذا التكذيب منهم ينفعنا الآن ، لنردَّ به على المكذبين المعاصرين .

إذن فوجود الأعداء يهيج القرائح التى يمكن أن نرد على أية شُبَهٍ يثيرها أى إنسان سواء أكان ماضيًا أم معاصراً .

والحق هنا يقول :

﴿ فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

هذه الآية لها قصة توضح كيف يحاول الأعداء اصطياد الثغرات لينفذوا منها ، وقالوا : يقول النبى لكم : إن الميتة لا يحل لكم أن تأكلوا منها ، وما تذبحونه بأيديكم كلوا منه ، والذبح لون من الموت ، هذه هى الشبهة التى قالوها ، وهى أولاً مغالطة فى الأساليب ؛ لأن الميتة غير المذبوحة وغير المقتولة . فالمذبوحة إنما ذبحناها لنطهرها من الدم ؛ لذلك فالمناقشة الفقهية أو العلمية تهزم قولهم ؛ لأن هناك فرقاً بين الموت والقتل . فالموت هو أخذ للحياة بدون سلب للبنية ، إنما القتل هو سلب للبنية أولاً فتزهق الروح ويبقى الدم فى الجسم . ثم هل يأخذ المشرع وهو الرب الأعلى الحكمة منّا أو أن الحكمة عنده هو وحده ؟ .

وقد تبين لنا فى عصرنا أن غير المؤمنين بدأوا فى الاهتداء إلى أن الميتة فيها كل الفضلات الضارة ، واهتدوا إلى إزالة كل الفضلات الضارة من الحيوانات التى يريدون أكلها ؛ لأن تكوين جسم الحيوان يتشابه مع تكوين جسم الإنسان ، فهو يأكل ويهضم ويمتص العناصر الغذائية ليتكون الدم والطاقة ، وفى الجسد أجهزة تصفى وتنقى الجسم من السموم الضارة ، فَالكُلْية مثلاً تصفّى الدم من البولينا وغيرها ، ويسير الدم ليمر على الرئة ليأخذ الأوكسيجين ، وكل ذلك لتخليص الجسد من الفضلات الضارة ، وأوعية الدم فى الإنسان والحيوان فيها الدم الصالح والدم

الفاسد ، والدم الفاسد هو الذى لم تتم تنقيته ، وعندما نذبح الذبيحة ينزل منها الدم الفاسد وغيره ، أى أننا ضحينا بالدم الصالح فى سبيل وقايتنا من الدم الفاسد . لكنها إن ماتت دون ذبح ؛ فآثار الدمين الاثنين موجودة . وكذلك آثار الفضلات التى كان يجب أن يتخلص منها ، وهذا ما نفعله فى هذا الأمر ، لكن هل لنا مع الحق سبحانه وتعالى تعقل فى شىء إلا فى توثيق الحكم والاطمئنان إلى مجيئه منه جلت قدرته ؟

كان جدلهم أنهم قالوا : أنتم تأكلون ما قتلتم ولا تأكلون ما قتل الله ، فأنتم تظنون أنفسكم أحسن من الله ، وهذا افتراء منهم . ثم إن الحيوان حين يموت لم يذكر عليه اسم الله ، لكن الذبيحة التى نذبحها نذكر عليها اسم الله ، فكأن الحق سبحانه وتعالى يوضح : فكلوا مما ذكر اسم الله عليه . أى غير الميتة وغير ما يذبح للأصنام .

﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

إنَّ تلقى أى حكم من الحق ، لا يصح أبداً أن نبحث عن علته أولاً ثم نؤمن به ، بل علينا بعد أن نثق بأنه من الله الذى آمنا به . علينا إذن أن نأخذ الحكم الذى أمر به الله .

﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾

(سورةالأنعام)

وللآيتين ـ كما علمنا ـ سبب نزلتا من أجله وهو أن بعض المعارضين لرسول الله الذين يقفون من الدعوة موقف التكذيب والعمل على إبطالها والقضاء عليها ، كانوا يُشيعون عند المؤمنين إشاعات قد تفت فى عضدهم العقدى فعرضوا هذه المسألة وهى فى ظاهرها تشكيك . وهم قد عرضوا القضية بهذا الشكل غير المتسق ؛ لأن من الذى قتل ؟ لقد قالوا : إن الميتة قتلها الله ، فهل الله هو الذى قطع رقبتها ؟ وهل

ضربها الله على رأسها فأمات أصل إدارة الحياة وهو المخ ؟ هل صوّب شيئاً إلى قلبها ؟ سبحانه جل وعلا منزه عن مثل هذه الأفعال البشرية ، فكيف يسمون الموت قتلاً ؟ إن تسمية الموت قتلاً هو الخطأ ، فقولهم : كيف تبيحون لأنفسكم ما قتلتموه أى بالذبح . ولا تبيحون ما قتله الله أى أماته ، فيه مغالطة فى عرض القضية ، ويريد الله سبحانه وتعالى أن يضع عند المؤمنين مناعة من هذه الهواجس التى يثيرونها ؛ فقال : (**فكلوا مما ذكر اسم الله عليه إن كنتم بآياته مؤمنين**)

وما معنى الذكر ؟ إنّ عدم تحديد العلماء المعنى المقصود بالذكر ، هو الذى أوجد بينهم خلافاً كبيراً . فسيدنا الإمام مالك يرى أنك إذا ذبحت ولم تذكر اسم الله سواء أكنت ناسيًا أم عامداً فلا يصح لك أن تأكل من الذبيحة . ويرى الإمام أبو حنيفة : إذا كنت لم تسم ناسياً فكل مما ذبحت ، لكن إن كنت عامداً فلا تأكل ، والإمام الشافعى ـ رضى الله عنه ـ يرى : ما دمت مؤمناً ومقبلاً على الذبح وأنت مؤمن فكُلْ مما لم تذكر اسم الله ناسياً أو عامداً لأن إيمانك ذكر لله .

ونقول : ما هو الذكر ؟ هل الذكر أن تقول باللسان ؟ أو الذكر أن يمر الشىء بالخاطر ؟ إن كنتم تقولون إنّ الذكر باللسان فلنبحث فى الحديث القدسى الذى قاله الله تعالى : « أناعند ظن عبدى بى ، وأنا معه إذا ذكرنى ، فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، وإن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منهم »[1] .

إذن فقد سمّى ربنا الخاطر فى النفس ذكراً وبذلك يصبح من حق الإمام الشافعى أن يقول ما قال .

لذلك أقول : يجب أن نحدد معنى الذكر أولاً حتى ننهى الخلاف حول هذه المسألة ، فليس من المقبول أن نقيم معركة حول معنى « الذكر » ؛ لأن الذكر وهو خطور الأمر على البال قد يصحبه أن يخطر الأمر على اللسان مع الخطور على البال ، وقد يظل خطوراً على البال فقط ، بدليل ماجاء فى الحديث السابق .

---

(١) رواه البخارى ، ومسلم ، والترمذى .

والمؤمن حين يجد أمامه أشياء كثيرة ، قد يوجد شىء جميل وآخر ليس له من الجمال شىء ؛ فالجاموسة أقل فى الجمال من بعض الحيوانات التى حرم الله أكلها ، وأقبل المؤمنون على ذبح الجاموسة ليأكلوا منها ، ولم نسمع عن مسلم تقدم إلى حيوان حرم الله أكله ليذبحه ، لماذا ؟ لأن المؤمن يقبل على ما أحل الله ، وهذا الإقبال دليل على أنه ذكر فى نفسه المحلل والمحرم وهوالله ، إذن اختياره حيواناً للذبح دليل على أنه ذكر الله فى النفس أو فى القول ، وبهذا نتفق على أن ذكر المؤمن يكون فى قلبه قال أو لم يقل ، وينتهى الخلاف فى هذه المسألة . إذن الإمام الشافعى أخذ بهذه المسألة ؛ لأن النبى عليه الصلاة والسلام حينما سئل عن أكل المسلم من ذبيحة لا يعرف من ذبحها وهل سمّى أو لم يسمّ ، أوضح لمن سأله : سمّ وَكُلْ .

فالإنسان منا لا يحضر وقت الذبح دائماً ، ويكفيه أن يستحضر المحلل والمحرم ساعة الأكل . والحق سبحانه وتعالى يوضح لنا : اذكروا اسم الله ، وسبحانه يعلم أنك تقبل على أشياء لتفعلها . وهذه الأشياء تنقسم إلى قسمين : قسم يمر على بالك قبل أن تفعله ، وقسم لا يمر على بالك ، بل تفعله تلقائيًا بدون ما يمر على البال ، ومثال ذلك الأفعال العكسية كلها التى يفعلها الإنسان إنها لا تمر على باله . فلو حدث أن حاول واحد أن يضع إصبعه فى عين آخر ، فهذا الآخر يغمض عينيه تلقائيًا . ويختلف ذلك عن الفعل الذى تفكر فيه قبل أن تفعله . فالذى يفعل الفعل بعد أن يمر بخاطره هو فعل ذو بال . ولذلك أراد الرسول عليه الصلاة والسلام ألا يكلفنا عناء أو مشقة ؛ فقال :

« كل أمر ذى بال لا يبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم أقطع »[1] .

والأمر ذو بال هو الأمر الذى يكون قد خطر على بالك أن تفعله أو لا تفعله . إذن فالله سبحانه وتعالى لا يكلفنا إلا عند الأمر الذى يمر على الخاطر ؛ لأنك حين تقبل على أى فعل فينفعل لك كما تريد ، إن هذا من عطاء الله لك ، وأنت حين تذبح عجلاً ، أو خروفاً ، وتتأمل أنت كيف يُقدرك الله على هذا الكائن الحى . وإنك لم تفعل ذلك إلا لتسخير الله كُلَّ الكائنات لك . فباسم الله تذبحه .

إذن هناك أمور كثيرة وأفعال ذات بال تمر عليك ومن حسن الأدب والإيمان أن

(١) رواه عبد القادر الرّهاوى فى الأربعين عن أبى هريرة .

تقبل عليها باسم الله . ولذلك يخطىء بعض الناس حين يظنون أن الإنسان عندما يذبح حيواناً فهو يؤذيه . لا ، بل ذبح هذا الحيوان هو تكملة لمهمته فى الحياة ؛ لأنه مخلوق لهذا الهدف ومذلل له .

لقد قلنا سابقاً : إن هناك عجيبة من عجائب المزاولات الفعلية ، هذه العجيبة أنك حين تأتى إلى الحيوانات التى لم يحلها الله للإنسان ، كالحمار مثلا إذا ما تعرضت هذه الحيوانات إلى ما يميتها ، كأن التف حول عنقه حبل ، واختنق فهو يموت دون أن يمد رقبته إلى الأمام ، لكن الحيوان الذى أحله الله للأكل ؛ مثل الجاموسة أو الخروف أو العجل ، نجد الحيوان من هذه الحيوانات إن اختنق يمد رأسه إلى الأمام ، فيقول أهل الريف فى مصر : إنه يطلب الحلال ، أى الذبح . فلا يسمى ذبح الحيوان اعتداء عليه ؛ لأن الحيوان مخلوق لهذه المهمة .

إذن فمعنى كلمة « باسم الله » أى أننى لم أجترىء على هذا العمل إلا فى إطار اسم الله الذى أحل لى هذا .

بعد ذلك يقول الحق للمؤمنين : لا تسمعوا كلام الكافرين ، ويأتى السؤال الاستنكارى : « ومالكم ألا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه » والمعنى : أى سبب يمنعكم من أن تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه ؟ وقد فصل لكم ما حرم عليكم ، فما ذكر اسم الله عليه ليس من ضمن المحرمات التى نص الله عليها ، فربنا سبحانه هو من حلل وحرم . وإن قيل : ما دام قد حرم علينا بعض الأشياء فلماذا خلقت هذه الأشياء ؟

ونقول : إن من يفكر بمثل هذا الأسلوب يتناسى أن كل مخلوق من الحيوانات ليس مخلوقاً للأكل ، بل لكلٍ حيوان مهمة . وإن ذبحت محرماً ، فقد يناقض هذا الفعل مهمته . فالخنزير ـ مثلاً ـ حرّمه ربنا ؛ لأنك إن ذبحته فستذهب به بعيداً عن مهمته ؛ لأنه مخلوق كى يلم جراثيم الأشياء التى لا تراها العين ، فأنت حين تذبحه تخرجه عن مهمته . والحق سبحانه وتعالى هو الذى خلق الإنسان ، ويعلم ما يناسبه من غذاء يولد الطاقة ولا يهدر الصحة ؛ لذلك حرم وحلل له ، وإياك أن تقول : إن الله سبحانه وتعالى لم يحرم إلا الشىء الضار ؛ فقد حرم شيئاً غير ضار لأنه يريد بذلك الأدب فى : « افعل هذا » و « لا تفعل هذا » . ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ﴾

(من الآية ١٦٠ سورة النساء)

وفى حياتنا اليومية هل تقول : إن الذين يربون أبناءنا فى الجيش بالشدة ، يقسون على الأبناء ؟ لا ، بل إنهم يعدّونهم لمواجهة المهام الشاقة . وأن يتعوّدوا التزام الأدب والطاعة والانضباط ، فكذلك حلل الحق ما أراد وحرم ما شاء ليجعل الكون منضبطاً بقدرة الحكيم القادر ، فسبحانه يحرم أشياء مثل المخدرات ، ونحن فى بعض الأحيان نتناولها لنداوى بها الأمراض ، فلو أخذها الإنسان من غير مرض أو داع فإنها تسرق الصحة من بنية الإنسان ، وإن أخذها من بعد ذلك للعلاج لا تأتى بالمفعول المطلوب منها . ولذلك نجد من الأطباء من يسأل الإنسان قبل إجراء الجراحات الدقيقة إن كان المريض قد تناول المخدرات أو لا ، وذلك حتى يتعرف الأطباء على حقيقة ما يصلح له من ألوان التخدير .

وسبحانه وتعالى قد منع عنا تلك الألوان من مغيبات العقول ، لعلنا نحتاج إليها فى لحظة الشدة والمرض .

إذن فالحق سبحانه وتعالى قد ربط كل حكم من الأحكام التحليلية والتحريمية بـ « إن كنتم مؤمنين » ، ومعنى « إن كنتم مؤمنين » أى يا من آمنتم بالإله الحكيم الذى لا يأمر إلا بما فيه مصلحتكم ، امتنعوا عن مثل تلك الأفعال ، وإذا أقبلت على أى شىء مما أحله الله لك فأقبل عليه باسم الله ، وسبحانه وتعالى له أسماء علمها لنا ، وأنزلها فى كتابه ، وأسماء علمها لأحد من خلقه ، وأسماء استأثر بها فى علم الغيب عنده ، وهذه الأسماء هى صفات الكمال لله ، التى لا توجد فى غيره . وحين نستحضر الاسم الجامع لكل صفات الكمال نقول : باسم الله . وتنهى المسألة . وحين ناقش العلماء مسألة التحريم والتحليل ، قال بعضهم : إن الحق سبحانه وتعالى قال فى أول سورة المائدة :

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ ﴾

(من الآية ٣ سورة المائدة)

وهنا فى سورة الأنعام يقول :

﴿ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ ﴾

(من الآية ١١٩ سورة الأنعام)

والمتنبهون من العلماء قالوا : إن سورة المائدة مدنية ، ومعنى كونها مدنية أنها نزلت

بعد السور المكية ، وسورة الأنعام مكية ، وهل يقول الحق فى السورة المكية « وقد فصل لكم ما حرم عليكم » فى السور المدنية ؟ وبعض العلماء الذين أعطاهم ربنا نور بصيرة قال : لقد فصل لكم فى سورة المائدة وجاء أيضاً فى سورة الأنعام فقال :

﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

أى فصل لك فى هذه السورة المكية . وقد يأتى واحد من المولعين بالاعتراض أو من خصوم الإسلام ويقول : لم تذكر الآية كل الأشياء المحرمة لماذا ؟

ونقول : القرآن هو الخطوط الأساسية فى المنهج ، وتأتى السنة بالتفصيل فى إطار :

﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾

(من الآية ٧ سورة الحشر)

والحق يقول هنا :

﴿ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ﴾

(من الآية ١١٩ سورة الأنعام)

واضطرار هو أمر ملجىء إلى شىء غير الأسباب الكونية المشروعة . ومعنى كونه مضطرا أنه يلجأ إل شىء فقد أسبابه المشروعة كالذى يريد أن يأكل ليستبقى الحياة ، فإذا لم يجد من الحل ما يستبقى به الحياة فهو مضطر . ونقول له : خذ من غير ما أحل الله بالقدر الذى يدفع عنك الضرورة . فكل من الميتة بقدر الضرورة ولا تشبع . والحق يقول :

﴿ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ ﴾

(من الآية ٣ سورة المائدة)

والمخمصة هى المجاعة . إذن فالاضطرار هو شىء فوق الأسباب المشروعة

للعمل . والله سبحانه وتعالى يعطى الإنسان الرخصة فى أن يتناول ما حرمه إذا كان مضطراً .

﴿ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾

(من الآية ١١٩ سورة الأنعام)

والذين يضلون بأهوائهم بغير علم هم من أرادوا زراعة الشك فى نفوس المسلمين . ومعنى الضلال بالهوى أن تكون عالما بالقضية ، ولكن هواك يعدل بك عن مراد الحق من القضية . ولذلك يصف الحق رسوله صلى الله عليه وسلم :

﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ ﴾

(سورة النجم)

وحين يقول الحق : « وإن كثيراً ليضلون بأهوائهم » فمعنى ذلك أنه يوجد ضلال بغير هوى ، وهو عدم وصول الإنسان إلى الحقيقة ؛ لأنه لا يعرف الطريق إليها ، والضلال بالهوى أى أن تكون عندك الحقيقة وأنت عارف بدروبها ولكنك تعدل عنها .

﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾

(من الآية ١١٩ سورة الأنعام)

وساعة ترى مجىء متعلق بعد « يضلون » وهو قوله : (بأهوائهم) تقول كأن هناك ضلالاً بغير علم ، وهو غير مذموم ؛ لأن صاحبه لا يعرف الحكم فى القضية ، وهذا يختلف عن الذى يضل وهو يعرف الحكم ، فهذا ضلال بالهوى ، وهذا الفهم يحل لنا إشكالات كثيرة أيضاً . و « بغير علم » أى ليس عندهم علم بالقضية وأحكامها .

ويذيل الحق الآية بقوله :

﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴾

(من الآية ١١٩ سورة الأنعام)

وقد أفسح الله فى النص القرآنى لبعض خلقه الذين يعرفون المهتدى من غير المهتدى ، والكثير من الناس لا يعلمون المهتدى من غير المهتدى ولكن إن علموا فالله أعلم .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ ﴾

هذه تقنينات السماء التى تحمى المجتمع من بعضه وذلك فى ألا تقع عين أحد على مخالفة من أحد ، وإذا وقعت عينك على مخالفة من غيرك تكون المخالفة مما يدرك لكنها ليست كل الفساد فى المجتمع ؛ ففساد المجتمع يأتى من أشياء كثيرة لا تقع تحت دائرة الإدراكات . وهناك أشياء تكون فى منابع النفس البشرية التى تصدر عنها عوامل النزوع ؛ فقبل أن يوجد إثم ظاهر يوجد إثم باطن ، والإثم الباطن سابق على الإثم الظاهر . والتقنينات البشرية كلها تحمينا من ظاهر الإثم ، ولكن منهج السماء يحمينا من فساد ظاهر الإثم وباطن الإثم .

ويوضح لنا الحق الفرق بين تقنين البشر للبشر وتقنين الإله ، فسبحانه رقيب على مواجيدكم ووجداناتكم وسرائركم ، فإياكم أن تفعلوا باطن الإثم ، ولا يكفى أن تحمى نفسك من أن يراك القانون ؛ لأن قصارى ما يعمل القانون أن يمنع الناس من أن يتظاهروا بالجريمة ويقترفوها علانية ، والفرق بين تشريع السماء وتشريع الأرض أن تشريع الأرض يحمى الناس من ظاهر الإثم ، ولكن تشريع السماء يحمى الناس من ظاهر الإثم وباطن الإثم ، وباطن الإثم هو أعنف أنواع الإثم فى الأرض .

وبعض أهل الاكتساب فى الشر برياضتهم على الشر يسهل عليهم فعل الشر وكأنهم يفعلون أمراً قد تعودوا عليه بلا افتعال .

و « كسب » ـ كما نعلم ـ تأتى بالاستعمال العام للخير ، و « اكتسب » تأتى للشّر لأن الخير يكون فيه الفعل العملى رتيباً مع كل الملكات ، ولا افتعال فيها ، فمن يريد ـ مثلاً ـ أن يشترى من محل ما فهو يذهب إلى المحل فى وضح النهار ويشترى . لكن من يريد أن يسرق فهو يرتب للسرقة ترتيباً آخر ، وهذا افتعال ، لكن الافتعال قد يصبح بكثرة المران والدربة عليه لا يتطلب انفعالاً ، لأنه قد أضحى لوناً من

الكسب . و « يكسبون » تدل على الربح ؛ لأن « كسب » تدل على أنك أخذت الأصل والزيادة على الأصل ، والإنسان حين يصنع الخير إنما يعطى لنفسه مقوّمات الحياة ويأخذ أجر الآخرة زائداً ، وهذا هو قمة الكسب .

ويريد الحق سبحانه وتعالى من العبد فى حركته أن يحقق لذاته نفعاً هو بصدد الحاجة إليه ، ولكن الإنسان قد يحقق ما ينفعه وهو بصدد الحاجة إليه ، ثم ينشأ من ذلك الفعل ضرر بعد ذلك ؛ لذلك يحمي الله الإنسان المؤمن بالمنهج حتى يميز بين ما يحقق له الغرض الحالى ويحقق نفعاً ممتداً ولا يأتى له بالشّر وما يحقق له نفعاً عاجلاً ولكن عاقبته وخيمة ونهايته أليمة ، إننا نجد الذين يصنعون السيئات ويميلون للشهوات ـ مثلاً ـ يحققون لأنفسهم نفعاً مؤقتاً ، مثل التلميذ الذى لا يلتفت إلى دروسه ، والذى ينام ولا يستيقظ ، والذى إن أيقظوه وأخرجوه من البيت ذهب ليتسكّع فى الشوارع ، هو فى ظاهر الأمر يحقق لنفسه راحة ، لكن مآله إلى الفشل . بينما نجد أن من اجتهد وجدَّ وتعب قد حقق لنفسه النفع المستمر الذى لا تعقبه ندامة .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ ﴾

(من الآية ١٢٠ سورة الأنعام)

ففى الدنيا نجد أن الجزاء من بشر لبشر ، ولكن ماذا عن لحظة العرض أمام الله وهو العليم بظاهر الإثم وباطن الإثم ؟

فالذى يصون المجتمع ـ إذن ـ هو التقنين السماوى ، فالمنهج لا يحمى الإنسان ممن حوله فحسب ولكنه يقنن لحركة الإنسان لتكون صحيحة .

ويعود الحق بعد ذلك إلى قضية الطعام فيقول :

﴿ وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾ ﴾

وهنا يسمى الحق ما لم يذكر اسم الله عليه بـ « الفسق » وهو ما تشرحه الآية الأخرى وتبرزه باسم مخصوص :

﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ﴾

(من الآية ١٤٥ سورة الأنعام)

إذن فـ « فسقاً » معطوفة على الميتة والدم المسفوح ولحم خنزير ، لكنه سبحانه فصل بين المعطوف وهو (فسقاً) ؛ والمعطوف عليه بحكم يختص بالمعطوف عليه ، وهذا الحكم هو الرجس وهكذا أخذت الثلاثة المحرمات حكم الرجس . وعطف عليها ما ذبح وذكر عليه اسم غير الله كالأصنام وهو قد جمع بين الرجس والفسق .

ويقول الحق : « وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم » وسبحانه يريد أن يبين لنا أن الفطرة السليمة التى لا يميلها هوى تصل إلى حقائق الخير ، ولذلك نجد أن الذين يحثون ويحض بعضهم بعضا على الشّر ويُعلم بعضهم بعضاً بخفاء إنما يأخذون مقام الشيطان بالوسوسة والتحريض على العصيان والكفر ؛ لأن المسألة الفطرية تأبى هذا ، وحين يرتكب إنسان موبقة من الموبقات ، إنما يلف لها ويتحايل ليصل إلى ارتكاب الموبقة ، وقد يوحى بذلك إلى غيره ، فيدله على الفساد . ويكون بذلك فى مقام الشياطين الذين يوحون إلى أوليائهم بإعلام خفى ؛ لأن الفطرة السليمة تأبى الأشياء الشريرة وتقف أيضاً فيها ، ولا يجعلها تتقدم إلى الشر إلا الهوى ، فإذا ما أراد شيطان من الإنس أو شيطان من الجن أن يزيّن للناس فعلاً فهو لا يعلن ذلك مباشرة . إنما يلف ويدور بكلام ملفوف مزين .

« وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن أطعتموهم إنكم لمشركون » وفى ذلك إشارة إلى قول المشركين : تأكلون ما قتلتم أنتم ولا تأكلون ما قتل الله وأنتم أولى أن تأكلوا مما قتل الله .

﴿ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾

(من الآية ١٢١ سورة الأنعام)

وكأن مجرد الطاعة لهؤلاء المشركين لون من الشرك ؛ لأن معنى العبادة امتثال وائتمار عابد لمعبود أمراً ونهيا ، فإذا أخذت أمراً من غير الله فإنه يخرج بك عن صلب وقلب منهجه سبحانه وبذلك تكون قد أشركت به .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾

والحق سبحانه وتعالى ـ كما عرفنا ـ يعرض بعض القضايا لا عرضاً إخباريًّا منه ، ولكن يعرضها باستفهام ؛ لأنه ـ جل وعلا ـ عليم بأنه حين يأتى لك الاستفهام ، ثم تدير ذهنك لتجيب فلن تجد إلا جواباً واحداً هو ما يريده الحق . إذن فالأسلوب أحياناً يكون أسلوباً خبريًّا أو يكون استفهاماً بالإثبات أو استفهاماً بالنفى . وأقواها الاستفهام بالنفى . وحين يعرض سبحانه القضية التى نحن بصددها يوضح وهو العليم أنك إن أحببت أن تجيب فلن تجد إلا الجواب الذى يريده الحق .

إننا نجد فى الآية الكريمة موتاً وحياة ، وظلاماً ونوراً .

وما هى الحياة ؟ . الحياة هى وجود الكائن على حالة تمكنه من أداء مهمته المطلوبة منه ، وما دام الشىء يكون على حالة يؤدى بها مهمته ففيه حياة ، وأرقى مستوى للحياة هو ما تجتمع فيه الحركة والحس والفكر ، وهذه الأمور توجد كلها فى الإنسان . أمّا الحيوان ففيه حس وحركة وليس عنده فكر . غير أن الحيوان له غريزة أقوى من فكر الإنسان ، فهو محكوم بالغريزة . وأنت ـ أيها الإنسان ـ محكوم بالغريزة فى أشياء وبالاختيار فى أشياء ، وليس لك فى الغريزة عمل . لكن فى مجال الاختيار لك عمل ، تستطيع أن تعمله وتستطيع ألا تعمله .

إذن فالحياة هى أن يكون الكائن على حال يؤدى به مهمته المطلوبة منه . وعلى هذا الاعتبار ففى الإنسان حياة ، وفى الحياة حياة ، وفى النبات حياة ، وفى الجماد حياة ، وكلما تقدم العلم يثبت لنا حيوات أشياء كثيرة جدًّا كنا نظن ألا حياة فيها ، وإن ظهر لنا فى التفاعلات أن بعض الأشياء تتحول إلى أشياء أخرى ، فعلى سبيل المثال الحيوان فيه حياة فإذا ذبحناه وأكلناه ، ورمينا عظامه ، كانت فيها حياة من نوع ثم صارت أجزاؤه إلى جمادية لها حياة من نوعها ، بدليل أنه حين يمر بعض من الزمن يتفتت العظم .

وكنا قديماً فى الريف نحلب اللبن فى أوعية من الفخار وتوضع فى مراقد ، ويستمر اللبن أسبوعاً فى المرقد ، ويكون أحلى فى يومه عن أمسه . ويزداد اللبن حلاوة كل يوم ، ثم تأخذ زوجة الفلاح قطعة القشطة الأخيرة وتصنع منها الجبن الجميل الطعم . أو الزُّبد لكن بعد أن غلينا اللبن نجده يفسد بعد عدة ساعات ؛ لأنك حين وضعته فى المرقد ، أخذته بالحياة فيه فظلت فيه حيوية حياته ، لكن حين غليته فقد قتلت ما فيه من الحياة ، فإن لم تضعه فى ثلاجة لابد من أن يتعفن ، ومعنى التعفن أنه لم يعد يؤدى مهمته كلبن ، إنما انتقل إلى حياة أخرى بفعل البكتريا وغيرها ، ولا يُذهب الحياة إلا الهلاك وهو ما قاله الحق :

﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾

(من الآية ٨٨ سورة القصص)

إذن ، لا تأخذ الميت على أنه شىء ليس فيه حياة ، ولكنه انتقل إلى حياة ثانية .

﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ ﴾

(من الآية ١٢٢ سورة الأنعام)

كأن للإنسان حياة فى ذاته ، ثم جعل الحق له نوراً يمشى به . كأن الحياة متنقلة فى أشياء ، ويحتاج الإنسان إلى حياة ، ويحتاج إلى نور تتضح به مرائى الأشياء . وكانوا قديماً يعتقدون أن الإنسان يرى حين ينتقل شعاع من عينيه إلى المرئى فيراه ، إلى أن جاء العربى المسلم ابن الهيثم . وقال : هذا رأى جانبه الصواب فى قانون الضوء ، وقال : إن الإنسان يرى ؛ لأن شعاعاً من المرئى يصل إلى عين الرائى . بدليل أن المرئى إن كان فى ضوء يدركه الإنسان ، وإن كان فى ظلمة لا يدركه الإنسان ،

ولو كانت الأشعة تخرج من عين الإنسان لرأى الأشياء سواء أكانت فى نور أم فى ظلمة ، وتعدلت كل النظريات فى الضوء على يد العالم المسلم ، وجاءت من بعد ذلك الصور الفوتوجرافية والسينما . إذن فالنور وسيلة إلى المرئيات .

ويترك الحق سبحانه وتعالى فى أقضية الكون الحسيّة أدلة على الأقضية المعنوية ؛ فالنور الحسىّ الذى نراه إما ضوء الشمس وإمّا ضوء القمر ، وإمّا ضوء المصباح ، وإمّا غير ذلك ، وهذا ما يجعل الإنسان يرى الأشياء ، ومعنى رؤية الإنسان للأشياء أن يتعامل معها تعاملاً نفعيًا غير ضار . ونحن نضىء المصباح بالكهرباء حين يغيب النور الطبيعى ـ نور الشمس ـ وعندما نضىء مصابيحنا نرى الأشياء ونتفاعل معها ولا نحطمها ولا تحطمنا ، وكل واحد منا يأخذ من النور على قدر إمكاناته . إذن كل واحد يضىء المكان المظلم الذى اضطر إليه بغيبة المنير الطبيعى على حسب استطاعته ، فإذا ظهرت الشمس أطفأنا جميعاً مصابيحنا ؛ هذا دليل من أدلة الكون الحسيّة الملموسة لنأخذ منها دليلاً على أن الله إن فعل لقيمنا نورا فلا نأتى بقيم من عندنا ، مادامت قيَمُهُ موجودة .

ويوضح الله أن الإنسان بدون قيم هو ميت متحرك ، ويأتيه المنهج ليحيا حياة راقية . ويوضح سبحانه لكل إنسان : احرص على الحياة الثانية الخالدة التى لا تنتهى وذلك لا يتأتى إلّا باتباع المنهج ، وإياك أن تظن أن الحياة فقط هى ما تراه فى هذا الوجود لأنه إن كانت هذه هى غاية الحياة لما أحسّ الإنسان بالسعادة ؛ لأنّه لو كانت الدنيا هى غايتنا للزم أن يكون حظنا من الدنيا جميعاً واحداً وأعمارنا واحدة ، وحالاتنا واحدة ، والاختلاف فيها طولاً وقصراً وحالاً دليل على أنها ليست الغاية ؛ لأن غاية المتساوى لابد أن تكون متساوية .

إذن فقول الله هو القول الفصل :

﴿ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ﴾

(من الآية ٦٤ سورة العنكبوت)

فهذه هى الحياة التى لا تضيع منك ولا تضيع منها ، ولا يفوتك خيرها ولا تفوته . إذن فالذى يحيا الحياة الحسيّة الأولى وهى الحركة بالنفخ فى الروح هو ميت متحرك .

﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ ﴾

(من الآية ١٢٢ سورة الأنعام)

أى أنه سبحانه قد أعطى لمثل هذا العبد حياة خالدة ونوراً يمشى به ، لا يحطِّم ولا يتحطم .

أما من يقول : إن الحياة بمعناها الدنيوى ، لا تختلف عن الحياة فى ضوء الإيمان ، لمثل هذا نقول : لا ، ليس بينهما تساوٍ فهما مختلفتان بدليل أن الحق يقول :

﴿ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة الأنفال)

فسبحانه يخاطبهم ، وما دام يخاطبهم فهم أحياء بالقانون العادى ، لكنه سبحانه أنزل لرسوله المنهج الذى يحيا به المؤمن حياة راقية ، وافطنوا إلى أن الحق سبحانه وتعالى أعطى ومنح الروح الأولى التى ينفخها فى المادة فتتحرك وتحس بالحياة الدنيا ، إنّه أعطاها المؤمن والكافر . ثم يأتى بروح ثانية تعطى حياة أبدية . ولذلك سمّى منهج الله لخلقه روحاً :

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾

(من الآية ٥٢ سورة الشورى)

فالمنهج يعطى حياة خالدة .

إذن فقوله الحق : « أو من كان ميتاً فأحييناه » أى أَوَ من كان ضالاً فهديناه ، أو من كان كافراً فجعلناه مؤمناً . ولنلحظ أن فيه « ميْتاً » بالتخفيف ، وفيه ميّت بالتشديد . والميّت هو من يكون مآله الموت وإن كان حيًّا ، فكل منا ميّت وإن كان حيًّا . ولكن الميْت هو من مات بالفعل وسلبت وأزهقت روحه . ولذلك يخاطب الحق نبيه صلى الله عليه وسلم فيقول له : (إنك ميّت) .

أى تؤول إلى الموت وإن كنت حيًّا الآن . لأن كُلًّا منا مستمر فى الحياة إلى أن يتلبس بصفة الفناء ، ويقول الحق : « فأحييناه » أى بالمنهج الذى يعطيه حياة ثانية ، ولذلك سمّى القرآن روحاً ،وسمّى من نزل بالقرآن روحاً أيضاً .

« وجعلنا له نوراً يمشى به فى الناس » ولماذا يمشى به فى الناس فقط ، وليس بين كل الأشياء ؟ ؛ لأن الأشياء الأخرى من الممكن أن تحتاط أنت منها ، ولكن كلمة الناس تعبر عن التفاعل الصعب لأنهم أصحاب أغيار . ويتابع الحق : « كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها » وهذا تساؤل جوابه : لا ، أى ليس كل منهما مساويا للآخر ، مثلما نقول : هل يستوى الأعمى والبصير؟ . والفطرة هنا تقول : لا ، مثلما تؤكد الفطرة عدم استواء الظلمات والنور ، أو الظل والحرور ، وهنا يأمننا الله على الجواب ؛ لأنه سبحانه ـ يعلم أن الأمر إذا طرح كسؤال وكاستفهام فلن نجد إلا جواباً واحداً هو ما يريد الحق أن يقوله خبراً .

ويذيل الحق الآية :

﴿ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾

(من الآية ١٢٢ سورة الأنعام)

والمعنى هنا أى تركناهم عرضة لأن ينفعلوا للتزيين ، ولم يحمهم الحق بالعصمة فى اختيارهم ؛ لأنه سبحانه قد ترك الاختيار حرًّا للإنسان :

﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الكهف)

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾

وقول الحق سبحانه : « وكذلك » تدل على أن شيئاً شبِّه بشىء ، فكما وُجد فى مكة من يناصبك العداء ويناهضك ويقاومك فى أمر الدعوة إلى الله ، ويصدّ عن

سبيل الحق ؛ إن تلك قضية لست فيها بدعاً من الرسل ؛ لأن هذه المسألة قضية سائدة مع كل رسول فى موكب الإيمان ، و « كذلك » أى كما جعلنا فى مكة مجرمين يمكرون جعلنا فى كل قرية سبقت مع رسول سبق هذه المسألة ، فلم تكن بدعاً من الرسل . وحيث إنك لم تكن بدعاً من الرسل فلتصبر على ذلك كما صبر أولو العزم من الرسل . وأنت أولى منهم بالصبر ؛ لأن مشقاتك على قدر مهمتك الرسالية فى الكون كله ، فكل رسول إنما جاء لأمة محدودة ليعالج داءً محدوداً فى زمان محدود . وأنت قد جئت للأمر العام زماناً ومكاناً إلى أن تقوم الساعة ، فلابد أن تتناسب المشقات التى تواجهك مع عموم رسالتك التى خصّك الله بها .

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا ﴾

(من الآية ١٢٣ سورة الأنعام)

والإجرام هو مأخوذ من مادة « الجيم » و « الراء » و « الميم » ، الجرْم والجُرْم والجريمة . فيها معنى القطع . و « مجرميها » جمع مجرم ، ومجرم من أجرم ، وأجرم أى ارتكب الجُرم والجريمة ، ومعنى ذلك أنه قطع نفسه بالجريمة عن مجتمعه الذى يعايشه ، فهو يعزل نفسه لا لمصلحة لأحد إلا لمصلحته هو ، فكأنه قام بعملية انعزال اجتماعى ، وجعل كل شىء لنفسه ، ولم يجعل نفسه لأحد ؛ لأنه يريد أن يحقق مرادات نفسه غير مهتم بالنتائج التى تترتب على ذلك .

إذن فالإجرام هو الإقدام على القبائح إقداماً يجعل الإنسان عازلاً نفسه عن خير مجتمعه ؛ لأنه يريد كل شىء لنفسه . وما دام يريد كل شىء لنفسه فعامل التسلط موجود فيه ، ويرتكب الرذائل . ولأنه يرتكب الرذائل فهو يريد من كل المجتمع أن تنتشر فيه مثل هذه الرذائل ؛ كى لا يشعر أن هناك واحداً أحسن منه .

﴿ لِيَمْكُرُوا فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾

(من الآية ١٢٣ سورة الأنعام)

والمكر ـ كما نعرف ـ مأخوذ من التفاف الأغصان بعضها على بعض التفافاً بحيث لا تستطيع إذا أمسكت ورقة من أعلى أن تقول هذه الورقة من هذا الفرع ؛ لأن الأغصان والفروع ملفوفة ومتشابكة ومجدولة بعضها مع بعض . والماكر يصنع ذلك

لأنه يريد أن يلف تبييته حتى لا يُكشف عنه ، وما دام يفعل ذلك فاعلم من أول الأمر أنه ضعيف التكوين ؛ لأنه لو لم يعلم ضعف تكوينه لما مكر لأن القوى لا يمكر أبداً ، بل يواجه ، ولذلك يقول الشاعر :

وضعيفة فإذا أصابت فرصة قتلت كذلك قدرة الضعفاء

والضعيف عندما يملك فهو يحدث نفسه بأن هذه فرصة لن تتكرر ، فيجهز على خصمه خوفاً من ألا تأتى له فرصة أخرى ، لكن القوى حين يأتى لخصمه فيمسكه ثم قد يُحدث نفسه بأن يتركه ، وعندما يرتكب هذا الخصم حماقة جديدة فيعاقبه . إذن فلا يمكر إلا الضعيف . والحق سبحانه وتعالى فى هذه المسألة يتكلم عن المجرمين من أكابر الناس ، أى الذين يتحكمون فى مصائر الناس ، ويفسدون فيها ولا يقدر أحد أن يقف فى مواجهتهم . وهناك كثير من الآيات تتعلق بهذه المسألة ، وبعضها وقع فيه الجدل والخلاف ، ومن العجيب أن الخلاف لم يُصفَّ ، وكل جماعة من العلماء يتمسكون برأيهم . وهذه الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها تلتقى مع القول الحق :

﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

وهذه الآية فيها إشكال ، وقامت بسببها معركة بين العلماء ؛ فنجد منهم من يقول : وكيف يأمر الله أناساً بالفسق ؟ . وحاولوا أن يجدوا تأويلا لذلك فقالوا : إن الحق قد قسر وأجبر أكابر هؤلاء الناس على الفسق . والجانب الثانى من العلماء قالوا : لا ، إن الحق لا يقسر البشر على الفسق ، بل على الإنسان حين يقرأ كلمة أمر الله فى المنهج فلابد أن يعرف أن هذا الأمر عرضة لأن يطاع وعرضة لأن يعصى ؛ لأن المأمور - وهو المكلف - صالح أن يفعل ، وصالح ألا يفعل ، وأن الآمر قد أمر بشىء ، والمأمور له حق الاختيار ، وبذلك تجد أكابر القوم إنما استقبلوا أمر الله بالعصيان ؛ لأن الحق هو القائل :

﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ ﴾

(من الآية ٥ سورة البينة)

والفسق ـ إذن ـ مترتب على اختيار المأمور .

وحين نتأمل نحن بالخواطر معنى : « أمر الله » نجد أن أمر الله يتمثل فى التكوينات الطبيعية الكونية ولا يوجد لأحد قدرة على مخالفة الله فى ذلك ، فهو القائل : (إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون) .

ويتمثل أيضاً أمر الله فى التشريعات ، وللبشر الذين نزلت لهم هذه التشريعات أن يختاروا بين الطاعة أو العصيان ، وسبحانه القائل عن الأمر بالتشريع : (وما أمروا إلا ليعبدوا الله) .

وحين يقول الحق : (وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها) .

فسبحانه لا يهلك هذه القرية ظلماً ، وإنما يرسل إليهم المنهج ، فإن أطاعوا فأهلاً وسهلاً ، وإن عصوا فلابد لهم من العقاب بالدمار .

وهكذا نرى أن العلماء الذين ظنوا أن الفسق مترتب على الأمر من الله لم يلتفتوا إلى أن ورود الأمر فى القرآن جاء على لونين : أولا : أمر التكوين بالقهريات فلا يستطيع المأمور أن يتخلف عنه ، ويمثل الأمر القهرى قوله الحق :

﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾

(سورة يس)

فالأمر جاهز فى عالم الأزل ليبرز حين يشاء الحق . والأمر الثانى : هو الأمر التشريعى وهو صالح لأن يختار المكلف بين أن يطيع أو يعصى ، وفى هذا الإطار نفهم قوله الحق :

﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

فلا تقل : إن الله يأمر بالفسق ؛ فالحق قد أمر المؤمنين بالمنهج لأنه سبحانه لا يأمر بالفحشاء ، بل جاء الأمر لكل البشر أن يعبدوا الله مخلصين له الدين ، لكن كبار

أهل هذه القرية أخذوا البديل للطاعة وهو الفسق والمعصية ، فلما أمرهم ففسقوا ماذا يصنع بهم ؟ ، هو سبحانه يدمرهم تدميرا . فإن كان فى الكونيات فلا أحد من خلق الله مكلف فى الكونيات ، أما أمره الثانى فى اتباع المنهج فلنا أن نفهم أنه الاختيار .

وهكذا نعلم ونفهم معنى هذه الآية لتلتقى مع الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها : أى وإذا أردنا أن نهلك قرية أنزلنا منهجاً لها فأكابرها كانوا أسوة سيئة ففسقوا فيها بعدم إطاعة منهج الله فحق عليها القول فدمرناها تدميرا . وكذلك ـ أيضاً ـ نفهم قوله الحق : « وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون » لأن المكر إنما يريد به الماكر أن يحقق شيئاً من طريق ملتوٍ لأنه ضعيف لا يمكن أن يواجه الحقائق ، وهذه الحقائق تستقبلها الفطرة السليمة ، وهو يريد تزييف المسألة على هذه الفطرة لذلك يلتوى . ولمثل هذا الماكر نقول : أنت تريد أن تحقق لنفسك خيراً عاجلاً وشهوة موقوتة ، ولكنك إن استحضرت العقوبة التى تنشأ من هذا الأمر بالنسبة لك ، وكذلك عقوبتك على أنك أضللت الآخرين لرأيت كيف يأتى الشر .

﴿ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾

(من الآية ١٢٣ سورة الأنعام)

أى لا يعلمون ، لأنهم لا يوازنون الأمور بدقة تؤدى إلى النفع الحقيقى .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾

وكأن الآية التى أرسلها الله مع رسوله وهى القرآن لتثبت لهم صدقه فى البلاغ عن

الله لم تقنعهم ، ولم يكتفوا بها ، بل طالبوا بآيات أخرى ، فهم قد قالوا :

﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

هم لا يريدون أن يؤمنوا بل إنهم يدخلون فى اللجاج ، والتماس سبل الفرار من الإيمان ؛ لذلك تجد أن كل الحجج التى وقفوا بها أمام دعوة الرسول هى أكاذيب ؛ فقالوا إنه ساحر يفرق بين المرء وزوجه ، وبين الولد وأبيه ، ويُدخل بما جاء به ـ ويزعم أنه من عند الله ـ الفتنة فى الأسرة الواحدة .

لكن لماذا لم يتساءلوا : ما دام قد سحر غيرنا فلماذا لم يسحرنا ؟ . وهل تأبوا هم على السحر ؟ . وهل للمسحور رغبة أو خيار مع الساحر ؟ . إنهم فى ذلك كاذبون .

ثم قالوا : إن الرسول صلى الله عليه وسلم شاعر . ولو أن أحداً غيرهم قال مثل هذا الكلام لكان مقبولاً لأنه يجهل رسول الله ، ولأنه ليس من قوم هم أهل فصاحة وأهل بلاغة وأهل بيان ، إنهم يعرفون الشعر ، والنثر ، والخطابة والكتابة . فلو كان هذا الأمر من غيرهم لكان القول مقبولاً ، ولذلك نجد منهم من تصفو نفسه يقول : والله ما هو بقول كاهن ولا بقول شاعر . ويطلب الحق منهم ألا يقولوا رأيا جماهيريًا ؛ ففى الرأى الجماهيرى يختلط ويلتبس الحق بالباطل . بل كان يطلب منهم أن يكون الكلام محدداً بحيث تنسب كل كلمة إلى قائلها فيقول الحق :

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ﴾

(من الآية ٤٦ سورة سبأ)

أى لا تأتوا فى أثناء هياج الناس وتتهموا الرسول صلى الله عليه وسلم بالجنون ؛ لأن قولكم فى الهياج الجماهيرى غير محسوب على أحد لكن المطلوب أن تقوموا لله

مثنى أى اثنين اثنين ، وكل اثنين يقولان : هيا بنا نستعرض أمر هذا الرسول ونرى قضاياه : أهو كاهن ؟ . أهو ساحر ؟ . أهو شاعر ؟ فبين الاثنين لا يضيع الحق أبداً لأن كلاً منهما يناقش الآخر ، وحين يجلس اثنان للنقاش ، إذا انهزم منهما واحد أمام الآخر لا يُفضح أمام الغير ، لكن حين يتناقش ثلاثة أو أربعة فكل منهم يخاف أن ينهزم أمام غيره ، ونجد كل واحد يدافع عن نفسه . ولذلك حين يجلس اثنان معاً ليتناقشا ، ويبحثا أى أمر لا يخشى أحدهما الهزيمة ؛ لذلك يأتى الأمر من الله أن يقوموا لله مثنى أو فرادى ، ويتذكر كل واحد منهم أمر هذا الرسول : أهو مجنون ؟ .

إن أفعال المجنون وأعماله تكون متقطعة غير مستقيمة . ومحمد على خلق عظيم ، وهل يقال للمجنون : إنه على خلق عظيم ؟ ؛ لأن الإنسان منا لا يعرف كيف سيقابله المجنون ، أيضربه ، أيشتمه ، أيقطع له ملابسه ؟ . أمّا الخلق العظيم فمعناه الخلق المضبوط بالقيم ، وخلق رسول الله صلى الله عليه وسلم مضبوط بالقيم حتى صار ملكة وليس أمراً افتعاليًا . وحين يقول الناس عن إنسان إن خلقه الكرم أى قد تأصلت فيه صفة الكرم تأصلاً بحيث أصبحت تصدر عنه أفعال البذل بيسر وسهولة ، والصفة حين ترسخ فى النفس تصير هى الخلق وتصدر عن النفس الأفعال بيسر وسهولة . وفى أعمال المعانى نسميها خلقاً ، وفى أعمال المادة نسميها آلية .

وكلنا يعرف أن الإنسان إن أراد أن يتعلم قيادة سيارة فهو يتعلم الأفعال التى تؤدى إلى سير السيارة حتى يكتسب المهارة ويؤديها بيسر وبدون صعوبة ، وكذلك الشأن فى الخلق حين تصدر عنه الأفعال بدُربة ومهارة ، ونجد ـ على سبيل المثال ـ من يتعلم الفقه ، فيسأله إنسان عن الحكم فى الأمر المعين ، فيستعرض الأمر من كل أوجهه فى وقت طويل ، لكن من يتدرب يصبح الفقه بالنسبة إليه ملكة ، فلا يتعب فى استنباط الحكم . كذلك الخلق .

ويوضح لهم الحق : أنتم تقولون عن الرسول : إنه مجنون ، فاجلسوا مثنى مثنى أو فرادى وادرسوا تصرفاته ستجدون أنها تصرفات منطقية مبنية على خلق كامل مكتمل ، وهو سلوك يختلف بالتأكيد عن سلوك المجنون ؛ لأن المجنون لا ضابط له فى حركاته ولا فى سكناته ولا فيما يأتى ولا فيما يدع . وكذلك لا يمكن أن يكون شاعراً ؛ لأنكم أنتم أهل شعر ، وكذلك ليس بكاهن ؛ فالكهنة قد يستبدلون بآيات

الله ثمنا قليلا ، وهو الذى أعلن لكم رفض الملك والثروة والجاه . لكنهم قالوا :

﴿ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ١٢٤ سورة الأنعام).

وقد حدث الوليد بن المغيرة نفسه بذلك ، وكان من ناحية السن أسنّ من رسول الله ، ومن ناحية المال كان غنيًا ، ومن ناحية الأولاد عنده العزوة والولد ، وقال : لو كانت الرسالة بكل هذه الأمور لكنت أنا أولى بهذا لأننى أسنّ ولأننى أكثر مالاً ولأننى أكثر ولداً . وهو قد قاسها بمقاييس البشر ، وكأن الوليد لم يكن يعلم أن الرسالة ليست رئاسة ، فإذا كنت أنت دون غيرك عندك المال وعندك الأولاد وعندك الزروع وغير ذلك لكنك لست على خلق محمد صلى الله عليه وسلم ، الذى فطره الله عليه وأعده واصطفاه ليكون رسولا ، ولكن مع هذا قال بعضهم :

﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾

(سورة الزخرف)

ولنسمع رد القرآن :

﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ﴾

(من الآية ٣٢ سورة الزخرف)

ويوضح لهم الحق : نحن قسمنا بينهم الأمور الحياتية ، لكنكم تريدون تقسيم رحمة الله ، وفرق بين الرحمة فى الرسالات وبين امتداد الحياة بالأقوات والمال ؛ لأن هذه عطاءات ربوبية . لكن الرحمة هى عطاءات ألوهية ، إنكم تميزتم فى دنياكم بالمال والبنين والبساتين لا لخصوصية فيكم ولكن لأن نظام الكون كله إنما يحتاج إلى مواهب متكاملة لا إلى مواهب متكررة ، ولو امتلك كل الناس مثل ما عندك يا وليد من أرض ومال لما وجدت من يفلح لك الأرض ، ولما كان عندك من يسرج لك الفرس . ولهذا جعل الحق مسألة الثروة دولاً ، أى يقلب سبحانه هذه الأمور لتكون متداولة بين الناس ؛ تكون لهذا فى زمن ولآخر فى وقت وزمن آخر ولا تدوم لأحد .

وحين جاء الناس إلى أبى جهل يحدثونه فى الرسالة قال : زاحمنا بنى عبد مناف فى

الشرف : أطعموا فأطعمنا ، كسوا فكسونا ، ذبحوا فذبحنا . حتى صرنا كفرسى رهان ، قالوا : منا نبى يوحى إليه والله لا نرضى به ولا نتبعه أبداً إلاّ أن يأتينا بوحى كما يأتيه ، ومعنى كفرسى رهان ، أى فحين تنطلق الخيل فى السباق فى وقت واحد كانوا يدقون عوداً فى الأرض عند نهاية السباق ومن يجذبه من الأرض يقال له : حاز قصب السبق ، وعود القصبة هو غاية المشوار ، حتى لا يقولن أحد لقد سبقنى بخطوة أو غير ذلك .

وهنا يقول الحق : (وإذا جاءتهم آية) .

وانظر إلى كلمة « جاءتهم آية » ، فمرة يقول : (قد جئناك بآية من ربك) ، ومرة يقول : « جاءتهم آية » ، فكأن الآية بلغت من وضوحها ومن استقلالها ومن ذاتيتها وخصوصيتها أنها تجىء .

﴿ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ١٢٤ سورة الأنعام)

ويقول الله لهم رداً عليهم : لا تقترحوا ذلك على الله ؛ لأن « الله أعلم حيث يجعل رسالته » ؛ لأن الرسالة إنما تجىء لتنشر خيراً فى الجميع ، ولكنها تعف نفسها عن آثار الانتفاع من ذلك الخير . والغير يريد أن يأتى له الخير ثم يترك بعضاً من الخير للناس . والرسول قد جاء لينشر خيره للآخرين ، وهو نفسه لا ينال من هذا الخير إلا البلاغ به . ويأمر سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يموت ألا يأخذ أهله الزكاة ، أمّا ما تركه فقد صار صدقة للناس ، أى أنه لم ينتفع به فى الدنيا ؛ لذلك هو مأمون على الرسالة ، ولم يُرد أن يأخذ الدنيا ليرثها أهله من بعده . وقد أراده الله كذلك ليكون خيره لكل الناس . فالرسالة تكليف ، والنبوة ليس جزاؤها هنا ، بل من عظمة الجزاء أنه فى الآخرة ، ولذلك حينما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيعة العقبة وقالوا : اشترط لنفسك . قال : تمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم وتعملون كذا وتعملون كذا .

قالوا له : فما لنا ؟ أنت اشترطت لنفسك ، فما لنا إن نحن وفينا ؟ . ماذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم ؟ . قال : لكم الجنة . هذا هو الثمن الذى عنده ،

فمن يريد الجنة يأتى إلى الإيمان ، ومن يريد ما هو دون الجنة فليس مكانه مع أهل الإيمان . مع أنه قال لهم فيما بعد ستركبون السفن وتفرشون الزرابى والوسائد وتجلسون عليها ، وبشرهم بالكثير ، لكنه لم يقل لهم ذلك من البداية لأن مِن هؤلاء من لا يدرك خيراً فى الدنيا مع الإسلام ؛ بل يموت والإسلام ضعيف وأتباعه فى قلة ، لذلك أعطاهم الجزاء المضمون لهم جميعاً حين قالوا له : ماذا إن نحن وَفَّيْنا ؟ . قال : لكم الجنة . وكأنه صلى الله عليه وسلم يعلمهم أن الدنيا أهون من أن تكون جزاءً على العمل الصالح ، فجزاء العمل الصالح خالد لا يفوتك ولا تفوته .

﴿ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ ﴾

(من الآية ١٢٤ سورة الأنعام)

وحين نتأمل قولهم : (لن نؤمن) نجد أن فى هذا القول إصراراً على عدم الإيمان ، أى لن نؤمن حتى فى المستقبل إنهم تحكموا فى المستقبل . ثم يفضحهم الله فيموت بعضهم على الكفر ، ومن بقى منهم يأتون مؤمنين بعد الفتح . ومن العجيب أن العبارة التى ينطقون بها هى عبارة مهزوزة لا تستقيم مع منطق الكفر منهم ، قالوا : لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله ، كأنهم قد عرفوا أن هناك رسلا من الله ، والأصل فى الآية أن يؤمنوا برسل الله ورسول الله صلى الله عليه وسلم خاتم الرسل ، وهذا القول يدل على مجرد المعارضة المقترنة بالغباء ، فما دمتم تعرفون أن لله رسلاً يصطفيهم ، فكيف تحاولون أنتم تحديد إرادة الله فى الاختيار ؟ .

إن رسل الله كانت لهم آيات كونية ، حسيّة مرئية ، وهى وإن كانت فيها قوة المشهد الملزم ، إلا إنه لا ديمومة لها ، فمن رأى سيدنا موسى وهو يضرب البحر فينفلق لن يكذب هذه الآية الكونية ، إلا أنها أصبحت خبراً والخبر مناسب لمحدودية رسالة موسى ، وكذلك رسالة عيسى عليه السلام حيث أبرأ الأكمه والأبرص بإذن الله . وهذه رسالات لزمن محدود وفى قوم محدودين ، لكن الرسول صلى الله عليه وسلم جاء ومعه المنهج المعجزة الباقى إلى قيام الساعة ، فإن كانت المعجزة حسيّة فلن يراها إلا قوم مخصوصون لأن الأمر الحسّى لا يتكرر ، بل ينتهى ، وسيدنا محمد رسول إلى أن تقوم الساعة . فلابد له من آية باقية إلى قيام الساعة ؛ لذلك كانت الآية فى المعنويات والعقليات التى لا تختلف فيها الأمم ولا تختلف فيها الأزمان ،

لكنهم أرادوا معجزة حسيّة ، وأخرى عقلية ، حتى إذا جاءت واحدة فقط أنكروا الثانية ، فحسم الحق الأمر وقال : « الله أعلم حيث يجعل رسالته » .

ولو نظروا إلى كلمة « الله أعلم حيث يجعل رسالته » ، فكلمة « أعلم » تدل على أنه قد يمكّن الله بعضاً من خلقه ليعلموا لماذا اختار الله محمدا صلى الله عليه وسلم ؛ لأن الذين واجههم صلى الله عليه وسلم بأمر الدعوة ، هل انتظروا منه أن تكون له آية أو معجزة ، أو آمنوا به بمجرد الإخبار ؟ . لقد آمنوا بمجرد الإخبار ؛ لأن تجربتهم معه أكدت أنه صادق وأمين على خبر الأرض ، ولابد أن يكون مأمونا على خبر السماء ؛ لأنه لم يكذب عليهم فى أمر الأرض ، فكيف يكذب فى أمر السماء ؟

إننا نجد أن سيدنا أبا بكر ، بمجرد أن علم بأمر الرسالة قال : صدقت ، وسيدتنا خديجة صدقته من فور أن قال ، وأخذت صدق بلاغه من مقدمات حياته ، وقالت أول استنباط فقهى فى الإسلام . وكان ذلك لسيدتنا أم المؤمنين خديجة قبل أن يعرف الفقه بمعناه الإصطلاحى الحديث ، مما يدل على أن الاستنباطات للأدلة هى استنباطات للعقل الفطرى السليم البعيد عن الأهواء . إنّه يقدر أن يستقرىء الأمر ولابد أن يهتدى ، فحين أعلن لها أنه خائف أن يكون الذى أصابه مرض أو مسٌّ من الجن رفضت ذلك ؛ لأنه يصل الرحم ، ويحمل الكلّ ، ويعين على نوائب الدهر ، وقالت له : والله لا يخزيك الله أبداً .

إذن فقد جاءت بالمقدمات التى ترشح أن ربنا لا يمكن أن يخذله ، وكل المقدمات مفاخر ، وكلها خلق عظيم ، وكلها التقاءات إنسانية قبل أن يأتى منهج السماء ، التقاءات إنسانية بالفطرة دون تقدير أو تدبير ، وكان هذا أول استنباط فقهى فى الإسلام . ولذلك نعرف السر لماذا جعل الله لرسوله أم المؤمنين خديجة أول زوجة له ؟ لأنه ستمر به فترة لا يحتاج فيها إلى زوجة فقط ، بل إلى أم ناضجة ، ذلك النضج الكامل الذى تستقبل به مسائل النبوة ، ولذلك حين يخرج إلى الغار تأتى له بالطعام ، وتذهب معه لورقة بن نوفل . بالله لو كانت بنتاً صغيرة أكانت تمتلك حكمة خديجة فى الاستنباط قبل أن يوجد فقه الإسلام ؟

« الله أعلم حيث يجعل رسالته » ؟ ، وهم قد أصروا على ألا يعلموا على الرغم من أنهم وجدوا منه خصالاً وأشياءً حكموا بوجودها فيه وأنها صفات رسول .

﴿ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ١٢٤ سورة الأنعام)

هنا نجد فجوة انتقالية فى الأداء ، فمن قبل يتحدث سبحانه عمن يظنون أنهم كبار ، فيأتى ليقول : إن الصَّغار سيصيبهم ، وليس معنى الصغار الذل والهوان لدى الناس ، لا ، بل صغار وذل وهوان عند نفس كل منهم ذاتيًا ، فكل منهم سيشعر بالذل أمام نفسه ويستصغر نفسه . كأن الصغار سيصيب الإنسان فى نفسه ، ويكون هذا الصغار من عند الله ، وما دام الصغار منسوباً إلى عندية الله فهو لا يزول أبداً ؛ لأنه لا توجد قوة ثانية تقول لله إن قدرك لن يتحقق . فالصغار والذل والهوان سينزل بهم وهم مع كونهم أكابر المجرمين فلن يستطيعوا دفعه عن أنفسهم ، وسيصيبهم مع ذلك عذاب شديد .

لماذا العذاب الشديد ؟

لقد قلنا من قبل : إن العذاب يوصف مرة بأنه أليم ، ويوصف مرة أخرى بأنه مهين ، ويوصف هنا بأنه شديد . والعذاب المهين الذى تكون فيه ذلة النفس . والعذاب الأليم الذى يكون فى البنية ؛ لأن الإنسان له بنية وله معنويات قيمية ، فمن ناحية البنية يصيبه العذاب ، ومن ناحية المعانى النفسية تصيبه الإهانة ، فهناك من يتعذب لكنك لا تملك أن تهينه ويتحمل المشقة برجولة ، ومهما تلقى من الإهانة فلا تزال نفسه كريمة عليه ، مصداقاً لقول الشاعر :

وتجلدى للشامتين أريهمو ... أنى لريب الدهر لا أتضعضعُ

لذلك ينزل قدر الله بالعذاب على نوعين : عذاب بنية وعذاب قيم ، وهذا هو الصغار ، والعذاب الشديد ، وهو الذى لا يقوى الإنسان على تحمله ، ولم يُنزل الحق العذاب بهؤلاء جزافاً ، لكنه بسبب ما كانوا يمكرون ، فسبحانه هو القائل :

﴿ وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

(من الآية ١١٨ سورة النحل)

والحق سبحانه وتعالى حينما عرض هذه القضية عرضها ليبين لنا أنه لم يرغم بقدره خلقاً من خلقه على مسائل الاختيار فى التكليف بل أوجد ذلك فى إطار :

﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الكهف)

ولكن الإرغام من الحق جاء للأمور القهرية القدرية الكونية الخارجة عن نطاق التكليف ، أما أمر التكليف فالله سبحانه وتعالى قال فيمن يرفضون الطاعة : « سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد » وسبحانه قد أوضح لنا : نحن لم نجعل ذلك قهراً منا لهم دون عمل عملوه باختيارهم بل إن العذاب والصغار كانا جزاءً لمكرهم .

ثم يأتى الحق سبحانه وتعالى لنا بقضية يقع فيها الجدل التبريرى لبعض الناس الذين أسرفوا على أنفسهم ، ويريدون أن يجعلوا إسرافهم على أنفسهم فى الذنوب خاضعا لأن الله أراد منهم ذلك ؛ فيقول سبحانه :

﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ ﴾

نجد من يقول إن ربنا حين يريد لإنسان أن يشرح صدره للإسلام فذلك من إرادة الله وما ذنب المكلف إذن ؟ .

وللرد على هذا نقول : لقد عرفنا من قبل أن الهداية لها معنيان : المعنى الأول : الدلالة وهى أمر وارد وواجب حتى للكافر . فإن هُدى الله للكافر أن يدلّه إلى طريق الخير ، ولكن هناك هداية من نوع آخر وهى للذى آمن ، ويصبح أهلاً لمعونة الله ، بأن يخفف عنه أعباء التكاليف وييسرها له ويجعله يعشق كل الأوامر ويعشق البغض والتجافى عن كل النواهى .

يقول بعض الصالحين : « اللهم إنى أخاف ألا تثيبنى على طاعة ، لأنى أصبحت أشتهيها » كأنه عشق الطاعة بحيث لم يعد يجد فيها مشقة أو تكليفاً ، لذلك فهو خائف ، وكأنه قد فهم أنه لابد أن توجد مشقة ، ولمثل هذا الإنسان الصالح نقول : لقد فقدت الإحساس بمشقة التكليف لأنك عشقته فألفت العبادة كما ألفتك وعشقتك ، وحدث الانجذاب بينك وبين الطاعة ، وجعلت رسول الله مثلاً لك وقدوة ، فقد كان صلى الله عليه وسلم يرى أنه إذا نودى إلى الصلاة يقوم الناس إليها كسالى لكنه صلى الله عليه وسلم يقول لبلال حينما يأتى وقت الصلاة : « أرحنا بها يا بلال » .

وهذا غير ما يقوله بعض ممن يؤدون الصلاة الآن حيث يقول الواحد منهم : هيا نصلِّ لنزيحها من على ظهورنا ، وهؤلاء يؤدونها بالتكليف لا بالمحبة والعشق . أما الذين ألفوا الراحة بالصلاة حينما يحزبهم ويشتد عليهم أمر خارج عن نطاق أسبابهم ، يقول الواحد منهم : ما دامت الصلاة تريح القلب ، فلأذهب إليها وألقى ربى زائداً على أمر تكليفه لى متقربا إليه بالنوافل ، ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا حزبه أمر قام إلى الصلاة . ومعنى حزبه أن الأسباب البشرية لا تنهض به . فيقوم إلى الصلاة ، وهذا أمر منطقى ، ولله المثل الأعلى .

كان الإنسان منا وهو طفل إذا ما ضايقه أمر يذهب إلى أبيه ، فما بالنا إذا ما ضايقنا أمر فوق الأسباب المعطاة لنا من الله فلمن نروح ؟ إننا نلجأ لربنا ولقد كان صلى الله عليه وسلم إذا حزبه أمر قام إلى الصلاة .

إذن فعشق التكليف شيء يدل على أنك ذقت حلاوة الطاعة ، وقد يجوز أنه شاق عليك ؛ لأنه يخرجك أولاً عمَّا ألفت من الاعتياد . فعندما يأتيك أمر فيه مشقة تقول : إن هذه المشقة إنما يريد الله بها لى حسن الجزاء ، فإذا ما عشقت الصلاة صارت حبًّا لك ، وكان واحد من الصالحين ـ كما قلت ـ يخاف ألا يثاب على الصلاة لأنها أصبحت شهوة نفس ، والإنسان مطالب بأن يحارب نفسه فى شهواتها لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم وضع لنا المثل فقال : « لا يؤمن أحدكم حتى يصبح هواه تبعاً لما جئت به » أى يصبح ما يشتهيه موافقا لمنهج الله ، فإذا وصل وانتهى المؤمن إلى هذه المنزلة فهو نعم العبد السوى .

وهكذا عرفنا أن الهداية قسمان : هداية بمعنى الدلالة ، وهداية بمعنى المعونة .

فإذا ما اقتنعت بهداية الدلالة وآمنت بالحق فسبحانه يخفف عليك أمور التكليف ، ويجعلك عاشقاً لها ، ولذلك يقول أهل الصلاح : ربنا قد فرض علينا خمس صلوات ، وسبحانه يستحق منا الوقوف بين يديه أكثر من خمس مرات ، وفرض علينا ربنا نصاب الزكاة وهو اثنان ونصف بالمائة ، وسبحانه يستحق منا أكثر من ذلك لأنه واهب كل شيء ، وهذا عشق التكليف ، وهذا هو معنى قوله : (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام) .

« فمن يرد الله أن يهديه » أى يدلّه سبحانه كما دل كل العباد إلى المنهج ، لكن الذى اقتنع بالدلالة وآمن يسهل عليه تبعات التكليف مصداقاً لقوله الحق :

﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَـٰقِيَـٰتُ ٱلصَّـٰلِحَـٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾ ﴾

(سورة مريم)

فهذه هداية المعونة ، وفيه فرق هنا بين الإسلام والإيمان لأن الإيمان لا يحتاج فقط إلى الاعتقاد ؛ إنما هو حمل النفس على مطلوبات الإيمان . ولذلك نجد أن كبار رجال قريش رفضوا أن يقولوا : « لا إله إلا الله » ؛ لأنهم علموا أنها ليست مجرد كلمة تقال ، ولكن لها مطلوبات تتعب فى التكاليف الناتجة عنها بـ « افعل » و « لا تفعل » . فالتكليف يقول لك : « افعل » لشيء هو صعب عليك ، ويقول لك : « لا تفعل » فى شيء من الصعب أن تتركه ، لذلك يقول سبحانه :

﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ ﴾

(من الآية ١٢٥ سورة الأنعام)

وسبحانه يشرح صدره للإسلام بعد أن علم أنه قد اعتقد شريعة التوحيد ورضيها واطمأن بها ، فيأتى إلى فهم التكاليف ؛ لأن صحيح الإسلام يقتضى الانقياد لأمور التكاليف ، فمن أخذ الهداية الأولى وآمن بربه ، يوضح له سبحانه : آمنت بى وجئتنى ؛ لذلك أخفف عنك تبعات العمل ، ويشرح صدره للإسلام ، وشرح الصدر قد يكون جزاءً . فسبحانه هو القائل :

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ ﴾

(سورة الشرح)

فقد جازاه ربنا بذلك ؛ لأنه أدّى ما عليه وصمد . كأن الله يريد بالإيمان من المؤمن أن يقبل على الحق ، وحينما يقبل على الحق ، يبحث العبد ليتعرف على المراد والمطلوب منه فيعلم أنها التكاليف ، فإذا رأى الله منك الاستعداد المتميز لقبول التكاليف ، فإنّه يخففها عنك لا بالتقليل منها ، ولكن بأن يجعلك تشتهيها ، وقد تلزم نفسك بأشياء فوق ما كلفك الله ؛ لتكون من أهل المودة ومن أهل التجليات ومن الذين يدخلون مع الله فى ود ، وتلتفت لنفسك وأنت تقول : لقد كلفنى الله بالقليل وسبحانه يستحق الكثير . فتزيد من طاعتك وتجد أمامك دائماً الحديث القدسى :

« من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إلى عبدى بشىء أحب إلىّ مما افترضته عليه ، ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها »[1] .

أى بالأمور التى تزيد على ما كلفه فى الصلاة والزكاة والصيام والحج .

إذن فمعنى « فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام » أى يجعل الأمور التى يظن بعض من الناس أنها متعبة فإنه بإقباله عليها وعشقه لها يجدها مريحة ويقبل عليها بشوق وخشوع . ولذلك فالحق سبحانه وتعالى يترك فى خلقه مُثُلاً للناس ، فنجد المال عزيزاً على النفس حريصة عليه لأنه إن كان المال قد جاء بطريق شرعه الله وأحله فهو يأتى بتعب وبكدّ ؛ لذلك يحرص عليه الإنسان ، فيحنن الله العبد من أجل البذل والعطاء .

إننا نجد المؤمن يعطى للسائل لأن السائل هو الجسر الذى يسير عليه المسلم إلى الثواب من الله ، فيقول العبد المؤمن للسائل : مرحباً بمن جاء ليحمل زادى إلى الآخرة بغير أجرة ، ولذلك عندما جاء مسلم إلى الإمام علىّ ـ رضى الله عنه وكرّم الله وجهه ـ ، قال المسلم : أنا أريد أن أعرف أأنا من أهل الدنيا أم من أهل الآخرة ؟

---

(١) رواه البخارى .

واختار الإمام عليّ مقياساً للإيمان فى نفس كل مؤمن ، وقال له : إن جاءك من يطلب منك ، وجاء من يعطيك ، فإن كنت تهشّ لمن يعطيك فأنت من أهل الدنيا ، وإن كنت تهشّ لمن يأخذ منك فأنت من أهل الآخرة ؛ لأن الإنسان يحب من يعمر له ما يحب .

إذن فـ « يشرح صدره للإسلام » أى يخفف عنه متاعب التكليف بحيث لا توجد مشقة ، ثم يرتقى بعد ذلك ارتقاءً آخر بأن يُعشّقه فى التكليف . ويهديه الله إلى طريق الجنة ، لأن هناك هداية إلى المنهج وهداية إلى الجزاء على المنهج ، ولذلك نجد القرآن يقول ؛ عمن ضلوا :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ ﴾

(سورة النساء)

كأن هناك هداية إلى العمل وهداية إلى الجزاء ، ونجد الحق يقول :

﴿ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾ ﴾

(سورة محمد)

وقد يتساءل إنسان : كيف يهدى الله من قُتل ، وهل هناك تكليف بعد القتل ؟ . نقول : انظر إلى الهداية ، إنها هداية الجزاء « سيهديهم ويصلح بالهم ويدخلهم الجنة عرَّفها لهم » .

وهكذا نعرف أن هناك هداية الجزاء ، من يحسن العمل يُجزه الله الجنة ، أما من يسىء فله عذاب فى الدنيا والآخرة .

﴿ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

(من الآية ١٢٥ سورة الأنعام)

وهل هذا تجنٍ من الله على خلقه ؟ لا ، لأنه ما دام دعاهم للإيمان فآمن بعضهم وصاروا أهلاً للتجليات ، وكفر بعضهم فلم يؤمنوا ، فصاروا أهلاً للحرج وضيق الصدر . ومعنى الضيق أن الشيء يكون حجمه أقل مما يؤدى به مهمته ، فحين يقال : ضاق البيت بى وبعيالى ، فهذا يعني أن الرجل وزوجه فى البداية عاشا فى غرفتين ، وكان البيت متسعاً . ثم أنجبا عيالاً كثيرة فضاق بهم البيت . وهكذا نعلم أنه لم يطرأ شيء على الجدران ومساحة البيت ، لكن حين زاد عدد الأفراد شعر رب الأسرة بضيق المنزل . ويقال : صدره ضيّق أو ضيْق فقد ورد فى القرآن لفظ ضيق على لغتين : فالحق يقول :

﴿ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾

(من الآية ١٢٧ سورة النحل)

وهناك فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها توجد كلمة ضَيّق ، والحق يقول :

﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ ﴾

(من الآية ١٢ سورة هود)

فما المراد من « ضائق » ، و « ضيّق » ، و « ضيْق » ؟ . نعرف أن الصدر هو مكان الجارحتين الأساسيتين فى التكوين : القلب والرئة ، والرئة هي الجارحة التى لا تستمر الحياة إلا بعملها ؛ فقد تبطىء الأمعاء مثلا ، أو تتوقف قليلاً عن عملها ، ويتغذى الإنسان على خزينه من الدهن أو اللحم ولذلك يصبر الإنسان على الجوع مدة طويلة ، ويصبر على الماء مدة أقل ، لكنه لا يصبر على افتقاد الهواء لدقائق ، ولا صبر لأحد على ترك الشهيق والزفير .

ولقد قلنا من قبل : إن الحق سبحانه وتعالى قد يملّك بعضاً قوت بعض . وأقل منه أن يملِّك بعضا ماء بعض ، لكن أيملّك أحداً هواء أحد ؟ لا ؛ لأن الرضا والغضب أغيار فى النفس البشرية . فإذا غضب إنسان على إنسان ، وكان يملك الهواء وحبسه عنه فالإنسان يموت قبل أن يرضى عنه هذا الآخر ، ولذلك لم يملك الله الهواء لأحد من خلقه أبداً .

إذن كل المسألة المتعلقة بقوله : « يجعل صدره ضيقاً حرجاً » نعلم عنها أن الصدر

هو محل التنفس ، والرئة تأخذ الأوكسيجين وتطرد ثانى أوكسيد الكربون ، وعندما يصاب الإنسان بنوبة برد نراه وهو يجد صعوبة فى التنفس ، كأن حيّز الصدر صار ضيقاً ، فلا يدخل الهواء الكافى لتشغيل الرئتين ، ويحاول الإنسان أن يعوض بالحركة ما فاته فينهج . ويشخص الأطباء ذلك بأن المريض يريد أن يأخذ ما يحتاجه إليه من الهواء ، فينهج ؛ لأن الحيّز قد ضاق ، وكذلك عندما يصعد الإنسان سلماً ، ينهج أيضاً ؛ لأن الصعود يحتاج إلى مجهود ، لمعاندة جاذبية الأرض ، فالأرض لها جاذبية تشد الإنسان ، ومن يصعد إنما يحتاج إلى قوة ليتحرك إلى أعلى ويقاوم الجاذبية .

إننا نجد نزول السلم مريحاً ؛ لأن فى النزول مساعدة للجاذبية ، لكن الصعود يحتاج إلى جهد أكثر ، فإذا ضاق الصدر فمعنى ذلك أن حيز الصدر لم يعد قادراً على أن يأخذ الهواء بالتنفس بطريقة تريح الجسم ، ولذلك يقال : « فلان صدره ضيق » أى أن التنفس يجهده إجهاداً بحيث يحتاج إلى هواء أكثر من الحجم الذى يسعه صدره .

« ومن يرد أن يضلّه يجعل صدره ضيقاً حرجاً » والحرج معناه الحجز عن الفعل ، كأن نقول حرَّجت على فلان أن يفعل كذا ، أى ضيقت عليه ومنعته من أن يؤدى هذا العمل . (كأنما يصّعد فى السماء) .

وعلمنا أن الصعود لأعلى هو امتداد لفعل الجسم إلى جهة من جهاته . فالجهات التى تحيط بأى شىء ست : هى فوق وتحت ، ويمين ، شمال ، وأمام ، وخلف ، وعرفنا أن الهبوط سهل ؛ لأن الجاذبية تساعد عليه ، والمشى ماذا يعنى ؟ المشى إلى يمين أو إلى شمال أو إلى أمام أو إلى خلف ، فهو فعل فى الاستواء العادى الظاهر ، والذى يتعب هو أن يصعد الإنسان ، لأنه سيعاند الجاذبية ، وهو بذلك يحتاج إلى قوتين : قوة للفعل فى ذاته ، والقوة الثانية لمعاندة الجاذبية .

« ومن يرد أن يضلّه يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصّعد فى السماء » وذلك بسبب مشقات التكليف ؛ لأنه لم يدخلها بعشق ، فلا يدخل إلى مشقات التكليف بعشق إلا المؤمن فهو الذى يستقبل هذه التكاليف بشرح صدر وانبساط نفس وتذكر بما يكون له من الجزاء على هذا العمل ، والذى يسهل مشقة الأعمال حلاوة تصور الجزاء عليها ؛ فالذى يجتهد فى دروسه إنما يستحضر فى ذهنه لذة النجاح وآثار هذا النجاح

فى نفسه مستقبلاً وفى أهله . أما الذى لا يستحضر نتائج ما يفعل فيكون العمل شاقاً عليه .

﴿ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾

(من الآية ١٢٥ سورة الأنعام)

والسماء هى كل ما علاك فأظلك ، فالجو الذى يعلوك هو سماء ، وكذلك السحابة ، وأوضح لنا ربنا أنه أقام السموات السبع ، وهنا أراد بعض العلماء الذين يحبون أن يظهروا آيات القرآن كمعجزات كونية إلى أن تقوم الساعة ، أرادوا أن يأخذوا من هذا القول دليلاً جديداً على صدق القرآن ، وتساءلوا : من الذى كان يدرك أن الذى يصعد فى الجو يتعب ويحتاج إلى مجهودين : الأول للعمل والثانى لمناهضة الجاذبية ولذلك يضيق صدره لأنه لا يجد الهواء الكافى لإمداده بطاقة تولد وقوداً .

ونقول لهؤلاء العلماء : لا يوجد ما يمنع استنباط ما يتفق فى القضية الكونية مع القضية القرآنية بصدق ، ولكن لنحبس شهوتنا فى أن نربط القرآن بكل أحداث الكون حتى لا نتهافت فنجعل من تفسيرنا لآية من آيات القرآن دليلاً على تصديق نظرية قائمة ، وقد نجد من بعد ذلك من يثبت خطأ النظرية .

إنه يجب على المخلصين الذين يريدون أن يربطوا بين القرآن لما فيه من معجزات قرآنية مع معجزات الكون أن يمتلكوا اليقظة فلا يربطوا آيات القرآن إلا بالحقائق العلمية ، وهناك فرق بين النظرية وبين الحقيقة ؛ فالنظرية افتراضية وقد تخيب . لذلك نقول : أبعد القرآن عن هذه حتى لا تعرضه للذبذبة . ولا تربطوا القرآن إلا بالحقائق العلمية التى أثبتت التجارب صدقها .

وقائل القرآن هو خالق الكون ، لذلك لا تتناقض الحقيقة القرآنية مع الحقيقة الكونية ؛ لذلك لا تحدد أنت الحقيقة القرآنية وتحصرها فى شىء وهى غير محصورة فيه . وتنبه جيداً إلى أن تكون الحقيقة القرآنية حقيقة قرآنية صافية ، وكذلك الحقيقة الكونية .

﴿ كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

(من الآية ١٢٥ سورة الأنعام)

والرجس وهو العذاب ، إنما يأتيهم بسبب كفرهم وعدم إقبالهم على التكليف .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ﴾

و « هذا » مقصود به ما تقدم من آيات . من كتاب الإسلام وهو القرآن ، وذلك ما يشرح الصدر القابل للإيمان ، والقرآن هو الحامل لمنهج الإسلام ؛ فمرة تعود الإشارة إلى القرآن أو إلى الإسلام . وليس هناك خلاف بين القرآن والإسلام .

(وهذا صراط ربك مستقيماً) . و « الصراط » هو الطريق السَّوى ، والطريق السَّوى قد يكون مع استوائه معوجاً لكن هذا الطريق مستوٍ ومستقيم ، ونعلم أن الطريق المستقيم هو أقصر الطرق الموصلة للغاية . وعلى هذا فصراط لا تغنى عن مستقيم ، ومستقيم لا يغنى عن صراط ، بل لابد من صراط معبد ومستقيم ليكون أقصر طريق إلى الغاية وبلا متاعب ، إننا ـ نحن البشر ـ نرى المهندسين وهم يقيسون الأبعاد والمسافات والغايات والبدايات والنهايات ، وبعد ذلك يربطون البدايات بالغايات .

إنهم يحضرون آلات معينة ليرصدوا استقامة الطريق وكيفية تمهيده . وقد يعترض استقامة الطريق عقبات صعبة شديدة كَأْدَاء كجبل مثلاً ، فيقوم المهندسون إما بنحت نفق فى الجبل ليضمنوا له الاستقامة ، وإما بأن يحنى الطريق ليضمنوا جودة تعبيد الطريق . فإن جاء المهندسون وقالوا نمشى من هنا لنضمن استقامة الطريق فإننا نفعل ذلك . وإلاّ جعلوا الطريق متعرجاً أو حلزونيًّا ؛ وذلك ليتفادى السائر العقبات التى ليس له قدرة عليها .

لكن إذا كان الصراط قد مهده رب ، أتوجد له عقبة ؟ طبعاً لا ، إذن فهو طريق مستقيم . ولنلحظ أنه سبحانه قال : « صراط ربك » أى أنه جاء بها من ناحية

الربوبية ، والربوبية عطاء الرب ، إنه سيد ، ومربٍ ، وخالق الخلق ويضمن هم ما يعينهم على مهمتهم فى الوجود معونة ميسرة سهلة . وهكذا نعرف أن طريق الحق هو الصراط المعبد المستقيم ، أى الذى يصل بين البداية والنهاية . فإن كان الطريق الذى نتبعه مستقيماً ومعبداً ، وسهلاً ، فلماذا لا نتبعه ؟

« وهذا صراط ربك » . ونلحظ أنه سبحانه قد أسند الرب لمحمد ، أى من أجل خاطره جعل الصراط مستقيماً ؛ لأنه سبحانه هو المتولى لربوبيتك يا محمد ، وسبحانه رب الكون كله ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم عين أعيان الكون .

﴿ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

« فصّلنا » أى أنّ كل شىء فى هذا الكون مخلوق لما يناسبه ، وكل قضية من قضايا الكون خلقها ربنا لتحقق الفائدة منها بدون مشقة ، وبدون عنت . والمنهج الذى أنزله الله إنما يصلح الكون ويجعل كل شىء فيه مناسباً لمهمته ؛ لأن الله إله كل الناس وهم بالنسبة إليه سواء لأنه لم يتخذ لا صاحبة ولا ولداً . ولا يعطى سبحانه الحياة لمخلوق ويوجده فى الكون ، ثم يعرّيه من أسلحة الحركة فى الحياة ، ولكل إنسان سلاح من موهبة أو قدرة وبذلك تتعدد الأسلحة والمواهب والقدرات ، فمن يريد أن يبنى بيتاً ، أنقول له : اذهب إلى كلية الهندسة لتتعلم كيف ترسم البيت وتخططه ؟ أنقول له : تعلم كيف تكون فنيًّا وكهربائيًّا ونقاشاً ؟ إن الفرد الواحد لا يمكن أن يتعلم كل هذه التخصصات ، لذلك وزّع الله المواهب على خلقه ؛ هذا عنده موهبة ليعمل لنفسه ، ويعمل لغيره . وبعد ذلك يأتى غيره ليؤدى له عملاً ليس له فيه موهبة بحيث يتكامل المجتمع كله ولا يتكرر أفراده .

ولو كنا تخرجنا جميعاً كأطباء أو مهندسين لما نفعت الدنيا ، ومن نقول عليهم : إنهم فشلوا فى التعليم يقومون بأعمال فى الحياة ما كنا نستطيع الحياة بدونها ؛ فقد خلقهم الله بقدرات عقلية محدودة ليهبهم قدرات أخرى تصلح فى مهمات أخرى . وإن تعلم المجتمع كله تعليماً عاليا لصار الهرم مقلوباً . وإن انقلب الهرم فمعنى هذا أن أجزاءً منه ستكون بغير دعائم فى الأرض . لذلك نجد أن هناك إعداداً عقليا أراده الحق لكل واحد من الخلق ، ولا نستطيع أن نقول لكل إنسان : تعلم وتخرج فى

الجامعة ثم اكنس الشارع . وكن فى الغد حداداً . لذلك ربط الحق كل عمل بالحاجة إليه ، ومن يحسن استقبال قدر الله فى نفسه يُعطِ الله له من العمل كل الخير .

ونلحظ الآن أن من يعمل موظفاً فى الدولة يحيا فى راتب محدود ، بينما تجد السباك يقدرعمله بأجر يحدده هو ، ويبقى الويل والتعب لمن كان تقدير عمله فى يد غيره . (وهذا صراط ربك مستقيماً قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون) .

وانظر كل قضية فى الكون ، لم يُدخل ابن آدم فيها أنفه تجدها مستقيمة ، ولا يأتى الفساد إلا فى القضايا التى أدخل ابن آدم أنفه فيها بدون منهج الله . فإن دخلت فى كل مسألة بمنهج الله يستقم الكون تماماً . ولذلك يلفتنا الحق سبحانه وتعالى إلى النظام الأعلى فى كونه والذى لا تدخل لنا فيه . ولا سيطرة عليه ؛ السموات ، والكواكب ، والشمس ، والقمر ، وحركة الأرض ، كل تلك الكائنات نجد أمورها تسير بانتظام ، ولذلك يقول لنا الحق سبحانه :

﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨ ﴾

(سورة الرحمن)

فإن أردتم أن تستقيم أموركم فى شئونكم وأحوالكم الاختيارية فادخلوا فيها بمنهج الله ؛ لأن الأشياء التى تدار بمنهج الله بدون أن يتدخل فيها البشر تؤدى مهمتها كما ينبغى .

فعلى الإنسان ـ إذن ـ أن يتذكر كيف يأخذ من المقدمات التى أمامه ما يوصل إلى النتائج ، ولابد أن يأخذ المقدمات السليمة ليصل إلى الغايات الفطرية . وأقصر الأمور أن تسأل نفسك : أنت صنعة من ؟ صنعة نفسك ؟ ! لا ، هل أنت من صنعة واحد مثلك ؟ لا . وهل ادّعى واحد فى كون الله ـ وما أكثر ما يُدَّعى ـ أنه خلقك أو خلق نفسه ؟ لا . بل أنت وهو وكل الكون من صنعة الله ، فدعوا الله يقرر قانون صيانتكم ، وسيظل الناس متعبين إلى أن يسلموا الصنعة إلى خالقها . (وهذا صراط ربك مستقيماً قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون) .

ولم يقل فصلنا الآيات لواحد ، بل قال « لقوم » حتى إذا ما مال أو غفل واحد فى الفكر يعدله غيره . وكلنا متكافلون فى التذكير ، وهذا التكافل فى التذكير يعصم كل

مؤمن من نفسه ؛ فإن حصل عندى قصور من سهو أو من غفلةأو من هوى يعدله غيرى . وهذه قضية كونية لو استقرأت الوجود كله وجدتها لا تتخلف أبدا ، ولابد من تذكر الغاية التى جاء بها فى قوله الحق :

﴿ لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾

أى أن لهؤلاء المتقدمين الذين صبروا وصابروا ورابطوا ، لهم دار السلام ، وهو أسلوب مكون ـ كما يقال ـ من مبتدأ وخبر ، إلا أن المبتدأ أُخِّر هنا ، والخبر تقدّم ، وكان المنطق أن يقال : « دار السلام لهؤلاء » ولكن الأسلوب القرآنى جاء ليقدم الخبر المكون من الجار والمجرور ومتعلقه ، ويؤخر المبتدأ وذلك لخصوصية أرادها الحق ، وهى أن هذه الدار لهم وحدهم دون غيرهم فهى خالصة لهم يوم القيامة و « دار السلام » مكونة من كلمتين ، « دار » ومعناها ما يستقر فيه الإنسان ، ويجمع هذا المكان كل ما تتطلبه حياة الإنسان ، وهى أوسع قليلاً من كلمة « بيت » ؛ لأن البيت مكان يعد للبيتوتة ، لكن كلمة « دار » تعد للحياة ولما يتعلق بالحياة من مقوماتها .

و « دار » هنا مضافة إلى السلام ، وهو ـ كما نعلم ـ اسم من أسماء الله ، إذن فالحق هنا يوضح : لهم دار منسوبة للسلام وهو الله ، وهم مستحقون لها جزاءً منه ، فإذا كانت الدار التى وعدها الله هي دار السلام وهو الله ، فلابد أن فيها متعاً وإمكانات على قدر فضل المضاف إليه وهو الله ، ولماذا لم يقل الله : « دار الله » ؟ ؛ لأن الله أراد أن يأتى بوصف آخر من أوصافه ؛ ليعطيهم السلام والأمن والاطمئنان .

وهناك فرق بين دور الدنيا ، وهذه الدار ؛ فدور الدنيا فيها متع ، ولكنك فيها بين أمرين : إما أن تفوت أنت ما هى فيه ، وإما أن يفوتك ما فيها ، ولذلك لا يوجد فى الدنيا أمن ؛ لأن غيرك قد يناوئك فيها ويعاديك ، وقد تأتى لك مكدرات المرض ، وقد تأتى لك معكرات الأعداء ، كل ذلك ينغص عليك الأمن والسلام فى الدنيا . ولذلك أراد الحق أن تكون لك الآخرة دار سلام مادمت قد آمنت ، وأن تأمن فيها

من كل الآفات التى كانت فى دار الدنيا .

﴿ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَـٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾

(من الآية ١٢٧ سورة الأنعام)

وكأن دار السلام ليست وعداً من الله بأن تكون ، ولكنها جاهزة معدّة عند الله ومحفوظة لديه تنتظر المؤمنين ، وسبحانه قد خلق جناناً تتسع لكل خلقه على فرض أنهم آمنوا ، وجعل من النار مثل ذلك على قدر خلقه ، على فرض وتقدير أنهم كفروا . وسيأخذ المؤمنون ما أعد لهم من دور الإيمان ويرثون ما أعد للكافرين من دور الإيمان على فرض أنهم آمنوا فى الدنيا .

﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿١١﴾ ﴾

(سورة المؤمنون)

فلم يخلق الحق جناناً محدودة ، لا ، بل أعد وهيأ من الجنان مايتسع لكل الخلق إن آمنوا ، ومن النيران ما يتسع لكل الخلق إن كفروا . ومادامت العندية منسوبة إلى الله فهى عندية مأمونة .

وبعد ذلك أيتخلّى الله عنهم ويكلهم إلى ما أعدّه لهم ؟ . لا ، بل قال :

﴿ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾

(من الآية ١٢٧ سورة الأنعام)

فهناك إعداد ، ثم قيومية ولاية الله ، وهذه القيومية لله ، هى للمؤمنين فى الدنيا . لكن فلنلاحظ أن الولاية فى الدنيا قد تكون فيها أسباب مخلوقة لله ، لكن فى الآخرة هناك الجزاء الذى لا يكله الله للأسباب ، فتكون الولاية مباشرة له ؛ لأنه سيعطيك فوراً ، وإذا خطر أى شىء ببالك تجده حاضراً : فهى متعة على غير ما ألف الناس ؛ لأن الناس يتمتعون فى الدنيا بواسطة الأسباب المخلوقة لله . ولكن فى الآخرة فلا ملكية لأحد حتى فى الأسباب ، لذلك يقول سبحانه :

﴿ لِمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ﴾

(من الآية ١٦ سورة غافر)

وستجد الإجابة هى قوله ـ سبحانه ـ :

﴿ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾

(من الآية ١٦ سورة غافر)

والحق هو الولى الذى يليك ، قرباً تنتفع به ، فلا تضطر حتى أن تنادى عليه ليأتى لك بالمنافع ويدفع عنك المضار كما عمل لك فى الدنيا ووفقك للعمل وهو وليك فى الآخرة بحسن الجزاء لك بسبب ما كنت تعمل ؛ فالعمل فى الدنيا هو الزرع وهو الحرث لثمرة الآخرة . ولكن أيعطينا الله على قدر أعمالنا ؟ لا ، بل يعطينا على قدر صبرنا ؛ لأنه إن كان العطاء على قدر الأعمال ، إننا لو حسبناها لما أدينا ثمن عشر معشار نعم الله علينا فى الدنيا . فكأننا نعمل فى الدنيا لنؤدى شكر ما أفاء علينا وأعطانا من النعم ، فإذا جاء الحق سبحانه وتعالى وأعطانا بعد ذلك ثواباً فهو الفضل منه ، ولذلك يوضح الحق لنا : إياكم حين توفقون فى العمل أن تفتتنوا بأعمالكم ، بل عليكم أن تتذكروا أن ذلك فضل من الله :

﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾

(سورة يونس)

وقد شرح النبى عليه الصلاة والسلام هذا الأمر وقال :

« لن يُدْخِل أحداً منكم عملُه الجنة ، قالوا : ولا أنتَ يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله منه بفضل ورحمة »[1] .

إذن المسألة كلها بالفضل من الله ، ولكن فضل الله شرطه العمل الصالح ؛ فأنت تعمل العمل الصالح ، ويعطيك ربنا أضعافه ، وبطبيعة الحال فعملك لن ينفع جلاله أو جماله أو كماله أو يزيده صفة أو يزيده ملكاً ، لكنه يعطيك على ما عملته لنفعك ولنفع بنى جنسك .

ولذلك نجد الإمام الرازى ـ رضى الله عنه ـ يقول : إن العمل فى ذاته يورث

---

(١) رواه مسلم فى المنافقين واللفظ له ، ورواه البخارى فى الرقاق والمرضى ، وابن ماجه فى الزهد ، والدارمى فى الرقاق ، ورواه أحمد فى المسند ٢/٢٣٥ ، ٢٥٦

الذات شيئا من الصفاء الذى ترتاح له وتسعد به ، حتى تجد الجزاء فى الراحة ، والراحة النفسية هى الأمر المعنوى الذى يوجد فى بنية مادية هى قالبك . فساعة يوجد شىء فى النفس فهو يؤثر فى القالب أغياراً ، فإذا غضب الإنسان فهذا الغضب يظهر أثره فى البنية نفسها فيحمر الوجه ، ويرتعش الإنسان للانفعال بالغضب ، والغضب أمر معنوى لكنه أثّر فى البنية ، وكذلك إذا ما حدث ما يسرّك ، يظهر ذلك فى البنية أيضاً ؛ فتشرق وتتهلل أساريرك . إذن فالعمل يؤثر فى البنية ، والبنية تؤثر فى العمل .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾

وساعة تسمع « يوم » اعرف أنها « ظرف زمان » ، أى أن هناك حدثاً ، وقوله الحق : « ويوم يحشرهم جميعاً » أى اليوم الذى يقف فيه الجميع ويحشدون ، وحين ننظر إلى ما بعدها نجد أن الحدث لم يأت ، ولكن جاء « يا معشر الجن » وهذا « نداء » . فكأن الحدث هو النداء نفسه ، والنداء يقتضى مناديًا ، وهو الحق سبحانه ، ومنادى وهو معشر الجن والإنس ،وقولاً يبرز صورة النداء . فكأن العبارة هى : يوم يحشرهم جميعاً فيقول يا معشر الجن والإنس ، و « الحشر » هو الجمع ، و « المعشر » هم الجماعة المختلطة اختلاط تعايش ، بمعنى أن يكون فيهم كل عناصر ومقومات الحياة ، وقد يضاف المعشر إلى أهل حرفة بخصوصها ؛ يا معشر التجار ، يامعشر العلماء ، يا معشر الوزراء . لكن إن قلت : يا معشر المصريين فهى جماعة مختلطة اختلاط تعايش ومعاشرة .

﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾

(من الآية ١٢٨ سورة الأنعام)

و « استكثر » أى أخذ منه كثيراً ، كمن استكثر من جمع المال ، أو استكثر من الأصدقاء ؛ فمادة « استكثر » تدل على أنه أخذ كثرة . وماذا يعنى استكثارهم من الإنس ؟ . نحن نعلم أن من الجن طائعين ، ومنهم عاصون ، والأصل فى العصيان فى الجن « إبليس » الذى أقسم :

﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾﴾

(سورة ص)

فكأن الحق يوضح : أنكم معشر الجن قد حاولتم جاهدين أن تأخذوا الإنس إلى جانبكم واستكثرتم بهم ، فبعد أن كان العاصون فقط من شياطين الجن وجد عصاة من الإنس أيضاً ، واستكثرتم منهم ، بأن ظننتم أن لكم غلبة وكثرة وعزاً ؛ لأنهم إذا أطاعوكم فى الوسوسة أصبحت لكم السيادة ، وذلك ما كان يحدث ، فكان الإنسان إذا ما نزل واديًا مثلاً قال : أعوذ بسيد هذا الوادى ـ من الجن ـ ويطلب أن يحفظه ويحفظ متاعه ، وحينما يوسوس له بشىء يسارع إلى تنفيذه ، وهذا استكثار .

﴿وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾

(من الآية ١٢٨ سورة الأنعام)

وكذلك لم يستمتع الجن والإنس فقط ، بل استمتع الإنس أيضاً بالجن ، وهكذا نجد تبادل استمتاع من خلف منهج الله ، لهؤلاء إغواءً وسيادة ، يأمرونهم بعمل الأشياء المخالفة لمنهج الله ، وهؤلاء يستمتعون بهم لأنهم يحققون لهم شهواتهم فى صورة تدين ، فيقولون لهم : اعبدوا الأصنام ، واعبدوا الشمس ، واعبدوا القمر ، فيفعلون . وذلك يرضى فيهم غريزة الانقياد التدينى ؛ لأن كل نفس مفطورة على أن ترتبط بقوة أعلى منها ؛ لأن الإنسان إذا نظر لنفسه وإلى قرنائه من الإنس وجدهم أبناء أغيار ؛ الواحد منهم يكون اليوم صحيحاً وغداً مريضاً ، ويكون اليوم غنيًّا وغداً فقيراً ، فما الذى يضمن للنفس البشرية حماية من هذه الأغيار ؟ .

إن الإنسان يحبّ أن يلجأ ويرتبط بِقَوىّ ؛ حتى إذا ما جاءت هذه الأغيار كانت

سنداً له . إلا أن هناك من يصعدها فى التدين وهؤلاء هم الذين يركنون إلى الإيمانية لله ويعتمدون عليه سبحانه ويقبلون على الإيمان بالله بمطلوبات هذا الإيمان فى « افعل » و « لا تفعل » . لكن الأشياء التى يعبدونها من دون الله ليس لها مطلوبات أو تكاليف إلّا أن تكون موافقة لأهواء النفس ، وهذا الإكذاب للنفس أى حمل النفس على الكذب لا يدوم طويلاً ؛ لأن الإنسان لا يغش نفسه ؛ فالإيمان يحمى النفس إذا جاء أمر فوق أسبابك ، وليس هناك من يقول: يا شمس أو يا قمر ، يا شيطان أو يا صخر ! لا يمكن ؛ لأنك لن تكذب على نفسك أبداً . ومثال ذلك قول الحق :

﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ﴾

(من الآية ١٢ سورة يونس)

وهنا يقول الحق عن الإنس :

﴿ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ﴾

(من الآية ١٢٨ سورة الأنعام)

أى أن لهذا الاستمتاع أمداً ، هو أمد الأجل أى ساعة تنقضى وتنتهى الحياة ، ثم يبدأ الحساب فيسمعون قول الحق :

﴿ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾

(من الآية ١٢٨ سورة الأنعام)

و « الثواء » هو الإقامة ، و « مثواكم » أى إقامتكم ، « إلا ما شاء الله » وهذا الاستثناء كان محل نقاش بين العلماء ، دار فيه كلام طويل ؛ فهناك من قال : إن الحق سبحانه وتعالى قال : « إلا ما شاء الله » أى أن له طلاقة القدرة والمشيئة ؛ فيفعل ما يريد لكنه حسم الأمر وحدد هو « ما شاء » فقال :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾

(من الآية ٤٨ سورة النساء)

وهنا حدد « ما شاء » ، أى أن ما شاء يكون فى غير الشرك به فإن الشرك لا يكون محل غفران منه سبحانه . أو يجوز « إلا ما شاء الله » أن بعضاً يفهم أنه بمجرد البعث والحشر ستكون النار مثواهم ، ولكن المثوى فى النار لن يكون إلا بعد الحساب ، وهذا استثناء من الزمن الخلودى ، فلن يحدث دخول للجنة أو للنار إلا بعد الحساب . فزمن الحساب والحشر مستثنى وخارج عن زمن الخلود فى الجنة أو النار .

ونحن نجد أيضاً « إلا ما شاء ربك » فى سورة هود حيث يقول الحق :

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾ ﴾

(سورة هود)

إذن فهناك الاستثناء فى النار والاستثناء فى الجنة ، فقول الحق : « خالدين فيها مادامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك » فمجىء الاستثناء بعد الوصف بالخلود ، يدل على أن الخلود ينقطع مع أنه قد ثبت خلود أهل الجنة فى الجنة وخلود أهل النار فى النار للأبد من غير استثناء فكيف ذلك ؟

والرد على هذا أن أهل النار لايخلدون فى عذاب النار وحده بل يعذبون بالزمهرير وبأنواع من العذاب سوى عذاب النار بما هو أغلظ منها كلها وهو سخط الله عليهم ولعنهم وطردهم وإهانته إياهم . وكذلك أهل الجنة لهم سوى الجنة ما هو أكبر منها وأجل موقعا ، وهو رضوان الله كما قال : (وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة فى جنات عدن ورضوان من الله أكبر) فلهم ما يتفضل الله به عليهم سوى ثواب الجنة مما لا يعرف كنهه إلا هو ، فهذا هو المراد بالاستثناء ، والدليل عليه قوله : (عطاء غير مجذوذ) ومعنى قوله فى مقابلته : (إن ربك فعال لما يريد) أن ربك يفعل بأهل النار ما يريد من العذاب ، كما يعطى أهل الجنة عطاءه الذى لا انقطاع له .

ويذيل الحق الآية بقوله : « إن ربك حكيم عليم » . حكيم فى أن يعذّب ، عليم بمن يستحق أن يعذّب ، ومقدار عذابه ، وعليم بمن يستحق أن يثاب وينعم ، وبمقدار ثوابه ونعيمه ، وحكيم فى أن يرحم . ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾

« وكذلك » تشير إلى ما حدث من الجن والإنس من الجدل ، فقال الحق على ألسنة الإنس :

﴿ رَّبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ ﴾

(من الآية ١٢٨ سورة الأنعام)

ولم يأت بكلام الجن ؛ لأن كلامهم جاء فى آيات أخرى ؛ فالحق هو القائل :

﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ﴾

(من الآية ٢٢ سورة إبراهيم)

وكذلك أورد الله ما يجىء على لسان الشيطان فى سورة أخرى :

﴿ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكَ ﴾

(من الآية ١٦ سورة الحشر)

وكذلك جاء الحق فى آيات أخرى بأقوال الإنس الذين ضلوا :

﴿ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة فصلت)

وقوله الحق هنا فى سورة الأنعام :

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًا ﴾

(من الآية ١٢٩ سورة الأنعام)

أى كما صنعنا مع الجن والإنس ، باستكثار الجن من الإنس واستمتاع بعضهم ببعض إضلالا وإغواء ، وطاعة وانقيادا ، نجعل من بينهم ولاية ظالم على ظالم ، ولا نولى عليهم واحداً من أهل الخير ؛ لأن أهل الخير قلوبهم مملوءة بالرحمة ، لا يقوون على أن يؤدبوا الظالم ؛ فهم قد ورثوا النبوة المحمدية فى قوله يوم فتح مكة : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » ، ولذلك إذا أراد الله أن يؤدب ظالماً لا يأتى له بواحد من أهل الخير ليؤدبه ، إنه ـ سبحانه ـ بتكريمه لأهل الخير لم يجعل منهم مَن يكون فى مقام من يؤدب الظالم . إنه ـ سبحانه ـ يجعل أهل الخير فى موقف المتفرج على تأديب الظالمين بعضهم بعضا .

والتاريخ أرانا ذلك . فقد صنع الظالمون بعضهم فى بعض الكثير ، بينما لو تمكن منهم أعداؤهم الحقيقيون لرحموهم ؛ لأن قلوبهم مملوءة بالرحمة .

ولذلك بلغنا عن سيدنا مالك بن دينار وهومن أهل الخير . يقول : قرأت فى بعض الآثار حديثاً قدسيا يقول فيه الحق :

« أنا ملك الملوك قلوب الملوك بيدى »[1] .

فإياكم أن يظن الطاغية أو الحاكم أو المستبد أنه أخذ الحكم بذكائه أو بقوته ، بل جاء به الحق ليؤدب به الظلمة ، بدليل أنه ساعة يريد الله أن تنتهى هذه المسألة فهو

(١) تذكرة الموضوعات لابن القيسرانى .

بجلاله ينزع المهابة من قلوب حرّاسه ، وبدلاً من أن يدفع عنه بالبندقية ، يصوّب البندقية إليه .

فإياكم أن تظنوا أن ملكا يأخذ الملك قهراً عن الله ، ولكن إذا العباد ظلموا وطغوا يسلط الحق عليهم من يظلمهم ، ولذلك يقال : « الظالم سيف الله فى الأرض ينتقم به وينتقم منه » .

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

فكأن ما سلّط على الناس من شرّ عاتٍ هو نتيجة لأعمالهم ، ولذلك كان أحد الصالحين يقول : أنا أعرف منزلتى من ربى من خُلُق دابتى ؛ إن جمحت بى أقول ماذا صَنَعْتُ حتى جمحت بى الدابة ؟! وكأن المسألة محسوبة . وهذه معاملة للأخيار ، عندما يرتكب ذنباً يؤاخذ به على الفور حتى تصير صفحته نظيفة دائماً . قال عليه الصلاة والسلام : « مامن مصيبة تصيب المسلم إلا كفر الله بها عنه ، حتى الشوكة يُشاكها »[1] .

فإذا فعل العبد من أهل الخير بعضاً من السيئات ، يوفّيه الحق جزاءه من مرض فى جسمه أو خسارة فى ماله ، وكذلك المسىء الذى لا يريد له الله النكال فى الآخرة . يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « ما من مسلم يصيبه أذى شوكة فما فوقها إلا حط الله تعالى له به سيئاته كما تحط الشجرة ورقها »[2] .

(وكذلك نولى بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون) هم اعتقدوا أنهم أخذوا شيئاً من وراء الله وخلصوا به . نقول : لا ، فربك سيحاسبك ثواباً أو عقاباً وذلك بما قدمت يداك وما عملت من سيئات أو حسنات .

ويقول الحق بعد ذلك :

---

(١) رواه البخارى ومسلم وأحمد .
(٢) رواه البخارى ومسلم عن ابن مسعود .

﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ
يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ
هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا
وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ﴾

ونلاحظ أنه قال هنا : « يا معشر الجن والإنس » لأنه يريد أن يقيم عليهم الحُجة بأنه سبحانه لم يجرم أعمالهم ولم يضع لهم العقوبات إلا بعد أن بلغهم بواسطة الرسل ؛ فقد أعطاهم بلاغاً بواسطة الرسل عما يجب أن يُفعل ، وما يجب أن يُترك . فلم يأخذهم ـ سبحانه ـ ظلماً .

وهنا وقفة ؛ فالخطاب للجن والإنس « ألم يأتكم رسل منكم » فقال بعض العلماء : إن الجن لهم رسل ، والإنس لهم رسل ، وقال آخرون : الرسل من الإنس خاصة ؛ لأن القرآن جاء فيه على لسانهم : (إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى) .

إذن فقد احتج الجن بكتاب أنزل من بعد موسى عليه السلام وعندهم خبر عن الكتاب الذى جاء بعده ، كأن الجن يأخذون رسالتهم من الإنس ؛ فكأن الله قد أرسل رسلاً من الإنس فقط وبلغ الجن ما قاله الرسول ، وهو هنا يقول سبحانه :

﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ ﴾

(من الآية ١٣٠ سورة الأنعام)

وأنت حين تأتى إلى اثنين : أولهما معه مائة جنيه ، والثانى يسير معه وليس معه شىء وتقول : « هذان معهما مائة جنيه » فهذا قول صحيح . فقوله سبحانه : « ألم يأتكم رسل منكم » أى من مجموعكم . أو أن الرسل تأتى للإنس ، وبعد ذلك مِن الجن من يأخذ عن الرسول ليكون رسولاً مبلّغاً إلى إخوانه من الجن :

﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

(سورة الأحقاف)

فكأن المنذرين من الجن يأخذون من الرسل من الإنس وبعد ذلك يتوجهون إلى الجن .

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى ﴾

(من الآية ١٣٠ سورة الأنعام)

والآيات تطلق على المعجزات التى تثبت صدق الرسل ، وما يكون من شرح الأدلة الكونية الدالة على صدق الرسل . وكلمة « يقصّون عليكم آياتى » أى يروون لهم الموكب الرسالى من أول « آدم » إلى أن انتهى إلى « محمد » صلى الله عليه وسلم . و « يقصّون عليكم آياتى » قول يدل على دقة الأداء التاريخى ؛ لأن « قصّ » مأخوذ من قصّ الأثر ، ومعناها تتبع القدم بدون انحراف عن كذا وكذا ، وهكذا نجد أن المفروض فى القصة أن تكون مستلهمة واقعَ التاريخ .

﴿ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ﴾

(من الاية ١٣٠ سورة الأنعام)

وهو اليوم المخزى حيث سيقفون أمام الله ويذكرهم الحق أنه قد نبههم وقد أعذر من أنذر .

﴿ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴾

(من الاية ١٣٠ سورةالأنعام)

وقولهم:« شهدنا على أنفسنا » إقرار منهم على أنفسهم ؛ فقد شهدوا على أنفسهم ، ولكن ما الذى منعهم أن ينضموا إلى الإيمان بمواكب النبوة ؟ . تأتى الإجابة من الحق : (وغرّتهم الحياة الدنيا) .

والذى يغرّ هو الشىء الذى يكون له تأثير ، وهو موصوف بأنه « دنيا » !! لذلك فالغرور الذى يأتى بالدنيا هو قلة تبصّر . (وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين) . ومن يستقرىء آيات القرآن يجد آية تقول :

﴿ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾

(من الآية ٢٣ سورة الأنعام)

فمرة ينفون عن أنفسهم أنهم كفروا ، ومرة يثبتون أنهم كافرون ، وهذا لاضطراب المواقف أو اختلافها . أو أنهم « شهدوا على أنفسهم » ؛ بمعنى أن أبعاضهم شهدت عليهم ؛ لأن الإنسان فى الدنيا له إرادة ، وهذه الإرادة مسيطرة على ما له من جوارح وطاقات مخلوقة لله ؛ لأن الله جعل للإرادة فى الإنسان ولاية على الأبعاض التى تقوم بالأعمال الاختيارية . لكن الأعمال الاضطرارية القهرية ليس للإنسان إرادة فيها ؛ فلا أحد يملك أن يقول للقلب انبض كذا دقة فى الساعة ، ولا أن يقول للأمعاء : تحركى الحركة الدّودية هكذا . لكنه يقدر أن يمشى برجليه إلى المسجد ، أو يمشى إلى الخمّارة . ويستطيع أن يقرأ القرآن أو يقرأ فى كتاب يضرو لا يفيد .

إذن فإرادة الإنسان مسيطرة على الأبعاض لتحقق الاختيار المصحح للتكليف . لكن يوم القيامة تسلب الإرادة التى للإنسان على أبعاضه ، وتبقى الأبعاض كلها حُرّة ، وحين تصير الأبعاض حُرّة فالأشياء التى كانت تقبلها فى الدنيا بقانون تسخيرها لإرادتك قد زالت وانتهت ، فهى فى الآخرة تشهد على صاحبها ؛ تشهد الجلود والأيدى والأرجل :

﴿ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾

(من الآية ٢١ سورة فصلت)

وحين يقولون لربنا : ما كنا مشركين ، فهذا كلامهم هم ، لكن جوارحهم تقول لهم : يا كذابون ، أنتم عملتم كذا .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾ ﴾

« ذلك » إشارة إلى ما تقدم ، وهو إرسال الرسل مبلغين عن الله ؛ حتى لا يكون لأحد حُجة بعد الرسل ، وقد أقروا بأن الله أرسل إليهم رسلاً ، وشهدوا على أنفسهم ، وماداموا قد أقرّوا على أنفسهم بأن الله أرسل لهم رسلاً وشهدوا على أنفسهم بذلك ، إذن فهذا إقرار جديد بأن الله لم يكن مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى قبل أن يعاقب على جُرم ،وقبل أن يجرّم ينزل النص بواسطة الرسل . أى أن الله لا يهلكهم بسبب ظلم وقع منهم إلا بعد ذلك البلاغ .

« وأهلها غافلون » ، و « الغفلة » ضد اليقظة ، فاليقظة هى تنبّه الذهن الدائم ،و « الغفلة » أن تغيب بعض الحقائق عن الذهن ، ومعنى أن ربنا لا يهلك القرى بظلم وأهلها غافلون أى غير يقظين ؛ فلو أنهم كانوا يقظين ومتنبهين لما احتاجوا إلى الرسل ؛ لأن الله عندما خلق الخلق أرسل آدم إلى ذريته ، وكان المفروض كما يلقن الآباء الأبناء وسائل حياتهم أن يلقنوهم مع ذلك قيم دينهم . فكما أن الآباء يعلمون ذريتهم وسائل حياتهم ، ثم ينقلونها ويزيدون عليها بابتكاراتهم ، كان من الواجب على الآباء أن يقوموا بهذا العمل بالنسبة للقيم فتعيش القيم فى الناس كما عاشت وسائل حياتهم .

ولماذا ـ إذن ـ عاشت وسائل حياتهم وتوارثوها وزادوا عليها أشياء ؟! لأن زاوية الدين هى التى يغفل الناس عنها ، بسبب أنها تقيد حركتهم فى « افعل » و « لا تفعل » ، ولكنهم يريدون الترف فى وسائل حياتهم . لماذا إذن أيها الإنسان تحرص على الترقى فى ترف الحياة ولا تحرص على الترقى فى القيم ؟ . لقد كنت ـ على سبيل المثال ـ تشرب من الماء أو النبع بيدك ثم صنعتَ كوباً لتشرب منه ، ونقيت الماء من الشوائب ونقلته من المنابع فى صهاريج . أنت ترفه حياتك المادية والمعيشية فأين إذن الاهتمام بقيم الدين ؟!!

راجع أصله وخرج أحاديثه الدكتور/ أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .

ولو كانوا متيقظين لكان كل أب قد علم ابنه ما ورثه من آبائه من القيم ، وعلى الرغم من ذلك رحم الحق سبحانه وتعالى هذه الغفلة ، وكرّر التنبيه بواسطة الرسل . وكلما انطمست معالم القيم التى يحملها المنهج فهو ـ جل وعلا ـ يرسل رسولاً رحمة منه وفضلاً وعدالة ، ولم يكن يهلك القرى بظلم وأهلها غافلون ، والغفلة ضد اليقظة .

إذن لو كانوا متيقظين لما كانت هناك ضرورة للرسل ؛ لأن الآباء كانوا سينقلون لأبنائهم القيم كما ينقلون إليهم وسائل حياتهم ، وهذا الأمر مستمر معنا حتى الآن ؛ إن الأب ـ مثلاً ـ إن غاب ابنه عن المدرسة يوماً يلوم الابن ، وإن أهمل فى دروسه أو رسب فهو يعاقب الابن ، وهذه هى الغيرة على المستقبل المادى للابن ، ولا غيرة على أدائه لفروض الدين ، لماذا ؟ . إن الناس لو عنوا بمسائل قيمهم كما يعنون دائماً بمسائل حياتهم لاستقام منهج الخير فى الناس وأصبح أمراً رتيباً .

وعرفنا أن الغفلة ضدها اليقظة ، كما أن السهو ضده التذكر ، والغروب ضده الشروق ، والغياب ضده الحضور .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾

« ولكلٍّ » ، وجاءت بالتنوين أى لكلٍّ من الإنس والجن درجات مما عملوا ، فكأن الأعمال تتفاوت ؛ فقد تكون فى ظاهرها قوالب متحدة ، لكن التفاوت إنما ينشأ بكثرة العمل ، أو بإخلاص المقارف للعمل والمكتسب والفاعل له ، فهناك من يخلص بكل طاقته ، وهناك من يؤدى عمله بنصف إخلاص ، ومسألة الإخلاص هذه لا تحددها لوائح ولا قوانين إنما يحددها الحق سبحانه وتعالى ، ولذلك يقول محمد صلى الله عليه وسلم مبلغاً عن رب العزة هذا الحديث القدسى :

« الإخلاصُ سر من سرى استودعته قلب من أحببت من عبادى »[١] .

إذن فمقاييس الإخلاص لا يعرفها إلا ربنا سبحانه وتعالى ، وعلى مقدار ذلك تكون الدرجات . وتكون الدرجات على مقدار ما يزيده العبد من جنس ما فرضه الله عليه ؛ فالحق قد فرض صلوات خمساً ، فيزيد العبد عشر ركعات فى الليلة مثلاً . والله قد فرض الصيام شهراً ، فيصوم العبد يومى الاثنين والخميس .

والذى يقف عند ما فرض الله يجازيه الله على إخلاصه فى أداء ما عليه ، وحينما سأل أعرابى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن موقف الذى لا يؤدى إلا الفروض فقط ، قال له : (أفلح إن صدق)[٢] ، فالذى يزيد عما فرض الله من جنس ما فرض الله أشد فلاحاً . ولا يصل الإنسان إلى المرتبة التى هى أشد فلاحاً إلا إذا كان فى درجة أعلى ، وكلمة « درجات » تفيد العُلوّ ، وكلمة « دركات » تفيد الهبوط ، والحق لا يغفل عن ظاهر وباطن كل عمل لأى عبد .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾

وهنا يحننا الله سبحانه وتعالى إلى عبادته ، وإلى تكاليفه ؛ يحننا إلى فضيلة الطاعة ، وكل ذلك لمصلحتنا وهذا مطلق الربوبية الرحيمة ، فيحسن لنا الجزاء ، ويفخم لنا فيه لنعمل لصالحنا نحن ؛ لأن كل أعمالنا ـ كما قلنا ـ لا تزيد فى ملك الله قدر جناح بعوضة ، وكل معصياتنا لا تنتقص من ملك الله قدر جناح بعوضة ؛ لأن الله بكل صفات الكمال خلقنا ، ولم نزده نحن شيئاً . لقد أوجد الدنيا من عدم ،

---

(١) رواه أبوالقاسم القشيرى فى الرسالة من حديث على بن أبى طالب .
(٢) رواه النسائى والبيهقى فى السنن الكبرى .

وفرق بين الصفة القائمة بذات الله ، وإيجاد متعلَّق الصفة . فالله خالق ؛ والله رحمن ،والله رحيم ، والله قهار ، وسبحانه رحمن ورحيم وقهار وخالق حتى قبل أن يبرز ويظهر ما يخلقه ؛ لأنه بصفة الخالق فيه خلق ، وهو رزَّاق قبل أن يخلق المرزوق ، فالصفة موجودة فيه قائمة به ، وبهذه الصفة رزق ، وبوجود هذه الصفات فيه يقول للشيء كن فيكون ، وله هذا الكون كله ، وهو غنى عن العباد وله كل الملك ، وكذلك خلق التوبة ، والرسول صلى الله عليه وسلم يقول :

« لَلَّهُ أفرح بتوبة عبده من أحدكم سقط على بعيره وقد أضله فى أرض فلاة » (١) .

﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

إذن فالخلق مستمر الإيجاد من العدميات وهو دليل على أن صفة الخالقية موجودة .

وما آدم فى منطق العقل واحد ولكنه عند القياس أوادم

فالكون كله من أول آدم موجود ، وكل الكون المسخر لآدم كخليفة فى الأرض خاضع لله ، فإن شاء اذهب الخلق وأتى بخلق جديد .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾

والحق سبحانه وتعالى لأنه لا إله إلا هو ، إذا وعد فلابد أن يتحقق وعده ، وإذا أوعد فلابد أن يأتى وعيده . والوعد إذا أطلق فهو فى الخير ، والوعيد يكون فى الشر . والذى يخلف الوعد أو الوعيد من الخلق فهذا أمر متوقع لأنه من الأغيار ، فيتغير رأيه

(١) رواه البخارى فى الدعوات ، ومسلم فى التوبة ، والترمذى فى الدعوات .
سقط على بعيره : أى صادفه وعثر عليه من غير قصد فظفر به .

فلم يعد أهلاً لهذا الوعد ؛ لأنه ربما يكون قد وعد بشيء كان يظن أنه فى مكنته ، وبعد ذلك خرج عن مكنته ، فليس له سيطرة على الأشياء ، لكن إذا كان من وعد قادراً ، ولا يوجد إله آخر يناقضه فيما وعد أو أوعد به فلابد أن يتحقق الوعد أو يأتى الوعيد . . ولذلك حينما يحكم الله حكماً فالمؤمن يأخذ هذا الحكم قضية مسلمة ؛ لأنه لا إله مع الله سيغير الحكم ، وسبحانه ليس من الأغيار ، والمثال أنه قال :

﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ۝٥ ﴾

(سورة المسد)

وهذا وعيد فى أمر لهم فيه اختيار ، ومع ذلك لم يسلموا . وجاء بعدها ما يؤكد لكل مسلم : إياك أن تأخذ هذه القضية مأخذ الشك ، وتقول : قد يتوب أبو لهب هذا وزوجه ويسلمان ، ألم تتب هند ؟! ألم يسلم أبو سفيان ؟! . لكنه سبحانه عالم بما يصير إليه اختيار أبى لهب واختيار زوجه ، وإن كان كل منهما مختاراً ، ولا يوجد إله سواه ليغير الأمر عما قال .

﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ﴾

(سورة الإخلاص)

أى لا يوجد إله آخر ليعدل هذا الأمر .

﴿ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ۝١٣٤ ﴾

(سورة الأنعام)

قد يظن بعض الناس أن الله قد يأتى بما وعد به لكنهم قد يهربون منه ، ولكن ليس الأمر كما يظنون ؛ فالوعد آت وأنتم لا تستطيعون الهرب منه ، ولا أحد بقادر على أن يمنع الله عن تحقيق ما وعد أو أوعد ، ولن تفروا من وعده أو وعيده ، ولن تغلبوا الله أو تفوتوه وتعجزوه ؛ فالله غالب على أمره .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾ ﴾

والقوم هم الجماعة ،وعادة يطلق على الرجال لأنهم أهل القيام للمهمات ؛ لأن الشأن والأصل فى المرأة الستر والبيتوتة والاستقرار فى البيت للقيام على أمره ورعايته . وحين تقرأ القرآن تجد كلمة « قوم » وتفهم أن المقصود منها الجماعة التى تجمعهم رابطة ، وأنها للرجال خاصة ، والمثال هو قول الحق :

﴿ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ﴾

(من الآية ١١ سورة الحجرات)

ومادام قد جاء بمقابل « قوم » : « ولا نساء » ، فـ « قوم » هذه للرجال ومأخوذ منها « القيام للمهمات » ، ومأخوذ منها « القوامة » . ولذلك الشاعر يقول :

ولا أدرى ولست أخال أدرى أقوم آل حصن أم نساء

يعنى أرجال أم نساء .

﴿ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ ﴾

(من الآية ١٣٥ سورة الأنعام)

و « المكان » هو الحيز الذى يأخذه جسم الإنسان ؛ فكل كائن له مكان ، إن وقف له مكان ، إن قعد له مكان ، والمكان هو المملوك والمخصص لك من الأرض ، فحين تقف فى مكان لا يقدر آخر أن يقف فيه وأنت واقف ، بل يجب أن يزحزحك عنه ، وحين تزحزح من هو واقف ، فهو يروح إلى مكان ثانٍ ، ويمتنع التداخل بين اثنين فى حيز لا يسع إلا واحداً ،وهذا أمر فطرى ؛ فتجد الولد الصغير الذى لم يدرك أى شىء ويقدر أن يقف فقط ، ثم يريد أن يقعد على الكرسى الذى تجلس عليه

أخته أو أخوه ، فقبل أن يقعد على الكرسى يشد من يجلس عليه ؛ لأنه يعرف بالفطرة أن اثنين لا يوجدان فى حيز واحد .

وترى ذلك أيضاً فى غير الجرم المرئى ، فأنت حين تأتى بقارورة وتضعها فى ماء لتمتلىء تسمع صوت الهواء الخارج منها فى بقبقة ؛ لأن الماء لا يمكن أن يدخل إلا إن خرج الهواء ، ولأن المياه أكثف فهى تضغط ليخرج الهواء ، وهذا ما يؤكد عدم التداخل . أى لا يوجد شيئان اثنان فى حيز واحد . ومكانتك هى الموقع الذى تستولى عليه ، ولذلك حتى فى الجيوش وفى الحرب توضع الخطط من أسلحة مختلفة ، لتستولى على الأماكن .

« اعملوا على مكانتكم » هو قول موجه إلى الجماعة الذين عارضوا النبوة ووقفوا منها هذه المواقف ، فيقول لهم الحق تهديدا لهم وتيئيسا من أنهم لن يصلوا إلى النيل من رسول الله : اعملوا على قدر استطاعتكم من التمكن ، أو أثبتوا على ما أنتم عليه من الخلاف والمناهضة ، لماذا ؟ ؛ لأنه صلى الله عليه وسلم عامل أيضاً : فلن يكون ثباتكم مانعاً لى من العمل ؛ أنتم تعملون وأنا أعمل ، أنتم تعملون على طاقاتكم ، وأنا أعمل على طاقاتى الإيمانية ومدد ربى الأعلى من الطاقة .

﴿ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

« فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار » و « له » تعطى دلالة إلى أن الإيمان ستكون عاقبة الدار لصالحه ؛ لأن الآخرين لن تكون لهم بل عليهم ، وساعة ترى « اللام » اعرف أن الأمر لهم لا عليهم . فكأن الظالمين إن تنلهم عاقبة فهى ليست لهم ، وإنما عاقبتهم عليهم ، ولن يفلح الظالمون .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ

نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ ۗ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾

وهنا رجوع إلى الكلام عن الذين يناهضون منهج الله .

و « ذرأ » أى خلق ، وبث ، ونشر ، والحرث يراد به الزرع ، وسمى الزرع حرثاً ؛ لأنه يأتى بالحرث ، و « الأنعام » وهى تتمثل فى ثمانية أزواج فى آية تأتى بعد ذلك ، وهى الإبل ، والبقر ، والضأن والمعز .

« وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً » أى مما خلق ، وهم قد حرثوا فقط ؛ لأن الذى يزرع هو الله ، فسبحانه الذى أعطى للبذرة قوتها لتربى لها جذراً ، وتمتص عناصر الغذاء من الأرض ، وهو الذى جاء بعناصر الأرض كلها ، وهو الذى جعل البذرة تتوجه إلى العناصر الصالحة لها ، وتترك غير الصالح بقانون « الذى خلق فسوّى والذى قدّر فهدى » . والذى صنعه الله فى الحرث وفى الأنعام تتخيلون أنكم تتصرفون فيه على رغم أنه هو الذى ذرأ وخلق . إنه ـ سبحانه ـ هو المتصرف .

هم جعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً فقالوا : هذا لله « بزعمهم » وهذا لشركائنا ، أى جاءوا بالحرث وقسموه قسمين . وقالوا : هذا لله ، وهذا للأصنام . وكذلك قسموا الأنعام وجعلوا منها قسماً لله ، وقسماً لهم ، ألم يكن من العدل أن يقسم الذى خلق بدلاً من هذا الزعم منكم لأنكم أخذتم غير حقكم ، ويا ليتكم أنصفتم فنرضى بقسمتكم فيذهب القسم الذى لله للصدقات على الفقراء ، والذى للشركاء يذهب للأصنام وللسدنة الحجّاب عليها والخادمين والذين يضربون لكم الأقداح ، يا ليتكم عرفتم العدل فى القسمة بل إن ما صنعتموه هو قسمة ضيزى جائرة وظالمة ، لماذا ؟ . تأتى الإجابة من الحق :

﴿ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ﴾

(من الآية ١٣٦ سورة الأنعام)

أنتم قسمتم وقلتم : هذا لله وهذا لشركائنا . فاصدقوا مع أنفسكم فى هذه النسبة ، لكنهم كانوا يسرقون حق الله ، وكان لهم فى الهلاك تقسيم معين ، وفى الزيادة لهم تقسيم آخر . فإذاما جاءت آفة للزرع وأهلكته أخذوا ما خصصوه لله وأعطوه للشركاء وقالوا : إن ربنا غنى ! وبرغم أنكم قسمتم ولكنكم لم توفوا بالقسمة التى فرضتموها ورضيتم بها .

وكذلك فى الأنعام يقدرون عدداً من الأنعام ويقولون : هذه لله ، وتلك للشركاء ، فإن ماتت بهيمة من المنذور لله لم يعوضوها ، وإن ماتت بهيمة منذورة للأصنام يعوضوها ويأخذوا بدلا منها من القسم الذى نذروه لله . وأيضاً لنفترض أن عيناً جارية ساحت فيها المياه لتروى الزرع المقسوم لله ، فيأخذوا منها للأرض المزروعة للأصنام . إذن هى قسمة ضيزى من البداية ، وليتهم وفّوا بهذه القسمة ، وهكذا ساء حكمهم وفسد .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾ ﴾

وأيضاً نقلوا تلك القسمة الضيزى إلى ما يتعلق بذواتهم فى الإنجاب والإنسال ؛ فشركاؤهم زيّنوا لهم قتل أولادهم ، و « التزيين » هو إدخال عنصر التحسين على شىء لشدة انجذاب النفس إليه ، وهو عملية تجميل لحقيقة وجوهر ، وبذلك يكون

التزيين أمراً عرضيًّا طارئاً ، ووجه التزيين أنهم كانوا إما أغنياء ، وإما فقراء ، فإن كانوا فقراء يقل الواحد منهم لماذا أجلب لنفسى همًّا على همّ ، وإن كانوا أغنياء يقل الواحد منهم : إن الأبناء سيأخذون منك ويفقرونك . إذن ففيه أمران : إما فقر موجود بالفعل ، وإما فقر مخوَّف منه ، ولذلك تجد الآيات التى تعرضت لهذا المعنى ، تأتى على أسلوبين اثنين ؛ فالعَجُز مختلف باختلاف الصدر ، والذين يحبون أن يستدركوا على بعض أساليب القرآن لأنه مرة يقول :

﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾

(من الآية ٣١ سورة الإسراء)

ومرة ثانية يقول :

﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾

(من الآية ١٥١ سورة الأنعام)

فما الفرق بين العبارتين ؟ .

ونقول لمثل هذا القائل : أنت تقارن بين التذييل « نحن نرزقكم وإياهم » ، و « نحن نرزقهم وإياكم » . هذه تذييل لآية ، وهذه تذييل لآية ثانية . هات ذيل الآية مع صدرها تجد أن ذيل كل آية مناسب لصدرها . ومادام قد اختلف فى الصدر فلابد أن يختلف فى الختام ، ففى الآية الأولى يقول الحق سبحانه : « ولا تقتلوا أولادكم من إملاق » فالإملاق وهو الفقر واقع موجود . إذن فشغل الإنسان برزقه أولى من شغله برزق من يعوله من الأولاد ، فيقول الحق لهؤلاء :

﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَـٰدَكُم مِّنْ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾

(من الآية ١٥١ سورة الأنعام)

فالإملاق موجود ، وشغلهم برزق أنفسهم يملأ نفوسهم . لذلك يقول لهم : « نرزقكم وإياهم » فيطمئنهم سبحانه نحن نرزقكم ثم نرزقهم . أما إن كان الإملاق غير موجود فالحق يقول :

﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾

(من الآية ٣١ سورة الإسراء)

أى لا تقتلوا أولادكم خوفاً من فقر ، فأنتم تملكون رزقكم ، وحين يأتى الأولاد نرزقهم ونرزقكم معهم . وهكذا نرى أن الصدر مختلف فى الآيتين ، وكذلك العجز ، والشركاء كانوا يزينون قتل الأولاد ، وهذه مسألة تحتاج إلى تزيين قاس ؛ لأن حب الأبناء غريزة فى النفس البشرية ، والنفس تحب أن يكون لها ذرية ؛ لأن الإنسان يفهم أنه مهما طال عمره فسوف يموت فيحب أن يظل اسمه فى الأجيال المتتابعة . ونجد الإنسان وهو ممتلىء بالسعادة حين يأتيه حفيد ، ويقول : لقد ضمنت ذِكْرى لجيلين قادمين ، وينسى أن الذكر الحقيقى هو الذى يقدمه الإنسان من عمل ، لا ذكرى الأبناء وحب امتداد الذات . وقتل الأبناء يحتاج إلى تزيين شديد ، كأن يقال : إن أنجبت أبناء فسيفقرونك ويذلونك ، فأنتم أمة غارات وأمة حروب وكل يوم يدخلك أبناؤك فى قتال ونزال فتكون بين فقد لأبنائك أو انتهاب لمالك ، وإن كانوا بنات فسيتم سبيهن من بعدك ، وهكذا تكون المبالغة فى الإغراء لعملية تناقض الفطرة السليمة فى امتداد النسل .

﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ﴾

(من الآية ١٣٧ سورة الأنعام)

و « لكثير من المشركين » تفيد أن بعضهم كان يرفض قتل الأولاد ، و « يردوهم » من الردى ، وهو الهلاك ، والموت .

﴿وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾

(من الآية ١٣٧ سورة الأنعام)

أى يخلطوا عليهم الدين ، فهل كان عندهم دين ؟ . لقد ورث هؤلاء من أمر قيم الدين ما كان سابقاً وهو ما كانوا عليه من دين إسماعيل عليه السلام حتى مالوا وزالوا عنه إلى الشرك ، إنهم زينوا لهم أعمالاً ليوردوهم موارد الهلكة . وحاولوا أن يخلطوا عليهم ما بقى لهم من دين .

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾

(من الآية ١٣٧ سورة الأنعام)

لأن وأد الأولاد وقتلهم إنما ينافى فكرة خلق الله ، فهل يخلق الله لتقتل أنت ؟!

كأنهم يصادمون إرادة الإيجاد من الحق سبحانه وتعالى ، لكنّه ـ سبحانه ـ لو شاء ما فعلوا ذلك ، فهو قد أعطاهم الاختيار ، ومن باب الاختيار ينفذون إلى كل مراد لهم ، ولو لم يخلق الله فيهم اختياراً ما فعلوا ذلك ؛ لأنه لو أراد ألا يضلوا لما فعلوا ، وقد أراد الله أن يوجد خلقاً لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون وهم الملائكة .

إذن فهذه المسألة ليست عزيزة على الله ، وسبحانه ساعة يقهر على مراد له ، إنما يكون ذلك لمصلحة المخلوق ، وساعة يتركه مختاراً فمن إمداد الخالق له بالاختيار ولا يفعل المختار شيئاً غصباً عن الله ؛ لأن الألوهية تقتضى أمرين اثنين : تقتضى قدرة تتجلى فى الأشياء القهرية التى لا يستطيع العباد أن يقفوا أمامها ، والإنسان هو الكائن الوحيد الذى له حق الاختيار بين البديلات فى مراداته ، أما بقية الكون فسائر بقانون التسخير وليس له اختيار .

والكائنات المسخرة أثبتت لله طلاقة القدرة ، ولكنها لا تثبت لله محبوبية المخلوق ؛ لأن المحبوبية تنشأ من أنك تكون حرًّا فى أن تفعل ، ولكنك تؤثر فعلاً مراد لله على مرادك . (ولو شاء الله ما فعلوه فذرهم وما يفترون) .

و « الافتراء » هو الاختلاق والكذب المتعمد ، وهم مفترون ، لأنهم أرادوا أن يغيروا صدق الواقع فى الإنجاب ، فقد خلق الله الزوجين ـ الذكر والأنثى ـ من أجل الإنجاب .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَقَالُوا۟ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾

وهذا تمادٍ فى الشرك ؛ لأنهم قسموا الحيوانات والحرث وحجزوا قسماً للأصنام ، وهذه الأنعام المرصودة للأصنام لا يتصرف فيها أحد ، فلا يؤخذ لبنها ولا يستخدمها أحد كمطايا ، ولا يتعدى نفعها للناس . ولم يتنبهوا إلى أن هذه الأنعام نعمة من الله ، ولابد من الانتفاع بها ، وليس من حسن التعقل أن تترك حيواناً تستطيع أن تستفيد من تسخيره لك ولا تفعل ، هم قد فعلوا ذلك وحكى الحق عنهم فقال :

﴿ وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ ﴾

(من الآية ١٣٨ سورة الأنعام)

أى هى أنعام محرم استخدامها ، وحرموا أيضاً ركوبها .

﴿ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا ﴾

(من الآية ١٣٨ سورة الأنعام)

وتمادوا فى الكفر فذكروا أسماء الأصنام عليها :

﴿ وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ﴾

(من الآية ١٣٨ سورة الأنعام)

وهذا لون من الافتراءات قد فعلوه ونسبوه إلى أنه متلقًى من الله ، ومأمور به منه ـ سبحانه ـ ولو قالوا : إن هذا الأمر من عندهم لكان وقع الافتراء أقل حدة ، لكنه افتراء شديد لأنهم جاءوا بهذه الأشياء ونسبوها إلى الله ، وهم قد انحلوا عن الدين وقالوا على بعضٍ من سلوكهم إنه من الدين ، ولذلك يجازيهم الله بما افتروا مصداقاً لقوله :

﴿ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾

(من الآية ١٣٨ سورة الأنعام)

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَقَالُواْ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ

لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن
مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ
إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾

ويقودهم الباطل إلى باطل آخر فادعوا أن ما فى بطون هذه الأنعام من اللبن ومن الأجنة إذا نزلت حيّة فهى للذكور منهم فقط ، ولا تأكل النساء من ذلك شيئاً ، وإن مات منها شىء أكله الرجال والنساء وهذا يدل على التشقيق فى القسمة .

ويذيل الحق الآية بالقول الكريم :

﴿ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾

(من الآية ١٣٩ سورة الأنعام)

أى سيجازيهم على كذبهم وافترائهم بما يليق عقاباً للكاذبين ؛ لأنه ـ سبحانه ـ (حكيم) فى أفعاله وأقواله وشرعه وقدره (عليم) بما يفعلونه من خير وشر ، إنه سيجازيهم على ما فعلوه أتم الجزاء وأكمله .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا۟ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ
عِلْمٍ وَحَرَّمُوا۟ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ
ضَلُّوا۟ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾

وجْه الخسران أنهم لم يلتفتوا إلى أن الله يرزقهم ويرزق أبناءهم أيضاً ، ولعلك أيها الأب قتلت ولداً ،كنت ستعيش أنت فى رحاب رزقه ، وكثيراً ما يكون البعض من الأولاد صاحب رزق وفير ، ويقال عن مثل هذا الابن : إن وجهه وجه الخير والسعد

والبركة ، فمن يوم أن وُلد ولد معه الخير ، وذلك حتى لا يتأبى الإنسان على عطاء الله ؛ لأنك حين تتأبى على عطاء الله تحرم نفسك العطاء فيما تظنه غير عطاء ، وهذا خسران كبير .

إننا نلحظ أن العرب كانوا فى بيئة تستجيب وتلبى الصريخ ، فساعة يصرخ من فى شدّة نزلت به واستنجد ، يجد من ينقذه ، والأولى بالنجدة أهل الرجل وأولاده . والمثال على ذلك ما حدث من جد رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما ذهب ليحفر البئر ، وجاءت قريش ووقفت له حتى لا يحفر ، فقال : لو أن لى عشرة أبناء سأضحى بواحد منهم . إذن فكثرة الأولاد فى هذه المسائل تعطى العزوة وتكثر الصريخ ، ولا يفعل ذلك إلا المفطور على النجدة .

وإن قتلت ابناً خوفاً من الفقر فقد تخسر رزقاً قد يكون فى طى من تقتل من الذرية ، وفوق ذلك تفقد مباهج الشأن أو العزوة أو الآل . أو على الأقل أنهم قد خسروا لأنهم عاكسوا مرادات الله فى الإيجاد بالإنجاب .

﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَـٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾

(من الآية ١٤٠ سورة الأنعام)

و « سفهاً » تعنى طيشاً ، وحمقاً ، وجهلاً .

﴿ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴾

(من الآية ١٤٠ سورة الأنعام)

وهم حين يحرمون على أنفسهم ما رزقهم الله من الأنعام ، فهم أهل حمق وضلال وخسران فلو تركوها لانتفعوا منها فى حمل أثقالهم أو فيما تدره من لبن ، أو فى أكل لحمها . إنهم بحمقهم وجهلهم قد خسروا كثيرا ، وهم مع ذلك فعلوا ما فعلوا بكذب متعمد على الله ، وهم قد ضلوا ولم يكونوا أهلاً للهداية ، وكان يكفى أن يصفهم بقوله : « قد ضلوا » ؛ لكنه أضاف : « وما كانوا مهتدين » لأن الضلال هوعدم الذهاب إلى المقصد الموصل للغاية ، وقد يكون ذلك عن جهل بالطريق ، لكن الحق سبحانه رسم لهم طريق الحق فآثروا الذهاب إلى الضلال مع وجود طريق الحق .

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ ﴾

وقول الحق : « أنشأ » أى أوجد على إبداع لم يسبق له مثيل فلم يكن هناك نماذج توضيحية تدل الله سبحانه ، وإنما ابتدأها على غير مثال سابق ؛ لأنه لا يوجد خالق سواه . والخالق إذا لم يكن هناك سواه من شريك أو ندٍ فإنه حين يخلق إنما ينشىء خلقاً على غير نظام أو مثالٍ كان قد سبقه .

وكلمة « جنات » تؤدى ما نعرفه من المكان المحدد الذى يجمع صنوف الزروع والثمار مما نقتات ، ومما نتفكه به ، وتسمى جَنَّة وتسمى جَنَّات ؛ لأن المادة كلها تدل على الستر وعلى التغطية ، ومنه الجُنون لأن فيه ستراً للعقل ، ومنها الجنّ لأنهم مستورون عن رؤية العين ، وكذلك « المِجَنّ » لأنه الذى يستر عن الإنسان طعنات الخصم .

والجَنَّة هى المكان الممتلىء بالزرع والثمار وتعلو الأشجار فيه وتكثف وتلتف أغصانها وفروعها بحيث تستر من يكون بداخلها وتستره أيضاً عن بقية الأمكنة ؛ لأنه لا حاجة له إلى الأمكنة الأخرى ؛ ففى الجنة كل مقومات الحياة من غذاء وفاكهة ومرعى ، وماء وخضرة ومتعة ، وفيها كل شىء . كما تسمى البيت العظيم المكتمل الذى يضم ويشتمل على كل المرافق « قصراً » لأنَّه قَصَرَك عن أى مكان سواه ؛ لأن فيه الأشياء التى تحتاج إليها كلها ، فلا تحتاج إلى شىء بعده .

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّـٰتٍ مَّعْرُوشَـٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَـٰتٍ ﴾

(من الآية ١٤١ سورة الأنعام)

ومادة العرش تدل على العلو ، ومنه قيل للسقف « عرش » ، ويطلق العرش أيضاً على السرير ؛ مثل قوله الحق : (ورفع أبويه على العرش) .

ويطلق العرش على الملك مثل قوله الحق : (ولها عرش عظيم) .

كل ذلك يدل على « العلو » وقوله الحق هنا : « معْروشات وغير معروشات » ، أى أنّ الزرع من نوع العنب ، حين نعنى به نجعل له القوائم والقواعد التى يقوم عليها ؛ لأن امتداد أغصانه اللينة لا تنهض أن تقوم وحدها ، ولكنْ هناك نوع أيضاً يقوم وحده نسميه العنب الأرضى ، وكأن الكلام فيما يختص بالكَرْم . أى : أنك إذا ما نظرت إلى الزرع الذى لا ساق له كالبطيخ ، وكالشمّام ، وكالكوسة ، وكل الزروع التى ليس لها ساق تجدها مفروشة فى الأرض أى غير قائمة على قواعد وقوائم وعروش . وإن كنا الآن نحاول أن نرفعها لنعطى لها قوة فى الإنتاج . والكلام جاء على ما كان موجوداً عند العرب أيام بعثة النبى صلى الله عليه وسلم (وهو الذى أنشأ جنات معروشات وغير معروشات والنخل والزرع) . والزرع يطلق ويراد به ما نقتات به من الحبوب .

﴿ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَـٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَـٰبِهٍ ﴾

(من الآية ١٤١ سورة الأنعام)

وحين ننظر إلى هذه الآية نجد أنه قد سبقتها آية فيها كل هذه المعانى يقول سبحانه :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّـٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَـٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

وبعض الناس يحاولون نقد القرآن فيقولون : إنه يكرر المعانى الواحدة ؛ لأنهم لا يمتلكون فطنة أن المتكلم هو الله ، وسبحانه يتكلم فى كل شىء لأمر حكيم ، فهو هنا يتكلم عن هذه الأشياء كدليل على الخالق ووحدانيته بدليل أنه ذيل الآية بقوله : (إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون) ، ولكن الكلام فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها قد جاء بقصد الحديث عن الانتفاع بها فيقول :

﴿ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ﴾

(من الآية ١٤١ سورة الأنعام)

ولاشك أن استقامة العقيدة بالإيمان بالإله الواحد تحتاج إلى الدليل أولاً ؛ لأن فائدتها أشمل ، وأعم ، وأعمق ، وأخلد من الأكل ، لأن الأكل قصارى ما فيه أنه يقوتنا هذه الحياة ، ولكن الأدلة الأولى تعطينا الثواب الباقى والنعيم المقيم ؛ لذلك فالآية الأولى متعلقة بالدليل ، وهذه الآية متعلقة بالانتفاع ، وهنا نلاحظ أنه قال : « كلوا من ثمره إذا أثمر » ، وفى هذا إباحة لتناول الأشياء منه قبل أن تنضج دون أن يترتب على ذلك لون من الضرر وإلا عالجناها بما يزيل وينفى عنا الضرر ، فإذا ما وجدت ثماراً لم تنضج لك أن تأكل منها ، ولم يجعل الحق لنا حرجاً فيما نحرث ونبذر ونروى ولكن الله سبحانه هو الذى يزرع ونحن نأكل منه ، ونجد أهل الريف يشوون الذرة قبل أن تنضج ويقول سبحانه : (وآتوا حقه يوم حصاده) .

لقد قالوا إن الآية مختصة بما يُحصَد وهى الزروع ، أما الأشياء التى لا يقال فيها : حصد فهى خارجة عن ذلك مثل الفواكه ، لكن الإمام أبا حنيفة يرفض ذلك ويرى : أن كل ما تنبته الأرض ينطبق عليه هذا النص ؛ لأنه لا يصح أن تأخذ معنى الحصاد على العرف ، ولكن بفهم اللغة .

ما معنى الحصاد فى اللغة ؟ . الحصاد فى اللغة القطع ، فحينما تفصل الثمرة المطلوبة فهذا هو الحصاد . ولكن يوم الحصاد للحبوب ؛ تكون الغلال فى السنابل ، ويرى الإمام أبو حنيفة أن تعطى من البداية لمن حضر القسمة ، وكذلك حينما تدرسه وتذريه تعطى ، وعندما تغربل الحبوب أعط أيضاً ، ويبتدىء الحصاد من ساعة أن تُكيل ، وما تقدم غير محسوب ، ما تأتيه من الحق يوم حصاده هو غير المفروض ؛ لأنه لم يقل الحق المعلوم ، وفى هذا اتساع لدائرة امتداد الخير إلى غير الزارعين .

﴿ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾

(من الآية ١١ سورة الأنعام)

والإسراف هو مجاوزة الحد ، والبعض قد فسّر الإسراف بالزيادة فقط ، ولكن الحقيقة أن أى تجاوز للحد زيادة أو نقصاً يسمى إسرافاً ؛ لأنه مأخوذ من « سرف الماء » ، وهو أن يُطلق الماء ويذهب فى غير نفع ، وسيدنا مجاهد يقول : لو أن للإنسان مثل جبل أبى قبيس ذهباً ثم أنفقه فى حلّ ما عُدَّ سرفاً ، ولو صرف درهماً واحداً فى معصية يعد سرفاً .

إذن فمعنى : « ولا تسرفوا » أمران اثنان بمعنى لا تتجاوزوا الحدود التى شرعها الحق فتستعملوا هذا فى معصية ، أو لا تسرفوا فى أن تعطوا للفقير أقل مما يستحق .

وكان حاتم الطائى كريماً جداً ، وقعدوا يلومونه على هذا الكرم ، فقال واحد له : لا خير فى السرف . رد عليه فقال له : ولا سرف فى الخير . أى أنه مادام فى الخير فلا يكون سرفاً .

وإذا كنا سنأخذ الأمر على المعنيين الاثنين : النقص والزيادة ، فما المانع أن نعطى للفقير أكثر ؟ . ويحكى الأثر أن أناساً قد تأخذهم الأريحية والنشاط للبذل والعطاء ساعة يرون كثرة غلتهم ، وما أفاء الله عليهم من ريع أرضهم . إنهم يعطون الكثير مثلما عمل ثابت بن قيس ، وكان عنده خمسون نخلة وجزها وأعطاها كلها للفقراء ، ولم يترك لأولاده شيئاً . فلما رُفِع الأمر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له : أعط ولا تسرف ، لماذا ؟ مخافة أن تحتاج بعد ذلك إلى ما أعطيت فتندم على أنك أعطيت .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾ ﴾

وبعد أن تكلم سبحانه عن نعمه علينا فى الزراعة ونعمه علينا فى الماشية قال : « ومن الأنعام » وهى الإبل والبقر والغنم ، « حمولة » والحمولة هى التى تحمل ، فيقال : « فلان حَمول » أى يتحمل كثيراً . والحق يقول :

﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ﴾

(من الآية ٧ سورة النحل)

والذى تحمله فوق ظهرها يسمى « حُمولة » . ولذلك نقول عن السيارة التى تنقل « حُمولة كذا طن » . (ومن الأنعام حمولة وفرشاً) .

والإبل نحمل عليها الرحال ، وكل متطلباتنا ، و « فرشا » معناها : مقابل الحمولة . فالحمولة هى المشتدة التى تقوى على أن تحمل . وكل ما لا يستطيع الحمل لصغره ، أو لأنه لم يعد لذلك ، إذا ما نظرت إليه نظرة سطحية تجده وكأنه فارش للأرض . أو « ومن الأنعام حمولة » ؛ وهى التى تحمل لكم متاعكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس . « وفرشا » أى ومن الأنعام ما تتخذون منه فرشا بأن ننسج من وبره وصوفه وشعره ما نفرشه .

﴿ وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

وفى الحديث عن الأنعام ،جاء بالحمولة والفرش ويأتى أيضاً بسيرة الأكل ؛ لأننا نأكل لحمها وألبانها ومشتقات الألبان كلها ، وهكذا تتعدد المنافع ، فهى تحملنا ونأخذ من أصوافها وأوبارها وشعورها الفرش ، والوبر وهو شعر الجمال ، والصوف وهو شعر الغنم ، وشعر الماعز يتميز بلمعة وانفصالية بين شعيراته .

ونلحظ أنه سبحانه قال فى الآية الأولى : « كلوا » ، وفى الثانية : « كلوا » ؛ لأن ذلك جاء بعد الكلام عما حرموه على أنفسهم من أرزاق الله فى الأرض . فكان ولابد أن يؤكد هذا المعنى ، ويوضح : إن الذى خلق هو الله ، والذى كلّف هو الله ، فلا تأخذوا تحليلاً لشىء ولا تحريماً لشىء إلا ممن خلق وممن كلّف .
(كلوا مما رزقكم الله ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين) .

الشيطان هو الذى يوسوس لهم بالمخالفة لمنهج الله ، وعداوة الشيطان ظاهرة . فإذا ما كانت العداوة سابقة ، فقد أنزل آدم وحواء من رتبة الطاعة إلى رتبة المعصية وجرأهما على المخالفة فخرجا من الجنة ، كان من الواجب أن نحتاط فى قبول هذه الوسوسة .

ثم يفصل الحق لنا الأنعام التى نتخذها حمولة ، أو نأخذ منها فرشاً فقال :

﴿ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ ﴾

وكلمة « أزواج » ، جمع زوج ، و « الزوج » يطلق على الشىء معه ما يقارنه مثل « زوج النعل » ، ونحن فى أعرافنا نأخذها على الاثنين ، لكنها فى الأصل تطلق على الواحد ومعه ما يقارنه ، إلا أنه إذا لم يكن هناك فارق بين الاثنين بحيث لا يتم الانتفاع بأحدهما إلا مع الآخر ولكن لا تميز لأحدهما على الآخر كالجورب مثلا ، ففى مثل هذا نستسمح اللغة فى أن نسمى الاثنين زوجا ، لكن إذا كان هناك خلاف بين الاثنين لا نقول على الاثنين : زوج .

والذكر والأنثى من البشر ، صحيح أنهما يقترنان فى أن كل واحد منهما إنسان ، لكن للذكر مهمة وللأنثى مهمة مختلفة . أما الجوارب فكل « فردة » منها نضعها فى أى قدم لأنه لا فارق بينهما ، إذن كلمة « زوج » تطلق ويراد بها الشىء الواحد الذى معه ما يقارنه . والحق يقول :

﴿ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ ﴾

(من الآية ٣٥ سورة البقرة)

وكلمة « زوج » هنا أطلقت على حوّاء ؛ فآدم زوج وحواء زوج ، والحق هوالقائل :

﴿ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ ﴾

(سورة النجم)

ولم يقل عن الاثنين : إنهما « زوج » وإلا لقال : خلق الزوج الذكر والأنثى . إذن فكلمة « زوج » تطلق على واحد معه ما يقارنه ، مثلها مثل كلمة « توأم » وهى لا تقال للاثنين ، بل تقال لواحد معه آخر . لكن الاثنين يقال لهما : توأمان .

﴿ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۖ مِّنَ ٱلضَّأۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡمَعۡزِ ٱثۡنَيۡنِ ﴾

(من الآية ١٤٣ سورة الأنعام)

و « من الضأن اثنين » أى ذكرها وأنثاها فنسمى الذكر كبشا والأنثى « نعجة » . ومن المعز اثنين ، والذكر نسميه « تيساً » ، والأنثى نسميها « عنزة » ، وبذلك يكون معنا أربعة ، ومن هنا نفهم أن الزوج مدلوله فرد ومعه ما يقارنه .

﴿ قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ أَمَّا ٱشۡتَمَلَتۡ عَلَيۡهِ أَرۡحَامُ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۖ نَبِّـُٔونِي بِعِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾

(من الآية ١٤٣ سورة الأنعام)

وما دمتم أنتم تحرمون وتحللون ، وتقولون : إن هذا من عند الله فقولوا لنا أحرّم الذكرين أم حرّم الأنثيين ؟ ولا يجدون جواباً ؛ لأنه سبحانه لا حرّم هذا ولا حرّم ذاك ، ولذلك أبرزت المسألة إبراز الاستفهام ، والشىء إذا أبرز إبراز الاستفهام فمعناه أنه أمر مقرر بحيث إذا سألت الخصم لا يقول إلا ما تتوقعه ، واسمه السؤال أو الاستفهام التقريرى . ويقول الحق : « نبئونى بعلم إن كنتم صادقين » أى أخبرونى بعلم ذلك فى التحريم إن كنتم أهل صدق ؛ لأنكم لستم أهلاً للتحريم ، إنما يحرّم ويحلل من خلق وشرع . فإن كان عندكم علم قولوا لنا هذا العلم .

ثم يأتى الحق بخبر الأربعة الباقية من الأنعام فيقول :

﴿وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ قُلْ
ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ
عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ
وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ
عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ ٱللَّهَ
لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾﴾

ومن البقر اثنين : ذكر وأنثى أيضاً ، والذكر من البقر نسميه ثوراً ، ويخطئ بعض الناس فى تسمية الأنثى من البقر « بقرة » ، إن البقرة اسم لكل واحد منهما : للذكر والأنثى ، والتاء فى بقرة للوحدة ، واسم الأنثى « ثورة » .﴿ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين قل آلذكرين حرم أم الانثيين ﴾ أنتم تقولون : إنكم لم تتبعوا رسولاً ، وكنتم على فترةٍ من الرُّسل ، ولم يأت لكم رسول ، إذن فلا تحريم إلا من الله ، ولا يبلغكم تحريم الله إلا عن طريق رسول . بل أكنتم شهداء مسألة التحريم ، أى أشاهدتم ربكم ورأيتموه حين أمركم بهذا التحريم ، أم أنتم الأنبياء ؟ . إنكم تتعمدون الكذب على الله لإضلال الناس . إذن ، فالحق لا يهدى من يظلم نفسه ويظلم الناس .

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ
يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا

أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ
ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ
غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾

والحق سبحانه وتعالى قد تكلم عن التحريم فى آيات كثيرة ؛ فهناك الآية التى قال فيها :

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ ﴾

(من الآية ٣ سورة المائدة)

وهنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها نجد الحصر فى أربعة فقط ، فيقول سبحانه :

﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ﴾

(من الآية ١٤٥ سورة الأنعام)

فكيف يتفق هذا النص مع النص الآخر ؟!

من يقول ذلك نقول له : أنت لا تفرق بين إيجاز وإطناب ، ولا تفرق بين إجمال وتفصيل ؛ فالذى تُرِك فى هذه الآية داخل فى الميتة ؛ لأن المُنخنقة والمُترديّة والنطيحة وما أكل السبع ، والذى ذُبح على النُّصب وما أُهلّ به لغير الله موجود وداخل فى كلمة « الميتة » .

ثم : من قال : إن القرآن هو المصدر الوحيد للتشريع ؟ التشريع أيضاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، بتفويض من الله فى قوله تعالى :

﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾

(من الآية ٧ سورة الحشر)

فلا تقل إن المحرمات فقط محصورة فى هذه الآية لأن فيه محرمات كثيرة ، بدليل أن الله مرّة يُجْملها ، فيحّرم علينا الخبائث ؛ فكل خبيث مُحرّم . وقلنا من قبل : إن الدم المسفوح مُحرّم ، والدم المسفوح هو السائل الذى ينهال ويجرى وينصب ساعة الذبح ، وهل هناك دم غير مسفوح ؟ نعم ، وهو الدم الذى بلغ من قوة تماسكه أن كوّن عضواً فى الجسم كالكبد أو الطِّحال . ولذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « أحلّت لنا ميتتان ودمان : فأما الميتتان فالحوت والجراد ، وأما الدمان فالكبد والطحال »[1] وفى رواية أخرى : السمك والجراد .

وعلى منطق التحريم للميتة والدم كان لابد ألا نأكل الميتة من السمك . ولا الكبد والطحال ، ولكن الله أحل لنا السمك والجراد والكبد والطحال لأنها لا تضر الجسم ، فالسمك والجراد ليس لهما نفسٌ سائلة أى دم يجرى ؛ فإذا ما ذبحنا أحدهما لا يسيل له دم ، أمّا الكبد والطحال فهما من دم وصل من الصلاحية أنه يكوّن عضواً فى الجسم ، ولا يتكوّن عضو فى الجسم يؤدى مهمة من دم فاسد ، بل لابد أن يكون من دمٍ نقى .

والحق الذى شرّع يقدر الظروف المواتية للمكلَّفين ، وقد تمر بهم ظروف وحالات لا يجدون فيها إلا الميتة ، وهنا يأكلون أكل ضرورة على قدر دفع الضر والجوع . لكن على المسلم ألا يملأ بطنه من تلك الأشياء .

﴿ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

(من الآية ١٤٥ سورة الأنعام)

وأنواع الاضطرار : ألّا تجد ما يؤكل من الحلال ، أو أن يكون ما يؤكل من الحلال موجوداً إلا أن هناك من يكرهك على أن تأكل هذا المحرم ، فالإكراه داخل فى الاضطرار ، والاضطرار يحملك ويدفعك إلى أن تمنع عن نفسك الهلاك ؛

---

(١) رواه ابن ماجه والحاكم والبيهقى عن ابن عمر .

فتأخذ من الطعام حتى تقتات فلا تموت من الجوع ، فإذا كان الله قد أباح لك أن تأكل من الميتة فى حال مظنة أن تموت من الجوع فما بالك من الإكراه بالموت العاجل ؛ إنه أولى بذلك ؛ لأنه سبحانه هو الذى رخّص ، وهو الذى شرع الرخصة ، ومعنى ذلك أنها دخلت التكليف ؛ لأن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه ، ومادمت قد دخلت فى دائرة التكليف فهنا يكون الغفران والرحمة .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾ ﴾

هنا يأتى الحق بالتحريم الثانى ، وهو التحريم للتهذيب والتأديب ، مثلما قال من قبل :

﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ﴾

(من الآية ١٦٠ سورة النساء)

فـ « الظُفُر » هو ما يظهر عندما ننظر إلى أقدام بعض الحيوانات أو الطيور ، فهناك حيوانات نجد تشقق إصبعها ظاهراً والأصابع مفصولة ومنفرجة بعضها عن بعض ، فهذه ليست حراما عليهم ، ونوع آخر نجد أصابعها غير مفصولة وغير منفرجة مثل الإبل ، والنعام ، والبط ، والأوز وهى ذو الظُفُر . فكل ذى ظُفُر حُرّم على اليهود ، وقد حرم عليهم لا لخبث وضرر فى المأكول ، ولكن تأديبا لهم لأنهم ظلموا فى أخذ غير حقوقهم ؛ لذلك يحرمهم الله من بعض ما كان حلالا لهم ؛ فالأب يعاقب ابنه الذى أخذ حاجة أخيه اعتداء ؛ فيمنع عنه المصروف ،

والمصروف فى ذاته ليس حراماً ، ولكن المنع هنا للتأديب . والحق هو القائل :

﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ﴾

(الآية ١٦٠ ومن الآية ١٦١ سورة النساء)

ولأنهم فعلوا كل ذلك يأتى لهم التحريم عقاباً وتأديباً

﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

وأنت حينما تذبح الذبيحة تجد بعضاً من الدهن على الكلى ، ونجد فى داخلها ما يسمونه « منديل الدهن » وكذلك « ألية الخروف » ، وحين تقطع الرأس تجد فيها نوعاً من الدهون ، وقد حرّم الحق عليهم فى البقر والغنم شحومهما . وكذلك « كل ذى ظُفُر » مُحرّم كله . وهناك استثناء فى البقر والغنم هو : ﴿ إلا ما حملت ظهورهما أو الحوايا ﴾ .

أى أحل لهم ما هو فوق الظهر من الشحم ، وأحل لهم ما حملته الحوايا من الشحوم و « الحوايا » جمع حوية أو حاوية أو حاوياء وهى ما تحوّى من الأمعاء أى تجمع واستدار ، وفى الريف تقول المرأة عن قطعة القماش التى تبرمها وتلفها وتصنع منها دائرة مستديرة تضعها على رأسها لتحميه عندما تحمل فوقه الأشياء ؛ تقول : صنعت « حواية » والحواية هنا هى الأمعاء الغليظة ، وطولها كذا متر ، ومن حكمة تكوينها الربانية نجدها تلتف على بعضها ، ولذلك اسمها « الحوايا » ، وهى ما نسميه « الممبار » . وكذلك حلل لهم ما اختلط بعظم فى القوائم والجنب والرأس والعين ، وكذلك أحل لهم شحما اختلط بعظم منه الألية ، لأن الألية تمسك بِعَجْب الذنب . أى أصله ، وهو الجُزَيْء فى أصل الذَّنَب عند رأس العُصْعُص . ولأنه رحيم فهو ينزل عقوبة فيها الرحمة فيبيح له شيئا ويحرم شيئا آخر .

ويذيل الحق الآية بقوله : ﴿ ذلك جزيناهم ببغيهم وإنا لصادقون ﴾ .

وليس هذا التحريم تعديًا عليهم ، أو تعنتاً فى معاملتهم ، بل لأنهم بَغَوْا ، والباغى يجب أن يأخذ حظه من الجزاء ؛ حتى يفكر ماذا يحقق له البغى من النفع ، وماذا يمنع عنه من النفع أيضاً ، وحين يقارن بين الاثنين قد يعدل عن بغيه ، وهم قد صدّوا عن سبيل الله ، وأخذوا ربا لينمّوا أموالهم وأكلوا أموال الناس بالباطل ، لذلك حرّم عليهم الحق بعض الحلال . وسبحانه صادق فى كل بلاغ عنه ، ونعرف بذلك أن علة التحريم لبعض الحلال كانت بسبب ظلمهم وما بدر منهم من المعاصى فكان التحريم عقوبة لهم .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾ ﴾

وكان مقتضى أنهم يكذبونك فيما أخبرت به عن الله ، أن يعجل الله لهم بالعذاب ؛ لكن الحق لم يعجل لهم بالعذاب لأنه ذو رحمة واسعة .

﴿ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ ﴾

(من الآية ١٤٧ سورة الأنعام)

ولكن إياكم أن تطمعوا فى الرحمة الدائمة ؛ إنها رحمة تأجيل فقط . ولن يفوتكم عذابه ، وهنا يحننهم أيضاً فيقول سبحانه : « ربكم ذو رحمة واسعة » وكأنه يقول لهم : راجعوا أنفسكم واستحوا من الله ولا يغرنّكم أنه ربّ ، خلق من عَدَم وأمدَّ من عُدْم ، وتولّى التربية ، لكنه لن يرد ويمنع بأسه وعذابه عن القوم المجرمين منكم .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ ﴾

وكلما تقرأ آية فيها « سيقول » فاعلم أنها تنطوى على سرّ إعجازى للقرآن ، والذى يعطى هذا السرّ هو الخصم حتى تعرف كيف يؤدى عدوّ الله الدليل على صدق الله ، مما يدل على أنه فى غفلة . ومن قبل قال الحق سبحانه :

﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾

(من الآية ١٤٢ سورة البقرة)

و « سيقول » معناها أنهم لم يقولوا الآن ، ويخبر القرآن أنهم سيقولون ، ولم يخبئ ويستر القرآن هذه الآية ، بل قالها رسول الله صلى الله عليه وسلم قرآناً يُقرأ ويُصلى به . ولو أن عندهم شيئاً من الفكر لكانوا يسترون القول حتى يُظهروا المتكلم بالقرآن بمظهر أنه لا يقول الكلام الصحيح ، أو على الأقل يقولون إنه يقول : « سيقول السفهاء » ، ونحن لسنا بسفهاء فلا نقول هذا القول . لكنهم يقولون القول السفيه برغم أن الآية قد سبقتهم بالتنبؤ بما سوف يقولون ؛ لأن الذى أخبر هو الله ، ولا يمكن أن يجئ احتياط من خلق الله ليستدرك به على صدق الله . هم سمعوا الكلمة ، ومع ذلك لم يسكتوا بل سبقتهم ألسنتهم إليها ليؤيدوا القرآن .

وكل مسرف على نفسه فى عدم اتباع منهج الله يقول : إن ربنا هو الذى يهدى وهو الذى يضلّ ، ويقول ذلك بتبجح ووقاحة لتبرير ما يفعل من سفه . وسيظل المسرفون على أنفسهم وكذلك المشركون يقولون ذلك وسيحاولون تحليل ما حرّم الله . وقد جاء المشركون بقضيتين : قضية فى العقيدة ، وقضية فى التكليف ؛ قالوا

فى قضية العقيدة : « لو شاء الله ما أشركنا » ، وكأنهم أشركوا بمشيئة الله . وجاءوا إلى ما حرموا من حلال الله وقالوا إنهم قد فعلوا ذلك بمشيئة الله أيضاً ؛ ليوجدوا لأنفسهم مبرراً ، وهذا القول ليس قضية عقلية ؛ لأنها لو كانت وقفة عقلية لكانت فى الملحظين : الخير والشر ، فالواحد منهم يقول : كتب ربنا علينا ـ والعياذ بالله ـ الشر ، لماذا يعذبنى إذن ؟! ولا يقول هذا الإنسان « وكتب الله لى الخير » . هذاما كان يفرضه ويقتضيه المنطق لكنهم تحدثوا عن الشر وسكتوا عمَّا يعطى لهم من خير .

وقولهم « لو شاء الله ما أشركنا » صحيح المعنى ؛ لأنه سبحانه لو شاء أن يجعل الناس كلهم مهديين لفعل ، لكنه شاء أن يوجد لنا اختياراً ، وفى إطار هذا الاختيار لا يخرج أمر عن مشيئته الكونية . بل يخرج الكفر والشر عن مراده الشرعى . وعلمنا من قبل أن هناك فرقاً بين الكونية والشرعية ؛ فكفر الكافر ليس غصباً عن الله أو قهراً عنه سبحانه ، إنما حصل وحدث بما أعطاه الله لكل إنسان من اختيار ، فالإنسان صالح للاختيار بين البديلات :

﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الكهف)

فالإنسان قادر على توجيه الطاقة الموهوبة له من الله الصالحة للخير أو للشر . إذن فاختيار الإنسان إما أن يدخله إلى الإيمان وإما أن يتجه به إلى الكفر ، لذلك يقول الحق عن الذين يدّعون أن كفرهم كان بمشيئة الله :

﴿ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ﴾

(من الآية ١٤٨ سورة الأنعام)

والسابقون لهم قالوا ذلك وفعلوا مثل ما يفعل هؤلاء من التكذيب ؛ وجاءهم بأس وعذاب من الله شديد ، ولذلك يأمر الحق محمدًا صلى الله عليه وسلم :

﴿ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾

(من الآية ١٤٨ سورة الأنعام)

ويسألهم محمدٌ صلى الله عليه وسلم عن علم يؤكدون به صحة ما يدعونه . . ويزعمونه أى هل عندكم بلاغ من الله ، والحق أنهم لا علم لديهم ولا دليل ، إنهم يتبعون الظن ، ويخرصون ، أى أن كلامهم غير واضح الدلالة على المراد منه ، إنه تخمين وظن وكذب .

لذلك يقول سبحانه :

﴿ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ ﴾

نعم فلو شاء سبحانه لقسرهم على الهداية وما استطاع واحد منهم أن يخرج عن الهداية ، ولكنه لم يشأ ذلك ، بل أراد أن يكون الإقبال على الإيمان به ، واتباع التكاليف أمراً داخلاً فى اختيارهم . ألم يخلق سبحانه خلقاً لايعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ؟ ألم يخلق الكون كله مؤتمراً بأمره ؟!

﴿ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ﴾

(من الآية ١٤٩ سورة الأنعام)

و « الحجة » هى الدليل الذى تقيمه لتأييد قولك فى الجدل ، ولذلك نسمى عقودنا حجة على الملكية . أو « الحجة البالغة » أى التى لاينفذ منها شىء أبداً يعطل المراد منها .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا

تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾

ومادمتم لا تملكون العلم فمن المحتمل أنكم تملكون شهوداً على ما تقولون . والخطاب : « هلم شهداءكم » هو خطاب للجماعة ، و « هلم » يستوى فيها المفرد والمفردة والمثنى مذكراً كان أو مؤنثاً . والجمع مذكراً أو مؤنثاً ، فتقول : هلم يا زيد إلىّ ، وهلم يا هند إلىّ ، وهلم أيضاً لجماعة الذكور ولجماعة الإناث ،وهذه لغة الحجازيين . وتختلف عن لغة بنى تميم التى يزيدون عليها فيقال : « هلم يا رجل » ، و « هلمى يا امرأة » ، و « هلما ، وهلموا ، وهلممن » . والقرآن نزل بلغة قريش « الحجازيين » ، والحق يقول : « هلم شهداءكم » . أى هاتوا وأحضروا شهداءكم أن الله حرّم هذا ، إنكم بلا علم ، وكذلك لا شهود عندكم على المدعى ؛ فإن كان عندكم شهود هاتوا هؤلاء الشهود .

وماذا إن أحضروا شهود زور ؟ إنه ـ سبحانه ـ يحذر رسوله ويوضح له أنهم حتى ولو أحضروا شهداء إياك أن تصدقهم فهم كذابون :

وكأن الله يريد أن يفضح الشهود أيضاً أمام المشهود أمامهم ، ويعطى أيضاً قضيتين اثنتين ؛ فسبحانه يدحض ويبطل حجتهم ، ويفضح الشهود الذين جاءوا بهم . فكأنه قال : هاتوا هؤلاء الذين قالوا لكم هذا الكلام ، وفى ذلك فضيحة لمن لقنهم هذه الأوامر .

ويأمر الحق رسوله ألا يتبع الذين كذبوا بآياته سبحانه . وكلمة « أهواء » ، جمع هوى ، وهو ما يختمر فى الذهن ليلوى الإنسان عن الحق ؛ فهو شهوة ترد على الذهن فتجعله يعدل عن الحق :

﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾

(من الآية ١٥٠ سورة الأنعام)

وهم لا يكذبون بآيات الله فقط بل لا يؤمنون بالآخرة أيضاً ؛ لأنهم لو كانوا يؤمنون بالآخرة لعلموا أنهم مجازون على هذا جزاء يناسب جرائمهم ، ولو أنهم قدروا هذه المسألة لامتنعوا عن اتباع أهوائهم .

ويذيل الحق الآية بقوله الكريم :

﴿وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾

(من الآية ١٥٠ سورة الأنعام)

ونفهم من كلمة « يعدل » أنها من العدل بمعنى القِسط ؛ إذا قيل : عدل فى كذا ، أو عدل بين فلان وفلان ؛ أو عدل فى الحكم ، أما عدل بكذا فيكون المراد منها أنه جعله عديلا ومساويًا . وجاءت بهذا المعنى فى آية أخرى هى قوله الحق :

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ۝١﴾

(سورة الأنعام)

أى يجعلون ما لا يصح أن يكون مساويًا لله ، مساويا وعدلا لله . وهذا فعل من جعلوا لله شركاء ، وكذلك من لا يؤمنون بالله ؛ فالواحد منهم يعدل عن ربه عدولاً ويميل ويعرض عنه ويشرك به ويسوِّى به غيره . ويجب أن نلحظ عند النطق بكلمة « التوحيد » وهى : « لا إله إلا الله » ألا نقف عند قول : (لا إله) لأن ذلك يعنى إنكار ونفى وجود إله وهذا والعياذ بالله كفر . إذن يجب علينا أن نصلها بما بعدها فنقول : (لا إله إلا الله) أو نكون عند نطقنا بلفظ (لا إله) قد انعقدت قلوبنا على وحدانيته وما يجب له ـ تعالت عظمته ـ من صفات الجلال والكمال ، ومعنى (لا إله إلاالله) أنه لا معبود بحق إلا الله ، لأن المعبودين بباطل كثيرون كالأصنام والنجوم والجن وبعض الإنس والملائكة وغير ذلك .

وكلمة « بربهم يعدلون » تفيد أنهم أهل شرك ، وكذلك من ينكر وجود الله إنه عن ربنا يعدل ويميل ويحيد عن الاعتراف به إلها .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) ﴾

ننظر فى هذه الآية فلا نجد شيئاً من المحرمات من الأطعمة التى بها قوام الحياة ، ولكن نجد فيها المحرمات التى إن اتبعناها نهدر القيم المعنوية التى هى مقومات الحياة الروحية ، إنها مقومات الحياة من القيم ﴿ قل تعالوا أتل ما حرّم ربكم عليكم ﴾ .

والأداء القرآنى هنا يأخذ لفظ « تعال » بفهم أعمق من مجرد الإقبال ، فكأن الحق يقول : أقبل علىّ إقبال من يريد التعالى فى تلقى الأوامر . فأنت تقبل على أوامر الله لتعلو وترتفع عن حضيض تشريع البشرية ؛ فلا تأخذ قوانينك من حضيض تشريع البشر ؛ لأن الشرط الواجب فى المشرع ألّا يكون مساويًا لمن شرَّع له ، وألّا يكون منتفعاً ببعض ما شرَّع ، وأن يكون مستوعباً فلا تغيب عنه قضية ولا يغفل عن شىء والمشرع من الخلق لا يشرع إلا بعد اكتمال عقله ونضجه . ولا يقدر أن يمنع نفسه من الانتفاع بالتشريع .

الرأسمالى ـ مثلاً ـ يشرع ليستفيد ، والماركسى يشرّع ليستفيد . وكل واحد

يشرع وفى نفسه هوى ، ومن بعد ذلك تعدّل التشريعات عندما نستبين أنها أصبحت لا تفى ولا تغطى أمور الحياة ، فكأن المشرع الأول لقصور علمه غابت عنه حقائق فضحها المجتمع حين برزت القضايا ، فنظر فى قانونه فلم يجد شيئاً يغطى هذه القضايا ، فيقول : نعدل القانون ، ونستدرك . ومعنى استدراك القانون أى أن هناك ما جهله ساعة قنن .

إذن يشترط فى المقنن ألاّ يكون مساويًا للمُقَنن له ، وألاّ تغيب عنه قضية من القضايا حتى لا يُسْتَدْرَك عليه ، وألاّ يكون منتفعاً بالتشريع ، ولا يوجد ذلك فى بشر أبداً ، فأوضح الحق : اتركوا حضيض التشريع البشرى وارتفعوا إلى السماء لتأخذوا تقنينكم منها ؛ فحين ينادى الله « تعالوْا » فمعناها ارتفعوا عن حضيض تقنين بشريتكم إلى الأعلى لتأخذوا منه تقنيناتكم التى تحكم حركة حياتكم ، فهو لا ينتفع بما شرع ، بل أنتم الذين تنتفعون ، ولأنه لا يغيب عنه شىء سبحانه ، وهو خالق ، هو أولى أن يشرع لكم .

﴿ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾

(من الآية ١٥١ سورة الأنعام)

« أتل » من التلاوة وهى القراءة ﴿ ما حرَّم ربكم عليكم ﴾ أى ما جعله حراما . . أى يمتنع عليهم فعله ، وسأقول لكم كل البلاغات بلاغاً بعد بلاغ .

﴿ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ﴾

(من الآية ١٥١ سورة الأنعام)

لقد جاء سبحانه بتحريم الشرك من خلال تركيب لغوى يؤكد علينا ألا نشرك به ؛ فأنت ساعة تأتى لتلقى أوامر لمن ترأسه تقول له : استمع إلى ما أمنعك منه فاتبعه . ثم تبدأ فى التفصيل ، والحق هنا جاء بأول بند من المحرمات والمحظورات هو ألا نشرك به شيئاً . أى أتلو عليكم تحريم الشرك ، فأول المحرمات الشرك ، وعلينا أن نوحد الله ، فكل نهى عن شىء أمر بمقابله وكل أمر بشىء نهى عن مقابله . وعلى ذلك فكل أمر يستلزم نهيًا ، وكل نهى يستلزم أمراً . فلا تلتبس عليكم الأوامر والنواهى . أو تكون (عليكم) منقطعة عما قبلها ، أى عليكم ترك الشرك ، وعليكم إحسانا بالوالدين ، وألاّ تقتلوا أولادكم ، وألاّ تقربوا

الفواحش . . أى ألزموا ذلك .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وبالوالدين إحساناً ﴾ وسبحانه يأمر هنا بتأكيد الإحسان إلى الوالدين ؛ فهو أمر بإيجاب ويستلزم نهيا عن مقابله وهو عقوق الوالدين ، أى لا تعقوهم . فعدم الإحسان إلى الوالدين يدخل فيما حرّم الله . ثم يقول سبحانه :

﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾

(من الآية ١٥١ سورة الأنعام)

أى استبقوا حياة أولادكم ، فإن أردتها من قبيل النهى فقل هو نهى عن قتل الأولاد ، وإن أردتها من قبيل الإيجاب فقل : استبقوا الحياة . وقوله:﴿ من إملاق ﴾ أى من فقر ، فكأنهم كانوا فقراء ، ومادام الإملاق موجوداً فشغل الإنسان برزق نفسه يسبق الانشغال برزق من يأتى بعده ؛ فيا أهل الإملاق تذكروا أن الله يرزقكم ويرزق من سيأتى زيادة عليكم وهم الأولاد . ويقول سبحانه :

﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَاظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾

(من الآية ١٥١ سورة الأنعام)

وهذا نهى عن القرب ، أى نهى عن الملابسات التى قد تؤدى إلى الفعل لا نهى عن الفعل فقط ؛ فحينما أراد الله أن يحرم على آدم وعلى زوجه الشجرة قال :

﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ ﴾

(من الآية ١٩ سورة الأعراف)

لأن القرب قد يغرى بالأكل ،وكذلك ﴿ ولا تقربوا الفواحش ﴾ أى لا تأتى إلى مقدمات الفواحش بأن تلقى نظرة أو تحدّق النظر إلى محرمات غيرك ، وكذلك المرأة التى تتبرج ؛ إنها تقوم بالإقبال على مقدمات الفواحش ، فإذا امتنعت عن المقدمات أمنت الفتنة والزلل ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « الحلال بيِّن والحرام بيِّن وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمها كثير من الناس فمن اتقى المشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ومن وقع فى المشبهات وقع فى الحرام كراع يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه ، ألا وإن لكل ملك حمى ، ألا وإن

حمى الله تعالى فى أرضه محارمه ، ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب »[١] .

ويمنعك الحق : ألّا تقرب ، أى أبعد نفسك عن مظنة أن تستهويك الأشياء ، مثلها مثل « اجتنب » تماماً ، وسبحانه وتعالى يقول :

﴿ فَٱجْتَنِبُواْ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة الحج)

ويقول :

﴿ وَٱجْتَنِبُواْ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة الحج)

وهنا يقول تعالى : ﴿ ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ﴾ .

وكل ما ظهر من الفواحش هو من أفعال الجوارح التى ترتكب الموبقات و « وما بطن » هو من أفعال السرائر مثل الحقد ، والغل ، والحسد .

ويتابع سبحانه :

﴿ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾

(من الآية ١٥١ سورة الأنعام)

وكلمة « النفس » يختلف الناس فى معناها ، ولا تطلق النفس إلا على التقاء الروح بالمادة ، والروح فى ذاتها خيّرة ، والمادة فى ذاتها خيّرة مسبحة عابدة .

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة الإسراء)

وإذا التقت الروح بالمادة تقوم الحياة ، فمعنى قتل النفس أن نفصل الروح عن المادة بهدم البنية وهذا غير الموت ؛ لأن الله هو الذى يميت النفس ، أما الإنسان

(١) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه عن النعمان بن بشير .

فهو يقتل النفس إن هدم بنيتها . والذى وهب الحياة هو الله ، فلا يسلب الحياة إلا هو . وبعد ذلك يشرع الله لنا أن نسلب الحياة قصاصاً ، أو للزنا من الثيب المحصن رجلا أو امرأة ، أو للردّة ، فهذا قتل بحق ،لكن سبحانه وتعالى يلعن من يهدم بنيان الله بغير الحق ، والإنسان بنيان الله فلا تعتدى عليه . ولذلك أمرنا الله بالقصاص من إنسان قتل إنساناً ؛ حتى يحافظ كل واحد على حياة نفسه ، وحين يحفظ الإنسان كل نفس ، فإنّه ينجو بنفسه ويسلم .

هكذا يأمر الحق بأن نقتل الثيّب ، والثيب الزانى يطلق على الذكر والأنثى وهو من تزوج ودخل على زوجه وذاق كل منهما عسيلة الآخر وأفضى إليه ، وكذلك المرتد ، فنحن نحرص على حرية الاعتقاد ؛ بدليل أننا لا نقتل الكافر الأصلى لكفره ، ولكن يجب على الإنسان أن يفهم أن الدخول إلى الإيمان بالإسلام يقتضى أن يدرسه دراسة مستوفية مقنعة ، وأن يعلم أن حياته رهن بأن يرجع عن هذا الدين ، فإذا علم أن حياته رهن بأن يرجع عن هذا الدين ، فلن يدخله إلا وهو مقتنع تمام الاقتناع . ونحن نحمى بالاختيار ، فنعلن لكل من يقبل على الإسلام ونحذره : إياك أن تدخل بظاهر القول دون فهم لمعنى الإسلام لأنك لو دخلت ثم بعد ذلك ارتددت فسوف تقتل ، ومادام الشيء ثمنه الحياة ، فالواجب أن يحتاط الإنسان الاحتياط الشديد . وفي ذلك أيضاً ثقة من أن الإنسان إذا ما بحث فى الأدلة فسيقتنع بأن له إلهاً حقا ، ولكننا لا نقتل الكافر الأصلى .

إذن فقتل المرتد حماية لحزم الاختيار ، فإياك أن تدخل بدون روية ؛ لأنك لو دخلت ثم ارتددت فسوف تقتل ، وبذلك يصفى الحق المسألة تصفية لازمة بأن يعرض من يقبل على الإسلام جميع الحجج على نفسه ، ولا يدخل إلا بنية على هذا ، ففى أى عقد يحاول الإنسان أن يعرف التزاماته وأن تتضح أمامه هذه الالتزامات . ولا يدخل إلى الدين الدخول الأهوج ، أو الدخول الأرعن ، أو الدخول المتعجل . بل يلزمه أن يدخل بتؤدة وروية .

وفى الزواج يدخل الإنسان بكلمة ويخرج بكلمة أيضا هى : « أنت طالق » ، ولذلك تحتاط المرأة ، فمادامت قد عرفت أن بقاء زواجها رهن بكلمة فعليها أن تحرص ألا تضع هذا الحق إلا فى يد أمينة عليه . وساعة أن يقول لها أبوها :

اسمعى ، إن لك أن تختارى الزوج الذى إن أحبك أكرمك ، وإن كرهك لا يظلمك ؛ لأنه بكلمة منه تنتهى الحياة الزوجية . إذن فعلى المرأة أن تفكر فى الإنسان الأمين على هذه الكلمة .

ومع ذلك فهناك احتياط للغفلة ؛ فالرجل يتزوج بكلمة واحدة ، من مرة واحدة لكن فى الطلاق هناك ثلاث مراحل ؛ كرصيد للغفلة . فالرجل يتزوج المرأة بكلمة « زوّجتك نفسى أو يزوجها وليها ويكون القبول من الزوج وبهذا يتم الزواج » . لكن فى الطلاق أباح الله لغفلة الرجل ولرعونته أن يطلق مرة ، ثم يراجع هومن غير دخول أحد بينهما ، ثم يطلق ثانية ، ويراجعها ، ولكن بعد الطلاق الثالث يجد التنبيه من الحق : لقد احتطنا لك برصيد من غفلتك . ولكن عندما تريدها زوجاً لك فلا يتم ذلك إلّاأن تتزوج غيرك ، وبعدها قد تعود لك أو تبقى مع من تزوجها . فاحتط جيداً للأمر الذى تدخل عليه ، وللتعاقد الذى التزمت به . فإذا كان هذا هو الشأن فى تعاقد الزواج ، فما بالنا بالرّدة ؟ إنّنا نقتل المرتد ، ولا نفعل به ذلك قبل أن يؤمن وقبل أن يعلن إيمانه وقبل الدخول فى حيز المؤمنين ، ليعلم أنه إن رجع عن الإسلام فسيقتل . وهكذا يصعِّب الإسلام الدخول إليه ، ويحمى الاختيار فى الوقت نفسه .

ويتابع سبحانه :

﴿ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾

(من الآية ١٥١ سورة الأنعام)

و « الوصية » لا تكون إلا للأمور المهمة التى لا تستقيم كالحياة إلا بالقيام بها ، إنها فى أمهات المسائل التى لا يصح أن نغفلها . ولذلك حين تنظر إلى النبى صلى الله عليه وسلم ؛ لقد ظل ثلاثة وعشرين عاماً يستقبل من السماء ويناول أهل الأرض ، ثم جاء فى حجة الوداع وركّز كل مبادئ الدين فى قوله تعالى :
﴿ ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون ﴾ .

و « وصاكم » غير شرّع ؛ فشرّع تأتى بكل التشريعات وما فيها من تفاصيل صغيرة ، والوصية تضم أمهات المسائل فى التشريع . و العقل يجب أن يسع المسألة من أولها إلى آخرها ؛ فلو استعملت عقلك فى كل منهى عنه ، أو فى كل مأمور

به فى الآية فستجد التعقل يعطيك التوازن فى القرار ، وقد ختم الحق الخمسة الأشياء التى ذكرها فى هذه الآية بـ ﴿ ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون ﴾ . هذه الأوامر متفق عليها فى جميع الرسالات وفى جميع الأديان ، ويسمونها : « الوصايا العشر » .

والأشياء الخمسة التى أوصى بها سبحانه هى :

* ألا تشركوا به شيئاً .
* وبالوالدين إحساناً .
* ولا تقتلوا أولادكم من إملاق .
* ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن .
* ولا تقتلوا النفس التى حرّم الله إلا بالحق .

فكان يجب أن يقول : ذلكم وصاكم بها ، لكنه قال : ﴿ وصاكم به ﴾ ، فكأن أوامر الله ونواهيه أمر واحد متلازم تتمثل كلها فى : التزم ما أَمَرَ اللَّهُ به ، واجتنب ما نهى الله عنه .

وقوله سبحانه : ﴿ لعلكم تعقلون ﴾ فكأن العقل لو خُلِّى ليبحث هذه الأشياء بحثاً مستقلاً عن منهج السماء لوجد أن ضرورة العيش على الأرض تتطلب وجود هذه الأشياء .

إذن ، كيف نُعْصم من أهوائنا المتضاربة بعضها مع بعض ؟ . لابد أن يكون الإله واحداً حتى لا يتبع كل واحد منا هواه . إننا نعرف أن الأصل فى الإنسان هو الأب والأم . ولذلك وصَّى بالأصل فى ﴿ وبالوالدين إحساناً ﴾ ، ووصى أننا لا نقتل الأولاد خشية الفقر ؛ لأن الحياة تستمر بهم ، وبعد ذلك لابد أن تكون الحياة نظيفة ، طاهرة لجميع الأفراد ، ولا تشوبها شائبة الدنس أبداً ، ولا يتأتّى ذلك إلا إذا تركنا الفواحش : ما ظهر منها وما بطن ؛ لأننا نلاحظ أن كل الأولاد غير الشرعيين يُهْمَلون ؛ فالحق سبحانه وتعالى يريد طهارة الأنسال فى الحياة ؛ حتى يتحمل كل واحد مسئولية نسله . ويكون محسوباً عليه أمام المجتمع ، ويحذرنا سبحانه من أن نقتل النفس إلا بالحق ؛ لأن النفس أصل استبقاء الحياة .

ثم يجئ الحق بعد ذلك فى الآية التالية ليكمل الوصايا فيقول :

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ ﴾

ونعلم أن اليتيم هو من فقد أباه ، ولم يبلغ مبلغ الرجال ، هذا فى الإنسان ، أما اليتيم فى الحيوان فهو من فقد أمه . وقوله الحق :

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ﴾

(من الآية ١٥٢ سورة الأنعام)

هنا يفرض سبحانه أن اليتيم له مال ، فلم يقل : لا تأكل مال اليتيم . بل أمرك ألاّ تقترب منه ولو بالخاطر ، ولو بالتفكير ، وعليك أن تبتعد عن هذه المسألة . وإذا كان قد قال : ﴿ ولا تقربوا مال اليتيم ﴾ فهل هذا الأمر على إطلاقه ؟ . لا ؛ لأنّه أضاف وقال بعد ذلك : ﴿ إلا بالتى هى أحسن ﴾ أى بأن نُثَمِّرَ له ماله تثميراً يسع عيشه ، ويبقى له الأصل وزيادة ، ولذلك قال فى موضع آخر :

﴿ وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا ﴾

(من الآية ٥ سورة النساء)

فلا يأخذ أحد مال اليتيم ويدخره ، ثم يعطيه منه كل شهر جزءًا حتى إذا بلغ الرشد يجد المال قد نقص أو ضاع ، لذلك لم يقل : ارزقوهم منها ، بل قال : ﴿ وارزقوهم فيها ﴾ أى ارزقوهم رزقاً ناشئاً منها . فَمَالُهم ظرفية للرزق ، ولا يتأتّى هذا إلا بأن نثمرها لليتيم ، ولا نحرم الوصاية على اليتيم لرعاية ماله من أصحاب

الكفاءات فى إدارة الأعمال والأمناء ، وقد يوجد الكفء فى إدارة العمل ، والأمين فيه لكن حاله لا ينهض بأن يتحمل تبعات ومؤنة حياته وقيامة بإدارة أموال اليتيم ؛ فقال ـ سبحانه ـ فى ذلك :

﴿ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ﴾

(من الآية ٦ سورة النساء)

أى أن يهب الوصىّ تلك الرعاية لله ، وحين يهب تلك الرعاية لله ولا يأخذ نظير القيام بها أجراً ؛ يضمن أنه إن وُجِدَ فى ذريته إلى يوم القيامة يتيم فسيجد من يعوله حسبة لله وتطوعاً منه مدخراً أجره عند الله . والحق هو القائل :

﴿ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ ﴾

(سورة النساء)

وحينما يجد اليتيم من يرعاه ، وحين يتعاطف المجتمع مع كل يتيم فيه ، ويتولى أمور اليتامى أناس أمناء قادرون على إدارة أمورهم فسوف يقل جزع الإنسان من أن يموت ويترك صغاره ؛ لأنه سيجد كرامة ورعاية لليتيم ، فالناس تخاف من الموت لأن لهم عيالاً صغاراً ويرون أن المجتمع لا يقوم برعاية اليتامى ، لكن الإنسان إن وَجَد اليتيم مُكرّماً ، ووجد له آباء من الأمة الإسلامية متعددين ، فإن جاءه الموت فسوف يطمئن على أولاده لأنهم فى رعاية المجتمع ، ولكن لا تنتظر حتى يصلح شأن المجتمع بل أصلح من نفسك وعملك تجاه أى يتيم ، ويمكنك بذلك أن تطمئن على أولادك فستجد من يرعاهم بعد مماتك ، وحين يرعى المجتمع الإيمانى كل يتيم ستجد الناس لا تضيق ذرعاً بِقَدَر الله فى خلقه بأن يموت الواحد منهم ويترك أولاداً . والمثل واضح فى سورة الكهف بين العبد الصالح وسيدناموسى حينما مرّا على قرية :

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا ﴾

(من الآية ٧٧ سورة الكهف)

فلم يطلبا نقوداً ليدخراها ، ولكنهما طلبا طعاماً لسد الجوع ، وهذه حاجة مُلحّة . ومع أنهما استطعما أهل القرية أبى أهل القرية أن يضيفوهما . ومعنى ذلك أنها قرية

لئيمة الأهل . وعلى الرغم من أن العبد الصالح وجد ردّهم عليه وامتناعهم عن إطعامهما ، ولكنه عندما وجد جداراً ، وبفراسته علم أن الجدار يريد أن ينقض ؛ وكأن الجدار له إرادة ، فأقام الجدار ، ولأمه سيدنا موسى عليه السلام ، وكان سيدنا موسى منطقيًا مع نفسه ، فقد طلب هو وشيخه من أهل القرية مجرد الطعام فرفضوا ، فكيف ترد عليهم بأن تبنى لهم الجدار ، وكان يجب أن تأخذ على البناء أجرة ، فهم قوم لئام ، هذا كلام موسى . لكن العبد الصالح جازاهم بما يستحقون ؛ لأنه ببنائه الجدار قد حال بينهم وبين أخذ الكنز ، لأنه لو ترك الجدار ينهار لظهر الكنز الذى تحته وهو ليتيمين ، وهكذا عرف العبد الصالح كيف يربيهم .

وبعد ذلك أراد الله أن يشرح لنا أن الجدار كان لغلامين يتيمين فى المدينة .

﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا ﴾

(من الآية ٨٢ سورة الكهف)

فكأن استخراج الكنز مقارن ببلوغ الرشد ، وكأن العبد الصالح قد بنى الجدار بناءً موقوتاً ، بحيث لا ينهار إلا حين يبلغ الغلامان مبلغ الرشد ، لقد بنى العبد الصالح البناء وكأنه يضبط الميقات فلا يتماسك الجدار إلا لساعة بلوغ الغلامين أشدهما ، وعندئذ يستخرج الغلامان كنزهما . وبعد ذلك جاء لنا بالحيثية لكل ذلك ، فقال سبحانه :

﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا ﴾

(من الآية ٨٢ سورة الكهف)

فكأن صلاح الأب هو الذى أراد به الحق أن يظهر لنا كيف حمى كنز الأبناء ، فيأتى العبد الصالح وموسى لأهل القرية اللئام ، ويطلبان طعاماً ، فلا يطعمونهما ، فيبنى العبد الصالح الجدار الموقوت الذى يصون الكنز من اللئام . والحق يقول هنا :

﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾

(من الآية ١٥٢ سورة الأنعام)

ومن لا يقدر على قرب مال اليتيم بالتى هى أحسن فليبتعد عنه .

وحتى لا يتحرز ويتوقى الناس من رعايتهم مال اليتيم ، قال سبحانه :

﴿ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ﴾

(من الآية ٦ سورة النساء)

وكلمة « فليأكل بالمعروف » أى لا يكنز ولا يدخر منه أبداً ، بل يأكل بما يدفع الجوع فقط ويكتسى مايستر جسمه . ونعرف أن اليتيم لم ينضج عقله بعد ، وكذلك الكبير السفيه هو أيضاً لا يقدر على التصرف ؛ لذلك قال الحق فى أدائه البيانى حيث يؤدى اللفظ ما يوحى بالمعانى الواسعة :

﴿ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ ﴾

(من الآية ٥ سورة النساء)

وجعل الحق مال السفيه فى مرتبة مال الولى ؛ لأن السفيه لا يحترم ملكيته وقد يبددها . ولكن المال يعود لهذا الإنسان حين يذهب عنه السفه فيقول الحق :

﴿ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ﴾

(من الآية ٦ سورة النساء)

إنه أداء قرآنى عجيب ، يشجع الناس ألا يتركوا السفيه يبدد ماله فتكون خسارة للمجتمع كله ، فمادام هو فى سفه فانظر إلى المال كأنه مالك ، ولتكن أميناً عليه أمانتك على مالك . وعندما ترى وتجد رشده وتطمئن على ذلك ، فإن الحق يأمرك أن تعيد له ماله . ونعود إلى اليتيم ، هنا يقول الحق :

﴿ ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن ﴾ .

هذا إن كان له مال ، فماذا عن اليتيم الذى لا مال له ؟ . هنا تكون الوصية أقوى ، عن سهل بن سعد رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنا وكافل اليتيم فى الجنة هكذا » (وأشار بالسّبابة والوسطى وفرّج بينهما)[1] .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

---

(١) رواه البخارى ، والترمذى ، وأبو داود .

« الساعى على الأرملة والمساكين كالمجاهد فى سبيل الله وكالذى يصوم النهار ويقوم الليل »[١] .

وخذوا بالكم واجعلوا مسح رأس اليتيم لله ، فمن الجائز أن تكون لليتيم أم جميلة ، ويريد الولى أن يتقرب منها عن طريق الولد ، احذروا ذلك ، فإنه فضلاعلى أنه يسخط الله ويغضبه فهو خسة ولؤم ونذالة .

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ﴾

(من الآية ١٥٢ سورة الأنعام)

لم يقل الله ـ سبحانه ـ بالتى هى حسنة ولكنه قال : ﴿ بالتى هى أحسن ﴾ لتشديد الحرص على مال اليتيم حتى يبلغ أشده لأن بلوغ الأشد ، يعنى أن اليتيم صارت له ذاتية مستقلة ، وما المعيار فى الذاتية المستقلة ؟ ؛ أن يصبح قادراً على إنجاب مثله ، وهذا معيار النضج . مثله مثل الثمرة حين تنضج ؛ أى صارت البذرة التى فيها صالحة لأن نضعها فى الأرض لتكون شجرة . وأنت إن قطفت الثمرة قبل أن تنضج لا تجد طعمها حلوا ، ولا تستسيغ مذاقها إلا حين تستوى البذرة وتنضج .

و « الأشد » أى أن الإنسان يصير قادراً على إنجاب مثله وهو ما نسميه البلوغ ، ويصبح أيضاً قادراً على حسن التصرف فى المال وفى كل شىء . ويتابع سبحانه :

﴿ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ﴾

(من الآية ١٥٢ سورة الأنعام)

والكيل هى المعايير لما يكال حجماً ، والموازين هى المعايير لما يُقَدّر كثافة ، فهناك معيار للحجم ومعيار للكثافة . معيار الحجم الكيل ، ومعيار الكثافة هو الوزن ، وهناك أيضاً التقديرات العادلة فى القياس ، للأقمشة مثلاً ، المقياس فيها هو المتر ، إذن كل شىء بحسبه ، وإذا أردت الموزون فلابد أن يكن بالقسط ، أى بالعدل .

وهذه المسألة من الصعب تحقيقها ، ولذلك تختلف الموازين باختلاف نفاسة الأشياء ، فحين نزن الفول أو العدس أو البطاطس أو القلقاس ، فنحن نزنه بميزان

---

(١) رواه البخارى فى الأدب المفرد .

كبير ؛ لأن فرق الميزان قد يكون حول الكيلوجرام ، فالأمر حينئذ يكون مقبولاً . وحين نزن أشياء أثمن قليلاً ، نأتى بالميزان الدقيق . فإن كان الشىء الموزون ذهباً نحيط الميزان بجدران زجاجية لأن لفحة الهواء قد تقلل أو تزيد الوزن .

إننا نحاول أن نمنع تأثير تيارات الهواء عليها . وحين نزن المواد الكيماوية نأتى بميزان يعمل بالذرة . إذن كل موزون يأخذ درجة ميزانه بمقدار نفاسته وتأثيره ؛ لأن تحقيق العدالة فى الميزان مسألة صعبة ، وكذلك الأمر فى الكيل . فحين يكيل الإنسان كيلاً يمسك إناء الكيلة ويهزّه ؛ حتى يأتى المكيال دقيقاً محرراً ، وإن أراد أن يلغى ضميره ويأخذ أكثر من حقه فهو يملأ المكيال بأكثر مما يحتمل ويسند الزيادة بيده حتى لا تقع . وربنا يقول :

﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ ﴾

(سورة المطففين)

فحين يكتال يستوفى ويطفف أى يزيد ما سوف يأخذه شراء ، وحين يبيع يقلل الكيل أو الوزن ليأخذ ثمناً أكثر من ثمن ما يزن أو يكيل . وأصل المبادلات غالباً بين طرفين ، وبعض المتنطعين يقول : كيف يقول الحق : ﴿ ويل للمطففين ﴾ والتطفيف فى أى مسألة يكون بالزيادة ، لا بالنقص . ونقول : انتبه إلى أن المتحدث هو الله ، والتطفيف إنما هو الرغبة فى الاحتفاظ بالزيادة للنفس ، أما النقص فيكون للآخرين ،والتطفيف يزيد طرفاً وينقص من طرف ، وكل صفقة بين اثنين فيها بيع وشراء . فإن أراد واحد أن يجعل الخسران على طرف وأن يستوفى لنفسه فهو مطفف .

ولذلك تأتى دقة الأداء القرآنى من ربنا :

﴿ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾

(من الآية ١٥٢ سورة الأنعام)

وقال الحق ذلك لأنه يعلم أن الكيل والميزان بالعدل أمر متعذر ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى لواسع رحمته فى التشريع لنا لم يجعل مجال الاستطاعة أمراً يمكن أن تتحكم فيه أشياء لا تدخل فى الاستطاعة ؛ ففى ضبط المكيال والميزان قال : ﴿ لا نكلف نفساً

إلا وسعها ﴾ ، لأن المكيال والميزان أداتان تتحكم فيهما ظروف لا تدخل فى نطاق الإنسان . ولذلك قلنا : إن وزن الأشياء التى نعلمها إن كانت من الأشياء التى ليست فيها نفاسة فوزنها له آلة . وإن كانت فى المتوسط فوزنها له آلة ، وإن كان فى الأشياء النفيسة الدقيقة التى للقدر الصغير فيها قيمة مؤثرة ، فإن لها آلة مضبوطة مصونة من عوامل الجو حتى لا تتأثر بهبّة الهواء ، فقول الحق : ﴿ لا نكلف نفساً إلا وسعها ﴾ إباحة للأشياء الزائدة أو الناقصة التى لا تدخل فى الاستطاعة ، ثم قال سبحانه :

﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾

(من الآية ١٥٢ سورة الأنعام)

نعلم أن القول نسبة كلامية ينطق بها المتكلم ليسمعها مخاطب ، ينفعل للمطلوب فيها خبراً أو إنشاءً ، والقول مقابله الفعل ، وكلاهما عمل ، فالقول عمل والفعل عمل ؛ فإذا قلت : قل أو افعل ، فافهم أن القول متعلق بجارحة اللسان ، والفعل متعلق بكل الجوارح ما عدا اللسان ، فإذا رأيت ، وإذا سمعت ، وإذا شممت ، وإذا لمست كل ذلك يطلق عليه أنه فعل ، ولكن إذا ما تحرك اللسان فذلك قول : ﴿ وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى ﴾ .

وهل العدل مقصور على القول ؟ أو العدل أيضاً يكون فى الفعل ؟ إن العدل قد يكون فى خلاف بين اثنين ، وهذا لا يتأتى بفعلك ، وإنما يتأتى الحكم والفصل فيه بقولك ، وإذا ما تعودت العدل فى قولك ، ألفته وأنست به وأحببته حتى فى أعمالك الخاصة الأخرى .

والقول منه الإقرار ، وإن تقر على شىء فى نفسك فقله بالعدل وبالحق ، والشهادة . قلها بالحق ، والحكم . قله بالحق . والوصية . قلها بالحق . والفتوى . قلها بالحق . إذن فالحق فى القول أمر دائر فى كثير من التصرفات ؛ لأنك إذا قلت بالحق أمكنك أن تعدل ميزان حركة الحياة ؛ فميزان حركة الحياة لا يختل إلا إن رجح باطل على حق ؛ لأنك إذا حكمت لواحد بشىء لا يستحقه فقد أعطيته ما ليس له ، وإنك بعملك هذا تجعل المتحرك فى الحياة يزهد فى الحركة . لكن إذا ما حافظت على حركة كل متحرك ، وأخذ كل واحد حظه من الحياة بقدر ما يعمل اتزنت كل

الأمور ، ولم يعد هناك قوم يعيشون على جهد غيرهم وعرق سواهم ، إذن فقول العدل هو مناط حركة الحياة الثابتة المستقيمة الرتيبة الرشيدة : ﴿ وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى ﴾ .

والذى يؤثر فى العدل هو الهوى ، وحين يوجد الهوى فهو يحاول أن يميلك إلى ناحية ليس فيها الحق ، وأولى النواحي أن يكون الأمر متعلقاً بك أو بقرابة لك ، وقد تريد إن حكمت ـ والعياذ بالله ـ باطلاً ، أن تسعد ذا قرباك ، وأنت بذلك لم تؤد حق القرابة ؛ لأن حق القرابة كان يقتضى أن تمنع عنه كل شىء محرّم وتحمى عرضه ، وتحمى دينه قبل أن تحمى مصلحته فى النفعية الزائلة . ولذلك يأمرك الحق بأن تقول الكلمة بالعدل ولو كان المحكوم له أو عليه ذا قربى ؛ لأنك حين تحكم بالباطل فأنت فى الواقع حكمت عليه لا له .

﴿ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُواْ ﴾

(من الآية ١٥٢ سورة الأنعام)

ونحن نعلم أن عهد الله هو ما عاهدنا الله عليه ، وأول عهد وقمة العهود هو الإيمان به سبحانه ، وترتب على ذلك أن نتلقى منه التكليف ، فكل تكليف من تكاليف الله لخلقه يُعتبر عهداً داخلاً فى إطار الإيمان ؛ لأن الله لا يحكم حكماً أو يبينه لمكلَّف إلا بعد أن يقول :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾

(من الآية ١ سورة المائدة)

أى يا من آمنت بالعهد الأصيل فى القيم وهو العقيدة ، وآمنت بى إلهاً : خذ التكليف منى ؛ لأنك قد دخلت معى فى عهد هو الإيمان .

ولذلك لا يكلف الله بالأحكام كافراً به ، إنما يقول : ﴿ ياأيها الذين آمنوا ﴾ ، ولذلك يجب أن نأخذ كل حكم بدليله من الإيمان بمن حكم به ، فلا تبحث عن العلة فى كل حكم ، وإنما علة كل حكم أن تؤمن بالذى أمرك أن تفعل كذا ، فَعِلَّة كل أمر هى الحكم .

ويذيل الحق الآية الكريمة بقوله تعالى :

﴿ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾

(من الآية ١٥٢ سورة الأنعام)

و « ذلكم » إشارة إلى ما تقدم ، من أول قوله سبحانه :

﴿ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾

(من الآية ١٥١ سورة الأنعام)

إلى أن انتهينا إلى قوله سبحانه :

﴿ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُواْ ﴾

(من الآية ١٥٢ سورة الأنعام)

والتوصية تخصيص للتشريع ؛ لأن التشريع يعم أحكاماً كثيرة جدًّا ، ولكن الوصية التى يوصى الله بها تكون هى عيون التشريع . ولذلك قال ابن عباس رضى الله عنه عن هذه الآيات : « إنها محكمات لم ينسخهن شىء من جميع الكتب ، وقيل إنهن أم الكتاب من عمل بهن دخل الجنة ، ومن تركهن دخل النار » .

ولم يوجد شرع جاء لينسخ واحدة من هذه الوصايا ، ولذلك يقول اليهودى الذى أسلم وهو كعب الأحبار : « والذى نفس كعب بيده إنّ هذه الآيات لأول شىء فى التوراة : ﴿ قل تعالوا أتل ما حرّم ربكم عليكم ﴾ » . ثم نجد أن هذه الوصية الأخيرة هى جامعة لكل شىء ؛ نجد تسع وصايا قد مرّت ؛ خمسا منها قال فيها : ﴿ لعلكم تعقلون ﴾ ، وأربعاً قال فيها : ﴿ لعلكم تذكرون ﴾ ، والعاشرة يقول : ﴿ لعلكم تتقون ﴾ ، وهذه الوصية العاشرة هى الجامعة لكل أنواع الفضائل التكليفية إنّها قوله الحق :

﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا

تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾

أي أنه ختم الوصايا التسع بهذا القول ؛ لأن الصراط المستقيم يشمل الوصايا التسع السابقة ويشمل كل ما لم يذكر هنا . وقلت : إننا نلاحظ أن الخمس الأول ذيلها الحق بقوله : ﴿ لعلكم تعقلون ﴾ ، والأربع التى بعدها ذيلها الحق بقوله : ﴿ لعلكم تذكرون ﴾ والواحدة الجامعة لكل شىء قال تذييلاً لها : ﴿ لعلكم تتقون ﴾ .

فما الفرق بين التعقل والتذكر والتقوى ؟

إن الأشياء الخمسة الأولى التى قال الحق فيها :

﴿ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

هذه الأشياء كانت موجودة فى بيئة نزول القرآن ، إنهم كانوا يشركون بالله ويعقون والديهم ويقتلون الأولاد ويقارفون الفواحش ويقتلون النفس التى حرم الله قتلها إلا بالحق ، فأوضح لهم : تَعَقَّلُوها ، فإذا ما تعقلتموها تجدون أن تكليف الله بمنعكم من هذه الأفعال ، إنه أمر يقتضيه العقل السليم الذى يبحث فى الأشياء بمقدمات سليمة ونتائج سليمة ، لكن « الأربع » الأخرى ، هم كانوا يفعلونها ويتفاخرون بها . ففى التى كانوا يعملونها من القيام على أمر مال اليتيم والوفاء فى الكيل والميزان والعدل فى القول والوفاء بالعهد قال : ﴿ لعلكم تذكرون ﴾ أى إياكم أن تغفلوها ؛ فإذا كنتم تفعلونها وأنتم على جاهلية ؛ فافعلوها من باب أولى وأنتم على إسلامية . ثم جاء بالوصية الجامعة :

﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

ونظراً لأن هذه الوصية تستوعب كل الأحكام إيجابًا وسلبًا ، نهيًا وأمراً ، فوضح لهم أنه يجب عليكم أن تتبعوا الصراط المستقيم : لتقوا أنفسكم آثار صفات القهر من الحق سبحانه وتعالى ، وأول جنودها النار .

والصراط : هو الطريق المعبّد ، ويأخذون منه صراط الآخرة ، وهو ـ كما يقال ـ « أدق من الشعرة ، وأحدّ من السيف » ، ما معنى هذا الكلام ؟ . معناه أن يُمشى عليه بيقظة تامة واعتدال ؛ لأنه لو راح يمنة يهوى في النار ، ولو راح يسرة يسقط فيها ، فهو صراط معمول بدقة وليس طريقاً واسعاً ، بل ـ كما قلنا ـ « أدقّ من الشعرة وأحدّ من السيف » فلتمش على صراط الله ومنهجه معتدلاً ، فلا تنحرف يمنة أو يسرة ؛ لأن الميل ـ كما قلنا ـ يبعدك عن الغاية ، إنك إذا بدأت من مكان ثم اختل توازنك فيه قدر ملليمتر فكلما سرت يتسع الخلل ، وأى انحراف قليل فى نقطة البداية يؤدى إلى زيادة الهوة والمسافة .

كذلك الدين ، كلما نلتقى فيه ويقرب بعضنا من بعض ، نسير فى الطريق المستقيم ، وكلما ابتعدنا عن التشريع تتفرق بنا السبل .

﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

ورسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ جلّى بالحركة الفعلية منطوق النسبة الكلامية ، حينما جلس بين أصحابه وخطّ خطًا . وقال : هذا سبيل الله .
ثم خط خطوطاً عن يمينه وخطوطاً عن يساره ، ثم قال : هذه سبل وعلى كلٍ سبيل منها شيطان ؛ يدعو إليها ، ثم قرأ هذه الآية : ﴿ وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ﴾ .

ولذلك فكل أهل الحق ، وأهل الخير كلما اقتربوا من المركز كان الالتقاء ، وهذا الالتقاء يظل يقرب ويقرب ويقرب إلى أن يتلاشى ويصير الكل إلى نقطة واحدة .

وانظر إلى جلال الحق حينما يجعل الصراط المستقيم إليه فى دينه ، منسوباً إلى رسوله : ﴿ وأن هذا صراطى مستقيماً ﴾ فالرسول يسير على هذا الصراط وهو لا يغش نفسه ، والذى يفعله ويمشى فيه يأمركم بأن تمشوا فيه ، وهو لم يأمركم أمراً وهو بنجوة وبعدٍ عنه ، ولو غشكم جميعاً لا يغش نفسه ، وهذا هو صراطه الذى يسير فيه .

والسبيل هنا معروف أنّه إلى الله فكأن سبيل الله هو طريق محمد صلى الله عليه وسلم . ونسب الفعل والحدث لله وحده ؛ ففى البداية قال : ﴿ وأن هذا صراطى مستقيماً ﴾ ، ثم قال : « سبيله » فالصراط لم يعمله محمدٌ لنفسه ، ولكن أراده الله للمؤمنين جميعاً ، ورسول الله هو الذى يأخذ بأيديهم إليه .

وحين ننظر إلى كل الخلافات التى تأتى بين الديانات بعضها مع بعض ، بين اليهودية والنصرانية على سبيل المثال :

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ ﴾

(من الآية ١١٣ سورة البقرة)

والمشركون قالوا : لا هؤلاء على شىء ، ولا هؤلاء على شىء :

﴿ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ﴾

(من الآية ١١٣ سورة البقرة)

أى أننا أمام ثلاثة أقوال : اليهود قالوا : ليست النصارى على شىء ، والنصارى قالوا : ليست اليهود على شىء ، وقال الذين لا يعلمون ـ وهم أهل مكة ـ مثل قولهم ، ثم نجد الدين الواحد منهما ينقسم إلى طوائف متعددة ، وكل طائفة لها شىء تتعصب له . وترى أن الذى تقول به هو الحق ، والذى يقول به غيرها هو الباطل ، وكيف ينشأ هذا مع أن المصدر واحد ، والتنزيلات الإلهية على الرسل واحدة ؟! إن

آفة كل هذا تنشأ من شهوة السلطة الزمنية ، وكل إنسان يريد أن تكون له مكانة ونفوذ وخلافة . وهذا يريد أن يتزعم فريقاً ، وذاك يريد أن يتزعم فريقاً ، ولو أنهم جُمعوا على الطريق الواحد لما كانوا فرقاء .

ونجده صلى الله عليه وسلم يقول : « افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة ، وتفرقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة ، وتفرقت أمتى على ثلاث وسبعين فرقة »[١] .

وفى راوية : « كلها فى النار إلا واحدة وهى الجماعة » ، والجماعة : هم أهل السنة والجماعة ، وفى رواية : « ما أنا عليه وأصحابى » .

ونلاحظ دقة هذا القول فى عدد المذاهب والفرق ، وإن كنتم لا تسمعون عن بعضها لأنها ماتت بموت الذين كانوا يتعصبون لها ، والذين كانوا يريدون أن يعيشوا فى جلالها .

إذن الآفة تأتى حين ننظر إلى حكم من الأحكام ، يرى فيه واحد رأيا ، ويأتى الآخر فيرى فيه رأيا آخر ، لا لشىء إلا للاختلاف . ونقول لهم : انتبهوا إلى الفرق بين حكم مُحْكَم . وحكم تركه الله مناطاً للاجتهاد فيه ، فالحكم الذى أراده الله محكماً جاء فيه بنص لا يحتمل الخلاف ، وهذا النص يحسم كل خلاف . والحكم الذى يحبه الله من المكلَّفين تخفيفاً عنهم على وجه من الوجوه يأتى بالنص فيه محتملاً للاجتهاد ، ومجىء النص من المشرع فى حكم محتمل للاجتهاد هو إذن بالاجتهاد فيه ؛ لأنه لو أراده حُكما لا نختلف فيه لجاء به محكماً .

والمثال المستمر ما تركه لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سنته الشريفة ، فحينما أراد الحق سبحانه وتعالى ألاّ يضع السلاح قبل أن يؤدب بنى قريظة ، وهم من شايعوا مشركى مكة فى الحرب . فقال صلى الله عليه وسلم : « لا يُصَلِّيَنَّ أحدٌ العصرَ إلا فى بنى قريظة »[٢] .

---

(١) رواه أبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه عن أبى هريرة .

(٢) رواه البخارى فى المغازى ، والبيهقى فى الدلائل والسنن .

فذهب الصحابة فى طريقهم إلى بنى قريظة ، وآذنت الشمس بالمغيب وهم فى الطريق فانقسم صحابة رسول الله إلى قسمين : قسم قال : نصلى العصر قبل أن تغيب الشمس ، وقال قسم آخر : قال رسول الله لا نصلين العصر إلا فى بنى قريظة . فصلى قوم العصر قبل مغيب الشمس ، ولم يصل الآخرون حتى وصلوا إلى بنى قريظة ، ورفعوا أمرهم إلى المشرع وهو رسول الله ، فأقرّ هذا ، وأقرّ هذا ، لأن النص محتمل .

لماذا ؟ . لأن كل حدث من الأحداث يتطلب ظرفاً له زمان ومكان ؛ فالذين قالوا إن الشمس كادت تغرب ولابد أن نصلى العصر قبل مغيبها نظروا إلى الزمان . والذين قالوا لا نصلى إلّا فى بنى قريظة نظروا إلى المكان . وحينما رُفِعَ الأمر إلى المشرع الأعلم أقرّ هؤلاء وأقرّ هؤلاء .

إذن فالحكم إن كان فيه نص محكم فلا احتمال للخلاف فيه . وإن كان الله قد تركه موضعاً للاجتهاد فيه فهو يأتى لنا بالنص غير المحكم . ومَن ذهب إليه لا يصح أن نخطئه ، ولذلك بقى لنا من أدب الأئمة الذين بقيت مذاهبهم إلى الآن بعضهم مع بعض . نجد الواحد منهم يقول : الذى ذهبت إليه صواب يحتمل الخطأ ، والذى ذهب إليه مقابلى خطأ يحتمل الصواب ، وجميل أدبهم هو الذى أبقى مذاهبهم إلى الآن ، وعدم أدب الآخرين جعل مذاهبهم تندثر وتختفى ولا تدرون بها ، والحمد لله أنكم لا تدرون بها .

ثم يقول الحق بعد ذلك :

﴿ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ ﴾

ونحن إذا سمعنا كلمة « ثم » نعلم أنها من حروف العطف ، وحروف العطف

كثيرة ، وكل حرف له معنى يؤديه ، وهنا ﴿ ثم آتينا موسى الكتاب ﴾ ، وإيتاء موسى الكتاب كان قبل أن يأتى قوله : ﴿ قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ﴾ فالتوراة جاءت ثم الإنجيل ، ثم جاء القرآن ككتاب خاتم . فكيف جاءت العبارة هنا بـ « ثم » ؟ . مع أن إتيان موسى الكتاب جاء قبل مجىء قوله الحق : ﴿ قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ﴾ ؟

ونقول لأصحاب هذا الفهم : أنت أخذت « ثم » لترتيب أفعال وأحداث ، ونسيت أن « ثم » قد تأتى لترتيب أخبار . فقد يأتى مَن يقول لك : لماذا لا تسأل عن فلان ولا تؤدى الحق الواجب عليك له ؛ كحق القرابة مثلا ، فتقول : كيف ، لقد فعلت معه كذا ، ثم أنا فعلت مع أبيه كذا ، ثم أنا فعلت مع جدّه كذا .

إذن ، فأنت تقوم بترتيب أخبار . وتتصاعد فيها ، وتترقى ، ولذلك قال الشاعر العربى :

إن من ساد ثم ساد أبوه ثم قد ساد قبل ذلك جدّه

فالسيادة جاءت أولاً للجد ، ثم جاءت للأب ، ثم انتقلت للابن . و « ثم » فى هذه الحالة ليست لترتيب الأحداث وإنما جاءت للترتيب الإخبارى أى يكون وقوع المعطوف بها بعد المعطوف عليه بحسب التحدث عنهما لا بحسب زمان وقوع الحدث على أحدهما فالمراد الترقى فى الإخبار بالأحداث .

وانظر إلى القرآن بكمال أدائه يقول :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ ﴾

(من الآية ١١ سورة الأعراف)

ونعلم أن الأمر من الله للملائكة بالسجود لآدم كان من البداية . فسبحانه فى هذا القول الكريم يريد أن يرتب حالنا ، إنه ـ سبحانه ـ خلقنا بعد أن صورنا ، وصورنا ، بعد أن قال للملائكة اسجدوا لآدم .

ولله المثل الأعلى ، تجد من يقول لابنه : لقد اعتنيت بك فى التعليم العالى ،

ثم لا تنس أنى قد اعتنيت بك فى التعليم الثانوى ، ثم لا تنس أننى قد اعتنيت بك فى التعليم الإعدادى ؛ ثم لا تنس أننى قد اعتنيت بك من قبل كل ذلك فى التعليم الابتدائى . وأنت بذلك ترتقى إخباريًا لا أحداثيًا . فقد يكون الحدث بعد ولكن ترتيب الخبر فيه يكون قبل .

﴿ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ ﴾

(من الآية ١٥٤ سورة الأنعام)

طبعاً ما دام جاء بسيرة موسى فالكتاب هو التوراة وإذا أطلق الكتاب من غير تحديد ؛ فإنّه ينصرف إلى القرآن ، لأنه هو الكتاب الجامع لكل ما فى الكتب ، والمهيمن على كل ما فى الكتب . أما لو قيل مثلاً : أنزلنا على موسى الكتاب ، فيكون الكتاب هو التوراة ، أو أنزلنا على عيسى الكتاب ، فيكون الكتاب هو الإنجيل .

﴿ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

والتمام هو استيعاب صفات الخير ، ولذلك يقول الحق :

﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى ﴾

(من الآية ٣ سورة المائدة)

و « أكملت » فلا نقصان ، وأتممتها فلا استدراك . ولماذا جاء بالتمام على الذى أحسن فى أمر موسى عليه السلام ؟ . جاء ذلك لأن الذين تصدوا للجاج والجدل معه صلى الله عليه وسلم هم اليهود .

وأنتم تعلمون أنهم صوروا فى مصر هنا فيلماً سينمائيًا اسمه « الوصايا العشر » عن قصة سيدنا موسى عليه السلام . والوصايا العشر هى التى أقر « كعب الأحبار » أنها موجودة فى التوراة وجاءت فى الآيات السابقة التى تناولناها وشرحناها . فمن المناسب أن يأتى هنا ذكر موسى عليه السلام .

وحينما جاء موسى عليه السلام بالتوراة كما أنزلها الله عليه عاصره أناس آمنوا بما فى التوراة ، وكانوا من الناجين ، وقد ماتوا . أما الذين استمرت حياتهم إلى أن جاء رسول الله ، فكان من المطلوب منهم أن يؤمنوا به ؛ لأن الحق أوضح لهم فى التوراة أن هناك رسولاً قادماً ، ولابد أن تؤمنوا حتى تتم نعمة الإحسان عليكم ، لأنكم وإن كنتم مؤمنين بموسى ، وعاملين بمنهجه فلا بد من الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم . والسابقون لكم أحسنوا فى زمن بعثة رسالة موسى عليه السلام ، وجاء محمد بالرسالة الخاتمة فإن أردتم أن يتم الله عليكم الحسن والكرامة والنعمة ، فلا بد أن تعلنوا الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم ، منكم من أحسن الاقتداء بموسى عليه السلام وآمنوا بمحمد فتم لهم الحسن : ﴿ وتفصيلاً لكل شىء وهدى ورحمة لعلهم بلقاء ربهم يؤمنون ﴾ .

« و تفصيلاً لكل شىء » أى أنّه مناسب لزمنه ، ولله المثل الأعلى ، عندما يكون لك ولد صغير السن فتقول : أنا فصّلت له ملابسه ، أى فصّلت له الملابس التى تناسبه . وحين يكبر لن تظل ملابسه القديمة صالحة لأن يرتديها . « وتفصيلاً لكل شىء » أى القيم التى تناسب الوقت الذى يعيشونه ، فإذا ما جئنا بتفصيل جديد فى القرآن فهو مناسب لوقته ، ولقائل أن يقول : هنا تفصيل ، وهنا تفصيل ، فما الفرق بين تفصيل وتفصيل ؟ . نقول : إن كل تفصيل مناسب لزمنه ، وآيات القرآن مفصلة جاهزة ومعدة لكل زمن وللناس جميعا إلى أن تقوم الساعة .

والآفة ـ دائماً ـ فى القائمين على أمر التشريع ، فحينما تأتيهم حالة لذى جاه وسلطان يحاولون إعداد وتفصيل حكم يناسبه ، فنقول لمثل هذا الرجل : أنت تفصل الحكم برغم أن الأحكام جاهزة ومعدّة وظاهرة ، إننا نجد القوالب البدنية تختلف فيها التفصيلات للملابس بينما القوالب المعنوية نجد فيها التساوى بين الناس كلها ، فالصدق عند الطفل مثل الصدق عند اليافع ، مثل الصدق عند الرجل ، مثل الصدق عند المرأة ، مثل الصدق عند العالم ، مثل الصدق عند التاجر . وليس لكل منهم صدق خاص . وكذلك الأمانة . ورحمنا الإسلام بالقضية العقدية وكذلك بالقضية الحكمية الجاهزة . المناسبة لكل البشر ، وليست هناك آية على مقاس واحد تطبق عليه وحده ، لا ، فالآيات تسع الجميع .

﴿وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾

(من الآية ١٥٤ سورة الأنعام)

والهُدَى هو ما يدل على الغايات ، لأن دين الفطرة قد انطمس بعدم تبليغ الآباء إلى الأولاد منهج السماء فى أمور الحياة ومتعلقاتها والقيم التى يجب أن تسود . والآفة أن الأب يعلم ولده كيف يأكل ويشرب ، وينسى أن يعلمه أمور القيم ، لكن الحق سبحانه وتعالى رحم غفلتنا ، ورحم نسياننا ؛ فشرع وأرسل لكل زمان رسولاً جديداً ، وهدْيا جديداً ليذكرنا .

﴿لَّعَلَّهُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾

(من الآية ١٥٤ سورة الأنعام)

إن كل آفة تنبع من العزوف عن تشريعات الله ، وهم ينسون أن يضعوا فى أذهانهم لقاء الله ، لكن لو أن لقاء الله متضح فى أذهانهم لاستعدوا لذلك ؛ لأن الغايات هى التى تجعل الإنسان يقبل على الوسائل . والشاعر يقول :

ألا من يرينى غايتى قبل مذهبى ومن أين والغايات بعد المذاهب

ونقول لهذا الشاعر : قولك : ألا من يرينى غايتى قبل مذهبى كلام صحيح ، أما قولك : ومن أين والغايات بعد المذاهب ، هذا كلام غير دقيق ، فالغاية هى التى تحدد المذهب ، وكذلك شرع الله الغاية أولاً ، وبعد ذلك جعل لها السبيل . وقد شرع الله لكل شىء ما تقتضيه ظروف البشر الحياتية ، ولذلك لا استدراك عليه لأن فيه تفصيلا لكل شىء .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾﴾

و « هذا » إشارة وعادة ما تأتى وترد على متقدم ، ولكن إذا لم يكن لاسم

الإشارة متقدم أو حاضر يشار إليه فهذا دليل على أنك إن أشرت لا ينصرف إلا إليه لأنه متعين ينصرف إليه الذهن بدون تفكير لوضوحه . وكلمة « كتاب » تدل على أنه بلغ من نفاسته أنه يجب أن يُكتَب ويسجَّل ؛ لأن الإنسان لا يُسجل ولا يكتب إلا الشيء النافع ، إنما اللغو لا يسأل عنه ، وقال ربنا عن القرآن : إنه « كتاب » ، ومرة قال فيه : « قرآن » فهو « قرآن » يتلى من الصدور ، و « كتاب » يحفظ فى السطور . ولذلك حينما جاءوا ليجمعوه أتوا بالمسطور ليطابقوه على ما فى الصدور .

﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ ﴾ (من الآية ١٥٥ سورة الأنعام)

و « أنزلناه » أى أَمَرْنا بإنزاله ، ونزل به الروح الأمين ، وكلمة مبارك مأخوذة من « البركة » أى أنه يعطى من الخيروالثمرة فوق ما يُظَنُّ فيه ، وقد تقول : فلان راتبه مائتا جنيه ، ويربى أولاده جيداً ويشعر بالرضا ، وتجد من يقول لك : هذه هى البركة . كأن الراتب لا يؤدى هذه المسئوليات أبداً . وكلمة « البركة » تدل على أن يد الله ممدودة فى الأسباب ، ونعلم أن الناس ينظرون دائماً إلى رزق الإيجاب ، ولا ينظرون إلى الرزق الأوسع من الإيجاب وهو رزق السلب ، فرزق الإيجاب يأتى لك بمائتى جنيه ، ورزق السلب يسلب عنك مصارف لا تعرف قدرها . فنجد من يبلغ مرتبه ألفاً من الجنيهات ، لكن بعض ولده يمرض ، ويحتاج ولد آخر إلى دروس خصوصية فتتبدد الألف جنيه ويحتاج إلى ما فوقها .

إذن فحين يسلب الحق المصارف وإنفاق المال فى المعصية أو المرض فهذه هى بركة الرزق ، ونجد الرجل الذى يأتى ماله من حلال ويعرق فيه يوفقه الله إلى شراء كل شيء يحتاج إليه ، ويخلع الله على المال القليل صفة القبول ، ونجد آخر يأتى ماله من حرام فيخلع الله على ماله صفة الغضب فينفقه فى المصائب والبلايا ويحتاج إلى ما هو أكثر منه .

وأنت حين تقارن القرآن بالتوراة فى الحجم تجده أصغر منها ولكن لو رأيت البركة التى فيه فستجدها بركة لا تنتهى ؛ فكل يوم يعطى القرآن عطاءه الجديد ولا تنقضى عجائبه ، ويقرأه واحد فيفهم منه معنى ، ويقرأه آخر فيفهم منه معنى جديداً . وهذا دليل على أن قائله حكيم ، وضع فى الشيء القليل الفائدة الكثيرة ،

وهذا هو معنى ﴿ كتاب أنزلناه مبارك ﴾ ؛ فكل كتاب له زمن محدود وعصر محدود وأمة محدودة ، أما القرآن فهو يواجه من يوم أن أنزله الله إلى أن تقوم الساعة قضايا متجددة يضع لها حلولاً . والمهم أن القرآن قد جاء على ميعاد مع طموح البشريات ، وحضارتها وارتقاءاتها فى العقول ؛ لذلك كان لابد أن يواجه كل هذه المسائل مواجهة تجعل له السبق دائماً ولا يكون ذلك إلا إذا كانت فيه البركة .

وكلنا يعلم أن القرآن قد نزل على رجل أمّى ، وفى أمة أميّة ، ولذلك حكمة بالغة لأن معنى « أمّى » أى أنه لم يأخذ علماً من البشر ، بل هو كما ولدته أمه ، وجاءت ثقافته وعلمه من السماء . .

إذن فالأمية فيه شرف وارتقاء بمصادر العلم له . ونزل القرآن فى أمة أمية ؛ لأن هذا الدين وتلك التشريعات ، إنما نزلت فى هذه الأمة المتبديّة المتنقلة من مكان إلى آخر وليس لها قانون بل يتحكم فيها رب القبيلة فقط ، وحين تنزل إليها هذه القيم الروحية والأحكام التشريعية ففى ذلك الدليل على أن الكتاب الذى يحمل هذه القيم والأحكام قادم من السماء . فلو نزل القرآن على أمة متحضرة لقيل نقلة حضارية ، لكنه نزل على أمة لا تملك قوانين مثل التى كانت تُحكم بها الفرس أو الروم .

ومادام الكتاب له هذه الأوصاف التى تريح الخلق من عناء التشريع لأنفسهم ويضم كل الخير ، لذلك يأتى الأمر من الله :

﴿ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾

(من الآية ١٥٥ سورة الأنعام)

وساعة تأتى بـ « لعل » فاعلم أن فيها رجاء ، وقد ترجو أنت من واحد وتقول : لعل فلاناً يعطيك كذا ، والرجاء هنا من واحد ، ومَن يفعل العمل المرجو إنسان آخر ، وقد يفعل الآخر هذا العمل ، وقد يغضب فلا يفعله ؛ لأن الإنسان ابن أغيار ، بل ومن يدرى أنه ساعة يريد أن يفعل فلا يقدر . وإذا قلت : « لعلى أفعل لك كذا » ، وهنا تكون أنت الراجى والمرجوّ فى آن واحد ، ولكنك أيضاً ابن

للأغيار ، فأنت تتوقع قدرتك على الفعل وعند إرادتك الفعل قد لا تتيسر لك مثل هذه القدرة .

ولماذا أنزل الحق هذا الكتاب ؟ . يأتى الحق هنا بالتمييز للأمة التى أراد لها أن ينزل فيها القرآن فيقول :

﴿ أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ ﴾

فالكتاب يصفى العقائد السابقة التى نزلت على الطائفتين من اليهود والنصارى ، وإذا كنتم قد غفلتم عن دراسة التوراة والإنجيل ؛ لأنكم أمة أمية لا تعرف القراءة والكتابة ؛ لذلك أنزلنا إليكم الكتاب الكامل مخافة أن تصطادوا عذراً وتقولوا : إن أميتنا منعتنا من دراسة الكتاب الذى أنزل على طائفتين من قبلنا من اليهود والنصارى . وكأن الله أنزل ذلك الكتاب قطعاً لاعتذارهم .

﴿ أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾

قد يحتج المشركون من أن التوراة والإنجيل لو نزلت عليهم لكانوا أهدى من

اليهود والنصارى ، وفى هذا القول ما يعنى أن أذهانهم مستعدة لتقبل الإيمان ، وقد قطع الله عليهم كل عذر فجاء لهم بالقرآن ، ويقول الحق :

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ﴾

(من الآية ١٥٧ سورة الأنعام)

و « صدف » من الأفعال التى تُستعمل متعدية وتُستعمل لازمة ، ومعنى « لازمة » أنها تكتفى بالفاعل ولا تتطلب مفعولاً ، فمثلاً إذا قيل لك : جلس فلان . تفهم أن فلاناً قد جلس ويتم لك المعنى ولا تتطلب شيئاً آخر . لكنك إن قيل لك : ضَرَب زيد ، فلابد أنك تنتظر من محدثك أن يبين لك من الذى ضُرب ، أى أنك جئت بفعل يطلب شيئاً بعد الفاعل ليقع عليه الفعل . وهذا اسمه فعل « متعد » أى يتعدى به الفاعل إلى مفعول به .

و « صدف » فيها الخاصتان . وجاء الحق بهذه الصيغة المحتملة لأن تكون لازمة وأن تكون متعدية ليصيب الأسلوب غرضين ؛ الغرض الأول : أن تكون « صدف » بمعنى انصرف وأعرض فكانت لازمة أى ضل فى ذاته ، والأمر الثانى : أن تكون صدف متعدية فهى تدل على أنه يصرف غيره عن الإيمان ، أى يضل غيره ،ويقع عليه الوزر ؛ لضلال نفسه أولاً ثم عليه وزر من أضل ثانياً ، ولذلك جاء سبحانه باللفظ الذى يصلح للاثنتين « صدف عنها » أى انصرف ، ضلالاً لنفسه ، وصدف غيره أى جعل غيره يصدف ويعرض فأضل غيره ، وبذلك يعذبه الله عذابين ، فيقول سبحانه :

﴿ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَـٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴾

(من الآية ١٥٧ سورة الأنعام)

فكأن المسألة يرتكبها : الذين صدفوا أنفسهم ، وصرفوها عن الإيمان ، ويصدفون كل من يحاول أن يؤمن . وهؤلاء هم القوم الذين أعرضوا وانصرفوا عن منهج الهدى ، أو تغالوا فى ذلك فصرفوا غيرهم عن منهج الهدى ، ولو أنهم استقرأوا الوجود الذى يعايشونه لوجدوا الموت يختطف كل يوم قوماً على غير طريقة رتيبة ، فلا السن يحكم ويحدد وقت وزمن انقضاء الأجل ، ولا الأسباب تحكمه ،

ولا المرض أو العافية تحكمه ، فالموت أمر شائع فى الوجود . ومعنى ذلك أن على كل إنسان أن يترقب نهايته ، فكأنه يتساءل : لماذا إذن يصدفون ؟ . وماذا ينتظرون من الكون ؟ . أرأوا خلوداً فى الكون لموجود معهم ؟ .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾

فهل ينتظرون من عطاءات الوجود المحيط بهم إلا أن تأتيهم الملائكة التى تقبض الروح ؟ والملائكة تأتى هنا مجملة . وفى آيات أخرى يقول :

﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ ﴾

(من الآية ٢٨ سورة النحل)

ولن يتأبى أحد على الملائكة ؛ لذلك يلقون لهم السلم وتنتهى المسألة .

ويتابع سبحانه :

﴿ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ

(من الآية ١٥٨ سورة الأنعام)

ووقف العلماء عند هذا القول الكريم لأنهم أرادوا أن يفسروا الإتيان من الرب على ضوء الإتيان منا ، والإتيان منا يقتضى انخلاعاً من مكان كان الإنسان فيه إلى مكان يكون فيه ، وهذا الأمر لا يصلح مع الله . ونقول : أفسرت كل مجىء على

ضوء المجيء بالنسبة لك ؟ بالله قل لى : ما رأيك فى قوله تعالى :

﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ﴾

(من الآية ١٩ سورة ق)

كيف جاءت سكرة الموت وهى المخلوقة لله ؟ إننا لا نعرف كيف يجيء الموت وهو مخلوق ؟ فكيف تريدون أن نعرف كيف يجئ الله ؟ . عليكم أن تفسروا كل شيء بالنسبة لله بما يليق بذات الله فى إطار « ليس كمثله شيء » ولنتأدب ونعط العقول مقدارها من الفهم ، ولنجعل كل شيء منسوبا لله بما يناسب ذات الله ؛ لأن المجيء يختلف بأقدار الجائين ، فمجيء الطفل غير مجيء الشاب ، غير مجيء الرجل العجوز ، غير مجيء الفارس ، فما بالنا بمجيء الله سبحانه ؟!! إياك - إذن - أن تفهم المجيء على ضوء مجيء البشر . وأكررها دائماً : عليك أن تأخذ كل شيء بالنسبة له سبحانه لا بقانونك أنت ، ولكن بقانون الذات الأعلى ، واجعل كل ما يخصه فى إطار « ليس كمثله شيء » ، ولذلك قل : له سمْع ليس كسمعنا ، وبصر ليس كبصرنا ، ويد ليست كأيدينا ، فى إطار « ليس كمثله شيء » . وإياكم أن تسمعوا مناقشة فى قوله : « يأتى ربك » . وقل إن إتيان الله ومجيئه ليس كفعل البشر ، بل سبحانه « ليس كمثله شيء » ﴿ أو يأتى ربك أو يأتى بعض آيات ربك يوم يأتى بعض آيات ربك ﴾ .

و « بعض آيات ربك » ، هى العلامات ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : « بَادِرُوا بالأعمال سِتًا : طلوعَ الشمس من مغربها ، والدُّخَان ، ودابَّةَ الأرض ، والدَّجَّالَ ، وخُوَيْصَةَ أحَدِكُمْ وأمْرَ العامّة »[1] .

و « خُوَيْصَةُ أحدكم » تصغير : خاصة ، والمراد حادثة الموت التى تخص الإنسان ، وصغّرت لاستصغارها فى جنب سائر العظائم من بعث وحساب وغيرهما وقيل : هى ما يخص الإنسان من الشواغل المقلقة من نفسه وماله وما يهتم به .

و « أمر العامّة » : أى القيامة ؛ لأنها تعم الخلائق ، أو الفتنة التى تعمى

---

(١) رواه أحمد ومسلم عن أبى هريرة .

وتصم ، أو الأمر الذى يستبد به العوام ويكون من قبلهم دون الخواص .

﴿ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ ﴾

(من الآية ١٥٨ سورة الأنعام)

لأن الإيمان لا يكون إلا بأمر غيبى ؛ فكل أمر مشهدى مدرك بالحواس لا يسمى إيماناً ؛ فأنت لا تقول : أنا أؤمن بأنى أقرأ الآن فى كتاب خواطر الشيخ الشعراوى حول آيات القرآن الكريم ؛ لأنك بالفعل تقرأ هذه الخواطر الآن . وأنت لا تقول : أنا أؤمن بأن النور يضىء الحجرة ؛ لأن هذا أمر مشهدى ، وليس أمراً غيبيًّا . والإيمان يكون دائماً بأمر غيبى ، ولكن إذا جاءت الآيات فإننا ننتقل من الإيمان بالأمر الغيبى إلى الإيمان بالأمر الحسى ، وحينئذ لا ينفع الإيمان من الكافر ، ولا تقبل الطاعة من صدقة أو غيرها من أنواع البر والخير بعد أن تبلغ الروح الحلقوم وتقول : لفلان كذا ولفلان كذا ، وقد كان لفلان . هذا لا ينفع ؛ لأن المال لم يعد مَالَك ، بل صار مال الورثة ، كذلك الذى لم يؤمن وبعد ذلك رأى الآيات الستة التى قال الشارع عنها : إنها ستحدث بين يدى الساعة أو قبل مجىء الساعة . وساعة ترى هذه الآيات لن يُقبل منك أن تقول : آمنت ؛ لأن الإيمان إنما يكون بالأمر الغيبى ، وظهور الآيات هو أمر مشهدى فلن يُقبل بعده إعلان الإيمان . والحق هو القائل :

﴿ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ﴾

(من الآية ١٥٨ سورة الأنعام)

أى أن الإيمان يجب أن يكون سابقاً لظهور هذه الآيات ، وألا يكون المانع له من العمل القصور ، كأن يكون الإنسان ـ والعياذ بالله ـ مجنوناً ولم يفق إلا بعد مجىء العلامة ، أو لم يَبْلُغ إلا بعد وجود العلامة فهذا هو من ينفعه الإيمان .

وقد عرض الحق لنا من هذه الصور ما حدث فى التاريخ السابق ، فهو القائل :

﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٩٠﴾

(سورة يونس)

وماذا كان رد الله عليه ؟ لقد قال سبحانه :

﴿ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ﴾

(من الآية ٩١ سورة يونس)

إذن إذا بلغت الروح الحلقوم ، وهذه مقدمات الموت فلا ينفع حينئذ إعلانك الإيمان .

ويذيل الحق الآية بقوله :

﴿ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾

(من الآية ١٥٨ سورة الأنعام)

هم منتظرون الخيبة ونحن منتظرون الفلاح .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍۚ إِنَّمَآ أَمۡرُهُمۡ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ١٥٩﴾

هذه الآية تشرح الآية التى سبقت خواطرنا عنها ، وهى قوله الحق :

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ

وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾

(سورة الأنعام)

والذين فرقوا دينهم نسوا أن الدين إنما جاء ليجمع لا ليفرق ، والدين جاء ليوحد مصدر الأمر والنهى فى الأفعال الأساسية فلا يحدث بيننا وبين بعضنا أى خلاف ، بل الخلاف يكون فى المباحات فقط ؛ إن فعلتها فأهلاً وسهلاً ، وإن لم تفعلها فأهلاً وسهلاً ، وما لم يرد فيه افعل ولا تفعل ؛ فهو مباح .

إذن الذين يفرقون فى الدين إنما يناقضون منهج السماء الذى جاء ليجمع الناس على شىء واحد ؛ لتتساند حركات الحياة فى الناس ولا تتعاند ، وإذا كان لك هوى ، وهذا له هوى ، وذلك له هوى فسوف تتعاند الطاقات ، والمطلوب والمفروض أن الطاقات تتساند وتتعاضد .

والشيع هم الجماعة التى تتبع أمراً ، هذا الأمر يجمعهم ولو كان ضلالا . وهناك تشيع لمعنى نافع وخير ، وهناك تشيع لعكس ذلك ، والتشيع على إطلاقه هو أن تجتمع جماعة على أمر ، سواء أكان هذا الأمر خيراً أم شرًّا .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ﴾

(من الآية ١٥٩ سورة الأنعام)

إذن هم بعيدون عن منهجك يا محمد ، ولا يصح أن ينسبوا إلى دينك ؛ لأن الإسلام جاء لإثبات القيم للوجود مثل الماء لإثبات حياة الوجود . ونعرف أن الماء لا يأخذ لوناً ولا طعماً ولا رائحة ، فإن أخذ لوناً أو طعماً أو رائحة فهو يفقد قيمته كماء صاف . وكذلك الإسلام إن أخذ لوناً ، وصار المسلمون طوائف ؛ فهذا أمر يضر الدين ، وعلينا أن نعلم أن الإسلام لون واحد .

﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾

(من الآية ١٥٩ سورة الأنعام)

إن شاء سبحانه عاجلهم بالهزيمة أو بالعذاب ، وإن شاء آجلهم إلى يوم القيامة .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ ﴾

هناك « حسن » ، و « حسنة » ولا تقل : إن حسنة هى مؤنث حسن ، لأن فيها تاء . كأنها تاء التأنيث ،ولكن اسمها « تاء المبالغة » تأتى على اللفظ الذى للذكر ، مثلما تقول : « فلان علاّمة » ، و « فلان راوية للشعر » وفلان نسّابة . هذه هى تاء المبالغة .

و الحسنة هى الخير الذى يورث ثواباً ، وكلما كان الثواب أخلد وأعمق كانت الحسنة كذلك . وإذا قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ﴾ .

فـ « أمثالها » جمع « مثل » ، والمثل مذكر ، والقاعدة تقول : حين يكون المعدود مذكراً نأتى له بالتاء ، وحين يكون مؤنثاً نحذف التاء لأن أصل الأعداد مبنى على التاء ، لأنك عندما تعد تقول واحد ، اثنان ثلاثة إلى عشرة فأصل الأعداد مبنى على التاء ، وإذا استعملته مع المؤنث تخالف بحذف التاء فيه ، وإن استعملت العدد مع الأصل وهو المذكر ، تستعمله على طبيعته فتقول : « ثلاثة رجال » . وإذا أردت أن تتكلم عن الأنثى ، تقول : « ثلاث نسوة » ، والحق هنا يقول : ﴿ فله عشر أمثالها ﴾ ، و « مثل » ـ كما قلنا ـ مذكر . والحق لم يجعل الأصل فى العطاء هو « المثل » ، بل جعل الأصل هو الحسنة :

﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ﴾

(من الآية ١٦٠ سورة الأنعام)

وهذا هو مطلق الرحمة والفضل . ولذلك ورد الحديث القدسى .

عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال - فيما يروي عن ربه تبارك وتعالى - « إن ربكم عز وجل رحيم . من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة ، فإن عملها كتبت له عشراً إلى سبعمائة إلى أضعاف كثيرة ، ومن هم بسيئة فلم يعملها كتبت له حسنة ، فإن عملها كتبت له واحدة أو يمحوها الله عز وجل ولا يهلك على الله إلا هالك »[1] .

ونعرف أن الحق يجزى الحسنة بعشر أمثالها ويضاعف ذلك إلى سبعمائة ضعف ، لأن كل فعل تلازمه طاقة من الإخلاص فى نفاذه ، فكأن الحق قد وضع نظاماً بأن الحسنة بعشر أمثالها ، ثم بالنية المخلصة تبلغ الأضعاف إلى ما شاء الله . وقد وضع الحق هذا النظام ؛ لأنه جل وعلا يريد للحسنة أن تُفعل ، وينتفع الغير بها ، فإن كان فاعلها حريصاً على الأجر الزائد فهو يقدمها بنية مخلصة ، ويقول الحق لنا :

﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾

(سورة الحديد)

ويقول أيضاً :

﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ ﴾

(من الآية ٢٤٥ سورة البقرة)

ويحدد هنا جزاء الحسنة بأن ثوابها عشر أمثالها ، ونية معطى الحسنة هى التى يمكنها أن تضاعفها إلى سبعمائة أو أزيد . والحق سبحانه وتعالى يعطى مثلاً لذلك فى قوله تعالى :

﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ﴾

(من الآية ٢٦١ سورة البقرة)

---

(١) رواه أحمد والبخارى ومسلم والنسائى .

وإذا كانت الأرض وهى مخلوقة لله تعطيها أنت حبة فتعطيك سبعمائة فماذا يعطى خالق الأرض ؟ إن عطاءه غير محدود ولا ينفد ، ولذلك يقول سبحانه :

﴿ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ﴾

(من الآية ٢٦١ سورة البقرة)

ويتابع الحق سبحانه :

﴿ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾

(من الآية ١٦٠ سورة الأنعام)

مادام لا يجزى إلا مثلها فهم لا يظلمون أبداً .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ ﴾

و « ديناً قيماً » أى تقوم عليه مسائل الحياة ، وهو قائم بها ، و « قيماً » مأخوذة من « القيمة » أو من « القيام » على الأمر ، وقام على الأمر أى باشره مباشرة من يصلحه ، كذلك جاء الدين ليصلح للناس حركة حياتهم بأن أعطاهم القيم ، وهو قائم عليهم أيضاً : ﴿ ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفاً ﴾ .

وفى كل أمر مهم له خطره ومنزلته يأتى لنا الحق بلمحة من سيرة سيدنا إبراهيم عليه السلام ، لأنه صلوات الله وسلامه على نبينا وعليه فيه القدر المشترك الذى يجمع كفار مكة ، وأهل الكتاب الذين يتمحكون فيه . فقالت اليهود : إبراهيم كان يهوديًا ، وقالت النصارى : إن إبراهيم كان نصرانيًا ، وربنا يقول لهم ولنا :

﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا ﴾

(من الآية ٦٧ سورة آل عمران)

واليهودية والنصرانية جاءتا من بعده . أما بالنسبة للجماعة الأخرى ففى بيئتهم ، وكل حركات حياتهم ، وتجارتهم ونفعهم من آثار إبراهيم عليه السلام ما هو ظاهر وواضح . يقول الحق :

﴿ رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة إبراهيم)

فسيدنا إبراهيم هو الذى رفع القواعد من البيت الحرام ، وهو الذى عمل لهم مهابة جعلت تجارتهم تذهب إلى الشمال وإلى الجنوب ولا يتعرض لها أحد ، وجاءت لهم بالرزق الوفير . وحين يقول الحق :

﴿ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾

(من الآية ١٦١ سورة الأنعام)

المقصود هو الدين الذى تعيشون فى كنف خيرات آثاره ، و « الحنف » هو اعوجاج فى القدم . وبطبيعة الحال لم يكن دين إبراهيم مائلاً عن الحق والصواب بل هو مائل عن الانحراف دائم الاستقامة . ونعرف أن الرسل إنما يجيئون عند طغيان الانحراف ، فإذا جاء إبراهيم مائلاً عن المنحرف ؛ فهو معتدل .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ ﴾

و « صلاتى » مقصود بها العبادة والركن الثانى فى الإسلام الذى يتكرر كل يوم خمس مرات ، وهى الركن الذى لا يسقط أبداً ؛ لأن شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ـ كما قلنا سابقاً ـ يكفى أن تقولها مرة فى العمر ، وقد يسقط عنك الصوم إن كنت لا تستطيع ، وقد لا تزكى لأنه ليس لك مال ، وقد لا تستطيع

الحج ، وتبقى الصلاة التى لا تسقط أبداً عن العبد . وهى ـ كما نعلم ـ قد أخذت من التكليف حظها من الركنية .

إن كل تكليف من التكاليف جاء بواسطة الوحى إلا الصلاة فإنها جاءت بالمباشرة ، تلقاها رسول الله صلى الله عليه وسلم من ربه دون واسطة . وحين يقول الحق : « إن صلاتى » ، فهو يذكر لنا عمدة الأركان والتى اشتملت على كل الأركان كما أوضحنا سابقاً . حتى إن الإنسان إذا كان راقداً فى مرض ولا يستطيع القيام فعليه أن يحرك رأسه بالصلاة أو يخطر أعمال الصلاة على قلبه . ويقول الحق : ﴿ ونسكى ﴾ . و« النسك » يطلق ويراد به كل عبادة ، والحق يقول :

﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ﴾

(من الآية ٦٧ سورة الحج)

« النسك » إذن هو عبادة ويطلق بالأخص على أفعال كثيرةفى الحج ،مثل نسك الطواف ونسك السعى ، ونسك الوقوف بعرفة ، ونسك الرمى ، ونسك الجمار ، وكل هذه اسمها مناسك ، والأصل فيها أنها مأخوذة من مادة « النسيكة » وهى السبيكة من الفضة التى تصهر صهراً يُخرج منها كل المعادن المختلطة بها حتى تصير غاية فى النقاء . فسميت العبادة نسكاً لهذا ، أى يجب أن تصفى العبادة لله كما تصفى سبيكة الفضة من كل المعادن التى تخالطها : ﴿ قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى ﴾ .

وهنا أمران اختياريان ، وأمران لا اختيار للإنسان فيهما ، الصلاة والمناسك كلاهما داخل فى قانون الاختيار ، لكن المحيا والممات لايدخل أى منهما فى قانون الاختيار ؛ إنهما فى يد الله ، والصلاة والنسك أيضاً لله ، ولكن باختيارك ، وأنت لا تصلى إلا لأنك آمنت بالآمر بالصلاة ، أو أن الجوارح ما فعلت كذا إلا لله . إذن فأنت لم تفعل شيئاً من عندك أنت ، بل وجهت الطاقات المخلوقة لله لتأدية المنهج الذى أنزله الله . إذن إن أردت نسبةكل فعل فانسبه إلى الله .

ولماذا جاء بالصلاة والنسك وكلاهما أمر اختيارى ؟ ؛ لأنه إن كان فى ظاهر الأمر لكم اختيار ، فكل هذا الاختيار نابع من إيجاد الله لكم مختارين . وهو الذى وضع

المنهج فجعلكم تصلون ، أو : إن صلاتى لله ونسكى لله ، أى أن تخلص فيها ، ولا تشرك فيها ، ولا تصلى مرائياً ، ولا تصنع نسكاً مرائياً ، ولا تذهب إلى الحج من أجل أن يقولوا لك « الحاج فلان » أبدا ، بل اجعلها كلها لله ؛ لأنك إن جعلتها لغيره فليس لغيره من القدرة على الجزاء ما يجازيك الله به ، إن جعلتها لغيره فقد اخترت الخيبة فى الصفقة ؛ لذلك اجعل الصلاة والنسك للذى يعطيك الأجر .

﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

والحياة هبة الله ، وإياك أن تصرف قدرة الحياة ومظاهر الحياة فى غير مايرضى الله . فينبغى أن تكون حياتك لله لا لشهوتك ، ومماتك لله لا لورثتك ، وتذكر ذلك جيداً لأن الحق يقول بعد ذلك :

﴿ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾

وهذا القول يدل على أن بعض الخلق قد يجعل لله شريكاً فى العبادة فيجعل صلاته ظاهرية رياءً ، ومناسكه ظاهرية رياءً ، وحياته يجعلها لغير واهب الحياة . ويعمل حركاته كلها لغير واهب الحياة ، ويجعل مماته للورثة وللذرية ؛ لذلك عليك أن تتذكر أن الله لا شريك له .

﴿ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾

(من الآية ١٦٣ سورة الأنعام)

وهذا أمر من الله لرسوله ، وكل أمر للرسول هو أمر لكل مؤمن برسالته صلى الله عليه وسلم ، والأوامر التى صدرت عن الرب هى لصالحك أنت . فسبحانه أهل لأن يُحَب ، وكل عبادة له فيها الخير والنفع لنا ، وأنا لا أدعيه لنفسى بل هو عطاء من ربكم وربى الذى أمر . ولذلك فالحق سبحانه وتعالى حينما رأى أن رسوله صلى الله عليه وسلم مشغول بأمر أمته أبلغنا :

﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾

(من الآية ١٢٨ سورة التوبة)

وفى كل شىء كان صلى الله عليه وسلم يقول : أمّتى أمتى أمتى ، وأراد الحق سبحانه وتعالى أن يطمئن رسوله على محبوبية أمته فقال له : « إنا سنرضيك فى أمتك ولا نسوؤك »(١) .

والحديث بتمامه كالآتى :

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم تلا قول الله عز وجل فى إبراهيم : ﴿ رب إنهن أضللن كثيراً من الناس فمن تبعنى فإنه منى ﴾ الآية .

وقال عيسى عليه السلام : ﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾ .

فرفع يديه وقال : « اللهم أمتى أمتى » وبكى ، فقال الله عز وجل : يا جبريل اذهب إلى محمد وربك أعلم فسلْه ما يُبكيك ؟ فأتاه جبريل عليه الصلاة والسلام ، فسأله وأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قال وهو أعلم ، فقال عز وجل : « يا جبريل اذهب إلى محمد فقل : إنا سنُرضيك فى أمتك ولا نسوؤك »(٢) .

ونزل قوله الحق :

﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥﴾

(سورة الضحى)

روى عن على رضى الله عنه قال : قال صلى الله عليه وسلم : « إذن لا أرضى وواحد من أمتى فى النار »(٣) .

---

(١) رواه مسلم .

(٢) رواه مسلم فى كتاب الإيمان .

(٣) غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابورى .

ويذيل الحق الآية بقوله : ﴿ وأنا أول المسلمين ﴾ .

وحين يقول صلى الله عليه وسلم : وأنا أول المسلمين فى أمته فهذا قول صحيح صادق لأنه قبل أن يأمر غيره بالإسلام آمن هو بالإسلام ، وكل رسول أول المسلمين فى أمته . لكنْ هناك أناس يقولون : لنأخذ العبارة هكذا ، ونقول : إن الرسول صلى الله عليه وسلم له منزلة بين رسل الله أجمعين تتجلّى فى أنه أُخِذ العهد على غيره له ، ولم يؤخذ العهد عليه لأحد . فإذا كان أول المسلمين فى أمته ، فهو أول المسلمين بين الرسل أيضاً ، وإن لم تأخذها حدثاً خذها للمكانة . وأضرب هذا المثل : هب أن كلية الحقوق أنشئت مثلاً سنة كذا وعشرين ، ولكل سنة كان لها أول من التلاميذ ثم جاء واحد وحصل على ١٠٠٪ هذا العام فنقول عنه : إنه الأول على كلية الحقوق من يوم أن أنشئت .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾

معنى الرب أنّه هو الذى تولى التربية ، وله السيادة ، وكل شىء فى الوجود مربوب لله ، فكيف أخذ شيئاً من الأشياء التى هو ربها وخالقها ليكون شريكاً له ؟!! إن ذلك لا يصح أبداً . ﴿ قل أغير الله أبغى ربًّا ﴾ .

وهذا إنكار يأتى فى صورة استفهام من كل سامع . وكأن الحق يقول لكل منا : أعرضْ هذا على ذهنك عرضاً غير متحيّز ، وأنا سأئتمنك على الجواب . ولا يقال

ذلك إلا وقد تأكد أن الجواب يكون : لا ، فلو كان الجواب يحتمل هذه أو تلك لما آمنك على الجواب . وكأنه يقول : إن أى عاقل يجيب على هذا السؤال سيوافقنى فى أنه لا ينبغى أن يتخذ غير الله ربًّا .

﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ﴾

(من الآية ١٦٤ سورة الأنعام)

و «أبغى» أى أطلب ، و« تكسب » مأخوذة من مادة « كسب » ، و« اكتسب » ، و« كسب » دائماً تأتى فى الخير - كما علمنا من قبل - ، و« اكتسب » تأتى فى الشر . لكنْ هناك أناس يعتادون على فعل السيئات ولم تعد تكلفهم شيئاً ، فكأنها لسهولة ذلك عليهم تعتبر كسباً . ومن الحمق أن تقول هذا كسب ، وهو عليك وليس لك ؛ لأنك حين تنظر إلى التسمية نفسها تفهم أنها ليست رصيداً لك بل عليك .

﴿ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾

(من الآية ١٦٤ سورة الأنعام)

والوزر هو الحمل الشاق ، وإن اشتق منه شىء فإن المشقة والصعوبة تلازمه ؛ ككلمة « وزير » ، والحق هو القائل :

﴿ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَـٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ ﴾

(سورة طه)

كأن موسى عليه السلام عرف أن حمل الرسالة إلى اليهود عملية شاقة فقال لله : أعطنى أخى يساعدنى فى هذه المشقة .

والحق هو القائل :

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ ﴾

(سورة الشرح)

وكان النبى عليه الصلاة والسلام فى أول استقباله للوحى قد عانى من وقع هذه

العملية وكان أمرها شاقاً عليه ؛ لأن المسألة تقتضى التقاءات مَلَكية ببشرية ، ولابد أن يحدث تفاعل ، وهذا التفاعل الذى كان يظهر على رسول الله صلى الله عليه وسلم فيحمر وجهه ، ويتصبب منه العرق ، وبعد ذلك يقول : زملونى زملونى ودثرونى ، وإن كان قاعداً وركبته على ركبة أحد بجانبه فيشعر جاره بالثقل ، وإن كان على دابة تئط وتئن تعباً ، لأن التقاء الوحى برسول الله صلى الله عليه وسلم يحتاج إلى أمرين : إما أن يتحول الوحى وهو حامل الرسالة إلى بشرية مماثلة لبشرية الرسول ، وإما أن الرسول ينتقل إلى ملائكية تتناسب مع استقباله للملك . وهكذا كان التقاؤه بالملكية يتطلب انفعالاً وتفاعلاً .

لكن لما أنس صلى الله عليه وسلم بالوحى عرف حلاوة استقباله نسى المتاعب ، ولذلك عندما فتر الوحى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم اشتاق إليه . وكان الوحى من قبل ذلك يتعبه ، ويجهده ، فأراد الحق سبحانه وتعالى أن يبقى فى نفسه حلاوة ما أوحى به إليه ، وتهدأ نفسه وترتاح ويشتاق إلى الوحى ، فإذا ما استقبل الوحى بشوق فلن يتذكر المتاعب .

﴿ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾

(من الآية ١٦٤ سورة الأنعام)

إذن مادة الوزر هى الثقل بمشقة ، أى لا يحمل إنسان مشقة ثقيلة عن آخر ؛ فالمسئولية لا تتعدى إلا إذا تعدى الفعل ، وعرفنا من قبل الفارق بين من ضل فى ذاته ، ومن أضل غيره ليحمل أوزاره مع أوزارهم لتعديه بإضلالهم . وسنعود جميعاً إلى ربنا لينبئنا بما كنا فيه نختلف .

ويقول جل وعلا بعد ذلك :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ

بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْ
إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾

وهناك قول كريم فى آية أخرى :

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾

(من الآية ٣٩ سورة فاطر)

وهنا يقول الحق : ﴿ خلائف الأرض ﴾ .

ومعنى « خليفة » أى الذى يخلف غيره ؛ فإما أن يخلفه زماناً ، وإما أن يخلفه مكاناً . وخلفة الزمان أن يأتى عصره بعد عصره ، ويومه بعد يومه ، وخلفة المكان أى أن يكون جالساً ثم يرحل ليأتى آخر ليستقر مكانه ، وانظر إلى كل قواعد الحياة بالنسبة للإنسان تجده فى شبابه قويًا ، ثم يرحل عنه الشباب ليأخذه آخره ، ويذهب إلى الشيخوخة . وكذلك نجد إنساناً يملك مكاناً ثم يتركه ويأتى واحد آخر يملكه . أو أن الحق سبحانه وتعالى أراد من الخلافة ، لا خلافة بعضنا لبعض ولكن خلافة الإنسان لرب الإنسان فى الأرض ؛ لأن كل شىء منفعل لله قهراً ، والحق سبحانه وتعالى منح بسعة عطائه ؛ فجعل بعض الأشياء تنفعل لبعضها هبةً منه سبحانه ، فإذا أوقدت النار ـ على سبيل المثال ـ تنفعل لك ، وإذا حرثت فى الأرض ووضعت فيها البذور تنفعل لك ، وإذا شربت ترتوى ، وإذا أكلت تشبع . من أين أخذت كل ذلك ؟ .

إنك قد أخذته من أن الحق الذى سخّر لك ما فى الكون ، وجعل أسباباً ومسببات ، فكأنك أنت خليفة إرادات ؛ لكى يثبت لنا سبحانه أنه يفعل ما يريد ، فعلينا أن نأخذ هذه القضية قضية مسلمة ، وإن أردت أن تختبر ذلك فانظر إلى أى إنسان ولو كان كافراً ويريد أن يقوم من مكانه ، وتنفعل له جوارحه فيقوم ، فأى جارحة أمرها أن تفعل ذلك ؟ . إنه لا يعرف إلا أنه بمجرد أنه أراد أن يقوم قد قام . وحتى لا تفهم أنك أخذت كل ذلك بشطارتك فهو يجعل بعضاً من الأمور

مشاعاً عالميًا ، مثل الموت والحياة إنهما أمران ، لا يختلف فيهما الإنجليزى عن الفرنسى ، عن العربى ، وكذلك الضحك والبكاء ، وهل هناك فرق بين ضحكة إنجليزية ، أو ضحكة شيوعية أو ضحكة رأسمالية ؟ . طبعاً لا ، فكلها ضحك وهو لغة عالمية ، ولذلك قال :

﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ ﴾

(سورة النجم)

وسبحانه جاء بأمر مشترك موجود فى الناس كلها ، فأنت تتكلم وتعمل على الصورة والكيفيّة التى تريدها ، لكنك ساعة تضحك فهو سبحانه الذى يضحكك . وأنت حين تودّ مجاملة أحد وتضحك له فتفاجأ بأن ضحكتك صناعية .

والحق يوضح لك : إن زمام كونى فى يدى ،أجعل القوم مختارين فى أشياء ، وأجعلهم مرغمين ومتحدين على رغم أنوفهم فى أشياء ؛ فأنا الذى أضحك وأبكى . ولا يوجد بكاء إنجليزى أو بكاء فرنساوى أو بكاء ألمانى ، وكل البشر شركاء فى مثل هذه الأمور .

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ ﴾

(من الآية ١٦٥ سورة الأنعام)

إن إرادتك على أبعاضك ،وعلى جوارحك ـ أيها الإنسان ـ موهوبة لك من الواهب الأعلى والمريد الأعلى ، وسبحانه يسلب ذلك من بعض الأفراد ، فيأمر المخ : إياك أن ترسل إشارة لتلك الجارحة لتنفعل . فيصاب هذا الإنسان بالشلل . ولو كان الأمر شطارة من الإنسان لقاوم ذلك .

أنتم ـ إذن ـ خلائف الأرض ؛ تنفعل لكم الأشياء بقدر ما أراد الله أن تنفعل لكم ، فإذا سلب انفعالها عنكم فلكى يثبت أنكم لم تسخروها بقدراتكم ، بل به هو ، إن شاء أطلق الخلافة ، وإن شاء قيد الخلافة . ﴿ ورفع بعضكم فوق بعض درجات ﴾ .

كأن من الخلافة أننا لا نكون متماثلين متطابقين ، بل أراد سبحانه أن نكون

متكاملين فى المواهب ، وفى الكماليات ؛ لأن الناس لو كانوا صورة مكررة فى المواهب ، لفسدت الحياة ، فلابد أن تختلف مواهبنا ، لأن مطلوبات الحياة متعددة ، فلو أصبحنا كلنا أطباء فالأمر لا يصلح ، ولو كنا كلنا قضاة لفسد الأمر ، وكذلك لو كنا كلنا مهندسين أو فلاحين . إذن فلا بد من أن تتحقق إرادة الله فى قوله سبحانه :

﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾

(من الآية ١٦٥ سورة الأنعام)

أى أن البعض قد رُفِعَ ، والبعض الآخر رُفِعَ عليه ، فمن هو البعض المرفوع ؟ ومن هو البعض المرفوع عليه ؟ . إن كل واحد فيكم مرفوع فى جهة مواهبه ، ومرفوع عليه فيما لا مواهب له فيه ؛ لأن الحق يريد أن يتكاتف المخلوقون ، ولا ينشأ التكاتف تفضلاً ، وإنما ينشأ لحاجة ، فلابد أن تكون إدارة المصالح فى الكون اضطراراً ، وهذه هى هندسة المكون الأعلى سبحانه التى تتجلى فى أنك وضعت خريطة لمن دخلوا معك فى مرحلة التعليم الابتدائى . ومن ترك منهم الدراسة ومن استمر ليدخل الدراسة الإعدادية . إنك تجدهم أقل عدداً ، ومن درس فى المرحلة الثانوية أقل ، ومن تعلم التعليم العالى أقل ، ومن نال الدكتوراه أقل .

وهكذا نجد أن البعض يتساقط من التعليم لأن هناك أكثر من مهمة فى الكون لا تحتاج إلا إلى حامل الابتدائية فقط ، أو حامل الإعدادية فقط ، أو إلى حامل شهادة إتمام الدراسة الثانوية ، ولو ظل كل واحد منهم فى التعليم العالى ، فلن نجد لتلك المهام أحداً . لذلك جعل الله التكاتف فى الكون احتياجاً لا تفضلاً .

والحظوا جيداً : أن الإنسان إذا عضّه جوع بطنه أو جوع عياله فهو يقبل أى عمل ، وإن رضى بقدر الله فيما وضعه فيه ، ولم يحقد على سواه فسيتقن هذا العمل ، وسيتفوق فيه وسيرزقه الله الرزق الحلال الطيب . ولذلك قال الإمام على : قيمة كل امرئ ما يحسنه ، فإن أحسن الإنسان عمله ، فهو إنسان ناجح فى الوجود .

وهكذا أراد الحق سبحانه وتعالى ألا يجعلنا أشخاصاً مكررين ، ولكن جعلنا متفاضلين متفاوتين ، فرفع بعضاً على بعض ، وكل منا مرفوع فيما يجيد ، ومرفوع عليه فيما لا يجيد ؛ حتى يحتاج الإنسان منا إلى غيره ليؤدى له العمل الذى لا يجيده ، وبذلك يرتبط العالم ارتباط مصلحة وحاجة لا ارتباط تفضل .

﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾

(من الآية ١٦٥ سورة الأنعام)

كأن هذا الرفع هو اختبار للبشر فيما أعطاهم الله من المواهب . ليعلم علم الإلزام للعبد ؛ فسبحانه يعلم أزلاً كل ما يصدر عن العبد ، ولكنه يترك للعبد فرصة أن يؤدى العمل ليكون ملتزماً بما فعل . وتكون حجة على العبد . وحينما يقول الحق : ﴿ ليبلوكم ﴾ فالمقصود ليختبركم اختبار إقرار على نفوسكم ، لا إخباراً له .

﴿لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

(من الآية ١٦٥ سورة الأنعام)

وسبحانه « سريع العقاب » ، وإياك أن تستبطئ الآخرة ؛ فالثواب والعقاب سيأتى بعد أن ننتهى ونموت . وليس للموت سبب ؛ فكل إنسان عرضة لأن يموت ، وبذلك تكون قيامته قد قامت ، وإن قامت قيامة الإنسان فلن يقوم بأى عمل آخر . إذن فسبحانه سريع العقاب . ولكن البعض من القوم يغريهم حلم الله ويستبطئون الآخرة ، ولذلك يقول أحد العارفين : اجعل شكرك لمن لا تنقطع نعمه عنك ، واجعل طاعتك لمن لا تستغنى عنه ، واجعل خضوعك لمن لا تخرج عن ملكه وسلطانه .

إذن فكل صفة من صفات الحق يتجلى ويظهر أثرها فى المخلوق هبة من الله له ، فأنت إذا أردت أن تقف ، مثلاً ، لا تعرف ما هى العضلات التى تحركها لتقف ، ولكنك بمجرد إرادتك أن تقف تقف ، وذلك مظهر لإرادة الله إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون .

ومادمنا خلائف فلابد أن نتكامل ولا نتكرر ، بمعنى أن كل واحد فيه موهبة تنقص من الآخر ، وفى الآخر موهبة تنقص فى غيره ، ليضطر كل مخلوق فى الأرض أن يتعاون مع الآخر ، ليأخذ ثمرة مواهب غيره ، ويعطى هو ثمرة مواهبه . ولا يريد الحق منا أن نعطى ثمرات المواهب تفضلاً ، وإنما يريد أن يجعلها حاجة . فأنت تحتاج إلى موهبة من لا موهبة لك فيه ، إنك تحتاج إلى الغير ، وهو كذلك أيضاً يحتاج إلى عملك .

راجع أصله وخرج حديثه الدكتور أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .

وحين يستخلفنا الله تبارك وتعالى بهذه الصورة فبعضنا فى ظاهر الأمر يكون أعلى من بعض ، لذلك يوضح سبحانه : أنا فضلت بعضكم على بعض ، لكنى لم أفضل طائفة لأجعل طائفة مفضولاً عليها ، ولكن كلٌّ مفضل فى شىء لأن له فيه مواهب ، ويكون مفضلا عليه فى شىء آخر لا مواهب له فيه ، وهكذا يتساوى الناس جميعا .

إننا جميعاً عيال الله ، وليس أحد منا أولى بالله من أحد ؛ لأنه سبحانه لم يتخذ صاحبة ولا ولداً ؛ ولذلك إن حاولنا إحصاء المواهب فى البشر وتوزيعها على الخلق جميعاً لوجدنا أن مجموع كل إنسان يساوى مجموع كل إنسان آخر ، ولكن أنت تأخذ فى موهبة ما تفوقاً ، وفى الموهبة الأخرى لا تجد نفسك قادراً عليها ، وفى موهبة ثالثة قد تقدر عليها لكنك لا تحبها ، واجمع الدرجات كلها فى جميع المواهب ستجد أن كل إنسان يساوى الآخر ، ولا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى .

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ﴾

(من الآية ١٦٥ سورة الأنعام)

إذن فكل واحد منا يقدر أن يقول : أنامرفوع ، ولكن عليه ألاّ يغتر ؛ لأنه مرفوع عليه أيضاً . والتوازن يأتى من هذه الناحية ، فلا غرور برفعتك فى درجة ، ولا مذلة بانخفاضك فى درجة ؛ لأن هذا مراد لله وذلك مراد له ـ سبحانه ـ والذى يحترم قدر الله فى توزيع مواهبه على الخلق يعطيه الله خير موهبته ، فلا يتميز ذو موهبة أخرى عليه أبداً .

ولكن أينجح الناس جميعاً فى هذا ؟ . لا ، فهناك أناس يتساقطون ، وهناك من يرى واحداً أغنى منه وهو فقير ، فيبدأ فى الغل والحقد والحسد ، ونقول له : انظر إلى قوتك فقد تكون أقوى منه ، وقد تكون أسعد منه فى أمور كثيرة . خذ الموهبة التى أعطاها الله لك ، والموهبة التى أعطاها لغيرك وستجد مجموع كل إنسان يساوى مجموع كل إنسان ، فالذى ينجح فى هذه المعادلات التفاضلية يكون له من الله ثواب . فيتجاوز له سبحانه عن بعض سيئاته ، ويغفر له . والذى لا يحترم قدر الله فى خلق الله يعاقبه الله ؛ لذلك أوضح سبحانه : أنا أبلوكم وأختبركم ، فمن ينجح

فله غفران ورحمة ، ومن لا ينجح فله عقاب ، ولا تظنوا أن عقابى بعيد ؛ لأن ما بين الإنسان والعقاب أن يموت ، وليس هناك سبب معروف للموت ؛ فمن الممكن أن يموت الإنسان لوقته ، فيبدأ عقابه .

﴿ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

(من الآية ١٦٥ سورة الأنعام)

وبذلك ختمت سورة الأنعام ، التى استهلها الله بقوله سبحانه : ﴿ الحمد لله ﴾ .

وختمها بقوله : ﴿ وإنه لغفور رحيم ﴾ .

فالحمد لله فى الأولى .

والحمد لله فى الآخرة .

سُورَةُ الأَعْرَافِ (٧)

مكية

قبل أن نبدأ خواطرنا فى سورة الأعراف لابد أن نلاحظ ملاحظة دقيقة فى كتاب الله ، الله يقول :

﴿ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

(من الآية ١٦٥ سورة الأنعام)

ونقرأ الكلمة الأخيرة فى سورة الأنعام « رحيمٌ » ، ونجدها مبنية على الوصل ؛ لأن آيات القرآن كلها موصولة ، وإن كانت توجد فواصل آيات ، إلا أنها مبنية على الوصل ، ولذلك تجد ﴿ غفور رحيم ﴾ وعليها الضمة وبجوارها ميم صغيرة ؛ لأن التنوين إذا جاء بعده باء ، يقلب التنوين ميماً ، فالميم الصغيرة موجودة على رحيم ، قبل أن تقرأ ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ ، وتصبح القراءة :

« غفور رحيم » « بسم الله » .

وكل آيات القرآن تجدها مبنية على الوصل ، فكأن القرآن ليس أبعاضاً . وكان من الممكن أن يجعلها سكوناً ، وأن يجعل كل آية لها وقف ، لا ، إنّه سبحانه أراد القرآن موصولاً ، وإن كان فى بعض الآيات إقلاب ، وفى بعضها إدغام ، وهذا بغُنَّة ، وهذا بغير غُنَّة ، ويقول الحق :

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ الٓمٓصٓ ١ ﴾

وفى هذه الآية فصل بين كل حرف ، فنقرأها : « ألف » ثم نسكت لنقرأ « لام » ثم نسكت لنقرأ « ميم » ثم نسكت لنقرأ « صاد » . وهنا حروف خرقت القاعدة لحكمة ؛ لأن هذه حروف مقطعة ، مثل « الم ، حم ، طه ، يس ، ص ، ق ، وكلها مبنية على السكون مما يدل على أن هذه الحروف وإن خيل لك أنها كلمة واحدة ، لكن لكل حرف منها معنى مستقل عند الله ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« من قرأ حرفاً من كتاب الله فله حسنةٌ ، والحسنة بعشر أمثالها ، لا أقول ألم حرف ، ولكن أَلِفٌ حرف ، ولامٌ حرف ، وَمِيمٌ حرف »[1] .

والرسول ﷺ أشار إلى أن هذه الحروف بها أمور استقلالية ، ولا تكون كذلك إلا إذا كانت لها فائدة يحسن السكوت والوقوف عليها ، فهمها من فهمها ، وتعبد بها من تعبد بها ، وكل قارئ للقرآن يأخذ ثوابه بكل حرف ، فلو أن قارئاً قال : « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » ونطق بعد ذلك بحرف أو بأكثر ، فهو قد أخذ بكل حرف حسنة ، وحين نقرأ بعضاً من فواتح السور ، نجد أن سورة البقرة تبدأ بقوله الحق :

﴿ الٓمٓ ۝١ ﴾

(سورة البقرة)

ونقرأ هنا فى أول سورة الأعراف :

﴿ الٓمٓصٓ ۝١ ﴾

(سورة الأعراف)

وهى حروف مقطعة . نطقت بالإسكان ، وبالفصل بين كل حرف وحرف . ويلاحظ فيها أيضاً أنها لم تقرأ مسميات ، وإنما قُرئت أسماء ، ما معنى مسميات ؟ وما معنى أسماء ؟ . أنت حين تقول : كتب ، لا تقول « كاف » « تاء » « باء » ، بل تنطق مسمى الكاف كَ ، واسمها كاف مفتوحة ، أما مسماها فهو « كَ » . إذن فكل حرف له مسمى ، أى الصوت الذى يقوله الإنسان ، وله اسم ، والأمى ينطق المسميات ، وإن لم يعرف أسماءها . أما المتعلم فهو وحده الذى يفهم أنه حين يقول : « كتب » أنها مكونة من كاف مفتوحة ، وتاء مفتوحة ، وباء مفتوحة ، أما الأمى فهو لا يعرف هذا التفصيل .

وإذا كان رسول الله قد تلقى ذلك وقال : ألف لام ميم ، وهو أمى لم يتعلم . فمن قال له انطق مسميات الحروف بهذه الأسماء ؟ .

---

(١) رواه الترمذى ، والدارمى .

لابد أنه قد عُلِّمَهَا وتلقاها ، والحق هو القائل :

﴿ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ﴾

(سورة القيامة)

فالذى سوف تسمعه يا محمد ستقرأه ، ولذلك تجد عجائب ؛ فأنت تجد « ألم » فى أول البقرة ، وفى أول سورة آل عمران ، ولكنك تقرأ الآية الأولى من سورة الفيل :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴿١﴾ ﴾

(سورة الفيل)

ما الفرق بين الألف واللام والميم فى أول سورة البقرة ، وسورة آل عمران وغيرهما ، والحروف نفسها فى أول سورة الفيل وغيرها كسورة الشَّرْح ؟ أنت تقرأها فى أول سورة البقرة وآل عمران أسماء . وتقرأها فى أول سورة الفيل مسميات . والذى جعلك تفرق بين هذه وتلك أنك سمعتها تقرأ فى أول البقرة وآل عمران هكذا ، وسمعتها تقرأ فى أول سورة الفيل هكذا . إذن فالقراءة توقيف ، وليس لأحد أن يجترئ ليقرأ القرآن دون سماع من معلم . لا ، لابد أن يسمعه أولاً حتى يعرف كيف يقرأ .

ونقرأ « الٓمٓصٓ » فى أول سورة الأعراف ، وهى حروف مقطعة ، ونعرف أن الحروف المقطعة ثمانية وعشرون حرفاً ، ونجد نصفها أربعة عشر حرفاً فى فواتح السور ، وقد يوجد منها فى أول السورة حرف واحد مثل :

﴿ قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴿١﴾ ﴾

(سورة ق)

وكذلك قوله الحق :

﴿ صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴿١﴾ ﴾

(سورة ص)

وكذلك قوله الحق :

﴿ نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾

(سورة القلم)

ومرة يأتى من الحروف المقطعة اثنان ، مثل قوله الحق :

﴿ حمٓ ﴾

(سورة الأحقاف)

ومرة تأتى ثلاثة حروف مقطعة مثل :

﴿ الٓمٓ ﴾

(سورة البقرة)

ومرة يأتى الحق بأربعة حروف مقطعة مثل قوله الحق :

﴿ الٓمٓصٓ ﴾

(سورة الأعراف)

ومرة يأتى بخمسة حروف مقطعة مثل قوله الحق :

﴿ كٓهيعٓصٓ ﴾

(سورة مريم)

وإذا نظرت إلى الأربعة عشر حرفاً وجدتها تمثل نصف الحروف الأبجدية ، وهذا النصف فيه نصف أحكام الحروف ، فبعضها منشور ، أو مهموس ، أو مخفى ، أو مستعلٍ ، ومن كل نوع تجد النصف ، مما يدل على أنها موضوعة بحساب دقيق ، ومع أن توصيف الحروف ، من مستعلٍ ، أو مفخم ، أو مرقق ، أو منشور ، أو مهموس ، هذا التوصيف جاء متأخراً عن نزول القرآن ، ولكن الذى قاله يعلم ما ينتهى إليه خلقه فى هذه الحروف المقطعة وله فى ذلك حكمة ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أميًّا ، ولم يجلس إلى معلم ، فكيف نطق بأسماء الحروف ، وأسماء الحروف لا يعرفها إلا من تعلم ؟! فهو إذن قد تلقنها ، وإننا نعلم أن القرآن جاء متحديًا العرب ؛ ليكون معجزة لسيد الخلق ، ولا يُتَحَدَّى إلا من كان بارعاً فى هذه الصنعة . وكان العرب مشهورين بالبلاغة ، والخطابة

والشعر ، والسجع وبالأمثال ؛ فهم أمة كلام ، وفصاحة ، وبلاغة ، فجاء لهم القرآن من جنس نبوغهم ، وحين يتحدى الله العرب بأنه أرسل قرآناً لا يستطيعون أن يأتوا بمثله ، فالمادة الخام-وهى اللغة-واحدة ، ومن حروف اللغة نفسها التى برع العرب فيها . وبالكلمات نفسها التى يستعملونها ، لكنهم عجزوا أن يأتوا بمثله ؛ لأنه جاء من رب قادر ، وكلام العرب وبلاغتهم هى من صنعة الإنسان المخلوق العاجز .

وهكذا نعلم سرّ الحروف المقطعة التى جاءت لتثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلقى القرآن من الملأ الأعلى لأنه أمى لم يتعلم شيئاً ، لكنه عرف أسماء الحروف ، ومعرفة أسماء الحروف لا يعرفها ـ كما قلت ـ إلا المتعلم ، وقد علمه الذى علم بالقلم وعلم الإنسان ما لم يعلم ، ويمكن للعقل البشرى أن يحوم حول هذه الآيات ، وفى هذه الحروف معانٍ كثيرة ، ونجد أن الكثير من المفكرين والمتدبرين لكلام الله وجدوا فى مجال جلال وجمال القرآن الكثير ، فتجد متصوفاً يقول إن « المص » جاءت هنا لحكمة ، فأنت تنطق أول كلمة ألف وهى الهمزة من الحلق ، واللام تنطقها من اللسان ، والميم تنطقها من الشفة ، وبذلك تستوعب مخارج الحروف من الحلق واللسان والشفة .

قال المتصوف ذلك ليدلك على أن هذه السورة تتكلم فى أمور الحياة بدءاً للخلق من آدم . إشارة إلى أولية خلق الإنسان ، ووسطاً وهو المعاش ، ونهاية وهو الموت والحساب ثم الحياة فى الدارة الآخرة ، وجاءت « الصاد » لأن فى هذه السورة قصص أغلب الأنبياء .

هكذا جال هذا المتصوف جولة وطلع بها ، أنردها عليه ؟ لا نردها بطبيعة الحال ، ولكن نقول له : أذلك هو كل علم الله فيها ؟ . لا ؛ لأن علينا أن نتعرف على المعانى التى فيها وأن نأخذها على قدر بشريتنا ، ولكن إذا قرأناها على قدر مراد الله فيها فلن نستوعب كل آفاق مرادات الله ؛ لأن أفهامنا قاصرة .

ونحن البشر نضع كلمات لا معنى لها لكى تدل على أشياء تخدم الحياة ، فمثلا نجد فى الجيوش من يضع « كلمة سر » لكل معسكر فلا يدخل إلا من يعرف

الكلمة . من يعرف « كلمة السر » يمكنه أن يدخل . وكل كلمة سر لها معنى عند واضعها ، وقد يكون ثمنها الحياة عند من يقترب من معسكر الجيش ولا يعرفها .

﴿ الٓمٓصٓ ۝١ ﴾

(سورة الأعراف)

ونجد بعد هذه الحروف المقطعة حديثاً عن الكتاب ، فيقول سبحانه :

﴿ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢ ﴾

وساعة تسمع « أنزل » فافهم أنه جاء من جهة العلو أى أن التشريع من أعلى . وقال بعض العلماء : وهل يوجد فى صدر رسول الله حرج ؟ . لننتبه أنه ساعة يأتى أمر من ربنا ويوضح فيه ﴿ فلا يكن فى صدرك حرج ﴾ ، فالنهى ليس لرسول الله ﷺ وإنما النهى للحرج أو الضيق أن يدخل لرسول الله ، وكأنه سبحانه يقول : يا حرج لا تنزل قلب محمد .

لكن بعض العلماء قال : لقد جاء الحق بقوله سبحانه : ﴿ فلا يكن فى صدرك حرج ﴾ ؛ لأن الحق يعلم أن محمداً قد يضيق صدره ببشريته ، ويحزن ؛ لأنهم يقولون عليه ساحر ، وكذاب ، ومجنون . وإذا ما جاء خصمك وقال فيك أوصافاً أنت أعلم منه بعدم وجودها فيك فهو الكاذب ؛ لأنك لم تكذب ولم تسحر ، وتريد هداية القوم ، وقوله سبحانه : ﴿ فلا يكن فى صدرك حرج ﴾ قد جاء لأمر من اثنين : إما أن يكون الأمر للحرج ألا يسكن صدر رسول الله ، وإما أن يكون الأمر للرسول طمأنة له وتسكينا ، أى لا تتضايق لأنه أنزل إليك من إله ، وهل ينزل الله عليك قرآناً ليصبح منهج خلقه وصراطاً مستقيماً لهم ، ثم يسلمك إلى سفاهة هؤلاء ؟ لا ، لا يمكن ، فاطمئن تماماً .

﴿ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾

(من الآية ٢ سورة الأعراف)

والإنذار لا يكون إلا لمخالف ؛ لأن الإنذار يكون إخباراً بشرٍ ينتظر من تخاطبه . وهو أيضاً تذكير للمؤمنين مثلما قال من قبل فى سورة البقرة : ﴿ هدى للمتقين ﴾ .

وهنا نلاحظ أن الرسالات تقتضى مُرْسِلاً أعلى وهو الله ، ومُرَسَلاً وهو الرسول ، ومُرْسَلاً إليه وهم الأمة ، والمرسَل إليه إما أن يستمع ويهتدى وإما لا ، وجاءت الآية لتقول : ﴿كتاب أنزل ﴾ من الله وهو المرسِل ، و «إليك » لأنك رسول والمرسَل إليهم هم الأمة ، إما أن تنذرهم إن خالفوا وإما أن تذكرهم وتهديهم وتعينهم أو تبشرهم إن كانوا مؤمنين .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ٣ ﴾

ومادام العباد سينقسمون أمام صاحب الرسالة والكتاب الذى جاء به إلى من يقبل الهداية ، ومن يحتاج إلى النذارة لذلك يقول لهم :

﴿ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ ﴾

(من الآية ٣ سورة الأعراف)

وينهاهم عن الشرك وعدم الاستهداء أى طلب الهداية فيقول :

﴿ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾

(من الآية ٣ سورة الأعراف)

وحينما يأتى الحق سبحانه فى مثل هذه الآيات ويقول : « وذكرى » . أو « وذكِّر » إنما يلفتنا إلى أن الفطرة المطبوع عليها الإنسان مؤمنة ، والرسالات كلها لم تأت لتنشئ إيماناً جديداً ، وإنما جاءت لتذكر بالعهد الذى أخذ علينا أيام كنا فى عالم الذر ، وقبل أن يكون لنا شهوة اختيار :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ﴾

(من الآية ١٧٢ سورة الأعراف)

هذا هو الإقرار فى عالم الذر ، إذن فحين يقول الحق : ﴿ قليلا ما تذكرون ﴾ فنحن نلتفت إلى ما نسى الآباء أن يبلغوه للأبناء ؛ فالآباء يعلمون الأبناء متطلبات حياتهم ، وكان من الواجب أن يعلموهم مع ذلك قيم هذه الحياة التى تلقوها ؛ لأن آدم وحواء أول ما نزلا إلى الأرض قال لهما الحق :

﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ ﴾

(من الآية ١٢٣ سورة طه)

وهكذا نعلم أن هناك « هدى » قد نزل على آدم ، وكان من الواجب على آدم أن يعلمه للأبناء ، ويعلمه الأبناء للأحفاد ، وكان يجب أن يظل هذا « الهدى » منقولاً فى سلسلة الحياة كما وصلت كل أقضية الحياة . ويأتى سبحانه لنا بحيثيات الاتباع .

﴿ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ﴾

(من الآية ٣ سورة الأعراف)

فالمنهج الذى يأتى من الرب الأعلى هو الذى يصلح الحياة ، ولا غضاضة على أحد منكم فى أن يتبع ما أنزل إليه من الإله المربى القادر . الذى ربّى ، وخلق من عدم ، وأمد من عُدْم ، وهو المتولى للتربية ، ولا يمكن أن يربى أجسادنا بالطعام والشراب والهواء ولا يربى قيمنا بالأخلاق . ﴿ ولا تتبعوا من دونه أولياء ﴾ .

ومادام قد أوضح : اتبعوا ما أنزل إليكم من أعلى ، فلا يصح أن تأتى لمن دونه وتأخذ منه ، مثلما يفعل العالَم الآن حين يأخذ قوانينه من دون الله ومن هوى البشر ، فهذا يحب الرأسمالية فيفرضها بالسيف ، وآخر يحب الاشتراكية فيفرضها بالسيف . وكل واحد يفرض بسيفه القوانين التى تلائمه . وكلها دون منهج الله لأنها أفكار بشر ، وتتصادم بأفكار بشر ، والأولى من هذا وذاك أن نأخذ مما لا نستنكف أن نكون عبيداً له .

﴿ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾

(من الآية ٣ سورة الأعراف)

وتذكر أيها المؤمن أن عزتك فى اتباع منهج الله تتجلّى فى أنك لا تخضع لمساوٍ لك ، وهذه ميزة الدين الذى يجعل الإنسان يحيا فى الكون وكرامته محفوظة ، وإن جاءته مسألة فوق أسبابه يقابلها بالمتاح له من الأسباب مؤمناً بأن رب الأسباب سيقدم له العون ، ويقدم الحق له العون فعلاً فيسجد لله شاكراً ، أما الذى ليس له رب فساعة أن تأتى له مسألة فوق أسبابه تضيق حياته عليه وقد ينتحر .

ثم بعد ذلك يبين الحق أن موكب الرسالات سائر من لدن آدم ، وكلما طرأت الغفلة على البشر أرسل الله رسولاً ينبههم . ويوقظ القيم والمناعة الدينية التى توجد فى الذات ، بحيث إذا مالت الذات إلى شىء انحرافى تتنبه الذات نفسها وتقول : لماذا فعلت هكذا ؟ . وهذه هى النفس اللوامة . فإذا ما سكتت النفس اللوامة واستمرأ الإنسان الخطأ ، وصارت نفسه أمارة بالسوء طوال الوقت ؛ فالمجتمع الذى حوله يعدله .

وهذه فائدة التواصى بالحق والصبر ، فكل واحد يوصّى فى ظرف ، ويوصّى فى ظرف آخر ؛ فحين تضعف نفسه أمام شهوة يأتى شخص آخر لم يضعف فى هذه الشهوة وينصح الإنسان ، ويتبادل الإنسان النصح مع غيره ، هذا هو معنى التواصى ؛ فالوصية لا تأتى من جماعة تحترف توصية الناس ، بل يكون كل إنسان موصِيًا فيما هو فيه قوى ، ويوصّى فيما هو فيه ضعيف ، فإذا فسد المجتمع ، تتدخل السماء برسول جديد ومعجزة جديدة ، ومنهج جديد ، لكن الله أمن أمة محمد على هذا الأمر فلم يجئ رسول بعده لأننا خير أمة أخرجت للناس . والخيرية تتجلى فى أننا نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر ، فالتواصى باقٍ إلى أن تقوم الساعة .

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾

(من الآية ١١٠ سورة آل عمران)

وهذه خاصية لن تنتهى أبداً ، فإن رأيت منكراً فلابد من خلية خير تنكره

وتقول : لا ، وإذا كان الحق قد جعل محمداً خاتم الرسل ، فذلك شهادة لأمته أنها أصبحت مأمونة ، وأن المناعة الذاتية فيها لا تمتنع ولا تنقطع ، وكذلك لا تمتنع منها أبداً المناعة الاجتماعية فلن يأتى رسول بعد سيد الخلق سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْهُمْ قَائِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾

وساعة تسمع « كم » فاعرف أن المسألة خرجت عن العد بحيث تستوجب أن تستفهم عنها ، وهذا يدل على أمر كثير فوق العدد ، لكن عندما يكون العدد قليلاً فلا يستفهم عنه ، بل يُعْرَف . والقرية اسم للمكان المعد إعداداً خاصًّا لمعيشة الناس فيه . وهل القرى هى التى تُهلك أم يُهلك من فيها ؟ . أوضح الحق أنها تأتى مرة ويراد منها المكان والمكين : أو يكون المراد بالقرية أهلها ، مثال ذلك قوله الحق فى سورة يوسف :

﴿ وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ ﴾

(من الآية ٨٢ سورة يوسف)

وبطبيعة الحال لن يسأل إنسان المكان أو المبانى ، بل يسأل أهل القرية ، ولم يقل الحق : اسأل أهل القرية ؛ لأن المسئول عنه هو أمر بلغ من الصدق أن المكان يشهد مع المكين ، ومرة أخرى يوضح الحق أنه يدمر القرية بسكانها ومبانيها . ﴿ وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا ﴾ .

وأيهما يأتى أولاً : الإهلاك أم يأتى البأس أولاً فيهلك ؟ . الذى يأتى أولاً هو البأس فيهلك ، فمظاهر الكونيات فى الأحداث لا يأتى أمرها ارتجالاً ، وإنما أمرها مسبق أزلاً ، وكأن الحق يقول هنا : وكم من قرية حكمنا أن نهلكها فجاءها بأسنا ليتحقق ما قلناه أزلاً ، أى أن تأتى الأحداث على وفق المرادات ؛ حتى ولو كان هناك اختيار للذى يتكلم عنه الحق .

ونعلم أن القرية هى المكان ، وعلى ذلك فليس لها اختيار . وإن كان لمن يتحدث عنه الله حق الاختيار ، فسبحانه يعلم أزلاً أنه سيفعل ما يتحدث عنه سبحانه . ويأتى به فى قرآن يتلى ؛ ليأتى السلوك موافقاً ما أخبر به الله .

﴿ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴾

(سورة الأعراف)

والبأس هو القوة التى لا ترد ولا تقهر ، و « بياتاً » أى بالليل ، « أو هم قائلون » أى فى القيلولة . ولماذا يأتى البأس فى البيات أو فى القيلولة ؟ . ونجد فى خبر عمّن أُهْلِكُوا مثل قوم لوط أنه حدث لهم الهلاك بالليل ، وقوم شعيب حدث لهم الهلاك فى القيلولة ، والبيات والقيلولة هما وقت الاسترخاء ووقت الراحة وتفاجئهم الأحداث فلا يستطيعون أن يستعدوا .

﴿ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ ﴾

(سورة الصافات)

أى يأتيهم الدمار فى وقت هم نائمون فيه ، ولا قوة لهم لمواجهة البأس .

﴿ فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴾

(من الآية ٤ سورة الأعراف)

وإذا قال سبحانه: ﴿ بياتاً أو هم قائلون ﴾ فيصح أن لهذه القرية امتدادات ، ووقت القيلولة عند جماعة يختلف عن وقت من يسكن امتداد القرية ، فيكون الوقت عندهم ليلاً ، والقيلولة هى الوقت الذى ينامون فيه ظهراً للاسترخاء والراحة . ولكن كيف استقبلوا ساعة مجىء البأس الذى سيهلكهم ؟ .

يقول الحق سبحانه :

﴿ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا إِلَّا أَن قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٥﴾ ﴾

بهذا القول اتضحت المسألة ، ومن قوله ﴿ دعواهم ﴾ نفهم أن المسألة ادعاء . ونحن نقول : فلان ادّعى دعوى على فلان ، فإما أن يقيم بينة ليثبت دعواه ، وإما ألاّ يقيم .

والدعوى تطلق أيضاً على الدعاء :

﴿ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

(من الآية ١٠ سورة يونس)

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝٥ ﴾

(سورة الأعراف)

ويشرح ربنا هذا الأمر فى آيات كثيرة ، إنه اعتراف منهم باقترافهم الظلم وقيامهم عليه ، فسبحانه القائل :

﴿ وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝١٠ فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝١١ ﴾

(سورة الملك)

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦ ﴾

والحق يسأل الرسل بعد أن يجمعهم عن مدى تصديق أقوامهم لهم ، والسؤال إنما يأتى للإقرار ، ومسألة السؤال وردت فى القرآن بأساليب ظاهر أمرها أنها متعارضة ، والحقيقة أن جهاتها منفكة ، وهذا ما جعل خصوم القرآن يدعون أن

القرآن فيه تضارب . فالحق سبحانه يقول :

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾

(سورة المؤمنون)

ويقول سبحانه أيضاً :

﴿ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ ﴾

(سورة المعارج)

ويقول جل وعلا :

﴿ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾

(من الآية ٧٨ سورة القصص)

ويقول سبحانه وتعالى :

﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ ﴾

(سورة الرحمن)

ثم يقول هنا :

﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

وهذا ما يجعل بعض المستشرقين يندفعون إلى محاولة إظهار أن بالقرآن ـ والعياذ بالله ـ متناقضات . ونقول لكل منهم : أنت تأخذ القرآن بغير ملكة البيان فى اللغة ، ولو أنك نظرت إلى أن القرآن قد استقبله قوم لسانهم عربى ، وهم باقون على كفرهم فلا يمكن أن يقال إنهم كانوا يجاملون ، ولو أنهم وجدوا هذا التناقض ، أما كانوا يستطيعون أن يردوا دعوى محمد فيقولوا : أيكون القرآن معجزا وهو متعارض ؟! لكن الكفار لم يقولوها ، مما يدل على أن ملكاتهم استقبلت القرآن بما يريده قائل القرآن . وفى أعرافنا نورد السؤال مرتين ؛ فمرة يسأل التلميذ أستاذه ليعلم ، ومرة يسأل الأستاذ تلميذه ليقرر .

إذن فالسؤال يأتى لشيئين اثنين : إما أن تسأل لتتعلم ، وهذا هو الاستفهام ، وإما أن تسأل لتقرر حتى تصبح الحجة ألزم للمسئول ، فإذا كان الله سيسأله ، أى يسأله سؤال إقرار ليكون أبلغ فى الاحتجاج عليه ، وبعد ذلك يقولون :

﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١١﴾ ﴾

(سورة الملك)

وهذا اعتراف وإقرار منهم وهما سيدا الأدلة ؛ لأن كلام المقابل إنما يكون شهادة ، ولكن كلام المقر هو إقرار واعتراف .

إذن إذا ورد إثبات السؤال فإنه سؤال التقرير من الله لتكون شهادة منهم على أنفسهم ، وهذا دليل أبلغ للحجة وقطع للسبل على الإنكار . فإما أن يقر الإنسان ، وإن لم يقر فستقول أبعاضه ؛ لأن الإرادة انفكت عنها ، ولم يعد للإنسان قهر عليها ، مصداقاً لقوله الحق :

﴿ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾

(من الآية ٢١ سورة فصلت)

والحق هنا يقول : ﴿ فلنسئلن الذين أرسل إليهم ولنسئلن المرسلين ﴾ .

وهو سؤال للإقرار . قال الله عنه :

﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ ﴾

(من الآية ١٠٩ سورة المائدة)

وحين يسأل الحق المرسلين ، وهم قد أدوا رسالتهم فيكون ذلك تقريعاً للمرسَل إليهم .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾ ﴾

أى سيخبرهم بكل ما عملوا فى لحظة الحساب ؛ لأنه سبحانه لم يغب يوماً عن أى من خلقه ؛ لذلك قال : ﴿ وما كنا غائبين ﴾ ، ونعلم أن الخلق متكرر الذوات ، متكرر الأحداث ، متكرر المواقع ، هم ذوات كثيرة ، وكل ذات لها حدث ، وكل ذات لها مكان . فإذا قال الحق للجميع : ﴿ وما كنا غائبين ﴾ أى أنه مع الجميع ، ومادام ليس بغائب عن حدث ، ولا عن فاعل حدث ، ولا عن مكان حدث ، وهؤلاء متعددون . إذن هو فى كل زمان وفى كل مكان .

وإن قلت كيف يكون هنا وهناك ؟ أقول : خذ ذلك فى إطار قوله : ﴿ ليس كمثله شىء ﴾ ، ومثل هذه المعانى فى الغيبيات لا يمكن أن تحكمها هذه الصور . والأمر سبق أن قلناه حين تحدثنا عن مجىء الله ؛ فله طلاقة القدرة وليس كمثله شىء ، وما كان غائباً فى حدث أو مكان .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ ﴾

فى هذه الآيات نجد الحديث عن الوزن للأعمال ، وهذا كله تأكيد للحجة عليهم ؛ فالله لا يظلم أحداً ، وفى وزن الأعمال إبطال للحجة من الذين يخافون النار ، ولم يؤدوا حقوق الله فى الدنيا ، وكل ذلك ليؤكد الحجة ، ويظهر الإنصاف ويقطع العذر ، وهناك قول كريم يقول فيه الحق سبحانه :

﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾

(من الآية ٤٧ سورة الأنبياء)

هذه الموازين هى عين العدل ، وليست مجرد موازين عادلة ، بل تبلغ دقة موازين اليوم الآخر أنها هى عدل فى ذاتها . وهنا يقول الحق : ﴿ والوزن يومئذ الحق ﴾ . نعم ، الميزان فى هذا اليوم حق ودقيق ، ولنذكر أنه قال من قبل :

﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

والميزان الحق هو الذى قامت عليه عدالة الكون كله ، وكل شىء فيه موزون ، وسبحانه هو الذى يضع المقادير على قدر الحكمة والإتقان والدقة التى يؤدى بها كل كائن المطلوبَ منه ، ولذلك يقول سبحانه :

﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾ ﴾

(سورة الرحمن)

ولم نر السماء قذفت وألقت علينا أحداثاً غير متوقعة منها ، فالكون له نظام دقيق . والوزن فى يوم القيامة هو مطلق الحق ، ففى هذا اليوم تبطل موازين الأرض التى كانت تعانى إما خللاً فى الآلة التى يوزن بها ، وإمّا خللاً فى الوزن ، وإمّا أن تتأثر بأحداث الكون ، وما يجرى فيه من تفاعلات ، أما ميزان السماء فلا دخل لأحد به ولا يتأثر إلا بقيمة ما عمل الإنسان ، وساعة يقول سبحانه : ﴿ والوزن يومئذ الحق ﴾ .

فكأن الميزان فى الدنيا يمكن أن يحصل فيه خلل ، وكذلك المِلْك أيضاً ؛ لأنه سبحانه أعطى أسباباً للملك المناسب لكل إنسان ، فهذا يملك كذا ، والثانى يملك كذا ، والثالث يملك كذا ، وبعد ذلك يتصرف كل إنسان فى هذا الملك إن عدلاً ، وإن ظلماً على ضوء الاختيار . لكن حين يأتى اليوم الآخر فلا ملك لأحد :

﴿ لِمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾

(من الآية ١٦ سورة غافر)

فالأمر حينئذ يكون كله لله وحده ، فإن كان الملك فى الدنيا قد استخلف فيه الحق

عباده ، فهذه الولاية تنتهى فى اليوم الآخر : ﴿ فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ﴾ .

وسبحانه هو القائل :

﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۙ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۙ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴿١١﴾ ﴾

(سورة القارعة)

إذن فالميزان يثقل بالحسنات ، ويخف بالسيئات . ونلحظ أن القسمة العقلية لإيجاد ميزان ووازن وموزون تقتضى ثلاثة أشياء : أن تثقل كفة ، وتخف الأخرى ، أو أن يتساويا ، ولكن هذه الحال غير موجودة هنا . ويتحدث الحق عن الذين تخف موازينهم فيقول سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾

والسورة السابقة جاء فيها بالحالتين ، وفى هذه السورة أيضاً جاء بالحالتين ، ومن العجيب أن هذا الكلام عن الثقل والخفة وعدم وجود الحالة الثالثة وهى حالة تساوى الكفتين يأتى فى أول سورة الأعراف ، ولكنه ـ سبحانه يقول بعد ذلك فى سورة الأعراف : ﴿ وعلى الأعراف رجال يعرفون كلا بسيماهم ﴾ .

وهؤلاء هم الذين استوت حسناتهم وسيئاتهم ، وقد جعل لهم ربنا مكاناً يشبه عرف الفرس ، وعرف الفرس يعتبر أعلى شىء فيه ، فحينا يأتى شعر الفرس يميناً ، وحينا يأتى شعر الفرس يساراً ، وليس هناك جهة أولى بالشعر من الأخرى . وقد أعد الحق لأصحاب الأعراف مكاناً يسمعون فيه أصحاب النار وهم ينادون أصحاب الجنة ، وأصحاب الجنة وهم ينادون أصحاب النار ، وأصحاب الأعراف

يجلسون ؛ لا هم فى الجنة ولا هم فى النار ، فهم الذين تساوت حسناتهم وسيئاتهم ، وبذلك صحت القسمة العقلية فى قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَٰهُمْ ﴾

(من الآية ٤٦ سورة الأعراف)

فلا الحسنات ثقلت ليدخلوا الجنة ، ولا السيئات خفت ليدخلوا النار ، فميزانهم تساوت فيه الكفتان . وقال بعض العلماء عن الميزان : إن هناك ميزاناً بالفعل . وقال البعض إن المراد بالميزان هو العدالة المطلقة التى أقامها العادل الأعلى ، والأعجب أن الحق قال : إن هناك موازين ، فهل لكل واحد ميزان أو لكل عمل من أعمال التكليفات ميزان : ميزان العقائد ، وميزان الأحكام . . إلخ ، وهل سيحاسبنا ربنا تباعاً . أو أن هناك موازين متعددة ، بدليل أن سيدنا الإمام عليًا عندما سألوه : أيحاسب الله خلقه جميعاً فى وقت واحد ؟ فقال : وأى عجب في هذا ؟ أليس هو رازقهم فى وقت واحد ؟ إذن فالميزان بالنسبة لله مسألة سهلة جدًا . وهيّنة فسبحانه لا يتأبى عليه شىء .

﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾

(من الآية ٩ سورة الأعراف)

نعم هم قد خسروا أنفسهم فكل منهم كان يأخذ شهوات ويرتكب سيئات يمتع بها نفسه ، ويأتى اليوم الآخر ليجد نفسه قد خسر كل شىء ، وكما يقول المثل العام : خسر الجلد والسقط . لماذا ؟ تأتى الإجابة من الحق : ﴿ بما كانوا بآياتنا يظلمون ﴾ .

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾ ﴾

المُمَكَّن هو الذى يحتل المكان بدون زحزحة ؛ فيقال : مكّنتك من كذا . أى أعطيتك المكان ولا ينازعك أحد فيه . وقد مكننا سبحانه فى الأرض وجعل لنا فيها وسائل استبقاء الحياة ، وترف الحياة ، وزينة الحياة ، ورياش الحياة ، ولم تبخل الأرض حين حرثناها ، بل أخرجت لنا الزرع ، ولم تغب الشمس عنا بضوئها وإشعاعها وحرارتها . ما فى الدنيا يؤدى مهمته ، ولم نُمكَّن فى الأرض بقدراتنا بل بقدرة الله . وكان يجب ألا يغيب ذلك عن أنظارنا أبداً . فلا أحد منا مسيطر على الشمس أو القمر أو الريح أو الأرض ، ولكن الذى خلقها وجعلها مسخرة ، هو ربك وربها ؛ فأنت مُمَكَّن ، وكل شىء مستجيب لك . بتسخير الله له .

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

و « معايش » جمع معيشة ، والمعيشة هى الحياة ، فالعيش هو مقومات الحياة ، ولذلك سموا الخبز فى القرى عيشاً لأن عندهم دقة بالغة ؛ لأنهم عرفوا أنه مقوّم أساسى فى الحياة .

وقول الحق : ﴿ قليلاً ما تشكرون ﴾ دل على أن هناك من يشكر ، ومن الناس من يشكر نعم الله شكراً عاماً على مجموع النعم ، أو يشكره شكراً خاصًّا عند كل نعمة ، ومنهم من يشكر شكراًخاصًّا لا عند كل نعمة ، ولكن عند جزئيات النعمة الواحدة ، فعندما يبدأ فى الأكل يقول : « بسم الله الرحمن الرحيم » ، ويقول بعد الأكل : « الحمد لله » ؛ وهناك من يقول عند تناول لقمة واحدة : « بسم الله » وعندما يمضغها ويبلعها يقول : « الحمد لله » لأنها لم تقف فى حلقه ، وأيضاً حين نشرب علينا أن نشرب على ثلاث دفعات : أول دفعة نقول : « بسم الله » . وننتهى منها فنقول : « الحمد لله » وكذلك فى الدفعة الثانية والدفعة الثالثة . ومن يفعل ذلك فلا تتأتّى منه معصية ، مادامت آثار شربة الماء هذه فى جسمه ؛ لأنها كلها « بسم الله » . فتحرسه من الخطيئة ؛ لأن النعمة الواحدة لو استقصيتها لوجدت فيها نعما كثيرة .

وأنتم حين لا تشكرون إنما تضيقون عليكم أبواب النعم من الله ؛ لأنكم

لو شكرتموه على النعم لزادت النعم عليكم ، ﴿ لئن شكرتم لأزيدنكم ﴾ ومن الحمق ألا نشكر .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾ ﴾

ومسألة الخلق سبق أن تقدمت فى سورة البقرة : خلق آدم ، والشيطان ، والقضية تتوزع على سبع سور ، فى سبعة مواضع موجودة فى سورة البقرة ، وسورة الأعراف ، وسورة الحج ، وسورة الإسراء ، وسورة الكهف ، وسوة طه ، وسورة ص ، إلا أن القصة فى كل موضع لها لقطات متعددة ، فهنا لقطة ، وهناك لقطة ثانية ، وتلك لقطة ثالثة ، وهكذا ؛ لأن هذه نعمة لابد أن يكررها الله ؛ لتستقر فى أذهان عباده ، ولو أنه ذكرها مرة واحدة فقد تُنسى ، لذلك يعيد الله التذكير بها أكثر من مرة . وإذا أراد الله استحضار النعم والتنبيه عليها فى أشياء ، فهو يكررها كما كررها فى استحضار النعم فى سورة واحدة فى قوله سبحانه : ﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ .

إنّه يذكر هذه النعم من بدايتها ، فيقول :

﴿ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ

﴿ ٢٢ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٢٣ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ
٢٤ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٢٥ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ٢٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ
ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ٢٧ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٢٨ ﴾

(سورة الرحمن)

وكل نعمة يقول بعدها : ﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ .

وأراد سبحانه بذلك أن يكثر ويردد تكرارها على الآذان لتستقر فى القلوب حتى فى الآذان الصماء ؛ فمرة يأتى بها فى شىء ظاهره أنه ليس نعمة ، مثل قوله :

﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ٣٥ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ٣٦ ﴾

(سورة الرحمن)

وجاء الحق بذكر كل ذلك ؛ لأنه ساعة يجلى لنا الأمور على حقائقها ونحن فى دار التكليف فهذه رحمة ونعمة منه علينا ؛ لأن ذلك يدعونا إلى اتقاء المحظورات والبعد والتنحى عن المخالفات .

ولله المثل الأعلى من قبل ومن بعد ، فحين يدخل الابن إلى المدرسة ، نقول له : إن قصرت فى كذا فسوف ترسب ، وأنت بهذا القول ترحمه بالنصيحة ، فلم تتركه دون أن تبصره بعواقب الأمور ، وأيضا ساعة ترى شرًّا يحيق بالكافرين ، فإن هذا الأمر يسرك ، لأنه لو تساوى الكافرون مع المؤمنين لما كان للإيمان فضل أو ميزة ، فالعذاب نقمة على الكافر ، ونعمة على المقابل وهو المؤمن .

وقد جاءت قصة خلق آدم بكل جوانبها فى القرآن سبع مرات ؛ لأنها قصة بدء الخلق ، وهى التى تجيب عن السؤال الذى يبحث عن إجابته الإنسان ؛ لأنه تلفت ليجد نفسه فى كون معد له على أحسن ما يكون . ولم يجىء الكون من بعد الإنسان ، بل طرأ الإنسان على الكون ، وظل السؤال وارداً عن كيفية الخلق ،

والسؤال مهم أهمية وجود الإنسان فى الكون ، فأنت تستقرىء أجناساً فى الكون ، وكل جنس له مهمة . ومهمته متعلقة بك ، جماد له مهمة ، ونبات له مهمة ، وحيوان له مهمة ، وكلها تصب فى خدمتك أنت ؛ لأن الجماد ينفع النبات ، ويتغذى منه لكى يغذى الحيوان ، والحيوان ينفعك ويغذيك ، إذن فكل الأجناس تصب فى خدمتك . أمّا أنت أيها الإنسان فما عملك فى هذا الكون ؟ ؛ لذلك كان لابد أن يتعرف الإنسان على مهمته . وأراد الحق سبحانه أن يُعرِّف الإنسان مهمته ؛ لأنه جل وعلا هو الصانع ، وحين يبحث الإنسان عن صانعه تتجلى له قدرة الله فى كل ما صنع . وكان لابد أيضاً أن يستقبل الإنسان خبراً من الخالق . إنه ـ سبحانه ـ يُنزل لنا المنهج من السماء ويصاحب هذا المنهج معجزة على يد رسول ، وأنزل الحق عليه المنهج وأوكل له مهمة البلاغ . فالرسول يخبر ، ثم نستدل بالمعجزة على صدق خبره . فكان من اللازم أن نصدق الرسول ، لأنه قادم بآية ومعجزة من الله .

والرسول عليه الصلاة والسلام جاء بالرسالة فى سن الأربعين ومعه المنهج المعجزة ، وأبلغنا أنه رسول من الله . وكان لابد أن نبحث لنتثبت من صدق البلاغ عن الله بالتعقل فى دعواه ؛ فهذا الرسول جاء بعد أربعين سنة من ميلاده ومعه معجزة من جنس ما نبغ فيه قومه ، وليس من جنس ما نبغ فيه هو ، إن معجزته ليست من عنده ، بل هى من عند الله ؛ لأن الرسول جاء بالمعجزة بعد أربعين سنة من ميلاده ، ومن غير المعقول أن تتفجر عبقرية بعد أربعين سنة من الميلاد ؛ لأننا نعلم أن العبقريات تأتى فى آخر العقد الثانى وأوائل العقد الثالث من عمر الإنسان ، ونلتفت فنجده يتكلم كل الكلام البلاغى المعجز . وليس من المعقول أن يأتى بأخبار الكون وهو الأمى الذى مات أبوه وهو فى بطن أمه ، ثم ماتت أمه وهو فى السادسة ، وكذلك مات جده . ورأى الناس يتساقطون من حوله ، فمن الذى أدراه ـ إذن ـ أنه سيمهل ويمد فى أجله إلى أن يصل إلى الأربعين ليبلغنا بمعجزته ؟ .

ولذلك نجد القرآن يستدل على هذه ، فيقول :

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ

أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ ﴾

(سورة يونس)

وهكذا تتجلى الحجة القوية من أنه صلى الله عليه وسلم مكلف بالبلاغ بما يُوحَى إليه ، ويتأكد ذلك مرة ثانية فى قوله الحق :

﴿ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة يونس)

وهنا نجد أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد تلقى الأمر من الله بأن يبيّن لهم : هل علمتم عنى خلال عمرى أنى قلت شعراً أو حكمة أو جئتكم بمثل ؟ إذن إن نحن عقلنا الأمر وتبصرنا وتأملنا دعواه لصدقنا أنه رسول الله ، وأن المعجزة نزلت عليه من السماء .

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

وهكذا نرى أن مسألة الخلق والإيجاد ، كان يجب على العقل البشرى أن يبحث فيها ، ليعلم مهمته فى الوجود . وحين يبحث فيها ليعلم مهمته فى الوجود يجب عليه أن يترك كل تخمين وظن ؛ لأن هذه المسألة لا يمكن أن نأتى فيها بمقدمات موجودة لتدلنا على كيفية خلقنا ولا لأى شىء ومهمة خلقنا ! فكيفية الخلق كانت أمراً غيبيًّا وليس أمامنا ما نستقرئه لنصل إلى ذلك . وقد حكم الله فى قضية الخلق ، سواء أكان الأمر بالنسبة للسموات والأرض وما بينهما أم للإنسان ، وقد حكم سبحانه فى هاتين القضيتين ، ولا مصدر لعلم الأمر فيهما إلا من الله سبحانه ، وأغلق باب الاجتهاد فيها ، وكذلك باب التخمين ، وسمى القائمين بكل بحث بشرى فى هذا المجال بأنهم ضالون مضللون ، ولذلك قال ليحكم هذه

القضية ويحسمها ، ويريح العقول من أن تبحث فيها ؛ قال :

﴿ مَآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ ﴾

(سورة الكهف)

فكأن الذى يقول : كيف خلقت السموات والأرض وكيف خلق الإنسان هو مضل ؛ لأن الله لم يشهده ، ولم يكن هذا القائل عضداً لله ولا سنداً ولا شريكا له .

وقص سبحانه علينا قصة خلق السموات والأرض وخلق الإنسان ، وهذه الآية تتعرض لخلق الإنسان . ومن يبحث بحثاً استقرائيًّا ويرجع إلى الوراء فلابد أن يجد أن الأمر منطقى ؛ لأن العالم يتكاثر ، وتكاثره أمر مرئى ، وليس التكاثر فى البشر فقط ، بل فيمن يخدمون البشر من الأجناس الأخرى ، نجد فيهم ظاهرة التكاثر نباتاً وحيواناً ، وإذا ما نظرنا إلى التعداد من قرن وجدنا العدد يقل عن التعداد الحالى وهو خمسة آلاف مليون ، وكلما عدنا ورجعنا إلى الزمن الماضى يقل التعداد إلى أن نصل إلى اثنين ؛ لأن الخلق إنما يأتى من اثنين ، وحلّ الله لنا اللغز فقال :

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾

(من الآية ١ سورة النساء)

وهذا كلام صحيح يثبته الإحصاء ويقنه ؛ لأن العالم يتكاثر مع مرور الزمن مستقبلا .

﴿ وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ﴾

(من الآية ١ سورة النساء)

وهذا كلام صادق . وسبحانه القائل :

﴿ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾

(من الآية ٤٩ سورة الذاريات)

وأبلغنا سبحانه بقصة خلق آدم ، وكيفية خلق حوّاء فهل أخذ جزءًا من آدم وخلق منه حوّاء ؟ قد يصح ذلك ، أو خلق منها زوجها ويكون المقصود به أنه خلقها من الجنس نفسه وبالطريقة نفسها ؟ وذلك يصح أيضا ، فسبحانه قد اكتفى بذكر خلق آدم عن ذكر خلق حوّاء ، وأعطانا النموذج فى واحد ، وقال : ﴿ وخلق منها زوجها ﴾ .

و ﴿ منها ﴾ فى هذه الآية يحتمل أن تكون غير تبعيضية ، مثلها مثل قوله الحق : ﴿ رسول من أنفسكم ﴾ .

فسبحانه لم يأخذ قطعة من العرب وقال : إنها « محمد » ، بل جعل محمدًا صلى الله عليه وسلم من الجنس نفسه خلقاً وإيجاداً ، وسبحانه حين يتكلم هنا يقول للملائكة :

﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾

(من الآية ٣٠ سورة البقرة)

وهذا هو أول بلاغ ، ثم أتبع ذلك :

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

(سورة الحجر)

إذن فقبل النفخ فى الروح ستوجد تسوية ، فلمن تحدث التسوية ، ومن هو « المسوّى منه » ؟ . إن التسوية لآدم . وجاء القول بأنه من صلصال ، ومن حمأ مسنون ، ومن تراب ، ومن طين ؛ إنّها مراحل متعددة ، فإن قال سبحانه عن آدم : إنه من تراب ، نقول : نعم ، وإن قال : « من ماء » نقول : نعم ، وإن قال « من طين » فهذا قول حق ؛ لأن الماء حين يختلط بالتراب يصير طيناً . وإن قال : ﴿ من حمأ مسنون ﴾ ، فهذا جائز ؛ لأن الحمأ طينٌ اختمر فتغيرت رائحته ثم جف وصار صلصالاً . إذن فهى مراحل متعددة للخلق ، ثم قال الحق :﴿ ونفخت فيه من روحى ﴾ .

وهكذا تكتمل فصول الخلق ، ثم قال : ﴿ فقعوا له ساجدين ﴾ .

ويقول العلماء : إن المراد من السجود هو الخضوع والتعظيم ، وليس السجود كما نعرفه ، وقال البعض الآخر : المراد بالسجود هو السجود الذى نعرفه ، وأن آدم كان كالقبلة مثل الكعبة التى نتجه إليها عند الصلاة . ولكنْ لنا هنا ملحظ ، ونقول : إننا لا نسجد إلا لله ، ومادام ربنا قد قال : اسجدوا فالسجود هنا هو امتثال لأمر خالق آدم . والنية إذن لم تكن عبادة لآدم ، ولكنها طاعة لأمر لله الأول . والأمر بالسجود لآدم قد أراده الله ؛ لأنه سبحانه سخر الكون كله لخدمة آدم ، ومن الملائكة مدبرات أمر ، ومنهم حفظة ، ومنهم من هو بين يدى الله ، فلم يكن السجود للملائكة خضوعاً من الملائكة لآدم ، بل هو طاعة لأمر الله ، ولذلك سجد من الملائكة الموكلون بالأرض وخدمة الإنسان ، لكنْ الملائكة المقربون لا يدرون شيئاً عن أمر آدم ، ولذلك يقول الحق لإبليس :

﴿ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴾

(من الآية ٧٥ سورة ص)

والمقصود بالعالين الملائكة الذين لم يشهدوا أمر السجود لآدم ، فليس للملائكة العالين عمل مع آدم ؛ لأن الأمر بالسجود قد صدر لمن لهم عمل مع آدم وذريته والذين يقول فيهم الحق سبحانه :

﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ١١ سورة الرعد)

وهناك الرقيب ، والعتيد والقعيد . وفى كل ظاهرة من ظواهر الكون هناك مَلَك مخصوص بها ، ويبلغنا الحق بمسألة الخلق ، والخطاب لنا ﴿ خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ﴾ وهذا ترتيب إخبارى ، وليس ترتيباً للأحداث . أو أن الحق سبحانه وتعالى طمر الخلق جميعاً فى خلق آدم ، والعلم الحديث يعطينا أيضاً مؤشرات على ذلك ، حين يأتون ببذرة ويكتشفون فيها كل مقومات الثمرة ، وكذلك الحيوان المنوى توجد فيه كل صفات الإنسان . ولذلك نجدهم حين يدرسون قانون الوراثة يقولون : إن حياة كل منا تتسلسل عن آخر ، فأنت من ميكروب أبيك ، وقد نزل من والدك وهو حى ، ولو أنه نزل ميتاً لما اتصل الوجود . ووالدك جاء من ميكروب جده وهو حى ، وعلى ذلك فكل كائن الآن فيه

جزىء حى من لدن آدم ، لم يطرأ عليه موت فى أى حلقة من الحلقات .

إذن فكلنا كنا مطمورين فى جزيئات آدم ، وقال ربنا سبحانه :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ﴾

(من الآية ١٧٢ سورة الأعراف)

ونقول : صدق الحق فهو الخالق القادر على أن يخرجنا من ظهر آدم ، وهكذا كان الخلق أولاً والتصوير أولاً ،وكل ذلك فى ترتيب طبيعى ، وهو سبحانه له أمور يبديها ولا يبتديها ، أى أنّه سبحانه يظهرها فقط ، فإذا خاطب آدم وخاطب ذريته فكأنه يخاطبنا جميعاً .

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

وعرفنا من هم الملائكة من قبل ، وما هى علة السجود . ﴿ فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين ﴾ .

والحق سبحانه يستثنيه بأنه لم يكن من الساجدين ، وهذا دليل على أنه دخل فى الأمر بالسجود ، ولكن هل إبليس من الملائكة ؟ لا ؛ لأنك إذا جئت فى القرآن ووجدت نصًا يدل بالالتزام ، ونصًا يدل بالمطابقة والقطع فاحمل نص الالتزام على النص المحكم الذى يقطع بالحكم . وقد قال الحق فى ذلك :

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ﴾

(من الآية ٥٠ سورة الكهف)

وفى هذا إخراج لإبليس من جنس الملائكيّة ، وتقرير أنه من الجن ، والجن كالإنس مخلوق على الاختيار ، يمكنه أن يطيع أو أن يعصى ، إذن فقوله الحق : ﴿ ففسق عن أمر ربه ﴾ .

يعنى أن هذا الفسوق أمر يجوز منه ؛ لكن الملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، وإن تساءل أحد : ولماذا جاء الحديث عن إبليس ضمن الحديث عن الملائكة ؟ . نقول : هب أن فرداً مختاراً من الإنس أو من الجن التزم بمنهج الله كما يريده الله ، فأطاع الله كما يجب ولم يعص . . أليست منزلته مثل الملك بل أكثر من الملك ، لأنه يملك الاختيار . ولذلك كانوا يسمون إبليس طاووس الملائكة ، أى الذى يزهو فى محضر الملائكة لأنه ألزم نفسه بمنهج الله ، وترك اختياره ، وأخذ مرادات الله فنفذها ، فصار لا يعصى الله ما أمره ويفعل ما يؤمر ، وصار يزهو على الملائكة لأنهم مجبورون على الطاعة ، لكنه كان صالحاً لأن يطيع ، وصالحاً ـ أيضاً ـ لأن يعصى ، ومع ذلك التزم ، فأخذ منزلة متميزة من بين الملائكة ، وبلغ من تميزه أنه يحضر حضور الملائكة . فلما حضر مع الملائكة جاء البلاغ الأول عن آدم فى أثناء حضوره ، وقال ربنا للملائكة : ﴿ اسجدوا لآدم ﴾ .

وكان أولى به أن يسارع بالامتثال للأمر بالطاعة ، لكنه استنكف ذلك . وهب أنه دون الملائكة ومادام قد جاء الأمر للأعلى منه وهم الملائكة ، ألم يكن من الأجدر به وهو الأدنى أن يلتزم بالأمر ؟ لكنه لم يفعل . ولأنه من الجن فقد غلبت عليه طبيعة الاختيار .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾

ثم قال كما يحكى القرآن الكريم :

﴿ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾

(من الآية ٦١ سورة الإسراء)

وهكذا كان الموقف استكباراً واستعلاءً . وقوله الحق :

﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ ﴾

(من الآية ٧٥ سورة ص)

ونحن حين نحلل هذا النص ، نجد قوله:﴿ ما منعك ﴾ أى ما حجزك ، وقد أورد القرآن هذه المسألة بأسلوبين ، فقال الحق مرة : ﴿ ما منعك ألا تسجد ﴾ . وقال مرة أخرى : ﴿ ما منعك أن تسجد ﴾ . وهذا يعنى أن الأسلوب الأول جاء بـ « لا » النافية ، والأسلوب الثانى جاء على عدم وجود « لا » النافية . وقوله ﴿ ما منعك أن تسجد ﴾ كلام سليم واضح ؛ يعنى : ما حجزك عن السجود . لكن ﴿ ما منعك ألا تسجد ﴾ هى التى تحتاج لوقفة . لذلك قال العلماء : إن « لا » هنا زائدة ، ومَنْ أَحْسَن الأدب منهم قال : إن « لا » صلة . لكن كلا القولين لا ينفع ولا يناسب ؛ لأن من قال ذلك لم يفطن إلى مادة « منع » ولأى أمر تأتى ، وأنت تقول : « منعت فلاناً أن يفعل » ، كأنه كان يهم أن يفعل فمنعته .

إذن ﴿ ما منعك أن تسجد ﴾ كأنّه كان عنده تهيؤ للسجود ، فجاءت قوة أقوى منه ومنعته وحجزته وحالت بينه وبين أن يسجد . لكن ذلك لم يحدث . وتأتى « منع » للامتناع بأن يمتنع هو عن الفعل وذلك بأن يقنعه غيره بترك السجود فيقتنع ويمتنع ، وهناك فرق بين ممنوع ، وممتنع ؛ فممنوع هى فى ﴿ منعك أن تسجد ﴾ ، وممتنع تعنى أنه امْتنع من نفسه ولم يمنعه أحد ولكنّه أقنعه . وإن كان المنع من الامتناع فالأسلوب قد جاء ليؤكد المعنى الفعلى وهو المنع عن السجود . وهذا هو السبب فى وجود التكرار فى القرآن . ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾

(من الآية ١٢ سورة الأعراف)

وسبحانه قد أمر الملائكة وكان موجوداً معهم إما بطريق العلو ، لأنه فاق الملائكة وأطاع الله وهو مختار فكانت منزلته عالية ، وإما بطريق الدنو ؛ لأن الملائكة أرفع من إبليس بأصل الخلقة والجبلة ، وعلى أى وضع من العلو والدنو كان على إبليس أن يسجد ، ولكنه قال فى الرد على ربّه :

﴿ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾

(من الآية ١٢ سورة الأعراف)

وسبحانه لم يسأل إبليس عن المقارنة بينه وبين آدم ، ولكن سأله وهو يعلم أزلاً أنّ إبليس قد امتنع باقتناع لا بقهر ، ولذلك قال إبليس : أنا خير منه ، فكأن المسألة دارت فى ذهنه ليوجد حيثية لعدم السجود . ولا يصح فى عرفه الإبليسى أن يسجد الأعلى للأدنى ، فمادام إبليس يعتقد أنه خير من آدم ويظن أنه أعلى منه ، فلا يصح أن يسجد له . وأعلى منه لماذا ؟ لأنه قال : ﴿ خلقتنى من نار وخلقته من طين ﴾ فكأن النار لها علو ، وهو فى ذلك مخطئ تماماً لأن الأجناس حين تختلف ؛ فذلك لأن لكل جنس دوره ، ولا يوجد جنس أفضل من جنس ، النار لها مهمة ، والطين له مهمة ، والنار لا تقدر أن تؤدى مهمة الطين ، فلا يمكن أن نزرع فى النار .

إذن فالخيرية تتأتى فى الأمرين معا مادام كل منهما يؤدى مهمته ، ولذلك لا تقل : إن هذا خير من هذا ، إنما قل : عمل هذا أحسن من عمل هذا ، فكل شىء فى الوجود حين يوضع فى منزلته المرادة منه يكون خيراً ، ولذلك أقول : لا تقل عن عود الحديد إنه عود مستقيم ، وتقول عن الخطاف : إن هذا عود أعوج ، لأن مهمة الخطاف تقتضى أن يكون أعوج ، وعوجه هو الذى جعله يؤدى مهمته ، لأن الخيرية إنما تتأتى فى متساوى المهمة ، ولكن إبليس قال :

﴿ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ ﴾

(من الآية ١٢ سورة الأعراف)

قالها للمعاندة ، للكبر ، للكفر حين أعرض عن أمر الله وأراد أن يعدل مراد الله فى أمره ، وكأنه يخطِّئ الحق فى أمره ، ويردّ الأمر على الآمر . فما كان جزاء الحق سبحانه وتعالى لإبليس إلا أن قال له :

﴿ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ

﴿ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ ﴾

والهبوط يستدعى الانتقال من منزلة عالية إلى منزلة أقل ، وهذا ما جعل العلماء يقولون إن الجنة التى وصفها الله بأنها عالية هى فى السماء ، ونقول : لا ، فالهبوط لا يستدعى أن يكون هبوطاً مكانيًا ، بل قد يكون هبوط مكانة ، وهناك فرق بين هبوط المكان ، وهبوط المكانة ، وقد قال الحق لنوح عليه السلام :

﴿ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ﴾

(من الآية ٤٨ سورة هود)

أى اهبط من السفينة ، إذن مادة الهبوط لا تفيد النزول من مكان أعلى إلى مكان أدنى ، إنما نقول من مكان أو من مكانة . ﴿ قال فاهبط منها ﴾ .

وهذا تنزيل من المكانة لأنه لم يعد أهلاً لأن يكون فى محضر الملائكة ؛ فقد كان في محضر الملائكة ؛ لأنه ألزم نفسه بالطاعة ، وهو مخلوق علي أن يكون مختاراً أن يطيع أوأن يعصى ، فلما تخلت عنه هذه الصفة لم يعد أهلاً لأن يكون فى هذا المقام ، وذلك أن الملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .

﴿ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ ﴾

(من الآية ١٣ سورة الأعراف)

أى ما ينبغى لك أن تتكبر فيها .

إن امتناعك عن أمر من المعبود وقد وجهه لك وأنت العابد هو لون من الكبرياء على الآمر ، والملائكة جماعة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، فمادمت أنت أهل استكبار واستعلاء على هذه المكانة فلست أهلاً لها ، فكأن العمل هو الذى أهلَّه أن يكون فى العلو ، فلما زايله وفارقه كان أهلاً لأن يكون فى الدنو ، وهكذا لم يكن الأمر متعلقاً بالذاتية ، وفى هذا هبوط لقيمة كلامه فى أنه من نار وآدم من طين ؛ لأن المقياس الذى توزن به الأمور هو مقياس أداء العمل ، ومن حكمة الحق

أن الجن يأخذ صورة القدرة على أشياء لا يقدر عليها الإنس ، مثل السرعة ، واختراق الحواجز ، والتغلب على بعض الأسباب ، فقد ينفذ الجن من الجدار أو من الجسم ، وكما قال الرسول صلى الله عليه وسلم :

« إن الشيطان يجرى من الإنسان مجرى الدم »[1] .

وهو فى ذلك مثل الميكروب ، لأن هذه طبيعة النار ، وهى المادة التى خُلق منها . وهى تتعدى الحواجز . والجن قد بلغ من اللطف والشفافية أنه يقدر على أن ينفذ من أى شىء ، لكن الحق سبحانه وتعالى أراد أن يوضح للجن : لا تعتقد أن عنصريتك هى التى أعطتك هذا التميز ، وإنما هى إرادة المُعَنْصر ، بدليل أنه جعلك أدنى من مكانة الإنسان ، إنه ـ سبحانه ـ يجعل إنسياً مثل سيدنا سليمان مخدوما لك أيها الجنى ، إنه يسخرك ويجعلك تخدمه . وأنه فى مجلس سليمان ، جعل الذى عنده علم من الكتاب ، يأتى بقوة أعلى من قوة « عفريت » من الجن . فالحق هو القائل :

﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ ﴾

(من الآية ٣٩ سورة النمل)

وهذا يدل على أن هناك أذكياء وأغبياء فى عالم الجن أيضاً . وجاء الذى عنده علم من الكتاب فتسامى فوق عفريت الجن فى الزمن ، فقد قال هذا العفريت :

﴿ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ﴾

(من الآية ٣٩ سورة النمل)

والمقام هو الفترة الزمنية التى قد يقعدها سليمان فى مجلسه ، فماذا قال الذى عنده علم من الكتاب ـ وهو إنسان ـ ؟

﴿ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾

(من الآية ٤٠ سورة النمل)

---

(١) رواه البخارى فى الأدب ، ومسلم فى السلام ، وأبو داود فى السنة ، وابن ماجه فى الصوم ، ورواه أحمد ٣/١٥٦ ، ٢٨٥ ، ٣٣٧

كأنه سيأتى بعرش بلقيس قبل أن ينته سليمان من ردّ طرفه الذى أرسله ليبصر به شيئاً ، إن سليمان رأى العرش بين يديه ، ولذلك نجد عبارة القرآن معبرة :

﴿ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ ﴾

(من الآية ٤٠ سورة النمل)

كأن المسألة لا تتحمل . بل تم تنفيذها فوراً . إذن فالحق يوضح للمخلوقين من العناصر : إياكم أن تفهموا أن تميزكم بعناصركم ، إننى أقدر بطلاقة قدرتى أن أجعل الأدنى يتحكم فى الأعلى ؛ لأنها إرادة من عَنْصَرَ العناصر .

﴿ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

وكلمة ﴿ فاهبط ﴾ تشير وتدل على أن الهبوط أمر معنوى ، أى أنك لست أهلاً لهذه المنزلة ولا لتلك المكانة . هذا ما تدل عليه كلمة ﴿ فاهبط ﴾ ، ثم جاء الأمر بعد ذلك بالخروج من المكان .

والصَّغَار هو الذل والهوان ؛ لأنه قَابَل الأمر باستكبار ، فلابد أن يجازى بالصَّغار . وبذلك يكون قد عومل بضد مقصده ، والمعاملة بضد المقصد لون من التأديب والتهذيب والتعليم ؛ مثلما يقرر الشرع أن الذى يقتل قتيلاً يحرم من ميراثه ، لأنه قد قتله ليعجل الإرث منه ، ولذلك شاء الله أن يحرمه من الميراث ؛ فبارتكابه القتل صار محجوباً عن الميراث .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

ومعنى ﴿ أنظرنى ﴾ أمهلنى أى لا تمتنى بسرعة ، ولا تجعل أجلى قريباً ، بدليل قوله سبحانه :

﴿ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ ﴾

فالإنظار طلب الإمهال ، وعدم التعجيل بالموت ، وقد طلبه إبليس لكى يشفى غليله من بنى آدم وآدم ؛ لأنه جاء له بالصَّغار والذلة والطرد والهبوط ، ولذلك أصر على أن يجتهد فى أن يغرى أولاد آدم ليكونوا عاصين أيضاً . وكأن إبليس فى هذا الطلب أراد أن يُنْقذ من الموت وأن يبقى حيًّا إلى يوم البعث الذى يبعث فيه كل من مات . وكأنه يريد أن يقفز على قول الحق :

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾

(من الآية ١٨٥ سورة آل عمران)

فأوضح الحق : أن تأجيل موتك هو إلى يوم الوقت المعلوم لنا وغير المعلوم لك ؛ لأن الأجل لو عرف فقد يعصى من يعلمه مدة طويلة ثم يقوم بالعمل الصالح قبل ميعاد الأجل ، ولكن الله أراد بإبهام زمان الموت أن يشيع زمانه فى كل وقت . وفى آية أخرى يقول الحق سبحانه :

﴿ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ ﴾

(سورة الحجر)

والوقت المعلوم هو النفخة الأولى :

﴿ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾

(سورة الزمر)

وكأن إبليس كان يريد أن يفر من الموت ليصل إلى النفخة الثانية ، لكن ربنا أوضح أنه باق إلى وقت معلوم ، وآخر الوقت المعلوم هذا لابد أن يكون قبل النفخة الأولى .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ﴾

والإغواء . إغراء بالمعصية ، ومن الإغواء الغَىّ وهو : الإهلاك ، يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴾

(من الآية ٥٩ سورة مريم)

وحين نقرأ ﴿ فبما أغويتنى ﴾ أى فبإغوائك يا الله لى سأفعل كذا وكذا ، وبذلك يكون قد نسب الإغواء لله . لكن هل يغوى ربنا أو يهدى ؟ . إن الله يهدى دلالة وتمكيناً ، وسبق أن تكلمنا كثيراً عن هداية الدلالة ودلالة التمكين ، وسبحانه خلق الشيطان مختاراً ، ولم يخلقه مرغماً ومسخراً كالملائكة ، ولأنه قد خُلِقَ مختاراً فقد أعطاه فرصة أن يطيع وأن يعصى ، وكأن الشيطان بقوله هذا يتمنى لو أنه قد خلق مقهوراً . ويقول إن الله هو الذى أعطاه سبب العصيان . ولم يلتفت إلى أن الاختيار إنما هو فرصة لا للغواية فقط ، ولكنه فرصة للهداية أيضاً . وأنت أيها الشيطان الذى اخترت الغواية .

إذن فقول الشيطان : ﴿ فبما أغويتنى ﴾ إنما يريد به الشيطان : أن يدخل بمعصيته على الله ، ونقول له : لا ، إن ربنا لم يغوِ ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى لا يغوى وإنما يهدى ؛ لأن الله لو خلقه مرغماً مقهوراً ما أعطاه فرصة أن يختار كذا أو يختار كذا ؛ فقد خلقه على هيئة « افعل » و « لا تفعل » ، واختار هو ألّا يفعل إلا المعصية .

﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

والمفهوم من العبارة أنهم بنو آدم ، والقعود لون من ألوان حركة الجسم الفاعل ؛ لأن المتحرك إما أن يكون قائماً ، وإما أن يكون قاعداً ، وإما أن يكون

مضطجعاً نائماً . وأريح الحالات أن يكون نائماً مضطجعاً ؛ لأن الجسم فى هذه الحالة يكون مستريحاً بفعل الجاذبية الأرضية ، وحين يكون الإنسان قاعداً تقاومه الجاذبية قليلاً ، وحين يكون واقفاً فهو يحمل ثقل جسمه على قدميه ، ولذلك نقول لمن وقف طويلاً على قدميه : « اقعد حتى ترتاح » ولو قعد وكان متعباً فيقال له : « اضطجع قليلاً لترتاح » .

ولماذا اختار الشيطان أن يقول:﴿ لأقعدن ﴾ ؟ حتى يكون مطمئناً ، فقد يتعب من الوقفة ، أيضاً وهو فى حالة القعود يكون منتبها متيقظاً ، والحق يقول :

﴿ وَٱقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ﴾

(من الآية ٥ سورة التوبة)

ولم يقل : « قفوا » حتى لا يرهق الناس أنفسهم بالوقوف الطويل ، ولكن ساعة يواجهون الأمر فعليهم بالنهوض . والقعود أقرب إلى الوقوف ، لأن الاضطجاع أقرب إلى التراخى والنوم ، وقد اختار الشيطان الموقف الذى يحفظ له قوته ، ويبقى له انتباهه: ﴿ لأقعدن لهم صراطك المستقيم ﴾ .

ومادام الشيطان سيغوى ، وسيضل الغير ، فسيختار للغواية من يكون فى طريق الهداية . إنما من غَوَى باختياره وضل بطبيعته فالشيطان قد استراح من ناحيته ولا يريده ، وتلك ظاهرة تحدث للناس حينما يجدون ويجتهدون فى الطاعة ؛ فالشاب الطائع الملتزم يحاول الشيطان أن يخايله ليصرفه عن الصلاة والطاعة ؛ لأن الشيطان يتلصص على دين الإنسان ، فهو كاللص ، واللص لا يحوم حول بيت خرب . إنما يحوم اللص حول بيت عامر بالخير .

إننا نلاحظ هذه المسألة فى كل الناس حينما يأتون للصلاة فيقول الواحد منهم : حينما أصلى يأتى لى الوسواس ، ويشككنى فى الصلاة ، نقول له : نعم هذا صحيح ، وحين يأتى لك هذا الوسواس فاعتبره ظاهرة صحية فى الإيمان ؛ لأن معناه أن الشيطان عارف أن عملك مقبول ، ولذلك يحاول أن يفسد عليك الطاعة ؛ لأنك لو كنت فاسداً من البداية ، ووقفت للصلاة دون وضوء لما جاءك الوسواس . لكن الشيطان يريد أن يفسد عليك الطاعة ولذلك يقول الله :

﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ﴾

(من الآية ٢٠٠ سورة الأعراف)

لماذا ؟ . لأن الله خلقك وخلقه ، وإن كنت لا تستطيع دفعه لأنه يجرى منك مجرى الدم فى العروق وينفذ إليك بالخواطر والمواجيد التى لا تضبطها ؛ ويأتى إليك بمهام الأشياء فى وقت الصلاة ؛ فتتذكر الأشياء التى لم تكن تتذكرها ، ويأتى لك بأعقد المسائل وأنت تصلى ؛ وكل ذلك لأنه قال : ﴿ لأقعدن لهم صراطك المستقيم ﴾ ، ولم يقل إنه سيقعد على الطريق المنحرف ، ولن يجلس الشيطان فى مجلس خمر ، لكنه يقعد على أبواب المساجد أو فى المساجد ليفسد للناس أعمالهم الصالحة . فماذا نفعل فى هذه الحال ؟ . يدلنا الحق سبحانه أن نستعيذ : ﴿ وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله ﴾ .

فمعنى ﴿ فاستعذ ﴾ أى فالتجئ منه إلى الله ؛ لأن الله الذى أعطاه الخاصية فى أن يتغلغل فيك ، وفى دمك ، وفى خواطرك ، هو القادر على منعه ، وحين تقول : « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » بفزع والتجاء إليه ـ سبحانه ـ فإنه ـ جل شأنه ـ ينقذك منه . وإن كنت تقرأ القرآن ثم جاء لك الخاطر من الشيطان فقل : « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » فإذا قلت هذا فكأنك نبهته إلى أنك أدركت من أين جاءت هذه النزغة : مرة واثنتين وثلاثاً ، فيقول الشيطان لنفسه : إن هذا المؤمن حاذق فطن وحذر لا أستطيع غوايته ، ولأبحث عن غيره .

ولذلك رأينا الإمام أبا حنيفة ، وقد شهِرَ عنه الفتيا ، وذهب إليه سائل يقول : ضاع منى مال فى أرض كُنت قد دفنته فيها ، ولا أعرف الآن مكانه . دلنى عليه أيها الشيخ ؟ . وبطبيعة الحال كان هذا السؤال فى غير العلم ، فقال أبو حنيفة : يا بنى ليس فى ذلك شىء من العلم ، ولكنى احتال لك ؛ إذا جاء الليل فقم بين يدى ربك مصليًا هذه الليلة ، لعل الله سبحانه وتعالى يبعث لك جنداً من جنوده يقول لك عن مكان مالك .

وبينما أبو حنيفة يؤدى صلاة الفجر ، وإذا بالرجل يقبل ضاحكاً مبتسماً قائلا : يا إمام لقد وجدت المال ، فضحك أبو حنيفة ، وقال : والله لقد علمت أن

الشيطان لا يدعك تتم ليلتك مع ربك ، وسيأتى ليُخبرك ، فهلاّ أتممتها شكراً لله ، هيا قم إلى الصلاة .

إذن فقد عرف الشيطان كيف يقعد : وكيف يقسم ، لأنه فى آية أخرى يقول :

﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾

(سورة ص)

لقد استطاع أن يأتى بالقسم الذى يعينه على مهمته ؛ فقال : ﴿ فبعزتك لأغوينهم ﴾ أى بامتناعك عن خلقك وعدم حاجتك إليهم فأنت الغالب الذى لا يقهر ؛ لأنك إن أردتهم ما استطعتُ أن آخذهم ، لكنك شئت لكل إنسان أن يختار :

﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الكهف)

فأقسم ، ومن هذا الباب يدخل الشيطان على الإنسان : ﴿ فبعزتك لأغوينهم أجمعين ﴾ .

واستدرك على نفسه أيضاً وقال :

﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾

(سورة ص)

لأن الذى يريده الله مهديًا لا يستطيع الشيطان أن يغويه ؛ لأنه لا يناهض ربنا ولا يقاومه ، إنما يناهض خلق الله ، ولا يدخل مع ربنا فى معركة ، إنما يدخل مع خلقه فى معركة ليس له فيها حجة ولا قوة ؛ لأن الذى يغلب فى المعارك إما أن يرغمك على الفعل ، وإما أن يقنعك لتفعل أنت بدون إرغام . وهل يملك إبليس واحدة من هذه ؟ . لا ، ولذلك سيأتى فى الآخرة يقول :

﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ﴾

(من الآية ٢٢ سورة إبراهيم)

والسلطان قسمان : سلطان يقهر ، وسلطان يقنع . والشيطان يدخل على الإنسان من هذه الأبواب .

ويقول الحق بعد ذلك على لسان إبليس :

﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ ﴾

فالذى بين اليد هو ما كان إلى الأمام ، ﴿ ومن خلفهم ﴾ أى من الوراء ، و﴿ عن أيمانهم ﴾ أى من جهة اليمين ، و﴿ عن شمائلهم ﴾ أى من جهة اليسار . والشىء الذى أمام العالم كله ، ونسير إليه جميعاً هو ﴿ الدار الآخرة ﴾ وحين يأتى الشيطان من الأمام فهو يشككهم فى حكاية الآخرة ويشككهم فى البعث . ويحاول أن يجعل الإنسان غير مقبل على منهج الله ، فيصير من الذين لا يؤمنون بلقاء الله ، ويشكّون فى وجود دار أخرى سيُجَازى فيها المحسن بإحسانه والمسىء بإساءته . وقد حدث ذلك ووجدنا من يقول القرآن بلسان حاله :

﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة الصافات)

ولذلك يعرض الحق قضية البعث عرضاً لا يجعل للشيطان منفذاً فيها ، فيوضح لنا أنه سبحانه لم يعجز عن خلقنا أولاً ؛ لذلك لن يعجز عن إعادتنا ، والإعادة بالتأكيد أهون من البداية ؛ لأنّه سيعيدهم من موجود ، لكن البداية كانت من عدم ، إنه ـ سبحانه ـ عندما يبيّن للناس أن الإعادة أهون من البداية فهو يخاطبهم بما لا يجدون سبيلاً إلى إنكاره ، وإلاّ فالله ـ جل شأنه ـ تستوى لدى طلاقة قدرته كل الأعمال فليس لديه شىء سهل وهيّن وآخر صعب وشاق ويبلغنا ـ سبحانه ـ بتمام إحاطة علمه فيقول :

﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴿٤﴾ ﴾

(سورة ق)

أى أن لكل واحدٍ كتاباً مكتوباً فيه كل عناصره وأجزائه .

والشيطان ـ أيضاً ـ يأتى من الخلف ، وخلف كل واحد منا ذريته ، يخاف ضيعتهم ، فيوسوس الشيطان للبعض بالسرقة أو النهب أو الرشوة من أجل بقاء مستقبل الأبناء ، وفساد أناس كثيرين يأتى من هذه الناحية ، ومثل هذا الفساد يأتى حين يبلغ بعض الناس منصبًا كبيراً ، وقد كبرت سنّه ، ويقبل على الله بشرّ ، ويظن أنه يترك عياله بخير . لكن إن كنت تخاف عليهم حقًا فأمِّن عليهم فى يد ربهم ، ولا تؤمِّن حياتهم فى جهة ثانية .

﴿ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ ﴾

(سورة النساء)

ولماذا لم يأت الشيطان للإنسان من فوق ومن تحت لأن الفوقية هى الجهة التى يلجأ إليها مستغيثا ومستجيرا بربه ، والتحتية هى جهة العبودية الخاصة . فالعبد أقرب ما يكون من ربه وهو ساجد ، فهو فى هاتين الحالتين محفوظ من تسلط الشيطان عليه ؛ لأن الله تعالى يقول : ﴿ إن عبادى ليس لك عليهم سلطان ﴾ .

ويقول تعالى :

﴿ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

ويأتى الشيطان من اليمين ليزهد الناس ويصرفهم عن عمل الحسن والطاعة . واليمين رمز العمل الحسن ؛ لأن كاتب الحسنات على اليمين ، وكاتب السيئات على الشمال ، ويأتى عن شمائلهم ليغريهم بشهوات المعصية . ونلحظ أن الحق استخدم لفظ ﴿ عن أيمانهم ﴾ و ﴿ عن شمائلهم ﴾ ولم يأت بـ « على » لأن « على » فيها استعلاء ، والشيطان ليس له استعلاء أبداً ؛ لأنه لا يملك قوة القهر فيمنع ، ولا قوة الحجة فيقنع . ولأن أكثر الناس لا تتذكر شكر المنعم عليهم ، فيجيد الشيطان غوايتهم . ولذلك يقول الحق تذييلاً للآية :

﴿ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴾

(من الآية ١٧ سورة الأعراف)

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ ﴾

لقد بلغ الغرور بالشيطان أن تخيّل أنه ذكى ، فشرح لنا خطته ومنهجه فدلل لنا على أن حكم الله فيه قد نفذ بأن جعل كيده ضعيفاً ، فسبحانه القائل :

﴿ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾

(من الآية ٧٦ سورة النساء)

لقد نبهنا الحق لكيد الشيطان وغروره ، والناصح هو من يحتاط ، ويأخذ المناعة ضد النزغ الشيطانى . وهنا يقول الحق :

﴿ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ﴾

(من الآية ١٨ سورة الأعراف)

وقال له الحق من قبل :

﴿ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

إذن فهناك هبوط وخروج بصَغار ومجاوزة المكان ، ثم هنا أيضاً تأكيد بأنه فى حالة الخروج سيكون مصاحباً للذم والصغار والطرد واللعن . ويقول الحق سبحانه :

﴿ لَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾

(من الآية ١٨ سورة الأعراف)

وفى هذا إخبار لمن يتبعون الشيطان بأنهم أهل لجهنم ، ولم يعدَّها سبحانه لتسع الكافرين فقط ، لكنه أعدّها على أساس أن كل الخلق قد يكفرون به سبحانه ، كما أعدّ الجنة على أساس أن الخلق جميعاً يؤمنون به ؛ فليس عنده ضيق مكان ، وإن آمن الخلق جميعاً ؛ فإنه ـ جل شأنه ـ قد أعد الجنَّة لاستقبالهم جميعاً ، وإن كفروا جميعاً فقد أعدّ النار لهم جميعاً ؛ تأكيداً لقوله الحق :

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾ ﴾

(سورة المؤمنون)

وقوله الحق :

﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ ﴾

(سورة الأنبياء)

وبهذا نكون قد شرحنا مسألة إبليس الذى امتنع عن طاعة أمر الآمر الأعلى بالسجود لآدم .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ﴾

ويعاود القرآن الحديث عن آدم بعد أن تناول مسألة إبليس فيقول : ﴿ ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة ﴾ .

كثير من العلماء تواتر نقل العلم عندهم إلى أن الجنة هى جنة الآخرة والخلود ، واعترض البعض متسائلين : كيف يدخل إبليس جنة الخلود ؟ . وكيف يخرج منها ؟ . وهل الذى يدخل الجنة يخرج منها ؟ . وهؤلاء العلماء الذين قالوا : إن الجنة هى جنة الآخرة، لم يفطنوا إلى مدلول كلمة « جنة» ؛ فساعة تطلق كلمة جنة ، تأخذ ما يسمى فى اللغة « غلبة الاستعمال » ، أى تأخذ اللفظ من معانيه المتعددة إلى معنى واحد يستقل به عرفاً ، بحيث إذا سُمع انصرف الذهن إليه ، فأنت إذا سمعت يا مؤمن كلمة الجنة ينصرف ذهنك إلى جنة الآخرة ؛ لأنها هى التي تُعتبر جنة بحق ، لكن حينما يأتى اللفظ فى القرآن والمتكلم هو الله ، فلابد أولاً أن ندرس اللفظ واستعمالاته فى اللغة ؛ لأن القرآن جاء بلسان عربى مبين ، فمن الجائز أن يوجد اللفظ فى اللغة وله معانٍ متعددة . وعندما يتعلق الأمر بالدين والفقه فإننا نأخذ اللفظ من معناه اللغوى ، ونجعله ينصرف إلى المعنى الشرعى الاصطلاحى .

مثال ذلك كلمة « الحج » فأنت ساعة تسمع كلمة « الحج » تقول : هو قصد بيت الله الحرام للنسك والعبادة فى أشهر معلومة ، على الرغم من أن « الحج » فى اللغة هو القصد ، فإذا قصدت أي شيء تقول : حججت إليه . فلما جاء الإسلام أخذ هذا اللفظ من اللغة واستعمله فى الحج بالمعنى الشرعى ، وهو قصد البيت الحرام للنسك ، وكذلك كلمة « الصلاة » إنها فى اللغة الدعاء ، فقوله تعالى : ﴿ وصلِّ عليهم ﴾ أى ادع لهم ، ولما جاء الإسلام أخذ الكلمة من اللغة، وجعلها تطلق على معنى اصطلاحى جديد بحيث إذا أطلق انصرفت إليه ، وهى الأقوال والأفعال المخصوصة ، المبدوءة بالتكبير المختومة بالتسليم بشرائطها الخاصة .

ولكن هل معنى أننا أخذنا اللفظ من اللغة وجعل له الشرع معنًى اصطلاحيًا أن هذا يكون تركاً لمعناه الأصلى ؟ . لا ؛ لأنك إن أردت أن تستعمله فى معناه الأصلى فلك ذلك ، ولكنك تحتاج إلى قرينة تدل على أنك لا تريد الصلاة الشرعية لأن كلمة « صلاة » أصبحت هى الصلوات الخمس المعروفة لنا ، مع أن معناها الأصلى كان الدعاء ، وهذا هو ما جعل العلماء يذهبون إلى أن كلمة « الجنة » ساعة تُطلق ينصرف الذهن إلى جنة الخلود . ونقول : المعنى اللغوى للجنة أنها المكان الذى فيه أشجار غزيرة ومتنوعة ، أما غزارتها وعلوها فتستر

الإنسان وتُجِنّه عن كل ما حوله ، وأما ما فيها من الثمار والضروريات والكماليات فلأنها تستر الإنسان عن خارجها ويكتفى بأن يكون فيها ، والقرآن لم يجئ بالجنة بمعنى جنة الخلد فقط ، بل يقول أيضاً :

﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ ﴾

(من الآية ٢٦٦ سورة البقرة)

وكذلك يقول سبحانه :

﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ ﴾

(سورة الكهف)

وقوله الحق :

﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ ﴾

(سورة سبأ)

وأقول : إن علينا أن نبحث فى آفاق مرادات الله حين يُعْلمنا من لدنه ويقفنا على المعنى المراد ، إننا نعلم أن أول بلاغ نزل من الله بخصوص آدم أخبرنا فيه أنه قد خلق آدم خليفة فى الأرض :

﴿ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾

(من الآية ٣٠ سورة البقرة)

إذن فآدم مخلوق للأرض ، ولا تظلموا آدم وتقولوا إنه مخلوق للجنة ، وكنا سنعيش فيها لكنه عصى وأنزلنا إلى الأرض . لذلك نقول : لا ، وعلينا أن نتذكر أن أول بلاغ من الله عن آدم أنه جعله فى الأرض خليفة . والذى كان يجب أن نسأل

عنه : مادام قد جعله الله خليفة فى الأرض فما الذى جاء بحكاية الجنة هذه ؟!

لقد خلق الله آدم ليكون خليفة فى الأرض ، وكان عليه أن يتلقى من الله التكاليف محصورة فى « افعل » و « لا تفعل » ؛ لأنك إن لم تمتثل سيظهر الفساد فى المجتمع ، أما الذى لا يظهر منه فساد فسبحانه يتركه مباحاً ؛ لذلك فكل ما لم يرد فيه « افعل » و « لا تفعل » لا يفسد به المجتمع . إذن فـ « افعل » و « لا تفعل » هى مقياس ضمان الصلاح فى الأرض .

وهل خلق الله الإنسان هكذا بدون منغصات تفسد عليه منهج الله ؟ . لا ، فمادام الشيطان قد وقف هذا الموقف مع آدم ، وقال أنا سأغوى ؛ فسيزين لك فى « افعل » ، و « لا تفعل » ويأتيك الأمر بالصلاة فينزغك الشيطان حتى لا تصلى . ويأتيك الأمر ألا تشرب الخمر فيزين لك الشيطان أن تشربها ، ويحاول أن ينقل مجال « افعل » إلى مجال « لا تفعل » ، وكذلك يحاول أن يزين لك « أن تفعل » ما هو فى مجال « لا تفعل » فترتبك حركتك .

إن الحق سبحانه يريد منهجاً يحكم حركة الحياة ، ويضمن للخلافة فى الأرض أن تؤدى مهمتها أداءً يسعد الإنسان فيها فى الدنيا وينعم فى الآخرة ، لذلك كان لابد أن يدرب الحق سبحانه خليفته فى الأرض على المنهج ؛ حتى لا يتلقى المنهج تلقيًا نظريًا ، لذلك شاء الحق سبحانه وتعالى ألاّ يجعل آدم يباشر مهمة الخلافة إلا بعد أن يعطيه تدريباً على المهمة فى « افعل » و « لاتفعل » . وحذره من العقبات التى تعترض « افعل » ؛ حتى لا تجئ فى منطقة « لا تفعل » ، وكذلك من العقبات فى منطقة « لا تفعل » حتى لا تجئ فى منطقة « افعل » ، واختار له مكاناً فيه كل مقومات الحياة وترفها حتى لا يتعب فى أى شىء أبداً فى أثناء التدريب ، وأوضح له أن هذه هى الجنة وهى بستان جميل وفيه كل مقومات الحياة وترفها ، وأمره : كُلْ من كل شىء فيها ، ولكن لا تقرب هذه الشجرة .

« كل » هذا هو الأمر ، و « لا تقرب » هذا هو النهى . وأوضح سبحانه لآدم أن الذى سيعكر عليه تطبيق منهج الله هو العدو الذى ثبتت عداوته إنه « إبليس » ؛ لأنه حين امتنع عن السجود لآدم تلقى الطرد واللعنة فأقسم وقال :

﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾

(سورة ص)

كأن الحق سبحانه وتعالى جعل الجنة كمكان فيه كل مقومات الحياة لآدم بصنع الله ـ سبحانه ـ وإعداده ، وأعطى له منها القدر الذى يعطى المقوم بلا فضلات تتعبه ، ولا ينتفخ ولا يعانى من متاعب فى الصحة . . . إلخ ؛ لأنه سبحانه يعطى لآدم القدر المقوم . وسبحانه قادر على كل شىء بدليل أنه يرعى الجنين فى بطن أمه ، والجنين ينمو ، والنمو معناه أنه يتلقى الغذاء ، ولا يخرج منه فضلات ؛ لأن الغذاء الذى يدخله الله له على قدر النمو فقط ، وحين يكون ربنا هو الذى يمد جنة التدريب بالغذاء ، فهو قادر على كامل الإعداد .

إذن فالجنة التى وُجد فيها آدم بداية ليست هى جنة الجزاء ؛ لأن جنة الجزاء لابد أن تأتى بعد التكليف . ولا يمكن أن يكون فيها تكليف ، ومن يسكنها لا يخرج منها . وآدم ـ كما علمنا ـ مخلوق للأرض ، إذن وجود الجنة هنا يعنى أنها مكان التدريب على المهمة فى الخلافة أمراً متمثلاً فى ﴿ فكُلَا ﴾ ، ونهياً متمثلاً فى ﴿ ولا تقربا ﴾ ، لم يقل لهما : لا تأكلا ، بل قال : ﴿ لا تقربا ﴾ لأن القِربان مظنة أنه يؤدى إلى الغواية ويدفع إليها . وهو قد أكل منها لأنه جاء ناحيتها واقترب منها ، ولو كان قد استمع ولم يقرب لما أكل منها .

فكأن الله جعل لآدم فى جنة التدريب والتمرين رمزين : الرمز الأول : لـ « افعل » ، والرمز الثانى : لـ « لا تفعل » ، ونجد أن الذى نهى الله عنه قليل بالنسبة لما أباحه وأمر به . وهذا من رحمة الله بالعباد ، فيفعل المؤمن مايؤمر به ، ولا يحوم حول ما حرمه الله ؛ لأنه لا يأمن حين يرى ما حرم الله أن تميل نفسه إليه ، ولذلك قال:﴿ ولا تقربا ﴾ فلو أنهما لم يقربا ما كانت الشجرة تغريهما بأى منظر . ولذلك فى كثير من الأشياء التى يحرمها الحق سبحانه وتعالى وفى قمتها ما يصون ويحفظ العقيدة الأساسية ، يقول بعدم الاقتراب أو الاجتناب ، فسبحانه هو القائل :

﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة الحج)

ولم يقل : « لا تعبدوا الأوثان » ، بل قال : « فاجتنبوا » ، والشأن فى « الخمر » أيضاً جاء بالاجتناب . لكنّ بعضاً من السطحيين يقولون : لم يرد فى الخمر تحريم بل قال بالاجتناب ، ونقول له : الاجتناب أقوى من المنع ومن التحريم ، لأن غاية التحريم أن يمنعك من شرب الخمر . لكن الاجتناب يقتضى ألا تذهب ناحيتها ، ولا تقعد فى المكان الذى توجد فيه ، ولا تعصرها ولا تحملها .

﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

(من الآية ١٩ سورة الأعراف)

والظلم هو تجاوز الحد أو إعطاء الشخص غير حقه ، ويوضح سبحانه : أنا لم أجعل لكما حقًا فى أن تقربا ناحية هذه الشجرة ، فإن قربها أىٌّ منكما ، فهو قد خالف ما شرّعته لكما ، « فتكونا من الظالمين » أى تدخلا فى إطار من يظلمون أنفسهم لأن الله لا يظلم أحداً ، وأنت تظلم نفسك لأنك تعطى نفسك شهوة قليلة فى زمن يسير ، وبعد ذلك تأخذ عقابها عذاباً أليماً فى زمن طويل وبشكل أشد . وهذا ظلم لنفسك ، كما أنّه دليل على أنك غير مأمون عليها .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾

كلمة « وسوس » تدل على الهمس فى الإغواء ، ونعرف أن الذى يتكلم فى خير لا يهمه أن يسمعه الناس . لكن من يتكلم فى شرّ فيهمس خوفاً من أن يفضحه أحد ، وكأن كل شر لابد أن يأتى همساً ، وصاحبه يعرف أن هذا الكلام لا يصح أن يحدث ، ويستحى منه ، ولا يحب أن يعرف المجتمع عنه هذا الشىء ،

و « وسوس » مأخوذة من الصوت المغرى ، لأن الوسوسة هى صوت رنين الذهب والحلى ، إذن فما قاله الشيطان لآدم وزوجه هو كلام مغرٍ ليلفتهما عن أوامر رب حكيم .

وقوله الحق: ﴿ فوسوس لهما ﴾ يعطينا حيثيات البراءة لحواء ؛ لأن الشائع أن حواء هى التى ألحت على آدم ليأكلا من الشجرة ، وكثير منا يظلم حواء على الرغم من أن القرآن يؤكد أن الوسوسة كانت لآدم وحواء معاً .

﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا ﴾

(من الآية ٢٠ سورة الأعراف)

وهل وسوس الشيطان لهما ليبدى لهما ما ووارى من سوءاتهما ، أو وسوس ليعصيا الله ؟ . لقد وسوس ليعصيا الله ، وكان يعلم أن هناك عقوبة على المعصية ، ويعلم أنهما حين يأكلان من الشىء الذى حرمه ربنا ستظهر سوءاتهما ، و « السوءة » هى ما يسوء النظر إليه ، ونطلقها على العورة ، والفطرة تستنكف أن يرى الإنسان المكتمل الإنسانية السوءة . وكأنهما فى البداية لم ير أحدهما سوءة الآخر أو سوءة نفسه لأن الحق يقول : ﴿ ليبدى لهما ما ووارى عنهما من سوءاتهما ﴾ .

والسوءات أربع : اثنتان للرجل واثنتان للمرأة ، فكأن كل إنسان منهما لا يرى سوءتيه ، وكذلك لايرى سوءتي الآخر ، لأن السوءات كلها لها ما يخفيها عن الرؤية ، وهذا كلام معقول جداً . ألم تقل سيدتنا أم المؤمنين عائشة ـ رضى الله عنها ـ : « ما رأيت ولا رأى منى » ، وفى هذا القول تتجلّى قمة الأدب لأنها لم تجئ حتى باللفظ ، لأن العضو مادام سوءة فهو مبنى على الستر . وذلك حين حدَّث رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « يا أيها الناس إنكم تحشرون إلى الله حفاة عراة غرلا كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا إنا كنا فاعلين »[1] ، تعجبت السيدة عائشة فقال لها : « الأمر أخطر من أن ينظر أحد إلى أحد » .

---

(١) رواه البخارى ومسلم .

﴿ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا ﴾

(من الآية ٢٠ سورة الأعراف)

وبماذا ووري ؟ . لابد أن هناك لباساً كان على كل منهما ، وقال العلماء الكثير عن هذا اللباس ، فمن قائل : إن أظافر الإنسان هي بقية اللباس الذي كان موجوداً عند آدم وحواء ، وهو ما كان يواري السوءات ، ويقال : إنّ أيّ إنسان يكون في غاية الضحك والانبساط ، ويريد أن يكتم نَفْسه ، ويمنعها ويحول بينها وبين الضحك إنه يحدث له ذلك لو نظر إلى أظافره ، عندئذ لا يمكنه أن يضحك لأنها بقية لحظة الندم على كشف السوءة . وجرّبها في نفسك ، تجد نفسك قد منعت من الضحك ، وهذا من عمل الإله .

أو أن الستار الذي كان يواري السوءة هو النور الإلهي الذي كان يلفهما ، والنور الساطع جداً حين يلف لا يبين ، صحيح أنك بالنور ترى الأشياء ، لكنه إن اشتد عمَّى على الأشياء فأخفاها فلا تراها ؛ لأن أي أمر إذا زاد على حدّه انقلب إلى ضده ، فإما أن يكون الثوب الأظافر ، وإما أن يكون النور الإلهي الذي كان يغشاهما ويواري السوءة ، وقد سميت « سوءة » و « عورة » ، لأنها تسوء ، فلماذا تسوء ؟ وما الفرق بين فتحتين : فتحة في الفم ، وفتحة في العورة ؟ .

إن فتحة العورة سوءة باعتبار ما يخرج منها . وحينما كانا يأكلان من إعداد ربنا لم يكونا ـ كما قلنا ـ في حاجة إلى إخراج فضلات ؛ لأن إعداد الله يعطي كلاً منهما على القدر الكافي للحركة والفعل ، وكانت المسألة مجرد فتحات مثل بعضها . لكن حينما يخرجان عن مرادات الله في الطعام ، ويأكلان غير ما أمر الله به ، ويمارسان اختيار الطعام بدأت الفضلات في الخروج بما لها من رائحة غير مقبولة ، فهل ظهور السوءة لهما هو رمز إلى أن هناك مخالفة لمنهج الله سواء أكان ذلك في القيم والمعنويات أم في الأمور المادية ؟ .

نعم ؛ لأن كل شيء يُخَالَف فيه منهج الله لابد أن تبدو فيه العورة ، وإن رأيت أي عورة في المجتمع فاعلم أن منهجاً من مناهج الله قد عطل . وينقل القرآن ما قاله لهما الشيطان من وسوسة :

﴿ وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴾

(من الآية ٢٠ سورة الأعراف)

لقد همس الشيطان وأوحى لهما بأن الحق : أراد ألا تقربا هذه الشجرة لأن من يأكل منها يصير مَلَكاً ، أو خالداً . ولم يمحص أى منهما كلمات الشيطان ليعرف أن كيده كان ضعيفاً واهياً وغبياً ؛ لأنه مادام قد عرف أن من يأكل من هذه الشجرة يصير ملكاً أو يبقى من الخالدين فلماذا لم يخطف منها ما يجعله مَلَكاً أو خالداً ؟ وفى هذا درس يبين لنا أن مَن يُزَيِّن له ويتصدى له أحد بالإغواء يجب عليه أن يمحص إلى أى غواية يسير ، وأن يدقق فى نتائج ما سوف يفعل .

وإذا كان الشيطان قد قال :

﴿ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

(من الآية ١٤ سورة الأعراف)

فلماذا لم ينقذ نفسه بالأكل من هذه الشجرة وتنتهى المسألة ؟ . إذن كان ما يقوله الشيطان كذباً .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ ﴾

« قاسم » مادة فاعل ، تأتى للمشاركة ، أى أن هناك طرفين اثنين ، كل منهما فاعل في ناحية ومفعول فى ناحية أخرى ، مثل شارك زيد عمراً ، وهى تعنى أيضاً أن عمراً شارك زيداً ، وهكذا تكون مادة فاعل وتفاعل ، فكل منهما فاعل من جهة ومفعول من جهة . وفى المعنى نجد الاثنين فاعلاً ومفعولاً ، إذن « قاسم » تحتاج إلى عمليتين اثنتين . . فهل جلس إبليس يقسم لآدم ولزوجته ، وهما يقسمان ؟ . ونقول : لا ؛ لأنها تأتى مرة لغير المفاعلة ، أو للمفاعلة اللزومية ، والمفاعلة اللزومية تتضح فى قوله الحق :

﴿ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ ﴾

(من الآية ١٤٢ سورة الأعراف)

وواعدنا ، مثلها مثل فاعل ، من الذى واعد ؟ . إنه الله الذى وعد موسى عليه السلام ، ودخل موسى فى الوعد بقبوله الوعد وتوفيته به .

إذن « قاسمهما » أى قبلا القسم ودخلا فيه .

﴿ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

و « قاسم » ، أى أقسم ، ولذلك حينما عاتب ربنا سيدنا آدم أوضح سبحانه : أنا قلت إنه عدو لك ولزوجك ، ولسوف يخرجنكما من الجنة لتتعب وتشقى ، فقال آدم : يا ربى ما كنت أعتقد أن خلقاً من خلقك يقسم بك على الباطل . ولم يأت على البال أن خلقاً يقسم بالله على الباطل . وكانت هذه أول خديعة فى الخلق . ولذلك نجد قتادة ـ رضى الله عنه ـ يقول : « المؤمن بالله يُخدع » .

والنبى عليه الصلاة والسلام عقد على امرأة ودخلت به ، ومن كيد النساء وهن زوجات للنبى صلى الله عليه وسلم وقد خفن أن يشغف بها حُبًّا ، فقلن لها : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يحب هذه الكلمة ، فإذا دخل عليك فقوليها ! ، قولى : « أعوذ بالله منك » ، ولحظة أن دخل عليها سيدنا رسول الله ، قالت له : « أعوذ بالله منك » . فقال لها : استعذت بمعاذ . ولم يقربها الرسول ، وهذا ما يشرح لنا كيف يُخدع المؤمن بالله . وها هو ذا سيدنا عبدالله بن عمر كان يعتق من العبيد من يحسن الصلاة ويتقنها ويؤديها فى مواعيدها ، ويقف فيها خاشعاً ، وحين عرف العبيد ذلك احترفوا إقامة الصلاة أمام المكان الذى يجلس فيه وكانوا يؤدونها بخشوع ، وكان رضى الله عنه يعتقهم ، وذهب له من يقول : إن العبيد يخدعونك ، فيقول : من خدعنا بالله ، انخدعنا له .

والنصح هنا : إغراء بمخالفة أمر الله ، وكان يجب ألا تكون هناك غفلة من آدم ، وكان لابد أن يقارن بين الأمرين ، بين غواية الشيطان له بالأكل ، وبين أمر الحق سبحانه الذى قال له ولزوجه : لا تقربا . لكنه لم يفعل .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ ﴾

﴿ فدلاهما بغرور ﴾ أى فأنزلهما من رتبة الطاعة إلى درك المعصية والذنب مما غرهما به وخدعهما من القسم.و « دلاّ » مأخوذة من دلّى رجليه فى البئر كى يرى إن كان فيه ماء أم لا ، أو دلّى حبل الدلو لينزله فى البئر ، ومعناها : أنه يفعل الشىء مرة فمرة ، و « بغرور » أى بإغراء لكى يوقعهما فى المخالفة ، فأظهر لهما النصح وأبطن لهما الغش .

وهنا وقفة تدل على الاصطراع بين الحق والباطل فى النفس ، ﴿ فلما ذاقا الشجرة ﴾ هذا يدل على أنهما بمجرد المذاق تذكرا أن النزغ من إبليس جعلهما يذهبان إلى الشجرة . وأن ما أخذاه فقط كان مجرد المذاق ، فتنبه كلاهما إلى جسامة الأمر .

﴿ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ﴾

(من الآية ٢٢ سورة الأعراف)

و « الخصف » أى تأتى بشىء وتلزقه على شىء لتدارى شيئاً . وقديماً حينما كان يبلى نعل الحذاء ، ويظهر به خرق فالإسكافى يضع عليه رقعة من الجلد تكون أوسع من الخرق حتى تتمكن منه .

وهكذا فعل آدم وحواء ؛ أخذا من ورق الجنة ووضعا ورقة على ورقة ليداريا السوءة . وقوله الحق:﴿ وطفقا ﴾ يعنى وجعلا من ورق الشجر غطاء للسوءات .

وهنا يقول الحق :

﴿ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾

(من الآية ٢٢ سورة الأعراف)

لقد كان التكليف هنا فى أمر واحد ، والإباحة فى أمور متعددة ، وسبحانه لم يكلفهما إلا بأمر واحد هو عدم الاقتراب من الشجرة ، والمباح كان كثيراً ؛ لذلك لم يكن من اللائق أن يتوها عن التكليف . ولم يكن هذا التكليف بالواسطة ولكن كان بالمباشرة ، ولذلك سينفعنا هذا الموقف فى الفهم فى لقطة للقصة فى سورة غير هذه وهو قوله الحق :

﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴾

(من الآية ١٢١ سورة طه)

ولم يأت الحق هنا بسيرة المعصية ، وقال لهما :

﴿ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾

(من الآية ٢٢ سورة الأعراف)

وسبحانه لا يجرم إلا بنص ، وسبق أن قال سبحانه : ﴿ولا تقربا هذه الشجرة ﴾ وأوضح : أن هناك عنصراً إغوائياً هو إبليس وعداوته مسبقة فى أنه امتنع عن السجود ، وقد طرده الحق لهذا السبب . إذن إنْ آخذهما وعاقبهما الله بهذا الذنب فهو العادل ، وهما اللذان ظلما أنفسهما . وكان لابد أن يكون الجواب : نعم يارب نهيتنا ، وقلت لنا ذلك . وهذا إيراد للحكم بأقوى الأدلة عليه ؛ لأن الحكم قد يأتى بالإخبار ، وقد يأتى بالاستفهام بالإيجاب ، ويكون أقوى لو جاء بالاستفهام بالنفى .

﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾

(من الآية ٢٢ سورة الأعراف)

ونحن نعلم أن العدو هو الخصم الذى يريد إلحاق الضرر والإيذاء بك ، و « مبين » أى محيط ، وهذا دليل يُظهر عداوة الشيطان وإحاطتها ؛ لأنه قد سبق أن أوضح أنه سيأتى من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم . أو بيِّن العداوة وشديد الخصومة .

ويأتى الإقرار بالذنب من آدم وحواء :

﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾

وتلك هى الكلمات التى قال الله عنها فى سياق آخر :

﴿ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة البقرة)

فكأن الحق سبحانه وتعالى قدَّر غفلة خلقه عن المنهج ؛ فشرّع لهم وسائل التوبة إليه ، ووسائل التوبة ثلاث مراحل : تشريعها رحمة ، ثم الإقبال عليها من المذنب اعترافا وإنابة ، وقبولها منه سبحانه رحمة ، فالتشريع يطلب منك أن تفعل ، وحين تتوب يتوب الله عليك .

تشريع التوبة ـ إذن ـ رحمة ، لا بالمذنب فقط ، بل وبغيره أيضاً ؛ لأن الله لو لم يشرع التوبة ، كان الذى يعمل معصية ، ولا يجد مغفرة ، يستشرى فى المعاصى ، وإذا استشرى فى المعاصى تعب المجتمع كله .

﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

وهذا هو الموقف بعد الذنب من آدم وزوجته ، وهو يختلف عن موقف إبليس بعد الذنب ؛ فإبليس أراد أن يبرر المخالفة :

﴿ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾

(من الآية ٦١ سورة الإسراء)

فماذا قال آدم وحواء ؟ :

﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾

(من الآية ٢٣ سورة الأعراف)

ولذلك كان جزاء إبليس ـ وهو المتأبى على أوامر الله وحكمه ـ أن يطرد من رحمته . وجزاء المعترف بأنه أذنب ، وأنه ظلم نفسه أن تُقبل توبته . إذن لا يصح للناس الذين يقيمون على معصية أن يقول الواحد منهم : « هذه هى ظروفى » ، ويبرر ويحلل ما يفعله من المعاصى ، بل على الواحد منهم ألا يطرد نفسه بنفسه من منطقة الرحمة ، وعليه أن يقول : « ما أفعله حرام ، لكن لا أقدر على نفسى » وبذلك لا يكون قد ردّ الحكم ، بل اتهم نفسه بالتقصير واعترف بالذنب ، فصار أهلاً للمغفرة وأهلا للتوبة .

وهنا نسأل : ما الفرق بين معصية إبليس ومعصية آدم ؟ . ونقول : إبليس عصى وجاء بحيثية رفض الأمر ، لكن آدم عصى وأقر بالذنب وطلب المغفرة .

وحين قال آدم وزوجته حواء : ﴿ ربنا ظلمنا أنفسنا ﴾ معاً وفى نَفَس واحد ، ونغمة حزينة نادمة ، ألا يدل ذلك على أنهما قد تعلماها ؟ . إن كلا منهما لو اعتذر لله بمفرده لاختلفا فى أسلوب الاعتذار .

وهذا دليل على أنها ملقنة ، ولهذا قال ربنا .

﴿ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة البقرة)

وهما قد قالا : ﴿ ربنا ظلمنا أنفسنا ﴾ ، وأنفسنا جمع نَفْس ، ولم يقولا « نفسينا » ، بل قالا ﴿ أنفسنا ﴾ أى أن قلبيهما أيضاً قد صفيا وخلصا من أثر تلك المعصية ، وأن ذلك مطمور وداخل فى نفوس ذريتهما .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ قَالَ ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ ﴾

ونلتفت لنجد أن هناك أمراً قد سبق لإبليس بالهبوط ، وهنا أمر آخر بالهبوط ، وبالله لو كانت جنة الخلود هى محل إقامتهما ، وآدم مخلوق لها ثم عصى ثم تاب لما خرجا منها أبداً . لكنه سبحانه أمر آدم بأن يهبط إلى الأرض التى جعله خليفة فيها ، ليباشر مهمة الخلافة فى إطار التجربة التى وقعت له ، وعليه أن يحترم أمر الله فى كل تكليف ، وأن يحترم نهى الله فى كل تكليف ، وليحذر عداوة الشيطان فإنه سيوسوس له . وقد جرب ذلك بنفسه ، فلينزل مزوداً بالتجربة ، وليس له عذر من بعد ذلك . ﴿ قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ﴾ .

والأمر هنا للجماعة ؛ ولم يقل لهما اهبطا . وفى آية ثانية قال :

﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ﴾

(من الآية ١٢٣ سورة طه)

وذلك لنعرف أن ورود القصة فى أماكن متعددة جاء لتعطى لقطات كثيرة . والأمر هنا جاء بقوله : ﴿ اهبطوا ﴾ لأن الهبوط اشترك فيه الثلاثة ؛ آدم وحواء ، وإبليس . . والعداوة مسبقة ولا ندعيها . العداوة بين طرفين : اثنان فى طرف هما آدم وحواء ، وواحد فى طرف هو إبليس . ويريد الحق لنا بيان الحقائق وأن المتكلم إله ، إنّ كل حرف عنده بميزان ؛ ولذلك نجده سبحانه يقول لنا :

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾

(من الآية ٨٢ سورة النساء)

أى إياك أن تأخذ واجهة النص ، ولكن ابحث فى خلفيات النص ، ولا تأخذ واجهة اللفظ ، بل انظر إلى ما وراء الألفاظ .

﴿ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

وكلمة « عدو » تعنى وجود صراع ، ومعارك سوف تقوم بين أولاد آدم بعضهم مع بعض ، أو تقع العداوة بينهم وبين أعدائهم من سكان الأرض من جن وغيرهم ، لكنها لمدة محدودة ، ولذلك قال : ﴿ ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين ﴾ .

أى أن لكم استقراراً فى الأرض ومتاعاً إلى حين . وصراع صاحب الحق فى الحق يجب أن يأخذه على أنه متاع فى الدنيا ولا يأخذه على أنه معركة بلا جزاء ، لا ، فأنت تجاهد وتأخذ جزاء كبيراً على الجهاد وهذا متاع .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

كأنه قال:﴿ ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين ﴾ فأحب أن يعطينا الصور لرحلة الحياة ، ويرسم لنا علاقتنا بالأرض التى قال فيها :

﴿ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾

(من الآية ٣٠ سورة البقرة)

فقد ربطنا بالأرض . إيجاداً من طينها ، ومتعة بما فيها من ميزات ، وخيرات وثمرات ، ثم تموت لنعود لها ونبعث من بعد ذلك . فالإنسان منا من الأرض ، منها يحيا وفيها يموت ، ويذهب إلى أصله ومرجعه ، إلى الأم الأرض ، فهى تكفته وتضمه وتأخذه فى حضنها فهى الحانية عليه وبخاصة فى وقت ضعفه . وساعة ما يكون الإنسان فى حالته الطيبة ، وله أخ حالته عكس ذلك فإن قلب الأم إنما يكون مع الضعيف ، ومع المريض ، ومع الصغير .

والأرض هى التى تأخذ كل البشر ، تأخذ الإنسان وتمص منه الأذى ، وتدارى

رائحته ، أمّا أحبابه فى الدنيا وإخوانه ، فقد سارعوا بمواراته التراب تفادياً لرحلة التحلل . وبمجرد أن يموت الإنسان ، أول ما يُنْسَى هو اسمه ؛ فيقولون : « أين الجثة » ، ولا يقولون : « أين فلان » . وبعد الكفن يوضع الجثمان فى النعش ، ليوارى فى التراب ويدمدم اللحاد عليه برجليه .

وينتقل الحق بعد ذلك بالخطاب إلى أبناء آدم فيقول :

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾

وكلمة ﴿ يا بنى آدم ﴾ لفت إلى أن تتذكروا ماضى أبيكم مع عدوكم المبين ، إبليس ، أنتم أولاد آدم ، والشيطان موجود ، فانتبهوا . لقد أنزل الحق عليكم لباسا يوارى سوءاتكم ؛ لأن أول مخالفة حدثت كشفت السوءة ، والإنزال يقتضى جهة علو لنفهم أن كل خير فى الأرض يهبط مدده من السماء ، وسبحانه هو من أنزل اللباس لأنه هو الذى أنزل المطر ، والمطر روى بذور النبات فخرجت النباتات التى غزلناها فصارت ملابس ، وكأنك لو نسبت كل خير لوجدته هابطا من السماء . ولذلك يمتن الحق سبحانه وتعالى على عباده فيقول :

﴿ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖ ﴾

(من الآية ٦ سورة الزمر)

نعم هو الذى أنزل من الأنعام أيضاً لأن السببية فى النبات من مرحلة أولى ، والسببية فى الحيوان من مرحلة ثانية ، فهو الذى جعل النبات يخرج من الأرض ليتغذى عليه الحيوان ، ويقول سبحانه أيضاً :

﴿ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ

بِٱلْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ ﴾

(من الآية ٢٥ سورة الحديد)

نعم فسبحانه هو من أنزل الحديد أيضاً ؛ لأننا نأخذه من الأرض التى خلقها الله ، وهذا دليل على أن التنزيلات إنما أراد الله أن يحمى بها كل منهج .

﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ ﴾

(من الآية ٢٦ سورة الأعراف)

فإذا كنا قد أنزلنا اللباس الذى يوارى سوءات الحس وسوءات المادة ، كذلك أنزلنا اللباس الذى يوارى سوءات القيم . فكما أنكم تحسّون وتدركون أن اللباس المادى يدارى ويوارى السوءة المادية الحسية فيجب أن تعلموا أيضاً أن اللباس الذى ينزله الله من القيم إنما يوارى ويستر به سوءاتكم المعنوية . ولباس الحياة المادية لم يقف عند مواراة السوءات فقط ، بل تعدى ذلك إلى ترف الحياة أيضاً . لذلك قال الحق :

﴿ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾

(من الآية ٢٦ سورة الأعراف)

والريش كساء الطير ، وقديماً كانوا يأخذون ريش الطير ليزينوا به الملابس . وكانوا يضعون الريش على التيجان ، وأخذ العوام هذه الكلمة وقالوا : فلان مريش أى لا يملك مقومات الحياة فقط ، بل عنده ترف الحياة أيضاً ، فكأن هذا القول الكريم قد جاء بمشروعية الترف شريطة أن يكون ذلك فى حل . وقبل أن يلفتنا الحق سبحانه وتعالى إلى مقومات الحياة لفتنا إلى الجمال فى الحياة ، فقال سبحانه :

﴿ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ﴾

(من الآية ٨ سورة النحل)

والركوب لتجنب المشقة ، والزينة من أجل الجَمَال .

وكذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ﴾

(من الآية ٣٢ سورة الأعراف)

بل سبحانه طلب زينتنا فى اللقاء له فى بيته فيقول :

﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾

(من الآية ٣١ سورة الأعراف)

إذن فهذا أمر بالزينة ، وهنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها يقول سبحانه :

﴿ وَرِيشًا وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾

(من الآية ٢٦ سورة الأعراف)

نعم إن لباس التقوى خير من ذلك كله ؛ لأن اللباس المادى يستر العورة المادية ، وقصاراه أن يكون فيه مواراة وستر لفضوح الدنيا ، لكن لباس التقوى يوارى عنا فضوح الآخرة .

أو لباس التقوى هو الذى تتقون به أهوال الحروب ؛ إنّه خير من لباس الزينة والرياش لأنكم تحمون به أنفسكم من القتل ، أو ذلك اللباس ـ لباس التقوى ـ خير من اللباس المادى وهو من آيات الله ، أى من عجائبه ، وهو من الأشياء اللافتة ؛ فالإنسان منكم مكون من مادة لها احتياجات مادية وعورات مادية ، وهناك أمور قيمية لا تنتظم الحياة إلا بها ، وقد أعطاك الحق مقومات الحياة المادية ، وزينة الحياة المادية ، وأعطاك ما تحيا به فى السلم والحرب ، ومنهج التقوى يحقق لك كل هذه المزايا . فخذ الآيات مما تعلم ومما تحس لتستنبط منها ما يغيب عنك مما لا تحس .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾

قبل أن يطلب منا سبحانه ألا نفتتن بالشيطان ، أوضح أنه قد رتب لنا كل مقومات الحياة ، وعلينا أن نتذكر موقف الشيطان ، من أبينا آدم وإغواءه له .

والفتنة فى الأصل هى الاختبار ، وتُطلق ـ أحياناً ـ على الأثر السيئ حيث تكون أشد من القتل ، لكن هل يسقط الإنسان فى كل فتنة ؟ لا ؛ لأن الفتنة هى الاختبار ، وفى الاختبار إما أن ينجح الإنسان ، وإمّا أن يرسب ، فإن نجح أعطته الفتنة خيراً وإن رسب تعطه شرًّا .

وبعد أن ذكر الحق سبحانه وتعالى قصة خلق آدم ، وأعلمنا أنه خلقه للخلافة فى الأرض ، وأن موضوع الجنة هو حلقة مقدمة لتلقى الخلافة ؛ لأنه إذا ما أصبح خليفة فى الأرض ؛ فلله منهج يحكمه فى كل حركاته ، ومادام له منهج يحكمه فى كل حركاته فرحمة به لم ينزله الله للأرض ابتداءً ليتلقى المنهج بدون تدريب واقعى على المنهج ، فجعل الجنة مرحلة من مراحل ما قبل الاستخلاف فى الأرض ، وحذره من الشيطان الذى أبى أن يسجد له ، وأراد منه أن يأخذ التجربة فى التكليف . وكل تكليف محصور فى « افعل كذا » و« لا تفعل كذا » ؛ لذلك شاء الله أن يجعل له فى الجنة فترة تدريب على المهمة ؛ لينزل إلى الأرض مباشراً مهمة الخلافة بعد أن زود بالتجربة الفعلية الواقعية ، وأوضح له : أَنْ كُلْ مِنْ كُلِّ ما فى الجنة ، ولكن لا تقرب هذه الشجرة . و﴿ كُلْ ﴾ أمْرٌ ، و﴿ لا تقرب ﴾ نَهْيٌ . وكل تكليف شرعى هو بين « لا تفعل » وبين « افعل » .

وبعد ذلك حذره من الشيطان الذى يضع ويجعل له العقبات فى تنفيذ منهج الله ، فلما قرب آدم وحواء الشجرة وأكلا منها ؛ خالفا أمر الله فى ﴿ولا تقربا﴾ ، وأراد الله أن يبين لهما بالتجربة الواقعية أن مخالفة أمر الله لابد أن ينشأ عنها عورة تظهر فى الحياة ، فبدت له ولزوجته سوءاتهما ، فلما بدت لهما سوءاتهما علم كل منهما أن مخالفة أمر الله تُظهر عورات الأرض وعورات المجتمع ، فأمره الله : أن اهبط إلى الأرض مزوداً بهذه التجربة .

ولما هبط آدم وزوجه إلى الأرض أرسل إليه منهج السماء بعد التجربة ، وأراد أن يبين لنا أنه عصى أمر ربه فى قوله : ﴿ ولا تقربا ﴾ ، وتلقى من ربه كلمات فتاب عليه ، وأراد سبحانه أن يبين لنا أن آدم يتمثل فيه أنه بشر يصيب ويخطئ ، وتدركه الغفلة ، وقد يخالف منهج الله فى شىء ، ثم يستيقظ من غفلته فيتوب ، وبعد أن كلفه أن يبلغ رسالة الله وصار نبيًا ؛ جاءت له العصمة فلا يغفل ولا ينسى فى تبليغ الرسالة .

ولذلك يجب أن نفطن إلى النص القرآنى :

﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴾

(من الآية ١٢١ سورة طه)

إنّ هذه طبيعة البشر أن يعصى ثم يتوب إن أراد التوبة ، ولابد أن نفطن أيضاً إلى قوله الحق : ﴿ ثم اجتباه ربه ﴾.

إذن فالاصطفاء جاء بعد المعصية ؛ لأن عصيانه كان أمراً طبيعيًا لأنه بشر ، يخطئ ويصيب ، ويسهو ويغفل . ولكن بعد أن خرج من الجنة اجتباه الله ليكون نبيًا ورسولاً ، ومادام قد صار نبيًا ورسولاً فالعصمة تأتى له :

﴿ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ ﴾

(سورة طه)

إذن لا يصح لنا أن نقول : كيف يعصى آدم وهو نبى ؟! نقول : تنبه إلى أن

النبوة لم تأته إلا بعد أن عصى وتاب ؛ فهو يمثل مرحلة البشرية لأنه أبو البشرية كلها ، والبشرية منقسمة إلى قسمين : بشر مبلِّغون عن الله ، وأنبياء يبلِّغون عن الله ، فله فى البشرية أنه عصى ، وله فى النبوة أن ربه قد اجتباه فتاب عليه وهداه . والذين يقولون : إن آدم كان مخلوقاً للجنة ، نقول لهم : لا . افهموا عن الله ، لأنه يقول : ﴿ إنى جاعل فى الأرض خليفة ﴾ .

إن أمر الجنة كان مرحلة من المراحل التى سبقت الخلافة فى الأرض . إنها كانت تدريباً على المهمة التى سيقوم بها فى الأرض ، وإلاّ فلو أن آدم قد خلقه الله للجنة وأن المعصية أخرجته ، إلا أن الله قد قبل منه توبته ، ومادام قد قبل توبته فكان يجب أن يبقيه فى الجنة ، ومن هنا نقول ونؤكد أن الجنة كانت مرحلة من المراحل التى سبقت الخلافة فى الأرض . وبعد ذلك يريد الحق سبحانه وتعالى أن يخلع علينا التجربة لآدم حتى نتعظ بها ، وأن نعرف عداوة الشيطان لنا ، وألاّ نقع فى الفتنة كما وقع آدم .

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآ ﴾

(من الآية ٢٧ سورة الأعراف)

وهذا نهى لبنى آدم وليس نهيا للشيطان ، وهذا فى مُكنة الإنسان أن يفعل أو لا يفعل، فسبحانه لا ينهى الإنسان عن شىء ليس فى مكنته ، بل ينهاه عما فى مكنته ، والشيطان قد أقسم أن يفتنه وسيفعل ذلك لأنه أقسم وقال : ﴿ فبعزتك لأغوينهم أجمعين ﴾ . فإياكم أن تنخدعوا بفتنة الشيطان ؛ لأن أمره مع أبيكم واضح ، ويجب أن تنسحب تجربته مع أبيكم عليكم فلا يفتننكم كما أخرج أبويكم من الجنة ، ويتساءل البعض : لماذا لم يقل الله : لا يفتننكم الشيطان كما فتن أبويكم ، وقال : « لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة » ؟ . ونقول : هذا هو السمو والافتنان الراقى فى الأداء البيانى للقرآن .

وإن هذا تحذير من فتنة الشيطان حتى لا يخرجنا من جنة التكليف . كما فتن أبوينا فأخرجهما من جنة التجربة . ويقال عن هذا الأسلوب إنه أسلوب احتباك ،

وهو أن تجعل الكلام شطرين وتحذف من كل منهما نظير ماأثبت فى الآخر قصد الاختصار . وهذا هو الأسلوب الذى يؤدى المعنى بمنتهى الإيجاز ؛ لينبه ذهن السامع لكلام الله . فيلتقط من الأداء حكمة الأداء وإيجاز الأداء ، وعدم الفضول فى الأساليب .

﴿ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ ﴾

(من الآية ٢٧ سورة الأعراف)

والفتنة ـ كما علمنا ـ هى فى الأصل الاختبار حتى ننقى الشىء من الشوائب التى تختلط به ، فإذا كانت الشوائب فى ذهب فنحن نعلم أن الذهب مخلوط بنحاس أو بمعدن آخر ، وحين نريد أن نأخذ الذهب خالصاً نفتنه على النار حتى ينفض ويزيل عنه ما علق به . كذلك الفتنة بالنسبة للناس ، إنها تأتى اختباراً للإنسان لينقى نفسه من شوائب هذه المسألة ، وليتذكر ما صنع إبليس بآدم وحواء . فإذا ما جاء ليفتنك فإياك أن تفتن ؛ لأن الفتنة ستضرك كما سبق أن ألحقت الضرر بأبيك آدم وأمك حواء . والشيطان هو المتمرد على منهج الله من الجن ، والجن جنس منه المؤمن ومنه الكافر . فقد قال الحق سبحانه :

﴿ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ﴾

(من الآية ١١ سورة الجن)

والشيطان المتمرد من هذا الجنس على منهج الله ليس واحداً ، واقرأ قول الحق سبحانه :

﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ﴾

(من الآية ٥٠ سورة الكهف)

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾

(من الآية ٢٧ سورة الأعراف)

و « قبيله » هم جنوده وذريته الذين ينشرهم فى الكون ليحقق قَسَمَه :

﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾

(سورة ص)

إذن ففتنة الشيطان إنما جاءت لتخرج خلق الله عن منهج الله ، وحينما عصى إبليس ربّه عزّ عليه ذلك ، فبعد أن كان فى قمة الطاعة صار عاصيًا لأمر الله معصية أدّته وأوصلته إلى الكفر ؛ لأنه ردّ الحكم على الله . إن ذلك قد أوغر صدره وأحنقه ، وجعله يوغل ويسرف فى عداوة الإنسان لأنه عرف أن طرده ولعنه كان بسبب آدم وذريته .

﴿ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾

(من الآية ٢٧ سورة الأعراف)

وهذا يدل على أن المراد ذرية الشيطان ، فلو كان المراد شياطين الإنس معهم لما قال : ﴿ إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم ﴾ .

وعلى ذلك فهذه الآية خاصة بالذرية ، ويعلمنا الحق سبحانه وتعالى أن نتنبه إلى أن الشيطان لن يكتفى بنفسه ولن يكتفى بالذرية بل سيزين لقوم من البشر أن يكونوا شياطين الإنس كما وُجد شياطين الجن ، وهم من قال فيهم سبحانه :

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ﴾

(من الآية ١١٢ سورة الأنعام)

وكلمة « زخرف القول » تعنى الاستمالة التى تجعل الإنسان يرتكب المعصية وينفعل لها ، ويتأثر بزخارف القول . وكل معصية فى الكون هكذا تبدأ من زخرف القول ، فللباطل دعاته ، ومروجوه ، ومعلنوه ، إنهم يزينون للإنسان بعض شهواته التى تصرفه عن منهج الله ، ونلاحظ أن أعداء الله ، وأعداء منهج الله يترصدون مواسم الإيمان فى البشر ، فإذا ما جاء موسم الإيمان خاف أعداء الله أن يمر الموسم تاركاً هبة إيمان فى نفوس الناس ، فيحاولوا أن يكتلوا جهودهم حتى يحرموا الناس نفحة الموسم ، فإذا ما حرموا الناس من نفحة الموسم فقد حققوا

غرضهم فى العداوة للإسلام . ﴿ إنه يراكم هو وقبيله ﴾ .

إن الشيطان يراكم أيها المكلفون هو وقبيله . والقبيل تدل على جماعة أقلها ثلاثة من أجناس مختلفة أو جماعة ينتسبون إلى أب وأم واحدة . واختلف العلماء حول المراد من هذا القول الكريم ؛ فقال قوم : ﴿ إنهم جنوده وذريته ﴾ . ويقصدون جنوده من البشر ، ولم يلتفتوا إلى قول الحق:﴿ من حيث لا ترونهم ﴾ فلابد أن يكون المراد بالقبيل هنا الذرية ؛ لأننا نرى البشر ، وفى قوله الحق تغليظ لشدة الحذر والتنبه ؛ لأن العدو الذى تراه تستطيع أن تدفع ضرره ، ولكن العدو الذى يراك ولا تراه عداوته شديدة وكيده أشد ، والجن يرانا ولا نراه ، وبعض من العلماء علل ذلك لأننا مخلوقون من طين وهو كثيف ، وهم مخلوقون من نار وهى شفيفة .

فالشفيف يستطيع أن يؤثر فى الكثيف ، بدليل أننا نحس حرارة النار وبيننا وبينها جدار ، ولكن الكثيف لا يستطيع أن يؤثر فى الشفيف ولا ينفذ منه . إذن فنفوذ الجن وشفافيته أكثر من شفافية الإنسان ، ولذلك أخذ خفة حركته . ونحن لا نراه .

إذن معنى ذلك أن الشيطان لا يُرى ، ولكن إذا كان ثبت فى الآثار الصحيحة أن الشيطان قد رُئى وهو من نار ، والملائكة من نور ، والاثنان كل منهما جنس خفى مستور ، وقد تشكل المَلك بهيئة إنسان ، وجاء لرسول الله وقال لنا صلى الله عليه وسلم : « هذا جبريل جاء ليعلم الناس دينهم »[1] .

وعلى ذلك رأى السابقون المعاصرون لرسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل لا على صورة ملائكيّته ، ولكن على صورة تتسق مع جنس البشر ، فيتمثل لهم مادة .

وقد ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى الشيطان وقال : « إن عفريتا من الجن جعل يفتك علىّ البارحة ليقطع علىّ الصلاة ، وإن الله أمكننى منه فَذَعَتُّهُ فلقد هممت أن أربطه إلى جنب سارية من سوارى المسجد حتى تصبحوا تنظرون إليه أجمعون »[2] .

---

(١) رواه مسلم فى الإيمان .
(٢) رواه مسلم فى المساجد ، والبخارى فى الصلاة ، وأحمد ، ومعنى : « فَذَعَتُّهُ » : أى خنقته .

وذلك من أدب النبوة . إذن فالشيطان يتمثل وأنت لا تراه على حقيقته ، فإذا ما أرادك أن تراه . . فهو يظهر على صورة مادية . وقد ناقش العلماء هذا الأمر نقاشاً يدل على حرصهم على فهم كتاب الله ، ويدل على حرصهم على تجلية مراداته وأسراره ، فقال بعضهم : حين يقول الله إن الشيطان يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم ، لابد أن نقول : إننا لن نراه .

وأقول : إن الإنسان إن رأى الجنى فلن يراه على صورته ، بل على صورة مادية يتشكل بها ، وهذه الصورة تتسق وتتفق مع بشرية الإنسان ؛ لأن الجنى لو تصور بصورة مادية كإنسان أو حيوان أو شيء آخر يمكن أن يراه الإنسان ، وحينئذ لفقدنا الوثوق بشخص من نراه ، هل هو الشيء الذى نعرفه أو هو شيطان قد تمثل به ؟

إن الوثوق من معرفة الأشخاص أمر ضرورى لحركة الحياة ، وحركة المجتمع ؛ لأنك لا تعطف على ابنك إلا لأنك تعلم أنه ابنك ومحسوب عليك ، ولا تثق فى صديقك إلا إذا عرفت أنه صديقك . ولا تأخذ علماً إلا من عالم تثق به . وهب أن الشيطان يتمثل بصورة شخص تعرفه ، وهنا سيشكك هذا الشيطان ويمنع عنك الوثوق بالشخص الذى يتمثل فى صورته . وأيضاً أعدى أعداء الشيطان هم الذين يبصرون بمنهج الله وهم العلماء ، فما الذى يمنع أن يتشكل الشيطان بصورة عالم موثوق فى علمه ، ثم يقول كلاماً مناقضاً لمنهج الله ؟ .

إذن فالشيطان لا يتمثل ، هكذا قال بعض العلماء ، ونقول لهم : أنتم فهمتم أن الشيطان حين يتمثل ، يتمثل تمثلاً استمرارياً ، لا . هو يتمثل تمثل الومضة ؛ لأن الشيطان يعلم أنه لو تشكل بصورة إنسان أو بصورة مادية لحكمته الصورة التى انتقل إليها ، وإذا حكمته الصورة التى انتقل إليها فقد يقتله من يملك سلاحاً ، إنه يخاف منا أكثر مما نخاف منه ، ويخاف أن يظهر ظهوراً استمرارياً ؛ لذلك يختار التمثل كومضة ، ثم يختفى ، والإنسان إذا تأمل الجنى المشكل . سيجد فيه شيئاً مخالفاً ، كأن يتمثل ـ مثلا ـ فى هيئة رجل له ساق عنزة لتلتفت إليه كومضة ويختفى ؛ لأنه يخاف أن تكون قد عرفت أن الصورة التى يتشكل بها تحكمه . وإذا عرفت ذلك أمكنك أن تصرعه .

ويتابع الحق سبحانه :

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

(من الآية ٢٧ سورة الأعراف)

والشياطين مِن جَعْل الله ، وسبحانه خلّى بينهم وبين الذين يريدون أن يفتنوهم وإلا لو أراد الله منعهم من أن يفتنوهم . لفعل . . إذن فكل شىء فى الوجود ، أو كل حدث فى الوجود يحتاج إلى أمرين : طاقة تفعل الفعل ، وداعٍ لفعل الفعل . فإذا ما كانت عند الإنسان الطاقة للفعل ، والداعى إلى الفعل ، فإبراز الفعل فى الصورة النهائية نستمدها من عطاء الله من الطاقة التى منحها الله للإنسان . فأنت تقول : العامل النساج نسج قطعة من القماش فى غاية الدقة ، ونقول : إن العامل لم ينسج ، وإنما نسجت الآلة ، والآلة لم تنسج ، لكن الصانع الذى صنعها أرادها كذلك ، والصانع لم يصممها إلا بالعالم الذى ابتكر قانون الحركة بها .

إذن فالعامل قد وجّه الطاقة المخلوقة للمهندس فى أن تعمل ، واعتمد على طاقة المهندس الذى صنعها فى المصنع ، والمهندس اعتمد على طاقة الابتكار وعلى العالم الذى ابتكر قانون الحركة ، والعالم قد ابتكرها بعقل خلقه الله ، وفى مادة خلقها الله .

إذن فكل شىء يعود إلى الله فعلاً ؛ لأنه خالق الطاقة ، وخالق من يستعمل الطاقة ، والإنسان يوجه الطاقة فقط ، فإذا قلت : العامل نسج يصح قولك ، وإذا قلت : الآلة نسجت ، صح قولك ، وإذا قلت : إن المصنع هو الذى نسج صح قولك . إذن فالمسألة كلها مردها فى الفعل إلى الله . وأنت وجهت الطاقة المخلوقة لله بالقدرة المخلوقة لله فى فعل أمر من الأمور . فإذا قال الله ﴿ إنا جعلنا الشياطين ﴾ أى خلّينا بينهم وبين المفتونين بهم ، غير أننا لو أردنا ألاّ يفتنوا أحداً لما فتنوه . وهذا ما فهمه إبليس .

﴿ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾

(من الآية ٢٨٢ ، والآية ٢٨٣ سورة ص)

إذن من يريده الله معصوماً لا يستطيع الشيطان أن يغويه ، وتعلم الشياطين أن الله خلّى بينهم فى الاختيار ، وهذه اسمها تخلية ؛ ولذلك لا معركة بين العلماء . فمنهجهم أن الطاقة مخلوقة لله ، ونسب كل فعل إلى الله ، ومنهم من رأى أنَّ موجّه الطاقة من البشر فينسب الفعل للبشر ، ومنهم من رأى طلاقة قدرة الله فى أنه الفاعل لكل شىء ، ومنهم من قال : إن الإنسان هو الذى فعل المعصية . . أى أنه وجه الطاقة إلى عمل والطاقة صالحة له ، فربنا يعذبه على توجيه الطاقة للفعل الضار ولا خلاف بينهم جميعاً .

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

(من الآية ٢٧ سورة الأعراف)

إذن جعل الله الشياطين أولياء لمن لم يؤمن ، ولكن الذى آمن لا يتخذه الشيطان وليًّا .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

والفاحشة مأخوذة من التفحش أى التزيد فى القبح ، ولذلك صرفها بعض العلماء إلى لون خاص من الذنوب ، وهو الزنا ، لأن هذا تزيد فى القبح ، فكل معصية يرتكبها الإنسان تنتهى بأثرها ، لكن الزنا يخلف آثاراً . . فإمّا أن يوأد المولود ، وإما أن تجهض المرأة ، وإما أن تلد طفلها وتلقيه بعيداً ، ويعيش طريداً فى المجتمع لا يجد مسئولاً عنه ، وهكذا تصبح المسألة ممتدة امتداداً أكثر من أى معصية أخرى . وتصنع هذه المعصية الشك فى المجتمع . ولنا أن نتصور أن إنساناً يشك فى أن من ينسبون إليه ويحملون اسمه ليسوا من صلبه ، وهذه بلوى

كبيرة للغاية . والذين قالوا : إن الفاحشة المقصود بها الزنا نظروا إلى قول الله سبحانه :

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

أو الفاحشة هى ما فيه حد ، أو الفاحشة هى الكبائر ، ونحن نأخذها على أنها التزيد فى القبح على أى لون من الألوان .

فما هى الفاحشة المقصودة هنا ؟ . إنها الفواحش التى تقدمت فى قوله :

﴿ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ ﴾

(من الآية ١٠٣ سورة المائدة)

وكذلك ما جاء فى قوله تعالى :

﴿ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ ﴾

(من الآية ١٣٧ سورة الأنعام)

وكذلك فى قوله الحق سبحانه :

﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ﴾

(من الآية ١٣٦ سورة الأنعام)

أو أن المقصود أنهم كانوا يطوفون بالبيت عراة ، فيطوف الرجال نهاراً ، والنساء يطفن ليلاً ، لماذا ؟ . لأنهم ادَّعَوْا الورع . وقالوا : نريد أن نطوف إلى بيت ربنا كما ولدتنا أمهاتنا ، وأن نتجرد من متاع الدنيا ، ولا نطوف ببيت الله فى ثياب عصينا الله فيها .

وقولهم : « وجدنا عليها آباءنا » تقليد ، والتقليد لا يعطى حكماً تكليفياً ، وإن

أعطى علماً تدريبيا ، بأن ندرب الأولاد على مطلوب الله من المكلف ليستطيعوا ويألفوا ما يكلفون به عندما يصلون إلى سن التكليف . ومما يدل على أن التقليد لا يعطى حقيقة ، أنك تجد المذهبين المتناقضين ـ الشيوعية والرأسمالية مثلاً ـ مقلدين ؛ لهذا المذهب مقلدون ، ولهذا المذهب مقلدون . فلو أن التقليد معترف به حقيقة لكان التقليدان المتضادان حقيقة ، والمتضادان لا يصبحان حقيقة ؛ لأنهم ـ كما يقولون ـ الضدان لا يجتمعان ، هذا هو الدليل العقلى فى إبطال التقليد . ولذلك نلاحظ فى أسلوب الأداء القرآنى أنه أداء دقيق جداً ؛ فالذى يتكلم إله .

﴿ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ﴾

(من الآية ٢٨ سورة الأعراف)

والرد من الله عليهم أنه سبحانه لم يأت فى مسألة التقليد بردّ لأنه بداهة لا يؤدى إلى حقيقة ، بل قال :

﴿ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

(من الآية ٢٨ سورة الأعراف)

وهذا رد على قولهم : والله أمرنا بها . وأين الرد على قولهم : ﴿ وجدنا عليها آباءنا ﴾ ؟ .

نقول إنه أمر لا يحتاج إلى رد ؛ لأنه أمر يرفضه العقل الفطرى ، ولذلك ترك الله الرد عليه ؛ لوضوح بطلانه عند العقل الفطرى ، وجاء بالرد على ادعائهم أن الله يأمر بالفحشاء ، فالله لا يأمر بالفحشاء . ثم كيف كان أمر الله لكم ؟ . أهو أمر مباشر . بمعنى أنه قد أمر كل واحد منكم أن يرتكب فاحشة ؟ ألم تنتبهوا إلى قول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآىِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا ﴾

(من الآية ٥١ سورة الشورى)

أم بلغكم الأمر بالفاحشة عن طريق نبى فكيف ذلك وأنتم تكذبون مجىء الرسول ؟ . وهكذا يكون قولكم مردوداً من جهتين : الجهة الأولى : إنه لا طريق

إلى معرفة أمر الله إلا بأن يخاطبكم مباشرة أو يخاطبكم بواسطة رسل ؛ لأنكم لستم أهلاً للخطاب المباشر ، والجهة الثانية : أنكم تنكرون مسألة الأنبياء والرسل . فأنتم لم يخاطبكم الله بالمباشرة أو بواسطة الرسل فلم يبق إلا أن يقال لكم :

﴿ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

(من الآية ٢٨ سورة الأعراف)

ولا جواب على السؤال إلا بأمرين : إما أن يقولوا : « لا » فقد كذبوا أنفسهم ، وإما أن يقولوا : « نعم » ؛ فإذا قالوا : نعم نقول على الله ما لا نعلم ؛ فقد فضحوا أنفسهم وأقروا بأن الله لم يأمر بالفاحشة ، بل أمر الله بالقسط ، لذلك يقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾

والقِسط هو العدل من قسط قِسطاً ، وأمّا قاسط فهى اسم فاعل من قسط قَسْطاً وقَسُوطاً أى جار وعدل عن الحق ، والقاسطون هم المنحرفون والمائلون عن الحق والظالمون ، وكلمة العدل هى التسوية ، فإن ملت إلى الحق ، فذلك العدل المحبوب . وإن ملت إلى الباطل ، فذلك أمر مكروه ﴿ قل أمر ربى بالقسط ﴾ .

وهذه جملة خبرية .

﴿ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الأعراف)

وهذا فعل أمر ، وقد يتبادر إلى الذهن أن هذا من عطف الأمر على الخبر ، ولكن لنلتفت أن الحق يعطفها على « قل » ، فكأن المقصود هو أن يقول : « قل أمر ربى بالقسط ، وقل أقيموا وجوهكم عند كل مسجد » .

والوجه هو السمة المعينة للشخص ؛ لأن الإنسان إن أخفى وجهه لن تعرفه إلا إن كان له لباس مميز لايرتديه إلا هو . والوجه أشرف شيء فى التكوين الجسمى ، ولذلك كان السجود هو وضع الوجه فى الأرض ، وهذا منتهى الخضوع لأمر الله بالسجود ؛ لأن السجود من الفاعل المختار وهو الإنسان يكون بوضع الجبهة على الأرض . وكل شيء خاضع لحكم الله نقول عنه : إنه ساجد .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ ﴾

(من الآية ١٨ سورة الحج)

والشجر يسجد وهو نبات ، والدواب تسجد وهى من جنس الحيوان ، والشمس والقمر والنجوم والجبال من الجماد وهى أيضا ساجدة ، لكن حين جاء الحديث عن الإنسان قسمها سبحانه وقال :

﴿ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ﴾

(من الآية ١٨ سورة الحج)

لأن الإنسان له خاصية الاختيار ، وبقية الكائنات ليس لها اختيار . إذن فالسجود قد يكون لغير ذى وجه ، والمراد منه مجرد الخضوع ، أما الإنسان فالسجود يكون بالوجه ليعرف أنه مستخلف وكل الكائنات مسخرة لخدمته وطائعة وكلها تسبح ربنا ، فإذا كان السيد الذى تخدمه كل هذه الأجناس حيواناً ، ونباتاً ، وجماداً قد وضع وجهه على الأرض فهو خاضع من أول الأمر حين نقول عنه إنه ساجد .

﴿ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الأعراف)

والإقامة أن تضع الشيء فيماهيئ له وخُلق وطُلب منه ، وإن وجهته لناحية ثانية تكون قد ثنيته وأملته وحنيته ، وعَوَّجته . إذن فإقامة الوجه تكون بالسجود ؛ لأن الذى سخر لك هذا الوجود وحكمك بمنهج التكليف هو من جعلت وجهك فى الأرض من أجله ، وإن لم تفعل ذلك فأنت تختار الاعوجاج لوجهك ، واعلم أن

هذا الخضوع والخشوع والسجود لله لن يعطيك فقط السيادة على الأجناس الأخرى التى تعطيك خير الدنيا ، ولكن وضع جبهتك ووجهك على الأرض يعطيك البركة فى العمل ويعطيك خير الآخرة أيضاً . والعاقل هو من يعرف أنه أخذ السيادة على الأجناس فيتقن العبودية لله ، فيأخذ خيرى الدنيا والآخرة حيث لا يفوته فيها النعيم ولا يفوت هو النعيم ، أمّا فى الدنيا فأنت تقبل عليها باستخلاف وتعلم أنك قد يفوتك النعيم ، أو تفوت أنت النعيم ، وحين تتذكر الله وتكون خاضعاً لله فأنت تنال البركة فى حركة الاستخلاف .

﴿ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الأعراف)

والمسجد مكان السجود ، وقال الرسول صلى الله عليه وسلم : « فضلت على الأنبياء بست : أعطيت جوامع الكلم ، ونُصرت بالرعب ، وأحلت لى الغنائم وجعلت لى الأرض طهوراً ومسجداً ، وأرسلت إلى الخلق كافة وخُتم بى النبيون »[1] .

إذن فكل موضع فى الأرض مسجد ؛ فإن دخلت معبداً لتصلى فهذا مسجد . والأرض كلها مسجد لك . يصح أن تسجد وتصلى فيها . وتزاول فيها عملك أيضاً ، ففى المصنع تزاول صنعتك فيه ، وحين يأتى وقت الصلاة تصلى ، وكذلك الحقل تصلى فيه ، لكن المسجد الاصطلاحى هو المكان الذى حُبس على المسجدية وقصر عليها ، ولا يزاول فيه شىء آخر . فإن أخذت المسجد على أن الأرض مسجد كلها تكن ﴿ أقيموا وجوهكم ﴾ فى جميع أنحاء الأرض . وإن أخذتها على المسجد ، فالمقصود إقامة الصلاة فى المكان المخصوص ، وله متجه وهو الكعبة . وكذلك يكون اتجاهك وأنت تصلى فى أى مكان . والمساجد نسميها بيوت الله ولكن باختيار خلق الله ، فبعضنا يبنى مسجداً هنا أو هناك . ويتجهون إلى بيت باختيار الله وهو الكعبة . ولذلك كانت كعبة ومتوجهاً لجميع بيوت الله .

---

(١) رواه مسلم والترمذى عن أبى هريرة .

وقصارى الأمر أن نجعل قبلة المسجد متجهة إلى الكعبة وأن نقيم الوجه عليها ، أى على الوجه الذى تستقيم فيه العبادة . وهو أن تتجهوا وأنتم فى صلاتكم إلى الكعبة فهى بيت الله باختيار الله .

وساعة ما تصادفك الصلاة صل فى أى مسجد ، أو ﴿ وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد ﴾ يقصد بها التوجه للصلاة فى المسجد ، وهنا اختلف العلماء ، هل أداء الصلاة وإقامتها فى المسجد ندباً أو حتماً ؟ . والأكثرية منهم قالوا ندباً ، والأقلية قالوا حتماً . ونقول : الحتمية لا دليل عليها .

من قال بحتمية الصلاة فى المسجد استدل بقوله صلى الله عليه وسلم :

والذى نفسى بيده لقد هممت أن آمر بحطب فيحتطب ثم آمر بالصلاة فيؤذن لها ثم آمر رجلا فيؤم الناس ثم أخالف إلى رجال فأحرق عليهم بيوتهم[1] .

ونقول : هل فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك أو لم يفعل ؟ لم يفعل رسول الله ذلك ، إنما أراد بالأمر التغليظ ليشجعنا على الصلاة فى المساجد عند أى أذان للصلاة .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الأعراف)

والدعاء : طلب من عاجز يتجه به لقادر فى فعل يحبه الداعى . وحين تدعو ربك ادعه مخلصاً له الدين بحيث لايكون فى بالك الأسباب ؛ لأن الأسباب إن كانت فى بالك فأنت لم تخلص الدين ، لأن معنى الإخلاص هو تصفية أى شىء من الشوائب التى فيه ، والشوائب فى العقائد وفى الأعمال تفسد الإتقان والإخلاص ، وإياكم أن تفهموا أن أحداً لا تأتى له هذه المسألة ، فرسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

---

(١) متفق عليه .

« إنّى لَيُغَانُ على قلبى وإنى لأستغفر الله كل يوم مائة مرة »[١] .

إذن فالإخلاص عملية قلبية ، وأنت حين تدعو الله ادعه دائماً عن اضطرار ، ومعنى اضطرار . أن ينقطع رجاؤك وأملك بالأسباب كلها . فذهبت للمسبب ، ومادمت مضطراً سيجيب ربنا دعوتك ؛ لأنك استنفدت الأسباب ، وبعض الناس يدعون الله عن ترف ، فالإنسان قد يملك طعام يومه ويقول : ارزقنى ، ويكون له سكن طيب ويقول : أريد بيتاً أملكه . إذن فبعضنا يدعو بأشياء لله فيها أسباب ، فيجب أن نأخذ بها ، وغالبية دعائنا عن غير اضطرار . وأنا أتحدى أن يكون إنسان قد انتهى به أمر إلى الاضطرار ولا يجيبه الله .

ويذيل الحق الآية الكريمة بقوله :

﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الأعراف)

والله سبحانه يخاطب الإنسان ، ويحننه ، مذكراً إياه بـ « افعل كذا » و « افعل كذا » و « افعل كذا » . وسبحانه قادر أن يخلقه مرغماً على أن يفعل ، لكنه ـ جل وعلا ـ شاء أن يجعل الإنسان سيدا وجعله مختاراً ، وقهر الأجناس كلها أن تكون مسخرة وفاعلة لما يريد ، وأثبت لنفسه ـ سبحانه ـ صفة القدرة ، ولا شىء يخرج عن قدرته ؛ فأنت أيها العبد تكون قادراً على أن تعصى ولكنك تطيع ، وهذه هى عظمة الإيمان إنّها تثبت صفة المحبوبية لله ، فإذا ما غُر الإنسان بالأسباب وبخدمة الكون كله ، وبما فيه من عافية ، وبما فيه من قوة ، وبما فيه من مال ، تجد الحق يلفته : لاحظ أنك لن تنفلت منى : أنا أعطيت لك الاختيار فى الدنيا ، لكنك ترجع لى فى الآخرة ولن تكون هناك أسباب ، ولن تجد إلا المسبب ، ولذلك اقرأ :

﴿ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾

(من الآية ١٦ سورة غافر)

---

(١) رواه مسلم فى الذكر والدعاء باب استحباب الاستغفار ، وأبو داود فى الصلاة ، والنسائى فى عمل اليوم ، والإمام أحمد ٤/٢١١ . ومعنى (لَيُغَانُ) : ما يتغشى القلب ، وقيل الفترات والغفلات عن الذكر ، أو همه بسبب أمته فيستغفر لها ، وقال المناوى : هو غين أنوار لاغين أغيار ولا حجاب ولا غفلة .

كأن المُلْكَ ـ قبل ذلك ـ أى فى الدنيا ـ كان للبشر فيه شىء لمباشرتهم الأسباب هذا يملك ، وذلك يملك ، وآخر يوظف ، لكن فى الآخرة لا مالك ، ولا مَلِكَ إلا الله ، فإياكم أن تغتروا بالأسباب ، وأنها دانت لكم ، وأنكم استطعتم أن تتحكموا فيها ؛ لأن مرجعكم إلى الله .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

اذكروا أننا قلنا من قبل : إن الله هدى الكل . . بمعنى أنه قد بلَّغهم بمنهجه عبر موكب الرسل ، وحين يقول سبحانه : ﴿ فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة ﴾ فالمقصود هنا ليس هداية الدلالة ، لكن دلالة المعونة . وقد فرقنا بين هداية الدلالة وهداية المعونة .

وقوله الحق ﴿ فريقاً هدى ﴾ أى هداية المعونة ؛ لأن هذا الفريق أقبل على الله بإيمان فخفف الله عليه مؤونة الطاعة ، وبغّضه فى المعصية ، وأعانه على مهمته . أما الذى تأبّى على الله ، ولم يستجب لهداية الدلالة أيعينه الله ؟ لا . إنه يتركه فى غيِّه ويخلى بينه وبين الضلالة ، ولو أراده مهديًّا لما استطاع أحد أن يغير من ذلك . وسبحانه منزه عن التجنى على أحد من خلقه ، ولكن الذين حق عليهم الضلالة حصل لهم ذلك بسبب ما فعلوا .

﴿ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة الأعراف)

إن من يرتكب المعصية ويعترف بمعصيته فهذه تكون معصية ، أمّا من يقول إنها

هداية فهذا تبجح وكفر ؛ لأنه يرد الحكم على الله . وخير للذين يرتكبون المعاصى أن يقولوا : حكم الله صحيح ولكننا لم نقدر على أنفسنا ، أما أن يرد العاصى حكم الله ويقول : إنه الهداية ، فهذا أمره عسير ؛ لأنه ينتقل من مرتبة عاصٍ إلى مرتبة كافر والعياذ بالله .

﴿ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة الأعراف)

لأنهم يفعلون ما حرم الله ، وليتهم فعلوه على أنه محرّم ، وأنهم لم يقدروا على أنفسهم ، ولكنهم فعلوه وظنوا أن الهداية فى الفعل . وهذا الأمر يشيع فى معاصٍ كثيرة مثل الربا ، فنجد من يقول : إنه حلال ، ونقول : قل هو حرام ولكن لم أقدر على نفسى ، فتدخل فى زمرة المعصية ، ولا تدخل فى زمرة الكفر والعياذ بالله ، ويمكنك أن تستغفر فيغفر لك ربنا ، ويتوب عليك ، ولكن أن ترد الحكم على الله وتقول إنه حلال !! فهذا هو الخطر ؛ لأنك تبتعد وتخرج عن دائرة المعصية وتتردى وتقع فى الكفر ، اربأ بنفسك عن أن تكون كذلك واعلم أن كل ابن آدم خطاء ، وما شرع الله التوبة لعباده إلا لأنه قدَّر أن عبيده يخطئون ويصيبون ، ومن رحمته أنه شرع التوبة ، ومن رحمته كذلك أنه يقبل هذه التوبة ، فلماذا تخرج من حيز يمكن أن تخرج منه إلى حيز يضيق عليك لا تستطيع أن تخرج منه ؟ .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ ﴾

والزينة إذا سمعتها تنصرف إلى تجميل فوق قوام الشىء ، وقوله سبحانه وتعالى :

﴿ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾

(من الآية ٣١ سورة الأعراف)

هذا يعنى أن يذهب المسلم إلى المسجد بأفخر ما عنده من ملابس ، وكذلك يمكن أن يكون المقصود بـ ﴿ خذوا زينتكم عند كل مسجد ﴾ هو رد على حالة خاصة وهو أنهم كانوا يطوفون بالبيت عراة ، وأن المراد بالزينة هنا هو ستر العورة . أو المراد بالزينة ما فوق ضروريات الستر ، أو إذا كان المراد بها اللباس الطيب الجميل النظيف ، فنحن نعلم أن المسجد هو مكان اجتماع عباد الله ، وهم متنوعون فى مهمات حياتهم ، وكل مهمة فى الحياة لها زيها ولها هندامها ؛ فالذى يجلس على مكتب لمقابلة الناس له ملابس ، ومن يعمل فى « الحِدَادَة » له زى خاص مناسب للعمل ، ولكن إذا ذهبتم إلى المسجد لتجتمعوا جميعاً فى لقاء الله ، أيأتى كل واحد بلباس مهنته ليدخل المسجد ؟ لا ، فليجعل للمسجد لباساً لا يُضَايق غيره ، فإن كانت ملابس العمل فى مصنع أو غير ذلك لا تليق ، فاجعل للمسجد ملابس نظيفة حتى لا يُؤذَى أحد بالوجود بجانبك ؛ لأننا نذهب إلى المسجد لعمل مشترك يحكم الجميع وهو لقاء الله فى بيت الله ، فلابد أن تحتفى بهذا اللقاء .

﴿ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾

(من الآية ٣١ سورة الأعراف)

والمأكل والمشرب من الأمور المباحة لأن فيها مقومات الحياة ، وكل واشرب على قدر مقومات الحياة ولا تسرف ، فقد أحل الله لك الأكثر وحرّم عليك الأقل ، فلا تتجاوز الأكثر الذى أُحلّ لك إلى ما حرم الله ؛ لأن هذا إسراف على النفس ، بدليل أنه لو لم تجد إلا الميتة ، فهى حلال لك بشرط ألا تُسرف . ولا يصح أن تنقل الأشياء من تحليل إلى تحريم ؛ لأن الله جعل لك فى الحلال ما يغنيك عن الحرام ، فإذا لم يوجد ما يغنيك ، فالحق يحل لك أن تأخذ على قدر ما يحفظ عليك حياتك ، والمسرفون هم المتجاوزون الحدود . ولا سرف فى حل ، إنما السرف يكون فى الشىء المحرم ، ولذلك جاء فى الأثر :

« لو أنفقت مثل أحد ذهباً فى حِلٍّ ما اعتبرت مسرفاً ، ولو أنفقت درهماً واحداً فى محرم لاعتبرت مسرفاً » .

ولذلك يطلب منك رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تعطى كل نعمة حقها

بشرط ألا يؤدى بك ذلك إلى البطر ، وحينما ذهب إليه سيدنا عثمان بن مظعون ، وقد أراد أن يترهب ، ويتنسك ، ويسيح فى الكون ، وقال لرسول الله : يا رسول الله ، إننى أردت أن اختصى ؛ أى أن يقطع خُصيتيه ؛ كى لا تبقى له غريزة جنسية ، فقال صلى الله عليه وسلم : يا عثمان خصاء أمتى الصوم . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم فى شأن من لم يستطع الزواج : « يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء »[١] .

وقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر الناس وخوفهم فاجتمع عشرة من الصحابة وهم : أبو بكر وعمر وعلى وابن مسعود وأبو ذر وسالم مولى أبى حذيفة والمقداد وسلمان وعبدالله بن عمرو بن العاص ومعقل بن مقرن فى بيت عثمان بن مظعون فاتفقوا على أن يصوموا النهار ويقوموا الليل ولا يناموا على الفراش ولا يأكلوا اللحم ولا يقربوا النساء ويجبّوا مذاكيرهم »[٢] . فكان التوجيه النبوى أن حمد الرسول صلى الله عليه وسلم ربه وأثنى عليه وقال : « ما بال أقوام قالوا كذا وكذا ولكنى أصلى وأنام وأصوم وأفطر وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتى فليس منى »[٣] .

ويتابع الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾

ومادام أخرجها لعباده فهو قد أرادها لهم ، وما ينفع منها للإناث جعلتها السنّة

---

(١) رواه البخارى ومسلم .

(٢) فتح البارى .

(٣) رواه مسلم .

للإناث ، وما يصلح منها للذكور أحلتها السنّة لهم ، وكذلك الطيب من الرزق حلال للمؤمنين والمؤمنات . ولنلحظ دقة الأسلوب هنا فى قوله تعالى :

﴿ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا ﴾

(من الآية ٣٢ سورة الأعراف)

ثم يتابع سبحانه :

﴿ خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ ﴾

(من الآية ٣٢ سورة الأعراف)

فكأننا أمام حالتين اثنتين : حالة فى الدنيا ، وأخرى فى يوم القيامة ، معنى ذلك أن الزينة فى الحياة الدنيا غير خالصة ؛ لأن الكفار يشاركونهم فيها ، فهى من عطاء الربوبية ، وعطاء الربوبية للمؤمن وللكافر ، وربما كان الكافر أكثر حظًا فى الدنيا من المؤمن ، ولكن فى الآخرة تكون الزينة خالصة للمؤمنين لا يشاركهم فيها الكافرون .

وكذلك فإن الحق سبحانه وتعالى يعطى اليقظة الإيمانية فى المؤمن بوجود الأغيار فيه ، ومعنى وجود الأغيار أنه قد يتعرض الإنسان لتقلبات بين الصحة والمرض والغنى والفقر والقوة والضعف . وهكذا يكون الإنسان فى الدنيا ؛ فهى دار الأغيار ، ويصيب الإنسان فيها أشياء قد يكرهها ؛ لذلك فالدنيا ليست خالصة النعيم لما فيها من أغيار تأتيك فتسوؤك.إنها تسوؤك عند غيبة شحنة الإيمان منك ؛ لأنك إن استصحبت شحنة الإيمان عند كل حدث أجراه الله عليك لَلَفَتَكَ الله إلى حكمته .

﴿ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ ﴾

(من الآية ٣٢ سورة الأعراف)

ويمكن أن نقرأ كلمة « خالصة » منصوبة على أنها حال ، ويمكن أن نقرأها فى قراءة أخرى مرفوعة على أنها خبر بعد خبر ، والمعنى : أنها غير خالصة للمؤمنين فى الدنيا لمشاركة الكفار لهم فيها ، وغير خالصة أيضاً من شوائب الأغيار ولكنها

فى الآخرة خالصة للمؤمنين فلا يشاركهم الكفار ولا تأتى لهم فيها الأغيار .

ويذيل الحق الآية بقوله :

﴿ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾

(من الآية ٣٢ سورة الأعراف)

معنى « نفصل الآيات » أى لانأتى بالآيات مجملة بل نفصل الآيات لكل مؤمن ، فلا نترك خللاً ، ونأتى فيها بكل ما تتطلبه أقضية الحياة ، بتفصيل يُفهمنا قضايانا فهماً لا لبس فيه .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

والحق سبحانه ـ قد بدأ الآية بـ « إنما » التى هى للحصر : أى ما حرم ربى إلا هذه الأشياء ، الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، والإثم ، والبغى بغير الحق ، والشرك بالله ، والقول على الله ما لا نعلم ، فلا تدخلوا أشياء أخرى وتجعلوها حراماً ، لأنها لا تدخل فى هذه ، وقول الله فى الآية السابقة : ﴿ قل من حرم زينة الله ﴾ هو على صيغة استفهام لكى يجيبوا هم . ولن يجدوا سبباً لتحريم زينة الله . لأن الحق قد وضح وبينّ ما حرم فقال :

﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

ونتأمل الخمسة المحرمات التى جاءت بالآية ؛ فحين ننظر إلى مقومات حياة الخلافة فى الأرض ليبقى الإنسان خليفة فيها نرى أنه لابد من صيانة أشياء ضرورية لسلامة هذه الخلافة وأداء مهمتها ، وأول شىء أن يسلم للمجتمع طهر أنسابه . وسلامة طهر الأنساب أى الإنجاب والأنسال ضرورية للمجتمع ؛ لأن الإنسان حين يثق أن ابنه هذا منه فهو يحرص عليه لأنه منسوب إليه ، ويرعاه ويربيه . أما إذا تشكك فى هذه المسألة فإنه يهمله ويلفظه ، كذلك يهمله المجتمع ، ولا أحد يربيه ولا يلتفت إليه ولا يعنى به .

إذن فسلامة الأنساب أمر مهم ليكون المجتمع مجتمعاً سليماً ، بحيث لا يوجد فرد من الأفراد إلا وهو محسوب على أبيه ، بحيث يقوم له بكل تبعات حياته ، ولذلك يجب أن تعلموا أن الأطفال المشردين مع وجود آبائهم حدث من أن شكاً طرأ على الأب فى أن هذا ليس ابنه . ولذلك ماتت فيه غريزة الحنان عليه ، فلا يبالى إن رآه أم لم يره ، ولا يبالى أهو فى البيت أم شرد ، لا يبالى أكل أم جاع ، لا يبالى تعرى أم لا .

إذن فطهارة الأنساب ضمان لسلامة المجتمع ؛ لأن المجتمع سيكون بين مربٍّ يقوم على شأن وصغير مربَّى ، المربى قادر على أن يعمل ، والمربَّى صغير يحتاج إلى التربية . ولذلك حرم الله الفواحش.والفحش ـ كما قلنا ـ ما زاد قبحه ، وانتهوا على أنه هو الزنا ؛ لأن أثره لا يتوقف فقط عند الذنب والاستمتاع . بل يتعدى إلى الأنسال . وما تعدى إلى الأنسال فهو تعد إلى المجتمع ، ويصير مجتمعاً مهملاً لا راعى له .

والإثم : أهو كل كبيرة أو ما يقام على فاعله حد ؟ . لقد انتهى العلماء على أن الإثم هو الخمر والميسر ؛ لأن الله قال بالنص :

﴿ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾

(من الآية ٢١٩ سورة البقرة)

وأراد الحق بذلك أن يضمن مقوم تنظيم حركة الحياة فى الإنسان وهو العقل وأن

الخمر تغيب العقل ، والإنسان مطالب بأن يحفظ عقله ليواجه به أمور الحياة مواجهة تبقى الصالح على صلاحه أو تزيده صلاحاً ولا تتعدى على الإنسان . فإذا ما ستر العقل بالخمر فسد واختل ، ويختل بذلك التخطيط لحركة الحياة . والذين يأتون ويشربون ويقولون : نريد أن ننسى همومنا نقول لهم : ليس مراد الشارع أن ينسى كل واحد ما أهمه ؛ لأنه إن نسى كل واحد ما أهمه فلن يحتاط أحد ولن يقوم على تقدير الأمور التى تضمن السلامة .

إن الشارع يطلب منك أن تواجه الهموم التى تعانى منها بعقل مضاعف لتزيلها . أما أن تستر العقل فأنت قد هربت من المشكلة ، إذن يجب عليك أن تواجه مشكلات الحياة بعقلك وبتفكيرك . فإن كانت المشكلة قد نشأت من أنك أهملت فى واجب سببى أى له أسباب وقد قصرت فى الأخذ بها فأنت الملوم . وإن كانت المشكلة جاءتك من أمر ليس فى قدرتك ، أى هبطت عليك قضاءً وقدراً ؛ فاعلم أن مُجريها عليك له فيها حكمة .

وقد يكون البلاء ليحميك الله من عيون الناس فيحسدوك عليها ، لأن كل ذى نعمة محسود ، وحتى لا تتم النعمة عليك ؛ لأن تمام النعمة على الإنسان يؤذن بزوالها ، وأنت ابن الأغيار وفى دنيا الأغيار ، وإن تمت النعمة لك فقد تتغير النعمة بالنقصان .

إذن فالتفكير فى ملافاة الأسباب الضارة وتجنبها يأتى بالعقل الكامل ، والتفكير فى الأشياء التى ليس لها سبب يأتى من الإيمان ، والإيمان يطلب منك أن تَرُدَّ كل شىء إلى حكمة الحكيم . إذن فأنت تحتاج إلى العقل فلا تستره بشرب الخمر ؛ لأن العقل يدير حركة الحياة .

البغى نعرف أنه مجاوزة الحد ظلماً أو كبراً ، أو بخلاً . والظلم أن تأخذ حق غيرك وتحرمه من ثمرة عمله فيزهد فى العمل ؛ لذلك يحرّم الحق أن يبغى أحد على أحد . لا فى عِرضه ، ولا فى نفسه ، ولا فى ماله . ويجب أن نصون العرض من الفواحش ؛ لأن كل فاحشة قد تأتى بأولاد من حرام . وإن لم تأت فهى تهدر العرض ، والمطلوب صيانته ، كذلك لا يبغى أحدٌ على محارم أحد ، وكذلك لا يبغى أحد على حياة إنسان بأن يهدمها بالقتل .

ويصون الحق المال فيمنع عنه البغى فلا يأخذ أحد ثمرة عمل آخر وكفاحه عدواناً وظلماً ، ومظاهر البغى كثيرة . ومن البغى أن تأخذ سلطة قسراً بغير حق ولكن هناك من يأخذ سلطة قسراً وقهراً بحق ، فإن كنت ـ على سبيل المثال ـ تركب سفينة ، ثم قامت الرياح والزوابع ، وأنت أمهر فى قيادتها أتترك الربان يقودها وربما غرقت بمن فيها أم تضرب على يده وتمسك بالدفة وتديرها لتنقذها ومن فيها ، إنك فى هذه الحالة تكون قد أخذت القيادة بحق صيانة أرواح الناس ، وهذا بغى بحق ، وهو يختلف عن البغى بغير الحق . وحتى نفرق بين البغى بحق والبغى بغير الحق نقول . إن هذا يظهر ويتضح عندما نأخذ مال السفيه منه للحفاظ عليه وصيانته وتثميره له ، فنكون قد أخذنا حقًا من صاحبه رعاية لهذا الحق ، فهو وإن كان فى ظاهره بغيا على صاحب الحق إلا أنه كان لصالحه وللصالح العام فهذا بغى بحق أو أنه سمى بغيًا ؛ لأنه جاء على صورة استلاب الحق من صاحبه ظلماً ، ويسمى هذا فى علم البلاغة مشاكلة وهى ذكر الشىء بلفظ غيره لوقوعه فى صحبة ذلك الغير ، ونقرأ أيضاً قول الله :

﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾

(من الآية ٤٠ سورة الشورى)

فهل جزاء السيئة يكون سيئة ؟ لا . وإنما هى سيئة بالنسبة لمن وقعت عليه ؛ لأنه لمّا عمل سيئة واختلس مالا ـ مثلا ـ وضربت على يده وأخذت منه المال فقد أتعبته ولذلك فالحق يقول :

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾

(سورة النحل)

ومن بغى بغير حق علينا أن نذكره بأن هناك من هو أقوى منه ، وأن يتوقع أن يناله بغى ممن هو أكثر قدرة منه .

وينبهنا الحق إلى العمل الذى لا غفران له : ﴿ وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً ﴾ .

ومحال أن ينزل الحق الذى نعبده شريكاً له ويؤيده بالبرهان والسلطان والحجة

على أنه شريك له ـ تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيراً ؛ لأن من خصائص الإيمان أنه سبحانه ينفى هذا الشرك بأدلته العقلية وأدلته النقلية .

وإذا كان الحق قد قال لنا فى هذه الآية :

﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

فبعض من الآيات الأخرى جمعت هذه الأشياء ، فى إطار إيجازى ومع المقابل أيضاً ، يقول الحق :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ﴾

(من الآية ٩٠ سورة النحل)

لقد جاء بالفحشاء فى هذه الآية ليؤكد طهارة الأنسال ، وجاء أيضاً بتحريم المنكر والبغى ، وزاد فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها الإثم فقط . وكأن الإثم فى آية الأمر بالعدل والإحسان والنهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، مطمور فى « المنكر » ، والمنكر ليس محرماً بالشرع فقط ، بل هو ما ينكره الطبع السليم ؛ وأيضاً فصاحب الطبع غير السليم يحكم أنه منكر إذا كانت المعاصى تعود عليه بالضرر ، هنا يقول : أعوذ بالله منها . وإن كان هو يوقعها على الغير فهو يعتقد أنها غير منكر ، وعلى سبيل المثال نجد رجلاً يبيح لنفسه أن يفتح أعينه على عورات الناس ويتلذذ بهذه المسألة . لكنه ساعة يرى إنساناً آخر يفتح عينيه على عورته أو على ابنته مثلا إنّه يرى فى ذلك أبشع المنكرات ؛ لذلك لابد أن تجعل للمنكر حدًّا يشملك ويشمل غيرك ولا تنظر إلى الأمر الذى تكلف به أنت وحدك ، وإنما انظر إلى الأمر المكلف به الآخرون . . وإياك أن تقول : إنه حدد بصرى من أن يتمتع بجسم يسير أمامى ، إنه ـ سبحانه ـ كما حرم نظرك إلى ذلك ، حرم أنظار الناس جميعاً أن ينظروا إلى محارمك ؛ وفى هذا صيانة لك .

وبعد أن حلل هذه الطيبات والزينة ، وحرم الفواحش والمنكر والبغى والإثم يقول سبحانه :

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾

نحن هنا أمام نص قرآنى تثبته قضايا الوجود الواقعى ؛ فالذين سفكوا ، وظلموا ، وانتهكوا الأعراض ، وأخذوا الأموال . لم يدم لهم ذلك ، بل أمد الله لهم فى طغيانهم ، وأخذهم به أخذ عزيز مقتدر . ولو أراد خصومهم الانتقام منهم لما وصلوا إلى أدنى درجات انتقام السماء . ويجرى الحق هذا الانتقام من الطغاة لصيانة سلامة المجتمع . فإن رأيت فساداً أو طغياناً إياك أن تيأس ؛ لأن الحق سبحانه قد أوضح أن لكل أمة أجلاً ، بداية ونهاية ، ففى أعمارنا القصيرة رأينا أكثر من أمة جاء أجلها . إذن فكل طاغية يجب أن يتمثل هذه الآية :

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

والأجل لكل أمة معروف عند الله ؛ لأن الباطل والظلم إن لم يعض الناس عضة تجعلهم يصرخون فهم لا يستشرفون إلى الحق ولا يتطلعون إليه ، والألم وسيلة العافية لأنه يؤكد لك أن وضعك غير طبيعى ، وعلى ذلك فالمسائل التى تحدث فى الكون وهذه الأمم التى تظلم . وتضطهد . ولها جبروت وطغيان إنما تفعل ذلك إلى أجل معلوم . فإياك أن تيأس ، ولكن عليك أن تستشرف إلى الحق . وإلى جناب الله فتلوذ به وحده ، ولذلك نجد أكثر الناس الذين حدثت لهم هذه الأحداث لم يجدوا إلا واحة الإيمان بالله ؛ ففروا إلى بيته حجاجاً وإلى مساجده عمارًا وإلى قراءة قرآنه ذكراً . وننظر إلى هذه الأمور ونقول : إن الطاغية الفاجر مهما فعل فلابد أن يسخره الله لخدمة دينه ، وهناك أناس لولا أن الدهر عضهم وأخنى عليهم كأن سلط عليهم ظالماً لما فروا إلى الله بحثاً عن نجاة ، ولما التفتوا لربنا عبادة .

إن فى واقع حياتنا يعرف كل منا أناساً ، كان الواحد منهم لا يعبد ربه فلا يصلى ولا يصوم ولايذكر ربه ، ثم جاءت له عضة من ظالم فيلجأ الإنسان المعضوض إلى الله عائذاً به ملتجئا إليه ، ولذلك نقول للظالم : والله لو عرفت ماذا قدمت أنت لدين الله ، ولم تأخذ عليه ثواباً لندمت ، فأنت قد قدمت لدين الله عصبة ممن كانوا من غير المتدينين به . ولو أنك تعلم ما يأتى به طغيانك وظلمك وجبروتك من نصر لدين الله لما صنعته أنت ، إنّ لكل أمة أجلاً ، فإن كنت ظالماً وعلى رأس جماعة ظالمة فلذلك نهاية .

وانظر إلى التاريخ تجد بعض الدول أخذت فى عنفوانها وشدتها سيادة على الشعوب ، ثم بعد فترة من الزمن تحل بها الخيبة وتأتى السيطرة عليها من الضعاف ؛ لأن هذا هو الأجل . إن الحق يعمى بصائرهم فى تصرف ، يظنون أنه يضمن لهم التفوق فإذا به يجعل الضعيف يغلبهم ويسيطر عليهم . وإذاجاء الأجل فلا أحد يستطيع تأخيره ؛ لأن التوقيت فى يد قيوم الكون ، وهم أيضاً لا يستقدمون هذا الأجل ، ونلحظ هنا وجود كلمة « ساعة » ، والساعة لها اصطلاح عصرى الآن من حيث إنها معيار زمنى لضبط المواقيت ، ونعلم أن اليوم مقسم إلى أربع وعشرين ساعة ، والأقل من الساعة الدقيقة ، والأقل من الدقيقة الثانية ، والأكبر من الساعة هو اليوم . ومن يدرى فقد يخترع البشر آلاتٍ لضبط الجزء من الثانية .

وكذلك تطلق الساعة على قيام القيامة .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

هنا ينادى الحق أبناء آدم ، بعد أن ذكرهم أنه أحل لهم الطيبات والزينة وحرم

عليهم المسائل الخمسة من الفاحشة والمنكر والبغى والإثم والشرك ، ووضع لهم نظاماً يضمن سلامة المجتمع ، وطمأنهم بأنه منتقم من أى أمة ظالمة بأن جعل للظلم نهاية وأجلاً . فعليكم يا بنى آدم أن تأخذوا أمور حياتكم فى إطار هذه المقدمات .

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي ﴾

(من الآية ٣٥ سورة الأعراف)

عليكم أن تستقبلوا رسل الله استقبال الملهوف المستشرف المتطلع إلى ما يحميه وإلى ما ينفعه ؛ لأن الرسول هو من يعلن لكل واحد منكم ما أحله الله من طيبات الحياة وملاذها ، ويبين لكم ما حرم الله ليحيا المجتمع سليماً .

كان المظنون أن ساعة يأتى الرسول نجد المجتمع يحرص على ملازمته وعلى تلقى البلاغ منه ، لا أن يظل الرسول يدعو باللين بينما المجتمع يتأبّى عليه . لكن من رحمة الله أن يتأبّى المجتمع ويلح الرسول مبيناً آيات الله وبيناته كى يأخذ كل إنسان ما يساعده على أمر حياته ويهتدى إلى الصراط المستقيم ، وأنت إذا ما أصبت فى عافيتك تلح على الطبيب وتبحث عنه ، فكان مقتضى العقل أنه إذا جاء رسول ليبلغنا منهج الله فى إدارة حركة الحياة أن نتشوق إليه ونتطلع ، لا أن نعاديه ، وعادة ما يسعد بالرسول أهل الفطرة السليمة بمجرد أن يقول الرسول : إنه رسول ومعه آية صدقه . ويقيس أهل الفطرة السليمة قول الرسول بماضيه معهم ، فيعلمون أنه مخلص لم يرتكب الإثم . وهذه فائدة قوله الحق :

﴿ لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٢٨ ﴾

(سورة التوبة)

فلم يأت لكم إنسان لا تعرفونه بل لكم معه تاريخ واضح وجلى ، ولذلك نجد الذين آمنوا برسول الله أول الأمر لم ينتظروا إلى أن يتلو عليهم القرآن ، لكنهم آمنوا به بسوابق معرفتهم له ؛ لأنهم عايشوه ، وعرفوا كل تفاصيل أخلاقه . ومثال ذلك : عندما أخبر محمد صلى الله عليه وسلم سيدتنا خديجة ـ رضوان الله عليها ـ بنبأ

رسالته وأسرّ لها بخوفه من أن يكون ما نزل إليه هو من أمور الجن أو مسها ، أسرعت إلى ورقة بن نوفل ؛ لأنه عنده علم بكتاب ، وقبل ذلك قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنك لتصل الرحم وتحمل الكَلَّ وتعين على نوائب الحق وتكسب المعدوم » .

وكل هذه المقدمات تدل على أنك ـ يارسول الله ـ فى حفظ الله ورعايته ؛ لأنك كنت مستقيم السلوك قبل أن تُنَبَّأ ، وقبل أن توجد كرسول من الله . وهل معقول أن مَن يترك الكذب على الناس يكذب على الله ؟! وكذلك نجد سيدنا أبا بكر الصديق بمجرد ما أن قال رسول الله : أنا رسول ، قال له : صدقت .

وهذا إن دل على شىء فإنما يدل على صدق الفطرة ، وهذه هى فائدة ﴿ رسول من أنفسكم ﴾ أو من جنسكم البشرى حتى نجد فيه الأسوة الحسنة . ولو جاء لنا رسول من الملائكة وقال لنا : هذا هو المنهج ولكم أسوة بى ، كنا سنرد عليه الرد المقنع السهل اليسير : وهل نقدر أن نفعل مثلك وأنت مَلَكٌ مفطور على الخير ؟ . لكن حين يأتينا رسول من جنسنا البشرى ، وهو صالح أن يصدر منه الخير ، وصالح أن يصدر منه الشر فهو الأسوة الموجودة ، ولذلك كان من غباء الكافرين أن قالوا ما جاء به القرآن على ألسنتهم :

﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

إنه الغباء وقصر النظر والغضب ؛ لأن الله بعث محمداً وهو من البشر ، فهل كانوا يريدون مَلَكاً ؟ ولو كان ملكاً فكيف تكون به الأسوة وطبعه مختلف عن طبائع البشر ؟ . ولذلك يرد الحق الرد المنطقى :

﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

وذلك حتى تتحقق لنا الأسوة فيه ؛ فسبحانه لم يقتحم وجودكم التكليفى ، ولم يُدخلكم فى أمر يشتد ويشق عليكم لكنه جاء لكم بواحد منكم تعرفون تاريخه . ولم يأت به من جنس آخر .

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي ﴾

(من الآية ٣٥ سورة الأعراف)

وانظر قوله : ﴿ يقصّون عليكم آياتى ﴾ ، لقد جاء بكلمة « يقصّون » لأن القصص مأخوذة من مادة « القاف » و « الصاد المضعَّفة » ؛ وهذا مأخوذ من « قصّ الأثر » ، وكان الرجل إذا ما سرقت جماله أو أغنامه يسير ليرى أثر الأقدام . إذن ﴿ يقصّون عليكم آياتى ﴾ أى أنهم ملتزمون بما جاء لهم ، لا ينحرفون عنه كما لا تنحرفون أنتم عن قص الأثر حين تريدون المؤثِّر فى الأثر .

﴿ فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾

(من الآية ٣٥ سورة الأعراف)

و « التقوى » هو أن تجعل بينك وبين شىء يضرك وقاية . ولذلك يقول الحق: ﴿ اتقوا النار ﴾ ، لنرد عن أنفسنا بالعمل الصالح لهيب النار . وإذا قيل:﴿ اتقوا الله ﴾ أى اتقوا متعلقات صفات الجبروت من الله ؛ لأنكم لن تستطيعوا تحمل جبروت ربنا ، وعليكم أن تلتزموا بفعل الأوامر وتلتزموا أيضاً بترك النواهى . والأمر بالتقوى هنا يعنى ألا ننكر ونجحد رسالات الرسل ؛ لأنهم إنما جاءوا لإنقاذ البشر ، فالمجتمع حين يمرض ، عليه أن يسرع ويبادر إلى الطبيب القادم بمنهج الله ليرعاه ، وهو الرسول ؛ لذلك لا يصح الجحود برسالة عليها دليل ومعجزة . ﴿ فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ .

و « أصلح » تدل على أن هناك شيئاً غير صالح فجعله صالحاً ، أو حافظ على صلاح الصالح ورقّى صلاحه إلى أعلى ، مثل وجود بئر نشرب منه ، فإن كانت البئر تؤدى مهمتها لا نردمها ، ولا نلقى فيها قاذورات ، وبذلك نبقى الصالح على صلاحه ، ويمكن أن نزيد من صلاح البئر بأن نبنى حول فوهتها سوراً ، أو أن نقوم بتركيب مضخة تمتص الماء من البئر لضخه إلى البيوت . وبذلك نزيد الصالح

صلاحاً ، والآفة فى الدنيا هم الذين يدعون الإصلاح بينما هم مفسدون ، يقول الله فيهم :

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ ﴾

(سورة الكهف)

إذن فحين تقدم على أى عمل لابد أن تعرف مقدمات هذا العمل ، وماذا ستعطيه تلك المقدمات ، وماذا سوف تأخذ منه . وأبق الصالح فى الكون على صلاحه أو زده إصلاحاً ، وهنا لا خوف عليك ولن تحزن على شىء فاتك ليتحقق قول الحق :

﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾

(من الآية ٢٣ سورة الحديد)

وما المقابل لمن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ؛ أى هؤلاء الذين أصلحوا واتقوا ؟ المقابل هو ما يأتى فى قوله الحق :

﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

ولماذا يكون مصير المكذبين بالآيات والمستكبرين عنها أن يكونوا أصحاب النار ويكونوا فيها خالدين ؟ لأنهم وإن تيسرت لهم أسباب الحياة لم يضعوا فى حسابهم أن يكون لهم نصيب فى الآخرة ولم يلتفتوا إلى الغاية ، وغاب عنهم الإيمان بقول الحق :

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ

مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾

(سورة الشورى)

وهب أن الواحد منهم قد أخذ ما أخذ فى الدنيا ، فلماذا نسى أنها موقوتة العمر ؟ ولماذا لم يلتفت إلى الزمن فى الآخرة ؟ . عليك أن تعلم أنك فى هذه الدنيا ، خليفة فى الأرض ، ومادمنا جميعاً أبناء جنس واحد ومخلوقين فيها والسيادة لنا على الأجناس فلابد أن تكون لنا غاية متحدة ؛ لأن كل شىء اختلفنا فيه لا يعتبر غاية ، فالغاية الأخيرة هى لقاء الله ؛ لأن النهاية المتساوية فى الكون هى الموت ليسلمنا لحياة ثانية ، فالذى يستكبر عن آيات الله هو من دخل فى صفقة خاسرة ؛ لأن من يقارن هذه الدنيا بالحياة الأخرى سيجد أن زمن الإنسان فى الدنيا قليل ، وزمن الآخرة لا نهاية له . وعمر الإنسان فى الدنيا مظنون غير متيقن ، والمتعة فيها على قدر أسباب الفرد وإمكاناته ، لكن الآخرة متيقنة ، ونعيم المؤمن فيها على قدر طلاقة قدرة الله .

﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾

(من الآية ٣٦ سورة الأعراف)

وأصحاب النار . يعنى أن يصاحب ويلازم المذنب النار كما يصاحب ويلازم الإنسان منا صاحبه ؛ لأن النار على إلف بالعاصين ، وهى التى تتساءل: ﴿ هل من مزيد ﴾ ؟ .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ۚ
أُوْلَـٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ
رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓا۟ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ

ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾

و﴿ فمن أظلم ﴾ تأتى على صيغة السؤال الذى لن تكون إجابته إلا الإقرار . ولا أحد أظلم ممن افترى على الله الكذب ؛ لأنه أولاً ظلم نفسه ، وظلم أمته ، وأول ظلم النفس أن يرتضى حياة زائلة وأن يترك حياة أبدية ، وأما ظلمه للناس فلأنه سيأخذ أوزار ما يفعلون ؛ لأنه قد افترى على الله كذباً. ﴿ أو كذب بآياته ﴾ .

أى قوَّل الله ما لم يقله ، أو كذَّب ما قاله الله ، وكلا الأمرين مساوٍ للآخر . والآية ـ كما نعلم ـ هى الأمر العجيب ، والآيات أُطلقت فى القرآن على معانٍ متعددة ؛ فالحق يقول :

﴿ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ ﴾

(من الآية ٣ سورة فصلت)

وكذلك أطلقت على المعجزات التى يرسلها الله تأييداً لرسله .

﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴾

(من الآية ٥٩ سورة الإسراء)

فالآيات هنا هى المعجزات أى الأمور العجيبة .

وحدثنا القرآن عن الآيات الكونية فقال سبحانه :

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة فصلت)

فالآية إذن هى الشىء العجيب وهى تشمل آيات القرآن ؛ لأنك حين تنظر إلى نظم آيات القرآن ، وإلى استيعابها إلى حقائق الوجود وإلى استيفائها لقضايا الكون

كله تقول لنفسك : هذا شيء عجيب ، لأن الذى جاءت على لسانه هذه الآيات نبى أمى ، ما عُرف عنه أنه زاول تعلماً ، وما جربوا عليه أنه قال شعراً ، أو نثراً ، أو له رياضة فى الكلام ، وبعد ذلك ما جرب حكم أمم ، وما درس تاريخ الأمم حتى يستنبط القوانين التى أعجزت الحضارات المعاصرة عن مجاراتها .

إن الأمة البدوية حينما ذهبت بمنهجها إلى الفرس ، وكانت الفرس لها حضارة الشرق كلها ، وعلى الرغم من ذلك أخذت الفرس قوانينها من هذه الأمة البدوية ، وكان كل نظام هذه الأمة المتبدية قبل مجئ الرسالة مع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يتلخص فى نظام القبيلة وكل قبيلة لها رئيس ، وبعد أن جاءت رسالته صلى الله عليه وسلم جاء بنظام يجمع أمم العالم كلها ، ثم ينجح فى إدارة الدنيا كلها ، وهذه مسألة عجيبة ، وكل آية من هذه الآيات كانت معجزة وعجيبة .

وكذلك الآيات الكونية التى نجدها تتميز بالدقة الهائلة ؛ فالشمس والقمر بحسبان ، وكل فى فلك يسبحون ، إنه نظام عجيب .

إذن فالعجائب فى الآيات هى آيات القرآن ، والمعجزات والآيات الكونية . وكيف يكذبون إذن بالآيات ؟ . ألا ينظرون إلى الكون ، وما فيه من دقة صنع وهندسة بناء تكوينى لا تضارب فيه ؟ وهى آيات تنطق بدقة الخالق ؛ فهو العالم ، القادر ، الحكيم ، الحسيب . وكذلك كيف يكذبون الرسول القادم بالمعجزات ، ويقولون : إنه ساحر ، وحين تتلى عليهم آيات القرآن يكذبونها . إذن هم لم ينظروا فى آيات الكون ليستنبطوا منها عظمة الصانع وحكمته ودقته ، ولم يلتفتوا إلى الإيمان به قمة عقيدية ، وكذلك كذبوا بالآيات المعجزات التى جاء بها الرسل فلم يصدقوا الرسل وآخرها وقمتها آيات القرآن العظيم .

وحينما عرض الحق سبحانه وتعالى هذه القضية ، تساءل : كيف تقولون . إنه سحر الناس فآمنوا به ، فلماذا لم يسحركم أنتم ؟ . وحينما قالوا :

﴿ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ﴾

(من الآية ١٠٣ سورة النحل)

قال الحق :

﴿ لِسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾

(من الآية ١٠٣ سورة النحل)

وقالوا :

﴿ وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ ﴾

(سورة الفرقان)

فيُعَلّم الحق رسوله أن يقول :

﴿ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾

(من الآية ١٦ سورة يونس)

وهنا يأمر الحق رسوله أن يذكرهم بأنه عاش بينهم أربعين عاماً فهل عرف عنه أنه يقول أو يتكلم بشىء من هذا ؟

فهل يترك الحق من كذبوا بالآيات ؟ إنهم خلق من خلق الله ، والله استدعاهم إلى الوجود ، لذلك يضمن لهم مقومات الحياة ، وأمر أسباب الكون أن تكون فى خدمة هؤلاء المكذبين الكافرين كما هى فى خدمة الطائعين المؤمنين . ومن يُحسن منهم الأسباب يأخذ نتائجها ، وإن أهمل المؤمنون الأخذ بالأسباب فلن يأخذوا نتائجها ، وكل هذا لأنه عطاء ربوبية ولأنه خلق فلا بد أن يرزق ، والنواميس الكونية تخدم الطائع وتخدم العاصى ؛ لأن ذلك من سنة الله ولن يجد أحد لسنة الله تبديلا .

إذن فكفرهم لن يمنع عنهم نصيبهم من الكتاب الذى قَدَّر لهم ، من الرزق والحياة ، ما هو مسطر فى الكتاب الذى أنزل عليهم ؛ لذلك يقول الحق :

﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة الأعراف)

أو ينالهم ، أى يصيبهم عذاب مما هو مبين فى الكتاب الذى أرسلناه ليوضح أن الطائع له الثواب ، والعاصى له العقاب ، فيقول الحق هنا :

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓاْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة الأعراف)

وساعة تسمع ﴿ يتوفونهم ﴾ تفهم أن الحياة تنتهى ، وتنفصل الروح عن الجسد فهذا هو « التوفى » ، فمرة ينسب إلى الحق الأعلى سبحانه وتعالى ، ومرة ينسب إلى المَلَك ، ومرة يراد منه أتباع المَلَك أى جنوده يقول ـ سبحانه ـ : ﴿ حتى إذا جاء أحدهم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون ﴾ ، والأساليب الثلاثة ملتقية ؛ لأن ملك الموت لم يأت بالموت من عنده ، بل أخذ التلقى من الله ، فالأمر الأعلى من الله ، وأمر التوسط للملك ، وأمر التنفيذ للرسل .

و « التوفى » على إطلاقه هو استيفاء الأجل ، فإن كان أجل الحياة فهو توفية بالموت ، وإن كان الأجل البرزخ وهو المدة التى بين القبر والحساب . إلى أن يجئ ميعاد دخولهم النار فهذا هو توفى أجلهم الثانى ؛ لأن كل إنسان له أجلان : أجل ينهى هذه الحياة ، والأجل الذى يأخذه فى البرزخ إلى أن يجىء الحساب .

وهذا لا يمنع أن يقال : إن قيامة كل إنسان تأتى بموته ؛ لأن للقيامة مراحل بدءا من القبر ونهاية بالخلود فى الجنة أو فى النار .

وحين تسألهم الملائكة :

﴿ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة الأعراف)

هم إذن يعترفون أن من كانوا يدعونهم من دون الله قد غابوا واختفوا ولا يظهر لهم أثر .

﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾

(من الآية ١٠ سورة السجدة)

وهم ـ إذن ـ يقرون غياب من كانوا يدعونهم من دون الله ، والمراد أنه لا وجود لهم ، وهم بذلك قد شهدوا على أنفسهم بكفرهم . ولكن هذه الشهادة لا تجدى لأن زمن التكليف قد انتهى ، وهم الآن فى دار قهر لكل ما يريده الله ؛ ففى دار التكليف كان الإنسان حرًّا أن يفعل أو ألاّ يفعل ، ولكن فى الدار الآخرة لا تنفع هذه الشهادة . وذلك لتبين عدالة الجزاء الذى يصيبهم ، ولن يتأبوا على الجزاء ؛ لذلك يقول الحق :

﴿ قَالَ ٱدْخُلُواْ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾

ويوضح لنا الحق أنه بأوامر ﴿ كن ﴾ سيدخلون النار كما دخلتها أمم قد خلت من قبلهم فليسوا بدعاً ، وليدخلوا معهم إلى المصير الذى يذهبون إليه ، وهم أمم خليط ؛ لأن الكفر سوف يلتقى كله فى الجزاء .

إن الاقتداء بالأمم التى سبقت هو الذى قادهم إلى الكفر ؛ فالأمم التى سبقت كانت أسوة فى الضلال للأمة التى لحقت ، فإذا ما دخلوا لعنوهم .

وهب أن إنساناً دخل مرة السجن لجرم ارتكبه ، وبعد ذلك دخل عليه من كان

يغريه بالجرم . ومن كان يزين له ، ومن اقتدى به . بالله ساعة يلتقيان فى السجن ألا يلعن الأول الثانى ؟

﴿ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴾

(من الآية ٣٨ سورة الأعراف)

وبعد أن يلحق بعضهم بعضاً ويجتمعوا ، يحدث بينهم هذا الحوار العجيب :

﴿ قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴾

(من الآية ٣٨ سورة الأعراف)

فإن قلت الأخرى أى التى دخلت النار متأخرة كانت الأولى هى القدوة فى الضلال وقد سبقتهم إلى النار ، ﴿ قالت أخراهم لأولاهم ﴾ ، أى أن الأولى هم القادة الذين أضلوا ، والطائفة الأخرى هم الأتباع الذين قلدوا . ﴿ قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا ﴾ . وهم يتوجهون بالكلام إلى ربنا : ﴿ ربنا هؤلاء أضلونا ﴾ .

كيف يتأتى هذا ؟ . وكان المقياس أن يقول : قالت أخراهم لأولاهم أنتم أضللتمونا لكن جاء هذا القول ، لأن الذين أضلوا غيرهم أهون من أن يخاطبوا ؛ ولأن الموقف كله فى يد الله ، وإذا ما قالوا لله المواجه للجميع : ﴿ هؤلاء أضلونا ﴾ فهؤلاء ، هذه إشارة إليهم ، فكأن القول موجه لله شهادة منهم إلى من كان وسيلة لإضلالهم وهم يقولون لربنا هذا حتى يأخذوا عذاب الضعف من النار مصداقاً لقوله الحق :

﴿ فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴾

(من الآية ٣٨ سورة الأعراف)

فقال الله لهم جميعاً : ﴿ لكل ضعف ولكن لا تعلمون ﴾ .

فلكل أمة منهم ضعف العذاب بما ضلت وأضلت . ونفهم أن الضّعْف معناه « شيء مساوٍ لمثله » ، فأنتم أيها المقلدون غيركم قد أضللتم سواكم بالأسوة أيضاً ؛ لأنكم كثّرتم عددهم وقويتم شوكتهم وأغريتم الناس باتباعهم .

ويكون لكم ضعف العذاب بحكم أنكم أضللتم أيضاً ، وأنتم لا تعلمون أن من يحاسبكم دقيق فى الحساب ، ويعطى كل إنسان حقه تماماً .

وماذا تقول أولاهم لأخراهم ؟ يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾

أى ما دمتم ستأخذون ضعف العذاب مثلنا فقد تساوت الرءوس « فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون » كأن المجرم نفسه ساعة يلتقى ويستقبل مجرماً مثله ، يقول له : اشرب من العذاب نفسه ، وليس ذلك تجنياً من الله ، ولا بسلطة القهر لعباده ، ولكن بعدالة الحكم ؛ لأن ذلك إنما حدث بسبب ما كسبتم .

ومعلوم أن التذوق فى الطعوم ، فهل هم يأكلون العذاب ؟ . لا ، إنّ الحق قد جعل كل جارحة فيهم تذوق العذاب ، و الحق حين يريد شمول العذاب للجسم يجعل لكل عضو فى الجسم حساسية الذوق كالتى فى اللسان .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾

(من الآية ١١٢ سورة النحل)

وهذه هى الإذاقة ، كأنها صارت لباساً من الجوع يشمل الجسد كله ، والإذاقة أشد الإدراكات تأثيراً ، واللباس أشمل للجسد . (فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون) .

ولم يقل الحق : بما كنتم تكتسبون ؛ لأن اكتسابهم للسيئات لم يعد فيه افتعال ، بل صار أمراً طبيعياً بالنسبة لهم ، وعلى الرغم من أن الأمر الطبيعى فى التكوين أن يصنع الإنسان الحسنة دون تكلف ولا تصنّع ، وفى السيئات يجاهد نفسه ؛ لأن ذلك يحدث على غير ما طبع عليه ، ولكن هؤلاء من فرط إدمانهم للسيئات فسدت فطرتهم ولم تعد ملكاتهم تتضارب عند فعل السيئات ، بل صاروا يرتكبون الإثم كأمر طبيعى ، وهذا هو الخطر الذى يحيق بالمسرفين على أنفسهم ؛ لأن الواحد منهم يفرح بعمل السيئات .
ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾

والحق يريد أن يعطى حكماً جديداً ويحدد من هو المحكوم عليه ليُعرف بجريمته ، وهى جريمة غير معطوفة على سابقة لها ، وليعرف كل إنسان أن هذه جريمة ، وأنّ من يرتكبها يلقى حكماً وعقاباً . (إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها) .

وقد عرفنا من قبل معنى الآيات ، وأنها آيات القرآن المعجزة أو الآيات الكونية ، وأى إنسان يظن نفسه أكبر من أن يكون تابعاً لمنهج جاء به رسول عرف بين قومه بأمانته ، هذا الانسان يستحق العقاب الشديد . فصحيح أن محمداً صلى الله عليه وسلم لم يكن له من الجاه ولا السلطان ما ينافس به سادة وكبراء قريش ، ولذلك وجدنا من يقول :

﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾

(سورة الزخرف)

إنهم يعترفون بعلو القرآن ، لكنهم تمنوا لو أن القرآن قد نزل على إنسان غيره بشرط أن يكون من العظماء بمعاييرهم وموازينهم المادية .

ومن يكذب الآيات ويستكبر عن اتباع الرسول لا تفتح له أبواب السماء .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾

(الآية ٤٠ سورة الأعراف)

وبذلك نعرف من هم الذين لا تفتح لهم أبواب السماء ، وبطبيعة الحال نعرف أن المقابلين لهم هم الذين تفتح لهم أبواب السماء . . إنهم المؤمنون ، وحين تصعد أرواحهم إلى الملأ الأعلى تجد أعمالهم الصالحة تصعد وترتفع بهم إلى أعلى . أما المكذبون فهم لا يترقوْن بل يهبطون ولا يدخلون الجنة ، وقد علق سبحانه دخول الجنة بمستحيل عقلاً وعادة وطبعاً : (ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط) .

و « سم الخياط » هو ثقب الإبرة ، أى الذى تدخل فيه فتلة الخيط ، ولا تدخل فتلة الخيط فى الثقب إلا أن يكون قطر الفتلة أقل من قطر الثقب ، وأن تكون الفتلة من الصلابة بحيث تنفذ ، وأن تكون الفتلة غير مستوية الطرف ؛ لأنها إن كانت مقصوصة وأطرافها مستوية فهى لا تدخل فى الثقب ؛ لذلك نجد الخياط يجعل للفتلة سناً ليدخلها فى ثقب الإبرة .

وحين نأتى بالجمل ونقول له : ادخل فى سم الخياط ، فهل يستطيع ؟ طبعاً لا ؛ لذلك نجد الحق سبحانه قد علق دخول هؤلاء الجنة على مستحيل .

بعض الناس قالوا : وما علاقة الجمل بسم الخياط ؟

نقول : إن الجمل يطلق أيضا على الحبل الغليظ المفتول من حبال ، مثل حبال المركب إننا نجده سميكاً مجدولاً .

وأخذ الشعراء هذه المسألة ؛ ونجد واحداً منهم يصف انشغاله بالحبيب وشوقه إليه وصبابته به حتى يهزل ويستبد به الضعف فيقول :

ولو أن ما بى من جوى وصبابة
على جمل لم يدخل النار كافر

لأن الجوى والصبابة التى يعانى منهما هذا الشاعر ، لو أصيب بهما الجمل فلسوف ينحف وينحف ويهزل ، إلى أن يدخل فى سم الخياط ، وهنا يوضح ربنا : إن دخل الجمل فى سم الخياط فسوف أدخلهم الجنة .

﴿ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾

(من الآية ٤٠ سورة الأعراف)

وهم يستحقون هذا الجزاء بما أجرموا .
ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ ﴾

المهاد هو الفراش ، ومنه مهد الطفل ، والغاشية هى الغطاء ، أى أن فرش هذا المهاد وغطاءه جهنم . وفى آية أخرى يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ﴾

(من الآية ١٦ سورة الزمر)

إذن الظلل والغواشى تغطى جهتين فى التكوين البعدى للإنسان ، والأبعاد ستة وهى : الأمام والخلف ، واليمين والشمال ، والفوق والتحت ، والمهاد يشير إلى التحتية ، والغواشى تشير إلى الفوقية ، وكذلك الظلل من النار ، ولكن الحق شاء أن يجعل جهنم تحيط بأبعاد الكافر الستة فيقول سبحانه :

﴿ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الكهف)

وهذا يعنى شمول العذاب لجميع اتجاهات الظالمين .

وجهنم مأخوذة من الجهومة وهى الشىء المخوف العابس الكريه الوجه ، ثم يأتى بالمقابل ليشحن النفس بكراهية ذلك الموقف ، ويحبب إلى النفس المقابل لمثل هذا الموقف ، فيقول سبحانه :

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾

وبهذا يخبرنا الحق أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات هم أصحاب الجنة وهم فيها خالدون ، ويضع لنا الحق تنبيهاً بين مقدمة الآية وتذييلها « لا نكلف نفساً إلا وسعها » ؛ لنفهم أن المسرفين على أنفسهم بالكفر وتكذيب الآيات لم يفهموا حقيقة الإيمان ، وأن حبس النفس عن كثير من شهواتها هو فى مقدور النفس وليس فوق طاقتها ؛ لذلك أوضح لنا سبحانه أنه كلف بـ « افعل ولا تفعل » وذلك فى حدود وسع المكلَّف .

وحين نستعرض الصورة إجمالاً للمقارنة والموازنة بين أهل النار وأهل الجنة نجد الحق قد قال فى أهل النار :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

فهم لن يدخلوا الجنة ، وعلى ذلك فقد سلب منهم نفعاً ، ولا يتوقف الأمر على ذلك ، ولكنهم يدخلون النار ، إذن فهنا أمران : سلب النافع وهو دخولهم الجنة ، إنه سبحانه حرمهم ومنعهم ذلك النعيم ، وذلك جزاء إجرامهم . وبعد ذلك كان إدخالهم النار ، وهذا جزاء آخر ؛ فقال الحق :

﴿ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

فى الأولى قال : ـ سبحانه ـ (وكذلك نجزى المجرمين) .
وفى الثانية قال : (وكذلك نجزى الظالمين) .
فكأن الإجرام كان سبباً فى ألاّ يدخلوا الجنة ، والظلم كان سبباً فى أن يكون من فوقهم غواش ، ولهم من جهنم مهاد ، وهم فى النار يحيطهم سرادقها .

ومن المناسب بعد تلك الشحنة التى تكُرِّهنا فى أصحاب النار وفى سوء تصرفهم فيما كلفوا به أولاً ، وبسبب بشاعة جزائهم ثانيا ؛ أن نتلهف على المقابل . فقال سبحانه :

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

وقول الحق سبحانه وتعالى : « لا نكلف نفساً إلا وسعها » جاء بين المبتدأ والخبر ، ككلام اعتراضى ؛ لأن الأسلوب يقتضى إبلاغنا أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم الخلود فى الجنة ، وجاءت « لا نكلف نفساً إلا وسعها » بين العمدتين وهما المبتدأ والخبر ؛ لأننا حينما نسمع « والذين آمنوا » فهذا عمل قلبى ، ونسمع بعده « وعملوا الصالحات » وهذا عمل الجوارح ، وبذلك أى بعمل القلب مع عمل الجوارح يتحقق من السلوك ما يتفق مع العقيدة . والاعتقاد هو ما يسهل دائما السلوك الإيمانى ويجعل مشاق التكاليف فى الأعمال الصالحة مقبولة وهينة ، ولذلك أوضح سبحانه : إياكم أن تظنوا أنى قد كلفتكم فوق طاقتكم ، لا ؛ فأنا لا أكلف إلا ما فى الوسع ، وإياكم أن تفهموا قولى:« والذين آمنوا وعملوا الصالحات » هو رغبة فى إرهاق نفوسكم ، ولكن ذلك فى قدرتكم لأننى المشرع ، والمشرع إنما يضع التكليف فى وسع المكلَّف .

ونحن فى حياتنا العملية نصنع ذلك ؛ فنجد المهندس الذى يصمم آلة يخبرنا عن مدى قدراتها ، فلا يحملها فوق طاقتها وإلا تفسد . وإذا كان الصانع من البشر لا يكلف

الآلة الصماء فوق ما تطيق ، أيكلف الذى خلق البشر فوق ما يطيقون ؟ محال أن يكون ذلك .

إذن فيجب أن نوصد الباب أمام الذين يحاولون أن يتحللوا من التزامات التكليف عليهم ، فلا تعلق الحكم على وسعك الخائر الجائر ، ولكن علق الوسع على تكليف الله ، فإن كان قد كلف فاحكم بأن ذلك فى الوسع ؛ والدليل على كذب من يريد الافلات من الحكم هو محاولته إخضاع الحكم لوسعه هو ؛ أنّ غيره يفعل ما لا يريد أن يفعله . فحين ينهى الحق عن شرب الخمر تجد غيرك لا يشرب الخمر امتثالاً لأمر الله ، وكذلك تجد من يمتنع عن الزنا أو أكل الربا ؛ فإذا كان مثيلك وهو فرد من نوعك قادراً على هذا العمل فمن لا يمتنع عن مثل هذه المحرمات هو المذنب لا لصعوبة التكليف .

فالتكليف هو أمر الشارع الحكيم بـ«افعل» و«لاتفعل» وسبحانه لايكلف الإنسان إلّا إذا كان قادراً على أن يؤدى مطلوبات الشرع ؛ لأن الله لا يكلف إلا على قدر الطاقة ، واستبقاء الطاقة يحتاج إلى قوت ، طعام ، شراب ، لباس ، وغير ذلك مما تحتاج إليه الحياة ، ولذلك أوضح سبحانه أنه يوفر للإنسان كل ماديات الحياة الأساسية ، وإياكم أن تظنوا أن الله حين يكلف الإنسان يكلفه شططاً ، ولكن الإنسان هو الذى يضع نفسه فى موضع الشطط . فقال :

﴿ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ ﴾

(من الآية ٧ سورة الطلاق)

« قدر على رزقه » أى ضيق عليه قليلاً .

ويقول سبحانه :

﴿ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ﴾

(من الآية ٧ سورة الطلاق)

إذن لا تفترض وتقدر أنت تكاليف المعيشة ثم تحاول إخضاع وارداتك إلى هذا التصور ، بل انظر إلى الوارد إليك وعش فى حيز وإطار هذا الوارد ، فإن كان دخلك مائة جنيه فرتب حياتك على أن يكون مصروفك يساوى دخلك ؛ لأن الله لا يكلفك إلا ما آتاك .

ولننظر إلى ما آتانا الله ؛ لذلك لا تدخل فى حساب الرزق إلا ما شرع الله ، فلا تسرق ،

ولا تنهب ولا تختلس ولا ترتش ثم تقول : هذا ما آتانى الله ، لا ، عليك ألاّ تأخذ ولا تنتفع إلا بما أحل الله لك ، فإن عشت فى نطاق ما أحل الله يعينك الله على كل أمرك وكل حاجاتك ، لأنك تحيا بمنهج الله ، فيصرف عنك الحق مهمات الحياة التى تتطلب أن تزيد على ما آتاك الله ، فلا تخطر على بالك أو على بال أولادك . وتجد نفسك ـ على سبيل المثال ـ وأنت تدخل السوق وآتاك الله قدراً محدوداً من المال ، وترى الكثير من الخيرات ، لكن الحق يجعلك لا تنظر إلا فى حدود ما فى طاقتك ، وكذلك يُحسّن لك الله ما فى طاقتك ويبعد عنك ما فوق طاقتك ؛ لأن الله لا يكلف نفساً إلا ما آتاها ، ولا يحرك شهوات النفس إلا فى حدود ذلك .

ولذلك قال الحق :

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

وأصحاب الجنة هم الذين لا يفارقونها مثلما يحب الصاحب صاحبه ؛ فالجنة تتطلبهم ، وهم يتطلبون الجنة ، والحياة فيها بخلود وما فاتك من متع الدنيا لم يكن له خلود ، وأنت فى الدنيا تخاف أن تموت وتفوت النعمة ، وإن لم تمت تخاف أن تتركك النعمة ؛ لأن الدنيا أغيار ، وفى ذلك لفت لقضايا الله فى كونه ، تجد الصحيح قد صار مريضاً ، والغنى قد صار فقيراً ، فلا شىء لذاتية الإنسان . وبهذا يعدل الله ميزان الناس فيأتى إلى الحالة الاقتصادية ويوزعها على الخلق ، ونجد الذى لا يتأبى على قدر الله فى رزقه وفى عمله يجعل الله له بعد العسر يسراً . وفى الجنة يُخلى الله أهلها من الأغيار .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ

وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾

وقوله الحق: « ونزعنا ما فى صدورهم من غل » ينطبق ـ أيضا ـ على أهل الاجتهاد الذين اجتهد كل منهم فى الدنيا ، واختلفوا ، هؤلاء يبعثون يوم القيامة وليس فى صدر أحدهم غل ولا حقد . ولذلك تجد سيدنا الإمام علياً ـ كرم الله وجهه ـ حين يقرأ هذه الآية يقول : « اللهم اجعلنى أنا وعثمان وطلحة والزبير من هؤلاء » . لأن هؤلاء هم الذين وقع بينهم الخلاف فى مسألة الخلافة ، وكل منهم صحابى ومبشر بالجنة ، فإن كانت النفوس قد دخلت فيها أغيار ، فإياكم أن تظنوا أن هذه الأغيار سوف تصحبكم فى دار الجزاء فى الآخرة ؛ لأن الله يقول : (ونزعنا ما فى صدورهم من غلٍ) .

إن الخلاف كان خلافاً اجتهادياً بين المؤمنين وهم قد عملوا الصالحات وكل منهم أراد الحسن من الأعمال ، ونشأ عن ذلك فى أغيار الدنيا شىء من عمل القلب ، فأوضح سبحانه : إياكم أن تفهموا أن ذلك سوف يستمر معهم فى الآخرة ؛ لأنهم جميعاً حينما اختلفوا كانوا يعيشون باجتهادات الله ، وفى الآخرة لا اجتهاد لأحد . ويريد الحق أن يجعل هذا الأمر قضية كونية ، ومثال ذلك تجد رجلاً قد تزوج امرأة بمقاييس غير مقاييس الله فى الزواج ؛ تزوجها لأنها جميلة مثلاً ، أو لأن والدها له جاه أو غنى ، وبعد الزواج لم يعطه والدها الغنى شيئاً من ماله فيقول : غشنى وزوجنى ابنته ، أو كانت جميلة ، ثم لقى فيها خصالاً قبيحة كثيرة فكرهها ، ونقول لمثل هذا الرجل : مادمت لم تأخذها بمقاييس الله فعليك أن تنال جزاء الاختيار .

ولكن من تزوج امرأة على دين الله ، ووجد منها قبحاً ، فلن يصحبه هذا القبح فى الآخرة ، ولذلك نجد الحق قد جاء بهذه القضية بالذات ، ولم يأت بها فى الأبناء أو فى البنات ، بل فى الزوج والزوجة لأنهما عماد الأسرة . فبيّن للرجل : إياك أن تتخيل أن المرأة التى غاظتك أو أتعبتك أو كدرت عليك بخصلة سيئة فيها ، إياك أن تظن أن هذه الخصلة السيئة ستصاحبها فى الآخرة ، ولذلك قال سبحانه :

﴿ وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ﴾

(من الآية ١٥ سورة آل عمران)

وأزواج مطهرة من الأشياء التى كنت تغضب منها وستكون مطهرة بتطهير الله لها .

﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾

(من الآية ٤٣ سورة الأعراف)

ونجد الحق يقول مرة : « تجرى تحتها الأنهار » ومرة يقول : « تجرى من تحتهم الأنهار » ، ونجد « مِن » فارقاً بين القولين . إننا نرى من يستقر فى قصر ونجد الماء منساباً حوله وتحته يسر العيون ، وماء الآخرة هو ماء غير آسن ، وليس فيه أكدار الدنيا ، وكما أننا نسر بالماء فى الدنيا سنسر به أضعاف ذلك فى الآخرة . وقد تجرى المياه تحت القصر ولكن نبعها من مكان بعيد فيخاف صاحب القصر أن يقطعها آخر عنه ، ويطمئن الحق عباده الصالحين : ستجرى من تحت جنانكم الأنهار وكل المياه ستكون ذاتيتها من موقع كل مكون أنت فيه ولن يتحكم فيك أحد ، ولن يسد أحد عنك منبع المياه وسترى أنهار الآخرة بلا شطآن ؛ لأن كل شىء ممسوك لا بالأسباب كما فى الدنيا ، ولكن بـ « كن » التى هى لله . ولذلك يقول العباد فى جنة الآخرة :

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ﴾

(من الآية ٤٣ سورة الأعراف)

إنهم يقولون الحمد لله لأنه جل وعلا قد جمعهم ودلهم وأرشدهم إلى الثواب والنعيم دون منغصات ، والحمد لله هى عبادة يقولها المؤمنون فى الآخرة ؛ لأنهم أدوا حق الله فى تكاليفه فى الدنيا ويعطيهم الله فوق ما يتوقعون فى الآخرة . ونعيم الآخرة لا قيد عليه ، ولن يستطيع بشر مهما ارتقى بالابتكار أن يصل إلى ما فى الجنة ؛ لأن الشىء يتحقق لك من فور أن يخطر ببالك . (وقالوا الحمد لله) .

وهذا الحمد لله كان فى الدنيا عبادة تكليف ، أمّا فى الآخرة فهو « عبادة غبطة وسرور وتلذذ . (وقالوا الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله) .

يقولها المؤمن ؛ لأن الله لو لم ينزل منهجاً سماوياً يحدد له حركة حياته استقامة وينذره

ويخوفه من المعاصى لما وصل إلى الجنة . والهداية ـ كما قلنا ـ هى الدلالة على الطريق الموصل للغاية ، إذن لابد أن تعرف الغاية أولاً ثم تضع الطريق الموصل لها ، بحيث لا يكون معوجاً ولا يعترضك فيه ما يطيل عليك المسافة ، وقوله الحق : « وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله » يمنع أن يضع البشر للبشر قوانين تهديهم إلى الغاية ؛ لأن البشر أنفسهم لا يعرفون الغاية ؛ لذلك يوضحها لهم خالقهم بمنهجه المنزل على رسوله .

ومادامت الهداية من الله فسبحانه لن يخاطب كل إنسان مباشرة ، لكنه سبحانه ينزل الرسل يتلون علينا آيات الله ويوضحون لنا المنهج ؛ لذلك يأتى الحق فى الآية نفسها بقوله الحكيم :

﴿ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ۖ وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

(من الآية ٤٣ سورة الأعراف)

أنت فى الحياة الدنيا حين تجد من يقول لك : إن أردت أن ترتاح فأنا أنصحك أن تمشى إلى المكان الفلانى واذهب إليه عن الطريق الفلانى ، وستجدك سعيداً مرتاح البال ، ثم صدقته ونفذت ما قال ، ووجدت الرجل صادقاً . ألا تشعر بالسعادة ؟ . وإذا كان الحق قد أرسل الرسل بالبينات والآيات والمنهج الصحيح ، وسار عليه المؤمنون ثم وجدوا الجنة والنعيم ؛ لذلك كان لابد أن يشكروا الله وأن يقولوا : (لقد جاءت رسل ربنا بالحق) . ولأن الرسل لم يكذبوهم بل جاءوا بالخير لهم .(ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون) .

وكأن الحق يوضح لنا ونحن فى دار التكليف أن نستقبل المنهج على هذا الأساس ، وعلى كل واحد أن يحدد مكانه من الجنة ؛ بقربه من منهج الله أو بعده عنه ؛ لأن دخول الجنة هو جزاء العمل طبقاً لمنهج الحق . ووقف العلماء هنا ـ جزاهم الله خيراً ـ وقالوا : كيف نوفق بين هذه الآية :

﴿ وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

(من الآية ٤٣ سورة الأعراف)

وبين قول الرسول صلى الله عليه وسلم :

(لن يُدخل أحداً عمله الجنة
قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟
قال : ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله بفضل ورحمة[١] .

وأقول : ليس هناك تناقض بين قول الله سبحانه وتعالى وقول الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم الذى بلغ عن الله سبحانه ، بل بينهما تأييد ؛ فالحق ساعة ما شرع أوضح أن من يعمل العمل الصالح سيدخل الجنة ، وهذا التشريع لم يجبر أحد الله عليه ، بل هو الذى يعطيه لنا فضلا منه ؛ فليس لأحد حق على الله ؛ لأنه لا يوجد عمل يعود بفائدة على الله ، واتباع المنهج إنما يعود على العبد بالمنفعة والخير ، فإن دخلت الجنة فهذا أيضاً بالفضل من الله . وينبهنا القرآن إلى الجمع بين هذه الآيات وأنه لا تعارض بين نص حديثى ونص قرآنى . يقول :

﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾

(سورة يونس)

فجزاء كل عمل عائد على الإنسان لأنّه يأخذ مكافأته على فعله ، فإن كانت المكافأة أكبر من جزاء الفعل فهى من الفضل ؛ لأن الحق هو القائل :

﴿ كُلُّ ٱمْرِىٍٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾

(من الآية ٢١ سورة الطور)

وسبحانه أيضاً هو القائل :

﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ ﴾

(سورة النجم)

إن فهمت اللغة وكنت صاحب ملكة ناضحة تقول : هذه « اللام » للملك . وتفيد أنه لا حق لك على الله إلا بسعيك على وفق منهج الله ، وأنّ هذه الآية قد حددت العدل ولم تحدد الفضل .

---

(١) رواه البخارى فى الرقاق والمرضى ومسلم فى صفات المنافقين والترمذى فى الجنائز وأبو داود فى الجنائز ، والنسائى فى الجنائز ، وابن ماجه فى الزهد ، وأحمد فى مسنده ٦/١٢٥ .

﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ ﴾

(من الآية ٥٨ سورة يونس)

والمثال على ذلك أننا كمسلمين نصلى على الميت المسلم ، وقد أمرنا التشريع بذلك ، وأن ندعو الله أن يتجاوز عن سيئاته . فهل تضيف هذه الصلاة إلى الميت شيئا زائداً عن عمله ؟ لو لم تكن هذه الصلاة تضيف شيئاً لما أمر التشريع بها . فهى صلاة على ميت مسلم ، وإسلامه من عمله ، ونجد الحق يقول :

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ ﴾

(من الآية ٢١ سورة الطور)

أى أن الآباء والأبناء يشتركون معاً فى الإيمان وفى العمل ، وقوله تعالى :

﴿ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾

(من الآية ٢١ سورة الطور)

هذا الإلحاق يفيد أن منزلة الذرية كانت أقل من منزلة الآباء ، لكن الحق يرفع من منزلتهم إكراماً للآباء . وهذا الإلحاق جزاء للذرية ، وقد يكون أيضاً جزاء للآباء ؛ فيحضر لهم أولادهم معهم مادام الكل قد اشتركوا فى الإيمان ، وكان الآباء يتحرون الحلال فى إطعام الأبناء ولا يربونهم إلا على منهج الله . وقد يرى الأب أبناء جار له يلبسون الملابس الفاخرة ويأكلون الأكل الطيب ، ويتحمل الأبناء ويعيشون عيش الكفاف مع هذا الأب الملتزم بالعمل الصالح والأجر الحلال ، وينال الأبناء الجنة مع الأب لأنهم تحملوا معه مشاق الالتزام بالحلال .

وهكذا نجد كل إنسان مؤمن قد أخذ نتيجة عمله وزيادة .

﴿ وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

(من الآية ٤٣ سورة الأعراف)

و « أورثتموها » من « الإرث » وتدل على أن هناك شيئا آل إلى الغير . ونعلم أن الله ، علم أزلا كيف سيسلك كل مخلوق وما سيفعله من كفر وإيمان وطاعة ومعصية ، وعلى رغم ذلك أعد سبحانه لكل واحد من خلقه مكانه فى الجنة على أنه مؤمن ، وأعد لكل

واحد من خلقه مكاناً فى النار على أساس أنه سيكفر .

إذن فقد أعدَّ سبحانه جناناً بعدد خلقه ، وأعدَّ أماكن فى الجحيم بعددهم ، فليست هناك أزمة أماكن عند إله قادر مقتدر . فإن آمنا كلنا فلن يضيق بنا واسع الجنة ، و ـ والعياذ بالله ـ إن كفر الخلق جميعاً فلن تضيق بهم النار . فإذا كانوا جماعة من خلق سيدخلون الجنة بالعمل ، فأين تذهب أماكن أهل النار ؟ إن الحق بفضل منه يمنحها المؤمنين .

إذن فقد ورثوا الذين لم يستحقوا الجنة بسبب الكفر .

وبعد الكلام فى الجنة والجزاء وفى حمد التلذذ والسرور والغبطة وفى عهد الجنة ، بعد ذلك كان من المناسب أن يتكلم الحق سبحانه وتعالى عن موقف أهل الجنة من أهل النار ؛ فيقول سبحانه :

﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا۟ نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾

وهكذا نرى التبكيت ، وتصور لنا الآية كيف يرى أهل الجنة أهل النار ، وهذا الترائى من ضمن النعيم ومن ضمن العذاب الأليم ، فحين يرى المؤمن بمنهج الله من عاداه وقهره وآذاه وهو فى النار فهذا من تمام اللذة . والآخر حين يرى مخالفه فى الجنة فهذا أيضاً من تمام العذاب . إذن لابد أن يتراءوا ، ولذلك يحدث الحوار ، وينادى أصحاب الجنة أصحاب النار معترفين بأنهم وجدوا ما وعدهم به الله حقاً وصدقاً ، وأن الحق قد وهبهم هذه الجنة . فهل ـ يا أهل النار ـ وجدتم ما وعد ربكم حقاً ؟

ونلاحظ أن هناك خلافاً بين الأسلوبين مع أن السياق المنطقى واحد ؛ فأهل الجنة يقولون : « قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً » ، ولم يأت بالكاف فى كلمة ماوعد (الثانية) بل قال : « فهل وجدتم ماوعد ربكم حقاً » ؟

إنه قال سبحانه : « ما وعد » فقط ، ولم يقل ما وعدكم كما قال : (ما وعدنا) لأن المراد أن يلفتهم إلى مطلق الوعد ، وليس الخاص بهم فقط ، بل وأيضا الخاص بالمقابل ، وهكذا يتحقق الوعد المطلق لله . فأهل الجنة بإيمانهم وأعمالهم فى الجنة فضلاً من الله ، وأهل النار فى النار بكفرهم وعصيانهم عقاباً من الله .

وهنا يجيب أهل النار : (قالوا نعم) .

وهذا إقرار منهم بالواقع المشهدى الذى عاشوه واقعاً بعد أن كان وعيداً ، وهم لم يكابروا لأن المكابرة إنما تحدث بين الخصمين فى غير مشهد ، وهم فى الدنيا قبل أن يوجد المشهد كانوا يكذبون البلاغ عن الله ، وصارت الدار الآخرة واقعاً ، وتحقق وجودهم فى النار .

﴿ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة الأعراف)

أى فينادى مناد من الملائكة يُسمع أهلَ الجنَّة وأهل النار بأن الطرد من رحمة الله على الظالمين الذين ظلموا أنفسهم ؛ بعدم الإيمان وبالتكذيب باليوم الآخر .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾

والذى يصد عن سبيل الله هو من امتنع عن سبيل الله ، وصد غيره ، أى ضلّ فى ذاته ثم أضل غيره ، وهؤلاء هم الذين يطلبون منهج الله معوجاً ، ويذمونه ولا يؤمنون به فيعترضون على إقامة الحدود والقصاص ، وينفرون الناس عن منهج الله ؛ لينصرف الناس عن الدين . هم إذن قد صدوا عن سبيل الله وطلبوا العوج فيما شرع الله لينفروا الناس عمّا شرع الله ، ولم يقتصر الأمر على ذلك ، بل هم بالآخرة كافرون ، ولو كان الواحد منهم مؤمناً بالآخرة ويعلم أن له مرجعاً ومرداً إلى الله لما فعل ذلك .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ (٤٦) ﴾

الحجاب موجود بين أصحاب الجنة وأصحاب النار ، وهم يتراءون من خلاله ، وبيّنه الحق سبحانه فقال :

﴿ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ (١٣) ﴾

(سورة الحديد)

باطن هذا الحجاب الرحمة من ناحية أهل الجنة ، وظاهره المواجه لأهل النارفيه العذاب ، والحق هو القادر على كل شيء ؛ لذلك لا ينال أهل الجنة شيء من شقاء أهل النار ، ولا ينال أهل النار شيء من نعيم أهل الجنة ، ويسمع أهل النار رداً على طمعهم فى أن ينالهم بعض من نور أهل الجنة ، إنكم تلتمسون الهدى فى غير موطن الهدى ؛ فزمن التكليف قد انتهى ، ومن كان يرغب فى نور الآخرة كان عليه أن يعمل من أجله فى الدنيا ، فهذا النور ليس هبة من خلق لخلق ، وإنما هو هبة من خالق لمخلوق آمن به . وأنتم تقولون : انظرونا نقتبس من نوركم ، وليس فى مقدور أهل الجنة أن يعطوا شيئاً من نور أهل الجنة فالعطاء حينئذ لله .

﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ ﴾

(من الآية ٤٦ سورة الأعراف)

و « كُلًّا » المعنىّ بها أصحاب الجنة وأصحاب النار ، فقد تقدم عندنا فريقان ؛

أصحاب الجنة ، وأصحاب النار وهناك فريق ثالث هم الذين على الأعراف ، و « الأعراف » جمع « عُرف » مأخوذ من عرف الديك وهو أعلى شيء فيه ، وكذلك عرف الفرس . كأن بين الجنة مكانا مرتفعاً كالعرف يقف عليه أناس يعرفون أصحاب النار بسيماهم ، ويعرفون أصحاب الجنة بسيماهم ، فكأن من ضمن السمات والعلامات ما يميز أهل النار عن أهل الجنة .

وكيف توجد هذه السمات ؟ يقال إن الإنسان ساعة يؤمن يصير أهلاً لا ستقبال سمات الإيمان ، وكلما دخل فى منهج الله طاعة واستجابة أعطاه الله سمة جمالية تصير أصيلة فيه تلازمه ولا تفارقه . وبالعكس من ذلك أصحاب النار فتبتعد عنهم سمات الجلال والجمال وتحل محلها سمات القبح والشناعة والبشاعة .

وإذا ما رأى أهل الأعراف أصحاب الجنة يقولون : سلام عليكم ؛ لأن الأدنى منزلة ـ أصحاب الأعراف ـ يقول للأعلى ـ أصحاب الجنة ـ سلام عليكم .

وجماعة الأعراف هم من تساوت سيئاتهم مع حسناتهم فى ميزان العدل الإلهى الذى لا يظلم أحداً مثقال ذرة .

والقرآن يقول :

﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩ ﴾

(سورة القارعة)

ويارب لقد ذكرت الميزان ، وحين قدرت الموزون لهم لم تذكر لنا إلا فريقين اثنين . . فريقا ثقلت موازينه ، وفريقا خفت موازينه ، ومنتهى المنطق فى القياس الموازينى أن يوجد فريق ثالث هم الذين تتساوى سيئاتهم مع حسناتهم ، فلم تثقل موازينهم فيدخلوا الجنة ، ولم تخف موازينهم فيدخلوا النار ، وهؤلاء هم من تعرض أعمالهم على « لجنة الرحمة » فيجلسون على الأعراف . ومن العجيب أنهم حين يشاهدون أهل الجنة يقولون لهم سلام عليكم على الرغم من أنهم لم يدخلوها ، ولكنهم يطمعون فى أن يدخلوا ، لأن رحمة الله سبقت غضبه .

﴿ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴾

(من الآية ٤٦ سورة الأعراف)

وبطبيعة الحال ليس فى هذا المكان غش ولا خداع .
وماذا حين ينظرون إلى أهل النار ؟

﴿ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾

انظر إلى التعبير القرآنى « صرفت أبصارهم » أى أنهم لم يصرفوا أبصارهم لأن المسألة ليست اختيارية ؛ لأنهم يكرهون أن ينظروا لهم لأنهم ملعونون ، وكأن فى « صرفت أبصارهم » لونا من التوبيخ لأهل النار .

وقوله الحق : « وإذا صرفت أبصارهم تلقاء » أى جهة أصحاب النار يقولون : (رَبَّنَا لا تجعلنا مع القوم الظالمين) .

هنا يدعو أهل الأعراف : يارب جنبنا أن نكون معهم . إنهم حين يرون بشاعة العذاب يسألون الله ويستعيذون به ألّا يدخلهم معهم .
ويقول الحق سبحانه :

﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾

وكأن أصحاب الأعراف قد صُرفت أنظارهم لأصحاب النار ويرون فيهم طبقات من المعذبين ، فهذا أبو جهل ، وذاك الوليد ، ومعه أمية بن خلف وغيرهم ممن كانوا يظنون أن قيادتهم لمجتمعهم وسيادتهم على غيرهم تعطيهم كل سلطان وكيان ، وكانوا يسخرون من السابقين إلى الإسلام كعمار وبلال وصهيب وخباب ، وغيرهم ممن عاشوا للحق ومع الحق ، فيقول أهل الأعراف لهؤلاء : (ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون) .

وكأنهم يقولون لهم : إنّ اجتماعكم على الضلال فى الدنيا لم ينفعكم بشىء . . شياطينكم ، والأوثان ، والأصنام والسلطان لم ينفعوكم وكذلك استكباركم على الدعوة إلى الإيمان هل أغنى ذلك عنكم شيئاً ؟ لا . لم يغن عنكم شيئاً .
ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾

ويشير أهل الأعراف إلى المؤمنين الصادقين من أمثال بلال وخباب ويقولون لأهل النار من أمثال أبى جهل والوليد بن المغيرة : أهؤلاء الأبرار من أهل الجنة الذين تقولون إنهم لن ينالوا رحمة الله ؟ هم إذن ـ أهل الأعراف ـ قد عقدوا المقارنة والموازنة بين أهل الجنة وأهل النار ، وكأنهم نسوا موقفهم فى انتظار الفرج وفرحوا بأصحاب الجنة ووبخوا أهل النار ، ولم يشغلهم حالهم أن يقفوا موقف الفصل فى هذه المسألة ، وهنا يدخل الحقُ سبحانه أصحاب الأعراف جنته لفرحهم بأصحاب الجنة ، وتوبيخهم أهل النار ويقول لهم :

﴿ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ﴾

(من الآية ٤٩ سورة الأعراف)

وهؤلاء ـ كما قلنا ـ هم الذين تساوت حسناتهم وسيئاتهم ؛ وهم الطائفة التى جلست على الأعراف ، فلم تثقل حسناتهم لتدخلهم الجنة ، ولم تثقل سيئاتهم ليدخلوا النار .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾

وينادى أصحاب النار أصحاب الجنة مستغيثين طالبين أن يعطوهم ويفيضوا عليهم من الماء أو من رزق الله لهم فى الجنة ، فيقول أهل الجنة : نحن مربوطون الآن بـ « كن » ، ولم يعد لنا الاختيار ، وقد حرم الله عليكم أى شىء من الجنة ومنعه عنكم ، فأنتم يا أهل النار ممنوعون أو هذه المتع ممنوعة عنكم . وحين يطلب أهل النار الماء ، فهم يطلبون أوليات الوجود ، فى نار أحاطت بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه .

ولذلك يقول الحق بعد ذلك عن الكافرين الذين حرم عليهم خير الجنة :

﴿ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾ ﴾

وهكذا يبين لنا الحق سبحانه وتعالى فى هذه الآية من هم الكافرون الذين حرّم عليهم الجنة ؛ إنهم من اتخذوا دينهم لهواً ولعباً ، وأول مرحلة تمر على الإنسان هى اللعب ثم تأتى له مرحلة اللهو . ونعلم أن كل فعل تُوَجَّه إليه طاقة فاعلة ، وقبل أن تُوجّه إليه الطاقة الفاعلة يمر هذا الفعل على الذهن كى يحدد الغاية من الجهد . وهذا المقصود له حدود ؛ إما أن يجلب له نفعاً ، وإما أن يدفع عنه ضُرّاً . وكل مقصد لا يجلب نفعاً ولا يدفع ضراً ، فهو لعب .

إذن فتعريف اللعب : هو فعل لم يقصد صاحبه به قصداً صحيحاً لدفع ضر أو جلب نفع . كما يلعب الأطفال بلعبهم ، فالطفل ساعة يمسك بالمدفع اللعبة أو السيارة اللعبة ، هل له مقصد صحيح ليوجه طاقته له ؟ . لا ؛ لأنه لو كان المقصد صحيحاً لما حطم الطفل لُعَبَهُ . والطفل غالباً ما يكسر لعبته بعد قليل ، وهذا دليل على أنه يوجه الطاقة إلى غير قصد صحيح ولا يجلب لنفسه نفعاً ولا يدفع عنها مضرة .

ولكن حين تُوَجَّه الطاقة إلى ما هو أدنى من المهم فهذا هو اللهو ، كأن يكون المطلوب منك شيئا وأنت توجه الطاقة إلى شيء آخر . والذى يعاقب عليه الله هو اللهو . أما اللعب فلا .

ولذلك نجد النبى ﷺ يطلب من الأهل أن يدربّوا الأبناء على شيء قد يفيد الأمة كالسباحة والرماية وركوب الخيل ، ولكن خيبة البشر فى زماننا أنهم جعلوا اللعب غاية لذاته . ومن العجيب أن اللعب صار له قانون الجد ولا يمكن أن يخرقه أحد دون أن يُعاقَب ؛ لأن الحَكم يرقب المباراة ، وإذا ما تناسى الحكم أمراً أو أخطأ هاج الجمهور . وأتساءل : لقد نقلتم قانون الجد إلى اللعب ، فلماذا تركتم الجد بلا قانون ؟

وكذلك نجد أن خيبة اللهو ثقيلة ؛ لأن الإنسان اللاهى يترك الأمر المهم ويذهب إلى الأمر غير المهم . فيجلس إلى لعبة النرد وهى الطاولة ويترك الشغل الذى ينتج له الرزق ، وليت هذا اللهو مقصورٌ على اللاهى ، ولكنه يجذب أنظار غير اللاهى ويأخذ وقته ، هذا الوقت الذى كان يجب أن يُستغل فى طاقة نافعة . وفساد المجتمعات كلها إنما يأتى من أن بعضاً من أفرادها يستغلون طاقاتهم فيما لا يعود على ذواتهم ولا على أمتهم بالخير . إذن فاللهو طاقة معطلة . (اتخذوا دينهم لهواً ولعباً وغرتّهم الحياة الدنيا) .

وغرورهم بالحياة الدنيا إنما يأتى من الأسباب التى خلقها الله مستجيبة لهم فظن كل منهم أنه السيد المسيطر . وحين غرتهم الحياة الدنيا نسوا الجد الذى يوصلهم إلى الغاية النافعة الخالدة ، ويكون عقابهم هو قول الله سبحانه :

﴿ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾

(من الآية ٥١ سورة الأعراف)

فهل يعنى قوله عز وجل : « ننساهم » أنه يتركهم لما يفعلون ؟ . لا ، بل تأخذهم

جهنم لتشويهم ، ونسيانهم هنا هو أنه ـ سبحانه ـ لا يشملهم بمظاهر فضله ولطفه ورحمته ويتركهم للنار تلفح وجوههم وتنضج جلودهم .

وهكذا يتأكد من جديد أن الدنيا هى المكان الذى يعد فيه الإنسان مكانه فى الآخرة ، فإن أراد مكاناً فى عليين فعليه أن يؤدى التكليف الذى يعطيه مكانه فى عليين . وإذا أراد مكانه أقل من ذلك فعليه أن يؤدى العمل الأقل . كأن الإنسان بعمله هو الذى يحدد مكانه فى الآخرة ؛ لأن الحق لا يجازى الخلق استبدادا بهم و افتياتاً أو ظلماً ، ولكنه يجازى الإنسان حسب العمل ؛ لذلك فهناك أصحاب الجنة ، وهناك أصحاب النار ، وهناك أصحاب الأعراف . وهذا العلم الذى يُنزله لنا الحق قرآناً ينذرنا ويبشرنا هو دليل لكل مسلم حتى نتنافس على أن تكون مواقعنا فى الآخرة مواقع مشرفة .

﴿ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

وحين يقول الحق سبحانه : « وما كانوا بآياتنا يجحدون » فالآيات إما آيات كونية :

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة فصلت)

وإما آيات قرآنية كقوله سبحانه :

﴿ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ ﴾

(من الآية ٣ سورة فصلت)

وإما أن تكون آيات معجزات لإثبات النبوة كقوله سبحانه :

﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴾

(من الآية ٥٩ سورة الإسراء)

هم إذن جحدوا الآيات كلها ، وكان أول جحود هو جحود بالآيات الكونية التى

شاهدوها قبل أن يأتى التكليف ، فهم عاشوا الليل والنهار . وتنفسوا الهواء ، واستمتعوا بدفء الشمس ، وروى المطر أراضيهم ووجدوا الكون مرتباً منظماً يعطى الإنسان قبل أن يكون للإنسان إدراك أو طاقة ، وكان يجب أن تلفتهم هذه الآيات إلى أن لهم خالقاً هو الحق الأعلى . وحين جاء لهم الموكب الرسالى جحدوا آيات المعجزات التى تدل على صدق الرسل . وحين جاء القرآن معجزاً جحدوا الآيات التفصيلية التى تحمل المنهج . إذن فلا عذر لهم فى شىء من ذلك لأن الحق يقول :

﴿ وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾

أى لا عذر لهم فى شىء من هذا الجحود ؛ لأن الكتاب مفصل ، وقد يقولون: إن الكتاب طارىء علينا ، وكذلك الرسول الذى جاء به . إذن فما موقفهم من الآيات الكونية الثابتة ؟ لقد جحدوها أيضا . (ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم) .

و« فصلناه » أى أنه سبحانه لم ينزل كلاما مجملاً أو مبهماً ، لا ، بل فيه تفصيل العليم الحكيم ، إنه فصّل أحكامه ومعانيه ومواعظه وقصصه حتى جاء قيما غير ذى عوج ، وسبحانه هو القادر أن ينزل المنهج المناسب لقياس ومقام كل إنسان .

إنه حينما يأتى إلينا من يستفتينا فى أى أمر ويحاول أن يلوى فى الكلام لنأتى له بفتوى تبرر له ما يفعله ، فنحن نقول له : ليس لدينا فتوى مفصلة ؛ لأن الفتاوى التى عندنا كلها جاهزة ، ولك أن تدخل بمسألتك فى أى فتوى .

﴿ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

(من الآية ٥٢ سورة الأعراف)

وهناك أناس سمعوا القرآن ورأوا الآيات واهتدوا ، فلماذا اهتدى هؤلاء وضل هؤلاء ؟ لقد آمن من صدق بالوجود الأعلى كما قلنا فى سورة البقرة :

﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ﴾

(سورة البقرة)

إذن فقد آمن بالقرآن من اهتدى إلى الحق ، ومنهم من أوضح الحق عنهم : أنهم حين يستمعون القرآن تفيض أعينهم من الدمع ، وأيضاً هناك من لا يلمس الإيمان قلوبهم حين يستمعون إلى القرآن .

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ﴾

(من الآية ١٦ سورة محمد)

وهؤلاء هم الذين غلظت قلوبهم فلم يتخللها أو يدخلها ويخالطها نور القرآن ، لذلك تجد الحق يرد عليهم بقوله سبحانه :

﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴾

(من الآية ١٦ سورة محمد)

ويقول سبحانه :

﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۚ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾

(من الآية ٤٤ سورة فصلت)

سبق أن ضربنا المثل بأن الفعل فى بعض الحالات واحد ، لكن القابل للفعل مختلف ، لذلك تكون النتيجة مختلفة . وعلى سبيل المثال : إذا كنت فى الشتاء ، وخرجت ووجدت الجو بارداً، وشعرت أن أطراف أصابعك تكاد تتجمد من البرد، فتضم قبضتيك معاً وتنفخ فيهما ، وقد تفعل ذلك بلا إرادة منك لتدفىء يديك . وكذلك حين يأتى لك كوب من الشاى الساخن جداً ، وتحب أن تشرب منه ، فأنت تنفخ فيه لتأتى له بالبرودة . والنفخة من فمك واحدة ؛ تأتى بحرارة ليديك ، وتأتى بالبرودة لكوب الشاى ، وهكذا فالفعل واحد لكن القابل مختلف . وكذلك القرآن فمن كان عنده استعداد للإيمان فهو يهتدى به ، ومن لا يملك الاستعداد فقلبه غلف عن الإيمان .

وموقف هؤلاء العاجزين عن استقبال الرحمة موقف غير طبيعى ، وماذا ينتظرون بعد هذا الكفر ، وبعد الافتئات وبعد الاستكبار وبعد التأبى وبعد اتخاذ الدين لهواً ولعباً ، ماذا ينتظرون ؟

ها هو ذا الحق سبحانه يوضح لهم العاقبة :

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾

وما معنى التأويل ؟ . . التأويل هو ما يؤول إليه الشىء ، هو العاقبة التى يعدها الحق ، فالرحمة والجنة لمن آمن ، والنار لمن كفر ، والحق هو من يقول ويملك قوله لأن الكون كله بيده .

وهنا يقول سبحانه وتعالى : (هل ينظرون إلا تأويله) .

أى هل ينتظرون إلا المرجع الذى يؤول إليه عملهم ؟ إن مرجعهم الأخير هو العذاب بعد الحساب يوم يأتى تأويل وغاية وعاقبة ما عملوا .

وحين يأتى يوم القيامة ويتضح الحق ويظهر صدق ما جاء به الرسول من الوعد والوعيد ماذا سيكون قولهم ؟ . . سيقولون ما أورده سبحانه على ألسنتهم : (يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق) .

أى أنهم سيعلنون التصديق حين لا ينفع هذا التصديق ؛ لأنهم لن يكونوا فى دار التكليف ، سيقرون بالإيمان لحظة لا ينفعهم ذلك .

﴿ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَآ ﴾

(من الآية ٥٣ سورة الأعراف)

هم إذن يقرون بأن الرسل حملت المنهج الحق ويتساءلون عن الشفيع . ونعلم أن الشفيع لابد أن يكون محبوباً عند من يشفع عنده ، ونحن فى الدنيا نجد من يبحث لنفسه عمن يشفع له عند صاحب جاه يكون أثيرا وعزيزا لديه ، أو يكون له كلمة وفضل عليه فلا يرد عليه كلمته . فمن يأتى يوم القيامة بالشفاعة لهؤلاء ؟ . . لا أحد ، وسنجدهم يتخذون الشفعاء من الذين اتخذوهم أنداداً لله . وسيعلن هؤلاء أيضاً الكراهية لهم ، ولو مكنهم الله من الشفاعة ما أعطوها للكافرين المشركين ؛ ففى الدنيا كان هؤلاء مؤتمرين بأمر البشر وضلالاتهم . أما يوم الحساب فلا أحد خاضع لإرادة أحد ، حتى الجوارح لا تخضع لإرادة صاحبها ، بل هى خاضعة للحق الأعلى . وفى الآخرة لا مرادات لأحد .

وقد ضربنا من قبل المثل وقلنا : هب أن سرية فى جيش ما وعليها قائد صغير برتبة ضابط ، ومفروض فى جنود السرية أن ينفذوا كلامه ، ثم راحوا لموقعة وأعطاهم الضابط الصغير أوامر خاطئة بما له من فرض إرادة عليهم فنفذوا ما أمروا به . ولحظة أن يعودوا ويحاسبهم القائد الأعلى فسيقولون : لقد فعلنا ما أمرنا به الضابط المكلف بقيادتنا ، وكذلك ستأتى الجوارح فى الآخرة : تشهد عليهم أيديهم وأرجلهم وألسنتهم وجلودهم .

إذن فالأبعاض سترفع شكواها إلى الله يوم ألا يكون لأحد من ملك سواه ، ويومئذ سيقول المكذبون الصدق الذى لن ينفهم .

﴿ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ﴾

(من الآية ٥٣ سورة الأعراف)

وسوف يبحثون عن شفاعة ، لكنهم لن يجدوا ، بل إن أول من يسخر من الذين عبدوا غير الله هم المعبودون أنفسهم .

ولذلك نجد قوله الحق سبحانه :

﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ ﴾

(سورة الأنبياء)

وما ذنب المعبود ؟ . . إن الأصنام لا ذنب لها ، بل كل منها يريد أن يشفى نفسه بأن يكون أداة تعذيب لمن أعطوه غير حقه . ولذلك نجد أن الأحجار التى عُبدت تقول : عبدونا ونحن أعبد لله من القائمين بالأسحار ؛ لأن القائم فى الأسحار من الأغيار قد يختار أمراً غير هذا ، ولكنا كنا مقهورين على الطاعة ، وقد اتخذوا صمتنا علينا دليلاً .

إن الأحجار تعلن أنها لم تكن تملك قدرة رفض أن يعبدها أحد أو أن تبعده عنها وتعلن له غباءه .

والشاعر يقول :

قد تجنوا جهلا كما قد تجنوا ... على ابن مريم والحوارى
للمغالى جزاؤه والمغالى ... فيه تنجيه رحمة الغفار

وهكذا يأتيهم الحق واضحاً يوم القيامة .

إنهم سيطلبون العودة إلى الدنيا ، وهذا من الخيبة ؛ لأن مثل هذا الإقرار ليس من الإيمان ، فالإيمان يكون بالغيب لا فى المشهد . وحتى ولو عادوا ، فلن يؤمنوا ! . والحق هو القائل :

﴿ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ ﴾

(من الآية ٢٨ سورة الأنعام)

وكأنهم نسوا لحظة إقرارهم أنهم من الأغيار ، وأتى فيهم القول الفصل من الله .

﴿ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾

(من الآية ٥٣ سورة الأعراف)

لقد جاء لهم الخسران بعد أن غاب عنهم ما كانوا يفترون على الله فى الدنيا ، إنهم

رفضوا عبادته ـ سبحانه ـ وعبدوا غيره أصناماً صارت وقوداً للنار التى سيصلونها .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ ٥٤

هنا ربوبية ، وهنا ألوهية : « ربكم الله » ولا أحد يختلف فى مسألة الربوبية لأن الحق يقول على ألسنة الكافرين والمشركين :

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾

(من الآية ٣٨ سورة الزمر)

وكذلك إن سألتهم من خلقهم ؟ سيقولون : الله ، ولم يدّع أحد لنفسه مسألة الربوبية ، لأن الربوبية جاءت بنفع لهم ، لكن الألوهية دخلت بمنهج هو : « افعل ولا تفعل » ؛ لأن التكليف من الإله الرب ، والتكليف نعمة منه وهو لمصلحتكم أنتم ، فلا شىء فى التكليف يعود على الله . وفعلكم الحسن أو السيىء لن يعطى لله صفة لم تكن له ؛ لأن صفات الكمال أزلية ، وبصفات الكمال خلقكم أنتم ، إذن فأنتم لن تأتوا بصفة ما ، بل بصفات الكمال أوجدكم . وإن كنتم أنتم فى شك فى هذه الربوبية فربكم هو الله ـ ولله المثل الأعلى ـ منزه عن التشبيه ، كأن تقول الأم للولد : قال لك أبوك لا تسهر خارج المنزل ليلاً ، فيتأبى الولد . وتنبه الأم ولدها : إن أباك هو الذى يأتى لك بالأكل والشرب ، والملابس ويعطيك مصروف اليد . . إلخ .

وقد ضربت هذا المثل لأشرح كيف أن المُكَلفَ هو الرزَّاق ولا أحد سواه يرزق ،

لذلك كان يجب أن تقبل تكاليفه لأنه سبق لك بالفضل بأن أعطى لك وسخر لك الدنيا .

ومن قبل فصل الحق سبحانه لنا خلق الإنسان ، ويفصل لنا هنا خلق السماء والأرض لأن ظرف وجود الإنسان هو السماء والأرض ، وكل الخيرات تأتى له من السماء ومن الأرض ، وإذا كان الله قد علمنا كيف خلقنا ، فهو هنا يعلمنا كيف خلق السموات والأرض ، وخلق الإنسان وخلق السموات والأرض مسألتان ينشغل بهما العلم الحديث ، فمن العلماء من قال : إن الأرض انفصلت عن الشمس ، ومنهم من افترض نظرياً أن الإنسان أصله قرد ، ولهؤلاء نقول : هذا حكم منكم لا يُقبل ؛ لأنكم لم تشهدوا الخلق ، ولذلك فعليكم أن تسمعوا ممن خلق الخلق ليقول لكم كيف خلق الخلق .

هو سبحانه يقول :

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

والآية تتعرض للخلق الأول وهو السموات والأرض ـ كما أوضحت ـ وهو الظرف الوجودى للإنسان الخليفة ، وطرأ الإنسان على هذا الكون بكل ما فيه من قوى ونواميس ، فكأن الله أعد الكون للخليفة قبل أن يُخلَق الخليفة ليجىء الخليفة فيجد كوناً مسخراً له ؛ ولا يستطيع أى كائن منه أن يخرج عن مراد الله فى شىء (إن ربكم الله الذى خلق) .

ومعنى « خلق » أى أوجد شيئاً كان معدوماً وبرأه على غير مثال سبقه . فربنا سبحانه قدر كل شىء بنظام دقيق غير مسبوق ، هذا هو معنى الخلق ، وكلمة « الخلق » مادتها الفاعلة هى : خالق ، وسبحانه وتعالى يجمعها مع أنه الخالق الوحيد فيقول :

﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾

(من الآية ١٤ سورة المؤمنون)

إذن فهناك الخالق الأعلى وهو الله ، ولكنه سبحانه أيضا أشرك خالقاً غيره معه فقال

جل وعلا : (فتبارك الله أحسن الخالقين) . كيف ؟ ؛ لأن الخلق إيجاد شىء معدوم ، والذى صنع الميكرفون يقال خلقه ، والذى صنع الكوب يقال خلقه ، والذى صنع المصباح يقال خلقه ، لأنه كان شيئاً معدوماً بذاته ، فأوجده . لكن الفارق أن الخالق من البشر يوجد معدوماً من موجود ولا يأتى بمادة جديدة ؛ فمن أخذ المواد الموجودة فى الكون وصمم منها المصباح وصهر الرمل وفرغ الهواء داخل الزجاج يقال له : خلق المصباح وأوجد معدوماً من موجود .

لكن الخالق هو خير الخالقين لأنه يخلق من عدم ولم يحرم خلقه حين يوجدون شيئا معدوماً من أن يوصف الواحد منهم بأنه خالق ، وسبحانه حين خلق خلق من لا شىء ، وأيضاً فإنكم حين تخلقون أى صنعة تظل جامدة على هيئة صناعتها ، فمن صنع الكوب من الرمل المصهور يظل الكوب هكذا ، ولا نستطيع ـ كما سبق أن قلت قديماً ـ أن نأتى بكوب ذكر ، وكوب أنثى ، ونضعهما معاً فى مكان ونقول لهما :أنجبا لنا أكواباً صغيرة .

لكن ما يخلقه ربنا يعطى له سر الحياة ويجعله بالقانون ينتج غيره وينمو ويكبر . إذن فهو أحسن الخالقين .

والله سبحانه وتعالى يعطينا خبر خلقه السموات والأرض . وأوضح سبحانه أن السموات سبع وقد جاءت مجموعة . أما الأرض فجاء بها مفردة . لكنه جل وعلا قال فى آية أخرى :

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾

(من الآية ١٢ سورة الطلاق)

فكما خلق سبع سموات خلق سبع أراضين ، ولماذا جاء بالسماء بالجمع وترك لفظ الأرض مفرداً ؟ . . لماذا لم يقل : سبع أراضين ؟ ؛ لأن كلمة « أراضين » ثقيلة على اللسان فتركها لثقلها وأتى بالسموات مجموعة لخفتها ويسر نطقها .

والسماء هى كل ما علاك فأظلك ، هذا معنى السماء فى اللغة . لكن هل السماء التى يريدها الله هى كل ما علاك ؟ . . إن النجم هو ما علاك ؛ وقد يقال : إن الشمس علتك ، والقمر علانا جميعاً . ونلفت الانتباه هنا ونقول للناس الذين أحبوا أن يجعلوا

السموات هى الكواكب إنها ليست دائما ما علانا ؛ فالشمس تعلو وقتا وتنخفض وقتاً آخر . وكذلك القمر .

إذن فالوصف منحسر عن الشمس أو القمر بعض الوقت ، ولا يصح أن يوصف أى منهما بأنه سماء دائما . وشىء آخر وهو أنهم حينما قالوا على الكواكب التى كانت معروفة بأنها كواكب سبعة وقالوا : إن هذه هى السماء ، إنهم بقولهم هذا قد وقعوا فى خطأ . وأوضح الحق لنا بالعلم أن للشمس توابع أخرى . فمرة رأى العلماء ثمانية توابع ، ومرة تسعة ، وأخرى عشرة توابع ، وهكذا انهدمت فكرة أن التوابع هى السماء ، وبقيت السماء هى ما فوق هذا كله ، والحق هو القائل :

﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝٦ ﴾

(سورة الصافات)

هذه ـ إذن ـ زينة للسماء الدنيا ، والسماء التى يقصدها ربنا ليست هى التى يقولون عليها ، بل السماء خلق آخر لا يمكن لأحد أن يصل إليه ، وكان الجن قديماً يقعدون منها مقاعد للسمع « فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصدا » . وحدث هذا بعد بعثته ﷺ والحق هو من قال لنا ذلك . ولم يوضح الحق لنا حقيقة هذه السماء ونظامها ، أى أن ربنا يريد لعقولنا أن تفهم هذا القدر فحسب ، وسبحانه خالق السماء التى فوقنا ، وهو جل وعلا خالق أراضين . وأين هى هذه الأراضين ؟ . . أهى أراضين مبعثرة ؟

ولقد أثبت العلم أن كل مجرّة من المجرّات فيها مليون مجموعة شمسية ، وكل مجموعة شمسية فيها أرض ، إذن فهناك أراضٍ عديدة ، ونلحظ أن الحق سبحانه حين يتكلم عن الأرض فكل مخاطب بالأرض التى هو فيها ، ولذلك قال بعض العلماء : إن فى هذا العالم العالى توجد أراضٍ ، وكل أرض أرسل لهم الحق رسولاً .

والحق هو القائل :

﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ۝٢٩ ﴾

(سورة الشورى)

ويعطينا العلم كل يوم مزيداً من الاكتشافات . وهكذا تكون السماء هى كل ما علاك والأرض كل ما أقلك . ومادامت سبع سموات ، والسماء الأولى فراغ كبير وفضاء ، وتأتى بعدها السماء الثانية تُظل السماء الأولى ، وكل سماء فيها أرض وفيها سماء أخرى . ونحن غير مكلفين بهذا ، نحن مكلفون بأن نعلم أن الأرض التى نحن عليها مخلوقة لله . والحق يقول :

﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾

(من الآية ٥٤ سورة الأعراف)

وقوله:« فى ستة أيام » هو ظرف للخلق . واليوم نعرف أنه المدة من طلوع الشمس إلى الغروب ثم إلى الشروق ومدته أربع وعشرون ساعة . لكن لابد لنا أن نعرف بعضاً من اصطلاحات الحق القرآنية .

فهو يقول سبحانه وتعالى :

﴿ سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴾

(من الآية ١٨ سورة سبأ)

أى هناك ليل وهناك يوم ، إذن فاليوم عند الحق غير اليوم عندنا ؛ لأننا نطلق اليوم على المدة الزمنية من طلوع الشمس إلى غروبها وشروقها من جديد . هكذا يكون اليوم فى العرف الفلكى : من شروق إلى شروق ، أو من غروب إلى غروب ، وقول الحق : (سيروا فيها ليالى وأياماً آمنين) .

يعنى أنه سبحانه قد جعل الليل قسماً والنهار قسماً ، وهل كان هناك من عرف اليوم إلا بعد أن وجدت الشمس ؟ . . وإذا كانت الشمس هى التى تحدد لنا اليوم فكيف عُرف اليوم قبلها وخصوصاً أن السماء والأرض حينما خُلقتا لم تكن هناك شمس أو كواكب ؟ . . وعلينا هنا أن نعرف أن هذا هو تقديره سبحانه وقد خاطبنا به بعد أن خلقه ، وخاطبنا به بعد أن عرفنا مدة اليوم . ألم تقرأ قول الله سبحانه :

﴿ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾

(من الآية ٦٢ سورة مريم)

وليس فى الآخرة بكرة ولا عشى ، إذن سبحانه قد قدر البكرة وقدر العشى ، وكذلك

« فى ستة أيام » وتلك هى الآيات المحكمات فى القرآن بالنسبة لزمن الخلق ؛ ستة أيام ، ولكن آية التفصيل للخلق ، جاءت فى ظاهر الأمر أنها ثمانية أيام . اقرأ معى :

﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ ﴾

(الآيات ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ومن الآية ١٢ سورة فصلت)

والظاهر من آية التفصيل أنها ثمانية أيام ، أما آيات الإجمال فكلها تقول : إنها ستة أيام ، ومن هذه النقطة دخل المستشرقون ، وادعوا زوراً أن القرآن فيه اختلاف ، وحاولوا أن يجعلوها ضجة عالية . ونقول : إنه ـ سبحانه ـ خلق الأرض وما فيها فى أربعة أيام كاملة بلا زيادة ولا نقصان ، فالمراد أن ذلك حصل وتم فى تتمة أربعة أيام ويضم إليها خلق السموات فى يومين فيكون عدد الأيام التى تم فيها خلق السموات والأرض ستة أيام أو نحمل المفصل على المجمل ، فحين يقول الحق :

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾

(من الآية ٥٤ سورة الأعراف)

فهل خلق الله يحتاج إلى علاج حتى يتطلب الزمن الممتد ؟ . . إن ربنا يخلق بـ « كن » ، ونحن البشر نعالج على حسب قدرتنا لنخلق شيئاً ، وكل عملية نقوم بها تأخذ زمناً ، لكن من يخلق بكلمة « كن » فالأمر بالنسبة له هين جداً ـ سبحانه وتعالى ـ لكن لماذا جاء بخبر الخلق فى ستة أيام ؟

نعلم أن هناك فرقاً بين ميلاد الشىء وبين تهيئته للميلاد . وكنا قد ضربنا المثل سابقا ـ ولله المثل الأعلى ـ بصانع الزبادى ، الذى يأتى بأكواب اللبن الدافىء ، ثم يضع فى

كل منها جزءاً من خميرة الزبادى ، ويضع تلك الأكواب فى الجو المناسب . فهل يؤدى هذا الرجل عملاً لمدة أثنتى عشرة ساعة فى كل كوب ، وهى المدة اللازمة لتخمر الكوب ؟ . . طبعاً لا ، فقد اكتفى بأن وضع فى كل كوب عناصر التخمر لتتفاعل بذاتها إلى أن تنضج .

ولننظر إلى خلق الجنين من تزاوج بويضة وحيوان منوى . ويأخذ الأمر تسعة شهور ، وسبحانه جل وعلا لا يعمل فى خلق الجنين تسعة شهور ، لكنه يترك الأمر ليأخذ مراحل تفاعلاته .

إذن فخلق الله السموات والأرض فى ستة أيام لا يعنى أن الستة أيام كلها كانت مشغولة بالخلق ، بل قال سبحانه : « كن » وبعد ذلك ترك مكونات السموات والأرض لتأخذ قدرها ومراحلها ؛ لأن ميلادها سيكون بعد ستة أيام . وفى القرآن آية من الآيات أعطتنا لمحة عن هذه المسألة ، فقال سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ ﴾

(سورة ق)

أى خلق سبحانه السموات والأرض دون تعب ؛ لأنه لا يعالج مسألة الخلق ، بل إنما يحدث ذلك بأمر « كن » فكانت السموات والأرض . والآية التى بعدها فوراً تقول : (فاصبر على ما يقولون) .

وكأن قوله سبحانه هنا جاء لتسلية الرسول ﷺ موضحاً له : إنهم يكذبونك وقد ترغب فى أن نأخذهم أخذ عزيز مقتدر . لكن الحق جعل لكل مسألة كتاباً ، فهو قد خلق السماء والأرض فى ستة أيام . ونحن فى حياتنا نقول لمن يتعجل أمراً : يا سيدى إن ربنا خلق السماء والأرض فى ستة أيام . فلا تتعجل الأمور .

إذن كان ربنا هو القادر على أن ينجز خلق السماء والأرض فى لحظة ، لكنه أمر « بكن » وترك المواد تتفاعل لستة أيام . ولماذا لا نقول : جاء بكل ذلك ليعلمنا التأنى ، وألا نتعجل الأشياء ؟ لأنه وهو القادر على إبراز السموات والأرض فى لحظة ، خلقها فى ستة أيام ، ولذلك قال سبحانه :

﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾

(من الآية ٣٩ سورة ق)

أى لا ترهق نفسك لأنه سبحانه خلق السماء والأرض فى ستة أيام ، وسيأتى لهؤلاء الجاحدين يومهم الذى يؤاخذون فيه بسوء أعمالهم وسوف يأتى حتماً .

وهناك من يتساءل : كيف خلق الكون بما فيه من الرواسى والكائنات ؟ . . ونقول : إنه الإنجاز الذى أخبر به سبحانه مرة واحدة ، وانفعلت الكائنات للقدرة مرة واحدة ، وتعددت استدامة انفعالات السامع لقدرة الله ، فى كل جزئية من جزئيات الفعل ، وأخذ الأمر ستة أيام . واستقر الأمر بعد ذلك واستتب ، وسبحانه يقول :

﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾

(من الآية ٥٤ سورة الأعراف)

ولابد أن نعرف العرش ماهو . وسبحانه يقول فى ملكة سبأ :

﴿ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾

(من الآية ٢٣ سورة النمل)

فالعرش إذن هو سرير الملك ؛ لأن الملك لا يجلس على العرش إلا بعد أن تستقر الأمور .

فكأن قوله : « استوى على العرش » كناية عن تمام الأمور ؛ وخلقها وانتهت المسألة . لكن العلماء حين جاءوا فى « استوى » ، اختلفوا فى فهمها ؛ لأن العرش لو كان كرسياً يجلس عليه الله ، لكان فى ذلك تحييز لله ووضعه وضمه فى جرم ما . وسبحانه منزه عن أن يحيزه شىء . ولذلك أخذ العلماء يتلمسون معانى لكلمة « استوى » منهم من قال : إن معناها هو قصد إليها بخلقه واختراعه ، ومنهم من قال : المقصود بها أنه استعلى وارتفع أمره ، ومنهم من قال : « صعد » أمره إلى السماء واستند إلى قوله الحق :

﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ ﴾

(من الآية ١١ سورة فصلت)

وكلها معانٍ متقاربة . وجماعة من العلماء أرادوا أن يخرجوا من التشبيهات ؛ فقالوا : المقصود بـ « استوى » أنه استولى على الوجود ، ولذلك رأوا أن وجود العرش والجلوس عليه هو سمة لاستقرار الملك . وحتى لا ندخل فى متاهات التشبيهات ، أو متاهات التعطيل نقول : علينا أن نأخذ كل شىء منسوب إلى الله فى إطار :

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾

(من الآية ١١ سورة الشورى)

فحين يقول سبحانه :

﴿ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾

(من الآية ١٠ سورة الفتح)

ونحن نفهم أن لليد مدلولاً ، والقرآن لغة عربية يخاطبنا بها سبحانه ، فالقول أن لله يداً فهذا دليل على قدرته . واستخدام الحق كلمة اليد هنا كناية عن القدرة . والإنسان عليه أن يأخذ كل شىء منسوب إلى الله مما يوجد مثله فى البشر ، فى إطار « ليس كمثله شىء » ، فنقول : سبحانه له يد ليست كيد البشر ، وله وجود لكنه ليس كوجود البشر ، وله عين ليست كعيون البشر . وله وجه ليس كوجه أحد من البشر . ولذلك حينما سئل سيدنا الإمام مالك عن هذه المسألة قال لمن سأله : « الاستواء معلوم والكيف مجهول والسؤال عنه بدعة » وأراك رجل سَوْء ! أخرجوه . نعم السؤال عنه بدعة لأنه يدخل بنا فى متاهة التشبيه ومتاهة التعطيل ، وهل سأل أحد من صحابة رسول الله ﷺ عن معنى الاستواء ؟ . . لا ؛ لأنهم فهموا المعنى ، ولم يعلق شىء من معناها فى أذهانهم حتى يسألوا عنها رسول الله ﷺ . إنهم فهموها بفطرتهم التى فطرهم الله عليها فى إطار ما يليق بجلال الله وكماله .

وإن قال قائل : أرسول الله كان يعلم المعنى أم لا يعلم ؟ . . إن كان يعلم لأخبرنا بها ، وإن لم يخبرنا فقد أراد أن يكتمها . وإن لم يكن قد علم الأمر . . فهل تطلب لنفسك أن تعلم ما لم يعلمه ﷺ ؟

أو أنّه ﷺ ترك لكل واحد أن يفهم ما يريد ولكن فى إطار « ليس كمثله شىء » والذين

يمنعون التأويل يقولون : إياك أن تؤول اليد بالقدرة ؛ لأنه إن قال : إن له يداً ، فقل ليست كأيدينا فى إطار « ليس كمثله شىء » ؛ لأنه سبحانه له حياة ، وأنت لك حياة ، أحياته كحياتك ؟ . لا ، فلماذا إذن تجعل يده مثل يدك ؟ . . إذن لابد أن ندخل على كل صفة لله فننفى عنها التعطيل وننفى عنها التشبيه . ثم إن من يمنعون التأويل نقول لكل منهم : أنت ستضطر أخيراً إلى أن تؤول ؛ لأن الحق يقول :

﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾

(من الآية ٨٨ سورة القصص)

ومادام « كل شىء هالك إلا وجهه » فكل ما يطلق عليه شىء يهلك ، ويبقى وجهه سبحانه فقط ، فلو أنت قلت الوجه هو هذا الوجه ، فكأن يده تهلك ورجله تهلك وصدره يهلك ، وحاشا لله أن يحدث ذلك . وتكون قد دخلت فى متاهة ما لها من آخر . لذلك نقول : لنأخذ النص وندخله فى إطار « ليس كمثله شىء » . وآية الاستواء على العرش هذه ، مذكورة فى سور كثيرة ، وهى تحديداً فى « سبعة مواضع » ؛ فى سورة الأعراف التى نحن بصددها ، وسورة يونس ، وسورة الرعد ، وسورة طه ، وسورة الفرقان ، وسورة السجدة ، وسورة الحديد .

وهنا يقول الحق بعد الحديث عن الاستواء على العرش : (يغشى الليل النهار) .

الله ـ سبحانه ـ قد خلق السماء والأرض للخليفة فى الأرض وهيأ له فيها أصول الحياة الضرورية ودلّه على ما يحتاج إليه ، فماذا سيفعل هذا الخليفة ؟ . . لابد أن يقوم بكل مقومات الحياة ، وإذا ما عمل فسيبذل جهداً ، والجهد يقتضى راحة . ومن يشتغل ساعة لابد أن يرتاح ساعة ، وإن اشتغل ساعتين ولم يسترح ساعة غُلب على نفسه .

ونحن نرى فى الآلة التى تعمل ثلاث ورديات يومياً أى التى تعمل لمدة الأربع والعشرين ساعة دون توقف أنها تُستهلك أكثر من الآلة التى تعمل ورديتين ، والآلة التى تعمل وردية واحدة أى لمدة ثمانى ساعات يطول عمرها أكثر . وكل إنسان يحتاج إلى الراحة . فشاء الحق سبحانه وتعالى أن يبين لنا أن الليل والنهار متعاقبان من أجل هذا الهدف :

﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ ﴾

(من الآية ٧٣ سورة القصص)

أى لتسكنوا فى الليل ، وتبتغوا الفضل فى النهار ، فإن كنت لم تسترح بالليل فلن تقدر أن تعمل بالنهار ، فمن ضروريات حركة الخلافة فى الأرض أن يوجد وقت للراحة ووقت للعمل . لذلك أوضح سبحانه لنا : أنا خلقت الليل والنهار ، وجعلت الليل سكناً أى للراحة والبعد عن الحركة ، والحق يقول هنا :

﴿ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ﴾

(من الآية ٥٤ سورة الأعراف)

ويكون المعنى هنا أن النهار يغشى الليل ، ولذلك تحدثنا من قبل عن تتابع الليل والنهار لنستنبط منها الدليل على أن الأرض كرة .

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ ﴾

(سورة الفرقان)

والليل يخلف النهار ، والنهار يخلف الليل ، وفى مصر نكون فى نهار مثلا ، ويكون هذا الوقت فى بلد آخر ليلاً ، وإذا سلسلتها إلى أول ليل وإلى أول نهار ، وأيهما الذى كان خلفة للثانى ؟ فلن تجد ؛ لأن كلا الاثنين خلقا معاً . ولو كانت الأرض مخلوقة على هيئة التسطيح وكانت الشمس قد خلقت مواجهة لسطح الأرض لكان النهار قد خلق أولاً ثم يعقبه الليل ، ولو كانت الشمس قد خلقت غير مواجهة للسطح كان الليل سيأتى أولاً ثم تطلع الشمس على السطح ليوجد النهار . والحق سبحانه أراد من الليل والنهار أن يكون كلاهما خلفة للآخرة ، ولايمكن أن يكون ذلك إلا إذا كان الله سبحانه خلق الليل والنهار دفعة واحدة . كان لابد أن تكون الأرض كرة ؛ ليغشى النهار الجزء المواجه للشمس ، وليغشى الليل الجزء غير المواجه للشمس ، وحين تدور الأرض يأتى النهار خلفة لليل ، ويكون الليل خلفة للنهار .

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ ﴾

(سورة الفرقان)

(يغشى الليل النهار) ويغشى النهار الليل وحذفت للاعتماد على الآيات السابقة التى منها قول الحق سبحانه :

﴿ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ﴾

(من الآية ٤٠ سورة يس)

أى أن الليل لا يسبق النهار وكذلك النهار لا يسبق الليل ، وهذا دليل على أنهما خُلقا دفعة واحدة .

والحق يقول هنا : (والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر) .

فلا أحد من هذه الكائنات له اختيار أن يعمل أو لا يعمل ، بل كلها مسخرة ، ولذلك تجد النواميس الكونية التى لا دخل للإنسان فيها ولا لاختياراته دخل فى أمورها تسير بنظام دقيق ، ففى الوقت الفلانى ستأتى الأرض بين الشمس والقمر ، وفى الوقت الفلانى سيقع القمر بين الأرض والشمس ، وسيحدث للشمس كسوف ، وسيحدث للقمر خسوف ، وكل أمر من هذا له حساب دقيق .

﴿ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ﴾

(من الآية ٥٤ سورة الأعراف)

والخلق إيجاد الأشياء من عدم ، فبعد أن خلق الله الكون لم يترك شؤون الكون لأحد ، بل ـ سبحانه ـ له الأمر بعد ذلك . وقيوميته باقية ؛ لأنه لم يزاول سلطانه فى ملكه ساعة الخلق ثم ترك النواميس تعمل ، لا ، فبأمره يُعطل النواميس أحياناً ، ولذلك شاء الحق أن تكون معجزات الأنبياء لتعطيل النواميس ؛ لنفهم أن الكون لا يسير بالطبع أو بالعلة . لذلك يقول : (ألا له الخلق والأمر) .

وإذا نظرت إلى كلمة « الأمر » تجد الحق يقول :

﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ﴾

(من الآية ١٥٤ سورة آل عمران)

والمقصود هو الأمر الكونى ، أمّا الأمور الاختيارية فلله فيها أمر يتمثل فى المنهج ،

وأنت لك فيها أمر إما أن تطيع وإما أن تعصى ، وأنت حر .

. ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

(من الآية ٥٤ سورة الأعراف)

وحين يقول سبحانه : « تبارك الله » وقال من قبل : « أحسن الخالقين » ، فكل لفظ له معنى ، ففى خلقه من البشر مواهب تَخْلق ولكن من موجود وأوضحنا ذلك .

وفى قول آخر يصف الحق نفسه :

﴿ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴾

(من الآية ٦٢ سورة الأنعام)

والناس تتعلم الحساب وخلقوا آلات حاسبة ، وهى آلات تتم « برمجتها » وإعدادها وتهيئتها للجمع والطرح والضرب والقسمة ، وكل حدث من الحساب يأخذ مدة . لكن الحق يحسب لكل البشر دفعة واحدة . لذلك فهو أسرع الحاسبين ؛ لأنه ليس هناك حساب واحد ، فأنت لك حساب مع الله ، والآخر له حساب مع الله ، والحساب مع الله متعدد بتعدد أفراد المحاسبين ، وحساب الحق للخلق لا يحتاج إلى علاج ، بل ينطبق عليها ما ينطبق على الرزق ، ولذلك حينما سئل علىّ كرم الله وجهه :

— أيحاسب الله خلقه فى وقت واحد ؟

قال : وما العجب فى ذلك ألم يرزقهم فى وقت واحد ؟

وانظر إلى القرآن تجد الحق « أسرع الحاسبين » و « أحسن الخالقين » ، و « أرحم الراحمين » و « خير الوارثين » . وهذه هى الألفاظ التى وردت ، ولله فيها مع خلقه صفة ، لكن صفة الله دائما فى إطار « ليس كمثله شىء » . (تبارك الله رب العالمين) .

و« تبارك الله » أى أنه ـ تعالى ـ تنزّه ؛ لأن هناك فرقاً بين القدرة المطلقة ـ وهى قدرة الله ـ والانفعال للقدرة المطلقة بالإرادة وبـ « كن » وهذا هو الانفعال والانقياد وللإرادة والأمر .

ويقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك :

﴿ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾

والدعاء إنما يكون من عاجز يدعو قادراً على إنجاز وتحقيق ما عجز عنه أو يعينه عليه . وعندما تشعر أنك عاجز فأنت ترتكن إلى من له مطلق القدرة ؛ لأن قدرتك محدودة . إذن فإن كنت تطغى أو تتكبر فاعرف مكانتك ومنزلتك جيداً وتراجع عن ذلك لأنك عرض زائل ، والدعاء هو تضرع ، وذلة ، وخشوع ، وإقرار منك بأنك عاجز ، وتطلب من ربك المدد والعون . واستحضار عجزك وقدرة ربك تمثل لك استدامة اليقين الإيمانى . وما جعل ربنا للناس حاجات إلا من أجل ذلك ؛ لأن الإنسان إذا ما رأى الأشياء تنفعل له ، ويبتكر ويخترع فقد يأخذه الغرور ، فيأتى له بحاجة تعز وتعجز فيها الأسباب ، فيقف ليدعو . ومن كان متكبراً وعنده صلف وغطرسة يذهب إلى رجل « غلبان » زاهد تجرد من الجاه والسلطان منقطع لعبادة الله ويقول له : أستحلفك برسول الله أن تدعو لى لأنى فى أزمة والذى يسأل الغلبان الزاهد هو رجل عزيز فى قومه لكنه يظن أن الغلبان الزاهد أقرب إلى الله منه .

إذن الدعاء هو الضراعة وإظهار الذلة والخشوع لله ؛ لكى يستديم اليقين الإيمانى .

﴿ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾

(من الآية ٥٥ سورة الأعراف)

وإياك أن تدعو وفى بالك أن تقضى حاجتك بالدعاء ، عليك بالدعاء فقط لقصد إظهار الضراعة والذلة والخشوع ، ولأنك لو لم تدع فستسير أمورك كما قُدر لها ، والدعاء هو إظهار للخشوع ، وإياك أن تفهم أنك تدعو الله ليحقق لك مطالبك ؛ لأنه سبحانه منزه أن يكون موظفاً عندك ، وهناك نظام وضعه سبحانه لتحقيق مطالب العباد . ومن الناس من يطلب بالدعاء أشياء ضارة .

﴿ وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

والإنسان قد يتعلق قلبه بأمانى قد تضره ؛ لذلك نقول : لا تتعجل بالدعاء طلباً

لأمنيات قد تكون شراً عليك ، والحق العليم ينظم لنا أمورنا ، وإياك أيضاً أن تيأس حين لا تجاب دعوتك التى فى بالك ؛ لأن الله يحقق الخير لعباده . ولو حقق لك بعضاً مما تدعو فقد يأتى منها الشر ، ويترك الله لأقضيتك أموراً تبين لك هذا ، وتقول : إن الشىء الفلانى الذى كنت أتمناه تحقق وجاء شراً علىّ . مثال ذلك قد تحجز لطائرة لكنك لا تلحق بها فقد أقلعت قبل أن تصل إليها وحزنت لأن بعضاً من مصالحك قد فاتك ولم يتحقق وتفاجأ بأن هذه الطائرة سقطت فى البحر .

إذن ، اجعل حظك من الدعاء هو الخشوع والتذلل والضراعة له سبحانه لا إجابتك إلى ما تدعو إليه ، إنك دعوت لتطلب الخير ، فدع الحق بقيوميته وعلمه يحقق لك الخير . واسمع قول الله :

﴿ وَيَدْعُ ٱلْإِنسَـٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

إذن فحين يقول الحق : « ادعوا ربكم تضرعا وخفية » فسبحانه يطلب منا أن ندعوه لأننا سنواجه لحظات متعددة نعجز فيها عن أشياء ، فبدلاً من أن تظل مقهوراً بصفة العجز عن الشىء اذكر أن لك رباً قويا مقتدراً ، وساعة تذكر ذلك لن تأخذك الأسباب من حظيرة الإيمان . وقلنا من قبل : من له أب لا يحمل هماً للحياة ، فإذا كان الذى له أب لا يحمل هماً لمطلوبات الحياة فمن له رب عليه أن يستحى ويعرف أن ربه سيوفر له الخير ؛ لذلك يوضح سبحانه : إذا أعجزتكم الأسباب فاذكروا أن لكم رباً . وقد طلب منكم أن تدعوه ، ولا تظن أن حظك من الدعاء أن تجاب إلى ما طلبت ، بل ليكن حظك من الدعاء إظهار التذلل والخشوع لله ؛ فقد يكون ما حدث لك نتيجة أنك قد اغتررت بنفسك . وقد سبق « قارون » إلى الغرور ، فماذا حدث له ؟ . . لقد هزمه الحق وأنزل به شرّ العقاب . وقد يجعل الحق من تأبّى الأسباب وامتناعها عليك مغزى لتلتفت إلى الله ، لكن لفتتك لله لا يصح أن تكون بغرض أن يقضى حاجتك ، بل اجعل أساس لفتتك لله أن تظهر العجز أمامه والخضوع والخشوع ؛ ليعطيك ما لم يكن فى بالك حين تدعو .

﴿ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾

(من الآية ٥٥ سورة الأعراف)

خُفية لها معنى وهو أن يكون الدعاء دعاءً مستوراً مختبئاً ، ولها معنى آخر وهو أن تكون من الخوف أى أدعو ربكم خوفاً من متعلقات صفات الجلال كالجبار والقهار أو خوفا من أن يردها الله عليك فلا يقبلها منك .

ادعوا ربكم تضرعاً بذلة وانكسار وخضوع خفية بينك وبين ربك ، فلا تجهر بالدعاء وتجعله عملك الوحيد لأن النبى صلى الله عليه وسلم علمنا حينما كان فى غزوة غزاها فنزل أصحابه وادياً ، فلما نزلوا الوادى صاحوا بالتهليل والتكبير ، فقال :

(أيها الناس اربعوا على أنفسكم ، إنكم ليس تدعون أصمَّ ولا غائبا ، إنكم تدعون سميعا قريبا وهو معكم)[1].

والدعاء إلى الله خُفية يبتعد بك عن الرياء وهو أستر لك فى مطلوباتك من ربك لأنه حين يوضح لك : ادعنى فى سرّك لأننى سميع عليم ؛ أعلم كل ما ظهر منك وما بطن ، ادع بالخضوع والخشوع والتذلل لتنكسر فيك شهوة الكبرياء ، وشهوة الغطرسة ، وشهوة الجبروت .

وإذا ما نظرت إلى هذا تجد أن كثيراً من العلماء يقولون :
— نعرف قوماً يقرأون القرآن فى محضرنا وما عرفنا لشفاههم حركة ، وعرفنا قوماً يستنبطون الأحكام من كلام الله وما رأينا منهم انفعالاً يصرفهم عنا . إذن فالمسألة تعبر عن شغل باطنى داخلى .

ويريد الحق سبحانه وتعالى أن يبعدنا عن الرياء ويريد أن يستر علينا مطلوباتنا ؛ لأن الإنسان قد يطلب من الله سبحانه وتعالى ما يستحى أن يسمعه آخر .

﴿ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾

(من الآية ٥٥ سورة الأعراف)

ولو نظرت إلى هذه الآية لوجدت أن كثيراً من الناس يخالفونها مخالفات جماعية ؛ فى

---

(١) رواه مسلم بهذا اللفظ ورواه البخارى ، ومعنى : (اربعوا) ارفقوا بأنفسكم واخفضوا أصواتكم .

الليل مثلاً تجد من يصعدون على المآذن أو يصيحون فى مكبرات الصوت التى أغنتهم عن صعود المآذن ، ويكون الواحد من هؤلاء نائما طول النهار لأن رفع الأذان هوعمله ليس غير ، وبعد ذلك يظل يصرخ ويستغيث ويقول : « إن هذه ابتهالات » . بينما من الناس من هو نائم ليأخذ قسطه من الراحة ليؤدى عمله نهاراً ، ولا أحد يطلب من هذا النائم إلا أنه إذا جاء الفجر يستيقظ ويؤدى الصلاة . فلماذا نقلق الناس بهذا ؟ إننا لابد أن ننبه هؤلاء الذين يظنون أنهم يذكرون الناس بدين الله ، إنهم بعملهم هذا لا يسلكون الطريق الصحيح ؛ لأننا لا يمكن أن نذكر الناس بالله ونصنع مخالفة أو نؤذى أحداً ؛ فسبحانه يقول : (ادعوا ربكم تضرعاً وخفية) .

والتضرع والخُفية تقتضى ألا أقلق الناس ، أو أن أعلن الأمور التى أريدها لنفسى خاصة بصوت عال مثل من يأتى فى ختام الصلاة ويقول دعاءه بصوت عال وهو رافع يديه ، ولمثل هذا أقول : إن الله سبحانه وتعالى جعل لنا القنوت لندعو فيه ، وترك كل مسلم أن يدعو بما ينفعل له . وأنت حين تدعو فى ختام الصلاة قد يوجد مُصلٍ مسبوق لحق الصلاة بعد أن سبقه الإمام بركعة أو باثنتين أو بثلاث ويريد أن يكمل صلاته ، وأنت حين ترفع صوتك بالدعاء حين تختم صلاتك إنما تفسد عليه إتمام صلاته . وتشغله بمنطوق من عندك وبكلام من عندك عن شىء واجب عليه . ومن يفعل ذلك إنما يفعله عن حسن نية ، لكنه يسىء إلى عبادة آخر .

إذن فلا بد أن نتنبّه إلى أن الله سبحانه وتعالى له مطلوبات ، هذه المطلوبات قد تخالفها النفس لغرض ترى أنه حسن ، لكن خذها فى إطار :

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ ﴾

(سورة الكهف)

فلا بد أن نتنبه إلى مثل هذه المسائل ، وعلينا أن نوفر الراحة لمن ينام ليقوم ويصلى الصبح ويذهب إلى عمله ؛ لذلك لا داعى أن يفتح إنسان « الميكروفون » ويعلو صوته بالدعاء ، ومن يفعل ذلك يظن أنه يحرص على أمر مطلوب فيزعج النائم ، بل ويزعج من يصلى بالليل أو « يشوش » على من يقرأ القرآن أو يستذكر بعضاً من العلم . إن على من

يفعل ذلك أن يترك كل إنسان لانفعالاته ، وأن يكون ملك نفسه وملك اختياره .

ويعطينا الحق سبحانه وتعالى صوراً كهذه فيقول :

﴿ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا ﴾

(الآية ٣ ومن الآية ٤ سورة مريم)

إذن كلمة « خفى » موجودة فى القرآن ، ولابد أن نتنبه إلى الدعاء الخفى .

﴿ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ۝٥٥ ﴾

(من الآية ٥٥ سورة الأعراف)

إذن إن لم يكن تضرعاً وخفية فهو اعتداء فى الدعاء ؛ لأنك مكلف والله هو المُكلِّف ، وهو يقول لك : ادعونى تضرعاً وخفية . فإن فعلت غير هذا تكن معتدياً ، وعلى كل هؤلاء أن يفهموا أنهم معتدون فإما أن يكون الاعتداء فى أسلوب الطلب وإما أن يكون الاعتداء فى المطلوب .

لأن الحق حدد أسلوب الطلب فأوضح : ادعونى بخفاء ، فإن دعوت فى غير الخفاء تكن معتدياً على منهج الله . وكذلك قد يكون الاعتداء فى المطلوب فلا يصح مثلاً أن تقول : إننى أدعوك يارب أن تجعلنى نبياً . إن ذلك لا يصح وربنا سبحانه وتعالى علمنا فيما سرده عن نوح . فقال :

﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝٤٥ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝٤٦ ﴾

(سورة هود)

وهنا نبه الحق نوحاً إلى الاعتداء فى المطلوب فقال الحق :

﴿ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ﴾

(من الآية ٤٦ سورة هود)

ولذلك نجد نوحاً يستغفر لأنه سأل ودعا الله هذا الدعاء عن غير علم ، فلما عرف ذنبه استغفر الله وقال :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ ﴾

(من الآية ٤٧ سورة هود)

وقال له الحق سبحانه :

﴿ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ﴾

(من الآية ٤٨ سورة هود)

إذن فالذى لا يسمع منهج الله أو لا يطبقه فى الدعاء يكون معتدياً على الحق سبحانه وتعالى ، وسبحانه لا يحب المعتدين .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾

الأرض هى مكان الخليفة وهو الإنسان ، وفيها الأسباب الأصيلة لاستبقاء الحياة والسماء والأرض والشمس والهواء كلٌ مسخر لك . ولا تحتاج إلى تكليف فيه ، فلا أنت تقول : « يا شمس أشرقى » أو « يا هواء هب » فكل ذلك مسخر لك . وأنت مطالب ألا تفسد فيما لك فيه اختيار ؛ لأنك لا تستطيع أن تفسد قوانين الكون العليا ، لا تستطيع أن تغير مسار الشمس ولا مسار القمر ولا مسار الريح ، وأنت لن تستطيع إصلاح مالا يمكن أن تقترب من إفساده ، لأن أمره ليس بيدك لأنه لا اختيار لك فيه . وإنما يأتى الإفساد من ملكات الاختيار الموجودة فيك ، ولم يتركنا الله أحراراً فيها ، بل حددها بمنهج يحمى حركة الحياة بـ « افعل » و « لا تفعل » ، فإذا كان سبحانه قد أنزل قرآناً ،

والقرآن فيه منهج يحمى اختيارك إذن فقد أعطاك عناصر الإصلاح ولذلك يقول لك :

﴿ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾

(من الآية ٥٦ سورة الأعراف)

وهنا يعود الحق مرة أخرى للحديث عن الدعاء ، فأولاً جاء بالأمر أن يكون الدعاء تضرعاً وخفية ، وهنا يوضح الحق سبيلاً ثانيا للدعاء : (وادعوه خوفاً وطمعاً) .

خوفاً من صفات جبروته وقهره ، وطمعا فى صفات غفرانه ورحمته ؛ لأن لله صفات جمال وصفات جلال ، وادعوه خوفاً من متعلقات صفات الجلال ، وطمعاً فى متعلقات صفات الجمال . أو خوفاً من أن تُرد وطمعاً فيما أنت ترجو .

﴿ وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

(من الآية ٥٦ سورة الأعراف)

إذن من الذى يحدد قرب الرحمة منه ؟ إنه الإنسان فإذا أحسن قربت منه الرحمة والزمام فى يد الإنسان ؛ لأن الله لا يفتئت ولا يستبد بأحد.فإن كنت تريد أن تقرب منك رحمة الله فعليك بالإحسان . (إن رحمة الله قريب من المحسنين) .

ولذلك قلنا إن الحق سبحانه وتعالى يقول :

(لا أملّ حتى تملّوا) .

(من حديث قدسى)

وأنت تدخل بيوت الله تصلى فى أى وقت ، وتقف فى أى مكان لتؤدى الصلاة ، إذن فاستحضارك أمام ربك فى يدك أنت ، وسبحانه حدد لك خمسة أوقات ، ولكن بقية الأوقات كلها فى يدك ، وتستطيع أن تقف بين يدى الله فى أى لحظة . وسبحانه يقول :

(ومن جاءنى يمشى أتيته هرولة) .

(من حديث قدسى)

وهو جل وعلا يوضح لك : استرح أنت وسآتى لك أنا ؛ لأن الجرى قد يتعبك لكنى لا يعترينى تعب ولا عى ولا عجز . وكأن الحق لا يطلب من العبد إلا أن يملك شعوراً بأنه يريد لقاء ربه . إذن فالمسألة كلها فى يدك ، ويقول سبحانه :

(من ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، ومن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منه) .

(من حديث قدسى)

وهكذا يؤكد لك سبحانه أن رحمته فى يدك أنت وقد أعطاها لك ، وعندما تسلسلها تجدها تفضلاً من الله ، ولكن فى يدك أنت . (إن رحمة الله قريب من المحسنين) .

ونعلم أن فيه صفات لله وفيه ذات ، فالذات (الله) وهو واهب الوجود ، وله كل صفات الكمال وكل صفة لها متعلق ؛ الرحمة لها متعلق ، والبعث له متعلق فمن أسمائه سبحانه « الباعث » ؛ وإياك أن تغيب عن الذات ، اجعل نفسك مسبحاً لذاته العلية دائماً . وقد تقول : يارب أريد أن ترحمنى فى كذا ، وقد لا ينفذ لك ما طلبت ، لكن ذلك لا يجعلك تبتعد عن التسبيح للذات ، لأن عدم تحقيق ما طلبت هو فى مصلحتك وخير لك .

وقد وقف العلماء عند كلمة « قريب » هذه ، وتساءل بعضهم عن سرّ عدم مجىء تاء التأنيث بعد لفظ الجلالة ؟ ونعلم أن القرآن قد نزل بلغة العرب ، وعند العرب ألفاظ يستوى فيها التذكير والتأنيث ، وما يقال للمذكر مثلما يقال للمؤنث ، فنقول : « رجل صبور » ، و « امرأة صبور » ، ولا نقول : صبورة ونقول : « رجل معطار » أى يكثر استخدام العطر ، و « امرأة معطار » أى تكثر استخدام العطر . ونقول : قريب مثلما نقول : قتيل بمعنى مقتول . فيقال : « رجل قتيل » و « امرأة قتيل » ، ولا يقال : « قتيلة » إلا إذا لم يذكر معها كلمة امرأة أو مايدل على التأنيث ، لأن القتيل للذكر وللأنثى .

هذه هى ألفاظ صحيح اللغة . وقد صنعت اللغة ذلك بأسانيد ، فأنت حين تقول : « رجل صبور » أو « امرأة صبور » فالصبر يقتضى الجلد والعزم والشدة ؛ لذلك لا نقول : « امرأة صبورة » بل نأتى بالوصف المناسب للجَلَد والشدة . وإياك أن تضعفها بحكاية التأنيث ، وكذلك « رجل معطار » و « امرأة معطار » ، والرجل المعطار هو من تعرفه الناس من نفاذ رائحة عطره ، والمرأة مبنية على الستر . فإن تعطرت فهى قد تشبهت بالرجل ويقال لها : « امرأة معطار » ، وحين ننظر إلى كلمة « قريب » فهى من صيغة « فعيل » التى يستوى فيها المذكر والمؤنث ؛ بدليل أن الله قال :

﴿ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴾ (من الآية ٤ سورة التحريم)

والملائكة لفظها لفظ مؤنث ، ولم يقل الحق « ظهيرة » ، لأن « ظهير » يعنى مُعين ، والمعونة تتطلب القوة والعزم والمدد ؛ لذلك جاء لها باللفظ المناسب الذى يدل على القوة وهو « ظهير » . وكذلك قوله الحق :

﴿ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

(من الآية ٥٦ سورة الأعراف)

و « قريب » بوزن « فعيل » بمعنى مفعول ، ولعل بعض الناس يفهم أن « قريب » بمعنى فاعل أى قارب . مثل رحيم وراحم . أى أن رحمة الله هى التى تقرُب من المحسنين ، والأمر ليس كذلك ، فإن الرحمة هى المقروبة ، والإحسان هو الذى يُقَرِّبُ إليها فيكون فعيل هنا بمعنى مفعول الذى يستوى فيه المذكر والمؤنث ، أو يكون جاءت كذلك على تأويل الرحمة بالرحم أو الترحم ، أو لأنه صفة لموصوف محذوف أى شىء قريب ، أو لأن تأنيث الرحمة غير حقيقى ، أو أن الرحمة مصدر ، وحق المصدر التذكير .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَـٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ ٥٧

وتصريف الرياح إهاجة للهواء فى الكون ، والإهاجة للهواء فى الكون تأتى منها فوائد كثيرة للغاية ، ونحن حين نجلس فى مكان مكتظ وممتلىء بالأنفاس نقول لمن يجلس بجوار النافذة : « لنهوى الغرفة قليلاً » . وإن لم يكف هواء النافذة تأت بمروحة لنأخذ من طبقات الجو طبقة هواء جديدة فيها أوكسجين كثير . إذن فإرسال الرياح ضرورة حتى

لا يظل الهواء راكداً . ويتلوث الجو بهذا الركود ، ولو أن كل إنسان سيستقر فى مكان مكتوم الهواء لامتلأ المكان بثانى أكسيد الكربون الخارج من تنفسه ، ثم لا يلبث أن يختنق ، ولذلك أراد الله حركة الرياح رحمة عامة مستمرة فى كل شىء ، وهى أيضاً رحمة تتعلق بالقوت كما تعلقت بمقومات الحياة من نَفَس وماء وطعام ، وتصريف الرياح من أجل تجديد الهواء الذى نتنفسه ، وكذلك تكوين الماء . لأنه سبحانه القائل عن الرياح :

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ ﴾

(من الآية ٥٧ سورة الأعراف)

والرياح هى التى تساعد فى تكوين الأمطار التى تنزل على الأرض فتروى التربة التى نحرثها ، وهكذا تكون الرياح بشرى فى ثلاثة أشياء : الشىء الأول تحريك طبقات الهواء وإلا لفسد الجو فى كل جماعة تستقر فى مكان ولاستنشقوا الهواء الفاسد . والعنصر الثانى لمقومات الحياة هو الماء ، لأن الرياح هى التى تحمل السحاب وتحركه وتنزل به مطراً على الأرض ونحرث نحن الأرض ونزرعها . وهو سبحانه قال : « بشرا » ، لأن هناك فرقا بين بشرى ، وبشراً ؛ فالبشرى مفرد ، وقد وردت فى قوله الحق :

﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ ﴾

(من الآية ٦٩ سورة هود)

أى التبشير . لكن بشراً جمع بشير وهى كلمة مخففة ، والأصل فيها بُشُر . والحق يقول : ﴿ فلما أن جاء البشير ﴾ .

وجمع البشير « بُشُر » مثل : « نذير » و « نُذُر » ، بضم الشين فسكنت تخفيفا ، فتنطق بُشْراً وبُشُراً . (بشراً بين يدى رحمته) .

هى بين يدى رحمته لأنها ستأتى لنا بالماء ، وهو الرحمة فى ذاته ، وبواسطته يعطينا رى الأرض ، ونحن نرتوى منه مباشرة أيضاً . ونلحظ كلمة الرياح إذا أطلقت بالجمع فهى تأتى للخير ، أما حين يكون فيها شر فيأتى بكلمة « ريح » مفردة ، مثل قوله :

﴿ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾

(من الآية ٦ سورة الحاقة)

فإذن عندما ترى كلمة « رياح » فاعلم أنها خير ، أما كلمة « ريح » فاعلم أنها شر لماذا ؟ أنت إذا كنت قاعداً فى حجرة فيها فتحة نافذة يأتى منها الهواء ، ويتسلط التيار على إنسان ، فالإنسان يصاب بالتعب ؛ لأن الهواء يأتى من مكان واحد ، لكن حين تجلس فى الخلاء ويهب الهواء فأنت لا تتعبّ ؛ لأن الرياح متعددة . ولكن الريح تأتى كالصاروخ .

الرياح إذن يرسلها الحق بين يدى رحمته ؛ حتى إذا أقلت أى حملت يقال : « أقل فلان الحمل » أى رفعه من على الأرض وحمله لأنه أقل من طاقته ، لأنه لو كان أكثر من طاقته لما استطاع أن يرفعه عن الأرض ، وما دام قد أقله فالحمل أقل بالنسبة لطاقته وبالنسبة لجهده ، أقلت أى حملت ، وما دامت قد حملت فجهدها فوق ما حملته ، وإذا كان الجهد أقل من الذى حملته لابد أن ينزل إلى الأرض . وأقلت سحاباً أى حملت سحاباً . نعرف أن السحاب هو الأبخرة الطالعة والصاعدة من الأرض ثم تتجمع وتصعد إلى طبقات الجو العليا ، وتضربها الرياح إلى أن تصادف منطقة باردة فيحدث تكثيف للسحاب فينزل المطر ؛ ونرى ذلك فى الماء المقطر الذى يصنعونه فى الصيدلية ؛ فيأتى الصيدلى بموقد وفوقه إناء فيه ماء ويغلى الماء فيخرج البخار ليسير فى الأنابيب التى تمر فى تيار بارد فيتكثف البخار ليصير ماء . (حتى إذا أقلّت سحاباً ثقالاً سقناه لبلد ميت) .

وقال الحق : « سقناه » بضمير المذكر ؛ لأنه نظر إلى السحاب فى اسم جنسه ، أو نظر إلى لفظه ، وجاء بالوصف مجموعاً فقال : « ثقالا » نظراً إلى أن السحاب جمع سحابة فرق بينه وبين واحدة بالتاء ، وما دامت السحب كلها داخلة فى السّوق فليس لها تعددات فكأنها شىء واحد .

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ ﴾

(من الآية ٥٧ سورة الأعراف)

السحاب لا يتجه إلى مكان واحد ، بل يتجه لأماكن متعددة ، إذن فالحق يوجه السحاب الثقال لأكثر من مكان . لكن الحق سبحانه وتعالى يقول : (سقناه لبلد ميت) .

والميت هو الذى لا حراك فيه وانتهى اختياره فى الحركة ، كذلك الأرض ، فالماء

ينزل من السماء على الأرض وهى هامدة ليس بها حركة حياة أى أن الله يرسل السحاب ويزجيه إلى البلد الميت فى أى مكان من الأرض .

﴿ فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾

(من الآية ٥ سورة الحج)

إذن فالأرض التى لا يأتيها الماء تظل هامدة أى ليس بها حركة حياة مثل الميت .

﴿ سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾

(من الآية ٥٧ سورة الأعراف)

وأراد الحق سبحانه وتعالى أن يلفتنا وينبهنا إلى القضية اليومية التى نراها دائما فى صور شتى ، وهى أن الأرض تكون فى بعض الأحيان جدباً ، ثم يهبط عليها بعض المطر ، وبمجرد أن ينزل المطر على الجبل ، وبعد يومين من نزول المطر نجد الجبل فى اليوم الثالث وهو مخضر ، فمن الذى بذر البذرة للنبات هذا اليوم ؟ إذن فالنبات كان ينتظر هذه المياه . وبمجرد أن تنزل المياه يخرج النبات دون أن يبذر أحد بذوراً ، وهذا دليل على أن كل منطقة فى الأرض فيها مقومات الحياة .

﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾

(من الآية ٥٧ سورة الأعراف)

فالماء الذى ينزل على الأرض الميتة يحيى الأرض ؛ لأنه سبحانه يخرج الحياة كل يوم ، وحين يوضح لنا سبحانه أنه سيبعثنا من جديد فليس فى هذا أمر عجيب ، وهكذا جعل الله القضية الكونية مرئية وواضحة لكل واحد ولا يستطيع أحد أن يكابر ويعاند فيها ؛ لأنها أمر حسىّ مشاهد ، ومنها نستنبط صدق القضية وصدق الرب .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى

خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾

إذن الآية السابقة عالجت قضية البعث بضرب المثل بالآية الكونية الموجودة ؛ فالرياح التى تحمل السحاب ، والسحاب يساق إلى بلد ميت وينزل منه الماء فيخرج به الزرع . والأرض كانت ميتة ويحييها الله بالمطر وهكذا الإخراج بالبعث وهذه قضية دينية ، ويأتى فى هذه الآية بقضية دينية أيضا : (والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذى خبث لا يخرج إلا نكداً) .

والبلد الطيب هو البلد الخصب الذى لا يحتاج إلا إلى المياه فيخرج منه الزرع ، أما الذى خبث ، فمهما نزل عليه الماء فلن يخرج نباته إلّا بعد عناء ومشقة وهو مع ذلك قليل وعديم النفع . وهنا يخدم الحق قضية دينية مثلما خدم القضية الدينية فى البعث أولاً . وقال النبى صلى الله عليه وسلم :

« مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً فكانت منها طائفة طيبة ؛ قبلت الماء وأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس ، فشربوا منها وسقوا وزرعوا ، وأصاب طائفة أخرى منها ، إنما هى قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ ، فذلك مثل من فقه فى دين الله تعالى ، ونفعه ما بعثنى الله به ، فعلم وعلّم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به »[1]

إذن فالمنهج ينزل إلى الناس وهم ثلاثة أقسام ؛ قسم يسمع فينفع نفسه وينقل ما عنده إلى الغير فينفع غيره مثل الأرض الخصبة شربت الماء وقبلته ، وأنبتت الزرع ، وقسم يحملون المنهج ويبلغونه للناس ولا يعملون به وينطبق عليهم قوله الحق :

﴿ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾

(من الآية ٢ سورة الصف)

---

(١) رواه البخارى ومسلم .

صحيح سينتفع الناس من المنهج ، ولذلك قال الشاعر :

خذ بعلمى ولا تركن إلى عملى واجن الثمار وخل العود للنار

ويقول صلى الله عليه وسلم : (من ستر مسلما ستره الله فى الدنيا والآخرة)[1] .

فستر المؤمن على المؤمن مطلوب وستر المؤمن على العالم آكد وأشدّ طلبا ؛ لأن العالم غير معصوم وله فلتات ، وساعة ترى زلته وسقطته لاتُذِعْها لأن الناس سينتفعون بعلمه . فلا تشككهم فيه ، والقسم الثالث هو من لا يشرب الماء ولا يسقيه لغيره أى الذى لا ينتفع هو ، ولا ينفع غيره .

﴿ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾

(الآية ٥٨ سورة الأعراف)

إذن منهج الله مثله مثل المطر تماماً ؛ فالمطر ينزل على الأرض ليرويها وتخرج النبات وهناك أرض أخرى لا تنتفع منه ولكنها تمسكه فينتفع غيره ، وهناك من لا ينتفع ولا ينفع ، فكذلك العلم الذى ينزله الله على لسان رسوله . (والذى خبث لا يخرج إلا نكداً كذلك نصرف الآيات) .

قلنا من قبل : إن الآيات تطلق على معانٍ ثلاثة : الآيات الكونية التى نراها واقعة فى الكون مثل قوله الحق :

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة فصلت)

وآيات هى آيات القرآن ، والآيات التى تكون هى المعجزات للأنبياء .

﴿ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ﴾

(من الآية ٥٨ سورة الأعراف)

---

(١) رواه مسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه وابن حبان فى صحيحه والحاكم وقال صحيح على شرطهما .

الآيات هنا هى الكونية كالماء الذى ينزل ، إنه مثل المنهج . من أخذ به فاز ونجا ، ومن تركه ضل وغوى وكل آيات الله تقتضى أن نشكر الله عليها .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ ﴾

بعد أن تكلم الحق سبحانه وتعالى عن الطائعين وعن العاصين فى الدنيا ، وتكلم عن مواقف الآخرة الجزائية فى أصحاب الجنة ، وأصحاب النار والأعراف أراد أن يبين بعد ذلك أن كل دعوة من دعوات الله سبحانه لأهل الأرض لابد أن تلقى عنتاً وتضييقاً ، وتلقى إعراضاً ، وتلقى إيذاء ، إنه ـ سبحانه ـ يريد بذلك أن يعطى المناعة لرسوله صلى الله عليه وسلم ، فيوضح له : لست أنت بدعاً من الرسل ؛ لأن كل رسول جاء إلى قومه قوبل بالاضطهاد ، وقوبل بالتكذيب ، وقوبل بالنكران ، وقوبل بالإيذاء ، وإذا كان كل رسول قد أخذ من هذا على قدر مهمته الرسالية زماناً محدوداً ، ومكاناً محصوراً فأنت يا رسول الله أخذت الدنيا كلها زماناً ومكاناً ، فلا بد أن تكون مواجهاً لمصاعب تناسب مهمتك ورسالتك ؛ فأنت فى قمة الرسل ، وستكون الإيذاءات التى تنالك وتصيبك قمة فى الإيذاء ، فلست بدعاً من الرسل ، فوطّن نفسك على ذلك . وحين توطن نفسك على ذلك ستلقى كل إيذاء وكل اضطهاد بصبر واحتمال فى الله ، وقص الحق قصص الرسل على رسول الله ، وعبر الله بالهدف من قص القصص بقوله :

﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾

(من الآية ١٢٠ سورة هود)

فكأن القصص تثبيت لفؤاده صلى الله عليه وسلم ، فكلما أهاجه نكران ، أو كلما أهاجه جحود ، قص عليه الحق ـ سبحانه ـ قصة رسول قوبل بالنكران وقوبل بالجحود ليثبت به فؤاده صلى الله عليه وسلم وفؤاد أتباعه لعلهم يعرفون كل شىء ويوطنون أنفسهم

على هذا العنت ؛ فلم يقل الحق لأتباع محمد : إنكم مقبلون على أمر والأرض مفروشة لكم بالورود ، لا . إنما هى متاعب لتجابهوا شر الشيطان فى الأرض . والقصص له أكثر من هدى يثبت به فؤاد الرسول صلى الله عليه وسلم ويبين له أنه ليس بدعاً من الرسل ، ويقوى نفوس أتباعه ، لأنهم حينما يرون أن أهل الحق مع الأنبياء انتصروا ، وهزم الجمع وولىّ الدبر ، وأنهم منصورون دائما فهذا يقوى يقين المؤمنين ، ويكسر من جهة أخرى نفوس الكافرين مثلما قال الحق عن واحد من أكابر قريش . (سنسمه على الخرطوم) .

قال الحق لهم ذلك عن واحد من أكابر قريش وهم لا يقدرون حينئذ أن يدافعوا أو يذودوا عن أنفسهم ، وذهبوا وهاجروا إلى الحبشة حماية لأنفسهم من بطش هؤلاء الأكابر ، وكل مؤمن يبحث له عمن يحميه ، وينزل قوله الحق بعد ذلك فى الوليد بن المغيرة « سنسمه على الخرطوم » ، والوليد بن المغيرة سيد فى قومه ، ويأتى يوم بدر فيوجد أنفه وقد ضرب وخطم ويتحقق قول الله :

﴿ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة القلم)

فمن ـ إذن ـ يحدد ضربة قتال بسيف فى يد مقاتل قبل أن يبدأ القتال ؟ لقد حددها الأعلم بما يكون عليه الأمر .

وأيضا فقصص الرسل إنما جىء بها ليثبت للمعاصرين له أنه تلقى القرآن من الله ؛ لأنه رسول أمىّ ؛ والأمة أمية ، ولم يدّع أحد من خصومه أنه جلس إلى معلم ، أو قرأ كتاباً ، فمن أين جاءته هذه الأخبار إذن ؟

واسمع قول الحق سبحانه وتعالى فى الآيات التى يأتى فيها : « ما كنت » مثل قوله الحق :

﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة القصص)

ومثل قوله الحق :

﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾

(سورة العنكبوت)

ومثل قوله :

﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة آل عمران)

فمن أين جاءت هذه الأخبار إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم يعلمون أنه لم يجلس إلى معلم ولم يقرأ كتاباً ؟ لقد جاءت كلها من الحق سبحانه وتعالى ، وهذا دليل آخر على صدق رسالته .

وقصة سيدنا نوح من القصص التى وردت كثيراً فى القرآن الكريم مثل قصة موسى عليه السلام ، ومن العجيب أن لقطات القصة تنتشر فى بعض السور ، لكن السورة التى سميت بسورة نوح ليس فيها من المواقف التى تعتبر من عيون القصة ، إنها تعالج لقطات أخرى ؛ تعالج إلحاحه فى دعوة قومه ، وأنه ما قصّر فى دعوتهم ليلاً ونهاراً ، وسرّاً وعلانية ، كلما دعاهم ابتعدوا ، ولم تأت قصة المركب فى سورة نوح ، ولا قصة الطوفان ، وهذه لقطات من عيون القصة ، وكذلك لم تأت فيها قصته مع ابنه ، بل جاء بها فى سورة هود .

إذن كل لقطة جاءت لوضع مقصود ، ولهذا رأينا قصة نوح فى سورة « نوح » وقد خلت من عناصر مهمة فى القصة ، وجاءت هذه العناصر فى سورة « هود » أو فى سورة « الأعراف » التى نتناولها الآن بالخواطر الإيمانية .

إذن ، كل قصة من القصص القرآنى تجدها قد جاءت تخدم فكرة ، ومجموعها يعطى كل القصة ؛ لأن الحق حين يورد القصص فهو يأتى بلقطة فى سورة لتخدم موقفاً ، ولقطة أخرى تخدم موقفاً آخر وهكذا . وحين شاء أن يرسل لنا قصة محبوكة تماماً ، جاء بقصة « يوسف » فى سورة يوسف ولم يكررها فى القرآن ، لأنها مستوفية فى سورة يوسف ، اللهم إلا فى آية واحدة :

﴿ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ﴾

(من الآية ٣٤ سورة غافر)

راجع أصله وخرج أحاديثه الدكتور أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .

لقد وردت فى سورة يوسف حياة يوسف منذ أن كان طفلا حتى أصبح عزيز مصر ، وهكذا نرى أن الحق حين يشاء أن يأتى بالقصة كتاريخ يأتى بها محبوكة ، وحين يريد أن يلفتنا إلى أمور فيها مواقف وعظات ، يوزع لقطات القصة على مواقع متعددة تتناسب وتتوافق مع تلك المواقع لتأكيد وخدمة هدف .

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَـٰقَوْمِ ﴾

(من الآية ٥٩ سورة الأعراف)

وساعة ترى « اللام » و « قد » فاعرف أن هذا قسم ، وكأن الحق يقول : وعزتى وجلالى لقد أرسلت نوحاً . وهو بهذا يؤكد المقسم عليه .

والقوم هم الرجال خاصة من المعشر ؛ لأن القوم عادة هم المواجهون للرسالة ، والمرأة محتجبة ؛ تسمع من أبيها أو من أخيها أو من زوجها ، ولذلك قالت النساء للنبى : غلبنا عليك الرجال .

أى أننا لا نجد وسيلة لنقعد معك ونسألك ، فاجعل لنا يوماً من أيامك تعظنا فيه ، فجعل لهن يوماً ؛ لأن المفروض أن تكون المرأة فى ستر ، وبعد ذلك ينقل لها الزوج المنهج . إن سمع من الرسول شيئاً ، وكذلك الأب يقول لابنته ، والأخ يقول لأخته .

فإذا تكلم الرسول يقال : إن الرسول واجه القوم ، من قولهم هو قائم على كذا . وقيم على كذا . ولذلك الشاعر العربى يقول :

وما أدرى ولست أخال أدرى أقوم آل حصن أم نساء

وجاء هنا بالقوم ، والمراد بهم الرجال ، والقرآن يقول :

﴿ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ﴾

(من الآية ١١ سورة الحجرات)

إذن فالنساء لا تدخل فى القوم ؛ فالقوم هم المواجهون للرسول ومنهم تأتى المتاعب والتصلب فى الرأى ، ويكون الإنكار والجحود والحرب منهم .

وسيدنا نوح عليه السلام دعا قومه ونبههم إلى ثلاثة أشياء : عبادة الله ، فقال : « ياقوم اعبدوا الله » ، وبين لهم أنه ليس هناك إله سواه فقال : « مالكم من إله غيره » ، وأظهر لهم حرصه وإشفاقه عليهم إذا خالفوا وعصوا فقال : « إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم » .

وهكذا تكلم عن العقيدة فى الإله الواحد المستحق للعبادة ، وليس آلهة متعددة ، ونعبده أى نطيع أمره ونهيه ، ولأنهم إن لم يفعلوا ذلك فهو يخاف عليهم من عذاب يوم عظيم ، وهو عذاب يوم القيامة . أو أنّ الله كان قد أوحى له بأنه سيأخذهم أخذ عزيز مقتدر ، وعذاب يوم عظيم أى يوم الإغراق ، و « الخوف » مسألة تتعب تفكير من يستقبلها ويخاف أن يلقاها . فمن الذى يفزع بهذا ؟

إن الذى يفزع هم الطغاة والجبابرة والسادة والأعيان ووجوه القوم ، وكانوا قد جعلوا من أنفسهم سادة ، أما سائر الناس وعامتهم فهم العبيد والمستضعفون . والذى يهاج بهذه الدعوة هم السادة لأنه ليس هناك إلا إله واحد ، والأمر لواحد والنهى لواحد والعبادة والخضوع لواحد ، ومن هنا فسوف تذهب عنهم سلطتهم الزمنية ، لذلك يوضح الحق لنا موقف هؤلاء من الدعوة حين يقول :

﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ ﴾

والملأ هم سادة القوم وأعيانهم وأشرافهم ، أو الذين « يملأون » العين هيئة ويملأون القلوب هيبة ، ويملأون صدور المجالس بنية .

إنهم خائفون أن تكون دعوة نوح هى الدعوة إلى الطريق المستقيم وكلامه هو الهداية ؛ فيمنّوا أنفسهم بأن هذا ضلال وخروج عن المنهج الحق : (إنا لنراك فى ضلال مبين) .

أى غيبة عن الحق ، أو فى تيه عن الحق ، و « مبين » أى محيط بصورة لا يمكن النفاذ منها .

ويرد نوح عليه السلام :

﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ ﴾

هم قالوا له : « إنا لنراك فى ضلال مبين » ، المتبادر أن يكون الرد : ليس فى أمرى ضلال ، لكنه قال هنا : « ليس بى ضلالة » ، أقول ذلك لنعرف أن كل حرف فى القرآن موزون لموضعه . هم قالوا له : إنا لنراك فى ضلال ، فيرد عليهم : ليس بى ضلالة ؛ لأن الضلال جنس يشمل الضلالات الكثيرة ، وقوله يؤكد أنه ليس عنده ضلالة واحدة . وعادة نفى الأقل يلزم منه نفى الأكثر ، مثلاً عندما يقول لك صديق : عندك تمر من المدينة المنورة ؟ تقول له : ليس عندى ولا تمرة واحدة . أنت بذلك نفيت الأقل ، وهذا أيضاً نفى للأكثر . (قال يا قوم ليس بى ضلالة) .

وحين ينفى نوح عن نفسه وجود أدنى ضلالة فذلك لأنه يعرف أنه لم يأت من عنده بذلك ، ولو كان الأمر كذلك لاتهم نفسه بأن هواه قد غلبه ، لكنه مرسل من عند إله حق .

﴿ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

(من الآية ٦١ سورة الأعراف)

وقوله : « ولكنى » استدراك فلا تقولوا : أنا فى ضلال ؛ فليس فىّ ضلالة واحدة ، لكن أنا رسول يبلغ عن الله ، والله لا يعطى غير الهدى .

(رسول من رب العالمين) أى من سيد العالمين ومن متولى تربية العالمين ، ومن يتولى التربية لا يُنزل منهجاً يضل به من يربيهم ، بل ينزل منهجاً ليصلح من يربيهم ، وسبحانه قبل أن يأتى بهم إلى الوجود سخر لهم كل هذا الكون ، وأمدهم بالأرزاق حتى الكافرين منهم ، ومن يعمل كل ذلك لن يرسل لهم من يضلهم .

ويستمر البلاغ من نوح عليه السلام لقومه فيقول :

﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾

والبلاغ هو إنهاء الأمر إلى صاحبه ؛ فيقال : بلغت المكان الفلانى . . أى انتهيت إليه . و « البلاغة » هى النهاية فى أداء العبارة الجميلة ، و « أبلغكم » أى أنهى إليكم ما حملنيه الحق من منهج هداية لحركة حياتكم . (أبلغكم رسالات ربى) .

وكان يكفى أن يقول : « رسالة ربى » إلا أنّه قال : (رسالات ربى) لأن أى رسول يأتى بالمنهج الثابت كما جاءت به الرسالات السابقة حتى لا يقول أحد : إنه جاء ليناقض ما جاء به الرسل السابقون ، فما قاله وجاء به أى رسول سابق يقوله ، ونعلم أنه كانت هناك صحف لشيت ولإدريس . فقال : إنه يبلغ رسالته المتضمنة للرسالات السابقة سواء رسالة إدريس وهو اخنوخ ، وكذلك شيت وغيره من الرسل .

أى أبلغكم كل ما جعله الله منهجاً لأهل الأرض من الأمور المستقيمة الثابتة ، مثلما قال سبحانه :

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ﴾

(من الآية ١٣ سورة الشورى)

وهو الأمور المستقرة الثابتة العقدية ، والأحكام التى لا تتغير . أو « رسالات ربى » ، لأنه كرسول يتلقى كل يوم قسطاً من الرسالة ؛ فاليوم جاءت له رسالة يبلغها ، وغداً تأتى له رسالة يبلغها ، ولو قال : « الرسالة » لكان عليه أن ينتظر حتى تكتمل البلاغات من الله له ثم يقولها ، ولكنْ نوح كان يبلغ كل رسالة تأتيه فى وقت إبلاغه بها ؛ لذلك فهى « رسالات » . أو لأن موضوع الرسالات أمر متشعب تشعباً يماثل ما تحتاج إليه الحياة من مصالح ؛ فهناك رسالة للأوامر ، ورسالة للنواهى ، ورسالة للوعظ ، ورسالة للزجر ،

ورسالة للتبشير ، ورسالة للإنذار ، ورسالة للقصص ، وهكذا تكون رسالات .

أو أن كل نجم ـ أى جزء من القرآن وقسط منه ـ يعتبر رسالة ، فما يرسله الله فى يوم هو رسالة للنبى ، وغداً له رسالة أخرى وهكذا .

وقوله:« أنصح لكم » لأن البلاغ يقتضى أن يقول لهم منهج الله ، ثم يدعو القوم لاتباع هذا المنهج بأن يرقق قلوبهم ويخاطبهم بالأسلوب الهادىء وينصحهم ، والنصح أمر خارج عن بلاغ الرسالة .

ولنلتفت إلى فهم العبارة القرآنية . (وأنصح لكم) .
والنصح أن توضح للإنسان المصلحة فى العمل ، وتجرد نيتك مما يشوهه . وهل أنت تنصح آخر بأمر يعود نفعه عليك ؟ إنك إن فعلت ذلك تكون النصيحة متهمة ، وإن نصحته بأمر يعود عليه وعليك فهذه نصيحة لك وله ، ولكن حينما تقول : « نصحت لك » أى أن النصيحة ليس فيها مسألة خاصة بك ، بل كل ما فيها لصالح من تبلغه فقط ، وبذلك يتضح الفارق بين « نصحته » و « نصحت لك » .

﴿ وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

(من الآية ٦٢ سورة الأعراف)

وكأن سيدنا نوحاً يخاطب قومه : إياكم أن تظنوا أن ما أقوله لكم الآن هو كل العلم من الله ، ولا كل علم الله ، ولا كل ما علمنى الله ، بل أنا عندى مسائل أخرى سوف أقولها لكم إن اتقيتم الله وامتلكتم الاستعداد الإيمانى ، وهنا سأعطيكم منها جرعات . أو قوله : « وأعلم من الله ما لا تعلمون » يعنى أنه سيحدث لكم أمر فى الدنيا لم يحصل للأمم السابقة عليكم وهو أن من يُكذب الرسول يأخذه الله بذنبه . وتلك التجربة لم تحدث مع قوم شيت أو إدريس .

﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ﴾

(من الآية ٤٠ سورة العنكبوت)

ولم يحدث مثل هذا العقاب قبل نوح ، وقد بين لهم نوح : أنا أعلم أن ربنا قد دبر لكم أن من يُكَذِّبَ سيأخذه أخذ عزيز مقتدر .

أو « وأعلم من الله ما لا تعلمون » ، أى أن الله أعلمنى لا على قدر ما قلت لكم من الخير ، لكنه سبحانه قد علمنى أن لكل إخبار بالخير ميلاداً وميعاداً .

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾

« أوَعجبتم » وكان من الممكن أن يقول : « أعجبتم » ، لكن ساعة أن يجىء بهمزة الاستفهام ويأتى بعدها بحرف عطف . فاعرف أن هناك عطفاً على جملة ؛ أى أنه يقول : أكذَّبْتُم بى ، وعجبتم من أن الله أرسل على لسانى « ذكر من ربكم » . والذكر ضد النسيان ، وأن الشىء يكون على البال ، ومرة يتجاوز البال ويجرى على اللسان .

وقد وردت معانٍ كثيرة للذكر فى القرآن ، وأول هذه المعانى وقمتها أن الذكر حين يطلق يراد به القرآن :

﴿ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

وكذلك فى قوله الحق :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾

(سورة الحجر)

إذن يطلق الذِّكر ويراد به القرآن ، ومرة يطلق الذكر ويراد به الصيت أى الشهرة الإعلامية الواسعة . وقد قال الحق لرسوله عن القرآن :

﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة الزخرف)

أى أن القرآن شرف كبير لك ولأمتك وسيجعل لكم به صيتاً إلى يوم القيامة ؛ لأن الناس سترى فى القرآن على تعاقب العصور كل عجيبة من العجائب ، وسيعلمون كيف أن الكون يصدق القرآن ، إذن بفضل القرآن « العربى » ، سيظل اسم العرب ملتصقا ومرتبطا بالقرآن ، وكل شرف للقرآن ينال معه العرب شرفا جديدا .

أى إن القرآن شرف لكم . ويقول سبحانه :

﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ﴾

(من الآية ١٠ سورة الأنبياء)

أى فيه شرفكم ، وفيه صيتكم ، وفيه تاريخكم ، ويأتى الإسلام الذى ينسخ القوميات والأجناس ، ويجعل الناس كلهم سواسية كأسنان المشط .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ﴾

(من الآية ١٣ سورة الحجرات)

والرسول صلى الله عليه وسلم يقول :

(لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى) .

وسيظل القرآن عربياً ، وهو معجزة فى لغة العرب ، وبه ستظل كلمة العرب موجودة فى هذه الدنيا . إذن فشرف القوم يجىء من شرف القرآن ، ومن صيت القرآن . والحق يقول :

﴿ صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴿١﴾ ﴾

(سورة ص)

أى أن شرفه دائم أبداً . حين يأتى إلى الدنيا سبق علمى ، نجد من يذهب إلى البحث عن أصول السبق العلمى فى القرآن ، ونجد غير المسلمين يعتنون بالقرآن ويطبعونه فى صفحة واحدة ، وعلى ورق فاخر قد لا يستعملونه فى كتبهم . هذا هو القرآن ذو الذكر على الرغم من أن بعض المسلمين ينحرفون قليلاً عن المنهج ، وقد يتناساه بعضهم ، لكن فى

مسألة القرآن نجد الكل يتنبه . وكما قلت من قبل : قد تجد امرأة كاشفة للوجه وتضع مصحفاً كبيراً على صدرها ، وقد تجد من لا يصلى ويركب سيارة يضع فيها المصحف ، وكل هذا ذكر . وتجد القرآن يُقرأ مرتلاً ، ويُقرأ مجوداً ، ومجوداً بالعشرة ثم يسجل بمسجلات يصنعها من لا يؤمنون بالقرآن . وكل هذا ذكر وشرف كبير .

عرفنا أن « الذكر » قد ورد أولا بمعنى القرآن ، وورد باسم الصيت والشرف : ويطلق الذكر ويراد به ما نزل على جميع الرسل ؛ فالحق سبحانه يقول :

﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢ ﴾

(سورة الأنبياء)

أى أن كل ما نزل على الرسل ذكر .

ويقول سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ۝٤٨ ﴾

(سورة الأنبياء)

إذن فالمراد بالذكر ـ أيضاً ـ كل ما نزل على الرسل من منهج الله .

ومرة يُطلق الذكر ويراد به معنى الاعتبار . والتذكير ، والتذكر فيقول سبحانه :

﴿ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٩٠ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾

(من الآيتين ٩٠ ، ٩١ سورة المائدة)

والمراد هنا بالذكر : الاعتبار والتذكر وأن تعيش كمسلم فى منهج الله . ومرة يراد بالذكر : التسبيح ، والتحميد . انظر إلى قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ ۝٣٦ ﴾

﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ﴾

(الآية ٣٦ ومن الآية ٣٧ سورة النور)

وهو ذكر لأن هناك من يسبح له فيها بالغدو والآصال وهم رجال موصوفون بأنهم لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله .

وقد يُطلق الذكر ويراد منه خير الله على عباده ويراد به كذلك ذكر عبادتهم له بالطاعة ؛ فسبحانه يذكرهم بالخير وهم يذكرونه بالطاعة . اقرأ إن شئت قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾

(من الآية ٩٠ سورة النحل)

وفى آية أخرى :

﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾

(من الآية ٤٥ سورة العنبكوت)

ومادام قد قال جل وعلا : « ولذكر الله أكبر » أى ذكر الله لهم بالنعم والخيرات ، فذكره فضل وإحسان وهو الكبير المتعال . فهناك إذن ذكر ثانٍ ، ذكر أقل منه ، وهو العبادة لربهم بالطاعة ، وهنا يقول الحق :

﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

ما وجه العجب هنا ؟ نعلم أن العجب هو إظهار الدهشة وانفعال النفس من حصول شىء على غير ما تقتضيه مواقع الأمور ومقدماتها ، إذن تظهر الدهشة ونتساءل كيف حدث هذا ؟ ولو كان الأمر طبيعياً ورتيباً لما حدثت تلك الدهشة وذلك العجب .

وعجبتم لماذا ؟ اقرأ ـ إذن ـ قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ﴾

(الآية ١ ومن الآية ٢ سورة ق)

موضع العجب هنا أن جاء لهم منذر ورسول من جنسهم ؛ فمن أى جنس كانوا يريدون الرسول ؟ كان من غبائهم أنهم أرادوا الرسول مَلَكاً .

﴿ بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ۝٢ ﴾

(سورة ق)

وجاء العجب أيضاً فى البعث . فتساءل الكافرون هل بعد أن ذهبنا وغبنا فى الأرض وصرنا تراباً بعد الموت يجمعنا البعث مرة ثانية ؟!

إذن فالعجب معناه إظهار الدهشة من أمر لا تدعو إليه المقدمات أو من أمر يخالف المقدمات .

العجب عندهم فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها لأن نوحاً عليه السلام يريد منهم أن يبحثوا فى الإيمان بوجود إله . وكان المنطق يقتضى أنه إذا رأوا شيئاً هندسته بديعة ، وحكيمة ، وطرأ عليها هذا المخلوق وهو الإنسان ليجد الكون منسقاً موجوداً من قبله ، كان المنطق أن يبحث هذا الإنسان عمن خلق هذا الكون وأن يلحّ فى أن يعرف مَن صنع الكون ، وحين يأتى الرسول ليقول لكم من صنع هذا الكون ، تتعجبون ؟!

كان القياس أن تتلهفوا على من يخبركم بهذه الحقيقة ؛ لأن الكون وأجناسه من النبات والجماد والحيوان فى خدمتك أيها الإنسان . لا بقوتك خلقت هذا الكون ولا تلك الأجناس ، بل أنت طارىء على الكون والأجناس ، ألم يدر بخلدك أن تتساءل من صنع لك ذلك ؟

إذن فالكلام عن الإيمان كان يجب أن يكون عمل العقل ، وقلت قديماً : هب أن إنساناً وقعت به طائرة فى مكان ، وهذا المكان ليس به من وسائل الحياة شىء أبداً ، ثم جاع ، ولم يجد طعاماً ، وقهره التعب ، فنام ، ثم أفاق من هذه الإغفاءة ؛ وفوجىء بمائدة أمامه عليها أطايب الطعام والشراب وهو لا يعرف أحداً فى المكان ، بالله قبل أن يأكل ألا يتساءل عمن أحضرها ؟!! كان الواجب يقتضى ذلك .

إذن أنتم تتعجبون من شىء تقتضى الفطرة أن نبحث عنه ، وأن نؤمن به وهو الإله

الذى لا ينتفع بطاعتنا أو بعبادتنا ، ولا تعود عليه العبادة بشىء ، بل تعود علينا ، والعبادة فيها مشقات لأنها تلجم الشهوات وتعقل وتمنع من المعاصى والمحرمات ، ولكن يُقابِل ذلك الثوابُ فى الآخرة .

وهناك من قال : ولماذا لا يعطينا الثواب بدون متاعب التكليف ؟ مادام لا يستفيد . إنّ العقل كاف ليدلنا ـ دون منهج ـ إلى ما هو حسن فنفعله ، وما نراه سيئاً فلا نفعله ، والذى لا نعرفه أهو حسن أم سيىء . ونضطر له نفعله ، وإن لم نكن فى حاجة له لا نفعله .

ونقول لهذا القائل : لكن من الذى أخبرك أن العقل كاف ليدلنا إلى الأمر الحسن ، هل حسّن لك وحدك أم لك وللآخرين ؟ فقد يكون الحسن بالنسبة لك هو السوء بالنسبة لغيرك لأنك لست وحدك فى الكون . ولنفترض أن هناك قطعة قماش واحدة ، الحسن عندك أن تأخذها ، والحسن عند غيرك أن يأخذها . لكن الحُسْن الحقيقى أن يفصل فى مسألة ملكية هذه القطعة من القماش مَن يعدل بينك وبين غيرك دون هوى . وألّا يكون واحد أولى عنده من الآخر . إذن لابد أن يوجد إله يعصمنا من أهوائنا بمنهج ينزله يبين لنا الحسن من السيىء ؛ لأن الحسن بالمنطق البشرى ستصطدم فيها أهواؤنا .

ومثال آخر : افرض أننا دخلنا مدينة ما ، ورأينا مسكنا جميلا فاخرا وكل منا يريد أن يسكن فيه وكل واحد يريد أن يأخذه ؛ لأن ذلك هو الحسن بالنسبة له ، لكن ليس كذلك بالنسبة لغيره ، إذن فالحسن عندك قد يكون قبيحاً عند الغير . فالحسن عند بعض الرجال إذا ما رأى امرأة أن ينظر إليها ويتكلم معها ، لكن هل هذا حسن عند أهلها أو أبيها أو زوجها ؟ . لا .

إنّ الذى تعجبتم منه كان يجب أن تأخذوه على أنه هو الأمر الطبيعى الفطرى الذى تستلزمه المقدمات . فقد جاءكم البلاغ على لسان رجل منكم . ولماذا لم يقل الحق : لسان رجل ؟ إننا نعلم أن هناك آية ثانية يقول فيها الحق :

﴿ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ ﴾

(من الآية ١٩٤ سورة آل عمران)

كأنه يقول لهم : إن الوعد الذى وعده الحق لكم قد جاء لكم بالمنهج الذى نزل على الرسل . ومهمة الرسل صعبة ؛ فليست مقصورة على التبليغ باللسان لأن مشقاتها كلها على كاهل كل رسول ، ولا تظنوا أن ربنا حين اختار رسولاً قد اختاره ليدلله على رقاب الناس ، لا . لقد اختاره وهو يعلم أن المهمة صعبة ، والرسول صلى الله عليه وسلم - كما تعلمون - لم يشبع من خبز شعير قط ، وأولاده وأهله - على سبيل المثال - لا يأخذون من الزكاة ، والرسل لا تورث فجميع ماتركوه صدقة ، وكل تبعات الدعوة على الرسول ، وهذه هى الفائدة فى أنه لم يقل على لسان رسول ، لأن الأمر لو كان على لسان الرسول فقط لأعطى البلاغ فقط ، إنما « على رجل منكم » تعطى البلاغ ومسئولية البلاغ على هذا الرجل .

﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ ﴾

(من الآية ٦٣ سورة الأعراف)

ماهو العجب ؟ لقد كان العجب أن تردوا الألوهية والنبوة .

وبعضهم لم يرد الألوهية ورد فكرة النبوة على الإنسان . وطالب أن يكون الرسول من الملائكة ؛ لأن الملائكة لم تعص ولها هيبة ولا يُعرف عنها الكذب . لكن كيف يصبح الرسول ملكاً ؟ وهل أنت ترى الملك ؟ إن البلاغ عن الله يقتضى المواجهة ، ولابد أن يراه القوم ويكلموه ، والملك أنت لن تراه . إذن فلسوف يتشكل على هيئة رجل كما تشكل جبريل بهيئة رجل . إذن أنتم تستعجبون من شىء كان المنطق يقتضى ألاّ يكون .

﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

وقولهم هذا فى قمة الغباء . فقد كان عليهم أن يتهافتوا ويقبلوا على الإيمان ؛ لأن الرسول منهم . وقد عرفوا ماضيه من قبل ، وكذلك أنسوا به ، ولو كانت له انحرافات قبل أن يكون رسولاً لخزى واستحيا أن يقول لهم : استقيموا . ومادام هو منكم وتعرفون تاريخه وسلوكه حين دعاكم للاستقامة كان من الواجب أن تقولوا لأنفسكم : إنه لم يكذب فى أمور الدنيا فكيف يكذب فى أمور الآخرة ، ولم يسبق له أن كذب على خلق الله فكيف يكذب على الله ؟ ولأنه منكم فلابد أن يكون إنساناً ولذلك قال الحق :

﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

وهنا فى الآية التى نحن بصددها يقول الحق : (على رجل منكم لينذركم ولتتقوا ولعلكم ترحمون) .

إذن فمهمته أن ينذر ، والإنذار لقصد التقوى ، والتقوى غايتها الرحمة ، وبذلك نجد هنا مراحل : الإنذار وهو إخبار بما يسوؤك ولم يأت زمنه بعد وذلك لتستعد له ، وتكف عنه لأنه سيتعبك ويضايقك . والبشارة ضد الإنذار ، لأنها تخبر بشىء سار زمنه لم يأت ، وفائدة ذلك أن يجند الإنسان كل قوته ليستقبل الخير القادم . وأن يبتعد عن الشىء المخيف . وهكذا يكون التبشير والإنذار لتتقى الشرور وتأخذ الخير ، وبذلك يحيا الإنسان فى التقوى التى تؤدى إلى الرحمة .

إذن فمواطن تعجبهم من أن يجيئهم رسول مردودة ؛ لأن مواطن التعجب هذه كان يجب أن يُلح عليها فطرياً ، وأن تنعطف النفس إليها لا أن يتعجب أحد لأنها جاءت ، فقد جاءت الرسالة موافقة للمقدمات ، وقد جاء الرسول منكم ولم يأت مَلَكاً ليكون قدوة . وكذلك لم يرسله الله من أهل الجاه ومن الأعيان ومن صاحب الأتباع ؛ حتى لا يقال إن الرسالة قد انتشرت بقهر العزوة ، إن الأتباع كانوا موافقين على الباطل بتسلط الكبراء والسادة ، فمخافة أن يقال : إن كل تشريع من الله آزره المبطلون بأتباعهم جاءت الدعوة على أيدى الذين ليس لهم أتباع ولا هم من أصحاب الجاه والسلطان . ولقد تمنى أهل الشرك ذلك ويقول القرآن على لسانهم :

﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾

(سورة الزخرف)

ولقد كان تمنيهم ان ينزل القرآن على رجل عظيم بمعاييرهم ، وهذه شهادة منهم بأن القرآن فى ذاته منهج ومعجزة . ولم يتساءلوا : وهل القرآن يشرف بمحمد أو محمد هو الذى يشرف بالقرآن ؟ إن محمداً يشرف بالقرآن ، لذلك يقول الحق :

﴿ وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ ﴾

(من الآية ٢٧ سورة هود)

وهذه هى العظمة ؛ لأن أتباع محمد صلى الله عليه وسلم لم يكونوا من الذين يفرض عليهم الواقع أن يحافظوا على جاههم ويعملوا بسطوتهم وبطشهم وبقوتهم ، ويفرضوا الدين

بقوة سلطانهم ، لا ، بل يمر على أتباع رسول الله فترة وهم ضعاف مضطهدون ، ويؤذون ويهاجرون ، فالمهمة فى البلاغ عن الله تأتى لينذر الرسول ، ويتقى الأتباع لتنالهم الرحمة نتيجة التقوى ، والتقوى جاءت نتيجة الإنذار .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾

وهنا يتكلم الحق عن حكاية الإنجاء ، ونعلم المقدمة الطويلة التى سبقت إعداد سيدنا نوح عليه السلام للرسالة ، فقد أراد له الله أن يتعلم النجارة ، وأن يصنع السفينة .

﴿ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ ﴾

(من الآية ٣٨ سورة هود)

ولم يجىء الحق هنا بسيرة الطوفان التى قال فيها فى موضع آخر من القرآن :

﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ ﴾

(الآية ١١ سورة القمر)

وجاء الحق هنا بالنتيجة وهى أنهم كذبوه .

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾

(من الآية ٦٤ سورة الأعراف)

وكانت هذه أول حدث عقابى فى تاريخ الديانات ؛ لأن رسالة نوح عليه السلام هى أول رسالة تعرضت إلى مثل هذا التكذيب ومثل هذا العناد ، وكان الرسل السابقون لنوح عليهم البلاغ فقط ، ولم يكن عليهم أن يدخلوا فى حرب أو صراع ، والسماء هى التى

تؤدب ، فحينما علم الحق سبحانه وتعالى أنه بإرسال رسوله صلى الله عليه وسلم ستبلغ الإنسانية رشدها صار أتباع محمد مأمونين على أن يؤدبوا الكافرين .

وفى تكذيب نوح عليه السلام يأتينا الحق هنا بالنتيجة .

(فأنجيناه والذين معه) ولم يقل الحق : كيف أنجاه ولم يأت بسيرة الفلك ، بل أخبر بمصير من كذبوه ، ويأتى بالعقاب من جنس الطوفان .

﴿ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴾

(من الآية ٦٤ سورة الأعراف)

هناك « أعمى » لمن ذهب بصره كله من عينيه كلتيهما ، وهناك أيضا عَمِه وأَعْمَهُ ، والعَمَهُ فى البصيرة كالعمى فى البصر . . أى ذهبت بصيرته ولم يهتد إلى خير .

ثم انتقل الحق إلى رسول آخر . ليعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم الأسوة فيه أيضاً . فبعد أن جاء بنوح يأتى بهود .

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾

وساعة ما تسمع : (وإلى عاد أخاهم هوداً) أى أرسلنا إلى عاد أخاهم هوداً ، و « أخاهم » موقعها الإعرابى « مفعول به » ويدلنا على ذلك قوله فى الآية السابقة : (أرسلنا نوحا) ، وكذلك أرسلنا إلى عاد أخاهم هودا.وكلمة « أخاهم » تُشْعرُ بأشياء كثيرة ؛ إنه من جنسهم ، ولغته لغتهم ، وأنسهم به ، ويعرفون كل شىء وكل تاريخ عنه ، وكل ذلك إشارات تعطى الأنس بالرسول ؛ فلم يأت لهم برسول أجنبى عاش بعيداً عنهم حتى لا يقولوا : لقد جاء ليصنع لنفسه سيادة علينا . بل جاء لهم بواحد منهم وأرسل إليهم « أخاهم » وهذا الكلام عن « هود » .

إذن كان هود من قوم عاد ، ولكن هناك رأى يقول : إن هودا لم يكن من قوم عاد ، ولأنَّ

الأخوة نوعان : أخوَّة فى الأب القريب ، أو أخوّة فى الأب البعيد ، أى من جنسكم ، من آدم ؛ فهو إما أخ من الأب القريب ، وإمّا أخ من الأب البعيد . وقد قلنا من قبل : إن سيدنا معاوية كان يجلس ثم دخل عليه الحاجب فقال : يا أمير المؤمنين ، رجل بالباب يقول إنه أخوك ، فتساءلت ملامح معاوية وتعجب وكأنه يقول لحاجبه : ألا تعرف إخوة أمير المؤمنين ؟ وقال له : أدخله ، فأدخله . قال معاوية للرجل : أى إخوتى أنت ؟!

قال له : أخوك من آدم .

فقال معاوية : رحم مقطوعة ـ أى أن الناس لا تتنبه إلى هذه الأخوة ـ والله لأكونن أول من وصلها .

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

ونلحظ أن الحق قال على لسان سيدنا نوح لقومه :

﴿ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾

(من الآية ٥٩ سورة الأعراف)

وأرسل الحق هوداً إلى عاد ، لكن قول هود لقوم عاد يأتى : (قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون) .

وهنا « قال » فقط من غير الفاء ؛ وجاء فى قول نوح:« فقال » . وهذه دقة الأداء لننتبه ؛ لأن الذى يتكلم إله ورب ، فتأتى مرة بـ « فاء » وتأتى مرة بغير « فاء » رغم أن السياق واحد ، والمعنى واحد والرسول رسول ، والجماعة هم قوم الرسول . ونعلم أن « الفاء » تقتضى التعقيب ، وتفيد الإلحاح عليهم ، وهذا توضحه سورة نوح ؛ لأن الحق يقول فيها :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟

وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ ﴾

(سورة نوح)

إذن فالفاء مناسبة هنا ، لكن فى مسألة قوم هود نجد أن سيدنا هوداً قال لهم مرة أو اثنتين أوثلاث مرات ، لكن بلا استمرار وإلحاح ، وهذا يوضح لنا أن إلحاح نوح على قومه يقتضى أن يأتى فى سياق الحديث عنه بـ : « فقال » وألا تأتى فى الحديث عن دعوة سيدنا هود . وقد يتعجب الإنسان لأن مدة هود مع عاد لا تساوى مدة نوح مع قومه ، وقد جاء الإيضاح بزمن رسالة سيدنا نوح فى قوله الحق :

﴿ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا ﴾

(من الآية ١٤ سورة العنكبوت)

ظل سيدنا نوح قُرابة ألف سنة يدعو قومه ليلاً ونهاراً سرًّا وعلانية ، لكنهم كانوا يفرون من الإيمان ، لذلك يأتى الحق فى أمر دعوة نوح بالفاء التى تدل على المتابعة . أما قوم عاد فلم يأت لهم « بالفاء » . بل جاء بـ « قال » :

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾

(من الآية ٦٥ سورة الأعراف)

وقال نوح من قبل :

﴿ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾

(من الآية ٥٩ سورة الأعراف)

وفى مسألة قوم عاد قال : (يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون) .

ومع أن الأسلوب واحد والمعانى واحدة ، وكان ذلك يقتضى الإنذار ، لكن لم يقل الحق ذلك ؛ لأن نوحاً كان عنده علم بالعذاب الذى سوف ينزل ؛ لأنها كانت أول تجربة ، لكن سيدنا هود لم يكن عنده علم بالعذاب .

العملية التى حدثت لنوح مع قومه وإهلاكهم بالغرق كانت أولية بالنسبة له ؛ فالله سبق أن أعلمه بها ، وحين ذهب هود إلى قوم عاد كانت هناك سابقة أمامه ، وأخذ ربنا المكذبين لنوح بالعذاب ، لذلك ألمح سيدنا هود فقط إلى احتمال العذاب حين قال : ﴿ أفلا تتقون ﴾ .

أى أن العذاب قد ينتظركم وينالكم مثل قوم نوح .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾

فى هذه الآية جاء قوله : ﴿ الذين كفروا ﴾ ، وفى قصة نوح قال سبحانه : ﴿ قال الملأ من قومه ﴾ ولم يأت فيها بالذين كفروا ، لأن قوم نوح لم يكن فيهم من آمن وكتم إيمانه وأخفاه ، بخلاف عاد قوم هود فإنه كان فيهم رجل اسمه مرثد بن سعد آمن وكتم وستر إيمانه ، فيكون قوله تعالى فى شأنهم : ﴿ الذين كفروا ﴾ قد جاء مناسبا للمقام ، لأن فيهم مؤمنا لم يقل ما قالوا من رميهم لسيدنا هود بالسفاهة حيث قالوا ما حكاه الله عنهم بقوله :

﴿ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾

(من الآية ٦٦ سورة الأعراف)

أما قوم نوح فقد قالوا :

﴿ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾

(من الآية ٦٠ سورة الأعراف)

فقال لهم نوح عليه السلام :

﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَٰلَةٌ ﴾

(من الآية ٦١ سورة الأعراف)

ما الفرق بين الضلال والسفاهة ؟

الضلال هو مجانبة حق ، والسفاهة طيش وخفة وسخافة عقل ،وأضافت عاد اتهاماً آخر لسيدنا هود : ﴿ وإنا لنظنك من الكاذبين ﴾ .

والظن رجحان الأمر بدون يقين ، فهناك راجح ، ومرجوح ، أو أن الظن هنا هو التيقن . على حد قوله سبحانه :

﴿ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ ﴾

(من الآية ٤٦ سورة البقرة)

أى يتيقنون ، وجاء بالرد من سيدنا هود :

﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾

وفى هذا القول نفى للاتهام بالسفاهة ، وإبلاغ لهم بأنه مبلّغ عن الله بمنهج تؤديه الآية التالية وهى قوله الحق :

﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ ﴾

وسبق أن قال سبحانه على لسان نوح :

﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ ﴾

(من الآية ٦٢ سورة الأعراف)

فلماذا قال فى قوم نوح : ﴿ أنصح لكم ﴾ ،وقال هنا فى عاد : ﴿ وأنا لكم ناصح أمين ﴾ ؟

لقد قال الحق : ﴿ أنصح لكم ﴾ فى قوم نوح لأن الفعل دائماً يدل على التجدد ، بينما يدل الاسم على الثبوت . ونظراً إلى أن نوحاً عليه السلام كان يلحّ على قومه ليلاً ونهاراً ، وإعلاناً وسرًّا ، لذلك جاء الحق بالفعل : ﴿ أنصح لكم ﴾ ليفيد التجدد ، ولكن فى حالة قوم هود جاء سبحانه بما يفيد الثبوت وهو قوله : ﴿ ناصح أمين ﴾ ؛ لأن هوداً عليه السلام لم يلح ويكرر على قومه فى دعوتهم إلى الإيمان كماكان يفعل نوح عليه السلام .

ويقول سبحانه على لسان سيدنا هود :

﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾

جاء الحق هنا بالذكر للإنذار فقال : ﴿ لينذركم ﴾ فقط ، وليس كما قال فى قوم نوح : ﴿ ولتتقوا ولعلكم ترحمون ﴾ لأن الإنذار لم يأت لمجرد الإنذار ، بل لنرتدع ونتقى ، لِكى نُرحم ، إذن فحين يأتى بأول الحلقة وأول الخيط وهو الإنذار فنحن نستنتج الباقى وهو التقوى لنصل إلى الرحمة : ﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح ﴾ .

وهذا كلام جديد ؛ لأن قوم نوح هم أول قوم عُذّبوا حين لم يؤمنوا ، وجاء سيدنا هود إلى عاد بعد ذلك ، يبلّغهم وينذرهم ليأخذوا العبرة من نوح وقومه :

﴿ وَاذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾

(من الآية ٦٩ سورة الأعراف)

ويذكرهم سيدنا هود أن الحق قد أعطى لهم أجساماً فارعة فيها بسطة وطول ، ويقال : إن الطويل منهم كان يبلغ طوله مائة ذراع ، والقصير منهم كان يبلغ طوله ستين ذراعاً ، ويأمرهم سيدنا هود أن يذكروا آلاء الله ، أى نعمه عليهم ، وأول النعم أن أرسل إليهم رسولاً يأخذ بأيديهم إلى مناطق الخير .

فماذا كان ردهم ؟

يقول الحق :

﴿ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾

كان المنطق أن يعبدوا الله وحده لا أن يعبدوا الشركاء الذين لا ينفعونهم ولا يضرونهم ، ولا يسمعونهم . بل إن الواحد منهم كان يرى الهواء يهب على الصنم ، فيميل الصنم ويقع على الأرض وتنكسر رقبته ، فيذهب إلى الحداد ليعيد تركيب رأس جديد للصنم ، فكيف يعبد مثل هذا الصنم ؟ لكنهم قالوا لهود : نحن نقلد آباءنا ولا يمكن أن نترك ما كان يعبد آباؤنا لأننا على آثارهم نسير . وإن كان إلهك ينذرنا بعذاب فأتنا به إن كنت من الصادقين . وهكذا وضح أنه لا أمل فى اقتناعهم بالدعوة إلى الإيمان .

فماذا يقول الحق بعد ذلك ؟

يجىء القول الفصل على لسان سيدنا هود :

﴿ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ ﴾

لقد كان يكلمهم ويكلمونه ، قالوا له : ائتنا بالعذاب ، فقال لهم : ﴿ قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب ﴾ ، فكيف يقول وقع ؟ لقد قال ذلك لأنه يخبر عن الله . و « وقع » فعل ماض ، لكنا نعلم أن كلام الله مجرد عن الزمان ماضيًا كان أو حاضرا ، أو مستقبلا ، لقد قال سيدنا هود :« وقع » والعذاب لم يقع بعد ، لكن لما كان قوله بلاغاً عن الله فإنّه يؤكد وقوع العذاب حتماً ؛ لأن الذى أخبر به قادر على إنفاذه فى أى وقت ، ولا إله آخر ولا قوة أخرى قادرة على أن تمنع ذلك . والذى وقع عليهم هو الرجس ، والرجس أى التقذير ، ضد التزكية والتطهير . وغضب الله الواقع لم تحدده هذه الآية . لكن لابد أن له شكلاً سيقع به .

ويسائلهم هو ساخراً : ﴿ أتجادلوننى فى أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ﴾ ، وكل اسم يكون له مسمى ، وهذه الأسماء أنتم أطلقتموها على هذه الآلهة ، وهل لها مسميات حقيقية لِتُعبد ؟ . لا ، بل أنتم خلعتم على ما ليس بإله أنه إله ، وهذه أسماء بلا مسميات ، وأنتم فى حقيقة الأمر مقلدون لآبائكم . وما تعبدونه أسماء بلا سلطان من الإله الحق .

﴿ مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ﴾

(من الآية ٧١ سورة الأعراف)

أى ليس لهذه الأسماء من حجة على ما تقولون ، بدليل أنهم كانوا يسمون فى الجاهلية إلهاً باسم « العزّى » وعندما يكسرونه لا يجدون عزاً ولا شيئاً ؛ لأن هذا الإله المزعوم لم يدفع عن نفسه ، فكيف يكون إلهاً وقيّوما على غيره ؟ وكذلك سموا « اللات » أى الله ومضاف له التاء ، وعندما يكسرونه لا يجدون له قوة أو جبروتاً أو طغياناً .

ويقول هود لقومه ما يؤكد وقوع العذاب :

﴿ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴾

(من الآية ٧١ سورة الأعراف)

وقوله : ﴿ فانتظروا ﴾ ، جعلنا نفهم قوله السابق : ﴿ قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب ﴾ بأن الرجس والغضب قادمان لا محالة . صحيح أنه عبر عن ذلك بالفعل الماضى ، ولكن لنقرأ قوله الحق :

﴿ أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾

(من الآية ١ سورة النحل)

و « أتى » فعل ماضٍ ،وفى الظاهر أنه يناقض قوله:﴿ فلا تستعجلوه ﴾ لأن الاستعجال يدل على أنَّ الحدث لم يأت زمنه بعد . ولكن لنا أن نعلم أن الذى أخبر هو الله ، ولا توجد قوة ثانية تغير مرادات الله أن تكون أو لا تكون .

يقول الحق بعد ذلك :

﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾

ونلحظ أن الحق قد بين وسيلة نجاة سيدنا نوح : ﴿ فكذبوه فأنجيناه والذين معه فى الفلك وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا ﴾ .

أما هنا فى مسألة عاد فلم يوضح لنا وسيلة النجاة ، بل قال سبحانه :

﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

وقوله : ﴿ فأنجيناه ﴾ تدل على أن عذاباً عاماً وقع ، إلا أن ربنا أوحى لسيدنا هود أن يذهب بعيداً عن المكان هو والذين معه قبل أن يقع هذا العذاب . وكان العرب قديماً إذا حزبهم أمر ، أو دعتهم ضرورة إلى شيء خرج عن أسبابهم يذهبون إلى بيت الله ؛ ليضرعوا إلى الله أن يخلصهم منه ، حتى الكفرة منهم كانوا يفعلون ذلك . كما حدث من عاد حين أرسل الله إليهم سيدنا هودا نبيًّا فكذبوه وازدادوا عتوًّا وتجبراً فأصابهم جدب وظل ثلاث سنوات فما كان منهم ألا أن فزعوا إلى الكعبة لكى يدعوا ربهم أن يخفف عنهم العذاب ، وذهب واحد منهم اسمه « قيل بن عنز » ، وآخر اسمه « مرثد بن سعد » الذى كان يكتم إسلامه على رأس جماعة منهم إلى مكة ، وكان لهم بها أخوال من العماليق ؛ من أولاد عمليق بن لاوث بن سام بن نوح ، وكانوا هم الذين يحكمون مكة فى هذا الوقت ، وعلى رأسهم واحد اسمه « معاوية بن بكر » ، فنزلوا عنده ، وأكرم وفادتهم على طريقة العرب ، واستضافهم ضيافة ملوك وأمراء ، وجاء لهم بالقيان والأكل والشراب ، فاستمرأوا الأمر ، وظلوا شهراً ، فقال معاوية بن بكر : لقد جاءوا لينقذوا قومهم من الجدب ومافكروا أن يذهبوا إلى الكعبة، ولافكروا فى أن يدعوا ربنا وأخاف أن أقول لهم ذلك فيقولوا إنه ضاق بنا . وتكون سبّة فىّ . وأخذ يفكر فى الأمر . وكان عنده مغنيتان اسمهما « الجرادتان » . فقالت المغنيتان : قل فى ذلك شعراً ، ونحن نغنيه لهم ، فقال معاوية :

ألا يا قيل ويحك قم فهينم ... لعل الله يمطرنا غماماً
فيسقى أرض عاد إن عادا ... قد أمسوا لا يبينون الكلاما

فلما غنتا ، والغناء فيه ترديد وخصوصاً إذا كان غناءً موجهاً « ألا يا قيل ويحك قم فهينم » وهينم : أى ادعو الله ، ألم تحضر من أجل الدعاء لعل الله يمطرنا الغمام على أرض عاد ، وينتهى الجدب ، وقد بلغ منهم الجهد أنهم لا يبينون الكلام ، فتنبه القيل ، وتنبه مرثد بن سعد ، وكان قد نمى إلى علم « القيل » أن مرثد بن سعد مؤمن بهود عليه السلام ، فرفض أن يصحبه معه ، وبالفعل ذهب قيل وأخذ يدعو الله ، فسمع هاتفاً يقول له : « اختر لقومك » وقد رأى سحابة سوداء وسحابة حمراء وسحابة بيضاء ، ونبهه الهاتف أن يختار سحابة تذهب لقومه من بين الثلاثة ، فاختار السحابة السوداء ، لأنها أكثر السحاب ماء ، وهو على قدر اجتهاده

اختار السحابة السوداء ، وعادوا لبلادهم ليجدوا السحابة السوداء فقال لهم : أنا اخترت السحابة السوداء لأنها توحى بماء كثير منهمر ، وقال الحق فى هذا الأمر :

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ﴾

(من الآية ٢٤ سورة الأحقاف)

أى أن هذه هى السحابة التى قال عليها :«قيل » سوف تعطينا المطر .

فيرد الحق عليهم ويقول لهم :

﴿ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ ﴾

(من الآية ٢٤ ومن الآية ٢٥ سورة الأحقاف)

إذن فقولهم السابق لسيدنا هود الذى أورده الحق هنا فى سورة الأعراف :

﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾

(من الآية ٧٠ سورة الأعراف)

أى أن عذابهم يتأكد بالمطر والريح الذى جاء به قول سيدنا هود هنا فى سورة الأعراف : ﴿ قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب ﴾ .

ولم يفلت من العذاب إلا من آمن مصداقاً لقوله الحق :

﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

لقد يسّر الحق الانقاذ لسيدنا هود ومن آمن معه ليهجروا المكان لحظة ظهور السحاب ، فقد سمع هود هاتفاً يؤكد له أن فى هذا السحاب العذاب الشديد ، فأخذ الجماعة الذين آمنوا معه وهرب إلى مكة ، وتم إهلاك الذين ظلموا أنفسهم بتكذيب رسولهم ورفضهم الإيمان بربهم .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ ﴾

لقد قال سيدنا صالح لثمود مثلما قال سيدنا هود لعاد ، وحمل لهم الإنذار ليتقوا فيرحموا ، قال سيدنا صالح : ﴿ يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾ .

إذن فالإنذار للتقوى وللوصول إلى الرحمة والفلاح ، ولذلك أقول دائماً : إن القرآن حينما يتعرض لأمر قد لا يأتى به مفصلا ولكن سياقه يوحى بالمراد منه ، ولا يكرر وذلك ليربى فينا ملكة الاستيقاظ إلى استقبال المعانى . والمثال على ذلك فى قصة الهدهد مع سيدنا سليمان ، يقول القرآن على لسان سيدنا سليمان :

﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾

(سورة النمل)

ويهدد سيدنا سليمان الهدهد قائلاً :

﴿ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاذْبَحَنَّهُ ﴾

(من الآية ٢١ سورة النمل)

ثم جاء الهدهد ليقول :

﴿ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾

(من الآية ٢٢ سورة النمل)

ثم أرسل سيدنا سليمان الهدهد إلى قوم سبأ قائلاً :

﴿ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

(سورة النمل)

وبعد هذه الآية مباشرة قال القرآن :

﴿ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ ﴾

(سورة النمل)

وكأن الهدهد قد ذهب بالكتاب ، ورماه إلى ملكة سبأ ، وقالت هي الرد مباشرة . إذن لم يكرر القرآن ما حدث ، بل جعل بعضاً من الأحداث متروكاً للفهم من السياق .

وكذلك هنا فى قوله الحق :

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ﴾

(من الآية ٧٣ سورة الأعراف)

وكلمة « أخاهم » هنا تؤكد أن سيدنا صالحاً كان مأنوساً به عند ثمود ، ومعروف التاريخ لديهم ، وسوابقه فى القيم والأخلاق معروفة لهم تماماً وأضيفت ثمود له لأنه أخوهم . وقد جاءت دعوته مطابقة لدعوة نوح وهود .

﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

(من الآية ٧٣ سورة الأعراف)

والبينة هى الدليل على الصدق فى البلاغ عن الله ، وهى الناقة . فما قصة الناقة ؟ هل خرج لهم بناقة ونسب ملكيتها لله ؟ بطبيعة الحال ، لا ، بل لابد أن تكون لها قصة بحيث يعلمون أن هذه الناقة ليست لأحد من البشر . وحين قام سيدنا صالح بدعوته ، تحداه السادة من قومه ، وقالوا : نقف نحن وأنت ، نستنجد نحن بآلهتنا ، وأنت تستنجد بإلهك ، وإن غلبت آلهتنا تتبعنا ، وإن غلب إلهك

نتبعك ، وجلسوا يدعون آلهتهم ، فلم يحدث شيء من تلك الآلهة ، وهنا قالوا لسيدنا صالح : إن كنت صادقاً فى دعوتك ، هذه صخرة منفردة أمامك فى الجبل اسمها « الكاثبة » فليخرج ربك لنا من هذه الصخرة ناقة هى عشراء كالبخت ـ أحسن أنواع الإبل ـ ، فدعا الله سبحانه وتعالى ، وانشقت الصخرة عن الناقة ، وخروج الناقة من الصخرة لا يدع مجالاً من الشك فى أنها آية من الله ظهرت أمامهم . إنها البينة الواضحة . لقد انشقت الصخرة عن الناقة ووجدوها ناقة عشراء ، وَبْرَاء ـ أى كثيرة الوَبَر ـ يتحرك جنينها بين جنبيها ثم أخذها المخاض فولدت فصيلاً ، وهكذا تتأكد الآية الإلهية دون أن يجرؤ أحد على التشكيك فيها ، وهى ناقة من الله وهو القائل :

﴿ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَـٰهَا ﴾

(من الآية ١٣ سورة الشمس)

وأوضح لهم سيدنا صالح أنها ناقة الله ، وترونها رؤية مشهدية وهذه الناقة لها يوم فى الماء لتشرب منه ، ويوم تشربون أنتم فيه . وكان الماء قليلاً عندهم فى الآبار .

﴿ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾

(من الآية ١٥٥ سورة الشعراء)

أى لابد من تخصيص يوم لتشرب فيه هذه الناقة ، ولكم أنتم وإبلكم وحيواناتكم يوم آخر ، وكان من عجائب هذه الناقة أن تقف على العين وتشرب فلا تدع فيها ماءً ، وهى كمية من المياه كانت تكفى كل الإبل . وبعد ذلك تتحول كل المياه التى شربتها فى ضرعها لبناً ، فيأخذون هذا اللبن .

صحيح أن الناقة منعتهم المياه لكنهم أخذوا منها اللبن الذى يطعمونه ، ولأنها ناقة الله كان لابد أن تأخذ هيكلاً وحجماً يناسبها وكمية من الطعام والشراب مناسبة لتقيم بها حياتها ، وكمية إدرار اللبن مناسبة لشربها وطعامها وحجمها ، فمادامت منسوبة لله فلابد أن فيها مواصفات إعجازية ، وكان الفصيل الذى ولدته معها ، وكان إذا ما جاء الحر فى الصيف تسكن الناقة فى المشارف العالية ، وبقية النوق تنزل فى الأرض الوطيئة ، وحين يأتى الشتاء تنزل إلى المناطق المنخفضة .

والمعروف أن مدائن صالح كانت منطقة شديدة الحرارة ، ويمكن لمن يزور المدينة أو « تبوك » أن يمر عليها .

كانت الناقة حرة فى اختيار المكان الذى تعيش فيه صيفاً أو شتاءً فلا أحد بقادر أن يمسها بسوء . وكانت هناك امرأتان لهما نياق . وناقة الله تغلب نياق المرأتين فى المراعى والماء . فأحضرت المرأتان رجلاً يطلق عليه : « أُحَيْمر ثمود : واسمه قُدار بن سالف » ليقتلها ، فقتل الناقة ، فلما قتلت الناقة ، طلع ابنها الفصيل على جبل يسمى « قارة » وخار ثلاثة أصوات ، فنادى سيدنا صالح : يا قوم أدركوا هذا الفصيل ، لعل الله بسبب إدراككم له يرفع عنكم العذاب ، فراحوا يتلمسونه فلم يجدوه وأعلم الله صالحاً النبى أن العذاب قادم ، ففى اليوم الأول تكون وجوههم مصفرة ، وفى اليوم الثانى تكون محمرة ، وفى اليوم الثالث تكون مسودّة ، فقد كانت الناقة هى ناقة الله المنسوبة له سبحانه ، وقد تأكدوا بالأمر المشهدى من ذلك ، وكان من الواجب عليهم ساعة أن وجدوا الآية الكونية المشهودة أن يأخذوا منها العبرة ، وأنها مقدمة للشىء الموعود به . لكنَّ الغباء أنساهم أنها ناقة الله .

﴿ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

(من الآية ٧٣ سورة الأعراف)

وبالفعل حدث العذاب بعد أن قتل أحيمرثمود الناقة .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ

ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾

ومن قبل قال الحق لقبيلة عاد :

﴿ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ ﴾

(من الآية ٦٩ سورة الأعراف)

وهنا قال الحق : ﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد ﴾ .

لأن عاداً هم الخلفاء الأقرباء منهم ، وقصتهم مازالت معروفة ومعالمها واضحة ، أما قصة نوح فهى بالتأكيد أقدم قليلاً من قصة عاد .

ويذكرهم الحق أيضاً أنه جعل لهم فى الأرض منازل يسكنونها ، فاتخذوا من سهولها قصوراً ، والسهل هو المكان المنبسط الذى لا توجد به تلال أو صخور أو جبال ، وكانوا ينحتون من الجبال بيوتاً ، وكان عمر الإنسان منهم يطول لدرجة أن البيت ينهدم مرتين فى العمر الواحد للإنسان . ولذلك قرروا أن يتخذوا من الجبال بيوتاً لتظل آمنة ، وحين يرى الإنسان مدائن صالح منحوتة فى الجبل فهى فرصة لأن يتأمل عظمة الحق فى تنبيه الخلق إلى ما يفيدهم وهى بالفعل من نعم الله ، ويقول سبحانه :

﴿ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾

(من الآية ٧٤ سورة الأعراف)

وآلاء الله ـ كما عرفنا ـ هى نعمه التى لا تحصى ، وينبههم إلى عدم نشر الفساد فى الأرض .

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ

لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾

ونعرف أن هناك سادة ، وهناك أتباعاً . ومن قبل قال الحق :

﴿ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ ﴾

(من الآية ١٦٦ سورة البقرة)

وهنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها حوار بين السادة وبين المستضعفين الذين لا جاه لهم ولا جبروت يُحافظ عليه ، ورأوا دعوة الإيمان ووجدوا فيها النفع لهم فأقبلوا عليها ، أما الملأ وهم السادة الأشراف الأعيان الذين يملأون العين هيبة ، والقلوب مهابة فقد قالوا لمن آمن من المستضعفين ـ لأن هناك مستضعفين ظلوا على ولائهم للكفر ـ قال هؤلاء الملأ من المستكبرين لمَن آمن من المستضعفين :

﴿ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴾

(من الآية ٧٥ سورة الأعراف)

وعندما سمع المستكبرون قول المؤمنين من المستضعفين . فماذا قال الملأ المستكبرون ؟

يقول الحق :

﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾

إذن فقد أعلنوا الكفر بالقول وضموا إليه الكفر بالعمل وهو قتل الناقة ، ويقول الحق :

﴿ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾

والعقر : هو الذبح بالنسبة للنوق .

وهم هنا يقولون أيضاً مثلما قال السابقون لهم :

﴿ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾

(من الآية ٧٧ سورة الأعراف)

و « الصادقين » تؤول أيضاً إلى المرسلين . لقد اتهموا صالحاً عليه السلام بالكذب كنبى مرسل لهم برغم حدوث الآية الواضحة وهى خروج الناقة من الجبل ، لذلك يحل عليهم غضب الله المتمثل فى قوله الحق :

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾

والرجفة هى الهزة التى تحدث رجة فى المهزوز . ويسميها القرآن مرة بالطاغية . فى قوله الحق :

﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ۝ ﴾

(سورة الحاقة)

والتى أصبحوا من بعدها « جاثمين » ، وهو التعبير الدقيق الذى يدل على أن الواحد منهم إن كان واقفاً ظل على وقرفه ، وإن كان قاعداً ظل على قعوده ، وإن كان نائماً ظل على نومه. أو كما نقول : « انسخطوا على هيئاتهم » .

« فالجاثم » هو من لزم مكانه فلم يبرح أو لصق بالأرض .

وبعد أن أخذهم بالرجفة يقول الحق :

﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ ۝٧٩ ﴾

فهل كان سيدنا صالح يخاطبهم وهم موتى ؟ . نعم يخاطبهم إنصافاً لنفسه وإبراء لذمته ، مثلما يقع واحد فى ورطة فيقول له صديقه : لا أملك لك شيئاً الآن : فقد نصحتك من قبل . أو أن شريراً قد قُتل ، فتقول له : « ياما نصحتك » . وأنت تتكلم لكى تعطى لنفسك براءةالعذر ، أو كما فعل صلى الله عليه وسلم مع قتلى بدر وناداهم واحداً واحداً بعد أن ألقوا جثثهم فى قليب بدر ، وقال صلى الله عليه وسلم : يا أهل القليب ، يا فلان ، يا فلان ، يا فلان ، هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقًا ، فإنى قد وجدت ما وعدنى ربى حقًا ، فقال الصحابة :

ـ أو تكلمهم يا رسول الله وقد جيَّفوا . قال : والله ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبونى .

وكأن سيدنا صالح قال ذلك ليتذكروا كيف أبلغهم رسالات الله ومنهجه ونصح لهم وتحنن عليهم أن يلتزموا بمنهج الله ، لكنهم لم يستمعوا للنصح . ولم يحبوا الناصحين ؛ لأن الناصح يريد أن يُخرج المنصوح عما ألفه من الشر ، وعندما ينصحه أحد يغضب عليه .

وبعد أن انتهى من قصة ثمود مع نبيهم يقول سبحانه :

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾

وكما قال الحق : ﴿ لقد أرسلنا نوحاً ﴾ وقال : ﴿ وإلى عاد أخاهم هوداً ﴾ ، ﴿ وإلى ثمود أخاهم صالحاً ﴾ فهو هنا يأتى باسم « لوط » منصوباً لأنه معطوف على من سبقه من أصحاب الرسالات .

وما هو زمان الإرسال ؟ إن قوله الحق : ﴿ إذ قال لقومه ﴾ يفيد أن زمن القول كان وقت الإرسال . وهى الإشارة القرآنية ذات الدلالة الواضحة على أن الرسول حين يبعث ويرسل إليه ويبلّغ الرسالة لا يتوانى لحظة فى أداء المهمة ، فكأن تبليغ الرسالة تزامن مع قوله : ﴿ يا قوم ﴾ . والأسلوب يريد أن يبين لك أنه بمجرد أن يقال له :« بلغ » فهو يبلغ الرسالة على الفور ، وكأن الرسالة جاءت ساعة التبليغ فلا فاصل بينهما .

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ ﴾

(من الآية ٨٠ سورة الأعراف)

وكلمة « قومه » تعنى أنه منهم ، ولماذا لم يقل : « أخاهم لوطاً » ؟ وهذه لها معنى يفيد أن السابقين من الرسل كانوا من بيئة الأقوام الذين أرسلوا إليهم ؛ فعاد كان « هود » من بيئتهم ، و« ثمود » كان صالح من بيئتهم . وإذا كان الحق لم يقل « أخاهم لوطاً » فلنلحظ أنه أوضح أنه قد أرسله إلى قومه ، وهذه تنبهنا إلى أن لوطاً

لم يكن من هذا المكان ، لأن لوطاً وإبراهيم عليهما السلام كانا من مدينة بعيدة ، وجاء إلى هذا المكان فراراً من الاضطهاد هو وإبراهيم عليهما السلام ، وهذا يبين لنا أن لوطاً طارىء على هذا المكان ، ولم يكن أخاهم المقيم معهم فى البيئة نفسها . ولكنهم « قومه » لأنه عاش معهم فترة فعرف بعضهم بعضاً ، وعرفوا بعضاً من صفاته ، وأنسوا به .

أقول ذلك لننتبه إلى دقة أداء القرآن ، فمع أن القصص واحد فسبحانه يضع لنا التمييز الدقيق ، ولم يقل لهم لوط : إن ربى نهاكم عن هذه العملية القذرة وهى إتيان الرجال . بل أراد أن يستفهم منهم استفهاماً قد يردعهم عن العملية ويقبحها .

وكان استفهام سيدنا لوط هو استفهام تقريع ، واستفهام إنكار ، فلم يقل لهم : إن ربنا يقول لكم امتنعوا عن هذا الفعل ، بل يستنكر الفعل كعمل مضاد للفطرة ، واستنكار فطرى .

﴿ أَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾

(من الآية ٨٠ سورة الأعراف)

وهذا يدل على أنه يريد أن يسألهم سؤالاً إنكاريًا ليحرجهم ، لأن العقل الفطرى يأبى هذه العملية : ﴿ أتاتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين ﴾ .

أى أن هذه المسألة لم تحدث من قبل لأنها عملية مستقذرة ؛ لأن الرجل إنما يأتى الرجل فى محل القذارة ، لكنهم فعلوها ، وهذا الفعل يدل على أنها مسألة قد تشتهيها النفس غير السويَّة . ولكنها عملية قذرة تأباها الفطرة السليمة .

وكلمة « فاحشة » تعطينا معنى التزيد فى القبح ؛ فهى ليست قبحاً فقط ، بل تَزَيُّدٌ وإيغال وتعمق فى القبح ومبالغة فيه ؛ لأن الفاحشة تكون أيضاً إذا ما أتى الرجل أنثى معدة لهذه العملية لأنه لم يعقد عليها ، ولم يتخذها زوجا ، وعندما يتزوجها تصير حِلاً له ، لكن إتيان الذكر للذكر هو تزيد فى الفحش . وإذا كان هذا الأمر محرماً فى الأنثى التى ليست حلالاً له ويعد فاحشة ، فالرجل غير مخلوق

لمثل هذا الفعل ولا يمكن أن يصير حلالاً ، يكون إتيانه فاحشة بمعنى مركّب .

﴿ أَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾

(من الآية ٨٠ سورة الأعراف)

وقلنا من قبل: إن « مِن » قد تأتى مرة زائدة ، ويمكنك أن تقول إنها زائدة فى كلام الإنسان ، لكن من العيب أن تقول ذلك فى كلام ربنا . وقوله : ﴿ ما سبقكم بها من أحد من العالمين ﴾ .

أى ما سبقكم أحدٌ من العالمين ، و « أحد » هى الفاعل ، وجاءت « من » لتوضح لنا أنه لم يأت بها أحد ابتداءً ، مثلما قلنا قديماً ، حين تأتى لواحد لتقول له : « ما عندى مال » . فأنت قد نفيت أن يكون عندك مال يعتد به . وقد يكون معك عدة قروش وهى لا تعتبر مالاً . ولكن إن قلت : ما عندى من مال ، أى ليس عندى من بداية ما يقال له إنه مال ، وقوله الحق :

﴿ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾

(من الآية ٨٠ سورة الأعراف)

يعنى أنه لم يسبقكم أى أحدٌ من بداية ما يقال له أحد ، وسبحانه يريد بذلك أن ينفيها أكثر ، و « من » التى فى قوله : ﴿ من العالمين ﴾ هى تبعيضية أى ما سبقكم بها أحد « من بعض » العالمين . فما هذا الأمر ؟ لقد سماها فاحشة ، وهى تزيد فى القبح ووصفه لها بأنها لم يأتها أحد من العالمين جعلها مسألة فظيعة للغاية . لأننا حين نبحث هذه المسألة بحثاً عقليًا نجد أن الإنسان مخلوق كخليفة فى الأرض وعليه استبقاء نوعه ؛ لأن كل فرد له عمر محدود ، ويخلف الناس بعضهم بعضاً ، ولابد من بقاء النوع ، وقد ضمن الله للإنسان الأقوات التى تبقيه ، وحلل له الزواج وسيلة لإبقاء النوع ، ومهمة الخلافة تفرض أن يخلف بعضنا بعضاً . وكل خليفة يحتاج إلى اقتيات وإلى إنجاب . و « الاقتيات » خلقه الله فى الأرض التى قدر فيها أقواتها .

والنوع البشرى جعل منه سبحانه الذكر والأنثى ومنهما يأتى الإنجاب الخلافى ؛

فهو محمول أولاً فى ظهر أبيه نطفة ، ثم فى أمه جنيناً ثم تضعه لترعاه مع والده ، ويربيه الاثنان حتى يبلغ رشده . وهذه خمس مراحل ، وكل مرحلة منها شاقة ، فحمل الأم فى الطفل تسعة شهور هو أمر شاق ؛ لأن الإنسان منا إن حمل شيئاً طوال النهار سيصاب بالتعب ، لكن الأم تحمل الجنين تسعة أشهر ، وأراد الله أن يكون الحمل انسيابيًا بمعنى أن الجنين فى نشأته الأولى لا يبلغ وزنه إلا أقل القليل ، ثم يكبر بهدوء وبطء لمدة تسعة شهور حتى يكتمل نموه .

وهذا الجنين كان صغيراً فى بدء تكوينه ، ثم صار وزنه غالباً ثلاثة كيلوجرام فى يوم ولادته ، وبين بدء تكوينه إلى لحظة ميلاده هناك فترة زمنية ينمو فيها هذا الجنين تدريجيًا ، وبشكل انسيابى ، فهو لا يزيد فى الوزن كل ساعة ، بل ينمو فى كل جزء من المليون من الثانية بمقدار يناسب هذا الجزء من الثانية ، وهذا يعنى أن الجنين ينمو انسيابيا بما يناسب الزمن .

نلحظ ذلك أيضاً فى أثناء التدريب على رياضة حمل الأثقال أنهم لا يدربون اللاعب الناشىء على حمل مائة كيلوجرام من أول مرة بل يدربونه على حمل عشرين كيلوجراما فى البداية ، ثم يُزاد الحمل تباعاً بما لا يجعل حامل الأثقال فى عنت ، ويسمون ذلك : انسياب التدريب ؛ لأن حمل هذه الأثقال يحتاج إلى تعوّد ، ولهذا لا يتم تدريبه على حمل الأثقال فجأة ، بل بانسياب بحيث لا يدرك الزمن مع الحركة ، كذلك النمو ، فأنت إذا نظرت إلى طفلك الوليد ساعة تلده أمه ، وسأقدر جدلاً أنك ظللت تنظر إليه دائماً ، فهو لا يكبر فى نظرك أبداً ، لأنه ينمو بطريقة غير محسوسة لديك ، لكنك لو غبت شهراً عنه وتعود لرؤيته ستدرك نموّه ، وهذا النمو الزائد قد تجمع فى الزمن الفاصل بين آخر مرة رأيته فيها قبل غيابك وأول مرة تراه بعد عودتك .

ومن لطف الله ـ إذن ـ فى الحمل أن الجنين ينمو انسيابيًا ، ولذلك يزداد الرحم كل يوم من بدء الحمل إلى آخر يوم فيه ، وترى الأم الحامل ، وهى تسير بوهن وتبطىء فى حركتها ، ثم يأتى الميلاد مصحوباً بمتاعب الولادة وآلامها ، وبعد أن يولد المولود تستقبله رعاية أمه وأبيه ، ويأخذ سنوات إلى أن يبلغ الرشد . ونعلم أن أطول الأجناس طفولة هو الإنسان ، ولذلك نجد الأب الذى يريد الإنجاب يتحمل

مع الأم متاعب التربية ، وقد قرن الله هذا الأمر بشهوة ، وهى أعنف شهوة تأتى من الإنسان ، وبعد ميلاد الطفل نجد المرأة تقول : لن أحمل مرة أخرى ، ولكنها تحمل بعد ذلك .

إذن كأن الشهوة هى الطُعم الموضوع فى المصيدة ليأتى بالصيد وهو الإنجاب ؛ لذلك قرن الحق الإنجاب بالشهوة لنقبل عليها ، وبعد أن نقبل عليها ، ونتورط فيها نتوفر ونبذل الجهد لنربى الأولاد . فإذا أنت عزلت هذه الشهوة عن الإنجاب والامتداد تكون قد أخللت وملت عن سنة الكون ، لأنك ستأخذ اللذة بدون الإنجاب ، وإذا تعطل الإنجاب تعطلت خلافة الأرض ، والشىء الآخر أن الرجل فى الجماع يلعب دور الفاعل ، وفى الشذوذ وهو العملية المضادة التى فعلها قوم لوط ينقلب الرجل إلى منفعل بعد أن كان فاعلاً .

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

والفاحشة هى العملية الجنسية الشاذة ، ولم يحددها سبحانه من البداية كدليل على أنها أمر معلوم بالفطرة ، فساعة يقول : ﴿ أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين ﴾ يعرفون ما فعلوا . وإن افترضنا أن هناك أغبياء أو من يدعون الغباء ويرفضون الفهم ، فقد جاء بعدها بالقول الواضح :

﴿ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ ﴾

والإسراف هو تجاوز الحد ، والله قد جعل للشهوة لديك مصرفاً طبيعيًا منجبا ، وحيث تأخذ أكثر من ذلك تكون قد تجاوزت الحد ، ولقد جعل الله للرجل امرأة من جنس البشر وجعلها وعاء للإنجاب ، وتعطيك الشهوة وتعطيها أنت الشهوة ، وتعطيك الإنجاب ، وتشتركان من بعد ذلك فى رعاية الأولاد . وأى خروج

عما حدده الله يكون الدافع إليه هو الشهوة فحسب ، لكن ينبغى أن يكون الدافع إلى هذه العملية مع الأنثى هو الشهوة والإنجاب معاً ؛ لبقاء النوع ، ولذلك وصف الحق فعل قوم لوط : ﴿ بل أنتم قوم مسرفون ﴾ .

ويأتى الحق سبحانه بما أجابوا به عن سؤال سيدنا لوط :

﴿ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

وبذلك تمادى هؤلاء القوم رافضين أن يقبح أحد لهم الشذوذ ؛ لذلك قالوا : ﴿ أخرجوهم من قريتكم ﴾ .

وما هى الحجة التى من أجلها يطلبون إخراج لوط والذين آمنوا معه من القرية ؟

﴿ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾

(من الآية ٨٢ سورة الأعراف)

فهل التطهر عيب ؟ لا ، لكنهم عاشوا فى النجاسة وألفوها ، ويرفضون الخروج منها ؛ لذلك كرهوا التطهر . والمثال على ذلك حين نجد شابًا يريد أن ينضم إلى صداقة جماعة فى مثل عمره ، لكنه وجدهم يشربون الخمر ، فنصحهم بالابتعاد عنه ، ووجدهم يغازلون النساء فحذرهم من مغبة الخوض فى أعراض الناس ، لكن جماعة الأصدقاء كرهت وجوده بينهم لأنه لم يألف الفساد فيقولون : لنبتعد عن هذا المستقيم المتزهد المتقشف ، وكأن هذه الصفات صارت سُبة فى نظر أصحاب المزاج المنحرف ، مثلهم مثل الحيوان الذى يحيا فى القذارة ، وإن خرج إلى النظافة يموت .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾

وهم حين أرادوا طرد لوط وأهله ، إنما كانوا يجازفون .

إنهم بذلك قد تعجلوا العقاب ، وجاءهم العقاب وأنجى الحق سبحانه لوطاً وأهله بتدبير حكيم لا يحتاج فيه سبحانه إلى أحد ، وإذا تساءل أحد : ومن هم أهل لوط الذين أنجاهم الله معه ؟ أهم أهل النسب أم أهل التدين والتبعية ؟ . إن كان أهله بالنسب فالحق يستثنى منهم « امرأته » ، وهذا دليل على أن أهل البيت آمنوا بما قاله لوط وكذلك الأتباع أيضاً : ﴿ فأنجيناه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين ﴾ .

إذن كان مع لوط أيضاً بعض من أهله وبعض من الأتباع ، وكانوا من المتطهرين ، والتطهر هو أن يترفع الإنسان عن الرجس والسوء . ولذلك نجد سيدنا شعيباً حين ينصح قومه :

﴿ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ ﴾

(من الآية ٨٥ سورة الأعراف)

ويتعجب القوم سائلين شعيبا :

﴿ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ ﴾

(من الآية ٨٧ سورة هود)

إنهم يتعجبون من أن الصلاة تنهى عن ذلك ، لقد أعمى ضلالهم بصيرتهم ، فلم يعرفوا أن الصلاة تنهى عن كل سوء . وكذلك فعل بعض من الكافرين حين اتهموا سيدنا رسول الله بأنه مجنون :

﴿ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ ﴾

(سورة الحجر)

ومن قولهم يتأكد غباء تفكيرهم ، فماداموا قد قالوا : ﴿ نزل عليه الذكر ﴾ فمن الذى نزّل هذا الذكر ؟ ، والذكر هو القرآن ، والذى نزله هو الله ـ سبحانه وتعالى ـ فكيف يعترفون بالقرآن كذكر ، ثم يتهمون الرسول بأنه « مجنون » ؟ ؛ لأنهم ماداموا قد قالوا عن القرآن إنه ذكر ، وإنه قد نزل عليه ، ولم يأت به من عنده ، فكيف يكون مجنوناً ؟ إنهم هم الكاذبون ، وقولهم يؤكد أن فكرهم نازل هابط .

وفى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها نجد الحق يقول سبحانه :

﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

إن امرأة سيدنا لوط لم تدخل فى الإنجاء لأنها من الغابرين ، و « غبر » تأتى لمعانٍ متعددة ، فهى تعنى إقامة ومكثا بالمكان ، أو تعنى أى شىء مضى ، كما يقال : هذا الشىء غبرت أيامه ؛ أى مضت أيامه ، ولسائل أن يقول : كيف تأتى الكلمة الواحدة للمعنى ونقيضه ؟ فغبر تعنى بقى ، وغبر أيضاً تعنى مضى وانتهى . نقول : إن المعنى ملتقٍ هنا فى هذه الآية ، فمادام الحق ينجيه من العذاب الذى نزل على قوم لوط فى القرية فنجد زوجته لم تخرج معه ، بل بقيت فى المكان الذى نزل فيه العذاب ، وبقيت فى الماضين ، وهكذا يكون المعنى ملتقيا . فإن قلت مع الباقين الذين آتاهم العذاب فهذا صحيح . وإن قلت إنها صارت تاريخاً مضى فهذا صحيح أيضاً : ﴿ إلا امرأته كانت من الغابرين ﴾ .

ونحن لا ندخل فى تفاصيل لماذا كانت امرأته من الغابرين ؛ لأن البعض تكلم فى حقها بما لا يقال ، وكأن الله يدلس على نبى من أنبيائه ، لا ، نحن لا نأخذ إلا ما قاله الحق بأنها كانت مخالفة لمنهجه وغير مؤمنة به . ونلحظ أيضاً أن الحق تحدث عن امرأة نوح وامرأة لوط فى مسألة الكفر ؛ فقال :

﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا ﴾

(من الآية ١٠ سورة التحريم)

ودقق النظر فى كلمة ﴿ تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما ﴾ وتساءل البعض عن معنى الخيانة وهل المقصود بهاالزنا ؟ . ونقول : ربنا لا يدلس على نبى له ، لكن أن تؤمن الزوجة أو تكفر ، فهذه مسألة اختيارية . وكأن الله سبحانه يوضح لنا أن الرسول مع أنه رسول من الله إلا أنه لا يستطيع أن يفرض إيماناً على امرأته ؛ فالمسألة هى حرية الاعتقاد . وانظر إلى التعبير القرآنى : ﴿ ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط ﴾ .

إياك أن تظن أن أيًا منهما كانت متكبرة على زوجها ؛ لأن الحق يقول : ﴿ كانتا تحت عبدين من عبادنا ﴾ أى أن إمرة وقوامة الرجل مؤكدة عليها ، يشير إلى ذلك قوله : ﴿ كانتا تحت عبدين ﴾ لكن الإيمان هو مسألة اختيار ، وهذا الاختيار متروك لكل إنسان ، وأكد الحق ذلك فى مسألة ابن سيدنا نوح :

﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾

(من الآية ٤٦ سورة هود)

وحاول البعض أن يلصق تهمة الزنا بامرأة نوح وامرأة لوط ، وهم فى ذلك يجانبون الصدق ، إنه محض افتراء ، وقد نبهنا الحق إلى ذلك فقال عن امرأة نوح وامرأة لوط :

﴿ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا ﴾

(من الآية ١٠ سورة التحريم)

ولنفهم أن الاختيار فى العقيدة هو الذى جعلهما من الكافرين ، وأن الرسولين نوحاً ولوطاً لم يستطيعا إدخال الإيمان فى قلبى الزوجتين ؛ حتى يتأكد لدينا أن العقيدة لا يقدر عليها إلا الإنسان نفسه ، ولذلك ضرب سبحانه لنا مثلاً آخر :

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ ﴾

(سورة التحريم)

فهذه زوجة فرعون المتجبر ؛ الذى « ادّعى الألوهية » ، لكنه لا يقدر أن يمنع

امرأته من أن تؤمن بالله ، وهكذا نجد نبيًا لا يقدر أن يقنع امرأته بالإيمان ، ونجد مدّعى الألوهية عاجزاً عن أن يجعل امرأته كافرة مثله ، وهذا يدل على أن العقيدة أمر اختيارى محمى بكل أنواع الحماية ؛ حتى لا يختار الإنسان دينه إلا على أساس من اقتناعه لا على أساس قهره .

وضرب الله مثلاً آخر :

﴿ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ﴾

(من الآية ١٢ سورة التحريم)

ونلاحظ أن الحق لم يأت بأسماء زوجتى نوح ولوط ، وكذلك لم يأت باسم امرأة فرعون ، لكنه أورد لنا اسم مريم واسم والدها . فلماذا كان الإبهام أولاً ؟ لنعلم أنه من الجائز جدًا أن يحصل مثل هذا الأمر لأى امرأة ، فقد تكون تحت جبار وكافر ، وتكون هى مؤمنة ، وقد تكون تحت عبد مؤمن ولا يلمس الإيمان قلبها .

﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

فكلمة « أنجينا » تشير إلى أن عذاباً سيقع فى المكان الذى فيه قوم لوط ، ولأنه سبحانه شاء أن يعذب جماعة ولا يعذب جماعة أخرى ، فلابد أن يدفع الجماعة التى كتب لها النجاة إلى الخروج . وهذا الخروج أراده لهم من يكرهونهم ، فقد قالوا :

﴿ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾

(من الآية ٨٢ سورة الأعراف)

لكن ربنا هو الذى أخرجهم ، والإخراج كان من العذاب الذى نزل بهؤلاء المجرمين ؛ إنه كان لإنجاء لوط وأهله مما نزل بهؤلاء الفجرة .

ويأتى العذاب من الحق :

﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾

فهل كان ذلك المطر مثل المطر الذى ينزل عادة ؟ لا ، بل هو مطر من نوع آخر . فسبحانه يقول :

﴿ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾

(سورة الذاريات)

يقول الحق : إنه سيعذبهم بالمطر ، فلننتبه أنه ليس المطر التقليدى ، بل إنه يعذبهم ويستأصلهم بنوع آخر من المطر .

وقوله : « فانظر » أى فاعتبر يا من تسمع هذا النص ، وهذه القصة تبيّن وتوضح أن الله لا يدع المجرمين يصادمون دعوة الله على لسان رسله دون عقاب .

ويقول سبحانه :

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾

و « مدين » هو ابن من أبناء سيدنا إبراهيم جاء واستقر فى هذا المكان ، فهو علم على شخصه ، وعلم على المكان الذى أقام فيه وسمى المكان باسمه ، فلما تكاثر أبناؤه وصاروا قبيلة أخذت القبيلة اسمه . إذن فـ « مدين » اسم عَلَمٌ على ابن إبراهيم ، وأطلق على المكان الذى استقر فيه من طور سيناء إلى الفرات ، وأطلق على القبيلة : ﴿ وإلى مدين أخاهم شعيباً ﴾ .

والحق سبحانه وتعالى هنا يكرر كلمة « أخ » ليبين لك ؛ أنه إن قسا عليهم مرة فسيحنو عليهم مرة أخرى ؛ لأنهم إخوة له ومأنوس بهم ، وفيهم عاش ويعرفون عنه كل شىء ، وكان مدين قد تزوج من رقبة ابنة سيدنا لوط ، وحين تكاثر الاثنان صاروا قبيلة ، ويبلغهم سيدنا شعيب بالقضية العقدية التى يبلغها كل رسول : ﴿ يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾ .

والعبادة هى الطاعة للأمر والطاعة للنهى ، وأنت لا تطيع أمر آمر ولا نهى ناهٍ إلا إذا كان أعلى منك ، لأنه إن كان مساويا لك ، فبعد أن يقول لك : « افعل كذا » ستسأله أنت : لماذا ؟ ، وبعد أن ينهاك عن شىء ستسأله أيضاً : لماذا ؟ . لكن الأب حينما يقول لطفله : لا تفعل الشىء الفلانى ، فالابن لا يناقش ؛ لأنه يعرف أن أباه هو من يطعمه ويشربه ويكسوه ، وحين يكبر الطفل فهو يناقش ؛ لأن ذاتيته تتكون ، ويريد أن يعرف الأمر الذى سيقدم عليه .

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾

(من الآية ٨٥ سورة الأعراف)

وما دام قد قال لهم : ﴿ اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾ فهو رسول قادم ومرسل من الله ، ولابد أن تكون له معجزة يثبتها ، إلا أن شعيباً لم يأت لنا بالمعجزة ، إنما جاء بالبينة .

﴿ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ ﴾

(من الآية ٨٥ سورة الأعراف)

لأن كل المعاصى والكفر تدفع إلى الإخلال فى الكيل والميزان ، وإذا كان شعيب قد قال ذلك لقومه فلا بد أن الإخلال فى الكيل والميزان كان هو الأمر الشائع فيهم . فيأتى ليعالج الأمر الشائع . وهم كانوا يبخسون الكيل والميزان . ويظن الناس فى ظاهر الأمر أنها عملية سهلة ، وأن القبح فيها قليل ، والاختلاس فيها هين يسير ، فحين يبخس فى الميزان ولو بجزء قليل ، إنما يأخذ لنفسه فى آخر الأمر جزءًا كبيراً . وأنت ساعة تكيل وتزن وتطفف فأنت تفعل ذلك فى من يشترى . وستذهب أنت بعد ذلك لتشترى من أناس كثيرين سيفعلون مثلما فعلت ، فإذا ماوفيت الكيل والميزان ، فأنت تفعل ما هو فى مصلحتك ، لأنك تنشر العدل السلوكى بين الناس بادئاً بنفسك ، ومصالحك كلها مع الآخرين .

إنك حين تبيع أى سلعة ولو كانت بلحاً وتنقص فى الميزان ، ستحقق لنفسك ربحاً ليس لك فيه حق ، وإن كنت تكيل قمحاً لتبيعه وأنقصت الكيل ، فأنت تأخذ ما ليس لك ، والقمح والبلح هما بعض من مقومات حياتك ؛ لأنك تحتاج إلى سلع كثيرة عند من يزن ، وعند من يكيل ، فإن أنقصت الميزان أو الكيل فلسوف يفعلون مثلما فعلت فيما يملكون لك ، وبذلك تخسر أنت ويصبح الخسران عاماً .

﴿ فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ ﴾

(من الآية ٨٥ سورة الأعراف)

وإذا كانت الخسارة فى الكيل والميزان طفيفة ومحتملة ، فمن باب أولى ألا نبخس الناس أشياءهم فلا نظلمهم بأخذ أموالهم والاستيلاء على حقوقهم ، فلا نسرق لأن السارق يأخذ ما تصل إليه يده ، ولا نغصب ، ولا نختلس ، ولا نرتشى ، لأنه إذا كان وفاء الكيل هو أول مطلوب الله منكم مع أن الخسارة فيه طفيفة ، إذن فبخس الناس أشياءهم يكون من باب أولى .

ويتابع سبحانه :

﴿ وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ﴾

(من الآية ٨٥ سورة الأعراف)

وبذلك نكون أمام أكثر من أمر جاء بها نبى الله شعيب : ﴿ اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾ وهذه العبادة لتربى فيهم مهابة وتزيدهم حبًا واحتراماً للآمر الأعلى ،

وكذلك ليخافوا من جبروته سبحانه . وبعد ذلك ضرورة يكون الأمر بالوفاء بالكيل والميزان ، والزجر عن أن يبخسوا الناس أشياءهم ، ثم النهى والتحذير من الإفساد فى الأرض ﴿ ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها ﴾ ، والإصلاح الذى يطلبه الله منا أن نستديمه أو نرقيه إنما يتأتى بإيجاد مقومات الحياة على وجه جميل .

مثال ذلك الهواء وهو العنصر الأول فى الحياة المسخرة لك ؛ يصرّفه سبحانه حتى لا يفسد . والنعيم الثانى فى الحياة وهو الشراب ؛ إنه سبحانه ينزل لك الماء من السماء ، ثم القوت الذى يخرجه لك من الأرض . والمواشى التى تأخذ منها اللبن ، والأوبار ، والأصواف ، والجلود ، كل ذلك سخره الله لك ، وهذا إصلاح فى الأرض ، لكن هل هذه كل المقومات الأساسية ؟ لا ؛ لأنه إن وجدت كل هذه المقومات الأساسية ثم وجد الغصب ، والسرقة ، والرشوة ، والاختلاس ، فسيفسد كل شىء ، ولا يعدل كل ذلك ويقيمه ويجعله سويا إلا الدين ؛ لأنه كمنهج يمنع الإفساد فى الأرض .

﴿ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ﴾

(من الآية ٨٥ سورة الأعراف)

إذن فهذه الأشياء التى هى إيفاء الكيل والميزان يأتى الأمر بها ، ثم يتبعها بما ينهى عنه وهو ألا نبخس الناس أشياءهم وألا نفسد فى الأرض بعد إصلاحها ، كل ذلك يجمع المنهج . أوامر ونواهى ، وقد يبدو فى ظاهر الأمر أنها مسائل تقيد حرية الإنسان ، فنقول : لا تنظر إلى نفسك أيها الإنسان وأنت بمعزل عن المجتمع الواسع ، فأنت لا تملك من مصالحك إلا أمراً واحداً ، وهذا الأمر الذى تملكه أنت من مصالحك يكون أقل الأشياء عندك ، ولكن الأمور الأخرى التى تحتاج إليها هى بيد غيرك ، فإن أنت وفيت الكيل والميزان . فذلك خير لك ؛ فالذى يقيس لك القماش لا يغشك ،والذى يزن لك ما ليس عندك لا يغشك ، والذى يكيل لك الذى ليس عندك لا يغشك ، إذن فأنت واحد منهى عن أن تفعل ذلك ، وجميع الناس منهيون أن يفعلوا ذلك معك ، وبذلك تكون أنت الكاسب .

وإذا جئت إلى قوله تعالى : ﴿ ولا تبخسوا الناس أشياءهم ﴾ ، فأنت مأمور ألا تبخس الناس أشياءهم ، وكل الناس مأمورون ألاّ يبخسوك شيئاً ، وإذا أفسدت فى الأرض بعد إصلاحها فالناس مأمورون أيضاً ألاّ يفسدوا هذه الأرض وبذلك تكون أحظ منهم فى كل شىء . ولذلك يجب على كل مكلَّف حين يستقبل تكليفاً قد يكون شاقاً على نفسه أن يتأمل هذا التكليف وأن يقول لنفسه : إياك أن تنظر إلى مشقة التكليف على نفسك ، ولكن انظر إلى ما يؤديه إليك من الآخرين ، فإن قال التكليف لك : لا تنظر إلى محارم غيرك ، فقد أمر غيرك ألاّ ينظر إلى محارمك ، وفى هذا عزة لك . وإذا أمرك التكليف ألاَّ تضع يدك فى جيب غيرك وتسرق ، فقد أمر كل الناس ألاَّ يضعوا أيديهم فى جيوبك ليسرقوك ، وبهذا نعيش فى أمان .

وإذا طلب التكليف منك وأنت غنى أن تخرج زكاة مالك إياك أن تقول : مالى وتعبى وعرقى ؛ لأن المال مال الله ، وأنت كإنسان مخلوق ليس لك إلا توجيه الحركة ، والحركة تكون بطاقة مخلوقة لله ، والعقل الذى خطط مخلوق لله ، والانفعال الذى انفعل لك فى الأرض من خلق الله ، ولكن الحق احترم عملك وناتجه وفرض عليك أن تخرج منه زكاة مُقدرة.فإياك أن تقول : إنه يأخذ منى ، لماذا ؟ لأن عالم الأغيار بادٍ وظاهر أمامك ، وكم رأيت من قوى ضعف ، ومن غنى افتقر ، فإذا كان سبحانه قد طلب منك أن تعطى الفقير وتقوته ، فإن افتقرت فسيفعل لك ذلك ، وفى ذلك تأمين حياتك ؛ لأنك تعيش فى مجتمع ، فلا تأس على نفسك إن مرت بك الأغيار لأن مجتمعك الإيمانى لن يتركك ، أنت أو أولادك ، ويقول الحق :

﴿ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ ﴾

(سورة النساء)

فإن أردت أن تطمئن على أولادك الصغار بعد موتك فانظر للأيتام فى مجتمعك وكن أباً لهم ، وحين تصير أنت أباً لهم ، وهذا أب لهم ، وذلك أب لهم ، سيشعر اليتيم أنه فقد أبا واحداً ، لكنّه يحيا فى مجتمع إيمانى أوجد له من كل المؤمنين آباء ، فلا يحزن ، وكذلك لن تخاف أنت على أولادك إن صاروا أيتاماً بعد أن

غادرتهم إلى لقاء ربك ؛ لأنك رعيت اليتامى وعشت فى مجتمع يرعاهم . ولكنك تحزن عندما ترى يتيماً مضيعاً فى مجتمع لا يقوم على شأنه وتقول لنفسك : أنا إن مت سيضيع أبنائى هكذا .

وهكذا تكون تكاليف الإيمان هى تأميناً للحياة . ومثال ذلك حين نقول للمرأة : تحجبى ، ولا تبدى زينتك لغير محارمك ، قد تظن المرأة فى ظاهر الأمر أننا ضيقنا على حريتها ، لأنها تنسى أن المنهج يؤمِّن لها قبح الشيخوخة ، لأنها حين تتزوج صغيرة ، ثم يصل عمرها فوق الأربعين ويتغير شكلها من متاعب الحمل وتربية الأبناء ، ثم يرى زوجها فتاة فى العشرين وغير محتشمة قد تفتنه وتصرفه عن زوجته ، وينظر إلى زوجته نظر غير المكترث بها ، وغير الراغب فيها . فالشرع قد أمر بالحجاب للمرأة وهى صغيرة ؛ ليصون لها زوجها إن صارت كبيرة غير مرغوب فيها . فإن منعها وهى صغيرة فقد منع عنها وهى كبيرة ؛ كل ذلك إذن من تأمينات المنهج للحياة .

إذن فإيفاء الكيل ، وعدم إبخاس الناس أشياءهم وعدم الإفساد فى الأرض بعد إصلاحها خير للجميع فى الدنيا ، بالإضافة إلى خير الآخرة ، ولذلك يذيل الحق الآية الكريمة بقوله :

﴿ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾

(من الآية ٨٥ سورة الأعراف)

و « ذلكم » إشارة إلى ما سبق من الأمر بعبادة الله فلا إله غيره وإلى الأمر باستيفاء الكيل والميزان ، وألاَّ نبخس الناس أشياءهم ، وألاَّ نفسد فى الأرض بعد إصلاحها ، ووضع الحق ذلك فى إطار ﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾ على الرغم من أن الخير سيأتى أيضاً لغير المؤمن ، وهكذا تكون كلمة « خير » تشمل خيراً فى الدنيا ، وخيراً فى الآخرة للمؤمن فقط . أما الكافر فسيأخذ الخير فى الدنيا فقط ، ولا خير له فى الآخرة ، فإن كنتم مؤمنين فسيتضاعف الخير لكم ليصير خيراً دائماً فى الدنيا والآخرة .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾

وقوله : ﴿ ولا تقعدوا بكل صراط ﴾ أى لا تقعدوا على كل طريق ، لأن من يقعد على الطريق قد يمنع من يحاول الذهاب ناحية الرسول . والشيطان قد قال :

﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾

(من الآية ١٦ سورة الأعراف)

فحين تقعدون على كل صراط يصير كل منكم شيطاناً والعياذ بالله ؛ لأن الشيطان قال لربنا : ﴿ لأقعدن لهم صراطك المستقيم ﴾ ، وهنا ينهى الحق عن القعود بكل صراط ؛ لأن الصراط سبيل ، وحين يجمع الحق السبل لينهى عنها ، إنما ليذكرنا أن له صراطاً مستقيماً واحداً ، وسبيلاً واحداً يجب علينا أن نتبعه . ولذلك يقول :

﴿ فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾

(من الآية ١٥٣ سورة الأنعام)

إذن فللشيطان سبل متعددة وسبيل الاستقامة واحد ، لأن للطرق المتعددة غوايات منوعة ، فهذا طريق يغوى بالمال ، وذلك يغوى بالمرأة ، وذاك يغوى بالجاه . إذن فالغوايات متعددة .

أو أن الهداية التى يدعو إليها كل رسول شائعة فى كل ما حوله ؛ فمن يأتى ناحية أى هداية يجد من يصده . ومن يطلب هداية الرسول يلقى التهديد والوعيد ، والمنع عن سبيل الحق . ولماذا يفعلون ذلك ؟ تأتى إجابة الحق : ﴿ وتبغونها عوجا ﴾ .

إنهم يبغون ويودون شريعة الله معوجة ومائلة وزائغة عن الاستقامة ، أو تصفونها بأنها غير مستقيمة لتصدوا الناس عن الدخول فيها ، ولتنفروا منها ، مثال ذلك السخرية من تحريم الخمر والادعاء بأنها تعطى النفس السرور والانسجام . إن الواحد من هؤلاء إنما ينفر من شريعة الله ، ويدعى أنها شريعة معوجة ، فنجد من يحلل الربا ؛ لأن تحريم الربا فى رأيهم السقيم المنحرف يضيق على الناس فرصهم . إنهم يبغون شريعة الله معوجة ليستفيدوا هم من اعوجاجها ، وينفروا الناس منها .

﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾

(من الآية ٨٦ سورة الأعراف)

نعلم أن كل ردع ، وكل توجيه يهدف إلى أمرين اثنين : ترغيب وترهيب ، وعلى سبيل المثال نجد المدرس يقول للتلاميذ : من يجتهد فسنعطيه جائزة ، وهذا ترغيب ، ويضيف الأستاذ قائلاً للتلاميذ : ومن يقصر فى دروسه فسنفصله من المدرسة ؛ وهذا ترهيب . وما دام الناس صالحين لعمل الخير ولعمل الشر بحكم الاختيار المخلوق فيهم لله فلا بد من مواجهتهم بالأمرين بالترغيب فى الخير والترهيب من الشر .

والحق هنا يقول فى الترغيب : ﴿ واذكروا إذ كنتم قليلاً فكثركم ﴾ .

وكأنه يطالبهم بأن يكونوا أصحاب ذوق وأدب ، فنحن نعلم أن مدين تزوج وأنجب عدداً من الذرية وكانوا قلة فى العدد فكثرهم حتى صاروا قبيلة ، وكانوا ضعافاً فقواهم ، وكانوا فقراء فأغناهم ، فمن صنع فيكم ولكم كل هذه المسائل ألا يصح أن تطيعوا أوامره . كان عليكم أن تطيعوا أوامره . وهذا ترغيب وتحنين .

ونعلم أن شعيباً هو خامس نبى جاء بعد نوح ، وهود ، وصالح ، ولوط . لذلك يذكرهم الحق بما حدث لمن كذبوا الأنبياء الأربعة السابقين . وقد يكون قوم نوح معذورين لأنهم كانوا البداية ، فلم يسبقهم من أخذ بالعذاب لتكذيب رسلهم ، ثم صارت من بعد ذلك قاعدة هى أن من يكذب الرسل يلقى العذاب ، مصداقا لقوله الحق :

﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ﴾

(من الآية ٤٠ سورة العنكبوت)

فإذا كان شعيب ينذرهم بأن ينظروا كيف كان عاقبة المفسدين ممن سبقوهم فهذا تذكير بمن أغرقهم ومن أخذتهم الصيحة ، ومن كفأ وقلب ودمر ديارهم ، ومن جاء لهم بمطر من سجيل ، فإن لم يعرفوا واجبهم نحو الله الذى أنعم عليهم بأن كانوا قليلاً فكثرهم ، فعليهم أن يخافوا عاقبة المفسدين . إذن فقد جمع لهم بين الترغيب والترهيب .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَـٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾

وهذا القول يوضح لنا أن طائفة آمنت ، وطائفة لم تؤمن ، ثم جاء الأمر للطائفتين ، فأمر المؤمنين بالصبر تأنيس لهم ، وأمر الكافرين بالصبر تهديد لهم . وهذه دقة القرآن فى الأداء وعظمة البيان والبلاغة . إذن ، فكلمة : اصبروا نفعت فى التعبير عن الأمر بالصبر للذين آمنوا ، ونفعت فى كشف المصير الذى ينتظر الذين لم يؤمنوا ، فصبر الكافرين مآله وعاقبته ، إما أن يخجلوا من أنفسهم فيؤمنوا ، وإمَّا أن يجدوا العذاب ، وصبر المؤمنين يقودهم إلى الجنة ، وأن الذى يحكم هو الله وهو خير الحاكمين ؛ لأن المحكوم عليهم بالنسبة له سواء ، فلا أحد منهم له أفضلية على أحد . ولا أحد منهم قريبه ، إلا قرابة القربى والزلفى إليه ، وسبحانه هو العادل بمطلق العدل ، ولا يظلم أحداً .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾﴾

علمنا من قبل أن الملأ هم السادة ، والأعيان الذين يملأون العيون هيبة ، ويملأون القلوب هيبة ، ويملأون الأماكن تحيزاً . وقد استكبر الملأ من قوم شعيب عن الإيمان به ، وطغوا وهددوه بأن يخرجوه من أرضهم . وقالوا مثلما قال من سبقوهم . فقد نادى بعض من قوم لوط بأن يخرجوا لوطاً ومن آمن معه من قريتهم . قال تعالى :

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾﴾

(سورة النمل)

وكلمة « قرية » تأخذ فى حياتنا وضعاً غير وضعها الحقيقى ، فالقرية الآن هى الموقع الأقل من المدينة الصغيرة . لكنها كانت قديماً البلد الذى توجد فيه كل متطلبات الحياة ، بدليل أنهم كانوا يقولون عن مكة « أم القرى » . وقد وضع الملأ شعيباً ومن آمن معه بين أمرين : إما أن يخرجوهم حتى لا يفسدوا من لم يؤمن فيؤمن ، وإما أن يعودوا إلى الملة .

وهنا « لفتة لفظية » أحب أن تنتبهوا إليها فى قوله : ﴿ أو لتعودن فى ملتنا ﴾ لأن العود يقتضى وجوداً سابقاً خُرِجَ عنه ، ونريد أن نعود إلى الأصل ، فهل كان شعيب والذين آمنوا معه على ملتهم ثم آمنوا والمطلوب منهم الآن أنهم يعودون ؟

علينا أن ننتبه إلى أن الخطاب هنا يضم شعيباً والذين آمنوا معه . وقد يصدق أمر العودة إلى الملة القديمة على الذين مع شعيب ، لكنها لا تصدق على شعيب لأنه نبى مرسل ، وهنا ننتبه أيضاً إلى أن الذى يتكلم هنا هم الملأ من قوم مدين ،

ووضعوا شعيباً والذين آمنوا معه أمام اختيارين : إما العودة إلى الملة ، وإمَّا الخروج ، ونسوا أن الحق قد يشاء تقسيماً آخر غير هذين القسمين . فقد يوجد ويريد سبحانه أمراً ثالثاً لا يخرج فيه شعيب والذين آمنوا معه ، وأيضاً لا يعودون إلى ملة الكفر ، كأن تأتى كارثة تمنع ذلك .

لقد عزل الملأ من قوم شعيب أنفسهم عن المقادير العليا ، لأن الله قد يشاء غير هذين الأمرين ، فقد يمنعكم أمر فوق طاقتكم أن تُخْرِجوا ؛ شعيباً ومن آمن معه ؛ بأن يصيبكم ضعف لا تستطيعون معه أن تخرجوهم ، أو أن يسلط الله عليكم أمراً يفنيكم وينجى شعيباً والذين آمنوا معه . إذن أنت أيها الإنسان الحادث ، العاجز لا تفتئت ولا تفترى وتختلق على القوة العليا فى أنك تخير بين أمرين قد يكون لله أمر ثالث لا تعلمه ، ويأتى الرد على لسان مَن آمنوا مع شعيب :

﴿ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَـٰرِهِينَ ﴾

(من الآية ٨٨ سورة الأعراف)

لقد سأل شعيب والذين معه : أيمكن أن يتم قهر أحد على أن يترك الإيمان إلى الكفر ، كأن الكافرين قد تناسوا أن التكليف مطمور فى الاختيار ، فالإنسان يختار بين سبيل الإيمان وسبيل الكفر .

ويتتابع القول من شعيب والذين آمنوا معه :

﴿ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَـٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾

وقولهم : ﴿ قد افترينا على الله كذباً إن عدنا فى ملتكم ﴾ أى أنهم يعلمون أن

العودة إلى مثل هذه الملة لون من الكذب المتعمد على الله . لأن الكذب أن تقول كلاماً غير واقع ، وتعلن قضية غير حقيقية إن أنت قلتها على مقتضى علمك فهذا مطلق كذب . لكن إن كنت عارفاً بالحقيقة ثم قلت غيرها فهذا افتراء واختلاق وكذب . والذين آمنوا مع شعيب عليه السلام يعلمون أن الملة القديمة ملة باطلة ، وهم قد شهدوا مع شعيب حلاوة الإيمان بالله ؛ لذلك رفضوا الكذب المتعمد على الله . ويقولون بعد ذلك :

﴿ بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾

(من الآية ٨٩ سورة الأعراف)

قد عرفوا أن التكليف اختيار وهم قد اختاروا الإيمان ، وأقروا وأكدوا إيمانهم بأنه سبحانه له طلاقة القدرة ، فقالوا : ﴿ إلا أن يشاء الله ﴾ . فمشيئته سبحانه فوق كل مشيئة . ألم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« إن قلوب بنى آدم كلّها بين أصبعين من أصابع الرحمن كقَلْبٍ واحدٍ يصرفُه حيث شاء »[1] .

وألم يقل سيدنا إبراهيم وهو أبو الأنبياء والرسل :

﴿ وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴾

(من الآية ٣٥ سورة إبراهيم)

لم يقل : واجنبنا . بل قالها واضحة ودعا ربَّه أن يبعده وينأى به وببنيه أن يعبدوا الأصنام ، لأنه يعلم طلاقة قدرته سبحانه . إذن فمن آمنوا مع شعيب احترموا طلاقة القدرة فى الحق ؛ لذلك قالوا :

﴿ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ﴾

(من الآية ٨٩ سورة الأعراف)

ولكن الله لا يشاء لمعصوم أن يعود ، وسبحانه يهدى من آمن بهداية الدلالة ويمده بالمزيد من هداية المعونة إلى الطريق المستقيم .

---

(١) رواه أحمد ، ورواه مسلم عن ابن عمر .

ويتابع أهل الإيمان مع شعيب :

﴿ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴾

(من الآية ٨٩ سورة الأعراف)

جاء قولهم : ﴿ على الله توكلنا ﴾ لأن خصومهم من الملأ بقوتهم وبجبروتهم قالوا لهم : أنتم بين أمرين اثنين : إما أن تخرجوا من القرية ، وإمّا أن تعودوا فى ملتنا . وأعلن المؤمنون برسولهم شعيب : أن العود فى الملة لا يكون إلا بالاختيار وقد اخترنا ألا نعود . إذن فليس أمامهم إلا الإخراج بالإجبار ؛ لذلك توكل المؤمنون على الله ليتولاهم ، ويمنع عنهم تسلط هؤلاء الكافرين .

﴿ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴾

(من الآية ٨٩ سورة الأعراف)

وساعة نسمع كلمة « افتح » أو « فتَح » أو « فَتْح » نفهم أن هناك شيئاً مغلقاً أو مشكلاً ، فإن كان من المُحسّات يكون الشىء مغلقاً والفتح يكون بإزالة الأغلاق وهى الأقفال ، وإن كان فى المعنويات فيكون الفتح هو إزالة الإشكال ، والفتح الحسى له نظير فى القرآن ، وحين نقرأ سورة يوسف نجد قوله الحق :

﴿ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَٰذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ﴾

(من الآية ٦٥ سورة يوسف)

وكلمة ﴿ ولما فتحوا متاعهم ﴾ تعنى أن المتاع الذى معهم كان مغلقاً واحتاج إلى فتح حسّى ليجدوا بضاعتهم كما هى . وأيضاً يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ﴾

(من الآية ٧٣ سورة الزمر)

ومادام هناك أبواب تفتح فهذا فتح حسّى . وقد يكون الفتح فتح علم مثلما نقول : ربنا فتح علنا بالإيمان والعلم ، ويقول الحق :

﴿ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ﴾

(من الآية ٧٦ سورة البقرة)

فما دام ربنا قد علمهم من الكتاب الكثير فهذا فتح علمى . ويكون الفتح بسوق الخير والإمداد به . والمثال على ذلك قوله الحق :

﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ﴾

(من الآية ٢ سورة فاطر)

وكذلك قوله سبحانه :

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾

(من الآية ٩٦ سورة الأعراف)

والبركات من السماء كالمطر وهو يأتى من أعلى ، وهو سبب فيما يأتى من الأسفل أى من الأرض .

والفتح أيضاً بمعنى إزالة إشكال فى قضية بين خصمين ، ففى اليمن حتى الآن ، يسمون القاضى الذى يحكم فى قضايا الناس « الفاتح » لأنه يزيل الإشكالات بين الناس . وقد يكون « الفتح » بمعنى « النصر » ، مثل قوله الحق :

﴿ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾

(من الآية ٨٩ سورة البقرة)

لقد كانوا ينتظرون النبى صلى الله عليه وسلم لينتصروا به على الذين كفروا ، ومن الفتح أيضاً الفصل فى الأمر مثل قول الحق هنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها :

﴿ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴾

(من الآية ٨٩ سورة الأعراف)

وهذا القول هو دعاء للحق : احكم يا رب بيننا وبين قومنا بالحق بنصر الإيمان وهزيمة الكفر ، وأنت خير الفاتحين فليس لك هوى ضد أحد أو مع أحدٍ من مخلوقاتك .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾

وهنا يقول الملأ من قوم مدين لمن آمنوا ولمن كان لديهم الاستعداد والتهيؤ للإيمان محذرين لهم من اتباع شعيب حتى لا يظل الملأ والكبراء وحدهم فى الضلال :

وساعة نرى « اللام » فى « لئن » نعلم أن هنا قَسَماً دلّت عليه هذه « اللام » . وهنا أيضاً « إن » الشرطية ، والقسم يحتاج إلى جواب ، والشرط يحتاج كذلك إلى جواب ، فإذا اجتمع شرط و قسم اكتفينا بالإتيان بجواب المتقدم والسابق منهما ، مثل قولنا : « والله إن فعلت كذا ليكونن كذا » : ﴿ لئن اتبعتم شعيباً إنكم إذاً لخاسرون ﴾ .

وماذا سيخسرون ؟ سيخسرون لأنهم كانوا سيأخذون أكثر من حقهم حين يطففون الكيل ويخسرون الميزان ، والقوى يأخذ من الضعيف ؛ فإذا ما ارتبطوا بالمنهج واتبعوه خسروا ما كانوا يأخذونه من تطفيف الكيل وبخس وخسران الميزان بمنهج . وهذه هى الخسارة فى نظر المنحرف .

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ﴾

والرجفة هى الهزّة العنيفة التى ترج الإنسان رجًا غير اختيارى ، وصاروا بها جاثمين أى قاعدين على ركبهم ؛ ولا حراك بهم ؛ ميتين ، وفى هيئة الذلة . وهذا يدل على أن كلا منهم ساعة أُخِذ تذكر كل ما فعله من كفر وعصيان ، وأراد استدراك ما فاته من مخالفاته للرسول ، وأخذ يوبخ نفسه ويندم على ما فعل ، ولم تأخذه الأبهة والاستكبار ، لأن هناك لحظة تمر على الإنسان لا يقدر فيها أن يكذب على نفسه ، ولذلك نجد أن من ظلم وطغى وأخذ حقوق الغير ثم يأتيه الموت يحاول أن ينادى على كل من بغى عليه أو ظلمه ليعطيه حقه لكنه لا يجده . ولذلك يسمون تلك اللحظة أنها التى يؤمن فيها الفاجر ، لكن هل ينفع إيمانه ؟ طبعاً لا . فى هذه الحالة لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل .

ويتابع سبحانه وصف ما حدث لهم إثر الرجفة :

﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ ﴾

وغنى بالمكان : أقام به ؛ فحين صاروا جاثمين وخلت منهم الديار ، كأنهم لم تكن لهم إقامة إذ استؤصلوا وأهلكوا إهلاكاً كاملا ، وإذا كان هؤلاء المكذبون قد قالوا : ﴿ لئن اتبعتم شعيباً إنكم إذاً لخاسرون ﴾ فيكون مآلهم هو ما ذكره ربنا بقوله : ﴿ الذين كذبوا شعيباً كانوا هم الخاسرين ﴾ .

ويتتابع قوله الحق عن سيدنا شعيب :

﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾

و « تولى عنهم » أى تركهم وسار بعيداً عنهم ، وحدثهم متخيلاً إياهم ﴿ لقد أبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم ﴾ ، فكأن المنظر العاطفى الإنسانى حين رأى كيف أصبحوا ، تعطف عليهم وأسى من أجلهم ، لكن يرد هذا التعاطف متسائلا متعجباً ﴿ كيف آسى على قوم كافرين ﴾ ؟ إنهم نوع من الناس لا يحزن عليهم المؤمن . فمابالنا بنبى ورسول ؟ إنه يحدث نفسه وكأنه يقول : ما قصرت فى مهمتى ، بل أبلغتكم رسالاتى التى تلقيتها من الله ، والرسالات إذا جمعت فالمقصود منها رسالته ورسالة الرسل السابقين فى الأمور التى لم يحدث فيها نسخ ولا تغيير ، أو رسالاته أى فى كل أمر بلغ به ؛ لأنه كان كلما نزل عليه حكم يبلغه لهم . أو أن لكل خير رسالة ، ولكل شر رسالة ، وقد أبلغهم كل ما وصله من الله ، ولم يقتصر على البلاغ بل أضاف عليه النصح ، والنصح غير البلاغ ، فالبلاغ أن تقول ما وصلك وينتهى الأمر ، و « النصح » هو الإلحاح عليهم فى أن يثوبوا إلى رشدهم وأن يتبعوا نهج الله .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾

وعرفنا من قبل أن القرية هى البلد الجامع لكل مصالح سكانها فى دنياهم .

والمقصود هنا أن القرية التى يرسل إليها الحق رسولاً ثم تُكَذِّب فسبحانه يأخذ أهلها بالبأساء والضراء . والبأساء هى المصيبة تصيب الإنسان فى أمر خارج عن ذاته ؛ من مال يضيع ، أو تجارة تبور وتهلك ، أو بيت يهدم ، والضراء هى المصيبة التى تصيب الإنسان فى ذاته ونفسه كالمرض ، ويصيبهم الحق بالبأساء والضراء لأنهم نسوا الله فى الرخاء فأصابهم بالبأساء والضراء لعلهم يرجعون إلى ربهم ويتعرفون إليه ، ليكون معهم فى السراء والضراء . والحق يقول :

﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ

كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾

(من الآية ١٢ سورة يونس)

وكان من الواجب على الإنسان أنه ساعة ما تمسه الضراء أن يتجه إلى خالقه ، ولقد جعل الله الضراء وسيلة تنبيه يتذكر بها الإنسان أن له ربًا ، وفى هذه اللحظة يجيب الحقُّ الإنسان المضطر ، ويغيثه مصداقاً لقوله الحق :

﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾

(سورة النمل)

وإذا صنع الله مع المضطر هذا فقد يثوب إلى رشده ويقول : إن الإله الذى لم أجد لى مفزعاً إلا هو ، لا يصح أن أنساه .

وكأن الحق سبحانه وتعالى يذكرنا بطلاقة قدرته حين يقول :

﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟﴾

(من الآية ٤٣ سورة الأنعام)

وكأنه سبحانه يطلب منا حين تجىء البأساء أن نفزع إليه ولا نعتقد أننا نعيش فى الحياة وحدنا ، بل نعيش فى الحياة بالأسباب المخلوقة لله وبالمسبب وهو الله ، فالذى عزت عليه الأسباب وأتعبته يروح للمسبب ، ولذلك يأخذ سبحانه أية قرية لا تصدق الرسل بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون وذلك رحمة بهم .

ويقول :

﴿وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾

(من الآية ٤٣ سورة الأنعام)

فهل يتركهم الله فى السراء والضراء دائماً ؟ لا ، فهو سبحانه يجيئهم ويبتليهم بالبأساء والضراء ليلفتهم إليه ، فإذا لم يلتفتوا إلى الله ، فسبحانه يبدل مكان السيئة الحسنة ، لذلك يقول :

﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾

ويعطى سبحانه بعد ذلك لهم الرزق ، والعافية ، والغنى ؛ لأن الحق إذا أراد أن يأخذ جباراً أخذ عزيز مقتدر فهو يمهله ، ويرخى له العِنان ليتجبر ـ كفرعون ـ من أجل أن يأخذه بغتة ، وكأنه يسقط من أعلى ، فيعليه ويعليه من أجل أن ينزل به ـ كما يقولون ـ على جذور رقبته : ﴿ ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا ﴾ .

(عَفَوْا) أى كثروا عدداً ومالاً وقوة أى أنه ما أخذهم سبحانه بالبأساء والضراء إلاّ وكان القصد منها أن يلفتهم إليه ، فلم يلتفتوا ، فيمدهم ويعطى لهم العافية وما يسرّهم ، ثم يصيبهم بالعذاب بغتة .

﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

ونلحظ أن الحق سبحانه وتعالى بعد أن تكلم على خلافة الإنسان فى الأرض ، وأنه أمده بكل ما تقوم به حياته ، وأمده بالقيم بواسطة مناهج السماء ، وأنزل المنهج مبينا ما أحل ، وما حرم بعد أن كانوا يحلون ما حرم الله ، ويحرمون ما أحل الله ، فبيّن لهم الحق أن الذى خلق الخلق عالم بما يصلحهم فأحله ، وعالم بما يفسدهم فحرّمه ، فليس لكم أن تقترحوا على الله حلالاً ، ولا حراماً ، ولكن بعض المشككين فى منهج الله قالوا ـ ومازالوا يقولون ـ : إذا كان الله قد أحل شيئاً وحرم شيئاً فلماذا خلق ما حرم ؟ ونقول : لقد خلق سبحانه كل شيء لحكمة قد تكون لغير الطعام والشراب والكسوة ، فبعض الأشياء يكون مخلوقاً لمهمة وإن لم تكن مباشرة لك ؛ فالبترول مثلاً مخلوق لمهمة أن يوجد طاقة ، لذلك لا نشربه .

والخنزير مخلوق لحكمة لا نعلمها نحن ، وإنما يعلمها من خلق ، لأنه من

الجائز أن يكون أداة لالتقاط الميكروبات التى تنشأ من عفن الأشياء التى يستعملها الناس فى حياتهم ، إذن فكل شىء مخلوق لحكمة ، فلا تُخرّج أنت حكمة الأشياء من غير مراد خالقها ؛ لأن صانع الصنعة هو الذى يحدد الشىء الذى يوجد وينشىء القوة لها . ونحن نعلم ـ مثلاً ـ أن أنواع الوقود كثيرة ، فهناك « البنزين » النقى جدًا ويرقمونه برقم (١) وهو مخصص للطائرة ، ووقود السيارة وهو « البنزين » رقم (٢) . فإذا استخدمنا وقود ماكينة وآلة بدل وقود ماكينة أخرى أفسدناها . كذلك خلق الله الإنسان وسخر له كل المخلوقات وأوضح : هذا يصلح لك مباشرة ، وهذا مخلوق ليخدمك خدمة غير مباشرة فدعه فى مكانه .

وبعد أن عرض الحق سبحانه وتعالى مواقف الجنة ، ومواقف النار ، ومواقف أصحاب الأعراف الذين استوت حسناتهم وسيئاتهم ؛وبعد أن بيّن المنهج كله أراد أن يبين أن ذلك ليس نظريًا ، وإنما هو واقع كونى أيضاً . ففرق بين الشىء يقال نظرا ، والشىء يقع واقعاً ، فقص علينا قصص الأنبياء حين أرسلهم إلى أقوامهم ، فمن كذب بالرسل أخذه الله أخذ عزيز مقتدر بواقع يشهده الجميع ؛ فذكر نوحاً مع قومه ، وذكر عاداً وأخاهم هوداً ، وذكر ثمود وأخاهم صالحاً ، ومدين وأخاهم شعيباً ، وقوم لوط وسيدنا لوطا . وبيّن ما حدث للمؤمنين بالنجاة ، وما حدث للكافرين بالعطب والإذلال ، ويوضح الحق سبحانه وتعالى : أننى آخذ الناس بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون ، لأن الإنسان مخلوق أفاض الله عليه من صفات جلاله ، ومن صفات جماله الشىء الكثير ، فالله قوى ، وأعطى الإنسان من قوته . والله غنى وأعطى الإنسان من غناه ، والله حكيم وأعطى الإنسان من حكمته ، والله عليم وأعطى الإنسان من علمه .

وإذا أردت أن تستوعب ما يقربك إلى كمال العلم فى الله ، فانظر ما علمه لكل خلق الله . ومع ذلك فعلمهم ناقص . ويردون إلى العلم الذاتى فى الحق سبحانه وتعالى ، وربما غُرَّ الإنسان بالأسباب وهى تستجيب له ، فهو يحرث ويبذر ويروى ، وإذا بالأرض تعطيه أُكُلها . وهو يصنع الشىء فيستجيب له . كل ذلك قد يغريه بأن الأشياء استجابت لذاتيته فيذكره الله : أن اذكر من ذللها لك .

﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧ ﴾

(سورة العلق)

وساعة ما يجد الإنسان أن كل الأسباب مواتية له فعليه أن يذكر الله . إن الإنسان بمجرد إرادة أن يقوم من مكانه فهو يقوم . وبمجرد إرادة أن يصفع أحداً فهو يصفعه ؛ لأن الأبعاض التى فى الإنسان خاضعة لمراده ، فإذا كانت أبعاضك خاضعة لمراداتك أنت ، وأنت مخلوق ، فكيف لا يكون الكون كله مراداً للحق بالإرادة ؟ فإذا استغنى الإنسان بالأسباب ، فالحق يلفته إليه . فالقادر الذى كان بفتوته يفعل . يسلب الله منه القدرة بالمرض ؛ فيمد يده ليساعده إنسان على القيام. والذى اعتز بشىء يذله الله بأشياء .لماذا ؟ حتى يلفته إلى المسبِّب ، فلا يُفتن بالأسباب .

ويدع لنا الحق سبحانه وتعالى فى كونه عجائب ، ونجد العالم وقد تقدم الآن تقدماً فضائيًا واسعاً ، واستطاع الإنسان أن يكتشف من أسرار كون الله ما شاء ، ولكن الحق يصنع لهم أحياناً أشياء تدلهم على أنهم لا يزالون عاجزين . فبعد أن تكتمل لهم صناعة الآلات المتقدمة يكتشفون خطأ واحداً يفسد الآلة ويحطمها ، وتهب زوبعة أو إعصار يدمر كل شىء ، أو يشتعل حريق هائل . فهل يريد الله بكونه فساداً وقد خلقه بالصلاح ؟ لا ، إنه يريد أن يلفتنا إلى ألا نغتر بما أوتينا من أسباب . فالذين عملوا « الرادار » لكى يبين لهم الحدث قبل أن يقع ، يفاجئهم ربنا ـ أحياناً ـ بأشياء تعطل عمل « الرادار » ، فيعرفون أنهم مازالوا ناقصى علم .

إذن فالأخذ بالبأساء ، والأخذ بالضراء ، سنة كونية ليظل الإنسان فاهماً وعالماً أنه خليفة فى الأرض لله . وفساد الإنسان أن يعلم أنه أصيل فى الكون ، فلو كنت أصيلاً فى الكون فحافظ على نفسك فى الكون ولا تفارقه بالموت . وإن كنت أصيلاً فى الكون فذلل الكون لمراداتك . ولن تستطيع ؛ لأن هناك طبائع فى الكون تتمرد عليك ، ولا تقدر عليها أبداً .

وترى أكثر من مفاعل ذرى ينفجر بعد إحكامه وضبطه لماذا ؟! ليدل على طلاقة القدرة وأن يد الله فوق أيديهم ، إذن فأخذ الناس بالبأساء والضراء ، وبالشىء الذى نقول إنه شر إنما هو طلب اعتدال للإنسان الخليفة ، حتى إذا اغتر يرده الله سبحانه وتعالى من الأسباب إلى المسبِّب . وحين يأخذ الله قوماً بالبأساء التى تصيب الإنسان فى غير ذاته : مال يضيع ، ولد يفقد ، بيت يهدم ، أو يأخذهم بالضراء

وهى الأشياء التى تصيب الإنسان فى ذاته ، فذلك ليسلب منهم أبهة الكبرياء ، فلا يجدون ملجأ إلا أن يخضعوا لرب الأرض والسماء ، ولكى يتضرعوا إلى الله ، ومعنى التضرع ـ كما عرفنا ـ إظهار الذلة لله . وإذا لم يُجْدِ وينفع فيهم هذا ، وقالوا : لا ، إن البأساء والضراء مجرد سنن كونية ، وقد تأتى للناس فى أى زمان أو مكان . نقول لهم : صحيح البأساء والضراء سنن كونية من مكوّن أعلى من الكون، فإذا لم يرتدعوا بالبأساء والضراء ويرجعوا إلى ربهم ويتوبوا إليه يبتليهم الله بالنعماء ، فهو القائل :

﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

فالمجتمعات حين تبتعد عن منهج السماء نجد الحق ينتقم منهم انتقاماً يناسب جرمهم ، ولو أنه أخذهم على حالهم المتواضع فلن تكون الضربة قوية ؛ لذلك يوسع عليهم فى كل شىء حتى إذا ما سلب منهم وأخذهم بغتة وفجأة تكون الضربة قوية قاصمة ويصيبهم اليأس والحسرة .

وقديماً قلنا تعبيراً ريفيًا هو : إن الإنسان إن أراد أن يوقع بآخر لا يوقعه من على حصيرة ، إنما يوقعه من مكان عال . وربنا يعطى للمنكرين الكثير ويمدهم فى طغيانهم ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر . وقد دلت وقائع الحياة على هذا ، ورأينا أكثر من ظالم وجبار فى الأرض والحق يملى له فى العلو ويمد له فى هذه الأسباب ثم يأخذه أخذ عزيز مقتدر ، ولو بواسطة حارسه .

﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

وقد يضبط الإنسان أشياء تُعْلمه بواقع الشر فى مستقبله . مثلها مثل « الرادار » الذى يكشف لنا أى خطر فى الأفق قبل أن يأتى ، وحين يقول سبحانه : ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ أى ليس عندهم حساب ولا مقاييس تدلهم على أن شرًا يحيق بهم .

وأنت لو نظرت إلى هذه المسألة لوجدت الإنسان بعقله وفكره الذى لم يسلك فيه طريق الله بل سلك فيه السبيل غير الممنهج بمنهج الله ،وبينما لايلتفت الانسان إلى مجىء الكارثة ، ويتساءل : لماذا تجرى هذه الحيوانات ؟ ! إنه فى هذه الحالة يكون أقل من الحيوانات ؛ لأن الحيوان من واقع الأحداث فى بلد تحدث فيه الزلازل يكون أول خارج من منطقة الزلزال ، إن الله قد سلبه هذه المعرفة حتى تتمكن منه الضربة ، إننا نجد الحمار يجرى ليغادر مكان الزلزال ، بينما يظل الإنسان واقفاً حتى يحيق ويحيط به الخطر ، فأى إحساس وأى استشعار عند الحيوان ؟ إنه استشعار غريزى خلقه ربه فيه ؛ لأنه سلب منه التعقل فأعطاه حكمة الغرائز .

ومادام الحق قد نبه الإنسان بالبأساء فلم يلتفت ، وبالضراء فلم ينتبه إلى المنهج ؛ لذلك يأتى له الحق ويمد له بالطغيان .

لكن أهل الإيمان أمرهم يختلف ، فيقول سبحانه :

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾

أى أنهم لو آمنوا بالموجود الأعلى ، واتقوا باتباع منهجه أمراً ونهيًا تسلم آلاتهم،لأن الصانع من البشر حين يصنع آلة من الآلات،يحدد ويبيّن الغاية من الآلة قبل أن يبتكرها ، ويصمم لها أسلوب استخدام معين ، وقانون صيانة خاصا لتؤدى مهمتها ، فمابالنا بمن خلق الإنسان ، إذن فالبشر إذا تركوا رب الإنسان يضع منهج صيانة الإنسان لعاش هذا الإنسان فى كل خير ، وسبحانه وتعالى أوضح أنهم إن اتقوا ، تأت لهم بركات من السماء والأرض ، فإن أردتها بركات مادية تجدها فى المطر الذى ينزل من أعلى ، وبركات من الأرض مثل النبات ، وكذلك كنوزها التى تستنبط منها الكماليات المرادة فى الحياة .

وما معنى البركة ؟ . البركة هى أن يعطى الموجودُ فوق ما يتطلبه حجمه ؛ كواحد مرتبه خمسون جنيهاً ونجده يعيش هو وأولاده فى رضا وسعادة ، ودون ضيق ، فنتساءل : كيف يعيش ؟ ويجيبك : إنها البركة . وللبركة تفسير كونى لأن الناس دائماً ـ كما قلنا سابقاً ـ ينظرون فى وارداتهم إلى رزق الإيجاب ، ويغفلون رزق السلب . رزق الإيجاب أن يجعل سبحانه دخلك آلاف الجنيهات ولكنك قد تحتاج إلى أضعافهم ، ورزق السلب يجعل دخلك مائة جنيه ويسلب عنك مصارف كثيرة ، كأن يمنحك العافية فلا تحتاج إلى أجر طبيب أو نفقة علاج .

إذن فقوله : ﴿ بركات من السماء والأرض ﴾ أى أن يعطى الحق سبحانه وتعالى من القليل الكثير فى الرزق الحلال ، ويمحق الكثير الذى جاء من الحرام كالربا ، ولذلك سمى المال الذى نخرجه عن المال الزائد عن الحاجة سماه زكاة مع أن الزكاة فى ظاهرها نقص ، فحين تملك مائة جنيه وتخرج منها جنيهين ونصف الجنيه يكون قد نقص مالك فى الظاهر . وإن أقرضت أحداً بالربا مائة جنيه فأنت تأخذها منه مائة وعشرة ، لكن الحق سمى النقص فى الأولى نماء وزكاة ، وسمى الزيادة فى الثانية محقا وسحتاً ، وسبحانه قابض باسط .

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

إذن فلو أخذ الإنسان قانون صيانته من خالقه لاستقامت له كل الأمور ، لكن الإنسان قد لا يفعل ذلك . ويقول الحق : ﴿ ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون ﴾ .

وهكذا نعلم أن الأخذ ليس عملية جبروت من الخالق ، وإنما هى عدالة منه سبحانه ؛ لأن الحق لو لم يؤاخذ المفسدين ، فماذا يقول غير المفسدين ؟ . سيقول الواحد منهم : مادمنا قد استوينا والمفسدين ، وحالة المفسدين تسير على ما يرام ، إذن فلأفسد أنا أيضاً . وذلك يغرى غير المفسد بأن يفسد ، ويعطى لنفسه راحتها وشهواتها ، لكن حين يأخذ الله المفسدين بما كانوا يكسبون ، يعلم غير المفسد أن سوء المصير للمفسد واضح ، فيحفظ نفسه من الزلل .

كان القياس أنه يقول سبحانه : بما كانوا يكتسبون ، لأن مسألة الحرام تتطلب انفعالات شتى ، وضربنا المثل من قبل بأن إنساناً يجلس مع زوجته ، وينظر إلى جمالها ويملأ عينيه منها ، لكن إن جلس مع أجنبية وأراد أن يغازلها ليتمتع بحسنها ، فهو يناور ويتحايل ، وتتضارب ملكاته بين انفعالات شتى ، وهو يختلف فى ذلك عن صاحب الحلال الذى تتناسق ملكاته وهو يستمتع بما أحل له الله ، ولكنْ هؤلاء المفسدون تدربوا على الفساد فصار دربة تقرب من الملكة فقال فيهم الحق : إنهم يكسبون الفساد ، ولا يجدون فى ارتكابه عنتا .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ ﴾

ونلحظ وجود « همزة استفهام » و « فاء تعقيب » فى قوله الحق : ﴿ أفأمن ﴾ وهذا يعنى أن هناك معطوفاً ومعطوفاً عليه ، ثم دخل عليهما الاستفهام ، أى أنهم فعلوا وصنعوا من الكفر والعصيان فأخذناهم بغتة ، أبعد ذلك أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا وعذابنا بياتا أو ضحى كما صنع بمن كان قبلهم من الأمم السابقة ؟ هم إذن لم يتذكروا ما حدث للأمم السابقة من العذاب والدمار .

ويوضح الحق أن الذين كذبوا من أهل القرى ، هل استطاعوا تأمين أنفسهم فلا يأتيهم العذاب بغتة كما أتى قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم لوط وقوم شعيب ؟ والبأس هو الشدة التى يؤاخذ بها الحق سبحانه الأمم حين يعزفون عن منهجه . وما الذى جعلهم يأمنون على أنفسهم أن تنزل بهم أهوال كالتى نزلت بمن سبقهم من الأمم .

وحين يتكلم الحق عن الأحداث فهو يتكلم عما تتطلبه الأحداث من زمان

ومكان ؛ لأن كل حدث لابد له من زمن ولابد له من مكان ، ولا يوجد حدث بلا زمان ولا مكان ، والمكان هنا هو القرى التى يعيش فيها أهلها ، والزمان هو ما سوف يأتى فيه البأس ، وهو قد يأتى لهم بياتاً وهم نائمون ، أو يأتى لهم ضحى وهم يلعبون ، وهذه تعابير إلهية ، والإنسان إذا ما كان فى مواجهة الشمس فالدنيا تكون بالنسبة له نهاراً . والمقابل له يكون الليل . وقد يجىء البأس على أهل قرية نهاراً ، أو ليلاً فى أى وقت من دورة الزمن ، ونعلم أن كل لحظة من اللحظات للشمس تكون لمكان ما فى الأرض شروقاً ، وتكون لمكان آخر غروباً ، وفى كل لحظة من اللحظات يبدأ يوم ويبدأ ليل ، إذن أنت لا تأمن يا صاحب النهار أن يأتى البأس ليلاً أو نهاراً ، وأنت يا صاحب الليل لا تأمن أن يكون البأس نهاراً أو ليلاً .

وأهل القرى هم الذين قال الله فيهم :

﴿ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾

(من الآية ٩٦ سورة الأعراف)

وماداموا قد كذبوا فمعنى ذلك أنهم لم يؤمنوا برسول مبلغ عن الله ، وتبعاً لذلك لم يؤمنوا بمنهج يحدد قانون حركتهم بـ « افعل » و « لا تفعل » .

إذن فنهارهم هو حركة غير مجدية ، وغير نافعة ، بل هى لعب فى الحياة الدنيا ، وليلهم نوم وفقد للحركة ، أو عبث ومجون وانحراف ، وكل من يسير على غير منهج الله يقضى ليله نائماً أو لاهيًا عاصيًا ، ونهاره لاعباً ؛ لأن عمله مهما عظم ، ليس له مقابل فى الآخرة من الجزاء الحسن .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾

و « الأمن » هو الاطمئنان إلى قضيه لا نثير مخاوف ولا متاعب ، ويقال: فلان

« آمن » ؛ أى لا يوجد ما يكدر حياته . والحق يقول : ﴿ أفأمنوا مكر الله ﴾ ونحن نسمع بعض الكلمات حين ينسبها الله لنفسه نستعظمها ، ونقول : وهل يمكر ربنا ؟ لأننا ننظر إلى المكر كعملية لا تليق . . وهنا نقول : انتبه إلى أن القرآن قد قال :

﴿ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ﴾

(من الآية ٤٣ سورة فاطر)

إذن ففيه مكر خير ، ولذلك قال الحق :

﴿ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ ﴾

(من الآية ٥٤ سورة آل عمران)

والمكر أصله الالتفاف . وحين نذهب إلى حديقة أو غابة نجد الشجر ملتف الأغصان وكأنه مجدول بحيث لا تستطيع أن تنسب ورقة فى أعلى إلى غصن معين ؛ لأن الأغصان ملفوفة بعضها على بعض ، وكذلك نرى هذا الالتفاف فى النباتات المتسلقة ونجد أغصانها مجدولة كالحبل .

إذن فالمكر مؤداه أن تلف المسائل ، فلا تجعلها واضحة . ولكى تتمكن من خصمك فأنت تبيت له أمراً لا يفطن إليه ، وإذا كان الإنسان من البشر حين يبيت لأخيه شرًّا ، ويفتنه فتناً يُعمى عليه وجه الحق وليس عند الإنسان العلم الواسع القوى الذى يمكر به على كل من أمامه من خصوم لأنهم سيمكرون له أيضاً .

وإذا كان هناك مكر وتبييت لا يكتشفه أحد فهو مكر وتبييت الله لأهل الشر ، وهذا هو مكر الخير ؛ لأن الله يحمى الوجود من الشر وأهله بإهلاكهم .

﴿ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

وهناك من يسأل : هل أمن الأنبياء مكر الله ؟ نقول نعم . لقد أمنوا مكر الله باصطفائهم للرسالة ، وهناك من يسأل : كيف إذن لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون ؟!

نقول : لقد جاء فى منهج الرسل جميعاً أن الذى يأمن مكر الله هو الخاسر ؛ لأن الله هو القادر ، وهو الذى أنزل المنهج ليختار الإنسان به كسب الدنيا والآخرة إن عمل به ، وإن لم يعمل به يخسر طمأنينة الإيمان فى الدنيا وإن كسب فيها مالا أو جاها أو علماً ، ويخسر الآخرة أيضاً .

ويتابع سبحانه :

﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾

و « يهد » أى يبين للذين يرثون الأرض طريق الخير ، ومعنى ﴿ يرثون الأرض من بعد أهلها ﴾ أن الأرض كانت مملوكة لسواهم ، وهم جاءوا عقبهم . وحين يستقرىء الإنسان الوجود الحضارى فى الكون يجد أن كل حضارة جاءت على أنقاض حضارة ، وما فى يدك وملكك جاء على أنقاض ملك غيرك ، والذى يأتى على أنقاض الغير يسمى إرثاً ، ومادمتم قد رأيتم أنكم ورثتم عن غيركم كان يجب أن يظل فى بالكم أن غيركم سيرثكم .

إذن فالمسألة دُوَلٌ ، ويجب ألا يغتر الإنسان بموقع أو منصب ، ونحن نرى فى حياتنا من يحتل منصباً كبيراً ، ثم يُقال ويعزل عن منصبه ، أو يحال إلى التقاعد ويأتى آخر من بعده . ولذلك يقال : لو دامت لغيرك ما وصلت إليك . فإن كنت صاحب مكانة وقد أحسنت الدخول إلى وضعك وإلى جاهك ، وإلى منصبك ؛ فيجب أن تفطن وتتذكر الخروج قبل الدخول إلى هذا المنصب حتى لا يعز عليك فراقه يوماً .

واحذر أن تحسن الدخول فى أمر قبل أن تحاول أن تحسن الخروج منه .

واستمع إلى قول الشاعر فى هذا المعنى :

إن الأميرَ هو الذى يُمسى أميراً يوم عزلهْ
إن زال سلطان الإمارة لم يزل سلطانُ فضلِهْ

وحين يقول الحق : ﴿ أو لم يهد للذين يرثون الأرض ﴾ .

نلحظ أنه سبحانه لم يجعل المهديين هنا على وضع المفعول ، فلم يقل : أو لم يهد الذين ، بل قال : « يَهْد للذين » ، فما الحكمة فى ذلك ؟ . نعرف أن « الهداية » هى الدلالة على الطريق الموصل للغاية ، وقد تعود فائدته عليك ، أى أنك قد هَدَيْت غيرك لصالحك . وقد تكون الهداية وهى الدلالة على فعل الخير لأمر يعود على الذى هَدَى وعلى المَهْدِىّ معاً ، لكن إذا كانت الهداية لا تعود إلا لك أنت ، ولا تعود على مَن هداك ، أتشك فى هدايته لك ؟ لا ، إن من حقك أن تشك فى الهداية إذا كان هذا الأمر يعود على من هَدَى ، أو يعود أمرها على الاثنين ؛ ففى ذلك شبهة لمصلحة ، لكن إذا كان الأمر لا يعود على من يَهْدِى ويعودِ كله لمن يُهْدَى فليس فى ذلك أدنى شك .

ولذلك يقول الحق سبحانه فى حديثه القدسى :

« . . يا عبادى لو أنَّ أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم مازاد ذلك فى ملكى شيئاً ، يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئاً ، يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا فى صعيد واحد فسألونى فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندى إلا كما ينقص المَخْيط إذا أُدْخِلَ البحر »[1] .

إذن فحين يهديكم الحق إلى الصراط المستقيم فما الذى يعود عليه سبحانه من صفات الكمال بهذا العمل ؟ لقد خلقكم بصفات الكمال فيه ، فلن ينشىء خلقه

---

(١) رواه مسلم ـ واللفظ له ـ ورواه الترمذى .

لكم صفة من صفات الكمال زائدة على ما هو له ، وهكذا نرى أن كل هداية راجعة إلى المَهْدِىّ . وبذلك يتأكد قوله : ﴿ يهد للذين يرثون الأرض ﴾ ما هو مصلحتهم .

﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

والحق سبحانه وتعالى حين يتكلم عن المشيئة يقول : ﴿ لو نشاء ﴾ ويحدد أسباب المشيئة وهو قوله : ﴿ أصبناهم بذنوبهم ﴾ ، وهكذا نعلم أن المشيئة ليست مشيئة ربنا فقط لا ، بل هى أيضاً مشيئة العباد الذين ميزهم بالاختيار ، وسبحانه يقول :

﴿ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾

(من الآية ٣١ سورة الرعد)

وما الذى يمنعه سبحانه أن يشاء هداية الناس جميعاً ؟ . لا أحد يمنع الخالق ، ولكنه سبحانه خلق خلقاً مهديين بطبيعتهم ، لا قدرة لهم على المعصية وهم الملائكة ، وجعل سائر أجناس الأرض مسخرة مسبحة ، وذلك يثبت صفة القدرة ، فلا يستطيع أحد أن يخرج عن مراد الله ، ولكن هذا لا يعطى صفة المحبوبية للمشرع الأعلى ، ثم إنه ـ سبحانه ـ خلق خلقاً لهم اختيار فى أن يطيعوا وأن يعصوا .

فالمخلوق الذى اختصه سبحانه بقدرة الاختيار فى أن يؤمن وأن يكفر ، وأن يطيع وأن يعصى ، ثم آمن يكون إيمانه دليلا على إثبات صفات المحبوبية للإله .

إذن المقهورون على الفعل أثبتوا القدرة ، والمختارون الفعل أثبتوا المحبوبية للمشروع الأعلى ، ويتابع سبحانه فى الآية نفسها :

﴿ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾

(من الآية ١٠٠ سورة الأعراف)

ونلحظ أن الحق لم يقل أن لو نشاء أصبناهم لذنوبهم وذلك رحمة منه ، بل جعل العقاب بالذنوب التى يختارونها هم ، وكذلك جعل الطبع على القلوب نتيجة للاختيار . وسبق أن تكلمنا فى أول سورة البقرة . عن كلمة « الطبع » ؛ وهو الختم :

﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾

(من الآية ٧ سورة البقرة)

لأن القلوب وعاء اليقين الإيمانى ؛ فحين يملأ إنسان وعاء اليقين بالكفر ، فهذا يعنى أنه عشق الكفر وجعله عقيدة عنده ؛ لذلك يساعده الله على مراده ، وكأنه يقول له : أنا سأكون على مرادك ، ولذلك أطبع على قلبك فلا يخرج ما فيه من الكفر ، ولا يدخل فيه ما خرج منه من الإيمان الفطرى الذى خلق الله الناس عليه . لأنك أنت قد سَبَّقت ووضعت فى قلبك قضية يقينية على غير إيمان ؛ لأن أصول الإيمان أن تُخْرِج ما فى قلبك من أى اعتقاد ، ثم تستقبل الإيمان بالله ، ولكنك تستقبل الكفر وترجحه على الإيمان .

إن الله سبحانه لم يجعل لرجل من قلبين فى جوفه : قلب يؤمن ، وقلب لا يؤمن ، بل جعل للإنسان قلباً واحداً ، والقلب الواحد حيز ، والحيز ـ كما قلنا ـ لا تداخل للمحيَّز فيه ؛ فحين نأتى بزجاجة فارغة ونقول:إنها « فارغة » فالذى يدل على كذب هذه الكلمة أننا حين نضع فيها المياه تخرج منها فقاقيع الهواء ، وخروج فقاقيع الهواء هو الذى يسمح بدخول المياه فيها ؛ لأن الزجاجة ليست فارغة ، بل يخيل لنا ذلك ؛ لأن الهواء غير مرئى لنا . ولو كانت الزجاجة مفرغة من الهواء دون إعداد دقيق فى صناعتها لتلك المهمة لكان من الحتمى أن تنكسر . والقلب كذلك له حيز إن دخل فيه الإيمان بالله لا يسع الكفر ، وإن دخل فيه الكفر ـ والعياذ بالله لا يسع الإيمان ، والعاقل هو من يطرح القضيتين خارج القلب ، ثم يدرس هذه ويدرس تلك ، وما يراه مفيداً لحياته ولآخرته يسمح له بالدخول . أما أن تناقش قضية الإيمان بيقين قلبى بالكفر فهذه عملية لا تؤدى إلى نتيجة .

﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ

عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

أى أو لم يتبيّن للذين يُستخلفون فى الأرض من بعد إهلاك الذين سبقوهم بما فعلوا من المعاصى والكفر فسار هؤلاء القوم سيرة من سبقهم وعملوا أعمالهم وعصوا ربهم أن لو نشاء فعلنا بهم من العذاب كما فعلنا بمن قبلهم وقوله : ﴿ فهم لا يسمعون ﴾ أى السماع المؤدى إلى الاعتبار والاتعاظ فكأنهم لم يسمعوا .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ ﴾

هذا هو المراد فى سرد القصص بالنسبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم الذى أوضحه الحق فى موضع آخر من القرآن فقال :

﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾

(من الآية ١٢٠ سورة هود)

فإذا ما حدث لك من أمتك وقومك شىء من العناد والإصرار والمكابرة فاعلم أنك لست بدعاً من الرسل ؛ لأن كل رسول قد قابلته هذه الموجة الإلحادية من القوم الذين خاطبهم . وإذا كان كل رسول يأخذ حظه من البلاء بقدر ما فى رسالته من العلو فلابد أن تأخذ أنت ابتلاءات تساوى ابتلاءات الرسل جميعاً .

﴿ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟

بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾

(سورة الأعراف)

والطبع ـ كما قلنا ـ هوالختم ؛ لأن قلوبهم ممتلئة بالضلال ؛ لذلك يعلنون التكذيب للرسول . وقد طبع الله على قلوبهم لا قهراً منه ، ولكن لاستبطان الكفر وإخفائه فى قلوبهم .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾

وهؤلاء الذين كذبوا الرسل ، وردوا منهج الله الذى أرسله على ألسنة رسله . كانت لهم عهود كثيرة . فما وفوا بعهد منها ، مثال ذلك : العهد الجامع لكل الخلق ، وهو العهد الذى أخذه الله على ذرية آدم من صلبه حين مسح الله على ظهر آدم ، وأخرج ذريته وقال :

﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ﴾

(من الآية ١٧٢ سورة الأعراف)

وقد يقف العقل فى أخذ مثل هذا العهد على الذرية الموجودة فى آدم ؛ لذلك نقول : إذا قال الله فقد صدق عَقِلْنا ذلك أو لم نعقله ، إنك لو نظرت إلى « آحاد البشر » ، أى إلى الأفراد الموجودين ، تجد نفسك وغيرك يجد نفسه نسلاً لآبائكم ، وهذا يدل على أنَّ الإنسان وجد من حيوان منوى حى انتقل إلى بويضة حيّة من أمه فنشأ هذا الإنسان . ولو طرأ على الحيوان المنوى موت ، أو طرأ على البويضة موت امتنع الإنسال .

إذن فكل إنسان منا جزء من حياة أبيه ، وأبوه جزء من حياة والده ، ووالده جزء

من حياة أبيه ، وإن سلسلت ذلك فسنصل لآدم ، فكل واحد من ذرية آدم إلى أن تقوم الساعة فيه جزىء حى من آدم . ومادام فيه جزىء حى من آدم فقد شهد الخلق الأول ، ولذلك حين يسألهم الله سؤال التقرير ويقول : ﴿ ألست بربكم ﴾ ؟ فيقولون : ﴿ بلى ﴾ .

وضربنا المثل لنقرب وقلنا إن الذرة الشائعة فى شىء ، تشيع فى أضعاف الشىء ، وسبق أن قلنا : إننا إذا جئنا بمادة ملونة حمراء ـ مثلاً ـ فى حجم سنتيمتر مكعب ، ثم أذبناها فى قارورة ، وبذلك يصبح كل جزء فى القارورة فيه جزء من المادة الملونة ، وإن أخذت القارورة وألقيتها فى برميل واسع ، هنا تصير كل قطرة من البرميل فيها جزىء من المادة الحمراء ، وإن أخذت ماء البرميل وألقيته فى البحر فكل ذرة فى البحر الواسع يصير فيها جزىء من المادة الملونة ، وهكذا يقرب من ذهن كل منا أن فى كل إنسان جزيئاً من آدم ، وقد شهد هذا الجزىء العهد الأول . ولقائل أن يسأل : كيف يخاطب الله الذر الذى كان موجوداً فى ظهر آدم ؟ . نقول : كما خاطب الأرض وخاطب السماء ، فهو القائل :

﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ ﴾

(سورة فصلت)

إذن فعدم إدراكنا لكيفية الخطاب بين رب ومربوب ، لا يقدح فى أن هذه المسألة لها أصل ولها وجود .

وهذا بالنسبة للعهد الأول ، وبعده العهد الثانى الذى أخذه الله على رسله ، مصداقاً لقوله الحق :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

ثم هناك عهود خاصة أنشأتها الأحداث الخاصة ، مثلما يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾

(سورة يونس)

إنهم لا يسلمون أنفسهم للعطب ، ولا يغترون بجاههم وبالأسباب التى عندهم لأنها قد امتنعت ، ولذلك لا يغشون أنفسهم بل يلجأون صاغرين إلى الله قائلين :

﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾

(من الآية ٢٢ سورة يونس)

هكذا نرى أنهم أعطوا العهد فى حادثة ، فلما أنجاهم الله أعرضوا ، وفى ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾

(من الآية ١٢ سورة يونس)

إذن فالعهد إما أن يكون عهداً عاماً وإما أن يكون عهداً خاصًا .

والحق يقول : ﴿ وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين ﴾ .

أى أن حال وشأن أكثرهم ظل على الفسق ونقض العهد والخروج عنه ؛ لأن العهد إطار يحكم حركة المختار فيما أعطاه على نفسه من المواثيق ، وهو حر فى أن يفعل أو لا يفعل ، لكنه إذا عاهد أن يفعل أصبح ملزماً ووجب عليه أن ينفذ العهد باختياره ، لأنه إذا قطع العهد على نفسه فعليه أن يحكم حركته فى إطار هذا العهد ، فإن خرج بحركته عن إطار هذا العهد فهذا هو الفسق ، والأصل فى الفسق

أنه خروج الرطبة من القشرة لأن القشرة تصنع سياجاً على الثمرة بحيث لا تُدخل إلى الثمرة شيئاً مفسداً من الخارج ، ويقال:فسقت الرطبة أى خرجت عن قشرتها . كأن ربنا جعل التكليف تغليفاً حماية للإنسان من العطب ، فإذا ما خرج عن الدين مثل خروج الرطبة عن الغطاء والقشرة صار عرضة للتلوث وللميكروبات ، فسمى الله الخارج على منهجه بالفاسق ، لأنه خرج عن الإطار الذى جعله الله له ليحميه من المفاسد ، ومن العطب الذى يقع عليه .

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ ﴾

وبعد أن تكلم الحق عن نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وما دار بينهم وبين أقوامهم ، وكيف أهلك سبحانه المكذبين وأنجى المؤمنين ، أراد أن يأتى بتاريخ رسول من أولى العزم من الرسل ، أى من الذين تعرضوا فى رسالاتهم لأشياء لا يتحملها إلا جَلْد قوى . وأظن أنكم تعلمون أن علاج موسى لليهود أخذ قسطاً وافراً فى القرآن ، بل إن قصة موسى مع قومه هى أطول قصص القرآن ؛ لأن انحرافاتهم ونزواتهم وتمردهم على أنبيائهم كانت كثيرة ، وكان أنبياؤهم كثيرين ، ولذلك فهم يفتخرون بأنهم كثيرو الأنبياء ، وقالوا : نحن أكثر الأمم أنبياء . وقلنا لهم : إن كثرة أنبيائكم تدل على تأصل دائكم ؛ لأن الأطباء لا يكثرون إلا حين يصبح علاج المريض أمراً شاقاً . إذن فكثرة أنبيائكم ، دليل على أن رسولاً واحداً لا يكفيكم ، بل لابد من أنبياء كثيرين .

وقوله الحق : ﴿ ثم بعثنا من بعدهم موسى ﴾ .

وكلمة « بعث » ـ كما نفهمها ـ توحى وتشير إلى أنه سبحانه قد أرسل موسى رسولاً إلى فرعون ، واختيرت كلمة « بعث » للرسالات لأن البعث يقتضى أن شيئاً

كان موجوداً ثم انطمر ثم بعثه الحق من جديد ، والإيمان يتمثل فى عهد الفطرة الأول الذى كان من آدم ؛ لأن الله خلقه بيديه خلقاً مباشراً وكلفه تكليفاً مباشراً ، فنقل آدم الصورة للذرية ، وهذه الصورة الأصلية هى التى تضم حقائق الإيمان التى كانت لآدم ، وحين يبعث الله رسولاً جديداً ، فهو لا ينشىء عقيدة جديدة ، بل يحيى ما كان موجوداً وانطمر ، وحين يطم الفساد يبعث الله الرسول ، فكأن الحق سبحانه وتعالى حينما كلف آدم التكليف الأول طلب منه أن ينقل هذا التكليف إلى ذريته ، ولو أن الإنسان أخذ تكاليف الدين كما أخذ مقومات الحياة ممن سبقه لظل الإيمان مسألة رتيبة فى البشر .

إننا نأخذ الأشياء التى أورثها لنا أجدادنا وتنفعنا فى أمور الدنيا نحتفظ بها ونحرص عليها ، فلماذا لم نأخذ الدين منهم ؟ لأن الدين يحجر على حرية الحركة ويضعها فى إطارها الصحيح . والإنسان يريد أن ينفلت من تقييد حرية الحركة ، وحين يقول ربنا مرة إنه : « أرسل » الرسل ، ومرة أخرى إنه قد بعثهم ، فهذا يدل على أنه لم يجىء بشىء جديد ، ولكنه جاء بشىء كان المفروض أن يظل فيكم كما ظلت فيكم الأشياء التى ورّثها لكم أسلافكم وتنتفعون بها ؛ مثال ذلك : نحن ننتفع برغيف الخبز وننتفع بخياطة الإبرة فلماذا انتفعنا بهذه الأشياء المادية ونسينا الأشياء المنهجية ؟ لأن الأشياء المادية قد تعين الإنسان على شهواته ، أما قيم الدين فهى تحارب الشهوات .

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ﴾

(من الآية ١٠٣ سورة الأعراف)

والآيات ـ كما نعلم ـ جمع آية ، وهى الأمر العجيب الذى يقف العقل عنده مشدوهاً . وتُطلق الآيات ثلاث إطلاقات ؛ فهى تطلق على الآيات القرآنية لأنها عجيبة أسلوبيًّا معبرة عن كل كمال يوجد فى الوجود إلى أن تقوم الساعة ، وكل قارىء لها يأخذ منها على قدر ذهنه وقدر فهمه . والآيات الكونية موجودة فى خلق الأرض والسماء وغير ذلك ، وكذلك تطلق الآيات على المعجزات الدالة على صدق الأنبياء . والبعث يقتضى مبعوثاً وهو موسى ، ويقتضى باعثاً وهو الله ، ومبعوثاً إليهم . وهم قوم فرعون ، ومبعوثاً به وهو المنهج .

راجع أصله وخرج أحاديثه الدكتور أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .

والآيات التى بعث الله بها موسى هى أدلة صدق النبوة ، وهى أيضاً الكلمات المعبرة عن المنهج ليشاهدها ويسمع لها فرعون وملؤه ، والملأ ـ كما عرفنا من قبل ـ هم القوم الذين يملأون العيون هيبة ، فلا يقال للناس الذين لا يلتفت إليهم أحد إنهم ملأ ، أو هم الأناس الذين يملأون صدور المجالس ، أى الأشراف والسادة . ولماذا حدد الحق هنا أن موسى قد بعث لفرعون وملئه فقط ؟ لأن الباقين من أتباعهم تكون هدايتهم سهلة إن اهتدى الكبار ، والغالب والعادة أن الذى يقف أمام منهج الخير هم المنتفعون بالشر ، وهم القادة أو من حولهم ، ولا يرغبون فى منهج الخير لأنه يصادم أغراضهم ، وأهواءهم ، ولذلك يحاربونه ، أما بقية العامة فهم المغلوبون على أمرهم ، وساعة يرون أن واحداً قد جاء ووقف فى وجه الذين عضوهم بمظالمهم وعضوهم بطغيانهم ، تصبح قلوبهم مع هذا المنقذ !

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ ﴾

(من الآية ١٠٣ سورة الأعراف)

وإن كانت الآيات هى الكلمات المؤدية للمنهج الموجودة فى التوراة ، أو كانت الآيات هى المعجزات التى تدل على صدق موسى فقد كان ذلك يقتضى إيمانهم . ونعلم أن القرآن قد عدد الآيات المعجزات التى أرسلها الحق مع موسى :

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ﴾

(من الآية ١٠١ سورة الإسراء)

ومن هذه الآيات العصا ، واليد يدخلها فى الجيب أو تحت جناحه وإبطه وتخرج بيضاء من غير سوء أو علة ، وأخذ آل فرعون بالسنين ، وكلمة « سنين » تأتى للجدب الشديد الذى يستمر لفترة من الزمن بحيث يلفت الناس إلى حدثٍ فى زمان ، ولذلك نقول : كانت سنة عصيبة ؛ لأن السنة عضة من الأحداث ، تهدم ترف الحياة ، ثم تأتى لهم بما يهدم مقومات الحياة ، وأولها الطعام والشراب فيصيبهم بنقص الثمرات ، وهو الجدب والقحط ، وسمى الجدب سنة ، وجمعه سنين ، لأنه شىء يؤرخ به ، فماذا كان استقبال فرعون وملئه للآيات التى مع موسى عليه السلام ؟ يقول الحق : ﴿ فظلموا بها ﴾ .

وهل كانت الآيات أداة للظلم أو ظلموا بسببها لأنهم رفضوها كمنهج حياتى ؟ .

لقد ظلموا بها لأنهم رفضوا اتباع المنهج الحق ، وظلوا على فسادهم ، والمفسدون ـ كما نعلم ـ هم الذين يعمدون إلى الصالح فى ذاته فيفسدونه ، برغم أن المطلوب من الإنسان أن يستقبل الوجود استقبال من يرى أن هناك أشياء فوق اختياراته ومراداته ، وأشياء باختياره ومراداته ، فإذا نظر الإنسان فى الأشياء التى بها مقومات الحياة ، مما لايدخل فى اختياره يجدها على منتهى الاستقامة .

إننا نجد الإنسان لا يتحكم فى حركة الشمس أو حركة القمر ، أو النجوم أو الريح أو المطر ، فهذه الكائنات مستقيمة كما يريدها الله ، ولا يأتى الفساد إلا فى الأمر الذى للإنسان مدخل فيه ، والناس لا تشكو من أزمة هواء ـ على سبيل المثال ـ لأنه لا دخل فى حركة الهواء لأحد ، لكنهم شَكَوْا من أزمة طعام لأن للبشر فيه دخلاً ، ونجد شكواهم من أزمة المياه أقل ؛ لأن مدخل الإنسان على الماء قليل .

إنه سبحانه وتعالى يجعل الأمر الذى يدير حركتك الوقودية لك فيه بعض من الدخل ، فيجعل من جسمك ـ على سبيل المثال ـ مخزناً للدهون ليعطيك لحظة الجوع ما كنزته فيه من طاقة . ومن العجيب أن الدهون هذه هى مادة واحدة وساعة نحتاج إلى التغذية منها تتحول المادة الواحدة إلى المواد الأخرى التى نحتاج إليها .

تحتاج مثلا إلى زلال ، فيتحول الدهن إلى زلال ، تحتاج إلى كربون ، يعطى لك الدهن الكربون ، تحتاج إلى فوسفور يعطيك فوسفوراً ، تحتاج إلى مغنسيوم يعطيك الدهن المغنسيوم ، وهكذا فإذا كنا نصبر على الطعام بقدر المخزون فى أجسامنا ، ونصبر على الماء أيضاً بقدر المخزون فى هذه الأجساد ، فنحن لا نصبر على الهواء لأن التنفس شهيق وزفير ، ولو أن إنساناً ملك الهواء يعطيك إياه لحظة الرضا ، ويمنعه عنك لحظة الغضب ، لمت قبل أن يرضى عنك ، لكن إن منع عنك الماءفترة فقد يحن قلب عدوك أو يأتى لك أحد بالماء أو قد تسعى أنت بحيلة ما لتصل إليه .

إذن فالأمر الذى لا دخل للإنسان فيه نجده على منتهى الاستقامة ، ولا يأتى

الفساد إلا من الأمر الذى للإنسان فيه دخل .

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

أى أن آخر الأمر سيعاقب الله المفسدين .

وأراد سبحانه أن يَذْكُر سلسلة القصة لا من بدء سلسلتها ، بل يبدأ من نهايتها ، فسبحانه لا يدرس لنا التاريخ ، ولكن يضع أمامنا العظة ، واللقطة التى يريدها فى هذا السياق ، ولذلك لم يتكلم سبحانه فى هذه السورة عن ميلاد موسى وكيف أوحى لأمه أن تلقيه فى البحر ، ولم ترد حادث ذهابه إلى مدين ومقابلته لسيدنا شعيب ، لكنه هنا يتكلم سبحانه عن مهمة سيدنا موسى مع فرعون .

ويقول سبحانه :

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَـٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ ﴾

ويشرح لنا القرآن أمر بلاغ موسى لفرعون وقومه بأن الله واحد أحد وهو رب العالمين ، وكان قوم فرعون يعتقدون بوجود إله للسماء وآخر للأرض ، لذلك يبلغهم موسى بأن الإله واحد :

﴿ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾

(سورة الشعراء)

ونجد موسى يعدد كلمة الربوبية فى آيات أخرى ؛ ليأتى بالمظهر الذى دُسَّت فيه دسيسة الربوبية لفرعون ، وكانوا يعتقدون أن للسماء إلهاً ، وللأرض إلهاً آخر ، فقال موسى : إننى أتكلم عن الإله الواحد الذى هو رب السماء والأرض معاً فلا إله إلا الله وحده . وكانوا يعتقدون أن للشرق إلهاً ، وللغرب إلهاً ، فأبلغهم موسى بأنه

إله واحد ، وكانوا يعتقدون أن للأحياء إلهاً ورباً ، وللأموات إلهاً ورباً ، فقال لهم موسى :

﴿ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾

(سورة الشعراء)

ويبلغ هنا موسى فرعونَ وقومَه :

﴿ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾

(من الآية ١٠٤ سورة الأعراف)

وما دام موسى رسولا من رب العالمين ، فهو لا يقول إلا الحق ، لذلك يتابع الحق على لسان موسى :

﴿ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ ﴾

فأى هذه الأمور هو الذى يحتاج إلى بينة ، هل البلاغ بأنه رسول من رب العالمين ؟ إن هذا القول يدلنا على أن موسى اختلف مع فرعون أولاً فى أن موسى رسول ، وأن للعالمين ربًا واحداً ، وأنه لا يبلغ إلا بالحق ، هذه ـ إذن ـ ثلاث قضايا خلافية بين موسى وفرعون . ولكن فرعون لم يختلف مع موسى إلا فى قضية واحدة هى : هل هو رسول مبلغ عن الله بالقول الحق ؟ فماذا طلب منه ؟ طلب الدليل على أنه رسول من رب العالمين . وهذا يوضح أن فرعون يعلم أن العالم له رب أعلى .

كذلك فإن فرعون لم يقف مع موسى فى مسألة أن للعالمين ربًا ، وأن هذا الرب

لا يستطيع كل إنسان أن يفهم مراده منه فلابد أن يرسل رسولاً ، بل وقف فرعون فى مسألة : هل موسى رسول مبلغ عن الله أو لا ؟

ولذلك يقول موسى :

﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾﴾

(سورة الأعراف)

كأن مهمة موسى عند فرعون أن يخلص بنى إسرائيل . ونعرف أن قصة بنى إسرائيل ناشئة من أيام نبى الله يعقوب وابنه يوسف حين كاد الإخوة لأخيهم يوسف ، وتشاوروا فى أمر قتله أو طرحه أرضاً أو إلقائه فى غيابة الجب ، لقد جاء الحق بقصة بنى إسرائيل على مراحل لنتدرج بالانفعال معها . فمراحل الانفعال النفسى أمام من تكره تأخذ صورتين اثنتين : صورة تدل على تصعيد الرحمة فى قلبك ، وصورة تدل على تصعيد الشر فى قلبك ، مثال ذلك : لنفترض أن لك خصماً وصنع فيك مكيدة ، وتحكى أنت لإخوانك ما فعله هذا الخصم ، وكيف أنك تريد الانتقام منه فتقول : أريد أن انتقم منه بضربه صفعتين ، ثم تصعد الشر فتقول : أنا أريد أن أقتله بالرصاص ، هذا شأن الشرير ، أما الخيّر فيقول : أنا لا أريد أن أقتله أو أصفعه أو أشتمه وأسبّه فهذا تصعيد فى الخير . إذن . يختلف تصعيد الانتقام أو السماح حسب طاقة الخير أو الشر التى فى النفس . وهكذا نجد إخوة يوسف وهم يكيدون له ، فقالوا :

﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾

(من الآية ٨ سورة يوسف)

هم يعترفون أنهم قوة وعصبة ، ويحسدون يوسف وأخاه على محبة الأب لهما ، ويعترضون على ذلك ، ويظهرون البينة على أن يوسف وأخاه أحب إلى الأب منهم ، وذكر القرآن هذه البينة لنعرف أهميتها ، حتى لا يغفل أحد عنها . لقد كان قلب نبى الله يعقوب مع يوسف وأخيه لصغرهما وضعفهما ، بينما بقية أبنائه كبار أقوياء أشداء ؛ لأن الله سبحانه وتعالى وضع فى قلب الأبوة والأمومة من الرحمة على قدر ضعف الوليد الصغير . فالصغير هو من يحتاج إلى رعاية وعناية ، ويكون

قلب الأم والأب مع الابن المريض أو الغائب . ولذلك حينما سئلت امرأة حكيمة : من أحب بنيك إليك ؟ قالت : الصغير حتى يكبر ، والغائب حتى يعود ، والمريض حتى يشفى .

إذن فقول إخوة يوسف : ﴿ ونحن عصبة ﴾ . هو بينة ضدهم . وكان المنطق يقتضى أن يعرفوا أنهم ماداموا عصبة فلابد أن يكون قلب أبيهم مع يوسف وأخيه فكلاهما كان صغيراً ويحتاج إلى رعاية ، وبطبيعة تكوين أبناء يعقوب كأسباط وذريّة أنبياء ، نجدهم يصعدون الخير لا الشر ، فقد بدأوا بإعلان رغبة القتل ، ثم استبدلوا بها الطرح أرضاً بأن يلقوه فى أرض بعيدة نائية ليستريحوا منه ويخلو لهم وجه أبيهم ، ثم استبدلوا بها إلقاءه فى غياهب الجب ؛ بدأوا بالقتل فى لحظة عنفوان الغضب ثم تنازلوا عن القتل بالطرح أرضاً ، أى أن يتركوه فى مكان يكون فيه عرضة لأن يضل ، ثم تنازلوا عن ذلك واكتفوا بإلقائه فى غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة ، فهل كانوا يريدون أن يضروه ، أو كانوا يفكرون فى نجاته ؟ . إذن فهذا تصعيد للخير .

وتوالت الأحداث مع سيدنا يوسف واستقر معه بنو إسرائيل فى مصر وكثرت أعدادهم . وعندما نستقرىء التاريخ ، نجد أن الحق سبحانه وتعالى حينما تكلم عن ملوك مصر ، خص بعضهم باسم فرعون ، وخص بعضهم باسم ملك ، فهناك فرعون وهناك ملك .

فإذا ما نظرت إلى القديم نجد أن الحق يقول :

﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ﴾

(سورة الفجر)

هكذا نجد الحق يسمى حاكم مصر « فرعون » وفى أيام سيدنا موسى أيضاً يسميه الحق فرعون . لكن فى أيام يوسف عليه السلام لم يسمه فرعون ، بل سمَّاه ملكاً :

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِ ﴾

(من الآية ٥٠ سورة يوسف)

وبعد أن اكتشف العالم الفرنسى شامبليون ـ حجر رشيد ـ عرفنا أن الفترة التى دخل فيها سيدنا يوسف مصر ، لم يكن الفراعنة هم الذين يحكمون مصر ، بل كان الحكام هم ملوك الهكسوس الرعاة ، وطمر القرآن هذه الحقيقة التاريخية حين سمى حكام مصر قبل يوسف فراعين ، وفى الفترة التى جاء فيها سيدنا يوسف سماهم « الملوك » ، وهؤلاء هم من أغاروا على مصر وحكموها وساعدهم بنو إسرائيل وخدموهم ، وقاموا على مصالحهم ، وبعد أن طرد المصريون الهكسوس التفت الفراعنة بالشّر إلى من أعان الهكسوس ؛ فبدأوا فى استذلال بنى إسرائيل لمساعدتهم الهكسوس إبّان حكمهم مصر . وأراد الله أن يخلصهم بواسطة موسى عليه السلام ، ولذلك يقول الحق على لسان موسى :

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَـٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

كأن موسى يريد أن يخلص بنى إسرائيل ، أما مسألة الألوهية وربوبية فرعون فقد جاءت عرضاً .

ويقول فرعون :

﴿ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ ﴾

وهكذا يواجه فرعون موسى سائلاً إياه أن يُظهر الآية إن كان من الصادقين ، إذن ففرعون يعتقد أن لله آيات تثبت صدق الرسول بدليل أنه قال له : هاتها إن كنت من الصادقين .

ويكشف موسى عليه السلام الآية :

﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ ﴾

وهذا الإلقاء كان له سابق تجربة أخرى حينما خرج مع أهله من مدين ورأى ناراً وبعد ذلك قال لأهله :

﴿ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا ﴾

(من الآية ١٠ سورة طه)

ثم سمع خطاباً :

﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ ﴾

(سورة طه)

وحين يقال له : ﴿ وما تلك بيمينك ياموسى ﴾ ، كان يكفى أن يقول فى الجواب : عصاى ، ولا داعى أن يقول : « هى » ولا داعى أن يشرح ويقول : إنه يتوكأ عليها وأن له فيها مآرب أخرى ؛ لأن الحق لم يسأله ماذا تفعل بعصاك ، إذن فجواب موسى قد جاوز فى الخطاب قدر المطلوب ، ويظن البعض أنه كان من الواجب أن يعطى الجواب على قدر السؤال . لكن من يقول ذلك ينسى أنه لا يوجد من يزهد فى الأنس بخطاب الله . وحين قال موسى عليه السلام :

﴿ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي ﴾

(من الآية ١٨ سورة طه)

ولقد شعر موسى عليه السلام واستدرك هيبة المخاطب فكان تهافته على الخطاب حبًّا لأنسه فى الله ، لكنه حين شعر أنه قارب أن يتجاوز قال : ﴿ ولى فيها مآرب أخرى ﴾ كان من الممكن أن يقول استعمالات كثيرة للعصا . إذن فللعصا أكثر من إلقاء ، إلقاء الدربة والتمرين على لقاء فرعون حين أمره الحق :

﴿ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ ﴾

(سورة طه)

فماذا حدث ؟ قال له الله :

﴿ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ ﴾

(سورة طه)

فساعة خاف ، دل على أن ما حدث للعصا ليس من قبيل السحر ؛ لأن الساحر حين يلقى عصاه أو حبله يرى ذلك عصا أو حبلاً ، بينما يرى ذلك غيرُه حية ، ولذلك يقول الحق عن السحرة :

﴿ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ ﴾

(من الآية ١١٦ سورة الأعراف)

وهذا يدل على أن حقيقة الشيء فى السحر تظل كما هى فى نظر الساحر ، لكن موسى أوجس فى نفسه خيفة ، فهذا يدل على أن العصا انتقلت من طبيعتها الخشبية وصارت حية .

وكان من الممكن أن تورق العصا وتخضر على الرغم من أنها كانت غصناً يابساً . ولو حدث ذلك فسيكون معجزة أيضاً ، ولكن نقلها الله نقلتين : نقلها من الجمادية ، وتعدى بها مرحلة النباتية إلى مرحلة الحيوانية .

وكأن الحق العليم أزلاً يرد على من أراد اللغط فى مسألة إلقاء العصا ، وقد ظن بعض الجاهلين أن ذلك تكرار فى الكلام فى قصة واحدة . ولم يلحظوا أن جهة الإلقاء للعصا كانت منفكة ، ففي القرآن ثلاثة إلقاءات للعصا : إلقاء التدريب حينما اصطفى الله موسى رسولاً وأعلمه بذلك فى طور سيناء :

﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي ﴾

(من الآية ١٤ سورة طه)

وبعد ذلك قال له :

﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ ﴾

(سورة طه)

وإلقاء التدريب على المهمة هدفه طمأنة موسى ، حتى إذا ما باشرها أمام فرعون باشرها وهو على يقين أن العصا ستسجيب له فتنقلب حية بمجرد إلقائها ، ولو أن الله قال له خبراً « إذا ذهبت إلى فرعون فألق العصا فستنقلب حية » ، فقد لا يطمئن قلبه إلى هذا الأمر . فأراد الله أن يدربه عليها تدريباً واقعيًا ، ليعلم أن العصا ستسجيب له حين يلقيها فتنقلب حية ، وكان ذلك أول إلقاء لها ، أما الإلقاء الثانى فكان ساعة أن جاء لفرعون للإعلام بمهمته أنه رسول رب العالمين ، وإعلامة بالبينة ، وهو ما نحن بصدده الآن فى هذه الآية التى نتكلم بخواطرنا الإيمانية فيها .

ثم هناك إلقاء ثالث وهو إلقاء التحدى للسحرة ، ولأن لكل إلقاء موقعاً فلا تقل أبداً:أن ذلك تكرار . وإنما هو تأسيس لتعدد المواقف والملابسات ، فلكل موقف ما يتطلبه ، فلا تغنى لقطة هنا عن لقطة هناك .

﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

ومرّة يقول عن العصا : ﴿ كأنها جان ﴾ .

ويقول المشككون فى كلام الله من المستشرقين : كيف يقول مرة إنها ثعبان مبين . ثم مرة أخرى يقول : ﴿ فإذا هى حية تسعى ﴾ ، ومرة ثالثة يقول : ﴿ كأنها جان ﴾ . ونقول : إن هناك فارقاً بين مختلفات تتناقض ، ومختلفات تتكامل ، فهى ثعبان مرة ، وهى حية مرة ثانية ،وهى جان ؛ لأن الثعبان هو الطويل الخفيف الحركة ، والحية هى الكتلة المخيفة بشكلها وهى متجمعة ، والجان هو الحية المرعبة الشكل . فكأنها تمثلت فى كل مرة بمثال يرعب من يراه ، وكل مرة لها شكل ؛ فهى مرة ثعبان ، ومرة حية ، وثالثة جان ، أو تكون ثعباناً عند من يخيفه الثعبان ، وتكون حية عند من تخيفه الحية ، وتكون جاناً عند من يخيفه الجان ، ولذلك تجد أن إشاعة الإبهام هو عين البيان للمبهم .

ومثال ذلك إبهام الحق لأمر الموت ، فلا يحكمه سن ، ولا يحكمه سبب ، ولا يحكمه زمان ، وفى هذا إبهام لزمانه وإبهام لسببه مما يجعله بياناً شائعاً تستقبله

بأى سبب فى أى زمان أو فى أى مكان، وهكذا يأتى الإبهام هنا لكى يعطينا الصور المتكاملة ، وقال بعض المستشرقين : إن المسلمين يستقبلون القرآن بالرهبة وبالانبهار . ولا يحركون عقولهم لكى يروا المتناقضات فيه ، لكن غير المسلم إن قرأ القرآن يتبين فيه أشياء مختلفة كثيرة ، قالوا بالنص: « أنتم تعلمون بقضايا اللغة أن التشبيه إنما يأتى لتُلْحِق مجهولاً بمعلوم » ، فيقال : أنت تعرف فلاناً ، فتقول : لا والله لا أعرفه . فيقول لك : هو شكل فلان ؛ فى الطول ، وفى العرض ، وفى الشكل ، إذن فقد ألحق مجهولاً بمعلوم ليُوضحه . فكيف يلحق القرآن مجهولاً بمجهول ، إن هذا لا يعطى صورة مثلما تكلم القرآن عن شجرة الزقوم فقال :

﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ ﴾

(سورة الصافات)

فكيف توجد شجرة فى الجحيم ، إنها أشياء متناقضة ؛ لأن الشجرة فيها خضرة ، وتحتاج إلى رى ، ومائية ، والجحيم نار وجفاف ، ثم إن الشيطان غير معلوم الصورة للبشر ، وشجرة الزقوم غير معلومة لأنها ستأتى فى الآخرة ، فكيف يُشَبِّه الله مجهولاً بمجهول . واستخدم المستشرقون ذلك كدليل على أن المسلمين يأخذون القرآن بانبهار ولا يبحثون فيه ، ونرد عليهم : أنتم لا تعلمون لغة العرب كملكة ، بل عرفتموها صناعة ، ولم تتفهموا حقيقة أن القرآن جاء على لغة العرب . وقد تخيلت لغة العرب أشياء رأت فيها البشاعة والقبح ؛ كأن قالوا : « ومسنونة زرق كأنياب أغوال » ، والغول كائن غير موجود ، لكنهم تخيلوا الغول المخيف وأن له أنياباً . . . إلخ .

إذن التشبيه قد يكون للأمر المُتَخَيَّل فى أذهان الناس ، والأصل فى التشبيه أن يلحق مجهولاً ليُعلم ، وشجرة الزقوم لا نعرفها ، ورءوس الشياطين لم نرها ، وهكذا ألحق الله مجهولاً بمجهول ، ولماذا لم يأت بها فى صورة معلومة ؟ . لأنه ـ سبحانه ـ يريد أن يشيع البيان ، ويعمم الفائدة ويربيها ؛ لأن الإخافة تتطلب مخيفاً ، والمخيف يختلف باختلاف الرائين ، فقد يوجد شىء يخيفك ، ولكنه لا يخيف غيرك ، وقد تستقبح أنت شيئاً ،ولكن غيرك لا يستقبحه ، ولذلك ضربنا ـ سابقاً ـ مثلاً . وقلنا : لو أننا أحضرنا مجموعة من كبار رسامى الكاريكاتور فى

العالم ، وقلنا لهم : ارسموا لنا صورة الشيطان تخيلوا الشيطان وارسموه ، أيتفقون على شكل واحد فيه ؟ لا ؛ لأن كل رسام سيرسم الشيطان من وحى ما يخيفه هو .

ولقد قال الله فى صورة : شجرة الزقوم ﴿ طلعها كأنه رءوس الشياطين ﴾ ؛ ليتخيل كل سامع ما يخيفه من صورة الشيطان ، فتكون الفائدة عامة من التخويف من تلك الشجرة . لكنه لو قالها بصورة واحدة لأخاف قوماً ولم يخف الآخرين . ومثال ذلك أمر عصا موسى ، فهى مرة ثعبان ، ومرة جان ، ومرة حية ، وكلها صور لشىء واحد مخيف ، ويقول الحق هنا فى سورة الأعراف : ﴿ فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين ﴾ .

وقوله : ﴿ فإذا هى ﴾ يوضح الفجائية التى أذهلت فرعون ، فقد تحولت العصا إلى ثعبان ضخم فى لمح البصر بمجرد إلقائها ، ومن فوائد تدريب سيدنا موسى على إلقاء العصا فى طور سيناء أن موسى لن تأخذه المفاجأة حين يلقيها أمام فرعون ، بل ستأخذ المفاجأة فرعون . كأن التدريب أولاً لإقناع موسى وضمان عدم خوفه فى لحظة التنفيذ ، وقد خاف منها موسى لحظة التدريب ؛ لأن العصا صارت ثعباناً وحيَّة حقيقية ، ولو كانت من نوع السحر لظلت عصا فى عين الساحر ولا يخاف منها ، إذن خوفه منها إبَّان التدريب دليل على أنها انقلبت حقيقة ، لا تخيلاً ، وتلك هى مخالفة المعجزة للسحر ، فالمعجزة حقيقة والسحر تخييل ، وهذا هو الذى سيجعل السحرة يخرون ساجدين لأنهم قد ذهلوا مما حدث .

﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

و « مبين » أى بيِّن ، وواضحة ملامحه المخيفة التى لا تخفى على أحد ، ويقدم موسى عليه السلام الآية الثانية ، فيقول الحق :

﴿ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾

وهذه آية معجزة أخرى . وقوله : « ونزع » تعنى إخراج اليد بعسر ، كأن هناك

شيئاً يقاوم إخراج اليد ؛ لأنه لو كان إخراج اليد سهلاً ، لما قال الحق : «ونزع يده» لأنَّ النزع يدل على أن شيئاً يقاوم ، ومثال ذلك قوله الحق :

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ ﴾

(من الآية ٢٦ سورة آل عمران)

لأن نزع الملك ليس مسألة سهلةً ؛ ففى الغالب يحاول صاحب الملك التشبث بملكه ، لكن الحق ينزعه من هذا الملك . كذلك قوله : « ونزع يده » ، وهذا يدل على أن يده لها وضع ، ونزع يده وإخراجها بشدة له وضع آخر ، كأنها كانت فى مكان حريص عليها . إذن ففيه لقطة بينت الإدخال ، ولقطة بينت النزع ، وهما عمليتان اثنتان . وقال سبحانه فى آية ثانية :

﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ﴾

(من الآية ١٢ سورة النمل)

و « الجيب » هو مكان دخول الرأس من الثوب ، وإن كنا نسمى « الجيب » فى أيامنا مطلق شىء نجعله وعاء لما نحب ، وكان الأصل أن الإنسان حين يريد أن يحتفظ بشىء ، يضعه فى مكان أمامه وتحت يده ، ثم صنع الناس الجيوب فى الملابس ، فسميت الجيوب جيوباً لهذا .

والحق قال فى موضع آخر :

﴿ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ﴾

(من الآية ٢٢ سورة طه)

إذن ففيه إدخال وإخراج ، وكل آية جاءت بلقطة من اللقطات ؛ فآية أوضحت دخول اليد فى الجيب ، وأخرى أوضحت ضم اليد إلى الجناح ، وثالثة أوضحت نزع اليد ، وهذه لقطات متعددة ، تكوّن كلها الصورة الكاملة ؛ لنفهم أن القصص فى القرآن غير مكرَّر ، فالتكرير قد يكون فى الجملة . لكن كل تكرير له لقطة تأسيسية ، وحين نستعرضه نتبين أركان القصة كاملة . فكل هذه اللقطات تجمَّع لنا القصة . وقلنا قبل ذلك : إن الصراع بين فرعون وموسى لا ينشأ إلا عن عداوة ، وحتى يحتدم الصراع لابد أن تكون العداوة متبادلة ، فلو كان واحد عدوًّا

والثانى لا يشعر بالعداوة فلن يكون لديه لدد خصومة ، وقد يتسامح مع خصمه ويأخذ أمر الخلاف أخذاً هينا ويسامحه وتنفض المسألة . لكن الذى يجعل العداوة تستعر ، ويشتد ويعلو لهيبها أن تكون متبادلة . وتأتى لنا لقطة فى القرآن تثبت لنا العداوة من فرعون لموسى ، ولقطة أخرى تثبت العداوة من موسى لفرعون ، فالحق يقول :

﴿ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ ﴾

(من الآية ٣٩ سورة طه)

هذه تثبت العداوة من فرعون لموسى .

ويقول الحق :

﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾

(من الآية ٨ سورة القصص)

وهذه تثبت أن موسى عدوٌّ لهم . وكلتا اللقطتين يُكمل بعضها بعضاً لتعطينا الصورة الكاملة .

والحق هنا يقول :

﴿ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

ونعرف أن موسى كان أسمر اللون ، لذلك يكون البياض فى يده مخالفاً لبقية لون بشرته ، ويده صارت بيضاء بحيث ساعة يراها الناس يلفتهم ضوؤها ويجذب أنظارهم ، وهى ليست بيضاء ذلك البياض الذى يأتى فى سُمرة نتيجة البرص ، لا ؛ لأن الحق قال فى آية أخرى :

﴿ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ﴾

(من الآية ٢٢ سورة طه)

وكل لقطة كما ترى تأتى لتؤكد وتكمل الصورة . إذن فقوله : ﴿ بيضاء للناظرين ﴾ يدل على أن ضوءها لامع وضىء ، يلفت نظر الناس جميعاً إليها ،

ولا يكون ذلك إلا إذا كان لها بريق ولمعان وسطوع ، وقوله : ﴿ بيضاء من غير سوء ﴾ يؤكد أن هذا البياض ليس مرضاً .

ويتابع الحق سبحانه :

﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ ﴾

عرفنا أن الملأ هم القوم الذين يتصدرون المجالس ، ويملأونها أو الذين يملأون العيون هيبة ، والقلوب مهابة وهم هنا المقربون من فرعون . وكأنهم يملكون فكرة وعلما عن السحر . وفى سورة الشعراء جاء القول الحق :

﴿ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾

(سورة الشعراء)

إذن فهذه رواية جاءت بالقول من الملأ ، والآية الأخرى جاءت بالقول على لسان فرعون ، وليس فى هذا أدنى تناقض ، ومن الجائز أن يقول فرعون : إنه ساحر ، وأيضاً أن يقول الملأ : إنه ساحر . وتتوارد الخواطر فى أمر معلوم متفق عليه . وقد حدث مثل هذا فى القرآن حينما نزلت آيات فى خلق الإنسان وتطوره بأن كان علقة فمضغة إلخ فقال كاتب الوحى بصوت مسموع :

﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾

(من الآية ١٤ سورة المؤمنون)

عن أنس رضى الله عنه قال : قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : وافقت ربى فى أربع : نزلت هذه الآية : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ﴾ الآية قلت أنا : فتبارك الله أحسن الخالقين فنزلت : ﴿ فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾[1] .

---

(١) رواه ابن أبى حاتم .

وعن زيد بن ثابت الأنصارى قال : أملى علىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ﴾ إلى قوله : ﴿ . . خلقاً آخر ﴾ فقال معاذ : ﴿ فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له معاذ : مِمّ تضحك يارسول الله ؟ فقال : « بها ختمت فتبارك الله أحسن الخالقين »(١) .

لقد جاءت الخواطر فى الحالة المهيجة لأحاسيس الإيمان لحظة نزول الوحى بمراحل خلق الإنسان .

فماالذى يمنع من توارد الخواطر فيجىء الخاطر عند فرعون وعند الملأ فيقول ويقولون ؟ أو يكون فرعون قد قالها وعلى عادة الأتباع والأذناب إذا قال سيدهم شيئاً كرروه .

﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

ولم يصفوا فعل سيدنا موسى بأنه ساحر فقط بل بالغوا فى ذلك وقالوا : إنه ساحر عليم . وأضافوا ما جاء على ألسنتهم بالقرآن فى هذه السورة .

﴿ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾

إنها نكبة جاءت لفرعون الذى يدعى الألوهية ، ونكبة لمن حوله من هؤلاء الذين يوافقونه ، فكيف يواجهها حتى يظل فى هيئته وهيبته ؛ قال عن موسى : إنه ساحر ، لكى يصرف الناس الذين رأوا معجزات موسى عن الإيمان والاقتناع به ، وأنه رسول رب العالمين ، وبعد ذلك يهيج فرعون وطنيتهم ويهيج ويثير غيرتهم ويحرك انتماءهم إلى مكانهم فقال : ﴿ يريد أن يخرجكم من أرضكم فماذا تأمرون ﴾ .

---

(١) رواه ابن أبى حاتم وأورده ابن كثير فى تفسيره وقال : وفى إسناده جابر بن زيد الجعفى ضعيف جدا ، ونرى أن خبر سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه أصح . .

اتهموا موسى عليه السلام بأنه يريد أن يخرج الناس بسحره من أرضهم ، وهذا القول من فرعون ومن معه له هدف هو تهييج الناس وإثارتهم ؛ لأن فرعون أقنع الناس أنه إله . وهاهى ذى الألوهية تكاد تنهدم فى لحظة ، فقال عن موسى إنه ساحر ، وبين قوم لهم إلف بالسحر ، وقوله : ﴿ فماذا تأمرون ﴾ على لسان الملأ من قوم فرعون تدل على أن القائل للعبارة أدنى من المقول لهم ، فالمفروض أن فرعون هو صاحب الأمر على الجميع ، ومجىء القول : ﴿ فماذا تأمرون ﴾ يدل على أن الذى يأمر فى مسائل مثل هذه هو فرعون ، وهذا يشعر بأن فرعون قد أدرك أن مكانته قد انحطت وأنه نزل عن كبريائه وغطرسته . أو أن يكون ذلك من فرعون تطييباً لقلوب من حوله ، وأنه لا يقطع أمراً إلا بالمشورة ، فكيف تشاور الناس يا فرعون وأنت قد غرست فى الناس أنك إله ؟ وهل يشاور الإله مألوهاً ؟ . إن قولك هذا يحمل الخيبة فيك لأنك تدعى الألوهية ثم تريد أن تستعين بأمر المألوه .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ وَأَرۡسِلۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ ﴾

و «أرجه» أى أَخِّره مثل قوله الحق :

﴿ وَءَاخَرُونَ مُرۡجَوۡنَ ﴾

(من الآية ١٠٦ سورة التوبة)

أى أنهم مؤخرون للحكم عليهم وهم الثلاثة الذين تخلفوا عن الغزو فخلفوا وأرجىء أمرهم حتى نزل فيهم قوله سبحانه : ﴿ وعلى الثلاثة الذين خلفوا ﴾ إلخ الآية .

وقولهم :

﴿ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ ﴾

(من الآية ١١١ سورة الأعراف)

وهكذا كان طلب الإرجاء لأن المسألة أخطر من أن يُتَصَرَّف فيها تصرفاً سريعاً

بل تحتاج إلى أن يؤخّر الرأى فيها حتى يجتمع الملأ ، ويرى الجميع كيفية مواجهتها ، فهى مسألة ليست هينة لأن فيها نقض ألوهية فرعون ، وفى هذا دك لسلطان الفرعون وإنهاء لانتفاعهم هم من هذا السلطان . فإذا كان قد قال لهم : ﴿ فماذا تأمرون ﴾ .

فكأنه كان يطلب منهم الرأى فوراً ، لكنهم قالوا إن المسألة تحتاج إلى تمهل وبطء ، وأول درجات البطء والتمهل أن يُستدعى القوم الذين يفهمون فى السحر . فمادمنا نقول عن موسى:إنه ساحر ، فلنواجهه بما عندنا من سحر : وقبول فرعون لهذه المشورة هدم لألوهيته ؛ لأنه يدعى أنه إله ويستعين بمألوه هم السحرة ، والسحرة أتباع له . وقوله الحق على ألسنتهم :

﴿ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴾

(من الآية ١١١ سورة الأعراف)

يدل على أن السحر كان منتشراً ، ومنبثاً فى المدائن وقد أتبع سبحانه هذا القول على لسان الملأ بقوله :

﴿ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ ﴾

ولأن المستشرقين يريدون أن يشككونا فى القرآن قالوا : ولماذا قال فى سورة الشعراء : ﴿ يأتوك بكل سحّار عليم ﴾ . وكأن هؤلاء المستشرقين يريدون أن يفرقوا بين ﴿ ساحر عليم ﴾ و ﴿ سحّار عليم ﴾ ؛ ولأنهم لا يعرفون اللغة لم يلتفتوا إلى أن « سحّار » تفيد المبالغة من جهتين . فكلمة « ساحر » تعنى أنه يعمل بالسحر ، و « سحّار » تعنى أنه يبالغ فى إتقان السحر ، والمبالغات دائماً تأتى لضخامة الحدث ، أو تأتى لتكرر الحدث . فـ « سحّار » تعنى أن سحره قوى جدًّا ، أو يسحر فى كل حالة ، فمن ناحية التكرار هو قادر على السحر ، ومن ناحية الضخامة هو قادر أيضاً . ومادام القائلون متعددين . . فواحد يقول : ساحر ، وآخر يقول : سحّار وهكذا . والقرآن يغطى كل اللقطات .

﴿ قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ وَأَرۡسِلۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٖ ﴿١١٢﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

و « حاشرين » تعنى مَن يحشر لك السحرة ويجمعهم لا بإرادتهم ولكن بقوة فرعون وبطش جنده .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرۡعَوۡنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ ﴾

وقوله : ﴿ وجاء السحرة فرعون ﴾ يدل على بطش الآمر ، أى أنه ساعة قال الكلمة هُرِع الجند بسرعة ليجمعوا السحرة . وقد ولغ بعض المستشرقين فى هذه اللقطة أيضاً فتساءلوا : ولماذا جاء بقول مختلف فى سورة أخرى حين قال :

﴿ أَئِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا ﴾

(من الآية ٤١ سورة الشعراء)

لقد جاء بها بهمزة الاستفهام ، وفى سورة الأعراف جاء بها من غير همزة الاستفهام ، وهذه آية قرآنية ، وتلك آية قرآنية . وأصحاب هذا القول يتناسون أن كل ساحر من سحرة فرعون قد انفعل انفعالاً أدى به مطلوبه ؛ فالذى يستفهم من فرعون قال : « أإن » ، والشجاع قال لفرعون : ﴿ إن لنا لأجراً ﴾ . وفى القضية الاستفهامية لا يتحتم الأجر لأنه من الجائز أن يرد الفرعون قائلا : أنْ لا أجر لكم ، ولكن فى القضية الخبرية « إن لنالأجراً » أى أن بعض السحرة قد حكموا بضرورة وجود الأجر ، وقد غطى القرآن هذا الاستفهام ، وهذا الخبر .

وتأتى إجابة فرعون على طلب السحرة للأجر :

﴿ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾

و « نعم » حرف جواب قائمة مقام جملة هى : لكم أجر ، وأضاف أيضاً : ﴿ وإنكم لمن المقربين ﴾ .

وهذا دليل على أنه ينافقهم أو يبالغ فى مجاملتهم ؛ لأنه يحتاج إليهم أشد الحاجة . وهكذا نجد ألوهية فرعون قد خارت أمام المألوهين السحرة . وقوله : ﴿ لمن المقربين ﴾ هذه تدل على فساد الحكم ؛ لأنه مادام حاكماً فعليه أن يكون كل المحكومين بالنسبة إليه سواء . لكن إذا ما كان هناك مقربون فالدائرة الأولى منهم تنهب على قدر قربها ، والدائرة الثانية تنهب أيضاً ، وكذلك الثالثة والرابعة ، فتجد كل الدوائر تمارس فسادها مادام الناس مصنفين عند الحاكم .

ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا ما جلس الصحابة يستمعون إليه كان يسوّى بين الناس جميعاً فى نظره حتى يظن كل إنسان أنه أولى بنظر رسول الله ، ولا يدنى أحداً ويقربه من مجلسه إلامن شهد له الجميع بأنه مقرب . .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾

ونلحظ أنهم لم يؤكدوا لموسى رغبتهم فى أن يلقى هو أولا عصاه . ولكنهم أكدوا رغبتهم فى أن يكونوا هم أول الملقين . فجاءوا بضمير الفصل وهو (نحن) الذى يفيد التأكيد .

ونعلم أن مَن يعقِّب ويكون عمله تاليا لمن سبقه ، فإن فعله هو الذى سيترتب

عليه الحكم . ولابد أن يكون قوى الحجة . هم يريدون أن يكونوا هم المعقبين ، وأن موسى الذى يبدأ ، لكن عزتهم تفرض عليهم أن يبدأوا هم أولاً ؛ لذلك جاءوا بالعبارة التى تحمل المعنيين :

﴿ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴾

(من الآية ١١٥ سورة الأعراف)

فعلم موسى أنهم حريصون ، على أن يبدأوا هم بالإلقاء فأتوا بكلمة (نحن) . وفكر موسى أن من صالحه أن يلقوا هم أولاً ؛ لأن عصاه ستلقف وتبتلع ما يلقون ؛ لذلك يأتى قوله سبحانه :

﴿ قَالَ أَلْقُوا۟ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ ﴾

هم ـ إذن ـ سحروا أعين الناس ، والسحر ـ كما نعلم ـ لطف حيلة يأتى بأعجوبة تشبه المعجزة . وكأنها تخرق القانون ، وهو غير الحيلة التى يقوم بها الحواة ؛ لأن الحواة يقومون بخفة حركة ، وخفة يد ، ليعموا الأمر على الناس . لكن « السحر » شىء آخر ، ونعلم أن الحق سبحانه وتعالى خلق كل جنس بقانون ؛ خلق الإنس بقانون ، وخلق الجن بقانون ، وخلق الملائكة بقانونها :

﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾

(من الآية ٣١ سورة المدثر)

وكل قانون له خصائصه ومميزاته التى تناسب عنصر تكوينه ، فالإنسان ـ مثلاً ـ لأنه مخلوق من الطين له من الكثافة ما يمنعه من التسلل من خلال جدار ؛ لأنك لو كنت تجلس وهناك تفاحة وراء الجدار الذى تجلس بجواره فلن يتعدى ريحها ولا طعمها إلى فمك ؛ لأن الجدار يحول بينك وبين ذلك ، لكن لو كانت هناك جذوة من نار بجانب الجدار الذى تستند عليه لكان من الممكن أن يتعدى أثرها

لك ؛ لأن للنار إشعاعات تنفذ من الأشياء ، ولأن الجن مخلوق من نار ، لذلك نجد له هذه الخاصية .

﴿ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾

(من الآية ٢٧ سورة الأعراف)

فإذا كان الجن له قانون والإنس له قانون ، فهل القانون هو الذى يسيطر ؟ لا ، بل رب القانون هو الذى يسيطر لأنه جل وعلا فوق القانون . فيأتى الله للإنس ويُعَلّم واحداً منهم بعضاً من أسرار كونه ليستذل الجن لخدمته ، برغم ما للجن من خفة حركة ، فسبحانه يوضح : لا تظن أيها الجن أنك قد أخذت خصوصيتك من العنصر الذى يكونك لأن هناك القادر الأعلى وهو المعنصر لك ولغيرك ، بدليل أن الإنسان وهو من عنصر آخر يتحكم فيك بعد أن علمه الله بعضاً من أسرار كونه . ولننتبه دائماً أن العلم بأسرار تسخير الجن هو من ابتلاءات الحق للخلق ؛ لأنه سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ﴾

(من الآية ١٠٢ سورة البقرة)

فكأن هاروت وماروت وهما يعلّمان الإنسان كيف يمارس السحر ، ينصحان الإنسان الذى يرغب فى أن يتعلم السحر أولاً ، ويوضحان له أنهما فتنة أى ابتلاء واختبار ويقولان له : ﴿ فلا تكفر ﴾ ، مما يدل على أن كل من يتعلم السحر ؛ إن قال لك : إنى سأستعمله فى الخير فهو كاذب ؛ لأنه يقول ذلك ساعة صفاء نفسه تجاه الخلق ، لكن ماذا إن غافله إنسان من أى ناحية وغلبه على بعض أمره وهو يملك بعضاً من أسرار السحر ؟ هل يقدر على نفسه ؟ لقد قال إنه أمين وقت التحمل ، لكن هل يظل أميناً وقت الأداء ؟ إن من يتعلم السحر قد يستخدمه فى الانتقام من غيره ، وبذلك يضيع تكافؤ الفرص ، ونعلم أن تكافؤ الفرص هو الذى يحمى الناس ، ويعطى بعضهم الأمن من بعض ، ويُلزم كل إنسان حدّه .

فإذا أخذ إنسان سلاحاً ليس عند غيره فقد يستخدمه ضد من لايملك مثله ، والإنسى الذى يأخذ سلاح استخدام الجن إنما يأخذ سلاحاً لا يملكه أخوه

الإنسى ، وبذلك يكون قد أخذ فرصة أقوى من غيره وفى هذا ابتلاء ؛ لأن الإنسان قد ينجح فيه وقد يخفق فلا يظفر بما يطلبه ، وقوله سبحانه : ﴿ فلا تكفر ﴾ يدل على أنهما علما طبائع البشر في أنهم حين يأخذون فرصة أعلى قد يُضْمَنون وقت صفاء نفوسهم ، ولكنهم لا يُضْمَنون يوم تعكير نفوسهم .

﴿ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ١٠٢ سورة البقرة)

مادام الحق هو الذى أعطاهم هذه القدرة فهو سبحانه القادر على أن يسلبها منهم ، مثلما يمنح الله سبحانه وتعالى القدرة لإنسان ليكون غنيًّا وقادراً على شراء سلاح نارى ، وأن يتدرب على إطلاق النار ، فهذا الرجل ساعة يغضب قد يتصور أن يحل خلافه مع غيره أو ينهى غضبه مع أى إنسان آخر بإطلاق الرصاص عليه . لكن لو لم يكن معه « مسدس » فقد ينتهى غضبه بكلمة طيبة يسمعها ، إذن فساعة ما يمنع الله أمراً فهو يريد أن يرحم ؛ لذلك يقول : ﴿ وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر ﴾ .

وفى هذا تحذير لمن يتعلم مثل هذا الأمر ، ويريد سبحانه أن يحمى خلقه من هذه المسألة ، ويكفى أن نعلم أنه سبحانه قد قال : ﴿ وماهم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ﴾ .

فلو أنك تتبعت هؤلاء لاستذلوك ، واستنزفوك ، ويتركك الله لهم لأنك اعتقدت فيهم ، أما إن قلت : « اللهم إنك قد أقدرت بعض خلقك على السحر والشر ، ولكنك احتفظت لنفسك بإذن الضر ، فإنى أعوذ بما احتفظت به مما أقدرت عليه ، بحق قولك : ﴿ وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ﴾ . هنا لن يمكنهم الله منك ، إنما إن استجبت وسرت معهم ، فهم يستنزفونك ، وأراد الله أن يفضح مثل هذه العملية فقال على ألسنة السحرة الذين استدعاهم فرعون :

﴿ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا ﴾

(من الآية ٤١ سورة الشعراء)

وكأنهم يعترفون بالنقص فيهم ، فعلى الرغم من ادعائهم القدرة على فعل المعجزات إلا أنهم عاجزون عن الكسب الذى يوفى حاجاتهم ؛ لذلك طلبوا الأجر من فرعون ، وهذا حال الذين يشتغلون بالسحر والشعوذة . هم يدعون القدرة ويعانون الفاقة والعوز . هكذا حكم الحق بضيق رزق من يعمل بالسحر ، ويفضحهم الحق دائماً ، وللعاقل أن يقول : ماداموا يَدَّعُون الفلاح فليفلحوا فى إصلاح أحوالهم . ومادام الساحر يدعى أنه يعرف أماكن الكنوز المخبوءة فلماذا لا يعرف كنوزاً فى الأرض التى ليست مملوكة لأحد ويأخذها لنفسه ؟ هذا إن افترضنا أن الساحر أمين للغاية ولا يريد أن يأخذ من خزائن الناس .

ولذلك تجد كل العاملين بالسحر والشعوذة يموتون فقراء ، بشعى الهيئة ؛ مصابين فى الذرية ؛ لأن الكائن منهم استغل فرصة لا توجد لكل واحدٍ من جنسه البشرى ، وذلك للإضرار بالناس . واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦ ﴾

(سورة الجن)

وهنا يقرر الحق أنهم سيعيشون فى إرهاق وتعب . ولذلك يتحدد موقفنا من السحر بأننا لا ننكره مثلما ينكره آخرون . فقد قال بعض من العلماء : إن السحرة جاءوا بعصىّ وضعوا فيها زئبقاً ،وعند وجود الزئبق تحت أشعة الشمس تعطى له حرارة فتتلوى العصى ، لكن نحن لا ننكر السحر ، كما لا ننكر الجن لأنه لا يفوتنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« إن عفريتا من الجن تفلّت علىّ البارحة ليقطع علىّ الصلاة فأمكننى الله تبارك وتعالى منه وأردت أن أربطه إلى سارية من سوارى المسجد حتى تصبحوا وتنظروا إليه كلكم فذكرت قول أخى سليمان عليه الصلاة والسلام : ﴿ رب اغفر لى وهب لى ملكاً لاينبغى لأحد من بعدى ﴾ »[1] .

فمادام الحق قد قال : إنه خلق خلقاً لا تدركهم بإحساسك ، فنحن نقر

---

(١) رواه البخارى ، ومسلم والنسائى .

بما أبلغنا به الحق ؛ لأن وجود الشيء أمر وإدراك وجوده أمر آخر ، وكل مخلوق له قانونه ، فالعفريت من الجن قال لسيدنا سليمان عن عرش بلقيس :

﴿ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ﴾

(من الآية ٣٩ سورة النمل)

وكأن الجن يطلب زمناً ما ، فقد يجلس سليمان فى مقامه معهم ساعة أو ساعتين أو ثلاثا ، لكن الذى عنده علم من الكتاب يقول :

﴿ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾

(من الآية ٤٠ سورة النمل)

ولابد أن يكون طرفه قد ارتد فى أقل من ثانية بعد أن قال ذلك ، ولهذا نجد القرآن يورد ما حدث على الفور فيقول : ﴿ فلما رآه مستقراً عنده ﴾ .

مما يدل على أن الله قد خلق الأجناس ، وخلق لكل جنس قانوناً ، وقد يكون هناك قانون أقوى من قانون آخر ، لكن صاحب القانون مخلوق لذلك لا يحتفظ به ؛ لأن خالق القانون يبطله ، ويسلط أدنى على من هو أعلى منه . ولندقق فى التعبير القرآنى : ﴿ سحروا أعين الناس ﴾ .

ونحن أمام أشياء هى العصى والحبال . وجمع من البشر ينظر . ونفهم من قوله الحق : ﴿ سحروا أعين الناس ﴾ أن السحر يَنْصَبُّ على الرائى له ، لكن المرئى يظل على حالته ، فالعصى هى هى ، والحبال هى هى ، والذى يتغير هو رؤية الرائى . ولذلك قال سبحانه فى آية ثانية :

﴿ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴾

(من الآية ٦٦ سورة طه)

إذن فالسحر لا يقلب الحقيقة ، بل تظل الحقيقة هى هى ويراها الساحر على طبيعتها . لكن الناس هى التى ترى الحقيقة مختلفة . إذن فالسحرة قد قاموا بعملهم وهو : ﴿ سحروا أعين الناس واسترهبوهم ﴾ .

واسترهبوهم أى أدخلوا الرهبة فى نفوس الناس من هذه العملية ، وظن السحرة أن موسى سيخاف مثل بقية الناس المسحورين ، ونسوا أن موسى لن ينخدع بسحرهم ؛ لأنه باصطفاء الله له وتأييده بالمعجزة صار منفذاً لقانون الذى أرسله فجعل عصاه حية ، وصاحب القانون هو الذى يتحكم . وهم قد جاءوا بسحر عظيم ، وهو أمر منطقى ؛ لأن العملية هى مباراة كبرى يترتب عليها هدم ألوهية فرعون أو بقاء ألوهيته ، لذلك لابد أن يأتوا بآخر وأعظم ما عندهم من السحر .

ويقول الحق :

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾

ولماذا احتاجت هذه المسألة إلى وحى جديد خصوصاً أنه قد سبق أن تم تدريب موسى على إلقاء العصا ؟ . ونقول : فيه فرق بين التعليم للإعداد لما يكون ، والتنفيذ ساعة يكون ، فساعة يأتى أمر التنفيذ يجىء الحق بأمر جديد ، فربما يكون قد دخل على بشرية موسى شىء من السحر العظيم ، والاسترهاب ، هذا ونعلم أن قصة موسى عليه السلام فيها عجائب كثيرة . فقد كان فرعون يقتل الذكران ، ويستحى النساء ، وأراد ربنا ألا يُقتل موسى فقال سبحانه :

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ ﴾

(من الآية ٧ سورة القصص)

وقوله سبحانه : ﴿ أرضعيه فإذا خفت عليه ﴾ يدل على أن العملية المخوفة لم تأت بعد ، بل ستأتى لاحقًا . وهات أيَّة امرأة وقل لها : إن كنت خائفة على ابنك من أمر ما فارميه فى البحر . من المؤكد أنها لن تصدقك ، بل ستسخر منك ؛ لأنها ستتساءل : كيف أنجيه من موت مظنون إلى موت محقق ؟ . وهذا هو الأمر الطبيعى ، لكن نحن هنا أمام وارد من الله إلى خلق الله ، ووارد الله لا يصادمه شك . إذن فالخاطر والإلهام إذا جاء من الله لايزاحمهما شىء قط . ولا يطلب

الإنسان عليه دليلاً لأن نفسه قد اطمأنت إليه ؛ لذلك ألقت أمام موسى برضيعها فى البحر .

ويقدّر الله أنها أم فيقول :

﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ﴾

(من الآية ٧ سورة القصص)

ولن يرده إليها فقط ، بل سيوكل إليه أمراً جللاً :

﴿وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾

(من الآية ٧ سورة القصص)

وكأن الحق سبحانه يوضح لأم موسى أن ابنها لن يعيش من أجلها فقط ، بل إن له مهمة أخرى فى الحياة فسيكون رسولاً من الله . فإذا لم تكن السماء ستحافظ عليه لأجل خاطر الأم وعواطفها ، فإن السماء ستحفظه لأن له مهمة أساسية ﴿ وجاعلوه من المرسلين ﴾ . ونلحظ أن الحق هنا لم يأت بسيرة التابوت لكنه فى آية ثانية يقول :

﴿إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ﴾

(سورة طه)

ولم يقل فى هذه الآية : ﴿ ولا تخافى ولا تحزنى ﴾ ؛ لأنه أوضح لها ما سوف يحدث من إلقاء اليم له بالساحل . وقوله فى الأولى : ﴿ فإذا خفت عليه ﴾ . هو إعداد للحدث قبل أن يجىء ، وفى هذه الآية ﴿ إذ أوحينا إلى أمك ما يوحى . . ﴾ إلخ تجد اللقطات سريعة متتابعة لتعبر عن التصرف لحظة الخطر . لكن فى الآية الأولى : ﴿ ولا تخافى ولا تحزنى إنا رادّوه إليك وجاعلوه من المرسلين ﴾ نجد البطء والهدوء والرتابة ؛ لأنها تحكى عن الإعداد . لما يكون .

إذن فالحق سبحانه وتعالى يعطى كل جنس قانوناً ، وكل قانون يجب أن يُحترم

فى نطاقه ، لأن تكافؤ الفرص بين الأجناس هو الذى يريده الله . وحينما أراد سبحانه وتعالى أن يبين لنا هذه المسألة أوضح أن على المؤمن أن ينظر إلى المعطيات من وراء التكاليف ، وفى آية الدَّيْن ـ على سبيل المثال ـ نجد الحق يوصي المقترض « المدين » ـ وهو الضعيف ـ أن يكتب الدَّيْن ، ويعطى بذلك إقراراً للدائن وهو القوى القادر فيقول سبحانه :

﴿ وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ﴾

(من الآية ٢٨٢ سورة البقرة)

والمسألة هنا فى ظاهر الأمر أنه يحمى الدائن ونقوده ، لكن علينا أن ننتبه إلى أنه يحمى المدين من نفسه ؛ لأن الدَّيْن إن لم يكن موثقاً فالمدين لن يبذل الجهد الكافى للسداد ، وباجتهاد المدين نفيد الوجود بطاقة فاعلة . ولكن إن لم نوثق الدَّيْن ، وتكاسل المدين عن العمل والسداد فقد تشيع الفوضى فى المجتمع ويرفض كل إنسان أن يقرض أحداً ما يحتاج إليه . وبذلك تفسد الأمور الاقتصادية .

إذن فسبحانه حين يأمر بتوثيق الدَّيْن ، وإن كان فى ظاهر الأمر حماية للدائن . لكنّه فى باطن الأمر يحمى سبحانه المدين ، لأن هناك فرقاً بين ساعة التحمل للحكم ، وساعة أداء الحكم .

مثال ذلك حين يأتيك إنسان قائلاً : أنا عندى ألف جنيه وخائف أن يضيع منى فخذه أمانة عندك إلى أن أحتاج إليه ، وبذلك يكون هذا الإنسان قد استودعك أمانة ولا يوجد إيصال أو شهود ، والأمر مردود إلى أمانة المودَع عنده إن شاء أنكر ، وإن شاء أقر . ونجد من يقول لهذا الإنسان : هات ما عندك . يقول ذلك وفى ذمته ونيته أن صاحب الألف جنيه حين يأتى ليطلبه يعطيه له ، إنه يَعِدُ ذلك ساعة التحمل ، لكنه لا يضمن نفسه ساعة الأداء ، فقد تأتى له ظروف صعبة ساعة الأداء فيتعلل بالحجج ليبعد صاحب المال عنه .

إذن هناك فرق بين حالة واستعداد حامل الأمانة ساعة التحمل وساعة الأداء لهذه

الأمانة . والمؤمن الحق هو من يتذكر ساعة التحمل والأداء معاً ، إنّ بعض الناس يرفض تحمل الأمانة ليزيل عن نفسه عبء الأداء .

والذى يتعلم شيئاً يناقض ناموس وجوده كتعلم السحر نقول له : احذر أن تُبتلى وتُفتن ، بل ابتعد واحفظ نفسك ولا تستعمل ذلك ، واحذر أن تقول أنا سأستعمل ما تعلمته من سحر فى الخير ، ومن يأتى لى وهو فى أزمة سوف أحلها له بالسحر . ونقول : لهذا الإنسان : أنت تتكلم عن وقت التحمل ، ولكنك لا تتكلم عن وقت الأداء .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

والإفك هو قلب الشىء على وجهه ، ومنه الكذب . وعلمنا من قبل أن كل شىء له نسبة كلامية وله نسبة واقعية ، فإذا قلت مثلاً « محمد مجتهد » فهذه نسبة كلامية ، لكن أيوجد واحد فى الواقع اسمه محمد وموثوق فى اجتهاده ؟ . إن كان الأمر كذلك فقد وافقت النسبة الكلامية النسبة الواقعية ، ويكون الكلام هو الصدق ، أما الكذب فهو أن تقول « محمد مجتهد » ولا يوجد إنسان اسمه محمد ، وإن كان موجوداً فهو غير مجتهد ، ويكون الكلام كذباً لأن النسبة الكلامية خالفت النسبة الواقعية ، وحين يكذب أحد فهو يقلب المسألة ونسمى ذلك كذباً ، وشدة الكذب تسمى إفكاً . أو الكذب ألا يكون هناك تطابق ، وإن لم تكن تعلم ، والإفك أن تتعمد الكذب ، وهذا أيضاً افتراء . ﴿ أن ألق عصاك فإذا هى تلقف ما يأفكون ﴾ .

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى : « فإذا » وهى تعبر عن الفجائية حيث ابتلعت عصا موسى ـ بعد أن صارت حية ـ ما أتى السحرة وجاءوا به من الكذب والإفك وسحروا به أعين الناس .

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾

وقوله : ﴿ فوقع الحق ﴾ أى صار الحق النظرى واقعاً ملموساً ؛ لأن هناك فارقاً بين كلام يلقى نظريًّا وكلام يؤيده الواقع ، والوقوع عادة يكون من أعلى بحيث يراه ويعرفه كل من يراه .

وقوله سبحانه : ﴿ فوقع الحق ﴾ أى ثبت الحق ، فبعد أن كان كلاماً خبريًّا يصح أن يصدَّق ويصح أن يُكَذب ، صار بصدقه واقعاً . ﴿ فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون ﴾ .

والذى بطل هو ما كانوا يعملون من السحر . إن الحق جعل صدق موسى واقعاً مشهوداً . وبذلك غُلب السحرة .

ويقول الحق :

﴿ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾

ولم يغلب السحرة فقط ، بل غلب أيضاً فرعون وجماعته ، وعاش كل من هو ضد موسى فى صَغَار ، صغار للمستدعِى وصغار للمستدعَى . لذلك ذيل الحق الآية بقوله : ﴿ وانقلبوا صاغرين ﴾ أى أذلاء .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾

ولم يقل الحق : وسجد السحرة ، ولكنه قال : « وألقى » مما يدل على أن

خرورهم للسجود ليس برأيهم ، ولكنه عملية انبهارية مما حصل أمامهم ، كأن شيئاً آخر ألقاهم ساجدين ، وهو الانبهار بالحق . فالساحر منهم كان يعتقد أنه هو الذى يسحر ، ثم يفاجأ مجموع السحرة أن موسى حين ألقى عصاه رأوها حية بالفعل فعرفوا أن المسألة ليست سحراً ، وحينما ألقوا عصيهم وحبالهم التى جاءوا بها من كل المدائن ، قيل إنها حُملت على سبعين بعيراً وشاهدوا كيف أن العصا التى صارت حية أو ثعباناً لقفت كل هذا وابتلعته ! وحجم العصا هو حجم العصا مهما طالت ، وهكذا تيقن السحرة أن هذا لا يمكن أن يكون من فعل ساحر ، وانظر إلى الاستجابة منهم لمَّا رأوا :

﴿ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ ﴾

وهل هم سجدوا بعد الإيمان ؟ أم آمنوا بعد السجود ؟ النص هنا يظهر منه أنهم آمنوا بعد السجود ، ولكن كان الأمر يقتضى ألا يسجد أحد إلا لأنه آمن ، لكن نحن نعرف أن الإيمان عمل قلبى ، والسجود عمل عضلى وسلوك عملى ، فكل منهم آمن بقلبه فسجد .

وهناك فرق بين أن يؤمنوا فيسجدوا ثم يعلنوا إيمانهم ؛ فيقولوا : آمنا برب العالمين ؛ لذلك نحن لا نرتب السجود على إيمان ، بل نرتب السجود مع القول بالإيمان وبإعلان الإيمان ؛ لأن إعلان الإيمان شىء ، والإيمان شىء آخر ، فكأنهم آمنوا فخروا ساجدين وبعد هذا قاموا بإعلان الإيمان ، وكأن الناس سألوهم : ما الذى جرى لكم ؟ فقالوا : ﴿ آمنا برب العالمين ﴾ .

إذن فمن يحاول أن يستدرك على النص فعليه أن ينتبه إلى أن إخبارهم عن الإيمان يعنى وجود الإيمان أولاً ، والسحرة قد آمنوا فسجدوا ، فاستغرب منهم الناس هذا السجود ، وهنا قال السحرة : لا تستغربوا ولا تتعجبوا فنحن قد آمنا برب العالمين .

﴿ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

وقيل فى بعض التفاسير : إن فرعون قال : أنا رب العالمين . لكن السحرة لم يتركوا قوله هذا فأعلنوا أن رب العالمين هو : ﴿ رب موسى وهارون ﴾ . وقال فرعون : لقد ربيت أنا موسى ، فقالوا : لكنك لم ترب هارون .

ولذلك أوضح الحق هنا أن رب العالمين هو :

﴿ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾

ولأن السحرة أعلنوها واضحة بالإيمان برب العالمين رب موسى وهارون ، وكان لابد أن يغضب فرعون ، فيأتى القرآن بما جاء على لسانه :

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾

وكأن فرعون مازال يحاول تأكيد سلطانه ، ونعلم أن بنى إسرائيل اختلطوا بالناس فى مصر ، ومنهم من تعلم السحر . ولذلك اتهم فرعون السحرة بأنهم قد اتفقوا مع موسى على هذه المسألة .

لقد كان فرعون فى مأزق ويريد أن يخرج منه ؛ لأن الناس جميعاً قد شاهدوا المسألة ، وهو لا يريدهم أن يتشككوا فى ألوهيته ، فينهدم الصرح الذى أقامه على الأكاذيب ؛ لذلك قال للسحرة : إن هذا لمكر مكرتموه فى المدينة . . أى أنكم اتفقتم مع موسى ، وسيأتى ويقول : اتهاماً لموسى :

﴿ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ﴾ (من الآية ٧١ سورة طه)

ونتيجة لهذا المكر المتوهم بين بنى إسرائيل وموسى يتوعدهم فرعون :

﴿ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ ﴾

والوعيد ـ كما نراه ـ قاس وفظيع ، فتقطيع الأيدى والأرجل ثم الصلب كلها أمور تخيف ، فماذا يكون الرد ممن يتلقون هذا الوعيد ، وقد خالطت بشاشة الإيمان قلوبهم ؟ إنهم يقولون :

﴿ قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ ﴾

إنك قد عجلت لنا الخير لأننا سنكون فى جوار ربنا ، فأنت بطيشك وحماقتك قد أسديت لنا معروفا وخيرا من حيث لا تدرى . ويزيدون فى تقريع فرعون بما يجىء فى القرآن على ألسنتهم :

﴿ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾

ما الذى تكرهه منا لأن « تنقم » تعنى تكره ، وقولهم لفرعون : أليس الذى تكرهه منا أنَّا آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا ؟ وهل الإيمان بآيات الإله حين تجىء مما يُكره ؟!! ويسمون ذلك فى اللغة تأكيد المدح بما يشبه الذم ؛ كأن يقول إنسان : ماذا تكره فىّ ؟ أصدقى ؟ أمانتى ؟ أجودى ؟ أعلمى ؟

كأنه يعدد أشياء يعرف كل الناس واقعاً أنها لا تُكره ، لكن الخطأ فى مقاييس من يكره الصواب ، فهى أمور لا تستحق أن تُكره أو تعاب أو تُذم . لقد تيقنوا أن لقاء الله على الإيمان هو الخير وكلهم يفضل جوار الله على جوار فرعون . وهذا الذى يعتبره فرعون عقاباً إنما يثبت خيبته حتى فى توقع العقوبة ؛ لأنه لو لم يهددهم بهذه الميتة فهم سيموتون ليرجعوا إلى الله ، وهذا أمر مقطوع به ، وكل مخلوق مصيره أن ينقلب إلى الله ، وكأنهم أبطلوا وعيد فرعون حين قال لهم :

﴿ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

ثم يتجهون إلى ربهم وخالقهم فيقولون : ﴿ ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين ﴾ .

و « الإفراغ » أن ينصب شىء على شىء ليغمره ، وكأنهم يقولون : أعطنا يا رب كل الصبر ، وهم يحتاجون إلى الصبر لأن فرعون قد توعدهم بأن يقطع أيديهم وأرجلهم . ولذلك قال بعض العارفين بالله : عجبى لسحرة فرعون كانوا أول النهار كفرة سحرة وكانوا آخر النهار شهداء بررة .

ويقول سبحانه :

﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾

وهكذا نعرف أن المقربين من فرعون هم أول من خافوا على سلطانهم ، ويدل

هذا القول أيضاً على أن فرعون لم يتعرض لموسى بأى أذى ؛ لأنه مازال يعيش فى رهبة اليقين وصولة الحق مما جعله متوجساً وخائفاً من موسى ؛ لأن فرعون أول من يعلم أن مسألة ألوهيته كذب كلها ، ويعلم جيداً أن موسى على حق ، لكن إعلان انهزامه أمام الجمع ليس أمراً سهلاً على النفس البشرية ، وسأل الملأ من قوم فرعون الذين اهتز أمامهم سلطانه ومكانته ، قالوا لفرعون : أتترك موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض ؟ . أو فيما يبدو أن موسى وهارون تركا المكان بعد أن انتهيا من أمر السحرة ، ولم يقبض عليهما فرعون ؛ لذلك تساءل الملأ من قوم فرعون :

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ﴾

(من الآية ١٢٧ سورة الأعراف)

و « يذرك » أى يدعك ويتركك ، وكان فرعون يعتقد أن هناك آلهة علويين وآلهة سفليين ، وهو رب العالم السفلى كله . لذلك قالوا : « ويذرك وآلهتك » . وهناك قراءة أخرى « ويذرك إلاهتك أى عبادتك » . أى يتركك أنت ويترك عبادتك . ويقول فرعون : ﴿ قال سنقتل أبناءهم ونستحيى نساءهم ﴾ .

وحتى تلك اللحظة لم يتعرض فرعون لموسى ، ولا يزال خوفه من موسى يمنعه من الاقتراب أو الدنو منه أو الاتصال به ولو بكلمة ، إنه يأخذ الحذر من أن يقدم على شىء ضد موسى ، فيفاجئه موسى مفاجأة ثانية . ويقال إن الثعبان الذى ظهر ساعة ألقى موسى عصاه فتح شدقيه واتجه إلى فرعون ، فقال : كف عنى وأومن بما جئت به . وهو أمر محتمل ؛ لأن فرعون حتى هذه اللحظة لم يجرؤ على الاقتراب من موسى ، وجاء بخبر قتل الأبناء وسبىْ النساء ولم يأت بسيرة موسى .

﴿ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴾

(من الآية ١٢٧ سورة الأعراف)

والقوى حين يملك القدرة على الضعيف لا يشد الخناق عليه شدًّا ليفتك به ؛ لأنه يعرف ضعفه ، ويستطيع أن يناله فى أى وقت ، لكن لو كان الخصم أمامك قويًّا فأنت ترهبه بالقوة حتى يخضع لك . وهنا يقول فرعون : ﴿ وإنا فوقهم قاهرون ﴾ .

إن فرعون يؤكد لقومه أنهم مسيطرون وغالبون ، ولن يستطيع قوم موسى أن يفلتوا منهم . ويؤكد فرعون : سنقتل أبناءهم ونستحيى نساءهم ؛ لأن الأبناء هم العدة ، والنساء عادة شأنهن مبنى على الحجاب ، وعلى الستر ، وفى إبقاء المرأة وقتل الرجل إذلال للرجال ؛ لأن التعب سيكون من نصيب النساء . ولذلك كان العرب حين يغيرون على عدو ، يصحبون نساءهم لتزيد الحمية ولا يخور ولا يجبن واحد وتراه زوجه أو أخته أو ابنته وهو على هذا الحال ، وكذلك كان العرب يخافون الانهزام حتى لا يمسك العدو نساءهم ويأخذهن سبايا .

وهنا يؤكد فرعون إصراره على إذلال قوم موسى بأن يعيد قتل الأبناء ، وأن يستحيى النساء ، وكان الفرعون يفعل مثل ذلك الأمر من قبل ، والسبب فى ذلك أن بنى إسرائيل كانوا يساعدون ملوك الهكسوس ، وبعد أن طرد الفراعنة الهكسوس ، اتجهوا إلى إيذاء بنى إسرائيل الذين كانوا فى صف الهكسوس ، ومن بقى من بنى إسرائيل تعرض لتقتيل الأبناء ، لكن الحق أنقذ موسى حين أوحى لأمه أن تلقيه فى اليم ليربيه فرعون . وهاهو ذا فرعون يعيد الكرة مرة أخرى بالأمر بتقتيل الأبناء وسبى النساء .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ ﴾

ويقرر موسى الحقيقة الواضحة وهى أن الأرض ليست لفرعون ، والعاقبة لا تكون إلاَّ للمتقين . وكأنه بهذا القول يريد أن يردهم إلى حكم التاريخ حيث تكون العاقبة دائماً للمتقين ، فإن قال فرعون : وإنا فوقهم قاهرون ، مستعلون غالبون مسلطون مسيطرون ، فإن موسى يرد على ذلك : أنا أستعين بمن هو أقوى

منك . إن موسى عليه السلام يأمر قومه بأن يستعينوا بالله ، ويصبروا على ما ينالهم من بطش فرعون وظلمه .

ولأن قوم موسى كانوا من المستضعفين ، فإن الله وعدهم أن يؤمّنهم فى الأرض ويمكن لهم فيها وهذا إخبار من الله وإخبار الله حقائق . ولكن ماذا كان موقف قوم موسى منه بعد هذا النصر العظيم لموسى ، والنصر لهم ؟ . نجد الحق سبحانه يقول :

﴿ قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾

لقد قالوا لموسى : من قبل أن تأتينا أوذينا بأن قتلوا الأبناء واستحيوا النساء ، وبعد أن جئت هانحن أولاء نتلقى الإيذاء . كأن مجيئك لم يصنع لنا شيئاً . إذن هم نظروا للابتلاءات التى يجريها الله على خلقه ، ولم ينظروا إلى المنة والمنحة والعطاء وإلى آلاء الانتصار ، وإلى أن فرعون قد حشد كل السحرة ، وبعد ذلك هزمهم موسى ، وكان يجب أن يكون ذلك تنبيها لهم لقدر عطاءات الله ، هم يحسبون أيام البلاء ، ولم يحسبوا أيام الرخاء .

وقوله : ﴿ فينظر كيف تعملون ﴾ يدل على أنهم سوف يخونون العهود ، ويفعلون الأشياء التى لا تتناسب مع هذه المقدمات . وفى الإسلام نجد عمرو بن عبيد وقد دخل على المنصور قبل أن يكون أميراً للمؤمنين ، وكان أمامه رغيف أو رغيفان ، فقال : التمسوا رغيفاً لابن عبيد . فرد عليه العامل : لا نجد . فلما ولى الخلافة وعاش فى ثراء الملك ونعمته دخل عليه ابن عبيد وقال : لقد صدق معكم

الحق يا أمير المؤمنين فى قوله :

﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾

(من الآية ١٢٩ سورة الأعراف)

وقد قال موسى لقومه هذا القول بعد أن عايروه بعدم قدرته على رد العذاب عنهم . وهكذا استقبل قوم موسى أول هزيمة لفرعون أمام موسى ، وقالوا له : أوذينا من قبل أن تأتينا ، ومن بعد ما جئتنا ، أى بالتذبيح ، واستحياء النساء ، وقتل الأبناء ، فكأن مجيئك لم يفدنا شيئاً لأننا مقيمون على العذاب الذى كنا نُسامه . فلا حاجة لنا بك ، ولا ضرورة فى أن تكون موجوداً ؛ بدليل أن الذى حدث بعدك هو الذى حدث قبلك .

ولم يلتفتوا إلى أن الإيذاء من قبل ومن بعد لا ينشأ إلا من عدو ، فكأن موسى يرد عليهم بأن أسباب الإيذاء ستنتهى ، وأن الله سيهلك عدوكم الذى آذاكم من قبل ويؤذيكم من بعد . ولن يقتصر الأمر على هذه النعمة ؛ بل يزيدكم بأن يستخلفكم فى الأرض ، ويعطيكم ملكهم ويعطيكم أرضهم . وكأن هنا أمرين : الأمر الأول سلبى : وهو إهلاك العدو ، والأمر الثانى إيجابى : وهو استخلافكم فى الأرض وهذا أمر لكم ، ووعد من الله بأن تكون لكم السيادة والملك وعليكم أن تتنبهوا إلى أن نعمة الله عليكم بإهلاك عدوكم ، وباستخلافكم فى الأرض لن تترك هكذا ، بل أنا رقيب عليكم أنظر ماذا تفعلون ، هل تستقبلون هذه النعم بالشكر وزيادة الإيمان واليقين والارتباط بالله ، أو تكفرون بهذه النعمة ؟

وحين يقول الحق سبحانه وتعالى على لسان موسى ﴿ عسى ﴾ فهى كلمة ـ كما يقول علماء اللغة ـ تدل على الرجاء ، ومعنى الرجاء أن ما بعدها يكون مرجو الحصول . وهناك فرق بين التمنى وبين الرجاء . فالتمنى أن تتطلب أمراً مستحيلاً أو يكون فى الحصول عليه عسر ، ولكنك تريد ـ فقط ـ بالتمنى إشعار حبك له ، فأنت إذا قلت : ليت الشباب يعود ، فهذا أمر لا يكون ، ولكنك تعلن حبك لمرحلة الشباب . وقصارى ما يعطيه أن يعلمنا أنك تحب هذا المتمنَّى . لكن هل يتحقق أو لا يتحقق . . فهذه ليست واردة .

لكن « الرجاء » شيء محبوب يوشك أن يقع ، وهكذا نعرف أن الرجاء أقوى من التمنى . وأداة التمنى « ليت » ، وأداة الرجاء « عسى » . وحين يكون بعد « عسى » ما يُرْجَى فلذلك مراحل تتفاوت بقوة أسباب الرجاء فى الوقوع . فأنا مثلاً إذا قلت : عسى أن أكرمك فهذا أمر يعود إلىّ أنا ، لأنَّ إكرامى لك يقتضى بقائى ، وعدم تغير نفسى من ناحيتك ، فمن الجائز أن تتغير نفسى قبل أن أكرمك ولا يقع إكرامى لك . هذا هو الرجاء من صاحب الأغيار ، ومادمت صاحب أغيار فقد لا أقدر على الإكرام ، أو أقدر ولكنى لم أعد أحب هذا الأمر فقد انصرفت نفسى عنه ، وهذا يفسد الرجاء ويقلل الأمل فى حصوله . فإذا قلت لإنسان : عسى أن يكرمك فلان وهو مساويه ، فهذا أمر مستبعد قليلاً ؛ لأن من يقول ذلك لايملك أن يقوم فلان بإكرام المساوى له ، لأنه صاحب أغيار .

لكن إذا قلت : عسى الله أن يكرمك فهذه أقوى ، لأن ربنا لا يعجزه شيء عن إكرام إنسان . وهل يقبل الله أن يجيب رجاءك ؟ هذه مسألة تحتاج إلى وقفة ، فسبحانه من ناحية القوة له مطلق القدرة فلا شيء يعطله أويستعصى أو يتأبى عليه . فإذا ما قال الحق عن نفسه : ﴿ عسى ربّكم ﴾ فقد انتهت المسألة وتقرر الوعد وتحقق ، وهذا ما يقال عنه رجاء محقق . إذن مراحل الرجاء هى : عسى أن أكرمك ، وعسى أن يكرمك زيد ، وعسى الله أن يكرمك ، وأقوى ألوان الرجاء أن يعلم الحق بالإكرام أو بالرحمة .

﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ ﴾

(من الآية ١٢٩ سورة الأعراف)

والكلام كما نراه هو من موسى ، ولايقدر على هذه المسألة إلا الله ، فما موقع هذا من تحقيق الرجاء ؟ . نعلم أن موسى رسول أرسله الله لهداية الخلق ، وأرسله مؤيداً بالمعجزة ، فإذا كان الرسول المؤيد بالمعجزة قد أمره الله أن يبلغهم ذلك ، فيكون الرجاء منه مقبولاً : ﴿ عسى ربكم أن يهلك عدوكم ﴾ .

ومرة تكون إزالة الشيء الضار نعمة بمفردها ، أما أن يهلك الله عدوى ويعطينى الحق مكانة عدوى العالية فهذه نعمة إيجاب ، تكون بعد نعمة سلب . ومثل هذا ما سوف يحدث يوم القيامة ؛ لأن الحق يقول :

﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾

(من الآية ١٨٥ سورة آل عمران)

ومجرد الزحزحة عن النار فضل ونعمة ، فمابالك بمن زُحزح عن النار وأدخل الجنة ؟ . لقد نال نعمتين . وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿ عسى ربكم أن يهلك عدوكم ﴾ . وتلك وحدها نعمة تليها نعمة أخرى هى : ﴿ ويستخلفكم فى الأرض ﴾ . لكن ثمن هذه النعم هو أن ينظر ماذا تعملون ؟ . هل ستشكرون هذه النعم وتكونون عباداً صالحين ، أو تجحدونها وتكفرونها ؟ فالإنسان ظلوم كفار .

وكلمة « ينظر » إذا جاءت على الإنسان فُهِم المراد منها أى يراك بناظره . وإذا أُسندت لله فالأمر مختلف ، فتعالى الله أن تكون له حدقة عين مثل عيوننا . لكنه سبحانه لا يجهل شيئاً لينظره ؛ لأنه هو ـ سبحانه ـ عالمه قبل أن يقع . ونعلم أن هناك فارقاً بين الحكم على المخلوق بعلم الخالق ، وبين الحكم على المخلوق بعمل المخلوق .

مثال ذلك نجد الأستاذ فى مادة ما يعرف مستويات الطلاب الذين يدرسون على يديه . وعميد الكلية يقول له : ما رأيك ؟ فيقول فلان تلميذ يستحق النجاح بتقدير مرتفع والثانى لابد أن يرسب . الأستاذ يقول هذا الحكم بناء عن علمه بحال كل طالب . لكن إذا أرسب الأستاذ طالباً بناء على تقديره دون امتحان فالطالب الذى رسب قد يقول لأستاذه : أنت شططت فى الحكم ؛ ولو مكنتنى من الامتحان لنجحت . وحين يقرر العميد امتحان الطالب ، ويؤدى الامتحان بالفعل ، ولكنه يرسب . هنا يتأكد للعميد أن الحكم برسوب طالب قد عرفه الأستاذ أولاً ثم تلا ذلك إخفاق الطالب فى الامتحان .

إن الله سبحانه حين يقول : ﴿ فينظر كيف تعملون ﴾ . هو سبحانه لاينظرها ليعلمها ـ حاشا لله ـ فهو عالمها ، ولكنه لا يريد أن يحكم بعلمه على خلقه . ولكن يريد أن يحكم على خلقه بفعل خلقه ، وسبحانه عالم أزلاً بكل من يهدى ومن يضل ، ولذلك خلق الجنة وخلق النار لتسع كل منهما كل الخلق ، ولم يخلق أماكن فى الجنة على قدر من سوف يدخلونها فقط ، وكذلك لم يخلق أماكن فى

النار لا تسع فقط أهل النار ، بل يمكنها أن تسع كل الخلق ، ولم يحكم بعلمه فى هذه المسألة ، بل يترك الحكم الأخير لواقع الأشياء مادام هناك اختيار للإنسان ، فعلى فرض أنكم جميعاً آمنتم فلكم كلكم أماكن فى الجنة . وعلى فرض أنكم ـ والعياذ بالله ـ كفرتم فلكم أماكن فى النار ، وسبحانه لن ينشىء شيئاً جديداً ، بل أعد كل شىء وانتهى الأمر .

وحين يأتى أهل الجنة ليدخلوا الجنة ، وأهل النار ليدخلوا النار سوف يكون لأهل الجنة مقاعد أخرى كانت مخصصة لمن دخلوا النار . ويعلن لأهل الجنة : أورثتموها وخذوها أنتم :

﴿ وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا ﴾

(من الآية ٤٣ سورة الأعراف)

وهى ميراث من الذين كانت معدة لهم ولم يقوموا بالعمل المؤهل لامتلاكها . فإياك أن تفهم أن نظر الله إلى خلقه ليعلم منه شيئاً لا . إنه العليم أزلاً .

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ﴾

(من الآية ٢٥ سورة الحديد)

وسبحانه يعلم أزلاً ويتحقق بسلوك الناس علمهم بأفعالهم واقعاً ، وعلم الواقع هو الذى يكون حجة على الخلق . وهنا فى الآية التى نحن بصددها ثلاثة شياء : أن يهلك سبحانه عدوكم ، وأن يستخلفكم فى الأرض ، فينظر كيف تعملون . ونحقق فيما تحقق منهما .

وجاء سبحانه فى مقدمة الإهلاك ، فقال :

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ

ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾

وهكذا نرى أن الإهلاك لم يحدث دفعة واحدة ، بل على مراحل لعلهم إذا أصابتهم شدة يضرعون إلى الله .

نحن نعلم أن السنة هى العام . . أى من مدة إلى نهاية مدة مثلها ، لكنها تطلق ـ أيضاً ـ على الجدب والقحط . ولذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم فى دعائه على قومه :

« اللهم اجعلها عليهم سنين كسنى يوسف »[1]

أى أن ينزل بهم سبحانه بعضاً من الجدب ليتأدبوا قليلاً .

ويقال:« أسنت القوم » أى أصابهم قحط وجدب . إذن فالسنة المراد منها هنا القحط والجدب .

ولماذا سماها سنة ؟ لأن نعم الله متوالية كثيرة ، وابتلاءاته لخلقه بالشرِّ قليلة فى الكون ، وسبحانه ينعم عليهم مدة طويلة ثم يبتليهم فى لحظة ، فإذا ما ابتلاهم فى وقت يؤرخ به ، ويقال حدث الابتلاء سنة كذا . فيقال : سنة الجراد ، سنة حريق القاهرة ، وهكذا نجد الناس تؤرخ بالأحداث المفجعة ؛ لأن الأحداث السارة عادة تكون أكثر من الأحداث السيئة . ولذلك قلنا إن الذى يعد أيام البلاء عليه أن يقارنها بأيام الرخاء ، وعلى الواحد منا أن ينظر إلى أيام السنة التى عاشها ، إن جاء له يوم بلاء حزن نقل له : وكم مرة عشت ونعمت بالرخاء ؟ ونجد أن أيام الرخاء هى أكثر من أيام البلاء : ﴿ ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات ﴾ .

وعرفنا أن السنين ـ كما قلنا ـ تعنى الجدب والقحط ، أما قوله سبحانه :« ونقص من الثمرات » فهو يدل على أن بعضاً من الثمار كان موجوداً ، أو كان الجدب

---

(١) رواه البخارى فى التفسير ، ومسلم فى المنافقين ، وأحمد ١ ـ ٢٨٠ ، ٤٤١

والقحط فى البادية ، أما « نقص الثمرات » فكان فى الحضر ، ويقال:إن النخلة الواحدة فى الحضر كانت لا تطرح فى السنة إلا بلحة واحدة . ولماذا هذه البلحة ؟ لأن أسباب رحمته سبحانه يجب أن تبقى فى خلقه ، ولو أن النخل كله لم يطرح ولا بلحة واحدة لا نقطع نسل النخيل ؛ لذلك يُبقى الله أسباب رحمته لنا .

إننا نرى فى واقعنا أنهم مهما حاولوا أن يستزرعوا فواكه بدون بذور بواسطة التقدم العلمى المعاصر ، نجد ثمرة وقد شذت وفيها بذرة ، لماذا ؟ يقال لنا لاستبقاء النوع ، فلو خرجت كل الثمار بلا بذور ثم أكلناها جميعها فكيف نزرع محصولاً جديداً ؟ ولذلك قلنا من قبل إن الحق سبحانه وتعالى من رحمته بالخلق فى استبقائه للنعم ومقومات الحياة لم يجعل الثمار حلوة تستساغ إلا بعد أن تَنْضج بذرتها ، فأنت حين تفتح البطيخة إن كان بذرها أبيض تجد طعمها لا يستساغ وترميها . لكن حين يسودّ بذرها ويكون صالحاً لأن تعيد زراعته ، هنا تكون ثمرة البطيخة ناضجة وحلوة الطعم . وبذلك يوضح لك الحق أن الثمار لن تصير مقبولة ومستساغة إلا بعد أن تنضج بذرتها لتكون صالحة لاستنباتها من جديد ، وفى هذا استبقاء للرحمة ، وحتى مع العاصين نجده سبحانه يستبقى الرحمة معهم .

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

وقوله : ﴿ لعلهم يذكرون ﴾ يعنى أن على الإنسان أن يتذكر أنه الخليفة فى الأرض وأنه غير أصيل فى الكون حتى يظل العالم مستقيماً . لكن الذى يفسد العالم أن الإنسان حينما تستجيب له أسباب الحياة ، وسننها الكونية ويحرث ويبذر ويطلع الزرع ، ويشعل النار ويستخرج المياه من الآبار ينسى أن كل ذلك « أسباب » ولا يتذكر المُسبِّب إلا حينما تمتنع عليه الأسباب .

والمثال فى حياتنا اليومية أن الإنسان منا إذا جاء ليفتح صنبور المياه فى البيت فلم يجد ماءً فيتجه أول ما يتجه إلى محبس المياه الذى يتحكم فى مياه المنزل ويرى هل به خلل أو سدد ، وإن وجده سليماً ، يبحث هل أنبوبة وماسورة المياه الرئيسية مكسورة أو لا ؟ وإن كانت ماسورة المياه سليمة فهو يبحث عن الخلل فى

آلة رفع المياه ، ويظل يبحث فى الأسباب الكثيرة ، وقديماً لم تكن المياه تأتى إلا من الآبار وعندما لا يوجد فى البئر ماء يقول العبد : يا رب اسقنى . والحضارة الآن أبعدتنا بالأسباب عن المسبِّب .

والحق قد أخذ قوم فرعون بالسنين ونقص الثمرات لينفض أيديهم من أسبابها ، فإذا نفضت اليد من الأسباب لم يبق إلا أن يلتفتوا إلى المسبِّب ويقولون : « يا رب » ويقول القرآن عن الإنسان :

﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا ﴾

(من الآية ١٢ سورة يونس)

إذن فالإنسان يذكر المسبِّب حين تمتنع عنه الأسباب ، لأنها مقومات الحياة ، فإذا امتنعت مقومات الحياة يقول الإنسان : يارب ، وهكذا كان ابتلاء الله لقوم فرعون بأخذهم بالسنين ونقص الثمرات ليذكروا خالقهم .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ ﴾

والحسنة إذا أطلقت فهى الأمر الذى يأتى من ورائه الخير . ولكن الحسنة مرة تكون لك ، ومرة تُطْلَب منك ، فالحسنة التى لك فى ذاتك أولاً أن تكون فى عافية وسلام ، ثم الحسنة فى مقومات الذات ومقومات الحياة ، وهى فى النبات ، والحيوان ، والخصب والثروة . والحسنة المطلوبة منك هى أيضاً لك . فسبحانه يطلب منك عمل شىء يورِّثك فى الآخرة حسنة ، ولذلك يقول سبحانه :

﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾

(من الآية ١٦٠ سورة الأنعام)

وهذه هى الحسنة التى تعطى الإنسان خيراً فيما بعد . إذن فالحسنة التى فى ذاتك من عافية وسلامة أو فى مقومات الذات من ثمرات وحيوانات وخصب وأعشاب وثراء فكلها موقوتة بزمن موقوت هو الدنيا . والحسنة الثانية غير محدودة لأن زمنها غير محدود . فأى الحسنات أرجح وأفضل بالنسبة للإنسان ؟ . إنها حسنة الآخرة .

وقوله الحق : ﴿ فإذا جاءتهم الحسنة ﴾ أى جاء لهم قدر من الخصب والثمار وغير ذلك من الرزق يقولون : « لنا هذه » أى أننا نستحقها ؛ فواحد يقول : أنا أستحقها لأننى رتبت لها وأتقنت الزراعة والحصاد مثلما قال قارون :

﴿ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾

(من الآية ٧٨ سورة القصص)

وأجرى عليه الحق التجربة ، فمادام يدعى أنه جاء بالمال على علم من عنده فليجعل العلم الذى عنده يحافظ له على المال أو يحافظ له على ذاته . وهم قالوا عن الحسنات التى يهبها الله لهم : « قالوا لنا هذه » أى نستحقها ، لأننا قدمنا مقدمات تعطينا هذه النتائج . وجرت العادة قديماً بأن يفيض النيل كل سنة يغمر الأرض ، ثم يبذرون الحب وينتظرون الثمار . فإن جاءت لهم سيئة مثل أخذهم الله لهم بالسنين ينسبون ذلك لموسى .

﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

(من الآية ١٣١ سورة الأعراف)

فإذا ما جاءتهم سيئة يطَّيَّرون أى يتشاءمون لأن الطيرة هى التشاؤم ، وضده التفاؤل ، ويقال : « فلان طائره نحس » ، و « فلان طائره يمن وسعد » . وقديماً حينما كانوا يريدون طلب مسألة ما ، يأتون بطير ويضعه صاحب المسألة على يده ويزجره ويثيره ، فإن طار يميناً فهذا فأل حسن ، وإن طار يساراً فهذا فأل سيىء ،

والحق هنا يوضح : لا تظلموا موسى ، لأن شؤمكم أو حظكم السيىء ليس من موسى ؛ لأن موسى لا يملك فى كون الله شيئاً ، وإنما المالك للكون هو رب موسى . وكأن الحق يريدهم أيضاً ألا يفتنوا فى موسى إن صنع شيئاً يأتى لهم بخير ، وهنا يقول لهم لا تتطيروا بموسى ، لأن طائركم من عند الله .

ولأن أحداث الحياة صنفان : حدث لك فيه مدخل ، مثل التلميذ الذى لم يذاكر ويرسب ، أو إنسان لا يحسن قيادة سيارته فقادها فعطبت به أو أصاب أحداً إصابة خطيرة . وهنا لا غريم لهذا الإنسان ، بل هو غريم نفسه . وهناك شىء يقع عليك ، واسمه حدث قهرى ، فالإنسان فى الأحداث بين أمرين اثنين : إما مصيبة دخلت عليه من ذات نفسه لتقصيره فى شىء . وإمَّا أحداث قدرية تنزل بالإنسان ونقول إنها من عند الله لحكمة لا يعرفها الإنسان ؛ لأن الإنسان ينظر إلى سطحيات الأشياء ، وإلى عاجل الأمر فيها ، ولكنه لا ينظر إلى عاقبة الأمر . ولهذا تحدث له بعض من الأحداث ليس له فيها مدخل .

مثال ذلك : أن يكون للإنسان ابن نجيب وذكى وترتيبه دائماً من العشرة الأوائل ، ثم جاء فى ليلة الامتحان أو فى يوم الامتحان وأصابه صداع جعله لا يعرف كيف يجيب عن أسئلة الامتحان ورسب ، وهذه مصيبة ليس له مدخل فيها .

وعادة ما يحزن الناس من مثل هذه المصائب لكن المؤمن يقول : إن الولد لم يقصر ، وهذا أمر جاء من الله ، وسبحانه منزه عن العبث ، بل حكيم ولابد أن له حكمة فى مثل هذه الأمور . وبعد مدة تتبين الحكمة ، فلو كان الولد قد نجح لأصابته عين الحسود . وحدث له ما يكره ، فكأن الله يصنع له تميمة يحميه بها من الحسد . وقديماً حين كانوا يصنعون للطفل الجميل « فاسوخة » ، ولا يهتمون بنظافته ولا بملابسه ، لماذا ؟ يقال حتى لا تتجه إليه عين العائن الحاسد .

وأقول : وما الذى يدريك أن الله سبحانه وتعالى صنع الحادث الطارىء ليرد عنه العين ، ويُسكت الناس عنه ؟ وما الذى يدريك أن الله أراد له أن يرسب هذا العام لأنه لم يكن يستطيع الحصول على المجموع الذى يدخله الكلية التى يريدها ، ثم يستذكر فى العام التالى وتكون المذاكرة سهلة بالنسبة له ، ونقول له : احمد ربك

على أنك لم تنجح فى العام السابق وأن الله أراد بك خيراً . . لتبذل جهداً وتنجح وتنال المجموع الذى أردته لنفسك .

إذن فالمقادير التى تجرى على الناس بدون دخل لهم فيها ، فلله فيها حكمة ، وهنا يقال : ﴿ طائركم عند الله ﴾ ، أما إن كان للإنسان دخل فيما يجرى له فيقال : طائرك من عندك أنت وشؤمك من نفسك وعصيانك .

﴿ فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ ۗ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

ألم يتطير اليهود فى المدينة برسول الله صلى الله عليه وسلم حينما قالوا : قلت الأمطار وارتفعت الأسعار من شؤم مجىء هذا الرجل ، ولم يتفهموا حكم الله . لقد كانوا سادة فى الجزيرة ؛ لأنهم أهل علم بالكتاب وسيطروا على حركة السوق التجارية ، وتعاملوا فى الربا وتجارة السلاح وكان عندهم الحصون ، والأسلحة ، وأراد الله أن يشغلهم بأخذ شىء من أسبابهم ويهد كيانهم ليلفتهم إلى أنهم خرجوا عن المنهج إلى أن هناك رسولاً قد جاء بعودة إلى المنهج .

وقوله الحق : ﴿ ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ يفيد أن هناك قلة تعلم . فما موقف هذه القلة ، ولماذا لم يرفضوا موقف الكثرة ؟ . كان موقفهم هو الصمت خوفاً من الطغيان ؛ لأن الطاغية أجبرهم وقهرهم وجعلهم يسكتون ولا يعترضون على باطل ، ونرى فى حياتنا كثيراً من الناس يعلمون الزور ويعلمون الطغيان ولكنهم لا يتكلمون .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ ﴾

أى وقال قوم فرعون لموسى عليه السلام : أى شىء تأتينا به من المعجزات لتصرفنا عما نحن عليه فلن نؤمن لك ، وسموا ما جاء به موسى « آية » استهزاء منهم وسخرية . وكل هذه مقدمات تبرر الإهلاك الذى قال الله فيه :

﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ ﴾

(من الآية ١٢٩ سورة الأعراف)

وأعلنوا أن ما جاء به موسى هو سحر على الرغم من أنهم رأوا السحرة الذين برعوا فى السحر وعرفوا طرائقه وبذّوا فيه سواهم قد خروا ساجدين وآمنوا ، كيف يحدث هذا والسحرة كلهم جُمِعوا إلى وقت معلوم ؟ وشهد كل الناس التجربة الواقعية التى ابتعلت فيها عصا موسى كل سحر السحرة فآمنوا وسجدوا ، فكيف يتأتى لمن لا يعرفون السحر أن يتهموا موسى بالسحر ؟ وكيف يظنون أن ما يأتى به من آيات الله هو لون من السحر ؟ . إنهم يقولون كلمة « مهما » وهى تدل على استمرارية العناد فى نفوسهم مثلما يقول واحد لآخر : لقد صممت على ألا أقبل كلامك ، فيكرر الرجل : انتظر لتسمع حجتى الثانية فقد تقنعك ، فيقول : مهما تأتنى من حجج فلن أسمع لك ، وهذا يعنى استمرارية العناد والجحود والتمرد ويقدمون حيثيات هذا الجحود فيقولون :

﴿ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

وإذا كانوا يظنون أن آيات الله التى مع موسى من السحر ، فهل للمسحور إرادة مع الساحر ؟ . ولو كانت المسألة سحراً لسحركم وانتهى الأمر . وقلنا قديماً فى الرد على الذين قالوا : إن محمدًا يسحر الناس ليؤمنوا به ، قلنا إذا كان هو قد سحر الناس ليؤمنوا به ، فلماذا لم يسحركم لتؤمنوا وتنفض المسألة ؟ إن بقاءكم على العناد دليل على أنه لا يملك شيئاً من أمر السحر .

وأنت ساعة تسمع كلمة « مهما » تعرف أن هناك شرطاً ، وله جواب ، ويقول العلماء : إن أصلها « مه » أى كُفّ عن أن تأتينا بأية آية فلن نصدقك . وهذا يعنى أن هناك إصراراً وعناداً على عدم الإيمان .

ويبين الحق عقابه لهم على ذلك :

﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾

وكلمة « الطوفان » يراد بها طغيان ماء ، والماء ـ كما نعلم ـ هو سبب الحياة ، وقد يجعله الله سببًا للدمار حتى لا تفهم أن المسائل بذاتيتها ، بل بتوجيهات القادر عليها ، وعندما ننظر إلى الطوفان الذى أغرق من قبل قوم نوح ، ولم ينج أحد إلا من ركب مع نوح فى السفينة ؛ وهنا مع قوم موسى لا توجد سفينة ، لأن الله يريد أن يؤكد لهم العقاب على طغيانهم . وإذا كان الطوفان قد أصاب آل فرعون ومعهم بنو إسرائيل لدرجة أن الواحد منهم كانت المياه تبلغ التراقى فيبقى واقفاً لأنه لو جلس يموت ، ويظل هكذا ، وأمطرت عليهم السماء سبعة أيام ، لا يعرفون فيها الليل من النهار ويرون أمامهم بيوت بنى إسرائيل لا تلمسها المياه ، وهذه معجزة واضحة ، لقد عمّ الطوفان وأراد الحق أن ينجى بنى إسرائيل منه دون حيلة منهم حتى لا يقال آية كونية جاءت على هيئة طوفان وانتهت المسألة ، لكن الطوفان جاء لبيوتهم ولم يلمس بنى إسرائيل .

وقال الرواة : إن الطوفان دخل على فرعون حتى صرخ واستنجد بموسى ، وقال له : كف عنا هذا ونؤمن بما جئت به ، ودعا موسى ربه فكف عنهم الطوفان . لكنهم عادوا إلى الكفر .

وجعلَ الله من آياته لمحات ، وإشارات ، بدأت بالطوفان ، وحين يوضح ربنا : أنا عذبت بالطوفان قوم نوح ، وقوم فرعون ، فهو يعطينا ملامح تشعرنا بصدق القضية ، فيهبط السيل فى أى بلد ويهدم الديار ويغرق الزرع والحيوانات ، لنرى صورة كونية ، وكذلك الجراد يرسله الله على فترات فيهبط فى أى وقت من الأوقات ، ونقيم الحملات لمكافحته ، وهذا دليل على صدق الأشياء التى حكى الله عنها ، فلو لم يوجد جراد ولا طوفان لكنا عرضة ألا نصدق . وابتلاهم الله بالقمل كذلك .

« والقُمَّل » هو غير القَمْل . فالقَمْل هو الآفة التى تصيب الإنسان فى بدنه وثيابه وتنشأ من قذارة الثياب ، أما القُمَّل فقيل هو السوس الذى يصيب الحبوب ، ومفردها قُمَّلَة ، وقيل هو ما نسميه بالقراد ، وقيل هو الحشرات التى تهلك النبات والحرث ، وحين نراه نفزع ونبحث عن تخليص الزرع منه باليد والمبيدات ، وكل ذلك من تنبيهات الحق للخلق ، وهى مجرد تنبيه وإرشاد ولَفْتٌ للالتفات إلى الحق .

وكذلك يرسل الله عليهم « الضفادع » ، وعندما يضع أى إنسان منهم يده فى شىء يجد فيها الضفادع ؛ فإناء الطعام يرفع عنه الغطاء فترى فيه الضفادع ، والمياه التى يشربها يجد فيها الضفادع !! وإن فتح فمه تدخل ضفدعة فى الفم !! . فهى آية ومعجزة ، وكذلك « الدم » ، فكان كل شىء ينقلب لهم دماً .

ويقال:إن امرأة من قوم فرعون أرادت أن تشرب ماء ، فذهبت إلى امرأة من بنى إسرائيل وقالت لها : خذى الماء فى فمك ومُجيه فى فمى ، كأنها تريد أن تحتال على ربنا وتأخذ مياها من غير دم ، فينتقل من فم الإسرائيلية وهو ماء ، فإذا ما دخل فم المرأة التى هى من قوم فرعون صار دماً .

﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ ﴾

(من الآية ١٣٣ سورة الأعراف)

وقوله سبحانه : ﴿ مفصلات ﴾ أى لم يأت بها جل وعلا كلها مجتمعة مع بعضها البعض لتفزعهم دفعة واحدة وتختبرهم أيعلنون الإيمان أم لا ؟ بل جاء سبحانه بكل آية مُفصلة عن الأخرى ؛ فلا توجد آية مع آية أخرى فى وقت واحد ، أو جاء بها علامات واضحات فيها مواعظ وعبر ، مما يدل على موالاة الإنذارات للرغبة فى أن يَذّكروا ، وأن يرتدعوا ، فلو اذكروا وارتدعوا من آية واحدة يكف عنهم سبحانه البأس .

وأرسل سبحانه الآيات وهى : طوفان ، جراد ، قمل ، ضفادع ، دم ، هذه آيات خمس فى هذه الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها ، ومن قبل قال الحق إنه

أخذهم بالسنين ، وكذلك نقص الثمرات ، فأصبحت الآيات سبعاً ، ومن قبل كانت عصا موسى التى تلقف ما صنعه السحرة فصارت ثمانى آيات ، وكذلك « اليد البيضاء » التى أراها موسى لفرعون وملئه فيصبح العدد تسع آيات ، إذن فالآيات بترتيبها هى : العصا ، واليد ، والأخذ بالسنين ، ونقص الثمرات ، والطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم .

والآيات المفصلات . . هى عجائب ؛ كل منها عجيبة يسلطها الله على مَن يريد إذلاله ، ويبتلى الله بها نوعا من الناس ولا يبتلى بها قوماً آخرين . فماذا كان موقفهم من الآيات العجائب ؟ نجد الحق يذيل الآية : ﴿ فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين ﴾ . إنهم لم يؤمنوا ، بل تكبروا وأجرموا فى حق أنفسهم وقطعوا ما بينهم وبين الإيمان .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ ﴾

هم إذن بعد أن استكبروا وكانوا قوماً مجرمين ، وتوالت عليهم الأحداث ، والرجز هو الأمور المفزعة وما نزل بهم من العذاب ، وهنا ذهبوا إلى موسى ليسألوه أن يدعو الله ليكشف ويرفع عنهم ما نزل بهم من العقاب . إذن فهم آمنوا بأن موسى مرسل من رب ، وهم قد فهموا أن الرجز الذى عاشوا فيه لن يرتفع إلا من ذلك الرب . وهذا ينقض ربوبية إلههم فرعون ، لأنه لو كانت ربوبية فرعون فى عقيدتهم لذهبوا إليه ولم يذهبوا إلى عدوهم موسى ليسألوه أن يدعو لهم الله . ومن هنا نأخذ أكثر من قضية عقدية هى أولاً : أن ألوهية فرعون باطلة ، وثانياً : أن موسى مقبولُ الدعاء عند ربه ، وثالثاً : أنه إن لم يكشف ربه هذا العذاب فسيستمر هذا العذاب ، وكل هذه مقدمات تعطى الإيمان بالله .

﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾

(من الآية ١٣٤ سورة الأعراف)

أى ادع ربّك بما أعطاك الله من العهد أن ينصرك لأنك رسوله المؤيَّد بمعجزاته وهو لن يتخلى عنك . ادع الله أن يرفع عنا العذاب والله لئن رفعت وكشفت عنا ما نحن فيه من العذاب لنؤمنن بك ولنصدقن ماجئت به ولنرسلن ونطلقن معك بنى إسرائيل ، وقد كانوا يستخدمونهم فى أحط وأرذل الأعمال ، ولكنهم فى كل مرة بعد أن يكشف الحق عنهم العذاب يعودون إلى نقض العهد بدليل قوله سبحانه عنهم :

﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ ﴾

فكأن لهم مع كل آية نقضاً للعهد ، وانظر الفرق بين العبارتين : بين قوله الحق : ﴿ فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون ﴾ وبين قوله السابق : « ادع لنا ربك بما عهد عندك لأن كشفت عنا الرجز » ، فمن إذن يكشف الرجز ؟ إن الكشف هنا منسوب إلى الله ، وكل كشف للرجز له مدة يعرفها الحق ، فهو القائل : ﴿ إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون ﴾ .

والنكث هو نقض العهد .

ويتابع سبحانه :

﴿ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾

ويوضح هنا سبحانه أنه مادام قد أخذهم بالعقاب فى ذواتهم ، وفى مقومات حياتهم ، وفى معكرات صفوهم لم يبق إلا أن يهلكوا ؛ لأنه لا فائدة منهم ؛ لذلك جاء الأمر بإغراقهم ، لا عن جبروت قدرة ، بل عن عدالة تقدير ؛ لأنهم كذبوا بالآيات وأقاموا على كفرهم . ويلاحظ هنا أن أهم ما فى القضية وهو الإغراق قد ذكر على هيئة الإيجاز ، وهو الحادث الذى جاء فى سورة أخرى بالتفصيل ، فالحق سبحانه يقول :

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾

(سورة الشعراء)

ولم يأت الحق هنا بتفاصيل قصة الإغراق ؛ لأن كل آية فى القرآن تعالج موقفاً ، وتعالج لقطة من اللقطات ؛ لأن القصة تأتى بإجمال فى موضع وبإطناب فى موضع آخر ، وهنا يأتى موقف الإغراق بإجمال : ﴿ فانتقمنا منهم فأغرقناهم فى اليم ﴾ .

وكلمة « فأغرقناهم » لها قصة طويلة معروفة ومعروضة عرضاً آخر فى سورة أخرى ، فحين خرج موسى وبنو إسرائيل من مصر خرج وراءهم فرعون ، وحين رأى بنو إسرائيل ذلك قالوا بمنطق الأحداث : ﴿ إنا لمدركون ﴾ . مدركون من فرعون وقومه لأن أمامهم البحر وليس عندهم وسيلة لركوب البحر . لكن موسى المرسل من الله علم أن الله لن يخذله ؛ لأنه يريد أن يتم نعمة الهداية على يديه ، كان موسى عليه السلام ممتلئاً باليقين والثقة لذلك قال بملء فيه :

﴿ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴾

(من الآية ٦١ سورة الشعراء)

هو يقول : « كلا » أى لن يدركوكم لا بأسبابه ، بل بأسباب من أرسله بدليل أنه جاء بحيثيتها معها وقال : ﴿ إن معى ربى سيهدين ﴾ . لقد تكلم بمنطق المؤمن الذى أوى إلى ركن شديد ، وأن المسائل لا يمكن أن تنتهى عند هذا الوضع ؛ لأنه لم يؤد المهمة بكاملها ، لذلك قال : « كلا » بملء فيه ، مع أن الأسباب مقطوع بها . فالبحر أمامهم والعدو من خلفهم ، وأتبع ذلك بقوله : ﴿ إن معى ربى

سيهدين » بالحفظ والنصرة . . أى أن الأسباب التى سبق أن أرسلها معى الله فوق نطاق أسباب البشر ، فالعصا سبق أن نصره الله بها على السحرة ، وهى العصا نفسها التى أوحى له سبحانه باستعمالها فى هذه الحالة العصيبة قائلاً له :

﴿ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ﴾

(من الآية ٦٣ سورة الشعراء)

ونعرف أن البحر وعاء للماء ، وأول قانون للماء هو السيولة التى تعينه على الاستطراق ، ولو لم يكن الماء سائلاً ، وبه جمود وغلظة لصار قطعاً غير متساوية ، ولكن الذى يعينه على الاستطراق هو حالة السيولة ، ولذلك حين نريد أن نضبط دقة استواء أى سطح نلجأ إلى ميزان الماء .

وقال الحق سبحانه لموسى عليه السلام :

﴿ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ﴾

(من الآية ٦٣ سورة الشعراء)

وحين ضرب موسى بعصاه البحر امتنع عن الماء قانون السيولة وفقد قانون الاستطراق ، ويصور الله هذا الأمر لنا تصويراً دقيقاً فيقول : ﴿ فكان كل فرق كالطود العظيم ﴾ . أى صار كل جزء منه كالطود وهو الجبل ، ونجد فى الجبل الصلابة ، وهكذا فقد الماء السيولة وصار كل فرق كالجبل الواقف ، ولا يقدر على ذلك إلا الخالق ، لأن السيولة والاستطراق سنة كونية ، والذى خلق هذه السنة الكونية هو الذى يستطيع أن يبطلها . وحين سار موسى وقومه فى اليابس ، وقطع الجميع الطريق الموجود فى البحر سار خلفهم فرعون وجنوده وأراد موسى أن يضرب البحر بعصاه ليعود إلى السيولة وإلى الاستطراق حتى لا يتبعه فرعون وجنوده ، وهذا تفكير بشرى أيضاً ، ويأتى لموسى أمر من الله :

﴿ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ﴾

(من الآية ٢٤ سورة الدخان)

أى اترك البحر ساكناً على هيئته التى هو عليها ليدخله فرعون وقومه ، إنه سبحانه لا يريد للماء أن يعود إلى السيولة والاستطراق حتى يُغرى الطريق اليابس

فرعون وقومه فيأتوا وراءكم ليلحقوا بكم ، فإذا ما دخلوا واستوعبهم اليابس ؛ أعدنا سيولة الماء واستطراقه فيغرقون ؛ ليثبت الحق أنه ينجى ويهلك بالشىء الواحد ، وكل ذلك يجمله الحق هنا فى قوله : ﴿ فانتقمنا منهم فأغرقناهم فى اليم ﴾ . و « اليم » هو المكان الذى يوجد به مياه عميقة ، ويطلق مرة على المالح ، ومرة على العذب ، فمثلاً فى قصة أم موسى ، يقول الحق :

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ ﴾

(من الآية ٧ سورة القصص)

وكان المقصود باليم هناك النيل ، لكن المقصود به هنا فى سورة الأعراف هو البحر . ويأتى سبب الإغراق فى قوله : ﴿ بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين ﴾ .

كيف إذن يعذبهم ويغرقهم نتيجة الغفلة ، ونعلم أن الغفلة ليس عليها حساب ؟ بدليل أن الصائم قد يغفل ويأكل ويصح صيامه . ويقال إن ربنا أعطى له وجبة تغذيه بالطعام وحسب له الصيام لأنه غافل . لكن هنا يختلف أمر الغفلة ؛ فالمراد بـ « غافلين » هنا أنهم كانوا قد كذبوا بآيات الله ثم أعرضوا إعراضاً لا يكون إلا عن غافل عن الله وعن منهجه ، ولو أنهم كانوا عباداً مستحضرين لمنهج الله لما صح أن يغفلوا ، وهذا القول يحقق ما سبق أن قاله سبحانه :

﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ ﴾

(من الآية ١٢٩ سورة الأعراف)

ثم يأتى بعد ذلك القول الذى يحقق ما سبق أن قاله سبحانه :

﴿ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾

(من الآية ١٢٩ سورة الأعراف)

ويقول الحق تأكيداً لذلك :

﴿ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ

مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ
وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ
بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ
وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾

أى صارت مصر والشام تحت إمرة بنى إسرائيل ، وهى الأرض التى باركها الله ، بالخصب ، وبالنماء ، بالزروع ، بالثمار ، بالحيوانات ، وبكل شىء من مقومات الحياة ، وترف الحياة : ﴿ وتمت كلمت ربك الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا ﴾ .

﴿ وتمت كلمة ربك ﴾ أى استمرت عليهم الكلمة وتم وعد الله الصادق بالتمكين لبنى إسرائيل فى الأرض ونصره إياهم على عدوهم ، واكتملت النعمة ؛ لأن الله أهلك عدوهم وأورثهم الأرض ، وتحققت كلمته سبحانه التى جاءت على لسان موسى :

﴿ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾

(من الآية ١٢٩ سورة الأعراف)

هكذا تمت كلمة الله بقوله سبحانه :

﴿ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ﴾

(من الآية ١٣٧ سورة الأعراف)

ونعلم أن كلمة « مشارق ومغارب » تقال بالنسبيات ، فليس هناك مكان اسمه مشرق وآخر اسمه مغرب ، لكن هذه اتجاهات نسبية ؛ فيقال هذا مشرق بالنسبة لمكان ما ، وكذلك يقال له « مغرب » بالنسبة لمكان آخر . وحين ينتقل الإنسان إلى مكان آخر يوجد مشرق آخر ومغرب آخر . وعلى سبيل المثال نجد من يسكن فى الهند واليابان يعلمون أن منطقة الشرق الأوسط بالنسبة لهم مغرب ، ومن

يسكنون أوربا يعرفون أن الشرق الأوسط بالنسبة لهم مشرق .

وقلنا من قبل : إن الحق حين جاء « بالمشرق والمغرب » بصيغة الجمع كما هنا فذلك إنما يدل على أن لكل مكان مشرقاً ، ولكل مكان مغرباً ؛ فإذا غربت الشمس فى مكان فهى تشرق فى مكان آخر . وفى رمضان نجد الشمس تغرب فى القاهرة قبل الإسكندرية بدقائق .

ونعلم أن سبب هذه الدورة إنما هو ليبقى ذكر الله بكل مطلوبات الله فى كل أوقات الله ، مثال ذلك حين نصلى نحن صلاة الفجر نجد أناساً يصلون فى اللحظة نفسها صلاة الظهر ، ونجد آخرين يصلون صلاة العصر ، وقوماً غيرهم يصلون صلاة المغرب ، وغيرهم يصلى صلاة العشاء . وبذلك تحقق إرادة الله فى أن هناك عبادة فى كل وقت وفى كل لحظة ، فحين يؤذن مسلم قائلاً « الله أكبر » لينادى لصلاة الفجر ، هناك مسلم آخر يقول : « الله أكبر » مناديًا لصلاة الظهر أو العصر أو المغرب أو العشاء ، وهذا هو الاختلاف فى المطالع أراد به سبحانه أن يظل اسمه مذكوراً على كل لسان فى كل مكان لتعلو « الله أكبر ، الله أكبر » فى كل مكان .

وأنت إذا حسبت الزمن بأقل من الثانية تجد أن كون الله لا يخلو من « لا إله إلا الله » أبداً : ﴿ وتمت كلمة ربك الحسنى ﴾ . ونعلم أن كلمة « الحسنى » وصف للمؤنث ، و« كلمة » مؤنثة ، والكلمة هى قول الحق :

﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ ﴾

(سورة القصص)

لقد قال الحق القصة بإيجاز ، وهذه هى التى قالها ربنا وهى كلمة «الحسنى» لأنه سبحانه لم يعط لهم نعمة معاصرة لنعمة العدو ، بل نعمة على أنقاض العدو ، فهى نعمة تضم إهلاك عدوهم ، ثم أعطاهم بعد ذلك أن جعلهم أئمة وهداة وورثهم الأرض : ﴿ وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا ﴾ .

وهم بالفعل قد صبروا على الإيذاء الذى نالوه وذكره سبحانه من قبل حين قال :

﴿ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ﴾

(من الآية ٤٩ سورة البقرة)

وجاء عقاب الله لقوم فرعون :

﴿ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴾

(من الآية ١٣٧ سورة الأعراف)

والتدمير هو أن تدك شيئاً وتخربه ، وقد ظل ما فعله الله بقوم فرعون باقيًا فى الآثار التى تدلك على عظمة ما فعلوا ، وتجد العلماء فى كل يوم يكتشفون تحت الأرض آثاراً كثيرة . ومن العجيب أن كل كشوف الآثار تكون تحت الأرض ، ولا يوجد كشف أثرى جاء من فوق الأرض أبداً .

وكلمة « دمرنا » تدل على أن الأشياء المدمرة كانت عالية الارتفاع ثم جاءت عوامل التعرية لتغطيها ، ويبقى الله شواهد منها لتعطينا نوع ما عمّروا ؛ كالأهرام مثلاً . وكل يوم نكتشف آثاراً جديدة موجودة تحت الأرض مثلما اكتشفنا مدينة طيبة فى وادى الملوك ، وكانت مغطاة بالتراب بفعل عوامل التعرية التى تنقل الرمال من مكان إلى مكان . وأنت إن غبت عن بيتك شهراً ومع أنك تغلق الأبواب والشبابيك قبل السفر ؛ ثم تعود فتجد التراب يغطى جميع المنزل والأثاث ؛ كل ذلك بفعل عوامل التعرية التى تنفذ من أدق الفتحات ، ولذلك لو نظرت إلى القرى القديمة قبل أن تنشأ عمليات الرصف التى تثبت الأرض نجد طرقات القرية التى تقود إلى البيوت ترتفع مع الزمن شيئاً فشيئاً وكل بيت تنزل له قليلاً ، وكل فترة يردمون أرضية البيوت لتعلو ، وكل ذلك من عوامل التعرية التى تزيد من ارتفاع أرضية الشوارع . وكل آثار الدنيا لا تكتشف إلا بالتنقيب ، إذن فكلمة « دمرنا » لها سند . والحق يقول عن أبنية فرعون :

﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ﴾

(سورة الفجر)

ونجد الهرم مثلاً كشاهد على قوة البناء ، وإلى الآن لم يكتشف أحد كيف تم بناء الهرم . وكيف تتماسك صخوره دون مادة كالأسمنت مثلاً ، بل يقال : إن بناء

الهرم قد تم بأسلوب تفريغ الهواء ، ولا أحد يعرف كيف نقل المصريون الصخرة التى على قمة الهرم . إذن فقد كانوا على علم واسع . وإذا ما نظرنا إلى هذا العلم عمارة وآثاراً وتحنيطاً لجثث القدماء ، إذا نظرت إلى كل هذا وعلمت أن القائمين به كانوا من الكهنة المنسوبين للدين ، لتأكدنا أن أسرار هذه المسائل كلها كانت عند رجال الدين ، وأصل الدين من السماء ، وإن كان قد حُرِّف . وهذا يؤكد لنا أن الحق هو الذى هدى الناس من أول الخلق إلى واسع العلم .

﴿ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

و « يعرشون » أى يقيمون جنات معروشات ، وقلنا من قبل : إن الزروع مرة تكون على سطح الأرض وليس لها ساق ، ومرة يكون لها ساق ، وثالثة يكون لها ساق لينة فيصنعون له عريشة أو كما نسميه نحن التكعيبة لتحمله وتحمل ثمرهُ .

وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ وَجَـٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾

لقد قالوا ذلك وهم مازالوا مغمورين فى نعم الله إنجاء من عدو ، واستخلافاً فى الأرض ، ومع ذلك بمجرد أن طلعوا إلى البر ورأوا جماعة يعبدون صنماً طالبوا موسى أن يجعل لهم صنماً يعبدونه . لقد حسدوا من يجهلون قيمة الإيمان ويعكفون على عبادة الأصنام ، ويعكف تعنى أن يقيم إقامة لازمة ، ومنه الاعتكاف

فى المسجد ، أى الانقطاع عن حركة الحياة خارج المسجد إلى عبادة الله فى بيته .

﴿ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ﴾

(من الآية ١٣٨ سورة الأعراف)

وهذا القول من قوم موسى هو قمة الغباء ، كأن الإله بالنسبة لهم مجهول على رغم أنه قد أسبغ عليهم من النعم الكثير ، وهذه أول خيبة ، وهم يريدون أن يكون الإله مجعولاً برغم أن الإله بكمالاته وطلاقة قدرته جاعل ، ولكن عقليتهم لم تستوعب النعم الغامرة وقلوبهم مغلقة لم يعمها الإيمان . وقالوا : اجعل لنا إلهاً ! وأرادوا أن ينحت لهم الأصنام ، وقد يقول واحد منهم : رأس الإله كبيرة قليلاً صغّرها بعض الشىء ، وأنفه غير مستقيمة فلنعدلها بالإزميل ، وقولهم : ﴿ اجعل لنا إلهاً ﴾ . وهذا ما يجعلنا نفهم أن عقولهم لم تستوعب حقيقة الإيمان ؛ لذلك يقول لهم موسى : ﴿ إنكم قوم تجهلون ﴾ .

ولم يقل لهم : « لا تعلمون » بل قال : « تجهلون » لأن هناك فارقاً بين عدم العلم بالشىء ، وبين الجهل بالشىء ، فعدم العلم يعني أن الذهن قد يكون خالياً من أى قضية ، أما « الجهل » فهو يعنى أن تعلم مناقضاً للقضية ، إذن فهناك قضية يعتقدها الجاهل ولكنها غير واقعية . أما الذى لا يعلم فليس فى باله قضية ، وحين تأتى له القضية يقتنع بها ، ولا يحتاج ذلك إلى عملية عقلية واحدة مثل الأمى مثلاً الذى لا يعلم ، لأن ذهنه خال من قضية ، أما الذى يعلم قضية مخالفة فهو يحتاج من الرسول إلى عمليتين عقليتين : الأولى أن يخرج ما فى نفسه من قضية الجهل ، والثانية أن يعطى له القضية الجديدة ، إن الذى يرهق العالم هم الجهلاء لا الأميون ، لأن الأمى حين تعطى له المعلومة فليس عنده ما يناقضها . لكن الجاهل عنده ما يناقضها ويخالف الواقع .

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ ﴾

يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾

و « مُتبرٌ » أى هالك ومدمر ، وهنا يوضح لهم موسى أن هؤلاء الجماعة التى تعبد الأصنام ؛ وهم وأصنامهم هالكون ، وما يعملون هو باطل لأن قضايا الكون إن أردتم أن تعرفوا حقيقتها فلا بد لها من ثبوت ، والحق ثابت لا يتغير أبداً لأن له واقعاً يُستقرأ ، ومثال ذلك إذا حصلت حادثة بالفعل أمامنا جميعاً ، ثم طلب من كل واحد على انفراد أن يقول ما رآه فلن نختلف فى الوصف لأننا نستوحى واقعاً ، لكن إن كانت القضية غير واقعة فكل واحد سيقولها بشكل مختلف ، ولذلك نجد من لباقة القضاء أن القاضى يحاور الشهود محاورات ليتبيّن ما يثبتون عليه وما يتضاربون فيه . وإن كان الشهود يستوحون حقيقة واقعة ، فلن يختلفوا فى روايتهم ، ولكنهم يختلفون حين لا يتأكد أحدهم من الواقعة أو أن تكون غير حقيقية .

والمثل العربى يقول : « إن كنت كذوباً فكن ذكوراً » أى إن كذبت ـ والعياذ بالله ـ وقلت قولاً غير صادق فعليك أن تتذكر كذبتك ، وأنت لن تتذكرها لأنها أمر متخيّل وليس أمراً ثابتاً . وقد يجوز أن يأخذ غير الواقع زهوة ولمعاناً فنقول : إياك أن تغتر بهذه الزهوة لأن الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة الرعد)

لقد شبه سبحانه الباطل بالزبد وهو ما يعلو السائل أو الماء من الرغوة والقش والمخلفات التى تعوم على سطح المياه إنه يتلاشى ويذهب ، أما ما ينفع الناس فيبقى . ونحن نختبر المعادن لنعرف هل هى مغشوشة أو لا . . ونعرضها على النار ، فيطفو ما فيها من مادة غير أصيلة وما فيها من شوائب ، ويبقى فى القاع المعدن الأصيل .

وهنا يقول الحق على لسان موسى :

﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

والأحداث إما فعل أو قول ، والقول : عملية اللسان ، والفعل : لبقية الجوارح ، وكل الأحداث ناشئة عن قول أو عن فعل ، والقول والفعل معاً هما « عمل » . ولذلك يقول الحق :

﴿ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾

(من الآية ٢ سورة الصف)

إذن فالعمل يشمل القول ، ويشمل الفعل .

وقوله الحق : ﴿ وباطل ما كانوا يعملون ﴾ إن الأصنام التى كانوا يصنعونها ويعبدونها ، كانت تقوم على أقوال وأفعال ، كأن يقولوا : ياهبل ، يا لات ، يا عزّى ، ويناجون هذه الأصنام ويطلبون منها أن تحقق لهم بعضاً من الأعمال وكانوا يقفون أمامها صاغرين أذلاء ، إذن فقد صدر منهم قول وفعل يضمهما معاً العمل .

ويتابع الحق على لسان موسى عليه السلام :

﴿ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ ﴾

هم حينما قالوا لموسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ، قال لهم أولاً : ﴿ إنكم قوم تجهلون ﴾ ، ثم قال : ﴿ إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون ﴾ ، وبعد ذلك رجع إلى الدليل على أن هذا طلب جهل ، وأن الذين يعبدون الأصنام

من دون الله إنما يفعلون باطلاً ؛ فقال : ﴿ قال أغير الله أبغيكم إلهاً وهو فضلكم على العالمين ﴾ .

وقوله : ﴿ أغير الله ﴾ أى أن الإله الذى عرفتم بالتجربة العملية أنه فضلكم على العالمين ورأيتم ما صنع بعدوكم الذى استذلكم وسامكم سوء العذاب ، إنه قد أهلكه ودمره ، هل يمكن أن تطلبوا ربًا غيره ؟

وقوله : ﴿ قال أغير الله أبغيكم ﴾ أى أأطلب لكم إلهاً غيره ؟ وفى سؤاله هذا استنكار لأنه يتبعه بتفضيل الله لهم على العالم ، ثم أراد أن يذكرهم بقمة التفضيل لهم فيقول سبحانه على لسان موسى :

﴿ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾ ﴾

وإذا سمعت « إذ » فافهم أن معناها ظرف زمان يريد الحق أن نتذكر ما حدث فيه ، و « إذ » يعنى اذكروا جيداً ولا يغب عن بالكم حين أنجاكم الله من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب وأفظعه وأشده .

ويقول بعدها مبيناً ومفسراً ذلك العذاب : ﴿ يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم ﴾ .

ونلحظ أنه لم يأت بالعطف هنا ، فلم يقل : يسومونكم سوء العذاب ويقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم . مما يدل على أنه جاء بقمة سوء العذاب ؛ لأن الاحتقار ، والتسخير هما جزء من العذاب . لكن قمة العذاب هى تقتيل الأبناء ، واستحياء النساء .

وفى آية ثانية يقول سبحانه :

﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ ﴾

(من الآية ٤٩ سورة البقرة)

أى أنهم تعرضوا للتقتيل ، وتعرضوا للتذبيح ، وفى آية ثالثة يقول :

﴿ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ ﴾

(من الآية ٦ سورة إبراهيم)

لقد جاء بـ « الواو » هنا للعطف . لأن المتكلم هنا مختلف ، فقد يكون المتكلم الله ، وسبحانه يمتن بقمة النعم . لكن : ﴿ إذ قال موسى لقومه اذكروا ﴾ ، فموسى يمتن بكل النعم التى ساقها الله إلى بنى إسرائيل صغيرة وكبيرة .

ويذيل الحق الآية الكريمة : ﴿ وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم ﴾ .

هو بلاء شديد الإيلام والوقع لفراق من يقتل أو يذبح ، وبلاء آخر فى الهم والحزن على من يستبقى من النساء لاستباحة أعراضهن وامتهانهن فى الخدمة .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ ﴾

وعلمنا من قبل فى مسألة الأعداد أن هناك أسلوبين : الأسلوب الأول إجمالى ،

والثانى تفصيلى ؛ فمرة يتفق التفصيل مع الإجمال ، وبذلك لا توجد شبهة أو إشكال ، وسبحانه فى سورة البقرة يقول :

﴿ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾

(من الآية ٥١ سورة البقرة)

جاء بها هناك بالإجمال . ولكنه شاء هنا فى سورة الأعراف ألا يأتى بها مرة واحدة مجملة . بل فصلها بثلاثين ليلة ثم أتمّها الحق بعشر أخر لمهمة سنعرفها فيما بعد ، ليكون الميقات قد تم أربعين ليلة ، وإذا جاء العدد مجملاً مرة ، ومفصلاً مرة ، واتفق الإجمال مع التفصيل فلا إشكال . لكن إذا اختلف الإجمال عن التفصيل فعادة يُحْمَل التفصيل على الإجمال ، لأن المفصَّل يمكن أن يتداخل ليصير إلى الإجمال .

وضربنا من قبل المثل فى خلق السماء والأرض فى ستة أيام ، وكل آيات الخلق تأتى بخبر الستة الأيام وهى مجملة . لكنه شاء سبحانه فى موضع آخر بالقرآن أن يقول :

﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾

(سورة فصلت)

وظاهر الأمر هنا أن المهمة قد اكتمل أمرها وخلقها فى ستة أيام ، لكنه قال جل وعلا بعدها :

﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ۖ قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ ﴾

(الآية ١١ وجزء من الآية ١٢ سورة فصلت)

وهنا فى موقف أيام خلق الدنيا نجد إجمالاً وتفصيلاً ، والتفصيل يصل فى ظاهر

الأمر بأيام الخلق إلى ثمانية ، والإجمال يحكى أنها ستة أيام فقط .

فهل هى ستة أيام أو ثمانية أيام ؟ نقول : إنها ستة أيام لأننا نستطيع أن ندخل المفصل بعضه فى بعضه ، فإذا قلت : سافرت من مصر إلى طنطا فى ساعتين ، وإلى الإسكندرية فى ثلاث ساعات ، فمعنى هذا القول أن الساعتين دخلتا فى الثلاث الساعات : ﴿ وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر ﴾ .

والوعد هو أن الله وعد موسى بعد أن تحدث عملية إنجاء بنى إسرائيل أنه ـ سبحانه ـ سينزل عليه كتاباً يجمع فيه كل المنهج المراد من خلق الله لتسير حركة حياتهم عليه ، لكن ما إن ذهب موسى لميقات ربه حتى عبدوا العجل ، فى مدة الثلاثين يوماً ولم يشأ الله أن يرسل موسى بعد الثلاثين يوماً بل أتمها بعشر أخر حتى لا يعود موسى ويرى ما فعله قومه ؛ لأنه بعد أن عاد أمسك برأس أخيه يعنفه ويشتد عليه ويأخذ بلحيته يجره إليه إذ كيف سمح لبنى إسرائيل أن يعبدوا العجل . وفى ذلك يقول الحق على لسان هارون :

﴿ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾ ﴾

(سورة طه)

فكأن العشرة أيام زادوا عن الثلاثين يوماً ليعطيك الصورة الأخيرة الموجودة فى سورة البقرة .

وهنا يقول الحق فى سورة الأعراف :

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾

(من الآية ١٤٢ سورة الأعراف)

و « اخلفنى » أى كن خليفة لى فيهم إلى أن أرجع وذلك فيما هو مختص بموسى من الرسالة فاستخلاف موسى لهارون ليس تكليفاً لهارون بامتداد إرسال الله لموسى وهارون ، فأسلوب تقديم موسى وهارون أنفسهما لفرعون جاء بضمير التثنية التى تجمع بين موسى وهارون :

﴿ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ ﴾

(من الآية ٤٧ سورة طه)

لأن كلًّا منهما رسول ، وقول الحق : ﴿ وقال موسى لأخيه هارون ﴾ فيه التحنن ، أى أننى لى بك صلة قبل أن تكون شريكاً لى فى الرسالة فأنا أخ لك وأنت أخ لى ، ومن حقى عليك أن تسمع كلامى وتخلفنى . فالأخوة مقرونة بأنك شريك معى فى الرسالة ، إذن نجد أن موسى قد قدم حيثية الأخوة ، والمشاركة فى الرسالة . وأكد موسى عليه السلام بكلمة « قومى » أنهم أعزاء عليه ، ولا يريد بهم إلا الخير الذى يريده لنفسه ، فإذا جاءكم بأمر فاعلموا أنه لصالحكم ، وإذا نهاكم نهيًا فاعلموا أن موسى هو أول من يطبقه على نفسه .

وقيل كان موسى عليه السلام قد قام بإعداد نفسه للقاء ربه ، ولابد أن يكون الإعداد بطهر وبتطهير وبتزكية النفس بصيام ، فصام ثلاثين يوماً ، وبعد ذلك أنكر رائحة فمه ، فأخذ سواكاً وتسوك به ليذهب رائحة فمه ، فأوضح الحق سبحانه له : أما علمت يا موسى أن خلوف فم الصائم أطيب عندى من ريح المسك . وما دمت قد أزلت الخلوف وأنا أريد أن تقبل علىّ بريح المسك فزد عشرة أيام ؛ حتى تأتى كذلك . وقال بعض العلماء : إن تفصيل الأربعين إلى ثلاثين وإلى عشرة ، لأن الثلاثين يوماً هى الأيام التى عبد فيها القوم بعد موسى العجل ، فكان ولابد أن تكون هناك فترة من الفترات ؛ حتى يميز الله الخبيث من الطيب .

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾

(من الآية ١٤٢ سورة الأعراف)

وهنا أمر ونهى « أصلح » هى أمر ، و « لا تتبع » هى نهى ، ونعرف أن كل تكاليف الحق سبحانه وتعالى محصورة فى « افعل كذا » ، و « لا تفعل كذا » ، ولا يقول الحق للمكلَّفين : « افعلوا كذا » إلا إذا كانوا صالحين للفعل ولعدم الفعل ، وإن قال لهم : « لا تفعلوا » فلا بد أن يكونوا صالحين أيضاً للفعل ولعدم الفعل ، ولذلك أوضحنا من قبل أن الله ركز كل التكليف فى مسألة آدم وحواء فى الجنة فقال : ﴿ وكلا منها رغداً حيث شئتما ﴾ ، وكان هذا هو الأمر . وقال : ﴿ ولا تقربا هذه الشجرة ﴾ ، وهذا نهى : ﴿ وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين ﴾ .

وكلمة « أصلح » تستلزم أن يبقى الصالح على صلاحه فلا يفسده ، وإن شاء أن يزيد فيه صلاحاً فليفعل . وقوله : ﴿ ولا تتبع سبيل المفسدين ﴾ لأنه قول موجه لنبى وهو هارون ، لا يتأتى منه الإفساد ، ولكنَّ موسى أعلمه أنه ستقوم فتنة بعد قليل ، فكأن موسى قد ألهم أنه سيحدث إفساد ، فقصارى ما يطلبه من أخيه هارون ألَّا يتبع سبيل المفسدين ، ولذلك سيقول هارون بعد ذلك مبرراً تركه بنى إسرائيل على عبادة العجل بعد أن بذل غاية جهده فى منعهم وإنذارهم حتى قهروه واستضعفوه ولم يبق إلا أن يقتلوه .

﴿ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴾

(من الآية ٩٤ سورة طه)

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ ﴾

والميقات هو الوقت الذى يعد لعمل من الأعمال ، ونسميه وقت العمل . وغلب على أشياء فى الإسلام ، كمواقيت الحج . ونحن نعلم أن كل عمل وحدث يتطلب أمرين يُظْرَف فيهما ، أى يكونان ظرفاً له ؛ فلا بد له من مكان يحدث فيه ، ومن زمان يحدث فيه كذلك ، واسمهما ظرف الزمان ، وظرف المكان . إلا أن ظرف الزمان غير قار أى غير ثابت ؛ فقد يأتى الصبح ويذهب ويأتى بعده ، الظهر ، والعصر والمغرب والعشاء . لكن ظرف المكان قار وثابت .

والمواقيت ـ إذن ـ إما أن يتحكم فيها الزمان ، وإما أن يتحكم فيها المكان ، وإما أن يتحكم فيها المكان والزمان معاً . فإذا أخذنا المواقيت على أنها زمن كل فعل نجد فريضة « الصوم » لها زمن محدد وهو رمضان . فالذى يتحكم فى الصوم هو الزمن ، فيكون ويحدث فى أى مكان . وكذلك صيام عرفة يتحكم فيه أيضاً الزمان لأنه صيام يوم عرفة ، ومن يجلس فى أى مكان يصوم يوم عرفة ولكنه غير مطلوب من الحاج . ولكن الوقوف بعرفة يتحكم فيه المكان والزمان معاً . والإحرام بالحج أو العمرة يتحكم فيه المكان وهو ما يسمى بالميقات المكانى ولكل أهل جهة ميقاتهم المكانى الذى يطلب منهم ألاّ يمروا عليه إلاّ وهم محرمون . فمرة يتحكم الزمان ، ومرة يتحكم المكان ، وثالثة يتحكمان معاً .

وجاء موسى لميقاتنا المضروب له بعد أربعين ليلة .

وهل جاء موسى للميقات أو جاء فى الميقات ؟ لقد جاء فى الميقات ، واللام تأتى بمعنى « عند » . ونعلم أن « اللام » تأتى بمعنى « عند » كثيراً فى القرآن ، مثل قوله :

﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ ﴾

(من الآية ٧٨ سورة الإسراء)

أى أقم الصلاة عند دلوك الشمس أى عند زوالها عن وسط وكبد السماء إلى غسق الليل . ومن الدلوك إلى الغسق نجد صلاة الظهر ثم العصر ثم المغرب ثم العشاء ، وهذه أربعة فروض ، وبقى الفرض الخامس وهو الفجر ، وقال فيه الحق :

﴿ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾

(من الآية ٧٨ سورة الإسراء)

ولماذا بدأ بدلوك الشمس ؟ وهل النهار يبدأ بالظهر أو يبدأ بالصبح ؟ . إن الإسراء والمعراج كانا ليلاً ، ورسول الله جاء صباحاً إلى مكة ، وقد فرضت الصلاة فى المعراج ، فكانت أول فريضة هى الظهر ، وكأن الحق يعنى خذ الغاية وخذ البداية ، وكانت البداية هى صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء وبقى الفجر ،

وجاء فيه : ﴿ وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً ﴾ .

ثم يخص الله رسوله بالتهجد وهو قيام الليل إنه فرض على رسول الله دون غيره ، فإنه بالنسبة لسائر الأمة تطوع .

﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

ومن يتشبه برسول الله فله الثواب الجزيل والأجر العظيم ولكن هذا الأمر مرجعه إلى اختيار المسلم : ﴿ ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه ﴾ .

وهذه المسألة تحتاج إلى بحث ، وقوله سبحانه : ﴿ وكلمه ربُّه ﴾ هو قول يدل على أن كلاماً حصل من الله لموسى فكيف يحدث ذلك وسبحانه قد قال فى مسألة الكلام بالنسبة للبشر كلاماً عاماً :

﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ﴾

(من الآية ٥١ سورة الشورى)

وفى هذا نفى أن يكلم الله البشر . إلا بالوسائل الثلاث : الوحى أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً ، والوحى بالنسبة للأنبياء يكون بإلقاء المعنى فى قلب النبى دفعة ، مع العلم اليقينى بأن ذلك من الله عز وجل ، وقد يراد بالوحى الإلهامات ؛ مثل الوحى إلى أم موسى ، والوحى إلى الحواريين ، وكذلك إلى الملائكة ، وقد يراد بالوحى : التسخير ؛ كالوحى للأرض ، والنحل .

وبعد ذلك . . « أو من وراء حجاب » أى أن يسمع كلاماً ولا يرى متكلماً ، « أو يرسل رسولاً » هو جبريل عليه السلام . والقرآن لم ينزل إلا بطريقة واحدة ، بواسطة نزول جبريل على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم . فما نزل القرآن بالإلهام ، وما نزل القرآن من وراء حجاب بل نزل بواسطة رسول من الله وهو جبريل وله علامات .

وهنا فى كلام موسى نقول إن الكلام وقع فيه من وراء حجاب وهنا نمسك عن الخوض فيما وراء ذلك لأنه غيب لم يكشف لنا عنه ونترك الأمر فيه لله .

وقد سبق أن قلنا : إن صفات الله لا يوجد مثلها فى البشر . فليس وجود الإنسان كوجود الله ، وليس غنى الإنسان كغنى الله ، وكذلك لن يكون أبداً كلامك ككلام الله ، لأن كل شىء يخص الله إنما نأخذه فى إطار « ليس كمثله شىء » . وقد بين الحق سبحانه وتعالى أن كلامه لموسى تميز لموسى ، ولذلك يقول الحق :

﴿ إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي ﴾

(من الآية ١٤٤ سورة الأعراف)

ويجب أن نأخذ كل وصف يوجد فى البشر ، ويوجد مثله . فى وصف الله مثل « استوى » ، و « جلس » و « وجه » ، و « يد » نأخذ كل ذلك فى إطار « ليس كمثله شىء » .

﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ﴾

(من الآية ١٤٣ سورة الأعراف)

وحينما خص الله موسى بميزة أن تكلم إليه ، حصل من موسى استشراق اصطفائى ، وكأنه قال لنفسه : مادام قد كلمنى فقد أقدر أن أراه ؛ لأن استطابة الأنس تمد للنفس سبل الأمل فى الامتداد فى الأشياء مثلما قال موسى من قبل رداً على سؤال الله :

﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة طه)

كان الجواب يكفى أن يقول : « عصا » لكنه قال :

﴿ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي ﴾

(من الآية ١٨ سورة طه)

قال ذلك على الرغم من أن الحق لم يسأله : ماذا تفعل بها ؟ وأراد بالكلام أن

يطيل الأنس بربه ، وكأنه عرف أنه من غير اللائق أن يكون الجواب مجرد كلمة رداً على سؤال . ولله المثل الأعلى ـ نجد الإنسان منا حين يرى طفلاً صغيراً فهو يداعبه ويطيل الكلام معه إيناساً له . وحين وجد موسى أن الله يكلمه استشرفت نفسه أن يراه : ﴿ ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرنى أنظر إليك ﴾ .

لم يقل موسى : أرنى ذاتك . بل قال : ﴿ أرنى أنظر إليك ﴾ كأنه يعلم أنه بطبيعة تكوينه يعرف أنه لا يمكن أن يرى الله ، لكن إن أراه الله ، فهذا أمر بمشيئة الحق . وقدم موسى الطلب معلقاً بمشيئة الله وإرادته ؛ لأنه يعلم أنه غير معد لاستقبال رؤية الله ؛ لأن تكوينه لا يقوى على ذلك ، وحتى فى الوحى والكلام لم يكلم ربنا الناس مباشرة ، بل لابد أن يصطفى من الملائكة رسلاً ، ثم تكون مرحلة ثانية أن يصطفى من البشر رسلاً ، ويبلغ الرسل الناس كلام الله ؛ لأن الصفات الكمالية العليا الخالقة لا يمكن أن يستوعبها المخلوق .

ضربنا المثل من قبل ـ ولله المثل الأعلى ـ بصناعات البشر ، وأن الإنسان حين ينام ليلاً ، قد يستيقظ لأى شىء ، فإذا كانت الدنيا ظلاماً قد يحطم الأشياء التى هى أقل منه أو تحطمه الأشياء التى هى أكثر صلابة منه ؛ وإن اصطدم بشىء صغير فقد يكسره ، وإن اصطدم بدولاب أو حائط فقد ينكسر الإنسان . ولذلك ترك الإنسان فى البيت شيئاً من النور الضئيل ؛ ليستفيد من سكون الليل وظلمته ، فيضع ما نسميه « الوناسة » قوة شمعتين أو خمس شمعات ، ولا يقدر أن يركبها على قوة التيار الموجود فى المنزل ؛ لأنها تفسد فوراً ، لذلك يأتى لها بمحول يأخذ من القوى ويعطى الضعيف .

إذن إذا كانت صناعة البشر نجد فيها الضعيف الذى لا يأخذ من القوى إلا بواسطة ، فمن باب أولى أنه لا يمكن أن يتلقى خلق الله عن الله إلا بواسطة . وكانت الواسطة من البشر اصطفاء ومن الملائكة اصطفاء ، فليس كل ذلك صالحاً لهذه المسألة ، فمصطفى من الملائكة يعطى مصطفى من البشر .

وبعد ذلك يعطى المصطفى من البشر للبشر . كذلك الرؤية وسيظهر ذلك لنا حينما يعطى الله الدليل على أنه خلقكم لا على هيئة أن تروه الآن ، ولكن حين

تبرزون فى الآخرة وتعدون إعداداً آخر ، فمن الممكن أن تنالوا شرف رؤيته : ﴿ وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة ﴾ .

ولا يستوى الناس فى ذلك ؛ لأن المؤمن هو من ينال شرف النظر إلى الله ، أما الكافر فهو محجوب عن رؤية الحق . يقول تعالى فى شأن الكفار : ﴿ كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ﴾ فلا يستوى المؤمن والكافر فى هذه الحالة ، فمادام الكافر محجوبا فالمؤمن غير محجوب ويرى ربّه . وقال موسى : ﴿ رب أرنى أنظر إليك ﴾ . قال الحق : ﴿ قال لن ترانى ﴾ .

وفى اللغة نجد أن « لن » تأتى تأبيدية ، أى تؤبد المستقبل أى لا يحدث ولا يتحقق ما بعدها . فهل معنى ذلك أن قول الحق : ﴿ لن ترانى ﴾ أن موسى لن يرى الله فى الدنيا ولا فى الآخرة ؟ . ونقول : ومن قال إن زمن الآخرة هو زمن الدنيا ؟ إن هذه لها زمن وتلك لها زمن آخر :

﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ ﴾

(سورة إبراهيم)

إذن فزمن الآخرة وإعادة الخلق فيها سيكون أمراً آخر ، يكفى أن أهل الجنة سيأكلون ولن تكون لهم فضلات ، إنه خلق جديد . إن مجىء « لن » فى قوله الحق : ﴿ لن ترانى ﴾ تأبيدها إضافى ، أى بالنسبة للدنيا ، وفيها تعليل لعدم قدرة موسى على الرؤية ، وأضاف سبحانه :

﴿ وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ﴾

(من الآية ١٤٣ سورة الأعراف)

وسبحانه هنا يعلل لموسى بعملية واقعية فأوضح : لن ترانى ولكن حتى أطمئنك أنك مخلوق بصورة لا تمكنك من رؤيتى انظر إلى الجبل ، والجبل مفروض فيه الصلابة ، والقوة ، والثبات ، والتماسك ؛ فإن استقر مكانه ، يمكنك أن ترانى . إن الجبل بحكم الواقع ، وبحكم العقل ، وبحكم المنطق أقوى من

الإنسان ، وأصلب منه وأشد ، ولما تجلّى ربه للجبل اندك . والدكُّ هو الضغط على شيء من أعلى ليسوَّى بشيء أسفل منه . والحق هو القائل :

﴿ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ ﴾

(سورة الفجر)

وهنا فى موقف موسى وحواره مع الله يتأكد لنا أن الله تجلى على خلق من خلقه ، ولكن أيقدر المتجلَّى عليه على هذا التجلى أم لا يقدر ؟ . إن أقدره الله فهو يقدر ، أما إن لم يقدره الله فلن يقدر . والجبل هو الأصلب ، فلما تجلى له ربه اندك ، إذن فمن الممكن أن يتجلى الله على بعض خلقه ، ولكن المهم أيقوى المستقبل للتجلى أو لا يقوى ؟ ولم تقو طبيعة موسى على التجلى لله بدليل أن الأقوى منه لم يقو . وبعد ذلك أراد الله أن يلفتنا لفتة تصاعدية . ويبين لنا أن موسى قد صعق لرؤية المتجلَّى عليه فكيف لو رأى المتجلَّى ؟ !! ﴿ فلما تجلَّى ربه للجبل جعله دكًّا وخرَّ موسى صعقا ﴾ . ويقال : خر الشيء إذا سقط من أعلى إلى أسفل ، ويقول الحق فى آية قرآنية :

﴿ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا ﴾

(من الآية ٢٤ سورة ص)

والحق يخبرنا هنا : ﴿ وخر موسى صعقا ﴾ ، وصعقه تُطلق ويراد بها الوفاة ، ولكن هنا صعقة أخرى تعبر عن الإغماءة الطويلة . وصعقة الوفاة يقول فيها الحق سبحانه :

﴿ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾

(من الآية ٦٨ سورة الزمر)

إذن النفخة الأولى لصعق وموت الجميع ، ثم تأتى النفخة الثانية للبعث . وهنا يقول الحق : ﴿ فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك ﴾ . وهذا يدل على أن الصعقة ليست هى الصعقة المميتة ، وأفاق سيدنا موسى من الصعقة ، وانتبه إلى أنه لم يكن من اللائق أن يطلب الرؤية المباشرة لله . وكما نقول : « فلان فاق

لنفسه » وهنا « أفاق » موسى على حاجتين اثنتين ، أفاق من الغشية التى حصلت له من الصعقة ، وكأنه تساءل : لماذا انصعقت ؟ لقد انصعق لأنه سأل ربنا ما ليس له به علم : ﴿ فلما أفاق قال سبحانك ﴾ ، وساعة تسمع كلمة « سبحانك » اعرف أنه يراد بها التنزيه لله من الحدث الذى نحن بصدده وهو رؤيته ـ تعالى ـ أى تنزيها لك يارب أن يراك مخلوقك ؛ لأن الرؤية قدرة بصر على مرئى ، ومعنى: « رأيت الشىء » أى أن عين البشر قد قدرت على الشىء ، ولو أننا نحن المخلوقين رأينا الله بقانون الضوء ، فهذا يعنى أن أبصارنا تقدر على ربنا وهذا لا يمكن أبداً ؛ لأن المقدور لا ينقلب قادراً ، والقادر لا ينقلب مقدوراً .

﴿ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

(من الآية ١٤٣ سورة الأعراف)

وتوبة موسى هنا من أنه سأل الله ما ليس له به علم ، ولأنه لم يقف عند التجليات المخالفة لنواميس الكون ، وأنَّ ربنا قد أعطاه بدون أن يسأل ، لقد كلمه الله ، فلماذا يُصعد المسألة ويطلب الرؤية ؟ ولماذا لم يترك الأمور للفيوضات التى يعطيها الله له ويتنعم بفيض جود لا ببذل مجهود ؟ .

ويقرر موسى ويقول : ﴿ وأنا أول المؤمنين ﴾ ، أى بأنّ ذاتك ـ سبحانك ـ لا يقدر مخلوق أن يراها ويدركها . لقد شعر موسى ببعض من انكسار الخاطر لأنه طمح إلى ما يفوق استطاعته وقال : ﴿ سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين ﴾ وكأنه قد فهم ما أوضحه الحق له : لا تلتفت إلى ما منعتك ، ولكن انظر إلى ما أعطيتك :

﴿ قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَـٰلَـٰتِى وَبِكَلَـٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾

والاصطفاء هو استخلاص الصفوة ، وقوله : ﴿ اصطفيتك على الناس ﴾ تعبير

فيه دقة الأداء لأنه لو قال اصطفيتك فقط ، ولم يقل على الناس ، فقد يُفهم الاصطفاء على الملائكة أيضاً . ولكن الاصطفاء هنا محدد فى دائرة الاصطفاء البشرى : ﴿ إنى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى ﴾ . ولقائل أن يقول : إن الحق اصطفى غيره أيضاً من الرسل ، والحق هو القائل :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا ﴾

(من الآية ٣٣ سورة آل عمران)

ونقول : هناك فرق بين اصطفاء رسالة منفردة ، وبين اصطفاء فى رسالة ومعها شىء زائد ، وأضرب هذا المثل ـ ولله المثل الأعلى ـ فإذا جئت كمدرس لتلاميذ وأعطيت واحداً منهم هدية عبارة عن قلم كمكافأة ، ثم أعطيت الثانى قلماً وزجاجة حبر ، أنت بذلك اصطفيت التلميذ الأول بهدية القلم ، واصطفيت الآخر باجتماع قلم وزجاجة حبر فى هدية واحدة . والاصطفاء هنا لموسى بالرسالة كما اصطفى غيره من الرسل بالإضافة إلى شرف الكلام : ﴿ اصطفيتُك على الناس برسالاتى وبكلامى ﴾ .

وعرفنا من قبل أن « رسالاتى » هى فى مجموعها رسالة واحدة ، ولكن الرسالة مع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم استمرت جزئياتها ثلاثاً وعشرين سنة فى النزول ، فكأن كل نجم رسالة ، أو كل باب من أبواب الخير رسالة ، فهى رسالات متعددة ، أو أن رسالته جمعت رسالات السابقين :

﴿ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

أى لا تنظر إلى ما منعتك ، بل اذكر أنى اصطفيتك وكلمتك وعليك أن تشكر لى هذا . ولذلك يجب على الإنسان المؤمن حين يتلقى قضاء الله فيه أن ينظر دائماً إلى ما بقى له من النعم . لا إلى ما سلب عنه من النعم . ولذلك نجد المؤمن المتفائل ينظر إلى الكوب الذى نصفه مملوء بالماء فيقول : الحمد لله نصف الكوب ملآن . أما المتشائم فيقول : إن نصف الكوب فارغ ، وبرغم أن كُلاًّ منهما

يقرر الحقيقة إلا أن المؤمن المتفائل نظر إلى ما بقى من نعم الله .

إننا نجد ابن جعفر حين ذهب للخليفة الأموى فى دمشق وجرحت رجله فى أثناء السير من المدينة إلى دمشق ، ولم تكن هناك عناية طبية فتقيحت ، وحين أحضروا له الأطباء وقرروا قطع رجله ، قال بعض الحاضرين : التمسوا له مرقداً أى دواء تخدير يجعله لا يحس بالألم ، فقال : لا ، فإنى لا أريد أن أغفل عن ربى لحظة عين ، فلما قطعوها أخذوها ليدفنوها ، فقال هاتوها . فأحضروها له وأمسك بها وقال : اللهم إن كنت قد ابتليت فى عضو فقد عافيت فى أعضاء .

هذه نظرة المؤمن الذى لا ينظر إلى ما أُخذ منه ، بل ينظر إلى ما بقى له . وكذلك كان توجيه الحق لموسى عليه السلام ، فقد أوضح له : لا تنظر إلى أنى منعتك الرؤية ، لا ، بل انظر الاصطفاء وشرف الكلمة إلى الخالق واشكر ذلك .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ ﴾

والكتْب هو الرقم بقلم على ما يكتب عليه من ورق أو جلد أو عظم أو أى شىء ، وعندما يقول ربنا : ﴿ وكتبنا ﴾ فالله لم يزاول الكتابة بنفسه ، ولكن رسله من الملائكة يكتبون بأمر من الحق وهو القائل :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ ﴾

(من الآية ١٢ سورة يس)

وكتابة الرسل من الملائكة لأعمالنا هى بالأمر من الله ، ومرة ينسب الأمر إلى الأعلى ، أو ينسب إلى المباشر أو إلى الواسطة : ﴿ وكتبنا له فى الألواح من كل شىء موعظة وتفصيلا ﴾ .

ونحن نعرف الألواح ، وكنا نكتب عليها قديماً . وللكتابة على الألواح سبب ، فقديماً كانوا يكتبون على أي شيء مبسوط ، وتبين لنا الآثار أن هناك كتباً مكتوبة على جلود الحيوانات ، مثلاً نجد قدماء المصريين قد كتبوا على الأحجار ، مثل حجر رشيد الذى أتاح لنا معرفة تاريخهم . وكان العرب يكتبون على القحف المأخوذ من النخل ، وكذلك كتبوا على عظام الذبائح ، أخذوا منها قطعة العظم المبسوطة مثل عظم اللوح وكتبوا عليها ، وكانت هذه الوسيلة مشهورة جدًّا لديهم ، وصار كل مكتوب عليه يسمونه لوحاً .

﴿ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾

(من الآية ١٤٥ سورة الأعراف)

وقوله سبحانه : ﴿ من كل شىء ﴾ يعنى : من كل شىء تتطلبه خلافة الإنسان فى الأرض فى الوقت المناسب له ؛ فالرسل تأتى بعقيدة ، لكن قد يأتى تشريع مناسب للفترة الزمنية التى جاء فيها الرسول ، ويضيف الله لرسول آخر يأتى من بعده ، إلى أن جاء محمد صلى الله عليه وسلم بالمنهج المكتمل إلى قيام الساعة .

لقد أوضح سبحانه أنه كتب فى الألواح الموعظة والتفصيل لمنهج الحياة ، والموعظة تعنى ألاَّ تنشىء حكماً للسامع ، بل تعظه بتنفيذ ما عُلِم له من قبل ، ولذلك يقال : واعظ وهو الذى لا يُنشىء مسائل جديدة . بل يعرف أن المستمع يعلم أركان الدين ويعظه بما يعلم .

وقوله الحق سبحانه : ﴿ وتفصيلاً لكل شىء فخذها بقوة ﴾ أى أن الكلام لم يأت مجملاً ، بل يأتى بالتفصيل ، ويأمر الحق موسى أن يقبل على الموعظة والتفصيلات التى فى الألواح بقوة . ولماذا جاء الأمر هنا بأن يأخذها بقوة ؟ لأن الإنسان حين يؤمر أمراً قد يكون الأمر مخالفاً لرتابة ما ألف ، وحين يُنهى نهيا قد يكون هذا النهى مخالفاً لرتابة ما ألف . وبذلك ينزع هذا النهى أو ذلك الأمر الإنسان مما ألف، ويأخذه ويخرجه عما اعتاد .

إن الإنسان فى هذه الحالة يحتاج إلى قوة نفس تتغلب على الشهوة الرتيبة التى

تخلقها العادة ، ولذلك فمن يريد أن يقبل على منهج الله فعليه أن يعرف أن المنهج سوف يخرجه مما ألف ، ولابد له أن يقبل على المنهج بقوة وعزم ليواجه إلف النفس ، لأن إلف النفس قد يقول للإنسان : لا تفعل ، والمنهج يقول له : « افعل » وعلى المؤمن ـ إذن ـ أن يأخذ التكاليف بقوة ، لأن شهوات النفس تحقق متع الدنيا الزائلة ، والمنهج يعطى متعة طويلة الأجل .

إن الشهوة قد تحقق للإنسان لذة على مقدار قدرته واستعداده ، لكن التكليف يعطى للمؤمن نفعاً يتناسب مع طلاقة قدرة الله فى النفع . إذن لابد أن تشحن نفسك بما يعطيه الله لك من المنهج ، وإياك ساعة أن ترى المنهج مطالباً لك ببعض من الجهد أن تقول : إن تلك أمور صعبة لأنك لست وحدك فى المنهج ، بل معك غيرك . فإذا قال لك : لا تسرق ، إياك أن تقول : أيحدد المنهج حريتى ؟ لا ، لا تنظر إلى أن حظر وتحريم السرقة هو تحديد لحريتك بل هو صيانة لك من أن يعتدى عليك آخرون ؛ فقد قال المنهج للناس كلهم لا تسرقوا منه وأنت الكاسب فى هذه الحالة . ويتابع الحق بيان ما فى الألواح من قيم فيقول سبحانه : ﴿ وأمر قومك يأخذوا بأحسنها ﴾ .

« أحسن » تفيد أن هناك مرتبة أقل منها وهى « حسن » ؛ فأمرهم الحق أن يتركوا الحسن ويأخذوا بالأحسن ، ونعلم أن الإنسان من الأغيار ، إذا ما أصابته مصيبة من أحد يعتبره غريماً له ، فإذا ما كان للإنسان غريم تحركت نوازع نفسه إلى عقابه بمثل ما أصابه به . وهذا ما يبيحه الله فى القصاص ، ولكن الله يطلب من المؤمن إن قدر على نفسه أن يعفو ، إذن فالعقوبة بالقصاص أو بغيره مادامت مشروعة من الله بمثل ما عوقبت فهذه مرتبة الحسن ، لكن إذا تركت نوازع نفسك وعفوت فهذه مرتبة « الأحسن » ، وجاءت هذه الترقيات لأن الحق سبحانه وتعالى خلق فى الإنسان عواطف وغرائز ، وللعواطف والغرائز مهمة فى حركة الحياة ، ولكن العواطف لا يمكن أن يسيطر عليها الإنسان ، ولذلك لا يقنن الله للعاطفة ولكنه سبحانه يقنن للغرائز . كيف ؟ .

نحن نعلم أن « حب الطعام » غريزة ،ولكن يجب ألا يصل حب الطعام إلى مرتبة النهم والشره . وأيضاً « بقاء النوع » أو المتعة الجنسية أوجدها الحق من أجل

بقاء النوع . لكن لا يصح أن تتحول إلى درجة الشرود والوقوع فى أعراض الناس وانتهاك حرماتهم ، وحب الاستطلاع غريزة ، والذين اكتشفوا الكشوف العلمية جاءت أعمالهم من حب استطلاعهم على أسرار الوجود . لكن لا يصح ولا ينبغى أن يصل حب الاستطلاع إلى التجسس الاستذلالى .

إن للإنسان غرائز يعليها الشرع ؛ أمَّا الحب فهو مسألة عاطفية . فالمشرع ، يقول لك : أحبب من شئت وأبغض من شئت ، ولكن لا تظلمَ من أبغضته ولا تظلم الناس لحساب من أحببت .

ولنا فى رسول الله أسوة حسنة حين قال :

« لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وولده ووالده والناس أجمعين »[1] .

فقال عمر : كيف ؟ .

وكررها رسول الله فعلم عمر ـ رضى الله عنه ـ بفطرته أن ذلك أمر تكليفى . وعرف أن الحب المراد هو الحب العقلى . فيقول المؤمن لنفسه : من أنا لولا رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ . وكل مؤمن يحب رسول الله حبًّا عقليًّا ، وقد يتسامى إلى أن يصير حبًّا عاطفيًّا . والإنسان منا ـ كما قلنا سابقاً ـ يحب الدواء بعقله لا بعاطفته لأنه مُرّ ، ولكنه يغضب إن اختفى الدواء من الأسواق ويفرح بمن يأتى له به .

إذن التكليف يتطلب الحب العقلى . ومن أخبار سيدنا عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ عندما مرّ أمامه قاتل أخيه زيد بن الخطاب فقال له عمر : ازو نفسك عنى فأنا لا أحبك ، فرد الرجل بكل جرأة إيمانية : أو عدم حبك لى يمنعنى حقًّا من حقوقى ؟ . قال عمر : لا ، قال الرجل : إنما يبكى على الحب النساء .

---

(١) رواه أحمد والبخارى ومسلم والنسائى وابن ماجه .

راجع أصله وخرج أحاديثه الدكتور أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .

والحق يقول هنا : ﴿ يأخذوا بأحسنها ﴾ فمثلاً ، حين يُقْتَلُ إنسان فلولى الدم أن يقتص ، لكن الحق يحنن قلب ولى الدم على القاتل فيقول :

﴿ فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾

(من الآية ١٧٨ سورة البقرة)

وحين يسمى الحق القاتل أخاً فهو يهدىء من صراع العواطف ويخفف من رغبة الانتقام . ويقول سبحانه أيضاً :

﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾

(سورة الشورى)

ونجده سبحانه يؤكد أن مثل هذا الأمر من « عزم الأمور » لأنه أمر يتطلب الصبر والمغفرة . ومادام المؤمن قد استطاع أن يصبر وأن يغفر لغريم له ، أفلا يصبر إذا نزلت مصيبة عليه بدون غريم كمرض مفاجىء أو افتقاد حبيب ؟ . من إذن غريمك فى المرض ؟ وممن تغضب ، وعلى من تهيج وإلى أين انفعالك ؟ ولذلك يقول لك الحق سبحانه : ﴿ واصبر على ماأصابك ﴾ أى مما لا غريم لك فيه ، ويوضح لك سبحانه : ﴿ إن ذلك من عزم الأمور ﴾ . ونلحظ أن الحق هنا لم يؤكد « باللام » لكنه أكد الأخرى « باللام » ؛ لأن لك غريماً يهيجك ساعة أن تراه ، وفى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها يقول الحق لسيدنا موسى : ﴿ وأمر قومك يأخذوا بأحسنها ﴾ .

يعنى إذا وجدت لهم ذريعة ووسيلة وسبباً إلى شيء ويوجد ما هو أحسن فأمرهم أن يأخذوا بالأحسن ، لماذا ؟ ؛ لأن الإنسان إذا روَّض نفسه وذللها وعودها على الأحسن يكون قد فهم عن الله . ونفرض أن واحداً أساء إليك ويمكنك أن تسىء إليه ، فعليك أن تراعى فى ردك للإساءة أن تكون بقدرها مصداقاً لقوله الحق سبحانه :

﴿ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ﴾

(من الآية ١٢٦ سورة النحل)

ولكن مَن منا يتصف بالدقة فى الموازين النفسية حتى يستطيع أن يعرف المثلية بالهوى ؟ فإن كان هناك من صفعك وتريد أن ترد الصفعة ، فمن أين لك أن تقدر حجم الألم الذى فى صفعتك له ؟ . لا يمكن لك أن تحدد هذا القدر من الألم ؛ لأن هذه مسألة تتناسب مع القوة . إذن لماذا تدخل نفسك فى متاهات ، ولماذا لا تعفو وينتهى الأمر ؟

وحين يدلك الحق على أن العفو أحسن ، إنما يريد بذلك أن ينهى شراسة النفوس وضغن الصدور . فحين يقتل إنسانٌ إنسانا آخرَ ؛ سيكون هناك قصاص ودم ، ولكن إذا عفا وليّ الدم تكون حياة المعفو عنه هبة من وليّ الدم فيستحى القاتل ـ بعد ذلك ـ أن يجعل أية حركة من حركات هذه الحياة ضد وليّ الدم أو من ينسب إلى وليّ الدم ، وحينذاك تنتهى أى ضغينة أو رغبة فى الثأر ، ولذلك نجد البلاد التى تحدث فيها الثأرات وتستشرى فيها عادة الأخذ بالثأر ـ مثل صعيد مصر ـ نجد القاتل إذا ما أخذ كفنه على يده ودخل على وليّ الدم وقال له : أنا جئت إليك . . يعفو عنه وليّ الدم وتفهم العائلة كلها أن حياة المطلوب للثأر صارت هبة من وليّ الدم ، وتصفى الثأرات وتنتهى . ولذلك جاء الأمر من الحق بالأخذ بالأحسن : ﴿ وأمر قومك يأخذوا بأحسنها ﴾ . ومثال آخر على الأخذ بالأحسن ، قد نجد مديناً غير قادر أن يوفى الدين ، هنا نجد الحق يقول :

﴿ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ﴾

(من الآية ٢٨٠ سورة البقرة)

اقترض الرجل لأنه محتاج ؛ لأن القرض لا يكون إلا عن حاجة ، وهوعكس السؤال الذى قد يكون عن حاجة أو عن غير حاجة ، ولهذا نجد ثواب القرض أكثر من ثواب الصدقة ؛ لأن المقترض لا يقترض إلا عن حاجة ، ولأن المتصدق حين يتصدق بشىء من ماله يكون قد أخرج هذا المال من نفسه ولم يعد يتعلق به . لكن القرض تتعلق به النفس ، فكلما صبر المقرِض مع تعلق نفسه بماله أخذ أجراً ، وهكذا يكون القرض أحسن من الصدقة .

إذن فهناك حَسَن وهناك أحسن ، الحَسَن هو أن تأخذ حقك المشروع ، والأحسن أن تتنازل عنه ، ومن يتنازلون هم الفاهمون عن الله فهماً واسعاً ، ولنا

المثل والأسوة فى سيدنا الحسن البصرى ـ رضى الله عنه ـ الذى أحسن لمن أساء إليه فقال كلمته : « ألا نحسن إلى من جعل الله فى جانبنا » . ودائماً أضرب هذا المثل ـ ولله المثل الأعلى ـ هب أن إنساناً عنده أولاد وأساء واحد منهم للآخر . نجد قلب الأب يكون مع من أُسىء إليه ، وكذلك الأمر فينا نحن خلق الله . إن أساء واحد من خلق الله إلى واحد آخر من خلق الله ؛ نجد رب الخلق مع من أُسىء إليه ، وعلى من أسىء إليه أن يقول : هذا الإنسان الذى أساء إلى قد جعل ربنا فى جانبى ولذلك فهو يستحق أن أحسن إليه . ولهذا يقول الحق سبحانه :

﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ﴾

(من الآية ١٨ سورة الزمر)

وفى آية ثانية يقول الحق :

﴿ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم ﴾

(من الآية ٥٥ سورة الزمر)

ويذيل الحق الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها بقوله : ﴿ سأريكم دار الفاسقين ﴾ .

ودار الفاسقين هى النار ، وكأن الحق هنا يقول : سأريكم النار ، ونعلم أن كل البشر سيمرون عليها ويرونها ، ولكن المؤمنين سيعبرونها ويردون عليها ويدخلون الجنة . ولقائل أن يقول : ولماذا تأتى سيرة النار هنا ؟ ونقول : جاءت سيرة النار ليرهب ويخيف النفس ويحملها على أن تبتعد عن كل أمر يقرب إلى النار . والقول هنا أيضاً لبنى إسرائيل الذين نصرهم الحق على قوم فرعون وأخذوا منهم الكنوز والمقام الكريم . وكأن الحق يقول لهم : إن كنتم تحبون أن يكون مآلكم مثل مآل قوم فرعون فافعلوا مثلهم ، وإن كنتم لا تريدون هذا المآل فالتزموا منهج الحق .

إذن فقوله الحق : ﴿ سأريكم دار الفاسقين ﴾ معناه حملهم على ما فى الألواح من عظة ، وعلى أن يأخذوه بقوة ، وعلى أن يتبعوا أحسن ما أنزل الله . أو ﴿ دار

الفاسقين ﴾ هى المدائن التى دمرّت وخربت بتمرد وكفر وعصيان أهلها وفسقهم لتعتبروا فلا تفسقوا مثل فسقهم فينكل الله بكم مثل نكاله بهم ، وأنتم تمرون عليها فى الغدو والرواح .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ ﴾

والآيات جمع آية وهى الأمر العجيب ، وتطلق ثلاث إطلاقات ، فإما أن تكون آية كونية مثل قوله تعالى : ﴿ إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب ﴾ ، وإما أن تكون آية دلالة على صدق الرسول فى البلاغ ، وإما أن تكون آية قرآنية فيها حكم من أحكام الله ، وهنا يقول الحق :

﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾

(من الآية ١٤٦ سورة الأعراف)

إذن يوضح سبحانه هنا أنه سيصرف الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق عن أن ينظروا نظر اعتبار فى آيات الكون ، أو أن الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق سيبطل كيدهم فى أن يتجهوا للحق بالهدم ؛ لأن الواحد من هؤلاء ساعة يرى آية من آيات الله سينظر إليها على أنها سحر ، أو شعوذة ، أو أن يقول عنها إنها ضمن أساطير الأولين .

إذن وجه الصرف أن يسلط الحق عليه من الكبر ما يجعله غير قادر على وزن الآية بالميزان الصحيح لها ، والمتكبر هو من ظن أن غيره أدنى منه وأقل منزلة ، ومقومات الكبر قد تكون قوة ، لكن ألم يرَ المتكبر قويًا قد ضعف ؟ وقد يكون الثراء من مقومات التكبر ، لكن ألم يرَ المتكبر غنيًا قد افتقر ؟ أو يكون المتكبر صاحب جاه ، ألم يرَ المتكبر ذا جاه صار ذليلاً ؟ .

إذن فمن يتكبر ، عليه أن يتكبر بشيء ذاتي لا يُسْلَب منه أبداً . فإذا ما أردت أن تطبق هذا على البشر فلن تجد واحداً يستحق أن يكون متكبراً أبداً ؛ لأنه لا يوجد في الإنسان خاصية ذاتية فيه تلازمه ولا تفارقه أبداً ، بل كلها موهوبة ، ومن الأغيار التي تحدث وقد تزول . فكلها من الله وليست أموراً ذاتية ؛ لأن القوة فيك إن كانت ذاتية فحافظ عليها ، ولن تستطيع . وإن كان الثراء ذاتيًا فحافظ على غناك أبداً ، ولن تستطيع . وإن كانت العزة ذاتية فحافظ على عزتك أبداً ولن تستطيع . إذن فمقومات الكبرياء في البشر غير ذاتية .

وقوله سبحانه : ﴿ يتكبرون في الأرض بغير الحق ﴾ يفيد أن هناك كبرياء بحق لمن يملك في ذاته كل عناصر القوة والثراء والجاه والعزة ، ولذلك فالكبرياء لله وحده . واعلموا أن كل متكبر في الأرض لا يخطر الله بباله ؛ لأنه لو خطر الله بكماله وجلاله في باله لتضاءل ؛ لأن الله يخطر فقط ببال المتواضعين من الناس ، ولذلك نضرب هذا المثل : إننا نجد من حولنا إنساناً هو الرئيس الأعلى ، وهناك رئيس لطائفة ومرؤوس لآخر ، وهناك مرؤوس فقط . والرئيس المرؤوس لا يستطيع أن يجلس مع المرؤوسين له بتكبر ويضع ساقاً على ساق ويعطي أوامر ؛ لأنه قد يلتفت فيجد رئيسه وقد دخل عليه . فلو فعل الرئيس المرؤوس ذلك لضحك منه المرؤوسون له . فكذلك الناس الذين لا يستحضرون الله في بالهم نجدهم مثار سخرية ، لكن الذين يستحضرون الله الذي له الكبرياء في السموات والأرض لا يتكبرون أبداً .

إنه سبحانه يصرف عن المتكبرين النظر في الآيات الكونية فلا يعتبرون ، ويصرف عنهم تصديق الآيات الدالة على نبوة الأنبياء ، ويصرف عنهم القدرة على تصديق أحكام القرآن ، ويطبع على قلوبهم ، فما بداخل هذه القلوب من الكفر

لا يخرج ، وما فى خارج هذه القلوب من الإيمان لا يدخل . وهم برغم حركتهم فى الحياة إلا أن الحق يعجزهم عن رؤية آياته فى الكون .

﴿ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ﴾

(من الآية ١٤٦ سورة الأعراف)

وحين يرى أهل الكبر الآية الكونية أو الآية الإعجازية أو آيات الأحكام فهم لا يؤمنون بها ، وحين يرون سبيل الرشد لا يتخذونه سبيلاً ؛ لأن سبيل الرشد يضغط على شهوات النفس وهواها ، فينهى عن السيئات وهم لا يقدرون على كبح جماح شهواتهم لأنها تمكنت منهم ، ولكن سبيل الغى يطلق العِنان لشهوات النفس ، ولا يكون كذلك إلا إذا غفل عن معطيات الإيمان الذى يحرمه من شىء ليعطيه أشياء أثمن ، وهكذا تكون نظرة أهل الكبر سطحية . ونلحظ أن كلمة السبيل تأتى مرة كمذكر كقوله ؛ ﴿ لا يتخذوه سبيلاً ﴾ ، ومرة تأتى مؤنثة ، فالحق يقول : ﴿ قل هذه سبيلى ﴾ .

وهنا يقول الحق عن الذين يتبعون سبيل الغى من أهل الكبر : ﴿ ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين ﴾ . وقديماً قلنا إن الغفلة لا توجب الجزاء عليها ؛ لأن الغافل ساهٍ وناس ، ولكن هؤلاء صدفوا عن الأمر صدوفاً عقليًّا مقصوداً ، لدرجة أنهم لا يعيرون الإيمان أى التفات .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾ ﴾

وقد جاء لفظ الآيات هنا أكثر من مرة ، فقد قال الحق : ﴿ وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها ﴾ . ويقول أيضاً : ﴿ ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا ﴾ . ويقول سبحانه : ﴿ والذين كذبوا بآياتنا ﴾ .

إذن فالمسألة كلها مناطها فى الآيات الكونية للاستدلال على من أوجدها ، والإعجازية للاستدلال على صدق مَنْ أُرسل من الرسل ، والقرآنية لأخذ منهج الله لتقويم واستواء حركة الإنسان .

﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ ﴾

(من الآية ١٤٧ سورة الأعراف)

ويقال:حبط الشىء أى انتفخ وورم من علة أو مرض . أى أنهم فى ظاهر الأمر يبدو لهم أنهم عملوا أعمالا حسنة ولكنها فى الواقع أعمال باطلة وفاسدة ، وقد يوجد من عمل عملاً حسناً نافعاً للناس ، ولكن ليس فى باله أنه يفعل ذلك إرضاء لله ، بل للشهرة لينتشر ذكره ويذيع صِيته ويثنى الناس عليه ، أو للجاه والمركز والنفوذ . ولذلك حين سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : من الشهيد ؟ . قال :

« من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله »[1] .

لأن الرجل قد يقاتل حمية ، أو ليعرف الناس مثلاً أنه شجاع . إذن فهناك من يعمل عملاً ليفتخر به . ويقال مثلاً : إن الكفار هم من اكتشفوا الميكروب وصعدوا إلى الفضاء . ونقول : نعم لقد أخذوا التقدير من الناس لأن الناس كانت فى بالهم ، ولن يأخذوا التقدير من الله لأنهم عملوا أعمالهم وليس فى بالهم الله . والإنسان يأخذ أجره ممن عمل له ، والله سبحانه وتعالى لن يضيع أجر أعمالهم الحسنة ، بل أعطى لهم أجورهم فى الدنيا ، لكن حرث الآخرة ليس لهم .

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ﴾

(من الآية ٢٠ سورة الشورى)

---

(١) رواه أحمد والبخارى ومسلم وأبو داود والنسائى والترمذى وابن ماجه .

فمن زرع وأحسن اختيار البذور ، واختيار التربة وروى بنظام يأتى له الزرع بالثمر لأنه أخذ بالأسباب ، وهذا اسمه عطاء الربوبية وهو عطاء عام لكل مَن خلق الله ، مؤمناً كان أو كافراً ، عاصيًا أو طائعاً ، لكن عطاء الألوهية يكون فى اتباع المنهج بـ « افعل ولا تفعل » وهذا خاص بالمؤمنين ، فإذا ما أحسنوا استعمال أسباب الحياة فى السنن الكونية . يأخذون حظهم منها ، والكافرون أيضاً يأخذون حظهم منها إذا أحسنوا الأخذ بالأسباب ؛ ويكون ذلك بتخليد الذكرى وإقامة التماثيل لهم . وأخذ المكافآت والجوائز وحفلات التكريم . أما جزاء الآخرة فيأخذه من عمل لرب الآخرة ، أما من لم يفعلوا من أجل لقاء الله فهو سبحانه يقول فى حقهم :

﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ ﴾

(سورة الفرقان)

وكذلك يقول :

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً ﴾

(من الآية ٣٩ سورة النور)

فالكافرون مثلهم مثل الظمآن الذى يسير فى صحراء ويخيل له أن أمامه ماء ، ويمشى ويمشى فلا يجد ماء . أماغير الظمآن فلا يهمه إن كان هناك ماء أو لا يوجد ماء ، فالظمآن ساعة يرى السراب يمنى نفسه بأن المياه قادمة وأنه سيحصل عليها .

﴿ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا ﴾

(من الآية ٣٩ سورة النور)

وليس المهم أنه لم يجده شيئاً . بل يفاجأ : ﴿ ووجد الله عنده ﴾ . إنه يفاجأ بأن الإله الذى كان لا يصدق بأنه موجود يجده أمامه يوم القيامة فيوفيه حسابه ويجزيه على عمله القبيح . إذن فإن عمل الإنسان عملاً فلينتظر الأجر ممن عمل له ، وإن عمل الإنسان عملاً وليس فى باله الله فعليه ألاّ يتوقع الأجر منه ، وعلى الرغم من ذلك يعطى الله لهؤلاء الأجر فى قانون نواميس الحياة الكونية ؛ لأن من يحسن عملاً يأخذ جزاءه عنه :

﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

هم إذن كذبوا بآيات الله ، وكذبوا باليوم الآخر ، ولم يعملوا وفق منهج الإيمان ، فلهم جزاء وعقاب من الحق الذى أنزل هذا المنهج ، ولكنّهم أعرضوا عنه وكذبوه .

ولذلك يقول سبحانه :

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ ﴾

(سورة الكهف)

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٤٨﴾ ﴾

وقوله : ﴿ من بعده ﴾ أى من بعد ذهابه لميقات ربه بعد أن قال لهارون : ﴿ اخلفنى فى قومى ﴾ .

بعد ذلك اتخذ قوم موسى من حليهم عجلاً جسداً له خُوار ، ونعرف أن الحلى هو ما يُتزين به من الذهب ، والجواهر والأشياء الثمينة ، وسيد هذه الحلى هو الذهب دائماً ، ونعلم أن الصائغ الماهر يشكل الذهب كما يريد ، وإن انكسر يسهل إصلاحه ، كما أن كسر الذهب بطىء ، ولذلك يقال : إن الذهب كالإنسان

الطيب ،كسره بطىء ، وانجباره سهل .

وساعة نسمع كلمة « زينة » قد يدخل فيها الماس والزمرد ، والياقوت ، لكن الذهب سيد هذه الحلى . ونعلم أن العالم مهما ارتقى ، فلن يكون هناك رصيد لأمواله إلا الذهب ، ولذلك لم يأت سبحانه بالياقوت ، أو بالجواهر ، أو بالماس . ولذلك إذا أطلقت كلمة « الحلى » فالمراد بها الذهب .

وهذه الزينة هى التى صنع منها موسى السامرى تمثال العجل ، وبطبيعة الحال أخذ الحلى الذهبية لأن الماس والجواهر لا يمكن صهرها . لكن من أين جاء قوم موسى بالحلى وقد كانوا مستضعفين ، ومستذلين ؟ لقد احتالوا على أهل مصر وأخذوا منهم الحلى كسلفة سيردونها من بعد ذلك . ثم جاء رحيلهم فأخذوا الحلى معهم !

وغرق قوم فرعون وبقيت الحلى مع قوم موسى ، وصنع موسى السامرى من ذهب هذه الحلى عجلاً ، والعجل هو الذكر من ولد البقر ، وساعة تسمع قوله : ﴿ عجلاً جسداً ﴾ أى أنه مُجَسَّم ، أى له حجم واضح . وأخذ أهل التفسير من كلمة « جسداً » أن ذلك العجل هو بدن لا روح له ، مثلما نقول : « فلان هذا مجرد جثة » . أى كأنه جثة بلا روح .

وقوله الحق : ﴿ عجلاً جسداً له خوار ﴾ ، هذا القول يدل على أن جسدية العجل لم تكن لها حياة ؛ لأنه لو كان جسداً فيه روح لما احتاج إلى أن يقول عجلاً جسداً له خوار ، ولا كتفى بالقول بأنه عجل . لكن قوله سبحانه : ﴿ له خوار ﴾ دليل على أن الجسدية فى العجل لا تعطى له الحياة . وجاء بالوصف فى قوله : ﴿ له خوار ﴾ والخُوار هو صوت البقر . وقد صنعه من الذهب وكأنه يريد أن يتميز عن الآلهة التى كانت من الأحجار ، وحاول أن يجعله إلهاً نفيساً ، فصنعه ـ كما نعرف ـ من الحلى المسروقة ، وصنعه بطريقة أن هذا العجل الجسد إذا ما استقبل من دبره هبة الهواء ؛ صنعت وأحدثت فى جوفه صوتاً يشبه صوت وخوار البقر الذى يخرج من فمه ، وهذه مسألة نراها فى الناى وهو أنبوبة من القصب مما يسمى الغاب البلدى وتصنع به ثقوب ، ويعزف عليه العازف ليخرج منه النغمة التى يريدها .

وحين صنع موسى السامرى العجل بهذه الحيلة ، حدث هذا الصوت مشابها لخوار البقر . وقصة هذا العجل تأتى فى سورة طه بوضوح وسنتعرض لها حين نتعرض بخواطرنا الإيمانية لسورة طه بإذن الله :

﴿ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَـٰلِمِينَ ﴾

(من الآية ١٤٨ سورة الأعراف)

ولماذا اختار السامرى العجل ؟ لأنهم حين خروجهم من مصر ، رأوا قدماء المصريين وهم يعبدون العجل لمزية فيه ، فقد كانوا يرون فيه مظهر قوة ، كما عبد الآخرون الشمس حين رأوا فيها مظهر قوة ، وكذلك من عبدوا القمر ، والنجوم . وقدماء المصريين عبدوا العجل لأن فيضان النيل كان يغمر الأرض بالمياه ، وكانوا يستخدمون العجل . حين يريدون حرث الأرض . وكان أَيِّدًا ، أى قويًّا وشديداً فى حرث الأرض وهذا مظهر من مظاهر القوة ، ولكن كيف اتخذ قوم موسى من بعده عجلاً يعبدونه بعد أن أتم عليهم الله المنة العظيمة حين أنجاهم وأغرق فرعون وآله ؟ . وهنا أوضح لنا الله أنه جاوز ببنى إسرائيل البحر ومروا على قوم يعبدون الأصنام ؛ فقالوا لموسى عليه السلام : اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة .

ويأتى القول من الحق :

﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَـٰلِمِينَ ﴾

(من الآية ١٤٨ سورة الأعراف)

وهذه قضية تهدم كل عبادة دون عبادة الله ؛ لأن العبد لابد أن يتلقى من المعبود أوامر ، وأن يكون عند المعبود منهج يريد من العبد أن ينفذه ، وأن يأتى المنهج بواسطة رسل يبلغون رسالات الله وكلام الله للبشر . أما الذين يعبدون الشمس ـ مثلاً ـ فنسألهم : لماذا تعبدونها ؟ وما المنهج الذى أرسلته الشمس لكم ؟ . إن العبادة هى طاعة العابد للمعبود فى « افعل » و « لا تفعل » فهل قالت لكم الشمس « افعلوا » و « لا تفعلوا » ؟ لا ؛ لأنه لا توجد واسطة كلامية تقول لكم المنهج ، وكيف يوجد ـ إذن ـ معبود بدون منهج للعابد ؟ وهل قالت : إن من يعبدنى سأشرق

عليه ، وأعطيه الضوء والحرارة ، ومن لا يعبدنى فلن أعطيه شيئاً من ذلك ؟ لم تقل الشمس ذلك فهى تعطى من آمن بها ومن كفر ، ولم ترسل خبراً عن الآخرة وقيام القيامة .

وهكذا يبطل أمامنا كل عبادة لغير الله من ناحية أن العبادة تقتضى أمراً ونهيا ، فى « افعل » و « لا تفعل » ولم يقل معبود من هؤلاء ما الذى نطيعه وما الذى نعصاه . والأصل فى المعبود أنه يهدى العابد السبيل الموصل إلى خيره فى الدنيا وفى الآخرة . لذلك يقول الحق : ﴿ ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا اتخذوه وكانوا ظالمين ﴾ . و ﴿ كانوا ظالمين ﴾ لأنهم أعطوا حقًا لمن ليس له الحق ، والحق سبحانه أعلى قمة فى الحق ، ولذلك قال عن الشرك به : ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾ .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ وَرَأَوۡاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا وَيَغۡفِرۡ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ ﴾

هذا يوضح لنا أن عبادة العجل بين قوم موسى صار لها جمهور . لكن الناس الذين امتلكوا قدراً من البصيرة ، أو بقية إيمان قالوا : هذه الحكاية سخيفة ، وما كان لنا أن نفعلها وندموا على ما كان ، ويقال : سُقِط فى يده ، وهذه من الدلالات الطبيعية الفطرية التى لا تختلف فيها أمة عن أمة ، بل هى فى كل الأجناس ، وفى كل لغة تشير إلى أن الإنسان إذا ما فعل فعلا وحدث له عكس ما يفعل يعض على الأنامل ندماً وغمًّا ، وهذه من الدلالات الفطرية الباقية لنا من الالتقاء الطبعى فى المخاطبات ، فى كل الأجناس . ويعض الإنسان الأنامل لأنه عمل شيئاً ما كان يصح أن يعمله ، فإذا كان الشىء عظيماً فهو لا يكتفى بالأنملة بل يمسك يده كلها ويعضها . والحق يقول : ﴿ ويوم يعض الظالم على يديه ﴾

« وسُقط فى أيديهم » أى جاءت أنيابهم على أيديهم ، كأن الندم بلغ أشده ، إن ذلك حدث من التائبين الذين أبصروا بعيونهم ورأوا أن ذلك باطل وخسران . أى قالوا : لئن لم يتداركنا الله برحمته ومغفرته لنكونن من الهالكين ، وهذا اعتراف منهم بذنبهم والتجاء إلى الله عز وجل .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ ﴾

وكون موسى يعود إلى قومه حالة كونه غضبان أسِفاً ، يدلنا على أنه علم الخبر بحكاية العجل . والغضب والأسف عملية نفسية فيها حزن وسموها : « المواجيد النفسية » ، أى الشىء الذى يجده الإنسان فى نفسه ، وقد يعبر عن هذه المواجيد بانفعالات نزوعية ، ولذلك تجد فارقاً بين من يحزن ويكبت فى نفسه ، وبين من يغضب ، فمن يغضب تنتفخ أوداجه ويحمر وجهه ويستمر هياجه ، وتبرق عيناه بالشر وتندفع يداه ، وهذا اسمه : غضبان . وصار موسى إلى الحالتين الاثنتين ؛ وقدّم الغضب لأنه رسول له منهجه . ولا يكفى فى مثل هذا الأمر الحزن فقط ، بل لابد أن يكون هناك الغضب نتيجة هياج الجوارح .

وقديماً قلنا : إن كل تصور شعورى له ثلاث مراحل : المرحلة الأولى . مرحلة إدراكية ، ثم مرحلة وجدانية فى النفس ، ثم مرحلة نزوعيه بالحركة ، وضربنا المثل لذلك بالوردة . فمن يرى الوردة فهذا إدراك ، وله أن يعجب بها ويسر من شكلها ويطمئن لها ويرتاح ، وهذا وجدان . لكن من يمد يده ليقطفها فهذا نزوع

حركى . والتشريع لم يقنن للإدراك أو للوجدان لكنه قنن للسلوك . إلا فى غض البصر عما حرم الله وذلك رعاية لحرمة الأعراض .

والأسف عند موسى لن يظهر للمخالفين للمنهج . بل يظهر الغضب وهو عملية نزوعية ، ونلحظ أنه يأتى بكلمة أَسِف . وهى مبالغة . فهناك فرق بين أَسِف وآسف ، آسف خفيفة قليلاً ، لكن أسِف صيغة مبالغة ، مما يدل على أن الحزن قد اشتد عليه وتمكن منه .

﴿ قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنۢ بَعْدِيٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ﴾

(من الآية ١٥٠ سورة الأعراف)

وقوله سبحانه : ﴿ أعجلتم أمر ربكم ﴾ أى استبطأتمونى ، وهذا نتيجة لذهاب موسى لثلاثين ليلة وأتمها بعشر ، فتساءل موسى : هل ظننتم أننى لن آتى ؟ أو أننى أبطأت عليكم ؟ وهل كنتم تعتقدون وتؤمنون من أجلى أو من أجل إله قادر ؟ . ولذلك قال سيدنا أبو بكر رضى الله عنه : عندما انتقل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى :

« من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت » . وهنا يقول سيدنا موسى : افترضوا أنكم عجلتم الأمر واستبطأتمونى أو خفتم أن أكون قد مت . فهل كنتم تعبدوننى أو تعبدون ربنا .

﴿ أعجلتم أمر ربكم وألقى الألواح ﴾ ، ونعلم أن الألواح فيها المنهج ، وقدر موسى على أخيه : ﴿ وأخذ برأس أخيه يجرّه إليه ﴾ وهذا « النزوع الغضبى » الذى جعله يأخذ برأس أخيه ، كأن الأخوة هنا لا نفع لها ، فماذا كان رد الأخ هارون : ؟

﴿ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِي وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

(من الآية ١٥٠ سورة الأعراف)

نلحظ أنه قال : « ابن أم » ولم يقل : « ابن أب » لأن أبا موسى وهارون طُوى

اسمه فى تاريخ النبوات ولم يظهر عنه أى خبر ، والعلم جاءنا عن أمه لأنها هى التى قابلت المشقات فى أمر حياته ، لذلك جاء هنا بالقدر المشترك البارز فى حياتهما ، ولأن الأمومة مستقر الأرحام ؛ لذلك أنت تجد أخوة من الأم ، وأخوة من الأب فقط ، وأخوة من الأب والأم ، والأخوة من الأب والأم أمرهم معروف . لكن نجد فى أخوة الأم حناناً ظاهراً ، ويقل الحنان بين الأخوة من الأب . وجاء الحق هنا بالقدر المشترك بينهما - موسى وهارون - وهو أخوة الأم ، وله وجود مستحضر فى تاريخهم . أما الأب عمران فنحن لا نعرف عنه شيئاً ، وكل الآيات التى جاءت عن موسى متعلقة بأمه ، لذلك نجد أخاه هارون يكلمه بالأسلوب الذى يحننه : ﴿ قال ابن أمّ إن القوم استضعفونى وكادوا يقتلوننى ﴾ .

ومادام قد قال : ﴿ وكادوا يقتلوننى ﴾ فهذا دليل على أنه وقف منهم موقف المعارض والمقاوم الذى أدى ما عليه إلى درجة أنهم فكروا فى قتله ، ويتابع الحق بلسان هارون : ﴿ فلا تشمت بى الأعداء ولا تجعلنى مع القوم الظالمين ﴾ .

والشماتة هى إظهار الفرح بمصيبة تقع بخصم ، والأعداء هم القوم الذين اتخذوا العجل ، وقد وصفهم بالأعداء كدليل على أنه وقف منهم موقف العداوة ، وأن موقف الخلاف بين موسى وهارون سيفرحهم . وقوله : ﴿ وأخذ برأس أخيه ﴾ . . إجمال للرأس فى عمومها ، وفى آية أخرى يقول : ﴿ لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى ﴾ .

ولقد صنع موسى ذلك ليسمع العذر من هارون ؛ لأنه يعلم أن هارون رسول مثله ، وأراد أن يسمعنا ويسمع الدنيا حجة أخيه حين أوضح أنه لم يقصر . قال : إن القوم استضعفونى لأنى وحدى وكادوا يقتلوننى ، مما يدل على أنه قاومهم مقاومة وصلت وانتهت إلى آخر مجهودات الطاقة فى الحياة ؛ حتى أنهم كادوا يقتلونه ، إذن فهو لم يوافقهم على شىء ، ولكنه قاوم على قدر الطاقة البشرية ، لذلك يذيل الحق الآية بقوله سبحانه : ﴿ ولا تجعلنى مع القوم الظالمين ﴾ .

وكأنه يقول : لموسى إنك أن آخذتنى هذه المؤاخذة فى حالة غضبك ، ربما ظُنَّ بى أننى كنت معهم ، أو سلكت مسلكهم فى اتخاذ العجل وعبادته . وأراد الحق سبحانه

أن يبين لنا موقف موسى وموقف أخيه ؛ فموقف موسى ظهر حين غضب على أخيه وابن أمه ، وموقف هارون الذى بيّن العلة فى أن القوم استضعفوه وكادوا يقتلونه ، ولايمكن أن يطلب منه فوق هذا ، وحينما قال هارون ذلك تنبه موسى إلى أمرين :

الأمر الأول : أنه كيف يلقى الألواح وفيها المنهج ؟ والأمر الثانى : أنه كيف يأخذ أخاه هذه الأخذة قبل أن يتبين وجه الحق منه ؟

ويقول الحق على لسانه بعد ذلك :

﴿ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾ ﴾

قال يا رب اغفر لى إن كان قد بدر منى شىء يخالف منطق الصواب والحق . واغفر لأخى هارون ما صنع ، فقد كان يجب عليه أن يأخذ فى قتال من عبدوا العجل حتى يمنعهم أو ينالوا منه ولو مادون القتل جرحاً أو خدشاً أو . . أو . . . إلخ .

ويطلب موسى لنفسه ولأخيه الرحمة :

﴿ وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾

(من الآية ١٥١ سورة الأعراف)

وحين تسمع ﴿ أرحم الراحمين ﴾ ، أو ﴿ خير الرازقين ﴾ ، أو ﴿ خير الوارثين ﴾ ، أو ﴿ أحسن الخالقين ﴾ ، وكل جمع هو وصف لله ، وإنه بهذا أيضاً يدعو خلقه إلى التخلق بهذا الخلق ، ويوصف به خلقه. فاعلم أن الله لم يحرمهم من وصفهم بهذه الصفات لأن لهم فيها عملا وإن كان محدودا يتناسب مع قدرتهم ومخلوقيتهم وعبوديتهم ، فضلا على أنها عطاء ومنحة منه ـ سبحانه ـ أما صفات الله فهى صفات لا محدودة ولا متناهية جلالا وكمالا وجمالا فسبحانه ﴿ ليس كمثله

شيء ﴾ ، فإذا كان الله هو ﴿ أرحم الراحمين ﴾ فهذا يعنى أنه سبحانه لم يمنع الرحمة من خلقه على خلقه ؛ فمن رحم أخاه سُمىَّ رحيماً ، وراحما ، ولكن الله أرحم الراحمين ؛ لأن الرحمة من كل إنسان ضمان لمظهرية الغضب فى هذا الأحد ، يقال : « رحمت فلاناً » أى من غضبك عليه وعقوبتك ، وإنّ عقوبتك على قدر قوتك ، لكن الله حين يريد أن يأخذ واحداً بذنب فقوته لا نهاية لها ، وكذلك رحمته أيضاً لا نهاية لها .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ ﴾

حين يقال : ﴿ اتخذوا العجل ﴾ قد نجد من يتساءل : هل اتخذوه مذبوحاً يأكلونه ؟ أو يثير الأرض أو يسقى الحرث ويدير السواقى ؟ لأن العجل موجود لهذه المهام ، لكنهم لم يأخذوا العجل لتلك المهام ، بل إنهم قد اتخذوا العجل إلهاً ومعبوداً ، أما اتخاذه فيما خُلِقَ له فلا غبار عليه ، وهو هنا محذوف ومتروك لفطنة السامع ؛ فإذا اتخذنا العجل فيما خُلِقَ له العجل لا ينالنا غضب من الله ، أما الذين سينالهم غضب الله فهم من اتخذوا العجل فى غير ما خُلقَ له ، إنهم اتخذوه إلهاً : ﴿ سينالهم غضب من ربهم وذلة فى الحياة الدنيا ﴾ .

وقوله : ﴿ سينالهم ﴾ يدل على أن أوان الغضب والذلة لم يأت بعد ، وسيحدث فى المستقبل ، ومستقبل الدنيا هو الآخرة ، ولكن الحق هنا يقول : إن الذلة ستحدث فى الدنيا ، فكيف يكون ﴿ سينالهم غضب ﴾ مع أنهم تابوا ؟ ويوضح سبحانه لنا ذلك فى قوله : ﴿ فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم ﴾ .

فبعضهم تاب إلى بارئه وقتل نفسه فلماذا إذن الغضب ؟

ويوضح الحق لنا أن الذى نالهم من الغضب هو ما ألجأهم إلى أن يقال لهم : « اقتلوا أنفسكم » ، وهكذا نفهم أن قوله تعالى : « سينالهم غضب » أى قبل أن يتوبوا ، وقتل النفس هو منتهى الذلة ومنتهى الإهانة .

﴿ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴾

(من الآية ١٥٢ سورة الأعراف)

أى أن هذا الأمر ليس بخاصية لهم ، فكل مفتر يتجاوز حده فوق ما شرعه الله لابد أن يناله هذا الجزاء ؛ لأن ربنا حين يقول لنا ما حدث فى تاريخهم ؛ وحين يسرد لنا هذه القصة فإنه يريد من وراء ذلك ـ سبحانه ـ أن يعتبر السامع للقصة فى نفسه . واعتبار السامع للقصة فى نفسه لا يتأتى إلا بأن يقول له الله تنبيها وتحذيراً : ﴿ وكذلك نجزى المفترين ﴾ أى احذر أن تكون مثل هؤلاء فينالك ما نالهم ، وهو سبحانه ينبه كلا منا لينتفع من هذه العبرة وهذه اللقطة فإنَّ التاريخ مسرود لأخذ العبرة ، والعظة ليتعظ بها السامع .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ ﴾

وهذا ما حدث ، فبعد أن اتخذوا العجل ، وقال لهم : اقتلوا أنفسكم توبة إلى بارئكم ، ثم تابوا ورجعوا إلى الله وآمنوا بما جاءهم ، غفر الله لهم . وإذا كان الحق قد قص علينا مظهرية جباريته فإنه أيضاً لم يشأ أن يدعنا فى مظهرية الجبارية ، وأراد أن يدخلنا فى حنان الرحمانية . لذلك يقول هنا :

﴿ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا

لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾

(سورة الأعراف)

وقوله : ﴿ ثم تابوا ﴾ أى ندموا على ما فعلوا وأصروا وعزموا على ألاَّ يعودوا ، ونعلم من قبل أن التوبة لها مظهريات ثلاثة ؛ أولاً : لها مظهرية التشريع ، ولها مظهرية الفعل من التائب ثانيا ، ولها قبولية الله للتوبة من التائب ثالثاً . ومشروعية التوبة نفسها فيها مطلق الرحمة ، ولو لم يكن ربنا قد شرع التوبة فى ذاتها لتعب الخلق جميعاً ؛ لأن كل من عمل سيئة ، ولم يشرع الله له التوبة سيستشرى شره فى عمل السيئات . لكن حين يشرع ربنا للمسىء التوبة ، ويدعو العبد للكف عن السيئة فهذه رحمة بالمذنب ، وبالمجتمع الذى يعيش فيه المذنب . بعد ذلك يتوب العبد ، ثم يكون هنا مظهرية أخرى للحق ، وهو أن يقبل توبته .

التوبة ـ إذن ـ لها تشريع من الله ، وذلك رحمة ، وفعل من العبد بأن يتوب ، وذلك هو الاستجابة ، وقبول من الله ، وذلك هو قمة العطاء والرحمة منه سبحانه .

وقوله الحق :

﴿ وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓاْ ﴾

(من الآية ١٥٣ سورة الأعراف)

إنَّ هذا القول يدل على أن عمل السيئة يخدش الإيمان ، فيأمر سبحانه عبده : جدّد إيمانك ، واستحضر ربك استحضاراً استقباليًّا ؛ لأن عملك السيئة يدل على أنك قد غفلت عن الحق فى أمره ونهيه ، وحين تتوب فأنت تجدد إيمانك وتجد ربك غفوراً رحيماً : ﴿ إن ربك من بعدها لغفور رحيم ﴾ .

إن ذنب العبد يكون فيما خالف منهج ربه فى « افعل » و « لا تفعل » ، ومادام العبد قد استغفر الله وتاب فسبحانه يقبل التوبة . ويوضح : إذا كنت أنا غفوراً رحيماً ، فإياكم يا خلقى أن تُذَكِّروا مذنباً بذنبه بعد أن يتوب ؛ لأن صاحب الشأن غفر ، فإياك أن تقول للسارق التائب : « يا سارق » ، وإياك أن تقول للزانى التائب : « يازانى » ، وإياك أن تقول للمرتشى التائب : « يامرتشى » لأن المذنب

مادام قد جدّد توبته وآمن ، وغفر الله له ، فلا تكن أنت طفيليًا وتبرز له الذنب من جديد .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ ﴾

وهل للغضب سكوت ؟ هل للغضب مشاعر حتى يسكت ؟ نعم ؛ لأن الغضب هيجان النفس لتعمل عملاً نزوعيًا أمام من أذنب ، فكأن الغضب يلح عليه ، ويقول للغاضب : اضرب ، اشتم ، اقتل . كأن الغضب قد مُثِّل وصُوِّر فى صورة شخص له قدرة إصدار الأوامر ، فشبَّه الله الغضب بصورة إنسان يلح على موسى فى أن يفعل كذا ، ويفعل كذا ، ويفعل كذا ، فلما قال الله ذلك كأن الغضب قد سكت عنه .

أو هو كما قال إخواننا العلماء : من القلب فى اللغة ، أى أنه يقلب المسألة ، اتكالاً على أن فطنة السامع سترد كل شىء إلى أصله ؛ كما نسمع فى اللغة : خرق الثوبُ المسمارَ ، نفهم من هذا القول أن المسمار هو الذى قام بخرق الثوب ؛ لأننا لن نتخيل أنّ الثوب يخرق مسماراً . ويسمى ذلك « القلب » أى أن يأتى بمسألة مقلوبة تفهمها فطنة السامع . أو أن المسمار مستقر فى مكانه ، والثوب هو الذى طرأ عليه فانخرق ، فيكون سبب الخرق من الثوب ، فكأن الفاعلية الحقيقية من الثوب : ﴿ ولما سكت عن موسى الغضب ﴾ .

أو تكون كلمة (سكت) كناية عن أن الغضب زال وانتهى .

﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

وأول عمل قام به موسى ساعة أن كان غضبان أسفاً أنه ألقى الألواح ، وأول ما ذهب الغضب عنه وزايله أخذ الألواح ، وهذا أمر منطقى ، فالغضب جعله يلقى الألواح ، ويأخذ برأس أخيه ، ثم فهم ما فعله أخوه واعتذر به فقبل عذره ، وطلب من الله أن يغفر له ، وأن يغفر لأخيه وانتهى الغضب وكانت الألواح ملقاة فأخذها ثانية .

﴿ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾

(من الآية ١٥٤ سورة الأعراف)

النسخة من الكتاب مأخوذة من الشىء المنسوخ أى المنقول من مكان إلى مكان ، ويقال : نسخت الكتاب الفلانى من الكتاب الفلانى . . أى أن هناك كتاباً مخطوطاً ثم نقلناه بالطباعة أو بالكتابة إلى نسخة أو عدد من النسخ ، أى أخذته من الأصل إلى الصورة ، واسمه منسوخ ، وكلمة نُسخة على وزن « فُعْلَة » وتأتى بمعنى مفعولة ، فنسخة تعنى منسوخة ، وفى القرآن مثل هذا كثير . والحق سبحانه وتعالى قال :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ﴾

(من الآية ٢٤٩ سورة البقرة)

و « غُرْفة » أى مغروفة ، وهى القليل من المياه فى اليد لتبل الريق فقط ، والغرفة أيضاً تكون فى البيوت ؛ لأنها مكان مقتطع من مكان آخر ولها جدران تحددها ، واسمها غرفة لأنها مغروفة من المكان فى حيز مخصوص . وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿ وفى نسختها هدى ورحمة ﴾ .

و « هدى » المقصود بها المنهج الموصل للغاية فى « افعل » و « لا تفعل » . إنّه يوصل للغاية وهى ثواب الآخرة . إذن فالهدى والرحمة شىء واحد له طرفان ، فالهدى هو المنهج الذى إن اتبعته تصل إلى الرحمة ، ولذلك يقول الحق : ﴿ هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون ﴾ .

وهكذا نجد المنهج هدى ورحمة ، فمن يسمع كلام الله ويتبعه يهتدى ويرحمه

ربنا ؛ لأنه جعل الله فى باله ، وخاف من صفات الجبارية فى الحق ، ولهذا لابد أن يستحضر الإنسان أو المؤمن رهبته لربه وخوفه منه ـ سبحانه ـ ليكون المنهج هدى ورحمة له . ويكون من الذين يرهبون ربهم .

وساعة ترى المفعول تقدم فى مثل قوله سبحانه هنا :

﴿ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾

(من الآية ١٥٤ سورة الأعراف)

نفهم أن هذا هو ما يسمى فى اللغة « اختصاص » وقَصْر مثلما قال الحق فى فاتحة الكتاب : ﴿ إياك نعبد ﴾ .

وما الفرق بين « إياك نعبد » و « نعبدك » ؟ إن قلنا : « نعبدك » فهو قول لا يمنع من العطف عليه ، فقد نعبدك ونعبد الشركاء معك ؛ لكن قولنا:« إياك نعبد » أى خصصناك بالعبادة وقصرناها عليك سبحانك فلا تتعدى إلى غيرك .

إذن حين تقدم المفعول فهذا هو عمل الاختصاص . ومثال ذلك فى حياتنا حين نقول : « أكرمتك » ، ولا مانع أن نقول بعدها « وأكرمت زيداً وأكرمت عمراً » . لكن إن قلت : إياك أكرمت ، فهذا يعنى أنى لم أكرم إلا إياك . وهنا يقول الحق : ﴿ للذين هم لربهم يرهبون ﴾ . ولقائل أن يقول : ألا يمكن أن يدعى أحد الرهبة ظاهراً وأنه ممتثل لأمر الله رياء أو سمعة حتى يقول الناس : إن فلاناً حسن الإسلام ، ويأخذون فى الثناء عليه ؟ ولكن هنا نجد التخصيص الذى يدل على أن العبد لا يرهب أحداً غير الله ، وأن الرهبة خالصة لله ، وليست رياء ، ولا سمعة ، ولا لقصد الثناء .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا ۖ فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن

قَبْلُ وَإِيَّـٰىَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ إِنْ هِىَ إِلَّا
فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ أَنتَ وَلِيُّنَا
فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَـٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾

وكلمة « اختار » تدل على أن العمل الإختيارى يُرجح العقل فيه فعلاً على عدم فعل أو على فعل آخر ، وإلا فلا يكون فى الأمر اختيار ؛ لأن « اختار » تعنى طلب الخير والخيار ، وكان فى مكنتك أن تأخذ غيره ، وهذا لا يتأتى إلا فى الأمور الاختيارية التى هى مناط التكليف ، مثال ذلك : اللسان خاضع لإرادة صاحبه فخضع للمؤمن حين قال : لا إله إلا الله ، وخضع للملحد حين قال ـ لعنه الله ـ : لا وجود لله ، ولم يعص اللسان فى هذه ، ولا فى تلك . والذى رجح أمراً على أمر هو ترجيح الإيمان عند المؤمن فى أن يقول : لا إله إلا الله ، وترجيح الإلحاد عند الملحد فى أن يقول ما يناقض ذلك . والحق هنا يقول : ﴿ واختار موسى قومه سبعين رجلاً ﴾ .

والذين درسوا اللغة يقولون : إن هناك حدثاً . وأنّ هناك موجدا للحدث نسميه فاعلاً مثل قولنا : « كتب زيد الدرس » أى أن زيداً هو الذى أدى الكتابة ، ونسمي « الدرس » الذي وقعت عليه الكتابة مفعولاً به ، ومرة يكون هناك ما نسميه « مفعولاً له » أو « مفعولاً لأجله » مثل قول الابن : قمت لوالدى إجلالاً ، فالذى قام هو الابن ، والإجلال كان سبباً فى إيقاع الفعل فنسميه « مفعولاً لأجله » ونقول : « صُمْت يوم كذا » ونسميه « مفعولاً فيه » ، وهو أن الفعل ، وقع فى هذا الزمن . فمرة يقع الحدث على شىء فيكون مفعولاً به ، ومرة يقع لأجل كذا فيكون مفعولاً لأجله ، ومرة يقع فى يوم كذا ؛ العصر أو الظهر فيكون مفعولاً فيه ، ومرة يكون مفعولاً معه « مثل قولنا : سرت والنيل : أى أن الإنسان سار بجانب النيل وكلما مشى وجد النيل فى جانبه .

وهنا يقول الحق :

﴿ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ﴾

(من الآية ١٥٥ سورة الأعراف)

ولأن اختيار موسى للسبعين كان وقع من القوم ؛ فيكون المفعول قد جاء من هؤلاء القوم ، ويسمى « مفعولاً منه » ؛ لأنّه لم يخترهم كلهم ، إنما اختار منهم سبعين رجلاً لميقاته مع الله سبحانه .

وقالوا فى علة السبعين إن من اتبعوا موسى كانوا أسباطاً ، فأخذ من كل سبط عدداً من الرجال ليكون كل الأسباط ممثلين فى الميقات ، وكلمة « ميقات » مرت قبل ذلك حين قال الله :

﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ ﴾

(من الآية ١٤٣ سورة الأعراف)

وهل الميقات هذا هو الميقات الأول ؟ لا ؛ لأن الميقات الأول كان لكلام موسى مع الله ، والميقات الثانى هو للاعتذار عن عبدة العجل .

﴿ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم ﴾

(من الآية ١٥٥ سورة الأعراف)

ولماذا أخذتهم الرجفة ؟

لأنهم لم يقاوموا الذين عبدوا العجل المقاومة الملائمة ، وأراد الله أن يعطى لهم لمحة من عذابه ، والرجفة هى الزلزلة الشديدة التى تهز المرجوف وتخيفه وترهبه من الراجف . وحين أخذتهم الرجفة قال موسى : ﴿ ربّ لو شئت أهلكتهم من قبل وإياى ﴾ .

أوضح موسى : لقد أحضرتهم من قومهم . وأهلوهم يعرفون أن السبعين رجلاً قد جاءوا معى ، فإن أهلكتهم يا رب فقد يظن أهلهم أننى أحضرتهم ليموتوا وأسلمتهم إلى الهلاك . ولو كنت مميتهم يا رب وشاءت مشيئتك ذلك لأمتّهم من

قبل هذه المسألة وأنا معهم أيضاً . ويضيف القرآن على لسان موسى والقوم معاً :

﴿ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَـٰفِرِينَ ﴾

(من الآية ١٥٥ سورة الأعراف)

أنت أرحم يا رب من أن تهلكنا بما فعل السفهاء منا ، وهذا القول يدل على أن العملية عملية فعل ، والفعل هو عبادة العجل ؛ فلو أن هذا هو الميقات الأول لما احتاج إلى مثل هذا القول ؛ لأن قوم موسى لم يكونوا قد عبدوا العجل بعد . ولكنهم قالوا بعد الميقات الأول : مادام موسى قد كلم الله ، فلابد لنا أن نرى الله ، وقالوا فعلاً لموسى :

﴿ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾

(من الآية ١٥٣ سورة النساء)

إذن نجد أن ما حصل من قوم موسى بعد الميقات الأول هو قولهم : ﴿ أرنا الله جهرة ﴾ وليس الفعل ، أما هنا فالآية تتحدث عن الفعل : ﴿ أتهلكنا بما فعل السفهاء منا إن هى إلا فتنتك ﴾ .

وهكذا نعلم أن الآية تتحدث عن ميقات ثانٍ تحدد بعد أن عبد بعضهم العجل . والفتنة هى الاختبار ، والاختبار ليس مذموماً فى ذاته ، ولا يقال فى أى امتحان إنه مذموم . إنما المذموم هو النتيجة عند من يرسب ، والاختبار والامتحان غير مذموم عند من ينجح .

إذن فالفتنة هى الابتلاء والاختبار ، وهذا الاختبار يواجه الإنسان الجاهل الذى لا يعلم بما تصير إليه الأمور وتنتهى إليه ليختار الطريق ويصل إلى النتيجة . ولا يكون ذلك بالنسبة لله ؛ لأنه يعلم أزلاً كل سلوك لعباده ، لكن هذا العلم لا يكون حجة على العباد ؛ ولابد من الفعل من العباد ليبرز ويظهر ويكون له وجود فى الواقع لتكون الحجة عليهم . والأخذ بالواقع هو الأعدل .

وقول موسى عليه السلام :

﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِي مَن تَشَآءُ ﴾

(من الآية ١٥٥ سورة الأعراف)

هذا القول يعنى : أنك يا رب قد جعلت الاختبار لأنك خلقتهم مختارين ؛ فيصح أن يطيعوا ويصح أن يعصوا . والله سبحانه هو من يُضل ويهدى ؛ لأنه مادام قد جعل الإنسان مختاراً فقد جعل فيه القدرة على الضلال ، والقدرة على الهدى .

وقد بيّن سبحانه من يشاء هدايته ، ومن يشاء إضلاله فقال :

﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

(من الآية ٨٦ سورة آل عمران)

والسبب فى عدم هدايتهم هو ظلمهم ، وكذلك يقول الحق :

﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾

(من الآية ٢٦٤ سورة البقرة)

وهكذا نرى أن الكفر منهم هو الذى يمنعهم من الهداية . إذن فقد جعل الله للعبد أن يختار الهداية أو أن يختار الضلال ، وما يفعله العبد ويختاره لا يفعله قهراً عن الله ؛ لأنه سبحانه لو لم يخلق كلا منا مختاراً لما استطاع الإنسان أن يفعل غير مراد الله ، ولكنه خلق الإنسان مختاراً ، وساعة ما تختار ـ أيها الإنسان ـ الهداية أو تختار الضلال فهذا ما منحه الله لك ، وسبحانه قد بيّن أن الذى يظلم ، والذى يفسق هو أهل لأن يعينه الله على ضلاله ، تماماً كما يعين من يختار الهداية ؛ لأنه أهل أن يعينه الله على الهداية .

ويقول الحق على لسان سيدنا موسى فى نهاية هذه الآية :

﴿ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴾

(من الآية ١٥٥ سورة الأعراف)

والولى هو الذى يليك ، ولا يليك إلا من قربته منك بودك له ، ولم تقرِّبه إلا لحيثية فيه تعجبك وتنفعك وتساعدك إذا اعتدى عليك أحد أو تأخذ من عمله لأنه عليم . إذن فالمعنى الأول لكلمة الولى أى القريب الذى قربته لأن فيه خصلة من الخصال التى قد تنفعك ، أو تنصرك ، أو تعلمك .

وقول موسى « أنت ولينا » أى ناصرنا ، والأقرب إلينا . فإن ارتكب الإنسان منا ذنباً فأنت أولى به ، إنك وحدك القادر على أن تغفر ذنبه ؛ لذلك يقول موسى : « فاغفر لنا » ، ونعلم من هذا أنه يطلب درء المفسدة أولاً لأن درءها مقدم على جلب المصلحة ، فقدم موسى عليه السلام طلب غفر الذنب ، ثم طلب ودعا ربّه أن يرحمهم ، وهذه جلب منفعة . وقد قال ربنا فى مجال درء المفسدة : ﴿ فمن زحزح عن النار ﴾ وهذا درء مفسدة وهو البعد عن النار : ﴿ وأُدخل الجنة ﴾ . وهذا جلب منفعة ومصلحة .

إذن فدرء المفسدة مقدم على جلب المصلحة ، ـ وعلى سبيل المثال ـ إنك ترى تفاحة على الشجرة ، وتريد أن تمد يدك لتأخذها ، ثم التفت فوجدت شابًا يريد أن يقذفك بطوبة ، فماذا تصنع ؟ أنت فى مثل هذه الحالة الانفعالية تدفع الطوبة أولاً ثم تأخذ التفاحة من بعد ذلك . وهذا هو درء المفسدة المقدم على جلب المصلحة ، وهنا درء المفسدة متمثل فى قول موسى : ﴿ فاغفر لنا ﴾ ثم قال بعد ذلك : ﴿ وارحمنا ﴾ وهذا جلب مصلحة ، والقرآن يقول :

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ ﴾

(من الآية ٨٢ سورة الإسراء)

لأن الداء يقع أولاً ، وحين تذهب لمنهج القرآن يشفيك من هذا الداء ، والرحمة ألاَّ يجىء لك داء بالمرة . فإذا أخذت القرآن لك نصيراً فلن يأتى لك الداء أبداً .

﴿ فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَـٰفِرِينَ ﴾

(من الآية ١٥٥ سورة الأعراف)

ومثلها مثل قول الحق سبحانه : ﴿ خير الرازقين ﴾ ، و ﴿ وخير الماكرين ﴾ ، و ﴿ خير الوارثين ﴾ و ﴿ خير الغافرين ﴾ هنا ؛ لأن المغفرة قد تكون من الإنسان للإنسان ، ولكنا نعرف أن مغفرة الرب فوق مغفرة الخلق ؛ لأن الغافر من البشر قد يغفر رياء ، وقد يغفر سمعة ، قد يغفر لأنه خاف بطش المقابل . لكنه سبحانه لا يخاف من أحد ، وهو خير الغافرين من غير مقابل .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ ۖ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦) ﴾

ونلحظ أن هذه الآية تضم طلبات جديدة لسيدنا موسى من ربّه بعد قوله : ﴿ فاغفر لنا وارحمنا ﴾ . ونرى أن خير الغافرين تعود لقول موسى ـ عليه السلام ـ : ﴿ فاغفر لنا ﴾ أما الحسنة فى قوله : ﴿ واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة ﴾ فإنها تعود على طلب الرحمة : ﴿ واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة ﴾ .

هو إذن يطلب الحسنة فى الدنيا وكذلك فى الآخرة ، والحسنة لها معنى « لغوى » ، ومعنى « شرعى » . أما المعنى اللغوى فكل ما يستحسنه الإنسان يُسمى حسنة ، ولكن الحسنة الشرعية هى ما حسنه الشرع ، فالشرع رقيب على كل فعل من أفعالنا وتصرفاتنا ، فالحسنة ليست ما يستحسنه الإنسان ؛ لأن الإنسان قد يستحسن المعصية ، وهذا استحسان بشرى بعيد عن المنهج ، أما الاستحسان الشرعى فهو فى تنفيذ المنهج بـ « افعل » و « لا تفعل » .

والحسنة المعتبرة فى عرف المكلفين من الله هى الحسنة الشرعية ؛ لأن الإنسان قد يستحسن شيئاً وهو غير شرعى لأنه ينظر إلى عاجلية النفع فيه ، ولا ينظر إلى آجلية النفع ، ولاينظر إلى كمية النافع . والنفع ـ كما نعلم ـ فى الدنيا على قدر تصورك فى النفع ، أما النفع فى الآخرة فلا يعلم قدره إلا علاّم الغيوب ـ سبحانه ـ إذن فقوله : ﴿ واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة ﴾ يكون المراد بها الحسنة الشرعية فى الدنيا عملاً ، وفى الآخرة جزاءً .

ونلحظ أن موسى أراد بالحسنة الأولى ما يعم الحسنة الشرعية والحسنة

اللغوية ؛ فهو دعاء بالعافية والنعم الجليلة الطيّبة ، وكل خير الدنيا فى ضوء منهج الله . والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ ﴾

(من الآية ٣٢ سورة الأعراف)

إذن فالحسنة الخالصة هى فى يوم القيامة ، ولكن هناك من ينتفع بها فى الدنيا ؛ فالجماد منتفع برحمة الله ، والنبات منتفع برحمة الله ، والحيوان منتفع برحمة الله ، والكافر منتفع برحمة الله . كل ذلك فى الدنيا ، وهى الرحمة التى وسعت كل شىء ، لكن مسألة الآخرة كجزاء على الإحسان فهو جزاء خاص بالمؤمنين .

ويتابع الحق على لسان موسى عليه السلام : ﴿ إنا هدنا إليك ﴾ .

و « هاد » أى رجع ، و « هدنا إليك » أى رجعنا إليك ، وهذا كلام موسى عن نفسه وعن أخيه ، وعن القوم الذين عبدوا العجل ثم تابوا ، ومادمنا قد رجعنا إليك يا ربى فأنت أكرم من أن تردنا خائبين . ويرد الحق سبحانه :

﴿ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَالَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾

(من الآية ١٥٦ سورة الأعراف)

وقوله الحق : ﴿ عذابى أصيب به من أشاء ﴾ أى لا يوجد من يدفعنى ويرشدنى فى توجيه العذاب لأحد ؛ فحين يذنب عبد ذنباً أنا أعذبه أو أغفر له ؛ لذلك لا يقولن عبد لمذنب إن الله لابد أن يعذبه ؛ لأنه سبحانه هو القائل :

﴿ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾

(من الآية ١٥٦ سورة الأعراف)

وما المقصود بالرحمة هنا ؟ أهى الرحمة فى الدنيا أو الرحمة فى الآخرة ؟ إنها الرحمة فى الدنيا التى تشمل الطائع والعاصى ، والمؤمن والكافر ، ولكنها خالصة

فى اليوم الآخر ـ كما قلنا ـ للمؤمنين .

وقوله سبحانه : ﴿ فسأكتبها ﴾ يدل على أن هذا سيكون فى الآخرة . أى أن رحمة الله وسعت كل شىء فى الدنيا ولكنها رحمة تنتهى بالنسبة للكافرين فى إطار الدنيا ، ولكن بالنسبة للمؤمنين فهى رحمة مستمرة قد كتبها الله أزلا وتعطى للمؤمنين فضلاً ومنّة وعطاء منه ـ سبحانه ـ

﴿ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾

(من الآية ١٥٦ سورة الأعراف)

وعندما سمع بعض اليهود ذلك قالوا : نحن متقون ، فقيل لهم : فى أى منهج أنتم متقون أفى منهج موسى ؟ لو كنتم متقين فى منهج موسى ـ كما تزعمون ـ لآمنتم بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأن من تعاليم موسى أن تؤمنوا برسول الله محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ ولذلك جاء قوله تعالى :

﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَـٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾

فهذه تسع صفات لسيدنا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهى أن الله أوحى إليه كتاباً مختصاً به وهو القرآن ، وأنه صاحب المعجزات ، وأنه بلّغ ونبأ بأفضل وأتم العقائد والعبادات والأخلاق ـ وهو ـ عليه الصلاة والسلام ـ الأمى الذى لم يمارس القراءة والكتابة ولم يجلس إلى معلم ، فهو ـ عليه السلام ـ باقٍ على الحالة التى ولد عليها ، وقد ذكره ربّه ـ جل وعلا ـ باسمه وصفاته ونعوته عند اليهود والنصارى فى التوراة والإنجيل وقد كتمها الكافرون منهم أو أساءوا تأويلها ، كما وصفه ربه بأنه يأمرهم بالمعروف ويكلفهم بفعل كل ما تدعو إليه الطبائع المستقيمة والفطر السليمة ؛ لأن فى ذلك النجاح فى الدنيا والفلاح فى الآخرة ، وأنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ يزجرهم وينهاهم عن كل منكر مستهجن تستقبحه الجبلة القويمة ، والخلقة السوية ، ويحل لهم ما حرم عليهم من الطيبات التى منعوا منها وحظرها الله عليهم جزاء طغيانهم وضلالهم ، ويحرم عليهم كل ضار وخبيث : كأكل الميتة والمال الحرام من الربا والرشوة والغش ، ويخفف عنهم ما شق عليهم وثقل من التكاليف التى كانت فى شريعة موسى ـ عليه السلام ـ كقطع الأعضاء الخاطئة وتحريم الغنائم عليهم ووجوب إحراقها ، وكذلك يخفف الله ويحط عنهم المواثيق الشديدة التى فرضت عليهم عقابا لهم على فسوقهم وظلمهم .

يقول ـ جل شأنه ـ :

﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ ﴾

(سورة النساء)

وهكذا أعلم الله الرسل السابقين على سيدنا رسول الله أن يبلغوا أقوامهم بمجىء محمد صلى الله عليه وسلم ، وأن يؤمن الأقوام التى يشهدون ويعاصرون رسالته صلى الله عليه وسلم ، صحيح أن رسول الله لم يكن معاصراً لأحد من الرسل ، ولكن البشارة به قد جاءت بها أنبياؤهم وسجلت فى الكتب المنزلة عليهم ، وكل رسول سبق سيدنا محمداً صلوات الله وسلامه عليه ، قد أمره الله أن يبلغ الذين أرسل إليهم أن يتبعوا الرسول محمداً ويؤمنوا به ولا يتمسكوا بسلطة

زمنية ويخافوا أن تنزع منهم . ومادام الرسول صلى الله عليه وسلم قد جاء ومعه معجزة وبينة فلابد أن يؤمنوا به .

﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾

(من الآية ٨١ سورة آل عمران)

إذن فقد صنع الله سبحانه وتعالى خميرة إيمانية حتى لا يتعارض اتباع الأديان . ولا يفهم أصحاب دين موجود أن ديناً آخر جاء لينسخه ويأخذ منه السلطة الزمنية ؛ لأن رسالة الإيمان موصولة وتحدث الأقضية للناس بامتداد الزمان . فكل الرسل يحرصون على أن تكون الحياة آمنة سعيدة تتساند فيها المواهب ولا تتعاند فيها الحركات . وقد طلب الحق من الرسل ذلك وأخذ عليهم العهد وبعد ذلك أكده فقال :

﴿ أأقررتم ﴾ واستوحى منهم الكلام الذى يؤيد هذا المنهج . ولذلك لا يصح لتابع نبى أن يصادم رسالة جديدة مؤيدة بمعجزة ومؤيدة بمنهج يضمن للإنسان الحياة وسلامتها وسعادتها .

ولم يكتف الحق بأن يجعل الإيمان برسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم مجرد خبر ، بل وضع لمحمد وحده سمة فى الكتب التى سبقته ، ووصفه لهم مشخصاً ، وحين يصفه مشخصاً فهذا أوضح من الخبر عنه بكلام . ولذلك قال عبدالله بن سلام عندما سأله عمر رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أنا أعلم به منّى يا بنى . قال : وَلِمَ ؟ قال : لأنى لست أشك فى محمد أنه نبىّ ، فأما ولدى فلعل والدته قد خانت ، فقبّل عمر رأسه . ولذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ﴾ .

ولاشك أن الإنسان يعرف ابنه معرفة دقيقة . ورسول الله صلى الله عليه وسلم كانت له سمات خاصة وهى التى تثبت شخصيته صلى الله عليه وسلم المادية ، وليس الأمر فى رحلة الإسراء والمعراج مجرد كلام ، بل إنه حينما سئل عن هذه

الرحلة قال : « رأيت موسى وإذا رجل ضَرْبٌ ، رَجِلٌ[١] كأنه من رجال شنوءة ، ورأيت عيسى فإذا هو رَبعة أحمر كأنه خرج من ديماس ـ الحمَّام ـ وأنا أشبه ولد إبراهيم به »[٢] .

وكذلك أعطى الله فى التوراة والإنجيل لا الخبر عن محمد صلى الله عليه وسلم فقط ، بل أعطى تفاصيل صورته بحيث تتشخص لهم ، فلا يلتبس به عند مجيئه مع التشخيص شريك ، فيقول سبحانه : ﴿ يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ﴾ . ولكن فريقاً منهم كتموا الحق ليحتفظوا بالسلطة الزمنية ، لأنهم كانوا يظنون أنه حين يأتى دين جديد سيأخذ منهم هذه السلطة الزمنية ويقود الأمم والشعوب . لقد أراد الحق سبحانه وتعالى أن يجعل رسل السماء إلى الأرض متعاونين لا متعاندين ، ينصر بعضهم بعضاً . كما جاء فى سورة الفتح :

﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الفتح)

لقد جاء الحق بصورة المؤمنين برسالة رسول الله فى التوراة والإنجيل ، لأن الدين الإسلامى الذى نزل على محمد لن يأتى دين بعده ؛ لذلك جاء بسيرة رسول الله وصفاته وصفات أتباعه فى التوراة والإنجيل ، وفى هذا الدين ما تفتقده اليهودية

---

(١) الضَّرْب : الخفيف اللحم ، والرَّجل هو من شعره بين السبوطة والجعودة ، وقوله : من رجال شنوءة أى طويل ؛ لأن هذه القبيلة كانت مشهورة بطول قامة رجالها ، ورَبْعة أى مربُوع الخَلْق لا طويل ولا قصير .

(٢) متفق عليه .

التى انجرفت إلى مادية صرفة وتركت الروحانيات ؛ لذلك تأتى سيرة أتباع محمد فى التوراة : ﴿ سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ﴾ .

حين أسرف اليهود فى المادية أراد الله أن يأتى برسول يجنح ويميل إلى الروحانية وهو سيدنا عيسى بن مريم عليه السلام . . ليحصل الاعتدال فى تناول الحياة دون إفراط أو تفريط .

إذن فالحق سبحانه وتعالى مهد لكل رسول بأن يبشر به الرسول السابق لأنه لا معاندات فى الرسالات . ولما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم هو خاتم الموكب الرسالى ، كان ولابد أن يصفه الله ـ سبحانه ـ وصفًا ليس بالكلام ، بل يصفه كصورة ، بحيث إذا رأوه يعرفونه ، ولذلك نجد سيدنا سلمان الفارسى حين رأى رسول الله فى المدينة ورأى منه علامات كثيرة أحب أن يرى فيه علامة مادية ، فرأى فى كتف الرسول خاتم النبوة .

ولكن هل نفع ذلك ؟ نعم ، فكثير من الناس آمن به . وقد أقام رسول الله مناظرة بينه وبين اليهود بواسطة عبدالله بن سلام ، الذى قال بعد أن أسلم بين يدى رسول الله : « يارسول الله إن اليهود قوم بهت إن علموا بإسلامى قبل أن تسألهم بهتونى[1] عندك ، فجاءت اليهود ودخل عبدالله البيت ، فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : أى رجل فيكم عبدالله بن سَلَام ؟ قالوا : أعلمنا وابن أعلمنا وأخيرنا وابن أخيرنا . فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : أفرأيتم إن أسلم عبدالله ؟ قالوا : أعاذه الله من ذلك ؟ فخرج عبدالله إليهم ، فقال : أشهد أن لا إله إلاَّ الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله . فقالوا : شرنا وابن شرنا ووقعوا فيه »[2] .

إذن فالأوصاف الكلامية والأوصاف الشخصية المشخصة جاءت حتى لا يقال : إن أديان السماء تتعاند ، إنها كلها متكاتفة فى أن تصل الأرض بالسماء على ما تقتضيه حالة العصر زماناً ومكاناً . وقديماً كان العالم معزولاً عن بعضه ، وكل

---

(١) بهتونى : قالوا علىَّ ما لم أفعل ، من البهت والبهتان وهو الباطل والكذب والافتراء .

(٢) من حديث أخرجه البخارى فى صحيحه ـ كتاب بدء الخلق ـ عن أنس ـ رضى الله عنه ـ

بيئة لها أجواؤها وداءاتها ؛ فيأتى الرسول ليعالج فى مكان خاص داءات خاصة ، لكن الله جاء برسوله صلى الله عليه وسلم بعد أن توحدت هذه الداءات في الدنيا ؛ جاء رسولنا الكريم ليعالج هذه الداءات العالمية ، وجاء رسول الله مؤيداً بأوصافه ومؤيداً بتعاليمه التي تخفف عنهم إصرهم وأغلالهم ، والإصر هو الحِمْل الثقيل ، والأغلال جمع غُل وهو الحديدة التى تجمع اليدين إلى العنق لتقييد الحركة .

وقد ذكر الحق الأوصاف ومهَّد الأذهان إلى مجىء رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ليضع عنهم الأغلال بالنور الذى نزل على محمد صلى الله عليه وسلم ، فالرسالة المحمدية هى الجامعة المانعة ، ولذلك يقول الحق بعد ذلك :

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾

هنآ يأمر الحق رسوله بالآتى : ﴿ قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً ﴾ فى رسالة تعم الزمان ، وتعم المكان . وفى ذلك يقول رسول الله :

« أعطيت خمساً لم يُعْطَهن أحد من الأنبياء قبلى . . نُصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجُعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً ، فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل ، وأحلت لى الغنائم وكان النبى يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس كافة وأعطيت الشفاعة »[1] .

---

(١) متفق عليه .

ثم بعد ذلك أراد الحق سبحانه وتعالى أن يثبت عمومية الرسالة بعمومية تسخير الكون للخلق ؛ لذلك كان الحديث موجهاً إلى كافة الناس : ﴿ قل يا أيها الناس ﴾ . وكل من يطلق عليهم ناس فالرسول مرسل إليهم : ﴿ إني رسول الله إليكم جميعاً ﴾ وأراد سبحانه أن يعطينا الحيثيات التى تجعل لله رسولاً يبلغ قومه وكافة الأقوام منهج الله فى حركة حياتهم ، فقال : ﴿ الذى له ملك السموات والأرض ﴾ .

ومادام هو الذى يملك السموات والأرض ، ولم يدّع أحد من خلقه أنه يملكها ، وفى السموات والأرض وما بينهما حياتنا ومقومات وجودنا فهو سبحانه أولى وأحق أن يعبد . ولو أن السماء لواحد ، والهواء لواحد ، والأرض لواحد ، وما بينهما لواحد لكان من الممكن أن يكون إله هنا ، وإله هناك وإله هنالك . وفى هذا يقول الحق :

﴿ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾

(من الآية ٩١ سورة المؤمنون)

إذن فمادام الوجود كله من السموات والأرض وما سواهما لله ، فهو الأوْلى أن يعبد ، وأول قمة العبادة أن تشهد بأنه لا إله إلا الله ، وحيثية ألوهيته الأولى أن له ملك السموات والأرض . ومادام إلهاً فلابد أن يطاع ، ولا يطاع إلا بمنهج ، ولا منهج إلا بافعل ولا تفعل . وأول المنهج القمة العقدية إنه هو التوحيد . وجعل الله للتوحيد حيثية من واقع الحياة فقال : ﴿ يحيى ويميت ﴾ . وهذا أمر لم يدعه أحد أبداً ؛ لأن الله هو الذى له ملك السموات والأرض ، ولأنه يحيى ويميت . ولذلك نجد من حاجّ إبراهيم فى ربه يقول الحق عنه :

﴿ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ﴾

(من الآية ٢٥٨ سورة البقرة)

وحاول هذا الملك أن يدير حواراً سفسطائيًّا مضللا ليفحم ويسكت إبراهيم ـ عليه السلام ـ فقال :

﴿ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ﴾

(من الآية ٢٥٨ سورة البقرة)

وذلك بأن يأمر بقتل انسان ثم يعفو عنه ، وهو بذلك لايميته بل يحييه فى منطق السفسطائيين . لكن هل الأمر بالقتل هو الموت ؟ . طبعا لا ؛ لأن هناك فارقا بين الموت والقتل ، فقد يقتل إنسان إنساناً آخر ، لكنه لا يمكن أن يميته ؛ لأن الموت يأتى بدون هدم بنيته بشىء ؛ برصاصة أو بحجر أو بقنبلة . ولا أحد قادر على أن يميت أحداً إذا رغب فى أن يميته ، فالموت هو الحادث بدون سبب . لكن أن يقتل إنسان إنساناً آخر فهذا ممكن ، ولذلك يقول الحق سبحانه عن نفسه :

﴿ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾

(من الآية ١٥٨ سورة الأعراف)

وانظروا إلى الدقة فى الأداء ؛ فمادام قد أمر الحق رسوله أن يقول : إنى رسول الله إليكم جميعاً ، وحيثية الإيمان هى الإقرار والاعتقاد بوحدانية الإله الذى له ملك السموات والأرض ، وهو لا إله إلا هو ، وهو يحيى ويميت ؛ لذلك يدعوهم إلى الإيمان بالخالق الأعلى : ﴿ فآمنوا بالله ورسوله ﴾ .

لم يقل محمدٌ وآمنوا بى ؛ لأنها ليست مسألة ذاتية فى شخصك يا محمد ، إنما هو تكريم لرسالتك إلى الناس ، فالإيمان لا بذاتك وشخصك ، ولكن لأنك رسول الله ، فجاء بالحيثية الأصيلة ﴿ فآمنوا بالله ورسوله ﴾ ، والرسول قد يكون محمداً أو غير محمد . وبعد ذلك قال فى وصف النبى : ﴿ النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته ﴾ . والأمية ـ كما علمنا من قبل ـ شرف فى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو صلى الله عليه وسلم يؤمن بكلمات الله ، وهى إما بما بلغنا عنه من أسلوب القرآن ، وإمّا بالذى قاله موسى لقومه : « واجعل كلامى فى فيه » .

ويقول فيه عيسى ـ الذى لا يتكلم من قِبَل نفسه ـ ، وإنما تأتى له كلمات ربنا فى فمه ، والقول الشامل فى وصف كلمات محمد صلى الله عليه وسلم : ما بيّنه الحق فى قوله :

﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ ﴾

(سورة النجم)

أو أن الإيمان بالكلمات هو أن يؤمن بأن كل كون الله مخلوق بكلمة منه :

﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾

(سورة يس)

ولقائل أن يقول : كيف يخاطب الله شيئاً وهو لم يكن بعد ؟ ونقول : إنه سبحانه قد علمه أزلاً ، ووجوده ثابت وحاصل ، ولكن الله يريد أن يبرز هذا الموجود للناس ، فوجود أى شىء هو أزلى فى علم الله ، وكأنه يقول للشىء : اظهر يا كائن للوجود ليراك الناس بعد أن كنت مطموراً فى طىّ قدرتى .

وسواء أكانت الكلمة بخلق الأسباب ، مثل خلق الشمس والقمر أم بخلق شىء بلا أسباب ، كعيسى ـ عليه السلام ـ فإنه « كلمة منه » أى كلمة تخطت نطاق الأسباب ؛ بأن ولدت سيدتنا مريم من غير رجل . وفى هذا تخطٍ للأسباب ، ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿ بكلمة منه ﴾ . ونعلم أن كل شىء لا يكون إلا بكلمة منه سبحانه ، ولكن بكلمة لها أسباب ، أو بكلمة لا أسباب لها . والكلمات هى أيضاً الآيات التى فيها منهج الأحكام ، ولذلك يأتى قوله الحق :

﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ ﴾

(سورة البقرة)

ويروى لنا الأثر أن سيدنا موسى عليه السلام قال لربه :

« إنى أجد فى الألواح أمة يؤمنون بالكتاب الأول وبالكتاب الآخر ويقاتلون فصول الضلالة حتى يقاتلوا الأعور الكذاب ، فاجعلهم أمتى قال : تلك أمة أحمد »[1] .

---

(١) ابن كثير فى تفسير قوله تعالى : ﴿ ولما سكت عن موسى الغضب . . . ﴾ إلخ .

وقول موسى آمنوا بالكتاب الأول وبالكتاب الآخر ، هو الذى يدل عليه قول الحق سبحانه :

﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ ﴾

(من الآية ١٣٦ سورة البقرة)

ويذيل الحق الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها بقوله :

﴿ واتبعوه لعلكم تهتدون ﴾ . و « لعل » رجاء وطلب . ونعلم أن كل طلب يتعلق بأحد أمرين : إما طلب لمحال لكنك تطلبه لتدل بذلك على أنك تحبه ، وهو لون من التمنى مثل قول من قال : ليت الشباب يعود يوماً ، إنه يعلم أن الشباب لا يعود لكنه يقول ذلك ليشعرك بأنه يحب الشباب . أو كقول إنسان : ليت الكواكب تدنو لى فأنظمها عقود مدح ، وهذا طلب لمحال ، إلا أنه يريد أن يشعرك بأن هذا أمر يحبه ، وإمَّا طلب ممكن التحقيق . وهو ما يسمى بالرجاء . وله مراحل : فأنت حين ترجو لإنسان كذا ، تقول : لعل فلاناً يعطيك كذا ، والإدخال فى باب الرجاء أن تقول : لعلى أعطيك ؛ لأن الرجاء منك أنت ، وأنت الذى تقوله ، ومع ذلك قد لا تستطيع تحقيقه ، والأقوى أن تقول : لعل الله يعطيك . ولكنها من كلامك أنت فقد يستجيب الله لك وقد لا يستجيب ، أما إذا قال الله : لعلكم ، فهذا أرجى الرجاءات ، ولابد أن يتحقق .

وحينما يتكلم الحق عن قوم موسى ، يتكلم عنهم بعرض قصصهم ، وفضائحهم ونقضهم للعهد بعد نعم الله الواسعة الكثيرة عليهم ، وأوضح لنا : إياكم أن تأخذوا هذا الحكم عاماً ؛ لأن الحكم لو كان عاماً ، لما وُجِد من أمة موسى من يؤمن بمحمد . ولذلك قلنا قديماً إن هناك ما يسمى « صيانة الاحتمال » . ومثال على ذلك نجد من اليهود من آمنوا برسالة رسول الله مثل مخريق الذى قال فيه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « مخريق خير يهود » . وعبدالله بن سلام إن بعض اليهود كانوا مشغولين بقضية الإيمان ، ولذلك لا تأخذ المسألة كحكم عام ؛ لأن من قوم موسى من يصفهم الحق بالقول الكريم :

﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾

وحين يسمع قوم موسى هذا القول سيقولون فى أنفسهم إنه يعلم ما فى صدورنا من تفكير فى الإيمان برسالة محمد صلى الله عليه وسلم . ولكن لو عمَّم الحكم فمن يفكر فى الإيمان بمحمد يقول : لماذا يصدر حكماً ضدى وأنا أفكر فى الإيمان ؟ لكن الحق « صان الاحتمال » وأوضح لكل واحد من هؤلاء الذين يفكرون فى الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم أن يتجه إلى إعلان الإيمان فقال :

﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

أى يدلون الناس على الحق ويدعونهم إلى طريق الخير ، وبهذا الحق يعدلون فى حكمهم بين الناس ولا يجورون .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟

مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾

وحين يقول الحق « قطعناهم » فهذه عودة لقوم موسى ، ونعرف أن القرآن لا يخصص كأى كتاب فصلاً لموسى وآخر لعيسى وثالثاً لمحمد ، لا ، بل يجعل من المنهج الإيمانى عجينة واحدة فى الدعوة ، فيأتى بقضية عيسى ، ثم يدخل فى الدعوة قضية موسى وغيره وهكذا ، ثم يرجع إلى القضية الأصلية كى يستغل انفعالات النفس بعد أى قصة من القصص .

وهنا يعود الحق سبحانه لقوم موسى مرة أخرى . فبعد أن أنصفهم وبيّن أن فيهم أمة يهدون بالحق وبه يعدلون . يقول : ﴿ وقطعناهم اثنتى عشرة أسباطاً أمماً ﴾ . والمقصود هنا بنو إسرائيل ، ومعنى « قطعت الشىء » أن الشىء كان له تمام وجودى مع بعضه ، ثم قطعته وفصلت بعضه عن بعض ، وجعلته قطعاً وأجزاء . فهم كلهم بنو إسرائيل ، ولكن الحق يوضح أنه قطعهم وجعلهم « أسباطاً » ، و « السبط » هو ولد الولد ، وهم هنا أولاد سيدنا يعقوب وكانوا اثنى عشر ولداً ، وحكت سورة يوسف وقالت :

﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ﴾

(من الآية ٤ سورة يوسف)

وحين تعد وتحصى ستجد أحد عشر كوكباً مرئية ، وتضم إليها الشمس والقمر والرائى ، فيصير العدد أربعة عشر واترك الشمس والقمر لأنهما يرمزان إلى يعقوب وزوجه ، وخذ الأحد عشر كوكباً ، وأضف الرائى وهو يوسف فيكون العدد اثنى عشر . وهؤلاء هم الاثنا عشر سبطاً ، فقد أنجب سيدنا يعقوب اثنى عشر ابناً من أمهات مختلفة ، وعرفنا من قبل أن الأمهات حين تتعدد فالميول الأهوائية بين الأبناء قد تتعاند . ولذلك تنبأ سيدنا يعقوب وقال لسيدنا يوسف :

﴿ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ﴾

(من الآية ٥ سورة يوسف)

هذا أول دليل على أنهم مختلفون ، وهو سبب من أسباب وحيثية التقطيع : ﴿ وقطعناهم اثنتى عشرة أسباطاً ﴾ .

وفى سورة يوسف نقرأ :

﴿ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ﴾

(من الآية ١٠٠ سورة يوسف)

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ﴾

(من الآية ١٦٠ سورة الأعراف)

إنهم لا يريدون حتى مجرد الاشتراك فى الماء تحسباً للاختلاف فيما بينهم ، فجعل الحق لكل سبط منهم عيناً يشرب منها ليعالج ما فيهم من داءات الغيرة والحقد على بعضهم البعض ؛ لأن الحق قال عنهم : ﴿ وقطعناهم اثنتى عشرة أسباطاً أمماً ﴾ .

وهنا وقفة لغوية فقط ، والأسباط فى أولاد يعقوب وإسحاق يقابلون القبائل فى أولاد إسماعيل ، وأولاد إسماعيل « العرب » يسمونهم قبائل ، وهؤلاء يسمونهم « أسباطاً » ، ونعرف أن لفظ « اثنتى » يدل على أنهم إناث ، و « عشرة » أيضاً إناث ، لأننا نقول : « جاءنى رجلان اثنان » و « امرأتان اثنتان » ؛ أى اثنان للذكور ، واثنتان للإناث ، وكلمة « اثنتى عشرة » عدد مركب وتمييزه يكون دائماً مفرداً ، ولذلك يقول الحق : ﴿ أحد عشر كوكباً ﴾ .

إذن « اثنتا عشرة » يدل على أنه مؤنث . لكن المذكور هنا « سبط » وسبط مذكر ، ولنا أن نعرف أنه إذا جمع صار مؤنثاً لأنهم يقولون : « كل جمع مؤنث » وأيضاً فالمراد بالأسباط القبائل ، ومفردها قبيلة وهى مؤنثة ، وقطعهم أى كانت لهم ـ من قبل ـ وحدة تجمعهم ، فأراد الحق أن يلفتنا إلى أنهم من شىء واحد ، فجاء بكلمة « أسباط » مكان قبيلة ، وقبيلة مفردة مؤنثة ، ويقال : « اثنتا عشرة قبيلة » ،

ولا يقال اثنتا عشرة قبائل ، فوضع أسباطاً ، موضع قبيلة لأن كل قبيلة تضم أسباطاً لذا جاء التمييز مذكراً . .

﴿ وَقَطَّعْنَـٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ﴾

(من الآية ١٦٠ سورة الأعراف)

أى جعلنا كل سبط أمة بخصوصها . والواقع الكونى أثبت أنهم كذلك ؛ لأنك لا تجد لهم ـ فيما مضى ـ تجمعاً قوميًّا وهو ما يسمونه « الوطن القومى لليهود » برغم أن الدول الظالمة القوية أعانوهم وأقاموا لهم وطناً على أرض فلسطين ، ومع ذلك نجد فى كل بلد طائفة منهم تعيش معزولة عن الشعوب التى تحيا فى رحابها ، وكأنهم لا يريدون أن يذوبوا فى الشعوب ، ففى باريس ـ مثلاً ـ تجد « حى اليهود » ، وفى لندن المسألة نفسها ، وفى كل مدينة كبيرة تتكرر هذه الحكاية ، فهم يعيشون فيها بطقوسهم وبشكلهم وبأكلهم ، وبعاداتهم معزولين عن الشعوب ، وكأنهم ينفذون قدر الله فيهم : ﴿ وقطعناهم اثنتى عشرة أسباطاً أمماً ﴾ .

وقطعهم ربنا فى الأرض أى أنه نشرهم فى البلاد ، ولم يجعل لهم وطناً مستقلاً ، ولذلك ستقرأ فى سورة الإسراء إن شاء الله : ﴿ وقلنا من بعده لبنى إسرائيل اسكنوا الأرض ﴾ .

أى أنه سبحانه قال لهم بعد سيدنا موسى : اسكنوا الأرض وحين تقول لنا يا رب : « اسكن » فأنت تحدد مكاناً من الأرض . كأن يسكن الإنسان فى الإسكندرية أو القاهرة أو الأردن أو سوريا ، لكن أن يصدر الحكم بأن « اسكنوا الأرض » فهذا يعنى أن انساحوا فيها فلا تجمع لكم .

ويقول الحق : ﴿ فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفاً ﴾ .

أى أنه حين يجىء وعد الآخرة تكون ضربة قاضية عليكم ـ أيها اليهود ـ لأن عدوكم لن يتتبعكم فى كل أمة من الأمم ، ويبعث جيشاً يحاربكم فى كل مكان تعيش فيه طائفة منكم ، لكن إذا جاء وعد الآخرة يأتى بهم الحق لفيفاً ويتجمعون . فى هذا الوطن القومى الذين يفرحون به ، ونقول لهم : لا تفرحوا

فهذا هو التجمع الذى قال الله عنه : « جئنا بكم لفيفاً » لتكون الضربة موجهة لكم فى مكان واحد تستأصلكم وتقضى عليكم .

ويأتى الحق بعد ذلك بخبر المعجزات :

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ﴾

(من الآية ١٦٠ سورة الأعراف)

و « استسقى » المراد منه هو طلب السقيا ، والسقيا هى طلب الماء الذى يمنع عن الإنسان العطش ، ومادام قد طلبوا السقيا فلابد أنهم يعانون من ظمأ ، كأنهم فى التيه . وأراد الله سبحانه أن يبرز لهم نعمه وقت الحاجة ، فقد تركهم إلى أن عطشوا ليستسقوا وليشعروا بنعمة الرِّى .

والحق يقول : ﴿ إذ استسقاه قومه ﴾ ، أى طلبوا من سيدنا موسى أن يسأل الله السقيا . فلماذا لجأوا إلى موسى وقت الظمأ ؟ وقال لهم موسى : ليس بذاتى أرويكم ، ولكن سأستسقى لكم ربى ، ونعلم أن مقومات الحياة بالترتيب الوجودى الاضطرارى : الهواء والماء والطعام . وساعة ترى « همزة » وسيناً « وتاء » واقعة على شىء من الأشياء فاعرف أنه أمر مطلوب ومرغوب فيه .

مثال ذلك : حين سار موسى والعبد الصالح ونزلا قرية استطعما أهلها ، أى طلبا طعاماً وهذا هو المقوم الثالث للحياة . وهنا « استسقى » أى طلب المقوم الثانى وهو الماء ، ونعلم أن المقوم الأول وهو الهواء لا نستغنى عنه . لذا لم يضعه الله فى يد أحد بل أعطاه ومنحه كل الخلق .

ولما كان الهواء غير مملوك وهو مشاع ؛ لذلك لم توجد فيه هذه العملية . إنما الطعام يُمكن أن يُملك ، والماء يُمكن أن يُملك ، فقال سبحانه مرة « استطعم » ، وقال هنا « استسقى » ، ولم يوجد « استهوى » لطلب الهواء ، لكن وجد فى القرآن « استهوى » بمعنى طلب أن تكون على هواه :

﴿ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴾

(من الآية ٧١ سورة الأنعام)

أى طلبت الشياطين أن يكون هواه ومراده تبعاً لما يريدون لا لما يريده الله .

وقصة الاستسقاء وردت من قبل فى سورة البقرة : ﴿ وإذ استسقى موسى لقومه ﴾ . وفى سورة الأعراف التى نحن بصدد خواطرنا عنها هم الذين طلبوا الاستسقاء . فهل هناك تعارض ؟ . طبعاً لا ؛ لأن قوم موسى طلبوا السقيا من موسى ، فطلب لهم السقيا من ربه . فهل هذا تكرار ؟ لا ؛ لأنه سبحانه تكلم عن الواسطة ، وبعد ذلك تكلم عن الأصل ، وهو سبحانه الواهب للماء ؛ فقال هنا : « إذ استسقاه قومه » ، وفى سورة البقرة قال : ﴿ وإذا استسقى موسى لقومه ﴾ .

وهذا ترتيب طبيعى . أقول ذلك لنعرف الفارق بين العبارتين حتى نؤكد أنه لا خلاف ولا تكرار ؛ لأن المستسقى هنا القوم ، والمستسقى لهم هنا هو موسى والمستسقى منه هو الله ـ جلت قدرته ـ وهذا أمر طبيعى .

والحق سبحانه يقول فى سورة البقرة :

﴿ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ﴾

(من الآية ٦٠ سورة البقرة)

ونجد الوحى نزل إلى موسى بقوله : ﴿ فقلنا اضرب ﴾ ؛ وهنا فى سورة الأعراف نجد الحق يقول :

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ﴾

(من الآية ١٦٠ سورة الأعراف)

ولنا أن نعرف أنَّ « قُلْنَا » تساوى « أوحينا » تماماً ، لأن المقصود بالقول هنا ليس من مناطات تكليم الله لموسى ، بل مناط هذه القضية غير المناط فى قوله الحق : ﴿ وكلم الله موسى تكليماً ﴾ .

فليس كل وحى لموسى جاء بكلام مباشر من الله ، بل سبحانه كلمه مرة واحدة كتشريف له ، ثم أوحى له من بعد ذلك كغيره من الرسل .

وقوله الحق :

﴿ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ﴾

(من الآية ١٦٠ سورة الأعراف)

هذا القول يدلنا على الإعجاز المطلق ، فمرة أمر الحق موسى أن يضرب الماء بالعصا ﴿ فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم ﴾ ، ومرة يأمره هنا أن يضرب الحجر فينبجس منه الماء ، وهكذا نرى طلاقة قدرةالله فى أن يعطى ويمنع بالشىء الواحد ، ولم يكن ذلك إلا بالأسباب التى فى يد الله يحركها كيف يشاء . ولذلك رأينا أمر الله حين ضرب موسى البحر بعصاه ، فصار كل فرق كالطود ، أى كالجبل ، وامتنعت السيولة ، ولما خرج موسى وقومه إلى البر بعد أن عبر البحر أراد أن يضرب البحر ليعود ثانية إلى سيرته الأولى من السيولة ، فأوحى له الله : ﴿ اترك البحر رهواً ﴾ .

أي اتركه كما هو عليه ؛ لأن الله يريد أن يغتر فرعون وقومه بأن يروا اليابس طريقاً موجوداً بين الماء ، فيحاولوا النفاذ منه وراء موسى وقومه ، وما أن دخل فرعون وقومه خلف موسى حتى عاد الماء إلى سيولته فغرق فرعون وقومه . وهكذا أنجى الله وأغرق بالشىء الواحد ، وكذلك فى أمر العصا ؛ إنها هى حين ضربت الماء فلقته فصار كل فرق كالطود والجبل الشامخ ، ثم ضرب موسى بها الحجر فانبجست منه اثنتا عشرة عينا من الماء ، وهكذا نرى قدرة من بيده القدرة والأسباب .

﴿ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ﴾

(من الآية ١٦٠ سورة الأعراف)

وهنا تعبير « انبجست » ، وهناك تعبير « انفجرت » ، ونعلم أن الانبجاس يحدث أولاً ثم يتبعه الانفجار ثانياً ؛ فالانبجاس أن يأتى الماء قطرة قطرة ، ثم يأتى الانفجار وتتدفق المياه الكثيرة ، فكان موسى عليه السلام أول ما يضرب الضربة تأتى وتجىء المياه قليلة ثم تنفجر بعد ذلك . إذن فقد تكلم الحق عن المراحل التى أعقبت الضربة فى لقطات متعددة لمظهر واحد ؛ له أولية وله آخرية .

وحين تكلم أمير الشعراء عن عطاء الله وقدرته قال :

سبحانك اللهم خير معلم علمت بالقلم القرون الأولى
أرسلت بالتوراة موسى مرشداً وابن البتول فعلَّم الإنجيلا

ثم جاء لسيدنا محمد وقال :

وفجرت ينبوع البيان محمداً فسقى الحديث وناول التنزيلا

وهنا توفيق رائع فى العبارة حين قال : « فسقى الحديث » ، فالحديث سقيا أما القرآن فمناولة من الله لخلقه . والحق يقول : ﴿ فانبجست منه اثنتا عشرة عينا ﴾ .

إن الضربة واحدة من عصا واحدة ، وكان المفترض أن تحدث هذه الضربة عينا واحدة تنبع منها المياه ، لكن الحق أرادها اثنتى عشرة عينا وعلم كل أناس مشربهم ؛ لذلك كان لابد أن يكون المكان متسعاً . وأن هذه الضربة كانت إيذاناً بالانفعال من الأرض .

﴿ فَٱنۢبَجَسَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ مَّشۡرَبَهُمۡ ﴾

(من الآية ١٦٠ سورة الأعراف)

ومن أين عرف كل قسم منهم الماء الذى يخصه ؟ إنها قسمة الله وصارت كل عين تجذب أصحابها ، فلم يتزاحموا ، وهذا يدل أيضاً على التساوى ، فلم تتفجر عين بماء أكثر من الأخرى فتثير الطمع ، لا ، بل انتظم الجميع فيما أراده الحق : ﴿ قد علم كل أناس مشربهم ﴾ .

والحق هنا يتكلم عن رحلة بنى إسرائيل فى التيه ، وفى الصحراء والشمس محرقة ، ولا ماء ، فاستسقوا موسى ، فطلب لهم السقيا من الله ، وجاءت لهم اثنتا عشرة عينا حتى لا يتزاحموا ، وعرف كل منهم مشربه .

ويضيف الحق : ﴿ وظللنا عليهم الغمام ﴾ .

ولأن الشمس محرقة يرحمهم الله بمسيرة من الغمامات تظللهم ، ولكل سبط غمامة على قدره ، فإذا كان الواحد من البشر حين يوزع جماعة من كتل صغيرة ، لا يعجز أن يضعهم فى عشرين خيمة مثلا ، فهل يعجز ربنا عن ذلك ؟ طبعاً لا .

وإذا كان الحق قد ضمن لنا فى الأرض الرزق حتى لا نجوع ، ولا نعرى ، ولا تحرقنا الشمس ، ونجد ماء . إذن لقد بقى أمر الطعام لهؤلاء . فقال :

﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾

(من الآية ١٦٠ سورة الأعراف)

ساعة تأتى كلمة « أنزلنا » نعرف أنها مسألة جاءت من علو ، ولا يُفترض أن يكون مكانها عاليًا ، لكن هى مسألة جاءت من أعلى من قدرتك ، أى من فوق أسبابك إنها بقدرة الأعلى .

و « المنّ » مادة بيضاء اللون حلوة الطعم مثل قطرات الزئبق . يجدونه على الشجر . ولا يزال هذا الشجر موجوداً إلى الآن فى العراق ، يهزونه صباحاً فيتساقط ما على الورق من قطرات متجمدة لونها أبيض ، فيأخذونه على ملاءة بيضاء واسمه عندهم المنْ ـ أيضاً ـ وهو فى طعم القشدة وليونتها ، وحلاوة العسل .

و « السلوى » هو طير من رتبة الدجاجيات يستوطن أوربا وحوض البحر المتوسط واحدته « سَلواة » وهو « السُّمانى » ويسميه أهل السواحل « السَّمان » وهو يأتى مهاجراً ولم يربه أحد ، وفى هذا إنزال من الله لأنه رزق من فوق قدرة العباد وأسبابهم .

﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾

(من الآية ١٦٠ سورة الأعراف)

وهناك مصانع تصنع المن فى أشكال مختلفة وأنواع من الحلوى جميلة ، ومن زار العراق ذاقه أو أحضره لأهله . والسلوى ـ كما قلنا ـ هو طائر « السمان » الموجود فى بيئة أخرى يغريه ربنا بالطقس الدافىء فيأتى إلينا لنأخذه ، وهذه الطيور جاءت طالبة استمرار الحياة ، ويبعثها ربنا لتصير لنا طعاماً ليدلل على أنه حين يريد أن يأتى لهم برزق غيبى يمدهم ويمنحهم المن والسلوى كما أخرج من الحجر الماء ، وكما ظلّلهم بالغمام ، وبذلك صارت حاجاتهم قدريَّة ليس لهم فيها أسباب وجاءت لهم بالهناء . فقالوا : ومن يدرينا أن الرزق الذى يأتينا من المن والسلوى سيستمر ، ثم كيف لنا أن نصبر على طعام واحد ؟ إنهم قالوا لنبيهم سيدنا موسى

ما حكاه القرآن بقوله :

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ﴾

(من الآية ٦١ سورة البقرة)

وهنا قال الحق : اذهبوا إلى أى مِصْرٍ من الأمصار والمدن تجدوا ما تريدون : ﴿ اهبطوا مصرا فإن لكم ما سألتم ﴾ . لقد أعطاهم الحق الرزق بدون السببية ، إنه منه مباشرة ، فكان من الواجب أن تشكروا من أراحكم ، وجعل لكم الرزق ميسرا . لكنهم لم يشكروا الله ، بل تمردوا ، ولذلك ذيل الحق الآية بقوله : ﴿ وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ . نعم فهم ظلموا بعدم شكر النعمة .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٔـٰتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ ﴾

وهذه القصة مذكورة أيضاً فى سورة البقرة ، ونعرف أن قوله سبحانه : ﴿ وإذ قيل لهم ﴾ ، ولم يذكر الحق من القائل ؛ لأن طبيعة الأمر فى الأسباط أنه سبحانه جعل لكل سبط منهم عيناً يشرب منها ، وكل سبط له نقيب ، وهذا دليل على أنهم لا يأتلفون ؛ فلا يكون القول من واحد إلى الجميع ، بل يصدر القول من المشرع الأعلى وهو الحق إلى الرسول ، والرسول يقول للنقباء ، والنقباء يقولون للناس .

وبعد أن تلقى موسى القول أبلغه للنقباء ، والنقباء قالوه للأسباط ، وفى آية أخرى قال الحق : ﴿ وإذ قلنا ﴾ . وهذا القول الأول وضعنا أمام لقطة توضح أن

المصدر الأصيل فى القول هو الله ، ولأنهم أسباط ولكل سبط مشرب ؛ لذلك يوضح الحق هنا أنه أوحى لموسى . وساعة ما تسمع « وإذ » فاعلم أن المراد اذكر حين قيل لهم اسكنوا هذه القرية ، لقد قيل إن هذه القرية هى بيت المقدس أو أريحا ، لكنهم قالوا : لن ندخلها أبداً لأن فيها قوماً جبارين وأضافوا :

﴿ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة المائدة)

والحق لا يبين لنا القرية فى هذه الآية ؛ لأن هذا أمر غير مهم ، بل جاء بالمسألة المهمة التى لها وزنها وخطرها وهى تنفيذ الأمر على أى مكان يكون : ﴿ اسكنوا هذه القرية وكلوا منها ﴾ .

ويوضح الحق : أنا تكفلت بكم فيها كما تكفلت بكم فى التيه من تظليل غمام ، وتفجير ماء من صخر ، ومَنّ وسلوى . وحين أقول لكم ادخلوا القرية واسكنوها فلن أتخلى عنكم : ﴿ وكلوا منها حيث شئتم ﴾ . وقديماً كان لكل قرية باب ؛ لذلك يتابع سبحانه : ﴿ وقولوا حطة وادخلوا الباب سجداً ﴾ .

والحطة تعنى الدعاء بأن يقولوا : يا رب حط عنا ذنوبنا فنحن قد استجبنا لأمرك وجئنا إلى القرية التى أمرتنا أن نسكنها ، وكان عليهم أن يدخلوها ساجدين ؛ لأن الله قد أنجاهم من التيه بعد أن أنعم عليهم ورفّههم فيه . وإذا ما فعلوا ذلك سيكون لهم الثواب وهو :

﴿ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

(من الآية ١٦١ سورة الأعراف)

وسبحانه يغفر مرة ثم يكتب حسنة ، أى سلب مضرة ، وجلب منفعة ، لكن هناك فى سورة البقرة قد جاء النص التالى :

﴿ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾

(سورة البقرة)

فالكيان العام واحد ونجد خلافاً فى الألفاظ واللقطات عن الآية التى وردت فى سورة الأعراف . أول خلاف ﴿ وإذ قلنا ﴾ ، ﴿ وإذ قيل ﴾ ، وشاء الحق ذلك ليأتى لنا بلقطة مختلفة كما أوضحنا من قبل . ففى آية سورة البقرة يقول سبحانه : ﴿ ادخلوا ﴾ وفى آية سورة الأعراف يقول : ﴿ اسكنوا ﴾ ، ونعلم أن الدخول يكون لغاية وهى السكن أى ادخلوا لتسكنوا ، وأوضح ذلك بقوله فى سورة الأعراف : ﴿ اسكنوا ﴾ ليبين أن دخولهم ليس للمرور بل للإقامة . وأراد سبحانه أن يعطيهم الغاية النهائية ؛ لأنه لا يسكن أحد فى القرية إلا إذا دخلها .

وهكذا نرى أن كلمات القرآن لا تأتى لتكرار ، بل للتأسيس وللإتيان بمعنى جديد يوضح ويبين ويشرح . ويقول الحق هنا فى سورة الأعراف : ﴿ وكلوا منها حيث شئتم ﴾ . وفى آية سورة البقرة يقول : ﴿ فكلوا منها حيث شئتم رغداً ﴾ .

وحين أمرهم الله بالدخول وكانوا جوعى أمرهم الحق أن يأكلوا ، على الفور والتوّ بتوسع ، لذلك أتى بكلمة « رغداً » لأن حاجتهم إلى الطعام شديدة وملحة ، لكنه بعد أن أمرهم بالسكن أوضح لهم أن يأكلوا ؛ لأن السكن يحقق الاستقرار ويتيح للإنسان أن يأكل براحة وتأن . وقال الحق هنا فى سورة الأعراف : ﴿ وقولوا حطة وادخلوا الباب سجداً ﴾ . أى أنه قدم قولهم « حطة » على السجود ، وفى آية سورة البقرة قدم السجود فقال :

﴿ وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُواْ حِطَّةٌ ﴾

(من الآية ٥٨ سورة البقرة)

جاء الحق بهذا الاختلاف لأنه علم أن انفعالات السامعين تختلف ساعة الدخول ، فهناك من ينفعل للقول ، فيقول أول دخوله ما أمر به من طلب الحطة وغفران الذنب من الله ، وهناك آخر ينفعل للفعل فيسجد من فور الدخول تنفيذاً لأمر الله . وأيضاً قال الحق هنا فى سورة الأعراف :

﴿ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٔـٰتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

(من الآية ١٦١ سورة الأعراف)

وفى سورة البقرة يقول : ﴿ نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين ﴾ .

ونعلم أن صيغة الجمع تختلف ؛ فهناك « جمع تكسير » وجمع تأنيث ، ففى جمع التكسير نغير من ترتيب حروف الكلمة ، مثل قولنا « قفل » فنقول فى جمعها « أقفال » . أما فى جمع التأنيث فنحن نزيد على الكلمة ألفاً وتاء بعد حذف ما قد يوجد فى المفرد من علامة تأنيث ، مثل قولنا « فاطمة » ، و « فاطمات » ، و « أكلة » ، و « أكلات » وهذا جمع مؤنث سالم ، أى أن ترتيب حروفه لم يتغير ، وجمع المؤنث السالم يدل على القلة . لكن جمع التكسير يدل على الكثرة فجاء ـ سبحانه ـ بجمع المؤنث السالم الذى يدل على القلة وبجمع التكسير الذى يدل على الكثرة لاختلاف درجات ونسب الخطايا ؛ لأن المخاطبين غير متساوين فى الخطايا ، فهناك من ارتكب أخطاء كثيرة ، وهناك من أخطأ قليلاً . والاختلاف حدث أيضاً فى عجز الآيتين ، فقال فى سورة البقرة : ﴿ وسنزيد المحسنين ﴾ . وجاء عجز سورة الأعراف بدون « واو » فقال : ﴿ سنزيد المحسنين ﴾ .

وقد عودنا ودعانا الحق إلى أن نقول : اغفر لنا وأنت خير الغافرين ، وارحمنا وأنت خير الراحمين ، واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة . وهنا يوضح سبحانه : أنا لن أكتفى بأن أغفر لكم وأن أرفع عنكم الخطايا . لكنى سأزيدكم حسناً ، وفى هذا سلب للضرر وجلب للنفع . كأن الله حينما قال : « خطاياكم » بجمع التكسير الذى ينبىء ويدل على كثرة الذنوب والخطايا و « خطيآتكم » التى تدل على القلة انشغلوا وتساءلوا : وماذا بعد الغفران يا رب فقيل ؟ لهم : ﴿ سنزيد المحسنين ﴾ هل سيغفر لنا فقط ، أو أنه سيجازينا بالحسنات أيضاً ؟ وكانت إجابة الله أنه سيغفر لهم ويزيدهم ويمدهم بالحسنات . وقد عقدنا هذه المقارنة المفصلة بين آية سورة البقرة وآية سورة الأعراف لنعرف أن الآيات لا تتصادم مع بعضها البعض ، بل تتكامل مصداقاً لقول الحق :

﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾

(من الآية ٨٢ سورة النساء)

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى

قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾

هذه الآية تدل على أنهم افترقوا فرقتين ؛ لأن الحق سبحانه مادام قد قال : ﴿ منهم ﴾ فهذا يعنى أن بعضهم قالوا وفعلوا المطلوب ، وبعضهم ظلموا وبدلوا القول ، فقد أمرهم الحق أن يقولوا : « حطة » وطلب منهم أن يدخلوا سجداً . والتغيير منهم جاء فى القول ؛ لأن القول قد يكون بين الإنسان وبين نفسه بحيث لا يسمعه سواه . لكن الفعل مرئى مما يدل على أن بعضهم يرائى بعضاً ، ففى القول أرادوا أن يهذروا ويتكلموا بما لا ينبغى ولا يليق ، فبدلاً من أن يقولوا : « حطة » قالوا : « حنطة » استهزاءً بالكلمة .

وهكذا نرى أن التبديل جاء فى القول ، لكن الفعل لم يأت فيه كلام ، وإن قال بعضهم : إن التبديل أيضاً حدث من بعضهم فى الفعل . فبدلاً من أن يدخلوا ساجدين دخلوا زاحفين على مقعداتهم ، كنوع من التعالى ، لكن الحق لم يذكر شيئاً من ذلك ؛ لأن سلوكهم فى الفعل قد يكون السبب فيه أن بعضهم لا قدرة له على الفعل .

﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ ﴾

(من الآية ١٦٢ سورة الأعراف)

وكأن الحق يذكرنا بما فعله معهم من رعايتهم فى أثناء التيه وكيف ظلل عليهم الغمام وأنزل عليهم المن والسلوى ، واستسقى لهم موسى فجاءت المياه . لكن غريزة التبديل والتمرد لم تغادرهم . ومادامو قد بدَّلوا فى كلمات الله ، فعليهم أن ينالوا العقاب : ﴿ فأرسلنا عليهم رجزاً من السماء ﴾ .

وهناك آية ثانية فى سورة البقرة يقول فيها الحق : ﴿ فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء ﴾ . والفارق بين « الإنزال » وبين « الإرسال » أن الإنزال يكون مرة واحدة . أما الإرسال فهو مسترسل ومتواصل . ولذلك يقول الحق سبحانه فى

المطر : ﴿ وأنزلنا من السماء ماء طهوراً ﴾ . لأن المطر لا ينزل طوال الوقت من السماء . لكن فى الإرسال استمرار ، اللهم إلا بعضاً من تأثير الهواء . ولذلك يقول الحق : ﴿ وأرسلنا الرياح لواقح ﴾ . فالذى يحتاج إلى استمرارية فى الفعل يقول فيه الحق : « أرسل » بدليل أن الله حينما أراد أن يجىء بالطوفان ليغرق المكذبين بموسى قال :

﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ ﴾

(من الآية ١٣٣ سورة الأعراف)

وعندما أراد أن يرغب عاداً قوم سيدنا هود فى الاستغفار والتوبة والرجوع عما كانوا عليه من الكفر والآثام قال لهم :

﴿ وَيَـٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴾

(من الآية ٥٢ سورة هود)

إذن فالإرسال يعنى التواصل ، أما الإنزال فهو لمرة واحدة ،وأراد الحق سبحانه من قصة بنى إسرائيل أن يأتى لنا بلقطة فجاء بكلمة « أنزلنا » ، ولقطة أخرى جاء فيها بـ « أرسلنا » ؛ لأن العقوبة تختلف باختلاف المذنبين ، والمذنبون مقولون بالتشكيك ، فهذا له ذنب صغير ، وآخر ذنبه أكبر ، وكل إنسان يأخذ العذاب على قدر ذنبه ؛ فمن أذنب ذنباً صغيراً أنزل الله عليه عقاباً على قدر ذنبه . ومن تمادى أرسل الله عليه عذاباً يستمر على قدر ذنوبه الكبيرة .

وهنا يقول الحق :

﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴾

(من الآية ١٦٢ سورة الأعراف)

و « رجزاً » أى عذاباً ، وهناك رِجْز ، ورُجْز ، والرِّجز يُولد من الرُّجْز ؛ وينشأ مثل قوله الحق : ﴿ والرُّجزَ فاهجر ﴾ . أى اهجر الرُّجْز . . أى المآثم والمعاصى والذنوب لتسلم من الرِّجز . . أى من العذاب . وهنا يبين الحق أنهم تلقوا العذاب بسبب ظلمهم ، وهناك فى الآية الأخرى قال : ﴿ بما كانوا يفسقون ﴾ .

والفسق يسبق الظلم ؛ لأن الإنسان لا يمكن أن يظلم نفسه بمخالفة منهج إلا إذا

فسق أولاً ، ولذلك جاء الحق بالمسبَّب وجاء بالسبب ، وهكذا نتأكد أن كل كلمة فى القرآن جاءت لمعنى أساسى تؤديه ولا تكرار إلا لمجموع القصة فى ذاتها ، أما لقطات القصة هنا ، ولقطات القصة هناك فأمور جاءت تأسيساً فى كل شىء لتعطى معانى ولقطات جديدة .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَسْئَلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴾ ١٦٣

هنا سؤال عن القرية التى كانت حاضرة البحر ، ونعلم أن القرية الأولى التى دخلوها هى « بيت المقدس » ولم تكن على البحر ، والقرية التى كانت على البحر هى « أيلة » أو « مدين » أو « طبرية » ، المهم أنها كانت « حاضرة البحر » أى قريبة من البحر ومشرفة عليه ؛ لأننا نقول فلان حضر ، أى كان بعيداً فاقترب . فمثل الإسكندرية يمكن أن نسميها حاضرة البحر .

وقوله : « واسألهم » والسؤال هنا موجه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليوجه السؤال إلى أهل الكتاب ، ويطلب منهم أن ينظروا فى كتبهم ليعرفوا أن ما يقوله هو وحى من الله إليه ؛ لأنهم يعلمون أنه صلى الله عليه وسلم لم يجلس إلى معلم ، ولم يقرأ فى كتاب ، وإنما علّمه من أرسله ، إنّه صلى الله عليه وسلم لا يريد أن يَعْلَم منهم ، بل يريد أن يُعْلِمَهم أنه يعلم ، وهم يعلمون أنه لا مصدر له كعلم سائر البشر ؛ لا جلس على معلم ولا قرأ فى كتاب ولذلك تجد « ماكُنَّات »

القرآن أى قوله الحق : « ما كنت » و « ماكنت » و « ما كنت » و« ما كنت » مثل قوله :

﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة القصص)

ومثل قوله تعالى :

﴿ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ﴾

(من الآية ٤٥ سورة القصص)

ومثل قوله تعالى :

﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة آل عمران)

إذن فأنت يا رسول الله لم تكن معهم لتقول لهم ما حدث وحصل لهم ، بل إن ذلك موجود عندهم فى كتبهم ، إذن فالذى علمك هو من أرسلك . كذلك هنا مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾

(سورة العنكبوت)

وفى هذا القول أمر من الله سبحانه وتعالى أن يخبرهم أنه سبحانه قد علمه وأعلمه بما لا يستطيعون إنكاره ليتيقنوا أن الله يعلمه ليؤمنوا به .

﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ ﴾

(من الآية ١٦٣ سورة الأعراف)

وكلمة « واسألهم » تحل لنا إشكالات كثيرة ، مثال ذلك حديث الإسراء ، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى بالأنبياء بصلاة إبراهيم .

فعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لقد رأيتنى فى الحجر وقريش تسألنى عن مسراى ، فسألونى عن أشياء من بيت

المقدس لم أثبتها فكربت كرباً ما كربت مثله قط ، فرفعه الله إلىّ أنظر إليه ، ما سألونى عن شىء إلا أنبأتهم به ، وقد رأيتنى فى جماعة من الأنبياء ، وإذا موسى قائم يصلى وإذا هو رجل جعد كأنه من رجال شنوءة ، وإذا عيسى قائم يصلى أقرب الناس شبها به عروة بن مسعود الثقفى ، وإذا إبراهيم قائم يصلى أقرب الناس شبهاً به صاحبكم ـ يعنى نفسه ـ فحانت الصلاة فأممتهم فلما فرغت قال قائل : يا محمد هذا مالك خازن جهنم فالتفت إليه فبدأنى بالسلام »[1].

وتأتى آية فى القرآن تقول :

﴿وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ﴾

(من الآية ٤٥ سورة الزخرف)

والأمر لرسول الله عليه الصلاة والسلام أن يسأل رسل الله من قبله ، ومتى يسألهم ؟ لابد أن توجد فرصة ليلتقوا فيسأل . إذن حين يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم إنه التقى بالأنبياء وكلمهم وصلى بهم فالخبر مصدق لأنه قد أدى أمر الله : ﴿ واسألهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر ﴾ . والسؤال هنا سؤال للتقرير والتقريع والتوبيخ : وما قصة القرية التى كانت حاضرة البحر ؟

لقد قلنا إن حاضرة البحر أى القريبة من البحر ، ونفهم أن ما تتعرض له الآية من سؤالهم يشير إلى أنّ للبحر فيه مدخلاً ؛ لأن المسألة متعلقة بالحيتان والسمك والصيد ، لذلك لابد أن تكون بلدة ساحلية .

﴿إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾

(من الآية ١٦٣ سورة الأعراف)

وحيتان جمع حوت ، مثلما يجمعون « نُوناً » ـ وهو الحوت أيضاً ـ على « نينان » ؛ وهو صنف من الأسماك . لقد حرم الله عليهم العمل فى يوم معين لينقطعوا فيه للعبادة وهو يوم « السبت » ، ومازالت عندهم بعض هذه العادات ، حتى إن واحداً منهم زار أمريكا ورفض أن يركب سيارة يوم السبت لأنه يوم عطلة ،

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه .

ورفض كذلك أن يعمل حتى جاء اليوم التالى . وشاء الحق سبحانه أن يؤدبهم حينما ارتكبوا أشياء مخالفة للمنهج ، وسلب منهم وقتاً للعمل وقال :

﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾

(من الآية ١٦٠ سورة النساء)

وفى هذه مُثُل وعِبَر لأى منحرف ، ولكل منحرف نقول : إياك أن تظن أنك بانحرافك عن منهج الله ستأخذ أشياء من وراء ربنا وتسرقها ، لا ؛ لأن ربنا قادر أن يبتليه بعقاب يفوق ما أخذ آلاف المرات ، فالمرتشى مثلاً يفتح له الله أبواباً من الأمراض ومن العلل ومن المصائب فيضيع عليه كل شىء أخذه .

إذن فقد استحل بنو إسرائيل أشياء محرمة ، فابتلاهم الله بأن يحرمهم من أشياء كانت حلالاً لهم . وهكذا نرى أن ما وقع عليهم من عقاب كان بظلمهم لأنفسهم ؛ لأنهم انشغلوا بالدنيا وبالمادة ، فحرم عليهم العمل فى يوم السبت ، وهؤلاء الذين كانوا يقيمون قريباً من حاضرة البحر يبتليهم الله البلاء العظيم ، ويرون السمك فى المياه وهو يرفع زعانفه كشراع المركب ، وتطل عليهم أشرعة الحيتان وهم فى بيوتهم ، وهذا ابتلاء من ربهم لهم وعقاب ؛ لأنهم ممنوعون من صيده ، ويرون هذا السمك أمامهم فى يوم السبت ، لكن فى بقية الأيام التى يباح فيها العمل ، كيوم الأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة لا تظهر لهم ولا سمكة واحدة : ﴿ ويوم لا يسبتون لا تأتيهم كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون ﴾ .

وهنا قالوا : مادام ربنا قد حرم علنيا أن نصطاد يوم السبت فعلينا أن نحتال . وصنعوا كيساً من السلك المضفر والذى نسميه « الجوبية » وهم أول من صنعوا هذه الجوبية بشكل خاص ، ويدخل السمك فيها ولا يستطيع الخروج منها ، فيأتى السمك يوم السبت ويدخل فى الجوبية ويستخرجونه يوم الأحد . وفى هذا اعتداء . أو يصنعون حوضاً له مدخل وليس له مخرج وفى هذا مكر . وتمكر لهم السماء بحيلة أشد . لقد أراد الله ابتلاءهم لأنهم فسقوا عن المنهج . وخرجوا عن الطاعة ، واستحلوا أشياء حرمها الله ؛ لذلك يحرم الله عليهم أشياء أحلها لغيرهم .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾

وحينما تجد أن طائفة قالت قولاً ، فلابد أن هناك أناساً قيل لهم هذا القول . إذن ففيه « قوم واعظون » ، و« قوم موعوظون » ، و« قوم مستنكرون وعظ الواعظين » . وهكذا صاروا ثلاث فرق :

الذين قالوا وعظاً لهم : لماذا لا تلتزمون بمنهج الله ؟ هؤلاء هم المؤمنون حقًّا . وقالوا ذلك لأنهم رأوا من يخالف منهج الله . والذين لاموا الواعظين هم الصلحاء من أهل القرية الذين يئسوا من صلاح حال المخالفين للمنهج .

وحين ندقق فى الآية :

﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ ﴾

(من الآية ١٦٤ سورة الأعراف)

نعلم أن القائلين هم من الذين لم يعتدوا ، ولم يعظوا وقالوا هذا التساؤل لمن وعظوا ؛ لأنهم رأوا أن الوعظ مع الخارجين على منهج الله لا ينفع . كما قال الله لرسوله صلى الله عليه وسلم : ﴿ فلعلك باخع نفسك ألاّ يكونوا مؤمنين ﴾ .

هنا يسأل الحق رسوله : ولماذا تُحزن نفسك وتعمل على إزهاق روحك . وهنا قال بعض بنى إسرائيل : لم تعظون هؤلاء المغالين فى الكفر ، لماذا ترهقون أنفسكم معهم ، إنهم يعملون من أجل أن يعذبهم الله . وماذا قال الواعظون ؟ : ﴿ قالوا معذرة إلى ربكم ولعلهم يتقون ﴾ .

وما هى المعذرة إلى الله ؟ . يقال : عذرك فلان إذا كنت قد فعلت فعلاً كان فى

ظاهره أنه ذنب ثم بينت العذر فى فعله ، كأن تقول : لقد جعلتنى انتظرك طويلاً وتأخرت فى ميعادك معى . أنت تقول ذلك لصديق لك لأنه أتى بعمل مخالف وهو التأخر فى ميعادٍ ضربه لك . فيرد عليك : تعطلت منى السيارة ولم أجد وسيلة مواصلات ، وهذا عذر . إذن فمعنى « العذر » هو إبداء سبب لأمر خالف مراد الغير . ولذلك يقال : أعذر من أنذر ، والحق يقول :

﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾

(من الآية ٩٠ سورة التوبة)

ونعلم أيضاً أن هناك مُعْذِراً ، ومُعذِّراً . والمُعَذِّر هو من يأتى بعذر كاذب ، والمُعْذِر هو من يأتى بعذر صادق . وقال الواعظون : نحن نعظهم ، وأنتم حكمتم بأن العظة لا تنفع معهم لأنهم اختاروا أن يهلكهم الله ويعذبهم ولكنا لم نيأس ، وعلى فرض أننا يئسنا من فعلهم ، فعلى الأقل نكون قد قدمنا لربنا المعذرة فى أننا عملنا على قدر طاقتنا .

وكلمة « وَعْظ » تقتضى أن نقول فيها : إن هناك فارقاً بين بلاغ الحكم ، والوعظ بالحكم ؛ فالوعظ أن تكرر لموعوظ ما يعلمه لكنه لا يفعله . كأن تقول لإنسان : قم إلى الصلاة ، هو يعلم أن الصلاة مطلوبة لكنه لا يقوم بأدائها .

إذن فالوعظ معناه تذكير الغافل عن حكم ، ومن كلمة الوعظ نشأت الوعَّاظ . وهم من يقولون للناس الأحكام التى يعرفونها ، ليعملوا بها ، فالوعاظ إذن لا يأتون بحكم جديد .

وبعض العلماء قال : إن قول الحق : ﴿ لم تعظون قوماً الله مهلكهم ﴾ ليس مراداً به الفئة التى لم تفعل الذنب ولم تعظ ، إنما يراد به الفئة الموعوظة ، كأن الموعوظين قالوا : إن ربنا سيعذبنا فلماذا توعظوننا ؟ . ونقول : لا ؛ لأن عجز الآية ينافى هذا . فالحق يقول : ﴿ معذرة إلى ربكم ولعلهم يتقون ﴾ .

ومجىء « لعلهم » يؤكد أن هذا خبر عن الغير لا أنَّه من الموعوظين .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ ﴾

ويخبرنا الحق هنا أن الموعوظين حينما نسوا ما وعظهم به بعض المؤمنين أهلكهم الله بالعذاب الشديد جزاءً لخروجهم وفسوقهم عن المنهج وأنجى الله الفرقة الواعظة . وماذا عن الفرقة الثالثة التى لم تنضم إلى الواعظين أو الموعوظين ؟ الذين قالوا : ﴿ لم تعظون قوماً الله مهلكهم ﴾ إن قولهم هذا لون من الوعظ ؛ فساعة يخوفونهم بأن ربنا مهلك أو معذب من يخرج على منهجه ، فهو وعظ من طرف آخر .

وقوله الحق : ﴿ فلما نسوا ما ذكروا به ﴾ يدل على أنه قد وعظهم غيرهم وذكروهم . ويعذب الحق هؤلاء الذين ضربوا عرض الحائط بمنهجه ولم يسمعوا مَن وعظوهم ، وخرجوا على تعاليمه فظلموا أنفسهم واستحقوا العذاب الشديد ؛ فالمسألة ليست تعنتاً من الله ؛ لأنهم السبب فى هذا ، إما بفسق ، وإمّا بظلم للنفس .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾ ﴾

وأخذهم بعذاب يدل على أنه لم يزهق حياتهم ويميتهم ؛ لأن العذاب هو إيلام من يتألم ، والموت ليس عذاباً لأنه ينهى الإحساس بالألم ، ولنتعرف على الفارق بين الموت والعذاب حين نقرأ قصة الهدهد مع سيدنا سليمان ، يقول سيدنا سليمان حين تنبه لغياب الهدهد عندما وجد مكانه خاليا :

﴿ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ۝٢٠ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ ﴾

(من الآيتين ٢٠ ، ٢١ سورة النمل)

هكذا نرى الفارق بين العذاب وبين الموت . وهنا يقول الحق : ﴿ فلما عتوا عن ما نهوا عنه ﴾ و « عتوا » تعنى أبوْا وعصوْا واستكبروا فحق عليهم عذاب الله الذى أوضحه قول الحق : ﴿ كونوا قردة خاسئين ﴾ .

لأن « العتو » كبرياء وإباء ؛ فيعاقبهم الله بأن جعلهم كأخس الحيوانات ، فصيرهم أشباه القرود ، كل منهم مفضوح السوءة ، يسخر الناس منهم ويستهزئون بهم . فهل انقلبوا قردة ؟ . نعم ؛ لأنك حين تأمر إنساناً بفعل . . ألَا تُقَدِّر قبل الأمر له بالفعل أنه صالح أن يفعل وألا يفعل ؟ . وحين يقول الله : ﴿ كونوا قردة ﴾ فهل فى مكنتهم أن يصنعوا من أنفسهم قردة ؟ . ونقول : إن هذا اسمه « أمر تسخيرى » أى اصبحوا وصُيِّروا قردة . وقد رأوهم على هذه الهيئة من وعظوهم ، وهى هنا مقولة « خبر » نصدقه بتوثيق من قاله ، وكان هذا الخبر واقعاً لمنْ شاهده .

ولذلك نجد المعجزات التى حدثت لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم غير القرآن الذى وصلنا ككتاب منهج ومعجزة وسيظل كذلك إلى قيام الساعة ، لكن ألم ينبع الماء من بين أصابعه صلى الله عليه وسلم ؟ لقد حدث ذلك وغيره من المعجزات وشاهده أصحابه صلى الله عليه وسلم ، وأخبرونا بالخبر ، وكان ذلك آية تُثبِّت يقينهم وإيمانهم . وتثبت لنا خبراً ، فإن اتسع لها ذهنك فأهلاً وسهلاً ، وإن لم يتسع لها فلا توقف إيمانك ؛ لأنها آية لم تأت من أجلك أنت ، وكل معجزة كونية حدثت لرسول الله فالمراد بها من شاهدها ، ووصلتك أنت كخبر ، إن وثقت بالخبر صدقته ، وإن لم تثق به ووقفت عنده فلن ينقص إيمانك . غير أنه يجب على من وصل إليه الخبر بطريق مقطوع به ، أن يصدق ويذعن .

وقد أخبر الحق هنا بالأمر بقوله : ﴿ كونوا قردة خاسئين ﴾ بأنه أوقع عليهم عذاباً بأن جعلهم قردة خاسئين ، فهذا عقاب للذين عتوا عمَّا نهوا عنه . والذين وعظوهم أو عاصروهم هم من شاهدوا وقوع العذاب .

وهل الممسوخ يظل ممسوخاً ؟ . إن الممسوخ قرداً أو خنزيراً ، يظل فترة كذلك ليراه من رآه ظالماً ، ثم بعد ذلك يموت وينتهى .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ ﴾

وتَأَذَّن نجد مادتها من الهمزة والذال والنون ، فمنه أُذُن ، ومنها أَذَان ، وكلها يراد بها الإعلام ، والوسيلة للإعلام هى الأذن والسمع ،حتى الذى سنُعلمه بواسطة الكتابة نقول له ليسمع . ثم يكتب ويقرأ ، وما قرأ إلا بعد أن سمع ؛ لأنه لن يعرف القراءة إلا بعد أن يسمع أسماء الحروف « ألف » ، « باء » إلخ ، ثم تهجاها . إذن فلا أحد يقرأ إلا بعد أن يسمع ، وهكذا يكون السمع هو الأصل فى المعلومات ، ونقرأ فى القرآن :

﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ ﴾

(سورة الانشقاق)

وأذنت لربها . . أى سمعت لربها ، فبمجرد أن قال لها : « انشقى » امتثلت وانشقت .

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

والكلام هنا بالنسبة لبنى إسرائيل ، ويبين لنا سبحانه أنهم مع كونهم مختارين فى أن يفعلوا ، « فإن مواقفهم الإيمانية ستظل متقلبة مترددة ، ولن يهدأ لهم حال

فى نشر الفساد وإشاعته ، ولذلك يسلط الله عليهم من يسومهم سوء العذاب ، ولماذا ؟ .

لأنهم منسوبون لدين ، والله لايسوم العذاب للكافر به وللملحد ، لأنه بكفره وإلحاده خرج عن هذه الدائرة ، إذ لم يبعث الله له رسولا. ولكن المنسوب لله ديانة ، والمنسوب لله رسالة ، والمنسوب لله كتاباً ؛ إذا فسد مع كون الناس ويعلمون عنه أنه تابع لنبى ، وأن له كتاباً ، حينئذ يكون أسوة سيئة فى الفساد للناس ، فإذا ما سلط الله عليهم العذاب فإنما يسلط عليهم لا لأجل الفساد فقط ، ولكن لأنه فساد منسوب لمن هو منسوب إلى الله . وعرفنا أن مادة أذن كلها مناط الإعلام ، وحينما تكلم الله عن خلقنا قال :

﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾

(من الآية ٧٨ سورة النحل)

إنّ الحق ـ سبحانه ـ يسمى العرب المعاصرين لرسول الله أميين ، أى ليس عندهم شىء من أسباب العلم ، وسبحانه خلق لنا وسائل العلم . بأن جعل لنا السمع والأبصار والأفئدة ، وهى وسائل العلم التى تبدأ بالسمع ثم بالأبصار ثم الأفئدة . ومن العجيب أنه رتبها فى أداء وظيفتها ؛ لأن الإنسان منا إذا كان له وليد ـ كما قلنا سابقاً ـ ثم جاء أحد بعد ميلاده ووضع أصبعه أمام عينه فإنه لا يطرف ؛ لأن عينه لم تؤد بعد مهمة الرؤية ، وعيون الوليد لا تؤدى مهمة الرؤية إلا بعد مدة من ثلاثة أيام إلى عشرة ، ولكنك إذا جئت فى أذنه وصرخت انفعل .

إن هذا دليل على أن أذنه أدت مهمتها من فور ولادته ، بينما عينه لا تؤدى مهمة الرؤية إلا بعد مدة ، فأولاً يأتى السمع ، ثم يأتى البصر ، ومن السمع والبصر تتكون المعلومات ، فتنشأ عند الإنسان معلومات عقلية ، ويقولون للطفل مثلاً : إياك أن تقبل على هذه النار حتى لا تحرقك ، فلا يصدق ، ومنظر النار يجذبه فيلمسها ، فتلسعه مرة واحدة ، وبعد أن لسعته النار مرة واحدة ، لم يعد فى حاجة إلى أن يتكرر له القول : بأن النار محرقة . فقد تكونت عنده معلومة عقلية . فأولاً

يأتى السمع ، ثم الأبصار ، ثم تأتى الأفئدة . ولذلك قال سبحانه : ﴿ لعلكم تشكرون ﴾ . تشكرون له سبحانه أن أمدكم بوسائل العلم ليخرجكم مِن أميتكم .

وهناك لفتة إعجازية أخرى ؛ فحين تكلم الحق عن وسائل العلم ، تكلم عن السمع بالإفراد ، وعن الأبصار بالجمع . مع أن هذه آلة ، وهذه آلة ؛ فقال : (السمع والأبصار) ولم يقل السمع والبصر ، ولم يقل الأسماع والأبصار ؛ لأن السمع هى الآلة التى تلتقط الأصوات ، وليس لها سد من طبيعتها ، أما العين فليست كذلك ، ففى طبيعة تكوينها حجاب لتغمض . وإذا أنت أصدرت صوتاً من فمك يسمعه الكل ، وعلى هذا فمناط السمع واحد ، لكن فى أى منظر من المناظر قد تكون لديك رغبة فى أن تراه ، فتفتح عينيك ، وإن لم تكن بك رغبة للرؤية فأنت تغمضهما .

إذن فالأبصار تتعدد مرائيها ، أما السمع فواحد ولا اختيار لك فى أن تسمع أو لا تسمع . أما البصر فلك اختيار فى أن ترى أو لا ترى ، وهذه أمور رتبها لنا الحق فى القرآن قبل أن ينشأ علم وظائف الأعضاء ، ورتبها سبحانه فأفرد فى السمع ، وجمع فى البصر مع أنهما فى مهمة واحدة ، إلا آية واحدة جاءت فى القرآن :

﴿ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾

(من الآية ٣٦ سورة الإسراء)

قال الحق ذلك لأن المسئولية هنا هى الفردية الذاتية ، وكل واحد مسئول عن سمعه وبصره وفؤاده ، وليس مسئولاً عن أسماع وأبصار وأفئدة الناس . ونرى مادة السمع قد تقدمت ، وبعدها جاءت مادة البصر إلا فى آية واحدة أيضاً ، تتحدث عن يوم القيامة :

﴿ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا ﴾

(من الآية ١٢ سورة السجدة)

هنا قدّم الحق مادة الإبصار على مادة السمع ؛ لأن هول القيامة ساعة يأتى سنرى تغيراً فى الكون قبل أن نسمع شيئاً .

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾﴾

(سورة الأعراف)

وتأذَّن أى أَعْلم الله إعلاماً مؤكداً بأنّكم يا بنى إسرائيل ستظلون على انحراف دائم ، ولذلك سيسلط الله عليكم من يسومكم سوء العذاب ، إما من جهة إيمانية ، مثلما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بنى النضير وبنى قريظة وبنى قينقاع وخيبر ، وإما أن يسلط عليهم حاكماً ظالماً غير متدين ، مصداقاً لقوله الحق :

﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا﴾

(من الآية ١٢٩ سورة الأنعام)

وكذلك مثلما حدث من بختنصر ، وهتلر . إذن « وإذ تأذن ربك » أى أعلم ربك إعلاماً مؤكداً ؛ لأن البشر قد يُعْلمون بشىء ، ولكن قدرتهم ليست مضمونة لكى يعملوا ما أعلموا به ، فإذا أعلمت أنت بشىء فأنت قد لا تملك أدوات التنفيذ ، أمّا الله ـ سبحانه ـ فهو المالك لأدوات التنفيذ ، والإعلام منه مؤكد ، ولذلك يُعْلم بالشىء ، أما غيره فالظروف المحيطة به قد لا تساعده على أن ينفذ . مثال ذلك : صحابة رسول الله الأول وهم مستضعفون ولم يستطيعوا أن يحموا أنفسهم من اضطهاد المشركين والكافرين ، وصار كل واحد يبحث لنفسه عن مكان يأمن فيه ؛ منهم من يذهب إلى الحبشة أو يذهب إلى قوى يحتمى به ، فينزل الله فى هذه الظروف العصيبة آية قرآنية لرسول الله يقول فيها :

﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾

(سورة القمر)

وتساءل البعض كيف يُهزْمون ونحن غير قادرين على حماية أنفسنا . فعندما نزلت هذه الآية قال سيدنا عمر : أى جمع يُهزم ، قال عمر : فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يثب فى الدروع وهو يقول : ﴿ سيهزم الجمع ويولون الدبر ﴾ ، فعرفت تأويلها يومئذ . إن الله سبحانه وتعالى أَعْلَمَ بالنصر ، وهو قادر على إنفاذ ما أَعْلَم به على وفق ما أَعلم ؛ لأنه لايوجد إله آخر

يصادمه . إذن « وإذ تأذن ربك » يعنى أعلم إعلاماً مؤكداً ، وحيثية الإعلام المؤكد أنه لا توجد قوة أخرى تمنع قدرته ولا تنقض حكمه .

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾

(من الآية ١٦٧ سورة الأعراف)

أى يبعث الله عليهم من يسومهم سوء العذاب . وهناك بنص القرآن مبعوث ، والله يخلى بينه وبينهم ، فلا يمنعهم الله منه ، إنما يسلط الله عليهم العذاب باختيار الظالم . مثلما قال الحق :

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾﴾

(سورة مريم)

أى أنه ـ سبحانه ـ أرسلهم لهذه المهمة وخلّى بينهم وبين الذين يستمعون إليهم : ﴿ وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة ﴾ .

وكلمة « إلى يوم القيامة » تفيد أن هذا العنصر ، المشاكس من اليهود سيبقى فى الكون كخميرة (عكننة) إلى أن تقوم الساعة ، لماذا ؟!

هم يقومون بمهمة الشر فى الوجود ، ولولا أن هذا الشر موجود فى الوجود ، ويعض الناس بمساوئه وإفساداته ، لم يكن من الناس من يتهافت على الحق وعلى الخير . فالشر ـ إذن ـ جاء ليعضّ الناس بآلامه وإفساده ليتجه الناس إلى الخير ، ولذلك تجد أقوى انفعالات تعتمل فى صدور المسلمين وأقوى نزوع حركى إلى الإسلام حين يجدون مَن يضطهد قضية الإسلام .

إن مهمة الشر فى الوجود أنه يجمع عناصر الخير فى الوجود ، ومهمة الباطل فى الوجود أنه يحفز عناصر الحق ويحضهم على محاربة الشر ومناهضته ؛ لأن الباطل حين يعم ، ويتضايق منه الناس ، ترفع يدها وتقول : يا ناس افعلوا الخير. ولو لم يحدث ذلك فلن تجد من يقبل على الخير بحمية وحرارة .

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾

(من الآية ١٦٧ سورة الأعراف)

(ويسوم) من مادتها سام ، ونسمعها فى البهائم ونسميها السائمة وهى التى تطلب مقومات حياتها ، وليس صاحبها هو الذى يجهز لها مقومات حياتها . أما البهائم التى تُرْبط وليست سائمة فهى التى تجد من يجهز لها طعامها ، إذن أصل « سام » أى طلب ، وبهيمة سائمة أى تطلب رزقها وأكلها بنفسها .

و « سام » أيضاً أى طلب العذاب . ولا يطلب أحد العذاب إلا أن يكون قد أفرغ قوته فى التعذيب . فيطلب ممن يقدر على العذاب أن يعذب ، أى أن الله يسلط ويبعث عليهم من يقوم بتعذيبهم جهد طاقته ، فإذا فترت طاقته أو ضعفت فإنه يستعين على تعذيبهم بغيره .

إذن فطلب العذاب معناه أنّه : عَذَّب هو ، ولم يكتف بأنه عذَّب بل طلب لهم عذاباً آخر ، و « يسومهم سوء العذاب » أى العذاب السيىء الشديد . ويذيل الحق الآية بقوله تعالى :

﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

(من الآية ١٦٧ سورة الأعراف)

ومعنى سرعة الشىء أن تأخذ زمناً أقل مما يتوقع له ؛ لأن السرعة هي اختصار الزمن . « لسريع العقاب » هى للدنيا وللآخرة ، فساعة يقترفون ذنباً . يسلط عليهم من يعذبهم فى الدنيا ، أما الآخرة ففيها سرعة عالية ؛ لأن مسافة كل إنسان إلى العذاب ليست هى عمر الدنيا ، فالإنسان بمجرد أن يموت تنتهى الدنيا بالنسبة له . والرسول صلى الله عليه وسلم يقول : « إذا مات أحدكم فقد قامت قيامته »[1] .

إن هناك سرعة لحساب الآخرة . وحتى لو افترضنا أننا سنبقى جميعاً دون حساب إلى أن تنتهى الدنيا ، فإن الحساب سيكون سريعاً لأن كل لحظة تمر على أى إنسان تقربه من العقاب ، وحتى لو كان عمر الدنيا مليون سنة ، فكل يوم يمر سينقص من عمر الدنيا .

---

(١) رواه الديلمى عن أنس مرفوعاً .

وحين يقول الحق سبحانه بعد سرعة العقاب « وإنه لغفور رحيم » قد نجد من يسأل كيف والحديث هناعن العقاب ؟ ونقول : إنه سبحانه الذى يتكلم . وهو القادر ، فإذا قال : إنه لسريع العقاب ، فهذا يعني أنه يسرع بعقاب المفسدين والظالمين ؛ لأنه غفور رحيم بالمظلومين الذين يُظلمون ، إذن فسرعة عقاب الظَّلَمَة رحمة منه بالمظلومين . أو أن الله كما قال « سريع العقاب » فإنه ـ سبحانه ـ يأتى بالمقابل لكى يشجع كل إنسان على الدخول فى رحمته .

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ ﴾

وقد قال سبحانه قبل ذلك أيضاً :

﴿ وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ﴾

(من الآية ١٦٠ سورة الأعراف)

ولكن القول هنا يجىء لمعنى آخر : ﴿ وقطعناهم فى الأرض أمماً منهم الصالحون ومنهم دون ذلك ﴾ .

وقد قطعهم الحق حتى لايبقى لهم وطن ، ويعيشون فى ذلة ، لأنهم مختلفون غير متفقين مع بعضهم بعضا منذ البداية ، كانوا كذلك منذ أن كانوا أسباطاً وأولاد إخوة على خلاف دائم . وهنا يقول الحق : ﴿ وقطعناهم فى الأرض أمماً ﴾ .

ومعنى « قطعنا هم » أى أن كل قطعة يكون لها تماسك ذاتى فى نفسها ، وأيضاً لا تشيع فى المكان الذى تحيا فيه ، ولذلك قلنا : إنهم لا يذوبون فى المجتمعات أبداً ، ـ كما قلنا ـ فعندما تذهب إلى أسبانيا مثلاً تجد لهم حيًّا خاصًّا ، كذلك فى

فرنسا ، وألمانيا ، وكل مكان يكون لهم فيه تجمع خاص بهم ، لا يدخل فيه أحد ، ولا يأخذون أخلاقاً من أحد ، وشاء الحق ذلك بعد أن قال لهم :

﴿ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾

(من الآية ٢١ سورة المائدة)

فبعد أن مَنَّ عليهم بأرض يقيمون فيها ، قالوا :

﴿ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة المائدة)

فحرم الله عليهم أن يستوطنوا وطنا واحداً يتجمعون فيه ، ونشرهم فى الكون كله لأنهم لو كانوا متجمعين لعم فسادهم فقط فى دائرتهم التى يعيشون فيها . ويريد الله أن يعلن للدنيا كلها أن فسادهم فساد عام . ولذلك فهم إن اجتمعوا فى مكان فلابد أن تتألب عليهم القوى وتخرجهم مطرودين أو تعذبهم ، وأظن حوادث هتلر الأخيرة ليست بعيدة عن الذاكرة ، وقد أوضحنا ذلك من قبل فى شرح قوله الحق :

﴿ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ ﴾

(من الآية ١٠٤ سورة الإسراء)

لقد قلنا : إن السكن فى الأرض هو أن يتبعثروا فيها ؛ لأنه ـ سبحانه ـ لم يحدد لهم مكانا يقيمون فيه ، فإذا جاء وعد الآخرة ينتقم الله منهم بضربة واحدة ، ويأتى الحق بهم لفيفاً تمهيداً للضربة القاصمة : ﴿ وقطعناهم فى الأرض أمماً منهم الصالحون ومنهم دون ذلك ﴾ .

هناك فريق منهم جاء إلى المدينة المنورة ووسعتهم المدينة وصاروا أهل العلم وأهل الكتاب ، وأهل الثراء وأهل المال ، وأهل بنايةٍ للحصون ، وحين هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم عقد معهم معاهدة . فالذى دخل منهم فى الإيمان استحق معاملة المؤمنين ، فلهم ما لهم وعليهم ما عليهم ، والحق قد قال :

﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

وقلنا إن هذه تسمى صيانة الاحتمال لمن يفكرون فى الإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ وقطعناهم فى الأرض أمماً منهم الصالحون ومنهم دون ذلك ﴾ . و « دون » أى غير ، فالمقابل للصالحين هم المفسدون . أو منهم الصالحون فى القمة ، ومنهم من هم أقل صلاحاً . فهناك أناس يأخذون الأحسن ، وأناس يأخذون الحسن فقط . ويتابع الحق سبحانه :

﴿ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾

(من الآية ١٦٨ سورة الأعراف)

كلمة « لعلهم يرجعون » هى التى جعلتنا نفهم أن قول الحق سبحانه وتعالى : إن منهم أناساً صالحين ، ومنهم دون ذلك ، أى كافرون ؛ لأنهم لو كانوا قد صنعوا الحسن والأحسن فقط ، لما جاء الحق بـ ﴿ لعلهم يرجعون ﴾ . أو هم يرجعون إلى الأحسن .

و « بلونا » أى اختبرنا ؛ لأن لله فى الاختبارات مطلق الحرية ، فهو يختبر بالنعمة ليعلم واقعاً منك لأنه ـ سبحانه ـ عالم به ، من قبل أن تعمل ، لكن علمه الأزلى لا يُعتبر شهادة منا . لذلك يضع أمامنا الاختبار لتكون نتيجة عملنا شهادة إقرار منا علينا : ﴿ وبلوناهم بالحسنات والسيئات ﴾ . وسبحانه وتعالى يختبر بالنعمة ليرى أتغرنا الأسباب فى الدنيا عن المُسبِّب الأعلى الذى وهبها :

﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ ﴾

(سورة العلق)

فالواجب أن نشكر النعمة ونؤديها فى مظان الخير لها . فإن كان العبد سيؤديها بالشكر فقد نجح ، وإن أداها على عكس ذلك فهو يرسب فى الاختبار . إذن فهناك الابتلاء بالنعم ، وهناك الابتلاء بالنقم . والابتلاء بالنقم ليرى الحق هل يصبر العبد أو لا يصبر ، أى ليراه ويعلمه واقعاً حاصلاً ، وإلا فقد علمه الله أزلاً .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة الفجر)

إننا نجد من يقول : « ربى أكرمن » . ومَن يقول : « ربى أهانن » والحق يوضح : أنتما كاذبان . فليست النعمة دليل الإكرام ، ولا سلب النعمة دليل الإهانة . ولكن الإكرام ينشأ حين تستقبل النعمة بشكر ، وتستقبل النقمة بصبر . إذن مجىء النعمة فى ذاتها ليس إلا اختبارا . وكذلك إن قَدَر الله عليك رزقك وضيقه عليك ، فهذا ليس للإهانة ولكنه للاختبار أيضاً .

ويوضح الحق جل وعلا :

﴿ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾ ﴾

(سورة الفجر)

أنتم لا تطعمون فى مالكم يتيماً ولا تحضون على طعام مسكين . فكيف يكون المال نعمة ؟ إنه نقمة عليكم . وهنا يقول الحق : ﴿ وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون ﴾ . ولله المثل الأعلى ، نقول : إن فلاناً أتعبنى ، لقد قلبته على الجنبين ، لا الشدة نفعت فيه ، ولا اللين نفع فيه ، ولا سخائى عليه نفع فيه ، ولا ضنى عليه نفع فيه ، وقد اختبر الله بنى إسرائيل فلم يعودوا إلى الطاعة مما يدل على أن هذا طبع تأصل فيهم .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ

مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟
عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ ۗ وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ
لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾

والخَلَف أو الخَلْف أو الخليفة هو من يأتى بعد ذلك ، ويقال : فلان خليفة فلان ، ومن قبل قرأنا أن سيدنا موسى قال لسيدنا هارون :

﴿ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى ﴾

(من الآية ١٤٢ سورة الأعراف)

أى كن خليفة لى ، إلا أنك حين تسمع « خَلْفُ » بسكون اللام ، فاعلم أنه فى الفساد ، وإن سمعتها « خَلَفٌ » بفتح اللام فاعلم أنه فى الخير ، ولذلك حين تدعو لواحد تقول : اللهم اجعله خير خَلَف لخير سلف . وهنا يقول الحق : ﴿ فخلف من بعدهم خَلْف ﴾ . والحديث هنا عن أنهم هم الفاسدون والمفسدون ، والشاعر يقول :

ذهب الذين يعاش فى أكنافهم وبقيت فى خَلْفٍ كجلد الأجرب

الشاعر هنا يبكى موت الكرماء وأهل السماحة ، فلم يعد أحد من الذين كان يعيش فى رحاب كرمهم وسماحتهم ؛ فقد ذهب الذين يُعاش فى أكنافهم أى جوارهم ؛ لأن هذا الجوار كان نعمة أيضاً . وحين يجاور رجل ضُيِّق وقُدِر عليه رزقه رجلاً طيبًا عنده نعمة ، فتنضح عليه نعمة الرجل الطيب . والشاعر هنا قال : « وبقيت فى خَلْفٍ كجلد الأجرب » أى أن جلده قريب ولاصق لكنه جلد أجرب .

وعرفنا قصة « أبودلف » وكان رجلاً كريماً فى بغداد . يعيش فى نعمته كل الناس ومن يحتاج يعطيه . وطرأ طارىء على جار فقير له ، وأراد أن يبيع داره ، فعرض الدار للبيع ، وسألوه عن الثمن الذى يرتضيه ، فقال : دارى بمائة دينار .

لكن جوارى لأبى دلف بألف دينار ، فبلغ هذا الكلام أبا دلف فقال : إن رجلاً قدر جوارنا بعشرة أمثال ما قدر به داره لحقيق ألا يفرّط فيه . قولوا له : فليبق جاراً لنا وليأخذ ما يريد من مال :

﴿ فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب ﴾ . والكتاب هو التوراة ، والخَلْف أخذوه ميراثاً ، والشىء لا يكون ميراثاً إلا إذا حمله السابق بأمانة وأدّاه للاحق ، ولكن لأنهم أهل إفساد فلنر ماذا فعلوا فى الكتاب ؟ لقد ورثوه . وبُلِّغ إليهمُ وعرفوا ما فيه .

﴿ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ﴾

(من الآية ١٦٩ سورة الأعراف)

أى لا حجة لهم فى ألاّ يكونوا أصحاب منهج خير ، لكنهم لم يلتفتوا إلى ما فى الكتاب ـ التوراة ـ من المواثيق ، والحلال ، والحرام ، وافعل كذا ولا تفعل كذا ؛ لم يلتفتوا لكل هذا ؛ لأنهم قالوا لأنفسهم : إن هذا الكتاب يعطى النعيم البعيد فى الآخرة ، وهم يريدون النعيم القريب ، فمنهم من قبل الرشوة واستغلال النفوذ . وبذلك أخذوا عَرَضَ الحياة الأدنى وهو عرض الدنيا . ولم يأخذوا إدارة الدنيا بمنهج الله ، والدنيا فيها جواهر وأعراض ، والجوهر هو الشىء الذاتى ، فالإنسان بشحمه ولحمه « جوهر » أما لونه إن كان أسمر أو أبيض فهذا عَرَض ، قصيراً أو طويلاً ، صحيحاً أو مريضاً ، وغنيًّا أو فقيراً فهذا عرض . إذن فالأعراض هى ما توجد وتزول ، والجواهر هى التى تبقى ثابتة على قدر ما كتب لها من بقاء ، وكما يقول علماء المنطق : الجوهر ما قام بنفسه ، والعَرَض ما قام بغيره .

وهم قد أخذوا العرض من الحياة الدنيا ، وعرض الدنيا قد يتمثل فى المال الحرام ، وأن يغشوا ويستحلوا الرشوة . ونعلم أن الإنسان ـ حتى المؤمن ـ قد تحدث منه معصية ولا يمنع ربنا هذا ؛ لأن المشرع الأعلى حين يشرع عقوبة لجريمة ، فهذا إذْنٌ بأنها قد تحدث ، وحين يقول الحق :

﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا ﴾

(من الآية ٣٨ سورة المائدة)

إنَّ معنى هذا القول أن المؤمن قد تسول له نفسه أَنْ يسرق مثلاً ، ولم يترك

الحق هذا الجرم بدون عقوبة . وإن رأينا مسلماً يسرق ، نقل له هذا فعل مُجَرَّم من الإسلام ، وله عقوبة ، والمُجْرِم لا يمكن أن يرتكب الجُرْم وهو ملتزم بالدِّين ، بل هو منسوب للدين فقط ، وعندما يرتكب مسلم ذنباً أو معصية ثم يندم ويتوب ويعزم على أنه لن يعود تصح توبته ، وكذلك لو ألحَّت عليه معصيته فيعود إليها ، ثم تاب ، المهم أنه فى كل مرة لا يصر على الفعل ، ثم يقول : سوف أتوب . وهم كانوا يصرون على المعصية ويقولون : سيغفر الله لنا ، بل إنهم لم يفكروا فى التوبة ، ووجدنا منهم من يقول :

﴿ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ﴾

(من الآية ١٨ سورة المائدة)

ويأتى الرد :

﴿ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ﴾

(من الآية ١٨ سورة المائدة)

إذن هم يأخذون عرض هذا الأدنى ، ويحكمون فى أخذهم بهذا العرض أنه سبحانه سوف يَغْفِر لهم . وبذلك استحلوا الحرام وانتقلوا من منطقة المعصية إلى منطقة الكفر ؛ لأن هناك فرقاً بين أن تفعل الشىء وتقول هو معصية . لكن أن يرتكب الإنسان المعصية ويقول : ليست بمعصية ، فهذا انتقال من العصيان إلى الكفر . ومثال ذلك الربا حين نجد من يحلله ، نقول له : اقْبَلْ أن تكون عاصيًا ولا تدخل نفسك فى الكفر ؛ لأنك إن حللت ما حرم الله يقع عليك الكفر وتوصف به والعياذ بالله ، أما إن قلت : هو حرام ولكن ظروفى صعبة ولا أقدر على نفسى فقد يغفر الله لك . لكن قوم موسى كانوا يصرون على المعصية ويقولون : سيغفر الله لنا :

ويقول الحق : ﴿ وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه ﴾ .

وهم بعد ذلك تركوا الأعلى وأخذوا عرض الحياة الأدنى ويتمادون فى غيهم ويرتكبون المعاصى تلو المعاصى دون أن يدقوا باب التوبة . لذلك ينبههم الحق سبحانه :

﴿ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ﴾

(من الآية ١٦٩ سورة الأعراف)

لقد ورثوا الكتاب ، وفى الكتاب قد أُخذ عليهم عهدٌ موثقٌ ألا يقولوا على الله إلا الحق ، لكن هل يعدل الفاسق عن الباطل ويعود إلى الحق ؟ . طبعاً لا ، هم إذن تجاهلوا ما فى هذا الكتاب ، رغم أنهم قد درسوا ما فيه مصداقاً لقوله الحق : ﴿ ودرسوا ما فيه ﴾

وكلمة « دَرَسَ » تدل على تكرر العمل ، فيقال : « فلان درس الفقة » أى تعلمه تعلما متواصلاً ليصير الفقه عنده ملكة . وهو مختلف عمن قرأ الكتاب مرة واحدة ، هنا لا يصبح الفقه عنده ملكة . وحتى نفهم الفرق بين « العلم » و« الملكة » ، نقول : إن العلم هو تلقى المعلومات ، أما من درس المعلومات وطبقها وصارت عنده المسألة آلية ، فهذا هو من امتلك ناصية العلم حتى صار العلم عنده ملكة .

إذا التقى صائم ـ مثلا ـ بفقيه وسأله عن فتوى فى أمر الصيام يجيبه فوراً ؛ لأنه علم كل صغيرة وكبيرة فى الفقه . لكن إن تسأل تلميذاً مبتدئا فى الأزهر فقد يرتبك وقد يطلب أن يرجع إلى كتبه ليعثر على الإجابة ؛ لأن الفقه لم يصبح لديه ملكة . والملكة فى المعنويات هى مقابل الآلية فى الماديات التى تحتاج إلى دُرْبة ، فمن يمسك النول لينسج النسيج ويتقن تمرير المكوك بين الفتلتين لا يفعل ذلك إلا عن دُرْبة . إنه قد تعلم ذلك بصعوبة وتكرار تدريب .

إذن فقوله : ﴿ ودرسوا مافيه ﴾ أى تكررت دراسة الكتاب حتى عرفوا مافيه من علم . ونحن أخذنا « درس العلم » من مسألة حسية هى « درس القمح » ، ويعلم من تربى فى الريف كيف ندرس القمح ، حين يدور النورج على سنابل القمح فيخرج لنا الحب من أكمامه ، ويقطع لنا العيدان ، وهذه العملية تسمى « درس القمح » .

إن مافعلوه من عصيان ليس عن غفلة عن هذا الميثاق فى ألاّ يقولوا على الله إلا الحق ، لأنهم درسوا ما فى الكتاب المنزل عليهم وهو التوراة دراسة مستوعبة ، لكنهم أخذوا العرض الأدنى . وكان لابد أن يأتى لنا بمقابل العرض الأدنى فيوضح لنا أن مصير من يريد الدار الآخرة هو الثواب الدائم ولذلك يقول الحق :

﴿ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾

من الآية ١٦٩ سورة الأعراف

وهذا يعنى التنبيه بأنه من الواجب قبل أن تفعلوا الفعل أن تنظروا ما يعطيه من خير ، وأن تتركوه إن كان يعطى الكثير من الشر ، وزنوا المسألة بعقولكم ، وساعة أن تزنوا المسألة بعقولكم ستعرفون أن عمل الخير راجح .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾ ﴾

إنّ الكثير من بنى إسرائيل ورثوا الكتاب ، وأخذوا العرض الأدنى ، ولم يزنوا الأمور بعقولهم ؛ لذلك لم يتمسكوا بالكتاب ، وتركوه ، وساروا على هواهم ؛ كأنهم غير مقيدين بمنهج افعل كذا ولا تفعل كذا ، ويقابلهم بعض الذين يتمسكون بالكتاب الذى ورثوه ، ولا يقولوا على الله إلا الحق .

ومادة الميم والسين والكاف تدل على الارتباط الوثيق ؛ فالذى يجعل الانسان متصلاً بالشىء هو ماسكه ، وتقول : « مسَكَ » وتقول : « مَسَّكَ » ، و « أمسك » ، وتقول «استمسك » ، و« تماسك » ، وكلها مادة واحدة . وقوله الحق : « يمسِّكون » مبالغة فى المسك ، مثل قطع وقطَّع ، ولكن قطَّع أبلغ .

و(مسَّك) يعنى أن الماسك تمكن مما يمسك ، و(استمسك) أى طلب ، و(تماسك) أى أنّ هناك تفاعلاً بين الاثنين ؛ بين الماسك والممسوك . ومن رحمة ربنا أنه لا يطلب منا أن نمسك الكتاب . بل يطلب أن نستمسك بالكتاب ، ولذلك يوضح لك الحق سبحانه وتعالى : إن أنت ملت إلى القرب منى والزلفى إلىّ ، فاترك الباقى عنك فالمعونة منىّ أنا ، ولذلك يدلنا على أن من ينفذ منهج القرآن لايلقى الهوان أبدا ﴿ فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها ﴾ وهنا يستخدم

الحق سبحانه كلمة (استمسك) لا كلمة مسَك ، فمن وجه نيته فى أن يفعل يعطيه الله المعونة ، ولذلك يقول سبحانه فى الحديث القدسى :

« أنا عند ظن عبدى بى ، وأنا معه إذا ذكرنى ، فإن ذكرنى فى نفسه ، ذكرته فى نفسى ، وإن ذكرنى فى ملأ ، ذكرته فى ملأ خير منه ، وإن تقرب إلىَّ بشبر ، تقربت إليه ذراعاً ، وإن تقرب إلىّ ذراعا ، تقربت إليه باعا ، وإن أتانى يمشى ، أتيته هرولة[1] » .

فأنت بإيمانك بالله تعزز نفسك وتقويها بمعونه الله لك . فإن أردت أن يذكرك الله فاذكر الله ؛ فإن ذكرته فى نفسك يذكرك فى نفسه ، وإن ذكرته فى ملأ يذكرك فى ملأ خير منه ، وإن تقربت إليه شبراً تقرب إليك ذراعاً ، فماذا تريد أكثر من ذلك ، خاصة أنك لن تضيف إليه شيئاً ، إذن فالموقف فى يدك ، فإذا أردت أن يكون الله معك فسر فى طريقه تأت لك المعونة فوراً . وهكذا يكون الموقف معك وينتقل إليك ، وذلك بإيمانك بالله وإقبالك على حب الارتباط به ..

ولذلك قلنا من قبل : إن الأنسان إذا أراد أن يلقى عظيماً من عظماء الدنيا وفى يده مصلحة من مصالح الإنسان فهو يكتب طلباً ، فإما أن يوافق هذا العظيم وإما ألاّ يوافق ، وحين يوافق هذا العظيم يحدد الزمان ويحدد المكان ، ويسألك مدير مكتبه عن الموضوعات التى ستتكلم فيها ، وحين تقابله وينتهى الوقت ، فهو يقف من كرسيه لينهى المقابلة ، هذا هو العظيم من البشر ، لكن ماذا عن العظيم الأعظم الأعلى الذى تلتقى به فى الإيمان ؟ أنت تلقى الله فى أى وقت ، وفى أى مكان ، وتقول له ما تريد ، وأنت الذى تنهى المقابلة ، ألا يكفى كل ذلك لتستمسك بالإيمان ؟ .

﴿ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

والكتاب هنا هو الكتاب الموروث ، والمقصود به التوراة وهو الذى درسوا

---

(١) من صحيح البخارى فى كتاب التوحيد ، وأخرجه مسلم فى صحيحه بثلاث طرق عن أبى هريرة ، كما أخرجه الترمذى وابن ماجه .

ما فيه ، وقد أخذ الله فى هذا الكتاب الميثاق عليهم ألا يقولوا على الله إلا الحق ، والحق يقول هنا : ﴿ وأقاموا الصلاة ﴾ فهل هذا الكتاب ليس فيه إلا الصلاة ؟ لا ، ولكنه خص الصلاة بالذكر . لأننا نعلم أن الصلاة عماد الدين ، وعرفنا فى رسالة محمد صلى الله عليه وسلم أن الصلاة قد فرضت بالمباشرة ، وكل فروض الإسلام ـ غير الصلاة ـ قد فرضت بالوحى .

لقد قلنا من قبل ولله المثل الأعلى ، إن رئيس أى مصلحة حكومية حين يريد أمراً عادياً رُوتينياً ، فهو يوقع الورق الذى يحمل هذا الأمر ويكتب عليه : « يعرض على فلان » ويأخذ الورق مجراه ، وحين يهتم بأمر أكثر ، فهو يتحدث تليفونياً إلى الموظف المختص ، وحين يكون الأمر غاية فى الأهمية القصوى فهو يطلب من الموظف أن يحضر لديه ، وهكذا فرضت الصلاة بهذا الشكل لأنها الإعلان الدائم للولاء لله خمس مرات فى اليوم ، وإن شئت أن تزيد على ذلك تنفلا وتهجدا فعلت .

إنك بالصلاة توالى الله بكل أحكامه ، إنك توالى الله بالزكاة كل سنة ، وبالصوم فى شهر واحد هو رمضان ، وبالحج مرة واحدة فى العمر إن استطعت . لكن الصلاة ولاء دائم متجدد ، ولأن الصلاة لها كل هذه الأهمية ؛ لذلك لا تسقط أبداً . وأركان الإسلام ـ كما نعلم ـ خمسة ؛ شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، إنها الإيمان بالله وبالرسول كوحدة واحدة لا تنفصل ، ويكفى أن ينطقها الإنسان مرة لتكتب له ، ثم تأتى أركان الصلاة ، والزكاة ، والصوم ، والحج ، والحج ليس ركناً مفروضاً إلا على من يستطيعون . قد لا يكون للإنسان مال يخرج عنه الزكاة ؛ فلا يجب عليه إخراج شىء حينئذ ، وقد يكون الإنسان مريضاً أو مسافراً فلا يصوم .

إذن فبعض فروض الإسلام قد تسقط عن المسلم ، إلا الصلاة فهى لا تسقط أبداً ؛ لأن فى الصلاة فى ظاهر الأمر قطعا لبعض الوقت عن حركة عملك ، وإن كان كل فرض يأخذ مثلاً نصف الساعة ، فالإنسان يقتطع من وقته ساعتين ونصف الساعة كل يوم فى أداء الصلاة . والوقت عزيز عند الإنسان . ففى الصلاة بذل لبعض الوقت الذى يستطيع أن يكسب الإنسان فيه مالاً ، وفيها أيضا الصوم عن الأكل والشرب ومباشرة الزوجات ، ففيها كل مقومات أركان الإسلام ، لذا فهى لا تسقط أبدا .

﴿ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾

(من الآيه ١٧٠ سورة الأعراف)

إذن الاستمساك واضح هنا جداً ، وأداء الصلاة تعبير عن الالتزام بالاستمساك بمنهج الإيمان . ولذلك نسمع من يقول : حين ذهبنا إلى مكة والمدينة عشنا الصفاء النفسى والإشراق الروحى ، وعشنا مع التجلى والنور الذى يغمر الأعماق . وأقول لمن يقول ذلك : إن ربنا هنا هو ربنا هناك ، فقط أنت هناك التزمت ، وساعة كنت تسمع الأذان كنت تجرى وتسعى إلى الصلاة ، وإذا صنعت هنا مثلما صنعت هناك فسترى التجليات نفسها . إذن إن صرت على ولاء دائم مع الحق سبحانه وتعالى فالحق لن يضيع أجرك كأحد المصلحين . لأنه القائل : ﴿ إنا لا نضيع أجر المصلحين ﴾ .

وهذه قضية عامة ، والحق سبحانه وتعالى لا يضيع أجر المصلح . وقوله : ﴿ لا نضيع أجر المصلحين ﴾ بعد قوله : ﴿ يمسِّكون بالكتاب وأقاموا الصلاة ﴾ دليل على أن أى إصلاح فى المجتمع يعتمد على من يمسكون بالكتاب ويقيمون الصلاة ؛ لأن المجتمع لا يصلح إلا إذا استدمت أنت صلتك بمن خلقك وخلق المجتمع ، وأنزل لك المنهج القويم . ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾ ﴾

والجبل معروف أنه من الأحجار المندمجة فى بعضها والمكونة لجرم عالٍ قد يصل إلى ألف متر أو أكثر ، والحق يقول عن الجبال : ﴿ والجبال أرساها ﴾ ولا يقال أرساها إلا إذا كان وجد شىء له ثقل ، فأنت لا تقول : « أرسيت الورقة على المكتب » ، ولكنك تقول : « أرسيت لوح الزجاج على المكتب ليحميه » ، وأنت بذلك ترسى شيئاً له وزن وثقل .

وقد أرسى ربنا الجبال وجعلها فى الأرض أوتادا، والوَتد - كما نعلم - ممسوك من الموتود والمثبت فيه، بدليل أنه لو تخلخل فى مكانهَ نضع له ما نسميه «تخشينة» لتلصقه وتربطه بما يثبت فيه، وهنا يقول الحق: ﴿ وإذ نتقنا الجبل ﴾ « نتقنا » أى قلعنا، وهناك قول آخر:

﴿ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ ﴾

(من الآية ١٥٤ سورة النساء)

وقال الحق أيضا:

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ ﴾

(من الآية ٦٣ سورة البقرة)

وهنا اختلاف بين « نتق » و « رفع »؛ لأن الجبل راس فى الأرض، وممسوك كالوتد؛ لذلك يحتاج قبل أن يرفع إلى عملية نزع واقتلاعٍ من الأرض، ثم يأتى من بعد ذلك الرفع، و « نتقنا» تعنى نزعنا الجبل من مكان إرسائه حتى نرفعه، وقد رفعه الله ليجعل منه ظلة عليهم، أى أن هناكَ ثلاث عمليات: نتق أى نزع وخلع، ثم رفع، ثم جعله سبحانه ظلة لهم، وهذا يحتاج إلى اتجاه فى المرفوع إلى جهة ما. والحق يقول: « وإذ » أى اذكر إذ نتقنا الجبل، أى نزعناه وخلعناه من الأرض، ولا ننزعه ونخلعه من الأرض إلا لمهمة أخرى أى لنجعله ظلة، وكان تظليل الغمام رحمة لهم من قبل، وصار الجبل ظلة « عذاب »؛ لأن الحق أنزل لهم التوراة على موسى فقالوا له: إن أحكام هذه التوراة شديدة. وللإنسان أن يتساءل: لماذا كل هذا التلكؤ مع التشريعات التى جاءت لمصلحة البشر؟. وجاء لهم العقاب من الحق بأن رفع فوقهم الجبل كظلة تحمل التهديد كأنه قد يقع فوقهم ﴿ كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم ﴾.

لذلك نجد أن كل يهودى يسجد على حاجبه الأيسر، على الرغم من أن السجود

يقتضى تساوى وضع الجبهة على الأرض، ولكنهم يسجدون بميل إلى الحاجب الأيسر لأن السابقين لهم رأوا الجبل فوقهم وتملكهم الخوف من سقوط الجبل، وكانوا يسجدون وفى الوقت نفسه يرقبون الجبل، وبقيت هذه المسألة لازمة فيهم، وصاروا لا يسجدون إلا على حاجبهم الأيسر، بسبب حكاية الجبل الذى نتقه الله وقلعه ورفعه فصار فوقهم. ﴿ وظنوا أنه واقع بهم ﴾.

والظن هو رجحان قضية، وقد يأتى ويراد به أنه رجحان قوى قد يصل إلى درجة اليقين، مثل قوله الحق: ﴿ الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم ﴾

وحين بقيت الحالة هذه، وخافوا من الجبل أن يقع عليهم، ولأن هناك كتابا قد أنزل إليهم وهو التوراة وهم يعصون ويتمردون على ما فيه؛ لذلك قال لهم الحق:

﴿ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾

(من الآية ١٧١ سورة الأعراف)

و « خذوا » فعل أمر، والأمر يقتضى آمرا، ولابد له من شىء يأمر به. وكلمة «القوة» هذه هى الطاقة الفاعلة، والأصل فى الكون كله أن نقبل على كل شىء بقوة؛ لأن الكون الذى تراه مسخراً ليس له رأى فى أن يفعل أو لا يفعل، بل هو فاعل دائما إذا أمُر، وكما قلنا من قبل: لم تغضب الشمس على الناس وقالت: لن أطلع هذا اليوم، وكذلك لم يمتنع الهواء، وأيضا لا يرفض الحمار مثلاً أن يحمل الروث، أو أن ينظفه صاحبه ويأتى له بـ « البرذعة » ليجعله ركوبة متميزة، الحمار إذن لا يعصى هنا ولا يعصى هناك، والكون كله مسخر بقوانين مادية ثابتة.

﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾

(سورة يس)

وقد وضع الحق هذا النظام للكون نظراً لأنه مقهور وليس له تكليف، والمحكوم بالغريزة الكونية صالح للحياة عن المحكوم بالاختيار الفعلى، ومع هذا الاختيار

فالإنسان له أشياء تفعل فعلها فيه ولا يَدْرى عنها شيئا مع أن بها قوام حياته، فلا أحد يمسك قلبه ويضبطه ويقول له : دَق، والرئة كذلك وحركة التنفس، والحركة الدودية فى الأمعاء، والحالب، ويرغب الإنسان فى دخول دورة المياه عندما تمتلىء المثانة بالبول، كل هذه مسائل رتيبة لا اختيار للإنسان فيها أبدا، والأمور المحكومة بالغرائز ليس لنا فيها اختيار، كأن يأكل الإنسان ويتكلم فى أثناء تناول الطعام فتنزل حبة أرز فى القصبة الهوائية فيحاول الإنسان أن يطردها بالسعال، هذا اسمه « غريزة » أى أمر غير محكوم بالفعل الاختيارى.

وكذلك الحيوان إذا أحضرت له طعاما فهو لا يأكل أكثر من طاقته حتى لو ضربه صاحبه. أما الإنسان فقد يأكل بعد أن يشبع، وحين يقول له مُضيفه - على سبيل المثال - : أنت لم تذق هذا اللون من اللحم، فيأكل. ولهذا نجد أن الأمراض فى الانسان أكثر من الأمراض فى الحيوان؛ لأن اختيار الإنسان يمتد إلى مجالات متعددة متفرقة قد تضر به وتؤذيه.

ونعرف جميعاً هذا المثال للفارق بين الإنسان والحيوان، نجد الإنسان يغلى النعناع ويشربه، ويطبخ الملوخية ليأكلها، وقد فعل ذلك لأنه اختبر الاثنين، فلم يأكل النعناع وأكل الملوخية، رغم تشابه أوراقهما. لكن هات شجرة النعناع أمام الجاموسة أو الحمار، وهات النجيل الناشف وضع الاثنين أمام الجاموسة أو الحمار، ستجد الجاموسة والحمار يتجهان إلى النجيل الناشف ويتركان نبات النعناع الأخضر الرطب، وهما يفعلان ذلك بالغريزة، فالمحكوم بالغريزة له نظام، ولو كان الحيوان مختارا لارْتَبكت حركة الحياة كلها واختلطت واشتد على الناس شأنها.

وهكذا نعرف أن مقومات الحياة تقوم على قوانين الغريزة، وهذه القوانين موجودة فى الكون لتخدمنا نحن بنى البشر. فالكهرباء مثلاً كانت موجودة قبل أن ننتفع بها، لكن بعد ذلك انتفعنا بها، وكذلك الجاذبية، كانت موجودة فى الكون منذ الأزل، لكنا لم ننتبه لها، وحين اكتشفناها زادت قدراتنا على الاستفادة منها، وهكذا نرى أن الإنسان واحد من هذا الكون، إلا أنه يتميز بأن له جهة اختيار فى

بعض الأمور، وله جهة قهر فى البعض الآخر، فهو يشارك الكون فى القهر، ويتميز عن بقية المخلوقات - عدا الجن - بالاختيار فى أمور أخرى. ونجد على سبيل المثال أن الإنسان الذى يعانى قلبه من ضعف ما، عندما يصعد هذا الإنسان سلماً ينهج ويتتابع نَفَسه من الإعياء وكثرة الحركة، لأنّ غريزته المحكوم بها تُنبه الجسد إلى ضرورة أن تعمل الرئة أكثر لتعطى الأوكسجين الذى يساعد على الصعود.

ومثال آخر، نجد الذكر من الحيوانات يقترب من أنثاه ليشمها، فإن وجدها حاملاً لا يقربها، والحيوان فى هذا الأمر مختلف عن الإنسان؛ لأن الحيوان تحركه الغريزة التى تبين له أن العملية الجنسية بين الذكر والأنثى لحفظ النوع، ومادامت الأنثى قد حملت، فالذكر لا يقربها، فاختلف الإنسان عن الحيوان فى هذا الأمر؛ فلذة الإنسان فى الجنس أعلى من لذة الحيوان؛ لأنها فى الحيوان ترضخ للغريزة فحسب، أما فى الإنسان فإنها مع الغريزة ترضخ أيضا للاختيار الذى منحه الله للإنسان.

ومن رحمة الله - إذن - أن يكون الإنسان مقهوراً فى بعض الأشياء ومختاراً فى أشياء أخرى، بـ« افعل » و « لا تفعل » حتى يختار بين البديلات.

وهنا يقول الحق: ﴿ خذوا ما آتيناكم بقوة ﴾

أى خذوا ما آتاكم فى الكتاب بجد واجتهاد. وكان هذا القول مقدمة لما جاء به العلم فى شرح معنى القوة. وقد وصل إلينا خبر العلم قبل أن يصل لنا واقعه المادى، فصرنا نرى الطاقة التى تعطى القوة. وجاء نيوتن ليكشف لنا قانون الجاذبية، القانون الأول والثانى والثالث، واكتشف أن كل جسم يظل على ما هو عليه، فإن كان ساكناً يبق على سكونه إلى أن يأتى محرك يحركه. وإن كان الجسم متحركاً فهو لا يتوقف إلى أن يصدمه صادم أو يمسكه ماسك. وسمّى العلماء هذا التأثير بالقصور الذاتى. أو التعطل، أى أن الساكن يُعَطّلُ عن الحركة إلا أن يحركه محرك، والمتحرك يُعَطّلُ عن السكون إلا أن يوقفه موقف، فأنت إذا ركبت سيارة وأنت قاعد وساكن والسيارة تسير، فإنك تظل ساكناً، إلى أن يوقفها السائق فجأة فتتحرك من مكانك ما لم تمسك بشىء.

وفى الأسواق نرى الحواة وهم يؤدون بعض الألعاب ليسحروا أعين الناس فيأتى بمنضدة وعليها مفرش لامع وأملس، ثم يضع عليها أطباقاً وأكواباً، ثم يحرك المفرش بخفة لينزعه بهدوء من تحت الأكواب حتى لا تتحرك بحركة المفرش.

وحين جاء نيوتن عقد مقارنة وموازنة بين القوة والحركة والعطالة، وقلنا: إنّ العطالة تعنى أن الساكن يتعطل عن الحركة، والمتحرك يتعطل عن السكون، وهذه هى القضية المادية فى الكون التى خدمت العلم الفضائى الخاص بسفن الفضاء والصواريخ. ونحن نرى السفن الفضائية ونعتقد أنها تدور فى الفضاء بالوقود، رغم أن حجمها لا يسع الوقود الذى يسيرها لسنوات، والحقيقة أنها تسير بقانون القصور الذاتى أو العطالة إنّها بدون وقود، وهى تندفع إلى الفضاء بقوة الصاروخ إلى أن تخرج إلى الفضاء الكونى، وتظل متحركة ما لم يوقفها موقف. ونرى ذلك فى التجربة اليسيرة حين يطلق إنسان رصاصة من مسدس فتنطلق الرصاصة بقوة الطلقة مسافة ثم تقع إن لم يوجد حاجز يصدها، وهى تقع بعد مسافة معينة؛ لأن الهواء يقابلها فيصادم الحركة إلى أن تتوقف، أما فى الفضاء الخارجى فليس هناك هواء؛ لذلك لا تتوقف سفينة الفضاء، لأنها تسير بقانون القصور الذاتى أو العطالة.

وهذه السفن الفضائية تعتمد فى صعودها إلى الفضاء على الصواريخ لتصل إلى المدار الخارجى. والصواريخ تسير بالغاز المتفلت الذى أخذ القانون الثالث من قوانين نيوتن، وهو القانون القائل: إن كل فعل له رد فعل يساويه ومضاد له فى الاتجاه، وحين يسخن هذا الغاز المتفلت يخرج من خلف الصاروخ بقوة فيندفع الصاروخ للأمام.

وهكذا نرى قول الحق: ﴿ خذوا ما آتيناكم بقوة ﴾ فى الواقع المادى والواقع القيمى. وانظر إلى غير المتدينين تجدهم ساكنين فى بعض الأمور ولا يتحركون عنها ولا يجاوزونها، فالواحد منهم لا يصلى، ولا يزكى، ولا يقول كلمة معروف، وهو فى ذلك يحتاج إلى قوة تحرك سكونه عن طاعة الله. ونجد أيضا من غير المتدينين من يشرب خمرة. أو يزنى أو يسرق أو يرتشى. وهو هنا يحتاج إلى قوة لتصده

عن مثل هذه الحركة. ولذلك نقول : إن الإنسان فى أفعاله الاختيارية يحتاج إلى أمرين : الأول إن كان ساكناً عن فعل الخير نأت له بقوة تحركه إلى هذا الخير، وإن كان متحركا إلى الشر نأت له بقوة توقفه عنه، وهذا هو ما يقدمه المنهج الإيمانى فى « افعل »، و « لا تفعل ». فمن يتراخى عن الصلاة وسكن عنها نقول له صلّ. ومن يذهب للقمار ويتحرك إليه لا يمكن أن يقف إلا إذا جاءت له قوة توقفه عن ذلك وتمنعه، إذن فالقوة الشرعية تكون فى المنهج بـ «افعل » ليحرك الساكن، و « لا تفعل » ليقف المتحرك شريطة أن يكون كل من السكون والحركة فى ضوء المنهج.

ولنعرف أن الله سبحانه وتعالى يسخر لنا الكافرين ليبينوا لنا المستغلق علينا فى قوانين الكون، فقد اكتشفوا قوانين القوة المادية وفهمناها نحن فى إطار الماديات والمعنويات، وليس اكتشاف الكافرين للقوانين فى الكون مدعاة للكسل والاعتماد عليهم، بل علينا أن نشحذ الهمم لنتقدم فى العلم الذى يُسير أمور الحياة، ولنعلم أنه لا شىء ينشىء فينا فطرة جديدة؛ لأن البشر من قديم مفطورون على الفطرة السليمة التى تلفتهم إلى أن لهذا العالم صانعاً، فكل ذراتنا وكل اتجاهاتنا تؤكد لنا وجود إله واحد. بل إن الفلاسفة حينما بحثوا وراء المادة تأكد لهم ذلك، وأغلب الفلاسفة كانوا غير مؤمنين، وهم ببحثهم وراء المادة إنما يبحثون عن الخالق الأعظم؛ لأن الإنسان لا يبحث عن شىء لا يظن وجوده. ولأنهم جميعا يعلمون أن الإنسان طرأ على كون، وهذا الكون مقام بهندسة حكيمة، ومخلوق بقوة لا تستطيع قوى البشر جميعا أن تأتى بمثلها، إذن لابد لهذا الكون من خالق.

لقد بيّنا أن القوانين التى تظهر لنا فى المادة تتماثل مع قوانين القيم، إلا أن الناس يتهافتون على قانون المادة لأنها تحقق لهم خيراً أو تدفع عنهم شرا، فيأخذون ما ينفعهم ويدعون ويتركون ما يضرهم، ولذلك احتاج الإنسان إلى منهج من السماء ليوضح ويبين له قوانين القيم التى تحقق له السعادة العاجلة فى الدنيا والآجلة فى الآخرة، أما قوانين المادة فى الأرض فتركها الله لنشاط العقل، حتى الذين لا يؤمنون بالله يذهبون إلى قوانين المادة ويصنعونها، ويتهربون من قوانين القيم لأنها تحد من شهوات النفس، وتتعب بمشقة التكليف، فشاء الحق

سبحانه وتعالى أن يقول فيها :

﴿ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾

(من الآية ١٧١ سورة الأعراف)

وأراد الحق سبحانه وتعالى أن يعطى من قانون المادة ما يقرب لنا قوانين القيم فى الفعل ورد الفعل، لنفهم أن كل حركة للشر قد تحبها النفس لأنها تحقق لها شهوة من شهواتها، لكن يجب ألا يغيب عن ذهنك أيها الإنسان أن لكل فعل رد فعل مساوياً له فى الحركة ومضاداً له فى الاتجاه، فإن كنت ترتاح فى هذا العمل وتحبه وتشتهيه فتذكر جيداً رد الفعل الذى يأتيك بالعقاب عليه، وكذلك مشقات التكليف، حين تفعل الطاعة تكون صعبة عليك ولكن يجب أن تذكر رد الفعل فيها وهو الراحة وحسن الثواب، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ ﴾

(سورة الحاقة)

وفى هذا القول فعل ورد فعل، الفعل هو العمل الصالح فى الأيام التى مضت، ورد الفعل هو الطعام والشراب الهنىء فى الآخرة. ولمن اغتر واعتز بنفسه وجبروته وقوته يقول له الحق :

﴿ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا ﴾

(من الآية ٨٢ سورة التوبة)

وهكذا نجد البكاء الكثيف الشديد الكثير نتيجة للضحك القليل. ويأتى الإنسان من هؤلاء يوم القيامة ليقال له :

﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ ﴾

(سورة الدخان)

إن كنت قد فهمت أنك عزيز كريم فأسأت إلى الناس فلسوف تتلقى العقاب.

ولذلك يقول لنا الحق عن المنهج : ﴿ واذكروا ما فيه لعلكم تتقون ﴾ . وإياكم أن تطرأ عليكم الغفلة من هذه الناحية ، فالذى يتعب الناس فى مناهج الله أنهم يغفلون عنها ؛ لأن الطاعة تكلفهم مشقة وبعض عناء ، والمعاصى تكسبهم لذة وشهوة ، فأوضح الحق : اذكروا جيدا الفعل ورد الفعل فى هذه القيم .

ونعلم أن الذِّكْر يحتاج إلى أشياء كثيرة جدا ، فالواعظ مثلاً يذكرهم دائماً ، وقلنا إن « الوعظ » هو نوع من إعادة التذكير بالإعلام بالحكم ، فأنا أعظ من عَلِمَ الحكم ؛ لأنى أريد أن يفعله ، فبعد أن علمه الموعوظ علماً فقط يريد منه الوَاعظ أن ينفذه عملياً . فكلنا نعلم أن الصلاة ركن ، وأن الحج ركن ، والزكاة ركن من أركان الإسلام ، وكلنا جاءنا العلم بذلك ، لكن منا من يكسل فى تطبيق هذا العلم . ونظل ندق على دماغه بالتذكير والوعظ ، وهذا من خيرية أمته صلى الله عليه وسلم :

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾

(من الآية ١١٠ سورة آل عمران)

ولماذا هذا التذكير ؟ . يجيب الحق :

﴿ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾

(من الآية ١١٠ سورة آل عمران)

الأمر بالمعروف عظة قولية ، والنهى عن المنكر عظة قولية ، ويعددها الرسول صلى الله عليه وسلم لبقاء التذكير ، وليأخذ كل مسلم منهج الله بقوة ، فيقول فى الحديث :

« من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، وإن لم يستطع فبقلبه وهذا أضعف الإيمان » (١) .

إذن فقد نقل الرسول المسألة من الأمر وهو القول والنهى وهو قول أيضاً إلى أن نباشرها فعلاً ، فإن لم يستطع الإنسان منا تغيير المنكر بلسانه أو بيده فلينكره بقلبه ، ونجد القرآن قد جاء بها أمراً ونهياً ، والرسول جاء بها فعلاً ، لأن هناك فرقاً بين

(١) رواه مسلم

المعلومة التى تدخل الذهن، وحمل النفس على مطلوب المعلومة. ولذلك نحن ندرس الدين فى مدارسنا، وندرس فيها أيضا الجبر والهندسة، والكيمياء، والطبيعة، والمتعب ليس تدريس الدين، بل الذى يتعب الناس هو حمل النفس على مطلوب الدين. لكن التلميذ حين يتعلم الجبر والهندسة أو الكيمياء، فهذه علوم تعطى الإنسان خير الدنيا فيذهب لها، لكن مسألة الدين مسألة قيم؛ لذلك لا يكفى أن نعلم الدين بل لابد أن تنفذ ذلك العلم، وتنفيذ هذه المسألة يكون بالتطبيق فى سلوك من أسوة حسنة وقدوة طيبة.

وهب أن الذى يُعلم الدين يدرسه معلومة ويدخلها فى نفوس التلاميذ، ثم لا يجدون من أثر هذه المعلومة نضحاً على سلوك مَن علَّمها، ماذا يكون الموقف؟. هنا تضعف ثقة التلميذ فى أستاذة، وتضعف ثقته فى الدين؛ لأنه لم ير من الدين إلا كلاماً يقال، بدليل أن من يقولونه لا ينفذونه، وفى هذا فشل فى تعليم منهج الدين. والخطأ إذن فى أن الناس يظنون أن منهج الدين يقف عند تعليم المعلومات الدينية، لا. إن تعليم الدين يقتضى تنفيذ ما فيه من معلومات، عكس العلوم الأخرى التى تعطى المعلومة فقط. وإن أراد الإنسان أن ينتفع بها فى حياته انتفع، وإن لم يرد فهو حر فى ذلك.

إذن فالتذكير مرة يكون بالأمر بالمعروف وبالنهى عن المنكر، ومرة يكون بالفعل، «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه»، وماذا يعنى التغيير باللسان؟. يعنى أن الإنسان إن كان عنده حسن تأد واستعداد للعظة ومعرفة أدب النصح فله أن يقبل على تناول العظة. وليس كل إنسان صالحا لأن ينصح؛ لأن المنصوح يخالف المنهج، والناصح يقف أمامه حتى لا يخالف المنهج، إنه يخرجه عما ألف وأحب، لذلك يجب أن يتلطف الناصح فى النصح.

ومثال ذلك نجد الطبيب حين يذهب إليه المريض يصف له الدواء، والدواء قديماً كان كله مراً. وكانت الناس تأخذ الدواء بصعوبة، ويمسك الكبار الأطفال ليعطوهم الدواء. وحين ارتقت صناعة الدواء، قام الصيادلة بتغليف جرعة الدواء بغلاف يحجب المرارة. ليلتطفوا مع مريض الجسم، فما بالنا بمريض القيم؟. إنه يحتاج إلى المسألة نفسها. لذلك لابد أن نجعل النصح خفيفاً، ولا نجمع على المنصوح بين

أن نخرجه عما ألف وما يكره من الأساليب، ولذلك قلنا : إن النصح ثقيل، لأنك حين تنصح إنسانا فمعنى ذلك أنك افترضت أنك أفضل سلوكاً منه، وهو أقل منك فى ذلك، وهذا هو أول مطب، وينظر لك المنصوح على أنك تفهم أحسن منه. ولهذا قالوا فى الأثر : النصح ثقيل فلا ترسله جبلا، ولا تجعله جدلاً. وقيل أيضا : الحقائق مرة فاستعيروا لها خفة البيان. هكذا يكون التذكير، وإن لم تستطع أن تمنع بالفعل فامنع بالقول؛ لأن التغيير باليد يحتاج إلى سلطة المغيِّر على المغيَّر، وهذا لا يأتى إلا بأن يكون للمغير مقدمة وسابقة مع المغيَّر يثبت فيها المغيِّر أنه يحب مصلحة المغيَّر. وقد يكون ذلك وارداً من غير أن تقول. كأن تكون أباه أو أمه، والأب والأم يقومان برعاية الابن، وتلبية احتياجاته طعاماً ومشرباً ومسكناً ومصروفاً. وكل منهما هو المتولى لمصالح الابن. وإذا كان الناصح ليس له هذه الصلة بالمنصوح، فعليه أن يتلطف له أولاً بما يحب. فحين يطلب منك أمراً تقوم بإجابته إلى طلبه، وتنبهه بعد ذلك إلى ما تريد أن تنصحه إنك قد قدمت له شيئا من المعروف فيتحمل منك النصح.

ومثال آخر : افرض أن ابنك قد طلب منك أن تحضر له ساعة، وبعد ذلك قالت لك أمه : إنه لم يستذكر دروسه حتى الآن. ثم تأتى له بالساعة وتقول له : يا ولد أنت أردت منى ساعة وأحضرتها لك، وتناولها له وتقول : إن أمك قالت لى إنك غير مهتم بدروسك، ولو تذكرت قولها لما أحضرت لك الساعة. وقد توجه له توبيخاً فيضحك لأنك قد حننت قلبه، وبينت له أنك تحبه فيقبل النصح، حتى ولو صفعته قد يقبل لأنه يعلم أنك تحب مصلحته. إذن للتذكير ألوان متعددة : عظة بالقول، وتغيير بالفعل وإنكار بالقلب.

﴿ واذكروا ما فيه لعلكم تتقون ﴾ والأصل فى التقوى أن تتقى شيئاً بشئ؛ تتقى مؤلماً بجعل وقاية بينك وبينه، وهى تأتى كما علمنا فى المتقابلات؛ فالحق سبحانه يقول :

﴿ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٣١﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

وهو سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾

(من الآية ١٨٩ سورة البقرة)

(ومن الآية ١٣٠ سورة آل عمران)

ونجد من يتساءل : كيف يقول : « اتقوا الله»، و«اتقوا النار»؟

نقول : نعم؛ لأن اتقوا الله تعنى اتقوا غضب الله عليكم، واتقوا عذاب الله لكم بأن تجعلوا بينكم وبين عقابه وقاية، ولابد أن تجعل بينك وبين النار وقاية؛ لأن الحق سبحانه وتعالى كما علمنا له صفات جلال وصفات جمال، وصفات الجمال هى التى تسعد الإنسان ككونه - سبحانه - "غفوراً"، و"رحيماً"، "باسطاً"، وكما أن لله صفات جمال تعطيك الرغبة والإقبال عليه - سبحانه - فله صفات جلال تعطيك الرهبة، فهو - جل شأنه - جبار ومنتقم. فاتق الله حتى تحجب عن نفسك متعلقات صفات الجلال التى منها جبار ومنتقم.

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ ﴾

وإذ تنصرف إلى الزمن، أى اذكر وقت أن أخذ الله من بنى آدم، والآخذ هو الله، والمأخوذ منه بنو آدم، والشيء المأخوذ هو ذريتهم، هذه هى العناصر. ولنتأمل

ذلك بدقة، إن الرب هنا هو الآخذ، وبنو آدم مأخوذ منهم، والمأخوذ هو الذرية. وبنو آدم هم أولاد آدم من لدنه إلى أن تقوم الساعة، وهنا اتحد المأخوذ والمأخوذ منه، ولابد أن نرى تصريفاً فى هذا النص؛ لأنه يشترط أن يكون المأخوذ منه كلاً، والمأخوذ بعضه.

والمثال: إن أنا أخذتُ منك شيئاً، فالمأخوذ منه هو الكل، والمأخوذ بنفسه هو البعض. لكننا هنا نجد المأخوذ هو عين المأخوذ منه، وأزال سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الإشكال فى هذه الآية فقال صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عنه أبو هريرة رضى الله عنه:

(لما خلق الله أدم مسح ظهره، فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة، وجعل بين عينى كل إنسان منهم وميضاً من نور ثم عرضهم على آدم، فقال: أىْ رَبِّ. من هؤلاء؟ قال: هؤلاء ذريتك. فرأى رجلاً منهم. فأعجبه وميض ما بين عينيه. فقال: أى رب. من هذا؟ قال: هذا رجل من آخر الأمم من ذريتك، يقال له داود، فقال: رب كم جعلت عمره؟ قال: ستين سنة. قال: أى رب زده من عمرى أربعين سنة، فلما قُضى عُمُر آدم جاءه ملك الموت. فقال: أو لم يَبْقَ من عُمُرى أربعون سنة؟ قال: أولم تعطها ابنك داود؟ قال: فجحد آدمُ فجحدتْ ذُريته، ونسى فنسيت ذريته. وخطئ آدم فخطئت ذريته)[1].

إذن ذرية آدم أُخذت من ظهر آدم. وعرفنا من قبل أنّ كُلاً منا قبلَ أن تحملَ به أمّه كان ذَرَّةً فى ظهر أبيه، وأبوه كان ذرّة فى ظهر أبيه حتى آدم. وهكذا نجد أنَّ كل واحد مأخوذ من ظهره ذرية، هناك أناس يؤخذون- كذرية- ولا يؤخذ منهم، مثَّل من فرض عليهم الله أن يكون الواحد منهم عقيماً، وكذلك آخرُ جيل تقومُ عليه الساعة، ولن ينجبوا. وآدم مأخوذ منه لأنه أول الخلق، وهو غير مأخوذ من أحد. وما بين الأب آدم وآخر ولد؛ مأخوذ ومأخوذ منه. وبذلك يكون كل واحد مأخوذ ومأخوذ منه، وهكذا يستقيم المعنى.

(١) رواه الترمذى فى سننه وقال حديث حسن صحيح.

والمأخوذ منه آدم ثم كل ولد من أول أولاد آدم إلى الجيل الأخير الذى سينقطع عن النسل.

وأوضح النبى صلى الله عليه وسلم : أن ربنا سبحانه وتعالى مسح بيده على ظهر آدم وأخرج منه الذرية، وقال لهم : ألست بربكم؟ قالوا : بلى. وبهذا عَلمْنا أنَّ كل ذرّة من الذرات قد أُخذت مما قبلها، وأُخذ منها ما بعدها؛ وكلها مأخوذ ومأخوذ منه، اللهم إلا القوسين؛ القوس الأول : آدم لأنه مأخوذ منه وليس مأخوذاً من شىء، والقوس الثانى : آخر ولد من أولاده مأخوذ وليس مأخوذاً منه؛ لأن الإنسان منا وُجد من حيوان أبيه المنوىّ. ولو أن الحيوانَ المَنَوىَّ أصابه موت لما أنجب الأب. ومن وُلد من حيوان مَنَوىّ لأب، هذا الأب مأخوذ من حيوان مَنَوىَّ حىّ من الجد أيضاً، وسلسلها إلىَ آدم؛ ستجد أن كل واحد منا فيه جزىء حَىّ من لدن آدم لن يدركه موت أبداً.

لذلك يقول ربنا :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ﴾

(من الآية ١٧٢ سورة الأعراف)

ولا تقل إن الكل سيكون فى ظهره؛ لأن المأخوذ منه هو الأساس الموجود فى ظهره، ومادام كل شئ يتكاثر فهو قد وجد من أقل شىء ونعلم أن الأقل يوجد فيه الأكثر مطموراً. وقد أخذ ربنا من ظهور بنى آدم الذريةَ وخاطب الذرية بقوله تعالى : ﴿ ألست بربكم﴾ ؟.

وهنا قد يقول قائل : أكان لهذه الذرية القدرة على النطق؛ إنها ذرية تنتظر التكوين الآخر؛ لتتحد مثلاً بـ" البويضة " فى رحم الأم ؟ فنرد عليه ونقول : لماذا تظن أن مخاطبة ربنا لهم أمرُ صعب ؟ إن الواحد من البشر يستطيع أن يَتعلَّم عَشْرَ لغات ، ويتزوجَ من أربع سيدات، وكل سيدة ينجب منها ذرية، ويقعد يوماً عند سيدة وذريتها ويعلمها اللغة الإنجليزية مثلا، ويجلس مع الأخرى ويعلمها اللغة الألمانية، ويعلم الثالثة وأولادها اللغة العربية وهكذا، بل يستطيع أن يتفاهم حتى

بالإشارة معَ من لا يعرف لغته. وإذا كان الإنسانُ يستطيع أن يعدد وسائل الأداء، ألاَ يقدر أن يعدد ربنا وسائل الأداء لمخلوقاته ؟ إنه قادر على أن يعدد ويخاطب، ألم يقل الحق تبارك وتعالى للجبال :

﴿ يا جبال أوبى معه ﴾

(من الآية ١٠ من سورة سبأ)

كيف إذن لا يتسع أفق الإنسان لأن يدرك أن الله قادر على أن يخاطب أيّاً من مخلوقاته؟. إنه قادر على أن يخاطب كل مخلوق له بلغة لا يفهمها الآخر. وهو القائل سبحانه :

﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ ﴾

(من الآية ٧٩ من سورة الأنبياء)

ونعلم من القرآن الكريم كذلك أن الجبال تسبح أيضاً من غير داود، شأنها شأن المخلوقات جميعها مصداقاً لقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾

(من الآية ٤٤ من سورة الإسراء)

وحتى ذرات يد الكافر تسبح، وإن كان تسبيحها لا يوافق إرادته.

وقول الحق سبحانه : ﴿ وسخرنا مع داوود الجبال يسبحن ﴾

يبين لنا أن الجبال كانت تردد تسبيح داوود وتلاوته للزبور، ولا يقتصر أمر الحق إلى الجبال بل إلى كل مخلوق، فنحن - على سبيل المثال - نقرأ فى القرآن الكريم أن ربنا أوحى إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون. إذن فلله مع خلقه أدوات خطاب ؛ لأنه هو الذى خلق الكون والمخلوقات، وله سبحانه خطاب بألفاظ، وخطاب إشارات، وخطاب بإلهام، وخطاب بوحى، فإذا قرأنا أن الحق تبارك وتعالى قال لذرية آدم : ألست بربكم ؟ فهذا يعنى أنه قالها

لهم باللغة التى يفهمونها، لأنه هو سبحانه الذى قال للسماء والأرض:

﴿ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾

(من الآية ١١ من سورة فصلت)

ولقد تكلمت النملة وفهم سليمان كلامها، ولو لَمْ يُعْلِم اللهُ سليمانَ كيف يفهم كلامها لما عرفنا أنها تكلمت:

﴿ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ ﴾

(من الآية ١٨ من سورة النمل)

إنها تفهم ما يفعله البشر حين يدوسون على كائنات صغيرة دون أن يروها، ولكن سليمان نبى من أنبياء الله، ولن يعتدى على خلق الله، والنملة التى تكلمت كانت تحرس بقية النمل. وكذلك تكلم الهدهد ليخبر سيدنا سليمان عن مملكة سبأ وحالة بلقيس وقومها.

إذن فالله عز وجل يخاطب جميعَ خلقه، ويجيبُه جميعُ خلقه، فلا تقل: كيف خاطب المولى سبحانه الذر، والذر لم يكن مكلفاً بعد؟ ولم يحاول العلماء أن يدخلوا فى هذه المسألة؛ لأنها فى ظاهرها بعيدة عن العقل، ويكفى أن ربنا الخالق القادر قد أبلغنا أنه قد خاطب الذرات قائلا: ألست بربكم؟. قالوا: بلىَ. ويبدو من هذا القول أن المسألة تمثيل للفطرة المودعة فى النفس البشرية. وكأنه سبحانه قد أودع فى النفس البشرية والذات الإنسانية فطرةً تؤكد له أنَّ وراءَ هذا الكونِ إلهاً خالقاً قادرا مدبرا.

وقديماً قلنا: هب أنَّ طائرةً وقعت بك فى صحراء، وحين أفقت من إغماءة الخوف؛ فكّرت فى حالك وكيف أنك لا تجد طعاماً أو شراباً أو أنيساً، وأصابك غمٌّ من هذه الحالة فنمت، ثم استيقظت فوجدت مائدة عليها أطايب الطعام والشراب، ألا تتلفت لتسأل من الذى أقام لك هذه المأدبة قبل أن تمد يدك إلى أطايب الطعام؟. كذلك الإنسان الذى طرأ على هذا الكون الحكيم الصنع؛ البديع

التكوين؛ ألا يجدربه أن يسأل نفسه من خلق هذا الكون ؟.

إننا نعلم أن المصباح الكهربى احتاج لصناعته إلى علماء وصناع مهرة كثيرين وإلى إمكانات لا حصر لها لينير هذا المصباح حجرة محدودة، وحين نرى الشمس تنير الكون كله، ولا يصيبها كللٌ أو تعبٌ ولا تحتاج منا إلى صيانة، ألا نسأل من صنعها ؟. وخصوصاً أنَّ أحداً لم يدَّع أنه قد صنعها، وقد أبلغنا المولى سبحانه وتعالى بأنه هو الذى خلق الأرض وخلق الشمس وخلق القمر، فإما أن يكون هذا الكلام صحيحاً؛ فنعبده، وإما لا يكون الكلام صحيحاً فنبحث عمن صنع وخلق الكون لنعبده.

وبما أن أحداً لم يَدَّعِ لنفسه صناعة هذه الكائنات ، فهى تسلم لصاحبها وأنه لا إله إلا الله. إذن فالفَطرة تهدينا أن وراء هذا الكون العظيم قدرةً تناسب هذه العظمة؛ قدرة تناسب الدقة؛ هذه الدقة التى أخذنا منها موازين لوقتنا؛ فقد أخذنا من الأفلاك مقياساً للزمن؛ ولولا حركة الأفلاك التى تنظم الليل والنهار؛ لما قسمنا اليوم إلى ساعات، ولولا أن حركة الأفلاك مصنوعة بدقة متناهية؛ لما استطعنا أن نَعُدَّها مقياساً للزمن.وحينما نستعرض قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝ ﴾

(سورة الرحمن)

نجد أن كلمة "بحسبان" وردت مرتين، فقد أبلغنا الحق سبحانه وتعالى : أنه جعل الشمس والقمر بحسبان، أو حسبانا، وهما من الآيات الدالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه ولم يخلقهما عبثا بل لحكمة عظيمة .

﴿ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ﴾

(من الآية ٥ سورة يونس)

فقد أخذنا من دورة الشمس والقمر مقياساً، ولم نكن لنفعل ذلك إلا إن كانت مخلوقة بحساب؛ لأن الكون مصنوع ومخلوق على هذه الدرجة من الدقة

والإحكام، لهذا يجب أن نلتفت إلى أن هناك قدرة وراء هذا العالم تناسب عظمته. لكن أنعرف ماذا تريد هذه القوة بالعقل ؟ إن أقصى ما يهدينا العقل هو أن نعرف أنَّ هناك قوةً ولا يعرف العقل اسم هذه القوة، وكذلك لم يعرف العقل مطلوبات هذه القوة، وكان لابد أن يأتى لنا رسولٌ من طرف تلك القوة ليقول لنا مرادَها ، وجاء الموكب الرسالى فجاءت الرسل ليبلغ كلُّ رسول مرادَ الحق من الخلق، فقال كلُّ رسول : إن اسم القوة التى خلقتكم هو اللهً، وله مطلق التصرف فى هذا الكون ، ومراد الحق من الخلق تعمير هذا الكون فى ضوء منهج عبادة الحق الذى خلق الإنسان والكون. وكل هذه أمور ما كانت لتدرك بالعقل.

وهكذا نعلم أن منتهى حدود العقل هو إيمانٌ بقوة خالقة وراءَ هذا الكون ، وتستوى العقول الفطرية فى هذه المسألة. أما اسم القُوة والمَنهج المطلوب لهذا الاله فلابد له من رسول .

وأرهق الفلاسفة أنفسهم فى البحث عن هذه القوة ومرادها. وسموا مجال البحث "الميتافيزيقا" أى "ماوراء الطبيعة" وعادة ما يقابل الفلاسفة من يسألهم من أهل الإيمان : ومن الذى قال لكم إن وراء المادة قوة يجب أن تبحثوا عنها؟.

وغالباً ما يقول الفيلسوف منهم : إنها الفطرة التى هدتنى إلى ذلك. وتشعبت الفلسفة إلى مدارس كثيرة. وحاول أهل الفلسفة أن يتصوروا هذه القوة، وهذا هو الخلل؛ لأن الإنسان يمكنه أن يعقل وجود القوة الخالقة، ولا يمكن له أن يتصورها . وغرق الكثيرون من الفلاسفة فى القلق النفسى المدمِّر. وأنقذ بعضهم نفسه بالإيمان. وكان يجب على كل فيلسوف أن يرهف أذنه ويسمع ما قاله الرسل ليحلّوا لنا هذا اللغز، بدلاً من إرهاق النفس بالخلط بين تعقل وجود قوة وراء المادة، وبين تصور هذه القوة.

وإننى فى هذا الصدد أضرب هذا المثل وأرجو آلا تنسوه أبداً : إننا إذا كنا قاعدين فى حجرة، والحجرة مغلقة الأبواب. ودق الجرس وكلنا يجمع على أن طارقاً بالباب؛ وهذا الشىء المجمع عليه من الكل يَعدُّ تعقلاً، لكن أنستطيع

أن نتصور من الطارق ؟ رجل؟ امرأة؟ شاب ؟ شيخ؟. المؤكد أننا سنختلف فى التصور وإن اتحدنا فى التعقل.

ونقول للفلاسفة : أنتم أولى الناس بأن ترهفوا آذانكم لمجئ رسول يحل لكم لغز هذا الكون، واسم القوة التى وراء هذا الكون، ومطلوب هذه القوة منا.

والحق سبحانه وتعالى يهدينا إلى هذا عبر الرسل، ويقول هنا :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ﴾

(من الآية ١٧٢ سورة الأعراف)

وهذه شهادة الفطرة، ونحن نرى أن الفطرة تكون موجودة فى الطفل المولود الذى يبحث بفمه عن ثدى أمه حتى ولو كانت نائمة ويمسك الثدى ليرضع بالفطرة وبالغريزة، وهذه الفطرة هى التى تصون الإنسان منا فى حاجات كثيرة، وفى رد الفعل الانعكاسى ؛ مثال ذلك حين تقرب أصبعك من عين طفل، فيغمض عينيه دون أن يعلمه أحد ذلك.

وقد أشهدنا الحق على وحدانيته ونحن فى عالم الذر :

﴿ وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا ﴾

ويقال " أشهدته " أى جعلته شاهداً، والشهادة على النفس لَوْنٌ من الإقرار، والإقرار سيد الأدلة ؛ لأنك حين تُشهد إنساناً على غيره ؛ فقد يغيّر الشاهد شهادته، ولكن الأمر هنا أن الخلق شهدوا على أنفسهم وأخذ الله عليهم عهد الفطرة خشية أن يقولوا يوم القيامة :

﴿ إنا كنا عن هذا غافلين ﴾

فحين يأتى يوم الحساب، لا داعى أن يقولَن أحد إننى كنت غافلاً.

ويتابع المولى سبحانه : وتعالى قوله :

﴿ أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾

كأن الحق يريد أن يقطع عليهم حجة مخالفتهم لمنهج الله ، فينبه إلى عهد الفطرة والطبيعة والسجية المطمورة فى كل إنسان ؛ حيث شهد كل كائن بأنه إلهٌ واحدٌ أحَدٌ، ويذكرنا سبحانه بهذا العهد الفطرى قبل أن توجد أغيار الشهوات فينا.

﴿ ألست بربكم قالوا بلى ﴾ وهل كان أحد من الذر وهو فى علم الله وإرادته وقدرته يجرؤ على أن يقول : لا لست ربى ؟. طبعاً هذا مستحيل ، وأجاب كل الذر بالفطرة "بلى ". وهى تحمل نفى النفى ، ونفى النفى إثبات مثل قوله الحق :

﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨﴾ ﴾

(الآية ٨ سورة التين)

و "أليس" للاستفهام عن النفى ؛ ولذلك يقال لنا : حين تسمع "أليس" عليك أن تقول "بلى" وبذلك تنفى النفى أى أثبتّ أنه لا يوجد أحكم الحاكمين غيره سبحانه ، وهنا يقول الحق : "ألست بربكم " ؟ وجاءت الإجابة : بلى شهدنا . ولماذا كل ذلك ؟ قال الحق ذلك ليؤكد لكل الخلق أنهم بالفطرة مؤمنون بأن الله هو الرب ، والذى جعلهم يغفلون عن هذه الفطرة تحرُّك شهواتهم فى نطاق الاختيار ، ومع وجود الشهوات فى نطاق الاختيار إن سألتهم من خلقهم؟ يقولون : الله ، ومادام الله هو الذى خلقهم فهو ربهم.

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾

(من الآية ٦١ سورة العنكبوت)

وجاء الحق بقصة هذه الشهادة حتى لا يقولَنَّ أحدُ : ﴿ إنما أشرك آباؤنا من قبل ﴾

وبذلك نعلم أن أعذار العاصين وأعذار الكافرين التى يتعللون ويعتذرون بها تنحصر فى أمرين اثنين : الغفلة عن عهد الذر، وتقليد الآباء.

وما الغفلة؟ وما التقليد؟. الغفلة قد لا يسبقها كفر أو معصية، ويقلدها الناس الذين يأتون من بعد ذلك. والمثال الواضح أن سيدنا آدم عليه السلام قد أبلغ أولاده المنهج السوى المستقيم لكنهم غفلوا عنه ولم يعد من اللائق أن يقول واحد منهم إن أباه قد أشرك. ولكن جاء هذا الأمر من الغفلة ، ثم جاء إشراك الآباء فى المرحلة الثانية؛ لأن كل واحد لو قلد أباه فى الإشراك ؛ لانتهى الشرك إلى آدم، وآدم لم يكن مشركاً ، لكن الغفلة عن منهج الله المستقيم حدثت من بعض بنى آدم، وكانت هذه الغفلة نتيجة توهم أن هناك تكاليف شاقةً يتطلبها المنهج، فذهب بعض من أبناء آدم إلى ما يحبون وتناسوا هذا المنهج ولم يعد فى بؤرة شعورهم ؛ لأن الإنسان إنما ينفذ دائماً الموجود فى بؤرة شعوره . أما الشىء الذى سيكلفه مَشقَّة فهو يحاول أن يتناساه ويغفل عنه ، هكذا كانت أول مرحلة من مراحل الانفصال عن منهج الله وهى الغفلة فى آبائهم. وهنا يضاف عاملان اثنان : عامل الغفلة ، وعامل الأسوة فى أهله وآبائه. ولم تكن القضايا الإيمانية فى بؤرة الشعور، ولذلك يقال : الغالب ألا ينسى أحد ما له ولكنه ينسى ما عليه؛ لأن الإنسان يحفظ ما له عند غيره فى بؤرة الشعور، ويُخرج الإنسان ما عليه بعيداً عن بؤرة الشعور. ولأن البعض قد يتصور أن فى التكليف الإيمانى مشقة، لذلك فهو يحاول أن يبعد عنه وينساه، وكذلك يحاول هذا البعض أن ينأى بنفسه عن هذه التكاليف.

ونأخذ المثل من حياتنا : قد نجد إنساناً مَديناً لمحل بقالة أو لنجاَّر وليس عنده مال يعطيه له، لذلك يحاول أن يبتعد عن محَل هذا البقال، أو أن يسِّير بعيدا عن

أعين النجار. وهكذا يكون افتعال الغفلة فى ظاهره هو أمراً مَنْجياً من مشقات التكاليف، لكن البشر فى ميثاق الذر قالوا : ﴿ بلى شهدنا ﴾

وقد أُخذَ ذلك العهدُ عليهم ، وأقرُّوا به واستشهد الحقُّ بهم ، على أنفسهم حتى لا يقولوا يوم القيامه ﴿ إنا كنا عن هذا غافلين ﴾ لأنه لا يصح أن نغفل عن هذا العهد أبداً، ولكنَّ الحقَّ تبارك وتعالى عرَفَ أنَّنا بشرٌ، وقال فى أبينا آدم :

﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ ﴾

(من الآية ١١٥ من سورة طه)

ومادام آدم قد نسى، فنسيانه يقع عليه حيث بيَّن وأوضح لنا الإسلام أن الأمم السابقة على الإسلام تؤخذ بالنسيان، وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بخبر واضح : فقال عليه الصلاة والسلام :

(رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه) (١) .

والخطأ معلوم ، كأن يقصدَ الإنسانُ شيئاً ويحدث غيرُه، والنسيانُ ألاَّ يجيءَ الحكمُ على بال الإنسان. والمُكْرَهُ هو من يقهره من هُو أقْوى منه بفقدان حياته أو بتهديد حريته وتقييدها مالم يفعل ما يؤمر به، وفى الحالات الثلاث يرفع التكليف عن المسلم . وذكر الرسول صلى الله عليه وسلم أن الله أكرم الأمة المحمدية بصفة خاصة برفع ما ينساه المسلم . وهذا دليل على أن من عاشوا قبل بعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يؤاخذون به. وإذا سلسلنا ما قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم نصل إلى سيدنا آدم الذى خُلق بيد الله المباشرة، بينما نحن أبناء آدم مخلوقون بالقانون؛ أن يوجد رجل وتوجد امرأة وتوجد علاقة زوجية فيأتى النسل.

وقد كلف الله آدم فى الجنة التى أعدها له ليتلقى التدريب على عمارة الأرض بأمر ونهى؛ فقال له سبحانه وتعالى :

(١) أخرجه ابن ماجه وابن حبان، والدار قطنى والطبرانى والحاكم فى المستدرك من حديث ابن عباس رضى الله عنهما

﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ﴾

(من الآية ٣٥ سورة البقرة)

إذن فقصارى كل تكليف هو أمر فى "افعل" ، ونهى فى " لاتفعل؛ ، وقد نسى آدم التكليف فى الأمر الواحد البسيط وهو المخلوق بيد الله والمكلف منه بأمر واحد أن يأكل حيث يشاء ويمتنع عن الأكل من الشجرة، وإن لم يتذكر آدم ذلك ، فما الذى يتذكره ؟ وما كان يصح أن ينسى لأنه مخلوق بيد الله المباشرة ، ومكلف من الله مباشرة، والتكليف وإن كان بأمرين؛ لكن ظاهر العبء فيه على أمر واحد؛ الأكل من حيث شاءا هو أمر لمصلحة آدم، و«لاتقرب » هو تكليف واحد.

- ولذلك قال الحق فى آية أخرى : ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾

(من الآية ١٢١ سورة طه)

وهو عصيان لأنه نسيان لأمر واحد، ما كان يصح أن ينساه. لعدم تعدده ويقول الحق تبارك وتعالى :

﴿أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾

(سورة الأعراف)

جاء هذا القول لينبهنا إلى أن الغفلة لا يجب أن تكون أسوة لأن التكاليف شاقة، والإنسان قد يسهو عنها فيورث هذا السهو إلى الأجيال اللاحقة فيقول الأبناء : ﴿أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون﴾.

وهذا يعنى أن إيمانهم هو إيمان المقلد، رغم أن الحق قد أرسل لهم البلاغ، وإذا كان الآباء مبطلين للبلاغ بالمنهج فلا يصح للأبناء أن يغفلوا عن صحيح الإيمان.

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾ ﴾

والآيات التى فصلها الحق هنا هى العهود الخاصة ، ورفع الجبل ليأخذوا التوراة بقوة ، وكذلك العهد العام الذى اشترك فيه كل الخلق من لدن آدم إلى أن تقوم الساعة ، وجاء سبحانه بكل ذلك ليؤكد لهم أن قضية الإيمان عقيدةً يجب أن تكون فى بؤرة الشعور ، فمن غفل فليتذكر ، ومن قلد آباه فى شىء مخالف للمنهج القويم ، فليرجع عن هذا التقليد ؛ لأن التكاليف الإيمانية تكاليف ذاتية ، وسبحانه لا يكلفك وأنت فى حاجة إلى أبيك ، أو إلى أمك . لكنه يكلفك من بعد البلوغ ؛ لأنك بعد البلوغ تستقل بذاتيتك استقلالا كاملا مثل والدك ، ومادمت مكتمل الرجولة كوالدك وصالحا للإنجاب فلا ولاية إيمانية لأبيك عليك أبداً ، فلا تقل إننى أقلد أبى ولو كان على غير المنهج السليم ؛ لأن مثل هذا القول يمكن أن يكون مقبولاً لو كان التكليف للإنسان وهو فى دور الطفولة ، حيث الأب يسعى لإطعام أبنائه ورعايتهم ، لكن التكليف لا يأتى للإنسان إلا بعد البلوغ ، ومعنى بعد البلوغ : أنك صالح لإنجاب مثلك ورعاية نفسك .

ولذلك يطلب الحق سبحانه وتعالى من الآباء أن يدربوا أبناءهم ويعودوهم على مطلوبات التكليف قبل مجىء أوان تكليف الله ، ويقول النبى عليه الصلاة والسلام :

(مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين ، واضربوهم على تركها وهم أبناء عشر سنين وفرقوا بينهم فى المضاجع . . إلخ)(١)

الأب إذن يأمُرُ ويُعاقبُ قبل أوان التكليف ليتدرب الأبناء عليه ويصير دربة سهلة لا يتعب منها الإنسَان بعد البلوغ .

﴿ وكذلك نفصل الآيات ولعلهم يرجعون ﴾ .

أى أن على الغافل أن يرجع عن غفلته فيتذكر ، وأن يرجع المقلد لآبائه

(١) رواه أبو داود بإسناد حسن (رياض الصالحين صـ١٨١)

عن التقليد، ويقتنع اقتناعاً، مصداقاً لقوله الحق :

﴿ لا يجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً ﴾

(من الآية ٣٣ من سورة لقمان)

ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك :

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ ﴾

ولأنهم قالوا : ﴿ إنا كنا عن هذا غافلين ﴾، فالله سبحانه وتعالى يريد أن يعطينا خبر هؤلاء فيقول : ﴿ واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها ﴾.

والنبأ هو الخبر المهم وله جدوى اعتبارية ويمكن أن ننتفع به وليس مطلق خبر. ولذلك يقول سبحانه وتعالى عن اليوم الآخر :

﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾ ﴾

(سورة النبأ)

كما يقول ﴿ واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا ﴾، كأن هذا النبأ كان مشهوراً جداً، ويقال : إنه قد قيل فى « ابن بعوراء » أو أمية بن أبى الصلت، أو عامر الراهب، أو هو واحد من هؤلاء، والمهم ليس اسمه، المهم أنّ إنساناً آتاه الله آياته ثم انسلخ من الآيات، فبدلاً من أن ينتفع بها صيانة لنفسه، وتقرباً إلى ربه ﴿ فانسلخ منها ﴾ واتبع هواه ومال إلى الشيطان.

و كلمة « انسلخ » دليل على أن الآيات محيطة بالإنسان إحاطة قوية لدرجة أنها تحتاج جبروت معصية لينسلخ الإنسان منها؛ لأن الأصل فى السلخ إزاحة جلد

الشاة عنها، فكأن ربنا يوضح أنه سبحانه وتعالى أعطى الإنسان الآيات فانسلخ منها، وهذا يعنى أن الآيات تحيط بالإنسان كما يحيط الجلد بالجسم ليحفظ الكيان العام للإنسان؛ لأن هذا الكيان العام فيه شرايين، وأوردة، ولحم، وشحم، وعظام. وجعل الله التكاليف الإيمانية صيانة للإنسان، ولذلك سمى الخارج عن منهج الله « فاسقاً » مثله مثل الرطبة من البلح، فبعد أن تضرب الشمس البلحة يتبخر منها بعض من الماء، فتنكمش ثمرة البلحة داخل قشرتها وتظهر الرطبة من القشرة، ولذلك سمى الخارج عن المنهج « فاسقاً » من فسوق الرطبة عن قشرتها، والله عز وجل يقول هنا: ﴿ آتيناه آياتنا ﴾. وكان يجب ألا يغفل عنها، لأن الإتيان نعمة جاءت ليحافظ الإنسان عليها، لكن الإنسان انسلخ من الآيات.

ونعرف جميعاً ثوب الثعبان وهو على شكل الثعبان تماماً، ويغير الثعبان جلده كل فترة، ولا ينخلع من الجلد القديم إلا بعد أن يكون الجلد الذى تحته قد نضج، وصلح لتحمل الطقس والجو، وكذلك حين يندلق سائل ساخن على جلد الإنسان، تلحظ تورم المنطقة المصابة وتكون بعض المياه فيها، ولو أفرغ الإنسان هذه المياه تصاب هذه المنطقة بالتهاب، أما إذا تركها فهى تحمى المنطقة المصابة إلى أن يتربى الجلد تحتها وتجف وتنفصل عن الجسم، وكذلك نعلم أن الشاة ـ مثلاً ـ لا تسلخ نفسها. بل نحن نسلخها، والحق سبحانه وتعالى يقول:

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة يس)

فكأن الليل كان مجلداً ومغلفاً بالنهار، والليل أسود، والنهار فيه الضوء، ونعلم أن اللون الأسود ليس من ألوان الطيف، وكذلك اللون الأبيض ليس من ألوان الطيف؛ لأن ألوان الطيف: الأحمر، البرتقالى، الأصفر، الأخضر، الأزرق، النيلى، البنفسجى، واللون الأسود يأخذ ألوان الطيف ويجعلها غير مرئية، لأنك لا ترى الأشياء إلا إذا جاءت لك منها أشعة لعينيك، واللون الأسود يمتص كل الأشعة التى تأتى عليه فلا يرتد إلى العين شعاع منها فتراه مظلماً. والأبيض هو مزيج من

ألوان متعددة إن مزجتها مع بعضها يمكنك أن تصنع منها اللون الأبيض، وهكذا نعلم أن الأبيض مثله مثل الأسود تماماً، فالأسود يمتص الأشعة فلا يخرج منه شعاع لعينيك، والأبيض يرد الأشعة ولا يخرج منه شعاع لعينيك. وقوله الحق: ﴿ نسلخ منه النهار ﴾ كأن سواد الليل جاء يغلف بياض النهار.

وإذا انسلخ من آتاه خبر الإيمان عن المنهج يقول الشيطان: إنه يصلح لأن يتبعني، وكأن الشيطان حين يجد واحداً فيه أمل، فهو يجرى وراءه مخافة أن يرجع إلى ما آتاه الله من الكتاب الحامل للمنهج، ويزكى الشيطان فى نفس هذا الإنسان مسألة الخروج عن منهج ربنا.

وقلنا من قبل: إن المعاصى تأتى مرة من شهوة النفس، ومرة من تزيين الشيطان وأوضحنا الفارق، وقلنا: إن الشيطان لا يجرؤ عليك إلا إن أوضحت للشيطان سلوكك أن له أملاً فيك، لكن إن اهتديت وأصلحت من حالك فالشيطان يوسوس للإنسان فى الطاعة ويحاول أن يكرهه فيها، والشيطان لا يذهب - مثلا - إلى الخمارة، بل يقعد عند الصراط المستقيم ليرى جماعة الناس التى تتجه إلى الخير، أما الآخرون فنفوسهم جاهزة له. إذن فالشيطان ساعة يرى واحداً بدأ فى الغفلة عن الآيات فهو يلاحقه مخافة أن تستهويه الآيات ثانية، ولذلك لابد لنا أن نفرق بين الدافع إلى المعصية هل هو من النفس أم من نزغ الشيطان، فإن جاءت المعصية وحدثتك نفسك بأن تفعلها ثم عزت عليك تلك المعصية لأى ظرف طارىء ثم ألحت عليها ذاتها مرة ثانية، فاعلم أنها شهوة نفسك. لكن إن عزت عليك ثم فكرت فى معصية ثانية فهذا من نزغ الشيطان؛ لأن الشيطان لا يريدك عاصياً بمعصية مخصوصة، بل يريدك بعيداً عن المنهج فقط، لكن النفس تريد معصية بعينها وتقف عندها، فإن رأيت معصية وقفت عندها نفسك، فاعلم أنها من نفسك، وإن امتنعت عليك معصية وتركتها، ثم فكرت فى معصية ثانية. فهذا نزغ من الشيطان - ويقول الحق:

﴿ فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾

(من الآية ١٧٥ سورة الأعراف)

الغاوى والغَوىّ هو من يضل عن الطريق وهو الممعن فى الضلال، ونعلم أن الهدى هو الطريقَ الموصل للغاية، ومن يشذ عن الطريق الموصل للغاية يضل أو يتوه فى الصحراء. وهو الذى يُسمى « الغاوى »، ومادام من الغاوين عن منهج الله فالفساد ينشأ منه لأنه فسد فى نفسه ويفْسد غيره.

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ ﴾

وهنا أمران اثنان، الرفعة : وهى العلو والتسامى، ويأتى بعدها الأمر الثانى وهو الإخلاد إلى الأرض أى إلى التسفل، والفعلان منسوبان لفاعلين مختلفين.

﴿ ولو شئنا لرفعناه ﴾، والفعل رفع هنا مسند لله. ولكنه اختار أن يخلد فى الأرض. وجاء الأمر كذلك لأن الرفعة من المعقول أن تنسب لله. لكن التسفل لا يصح أن يُنسب لله، وكان كل فعل هو بأمر صاحب الكون. وربنا هنا يرفع من يسير على المنهج، وحين يقول الحق تبارك وتعالى ﴿ ولو شئنا ﴾ أى أنها مشيئتنا. فلو أردنا أن نرفعه كانت المشيئة صالحة، لكن هذا الأمر ينقض الاختيار، والحق يريد أن يُبقَى للإنسان الاختيار، فإن اختار الصواب فأهلا به وجزاؤه الجنة، وإن أراد الضلال فلسوف يَلْقى العذاب الحق، ولمزيد من الاعتبار بقصص القرآن اقرأ معى قصة العبد الصالح مع موسى عليه السلام :

﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ ﴾

(سورة الكهف)

ورغم أن موسى رسول من عند الله إلا أنه لم يتأبّ على أن عبداً من عباد الله تقرب إلى الله فاتبعه موسى ليقول له : ﴿ هل أتبعك على أن تعلمنى مما علمت رشدا ﴾ .

وفى هذا تأكيد على رغبة موسى أن يستزيد بالعلم ممن أعطاه الله العلم . وجاء القرآن بهذه القصة ليعلمنا أدب التعلم .

وماذا قال العبد الصالح ؟ لقد عذر موسى وقال :

﴿ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ ﴾

(سورة الكهف)

أى أنك يا موسى لن تصبر لا لنقص فيك ، بل لأنك سترى أمورا لا تعرف أخبارها . لكن سيدنا موسى قال له لا : ﴿ ستجدنى إن شاء الله صابرا ﴾ وأصرّ موسى أن يتبع العبد الصالح وأنه لن يعصى له أمرا ، واشترط العبد الصالح ألا يسأله سيدنا موسى عن شىء إلا أن يحدثه العبد الصالح . وكان كل ذلك مجرد كلام نظرى ، فيه أخذ ورد ، وحين جاء الواقع تغير الموقف تماما . بعد أن ركبوا فى السفينة وخرقها العبد الصالح ، لم يصبر سيدنا موسى بل قال :

﴿ لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴾

(من الآية ٧١ من سورة الكهف)

وهكذا أثبتت التجربة العملية أن موسى لم يصبر على أفعال العبد الصالح ،

وحين ذكره العبد الصالح بما وعد به من ألا يسأل، تراجع موسى، وتكرر السؤال، وتكرر التذكير. إلى أن أوضح العبد الصالح لموسى كل أسرار ما لم يحط به علما وهنا يقول الحق: ﴿ ولو شئنا لرفعناه بها ﴾ لماذا؟. لأن مشيئة الله مشيئة مطلقة، يفعل ما يريده، ولكنه سبحانه قد سبق منه أن جعل للاختيار جزاءً، لهذا لم يرفعه مع أنه مخالف، لأنها سنة الله، ولن تجد لسنة الله تبديلاً. وسنة الله أن من عمل عملاً طيباً يثيبه الله عليه. ومن عمل سوءاً يعاقبه، ومشيئته سبحانه مطلقة، ولا راد لمشيئته ولا معقب لحكمه.

و بمقتضى مشيئة الله فهو يعذب المذنب بعدله ويثيب الطائع بفضله، وله سبحانه مطلق الإرادة فهو عزيز، وحكيم فى كل فعل.

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ﴾

(من الآية ١٧٦ سورة الأعراف)

و ﴿ أخلد إلى الأرض ﴾، أى أنه اختار أن ينزل إلى الهاوية، رغم أن الحق هدى الإنسان وبين له طريق الخير ليسلكه فيصعد إلى العلو، والحق يقول:

﴿ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾

(من الآية ١٥١ سورة الأنعام)

ونخطىء حين نفهم أن « تعالوا » بمعنى « أقبلوا » فقط وهذا فهم ناقص، إنها دعوة للقبول وإلى العلو، لأنه سبحانه وتعالى يشرع لنا حتى لا نلزم منهج الأرض السفلى. بل نرتقى ونأخذ منهج الله الذى يضمن لنا العلو. وكأنه سبحانه يقول: تعالوا وتساموا فى أخذ منهجكم من الله العلى الأعلى وإياكم أن تأخذوا منهجكم مما وضعه البشر ويناقض ما جاء فى شرع الله، لأن فى هذا تسفلا ونزولا إلى الحضيض.

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ﴾

(من الآية ١٧٦ سورة الأعراف)

ويقال: «حملت على الكلب»، فأنت حين تجلس ويقبل الكلب عليك وتزجره وتطرده وتنهره، فهذا نفسير لقوله: «تحمل عليه»، أى أنك تحمل عليه طردا أو زجراً؛ لذلك يلهث، وأن تركت الكلب بدون حمل عليه طرداً أو زجراً فهو أيضا يلهث، لأن طبيعته أنه لاهث دائماً، وهذه الخاصية فى الكلب وحده، حيث يتنفس دائماً بسرعة مع إخراج لسانه.

ونعلم أن الحيوانات لا تلهث إلا إن فزعت فتجرى، لتفوت من الألم أو من العذاب الذى يترصدها من كائن آخر، وحين يجرى الحيوان فهو يحتاج لطاقة، فيدق القلب بشدة ليدفع الدم بما فيه من غذاء إلى كل الجسم، ولابد للقلب أن يتعاون مع الرئة التى تمد الدم بالهواء. ونلحظ أن الكائن الحى حين يجلس برتابة فهو لا يلحظ تنفسه، لكن إذا جرى يلحظ أن تجويف الصدر أو سعة الصدر تنقبض وتنبسط لتسحب «الأوكسجين» من الهواء لتصل به للدم بكمية تناسب الحركة الجديدة، فيحاول أن يتنفس أكثر. ولا تفعل الحيوانات مثل هذه المسألة إلا إذا كانت جائعة أو متعبة أو مهاجة، لكن الكلب وحده هو الذى يفعلها، جائعا أو شبعان، عطشان أو غير عطشان، مزجوراً أو غير مزجور، إنه يلهث دائماً. ولماذا يشبهه سبحانه بالكلب اللاهث؟؛ لأن الذى يظهر بهذه الصورة تجده مكروهاً دائماً؛ لأنه متبع لهواه، وتتحكم فيه شهواته. وحين تتحقق له شهوة الآن، يتساءل هل سيفعل مثلها غداً؟ وتتملك الشهوة كل وقته، لذلك يعيش فى كرب مستمر، لأنه يخاف أن يفوته النعيم أو أن يفوت هو النعيم، ويصير حاله كحال الكلب يلهث آمناً أو غير آمن، جائعاً أو غير جائع، عطشان أو غير عطشان.

﴿ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

(من الآية ١٧٦ سورة الأعراف)

هكذا يكون مصير من كذَّب بالآيات.

وقول الحق: ﴿ فاقصص القصص ﴾ يوضح لنا أن الله لا يريد أن يعلمنا تاريخاً، لكنه يعلمنا كيف نأخذ العبرة من التاريخ، بدليل أنه يكرر القصة أكثر من مرة وكل مرة يأتى سبحانه بلقطة جديدة، لتعدد ما فى القصة الواحدة من العبر، ولو أنه أراد أن يقص علينا التاريخ لقال لنا روايته مرة واحدة. ونجد فى القرآن الكثير من قصص الحق مع الباطل، ومن قصص المبطلين مع المحقين، ومن قصص المعاندين مع الرسل؛ لأن القصة أمر واقعى، والتقنين للمناهج أمر لفظى، فيريد سبحانه وتعالى أن يوضح لنا المنهج المناسب للواقع؛ لأن واقع الحياة يعطى القصة القولية حرارة وسخونة فلا يظل المنهج مجرد كلام نظرى معزول عن الواقع.

وهكذا بَيّن الحقّ سبحانه وتعالى فى هذه الآية، أنه سبحانه قد أنزل علم منهجه بواسطة الرسل إلى بعض خلقه، فمنهم من يأخذ منهج الله بالاستيعاب أولاً، وتوظيف ما علم ثانياً، وبذلك يرتفع من منطق الأرض إلى منطق السماء. ومن يعطيه الله ذلك المنهج، ما كان يصح له أن يترك ارتفاعه إلى السماء، ليهبط إلى مستوى الأرض. وهذا ما يفعله البشر حين يقننون لأنفسهم، ويضعون نظم الحياة على وفق هواهم، وعلى وفق نظمهم، ويتركون منهج الله الذى خلقهم وصنعهم ووضع لهم قانون صيانتهم.

وهذا كلام نظرى له واقع فى ابن « باعوراء »، هذا الذى آتاه الله العلم، ولكنه أخلد إلى الأرض ولم يتبع ما علم، فانسلخ من المنهج كما تنسلخ الشاة من جلدها وقال فيه الحق:

﴿ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ﴾

(من الآية ١٧٦ سورة الأعراف)

ومن يريد أن يرفعه الله إلى السماء بالوحى بالمنهج ثم يهبط إلى الأرض نجد

الحق سبحانه وتعالى يمثل حاله بحال الكلب، مع الفارق بين الاثنين؛ لأن الكلب يلهث غريزة. فهو غير مذموم حين يلهث وهو مطرود، ويلهث غير مطرود فهذه غريزة فيه، ولا يذم على هذه ولا على تلك، لكن الإنسان الذى فطره الله على حب الخير وميز غرائزه بمنهج عقلى يصون حركته ما كان يصح له أن يفعل ذلك ولا ينبغى أن تقولوا: وما ذنب الكلب فى أنه يلهث، ويضرب به المثل فى الكفر؟ لأن الكلب يفعلها غريزة، وهو بغير تكليف فيفعل ما يشاء، أما الإنسان الذى ارتفع بفكره وميزه الله بأن يختار بين البديلات ما كان يصح له أن يصل إلى هذا المستوى، ومثل هذا السلوك فى الكلب محمود فيه لأن طبيعته هكذا، وإياك أن تقول: لماذا ربنا يضرب المثل بأشياء وما ذنبها هى؟

والحق - سبحانه - هو القائل عن اليهود:

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾

(من الآية ٥ سورة الجمعة)

هل الحمار حين يحمل أسفاراً يستحق الذم لأنه لم يفقه ما فى الأسفار؟ الجواب لا؛ لأن مهمته ليس منها فقه وفهم ما فى الأسفار، بل مهته أن يحمل ما عليه فقط، وكأن الحق يقول: لا تكونوا مثل الحمار الذى يكتفى من الخير بأن يحمله، ولكن أريد منكم أن تحملوا المنهج وأن تنتفعوا بما يحويه من التشريع. إذن فهذه الأمثلة ليست ذماً للكلب، ولا هى ذما للحمار. إنما ذم لمن يتشبه بهما؛ لأنه نزل إلى مرتبة لم يرده الله لها، وأراد الله المثل فيها بشىء لاتذم منه، ولكنه مذموم من الإنسان.

والإنسان الذى لا يتبع منهج الله يكون مضطرب الحركة فى الحياة، حتى وإن كان فى نعمة، لأنه معزول عن الله، ومادام معزولاً عن الله تجده دائم التساؤل: أيدوم لى هذا النعيم أو لا يدوم؟ ويعيش دائما فى قلق ورعب مخافه أن يفوت النعيم أو ألا يدوم له النعيم، ومثله كالكلب يلهث حال راحته ويلهث حال تعبه.

﴿ ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون ﴾

إذن حين يضرب الله لنا مثلاً من الأمثال الواقعية فى هذا الرجل المسمى "ابن باعوراء" ، فسبحانه يعطينا واقعاً لما حدث بالفعل.

أى أن الذى يريد الله أن يرفعه بما علمه من منهج فانسلخ من دينه فهو مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله ، ولستم بدعاً فى هذا ، فالله يريد أن يرفعكم بمنهج السماء وأنتم تخلدون إلى الأرض ، وقد حدث هذا مع ابن باعوراء ، وكلمة "مثل" إذا سمعتها هى من مادة الـ"م" والـ"ث" والـ"لام" ، وتنطق كما يأتى : إما أن تنطقها مثْل «بكسر الميم وسكون الثاء» ، وإما أن تنطقها مَثَل «بفتح الميم والثاء» ، والمثْلَ هو المشابه والنظير ، فتقول : فلان مثْل فلان فى الكرم ، فى العلَم ، فى الطول ، فى العرض ، وبذلك أعطيت تشَبيه ما هو مجهول للمخاطب بما هو معلوم له.

والحق سبحانه يقول :

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾

(من الآية ١١ سورة الشورى)

أى لا أحد يشبهه فى شيء ؛ لأنه مَنَزّه فى الذات والصفات والأفعال.

وأيضاً نقول : هذا مَثَل هذا ، أى أن فلاناً المشبه به يكون أعلى منه فيما يشبهه به ، لكن الناس لا تعرف ذلك . وإن كان المشبه به ذائع الصيت ؛ بحيث يجرى اسمه على كل لسان ؛ فنحن نقول : إنَّه مَثَلٌ ؛ كقولنا عن الكريم : "هو حاتم" لأن شهرة حاتم فى الكرم جعلته مَثَلاً. والفرق أنك إذا قلت فى فلان إنه يشبه حاتماً فى الكرم ، فقد تكون أول من يخبر عنه ، ولك أن تأتى بواحد له شهرة ذائعة الصيت على كل لسان ؛ فهذا مَثَل ، كأن تقول : مَثَل حاتم فى الكرم ، أو مثل عنترَة فى الشجاعة. والمَثَل فى الذكاء إياس ، لأن كل واحد منهم مشهور بصفة ، ولذلك لما مدح الشاعر (١) الخليفة (٢) قال فيه :

(١) أبو تمام (٢) أحمد بن المعتصم

إقدام عمرو [١] (فى شجاعته) فى سماحة حاتم (أى الطائي) فى حلم أحنف (الأحنف [٢] بن قيس وكان مشهوراً بالحلم عند العرب) وفى ذكاء إياس [٣].
وقال رجل من القوم : كيف تُشَبِّهُ الأميرَ بصعاليك العرب ؟ إن الأمير فوق من ذكرت جميعاً .

ما عمرو بالنسبة للأمير ؟!

وما حاتم بالنسبة للأمير ؟!

فقال الشاعر :

وشبهه المدّاح فى الباس والندى
بمن لو رآه كان أصغر خـادم
ففى جيشه خمسون ألفاً كعنتر
وفى خُـزنه أُلف ألف كحاتم

أى أن عنده أمثالَ حاتمٍ وأمثال عنترة. فما كان منه إلا أن أسعفته ذاكرته وبديهته ؛ فقال :

" لاتنكروا ضربى لـه من دونه
مثلاً شرودًا فى الندى والباس
فالله قد ضرب الأقـل لنوره
مثـلا من المشكاة والنبراس

وكأن الشاعر يقول : أنا ضربت بهم المثَل لأنهم أصبحوا المثل المشهور والأمثال لا تتغير .

---

(١) عمرو بن معدى كرب الزبيدى فارس اليمن (٢) من سادات التابعين كان شهما حليما (٣) كان قاضى البصرة ويضرب به المثل فى الفطنة والذكاء.

وأنت تقدر فى المثل، فقد تقول : فلان حاتم، وحاتم انقضى عمره، لكنه قد صار مثلاً مشهوراً فى التاريخ ، أو تقول : "فلان عنتر" ، أو "فلان إياس" ، وفى ذلك يرتقى التشبيه، بأن صار المشبَّه به مشهوراً معلوماً متوارداً على الألسنة وكل واحد يشبه به .

ويُعَرفون المَثَل بأنه : قول شبِّه مورده بمضربه ، أى أنك تشبه الحالة التى قيل فيها المثل أولاً، ومثال ذلك : حينما أرسلَ عظيمٌ من عظماء العرب خاطبةً اسمها "عصام" لتخطب له أمَّ إياس ؛ فقد بلغه أنها جميلة وأنها وأنها ، فقال: اذهبى حتى تعلمى لى علم ابنة عوف، فذهبت الخاطبة وخلَّت أم الفتاة بينها وبينها، وقالت لها: يا هذه ، هذه خالتك جاءت لتنظر إلى بعض أمرك فلا تسترى عنها شيئاً أرادت النظر إليه ، من وجه وخلق ، وناطقيها فيما استنطقتك به . ثم أرسلت إلى خباء ، ونظرتها كلها وفحصتها فحصاً شاملاً. فلما عادت إلى من أرسلها، وكان ينتظرها فى شوق وكأنه على أحر من الجمر ، قال لها : "ما وراءكِ يا عصامُ ؟" قالت : "أبدى المخض عن الزُّبد» أى أن الرحلة جاءت بفائدة.

وأصبح العرب بعد ذلك كلما أرسلوا رسولاً ذكرا أو أنثى أو مثنى أو جمعاً؛ وبعد أن يعود إليهم ويستعلموا منه عن نتيجة رحلته ، فهم يقولون له : "ما وراءك يا عصام ؟ " ، ولو كان رجلاً ، لأن الأمثال لا تغير . وكل شيء يجدى الجهد فيه يقال عنه : "أبدى المخض عن الزبد" . فحين ينجح الولد ويأتى بالمجموع المناسب يقال : "أبدى المخض عن الزبد" .

والحق تبارك وتعالى يقول :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ﴾

(من الآية ٢٦ سورة البقرة)

وكانوا قد قالوا : كيف يضرب الله المثل ببعوضة ؛ وقال سبحانه :

﴿ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ﴾

(من الآية ٧٣ سورة الحج)

لقد فهموا قوله : "فما فوقها" أنها أكبر منها، والمراد غير ذلك؛ لأنه سبحانه ضرب المثل بالأقل؛ لذلك قال : "فما فوقها" من باب فما فوقها فى الاحتقار منكم والقلة فى الحجم مما تنكرونه ، وهو الضآلة. وحتى تفهم ذلك نسمع أحياناً : فلان مريض . ويرد السامع وفلان فوقه فى المرض . ونجد "فوقه" هنا لا تعنى المرض الأقل ، بل المرض الأكثر شدة :

﴿ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

(من الآية ١٧٦ سورة الأعراف)

والكلام موجه لليهود : أى أنتم يابنى إسرائيل مَثَلكم مثل الرجل الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها ، ولقد جاءت لكم فى التوراة بشارة بمحمد ، ووصفته بسمات وعلامات ، بحيث إذا رآه الإنسان يعرف أنه الرسول الذى جاء ذكره فى التوراة، ويعرفه الواحد منكم كما يعرف ابناً له ، لأنه مذكور لكم بنصه ونعته وشكله وطوله، وعرضه . وكنتم تستفتحون به على العرب . لكنكم امتنعتم عن التصديق بالآيات ، وعندما جاءكم بما عرفتم عنه كفرتم به. وصار مثلكم كمثل الرجل الذى آتاه الله الآيات فانسلخ منها. ﴿ ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا﴾

وهم بعنادهم وبغيهم وكفرهم قد كذبوا بالآيات الكونية التى يراها البصر ؛ السماء والأرض والشمس ، والآيات المعجزات التى يثبت بها الرسول صدق بلاغه عن الله، وكذلك آيات القرآن التى تحمل منهج الله.

﴿ فاقصص القصص لعلهم يتفكرون﴾ وعليك يا محمد أن تقصص القصص وأن تقول ما حدث وما كان، وأنت لن تحكى الأمر التافه، بل ستحكى ما يقال له قصص ويكون فيه عبرة ؛ تنتفع بها حركة المجتمع.

ويذيل الحق الآية بقوله تعالى : ﴿ لعلهم يتفكرون ﴾ ، ونعلم أن القرآن قد جاء فيه الأمر بالتفكر والتذكر والتدبر.

والتفكر - كما نعرف - هو عمل العقل فى المقارنات بين البديلات المتنوعة ليُرَجّح بديلاً على بديل فتُعقلَ به القضايا.

والتذكر يعنى إن غفلت عن هذا فتذكره ، حتى يزيح عنك الغفلة عن القضية المعلومة.

أما التدبر فهو أيضاً بحث عقلي. فلا تنظر إلى واجهة الأشياء ، بل إلى كلية الأشياء من جميع جهاتها بواجهة وجوانب وخلف ، وما ينتج عنها . وعلى سبيل المثال يقال : انظر خلف العبارة، لتجد المعنى الخفى فيما يقال. والمثال فى قول الحق :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ﴾

(من الآية ٢٦ سورة البقرة)

وحين تفكرنا وتدبرنا وجدنا أن معنى " فما فوقها " لا يعنى الأعلى منها فى القوة، بل الأعلى منها فى الضعف الذى أنكروه . لذلك لا يجب أن تنظر إلى معنى ومدلول اللفظ حسب ظاهره فقط ، بل لما خلف اللفظ ، ومعطياته.

﴿فاقصص القصص لعلهم يتفكرون﴾ أى يتفكرون فى أسلوب توجيه المنهج ؛ لعلهم يؤمنون. وهذه فائدة القصص.

ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك :

﴿ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾

والحق قال فيهم من قبل : إنهم كذبوا بآياتنا، وضرب لهم المثل بابن باعوراء وكان مشهوراً فى أيامهم. لكنهم فاقوا ابن باعوراء لأنه كان فرداً وهم جماعة؛ لذلك لا تقل إن فى المسألة تكراراً؛ لأن المثل من قبل كان على فرد واحد، أوتى آيات الله فانسلخ منها ، ولكنهم كانوا جماعة . لذلك فانسلاخهم عن المنهج يجعل موقفهم أشد سوءاً.

﴿ ساء مثلاً القوم الذين كذبوا بآياتنا﴾

و" ساء " أى قَبُح ، وحين نقول : ساء فلان ؛ أى قبح أمره ، ولكن أى أمر من أموره هو القبيح ؟ فنقول : ساء صحةً أى صار مريضاً أو ساء حالاً أى صار فقيراً ، أو ساء خلقاً أى صار شرساً، وأنت حين تقول : ساء، فهذا السوء عام له جوانب متعددة ، ويقتضى الأمر التمييز.

و" ساء مثلاً " أى ساء من جهة المثل ، والمثل فى ذاته لا يسوء؛ لأن الله تعالى يضرب المثل لنا . والمثل إنما يجئ ليبين ويشرح ويوضح. والمعنى هنا : ساء مثلاً حال القوم . أو القوم أنفسهم هم الذين ساءوا . لأنهم حين كذبوا بالآيات ظلموا أنفسهم، فالتكذيب منهم لم يعرقل منهج الله فى الأرض، ولم يعرقلوا بالتكذيب شيئاً فى كون الله تعالى، فالكون بنظامه ونسقه يسير بإرادته سبحانه وآيات الكون سائرة. إذن تكذيبهم بآيات الله لن يضير أبداً فى أى شيء. والخيبة إنما تقع عليهم. وإن كان التكذيب فى الآيات المعجزات فقد بقى ذكر المعجزات إلى الآن. وهم الذين خابوا ، وإن كانوا قد كذبوا بآيات المنهج فهم أيضاً الذين خسروا ولم يصب الآيات الإعجازية أو القرآنية أى شيء . وهم قد ظلموا أنفسهم ومثلهم فى ذلك مثل المريض الذى لم يسمع كلام الطبيب فإنه يسيء إلى نفسه ولن يضر الطبيب شئ، والله سبحانه قد أعطانا المنهج لتستقيم به حركة الحياة، فمن يأخذه ينفع نفسه، ومن لا يأخذه لن يضر الله شيئاً.

هم إذن ظلموا أنفسهم، ومن يظلم نفسه كان هو أول عدو لها ولن يضر الله شيئاً، ولا الرسول، ولا المجتمع.

﴿ وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴾

(من الآية ١٧٧ سورة الأعراف)

وحين تجد معمولاً تقدم على عامله - قاعدة نحوية - فاعلم أن هناك مايسمى بالقصر فى علم البلاغة، وقد نقول: "يظلمون أنفسهم" ويصح أن تعطف قائلاً: ويظلمون الناس. ولكن حين نقول: أنفسهم يظلمون، فمعنى ذلك أنه لا يتعدى ظلمهم أنفسهم، ويكون الكلام فيه قصر وتخصيص، مثلما نقول: ﴿ لله الأمر من قبل ومن بعد ﴾، أى أن الأمر لا يتعدى إلى غيره أبداً.

ويقول المولى سبحانه وتعالى بعد ذلك:

﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِىۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾ ﴾

وهذه الآية هى الوحيدة التى جاء فيها قوله سبحانه وتعالى: "المهتدي" - بالياء - بينما جاء المولى سبحانه وتعالى بكلمة "المهتد" - من غير ياء - فى آيات متعددة عدا هذه الاية:

واقرأ قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ﴾

(من الآية ٩٧ سورة الإسراء)

و يقول الحق: ﴿ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾

(من الآية ٢٦ سورة الحديد)

وكذلك تأتى الكلمة بدون "ياء" فى قوله سبحانه:

﴿ من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليّاً مرشداً ﴾.

(من الآية ١٧ سورة الكهف)

والمعركة الخاصة بقضية الهداية والإضلال قائمة من قديم ، ولا تزال أيضاً ذيول هذه المعركة موجودة إلى الآن، وأوضحنا هذه القضية من قبل ولكننا نكررها للتأكيد ولتستقر فى الأذهان، لأن هناك دائماً من يقول : إذا كان الله هو الهادى والمضل، فلماذا يعذبنى إن ضللت ؟ . وشاع هذا السؤال وأخذه المستشرقون والفلاسفة ويراد منه إيجاد مبرر للنفس العاصية غير الملتزمة. ونقول لكل مجادل : لماذا قصرت الاعتراض على مسألة الضر والعذاب إن ضللت ؟ ولماذا لا تذكر الثواب إن أحسنت وآمنت ؟ . إن اقتصارك على الأولى دون الثانية دليل على أن الهداية التى جاءت لك هى مكسب تركته وأخذت المسألة التى فيها ضرر . ولا يقول ذلك إلا المسرفون على أنفسهم.

وضَرْبنا من قَبْلُ أمثلةً كثيرة. لنفرق فى هذه المسائل بين المختلفين؛ لأن الجهة عندهم منفكة. وهم قد ناقشوا مسألة " خلق أفعال العباد " وتساءلوا : مَنْ خلق هذه الأفعال ؟ هل خلقها الله أم أن العبد يخلق أفعاله ؟.

ونسأل : ما هو الفعل ؟. إنه توجيه طاقة لإحداث حدث ؛ فطاقة اليد أنها تعمل أيَّ عمل تريده منها ؛ قد تضرب بها إنساناً أو تحمل بها إنساناً واقعاً على الأرض، أو تربت بها على اليتيم .

إذن ففى اليد طاقة تصلح لأن تفعل الخير وتفعل الشر ، وأنت لحظة أن تضرب إنساناً ؛ فأى عضلة تحركها حين ترتفع اليد لتضرب ؟. إنك بمجرد رغبتك فى أن تضرب ، تضرب ؛ عكس الإنسان الآلى حين يرفع شيئاً ، فله أجزاء وأزرار تعمل . وكلها آلات.

وأنت حين تربت على كتف يتيم ، ما هى الأعضاء والأجهزة التى تحركها لتعمل هذا العمل ؟. إذن فالله هو الذى خلق فيك الانفعال للفعل. فإن نظرت إلى ذلك، فكل فعل من الله، ولكن توجيه الجارحة إلى الفعل هو محل التكليف.

إذن فأنت تحاسب لأنك فعلت، لا لأنك خلقت؛ لأن خالق الأفعال هو الله سبحانه وتعالى، وأنت تفعل بمجرد الإرادة والاختيار، مثل اللسان فيه طاقة

مخلوقة لبيان ما فى النفس ؛ إن أردت أن تقول بها " لا إله إلا الله " صلحت، وصلحت كذلك عند الملحد أن يقول - والعياذ بالله - لا يوجد إله . واللسان لم يعص فى هذه ولا فى تلك .

إذن فالذى خلق قدرة الجارحة على الفعل هو الله. وأنت توجه الجارحة، إذن فكل الافعال مخلوقة لله، لكن توجيه الطاقة للفعل بالميل والاختيار إنما يكون من العبد. والحق سبحانه وتعالى يهدى الجميع بالمنهج، ومن يقبل عليه بنيَّة الإيمان ، يعينه على ذلك ، ولذلك لا يصح أن نختلف فى مسألة مثل هذه، وأن نسأل من خلق الأفعال، بل علينا أن نحدد الأفعال وكيف توجد، وما دور الإنسان فيها؛ لأننا نعلم أن الله قد يسلب طاقة الفعل على الأحداث، مثل من يريد أن يؤذى إنساناً بيده لكنه يصاب بشلل فلا يقدر أن يرفع يده . ولو كان هو الذى يخلق لرفع يده وآذى بها من أراد ، لكنه لا يخلق الطاقة الصانعة للفعل.

وعلى ذلك تكون الهدايةُ نوعين : هداية دلالة ، وهى للجميع ؛ للمؤمن والكافر؛ لأن الحق لم يدل المؤمن فقط، بل يدل المؤمن والكافر على الإيمان به، فمن يُقْبل على الإيمان به ؛ فإن الحق تبارك وتعالى يجد فيه أهلاً للمعونة . فيأخذ بيده ، ويعينه ، ويجعل الإيمان خفيفاً على قلبه، ويعطى له طاقة لفعل الخير، ويشرح له صدره وييسر له آمره : وسبحانه القائل :

﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ﴾

(من الآية ٢٨٢ سورة البقرة)

ويقول سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾

(من الآية ١٧٨ سورة الأعراف)

فإذا كان الله قد عمّم حكماً ثم خصّصه، فالتخصيص هو الذى يحكم التعميم.

ويقول ربنا عز وجل : إن من شاء هدايته فهو سبحانه وتعالى يعطيه الهداية،

ومن شاء له الضلال زاده ضلالاً، وقد بيّن أن من شاء هدايته يهتدى وهذه معونة من الله، والكافر لا يهتدى وكذلك الظالم، والفاسق؛ لأنه سبحانه قد ترك كل واحد منهم لاختياره، وهكذا يمنع سبحانه وتعالى عنهم هداية المعونة. ونقرأ فى القرآن الكريم ما يوضح هذه المسألة، فهو سبحانه يقول:

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾

(من الآية ١٧ سورة فصلت)

والهداية التى كانت لقوم ثمود إنما هى هداية الدلالة، وليست هداية المعونة.

ويقول سبحانه:

﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾﴾

(سورة محمد)

أى أنه سبحانه قد زاد من اختاروا الهداية، بالمعونة وجعل بينهم وبين النار وقاية، والحق سبحانه وتعالى يقول لرسوله:

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾

(من الآيه ٥٦ سورة القصص)

أى أنك يا محمد لن تعين أحداً على الطاعة لأن هذا أمر يملكه ربك.

ويقول سبحانه لرسوله:

﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾

(من الآية ٥٢ سورة الشورى)

أى أنك يا محمد تهدى هدايةَ الدّلالة بالمنهج الذى أنزله الله إليك.

إذن إذا رأيت فعلاً أو حدثا مُثبتاً لواحد ومنفياً عنه.. فاعلم أن الجهة منفكة، والكلام هنا لحكيم عليم. ولماذا يقول الحق سبحانه:

﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾﴾

(سورة الأعراف)

لأن الحق سبحانه وتعالى حين ينصرف عن معونة عبده، فعلى العبد أن يواجه حركة الحياة وحده بدون مدد من خالقه. ويعيش وحالته كرب، سواء كان فى يسر مادى أو فى عسر. هذا إن اعتبر أن الدنيا هى كل شىء، فإذا أضيف إلى ذلك غفلته عن أن الدنيا معبر للآخرة، فالخسارة تكون كبيرة حقاً.

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾

وذرأ، بمعنى بث ونشر، وقد قال الحق سبحانه وتعالى فى أول سورة النساء :

﴿ وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء ﴾

كما يقول الحق أيضا : ﴿ يذرؤكم فيه ﴾

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾

(من الآية ١٧٩ سورة الأعراف)

ونعرف أن فى الكون أشياء عابدة بطبيعتها وهى كل ما عدا الإنس والجن؛ لأن كلا منهما فى سلك الاختيار، وهم من يقول عنهم ربنا فى سورة الرحمن :

﴿سنفرغ لكم أيها الثقلان﴾

وذرأنا معناها بثثنا ونشرنا وكثّرنا، وكلمة كثير لا تعنى أن المقابل قليل، فقد يكون الشىء كثيراً ومقابله أيضاً كثير، والحق سبحانه وتعالى يقول فى كتابه الكريم :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ ﴾

(من الآية ١٨ سورة الحج)

إذن كل الكائنات من جمادات ونباتات وحيوانات تسجد لله سبحانه وتسبحه، ولكن الأمر انقسم عند الإنسان فقط، حيث يقول الحق فى ذات الآية :

﴿ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ﴾

(من الآية ١٨ سورة الحج)

أى هناك كثير يسجدون ويخضعون لله. ومقابل ذلك كثير كفروا ولم يسجدوا وحق عليهم العذاب. وإذا كان المولى تبارك وتعالى يقول :

﴿ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس﴾

فقد يثور فى الأذهان سؤال هو :

هل أنت خالقهم يارب لجهنم. ماذا يستطيعون إذن ؟ ولا شىء فى قدرتهم مادمت قد خلقتهم لذلك ؟

ونقول : لا. ولنلفت الأنظار إلى أن فى اللغة ما يسمى « لام العاقبة »، وهو ما يؤول إليه الأمر بصورة تختلف عما كنت تقصده وتريده؛ لأن القصد فى الخلق هو العبادة مصداقاً لقوله الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾

(سورة الذاريات)

ومعنى العبادة طاعة الأمر، والكف عن المنهى عنه، والمأمور صالح أن يفعل وألا يفعل، فالعبادة - إذن - تستدعى وجود طائع ووجود عاص، وأضرب هذا المثل ولله المثل الأعلى ومنزه سبحانه وتعالى: يأتى لك من يروِّى لمحة من سيرة إنسان ويقول لك: لماذا يقف منك هذا الموقف العدائى، أليس هو الذى أخذته معك لتوظفه؟ فترد عليه: «زرعته ليقلعنى». هل كان وقت مجيئك به كنت تريده أن يقلعك؟ لا. ولكن النتيجة والنهاية صارت هكذا.

والحق سبحانه لم يخلق البشر من أجل الجنة أو النار. لكنه عز وجل خلقهم ليعبدوه، فمنهم من آمن وأصلح فدخل الجنة، ومنهم من عصى فدخل النار وهذا اسمه «لام العاقبة»، أى ما صار إليه الأمر غير مرادك منه، ومثال ذلك حينما قال الله سبحانه لأم موسى:

﴿ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ۖ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا ﴾

(من الآية ٧ ومن الآية ٨ سورة القصص)

هل التقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً؟ لا، لأن زوجة فرعون قالت:

﴿ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا ﴾

(من الآية ٩ سورة القصص)

فقد كانت علة الالتقاط - إذن - هى أن يكون قرة عين، لكنه صار عدواً فى النهاية، وهذا اسمه - كما قلت - لام العاقبة.

وهكذا لا تكون علة الخلق أن يدخل كثير من الجن والإنس النار، فى قوله الحق:

﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس ﴾

لأن علة الخلق فى الأصل هى العبادة، والعبادة تقتضى طائعاً وعاصياً، فالذى يطيع يدخل الجنة، والذى يعصى يدخل النار، ولله المثل الأعلى، أذكركم بالمثل الذى

ضربته من قبل حين يسأل وزير التعليم مدير إحدى المدارس أو عميد كلية ما عن حال الدراسة والطلبة فيقول العميد أو المدير : إننا نعلم جيداً من هم أهل للرسوب ومن هم أهل للنجاح وإن شئت أقول لك عليهم وأحددهم . لم يقل العميد أو المدير ذلك لأنه يتحكم فى إجابات الطلبة ، ولكنه علم من تصرفاتهم ما يؤولون إليه ، والعلم صفة انكشاف لا صفة تأثير . وعلى ذلك فإن قوله تعالى :

﴿ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس﴾

يعنى أننا نشرنا وبثثنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس ، وهم من يعرضون عن منهجنا ، ثم يأتى الحق بالحيثيات لذلك وهى أولا :

﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا ﴾ (من الآية ١٧٩ سورة الأعراف)

وثانياً :

﴿ وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا ﴾ (من الآية ١٧٩ سورة الأعراف)

وثالثاً :

﴿ وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ﴾ (من الآية ١٧٩ سورة الأعراف)

ولقائل أن يقول : إن كانت قلوبهم مخلوقة بحيث لا تفقه فما ذنبهم هم ؟ . ومادامت عيونهم مخلوقة بحيث لا ترى فما ذنبهم ؟ وكذلك مادامت الآذان مخلوقة بحيث لا تسمع فلماذا يعاقبون ؟ . ونقول : لا ، لم يخلقهم الله للعذاب ، لكنهم انشغلوا بما استحوذ عليهم من شهواتهم ، وصارت عقولهم لا تفكر فى شىء غيره وتخطط فقط للحصول على الشهوة ، وكذلك العيون لا ترى إلا ما يستهويها ، وكذلك الآذان . وكل منهم يرى غير مراد الرؤية ، ويسمع غير مراد السمع .

والفرق بين فقه القلب ورؤية العين وسماع الأذن . . أن فقه القلب هو فهم القضايا التى تنتهى إليها الإدراكات . ونعلم أن الإدراكات تأتى بواسطة الحواس

الخمس، فنحن نعرف أن الحرير ناعم باللمس، ونعرف أن المسك رائحته طيبة بالشم، ونعلم أن العسل حلو الطعم بالذوق.

إذن لكل وسيلة إدراك، وهى من المحسَات، وبعد أن تتكون المحسَات يمتلك الإنسان خميرة علمية فى قلبه وتنضج لتصير قضية عقلية منتهية ومسلماً بها.

وكلنا يعرف أن النار محرقة؛ لأن الإنسان أول ما يلمس النار تلسعه، فيعرف أن النار محرقة، ويتحول الإدراك إلى إحساس ثم إلى معنى. إذن فالمعلومات وسائلها إلى النفس الإنسانية وملكاتها الحواس الظاهرة، وهناك حواس أخرى غير ظاهرة مثل قياس وزن الأشياء بالحمل. وقد انتبه العلماء لذلك واكتشفوا حاسة اسمها حاسة العضل؛ لأنك حين تحمل شيئا قد تجهد العضلة أكثر إن كان الحمل ثقيلاً.

وحينما ترى واحداً من قريب وواحداً من بعيد، فهذه اسمها حاسة البعد، وكذلك حاسة البين وهى التى تميز بها سمُك القماش مثلاً.

كل الحواس - إذن - تربى المعانى عند الإنسان وحين تربى المعانى فى النفس الإنسانية تتكون القضايا التى تستقر فى القلب.

ولذلك يمتن الحق سبحانه وتعالى على خلقه بأنه علمهم فقال تعالى:

﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾

(سورة النحل)

ونعود إلى قول الحق تبارك وتعالى:

﴿ لهم قلوب لا يفقهون بها ﴾

والفقه هو الفهم، ويصير الفهم قضية مرجحة انتهى إليها الاقتناع من المرائى والمحسّات، لكنّ هؤلاء الكافرين لا يرون بأعينهم إلا هواهم، وكذلك لا تسمع

آذانهم إلا ما يروق لهم، فلا يستمعون إلى هدى، ولا يلتفتون إلى الآيات التى يستدلون بها على الخالق فتعيش قلوبهم بلا فقه، فهم إذن لهم قلوب وأعين وآذان بدليل أنهم فقهوا بها وسمعوا بها ورأوا بها الأشياء التى تروق لانحرافهم.

ويصف الحق تبارك وتعالى هؤلاء فيقول:

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾

وهنا وقفة لإثارة سؤال هو: ما ذنب الأنعام التى يُشبه بها الكفار؟ إن الأنعام غير مكلفة وليس لأى منها قلب يفقه أو عين تبصر آيات الله أو آذان تسمع بها آيات الله. هى فقط ترى المَرعَى فتذهب إليه، وترى الذئب فتفر منه، وتتعود على أصوات تتحرك بها، وكافة الحيوانات تحيا بآلية الغريزة، ويهتدى الحيوان إلى أموره النافعة له وإلى أموره الضارة به بغريزته التى أودعها الله فيه، لا بعقله.

والإنسان منا لا يبتعد عن الضر إلا حين يجربه ويجد فيه ضرراً. لكن الحيوان يبتعد عن الضر من غير تجربة بل بالغريزة، لأن الحيوان ليس له عقل وكذلك ليس له قدرة اختيار بين البديلات، وفطره الله على غريزة تُسَيِّرهُ إلى مقومات صالحة، ومثال ذلك: أنه قد يوجد الحيوان فى بيئة ما، ويعطى الله له لوناً يماثل لون هذه البيئة ليحمى نفسه من حيوانات أقوى منه.

ومثال آخر: نحن نعلم أن الحيوان مخلوق لينفع الإنسان، ولابد أن يتناسل ليؤدى ما يحتاج إليه الإنسان من ذرية هذا الحيوان ويمارس الحيوان العملية الجنسية كوسيلة للتناسل وليست كما هى فى الإنسان، حيث تصير فى بعض الأحيان غاية فى ذاتها، بجانب أنها وسيلة للنسل. ولذلك نجد كثيراً من ظواهر الحياة المتعلقة بالإنسان قد تعلمها من الحيوان مثلما قال الحق تبارك وتعالى:

﴿ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ﴾

(من الآية ٣١ سورة المائدة)

إذن فالغراب مَهْدىّ بغريزته إلى كل متطلباته، ولذلك نجد من يقول : كيف نشبه الضال بالأنعَام ؟ نقول : إن الضال يختلف عن الأنعام فى أنه يملك الاختيار وقد رفع فوق الأنعام، لكنه وضع نفسه موضع الأنعام حيث لم يستخدم العقل كى يختار به بين البدائل. وبذلك صار أضل من الأنعام، وكلمة « أضل » تبين لنا أن الأنعام ليست ضالة، لأنها محكومة بالغريزة لا اختيار لها فى شىء. لكن الكفار الذين ذرأهم ربنا لجهنم من الجن والإنس، لا يعرفون ربهم، بينما الأنعام، والجمادات والنباتات تعرف ربها لأن الحق يقول :

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة الإسراء)

إذن فالأنعام تعرف ربنا وتسبحه وتحمده. وفى آية أخرى يقول المولى تبارك وتعالى :

﴿ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ﴾

(من الآية ٤١ سورة النور)

وعلى ذلك فكل الجماد - إذن - يعلم صلاته وتسبيحه.

ولذلك قصصنا قصة من قصص العارفين بالله حين يجلسون مع بعضهم البعض كوسيلة تنشيط إلى غايات وأهداف سامية. والعارف بالله من هؤلاء الصالحين يستقبل الأحسن منه فى العبادة بالضحك، أما الأحسن منه فى أمور الدنيا فيستقبله « بالتكشير »، وقال واحد منهم لآخر : أتشتاق إلى ربك ؟ فرد عليه : لا.

تساءل الآخر : كيف تقول ذلك؟.

قال له : نعم. إنما يُشْتَاقُ إلى غائب.

﴿ أُولَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾

(من الآية ١٧٩ سورة الأعراف)

ولا تظنن أن الضلال لعدم وجود منهج، أو لعدم مُذَكِّر، أو لعدم وجود مُنْذر أو مُبَشِّر. بل هى غفلة منهم، فالأمور واضحة أمامهم، لكنهم يهملونها ويغْفَلون عنهاَ.

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ ﴾

وحين يقول المولى سبحانه وتعالى ﴿ ولله الأسماء الحسنى ﴾ نقول : إنه لا يوجد لغير الله اسم يوصف بأنه من الحسنى، إن قلت عن إنسان إنه « كريم »، فهذا وصف، وكذلك إن قلت إنه « حليم »، وكلها صفات عارضة فى حادث، ولا تصير أسماء حسنى إلا إذا وصف الله بها. فأنت - مثلا - لك قدرة تفعل أفعالاً متعددة، ولله قدرة، لكن قدرتك حادثة من الأغيار، بدليل أنها تسلب منك لتصير عاجزاً، أما قدرة الله تعالى فلها طلاقة لا يحدها شىء. فهى قدرة مطلقة. وأنت قد تكون غنياً، لك غنى، ولله غنى، لكنّ ثراءك محدود، وأمَّا غنى الله فإنه غير محدود.

إذن الأسماء الحسنى على إطلاقها هى لله، وإن وجدت فى غيره صارت صفات محدودةً مهما اتسعت.

﴿ ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها ﴾

والحسنى.. تأنيث لكلمة « الأحسن » اسم تفضيل، وهى الأسماء الحسنى فى صلاحية الألوهية لها، وصلاحيتها للألوهية. وحين تقول عنه سبحانه : إنه « رحيم »، فهذا أمر حسن عندى وعندك لأننى أنظر إلى رحمته لى، وأنت تنظر إلى رحمته لك. وحين تقول : « غفار »، فأنت وأنا وكل من يسمعها تعود عليه.

وحين تقول: « قهّار » وأنت مذنب ستخاف، وهى صفة حسنى بالنسبة للإله؛ لأن الإله لابد أن تكون له صفات جمال وصفاتُ جلال، فصفات الجمال لمن أطاع، وصفات الجلال لمن عصى. ولذلك لا تأخذ النعَم بمدلولها عندك، بل خذ النعم بمرادات الله تعالى فيها.

وساعة يتكلم الحق سبحانه وتعالى قائلا:

﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَـٰنٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾ ﴾

(سورة الرحمن)

فهل إرسال الشواظ من النار والنحاس نعمة يقول بعدها: « فبأى آلاء ربكما تكذبان »؟

نقول: نعم، هى نعمة كبيرة، لأنه سبحانه وتعالى ينبهنا قبل أن توجد النار، أن النار قوية، ويعطى لك نعمة العظة والاعتبار. وعظته وتنبيهه - إذن - قبل أن توجد النار نعمة كبرى، وأيضاً هى نعمة بالنسبة للمقابل، فحين يطيعه المؤمنون فى الدنيا ويلزمون أنفسهم بمنهج الله، فلهم ثواب حق الالتزام، والمقابل لهم الذين لم يلتزموا وأخذوا الخروج عن المنهج غاية، يتوعدهم سبحانه بالعقاب، وهذه نعمة كبرى

﴿ ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها ﴾

والحق سبحانه وتعالى عرفنا اسمه بالبلاغ منه، لأننا قد نعرف مسماه من

القوى القادرة وهى التى تعرف بالعقل ، لكن العقل لا يقدر أن يعرف الاسم . وسبق أن قلت : لنفترض أن أناساً يجلسون فى حجرة ثم طرق الباب . هنا يجمع الكل على أن طارقاً بالباب ، لكن حين دخلوا فى التصور اختلفوا ، فواحد يقول : إن الطارق رجل ، فيرد الآخر : لا إنها امرأة لأن نقرتها خفيفة ، ويقول ثالث : هذه النقرة على الباب تأتى من أعلاه وهى دليل على أن الطارق ضخم ، وهو نذير لأنه يطرق بشدة ، ويختلف تصور كل الحضور عن الطارق ، ولا أحد يعرف اسمه . إذن حين تريد أن تعرف من الطارق ، فأنت تسأله من أنت ؟ فيقول لك « اسمه » .

إذن فإن الاسم لا يدرك بالعقل . ومن خلق الخلق كله قوى ، قادر ، حكيم ، عليم ، لأن عملية الخلق تقتضى كل هذا . أما اسم الله . فهذه مسألة لا يعرفها العقل وتحتاج إلى توقيف . إذن فأسماء الله تبارك وتعالى توقيفية ، فحين يقول لنا : هذه أسمائى فإننا ندعوه بها ، وما لم يقل لنا عليه لا دعوة لنا به ، و لذلك يقول تعالى : ﴿ فادعوه بها ﴾

فإذا أنت نقلت هذا إلى غيره . فأنت تدعو بالأسماء الحسنى سواه ، مثلاً كذاب اليمامة مسيلمة سمى نفسه الرحمن ، وبذلك ألحد فى اسم الله حيث نقل أحد أسماء ربنا إلى ذاته ، ومثله فعل غيره ، ألم يسموا « اللات » من الله ؟ . ألم يسموا « العزّى » من العزيز ؟ . ألم يسموا « مناة » من المنان ؟ . كل هؤلاء ألحدوا فى أسماء الله التى لا ندعو غيره بها ، ولذلك ورد عنه صلى الله عليه وسلم قوله فى دعآئه : اللهم إنى عبدك وابن عبدك وابن أمتك ناصيتى بيدك ماض فىَّ حكمك ، عدل فىَّ قضاؤك أسالك بكل اسم هو لك ، سميت به نفسك ، أو أنزلته فى كتابك ، أو علمته أحداً من خلقك ، أو استأثرت به فى علم الغيب عندك أن تجعل القرآن ربيع قلبى ونور صدرى وجلاء همى وذهاب حزنى وغمى »(١) .

إذن فهذه الأسماء وضعها ربنا لنفسه ، لأنها لا تعرف بالعقل . أما إذا نظرت إلى الأوصاف المبدعة للخلق فأنت تتعرف على هذه الأوصاف ؛ لأنه تعالى

(١) رواه الإمام أحمد فى مسنده وابن حبان والحاكم فى المستدرك.

خلق الكون بحكمة وتدبير وقدرة. وأضرب هذا المثل - ولله المثل الأعلى - نحن نؤسس مصانع كثيرة وكبيرة لتصنع المصابيح، فنصنع زجاجاً ونفرغه من الهواء، ونضع داخله أسلاكا تتحمل ذبذبة الكهرباء، وبعد استخدام هذه المصابيح لفترة تفسد، بينما الشمس تضىء الكون كل هذا العمر، من بدء الخلق، ولا تحتاج منا إلى قطعة غيار.

وحين نقول هو: «حكيم»، نقولها ونرى أثر ذلك فى حركة الكواكب التى تسير منسجمة، وكل كوكب يدور فى فلكه ولا يصطدم بآخر، وهذا دليل على أن الكواكب قد خلقت بحكمة.

وينبهنا الحق سبحانه وتعالى أن ندعوه بالأسماء الحسنى فى قوله: ﴿ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها﴾ لأنه يريد من خلقه دائماً أن يذكروه؛ لأنه هو الرب الذى خلق من عَدَم، وأمد من عُدْم. وصان الخلق بقيومية، وحين تأتى لك حاجة وجب عليك أن تذكر أسماء الله الحسنى وتنادى الله بها، وحين تريد أن تتقرب إلى الله لا تناديه إلا بالاسم الذى وضعه لنفسه وهو «الله»، لأن هذا هو اسم علم على واجب الوجود، وأسماء الله الحسنى كلها صفات وصلت إلى مرتبة الأسماء، وهناك أسماء تدل على مجموع الصفات.

ولله المثل الأعلى: أنت تقول: «زيد» فيعرف السامع أن هذا اسم علم على شخص اسمه زيد، ثم له صفات أخرى، كأن يكون تاجراً، أو عالماً متفقها فى العلم، أو مهندساً. لكن الاسم العلم هو زيد وهو الذى لا يشترك معه أحد من معارفك فيه وهو زيد، لكن الصفات الأخرى قد يشترك معه فيها غيره.

والأسماء لله نوعان، اسم يدل على ذات الله، الذات المجردة عن أى شىء وهو الله، ولكن هناك صفات لله مثل الرحمن والرحيم والملك والقدوس والسلام والمؤمن والمهيمن، وهذه صفات ارتقت فى السمو والعلو لأنه لا أعلى منها، حتى أصبحت إذا أطلقت إطلاق الكمال الأعلى لا تنصرف إلا لله. فصارت أسماء.

قد نقول فلان غنى، وفلان كريم، وفلان حكيم، لكن الغنى على إطلاقه هو لله تعالى.

والأسماء الحسنى ناشئة من صفات مبالغة فى العلو فيها، لأنه سبحانه الأكمل فيها وهى فى الأصل صفات لها متعلقات فعلية، وهذه نوعان اثنان : نوع يطلق على الله منها اسم ومقابله، ونوع يطلق عليه الاسم ولا يطلق عليه المقابل، ونأتى بصفة شبيهة بالاشتقاق، فنقول : « غنى »، ونقول : « مغنى » فهو غنى فى صفة ذاته قبل أن يوجد من يُغنيه، ومغنى وجدت بعد وجود من يُغنيه من عباده، وسبحانه حى فى ذاته، ومحيى لغيره، والإحياء صفة فعل فى الغير. ولابد لها من مقابل، فنقول : محيى ومميت. ولم نقل حى ومقابله، إذن فالاسم الذى ترى له مقابلاً هو صفات الفعل، أما صفات الذات فهى التى لا يوجد لها المقابل. ويلحدون فى أسماء الله أى يُميلونها إلى غير الله وينقلها الواحد منهم لغير الله أو يأتى باسم للغير ويطلقه على الله، أو يطلق اسماً ليس له معنى أو لا يُفهَم منه أى معنىً على الله. إذن "الإلحاد" يأتى فى ثلاثة أشياء : إما أن ينقل أحد أسماء الله إلى غير الله، أو يأتى باسم للغير ويطلقه على الله، أو يطلق اسماً لله من غير أن يكون قد أنزله الله توقيفياً.

﴿ وذروا الذين يلحدون فى أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون ﴾

ونعلم أن " العمل " هو اسم للحدث من أى جارحة ؛ فنطق اللسان عمل، وشم الأنف عمل، ونعلم أن هناك مايسمى بـ[قول وفعل]، والفعل عمل الجوارح ما عدا اللسان؛ والقول عمل اللسان، والاثنان يطلق عليهما عمل، ولذلك يقول الحق : تبارك وتعالى فى سورة الصف :

﴿ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾

إذن فالقول مقابله الفعل، والجزاء هنا على الفعل والقول لأن كليهما عمل.

وإذا كان لله أسماءٌ كثيرةٌ، فهل يجوز لنا أن نأخذ من فعل الله فى شىء اسماً له ؟ وخصوصاً انه القائل :

﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾

(من الآية ٣١ سورة البقرة)

وهو القائل أيضاً :

﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ﴾

(من الآية ١١٣ سورة النساء)

هل يمكن أن نقول : إن الله معلم ؟ وهل يصح أن نأخذ من قوله :

﴿ وأكيد كيداً ﴾

(سورة الطارق)

اسماً هو كائد ؟

لا يجوز ذلك لأن أسماء الله توقيفية ، وإن رأيت فعلاً منسوباً لله فقف عند الفعل فقط ولا تأخذ منه اسماً لله تعالى .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ ﴾

وبعد أن قال سبحانه : " ولقد ذر أنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس " أراد أن يطمئن أهل منهج الله ، فلم يقل : " كل الناس " ، بل كثير من الجن والإنس " ، وعرفنا المقابل يكون كثيراً أيضاً بدليل قوله تعالى فى سورة الحج : ﴿ وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب ﴾ أى كثير من الناس يسجدون لله وكثير حق عليهم العذاب .

ويعنى قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

أن كون الله لايخلو من هداة مهديين ، لتستمر الأسوة السلوكية فى المجتمع .

والأسوة السلوكية فى المجتمع هى التى تربى عقائد المواجيد عند الصغار ، فالصغير لا يعرف كيف يصلى ، ولا كيف يصوم ، ولا يميز بين الكذب والصدق ولكنَّه يتعلم بالتقليد لوالديه ، فالطفل حين يرى والده وأمه ساعة يَؤَذَّنُ للصلاة يقوم كل منهما إلى الوضوء وأداء الصلاة ، هنا يتعلم الطفل كيفية الصلاة ، وحين يتكلم إنسان فى سيرة آخر ، يقول الأب أو الأم : لا داعى للخوض فى سيرة الآخرين حتى لا نحبط حسناتنا ؛ بذلك يتعلم الطفل كيف يصون لسانه عن الخوض فى سيرة الغير ، لأن الأسوة السلوكية تنضح عليه ، بدليل أن الصغير الذى لم يبلغ مبلغ الفهم إذا سمع المؤذن بعد ذلك يقوم من نفسه ليُحضر سجادة الصلاة ويقلد والده ووالدته.

ونفهم من قوله تعالى : ﴿ وبه يعدلون ﴾

إنهم فى حكمهم على الأشياء يقيمون العدل بالحق ، أو أن يكون العدل هو نفى الشرك ، وقد يكون العدل فى مسألة الكبائر ، أو يقيمون العدل فى مسألة الحقوق بين الناس.

﴿ وممن خلقنا أمة ﴾

وقوله فى الآية الكريمة : " أمة " يعنى أن صفات الكمال المنهجية أكثر من أن يحيط بها واحد لينفذها كلها ، فكل واحد له جزء يقوم به ، فهناك من يتميز بالصدق ، وآخر فى الشجاعة ، وثالث فى الكرم ، وهكذا تبقى الأسوة فى مجموع الصفات الحسنة ، وقد ميز الله سيدنا إبراهيم - على نبينا وعليه السلام- فقال :

﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾

(سورة النحل)

أى أنه جامع لخصال الخير التى لا توجد إلا فى مجتمع واسع ،

﴿ وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون ﴾

وأى أمة من أمم الأرض - إذن - هى التى تهدى بالحق ؟ لقد قال سبحانه فى قوم موسى!

﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ ﴾

(من الآية ١٥٩ سورة الأعراف)

ثم جاءت أمة محمد صلى الله عليه وسلم ولا رسول بعده، لذلك تظل هذه الأمة المسلمة مأمونة على صيانة منهج الله إلى قيام الساعة.

فإذا رأيت إلحاداً انتشر فاعلم أن لله مدداً ، وكلما زاد الناس فى الإلحاد، زاد الله فى المدد، وحتى إن صارت بلد مسلمة غارقة فى الفسق فقد يكون فيها واحد يجمع كل هذه الصفات الكريمة الهادية إلى الحق لتبقى شريعة الله مصونة بالسلوكيين التابعين لمنهج الله.

إذن فالحق سبحانه وتعالى ترك للفساد أن يصنع الشر ، ولسائل أن يسأل : ما لزوم هذا الشر فى كون خلقه الله على هيئة محكمة ؟ نقول! لولا أن الناس يضارون بالشر ؛ لما تنبهوا إلى حلاوة الخير، ولو أن الإنسان لم يصب من أصحاب الباطل بسوء؛ ما تحمس للحق أحدٌ، ولا عرف الناسُ ضرورة أن يتأصل الحق فى الوجود ، فللشر - إذن - رسالته فى الوجود . وهو أن يهيج إلى الخير ، فكما ذرأ الله لجهنم كثيراً من الجن والإنس؛ أوضح سبحانه وتعالى فى قوله : « وَمِمَّنْ خلقنا أمة يهدون بالحق ، وبه يعدلون » فى الحكم، عدلاً فى القمة؛ وهو ألا يشركوا بالله شيئاً ، لأن أول مخالفة لقضية العدل هى مخالفة الشرك وهو ظلم عظيم، فالشرك والعياذ بالله ينقل الأمر من مستحقه إلى غير مستحقه، وكذلك تحريم ما أحل الله ، أو حل ما حرم الله، وكل ذلك ظلم، وكذلك عدم حفظ التوازن فى الحقوق بين الناس، فإن لم يحصن العدل بحفظ الحقوق بين الناس من حاكم وولى ومسلط؛ سنجد كل إنسان وهو يضن بجهده فى الحياة يكتفى بأن يصنع على قدر حاجته بحيث لا يترك للظالم أن يأخذ منه شيئاً، فلا يتحرك فى الحياة إلا حركة محدودة، ولا يعمل إلا بقدر ما يكفيه فقط، فإذا ما حدث ذلك؛ فلن يجد الضعاف الذين لا يقدرون على الحركة الإنتاجية أى فائض ليعيشوا به.

إذن أراد الله أن يضمن بالعدل عَرَق وتعب كل واحد. فأوضح له أن ما تكسبه من حل هو ملك لك. لكنْ لله حق فيه، وأنت لك الباقى، حتى يجد الضعيف الذى لا يقدر على حركة الحياة من يقيته. ولذلك يحذرك المنهج الإيمانى بقوله: إياك أن تستكثر أن تدفع للضعيف، لأن قُوَّتَك التى استعملتها فى تحصيل هذا المال إنما هى عرض لا يدوم لك، فإن أخذنا منك وأنت قوىٌّ قادر على الحركة، سنأخذ لك حينما تكون عاجزاً لا تقدر على الحركة، وذلك هو التأمين والعدالة.

وبالنسبة للأمة فى تلك الآية ﴿ وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون﴾

فقد جاء فى الآثار أن المراد بالأمة فى هذه الآية الأمة المحمدية، قال قتادة: بلغنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول: إذا قرأ هذه الآية: هذه لكم وقد أعطى القوم بين أيديكم مثلها«ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون»(١)

ويخاطب النبى صلى الله عليه وسلم صحابته بقوله: هذه لكم، أى فى أمتكم ويؤكد ذلك قول الله سبحانه وتعالى:

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾

(من الآية ١١٠ سورة آل عمران)

وكلمة "للناس" هنا تفيد أن الله لم يجعل خيرية الأمة المحمدية وهى أمة الإجابة للمؤمنين فقط، بل جعل خيريتها للناس جميعاً؛ مؤمنهم وكافرهم.

﴿ وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون ﴾

وذكر " أمة " لأن خصال الخير لا يمكن أن تجتمع فى إنسان واحد، بل كل واحد يأخذ لمسة من خير، هذا فيه ذكاء، وذاك فيه شجاعة، وذاك عنده مال، وذلك له خلق. فكأن الأمة المحمدية قد وجد فى أفرادها ما يجمع المواهب

(١) تفسير ابن كثير المجلد الثانى، والطبرى المجلد السادس.

الصالحة للخلافة فى الأرض.

ويأتى الحق بعد ذلك بمقابلهم، لأن مجىء الشىء بمقابله أدعى إلى أن يتمكن من النفس فيقول سبحانه :

﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

وهؤلاء هم المقابلون للذين خلقهم الله أمة يهدون بالحق وبه يعدلون، والآيات جمع آية، وقلنا : إن الآيات التى فى الكون ثلاث ؛ آيات تنظرها لتهتدى بها إلى من صنع ذلك الكون المترامى الأطراف بتلك الدقة العظيمة، وذلك الإحْكام المتقن، آيات تلفتك مثل الليل والنهار والشمس والقمر، وكذلك آيَات تخرق ناموس الكون لتثبت صدق الرسول بالبلاغ عن الله، وآيات قرآنية تحمل منهج الله. والذين كذبوا بآيات الله الكونية ولم يعتبروا بها، ولم يستنبطوا منها وجود إله قوى قادر حكيم، وكذبوا الآيات المعجزات لصدق النبوة. وكذلك كذبوا آيات القرآن فلم يعملوا بها، ولم يتمسكوا بها ؛ هؤلاء يلقون الحكم من الله فلن يدخلهم الحق النار فقط، بل لهم عذاب أقرب من ذلك فى الدنيا، لأن المسألة لو أجلت كلها للآخرة لاستشرى بغى الظالم الذى لا يؤمن بالحياة الآخرة، لكن من يؤمن بالآخرة هو من سيحيا بأدب الإيمان فى الكون، وتكون حركته جميلة متوافقة مع المنهج. عكس من يعربد فى الكون؛ لذلك لابد أن يأتى العقاب لمن يعربد فى الكون أثناء الحياة الدنيا، وسبحانه وتعالى القائل :

﴿ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ ﴾

(من الآية ٤٧ سورة الطور)

أى أن لهم عذاباً قبل الآخرة.

ويقول الحق بعد ذلك عن العذاب فى الدنيا :

﴿ والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ﴾

وحين تقول : أنا استدرجت فلانا، فأنت تعنى أنك أخذت تحتال عليه حتى يقر بما فعل ، مثل وكيل النيابة حين يحقق مع المجرم، ويحاصره بالأسئلة من هنا، ومن هناك ، إلى أن يقر ويعترف، وهذا هو الاستدراج. و "الاستدراج" من الدرج ونسميه فى لغتنا اليومية "السلَّم" وهو وسيلة للانتقال من أسفل إلى أعلى ومن أعلى إلى أسفل فمن المستحيل على الإنسان أن يقفز بخطوة واحدة إلى الدور الخامس مثلا فى عمارة ما ، ولذلك صمموا الصعود على درجات إلى مستويات متعددة على وفق الحركة العادية للنفس، وهناك من يجعل علو الدرجة مثلاً اثنى عشر سنتيمتراً بحيث يستطيع كل إنسان أن يرفع قدمه ويضعها على الدرج دون إرهاق النفس، وهذا يعنى أننا نستدرج العلو لنصل إليه أو ننزل منه.

وقد خصوا فى الآخرة الجنة بالدرجات العليا، والنار بالدركات السفلى.

وهنا يقول الحق :

﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

أى نأخذهم درجة درجة ، ونعطى لهم نعمة ثم نرهقهم بما وصلوا إليه، كما قال سبحانه من قبل :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً ﴾

(من الآية ٤٤ سورة الأنعام)

لأن الله حين يريد أن يعاقب واحداً على قدر جرمه فى حق أخيه الإنسان فى الدنيا يأخذه من أول جرم؛ لأن الأخذة فى هذه الحالة ستكون لينة ، لكنه يملى له ويعليه ثم يلقيه من عَلُ.

﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً ﴾

(من الآية ٤٤ سورة الأنعام)

وهكذا يكونُ الآخذُ أخذ عزيز مقتدر.

وحين يَستدرجُ البشرُ، فإن الطرف المستدرج له أيضا ذكاء، ويعرف أن هذا نوع من الكيد وفخ منصوب له ، لكنْ حين يكون ربنا القوى العزيز هو الذى يستدرج فلن يعرف أحد كيف يفلتَ. والعلة فى قوله : "سنستدرجهم" هى قوله : ﴿من حيث لا يعلمون﴾ ؛ لأن البشر يعلمون طرق استدراج بعضهم لبعض.

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ ﴾

والإملاء هو الإمهال وهو التأخير، أى أنه لا يأخذهم مرة واحدة، فساعة يقوم الفاسد بالكثير من الشر فى المجتمع ، نجد أهل الخير وهم يزيدون من فعل الخيرات، ونسمع دائماً من يقول : لو لم يكن هناك إيمان لأكل الناسُ بعضهم بعضاً، فالإيمان يُعطى الأسوة واليقين. والإملاء للظالم الكافر ليس إهمالاً له من المولى تعالى، بلَ هو إمهال فقط، ثم يأخذه الله أخذ عزيز مقتدر، وهنا يوضح الحق: إذا كنت سأستدرج وسأملى فاعلم أن كيدى متين. والكيد هو المكر ، والمكر أخذهم من حيث لايشعرون وهو عملية خفية تسوء الممكور به.

وهو تدبير خفى حتى لا يملك الممكور به ملكات الدفع . وإذا كان البشر يمكرون ويدبرون تدبيراً يخفى على بعضهم، فماذا حين يدبر الله للكافرين مكيدة أو مكراً ؛ أيستطيع واحد أن يكشف من ذلك شيئاً ؟. طبعاً لن يستطيع أحد ذلك . هذا هو معنى ﴿ إن كيدى متين ﴾ ؛ ومتين أى قوى، والمتانة مأخوذة من المتن وهو الظهر، ونعرف أن الظهر مُكوَّنٌ من عمود فقرى وفقرات عظمية، تحيط بها عضلات. فلو كان العمود الفقرى من عظم فقط لكان

أى حمل عليه يكسره. فشاءت تجليات رُبنا عزوجل واقتضت رحمتُه وقدرتُه أن يحاط هذا العظام بعضلتين كبيرتين، وهما مانسميه فى عرف الجزارين "الفلتو" لحماية الظهر وتقويته ووقايته.

وإذا نظرنا إلى كلمة "متين"، نجد "المتن" هو الشىء العمودى فى الأشياء، وفى العلم مثلاً ندرس الفقة وندرس النحو، ويقال: هذا هو المتن فى الفقه، أى الكلام الموجز الذى يختزل العلم فى كلمات محددة، والذكى هو من يستوعبه. وغالباً نجد مع المتن الموجز شرحاً للمتن، ثم حاشية للمتن.

ويقول الحق بعد ذلك:

﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ ﴾

وهنا يُنَبِّه الحقُّ سبحانه وتعالى كلَّ الخلق أن يتفكروا فى أمر الرسول المبلغ الذى ينقلُ عن القوة العليا مرادَها من الخلق. وأول ما يستحق التفكير فيه أن نعرف هل هذا الإنسان الذى يقول إنه رسول صادق أو غير صادق؟ ولقد ثبت صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم من قبل نزول الرسالة عليه، وجاءت الرسالة لتأخذ بيد الخلق إلى الإيمان بالله. لكنهم لا يريدون أن يسمعوا، ليوجدوا لأنفسهم مبررات بالنكوص عن المنهج، فقال بعضهم اتهاما للرسول: إنه مجنون، مثلما قال بعضهم من قبل: إنه ساحر، وكاهن، وقالوا: شاعر، ويرد ربنا على كل تلك الأقاويل.

ونتساءل: من هو المجنون؟.

نعلم أن المجنون هو من فقد التوازن الفكرى فى الاختيار بين البدائل، وحين يأخذ الله منه هذه القدرة على التوازن الفكرى، يصبح غير أهل للتكليف؛ لأن التكليف فيه اختيار أن تفعل كذا أو لا تفعل كذا، والمجنون لا يملك القدرة على هذا الترجيح.

والحق سبحانه وتعالى لم يكلف الإنسان إلا حين يبلغ ويعقل؛ لأنه حين يبلغ تصير له ذاتية مستقلة عن أهله وعن أبيه وأمه؛ لذلك نلاحظ الطفل وهو صغير يختار له والدُه أو والدتُه الملابس والطعام، وبعد أن يكبر نجد الطفل قد صار مراهقاً يتمرد ويقرر أن يختار لنفسه مايريده لأنه قد صارت له ذاتية، والذاتية - كما نعلم - توجد فى النبات وفى الحيوان والإنسان وذلك بمجرد أن يصير الفرد منها قادراً على إنجاب مثله، سواء كان هذا الفرد من النبات أو الحيوان أو الإنسان. أما إن كان الإنسان قد صارت له ذاتية فى الإنجاب والنسل، وليست له ذاتية ناجحة عاقلة فى التفكير؛ فهنا يسقط عنه التكليف؛ لأنه مكره بفقدان العقل.

وهكذا نعرف أن التكليف يسقط عن الذى لم يَبْلغ، والمجنون والمكره بمن هو أقوى منه، وهذه عدالة الجزاء من الحق، وهكذا نجد أن التكليف لا يلزم إلا من بلغ جسمه ونضج عقله، وبهذا يحرس ربُّنا الكون بقَيُّوميَّته.

وإذا كان المجنون هو فاقد الميزان العقلى الذى يختار بين البديلات، فكيف يقولون ذلك على سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام وهو قد عاش بينهم، ولم يكن قط فاقداً لميزان الاختيار بين البديلات، بل كانوا يعتبرونه الصادق الأمين، وكانوا يحفظون عنده كل غالٍ نفيس لهم حتى وهم كافرون به. وخلقه الفاضل ذاتى مستمر ودائم.

لقد قالوا ذلك على محمد ظلماً له، وبغَوْغَائيَّة، وكل واحد يلقى اتهاماً ليس له من الواقع نصيب؛ لذلك قال الحقَ تبارك وتعالى لأصحاب هذه الاتهامات:

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ﴾

(من الآية ٤٦ سورة سبأ)

أى أن يجلس كل اثنين ويتدارسا: هل محمد عاقل أم مجنون؟ وسيجد كل منهما من واقع تجربته أنَّ محمداً هو أكثر الناس أمانة، وكان الجميع يسمونه

الأمين ، حتى قبل أن يتصل به الوحى ، وليس من المعقول أن يضره الوحى ، أو أن يفقد بالوحى توازنه الخلقى ، لذلك قال الحق سبحانه وتعالى :

﴿ نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤ ﴾

(سورة القلم)

كان خُلُق رسول الله صلى الله عليه وسلم خُلُقاً عظيماً ؛ لأن الخلُق هو الصفات التى تؤهل الإنسان لأن يعيش فى مجتمع سليم وهو مسالم . ومادام خُلُقه سليماً ، فمعيار الحكم عنده سليم .

وبعد ذلك قالوا عنه : إنه " ساحر " ، ونقول لهؤلاء : لماذا إذن لم يسحر كبار رجال قريش ليؤمنوا برسالته ؟ إن كل ذلك جدل خائب ، والمسألة ليس فيها سحر على الإطلاق .

﴿ أو لم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة إن هو إلاَّ نذير مبين ﴾

الجنَّة التى تقولون عليها وتفترون بها على رسول الله صلى الله عليه وسلم - هى منتهى العقل ومنتهى الخلق ، فمحمد صلى الله عليه وسلم نذير واضح ، جاءكم أولاً بالبشارة ، لكنكم فى غيكم لا تستحقون البشارة ، بل تستحقون الإنذار .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ۝١٨٥ ﴾

وبذلك ينتقل الجدل من الرسول المباشر لهم الذى يأخذ بيدهم إلى الإيمان الأعلى ، ينتقل الجدل إلى التفكر ومسئوليته :

﴿ أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض ﴾

والتفكر هو إعمال العقل حتى لا يقولَنَّ أحد : إن رسول الله مجنون، لأن مجرد النظر فى الكون يجعل الإنسان رائيا للسماء مرفوعة بلا عمد، والأرض مبسوطة والهواء يتحرك فى انتظام دقيق.

﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾

إذن فوقَنا سماء، وهناك ما فوق السماء، وتحتنا الأرض، وفيها ما تحت الأرض، وهناك ما بين السموات والأرض. وما نراه فى الظاهر هو ما يسمونه « مُلْك » أما الخفى عنك الذى لا تقدر أن تصل إليه بمعادلات تستخرج منها النتائج فاسمه « ملكوت ».

ويقول سبحانه فى سيدنا إبراهيم :

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾

(من الآية ٧٥ سورة الأنعام)

فكلمة « ملكوت » معناها مبالغة فى الملك، مثل رهبوت أى الرهبة الشديدة، ورحموت أى الرحمة الشديدة، وكلها صيغة « فعلوت » وهى صيغة المبالغة.

﴿ أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شئ ﴾

ونحن نرى السماء والأرض بوضوح، ولكن العظمة والسر ليسا فى السماء والأرض فقط، بل هناك أشياء دقيقة جداً، بلغت من اللطف أنها لا تدرك بالنظر، ومع ذلك فإن فيها الحكمة العليا للخلق. وأنت قد ترى ساعة « بيج بن» الشهيرة فى لندن وتكاد أن تكون أضخم ساعة فى العالم، لكن الصانع المحترف من البشر صنع ساعة يد صغيرة فى حجم الخاتم، وننبهر ونعجب بدقة عمله وصنعته. فما بالنا بالخالق الأعظم الذى يعظم خلقه من السموات والأرض لأنها فوق إدراكات البشر، وخلق أيضاً مخلوقات دقيقة لطيفة

لا تستطيع أن تدركها أنت بمجرد النظر، كالميكروب، أو تدركها بصعوبة كالذبابة والبعوضة وبكل هذه الكائنات كل مقومات حياتها، حتى الكائن الذى لا معدة له يجهزه خالقه بقدرة على امتصاص الدماء مباشرة بعقله أو غريزته ويسعى ليأكل ويملأ معدته وله أجهزة تحول غذاءه ليكون دماً.

إذن فليست العظمة مقصورة على خلق السموات والأرض فقط، لذلك يقول الحق:

﴿وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾

أى من أول شىء يقال له شىء، صار محكوماً عليه وجودياً، بأنك إن نظرت إليه ستجد الأجهزة التى تعطى له الحياة، وتعينه، حتى وإن كانت حواس استشعارية فى ذات هذا الكائن، ولا يقوى عليها صاحب العقل. مثال ذلك: نجد أن ما يفر قبل حدوث الزلازل هو الحمير التى نتهمها بالغباء.

وحين يتأمل العقل ما وصل اليه العلم فى البحث فى عالم الحيوان وعالم البحار، سنجد الإيمان بضرورة وجود خالق حكيم. وإن كان الكافرون مصروفين عن النظر فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من كائنات قد لا تراها العين المجردة، كان عليهم أن يراعوا مصلحتهم فعسى أن يكون قد اقترب أجلهم.

إننا نعلم أن الإنسان جنس، وأن له نوعين: نوع ذكورة، ونوع أنوثة، وبينهما جنس مشتبه نسميه الخنثى، والأجناس لها أفراد متعددة. وكل واحد له خلق، وكل واحد له موهبة، وكل واحد له مهمة. وساعة يطلب منا الحق: إياك أن تستصغر شيئاً منك ضد غيرك، وإياك أن تستكثر شيئاً منك لغيرك، ويجب عليك أن تجعل كلمة «شىء» هذه هى المقياس، ولذلك يقول لك الشرع: إنك حين تقدم حسنة إياك أن تستكثرها، بل قل هى ليست بشىء ذى بال. وإن همّ واحد بعمل سيئة فلا يقل: وماذا ستفعل لى سيئة واحدة؟

مستصغراً شأن هذه السيئة. وهذا نقول له: لا، لأن كلمة «شيء» يجب أن تحكم الكون. إنك إن نظرت لهذه المسألة قد تجد واحداً مثلاً ضئيل التكوين، ولا بسطة له فى جسمه، لكن من الجائز أن له موهبة كبيرة، وقد تجد إنساناً آخر متين التكوين وليست عنده أية موهبة؛ لأن الله قد يعطى الضئيل فكرا عميقاً، أو حيلة كبيرة، أو موهبة خاصة فى أى شيء. فلا تنظر إلى شيء قليل فى أى إنسان، بل انظر إلى الشيء الجميل الذى فيه وهو المخفى عنك فى نفسك.

﴿ وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم فبأى حديث بعده يؤمنون ﴾

ولماذا تأتى هنا حكاية اقتراب الأجل؟ وللإجابة عن التساؤل أقول: إنها هامة جداً؛ لأننا مادمنا أفراداً أى جنسين أو ثلاثة أجناس، وقال عنا ربنا إننا خلفاء فى الأرض، فعلينا أن نعلم أن الخليفة فى الأرض جاء ليخلف من سبقوه، وقد يُميت ربنا أى إنسان فى سن شهر أو سنة، أو سنتين أو خمسين عاماً؛ لأن العمر بالنسبة لكل إنسان هو أمر قد اختص به الحق - تبارك وتعالى- نفسه ولا يعلمه أحد؛ لأن غاية المتساوى لابد أن تكون متساوية، وعلى سبيل المثال: إن سألنا طلبة كلية الحقوق عن غايتهم من دراسة الحقوق قالوا: لنيل إجازة الليسانس، وسنجد منهم الطويل، والقصير، والأبيض، والأسود، والذكى والغبى، والقوى والضعيف، وهم لا يتفقون إلا على دراسة الحقوق، وكذلك لا نتساوى جميعاً كبشر إلا أمام الموت، فهناك من يموت وهو فى بطن أمه، ومن يموت وهو طفل، ومن يموت وهو فتى. وإن كنا نختلف فيما بقى بعد ذلك، والمؤمن أو الكافر يرى هذه الأحداث أمامه ولا يستطيع أن يقول: لا لن أموت.

ومادمت ستموت فانظر إلى مصلحتك أنت، لتثاب على ما فعلت فى الدنيا بدلاً من أن تعاقب، فعسى أن يكون قد اقترب أجلك وأنت لا تعرف متى يجىء الأجل، وإبهام الأجل من الله لنا إشاعة للأجل، والإبهام هو أوضح أنواع البيان، فحين يريد ربنا أن يوضح أمراً توضيحاً كاملاً فهو يبهمه.

ومثال ذلك: لو جعل الله للموت سنّاً، لصار الأمر محدداً بلا أمل. لكنه

سبحانه لم يجعل للموت سنّاً أو سبباً، وأشاعة فى كل زمن، والإنسان عرضة لأن يستقبل الموت فى أى لحظة، ونزول الموت لا يتوقف على سبب، فقد يأتى بسبب وقد يأتى بغير سبب، ومادام الإنسان يستقبل الموت فى أى وقت، فعلى العاصى ألا يستقبل الموت وهو على عصيانٍ لله.

وإياك أن تقول: كيف مات فلان وهو غير مريض ؟؛ لأن هناك العديد من الأسباب للموت، واعلم أن الموت بدون أسباب هو السبب، فالإنسان الذى نفقده بالموت، مات لأن أجله قد انتهى، والحق هنا يوضح: أيها الكافرون ألا تعلمون أن منكم من مات وعمره سنة ومن مات وعمره سنتان، ومن مات وعمره ثلاث سنوات، ومن مات وهو ظالم، ومن مات وهو مظلوم، ولو لم تكن هناك حياة ثانية فماذا تساوى هذه الحياة ؟. وما ذنب الذى لم يعش فى الدنيا إلا شهرا ؟ لابد إذن أن تعرفوا أن هناك غاية ثانية تنتظركم، غايات فردية هى آجال الناس بذواتهم، وآجال إجماعية تتمثل فى يوم القيامة.

وفى قوله تعالى ﴿ فبأى حديث بعده يؤمنون ﴾

يوضح الحق تبارك وتعالى: أنه إذا كان هذا الحديث الذى أنزلته إليهم وفيه ما فيه من الإعجاز ومن الإبداع، ويجمع كل أنواع الكمالات، فماذا يريدون أكثر من ذلك ؟

وهل فى اتباعهم للأهواء ولتقنينات بعضهم لبعض سعادة لهم ؟ بالعكس إنهم يشقون بذلك. وكان يجب عليهم أن يتأدبوا مع الله ومع الرسول.

ولذلك يقول سبحانه وتعالى:

﴿ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾

وقد كرر الحق هذا التحذير كثيراً؛ لأن الأشياء التى قد يقف العقل فيها، أو تأخذه مذاهب الحياة منها، ويكررها الله، ليجعلها فى بؤرة الاهتمام دائماً، لعل هذا التكرار يصادف وعياً من السامع. وانظر إلى الحق وهو يعدد نعمه فى سورة الرحمن فيقول بعد كل نعمة:

﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾

إنه يكرر ذكر النعم ليستقر الأمر فى ذهن السامع.

﴿ من يضلل الله فلا هادى له ﴾

وسبحانه لا يرغم واحداً على أن يهتدى، فإن اهتدى فلنفسه، وإن لم يهتد فليشرب مرارة الضلال.

وكلنا يعرف أن الطبيب يكتب أسلوب العلاج للمريض، ليتم الشفاء بإذن من الله، الدواء إذن وسيلة إلى العافية، فإن رفض المريض تناول الدواء فهل فى ذلك إساءة للطبيب؟ لا. وكذلك منهج الله.

﴿ من يضلل الله فلا هادى له ﴾

لكن هل يريد الله الضلال لأحد، لا، بل سبحانه دعا الناس جميعاً بهداية الدلالة، فمن اهتدى زاده بهداية المعونة، ومن ضل فليذهب إلى الكفر كما شاء. ولذلك يقول لنا الشرع: إياك أن تشرك بالله شيئاً فى أى عمل؛ لأن ربنا يقول لنا فى الحديث القدسى الذى يرويه لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ربه فيقول: قال الله تبارك وتعالى: ﴿ أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك فيه غيرى تركته وشركه ﴾ (١)

ومعنى الشركة فى عرف البشر، أن مجموعة من الناس عرفوا أن عمل كل منهم ومال كل منهم، وموهبة كل منهم، لا تكفى لإقامة مشروع ما، لذلك يكونون شركة لإنتاج معين، فهل هناك ما ينقص ربنا ليستكمله من آخر؟ حاشا

(١) أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه فى باب تحريم الرياء.

لله . بل إن مجرد توهم العبد بأن هناك شريكا يجعل الله رافضاً لعبادة العبد المشرك . لذلك يقول فى الحديث القدسى : «أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك فيه غيرى تركته وشركه» . ومادام ربنا قد تنازل عن رعايته له فليتلق المتاعب من حيث لا يدرى .

ومن قوله تعالى :

﴿ من يضلل الله فلا هادى له ﴾

نتبين أنه حين يحكم الله بضلال إنسان أو بهداية آخر فلن يستطيع البشر أن يعدِّل على الله ، ليجعل شيئاً من ضلال هو هدى ، أو شيئاً من هدى هو ضلال .

كما يتضح من تلك الآية الكريمة أن من فى قلوبهم مرض يزيدهم الله مرضاً ويتركهم فى طغيانهم يعمهون ، والعمه هو فقدان القلب للبصيرة ، والعمى هو فقدان العين للبصر .

ويقول الحق - تبارك وتعالى - بعد ذلك :

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ ﴾

والمسئول هو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والسائل إما هم اليهود الذين سألوه عن الساعة ، وعن الروح ، وعن ذى القرنين ، فكان الجواب منه مطابقاً لما عندهم فى التوراة لأنهم ظنوا أن الكلام الذى يقوله محمد إنما يأتى منه جزافاً

بدون ضابط وليس من رب يُنْزِلُه. فلما أجاب بما عندهم فى التوراة، علموا أنه لا يقول الكلام من عنده، ولذلك سألوه أيضاً عن أهل الكهف وما حدث لهم، وكانوا جماعة فى الزمن الماضى، واتفقوا معه على كل شىء حدث لأهل الكهف إلا على الزمن فنزل القرآن يحدد هذا الزمن بقوله سبحانه:

﴿ وَلَبِثُواْ فِي كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا ﴿٢٥﴾ ﴾

(سورة الكهف)

فقال اليهود: الثلاثمائة سنة نعرفها، أما التسعة فلا نعرفها، وما علموا أن الحق سبحانه وتعالى يؤرخ لتاريخ الكون بأدق حسابات الكون لأن ربنا هو القائل:

﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ٣٦ سورة التوبة)

إذن التوقيتات كلها حسب التوقيت العربى، ونعلم أن الذين يريدون أن يحكموا التاريخ حكماً دقيقاً فهم يؤرخون له بالهلال، والمثال أن كل عَالَم البحار تكون الحسابات المائية فيها كلها بالهلال، لأنه أدق، وأيضاً فالهلال آية تعلمنا متى يبدأ الشهر، ولا نعرف من الشمس متى يبدأ الشهر؛ لأن الشمس دلالة يومية تدل على النهار والليل، بينما القمر دلالة شهرية، ومجموع الاثنى عشر هو الدلالة السنوية. لكنهم لم يفطنوا إلى هذه، وأخذوها على الثلاثمائة سنة بالحساب الشمسى، وأضاف الحق: ﴿. وازدادوا تسعا ﴾ لأنك إن حسبت الثلاثمائة سنة الشمسية بحساب السنة القمرية تزداد تسع سنين.

ومادة السؤال فى القرآن ظاهرة صحية فى الإيمان؛ لأن الإيمان إنما جاء ليحكم حركة الحياة بـ« افعل » و « لا تفعل »، وساعة يقول الشرع: افعل، ففى ظاهر هذا الفعل مشقة، وساعة يقول: لا تفعل ففى ظاهر هذا الطلب أنه سهل ومرغوب، والمنع عنه يناقض شهوات النفس. وللتأكد من أن الأسئلة ظاهرة صحية من المؤمنين نجد أسئلة كثيرة موجهة لرسول الله من أمته، حكاها القرآن بصور متعددة، ورد السؤال مرة بفعل مضارع مثل قوله: « ويسألونك»؛ ومرة

ورد بصورة فعل ماض « وإذا سألك » . وكثيراً ما جاء السؤال بهيئة المضارع « يسألونك »، لأن المضارع يكون للحال وللاستقبال .

وجاءت الأسئلة بالقرآن فى صيغة المضارع خمس عشرة مرة، وجاءت بصيغة الماضى مرة واحدة . وإن نظرت إلى الخمس عشرة مرة تجد كل مرة منها جاءت لتبين حكماً . وإذا نظرنا إلى مادة الفعل « يسأل » فى القرآن وبترتيب المصحف، نجد القرآن يقول :

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ ﴾

(من الآية ١٨٩ سورة البقرة)

ويقول سبحانه :

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ﴾

(من الآية ٢١٥ سورة البقرة)

ويقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ﴾

(من الآية ٢١٧ سورة البقرة)

ويقول سبحانه وتعالى :

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ ﴾

(من الآية ٢١٩ سورة البقرة)

ومرة أخرى يقول فى ذات الآية السابقة :

﴿ ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو ﴾

ويقول سبحانه وتعالى :

﴿ ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير﴾

(من الآية ٢٢٠ سورة البقرة)

ويقول عز وجل :

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ﴾

(من الآية ٢٢٢ سورة البقرة)

ويقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ﴾

وبعد ذلك فى سورة الأعراف يقول :

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ﴾

(من الآية ١٨٧ سورة الأعراف)

وأيضاً يقول سبحانه :

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ﴾ (من الآية ١٨٧ سورة الأعراف)

ثم يقول الحق :

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾ (من الآية ١ سورة الأنفال)

ويقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ (من الآية ٨٥ سورة الإسراء)

ويقول المولى سبحانه :

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ ﴾

(سورة الكهف)

ويقول الحق :

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ ﴾

(سورة طه)

و يختم هذه الأسئلة بقوله :

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ ﴾

(سورة النازعات)

تلك هى خمس عشرة آية جاء فيها الحق بقوله « يسألونك »، وآية واحدة يقول فيها الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾

(من الآية ١٨٦ سورة البقرة)

والآيات الخمس عشرة التى جاء فيها الحق بصيغة المضارع « يسألونك » نجد كل جواب فيها مُصدرا بـ « قل » وهو أمر للرسول : قل كذا، قل كذا، ولكن فى الآية الواحدة التى جاء فيها بصيغة الفعل الماضى و « إذا سألك »، لم يقل : فقل إنى قريب، بل قال : « فإنى قريب أجيب دعوة الداع »، لأن الله يعلم حب محمد لأمته، وحرصه عليهم ولذلك يقول :

﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ ﴾

(سورة الشعراء)

ويقول سبحانه :

﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ ﴾

(سورة الكهف)

ولذلك حين علم الحق علم وقوع : أن رسول الله مهتم بأمر أمته ومشغول بها وحريص على أن يشملها الله بمغفرته ورحمته وألا يسوؤه فيها ، أخبره المولى عز وجل بأنه سوف يرضيه فى أمته . وقد ورد فى الحديث ما يؤيد ذلك ، فقد روى عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم تلا قول الله عز وجل فى إبراهيم صلى الله عليه وسلم ﴿ ربِّ إنهنَّ أضللن كثيرا من الناس فمن تبعنى فإنه منى ومن عصانى فإنك غفور رحيم ﴾

وقول عيسى صلى الله عليه وسلم : ﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفرلهم فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾ (فرفع يديه فقال : أمتى أمتى وبكى فقال الله عز وجل : ياجبريل اذهب إلى محمد وربك أعلم فَسَلْهُ ما يبكيه ؟ فأتاه جبريل فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قال وهو أعلم ، فقال الله تعالى : ياجبريل اذهب إلى محمد فقل إنا سنرضيك فى أمتك ولا نسوؤك) (١)

وتأكيداً لعلم الحق تبارك وتعالى من حرص رسو له على أمته ، أراد أن يكرم هذه الأمة من نوع ما كرّم به الرسول ، فجاء الخطاب فى آية الدعاء بدون «قل» .

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ﴾

(من الآية ١٨٦ سورة البقرة)

وأراد الله أن يبين لمحمد ولأمته أن الله يعلم لا بما تسألونه فقط ، بل يعلم ما سوف تسألونه عنه . لذلك نجد أربع عشرة آية تأتى فيها « يسألونك » وتكون الإجابة « قل » ، والآية الخامسة عشرة جاء فيها « يسألونك » وكانت الإجابة «فقل» لتدل « الفاء » على أن السؤال لم يقع بعد ، فكأن الفاء دلت على شرط

(١) رواه مسلم

مقدر هو : إن سألوك فقل ينسفها ربى نسفاً، وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

و« يجلّيها » أى يُظهرها، وهناك ما يسمى « الجلوة » وما يسمى « الخلوة »، و«الجلوة» أن يظهر الإنسان للناس، و«الخلوة » أن يختلى عن الناس، و«لايجليها» أى لا يظهرها، و« لوقتها » ترى أنها مسبوقة باللام، ويسمونها فى اللغة العربية « لام التوقيت »، مثلما يقول الحق سبحانه :

﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ ﴾

(من الآية ٧٨ سورة الإسراء)

وهى بمعنى « عند »، ومعنى دلوك الشمس، أنها تتجاوز نصف السماء، وتميل إلى المغرب قليلاً. وقوله : « لا يجليها لوقتها إلا هو » أى لا يُبَيِّنُها عند وقتها إلا هو سبحانه وتعالى.

﴿ ثقلت فى السموات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة ﴾

والثقل يعنى أن تكون كتلة الشىء أكبر من الطاقة التى تحمله؛ لأن الكتلة إن تساوت مع الطاقة فهى لا تثقل على الحمل.

أو أن الطاقة التى تحمل لم تقدر على جاذبية الأرض؛ فيكون الشىء ثقيلاً، وقد يكون هذا الثقل أمْراً ماديا، كما يحمل الإنسان - مثلاً - على ظهره أردباً من القمح فيقدر على حمله، لكنه إن زاده إلى أردب ونصف، فالحمل يكون ثقيلاً على ظهره لأن طاقته لا تتحمل مثل هذا الوزن « فينخ » به.

﴿ ثقلت فى السموات والأرض ﴾

والثقل لا يكون مادياً فقط، بل هو ثقل فكرى وعقلى أيضاً، مثال ذلك حين يقوم الطالب بحل تمرين هندسى أو تمرين فى مادة الجبر، فالطالب يشعر أحياناً أن مثل هذا التمرين ثقيل على فكره، وصعب الحل فى بعض الأحيان.

وقد يكون الأمر ثقيلاً على النفس فى ملكاتها، مثل الهم جاثم على الصدر وثقيل عليه، وهو أقسى أنواع الثقل، ولذلك فالشاعر القديم يقول:

ليس بحمل ما أطاق الظهر

ما الحمل إلا ما وعاه الصدر

إذن هناك ثلاثة أثقال: ثقل مادى، وثقل فكرى، وثقل نفسى.

و﴿ ثقلت فى السموات ﴾، ونحن نعلم أن السموات فيها الملائكة. ونعلم أن الملائكة أيضاً لا تعرف ميعاد الساعة، ولا يحاول معرفتها إلا الإنسان بشهوة الفكر، أما الملائكة فهى ليست مكلفة لأنها لا اختيار لها، وبعضها يخدم البشر، وهم الملائكة الذين سجدوا لآدم وهم الموكلون بمصالحه، وبحياته، وقد رضخوا لأمر الحق بأن هناك سيداً جديداً للكون. فكونوا جميعاً مسخرين فى خدمته، وهم الملائكة الحفظة الكرام الكاتبون، ولهم إلف بالخلق، إلف كاره للعاصى، وإلف محب للطائع. ومن يسير على منهج الله من البشر يفرحون به. وإن وقع من الطائع زلة، يأسون له ويتمنون ألا تقع منه زلة أخرى. ومن يسير ضد منهج الله يغضبون منه، والنبى صلى الله عليه وسلم يقول فيما يرويه عنه أبو هريرة رضى الله عنه: « ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقا خلفا، ويقول الآخر اللهم أعط ممسكا تلفاً»(١)

ونعلم أن المنفق سيأخذ ثواب إنفاقه، أما الممسك فإن تلف ماله وصبر عليه فهو أيضاً ينال ثواباً عليه. وهكذا تدعو لنا الملائكة.

(١) رواه الدار قطنى فى سننه،

و« ثقلت » هنا تعنى أن ميعاد الساعة لا يعرفه إلا ربنا، فلا يعرف ذلك الميعاد من هم فى السموات وكذلك من هم فى الأرض، وكل من على الأرض خائف مما سوف يحدث لحظة قيام الساعة، وخصوصاً أن المصطفى صلى الله عليه وسلم، يعطى لها صورة توضح قوله الحق:

﴿ لا تأتيكم إلا بغتة ﴾

ويخبرنا الرسول صلى الله عليه وسلم بالحالة التى تأتى عليها فيقول: « إن الساعة تهيج بالناس والرجل يصلح حوضه والرجل يسقى ماشيته والرجل يقيم سلعته فى السوق والرجل يخفض ميزانه ويرفعه »(١)

ومثل هذه التوقعات تخيف.

وقوله الحق:

﴿ ثقلت فى السموات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة ﴾

أى أن الواقع فى هذا اليوم يكون فوق احتمال البشر وهو يأتى بغتة، أى يجىء من غير استعداد نفسى لاستقباله. ويتابع سبحانه:

﴿ يسألونك كأنك حفى عنها ﴾

وحفىَ من الحفاوة، والحفىّ هو المُلحُّ فى طلب الأشياء، مثل التلميذ الذى يتوقف عند درس لا يفهمه، فيسأل هذا، وذاك إلى أن يجد إجابة.

والحفى بالسؤال عن أمر يحاول أن يصل إليه، والحفى أيضا عالم بما يسأ ل عنه، وسبب العلم أنه ألحّ فى السؤال عليها.

والأمور التى يعالجها الإنسان إما أن يعالجها وهو مستقر فى مكانه كالأمور الفكرية أو العضلية الموقوتةَ بمكان، وقد يكون أمراً بعيداً عن مكانه ويريد أن

(١) رواه سعيد عن قتادة.

يعالجه، فيقطع المسافة إلى المكان الثانى لتحقيق هذه المهمة، إنما يمشى ويسعى على رجليه، و« يدوب » النعل الذى يضعه فى قدميه من المشى فيقال عنه إنه: «حافى». ولذلك يقال: حفى فلان إلى أن وصل للشىء الفلانى، أى سار مرات كثيرة وقطع عدة مسافات، مزقت نعله حتى جعلته يمشى حافياً. وهنا يقول الحق على ألسنة القوم: ﴿ كأنك حفى عنها ﴾ أى أنك مُعْنى بها، ودائب السؤال عنها، وعارف لها.

وتأتى الإجابة من الحق:

﴿ قل إنما علمها عند الله ﴾

وفى ذات الآية سبق أن قال: ﴿ عِلْمها عند ربى ﴾

والربوبية متعلقها الخلق، والرعاية بالقيومية لمصالح البشر، والألوهية متعلقها العبادة وتطبيق المنهج، وجاء الحق فى هذه الآية، مرة بالربوبية، ومرة بالألوهية. والأولى هى علة الثانية، فأنت أخذت الله معبوداً، وأطعته لأنه خلقك ووضع لك المنهج، ولا يدخر وسعاً بربوبيته أن يقدم للعبد الصالح كل شىء ويمنحه البركة، وكذلك يعطى الكافر إن أخذ بالأسباب ولكن دون بركة وبغير ثواب فى الدنيا أو الآخرة، لذلك هو الإله الحق الذى نتبع منهجه.

﴿ قل إنما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾

وأكثر الناس الذين يسألون عن موعد الساعة لا يعلمون أن ربنا قد أخفاها، وسبحانه هو القائل:

﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ ﴾

(سورة طه)

هم إذن لا يعلمون أن علمها عند الله.

ويقول سبحانه وتعالى:

﴿ قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ١٨٨ ﴾

ويقول الحق تبارك وتعالى على لسان رسوله: أنتم تسألوننى عن الساعة، وأنا بشر، ومتلقٍّ فقط، والإرسال بالمنهج يأتى من الله وأنا أبلغه، ولا علم لى بموعد قيام الساعة، ولا أملك لنفسى لا ضراً ولا نفعاً، أى لا أملك أن أدفع الضر عنى أو أجذب النفع لنفسى، ولكن حين يسوق الله النفع أو يمنع الضر، فالإنسان يملك ما يعطيه الله، والعاقل حين يملك، يقول: إن هذا ملك عَرَضى، لا آمن أن ينزع منى. ولذلك قال لنا الحق تبارك وتعالى:

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٦ ﴾ (سورة آل عمران)

وهنا يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿ قل لا أملك لنفسى نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله ﴾

أىْ أنَّ أحداً لا يملك شيئا إلا ما شاء الله أن يملكه، ورسول الله من البشر. ويضيف:

﴿ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ ﴾

(من الآية ١٨٨ سورة الأعراف)

ومحمد صلى الله عليه وسلم لو كان يعلم الغيب لاستكثر من الخير، فقد حارب، وانتصر، وحارب وانهزم، وتاجر فربح، ويسير عليه ما يسير على البشر، ومرة يدبر الأمر الذى لم يكن فيه منهج من السماء، فمرة يصيب ومرة يخطىء. فيصحح له الله؛ لذلك يأتى القول على لسانه بأمر من الله: لو كنت أعلم الغيب لما وقعت فى كل هذه المسائل، وكان أهل رسول الله من قريش قد قالوا: إننا أقاربك، فقل لنا على موعد الساعة. حتى نستعد لملاقاتها.

ويتابع المولى سبحانه قوله: ﴿ وما مسنى السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون ﴾

وساعة ترى «إن» فهى مرة تكون شرطية مثل: «إن ذاكرت تنجح»، ومرة تكون للنفى وتجد بعدها اسما، والمعنى: ما أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون. والكلام موجه إلى المؤمنين لأنهم هم الذين ينتفعون بالنذارة وبالبشارة، وما يُنذروا به لا يفعلوه، وما يبشروا به يفعلوه.

ويقول الحق بعد ذلك:

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ ﴾

وقوله تعالى: «خلقكم من نفس واحدة» المقصود بها آدم، وقول الحق: «وجعل منها زوجها» المقصود بها حواء، ونلحظ فى الأداء فى هذه الآية أن الضمير عائد إلى مؤنث.

﴿ هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ﴾

ثم جاء بالتذكير فى قوله : ﴿ ليسكن إليها ﴾

إذن فصل الذكورة عن الأنوثة جاء عند « ليسكن » . فكأن الكلام فى النفس معنىٌ به جنس بنى آدم وهو الذى نسميه « الإنسان » ومنه ذكورة ومنه أنوثة ، ولذلك فسبحانه حينما يتكلم عن الذكورة كذكورة ، والأنوثة كأنوثة ، يأتى بضمير المذكر ، أو بضمير المؤنث ، وقوله : ﴿ ليسكن إليها ﴾

لأنه يريد أن يوضح أن المرأة جُعلَت للرجل سكناً ، لا يقال : إنها له سكن إلا إذا كان هو متحركاً ، كأن الحركة والكدح فى الحياة للرجل ، ثم يستريح مع المرأة ويسكن إليها بالحنان ، بالعطف ، بالرقة. أما إن لم تكن سكناً فهو يخرج من البيت لأن ذلك أفضل له. وقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وجعل منها زوجها ﴾

يذكرنا بما عرفناه من قبل من أن الله خلق آدم من الطين ومن الصلصال ثم نفخ فيه ربّنا الروحَ ، أما حواء فقد ذكرها فى هذه المسألة ، وأوضح : أنا جعلت منها زوجها ، و« منها » أى أنها قطعة منه ، وقيل : إنها خلقت من ضلع أعوج ، ومن يرجح هذا الرأى يقول لك : لأن الله يريد أن يجعل السكن ارتباطاً عضويا ، فالمرأة بعض من الرجل ، ونعرف أن الواحد منا يحب ابنه لأنه بعض منه. وعلى ذلك فهذا القول جاء لتقديم الألفة. وهناك من يقول : إن حواء خلقت مثل آدم فلماذا جاء ذكر آدم ولم يأت بذكر حواء؟

ونقول : إن آدم أعطى الصورة فى خلق الإنسان من طين ، لأن آدم هو الرسول وهو المسجود له. ونعلم أن المرأة دائما مبنية على الستر. ومثال ذلك نجد الفلاح فى مصر لا يقول : زوجتى ، بل يقول : « الجماعة » أو « الأولاد » أو يقول : « أهلى » ولا يذكر اسم الزوجة أبداً.

والحق يقول هنا : « وجعل منها » ، فإن كانت مخلوقة من الضلع فـ « مِنْ »

تبعيضية، وإن كانت مخلوقة مثل آدم تكون « مِنْ » بيانية، أى من جنسها، مثلها مثلما يقول ربنا :

﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴾

(من الآية ٢ سورة الجمعة)

أى الرسول من جنسنا البشرى ليكون إلف المبلغ عن الله، والمبلغ عن الله واحدا منا ونكون مستأنسين به، ولذلك قلنا : إن اختيار الله للرسول صلى الله عليه وسلم من البشر فيه رد على من أرادوا أن يكون الرسول من جنس آخر غير البشر، فقال الحق على ألسنتهم :

﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

ويأتى الرد عليهم :

﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَـٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

ثم لو كان الرسول من جنس الملائكة فكيف كانوا يرونه على حقيقته ؟ كان لابد أن يخلقه الله على هيئة الإنسان.

ويتابع سبحانه :

﴿ فلما تغشاها حملت حملاً خفيفاً ﴾

و« تغشاها » تعبير مهذب عن عملية الجماع فى الوظيفة الجنسية بين الزوج والزوجة، والغشاء هو الغطاء، وجعل الله الجماع من أجل التناسل ليبث منهما رجالاً كثيراً ونساء.

والمعنى هنا أنها حملت الجنين لفترة وهى لا تدرى أنها حامل، لأن نموّ الجنين بطىء بطىء لا تشعر الأم به.

﴿ فَمَرَّتْ بِهِۦ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾

(من الآية ١٨٩ سورة الأعراف)

ومرت به، مقصود بها أنها تتحرك حركة حياتها قياماً وقعوداً إلى أن تثقل وتشعر بالحمل فى شهوره الأخيرة.

وهنا عرف الزوج أن هناك حملا ورفع الاثنان أيديهما بالدعاء لله عز وجل أن يكون الولد صالحاً بالتكوين البدنى وصالحاً للقيام بقيم المنهج.

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾

(من الآية ١٨٩ سورة الأعراف)

أى أن الذكورة قد انفصلت عن الأنوثة، وصار الذكر يسكن عند الأنثى.

وهكذا كان الأمر الخاص بآدم، ثم جاء الكلام للذرية، وخصوصا أن حواء كانت تحمل بذكر وأنثى، وآدم وحواء وأولادهما هم أصل التواجد البشرى وأصل التوالد.

والقرآن قد يتكلم فى موضوعات تبدو متباعدة. لكنها تضم قيماً ذات نسق فريد، فنجد الحق يتكلم فى أمر ثم يتكلم فى آخر، مثل قوله تعالى:

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ﴾

(من الآية ٢٢ سورة يونس)

ولم يأت بسيرة البر هنا، بل تكلم بالبر والبحر ثم انتقل إلى الحديث عن مجىء الموت، وأيضاً انظر إلى قول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ﴾

(من الآية ١٥ سورة الأحقاف)

هنا يوصى الحق الإنسان بوالديه، بالأب وبالأم، ثم يتابع:

﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ﴾

(من الآية ١٥ سورة الأحقاف)

ولم تأت سيرة الرجل بل كل الحيثيات للأم.

ويقول سبحانه وتعالى بعد ذلك:

﴿ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ ﴾

ويروى أن هذه الآية قد نزلت فى «قُصَىّ» وهو جد من أجداده صلى الله عليه وسلم، فقد طلب قُصَىّ من الله أن يعطى له الذرية الصالحة، فلما أعطاه ربنا الذرية الصالحة سماها بأسماء العبيد، فلم يقل: عبدالله، أو عبدالرحمن، بل قال: عبد مناف، عبدالدار، عبدالعزى. وجعل لله شركاء فى التسمية، ولهذا جاء قول الحق: «جعلا له شركاء فيما آتاهما»؛ ليدلنا على أن الإنسان فى أضعف أحواله، أى حينما يكون ضعيفاً عن استقبال الأحداث، يخطر بباله ربنا؛ لأنه يحب أن يسلم نفسه لمن يعطى له ما يريده، وبعد أن ينال مطلبه ينسى، ولذلك يقول الحق:

﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ﴾

(من الآية ١٢ سورة يونس)

إذن فائدة الضر أنه يجعلنا نلجأ إلى ربنا، ولذلك نجد الإنسان أحسن ما يكون ذكراً لله وتسبيحا لله حينما يكون فى الشدة وفى المرض، ولذلك لو قدر المريض نعمة الله عليه فى مرضه وشدته، لا أقول: إنه قد يحب أن يستطيل مدة المرض والشدة. لا، بل عليه فقط ألا يضجر وأن يلجأ إلى ربه ويدعوه. وقد علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك حينما قال: ﴿ اللهم إليك أشكو ضعف قوتى، وقلة حيلتى وهوانى على الناس يا أرحم الراحمين. أنت رب المستضعفين، وأنت ربى. إلى من تكلنى ؟ إلى بعيد يتجهمنى أم إلى عدوّ مّلكته أمرى؟ إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى، ولكن عافيتك هى أوسع لى. أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بى غضبك، أو يحل علىّ سخطك، لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك ﴾ (١)

والإنسان ساعة يوجد فى المرض عليه أن يعرف النعمة فيه، فهو فى كل حركة من حركاته يذكر الله، وكما تخمد فيه طاقات الاندفاعات الشهوانية، يمتلىء بإيجابيات علوية، ولذلك نجد الحديث القدسى يقول فيه ربنا سبحانه وتعالى:

﴿ يا ابن آدم مرضت فلم تعدنى، قال: وكيف أعودك وأنت رب العالمين ؟ قال: أما علمت أن عبدى فلانا مرض فلم تعده ؟ أما علمت أنك لو عدته لوجدتنى عنده ؟ يا ابن آدم استطعمتك فلم تطعمنى، قال: يا رب. كيف أطعمك، وأنت رب العالمين ؟ قال: أما علمت أنه استطعمك عبدى فلان، فلم تطعمه ؟ أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندى ؟ يا ابن آدم استسقيتك فلم تسقنى، قال: يارب. كيف أسقيك وأنت رب العالمين ؟ قال: استسقاك عبدى فلان فلم تسقه، أما إنك لو سقيته لوجدت ذلك عندى ﴾ (٢)

إذن ماذا عن حال مريض يستشعر أن ربه عنده، ويكون فى المرض مع المنعم، وفى الصحة مع النعمة.

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام.

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه فى باب فضل عيادة المريض.

﴿ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

ومعنى هذا أن ربنا تبارك وتعالى ينزه نفسه عما يقول فيه المبطلون ويشركون معه ما يزعمون من آلهة. ولذلك يقول سبحانه وتعالى :

﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ ﴾

أيشركون فى عبادة الله من لا يخلقون شيئاً، وهم أنفسهم مخلوقون لله، إن من أشركوا بالله الأصنام فعلوا ذلك بالوهم وتنازلوا عن العقل، وكان الواجب أن يكونوا عقلاء فلا يتخذون من الأصنام آلهة.

﴿ أيشركون ما لا يخلق شيئاً وهم يُخلقون ﴾

ولذلك فإن هناك آية أخرى تفضح زعمهم يقول فيها الحق تبارك وتعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ ﴾

(من الآية ٧٣ سورة الحج)

ونعلم أن البشر فى المعامل قد عرفوا العجز عن خلق خلية واحدة وهى التى لا ترى بالعين المجردة، ولذلك أوضح الحق أن المسألة ليست أمر خلق، بل إن الذباب لو وقع على طعام إنسان وأخذ على جناحه أو فى خرطومه شيئاً، لن يستطيع أحد أن يسترد المأخوذ منه، فقد ضعف الطالب والمطلوب.

والخلق - كما نعلم - أول مرتبة من مراتب القدرة، فإذا كانت الأصنام التى اتخذها هؤلاء شركاء لا تخلق شيئاً بإقرارهم هم، فكيف يعبدونها ؟ إنها لا تخلق شيئاً بدليل أنها لا تتناسل. بل إذا أراد العابدون أن يزيدوا صنماً صنعه العابدون بأنفسهم. ونلحظ أن الحق جاء هنا بالقول : « أيشركون » بصيغة تعجب، والتعجب ينشأ عن إنكار ما به الاستفهام، أى تعجب منكراً على وفق الطباع العادية، مثلما

يقول لنا :

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ ﴾

(من الآية ٢٨ سورة البقرة)

أى قولوا لنا ما الطريقة التى بها تكفرون بالله وتسترون وجوده، مع هذه الآيات البينات الواضحات ؟ فكأن ذلك أمْر عجب يدعو أهل الحق للدهشة والاستغراب والإنكار الشديد، وحينما يتكلم الحق بإنكار شىء لأنه أمر عجيب، يوجه الكلام مرة إليهم، ومرة أخرى يوجهه إلى غيرهم، مثل قوله هنا :

﴿ أيشركون ما لا يخلق شيئاً وهم يخلقون ﴾

والكلام للمؤمنين لأنه يريد أن يعطى لقطتين فى الآية، اللقطة الأولى : أن ينكر ما فعله هؤلاء، وأن يزيد القوم الذين لم يفعلوا ثقة فى نفوسهم، وفرحة بمواقفهم الإيمانية، حيث لم يكونوا مثل هؤلاء.

﴿ أيشركون ما لا يخلق شيئاً وهم يخلقون ﴾

وفى الآية الكريمة وقفة لفظية فى الأسلوب العربى نفسه قد تثير عند البعض إشكالا، فى قوله تعالى : « ما لا يخلق شيئاً ». و« ما » تعنى الذى لم يخلق شيئاً، و« يخلق » هنا للمفرد، وسبحانه وتعالى جعل للمفرد هنا عمل الجمع فقال :

﴿ أيشركون ما لا يخلق شيئاً ﴾

وأقول : إن الذى يقف هذه الوقفة، ويلاحظ هذا الملحظ إنسان سطحى الثقافة بالعربية، لأنه لا يعلم أن « ما » و« من » و« الـ » تطلق على المفرد والمفردة، وعلى المثنى والمثناة، وعلى جمع الذكور وجمع الإناث، فتقول : جاءنى من أكرمته، وجاءتنى من أكرمتها، وجاءنى من أكرمتهما، وجاءت من أكرمتهما، وجاء من أكرمتهم وجاء من أكرمتهن.

وكذلك « ما ». إذن فقول الحق : « ما لا يخلق » فى ظاهرها مفرد، ولكن اللفظ

يطلق على المفرد والجماعة؛ لذلك جاء فى الأمر الثانى وراعى الجماعة، إذن « يخلق » للمفرد، و« هم يخلقون » للجمع لأن قوله : « ما » صالح للجميع أى للمفرد وللمثنى وللجمع وللمذكر وللمؤنث.

ومثال ذلك قول الحق تبارك وتعالى :

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ﴾

(من الآية ١٦ سورة محمد)

وسبحانه قال هنا : « ومنهم من يستمع إليك »، ولم يقل : « حتى إذا خرج من عندك » بل قال : « ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا » أى أنه جاء بالجماعة، فإذا رأيت ذلك فى « ما » و« من » و« الـ » فاعلم أن هذه الألفاظ يستوى فيها المفرد والمفردة والمثنى والمثناة وجمع الذكور وجمع الإناث. ﴿أيشركون ما لا يخلق شيئا وهم يخلقون﴾.

وهنا فى هذه الآية وقفة لغوية أخرى فى قوله : «هم» وهى لا تطلق إلا على جماعة العقلاء، فكيف يطلق على الأصنام « هم » وليست من العقلاء ؟ وأقول : إن الحق سبحانه وتعالى لما علم أنهم يعتقدون أنها تضر، وأنها تنفع، فقد تكلم معهم على وفق ما يعتقدون، لكى يرتقى معهم فى رد الإنكار لكل ما يستحق الإنكار. فأول مرحلة عرفهم أن الأصنام لا تخلق، وثانى مرحلة عرفهم أنهم هم أنفسهم مخلوقون والأصنام لا تقدر على نصرهم، إذن فهم معطلون من كل ناحية؛ لأنهم لا يخلقون. وهذا أول عجز، ومن ناحية أخرى أنهم يُخْلَقون وهذا عجز آخر، لكن بعد هذا العجز الأول والعجز الثانى فهل هم قادرون على نصر غيرهم ؟ ها هو ذا سبحانه يترقى فى الحوار معهم ترقية أخرى فيقول :

﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ١٩٢﴾

إذن فلا أحد من الأصنام قادر على أن ينصر نفسه أو يضمن نصر غيره.

وهكذا نجد الترقى فى الحوار على أربع مراحل، أولاً: لا يخلقون، ثانياً: هم يُخلَقون، ثالثاً: لا ينصرونكم، ورابعاً: ولا ينصرون أنفسهم. ثم تأتى المرحلة الخامسة فى قوله الحق:

﴿ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾ ﴾

وعلى ذلك فهى خمس مراحل - إذن - ، أكررها لتستقر فى الذهن، أولها أنه من الجائز أنه لا يَخلُق، ومن الجائز أن يكون مخلوقاً، ومن الجائز أنه لا يقدر أن ينتصر لغيره لأنه ضعيف، ولا ينتصر لنفسه لأنه أضعف، ومع ذلك إن أردت أن تهديه إلى شىء من ذلك أو إلى شىء من العلم فلا يقبل منك.

وكانوا فى الجاهلية حين يفزعهم أمر جسيم ينادونهم ويقولون: يا هبل، يا لات، يا عزى. وإن لم يصبهم أمر سكتوا عن نداء الأصنام؛ لذلك يقول لهم الله من خلال الوحى لرسوله صلى الله عليه وسلم:

﴿ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾ ﴾ (سورة الأعراف)

أى إن دعوتكم لهم لا تفيد فى أى أمر تماماً كصمتكم.

ونلحظ أن الأسلوب هنا مختلف « سواء عليكم أدعوتموهم » فلم يقل: « أدعوتموهم أم صَمَتّم »؛ لأن الفعل يقتضى الحدوث، ولنا أن نعرف أنهم كانوا لا يفزعون إلى آلهتهم إلا عند الأحداث الجسام. أما بقية الوقت فقد كانوا لا يكلمونهم أبداً؛ لذلك جاءت « صامتون » لازمة، لأنها اسم، والاسم يقتضى الثبوت والاستمرار، أما الفعل فيقتضى الحدوث والتجدد.

والحق هنا يبلغ المشركين: سواء عليكم أدعوتموهم أم لم تدعوا، فعدم الاستجابة متحقق فيهم وواقع منهم، وعدم النصر لأنفسهم ولغيرهم متحقق منهم.

ثم يتكلم الحق عن قضية أخرى فيقول :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ ﴾

و« تدعون » لها معنيان، المعنى الأول يعنى أنكم قد تتخذونهم آلهة وتعبدونهم، والمعنى الثانى هو أن يقال : « تدعونه » أى تطلب منه شيئاً. والمعنيان يجيئان فى هذه الآية :

﴿ إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم ﴾ .

وعنْدَ ما يسمع الإنسان كلمة « عباد » يفهم أنها من الجنس المتعقل الحى، فكيف تكون الأصنام عباداً ؟ وأقول : نحن هنا نأخذها على شهرة اللفظ، أما إذا أردنا تحقيق اللفظ وتقعيده، فالبناء مأخوذ من التذلل والخضوع، ألم يقل موسى لفرعون : ؟

﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾ ﴾

(سورة الشعراء)

أى أذللتهم. وفى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها تكون الأصنام عباداً أمثالهم فى أنهم يُذلون؛ لأن السيل إذا نزل أو هبت الريح نجد هذه الأصنام قد وقعت وتكسرت رقابها، فيهرع المشركون ليأتوا بمن يعيد ترميم هذه الآلهة !! إذن فأنتم أيها المشركون؛ لأنكم مخلوقون بالله قد تملكون قدرة، وقوة تستطيعون بها إن جاء لكم ضر أن تدفعوا الضر عنكم، أما الأصنام فليست لها أدنى قدرة إن جاءها من يحطمها، أو يكسرها، أو يقلبها، فهى أضعف منكم. وبذلك تكون كلمة « عباد أمثالكم » لوناً من الترقى.

وعلى فرض أنهم عباد أمثالكم، فالعبد من الأحياء حينما يأتى شىء يستذله، قد يستطيع أن يدفع عن نفسه بعض الشىء إلا إن كان الشىء قويا فوق طاقته. فالمراد والمقصود أنهم عباد أمثالكم أى مذللون ومسخرون ولا يستطيعون دفع شىء عن أنفسهم. وأنت إذا ما نظرت إلى هذه المسألة وأخذت معنى عباد على معناها الإطلاقى، فأنت تعلم أن العبد هو كل مسخر مذلل من العباد.

لكن هناك مذلل ومسخر فيما لا اختيار له فيه، وآخر مذلل ومسخر فيما له فيه اختيار أيضاً، والفرق بين الاثنين أن الكافر فيما له اختيار؛ إما أن يؤمن وإما أن لا يؤمن ويختار الكفر، بل إن الإنسان المؤمن له الاختيار فى أن يطيع أو يعصى. ولكن هناك أشياء أخرى تجرى على الإنسان لا اختيار له فيها، كأن يمرض ولا يقدر أن يقول: لا لن أمرض، أو قد يأتيه الموت فلا يقدر أن يقول: لن أموت. وقد يهلك ماله أو تحترق داره فلا يستطيع دفع القدر، وكل هذه أمور قهرية يكون الإنسان فيها مذللاً مسخراً، والكافر والمؤمن فى هذه الأمور سواء.

والمؤمن يتميز بأنه يتبع منهج الله فيما له فيه اختيار، وهذه فائدة الإيمان، وبذلك يخرج المؤمن عن الاختيار المخلوق لله، إلى مراد الله منه فى الحكم، ويستوى بكل شىء مسخر لله، ولذلك نقول للذين يكفرون: كفرتم وتأبيتم بما خلق فيكم من الاختيار عن الإيمان بالله.

وقد جعلها الله لكم بقوله:

﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الكهف)

ومادام الواحد منكم أيها الكافرون يتأبى ويستكبر على حكم الله، إذن فللواحد منكم أيها الكافرون رياضة على التمرد، فلماذا لا تقول للمرض لن أستسلم لك. ولن يستطيع أحد الكافرين ذلك، لأنه إنما يكفر بما له حق ممنوح من الله فى منطقة الاختيار، أما فى غير ذلك فالكل عباد مذللون.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ ﴾

(من الآية ١٩٤ سورة الأعراف)

وقول الحق تبارك وتعالى : « فادعوهم » أى اطلبوا منهم أن يلبوا لكم أى طلب، وهم لن يستجيبوا لكم؛ لأنهم لا يقدرون أبداً. وفى هذا القول لون من التحدى « فليستجيبوا لكم » لكنهم لن يستجيبوا، فليست لهم قدرة لأن يخرجوا على أمر ربنا ويقولوا سنعطيكم ما تطلبون، لأن طاقتهم وطبيعتهم لا تقدر أن تستجيب.

وبعد أن قال الحق عن الأصنام: إنهم عباد أمثالكم، أراد أن ينزلهم منزلة أدنى من البشر فقال :

﴿ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ ﴾

وينبه الحق تبارك وتعالى كل مشرك، وكأنه يقول له : أنت لك رجل تمشى بها، ولك يد قد تبطش بها، ولك أذن تسمع، ولك عين تبصر، فهل للأصنام حواس مثل هذه ؟. لا، ليست لهم، إذن، فالأصنام أقل منك، فكيف تجعل الأقل إلهاً للأكبر ؟ إن هذا هو جوهر الخيبة.

وقوله : « يمشون بها »، و« يسمعون » و« يبصرون » جاءت لأن المشركين صوروا التمثال وله رجلان وله اذنان وله عينان ويضعون فى مكان كل عين خرزة لتكون مثل حدقة العين، وحين ينظر إنسان منهم إلى التمثال يخيل إليه أن التمثال ينظر إليه. ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾

(من الآية ١٩٨ سورة الأعراف)

وفى قوله تعالى :

﴿ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾

(من الآية ١٩٥ سورة الأعراف)

حين يعرض الحق مثل هذه الأمور بأسلوب الاستفهام. فإنما يريد أن يحقق المسائل عن أقوى طريق، لأن الاستفهام لابد له من إجابة. والكلام من الله عند الكافر يحتمل الصدق ويحتمل الكذب. وإجابة الكافر ستكون قطعاً بعدم استطاعة الأصنام المشى أو اللمس أو الرؤية أو السماع؛ لذلك أراد الحق ألا يكون الحكم من جهته. بل الحكم من جهة المشركين، وفى هذا إقرار منهم. ولذلك يقول الحق مخاطبا الرسول صلى الله عليه وسلم.

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ ﴾

(سورة الانشراح)

أما كان يستطيع سبحانه وتعالى أن يقول : شرحنا لك صدرك ؟ كان يستطيع ذلك. ولكنه يأتى بالاستفهام الذى يكون جوابه : بلى لقد شرحت لى صدرى. وينبه قوله تعالى :

﴿ ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيدٍ يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم آذان يسمعون بها ﴾

إلى مقارنة الأصنام بالبشر. فالبشر لهم أرجل وأيْد وأعين وآذان، وكل من هذه الجوارح لها عمل تؤديه، وهكذا يتأكد للمشركين أنهم أعلى مرتبة من أصنامهم.

فكيف يجوز فى عرف العقل أن يكون الأعلى مرتبة مربوباً للأدنى مرتبة ؟ إن ذلك لون من الحمق .

﴿ قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون ﴾

ورسول الله جاء بهذا القول ليدحض إيمانهم بهذه الأصنام التى اتخذوها آلهة وليسفه أحلامهم فيها ، وبذلك أعلن العداوة ضدهم - العابدين ، والمعبودين - وصارت خصومة واقعة ، وسألهم أن يدعوا الشركاء ليكيدوا لرسول الله بالأذى أو التعب أو منع النصر الذى جاء للإسلام ، إن كانت عندكم أو عندهم قدرة على ضر أو نفع.

﴿ قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون ﴾

ويتحداهم صلى الله عليه وسلم أن يكيدوا هم وآلهتهم ، والكيد هو التدبير الخفى المحكم. وانظروا ما سوف يحدث ، ولن يصيب رسول الله بإذن ربه أدنى ضر.

ولذلك نجد الحق سبحانه وتعالى قد أجرى على رسول الله أشياء ، ليثبت بها أشياء ، وقد قالوا : إن واحداً قد سحر النبى ، ولنفرض أن مثل ذلك السحر قد حصل ، فكيف ينسحر النبى ؟ ونقول : ومن الذى قال : إنه سحر ؟. إن ربنا أعلمه بالساحر وبنوع السحر ، وأين وضع الشىء الذى عليه السحر ، ليبين لهم أن كيدهم حتى بواسطة شياطينهم مفضوح عند الله.

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة الأنفال)

وهم كانوا قد بيتوا المكر لرسول الله وأرادوا أن يضربوه ضربة واحدة ليتفرق دمه فى القبائل ، فأوضح ربنا : أنتم بيتم ، ولكن مكركم يبور أمام أعينكم. وليثبت لهم أنهم بالمواجهة لن يستطيعوا مصادمته فى دعوته. ولا بالتبييت البشرى يستطيعون أن يصدموا دعوته ، ولا بتبييت الجن - و هم أكثر قدرة على التصرف - يستطيعون

مواجهة دعوته. وماداموا قد عرفوا أنهم لن يظهروا على الرسول، ولن يفيد مكرهم أو سحرهم أو كيدهم مع شياطينهم، إذن فلابد أن ييأسوا، ولذلك تحداهم وقال :

﴿ قُلِ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴾

(من الآية ١٩٥ سورة الأعراف)

وأنظره يعنى أخره، والقول هنا : لا تؤخروا كيدكم مع شركائكم،

بل نفذوا الكيد بسرعة، وقد أمر الحق رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول ذلك لأن الرسول صلى الله عليه وسلم إنما آوى إلى ركن شديد؛ لذلك يقول رسول الله بأمر الحق :

﴿ إِنَّ وَلِيِّىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ ﴾

ومادام الوليّ هو الله، فالرسول صلى الله عليه وسلم لايبالى بهم، و "الولى" هو الذى يليك، وأنت لا تجعل أحداً يليك إلا أقربهم إلى نفسك، وإلى قلبك، ولا يكون أقربهم إلى نفسك وإلى قلبك، إلا إذا آنست منه نفعاً فوق نفعك، وقوة فوق قوتك، وعلماً فوق علمك، وقول الرسول بأمره سبحانه وتعالى :

﴿ إن وَلِيِّىَ الله ﴾

أى أنه ناصرى على أى كيد يحاول معسكر الشرك أن يصنعه أو يبيته لى. فالله هو ولى الرسول أى ناصره، والقريب منه بصفات الكمال والجلال التى تخصه سبحانه وتعالى، وعندما يكون لمؤمن خصلة ضعف فهو يذهب لمن عنده خصلة قوة، ولذلك قلنا فى قصة موسى عليه السلام حين التفت قومه ووجدوا قوم فرعون فقالوا : ﴿ إنا لمدركون ﴾

أى أن جيش فرعون سيدركهم، لأن البحر أمامهم والعدو وراءهم. وليس أمامهم فسحة أمامية للهرب ولا منفذ لهم إلا أن يصمدوا أمام جيش فرعون وهم بلا قوة، ولم يكذبهم موسى عليه السلام فى قولهم. بل قال لهم يطمئنهم :

﴿ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴾

(من الآية ٦٢ سورة الشعراء)

وهنا خرجت المسألة عن أسباب البشر وانتهت إلى الركن الشديد الذى يأوى إليه الرسل. ولا يقول هذا القول إلا وهو واثق تمام الثقة من نصرة الله، وسبق أن رويت لكم حكاية المرأة الأوربية التى أسلمت لأنها كانت تقرأ سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم كبطل من أبطال العالم، صنع أكبر انقلاب فى تاريخ البشرية، ولما مرت فى تاريخه صلى الله عليه وسلم، قرأت أن صحابته كانوا يحرسونه من خصومه وأعدائه، إلى أن فوجئوا فى يوم ما بأن قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : اذهبوا عنى . فإن الله أنزل علىّ :

﴿ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾

(من الآية ٦٧ سورة المائدة)

واستوقفت هذه الواقعة هذه المرأة فقالت : إن هذا الرجل إن أراد أن يكذب على الناس جميعاً ما كذب على نفسه، ولايمكن أن يُسلم نفسه لأعدائه بدون حراسة إلا إذا كان واثقاً من أن الله أنزل عليه هذا، وأنه قادر أن يعصمه، وإلا دخلَ بنفسهً فى تجربة. والباحثة من هذه الواقعة قد أخذت لفتة العبرة. وفى مثل هذا يقول الحق تبارك وتعالى على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم :

﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴾

(من الآية ١٩٥ سوة الأعراف)

وكأنه صلى الله عليه وسلم يستدعيهم إلى التحدى بالمعركة بالمكر والتبييت، وألا يتأخروا عن ذلك وهو واثق من أن الله عز وجل ينصره.

﴿ إِنَّ وَلِيِّـَٔ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

وأنزل الحق تبارك وتعالى على رسوله الكتاب المبين ليبلغه للخلق، ولا يمكن أن يسلمه إلى عدو يمنعه من تمام البلاغ عن الله. لقد أنزل الحق الكتاب على رسوله ليبلغه إلى الكافة ولا يمكن أن يتخلى عنه. ﴿ إن وليِّيَ الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين ﴾

وقوله : " وهو يتولى الصالحين " أى أنه لا يجعل الولاية خصوصية للرسول صلى الله عليه وسلم، بل يقول لكل واحد من أتباعه : كن صالحاً فى أى وقت، أمام أى عدو، ستجد الله وهو يتولاك بالنصر، وساعة يعمم الله الحكم؛ فهو ينشر الطمأنينة الإيمانية فى قلوب أتباعه صلى الله عليه وسلم. وكل من يحمل من أمر دعوته صلى الله عليه وسلم شيئاً ما سوف يكون له هذا التأييد، وسبحانه الذى جعل رسوله مُبلغاً عنه المنهج، وهو سبحانه يتولى الصالحين لعمارة الكون؛ لأن الله قد جعل الإنسان خليفة ليصلح فى الكون، وأول مراتب الإصلاح أن يبقى الصالح على صلاحه، أو أن يزيده صلاحاً إن أمكن.

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ ﴾

لأن الذى لا يستطيع نصرك . يجوز أن يكون ضنيناً بنصرتك؛ لأن حبه لك حب رياء، أو لأنه يرغب فى أن يحتفظ بما ينصرك به لنفسه، أما حين يكون غير قادر

على نصرتك؛ لأنه لا يملك أدوات النصر، فهذا يبين عجز وقصور من اتخذته وليا، وهكذا كان حال المشركين. وفى يوم الفتح جاء المسلمون بالمعاول وكُسرت الأصنام، ولم يقاوم صنم واحد. بل تكسرت كلها جميعا.

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ ۖ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾ ﴾

وبطبيعة الحال لو أن أحدا دعا هذه الأصنام إلى الهداية فلن تهتدى الأصنام لأنها من الجماد الذى لا تصلح معه دعوة أو فهم. رغم أن الصنم منها له عيون كالتى تراها حاليا فى معابد الهندوس أو البوذيين، حين يضعون للتماثيل فى مكان حدقة العين خرزاً ملوناً يشبه العين، وتوجه الحدقة بميلها وكأنه ينظر إليك وهو لا يرى شيئاً.

ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك مخاطبا نبيه صلى الله عليه وسلم :

﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾

وهذه آية جمع فيها المولى سبحانه وتعالى مكارم الأخلاق.

وبعد أن أبلغ الحق تبارك وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يدعو المشركين لأن يكيدوا له مع شياطينهم وأصنامهم ولن يستطيعوا. بعد ذلك يوضح له : أنا أحب أن تأخذ بالعفو، وفى هذا تعليم لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولمن يتبعه، وكلمة "العفو" ترد على ألسنتنا، ونحن لا ندرى أن لها معنى أصيلاً فى اللغة. وقد يسألك سائل : من أين أتيت بهذا الشىء ؟ فتقول له : جاءنى عفواً، أى بدون جهد، وبدون مشقة، وبدون سعى إليه ولا احتيال لاقتنائه.

ويقال أيضاً : إن هذا الشيء جاء لفلان عفو الخاطر ، أى لم يفكر فيه ، بل جاء ميسراً. هذا هو معنى العفو. والحق هنا يأمر رسوله عليه الصلاة والسلام أن يأخذ العفو ، أى أن يأخذ الأمر الميسر السهل ، الذى لا تكلف فيه ولا اجتهاد ؛ لأنك بذلك تُسهل على الناس أمورهم ولا تعقدها ، أما حين تتكلف الأشياء ، فذلك يرهق الناس ، ولذلك يأمر الحق رسوله أن يقول :

﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ (سورة ص)

وقوله : " وما أنا من المتكلفين " أى أنه صلى الله عليه وسلم لا يتكلف الأمور حتى تصير الحياة سهلة ولا يوجد لدد بين الناس ؛ لأن الذى يوجد اللدد هو التكلف وقهر الناس ، ويجب أن تقوم المعاملة فيما بينهم بدون لدد أو تكلف . ولذلك يقال : إن المؤمن هو السمح إذا باع ، والسمح إذا اشترى ، والسمح إذا اقتضى ، والسمح إذا أقتُضِى منه : أى أنه فى كل أموره سمح.

وللأمر بأخذ "العفو" معنى آخر وهو أن تعفو عمن ظلمك ؛ لأن ذلك ييسر الأمور .

والعفو أيضاً له معنى ثالث ، هو الأمر الزائد ، مثل قوله الحق تبارك وتعالى من قبل أن تفرض الزكاة :

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ﴾ (من الآية ٢١٩ سورة البقرة)

ثم حدد الحق بعد ذلك الزكاة وأوجه إنفاقها ، ونلحظ أن الأمر بالإنفاق من قبل أن تفرض الزكاة ، والإنفاق بعد أن نزل الأمر بالزكاة يلتقيان فى السهولة ؛ لأن المؤمن لا ينفق مما يحتاجه . بل من الزائد عن حاجته .

وقول الله سبحانه وتعالى فى الآية « خذ العفو » فيه أمر « خذ » ومقابله «أعْط» وقد تعطى إنساناً فلا يأخذ منك إن رأى أن ما تعطيه له ليس فى مصلحته ، لكن إذَا قال الحق تبارك وتعالى : « خذ » ، فهذا أمر يعود نفعه عليك ، فإن كان العفو عمن ظلمك فى ظاهر الأمر ينقصك شيئاً ، فاعلم أنك أخذت العفو لنفسك .

واعلم أن الحق سبحانه وتعالى يحب من عبده المؤمن أن يكون هينا ليناً مع إخوانه من المؤمنين. فإن عز عليه أخوه المؤمن فَلْيَهنْ له، فإن تعالى أو تعالم أخ مسلم عليك، فلا تتعال عليه أو تتعالم حتى لا تقوم معركة بينكما، بل تواضع أنت، ليزيدك الله رفعة وعزة.

وكأن الله سبحانه وتعالى يؤكد لك: أنك حين تعطى العفو تأخذ الخير من خلاله. ودائماً أضرب هذا المثل - ولله المثل الأعلى - أنت حين تدخل إلى منزلك وتجد ابناً لك قد أساء إلى أخيه فيتجه قلبك وحنانك إلى المظلوم. ونحن عيال ربنا، فإن ظلم واحدٌ آخرَ، فالظالم بظلمه يجعل الله فى جانب المظلوم، ولذلك يحتاج الظالم إلى أن نحسن إليه حيث كان سببا فى رعاية الله لنا فنفعل معه مثلما فعل سيدنا حسن البصرى عندما قيل له: إن فلاناً اغتابك بالأمس. ونادى سيدنا حسن البصرى الخادم وقال له: جاءنا طبق من باكورة الرطب. اذهب به إلى فلان - وحدد للخادم اسم من اغتابه - وتعجب الخادم: كيف تبعث بالرطب إليه وهو قد اغتابك؟ فقال: أفلا أحسن إلى من جعل الله بجانبى، قل له: «يقول لك سيدى بلغه أنك قد اغتبته فأهديت إليه حسناتك، وهو أهداك رطبه».

﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ﴾

وتتناول الآية الكريمة الأمر بالعرف:

والعرف هو السلوك الذى تعرف العقول صوابه، وتطمئن إليه النفوس، ويوافق شرع الله، ونسميه العرف؛ لأن الكل يتعارف عليه، ولا أحد يستحيى منه، لذلك نسمع فى شتى المجتمعات عن بعض ألوان السلوك: هذا ما جرى به العرف. وما يجرى به العرف عند المجتمعات المؤمنة يعتبر مصدراً من مصادر الأحكام الشرعية.

وخير مثال على ذلك: أننا نجد الشاب لا يخجل من أن يطرق باب أسرة ليطلب يد ابنتها، لأن هذا أمر متعارف عليه ولا حياء منه، بينما نجد المجتمع المسلم يستحيى

أن يوجد بين أفراده إنسان يزنى، والغاية من الزنا الاستمتاع، والغاية من طلب يد الفتاة هو الاستمتاع، لكن هناك فارق كبير بين متعة يحرمها الله عز وجل، ومتعة يُحلّها الله تعالى.

وفى نهاية الآية يقول الله تعالى:

﴿ وأعرض عن الجاهلين ﴾

وكيف يكون الإعراض عن الجاهلين ؟. يخطىء من يظن أن الجاهل هو الذى لا يعلم، لأن من لا يعلم هو الأمى، أما الجاهل فهو من يعلم قضية تخالف الواقع. ونلحظ أن المشكلات لا تأتى من الأميين الذين لا يعلمون، فالأمى من هؤلاء يصدق أى قضية تحدثه عنها وتكون مقبولة بالفطرة؛ لأنه لا يملك بديلاً لها، أما الجاهل فهو من يعلم قضية مخالفة للواقع ويحتاج إلى تغيير علمه بتلك القضية، والخطوة الثانية أن تقنعه بالقضية الصحيحة.

والحق هنا يوضح: أعرضْ عن الجاهل الذى يعتقد قضية مخالفة للواقع ويتعصب لها، وأنت حين تعرض عن الجاهل، يجب ألا تماريه، أى لا تجادله؛ لأن الجدل معه لن يؤدى إلى نتيجة مفيدة؛ لذلك أقول لكل من يواجه قضية التدين ولم يقرأ عن الدين كتاباً واحداً، وقرأ فى كتب الانحراف عن الدين المئات، أقول له: كما قرأت فيما يناهض الدين مئات الكتب فمن الحكمة يجب عليك أن تكون عادلاً ومنصفاً فتقرأ فى مجال التدين بعض الكتب الخاصة به مثلما قرأت فى غيرها. وإن أردت أن تبحث قضية الدين بحثاً منطقياً يصحح لك عقيدتك، فعليك أن تخْرج كل الاقتناعات المسبقة من قلبك ووجدانك. وتدرس الأمرين بعيداً عن قلبك، ثم أدخل إلى قلبك الأمر الذى ترتاح إليه، لكن لا تحتفظ فى قلبك بقضية وتناهض منطوقها بظاهر لسانك. والحق سبحانه وتعالى يقول:

﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ﴾

(من الآية ٤ سورة الأحزاب)

فأنت لك قلب واحد، إما أن يمتلىء بالإيمان واليقين وإما بغير ذلك. والقلب حيز واحد فلا تشغله أنت بباطل، حين تبحث قضية الحق، بل أخرج الباطل من قلبك أولاً، واجعل الباطل والحق خارجه، وابحث بعقلك، والذى ييسرُ إليك أن تدخله إلى قلبك فأدخله.

وفى بيان معنى هذه الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها روى لنا أبىّ قال: لما أنزل الله عز وجلّ على نبيه صلى الله عليه وسلم: «خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين» قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما هذا يا جبريل؟ قال: إن الله أمرك أن تعفو عمن ظلمك، وتعطى من حرمك، وتصل من قطعك». (١)

وسبحانه - إذن - يريد أن يعلمنا قضية إيمانية إنسانية؛ لأنك كمسلم تساعد المصاب فى بدنه، فما بالك بالمصاب فى قيمه، ألا يحتاج إلى معونتك؟.

ويقول الحق بعد ذلك:

﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ ﴾

و «نزغ» تساوى كلمة «نخس» أى أمسك بشىء ووضع طرَفَه فى جسد من بجانبه أو من أمامَه. ويتضح من معنى «نخس» أن هناك مسافة بين الناخس والمنخوس ووسيلة أو أداة للنخس.

وعملية النخس لا يدرك بها الناخس أو المنخوس حرارة بعضهما البعض، أما كلمة «مس» فقد يشعر الماس والممسوس كل واحد بحرارة الآخر منهما بسرعة، لكن أحدهما لا يدرك نعومة الآخر، أما اللمس ففيه إدراك لنعومة وحرارة اللامس والملموس. ومعارك الحرب كلها تدور فى هذا النطاق، فحين يكون العدو بعيداً يحتاج خصمه إلى أن يبتعد عنه كيلا يصيبه بالنبال أو السهام، ويحاول هو أن يصيب

(١) رواه ابن جرير وابن أبى حاتم.

خصمه بالنبال أو السهام. وكما تفعل الجيوش الحديثة حين ترسل طائراتها لترمى القنابل على قوات الخصم. وتقاس قوة الدول بقدرتها على ضرب القوات المعادية دون قدرة تلك القوات على الرد، لأنها تصيبه من بعد فى عصر الصواريخ بعيدة المدى. ونجد الإشارة فى قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾

(من الآية ٦٠ سورة الأنفال)

وأوضح سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم معنى القوة فيما رواهُ عنه عقبة ابن عامر قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول وهو على المنبر: ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ﴾ ألا إن القوة الرمى، ألا إن القوه الرمى. (١)

لأن الرمى يُمَكّن قذيفتك من عدوك، وأنت بعيد عنه فلا يقدر أن يصيبك بما يرميه.

وقديماً كانت الجيوش تزحف، فيُلقى الخصوم عليها النبال والسهام، وإذا ما اقتربت الجيوش أكثر من خصومها فكل فريق يوجه الرماح إلى ما يقرب من أجساد الفريق الآخر. وإذا حمى وطيس المعركة تتلاقى السيوف. إذن كلها من النخس، والمس، واللمس.

وحينما خاطب الرسول صلى الله عليه وسلم ربه قائلاً : يارب كيف بالغضب ؟ أى كيف يكون علاج الغضب ؟ نزل قول الحق :

﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

وقد يستفهم قائل فيقول : أينزغ الشيطان الرسول ؟. وأقول : إنّ الحق تبارك وتعالى لم يقل : « إذا نزغك الشيطان »، ولكنه قال : « وإما ينزغنك » أى إن حدث

(١) أخرجه الإمام مسلم والإمام أحمد وابن ماجه وأبو داود.

ذلك، وهو قول يفيد الشك - ثم لماذا يحرم الله رسوله صلى الله عليه وسلم من لذة مجابهة الشيطان ؟ . ونعلم عن ابن مسعود أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن، وقرينه من الملائكة . قالوا : وإياك ؟ قال : وإياى إلا أن الله أعاننى عليه فأسلم فلا يأمرنى إلا بخير) .(١)

وهنا يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وإما ينزغنك من الشّيطانِ نزغ فاستعذْ بالله ﴾ .

والاستعاذة تعنى طلب العون والملجأ والحفظ وأنت لا تطلب العون ولا تلجأ ولا تستجير إلا بمن هو أقوى ممن يريد أن ينالك بشر . ومعلوم أن الشيطان له من خفة الحركة، وقدرة التغلغل، ووسائل التسلل الكثير ؛ لذلك فينبغى ألا تستعيذ بمثله أو بمن هو دونه، ولكنك تستعيذ بخالق الإنس والجن وجميع المخلوقات، وهو القادر على أن يعطل فاعلية الشيطان . وسبحانه سميع عليم، والسمع له متعلق، والعلم له متعلق، فحين تستحضر معنى الاستعاذة وأنت مشحون بالإيمان وتلجأ إلى من خلقك . وخلق ذلك الشيطان ؛ عندئذ لابد أن يهرب الشيطان من طريقك لأنه يعلم أنك تلجأ إلى الخالق القوى القادر وهو ليست له قوة على خالقه، وسبحانه سميع لقولك : « أعوذ بالله »، عليم بما فى نفسك من معنى هذه الكلمة .

وإذا كان الحق تبارك وتعالى هنا قد تكلم عن حضرة النبى عليه الصلاة والسلام، وقال : ﴿ وإمّا ينزغنك ﴾

أى أن الشيطان بعيد، وهو يحاول مجرد النزغ، فماذا عن أمة رسول الله صلى الله عليه وسلم إزاء هذا ؟ . هنا يقول الحق تبارك وتعالى :-

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ ﴾

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل، الجزء الأول، وجامع الأحاديث للسيوطى جـ ٥ صـ ٦٠٨

ومن رحمة الله تعالى بأمة محمد صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إذا مسّهم » ولم يقل : « لمسَهم » . لأنهم من الذين اتقوا ، أى وضعوا بينهم وبين صفات جلال الله وقاية تجعلهم يقفون عند حدوده ولذلك يقول : ﴿ إن الذين اتقوا إذا مسَّهم طائف من الشيطان تذكروا ﴾ .

والطائف هو الخيال الذى يطوف بالإنسان ليلاً ، وبما أن الشيطان لا يرى ، لذلك نصوره على أنه خيال ، فإذا ما طاف الشيطان بالمس للذين اتقوا وتذكروا خالق الشيطان وخالقهم ، وتذكروا منهج الله الذى يصادم شهواتهم ، وتذكروا أن عين الله تراهم ولا تغفل عنهم ، وأن محارم الله واضحة وبينة ، وسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : فى الحديث الذى يرويه عنه النعمان بن بشير : (الحلال بيّن والحرامُ بيّن وبينهما مشَبهات لا يعلمها كثير من النّاس ، فمن اتّقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع فى الشبهات كراع يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه ، ألا وإن لكل ملك حمى ، ألا إن حمى الله فى أرضه محارمه ، ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب) .(١)

وإذا ما تذكر المؤمنون العقوبة المترتبة على أى فعل شائن يزينه الشيطان لهم ، هنا تزول عنهم أى غشاوة ويبصرون الطريق القويم .

ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك :

﴿ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾ ﴾

ونحن حين نتتبّع كلمة « يمدونهم » فى القرآن ، نجدها مرة « يمدونهم » ، ومرة يمددكم كما جاء فى قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ ﴾

(من الآية ١٢ سورة نوح)

---

(١) رواه البخارى فى كتاب الإيمان جـ ١ صـ ١٨٥

ونعلم أن الشياطين لن تترك المؤمنين فى حالهم ، بل تظل فى محاولة الغواية ، وتحاول الشياطين غواية المؤمنين الطائعين أكثر من محاولتهم غواية العاصين ؛ لأن العاصى إنما يعاون الشيطان باتباعه شهوات نفسه ، ولا يقصر العاصى أو الشيطان فى ذلك ، بل يحاول العاصى أو الشيطان غواية المؤمنين و«أقصر» من مادة «قصر» ، أى أنه قادر أن يطول المسافة لكنه يقصرها . وهكذا إلحاح الشياطين لغواية المؤمنين .

فالشيطان - كما جاء فى القرآن - يعترف بموقفه من ملاحقة المؤمنين بالوسوسة وتزيين المعاصى .

﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾

(من الآية ١٦ سورة الأعراف)

والشيطان يعلم أن من لا يتقى الله لا يحتاج إلى تزيين أو غواية ؛ لأنه يرغب ويميل للمعاصى والعياذ بالله ؛ لذلك لا يبذل الشيطان لغوايته جهدا كبيرا .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى ۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾ ﴾

وقد جاء الحق تبارك وتعالى من قبل بكلمة « آيات » ، والآيات - كما أوضحنا - إما آيات كونية وإما آيات المعجزات الدالة على صدق الرسل ، وإما آيات الأحكام .

والله سبحانه وتعالى جاء هنا بكلمة : « آية » لا « آيات » ، والكون أمامهم ملئ بآياته ، والمنهج المنزل على الرسول عليه الصلاة والسلام واضح ، ولا ينقص إلا أن

تأتى الآية المعجزة - من وجهة نظرهم - وينبه الحق هؤلاء بقوله تبارك وتعالى فى سورة الإسراء :

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

إذن فالآياتُ المعجزاتُ التى طلبوها ، لا يأتى بها الرسول من عنده ، والآيات التى ينزل بها المنهج أيضاً ليست من عنده ، بل هى تنزيل من لدن عزيز حكيم . وكانوا يتهمونه صلى الله عليه وسلم أنه يفترى القرآن . لذلك طلبوا منه صلى الله عليه وسلم المعجزة الحسية متناسين ما جاءت به آيات القرآن الكريم من معجزة لم يستطيعوا هم أن يأتوا بآية واحدة من مثل آياتها ؛ وقالوا للرسول صلى الله عليه وسلم : ﴿ قالوا لولا اجتبيتها قل إنما أتبع ما يوحى إلى من ربى ﴾

يأمره هنا ربه أن يقول : ﴿ قل إنما أتبع ما يوحى إلىَّ من ربى ﴾

أى أن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم مكلف بأن يبلغهم بما يأتى به الوحى يحمله الروح الأمين جبريل عليه السلام من آيات القرآن الحاملة للمنهج الإلهى ، وهذا المنهج فى حد ذاته معجزة متجددة العطاء ، لذلك يضيف :

﴿ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

ففى القرآن الكريم بصائرُ وهدىً ورحمةٌ ، والبصائر جمع بصيرة ، من الإبصار ، إذا امتلأ القلب بنور اليقين الإيمانى فإن صاحبه يعيش فى شفافية وإشراق ، ويسمى صاحب هذه الرؤية المعنوية صاحب بصيرة ، أما البصر فهو مهمة العين فى الأمور الحسية ، لكنْ هناك أمور معنوية لا تكتشفها إلا البصيرة ، والبصيرة تضئ القلب بالنور حتى يستكشف تلك الأمور المعنوية ، ولا يمتلك القلب البصيرة إلا حين يكونُ مشحوناً باليقين الإيمانى .

والقرآن الكريم بصائر ؛ لأنه يعطى ويمنح من يؤمن به ويتأمله بصائر ليجدد الأمور المعنوية وقد صارت مُبْصَرَةً ، وكأنه قادر على رؤيتها ومشاهدتها وكأنها عينُ اليقين .

وهذا القرآن المجيد بصائرُ وهدى ، أى يدل الإنسان ويهديه إلى المنهج الحق وإلى طريق الله المستقيم ، وهو رحمةٌ أيضاً لمن لا يملك إشراقات القلب التى تهدى للإيمان ولا يملك قوة أخذ الدليل الذى يوصله إلى الهداية ، إذن فهو رحمة لكل الناس ، وهدى لمن يسأل عن الدليل ، وبصائر لمن تيقن أصول الإيمان مشهدياً ،

وكما قلنا من قبل : إنَّ الله قد أخبر المؤمنين بأمور غيبية ، ومن هذه الأمور الغيبية أن له جنةً وأن له ناراً ، وصدق المؤمنون بكل ما جاءهم من البلاغ عن ربهم ، وعلموا أن ذلك من الله ، وصار هذا العلم علم يقين كقدر مشترك فيما بينهم ، فإذا جاءَ يوم القيامة ورأوا الصراط مضروباً على متن جهنم مطابقاً لما صدقوه وصار عين يقين ، وإذا ما دخل بعضهم النار - والعياذ بالله - تكفيراً لذنوب ارتكبوها ، فهذا حق يقين . وضربت المثل من قبل - ولله المثل الأعلى - كان الجغرافيون يحدثوننا ونحن طلاب عن خريطة الولايات المتحدة ، ويقولون : إن عاصمتها « واشنطن » ، والميناء الكبير فيها اسمه « نيويورك » ، وفى « نيويورك » توجد ناطحات السحاب وهى مبان

ضخمة يزيد ارتفاع المبنى الواحد من هذه المبانى على مائة طابق أى أكثر من مائتى متر ، وصدقنا نحن أستاذ الجغرافيا ، وعندما أتيحت للبعض منا فرصة السفر ورأوا واشنطن ونيويورك من الطائرة ، صارت الرؤية عين يقين بعد أن كانت علم يقين . وعند هبوط الطائرة فى مطار واشنطن صارت الرؤية حق يقين .

وقد عرض الحق سبحانه وتعالى لنا الإيمان ببعض من الغيب فى قوله تعالى :

﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧ ﴾

(سورة التكاثر)

أورد سبحانه هنا « علم اليقين » « وعين اليقين » ، وأما « حق اليقين » فقد جاء فى قوله :

﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۝٨٨ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ۝٨٩ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ۝٩٠ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ۝٩١ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ۝٩٢ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ۝٩٣ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ۝٩٤ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ۝٩٥ ﴾

(سورة الواقعة)

والمؤمنون المصدقون بأخبار الغيب على درجات مختلفة . . فهناك من صدق الله فى الخبر عن الغيب كعين يقين ، وهناك من صدق قول الله حق اليقين ، ولذلك فإننا نجد الإمام عليا - كرم الله وجهه - يقول : « لو انكشف عنى الحجاب ما ازددت يقينا »

وفى الحوار الآتى الذى دار بين حضرة النبى صلى الله عليه وسلم، والصحابى الجليل الحارث بن مالك ما يكشف لنا جوهر هذا اللون من الإيمان:

« فقد روى الحارث بن مالك الأنصارى : أنه مرَّ برسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له : كيف أصبحت يا حارث ؟ قال : أصبحت مؤمناً حقّاً ، قال : «انظر ما تقول فإن لكل شئ حقيقة فما حقيقة إيمانك ؟ فقال عزفت نفسى عن الدنيا ، فأسهرت ليلى وأظمأت نهارى ، وكأنى أنظر إلى عرش ربى بارزا ، وكأنى أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها ، وكأنى أنظر إلى أهل النار يتضاغون[1] فيها . فقال يا حارث عرفت فالزم ثلاثاً » [2]

هذا الصحابى الجليل وصل إلى أن كل ما قاله النبى صلى الله عليه وسلم قد صار حق يقين ، وامتلك البصيرة التى رأى بها كلَّ ذلك .

﴿ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي ۚ هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

وهكذا نجد القرآن الكريم بصائر لأصحاب المنزلة والدرجات العالية ، وهدى لأصحاب الاستدلال ورحمةً للجميع .

ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك :

﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ ﴾

ومادام قد أوضح لك المولى سبحانه وتعالى من قبل أن هذا القرآن بصائر من ربنا

(١) يتضاغون : أى يرفعون أصواتهم بالصراخ والعويل .
(٢) أخرجه الحافظ الطبرانى عن الحارث بن مالك الأنصارى .

وهدى ورحمة ، ألا يستحق أن تحتفى به أيها المؤمن ؟ . . ألا تجذبك هذه الحيثيات الثلاث لأن تعطى له أذنك وألا تنصرف عنه ؟ .

إذن لابد أن تنصت للقرآن الكريم لتتلقى الفوائد الثلاث ؛ البصائر ، والهدى ، والرحمة ، وهو حقيق وجدير أن يُحْرَص على سماعه إن قُرئ .

ولنلحظ أن الله تعالى قال : ﴿ فاستمعوا له ﴾ ولم يقل « اسمعوا » ، لأن الاستماع فيه تعمد أن تسمع ، أما السمع فأنت تسمع كل ما يقال حولك ، وقد تنتبه إلى ما تسمع وقد لا تنتبه ، ومن الرحمة المحمدية يقول حضرة النبى صلى الله عليه وسلم ناهياً عن التسمع لأسرار الغير تجسساً عليهم بالبحث عن عوراتهم فيما يرويه عنه سيدنا أبو هريرة رضى الله عنه حيث قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تحاسدوا ولا تباغضوا ، ولا تجسَّسُوا ولا تحسّسوا ولا تناجشوا وكونوا عباد الله إخوانا » (١)

وفى هذا تحذير من هذه الأمور الخمسة التى منها التلصص والتصنت إلى أسرار الناس .

﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

والإنسان قد يصمت ويستمع ولكن بغير نيه التعبد فيحرم من ثواب الاستماع ، فاستمع وأنصت بنية العبادة ، لأن الله هو الذى يتكلم ، وليس من المعقول والتأدب مع الله أن يتكلم ربك ثم تنصرف أنت عن كلامه ، وقد لفت أنظارنا سيدنا جعفر الصادق (٢) : ونبهنا إلى ما فيه الخير حيث يقول :

« عجبت لمن خاف ولم يفزع إلى قوله تبارك و تعالى : « حسبنا الله ونعم

---

(١) أخرجه الإمام مسلم (كتاب البر والصلة والآداب) جـ ١٦ صـ ١١٩ .
(٢) الإمام جعفر الصادق بن سيدى محمد الباقر ، بن سيدى على زين العابدين ابن سيدنا الحسين .

الوكيل»، فإنى سمعت الله عقبها يقول : « فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء » .

وعجبت لمن اغتم ، ولم يفزع إلى قوله تبارك وتعالى : « لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين » فإنى سمعت الله عقبها يقول :

« فاستجبنا له ونجيناه من الغم ، وكذلك ننجى المؤمنين » .

وعجبت لمن مُكر به ، ولم يفزع إلى قوله تبارك وتعالى : « وأفوض أمرى إلى الله إن الله بصير بالعباد » . فإنى سمعت الله عقبها يقول :- « فوقاه الله سيئات ما مكروا» .

وعجبت لمن طلب الدنيا ولم يَفْزَع إلى قوله تبارك وتعالى : « ما شاء اللهُ لا قوة إلا بالله » . فإنى سمعت الله عقبها يقول : « فعسى ربى أن يؤتينى خيراً من جنتك » .

ونحن حين نستمع لقراءة القرآن الكريم بنية التعبد فذلك هو حُسْن الأدب الذى يجب أن نستقبل به العبر التى تعود بالفائدة علينا .

ووقف العلماء حول الإنصات سماعاً للقرآن ؛ أيكون الإنصات إذا قرئ القرآن مطلقاً فى أى حال من الأحوال ، أو حين يُقرأ فى الصلاة ، أو حين يُقرأ فى خطبة الجمعة ؟

وقد اختلفوا فى ذلك ، فبعضهم قال : إن المقصود هو الإنصات للقرآن حين يُقرأ فى الصلاة ، والسبب فى ذلك أن الأوائل من المسلمين كانوا حينما يقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الصلاة ، يعيدون بعده كل جملة قرأها فإذا قال : بسم الله الرحمن الرحيم ؛ قالوا : بسم الله الرحمن الرحيم ، وإذا قال : « الحمد لله رب العالمين » ، قالوا : « الحمد لله رب العالمين » فينبههم الله عز وجل إلى أن يتركوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ وهم يستمعون إليه دون ترديد للقراءة .

وقال آخرون من العلماء : الإنصات للقرآن الكريم يكون فى الصلاة ، وفى خطبة الجمعة أو العيدين ، لأنها تشتمل على آيات من القرآن ، ولكن اشتمالها على الآيات أقل مما يقوله الخطيب ، ونبه البعض إلى أن الإنصات للخطبة ثبت بدليل قول النبى عليه الصلاة والسلام :

(إذا قلت لصاحبك والإمام يخطب يوم الجمعة أنصت فقد لغوت)(١)

إذن الإنصات للخطبة جاء بدليل من السنة .

وهناك قول بأن الاستماع مطلوب للقرآن فى أى وضع من الأوضاع حين يُقرأ ؛ ففى هذا احترامٌ ومهابةٌ لكلام الله عز وجل ، وينسب هذا القول إلى إمامنا وسيدنا ومولانا سيدى « أبى عبد الله الحسين » ، فيقول :

إذا قُرئ القرآن سواءٌ إن كنت فى صلاة أو كنت فى خطبة ، أو كنت حراً فأنصت ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى أراد أن يميز القرآن على مطلق الكلام ، فميزه بأشياءَ ، إذا قُرئ ننصت له ، وإذا مسّ المصحف لابد أن يكون على « وضوء » حتى لا يجترئ الناس ويمسّوا المصحف كأى كتاب من الكتب ، وهذا يربى المهابة فلا تمسك المصحف إلا وأنت متوضئ ، فإذا علمنا أولادنا ، نقول للواحد منهم : لا تقرب المصحف إلا وأنت متوضئ ؛ فتنشأ المهابة فى نفس الولد .

وأيضاً فى « الكتابة » شاء الحق تبارك وتعالى لبعض ألفاظه كتابة خاصة غير كتابة التقعيد الإملائى ؛ حتى يكون للقرآن قداسة خاصة ، فهو كتاب فريد وليس ككل كتاب وكلامه ليس ككل كلام .

﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

وبعض العلماء قال : ليس المطلوب مجرد الاستماع بالآذان ، بل المقصود

---

(١) رواه الإمام مالك فى مسنده ، ورواه الإمام أحمد فى مسنده ، والبيهقى ، وأبو داود والنسائى - عن أبى هريرة .

بالاستماع هنا هو أن نستجيب لمطالبه ، ألا تقولون لبعضكم حين يدعو بعضكم لبعض : « الله يسمع دعاك » ؟ إنك تقولها وأنت تعلم أن الله سامعك ، ولكنك تقصد بها أن يستجيب سبحانه وتعالى لهذا الدعاء ، إذن فالاستماع للقرآن يقتضى الاستجابة لمطلوبات القرآن . لماذا ؟ لننال الرحمة من الحق فهو الرحمن الرحيم . ﴿ لعلكم ترحمون ﴾ .

ونعلم أن « لعل » « وعسى » حين تقال يقصد بها الرجاء ، و « ليت » تعنى التمنى وهو مستحيل ولا يُتَوَقّع ، ونحن نتمنى لنظهر أن هذا أمر محبوب لنا ، لكننا نعلم أنه مستحيل ، مثلما قال الشاعر العجوز :

ألا ليت الشباب يعـــود يوما فأخبـره بمـا فعـــل المشيب

إنه يعلم يقيناً أن الشباب لن يعود ولكن قوله يدل على أن الشباب فترة محبوبة . ومثل قول الشاعر :

ليت الكواكب تدنو لى فأنظمها عقود مدح فما أرضى لكم كَلِم

ولن تدنو الكواكب .

إذن ساعة تسمع « عسى » أو « لعل » يتبادر إلى ذهنك أن هذا رجاء لأن يحدث ، وإذا كان رجاء من الله ، فهو رجاء من كريم لابد له من واقع .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ ﴾

والذكر مرور الشئ ، إن كان بالبال ، فهو ذكر فى النفس ، وإن كان باللسان ولا يُسْمِع الغير ويُسْمِعك أنت فهذا ذكر السر ، وإن كان جهرا فهو قسمان ؛ جهر

مقبول، وجهر غير مقبول، والجهر غير المقبول هو أن يتحول الذِّكرُ إلى إزعاج والعياذ بالله ، ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴾

(من الآية ١١٠ سورة الإسراء)

ولعل إخواننا القراء يتنبهون إلى هذه الآية ؛ تنبهاً يجعلهم يلتفتون إلى أداء أمر الله فى هذا المجال فلا يجهرون ولا يرفعون أصواتهم به لدرجة الإزعاج ، لأنى أقول لكل واحد منهم : إن ربك لم يطلب منك حتى الجهر ، إنما طلب دون الجهر ، وأقول ذلك خاصة لهؤلاء الذين يفسدون نعمة الله على خلقه ؛ فيصيحون ليلا ويمنعونهم من رحمة الله ليلا التى قال عنها :

﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾

(سورة القصص)

فلا تفسدوا على الناس رحمة ربنا ؛ لأن الدعوة إلى الله ليست صياحاً على المنابر ، اللهم إلا إذا كنتم تصنعون لأنفسكم دعاية إعلامية على مساجد الله وعلى منابر الله . وهذا أمر مرفوض وغير مقبول شرعاً .

﴿ واذكر ربك فى نفسك تضرعاً وخيفة ﴾ والحق تبارك وتعالى يقول مرة :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ ﴾

(سورة الأحزاب)

ومرة يقول : ﴿ واذكر ربك ﴾

وقوله : « اذكر الله » يستشعر سماعها التكاليف ؛ لأن الله هو المعبود ، والمعبود

هو المطاع فى الأوامر والنواهى .

أما قوله : « اذكر ربك » فهو تذكير لك بما حباك به من أفضال ؛ خلقك ورباك وأعطاك من فيض نعمه ما لا يعد ولا يحصى . فاذكر ربك ؛ لأنك إن لم تعشقه تكليفاً، فأنت قد عشقته لأنه ممدك بالنعم ، وسبحانه يتفضل علينا ويوالينا جميعاً بالنعم .

وأضرب لك هذا المثل - ولله المثل الأعلى وهو منزه عن التشبيه - وأنت لك أولاد، وتعطى لهم مصروفاً ، وحين تعطى لهم المصروف كل شهر، تجدهم لا يحرصون على أن يروك إلا كل شهر، لكن إن كنت تعطى لهم مصروفهم يوميا فأنت تلتفت لتجدهم حولك ، فإن كنت نائماً يدخل ابنك لغرفة نومك يسير بجانبك ويتنحنح ليقول إنه يحتاج لشئ موجود بالغرفة ، فما بالك وأنت بكل وجودك عبد لإحسان ربك ؟ وما دمت عبد الإحسان فاذكر من يحسن إليك ، اذكر ربك دائماً .

واذكره على حالين : الأول تضرعاً . أى بذلة ، لأنك قد تذكر واحداً بكبرياء ، إنما الله الخالق المحسن يجب عليك أن تذكره بذلة عبودية لمقام الربوبية ، واذكر ربك « خيفة » أى خائفاً متضرعاً؛ لأنك كلما ذللت له يعزك ، ولذلك نجد العبودية مكروهة فى البشر وهى استعباد، والناس ينفرون ممن يستعبدهم؛ لأن عبودية الإنسان لمساويه طغيان كبير وظلم عظيم فهى تعطى خير العبد للسيد ، ولكن عبوديتك لله تعطى خير الله لك . ولذلك نجد الحق يمتن على رسوله صلى الله عليه وسلم فيقول :

﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

وقد أخذ الرسول صلى الله عليه وسلم منزلة كبرى بحادث الإسراء، وكان الحديث عنها بامتنان من الله على عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم.

والشاعر المؤمن يقول :

حسب نفسى عزاً بأنى عبد يحتفى بى بلا مواعيد رب

هو فى قدسه الأعز ولكن أنا ألقى متى وأين أحب

وأنت أيها العبد المؤمن تلقى الله متى أردت، وإذا أسلمت زمامك للإيمان ؛ فالزمام فى يدك. يكفى أن تنوى الصلاة وتقول : الله أكبر فتكون فى حضرته سبحانه سواء كنت فى البيت أو فى الشارع أو فى أى مكان . وفى هذا منتهى العزة لك.

﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ ﴾

(من الآية ٢٠٥ من سورة الأعراف)

ولم يقل هنا رب العالمين : بل ربك أنت يا محمد، وهذه قمة العطاءات التى جاءت للناس، فهذا العطاء الذى جاء بمحمد رسولاً، نعمةٌ ومنةٌ من الله على المؤمنين برسالته، وبعد ذلك ينسب لكل مسلم العطاء الذى جاء لمحمد . وقوله تعالى لرسوله : «واذكر ربك فى نفسك » أى أنه سبحانه لم يجعل دليل عنايته بك مقصوراً على مايشاهد فى الخارج والبعيد عنك فقط ؛ لأنك قد لا ترى شيئاً فى الكون أو لا تسمع شيئاً فى الكون ؛ لأن الكون منفصل عنك، إنما انظر إلى نفسك أنت وستجد الآيات كلها تذكرك بخالقك،

﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

(سورة الذاريات)

فقبل أن يجعل ربنا الدليل فى الكون الذى حولك، جعل لك الدليل أيضا فى نفسك ؛ لأن نفسك لا تفارقك وأنت أعلم بملكاتها وبجوارحها، وبنوازعها، ولهذا كان التضرع إلى الله والخيفة منه لهما مجال هنا ؛ لأنك تستطيع أن ترى سر صنعته فيك، وستجد الكثير من الآيات، وهى آيات أكبر منك، لذلك أنت تتضاءل أمام من وهب لك كل هذا، وتخاف ألا تؤدى حقه لديك.

ونعود إلى قول الله تعالى : ﴿ واذكر ربك فى نفسك تضرعاً وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ﴾ والذكر حَدَثٌ، والحدَثُ يحتاج إلى زمان وإلى مكان. والغدو والآصال زمنان يستوعبان النهار؛ فالغدو هو أول النهار، والآصال هو من العصر للمغرب، مثلما نقول "شمس الأصيل" . وهذه الآية الكونية تتكرر فى القرآن الكريم كثيرا، فالحق تبارك وتعالى يقول :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ ﴾

(سورة الأحزاب)

وكما يقول عز وجل :

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ ﴾

(سورة الفتح)

و "الأصيل" هنا مشترك، ومقابل الأصيل يطلق الحق عليه مرة بكرة، وأخرى يطلق عليه : الغدو، وسبحانه القائل :

﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾ ﴾

(سورة النور)

إنك ساعة أن تقرأ " فى بيوت " تعرف أن هنا حدثاً؛ لأن قوله : "فى بيوت"

شبه جمله " فى معنى الظرف ، وإذا استقرأت ما قبلها ، لم تجد لها مُتَعَلَّقاً . والحظ إذن أن ما قبلها هو ﴿ نور على نور ﴾ ﴿ فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه ﴾ فأنت حين تذهب إلى المسجد لتلقى الله ، فذلك نور ، وتصلى له فذلك نور ، وتخرج من هذا النور بنور يهبط عليك فى بيته ، وكل هذا نور على نور ، فمن أراد أن يتعرض لنفحات نور الله عز وجل ؛ فليكثر من الذهاب إلى بيوت الله ، وللمساجد مهابة النور لأنها مكان الصلاة ، ونعلم أن الصلاة هى الخلوة التى بين العبد وربه ، وكان رسول الله إذا حزبه أمر قام إلى الصلاة . وأنت إذا ما اتبعت حضرة النبى صلى الله عليه وسلم وتصلى ركعتين لله إن حزبك أمر وعزت عليك مسألة وكانت فوق أسبابك ثم ذهبت بها إلى الله فلن يخرجك الله إلا راضياً. ﴿ فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال﴾ .

والغدو والآصال أو البكرة والأصيل كما عرفنا هى أزمنة أول النهار وأزمنة أول الليل.

ولماذا أزمنة أول النهار وأزمنة أول الليل ؟

لأن هذه الأزمنة هى التى يطلب فيها الذكر . فقبل أن تخرج للعمل فى أول النهار أنت تحتاج لشحنة من العزيمة تقابل بها العمل من أجل مطالب الحياة ، وفى نهاية النهار أنت تحتاج أن تركن إلى ربك ليزيح عنك متاعب هذا اليوم ، لذلك إياك أن تشغلك الحياة عن واهب الحياة ، ولك أن تذكر ربنا وأنت تعيش مع كل عمل تؤديه وتقوم به وأن تقابل كل نتيجة للعمل بكلمة : (الحمد لله) وعندما ترى أى جميل من الوهاب سبحانه وتعالى يجب عليك أن تقول : « ما شاء الله » وعندما ترى أى شئ يعجبك تقول : (سبحان الله).

ولذلك حينما دعا الله خلقه المؤمنين به إلى الصلاة قال :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ ﴾

(سورة الجمعة)

وهذا التكليف فى صلاة الجمعة المفروضة كصلاة للجماعة، والجماعة مطلوبة فيها، ومن الضرورى أن نتواجد فيها كجمع؛ لأن الجماعة مشروطة فيها فلا تصح بدون الجماعة.

ونعرف أن الصلاة إنما هى ذكر لربنا، فماذا بعدها ؟

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ ﴾

(سورة الجمعة)

أى إياك أن يشغلك انتشارك فى الأرض وابتغاؤك من فضل الله، والأخذ بأسباب الدنيا عن واجبك نحو الله، بل عليك أن تذكره سبحانه وتعالى :

﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

أى لا تكن من الغافلين عن مطلوبات الله بالحدود التى بينها الله عز وجل؛ لأن الغفلة معناها انشغال البال بغير خالقك، وأنت إن جعلت خالقك فى بالك دائما فإنك لاتغفل عن مطلوباته فى الغدو والآصال وفى كل وقت، سواء كنت فى الصلوات الخمس، أو كنت تضرب الأرض فى أى معنى من المعانى، وتأس أيها المؤمن بالملائكة الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون، فإذا كان الملائكة والذين لم يرتكبوا أية معصية وليس لهم موجبات المعصية، ولا يأكلون ولا يتناسلون، وليس لهم شهوة بطن ولا شهوة فرج، وكل المعاصى جميعها تأتى من هذه الناحية، مع ذلك يجب عليك أن تتأسى بهم؛ لأنهم هم الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون لايستكبرون عن عبادته، ويسبحونه؛ وله يسجدون، لذلك يقول الحق بعد ذلك :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾ ﴾

وإذا كنا كلنا عند ربنا وفى حضرة ما منحه لنا من خَلْق وما أمدنا به من إيجاد من عُدم سواء، فلماذا خص هؤلاء بالعندية ؟.

إياك أن تفهم من العندية أنها عندية المكان؛ لأن المكان مُحَيَّز، وربنا عز وجل لا يتحيز فى مكان، والعندية هنا عندية الفضل، وعندية الرحمة، وعندية الملك، وعندية العناية. أو إن كل خلق لله جعل لهم أسباباً ومسبَّبات، ولكن خلقاً من خلقه يسبحونه بذاته، وليس لهم عمل آخر، ويعرفون بالملائكة العالين، لا الملائكة المدبرات أمراً أو الحفظة.ولذلك قلنا سابقاً: إن الحق سبحانه وتعالى حينما أمر الملائكة بالسجود لآدم، وامتنع إبليس ، قال له :

﴿ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴾

(من الآية ٧٥ سورة ص)

و "العالين" هم الذين لم يشملهم أمر السجود، فهم ملائكة موجودون ولا عمل لهم إلا تسبيح الذات العلية ولا يدرون عن الخلق أو الدنيا شيئاً. وهم غير الملائكة المسخرين لخدمتنا؛ فالذين عند ربنا هم الملائكة المُهيَّمون الذين لا يعرفون شيئاً إلا الذات الإلهية وتسبيح الذات وعملهم يحدده الله هنا : ﴿ لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون ﴾

واختلف العلماء فى كيفية سجود الملائكة، أهو الخضوع؟ أهو الصلاة ؟ أهو السجود الذى نعرفه نحن ؟ والسجود عندنا هو منتهى ما يمكن من الخضوع لله عز وجل وقت الصلاة. لأنه نزول بأشرف شئ فى الإنسان وهو الوجه الذى يضعه المؤمن على الأرض خضوعاً لله عز وجل . ولذلك علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم

أننا إذا مررنا على آية سجدة من آيات كتاب الله فيها مثل ذلك فعلينا أن نستجيب لها استجابة حقيقية ونسجد لها سجدة تسمى سجدة التلاوة، ويكون ذلك عند تلاوتها أو سماعها من القارئ، وحصرها العلماء فيما تجدونه فى المصحف عند كل سجدة وجعلوا عندها علامة ووضعوا تحت الكلمة التى نسجد عندها خطاً. وحين قام العلماء ببيان المواضع التى تطلب فيها هذه السجدات وجدوها قد ابتدأت بسجدة آخر سورة "الأعراف" التى نتناولها بخواطرنا الآن، وانتهت بسجدة "العلق":

﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ ﴾

(سورة العلق)

وبينهما سجدات، وبعض العلماء عدّ فى سورة الحج سجدتين وبعضهم أهمل السجدة الثانية فى هذه السورة. فمن حسبها خمس عشرة سجدة، عدّ سجدة الحج الثانية المختلف عليها مع سجدة الحج الأولى - المتفق عليها - وبعض العلماء قال: إنها أربع عشرة سجدة؛ لأنه لم يحسب سجدة الحج الثانية.

وهب أنك أردت أن تسجد لله شكراً فى أى وقت، وعند أى آية فاسجد لله سجدة الشكر، وهى سجدة واحدة كسجدة التلاوة وتستحب عند تجدد نعمة أو انقشاع غمّه، أو زوال نقمة ولا تكون إلا خارج الصلاة.

والسجود بطبيعة الحال تبدأه بالتكبير، ورفع اليدين كأنك تبدأ الصلاة، والمفترض أن تقول: "سبحان ربى الأعلى"، إلا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم علمنا ما نقوله فى السجود للتلاوة، وروى عن ابن عباس قال: كنت عند النبى صلى الله عليه وسلم فأتاه رجل فقال: إنِّى رأيتُ البارحَة - فيما يرى النائم كأنِّى أصلى إلى أصل شجرة، فقرأت السجدةَ فسجدت الشجرةُ لسجودى فسمعتها تقول: اللهم احطُطْ عنى بها وزْراً، واكتُب لى بهاَ أَجْراً، واجْعلْها لى عندكَ ذُخْراَ. قال ابنُ عباس: فرأيت النَبى صلى الله عليه وسلم قرأ السجدة فسجد، فسمعته يقول فى

سجوده مثل الذى أخبره الرجلُ عن قولِ الشجرة »[١]

وبذلك تختم سورة الأعراف، والتسمية للسورة فى ذاتها متناسبة؛ لأن "الأعراف" هو المكان العالى البارز الذى يجلس عليه القوم ممن تساوت حسناتهم وسيئاتهم لينظروا إلى أهل الجنة وينظروا إلى أهل النار، وهكذا تكون الأعراف مكاناً يزيد فى الارتفاع، وهى مأخوذة من "عرف الفرس"، وعرف الفرس أعلى شئ فيه، والأنفال أيضاً هى الزيادة؛ ولذلك فإن التسمية متناسبة سواء بالنسبة لسورة الأعراف أو الأنفال، وأيضاً يوجد التناسب فى المعنويات، وهذا التناسب نلحظه عندما نقرأ قول الحق تبارك وتعالى فى أواخر سورة الأعراف :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

ثم يأتى قوله سبحانه وتعالى فى أول سورة الأنفال :

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ﴾

(من الآية ١ سورة الأنفال)

لأن من مهام الشيطان أن يفرق بين المؤمنين بوسوسته لهم، فإذا ما تذكروا الله وما أعده لأهل الإيمان؛ فهم يبصرون الحقيقة الأولى التى ترتفع على كل شئ وهى الإيمان بالله، وهذا الإيمان إنما يتطلب تصفية القلوب من كل ما يكدرها حتى تكون خالصة نقية.

---

(١) رواه ابن ماجه والترمذى وزاد فيه : وتقبلها منى كما تقبلتها من عبدك داود عليه السلام.

سُورَةُ الأَنفَالِ (٨)

مدنية

بسم الله الرحمن الرحيم

يقول الحق سبحانه وتعالى مفتتحاً سورة الأنفال :

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾ ﴾

السؤال يقتضى سائلاً : وهم صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويقتضى مسئولاً هو الرسول عليه الصلاة والسلام، ويقتضى مسئولاً عنه وهو موضوع السؤال المطروح.

والمسئول عنه قد يوجد بذاته، مثلما نسأل صديقنا : ماذا أكلت اليوم ؟ هذا السؤال فيه تحديد لمنطقة الجواب، والجواب عنه أيضا يحدد المنطقة.

وموضوع السؤال فى قول الله تعالى :

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ﴾

(من الآية ٢٢٢ سورة البقرة)

يدل عليه الجواب، فهم لم يسألوا عن أسباب المحيض ، أو لماذا ينقطع عن الحامل أو من بلغت الكبر، لكن كان موضوع السؤال الذى هو واضح من إجابة الحق تبارك وتعالى : أيجوز أن يباشر الرجل المرأة أثناء المحيض أم لا ؟

وسؤال آخر سألوه للرسول صلى الله عليه وسلم عن اليتامى، ويحدد الجواب

موضوع السؤال : يقول الله تعالى :

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

(من الآية ٢٢٠ من سورة البقرة)

لأنهم كانوا يتخوفون من مخالطة اليتامى فى الأموال ومن مؤاكلتهم، وغير ذلك من ألوان التعامل، ورعاً وبعداً عن الشبهات وجاءت الإجابة لتحدد موضوع السؤال :

ومرة يأتي السؤال وفيه تحديد مناط الإجابة لأنها عامة مثل قوله الحق تبارك وتعالى :

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ﴾

(من الآية ١٨٩ من سورة البقرة)

هم سألوا محمداً صلى الله عليه وسلم : لماذا يبدأ الهلال صغيراً ولماذا يكبر، ثم لماذا يختفى فى المحاق ؟ . وهذا سؤال فى الفلك . ولم يجبهم الرسول صلى الله عليه وسلم إلا فى الحدود التى يستفيدون منها وهى القيمة النفعية العملية، وجاءت الإجابة : ﴿ قل هى مواقيت للناس والحج ﴾ .

لأننا ورغم وجودنا فى هذا القرن العشرين إلا أن البعض من الناس مازال يكذب الحقيقة العلمية التى ثبتت بما لا يدع مجالاً لأى شك . ونقول للعامة : إن الهلال يشبه قلامة الظفر ثم يكبر ليستدير ثم يختفى قليلاً قليلاً . وفى هذا يقول الشاعر :

وغاية ضوء قمير كنت آمله مثل القلامة قد قدت عن الظفر

ولو قال لهم : إن الهلال يظهر حين تتوسط الأرض بين الشمس والقمر ثم يبدأ

فى الاكتمال تباعاً، لما استطاعت عقولهم أن تستوعب هذه المسألة، فجاء لهم بالحكمة المباشرة النفعية التى تدركها عقولهم تماماً، ثم ارتقت العقول بالعلم ووصلنا إلى دراسة حركة الأفلاك التى توضح كل التفاصيل الفلكية.

وهناك سؤال يجىء فى أمر محدد، مثل قول الحق:

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ٢١٧ من سورة البقرة)

وهكذا عرفنا أن موضوع السؤال هو عن حكم القتال فى الشهر الحرام، لا طلب تحديد الأشهر الحرم بالذات.

ويقول الحق تبارك وتعالى هنا: ﴿ يسألونك عن الأنفال ﴾ والأنفالُ جمعُ نَفَل (بفتح الحرف الأول والثانى)، مثل كلمة سَبَب وأسباب، والمراد بالنَفل هنا الغنيمة؛ لأنها من فضل الله تعالى وهى من خصائص سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وقد اختصت بها هذه الأمة دون الأمم السابقة، والنفْل بالسكون الزيادة، ومنه صلاة النافلة؛ لأنها زيادة عن الفريضة الواجبة، وفى هذا المعنى يقول ربنا عز وجل فى آية ثانية: ﴿ ومن الليل فتهجد به نافلة لك ﴾.

ونافلة تعنى أمراً زائداً غير مفروض، ولذلك نقول: إن النفل هو العبادة الزائدة، وشرطها أن تكون من جنس ما فُرض عليك؛ لأن الإنسان لا يعبد ربه حسب هواه الشخصى، بل يعبد العبد ربه بأى لون من ألوان العبادة التى شرعها الله، وإذا أراد زيادة فيها فلتكن من جنس ما فرض الله، حتى لا يبتدع العبد عبادات ليست مشروعة. ولذلك قال الحق تبارك وتعالى لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم:

﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

النفل إذن هو أمر تعبدى زائد عن الأصل .

وحينما ابتلى الله سيدنا إبراهيم عليه السلام بأن يذبح ولده إسماعيل ، جاءه الابتلاء لا بوحى صريح ، ولكن برؤيا منامية وهو ابتلاء شاق ، فلم يكن الابتلاء - مثلا - أن يذبح إنسان آخر سيدنا إسماعيل ، ثم يصبر سيدنا إبراهيم على فقده ، لا بل هو الذى يقوم بذبح ولده إسماعيل . وهكذا كان الابتلاء كبيراً ، خصوصاً أنه لم يأت إلا فى آخر العمر . وكانت هذه المسألة من الملابسات القاسية على النفس . ولذلك أوضح ربنا عز وجل أن سيدنا إبراهيم كان أمة ، أى اجتمعت فيه صفات الإيمان اللازمة لأمة كاملة .

﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾

(من الآية ١٢٤ سورة البقرة)

ولنر رحموت النبوة فى سلوك سيدنا إبراهيم عليه السلام حين جاء لينفذ أمر الرؤيا بذبح الابن لأن رؤيا الأنبياء وحى ؛ لذلك لم يشأ أن يأخذ ولده أخذاً دون أن يطلعه على الحقيقة ؛ لأنه لو فعل ذلك سيعرض ولده لحظة لهاجس عقوق لأبيه ، وقد يقول الابن : أى رجل هذا الذى يذبح ابنه ؟ . وأراد سيدنا إبراهيم أن يشاركه ابنه كذلك فى الثواب ، وأن يكون الابن خاضعاً لأمر الحق تبارك وتعالى كأبيه فقال له :

﴿ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ﴾

(من الآية ١٠٢ سورة الصافات)

وهكذا أوضح سيدنا إبراهيم عليه السلام الابتلاء الذى جاءه كرؤيا فى المنام. فماذا يقول الابن إجابة على سؤال أبيه ؟

﴿ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٠٢ ﴾

(سورة الصافات)

أى أن إسماعيل عليه السلام أسلم زمامه لأمر الحق تبارك وتعالى، ويواصل المولى سبحانه وتعالى وصف ابتلاء سيدنا إبراهيم بذبح الابن فيقول تبارك وتعالى :

﴿ فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ١٠٣ وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ١٠٤ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٠٥ ﴾

(سورة الصافات)

فبعد أن رضى كل من سيدنا إبراهيم وابنه سيدنا إسماعيل وسلما أمرهما لله تعالى وامتثلا للأمر بالقضاء، رفع الله برحمته هذا القضاء؛ لذلك يصف الحق تبارك وتعالى هذا البلاء وتكرمه بالفداء فيقول :

﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ١٠٦ وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ ١٠٧ ﴾

(سورة الصافات)

وتعلمنا هذه الواقعة أيها المسلم أنك إذا ما جاء لك قضاء من الله، إياك أن تجزع، إياك أن تسخط، إياك أن تغضب، إياك أن تتمرد؛ لأنك بذلك تطيل أمد القضاء عليك، ولكن سلم لقضاء الله فيُرفع هذا القضاء؛ لأن القضاء لا يُرفَع حتى يُرْضى به. وهكذا لم يكن جزاء الصبر على القضاء لسيدنا إبراهيم عليه السلام افتداء إسماعيل بذبح عظيم فقط، بل وزيادة على ذلك يسوق له المولى البشرى بمزيد من العطاء فيقول :

﴿ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ ﴾

(سورة الصافات)

أى أنه لم يرزقه بولد ثان فقط ، بل بولد يكون نبياً وصالحاً . وتأتى زيادة أخرى فى العطاء الربانى لسيدنا إبراهيم عليه السلام فيقول سبحانه وتعالى :

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾

(سورة الأنبياء)

هكذا يتجلى عطاء المولى سبحانه وتعالى لسيدنا إبراهيم عليه السلام فلا يعطيه الولد الذى يحفظ ذكره فقط ، بل يعطيه الولد الذى يحفظ أمانة الدعوة أيضاً ، وكل ذلك نافلة من الله ، أى عطاء كريم زائد وفضل كبير لأبى الأنبياء .

إذن النفل هو الأمر الزائد عن الأصل . ومثال ذلك ما خص الله به رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلى ، نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لى الأرض مسجداً وطهورا ، فأيما رجل من أمتى أدركتْه الصلاة فليصل ، وأحلت لى الغنائم ، ولم تحل لأحد قبلى ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبى يبعث إلى قومه خاصة ، وبعثت إلى الناس عامة)(١) .

إذن تشريع الله للغنائم فى الإسلام أمر زائد عن الأصل ؛ لأن الغنائم لم تحل لأحد من الأنبياء قبل رسولنا صلى الله عليه وسلم .

وهناك نفل ، وهناك غنيمة ، وهناك فىء ، وهناك قبض .

وسنوجز معنى كل منها :

(١) رواه البخارى ومسلم عن جابر رضى الله عنه . وجامع الأحاديث للسيوطى حـ ١ ص ٦٣٥ .

الغنيمة : هى ما يأخذه المسلمون من الأعداء المهزومين ، وتقسم فيما بينهم بنسب معينة ، فللرجل المقاتل سهم واحد ، وللفارس سهمان ، وهذا على سبيل المثال فقط وتقسيمها حسب تشريع الله عز وجل ، وسبق بيان النفَل والنفْل بفتح الوسط وسكونه ، والفيء هو كل مال صار للمسلمين من غير حرب ولا قهر - « والقبَض » بتحريك الوسط بمعنى المقبوض وهو ما جمع من الغنيمة قبل أن تقسم .

لكن إذا جاء ولى الأمر وبين للمقاتلين مشجعاً لهم على حركة الحرب مثلما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال :

(من قتل كافراً فله سلبه)(١) .

فذلك أمر زائد فى حصته فى الغنيمة .

وقد يبعث القائد سريةً ويشجعها على خوض الصعاب فيقول لأفراد تلك السرية : لكم نصف ما غنمتم ، أو الربع أو الخمس ، فهذا يعنى أن من حقهم أن يأخذوا النسبة التى حددها لهم القائد كأمر زائد ، ثم تقسم الغنائم من بعد ذلك ، وساعة يأخذ المقاتلون الأسلاب والمتاع ، والعتاد والأموال من الأسرى ، فهذه تسمى غنائم ، أما حين تُجْمع الغنائم عند ولى الأمر فيصير اسمها القبَض وقد سبق بيانه .

وفى يوم بدر حدثت واقعة يرويها الصحابى الجليل سعد بن مالك رضى الله عنه قائلاً :

قلت يا رسول الله : قد شفانى الله اليوم من المشركين ، فهب لى هذا السيف ، قال عليه الصلاة والسلام : « إن هذا السيف لا لك ، ولا لى ، فضعه » ، قال : فوضعته ، ثم رجعت ، فقلت : عسى أن يعطى هذا السيف من لا يبلى بلائى ، قال : فإذا رسول الله يدعونى من ورائى . قال الصحابى : قد أنزل الله فى شيئاً ؟ . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كنت سألتنى السيف ، وليس هو لى ، وأنه قد وُهِب لى ، فهو لك ، قال : وأنزل الله هذه الآية :

---

(١) رواه البيهقى وأبو داود والترمذى عن ابن قتادة .

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾

(من الآيه ١ سورة الأنفال)

أى أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن ليحكم فى أمر السيف إلا بعد أن ينزل حكم الله عز وجل. ونعلم جميعاً أن النبى صلى الله عليه وسلم ذهب إلى غزوة بدر ولم يكن يقصد القتال، بل كان الخروج للعير التى تحمل بضائع قريش القادمة من الشام، وليس معها إلا أربعون رجلاً يحرسونها، ولذلك خرج المسلمون وكان عددهم ثلثمائة وثلاثة عشر رجلاً وليس معهم عدة أو عتاد، بل لم يكن لديهم إلا فرسان اثنان لأنهم لم يخرجوا لقتال، بل خرجوا للعير بغية أن يعوضوا أنفسهم شيئاً مما سُلبوه فى مكة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن أبا سفيان سلك طريق الساحل. أى سار فى طريق بعيد عن المسلمين ولم يأت من جهة الرسول والذين معه، واستنفرت قريش كل رجالها ليحموا العير، وصار الأمر بين أن يرجع المؤمنون دون حرب، وإما أن يواجهوا النفير، وهو التعداد الكثير، وكانوا ألفاً ومعهم العُدّة والعتاد، فأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يشجع الفتيان على الحرب فقال لهم : « من قتل كافراً فله سلبه »، أى أنه خصّهم بأمر زائد عن سهمهم فى الغنيمة. فلما علم الكبار من الصحابة والشيوخ، قالوا : يا رسول الله هم قاتلوا وقتلوا، لكن نحن كنا عند الرايات، يفيئون إلينا إن وقعت عليهم هزيمة فلابد أن نتشارك، وحدث لغط وخلاف، فحسم الله سبحانه وتعالى هذا اللغط بأن أنزل قوله تعالى : ﴿ يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله ﴾.

فبين سبحانه أن الحكم فى قسمة الغنائم بين الجميع لله وللرسول وإياكم أن تخرجوا عن أمر الله فيها، واجعلوا بينكم وبين غضبه وقاية. فلا تنازعوا ولا تختلفوا ﴿ وأصلحوا ذات بينكم ﴾.

إن كان قد حصل بين الطرفين، الشبان والشيوخ الكبار قليل من الخلاف فأصلحوا ذات بينكم. وساعة تسمع ﴿ وأصلحوا ذات بينكم ﴾ قد تسأل : ما هو البين ؟ الجواب « البين » هو ما بين شيئين، فحين يجلس صف من الناس بجانب بعضهم

البعض، فما بين كل منهم هو ما يُسمى « البين »، وقد يكون الذى يفصلنا عن بعض « بين مودة » أو بين جفوة، إذن فالبين له صورة وله هيئة، فإن كانت الصورة التى بينكم وبين بعضكم فيها شىء من الجفوة فأصلحوا السبب الذى من أجله وُجدَ «البين» حتى لا يكون بينكم جفوة ونزاع.

ثم يقول تبارك وتعالى : ﴿ وأطيعوا الله ورسوله ﴾

(من الآية ١ سورة الأنفال)

وقلنا إن أمر الطاعة معناه الامتثال، والطاعة ليست للأمر فقط بل للنهى أيضاً، لأن الأمر طلب فعل، والنهى طلب عدم فعل، وكلاهما طلب. وحينما يقول الحق: ﴿ وأطيعوا الله ورسوله ﴾.

تفهم هذا القول على ضوء ما عرفناه من قبل وهو أن مسألة الطاعة أخذت فى القرآن صورا ثلاثا، الصورة الأولى : يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وأطيعوا الله ورسوله ﴾ وفيها يكرر المطاع وهو الله والرسول، ولكنه يفرد الأمر بالطاعة.

ومرة ثانية يقول المولى عز وجل :

﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ﴾

(من الآية ٩٢ سورة المائدة)

أى أنه سبحانه يكرر المطاع، ويكرر الأمر بالطاعة.

ومرة ثالثة يقول سبحانه وتعالى : ﴿ وأطيعوا الرسول ﴾. لأن منهج الله فيه أمور ذكرها الله عز وجل، وذكرها رسول الله صلى الله عليه وسلم وتواردت السنة مع النص القرآنى، فنحن نطيع الله والرسول فى الأمر الصادر من الله. وهناك بعض من التكاليف جاءت إجمالية، والإجمال لابد له من تفصيل، مثل الصلاة وفيها قال الحق تبارك وتعالى :

﴿ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَـٰبًا مَّوْقُوتًا ﴾

(من الآية ١٠٣ سورة النساء)

إذن فالله عز وجل أمر بالصلاة إجمالاً وقدّم الرسول صلى الله عليه وسلم لهذا الإجمال تفسيراً وتطبيقاً فهى خمس صلوات، ركعتان للصبح، وأربع ركعات للظهر، وأربع ركعات للعصر، وثلاث ركعات للمغرب، وأربع ركعات للعشاء، وحدد الرسول عليه الصلاة والسلام الصلوات التى نجهر فيها بقراءة الفاتحة وبضع آيات من القرآن، وحدد الصلوات التى لا نجهر فيها بالتلاوة.

إذن فحين يقول الحق تبارك وتعالى ﴿ أطيعوا الله ﴾، أى أطيعوه فى مجمل الحكم، وحين يقول : ﴿ وأطيعوا الرسول ﴾ أى أطيعوه فى تفصيل الحكم، وإذا ما قال : ﴿ أطيعوا الله والرسول ﴾ فهذا يعنى أن الحق قد أمر وأن الرسول قد بلغ، والمراد واحد، وإذا لم يكن لله أمر، وقال الرسول شيئاً فالحق يقول : ﴿ وأطيعوا الرسول ﴾، وسبحانه قد أعطى رسوله تفويضاً بقوله :

﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ ﴾

(من الآية ٧ سورة الحشر)

أى أن كل أمر من الرسول إنما يأتى من واقع التفويض الذى أكرمه الله به، وهنا يقول سبحانه وتعالى :

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾ ﴾

(سورة الأنفال)

أى إن كنتم مؤمنين حقا فاتقوا الله الذى آمنتم به واتّبعُوا الأمر الصادر من الله

ورسوله لكم، لأن مدلول الإيمان هو اقتناع القلب بقضية لا تطفو للمناقشة من جديد، وكذلك اقتناع بأن هذا الكون له إله واحد، وله منهج يبلغه الرسول المؤيد من الله عز وجل بالمعجزة، وهذا الإيمان وهذا المنهج يفرض عليكم تقوى الله بإصلاح ذات البين، ويفرض عليكم طاعة الله والرسول فى كل أمر، ومن هذه الأمور التى تتطلب الطاعة هو ما أنتم بصدده الآن، لأنه أمر فى بؤرة الشعور.

ويأتى الحق بعد ذلك ليبين من هم المؤمنون فيقول :

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ ﴾

وفى هاتين الآيتين الكريمتين خمسُ صفات لها ترتيب عقائدى وحركى وجوارحى، وبذلك يتحدد تشخيص كلمة « المؤمنين »، هذه الصفات هى الأولى: أنه إذا ذكر الله وجلت قلوبهم، وثانية الصفات أنه: إذا تليت عليهم آيات الله زادتهم إيماناً، ثالثة الصفات: أنهم على ربهم يتوكلون، ورابعة الصفات: أنهم يقيمون الصلاة، وخامسة الصفات: أنهم ينفقون مما رزقهم الله.

والصفة الأولى للمؤمنين هى:

﴿ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾

(من الآية ٢ سورة الأنفال)

والوجل هو الخوف فى فزع ينشأ منه قشعريرة، واضطراب فى القلب، وحينما أراد الشعراء أن يعطوا صورة بهذا الإحساس، نجد شاعراً منهم يقول:

كأن القلب ليلة قيل يغدى بليلى العامرية أو يراح

قطـاط غرها شرك تجا ذبه وقد علق الجنـاح

فالشاعرُ يصور حالة قلبه حين سمع بنبأ سفر حبيبته، كأنه صار مثل حمامة تحاولُ أن تخلّص نفسها من شبكة أو مَصْيدة وقعت فيها، إنها تجاذب المصيدة حتى تخرج، وهى ترجف فى مثل هذا الموقف، هكذا حال القلب لحظة فراق المحبوبة عند الشاعر.

وإذا كان ذكر الله عز وجل يدفع قلوب المؤمنين إلى الوجل، ألا يتنافى ذلك مع قول الحق سبحانه وتعالى: ؟

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ﴾

(سورة الرعد)

فى الحقيقة لا يوجد تعارض بين القولين؛ لأن ذكر الله تعالى يأتى بأحوال متعددة، فإن كان الإنسان مسرفاً على نفسه، فهو يرجف حين يذكر الله الذى خالف منهجه. وإن كان الإنسان يراعى حق الله فى كل عمل قَدْر الاستطاعة، فلابد أن يطمئن قلبه لحظة ذكر الله؛ لأنه اتبع منهج الله ما استطاع إلى ذلك سبيلا.

إذن فالخوف أو الوجل إنما ينشأ من مَهابة وسطوة صفات الجلال. والاطمئنان إنما يجىء من إشراقات وحنان صفات الجمال. ولذلك تجمعهما آية واحدة هى قول الحق تبارك وتعالى:

﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ٢٣ سورة الزمر)

فالجلود تقشعر خوفاً ووجَلاً ومهابة من الله عز وجل، ثم تلين اطمئناناً وطمعاً فى حنان المنّان سبحانه وتعالى، لأن ربّنا قال:

﴿ نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ ﴾

(سورة الحجر)

إذن فلا يقولن أحد إن هناك تعارضاً بين الوجل والاطمئنان، فكلها من ذكر الله بالأحوال المتعددة للإنسان، فإذا ما وجل الإنسان فهو يتجه إلى فعل الخير فيطمئن مصداقاً لقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴾

(من الآية ١١٤ سورة هود)

وهل يزيد الإيمان أو ينقص ؟

اختلف العلماء فى هذا الأمر . ونحن عندما ننظر إلى قول الحق نجده يؤكد زيادة الإيمان، وحينما نسأل ما الإيمان ؟ وما الإسلام ؟ . . . . إلخ نجد الجواب فى توضيح الرسول صلى الله عليه وسلم ورده على السائل فى الحديث الآتى والذى يرويه الصحابى الجليل سيدنا أبو هريرة رضى الله عنه حيث قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً بارزاً للناس فأتاه رجل فقال يا رسول الله : ما الإيمان؟ قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتابه ولقائه ورسله وتؤمن بالبعث الآخر، قال يا رسول الله : ما الإسلام ؟ قال : الإسلام أن تعبد الله ولا تشرك به شيئا وتقيم الصلاة المكتوبة وتؤدى الزكاة المفروضة وتصوم رمضان . قال يا رسول الله : ما الإحسان ؟ قال : أن تعبد الله كأنك تراه فإنك إن لا تراه فإنه يراك . قال : يا رسول الله : متى الساعة ؟ قال ما المسئول عنها بأعلم من السائل ولكن سأحدثك عن أشراطها، إذا ولدت الأمة ربها فذلك من أشراطها، وإذا كانت العراة الحفاة رءوس الناس فذاك من أشراطها، وإذا تطاول رعاءُ البَهْم فى البنيان فذاك من أشراطها فى خمس لا يعلمهن إلا الله . ثم تلا صلى الله عليه وسلم : إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الأرحام وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا وما تدرى نفس بأى أرض تموت إن الله عليم خبير، ثم أدبر الرجل فقال رسول الله صلى الله عليه

وسلم : ردوا عليّ الرجل فأخذوا ليردوه فلم يروا شيئا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هذا جبريل جاء يعلم الناس دينهم (١).

وجبريل عليه السلام حين جاء يسأل ليعلم بعضاً من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له الرسول عليه السلام عن الإيمان : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وفى رواية أخرى ذكر القضاء والقدر خيره وشره.

وهذه كلها أمور غيبية، ولا يقال فى الأمر المحسّ إيمان، فلا يقول واحد : أنا مؤمن أنى أتحرك على الأرض؛ لأن هذا أمر حسىّ. والإيمان لا يكون إلا بالأمور الغيبية وأولها أن تؤمن بإله واحد لا تدركه الأبصار وهو غيب، وبملائكته وهى غيب، وصدقنا وجودها لأنه أبلغنا بذلك الوجود. وكذلك أن نؤمن بالكتب المنزلة على الرسل. وبالرسل، وصحيح أن الكتاب أمر حسىّ والرسول كذلك له وجود حسىّ، لكن لم نشاهد الوحى وهو ينزل الكتاب على الرسول. إذن فهو أمر غيبى، وكذلك الإيمان باليوم الآخر أمر غيبى أيضاً، والإيمان بالقضاء والقدر وهو ما غابت عنا حكمته، وكلها إذن أمور غيبية.

هذا الإيمان فى القمة، لكن هناك إيمان آخر يجىء لأننا نعلم أن التشريعات لم تأت مرة واحدة، بل كانت تأتى على مراحل، فتشريع ينزل أولاً بأن نؤمن أنه من الله. إذن فالذى يزيد وينقص من الإيمان هو الإيمان بالتكليفات، وأنها صادرة من الله عز وجل، وكلما كانت تنزل آية بتشريع جديد كانت تزيد المؤمنين إيماناً، فعندما نزل الأمر بالصلاة آمنوا بإقامتها واستجابوا ونفذوا، ثم جاء الصوم فامتثلوا للأمر به، ثم يجىء الأمر بالزكاة فتكون الطاعة والتنفيذ، وطبعاً هناك فرق بين أن تؤمن بالشىء، وأن تفعل الشىء. فالإيمان شىء، وفعله شىء؛ لأن الإسلام هو الانقياد الظاهرى للمنهج، وتطبيق كل ما يجىء به الإسلام هو إيمان مستمر متزايد؛ لأننا آمنا بأن ما يجىء من المنهج هو من الله. إذن فالذى يزيد هو توابع الإيمان من التكليفات والامتثال لهذه التكليفات، مثال ذلك : كلنا نعرف قول الحق :

---

(١) أخرجه الامام مسلم فى صحيحه الجزء الأول ص ١٦٢، ١٦٣، ١٦٤ كتاب الإيمان.

﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾

(من الآية ٩٧ سورة آل عمران)

لكن هناك أناس يتمسكون بحرفية قوله الحق :

﴿ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ

(من الآية ٩٧ سورة آل عمران)

والذين يتمسكون بحرفية القول الحق لم يتساءلوا : كفر بماذا ؟ هل كفر لأنه لم يحج ؟ لا ، إن كفره فى هذه المسألة لا يكون إلا بأن ينكر أن الحج ركن من أركان الإسلام ، فالمطلوب منا إيمانياً أن نقر بالحج كركن من أركان الإسلام فى حدود الاستطاعة ، فإن فعله الإنسان كان قد نفذ الحكم ، أما إن لم يفعله فقد يكون ذلك فى حدود عدم الاستطاعة .

ويذيل الحق تبارك وتعالى هذه الآية الكريمة التى نحن بصددها بقوله : ﴿ وعلى ربهم يتوكلون ﴾ .

ومُتَعلّق الجار والمجرور دائماً يكون متأخراً ، بينما هنا يتقدم الجار والمجرور ؛ لذلك ففى الأسلوب حصر وقصر ، مثلما نقول : « لزيد المال » أى أن المال ليس لغيره ، وقول الحق : ﴿ وعلى ربهم يتوكلون ﴾ أى لا يتوكلون على غيره ، بل قصروا توكلهم على الله سبحانه وتعالى ، والتوكل : أن تؤمن بأن لك وكيلاً يقوم لك بمهام أمورك ، بدليل أن الشىء الذى لا تقوى عليه تقول بصدده : « وكلت فلاناً ينجزه لى على خير وجه » وحتى تختار الذى توكله ويكون مناسباً لأداء تلك المهمة فأنت تعلن باطمئنان : أنك قد وكلت فلانا .

إذن معنى ﴿ وعلى ربهم يتوكلون ﴾ أى أنهم يكلون أمورهم على من ائتمنوه على مصالحهم ، وهو الحق سبحانه وتعالى القادر العظيم الذى خلق الكون ، وخلق فيه أسباباً تؤدى إلى مسبَّبات الأسباب مقدمة ، والمسبّبات هى النتيجة . وبعد ذلك ترك

أموراً ليس فيها أسباب ، إلا أن نلحظ دائماً المسبب وهو الله تعالى ، فكل أمر يعز عليك فى أسبابه ؛ إياك أن تيأس من أنه لا يحدث ، بل قل : تلك هى قضية الأسباب ، أما أنا فلى رب خلق الأسباب . وهو القادر فوق كل الأسباب ، وفى حياتنا اليومية نلحظ أن الناس يخلطون بين عمل الجوارح ، وعمل القلوب ، ويظن إنسان ما أنه متوكل ولا يأخذ بالأسباب ويركن إلى الكسل ويقول : أنا متوكل على الله ، وهذا نقول له : لا ، إن هذا منك تواكلٌ وليس توكلاً ؛ لأن التوكل ليس عمل جوارح ، التوكل عمل قلوب .

والمؤمن الذى يستقبل منهج الله بالفهم يجد الأسباب التى يجب أن يأخذها ، وسبحانه وتعالى هو المسبب الأعلى ، والإيمان يؤكد أن الجوارح تعمل والقلوب تتوكل ، فعلى الجوارح أن تحرث الأرض ، وأن تختار البذرة الطيبة ، وتنثرها فى الأرض ، ثم ترويها ، وتتعهدها ، وهذه العمليات اسمها الأسباب ، ثم لا تركن إلى الأسباب فقط ، بل عليك أن تقول : إن فوق كل الأسباب هناك المسبِّبُ . فمن الجائز أن يخضر الزرعُ وينمو ، ثم تأتى له آفةٌ من مطر أو حر وتضيعه .

ومن ينقل التوكل إلى الجوارح . نقول له : أنت تواكلت ، أى نقلت عمل القلب إلى الجوارح . ومن يقول ذلك إنما يكذب على نفسه وعلى الناس . لأنه تكاسل عن الأخذ بالأسباب وادّعى أنه متوكل على الله . ولو كان الواحد من هؤلاء صادقاً فى توكله على الله لأخذ بالأسباب . وعادة فإنى دائما أقول لمن يدّعى التوكل مع الكسل : لماذا لا تترك الطعام يأتى إلى فمك ، لماذا تمد إليه يديك ؟ . إن من يكسل إنما يكذب فى التوكل ، فلا أحد مثلاً يترك قطعة اللحم تقفز من طبق الطعام إلى فمه ، لكنه يأخذها بيده . ويمضغها بأسنانه ، ويبلعها بعد المضغ ، ولو كان صادقاً فى أن التوكل هو ألا تعمل جوارحه لما فعل شيئاً من ذلك ، لكنه يكذب ويتواكل فيما يتعبه ويشغل جوارحه فيما يريحه ، ولا يستعملها فى الأمور التى تتعبه . وقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وعلى ربهم يتوكلون ﴾

هذا القول يعنى أنهم يؤمنون بأن الأسباب من خلق الله . وحين يأخذ المؤمن

بالأسباب فهو يؤمن أنه لاجئ إلى الله ومعتمد عليه ، لكن إن عزت عليه الأسباب فهو يعلم أن له رباً ، ولذلك قال : ﴿ وعلى ربهم ﴾ ، والرب هو الخالق من عَدَم ، والممد من عُدْم ، ومادام قد خلقك وأمدك من عُدْم قبل أن يكلفك ، فهل من المعقول أن يظلمك ؟ طبعاً لا . لكن عليك أن تفطن أنه خلق لك جوارح ، فاستعملْ الجوارح فيما خلقت من أجله .

وتأتى الآية التالية لتوضح عمل الجوارح ، وهى تحمل الصفتين الرابعة والخامسة من صفات المؤمنين :

﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ ﴾

(سورة الأنفال)

والقيام والقعود والقراءة والتسبيح والتكبير فى الصلاة عمل جوارح ، وكذلك الزكاة هى عمل ناتج من عمل سبق ، فحتى تخرج الزكاة لابد أن تبذل الجهد وتأخذ بالأسباب لتنتج ما يعولك أنت ودائرتك القريبة من زوجة وأبناء ثم أقارب ، ومن بعد ذلك يفيض من المال ما تستقطع منه الزكاة ، وهذه بطبيعة الحال غير زكاة الزروع التى تُخْرَج فى يوم الحصاد .

﴿ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ﴾

(من الآية ١٤١ سورة الأنعام)

ودائما ما نجد الصلاة والزكاة وهما مقترنتان ببعضهما ، ولا تجد آية فيها ذكر للصلاة إلا وفيها ذكر للزكاة أيضاً؛ لأن الصلاة تعنى ترك أمورك الحياتية التى تسعى فيها لدنيا الأسباب ، وتذهب إلى الحق سبحانه وتعالى وتقف بين يديه ، أى أنك قد اقتطعت جزءاً من الزمن الذى كنت تقضيه فى حركة حياتك لتقف فيه أمام ربك خالق الأسباب .

والزكاة تعنى أنك تقتطع جزءاً من مالك ، ولذلك قلنا : إن الصلاة فيها زكاة

وزيادة ، فأنت تخرج مقدار اثنين ونصف فى المائة مما يتبقى معك من مال يبلغ نصاباً . ويكون زائداً عن الحاجة الأصلية ، لكنك بالصلاة تضحى ببعض الوقت الذى تقضيه فى العمل الذى يأتى لك بأصل المال ، إذن ففى الصلاة زكاة وأكثر . وأنت فى الزكاة تتنازل عن بعض المال ، لكنك فى الصلاة تتنازل عن الوقت الذى هو محل العمل ، وهو الذى تنتج فيه الرزق ، والرزق وعاء الزكاة .

ويذيل الحق سبحانه وتعالى هذه الآية قائلاً :

(ومما رزقناهم ينفقون) ونعلم أن الرزق كما ذكر العلماء هو كل شئ ينتفع به الإنسان ، وحتى اللص الذى يسرق وينتفع بسرقته يعد هذا بالنسبة له رزقاً لكنه رزق غير طيب وله عقاب فى الدنيا إن تم ضبطه ، ولن يفلت من عقاب الله الحاكم العادل فى الدنيا والآخرة ، وهو بطبيعة الحال غير الرزق الحلال الذى يأتى من عمل مشروع ، والمؤمن الحق هو من ينفق من هذا الرزق الحلال ؛ سواء لمتطلبات حياته أو رعاية المجتمع الإيمانى .

وبعد ذلك يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾

و « أولئك » تشير إلى من أنعم الله عليهم بالصفات الخمس السابق ذكرها ، وهؤلاء هم من وجلت قلوبهم من ذكر الله ، وزادتهم الآيات فى إيمانهم ، وعلى ربهم يتوكلون ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ، هؤلاء هم المؤمنون حقاً ﴿ أولئك هم المؤمنون حقاً ﴾ .

ولنعلم أن الحق هو الشىء الثابت الذى لا يتغير ولا تذهب به الأغيار ، ويخضع له كل الناس لأنه يتعلق بمصالح حياتهم . وإن جاء الباطل ليزحزح الحق ، نجد الحق ثابتاً لا يتزحزح لأنه قوى . ولنقرأ قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة الرعد)

وحين ينزل المطر من السماء، يأخذ من مائه كل واد من الوديان على قدر اتساعه وعمقه، ويمتلىء، ترى الرغاوى وهى الزبد تطفو فوقَ السيْل، وهى عبارة عن هواء سببه وجود الشوائب من قش وغيره، وهذا مثل نراه فى حياتنا، ونجد الأرض والناس وكل المخلوقات تنتفع بالمياه، لكنها لا تنتفع بالزبد أو الرغاوى. ثم ينتقل الحق فى ذات الآية من ضرب المثل بالماء، إلى ضرب المثل بالنار فيقول:

﴿ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ﴾

(من الآية ١٧ سورة الرعد)

وأنت حين ترى قطعة الحديد وهى تتحول إلى السيولة بالانصهار فى النار، تجد شرراً يتطاير منها، ويطفو فوق سطح الحديد المصهور، وهو ما يسمى بـ « خبث الحديد » وتتم إزالة هذا الخبث ليبقى الحديد صافياً لتصنع منه السيوف أو الخناجر وغيرها، وهذه الحالة تحدث فى الذهب حين يصهره الصائغ ليزيل عنه أية شوائب ويعيد تشكيله ليكون حلياً.

وزبد الماء وزبد الحديد وزبد الذهب يتجمع على الجوانب ويبقى الماء صافياً، وكذلك الحديد والذهب، ولهذا يقول الحق:

﴿ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ﴾

(من الآية ١٧ سورة الرعد)

أى أن الحق يبقى صافياً ثابتاً، أما الباطل فيعلو ليتجمع على الجوانب ليذهب بغير فائدة.

ويوضح الحق علو كلمته سبحانه وتعالى فى آية أخرى فيقول:

﴿ وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ﴾

(من الآية ٤٠ سورة التوبة)

ونلحظ أن الحق تبارك وتعالى جاء بالجعل لكلمة الكافرين، أما كلمته سبحانه وتعالى فلها العلو الثابت.

والحق هنا يبين أن المؤمنين الذين يتصفون بهذه الصفات الخمس هم مؤمنون حق الإيمان فيقول عز وجل: ﴿ أولئك هم المؤمنون حقاً ﴾.

ومعنى هذا أن هناك مؤمنين ليسوا على درجة عالية من الإيمان، أى أن هناك منازل ودرجات للإيمان متفاوتة، ولكل قدر من الصفات منزلة وعطاء مناسب.

ونحن نرى البشر حينما يخصهم واحد بوده يفيضون عليه من خيراتهم، فنجد غير العالم يأخذ ممن يودهم من العلماء بعض العلم، والضعيف الذى يعطى وده لقوى، يعينه القوى ببعض من قوته، والفقير الذى يعطى وده لغنى، يعطيه الغنى بعضاً من المال، والأرعن يأخذ ممن يودهم من العقلاء قدراً من التعقل للأمور.

إذن أهل المودة والقرب والتقوى يفاض عليهم من المولى وهم ممن اختصهم الله بالعطاءات، فالذى وجدت فيه هذه الصفات، ومؤمن حقاً تكون له درجات عند ربه تناسب حظه من الحق وحظه من الصفاء، ولنعرف أن السير فى درب الحق يعطى الكثير. والمثال الذى نقدمه على ذلك أننا نجد من يصلى الأوقات الخمسة فى مواعيدها، وهذا هو المطلوب العام، إذا ما صلى ضعف ذلك بالليل، أو واظب على الصلاة فى الجماعة ويلزم نفسه بمنهج الله، سوف يأخذ حظاً من الصفاء لم يكن موجوداً عنده من قبل ذلك، وسيجد فى قلبه إشراقات وتجليات، وتسير أمور حياته بسهولة ويسر.

وقد يكون الإنسان من هؤلاء - على سبيل المثال - خارجاً من البيت وسألته زوجته: ماذا نطبخ اليوم ؟ ويجيبها: لنقض هذا اليوم بما تبقى عندنا من الأمس. وعندما يعود قد يفاجأ بأن شقيقه قد قدم من الريف، وأحضر له هدية من البط، والقشدة والفطائر. فتسأله زوجته: أكنت تعلم بمجيء أخيك ؟ فيقول: لم أكن أعلم، وهذا مجرد مثال، لكن عطاءات الصفاء تكون أكثر من ذلك مادياً ومعنوياً، ومن يستمر فى العبادة ويزيد عليها ويؤدى كل ذلك بحقه، سيزيد عطاء الله له؛ لأن الله لا يمل عطاء أهل الصفاء أبداً. ومن يجرب مثل هذه العبادة ويزيدها سيجد عطاء الله وهو يزيد.

ودائما أضرب هذا المثل ولله المثل الأعلى وهو منزه سبحانه وتعالى عن التشبيه لنفترض أن إنساناً أراد أن يسافر من القاهرة إلى الإسكندرية، وسأل إنساناً آخر، فقال له: إن ذهبت من الطريق الفلانى ستجد استراحة طيبة، عكس الطريق الفلانى.

ويتبع المسافر نصائح من أرشده، فيجده صادقاً، فيرتاح من بعد ذلك لرأيه، وكذلك أهل الصفاء، هم أهل العطاء، وعلى قدر صفائهم يكون هذا العطاء. والذى يشجع الناس الذين يبالغون فى التعبد هو هذا الإشراق، وهناك من يصف الواحد منهم بأنه مجذوب وإن من يطلق على المتعبد الزاهد هذا الوصف يرى المنزلة العالية وهى تشد هذا المتعبد إليها، وهو من جهة أخرى ينظر هذا الزاهد إلى من يتعثرون فى طلب الدنيا، ويصفهم بينه وبين نفسه بأنهم من « الغلابة » ويدعو لهم.

وأقول لمن يرى واحداً من هؤلاء: لا شأن لك بأى إنسان من هؤلاء وإياك أن تتعرض لهم واتركهم فى حالهم، مادام الواحد منهم لا يسألك شيئا. (لهم درجات عند ربهم).

والدرجات عند البشر هى ارتقاءات يسعى إليها، فما بالنا بالدرجات التى عند الرب ؟ ومادام الله سبحانه وتعالى قد وعدهم بالدرجات العالية عنده فقد ضمنوا المغفرة؛ لأن الواحد منهم سيطهر بالمغفرة، وجاء الحق بعطاء الدرجات قبل المغفرة

لأنه سبحانه خلق الخلق ويعرف أنهم أهل أغيار، ويعلم أن هناك من أسرفوا على أنفسهم، ويحاولون فعل الخيرات لأنهم يؤمنون بأن الحسنات يذهبن السيئات، وسبحانه علمنا أن معالم الدين تأخذ حظها من المسرفين على أنفسهم، لأن من لم يسرف على نفسه تجده يطيع الله طاعة هادئة رتيبة فليس وراءه ما يلهب ظهره. أما من عملوا السيئات فإن هذه السيئات تقض مضاجعهم. والمسرف على نفسه لحظة الإسراف يظن أنه أخذ من الله شيئاً واحداً من خلف منهجه، فيوضح له ربنا: إياك أن تظن أن هناك من يخدع الله. فأنت ستعمل كثيراً وبشوق لخدمة منهج الله، ونجد المسرف على نفسه لحظة الإفاقة والتوبة، وهو يندفع إلى فعل الخيرات. مصداقاً لقول الرسول صلى الله عليه وسلم:

﴿ إن الله تعالى ليؤيد الدين بالرجل الفاجر ﴾ (١).

لأن فجر الفاجر يتجسد أمامه ويريه سوء المصير، فيندفع إلى فعل الخيرات ليمحو السيئات، أما من لم يخطىء فنجده هادىء القلب، مطمئن النفس، لا يلهب ظهره شيء.

﴿ لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾

(من الآية ٤ سورة الأنفال)

وهل هذا الرزق ناشىء من كريم؟ الجواب لا؛ لأن الكرم تعدى من الكريم الأصيل، إلى أن صار الرزق نفسه كريماً، وكأن هذا الرزق يتعشق صاحبه؛ لأن ربنا ساعة يعطى إنساناً نعمةً، ثم يستعملها العبد فى الطاعة، تحس النعمة أنها مسرورة بالذهاب إلى هذا الإنسان لأنه استعملها فى الطاعة وفيما يرضى الله عز وجل.

ولك أن تعرف أن الرزق أعلم بمكانك منك بمكانه. فلا أحد يعرف عنوان الرزق الذى قدره الله له، لكن الرزق يعرف عنوان صاحبه، ويبحث عنه فى كل مكان إلى

(١) جامع الأحاديث للسيوطى حـ ٢ صـ ٣٢٥ رواه الطبرانى.

أن يجده. هكذا نفهم أن الكرم يتعدى إلى الرزق نفسه فيصبح الرزق كريماً.

وجاء كل هذا الحديث بمناسبة الخلاف على الغنائم والأنفال، وفصل ربنا بالحكم وبين وأوضح أن الأنفال لله والرسول ولم يعد لأحد كلام بعد كلام الله، وهذه الحادثة فى الأنفال حدثت فى الخروج إلى الحرب، فحين أراد الرسول صلى الله عليه وسلم أن يخرج للحرب، كان هناك فريق منهم كاره لهذا الخروج ثم رضى به. لكن حالهم اختلف فى الغنائم فطالب بعضهم بأكثر مما يستحق؛ لذلك يقول المولى سبحانه وتعالى:

﴿ كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴿٥﴾ ﴾

و « كما » تدل على تشبيه حالة بحالة، فهم قد رضوا بقسمة الله فى الغنائم بعد أن رفضوها، وكذلك قبلوا من قبلُ أن يخرجوا لملاقاة النفير بعد كراهيتهم لذلك. لكنهم خرجوا وحاربوا وانتصروا ثم اختلفوا على الغنائم، ورضوا أخيراً بقسمة الله تعالى والرسول عليه الصلاة والسلام.

فهل ذكر مسألة كراهيتهم للخروج إلى الحرب هى طعن فيهم؟ لا، فهذا القول له حيثية بشرية؛ لأن الذى يريد أن يخوض معركة لابد أن يغلب عليه الظن بأنه سوف ينتصر، وإلا سينظر إلى أن عملية الخروج إلى القتال فيها مجازفة. وكان المسلمون فى ذلك الوقت قليلى العدد، وليس معهم عُدَد، بل لم يكن لديهم من مراكب إلا فرسان اثنان. وكان خروجهم من أجل البضائع والعير، لا لملاقاة جيش كبير، وهكذا لم تكن الكراهية لهذه المسألة نابعة من التأبى على أوامر الله تعالى، أو مطالب رسول الله عليه الصلاة والسلام، ولكنهم نظروا إلى المسألة كلها بالمقاييس البشرية فلم يجدوا فيها التوازن المحتمل.

ويريد الله أن يثبت لهم أنهم لو ذهبوا وانتصروا على العير فقط، لقيل عنهم إنهم جماعة من قطاع الطرق قد انقضوا على البضائع ونهبوها، فلم يكن مع العير إلا أربعون رجلا، والمسلمون ثلاثمائة ويزيدون، ومن المعقول أن ينتصروا، ولكن ربنا أراد أن ينصرهم على النفير الذى استنفره الكفار من مكة، هذا النفير الضخم فى العدد والعدة ويضم جهابذة قريش وصناديدها، وتتحقق إرادة الحق فى أن يزهق الباطل. ﴿ كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون ﴾.

والخروج من البيت هنا مقصود به خروج الرسول من المدينة لملاقاة الكفار، وهذا الفريق من المؤمنين لم تخرجهم الكراهية عن الإيمان؛ لأن معنى « فريق » هم الجماعة الذين يفترقون عن جماعة ويجمعهم جميعاً رباط واحد، فالجيش مثلاً يتكون من فرق، يجمعهم الجيش الواحد.

وهذه الفرق التى يأتى الحديث عنها هنا هى الفرق التى كرهت أن تخرج إلى القتال رغم أنهم مؤمنون أيضاً، ونعلم أن كراهية القتال أمر وارد بالنسبة للبشر، وسبحانه وتعالى القائل:

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ ﴾

(سورة البقرة)

ويقول الحق بعد ذلك:

﴿ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٦﴾ ﴾

و « يجادلونك فى الحق »، أى يجادلونك فى مسألة الخروج لملاقاة النفير، بعد ما

تبين لهم الوعد الحق من الله عز وجل وهو وعده سبحانه وتعالى بأن تكون لهم إحدى الطائفتين، وهما طائفة العير أو النفير الضخم الذى جمعته قريش لملاقاتهم. ومادام الحق قد وعدكم إحدى الطائفتين، فلماذا لا تأخذون الوعد فى أقوى الطوائف ؟ لماذا تريدون الوعد فى أضعف الطوائف ؟! لقد وعدكم الحق سبحانه وتعالى أن إحدى الطائفتين ستكون لكم، فكان المنطق والعقل يؤكدان أنه مادام قد وعدنا الله عز وجل إحدى الطائفتين، فلنقدم إلى الأنفع للإسلام والحق الذى نحارب من أجله، وأن نواجه الطائفة ذات القوة والشوكة والمنعة؛ لأنه قد يكون من الصحيح أن النصر مؤكد على طائفة العير، لكن هذا النصر سيبقى من بعد ذلك مجرد نصر يقال عنه! إنه نصر لقطاع طريق، لا أهل قضية إيمان ودين.

ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾ ﴾

(سورة الأنفال)

فالمنطق إذن يفرض أن الله عز وجل مادام قد وعد رسوله صلى الله عليه وسلم بإحدى الطائفتين، طائفة فى عير والأخرى فى نفير، كان المنطق يفرض إقبال المؤمنين على مواجهة الطائفة القوية؛ لأن النصر على النفير هو أشرف من النصر على طائفة العير. ﴿ يجادلونك فى الحق بعدما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون ﴾.

ونلحظ أن هناك « سوق »، وهناك « قيادة »، والقيادة تعنى أن تكون من الأمام لتدل الناس على الطريق، و « السوْق » يكون من الخلف لتحث المتقدم أن يقصر المسافة مع تقصير الزمن، فبدلاً من أن نقطع المسافة فى ساعة - على سبيل المثال - فنقطعها فى نصف ساعة.

وقوله تعالى :

﴿ يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴾

(من الآية ٦ من سورة الأنفال)

أى أنهم غير منجزين للسير . بل هم مدفوعون إليه دفعاً ، وهم ينظرون بشاعة الموت ، لأنهم تصوروا أن مواجهتهم لألف فتى من مقاتلى قريش مسألة صعبة ، فألف أمام ثلاثمائة مسألة ليست هينة ؛ لأن ذلك سيفرض على كل مسلم أن يواجه ثلاثة معهم العدة والعتاد ، فكأن الصورة التى تمثلت لهم صورة بشعة ، لكنهم حينما نظروا هذه النظرة لم يلتفتوا إلى أن معهم ربّا ينصرهم على هؤلاء جميعاً .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾ ﴾

والوعد من الله عز وجل يجب أن يستقبل من الموعود بأنه حق ؛ لأن الذى يقدح فى وعد الناس للناس أن الإنسان له أغيار ، فقد تعد إنساناً بشىء ، وقد حاولت أن تفى بما وعدت ولكنك لم تستطع الوفاء بالوعد . أو كانت لك قوة وانتهت . أو قد يتغير رأيك . إذن فالوعد من المساوى من الخلق غير مضمون ، لكن الوعد من القادر القوى ، الذى لا تقف عراقيل أمام إنفاذ ما يريد ، هو وعد حق ويجب أن يتلقوا هذا الوعد على أنه حق . ﴿ وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودّون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ﴾ .

أى إن كنتم تميلون وتحبون أن تكون لكم الطائفة غير ذات الشوكة التى تحرس العير - والشوكة هى شىء محدد من طرف تحديداً ينفذ بسهولة من غيره، وأنت تجد الشوكة مدببة رفيعة من الطرف ثم يزداد عرضها من أسفلها ليتناسب الغلْظُ مع القاعدة لتنفذ باتساع. وذات الشوكة أى الفئة القوية التى تنفذ إلى الغرض المراَد، ولا يتأبى عليها غرض، ولذلك يقال « شاكى السلاح ». فإن كتم تتمنون وتريدون عدم ملاقاة جيش الكفار فى معركة فالمولى عز وجل يقول لكم ﴿ ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين ﴾.

أى أن الله تعالى يريد أن ينصر الإسلام بقوة ضئيلة ضعيفة بغير عتاد على جيش قوى فيعرفون أن ربنا مؤيدهم، وبذلك يحق الحق بكلماته أى بوعده. وهناك الكلمة من الله التى قال فيها:

﴿ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾

(من الآية ١٣٧ من سورة الأعراف)

هكذا كان وعد الله الذى تحقق. ﴿ ويقطع دابر الكافرين ﴾

والدابر والدُبر هى الخلف، وتقول: « قطعت دابره » أى لم أجعل له خلفاً.

ويقول سبحانه وتعالى بعد ذلك:

﴿ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَـٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾ ﴾

ونلحظ أنه سبحانه وتعالى قال من قبل ويريد الله أن « يحق الحق »، وهنا يقول: « ليحق الحق » والمراد بالحق الأول نصر الجماعة الضعاف، القلة الضعيفة على الكثرة القوية، هذا هو الحق الأول الذى وعد به الحق بكلماته، ليحق منهج الإسلام كله، ولو كره المجرمون.

ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك :

﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ ﴾

ومادة « استغاث » تفيد طلب الغوث، مثل « استسقى » أى طلب السقيا، و «استفهم » أى طلب الفهم، و « الألف » و « السين » و « التاء » توجد للطلب. و « استغاث » أى طلب الغوث من قوى عنه قادر على الإغاثة، وأصلها من الغيث وهو المطر، فحين تجدب الأرض لعدم نزول المطر ولا يجدون المياه يقال : طلبنا الغوث، ولأن الماء هو أصل الحياة؛ لذلك استعمل فى كل ما فيه غوث، وهو إبقاء الحياة، وفى حالة الحرب قد يفنى فيها المقاتلون؛ لذلك يطلبون الغوث من الله عز وجل ﴿ إذ تستغيثون ربكم ﴾.

و « تستغيثون ربكم » بضمير الجمع، كأنهم كلهم جميعاً يستغيثون فى وقت واحد، وقد استغاث رسول الله صلى الله عليه وسلم حين اصطف القوم وقال أبو جهل : اللهم أولانا بالحق فانصره، ورفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يديه واستقبل القبلة وقال : « اللهم أنجز لى ما وعدتنى، اللهم ائتنى ما وعدتنى، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد فى الأرض ». (١).

ويدل قول رسول الله صلى الله عليه وسلم على أنه كان يستغيث بالخالق الذى وعد بالنصر، ورد القوم خلفه : آمين، لأن أى إنسان يؤمن على دعاء يقوله إمام أو قائد فهو بتأمينه هذا كأنما يدعو مثلما يقول الإمام أو القائد. فمن يقول : « آمين » يكون أحد الداعين بنفس الدعاء. والحق سبحانه وتعالى هو القائل :

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ

(١) رواه مسلم عن عمر بن الخطاب.

قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ ﴾

(سورة يونس)

وهذا ما جاء فى القرآن الكريم على لسان موسى عليه السلام .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى بعدها :

﴿ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا ﴾

(من الآية ٨٩ سورة يونس)

مع العلم بأن سيدنا موسى عليه السلام هو الذى دعا ، وقوله سبحانه من بعد ذلك « أجيبت دعوتكما » دليل على أن موسى دعا وهارون قال : « آمين » فصار هارون داعياً أيضاً مثل أخيه موسى .

﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ ﴾

(من الآية ٩ سورة الأنفال)

« فاستجاب لكم » الألف والسين والتاء - كما علمنا - تأتى للطلب ، وقول الحق سبحانه وتعالى « فاستجاب » يعنى أنه طلب من جنود الحق فى الأرض أن يكونوا مع محمد وأصحابه ؛ لأن الله سبحانه وتعالى ، خلق الكون ، وخلق فيه الأسباب . نراها ظاهرة ، ووراءها قوى خفية من الملائكة . والملائكة هم خلق الله الخفى الذى لانراه ولانبصره ، إلا أن الله أخبرنا أن له ملائكة .

فالملائكة ليست من المخلوقات المشاهدة لنا ، وإنما إيماننا بالله ، وتصديقنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى البلاغ عن الله تعالى جعلنا نعرف أنه سبحانه وتعالى قد خلق الملائكة ، وأخبرنا أيضاً أنه خلق الجن وصدقنا ذلك ، إذن فحجة إيماننا بوجود الملائكة والجن هو إخبار الرسول الصادق بالبلاغ عن الله تعالى ومن يقف عقله أمام هذه المسألة ويتساءل : كيف يوجد شىء ولا يرى ، نقول له : هذه أخبار من الله.

وهناك من أنكر وجود الملائكة والجن وقال: إنها القوى الميكانيكية فى الأسباب، ولم يلتفتوا إلى أن الحق سبحانه وتعالى حين يتكلم عن أمر غيبى، فسبحانه يترك فى مشهديات وجوده وكونه ما يقرب هذا الأمر الغيبى إلى الذهن، فيجعلك لا تعرف وجود أشياء تشعر بآثارها، ثم بمرور الزمن تدرك وجودها، وهذه الأشياء لم تُخلق حين اكتشفتها، وإنما هى كانت موجودة لكنك لم تتعرف عليها، وهناك فارق بين وجود الشىء وإدراك وجود الشىء. ومثال ذلك كان اكتشاف الميكروب فى القرن السابع عشر وهو موجود من قبل أن يكتشف، وكان يدخل فى أجسام الناس، وينفذ من الجلد، وحين اكتشفوه، دلّ ذلك على أنه كان موجوداً لكننا لم نكن نملك أدوات إدراكه. إذن فإن حُدثت بأن لله خلقاً موجوداً وإن لم تكن تدركه، فخذ مما أدركته بعد أن لم تكن تدركه دليل تصديق لما لا تدركه.

وأخبرنا الحق تبارك وتعالى بوجود الملائكة، وكل شىء له ملائكة يدبرونه، وهم: «المدبرات أمرا»، والملائكة الحفظة، وسبحانه القائل:

﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ١١ سورة الرعد)

وسبحانه أيضاً القائل:

﴿ مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ ﴿١٨﴾ ﴾

(سورة ق)

وهؤلاء الملائكة هم الموكلون بمصالح الإنسان فى الأرض، المطر مثلاً له ملكه، الزرع مثلاً له ملكه، وكل شىء له ملك. وهو سبب خفى غير منظور يحرك الشىء.
﴿ فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة ﴾.

والإمداد هو الزيادة التى تجىء للجيش، لأن الجيش إذا ووجه بمعارك لا يستطيع أن يقوم بها العدد الموجود من الرجال أو السلاح، حينئذ يطلب قائد الجيش إرسال

المدد من الرجال والعتاد.

﴿ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾

ونعلم أنه ساعة أن أمر ربنا الملائكة أن تسجد لآدم، لم يكن الأمر لكل جنس الملائكة، بل صدر الأمر إلى الملائكة الموكلين بمصالح الأرض. أما الملائكة غير الموكلين بهذا، فلم يدخلوا فى هذه المسألة، ولذلك قلنا إن الحق سبحانه وتعالى حينما عنف إبليس، قال له:

﴿ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴾

(من الآية ٧٥ سورة ص)

والمقصود بـ «العالين» هم الملائكة الذين لم يشملهم أمر السجود.

والحق تبارك وتعالى هنا فى هذه الآية يبين أنه سبحانه وتعالى قد أمد المسلمين المحاربين فى غزوة بدر بـ: ﴿ بألف من الملائكة مردفين ﴾

والرِّدْفُ هو ما يتبعك، ولذلك يقال: «فلان ركب مطيته وأرْدَفَ فلاناً»، أى جعله وراءه. والمُرْدِف هو من يكون فى الأمام، والمردَف هو من يكون خلفه. والآية توضح لنا أن الملائكة كانت أمام المسلمين؛ لأن جيش المسلمين كان قليل العدد، وجيش الكفار كان كثير العدد، وجاءت الملائكة لتكثير عدد جيش المسلمين، فإذا كان العدد مكوناً من ألف مقاتل، فقد أرسل الحق ملائكة بنفس العدد ويزيد بذلك جيش المؤمنين بعدد المؤمنين. وكان يكفى أن يرسل الحق ملكاً واحداً، كما تحكى الروايات عما حدث لقوم لوط، فقد روى أن جبريل عليه السلام، أدخل جناحه الواحد تحت مدائن قوم لوط، وصعد بها إلى السماء حتى سمع أهل السماء نهيق الحمار، ونباح الكلاب، وصياح الديوك، ولم تنكفىء لهم جرّة، ولم ينسكب لهم إناء، ثم قلبها دفعة واحدة وضربها على الأرض.

وصيحة واحدة زلزلت قوم ثمود. لماذا إذن أرسل الحق تبارك وتعالى هنا ألفاً من

الملائكة ؟ . حدث ذلك لتكثير العدد أمام العدو وليفيد فى أمرين اثنين :

الأمر الأول : أن تأخذ العدو رهبة ، والأمر الثانى : أن يأخذ المؤمنون قوة لكن أكان للملائكة فى هذه المسألة عمل ؟ أو لا عمل لهم ؟ هنا حدث خلاف .

ونجد الحق تبارك وتعالى يقول :

﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾

أى أن الملائكة هى بشرى لكم ، وأنتم الذين تقاتلون أعداءكم ، وسبحانه وتعالى هو القائل :

﴿ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ ﴾

(سورة التوبة)

قال الحق سبحانه وتعالى ذلك للمؤمنين وهم يدخلون أول معركة حربية ، ويواجهون أول لقاء مسلح بينهم وبين الكافرين ، لأنهم إن علموا أن الملائكة ستقاتل وتدخل ، فقد يتكاسلون عن القتال ويدخلون إلى الحرب بقلوب غير مستعدة ، وبغير حمية ، فأوضح ربنا : أنا جعلت تدخل الملائكة بشرى لكم ، و « لتطمئن به قلوبكم » ، أى أن عدد الملائكة يقابل عدد جيش الكفار ، والزيادة فى العدد هى أنتم يا من خرجتم للقتال . واعلموا أن الملائكة هى لطمأنة القلوب . لكن الحق يريد أن يعذبهم بأيديكم أنتم ؛ لأن الله يريد أن يربى المهابة لهذه العصبة بالذات ، بحيث يحسب لها الناس ألف حساب .

واختلفت الروايات فى دور الملائكة فى غزوة بدر ، فنجد أبا جهل يقول لابن مسعود : ما هذه الأصوات التى أسمعها فى المعركة ؟ فقد كانت هناك أصوات تُفزع

الكفار فى غزوة بدر - ويرد ابن مسعود على أبى جهل : إنها أصوات الملائكة . قال : إذن بالملائكة تغلبون لا أنتم . .

فإياكم أن تفتنوا حتى بالملائكة ؛ لأن النصر لا منكم ولا من الملائكة ، ولكن النصر من عندى أنا ؛ لأن الذى تحب أن ينصرك ، لابد أن تكون واثقاً أنه قادر على نصرتك ، والبشر مع البشر يظنون الانتصار من قبل الحرب ، ومن الجائز أن يغلب الطرف الآخر ، لكن النصر الحقيقى من الذى لا يُغْلَب وهو الله سبحانه وتعالى : ﴿ وما النصر إلا من عند الله ﴾

وأنت حين تستنصر أحداً لينصرك على عدوك فهذا الذى نستنصر به إن كان من جنسك يصح أن يَغْلب معك ويصح أن تنغلب أنت وهو ، لكنك تدخل الحرب مظنة أنك تغلبَ مع مَن ينصرك وقد يحدث لكما معاً الهزيمة أمَّا الحقُّ سبحانه وتعالى فهو وحده الذى لا يُغَالَب ولا يُغْلَب . ﴿ وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم ﴾ .

وهو سبحانه وتعالى الناصر ، وهكذا يكون المؤمن الذى يقاتل بحمية الإيمان واثقاً من النصر ، لكن إياكم أن تظنوا أن النصر من الله لا يصدر عن حكمة ، إن وراء نصر الله للمؤمنين حكمةً ، فإن تهاونتم فى أى أمر يُسلب منكم النصر ؛ لأن الله لا يغير سننه مع خلقه ، وقد رأينا ما حدث فى غزوة أحد حين تخاذلوا ولم ينفذوا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم ينتصروا ؛ لأن الحكمة اقتضت ألا ينتصروا ، ولو نصرهم الله لاستهانوا بعد ذلك بأوامر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولقال بعض منهم : خالفناه وانتصرنا ، وهكذا نجد أن طاعة الله والرسول والأخذ بالأسباب أمر هام ، فحين جاء الأمر من رسول الله فى غزوة أحد بما معناه : يا رماة لا تتركوا أماكنكم ، ولو رأيتمونا نفر إلى المدينة ، فلا شأن لكم بنا ، وعلى كل منكم أن يأخذ دوره ومهمته ، فإذا رأى أخا له فى دوره قد انهزم فليس له به شأن ، وعلى كل مقاتل أن ينفذ ما عليه . لكنهم خالفوا فسلبهم الله النصر . وهكذا يتأكد لهم أن النصر من عند الله العزيز الذى لا يغلب . وقال البخارى عن البراء بن عازب قال : لقينا المشركين يومئذ وأجلس النبى صلى الله عليه وسلم جيشا من

الرماة ، وأمَّر عليهم « عبد الله بن جبير » ، وقال عليه الصلاة والسلام : « لاتبرحوا وإن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا ، وإن رأيتموهم ظهروا علينا فلا تعينونا » . (١)

ونلحظ أن المدد بالملائكة ورد مرة بألف ، ومرة بثلاثة آلاف فى قول الحق سبحانه

﴿ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ ﴾ (سورة آل عمران)

فإن لم يكفكم ثلاثة آلاف سيزيد الله العدد ، لذلك يقول المولى عز وجل :

﴿ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ (سورة آل عمران)

إذن المدد يتناسب مع حال المؤمنين ، ويبين ذلك قوله سبحانه : ﴿ بلى إن تصبروا وتتقوا ﴾

فالصبر إذن وحده لا يكفى بل لابد أيضا من تقوى الله ، ولابد كذلك من المصابرة بمغالبة العدو فى الصبر ؛ لذلك يقول المولى تبارك وتعالى فى موقع آخر : ﴿ اصبروا وصابروا ﴾ وذلك لأن العدو قد يملك هو أيضاً ميزة الصبر ؛ لهذا يزيد الله الصابر ، فإن صبر العدو على شىء فاصبر أنت أيها المؤمن أكثر منه .

وقد جعل الله عز وجل الإمداد بالملائكة بشرى لطمأنة القلوب وثقة من أن النصر من عند الله تعالى :

﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾ (الآية ١٠ من سورة الأنفال)

(١) رواه البخارى .

وما أن بدأت المعركة حتى بدأ توالى النعم التى سوف تأتى بالنصر، إمداد بالملائكة، بشرى لتطمئن القلوب، وثقة من أن النصر من عند الله العزيز الحكيم.

ثم يأتى التذكير بالدلالة على ذلك فيقول المولى سبحانه وتعالى :

﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ ﴾

والنعاس عبارة عن السِّنة الأولى التى تأخذ الإنسان عندما يحب أن ينام، ويسميها العامة فى مصر « تعسيلة » ويقولون : « فلان معسل » أى أخذته سنَة النوم، وهى ليست نوماً بل فتور فى الأعصاب يعقبه النوم، وهذا من آيات الله تعالى فى أن يهب الإنسان راحة مؤقتة وليست نوماً. وسبحانه يقول عن ذاته العليا :

﴿ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾

(من الآية ٢٥٥ سورة البقرة)

أى أنه - جل وعلا - لا يأخذه النومُ الخفيفُ ولا النوم الثقيل. لأنّ السِّنة هى إلحاح من الجسم فى طلب النوم، ويكون نوماً خفيفاً، وسبحانه وتعالى ليس كمثله شىء فهو عز وجل لا يتجسد أو يتمثل فى شىء، لا السِّنة تأخذه ولا النوم يقاربه، ونلحظ أن الإنسان إذا ما تكلم بجانب من تأخذه السِّنة فهو يصحو وينتبه. أما النائم بعمق فقد لا يصحو.

فالسِّنة - إذن - هى الداعى الخفيف للراحة. أما النوم فهو الداعى الثقيل. وهنا أنزل الله عليهم النعاس بمثابة مقدمة للنوم ليستريحوا قليلاً. ونعلم أن النوم آية من آيات الله عز وجل فى كونه؛ لأن الجسم حين يعبر عن نفسه بالحركة والطاقة ويأكل الغذاء ويشرب الماء ويتنفس الهواء، كل ذلك يتحول إلى طاقة ثم إلى وقود للحركة.

وهذه الطاقة تتكون بالتفاعل بين العناصر المختلفة، من تمثيل للغذاء وتحويل الطعام إلى نوعيات مختلفة لتغذية كل خلية من خلايا الجسم بما يناسبها، ثم استخلاص « الأوكسجين » عبر التنفس وطرد ثانى أكسيد الكربون، وعشرات الآلاف من التفاعلات الكيميائية لا توجد بها فضلات لتخرج، وهى تختلف عن التفاعلات الأخرى التى تخرج منها الفضلات من أحد السبيلين، أو من صماخ الأذن أو غير ذلك.

ومثل هذه الفضلات إنما تنتج من الاحتراقات التى نقول عنها: « العادم » فى الآلات الميكانيكية. والعادم هو نتيجة الاحتراق وهى غازات تنفصل لتسير الحركة. وفى الإنسان نجد العادم يتمثل فى الغائط، وما خرج من صماخ الأذن، و « عماص العين »، والعرق، كلها عوادم. لكنْ هناك لون من تركيبة هذه التفاعلات يُمثل لإيجاد الطاقة وليس له عادم.

والوسيلة الأساسية لاستعادة التوازن الكيميائى المناسب للإنسان هى أن نريح الجسم، وتتفاعل مواد الجسم مع نفسها ويعود طبيعياً. وهذا لا يحدث إلا بالنوم. ولذلك نجد الإنسان حين يسهر كثيراً ويذهب إلى النوم يشعر برجليه وقد «خدلت» أو كما يقال: «نملت». وهذا نتيجة عجز مواد الجسم عن التفاعل الذى تحتاجه نتيجة اليقظة، وهذه كلها مسائل لا إرادية. بدليل أن الإنسان يرغب أحياناً فى أن ينام، ويتحايل أحيانا على النوم فلا يأتيه؛ لأن النوم من

العمليات المختصة بالحق سبحانه وتعالى، وهو آية من آيات الله فى هذا الكون، ومن ضمن الآيات العجيبة. واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾

(سورة الروم)

وحين حاول العلماء الباحثون أن يفسروا ظاهرة النوم، وضعوا عشرات النظريات، وآخر التجارب التى أجريت أنهم أحضروا إنسانا وعلقوه كالرافعة من وسطه، وكأنه عصا مرفوعة من وسطها بتوازن، وجعلوا كل نصف من النصفين متساوياً فى الوزن، وحين جاء النوم لهذا الإنسان محل التجربة وجدوا أن جهة من النصفين مالت، وكأن ثقلاً ما جاءها من النصف الآخر فزادت كتلتها، وهذا آخر ما درسوه فى النوم، هذه التجربة أثبتت أن النوم عجيبة من العجائب التى تستحق أن يقول الحق تبارك وتعالى عنها : ﴿ ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون ﴾.

وانظر إلى كلمة « والنهار » هذه تر فيها الرصيد الاحتياطى الموجود فى آية النوم؛ لأنه سبحانه وتعالى يقول : ﴿ ومن آياته منامكم بالليل ﴾.

وفى هذا القول رصيد احتياطى لمن جاء له ظرف من الظروف ولم ينم بالليل، فيعوض هذا الأمر وينام بالنهار، ومن حكمة الله تعالى أنه ذيل هذه الآية بقوله عز وجل : ﴿ إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون ﴾.

وهذا بسبب أن النوم يعطل كل طاقات الجسم، فعندما ينام الإنسان لا يقدر جسمه على أن يتحرك التحرك الإرادى، إلا السمع فهو باق فى وظيفته؛ لأن

به الاستدعاء، وإنَّ العين - مثلاً - لا ترى أثناء النوم ، إنما الأذن تسمع ولا تتخلى عن السماع أبداً؛ لأن بالأذن يكون الاستدعاء ، فإذا ما نادى الأب ابنه وهو نائم فهو يسمع النداء . لذلك قلنا سابقاً : إنَّ الحق سبحانه وتعالى حينما أراد أن ينيم أهل الكهف ثلثمائة سنة وازدادوا تسْعا ، قال تعالى :

﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ﴾

(سورة الكهف)

لأنه لو لم يضرب على آذان أهل الكهف لظل السمع باقياً ، فإذا ظل السمع ، أهاجته الأعاصير ، وعواء الذئاب ، وزئير الأسود ، ولما استطاعوا النوم طيلة هذه المدة .

وهنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها :

﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ ﴾

(من الآية ١١ سورة الأنفال)

وقد يتبادر إلى الأذهان سؤال هو :

وهل هناك نعاس غير أمنة ؟ والجواب نعم؛ لأنه مجرد الراحة من تعب لتنشط بعدها ، هذا لنفهم أن «أمنة» جاءت لمهمة هى تهدئة أعماق المؤمنين فى المهيجات المحيطة ، فهذا عدو كثير العدد ، وهم بلا عتاد؛ لذلك شاء الحق تبارك وتعالى ألا يضيع منهم الطاقة اللازمة للمواجهة ، ولا تتبدد هذه الطاقة فى الفكر؛ لذلك جعل نعاسهم نعاساً مخصوصاً يغلبهم وهو «نعاس أمنة» ، وجعل المولى عز وجل من هذا النعاس آية ، حيث جاءهم كلهم جميعا ، وهذه بمفردها آية من آياته سبحانه وتعالى ولو غلبهم النوم العميق لمال عليهم الأعداء مَيْلَة واحدة ، ولكنهم أخذوا شيئاً من الراحة التى فيها شئ من

اليقظة . ﴿ إذ يُغَشِّيكم النعاسَ أمنةً ﴾.

وهنا النعاس مفعول به ، وهو أمنة من الله ، وسبحانه يقول فى آية أخرى :

﴿ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا ﴾

(من الآية ١٥٤ سورة آل عمران)

هنا فى آية الأنفال نعاس وأمنة ، وهناك فى آية آل عمران أمنة ونعاس ؛ لأن الحالتين مختلفتان - فتوضح آية آل عمران أن النعاس قد غشى طائفة واحدة من المقاتلين فى غزوة أحد بعد أن أصابهم الغم فى هذه الغزوة ، وهؤلاء هم المؤمنون الصادقون الملتفون حول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أما فى سورة الأنفال فتبين الآية أن النعاس قد غشى الجيش كله حيث كان الجميع على قلب رجل واحد والإيمان يملأ قلوبهم جميعا ولا يوجد بينهم منافق أو مرتاب فغشيتهم جميعا هذه الأمنة بالنعاس ؛ لأنه يزيل الخوف ، ومن دلائل الأمن والطمأنينة والثقة بنصر الله .

ويقول الحق تبارك وتعالى متابعاً فى ذات الآية :

﴿ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾

(من الآية ١١ سورة الأنفال)

ومعنى التطهير أن هناك حادثاً يستحق التطهر منه وهم لم يجدوا ماءً ليتطهروا به حيث كان المشركون قد غلبوا المسلمين على الماء فى أول الأمر ، فظمئ المسلمون وانشغلوا بالعطش ، وبالرغبة فى تطهير أجسامهم ، وهذا يدل على أن المؤمن يجب أن يظل نظيفاً ، رغم الوجود فى المعركة التى لو استمر فيها الواحد منهم يوماً أو اثنين دون استحمام ، لما لامه أحد على ذلك ، وجاء

هذا القول ليدل على حرص المؤمن على النظافة إن خرج شئ من الإفرازات والعرق ، أو كان التطهر من رجز الشيطان ؛ لأن الشيطان خيل لهم منامات جنسية ، وأخذ يوسوس قائلا لهم : أنتم تقولون إنكم على حق ، فكيف تصلون وأنتم جنب ؟ وكان مجرد حدوث هذا الأمر لهم جميعاً هو آية أخرى من الآيات . فأغاظ الله الشيطان وأنزل عليهم الماء ليشربوا ويتطهروا .

ويقول المولى سبحانه وتعالى فى ذات الآية : ﴿ وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام ﴾

وأراد الحق تبارك وتعالى أن يطمئن المؤمنين فلا تتوزع أو تتشتت مشاعرهم ، وما أن نزل المطر حتى حفروا الحفر ليتجمع فيها الماء ، وهكذا حماهم سبحانه وتعالى من نقص الماء ، كما أن نزول المطر على الأرض الرملية نعمة كبرى - من جهة أخرى - حيث يثبت الرمال على الأرض فلا تثير غباراً ، ونعلم أن الإنسان حين يسير على الأرض ، فإن ثقله يدك ما تحته مما يحتمل الدك على قدر وزنه ، فالطفل الصغير حينما يمشى على الرمال ، فأثر سيره يكون بسيطاً ، عكس الرجل الضخم ، وإن قستها بالنسبة لوزن الصبى أو الغلام ، وبوزن الرجل الممتلىء ، تجد أن الأرض قد غاصت بنسبة الكتلة التى سارت عليها ، وحين يسير الناس دون عمل ولا يقصدون غير السير ، يكون الثقل خفيفاً ، أما حين يدخل الرجال الحرب فالأقدام قد تغوص فى الرمال وقد يصير جزءٌ من جسد المقاتل معطلاً عن الحركة ؛ لأن القدم هى التى تحقق التوازن.

إن هذه من حكمة الله تعالى ، ونحن نرى ذلك فى حياتنا ، فنجد أهل الريف يضعون فوق جداول الماء جزع نخلة أو «عرقاً» من الخشب ليسير عليه الإنسان بين الشطين ، وإن فكر السائر فى هذه المسألة قد يقع فى الماء ، لكنه إن ترك رجليه للسير تلقائيا ، فهو يمشى محققاً التوازن ، ومثل هذا الأمر يحدث

فى صناعة سلالم البيوت، إننا نجدها متساوية فى ارتفاع درجاتها ليصعد الإنسان صعوداً رتيباً من غير تفكير ، فإذا اختلت درجة واحدة فى السلم بأن كان ارتفاعها مختلفا عن بقية الدرجات يختل التوازن ويقع الإنسان؛ لأن الساق ضبطت نفسها آليا على هذا الوضع.

ولذلك نجد الصعود على السلالم الحلزونية متعباً لأن السلالم الحلزونية فيها جهة واسعة وأخرى ضيقة. وقد يرتبك الإنسان أثناء الصعود ، ولهذه الأسباب نجد الجيوش تكشف طبيّاً على المجندين، ولا يختارون إلا الشخص المستوى القدمين لتستقبل أقدامه كل الظروف ويكون قادراً على مواجهة الظروف غير العادية ، ومن عظمة الخالق سبحانه وتعالى أن جعل كل عضو من الأعضاء له مواصفات خاصة .

وسبحانه يذيل هذه الآية بقوله عز وجل : ﴿ ويثبت به الأقدام ﴾ .

وتثبيت الأقدام من جهة يمثل أمراً معنوياً ، ومن جهة أخرى يكون تثبيت الأقدام «بمعنى أن نزول المطر جعل الأرض ثابتة » ولا تثير الغبار أو الرمال ، وسبحانه هو القائل فى مناسبة أخرى :

﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٞ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوۡلَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

وهكذا نفهم أن تثبيت الأقدام له ألوان متعددة ، حسّية ومعنوية .

ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك :

﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ﴾

والمولى سبحانه وتعالى هنا يبين أنه أوحى إلى الملائكة بالإلهام : أنى معكم بالنصر والتأييد ﴿ فثبتوا الذين آمنوا ﴾ .

أى قوُّوا عزائم المؤمنين وثبتوا قلوبهم. أى اجعلوا قلوبهم كأنها مربوطة عليها فلا يخافون أية أغيار من عدوهم ، ويزيد الإيضاح للمؤمنين : إياكم أن تظنوا أن كثرةَ العددَ أو قوةَ العُدَدِ هى التى تصنع النصر. بل النصرُ دائماً من عند الله تعالى وسبحانه القائل :

﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾

(من الآية ٢٤٩ سورة البقرة)

وذلك لأن النسبة بين المؤمنين والكافرين غير متوازنة وتحتاج إلى مدد عال من الله تعالى. وقلنا إن السماء تتدخل إذا كان الأمر فوق أسباب الخلق، ولذلك يقول سبحانه وتعالى :

﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾

(من الآية ٦٢ سورة النمل)

وإن قال قائل : أنا أدعو الله أكثر من مرة ولا يجيبنى.. نرد عليه ونقول له : أنت لم تدع دعوة المضطر، بل دعوت دعوة المترف، مثلما يدعو ساكن فى شقة بأن يرزقه الله بقصر صغير. أو يدعو من يسير على أقدامه وتحمله سيارة العمل طالباً سيارة خاصة، أو يدعو من يملك «تليفزيونا» بأن يهبه الله جهاز «فيديو»، هذه كلها ليست دعوة اضطرار؛ لأن المضطر هو من فقد أسبابه.

ويتابع الحق القول فى ذات الآية :

﴿ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُواْ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾

(من الآية ١٢ سورة الأنفال)

وإذا ألقى الله عز وجل الرعب والخوف فى قلوب العدو مهما كان عَدَدُه ومهما كانت عُدَدُه، فسيترك هذا العدو كل ما معه ويفر من حالة الرعب والفزع، وقد فعل بعض من الكفار ذلك . وقد امتنَّ الله سبحانه وتعالى على المؤمنين بأن أمدهم بالملائكة بشرى واطمئناناً، وهيأ لهم الماء، وطهرهم، وأذهب عنهم رجز الشيطان، وكل هذه مقدمات المعركة مستوفاة من جانب الحق تبارك وتعالى إمداداً لكم، وما عليكم أيها المؤمنون سوى أن تُقبلوا على المعركة بعزيمة صادقة، عزيمة المقاتل الشجاع المحارب الذى له من العقل ما يفكر به ويدبر فى التخطيط، وفى الكر والفر.

وكانت أدوات القتال قديماً هى السيوف والرماح والنبال، وكان المقاتل يحتاج رأسه ليخطط به، ويحتاج يديه وأنامله ليمسك بها السيف، ولذلك ينبه الحق المؤمنين إلى هاتين النقطتين المؤثرتين فيقول : ﴿ فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان﴾ .

والضرب لما فوق الأعناق هو ضرب الرأس فيفقد القدرة على التفكير، أو تذهب حياته لينتهى، وإن بقى على قيد الحياة فسوف يشاهد مصارع زملائه وذلتهم. والضرب منهم فى كل بنان.. أى ضربهم بالسيوف فى أيديهم؛ لأن الضرب فى الأيدى إنما يجرحها ويجعلها عاجزة عن القتال.

لماذا؟. يجيب الحق فى الآية التالية:

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ﴾

وهنا يوضح الحق سبحانه وتعالى: أن هذا النصر المؤزر للنبى وصحبه والهزيمة للمشركين؛ لأنهم شاقوا الله ورسوله، و"شاقوا" من "الشق" ومعناه أنك تقسم الشئ الواحد إلى اثنين. وكان المفروض فى الإنسان منهم أن يستقبل منهج الله الذى نظم له حركته فى هذا الكون، ولم يكن هناك داع لتبديد الطاقة بالانشقاق إلى جماعتين؛ جماعة مع الرسول صلى الله عليه وسلم وجماعة مع الكفر والشرك؛ لأن الطاقة التى كانت معدة لإصلاح أمر الإنسان والكون للخلافة؛ إنما يتبدد جزء منها فى الحروب بين الحق والباطل، ولو توقفت الحروب لصارت الطاقة الإنسانية كلها موجهة للإصلاح والارتقاء والنهوض وتحقيق الخير لبنى الإنسان، لكنهم شاقوا الله ورسوله، فجعلوا أنفسهم فى جانب يواجه جانب المؤمنين بالله والرسول؛ لذلك استحقوا عذاب الله وعقابه، وبسبب أنهم شاقوا الله ورسوله، عليهم أن يتحملوا العقاب الشديد من الله، فيقول سبحانه وتعالى:

﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾

(من الآية ١٣ سورة الأنفال)

وهذه قضية عامة، وسنة من الله فى كونه تشمل هؤلاء الذين شاقوا الله ورسوله من بدء الرسالة، وإلى قيام الساعة.

ويقول المولى سبحانه وتعالى بعد ذلك:

﴿ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ﴿١٤﴾ ﴾

وذلكم إشارة للأمر الذى حدث فى موقعة بدر من ضرب المؤمنين للكافرين فوق الأعناق، وضرب كل بنان كافر، وإن ربنا شديد العقاب، وهذا الأمر كان يجب أن يذوقه الكافرون. والذوق هو الإحساس بالمطعوم شراباً كان أو طعاماً، إلا أنه تعدى كل محسّ به ولو لم يكن مطعوماً أومشروبا ويقول ربنا عز وجل:

﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ ﴾

(سورة الدخان)

أى ذق الإهانة والمذلة لا مما يُطعم أو مما يُشرب، ولكن بالإحساس؛ لأن ذوق الطعام هو الحاسة الظاهرة فى الإنسان؛ قد يجده بالذوق حريفاً، أو حلواً، أو خشناً أو ناعماً إلى غير ذلك. وها هو ذا الحق يضرب لنا المثل على تعميم شئ: فيقول عز وجل:

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾

(سورة النحل)

والجوع سلب الطعام، فكيف تكون إذاقة الجوع؟ الجوع ليس مما يذاق، ولا

اللباس مما يذاق، ومن قول الحق تبارك وتعالى نفهم أن الإذاقة هى الإحساس الشديد بالمطعوم، واللباس - كما نعلم - يعم البدن ، فكأن الإذاقة تتعدى إلى كل البدن، فالأنامل تذوق ، والرجل تذوق، والصدر يذوق، والرقبة تذوق؛ وكأن الجوع قد صار محيطاً بالإنسان كله. وهنا يقول المولى سبحانه وتعالى: ﴿ذلكم فذوقوه﴾.

والذوق غير البلع والشبع ، ونرى ذلك فى عالمنا السِّلعى والتجارى؛ فساعة تشترى - على سبيل المثال - جوافة، أو بلحاً أو تيناً، يقول لك البائع : إنها فاكهة حلوة، ذق منها، ولا يقول لك كل منها واشبع، إنه يطلب منك أن تجرب طعم الفاكهة فقط ثم تشترى لتأكل بعد ذلك حسب رغبتك وطاقتك. وما نراه فى الدنيا هو مجرد ذوق ينطبق عليه المثل الريفى "على لسانى ولا تنسانى" ، والعذاب الذى رآه الكفار على أيدى المؤمنين مجرد ذوق هيّن جداً بالنسبة لما سوف يرونه فى الآخرة من العقاب الشديد والعذاب الأليم، وسيأتى الشبع من العذاب فى الآخرة، لماذا؟ ﴿ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب﴾.

وهذا اللون من إذاقة الذل والإهانة فى الدنيا لهؤلاء الكفار المعاندين، مجرد نموذج بسيط لشدة عقاب الله على الكفر، وفى يوم القيامة يطبق عليهم القانون الواضح فى قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وأن للكافرين عذاب النار ﴾.

إذن فالهزيمة لمعسكر الكفر والذلة هى مجرد نموذج ذوق هين لما سوف يحدث لهم يوم القيامة من العذاب الأليم والحق سبحانه وتعالى هو القائل :

﴿ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ ﴾

(من الآية ٤٧ سورة الطور)

وعذاب الآخرة سيكون مهولاً، و « العذاب » هو إيلام الحس، إذا أحببت أن تديم ألمه، فأبق فيه آلة الإحساس بالألم، ولذلك تجد الحق سبحانه وتعالى حينما يتكلم عن سليمان والهدهد يقول :

﴿ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ ﴾

(سورة النمل)

كأن الذبح ينهى العذاب، بدليل أنّ مقابل العذاب فى هذا الموقف هو الذبح.

وماذا عن عذاب النار ؟. إن النار المعروفة فى حياتنا تحرق أى شىء تدخله فيها، لكنّ نار الآخرة تختلف اختلافا كبيرا لأن الحق هو القائل :

﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ﴾

(من الآية ٥٦ سورة النساء)

ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ ﴾

ونعلم أن نداء الحق سبحانه وتعالى للمؤمنين بقوله : ﴿ يأيها الذين آمنوا ﴾، إما أن يكون بعدها أمر بمتعلق الإيمان ومطلوبه، وإما أن يكون بعدها الإيمان نفسه، ومثال ذلك قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ ﴾

(من الآية ١٣٦ سورة النساء)

وبعضهم يقول : كيف ينادى مؤمنين ثم يقول لهم : « آمنوا » ؟ ، وهؤلاء المستفهمون لمْ يلتفتوا إلى أن الحق حين يكلم المؤمنين يعلم أنهم مؤمنون بالفعل ، ولكن الأغيار فى الاختيار قد تدعوهم إلى أن يتراخى البعض منهم عن مطلوبات الإيمان. و « آمنوا » الثانية معناها : أنشئوا دائما إيماناً جديداً أى مستمراً يتصل بالإيمان الحاضر والإيمان المستقبل ، ليدوم لكم الإيمان.

فإذا كان ما بعد ﴿ يأيها الذين آمنوا ﴾ أمراً بمطلوب الإيمان ، من حكم شرعى ، أو عظة أخلاقية. يكون أمرها واقعاً ، والمعنى : يا من آمنتم بى إلهاً قادراً حكيماً ، ثقوا فى كل ما آمركم به لأنى لا آمركم بشىء فيه مصلحة لى ؛ لأن صفات الكمال لى أزلية ، فخلقى لكم لم ينشىء صفة كمال ، فإن كلفتكم بشىء ، فتكليفى لكم يعود عليكم بالنفع والمصلحة لكم ، وضربنا المثل - ولله المثل الأعلى منزّه عن كل مثل - أنت تذهب إلى الطبيب بعد أن تتشاور مع أهلك وزملائك وتكون واثقاً بأن هذا هو الطبيب الذى ينفع فى هذه الحالة التى تشكو منها ، وساعة تذهب إليه يشخص لك المرض ويكتب لك الدواء ، وسواء استخدمت الدواء أم لم تستخدمه فأنت حر وأثر ذلك يعود عليك وعدم استعمالك الدواء لن يضر الطبيب شيئاً ، بل أنت الذى تضر نفسك ، كذلك منهج الله الذىْ جعله لصلاحية حركة الحياة. إن اتبعته وطبقته تنفع نفسك ، وإن تركته فلم تطبقه فسوف تضر نفسك ، ولذلك يقول المولى سبحانه وتعالى :

﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الكهف)

إذن فالاختيار لك والله سبحانه وتعالى قد خلقك ، وخلق الكون الذى يخدمك من قبل أن توجد ، وأنت طارىء على هذا الكون ، طارىء على الشمس وعلى القمر ، وعلى الأرض ، وعلى الجبال ، وعلى الماء وعلى أى

شيء فى هذا الوجود. والذى خلق ما سبقك لابد أن تكون له صفات الكمال المطلق. فهو سبحانه وتعالى قد خلق كل شيء بالحكمة والنظام، ومادامت له سبحانه وتعالى صفات الكمال المطلق المستوعبة، فهو لا يطلب منك بالتكاليف أن تنشيء له صفة كمال جديدة، وهو غنى عنك. فإذا اقتنعت بالإيمان فلمصلحتك أنت، ولم يكلفْك إلا بالأحكام التى تصلح من حالك. وحيثية كل حكم هو تصديره بـ ﴿ يأيها الذين آمنوا ﴾.

إياك أن تبحث عن علة فى الحكم؛ لأنك لو ذهبت إلى الحكم لعلته، لاشتركت مع غير المؤمنين، فالمؤمن - مثلا - حين سمع الأمر باجتناب الخمر، امتثل للحكم لأنه صادر من الله، من بعد ذلك عرف غير المؤمنين - بالتحليل العلمى - أن الخمر ضارة فامتنعوا عنها، فهل امتناعهم هو امتناع إيمانى ؟ لا .

إذن فإن المؤمن يأخذ الأمر من الله عز وجل لا لعلة الأمر بل لمجرد أنه قد صدر من الله؛ لذلك يمتثل للأمر وينفذه.. فالمسلم يمتثل لأوامر الله ويؤدى العمل الصالح دون بحث أو تساؤل عن علته، فحين يقال - على سبيل المثال - إن من فوائد الصيام أن يذوق الغنى ألم الجوع، ويعطف على الفقير، حين أسمع من يقول ذلك أقول له : قولك صحيح لأن فيه لمسة من فهم، لكن ماذا عن صوم الفقير الذى ليس عنده ما يعطيه لغيره، ألا يصوم أيضاً ؟.

إن المؤمن يصوم لأن الأمر جاء من الله بالصيام. ومعظم أحكام الله تأتى مسبوقة بقوله : ﴿ يأيها الذين آمنوا ﴾، أى : يا من آمنتم بى إلهاً أقبلوا علىّ، فإنكم إن بحثتم عن العلة، ثم نفذتم الحكم لعلته فأنتم غير مؤمنين بالإله الآمر والمشرع، لكنكم مؤمنون بعلة المأمور به، والله يريدك أن ترضخ له فقط، ولذلك يأمرك بأوامر وينهاك بنواه، فأنت - مثلا - حين تحج بيت الله الحرام، تسلم على الحجر الأسود بأمر مِن الله، وقد تتيح لك الظروف أن تقبِّل هذا

الحجر كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنت فى كل ذلك لا ترضخ للحجر. بل للآمر الأعلى الذى بعث محمداً بحرب على الأصنام وعلى الأحجار، وأنت تتبع رسالة محمد صلى الله عليه وسلم بمنتهى التسليم والإيمان، وتذهب بعد ذلك لترجم الأحجار التى هى رمز إبليس. وتفعل ذلك تسليماً لأوامر الله تعالى التى بلغتك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وهنا يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ ﴾

(سورة الأنفال)

فمادمت قد آمنت بالإله، لابد أن تدافع عن منهج الإله؛ لأن هذا أيضاً لمصلحتك؛ لأنك بإيمانك بالله أيها المؤمن ينتفع المجتمع كله بخيرك، ولن يأمرك سبحانه إلا بالخير، فلن تسرق، ولن تزنى، ولن تشرب خمراً، ولن تعربد فى الناس، ولن ترتشى، وبكل ذلك السلوك ينتفع المجتمع؛ لأن المجتمع يضار حين يوجد به فريق غير مهتد. وأنت حين تقاتل لتفرض الكلمة الإيمانية على هؤلاء، فهذا يعود إلى مصلحتك، ولذلك فإن اتصافك بالإيمان لا يتحقق إلا إن عديته لغيرك، ومن حبك لنفسك، أن تعدى الإيمان بالقيم التى عندك إلى غيرك لتنتفع أنت بسلوك من يؤمن، وينتفع غيرك بسلوكك معه، ومن مصلحتك أن يؤمن الجميع.

وحين يكلفك الحق تبارك وتعالى بالجهاد فى سبيل الله فأنت تفعل ذلك لصالحك.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا ﴾

(من الآية ١٥ سورة الأنفال)

وزحفاً مصدر زَحَف، والزحْف فى الأصل هو الانتقال من مكان إلى مكان آخر بالنصف الأعلى من الجسم. وتقول: « الولد زحف » أى تحرك من مكانه بنقل يديه وشد بذلك بقية جسمه. كما نقول: « حبا ». أى استعمل الوركين والركبتين ليتحرك بجسده على الأرض، ثم نقول: « مشى » أى وقف على قدميه وسار، فتلك إذن مراحل تبدأ من زَحْف ثم حَبْو ثم مَشْى، والطفل يبدأ حركته الأولى بالزحف، بعد أن يتمكن من السيطرة على رأسه، ويمتلك القدرة على تحريكها بإرادته، ويقوى نصفه الأعلى، فيقعد، ثم يزحف، وبعد ذلك تقوى فخذاه فيحبو، ومن بعد ذلك تقوى الساقان فيمشى.

إذن قوة الطفل تبدأ من أعلى.

ولكن ما حكاية « زحفا » هنا فى هذه الآية الكريمة ؟ ولماذا لم يقل هَرْولوا إلى القتال ؟. ونقول: إن الزحف هو انتقال كتلة لا ترى الناقل فيها، فمن يراها يظن أن الكتلة كلها تتحرك.

وكأن الحق تعالى يقصد: أريد منكم أن تتحركوا إلى الحرب كتلة واحدة متلاصقين تماماً فيظهر الأمر وكأنكم تزحفون. وزحفاً أصلها زاحفين، وقد عدل سبحانه وتعالى عن اسم الفاعل وجاء بالمصدر، مثلما نقول عن إنسان عادل: إنه إنسان عدل، أى أن عدله مجسم. ولذلك نجد الشاعر يقول عن الجيش الزاحف:

خميس (١) بِشَرْقِ الأرضِ والغربِ زحفُه
وفى أذنِ الجـــوزاءِ منه زمـــازم (٢)

---

(١) وسمى الجيش بذلك؛ لأنه خمس فرق: المقدمة، والقلب، والميمنة، والميسرة، والساق.
(٢) زمازم: جمع زمزمة؛ وهو صوت الرعد.

والخميس هو الجيش الجرار ، ويريد الشاعر أن يصوّر الزحف كأنه كتلة واحدة متماسكة ومترابطة، بحيث لا تستطيع أن تميز حركة جندى من حركة جندى آخر، حتى ليخيّل إليك أن الكتلة كلها تسير معاً. ومن يريد أن يتأكد من ذلك ندعو الله أن يكتب له الحج ويصعد إلى الدور الثانى من الحرم المكى الشريف ويرى الطائفين، ويجدهم ملتحمين جميعاً كأنهم كتلة واحدة تسير، ولذلك سمّوها «السيل».

و« سالت بأعناق المطى الأباطح »

مَثَلُهم مثل السيل فى تدفقه لا تفرق فيه نقطة عن أخرى.

والحق تبارك وتعالى يوضح لنا هنا أن لقاء الكفار يجب أن يكون زحفاً أى كتلة واحدة متماسكة، فيصيب المشهد الكافرين بالرعب حين يرون هذه الكتلة الضخمة التى لا يفرق أحد بين أعضائها، وهكذا تكون المواجهة الحقيقية.

ويواصل الحق سبحانه وتعالى التنبيه فيقول:

﴿ فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴾

(من الآية ١٥ سورة الأنفال)

أى لا تعطوهم ظهوركم، وهو سبحانه وتعالى فى آية أخرى يقول :

﴿ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴾

(من الآية ٢١ سورة المائدة)

ويريد الله أن يعطى صورة بشعة فى أذن القوم؛ لأن « الأدبار» جمع « دبر » والدبر مفهوم أنه الخلف ويقابله القُبُل، وهذا تحذير لك من أن تمكن عدوك من ظهرك أى دبرك، لأن هذا أمر مستهجن، ولذلك نجد الإمام عليا - كرّم الله

وجهه - يرد على من قالوا له إن درعك له صدار وليس له ظِهار، أى مغطى من الصدر، وليس له ظهر. وهنا يقول الإمام على رضى الله عنه : « ثكلتنى أمى إن مكّنت عدوى من ظهرى »، وكأن شهامة وشجاعة الإمام تحمله على أنه يترك ظهره من غير وقاية.

وفى قول الحق جل وعلا « فلا تولوهم الأدبار » تحذير من الفرار من مواجهة العدو.

ويقول سبحانه وتعالى بعد ذلك :

﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ ﴾

ونلحظ أن الحق سبحانه وتعالى فى هذه الآية الكريمة لم يرتب الغضب منه إلا على من يولى الدبر هَرباً وفراراً من لقاء الأعداء. أما الذى يولى الدبر احتيالاً ولإيهام العدو بأنه ينسحب وفى ذات اللحظة يعاود الكرّة على العدو مطوّقاً له، فهذا هو المقاتل الحق والصادق فى إيمانه الذى يمكر بالعدو. وكذلك من يولى الدبر متحيزاً إلى فئة مؤمنة ليعاود معها الهجوم على الأعداء حتى لا تضيع منه حياته بلا ثمن، فهذا أيضاً من أعمل فكره ليُنزل بالعدو الخسارة ؛ لأن المؤمن يحرص دائما على أن يكون موته بمقابل، فإذا ما وعده الله بالجنة. ألا يقاتل هو ليصيب الأعداء بالهزيمة ؟. وكان ثمن المؤمن من قبل عشرة كافرين، بمعنى أن الله تعالى منح كل مؤمن قوةً تغلب عشرة، مصداقاً لقوله عز وجل :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾

(سورة الأنفال)

ولكن علم الله أن بالمؤمنين ضعفاً فجعل مقابل المؤمن فى المعركة اثنين من الكفار، مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾

(سورة الأنفال)

ولذلك فإننا نجد الذى يفر أمام ثلاثة من الأعداء لا يسمى فاراً فى الحكم الشرعى. لكن من يفر من مواجهة اثنين، يعد فاراً ؛ لأن الحق تعالى قال قبل أن يوجد فينا الضعف :

﴿ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ﴾

(من الآية ٦٥ سورة الأنفال)

أى أن المقاتل المؤمن كان يمكنه أن يواجه عشرة من الكافرين. فإن كان المقابل أقل من عشرة كافرين ، فعلى المؤمن أن يحافظ على نفسه حتى لا يموت رخيص الثمن. ثم أوضح الحق سبحانه وتعالى أن الضعف سيصيب المؤمنين ؛ لذلك قال :

﴿ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ﴾

(من الآية ٦٦ سورة الأنفال)

وهكذا انتقلت النسبة بين المؤمنين والكافرين من واحد لعشرة ، إلى مؤمن مقابل اثنين من الكفار ، وهذا من رحمة الله تعالى ، فمن رأى نفسه فى مواجهة أكثر من اثنين من الأعداء يوضح له الحق تعالى : عليك أن تنحاز إلى فئة من المؤمنين تعصمك من نيلهم منك بلا ثمن.

﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ﴾

(من الآية ١٦ سورة الأنفال)

وعرفنا أن المتحرف للقتال هو صاحب الحيلة ، ونقول فى ألفاظنا التى تجرى على ألسنتنا فى حياتنا اليومية : « فلان حريف » أى لا يغلبه أمر ويحتال عليه ، وهكذا يكون المتحرف فى القتال الذى يكيد للكافرين ويدبر لهم أشياء فيظنون الانهزام ، وهى فى الواقع مقدمات للنصر ، وقوله سبحانه : « أو متحيزا » مأخوذ من « الحيز » ، وهو المكان الذى يشغله الجسم ، وكل واحد منا له « حيز » فى مكان يشغله ، أى أن كل واحد منا متحيز ، والحيز هو الظرف المكانى الذى يسع الإنسان منا واسمه ظرف مكان ، وكل واحد من المخاطبين له مكان وهو متحيز بطبيعته ، وجاءت كلمة «متحيز» فى هذه الآية لتوجه كل مؤمن مقاتل أن يأخذ لنفسه حيزاً جيداً يمكنه من إصابة الهدف ، وكذلك تفيد ضرورة انضمام المقاتل دائما إلى فئة مع إخوانه بهدف تقوية المواجهة مع العدو. ومن لا يفعل ذلك فعليه أن يتلقى العقاب من الله ، وقد بينه تعالى فى قوله سبحانه :

﴿فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾

(من الآية ١٦ سورة الأنفال)

و « باء » تعنى رجع ، والتعبير الأدائى فى القرآن الكريم مناسب لما فعلوه ؛

لأن من يعطى الأعداء دبره فهو الراجع عن الزحف والقتال. لكن من يرجع بهدف الكيد للأعداء والمناورة فى القتال أو لتقوية جماعة أخرى من المؤمنين، فهذا له وضع مختلف تماما، إنه ناصر لدين الله، عكس المنسحب الفار الذى يصحبه فى انسحابه غضب من الله، والغضب من الله - كما نعلم - هو سبب من أسباب إنزال العذاب، ولهذا يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾

(من الآية ١٦ من سورة الأنفال)

والمأوى هو المكان الذى يأوى إليه الإنسان، ونعلم أن الواحد منا حين يرغب فى الراحة فهو يأوى إلى المكان الذى يجد فيه الراحة والأمن من كل سوء.

والفارُّ من مواجهة العدو فى معارك الإسلام لن يجد مأوى إلا النار، بل وترحب به النار ويدور حوار بينها وبين الحق عز وجل يوم القيامة توضحه الآية الكريمة :

﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ ﴾

(سورة ق)

ويُثْبتُ الحق فى قرآنه الكريم أن النار تغتاظُ من الكافرين لأنها جندٌ من جنود الله تعالى ومسخرة لتنفيذ حكم الله، فمن خالف المنهج فى الدنيا تتلقاه النار بتغيظ وزفير، ويسمع الكافرون تغيظها حين تراهم من بعد، والحق سبحانه هو القائل :

﴿ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ ﴾

(سورة الفرقان)

وحين تكون النار هى المأوى، أليس ذلك هو بئس المرجع ؟.

كأن الراجع من الزحف والفارّ من مواجهة الأعداء ومخافة أن يُقتل، سيذهب إلى شىء شر من القتل.

ثم يربب الحق فى المؤمنين ويطلب منهم ألاّ يفتتنوا بالأسباب فيقول سبحانه :

﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ﴾

وقول الحق تبارك تعالى :

﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ﴾

(من الآية ١٧ سورة الأنفال)

مثل قوله تعالى فى آية أخرى :

﴿ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ١٢٦ سورة آل عمران)

وفى هذا تربيب من الحق تبارك وتعالى للمؤمنين، فكما أن النصر من عند الله عز وجل لمن أخذ بالأسباب، كذلك قتل الكافرين كان بإرادته سبحانه لمن كفر ووقع هذا القتل بيد المؤمن، فالمؤمن يضرب بالسيف، وينجرح العدو وينزف، لكن ألم تر جريحاً لم يمت، وألم تر غير مجروح يموت ؟. إذن فالقتل هو من الله .

سبحـــــان ربى إن أراد فــلا مرد له يفوت

كم من جريح لا يموت وغير مجروح يموت

إذن فالمؤمنون حين حاربوا أهل الكفر. إنما يجرحونهم فقط، أما الموت فهو واقع بهم من الله سبحانه وتعالى.

﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ﴾

(من الآية ١٧ سورة الأنفال)

ولقائل أن يقول : إن الحق تبارك وتعالى قال فى موقع آخر :

﴿ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ ﴾

(من الآية ١٤ سورة التوبة)

إذن فللمؤمن المقاتل مظهرية القتال، وللحق حقيقة القتل. ولذلك يأتى سبحانه وتعالى بعد ذلك بقوله :

﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾

(من الآية ١٧ سورة الأنفال)

وفى هذا القول الكريم عطاء لشىء كان مجهولا لهم بشىء عُلم لهم، وبذلك قاس غير معلوم بمعلوم. وعرفنا من قبل أنك إذا رأيت حدثا أو فعلاً منفياً ومثبتا له فى وقت واحد، قد يبدو لك أن فى الكلام تناقضاً. وهنا - على سبيل المثال - ينفى الحق الحدث فى قوله : « وما رميت » ويثبته فى قوله : « إذ رميت ». والرمى معروف. والفاعل هو رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكيف ينفى عنه الفعل أولاً، ويثبته له ثانياً ؟.

ونعلم أن القائل هو رب حكيم، وأسلوبه على أعلى ما يكون. وحتى نفهم هذه المسألة، نحن نعرف أن كل حدث له هيئة يقع عليها وله غاية ينتهى إليها، فمرة يوجد الحدث، لكن الغاية منه لا تتحقق، مثلما يقول الوالد لولده : لقد قرب الامتحان فاجلس فى حجرتك وذاكر. ويجلس الولد فى حجرته وأمامه كتاب ما يقلب صفحاته، وبعد ساعة يدخل الأب حجرة ابنه ليقول : هات كتابك لأسألك فيما ذاكرته. ويسأل الأب ابنه سؤالاً ثم ثانياً فلا يعرف الابن الإجابة عن الأسئلة، فيقول الأب : ذاكرت وما ذاكرت . أى كأنه لم يذاكر، بل فعل الفعل شكلياً، بأن جلس إلى المذاكرة، ولم يؤد ما عليه لأن أثر الفعل وهو المذاكرة لم يتحقق.

وفى غزوة بدر استنجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بربه واستغاث ودعا الله ورفع يديه فقال :

(يارب إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد فى الأرض أبداً، فقال له جبريل : خذ قبضة من التراب فارم بها فى وجوههم) فأخذ صلى الله عليه وسلم قبضة من التراب فرمى بها فى وجوههم فما من المشركين أحد إلاّ أصاب عينيه ومنخريه وفمه تراب من تلك القبضة فولوا مدبرين (١) ومعلوم أنه مهاعة تأتى ذرة تراب فى عينى الإنسان يشتغل بعينيه عن كل شىء. إذن فقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾

(من الآية ١٧ سورة الأنفال)

أى أنك يا رسول الله ما أرسلت بالرمية الواحدة - حفنة التراب - إلى عيون كل الأعداء ؛ لأن هذه مسألة لا يقدر عليها أحد، ولكنك « إذ رميت » أى أديت نصيحة جبريل لك، أما الإيصال إلى عيون العدو فهذا من فعل الله

(١) رواه الطبرى والقرطبى وابن كثير .

القوىّ القادر.

ويتابع سبحانه وتعالى قوله :

﴿ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

(من الآية ١٧ سورة الأنفال)

والبلاء الحسن هنا هو خوض المعركة وحسن أداء القتال فيها.

ويخطىء الإنسان حين يظن أن البلاء هو نزول المصائب، لا، إن البلاء هو الاختبار بأية صورة من الصور . فالطالب الذى استذكر دروسه يكون الامتحان بالنسبة له بلاءً حسناً، ومن لم يستذكر يكون الامتحان بالنسبة له بلاءً سيئاً. إذن فالابتلاء غير مذموم على إطلاقه، ولا ممدوح على إطلاقه، لكن بنتيجة الإنسان فيه هل ينجح أم لا.

وحتى نعرف أن القرآن يفسر بعضه بعضا فلنقرأ قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾

(من الآية ٣٥ سورة الأنبياء)

فالخير بلاء، كما أن الشر بلاء، وحين تستخدم الخير فى خدمة منهج الله تعالى ولا تطغى به، وحين تصبر على الشر ولا تتمرد على قدر الله، فهذا كله اختبار من الله عز وجل ،ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ ﴾

(سورة الفجر)

وهذا هو الابتلاء بالخير ، أما الابتلاء بالشر فيقول عنه الحق سبحانه :

﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾﴾

(سورة الفجر)

والابتلاء بالخير أو بالشر هو مجرد اختبار، والاختبار كما وضحنا غير مذموم على إطلاقه، ولا ممدوح على إطلاقه، ولكنه يذم ويمدح بالنسبة لغايته التى وصل إليها المبتلى أو من يمر بالاختبار، فإن نجح ،فهذا ابتلاء حسن، وإن فشل ،فهو ابتلاء سيىء.

ونلحظ - على سبيل المثال - أن الطالب الذى ركز فكره ووقته وحبس نفسه وبذل كل طاقته فى التحصيل والاستذكار طوال العام الدراسى، هذا الطالب حين يدخل الامتحان. فهو يحاول أن يثأر من التعب الذى عاناه فى التحصيل والإحاطة؛ لذلك يجيب على الأسئلة بدقة، وكلما انتهى من إجابة سؤال إجابة صحيحة، يشعر ببعض الراحة، وإن حاول زميل له أن يشوش عليه فهو يصده ولا يلتفت إليه، بل قد يستدعى له المراقب.

والمؤمن الذى يشترك مع المؤمنين فى البلاء الحسن هو مثل التلميذ الذى يؤدى ما عليه بإخلاص.

والذى يسمع همسة كل مؤمن ويرى فعله هو الحق سبحانه وتعالى، ولذلك جاء بعد الحديث عن البلاء الحسن بقوله تعالى :

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

« من الآية ١٧ سورة الأنفال »

إذن فالله سبحانه وتعالى سميع بما تجهرون به وعليم بما تخفونه فى صدوركم. وهو جل وعلا يعلم من حارب بقوة الإيمان، ومن خالطته الرغبة فى

أن يرى الآخرون مهارته فى القتال ليشيدوا ويتحدثوا بهذه المهارة. ولا أحد بقادر على أن يدلس على الله عز وجل.

ويقول سبحانه وتعالى من بعد ذلك :

﴿ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾ ﴾

و « ذلكم » إشارة إلى أن الأمر كان كذلك، وسبحانه وتعالى هنا يخبرنا أنه موهن كيد الكافرين، أى يضعف هذا الكيد، ولسائل أن يقول : لماذا لا ينهاهم ؟ ولماذا يضعف الكفر فقط ؟ ونقول : إن إضعاف الكفر يُهَيِّج على الإيمان ويحبب المؤمنين فى الإيمان حين يرون آثار الكفر التى تفسد فى الأرض وهى تضعف، ولأن الحمية الإيمانية تزيد حين يهاج الإسلام من خصومه. إذن فبقاء الكفر لون من استبقاء الإيمان.

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ ﴾

و « تستفتحوا » من الاستفتاح وهو طلب الفتح؛ لأن الألف والسين والتاء تأتى بمعنى الطلب، فنقول : استفهم أى طلب الفهم، و « إن تستفتحوا »، أى تطلبوا الفتح، ونعلم أن المعنويات مأخوذة كلها من الأمر الحسىّ؛ لأن أول إلف للإنسان فى المعلومات جاء من الأمور الحسّية، ثم تتكون للإنسان المعلومات العقلية. ومثال ذلك قولنا : « إن النار محرقة »، وعرفنا هذا القول

من تجربة حسّية مرت بأكثر من إنسان ثم صارت قضية عقلية يعرفها الإنسان وإن لم ير ناراً وإن لم ير إحراقاً.

وعندما تجتمع المحسات تتكون عند الإنسان خمائر معنوية وقضايا كلية يدير بها شئونه العامة، ومثال ذلك : إننا نعرف جميعاً أن المجتهد ينجح، وأخذنا هذه الحقيقة من الواقع ، تماماً كما أخذنا الحقيقة القائلة : إن المقصر والمهمل كل منهما يرسب.

وسبحانه وتعالى ينبهنا إلى هذه فيقول :

﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾

(من الآية ٧٨ سورة النحل)

أى أن الإنسان منا مخلوق وهو خالى الذهن، وخلو الذهن يطلب الامتلاء، وكل معلومة يتلقاها الذهن الصغير يستطيع أن يستظهرها فوراً، ولذلك نجد التلميذ الصغير أقدر على حفظ القرآن الكريم من الشاب الكبير؛ لأن هذا الشاب الكبير قد يزدحم ذهنه بالمعلوم العقلى.

وقد شرح لنا علماء النفس هذه المسألة حين قالوا : إن لكل شعور بؤرة هى مركز الشعور. والأمر الذى تفكر فيه تجد المعلومات الخاصة به فى ذهنك فوراً. وقد تتزحزح هذه المعلومات من ذاكرتك إذا فكرت فى موضوع آخر، كما تتزحزح المعلومات الخاصة بالموضوع السابق إلى حافة الشعور لتحل مكانها المعلومات الخاصة بالموضوع الجديد فى بؤرة الشعور.

والحيز فى المعنويات مثله مثل الحيز فى الحسِّيات، فأنت حين تملأ زجاجة بالمياه لابد أن تكون فوهة الزجاجة متسعة لتدخل فيها المياه ويخرج الهواء الذى بداخل الزجاجة. لكن إن كانت فوهة الزجاجة ضيقة كفوهة زجاجة العطر مثلا

فهذه يصعب ملؤها بالمياه إلا بواسطة أداة لها سن رفيع كالسرنجة الطبية حتى يمكن إدخال المياه وطرد الهواء الموجود بداخل الزجاجة ذات الفوهة الضيقة.

وهكذا نرى أن الحيز فى الأمور المحسة لا يسع كميتين مختلفتى النوعية، ويكون حجم كل منهما مساوياً لحجم الحيز. وتقترب المسألة فى المخ من هذا الأمر أيضاً، فأنت لا تتذكر المعلومات الخاصة بموضوع معين إلا إذا كان الموضوع فى مركز الشعور، فإذا ما ابتعد الموضوع عن تفكيرك بعدت المعلومات الخاصة به إلى حاشية الشعور البعيدة. والطفل الصغير يكون خالى الذهن لذلك يستقبل المعلومات بسرعة ويكون مستحضرا لها.

ولذلك لا يجب أن نتهم إنساناً بالغباء وآخر بالذكاء لمجرد قدرة واحد على سرعة التَّذكر وعجز الآخر عن مجاراة زميله فى ذلك، فالذكاء له مقاييس متعددة مازال العلماء إلى الآن يختلفون حولها. لكن فى موضوع التذكر اتفق جانب كبير من العلماء على أن الذهن كآلة التصوير يأخذ المعلومة من أول لقطة شريطة أن تكون بؤرة الشعور خالية لهذه المعلومة. أما إن كانت بؤرة الشعور مشغولة بأمر آخر فهى لا تلتقط المعلومة. والحق سبحانه وتعالى هو القائل :

﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾

(سورة النحل)

والسمع والأبصار هما عمدة الحواس، نأخذ بهما محسّات ونُكَوّنُ منها معلومات عقلية.

والحق تبارك وتعالى هنا يقول :

﴿ إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ ﴾

(سورة الأنفال)

والفتح يُطلق إطلاقات متعددة، منها الحسّى، مثل فتح الباب أو فتح الكيس ويقصد إزالة إغلاق شىء يصون شيئاً، مثل فتح الباب، والباب إنما يصون ما بداخل الغرفة. والفتح الحسّى يمثله القرآن الكريم بقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَلَمَّا فَتَحُوا۟ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ﴾

(من الآية ٦٥ سورة يوسف)

أى إن إخوة يوسف حين فتحوا الأخراج - وكانت هى بديلة الحقائب - وجدوا البضاعة التى كانوا قد أخذوها معهم ليستبدلوا بها سلعاً أخرى. وهذا هو الفتح الحسّى.

وقد يكون الفتح فى الأمور المعنوية كالفتح فى الخير وفى العلم مثل قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ﴾

(من الآية ٢ سورة فاطر)

إذن ففتح الرحمة فتح معنوى.

وقد يكون الفتح فى الحكم؛ لأن الحكم يكون بين أطراف مشتبكة فى قضية، وكل طرف يدّعى على الآخر، ويأتى الحكم ليزيل خفاء القضية ويَفْتَحها.

ومثال ذلك ما حدث بين سيدنا نوح عليه السلام وقومه. فقومه قالوا :

﴿ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴾

(من الآية ١١٦ سورة الشعراء)

فماذا قال سيدنا نوح عليه السلام ؟ :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ ﴾

(سورة الشعراء)

أى أن سيدنا نوحاً عليه السلام قد دعا الله أن يفصل فى القضية التى بينه وبين قومه بالحق وهو يعلم أن الله تعالى معه. لذلك طلب منه النجاة لنفسه ولمن معه من المؤمنين.

وهنا فى الآية الكريمة التى نحن بصدد خواطرنا عنها نجد أن الفتح يأتى بمعنى الحكم الذى يفصل بين المتنازعين، وهو صلب حكم يفصل بين فريقين، فريق الهدى والداعى إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأتباعه من المؤمنين، وفريق الضلال وهم كفار قريش.

وقد استفتح الفريقان، فقد قال أبو جهل حين التقى القوم: « اللهم أقطعنا للرحم، وآتانا بما لا نعرف فأحنه [١] الغداة» [٢].

لقد ظن أبو جهل أن سيدنا محمدا صلى الله عليه ويسلم يقطع رحمهم، ويجعل الولد يترك أباه وأمه، وأيضاً كان المشركون حين خرجوا من مكة إلى

---

(١) أحنْهُ : أى أهلكه .

(٢) رواه أحمد والنسائى والحاكم .

بدر أخذوا بأستار الكعبة فاستنصروا الله وقالوا :

« اللهم انصر أعلى الجندين ، وأكرم الفئتين وخير القبيلتين »

هكذا كان دعاء الكفار.

أما دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهو قوله :

(يارب إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد فى الأرض أبداً) .

والاستفتاح من الطرفين يدل على أن كلا منهما مجهد بأمر الآخر ، فلو كان أحدهما مرتاحاً والآخر متعباً لطلب المتعب الفتح وحده.

وجاء الحكم من الله سبحانه وتعالى فى القضية هذه ، حيث حكم تبارك وتعالى على الكافرين بأن يُسلبوا ويقتلوا ويصبحوا مثار السخرية من أنفسهم وممن يرونهم وقد استحقوا ذلك بسبب كفرهم وضلالهم وعنادهم ومحاربتهم للحق ، والذى رجح أن الفتح جاء أيضاً من المؤمنين أن الحق قال :

﴿ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ﴾

(من الآية ١٩ سورة الأنفال)

أى إن كنتم قد استفتحتم وطلبتم الفصل والحكم فقد جاءكم الفتح ، وهذا الفتح كان فى صالح المؤمنين ، وأيضاً فى صالح دعاء الكافرين ، إنه جاء فى الأمرين الاثنين ؛ فتح للمؤمنين ، وفى صالح دعاء الكفار. فأنتم - أيها الكافرون - قد دعوتم ، فإما أن تكونوا قد دعوتم والله أجاب دعاءكم وهو شر عليكم ، وهذا دليل على أنكم أغبياء فى الدعاء ، ومادام الفتح قد جاء ، كان الواجب أن ينتهى كل فريق عند الحد الذى وقع ، وكان على الكافرين أن يقتنعوا بأنهم انهزموا ، وعلى المؤمنين أن يقتنعوا بأنهم انتصروا.

﴿ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾

(من الآية ١٩ سورة الأنفال)

و « تنتهوا » هذه صالحة أولاً بظاهرها للكفار، أى إن تنتهوا عن معاداة الرسول وخصومته، واللجج فى أنكم جعلتموه عدوا، وتتكتلون وتتآمرون عليه، فإن تنتهوا فهذا خير لكم فى دنياكم لأنكم قد رأيتم النتيجة. حيث قتل البعض من صناديدكم، وأسر البعض الآخر، وأخذت منكم الأسلاب والغنائم. فإن انتهيتم عن العمل الذى سبب هذا فهو خير لكم فى دنياكم، وخير لكم أيضاً فى أخراكم؛ إذا كان الانتهاء سيئول بكم إلى أن تنتهوا عن مخاصمة الدين الذى تخاصمونه وتصبحوا من المنتمين إليه.

ويتابع سبحانه وتعالى قوله :

﴿ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ ﴾

(من الآية ١٩ سورة الأنفال)

وإن لم تنتهوا وعدتم إلى العداء ومحاربة هذا الدين فسنعود لنصرة المؤمنين، وإياكم أن تقولوا إنكم فئة كثيرة؛ ففئتكم لن تغنى من الله عنكم شيئاً، والدليل على ذلك أنكم هزمتم فى بدر وأنتم كثرة، وأصحاب عدد، وأصحاب عدة. فما أغنت عنكم كثرتكم ولا عدتكم شيئا.

﴿ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

(من الآية ١٩ سورة الأنفال)

وكان المؤمنون قلة ورغم ذلك كانوا هم الغالبين.

وما تقدم إنما يعنى الكلام بالنسبة للكفار، فماذا إذا كان الكلام والاستفتاح

بالنسبة للمؤمنين، ففى أى شىء ينتهون ؟.

إن عليهم أن ينتهوا عن اللجاج والخلاف فى الغنائم، الذى جاء فيه قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾

(من الآية ١ سورة الأنفال)

وهم قد اضطروا أن يسأل الرسول صلى الله عليه وسلم ربه، فإن عادوا للنزاع والجدل فيما بينهم وكأنهم فريقان متعارضان غير مجموعين على إيمان، فلن تغنى فئة عن أخرى شيئا، وعليكم أن تعلموا يا أهل الإيمان أنه إن عزت طائفة منكم، فلتهن أمامها الطائفة الأخرى، ولا تظنوا أنكم بالنصر قد صرتم كثيراً لأن النصر لم يكن لا بالفئة ولا بالملائكة، ولكن النصر كان من عند الله العزيز الحكيم.

ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾

وهذا نداء واضح من الله عز وجل للمؤمنين، وأمر محدد منه بطاعة الله والرسول؛ لأن الإيمان هو الاعتقاد الجازم القلبى بالله وبملائكته، وكتبه، ورسله، وباليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره، وعلى المؤمنين أن يؤدوا مطلوب الإيمان. ومطلوب الإيمان - أيها المؤمنون - أن تنفذوا التكاليف التى يأتى بها المنهج من الله عز وجل، ومن المبلغ عنه سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فى الأوامر وفى النواهى.

وقد فصلنا من قبل مسألة الطاعة، الطاعة لله تكون فى الأمر الإجمالى، وطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم تكون فى اتباع الحكم التفصيلى التطبيقى الذى يأتى به رسول الله للأمر الإجمالى. وكذلك تكون طاعة الرسول واجبة فى أى أمر أو حكم؛ لأن الله قد فوض رسوله صلى الله عليه وسلم فى ذلك :

﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾

(من الآية ٨٠ سورة النساء)

ويتمثل التفويض من الحق سبحانه وتعالى إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فى قول الحق تبارك وتعالى :

﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾

(من الآية ٧ سورة الحشر)

وهنا فى الآية الكريمة التى نحن بصدد خواطرنا عنها نجد الملحظ الجميل فى الأداء القرآنى :

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾﴾

(سورة الأنفال)

والتولى - كما نعلم - هو الإعراض، والأمر هنا بعدم الإعراض، ومادمتم قد آمنتم فلا إعراض عما تؤمنون به. والملحظ الجميل أنه سبحانه لم يقل: ولا تولوا عنهما. قياساً بالأسلوب البشرى. لكنه قال: «ولا تولوا عنه» أى أنه سبحانه وتعالى قد وحد الكلام فى أمرين اثنين؛ طاعة الله وطاعة الرسول، ولأن الرسول مبلغ عن الله فلا تقسيم بين الطاعتين؛ لأن طاعة الرسول هى طاعة لله تعالى.

أو نقول : إن التولى لا يكون أبداً بالنسبة إلى الله، فلا أحد بقادر على أن يتولى عن الله؛ لأن الله لاحقه ومدركه فى أى وقت.

لذلك نجد الحق تبارك وتعالى يقول فى آية ثانية :

﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ ﴾

(سورة التوبة)

وهو سبحانه وتعالى فى هذا القول يوحد بين رضاء الله والرسول فيجعله رضاءً واحداً، فالواحد من هؤلاء يقسم أنه لم يفعل الفعل المخالف للإيمان إرضاءً للمؤمنين، وليبرىء نفسه عند البشر، لكن هناك رضاء أعلى هو رضاء مراعاة تطبيق المنهج الذى أنزله الله عز وجل وجاء به الرسول صلى الله عليه وسلم، وهناك قيوم أعلى يرقب كل سلوك، ويعلم ما ظهر وما بطن. فلو كنا متروكين لبعضنا البعض لكان لأى إنسان أن يواجه الآخر، كل بقو ته، لكن نحن فى الإيمان نعلم أننا تحت رقابة المقتدر القيوم، فمن ظلم أخاه؛ وغفر المظلوم لظالمه، فالله سبحانه وتعالى رب الظالم ورب المظلوم - لا يغفر للظالم بل يؤاخذه.

وسبحانه وحد أيضاً فى هذه الآية بين رضاء الله ورضاء الرسول ولم يقل: والله ورسوله أحق أن يرضوهما بظاهر الأسلوب فى لغة البشر، لكنه شاء أن يوحد الرضاء؛ لأنه يدور حول أمر واحد بطاعة واحدة، وحول نهى واحد بانتهاء واحد.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾

(سورة الأنفال)

وهذا الأمر بطاعة الله تعالى والرسول بلاغ من الله، والبلاغ أول وسيلة له الأُذن، لأن الأُذن أول وسيلة للإدراكات، ولذلك فإنّ الرسول يبلغ الأوامر بالقول للناس، ولم يبلغهم بالكتابة؛ لأن كل الناس لا تقرأ، فأبلغ صلى الله عليه وسلم الناس قولاً كما أمر أن يكتب القرآن ليظل محفوظا.

ونعلم أن السماع هو الأصل فى القراءة. وأنت لا تقرأ مكتوباً، ولا تكتب مسموعاً إلا إذا عرفت القواعد، وعرفت كيفية نطق الحروف.

والمعلم يعلم طالب المعرفة القراءة والكتابة عن طريق السماع أولاً، إذن فالسماع مقدم فى كل شىء، ولن يستطيع واحد أن يقول فى عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم: لم تبلغنى الدعوة؛ لأن الدعوة أبلغت للناس بالسماع، وقوله: « وأنتم تسمعون » تعطينا أن الإنسان إن لم تبلغه الدعوة، فليس مناطاً للتكليف، لأن ربنا سبحانه وتعالى هو القائل:

﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾

(من الآية ١٥ سورة الإسراء)

والمجتمعات التى تعيش فى غفلة وليس عندهم رسول ولم يبلغهم المنهج، لن يعذبهم الله، وهذا أمر وارد الآن فى البلاد النائية البعيدة عن الالتقاء بالإسلام وبمنهج الإسلام، وبالسماع عن الإسلام؛ لأنهم ما سمعوا شيئاً عن الدين ولم يعرفوا منهجه. وهؤلاء ناجون من العذاب طبقاً لقول الله تعالى:

﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾

(من الآية ١٥ سورة الإسراء)

فثمرة بعث الرسول أن يبلغ الناس، ولذلك أخذنا حكما هاماً من الأحكام من قوله الحق تبارك وتعالى:

﴿ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴾

(من الآية ٢٠ سورة الأنفال)

أخذنا من هذا القول أن من لم يبلغهم المنهج لا يحاسبون. ولكن أيكفى السماع فى أن نعلم المنهج . لا ، لا يكفى فى السماع أن نعلم أن هناك رسولاً جاء ليعقب على رسول سبق ، ولكن عليك أن تبحث أنت. فإن كان فى الأرض من لم يبلغه هذا فهو ناجٍ ، وإن كان قد بلغه خبر رسول ولم يبلغه المنهج الكامل فعليه أن يبحث بنفسه ، بدليل أن الإنسان يبحث عن أهون الأشياء بمجرد أن يسمع عنها ، ويشغل نفسه بالبحث.

ولنفرض أن إنساناً قال فى قرية : إن الدولة ستغير بطاقة التموين ، ألا يتجه كل فرد فى القرية ليسأل عن هذا الأمر ويهتم به كل الاهتمام ؟. إذن كان يكفى فى وصول البلاغ أن يسمع الإنسان رسولاً فى العرب قد جاء للناس كافة برسالة عامة ، وأن هذه الرسالة تعقب الرسالات السابقة ، ومن سمع هذا السماع كان عليه أن يعامل هذا الخبر معاملة المصالح الدنيوية الأساسية لأنه اذا كان أمر الدنيا هاماً فما بالنا بأمر صلاح الدنيا والآخرة ؟.

وجزء من التبعة فى ذلك يقع على المسلمين الذين لم يجدُّوا ويبلغوا منهج الله ودين الله إلى غيرهم.

ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك :

﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

ففى هذه الآية الكريمة ينهانا الحق جل وعلا أن نكون مثل من قالوا :

«سمعنا» وحكم الله بأنهم لا يسمعون ، وهؤلاء هم من أخذوا السمع بقانون الأحداث الجارية على ظواهر الحركة فسمعوا ولم يلتفتوا ؛ لأن المراد بالسماع ليس أن تسمع فقط ، بل أن تؤدى مطلوب ما سمعت ، فإن لم تؤد مطلوب ما سمعت ، فكأنك لم تسمع. بل تكون شراً ممن لم يسمع ؛ لأن الذى لم يسمع لم تبلغه دعوة ، أماً أنت فسمعت فبلغتك الدعوة ولكنك لم تستجب ولم تنفذ مطلوبها.

إذن قول الله تعالى :

﴿ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾

(من الآية ٢١ سورة الأنفال)

يفسر لنا أن هذا السماع منهم كان مجرد انتقال الصوت من المتكلم إلى أذن السامع بالذبذبة التى تحدث ، ولم يأخذوا ما سمعوه مأخذاً جاداً ليكون له الأثر العميق فى حياتهم. فإذا لم يتأثروا بالمنهج ، فكأنهم لم يسمعوا ، وياليتهم لم يسمعوا ؛ لأنهم صاروا شرّا ممن لم يسمع.

﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

(سورة الأنفال)

أو أن السمع يراد ويقصد به القبول ، مثلما نقول : اللهم اسمع دعاء فلان ، وأنت تعلم أن الله سميع الدعاء وإن لم تقل أنت ذلك ، لكنك تقول : اللهم اسمع دعاء فلان بمعنى « اللهم اقبله » ، فيكون المراد بالسمع القبول.

ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك :

﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾

وكلمة « دابَّة » تعنى كل ما يدب على الأرض، ولكنها خُصَّتَّ عرفاً بذوات الأربع. وجمع دابة دوابّ.

و « الدواب » كما نعلم هى القسم الثالث من الوجود، لأن الوجود مرتقى إلى حلقات؛ أولها الجماد، وثانيها النبات، وثالثها الحيوان، ورابعها الإنسان، ويجمع هذه الأشياء الأربعة رباط واحد، فنجد أن أعلى مرتبة فى الأدنى، هى أول مرتبة فى الأعلى، فالأدنى هو الجماد، وفوقه النبات، وأعلى شىء فى الجماد، يُمثل أول شىء فى النبات، مثل المرجانيات، كأن الجماد نفسه له ارتقاءات فى ذاته تتوقف عند مرحلة معينة لا يتعداها، فلا ترتقى إلى أن تصير نباتاً، أو أن يصبح النبات حيواناً، لا، إن كل قسم يظل مستقلا بذاته وفيه ارتقاءات تقف عند حد معين. وإذا كان أعلى شىء فى الجماد يكاد أن يماثل أول شىء فى النبات. فهو لا يتحول نباتاً مثل ظاهرة نمو الشعاب المرجانية التى أخذت ظاهرة النبات، لكنها لا تنتقل إلى نبات، بل تظل أعلى قمة فى الجماد. وكذلك النبات، نجده يرتقى إلى أن ينتهى إلى أعلى مرحلة فيه. فالنبات مراحل، وآخر مرحلة فيه أن يوجد نبات يُحسّ، لأن الإحساس فرع الحياة، وهذا ما نراه فى نباتات الظل التى نشاهدها وهى تتجه بطبيعة تكوينها إلى نور النهار. وكأن فيها نوْعاً من الإحساس. وإن تغير مكان الضوء، فإنها تُغيِّر اتجاهها إلى المكان الجديد.

وهناك نوع من النبات يذبل فور أن تلمسه. ونسمع عن نبات يسمى فى الريف « الست المستحية » وهى تغلق أوراقها على ثمرتها فور اللمس، وأخذت

أعلى مرتبة فى النبات، وهى أول مرتبة فى الحيوان، لكنها لا ترتقى إلى حيوان. بل تظل فى حلقتها كنبات.

ونأتى إلى الحيوانات لنجدها ترتقى، فهناك حيوانات تستأنس، وحيوانات لا تستأنس، بل تظل متوحشة، وقد خلقها ربنا لحكمة ما. فالإنسان يستأنس الجمل ولا يستطيع أن يستأنس الثعبان، ولا البرغوث، كأن الله يريد بذلك أن يعلمنا أننا لم نستأنس الحيوانات التى نستأنسها بقدرتنا وبذكائنا؛ بل هو الذى جعلك تأنس بها، فأنت أنست بالجمل، وقد ترى البنت الصغيرة وهى تقوده، وتأمره بالقيام والقعود، بينما البرغوث الصغير قد يجعل الإنسان ساهراً طوال الليل لا يعرف كيف يصطاده. إذن هذه الأمور تعطينا حكمة أوجزها الحق تبارك وتعالى فى قوله:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾﴾

(سورة يس)

ولو لم يذلل الحق تبارك وتعالى هذه المخلوقات، لما استطاع الإنسان تذليلها، ونرى المخلوق الصغير وقد عجز الإنسان أمام تذليله، ليعرف أن المذلل ليس الإنسان، بل المذلل هو الله سبحانه وتعالى. وفى المستأنس من الحيوانات تجد نوعاً تُعوده على بعض الأشياء فيعتادها ويقوم بها مثل القرد الذى يقول له مدربه اعجن عجين الصبية، أو العجوزة، فيقلد القرد الصبية أو «العجوزة»؛ لأن فيه قابلية التقليد، فهو يملك درجة من الفهم وهو أعلى مرتبة فى الحيوان، ويقف عندها ولا يتطور إلى خارجها، بدليل أنك إن علمت قرداً كل شىء، فهو يصنع ما تعلمه له من الحركات ويضحك الناس منه، لكن القرد لا يستطيع أن يعلمها لبنى جنسه. وكذلك نجد من يدرب الأسد والنمر ليؤدى

فقرات ترفيهية فى السيرك، لكن الأسد لا يعلم أولاده من الأشبال ما تعلمه من مدرب السيرك.

إذن فالوجود بحلقاته الأربع؛ جماداً ونباتاً وحيواناً وإنساناً لا ترتقى فيه حلقة إلى الأعلى منها؛ بل تقف عند حد معين، وتلك هى الشبهة التى أصابت بعض المفكرين فى أن يظنوا أن أصل الإنسان قرد؛ لأن المخلوقات حلقات يسلم بعضها لبعض، وأدنى مرتبة فى الأعلى لكل حلقة هى أعلى مرتبة فى الأدنى وتقف فى حدودها. والذى يهدم نظرية داروين من أولها هو هذا الفهم لطبيعة التطور:

﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾

(من الآية ٤٩ سورة الذاريات)

أى أن كل الكائنات مخلوقة ابتداءً من الله، ولا يوجد جنس قد نشأ من جنس آخر.

ونقدم هذا الدليل العقلى لغير المتدينين، فنقول: لماذا لم تؤثر الظروف التى أثرت فى القرد الأول ليصير إنساناً، فى بقية القرود لتكون أناساً؟

وهكذا تنهدم النظرية - نظرية داروين - من أولها لآخرها، وعلماء الأجناس يهدمونها الآن. والحق تبارك وتعالى أخبرنا أن هذه المخلوقات التى تقع فى المرتبة تحت الإنسان، لا تستطيع أن ترتب المقدمات، وتأخذ منها النتائج. ولا تعرف البديلات فى الاختيار، والحيوان وهو أرقى الأجناس ليس عنده بديلات؛ إنه يتعلم مهمة واحدة وتنتهى المسألة؛ لأنها دواب لا تعقل، لكن الإنسان يملك القدرة على الاختيار بين البديلات. وجرب أن تعاكس قطة فإنك تجدها تهاجمك وتجرحك بمخالبها إلا إن كنت أنت مستأنسها وتعرف أنك

تداعبها. أمَّا المؤمن العاقل المكلف فهو يتصرف فى المواقف بشكل مختلف. فإن قام إنسان بإيذائه فقد يعاقبه بمثل ما عوقب، وقد يعفو عنه، وقد يكظم غيظه.

﴿ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ﴾

(من الآية ١٣٤ سورة آل عمران)

إذن فأنت أيها المؤمن عندك بديلات كثيرة، لكن الحيوان لا يملك مثل هذه البديلات.

ولذلك ضربنا من قبل المثل : لو أنك علفت حيواناً إلى أن أكل وشبع ثم جئت إليه بعد شبعه بشىء زائد من أشهى طعام عنده؛ تجده لا يأكله. بينما الإنسان إن شبع فقد لا يمانع أن يأكل فوق الشبع من صنف يحبه.

ومثال آخر : نرى فى الريف أن الحمار حين يرى جدولاً من المياه ويكون اتساع الجدول فوق قدرته على أن يقفز عليه ليعبره، نجد الحمار قد توقف رافضاً القفز أو المرور فوق هذا الجدول. فهل قاس الحمار المسافة بنظره ووازنها بقدرته ؟! إنه يقفز فوق الجداول التى فى متناول قدرته، لكنه يرفض ما فوق هذه القدرة، رغم أننا نصف الحمار بالبلادة.

وهذا يبين لنا أن كل جنس يسير فى ناموس تكوينه ليؤدى مهمته التى أرادها له الله. ولقائل أن يقول : كيف يقول الحق تبارك وتعالى : « إن شر الدواب عند الله » بينما الحيوانات كلها مسخرة ؟ ونقول : إذا كنت أيها الإنسان تأخذ وظيفة الأدنى فأنت تختار أن تكون شراً من الدابة ؛ لأن الأدنى مسخر بقانونه ويفعل الأشياء بغرائزه لا بفكره، فكأن فكر الاختيار بين البديلات غير موجود فيه، لكنك أيها الإنسان ميزك الله بالعقل الذى يختار بين البديلات، فإن أوقفت عقلك عن العمل، وسلبت قدرتك على القبول لما تسمع من وحى ألا تكون شر الدواب ؟

وحين نتأمل كلمة « شر وخير » نقرأ قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨ ﴾

(سورة الزلزلة)

فالخير يقابله الشر، وحين يقابل الخير الشر، فالإنسان يميز الخير، لأنه نافع وحسن، ويميز الشر؛ لأنه ضار وقبيح.

ولكن كلمة « خير » تستعمل أحياناً استعمالاً آخر لا يقابله الشر، بل يقال: إن هذا الأمر خير من الثانى، رغم أن الثانى أيضاً خير، مثل قوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه عنه أبو هريرة رضى الله عنه:

(المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفى كلٍ خير). (١)

إنّ كلاً منهما - أى المؤمن القوى والمؤمن الضعيف - فيه خير، لكن فى الخير ارتقاءات، هناك خير يزيد عن خير، ويخبر المولى فى قوله تعالى: (إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون).

أى أن الكفار شر مادبَّ على الأرض لأنهم قد افتقدوا وسيلة الهداية وهى السماع، وبذلك صاروا بكماً أى لا ينطقون كلمة الهدى.

ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك :

﴿ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ۝٢٣ ﴾

فهو سبحانه وتعالى قد علم أنه ليس فيهم خير، فلم يسمعهم سماع الاستجابة.

---

(١) رواه مسلم.

والمولى سبحانه وتعالى منزه من أن يبتدئهم بعدم إسماعهم؛ لأنهم لم يوجد فيهم خير، والخير هنا مقصود به الإيمان الأول بالرسول، وهم لم يؤمنوا. فلم يستمعوا لنداء الهداية منه صلى الله عليه وسلم كمبلغ عن الله تعالى. إذن فعدم وجود الخير بدأ من ناحيتهم، وسبحانه وتعالى القائل:

﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾

(من الآية ٢٦٤ سورة البقرة)

وهم - إذن - سبقوا بالكفر فلم يهدهم الله.

وسبحانه وتعالى القائل:

﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

(من الآية ٢٥٨ سورة البقرة)

وهم سبقوا بالظلم فلم يهدهم الله.

وسبحانه وتعالى القائل:

﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾

(من الآية ١٠٨ سورة المائدة)

وهم سبقوا بالفسق فلم يهدهم الله.

والله منزه عن الافتئات على بعض عباده، فلم يسمعهم سماع الاستجابة لنداء رسول الله صلى الله عليه وسلم:

(ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون)

وعلم الله تعالى أزلي، لكنه لا يحاكم عباده بما علم عنهم أزلاً. بل ينزل لهم

حق الاختيار فى التجربة الحياتية العملية. وأضرب هذا المثل - ولله المثل الأعلى- تجد أباً يعانى من مأساة فشل ابنه فى الدراسة أو فى الاعتماد على نفسه فى الحياة، ويحيا الولد لاهياً غير مقدر لتبعات الحياة، فيقول أصدقاءالوالد له: لماذا لا تقيم لابنك مشروعاً يشغله بدلاً من اللهو، فيرد الأب : إننى أعرف هذا الولد، سيأخذ المشروع ليبيعه ويصرف ثمنه على اللهو. والأب يقول ذلك بتجربته مع الابن. لكنْ ألا يُحتمل أن يكون هذا الابن قد ملَّ الانحراف واللهو وأراد أن يتوب، أو على الأقل ليثبت للناس أن رأى والده فيه غير صحيح ؟ لذلك نجد الأب يفتح لابنه مشروعاً، لكن الولد يغلبه طبعه السيىء فيبيع المشروع ليصرف نقوده فى الفساد.

هل حدث ذلك من نقص فى تجربة الوالد ؟ لا، بل عرف الأب عدم الجد عن ابنه، وسهولة انقياده لهواه. فما بالنا بالحق الأعلى العليم أزلاً بكل ما خفى وما ظهر من عباده ؟.

ولكنّه سبحانه وتعالى شاء ألا يحاسب عباده بما علمه أزلاً، بل يحاسبهم سبحانه وتعالى بما يحدث منهم واقعاً، فهو القائل :

﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ ﴿١١﴾ ﴾

(سورة العنكبوت)

فسبحانه وتعالى العالم أزلاً، لكنه شاء أن يعلم أيضاً علم الإقرار من العبد نفسه؛ لأن الله لو حكم على العباد بما علم أزلاً، لقال العبد : كنت سأفعل ما يطلبه المنهج يارب. لذلك يترك الحق الاختيار للبشر ليعملوا على ضوء اختياراتهم ويكون العمل إقراراً بما حدث منهم.

﴿ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾

(سورة الأنفال)

وحتى لو أسمعهم الله عز وجل لتولوا هم عن السماع وأعرضوا عنه؛ لأنه سبحانه وتعالى يعلم أنهم اختاروا أن يكونوا شراً من الدواب عنده، وهم الصم الذين لا يسمعون دعوة هداية، وبكْم لا ينطقون كلمة توحيد، ولا يعقلون فائدة المنهج الذى وضعه الله تعالى لصلاح دنياهم وأخراهم.

ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

وهنا نقل المسألة من سماع إلى استجابة؛ لأن مهمة السماع أن تستجيب .

﴿ يأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم ﴾

أى استجيبوا لله تعالى تشريعا، وللرسول صلى الله عليه وسلم بلاغاً، وغاية التشريع والبلاغ واحدة، فلا بلاغ عن الرسول إلا بتشريع من الله عز وجل، بل وللرسول صلى الله عليه وسلم تفويض بأن يشرع. ورسول الله لم يشرع من نفسه، وإنما شرع بواسطة حكم من الله تعالى حيث يقول :

﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ ﴾

(من الآية ٧ سورة الحشر)

وأضرب هذا المثل - ولله المثل الأعلى - : نسمع أن فلاناً قد فُصل لأنه غاب خمسة عشر يوماً عن عمله فى وظيفته، ويعود المحامى إلى الدستور الذى تتبعه البلد فلا يجد فى مواد الدستور هذه الحكاية، ويسمع من المحامى الأكثر خبرة

أن هذا القانون مأخوذ من تفويض الدستور للهيئة التى تنظم العمل والعاملين.

ورسول الله صلى الله عليه وسلم مفوض من ربه بالبلاغ وبالتشريع.

﴿ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة الأنفال)

ونجد هنا أيضاً أن الحق تبارك وتعالى قال : « إذا دعاكم » ولم يقل : إذا دعَوَاكُمْ ، وفى ذلك توحيد للغاية ، فلم يفصل بين حكم الله التشريعى وبلاغ الرسول لنا. ونعلم أن الأشياء التى حكم فيها الرسول صلى الله عليه وسلم حكماً ثم عدّل الله له فيها الحكم ، هذا التعديل نشأ من الله ، وهو صلى الله عليه وسلم لم ينشىء حكماً عدّله الله تعالى إلا فيما لم يُنزِل الله فيه حكماً. وحين ينزل الله حكماً مخالفاً لحكم وضعه الرسول ، فمن عظمته صلى الله عليه وسلم أنه أبلغنا هذا التعديل ، وهكذا جاءت أحكامه صلى الله عليه وسلم إذا وافقت حقّاً فلا تعديل لها ، وإن لم يكن الأمر كذلك فهو صلى الله عليه وسلم يعدل لنا. وبذلك تنتهى كل الأحكام إلى الله تعالى. فإذا قال قائل : كيف تقول إن قول الرسول يكون من الله؟ نجيب : إنه سبحانه القائل :

﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤ ﴾

(سورة النجم)

و « الهوى » - كما نعلم - أن تعلم حكماً ثم تميل عن الحكم إلى مقابله لتخدم هوًى فى نفسك ، والرسول صلى الله عليه وسلم حينما عمد إلى أى حكم شرعه ولم يكن عنده حكم من الله عز وجل ، فإن جاءه تعديل أبلغنا . إذن ما ينطق عن الهوى . أى من كل ما لم ينزله الله ، وحكم فيه صلى الله عليه وسلم ببشريته ، ولم يكن له هوى يخدم أى حكم ، ونجد فى قول الله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة الأنفال)

أنَّ كلمة « دعاكم » مفردة، مثلها مثل كلمة « يرضوه » فى قوله لكم :

﴿ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾

(من الآية ٦٢ سورة التوبة)

ومثلها مثل الضمير فى « عنه » فى قوله تعالى :

﴿ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ ﴾

(من الآية ٢٠ سورة الأنفال)

وفى هذه الآيات الكريمة توحيد للضمير بعد المثنى، وهذا التوحيد كان مثار شبهة عند المستشرقين، فقالوا : كيف يخاطب اثنين ثم يوحدهما ؟ ونقول لمن يقول ذلك : لأنك استقبلت القرآن بغير ملكة العربية. فلم تفهم، ولو وجد الكفار فى أسلوب القرآن ما يخالف اللغة لما سكتوا، فهم المعاندون، ولو كانوا جربوا فى القرآن كلمة واحدة مخالفة لأعلنوا هذه المخالفة. وعدم إعلان الكفار عن هذه الشبهات التى يثيرها الأعداء، يدل على أنهم فهموا مرمى ومعنى كل ما جاء بالقرآن، وهم فهموا - على سبيل المثال-الآية التى يكرر المستشرقون الحديث عنها ليشككوا الناس فى القرآن الكريم، وهى قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ ﴾

(سورة الحجرات)

وتساءل المستشرقون - مستنكرين - : كيف يتحدث القرآن عن طائفتين، ثم يأتى الفعل الصادر منهما بصيغة الجمع ؟. ونقول : إن « طائفتان » هى مثنى طائفة، والطائفة لا تطلق على الفرد، إنما تطلق على جماعة، مثلما نقول : المدْرَسَتان اجتمعوا؛ وصحيح أن المَدْرسة مفرد. لكن كل مدرسة بها تلاميذ كثيرون، وكذلك « طائفتان »، معناها أن كل طائفة مكونة من أفراد، وحين يحدث القتال فهو قتال بين جمع وجمع ؛ لذلك كان القرآن الكريم دقيقاً حين قال :

﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا ﴾

ولم يقل القرآن الكريم : وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلا ؛ لأن هذا القول لا يعبر بدقة عن موقف الاقتتال لأنهم كطائفتين، إن انتهوا فيما بينهم إلى القتال. فساعة القتال لا يتحيز كل فرد لفرد ليقاتله، وإنما كل فرد يقاتل فى كل أفراد الطائفة الأخرى، وهكذا يكون القتال بين جمع كبير من أفراد الطائفتين.

وبعد ذلك يواصل الحق تبارك وتعالى تصوير الموقف من الاقتتال بدقة فيقول سبحانه :

﴿ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا ﴾

(من الآية ٩ سورة الحجرات)

وهنا يقول سبحانه وتعالى : « فأصلحوا بينهما »، ولم يقل : أصلحوا بينهم. وهكذا عدل عن الجمع الذى جاء فى الاقتتال إلى المثنى ؛ لأننا فى الصلح إنما نصلح بين فئتين متحاربتين، ونحن لا نأتى بكل فرد من الطائفة لنصلحه مع أفراد الطائفة الأخرى. ويمثل كل طائفة رؤساؤها أو وفد منها، وهكذا استخدم الحق المثنى فى مجاله، واستخدم الجمع فى مجاله، وسبحانه

وتعالى منزه عن الخطأ.

وهنا فى الآية التى مازلنا بصدد خواطرنا عنها وفيها يقول المولى سبحانه وتعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة الأنفال)

وفى أولها نداء من الله للمؤمنين، والنداء يقتضى أولاً أن يكون المنادى حيّاً؛ لأنه سبحانه وتعالى القائل :

﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ ﴾

(سورة فاطر)

إذن : كيف يقول سبحانه لمن يخاطبهم وهم أحياء : « دعاكم لم يحييكم » ؟.

وهنا نقول : ما هى الحياة أولاً ؟. نحن نعلم أن الحياة تأخذ مظهرين، مظهرَ الحسّ ومظهرَ الحركة، ولا يتأتى ذلك إلا بعد أن توجد الروح فى المادة فتتكون الحياة، وهذه مسألة يتساوى فيها المؤمن والكافر. وثمرة الحياة أن يسعد فيها الإنسان، لا أن يحيا فى حرب وكراهية وتنغيص الآخرين له وتنغيصه للآخرين، والحياة الحقيقية أن يوجد الحسّ والحركة، شرط أن تكون حركة كل إنسان تسعده وتسعد من حوله، وبذلك تتآزر الطاقات فى زيادة الإصلاح فى الأمور النافعة والمفيدة، أما إذا تبددت الطاقات الناتجة من الحسّ والحركة وضاعت الحياة فى معاندة البعض للبعض الآخر، فهذه حياة التعب والمشقة، حياة ليس فيها خير ولا راحة. وهذا ما يخالف ما أراده الحق سبحانه وتعالى

للخلق، فقد جعل الله عز وجل الإنسان خليفة له فى الأرض ليصلح لا ليفسد، وليزيد الصالح صلاحاً، ولا تتعاند حركة الفرد مع غيره؛ لأن كل إنسان هو خليفة لله، ومادمنا كلنا خلفاء لله تعالى فى الأرض. فلماذا لا نجعل حركاتنا فى الحياة متساندة غير متعاندة ؟

وعلى سبيل المثال : إن أراد إنسان أن يخدم نفسه ومن حوله بحفر بئر، هنا يجب أن يتعاون معه جميع من سوف يستفيدون من البئر؛ فمجموعة تحفر، ومجموعة تحمل التراب بعيداً، ليخرج الماء ويستفيد منه الجميع، لكن أن يتسلل إنسان ليردم البئر، فهذا يجعل حركة الحياة متعاندة لا متساندة.

وقد نزل المنهج من الله عز وجل ليجعل حركة الحياة متساندة؛ لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة الأنفال)

والنداء هنا من الله للمؤمنين فقط، فإذا قال الله : يأيها الذين آمنوا استجيبوا لما آمنتم به؛ فهو لم يطلب أن تستجيب لمن لم تؤمن به، بل يطلب منك الاستجابة إذا كنت قد دخلت فى حظيرة الإيمان بالله، واهتديت إلى ذلك بعقلك، وبالأدلة الكونية واقتنعت بذلك، وصرت تؤمن أنه إذا طلب منك شيئاً فهو لا يطلب منك عبثاً؛ بل طلب منك لأنك آمنت به تعالى إلهاً، وربّاً، وخالقاً، ورازقاً، وحكيماً، وعادلاً.

حين يأمرك من له هذه الصفات، فمن الواجب عليك أن تستجيب لما يدعوك إليه. ولله المثل الأعلى؛ نجد فى حياتنا الأب والأم يراعيان المصالح القريبة للغلام، ويأمره الأب قائلا :

اسمع الكلام لأنى والدك الذى يتعب من أجل أن تنعم أنت. وتضيف الأم قائلة له : اسمع كلام والدك، فليس غريباً عنك، بل لك به صلة وهو ليس عدواً لك، وتجربته معك أنه نافع لك ويحب لك الخير، هنا يستجيب الابن. وكلنا عيال الله، فإذا ما قال الله : يأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول المبلغ عن الله لأنه سيدعوكم لما يحييكم فعلينا أن نستجيب للدعوة.

الداعى - إذن - هو الله تعالى وقد سبقت نعمه عليك قبل أن يكلفك، وهو سبحانه قد أرسل رسولاً مؤيداً بمعجزة لا يستطيع واحد أن يأتى بها، ويدعو كل إنسان إلى ما فيه الخير، ولا يمنع الإنسان من الاستجابة لهذا الدعاء إلا أن يكون غبيا.

ونلحظ فى حياتنا اليومية أن الإنسان المريض، المصاب فى أعز وأثمن شىء عنده وهو عافيته وصحته، وهو يحاول التماس الشفاء من هذا المرض ويسأل عن الطبيب المتخصص فيما يشكو منه، وهناك لكل جزء من الجسم طبيب متخصص، فإذا كان له علم بالأطباء فهو يذهب إلى الطبيب المعين، وإن لم يكن له علم فهو يسأل إلى أن يعرف الطبيب المناسب، وبذلك يكون قد أدى مهمة العقل فى الوصول إلى من يأمنه على صحته. فإذا ما ذهب إلى الطبيب وشخص له الداء وكتب الدواء، فى هذه اللحظة لن يقول المريض : أنا لا أشرب الدواء إلا إن أقنعتنى بحكمته وفائدته وماذا سيفعل فى جسمى؛ لأن الطبيب قد يقول للمريض : إن أردت أن تعرف حكمة هذا الدواء، اذهب إلى كلية الطب لتتعلم مثلما تعلمت. وطبعاً لن يفعل مريض ذلك؛ لأن المسألة متعلقة بعافيته، وهو سيذهب إلى الصيدلية ويشترى الدواء ويسأل عن كيفية تناوله، والمريض حين يفعل ذلك إنما يفعله لصالحه لا لصالح الطبيب أو الصيدلى.

والرسول صلى الله عليه وسلم حين يدعونا لما يحيينا به، إنما يفعل ذلك لأن الله تعالى أوكل له البلاغ بالمنهج الذى يصلح حالنا، وإذا كانت الحياة هى الحس والحركة، بعد أن تأتى الروح فى المادة، يواجه الإنسان ظروف الحياة من بعد ذلك إلى الممات. وهذه حياة للمؤمن والكافر، وقد يكون فى الحياة منغصات وتمتلىء بالحركات المتعاندة، وقد يمتلىء البيت الواحد بالخلافات بين الأولاد وبين الجيران، ويقول الإنسان : هذه حياة صعبة وقاسية. والموت أحسن منها. والشاعر يقول :

كفى بك داء أن ترى الموت شافياً

وشاعر آخر يقول :

ذل من يغبط الذليل بعيش

رب عيش أخف منه الحِمام

والحِمام هو الموت، وكأن الموت - كما يراه الشاعر - أخف من الحياة المليئة بالمنغصَات. إذن فليس مجرد الحياة الأولى هو المطلوب، بل المطلوب حياة خليفة يأتى فى مجتمع خلفاء لله فى الأرض. وكل منا موكل بالتعاون وإصلاح المجال الذى يخصه. ولا يصح للوكلاء أن يتعاندوا مع بعضهم البعض، بل عليهم أن يتفقوا ؛ لأنهم وكلاء لواحد أحد. كذلك خلف الله الإنسان، خلفه خليفة له فى الأرض وأنجب الخليفة خلفاء ؛ ليؤدوا الخلافة بشكل متساند لا متعاند.

إننا - على سبيل المثال - حين نرغب فى تفصيل جلباب واحد، نجد الفلاح يزرع القطن، والغزّال يغزله، والنسّاج ينسجه، ومن بعد ذلك نشتريه لنذهب به إلى الخيّاط الذى يأخذ المقاسات المناسبة للجسم، ثم يقوم بحياكة الجلباب

على آلة اشتراها بعد أن صنعها آخرون. إذن فجلباب واحد يحتاج إلى تعاون بين كثير من البشر، هكذا تتعاضد الحياة.

وإذا نظرنا إلى العالم الذى نحيا فيه نجده مليئاً بالتعب، خصوصاً الأمم المتخلفة، وأيضاً نجد التعب فى الأمم المتقدمة؛ لأننا نجد صعاليك من أية دولة يصعدون إلى طائرة تتبع دولة كبرى ويهددون بتفجير الطائرة بمن فيها ويفرضون الشروط، ويُزِلُّون الدولة الكبرى.

إذن فالحياة حتى فى الدول الراقية متعبة.

وعلى سبيل المثال: الحروب التى قامت فى منطقتنا منذ عام ١٩٤٨ مع إسرائيل واستمرت كل هذه المدة الطويلة، ثم الحرب الأهلية فى لبنان، ثم الحرب التى دارت بين العراق وإيران؛ هذه الحروب تكلفت المليارات التى لو استخدمت فى وجه آخر لرفعت من شأن تقدم بلادنا.

إذن الذى يتعب العالم هو الحركة المتعاندة، والحق سبحانه وتعالى أنزل لنا المنهج القويم ليجعل حركة حياتنا متساندة. فإن اتبعنا المنهج صرنا نأخذ الأوامر من إله واحد، وصار كل منا مكلفاً بالتعاون مع غيره، وهذا لن يحدث إلا إذا استجبنا لما يدعونا الله تشريعاً والرسول بلاغاً، وبهذا تتساند الحياة وتصبح حياة لها طعم. وينطبق عليها قول الحق تبارك وتعالى:

﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾

(سورة النحل)

أمَّا من يحيا بغير منهج فتكون حالته كما يبينها قول الله تعالى:

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ ﴾

(سورة طه)

وعلى هذا : فالعقاب على عدم اتباع المنهج الإلهى لا يتأخر إلى يوم القيامة، ولكن الحياة فى الدنيا تكون مرهقة، والمعيشة ضنكا.

إذن إياكم أن تفهموا أن المنهج الدينى لله غايته الآخرة فقط، لا. بل إن اتباع المنهج الدينى لله جزاؤه فى الآخرة، وأما ثمرته ففى الدنيا. فمن يوفق فى هذه الدنيا، وحركته متساندة مع غيره، يعطى له الله الجزاء فى الحياة المستريحة فى الدنيا بالإضافة إلى جزاء الآخرة. وهكذا نفهم أن موضوع الدين هو الدنيا، أما الآخرة فهى جزاء على هذا الاختبار الدنيوى.

وقوله سبحانه وتعالى :

﴿ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة الأنفال)

أى يعطيكم منهجاً من إله واحد؛ لا يعود بالخير عليه ولا على المبلغ عنه وهو الرسول، وإنما يعود بالخير عليكم أنتم، وتلك هى حيثيات الاستجابة، ومن لا يستجب لهذه فهو الأحمق.

﴿ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة الأنفال)

إذن فالخير يأتى من أمر إله واحد؛ فلا يجعل كل منا إلهه هواه، حتى لا تتعدد الأهواء :

﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾

(من الآية ٧١ سورة المؤمنون)

ولذلك لا يتعرض التشريع من الله سبحانه وتعالى إلا ما للأهواء فيه مدخل، أمَّا الشيء الذى ليس للأهواء فيه مدخل فهو يترك الإنسان ليواجهه بملكاته التى خلقها الله له، والشرع يتدخل فقط فيما يمكن أن يخضع للهوى، أما الأمور التى لا تخضع للهوى فألد الأعداء يتفقون فيها.

والحياة الآن فيها موجة ارتقاء طموحى علمى، وهذا الطموح العلمى نشأ عن التجربة فى المعمل حيث يجلس العلماء الوقت الطويل ليخترعوا ويطوروا، مثال ذلك : « أديسون » الذى قضى وقتاً طويلاً ليخترع المصباح الكهربى، وغيره من العلماء طوروا مخترعاته وجاءوا باختراعات جديدة، ولم ندر عنهم شيئاً إلا أننا نفاجأ بمخترع قد أتى منهم، والعالمُ من هؤلاء تجده أشعث أغبر، لا يفكر فى العناية بحسن مظهره وقد لا يأكل ولا يشرب، ولا تدرى أنت به إلا إذا الثمرة من عمله واختراعه جاءت، ويقال : فلان اخترع الشيء « الفلانى ». وتنتفع أنت بما اخترع رغم أنك لم تَشْقَ شقاءَه حين أخذت الخير الناتج منه.

ونرى المعسكرات المتضادة فى عالمنا المعاصر تحاول أن تسرق تجارب غيرها فى العلوم، وهذه المعسكرات تختلف فقط فى الأهواء، فذلك شيوعى، وآخر رأسمالى، وثالث وجودى. الخلاف - إذن - فى الأهواء غير المحكومة بالمادة أو بالتجربة. ومن المؤسف حقًا أن ما اتفقنا عليه كالعلوم المادية الكونية التى هى وليدة التجربة، هذه المخترعات نستعملها فى فرض ما نختلف فيه، وهكذا تجد أن التعب فى العالم إنما يأتى من الطموح الأهوائى لا الطموح المادى العلمى؛ لذلك يتدخل الشرع فى الأهواء ويحسمها؛ ليكون كل منا عبداً لله تعالى،

وكل منَّا حر أمام غيره.

والرسول صلى الله عليه وسلم بمنهجه الذى جاء به من الله يدعو الحىّ - صاحب الحس والحركة - إلى أن تكون حياته حياة طيبة ليس فيها ضنك؛ هذا إن نظرنا إلى كيفية الحياة. فإن قسنا الحياة بعمر الآخرة، فهى لا تساوى إلا القليل؛ لأن ما لا نختلف فيه كأفراد فى الخلافة يجب أن يكون غاية للخلفاء، فربنا قد يخلق واحدا ليموت فى بطن أمه، وواحدا يموت بعد ساعة من مولده، وثالثا يموت بعد شهر من ميلاده، ومنا من يعمر مائة سنة، ولا يمكن أن يكونَ الأمر المُخْتَلَف فيه غاية للمتحدين فى الجنس، فالغاية أن نعمر الدنيا بالعمل الصالح لنسعد بها، ونعبر منها إلى ما هو أجمل وهى الآخرة، ومأمون فيها أننا لا نموت، ومأمون فيها أننا لن نتعب أبداً، لأنه كلما اشتهيت شيئاً ستجده أمامك. وهذه قمة الحياة الطيبة.

وعلى فرض أنك ستتعب فى سبيل منهج الله حين تبلغه للناس، دفاعاً عنه بالحرب والقتال وبالتضحية بالأموال، فأنت رابح لحياة طيبة أبدية، ويبين القرآن الكريم لنا هذه الحياة فى قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾

(من الآية ٦٤ سورة العنكبوت)

فالدار الآخرة ليست مجرد حياة، بل أكبر من حياة؛ لأن حياتك الدنيا موقوتة ومحددة، ونعيمك فيها على قدر إمكانياتك وتصوراتك، ولكن الحياة الأخرى ليست موقوته بل ممتدة، ونعيمك فيها على قدر إمكانيات خالقك المنعم القادر. وهكذا نتأكد أنه صلى الله عليه وسلم قد دعانا إلى ما يحيينا.

والحق سبحانه وتعالى حينما دعانا إلى الحياة الطيبة سمى المعيشة فى منهجه

حياة، لأنها حياة سعيدة، وتسلم إلى حياة خالدة. ولذلك سمى الحياة الأولى التى تأتى إذا نفخ الله الروح فى المادة، وقال عن آدم وكل بنى آدم :

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾

(من الآية ٧٢ سورة ص)

وأعطى الله سبحانه وتعالى هذه الحياة للمؤمن والكافر. وسمى سبحانه وتعالى ما يحمل المنهج للناس وهو القرآن روحاً :

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾

(من الآية ٥٢ سورة الشورى)

والمنهج - إذن - روح من أمر الله سبحانه وتعالى نزل به الروح الأمين، وهذه هى الحياة المطلوبة لله سعادة، وتسانداً، وخلوداً فى الجنة. ولذلك أنزل المنهج ليمنع التعاند والتعارض والتضاد بين المؤمنين، وليحمى كل مؤمن نفسه من الزلل، فيقاوم المعصية وهى صغيرة قبل أن تكبر وتستفحل.

ثم يقول المولى سبحانه وتعالى :

﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة الأنفال)

وماذا يعنى قوله تعالى : « واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه » ؟.

وأقول : إياك أن تظن أن الكافر - على سبيل المثال - يعلن أن قلبه قد انعقد على الكفر؛ لأنه قد يجرب أن يخلع نفسه من هواه وينظر إلى حقيقة الإيمان

فيقتنع به، ولن يسيطر على هواه، وقد انقلب أكثر من قلب شرير إلى قلب خير، مثل صناديد قريش من الكفار الذين آمنوا برسول الله صلى الله عليه وسلم، لقد كانت قلوبهم معقودة على الشر، لكنها لم تستمر على الشر، بل حال الحق بين كل امرىء منهم وقلبه.

والقلب هو محل التمنيات والأمانى، وأول الأمانى أن تطول حياة الإنسان، خصوصاً وهو يرى أن من فى مثل عمره يموت، ومن فى مثل عمر والده يموت. وأن جده يموت، ولأن الإنسان يحب أن تطول حياته، يرغب فى أن ينجب ولداً ليمتد ذكره، إنه يريد الحياة ولو من غيره، مادام منسوباً له.

كما أن الإنسان يحب الآمال، ويبنى فى أحلامه الكثير مما يريد أن يحققه، والواجب عليه ألاَّ ينسى أن لهذا الكون إلهاً قادراً، قد ينهى حياة أى منا رغم أن كل إنسان يحلم أن تطول حياته، وقد يقف بين الإنسان وبين آماله التى يريد أن يحققها، ولا أحد منا معزول عن خالقه، وكل منا فى يد الخالق، وسبحانه وتعالى لم يخلق الخلق ثم يترك النواميس لتعمل دون إرادته، بل كل النواميس فى يده.

ومادام الحق يحول بين المرء وتمنيات قلبه؛ استطالة حياة، وتحقيق آمال، وستراً للموت وأسبابه وزمنه، كل ذلك لنتجه دائماً إلى فعل الخير لنحيا فى ضوء المنهج وأنت لا تعرف متى ينتهى الأجل، وإلى الله المصير.

ويقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ ﴾

ويأمرنا الحق عز وجل أن نتقى الفتن من بدئها قبل أن يستفحل شأنها. وأن يتجنب الإنسان المعصية، وأن يضرب المجتمع على يد أى انحراف، فمن يسرق الآن الخزائن قد بدأ أولا بسرقة اليسير، سرق من أخيه أو من البيت ثم من الجيران ثم من البنك. ولو أن كل انحراف عوجل بالضرب على يد من فعله وهو صغير لما كبر المنحرف والانحراف. ولتم وأد الجرائم الكبيرة فى مهدها؛ لأن من ارتكب الصغيرة قد عوقب. وإياكم أن يقول أحدكم مادام مثل هذا الانحراف لا يمسنى فليس لى به شأن؛ لأن الذى اجترأ على مثلك، من السهل أن يجترىء عليك. ونحن نعرف جميعاً قصة الثيران الثلاثة؛ الأحمر والأبيض والأسود، فقد هاجم الأسد الثور الأبيض فأكله، ولم يدافع عنه الثور الأحمر أو الأسود. وهاجم الأسد الثور الأحمر بعد ذلك فقال الثور الأسود لنفسه : مادام الأسد لم يأكلنى فلا دخل لى بهذا الأمر. وجاء الأسد إلى الثور الأسود، بينما هو يقترب منه قال : لقد أُكلت يوم أُكل الثور الأبيض.

إذن فقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً ﴾

(من الآية ٢٥ سورة الأنفال)

هذا القول يدلنا على أن اتقاء الفتنة يبدأ من الضرب على أيدى صانع الفتنة وهى فى بدايتها. وأضرب هذا المثل ليبقى فى الذاكرة دائما؛ إن الأم التى قسمت الأكل بما فيه من لحم وخضر وفاكهة على الأبناء، فأكل أحد الأبناء نصيبه، ثم احتفظت الأم ببقية أنصبة إخوته فى الثلاجة، ومن بعد ذلك لاحظت الأم أن الابن الذى أكل نصيبه يأكل نصيب أحد إخوته من خلف ظهرها ودون استئذانها، وهنا يجب أن تؤنبه وتعاقبه على مثل هذا الفعل حتى لايتمادى فى ذلك.

كذلك إن دخل الابن بلعبة أو بشيء يفوق ثمنه قدرة مصروف يده على الشراء، فعلى الأب أن يضرب على يد الابن حتى لا يتمادى الولد فى إفساد نفسه. ولذلك نجد أن الحق سبحانه وتعالى جعل الدية فى القتل الخطأ على العاقلة وهم العصبة أى قرابة القاتل من جهة أبيه، ويطلق عليهم العائلة - أى عائلة القاتل - لأن أفراد العائلة حين يرون أن كلاً منهم سوف يصيبه جزء من الغرم، فإنه يضرب على يد من يتمادى فى إرهاب الغير وتهديدهم إن كان من عائلته.

ولذلك ترى أن الناس إذا رأوا الظالم ثم لم يضربوا على يده فإن الله يعمهم بغضب من عنده؛ لأن الظالم يتمادى فى ظلمه وطغيانه ويعربد فى الآخرين. فيستشرى الظلم فى المجتمع ويحق على الجميع عقاب الله. ولذلك نجد سيدنا أبا بكر رضوان الله عليه - يقول، يبين لنا ذلك فيما رواه عنه الإمام أحمد. فقد روى الإمام أحمد قال: قام أبو بكر الصديق رضى الله عنه فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس أنتم تقرأون هذه الآية:

﴿ يأيها الذين آمنوا لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ﴾وإنكم تضعونها على غير موضعها.

وإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: « إن الناس إذا رأوا المنكر ولا يغيرونه، يوشك الله - عز وجل - أن يعمهم بعقابه ».

ويبين لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الطريق الفاصل فى القضايا العقدية والحكمية ويأتى بمثال واضح يتفق عليه الكل، فيقول صلى الله عليه وسلم: فيما يرويه عنه النعمان بن بشير:

« مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا [1] على

(١) استهموا: اقترعوا.

سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها، وبعضهم أسفلها. فكان الذين فى أسفلها إذا استقوْا من الماء مرُّوا على مَنْ فوقهم، فقالوا لو أنّا خرقنا خرقاً فى نصيبنا ولم نؤذ منْ فَوْقنا. فإن يَتْركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجوْا ونَجَوْا جميعا ». (١)

والرسول صلى الله عليه وسلم يضرب لنا المثل بقوم ركبوا سفينة، وأجروا فيما بينهم القرعة لينقسموا إلى جماعتين؛ جماعة تجلس فى النصف الأعلى من السفينة أى على سطحها، وجماعة تسكن فى بطن السفينة، حسب ما تأتى به قسمة القرعة وهى ما تسمى بالاستهام.

وهذا يدلنا على أنهم أناس طيبون، ولا توجد فيهم جماعة قوية تفرض شيئاً على جماعة ضعيفة. وكان الذين يسكنون أسفل السفينة حين يريدون الماء يصعدون إلى أعلى لينزلوا الأوانى من فوق سطح السفينة إلى النهر.

ولو تُرك الذين فى أسفل السفينة لتنفيذ رغبتهم فى خرق السفينة ليأخذوا الماء من النهر لغرقت السفينة، لكن إن ضرب الذين يعيشون فوق السفينة على يد من يريدون خرقها لنجوا جميعاً.

وهكذا يكون فهمنا لقول الحق تبارك وتعالى:

﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ ﴾

(سورة الأنفال)

ولسائل أن يسأل ويقول: إن العقاب يقع هنا على الظالم والمظلوم، والظالم هو الذى يستحق العقاب على ما وقع منه من ظلم، ولكن ما ذنب المظلوم؟

(١) أخرجه البخارى والترمذى.

والجواب : أن المظلوم قد كان فى مكنته أن يرد الظلم لكنه سكت عن ذلك فاستحق أن يشمله العقاب.

وإن لم تنتبه المجتمعات إلى مقاومة الفتن، أنزل الله بها العقاب، وعقاب الحق تبارك وتعالى أشد من عقاب الخلق.

ويقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك :

﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾

وبعد كل ما حدث من وقائع، يذكّر الحق عز وجل هنا صاحب الحال الأعلى بالماضى الأدنى، ليثبت له : أن الذى نقلك من أدنى حياة إلى أعلى حياة، موجود ولايزال موجوداً، ومادام قد شاءت قدرته أن ينقلك من الأدنى للأعلى، فقدرته سبحانه وتعالى - إن شاءت - نقلتك من الأعلى إلى الأدنى. فإذا كنت فى حال أعلى؛ إياك أن تنسى أنك كنت فى حال أدنى. وعليك أن تعترف بجميل عطاء الخالق المنعم المتفضل وتقول : إن ربى القوى العظيم هو الذى وهبنى ورفع مكانتى ولم أفعل ذلك بمهارتى، وحتى إن كنت قد ارتقيت بالمهارة، فالمهارة عطاء منه سبحانه وتعالى، لذلك يقول المولى عز وجل هنا :

﴿ واذكروا إذا أنتم قليل مستضعفون فى الأرض ﴾.

أى اجعلوا هذا الأمر على بالكم دائما وإياكم أن تخافوا أية قوة مهما بلغت هذه القوة، ولكن أعدوا لكل قوة ما يناسبها من أسلوب المواجهة الكثير؛ لأنكم حملة دعوة، ومن يحمل الدعوة قد يعانى من المصاعب والمتاعب والمشقات؛

لكن يجب ألاَّ يفت ذلك فى عضدكم.

لقد كان المسلمون الأوائل قلة تعانى من إذلال واضطهاد الكافرين الأقوياء. وكان المسلم من الأوائل لا يجد أحياناً من يحميه من اضطهاد المتجبرين، فيلجأ إلى كافر يتوسم فيه الرحمة ويقول له : أجرنى من إخوانك الكفرة. وحين بلغ الضعف بالمسلمين الأوائل أشده، ولم يجدوا حامياً لهم من ظلم وتعذيب الكفار، عرض عليهم النبى صلى الله عليه وسلم أن يهاجروا إلى الحبشة؛ لأنَّ فيها ملكاً لا يظلم عنده أحد. وكانت الهجرة إلى الحبشة هرباً من قوة الخصوم، ولم يظل حال المسلمين كذلك، بل نصرهم الله لا بقوتهم، ولكنه سبحانه وتعالى شاء لهم أن يأخذوا بأسباب منهجه فانتصروا وعلت كلمة الله عز وجل.

إننا نتخذ من هذه المسألة حجة ومثلاً نواجه به من يشككون فى قدرة المسلمين على إدارة الحياة والارتقاء بها؛ لأن العالم كله قد شهد ألف عام كان المسلمون فيها هم قادة العلم والفكر والابتكار، وكانت غالبية الدول تخضع لحكم دولة الإسلام.

لقدسبق أن قلت : إن هارون الرشيد الخليفة المسلم بعث لشارلمان ملك فرنسا بهدية هى ساعة دقاقة بالماء؛ تم تصميمها بدقة عالية تفوق طاقة خيال الناس فى فرنسا، ولحظة أن شاهدوها فى فرنسا ظنوا أن الشياطين هى التى تحركها؛ لأن التقدم العلمى والتطبيقى فى بغداد فى ذلك الوقت فاق كل التصور الأوربى حيث كانوا يعيشون فى تخلف علمى شديد.

لكن المسألة انعكست فى زماننا هذا وصرنا نعانى من تخلف فى الأخذ بأسباب الله للاستفادة بالعلم، فحين جاء « الراديو » وجاء « التليفزيون » إلى بعض البلاد الإسلامية، وجدنا من يقول عن الراديو : إن بداخله شيطاناً يتكلم ويلوّن ويغير من صوته. ولم يغير أصحاب هذا الرأى اندهاشهم ورفضهم

لوجود محطة الإذاعة وأجهزة الاستقبال فى بلادهم إلا بعد أن قلنا لهم : حرّكوا مؤشر الراديو وستجدونه يذيع القرآن الكريم، وحين فعلوا ذلك استمعوا إلى صوت الشيخ محمد رفعت، وكان يقرأ فى سورة مريم، وقلنا لأصحاب هذا الرأى : إن الشيطان لا يقرأ القرآن ، بل إن الإذاعة وأجهزة الاستقبال هى اختراعات علمية توصل إليها من أخذوا بأسباب الله فى العلم التطبيقى.

وحين جاء اختراع « الميكروفون » وطالب الكثير بوضعه فى المساجد وقت صلاة الجمعة، وجدنا البعض يرفض دخول الميكروفون إلى المسجد، متجاهلاً أن هناك مساجد كبيرة يحتاج إسماع الناس فيها لخطبة الجمعة وجود أكثر من « ميكروفون » . وقلت لواحد من هؤلاء : ليصلح الله حالك وبالك، لماذا ترتدى نظارة طبية وتضعها على عينيك ؟ أجابنى : لأن نظرى ضعيف والنظارة تكبر لى الكتابة. فقلت : وهكذا « الميكروفون » يكبر الصوت ليسمعه من يجلس بعيداً عن المنبر والإمام، أثناء صلاة الجماعة وصلاة الجمعة.

فإذا كان بعض من الدول الإسلامية قد وصل بها الحال إلى هذا الحد من العجز فى تقبل العلم، فهذا تنبيه لنا لأن نعيد الأخذ بأسباب الله فى الكون، ولنطور العلوم، ونخدم بها منهج الله، بدلاً من أن نظل متخلفين رغم أن منهج الله يحضنا على الأخذ بالأسباب الموجودة فى الكون، وكلنا يعلم أن كون الله فى يده والنواميس فى يده، يسخرها سبحانه وتعالى لمن يأخذ بالأسباب.

ويذكرنا الحق تبارك وتعالى بقوله :

﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ ﴾

(من الآية ٢٦ سورة الأنفال)

والخطف هو أخذ بسرعة، أى أن يأخذ إنسان أو جماعة غير الحق، وعرفنا من قبل أنَّ أخذ غير الحق له صُوَر متعددة، والمثال : نجد تاجراً يعرض أىْ يفرش بضاعته من تمر أو تفاح، ويأتى أحد المارة لينظر إلى البضاعة المعروضة والمفروشة وليس معه نُقُود يشترى بها فيخطف تفاحة أو بعضاً من التمر ويجرى بسرعة، ويحاول صاحب البضاعة أن يجرى وراءه فلا يلحق به؛ هذا هو الخطف، لكن إن استطاع صاحب البضاعة أن يلحق به وحاول اللص أن يتخلص ويفلت منه؛ فهذا اسمه « غصب »، أما السرقة، فهى أخذ المال خفيةً من حرز وصاحبه غير موجود. ويختلف كل ذلك عن الاختلاس؛ لأن الاختلاس هو أن تأخذ مما فى حوزتك وأنت مأمون عليه؛ إذن أخذ غير الحق له عدة صور هى : خطف، أو غصب، أو سرقة أو اختلاس. والحق تبارك وتعالى يقول :

﴿ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ ﴾

(من الآية ٢٦ سورة الأنفال)

أى يأخذونكم دون أن يدافع عنكم أحد. وها أنتم أولاء قد صرتم أقوياء باستقرار الإيمان فى قلوبكم، وبمدد من الله عز وجل؛ لذلك يجب أن تذكروه دائماً امتناناً وتقديرا وعبادة، وشكراً، وخشوعاً. فهو سبحانه وتعالى قد أعطاكم الاستقرار فى المأوى الجديد - المدينة المنورة - ورحب بكم مجتمع الإيمان فى المدينة المنورة.

وعند ما دخلتم إلى المدينة أقمتم المسجد وهو سمة استمرار النور من السماء هداية للأرض. كان هذا هو أول عمل لكم ولم تنشغلوا من قبله بأى عمل آخر. واعتبركم الأنصارُ إخوةً، فصرتم أقوياء بأخوة الإيمان، وصاروا هم أيضا أقوياء بهذه الأخوة بعد أن كان اليهود هناك يستفتحون عليهم بالرسول القادم، جاء

الرسول وكان فى نصرة المستضعفين وصار منهجه قوة لكم وللأنصار، وكان المهاجر منكم يجد الدعوة من الأنصارى إلى بيته، لا للطعام ولا للشراب فقط، بل للإقامة أيضاً.

ثم حدث الملحظ العجيب، فالإنسان إذا أنعم الله عليه بنعم شتى، فقد يحب أن يمتع صاحبه من هذه النعم، إلا المرأة، فالزوج يغار على نسائه. لكن الأنصارى من هؤلاء إن كان متزوجاً من اثنتين، يقول للمهاجر: لقد جئت من مكة إلى المدينة دون أهلك. فانظر إلى زوجتىَّ، فأيهما تعجبك أطلقها وتتزوجها بعد انقضاء عدتها، هذا هو الملحظ العجيب، وهى مسألة لا يمكن أن تمر على خيال العربى أبداً.

ويذيل الحق تبارك وتعالى الآية الكريمة بقوله:

﴿ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

(من الآية ٢٦ سورة الأنفال)

وقد رزقهم المولى سبحانه وتعالى وأمدهم بالخيرات والأسلحة والنفائس وهزموا صناديد قريش، ولم تكن الغنائم تحل لأحد من الأنبياء من قبل، لكنها أحلت لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم. إذن فالذى صنع لكم كل ذلك حقيق أن يُذكر فلا ينسى وأن يشكر دائما.

ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾

والخيانة مقابلها الأمانة، والأمانة هى الشىء يستودعه واحد عند آخر بدون

وثيقة عليه، ولا شهود. بل الأمر متروك إلى من عنده الأمانة، إن شاء أقر بها وإن شاء أنكرها ؛ لأن الأمانة ليس عليها صك ولا عليها شهود. ولا عليها «كمبيالة»، وغير محكومة بأى شىء إلا بذمة من ائتُمن، والحق سبحانه تعالى يقول :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾

(سورة الأحزاب)

وكل الأجناس التى فى الوجود ودون الإنسان من حيوان ونبات وجماد، كلها مُسخرة، ولا تملك الاختيار فى أن تفعل أولا تفعل. الشمس ليس لها اختيار فى أن تقول : سأشرق اليوم على هؤلاء الناس، أو لن أشرق اليوم. والهواء لا يملك إرادة الاختيار، كل الكائنات التى أوجدها الله فى هذا الوجود ما عدا الإنسان مسخرة للمؤمن وللكافر. ورفضت هذه الكائنات أن تحمل أمانة الاختيار، لكن الإنسان قال : أنا لى عقل يختار بين البديلات وأقبل تحمل الأمانة وسوف أؤدى كل مطلوبات الأمانة لأنى أقدر على الاختيار.

لكن الإنسان ادّعى لنفسه القدرة على أداء الأمانة . وكأنه قد وثق من نفسه أنه سيؤديها، وهو لا يعلم بأى شىء حكم ذلك الحكم على أمر غيبى مستقبلى.

صحيح أنه ساعة التحمل كان فى نيته أن يؤدى الأمانة، لكن ماذا عن ساعة الأداء ؟. وأنت لا تعرف ماذا تجىء به الأحداث والأغيار معك، فقد يأتى لك ظرف تضطر أن تبدد فيه الأمانة ؛ لذلك تجد العاقل هو من يقول : ابعد عنى أمانة الاختيار، لأنى لا أعلم ماذا ستفعل بى الأغيار لحظة الأداء. وكل ما دون الإنسان أعلن عدم تحمل الأمانة وقبل التسخير، أما الإنسان فأعلن قبول الأمانة

وأنه سيؤديها. ووصفه القرآن الكريم بقوله :

﴿ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾

(من الآية ٧٢ سورة الأحزاب)

« ظلوماً » لنفسه لأنه حمّل نفسه شيئاً ليس فى يده. و « جهولاً » لأنه قاس وقت التحمل ولم يذكر وقت الأداء . فلم يضع فى الاعتبار ما سوف تفعل به الأغيار.

ويقول الحق عز وجل هنا :

﴿ لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون ﴾ .

وكثير من التصرفات السلوكية للإنسان تكون مستترة عن أعين الخلق ؛ لأن أعين الخلق حين ترى جريمة ما ، فهى تستدعى رجال القانون ليأخذوا حق المجتمع من المجرم ، لكن ماذا عن الجرائم المستترة ؟.

نحن نعلم أن كل جريمة تطفو وتظهر واضحة إنما توجد تحتها جرائم مختفية ؛ لأن الذى يقتل إنما يخفى جرائم أخرى ؛ مثل شرائه السلاح بدون ترخيص ، وإن كان لا يملك نقوداً فقد يسرق ليشترى السلاح ، ثم يقوم بتجنيد غيره لمساعدته فى القتل ، وكل ذلك جرائم مستترة ، وبالتأكيد هناك سلوكيات باطنة يأتى بعدها السلوك المقلق للمجتمع وهو الجريمة الظاهرة ، وقصارى قانون البشر أن يحرس المجتمع من الجرائم الظاهرة فقط ، لكن عين القانون لا ترى الجرائم الباطنة والخفية ، أما عين الدين فتختلف ، إنها ترشد الأعماق إلى الصواب ؛ لأن الدين أمانة وضعها الحق - الذى خلق الخلق - فى ضمير الإنسان. فإياك أن تخون الأمانة فى الأمور السرية التى لا يعرفها أحد سوى الله ؛ لأن الأمور التى يعرفها الناس يمكن أن تدافع عنها أمام هؤلاء الناس ،

بخلاف الأمور الباطنة وهى المهمة ؛ لأنها هى التى تسيطر على إيجاد السلوك .

فإياك أن تخون الله والرسول ، وتخون الأمانة التى وضعت لك. ولا حجة لك - فى ذلك - إلا اختيارك. إن شئت فعلت وإن شئت تركت ، وعلى الإنسان ألا يخون الأمانة التى بينه وبين ربه وإذا لم تتوافر الحراسة الإيمانية من ضميره على الأعمال الباطنة قد ينحرف ؛ لأن كل جريمة ظاهرة إنما تتم بتبييت أمرٍ باطن.

ومادمت قد آمنت بالله تعالى ربّا بمحض اختيارك ، فالتزم بالأشياء التى جاء لك بها من آمنت به ، وأنت تعلم : أن الإيمان هو علة كل تكليف ، ،وعلى سبيل المثال ؛ أنت تصلى خمسة فروض لأن المشرع أمرك بذلك ؛ تصلى فى الصبح ركعتين ، وفى الظهر أربع ركعات ، وفى العصر أربع ركعات ، وثلاث ركعات فى المغرب ، وأربع ركعات فى العشاء ؛ لأن المشرع وهو المولى سبحانه وتعالى أمرك بذلك. وأنت تصوم لأن الله أمرك أن تصوم ، فإن أدركت من بعد الصيام أن فيه منافع لك ، فهذا موضوع آخر ، ومع ذلك تظل علة الصيام أن الله أمرك به ، وهكذا تكون علة كل حكم هى الإيمان بمن حكم بهذا الحكم.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ﴾

(من الآية ٢٧ سورة الأنفال)

وما الخيانة ؟. إن مادة الخيانة كلها الانتقاص ؛ وضده التمام ، والكمال ، والوفاء. ويقابل كل ذلك الاختيان والغدر. فإذا كان الله يقول لنا : لا تخونوا الله والرسول ، فعلينا أن نلتزم ؛ لأن التشريع وصلنا من الله بواسطة الرسول ، ومن يطع الرسول فقد أطاع الله ؛ لأن الله لم يخاطبنا مباشرة ، بل خاطب رسولاً اصطفاه من خلقه وأيده بمعجزة. وكل بلاغ وصلنا إنما كان بواسطة الرسول.

﴿ لا تخونوا الله والرسول ﴾ .

فلا تخن الله فيما جاء فى القرآن، وجاء من الرسول المفوَّض من الله بأن يشرع. وتشريع الرسول واتباعه جاء فى قوله تعالى :

﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾

(من الآية ٧ سورة الحشر)

فلله أمانة فيما نص عليها قرآناً، وللرسول أمانة فيما لم ينص عليه القرآن إلا بتفويض قائل القرآن للرسول بأن يشرع، فإن أطعت هذا الرسول، فقد أطعت الله.

وعرفنا أن الاختيانَ هو الانتقاص، ومعنى الانتقاص هو الوقوف بعيداً عن الكمال والإتمام المطلوب. والإنسان حين آمن يصبح للإيمان فى النفس أمانة. فأنت قد آمنت أنه لا إله إلا الله، وأمانة هذا الإيمان تقتضيك ألاَّ تجعل لمخلوق ولاية عليك ولا ولاء له إلا أن يكون هذا الولاء نابعاً من اتباع منهج الله تعالى. وهذه هى أمانة الشهادة، أما أمانة الرسالة فهى الحرص على تطبيق كل ما بلغه الرسول صلى الله عليه وسلم عن ربه قدر الاستطاعة.

إذن فالأمانة مع الله تعالى أن تلتزم بكلمة الإيمان فى أنه لا إله إلا الله، وإياك أن تعتقد فى أن أحدا يمكنه أن يتصرف فيك، أو يملك لك ضرّاً أو نفعاً، أو أن مصالحك ممكن أن تقضى بعيداً عن الله، فكل شىء بيد الله سبحانه صاحب الحول والطول ولا إله إلا الله ، وإياك أن تفهم أن حكماً يجىء لك عن غير طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ لأنك إن خرجت عن هذا الإطار تكون إنساناً لم يؤد أمانة الله ولا أمانة الرسول.

والقمة فى الأمانة هى إيمان بالله، وإيمان بالرسول صلى الله عليه وسلم.

والله قد أمر بأحكام وحين تقبلها فلها أمانة، وأمانتها هى أداؤها من غير نقص فى شىء سواء كان عاماً أو خاصاً، ولو فى الحديث يجرى أمامك، وتمتد أمانة الإيمان إلى كل شىء، مثل أمانة أى مجلس توجد فيه، فلا يحق لك أن تنقل أسرار غيرك إلى هذا المجلس أو أسرار المجلس إلى آخرين.

ونعرف رجلاً من قادة العرب هو زياد بن أبيه وكان شديد الحزم، فوشى واش بهمام بن عبدالله السلولى إلى زياد، وتوقع القوم عقاباً صارماً بهمام؛ لأن زياداً كان يأخذ بالظن، لكن الله ألهم همَّاماً كلمة ظلت دستوراً يطبق، وحين استدعى زياد هماماً، قال زياد: بلغنى أنك هجوتنى. قال همام: كلا أصلحك الله. ما فعلت ولا أنت لذلك بأهل. فقال: إن هذا الرجل - وأخرج الرجل من الخباء - أخبرنى. فنظر همام إليه فوجده جليساً وصديقاً ومؤنساً، فلما رآه كذلك أقبل عليه وقال: أنت امرؤ إما ائتمنتك خالياً فخنت، وإما قلت قولاً بلا علم فأبت - رجعت - من الأمر الذى كان بيننا بمنزلة الخيانة والإثم، أى إما أنك خائن أو آثم، فإن كنت قد ائتمنتك على كلمة نفست بها عن نفسى فأنت خائن، وإن كنت اختلقتها علىّ فأنت كاذب، فأعجب زياد هذا المنطق، وأقصى الواشى ولم يتقبل منه. ويقال إنه خلع على همام الصلة والعطايا. فكان همام حين يرى الواشى يقول له: هل لك فى وشاية أخرى تغنينى ؟!!

وفى سيرته صلى الله عليه وسلم وقائع حدثت فى تاريخه حتى من بعض الصحابة، وعلى سبيل المثال: نحن نعلم أنه حينما قدم الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، جعل عهداً بينه وبين اليهود، فاستقام لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ما استقاموا للعهد، فلما خالفوا هم العهد؛ أراد رسول الله أن يؤدبهم، فأدبهم، وكان أول ذلك فى بنى النضير وأوضح لهم أنه لن يقتلهم، بل سيكتفى بإخراجهم من ديارهم وإبعادهم إلى الشام. ثم حدثت خيانة من بنى قريظة، وحاصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم مدة من الزمن. فبعثوا

إلى رسول الله من يقول : يا رسول الله إن بنى قريظة يريدون ان تصنع بهم ما صنعته مع بنى النضير ، أى أن بنى قريظة يعرضون ترك البلاد إلى الشام ، فرفض الرسول ذلك إلا بعد أن يحكّم فيهم سعد بن معاذ ، وكان يحب بنى قريظة وبينه وبينهم صلة ، وعرف بنو قريظة أن رسول الله يطمئن إلى حكم سعد بن معاذ فقالوا : لا ولكن أرسل لنا أولاً أبا لبابة ، وهذه كُنْيته ، أما اسمه فهو مروان بن عبد المنذر ، وكان ماله فى يد اليهود يتاجرون له فيه ، أى أن بينه وبينهم صلةً مالية.

ذهب أبو لبابة إلى اليهود ، فاسْتَشاروه فى الأمر متسائلين : أنرضى بحكم سعد بن معاذ ؟ فماذا قال أبو لبابة ؟ قال : إنه الذبح ، وأشار إلى حلقومه ، وبعد ذلك لام أبو لبابة نفسه وقال : والله ما جالت قدماى حتى تيقنت أنى خنت رسول الله صلى الله عليه وسلم. ولكن انظروا إلى الإيمان ، ويقين الإيمان ، وترجيح أمر الآخرة على أمر الدنيا ، والنظر إلى أن افتضاح الإنسان فى الدنيا أمر هين بالنسبة لافتضاحه فى الآخرة .

ذهب إلى سارية المسجد - أى عمود فى وسط المسجد - على مرأى ومشهد من الناس ، وحكم على نفسه بأن يربط نفسه بالسارية بيده ، وظل لا يَطْعَم ولا يَشْرَب سبعة أيام ، حتى خارت قواه وغشى عليه وسقط ، فعطف الله عليه ، وأبلغه رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن الله قد تاب عليه. فقالوا له : حل نفسك بنفسك لأنك أنت الذى ربطت نفسك ، فقال : والله لا أحلها حتى يحلنى رسول الله صلى الله عليه وسلم . فذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم وحله من السارية.

لماذا فعل أبو لبابة ذلك بنفسه ؟ لأنه شعر بأنه خان رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أنه قال لليهود إنه الذبح.

وهناك صحابى آخر هو حاطب بن أبى بلتعة وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد جمع أمره لفتح مكة وأراد أن يستر مقدمه حتى تفاجأ قريش. وتكون المفاجأة سبباً فى عدم تولد اللدد وليتم الصلح. لذلك كتم الأمر، وبعد ذلك جلس رسول الله بين صحابته وأعلمه الله أن حاطبا قد أرسل إلى قريش يخبرها. فانتدب علياً ومعه صحابيان وأمرهم الرسول صلى الله عليه وسلم أن يذهبوا إلى مكان حدَّده لهم فى الطريق إلى مكة ليجدوا فتاةً معها كتاب إلى قريش، فلما ذهبوا إلى المكان المحدد وجدوا الفتاة، فقال لها الإمام علىّ: أخرجى ما معك، فقالت: ليس معى شىء. فمسك علىّ بن أبى طالب عقيصتها وأخرج الكتاب من المكان الذى تخبىء فيه أشياءها، فوجد رسالة تحذير لقريش، وعاد علىّ - كرّم الله وجهه - بالرسالة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسأل الرسول صلى الله عليه وسلم حاطبا: ما حملك على هذا يا حاطب؟

قال: والله يا رسول الله لقد علمت أن ذلك لا يضرك فى شىء، وأن الله ناصرك.. ناصرك، ولكنى أردت أن أتخذ لى يداً عند قريش، لأننى رجل ضعيف ولا مال لى ولا أهل.

فعفا عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم رغم أن هذا نوع من اختيان الرسول. ولكنْ عليك أن تعلم أن كل مخالفة لحكم قبلته من الله الذى آمنت به يعتبر خيانة للأمانة.

﴿ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَـٰنَـٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

(من الآية ٢٧ سورة الأنفال)

أى لا تخونوا الله والرسول فى المنهج ولا تخونوا أماناتكم فيما بينكم وأنتم تعلمون، أى ألا يخون أحدكم قومه عن عمد، ويؤخذ من هذا القول ثبوت

المغفرة فى حالة الخطأ والنسيان، والممنوع أن تخون وأنت تعلم وتقصد، لكن إن حدث أمر بسبب فلتة لسان، فاعلم أن ربنا سبحانه وتعالى غفور رحيم، وله فضل عظيم، لا يأخذك بالسهو، وأنتم تعلمون بالفطرة أن مثل هذا الفعل رذيلة لا يقبل عليها إنسان كريم، ولو لم يكن متديناً، وعليك أن تقيس الأمر بمقياس واضح هو: أتحب أن يفعل أحد معك نفس ما تفعله مع غيرك؟. وهذا سؤال تكون إجابته دليل الفطرة. فإن عرفت أن الفطرة ترفض الفعل ولا تتقبله، فعليك ألا تفعله، لأنه مناف لهذه الفطرة التى فطر الله الإنسان عليها، وعلى سبيل المثال: إن اللص لو تخيل نفسه مسروقاً لما رضى أن يسرق، والمعتدى على العرض، لو تخيل أن هناك من يعتدى على عرضه لما اقترف الاعتداء على عرض الغير بهدف تحقيق شهوة فى النفس. وما لا ترضاه لنفسك يجب عليك ألا ترضاه لغيرك. أتحب أن يخونك أحد فى حديث أو فى أمانة؟ لا؛ لذلك عليك أن تقيس كل أمر لا من الطرف الآخر، بل من طرفك أنت.

إذن فقول الحق تبارك وتعالى: «وأنتم تعلمون» أى متعمدون، غير ناسين أو ساهين، أو جاء الأمر كفلتة لسان؛ لأنكم إذا كنتم تعلمون، ففى ارتكاب هذه الأفعال خيانة والله ينهى عن ذلك فيقول:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾

«سورة الأنفال»

ونلحظ أن الخطاب هنا لجماعة المؤمنين، وجاءت الأمانات أيضاً جماعة، وأنت حين تُفصِّل الأمانات المجموعة على القوم المخاطبين بذلك، تعلم أنَّ على كل إنسان تكليفاً محدوداً هو ألا يخون أمانته مثلما يقول الأستاذ للتلاميذ: أخرجوا أقلامكم. فهذا أمر لجماعة التلاميذ بأن يخرج كل واحد قلمه.

ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك :

﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾

وإذا بحثنا عن علاقة هذه الآية بالآية السابقة عليها نجد أن العلاقة واضحة ؛ لأن خيانة الله ، وخيانة الرسول ، وخيانة الأمانات إنما يكون لتحقيق شهوة أو نفع فى النفس ، وعليك أن تقدر أنت على نفسك لأنك قد لا تقدر على غيرك ، ومثال ذلك : أنت قد لا تقدر على مطالب أولادك ، وقد لايكفى دخلك لمطالبهم ، فهل يعنى ذلك أن تأخذ من أمانة استودعها واحد عندك ؟ لا .

هل يعنى ذلك أن تخون فى البيع والشراء لتحقيق مصلحة ما ؟ لا .

هل تخون أمانات الناس من أجل مصالح أولادك أو لتصير غنياً ؟. لا .

وقد جاء الحق هنا بالأمرين ؛ المال والأولاد وأخبرنا أنهما فتنة ، والفتنة - كما علمنا من قبل - لا تذم ولا تمدح إلا بنتيجتها ؛ فقد تكون ممدوحة إذا نجحت فى الاختبار ، وتكون مذمومة حين ترسب فى ذلك الاختبار المبين فى تلك الآية الكريمة.

والمتتبعون لأسرار الأداء القرآنى يعرفون أن لكل حرف حكمة ، وكل كلمة بحكمة ، وكل جملة بحكمة ؛ لذلك نجد من يتساءل : لماذا قدم الحق تبارك وتعالى الأموال على الأولاد ؟. ونقول : لأن كل واحد له مال ولو لم يكن له إلا ملبسه. وبطبيعة الحال ليس لكل واحد أولاد. ثم إن الأبناء ينشأون من الزواج ، ومجىء الزوج يحتاج إلى المال ؛ لذلك كان من المنطق أن يأتى الحق بالأموال أولاً ثم يأتى بذكر الأولاد.

وأساليب القرآن الكريم تتناول هذا الموضوع بألوان مختلفة؛ فيقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ ﴾

« من الآية ١٤ سورة آل عمران »

وفى هذا القول نجد أن القناطير المقنطرة من الذهب والفضة تأخرت هنا عن النساء والبنين. ولم يأت بذكر الأموال أولاً ثم الأولاد كفتنة. وعلينا أن ننتبه أنه سبحانه وتعالى جاء هنا بالقناطير المقنطرة، وهى تأتى بعد تحقيق الشهوة الأولى؛ وهى النساء، والزينة الثانية وهى الأبناء، ونعلم أن من عنده مال يكفيه للزواج والإنجاب قد يطمع فى المزيد من المال، فإن كانت الوحدة من القناطير المقنطرة هى القنطار، فمعنى ذلك أن الإنسان الذى يملك قنطاراً إنما يطمع فى الزيادة مثلما يطمع من يملك ألف جنيه فى أن يزيد ما يمتلكه ويصل إلى مليون جنيه، وهكذا. إذن فالقناطير المقنطرة تعنى الرغبة فى المبالغة فى الغنى.

وهنا يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾

« من الآية ٢٨ سورة الأنفال »

ويقول فى آية ثانية :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ﴾

« من الآية ١٤ سورة التغابن »

وفى هذا القول نجد أن العداوة تأتى من الأزواج قبل الأولاد، ونعلم أن الزوجة فى بعض الأحيان هى التى تكره أولاً ثم يتأثر بكراهيتها ويتشبه بها الأبناء، وهذا كلام منطقى؛ لأن الذى يتكلم هو رب حكيم.

﴿ واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة ﴾.

وفى هذا القول تحذير واضح : إياكم أن ترسبوا فى هذا الاختبار؛ فمن يجمع المال من حرام لترف أبنائه فهو خائن للأمانه، وهذا له عقاب، ولذلك يذكرنا الحق تبارك وتعالى فى آخر هذه الآية بما يحبب إلينا النجاح فى الاختبار فيقول سبحانه :

﴿ وأن الله عنده أجر عظيم ﴾.

ونعلم أن النفس البشرية مولعة بحكم تكوينها الفطرى من الله بحب النفع لنفسها، ولكن المختلف فيه قيمة هذا النفع؛ وعمر هذا النفع؛ لأن الذى يسرق إنما يريد أن ينفع نفسه بجهد غيره، ومن لا يسرق يريد أيضاً أن ينفع نفسه ليبارك الله له فى المال وأن يعطيه الرزق الحلال. وهكذا تكون النفعية وراء كل عمل سواء أكان إيجاباً أم سلباً،

والمثال الذى أضربه دائماً لذلك هو الطالب الذى يهمل فى دروسه، ويوقظه أهله كل صباح بصعوبة، ثم يخرج من المنزل ليتسكع فى الشوارع، والطالب الثانى الذى استيقظ صباحاً وذهب إلى مدرسته وانكب على دروسه، إنَّ كلاً من الطالبين قد أراد نفع نفسه، الفاشل أراد النفع الأحمق، والناجح أراد النفع فى المستقبل. ونعرف أن النفع غاية مطلوبة لكل نفس. والمهم هو قيمة النفع، وعمر النفع. فإذا كانت الخيانة ستؤدى لك نفعاً فى أولادك أو أموالك؛ فاذكر ما يقابل الأمانة من الأجر عند الله عز وجل، وضع هذه فى كفة، وضع تلك فى الكفة الأخرى، وانظر أى كفة ترجح، ولابد أن ترجح كفة الأجر عند الله عز وجل.

ولذلك قال المتنبى :

أرى كلـنا يبغى الحـــياةَ لنفسه
حريصـــاً عليها مستهاماً بها صبًا
فحُبُّ الجـبانِ النفسَ أوْرَده التقى
وحُبُّ الشجاعِ النفسَ أوْرَده الحَرْبَا

فكلنا نحب الحياة؛ الجبان الخائف من الحرب يحب الحياة، والشجاع الذى يحب نفسه ويعلم قيمتها عند خالقها يخوض الحرب رغبة فى حياة الاستشهاد، وهى حياة عند الله إلى أن تقوم الساعة، ثم تتلوها حياة الجنة حيث يخلد فيها أبداً.

إذن فالمعيار الذى نقيس به النفع هو محل الاختلاف.

وفى عرف البشر نجد أن الأجر يساوى قيمة العمل، لكن الأجر عند الله لا يساوى العمل فقط، بل هو عظيم بطلاقة قدرة الحق سبحانه وتعالى :

ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٢٩ ﴾

ويستهل الحق تبارك وتعالى هذه الآية الكريمة بنداء الإيمان، ثم يضع شرطاً هو: « إن تتقوا الله »، ويكون جواب الشرط أن يجعل لنا فرقاناً، ويكفر عنا السيئات، ويغفر لنا وسبحانه هو الكريم وصاحب الفضل العظيم.

والمراد بالتقوى هنا أن تكون التزاما بالأحكام؛ وقمة الالتزام بالأحكام هى الإيمان بالله عز وجل، وإذا وجد الاثنان؛ الإيمان بالله والالتزام بالأحكام، لابد أن يتحقق وعد الله المتمثل فى قوله تعالى :

﴿يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الأنفال)

والفرقان من مادة « فرق » « الفاء والراء والقاف »، وتأتى دائماً للفصل بين شيئين؛ مثلما ضرب موسى البحر بعصاه فكان كل فِرْق كالطود العظيم. وسبحانه و تعالى يقول :

﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ﴾

(من الآية ٥٠ سورة البقرة)

أى نزع الله سبحانه الاتصال بين متصلين فصار بينهما فرق كبير .

وافرض - على سبيل المثال - أنك أحضرت ثوباً من قماش مُتَساو فى النسيج واللون، ثم شققت من الثوب جزءاً منه؛ هنا لا يقال إنكَ فرقتَ بين القطعتين، بل فصلت بينهما، لكن لا يقال فرْق إلا إذا كان الفصل يؤدى إلى فرقتين؛ فرقة هنا، وفِرقة هناك وهذه لها أشيَاء ومتعلقات، وتلك لها أشياء ومتعلقاتَ.

إذن فالفرق ليس هو الفصل بين متلاحمين فقط، بل هو فصل يؤدى إلى أن يكون لكل فرقة منهج، ومذهب، ورأى.

و « يجعل لكم فرقانا » أى يفصل بين شيئين لم يكن يوجد بينهما اتفاق؛ لأنه لو كان بينهما اتفاق لصارا فرقة واحدة، لكن لأنهما مختلفان لذلك لابد من وجود تناقض بينهما. وهنا يقول الحق تبارك وتعالى : إنه يجعل لكم فرقاناً، مثال ذلك، هناك من يهتدى، وهناك من يضل. وبطبيعة الحال يوجد فرق بين الهدى وبين الضلال. فالله شرح صدر المهتدى للإسلام، وجعل صدر

الكافر ضيقاً حرجا؛ فيه غل وحقد وحسد ومكر، وخديعة؛ لذلك يفصل ربنا بين من بقلبه طمأنينة الإيمان وبين من يمتلىء صدره بالضغينة، فالمؤمن من فرقة تختلف عن فرقة أصحاب القلوب الحقودة.

وحين يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾

(من الآية ٢٩ سورة الأنفال)

أى أنه سبحانه وتعالى يفصل بينكم أو يفصل بين عموم الحق وعموم الباطل؛ لأنه يريد أن تكون حركة الحياة وحدة متكاملة منسجمة، لا يسودها هوى جماعة ضد جماعة لها هوى آخر؛ لأنهم كلهم خلفاء لله فى الأرض، وكلهم مخلوقون لله، وكلهم متمتعون بخيرات الله؛ لذلك يجب أن تكون حركاتهم متساندة ومتناسقة غير متعاندة.

والتفرق - كما نعلم - إنما ينشأ عن اشتباك؛ بين فريقين اثنين، واحد منهما يمثل فريق الهدى، والثانى هو من حق عليه عذاب الله.

﴿إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾

(من الآية ٢٩ سورة الأنفال)

ويتمثل الفرقان فى هدى القلب، والبصيرة والعلم؛ وأى شىء يفصل بين الحق والباطل، وأحوال الإنسان - كما نعلم - قسمان: أحوال الدنيا، وأحوال الآخرة، وأحوال الدنيا فيها أمور قلبية مستترة، وفيها أمور ظاهرة، وإن نظرنا إلى حالات الدنيا نجد منها الظاهر وهو الحركة المحسة، ومنها القلبى الذى لا يعرفه من بعد الله إلا صاحب القلب. والفرقان فى أحوال الدنيا القلبية تلمسه حين تجد من اهتدى، ومن ضل؛ ونجد أن المهتدى قد شرح ربنا صدره للإسلام. ونجد أن الضال هو من لم يشرح الله صدره للإسلام والمهتدى يعيش ضمن الفريق الذى لا غل فيه ولا حقد، والضال هو من يعيش فى فريق يتصف

بالغل والحقد، هذا فى الأمور القلبية. أما فى الأعمال الظاهرة، فالحق يجعل الفرقان بين أهل الإيمان وأهل الكفر؛ بالنصر، والغلبة، والعزة.

وماذا عن الفرقان فى الآخرة ؟.

إن الحق يجعل الفرقان فى الآخرة بحيث يكون لأهل الإيمان النعيم المقيم والثواب العظيم، ويجعل لأهل الكفر العذاب الشديد والمقت الكبير.

﴿إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الأنفال)

وإذا كنا سنتقى الله فهل سيكون لنا سيئات ؟.

وأقول : إن أردت بقوله : « إن تتقوا الله » إيماناً به، فسبحانه يُكَفِّر عنكم سيئاتكم؛ صغائرها وكبائرها. ولا يضر مع الإيمان معصية، بل تدخل فى عفو الله وغفرانه.

وإن أردت بالتقوى « التزام أمر » فتكفير السيئات يعنى أن نتقى الله بترك الكبائر فيكفر عنا السيئات وهى الصغائر. والتكفير على نوعين؛ أولا أن يسترها عليك فى الدنيا، أو يذهب عنك عقوبة الآخرة، ولذلك يقول سبحانه فى ختام جميل للآية :

﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الأنفال)

وحين يوصف الفضل بأنه عظيم، فمعنى ذلك أنَّ هناك فَضْلاً أقل من عظيم، كما أن هناك فَضْلاً يعلوه تميزاً. نعم، ونعلم أن التفاضل موجود عند البشر؛ هذا يتفضل على هذا بطعام، أو يتفضل عليه بِمَلْبَس، أو يتفضل عليه

بشراب، أو يتفضل عليه بمسكن، أى أن هناك أنواعاً متعددة من الفضل، لكنها لا توصف بالعظمة؛ لأن الفضل العظيم يكون من الله تعالى فقط لأنه سيؤول إليه كل فضل من دونه، فمن أعطى آخر رغيف خبز فلنعلم أن وراءه من أحضر الخبز من المخبز، ووراءه من جاء بالدقيق من المطحن، ووراءه من زرع وحصد.

إذن كل فضل هو من الله ومآله مردود إلى الله عز وجل، وهذا هو الفضل العظيم. وأيضاً نجد أن الذى يتفضل على واحد لابد أنه يبغى من وراء هذا الفضل شيئاً، مثل كمال الذات، وأنه يود الحمد والثناء، ويبغى راحة نفس إنسانية، ونرى أناساً يؤدون الفضل لغيرهم ليقللوا من آلامهم، لا لأنهم يطبقون منهج الله، بل يرغبون فى مجرد راحة النفس، مثل الكفار الذين يصنعون أشياء تفيد الناس، فهم يفعلونها وليس فى بالهم الله، بل فى بالهم راحة النفس وانسجامها.

إذن فالذى يتفضل إنما يريد شيئاً، إما كمال مال أو ثناء وإطراء، وراحة نفس من مناظر الإيلام التى يراها، وهذا دليل على أنه يعانى من نقص ما ويريد أن يكمله. فإذا كان الله عز وجل هو صاحب الفضل، ألله نقص فى كمال ؟!! لا. إذن فهذا هو الفضل العظيم ويمنحه لعباده تفضلاً منه دون رغبة فى كمال أو ثناء، وأيضاً فكل فضل من دون الله يتضمّن المنّ، لكن فضل الله تعالى ليس فيه منّ وليس فيه ذلة لأحد. وقد يستنكف إنسان أن يأخذ شيئا من إنسان آخر. لكن من الذى يستَنكف على فضل الله ؟. لا أحد. لأنَّ الحياة كلها هبة منه، ولذلك يُضرب المثل بالفتاة التى قالت لمعن بن زائدة :

فَعُـــدْ إنَّ الكريَم له معـــاد

وظنِّى بِابْن أروى أن يعـــودا

وكانت الفتاة تطالب ابن زائدة أن يعود إلى التفضل عليهم، فنهرها أبوها، فقالت له : يا أبى إن الملوك لا يُستَحَى من الطلب منهم .

﴿ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الأنفال)

ويريد الحق سبحانه وتعالى أن تنتبه إلى أن كل مظهر من مظاهر وجودك فى الحياة ومظاهر استبقاء حياتك، ومظاهر نعيمك كلها، إن نسبتها فستصل إلى الله، فإن كنت تشترى - على سبيل المثال - أثاثاً لبيتك، واختَرت خَشَب الورد ليكون هو الخشب الذى يصنع لك منه النجار هذا الأثاث، فأنت تأتى بهذا الخشب من أندونيسيا أو باكستان مثلاً؛ لأن الغابات هناك تنتج مثل هذا النوع من الخشب، وكل شىء فى حياتك إن سلسلته ستجد أن أيدى المخلوقات من البشر تنتهى عند خلق لله وهبه للإنسان، وهذا هو الفضل العظيم من الله تبارك وتعالى.

وبعد أن أوضح الحق سبحانه وتعالى بهذا التوجيه : لا تخونوا الله، ولا تخونوا الرسول، ولا تخونوا أماناتكم، من أجل أولادكم أو أزواجكم، واعلموا أن مرد كل الفضل إلى الله تعالى، واذكروا واقع الدنيا معكم، أصدقت هذه المسائل أم لم تصدق ؟ لقد صدقت كلها، كما قال الحق سبحانه وتعالى من قبل :

﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ ﴾

(من الآية ٢٦ سورة الأنفال)

وكان هذا القول بالنسبة للمسلمين ، فماذا عن الرسول صلى الله عليه وسلم؟ . هنا يقول المولى سبحانه :

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾

ونلحظ أنه سبحانه وتعالى لم يأت بمادة الذكر فى جانب النبى صلى الله عليه وسلم. ولم يقل له: واذكر إذ يمكر بك الذين كفروا ؛ لكنه فى جانب الصحابة جاء بمادة الذكر حيث قال: واذكروا إذ أنتم قليل، فما السبب ؟

ذلك لأنه لا يطرأ على البال أن يغفل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذكر الله تعالى ؛ لأن الذكر هو مهمته عليه الصلاة والسلام ، وسبحانه وتعالى القائل :

﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ ﴾

(سورة الغاشية)

هذا الذكر والتذكير هما وظيفة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويختلف هذا عن مهمة الإيمان فى حياة المؤمنين ؛ لأن الإيمان بالنسبة لهم إنما ليعدل من حياتهم. لذلك جاء هنا بالظرف فقط.

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾

(سورة الأنفال)

وهذا كله شرط وحيثية لقوله تعالى : ﴿ والله ذو الفضل العظيم ﴾ .

والمكر هو التَّبْيِيت بشىء خفىّ يضرّ بالخَصْم . والذى يمكر ويبيت شيئاً خفياً بالنسبة لعدوه، لا يملك قدرة على المواجهة، فيبيت من ورائه، ولو كانت عنده

قدرة على المواجهة فلن يمكر ؛ لذلك لا يمارس المكر إلا الضعيف . ونجد ربنا سبحانه وتعالى يقول :

﴿ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾

(من الآية ٧٦ سورة النساء)

ثم نجده سبحانه وتعالى يقول :

﴿ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾

(من الآية ٢٨ سورة يوسف)

ومادام كيدهن عظيما فضعفهن أعظم . ولذلك نجد الشاعر العربى يقول :

وضعيفة فإذا أصابَتْ فرصةً

قَتَلتْ كذلك قُدْرَةُ الضُّعفاءِ

لأن الضعيف إن أصاب فرصة استغلها حيث يظن أنه قد لا تتاح له فرصة ثانية ؛ لذلك يندفع إلى قتل خصمه . أمَّا القوى فهو يثق فى نفسه وقدراته ولذلك يعطى خصمه فرصة ثانية وثالثة ، ثم يعاقب خصمه على قدر ما أساء إليه .

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة الأنفال)

أى يذكرون الكيد والتبييت لك بالمكر ، لكنهم لا يعلمون أن مَنْ أرسلك يا رسول الله لا تخفى عليه خافية ، فقد يقدرون على المكر لمن هم فى مثلهم من القدرة ، لكنك يا رسول الله محاط بعناية الله تعالى وقدرته وحامل لرسالته فأنت فى حفظه ورعايته .

إذن فلست وحدك لأنك تأوى إلى الله، ويكشف الله لك كل مكرهم، وهذا المكر والتبييت مكشوف ومفضوح من الله؛ لذلك يقول لك المولى سبحانه وتعالى:

﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة الأنفال)

والمكر منهم له وسائل وغايات، هم يمكرون ليثبتوك، ويمكرون ليقتلوك، ويمكرون ليخرجوك. وكل لقطة من الثلاثة لها سبب. فحين علم كفار قريش أن أهل المدينة من الأوس والخزرج قد بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن ينصروه؛ هنا فزع كفار قريش وأرادوا أن يضعوا حدّاً لهذه المسألة، فاجتمعوا فى دار الندوة يريدون أن يجدوا حلاً يوقف رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ودخل عليهم أعرابى فوجدهم يتشاورون؛ وقالوا لنثبته، والتثبيت ضد الحركة، وقوله: «ليثبتوك» أى ليقيدوا حركتك فى الدعوة؛ لأن هذه الدعوة تزلزلهم. ولولا الرسالة، لظلوا على الترحيب بك يا رسول الله، فقد كنت فى نظرهم الصادق والأمين، ولم يرهقهم إلا التحرك الأخير لإشاعة منهج الله تعالى فى الأرض، لذلك أرادوا أن يقيدوا حركته صلى الله عليه وسلم.

والتقييد إما أن يكون بأن تمنع المتحرك عن الحركة، وإمّا أن تقيد المتحرك نفسه فتحدد مجال حركته. إذن فالتثبيت يكون بالقيد أو السجن، وقيل لهم: إن هذا رأى غير صائب لأنكم لو قيدتموه أو سجنتموه فسوف يقوم قومه ويغيرون عليكم، أو يحتالون ليفكوا عنه القيد أو السجن، وقد سبق لكم أن حاصرتموه فلم تفلحوا، وقال آخر: نخرجه من بلادنا، وناقشوا هذا الأمر فلم يجدوه صواباً، وقالوا: إنه إن خرج، فلسوف يؤثر فيمن يخرج إليهم تأثيراً يجعل له منهم أتباعاً، يأتون إلينا من بعد ذلك ليقاتلونا، وأشار الأعرابى بقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم، لكن كبار قريش قالوا: نخاف من

قومه أن يأخذوا بثأره ، فاقترح أبو جهل قائلا : نأخذ من كل قبيلة من قبائلنا فتى جلداً قوياً ، وبعد ذلك يذهبون إلى محمد وهو فى فراشه ويضربونه ضربة رجل واحد ، فإذا مات تفرق دمه فى القبائل ، ولن تستطيع قبيلة محمد أن تواجه القبائل كلها ، فيرضون بالدية ، وندفعها لهم وننهى هذا الأمر .

هكذا ناقش القوم تثبيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وتقييد حركته أو إخراجه من بلده أو قتله ، وكل هذا بمكر وتبييت . وكشف الله لرسوله كل ذلك وأخرجه من مكة مهاجراً إلى المدينة ليوضح لهم أنه سبحانه خير الماكرين حقّاً وصدقاً .

ويقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك :

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ ﴾

وقول الحق : « آياتنا » يعنى آيات القرآن ؛ لأننا عرفنا من قبل أن الآيات إما أن تكون الآيات الكونية التى تلفت إلى وجود المكوِّن الأعلى مثل الليل والنهار والشمس والقمر ، وإمّا أن تكون الآيات بمعنى المعجزات :

﴿ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ﴾

(من الآية ٢٠٣ سورة الأعراف)

وهذه الآيات المعجزة علامة على أنه صادق . أو الآيات التى هى قسط من القرآن وهو المنهج .

وهنا يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا ﴾

(من الآية ٣١ سورة الأنفال)

ونفهم من التلاوة أن المقصود هو آيات القرآن الكريم . فماذا قالوا ؟

﴿ قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ﴾

(من الآية ٣١ سورة الأنفال)

وقولهم : « لو نشاء » هذا يدل على أنهم لم يقولوا ؛ لأن « لو » حرف امتناع لامتناع ، مثلما تقول : لو جئتنى لأكرمتك ، فامتنع الإكرام منى لامتناع المجىء منك ، فهذا يعنى امتناع لامتناع ، ومثلما يقول قائل : لو عندى مال لاشتريت قصراً ، ولأنه لا يملك مالاً ، فهو لم يشتر القصر - إذن هم لم يشاءوا ولم يقولوا ؛ لذلك كان كلامهم مجرد « تهويش » وتهديد لا محل له . فلم يحصل منهم هذا ولا ذاك .

إذن ثبت الإعجاز . لقد ثبت لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم طلب منهم أولاً أن يأتوا بمثل هذا القرآن ، وحين قالوا : إن القرآن كثير ولا يقدرون أن يأتوا بمثله ، تحداهم بأن يأتوا بعشر سور ، وحين فشلوا ، تحداهم بأن يأتوا بسورة ، فلم يأتوا ، وكان هذا تدرجاً فى الإعجاز .

لقد تحداهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومعنى التحدى حفز المُتَحدّى أن يُجند كل ما يقوى عليه ليرد التحدى . فإن لم تتجمع لهم المواهب التى تكفل قبول التحدى انسحبوا ؛ لكن واحداً منهم اسمه « النضر بن الحارث » ذهب لفارس ، ورأى كتاباً هناك يضم أساطير وحكايات ، وجاء ليقول وسط قريش : هأنذا أقول مثل محمد . لكن كلامه لم يكن له هدف ولا يحمل منهجاً ولا توجد لكل كلمة فيه قدرة جذب لمعنى ، ولم يوجد فى قوله أى معنى جاذب للكلمة ، لذلك انصرف عنه القوم .

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ ﴾

(سورة الأنفال)

وهذا قولهم ، وسبق أن اعترفوا بأنه قرآن ، وسبق لهم أن قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم :

﴿ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

وحين نقرأ هذه الآيات الكريمة ونقوم بتعداد ما طلبوا منه ، نجد أنهم طلبوا تفجير الأرض بينبوع ماء ، وطلبوا أن تكون له جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا ، وطلبوا أن تسقط السماء كما زعم عليهم كسفا ، وطلبوا أن يأتى بالله والملائكة قبيلا ، وطلبوا أن يكون له بيت من زخرف ، وطلبوا أن يرقى فى السماء ، وكل هذا كلام طويل أثبته القرآن الكريم ، فهل ما قالوه يعد قرآنا ؟ لا ، ولنلتفت إلى دقة أداء القرآن ، فلم يقل كل هذه الطلبات إنسان واحد ، بل قال كل منهم طلباً ، وبأسلوب مختلف ، ولكن بلاغة القرآن الكريم جمعت كل الأساليب فأدتها بتوضيح دقيق وبإعجاز بالغ ، ولذلك لنا أن نلتفت أننا ساعة نسمع نقلا لكلام الغير من القرآن ، فعلينا ألا نأخذه على أن هذا الكلام الذى قيل هو معان قيلت ، وجاء القرآن الكريم بها بأسلوب الله .

وأضرب هذا المثل - ولله المثل الأعلى - إذا جئت لابنك وقلت له : يا بنى اذهب إلى عمك فلان وقل له : إن أبى يدعوك غداً مساءً لتناول العشاء معه ؛ لأن عنده ضيوفاً ويحرص على أن تشاهدهم ويشاهدوك وتقوى من مكانته . وحين ذهب الولد لعمه ، هل قال له نفس الكلام ؟ طبعا لا ؛ لأن الأب قد يكون متعلماً، ولا يستطيع الابن أن يقول ذات الكلمات . أو قد يكون الأب أميّاً، والابن مثقفا ناضجا فينقل الابن رسالة أكثر بلاغة .

إذن فأنت إذا سمعت أو قرأت كلاماً من غير الله على لسان أحد ، فاعلم أن هذا أداء الله لمطلوبات المتكلم .

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ ﴾

(سورة الأنفال)

والأساطير جمع أسطورة، أى الحوادث والأحاديث الخرافية مثل ألف ليلة وليلة ، وكليلة ودمنة ، والإلياذة وغيرها من كتب الأساطير .

ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك :

﴿ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾

و « إذ » تأتى للظرف أيضاً، ولم يقل سبحانه وتعالى : واذكر أن قالوا ، بل قال : « إذ قالوا » . وقد بلغ بهم العجز إلى أن قالوا إن كان هذا القرآن هو الحق القادم من عندك فأمطر علينا حجارة ، أو ائتنا بعذاب أليم .

أليس هذا الكلام دليلاً على غباء قائليه ؟ بالله لو كان عندهم عقل ومنطق وتفكير ، أكانوا يقولون ذلك ؟

ألم يكن من المناسب أن يقولوا : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه ، أو فاجعلنا نقبله ؟ . وماداموا قد قالوا : « اللهم » فالمنادى هو الله .

﴿ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ ﴾

(من الآية ٣٢ سورة الأنفال)

إذن هم يعلمون أن لله عز وجل عندية ، وفيها حق ، وهكذا نرى أنهم اعترفوا بوجود الله ، وأنَّ عند الإله حقًا . فكيف إن جاء إنسان وقال لكم : إننى رسول من عند الله ، وهذا هو المنهج ، وهو منهج ومعجزة فى وقت واحد ، ألم يكن من الواجب أن تستشرف آذانكم إلى من يبلغ عن الله هذا الحق وأن تستجيبوا له ؟ . لكن ماداموا قد استمطروا على أنفسهم اللعنة والعذاب ، فهذا دليل كراهيتهم لمحمد ، ومن أجل هذه الكراهية دعوا الله أن ينزل عليهم العذاب كما فعل بالأمم السابقة - وطلبهم هذا للعذاب يدل على أنهم علموا أن من يكذب الرسل ويرفض المنهج إنما يتلقى العذاب من الله . وهكذا يتبين لنا أن ما ينقصهم لإعلان الإيمان هو عدم قبولهم لرسول الله شخصياً ، ويتمثل هذا فى قول الحق تبارك وتعالى فى آية أخرى :

﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾

(سورة الزخرف)

إذن لو أن القرآن نزل على شخص آخر ؛ لآمنوا به . وفى هذا اعتراف بأن القرآن معجزة ، ومنهج . وقوله تعالى : « وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم » ورد على لسان

أبى جهل وهذا يدل على كثرة جهله وشدة تكذيبه وعناده وعتوه هو ومن معه من المشركين المكذبين . فعن أنس بن مالك : قال أبو جهل بن هشام : « اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم » فنزلت : « وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون » (١)

وهؤلاء المعاندون قالوا أيضا :

﴿أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾

(من الآية ٩٢ سورة الإسراء)

وهذا دليل على التخبط فى الكلام ، وفقدان الوعى العقلى.

﴿أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾

(من الآية ٣٢ سورة الأنفال)

والحق سبحانه وتعالى قادر على أن يصيب بالعذاب قوماً بعينهم وقادر على نجاة المؤمنين ، وشاء الله سبحانه ألا ينزل العذاب ؛ لأن رؤية المتألم حتى ولو كان عدواً ، فيه إيلام - لذلك قال الحق سبحانه وتعالى :

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾

لأن سنة الله مع خلقه المكذبين للرسل ، أنه سبحانه وتعالى قبل أن ينزل العذاب يخرج الرسول والمؤمنين به ، مثال ذلك أمْره نُوحاً عليه السلام بأن يصنع السفينة ؛ لينجو من الطوفان. وكل رسول لم تستجب أمته أصابها شىء

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه .

من هذا ، وعلى ذلك يخرج الرسول أولا ، ثم ينزل الحق عذابه ، كما أنه يقول سبحانه وتعالى موضحا فضل اللجوء إلى الله بالاستغفار :

﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾

(من الآية ٣٣ سورة الأنفال)

وهم إن استغفروا الله فمعنى ذلك أنهم آمنوا به ، ولكن الحق جاء بهذا القول ليدلهم على المنقذ الذى يخلص الإنسان منهم من جريمة الكفر ، وفى ذلك رحمة منه سبحانه وتعالى ، وكأنه يحضّهم على أن يستغفروا حتى لا ينزل بهم العذاب. ويرسم لهم وسيلة النجاة.

﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾

(من الآية ٣٣ سورة الأنفال)

وتسمى اللام فى « ليعذبهم » بـ « لام الجحود » ، نجحد أن يعذبهم الله وفيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذن فوجود الرسول فيما بينهم أمر له تقدير خاص ، أما هم فالحق تبارك وتعالى يقول بشأنهم :

﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾

(من الآية ٣٣ سورة الأنفال)

وهكذا نرى الحقائق الإيمانية ، فالنفس المؤمنة الصافية حين يكون لها عدو ، ثم تحل بالعدو مصيبة ، لا تأتى أبداً كلمة الشماتة على بال المؤمن ، هذا هو الخلق الإيمانىّ الذى قد يؤلمه مظهر الضعف والمهانة للعدو ، فيضنّ الله على أن يعذب قوماً وفيهم من يستغفر ، وكأنه يُوضّح لنا : هب مسيئنا لمحسننا ، أى أن يدارى المحسن على المسىء. ولذلك نجد أن الرسول صلى الله عليه وسلم فى صلح الحديبية صُدَّ عن البيت الحرام ، وهذا الصد تسبب فى أنهم يعقدون معه معاهدة هى صلح الحديبية ، وكان هناك من المؤمنين من يعارض هذه المعاهدة ، ومنهم من قال : فعلام نعطى الدنية فى ديننا ؟. والقائل لذلك هو عمر

ابن الخطاب - رضى الله عنه - ، وفى التفاوض ، جاء على بن أبى طالب ليكتب المعاهدة وفى بدئها « هذا ما صالح عليه رسول الله » فاعترض المفاوض عن معسكر الشرك قائلاً : لو كنا مؤمنين بأنك رسول الله لما حاربناك ، بل اكتب : « هذا ما تعاهد عليه محمد بن عبد الله » ، فامتنع علىّ عن الكتابة ، وقال : لا أكتبها إلا رسول الله. فأمره الرسول صلى الله عليه وسلم أن يكتبها كما يقولون لينهى الموقف ، وليعطى معجزة ، فينظر لعلى وهو مغتبط به ، فيقول له :

« اكتب فإن لك مثلها تعطيها وأنت مضطهد » ويتحقق ذلك بعد حياة النبى ، وخلافة أبى بكر ، وخلافة عمر ، وخلافة عثمان ، ثم تجىء الخلافة لعلى وحدث فيها ما حدث . ويتحقق قول رسول الله صلى الله عليه وسلم :
« اكتب فإن لك مثلها تعطيها وأنت مضطهد » (١)

أى سيقفون منك موقفاً مثل هذا وسوف تقبله ، ولما جاء الخلاف بين معاوية وجنوده ، وبين على وجنوده ، أرادوا أن يوقعوا معاهدة فيما بينهم ليمنعوا النزاع بين المسلمين ، فقال على - كرم الله وجهه - : هذا ما تعاهد وتعاقد عليه أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، فقال المفاوض عن معاوية : لو كنت أميرا للمؤمنين أكنّا نحاربك ؟ ، فتذكَّر على كرم الله وجهه ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم صلح الحديبية : « اكتب فإن لك مثلها ..... إلخ » .

ومعنى ذلك أن السياسة تقتضى ألا تتجمد كمن يكون فى قالب حديدى ، بل تفترض السياسة فيمن يعمل بها شيئاً من الليونة وبعد النظر لتنتهى المواقف الصعبة ؛ لأن كل طرف لو أصرّ على موقفه لما وقعت المعاهدة ، وكانت معاهدة صلح الحديبية مطلوبة ومناسبة ليتفرغ المسلمون - بعد الأمن من قريش - للدعوة إلى منهج الله فى الأرض ، وهذا ما حدث خلال السنوات العشر التى تلت هذه المعاهدة ، وانتشر الإسلام فى ربوع الجزيرة العربية ، ومن بعدها إلى آفاق الأرض كلها.

(١) أخرجه البخارى فى كتاب الصلح .

إذن فولىّ الأمر عليه أن يملك البصيرة التى لا تجعله جامداً ، لأنه لو تجمد لأنهى الخير الموجود فيه وفى قومه ، وهكذا أراد رسول الله أن يعلمنا عدم الجمود بصلح الحديبية على الرغم من أن بعض المسلمين ومنهم عمر ابن الخطاب - رضى الله عنه - قالوا : لا ، علام نعطى الدنية فى ديننا ؟ وبعضهم قالوا متسائلين ، بل وعاتبين : ألم تعدنا يا رسول الله أننا سندخل البيت الحرام؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أقلت لكم هذا العام ؟.

ولم ينتبه المسلمون حين سمعوا ذلك إلى أهمية أن تنضج القرارات السياسية لتأخذ طريقها إلى التنفيذ . وكادت الفُرقة أن تحدث بين المسلمين ، ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى زوجه أم سلمة مكروباً . وقال لها : يا أم سلمة هلك المسلمون . أمرتهم فلم يمتثلوا.

ونرى موقف أم سلمة رضى الله عنها وهى الزوجة الأمينة المشيرة الناصحة ، لقد قالت : يا رسول الله إنهم مكروبون ، لقد جاءوا وفى نيتهم أن يذهبوا إلى البيت الحرام بعد طول فرقة واشتياق ، ثم حُرموا من ذلك وهم بمرأى من البيت ، ولكن قم يا رسول الله فاعمد إلى ما أمرك الله به ، ولا تقل لهم شيئاً ، بل اذبح هديك ، وهم إذا رأوك فعلت فَعَلوا.

وبالفعل خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وذبح الهدى ، وفعل المسلمون مثله . ونجد سيدنا أبا بكر - رضى الله عنه - يقول عن الحديبية : هى الفتح فى الإسلام . وما كان فتح أعظم من فتح الحديبية ، ولكن الناس لم تتسع ظنونهم إلى السر من الله. والعباد دائماً يعجلون ، والله لا يعجل بعجلة عباده حتى تبلغ الأمور ما يراد لها.

وقد كان المخالفون لرسول الله صلى الله عليه وسلم غيورين على دينهم ، على قدر علمهم لا علم الله. وشاء الحق تبارك وتعالى أن يبين لهم السبب

فى أنه لم يجعل من الحديبية أرض قتال أو التحام؛ فقال :

﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ ﴾

(سورة الفتح)

نعم فقد كان هناك مؤمنون ومؤمنات يختفون بين الكفار، فلم يكن فى مكة قبل الفتح - حىّ للمسلمين الذين يخفون إيمانهم، وحىّ للكفار، بل كان الناس يسكنون معاً، فإذا ما قامت الحرب بين أهل مكة وبين الجيش القادم إلى الحديبية، لقتل المسلم أخاه المسلم الذى لم يعلن إسلامه، ولو أمكن التفريق بين المسلمين الذين لم يعلنوا إسلامهم وبين الكفار، لعذب الله الكفار بأيدى المؤمنين عذاباً أليماً.

وهنا فى هذه الآية الكريمة التى نحن بصدد خواطرنا عنها يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾

(من الآية ٣٣ سورة الأنفال)

ويعنى بذلك أن بعضهم هو الذى يستغفر فيمنع الله عز وجل العذاب عن الكل، مثلما منع تعذيب الكافرين بصلح الحديبية؛ لأن هناك مؤمنين مستخفين فيما بينهم.

ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك :

﴿ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾

وهنا نتساءل : أى شىء يمنعهم من أن يعذبهم الله ؟ . إن تعذيبهم هو عدالة ؛ لأنهم فعلوا ما يستحقون عليه التعذيب . لقد صدوا الرسول والمسلمين عن زيارة المسجد الحرام ؛ لأنهم ظنوا أن لهم الولاية عليه ، رغم أن منهم من سمع خبر أبرهة الأشرم حين جاء بالأفيال ليهدم الكعبة. واستولى أبرهة الأشرم على مائه من الإبل كانت لسيد قريش عبد المطلب جد النبى صلى الله عليه وسلم ، فذهب إليه عبد المطلب وقال له : إنك قد أصبت لى مائة بعير فأرجو أن تردها إلىّ. فقال أبرهة الأشرم : جئت لأهدم بيتكم ، وبيت آبائكم ، ثم لا تكلمنى فيه وتكلمنى فى مائة من الإبل أصبتها منك ؟ فقال عبد المطلب : أنا رب هذه الإبل ، أما البيت فله رب يحميه .

وهذه كلمة لا يقولها إلا واثق من أن للبيت الحرام ربّاً يحميه .

وجاءت طير أبابيل ترمى أبرهة بحجارة من جهنم فجعلته هو وجيشه كعصف مأكول .

إذن فكيف تصد قريش محمداً والمؤمنين معه عن البيت الحرام ، وهم بإقرار سيدهم قديماً يعلمون أنَّ للبيت ربّاً يحميه ، فكيف تكون لكم على البيت ولاية؟ وكان عليهم أن يعلموا أن ولاية أمر بيت الله باختيار الله ولا تكون إلاَّ للمتقين ، ولم تكن قريش من المتقين .

و حيثيَّات التعذيب إذن هى صدهم عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه. لماذا؟

﴿ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

(من الآية ٣٤ سورة الأنفال)

وإذا كان أكثرهم لا يعلم، فأقلهم يعلم علم اليقين حقيقة البيت الحرام، فقداسة هذا البيت التى تعلمها الأقلية ونسيتها الأكثرية من كفار قريش هو قول الحق تبارك وتعالى على لسان سيدنا إبراهيم :

﴿ رَّبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة إبراهيم)

لقد جعلهم الله عز وجل فى هذا المكان ليقيموا الصلاة ؛ لأنه سبحانه وتعالى يحب أن يعبد فى الأرض ولو بواحد فى هذا المكان، ولتظل عبادته دائمة. ومهما علت فئة من البشر مثل قريش فهى بصدها عن البيت الحرام قد اتبعت أهواءها، وسبحانه يحقق ما يريد ، فهزم قريشا ونصر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعادت للكعبة حرمتها وصارت مكانا للعبادة لله بصفة مستمرة.

وإننا نجد تشريعات الحق سبحانه فى أوقات الصلاة، فالصبح عند قوم هو ظهر عند قوم آخرين، والظهر عند قوم هو صبح عند قوم آخرين، و العصر عند قوم هو صبح أو ظهر أو مغرب أو عشاء عند أقوام آخرين ، وهكذا نجد كل أجزاء النهار مشغولة بأوقات الاتجاه إلى الله ، وهناك فى كل لحظة من يتجه إلى بيت الله الحرام بصلاة ما فى ميقاتها ، ولا تخلو بقعة فى الأرض من قول: « الله أكبر »، وقد تم بناء البيت الحرام من أجل هذه الصلاة.

لكن قريشاً حولت الصلاة من خضوع وخشوع وعبادة لله تعالى واستحضار لعظمته وجلاله إلى ما يقول عنه الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ۚ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

حيث كانت صلاتهم مظهرا من مظاهر اللهو واللعب يؤدونها بالمكاء والتصدية، والمكاء هو الصفير الذى يصفرونه، والتصدية هى التصفيق، وكانت صلواتهم هى صفير يسبب صدى للآذان، بالإضافة إلى التصفيق بإيقاع معين، فكيف تكون الصلاة هكذا ؟ . وكيف يصدون عن البيت الحرام ولا ولاية لهم عليه؛ لأن الذى يلى أمر البيت الحرام لابد أن يكون متقياً لله، لكن هؤلاء لم يكونوا أهلاً للتقوى؛ لأنهم لم يقوموا بالصلاة المطلوبة للبيت الحرام والتى يجب أن يذكر فيها الله ويُعبد؛ لذلك كان التعذيب لمن أصر على ذلك بعد أن نزل منهج الله الخاتم على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

ويبين المولى فى هذه الآية أن هؤلاء المشركين قد كفروا بالله وصرفوا المال ليصدوا عن سبيل الله فلم يتحقق لهم ما أرادوا ولم يأت ذلك الأمر بأدنى نتيجة، وكأن الحق يغرى الكافر بأن يتمادى فى الإنفاق ضد الإيمان، فيخسر الكافر ماله ويتجرع آلام الحسرة؛ لأن الله يغلبه من بعد ذلك .

وحين سمعوا قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾

(من الآية ٣٦ سورة الأنفال)

لم ينتبهوا إلى أن الحق سبحانه يتحدث عن المستقبل، وأنه مهما أنفق الكفار ضد دين الله فلن يصلوا إلى أية نتيجة، ومصداق الأحداث يؤكد أن كلَّ ما يجيء به القرآن الكريم حق .

ولماذا لم ينتبهوا إلى ذلك ؟ ولم يدخروا أموالهم ؛ وقد نصر الله دينه ؟.

إذن هذا هو فعل من فقد البصيرة والذكاء. وحين يأتى القرآن الكريم بقول الله تعالى : « فسينفقونها » أى أن الإنفاق سيكون فى المستقبل، والاستقبال له مرحلتان ؛ استقبال قريب ، واستقبال بعيد. فإن كان الاستقبال قريباً فهو يقول : « فسينفقونها »، وأما إن كان بعيداً فيقول : فسوف ينفقونها مثلما قال القرآن أيضاً :

﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ﴾

(من الآية ١٤٢ سورة البقرة)

وقد أعلمنا القرآن صلاة من رسول الله ، وجهرا من الصحابة بالخبر ، وأعلمهم القرآن الكريم أيضا ، ولكنهم لم يلتفتوا إلى التحذير الذى صار من بعد ذلك خبراً يروى دليل افتقادهم لصفاء الفطرة . ؛ لذلك تجيء لهم الحسرة بعد أن أنفقوا المال ، وخسروه فلم يستفيدوا شيئاً ولم يحققوا مرادهم ولا آمالهم . ويتابع سبحانه وتعالى تذييل هذه الآية فيقول :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾

(من الآية ٣٦ سورة الأنفال)

وحينما يتكلم الحق سبحانه وتعالى عن الأمور التى تحدث للكفار من عذاب عظيم فى جهنم ، فسبحانه لا يريد بهذا الحديث أن يجعل مأواهم النار ، لكنه يخوفهم ويرهبهم من الكفر ويدعوهم إلى الإيمان ، ويحضهم على ألا يكونوا كافرين حتى لا يحشروا فى جهنم .

ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك :

﴿ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾

وهذه الآية الكريمة تكشف لنا أن المعارك التى تنشأ بين الإسلام وأتباعه من جهة ، وبين خصوم الإسلام وأتباعهم من جهة أخرى : هذه المعارك إنما هى أمر مراد من الله تعالى : لأن الزلزلة التى تحدث ، حتى لمن آمن ، إنما هى تصفية لعنصر الإيمان ، ومثال ذلك ما حدث فى الإسراء ، حيث وجدنا من كان إيمانه ضعيفاً يتساءل : أمعقول أن يذهب محمد إلى بيت المقدس فى ليلة ؟! بينما نجد ثابت الإيمان مثل الصديق أبى بكر يقول : إن كان قد قال فقد صدق . إن الثابت والقوى إيمانه يصدق ، أما من لم يثبت إيمانه فهو يكذب . وهكذا كانت أحداث الإسلام ، فقد جاءت كلها لتميز الخبيث من الطيب ، وتجمع الخبيث بعضه إلى بعض ليصير ركاماً ثم يضعهم الله فى النار .

لقد جاءت أحداث الإسلام للتمحيص ، مثلما تضع الحديد فى النار لتستخرج منه الخبث ويصير صافياً ، وهكذا جاء الإسلام لتصفو به قلوب المؤمنين ، ويقوى إيمانهم ؛ لأنهم يحملون رسالة الله تعالى إلى الأرض كلها ، بعد أن مروا بالتصفيات الكثيرة .

ومثل هذه التصفيات تحدث فى المجال الرياضى ، فحملة الأثقال - على سبيل المثال - يدخلون فى مباريات أولية ، ومن يستطيع حمل الوزن الأثقل هو الذى يكون مؤهلا لأن يدخل المباريات الدولية ، ليبقى الأقوى .

﴿ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة الأنفال)

والحق سبحانه وتعالى أعطانا أمثالاً لأحداث تميز الخبيث من الطيب ، فالناس فى الأحوال العادية الرتيبة لا تظهر معادن نفوسهم ؛ لأن الناس إذا كانوا آمنين لا يواجهون ؛ خطراً ، ادعوا الشجاعة و الكرم والشهامة ، وادَّعوا الإيمان القوى المستعد لأى تضحية فى سبيل الله ، فإذا جاءت الأحداث فهى الاختبار الحقيقى لما فى القلوب . فقد يقول إنسان لصديقه : أنا ومالى لك . وإذا ما أصابت هذا الصديق كارثة ، يتهرب منه . فما الذى يحدد - إذن - صدق الحديث عن النفس ؟ إنها الأحداث . وهكذا أراد الله تعالى أن يميز الخبيث من الطيب فعركت المؤمنين الحوادث ، وزال الطلاء عن ذوى العقيدة الهشة ؛ ليكون الناس شهداء على أنفسهم ، ويبقى المؤمنون أصحاب صفاء القلب والعقيدة . وحين يميز الله الخبيث من الطيب ، فهو سبحانه وتعالى : يريد تمييز الطيب حتى لا يختلط بالخبيث .والخبيث إنما يكون على ألوان مختلفة وأنواع متعددة ، فهذا خبيث فى ناحية ، وذلك خبيث فى ناحية أخرى، وثالث خبيث فى ناحية ثالثة ، وغيرهم فى ناحية رابعة ، وخامسة إلى ماشاء الله ، ويجمع الله كل الخبيث فيركمه فى النار جميعاً .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك :

﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾

و " قل " أمر من الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم ، ومادام قد وجد أمر ، فلابد من وجود المبلغ للأمر ، أى أن هناك مخاطباً ومخاطَباً ، والمخاطب هنا هو الله سبحانه ، والمخاطَب هو رسول الله صلى الله عليه وسلّم ؛ لأن الله تعالى قال له : " قل " ، والبلاغ المطلوب منه إبلاغه للناس هو ما يتضمنه قول المولى سبحانه :

﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ ﴾

(من الآية ٣٨ سورة الأنفال)

أى إن انتهوا عن الكفر غفرت لهم ذنوبهم التى ارتكبوها أيام كفرهم ، ونلاحظ هنا اختلافاً فى أسلوب الكلام لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين يخاطب الكافرين كان الذى يفرضه السياق أن يقول لهم : إن تنتهوا يغفر لكم ؛ لأن الخطاب لابد أن ينسجم مع المخاطب ، وعادة عندما توجه الخطاب لشخص تكون هناك « لام التوجيه » ، تقول : وجهت الخطاب لفلان ، وتخاطبه بشكل مباشر ، ولكن الله يقول هنا لرسوله صلى الله عليه وسلم :

﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم ﴾

(من الآية ٣٨ سورة الأنفال)

وكان سياق الكلام يقتضى القول : إن تنتهوا يغفر لكم ، ولكن الله سبحانه وتعالى عدل عن إن تنتهوا إلى " إن ينتهوا " ، والكلام مخاطب به الكفار ، والكفار حاضرون فكيف يخاطبهم بصيغة الغائب ؟

لقد أراد الله تعالى أن يأتى الخطاب ليعم كل متكلم يقال له هذا الكلام من أى مؤمن ، فكأنه قد عمم الخطاب ليقطع المعاذير . ومثل ذلك مثل قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ﴾

(من الآية ١١ سورة الأحقاف)

وإذا أخذنا ذات المقياس لكان الكلام يقتضى أن يقال : لو كان خيراً ما سبقتمونا إليه ، ولأن هذه العبارة قيلت من أكثر من كافر فى أماكن متعددة للمؤمنين ، وأراد الله سبحانه وتعالى : أن يلفتنا لذلك ، فعمم الخطاب حتى يشمل جميع الحالات ولا ينطبق على حالة واحدة فقط ، بل ينطبق على كل حالة مماثلة ؛ لذلك قال سبحانه :

﴿ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ ﴾

(من الآية ٣٨ سورة الأنفال)

وهذا يدلنا على أنهم إن انتهوا عن مقاومة رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنادهم معه فهو سبحانه وتعالى يغفر لهم ، لأن العناد والمقاومة ناشئان عن الكفر ، فإن انتهوا عنهما ، صاروا مؤمنين . والإسلام يَجُبُّ ما قبله .

ولذلك عندما أعلن محارب عن إيمانه واعتنق الإسلام وشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، ثم دخل المعركة فاستشهد صار شهيدا ؛ لأنه قد غُفر له بشهادة الإسلام كل ذنوبه التى حدثت منه أثناء الكفر ، وهى الذنوب التى تتعلق بحقوق الله تعالى ، أما ما يتعلق بحقوق الناس ، فعلى ورثته أن يؤدوها عنه .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾

(من الآية ٣٨ سورة الأنفال)

وقوله هنا : « وإن يعودوا » أراد به الله أن يعلمنا أن تجرى هذه الكلمة على اللسان ، فإن عادوا مرة أخرى إلى الكفر والعناد ، يطردوا من رحمة الله ومغفرته ، إذن فشرط الغفران لهم أن يستمروا فى إيمانهم وألا يعودوا للكفر مرة أخرى ، وقوله تعالى : ﴿ فقدمضت سنة الأولين ﴾ .

والسنة هى الطريقة أو الكيفية أو الحالة التى يكونون عليها ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾

(من الآية ٦٢ سورة الأحزاب)

أى الطريقة التى اختارها الله لمعالجة الأمور بالحق والعدل ، ومعنى قوله تعالى : ﴿ مضت سنة الأولين ﴾ :

أى الطريقة التى عرفتموها وعالج بها الله عز وجل أمر من عاند الرسل ووقف منهم موقف المنازعة والمعارضة . ومثل ذلك حدث للكفار فى بدر ، فكأن من يقف أمام دعوة الله ومنهجه لا بد أن يتعرض للهلاك كما حدث مع كل من قاوم الأنبياء ، فأنتم تعرفون ما صنعه الله بقوم هود وقوم عاد وقوم ثمود وقوم فرعون . ومر كل ذلك عليكم ، كسنة عامة تشمل كل من قاوم الأنبياء ووقف فى طريق دعوتهم إلى الله .

والخطاب هنا إما أن يكون خطاباً لهم على حالهم فى وطنهم وما حدث للمخالفين فى بدر وقد رأوا مصارعهم ، وإما أن يكون الخطاب مبيناً لسنة الله تعالى وقد شاءت سنته سبحانه إبادة كل مخالف لسنته .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك :

﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾

وهذا أمر من الله عز وجل بالقتال، والقتال مفاعلة تحدث بين اثنين أو أكثر، أى اشتباك بين مقاتل ومقاتل. ولذلك عندما تسمع كلمة "قتال" يتبادر إلى ذهنك وجود طرفين اثنين وليس طرفاً واحدا، أو بين فريق وفريق آخر.

وعندما يقول الحق سبحانه وتعالى: «وقاتلوهم» نفهم أن هذا أمر للمؤمنين ليقاتلوا الكفار، ولابد أن يكون الكفار قد فعلوا شيئا يستحق أن يقُاتلوا عليه، أو أنهم يبيتون للمؤمنين القتال وعلى المؤمنين أن يواجهوهم ويقاتلوهم. ولم يقل الله سبحانه وتعالى: اقتلوهم بل قال: «قاتلوهم»؛ أى مواجهة فيها مفاعلة القتال. والتفاعل معناه أن الحدث لا يأتى من طرف واحد بل لابد من مقابل معه. فأنت تقول: "قابلت" أى أنك قابلت شخصاً، وهو قابلك أيضاً، وهذه مفاعلة. أو تقول: "شاركت" أى أنك اشتركت أنت وآخر فى عمل ما. وهنا قال الحق سبحانه وتعالى:

﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾

(من الآية ٣٩ سورة الأنفال)

ومعنى ذلك أن هناك قتالاً يؤدى للقتال. وجاء القتال ليحسم الأمر؛ لأن ترك هؤلاء الكفار يعتدون على المسلمين، ويأخذون أموالهم بالباطل، فيرى الناس المؤمنين أذلة مستضعفين، والكفار عالين أقوياء فتحدث فتنة فى الدين، أى يفتن الناس فى دينهم وهم يرون الذل دون أى محاولة أو تحرك لدفعه.

ويريد الله سبحانه وتعالى أن تنتهى الفتنة . والفتنة هى الاختبار . وكما قلنا : إن الاختبار ليس مذموماً لذاته ، ولكنه يُذم بنتيجته . فإن رسب الطالب فى الاختبار تكون نتيجة الاختبار مذمومة . وإن نجح تكون محمودة . ولقد كان كفار قريش يفتنون الناس فى دينهم بتعذيبهم تعذيباً شديداً حتى تخور قواهم ويخضعوا لأحكامهم . وأراد الله سبحانه وتعالى أن يضع نهاية لهذا الظلم . فأذن بقتالهم ؛ لأنهم هم الذين فعلوا ما يستوجب قتالهم .

ونجد قوله سبحانه وتعالى :

﴿ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ﴾

(من الآية ٣٩ سورة الأنفال)

بينما نجد أنه قد ذكر فى سورة البقرة بدون "كله" ، حيث يقول الحق سبحانه وتعالى فيها : ﴿ ويكون الدين لله ﴾

دون أن تذكر كلمة "كله" ولكل آية لقطة ومعنى ؛ لأن كل لفظ فى القرآن له معنى ، فقوله تعالى : ﴿ ويكون الدين كله لله ﴾

يعنى أنه لا يجب أن يجتمع دينان فى جزيرة العرب وقد حدث . وأما قوله تعالى : ﴿ الدين لله ﴾

فقد أعطتنا لقطة أخرى ، فالأولى تخص العرب والجزيرة العربية ، والثانية تعنى أن الإسلام للعالم كله ، ويقول الحق سبحانه وتعالى فى الآية التى نحن بصددها :

﴿ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾

(من الآية ٣٩ سورة الأنفال)

وقوله تعالى : « فإن انتهوا » أى استجابوا وأطاعوا ، وقوله تعالى : « فإن الله بما يعملون بصير » أى فليحذروا أن يتم هذا خداعاً لأن الله بصير بهم ،

ومطلع عليهم ، وماداموا قد انتقلوا من حظيرة الكفر إلى حظيرة الإيمان فالله يمحو سيئاتهم ويبدلها حسنات ؛ لأن قوما عاشوا على الكفر وألفوا خصاله ثم تركوا ذلك إلى الإيمان فهذا أمر صعب يحتاج إلى جهاد شديد مع النفس ، فيثيبهم الله تعالى بقدر مجاهدتهم لأنفسهم ، ويثيبهم المولى سبحانه وتعالى بسخاء .وهناك معنى ثان فى قوله تعالى :

﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾

(من الآية ٣٩ سورة الأنفال)

أى : فيا من وقفتم موقف العداء من الإيمان ، وتعرضتم للكافرين التعرض الذى أعاد لهم التهذيب وحسن التعامل مع المؤمنين ، اعلموا أنه سبحانه وتعالى بصير بما عملتم ليكون الدين كله لله .

وهكذا نرى أن كلا من المعنيين يكمل الآخر .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾ ﴾

والله سبحانه وتعالى يرغب الناس حتى يؤمنوا ، ولكنه فى ذات الوقت يبين لهم أن كثرة عدد المؤمنين ليست هى التى تعلى راية الإسلام وتصنع النصر للإيمان ، فيقول سبحانه : ﴿ وإن تولوا ﴾ .

وهنا شبهة فى أن الله تعالى يحنن هؤلاء على أن يؤمنوا ، وأن يسلموا ، وأن يعودوا إلى حظيرة الحق ، وربما ظن ظان أن الإسلام يريد أن يقوى بهم ، ولذلك قال الحق : ﴿وإن تولوا ﴾ أى إياكم أن يفت ذلك فى عضدكم ، أو أن يقلل هذا الأمر من همتكم وشجاعتكم ؛ لأنكم إنما تنتصرون بمدد من الله

العلى القدير ، فهم إن لم يؤمنوا ، فاعلموا أن الإسلام لا ينتصر بهم ، وانتشاره ليس بكثرة المسلمين أو قلتهم ؛ لأن النصر من عند الله ، وسبحانه ليس محتاجاً لخلقه ، وكثرة جنود الإسلام لا تصنع النصر ؛ لأن نصر الله للمسلمين إن اتبعوا منهجه يتحقق سواء قلوا أم كثروا . ولذلك يلفت نظرهم وينبههم إلى أنه إن تولى هؤلاء ولم يؤمنوا ، فإياكم أن يؤثر ذلك على شجاعتكم ؛ لأنكم لا تنتصرون بمدد من هؤلاء الذين رفضوا الإيمان ، ولكن بمدد من الله سبحانه وتعالى ، فالله هو مولاكم . وإذا كان الله مولى لكم أى ناصراً ومؤيداً فهو سبحانه وتعالى :

﴿ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾

(من الآية ٤٠ سورة الأنفال)

لماذا ؟ .

لأن المولى إذا كان غير الله فهو من الأغيار ، قد يكون اليوم قويّاً قادراً على أن يأخذ بيدنا وينصرنا ، ولكنه قد يموت غداً ؛ لذلك فهو لا يصلح مولى . وقد يسقط عنه سلطانه وقوته ويصبح ضعيفاً محتاجاً لمن ينصره فلا ينفع وليا ولا معيناً لأحد . والمولى الحق الذى يجب أن نتمسك به هو الذى لا تصيبه الأغيار لأنه دائم الوجود لا ينتهى بالموت وهو دائم القوة والقدرة لا يضعف أبداً ، هذا هو المولى الذى تضع فيه ثقتك وتتوكل عليه . ولذلك نجد الحق سبحانه وتعالى يوضح لنا أننا يجب ألا نضع ثقتنا وأملنا إلا فيه وتوكلنا إلا عليه سبحانه وتعالى فيقول :

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ ﴾

(من الآية ٥٨ سورة الفرقان)

أى إذا أردت فعلاً أن تتوكل ، فتوكل على من هو موجود دائما قوى دائماً ،

فتوكل على الله . وقوله تعالى : ﴿ نعم المولى ﴾ يؤكد أن الله قوى قادر دائم الوجود ، وقوله تعالى : ﴿ ونعم النصير ﴾ .

يؤكد أنه سبحانه وتعالى محيط بكل ما يدبره لك أعداؤك ، فلا يغيب عنه شيء . أنت تحاربهم بما تعرفه من الحيل وفنون القتال وهم يفعلون ذلك . ولكن الله سبحانه وتعالى يعلم حيلهم فيبطلها ، ويحقق لكم النصر بأن يلهمكم من الحيل ما لا يستطيعون مواجهته . ، يعطيكم مددا من السماء وهذا المدد هو الذى يحقق لكم النصر .

ويتحدث الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك عن الغنائم فيقول :

﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ ﴾

ما سبب ذكر الغنيمة هنا ؟ . وما المناسبة ؟ .ونقول : إن الله سبحانه وتعالى يتحدث عن القتال . ونهاية كل معركة ينتصر فيها المسلمون يكون فيها غنائم .

وهذه مناسبة الحديث عن الغنائم ، وبما أن الله سبحانه وتعالى يتحدث عن مدده للمؤمنين . وأنه ناصرهم ، وأنه نعم النصير ، ولكن الغنائم لا تجيء إلا نتيجة للنصر ، فكأن الله يريد من المؤمنين أن يتأكدوا أن النصر سيكون من نصيبهم ؛ بدليل أن الحديث انتقل إلى الغنائم . والغنيمة هى كل منقول يأخذه المسلم المقاتل من الكافر ، والثابت أن الغنائم لم تكن تحل لأحد من الأنبياء قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ويقول الحق :

﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ ﴾

(من الآية ٤١ سورة الأنفال)

إذن فلله الخمس وتبقى أربعة أخماس توزع على المقاتلين . والخمس الذى هو لله كيف نقسمه ؟

لقد ذكر القرآن أسلوب توزيع هذا الخمس بطريقة اختلف فيها العلماء ؛ فالآية تقول :

﴿ فأن لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ ﴾

(من الآية ٤١ سورة الأنفال)

ثم تزيد :

﴿ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾

(من الآية ٤١ سورة الأنفال)

وقد قال بعض العلماء تمسكاً بظاهر الآية الكريمة : إن خمس الغنائم يوزع على من سماهم الله تعالى فى كتابه العزيز وهم ستة : (الله ، الرسول ، ذو القربى ، اليتامى ، المساكين ، ابن السبيل) فتكون الأسهم ستة ، وجمهور العلماء على أنّ خمس الغنائم يقسم خمسة أسهم فيكون لله وللرسول سهم واحد لأنه لا يوجد فصل بين الله ورسوله ، والأسهم الأربعة الباقية من هذا الخمس توزع على الأنواع الأربعة (ذى القربى - اليتامى - المساكين - ابن السبيل) لكل نوع منهم سهم .

واختلفوا أيضاً فى معنى ﴿ ولذى القربى ﴾ هل هم القربى من رسول الله صلى الله عليه وسلم أم ممن ؟

ثم بعد ذلك جاء نصيب اليتامى والمساكين وابن السبيل فلم يحدث خلاف فيه - والخلاصة : أن الغنائم كلها تقسم خمسة أقسام خمسها لهؤلاء الخمسة وأربعة أخماسها الباقية للجيش المقاتل ؛ لأن الله تعالى بين حكم الخمس وسكت عن الباقى فدل ذلك على أنه للغانمين ثم يقول الحق :

﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ﴾

(من الآية ٤١ سورة الأنفال)

وهم بطبيعة الحال مؤمنون بالله ، وكأن هذا القول جاء ليراجعوا إيمانهم إذا اعترضوا على هذا التقسيم . فإن طمع أحد منهم فى الخمس الذى هو لله ورسوله ولم يقنع بأربعة الأخماس المقسمة - كما قال الله تعالى - يكون قد خدش إيمانه بمن أصدر هذا الأمر ، وسبحانه هو الذى أنزل هذا التقسيم . فمن زاغ وتطلعت عينه إلى شىء فليرد هذا الزيغ ؛ لأن الذى قسم هو الله الذى نصر المقاتلين . وإذا كان النصر هو الذى جاء بالغنائم ، فالذى أعطى النصر هو الله سبحانه وتعالى ، والنصر سبب من الله ، وما يوهب للإنسان من الحق ، على العبد أن يقبل فيه قسمة الله .

ومثال ذلك ما أراده الله للإنسان المسلم من حسن التصرف فى ماله ، فهو فى حياته حر ويملك حق التصرف فى هذا المال ، واحتراماً لمشاعرك الاجتماعية والإنسانية والعاطفية فى البيئة التى تحيا فيها ، جعل الله لك الحق فى الوصية بأن تخصص ثلث مالك لما تريد ومن تريد ، فقد ترى أن هناك إنساناً من غير أقربائك وهو بطبيعة الحال لن يرثك ، ولكنه خدمك فى حياتك أو فى مرضك أو فى شيخوختك ، وأنت تريد أن تترك شيئاً من ثروتك له ، اعترافاً بجميله ، أو لعل هناك أناساً من معارفك تعرف أنهم أحوج من أبنائك ، فتخصص لهم بعضاً من المال ، شرط ألا يتعدى الثلث ، فيشاء الحق سبحانه وتعالى أن يضع للعواطف الإيمانية الإنسانية فى الناس مجالاً ،

فترك لك الحرية فى أن تتصرف فى ثلث التركة ثم قسم الله سبحانه الثلثين على الورثة .

إذن فقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ ﴾

(من الآية ٤١ سورة الأنفال)

أى أنه سبحانه قد جعل من الإيمان أن يتم توزيع الغنائم بالشكل الذى حدده الله عز وجل ، ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ﴾

(من الآية ٤١ سورة الأنفال)

والفرقان هو الشىء الذى يفرق بين الحق والباطل ؛ فرقاً واضحاً بشدة بحيث يكون ظاهراً للجميع . وقد أطلق الله الفرقان على القرآن الكريم فى سورة آل عمران فيقول تبارك وتعالى :

﴿ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ﴾

(من الآيتين ٣ , ٤ سورة آل عمران)

فحينما أنزل الله تعالى التوراة والإنجيل جاءت التوراة لتفرق بين الحق والباطل ، وأيضاً جاء الإنجيل ليفرق بين الحق والباطل ، وشاء الله سبحانه وتعالى ألا تطلق كلمة " الفرقان " إلا على القرآن الكريم ؛ لأن القرآن هو الفارق النهائى الذى لن يأتى فارق من بعده ، فلن ينزل كتاب سماوى آخر .

﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ ﴾

(من الآية ٤١ سورة الأنفال)

الله سبحانه وتعالى يقصد هنا بيوم الفرقان يوم بدر الذى كان فرقاً بين حق وباطل ؛ فرقاً لافتا للأنظار ، وقد أخذت كلمة الفرقان المعنى العام وهو أن يفرق

بين الحق والباطل، فالمسلمون كانوا قلة والكفار كانوا كثرة، والمسلمون كانوا خارجين للاستيلاء على القافلة والعير ولم يكن لديهم أى عدة أو عتاد للحرب، بينما استعد الكفار للحرب والقتال بالعدد والعتاد والفرسان، وكان المسلمون يتمنون أن تكون قافلة قريش لهم، وهى قافلة لا يحرسها إلا عدد قليل من الرجال، لا شوكة لهم، وأراد الحق تبارك وتعالى أن يواجه المسلمون وهم قلة جيشاً له شوكة أى له عدة وعتاد؛ لأن المسلمين ظنوا أن الاستيلاء على القافلة لن يستغرق منهم وقتا طويلا أو جهداً كبيراً، فحراس القافلة عدد محدود وبلا سلاح قوى. لكن شاء الله عز وجل أن يخوض المؤمنون المعركة وهم قلة وأن ينتصروا، حتى يعلم الجميع أن هذه القلة المؤمنة انتصرت بلا عدد ولا عُدَّة على من يملكون العدد والعدة، وبذلك يظهر الفرق بين الإيمانً والكفر، وبين نصر الله وزيف الشيطان، ولو استولى المسلمون على قافلة قريش لقيل: إن أية مجموعة من المسلحين كانت تستطيع أن تنهب هذه القافلة، ولذلك لم يعطهم الله العير، بل ابتلاهم بالنفير وهو الجيش الخارج من مكة بقصد الحرب وهو مستعد لها ليلفت النظر إلى هؤلاء المؤمنين الذين خرجوا بغير قصد الحرب وقد انتصروا على الكفار الذين خرجوا للحرب واستعدوا لها. وكان المؤمنون ثلاثمائة وجيش الكفار ألفاً، فإذا جاء النصر، تأكد الكل أن كفة المؤمنين قد رجحت، وإذا تعجب أحد كيف ينتصر هذا العدد القليل غير المسلح على هذا العدد الكثير والمسلح، يمكن أن يرددوا قول الله تعالى:

﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

(من الآية ٤١ سورة الأنفال)

وهذه المشيئة الإلهية هى التى قلبت الموازين.

وفى أول سورة البقرة يحكى الحق سبحانه وتعالى لنا قصة طالوت وجالوت، ويروى كيف طلب بنو إسرائيل من نبى لهم أن تحدد السماء شخصاً

يكون ملكاً عليهم، ليقودهم فى معركة ضد طاغية اسمه جالوت؛ أخرجهم من ديارهم وشردهم، فلما جاء الأمر بأن يكون طالوت هو الملك، جادل بنو إسرائيل فى قيادته لهم.

﴿ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ﴾

(من الآية ٢٤٧ سورة البقرة)

كانوا هم الذين طلبوا أن يكون لهم ملك، فلما جاء طالوت باختيار الله اعترضوا عليه. ثم خرج طالوت مع الذين اتبعوه وابتلاهم الله بنهر وهم عطاش، ويقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ فَشَرِبُواْ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ﴾

(من الآية ٢٤٩ سورة البقرة)

وابتلاهم الله سبحانه وتعالى بأن مروا على نهر وهم عطاش، وطلب منهم ألا يشربوا إلا أن يأخذ كل منهم قليلاً من الماء فى كف يده ليرطب به فمه، فلما وصلوا إلى النهر، اندفعت أغلبيتهم ليعبوا ويشربوا ما شاء لهم، والأقلية فقط هى التى امتثلت لأمر الله تعالى ولم تشرب، وهؤلاء هم الذين بقوا مع طالوت وعبروا النهر، لكنهم حين رأوا جيش الأعداء، قالت أغلبيتهم ما جاء فى القرآن الكريم وحكاه لنا :

﴿ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ﴾

(من الآية ٢٤٩ سورة البقرة)

أى أنهم خافوا من مواجهة جيش جالوت ورفضوا القتال، إلا الأقلية منهم، وهكذا حدثت لهم التصفية مرتين بالاختيار والابتلاء؛ الأولى بالصبر على العطش، والثانية بمواجهة جيش العدو، وهذه هى الأقلية الصافية التى رسخ إيمانها، وقالوا ما جاء بالقرآن الكريم :

﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾

(من الآية ٢٤٩ سورة البقرة)

أى أن هذه الفئة المؤمنة التى بقيت والتى تخشى حساب الله فى الآخرة لم تخفهم قلتهم ولا كثرة جنود جالوت، بل قالوا : كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله، وانتصروا بالفعل، وكان هذا فرقاناً ظاهراً من الله عز وجل .

وهنا يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ﴾

(من الآية ٤١ سورة الأنفال)

أى يوم التقاء جمع المؤمنين وجمع الكفار، وتحقق نصر المؤمنين، رغم قلة العدد والعتاد. ولذلك يذيل الحق سبحانه وتعالى الآية بالقول الكريم :

﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

(من الآية ٤١ سورة الأنفال)

أى أن الله عز وجل قادر على أن ينصر المؤمنين وهم قلة وغير مستعدين للقتال.

ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك :

﴿ إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ ﴾

ساعة تسمع « إذ » تعرف أنها ظرفٌ، ومعناها : اذكر هذا الوقت، اذكر إذ أنتم بالعدوة الدنيا، والعدوة شاطىء الوادى وجانبه. وهى جبل مرتفع؛ لأن الجبال إن كان بينها فضاء نسمى هذا الفضاء وادياً، فيكون الوادى هو الفضاء بين جبلين، ويكون المكان العالى الذى على يمين الوادى وعلى شماله عدوة.

وقوله تعالى :

﴿ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ ﴾

(من الآية ٤٢ سورة الأنفال)

توضيح وبيان لجغرافية المعركة، وأهل الإسلام كانوا من ناحية المدينة، وقوله تعالى : « دنيا » تأنيث الأدنى أى الأقرب، فالمسلمون كانوا قريبين من المدينة. وكان الكفار قادمين من مكة، ونزلوا فى المكان الأبعد.

فقوله تعالى :

﴿ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا ﴾

(من الآية ٤٢ سورة الأنفال)

أى فى مكان قريب، وموقع غزوة بدر - كما نعلم - قريب من المدينة، أما كفار قريش فقد جاءوا من مكة. وبذلك جاءوا من مكان بعيد عن المدينة لذلك سماه الحق تبارك وتعالى هنا :

﴿ بالعدوة القصوى ﴾ أى فى المكان البعيد عن مكة، ويتابع المولى سبحانه وتعالى قوله : ﴿ والركب أسفل منكم ﴾

والركب هو العير أى الجمال التى تحمل التجارة، وكان المسلمون قد خرجوا ليأخذوها. ولما عرف أبو سفيان بذلك غيّر سير القافلة واتجه إلى ساحل البحر، ويتكلم الحق سبحانه وتعالى عن سلوك أبى سفيان حينما أمر أن تسير القوافل بجانب ساحل البحر. وساحل البحر - كما هو معلوم - يكون دائماً أسفل من أى أرض يابسة. ويتُخذ سطح البحر إلى الآن مقياساً للارتفاعات والانخفاضات بالنسبة للمقاييس البشرية، فيقال : هذا ارتفاعه مائة متر أو مائتا متر أو أكثر أو أقل بالنسبة لمستوى سطح البحر. وساحل البحر بالنسبة لسطح البحر متساو، أما الأرض والجبال والوديان فهى تختلف فى العلو والانخفاض فلا تصلح مقياساً للارتفاعات والانخفاضات، بينما سطح البحر مستطرق استطراقاً سليماً، بحيث لا توجد فى سطح الماء بقعة عالية وأخرى منخفضة.

وهكذا يلفتنا الحق سبحانه وتعالى إلى أن أسفل ما فى الأرض هو ساحل البحر وقد اتخذ الناس سطح البحر مقياساً للارتفاعات.

ويقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ﴾

(من الآية ٤٢ سورة الأنفال)

أى لو أن المؤمنين اتفقوا مع الكفار على موعد ومكان، لجاء بعضهم متأخراً عن الموعد أو منحرفاً عن المكان، ولكن الله سبحانه وتعالى هو الذى حدد موعد المعركة ومكانها بدقة تامة فتم اللقاء فى الموعد والمكان المحددين ليتم الأمر كما قدره الله سبحانه وتعالى، والأمر هو معركة بدر، وليلقى المؤمنون الكافرين، لينتصروا عليهم.

﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ﴾

(من الآية ٤٢ سورة الأنفال)

وهل يعنى قول الحق ﴿ ليهلك من هلك ﴾ أن الهلاك هنا هو الموت ؟ لقد مات أيضاً بعض المؤمنين واستشهدوا. وقول الحق: ﴿ ويحيى من حىّ ﴾ وهل الحياة هنا تعنى مجرد البقاء على قيد الدنيا ؟. لقد عاش أيضاً من الكفار كثير رغم أنهم خاضوا معركة بدر. إذن فليس معنى الهلاك هنا الموت، وليس معنى الحياة النجاة، ولكن قول الحق: ﴿ ليهلك من هلك عن بيّنة ﴾ تنطبق على الكفار سواء الذين ماتوا أو الذين نجوا؛ لأن الهلاك هنا هلاك معنوى، فمن قتل من الكفار هلك. ومن نجا هلك أيضاً؛ لأنه بقتاله المؤمنين قد أورد نفسه مورد التهلكة بالعذاب الذى ينتظره فى الآخرة، إلا إذا أدركته رحمة الله وآمن قبل أن يأتى أجله. والذين حيوا هم المؤمنون، والمراد - إذن - ليكفر من كفر، ويؤمن من آمن عن يقين.

ولقد قلنا من قبل: إنَّ الحق سبحانه وتعالى أطلق الحياة على معان متعددة، فهناك الحياة التى فيها الحركة والحس، وهذه تتحقق ساعة أن تدخل الروح الجسد ليكون للإنسان حياة. وهذه الحياة هى للمؤمن والكافر. ولكن الحياة بهذا الشكل؛ حياة منتهية إلى موت غير موقوت ننتظره فى أى لحظة. ولكن الحياة المطلوبة لله هى الحياة التى لا يأتى فيها موت. ولا يكون فيها تعب وشقاء، تلك هى الحياة الآخرة، ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾

(من الآية ٦٤ سورة العنكبوت)

أى أنها الحياة الحقيقية . إذن فالذى يؤمن إيماناً حقيقيا يعطيه الله تعالى حياة الخلود فى الجنة. ولذلك نستمع جميعاً إلى قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة الأنفال)

ومنا من يتساءل : كيف يخاطب الله الناس وهم أحياء ويقول لهم : إذا دعاكم لما يحييكم ؟ ونقول : إن الحق سبحانه وتعالى يريد لنا بالإيمان حياة خالدة فى الجنة . ثم يختم الحق سبحانه وتعالى الآية الكريمة بقوله :

﴿ وإن الله لسميع عليم ﴾

ومعنى سميع وعليم أنه سبحانه وتعالى مدرك لكل الأشياء والخواطر ، فما بالسمع يسمعه ، وما بالعين يراه ، وما فى الصدر يعلمه ، وما هو فى أى حس من أحاسيس الإنسان هو عليم به ؛ لأنه أحاط بكل شىء علما .

ووسائل الإدراك العلمى فى الإنسان هى السمع والبصر والذوق واللمس والشم ، هذه هى الحواس الخمس التى تعطى العلم للإنسان الذى لم يكن يعلم شيئاً .

وهو سبحانه وتعالى القائل :

﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾

(سورة النحل)

أى أن هذه الحواس هى التى تعطى الإنسان ما لم يكن قد علمه، وكلما علم شيئاً، فليقل : الحمد لله .

ويعلمنا الله سبحانه وتعالى كيف يتم قدره فيقول :

﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾

والحق سبحانه وتعالى إذا أراد معركة فاصلة ، يجعل الخواطر فى كل قوم مهيجة على الحرب ؛ لأنه سبحانه وتعالى يريد للفئتين أن يشتبكوا ، ويفصل الحق فى المسألة، وهذا الاشتباك لو حدث بالمقاييس العادية ربما جَبُنَتْ الفئة القليلة عن أن تواجه الفئة الكثيرة. ولكى تتم المعركة لابد أن يكون كل من الفريقين المتحاربين واثقا من النصر ؛ لأنه لو أيقن أحدهما أنه سيهزم لما دخل إلى المعركة.

والله سبحانه وتعالى يُعلم رسوله والمؤمنين كيف أعد الله الإعداد النفسى للمعركة ، فأرى النبى فى الرؤيا أن عدد الكفار قليل حتى يؤمن أن المؤمنين سينتصرون عليهم بسهولة ، فرسول الله صلى الله عليه وسلم رأى فى منامه رؤيا توضح أن عدد الكفار قليل فى أعين المؤمنين ، وأخبر قومه بذلك ، ولقد قلل الله عدد الكفار فى أعين المؤمنين، وقلل عدد المؤمنين فى أعين الكفار، ليتم اللقاء وتحدث المعركة.

وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤٤﴾ ﴾

إذن رأى المؤمنون الكفار قليلاً، ورأى الكفار المؤمنين قليلاً، ولو كثَّر الله الكفار فى أعين المؤمنين، أو كثّر المؤمنين فى أعين الكفار ما حدثت المعركة. ولكنه سبحانه وتعالى شاء أن يقلل كل فريق فى نظر الآخر ليبدأ القتال، ويحكى سيدنا عبدالله بن مسعود :

لقد قلت لجار لى أظنهم سبعين، فقال : لا بل مائة .

وهكذا كان عدد الكافرين قليلاً فى نظر المؤمنين، وكان عدد المؤمنين بالفعل قليلاً فى عيون الكافرين.

وأيضاً شاء الحق سبحانه أن يجعل فى ذلك بلاغاً من إعلامات النبوة فى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد رأى النبى عدد الكافرين فى المنام وهم قليل، وأخبر صلى الله عليه وسلم قومه بذلك. ودار القتال الذى أراده الله تعالى :

﴿ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة الأنفال)

والأمر الحاسم هو التقاء الفئتين المتقاتلتين فى معركة بدر ليفصل الله بين الحق والباطل، وبين الإيمان والكفر؛ حتى ترجع الأمور إلى الله، فلكل واحد من جنود المعركة جزاءٌ من عند الله سبحانه وتعالى؛ المؤمنون لهم جزاء على قدر نياتهم وإخلاصهم فى الجهاد، والكافرون عليهم غضب من الله تعالى. والغضب منازل، كل منزلة من الغضب حسب أحوال صاحبها.

وقول الحق سبحانه و تعالى : ﴿ وإلى الله ترجع الأمور ﴾ نجد فيه كلمة «الأمور » وهى جمع أمر ، وفى المعارك ألوان مختلفة من الأوامر ؛ فلكل جندى أمر ، وهناك أمر عام تنتهى إليه المعارك وهو انتصار طرف وانهزام طرف آخر. ولكى يتم النصر للمؤمنين فإن الله يطلب منهم أن يثبتوا فى المعركة ؛ فيقول سبحانه وتعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾

وساعة تسمع كلمة « فئة » فاعلم أن معناها جماعة اختصت بخوض المعارك فى ميدان القتال ، فليست مطلق جماعة ، بل هى جماعة مترابطة من المقاتلين ؛ لأن كل مقاتل يفىء لغيره من زملائه ، أى جماعة أخرى غير مترابطة تستطيع تفريقهم بصرخة أو عصا ، أما المقاتلون فأنت لا تصرفهم إلا بقوة أكبر منهم ، ويحاو ل كل منهم أن يحمى زميله ، إذن فكل منهم يفىء إلى الآخرين.

والحق تبارك يقول :

﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ٢٤٩ سورة البقرة)

ويقول سبحانه وتعالى :

﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ ﴾

(من الآية ١٣ سورة آل عمران)

إذن فالفئة هى جماعة فى الحرب.

وقوله تعالى :

﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا﴾

(من الآية ٤٥ سورة الأنفال)

يُقصد به ساعة حدوث المعركة ونشوب القتال ؛ لأن الحرب تقتضى أولاً إعداداً، ثم تخطيطاً يتم قبل الالتحام ثم ذهاباً إلى مكان المعركة . وقوله تعالى : ﴿ إذا لقيتم ﴾ أى أن المسألة قد وصلت إلى المواجهة مع الكفار. ويقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ فاثبتوا ﴾ والثبات هنا معناه المواجهة الشجاعة، لأن الإنسان إذا ما كان ثابتاً فى القتال، فالعدو يخشاه ويهابه، وإن لم يكن كذلك فسوف يضطر إلى النكوص، وهذا ما يُجرىء الكفار عليكم.

ومادمتم قد جئتم إلى القتال، فلابد أن يشهد الأعداء شجاعتكم ؛ لأنكم إن فررتم فهذه شهادة ضعف ضدكم.

ولذلك لابد من التدريب على الثبات والقتال، وهذا هو الإعداد المسبق للحرب ؛ بالتدريب القوى والتخطيط الدقيق، وألا يتولى أحد منكم ويفر لحظة الزحف لأن هذا العمل هو من أكبر الكبائر، والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾

(من الآية ١٦ سورة الأنفال)

﴿ يولهم ﴾ أى يعطيهم، و ﴿ دبره ﴾ أى ظهره، وهذا تقبيح لعملية الفرار ؛ لأن الدبر محل الصيانة ومحل المحافظة. ونعلم أن هناك من قال للإمام علىّ - كرم الله وجهه - : إن درعك له صدار وليس له ظهر، أى أن الدرع يحمى

صدرك إنما وراءك لا يوجد جزء من الدرع ليحمى ظهرك. فقال : ﴿ لا كنت إن مكنت خَصمى من ظهرى ﴾ ، أى أنه - كرّم الله وجهه - يفضل الاستشهاد على أن يُمَكِّن خصمه من ظهره، فلو أنَّ درعه من الأمام ومن الخلف، ففى هذه الحالة يكون فى نيته أن يمكِّن خصمه من ظهره، ولذلك جعل الدرع يحمى الصدر فقط، وهو على يقين أنه لن يدير ظهره لعدوه، ويسمون تلك الحالة الأخرى «ظاهرة ضبط النفس» أى أنها طريق لمنع الشىء أن يحدث ولو فى ساعة الشدة؛ لأن المقاتل حين يدخل المعركة، وهو يحمى صدره فقط فهو لا يتولى ليفر؛ لأنه يعلم أنه لو تولى فسيكشف لهم ظهره وسيتمكن منه عدوه وسوف يُقتل.

والحق سبحانه وتعالى حين يقول : ﴿ فاثبتوا ﴾ لا يطلب هذا الثبات على إطلاقه، ولكن يريد من المؤمنين الثبات والقوة فى القتال. أما إذا كانت الفئة التى يواجهها المؤمنون كبيرة العدد أو كثيرة العتاد فذلك يتطلب الدراسة والاستعداد ، وهنا طلب الحق الثبات ليعلم المؤمنون يقيناً ؛ أنهم لا يواجهون عدوهم بقوتهم ولكن بقوة الله الذى يجاهدون من أجله. ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ واذكروا الله كثيراً ﴾ ، أى تذكروا وأنتم تقاتلون أن الله معكم بعونه ونصره ، فإن لم تستطع أسبابكم أن تأتى بالنصر ، فإن خالق الأسباب يستطيع بقدرته أن يأتى بالنصر.

وكلنا نعلم أن الحق تبارك وتعالى قد وضع فى كونه الأسباب ، فإذا استنفدنا أسبابنا ، اتجهنا إلى خالق الأسباب ، ولذلك نجد أن من لا يؤمن بالله إذا خانته الأسباب ينتحر أو ينهار تماماً أو يصاب بالجنون ، ولكن المؤمن يقول : إذا خانتنى الأسباب فمعى رب الأسباب وخالقها ، ويأوى إلى ركن شديد.

إن الطفل الصغير إذا اعتدى عليه أحد يقول : إن لى أباً أو أخاً سيرد عنى الإيذاء ؛ لأن الأسباب لا تعطيه قدرة الرد ، فكيف لمن له رب قدرته فوق قدرة

الكون كله ، وقوته موجودة دائماً . ولذلك نجد قوم موسى حين وصلوا إلى شاطىء البحر ووجدوا أمامهم الماء ، ونظروا خلفهم ورأوا جنود فرعون مقبلين من بعيد ، قالوا : ﴿ إنا لمدركون ﴾

وكانوا منطقيين فيما قالوه ، فالبحر أمامهم والعدو وراءهم. وليس لهم من طريق للنجاة باستخدام الأسباب العادية فى هذا الكون ، ولكن موسى عليه السلام بقوة إيمانه بالله تعالى يقول ما جاء على لسانه فى القرآن الكريم : ﴿ قال كلا ﴾ .

أى إن فرعون وجنوده لن يدركونا ، ولم يفهم قوم موسى ؛ لأن البحر أمامهم وجنود فرعون وراءهم ، وأضاف سيدنا موسى عليه السلام بملء فيه قوله :

﴿ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾

(من الآية ٦٢ سورة الشعراء)

أى أنه رفع الأمر من الأسباب إلى المسبب ، وإذا بالله يأمره أن يضرب بعصاه البحر ؛ فينفلق ؛ وتظهر الأرض اليابسة. ويعبر بنو إسرائيل البحر ، وعندما وصل موسى وقومه إلى شاطىء البحر بعد أن عبروا ، أراد موسى أن يضرب البحر مرة أخرى حتى يعود الماء إلى الاستطراق. فلا يتمكن جنود فرعون من اللحاق بهم ، ولكن الله سبحانه وتعالى قال لموسى :

﴿ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

(سورة الدخان)

أى لا تتعجل وتضرب البحر ليعود مرة أخرى لاستطراق الماء بل اتركه على حاله ساكناً فما أنجى الله به بنى إسرائيل سيغرق به آل فرعون ، وبذلك أنجى وأهلك بالشىء الواحد ، وهذا لا يقدر عليه إلا هو سبحانه وتعالى .

و هنا يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾

(سورة الأنفال)

وسبحانه وتعالى هو خالق النفس البشرية وهو العليم بها حين تكون أمام قوة لم تحسب حسابها وكيف تعانى النفس من كرب عظيم، خصوصاً إذا كان ذلك فى ميدان القتال، ولذلك طلب من المؤمنين أن يتذكروا دائماً أنهم ليسوا وحدهم فى المعركة وأنه سبحانه وتعالى معهم، فليذكروا هذا كثيراً ليوالى نصرهم على عدوهم؛ لأنهم إذا ما داوموا على ذكر الله تعالى فسيقوى هذا الذكر إيمانهم، ويجعل فى قلوبهم الشجاعة اللازمة لتحقيق النصر.

وذكْرُ الحق كلمة ﴿ كثيراً ﴾ هنا يعنى أن الإنسان قد يذكر الله عند اليأس فقط، فإن جاءت الحياة بعد ذلك بالرخاء فقد ينسى ذكر الله؛ لذلك يؤكد سبحانه وتعالى هنا أن يكون ذكر الله كثيراً، ليوالى الله نصر المؤمن على عدوه. ومثال ذلك : أننا نجده سبحانه وتعالى حينما يستحضر الخلق المؤمنين للصلاة فى يوم الجمعة يقول :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ ﴾

(سورة الجمعة)

يطلب الحق سبحانه وتعالى ذلك من المؤمنين وهو العليم بأنهم يداومون الولاء له سبحانه كل يوم خمس مرات .

ثم بعد صلاة الجمعة يطالبهم بالانتشار فى الأرض والابتغاء من فضل الله تعالى، وينبهنا أن نداوم على ذكره فكأنه يقول ؛ إياكم أن تلهيكم أعمالكم ومصالحكم الدنيوية عن ذكر الله، أو تعتقدوا أن ذكر الله فى المسجد أو وقت الصلاة فقط، بل داوموا على ذكر الله فى كل أحداث الحياة. فإن فعلتم ذلك وذكرتم الله كثيراً فستكونون من المفلحين.

وذكر الله كثيراً معناه أنك تشعر فى كل لحظة أن الله سبحانه وتعالى معك فتخشاه وتحمده وتستعين به. وهكذا تكون الصلة دائمة بينك وبين الله عز وجل فى كل وقت.

مثال ذلك ما حدث فى عام ١٩٧٣ فى معركة العاشر من رمضان، كان ذكر الله يملأ القلوب واستمد الجند من قولهم : ﴿ الله أكبر ﴾ طاقة هائلة واجهوا بها العدو، واقتحموا خط « بارليف ». وأعانهم الحق بمدد الإيمان من عنده، وأوجد فى نفس كل منهم طاقة هائلة تحقق بها النصر ؛ وذلك بإجادة التدريب ومداومة الذكر لله تعالى .

ثم يقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾

وعرفنا من قبل أن طاعة الله تعالى تتمثل فى تنفيذ ما أمر به فى المنهج، وطاعة الرسول هى طاعة تطبيقية فى السلوك، وهى طاعة لله أيضاً ؛ لأن الرسول مبلغ عن ربه، ولابد للطائع أن يبتعد عن التنازع مع إخوته المؤمنين ؛ لأن التنازع هو تعاند القوى، أى توجد قوة تعاند قوة أخرى، والقوى المتعاندة تهدر طاقة بعضها البعض، فالتعاند بين قوتين يهدر طاقة كل منهما فتصبح كل قوة ضعيفة وغير مؤثرة. فكونوا يداً واحدة ؛ لأنكم إن تنازعتم فستضيع قوتكم

وتقابلون الفشل، أى لن تحققوا شيئاً مما تريدون؛ لأنكم أهدرتم قوتكم فى التنازع، ولم تعد لكم قوة تحققون بها ما تريدون وستذهب ريحكم فى هذه الحالة. والفشل هو إخفاق الإنسان دون المهمة التى كان يرجوها من نفسه.

وانظروا إلى عبارة الحق تبارك وتعالى :

﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾

(من الآية ٤٦ سورة الأنفال)

نحن نعرف أن الريح يُطلق على الهواء الذى حيزه الفضاء على سطح الأرض، إذن فمكان الهواء هو أى مكان خال على سطح الأرض، ولذلك نجد العمود المكون من الأسمنت والحديد مثلاً، لا يوجد فيه هواء لأنه لا يوجد فيه فراغ، أما الفواصل التى بين الأعمدة فيوجد فيها هواء لأن فيها فراغاً. ونعلم أن مقومات الحياة طعام وشراب وهواء، ولكن الهواء هو المقوم الأول للحياة؛ لأنك لا تستطيع أن تصبر على الهواء مقدار شهيق وزفير.

إذن فالهواء هو المقوم الأول لحياتك وحياة كل من فى هذا الكون، ومادام الهواء محيطاً بالشىء بحيث يتساوى الضغط من جميع نواحيه يكون الشىء ثابتاً، فإذا فرّغت الهواء من ناحية قام ضغط الهواء بتحطيم هذا الشىء. وفى التجارب المدرسية شاهدنا تأثير ضغط الهواء، وكانوا يأتوننا بصفيحة وضع فيها ماء ويتركونها تغلى على النار، فيطرد بخار الماء الهواء الموجود فى الجزء الفارغ من الصفيحة ليملأ البخار هذا الفراغ، ثم يغلقون الصفيحة بإحكام ويسكبون عليها من الخارج ماءً بارداً؛ فيتكثف البخار، ويقل حجمه، ويصبح جزء من الصفيحة خالياً من الهواء، فتنهار جدران الصفيحة إلى الداخل بسبب ضغط الهواء خارج الجدران، وتفريغ الهواء داخل الصفيحة. ولذلك نجد الحق سبحانه وتعالى حينما يعذب قوماً أو ينزل بهم عقاباً، فهو يرسل عليهم ريحاً. ويقول جل وعلا :

﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ۙ فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧ ﴾

(الآيتان سورة الحاقة)

وكذلك نجده سبحانه وتعالى يقول :

﴿ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٢٤ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾

(من الآيتين ٢٤، ٢٥ سورة الأحقاف)

وأيضاً يقول الحق سبحانه عن الريح التى تغرق بأمواجها العالية :

﴿ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ﴾

(من الآية ٢٢ سورة يونس)

إذن فكلمة ريح تعبر عن القوة المدمرة للهواء ؛ لأن الريح إذا اتحدت قوتها واتجاهها أصبحت مدمرة. ولكن إن قابلتها ريح ثانية فالتوازن يحدث بين القوتين. ولذلك حين يستخدم الحق كلمة الريح لا يتكلم عنها إلا للتخريب والتدمير. أما إن تكلم عنها للخير فسبحانه يأتى بكلمة « رياح » ؛ لأن تعدد اتجاهات الرياح هو الذى يوجد التوازن فى الحياة. فإذا أراد الله أن يهلك بالريح جاء بها من جهة واحدة فتصير قوة الريح من ناحية لا تعادلها قوة أخرى للريح من الجهة المقابلة لتتعادل القوتان.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ﴾

(من الآية ٤٨ سورة الفرقان)

ويقول سبحانه وتعالى :

﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ﴾

(من الآية ٢٢ سورة الحجر)

أى أن الرياح تنقل اللقاح بين النبات، فيتم التلقيح وتنبت الثمار ويأتى الخير. ولكن هناك آية واحدة جاءت فيها كلمة « ريح » وكانت تحمل الخير فى قوله تعالى :

﴿ حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها ﴾

(من الآية ٢٢ سورة يونس)

وسبحانه وتعالى عندما استخدم كلمة ﴿ ريح ﴾ فى هذه الآية وصفها بأنها ﴿ طيبة﴾ . وهنا فى الآية يقول سبحانه وتعالى :

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾

(من الآية ٤٦ سورة الأنفال)

و « ريحكم » أى قوتكم؛ لأن الريح هنا معناها القوة التى تدمر عدوكم. ونعلم أن السفن فى الماضى كانت تُبحر بقوة الريح. وعندما تقدَّم العلم وجاء البخار والكهرباء أُلغى شراع المراكب واستخدم بدلاً منه ماكينات تدفع حركة السفينة.

وتطلق كلمة ﴿ الريح ﴾ على الرائحة، فيقال : ﴿ ريح عطرة ﴾، وهذه الرائحة تبقى فى المكان حتى بعد أن يغادره من استخدم هذه الرائحة، ولكل إنسان منا رائحة خاصة، تماماً كما أنّ لكل إنسان بصمة خاصة، ولكننا لا نستطيع أن نميزها، ولكن الكلاب المدربة تميز الرائحة الخاصة بالإنسان، فيأتى الكلب ويشم رائحة الإنسان ويتتبعه إلى المكان الذى ذهب إليه. أو يستطيع أن

يخرجه من بين عشرات الأشخاص. ولا تختلط رائحة أحد بأحد رغم وجودهم فى مكان واحد، وإلا لما استطاع الكلب المدرب أن يميز رائحة شخص معين ضمن عشرات الأشخاص الموجودين.

وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وتذهب ريحكم ﴾ يعنى بأن تنتهوا ولا يكون لكم أثر؛ لأنه مادام لكم أثر فى الأرض فلكم ريح تميزكم. وتلك التى - كما قلنا - أن الكلاب المدربة تميزها، ولكن الإنسان إذا مات ودفن فلا رائحة له. ويدلنا القرآن الكريم على ذلك حين يتكلم عن قصة يوسف عليه السلام حين ألقاه إخوته فى الجب. وعثرت عليه قافلة، ثم اشتراه ملك مصر، ثم دخل السجن وخرج وأصبح هو عزيز مصر. وجاءه إخوته وأعطاهم يوسف عليه السلام قميصه ليلقوه على وجه أبيه يعقوب؛ ليرتد بصيراً، بعد أن أذهب الحزن بصره، يقول الحق عن خروج العير من مصر إلى الشام حيث كان يعيش سيدنا يعقوب :

﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ ﴾

(من الآية ٩٤ سورة يوسف)

أى أن القافلة حين خرجت من بين المبانى التى يمكن أن تكتم الريح بقوة كتلتها ؛ لأن المبانى لها إشعاعات قد تكتم الريح وتحجبه ، وبعد أن صارت القافلة فى الخلاء عرف يعقوب عليه السلام ريح ابنه يوسف من القميص الذى يحملونه : ﴿ قال أبوهم إنى لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون ﴾

ثم يذيل الحق سبحانه وتعالى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها :

﴿ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾

(من الآية ٤٦ سورة الأنفال)

وهذه تتمة الصورة التى يريدنا الله أن نلتفت إليها، فقد أمرهم الله أن يثبتوا فى القتال، والقتال يحتاج إلى قوة وإلى عدم تنازع وإلى صبر على الشدائد؛ خصوصاً إذا كان عدوك صابراً شديد البأس.

إذن ففى المعركة يريد الله عز وجل من المؤمنين الثبات فى القتال وعدم الفرار، وذكر الله كثيراً، وعدم التنازع حتى لا تضيع قوة المؤمنين، ويوصيهم سبحانه بالصبر؛ لأن عدوهم قد يكون عنده صبر وجلد، فلابد أن يمتلك المؤمن رصيداً من الجلد والصبر؛ يُمكّنه من هزيمة عدوه، وصفة الصبر تدل على المنافسة. وهى مأخوذة عندما كانوا يغطسون فى الماء، فالذى يبقى تحت الماء أكثر من الآخر يكون نفسه أطول. ولذلك فسيدنا عباس وسيدنا عمر - رضى الله عنهما - دخلا فى منافسة فى الغطس. وقال له: نافسنى، أى لنرى من الذى سيمكث تحت الماء أكثر - ويكون ﴿ صابرا ﴾ أى يتحمل أكثر فى المواقف الصعبة ويصبر صبراً فوق صبر الخصوم. وقوله الحق عز وجل هنا:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾

(من الآية ٤٦ سورة الأنفال)

يثبت به سبحانه وتعالى أن كل مؤمن عليه أن يشعر أن الله تبارك وتعالى هو الذى انتدبه ليقوم بهذه المهمة القتالية وهو معه، فلا تخور نفسه؛ لأن الضعيف إذا ما تحصن بالقوى؛ أعطاه الجرأة والقدرة على الاحتمال، تماماً كالولد الصغير، إذا مشى فى الشارع وحده قد يعتدى عليه الأولاد الآخرون، ولكن إذا كان يسير مع أبيه لا يقترب منه أحد، فما بالك بالإنسان الذى هو مع ربه؛ لذلك يوصى الحق كل مقاتل أن يتذكر أنه فى معية ربه وأن أى حدث ضار فى الكون لا يستطيع أن يناله مهما كان ضعيفاً لأن قوة الله معه.

ولذلك يروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إن الله عز وجل يقول يوم القيامة:

(يابن آدم مرضت فلم تعدنى . قال : يارب كيف أعودك وأنت رب العالمين ؟ قال : أما علمت أن عبدى فلاناً مرض فلم تعده .. أما علمت أنك لو عدته لوجدتنى عنده . يابن آدم استطعمتك فلم تطعمنى ، قال : يارب كيف أطعمك وأنت رب العالمين ؟ قال : أما علمت أنه استطعمك عبدى فلان فلم تطعمه.. أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندى . يابن آدم استسقيتك فلم تسقنى ؟ قال يارب وكيف أسقيك وأنت رب العالمين ؟ قال استسقاك عبدى فلان فلم تسقه . أما إنك لو سقيته وجدت ذلك عندى) (١)

فإذا مرض إنسان فقد سُلبت منه العافية فلا يستطيع أن يسير ولا أن يتحرك ، بل يرقد فى فراشه ليتألم ، ويوضح لنا الحق سبحانه وتعالى : أنا إن سلبت منه العافية ، وهى نعمة فأنا عنده . ولذلك إياك أن تفزع إذا تركتك النعمة مادام المنعم معك. والمريض المؤمن يستشعر أن الله معه.

وحين يكون المسلم فى معيّة الله فإن مقاييس المادة والبشريات لا تجىء أبداً ، والمثال هو رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر فى الغار ، وقد جاء الكفار عند باب الغار فرآهم أبو بكر رضى الله عنه فقال : يا رسول الله لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا. هذا كلام منطقى مع النظرة المادية ، فلو انحنى أحد هؤلاء الكفار ونظر من باب الغار لرأى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبا بكر ، وأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يطمئن أبا بكر وينفى عنه ما جاء فى باله من خوف أن يراهما الكفار . كان المفروض أن يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا أبا بكر اطمئن ، إنهم لن ينظروا داخل الغار ، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ما ظنك باثنين الله ثالثهما وفى ذلك قال الإمام أحمد عن أنس أن أبا بكر حدثه قال : قلت للنبى صلى الله عليه وسلم ونحن

(١) رواه الإمام مسلم (الترغيب والترهيب جـ ٤ صـ٣١٧) .

فى الغار : لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه قال، فقال : يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما [١]

ومادام الله ثالثهما تكون المعيّة موجودة، وإذا كنت فى معيّة من لا تدركه الأبصار، أتدركك الأبصار ؟. طبعاً لا تدركك أبصار الأعداء والخصوم. اللهم اجعلنا فى معيّتك دائماً.

ثم يكمل الحق سبحانه وتعالى ما يريد ألا يكون عليه المؤمنون فى ساعات الشدة فيقول تبارك وتعالى :

﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ ﴾

والذين خرجوا من ديارهم بطراً هم الكفار عندما علموا أن أبا سفيان قد نجا بالقافلة ولم يتمكن المسلمون من الاستيلاء عليها، وهم قد خرجوا من مكة ليخلصوا القافلة من أيدى المسلمين، فلما قيل لهم إنَّ القافلة نجت بقيادة أبى سفيان فارجعوا. قالوا : لا يكفينا هذا، بل لابد أن نخرج ونقاتل محمدا ومن معه، وننتصر عليهم وندق الطبول ونذبح الذبائح ليعلم أهل الجزيرة بخبر هزيمة محمد ومن معه فلا يجرؤ أحد أن يتعرض لقافلة من قوافلنا.

إذن فهم لم يكتفوا بأن أموالهم قد رجعت إليهم، بل أرادوا أكثر مما يقتضى الموقف، أرادوا أن يخرجوا فى مظاهرة ضلالية للمفاخرة والتكبر تُثبت أن لهم قوة.

(١) أخرجه الشيخان عن أنس بن مالك رضى الله عنه .

وكان يكفيهم نجاة القافلة وينتهى الأمر. وكان عليهم أن يرجعوا، ولكنهم أرادوا أن يقوموا بمظاهرة لا لزوم لها.

إذن فالمسألة شماتة، وهذا لون من البطر؛ أن تكون عندك نعمة فلا تقدرها حق قدرها، وتحب أن تعلو عليها. ويقال فلان بطران إذا أحضروا له الإفطار من الفول مثلاً ويقول: إنه يريد المربى والزبد وعسل النحل. وهكذا فعل كفار قريش، فلم يكتفوا بنجاة القافلة، بل استخفوا هذه النعمة فلم يكتفوا بها وطلبوا المزيد.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ورئاء الناس﴾

أى يريدون بالحرب مع رسول الله والذين آمنوا؛ السمعة بين الناس، وأن يعرف العرب أنهم خرجوا إلى المدينة وقاتلوا محمداً وصحبه لتكون لهم سمعة وهيبة بين الناس فى الجزيرة العربية.

وقوله تعالى:

﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾

(من الآية ٤٧ سورة الأنفال)

لأن الناس حين يرون الكفار المعاندين لمنهج الله ورسوله صلى الله عليه وسلم وقد صارت لهم اليد العليا، وهم يرقصون ويغنون لانتصارهم، ويرون المسلمين وهم مختفون خائفون من مواجهة الكفار، فسوف يغرى ذلك الناس باتباع منهج الكفر، فكأن الكفار برغبتهم فى قتال رسول الله وصحبه إنما يصدون عن سبيل الله. ثم يأتى الحق سبحانه وتعالى ليوضح: لا تحسبوا أنهم بعيدون عن علمى.

﴿وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾

(من الآية ٤٧ سورة الأنفال)

أى أن الله سبحانه وتعالى محيط بكل أعمالهم ، لا يغيب عنه عمل واحد مما يفعلونه ، هو محيط بهم تماماً وهم لا يستطيعون أن يفلتوا منه .

ويريد الحق سبحانه وتعالى أن يلفتنا إلى دور الشيطان وأعوانه وما يفعله بالكافرين ؛ فيقول تبارك وتعالى :

﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ ﴾

وقد رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى منامه الكفار وهم قليل وذلك من صنع الله تعالى لتتم المعركة ، وبدأ الشيطان يزين للكافرين أعمالهم ويمتدحها ، ويغويهم : أنتم كثيرون ولا أحد مثلكم فى فنو ن القتال وستحصلون على النصر فى لمح البصر. لكن الحق سبحانه وتعالى أراد أن يثبت المؤمنين ويقويهم ، ولذلك شاء الله سبحانه أن يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم الكفار وهم قليل. والواقع أنهم قليل ؛ لأن النصر ليس هنا بالعدد ولكن بتأييد الله تعالى ، ومهما كثر الكفار فهم أمام تأييد الله قليل. ويحاول الشيطان أن يزين للكفار قتال المؤمنين ، أى يجعله محبباً إلى نفوسهم وأنهم سيحققون النصر ، ويصبحون حديث الجزيرة العربية كلها ، وتخافهم الناس وتهابهم ويصبحون هم الكبراء وأصحاب الكلمة. وهكذا صور الشيطان لهم عملية قتال المسلمين فى صورة محببة إلى قلوبهم. وهنا نرى بوضوح غباء الشيطان وعجزه

عن أن يعلم قضاء الله، فلو علم ما ستنتهى إليه معركة بدر ما زين للكفار دخول المعركة؛ لأن المعركة انتهت بنصر المسلمين وقتل صناديد قريش، وعلت صورة المؤمنين فى الجزيرة العربية كلها. ولم يكن النصر هو ما يريده الشيطان، ولكنه لجهله زين للكافرين المعركة.

وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ﴾

(من الآية ٤٨ سورة الأنفال)

أى أن وسوسة الشيطان للكفار كانت فى صورة تضخيم قوتهم وأن أحداً لن يغلبهم فى قتالهم ببدر، وأنه - أى الشيطان - سيناصرهم فى المعركة ويجيرهم إن حدث لهم سوء، ولكن هل للشيطان سلطان على أن يُعين الكفار ؟ نحن نعلم أن الشيطان ليس له سلطان إلا التزيين فقط، فكيف يكون له سلطان على نتيجة المواجهة بين الحق والباطل ؟. إن الشيطان يأتى فى الآخرة فيطلب منه الكفار أن يجيرهم من عذاب الله تعالى ؛ لأنه هو الذى أغواهم وزين لهم سوء أعمالهم وجرهم إلى طريق النار، فيتبرأ منهم ويقول لهم :

﴿ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ﴾

(من الآية ٢٢ سورة إبراهيم)

أى أنه يقول للكافرين : أنا لم أجبركم على المعاصى، فلم يكن لى عليكم سلطان القهر؛ لأقهركم على أن تفعلوا شيئاً ولا سلطان الحجة لأقنعكم بأن

تفعلوا المعاصى، ولكنى بمجرد أن دعوتكم استجبتم لى ؛ لأنكم تريدون المعصية واتباع شهواتكم. وقوله : ﴿ ما أنا بمصرخكم ﴾

وأصرخ فلاناً أى سمع صراخه فذهب إليه لينقذه، والإنسان عندما يواجه قوة أكبر منه يلجأ إلى الصراخ لعل أحداً يسمع صراخه ويأتى لنجدته. والذى يسمع الصراخ إما أن يكون ضعيفاً فلا يستجيب؛ لأنه لا يستطيع أن ينقذ ذلك الذى يواجه الخطر، وإما أن يكون قويّاً فيذهب لنجدته، فيقال: ﴿ أصرخه ﴾ أى أنقذه وأزال سبب صراخه، وقوله تعالى : حاكيا ما يقوله الشيطان ﴿ ما أنا بمصرخكم ﴾

أى أن الشيطان لا يستطيع أن ينجيهم من العذاب وينقذهم منه، فيزيل سبب صراخهم : ﴿وما أنتم بمصرخى ﴾

أى أنتم لا تستطيعون دفع العذاب عنى.

وقد أخذ الشيطان يزين لهم أعمالهم ويعدهم كذباً بأنه سيجيرهم ويؤازرهم ويعمل على نصرهم حتى اقترب المؤمنون والكفار من بعضهم البعض وأصبحوا على مدى رؤية العين.

﴿ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ ﴾

(من الآية ٤٨ سورة الأنفال)

أى أنه بمجرد الترائى بين المؤمنين والكفار، وقبل أن يلتحموا فى المعركة ويبدأ القتال هرب الشيطان وتبرأ من الكفار وجرى بعيداً، وهذا ما يشرحه الله تعالى فى قوله :

﴿ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة الحشر)

وهذا كلام منطقى مع موقف الشيطان حينما طرده الله ولعنه؛ لأنه رفض تنفيذ أمر السجود لآدم؛ فقال له الله عز وجل :

﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٧٨﴾ ﴾ (سورة ص)

حينئذ تضرع الشيطان إلى الله تعالى أن يبقيه إلى يوم القيامة :

﴿ قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ (سورة الأعراف)

وهكذا أقر الشيطان بطلاقة القدرة لله تعالى وبأنه عاجز لا يقدر على شىء أمام قوة الله، فقال الحق تبارك وتعالى :

﴿ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ ﴾

(سورة الحجر)

إذن فالشيطان لا قدرة له ولا قوة على فعل شىء، وكل ما يمكنه هو الخداع والتزيين والكذب، ولذلك أخذ يخدع الكفار ويكذب عليهم، وما أن صار المؤمنون والكفار على مدى رؤية العين بعضهم لبعض، هرب الشيطان وفزع ونكص على عقبيه، وأعلن خوفه من الله؛ لأنه يعلم أن الله شديد العقاب.

إذن فمصدر خوف الشيطان هنا هو الخوف من العقاب ومن العذاب الذى سيصيبه حتماً، ولم يفزع الشيطان - إذن - حبّاً لله تعالى .

ثم يعطينا الحق سبحانه وتعالى صورة أخرى :

﴿ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾ ﴾

« المنافق » كلمة مأخوذة من نافقاء اليربوع، وهو حيوان يشبه الفأر يعيش فى الجبال فى سراديب، وحين يتتبعه حيوان آخر ليفترسه، فهو يسرع إلى جحره الذى يشبه السرداب، وهو يفتح أكثر من فتحة لهذا الجحر لتكون مخارج له، ومثل هذه الفتحات كالأبواب الخلفية، فينجو من الافتراس، فكأنه فتح لنفسه نفقاً، ينافق منه غيره فلا يقوى على اللحاق به. ولذلك نجد المنافق متعارضاً مع نفسه؛ ينطق لسانه بما لا يؤمن به، وبينما المؤمن منسجم النفس؛ ينطق لسانه بما فى قلبه، والكافر أيضا كذلك منسجم ينطق لسانه بما فى قلبه من الكفر، ولكن المنافق متخبط مع نفسه، لسانه يقول كلمات الإيمان وقلبه يضمر الكفر، وهكذا تتعاند ملكات المنافق، وحينما يكون القلب واللسان متعاندين لا توجد راحة نفسية، وحسبك من المنافق أنه متعاند فى الملكات.

ويصف الحق سبحانه وتعالى المنافقين بقوله :

﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

(سورة البقرة)

إذن فالذاتية ضائعة؛ لأن الإنسان لا يفقد ذاته حينما تكون ملكاته منسجمة ولا توجد ملكة تعارض ملكة أخرى ويكون عمله متوازناً، ولكن الذى تتعاند ملكاته يعيش دائما فى قلق نفسى وحيرة. ولذلك يحاول أن يهرب من واقعه، فيلجأ إلى المخدرات أو غيرها، وليس الحل بأن يخدر الإنسان نفسه أمام الأحداث، ولكن لابد أن يواجه الإنسان الأحداث ويحاول إيجاد حل لها، والمنافق لا يقدر على ذلك فينهار، ويقول الله تعالى :

﴿ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ ﴾

(من الآية ٤٩ سورة الأنفال)

وبعد أن ينتصر المؤمنون نجدهم وهم يزدادون إيماناً وثقة فى أنفسهم، وتملؤهم عزة الإيمان، فينظر إليهم المنافقون بحسد وحقد؛ لأنهم يكرهون المؤمنين؛ ولا يتمنون لهم خيراً، فهم فى نفاقهم كفار، فى قلوبهم غل للمؤمنين يخاطب بعضهم البعض ويقولون: أصاب هؤلاء الغرور بدينهم. ولكن ما أصاب المؤمنين ليس غروراً؛ لأن معنى الغرور أن تغار بخصلة فيك تجعلك متفوقاً على غيرك؛ والمؤمن ساعة النصر لا يغتر بنفسه ولكنه يعتز بالله القوى العزيز، ويزداد تواضعاً له ويكون مشغولاً بشكر الله على ما حققه له من نصر، أما المغرور فهو من يعزل النعمة عن المنعم وينسبها لنفسه. والمؤمنون ينسبون كل شىء لله تبارك وتعالى؛ لأنهم يعلمون أن النعمة عطاء من يد الله الممدودة بالنعم التى لاتعد ولا تحصى، ومادامت النعمة لم تبعد الإنسان عن الله، فإن الله يزيده منها؛ لأنه مأمون على النعمة وينسبها لصاحبها، والمغرور يستعلى بأى خصلة يتميز بها عكس المؤمن الذى لا يستعلى أبداً بها؛ لأنه يعلم أنه لا ذاتية له، وأن الفضل لله تعالى، وذلك يقول الحق تبارك وتعالى وهو يصف المؤمنين:

﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الفتح)

والشدة هنا ليست غروراً، ولكنها طبع وملكة، ولو كانت غروراً لبقيت كما هى، ولكن المؤمن شديد على الكفار ذليل على المؤمنين لا يتكبر عليهم أبداً، ولا يمكن أن يجعله إيمانه فى قالب جامد؛ لأن الإيمان يعطى المؤمنين مرونة أمام الأحداث، لذلك نجد المؤمن لا هو شديد على إطلاقه، لأن هناك مواقف تتطلب الرحمة فى التعامل مع المؤمنين، ولا هو رحيم على إطلاقه؛ لأن هناك مواقف تتطلب الشدة فى مواجهة الكفار.

وكان سيدنا أبو بكر - رضى الله عنه - معروفاً بأنه كان كثير البكاء من خوفه وخشيته لله؛ وقلبه ملىء بالرحمة على المؤمنين. ولكن عندما جاءت

حرب الردة لما نعى الزكاة ماذا حدث ؟. جلس هو وعمر بن الخطاب، والمعروف عن عمر أنه كان شديدا، وجلسا يتشاوران، وكان رأى عمر ألا يقاتلوا من ارتدوا بإنكارهم ومنعهم الزكاة ؛ لأنهم قالوا: لا إله إلا الله، فقال له أبو بكر : « والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة فإن الزكاة حق المال والله لو منعونى عقالاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعه ».

هذا هو أبو بكر الذى عُرف عنه أنه كان كثير البكاء من خشية الله تعالى، وكان قلبه يمتلىء بالرحمة للمؤمنين . إنه يعلن فى قوة وشدة فى الحق أنه سوف يقاتل الخارجين على حدود الله والمانعين المنكرين للزكاة. ولو أن هذا الأمر حدث من عمر لقال الناس : شدة ألفناها، ولكن أن يحدث هذا الأمر من هذا الرجل الطيب الرحيم المطبوع على الرقة وعلى اللين ؛ فهو أمر يبين لنا شدة المؤمن فى مواجهة الكفر. المؤمن - إذن - لا هو مطبوع على الشدة المطلقة ولا هو مطبوع على الرحمة المطلقة، لكنه شديد حين تكون الشدة مطلوبة للدين، ورحيم حينما تكون الرحمة مطلوبة للدين، وعزيز حين تكون العزة للدين، وذليل حين تكون الذلة للدين. إذن فقول المنافقين : ﴿ غر هؤلاء دينهم ﴾ لا يستند إلى حكم صحيح، بل هو مما يمليه عليهم نفاقهم، لماذا ؟ .

لأن المؤمنين يتوكلون على الله دائما وينسبون كل الفضل لله تعالى :

﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

(من الآية ٤٩ سورة الأنفال)

ومادام الله عزيزاً فالذى آمن به عزيز، وسبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾

(من الآية ٨ سورة المنافقون)

ومادام الله حكيماً فهو يعطى الحكمة للمؤمنين، والتوكل على الله معناه أن تكل كل أمورك إليه سبحانه وتعالى، وأول هذه الأمور أنه أمرك بالأخذ بالأسباب، فلا تترك الأسباب أبداً، بل خذ بها دائما مع التوكل عليه فإذا لم تسعفك فهناك المسبب . فقد قال الحق تبارك وتعالى لعباده المؤمنين :

﴿ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ ﴾

(من الآية ١٤ سورة التوبة)

وأمرنا سبحانه وتعالى : بالسعى فقال عز وجل :

﴿ فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ﴾

(من الآية ١٥ سورة الملك)

فهو سبحانه وتعالى كما أمر المؤمنين بأن يقاتلوا ويأخذوا بالأسباب؛ لأنه سبحانه يريد أن يعذب الكفار بأيدى المؤمنين، أمرهم سبحانه وتعالى كذلك أن يسعوا فى سبيل الرزق.

وأنت حين تتو اكل تنقل صفة إلى صفة؛ لأن التوكل عمل القلوب، والعمل تقوم به الجوارح، فلا تجعل التواكل عمل الجوارح؛ لأن الجوارح تعمل بالأسباب. والقلوب تتوكل على الله، وهكذا نفهم أن التوكل الحقيقى للجوارح هو أن تعمل ولذلك فلابد من العمل والأخذ بالأسباب مع التو كل، ولابد لنا أن ننتبه إلى المنافقين فى بدر الذين قال عنهم الله سبحانه وتعالى :

﴿ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ﴾

(من الآية ٤٩ سورة الأنفال)

والمنافقون - كما قلنا - هم القوم الذين تتصارع ملكاتهم، وما على ألسنتهم يتناقض مع ما فى صدورهم، أما الذين فى قلو بهم مرض فهم ضعيفو الإيمان؛ مسلمون ساعة الرخاء؛ فارون من الدين ساعة الشدة. إذن فهناك

فريقان ذكرهما الحق سبحانه وتعالى؛ المنافقون وهؤلاء كانوا من الأوس والخزرج ملكاتهم متضاربة؛ لأنهم كانوا يريدون السيادة على المدينة. وواحد منهم كان ينتظر أن يلبس تاج الملك، وبمجيء رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة تنتهى منه هذه الفرصة وتضيع فرصة الملك والزعامة، وقد أوجد ذلك فى نفسه حقداً وغيظاً. ولكن ظاهرة الإقبال من أهل المدينة كلهم على الإيمان والدخول فى الإسلام؛ جعلت هؤلاء المنافقين لا يستطيعون المقاومة؛ لذلك نطقوا الشهادتين بألسنتهم وبقى فى قلوبهم حقد وضغينة على الإسلام، فالواحد منهم تتجاذبه ناحيتان متعارضتان.

والذين فى قلوبهم مرض ليسوا منافقين ولكنهم ضعيفو الإسلام، وقد دخلوا إلى الدين ليأخذوا وهم لا يعطون، فإذا أعطاهم الإسلام بعضاً من نعم الدنيا فرحوا بها، وإذا أصابتهم شدة هربوا. ومن هؤلاء بعض الذين أسلموا فى مكة. ولكن إسلامهم لم يصل بهم إلى أن يهاجروا إلى المدينة؛ خوفا من أن يتركوا أموالهم وأولادهم فظلوا فى مكة، ومرضى القلوب هؤلاء لا يعدمون الحياة؛ لأن المرض لا يعدم الحياة، لكنهم كانوا يعانون من عدم صحة الإيمان، ولما جاءت عملية القتال فى غزوة بدر تشاوروا: أيذهبون مع الكفار أو لا يذهبون؟ ومع أى من الفريقين يقاتلون؟. وقالوا: نخرج مع الكفار فإن وجدنا أنهم أقوى كنا معهم، وإن وجدنا المسلمين هم الأقوياء انضممنا إليهم.

ومن هؤلاء قيس بن الوليد بن المغيرة وعلى بن أمية بن خلف والعاصى ابن منيه بن الحجاج والحارث بن زمعة بن الأسود بن المطلب وأبو القيس بن الفاكه ابن المغيرة. وتجمع هؤلاء مع بعضهم وذهبوا إلى المعركة لينضموا إلى المنتصر، مؤمنا كان أو كافرا. وهم أخذوا هذا الموقف؛ لأن صحة الإيمان فى قلوب هؤلاء غير موجودة فهم أصحاب قلوب مريضة ومتعلقة بحب الدنيا.

وما قاله المنافقون والذين فى قلوبهم مرض يدل على الرغبة فى اتقاء الضرر، مع أن هؤلاء فى المدينة وهؤلاء فى مكة ولكنهم قالوا شيئاً واحداً، وهذا دليل على أن إغواء الشيطان للفريقين كان واحداً. ولذلك اتحدت العبارة. وقال هؤلاء وهؤلاء : ﴿غر هؤلاء دينهم﴾

قالها الفريقان (فريق المنافقين وفريق الذين فى قلوبهم مرض) مع اختلاف المكان، فبعضهم - كما علمنا - من مكة وبعضهم من المدينة. إذن فلابد من وجود قاسم مشترك دفعهم أن يقولوا قولاً واحداً، أى أن الشيطان وسوس إليهم بهذه العبارة. ولذلك كان الواجب أن ينتبهوا إلى أن اتفاق القول دليل إغواء الشيطان لهم.

وما معنى : ﴿ غر هؤلاء دينهم ﴾

غررت فلاناً أى زينت له الأمر تزييناً بحيث يقبل عليه إقبالاً لا ترشحه قوته له، وقويت استعداده لكى يقوم به، فإذا جئت لإنسان محدود الدخل مثلاً وأردت أن تغريه بشراء سيارة. فأنت تقول لتزين له المسألة : اقترض من فلان وفلان وادفع الباقى بالتقسيط، كأنك تغريه أن يتخذ موقفاً غير موقفه الذى كان ينوى القيام به.

ولكن ما وجه الغرور فى الدين ؟ .

إن المؤمنين المغترين بدينهم قد أحسوا بكثرتهم رغم أن عددهم قليل. فأقبلوا على الحرب بالرؤيا التى أراها الله سبحانه وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم بأن عدد الكفار قليل، وبوعد الله لهم بالنصر، أو غرهم بأن أوضح لهم أنَّ الذى يموت مقتولاً فى هذه الحرب يصير شهيداً وتكتب له حياة خالدة، وقد جعل ذلك القوى منهم والضعيف يقاتلان بقوة ؛ لأن الشهيد سيذهب إلى الجنة. وهكذا - فى رأى المنافقين - اغتر المؤمنون بدينهم.

ويرد الله عز وجل عليهم بقوله تعالى :

﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

(من الآية ٤٩ سورة الأنفال)

هذا هو الرد عليهم فى أن المؤمنين لم يغرهم دينهم ، بل إنهم متوكلون على الله ومن يتوكل على الله فهو حسبه وكافيه ، وسبحانه عزيز لا يغلب ، وحكيم يضع الهزيمة فى موضعها والنصر فى موضعه.

إذن فالمسألة أن هؤلاء المؤمنين قد اختاروا الله فأعزهم ونصرهم.

ولكن هل قيلت هذه العبارة من المنافقين علناً ؟ . لا ، إنهم لم يجرءوا أن يعلنوها بل قالوها سرّاً فى أنفسهم ، فأعلم الله سبحانه وتعالى رسوله بما حدث فى نفوسهم ، وكانت هذه لفتة من الله سبحانه وتعالى بأن فضح حقيقتهم لعلهم ساعة يسمعون ما يدور فى نفوسهم ؛ قد يتركون نفاقهم ويعودون إلى حظيرة الإيمان الصحيح ، خصوصاً إذا انتبهوا إلى قول الحق سبحانه وتعالى

﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾

(سورة التوبة)

ففى هذه الآية الكريمة يوضح الله سبحانه وتعالى موقف المؤمنين فى كل معركة يخوضونها ، فهم إما أن ينتصروا ويهزموا الكفار ويقتلوهم ويأخذوا غنائمهم ، وإما أن يستشهدوا فيدخلوا الجنة ، وكلّ من الأمرين خير. وكشف الحق ما يدور فى صدور المنافقين ، وكان ذلك تنبيهاً للمؤمنين بألا يؤثر فيهم كلام المنافقين ؛ لأن المؤمنين قد توكلوا على الله والله غالب على أمره.

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ﴾

والذى يُوجه إليه هذا الخطاب هو رسول الله صلى الله عليه وسلم . ومعناه لو كشفنا لك الغيب لترى ، وتلاحظ أن الله سبحانه وتعالى ترك الجواب ، فلم يقل ماذا يحدث لهذا الكافر والملائكة يضربونه ، وإذا ما حذف الجواب فإنك تترك لخيال كل إنسان أن يتصور ما حدث فى أبشع صورة ، ولو أن الحق سبحانه وتعالى جاء بجوابه لحدد لنا ما يحدث ، ولكن ترك الجواب جعل كلا منا يتخيل أمراً عجيباً لا يخطر على البال ، ويكون هذا تفظيعاً لما سوف يحدث.

والصورة هنا تنتقل بنا من عذاب الدنيا للكفار إلى ساعة الموت.

و ﴿يتوفى﴾ أى لحظة أن تقبض الملائكة أرواح الكافرين ، والتوفى وهو قبض الأرواح يجىء مرة منسوباً لله سبحانه وتعالى مصداقاً لقوله :
﴿ وهو الذى يتوفاكم ﴾ ومرة يأتى منسوباً لرسل من الله : ﴿ توفته رسلنا ﴾ ومرة يأتى منسوباً إلى ملك الموت وهو عزرائيل : ﴿ قل يتوفاكم ملك الموت ﴾

وبذلك يكون التوفى قد أسند مرة إلى الله عز وجل ومرة إلى عزرائيل ومرة إلى رسل الموت ، ونقول : لا تعارض فى هذه الأقوال ؛ لأن الأمر فى كل الأحوال يصدر من الله سبحانه وتعالى ، إما أن يقوم عزرائيل بتنفيذه وإماجنوده وهم كثيرون.

الأمر الأصيل - إذن - من الله ، وينسب إلى المتلقى المباشر من الله وهو عزرائيل ، ويُنسب إلى من يطلب منهم ملك الموت أن يقوموا بهذه العمليات.

وهذا العذاب يحدث ساعة الاحتضار وهى اللحظة التى لا يكذب الإنسان فيها على نفسه؛ لأن الإنسان قد يكذب على نفسه فى الدنيا، وقد يكون مريضاً بمرض لا شفاء منه فيقول: سأشفى غداً، ويعطى لنفسه الأمل فى الحياة، وقد يكون فقيراً لا يملك من وسائل الدنيا شيئاً ويقول: سوف أغتنى؛ لأن الإنسان دائما يغلب عليه الأمل إلا ساعة الاحتضار، فهذه لحظة يوقن فيها كل ميت أنه ميت فعلاً ولا مفرَّ له من لقاء الله، ولذلك تجد أن الذى ظلم إنساناً لحظة يموت يقول لأولاده: أحضروا فلاناً لقد ظلمته فردوا له حقوقه نحوى وما ظلمته فيه، والإنسان لحظة الاحتضار يرى كل شريط عمله. فإن كان مؤمناً رأى شريطاً منيراً؛ فيبتسم ويستقبل الموت وهو مطمئن. وإن كانت أعماله سيئة فهو يرى ظلاماً، ويتملكه الذعر والخوف لأنه عرف مصيره.

وحينما زين الشيطان للكفار أن يقاتلوا المؤمنين ووعدهم بالنصر، وقال: إننى سأجيركم إذا دارت عليكم الدائرة، فلما أصبح المؤمنون والكفار على مدى الرؤية من بعضهم البعض هرب الشيطان؛ لأنه رأى من بأس الله ما لم يره الكفار، وهذا هو موقف الشيطان دائماً، إذا رأى بأس الله أسرع بالفرار، ويعترف أن كل حديثه لابن آدم إنما هو وعد كاذب سببه الحقد الذى فى قلبه؛ لأنه تلقى العقاب من الله عز وجل بعد أن رفض تنفيذ أمر الله له بالسجود لآدم، وهو الذى أوجب عليه العذاب الذى سيلاقيه. ونرى الشيطان مثلاً كما يخبرنا الحق سبحانه وتعالى بقوله:

﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾

(من الآية ٨٢ سورة ص)

أى أنه أقسم بجلال الله وعزته. ومعنى عزة الله أنه غنى عن خلقه جميعاً لايحتاج لأحد منهم، فهو الله بجلال وجمال صفاته قبل أن يوجد أحد من خلقه قد خلق هذا الكون وأوجده ولم يستعن بأحد، ولو آمن به الناس جميعاً

ما زاد ذلك فى ملكه شيئاً. ولو كفر به الناس جميعاً ما نقص ذلك من ملكه شيئاً. وقسم إبليس بعزة الله إقرار منه بها. وقد أقسم بعزة الله أن يطلب الغواية للإنسان؛ لأن الله سبحانه وتعالى مادام لا يزيد ملكه ولا ينقص بإيمان خلقه؛ لذلك أعطاهم حرية الاختيار، ولو أراد الله الناس مؤمنين ما استطاع إبليس أن يقترب من أحد منهم، ويحاول إبليس بحقده على الإنسان وكرهه له أن يصرفه عن طريق الإيمان، ولكن هل يملك إبليس قوة إغواء على مؤمن؟. لا، ولذلك فهناك استثناء:

﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾

(سورة ص)

أى أن إبليس لا يستطيع أن يقترب من عبد مؤمن مخلص فى إيمانه. ولذلك لابد أن نلتفت إلى قول الشيطان الذى جاء على لسانه فى الآية الكريمة:

﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾

(من الآية ٤٨ سورة الأنفال)

إذن فمادام إبليس يخاف الله، ومادام يعلم أن الله شديد العقاب فما الذى أذهب عنه هذا الخوف حين أمره الله بالسجود لآدم فعصى؟. خصوصاً وهو يعلم أن الله شديد العقاب، ولو كان قد عرف أن الله لا يعاقب أو يعاقب عقاباً خفيفاً لقلنا أغرته بساطة العقاب بالمعصية. ولكن علمه بشدة العقاب كان يجب أن يدفعه إلى الطاعة من باب أولى.

ونقول: إنه فى ساعة الكبر نسى إبليس كل شىء!!

فأنت فى حين يأخذك الكبر تتعالى ولو فى مواقع الشدة، حتى وإن علمت أنه قد يصيبك عقاب شديد، ولكن يختفى كل هذا من نفسك إذا دخل فيها الكبر.

ولذلك قد تجد إنساناً يُعذب بضرب شديد ولكن الكبر فى نفسه يجعله لا يصيح ولا يصرخ. ونجد إنساناً قد يتخذ فى لحظة كبر قراراً له عواقب وخيمة ولكنه يتحمله. وإبليس ساعة رفضه تنفيذ أمر السجود كان يمتلىء بالكبر والغرور، فتكبر على أمر الله وملكه الغرور فقال :

﴿ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾ (من الآية ٦١ سورة الإسراء)

إذن ففى لحظة الكبر نسى إبليس كل شىء، واندفع فى معصيته يملؤه الزهو وأصر على المعصية رغم علمه أن الله شديد العقاب.

وفى قوله تعالى :

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ﴾

(سورة الأنفال)

نجد أنه قد حذف جواب « لو » والمعنى لو كشف الحجاب لترى الملائكة وهم يتوفون الذين كفروا لرأيت أمرا عظيما فظيعا، وهل يحدث هذا ساعة القتال عندما يُقتل الكفار فى المعركة وتستقبلهم الملائكة بالضرب، أم يحدث هذا الأمر لحظة الوفاة الطبيعية ؟ . كلاهما صحيح والعذاب هذا أخذ صفة الإقبال ومحاولة الهرب، ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى :

﴿ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴾

(من الآية ٥٠ سورة الأنفال)

فالمقبل منهم يضربونه على وجهه، فإذا أدار، وجهه ليتقى الضرب، يضربونه على ظهره، وكان الكفار يعذبون المؤمنين بهذه الطريقة ؛ فالمقبل عليهم

من المؤمنين يضربونه على وجهه، فإذا حاول الفرار ضربوه على ظهره وعلى رأسه.

ويذيق الله الكافرين ما كانوا يفعلونه مع المؤمنين. ولكن الفارق أن الضارب من الكفار كان يضرب بقوته البشرية المحدودة. أما الضارب من الملائكة فيضرب بقوة الملائكة. ويقال: إن الملائكة معهم مقامع من حديد. أى قطع حديد ضخمة يضربون بها وجوه الكفار وأدبارهم. ومن شدة الضربة واحتكاك الحديد بالجسم تخرج منه شرارة من نار لتحرق أجساد الكفار.

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ (من الآية ٥٠ سورة الأنفال)

إذن فهم يضربون الكفار ساعة الاحتضار ضرباً مؤلماً جدا ولكن هذا الضرب رغم قسوته، والشرر الذى يخرج منه لا ينجيهم فى الآخرة من عذاب الحريق.

ولذلك أقبل صحابى على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له: يا رسول الله.. لقد رأيت فى ظهر أبى جهل مثل شراك النعل. أى علامة من الضرب الشديد ظاهرة على جسده، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ذلك ضرب الملائكة، وجاء صحابى آخر وقال: يا رسول الله.. لقد هممت بأن أقتل فلانا فتوجهت إليه بسيفى، وقبل أن يصل سيفى إلى رقبته رأيت رأسه قدطار من فوق جسده. فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: سبقك إليه الملك. وذلك مصداقاً لقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾﴾

(سورة الأنفال)

وهنا فى الآية الكريمة التى نحن بصدد خواطرنا عنها يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ ﴾

(من الآية ٥٠ سورة الأنفال)

أى أن الضرب فيه إهانة أكثر من العذاب، ولو أن العذاب قد يكون أكثر إيلاماً. فقد يقوم مجرم بارتكاب جريمة ما فإذا أُخذَ وعُذب ربما تحمل العذاب بجلد، ولكنَّه إذا ضُرب أمام الناس كان ذلك أشدَ إهانة له، فإذا كان الضرب من الذى وقعت عليه الجريمة كانت الإهانة أكبر.

ولكن هذا الضرب والعذاب لا ينجيهم من عذاب النار، بل يدخلون إلى أشد العذاب يوم القيامة، وهذه نتيجة منطقية لما يفعله الكفار من عدم الإيمان بالله، ومن قيامهم بإيذاء المؤمنين به والإفساد فى الأرض.

ويقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك :

﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ ﴾

نحن نعلم أن معظم أعمال الإنسان يزاولها بيده، وقد يفعل أشياء بقدميه أو بلسانه؛ لكن معظم الأعمال تتم باليد؛ لأن اليد تحمل القدرة على الفعل. فسبحانه لم يفتئت عليهم.

و « ذلك » إشارة إلى الضرب والعذاب الذى ينالونه جزاء ما قدمت أيديهم. ويقول سبحانه وتعالى :

﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾

(من الآية ٥١ سورة الأنفال)

أى أن العذاب الذى يصيب الكفار يكون نتيجة أمرين ؛ ما قدمت أيديهم أى بما كسبت من الآثام والمعاصى ، وعدل الله سبحانه وتعالى .

ونجد الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

ويقول سبحانه وتعالى فى سورة الحج :

﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾ ﴾

(سورة الحج)

وهكذا نجد أن الحق سبحانه وتعالى قد قال : إنه ليس بظلام للعبيد ثلاث مرات فى القرآن الكريم ، والذين يحبون أن يستدركوا على كتاب الله يقولون : إنَّه جاء فى القرآن أكثر من مرة أنه سبحانه وتعالى ليس بظلام للعبيد . فهل هذا يعنى أن الله - معاذ الله - ظالم ؟. ونقول : لا ، فسبحانه ينفى الظلم عن نفسه على إطلاقه. والإنسان حين يظلم فهو ظالم ، فإذا اشتد ظلمه وتعدد ، يقال : « ظلاَّم ». إذن فهذه صيغة مبالغة فى الظلم ، مثلما تقول : فلان « آكل » وفلان « أكّال » أى كثير الأكل مبالغة فى تناول الطعام. وتقول : فلان « ناجر » أى أمسك قطعة خشب بدون خبرة وصنع منها شيئاً. ولكنك إذا قلت : « نجَّار» كانت هذه صيغة مبالغة تبين إتقانه فى صنعته ، كذلك « خائط » و « خيَّاط»، ونقول : فلان « جازر » أى يستطيع أن يذبح ، فإذا قلت : « جزَّار » أى عمله هو أن يذبح بإتقان.

إذن « فعَّال » صيغة مبالغة فى الفعل. وصيغ المبالغة لها حالتان ، حالة إثبات وحالة نفى. فأنت حين تقول : فلان « أكّال » أثبت له صفة المبالغة فى الأكل - أى كثرة الأكل ، ومن باب أولى صفة الأكل مطلقاً ، ومادمت قد أثبت له الصفة الأعلى تكون الصفة الأدنى ثابتة ، فإذا قلت : إن فلاناً «خياط» أثبت له أنه يعرف الخياطة ويجيدها . وإن قلت : إنه « نجَّار » أثبت له أنه ناجر متقن للنجارة ، أما من ناحية النفى فإذا قلت : إن فلاناً ليس أكَّالاً تنفى المبالغة ولكنها لا تنفى أنه يأكل ، فإذا قلت : إن فلاناً ليس نجاراً نفيت عنه إتقانه للنجارة ولكنك لا تنفى عنه أنه قد يكون ناجراً ، وإذا قلت : إن فلاناً ليس علاّمة فقد يكون عالماً. وأنت عندما تثبت الأعلى تثبت الأدنى ، وعندما تنفى الأعلى لا تنفى الأدنى . وعندما تقول : إن فلاناً ليس ظلاَّماً ، تكون قد نفيت الأعلى. ولكن لا يلزم نفى الأدنى فقد يكون ظالماً فقط وليس ظلاَّما. إذن فكلمة « ليس ظلّاماً » نفت المبالغة فقط ولكنها لم تنف الظلم. وهذا ما قاله المستشرقون : إن آيات القرآن يناقض بعضها بعضاً ، ففى آية مثلاً يقول : ﴿ ليس بظلاَّم ﴾ فنفى الأعلى ولا يلزم من نفى الأعلى نفى الأدنى. ويقول سبحانه وتعالى فى آية أخرى :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾

(من الآية ٤٠ سورة النساء)

فنفى الأدنى والأعلى. وهذا فى رأيهم تضارب. نقول : هل إذا نفى الأعلى يلزم أن يثبت الأدنى ؟ طبعاً لا ، إن نفى الأعلى لا يمنع أن يوجد الأدنى ولكنه لا يلزم بوجوده.

إذن فقول الحق سبحانه وتعالى :

نفى مبدأ الظلم، وقوله تعالى :

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾

(من الآية ٥١ سورة الأنفال)

نفى مبدأ المبالغة، والقرآن يكمل بعضه بعضاً، فإذا قيل : إن الله نفى الأعلى وهذا إثبات للأدنى نقول : إن نفى الأعلى لا يلزم منه إثبات الأدنى ولا يمنع من وجود الأدنى، فإذا جاءت آية أخرى ونفت الأدنى، إذن فلا هو بظلاَّم ولا هو بظالم. ولابد أن نلتفت إلى الإعجاز القرآنى فى الأسلوب، فالمتكلم هو الله. نقول : هل قال الله سبحانه وتعالى : ليس بظلاَّم للعبد أم ليس بظلاَّم للعبيد؟ لقد قال الحق : ﴿ ليس بظلاَّم للعبيد ﴾ وهى هنا صيغة مبالغة، والمبالغة مرة تكون فى قوة الحدث وإن لم يتكرر، ومرة تكون فى المبالغة فى تكرار الحدث ، والإنسان حين يظلم ظلماً بيّناً مبالغاً فيه يقال عنه : إنه ظلاَّم؛ لأنه بالغ فى الظلم، فإذا لم يبالغ فى الظلم وكان ظلماً بسيطاً ولكنه شمل عدداً كبيراً من الناس يكون ظلاَّما نظراً لتعدد المظلومين.

ومادام الحق سبحانه وتعالى قال : ﴿ ليس بظلام للعبيد ﴾؛ ولم يقل : ليس بظلاَّم للعبد، وبما أن الظلم يتناسب مع القدرة. نجد مثلاً قدرة الحاكم على الظلم أكبر من قدرة محدود النفوذ؛ وهذه أكبر من قدرة الشخص العادى، فلو كان الله سبحانه وتعالى مع كل واحد من عباده ظالماً ولو مثقال ذرة لقيل : ظلاَّم. وقد أراد الله سبحانه وتعالى بهذه الآية الكريمة أن يخبرنا أنه لا يظلم أحداً ولو مثقال ذرة، إذن فهو ليس بظلاَّم للعبيد؛ لأنه لو ظلم كل عبد من عباده ذرة لكانت كمية الظلم هائلة لكثرة العباد. ولكن حتى هذه الذرة من الظلم لا تحدث من الله سبحانه؛ لأن الله ليس بظلاَّم للعبيد.

ثم يعطينا الحق سبحانه وتعالى أمثلة قمة الكفر فى الحياة الدنيا فيقول تبارك وتعالى :

﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ﴾

و ﴿ الدأب ﴾ هو العادة التى تتكرر مع الإنسان ويقال : دؤوب على كذا ؛ أى يفعله باستمرار. ويوضح الله سبحانه وتعالى هنا لرسوله صلى الله عليه وسلم : دأب هؤلاء الكفار معك يا محمد ، أى عادتهم معك ، كدأب آل فرعون مع رسولهم ، أى أنهم يفعلون معك كما فعل آل فرعون مع موسى عليه السلام.

وقوله تعالى : ﴿ والذين من قبلهم ﴾

أى قوم نوح وهود وصالح ولوط وغيرهم ، ما الذى حدث لهؤلاء ؟ ؛ هلاك أو استئصال أو تعذيب أو إغراق أو خسف. إذن فالكفار الذين يعادون رسول الله صلى الله عليه وسلم ويحاربونه ، ويقفون موقف الأذى منه ، هذا الدأب والموقف منهم معه مثل دأب وموقف آل فرعون مع موسى عليه السلام ، وقوم لوط مع لوط عليه السلام ، وكذلك الذين من قبلهم ، ويقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ كَفَرُوا بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ٥٢ سورة الأنفال)

فهل تركهم الله ؟ . لا . ﴿ فأخذهم الله بذنوبهم ﴾

فمنهم من أُغرقوا، ومنهم من أصابتهم الصاعقة، ومنهم من خسف الله بهم الأرض، ومادام الله سبحانه وتعالى قد فعل ذلك مع الكفار السابقين كما هو ثابت. فسبحانه سوف ينزل عقابه على الكفار الذين يكذبون رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهم لن يخرجوا عن قاعدة التعامل مع المكذبين للرسل، وقد حدثت سوابق مشابهة فى الكون وقضايا واقعية. فآل فرعون مثلاً بلغوا قمة التقدم والحضارة فى عصرهم وسبحانه وتعالى يقول عن حضارة الفراعنة :

﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ﴾

(سورة الفجر)

وبالنسبة لثمود إذا ذهبنا إلى مدائن صالح فى السعودية نجد آثار ثمود وقد حفروا بيوتهم فى صخور الجبال، ويقول الحق عن حضارة ثمود :

﴿ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴿٩﴾ ﴾

(سورة الفجر)

وكل الحضارات القديمة قد زالت فى غالبيتها ولا أثر لها، وإن وجد أثر، فهو أثر قليل وبسيط لا يحمل كل سمات الحضارة، إلا آثار الفراعنة؛ حيث تحوى مسلات ضخمة وأعمدة عالية وأهرامات كبيرة وهى باقية، أما حضارة قوم عاد فالحق سبحانه قد طمس آثارها فلم نعثر منها على شىء حتى الآن. لقد انطمست غالبية آثار الحضارات إلا آثار حضارة آل فرعون التى يأتى إليها الناس من أنحاء الدنيا كلها؛ ليتعجبوا من جمال البناء وروعة الفن وقمة التقدم فى التصميم الهندسى، وكيف نُقلت هذه الأحجار الضخمة إلى الأماكن العليا بدون سقالات، وكيف ارتبطَت الأحجار كلها مع بعضها البعض كل هذه السنوات الطويلة دون استخدام الأسمنت أو غيره من مواد التثبيت للأحجار،

بل تم ذلك بتفريغ الهواء. فكيف استطاعت هذه الهندسة العجيبة أن تفرغ الهواء بين حجرين كبيرين ضخمين؛ ليلتصقا ببعضهما التصاقاً محكماً بغير لاصق ولايستطيع أحد أن يزحزحه، فإذا كانت حضارة الفراعنة قد وصلت إلى هذا الفن الهندسى باستخدام تفريغ الهواء بين أثقال ضخمة فهى حضارة راقية جدا. هذا إن نظرت إلى فن البناء فقط، وكذلك إن نظرنا إلى تحنيط الجثث التى لا يعرف أحد سرها حتى الآن، وكيف أمكن المحافظة على المومياوات آلاف السنين دون أن تتحلل. وكذلك إن نظرت إلى الألوان التى طليت بها المعابد والرسومات وبقيت زاهية كما هى رغم كل ذلك الزمن الطويل، وإلى الحبوب التى حُنطت وبقيت آلاف السنين دون أن يصيبها أى تلف، بل وصالحة للطعام، هذه الحضارة التى أحتفظت بأسرار هذه الأشياء فلم تصل إليها البشرية حتى الآن، لابد أن تكون حضارة قوية وعالية، ولكنها رغم قوتها وعلوها لم تستطع أن تحفظ نفسها من الانهيار لتصبح أثراً وتظل آثارا.

أين ذهب صناع هذه الحضارة وقد بلغوا شأواً كبيرا وملكوا زمام الدنيا فى عصرهم؟ لابد - إذن - من وجود قوة أعلى منهم، قد دكتهم. ولماذا أتى الله بآل فرعون فى هذه الآية بالاسم بينما أتى بالحضارات التى كانت قبلهم إجمالاً؟، فقال تعالى:

﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾

(من الآية ٥٢ سورة الأنفال)

لأن آثار آل فرعون قد كشف الله عنها ورَغّبَ فيها البشرية كلها؛ ليأتوا ويروا تلك الحضارة الهائلة التى لم تستطع أن تحمى نفسها، وذلك الفرعون الذى ادعى أنه إله ولم يستطع أن يضمن لنفسه البقاء. وشاء الله سبحانه أن تبقى آثار هذه الحضارة ليشاهدها الناس جميعاً، ثم يروا أن الله عز وجل قد

أهلك أصحابها وأصبحوا أثراً بعد عين؛ ليعرفوا أن القوة لله جميعاً، وأن الألوهية لله وحده، وأن كل شيء هالك إلا الله؛ لذلك ذكرت حضارة آل فرعون مخصصة، وهذا الذكر لآثار قوم فرعون من إعجازات القرآن؛ لأنه ذكر هذه الحضارة تخصيصاً ثم جاء الحق بخبر الحضارات الأخرى إجمالاً؛ قوم نوح وعاد وإرم وثمود. وكلهم : ﴿ كفروا بآيات الله ﴾

وعرفنا أن الآيات تطلق ثلاث إطلاقات : الآيات الكونية التى تثبت وجود الخالق الأعلى مثل قوله تعالى :

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة فصلت)

وكذلك المعجزات التى يؤتيها الله رسله لإثبات صدق بلاغهم عن الله مثل انشقاق البحر لموسى عليه السلام ، وإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله لعيسى عليه السلام، ثم آيات القرآن الكريم التى هى محكم منهج الله فى الأرض.

وقول الحق : ﴿ كفروا بآيات الله﴾ ، نعلم منه أنهم أنكروا وجود الخالق، والأصل فى الكفر هو الستر، وكفر يعنى ستر. ولذلك يسمون الزارع بالمعنى اللغوى : كافر؛ لأنه يحضر الحب ويستره بالتراب، ويسمون الليل لغويا : كافر ؛ لأنه يستر الأشياء. والشاعر يقول :

لى فيك أجـــر مجـــاهد

إن صـــح أن اللـــيل كافـر

ومعنى « كفروا » أى ستروا وجود الله تعالى، إذن فالله عز وجل موجود ثابت الوجود قبل أن يستروه بالكفر؛ لأن الإيمان أصل فى وجود الخلق، والخلق قد وجدوا على الإيمان، ثم جاء أناس ستروا هذا الإيمان. إذن فكلمة

الكفر التى معناها الستر دليل من أدلة الإيمان، وإلا لو لم يكن الله موجوداً فكيف يسترون ما ليس له وجود ؟، فإذا قال لك أحد: إنه كفر - والعياذ بالله - تقول: الكفر هو الستر؛ فماذا سترت ؟ لابد أنك سترت ما هو موجود، وقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ كفروا بآيات الله ﴾

أى كفروا بآياته الكونية فلم يؤمنوا رغم الآيات الظاهرة التى تملأ الكون، وكفروا بآيات الرسل فكذبوا رسلهم رغم أنهم جاءوهم بمعجزات تخرق قوانين الحياة، ولم يصدقوا آيات الكتاب التى أنزلت من السماء لتبين لهم منهج الله تعالى:

وقوله تعالى:

﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ٥٢ سورة الأنفال)

إيجاز معبر يذكر لك لماذا أخذهم الله بذنوبهم:

﴿ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾

(من الآية ٥٢ سورة الأنفال)

والأخذ فى قوله تعالى: ﴿ فأخذهم ﴾ كان بسبب ما ارتكبوه من ذنوب وإفساد فى الأرض. والإنسان حين يجد سوءاً يحيط به وعذاباً أليماً يأتيه فهو يحاول أن يفرّ منه، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى فى آية أخرى:

﴿ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾

(من الآية ٤٢ سورة القمر)

أى أن قدرة الله تعالى تمسك الكافر مسكة محكمة فلا يستطيع فرارا أو هروبا.

وقوله سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾

(من الآية ٥٢ سورة الأنفال)

أى أن الله أقوى من كل ما تصنعون فى كونه ، وعقابه تعالى شديد وأليم. ونعلم أن العقاب لا يعم الناس إلا بقدر ذنوبهم ، فليس معنى أن الله شديد العقاب أن تصيب شدة العذاب مَنْ فعل ذنباً بسيطاً ، ولكنْ لكلٍ جزاؤه على قدر ذنبه ؛ وهذا العقاب مهما كان بسيطاً فهو شديد أليم ؛ لأن العقاب من الله إنما يحدث بقدرات الله ، فمهما كان بسيطاً فهو شديد أليم ، وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فأخذهم الله بذنوبهم ﴾

هذا القول لا يدخل فى الجبرية التى يقول عنها الشاعر :

ألقاه فى اليم مكتوفاً وقال له

إيـاك إيـاك أن تبتل بالمـاء

ويخطىء من يظن أن الله قد كتب جبرا على إنسان أن يكون كافراً ثم يلقى به فى نار جهنم ، لا ؛ لأن مثل هذا الأمر يتنافى مع عدالة الله سبحانه وتعالى ، فأنت أيها الإنسان مخير بين الطاعة وبين المعصية ، بين الإيمان وبين الكفر. وعلى هذا نفهم قول الحق :

﴿ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ﴾

(من الآية ٥٢ سورة الأنفال)

أى بسبب ذنوبهم ، ومادام الحق تبارك وتعالى قد توعدهم بعقاب شديد فهذا دليل على شدة ظلمهم .

ثم يعطينا الحق سبحانه وتعالى الحيثية لذلك فيقول تعالى :

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾

و « ذلك » إشارة إلى ما تقدم، وأنت إن نظرت إلى بداية البشرية تجد أن الله تعالى خلق آدم ليجعله خليفة فى الأرض، وخلق حواء لإبقاء النوع الإنسانى. وقبل أن ينزل آدم على الأرض أعطاه الله سبحانه وتعالى المنهج، ومن آدم وحواء بدأت ذريتهما، ولو ساروا على المنهج الذى علمه آدم لهذه الذرية، لصارت البشرية إلى سعادة. ولكن الذرية تغيرت، وجحدوا النعمة وأنكروا أنَّ للنعمة خالقاً، فهل يبقى الله عليهم الأمن والسلامة والنعم ماداموا قد تغيروا؛ لا. بل لابد - إذن - أن يغير الله نعمه عليهم، وإلا لما أصبح هناك أى منطق للدين؛ لأن الإنسان قد طرأ على النعم، بمعنى أن الله لم يخلق الإنسان ثم خلق له النعم. بل خلق النعم أولاً ثم جاء الإنسان إلى كون أعد له إعداداً كاملاً؛ وفيه كل مقومات الحياة واستمرار الحياة. وظل الإنسان فترة طويلة فى طفولة الحياة يرتع فى نعم الله، فقبل أن يعرف الزراعة؛ وجد الثمار التى يأكلها. وقبل أن يعرف كيف يبحث عن الماء وجد الماء الذى يشربه، وعلمه الله كيف يعيش. وذلل له من الحيوان ما يعطيه اللبن واللحم، وكل هذه النعم وغيرها كان لابد أن يأخذها الإنسان بالشكر واستمرار الولاء لله الخالق المنعم.

ولكن الإنسان جحد نعمة الله تعالى وجحد المنعم، أتبقى له سعادة وحياة مطمئنة فى الأرض ؟ طبعاً لا، ومادام الإنسان قد غير، لابد أن يغير الحق النعمة إلى نقمة، ومن رحمته سبحانه أنه شاء أن يكون الإنسان هو البادىء، فالحق سبحانه منزّه أن يكون البادىء بالظلم، بل بدأ الإنسان يظلم نفسه.

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾

(من الآية ٥٣ سورة الأنفال)

إذن فذرية آدم بدأت أولاً بتغيير نعمة الإيمان إلى الكفر، ومن شكر النعمة إلى جحودها، فجزاهم الله تعالى بالطوفان وبالصواعق وبالهلاك؛ لأنهم غيروا ما بأنفسهم، ولو أنهم عادوا إلى شكر الله وعبادته؛ لأعاد لهم الله نعَم الأمن والاستقرار والحياة الطيبة.

ويلفتنا المولى سبحانه وتعالى إلى أن اتباع المنهج يزيد النعم ولا ينقصها، فيقول :

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾

(من الآية ٩٦ سورة الأعراف)

وطبقاً لهذا القانون الإلهى نجد أن تغير الناس من الإيمان إلى الكفر لابد أن يقابله تغيير من نعمة الله عليهم وإلا لأصبح منهج الله بلا قيمة، والمثال أن كل طالب يدخل امتحاناً، ولكن لا ينجح إلا من ذاكر فقط، وأما من لم يستذكر فإنه يرسب؛ حتى لا تكون الدنيا فوضى. ولو أن الله سبحانه وتعالى أعطى لمن اتبعوا المنهج نفس العطاء الذى يعطيه لمن لا يتبعون المنهج فما هى قيمة المنهج ؟.

إذن لابد أن يدخل الإنسان إلى الإيمان، وأن يكون هذا الإيمان متغلغلاً فى أعماقك وليس أمراً ظاهريا فقط، فلا تدَّع الإصلاح وأنت تفسد، ولا تدع الشرف والأمانة وأنت تسرق، ولا تدع العدل وأنت تظلم الفقير وتحابى الغنى؛ لأن الحق سبحانه وتعالى لا يعطى نعمه الظاهرة والباطنة إلا لمن يتبعون منهجه. وإذا رأيت قوماً عمّ فيهم الفساد فاعلم أن نفوسهم لم تتغير رغم أنهم يتظاهرون

باتباع المنهج الإلهى.

وإن شكونا من سوء حالنا فلنعرف أولاً ماذا فعلنا ثم نغيره إلى ما يرضى الله عز وجل فيغير الله حالنا. ولذلك إذا وجدت كل الناس يشكون فاعلم أن هذا قد حدث بسبب أن الله غير نعمه عليهم ؛ لأنهم غيروا ما بأنفسهم . أى أن حالتهم الأولى أنهم كانوا فى نعمة ومنسجمين مع منهج الله ، فغيروا انسجامهم وطاعتهم فتغيرت النعمة ، أى أن هناك تغييرين أساسيين ، أن يغير الله نعمة أنعمها على قوم ، وهذا لا يحدث حتى يغيروا ما بأنفسهم.

وقوله تعالى :

﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

(من الآية ٥٣ سورة الأنفال)

أى أن الله تعالى يعلم حقيقة ما يفعلون ويسمع سرّهم وجهرهم ، ولذلك إذا غيروا ، سمع الله سبحانه وعلم ؛ لأن التغيير إما أن يكون بالقول وإما أن يكون بالفعل ، فإن كان التغيير بالقول فالحق سبحانه يسمعه ولو كان مجرد خواطر فى النفوس ، وإن كان التغيير بالعمل فالحق يراه ويعلمه ولو كان فى أقصى الأرض.

يعود الحق سبحانه وتعالى إلى آل فرعون فيقول :

﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾

يتساءل البعض : لماذا عاد الحق سبحانه وتعالى إلى آل فرعون ولم يأت بها

مع الآية الأولى ؟. نقول : لأن هناك فرقا دقيقا بين كل منهما . فالآية الأولى يقول فيها الحق تبارك وتعالى : ﴿ كفروا بآيات الله﴾ وفى الآية الثانية يقول فيها :

﴿ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ ﴾

(من الآية ٥٤ سورة الأنفال)

والآية الأولى تدل على أنهم كفروا بالآيات الكونية المثبتة لوجود الله تعالى وآيات الرسل وآيات الكتب التى أنزلت إليهم ، وفى هذه الآية كذبوا بآيات ربهم أى لم يصونوا النعم التى أعطاها الله لهم ، فنعم الله عطاء ربوبية ، وتكاليفه ومنهجه عطاء ألوهية ، وهم فى الآية الأولى كذبوا بعطاء الألوهية ، أى كفروا بالله. وفى الآية الثانية كذبوا بعطاء الربوبية أى بنعم الله ، فعطاء الربوبية هو عطاء رب خلق من عَدم وأمَد من عُدم لتكتمل للإنسان مقومات حياته. والله يساوى فى عطاء الربوبية بين المؤمن والكافر وبين العاصى والطائع ، ولا يفرّق بينهم بسبب الإيمان أو الكفر.

وهنا يقول المولى سبحانه وتعالى :

﴿ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ۚ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴾

(من الآية ٥٤ سورة الأنفال)

أى لم يكن بينهم مؤمن وكافر بحيث يكون هنا تفرقة بأن ينجى المؤمنين ويغرق الكافرين ، بل كلهم ظلموا أنفسهم بالكفر ؛ لذلك قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وكل كانوا ظالمين ﴾ ، وذكر سبحانه آل فرعون بالتخصيص ؛ لأنهم الأمة الوحيدة التى بقيت حضارتها تدل على مدى تقدمها ، هذا التقدم الذى لم نصل إلى كل أسراره حتى الآن. ولا يمكن أن تنتهى مثل هذه الحضارة إلا بقوة أعلى من قوتها. فكأن الحق قد أراد أن يلفتنا إلى آل فرعون بالذات ؛ لأنه قدر

للبشرية أن تكتشف آثار آل فرعون، وآثارهم لافتة للعالم أجمع، ووضع فى قلوب البشر حب أن يأتوا ليروا حضارة آل فرعون ، ويتعجبوا كيف وصلوا إلى هذه المنزلة العالية من الحضارة، ثم انهارت هذه الحضارة كدليل على وجود قوة أعلى وهى الله سبحانه وتعالى، وقد أهلكهم الحق لأنهم كفروا بالألوهية واتخذوا فرعون إلها وربا من دون الله ، وكفروا بنعمة الربوبية التى أعطاها الله لهم، والتى يذكر الله جزءا منها فى قوله الكريم :

﴿ كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾

(سورة الدخان)

إذن فالله تعالى قد أعطاهم الزرع والماء ولم يعطهم بتقتير، بل أعطاهم بوفرة وسعة؛ لذلك قال تعالى : ﴿جنات وعيون﴾

وأعطاهم الثروة والقوة التى تحفظ لهم كرامتهم؛ وتجعلهم أسياد الأرض فى عصرهم، وحققت لهم مقاماً كريماً ولم يجرؤ أحد على أن يهينهم، ولا أن يعتدى عليهم، فقد كان عندهم كنوز الأرض؛ وعندهم القوة التى تحفظ لهم الكرامة فى قوله تعالى :

﴿ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾

(سورة الدخان »

وأعطاهم من العلم ما يوفر لهم الترف والحياة الطيبة الرغدة المريحة فى كل شىء، ولكنهم كفروا بنعم الربوبية هذه، كما كفروا بنعمة الألوهية؛ فاستحقوا العقاب، وبقيت آثارهم تدل عليهم؛ نجد فيها الذهب والكنوز، وقد دفنت مع موتاهم، ونجد فيها الحضارة والقوة فى المعارك التى صوروها على معابدهم بتوضيح وإتقان. ونرى فيها النعمة الهائلة التى كان يعيش فيها فرعون

وقومه، ولكنهم لم يؤدوا حقها وكفروا بالخالق واهب النعم.

ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك :

﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾

﴿ الدواب ﴾ جمع دابة، والدابة هى كل ما يدب على وجه الأرض، فإذا كان هذا هو المعنى يكون الإنسان داخلاً فى هذا التعريف، ولكن العرف اللغوى حدد الدابة بذوات الأربع، أى الحيوانات. وشرف الخالق سبحانه وتعالى الإنسان بأن جعله لا يمشى على أربع، فلا يدخل فى هذا التعريف. وقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾

(من الآية ٥٥ سورة الأنفال)

يبين لنا أن الله سبحانه وتعالى قد ألحق الكفار بالدواب واستثنى المؤمنين فقط، فسبحانه خلق الدواب وباقى أجناس الكون مقهورة تؤدى مهمتها فى الحياة بالغريزة وبدون اختيار؛ والشىء الذى يحدث بالغرائز لا تختلف فيه العقول، ولذلك نجد كثيراً من الأشياء نتعلمها نحن أصحاب العقول من الحيوانات والحشرات التى لا عقول لها؛ لأن الحيوانات تتصرف بالغريزة، والغريزة لا تخطىء أبداً، فإذا قرأنا قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ﴾

(من الآية ٣١ سورة المائدة)

نجد أن الغراب الذى لا اختيار له، ولا عقل؛ علم الإنسان الذى له عقل

واختيار. وقد حدث ذلك لأن الغراب محكوم بالغريزة. إذن فكل ما يقوم به الحيوان من سلوك هو باختيار الله سبحانه وتعالى ؛ لأن الحيوان مقهور على التكاليف. ومن رحمة الله تعالى أن المخلوقات باستثناء الإنسان خلقت مقهورة؛ تفعل كل شيء بالغريزة وليس بالعقل، ولكن الإنسان الذى كرمه الله بالعقل يكفر ويعصى. رغم أن الحق أنعم على الإنسان بنعمة الاختيار.

ومن العجيب أننا نجد الحيوان المحكوم بالغريزة لا يخرج سلوكه عن النظام المجبول عليه ويؤدى مهمته كما رسمت له تماماً، فالدابة مثلاً تلد ويأخذون وليدها ليذبحوه فلا تنفعل ؛ لأن هذه مهمتها فى الحياة أن تعطى للإنسان اللحم. والحمامة ترقد على بيضها وعندما يخرج الفرخ الصغير تتولاه لفترة بسيطة جداً حتى يعرف كيف يطير وكيف يأكل ثم بعد ذلك تتركه؛ ليؤدى مهمته؛ لأنه محكوم بالغريزة. والغرائز لا تخطىء. ويتصرف بها الحيوان بدون تعليم له.

فإذا جئنا للإنسان نجد أن ألوان السلوك المحكومة بالغريزة فيه لا يتعلمها؛ إذا جاع طلب الطعام دون أن يعلمه أحد كيف يشعر بالجوع، فهذه غريزة. وإذا عطش طلب الماء دون أن يعلمه أحد معنى العطش ولا كيف يشرب. وكل واحد منا فى الغرائز متساو مع الآخر. ونجد الغنى والفقير والحاكم والغفير إذا شعروا بالجوع طلبوا الطعام، وإذا شعروا بالعطش طلبوا الماء. فكل شيء محكوم بالغرائز لا يوجد فيه تغيير.

ومن العجيب - مثلاً - أن الحمار حين يريد أن يعبر مجرى مائيا ينظر إليه، وبمجرد النظرة يستطيع أن يعرف هل سيعبره أو لا، فإن كان قادراً قفز قفزة واحدة ليعبر، وإن لم يقدر بحث عن طريق آخر. ولا تستطيع أن تجبر حماراً على أن يعبر مجرى مائيا لا يقدر على عبوره، ومهما ضربته فلن يستجيب لك ولن يعبر. أما الإنسان إن طلبت منه أن يعبر قناة مائية فقد يقول لنفسه :

سأجمع كل قوتى وأقفز قفزة هائلة، وإن لم يكن قياسه صحيحاً، يسقط فى الماء، ذلك لأنه أخطأ وصورت له أداة الاختيار أنه يستطيع أن يفعل ما لا يقدر عليه. إذن فالمحكوم بالغريزة هو الأوعى.

وعندما نأتى إلى الأكل، نجد الحيوان المحكوم بالغريزة أكثر وعياً؛ لأنه يأكل فإذا شبع لا يذوق شيئاً. ولو جئت له بأشهى الأطعمة. فأنت لا تستطيع أن تجعل الحيوان يأكل عود برسيم واحداً، أو حفنة تبن، أو حبة فول بعد أن يشبع، وتجده يدوس على ما زاد عن حاجته بقدميه. وتعال إلى إنسان ملأ بطنه وشبع وغسل يديه، ثم قالوا له مثلا: أنت نسيت الفاكهة، أو نسيت الحلوى، تجده يعود مرة أخرى ليأكل وهو شبعان؛ فيتلف معدته ويتلف جسده. ولذلك تجد الإنسان مصاباً بأمراض كثيرة لا تصيب الحيوان؛ لأنه يسرف فى أشياء كثيرة، بل تجد أن الأمراض التى تصيب الحيوان معظمها من تلوث بيئة الحيوان مما يفعله الإنسان.

والحق سبحانه وتعالى يريد أن يخبرنا أن الدابة المحكومة بالغريزة خير من الكافر؛ لأن الدابة تؤدى مهمتها فى الحياة تماماً. بينما لا يؤدى الكافر مهمته فى الأرض، بل يفسد فيها ويسفك الدماء، وبذلك يكون شرا من الدابة. ولقد قلنا: إن الدّابة تحملك من مكان إلى مكان ولا تشكو، وتحَمل أثقالك ولا تتبرم. وتظل سائرة فترة طويلة وأنت جالس فوقها فلا تضيق بك وتلقيك على الأرض، لقد خُلقت لهذه المهمة وهى تؤديها كما خلقت لها دون شكوى أو ضجر؛ لأنهَا محكومة بنظام دقيق تتبعه وتنفذه. ولكن الإنسان اخترع السيارة وطور فيها، وقد يجلس أمام مقعد القيادة ويصيبه التعب فينعس ويقع فى حادثة فيصاب فيها ويصيب غيره أيضاً.

وكان من المفروض أن يتبع الإنسان فى حياته منهج ربه الذى أنزله إليه، لكن من البشر من كفر وأخذ يعربد فى الكون، وبذلك يكون شراً من الدابة؛

لأن الكافر لا يستخدم عقله فى أولويات الوجود ، وهو لو استخدم عقله لعرف أنه أقبل على كون قد أعد إعداداً دقيقاً ؛ شمس تضىء نصف الكون لتعطيه النهار ، وتغرب ليطل قمر يضىء بالليل يؤنسه فى الظلام ؛ ونجوم تهديه الطريق فى البر والبحر ، ومطر ينزل لينبت الزرع. وحيوان مسخر له يعطيه اللبن واللحم ويحمل أثقاله. كان لابد - إذن - للإنسان صاحب العقل أن يفكر : من الذى خلق له كل هذه النعم ؟ لأن هذه هى من أولى مهمات العقل الذى يفكر ، ويدلنا على الخالق. وكان لابد فى هذه الحالة أن يعرف الإنسان بعقله أن الذى صنع له كل هذه النعم وسخرها له لابد أنه يريد به خيراً. ولذلك إذا جاءه المنهج من السماء عليه أن يتبعه ؛ لأنه يعلم أن هذا المنهج خير ما يصلح له ؛ لأنه جاء من خالقه.

وفى هذه الحالة كان لابد لأمور الكون أن تستقيم. ولكن بعضاً من بنى الإنسان ستروا وجود الله وكفروا به ولذلك يوضح لنا الحق تبارك وتعالى أنهم شرّ من الدواب، لأنهم لا يؤمنون.

ثم يقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك :

﴿ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾

وبعد أن تكلم الحق سبحانه وتعالى عن الكافرين الذين حاربوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، ينتقل هنا للكلام عن الجماعة التى عاهدت رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن يكفوا عنه شرهم، وألا يتعرض لهم الرسول، وهم اليهود، فهل ظلوا على وفائهم بالعهد ؟ لا . بل نقضوا العهد.

بنو قريظة - مثلا - عاهدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على ألا يعينوا عليه أحدا، ولما جاءت موقعة بدر مدوا الكفار بالسلاح ونقضوا العهد، ثم عادوا وأعطاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عهداً ثانياً، وعندما جاءت غزوة الخندق اتفقوا على أن يدخل جنود قريش من المنطقة التى يسيطرون عليها ليضربوا جيش المسلمين من الخلف فى ظهره، فأرسل الله ريحاً بددت شمل الكفار، إذن فقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ ﴾

(من الآية ٥٦ سورة الأنفال)

وهم قد فعلوا ذلك؛ لأنهم تركوا منهج الله وخافوا من رسول الله فحاولوا أن يخدعوه بنقض المعاهدات. وقوله تعالى : ﴿وهم لا يتقون﴾

إنهم لا يتقون الله - عز وجل - الذى يؤمنون به إلها ؛ لأنهم أهل كتاب؛ جاءتهم التوراة، وجاءهم رسول وهو موسى عليه السلام، وهم ليسوا جماعة لم يأتها كتاب بل نزل عليهم كتاب سماوى هو التوراة، ومع ذلك لا يتبعون ما فى كتابهم ولا يتقون الله تعالى، فهم أولاً ينقضون العهد، والنقض ضد الإبرام، والإبرام هو أن تقوى الشىء تماماً كما تبرم الخيط أى تقويه، وعندما تقوى الخيط فأنت تجعله ملفوفاً على بعضه ليصبح متيناً. فالخيط الذى طوله شبران عندما تبرمه يصبح طوله شبراً واحداً ويصبح قويا، فإذا فككته أي نقضته أصبح ضعيفاً، ولذلك يقول المولى سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَـٰثًا ﴾

(من الآية ٩٢ سورة النحل)

ويعطينا الحق سبحانه وتعالى الحكم فى هؤلاء؛ أولئك الذين لا يؤمنون،

ولا يتقون وينقضون عهدهم؛ فيأتى فيهم القول الحق :

﴿ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾

أى إن وجدتهم فى أى حرب فشرد بهم من خلفهم .

ولنا أن نلحظ أن كلمة « إما » هى إن الشرطية المدغمة فى « ما » إذا ما حذفنا منها ما ، نجد أنها تصبح إن ، كأنه يقول : « إنْ مَا »، وأدغمت نون « إن » فى «ما»، مثلها مثل أن نقول : إن جاءك زيد فأكرمه؛ هذه جملة شرطية فيها شرط وجواب وأداة شرط ، ولكنه إذا تم مرة واحدة يكون قد انتهى. ولكن «ما» مع إن الشرطية تدلنا على أنه كلما حدث ذلك فإننا نفعل بهم ما أمر الله تعالى به، كما نقول : كلما جاءك زيد فأكرمه؛ لأن إما هذه تتضمن ما يفيد الاستمرارية، مثل « كلما » فكلما جاءك تكرمه ولو جاء مائة مرة، ولو لم تجىء « ما » لكان يكفى أن تصنعها مرة واحدة .

وقوله تعالى : « تثقفنهم فى الحرب »، ثقف بمعنى وجد، أى كلما وجدتهم فى الحرب : فشرد بهم من خلفهم، أى اجعلهم أداة لتشريد من خلفهم. وعليك أن تؤدبهم أدباً يجعل الذين وراءهم يخافون منكم، ويبتعدون عنكم، وكلما رأوكم أصابهم الخوف والهلع ، وكما يقول المثل العامى : «اضرب المربوط يخاف السايب» . أى أن المطلوب أن نجاهدهم بقوة وبدون شفقة، حتى لا يفكر فى مساندتهم من جاءوا خلفهم لينصروهم أو يؤازروهم بالدخول معهم فى القتال، ولا تحدثهم أنفسهم فى أن يستمروا فى المعركة، فشرد بهم، والتشريد هو التشتيت والتفريق والإبعاد ولكن بقسوة. فحيثما يريدوا أن يذهبوا؛ امنعهم وشتتهم على غير مرادهم. وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿لعلهم يذكرون﴾

أى لكى تكون هذه التجربة درساً لهم؛ كيلا يفكروا مرةً أخرى فى حربٍ

معك؛ لأنهم سوف يتذكرون ما حدث لهم فيبتعدون عن مواجهتك.

ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك :

﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾

وسبحانه وتعالى يبدأ هذه الآية بقوله : « وإما » ومثلها مثل « فإما » فى الآية السابقة وقد تم التوضيح فيها، وهنا يتحدث عن الآخرين الذين لا يواجهون بالحرب، بل يدبرون لخيانة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ونقول: هل هذه الخيانة مقطوع بها ؟ أو أنت أخذت بالشبهات ؟. الله سبحانه وتعالى هنا يفرق بعدالته فى خلقه بين الخيانة المقطوع بها والخيانة غير المقطوع بها، فالخيانة المقطوع بها لها حكم، والخيانة المظنون بها لها حكم آخر. ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً ﴾

(من الآية ٥٨ سورة الأنفال)

أى بلغك أنهم سيخونونك، ماذا تفعل فيهم ؟ .

يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ﴾

(من الآية ٥٨ سورة الأنفال)

أى أنه مادام هناك عهد والعهد ملك لطرفين، هذا عاهد وذاك عاهد، فإياك أن تأخذهم على غرة، بل انبذ إليهم، والنبذ هو الطرح والإبعاد، أى عليك أن تلغى العهد الذى بينك وبينهم، وتنهيه، وتبعده بكراهية. فساعة تخاف الخيانة

أبعدهم، ولكن لا تحاربهم قبل أن تعلِمَهُم أنك قد ألغيت العهد بسبب واضح معلوم.

وقد علم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن قبيلة خزاعة - كانت من حلفائه بعد صلح الحديبية - وكان الصلح يقضى ألا تهاجم قريش حلفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم، وألا يهاجم رسول الله صلى الله عليه وسلم حلفاء قريش، وذهب بعض من أفراد قريش إلى قبيلة خزاعة وضربوهم، أى أن قريشاً خانت العهد، ونقضت الميثاق الذى كان بينها وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم، وذلك بمعاونتها بنى بكر فى الاعتداء على خزاعة حلفاء الرسول صلى الله عليه وسلم فماذا فعل الناجون من خزاعة ؟. أرسلوا عنهم عمرو بن سالم الخزاعى يصرخ عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المدينة وقال: إن قريشاً أخلفتك الوعد ونقضت ميثاقك، ولما حدث هذا لم يبق رسول الله صلى الله عليه وسلم المسألة سراً، بل أبلغ قريشاً بما حدث. وأنه طرح العهد الذى تم فى صلح الحديبية بينه وبين قريش.

وعندما جاء أبو سفيان إلى المدينة ليحاول أن يبرر ما حدث. رفض رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقابله.

إذن فإن وجدت من القوم الذين عاهدتهم بوادر خيانة فانبذ العهد، أما إن تأكدت أنهم خانوك فعلاً وحدثت الخيانة ففاجئهم بالحرب، تماماً كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم مع اليهود بعد أن خانوه فى غزوة الخندق ونقضوا العهد والميثاق.

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾

(من الآية ٥٨ سورة الأنفال)

فكأن الله تعالى برىء، ورسول الله صلى الله عليه وسلم برىء، والمسلمون أبرياء أن يخونوا حتى مع الذين كفروا؛ وهذه تؤكد لنا أن الإسلام جاء ليعدل الموازين فى الأرض؛ ليس بالنسبة للمؤمنين به فقط بل بالنسبة للناس جميعاً. ولذلك إن قرأت قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ﴾

(من الآية ١٠٥ سورة النساء)

تلاحظ أن الآية لم تقل : بين المؤمنين . ، ولكن قالت : ﴿ بين الناس ﴾؛ حتى لا تكون هناك تفرقة فى العدل بين مؤمن وغير مؤمن، فغير المؤمن مخلوق لله، استدعاه الله إلى هذا الوجود، وسبحانه قد أعد له مكانه فى هذا العالم؛ لذلك لابد أن تراعى العدل معه فى كل الأمور ولا تظلمه بل تعطيه حقه؛ لأنك بذلك تكون أنت مددا من إمدادات الله. وقد كان هذا السلوك العادل الذى أمر به الله سبباً فى دخول عدد كبير فى الإسلام . ونجد الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴾

(من الآية ١٠٥ سورة النساء)

أى لا تناصر - يامحمد - الخائنين حتى وإن كانوا من أتباعك . وقد نزلت هذه الآية عندما سُرق درع من قتادة بن النعمان وهو من الأنصار، وحامت الشبهة حول رجل من الأنصار من بيت يقال لهم : بنو أبيرق. فجاء صاحب الدرع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال : إن طعمة بن أبيرق سرق درعى، فلما علم السارق بما حدث، وضع الدرع فى جوال دقيق وأسرع وألقاه فى بيت رجل يهودى اسمه زيد بن السمين. وقال لعشيرته : إنى وضعت الدرع فى منزل اليهودى زيد بن السمين ، فانطلقوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا : يا رسول الله إن صاحبنا برىء . والذى سرق الدرع هو فلان

اليهودى. وذهب الصحابة فوجدوا الدرع فى جوال دقيق فى بيت اليهودى. ولكن اليهودى أنكر أنه سرق الدرع وقال: لقد أتى به طعمة بن أبيرق ولم يلحظ طعمة أثناء نقل جوال الدقيق أن بالجوال ثقباً صغيراً ، تسرب منه الدقيق ليصنع علامة على الأرض، وذلك من غفلته؛ لأن الله لابد أن يترك دليلاً للحق يهتدى به القاضى حتى لا يضيع الحق؛ فتتبع المسلمون علامة الدقيق حتى أوصلتهم إلى بيت طعمة بن أبيرق وأصبحت القضية أن السارق مسلم. ولكنه اتهم اليهودى كذباً بالسرقة. وقال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن حكمت لليهودى على المسلم يكون المسلمون فى خسة ودناءة وحرج، وإذا بالوحى ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ليعصمه من تعدى خواطره فى هذه المسألة :

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ ﴾

(سورة النساء)

أى لا تكن لأجل ولصالح الخائنين مدافعا عن أى واحد منهم ولو كان هذا الخائن مسلماً. وهكذا كان عدل الإسلام فى أن حكم الله تعالى لا ينصر مسلماً على باطل ولا يظلم يهوديا، ألا يرون هذا الدين وما فيه من قوة الحق ؟ ألا يدفعهم ذلك إلى أن يتجهوا إلى هذا الدين الإسلامى دين العدالة والإنصاف ليكونوا فى أحضانه ؟!

وهنا يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ﴾

(من الآية ٥٨ سورة الأنفال)

أى قل لهم إنى ألغيت هذا العهد الذى بينى وبينكم وأصبحت فى حل منه .

وقوله تعالى : ﴿ إن الله لا يحب الخائنين ﴾

يبين أنه سبحانه وتعالى لا يحب الخائنين حتى ولو كانوا من المنسوبين للإسلام.

ثم يقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك :

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾

حين دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مع الكفار فى حرب ، قُتل فريق من الكفار ، وأُسر فريق آخر منهم ، وفر فريق ثالث ، وأما الذين قتلوا والذين أسروا فقد أخذوا جزاءهم ، والذين فروا نجوا من القتل ومن الأسر ، فكأنهم سبقوا فلم يلحق بهم المسلمون الذين أرادوا أن يقتلوهم أو يأسروهم . والسبق أن يوجد شىء يريد أن يلحق بشىء أمامه فيسبقه ؛ ولا يستطيع اللحاق به . فكأن الكفار عندما فروا سبقوا المسلمين الذين لو لحقوا بهم لقتلوهم أو أسروهم .

الحق سبحانه وتعالى يريدنا أن نعرف أن هذا هو ظاهر ما حدث ، ولكن الحقيقة التى يريدنا الله عز وجل أن نفهمها هى أن هؤلاء الكفار الذين فروا وسبقوا ، ولم تلحقهم أيدى المسلمين ، هؤلاء لا يعجزون الله تعالى ولا يخرجون عن قدرته سبحانه وتعالى وسوف يأتيهم العذاب فى وقت لاحق ، إما بانقضاء الأجل وإما فى معركة ثانية .

وعادة نجد أن كلاً من السابق والمسبوق يستخدم أقصى قوته ، الأول ليفر والثانى ليلحق به. ولذلك عندما تراهما فقد تتعجب من القوة التى يجرى كل

منهما بها، وهذه هى الطبيعة الإنسانية، فساعة الأحداث العادية يكون للإنسان قوة وقدرة. وساعة الأحداث المفاجئة تكون له أى للإنسان ملكات أخرى. فإذا غرقت سفينة فى البحر مثلاً وتعلق واحد من ركابها بقطعة خشب من حطام السفينة، تجده يسبح لفترة طويلة دون أن يشعر بالتعب. فإذا وصل إلى الشاطىء خارت قواه.

ولقد عرفنا سر ذلك عندما اكتشف علم وظائف الأعضاء أن الإنسان عنده غدة فوق الكلى هى الغدة الكظرية، إذا وقع فى مأزق مفاجىء تفرز مادة « الادرينالين » وهذه مادة يمكن أن تعطيه عشرة أضعاف قوته، ولكن إذا زال الخطر تتوقف الغدة عن إفراز هذه المادة إلا بالنسبة التى يحتاجها الجسم، ولذلك تجد الإنسان الذى يصارع الموج فى البحر تمده هذه الغدة بالوقود، فإذا وصل إلى الشاطىء توقفت الغدة عن الإفراز الزائد المناسب للخطر فتخور قواه وربما يظل ثلاثة أيام نائماً من التعب.

وهناك قصة خيالية رمزية تروى عن صائد أرسل كلبه يجرى وراء غزال ليأتيه به، والكلب يجرى يريد اللحاق بالغزال، والغزال يجرى طلباً للنجاة، وفجأة التفت الغزال إلى الكلب وقال له : لن تلحقنى؛ لأنى أجرى لحساب نفسى وأنت تجرى لحساب صاحبك.

فمن يفعل شيئاً لينجو بنفسه يكون قويا. وقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴾

(من الآية ٥٩ سورة الأنفال)

أى إنهم فى قبضة المشيئة لايخرجون عن قدرة الله الذى سيحضرهم ويحاسبهم.

وبعد أن تكلم الحق سبحانه وتعالى عمن حارب، ومن عاهد وغدر، ومن

فر وسبق، ومن يريد أن يلحق به، أراد أن ينبهنا إلى حقيقة هامة وهى ألا نقصر فى إعدادنا للقوة التى تعيننا على ملاقاة الأعداء وقت الحرب أو حتى تأتينا الحرب؛ لأننا قد نفاجأ بها فلا نستطيع أن نستعد، ولذلك لا يجب أن يقتصر استعدادنا للقتال إلى أن تأتى ساعة القتال ذاتها، لا، بل يجب أن نستعد سلماً وحرباً. ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك :

﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾

وقوله تعالى: ﴿ وأعدوا لهم ﴾ يعنى أن يكون الإعداد لكل من تحدث عنهم، وهم الذين قاتلوا وقتلوا وأصاب أهلهم ضرورة الثأر لمقتلهم، والذين أسروا، والذين نقضوا العهد نقضاً أكيداً أو نقضاً محتملاً، كل هؤلاء لابد أن تعد لهم ما جاء به قول الحق تبارك وتعالى: ﴿ ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ﴾

وهذا تكليف من الله تعالى لعباده المؤمنين الذين يجاهدون لإعلاء كلمته بضرورة أن يعدوا دائماً قدر إمكانهم ما استطاعوا من قوة.

ولماذا قدر استطاعتهم ؟

لأن الإنسان محدود بطاقة، ووراء قدرة المؤمنين قدرة الله سبحانه. ولذلك

أنت تعد قدر ما تستطيع ثم تطلب من الله أن يعينك. وإذا ما صنعت قدر استطاعتك، إياك أن تقول: إن هذه الاستطاعة لن توصلنى إلى مواجهة ما يملكه خصمى من معدات يمكن أن يهاجمنى بها، فخصمك ليس له مدد من السماء إنما أنت لك المدد السماوى، ومادام لك هذا المدد فقوتك بمدد الله تجعلك الأقوى مهما كان عدوك، ولذلك عندما يحدث الله تعالى المؤمنين يوضح لهم: إياكم أن تخافوا من كثرة عدد عدوكم، والمطلوب منكم أن تعدوا له ما استطعتم من قوة وحتى أطمئنكم أنى معكم، تذكروا آية واحدة أنزلتها، وهى:

﴿ سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ ﴾

(من الآية ١٥١ سورة آل عمران)

وساعة يلقى الله عز وجل فى قلوب الذين كفروا الرعب سيلقون سلاحهم ويفرون من ميدان القتال ولو كانوا يحاربون بأقوى الأسلحة، وسيتمكن المؤمنون منهم وينتصرون عليهم بأية قوة أعدوها. وقوله تعالى:

﴿ ما استطعتم من قوة ﴾

هذه القوة قد تكون ذاتية فى النفس بحيث لا تخاف شيئاً، فجسم كل مقاتل قوى ممتلىء بالصحة وله عقل يعمل باقتدار وإقبال على القتال فى شجاعة، بالإضافة إلى قوة السلاح بأن يكون سلاحاً حديثاً متطوراً بعيد المدى، وأن يحرص المؤمنون على امتلاك كل شىء موصول بالقوة. وكان الهدف قديماً وحديثاًأن يمتلك المقاتل قوة تمكنه من عدوه ولا تمكن عدوه منه. وفى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كان مدى رمى السهام هو رمز القوة. فأول ماتبدأ الحرب يضربون العدو بالنبال، فإذا زحف العدو وتقدم يستخدمون له الرماح، فإذا تم الالتحام كان ذلك بالسيوف. وكانت أحسن قوة فى الحرب هى

السهام التى ترمى بها خصمك فتناله وهو بعيد عنك، ولا يستطيع أن ينالك أو يقترب منك. ولذلك عندما فسر رسول الله صلى الله عليه وسلم القوة قال فيما يرويه عنه عقبة بن عامر رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر يقول : ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة﴾ ، ثم قال : «ألا إن القوة الرمى، ألا إن القوة الرمى، ألا إن القوة الرمى». (١)

لأنك بالرمى تتمكن من عدوك ولا يتمكن هو منك، فإذا تفوقت فى الرمى كنت أنت المنتصر عليه .

ولكن كيف ينطبق ذلك على الحرب فى العصر الحديث بعد أن تطورت الأسلحة الفتاكة ؟ لقد صارت المدفعية لفترة من الزمن هى السلاح ؛ لأنها المحقق للنصر لبعد مداها، ثم جاءت الطائرات لتصبح هى السلاح الأقوى؛ لأنها تستطيع أن تقطع مسافة طويلة وتلقى بقنابلها وتعود. وصارت قوة الطيران هى التى تحدد المنتصر فى الحرب؛ لأنها تلحق بالعدو خسائر جسيمة دون أن يستطيع هو أن يرد عليها مادام غير متفوق فى الطيران، ثم بعدا ذلك جاءت الصواريخ والصواريخ عابرة للقارات، إلى آخر الأسلحة المتطورة التى تتسابق على اختراعها الدول الآن، وكلها أسلحة بعيدة المدى، والهدف أن تنال كل دولة أرض عدوها ولا يستطيع هو أن ينال أرضها. ويضيف الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ ﴾

(من الآية ٦٠ سورة الأنفال)

ورباط الخيل هو القوة التى تحتل الأرض، فمهما بلغت قدرتك فى الرمى فأنت لا تستطيع أن تستولى على أرض عدوك، ولكنَّ راكبى الخيل كانوا

(١) رواه الإمام مسلم وغيره.

يدخلون المعركة فى الماضى بعد الرمى ليحتلوا الأرض. وهذه عملية تقوم بها المدرعات الآن. فالمعركة تبدأ أولاً رمياً بالصواريخ والطائرات حتى إذا حطمت قوة عدوك انطلقت المدرعات لتحتل الأرض، فالطائرات والصواريخ تهلك العدو وتحطمه ولكنها لا تأخذ الأرض. ولكن الذى يمكننا من الأرض والاستيلاء عليها هو : رباط الخيل ، أو المدرعات، ورباط الخيل هو عقده للحرب، أى أن الخيل تُعد وتُعلف وتدرب وتكون مستعدة للحرب فى أية لحظة، تماماً كما تأتى للمدرعات وتعدها إعدادا جيداً بالذخيرة ، وتصلح ماكيناتها وتتدرب عليها لتكون مستعداً للقتال فى أى لحظة. ولذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عنه أبو هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من خير معاش الناس لهم رجل يمسك بعنان فرسه فى سبيل الله يطير على متنه كلما سمع هيعةً أو فَزْعةً طار على متنه يبتغى القتل أو الموت مظانَّه ، ورجل فى غنيمة فى شَعَفَة من هذه الشعفاء وبطن واد من هذه الأودية، يقيم الصلاة ويؤتى الزكاة ويعبد ربه حتى يأتيه اليقين ليس من الناس إلا فى خير (١) .

أى أنه لا ينتظر بل ينطلق لأى صيحة. ومن الإعجاز فى الأداء القرآنى أنه أعطانا ترتيباً للحرب، فالحرب أولاً تبدأ بهجوم يحطم قوى العدو بالرمى، سواء كان بالصواريخ أم بالطائرات أم بغيرهما ، ثم بعد ذلك يحدث الهجوم البرى، ولا يحدث العكس أبداً. ورتب الحق سبحانه وتعالى وسائل استخدام القوة أثناء القتال، فهى أولاً الرمى، وبه نهلك مكيناً ثم نستولى على المكان، وكان ذلك يتم برباط الخيل الذى تقوم مقامه المدرعات الآن. ونجد أن الحق سبحانه وتعالى جاء فى القرآن الكريم بالأداء الذى يعلم ما تأتى به الأيام من اختراعات الخلق، ونجد فى زماننا هذا كل قوة للسيارة أو المدرعة أو الدبابة

(١) رواه مسلم والنسائى ، وورد فى الترغيب والترهيب جـ ٢ صـ ٢٤٧ .

إنما تقاس منسوبة إلى الخيل، فيقال قوة خمسة أحصنة أو خمسمائة حصان.

ويقول المولى سبحانه وتعالى :

﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾

(من الآية ٦٠ سورة الأنفال)

فالقصد - إذن - من إعداد هذه القوة هو إرهاب العدو حتى لا يطمع فيكم؛ لأن مجرد الإعداد للقوة، هو أمر يسبب رهباً للعدو. ولهذا تقام العروض العسكرية ليرى الخصم مدى قوة الدولة، وحين تبين لخصمك القوة التى تملكها لا يجترىء عليك، ويتحقق بهذا ما نسميه بلغة العصر « التوازن السلمى ». والذى يحفظ العالم الآن بعد سقوط الاتحاد السوفيتى هو التوازن السلمى بين مجموعات من الدول، بالإضافة إلى العامل الاقتصادى المكلف للحرب، فالقوة الآن لا تقتصر على السلاح فقط، ولكن تعتمد القوة على عناصر كثيرة منها الاقتصاد والإعلام وغيرهما. وصار الخوف من رد الفعل أحد الأسباب القوية المانعة للحرب. وكل دولة تخشى مما تخفيه أو تظهره الدولة الأخرى.

وهكذا صار الإعداد للحرب ينفى قيام الحرب.

﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾

(من الآية ٦٠ سورة الأنفال)

ولا تظنوا أن من يواجهونكم هم أعداء الله فقط وقد سلطكم سبحانه عليهم، لا بل عليكم أن تعرفوا أن أعداء الله هم أعداؤكم أيضاً ؛ لأنهم يفسدون الحياة على المؤمنين. وعدو الله دائماً يحاول أن ينال من المؤمنين. وأن ينكل بهم، وأن يجبرهم إن استطاع على الكفر وأن يغريهم على ذلك. فالحق سبحانه وتعالى لا يغضب ؛ لأنهم لم يؤمنوا به، بل لأنهم لا يطبقون المنهج

الذى يسعد الإنسان على الأرض، فسبحانه وتعالى لا يكرههم ولكن يعاقبهم بسبب الإفساد فى الأرض وبغيهم وطغيانهم.

﴿ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾

(من الآية ٦٠ سورة الأنفال)

وهذه لفتة من الحق سبحانه وتعالى إلى أن أعداء المسلمين ليسوا هم فقط الذين ظهروا أثناء الرسالة من كفار قريش واليهود والمنافقين وغيرهم، ولكنَّ هناك خلقاً كثيراً سيأتون بعد ذلك لا تعلمونهم أنتم الآن ولكنَّ الله سبحانه وتعالى يعلمهم، كما يلفتنا سبحانه إلى أن أعداء المسلمين ليسوا هم الذين يظهرون فى ميدان القتال فقط ليحاربوا المسلمين، ولكنَّ هناك كثيراً ممن لا يظهرون فى ميدان القتال يحاربون دين الله ويحاربون المسلمين. وقد ظهر معنى هذه الآية الكريمة، ولايزال يظهر للمسلمين، فظهرت عداوة الفرس والروم وحربهم ضد المسلمين، وظهرت عداوة الصليبيين وغيرهم. ومع الزمن سوف يظهر من يعلمهم الله ولا نعلمهم نحن. وقد جاءت أحداث الحياة لتؤكد دقة تعبير القرآن الكريم.

ثم يتناول الحق سبحانه وتعالى هواجس النفس البشرية، وهى تنصت لهذه الآيات من الإعداد العسكرى، فالذى يخطر على البال أولاً أن مثل هذا الإعداد يتطلب مالاً، ويتطلب جهداً، ويتطلب زمناً فوق الزمن لقضاء المصالح والحوائج. فإياكم أن تنكصوا عن الاستعداد؛ لأن كل ما تنفقونه فى سبيل الله محسوب عند الله. وإياكم أن تقولوا: إنّ الإعداد لقوة المجتمع يحتاج مالاً ويقتر على الأبناء؛ لأن الله يرزقكم. ويقول سبحانه وتعالى:

﴿ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾

(من الآية ٦٠ سورة الأنفال)

أى أن ما تنفقونه مما يقال له : شىء سواء أكان قليلاً أم كثيراً يرد إليكم ، ولقد جاء التعبير بـ ﴿ من شىء﴾ فى قوله تعالى : ﴿واعلموا أنما غنمتم من شىء ﴾ أى مما يقال له شىء. ولو جاءت الآية : غنمتم شيئاً ، لما شملت الأشياء البسيطة ، ولكن قوله تعالى : ﴿ من شىء﴾ أى من بداية ما يقال له شىء ، حتى قالوا : إن الخيط الذى يوجد عند العدو لابد أن يذهب للغنائم ، وقوله تبارك وتعالى :

﴿ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ٦٠ سورة الأنفال)

. يعنى أى شىء تنفقونه فى سبيل الله تعالى مدخرلكم ما دمتم أنفقتموه وليس فى بالكم إلا الله عز وجل . أما الإنفاق الذى ظاهره لله وحقيقته للشهرة أو الحصول على الثناء أو للتفاخر أو لقضاء المصالح. فكل ذلك اللون من الإنفاق خارج عن الإنفاق فى سبيل الله ، لكن الإنفاق فى سبيل الله سيرده الله لكم مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ يوف إليكم وأنتم لا تظلمون ﴾

أى أن ما تنفقونه فى سبيل الله لا ينقص مما معكم شيئاً.

على أن الحق سبحانه وتعالى يريدنا أن نأخذ طريق العدل وليس طريق الافتراء ؛ لذلك يطلب منا عز وجل ألا يطغينا هذا الاستعداد للحرب على خلق الله ، فمادام لدينا استطاعة وأعددنا قوتنا وأسلحتنا فليس معنى ذلك أن نصاب بالغرور ونجترىء على خلق الله ؛ ولهذا فإن الله عز وجل ينبهنا إلى ذلك بقوله :

﴿ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ ﴾

أى أن الله لم يطالبنا بأن نكون أقوياء لنفترى على غيرنا، فهو لا يريد منا إعداد القوة للاعتداء والعدوان، وإنما يريد القوة لمنع الحرب ليسود السلام ويعم الكون؛ لذلك ينهانا سبحانه وتعالى أن يكون استعدادنا للقتال وسيلة للاعتداء على الناس والافتراء عليهم. ولهذا فإن طلب الخصم السلم والسلام صار لزاماً علينا أن نسالمهم. وإياك أن تقول : إن هذه خديعة وإنهم يريدون أن يخدعونا؛ لأنك لا تحقق شيئاً بقوتك ، ولكن بالتوكل على الله عز وجل والتأكد أنه معك، والله عز وجل يريد الكون متساندا لا متعانداً . وهو سبحانه وتعالى يطلب منك القوة لترهب الخصوم. لا لتظلمهم بها فتقاتلهم دون سبب. وقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا ﴾

(من الآية ٦١ سورة الأنفال)

أى إن مالوا إلى السلم ودعوك إليه فاتجه أنت أيضاً إلى السلم، فلا داعى أن تتهمهم بالخداع أو تخشى أن ينقلبوا عليك فجأة؛ لأن الله تعالى معك بالرعاية والنصر، وأنت من بعد ذلك تأخذ استعدادك دائماً بما أعددته من قوتك.

وقول الحق :

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ٦١ سورة الأنفال)

أى إياك أن تتوكل أو تعتمد على شىء مما أعددت من قوة؛ لأن قصارى الأمر أن تنتهى فيه إلى التوكل على الله فهو يحميك. ثم يعطينا الحق سبحانه وتعالى حيثية ذلك فيقول :

﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾

(من الآية ٦١ سورة الأنفال)

أى أنه لا شىء يغيب عن سمعه إن كان كلاماً يقال، أو عن علمه إن كان فعلاً يتم. وإياك أن تخلط بين التوكل والتواكل، فالتوكل محله القلب والجوارح تعمل؛ فلا تترك عمل الجوارح وتدعى أنك تتوكل على الله، وليعلم المسلم أن الانتباه واجب، وإن رأيت من يفقد يقظته لابد أن تنبهه إلى ضرورة اليقظة والعمل، فالكلام له دور هنا، وكذلك الفعل له دور؛ لذلك قال الله سبحانه وتعالى:

﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾

(من الآية ٦١ سورة الأنفال)

ولنلحظ أن قول الحق تبارك وتعالى:

﴿ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ ﴾

(سورة الأنفال)

هذا القول إنما جاء بعد قوله تعالى:

﴿ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾

(من الآية ٦٠ سورة الأنفال)

وهى آية تحض على الاستعداد للقتال بإعداد العدة له.

ويريد الحق تبارك وتعالى أن ينبهنا إلى أن قوة المؤمنين واستعدادهم الحربى يجب ألا يكونا أداة للطغيان، ولا للقتال لمجرد القتال. ولذلك ينبهنا سبحانه وتعالى إلى أنهم لو مالوا إلى السلم فلا تخالفهم وتصر على الحرب؛ لأن الدين يريد سلام المجتمع، والإسلام لا ينتشر بالقوة وإنما ينتشر بالإقناع والحكمة. فلا ضرورة للحرب فى نشر الإسلام؛ لأنه هو دين الحق الذى يقنع الناس بقوة

حجته ويجذب قلوبهم بسماحته، وكل ذلك لشحن مدى قوة الإيمان، لنكون على أهبة الاستعداد لملاقاة الكافرين، ولكن دو ن أن تبطرنا القوة أو تدعونا إلى مجاوزة الحد، فإن مالوا إلى السلم، علينا أن نميل إلى السلم؛ لأن الله سبحانه وتعالى يريد سلامة المجتمع الإنسانى. وإن كنتم تخافون أن يكون جنوحهم إلى السلم خديعة منهم حتى نستنيم لهم، ثم يفاجئونا بغدر، فاعلم أن مكرهم سوف يبور؛ لأنهم يمكرون بفكر البشر، والمؤمنون يمكرون بفكر من الحق سبحانه وتعالى؛ لذلك يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿ وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٢﴾ ﴾

فإذا أحسست أن مبادرة السلم التى يعرضونها عليك هى مجرد خديعة حتى يستعدوا لك ويفاجئوك بغدر ومكر، فاعلم أن الله تعالى عليم بمكرهم، وأنه سيكشفه لك، ومادام الله معك فلن يستطيعوا خداعك، وإذا أردت أن يطمئن قلبك فاذكر معركة بدر التى جاءك النصر فيها من الله تعالى وتمثلت أسبابه المرئية فى استعداد المؤمنين للقتال ودخولهم المعركة. وتمثلت أسبابه غير المرئية فى جنود لم يرها أحد، وفى إلقاء الرعب فى قلوب الكفار، وكان النصر حليفك بمشيئة الله تعالى.

والحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿ وإن يريدوا أن يخدعوك ﴾

والخداع هو إظهار الشىء المحبوب وإبطان الشىء المكروه، وتقول: « فلان يخادعنى » أى يأتى لى بشىء أحبه، ويبطن لى ما أكرهه، ولأن الخداع فى إخفاء ما هو مكروه، وإعلان ما هو محبوب، فهل أنت يا محمد متروك لهم، أم أن لك ربا هو سندك، وهو الركن الركين الذى تأوى إليه؟. وتأتى الإجابة

من الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٢﴾ ﴾

(سورة الأنفال)

إذن فالله سبحانه وتعالى حسبك وسندك وهو يكفيك ؛ لأنه نصرك وآزرك. وأنت ترى أن هذه قضية دليلها معها ، فقد نصرك ببدر رغم قلة العدد والعُدد.

والتأييد تمكين بقوة من الفعل ليؤدى على أكمل وجه وأحسن حال ، ومادام الله عز وجل هو الذى يؤيد فلابد أن يأتى الفعل على أقوى توكيد ليؤدى المراد والغاية منه .

ويقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك :

﴿ وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٦٣﴾ ﴾

والتأييد هنا عناصره ثلاثة : الله يؤيد بنصره ، والله يؤيد بالمؤمنين ، والله يؤلف بين قلوب المؤمنين. والتأليف بين القلوب جاء لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسل لقوم لهم عصبية وحمية ، وهم قبائل متفرقة تقوم الحروب بينهم لأتفه الأسباب ؛ لأن عناصر التنافر موجودة بينهم أكثر من عناصر الائتلاف.

إن القبيلة مجتمعة تهب للدفاع عن أى فرد فيها مهما كانت الأسباب والظروف ، حتى إنه ليكفى أن يسب واحد من الأوس مثلاً واحداً من الخزرج لتقوم الحرب بين القبيلتين ، ولو أن القلوب ظلت على تنافرها لما استطاعت هذه

القبائل أن تواجه أعداء الإسلام، ولشغلتها حروبها الداخلية عن نصرة الدين والدفاع عنه ومواجهة الكفار. ولكن الله ألف بينهم، وبعد أن كانوا أعداءً أصبحوا أحباباً. وبعد أن كانوا متنافرين أصبحوا متوادين.

وهكذا ألف الله بين قلوب المسلمين بحيث أصبح الإسلام فى قلوبهم وأعمالهم وأسلوب حياتهم هو أقوى رابطة تربط بينهم. فأصبحت أخوة الدين أقوى من أخوة النسب. وحين تتآلف القلوب؛ فهذا أقوى رباط؛ لأن كل عمل يقوم به الإنسان إنما ينشأ عن عقيدة فى القلب.

إن القلب هو مصدر النية التى يتبعها السلوك، فالذى يحرك إنساناً مَوْتوراً منك ويثير جوارحه ضدك، إنما هو القلب، فإن وجدت إنساناً يعبس فى وجهك فافهم أن فى قلبه شيئاً، وإن لقيته وحاول أن يضربك فافهم أن فى قلبه شيئاً أكبر، وإن حاول أن يقتلك، يكون فى قلبه شعورٌ أعمق بالبغض والكراهية.

إذن فالينبوع لكل المشاعر هو القلب. ولذلك نرى الإنسان يُضَحِّى بكل شىء وربما ضحَّى بحريته وبماله فى سبيل ما آمن به واستقر فى قلبه، ونحن نرى العلماء فى معاملهم يعيشون سنوات طويلة ويحرمون أنفسهم من متع الحياة الدنيا لأن العلم قد تحول إلى عقيدة فى قلوبهم سواء أكانوا مسلمين أم غير ذلك، فكأنما نية القلب وما يستقر فيها هى أقوى ما فى الحياة.

ثم يبين الله سبحانه وتعالى لنا أن هذا فضل عظيم منه أن ألف بين قلوب المؤمنين؛ فيقول:

﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾

(سورة الأنفال)

والتأليف بين القلوب هو جماع التواد والمساندة، والرسول صلى الله عليه وسلم يقول فى الحديث الذى يرويه عنه النعمان بن بشير رضى الله عنهما : (ألا وإن فى الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله).

والحديث بتمامه : « انّ الحلال بيِّن وإن الحرام بيِّن وبينهما مشتبهات لايعلمهن كثير من الناس فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام، كالراعى يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه، ألا وإن لكل ملك حمى ألا وإن حمى الله محارمه، ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب »(١)

ولم تكن المسألة فى تأليف القلوب مسألة احتياج إلى مال؛ لأن المال لايمكن أن يعطى الحب الحقيقى، ولذلك فهناك بين الناس ارتباط مصالح وارتباط قلوب، وارتباط المصالح ينتهى بمجرد أن تهتز أو تنتهى هذه المصالح، لكن ارتباط القلوب يتحدى كل الأزمات، وأنت لا تستطيع أن تجعل إنساناً يحبك حقيقة مهما أعطيته من مال؛ لأن الحب الحقيقى لا يشترى ولا يباع، إنما يشترى النفاق والتظاهر وغير ذلك من المشاعر السطحية. والعرب الذين ألف الله بين قلوبهم لم يكن يهمهم المال بقدر ما تهمهم الحمية والعصبية، فغالبيتهم يملكون الثروات، ولكن الفُرْقة فيما بينهم نابعة من الحمية والعصبية التى تجعل فى القلوب غلاً وحسداً وحقداً؛ لذلك تنفعل جوارحهم. يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

(من الآية ٦٣ سورة الأنفال)

ومادام الله سبحانه وتعالى له عزة فهو لا يغلب، ومادام حكيماً فهو يضع الأمور فى مكانها السليم، والله سبحانه وحده هو القادر على أن يجعل

(١) رواه الشيخان : البخارى ومسلم.

القلوب تتآلف؛ لأن القلوب فى يد الرحمن يقلبها كما يشاء، لذلك ندعو بدعاء رسول الله: يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك، فعن شهر بن حوشب قال: قلت لأم سلمة رضى الله عنها يا أم المؤمنين ما أكثر دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا كان عندك؟ قالت: كان أكثر دعائه «يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك». (١)

وسبحانه وتعالى يقول:

﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة الأنفال)

ثم يعطينا الله سبحانه وتعالى قضية إيمانية فيقول:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾

وإياك أن تظن أن الله عز وجل يعاقب الكفار لأنهم لم يؤمنوا برسل الله فقط، ولكن لأن الكون يفسد بسلوكهم، وهو سبحانه غير محتاج لأن يؤمن به أحد، ثم إن دين الحق سينتصر سواء آمن الناس به أم لم يؤمنوا، وسبحانه يريد بالمنهج الذى أنزله كل الخير والسعادة لعباده؛ لذلك يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ ﴾

(من الآية ١٧ سورة الحجرات)

فإذا دخل أحد فى الإسلام فلا يمن على الله أنه أسلم؛ لأن إسلامه لن يزيد فى ملك الله شيئاً، وليعلم أن الله سبحانه وتعالى قد منّ عليه بهدايته للإسلام وهى لصالحه. ويريد الله من رسوله ألا يلتفت إلى عدد الكفار أو قوتهم؛ لأن

(١) رواه الترمذى وقال حديث حسن.

معه الأقوى، وهو الله سبحانه وتعالى؛ ولذلك يقول:

﴿ حَسْبُكَ ٱللَّهُ ﴾

(من الآية ٦٤ سورة الأنفال)

أى يكفيك الله.

وقوله تعالى:

﴿ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

(من الآية ٦٤ سورة الأنفال)

هى داخلة فى ﴿ حسبك الله ﴾. لأن الله هو الذى هدى هؤلاء المؤمنين للإيمان فآمنوا.

ويكون المعنى: حسبك الله وحسب من اتبعك من المؤمنين، أى يكفيكم الله، وعلى ذلك فلا تلتمس العزة إلا من الحق سبحانه وتعالى.

ويمكن أن يكون المعنى يكفيك الله فيما لا تستطيع أن تحققه بالأسباب. ويكفيك المؤمنون فيما توجد فيه أسباب.

ونلاحظ هنا أن الحق سبحانه وتعالى قال:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ﴾

(من الآية ٦٤ سورة الأنفال)

وهذا النداء إنما يأتى فى الأحداث؛ أما البلاغ فيقول الله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾

(من الآية ٦٧ سورة المائدة)

إذن فالحق سبحانه وتعالى ينادى الرسول بـ ﴿ يأيها النبى ﴾ حين يكون الأمر متعلقا بالأسوة السلوكية، أما إذا كان الأمر متعلقا بتنزيل تشريع، فالحق سبحانه يخاطبه صلى الله عليه وسلم بقوله: ﴿ يأيها الرسول ﴾ ذلك أن الرسل جاءوا مبلغين للمنهج عن الله، ويسيرون وفق هذا المنهج كأسوة سلوكية. على أننا نلاحظ أن الحق سبحانه وتعالى قد ذكر كل رسول باسمه فى القرآن الكريم

فقال: « يا موسى »، وقال: « يا عيسى بن مريم »، وقال: « يا إبراهيم ». إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فقد خاطبه بـ: « يأيها النبى »، وبـ « يأيها الرسول »، وهذه لفتة انتبه إليها أهل المعرفة، وهذا النداء فيه خصوصية لخطاب الحضرة المحمدية، فالله سبحانه وتعالى يقول:

﴿ يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ ﴾

(من الآية ٣٥ سورة البقرة)

وينادى سيدنا نوحاً قائلاً سبحانه:

﴿ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ ﴾

(من الآية ٤٨ سورة هود)

وينادى سيدنا موسى فيقول:

﴿ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة القصص)

وينادى سيدنا عيسى فيقول:

﴿ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ١١٦ سورة المائدة)

فكل نبى ناداه الحق تبارك وتعالى ناداه باسمه مجرداً إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلم يقل له قط: يا محمد، وإنما قال: « يأيها النبى »، و«يأيها الرسول». والحق سبحانه وتعالى فى الآية الكريمة التى نحن بصدد خواطرنا عنها أراد أن يلفت نبيه صلى الله عليه وسلم إلى أن يعلم أنه يكفيه الله والمؤمنين مهما قل عددهم لينتصروا على الكفار.

ثم يأتى النداء الثانى من المولى تبارك وتعالى فى قوله:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾

وساعة تسمع أن فلانا يحرض فلاناً، فهذا يعنى أنه يحثه، ويثير حماسه ويغريه على أن يفعل، وأنواع الطلب كثيرة، فهناك طلب نسميه نداء، أى تناديه، وطلب نسميه أمراً أى تفعله، وطلب نسميه نهياً، أى لا تفعله. هذه كلها أفعال طلب يسبقها النداء. هناك مثلاً طلب أن يُقبل عليه، وطلب آخر أن يبتعد عنه، وطلب ثالث أن يقضى له حاجة، كل هذا يعنى أن المتكلم يعرض على السامع أن يفعل كذا أو لا يفعل كذا. وهناك لون من الطلب لا يحمل الإلزام، بل هو عَرْض فقط (وهو الطلب برفق ولين) كقولك لمن تعلوه: أنا لا آمرك، بل أعرض عليك فقط. وهناك لون ثالث من الطلب تحمله كلمة «حض» وهو الطلب بشدة؛ لأن المعروض معه دليل الإقبال عليه. فأنت حين تحض ابنك على المذاكرة مثلاً فهناك مبرر الإقبال على المذاكرة وهو النجاح. وأنت حين تحض الإنسان على فعل، فأنت لا تنهاه أو تأمره لأنك تريد أن يقبل على الشىء بحب، ولكن حين تأمره بقسوة قد يكره هذا الشىء. وقد تعرض على إنسان شيئاً فتجده يحب أن يفعله ولو بدون أمر منك.

إذن فقول الله تعالى:

﴿ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

(من الآية ٦٥ سورة الأنفال)

أى حثهم وحضهم وحمسهم، والفعل يتكون من الحاء والراء والضاد، ومنها « حرض » و « يحرض » ومادة هذه الكلمة معناها القرب من الهلاك. ونجد قول الحق تبارك وتعالى على لسان إخوة يوسف لأبيهم:

﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُاْ تَذۡكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوۡ تَكُونَ مِنَ ٱلۡهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾

(سورة يوسف)

أى أنك ستستمر فى ذكر يوسف حتى تقترب من الهلاك أو تهلك بالفعل.

ولكن هل معنى « حرِّض » هنا يعنى : قرب المؤمنين من الهلاك ؟ نقول: لا؛ لأن ما يسمونه الإزالة، وهى أن يأتى الفعل على صورة يزيل أصل اشتقاقه، عندما تقول : « قشرت البرتقالة » أى أزلت قشرتها. وكذلك قولنا : «مرّض » الطبيب فلانا وليس المعنى أن الطبيب قد أحضر له المرض، ولكن معناها أزال المرض، إذن فهناك أفعال تأتى وفيها معنى الإزالة. ويأتى معنى الإزالة مرة بتضعيف الحرف الأوسط مثل « حرَّض » و « قشَّر » ومرة تأتى بهمزة، فتعطى معنى الإزالة، فإذا قلت : « أعجم الكتاب ». فمعناها أنه أزال عجمته، ولذلك نسمى كتب اللغة « المعاجم »، أى التى تزيل خفاء اللغة وتعطينا معانى الكلمات. ومن قبل شرحنا معنى « قسط » و « أقسط »؛ وقسط تعنى « الجور » أى الظلم مصداقاً لقوله تعالى:

﴿ وَأَمَّا ٱلۡقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ ﴾

(سورة الجن)

وأقسط أى أزال الظلم. إذن فهناك حروف حين تزاد على الكلمة؛ تزيل المعنى الأصلى لمادتها. وهناك تشديد يزيل أصل الاشتقاق مثل « قشّر » أى أزال القشر، و « مَّرض» أى أزال المرض. و « حرَّض » أى أزال الحرض.

ومعنى الآية الكريمة : اطلب منهم يا محمد أن يزيلوا قربهم من الهلاك بالقتال. وهذه القاعدة اللغوية تفسر لنا كثيراً من آيات القرآن الكريم. ففى قوله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا ﴾

(من الآية ١٥ سورة طه)

الذين يأخذون بالمعنى السطحى يقولون : « أكاد أخفيها » أى أقرب من أن أسترها ولا أجعلها تظهر ، ونقول : الهمزة فى قوله : « أكاد » هى همزة الإزالة ، فيكون معنى « أكاد » أى أننى أكاد أزيل خفاءها بالعلامات الصغرى والعلامات الكبرى التى أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بها. وبعضهم قد أرهق نفسه فى شرح « أكاد أخفيها » ولم ينتبهوا إلى أن إزالة الاشتقاق تأتى إما بتضعيف الحرف الأوسط ، وإما بوجود الهمزة. وقول الحق تبارك وتعالى هنا :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ﴾

(من الآية ٦٥ سورة الأنفال)

أى أن الله سبحانه وتعالى يطلب من رسوله صلى الله عليه وسلم تحريض المؤمنين على الجهاد وكأنه يقول له : ادع قومك إلى أن يبعدوا الدنو من الهلاك عن أنفسهم ؛ لأنهم إن لم يجاهدوا لتغلب عليهم أهل الكفر ، فأهل الكفر يعيشون فى الأرض بمنهج السيطرة والغلبة والجبروت ، وحين يجاهدهم المؤمنون إنما ليوقفوهم عند حدهم. ولذلك قال الحق تبارك وتعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ﴾

(من الآية ٦٥ سورة الأنفال)

فكأنهم إن لم يحاربوا أهل الكفر سوف يحيط بهم الهلاك فى الدنيا وفى الآخرة. والله سبحانه وتعالى يريد لهم الحياة الآمنة الكريمة فى الدنيا والجنة فى

الآخرة. ونلاحظ أن الحق سبحانه وتعالى قد وضع معياراً إيمانيا فى القتال بين المؤمن والكافر، والمعيار هنا وضعه خالقهم، وخالق قواهم وملكاتهم وعواطفهم. والمعيار الإيمانى هو فى قوله تعالى:

﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾

(من الآية ٦٥ سورة الأنفال)

إذن فالمعيار الإيمانى باختصار يساوى واحداً إلى عشرة، أى أن القوة الإيمانية تجعل من قوة المؤمن ما يعادل قوة عشرة من الكفار، هذا هو المقياس. وهنا يأتى بعض الناس ليقول: أساليب القرآن مبنية على الإيجاز وعلى الإعجاز، فلماذا يقول الحق سبحانه وتعالى: «عشرون يغلبوا مائتين». ثم يقول «مائة يغلبوا ألفا»؛ ألم يكن من الممكن أن يقال: إن الواحد يغلب عشرة وينتهى القول؟.

نقول: إنك لم تلاحظ واقع الإسلام؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يذهب مع المؤمنين فى قتالهم ويحضر معهم بعضاً من أحداث القتال التى نسميها «غزوات». أما البعثات القتالية التى لم يخرج فيها الرسول صلى الله عليه وسلم وكان يكتفى فيها بإرسال عدد من المؤمنين، فقد كانت تسمى سرايا، وهذه السرايا كانت لا تقل عن عشرين مقاتلاً ولا تزيد على مائة، فذكرها الله تعالى مرة بالعشرين ومرة بالمائة.

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ﴾

(من الآية ٦٥ من سورة الأنفال)

ونحن نرى أن المقياس هنا ليس بعدد المقاتلين فقط، ولكن لابد أن يكونوا موصوفين بالصبر، وفى آية أخرى بالصبر والمثابرة، فمن الجائز أن يصبر عدوك فعليك حينئذ أن تصابره، أى إن صبر قليلاً، تصبر أنت كثيراً، وإن تحمل مشقة القتال، تتحمل أنت أكثر. إذن فالقوة القتالية لكى يتحقق بها ولها النصر لابد أن تكون قوة صابرة قوية فى إيمانها قادرة على تحمل شدة القتال وعنفه.

ثم يعطينا الحق سبحانه وتعالى تعليل هذا الحكم الإيمانى الذى أبلغنا به فيقول عز من قائل:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾

(من الآية ٦٥ سورة الأنفال)

إذن فالسبب فى أن المؤمن يغلب عشرة من الكفار، هو أن الكفار قوم لا يفقهون، وماداموا لا يفقهون، يكون المقابل لهم من المؤمنين قوما يفقهون. وهنا نقارن بين المؤمنين الذين يفقهون، والكفار الذين لا يفقهون ونقول: إن الكافر حين يقاتل لا يعتقد فى الآخرة، وليس له إلا الدنيا ويخاف أن يفقدها، ولذلك حين يوجد الكافر فى ساحة الحرب فهو يريد أن يحافظ على حياته ولو بالفرار، ولكن الدنيا بالنسبة للمؤمن رحلة قصيرة والشهادة هى الفوز برضوان الله ودخول الجنة بلا حساب، ولذلك فإنه يقبل على القتال بشجاعة من يريد الاستشهاد. ونجد خالد بن الوليد يقول للفرس: أتيتكم برجال يحبون الموت كما تحبون أنتم الحياة.

فلو أن الكفار فقهوا أى فهموا أن الدنيا دار ممر ومعبر للآخرة، وأن الآخرة هى المستقر لأنها الدار الباقية، لا متلكوا قوة دافعة للقتال، ولكنهم يريدون هذه الحياة لأنها بالنسبة لهم هى كل شىء. ولذلك يعلمنا القرآن الكريم فيقول:

﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ﴾

(من الآية ٥٢ سورة التوبة)

أى لن يحدث لنا فى هذه الحرب إلا ما هو حسن، فإما أن ننتصر ونقهركم ونغنم أموالكم، وإما أن نُسْتَشْهَدَ فندخل الجنة وكلاهما حسن. ويكمل الحق سبحانه وتعالى:

﴿ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴾

(من الآية ٥٢ سورة التوبة)

أى أنكم أيها الكفار لن يصيبكم إلا السوء والخزى. إما عذاب شديد من عند الله بغير أسباب، وإما عذاب بأيدينا أى بالأسباب. إذن فالكافر حين يدخل المعركة لا ينتظر إلا السوء، إما أن يقتل ويذهب إلى جهنم - والعياذ بالله - ، وإما أن يصيبه الله بعذاب يدفع الخوف فى قلبه أثناء المعركة. والكفار فى القتال لا يعتمدون إلا على قوتهم وعددهم وعُدتهم؛ أما المؤمنون فيعتمدون أولاً على الله القوى العزيز ويثقون فى نصره. ولذلك يقبلون على القتال ومعهم رصيد كبير من طاقة الإيمان وهى طاقة تفوق العدد والعدة، ويكون المقاتل منهم قويا فى قتاله متحمساً له؛ لأنه يشعر أنه مؤيد بنصر الله. ونعلم أن كل إنسان يحرص على الغاية من وجوده؛ وغاية الكفار متاع الحياة الدنيا المحدود، أما غاية المؤمنين فممتدة إلى الآخرة. ولذلك فالكافر يحارب بقوته فقط وهو مجرد من الإيمان.

ونلاحظ أن النصوص خبرية فى قوله الحق تبارك وتعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾

(سورة الأنفال)

والنصوص الخبرية ليس فيها طلب ، وإن كان الطلب يخرج مخرج الخبر ليوهمك أن هذا أمر ثابت. وعندما قام بعض المتمردين من سنوات ودخلوا الحرم بأسلحتهم وحاصروا الناس فيه قال بعض السطحيين : إنَّ القرآن يقول :

﴿ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ﴾

(من الآية ٩٧ سورة آل عمران)

وأن هذا خبر كونى معناه أن كل من دخل الحرم كان آمناً ، وقلنا : إن قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ ومن دخله كان آمناً ﴾ هذا كلام الله ؛ فمن أطاع الله فليؤمِّن من يدخل الحرم. وقد تطيعون فتؤمِّنون من يدخل الحرم وقد تعصون فلا تؤمِّنونهم. إذن فالمسألة هى حكم تطيعونه أو لا تطيعونه ، كذلك قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ﴾

(من الآية ٢٢٨ سورة البقرة)

هذا كلام خبرى. فإن أطاعت المطلقة الله ؛ انتظرت هذه الفترة ، وإن عصت لم تنتظر ، وكذلك قوله تعالى :

﴿ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ﴾

(من الآية ٢٦ سورة النور)

وقد نرى فى الكون زيجات عكس ذلك ؛ تجد رجلاً لئيماً يتزوج بامرأة طيبة ؛ وامرأة لئيمة تتزوج رجلاً طيباً ، وقد تتساءل : لماذا لم يتزوج الطيب طيبة مصداقاً لقول الحق ، ولماذا لم يتزوج الخبيث خبيثة ؟

ونقول : لقد أخطأت الفهم لقول الله تعالى ، فما قاله الله ليس خبراً كونيا ، ولكنه خبر تشريعى ومعناه : زوجوا الطيبات للطيبين ، وزوجوا الخبيثات

للخبيثين، فإن فعلتم استقامت الحياة، وإن عصيتم لا تستقيم الحياة؛ لأن الرجل الخبيث إن عاير امرأته وأهانها فهى ترد عليه الإهانة بالمثل ويكون التكافؤ موجوداً حتى فى القبح. ولكن الشقاء فى الكون إنما يأتى من زواج الطيب بالخبيثة، والخبيث بالطيبة، وليس معنى الآية - إذن - أنك لا تجد طيباً إلا متزوجاً من طيبة، ولا خبيثاً إلا متزوجاً من خبيثة؛ لأن هذا أمر تكليفى تشريعى، فإن فعلت تكون قد أطعت، وإن لم تفعل تكون قد عصيت.

ويقول سبحانه وتعالى بعد ذلك:

﴿ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾

وفى هذا الحكم تخفيف عن الحكم السابق، الذى جاء فيه أن عشرين صابرين يغلبوا مائتين، ونعلم أن هناك شروطا للقتال، أولها أن يكون المقاتل قوى البدن وقوى الإيمان وعلى دراية بحيل الحرب وفنونها بحيث يستطيع أن يناور ويغير مكانه فى المعركة ويخدع عدوه؛ لأن نتيجة المعركة لا تحسمها معركة واحدة، بل لابد من كرّ وفرّ وإقبال وإدبار وخداع للقتال ومناورات مثلما فعل خالد بن الوليد فى كثير من المعارك.

إذن فلكى تضمن أن عشرين صابرين يغلبون مائتين لابد أن يتحقق فى هؤلاء جميعاً قوة بدن وصبر وجلد، ولكن قد لا تكون قوة البدن متوافرة والجلد ضعيفاً. وقد تأتى للإنسان فترات ضعف، وتأتيه أيضاً فترات قوة. ومن رحمته سبحانه وتعالى بالمؤمنين أنه خفف عنهم؛ لأنه يعلم أن هناك فترات

ضعف تصيب الإنسان؛ لذلك جعل النسبة واحداً إلى اثنين. وقال سبحانه وتعالى:

﴿ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾

(سورة الأنفال)

وهل معنى ذلك أن الآية الأولى قد نسخت ؟ نقول : لا، ولكن الآية الثانية أعطت حالات الأغيار والضعف البشرى وحسبت لها حساباً. ولذلك نجد الحكم الأول.قائما وهو الحد الأعلى، كما أن الحكم الثانى - أيضاً - قائم وهو الحد الأدنى، فإذا لقى مؤمن ثلاثة كفار وفر منهم لا يعدُّ فاراً يوم الزحف، ولا يؤاخذه الله على ذلك. لكن إن واجهه اثنان فانسحب وتركهما يعتبر فاراً ؛ لأن الحد الأدنى هو واحد لاثنين. وتكون هذه أقل نسبة موجودة. والنسب تتفاوت بين واحد إلى اثنين حتى واحد إلى عشرة، حسب قوة الصبر وقوة الجسم وعدم التحيز إلى فئة. وبطبيعة الحال نعلم أن القوى قد يصير ضعيفاً. وكذلك فإن بعضاً من النفوس قد تضيق بالصبر، وأيضاً حين زاد عدد المؤمنين، فمن المحتمل أن يتكل بعضهم على بعض. ولكنهم عندما كانوا قلة، كان كل واحد منهم يبذل أقصى قوته فى القتال للدفاع عن عقيدته.

والمشرع لا يشرع للمؤمنين بما يحملهم ما لا يطيقون، ولكنه يشرع لهم ليخفف عنهم، والمثال على ذلك نجد أن الله قد أباح الإفطار فى رمضان إذا كان الإنسان مريضاً أو على سفر، وكذلك شرع الحق تبارك وتعالى قصر الصلاة أثناء السفر، إذن فالمشرع قد عرف مواطن الضعف فى النفس البشرية التى تجعلها لا تقوى على التكليف. وفى هذه الحالة يقوم المشرع ذاته بالتخفيف، ولا يتركنا نحن لنخفف كما نشاء.

وبعض الناس يقول: إن الحياة العصرية لم تعد تتحمل تنفيذ هذه التشريعات، وأنه ليس فى وسعنا فى هذا العصر أن نلتزم، وأن ربنا سبحانه وتعالى يقول:

﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾

(من الآية ٢٨٦ سورة البقرة)

ونقول لكل من يقول ذلك: لقد فهمت وسع النفس خطأ، وكان عليك أن تقيس وسعك بالتكليف، ولا تقيس التكليف بوسعك. والسؤال: هل كلَّف الله سبحانه وتعالى أو لم يكلف؟ فإن كان قد كلف فذلك تأكيد على أنه فى استطاعتك، ولا تقل: أنا سأقيس استطاعتى. ثم ابحث هل التكليف فى نطاق هذه الاستطاعة أو لا؟ وعليك أن تبحث أولاً: هل كلفت بهذا الأمر أو لم تكلف؟ فإذا كنت قد كلفت به يكون فى استطاعتك أداء ما كلفت به؛ لأن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها، ولا يكلف نفساً إلا ما آتاها؛ لا تفرض أنت استطاعة ثم تُخْضع التكليف لها، ولكن اخضع استطاعتك للتكليف.

وقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ﴾

(من الآية ٦٦ سورة الأنفال)

و «الآن» تعنى الزمن، وقد خفف الله أى هو سبحانه وتعالى الذى رفع المشقة، وأنت تقول هذا الشىء خفيف وهذا الشىء ثقيل. لكن أتعرف بأى شىء حكمت بمقدار المشقة التى تتحملها فى أدائه؟. فإن رفعت قلماً تقول: هذا خفيف، وإذا رفعت قطعة حجر كبيرة تقول: هذه ثقيلة، بأى شىء حكمت؟ هل بمجرد النظر؟ لا. فأنت لا تستطيع أن تفرق بالنظر بين حقيبتين متماثلتين لتقول هذه ثقيلة وهذه خفيفة؛ لأن إحداهما قد تكون مملوءة بالحديد، والثانية فيها أشياء خفيفة؛ ولا تستطيع أن تحكم باستخدام حاسة السمع ولا

حاسة اللمس؛ لأنك باللمس لا تستطيع أن تحكم على حقيبة بأنها خفيفة والأخرى ثقيلة، ولا بحاسة الشم أيضاً.

إذن فكل وسائل الإدراك عاجزة عن أن تدرك خفة الشيء أو ثقله، فبأى شيء ندرك ؟. ونقول: قد اهتدى علماء وظائف الأعضاء أخيراً إلى أن الثقل والخفة لهما حاسة هى حاسة العضل، فحين يجهد ثقل ما عضلات الإنسان ويحملك مشقة أنه ثقيل، فهو يختلف عن ثقل لا يؤثر على العضل ولا تحس فيه بأى إجهاد؛ لأن هذا الثقل يكون خفيفاً .

إذن فهناك وسائل للإدراك لم نكن نعرفها فى الماضى واكتشفها العلم الحديث. أنت مثلاً حين تمسك قماشاً بين أصابعك تقول: هذا قماش كثيف أو سميك وهذا خفيف أو رقيق، ما هى الحاسة التى عرفت بها ذلك ؟ نقول: إنها حاسة « البين » فقد ابتعدت أصابعك قليلاً فى القماش الثقيل، وقربت من بعضها فى القماش الرقيق، وقد يصل الفرق إلى ملليمتر واحد أو أقل لا تدركه بالنظر؛ ولكن تدركه بحاسة البين.

وإياكم أن تحسبوها رياضيا وعدديا وتقولوا إن النصر بالعدد؛ لأنكم بذلك تعزلون أنفسكم عن الله، أو إنَّما تفتنون بالأسباب، فكل نصر هو بإذن الله ومن عند الله تبارك وتعالى.

ولماذا لم يقل الحق سبحانه: علم فيكم ضعفاً وخفف عنكم ؟ لأنه سبحانه وتعالى أراد أن يكون الترخيص فى الحكم أثبت من الحكم، على أن هذا التخفيف قد يعود إلى عدة أسباب؛ منها أن حكم الله أزلى. ولذلك وضع الله سبحانه وتعالى حدا أعلى يتناسب مع قوة الإيمان فى المسلمين الأوائل، وحدا أدنى يتناسب مع ضعف الإيمان الذى سيأتى مع مرور الزمن، أو يتناسب مع العزوف عن الدنيا بالنسبة للمسلمين الأوائل، وعلى الإقبال على الدنيا بالنسبة لأولئك الذين سيأتون من بعدهم، أو مع قلة الفتن التى كانت فى عصر النبوة وكثرة الفتن فى عصر كالذى نعيش فيه.

ويذيل الحق سبحانه وتعالى الآية بقوله :

﴿ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾

(من الآية ٦٦ سورة الأنفال)

وأنت قد تقول : فلان سافر إلى الخليج ومعه عشرون جنيهاً. فإذا اندهش من يسمعك وتساءل : « ماذا يفعل بهذا المبلغ الصغير » ؟ تقول له : إن معه فلاناً «المليونير» فيطمئن السائل . فإن قلت : إن فلاناً وهو رجل كبير السن ذهب إلى الجبل ليحضر صخرة.. نتساءل : كيف ؟. يقال لك : إن معه فلاناً القوى فتطمئن.

إذن فمعية الضعيف للقوى أو الأدنى للأعلى تصنع نوعاً من الاستطراق، وتعطى من القوى للضعيف، ومن الغنى للفقير، ومن العالم للجاهل، إذن فالمعية تعطى من قوة التفوق قدرة للضعيف.

وهنا يوضح المولى سبحانه وتعالى للمؤمنين : إن قوتكم وقدرتكم على الصبر محدودة لأنكم بشر، فلا تعزلوا هذه القوة المحدودة عن قدرة الله غير المحدودة، واصبروا لأن الله مع الصابرين. ولأنه سبحانه معكم فهو يعطيكم من قوته فلا تستطيع أى قوة أن تتغلب عليكم وتقهركم.

ولقد تعرضنا لهذا وقت أن تكلمنا عن الغار، حين دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم وسيدنا أبو بكر رضى الله عنه الغار فى طريق الهجرة إلى المدينة وجاء الكفار ووقفوا على باب الغار فماذا قال أبو بكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا. وهذا كلام منطقى مع الأسباب. فماذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم له ليطمئنه ؟. قال : ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟ ولكن ما وجه الحجة فى ذلك ؟. لقد قال : مادام الله ثالثهما، والله لا تدركه الأبصار، فالذين فى معيته لاتدركهم الأبصار.

وفى هذه الآية مثل سابقتها؛ يتحدث المولى سبحانه وتعالى عن المعارك والنصر.

ومن الطبيعى أن يكون من معايير النصر كسب الغنائم. والغنائم التى تمت فى بدر قسمان؛ منقولات، وقد نزل حكم الله فيها بأن لله ولرسوله الخمس، بقى جزء آخر من الغنائم لم ينزل حكم الله فيه وهم الأسرى، ففى معركة بدر قتل من قريش سبعون وأسر سبعون، فاستشار (١) رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس. فقال: ما ترون فى هؤلاء الأسرى؟ إنَّ الله قد أمكنكم منهم، وإنما هم إخوانكم بالأمس.

فقال أبو بكر: يا رسول الله أهلك وقومك، قد أعطاك الله الظفر ونصرك عليهم، هؤلاء بنو العمّ والعشيرة والإخوان استبقهم، وإنى أرى أن تأخذ الفداء منهم، فيكون ما أخذنا منهم قوة لنا على الكفار، وعسى الله أن يهديهم بك، فيكونوا لك عضدا. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما تقول يابن الخطاب؟

قال: يا رسول الله قد كذبوك وأخرجوك وقاتلوك، ما أرى ما رأى أبو بكر، ولكن أرى أن تمكننى من فلان - قريب لعمر - فأضرب عنقه، وتمكن عليا من عقيل فيضرب عنقه، وتمكن حمزة من فلان - أخيه - حتى يضرب عنقه، حتى ليعلم الله تعالى أنه ليست فى قلوبنا مودة للمشركين، هؤلاء صناديد قريش وأئمتهم وقادتهم فاضرب أعناقهم، ما أرى أن يكون لك أسرى، فإنما نحن راعون مؤلفون.

وقال عبدالله بن رواحة: يا رسول الله أنظر وادياً كثير الحطب فأضرمه عليهم ناراً. فقال العباس وهو يسمع ما يقول: قطعت رحمك. قال أبو أيوب: فقلنا - يعنى الأنصار - إنما يحمل عمر على ما قال حسد لنا.

(١) مسند أحمد الأحاديث ٣٦٣٢ - ٣٦٣٤، مع اختلاف فى بعض العبارات.

فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم البيت، فقال أناس: يأخذ بقول أبى بكر، وقال أناس: يأخذ بقول عمر، وقال أناس: يأخذ بقول عبدالله بن رواحة، ثم خرج فقال: إن الله تعالى ليلين قلوب أقوام فيه حتى تكون ألين من اللبن [١]، وإن الله تعالى ليشد قلوب أقوام فيه حتى تكون أشد من الحجارة. مثلك يا أبا بكر فى الملائكة مثل ميكائيل ينزل بالرحمة، ومثلك فى الأنبياء مثل إبراهيم قال: ﴿ فمن تبعنى فإنه منى ومن عصانى فإنك غفور رحيم ﴾[٢] ومثلك يا أبا بكر مثل عيسى بن مريم إذ قال: ﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾ [٣]، ومثلك يا عمر فى الملائكة مثل جبريل ينزل بالشدة والبأس والنقمة على أعداء الله تعالى، ومثلك فى الأنبياء مثل نوح إذ قال: ﴿ رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا ﴾ [٤] ومثلك فى الأنبياء مثل موسى، إذ قال: ﴿ ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم ﴾ [٥] لو اتفقتما ما خالفتكما، أنتم عالة [٦] فلا يفلتن منهم أحد إلا بفداء أو ضرب عنق، ومن بين الأسرى كان عدد من أغنياء قريش.

وسبق له صلى الله عليه وسلم أن استشار الصحابة فى معركة بدر. وحدث أن اختار رسول الله عليه الصلاة والسلام أماكن جيش المسلمين، فتقدم أحد الصحابة وهو الحباب بن المنذر بن الجموح إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له يا رسول الله: أرأيت هذا المنزل أمنزلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟. فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: بل هو الرأى والحرب والمكيدة. فأشار الحباب بن المنذر بتغيير موقع المسلمين ليكون الماء وراءهم فيشربوا هم ولا يشرب الكفار.

---

(١) الواقدى ١/ ١١٠ : « ألين من الزبد».
(٢) سورة إبراهيم : الآية ٣٦ .
(٣) سورة المائدة : الآية ١١٨ .
(٤) سورة نوح : الآية ٢٦ .
(٥) سورة يونس : الآية ٨٨ .
(٦) الواقدى ١/ ١٠٩ : « وإن بكم عيلة » .

إذن فلو أنه منزل أنزله الله لرسوله لما جرؤ أحد على الكلام؛ لأن لله علماً آخر لا نعلمه، فنحن ببشريتنا لنا علم محدود؛ والله له علم بلا نهاية. وكذلك فى مسألة الأسرى؛ لم يكن فيها حكم قد نزل من الله. ولذلك استشار رسول الله صلى الله عليه وسلم صحابته، وكان أمامه رأى فيه شدة لعمر بن الخطاب ومعه عبدالله بن رواحه، ورأى لين يخالف الرأى السابق وكان لسيدنا أبى بكر الصديق.

وكان قول رسول الله صلى الله عليه وسلم يوجز ما قاله الفريقان؛ فريق اللين بقيادة أبى بكر رضى الله عنه وفريق الشدة بقيادة عمر بن الخطاب رضى الله عنه. ثم مال النبى صلى الله عليه وسلم إلى رأى الفداء. وجعل فدية الواحد من ألف درهم إلى أربعة آلاف درهم، وكان فى الأسر العباس وهو عم النبى صلى الله عليه وسلم، فسمع النبى أنينه من قيده فقال: فكوا عنه قيده. وفسر بعض الناس هذا على أنه ميل من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عمه، ولكنه كان ردا على جميل فعله العباس فى بيعة العقبة؛ حينما حضر وفد من أهل المدينة إلى مكة ليبايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على الإسلام.

وقد حضر العباس هذه البيعة، وكان أول من تكلم فيها رغم أنه كان مازال على دين قومه. فقال: يا معشر الخزرج وكانت العرب إنما يسمون هذا الحى من الأنصار الخزرج ..خزرجها وأوسها. قال العباس: إن محمداً منا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه فهو فى عز من قومه ومنعة من بلده، أبى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم. فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه، ومانعوه ممن خالفه، فأنتم وما تحملتم من ذلك. وإن كنتم ترون أنكم مسلموه، وخاذلوه بعد الخروج به إليكم؛ فمن الآن فدعوه فإنه فى عز ومنعة من قومه وبلده [1]

(١) سيرة ابن هشام حـ٢ ص ٤٤ طبعة الأنوار المحمدية .

إذن فالعباس قد وقف موقفاً لابد أن يجازى بمثله، ورغم أنه كان كافراً وقتئذ، إلا أن الكفر لم يمنع عاطفة العباس أن ينجد رسول الله صلى الله عليه وسلم. وكذلك رد رسول الله صلى الله عليه وسلم الموقف بمثله؛ لأن المبدأ الإسلامى واضح فى قول الحق:

﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ﴾

(من الآية ٨٦ سورة النساء)

فلا يؤخذ هذا التصرف - إذن - على أنه مجاملة من رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمه، ولكنها حق على رسول الله من موقف العباس فى بيعة العقبة. وقال له الرسول صلى الله عليه وسلم: يا عباس افد نفسك وابنى أخيك عقيل بن أبى طالب ونوفل بن الحارث وحليفك عقبة بن عمرو بن جحدم أخا بنى الحارث بن فهر؛ فإنك ذو مال. فقال: يا رسول الله إنى كنت مسلماً ولكن القوم استكرهونى. فقال رسول الله: الله أعلم بإسلامك إن يكن ما تذكر حقا فالله يجزيك به. أما ظاهر أمرك فقد كان علينا فافد نفسك. وكان المسلمون قد أخذوا من العباس عشرين أوقية من ذهب كغنيمة، فقال العباس: يا رسول الله احسبها لى فى فدائى، فقال الرسول: لا، ذلك شىء أعطاناه الله عز وجل منك. قال العباس: فإنه ليس لى مال. لقد جعلتنى يا محمد أتكفف قريشاً، فضحك النبى وقال: فأين المال الذى وضعته بمكة حيث خرجت من عند أم الفضل بنت الحارث ليس معكما أحد، ثم قلت لها: إن أصبت فى سفرى هذا؛ فللفضل كذا وكذا، ولعبد الله كذا وكذا، ولقثم كذا وكذا، ولعبيد الله كذا وكذا. قال العباس: والذى بعثك بالحق ما علم هذا أحد غيرى وغيرها، وإنى لأعلم أنك رسول الله. ففدى العباس نفسه بأربعة آلاف درهم، وفدى كلا من ابنى أخيه وحليفه بألف لكل منهم.[1]

إذن ففى التقييم المادى دفع العباس أربعة أمثال ما دفعه الأسير العادى كفدية.

---

(١) القرطبى وابن كثير مع اختلاف فى بعض العبارات.

ثم ماذا فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم مع زوج ابنته زينب وكان [١] فى الأسارى أبو العاص [٢] بن الربيع ختن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وزوج ابنته زينب، أسره خراش بن الصمة، فلما بعثت قريش فى فداء الأسرى بعثت زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى فداء أبى العاص وأخيه عمرو ابن الربيع بمال، وبعثت فيه بقلادة لها كانت خديجة أدخلتها بها على أبى العاص حين بنى بها، فلما رآها رسول الله صلى الله عليه وسلم رق لها رقة شديدة، وقال: إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها مالها فافعلوا، فقالوا: نعم يا رسول الله، فأطلقوه وردوا عليها الذى لها.

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أخذ عليه أن يخلى سبيل زينب إليه، وكان فيما شرط عليه في إطلاقه، ولم يظهر ذلك منه ولا من رسول الله صلى الله عليه وسلم فيعلم. ما هو، إلا أنه لما خرج بعث رسول الله صلى اللهعليه وسلم زيد بن حارثة ورجلا من الأنصار، مكانه، فقال: كونا ببطن يأجج حتى تمر بكما زينب فتصحباها حتى تأتيانى بها [٣]، فخرجا مكانهما، وذلك بعد بدر بشهر أو شيعة [٤]، فلما قدم أبو العاص مكة أمرها باللحوق بأبيها، فخرجت تجهز.

ومن بعد ذلك نزل قول الحق تبارك وتعالى:

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ ﴾

(١) سنن أبى داود ١/ ٢٦٧ وابن جرير ٢/ ٢٩٠، ٢٩١ وابن هشام: ٣٠٦ - ٣٠٨
(٢) ط: «أبو العاصى».
(٣) سنن أبى داود: «حتى تأتيها بها».
(٤) شيعة: قريب منه.

و « أسرى » جمع كلمة « أسير »، وتعريف الأسير أنه مشدود عليه الوثاق ممن أخذه بحيث يكون فى قبضة يده، والأسير فى الإسلام هو نبع العبودية والرق؛ لأن الأسير يقع فى قبضة عدوه الأقوى منه و يمكنه أن يقتله أو يأخذه عبداً.

إذن ففى هذه الحالة لا نقارن بين أسير أصبح عبداً وبين حر، وإنما نقارن بين قتل الأسير وإبقائه على قيد الحياة. وأيهما أنفع للأسير أن يبقى على قيد الحياة ويصبح أسيراً أم يقتل ؟.

إن بقاءه على قيد الحياة أمر مطلوب منه ومرغوب فيه. وبذلك يكون تشريع الله سبحانه وتعالى فى تملك الأسرى إنما أراد الله به أن يحقن دماءهم ويبقى حياتهم؛ لأن الأسير مقدور عليه بالقتل، وكان من الممكن أن يترك الأسرى ليقتلوا وتنتهى المشكلة. ولكن الحق سبحانه وتعالى أراد أن يحفظ حتى دم الكافر؛ لأن الله هو الذى استدعاه إلى هذه الحياة وجعله خليفة، ولذلك يحفظه. ولعله من بعد ذلك أن يهتدى ويؤمن. ونعلم أن النبى صلى الله عليه وسلم قد لعن من يهدم بنيان الله إلا بحقه.

على أن الإسلام قد اتهم زوراً بأنه هو الذى شرع الرق، ولكن الحقيقة أنه لم يبتدع أو ينشىء الأسر والرق، ولكنه كان نظاماً موجوداً بالفعل وقت ظهور الإسلام، وكانت منابع الرق متعددة بحق أو بباطل، بحرب أو بغير حرب، فقد يرتكب أحد جناية فى حق الآخر ولا يقدر أن يعوضه فيقول: « خذنى عبداً لك »، أو « خذ ابنتى جارية »، وآخر قد يكون مَديناً فيقول: « خذ ابنى عبداً لك أو ابنتى جارية لك ». وكانت مصادر الرق - إذن - متعددة، ولم يكن للعتق إلا مصرف واحد. وهو إرادة السيد أن يعتق عبده أو يحرره.

ومعنى ذلك أن عدد الرقيق والعبيد كان يتزايد ولا ينقص؛ لأن مصادره

متعددة وليس هناك إلا باب واحد للخروج منه، وعندما جاء الإسلام ووجد الحال هكذا أراد أن يعالج مشكلة الرق ويعمل على تصفيته. ومن سمات الإسلام أنه يعالج مثل هذه الأمور بالتدريج وليس بالطفرة؛ فألغى الإسلام كل مصادر الرق إلا مصدراً واحداً وهو الحرب المشروعة التى يعلنها الإمام أو الحاكم. وكل رق من غير الحرب المشروعة حرام ولا يجوز الاسترقاق من غير طريقها، وفى ذات الوقت، عدد الإسلام أبواب عتق العبيد، وجعله كفارة لذنوب كثيرة لا يكفر عنها ولا يغفرها سبحانه وتعالى إلا بعتق رقبة، بل إنه زاد على ذلك فى الثواب الكبير الذى يناله من يعتق رقبة حبا فى الله وإيماناً به فقال سبحانه وتعالى:

﴿ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ ﴾

(سورة البلد)

فإذا لم يرتكب الإنسان ذنباً يوجب عتق رقبة ولا أعتق رقبة بأريحية إيمانية، فإنه فى هذه الحالة عليه أن يعامل الأسير معاملة الأخ له فى الإسلام. فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه عنه سيدنا أبو ذَر رضى الله عنه:

(إخوانكم خولكم جعلهم الله فتنة تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه من طعامه وليلبسه من لباسه، ولا يكلفه ما يغلبه، فإن كلفه ما يغلبه فليعنه) (١)

إذن فقد ساوى هذا الحديث الشريف بين العبد والسيد، وألغى التمييز بينهما؛ فجعل العبد يلبس مما يلبس سيده ويأكل مما يأكل أو يأكل معه؛ وفى العمل يعينه ويجعل يده بيده، ولا يناديه إلا بـ « يا فتاى » أو « يا فتاتى ».

إذن فالإسلام قد جاء والرق موجود وأبوابه كثيرة متعددة ومصرفه واحد؛

(١) رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذى والبيهقى وابن ماجه .

فأقفل الأبواب كلها إلا باباً واحداً، وفتح مصارف الرق حتى تتم تصفيته تماماً بالتدريج. وبالنسبة للنساء جاء التشريع السماوى فى قول الله تعالى:

﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ﴾

(من الآية ٣ سورة النساء)

وكان ذلك باباً جديداً من ابواب تصفية الرق؛ لأن الأمة إن تزوجت عبداً مثلها تظل على عبوديتها وأولادها عبيد، فإن أخذها الرجل إلى متاعه وأصبحت أم ولده يكون أولادها أحراراً، وبذلك واصل الإسلام تصفية الرق، وفى ذات الوقت أزاح عن الأنثى الكبت الجنسى الذى يمكن أن يجعلها تنحرف وهى بعيدة عن أهلها مقطوعة عن بيئتها، وترى حولها زوجات يتمتعن برعاية وحنان ومحبة الأزواج وهذه مسألة تحرك فيها العواطف، فأباح للرجل إن راقت عواطفهما لبعضهما أن يعاشرها كامرأته الحرة وأن ينجب منها وهى أمَة، وفى ذلك رفع لشأنها لأنها بالإنجاب تصبح زوجة، وفى ذات الوقت تصفية للرق.

إن هذه المسألة أثارت جدلاً كثيراً حول الإسلام، وقيل فيها كلام كله كذب وافتراء. والآن بعد أن ألغى الرق سياسيا بمعاهدات دولية انتهت إلى ذات المبادىء التى جاء بها الإسلام وهى تبادل الأسرى والمعاملة بالمثل. وهو مبدأ أول ما جاء، إنما جاء به الإسلام، فليس من المعقول أن يأخذ عدو لى أولادى يسخرهم عنده لما يريد، وأنا أطلق أولاده الأسرى عندى، ولكن المعاملة بالمثل فإن منّوا نُمنّ، وإن فدوا نفد. ويشاء الحق سبحانه وتعالى أن يجعل الرق الناشىء عن الأسر مقيداً فى قوله تعالى:

﴿ مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾

(من الآية ٦٧ سورة الأنفال)

ونقول: إن هناك فرقاً بين حكم يسبق الحدث فلا يخالفه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وحكم يجيء مع الحدث، ولابد أن نفرق بين الحكمين؛ حكم يسبق الحدث إن خولف تكون هناك مخالفة ولكنَّ حكماً يأتى مع الحدث، فهذا أمر مختلف، لنفرض أنك جالس وجاء لك من يقول إن قريبك فلان ذهب إلى المكان الفلانى، وأنه ينفق على كذا، وأعطى كمبيالة على نفسه بمبلغ كذا. اذهب إليه لتمنعه، فتذهب إليه وتمنعه، هنا جاء الحكم مع الحدث، فلا تكون هناك مخالفة.

وقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾

(من الآية ٦٧ سورة الأنفال)

قد جاء هذا الحكم بعد أن تم أسر كفار قريش وأخذوا إلى المدينة، وتشاور رسول الله صلى الله عليه وسلم مع الصحابة بشأنهم ووصلوا إلى رأى. إذن فالحكم جاء بعد أن انتهت العملية، والدليل على ذلك أن الله سبحانه وتعالى لم يغير الحكم، فظل الأسر والفداء. إذن: ﴿ ما كان لنبى أن يكون له أسرى ﴾ أى ما ينبغى لنبى أن يكون له أسرى حتى يقسو على الكفار فى القتال.

ويريد الحق سبحانه وتعالى هنا أن ينبه المؤمنين إلى أنهم لو كانوا يريدون الأسرى لعرض الدنيا، كأن يطمع أى واحد فى من يخدمه، أو يطمع فى امرأة يقضى حاجته منها، أو فى مال يبغى به رغد العيش، كل ذلك مرفوض؛ لأنه سبحانه وتعالى لا يريد من المؤمن أن يجعل الدنيا أكبر همه، بل يريد الحق من المؤمنين أن يعملوا ويحسنوا الاستخلاف فى الأرض؛ ليقيموا العدل على قدر الاستطاعة؛ وليجزيهم الله من بعد ذلك بالحياة الدائمة المنعمة فى الجنة.

ولذلك قال الحق تبارك وتعالى :

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ ﴾

« سورة الأنفال »

وسبحانه العزيز الذى لا يغلب، والحكيم الذى يضع كل شىء فى موضعه.

ويجىء من بعد ذلك قوله سبحانه وتعالى :

﴿ لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ ﴾

هذه الآية الكريمة تشرح وتبيِّن أن الحق سبحانه وتعالى لا يحاسب أحداً إلا بعد أن ينزل التشريع الذى يرتب المقدمات والنتائج، ويحدد الجرائم والعقوبات، ولولا ذلك لنزل بالمؤمنين العذاب لأخذ الأسرى، من قبل أن تستقر الدعوة، وبما أن الحق تبارك وتعالى لا ينزل العذاب إلا بمخالفة يسبقها التشريع الذى يحددها، لولا ذلك لأنزل العذاب بالمؤمنين، ولكن بما أن هذا الفعل لم يجرَّم من قبل فلا عقاب عليه.

وينتقل الحق سبحانه وتعالى إلى الغنائم التى حصل عليها المؤمنون فى غزوة بدر فيقول تبارك وتعالى :

﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَـٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾ ﴾

أى إياكم أن تنفقوا ما غنمتموه بسفاهة فى أى شىء لا لزوم له، بل اتقوا الله فيما أعطاكم ومنحكم من غنائم. سواء كانت منقولات أم مالا أم أسرى تجعلونهم يقومون بأعمال يعود نفعها وعائدها إليكم. اتقوا الله فى كل هذا ولا تنفقوه بحماقة، وقوله تعالى: ﴿ إن الله غفور رحيم ﴾ أى أن الله تعالى قد غفر لكم ما فعلتم قبل أن تنزل هذه الآية الكريمة:

ثم يخاطب الحق سبحانه وتعالى الأسرى بعد ذلك فيقول:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٧٠ ﴾

أى إن صح كلام العباس فى إسلامه وأنه كتم الإسلام؛ فالله يعلم ما فى قلبه وسوف يعطيه الله خيراً مما أخذ منه. وبالفعل فاء الله على العباس بالخير. فقد أسند الطبرى إلى العباس أنه قال: فىّ نزلت - أى هذه الآية - حين أعلمت رسول الله صلى الله عليه وسلم بإسلامى وسألته أن يحاسبنى بالعشرين أوقية التى أخذت منى قبل المفاداة فأبى وقال: « ذلك فَىْءٌ » فأبدلنى الله من ذلك عشرين عبداً كلهم تاجر بمالى.

وفى الرواية التى ذكرها ابن كثير (قال العباس فأعطانى الله مكان العشرين الأوقية فى الإسلام عشرين عبداً كلهم فى يده مال يضرب به مع ما أرجوه من مغفرة الله عز وجل)[1]، وهكذا تحقق قول الله عز وجل

﴿ يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ ﴾

(من الآية ٧٠ سورة الأنفال)

---

(١) الطبرى وابن كثير.

وبعد أن نزلت هذه الآية الكريمة، وكانت موافقة لما اتخذه رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرارات، وأبلغ صلى الله عليه وسلم الأسرى بالحكم النهائى من الله: لا تفكون إلا بالفداء أو بضرب الرقاب. وهنا قال سيدنا عبدالله بن مسعود: يا رسول الله إلا سَهْل بَن بيضاء فإننى عرفته يذكر الإسلام ويصنع كذا وكذا، فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم فما رأيتنى فى يوم أخوف من أن تقع علىَّ حجارة من السماء منى فى ذلك اليوم، حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إلا سَهْل بن بيضاء، وقول الحق تبارك وتعالى:

﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

(من الآية ٧٠ سورة الأنفال)

أى مادام فى قلوبكم الخير وقد آمنتم أو ستدخلون فى الإسلام؛ فالله يعلم ما فى قلوبكم وسيغفر لكم لأنه غفور رحيم. وعندما استقر الأمر قال بعض من الأسرى: يا رسول الله: إن عندنا مالاً فى مكة، فاسمح لنا نذهب إلى هناك ونحضر لك الفداء، وخشى صلى الله عليه وسلم أن تكون هذه خدعة واحتيال، فماذا يفعل؟ أيطلق سراحهم ويصدقهم فيحضروا الفدية؟ أم هذه حيلة وقد أضمروا الخيانة والغدر؟.

فنزل قول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ ﴾

ويوضح الحق سبحانه وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم: لا توافقهم على ما يريدون، فهم إن أضمروا لك الخيانة فقد خانوا الله من قبل فمكنك منهم فلا تأمن لهم، وسبحانه يعلم ما فى صدورهم.

وبعد أن تكلم سبحانه عن قصة بدر وأسرى بدر، والمواقف التى وقفها

رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته فى هذه القصة، أراد سبحانه وتعالى أن يصنف الأمة الإسلامية المعاصرة لرسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عناصرها، ونعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صاح بالدعوة الإسلامية فى مكة، ومكة هى مركز سيادة العرب، وكانت قبيلة قريش هى سيدة جميع قبائل العرب وسيدة الجزيرة كلها، لأن قريشاً سيدة مكة، ومكة فيها بيت الله الحرام، وكانت كل قبيلة من قبائل العرب يكون بعض من أبنائها فى بطن سيادة قريش خلال الحج، ومادامت كل قبيلة تذهب إلى مكة فهى تطلب حماية قريش، ولم توجد قبيلة تعادى قريشاً أو تجرؤ على مهاجمتها؛ لأنها تعلم أنه سيجىء يوم تكون فيه تحت حماية قريش وتحت رحمتها حين الحج إلى بيت الله الحرام.

إذن فسيادة قريش نشأت من وجود البيت. ولو أن هذا البيت لم يكن موجوداً لكان مركز قريش كمركز أى قبيلة من العرب، ولو أن البيت قد هدم من أبرهة، لكانت سيادة قريش قد انتهت. ولذلك نجد الحق سبحانه وتعالى يقول فى سورة الفيل:

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾ ﴾

(سورة الفيل)

ثم تأتى بعدها مباشرة السورة الكريمة التى توضح لنا أن الله سبحانه وتعالى حين حفظ بيته وفتك بجيوش المعتدين فجعلهم كعصف مأكول، قد أكد هذه السيادة لقريش فيقول تبارك وتعالى فى السورة التى سميت باسمها:

﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴿٤﴾ ﴾

(سورة قريش)

إذن فالذى أعطى السيادة لقريش هو بيت الله الحرام. ولذلك تذهب قوافلهم بالتجارة لليمن والشام ولا يجرؤ أحد من القبائل أن يتعرض لها. ولو لم يكن بيت الله الحرام فى مكة وقريش سادة مكة؛ لما كان لهم هذا الوضع المتميز والمكانة العالية، إذن فعز قريش فى بيت الله الحرام، وأمنهم وسيادتهم فى أنهم جالسون فى راحة وتتنقل قوافلهم إلى الشام وإلى اليمن. ثم تعود محملة بالخير والربح وهم آمنون مطمئنون. وحين أعلن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعوته كان ذلك الإعلان فى مكة، وقد أعلنها صلى الله عليه وسلم فى وجه الجبابرة وأقوياء الجزيرة العربية كلها. ولو كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد بدأ دعوته فى قبيلة ضعيفة خارج مكة لقالوا: استضعفهم وغرر بهم، أو لقالوا يريدون به السيادة، أى أنهم كقبيلة مستضعفة لم يأخذوا رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم إيمانا، ولكنهم أخذوها سلماً ليسودوا بها الجزيرة العربية. ولكن شاء الحق تبارك وتعالى أن يكون ميلاد الرسالة فى مكة وأول من سمعها هم سادة قريش؛ لتأتى فى مركز السيادة ويكون المراد بها هو الحق، وإعلاءه فى وجه سادة الجزيرة العربية.

ثم كانت المعركة بين سادة قريش والإسلام وآذوا رسول الله صلى الله عليه وسلم والذين معه وحاولوا إيقاف الدعوة بكل الطرق وشتى الحيل. لكن هل انتصروا؟ ثم هل امتد الإسلام وانتشر من مكة؟. لا، بل كانت الهجرة إلى المدينة، ومن هناك امتد الإسلام.

إذن فقد بدأ الإسلام من مكان السيادة فى الجزيرة العربية، ولكنه انتشر من مكان لا سيادة فيه، لماذا؟ لأن الإسلام لو انتشر من مكة لقالوا: قوم ألفوا السيادة على الناس، وتعصبوا لواحد منهم؛ ليمدوا سيادتهم من الجزيرة العربية إلى أماكن أخرى فى العالم. ولكن النصر جاء من المدينة لتعلم الدنيا كلها: أن الإيمان بمحمد هو الذى خلق العصبية لمحمد، وهو الذى حقق النصر لمحمد،

ولم يخلق العصبية لرسول الله أنه من قريش، أو أنه من قبيلة اعتادت سيادة الجزيرة العربية.

ويصنف الحق سبحانه وتعالى لنا المؤمنين برسول الله صلى الله عليه وسلم؛ وهؤلاء منهم المهاجرون. ومنهم الأنصار، ومنهم جماعة مؤمنة لم يهاجروا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكنهم هاجروا بعد ذلك. ومنهم جماعة آمنوا ولم يهاجروا من مكة وبقوا فيها حتى الفتح.

إذن: هناك أربع طوائف: الذين هاجروا مع الرسول إلى المدينة، والأنصار الذين استقبلوهم وآووهم. وطائفة لم يهاجروا مع رسول الله ولكنهم هاجروا بعد ذلك، وطائفة بقيت فى مكة حتى الفتح.

ويقول الحق تبارك وتعالى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ ۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ ﴾

الفئة الأولى فى هذه الآية هم المهاجرون وقال فيهم الحق تبارك وتعالى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ٧٢ سورة الأنفال)

والفئة الثانية هم الأنصار الذين قال فيهم الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ ﴾

(من الآية ٧٢ سورة الأنفال)

ثم يوحد الله تعالى بين المهاجرين والأنصار فيقول عز وجل :

﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖ ﴾

(من الآية ٧٢ سورة الأنفال)

وبعض من العلماء فسر قول الحق : ﴿ بعضهم أولياء بعض ﴾ على أنها تشمل الالتحام الكامل ، لدرجة أنه كان يرث بعضهم بعضا أولاً - حسب قول العلماء- إلى أن نزلت آيات الإرث فألغت ذلك التوارث الذى كان بينهم.

وقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَـٰبِ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ٧٥ سورة الأنفال)

أبعدت هذا المعنى ، وبعض العلماء قال : إن الولاية هى النصر ، وهى المودة ، وهى التمجيد ، وهى الإكبار ، فقالوا : هذه صفات الولاية ، وهناك آية أخرى عن الأنصار يقول فيها الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَـٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةٗ مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞ ﴾

(من الآية ٩ سورة الحشر)

وقد عرفنا الكثير عن الإيثار من الأنصار الذى قد بلغ مرتبة لا يتسامى إليها البشر أبداً إلا بصدق الإيمان ، ذلك أن الرجل الذى يعيش فى نعمة وله صديق

أو حبيب يحب أن يتحفه بمشاركته فى نعمته، فإذا كان عنده سيارة مثلاً يعطيها له ليستخدمها، وإذا كان له بيت جميل قد يدعوه للإقامة فيه بعض الوقت، وإذا كان عنده ثوب جميل أو فاكهة نادرة قد يعطيه منها، إلا المرأة فهى النعمة التى يأنف الرجل أن يشاركه فيها أحد.

ولكن عندما وصل المهاجرون إلى المدينة وتركوا نساءهم فى مكة، كان الأنصارى يجىء للمهاجر ويقول له: انظر إلى نسائى والتى تعجبك منهن أطلقها لتتزوجها. هذه مسألة لا يمكن أن يصنعها إلا الإيمان الكامل، وحين يصنعها الإيمان، فهذا الإيمان يجدع أنف الغيرة ويمنعها أن تتحرك، ولا يكون هناك من له أكثر من زوجة ومن هو محروم من المرأة.

وقد حدد الحق لنا ميزة كل طائفة من طوائف المؤمنين وبين أحكامهم: فالطائفة الأولى المهاجرون الذين آمنوا وتركوا دينهم الذى ألفوه، ثم هاجروا وتركوا أوطانهم وبيوتهم وأموالهم وزوجاتهم وأولادهم وجمالهم وزروعهم، ثم بعد ذلك عملوا لينفقوا على أنفسهم بمال يكتسبونه وينفقون منه أيضاً على الجهاد؛ مع أنهم تركوا أموالهم وكل ما يملكون فى مكة، فكأنهم ضحوا بالمال وضحوا بالنفس. ودخلوا وهم قلة بلغت ما بلغت فلن تزيد عن ثلاثمائة ودخلوا فى معركة مع الكثرة المشركة، ولم يكونوا واثقين من النصر ولكنهم كانوا يطلبون الشهادة.

إذن فهم آمنوا، هذه واحدة، وهاجروا، وهذه الثانية، وجاهدوا بأموالهم هذه الثالثة، وجاهدوا بأنفسهم هذه الرابعة، وكانوا أسوة لأنهم سبقوا إلى الإيمان والجهاد فشجعوا غيرهم على أن يؤمنوا، ولذلك فلهم أجر من سن سنة حسنة، ولهم أجر من عمل بها، وهؤلاء هم السابقون الأولون ولهم منزلة عالية وعظيمة عند الله عز وجل.

والطائفة الثانية الأنصار وهم الذين آووا هذه واحدة، ونصروا هذه الثانية،

وأحبوا من هاجر إليهم، هذه الثالثة. وهؤلاء جمعهم الله فى الولاية أى النصرة والمودة والتعظيم والإكبار. ثم يأتى القول من الحق تبارك وتعالى:

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ ﴾

(من الآية ٧٢ سورة الأنفال)

وهؤلاء هم الطائفة الثالثة الذين آمنوا وتركوا دينهم الذى ألفوه. ولكنهم لم يهاجروا ولم يتركوا أوطانهم ولا أولادهم ولا أزواجهم ولا أموالهم، إذن فيهم خصلة تمدح وخصلة ثانية ليست فى صالحهم؛ فموقفهم بين بين، ولكن لأنهم لم يهاجروا لذلك يأتى الحكم من الله:

﴿ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ ﴾

(من الآية ٧٢ سورة الأنفال)

إذن فهذه الطائفة آمنت ولم تهاجر، ولكن عدم هجرتهم لا يجعل لهم عليكم ولاية، إلا أن قوله تبارك وتعالى:

﴿ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ ﴾

(من الآية ٧٢ سورة الأنفال)

وفى هذا تشجيع لهم حتى يهاجروا، كأن تقول لابنك: ليس لك عندى مكافأة حتى تذاكر. وفى هذا تشجيع له على المذاكرة. ولم يقطع الله سبحانه وتعالى أمامهم الطريق إلى الهجرة لأنهم ربما فهموا أن الهجرة لم تكن إلا فى الأفواج الأولى لأنه قال: « والذين آمنوا وهاجروا » أى أن الباب مفتوح.

وكلمة «هاجروا» مأخوذة من الفعل الرباعى « هاجر »، والاسم « هجرة» والفعل «هاجر». وهجر غير هاجر. فقد يترك الإنسان مكاناً يقيم فيه فيكون هذا

معناه «هجر» أى ترك وهو عن قلة وضيق تدفع إلى الهرب، إنما هاجر لابد أن يكون هناك تفاعل بين اثنين ألجأه إلى أن يهاجر، إذن فهناك عمليتان، اضطهاد الكفار للمسلمين؛ لأنهم لو لم يضطهدوهم وعاشوا فى أمان يعلنون إيمانهم وإسلامهم، ما حدثت الهجرة. ولكن الاضطهاد الذى لاقاه المسلمون كان تفاعلاً أدى إلى هجرتهم، والمتنبى يقول:

إذا ترحلت عن قوم وقد قدروا

ألا تفارقهم فالراحلون همو

أى أنك إذا تركت قوماً دون أن يكرهوك على ذلك تكون أنت الذى رحلت عنهم، ولكن المهاجرة التى قام بها المسلمون كانت بسبب أن الكفار ألجأوهم إلى ذلك، إذن هجر تكون من جهة واحدة، واسم الهجرة مأخوذ من هاجر، فكأن الله سبحانه وتعالى يقول: إن الدار التى اضطهدتم فيها كان يصح أن تهجروها. ويوضح الحق سبحانه وتعالى:

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ ۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ ﴾

(من الآية ٧٢ سورة الأنفال)

أى لابد أن يكون هناك التضامن الإيمانى دون الولاية الكاملة للمؤمنين الذين لم يهاجروا. فالإيمان له حقه فى قوله تعالى:

﴿ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ ﴾

(من الآية ٧٢ سورة الأنفال»

ولكن النصر هنا مشروط بشرط آخر هو:

﴿ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ ﴾

«من الآية ٧٢ من سورة الأنفال»

فاحفظوا هذا الميثاق لأن نقض العهود الميثاقية ليس من تعاليم الدين الإسلامى. ولكن مادام بينكم وبينهم ميثاق فيجب أن تتم التسوية عن طريق التفاهم. فعليكم احترام ما اتفقتم وتعاهدتم عليه. ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾

(من الآية ٧٢ سورة الأنفال)

أى يعلم ويرى كل ما تصنعون وقد جمعهم الله سبحانه وتعالى كمؤمنين فى آية واحدة وكلهم فى مراتب الإيمان وهم قسم واحد.

ثم يأتى الحديث بعد ذلك عن القسم الثانى المقابل فيقول سبحانه وتعالى :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ ﴾

فالكفار - كما نعلم - وكما تحدثنا الآية الكريمة بعضهم أولياء بعض.

فإن لم يتجمع المؤمنون ليترابطوا ويكونوا على قلب رجل واحد، فالكفار يتجمعون بطبيعة كفرهم ومعاداتهم للإسلام. وإن لم يتجمع المسلمون بالترابط نجد قول الحق تحذيراً لهم من هذا :

﴿ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾

(من الآية ٧٣ سورة الأنفال)

فسبحانه يريد لنا أن نعلم أننا إن لم نعش كمسلمين متحدين ننحاز لبعضنا البعض فى جماعة متضامنة، وتآلف وإيمان، إن لم نفعل ذلك فسوف تكون هناك فتنة شديدة وفساد كبير. لماذا ؟. لأن المؤمنين إن لم يتجمعوا ذابوا مع الكافرين، وستوجد ذبذبة واختلال فى التوازن الإيمانى جيلاً بعد جيل. ولو حدث مثل هذا الذوبان، سيتربى الأولاد والأطفال فى مجتمع يختلط فيه الكفر بالإيمان، فيأخذوا من هذا، ويأخذوا من ذاك، فلا يتعرفون على قيم دينهم الأصيلة، وقد يضعف المسلمون أمام إغراء الدنيا فيتبعون الكافرين. ولكن إن عاش المسلمو ن متضامنين متعاونين تكون هناك وقاية من أمراض الكفر، وكذلك لا يجترىء عليهم خصومهم.

أما إذا لم يتجمعوا ولم يتحدوا فقد يتجرأ عليهم الخصوم ويصبحون قلة هنا، وقلة هناك وتضيع هيبتهم، ولكن إذا اتحدوا كانوا أقوياء، ليس فقط بإيمانهم، ولكن بقدرتهم الإيمانية التى تجذب غير المسلمين لهذا الدين. وينشأ الفساد الكبير حين لا يتضامن المسلمون مع بعضهم البعض فيجترىء عليهم غير المسلمين ويصبحون أذلةً وهم أغلبيةٌ، ولا يهابهم أحد مع كثرة عددهم، ولا يكونون أسوة سلوكية. بل يكونون أسوة سيئة للإسلام. ويقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾

(من الآية ٧٣ سورة الأنفال)

فهل هذا توجيه من الله جل جلاله لهم، أو إخبار بواقع حالهم ؟

لقد طلب الحق سبحانه وتعالى من المؤمنين أن يكونوا أولياء بعض، ولكن هل قوله تعالى: ﴿ والذين كفروا بعضهم أولياء بعض ﴾ هو طلب للكافرين، كما هو طلب من الله للمؤمنين ؟ نقول: لا؛ لأن الذين كفروا لا يقرأون كلام

الله عز وجل، وإذا قرأوه لا يعملون به.

إذن فهذا إخبار بواقع كونى للكافرين. فعندما يطلب الله سبحانه وتعالى من المؤمنين أن يكونوا أولياء بعض، فهذا تشريع يطلب الله أن يحرص عليه المؤمنون، أما إذا قال إن الكفار بعضهم أولياء بعض. فهذا إخبار بواقع كونى لهم.

إن الإسلام جاء على أهل أصنام من قريش، ويهود فى المدينة هم أهل كتاب، وكذلك كان الأوس والخزرج كفاراً مثل قريش؛ ولكن الإسلام جمعهم وجعل بعضهم أولياء بعض، وكان بين الأوس والخزرج وبين اليهود قبل الإسلام عداء، وإن لم يصل إلى الحرب؛ لأنهم كانوا يحتاجون لمال اليهود وعلمهم وأشياء أخرى، وكان اليهود يستفتحون على الأوس والخزرج بمجىء النبى محمد المذكور عندهم فى التوراة ويقولون لهم: أطل زمان نبى سنتبعه ونقتلكم قتل عاد وإرم.

إذن كان اليهود يتوعدون الكفار، لما بينهم من عداء عقدى ودينى، فلما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم كفر اليهود برسالته والتحموا مع كفار قريش وقالوا:

﴿ هَٰٓؤُلَآءِ أَهۡدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ﴾

(من الآية ٥١ سورة النساء)

أى أن كفار قريش أهدى من الذين آمنوا بمحمد، فالولاء بين الكافرين واليهود جاء لهم بعد أن كانوا أعداء، لكنهم اتحدوا بعد ذلك ضد المؤمنين، فإذا كان هذا قد حدث بين الكفار واليهود؛ فيجب على المؤمنين أن يكون بعضهم أولياء بعض؛ لأنهم اجتمعوا على شىء يعاديه الجميع. وهذا ينفى مسألة الإرث التى قال بها بعض العلماء من أن المؤمنين بعضهم أولياء بعض أى يرث بعضهم

بعضا؛ لأنه لو كان هذا صحيحاً فكأن الله يشرع للكافرين - أيضا - أن يرث بعضهم بعضاً؛ لأنه استخدم كلمة أولياء بالنسبة لهم أيضاً. والحق سبحانه وتعالى لم يشرع للكافرين.

وبعد أن بينا أقسام المؤمنين الذين عاصروا رسول الله صلى الله عليه وسلم وعرفنا أنهم أربعة، ذكرنا ثلاثة منهم هم المهاجرون والأنصار والذين آمنوا ولم يهاجروا، وبقى من هذه الأقسام الذين آمنوا وهاجروا بعد ذلك، ويقول الحق تبارك وتعالى:

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ ﴾

أى إياكم أن تقولوا بأنهم لم يهاجروا معكم. وتنكروا أنهم منكم. بل هم منكم وأولياؤكم فهم قد اتبعوكم بإحسان.

وما الذى جعل الحق سبحانه وتعالى يذكر هذا مرة أخرى ؟. لقد تكلم سبحانه وتعالى عن الذين آمنوا وجاهدوا فى سبيل الله والذين نصروا، ولننتبه إلى أن هذا ليس تكراراً لأنه سبحانه وتعالى يذكر لنا هنا أنهم جاهدوا بالمال والنفس. وقد جاءت هذه الآية لتثبيت الحكم الشرعى. وانظر إلى عجز كل آية لتعرف. ففى عجز هذه الآية:

﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾

(من الآية ٧٤ سورة الأنفال)

والحكم الشرعى بالنسبة لهم هو أن يكونوا أولياء بعض، وهذا ما ذكره الله سبحانه وتعالى فى الآية السابقة حيث يقول:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾

(من الآية ٧٢ سورة الأنفال)

أى أعطانا الحكم الشرعى فى ولاية بعضهم لبعض. وأوضح أن هؤلاء لابد أن يكونوا أولياء، وهذا هو الحكم المطلوب منهم، ولكنه سبحانه فى هذه الآية الكريمة:

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾

(من الآية ٧٤ سورة الأنفال)

فلم يتكلم الحق سبحانه وتعالى هنا عن الولاية ولم يعط حكماً بها، وإنما قال سبحانه وتعالى: ﴿ هم المؤمنون حقا ﴾ وهذا حصر يسمونه قصراً، أى أن غيرهم لا يكون مؤمنا حقا، مثلما تقول: فلان هو الرجل، يعنى أن غيره لا تعد رجولته كاملة من كل نواحيها. وهذه مبالغة إيمانية.

ثم يذيل الحق سبحانه وتعالى الآية الكريمة التى نحن بصدد خواطرنا عنها بقوله الكريم:

﴿ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾

(من الآية ٧٤ سورة الأنفال)

وهنا يتكلم الحق سبحانه وتعالى عن الجزاء. والجزاء إما أن يكون فى الدنيا،

ولذلك حكم الله لهم بأنهم هم المؤمنون حقا، وإما أن يكون الجزاء فى الآخرة. وجزاء الآخرة يمحو السيئات ويرفع الدرجات فقوله: ﴿ لهم مغفرة ﴾ أى تمحى سيئاتهم. وقوله تعالى: ﴿ ورزق كريم ﴾ أى تضاعف لهم الحسنات فى الجنة. فكأن الآية الأولى كان مقصوداً بها حكم الولاية. وهو حكم مطلوب منهم. والآية الثانية تكلمت عن الجزاء وبينت جزاءهم فى الدنيا والآخرة. والجزاء فى الدنيا أنهم هم المؤمنون حقا، أمَّا الجزاء فى الآخرة فهو محو الذنوب حتى لا يعاقبوا. ورفع درجاتهم بإعطائهم الثواب؛ وهو رزق كريم.

والمغفرة لهم على قليل الذنوب؛ لأنه لا يوجد أحد بلا كبوة فى شىء من الأشياء ولا أحد معصوم مثل الرسل فهم وحدهم الذين عصمهم الله من الوقوع فى المعاصى، ولذلك فالحق سبحانه وتعالى يغفر لمن ذكرهم فى هذه الآية النزوات الصغيرة، ولهم رزق كريم أيضاً. والرزق هو ما انتفع به الإنسان، وإن كان الناس ينظرون إلى الرزق على أنه المادة فقط؛ من مال وأرض وعقار وطعام ولباس، ولكنَّ الحقيقة أن الرزق مجموع أشياء متعددة؛ منها ما هو مادى وما هو معنوى.

فالاستقامة رزق، والفضيلة رزق، والعلم رزق، والتقوى رزق، وكلما امتد نفع الرزق يوصف بأنه حسن وجميل. وهنا وصف الحق الرزق بأنه كريم. والكرم هو مجموع الأشياء التى فيها محاسن. وإذا جاء الرزق بلا تعب يكون كريماً، فالهواء رزق لا عمل لك فيه؛ يمر عليك فتتنفس، والماء رزق لا عمل لك فيه لأنه يهبط عليك من السماء، والطعام رزق لك فيه عمل قليل، فأنت بذرت ورويت وانتظرت حتى جاء الثمر.

إذن فهناك رزق لا عمل لك فيه مطلقاً وهو رزق فى قمة الكرم، وهناك رزق لك فيه عمل ضئيل وهو رزق كريم لأنه أكبر من العمل. وأنت حين تعطى إنساناً

أجره ليس هذا مناً أو كرما منك لأنه مقابل عمل، ولكن الكرم أن تعطيه بلا مقابل. ورزق الجنة بلا مقابل لأنه بمجرد أن يخطر الشيء على بالك وتشتهيه تجده أمامك.

إذن فهو رزق فى قمة الكرم، والحق سبحانه وتعالى قد جعل الكرم من صفات الرزق، فالرزق يعرف عنوانك ومكانك وأنت لا تعرف عنوانه ولا مكانه لأنك قد تبذل جهداً كبيراً فى زراعة أرضك ثم تأتى آفة وتصيب الزرع فلا يعطيك رزقاً. وقد تذهب إلى مكان وأنت خالى الذهن فتأتيك صفقة فيها رزق وفير.

إذن فالرزق يعرف مكانك ويأتى إليك ولكنك لا تعرف أين هو. وقد حدد الله سبحانه وتعالى الرزق وقسمه على عباده، وكل رزق مقسوم لك سيصل إليك ولن يذهب إلى غيرك، وأنت قد تأكل طعاماً تلتذ به ثم يهيج معدتك فتفرغ معدتك منه، ويأتى طائر ليلتقط بعضه؛ هذا رزق الطائر تعافه أنت. وقد تأكل الطعام ويتحول إلى مكونات فى دمك ثم تذهب تتبرع بهذا الدم إلى غيرك.

إذن فهذا الطعام الذى أكلته وتحول إلى دم فى جسدك ليس رزقك ولكنه رزق من نقل إليه الدم. ولذلك إذا قرأت القرآن تجد أن الحق سبحانه وتعالى يقول:

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ ﴾

(من الآية ١١٢ سورة النحل)

والرزق يأتيك ولا تذهب أنت إليه، وإذا كان الرزق قد ربط فى الدنيا بأسباب العمل، فالرزق فى الآخرة يأتيك بلا عمل.

ويقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك :

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِن بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنكُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾ ﴾

إذن فمن آمن بعد هؤلاء الأولين وهاجر وجاهد له أيضاً مغفرة ورزق كريم.

هكذا حدد الحق سبحانه وتعالى فئات المؤمنين وجعل لكل فئة مقامها، فالذين آمنوا هم جميعاً قد انتموا انتماء أوليا إلى الله، ولذلك نجد أن الحق سبحانه وتعالى قد خلق الإنسان مقهوراً فى أشياء ومختاراً فى أشياء يفعلها أو لا يفعلها، والمؤمن يختار ما أراده الله تعالى له؛ ففعل ما قال له: « افعل »، ولم يفعل ما قال له: « لا تفعل »، فكأنه اختار مرادات الله فى التشريع.

إن معنى الإيمان أن يستقر فى قلبك وأن تؤمن أن الله تعالى بكل صفات كماله خلق لنا هذا الكون وخلقنا، وأننا جئنا إلى هذا الكون فوجدناه قد أعد لنا إعداداً جيداً، كل ما فيه مسخر لخدمة الإنسان، وأعطانا الله سبحانه وتعالى الاختيار فى أشياء، وجعلنا من رحمته مقهورين فى أشياء.

مثلا دقات القلب والدورة الدموية وأجزاء جسمك الداخلية مقهورة لله عز وجل لا دخل لاختيارك فيها، وكذلك التنفس فأنت تتنفس وأنت نائم ولا تعرف كيف يحدث ذلك، ولكن الأفعال التى تصدر منك بعد فكر، تلك هى الأفعال التى جعل الله لك فيها اختياراً. ولو أرادك الخالق أن تكون مقهورا لفعل، ولو أراد أن يؤمن الناس جميعاً لفعل؛ ولكنه سبحانه وتعالى ترك لهم الاختيار؛ فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر؛ ليعرف مَنْ مِن عباده أحب الله فأطاعه فى التكليف، ومَنْ مِن الخلق قد عصاه.

إذن فالانتماء الأول للمسلم هو انتماء الإيمان، وللإنسان انتماءات أخرى؛ ينتمى لوطنه ولأهله ولأولاده ولماله، ولكن الانتماء الأول يجب أن يكون لله تعالى، بحيث يترك الناس أوطانهم وأموالهم وأهلهم إذا كان الإيمان يقتضى ذلك. والإنسان المؤمن هو الذى يترك اختياره فيختار ما أمر به الله عز وجل، ويجعل كل ما يملكه فى خدمة ذلك؛ فيجاهد بنفسه لأن الله أمره بذلك، ويجاهد بماله لأن الله أمره بذلك. إذن فالمؤمن الحق لا انتماء له إلا لله. فالذين هاجروا والذين آووا ونصروا، تركوا أموالهم وأولادهم وكل ما يملكون حبا فى الله وطاعة له.

فالأنصار لم يهاجروا ولكنهم وضعوا كل إمكاناتهم فى إيواء المهاجرين حبا لله؛ فتنازلوا عن مساكن لهم وأموال لهم، وتنازلوا عن زوجاتهم فى سبيل الله كل منهم مؤمن حقًا، أما الفئة الثانية فهناك نقص فى إيمانهم؛ ذلك أنهم لم يهاجروا رغم إسلامهم وفضلوا أن يبقوا مع أولادهم وأهلهم. ولذلك قال الله سبحانه وتعالى عنهم:

﴿ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ ﴾

(من الآية ٧٢ سورة الأنفال)

أى ليس مطلوباً أن توالوهم، لكن إذا استنصروكم فى الدين فعليكم النصر، لماذا؟ لأنهم لم يتركوا الانتماءات الأخرى مثل المال والولد والأهل ومكان الإقامة. والفئة الثالثة هم الذين جاءوا بعد ذلك، لم تكن هناك هجرة ليهاجروا ولكن من آمن منهم وجاهد وترك اختياره وخضع لاختيار الله خضوعاً تاما يكون كالمؤمنين الأوائل؛ لأنهم تركوا كل الانتماءات من أجل الله تعالى. ثم يختتم الحق سبحانه سورة الأنفال بهذه الآية الكريمة:

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمْ ۚ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٧٥﴾ ﴾

(سورة الأنفال)

سُورَةُ التَّوبَةِ (٩)
مدنية

وتنتهى خواطرنا عن سورة الأنفال لتبدأ خواطرنا عن سورة أخرى هى سورة التوبة، ومن عادتنا عند انتهاء سورة وابتداء سورة، أن تبدأ السورة الجديدة بـ «بسم الله الرحمن الرحمن». ولكن سورة التوبة هى السورة الوحيدة التى بدأت بدون البسملة، ووقف العلماء ليحاولوا العلم بسر عدم البدء بالبسملة، وقد اختلفت آراؤهم، ولحظ كل عالم ملحظاً، فمن قائل إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يحدد بداية السور ولم يحدد بداية هذه السورة.

ونقول: لا؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يحدد مكان الآية فى كل سورة، وقيل إن باقى سور القرآن الكريم وعددها مائة وثلاث عشرة بدأت بالبسملة.

ولم تبدأ سورة التوبة بالبسملة حتى نعرف أن الأمر ليس رتابة انتهاء سورة وابتداء أخرى، بحيث تجىء « بسم الله الرحمن الرحيم » مع بداية كل سورة، ولكن أسماء السور توقيفية، أى أن سيدنا جبريل عليه السلام هو الذى يبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم بكل ما فى القرآن الكريم، ونعلم أن رسول الله كان يراجع القرآن كله مع جبريل فى كل رمضان، وراجعه فى عامه الأخير مرتين مع جبريل، وكل ما جاء بالقرآن الكريم توقيفى كما أبلغه الوحى للرسول صلى الله عليه وسلم.

ومن عظمة الشرع أن ينتقل بالمؤمن من شىء إلى شىء، ليجد فجوة يتوقف العقل عندها، وهنا يأتى دور الإيمان ليمنع العقل من التوقف عند أى فجوة؛ لأن المشرع وهو الله سبحانه وتعالى يريد ذلك، ولو جاءت الآيات على رتابة واحدة لما انتبه الإنسان إلى قيم الإيمان.

على سبيل المثال نحن فى الحج نُقبِّل حجرا ونرجم حجراً ، وجاء هـذا كأمر من الله سبحانه وتعالى بأن هذا حجر يُقدس وذاك حجر يُرجم ويداس ؛ لنعلم أنه لا شىء فى هذا الكون مقدس لـذاته ، ولكن التقديس لأمر الله وبتوجيه منـه سبحانه وتعالى ؛ إن قال : قَبِّلوا ، قبلنا ، وإن قال : ارجموا ، رجمناه .

وفى الجيش مثلاً عندما يأتى الضـابط ويقول للجنود : قف ، فيقف الجنود ، حتى الـذى وضع لقمة فى فمـه يتـوقف عن مضغها . والحكمـة من ذلك هى الانضبـاط ، والانضبـاط الإيمانى أكبر؛ لذلك إذا صـادف المؤمن أشيـاء فى منهج الله يقـف فيهـا العقل يقـول : هذه إرادة الله وسأنفذها لأن الحق تبارك وتعالى أمر بها .

والمثال لنا هـو سيدنا أبو بكر الصديق رضى الله عنـه ؛ حينما أُخبر أن الرسول صلى الله عليـه وسلم قد أُسْرِى بـه إلى بيت المقدس ، وعُـرج به إلى السماء: لم يقس المسألـة بعقلـه ولكنه قـال : أَوَ قَال ذلـك ؟ قالـوا نعم ؛ قال : فأنـا أشهـد إن قال ذلك لقـد صـدق. قالـوا فتصـدقه فى أن يأتى الشـام فى ليلـة واحدة ثـم يرجع إلى مكـة قبل أن يصبح ؟ قال نعم أنا أصـدقه بأبعد من ذلك أصدقه ، بخبر السماء ؛ قـال أبو سلمة : فبها سُمِّى أبو بكر الصدِّيق .

ومن العلماء من قال: إن سورة الأنفال كـانت عهوداً ، وسورة براءة هى نقض لهذه العهود ، ونقض العهـد يأتى بعد العهـد ذاته . فجـاءت سورة التـوبة مكملـة لسورة الأنفال ، ولـذلك نجد فى سورة الأنفـال أن الحق سبحانـه وتعالى قال مشرعـا لتوزيع أموال الغنائم : ﴿ **فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ** ﴾ [**الأنفال** : ٤١]

وجـاءت سورة التـوبة لتفصل كيف يتم التوزيع لأموال الصـدقات فقال الله جل جلاله :

﴿ **إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** ﴾

[**التوبة** : ٦٠]

إذن فكان من الطبعى أن تأتى سورة التوبة بعد سورة الأنفال ؛ لأن سورة التوبة تتمة لسورة الأنفال ، وسورة التوبة تتعرض للقطيعة ، وتبدأ بقول الله تبارك تعالى :

﴿ بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ [التوبة : ١]

وهذه البداية لا تتناسب مع قوله تعالى : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾

لأن «بسم الله الرحمن الرحيم » أمان وهذه براءة ، وقيل فى عدم تسميتها سورة براءة وتسميتها سورة التوبة لأن القطيعة هنا بين الله وبعض عباده الذين ضلوا واختاروا الكفر والنفاق ؛ ولأنه رب رحيم أراد أن يفتح لعباده الذين أبقوا باب الرجوع إليه بالتوبة ؛ فسميت السورة سورة «التوبة» وقد بدأت السورة بقوله تعالى «براءة» واسمها التوبة حتى تسبق التوبة البراءة . ولذلك نجد فيها آيات التوبة فى قول الله تعالى : ﴿ لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ ﴾ [التوبة : ١١٧]

وفى آية أخرى : ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ﴾ [التوبة : ١١٨]

وفى آية ثالثة : ﴿ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ ﴾ [التوبة : ١٥]

إذن فعلى الرغم من أن السورة بدأت بالبراءة إلا أنها جاءت بالتوبة رحمة منه ؛ وقبولها منه تعالى رحمة بالناس .

فالله يَشْرع التوبة ويفتح بابها فضلا منه ورحمة ، فلو لم يشرعها الله ما قبلت توبة أبداً ؛ ولو عن معصية واحدة . والذى ييأس من التوبة وغفران الذنوب يشتد فى المعاصى وينغمس فيها ويحدث نفسه بأنّه ما دامت معصية واحدة سوف تدخله النار، فلا فرق بين معصية وألف . ولابد ـ إذن ـ أن يرتكب كل يوم جريمة ؛ لأن ذنبا واحداً أخرجه من الرحمة ، وشاء سبحانه وتعالى أن يفتح باب التوبة ليمنع شراسة الإجرام فى المجتمع ، فكل عاص يمكنه أن يعود بالتوبة إلى الإيمان ، ويعيش المجتمع فى أمان وسلام . وهكذا كان تشريع التوبة رحمة ، وقبولها من الله رحمة . ولذلك بعض

الناس يقول : إن الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ﴾ [التوبة : ١١٨]

ونتساءل كيف تاب الله عليهم ليتوبوا ؟ نقول : تاب عليهم أى شرع لهم التوبة ، فإن تابوا قبل الله توبتهم .

إذن فالمسألة تشريع وقبول . ومادام الله سبحانه وتعالى يقبل التوبة فهو توَّاب . إذن فقد قدم الحق هنا للإنسان أسلوبين يصحح بهما مساره ، قد شرع التوبة ، وأذن بقبولها . ومن عظمته لم يقل عن نفسه إنه تائب ولكنه تواب . فإذا فعل الإنسان معصية وتاب ، قبل الله توبته ، وإن غلبه الشيطان أو غلبته نفسه وارتكب معصية أخرى وتاب قبل الله توبته أيضا لأنه تواب رحيم .

وأخذت سورة التوبة حيزا مع المشركين وحيزاً مع اليهود والنصارى ، وحيزا مع المنافقين ، وكما حددت المؤمنين فى آخر السورة ، حددت أيضا مواقف كل من هؤلاء، وقد كان بيان موقف هؤلاء ضروريا ؛ لأن المنافق مثلا متعارض الملكات ، والكافر منسجم الملكات ، فالمنافق ينطق لسانه عكس ما فى قلبه ، والكافر إنما ينطق بما فى قلبه ، ولكن المنافق والكافر يتفقان فى عداوة المؤمن . ولذلك فضَح الله سبحانه وتعالى هؤلاء الأعداء وأظهر ما فى أعماق الكافرين والمنافقين وخصومتهم للإسلام ، وحاز المنافقون قسطاً وافراً من السورة لأنهم ادعوا الإيمان واقتربوا من المسلمين ، وخصومة القريب أشد على النفس ، فما بالنا بخصومة الإنسان مع نفسه ؟!

هكذا كان حال المنافقين الذين عاشوا بين المسلمين وملكاتهم متعارضة وخصومتهم للمؤمنين أشد ؛ لأنهم يتظاهرون بالإيمان ، ويضمرون الكفر . ولذلك كانت معظم آيات هذه السورة تفضح حال المنافقين وتظهر ما أضمروه من بغض وعداوة لأنهم أشد خطراً على الدين من الكفار .

والله سبحانه وتعالى يعطينا فى هذه السورة صورة لتمرد نوع من خلق الله من بنى الإنسان .

وهم هؤلاء الذين يكذبون بالله ونعمته ويضمرون الكفر والحقد ويتظاهرون بأنهم مع المسلمين علما بأنهم لم يتساووا مع الجمادات وسائر خلق الله من غير بنى الإنسان حتى الحيوان ، فإن هؤلاء جميعا يسبحون الله الخالق ويسجدون له؛ سجود إقرار بالربوبية ، أما المنافقون فهم من بنى الإنسان الذين تمردوا على الله خالقهم، ولذلك اقرأ إن شئت فى تصنيف الأجناس فى الكون : الجماد ، النبات ، الحيوان ، الإنسان ، حيث يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ** ﴾ [**الحج** : ١٨]

وهذه هى الجمادات ، ثم يأتى الخبر بالنسبة للنبات والحيوان فيقول الحق جلّ وعلا: ﴿ **وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ** ﴾ [**الحج** : ١٨]

ثم جاء الخبر فى الإنسان فقال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ **وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ** ﴾ [**الحج** : ١٨]

أى أن الأمر فى التسبيح والطاعة والسجود لله انقسم عند الإنسان لأن له أغياراً .

ونجد رحمة الربوبية فى أنه ، كما جعل للمؤمن رزقه ، فقد جعل للكافر رزقه أيضا، وبيّن الله عز وجل أنه يرزق الكافر رغم أنه أراد بالسورة القطع بينه سبحانه وتعالى وبين الذين نقضوا العهود ، فإنه شاء أن يسمى السورة «سورة التوبة» ؛ ليفتح لهم باب التوبة فقد يتوبون ويرجعون إلى الإيمان .

وقبل أن نصنف ما جاء فى سورة التوبة لبيان الموقف من المشركين ، والموقف من أهل الكتاب ، والموقف من المنافقين ، يحسن بنا أن نفصل الكلام فى مسألة التسمية ـ البسملة ـ لأنها شغلت بال العلماء كثيراً .

ونعلم أن «بسم الله الرحمن الرحيم» وردت فى القرآن الكريم مائة وأربع عشرة مرة ؛ منها مائة وثلاث عشرة مرة فى بداية السور، ومرة فى سياق آيات سورة النمل ؛ فى قوله تعالى : ﴿ **إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ** (٣٠) ﴾ [**النمل**]

وهى آية مجمع عليها، أنها آية من سورة فى القرآن الكريم، ولكن ماذا عن

البسملة فى أوائل سور القرآن الكريم ؟

اتفق العلماء على أنها آية من آيات القرآن الكريم ، ولكن كان الخلاف بينهم حول: هل هى آية من كل سورة ؟ واتفق الجمهور على أنها آية قد نزلت للفصل والابتداء ، ولا يصح أن نقول : إنها للفصل فقط ، بل نقول : هى للفصل والابتداء، وهناك من يقول : إنها فى الفاتحة للابتداء ، أما الفصل فلا يوجد قبل الفاتحة سورة أخرى فى المصحف ، وعلى ذلك فهى للفصل بين الفاتحة وسورة البقرة . ولمثل هذا القائل نرد قائلين : إن المدقق فى علوم القرآن الكريم يعلم أن ترتيب المصحف غير ترتيب النزول ، فالمصحف له ترتيب ، والقرآن نزل منجماً على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والفاتحة ــ على سبيل المثال ـ نزلت بعد سورة المدثر ، فهى فاصلة بين المدثر والفاتحة .

وحين نتصفح المصحف الشريف نجد أن ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ آية من الفاتحة، ولكنها ليست آية من كل سورة . ففى ترقيم آيات الفاتحة نجد ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ الآية الأولى . ونجد ﴿الحمد لله رب العالمين﴾هى الآية الثانية ، بينما فى باقى السور ، تجد أن الآية الأولى تبدأ بعد قوله تعالى : ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ وذلك لأن جمهور العلماء عَدَّ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ آية فى سورة الفاتحة .

وجزى الله خيراً صاحب المعجم المفهرس الذى وضع معجماً لآيات القرآن الكريم بحيث إذا أحببت أن تعرف موقع آية فى المصحف تستطيع أن تحصل على موقعها بين الكلمات فى هذا المعجم ، إلا أنه من عجيب الأمر واستيلاء النقص على البشر، شاء الحق تبارك وتعالى لهذا الرجل الطيب الباحث ، أن ينسى وضع ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ فى الإحصاء ، وجاء بكلمة الله فى ٩٨٠ آية بالرفع ، ٩٢ آية بالنصب ، ١١٥٢ آية جاءت فيها كلمة الله بالجر ، وتنقص آيات الجر ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم﴾ .

وأنت حين تقرأ القرآن الكريم تستعيذ بالله من الشيطان الرجيم ثم تقول من بعد ذلك : ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ لأن القرآن قد بدأ مقروءا باسم الله ، وكذلك يبدأ

متلوا باسم الله ، وها نحن أولاء مع رسول الله حينما كان فى غار حراء يتعبد ، وجاء له الوحى فقال له : ﴿ اقْرَأْ ﴾ [العلق]

واقرأ تتطلب أحد أمرين ؛ الأمر الأول هو أن يكون المتلقى لها قد حفظ شيئا فيقرأه .

والأمر الثانى أن يكون أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم كتاب فيقرأه ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن عنده محفوظ ، ولم يكن أمامه مكتوب . فضلاً عن أنه صلى الله عليه وسلم كان لا يعرف القراءة والكتابة . ولهذا تساءل رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أنا بقارىء . وكان صلى الله عليه وسلم منطقيا مع نفسه فى هذا الرد . وقال الملك جبريل ثانيا: اقرأ ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أنا بقارىء .

أتعرفون لماذا كان هذا التكرار ؟ كان ذلك فى فحواه ردا على شعوذة أثارها خصوم الإسلام وأعداؤه بعد مجىء رسالة الإسلام بأربعة عشر قرنا ؛ حينما قالوا : إن القرآن هو بعض من وَسَاوِس وأحاديث فى نفس محمد . لكن ها نحن أولاء أمام الرد . لقد جاء الملك جبريل ليقول لمحمد : «اقرأ» وها هو ذا رد محمد «ما أنا بقارىء» .

إننا إذن أمام شخصيتين متميزتين ، شخصية آمرة جازمة ، وشخصية متمنعة ، فلو كانت المسألة مسألة حديث نفس أو وسوسة ، لما كان هناك سبب لوجود الشخصية الامرة ، ووجود الشخصية الثانية الممتنعة ، وكل شخصية منسجمة مع صفاتها وقدراتها ، فالشخصية التى تقول: «اقرأ» هى الآمرة بالقراءة . والشخصية التى تقول «ما أنا بقارىء» هى شخصية تعرف الأسباب وقدر الأسباب وتعرف مواقعها من الأمية . إذن فهنا شخصيتان متميزتان لا شخصية واحدة .

وحين يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : «ما أنا بقارىء» فهو منطقى مع نفسه ومع الواقع . وحين يقول الملك جبريل مبلغا عن ربه : ﴿اقرأ﴾ فهو يُقْرِئُه باسم ربه، لا لأنه قارىء ولا لأنه كاتب . كأنه يقول له : إنك يا محمد ستقرأ باسم ربك لا باسم تعليمك . ويتتابع الوحى : ﴿اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق﴾ فكما خلق الحق سبحانه وتعالى الإنسان بقدرته من علق ، هو قادر على

أن يجعلك يا محمد تقرأ ، وإن لم تتعلم القراءة . وهذا ليس بالأمر العزيز أو الصعب على الخالق ، اقرأ باسم ربك ؛ لا باسم أنك قد تعلمت ، فربك هو الذى خلق الإنسان من علق ، وربك هو الأكرم ، الذى علم بالقلم وعلم الإنسان ما لم يعلم ، فأنت لن تقرأ مما تعلمته من البشر، ولكنك تقرأ مما تعلمته من خالق البشر.

ونحن فى موقف مع رب الأسباب : ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ﴾ [العلق : ٣]

والإنسان منا حين يتعلم القراءة والكتابة فهو يتعلمها من إنسان مثله ، وهى دليل على كرم الله تعالى لأنه نقلها من إنسان إلى إنسان ، ولكن حين تتعلم من غير ذلك فهذا هو الموقف الأكرم . إذن فهناك «كريم» وهناك «أكرم» كأن الحق سبحانه وتعالى يقول لمحمد : أنت لا تقرأ باسم أنك تعلمت ولا باسم أنك حافظ ، وإنما تقرأ باسم ربك ، وإن لربك مطلق القدرة إذا أراد شيئا فهو يقول سبحانه وتعالى :

﴿ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس : ٨٢]

إذن فقد قرأ الرسول صلى الله عليه وسلم القرآن أولا باسم الله . ونحن نتلوه أيضا باسم الله . ولابد أن نأخذ «بسم الله» من زاويتين : الزاوية الأولى هى فيما نلحظه من لغة البشر، فإذا ما تكلم إنسان فى أمر من الأمور ويريد إقناعك به وتأييدك له فأنت تقول له : باسم من تتكلم ؟ ..

فيقول لك : أنا أتكلم يا سيدى باسم السلطة . وقد تكون هذه السلطة هى النيابة أو الشرطة أو الضرائب . إذن جاء لك بالصفة التى يتكلم باسمها .

ونحن فى هذه الحياة المعاصرة نجد الحاكم مثلاً يفتتح خُطَبَه قائلا «باسم الشعب» ويكون ذلك هو مدخل الحاكم للحديث فى أى أمر.

والزاوية الثانية هى أنك حين تتكلم باسم الله فأنت تعرف أى قدرة مطلقة تقبل على العمل بها . فأنت تذهب إلى الأرض لتحرثها ، فتعطيك الزرع ، وأنت تعلم أنك لم تخلق الأرض ، ولا تعرف عدد العناصر التى فيها ، وأنت كذلك لم تخلق البذور التى تبذرها فى الأرض ، ولا أنت الذى ستنزل الماء من السماء لتروى الأرض . كل ما فى

الأمر أنك حرثت الأرض ، أى أنك أعملت فكرك المخلوق لله فى المادة المخلوقة لله بالطاقة المخلوقة لله سبحانه وتعالى .

إذن فأنت حين تقبل على الزراعة تعرف حدود قدرتك وتعرف مطلق قدرة الله سبحانه وتعالى فتقول: «باسم الله» وهذا يعنى ضِمْناً أنك تقول : أنا لا أقدر على أن أزرع باسمى لأنى لم أخلق الأرض ، ولا أنزل المطر، ولا أنا خالق البذور، ولا قدرة لى لأرغم الأرض على أن تنبت الزرع بأنواعه المختلفة .

وعلى الإنسان أن يسأل نفسه عندما يقبل على أى عمل من الأعمال : ما هى قدرتى التى ترغم العمل على أن ينفعل ؟ لا توجد للإنسان أى قدرة ولكن هى قدرة التسخير التى خلقها الله سبحانه وتعالى فى كل الكائنات التى تنتفع بها أيها الإنسان . لذلك فمن حسن الأدب مع الله أن تدخل على كل عمل قائلا : أنا لا قدرة لى عليك إلا باسم الله الذى سخرك لى وأمرك ألاَّ تخرج عن طاعتى.

وعلى سبيل المثال : هل يمكننا أن نؤثر فى حركة الشمس ويكون فى استطاعتنا أن نقول لها : أشرقى ؟ . نحن لا نتحكم فى الشمس ولا فى القمر ولا فى الهواء ولا فى النجوم . إذن . فمن حسن الأدب مع الله تعالى أن تدخل على كل ذلك باسم الذى سخر هذه الكائنات لخدمتك . وانظر دائما إلى من سخر لك جميع الكائنات لتكون فى طاعتك .

عليك أن تعرف أنك بلا قدرة على شىء ، وأنك لن تقدر على أى شىء إلا بقدرة الله تعالى وأنت إن أقدمت على أى عمل ، وليس فى بالك الله المسخِّر له ، واحتفظت فى بالك فقط بالنتيجة التى يحققها لك هذا العمل ، فاعلم أن هذا هو أول فارق بين المؤمن والكافر. فالكافر هو الذى يدخل على أى عمل وهو ناظر فقط إلى فائدته المجردة سواء أكانت زراعة أم صناعة أم طعاما أم شرابا . أما المؤمن فهو يعلن دائما الولاء لله سبحانه وتعالى وأنه لا يقوم إلا بالعمل الذى أباحه الله له . إنه يضع الله دائما فى قلبه وفى باله وذلك يكسبه فائدتين ، الأولى : هى الوصول والحصول على نتيجة هذا العمل ، مثله فى ذلك مثل الكافر، والفائدة الثانية هى الثواب الذى يناله

المؤمن فى الآخرة . إنه يستفيد من عطاءين لا من عطاء واحد . ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الآخِرَةِ (١) ﴾ [سبأ]

والمؤمن ساعة يرى نتيجة عمله فى الدنيا لصالح نفسه فهو يقول : الحمد لله. وساعة يرى عطاء الله له فى اليوم الآخر من حسن الثواب فهو يقول أيضا : الحمد لله. الحمد لله أولا والحمد لله آخرا .

اذن فساعة تقول : ﴿باسم الله﴾ وأنت مقبل على أى عمل . فأنت تعترف أنك تدخل على العمل بلا حول منك ولا قوة ولا طوْل ، وإنما بيقين أن الله سبحانه وتعالى هو الذى يسخر لك هذا العمل . ولو لم يسخر الله لك ما أمامك من كائنات لما انفعلت لك ، أو أعطت ثمرة .

وأنا لا أمل من ضرب هذا المثل من الأنعام ، تلك الأنعام التى يستأنسها الإنسان بإرادة التسخير التى خلقها الله تعالى ، فهناك بعض من الحيوانات التى لا نستطيع أن نستأنسها : نحن نستأنس الجمل ، وقد تستأنس الفيل ، ولكن لا يستطيع أحد منا أن يستأنس ثعبانا صغيرا أو ذئبا لأن الحق ترك هذه الكائنات منطلقة ولا يستطيع الإنسان أن يستأنسها ، حتى يعلم الإنسان أنه لا حول له ولا قوة ، وأنه لو لم يذلل الله له بعضا من الحيوانات ، لما استطاع أن يذلل أى شىء منها ، والدليل على هذا هو وجود حيوانات لا نستطيع أن نذللها ، والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (٧١) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (٧٢) ﴾ [يس]

إذن فلو لم يذللها الله تبارك وتعالى لما استطعنا نحن تذليلها ، وترك الله بعضا من الوحوش غير مستأنسة ليخبرنا أننا لا نملك مطلق طاقة التذليل والتسخير، ولكنه سبحانه وتعالى هو الذى يخلق طاقة التسخير والتذليل فيما يشاء لمن يشاء . وهذا تنبيه واضح للإنسان حتى لا يضل وحتى لا يأخذه الغرور. فإذا أقبلت على أى عمل

باسم الله ، فكأنك دخلت على العمل باسم من سخر لك الكائنات لتنفعل معك .

وقد يقول قائل : ولكن الكائنات أيضا تنفعل للكافر الذى لا يقول: ﴿باسم الله﴾ . ونقول : إن الكافر لا يأخذ إلا نتيجة العمل فقط . أما المؤمن فهو يثاب على عملية استحضار الله فى باله مع الجزاء بنتيجة العمل ذاته .

وبعد ذلك يطلق الحق سبحانه وتعالى أشياء فى الكون ويفلتها من قانونها الذى وضعه لها ، فالسنن فى الكون موجودة ولكن الله يأمر هذه السنن أن تخرج على قوانينها. لماذا ؟ . ليعلمنا سبحانه الفرق بينه ــ وهو الحق ــ وبين الخلق . إن الحق يطلق القانون ويقيده ويفلته كما يشاء ، والخلق يصممون القانون لعمل ما، ولا يستطيع الشخص أن يتجاوز به حدود ما صنع له .

فسبحانه وتعالى قد وضع نواميس للكون ، ويخرق سبحانه هذه النواميس فى بعض الأحيان حتى يلفت نظر الناس إلى أنه القائم على هذا الكون . مثال ذلك أننا نجد المطر ينزل دائما فى مكان ما من الأرض ، وبعد ذلك يصيب هذا المكان الجفاف، وهذا خروج عن الناموس . هو بذلك يلفتنا إلى أن الكون لا يخضع للناموس ، ولكنه خاضع لإرادة خالق الناموس . والحق سبحانه وتعالى يخرق الناموس ليلفتنا إلى مطلق قدرته . إنه يلفتنا لنعرف أن ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ لها مدلول فى الكون .

ومثال نراه فى حياتنا على خرق الناموس ، نحن نعلم أن التكاثر يحدث فى الإنسان من زواج رجل بامرأة ، ويريدان الإنجاب . لكن الحق سبحانه هو الذى يحدد عطاء النوع ذكرا أو أنثى أو لا يعطى حسب مشيئته : ﴿ **لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٥٠)** ﴾ [الشورى]

إن الرجل والمرأة موجودان ، ولكن الناموس لا يتصرف بمشيئته ، ولكنها إرادة خالق الناموس .

والحق سبحانه وتعالى يضرب أكثر من مثل على ذلك . ونعرف حكاية سيدنا زكريا

وكان يكفل مريم عليه وعليها السلام ، ويأتى لها بالطعام والشراب فدخل عليها مرة فوجد عندها لونا من الطعام لم يكن قد أتى به ، فقال لها تلك المقولة المشهورة التى تعلمنا كيف ندير أمور حياتنا بلا فساد أو سماح بفساد لأبنائنا وبناتنا ، قال لها :

﴿ أَنَّىٰ لَكِ هَذَا ﴾ [آل عمران : ٣٧]

إنه يعلمنا الرقابة على من نكفلهم ، ففساد البيوت ينشأ من عدم الرقابة على الأولاد ، فالأم إن رأت قلم حبر فاخراً ـ على سبيل المثال ـ مع الابن ولم يحضره له أبوه ولم تسأله «من أين لك هذا ؟ » فهذا تستر على فساد فى الابن وقد يكبر فى الفساد من بعد ذلك . والأم إن رأت بعضا من الملابس التى لم تحضرها لابنتها ، والابنة ترتديها ؛ عليها أن تسأل وتدقق بأسلوب «أنَّى لكِ هذا ؟» حتى لا تنحرف الابنة، ولو أن الزوجة تتنبه إلى اسلوب تصرف زوجها وإنفاقه الذى قد يفوق مرتبه كثيرا وتسأله بحسم : «أنى لك هذا ؟» فهى تحمى زوجها وبيتها من المال الحرام .

إن مبدأ «أنى لك هذا ؟» لو سيطر على المناخ العام للمجتمع لامتنع الفساد من جذوره . وقد أطلق الحق هذا التساؤل على لسان سيدنا زكريا عليه السلام لمريم بعد أن كفلها : ﴿ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَذَا ﴾ [آل عمران : ٣٧]

هنا قالت مريم : ﴿ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران : ٣٧]

إذن واجه سيدنا زكريا خرقا سماويا للناموس.

وكان زكريا عليه السلام يريد لنفسه أن يدخل ضمن دائرة: ﴿إن الله يرزق من يشاء بغير حساب﴾ فدعا ربه أن يرزقه غلاما رغم أنه قد بلغ من الكبر عتيا، وأن زوجه عاقر، ما دام الحق يرزق من يشاء بغير حساب فليدع الله :

﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ﴾ [آل عمران : ٣٨]

وجاءت البشارة من الله تعالى بيحيى ، وتحقق لزكريا ما آمن به من أن الله سبحانه وتعالى يرزق من يشاء بغير حساب . ولنا أن ننتبه إلى أن هذه المسألة جرت بين يدى

سيدتنا مريم ، ذلك أن مريم ستتعرض لمحنة لم تتعرض لها امرأة فى العالم ، فأراد الله عز وجل أن يؤنس بشريتها حتى لا تتزلزل أفكارها ويعلمها أن تقول : ﴿إن الله يرزق من يشاء بغير حساب﴾ وفى ذلك إيناس لمريم لما سيجرى عليها من خروج على الناموس فتلد من غير ذكر . لقد عرفت أن الحق يرزق من يشاء بغير قانون ، ورأت أمامها تجربة زكريا عليه السلام عندما أعطاه الله الولد بعد أن جاء على لسان زكريا :

﴿ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴾ [مريم : ٨]

ورأت مريم أن ذلك على الله هين :

﴿ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾ [مريم : ٩]

وعندما يأتى لها الملك متمثلا فى هيئة البشر ليبشرها بغلام ، تقول :

﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾ [مريم : ٢٠]

يقول الملك : ﴿ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ ﴾ [مريم : ٢١]

وتلد مريم الولد ، وهكذا خرق الله بقدرته الناموس .

ونتذكر أن الحق سبحانه وتعالى حين كرر الاصطفاء لمريم فى القرآن الكريم كرره لحكمة : ﴿ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴾ [آل عمران : ٤٢]

فالاصطفاء الأول هو اصطفاء قيمى تدخل به فى دائرة المُصْطَفَيْن الأخيار، والاصطفاء الثانى لمريم عندما ولدت دون أن يمسها بشر؛ لذلك كان اصطفاؤها على نساء العالمين ، فكل امرأة تلد بوساطة رجل ، أما مريم فقد اصطفاها الله عز وجل لتلد دون رجل . ولهذا حدد الله أشخاص هذه القصة؛ لأن امرأة أخرى لن يحدث لها مثل ذلك ، ولكن بعض قصص القرآن الكريم لا يأتى فيها تحديد لأشخاص مثال ذلك قصة أهل الكهف . ﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾ [الكهف : ١٣]

لم يحدد الحق سبحانه وتعالى أسماءهم أو عددهم، وذلك لأن عدد أهل الكهف ليس له قيمة فى مغزى القصة ، وكذلك لم يحدد البلد الذى كانوا فيه أو العصر الذى عاشوا فيه . ولم يأت الحق عزوجل هنا بتخصيص وتحديد أسماء أهل الكهف ؛ لأنه لو فعل لقال قائل : هذه خصوصية لهذه الأسماء فلا تتكرر فى الدنيا، لكن عندما تركها الحق هنا دون تشخيص ولا تحديد للعدد ولا لزمان هؤلاء الفتية ،فهذا معناه أن هؤلاء الفتية أرادهم الله مثلا فى الكون ، يتأتى من أى فتية بأى أسماء فى أى زمان وفى أى مكان ، فالإبهام هنا فيه مزية لفائدة القصة . لكن حين يريد الله عزوجل تحديد أشخاص تجده على سبيل المثال يقول :﴿ **ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ (١٠)** ﴾ [التحريم]

لقد حدد الله تعالى زوجتين لاثنين من أنبيائه ، وكل منهما استقلت بعقيدتها وما استطاع نبى أن يهديها ، وأيضا امرأة فرعون آمنت رغم أن فرعون ادعى الألوهية ولكنه لم يستطع أن يقنع امرأته بالإيمان به . يقول المولى سبحانه وتعالى : ﴿ **وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١١)** ﴾ [التحريم]

إذن هى امرأة مؤمنة لها عقيدتها المستقلة ، لكن حينما ذكر الحق سبحانه وتعالى مريم جاء بالتحديد والتشخيص ، فلم يذكر اسمها فقط ،بل ذكر اسم أبيها أيضا فقال: مريم ابنة عمران. ويأتى القرآن الكريم لقصة ذى القرنين ، وعندما سألوا عن اسمه لم يذكر اسمه ، بل قال فى بيان أوصافه : ﴿ **إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا (٨٤)** ﴾ [الكهف]

لقد أراد الله سبحانه وتعالى هذا الإبهام ، وإن سألك أحد: من هو ذو القرنين؟ فلك أن تجيب أتريد أن تفسد على القرآن مراده ؟ إن المراد من القصة القرآنية هو ماجاء فى القرآن ، وأراد الحق أن يظل اسمه مبهما ، إنه رجل مُمكن له فى الأرض، آتاه الله تمكينا

وأحاط نفسه بالطيبين ، وأبعد عنه أهل السوء ووفقه لإعانة الضعفاء ، وهذا المثل لابد أن يظل مع الناس طوال الزمن ، ونقول : الحق سبحانه وتعالى حين يبدأ قرآنه بقوله :

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾

فعليك أن تبدأ قراءة القرآن الكريم بها وأن تتذكر حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : (كل أمر ذى بال لا يبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم أقطع)[1]

لأن كل عمل يبدأ بغير اسم الله هو عمل ناقص ، حتى لا يصادفك الغرور والطغيان وتتخيل أنك أنت الذى تسخر المسائل لتنفعل لك ، وهكذا تفتقد التصور الحق لقدراتك ، وأنت ساعة لا تذكر اسم الله تعالى فى بدء العمل فمعنى هذا أن الله ليس فى بالك ، ولا يكون لك على هذا العمل جزاء فى الآخرة ، وقد تأخذ عطاء العمل فى الدنيا ، ولكنه حجب عنك ومنعك عطاء الآخرة . أما الذى يريد عطاء الآخرة فعليه أن يقول دائما : «بسم الله الرحمن الرحيم» فى بدء كل عمل ذى بال يقوم به . وذلك يبقى كل عمل بعطائه فى الدنيا وحسن الجزاء عنه فى الآخرة.

يتزوج المرء باسم الله وينكح باسم الله ، وما دمت تدخل عليها باسم الله فأنت إذن تستطيع أن تميز الحلال عن الحرام ، ولن تبدأ أى عمل باسم الله إلا فيما أباحه الله عز وجل ، فالإنسان لا يمكن أن يسرق أو يقبل الرشوة باسم الله .

وحين تبدأ العمل الحلال باسم الله فأنت تعرف أن الحق معبود ، وله أوامر بـ «افعل» وله نواه بـ «لا تفعل» وإياك أن تستحى إن كنت عاصيا أن تستفتح أعمالك باسم الله، لأن الله لا يحقد على خلقه ولا يتغير على خلقه ولا ينفض يده من أمور خلقه، فإن كنت قد عصيت الله فى شىء فأقبل على عملك باسم الله لأنه رحمن ولأنه رحيم . فهو سبحانه وتعالى حين شرع عقوبة على معصية من المعاصى ، فمعنى ذلك أنه أذن بأن تقع تلك المعصية . فإن كنت قد عصيت الله وتخجل من أن تبدأ عملك «بسم الله الرحمن الرحيم» فتذكر أن الحق تبارك وتعالى «رحمن» و«رحيم» ونعرف أن الاشتقاق

(١) السيوطى فى الجامع الصغير، وابن كثير فى تفسيره بلفظ «فهو أجذم» .

فى«رحمن» و«رحيم» من الرحم ،والرحم هو مكان الجنين فى بطن أمه ، وهو منتهى الحنان. ولذلك جاء فى الحديث القدسى عن صلة الرحم : وفيه يقول الله عزوجل :

(أنا الله وأنا الرحمن خلقت الرحم وشققت لها من اسمى
فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته)[1]

(حديث قدسى)

إذن فكلمة «الرحمن» وكلمة «الرحيم» مأخوذتان من الرحم، والحق حنَّان على عباده، وعطوف عليهم ، ولذلك فالعاصى لا يصح أن يستحى أن يهتف ﴿باسم الله﴾ وأن يقول فى بداية أى عمل يشرع فيه: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ إنه بذلك يمنع عن نفسه الغرور بأنه قدر بذاته ، بل إنه قدر على الأمر بالتسخير منه سبحانه وتعالى ولا يحرم نفسه الثواب عليه فى الآخرة ، وحين يقول المؤمن: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ فهو يدخل فى حماية الله ، وإذا قيل «رحمن» فهى مبالغة ، وإذا قيل «رحيم» فهى مبالغة .

لكن إياكم أن تفهموا أن صفات الله عزوجل تتأرجح بين القوة والضعف ، فمرة يكون راحما ومرة يكون رحمانا ومرة يكون رحيما، لا، لأن صيغ المبالغة إنما تأتى فى الأغيار، ويقال : فلان عالم وفلان علاَّم أى أكثر علماً من العالم ، وفلان علاَّمة أى أكثر علما من العلاَّم ، فالصفات فى البشر تتغاير، لكن عند الحق سبحانه وتعالى لا تضعف صفة وتقوى أخرى . وإنما متعلقات الصفة هى التى تكثر أو تقل . فأنت تقول : فلان آكل ، وفلان أكاَّل وفلان أَكُول . والأَكُول لايَأكلُ رغيفاً واحدا على سبيل المثال مثل الآكل ، لكنه قد يأكل خمسة أرغفة فى المرة الواحدة ، والأكَّال قد يأكل خمس مرات بدلا من ثلاث ، فالمبالغة تأتى مرة فى الحدث وهو هنا الأكل ، ومرة تكون المبالغة فى الفعل.

أقول ذلك حتى نعرف أن الصفات فى البشر ـ وهم أحداث ـ تتغاير، أما بالنسبة للحق سبحانه وتعالى فهو لا يتغير ولا تتغير صفاته ، بل تضعف متعلقات الصفات

(١) رواه البخارى وأحمد وأبو داود والترمذى .

أو تكثر، فهو رحمن لأنه يرحم المؤمن والكافر فى الدنيا . لذلك فرحمته واسعة ، وهو رحيم فى الآخرة لأنه يرحم المؤمنين فى الآخرة . فالله لا يتغير من أجلنا ولكن نحن الذين نتغير ويجب أن نتغير من أجل الله تعالى . لو كان الحق سبحانه يتغير لخسف الأرض بالعبد الذى فيعصيه وهو ستار، يعصيه العاصى ويستره ، وهو حليم لا يتغير.

وحين يأمرنا الحق سبحانه وتعالى أن نبدأ قراءة القرآن الكريم بقول :

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾

فلنعرف أن ذلك مطلوب منا فى قراءة القرآن الكريم وفى أى عمل آخر نقوم به ؛ لأنه سبحانه وتعالى هو الذى سخر لنا كل شىء ، ولولا تسخيره لما استطاع أحد منا أن يفعل شيئا ، ولأن الله يريد ألا يكون عمل الواحد بلا ثواب حتى إتيان الزوجة وأنت تنوى إعفاف نفسك وإعفافها أو تنوى الذرية الصالحة فلتبدأ ذلك باسم الله تعالى ، وبذلك يكون لك الثواب .

يقول صلى الله عليه وسلم ضمن حديث له : وفى بضع أحدكم صدقة . وقد قالوا له : أيأتى أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال : «أرأيتم لو وضعها فى حرام أكان عليه وزر؟ فكذلك إذا وضعها فى الحلال كان له فيها أجر»[1]

ولذلك كل أمر ذى بال لا يبدأ فيه باسم الله هو أبتر، ومعنى ذى بال أى عمل يقدم عليه الإنسان بفكر، لكن الأعمال التى تمر على الخاطر فقد ينسى الإنسان أن يبدأها باسم الله فهى مغفورة له لأن الإنسان منا له ثلاث نسب فى كل موقف : نسبة ذهنية ؛ نسبة كلامية ، ونسبة خارجية . مثال ذلك إن عطش الإنسان فإن النسبة الذهنية التى تجىء إلى الذهن «إننى أريد كوب ماء» وهنا يقول الإنسان : «أعطنى كوب ماء» وهذه النسبة كلامية ، وعندما تأتى بكوب الماء إلى العطشان فهذه نسبة خارجية .

والنسبة الخارجية إنما تنشأ من النسبتين الأوليين ، وكل أمر يحدث منك بنسبة خارجية أو نسبة كلامية ولم يخطر على بالك بنسبة ذهنية فهو أمر غير ذى بال .

---

(١) رواه الإمام مسلم .

وهَبْ أن المصباح الكهربائى الذى ينيرلك ليلا انكسر فجأة ، فقلت: «ياستار» ولم تقل ﴿باسم الله﴾ وابتعدت عن مكان الخطر ، هذا العمل لم تكن له نسبة ذهنية ،؛لذلك فهو أمر غيرذى بال ، أما الأمر ذو البال فإنك تأخذ عليه عطاء الدنيا وتأخذ عليه الأجر والثواب فى الآخرة إذا قلت: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ وبعضنا يلحظ أن الكافر يقبل على الأرض ويحرثها وتعطى له ويأخذ المحصول لكنه لا يأخذ الثواب مع المحصول ،ولذلك يعلمنا الله سبحانه وتعالى أن نبدأ قراءة القرآن بـ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم»﴾.

و﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ هى التى ابتدئت بها سورة فاتحة الكتاب وابتدئت بها كل سورة من سور القرآن الكريم إلا السورة التى نحن بصدد خواطرنا عنها وهى سورة التوبة .

ونجد فى التسمية ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ «ثلاثة أسماء لله : الله والرحمن والرحيم» و«الله »علم على الذات وهو واجب الوجود بكل صفات الكمال فيه . و«الرحمن» تبين مجالا لأفعال الله وصفاته . و«الرحيم» تبين مجال عطائه لنا فى الآخرة . وبما أننا لا نملك سيطرة على أى جنس من أجناس الكون إلا بأن يسخره الله تعالى لنا ليخدمنا ؛ إذن فمن الطبعى أن تقبل أيها الإنسان على التفاعل مع أى شىء فى الكون ، وأن تبتدىء ذلك باسم الذى سخر لك هذا الشىء ؛ لأنك لا تدخل على الأشياء بقدرتك ، فليس لك قدرة إلا فى حدود ما منحه الله لك ، ولا تدخل على أى شىء بعلمك ؛ لأنه لا علم لك إلا ما علمك الله . وعليك أن تتذكر هبه الله لك وأن تقول : «إننى أقبلت يارب على هذا الفعل لا بقوتى ولا باقتدارى ولكن باسمك أنت سبحانك أنت الذى سخرته لى» وحين يقبل الإنسان على أى عمل باسم الله ، فالله يعطيه خير ذلك العمل ويبارك له فيه

صحيح أن الأشياء تنفعل أيضا للكافر حين يُقبل عليها دون أن ينطق ويقول: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ ولكن الحق سبحانه وتعالى بحكم ربوبيته لكل الخلق .. مؤمنهم وكافرهم ، وهو الذى استدعى الخلق الى الكون ؛ لذلك جعل الكون يعطى المؤمن والكافر ، وقولك أيها المؤمن فى بدء أى عمل : ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ يعتبر حركة عبودية لك فتذكر نعمة الله لك فى التسخير، وهى إن لم تزدك عن الكافر شيئا فى

انفعال الأشياء لك ، فهى قد ضمنت لك ثواب تذكرك لنعمة الله تعالى ولا ينقطع عطاؤها فى اليوم الذى يبقى فيه العطاء وهو يوم الحساب .

وإذا نظرنا إلى اسم الله فى ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ وجدنا أن «الله» هو اسم علم على واجب الوجود وله صفات كثيرة ، هذه الصفات أصبحت فى مجال الأسماء الحسنى لله : ﴿ وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ﴾ [الأعراف : ١٨٠]

ولنوضح ذلك : أنت فى حياتك اليومية قد تلتقى بإنسان حليم ذى أناة ووقار، فتصفه بأنه حليم ، وتقابل إنسانا له ثراء فتقول : فلان غنى ، وتلتقى بإنسان له حكمة فتقول : فلان حكيم ، وأنت تلحظ أنه لابد من وجود موصوف لتصفه ، أما حين نطلق الحكمة والغنى والحلم فهى لا تنصرف على إطلاقها إلا لله. فإن قلت: «الحكيم» على إطلاقه و«الرحيم» على إطلاقه و«الغنى» على إطلاقه فهى كلها تنصرف إلى الحق عز وجل . وكذلك الرحمة على إطلاقها تنصرف إلى الله تعالى : فالرحمة فى كل راحم فى الأرض هى بعض هبات الرحمة الهابطة من الله تعالى إلى الخلق . وتتسامى الرحمة فى الرحماء فى الدنيا إلى أن تتصل بالرحيم الأعلى سبحانه وتعالى .

إذن فهو سبحانه وتعالى ينبوع الرحمة . واذا أطلقت كلمة «الرحيم» انصرفت لله تعالى ، أما إذا كنت تصف بها إنسانا فهى محدودة ونسبية . هذا بالنسبة لأسماء الله التى هى صفاته ، أما اسم «الله» فهو لا يعطى صفة وإنما يعطى ذاتا موصوفة بصفات الكمال . ومادام علما على واجب الوجود ، فلا يطلق على غيره . ومن قدرة الله تعالى أن أحدا لا يجرؤ أن يسمى نفسه أو أحد أبنائه باسم «الله» إنما ظل هذا الاسم الكريم من قبل ومن بعد الإسلام علماً على واجب الوجود وهو الحق الأعلى .

إننا نجد الناس تطلق على ذريتهم أسماء، منهم من يسمى ابنه «محمدا» ولا يسمى ابنه التالى بنفس الاسم ، فكلمة «محمد» أصبحت مشخصة للابن الأول ، لكن بعضا من أهل الريف من يحب التفاؤل باسم «محمد» لأنه اسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فيسمى ابنه الأكبر «محمد الكبير» ويسمى ابنه التالى «محمد الصغير» ويتمايز الأبناء أصحاب الاسم الواحد بأوصاف أخرى مثل: «محمد الطيب» و«محمد الطاهر» .

إذن فإطلاق الأسماء على المسميات أمر شائع فى دنيا الناس وليس بعجيب . لكن الله حين اختار لنفسه اسما هو علم عليه وحده وهو «الله» وهو الدال على صفات الكمال فيه سبحانه وتعالى . لم يجرؤ أحد الكافرين أن يسمى تابعا له بهذا الاسم . ورغم أن الكفار معارضون ومعاندون لكلمة الإيمان ، إلا أن أحدا منهم لم يجرؤ أن يقول : «مادام الله قد سمى نفسه بهذا الاسم فأنا سأسمى هذا الشىء «الله» . ولهذا قال الحق تبارك وتعالى : ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾ [مريم : ٦٥]

ويهيج الحق جل وعلا فى الكافرين غريزة التحدى ، حتى لا يقال :لم نُهَجْ ولم يطرأ هذا الأمر على بالنا ، وجعلها الحق واضحة أمامهم وعلى بالهم وقال سبحانه:

﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾ [مريم : ٦٥]

فلو كان الكافرون مؤمنين بكفرهم لجاء واحد منهم وقال :

ـ سأسمى ابنى «الله» .

لكن أحدا منهم لم يجرؤ أن يدخل نفسه فى التجربة ، مما يدل على أن أى كافر بالله أو مشرك به إنما يعبد وهما ، لا يقينا ، ذلك أنه لو كان مؤمنا بما يعبد من غير الله لأطلق هذا الاسم على أى مخلوق ولعاش فى حماية من عبده ، ولكن أحدا من الكافرين لم يجرؤ على ذلك قبل نزول القرآن أو بعده ؛ لأن الناس لم يتجهوا إلى هذا اللون من الفكر ، فها هو ذا القرآن الكريم قد نزل وواجههم بالتحدى :

﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾ [مريم : ٦٥]

إن هذا يدل على أن الذين يعبدون شيئا غير الله لا يثقون فى ذلك الشىء أبدا ولو كانوا واثقين فيه بحاله لقالوا : نحن نقولها ونسمى الأشخاص أو الأشياء بها ونحن مطمئنون إلى أن هذا الذى نعبده يحمينا ، ولكن أحدا منهم لم يفعل ذلك .

ومن بعد ذلك يأتى فى «بسم الله الرحمن الرحيم» اسمان من أسماء الله تعالى هما «الرحمن» و«الرحيم» وأنت حين تبدأ عملا «بسم الله» فأنت تؤمن يقينا أنك تبدأ باسم

من يعينك على فعلك ، فإن كنت تريد عملا يحتاج إلى قوة . فأنت تقول : «باسم القوى» حتى يمدك الحق بأسرار صفة القوى ، وإن كنت تريد علْماً ؛ فأنت تقول: «باسم العليم» ومن يريد الحكمة عليه أن يقول: «باسم الحكيم» . ومن يريد أن يعينه الله على قهر عدوله ، عليه أن يقول «باسم القهار» . وأنت حر فى أن تبدأ عملك بأى اسم من أسماء الله لتقبل على حركتك فى هذه الدنيا لتنفعل لك ، ولكن الأفعال لاتقتصر على مسيل صفة واحدة، بل تحتاج إلى صفات كثيرة فى كل فعل ، فأى فعل مهما بدا تافهاً فى حدود تصورك أنت ، يحتاج إلى صفات متعددة ؛ يحتاج إلى القدرة وإلى الحكمة وإلى الأناة والحلم وإلى غيرها من الصفات .

وحتى لا يثقل الله عليك لتكرر الصفات التى تعينك فى مجالات العمل المختلفة ، فقد علمنا المولى سبحانه وتعالى الاسم الذى يجمع كل المجالات ، إنه «الله» فإذا قلت: «باسم الله» فكأنك قلت «باسم القوى» و«باسم العليم» و«باسم الحكيم» و«باسم الرحيم» و«باسم المهيمن» و«باسم القادر» و«باسم القاهر» ، كأنك ابتدأت وسمّيت بكل أسماء الله الحسنى ؛ لأنك أتيت باسم الذات الموصوفة بصفات الكمال .

فإذا كان الحق قد أمرنا أن نبتدىء كل عمل لنا ذى بال بقولنا : ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ فيجب أن نستثمر هذا الأمر ونزيده بأن نستدرك ما فات من نعمة البدء بالتسمية وباسم الله على كل عمل لم نبدأه بـ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ وهذا اسمه : «بسم الله »قضاءً ، فأنت بذلك تقضى ما عليك مما فاتك من بدء أعمالك السابقة ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ وتضيف أيضا : وبسم الله عن كل عامل نسى أن يقول عند بدء عمله ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ فتكون قد أديت عن نفسك فى الحال وأديت عن نفسك فى الماضى ، وحملت عن أخيك الساهى عن التسمية ، وهنا يعطيك الله شحنه البركة فى كل ما تأتيه مضاعفاً بنيتك فيه .

ولذلك نحن نسمع بعض الأئمة حين ينوى الصلاة يسرّ بالتسمية وبعد ذلك يقرأ الفاتحة جهراً ابتداءً بقول الحق:

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) ﴾ [الفاتحة]

والعالم من هـؤلاء يبدأ الصلاة بـالتسمية سرا ، لأن الصـلاة عمل ذوبال وكل شيء ذى بال يجب أن يبدأه المؤمن ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾. وذكر فى الحديث القدسى :

عن أبى هـريـرة ــ رضى الله عنـه ـ قـال : سمعت رسـول الله صلى الله عليـه وسلم يقول: قـال الله عزوجل: قسّمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين ، ولعبـدى ما سأل ، فإذا قال العبد : ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ قال الله عزوجل : حمدنى عبدى، فإذا قال : ﴿الـرحمن الرحيم﴾ قـال الله ـ عـزوجل ــ : أثنى على عبدى ، فإذا قـال: ﴿ مالك يـوم الدين﴾ قـال الله ـ عزوجل ـ مجدنـى عبدى ، فإذا قال : ﴿إياك نعبـد وإياك نستعين﴾ قال الله ــ عزوجل ـ : هـذا بينى وبين عبدى ، ولعبـدى ما سأل ، وإذا قال : ﴿اهـدنا الصراط المستقيم، صراط الـذين أنعمت عليهم ، غير المغضوب عليهم ولا الضـالين ﴾ قال الله ـ عزوجل ـ : هذا لعبدى ولعبدى ما سأل)[1]

ونلحظ أن ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ هى آية من آيات الفاتحة :

فكأن الحق سبحانه وتعالى حين بدأ القرآن بالفاتحة ، وبدأ الفاتحة .

بـ ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (١) ﴾

بدأ بها لنتعلم أن نبدأ بها أى عمل ، وكل عمل هو إلى غاية ونتيجة .

وعلى ذلك فحين بدأ الحق تبارك وتعالى حديثه القـدسى بحمد العبد لله ، فهذا يدل على أن فاتحة الكتـاب شيء ، والتسمية الاستهـلالية شيء آخـر . إذن ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ مـن القرآن ولكنها ليست من نص السـورة، لأن الحق سبحانـه وتعالى عنـدما فصّل الحديث القـدسى ، لم يأت بها ،ولـذلك قـال العلماء : إن ﴿بسم الله الـرحمن الـرحيم﴾ ليسـت من نص كل سورة فى القرآن الكريم ولذلك يسمى الإمام بها فى بعض الأحيان سراً .

ولنا أن نتذكـر أن الحقَّ سبحانه وتعالى اختص خلقه برحمتـه وأراد أن يرفع الحياء عن

(١) رواه مسلم وأحمد وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه .

العاصى لله ، فللعاصى لله حين يقبل على العمل أن يستعين بسم الله ، ولا يقولن واحد لنفسه خجلاً .. «أأستعين بمن عصيته وأغضبته » . لا يقولن إنسان لنفسه هذا ، فالحق سبحانه وتعالى رحمن ورحيم ، لذلك لا يصح أن تمنعك معصيتك لله أن تستهل كل عمل باسمه سبحانه وتعالى ، فقد جاء سبحانه بالحيثية لنا جميعا ، إنه رحمن ورحيم، ولولا رحمانيته ورحمته لما بقيت لنا الدنيا .

والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ (٦١) ﴾ [النحل]

إذن فنحن نعيش على رغم معاصينا فى مجالات جلالات الرحمن وجلالات الرحيم ، وعلينا أن ندقق النظر فى قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٨) ﴾ [النحل]

والحق أيضا يقول :

﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤) ﴾ [إبراهيم]

والآيتان تتشابهان فى الصدر، وتختلفان فى العجز؛ لأن الآية الأولى جاءت فى سياق وتجليات الرحمة، وأما الآية الثانية فقد جاءت فى سياق جبروت العاصى الذى يأخذ نعمة الله ويستغلها فى معصيته .

فقد جاء قبلها قوله سبحانه وتعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴾ [إبراهيم : ٢٨]

وهذا القول مناسب لظلم الإنسان لنفسه وكفره بنعم الله تعالى ، ولو أراد الإنسان أن يحصى نعم الله عزوجل فلن يحصيها لأن الله غفور رحيم ، والنعمة ــ كما نعرف ــ تقتضى ثلاثة عناصر، عنصر هو المنعِم ، وعنصر هو المُنعم عليه ، وعنصر هو النّعْمة ،

ونعلم أنَّ «إنْ» حرف شرط وتستعمل للأمر المشكوك فيه ، وهى غير «إذا» التى تستعمل للشىء المحقق، وحين يقول الله سبحانه وتعالى : «وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها» . فهذا شك فى أن يقبل أحد على عدّ نعم الله ؛لأن الذى يمكن أن يقبل على إحصاء عددى لأمر ما ، هو من يظن أن هناك إمكانة للإحصاء . ولو حاول إنسان أن يحصى نعم الله تعالى لما استطاع ؛ لذلك جاء الحق هنا بـ «إنْ» فالإنسان قد يظن أنه قادر على إحصاء نعم الله لكن أحداً لن يستطيع ذلك .

ومن ناحية المنعِم ، هناك استدامة من المنعِم على المنعَم عليه ، ودليل ذلك أنه غفور ورحيم ولا يتخلى عن العاصين فيمنع عنهم النعم، فهو الذى استدعاهم جميعا إلى هذا الوجود . فسبحانه منعم على الإنسان والإنسان ظلوم كفار، ولكنه سبحانه غفور رحيم.

والآن إلى خواطرنا فى سورة التوبة التى رأينا أن نستلهمها مما تقدم من التحليق فى آفاق «بسم الله الرحمن الرحيم» .

وسبحانه وتعالى قد صنف فى سورة التوبة المشركين وأهل الكتاب والمنافقين ، وقد قلنا إن المنافق تتعاند ملكاته فهو يعلن إيماناً ويبطن كفراً ، ولذلك قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ (١٤) ﴾ [البقرة]

وعندما تتعاند ملكات الإنسان يكون محتقراً بين الناس وبينه وبين نفسه. ولقد اتفق جمهور الفقهاء على أن من أسماء التوبة «الفاضحة» لأنها فضحت المنافقين .

وقد روى سعيد بن جبير قال : سألت ابن عباس رضى الله عنه عن سورة براءة فقال : تلك الفاضحة ، ومازال ينزل : ومنهم ومنهم حتى خفنا ألا تدع أحداً.

وهؤلاء المنافقون منهم من قال فى غزوة تبوك :

﴿ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي ﴾ [التوبة : ٤٩]

ولقد قال القائل هذا القول طالباً الإذن بعدم الحرب متعللاً أن عيونه تلتفت للنساء ؛ ونساء الروم جميلات وهو يخشى على نفسه الفتنة ، فيرد الحق تبارك وتعالى على ذلك بقوله : ﴿ أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ﴾ [التوبة : ٤٩]

وكذلك منهم من كان يعيب على النبى صلى الله عليه وسلم فى توزيع الصدقات ، ويقول :إنه يحابى البعض ولا يعطى الآخرين ، فجاء قوله سبحانه وتعالى فى هذا الشأن : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ ﴾ [التوبة : ٥٨]

ومنهم من ادعى على النبى صلى الله عليه وسلم أنه يعطى أذنه لأى إنسان ويحكم بما يسمع من طرف واحد ، ونسى أنه صلى الله عليه وسلم هو أذن خير، فاستمع بحق وكان لسان صدق فبلغ بحق ، لذلك جاء قوله تعالى :

﴿ وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ﴾ [التوبة : ٦١]

ومنهم ثعلبة الذى بخل بما أفاء الله تعالى عليه من خير وفضل وقد عاهد الله من قبل على البذل والعطاء مما يرزقه الله ويمنحه من فضل، فنزل فيه قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥) فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَّهُم مُّعْرِضُونَ (٧٦) ﴾ [التوبة]

ومنهم من كان ينفق مرغماً فى سبيل الله :

﴿ وَمِنَ الأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا ﴾ [التوبة : ٩٨]

ومنهم من كان منافقا فنزل فيه قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ﴾ [التوبة : ١٠١]

وهكـذا كشف الحق سبحانـه وتعالى لـرسـوله وللمـؤمنين كل أصناف الأعـداء ، لذلك أطلق على هذه السورة بأنها «الفـاضحة» لأنها فضحت كل العيوب ، ولم تفعل ذلك ليشمت الناس بعضهم فى بعض أو ليتشفى الخلق فيما أصاب غيرهم من كشف وفضح ، ولكنهـا جـاءت كـذلك ليسلـم الصف الإيمانى من لبنـات الضعف فى تكـوينه، وتعـزل الضعف الإيمانى من صفـوف المسلمين ، ولا يبقى إلا الإيمان الحق . وقد سمى بعض العلماء هذه السـورة «المقشقشة» لأنها تقشقش من النفاق أى تبرىء منـه، وهـذه السورة تـزيح النفـاق من أرض الإيمان. ومنهم من يسميهـا «المبعثـرة»، والبعثرة لا تكـون إلا فى شىء مُكَوَّم ،وعندما تأتِـى لِلْكُومة وتبعثرهـا يظهر الشىءالمخبأ فى وسطهـا فهى تبعثـر أسرار المنـافقين. وسميـت «الحافـرة» لأن الإنسـان حين يحفـر الأرض يخُرج المخبأ فيها . وسميت كذلك بـ «المثيرة» لأنها تظهر ما خفى عن العيون، . وسميت «المدمدمـة» و«المهلكة» لأنها أوضحت العقـاب لكل مجرم ، مصداقـاً لقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴾ [الشمس : ١٤]

وسميت «سـورة العـذاب» . لأنها تكشف مـا فى الصـدور وأعطـت لكل عـدو للإسلام جـزاءه . وكشفت الستارَ عن أعماقِ كل منافق .وعن حـذيفة : إنكم تسمونها سورة التوبة وإنما هى سورة العذاب.

للسورة إذن أسماء متعددة ، ولكل اسم ملحظ، والحظ الـوافر فى الأسماء للمنافقين ؛ الفاضحة ، والمقشقشـة ، والمبعثرة ، والمثيرة ، والحافرة ، والمدمدمـة ، والمهلكة ، وكل ذلك فى كشف المنـافقين . وتبدأ السـورة بكلمة «بـراءة» واسمها سـورة التوبـة ، بينما البراءة قطع ، فكيف يستقيم الأمر ؟

نعلم أن الحق سبحـانـه وتعـالى خلق الخلـق وجعل الإنسـان خليفـة ، وهـو رب الكل، ولـذلك فللـه عـز وجل عطـاءان ؛ عطـاء ربـوبيـة ، بمعنى خلق كل شىء، وملكية كل شىء، والتكفل برزق كل الخلق ، وفى هذا يستـوى المؤمن والكافر والطائع والعاصى ، ومن يأخذ بـالأسباب وإن كان كافراً أخذ من خير الـربوبية ، وإن لم يأخذ المؤمن بالأسبـاب يظل متخلفاً ، هذا هـو عطاء الربوبيـة ، أما عطاء الألوهيـة فهو فى

التكليف «افعل» و«لا تفعل» والتكاليف تختص بالعبادة .

إذن فالله رب الجميع لأنه هو الذى استدعاهم للوجود وضمن لهم مقومات الحياة .

والسورة تقول :

﴿ بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ١ ﴾

والبراءة ــ كما قلنا ــ هى انقطاع العصمة ، والعصمة استمساك ، والحق تبارك وتعالى يقول :

﴿ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [آل عمران : ١٠١]

وهو أيضا يقول : ﴿ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ [هود : ٤٣]

إذن فالبراءة يلزم منها أنه كان هناك عهد واستمساك به ، وجاءت البراءة من الاستمساك بهذا العهد الذى عهده رسول الله معهم ، وكانوا معتصمين بالمعاهدة ، ثم جاء الأمر الإلهى بقطع هذه المعاهدة . وكلمة «براءة» تجدها فى «الدَّيْن» ويقال: «برىءَ فلانٌ من الدَّيْن». أى أن الدَّيْنَ كان لازماً فى رقبته ، وحين سَدَّده وأدَّاه يقال : «برىء من الدَّين» . ويُقال : «برىء فلان من المرض» إذا شُفِى منه أى أن المرَض كان يستمسك به ثم انقطع الاستمساك بينه وبين المرض .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد عاهد قريشاً وعاهد اليهود ، ولم يُوَفِّ هؤلاء بالعهود ، وكان لزاماً أن ينقض رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه العهود . وإذا سأل سائل : لماذا لم ينقض هذه العهود من البداية ، ولماذا تأخر نقضه لها إلى السنة التاسعة من الهجرة . رغم أن مكة قد فتحت فى العام الثامن من الهجرة ؟

لقد حرر الرسول صلى الله عليه وسلم الكعبة من الأصنام والوثنية ، وبعد أن استقرت دولة الإسلام بدأ تحرير «المكين» وهو الإنسان الذى يحيا بجانب البيت

الحرام، وكان لابد من تصفية تجعل المؤمنين فى جانب ، والكفار وأهل الكتاب والمنافقين فى جانب آخر، وقد حدث هذا فى العام التاسع من الهجرة حتى لا يحج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا والمكان محرر والمسجد محرر والناس محررون ، ولذلك أوضح سبحانه وتعالى بهذه الآية لأصحاب العهود التى كانت بينهم وبين محمد صلى الله عليه وسلم : أنتم لستم أهلاً للأمان ولا للوفاء بالعهود ؛ لذلك نحن قد قطعنا هذه العهود . وهذه القطيعة ليست من إرادة بشرية من محمد وأصحابه ولكنها قطيعة بأمر الله تعالى ، فقد يجوز أن يعرف البشر شيئاً ويَغيب عنهم أشياء . لكن العالم الأعلى قال : ﴿ بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ [التوبة : ١]

ولم يقل براءة من الله وبراءة من الرسول ، ذلك لأنها براءة واحدة ، والبراءة صادرة من الله المشرع الأعلى، ومبلغة من الرسول الخاتم ، والبراءة موجهة إلى المشركين الذين عاهدهم رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ونعلم أن النبى صلى الله عليه وسلم كان له حلف مع قبيلة خزاعة ، وكانت هناك قبيلة مضادة لها اسمها قبيلة بكر متحالفة مع قريش . وقد أعانت قريش قبيلة بكر على قبيلة خزاعة ، فذهب إلى المدينة شاعر من خزاعة هو عمرو بن سالم الخزاعى وقال القصيدة المشهورة ومنها هذه الأبيات :

يارب إنّى ناشدٌ مُحَّمدا ٠٠ حلف أبينا وأبيه الأتلَدا
كُنت لنا أباً وكنَّا ولدا ٠٠ ثُمَّتَ أسلمنا ولم ننزع يدا
فانصر هداك الله نَصْراً عتدا ٠٠ وادع عباد الله يأتوا مددَا
إن قريشاً أخلفُوك الموعدا ٠٠ ونَقَضُوا ميثاقَك المؤكَّدا
هم بيتونا بالوتير هُجَّدا ٠٠ وقتلونا ركَّعاً وسُجَّدا

فلما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك قال : نصرت يا عمرو بن سالم ، لانصرت إن لم أنصرك .

إذن فالمشركون هم الذين نقضوا العهد أولاً ، وصاروا لا يؤمن لهم جانب لأنهم

لا يحترمون عهداً أو معاهدة ، ونزل قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ (١) ﴾ [التوبة]

الخطاب هنا للمسلمين ، والبراءة من المشركين . ونزل بعد ذلك قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ (٢) ﴾

والخطاب هنا للمشركين . وتساءل البعض : كيف يتأتى أن يكون خطاب الحق فى الآية الأولى للمسلمين بالبراءة من المشركين ، ثم يأتى خطاب من الله للمشركين ؟ . وقال بعض العلماء إنه مادامت البراءة قد صدرت من الله ، فكأن الله تعالى يقول للمؤمنين قولوا للمشركين : ﴿ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ ﴾ [التوبة : ٢]

ولكننا نرد على هذا بأن المعاهدة تكون بين اثنين ، ولذلك لابد أن يكون هناك خطاب للذين قطعوا، وخطاب للمقطوعين ، ويتمثل خطاب الذين قطعوا فى قوله تعالى : ﴿ بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ (١) ﴾ [التوبة]

وخطابه للمقطوعين يتمثل فى قوله سبحانه وتعالى :

﴿ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ ﴾ [التوبة : ٢]

ومن سماحة هذا الدين الذى أنزله الحق تبارك وتعالى ؛ أن المولى سبحانه يعطى مهلة لمن قطعت المعاهدة معهم ، فأعطاهم مهلة أربعة أشهر حتى لا يقال إن الإسلام أخذهم على غرة ، بل أعطاهم أربعة أشهر ومن كانت مدة عهده أكثر من أربعة أشهر فسوف يستمر العهد إلى ميعاده .

﴿ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ ﴾ [التوبة : ٢]

وكلمة « فسيحوا » تعطى ضماناً إيمانيا ، فـ«ساح» معناها سار ببطء ، وهناك «ساح الشىء» و«سال الشىء» عندما تقول : «سال الماء» أى تدفق وسال، وأنت تشاهده سائلا . وإن قلت: «ساح السمن» أى سار ببطء لا يدرك حتى صار سائلا . ولماذا قال الحق سبحانه وتعالى ﴿فسيحوا فى الأرض﴾؟ .

والإجابة : أن سماحة الإسلام تمنع أن نأخذكم على غرة ، وعلى الذين قطع الإسلام معهم العهد أن يسيروا وهم مطمئنون وفى أمن وأمان ولا يتعرض لهم أحد . ووقف العلماء عند تحديد أربعة الأشهر، ونظر بعضهم إلى تاريخ النزول ، وقد نزلت هذه الآية فى شوال ؛ إذن فتكون الأشهر الأربعة هى : شوال وذو القعدة وذو الحجة والمحرم .

وقال علماء آخرون : إن ساعة النزول لا علاقة لها بالأشهر الأربعة، وإن الأشهر الأربعة تبدأ من ساعة الإبلاغ أى فى الحج ؛ لأن الله تعالى يقول :

﴿ وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ ﴾ [التوبة : ٣]

وعلى ذلك فتكون من يوم العاشر من ذى الحجة إلى يوم العاشر من ربيع الآخر . وقال بعض العلماء : إن نزول هذه الآية كان فى عام النسىء الذى كان الكفار يؤخرون ويقدمون فى الأشهر الحرم ، والذى قال فيه الله سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِّيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ ﴾ [التوبة : ٣٧]

وأضاف صلى الله عليه وسلم فى حديثه الذى رواه أبو بكرة حيث قال : إن النبى صلى الله عليه وسلم خطب فى حجته فقال : «ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، السنة اثنا عشر شهرا منها أربعة حرم ثلاث متواليات ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان »[1]

(١) رواه الإمام أحمد وأخرجه البخارى .

أى أنه صلى الله عليه وسلم حسب من بداية الكون إلى هذا الوقت فرجع بالأمر إلى نصابه وألغى النسىء ؛ هذا النسىء الذى كانوا يقررونه أيام الشرك لتقديم أو لتأخير الأشهر الحرم ؛ لأنهم كانوا إذا أتت الأشهر الحرم ويريدون الحرب يؤجلون الشهر الحرام حتى يمكنهم الاستمرار فى الحرب . ولذلك كان الحج فى هذه السنة فى شهر ذى القعدة . ومادام الحج فى شهر ذى القعدة ، تنتهى الشهور الأربعة فى العاشر من ربيع الأول . وقيل إن اختيار أربعة الأشهر جاء ليوافق ما شرعه الله فى قوله سبحانه تعالى : ﴿ **إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ** ﴾ [**التوبة** : ٣٦]

فيكون عدد الأشهر مناسبا لعدد الأشهر الحرم . ولكن هذه المرة فيها ثلاثة أشهر حرم فقط هى: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، والشهر الرابع هو رجب فكيف يقال أربعة ؟

ونقول : إن الأشهر الأربعة الحرم التى فيها رجب هى الأشهر الحرم الدائمة ، أمّا الأشهر الأربعة التى ذكرت فى هذه الآية فهى أربعة أشهر للعهد تنتهى بانتهائها ، ولكن أربعة الأشهر الحرم الأصلية تبقى محرمة دائماً ، ولقد شرع الله عز وجل الأشهر الحرم ليحرم دماء الناس من الناس ؛ ذلك أن الحروب بين العرب كانت تستمر سنوات طويلة دون نصر حاسم . فجعل الله الأشهر الحرم حتى يجنح الناس إلى السلم ، ويتحكم فيها العقل وتنتهى الحروب .

وهنا يبلغنا الحق تبارك وتعالى أنه قد أعطى المشركين أربعة أشهر يسيرون فيها آمنين ، لماذا ؟ لأن الذى يكون ضعيفا مع خصمه ينتهز أى فرصة يقدر عليه فيها ليستغلها ويقضى عليه ، ولا يمهله أربعة أشهر حتى ولا أربعة أيام . ولكن القوى لا يبالى بمد الأجل لخصمه لأنه يستطيع أن يأتى به فى أية لحظة . لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ **وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ** ﴾ [**التوبة** : ٢]

ويقال فلان أعجز فلاناً ، أى جعله ضعيفا عاجزاً . ولذلك فإن كلّ شىء مُعجز شرف للمُعْجَز ، والمثال : عندما جاء القرآن الكريم معجزاً للعرب وكان ذلك شرفا

لهم لأنهم كانوا أمة بلاغةٍ وفصاحةٍ . والله لا يتحدى الضعيف وإنما يتحدى القوى ، فلغة القرآن أعجزت الفصيح والبليغ . وحين يعطى الحق سبحانه وتعالى هذه المهلة للمشركين إنما كانت ببنود معينة ، وكان أمير الحج فى هذا العام سيدُنا أبو بكر وكان هو الذى سيبلغ البراءة . وهى أنه لا يدخل المسجد الحرام مشرك ولا يحج مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ولن يدخل الجنة إلا من آمن ، هذه هى البنود .

ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم بفطنته النبوية كان يعرف أن العرب لا يقبلون نقض العهود والمواثيق إلا من أهلها : فأرسل صلى الله عليه وسلم سيدنا عليا بن أبى طالب ليعلن نقض العهود ؛ لأنه علم أن الكفار كانوا سيقولون : لا نقبل نقض العهد من أبى بكر ، بل لابد أن يكون من واحد من آل الناقض .

وحينما قال المولى سبحانه وتعالى :

﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ ﴾ [التوبة : ٢]

أعطى هذه المهلة الطويلة ، لأنهم مهما فعلوا فى هذه المهلة ، فالله غالب على أمره . فلن يفوت أو يغيب شىء عنه سبحانه وتعالى ، ومهما حاولوا أن يجدوا حلفاء لهم فلن يستطيعوا شيئا مع الله ، صحيح أنهم ضعاف فى هذه الفترة ، وصحيح أنَّ الضعيف قد تكون قدرته على القوى مميتة لأنه يعرف أن فرصته واحدة ، وإن لم يقدر على خصمه فسوف ينتهى ، لكن الله غالب على أمره . وأراد الشاعر العربى أن يعبر عن ذلك فقال :

وضعيفة فإذا أصابت فرصة قتلت كذلك قدرة الضعفاء

لأن الضعيف ينتهز الفرصة ليقضى على خصمه . أما القوى فيعرف أنه قادر على خصمه فى أى وقت ، ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ ﴾ [التوبة : ٢]

الإخزاء هو الإذلال بفضيحة وعار ولا يكون ذلك إلا لمن كان متكبراً متعالياً . أى أن الله قادر على أن يخزى الكفار بفضيحة وعار مهما بلغت قوتهم وكبرهم .

ويقول الحق عز وجل بعد ذلك :

﴿ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ ﴾

وبعض الناس يقول مادام الله تعالى قد قال :

﴿ بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ [التوبة : ١]

فلماذا يعيد سبحانه وتعالى :

﴿ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ ﴾ [التوبة : ٣]

ونقول : إن البراءة جاءت إعلاماً بالمبدأ ، والأذان جاء لإبلاغ البراءة ، و«أذان» معناها إعلام يبلغ للناس كلهم ، تماماً كأذان الصلاة ؛ فهو إعلام للناس بدخول وقت الصلاة . والأذان مأخوذ من الأذن .لأن الإنسان حين يعلم الناس بشيء لابد أن يخطب فيهم فيسمعون كلامه بآذانهم ، ولذلك تجد الأذن هى الوسيلة الأولى للإدراك ، فقبل أن ترى تسمع ، وقبل أن تتكلم لابد أن تسمع ، فإن لم تسمع من يتكلم لا تقدر أنت على الكلام . ولذلك يقول الحق جل جلاله :

﴿ صُمٌّ بُكْمٌ ﴾ [البقرة : ١٨]

أى لا يسمعون ، وماداموا لا يسمعون لا يتكلمون . وقد يأتى بعض الناس ويقول: إنَّ وسيلة الإعلام قد تعتمد على العين ويقرأ منها الإنسان . ولكن من يقول ذلك

ينسى أن الإنسان لا يستطيع أن يقرأ إلا إذا سمع ألفاظ الحروف ، وحين يقال له : هذه ألف وهذه باء وهذه تاء فهو يتعلم . إذن كل بلاغ إنما يبدأ بالأذن ، والأذن هى أول آلة إدراكية تؤدى مهمتها فور ولادة الإنسان ؛ لأنك إن أشرت بأصبعك إلى عينى طفل مضى على ولادته أيام لا يتأثر . ذلك أن العين لا تبدأ فى أداء مهمتها قبل بضعة أيام ، ولكن إذا صرخت بجوار الطفل يسمع وينزعج .

والله سبحانه وتعالى حين يتحدث عن وسائل الإدراك يأتى بالسمع أولاً فيقول جل جلاله : ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ ﴾ [النحل : ٧٨]

لأن الأذن تبدأ عملها فوراً ـ كما قلنا ـ والعين لا تبدأ عملها إلا بعد أربعة أو خمسة أيام . والأذن تستقبل بها أصواتاً متعددة فى وقت واحد . ولكن مجال الرؤية محدود . وأنت حين لا تريد أن ترى شيئا تبعد عينيك عنه . ولكن الأصوات تصل إلى أذنك من كل مكان دون أن تستطيع منعها . ولذلك يأتى السمع مفرداً ، والأبصار متعددة ؛ لأن هذا يرى شيئاً وهذا يرى شيئاً . لكنك بالأذن تسمع نائماً أو متيقظاً ، وتأتيك الأصوات ويتوحد المدرك من السمع ؛ فهى آلة الاستدعاء والإيقاظ . ولذلك حين تكلم الله عن أهل الكهف يريد أن ينيمهم ثلثمائة سنة وازدادوا تسعا . رغم أن أقصى ما ينامه الإنسان هو يوم أو بعض يوم ، قال سبحانه وتعالى عنهم فى هذا الشأن :

﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا (١١) ﴾ [الكهف]

وكان الضرب على الآذان حتى لا يوقظهم صوت عال لإنسان أو حيوان . وهم عندما قاموا : ﴿ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ [الكهف : ١٩]

لأن الإنسان عادة لا ينام أكثر من هذه المدة ، وهذا يدل على أنهم حين استيقظوا كانوا على الهيئة التى ناموا عليها لم يتغير فيهم شىء، مما يدل على أن الله أوقف تأثير الزمن عليهم ، ولولا أن الله قد ضرب على آذانهم لأيقظهم صوت الرعد أو الحيوانات المفترسة أو غيرها من الأصوات . وأثبت لنا العلم الحديث أن مَنْ يرقد فى الفراش بسبب المرض مدة طويلة يخاف الأطباء من إصابته بقروح الفراش ، فلا يخاف

الطبيب على المريض من المرض فقط ، بل يخاف أيضاً من آثار الرقود على الجسد . والله يلفتنا إلى هذه الحقيقة فيقول :

﴿ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ ﴾ [الكهف : ١٨]

ولأن الأذن هى وسيلة السمع ، نجد الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ۝١ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٢ ﴾ [الانشقاق]

وهذا القول يدل على أن السماء فور سماعها من الله أمره بأن تنشق ؛ تستجيب على الفور وتطيع أمره بالانشقاق وذلك يوم القيامة ، وإذا كان الذى بلغ الأذان من الله ورسوله إلى كل الناس يوم الحج هو على بن أبى طالب ؛ فكيف يقال ؟

﴿ ۙ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ [التوبة : ٣]

نقول : إن الله تعالى أعلم رسوله ، والرسول صلى الله عليه وسلم أعلم عليا ، وعلى هو الذى نادى وبلَّغ ، لكن هناك من يقول : إن الله طلب البلاغ إلى الناس . مع أن البراءة كانت للمشركين .

ونقول : إن الإعلام كان لكل الناس للمؤمن وغير المؤمن حتى يعرف جميع الناس موقفهم ؛ فيعرف المؤمن أن العهد قد قطع ، ويعرف غير المؤمن أن العهد قد قطع ، فلا يؤخذ أحد على غرة ، وليرتب كل إنسان موقفه فى ضوء البلاغ الصادر من الله عز وجل ؛ والله سبحانه وتعالى أراد اعتدال الميزان بأيدى رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ لذلك فهو لا يخاطب المؤمنين وحدهم ، بل كان الخطاب للعالم كله ، وإن كان المؤمنون هم الذين سيجاهدون لتنسجم حركة الأرض مع منهج السماء . ومن هذا يستفيد المؤمن والكافر ؛ لأن الكل سينتفع بالعدل والأمانة والنزاهة التى يضعها المنهج على الأرض .

ولذلك يلفتنا الحق سبحانه وتعالى إلى أن الرسول صلى الله عليه وسلم جاء

بالمنهج لإصلاح الكون كلـه فقال سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ﴾ [النساء : ١٠٥]

أى أن الحكم بين النـاس جميعـاً هـو المطلـوب من رسـول الله صلى الله عليـه وسلم حسب منهج السماء .

وقوله سبحانه وتعالى :

﴿ وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ ﴾ [التوبة : ٣]

وهذا القول فيه تعميم فى المكان وتعميم فى المكين ، فيوم الحج يجتمع الناس كلهم فى مكان واحد .

وقـد يتساءل البعض : لماذا سمى الحج الأكبر؟ نقـول : لأنه الحج الـوحيد الـذى اجتمع فيه الكفار والمؤمنون . وبعد ذلك لم يعد هناك حج للكفار أو المشركين .

وبعض المفسرين يقـولون : إن كلمـة الحج الأكبر جـاءت لتميز بين الحج الأصغـر وهى العمرة وبين الحج الذى يكون فيه الوقـوف بعرفات ، ونقول : إن العمرة لا يطلق عليها الحج الأصغر.

وقيل إنَّ يوم الحج الأكبر هو يـوم عرفة . ولكن بعض العلماء قالوا : إنـه يوم النحر؛ لأن فيه منـاسك كثيرة : رمى الجمـرات والتقصير وطواف الإفاضـة ؛ لذلك سمـى يوم النحر بـالحج الأكبر لكثرة مناسكـه ، وقيل : إنها أيام الحج كلها وأنها قـد سميت بيوم الحج على طريقة العـرب فى أداء الحدث الواحد بظرفـه الملائم ، ألم يقل الحق سبحانه وتعالى : يوم حنين ؟ . وحنين استغرقت أيامـاً فكأن اليوم يراد به الظرف الجامع لحدث كبير، فكأن أيام الحج كلها يطلق عليها «يوم الحج».

أو أن الإعلان قـاله سيدنا على بن أبى طـالب رضى الله عنه يوم عرفـة ، وبلغ هذا الإعلام كل من سمعـه إلى غيره، والآية الكريمـة تقول : ﴿ وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ ﴾ [التوبة : ٣]

وهذا إذن من الله لرسوله صلى الله عليه وسلم ، ومن رسوله إلى على كرم الله وجهه، ومن على للمؤمنين ، ومن المؤمنين ؛ من سمع لمن لم يسمع ، أن الله برىء من المشركين ،وكان هذا إعلانا بالقطيعة ، ولكن الله برحمته لا يغلق الباب أمام عباده أبداً، ولذلك يقول : ﴿ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ [التوبة : ٣]

أى فتح لهم باب التوبة فإن تابوا عفا الله عنهم ، وإن لم يتوبوا فالقول الفصل هو : ﴿ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [التوبة : ٣]

إذن فالحق سبحانه وتعالى قادر عليهم وقادر أن يأتى بهم مهما كانوا ، وعلى النبى والمبلغين عنه أن يبشروا الكفار بالعذاب الأليم ، والبشارة إعلام بخبر سار ، والإنذار إخبار بسوء . فهل العذاب بشارة أم إنذار ؟. نقول : إن هذا هو جمال أسلوب القرآن الكريم ، يبشر الكفار فيتوقعون خبراً سارا : ثم يعطيهم الخبر السيىء بالعذاب الذى ينتظرهم ؛ تماماً كما تأتى إلى إنسان يعانى من العطش الشديد ، ثم تأتى بكوب ماء مثلج وعندما تصل به إليه ويكاد يلمس فمه تفرغه على الأرض، فيكون هذا زيادة فى التعذيب وزيادة فى الحسرة ، فالنفس تنبسط أولاً ثم يأتى القبض.

وفى هذا يقول الشاعر :

كما أبرقت قوماً عطاشاً غمامةٌ
فَلَمَّا رَأَوْهَا أَقْشَعَتْ وتَجَلَّتِ

وهكذا تكون اللذعة لذعتين ، ابتداء مطمع ، وإنتهاء ميئس بينما فى الإنذار لذعة واحدة فقط . وانظر إلى قوله الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا ﴾ [الكهف : ٢٩]

حين تسمع «يغاثوا» تتوقع الفرج فيأتى الجواب :

﴿ يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ ﴾ [الكهف: ٢٩]

وهنا يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [التوبة: ٣]

والعذاب من الله يوصف مرة بأنه عظيم ومرة أخرى يوصف بأنه مهين وثالثة يوصف بأنه أليم، والسبب هو أن الوصف يختلف باختلاف المُعَذَّبين، وسيأخذ كل مسيء وعاصٍ وكافر من العذاب ما يناسبه، فهناك إنسان يحتمل العذاب ولا يحتمل الإهانة، وهناك إنسان يحتمل الإهانة ولا يحتمل الألم، فكأن كل واحد من الناس سيأتيه العذاب الذى يتعبه، فإن كان لا يتعبه إلا العذاب العظيم جاءه، وإن كان لا يتعبه إلا الإهانة جاءته، وإن كان لا يتعبه إلا الألم جاءه.

ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك:

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ ﴾

هذا استثناء، ولكنه استثناء مشروط بأن هؤلاء كانوا أمناء على العهد وموفين به ولم ينقصوا منه شيئا، أى لم يصدوا لكم تجارة ولم يستولوا على أغنام ولم يسرقوا أسلحتكم ولم يغروا بكم أحداً ولم يظاهروا عليكم أحداً؛ وهؤلاء هم بنو ضمرة وبنوكنانة، فلم يحدث منهم شيء ضد المؤمنين فجاء الأمر بأن يستمر العهد معهم إلى مدته. ولقائل أن يقول: إن المستثنى يقتضى مستثنى منه، ونقول: المستثنى منه هم المشركون فى قوله الحق تبارك وتعالى: ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا ﴾ [التوبة: ٤]

والإنقاص معناه تقليل الكمّ إمَّا فى الذوات، وإما فى متعلقات الذوات، والإنقاص فى الذوات يكون بالقتل، والإنقاص فى متعلقات الذوات يكون بمصادرة التجارة أو الماشية، وسرقة السلاح.

إذن ففى الإنقاص هنا مرحلتان ؛ مرحلة فى الذوات أى بالقتل، ومرحلة فى تابع الذوات وهى الأشياء المملوكة، ولذلك قال : «لم ينقصوكم شيئا» أى شىء كان، سواء فى الذوات أو متعلقات الذوات، وأيضا لم يغروا عليكم أحداً ولم يشجعوا أحداً على أى عمل ضد الرسول.

﴿ وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا ﴾ [التوبة : ٤]

ويظاهر أى يعادل، وكلها مأخوذة من مادة الظهر، وهو يتحمل أكثر من اليد، فالإنسان لايقدر أن يحمل جوال قمح بيده مثلا، ولكنه يقدر أن يحمله على ظهره. ولذلك يقول المثل العامى : من له ظهر لايضرب على بطنه . إذن فالظهر للمعونة. والحق يقول:

﴿ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴾ [الصف : ١٤]

أى عالين .

والحق سبحانه وتعالى حين قص علينا نبأ تآمر بعض من نساء النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عليه ، قال : ﴿ وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴾ [التحريم : ٤]

فظهير فى الآية الكريمة أى معين . ويأتى الحق هنا إلى منطقة القوة فى الإنسان ، لذلك يقال: فلان يشد ظهرى . أى يعاوننى بقوة . ويقال : ظهر فلان على فلان . أى غلبه وتفوق عليه ، ويقال : وعلا ظهره . أى استولى على منطقة القوة منه ؛ لذلك نجد أن الحق سبحانه وتعالى حينما تكلم فى سورة الكهف عن ذى القرنين ذكر بعض اللقطات وقال :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا (٩٣) قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا (٩٤) قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا (٩٥) ﴾ [الكهف]

فالله سبحانه وتعالى لفتنا هنا إلى حقيقة علمية لم نعرفها إلا فى العصر الحديث . فالسد إذا كان كله من مادة صلبة ؛ يتعرض للانهيار إذا ما جاءت هزة أثرت فى كل جوانبه ، أما إن كان هناك جزء من بناء صلب على الحافة ، وجزء صغير فى المنتصف وجزء ثالث ، ثم رابع ، ويفصل بين كُلٍّ جزء ردم من تراب فالردم فيه تنفسات بحيث يمتص الصدمة ، وهى نفس فكرة الإسفنج التى نحيط بها الأشياء التى نخاف عليها من الكسر لنحفظها ، فلو أن الصندوق من الخشب أو الحديد أو أى مادة صلبة لتحطم الشىء الموضوع فيه بمجرد اصطدامه بالأرض صدمة قوية ، ولكن إذا أحطناه بوسادة من الإسفنج فهى تمتص الصدمات. وأنواع السدود التى تتلقى الصدمات يقال عنها: السد الركامى .

ونلتفت إلى قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ ﴾ [الكهف : ٩٥]

وهذا يدلنا على أن القوى يجب أن يعين الضعيف معونة لا تحوجه له مرة أخرى ؛ لذلك يقال : لا تعط الجائع سمكة ؛ ولكن علمه أن يصطاد السمك ليعتمد على نفسه بعد ذلك ، وهذه هى المعونة الصحيحة ، ولذلك نجد أن ذا القرنين رفض أن يأخذ مقابلا لبناء الردم ؛لأن مهمة الأقوياء فى الأرض من أصحاب الطاقة الإيمانية أن يمنعوا الظلم بلا مقابل حتى يعتدل ميزان الحياة ؛ لأن الضعيف قد لا يملك ما يدفعه للقوى . ولو أن كل قَوِىٍّ أراد ثمناً لنصرة الضعيف لاختل ميزان الكون وطغى الناس ، ولكن الأقوياء فى عالمنا يريدون أن يظلموا بقوتهم؛لذلك يختل ميزان الكون الذى نعيش فيه . ولننظر إلى تفويض الله لذى القرنين وكيف أحسن ذو القرنين الحكم بين الناس ، وأقام العدل فيهم وكيف ترصد الظالمين ، قال القرآن الكريم على لسان ذى القرنين :

﴿ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا (٨٧) وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ ﴾ [الكهف: ٨٧، ٨٨]

هكذا أقام ذو القرنين العدل، بتعذيب الظالم وتكريم المؤمن صاحب العمل الصالح.

وقول الحق سبحانه وتعالى على لسان ذى القرنين: «أعينونى» يعطينا كيفية إدارة العدل فى الكون، فذلك الذى أعطاه الله الأسباب إن أراد أن يعين الضعفاء فعليه أن يشركهم فى العمل معه، ولا يعمل هو وهم يتفرجون وإلاَّ تعودوا على الكسل فتفسد همة كل منهم. ولكن إذا جعلهم يعملون معه سيتعلمون العمل ثم يتقنونه فتزداد مهارتهم وقوتهم فى مواجهة الحياة؛ لذلك نجد أن ذا القرنين أشرك معه الضعفاء، وقال لهم: ﴿ آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ ﴾ [الكهف: ٩٦]

إذن فقد جعلهم يعملون معه ويبنون، وهذه أمانة القوى فيما آتاه الله تعالى من القوة، بل إننا نجده قد تفاهم معهم رغم أن الحق تبارك وتعالى قال فيهم:

﴿ لاَّ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً ﴾ [الكهف: ٩٣]

كيف تفاهم معهم؟ لعله استخدم لغة الإشارة وتحايل ليفهموا مقصده. ويدلنا القرآن على تفهمهم له أن قال الحق على لسانهم:

﴿ قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا (٩٤) ﴾ [الكهف]

قد تَمَّ بناء السد بمعاونة هؤلاء الضعفاء، وكان بناء هذا السد بصورة تتحدى طاقة العدوان فى كل من يأجوج ومأجوج، وقد حاول كل منهما أن يصعد فوق السد ليتغلب عليه، ولكنه كان فوق طاقة كل منهما فلم يستطيعا اختراقه، وهذا وضحه لنا المولى سبحانه وتعالى فى قوله:

﴿ فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا (٩٧) ﴾ [الكهف]

إذن فقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ﴾ [التوبة : ٤]

أى لم يعينوا ولم يساعدوا أحداً من أعدائكم حتى يتغلب عليكم ، وسماحته سبحانه وتعالى بإتمام مدة العهد تعنى أن هذه المدة كانت أكثر من أربعة أشهر. وهكذا يعطينا سبحانه جلال عدالته ، فسمح لمن كان العهد معهم أقل من أربعة أشهر ، أن يأخذوا مهلة أربعةأشهر ، والحق سبحانه لا يحب نقض العهد ؛ لذلك طلب من المؤمنين أن يعطوا المشركين الذين عاهدوهم مدة العهد ولو كانت أكثر من أربعة أشهر ؛ حتى يتعلم المؤمن أن يُوفِىَ بالعهد مادام الطرف الآخر يحترمه . وزيادة المدة هنا ؛ أو زيادة المهلة نابعة من قوة الله تعالى وقدرته؛ لأن كل من فى الأرض غير معجزى الله ، فإن طالت المدة أو قصرت فلن تعطى المشركين ميزة ما ، فالله يستطيع أن ينالهم فى أى وقت وفى أى مكان .

ويختم الحق سبحانه وتعالى الآية بقوله :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة : ٤]

والمتقون هم الذين يجعلون بينهم وبين أى شىء ، يغضب الله وقاية . وإن تعجب بعض الناس من قول الحق سبحانه وتعالى: «واتقوا الله» وقوله: ﴿واتقوا النار﴾ فإننا نقول : إن معنى ﴿اتقوا الله﴾ أى اجعلوا بينكم وبين صفات الجبروت لله وقاية ، اتقوا صفات الجبروت فى الله حتى لا يصيبكم عذابه ، فلله صفات جلال منها المنتقم والجبار والقهار ، وله صفات جمال مثل الرحيم ، والوهاب ، الرزاق ، الفتاح ، إذن اجعلوا بينكم وبين صفات الجلال فى الله وقاية لكم وحماية من أن تتعرضوا لغضب الله تعالى ، والإنسان يتقى صفات الجلال فى الله بأن يتبع منهجه ويطيعه فى كل ما أمر به لينال من فيض صفات الجمال . وقوله الحق سبحانه وتعالى : ﴿واتقوا النار﴾ أى اجعلوا بينكم وبين النار وقاية حتى لا تمسكم النار.

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾

و«انسلخ» يعنى انقضت وانتهت الأشهر الحرم ، ومادة «سلخ» و«انسلخ» تدور كلها حول نزع شىء ملتصق بشىء ، فتقول: «سلخت الشاة» أى نزعت الجلد عن اللحم، والجلد يكون ملتصقا باللحم التصاقاً شديداً . فكأن الله سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلى أن الأشهر الحرم هى زمان ، والزمان ظرف، فالناس مظروفون فى الزمان والمكان ، فكأن الأشهر الحرم تحيطهم كوقاية لهم من المؤمنين ، فإذا مرت الأشهر الحرم تزول هذه الوقاية عنهم بعد أن كانت ملتصقة بهم . والانسلاخ له معنيان: فمرة يقال ينسلخ الشىء عن الشىء، ومرة يقال : ينسلخ الشىء من الشىء ، ولذلك تجد فى القرآن الكريم قوله تبارك وتعالى :

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا ﴾ [الأعراف : ١٧٥]

وهذه الآية الكريمة التى نزلت فى ابن باعوراء الذى أعطاه الله العلم والحكمة والآيات ، ولكنه تهاون فيها وتركها ، فكأنه هو الذى انسلخ بإرادته وليست هى التى انسلخت منه ، وصار بذلك مقابلا للشاة ، ونحن نسلخ جلد الشاة من الشاة .

والحق سبحانه وتعالى أيضا يقول :

﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ ﴾ [يس : ٣٧]

فكأن الليل مثل الذبيحة، ثم يأتى النهار فيسلخ منه الظلمة وبزيلها عنه ويأتى بالضياء ، فكأن الليل ثوب أسود يأتى عليه ثوب أبيض هو النهار، فإذا جاء ميعاد الليل رفع الثوب الأبيض أو سلخ النور عن ظمة الليل ؛ لتصبح الدنيا مليئة بظلام الليل ، وكأن النور هو الذى يطرأ على الظلمة فيكسوها بياضا ، أى أن الضوء هو الذى يأتى ويذهب ، بينما الظلمة موجودة ، فإذا جاءها ضوء الشمس صارت نهارا ، وإذا انسلخ منها صارت ليلاً.

وماذا يحدث عندما تنتهى الأشهر الحرم ؟ يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ **فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ** ﴾ [**التوبة** : ٥]

فكأن الله سبحانه وتعالى بعد أن أعطى المشركين مهلة أربعة أشهر، والذين لهم عهد أكثر من ذلك يتركون إلى أن تنتهى مدة العهد، ومن بعد ذلك يكون عقاب المشرك هو القتل ، لماذا ؟ لأنه لا يجتمع فى هذا المكان دينان .

ولقائل أن يقول : وأين هى حرية التدين ؟ ونقول : فيه فرق بين بيئة نزل فيها القرآن بلغة أهلها؛ وعلى رسول من أنفسهم ، أى يعرفونه جيدا ويعرفون تاريخه وماضيه ، وبيئة لها أحكامها الخاصة بحكم التنزيل ، فأولئك الذين نزل القرآن فى أرضهم وجاءت الرسالة على رسول منهم وهو موضع ثقة يعرفون صدقه وأمانته ويأتمنونه على كل نفيس وغال يملكونه ، وكان كل ذلك مقدمة للرسالة ، وكانت المقدمة كفيلة إذا قال لهم إننى رسول الله لم يكذبوه ؛ لأنه إذا لم يكن قد كذب عليهم طوال أربعين سنة عاشها بينهم ، فهل يكذب على الله ؟ الذى لا يكذب على المخلوق أيكذب على الله ؟ هذا كلام لا يتفق مع العقل والمنطق ؛ لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ **رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ** ﴾ [**التوبة** : ١٢٨]

أى ليس غريبا عليكم ، تعرفونه جيدا حتى إنكم كنتم تأتمنونه على أغلى ما تملكون، وتلقبونه بالأمين فى كل شئون الدنيا ، فكيف ينقلب الأمين غير صادق عندكم ؟ كما أن القرآن الكريم وهو معجزة الرسول صلى الله عليه وسلم قد جاء

بلغتكم وأسلوبه من جنس ما نبغتم فيه ، فكان إعجازاً لكم ، وتحداكم الله تعالى بأن تأتوا بسورة من مثله فعجزتم وأنتم ملوك البلاغة والفصاحة ، فكأن الإعجاز من أمانة الرسول وصدقه ، والإعجاز من بلاغة القرآن وتحديه يقتضى منكم الإيمان فيكون عدم الإيمان هنا مكابرة تقتضى عقاباً صارماً.

فإن سأل سائل : أين هى حرية التدين ؟ وأين تطبيق قول الحق تبارك وتعالى؟

﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ [البقرة : ٢٥٦]

نقول : نعم ، لا إكراه فى أن تؤمن بالله وتؤمن بدينه ، ولكن مادمت قد آمنت فلابد أن تلتزم بما يوجبه هذا الإيمان ، أما عند التفكير فى مبدأ التدين فأنت حر فى أن تؤمن بالله أو لا تؤمن.

ولكن إذا آمنت فالواجب أن نطلب منك أن تلتزم . ثم إن الحق سبحانه وتعالى شاء ألاَّ يجتمع فى الجزيرة العربية دينان أبداً.

ولكن فى أىِّ مكان آخر مثل فارس ، الروم ، فهم لن يعرفوا إعجاز القرآن الكريم كلغة ، ولكن يسمعون أنَّه معانٍ سامية بقوانين فعالة تنظم الحياة وترتقى بها.

أما الذين يعرفون الرسول وفصاحة المعجزة التى جاء بها ، فلن يُقبل منهم إلاَّ أن يسلموا ، ولا يُقبل منهم أن يظلوا فى أرض الرسالة دون إسلام ، وإن أرادوا أن يظلوا على الشرك فليرحلوا بعيداً عن هذه الأرض .

وهناك من يقول : إنَّ الإسلام انتشر بالسيف أو الجزية ، ونقول : إن الإسلام انتشر بالقدوة ، أما السيف فكان دفاعاً عن حق اختيار العقيدة فى البلاد التى دخلها الإسلام فاتحاً ، والجزية كانت لقاء حماية من يريد أن يبقى على دينه .

ونجد فى حياتنا اليومية من يستخدم ﴿لا إكراه فى الدين﴾ فى غير موضعها ، فحين يقول مسلم لآخر : لماذا لا تصلى ؟ يرد عليه بهذا القول : ﴿لا إكراه فى الدين﴾. ونقول : إن ﴿لا إكراه فى الدين﴾ مسألة تخص قمة التدين ، أى مسألة اعترافك بأنك مسلم أو غير ذلك ، لكن ما دمت قد أعلنت الإسلام وحُسبت على المسلمين ،

فعليك الالتزام بما فرضه عليك الدين فلا تشرب الخمر ولا تزن ، إذن فـ ﴿لا إكراه فى الدين﴾ تعنى لا إكراه على اختيار الإسلام ، ولكن لابد من الحرص ممن أعلنوا الإسلام على مطلوبات الدين .

إذن فلماذا أُكْرِه العرب على الإسلام ؟

قيل فى ذلك سببان : الأول أن الرسول صلى الله عليه وسلم منهم ، والثانى أنَّ المعجزة جاءت بلسانهم .

ويتابع الحق سبحانه وتعالى قوله : ﴿ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ ﴾ [التوبة : ٥]

فإن عز عليكم أن تقتلوهم فخذوهم أسرى ؛ ماداموا لم يدافعوا عن أنفسهم بقتالكم ، ولم يهددوكم فى حياتكم ، وهنا يحقن الدم ويستفاد بهم كأسرى .

وإن خفتم من شرورهم فاحصروهم فى مكان مراقب . إذا قاموا بأى حركة معادية يكون من السهل عليكم كشفها ، وإنزال العقاب بهم . والحصر هنا تقييد الحركة مع السماح لهم بحركة محدودة بحيث لا يغيبون عن نظركم .

ثم يتابع المولى سبحانه وتعالى قوله :

﴿ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ﴾ [التوبة : ٥]

أى ارصدوا حركاتهم حتى تأمنوا مكرهم ؛ وحتى لا يتصل بعضهم بالبعض الآخر ، وينشئوا تكتلاً يعادى الإسلام . ارصدوا حركاتهم ، وارصدوا كلامهم ، وارصدوا أفعالهم ، ولا تجعلوهم يخرجون عن رقابتكم وافعلوا ما بوسعكم لتكونوا فى مأمن من شرورهم ، ولكن لا تخرجوا بالاستطلاع إلى حيز استذلالهم، فالاستدلال غير الاستذلال .

وقد يتساءل البعض : لماذا هذا الاختلاف فى العقوبة حيث هناك القتل وهناك الحصر وهناك الرصد لهم فى طرقهم ومسالكهم ،؟ . نقول : إن العقوبة تختلف باختلاف مواقع المشركين من العداء للإسلام ، فهناك أئمة الكفر الذين يحاربون هذا الدين ؛ ويدعون الناس لعدم الإيمان ، ويحرضون على قتال المسلمين وقتلهم

وإيذائهم ولا ينصلحون أبداً ، ولا يكفون أذاهم عن المؤمنين أبداً : أولئك جزاؤهم القتل .

وهناك من لا يؤذون المسلمين ، وإنما يجاهرون بالعداء للدعوة ، هؤلاء شأنهم أقل؛ فنأخذهم أسرى . وهناك من الكفار من لا يفعل شيئا إلا أنه غير مؤمن ؛ فهؤلاء نراقب حركاتهم ليتقى المسلمون شرّهم ليكونوا على استعداد بصفة دائمة لمواجهتهم إذا ما انقلبوا ليؤذوا المسلمين ويهاجموهم ويقاتلوهم .

إذن فلم توضع عقوبة واحدة تشمل الجميع . لأن الجميع غير متساوين فى عدائهم للإسلام ؛ فأئمة الكفر لهم حكم، والذين عداوتهم للإسلام أقل لهم حكم آخر . ثم تأتى رحمة الله سبحانه وتعالى ؛ لأنه سبحانه وتعالى رحيم بعباده فلا ييئسهم أبداً من الرجوع إليه فيقول : ﴿ **فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ [التوبة : ٥]

ويفتح سبحانه باب التوبة أمام عباده جميعاً ولا يغلقه أبداً ، ولذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فيما يرويه عنه أبو حمزة أنس بن مالك ــ خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ رضى الله عنه ــ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لله أفرحُ بتوبة عبده من أحدكم سقط [١] على بعيره وقد أضله فى أرض فلاة)[٢]

أى أنك وأنت مسافر فى صحراء جرداء بعيدة تماماً عن أى عمران ثم جلست لتستريح ومعك الجمل الذى تسافر عليه ؛ عليه الماء والطعام وكل ما تملك من وسائل الحياة ، ثم غفلت عن الجمل فانطلق شارداً وسط الصحراء ، وتنبهت فلم تجده ولا تعرف مكانه ، وفجأة وأنت تمضى على غير هدى وجدت الجمل أمامك ، فكيف تكون فرحتك ؟ إنها بلا شك فرحة كبيرة جدا لأنك وجدت ما ينجيك من الهلاك ، وهذه الفرحة تملأ النفس وتغمرها تماماً ، كذلك يفرح الله بتوبة عباده ، لذلك

(١) عثر .

(٢) رواه البخارى ومسلم .

يوضح سبحانه وتعالى بأنه إن تاب هؤلاء الكفار من عدائهم لدين الله ورسوله وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فَلْيُخَلِّ المسلمون سبيلهم وليتركوهم أحراراً.

وهنا نجد ثلاثة شروط : أولها التوبة والعودة إلى الإيمان . وإقامة الصلاة ، هذا هو الشرط الثانى ، ثم يأتى الشرط الثالث وهو إيتاء الزكاة ، ولابد أن يؤدى الثلاثة معاً ؛ لأن التوبة عن الكفر هى دخول فى حظيرة الإيمان ، والدخول إلى حظيرة الإيمان يقتضى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . ثم إقامة الصلاة ثم إيتاء الزكاة ثم صوم رمضان ثم حج البيت لمن استطاع إليه سبيلا .

ولو نظرت إلى أركان الإسلام الخمسة تجد أن المسلم قد يؤدى بعضها ولا يؤدى البعض الآخر ، فالمسلم الفقير الذى لا يجد إلا ضروريات الحياة تسقط عنه الزكاة ويسقط عنه الحج ، والمسلم المريض مرضاً مزمناً يسقط عنه الصوم ، وتبقى شهادة أن لا الله إلا الله وأن محمداً رسول الله ؛ وهذه يكفى أن يقولها المسلم فى العمر مرة ، ويبقى ركن إقامة الصلاة لا يسقط أبداً ، لا فى الفقر ولا فى الغنى ولا فى الصحة ولا فى المرض ؛لأن الصلاة هى الفارقة بين المسلم وغير المسلم ، وهى عماد الدين لأنها تتكرر كلَّ يوم خمس مرات ، فالمريض عليه أن يصلى بقدر الاستطاعة . فإن لم يستطع أن يؤديها واقفا فجالساً وإن لم يستطع أن يؤديها جالساً فراقداً .

إننا نعلم أن كل صلاة إنما تضم كل أركان الإسلام ؛ ففى كل صلاة نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ؛ وكل صلاة فيها زكاة ؛ لأن الزكاة إخراج بعض المال للفقراء ، والمال يأتى من العمل ، والعمل محتاج لوقت ، والصلاة تأخذ بعض وقتك الذى يمكن أن تستخدمه فى العمل فيعطيك رزقاً تزكى به ، فكأنك وأنت تصلى أعطيت بعض مالك لله سبحانه وتعالى ؛ لأنك أخذت الوقت الذى كان يمكن أن تعمل فيه فتكسب مالاً للزكاة ، فكأن الصلاة فيها زكاة الوقت .

إن الوقت هو ما نحتاج إليه فى حركة الحياة للحصول على المال فتكون فى الصلاة زكاة . ونأتى بعد ذلك للصوم وأنت فى الصوم إنما تمتنع عن شهوة البطن وشهوة

الفرج بعضاً من الوقت ؛ من قبيل الفجر إلى المغرب ، وكذلك فى الصلاة . وفى الصلاة أنت لا تستطيع أن تأكل أثناء الصلاة . فكأنك لابد أن تصوم عن شهوة البطن وأنت تصلى ، كما أنك لابد أن تصوم عن شهوة الفرج أثناء الصلاة ، فلا تستطيع وأنت تصلى أن تفعل أى شىء مع زوجتك ، ولا تستطيع زوجتك أن تفعل معك شيئا ، بل أنت فى الصلاة تكون فى دائرة أوسع من الإمساك ، لأنك ممنوع من الحركة وممنوع من الكلام .

فإذا جئنا إلى حج بيت الله الحرام ؛ نقول إنَّك ساعة تصلى لابد أن تتجه إلى بيت الله الحرام ، وتتحرى القبلة ، إذن فكأن بيت الله الحرام فى بالك وفى ذكرك وأنت تتجه إليه فى كل صلاة . وعلى ذلك فقد جمعت الصلاة أركان الإسلام كلها . ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عنه سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه: (الصلاة عماد الدين)[1] وإذا كانت الصلاة هى عماد الدين كما بين النبى صلى الله عليه وسلم فمن أقامها فقد أقام الدِّين ـ ومن عجائب ترتيب آيات القرآن أنك تجد الصلاة مقرونة دائما بالزكاة ؛ لأن الزكاة بالمال ، والصلاة زكاة بالوقت ، نحن محتاجون إلى الوقت لنعمل فيه حتى نأتى بالمال ، والحق سبحانه وتعالى يقول:

﴿ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ﴾ [التوبة : ٥]

ومعنى ذلك أنهم إذا لم يؤدوا الثلاثة معاً لا نخلى سبيلهم ، ومادمنا لا نخلى سبيلهم فهم يدخلون تحت العقوبات التى حددها الله وهى : «اقتلوهم»أو «خذوهم» أو : ﴿ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ﴾ [التوبة : ٥]

وأول العقوبات هو القتل وذلك لأئمة الكفر ، فإذا آمن كافر وترك الصلاة لا يكون قد تاب وآمن : وإذا لم يؤد الزكاة لا يكون قد تاب وآمن ؛ لذلك إذا لم يقوموا بالعبادات الثلاث لا نخلى سبيلهم ، ولقد أفتى بعض الأئمة بأن تارك الصلاة يقتل ، ونقول : لا ، تارك الصلاة إمَّا أن يكون قد تركها إنكاراً لها وجحودا بها ، وإما أن

(١) أخرجه البيهقى فى جامع الأحاديث للإمام السيوطى جـ٤ ص ٤٥٢

يكون قد تركها عن كسل . فإن كان يتركها عن كسل لأنه لا يقدر على نفسه والدنيا تجذبه بمشاغلها فعلينا أن نحاول بالحكمة والموعظة الحسنة أن ننصحه ونستحثه حتى يعود إلى الصلاة ويؤديها فى وقتها، ثم من بعد ذلك إن تركها عمداً كسلاً ، يعاقب بالضرب الشديد ، ولكن بعض الأئمة يقولون : لقد قاتل أبو بكر أولئك الذين ارتدوا ومنعوا الزكاة ، ونقول : إنه لم يقاتلهم لأنهم عصاة ، بل لأنهم قد ردوا الحكم على الله، وأنكروا الزكاة فكانوا بذلك قد ارتدوا كفاراً ؛ لأن هناك فارقاً بين أن ترد الحكم على الله وتنكره ؛وبين أن تسلم بالحكم لله ، وتعلن أنك مع إيمانك بهذا الحكم لا تقدر على التنفيذ ، أو تعترف أنك مقصر فى التنفيذ . ولذلك نقول للذين يحاولون أن يدافعوا عن الربا ويحلوه : قولوا هو حرام ولكننا لا نقدر على أنفسنا حتى لا تعودوا كفاراً : لأنك إذا قلت إن الربا ليس حراماً تكون قد رددت الحكم على الله ووقفت موقف الكافر ، ولكنك إن قلت إن الربا حرام ولكن ظروفى قهرتنى فلم أستطع ، تكون بذلك عاصياً.

وهذا كما قلنا هو الفرق بين معصية إبليس ومعصية آدم عليه السلام ، فقد أمر الله تعالى إبليس بالسجودفعصى ، وآدم أمره الله فعصى ، فلماذا قضى الله بأن إبليس عليه اللعنة إلى يوم القيامة ، بينما تلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه وغفر له ؟ نقول : لأن إبليس رد الحكم على الله ؛ فقال :

﴿ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾ [الإسراء : ٦١]

وقال : ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾ [ص : ٧٦]

فكأن إبليس رد الحكم على الله عز وجل ، ولكن آدم لم يقل ذلك . وإنما قال : حكمك يا ربى صحيح وما أمرتنى به هو الحق ، ولكنى لم أقدر على نفسى فظلمتها فتب علىّ واغفرلى وذلك مصداقا لقوله سبحانه وتعالى : ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣) ﴾ [الأعراف]

وهذا هو الفرق بين المعصية والكفر.

إذن فالتعامل مع المشركين إن لم يتوبوا ولم يُصَلُّوا ولم يُزكُّوا، ولم يقدر عليهم المسلمون، ماذا يحدث؟. إن على المسلمين أن يحاولوا تطبيق ما أمر به الله سبحانه وتعالى بشأنهم.

ولكن ماذا إن استجار واحد من المشركين بالمسلمين؟.

وهنا ينزل قول الحق تبارك وتعالى:

﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ ﴾

وبعد أن بَيَّن الله سبحانه وتعالى المهلة التى هى الأشهر الأربعة أو مدة العهد إذا كان هناك عهد. وبعد أن بين أن الكفار إن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وقرنوا الإيمان بالعمل؛ فالحق سبحانه وتعالى يغفر لهم ما قد سلف منهم، وبين الله سبحانه وتعالى عظمة الإسلام والرحمة التى نزل بها هذا الدين؛ فيخبرنا أن الذين لم يتوبوا من الكفار وظلوا على حالهم ولم نقدر عليهم بأى عقوبة من العقوبات التى جاءت، ثم جاء أحدهم مستجيراً بالمؤمنين فماذا يكون سلوكنا معه؟

جاء الحكم من الله تعالى بأنه مادام قد استجار بك فأجره، وإذا أجرته أسمعه كلام الله تعالى وحاول أن تهديه إلى الإيمان وإلى الطريق المستقيم؛ فإن آمن واقتنع وأعلن إسلامه أصبح واحداً من المسلمين، وإن لم يسمع كلام الله ولم يقتنع فلا تقتله؛ ولكن أبلغه مأمنه، أى اسأله من أين جاء؟ فإذا قال لك اسم القبيلة التى ينتمى إليها أو حدد المكان الذى جاء منه فتأكد أنه سوف يكون آمناً حتى يبلغ المكان الذى يجد فيه الأمان. وهذه هى المرحلة الأخيرة من علاقة الإيمان بالكفر،

وهى مرحلة الإجارة والتأمين للمستجيرين بالمؤمنين .

فالله سبحانه وتعالى تفضل على خلقه فى الأرض فأرسل إليهم رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم ، وكان ذلك بعد أن مرت فترة طويلة على إرسال من سبقوه من الرسل. وكان الناس قد نسوا منهج السماء ، بل وحرَّف أهل الكتاب ما نزل إليهم من تعاليم .

وكان لابد أن تتدخل السماء بإرسال خاتم الأنبياء والمرسلين محمد صلى الله عليه وسلم ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى قد جعل فى الإيمان مناعات متعددة ، توجد أولا فى النفس ، فحين تستشرف النفس إلى معصية ، فالضمير الإيمانى يردعها عن تلك المعصية ويتوب الإنسان ويرجع إلى الله تعالى من ذات نفسه وبضميره الإيمانى وتلك هى النفس اللوامة . ومعنى وجود اللوم فى النفس هو أن الإيمان مازال موجوداً فيها ، وهذا الإيمان هو الذى يكبح الشهوة ويمنع النفس من الركون إلى المعصية ويرد صاحبه إلى الطريق الصحيح والمنهج السوى .

وهب أن نفساً ولعت بمخالفة المنج ولم تعد نفسا لوامة ، وتظل ترتكب المعاصى حتى تعتاد على المعصية ، ويموت فيها الوازع الإيمانى ، فتجدها قد عشقت ـ والعياذ بالله ـ مخالفة المنهج ، بل أصبحت نفساً أمارة بالسوء ، وهنا ينقل الله المناعة الإيمانية من النفس إلى المحيطين بها من عباد الله ، فتجد المحيطين بمرتكب المعاصى يردعونه عن المعصية ، ويقفون منه مواقف الإيمان من الردع والمقاطعة والجفوة حتى يفىء إلى ربه يعود إلى رشده . وتلك مرحلة ثانية من مراحل الإيمان . أما إن فسد المجتمع كله ولم تعد هناك طائفة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، فلابد أن تتدخل السماء برسالة جديدة وبرسول جديد مؤيد بمعجزة من السماء ليوقظ الناس من هذا السبات العميق الذى شمل الأفراد والمجتمعات .

وعندما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وواجه هذا المجتمع الذى انتشر فيه الكفر أفراداً وجماعات كان لابد أن يحدث تصادم بين الإيمان ومجتمع الكفر ؛ ذلك أن

العداوة الشرسة واجهت رسول الله صلى الله عليه وسلم . وهذه المواجهة للرسول إنما جاءت من المنتفعين بالفساد فى الأرض . والمنتفعون بالفساد هم السادة الذين استفادوا من ضياع الحق وانتشار الباطل فأخذوا حقوق غيرهم واستعبدوا الناس ، واستأثروا هم بالمنافع وبما فيه الخير لهم ومنعوا ذلك عن باقى عباد الله .

والمنتفعون بالفساد يكرهون أى مصلح جاء ليعدل ميزان حركة الحياة فى الكون . فلابد أن يقفوا فى وجهه ؛ ليدافعوا عن سيادتهم وعن منافعهم وأموالهم التى حصلوا عليها بالباطل والظلم ، ومن استعبادهم للناس . وكانت الجزيرة العربية فى ذلك الوقت مكونة من قبائل متعددة ، وكان لكل قبيلة قانونها الذى يضعه شيخها ليستأثر لنفسه بكل شىء .

ومعنى ذلك أنه لا توجد رابطة تربط بين هذه القبائل ، ولا يوجد قانون عام يحكمها ، وكل قبيلة لها عزوتها ولها شوكتها ولها حروبها . وكل فرد فى قبيلة لابد أن يكون مقاتلا يحمل سلاحه مستعدا للحرب فى أى وقت ، لأنه مهدد فى أى لحظة أن تغير عليه قبيلة أخرى ، إلا قبيلة واحدة هى قريش . فقد أخذت السيادة ولا يعتدى عليها أحد ولا تُهَاجَم قوافلها ، ولا تستطيع قبيلة فى الشمال أو فى الجنوب أن تهاجم تجارتها ؛لأن هذه القبائل كلها ستأتى فى يوم من الأيام قاصدة حج بيت الله الحرام فى مكة . وخلال الحج تكون هذه القبائل فى حاجة إلى الأمان من قريش ؛ ولذلك حرصت كل قبائل العرب أن تحافظ على علاقتها مع قريش ، لأن السيادة على بيت الله الحرام التى جعلها الله لقريش هى الضمان . وقد تكفل الله سبحانه وتعالى بحماية البيت الحرام من أى عدوان ، حتى عندما جاء أبرهة بأفياله ليهدم الكعبة ؛ جعله الله هو وجيشه كعصف مأكول مصداقاً لقوله الحق تبارك وتعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣) تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ (٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ (٥) ﴾ [الفيل]

فإذا قرأت السورة التى بعد سورة الفيل مباشرة تجد أنها :

﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ (١) إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (٢) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ (٤) ﴾ [قريش]

فكأن حفظ الكعبة من الهدم كان حفظاً من الله سبحانه وتعالى لسيادة قريش . ولذلك كان من الواجب أن تستقبل قريش رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم بالإيمان والشكر وفهم هذه النعمة وتقديرها ، بدلاً من أن تقف من الإسلام هذا الموقف المتعنت وتحاربه هذه الحرب الرهيبة ، ولكن بدلاً من ذلك فقد حدث العكس، وأحست قريش كذباً بأن الإسلام جاء ليهدد سيادتها فقامت تحاربه .

وإذا كان الأمر كذلك فلماذا لم تكن النداءات بالإسلام بعيدا عن هذه السيادة ؟ لأن الحق قد أراد أن تكون صيحة الحق فى جبروت الباطل وأن يواجه الإسلام فى أول أيامه جبروت سادة الجزيرة العربية كلهم جميعا حتى يمحص الله قلوب المسلمين الأوائل . فهم من يحملون من بعد ذلك دعوة الإسلام فى العالم ؛ فلا يعتنق الإسلام منافق أو ضعيف الإيمان ، بل يعتنقه أولئك الذين فى قلوبهم إيمان حقيقى ، ويتحملون كل مظاهر الاضطهاد والتعذيب بقوة إيمانهم .

لقد شاء الحق تبارك وتعالى أن يبدأ الإسلام فى مكة ولم يجعل الله له النصر من مكة، وشاء سبحانه وتعالى أن يجعل نصر الإسلام من المدينة؛ لأن قريشا لو انتصرت دعوة واحد منها فهم سيحاولون احتواء ه ليسودوا به الدنيا ، وحينئذ سيقال : هم قوم قد تعصبوا لواحد منهم لتظل لهم السيادة ، ويكون اعتناق الإسلام نفاقاً وليس إيماناً حقيقيا . ولذلك جعل الله سبحانه وتعالى انتصار الإسلام من المدينة ليعلم الناس جميعاً ؛ أن العصبية لمحمد صلى الله عليه وسلم لم تخلق الإيمان برسالة محمد عليه الصلاة والسلام ، ولكن الإيمان برسالة محمد صلى الله عليه وسلم هو الذى خلق العصبية لمحمد عليه الصلاة والسلام .

ولذلك شاء الله سبحانه وتعالى أن تكون هناك مواجهة شرسة بين حملة الإيمان

وبين سادة الكفر . وهذه المواجهة أخذت عدة مراحل :

المرحلة الأولى كانت الدعوة للإيمان ، والدعوة الى المحبة ، والدعوة إلى المساواة . وعدم مقابلة التعذيب والقتل بالعنف . وهذه البداية لم تعجب سادة قريش بل جعلتهم يستهينون بالمؤمنين ويمعنون فى إيذائهم وتعذيبهم ويعتقدون أنهم سيقضون عليهم ، فلما وجدوا الدعوة تقوى رغم كل ما تواجهه من مراحل التعذيب والبطش ؛ ازدادوا تنكيلاً بالمؤمنين ، فهاجر بعض من المؤمنين إلى الحبشة ، وأصبحوا يبحثون عمن يحميهم ويستجيرون به ؛ وشاء الحق تبارك وتعالى ذلك حتى لا يدخل الإسلام إلا من أُشرب قلبه حب الإسلام واستهان بكل الصعاب والاضطهاد والقتل والتشريد؛ وهؤلاء هم الذين سيصبحون مأمونين على الدعوة . وبعد ذلك ظل الكفر على كفره ، وظل الإيمان يأخذ إليه بهدوء بعض الأفراد ، وحاول الكفار أن يستميلوا المؤمنين بالحيلة بعد أن فشلت القوة والبطش والإرهاب ؛ فقالوا : نعبد إلهكم فترة وتعبدون إلهنا فترة ، فأنزل الله سبحانه وتعالى سورة فيها ما يسمى بالعرف الحديث «قطع العلاقات» ، فقال الحق عز وجل : ﴿ **قُلْ يَأَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ (٤) وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (٦)** ﴾ [الكافرون]

وكان هذا إعلاناً بمرحلة ثانية تتسم بأنه لا مهادنة ولا حلول وسط بين الكفر والإيمان ؛لأنه لو قبل المؤمنون عبادتهم لآلهة الكفار ؛ فهذا اعتراف منهم بأن آلهتهم حق ، ولو قبلوا أن يعبدوا الإله الواحد ويشركوا به آلهة أخرى لكان ذلك تفريطاً ، ولا يمكن أن يحدث ذلك . وكان النهى هنا فى هذه الآية الكريمة يشمل الحاضر والمستقبل . وهذا ما يسمى فى السياسة الدولية باسم قطع العلاقات ، بل إن قطع العلاقات الدولية إنما يكون بسبب طارىء ، أما الخلاف بين المسلمين الأوائل وأهل الشرك فلم يكن صراعاً بين فكر بشر وفكر بشر آخرين ، ولكن المسألة كانت صراعات بين منهج تريده السماء لأهل الأرض ، وبين المنتفعين بالفساد فى الأرض ؛ لذلك كان لابد أن يكون القطع نهائياً ، فلا لين ولا مهادنة

. ولا حلول وسط بين الكفر والإيمان ، وهكذا فشلت حيلة الكفار فى تمييع وتضييع قضية الدين ، وضاع مكرهم ، وبقى الوجود الإيمانى قويا متحداً فى مواجهة جبروت الكفار بعد أن كان مهدداً.

ثم جاءت بعد ذلك المرحلة الثالثة ؛ مرحلة اعتراف الكفر بقوة الإيمان ، فقد كان الكفار يواجهون المؤمنين بالقهر والتعذيب ، والمؤمنون يواجهون هذا بالصبر والاحتمال حتى هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، وحدثت المواجهة المسلحة بين الإيمان والكفر فى غزوة بدر ، وانتصر المؤمنون وأصبح لهم كيان يحميهم ، فلم يعودوا هم القلة الضعيفة المستذلة والمستكينة، بل أصبحت لهم قوة ولهم قدرة ، وإن لم تصبح لهم سيطرة . ولكنهم أصبحوا قوة قادرة على مواجهة الكفار أو قوة مساوية لهم ؛ تستطيع أن تصد الاعتداءات وتواجه الضربة بالضربة .

وحين أصبح للإيمان هذه القوة والقدرة على حماية أنفسهم والمساواة والكيان تجاه الكفار ؛ كانت هذه بداية المرحلة التى أعطت الإسلام تفرغاً لنشر الدعوة خارج محيط مكة ، وأمن المسلمون وهم ينشرون دعوتهم من هجوم الكفار وتنكيلهم بهم بعد صلح الحديبية ، وكان مجرد التعاقد والتعاهد هو اعتراف بدولة الإيمان ،وهى المسألة التى فطن لها سيدنا أبو بكر رضى الله عنه وقد ظن البعض لأول وهلة أن معاهدة الحديبية كان فيها إهدار لحق المؤمنين ، حتى إن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : علام نعطى الدنية [1] فى ديننا .

هذه المسألة أخذت جدلاً كبيراً كاد يصل إلى أن يصادم المؤمنون أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعندما رأت أم سلمة رضوان الله عليها خوف رسول الله صلى الله عليه وسلم على المؤمنين من عدم إطاعة ما قاله لهم ، ووجدت الحزن الشديد على وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قالت :« يارسول الله لا تحزن . إن القوم مكروبون لأن أملهم أن يطوفوا بالبيت الحرام ، وها هم أولاء الآن على مقربة من البيت ولكنهم

(١) الدنية : أصلها الدنيئة بالهمزة ولكنها خُففت وهى صفة لمحذوف .. أى الحالة الدنيئة الخسيسة .

ممنوعون من الطواف به ؛ إن خير ما تفعله الآن ألا تكلم منهم أحداً ، وتنفذ ما أمرك به الله ؛ فإن فعلت عرفوا أن الأمر عزيمة لا نزاع فيه» ، هذا ما حدث. فقد قام رسول الله صلى الله عليه وسلم بذبح الهدى وتحلل من إحرامه وفعل المسلمون مثلما فعل ، وشاءت قدرة الله سبحانه وتعالى قبل أن يعود المؤمنون إلى المدينة ، أن يبين لهم سبب قبول رسول الله صلى الله عليه وسلم لصلح الحديبية مع ما يبدو ظاهراً وليس حقيقة من أن فيه إجحافاً بالمسلمين .

لقد كان الصلح ينص على أنه إن جاء أحد هارباً من قريش والتجأ إلى المدينة ردوه إلى قريش مرة أخرى . وإن فر أحد بعد إسلامه والتجأ إلى كفار مكة لا يردونه. وقد وجد البعض فى هذا إجحافاً وعدم مساواة ، وكان الموقف غاية فى الدقة ، وعندما جاء سهيل بن عمرو ليتفاوض على المعاهدة ، وكان على بن أبى طالب رضى الله عنه يكتب عن رسول الله وأملى: هذا ماتعاقد عليه محمد رسول الله وسهيل بن عمرو. اعترض سهيل قائلا : لو كنا نؤمن بأنك رسول الله ما حدث بيننا هذا القتال ، ولكن اكتب : هذا ما تعاقد عليه محمد بن عبدالله وسهيل بن عمرو. هنا ثار على بن أبى طالب رضوان الله عليه وقال : لا ، لابد أن نكتب هذا ما تعاقد عليه محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ورفض سهيل بن عمرو .

وأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينهى الموقف فنظر إلى على وقال :« يا على اكتب فإنَّ لك مثلها تعطيها وأنت مضطهد» أىْ أنه سوف يحدث لك نفس الشىء الذى ترفضه الآن فتقبل ، وكان هذا من علامات النبوة لأن عليا وقف فعلا هذا الموقف عندما جاءت معاهدة صفين وأراد أن يكتب فيها هذا ما تعاقد عليه على بن ابى طالب أمير المؤمنين فقالوا له : لو كنت أمير المؤمنين ما حاربناك ، اكتب هذا ما تعاقد عليه على بن أبى طالب. وتذكر على بن أبى طالب قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : «اكتب فإن لك مثلها تعطيها وأنت مضطهد ».

على أن الحق سبحانه وتعالى أراد ألا يدخل المسلمون المدينة إلا وقد صفت نفوسهم دون إحساس بأن منهم من انكسر وأن الآخرين قد انتصروا ، فنزل قول الحق

تبارك وتعالى الذى يزيل من النفوس المرارة : وينزل عليها السكينة والطمأنينة :

﴿ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٢٥) ﴾ [الفتح]

وهكذا أخبر الله المؤمنين بسبب عدم السماح لهم بدخول مكة لأن فيها عددا من المؤمنين والمؤمنات الذين يكتمون إيمانهم ، وهؤلاء غير مميزين لأنهم مختلطون بالكفار؛ وليس لهم مكان محدد بحيث يستطيع المؤمنون معرفتهم وتمييزهم ، فلا يتعرضون لهم فى قتالهم داخل مكة ، ولو نشب القتال فعلاً لتم قتل عدد كبير من هؤلاء المؤمنين والمؤمنات المقيمين فى مكة بأيدى المؤمنين ، ولكان عاراً أن يقتل مؤمن مؤمنا أومؤمنة .

هنا عرف الصحابة العلة وهى صيانة دم المؤمنين . وفى الوقت ذاته نجد أن صلح الحديبية جعل الدعوة الإسلامية تنتشر فى الجزيرة العربية كلها . وقد اعتبره بعض الصحابة رضوان الله عليهم الفتح الحقيقى للإيمان ، وجاء فى ذلك تلك المقولة المأثورة : «لا فتح فى الإسلام بعد فتح الحديبية» ولكن الناس لم يتسع فكرهم إلى الحكمة مما حدث ، والعباد دائما يعجلون . والله لا يعجل لعجلة عباده حتى يبلغ الأمر ما أراد . وقد انتشر الإسلام فى الجزيرة العربية بالدعوة ، وزاد عدد المسلمين زيادة كبيرة .

إذن فمراحل الإيمان بدأت بمرحلة التعذيب والاضطهاد ، ثم مرحلة محاولة الخداع للقضاء على هذا الدين ، ثم المرحلة الثالثة وهى التعاهد والتعاقد ، ولقد وفَّى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعهده ، ولكن قريشاً نقضت العهد بأن أعانت قبيلة بنى بكر وهم حلفاؤها على قبيلة خزاعة حلفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقام بنو بكر بمهاجمة قبيلة خزاعة وقتلوهم وهم يصلون ، وذهب مندوب قبيلة خزاعة مستنجدا برسول الله صلى الله عليه وسلم، فأعلن رسول الله صلى الله عليه وسلم إنهاء

المعاهدة التى أبرمت بينه وبين قريش لنقض قريش العهد وأعد جيشاً لفتح مكة وتطهير البيت الحرام من الأصنام ، وبعد أن تم فتح مكة فى العام الثامن الهجرى ، أراد الله سبحانه وتعالى أن يطهر بيته من المشركين وأن يعلن أنه لا مهادنة بين الإيمان والكفر .

لقد أراد الله أن يحرر «المكان» وهو أرض الكعبة أولاً ، ثم يحرر «المكين» وهم البشر فلابد ـ إذن ـ أن تتطهر الكعبة من الأوثان ، وأن يُمنع العراة من الطواف حول البيت الحرام ويُمنع المشركون من الوجود فى البلد الآمن بالإسلام . وسبق حج رسول الله صلى الله عليه وسلم قطع العلاقات وإنهاء المعاهدات، لكن سماحة الإيمان وحب الله لخلقه جميعا لم يجعله يأمر الرسول صلى الله عليه وسلم بقطع المعاهدة فوراً ، أو أن يقاتل المؤمنون المشركين ويأسروهم فوراً ، لا ، بل منحهم أربعة أشهرلعلهم يفيئون إلى الإسلام وأن يتوبوا إلى بارئهم .

لقد بين سبحانه وتعالى للكافرين أن هذه المدة لن تفيدهم فى حربهم ضد الإسلام ؛ لأنهم غير معجزى الله فى الأرض ، أى لن يعجز الله استعدادهم أو مكرهم أو أى شىء يفعلونه خلال هذه الأشهر الأربعة ، فإذا انتهت هذه الأشهر وقعت العقوبة على الكفار إما بالقتل وإما بالحصار ، أو بالترصد ، أو عليهم أن يدبروا أمر حياتهم بالسياحة فى الأرض ماداموا قد أصروا على الكفر ؛ لأن حكماً من الله قد نزل بعدم وجود المشركين فى هذه البقعة المقدسة .

وأراد الحق سبحانه وتعالى برحمته أن يبقى الباب مفتوحاً للكفار لكى يعودوا إلى منهجه فقال عز وجل :

﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ (٦) ﴾ [التوبة]

وبعد انقضاء مدة الأشهر الأربعة ، اذا استجار بك أحد من المشركين فأجره ، ونحن نعلم فى اللغة العربية أنّ «إِنْ» الشرطية لا تدخل إلا على فعل ولا تدخل على

اسم أبداً ؛ فتقول : إن قام زيد قام عمرو ، وأما «إنْ» فى قوله تعالى :

﴿ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلاَّ اللاَّئِي وَلَدْنَهُمْ ﴾ [المجادلة : ٢]

فهذه ليست «إن» الشرطية ؛ ولكنها «إنْ النافية » وهى مع «إلا» التى بعدها لإفادة التأكيد والقصر ، أى قصر الأم على الوالدة ، إلا أنه من بلاغة إعجاز القرآن الكريم جاء بعد «إن»الشرطية اسم فى قوله تعالى :

﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ ﴾ [التوبة : ٦]

وكان القياس أن يقال: «إن استجار بك أحد المشركين فأجره »؛ ولكن الله سبحانه وتعالى جاء بـ «أحد» بعد «إن» فى أول الكلام ، ولذلك فعندما نعرب كلمة «أحد» فى الآية الكريمة السابقة نعربها فاعلاً ونقدر له فعله من جنس المتأخر ، والتقدير هو : وإن استجارك أحد من المشركين فأجره .

ولماذا هذه اللفتة من القرآن الكريم ؟ نقول : إن هناك مستجيراً وهنا طلب استجارة ؛ فهل الاستجارة عرف بها المستجير ، أم عُرفت الاستجارة منه ؟.

وأقول : لنفرض أن واحداً من المؤمنين قد جلس على الحدود قرب أماكن الكفار ، ثم سمع صوتاً يقول : أنا مستجير بمحمد ، ومستجير بالمؤمنين ، ومن بعد ذلك ظهر المستجير بجسده أمام المؤمنين ، هنا تكون الاستجارة قد سبقت ظهور المستجير ، وكأن الأذن هى التى استجيرت أولاً ثم رأت العين جسد هذا المستجير ، وقد يختلف الأمر ؛ فيظهر المستجير أولاً ، ثم يصرخ طالباً الأمان والاستجارة ، وبذلك تكون العين قد رأت أولاً ثم سمعت الأذن طلب الاستجارة ثانياً.

وهنا يريد الحق سبحانه وتعالى أن ينبهنا إلى أهمية الالتفات إلى صدق الاستجارة ، ولا يتحقق ذلك إلا بأن يصرخ المستجير أولاً ، ويظهر من بعد ذلك ، ولابد أن يأخذ المؤمن حذره حتى لا ينقلب عليه المستجير أو يكون قد خدعه بطلب الاستجارة .

والاستجارة تعنى طلب الجوار والحماية ، ولهذا فعادة ما يكون المستجير ضعيفاً

لا يقـــــدر على حماية نفسه . وحين يستجير إنسان بآخر فى مثل تلك الظروف ، فعلى المجير أن يملك الفطنة ليتعرف على الهدف من الاستجـارة ؛ أهى استجـارة لمجرد تطويل أمد البقاء على الكفر ؟ أم هـى رغبة فى معرفة أسس الإيمان كما وردت فى كتاب الله تعـالى ، أو أنه يـريـد أن يسمع حكم الله على الكفار فى سـورة بـراءة . أو يريـد أن يسمع كلام الله بما يقـذف فى قلبه الإيمان ، أو أنه يـريد أن يسمع شيئـا فيما يطلب فيه الدليل ، أو يسمع كلام الله فيما يرد عليه الشبهة ؟.

إن فطنـة المؤمن يجب أن تتسع لتسبر أغوار المستجير، وطلب الجوار أو الاستجـارة كان معروفـاً عند العرب ، فإذا استجار شخص بعـدوه فعليه أن يجيره، وهذا دليل على شهـامته . وإذا كـان الإيمان قـد فرض على المسلمين إجـارة من يطلب الجوار، فهـذا دليل على قوة الإيمان وعظمتـه وسماحته ، ولعل خميرة الإيمان الفطـرى فى نفس الكفار قد استيقظت وتطلب معرفة قواعد الإسلام .

إن على الـــوالى أو أى واحـــد من المسلمين أن يجير المستجير، ولماذا لا نسمعـــه ونتكلم معه علـه يؤمن ، ويدخل حظيرة الإسلام وفى الإسـلام يجير الوالى أو أى واحد من المسلمين ؛ لأن المسلمين تتكـافأ دمـاؤهـم ولا يـوجـد دم سيـد ودم عبـد ، ولا دم شريف ودم رخيص ؛ وإنما يسعى بذمتهم أدناهم ، ولـذلك إذا أجار أى مسلم إنساناً غير مسلم أو إنسـاناً كـافراً يجار من جميع المسلمين ؛ حتى الصبى الـذى لم يبلغ الحلم وحتى المجنون الذى لا يعقل . لهذا أولـذاك أن يجير بشرط أن يوافق الوالى أو المسلمون على ذلك . لمـاذا ؟ لأننـا نأخذ على الكفر أنه يغـدر بالتعاهد ويتناسـى المروءة، فلابد أن نتمسك نحن المـؤمنين بالعهـد ، فإذا استجـار أحـد من الكفـار فـلابـد أن نفى بالعهد .

ولكن كيف يكون للصبى والمجنون حق الإجارة ؟ . نقول : إن الصبى من المؤمنين انتفع بالإسـلام لأنه تمت تربيتـه تربيـة إيمانية وفقاً لمنهج الله ونشأ فى ضـوء قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً ﴾ [الإسراء: ٢٤]

بل إن الإسلام يعطى التربية الإيمانية للابن حتى قبل الحمل ، فيأمر الأب أن يختار الأم ذات الدين لتكون وعاء صالحاً ، ويأمر الأم أن تختار الرجل المتدين ليكون أباً صالحاً .

إذن فالإسلام يخدم الصبى قبل أن يولد باختيار الأب الصالح والأم الصالحة ، ويخدمه بعد أن يولد بتربيته التربية الإسلامية السليمة ، وعلى ذلك فالصبى قد استفاد بكل هذه القيم من الإسلام ، والذى بلغنا منهج الإسلام هو رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومن هنا فالتربية الإسلامية لنا جميعاً ؛ لذلك يجب علينا أن نرد التحية إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى علمنا أن المؤمنين تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم . فلو أن صبيا أعطى الأمان لكافر جاء ليسمع كلام الله ؛ قبلت منه هذه الإجارة أو هذا الأمان ، ذلك أن الصبى استفاد من تربية إسلامية جاء بها المنهج المنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واستفاد من أمه التى تحملت حمله وآلام وضعه ، ولولا أن الإسلام حمى النفس حين توجد فى الرحم لأمكن للمرأة حين يتعبها الحمل أن تجهض نفسها أو أن تطرح الصبى بعيداً ، ولكن الإسلام حمى الطفل وهو فى بطن أمه ، وحماه حتى تكتمل رضاعته ، وتمتثل الأم المسلمة لكل أحكام الإسلام :

﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ﴾ [البقرة: ٢٣٣]

لقد احترم الإسلام الطفل ، وسانده ، وطلب من الأب والأم أن يحسنا تسمية أولادهما وأن يحسنا تربيتهما .

وقبل أن يوجد هذا الطفل فى رحم أمه حماه الإسلام ـ كما قلنا ـ بأن أمر الرجل أن يختار الأم الصالحة ؛ لتكون وعاء صالحاً ، فقد قال صلى الله عليه وسلم : فيما يرويه عنه أبو حاتم المزنى قال :

«إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه ، إلا تفعلوا تكن فتنة فى الأرض

وفساد كبير» قالوا يارسول الله وإن كان فيه ؟ قال «إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه» ثلاث مرات[١].

وكذلك قال صلى الله عليه وسلم : فى حديث له :

«فاظفر بذات الدين تربت يداك» .

والحديث فيما يرويه عنه أبو هريرة رضى الله عنه يقول : قال صلى الله عليه وسلم «تنكح المرأة لأربع : لمالها ، ولحسبها ، ولجمالها ، ولدينها ، فاظفر بذات الدين تربت يداك» [٢]

فإذا كان الإسلام قد احترم هذا الصبى فى كل حقوقه ، ألا يحترمه المسلمون ؟.

وقد يقال إن الصبى منتفع بالإسلام ، أما المجنون فلا عقل له حتى إن الله عز وجل قد أعفاه من التكاليف ، ونقول : انظروا إلى المجنون بالنسبة لأصحاب العقول،صاحب العقل قصارى مايصل إليه أن تكون كلمته نافذة لا يعترض عليه أحد ، وأن يقول ما يريد ولا يحاسبه أحد ، أما المجنون فهو يصل إلى هذا ؛ لأنه إن قال قولاً فلا أحد يعترض عليه ، وإن فعل فعلاً غير لائق فلا أحد يحاسبه ، بل إنه سبحانه وتعالى لا يحاسبه يوم القيامة .

إذن فالمجنون قد أخذ حظا أكثر مما يأخذه العقلاء ، وصار جنونه حماية وحصانة له إن قال كلمة الحق التى قد تؤذى ذوى النفوذ فلا يعاقبه أحد، ويكفى أن يقال إنَّه مجنون حتى يعفى من العقاب ، ورب كلمة حق واحدة تصدر من مجنون ؛ تكون أرجح عند الله عز وجل من أصحاب عقول كثيرة ظلوا طوال حياتهم ينافقون ويكذبون ويفعلون ما يغضب الله .

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه .

(٢) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والنسائى وابن ماجه .

إذن فهناك مهمة فى الحياة قد يؤديها المجنون ولا يؤديها العاقل ، لأن بعض الناس يعتقد أنه إذا سلب الله أحد البشر شيئا فإنه يميز عنه الآخرين ، نقول : لا ، لأن عدل الله يأبى إلا أن يعوضه ، ولذلك تجد من فقد عينيه يجعل الله عز وجل عيون الناس فى خدمته ؛ هذا يأخذ بيده؛ وهذا يقوده فى الطريق ، وهذا يحضر له الطعام والشراب ، وهذا يسقيه ... إلخ

وإن كان الإنسان أعرجَ مثلاً ، تجد هذا يعاونه ، وهذا يأخذه معه فى سيارته ، وقد تقف له سيارة أجرة تأخذه إلى حيث يريد . بينما يقضى السليم الساعات يبحث عن سيارة الأجرة بلا فائدة . بل إنك إن نظرت إلى الفقير تجد أنَّ الله قد جعل له عدداً من الأغنياء فى خدمته ، ففلان يحرث ويعزق ويعطيه الله خير الزراعة ليبيعه ويفيض منه على الفقير، وآخر يصنع ويتعب ويشقى ليعطى بعضاً من دخله للفقير، بل إنه يشقى مرة أخرى ليعثر على الفقير حقا ليعطيه بعضاً من ماله ، والفقير بالفعل يستحق أن يأخذ شريطة ألا يكون مدعيا للفقر . فما دام قد قبل حكم الله بالفقر والعجز ، يوضح له ربه : لقد رضيت بأنى أعجزتك ، فخذ من قدرة الأغنياء ما يعينك فى حياتك ، فهذا مُلْكٌ كَوْنى له نظام ، وأقول ذلك حتى نفهم أن الغنى والفقر ، والصحة والمرض ، والقوة والضعف ، إنما هى أغيار، ولذلك لا أحد يضمن غَدَهُ ، وعلى الواحد منا إن كان قادراً أن يعطى الفقير، حتى إذا ضاع منا المال وجدنا من يعطينا ، وأن نساعد المريض ، حتى إذا مرضنا وجدنا من يساعدنا ، وأن نكون فى خدمة الناس وقت شدتهم حتى يكونوا فى خدمتنا وقت شدتنا . وفى نفس الوقت حين نرى من حرمه الله من البصر يجب علينا أن نشكر نعمة الله علينا ، ولو رأينا إنساناً يعانى فى مشيه تنبهنا إلى نعمة الله فى أن أعطانا قدرة المشى.

وهكذا فالإنسان لا يتنبه إلى النعمة إلا إذا رأى من هو محروم منها . وكذلك أراد الحق أن يرضى كل ذى آفة قَبل آفته ولم يتمرد عليها ؛ لذلك يفيض عليه بالخير.

إذن فكل إنسان أسلم يستفيد من الإسلام حتى الصبى والمجنون استفادا من

الإسلام ، ولـذلك فلابـد أن نرد التحية لمن بَلَّغنـا هذا المنهج الـذى أعطانـا الحماية ، فنقرأ المنهج ونعمل به .

وحين نستقـرىء حيـاة رسول الله صلى الله عليـه وسلم ، نجـده يـرد جميل كل من ساعده ، ومثـال ذلك حليمة السعدية التى نالت شرف إرضـاعه صلى الله عليه وسلم وهو صغير، ثم أكرمها الرسول هى وأسرتها بعد أن صار نبيا.

ثم ألم يـذهب رسـول الله صلى الله عليــه وسلم إلى الطـائف ليطلب النصير لـه فى تبليغ الدعوة بعد وفاة خديجة رضى الله عنهـا ووفاة عمه أبى طالب، وعز عليه النصير وفكر فى العودة إلى مكـة ، والتمس من يجيره حين يدخلها فأجاره واحـد من الكفار هو المطعم بن عدى ، فإذا كان كـافرٌ قد أجار رسول الله صلى الله عليه وسلم الـذى يدعو لمحاربة الكفر ؛ أفلا نجير واحداً من الكفار لنرد التحية بخير منها ؟

وإذا كان واحـد من الكفار قد أجار رسـول الله صلى الله عليه وسلم فى مكة فـلابد أن يـرد المؤمنـون كلهم التحيـة بأن يجيروا من يستجير بهم من الكفـار. وبعـد أن يجير المسلمـون من استنجد بهم مـن الكفار على أن يسمعـوه كـلام الله . وبعد ذلك هنـاك أحد أمرين إمـا أن يعلن الكافر الإيمان ، وفى هذه الحالـة أصبح من المؤمنين ، وإما أن يصر على كفره وعناده ، وفى هذه الحالة يصبح على المسلمين مسئـولية أن يبلغوه مأمنه، وذلك بأن يساعـدوه على الوصول إلى المكـان الذى يصبح آمنـا فيه على نفسه ومـاله ، وبعد أن يبلغ مأمنـه ويسمع كلام الله فليس على المسلمين أن يطلقوا سراحـه كما كان الأمر من قبل : ﴿ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ﴾ [التوبة : ٥]

لا ، بل على المسلمين أن يبلغـوه مأمنه ، ثم ينفـذون فيـه حكم الله إما أسراً ، وإمـا حصاراً ، أو قتلاً ؛ حسب الحكم النازل من الله . وعلة تأمين الكافر هى أنه من قوم لا يعلمون حسبما قال الله تعالى :

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْلَمُونَ ﴾ [التوبة : ٦]

إذن فالإيمان ليس بالفطرة فقط ؛ لأن العلم لـه وسائل كثيرة ؛ علم بالفطرة ، وعلم بالاكتساب ، ومرة تكون أداة العلم الأذن ، ومرة بالعين ، ومرة بالعقل ، والمعلومات كلها تنشأ عند الإنسان إما بالأذن مما يسمع ، وإما بالعين مما يرى ، ثم بعد ذلك تستقر المعانى فى نفس الإنسان .

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ **وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ** ﴾ [النحل : ٧٨]

وهكذا حدد لنا القرآن الكريم وسائل العلم بالسمع والبصر ، فإذا استقرت هذه المعلومات فى الفؤاد ، لأنه الذى يحفظ كل القضايا العقلية والفكرية . وإذا كان الإنسان يسمع ولا يفقه شيئا فهو لا يعلم .

إذن فالمستجير جاء ليطلب وسائل العلم وأدلة الإيمان ؛ وعذره أنه لا يعلم .

وعلينا أن نحسن الظن وأن نعتبر المستجير طالب علم بالحقيقة ، ويريد أن يأخذ أدلة الإيمان .

ثم يعود الحق سبحانه وتعالى إلى مسألة العهد فيقول :

﴿ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ ﴾

أى لقد جربتم العهود مع المشركين ، وفى كل مرة يعاهدونكم ينقضون عهدهم ، وقد نقضوا عهدهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى معاهدة الحديبية ، إذن فالله سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلى أننا يجب ألا نأمن لعهود المشركين لأنهم لا يحفظون

العهـد ولكنهم ينقضونـه ، وعلى ذلك فعلة نقض العهـد أنهم لم يستقيموا للعهـد من قبل . ويكون بقاء العهد هو الأمر العجيب .

و«كيف» هنـا للاستـــفهام عن الحالـة ، يقـال : كيف حـالك ؟ . تقـول : بخير والحمد لله . إذن فـ «كيف» يُسأل بها عن الحال ، والحال قـد يكون عـاما ، أى كيف حالك وحـال أسرتك وأولادك ومعيشتك إلى آخره ، وقـد يكون خـاصا أن تسأل عن مريـض فتقول : كيف حال فـلان ؟ . فيقال : شُفى والحمـد لله . أو تسأل عن معسر فتقول كيف حـاله ؟ . فيقـال : فرّج الله ضائقتـه . أو تسأل عن ابن ترك البيت هـارباً فيقال : عاد والحمد لله .

إذن فـ «كيف» إن أطلقت تكون عـامـة ، وإن خصصت تكون خـاصة ، ولكنهـا تُطلق مرة ولا يـراد بها الاستفهام ، بل يراد بها التعجب ؛ إمـا تعجب من القبح ، وإما تعجب من الحسن . كأن يقـال لك: كيف سب فـلان أباه ؟ . هنـا تعجب من القبح لأن مـا حـدث شىء قبيح ما كـان يصح أن يحدث . وتأتى لإنسـان اخترع اختراعـاً هامـاً وتقول : كيف وصلت إلى هذا الاختراع ؟. وهـذا تعجب من الحسن . والتعجب من القبح يكـون تعجب إنكـار والتعجب مـن الحسن يكـون تعجب استحسـان كأن نقول : كيف بنيت هذا المسجد ؟ وفى هذه الآية الكريمة يقول سبحانه وتعالى :

﴿ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ ﴾ [التوبة : ٧]

وهذا تعجـب من أن يكون للمشركين شىء اسمـه عهد ؛لأنهم لا يعرفـون إلاَّ نقض العهد ، ولا يتمسكـون بالعهـود ولا يحترمونها ، إذن يحق التعجب من أن يكـون لهم عهد بينما فى الحقيقة لا عهد لهم .

وهذا التعجب للاستهزاء والإنكار، فأنـت مثلا إذا جاء أحد يهددك، فقلت له: من أنت حتى تهددنى؟. يكون هـذا استهزاء واستنكارا لأنك تعرفـه، وأيضا تستهزىء أن يملك القـدرة على أن ينفـذ تهديـده لك. ومرة تكـون استفهـامـا حقيقيـا، كأن تسأل إنسانا لاتعرفـه: من أنت؟. فيقول لك: أنا فلان بن فلان. وأحيانـا تكون الإجابة عن الكيفية بالكلام، وأحيانا لاينفع الكلام فلابد أن يجاب بالفعل.

واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ ﴾ [البقرة: ٢٦٠]

كيف هذه تحمل معنى التعجب الاستحسانى؛ لأنك إذا بعثت الحياة فى ما لا حياة فيه؛ فهذه مسألة عجيبة تستوجب الاستحسان. ولم يجب سبحانه وتعالى على سيدنا إبراهيم باللفظ، بل أجاب بتجربة عملية، ودار حوار بين الحق سبحانه وتعالى وخليله إبراهيم عليه السلام فسأله المولى سبحانه: ﴿ أَوَلَمْ تُؤْمِن ﴾ [البقرة: ٢٦٠]

رد إبراهيم عليه السلام: ﴿ قَالَ بَلَىٰ ﴾ [البقرة: ٢٦٠]

أى أننى يارب آمنت، وأضاف القرآن الكريم على لسان سيدنا إبراهيم عليه السلام

﴿ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾ [البقرة: ٢٦٠]

والإيمان هو اطمئنان القلب، فكيف يقول إبراهيم آمنت؟ أليس فى ذلك تناقض؟. وأقول: إن إبراهيم واثق من أنَّ الله سبحانه خلق الكون كله ولكنه يريد أن يعرف كيفية الإحياء وكيف يحدث، حينئذ لم يجبه الحق سبحانه وتعالى بالكلام، بل أراه تجربة عملية، فقال له:

﴿ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ﴾ [البقرة: ٢٦٠]

أى عليك أن تختار أربعة طيور وتضمها إليك وتتأكد من شكلها حتى إذا ماتت وأحييت تكون متأكدا من أنها هى نفس الطير.

﴿ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٦٠) ﴾ [البقرة: ٢٦٠]

أى قطّع هذه الطيور بنفسك، وضع على كل جبل قطعة، وبعد ذلك ادْعُها أنت تأتك سعياً أى مشياً، حتى لا يقال إنها طيور قد جاءت من مكان آخر، بل تجيئك نفس الطيور سيراً، فإذا كان الله سبحانه وتعالى يعطى القدرة لمخلوق عندما يستدعى الميت أن يأتيه حيا، فما بالك بقدرة الله عز وجل؟

إذن فقول الحق: سبحانه وتعالى

﴿ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ ﴾ [التوبة: ٧]

وهذا استفهام للإنكار والتعجب من أن المشركين ليس لهم عهد، بل تمردوا وتعودوا دائما على نقض العهود ثم يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة: ٧]

أى أن الله عز وجل وهو يخبر المؤمنين بأن هؤلاء الكفار لاعهد لهم، لايطالب المؤمنين أن يواجهوا المشركين بالمثل، بل يأمر سبحانه وتعالى المؤمنين أن يحافظوا على العهد مادام الكافرون يحافظون عليه، إلى أن يبدأ الكافرون فى نقض العهد وهنا يلزم سبحانه المؤمنين أن يقابلوا ذلك بنقض مماثل وهذا مايفسره قوله تعالى:

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة: ٧]

والمتقى هو الطائع لله فيما أمر وفيما نهى ويجعل بينه وبين صفات الجلال من الله وقاية، إذن فأساس التقوى هو ألا ينقض المؤمن عهداً سواء مع مؤمن أم مع كافر، وإنما الذى يبدأ بالنقض هو الكافر، وعلى المؤمن أن يحترم العهد والوعد.

ويقول الحق تبارك وتعالى من بعد ذلك:

﴿ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨﴾ ﴾

نلاحظ هنا أن الحق سبحانه وتعالى لم يقل كيف يكون للمشركين عهد، بل اكتفى بـ«كيف»، لأن غدرهم صار معروفا، وكانت «كيف» الأولى استفهاما عن أمر مضى.

والتساؤل هنا يوضح لنا أنهم سيخونون العهد دائما، كما فعلوا فى الماضى، فكأن الذى يخبر فى الماضى يخبر أيضا عن المستقبل ويعلم مايكون منهم. ويتابع المولى سبحانه وتعالى قوله: ﴿ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ ﴾ [التوبة: ٨]

ومعنى «يظهروا»، أى يتمكنوا منكم، وهم إن تمكنوا من المؤمنين لايرقبون فيهم إلاّ ولا ذمّة، و«يرقب» من الرقيب الذى يراقب الأشياء. إذن فهم لايراقبون بمعنى لا يراعون، أى أنهم لو تمكنوا من المؤمنين لايراعون ذمة ولاعهدا ولاميثاقا، بل يستبيحون كل شىء. وهذا إخبار من الحق سبحانه وتعالى عما فى نفوس هؤلاء الكفار من حقد على المؤمنين.

ونلاحظ أن كلمة «يرقبون» غير «ينظرون»، وغير «يبصرون»، وهى أيضا غير «يلمحون» وغير «يرمقون»، مع أنها كلها تؤدى معنى الرؤية بالعين، ولكن يرقب تعنى يتأمل ويتفحص باهتمام حتى لاتفوته حركة، لذلك إذا قلنا: إن فلانا يراقب فلاناً، أى لاتفوته حركة من حركاته وهو ينظر لكل حركة تصدر منه. أما كلمة «نظر» فتعنى رأى بجميع عينيه، وكلمة «لمح» تعنى رأى بمؤخر عينيه، و«رمق» أى رأى من أعلى. وقوله سبحانه وتعالى «لايرقبوا فيكم إلاً ولا ذمّة» يعنى لا يراعون فيكم عهداً، ولا يمنع الواحد منهم وازع من أن يفعل أى شىء مهما كان قبيحا؛ والمثال: أن يرفع الرجل القوى يده ليضرب طفلاً صغيراً لا يتحمل ضربته، هنا يمسك أحدهم بيده ويطلب منه أن يراعى أن الطفل صغير لا يتحمل الضرب، وأنه ابن فلان قريبه، وأنهم جيران؛ فلا يراعى هذا كله، وإنما ينهال على الطفل ضرباً.

وقوله سبحانه وتعالى : «إلًّا» هى فى الأصل اللمعان أى البريق، و«إلاّ» أيضاً هى الصوت العالى، واللمعان والصوت العالى لافتان لوسائل الإعلام الحسّية، وهى الأذن والعين، والإنسان إذا عاهد عهداً فهذا العهد يصبح أمراً واضحاً أمامه يلفت عيونه كما يلفتها الشىء اللامع، ويلفت أذنه كما يلفتها الصوت العالى، وسُمى العهد والكلام «إلاّ» لأنه معلوم بالعين والأذن.

هذا هو المعنى اللغوى، لكن المعنى الاصطلاحى لكلمة «إلاّ» هو الغصب، بأن تشد

شيئا كأنك تغصبه على عدم الالتصاق بشيء آخر، ولذلك سُمِّى سلخ جلد الشاة غصباً لأن اللحم ملَتصق بالجلد، وسُمى أخذ المال غصباً؛ لأن صاحب المال متمسك بماله تمسك الشاة الحية بجلدها. وإذا أطُلق الغصب فى الفقه لا ينصرف إلى المعنى اللغوى وهو اللمعان والصوت العالى، وللعلماء فى هذا المعنى أكثر من رؤية، وكل واحد منهم أخذ لقطة من الـ«إل» وأصله اللمعان، أَلَّ.. يؤلّ.. إِلاًّ، بمعنى لمع.. يلمع.. لمعاً. والـ«إل» أيضاً هو الصوت العالى، وقال ابن عباس والضحاك رضى الله عنهما: إن «إلاّ» هى القرابة؛ لأن القرابة سبب للتراحم، فأنت يعز عليك أن تخون قريباً لك؛ لأن القرابة لا تحتاج إلى عهد، وقيل إن «إلاّ» هى العهد.

وقال سيدنا الحسن: إن «إلاّ» هى الجوار وما يوجبه من حقوقه. وقال قتادة: إن «إلاّ» هى الحلف والتحالف. وقال أبو عميرة: إن «إلاّ» هو اليمين أو القسم.

والمعانى كلها تلفتنا إلى وجود نوع من التراحم، بحيث لا تتملك الإنسان القسوة أو انفلات الانفعال، وليجعل الإنسان لنفسه من يقول له: «اهدأ إنه جارك أو من قوم بينهم وبين من تعاهدون صلة قرابة»؛ لأن الذى يجعل الإنسان لا يميل إلى الشر ولا يستشرى فيه ساعة يحفزه الأمر؛ هو مراعاة الملابسات كلها، وهكذا يتدخل الحوار، ولكن قد توجد قرابة أو عهد أو قسم أو جوار ليمنع البطش بقسوة، أى إن «إلاّ» هو الأمر الذى يمنع الرد بقسوة على شىء قد يكون وقع خطأ. والمعنى أيضاً هو عدم احترام لكل القيم؛ عدم احترام للقرابة أو الجوار أو العهد أو القسم، فإذا تمكن رجل قوى من طفل صغير لم يراع فيه أيا من هذه الأشياء.

ويريد الحق أن نعلم أن المشركين إذا تمكنوا من المؤمنين فهم لا يراعون فيهم قرابة ولا عهداً ولا حلفاً ولا جواراً ولا قسماً ولا أى شىء. إذن فكيف يكون للمشركين عهد؟ وهم إن تمكنوا من المؤمنين لا يراعون فيهم شيئا أبداً.

ثم يضيف الحق سبحانه وتعالى قوله:

﴿ وَلَا ذِمَّةً ﴾ [التوبة : ٨]

والذمة هى الوفاء بالأمانة التى ليس عليها إيصال ولا شهود، فإذا اقترض واحد

مبلغاً من شخص آخر وكتب إيصالاً عليه بذلك المبلغ، فهذا الإيصال هو الضامن للسداد، وكذلك إن كان هناك شهود فشهادتهم تضمن الحق لصاحبه. ولكن إن لم يكن هناك إيصال ولا شهود، يصبح الأمر موكولاً إلى ذمة المقترض؛ إن شاء هذا المدين اعترف بالقرض، وإن شاء أنكره، وهناك ذمة أخرى هى التى بينك وبين نفسك، والمثال على ذلك قد تعاهد نفسك بأن تعطى فلاناً كل شهر مبلغاً من المال، وهذا أمر ليس فيه عهد مكتوب أو شهود لكنه متروك لذمتك، إن شئت فعلته، وإن شئت لم تفعله. وما فى الذمة ـ إذن ـ هو شىء إنْ لم تفعله تُفضَح، مثال ذلك: أن تقرر بينك وبين نفسك أن تساعد أسرة ما، وهذا أمر خاضع لإرادتك، فلا عهد يجبرك على ذلك ولا قرابة ولا جوار، لا شىء إلا ذمتك، ولذلك فأنت تراعى الوفاء بما وعدت نفسك به لتحافظ على سمعتك ورؤية الغير لك. وكذلك أيضاً حين تأخذ ديناً بلا إيصال منك أو شهود عليك، ولكنك تحرص على أن ترده لأنه فى ذمتك.

﴿ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلاًّ وَلا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ (٨) ﴾ [التوبة]

وهكذا نعرف أن «كيف» هنا تعجب من أن يكون للمشركين الآن أو فى المستقبل عهد لأنهم يحترفون نقض العهود ولو تمكنوا من المؤمنين فهم ينكلون بهم أبشع تنكيل دون مراعاة لأى اعتبار، وقد يقول قائل: إنهم معنا على أحسن مايكون؛ بشاشة وجه وحسن استقبال إلى آخره، فكيف إذا تمكنوا منا انقلبوا إلى وحوش لاترحم؟. ونقول: إن الله سبحانه وتعالى يعلم مايظهر ومايخفى، وقد علم مايدور فى خواطر المؤمنين فرد عليهم حتى لايترك هذه الأشياء معلقة داخل نفوسهم، ولذلك يريد سبحانه وتعالى على هذا الخاطر:

﴿ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ [التوبة: ٨]

أى أن الله عز وجل ينبه المؤمنين ويحضهم ألا يصدقوا الصورة التى يرونها أمامهم من المشركين؛ لأنها ليست الحقيقة، بل هو خداع ونفاق؛ فهم يقولون القول الحسن،

ويقابلونك بوجه بشوش وألفاظ ناعمة، لكن قلوبهم مليئة بالحقد عليكم أيها المسلمون بحيث إذا تمكنوا منكم تظهر مشاعرهم الحقيقية من البغض الشديد والعداوة، ولا يرقبون فيكم إلاّ ولا ذمّة. فإذا قال الله سبحانه وتعالى:

﴿ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾ [التوبة : ٨]

فعلى المؤمنين أن يصدقوا ما جاء من الحق، ويكتشفوا أن اللسان الحلو وحسن الاستقبال ليس إلا خداع، من هؤلاء الأعداء، وهو سبحانه بهذا الكشف إنما يعطينا مناعة بألاَّ ننخدع بما نراه على وجوههم؛ فهذا مجرد أمر استقبالى، لا يمثل ماضياً أو حاضراً، وحين يبرم سبحانه وتعالى أمراً استقباليا فهو يخبر به عباده المؤمنين، ولذلك نجده سبحانه وتعالى يرد بنفس الأسلوب على هذه الخواطر والمثال: فى قوله سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا ﴾ [التوبة : ٢٨]

والبلاغ هنا نهى عن دخول المشركين المسجد الحرام أو اقترابهم منه، ومن الطبعى أن تدور الخواطر هنا فى نفوس عدد من المؤمنين الذين يستفيدون من المشركين فى مواسم الحج، لأنهم أمة تعيش على اقتصاد الحج، حيث يبيعون السلع لهؤلاء القوم ليكسبوا قوت العام، فإذا ماتم منع المشركين من الحج أو الاقتراب من المسجد الحرام، فمن أين يأتى الرزق الذى يحصلون عليه من البيع لهم؟ ولابد أن يفكر المؤمنون: من أين سنأكل؟. نحن نحضر بضاعتنا وننتظر طوال الموسم حتى الحج؛ فإذا نقص عدد الحجاج فلمن نبيع؟.

فيرد الله سبحانه وتعالى على هذه الخواطر بقوله تعالى:

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ﴾ [التوبة : ٢٨]

أى لا تخافوا الفقر، لأن الله يعلم ما سوف يحدث، والله هو الغنى وعنده مفاتيح كل شىء وسوف يغنيكم من فضله ويفتح لكم باب الرزق مما يعوضكم وزيادة. وهكذا يرد الله سبحانه وتعالى على الخواطر التى تدور فى نفس المؤمن ساعة نزول القرآن؛ حتى

تطمئن قلوب ونفوس المؤمنين فيقول عز وجل:

﴿ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ [التوبة: ٨]

وفى هذا القول رد على الخواطر التى دارت فى نفوس المؤمنين؛ وهم يرون المشركين يستقبلونهم بألفاظ ناعمة ووجوه تملؤها البشاشة، فأوضح لهم الحق سبحانه وتعالى: لا تنخدعوا فما فى القلوب عكس ما هو على الوجوه.

وقوله تعالى: ﴿ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ [التوبة: ٨]

يبين أنهم بعيدون عن المنهج ، فالفسق هو الخروج عن الطاعة، وهل الكافر والمنافق له طاعة؟.

نقول: إنك إن نظرت لهؤلاء تجدهم خارجين حتى عن المنهج الذى اتخذوه لأنفسهم؛ فهم لا يلتزمون بمنهج الباطل الذى يعتنقونه، إذن فهم فاسقون حتى فى المنهج الذى ينتسبون إليه، فإذا كانوا كذلك مع منهج الباطل، فكيف بهم مع منهج الحق؟.

وقوله تعالى: ﴿وأكثرهم فاسقون﴾ يوضح بأنه قد تكون هناك قلة ملتزمة، وهذا احتياط قرآنى جميل، كما أنها ردت على السؤال الذى قد يتبادر إلى الذهن أن هؤلاء كافرون ـ وليس بعد الكفر ذنب ـ فكيف يقال إنَّهم فاسقون أى عاصون أو خارجون عن الطاعة وهم غير مؤمنين أصلا؟.

نقول: إنهم خارجون حتى عن مناهج الكفر التى اختاروها لأنفسهم، ولذلك يبين الله سبحانه وتعالى وضعهم حين يقول:

﴿ اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ ۚ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ ﴾

وهكذا يرينا الله عز وجل انقلاب المعايير عندهم، فما الشراء؟. الشراء هو: الحصول

على سلعة مقابل ثمن، فإذا قلت: اشتريت ساعة مثلاً، تكون أنت المشترى مادمت تدفع الثمن، والذى أخذ الثمن هو البائع، وهنا يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿ اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً ﴾ [التوبة: ٩]

وكان المفروض ــ إذن ـ أن يكونوا قد دفعوا الثمن، لأن المشترى هو الذى يدفع الثمن، ولكن هنا عُكست القضية؛ فجعل الحق سبحانه وتعالى الثمن هو مايشترونه، مع أن الثمن هو الذى يدفع، فتكون القضية مخالفة لواقع البيع والشراء، والذى يجب أن نلاحظه أيضاً هو أن الثمن يساوى السلعة. فأنت تأخذ السلعة وتعطى للبائع ثمناً يساويها، لأن ثمن كل شىء يجب أن يكون مناسباً له، فإذا اشتريت شيئا بسيطاً دفعت له ثمناً بسيطاً، وإذا اشتريت شيئا ثميناً دفعت فيه ثمناً غالياً.

هذا كله ملحوظ حتى فى الأعمال، وقد تكون ممن يرغبون فى مشاكسة الغير، وقد تجد من يشاكس غيره؛ يطلب من أحد أتباعه أن يسب فلاناً ويعطيه عشرة جنيهات، فإذا أراد أن يجعل التابع يضرب خصمه، يقول له: اضرب وأعطيك خمسين، وإن أراد أن يقتل التابع خصمه فهو يعطيه الألوف من الجنيهات، وغالبا مايقول هؤلاء الذين بلا إيمان: كل ذمة قابلة للانصهار بالذهب، لكن المختلف قيمة هو الكمية التى تصهر أى ذمة، فهناك من تنصهر ذمته بريال، وآخر تنصهر ذمته بعشرين أو ثلاثين، وهناك من تنصهر ذمته بملايين.

ويلفتنا الحق سبحانه وتعالى إلى أن هؤلاء الكفار قد حوّلوا الإيمان إلى سلعة تباع وتشترى، فهم قد باعوا إيمانهم، وبدلا من أن يتقاضوا عنه مايساوى الإيمان والإيمان أغلى من كنوز الدنيا كلها ؛ باعوا إيمانهم بثمن قليل، أى أنهم حتى لم يقدروا قيمة الإيمان فباعوه رخيصاً. كيف باعوا الإيمان بثمن رخيص؟.

نقول مثلاً: إن الذى يرتشى يفعل ذلك ويريد أن يعوجّ ميزان الحق، والذى يغير ميزان الحق يشكك الناس فى العدالة، وإذا شك الناس فى العدالة؛ فقدوا سندهم الأمنى؛لأن كل مظلوم أمله أن يرفع الأمر للقضاء فينصفه، أو أن يرفع أمره للمسئول فيعطيه حقه، فإذا أحس الناس بأن الحق قد ضاع نتيجة أنه أصبح هناك ثمن للإيمان.

وإن دفع اختلت الموازين، فى هذه الحالة يفسد المجتمع كله، فكأنهم باعوا فساد المجتمع كله بثمن قليل جدا.

كما أن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلى الحساب يوم القيامة؛ وكيف أن المؤمنين سيخلدون فى الجنة وينعمون بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وسيدخل هؤلاء الكافرون النار وبذلك يكونون قد باعوا إيمانهم مقابل ثمن رخيص مهما كان المال الذى سيحصلون عليه ؛ لأن مال الدنيا كلها لايساوى يوماً فى الجنة؛ لأن الدنيا موقوتة بزمن، ومتاعها محدود وقليل، فكأنهم باعوا الخلود فى النعيم بمتعة وقتية قد لاتستمر إلا أياماً أو سنوات. وحينئذ يعرف الكافرون أن الثمن الذى تقاضوه قليل جدا بالنسبة لما خسروه. وليتهم جعلوا الإيمان ثمناً يدفعونه للحصول على متاع قليل فى الدنيا، ولكنهم زادوا على ذلك أنهم صدوا عن سبيل الله.

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ ﴾ [التوبة : ٩]

والصد يحدث حين تكون هناك دعوة معروضة بأدلتها فتمنع الناس من أن يستمعوا إليها، لأنك تعرف أنهم لوسمعوها لاعتنقوها واقتنعوا بها، ولذلك نجد الكفار مثلاً حين نزل القرآن والعرب أمة بلاغة وأمة بيان؛ عرفوا أنه لو سمع الناس القرآن لأحسوا بإعجازه وبلاغته وحلاوته ولآمنوا به، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى على ألسنتهم فى القرآن: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (٢٦) ﴾ [فصلت]

لأن الكفار يعرفون أن الناس لو استمعوا للقرآن لآمنوا به، ولذلك فهم ينهونهم عن السماع، وإن قرأ أحد القرآن يأمرون بعضهم البعض باللغو فيه حتى لا يفهم شيئا، وهذه شهادة من الكفار بأن الآذان لو استقبلت القرآن لآمنت، واللغو هو نوع من الصد عن سبيل الله، وكان هناك نوع آخر من الصد عن سبيل الله أنهم كانوا يمنعون الناس من الاستماع إلى دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم، لأنهم يعرفون أن حلاوة الدعوة ستجعل من يستمع إلى دعوة الرسول يؤمن بها. ولذلك فهم يصدون الناس عن

كلام الله تعالى وعن الاستماع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكانوا يقولون لأهل الحجيج: لاتصدقوا الرجل الذى يقول إنه نبى، وهذه شهادة منهم أن الآذان لو استقبلت القرآن لسحبت أفئدتهم إلى الإيمان ، وهذه شهادة ضدهم وليست لهم؛ لأنهم واثقون أن سماع الحجيج لدعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ستبعدهم عن الكفر؛ لذلك كانوا يخافون من أن يتأثر الناس بهذا الدين الذى هو دين الحق فيؤمنوا به وهذا ماجعلهم يصدونهم عنه.

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [التوبة: ٩]

وساء أى قبح، وليس هو قبح الآن فقط، ولكنه قبح حاليا وعظمت العقوبة عليه مستقبلاً .

وقوله تعالى:

﴿ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [التوبة: ٩]

يرينا دقة القرآن الكريم فى أن السيىء منهم ليس عملاً واحداً ولكنه أعمال متعددة؛ قول وفعل، أى هم يصدون الناس بالكلام ويمنعونهم باستخدام القوة فى بعض الأحيان. وباستخدام الحق لكلمة «يعملون»؛ يلفتنا إلى أن أعمالهم ليست قولاً وليست فعلاً فقط، فهناك القول وهناك الفعل وكلاهما عمل؛ القول عمل اللسان، والفعل عمل الجوارح. فلو قال الحق: ساء ما كانوا يفعلون، لقلنا فعلوا ولم يقولوا. ولو قال: ساء ما كانوا يقولون، لقلنا: قالوا ولم يفعلوا. وسبحانه أوضح لنا أن القول والفعل كلاهما عمل، وقال سبحانه:

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ (٢) ﴾ [الصف]

ليبين لنا أن هناك فرقاً بين القول والفعل؛ القول أداته اللسان، والفعل أداته بقية الجوارح، والمعنى فى قوله تعالى: «إنهم ساء ما كانوا يعملون» أى ساء قولهم وفعلهم.

ويتابع المولى سبحانه وتعالى فيقول :

﴿ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ ﴾

ومن لا يرقب إلاّ ولا ذمة فى غيره إنما يظلمه، فإذا كان بينى وبينك قرابة، أو عهد، أو إيمان، فإن لم تراع ذلك تكون قد اعتديت على حقوقى عندك، وليتك قد اقتصرت فى الاعتداء على حقوق الغير، لكنك ـ أيضا ـ اعتديت على نفسك، لأنك أعطيتها متاعاً قليلاً فى الدنيا، وتصلى فى الآخرة ناراً، إذن فقد ظلمت نفسك. ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ﴾ [آل عمران : ١٣٥]

ويقول سبحانه وتعالى:

﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [النحل : ١١٨]

وأليس الذى فعل فاحشة، يظلم نفسه؟ بلى، ظلمها فى الآخرة بعد أن أعطاها شهوة فى الدنيا، أى أنه أخذ متعة عاجلة بعذاب آجل. لكن الذى يظلم نفسه ظلما شديدا وبيِّناً هو الذى يرتكب إثما دون أن يأخذ متعة فى الدنيا، فلا هو أخذ متعة دنيا ولا أخذ متعة آخرة، مثل الذى يتطوع لشهادة الزور، هو يأخذ عذاباً فى الآخرة ولم يأخذ متعة فى الدنيا.

وقد يقول قائل: إن هذه الآية مكررة لأن الله تعالى قال من قبل :

﴿ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ﴾ [التوبة : ٨]

ونقول: إن الموضوع يختلف، ففى الآية الثامنة من سورة التوبة يبين الحق أنهم إن تمكنوا من المؤمنين فلن يراعوا قرابة ولا جواراً ولا حلفاً، وإن أظهروا عكس ذلك. أما فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها فهم يظلمون أنفسهم ويبيعون إيمانهم بثمن قليل، وهناك فرق بين ظلم الغير وظلم النفس.

وهم فى صدهم عن سبيل الله تعالى وعدوانهم على المؤمنين، لم يحصلوا على فائدة دنيوية، بل حاربوا الإيمان وحاربوا الدين فأخذوا الإثم ولم يستفيدوا شيئا، فكأنهم لا يرقبون إلاّ ولا ذمة حتى مع أنفسهم. ولذلك وصفهم الحق سبحانه وتعالى بأنهم هم المعتدون، لأنهم دون أن يُعتدى عليهم تطوعوا بالعدوان على دين الله وعلى رسوله صلى الله عليه وسلم وعلى المؤمنين ثم قاموا بالعدوان على أنفسهم. ومن بعد ذلك تأتى رحمة الله لترينا كيف أن الله تعالى رحيم بعباده وخلقه، فالحق سبحانه وتعالى يخبرنا بأنهم مهما فعلوا فإنهم إن تابوا يقبل الله توبتهم، لذلك يقول الحق جل جلاله:

﴿ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ ﴾

وهذه الآية الكريمة تؤكد لنا أن الإسلام يَجُبُّ ماقبله، وأن الباب مفتوح دائما لتوبة المشركين والكافرين مهما كانت ذنوبهم، وهكذا تكون رحمة الله تعالى. ونلحظ أن الحق سبحانه وتعالى قال: «فإن تابوا» ولم يقل إذا تابوا، لأنه لو قال: إذا تابوا تكون توبتهم مؤكدة، ولكن قوله : «فإن تابوا» فيها شك، لأن مافعلوه ضد الإيمان كثير، والذى نأمله فيهم قليل، ولكن التوبة تفترض أن يباشر التائب بعدها مهمته الإيمانية. ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى:

﴿ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ ﴾ [التوبة : ١١]

إذن فالمهمة الإيمانية بعد التوبة إنما تكون بشهادة أن «لاإله إلا الله محمد رسول الله»، وبطبيعة الحال لابد من مباشرة الصلاة لأنها تجمع كل أركان الإسلام، وهى عمل يومى، وليست عملاً مطلوباً من الإنسان مرة واحدة كالحج، وليست كالصوم، فالصوم مدته شهر واحد من السنة. إذن لكى تتأكد التوبة فلابد أن يؤدى التائب الصلاة فى وقتها كل يوم فهى العمل اليومى الذى لايؤجل ولايتأخر عن وقته، والصلاة قرنت

غالباً بالزكاة فى آيات القرآن الكريم؛ لأن الزكاة تضحية بالمال، والمال ناتج العمل، والعمل ناتج الوقت، والصلاة تضحية بالوقت، فكأن الصلاة ـ كما قلنا ـ فيها زكاة.

والحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (١١) ﴾ [التوبة]

إنه لابد أن نلاحظ فى التفصيل هنا المراحل الإيمانية التى بينها الله عزوجل لنا؛ المرحلة الأولى وهى تحمل الاضطهاد والصبر، والمرحلة الثانية أنه لامهادنة بين الإيمان والكفر، وهذه حسمت محاولة الكفار تمييع قضية الإيمان بأن نعبد إلهكم فترة وتعبدون إلهنا فترة، وكانت هذه عملية مرفوضة تماماً الآن وفى المستقبل وحتى قيام الساعة. ثم جاءت مرحلة المعاهدات ثم نقض العهود ثم مهلة الأشهر الأربعة الحرم التى أعطيت للكافرين. وكل هذه مسائل مقننة، ولم تكن الأمة العربية تعرف التقنينات.

إذن فكل هذه التقنينات جاءت من السما، والتقنينات فى الأمم تأخذ أدوارا طويلة، ولايوجد قانون بشرى يولد سليماً وكاملا، بل كل قانون يوضع ثم تظهر له عيوب فى التطبيق، فيعدّل ويطور ويفسر ويحتاج إلى أساطين القانون الذين يقضون عمرهم كله فى التعديلات والتفصيلات، فكيف ترتب هذه الأمة العربية الأمية التى لم يكن لها حظ من علم ولاثقافة كل هذه التقنينات؟.

نقول: إنها لم ترتب، وإنما رتب لها ربها الذى أحاط بكل شىء علماً، فكل هذه المراحل التى مر بها الإيمان نزلت فيها تقنينات من السماء تبين للمؤمنين مايجب أن يفعلوه.

﴿ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ﴾ [التوبة: ١١]

ونحن عادة نعرف أخوة النسب، فهذا أخى من أبى وأمى، أو هذا أخى من الأب فقط ، أو هذا من الأم فقط، وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ ﴾ [يوسف: ٥٨]

هذه أخوة النسب، ونحن نعلم أن مادة الأخوة تأتى مرة لتعبر عن أخوة النسب،

وتأتى مرة كلمة «إخوان» لتعبر عن الأخوة فى المذهب والعقيدة، وشاء الحق سبحانه وتعالى أن يرفع الإيمان إلى مرتبة النسب، فقال عز وجل:

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات: ١٠]

ليدلنا على أنهم ماداموا قد دخلوا معنا فى حظيرة الإيمان فلهم علينا حق أخوة النسب فيما يوجد من تواد وتراحم، وترابط وحماية بعضهم البعض دائما، وحب ووفاق إلى آخر مانعرفه عن حقوق الأخوة بالنسب.

ولكن نلاحظ هنا أن الحق سبحانه وتعالى قال:

﴿ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ﴾ [التوبة: ١١]

ولم يقل إخوانكم، لماذا؟.

نقول: ليس من المعقول أن يخرجوا من كل ماكانوا فيه من آثام بالتوبة، ثم يصبحوا فى نفس التو واللحظة إخوة، لكن ذلك يحدث عندما يتعمق إيمانهم، ويثبت صدق توبتهم حينئذ يصبحون إخوة.

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ وَنُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [التوبة: ١١]

كيف يكون التفصيل لمن يعلم؟. ومادام يعلم فلماذا التفصيل؟.

ونقول: إن المعنى هنا أن الله سبحانه وتعالى يفصل الآيات لمن يريدون أن يعلموا العلم الحقيقى الذى يأتى من الله، لأن هذا العلم له أثر كبير على مستقبل الإيمان، ولذلك فغير المسلمين الذين يهتمون بدراسة الدين الإسلامى دراسة جادة للبحث عن العلم الحقيقى ينتهون إلى إعلان إسلامهم، لأنهم ماداموا أهل علم وأهل مواهب وأهل طموح فى فنونهم، ومادامت شهوة العلم قد غلبتهم، وأرادوا أن يدرسوا منهج الإسلام بموضوعية، لذلك تجدهم يعلنون الإسلام لأنهم ينظرون النظرة الحقيقية للدين الذى يدرسونه، وهم يأخذون الإسلام من منبعه الإيمانى وهو القرآن الكريم والسنّة النبوية، ولا يأخذون الإسلام من المنسوبين للإسلام، أى من المسلمين ؛ لأن المسلمين قد يكون فيهم عاص، وقد يكون فيهم سارق، وقد يكون فيهم مُرْتشٍ، وقد يكون فيهم كذاب، وقد يكون فيهم منافق، ولو أخذوا الإسلام عن المسلمين لقالوا: ماهذا؟ معصية وسرقة وكذب ورشوة ونفاق؟!

إننى أقول دائماً لمن لم يدرس الإسلام من أهل البلاد الأخرى: لاتنظر إلى المنسوبين للإسلام، ولكن انظر إلى الإسلام فى جوهره ومنهجه: (القرآن والسنة)؛ هل جرم الرشوة والسرقة والكذب والنفاق وجعل لها عقوبة أو لا؟ نعم جرّمها.

إذن فهذه الأفعال كلها التى وجدتها فى عدد من المسلمين واستنكرتها ليست من الإسلام فى شىء، ولكنك إذا ذهبت إلى الإسلام لتعرفه من منابعه العلمية وهى معزولة عن المنسوبين إليه لانتهيت إلى الإيمان.

ولذلك لو عرف المسلمون الذين ينحرفون عن المنهج، ماذا يفعلون بالإسلام وكيف يسيئون إليه؛ لعلموا أنهم يفعلون شيئا خطيراً؛ لأن الإسلام منهج وسلوك، وليس منهجا نظريا فحسب، بل هو منهج عملى يطبق فى الحياة، ولذلك فإذا كان القرآن الكريم يمثل قواعد المنهج، فسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم تمثل المنهج العملى التطبيقى للإسلام. ويقول الحق سبحانه:

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ﴾ [الأحزاب: ٢١]

والمسلم حين يطبق منهج الإسلام يلفت نظر غير المسلم إلى هذا الدين ويحببه فيه [(١)]، وحين يفعل مالا يرضاه الإسلام ينفّر غير المسلم من الدين، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ (٣)﴾ [الصف]

لأن فعلك حين يختلف مع الدين الذى تدعو إليه وتؤمن به، فهو يتحول

(١) عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال: «والذى نفس محمد بيده إن مثل المؤمن كمثل النحلة أكلت طيباً، ووضعت طيبا، ووقعت فلم تكسر ولم تفسد» أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٢/ ١٩٩)

إلى حجة ضد الدين، فيقول غير المسلم: لقد رأيت المسلم يغش، ورأيته يسرق، ورأيت يده تمتد إلى الحرمات، إذن فكل منحرف عن الدين إنما يحمل فأساً يهدم بها الدين، ويكون عليه وزر عمله، ووزر من اتخذوه قدوة لهم[1].

ولقد قلنا : إننا حين ننظر إلى التمثيل الدبلوماسى فى العالم الإسلامى، نجد اثنتين وسبعين دولة إسلامية لها سفارات فى معظم دول العالم، وأتساءل: كم من أفراد هذه السفارات يتمسك بالمظهر الإسلامى؟. أقل القليل. وكم من الجاليات الإسلامية فى الدول الأجنبية يتمسكون بتعاليم الدين؟. أقل القليل. ولو أنهم تمسكوا جميعا بتعاليم الإسلام لعرفت دول العالم أن لهذا الدين قوة ومناعة تحميه. وأن هذه المناعة هى التى منعت الحضارة المادية المنحرفة من أن تؤثر فى هؤلاء، ولكان لفتة قوية لشعوب العالم لكى تدرس هذا الدين، ولكنك تجدهم يذوبون ويتهافتون على الحضارة المادية للدول التى يقيمون فيها، مما يجعل شعوب هذه الدول تقول: لو كان دينهم قويا لتمسكوا به، ولم يتهافتوا على حضارتنا.

وإذا درسنا تاريخ الإسلام نجد أنه لم ينتشر بالقتال أو بالسيف؛ لكنه انتشر بالأسوة الحسنة، وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (١١) ﴾ [التوبة]

أى نبينها لقوم يبحثون عن العلم الحقيقى، الذى بينه الله عز وجل فى منهجه، ولذلك نجد مثلا أنه إذا وصلت أمة من الأمم إلى كشف جديد فأهل العلم فى الإسلام يعرفون أنه ليس كشفا جديداً؛ لأن الإسلام ذكره منذ وقت طويل.

(١) عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه، لاينقص ذلك من أجورهم شيئا، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لاينقص ذلك من آثامهم شيئا». أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٦٧٤) وأحمد فى مسنده (٢ / ٣٩٧) الترمذى (٢٦٧٤) وابن ماجه (٢٠٦). قال الترمذى: حديث حسن صحيح .

فمثلاً فى القانون فى ألمانيا وصلوا إلى مادة فى القانون سموها: «سوء استغلال الحق» فأنت لك حقوق ، ولكنك قد تسىء استغلالها. وبدأت الدولة فى ألمانيا تتجه نحو تشريع قوانين تهدف لمنع إساءة استغلال الحقوق ووضع شروح لهذه القوانين وتطبيقها إلى آخره ، وذهب محام مسلم من بنى سويف ليحصل على الدكتوراه من ألمانيا ، فاطلع على هذه المسألة ، وقد كان يحضر محاضرة يلقيها صاحب قانون نظرية «سوء استغلال الحق»، فقام المحامى المسلم وقال له: أنت تقول إنَّك واضع هذه النظرية؟. فقال المحاضر الألمانى: نعم. فقال المحامى: لقد جاءت هذه النظرية منذ أربعة عشر قرناً فى منهج الإسلام. وارتبك المحاضر الألمانى ارتباكا شديداً ، وجاء بالمستشرقين؛ ليناقشوا هذا المحامى المسلم، وجاءوا بكتب السيرة النبوية، وأخرج المحامى للمستشرقين قصة من سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم تقول: إن رسول الله عليه الصلاة والسلام كان جالسا فجاءه صحابى يشكو من أن أحد الصحابة له نخلة فى بيته، والبيت مملوك للصحابى الشاكى، والنخلة مملوكة لصحابى آخر ،وقد تعوَّد أن يأتى الصحابى صاحب النخلة إليها كثيراً ليشذبها ويلقحها ويطمئن عليها ،وكأنه قد جعلها «مسمار جحا» كما يقول المثل الشعبى، فتعرضت عورة أسرة الصحابى صاحب البيت إلى الحرج، فذهب يشكو الأمر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأحضر الرسول صاحب النخلة وأوضح له بما معناه : «إما أن تهب النخلة لصاحب البيت ،وإما أن تبيعها له بالمال ، أو أن تقطعها[1]» .

لقد أوضح له الرسول صلى الله عليه وسلم: أن النخلة حقك ولكنك

(١) عن جابر بن عبدالله رضى الله عنه قال: إن رجلا أتى النبى ﷺ فقال: إن لفلان فى حائطى عذقا وإنه قد آذانى وشق على مكان عذقه فأرسل إليه النبى ﷺ فقال: بعنى عذقك الذى فى حائط فلان. قال: لا، قال: فهبه لى، قال : لا. قال : فبعنيه بعذق فى الجنة ، قال : لا. فقال النبى ﷺ:« مارأيت الذى هو أبخل منك إلا الذى يبخل بالسلام».
أخرجه أحمد فى مسنده (٣/ ٣٣٨) والحاكم فى مستدركه (٢/ ٢٠) والبزار (٢٠٠٠) فى كشف الأستار. قال الهيثمى فى مجمع الزوائد (٣/ ١٢٧): «فيه عبدالله بن محمد بن عقيل وفيه كلام وقد وثق».

أسأت استعمال الحق بكثرة ذهابك إلى مكانها بسبب وبغير سبب، مما عرَّض عورة صاحب البيت للمتاعب[١]. وكان هذا الفعل هو المثل الحى لسوء استغلال الحق. وكان من أمانة العلم أن يعدل أستاذ القانون الألمانى فى محاضرته ويقول: لقد ظننت أننى قد جئت بشىء جديد، ولكن الإسلام سبقنى إليه منذ أربعة عشر قرنا. وفعلا تم التعديل. واعترف القانون الألمانى بأن الإسلام قد سبقه فى نظرية «سوء استغلال الحق» منذ ألف وأربعمائة سنة.

ولذلك تجد أن صفة الأمية فى رسول الله صلى الله عليه وسلم ،وفى أمته[٢]، كانت شهادة تفوق ؛ لأنها لم تأخذ علمها بالقراءة عن حضارات الأمم السابقة، وإنما أخذته عن الله؛ لأن أقصى مايصل إليه غير الأميين فى علمهم أن يجىء إليهم العلم من بعضهم البعض، ولكن أمة محمد صلى الله عليه وسلم جاء لها العلم من الله ،وسادت الدنيا أكثر من ألف عام.

ويقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك:

﴿ وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

ونكثوا الأيمان : أى لم ينفذوا بنود العهود، والله سبحانه وتعالى يعطينا هنا حيثية قتال الكفار بعد كل المراحل التى حاربوا فيها الإيمان، فهم قد نقضوا

(١) وقد أرشدنا رسول الله ﷺ لأدب عدم الاطلاع على عورات المسلمين، فعن سهل بن سعد قال: اطلع رجل من جحر فى حجر النبى ﷺ ومع النبى ﷺ مدرى يحك به رأسه فقال: «لو أعلم أنك تنظر لطعنت به فى عينك، إنما جعل الاستئذان من أجل البصر». أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٢٤١) ومسلم (٢١٥٦)

(٢) قال تعالى: ﴿الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل﴾ [الأعراف: ١٥٧]. قال القرطبى فى تفسيره: (الأمى): منسوب إلى الأمة الأمية التى هى على أصل ولادتها. لم تتعلم الكتابة ولا قراءتها . قاله ابن العربى. وقال ابن عباس: كان نبيكم ﷺ أميا لايكتب ولايقرأ ولايحسب. قال تعالى: ﴿وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولاتخطه بيمينك﴾ [العنكبوت: ٤٨]

العهود، ولم يكتفوا بذلك بل طعنوا فى الدين. أى عابوا فى الدين عيباً مقذعا. وعندما يقال: إنَّ فلاناً طعن فى فلان، فلابد أنه قد تجاوز مرحلة السب إلى مرحلة أكبر بكثير. وهنا يأمرنا الحق ـ سبحانه وتعالى ـ إما بقتالهم، وإما أن يعلنوا الإيمان. وهذا حق للمسلمين لأنهم قدموا من قبل كل سبل المودة ، لكن أئمة الكفر رفضوها.

وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ﴾، أى : أن القتل يأتى أولاً لزعماء الكفار الذين يحرضون أتباعهم على محاربة دين الله، فالأتباع ليسوا هم الأصل، ولكن أئمة الكفر؛ لأنهم هم الذين يخططون وينفذون ويحرضون[1]. وهم ـ كما يقال فى العصر الحديث ـ مجرمو حرب؛ والعالم كله يعرف أن الحرب تنتهى متى تخلص من مجرمى الحرب؛ لأن هؤلاء هم الذين يضعون الخطط ويديرون المعارك ويقودون الناس إلى ميادين القتال، تماماً كأئمة الكفر، هؤلاء الذين اجترأوا على أساليب القرآن الكريم، ومنعوا القبائل التى تأتى للحج من الاستماع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ،وحاربوا الدين بكل السبل من إغراء وتحريض، وتهديد ووعيد.

والأمر العجيب أنك ترى من يبرر لك قتل مجرمى الحرب ويستنكر قتل أئمة الكفر، والحق سبحانه وتعالى يقول:

﴿ وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ ﴾ [التوبة: ١٢]

ويقول الحق عز وجل فى ذات الآية:

﴿ إِنَّهُمْ لا أَيْمَانَ لَهُمْ ﴾ [التوبة: ١٢]

وفى هذا يأتى المستشرقون ومن يميلون إليهم بقلوبهم ويُحَسِّبون علينا

(١) قال تعالى فى سورة سبأ: ﴿وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أندادا﴾ [سبأ: ٣٣]

بقوالبهم وظواهرهم ليقولوا: إن هناك تناقضاً، فالله يقول: ﴿وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ﴾ أى أثبت أن لهم أيماناً، ثم قال: ﴿لَاأَيْمَانَ لَهُمْ﴾. فكيف يثبت لهم الأيمان ثم ينفيها عنهم؟. والنفى والإثبات لايجتمعان فى وصف الشخص الواحد؛ ونقول: إنهما لايجتمعان عند من يفكر تفكيرا سطحيا ، أو يأخذ الأمور بظواهرها. ولكن من يعرف مرامى الألفاظ، يعلم أن نفى الشىء وإثباته فى القرآن الكريم يعنى : أن الجهة منفكة. فالله سبحانه وتعالى يقول لرسوله صلى الله عليه وسلم فى غزوة بدر:

﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ﴾ [الأنفال : ١٧]

فقوله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ﴾ نفى للرمى من رسول الله صلى الله عليه وسلم، و﴿إِذْ رَمَيْتَ﴾ إثبات للرمى. ويجىء نفى الشىء وإثباته فى آية واحدة، والفاعل والفعل واحد. وهذه تسمى فى الأسلوب انفكاك الجهة، أى أن كل جهة تطلب معنى مختلفاً عن الجهة الأخرى، تماماً مثلما يقال : إن فلاناً يسكن أعلى منى. فهذا قول صحيح، ولكنه فى ذات الوقت يسكن أسفل بالنسبة لمن فوقه ، إذن فهو عالٍ وأسفل فى نفس الوقت؛ عالٍ عمن تحته وأسفل ممن فوقه.

أو تقول: ـ كمثال آخر ـ فلان أب وابن. هنا يبدو تناقض ظاهرى، أى أنه أب لابنه ،وابن لأبيه، فهو أب من جهة الابن، وابن من جهة أبيه، ولا يوجد تعارض. وهذا ما نسميه انفكاك الجهة.

إذن فلا يوجد أدنى تعارض بين نفى الرمى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وإثباته له ؛ لأن رسول الله أخذ حفنة من الحصى ورمى بها جيش الكفار[1] ، هذا ما فعله الرسول صلى الله عليه وسلم وهو من البشر، لكن قدرة

(١) عن على بن أبى طلحة عن ابن عباس رضى الله عنهما: رفع رسول الله ﷺ يديه يعنى يوم بدر فقال:« يارب إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد فى الأرض أبدا» فقال له جبريل: خذ قبضة من التراب فارم بها فى وجوههم، فأخذ قبضة من التراب فرمى بها فى وجوههم فما من المشركين أحد إلا أصاب عينيه ومنخريه وفمه تراب من تلك القبضة فولوا مدبرين».أخرجه أبو نعيم (ص٤٠٤) والبيهقى (٣/ ٧٩) كلاهما فى دلائل النبوة، وذكره ابن كثير فى تفسيره (٢/ ٢٩٤).

الله سبحانه وتعالى أخذت هذا الحصى وأوصلته إلى كل جندى من جيش الكفار، وفى قول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ۝٦ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ [الروم: ٦، ٧]

لقد قالوا: إن الله نفى العلم وأثبته لنفس الأشخاص، ونقول: لا، إنه نفى العلم الحقيقى، وأثبت لهم ظاهر العلم، وهذا مختلف عن ذلك تماماً، وهنا يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ وَإِن نَّكَثُوا أَيمانَهُم ﴾ [التوبة: ١٢]

أثبتت الآية أن لهم أيماناً، وفى آخر الآية ينفى عنهم الأيمان فيقول:

﴿ إِنَّهُمْ لا أَيمانَ لَهُم ﴾ [التوبة: ١٢]

ونقول: فائدة الأيمان أو العهد أن يُحافظ عليه، ومن لا يحافظ على يمينه أو عهده يكون لا أيمان له؛ لأن أيمانه أى عهده لا قيمة له؛ لأنه مجرد من الوفاء. وعندما يحلف الكذاب نقول: هذا لا يمين له. وهؤلاء أيمانهم لم تأخذ قداسة الأيمان، فكأنهم لا أيمان لهم، كأن يكون لك ابن اقترب امتحانه وتجبره على المذاكرة، وتجلس تراقبه فيقلب الكتاب ولكنه لا يفهم شيئاً. وإن حاولت أن تحسب حصيلة المذاكرة لم تجد شيئا، فتقول: ذاكرت وماذاكرت ، وهذا نفى للفعل وإثباته ولا تناقض بينهما : لأن الجهة منفكة.

ونفى الأيمان فى آخر الآية معناه : أنهم لا وفاء لهم، وما داموا بلاوفاء فلاقيمة لأيمانهم. وقوله تعالى:

﴿ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴾ [التوبة: ١٢]

هذا أمر بقتالهم لا بقتلهم، فيكون المعنى: قاتلوهم، فإن لم يقتلوا فقد يجعلهم القتال ينتهون عن عدائهم للدين؛ لأنهم حين يرون البعض منهم قد

قتل وهم أضعف من المواجهة، هنا ستخف حدة محاربتهم للإسلام ،وتنتهى اللجاجة فى أمر الدين.

ثم يقول الحق من بعد ذلك:

﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾

فى هذه الآية الكريمة يحض المولى سبحانه وتعالى على جهاد ، وقتال أئمة الكفر، وعدم تركهم يستشرون فى حربهم للدين ، ومنع الناس عن الإيمان، وصدهم عن سبيل الله. و«ألا» تسمى أداة تحضيض، مثل قولنا: ألا تذهب إلى فلان، وهى حث على الفعل؛ لأن التحضيض نوع من أنواع الطلب. وقوله تعالى: ﴿نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ﴾ أى نقضوا عهودهم، وقوله تعالى: ﴿وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ﴾أى : هم الذين بدأوا بالعداوة ومحاولة إخراج الرسول صلى الله عليه وسلم من مكة، و﴿هَمّوا﴾، أى عقدوا النية على العمل، وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أى :أنهم هم الذين بدأوا بعداوة المسلمين والصد عن الإسلام من أول أن بدأ يدعو إليه سيد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم. والبدء هو : العمل الأول، و«المرة» هو فعل لايتكرر ؛ لأنه إن تكرر نقول: ﴿مرتين﴾ ، مثل قول الحق سبحانه :

﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ﴾ [البقرة: ٢٢٩]

هم إذن الذين بدأوا الفعل الأول بالعداوة.و الإسلام ـ كما نعلم ـ قد واجه

قوتين فى مرحلتين مختلفتين من مراحل الدعوة للإسلام : قوة المشركين من قريش، وقوة اليهود، وأما قريش فقد هموا بأن يخرجوا الرسول صلى الله عليه وسلم من مكة، وقد يقول قائل: لكن المؤمنين هم الذين بدأوا القتال فى بدر. وأقول: لم يذهب المسلمون إلى بدر للقتال، بل ذهبوا من أجل العير تعويضا عن مالهم الذى تركوه فى مكة، ولكن الكفار قالوا: لن نرجع حتى نستأصل محمداً ومن معه، وجاءوا بالنفير ليقاتلوا فى بدر[١].

إذن فعلى الرغم من سلامة العير بحيلة من أبى سفيان [٢] إلا أن قريشا هى التى أرادت القتال فجمعوا الجند والفرسان ؛ ليقاتلوا المسلمين.

وكذلك فعل اليهود، فقد نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول من المدينة. كما حاول المشركون إخراجه من مكة، وكان بينه صلى الله عليه وسلم، وبين اليهود معاهدة، وهذه المعاهدة كانت من أوائل أعمال رسول الله فى المدينة، فهل حافظ اليهود على هذه العهود؟. لا ، فقد تعهدوا ألا يعينوا عدوا عليه، ونكثوا أيمانهم ونقضوا العهد فأعانوا قريشا على المسلمين.

وكذلك فعل بنو النضير ، فقد أرادوا اغتياله صلى الله عليه وسلم، وذلك بإلقاء صخرة عليه، بل وتمادى اليهود فى غزوة الأحزاب وأعانوا قريشا ضد رسول الله صلى الله عليه وسلم، واتفقوا معهم على أن يدخلوهم من أرضهم بالمدينة ليفاجئوا رسول الله وجيش المسلمين من الخلف.

إذن فقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ لها أكثر من

---

(١) جاء فى سيرة النبى (٢/ ٢٤٧) لابن هشام أن ضمضم بن عمرو كان يستصرخ قريشا وهو يصرخ ببطن الوادى واقفا على بعيره قد جدع بعيره (أى : قطع أنفه)، وحول رحله وشق قميصه وهو يقول: يامعشر قريش اللطيمة اللطيمة (هى: الإبل تحمل الطيب) أموالكم مع أبى سفيان، قد عرض لها محمد فى أصحابه، لاأرى أن تدركوها، الغوث الغوث.

(٢) وذلك أن أبا سفيان غيَّر طريقه إلى مكة ومعه قافلة قريش، فأخذ طريق الساحل وترك بدرا وانطلق حتى أسرع، قال ابن إسحاق: ولما رأى أبوسفيان أنه قد أحرز عيره أرسل إلى قريش: إنكم إنما خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم فقد نجاها الله فارجعوا، ولكنهم لم يستمعوا له. انظر سيرة النبى (٢/ ٢٥٧، ٢٥٨).

حيثية، ونقضهم العهود وبدْؤُهم القتال يجعلكم تقاتلونهم ؛ لتأمنوا شرهم .

﴿أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [التوبة: ١٣]

وقوله تعالى : ﴿أَلاَ تقاتلون﴾ حث على القتال، أى :ماالذى يمنعكم من قتالهم إلا أن تكونوا خائفين منهم، ولذلك يقول تبارك وتعالى:

﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٣]

وهنا يلفت الحق سبحانه نظر المؤمنين إلى أنهم إن كانوا أمام حالين، خشية من البشر وإيذائهم، وخشية من الله، فالأحق بالخشية هو الأشد والأعظم والأدوم عقاباً. ولأنكم إذا ما قارنتم قوة هؤلاء بقوة الله، فالله أحق بالخشية قطعاً. وإذا كنت بين اختيارين فأنت تقدم على أخف الضررين، فكيف يخاف المؤمنون مايمكن أن يصيبهم على أيدى الكفار؟ ولايخشون مايصيبهم من الله.

وأوضح الله سبحانه وتعالى أنه لا خشية من الكفار فى آية أخرى من ذات السورة، هى قوله سبحانه:

﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [التوبة]

وهكذا أزال الحق سبحانه وتعالى الخوف من نفوس المؤمنين، فماذا سيحدث لكم من جنود الكفر؟ إما أن تستشهدوا فتدخلوا الجنة وإما أن تنتصروا. وقوله تعالى: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ﴾ استفهام استنكارى معناه: ما كان يصح أبدا أن تخشوهم وتخافوهم ؛ لأنهم لو كانوا أقوى منكم وتغلبوا عليكم فزتم

بالشهادة، ولو كانوا أضعف منكم وتغلبتم عليهم فزتم بالنصر. وكلاهما أمر جميل مُحبَّب لنفوس المؤمنين بالله يحدث تثبيتا لقلوبهم وأقدامهم فى مواقف القتال والنزال .

ثم يأتى الحق سبحانه وتعالى بالحكم النهائى فيقول:

﴿ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة: ١٣]

أى : راجعوا إيمانكم، فإن كنتم مؤمنين بالله فأنتم راغبون فى الشهادة. وإن كنتم مؤمنين بالله القادر القوى القهار فأنتم تعرفون الله وقدرته وقوته، وهى لاتقارن بالقوة البشرية. فإما أن تنتصروا عليهم فتكون لكم فرحة النصر، وإما الاستشهاد وبلوغ الجنة، وكلتا النتيجتين خير، أما مايصيب الكفار فهو ينحصر فى أمرين: إما أن يصيبهم الله بعذاب بأيديكم، وإما أن يصيبهم بعذاب من عنده.

إذن ففى أى معركة يدخلها الإيمان مع الكفر ، نجد أن الجانب الفائز هم المؤمنون ، سواء استشهدوا أم انتصروا. والخاسر فى أى حال هم الكفار؛ لأنهم إما أن يعذبوا بأيدى المؤمنين ، وإما أن يأتيهم عذاب من الله تعالى فى الدنيا أو فى الآخرة. وهكذا وضع الله المقاييس التى تنزع الخشية من نفوس المؤمنين فى قتالهم مع الكفار، فلا تولوهم الأدبار أبدا فى أى معركة؛ لأنه مهما كبرت قوة الكفار المادية ، فقوة الحق تبارك وتعالى أكبر. ويقول المولى سبحانه:

﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [البقرة: ٢٤٩]

وهكذا لا يحسب حساب للفارق فى القوة المادية ، فهذه خشية لا محل لها

فى قلوب المؤمنين فى جانب الإيمان ؛ لأن الله مع الذين آمنوا.

ثم يؤكد الحق سبحانه وتعالى حثه للمؤمنين على القتال فيقول:

﴿ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ ﴾

وقوله تعالى : ﴿فَقَاتِلُوا﴾ فى الآية السابقة كانت حثا للمؤمنين على القتال، و﴿قاتلوهم﴾ الثانية التى فى هذه الآية ؛ للتحريض والترغيب فى القتال، وأمر إيمانى للمؤمنين بأن يقاتلوا الكفار. ثم يأتى المولى سبحانه وتعالى فى هذه الآية بالحكمة من الأمر بالقتال فيقول: ﴿يُعَذِّبْهُمُ الله بِأَيْدِيكُمْ﴾ ونتساءل: إذا كان الله يريد أن يعذبهم فلماذا لايأتى بآية من عنده تخضعهم للعذاب؟

نقول: لو انتصر المؤمنون بحدث كونى غير القتال لقال الكفار: حدث كونى هو الذى نصرهم. ويشاء الله سبحانه وتعالى أن ينهزم هؤلاء الكفار بأيدى المؤمنين؛ لأن الكفار ماديون لايؤمنون إلا بالأمر المادى، ولو أنهم كانوا مؤمنين بالله لانتهت المسألة ، ولكن الله سبحانه وتعالى يريد أن يُرِىَ الكفار بأس المؤمنين لتمتلىء قلوبهم هيبة وخوفاً من المؤمنين، ويحسبوا لهم ألف حساب، فلا تحدثهم أنفسهم بأن يجترئوا على الإيمان وعلى الدين أو أن يستهينوا بالمؤمنين.

ولقائل أن يقول: إن الحق هنا يأمر فيقول : ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ الله بِأَيْدِيكُمْ﴾ .

وفى آية أخرى يقول:

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: ٣٣]

فكيف يثبت الله العذاب وينفيه؟. ونقول: لقد نزلت الآيتان فى الكفار. وسبحانه وتعالى يقول: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ الله بِأَيْدِيكُمْ﴾ ولو قال: قاتلوهم تعذبوهم بأيديكم لاختلف المعنى، ولكن الآيتين تثبت إحداهما العذاب والأخرى تنفيه، ونقول: إن الجهة منفكة، فقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الله لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ أى: لاينزل الله تعالى عليهم عذابا من السماء ما دمت فيهم، وقد وضح هذا فى قوله تعالى:

﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢) وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣)﴾ [الأنفال]

فقد سبق أن طلب الكفار عذابا من السماء ينزل عليهم إن كان القرآن هو الحق؛ فرد الحق سبحانه وتعالى بأنه لا يعذبهم مادام رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم؛ لأنه أرسله رحمة للعالمين. ولكن عدم تدخل السماء بالعذاب بعد بعث رسول الله بالرسالة، لا يعنى أن العذاب قد انتهى بالنسبة للكفار. وائتمن سبحانه المؤمنين على نصرة منهجه ودينه وهو معهم. ولكن العذاب يتم بالأسباب الأرضية، ولايوجد تناقض. لأن العذاب من السماء قد يكون استئصالا لكل الكافرين؛ صغارا و كبارا، كأن يغرقهم الطوفان، أو تأتى الصيحة فتبيدهم عن آخرهم، أو تجيئهم ريح صرصر عاتية تدمرهم، أوتصيبهم الرجفة فتجمدهم، وفى كل هذه الحالات لا يبقى أحد من الكفار، ولكن القتال البشرى لا يقضى على الكفار نهائيا، فالإسلام يمنعنا من قتال النساء

والصبيان[١] ، ومن قتال الذين لم يقاتلونا[٢].

إذن فالعذاب بعد رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس عذاب استئصال وإبادة كما كان فى الأمم السابقة.ونعلم أن الحق سبحانه وتعالى قد عذَّب الأمم السابقة بتلك الوسائل، فكان على الرسول من السابقين على رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم أن يبلغ الرسالة، وإن لم يؤمن قومه برسالته تتدخل السماء ضدهم بألوان العذاب السابقة. ولكن الحق تبارك وتعالى أمر محمدا صلى الله عليه وسلم وأمته من بعده أن تدعو لدين الله، وتؤدب من يختصم الإيمان ، ويدخل فى عداوة مع المؤمنين فمنهم من يفر أو يقع فى الأسر ويبقى الطفل والمرأة دون تعذيب.

﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ ﴾ [التوبة: ١٤]

وماالفرق بين العذاب والخزى؟ نقول : قد نجد واحدا له كِبْرٌ وجَلَدٌ، وإن أصابه العذاب فهو يتحمله ولا يظهر الفزع أو الخوف أو الضعف، ويمنعه كبرياؤه الذاتى من أن يتأوه، ولمثل ذلك هناك عذاب آخر هو الخزى، والخزى أقسى على النفس من العذاب؛لأن معناه الفضيحة، كأن يكون هناك إنسان له مهابة فى الحى الذى يسكن فيه، مثل فتوة الحى، ثم يأتى شاب ويدخل معه فى مشاجرة أمام الناس ويلقيه على الأرض، هذا الإلقاء لا يعذبه ولايؤلمه، وإنما يخزيه ويفضحه أمام الناس، بحيث لا يستطيع أن يرفع رأسه بين الناس مرة أخرى، والخزى هنا أشد إيلاما لنفسه من العذاب. ولا يريد سبحانه أن يعذب

(١) وقد وردت بهذا السنة الشريفة، فعن عبدالله بن عمر قال:« وجدت امرأة مقتولة فى بعض مغازى رسول الله ﷺ، فنهى رسول الله ﷺ عن قتل النساء والصبيان». أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٠١٤، ٣٠١٥) ومسلم (١٧٤٤).

(٢) يقول عز وجل : ﴿لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين﴾ [الممتحنة: ٨]

قال القرطبى فى تفسيرها : «هذه الآية رخصة من الله تعالى فى صلة الذين لم يعادوا المؤمنين ولم يقاتلوهم» وذكر أقوال من ذهب إلى أنها منسوخة بآية ﴿فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم﴾ ثم قال: «وقال أكثر أهل التأويل: هى محكمة. واحتجوا بأن أسماء بنت أبى بكر سألت النبى ﷺ: «هل تصل أمها حين قدمت عليها مشركة؟ قال: نعم». خرجه البخارى ومسلم».

الكفار بأيدى المؤمنين فقط، بل يريد لهم الافتضاح أيضا ،بحيث لا يستطيعون أن يرفعوا رءوسهم. وجاء الحق سبحانه بنتيجة ثالثة لهذا القتال فقال:

﴿ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾ [التوبة: ١٤]

وعلى هذا فعندما يقاتل المؤمنون الكفار يصيب الكفارَ العذاب والخزى والهزيمة. إذن ﴿يُعَذِّبْهُمُ الله بِأَيْدِيكُمْ﴾ مرحلة، ﴿وَيُخْزِهِمْ﴾، مرحلة ثانية ﴿وَيَنْصُرْكُم عَلَيْهِمْ﴾ مرحلة ثالثة، ثم تأتى المرحلة الرابعة:

﴿ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة: ١٤]

أى : أن النصر الذى سيحققه المؤمنون بعون الله تعالى فى قتالهم مع الكفار سيشفى صدور المؤمنين الذين استذلهم الكفار واعتدوا عليهم، فكأن هذا النصر يشفى الداء ،الذى ملأ صدور أولئك المؤمنين، ويذهب غيظ قلوبهم، أى : يخرج الغيظ والانفعال المحبوس فى الصدور، فكأن قتال المؤمنين للكفار لايحقق فقط العذاب والخزى للكفار والنصر للمؤمنين عليهم، ولكنه يعالج ـ أيضا ـ قلوب المؤمنين التى ملأها الألم والغيظ من سابق اعتداء الكفار عليهم ومحاولتهم إذلالهم وأخذ حقوقهم. لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ ﴾

وهكذا يرى الذين غدروا بالعهد وتعاونوا ضد أنصار رسول الله صلى الله عليه وسلم، يرون انتقام الله تعالى لهم، فتشفى صدور المؤمنين ويذهب منها الغيظ. والشفاء ـ كما نعلم ـ إنما يكون من داء، والدواء ضرورة للشفاء، وكأن انتقام الله عز وجل فيه شفاء لصدور المؤمنين من كفار قريش الذين

أعانوا أبناء بكر على أبناء خزاعة حلفاء سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيعذبهم الله بأيديكم، وينصركم عليهم، ويخزهم سبحانه وتعالى.

ونلمس أنه ــ سبحانه وتعالى ــ رغم تعذيبه لهم ، وتشديد النكير عليهم ، إلا أنه يفتح باباً للتوبة، وهى مسألة لا يقدر عليها إلا رب حكيم؛ لأن الكل عبيد له؛ مؤمنهم وكافرهم، هو خالقهم، وسبحانه يغار على صنعته، فبعد أن يشتد عليهم بالعذاب والخزى، ويشفى بهذا صدور القوم المؤمنين، بعد ذلك يفتح باب التوبة ، وبهذا يعطى المؤمنين قوة سماحة إيمانية، فلا يصطحبوا التعالى على هؤلاء إن جاءوا تائبين مؤمنين فيقول سبحانه وتعالى:

﴿ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٥]

أى :أنه سبحانه يعلم كل متطلبات الأحكام، ولكل أمر عنده حكمة، فالقتال أراده الله عز وجل ليِدُكَّ به جبروتهم، والتوبة حكمتها لمنع تمادى الكفار وطغيانهم فى الشر؛ لأن مشروعية التوبة هى رحمة من الحق سبحانه وتعالى بخلقه، ولو لم يشرع الله التوبة لقال كل من يرتكب المعصية: ما دامت لا توجد توبة، ومادام مصيرى إلى النار، فلآخذ من الدنيا ما أستطيع، وبذلك يتمادى فى الظلم ويزيد فى الفساد والإفساد؛ لأنه يرى أن مصيره واحد مادامت لاتوجد توبة، ولكن تشريع التوبة يجعل الظالم لايتمادى فى ظلمه ، وبهذا يحمى الله المجتمع من شروره، ويجعل فى نفسه الأمل فى قبول الله لتوبته والطمع فى أن يغفر له؛ فيتجه إلى العمل الصالح عَلَّهُ يُكفِّر عما ارتكبه من الذنوب والمعاصى؛ وفى هذا حماية للناس ومنع لانتشار الظلم والفساد .

إذن فالقتال له حكمة، والتعذيب له حكمة، والخزى له حكمة، والتوبة لها حكمة، وسبحانه وتعالى حين يعاقب، إنما يعاقب عن حكمة، وحين يقبل التوبة فهو يقبلها عن حكمة.

ثم يقول الحق عز وجل بعد ذلك:

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

ساعة تسمع «أم» فاعلم أنها إضرابية، أى: ما كان الله سبحانه ليترككم حتى يعلم ـ علم الواقع ـ من منكم يؤمن إيمانا يؤهله للجهاد فى سبيل الله؛ فإن ظننتم أن الله تاركم بدون ابتلاء وبدون أن يختبركم ويمحصكم[1]، فيجب أن تعرضوا عن ذلك وتفهموا مايقابله.

إذن فالابتلاء أمر ضرورى لمن أراد الله تعالى له أن يتحمل أمر الدعوة ليواجه شراسة التحلل والفساد، لذلك يُصفِّى الله من آمنوا حتى يقف كل واحد منهم موقف الانتماء إلى الله مضحيا فى سبيل الله. وساعة يقول الحق عز وجل فى شىء كلمة ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ﴾ فليس معنى ذلك أنه لم يعلم وسيعلم، لا، فسبحانه يعلم كل شىء أزلا، ولكن العلم الأزلى لا يكون حجة على البشر. ودائماً أضرب هذا المثل ـ ولله المثل الأعلى ـ نجد عميد إحدى الكليات أحيانا يعلن عن جائزة علمية يريد أن يعطيها للمتفوقين؛ فيقول له المدرس الذى يشرف على تحصيل التلاميذ: إن فلاناً هو الأول وهو يستحق الجائزة،

(١) يقول تعالى ﴿أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لايفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين﴾ [العنكبوت: ٢، ٣] وقد قال تعالى : ﴿وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين﴾ [آل عمران: ١٤١] والتمحيص هو: الاختبار والابتلاء، والتمحيص أيضا: التخليص والتطهير. ومنها تمحيص الذهب أى اختباره لمعرفة الجيد منه من الردىء.

فيقول العميد: ولكنى أريد أن تعقد امتحاناً ؛ ليكون حجة على غير المتفوقين؛ وهذا هو علم الواقع العملى الذى أراده الحق عز وجل من الابتلاء، وسبحانه وتعالى يعلم كل شىء أزلا، ولكن العلم الواقعى هو حجة على المخالفين.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا﴾ [التوبة: ١٦]

أى بدون ابتلاء أو تمحيص. وقوله تعالى:

﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ﴾ [التوبة: ١٦]

«ولـمَّـا» للنفى، ومثلها مثل قولنا: «لما يأت» أى :أنه لم يتحقق المجىء حتى الآن، وتختلف «لما» عن «لم»، فـ«لم» لاتؤذن بتوقع ثبوت مابعدها، فما يأتى بعدها لن يتحقق أبدا، أما «لما» فتؤذن بتوقع ثبوت ما بعدها ، أى أن مابعدها.. لم يتحقق إلى لحظة نطقها، ولكنه قد يتحقق بعد ذلك. فإن قلت: «لما يثمر بستاننا» أى :أن البستان الذى تملكه لم يثمر، ولكنه قد يثمر بعد ذلك. وسبحانه وتعالى يقول:

﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤]

ومعنى القول الكريم: أن الإيمان لم يدخل فى قلوبهم إلى الآن، ولكنه سوف يدخل بعد ذلك، وهذه بشارة لهم. فقد قالت الأعراب: «آمنا» فأوضح الحق سبحانه وتعالى: بل أسلمتم ولم يدخل الإيمان قلوبكم؛ لأن الإيمان هو الاعتقاد القلبى الجازم، والإسلام انقياد لما يتطلبه إيمان القلب من سلوك، أى: أنتم قد سلكتم سلوك الإسلام، ولكنه سلوك سطحى لم يأت من ينابيع القلب. وقول الحق هنا:

﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ﴾ [التوبة: ١٦]

لايعنى أن علمه متصل بوقت الكلام، فعلم الله تعالى موصول أزلى وسبحانه مُنزَّهٌ عن الأغيار.

إذن فالعلم المراد هنا هو علم الواقع الذى سوف يكون حجة عليكم؛ لأن الله سبحانه وتعالى لو لم يختبركم لقلتم: لو أمرتنا يا رب بالقتال لقاتلنا، ولو أمرتنا بالصبر فى الحرب لصبرنا، وَلَكُنَّا أكبر المجاهدين.

ولذلك جاءت الابتلاءات كتجربة عملية، ومن هذه الابتلاءات مواجهة العدو فى حرب، فمن هرب ثبت له التقصير فى المواجهة، ومن لم يصبر على الابتلاءات، عرف نقص إيمانه وأصبح ذلك علما واقعا.

﴿ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلا رَسُولِهِ وَلا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ﴾ [التوبة : ١٦]

إذن فالله يريد بعلم الواقع التمييز بين صدق الجهاد وبين الفرار منه، وأن يكون هناك سلوك إيمانى واضح؛ يبين أن هؤلاء القوم لم يتخذوا من دون الله ولا رسوله وليجة، و«الوليجة» من فعيلة، بمعنى فاعل، و«والجة» يعنى «داخلة».

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ﴾[الحج: ٦١]

أى: يُدخْل الليل على النهار ويُدخل النهار على الليل، والمراد بـ«الوليجة» الشىء الذى يدخل فى شىء ليس منه، وهى من الكلمات التى تطلق ويستوى فيها المفرد المذكر والمؤنث، والمثنى والمثناة وجمع المذكر وجمع المؤنث، وتقول : «امرأة وليجة»، و«رجل وليجة» ، و«امرأتان وليجة»، و«رجلان وليجة»، و«نساء وليجة» و«رجال وليجة». كما تقول : «رجل عدل» و«امرأة عدل»، و«رجلان عدل»، «امرأتان عدل»، و«رجال عدل» و«نساء عدل»، لا تختلف فى كل هذه الحالات.

والمراد بالوليجة هنا بطانة السوء[1] التى تدخل على المؤمنين الضعاف، وتتخلل نفوسهم ليفشوا أسرار المؤمنين ويبلغوها للكفار. ولذلك شاء الحق سبحانه وتعالى أن يوضح لنا ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا﴾ أى: أن يعلم سبحانه علما واقعيا من جاهدوا، ولم يتخذوا بطانة سوء من الكفار يدخلونهم فى شئونهم دخولا يجعلهم يكتشفون أسرارهم.

﴿ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلا رَسُولِهِ وَلا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ﴾[التوبة : ١٦]

فالممنوع هنا - إذن - أن يتخذ المؤمنون الكفار وليجة ؛ لأن الكافر من هؤلاء سيأخذ أسرارهم ويفشيها لعدوهم. وبذلك يتعرض المؤمنون للخطر. وعلى المؤمن أن يجعل الله عز وجل هو وليجته، وأن يجعل الرسول صلى الله عليه وسلم هو وليجته، وأن يجعل المؤمنين هم وليجته، ويسمح لهم أن يتداخلوا معه، وهم مأمونون على مايعرفونه من بواطن الأمور، أما الأعداء والخصوم من الكفار فهم غير مأمونين على شىء من أسرار المؤمنين. ويذيل الحق سبحانه وتعالى الآية الكريمة بقوله:

﴿ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [التوبة : ١٦]

والمعنى: إن كنتم تحسبون أنكم تتداخلون مع الكفار وتعطونهم أسرار المؤمنين ولا أحد يعرف، فاعلموا أن الله تعالى يسمع ويرى، وأن الله خبير لاتخفى عليه خافية، فلا تخدعوا أنفسكم وتحسبوا أنكم إن أخفيتم شيئا عن عيون الخلق قد يخفى على الله أبدا ؛ فلن يخفى شىء عن عيون الخالق ؛

(١) عن أبى سعيد الخدرى عن رسول الله ﷺ قال: «مابعث الله من نبى ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان: بطانة تأمره بالخير، وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه، والمعصوم من عصم الله عزوجل». أخرجه البخارى فى صحيحه (٧١٩٨) وأحمد (٣/ ٣٩، ٨٨) والنسائى فى سننه (٧/ ١٥٨)

لأنكم إن عمَّيتُم على قضاء الأرض، فلن تُعمُّوا على قضاء السماء[١] .

وينقلنا الحق سبحانه وتعالى إلى قضية أخرى فى قوله عز وجل:

﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ ۚ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

وكأن هذه الآية قد جاءت حيثية للبراءة التى حَمَّلها رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلى بن أبى طالب كرم الله وجهه ليعلنها يوم الحج الأكبر[٢] ؛ لأن البراءة هى القطيعة، ومعناها ألاَّ يدخل المسجد مشرك، ولايطوف بالبيت عريان، فكأن البراءة من الله عز وجل ورسوله من المشركين مَنْعٌ لهم من دخول المسجد الحرام، وكان عدد من المشركين قد جعلوا من المسجد الحرام منتدى لهم ، وكانوا يجلسون فيه للتسامر والتجارة ولغير ذلك، كما كانوا يقومون بسقى الحجيج من شراب الزبيب الذى لم يختمر ؛ ومعهم حجاب البيت، ويطعمون زوار بيت الله الحرام.

كل ذلك كان يحدث فى مكة من الكفار ولكن هذا انتهى بالبراءة التى أعلنها على بن أبى طالب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ الذى أوحى إليه

(١) عن أم سلمة قالت قال رسول الله ﷺ: «إنكم تختصمون إلى، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فأقضى له على نحو مما أسمع منه، فمن قطعت له من حق أخيه شيئا فلا يأخذه،فإنما أقطع له به قطعة من النار» أخرجه البخارى (٢٦٨٠) ومسلم (١٧١٣) .

(٢) عن أبى هريرة قال :« بعثنى أبوبكر فى تلك الحجة فى المؤذنين،بعثهم يوم النحر يؤذنون بمنى أ لايحج بعد العام مشرك، ولايطوف بالبيت عريان». قال حميد: ثم أردف النبى ﷺ بعلى بن أبى طالب فأمره أن يؤذن ببراءة. قال أبوهريرة: فأذن معنا على فى أهل منى يوم النحر ببراءة، وأ لايحج بعد العام مشرك ولايطوف بالبيت عريان». أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٦٥٦).

ربه بأن يفعل ذلك ، ولم يعد للمشركين حق فى ﴿أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللهِ﴾. والعبارة لها معنيان؛ المعنى الأول هو الجلوس فى هذه المساجد بحيث تكون عامرة بزوارها، والمعنى الثانى هو المحافظة على بناية المسجد ونظافته وإصلاحه. وقد منع الله المشركين من كلا النوعين من العمارة[1] .والكلام هنا عن المسجد الحرام؛ لقوله تعالى:

﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾

[التوبة: ٢٨]

نقول : إنَّ المسجد الحرام هو مكان تتجه إليه كل اتجاهات الناس فى كل بقاع الأرض حين يقيمون الصلاة لأن كل مكان يسجد فيه إنسان مسلم يسمى مسجدا، وبتعدد الساجدين ، يعتبر المسجد الحرام مساجد، أو لأن جهات السجود تتعدد فى المسجد الحرام ؛ فواحد يسجد شمال الكعبة، وآخر جنوب الكعبة وثالث شرق الكعبة، ورابع غرب الكعبة؛ هذا فى الجهات الأصلية، وهناك الجهات الفرعية؛ فهناك أناس يتجهون شمال شرق، وأناس يتجهون جنوب شرق، وغيرهم يتجه جنوب غرب، وتتعدد الجهات الفرعية فى الاتجاه إلى الكعبة ؛ إذن فكل جهة متجهة هى مسجد وهناك ممن لا يرون الكعبة فى بقاع الأرض يتجهون إليها .

وحين تسمع قول الحق سبحانه وتعالى يقول:

﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ (١٧)﴾ [التوبة]

نلحظ أنَّ «كان» هنا جاءت منفية ومنها نفهم المعنى: ليس مقبولا فى عرف

(١) قال القرطبى فى تفسير الآية: «اختلف العلماء فى تأويل هذه الآية فقيل: أراد ليس لهم الحج بعد مانودى فيهم بالمنع عن المسجد الحرام، وكانت أمور البيت كالسدانة والسقاية والرفادة إلى المشركين فبين أنهم ليسوا أهلا لذلك بل أهله المؤمنون» .

العقل أو المنطق أو الدين أن يقرب الكفار المسجد، ولا أن يرعى مشرك المسجد أو يصونه؛ لأن المسجد للعبادة، والعبادة تقتضى معبودا هو الله سبحانه وتعالى، والكفار يشركون بالله، فمن المنطق ـ إذن ـ ألا يكون لهم دخل بالمساجد، إذن فمنعهم من المسجد إقامة وعمارة وزيارة هو شىء منطقى بشهادتهم على أنفسهم بالكفر، وهى سبب منعهم من الاقتراب من مساجد الله.

والشهادة إما أن تكون شهادة قول ؛ وإما أن تكون شهادة حال، أما شهادة القول فذلك لأنهم كانوا يقولون لليهودى: على أى دين أنت؟فيرد بديانته ، وكذلك القول للنصرانى، وحين يسأل المشرك؛ فهو يقر بشركه[1]، هذه هى شهادة القول. أما شهادة الحال فهى أنهم يسجدون للأصنام ويعبدونها من دون الله.

فكيف يكون الإنسان مشركا ثم لانقول له: ليس لك علاقة بالمسجد؛ ارفع يدك عنه ؟ وماأغنى الإسلام عن أن يبنى له مشرك مسجدا أو يعمر كافر بيتا من بيوت الله وماأغنى الله أن يزوره فى بيته من هو غير مؤمن به سبحانه . ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى :

﴿ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ ﴾ [التوبة : ١٧]

وهم قد نسوا الشهادة الأولى بالحق حينما أشهدهم الله سبحانه وتعالى على أنفسهم، فالحق سبحانه هو القائل:

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣) ﴾ [الأعراف]

(١) قاله السدى . نقله ابن كثير والقرطبى فى تفسيريهما للآية .

هم إذن قد أقروا لحظة الخلق الأولى بوحدانية الله وعاهدوا الله تعالى على ذلك، لكنهم كفروا بتلك الشهادة وأشركوا به سبحانه ووضعوا فى بيت الله الحرام أصناما. وادعوا الكذب وقالوا:

﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾ [الزمر: ٣]

وهذا هو الإشراك بعينه، وهذه هى شهادتهم على أنفسهم بالكفر.

﴿ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ ﴾ [التوبة: ١٧]

والمسجد ـ كما نعلم ـ هو المكان الذى نسجد فيه، وكل بقعة فى الأرض بالنسبة للمسلمين تصلح للسجود وتعتبر مسجدا، وهذا مما خص به الله تعالى أمة الإسلام، ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : «أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلى : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً، فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فَلْيُصَل ، وأُحلَّتْ لى المغانم ولم تحل لأحد قبلى ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبى يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة»(١) .

فهذا الحديث يبين أن مما خص الله به الأمة المحمدية أن جعل لها كل بقاع الأرض صالحة لأداء الصلاة فيها ،كما جعل لها الأرض أيضا طهوراً، ويكفى المسلم أن يتيمم من الأرض ويصلى عليها ، ولكنْ هناك فارق بين مكان يصلح لك أن تصلى فيه، وأن تباشر نشاط حياتك، وبين مكان مخصص للعبادة، فالحقل الذى تزرع فيه، لك أن تصلى فيه وتزرع، والمصنع لك أن تصلى فيه، ولك أن تصنع، وكذلك المدرسة لك أن تتعلم فيها، ولك أن تصلى فيها ، وهذه كلها مساجد بالمعنى العام ، وهى أماكن سجود لله تعالى، لكن كلمة «مسجد» إذا أطلقت انصرفت إلى الحيز المحدود من المكان الذى أخرج من نشاطات الحياة كلها، وخُصّ بأن يكون للصلاة والسجود فقط، فإذا

(١) متفق عليه ، أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٣٥) ومسلم (٥٢١) .

حيزت مكاناً بخط أبيض من الجير، أو حيزته بسلك وقلت: هذا مسجد، فلا يزاول فيه نشاط إلاَّ الصلاة، هذا هو المسجد الاصطلاحى الشرعى. وكل بيت لله بنيته فى أى مكان يسمى مسجدا، وقبلة المساجدالمنتشرة فى بقاع الأرض هى المسجد الحرام ؛ فهى أماكن خيزت للمسجدية ، أو للعبادة ، أوللصلاة وليست لغير ذلك من حركات الحياة، ولكن تحييز المكان كان باختيار البشر. وقبلته المسجد الحرام وهو المسجد الجامع الأكبر باختيار الله تعالى، والحق سبحانه وتعالى هو القائل:

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ (٩٦)﴾ [آل عمران]

ولأن هذا البيت الحرام هو باختيار الله، وموضوع للناس. فلنا أن نسأل: هل الناس هم الذين وضعوه ؟ لا، بل وضعه غير الناس، لأن تعريف الناس هم آدم وذريته، ولابد إذن أنه موضوع قبل آدم ، وبمنطق القرآن الكريم وجد البيت من قبل آدم، وإذا تعمقنا قليلا، نجد أن هذا البيت الحرام هو ﴿هدى للعالمين﴾ ومن العالمين الملائكة.

وهكذا نرى أن قول بعض القوم : إن إبراهيم هو الذى حدد مكان وقواعد البيت، قول لايثبت صدقه، لأن البيت هو المكان لا المكين، فالبيت ليس هو الحجر أو المبنى ، وهو ما نسميه الكعبة، فالكعبة هى «المكين» أما البيت فهو المكان الذى أقيمت فيه الكعبة ؛ لأنه إن جاء سيل وأزال الكعبة، جعلها أرضاً مسطحة فأين نصلى؟ نصلى إلى اتجاه المكان، فالسيل يُذْهِبُ المكين لكن المكان باق.

وعندما جاء سيدنا إبراهيم عليه السلام كان أثر البيت ضائعا، وأمره ربنا أن يرفع البيت، ولم يقل له : حدد المكان، بل أمره أن يبنى البعد الثالث؛ لأن كل حيز له بعدان؛ الطول والعرض، وإن كان دائرة فله المحيط، وإن

كان مثلثا يكون من ثلاثة أضلاع. لكن الارتفاع يدخل بالشىء إلى الحجم، وقد رفع الخليل إبراهيم القواعد من البيت. بعد أن حدد المولى سبحانه وتعالى له المكان وأظهره له : ﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت﴾ . [البقرة : ١٢٧]

فكأن البيت مخصص قبل الرفع، بدليل أن الحق سبحانه وتعالى حينما تكلم عن مجىء هاجر وابنها إسماعيل الرضيع، وإسكان إبراهيم عليه السلام لهما فى هذا المكان قال: ﴿ رَبَّنَا إِنِّى أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ [إبراهيم: ٣٧]

وقد رفع إبراهيم عليه السلام القواعد وساعده ابنه إسماعيل بعد أن كبر واشتد عوده، ولكن ساعة أن أسكنه وأمه بجانب البيت كان طفلا صغيرا. إذن فالبيتية والمكانية موجودة، ولكن إبراهيم أقام المكين وهو البعد الثالث أى الارتفاع .

ويقول الحق سبحانه وتعالى أيضا:

﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ ﴾ [الحج: ٢٦]

أى أظهرنا وحددنا المكان ،وهو الذى سيبنى فيه سيدنا إبراهيم بالأحجار ليبرز البيت، فالبيت ـ إذن ـ كان موجوداً من قبل.

ونلحظ أن المساجد المنتشرة فى الأرض لابد أن يكون لها متجه واحد، لإله واحد، وحدد الحق هذا المكان بالقبلة إلى الكعبة. وبعض المتحللين يحاول أن يقلب الفهم فى قول الحق:

﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾ [البقرة: ١١٥]

يقولون : إننا إن اتجهنا إلى أى مكان سنجد وجه الله تعالى، ونقول:

الصحيح أن وجه الله عز وجل فى كل الوجود ،ولكن إياك أن تفهم أن تحديد الله للكعبة لتكون متجهنا، أنها هى وجه الله، لا، لكننا مأمورون بالاتجاه لها فى الصلاة. وأنت إذا نظرت أيضا إلى المسلمين فى كل الدنيا سوف تجد أن كل مسلم فى الأرض يتجه للكعبة فى صلاته، ومادامت الكعبة مركزا، وكلنا نتجه إليه ؛ فسوف تجد من يتجه وهو شرقه، وواحد يتجه وهو غربه، وواحد يتجه وهو شماله، وواحد يتجه وهو جنوبه .

إذن﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ﴾ ، ومادمنا قد عرفنا أن المساجد محيزة ومخصصة للعبادة ؛ فلايجوز أن يأتى إليها مشرك، ولانقبل أن يساهم فى إصلاحها ولانظافتها مشرك؛ لأن الله غنى عن ذلك، وعلينا أيضا ألا نناقش أمورنا الدنيوية فى مسجد، ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: « يأتى على الناس زمان يتحلقون فى مساجدهم وليس همتهم إلا الدنيا ، ليس لله فيهم حاجة فلا تجالسوهم » (١)

كأنه لم يكفهم حب الدنيا خارج المسجد ويطمعون فى الدقائق التى يخصصونها للصلاة، فيجرجرون الدنيا معهم إلى المسجد،وأقول لهم : لماذا لاتتركون مصالح الدنيا فى تلك الدقائق؟ إن الواحد منكم إنما يحيا فى سائر الدنيا فى نعمة الله. إذن فليجعل نصيبا من وقته لله صاحب النعمة .

إذن لابد أن نعرف أننا ما دمنا قد خصصنا مكانا لعبادة الله، فلا بد أن نصحب هذا التخصيص فى المكانية إلى التخصيص فى المهمة التى يدخل الإنسان من أجلها للمسجد، فيتجه إلى الله؛ لأن المسجد خاص لعبادة الله؛ ومع أن الأرض كلها تصلح للصلاة، لكنك حين تأتى إلى المسجد اصحب معك أخلاق التعبد. ويجب أن يكون الانفعال، والتفاعل، والحركة والنشاط كله فى الله، ولذلك فأفضل ماتفعله ساعة تدخل المسجد، هو أن تنوى

(١) أخرجه الحاكم فى المستدرك (٤/ ٣٢٣) من حديث أنس رضى الله عنه وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه . ووافقه الذهبى .

الاعتكاف فتنزع نفسك ممن ينوى أن يتكلم معك فى أحوال الدنيا.

لقد ورد فى الأثر النهى عن الحديث فى المساجد لأنه يحبط العمل ويمحو الحسنات، وأنت قد تصنع الحسنات كثيرا خارج المسجد،ولكن عليك ألا تدخل المسجد إلا بأدب المسجد؛ فالحضور بين يدى الله تعالى فى مسجده وفى بيته له آدابه وسلوكه، فيجب عليك ألاَّ تتخطى الرقاب وهذه لاتحتاج إلى تنظيم، بمعنى ألا تجعل الأماكن فى الأمام خالية، وفى الخلف مزدحمة؛ حتى يستطيع أن يجلس كل من يحب أن يصلى دون أن يتخطى الرقاب[1]، ويكون الجلوس فى المساجد، الأول فالأول، وهكذا يتحقق الأدب الإيمانى فى المساجد.

ونعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا بالبوار على كل صفقة تعقد فى المسجد. ودعا على كل من يريد شيئاً دنيوياً من المسجد ألا يوفقه الله فيه ، ودعا على كل من ينشد ضالة فى المسجد ألا يرد الله عليه ضالته ، حيث قال صلى الله عليه وسلم فى الحديث الذى يرويه عنه أبو هريرة رضى الله عنه: «إذا رأيتم من يبيع أو يبتاع فى المسجد فقولوا: لا أربح الله تجارتك [2]وإذا رأيتم من ينشد ضالة فقولوا: لا ردها الله عليك» [3]وفى حديث آخر له رضى الله عنه قال: إنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «من سمع رجلا ينشد ضالته فى المسجد فليقل: لاردها الله عليك فإن المساجد لم تُبْنَ لهذا»[4].

فلنجعل الجلوس فى المسجد ـ إذن ـ خاصا بالمنعم وهو الله، أما فى خارج المسجد وفى سائر الأوقات، فنحن نعيش مع النعمة التى أنعم الله بها علينا .

---

(١) عن عبدالله بن بسر قال: جاء رجل يتخطى رقاب الناس يوم الجمعة ورسول الله ﷺ يخطب فقال له رسول الله ﷺ: «اجلس فقد آذيت» أخرجه أحمد فى مسنده (٤/ ١٩٠) وأبو داود (١١١٨) والنسائى (٣/ ١٠٣)

(٢) أى : لاأوقع الله فيها الربح ، لأنك أتيت بها فى محل جعل للذكر والصلاة وقراءة القرآن . والبيع والشراء محلهما فى الأسواق خارج المساجد .

(٣) أخرجه النسائى فى عمل اليوم والليلة (ص٧٣) والدارمى (١/ ٣٢٦) والترمذى (١٣٢١) وقال : حسن غريب. وكذا الحاكم (٢/ ٥٦) وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه. ووافقه الذهبى.

(٤) أخرجه مسلم فى صحيحه (٥٦٨) وأحمد (٢/ ٣٤٩) وابن ماجه فى سننه (٧٦٧) .

والحق سبحانه وتعالى يقول:

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ (٩٦) فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ﴾ [آل عمران: ٩٦، ٩٧]

وما دام بيت الله تعالى ﴿هُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ أى أنه بيت لكل الناس وليس لمن يجلس فيه فقط، فكأن إشراقات الحق وتجلياته، أعظم ما تكون فى بيته أولا، ثم تشيع الإشراقات والتجليات فى جميع بيوت الله، وعلى عمارها والمتعبدين فيها، وبيوت الله هى الأماكن التى تتنزل فيها الرحمات من الحق سبحانه وتعالى، بدليل أنه سبحانه وتعالى حين تكلم عن نوره فى سورة النور قال:

﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ [النور: ٣٦]

أى أن الذين يرون هذا النور ويتنزل عليهم هم عمار المساجد، وسورة النور جاء فيها ـ أيضاً ـ قول الله تعالى:

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥]

أى :أن نوره يملأ السموات والأرض. حين يضرب الحق سبحانه وتعالى مثلا للمعنويات ليتعرف إليها الناس فهو يقدم لها بأمر مادى يتفق عليه الكل، ليقرب الأمر المعنوى أو الغيبى إلى أذهان الناس؛ لأن المعنويات والغيبيات يصعب إدراكها على العباد. فلذلك فهو سبحانه وتعالى يقرب هذا الأمر ويبينه بأن يضرب لنا مثلا من الأمور المادية المحسة؛ حتى تقترب الصورة من الأذهان؛ لأننا جميعا نرى الماديات. وبهذا يلحق سبحانه الأمر المعنوى وهو غير معلوم لنا بالأمر المادى الذى نعرفه؛ فتقترب الصورة من أذهاننا وتتضح لنا، وهكذا شاء الحق سبحانه وتعالى أن يلحق المجهول بالنسبة للناس بالمعلوم عندهم .

وإذا كنا فى كون الله تعالى نجد النهار إنما يكون نهارا بإشراق الشمس

الواحدة التى تنير نصف الكرة الأرضية ، ثم تنير النصف الثانى من بعد غروبها عن النصف الأول، فيتميز النهار بالضوء، ويتميز الليل بالظلمة، ومعنى النور فى الحسيات أنه شعاع يجعل الإنسان يرى ما حوله؛ حتى يستطيع أن يتحرك فى الحياة دون أن يصطدم بالأشياء المحيطة به.

ولكن إن كانت الدنيا ظلاما فسيصطدم الإنسان بما حوله ، وأمر من اثنين: إما أن يكون الإنسان أقوى من الشىء الذى اصطدم به فيحطمه، وإما أن يكون هذا الشىء أقوى من الإنسان فيصاب الإنسان إصابة تتناسب مع قوة الشىء الذى اصطدم به. والذى يحميك من أن تحطم أو تتحطم هو النور الذى تسير على هداه.

إذن فساعة أن يأتى النور ، تتضح أمامك معالم الدنيا، وتكون خطاك على بينة من الأمر؛ فلا ترتطم بما هو أضعف منك فتحطمه، ولايرتطم بك ماهو أقوى منك فيحطمك، هذا هو النور الحسى، وأكبر مافيه نور الشمس الذى يستفيد منه كل الخلق، المؤمن والعاصى، والكافر والمشرك ، والمسخر من حيوان أو نبات أو جماد، وهذا النور نعمة عامة خلقها الله سبحانه وتعالى بقانون الربوبية الذى يعطى النعم لجميع خلقه فى الدنيا سواء من آمنوا أم لم يؤمنوا[1].

فإذا غابت الشمس نجد كل واحد منا يستعين بنور يعطيه الضوء فى حيز محدود وعلى قدر إمكاناته؛ فواحد يوقد شمعة، وواحد يأتى بمصباح «جاز» صغير، وواحد يستخدم الكهرباء فيأتى بمصباح «نيون»، وواحد يأتى بالعديد من مصابيح الكهرباء ليملأ المكان بالنور ، كل على قدر إمكاناته، فإذا طلعت شمس الله فهل يبقى أحد على مصباحه مضاء ؟ إن الجميع يطفئون مصابيحهم لأن شمس الله قد سطعت تنير للجميع، ذلك هو النور الحسى.

---

(١) عن عبدالله بن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله قسم بينكم أخلاقكم ،كما قسم بينكم أرزاقكم ،وإن الله عز وجل يعطى الدنيا من يحب ومن لا يحب ولا يعطى الدين إلا لمن أحب » .
أخرجه أحمد فى مسنده (١/ ٣٨٧) والحاكم فى مستدركه (١/ ٣٣) (٢/ ٤٤٧) (٤/ ١٦٥) وصححه ووافقه الذهبى وعزاه الهيثمى فى مجمع الزوائد (١٠/ ٢٢٨) لأحمد وقال : رجاله وثقوا وفى بعضهم خلاف .

والفرق بين نـور بقدرات الإنسان ونور من خلق الله يتمثل فى أن النـور الذى من خلق الله يطفىء المصابيح كلها لأنه يغمر الجميع.

وفى المعنـويات نـور أيضا فـالنـور المعنوى يهديك إلى القيم حتى لاتـرتطم بالمعنـويات السافلة التى قـد تقابلك فى مسيرة الحياة، إذن فكل مايهـــدى إلى طريق الله يســمى نورا. ونجد الحق سبحانه وتعالى يقول:

﴿ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴾ [المائدة: ١٥]

إنه نور المنهج الذى ينير لنا المعنويـات، وينير لنا القيم؛ فلا يحقد أحدنا على الآخر، ولايحسد أحدنا الآخر، ولايرتشى أحد. ويرعى كل منا حقوق غيره.

وإذا كـانت التجـربـة قـد أثبتـت أن نـورا من خلق الله وهـو الشمس، إذا سطعت فالجميع يطفئون مصابيحهم. فكـذلك إذا ما جاء نور الهداية من الله سبحانـه وتعالى فيجب أن تطفأ بقية الأنـوار من مقترحات أفكار البشـــر، فلا يأتى أحد بفكر رأسمالى ، أ و يأتى آخر بفكر شيـــوعى، أو ثالث بفكر وجودى، لأن كل هـذه القيم تمثل أهواء متنـوعة من البشر، وتعمل لحسـاب أصحابها، أمـا منهج الله تعالى فهـو لصالح صنعـة الله وهم البشـر جميعا، فلا يحاول أحد أن يضـــع قيما للحياة تخـالف منهـج الله ؛ لأنَّ الله قـد بيَّـنَ لنا منهـــج العبادة ومنهج القيم، لذلك لا يصح أن يأتى إنسان بشـرع يخالف تعاليم الله.

ونقول لأصحاب الهوى فى المذاهب والعقائد المخـالفة لمنهج الله جميعا: لماذا لاتقيسـون الأمـــور الماديـة على الأمـور المعنـويـــة؟ لماذا إذا سطعت شمس الله تطفئون مصابيحكم، ولايحاول أحـد أن يوقد مصباحا ليهـديه فى نور الشمس؟. إذن. فما دام سبحانه وتعـالى قد أنزل نور الهدى منه فـلا بد أن نطفىء جميعا مصـابيح الأفكار القـائمـة على الهوى، ونأخـذ النور كلـه من منهج الله القـويم والصالح لكل زمان ومكان، كما نأخذ النور فى النهار من شمس الله.

وعلى الرغم من أن الله سبحانه وتعالى قد أعطانا التجربة الحسية التى لايختلف فيها اثنان، إلا أننا رفضنا أن نطبق هذا على منهج الله؛ وهو النور الذى أهداه لنا سبحانه وتعالى ليبين لنا الطريق، وأبى بعضنا إلا أن يأخذ من ظلمات العقل البشرى المحدود مايعطيه طريقاً معوجاً فى الحياة ،فامتلأت الدنيا بالشقاء والفساد ،ونسينا أن السبب فى ذلك أننا تركنا نور منهج الله عزوجل الذى يعطينا الحياة الآمنة الطيبة، ووضعنا لأنفسنا مناهج سببت التعاسة والفساد فى الكون.

ويقرب لنا الحق سبحانه وتعالى الأمر فى مثل مادى عن معنى نور الله فيقول سبحانه وتعالى:

﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ [النور: ٣٥]

أى : أن نوره سبحانه وتعالى يملأ السموات والأرض، وأنه يحيط بكل جوانب الحياة على الأرض فلا يترك جانبا منها مظلما، وقال جل جلاله:

﴿ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ ﴾ [النور: ٣٥]

والمشكاة[1] هى «الطاقة المسدودة بالحائط»، وهى عبارة عن مكعب مفرغ فى البناء داخل كل حجرة وكان أهل الريف يضعون فيها المصابيح لتنير، واستبدله أهل الريف والبادية حاليا بـ«رف» صغير يوضع عليه المصباح، ودائرة صغيرة يخرج منها النور، ولأن ضوء المصباح مركز فى هذه الفتحة، فهى تمتلىء بالنور الذى بدوره يشع فى الحجرة. وحيز المشكاة بالنسبة للحجرة التى توجد فيها قليل وصغير ، والنور الذى يخرج منها ، هو نور مركز يملأ الدائرة التى يخرج منها فلا يوجد فيها «ملليمتر» واحد مظلم، بل كلها نور، وإلا ما استطاع ضوءها أن ينير الحجرة. لأن هذا النور قبل أن يضىء الحجرة ؛ لابد أن يكون

(١) «المشكاة» كوة فى الحائط غير نافذة يوضع فيها المصباح ، وما يحمل عليه أو يوضع فيه القنديل أو المصباح وفى التنزيل العزيز (كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ) [المعجم الوسيط الجزء الأول ص ٤٩٢]

مركزا بأعلى درجة من التركيز فى الدائرة التى يخرج منها.

إذن فنور الله سبحانه وتعالى فى السموات والأرض نور شامل عام لايدع مكانًا مظلماً. ولامكاناً يختفى فيه شىء بسبب الظلام، تماما كمثل تلك الدائرة الصغيرة التى يشع منها نور المصباح فلا تجد فيها ملليمترا واحدا من الظلام، وقد سمى ما يعطى النور مصباحا ؛لأنه يعطينا بشائر الصبح. ثم يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ﴾ [النور: ٣٥]

ونحن إذا أردنا أن نكثف النور فإننا نحيطه بالزجاج، ليحجب عنه الهواء الذى قد يؤثر على النور ويمنع تركيزه، والزجاجة التى تحيط بالمشكاة عاكسة للنور، وهذا كله يعطينا معنى للتكثيف والتركيز داخل المشكاة .ثم ينتقل المثل من بعد ذلك إلى الحجرة، فيقول الحق :

﴿ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ ﴾ [النور: ٣٥]

أى : أن الزجاجة ليست عادية، ولكنها مضيئة بنفسها لتزيد النور نوراً. ومن أى شىء يوقد هذا المصباح؟ يجيب الحق سبحانه وتعالى :

﴿ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ ﴾ [النور: ٣٥]

أى :أن الشجرة المباركة ليست زيتونة فقط؛ ولكنها ﴿لَاشرقِيةٍ وَلاَغَرْبِيَّةٍ﴾ أى أن النور يخرج منها غير متأثر بمزاج حار أو بارد بل يخرج منها النور الصافى فى مزاج معتدل، وقد أطلقت كلمة «النور الصافى» على آخر مرحلة من مراحل الترقى فى الضوء. ومراحل الترقى بدأت من مشكاة ضيقة فيها مصباح غير عادى، والمصباح فى زجاجة غير عادية بل تكثف الضوء، فتظهر وكأنها كوكب درى مضىء بذاته، والزيت الذى يضىء يخرج من زيتونة مباركة، بأعلى

درجات النقاء. ثم يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ﴾ [النور: ٣٥]

أى :أن كل شىء مضىء بذاته، ويضيف من قوة الضوء للنور، فالدائرة الصغيرة مضيئة؛ يزيد نورها زجاجة تكثف النور، والزجاجة ذاتها مضيئة فتعطى إضافة، والزيت مبارك ليست فيه أية شوائب فيعطى ضوءا ساطعا، وفوق ذلك كله تجد الزيت مضيئاً بذاته، دون أن تمسه النار، فكأنه نور على نور، فلا يصبح فى هذه الدائرة الصغيرة أى نقطة مظلمة، كذلك تنوير الله لكونه المتسع فلا توجد فيه نقطة واحدة مظلمة، بل كله مغمور بنور الله ، وإياك أن تظن أن هذا القول : ﴿الله نور﴾ هو تشبيه لله، بل هو تشبيه لتنوير الله سبحانه وتعالى لكونه الذى يشمل السموات والأرض وما بينهما.

وهناك قصة مشهورة للشاعر أبى تمام حين كان يمتدح أحد[1] الخلفاء فقال:

إقدام عمرو[2] فى سماحة حاتم[3] فى حلم أحنف[4] فى ذكاء إياس[5]

وهكذا جاء الشاعر بأولئك الذين اشتهروا بالإقدام والشجاعة كعمرو، وبالسماحة والكرم كحاتم ، وبالحلم كأحنف بن قيس، وبالذكاء كإياس، وقال الشاعر ممتدحا الخليفة : إنك قد جمعت كل هذه الصفات، التى لم تجمع فى واحد من خلق الله من قبل.

(١) أحمد بن المعتصم .
(٢) عمرو بن معدى كرب الزبيدى فارس اليمن .
(٣) حاتم الطائى المشهور بالكرم .
(٤) هو الأحنف بن قيس من سادات التابعين وكان شهما ومشهورا بالحلم .
(٥) كان قاضى البصرة ويضرب به المثل فى الفطنة والذكاء .

ولكن أحد المحيطين بالخليفة قال: كيف تمدح الأمير بصفات موجودة فى رعاياه، والأمير فوق كل ما وصفت، فهو أشجع من عمرو، وأكرم من حاتم، وأحلم من أحنف، وأذكى من إياس.

وأعطى الله الشاعر بصيرة ليرد على ارتجال ويقول:

لا تنكروا ضربى له من دونه مثلا شرودا فى الندى والباس

فالله قد ضرب الأقل لنوره مثلا من المشكاة والنبراس

أى :أن الشاعر قال مثلا فقط وليس تحديدا.

والحق سبحانه وتعالى قال:

﴿ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ﴾ [النور: ٣٥]

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ [النور: ٣٥]

أى أن كل شىء مضىء بذاته ليضيف نورا على النور الموجود، فكما أن الماديات تحتاج إلى نور يضىء لك الطريق، كذلك تحتاج المعنويات إلى نور يضىء لك البصيرة والسلوك ، فخذ منهج الله تعالى لأنه النور الساطع الذى لا يمكن أن يضىء مثله ولا معه نور آخر، وإذا أردنا أن نقرب الصورة إلى الأذهان، فالله سبحانه وتعالى قال للقوم الذين يستمعون إلى دعوة رسوله ﷺ :

﴿يَأيهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال: ٢٤]

والذين يخاطبهم الله سبحانه وتعالى بهذا الكلام أحياء، فكيف يقول لهم : ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ ؟ .

نقول : إنه سبحانه وتعالى يريدنا أن نفرق بين حياة وحياة. فالحياة المادية

المتمثلة فى الحس والحركة والجرى، هى الحياة الدنيا بأجلها المحدود، وإمكاناتها البسيطة، ولأنها حياة أغيار؛ لا تبقى فيها النعمة ولا تدوم لأحد، بل كل إنسان فيها إما أن تفارقه النعمة بالزوال ، وإما أن يفارقها هو بالموت، وهذه ليست هى الحياة التى يريد الله من الإنسان أن يعمل لها وحدها . أو يسعى ليتمسك بها. فبسببها يفعل كل ما يستطيع لكى يأخذ منها حلالا أو حراما، ولكن الحياة التى يطالب الله سبحانه وتعالى عباده أن يعملوا لها هى الحياة المستقيمة الحركة على منهج الله وتقود إلى حياة آخرة فيها نعيم لايفارقك ولا تفارقه، وفيها أبدية تبقى ولا تنتهى، وفيها نعم عظيمة تأتى بقدرة الله تعالى، وليس بقدرة البشر المحدودة.

إذن فقوله سبحانه وتعالى :

﴿ اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال: ٢٤]

معناه أن الحياة حياتان؛ حياة تحرك هذه المادة ؛ فتتحرك وتجرى وتروح وتجىء، وهى تنصلح بالمنهج الذى يقود إلى حياة أخرى فوق الحياة الدنيا.

إذن فالحياة الدنيا بما فيها من سعى وتعب وجهد وفناء ليست هى الغاية التى يجب أن يسعى إليها الإنسان، بل على الإنسان أن يسعى إلى الحياة الأرقى. وسبحانه لا يريدنا أن نأخذ المرحلة الأولى من الحياة التى تحرك المادة فتتحرك وتجرى، بل يريد لنا حياة تقودنا بالقيم، وإذا كان الحق سبحانه وتعالى قد قال عن الحياة التى تحرك المادة:

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٧٢) ﴾ [ص]

فهذه حياة المرحلة الأولى التى لا يريدنا الله سبحانه وتعالى أن نأخذها كغاية، ولكنه يريدنا أن نأخذها وسيلة لنصل بها إلى الحياة الراقية فى كل صورها الخالدة بكل معانيها؛ المنعَّمة فى كل درجاتها. وكما سمَّى الحق سبحانه

وتعالى الروح التى تنفخ فى المادة فتعطيها المرحلة الأولى من الحياة روحاً ، فإنه كذلك سمَّى المنهج الذى يعطينا المرحلة الثانية من الحياة روحا ،حيث يقول :

﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِى مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِى إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٢) ﴾ [الشورى]

هذه هى روح المنهج التى تعطينا المرحلة الثانية من الحياة. فإن أخذنا نور الهداية من الله سبحانه وتعالى فهو ينير لنا طريقنا فى القيم والمعنويات، تماما كما تنير لنا شمس الله طريقنا فى الحياة المادية. إذن فالحق لم يترككم للنور المادى ليحافظ على ماديتكم من أن تحطموا أو تتحطموا، وإنما أرسل إليكم نورا لتهتدوا به فى مجال القيم .

يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ﴾ [النور: ٣٥]

ولم يقل سبحانه: «نور مع نور» ؛ لأن الإنسان لا يُكَلَّفُ من الله إلا بعد أن يصل إلى سن البلوغ[1] ، فالنور المادى يراه ويستفيد به قبل التكليف، ثم يأتى النور المعنوى فيتلقاه من الكتاب الذى أنزل على رسول الله عندما يبلغ سن التكليف فيتعرف على منهج الله.

﴿ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ ﴾ [النور: ٣٥]

فلا يحجب الحق سبحانه وتعالى نور الشمس عن أحد ؛ لأنه نور لكل الخلق، وكذلك أنزل سبحانه وتعالى نور الهداية ليختاره كل من التمس الطريق

(١) عن على رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «رفع القلم عن ثلاثة: عن الصغير حتى يبلغ، وعن النائم حتى يستيقظ ، وعن المصاب حتى يكشف عنه» أخرجه أحمد (١/ ١١٦) وأبوداود (٤٣٩٩ - ٤٤٠٣) من طرق عن على، والحاكم فى مستدركه (١/ ٢٥٨) وصححه وأقره الذهبى.

إلى الهداية، وهذا النور المعنوى يختلف عن النور المادى، فالحق لم يحرم - إذن - أحدا من النور المادى، وشاء أن يجعل النور المعنوى ضمن اختيارات الإنسان؛ إن شاء آمن واهتدى، وإن شاء ضل. وكل ذلك مجرد مثل من الأمثال التى يضربها الله تعالى للناس ؛ لذلك قال عز وجل:

﴿ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [النور: ٣٥]

وجاءت الآية التى بعدها لتوضح لنا أين ينزل نور الله على عباده؛ فقال سبحانه وتعالى:

﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ ﴾ [النور: ٣٦]

وعندما تسمع جارا ومجرورا لا بد أن تبحث عن المتعلق بهما، فما الذى فى بيوت الله؟ إنك حين تبحث عن إجابة لن تجدها إلا فى قوله تعالى:

﴿ نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ ﴾ [النور: ٣٥]

فكأن المساجد وهى بيوت الله هى أماكن تلقى النور المعنوى من عند الله سبحانه وتعالى ، وهو النور الذى يعطينا ارتقاء الروح ؛ لنصل إلى المرحلة الثانية من الحياة ، تماما كما يحدث فى الدنيا عندما تصاب آلة بعطب أو لاتؤدى مهمتها على الوجه الأكمل، فالذى يصلحها ويصونها لتؤدى مهمتها المطلوبة منها هو المهندس الذى صنعها . والله سبحانه وتعالى هو الذى خلق الإنسان ، فلا أحد يستطيع أن يدعى مهما اجترأ على الله سبحانه وتعالى أنه خلق نفسه أو خلق الناس. وهذه دعوى لم يدَّعِهَا أحد قط.

وما دام الله عز وجل هو الذى خلق، إذن فهو سبحانه وتعالى الذى يضع المنهج الذى يصون حياة الناس ويجعلها تؤدى مهمتها كاملة. ومادام ربنا هو الذى يخلق ويرزق، ويحيى ويميت، فكيف يأتى إنسان من البشر ليفتئت[1] على

(١) يفتئت : يقول الباطل ويختلقه .

الحق سبحانه وتعالى ويقول : إنه وضع منهجا لحياة البشر، ويعلم الإنسان ما يفسد حياته لا ما يصلحها. ونقول لكل من يفعل ذلك: لماذا تلجأ إلى من يصنع التليفزيون ليصلح لك الجهاز إن أصابه عطل، ولماذا لا تلجأ إلى صانعك الذى يصلح لك نفسك؟

إن تردد المسلم على بيت الله ليكون فى حضرة ربه دائما هو إصلاح لما فى النفس، فحين يقف المؤمن بين يدى الله ويصلى، يمتلىء بالرضا والتوازن النفسى ؛ لأن الواحد منا لا يعرف ما الذى يصيب أى ملكة من ملكاته بالارتباك.

ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا حزبه أمر يقوم إلى الصلاة[1]، وما معنى حزبه أمر؟ . أى :إن جاءه شىء أو أمر ، وكان فوق طاقته. وفوق أسبابه، ولا يستطيع أن يفعل شيئا تجاهه، وتضيق عليه الأمور . فلماذا لا يتبع الواحد منا رسول الله صلى الله عليه وسلم كأسوة حسنة ، فإن قابل أمرا مكروها وشاقا يقول : إن لى ربا أذهب إلى بيته وأصلى فأقف فى حضرته، فتحل أصعب وأعقد المشكلات . إذن فساعة يأتينا أمر شديد ، لا بد أن نتجه إلى الله عز وجل . وأفضل مكان نلتجىء فيه إلى الله تعالى هو بيته . فقد كان صلى الله عليه وسلم إذا كانت ليلة ريح شديدة كان مفزعه إلى المسجد حتى تسكن الريح ، وإذا حدث فى السماء حدث من خسوف شمس أو قمر كان مفزعه إلى الصلاة حتى تنجلى [2]

وبعض من الذين يحترفون الجدل واللجاجة يقول: ماذا سيفعل الله لى أولذلك الذى يعانى من شىء فوق طاقته؟ لقد دخل المسجد وخرج كما هو؟ ونقول: هذا الظاهر من الأمر، ولكنك لا تعرف ماذا حدث فى داخله، أنت تتحدث عن العالم المادى الذى فيه العلاجات المادية، ولكن الله سبحانه وتعالى

(١) عن حذيفة قال :« كان النبى ﷺ إذا حزبه أمر صلى». أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٥/ ٣٨٨) وأبو داود فى سننه (١٣١٩) .

(٢) أورده الهيثمى فى مجمع الزوائد (٢/ ٢١١) وعزاه للطبرانى فى الكبير من رواية زياد بن صخر عن أبى الدرداء وقال: «لم أجد من ترجمه وبقية رجاله ثقات».

يعالج داخل النفس دون أن تحس أنت لأن المساجد هى مطالع أنوار الله تعالى وهى التى يتنزل فيها النور على النور الذى يُصلح الحياة الدنيا ويرتقى بها ؛لأن أنوار الله تدخل القلوب فتجعلها تطمئن، وتدخل النفوس فتجعلها تحس بالرضا والأمن.

إذن فالمساجد لها مهمة العيادة للطبيب[1] الخالق الذى خلق هذه النفس ويعرف كيف يداويها، وليس للطبيب الدارس فى كلية الطب الذى يعرف أشياء وتغيب عنه أشياء. ونحن فى المساجد إنما نعيش فى حضرة الحق تبارك وتعالى نتلقى منه التجليات والفيوضات التى تعالج نفوسنا أكثر مما يعالجها أبرع أطباء العالم ، على أننا إذا دخلنا المسجد فلنعرف أن لهذا المكان قدسيته، ولابد أن يحرص الإنسان على نظافته ومظهره، ولنرتد أحسن ثيابنا ؛لأن الله لاينظر إلى نظافتنا أو أناقتنا، ولكن ليحرص كل منا على ألا يتأفف منه من يصلى بجانبه؛ فمن يعمل فى مصنع ويحضر إلى المسجد بملابس العمل قد لاتتناسب ملابسه مع المجىء إلى المسجد إلا بعد أن يغتسل؛ إن ملابسه شرف له فى عمله، ولكن عليه أن يغيرها حين يذهب إلى المسجد،[2] ومن يعمل فى مكتب قد يكون الجو حارا أو امتلأ جسده بالعرق، وملابسه التى يوجد بها فى وظيفته هى شرف له فى عمله، ولكن عليه أن يغتسل، وأن تكون رائحته طيبة حين يدخل المسجد. ولذلك نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم من أكل ثوماً أو بصلاً أن يأتى المسجد حتى لا يتأذى أحد بالرائحة التى تصدر من فمه . وقال صلى الله عليه وسلم فى حديثه الشريف الذى يرويه جابر رضى الله عنه: « من أكل ثوماً أو بصلاً فليعتزلنا أو فليعتزل مسجدنا »[3] .

(١) تعبير «الطبيب الخالق» الذى استخدمه فضيلة الشيخ الشعراوى هنا هو تعبير استخدمه رسول الله ﷺ، وذلك فى حديث أبى رمثة رضى الله عنه قال: انطلقت مع أبى نحو النبى ﷺ فإذا هو ذو وفرة بها ردع حناء وعليه بردان أخضران فقال له أبى : أرنى هذا الذى بظهرك فإنى رجل طبيب. قال: «الله الطبيب، بل أنت رجل رفيق ، طبيبها الذى خلقها».

(٢) وقد جاء بهذا حديث رسول الله ﷺ فعن عائشة قالت: إن الناس كانوا عمال أنفسهم، وكانت ثيابهم النمار (جلود النمور) فكانوا يروحون فى مهنتهم كما هى ، فقال رسول الله ﷺ: «لو اغتسلتم وما على أحدكم أن يتخذ ليوم الجمعة ثوبين سوى ثوبى مهنته». أخرجه أحمد فى مسنده (٦/ ٦٣) والبخارى (٢٠٧٠) وابن ماجه (١٠٩٦) واللفظ تاما لابن ماجه.

(٣) متفق عليه. أخرجه البخارى فى صحيحه(٨٥٥) ، ومسلم ، (٥٦٤) من حديث جابر بن عبدالله.

وفى رواية لمسلم: «من أكل البصل والثوم والكرات فلا يقربن مسجدنا، فإن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم» [١] . ولذلك على المسلم أن يحرص أن تكون الإقامة فى المسجد طيبة، لتكون الأفئدة منشرحة. ويجب أن نراعى جلال المسجد ؛ لأننا نعرف أن الرحمات تتنزل على الصف الأول ثم الذى يليه[٢] ، فلا يحاول واحد منا أن يحجز مكاناً بالصف الأول بأن يضع فيه سجادة خاصة أو كوفية، ثم يأتى أحيانا بعد إقامة الصلاة ويحاول اقتحام الصفوف ليصل إلى الصف الأول.

وإياك أن تعتقد أن الصف الأول محجوز لشخص معين ولو أتى متأخرا، فكل إنسان يأتى للمسجد عليه أن يأخذ دوره، ويقعد فى المكان الخالى. وإياك أن تعتقد أن الله سبحانه وتعالى لا يعرف الذين يتكوَّن منهم الصف الأول ، إنهم هؤلاء الذين جاءوا للمسجد أولا. أما أن تحضر إلى المسجد وتحجز مكاناً فى الصف الأول لصديق أو قريب بحيث إذا جاء إنسان آخر ليصلى فى هذا المكان قلت له : إن المكان محجوز. نقول لك: أنت حر أن تفعل ذلك فى بيتك، ولكن من جاء إلى بيت الله أولا فليجلس أولا، وكثيرا ما تحدث مسألة الحجز للأماكن فى مواسم الحج والعمرة. وعلى من يجد مكاناً قد حُجِزَ بسجادة أو أى شىء آخر أن يزيحها بعيدا ويصلى.

وأنت فى بيت الله تكون فى ضيافة الله. وأنت تعلم أنه إن جاءك أحد فى بيتك على غير دعوة فأنت تكرمه، فإذا كان المجىء على موعد فكرمك يكون كبيرا. فما بالنا بكرم من خلقنا جميعاً؟

إن الحق سبحانه وتعالى يجزيك من فيض كرمه من ساعة أن تنوى زيارته فى بيته، فأنت فى صلاة منذ أن تبدأ فى الوضوء فى بيتك استعداداً للصلاة فى المسجد؛ لأنه سبحانه وتعالى يريد أن يطيل عليك نعمة أن تكون فى حضرته.

---

(١) أخرجها مسلم فى صحيحه (٥٦٤) كتاب المساجد.

(٢) عن أبى أمامة قال قال رسول الله ﷺ: «إن الله وملائكته يصلون على الصف الأول ، قالوا : يا رسول الله وعلى الثانى؟ قال : وعلى الثانى». أخرجه أحمد (٥/ ٢٦٢) والطبرانى فى المعجم الكبير(٨/ ٢٠٥). قال الهيثمى فى المجمع (٢/ ٩١): «رجال أحمد موثقون».

وسبحانه وتعالى حين يدعونا إلى بيته بالأذان، فلك أن تعلم أنك إن خالفت هذه الدعوة تعاقب[١] ، ولكن ليس معنى هذا أن الله لم ييسر لك بيته لتزوره فى أى وقت. فهذه الدعوة بالأذان للصلاة تمثل الحرص من الله سبحانه وتعالى على أن يلقاك ليعطيك من فيوضاته ما تستعين به على مكدرات الحياة. ولكن إن أحببت أن تجلس فى المسجد قبل الصلاة أو بعدها فافعل. تعالَ فى أى وقت وصلِّ كما تشاء، فإذا قلت: «الله أكبر» تكون فى حضرة الله . وإن لم تستطع فصلواتك الخمس فى اليوم الواحد هى القسط الضرورى لصيانة نفسك المؤمنة ؛ لأنك تقابل ربك أثناء الصلاة وتعلن الولاء له .

فالصلاة إذن خير أراده الله لك حتى لا تأخذك أسباب الحياة، وأراد سبحانه بها أن تفيق إلى منهجه الذى يصلح بالك، ويصلح الدنيا لك وبك فلا تأخذك الأسباب، بل تأخذ أنت بالأسباب. وحين تسمع «الله أكبر» ينادى بها المؤذن لصلاة الظهر ـ مثلا ـ فعليك أن تترك أسباب الدنيا وتذهب لتقف بين يدى الله عز وجل، ثم تخرج من الصلاة إلى الأخذ بالأسباب إلى أن تسمع أذان العصر، ثم أذان المغرب، ثم أذان العشاء، وكل هذا تذكير لك بالله الخالق العظيم حتى لا تشغلك الدنيا فتنسى أن صيانة نفسك بيد خالقك سبحانه. وأطول فترة بين العشاء والفجر نكون فيها نائمين فلا يأخذنا متاع الدنيا.

إذن فالله سبحانه وتعالى يريد منا الولاء دائما. فإذا كنت تعتز بالله فأنت تديم الولاء له باستمرار الصلاة، وأنت حين تسجد لله وتتذلل له، فإنه سبحانه يزيدك عزة[٢] ويكون معك دائما، ويقيك ذل الدنيا.

(١) عن ابن عباس رضى الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ: «من سمع النداء فلم يأته فلا صلاة له إلا من عذر». أخرجه ابن ماجة فى سننه (٧٩٣) والدار قطنى فى سننه (١/ ٤٢٠) والطبرانى فى معجمه الكبير (١١/ ٤٤٦) بسند صحيح.

(٢) عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ أن النبى ﷺ قال: «عليك بكثرة السجود لله، فإنك لاتسجد لله سجدة إلا رفعك الله بها درجة وحط عنك بها خطيئة» أخرجه مسلم فى صحيحه (٤٨٨) وأحمد فى مسنده(٥/ ٢٧٦). وأخرجه ابن ماجه فى سننه (١٤٢٣) بلفظ «ما من عبد يسجد لله سجدة» الحديث.

وقلنا قديما: إن الإنسان إذا ماأراد أن يقابل عظيما من العظماء فهو يطلب المقابلة، وقد يقبل هذا العظيم مبدأ اللقاء وقد لا يقبل، فإن قبل حدد اليوم والساعة والمكان وفترة الزيارة. فإن أردت أن تطيل فهو يقوم واقفاً إعلاناً بأن الزيارة قد انتهت.

ولكن الحق سبحانه وتعالى بمطلق الكرم لا يعامل خلقه هكذا، فبيته مفتوح دائما حين يدعوك للصلوات الخمس، فهذا أمر ضرورى، ولكن بين الصلوات الخمس إن أردت لقاء الله فسبحانه يلقاك فى أى وقت وتدعوه بما تشاء، وتطيل فى حضرته كما تريد، ولايقول لك أحد: إن الزيارة قد انتهت. وأذكركم دائما بقول الشاعر:

حَسْبُ نفسِى عِزًّا بأنِّى عَبْدٌ
يَحْتفِى بِى بلا مَواعِيد ربُّ
هُوَ فى قُدْسِهِ الأعزِّ ولكِنْ
أنَا أَلقَى متَى وأينَ أُحبُّ

●●●

ونعود إلى قول الحق سبحانه وتعالى:

﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ١٧]

لأن المساجد مخصصة لعبادة الله تعالى، فمن غير المنطقى أن يبنيها أو يجلس فيها مشرك أو كافر، وقوله تعالى: «ما كان» أى ما ينبغى، وقوله تعالى: ﴿شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ﴾ أى هم الذين يشهدون على أنفسهم بالكفر؛

فشهادتهم بالحال، وبالمقال. كما نشهد على أنفسنا بالإيمان حين نلبى فى الحج والعمرة ونقول: لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، أى أننا ننزه الله تعالى عن الشرك.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾، و﴿أُولَئِكَ﴾إشارة إلى المشركين الذين شهدوا على أنفسهم بالكفر، وحكم الله ألا يعمروا مساجد الله، و﴿حَبِطَتْ﴾ أى نزلت من مستوى عال إلى مستواها الحقيقى دون مستواها الشكلى، فتجد العمل وكأنه منفوخ كالبالون الضخم، وهو فى حقيقته مجرد فقاعة ضخمة ما تلبث أن تنكمش أو تسقط، فهى أعمال لا قيمة لها، وليس لها حصيلة ؛ لأنها أعمال باطلة. ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤)﴾ [الكهف]

وتجد الواحد من هؤلاء يظل يعمل ويعمل، ويظن أنه سوف يجنى خيراً كثيراً من هذا العمل، وقد يكون العمل مفيداً لغيره من الناس. ولكنه افتقد النية، ففسد نتيجة لذلك. والقرآن الكريم يعرض لحبوط الأعمال فى آيات كثيرة والمثال هو قول الحق تبارك وتعالى:

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ﴾ [النور: ٣٩]

والسراب هو ما يخيل إليك بلمعانه أنه ماء فى الصحراء. وعندما تذهب إليه لا تجد شيئا. والذى لا يحس بالظمأ قد لا يلتفت إلى ذلك. ولكن الظمآن تتعلق نفسه بالماء، فيجيل بصره فى كل مكان يبحث عنه، فإذا رأى أى لمعان حسبه ماء، وعندما يجىء إليه لا يجد شيئاً، وليت الأمر يقتصر على ذلك، بل هو

يجد الله عنده ليوفيه الحساب. ومثل هذا الانسان لم يضع الله فى باله يوماً من الأيام، وليس لمثل هذا الإنسان عند الله تكريم أو ثواب. لأن الإنسان يطلب أجره ممن عمل له، وهو لم يعمل عمله وفى باله الله.

وأنت إذا صنعت معروفاً تقصد به وجه الله عز وجل جزاك الله عنه خيرا، ولكن إن عملت معروفا لتحقق به مصلحة دنيوية خاصة بك أو تأخذ به شهرة فلا جزاء لك عند الله، ولابد أن يصنع الإنسان المؤمن كل عمل وفى باله الله خالقه والمتفضل عليه بالنعم، فإن أطعمت فقيرا فلتطعمه لوجه الله، وعليك ألا تفعل المروءة من أجل أن يقال عنك : إنك صاحب مروءة. ومن يفعلون الخير عليهم أن يحرصوا على أن يكون الله عز وجل فى بالهم، لا أن ينالوا شهرة من هذا الخير، وألا يأتى منهم خبر هذا الخير لا بمقال ولا بحال.

وعلى سبيل المثال تلك اللافتات التى توضع على المساجد بأسماء من قاموا بتأسيسها. فمن بُنِى من أجله المسجد وهو الله عليم بكل شىء، ويعلم اسم من أقام البناء ، وعليك أن تسميه بأى اسم لا يمت لك بصلة، حتى لاتدخل فى دائرة «عملت ليقال وقد قيل ». وحتى المقاتل الذى يحارب بين صفوف المؤمنين عليه أن يعقد النية لله، لا أن يقاتل من أجل أن يقال إنه شجاع ، لأنه إن فعل، حبط عمله وكان من الخاسرين لأن عمله قد شابه الرياء والسمعة.

ويبين الرسول صلى الله عليه وسلم جزاء المرائين فى حديثه الشريف الذى يقول فيه عليه الصلاة والسلام : «أول الناس يقضى لهم يوم القيامة ثلاثة : رجل استشهد فأتى به فعرَّفه نعمه فعرفها قال : فما عملت فيها ؟ قال : قاتلت فيك حتى استشهدت . قال: كذبت ، ولكنك قاتلت ليقال فلان جرىء ، فقد قيل ، ثم أُمِر به فسُحِبَ على وجهه حتى ألقى فى النار ، ورجل تعلم العلم وعلَّمه وقرأ القرآن فأُتى به ، فعرَّفه نعمه فعرفها ، قال: فما عملت فيها ؟ قال :

تعلمت العلم وعلّمته ، وقرأت فيك القرآن ، قال : كذبت ، ولكنك تعلمت العلم ليقال : عالم، وقرأت القرآن ليقال قارىء فقد قيل ، ثم أُمِر به فسُحِب على وجهه حتى ألقى فى النار، ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله ، فأتى به فعرفه نعمه فعرفها فقال : فما عملت فيها ؟ قال :ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك ، قال : كذبت، ولكن ليقال ؛ إنه جواد فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه فألقى فى النار»[(١)] .

وعلى ذلك فالإنسان إن لم يضع الله فى باله وهو يعمل فسوف يجد الله يحاسبه على أساس أن عمله غير مقبول.

ويقول الحق سبحانه وتعالى فى آية ثانية:

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لاَّ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ﴾ [إبراهيم: ١٨]

ولك أن تتصور ماذا تفعل العاصفة فى الرماد ؛ إنها لا تبقى منه شيئاً. والمشرك الذى كان يدخل المسجد ويسقى الناس من عصير العنب غير المخمر، ويقوم بعمارة المسجد الحرام قبل تحريم الله لدخول أمثاله إلى هذا المكان ، هذا المشرك لم يكن ليأخذ ثواباً ؛ لأنه ارتكب خيانة عظمى بأن أشرك بالله ، بينما يأخذ المؤمن الثواب لأنه يدخل المسجد ويعمره وهو مؤمن بالله ولا يشرك به شيئاً .

ويقول سبحانه وتعالى بعد ذلك:

﴿ أُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ (١٧) ﴾ [التوبة: ١٧]

لأنهم عملوا لغير الله فلقوا الله بلا عمل . ويقول سبحانه وتعالى بعد ذلك :

(١) أخرجه مسلم (١٩٠٥) وأحمد (٢/ ٣٢٢) والنسائى فى سننه (٦/ ٢٣، ٢٤) عن أبى هريرة ، واللفظ للنسائى.

﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ ١٨

الإيمان : هو إيمان بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، وقمة الإيمان شهادة أن «لا إله إلا الله ،وأن محمداً رسول الله». وكانت هناك حساسية عند أهل قريش من مسألة الرسول هذه، وأنه محمد بن عبدالله، وبعضهم قد قال: القرآن جميل ورائع فلماذا جاء على لسان محمد؟ وكان اعتراض كفار قريش على الرسول صلى الله عليه وسلم بهذا القول الذى حكاه القرآن عنهم :

﴿ لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف: ٣١]

إذن فالمشكلة عندهم لم تكن فى القرآن ذاته، بل كانت فى شخص رسول الله صلى الله عليه وسلم .(١)

ويرد الحق سبحانه وتعالى بقوله:

﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ [الزخرف: ٣٢]

أى أن رحمة الله تعالى خاصة به، لايقسمها إلا هو بمشيئته، يقسمها كيف

(١) ولايطعن فى هذا أن الله عزوجل قد حكى عن مشركى قريش أنهم قالوا : (أجعل الآلهة إلها واحدا) (ص:٥) وأن منهم من (ضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم) [يس :٧٨]، فقد يكون هذا عند بعضهم سترا منه لحقيقة رفضه لشخص الرسولﷺ حسدا من عند نفسه وكبرا.

يشاء كما قسم بينهم معيشتهم وأعطاهم الرزق المادى، وإذا كان المولى سبحانه قد قسم رزقهم فى الأدنى، فكيف يريدون هم أن يتصرفوا فى الأعلى؟ لقد قالوا ماجاء فى القرآن على ألسنتهم:

﴿ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأنفال: ٣٢]

وكان المنطق الصواب أن يقولوا: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه، ولكنهم بغبائهم طلبوا الموت بدلاً من الهداية. فقد كانت عصبيتهم - إذن - ضد شخص الرسول صلى الله عليه وسلم .

وكان على من يعلن إيمانه بالله منهم أن يشهد أن محمداً صلى الله عليه وسلم هو رسول الله.

والحق تبارك وتعالى يقول:

﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ [التوبة: ١٨]

وهذا القول يحمل فى مضمونه إيماناً برسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأن الله يقول بعدها: ﴿وأقام الصلاة﴾ وإقامة الصلاة لا تصح منهم إلا إذا آمنوا برسول الله صلى الله عليه وسلم فهو الذى قال لنا إنها خمس[1]، وهو الذى علّمنا كيف نؤديها وماذا نقول فيها، وهو الذى نشهد له ونحن نصلى؛ فى الإقامة وفى التشهد، إذن فساعة نقيم الصلاة لابد أن نكون مؤمنين برسول الله صلى الله عليه وسلم. وعلى ذلك فقوله تعالى: ﴿وأقام الصلاة﴾ يقتضى ضرورة الإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم. واشترط سبحانه وتعالى فى هذه الآية

(١) عن أنس رضى الله عنه قال: جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال: يارسول الله أخبرنى بما افترض الله علىَّ من الصلاة. فقال: «افترض الله على عباده صلوات خمسا» الحديث أخرجه أحمد (٣/ ٢٦٧) والحاكم فى مستدركه (١/ ٢٠١) وصححه والدار قطنى فى سننه (١/ ٢٢٩).

الكريمة الإيمان به وباليوم الآخر وإقام الصلاة وفى طيها الإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم ثم إيتاء الزكاة، وطلب منا ألا نخشى غيره، والخشية هى الخوف. وسبحانه وتعالى قد قال لرسوله صلى الله عليه وسلم:

﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ﴾ [الأنفال: ٥٨]

إذن فهناك خوف من أشياء أخرى، ونقول : إن الحق حين قال: ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ الله﴾ أى لم يخش فى دينه إلا الله، لكن لامانع من الخشية التى تجعلك تعد لعدوك وتحذر عدوانه عليك. وانظر إلى دقة القرآن الكريم وعظمته، فقد جمع فى آية واحدة بين الإيمان بالله واليوم الآخر والصلاة والزكاة، ولم يأت فيها ذكر الإيمان بالرسول ؛ لأنه مسألة مطوية فى أركان الإيمان. ومن يفعل ذلك يدخل فى زمرة من وصفهم الحق سبحانه وتعالى بقوله:

﴿ فَعَسَىٰ أُوْلَئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴾ [التوبة: ١٨]

ولقائل أن يقول: كيف بعد أن آمنوا بكل هذا نقول: عسى ؟.. إذن فما حكم الذى لم يؤمن؟

ونقول: إن «عسى» و«لعل» أفعال رجاء، وذكرها يعنى الرجاء فى أن يتحقق ما يأتى بعدها، ومراتب الرجاء بالنسبة للنفس وبالنسبة للغير وبالنسبة لله تختلف، أنت تقول مثلاً: اسأل فلاناً لعله يعطيك، هذه مرتبة من الرجاء، وتقول: لعلِّى أعطيك، وهذه أقرب إلى التحقيق من أن أرجو غيرى أن يعطيك.

إذن فهى مرحلة أعلى فى الإجابة، وأن تقول: لعل الله يعطيك مرحلة ثالثة وعالية من الرجاء ؛ لأنك ترجو الله ولا ترجو أحداً من البشر. والله سبحانه

وتعالى كريم يعطى بسخاء. ولكن إذا قال الله سبحانه وتعالى عن نفسه: لعلى أعطيك، فيكون هذا توقعاً مؤكداً للعطاء.

إذن فمراحل الرجاء؛ رجاء لغيرك من غيرك، ورجاء منك لغيرك، ورجاء من الله لسواك، وقول من الله بالرجاء. فإذا قال الله سبحانه وتعالى:

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ﴾ [الإسراء: ٨]

نقول: إنه الرجاء المحقق ؛ لأنه سبحانه وتعالى كريم يحب أن يرحمنا ولاشىء يمنعه من أن يحقق ذلك. إذن فيكون الرجاء قد تحقق. وقوله تعالى:

﴿ فَعَسَىٰ[1] أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴾ [التوبة: ١٨]

والهداية إما أن تكون هداية إلى سبيل يؤدى لغاية، أى يهدينا الله للمنهج، فإن عملنا به نصل إلى الجنة، لأن المنهج هو الطريق للجنة، بدليل أن الله سبحانه وتعالى يقول عن الكفار :

﴿وَلا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا (١٦٨) إِلاَّ طَرِيقَ جَهَنَّمَ ﴾ [النساء: ١٦٨، ١٦٩]

إذن فالهداية مرة تكون للمنهج فنؤمن به ونعمل به، وإما لطريق يوصل إلى غاية. والذين ذكرهم الله فى هذه الآية الكريمة هم كل:

﴿ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّهَ﴾ [التوبة: ١٨]

وما داموا قد فعلوا ذلك؛ فهذا هو تطبيق المنهج، وبذلك فَهُمْ ـ إن شاء الله ـ لابد أن تكون نهايتهم الجنة.

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٢/ ٣٤١) : كل عسى فى القرآن هى واجبة ، وقال محمد بن إسحق : وعسى من الله حق .

ويقول سبحانه وتعالى بعد ذلك :

﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾﴾

جاءت هذه الآية رداً على كفار مكة الذين أسروا فى غزوة بدر، وكان منهم العباس عم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين تحدث إليه بعض من الصحابة يدعونه للإسلام وللجهاد فى سبيل الله فقال: إننا نسقى الحجيج ونرعى البيت ،ونفك العانى، ونقوم بعمارة البيت الحرام.[1] قال العباس ذلك ولم يكن قد أسلم بعد. وماقاله العباس هو موجز رأى أهل الشرك من قريش، الذين جعلوا هذه المسائل مقابل الإيمان بالله والجهاد فى سبيله. وجاء قول الحق ليؤكد أن الكفة غير راجحة فقال: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ﴾.

وكلمة ﴿سِقَايَةَ﴾ تطلق ثلاث إطلاقات : فهى المكان الذى يجتمع فيه الماء ليشرب منه الناس والذى نسميه :السبيل. وكذلك تطلق السقاية :على الإناء الذى نشرب منه الماء، والذى يرفع إلى الفم كالكوب والكأس أويسمى صواع الملك، وفى قصة يوسف عليه السلام يأتى القول الكريم:

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ﴾ [يوسف: ٧٠]

أما المعنى الثالث: فهو الحرفة نفسها؛ فنقول: هذه خياطة ، وهذه حدادة

(١) ويقول ابن كثير: «قال ابن أبى طلحة عن ابن عباس فى تفسير هذه الآية : نزلت فى العباس بن عبدالمطلب حين أسر ببدر قال : لئن كنتم سبقتمونا بالإسلام والهجرة والجهاد لقد كنا نعمر المسجد الحرام ونسقى الحاج ونفك العانى قال الله عز وجل : (أجعلتم سقاية الحاج) إلى قوله : (والله لا يهدى القوم الظالمين) يعنى أن ذلك كله كان فى الشرك ولا أقبل ما كان فى الشرك . تفسير ابن كثير (٢ / ٣٤١) .

وهذه سقاية، أى أنه عمل يتصل بسقاية الناس، فالسقاية - إذن - هى المكان الواسع الذى يتجمع فيه الماء، أو الإناء الذى نستعمله فى الشرب، أو الحرفة التى يقوم بها السقا.

وهنا يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ [التوبة: ١٩]

فإن كنتم تفتخرون بأنكم تحترفون سقاية الحاج، وعمارة المسجد الحرام وتجعلون هذا فى مقابل الإسلام، فذلك لايصلح أبدا كمقابل للإيمان، ولاتتساوى كفة الإيمان بالله واليوم الآخر أبداً مع كفة سقاية الحجيج، وعمارة المسجد الحرام. ومن يقدر ذلك هو الله سبحانه وتعالى، وله مطلق المشيئة فى أن يتقبل العمل أو لايتقبله. والمؤمن المجاهد فى سبيل الله إنما يطلب الجزاء من الله، أما من يسقى الحجاج؛ ويعمر بيت الله دون أن يعترف بوحدانية الله كالمشركين - قبل الإسلام - فهو يطلب الجزاء ممن عمل من أجلهم، ولأنه سبحانه هو معطى الجزاء، فهو جل وعلا يوضح لنا: أن هذين العملين لايستويان عنده، أى لايساوى أحدهما الآخر فى الجزاء.

ويقال[1]: إن سيدنا الإمام عليا رضى الله عنه، وكرم الله وجهه، مر على طلحة بن شيبة؛ والعباس ووجدهما يتفاخران، أى: يفاخر كل منهما الآخر بالمناقب التى يعتز بها؛ ليثبت أنه أحسن وأفضل منه. وكانت المفاخرة من طبع العرب حتى فى الأشياء التى ليس لهم فيها فضل، والممنوحة لهم من الله عز وجل مثل الشكل والنسب إلى آخره، لأن أحداً لا يختار أباه وأمه ليتفاخر بهما، وإنما كل ذلك هو عطاء من الله سبحانه وتعالى.

(١) ذكره ابن كثير فى تفسيره (٢/ ٣٤١) من قول محمد بن كعب القرظى وعزاه لابن جرير بسنده. وفيه ابن لهيعة. فيه كلام.

لقد كان العرب مثلاً يجلسون أمام مكان ممتلىء بالماء يتفاخرون أيهم يغطس فى الماء، ويبقى رأسه تحت الماء مدة أطول، أى: أيهم أطول نفساً من الآخر، مع أن هذه مسألة خاضعة لبنية الجسم وتكوينها من الله الخالق، وليس لأحد يد فيها، فهناك من أعطاه الله رئتين أقوى من الآخر، وهو الذى يستطيع أن يغطس مدة أطول، ولكن هذه المسألة كانت من أوجه التفاخر عند العرب.

جلس طلحة والعباس يتفاخران، فقال طلحة بن شيبة: بيدى مفتاح الكعبة، ولو شئت أن أنام فيها لنمت.

فرد عليه العباس: وأنا معى سقاية الحاج ،ولو شئت ألا أسقى أحدا لاستطعت. ومر الإمام على كرم الله وجهه عليهما وهما يتفاخران، فلما سمع كلامهما قال: ماأدرى ماتقولان لقد صليت ستة أشهر قبل الناس، وأنا صاحب الجهاد فنزلت الآية :

﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ١٩]

ولم يكد العباس يسمع هذه الآية حتى قال : «إنَّا قد رضينا، إنَّا قد رضينا»، قال ذلك لأن الله سبحانه وتعالى هو الذى حكم، وفى هذا القول إشارة إلى أن المفاخرة التى كانت بين العباس وطلحة لم تكن فى موضعها.

وكلمة ﴿عِنْدَ اللهِ﴾ فى الآية الكريمة تفيد: أن المقاييس عند الله تختلف عن المقاييس عند البشر؛ لأن المقاييس عادة تختلف حتى بين الناس، فلك مقاييس وللناس مقاييس. وقد تجامل نفسك فى مقاييسك. وقد يجاملك الناس فى مقاييسهم، أو قد يقسون عليك. وكل مقياس يكون فيه هوى ؛لأن كل إنسان إنما يؤثر نفسه. وكل إنسان يحاول أن يأخذ كل شىء. ولكن المقاييس

التى لا هوى فيها والتى ليس فيها إلا العدل المطلق هى مقاييس الله، ولذلك نجدها تَجُبُّ كل شىء، وليس فيها أى فرصة للطعن .

ثم يذيل الحق سبحانه وتعالى الآية الكريمة بقوله:

﴿ وَاللَّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [التوبة: ١٩]

وهذه أوجدت الحل لمشكلات متعددة يثيرها بعض الناس حول الهداية، وكيف أنها من الله سبحانه وتعالى وليست من العبد لقوله تعالى:

﴿إِنَّكَ لا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦]

نقول: نعم، إن مشيئة الهدى من الله سبحانه وتعالى، لكنه سبحانه قد أوضح لنا من لايدخلهم فى مشيئة هديه، فقال:

﴿وَاللَّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٦٤]

وقال سبحانه:

﴿وَاللَّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥٨]

وقال سبحانه:

﴿ وَاللَّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [المائدة: ١٠٨]

وقد ذكر الحق سبحانه وتعالى هذه الحقائق فى الكثير من آيات القرآن الكريم. وبعض الناس يقول: إن الهدى من الله، ولو أن الله هدانى ما قتلت، وما سرقت وما ارتشيت، ونقول: هذا فهم خاطىء، ولنرجع إلى القرآن الكريم، فالحق تبارك وتعالى يقول: ﴿وَاللهُ لا يهدى﴾ أى نفى مايستوجب الهداية عمن ظلم أو فسق أو كفر؛ لأن الحق سبحانه لايَهْدِى من قدم الكفر؛ أو قدم الظلم

أو قدم الفسق؛ فكأن الكافر أو الظالم أو الفاسق، هو الذى يمنع الهداية عن نفسه. ولو قدم الإنسان الإيمان لدخل فى هداية الله تعالى، فكأن خروج الإنسان عن مشيئة هداية الله هى مسألة من عمل الإنسان وباختياره، فقد يختار الإنسان طريق الغواية، ويترك طريق الهداية؛ لذلك لا يهديه الله؛ لأنه سبحانه لا يهدى إلا المؤمن به. وإن اختار الإنسان طريق الهداية، فالحق يعطيه المزيد من الهدى ؛ لأنه آمن بالله؛ فاختار طريق الهداية، واستقبل منهج الله بالرضى. وهكذا نفهم قول الحق تبارك وتعالى:

﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِى مَن يَشَاءُ ﴾ [فاطر : ٨]

إذن فالحق يهدى من استمع إلى القرآن بروح الإيمان، واستقر فى يقينه أن له ربا، واعتقد أن له إلهاً، وقد فصلنا ذلك فى مسألة القضاء والقدر، وقلنا : إن الذين يقرأون القرآن لفهم قضية الهداية عليهم أن يستقرئوا كل الآيات المتعلقة بالموضوع، فسبحانه وتعالى قد أوضح أنه لايهدى الكافر، إذن فهو يهدى المؤمن، وأوضح أنه لايهدى الظالم، إذن فهو يهدى العادل، وأوضح أنه جل وعلا لا يهدى الفاسق، إذن فهو يهدى الطائع، فلا يقولن أحد: إن الله لم يشأْ أن يهدينى ؛ لأن هذا فهم خاطىء لمعنى الهداية من الله؛ فسبحانه وتعالى قد بيَّن لنا من شاء هدايته ومن شاء إضلاله، وهو يهدى من قدم أسباب الهداية، وأسلم مقاليد زمامه للإيمان، والله سبحانه وتعالى يقول:

﴿ وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا (٧٦) ﴾ [مريم]

ويقول أيضا:

﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧) ﴾ [محمد]

إذن فالله أخبرنا مسبقاً بمن يستحق هدايته ومن لايدخل فيها، وأنت باختيارك طريقك، إما أن تؤمن؛ فتدخل فى الهداية، وإما أن تختار طريق الكفر والظلم والعياذ بالله؛ فتمتنع عنك الهداية. فإذا جاء أحد يجادلك؛ ويقول لك: إن الله سبحانه وتعالى قد قال:

﴿ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ [المدثر: ٣١]

لك أن تقول له: لقد بيَّن الله عز وجل من شاء له الهداية، ومن شاء له الضلال، ولقد ضربنا لذلك مثلاً ـ ولله المثل الأعلى ـ فقلنا: إن الهداية قد وردت فى القرآن الكريم على معنيين : المعنى الأول هو الدلالة على الطريق، وهذه هداية للجميع[1]، فقد دل الله المؤمن والكافر على طريق الإيمان برسله وكتبه، أى: بيَّن لهم ما يرضيه ومايغضبه ومايوجب رحمته وما يوجب لعنته، فالهداية الأولى ـ إذن ـ وردت بمعنى الدلالة للجميع، أى: أنها هداية عامة. ثم هناك هداية ثانية خاصة للمؤمنين، وهى التى بيَّنها الله سبحانه وتعالى فى قوله تعالى:

﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧) ﴾ [محمد]

أى: أعانهم على منهجه؛ فيسَّر لهم الطاعة وصعَّب عليهم المعاصى، فإذا امتثل المؤمن لمنهج الله وأطاعه، فالحق عز وجل يشرح صدره بذلك، ويحبب الطاعة إليه؛ فيزداد طاعة. وإذا شرع فى ارتكاب المعصية؛ بغَّضها له وجعلها ثقيلة على نفسه حتى يتركها.[2]

وضربنا لذلك مثلا بالرجل الذى يقود سيارته ذاهبا لمكان معين. وعند

(١) ومن هذه الهداية قول رسول الله ﷺ لعلى بن أبى طالب فى حديث طويل: «لأن يهدى الله بك رجلا واحدا خير لك من أن يكون لك حمر النعم». أخرجه البخارى (٢٩٤٢)، ومسلم (٢٤٠٦) فى صحيحيهما.

(٢) وهذا قوله تعالى : ﴿ وَلَكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴾ [الحجرات: ٧]

مفترق الطرق وجد رجلا من رجال المرور ؛ فدله على الطريق، هذه دلالة عامة. وعندما يقدم الرجل الشكر لجندى المرور. فرجل المرور يُزيد من الإيضاح له: لاتتبع طريق؛ كذا لأن فيها متاعب ومصاعب، واتبع طريق كذا وكذا تصل فى سرعة ويسر، وهذه زيادة فى الدلالة، أو زيادة فى الهداية. لكن إن قال سائق السيارة لنفسه: إن هذا رجل مرور لايعرف شيئاً ، وتجاهل شكره، فرجل المرور يتركه وشأنه.

إذن فالحق سبحانه قد هدى المؤمن والكافر إلى طريق الإيمان، فمن اتخذ طريق الإيمان أعانه الله تعالى عليه. ومن اتخذ طريق الكفر ـ والعياذ بالله ـ تركه الله يعانى ويضل. ولذلك لابد لنا أن نتذكر دائما أن الهداية هدايتان؛ هداية دلالة لكل الناس، وهداية معونة للمؤمنين فقط، وفى الدلالة العامة يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ [البلد: ١٠]

أما دلالة المعونة : فهى التى يقول فيها المولى عز وجل:

﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾ [محمد: ١٧]

وما يكشف لنا أن الهداية عامة، أن الحق سبحانه وتعالى حينما تكلم عن قوم ثمود وهم الذين بعث الله إليهم أخاهم صالحاً، قال سبحانه:

﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ ﴾ [فصلت: ١٧]

ولو كانت الهداية هنا بمعنى أنهم أصبحوا مهتدين، وسلكوا سبيل الإيمان ما قال الله سبحانه بعدها:

﴿ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ ﴾ [فصلت: ١٧]

إذن ﴿فَهَدَيْنَاهُمْ﴾ فى هذه الآية الكريمة معناها دللناهم على طريق الإيمان ولكنهم اختاروا طريق العمى والكفر.

ويقول المولى سبحانه وتعالى بعد ذلك:

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾

وفى سورة الأنفال تصنيف آخر فى قوله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾ [الأنفال]

وفى هذه الآية الكريمة من سورة الأنفال كان تصنيف المؤمنين بعد الهجرة مباشرة، وانتهت الهجرة؛ وأصبح الجميع سواء، فجاء التصنيف الجامع فى آية التوبة.

لقد أوضح المولى سبحانه وتعالى أن هذه الأعمال لم تكن مقبولة من المشركين، أما إن قام بها المؤمنون فلهم درجة عند الله. وفى هذه الآية الكريمة يصفهم الحق بأنهم ﴿أَعْظَمُ دَرَجَةً﴾، و﴿أَعْظَمُ﴾ صيغة أفعل التفضيل، وهى تعطى قدراً زائداً عن الأصل المعترف به، فيقال: فلان أعلم من فلان. وبهذا يكون الشخص الثانى عالما، ولكن الشخص الأول أعلم منه. ويقال: فلان أكرم من فلان، أى أن الموصوف الثانى كريم، والموصوف الأول أكرم منه. والله

سبحانه وتعالى أراد أن يبين لنا الفوز عنده، فقال:

﴿أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [التوبة: ٢٠]

فهؤلاء هم الذين يحصلون على أكبر الأجر عند الله تعالى ، وهم المؤمنون المهاجرون، والمجاهدون بأموالهم وأنفسهم، والفوز حكم يؤدى إلى أن تأخذ ماتحبه نفسك. فقال الحق موضحاً مايفوزون به:

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [التوبة: ٢٠]

ومادام هؤلاء هم الفائزون، فالفوز إنما يكون فى مضمارين اثنين. فالذين يصنعون أمورا خاصة بالدنيا قد يفوزون فيها بدرجة من النعيم، ولكن نعيمهم على قدر إمكاناتهم؛ وهو نعيم غير دائم ؛ لأنه إما أن يزول عنهم بذهاب النعمة، وإما أن يزولوا هم عنه بالموت، إذن فهو نعيم ناقص.

أما الذى يؤمن ويهاجر ويجاهد ويعمل لآخرته، فسوف يفوز بنعيم لا على قدر إمكاناته، ولكن على قدر إمكانات الله، ولامقارنة بين إمكانات الله وإمكانات خلقه. وفوق ذلك فهو نعيم دائم لايتركك فيزول عنك، ولاتتركه لأنك فى الجنة خالد لاتموت.

ثم يذكر الحق بعد ذلك قوله تعالى :

﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾﴾

إذن فهذا قمة الفوز للقوم الذين يبشرهم الله فى هذه الآية بالرحمة منه وبالرضوان المقيم. والبشارة ـ كما نعلم ـ هى نوع من الإعلام بشىء سوف يأتى مستقبلا ، أى ،أنك حين تبشر إنسانا فأنت تخبره بشىء قادم يسره.

إذن ففائدة البشارة أن تغرى الإنسان بسلوك السبيل الذى يحققها، فأنا أبشرك بالنجاح إن استقمت وذاكرت واستمعت للأساتذة ، ويشجعك كلامى لتجتهد حتى تحقق هذه البشارة، فكأن البشارة تجعلك تتخذ الوسيلة التى توصلك إليها.

ولذلك فقد قلنا : إن الأسباب والمسببات والعلة والمعلول والشرط والجواب؛ كلها يجب أن تحرر بشكل آخر، لأننا كنا نتعلم أن الشرط سبب فى الجواب؛ كقولك: «إن تذاكر تنجح»، وعلى ذلك فالشرط هو المذاكرة، وسبب الجواب هو النجاح، ونقول: لا، إن الجواب هو السبب فى الشرط لأنك لاتذاكر إلا إذا تمثل لك النجاح بكل مايحققه لك من فرحة، إذن فالشرط سبب فى وجود الجواب واقعا. والجواب سبب فى وجود الشرط دافعا، أى أ: ن الدافع لمذاكرتك هو مايمثله لك النجاح من قيمة مادية ومعنوية. وكل إنسان يرغب فى النجاح، لكن النجاح لايتحقق بالدعاء فقط، بل بالمذاكرة التى تحقق النجاح كواقع. بمعنى أنك لاتذاكر إلا وقد تمثل لك النجاح بمواهبه ومزاياه وبمكانته ويفرح أهلك بك، وبفرحك بنفسك. ولهذا نقول :إن السبب هو الذى يوجد أولاً فى الذهن.

ومثال آخر: لنفترض أنك تريد أن تسافر إلى الطائف. فتكون الطائف هى الغاية، وتكون أنت قد خططت للوسيلة وفى ذهنك الغاية، إذن فالجواب يوجد دافعا، والشرط يوجد واقعاً. وقوله تعالى: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ﴾ أى: يخبرهم بالنهاية السارة التى سوف يصلون إليها ليتحملوا مشقة التكاليف التى يأمرهم

بها المنهج؛ لأن الجنة محفوفة بالمكاره[١] ، ولأن التشريع الإلهى تقييد لحرية الاختيار فى العبد، والمؤمن مقيد بأوامر الله تعالى فى «افعل» و«لا تفعل». ولكن غير المؤمن إنما يتبع هواه فى كل حركاته، ويفعل مايشاء له من الهوى ويطيع نزواته كما يريد، أما المؤمن فحريته فقط فيما لم يرد فيه تشريع من الله تعالى، أما ما يخضع للمنهج فهو مقيد الحركة فيه بما قضى الله به . فكأن الإيمان جاء ليقيد، ولكن إذا قارنا بين الجزاءين، نجد أن الذى يتبع شهواته فى الدنيا إنما يحصل على لذة موقوتة، وعمره فى الدنيا محدود، إذن فهو الخاسر ،لأن الذى قيد حركته بمنهج الله يأخذ اطمئنانا فى الدنيا ونعيما مقيما لايزول ولاينتهى فى الآخرة[٢] .والمثال الذى أضربه دائما هو الطالب الذى لايذهب إلى المدرسة ولايذاكر، ولكن يقضى وقته فى اللعب واللهو ، وهو قد أعطى نفسه ماتريد، ولكنه أخذ متعة محدودة، ثم بعد ذلك يعيش فى شقاءبقية عمره.

أما الذى قيد حركته بالمذاكرة، فقد منع شهوات نفسه فى اللعب واللهو.وتكون الثمرة أنه يحقق لنفسه مستقبلا مريحا ومرموقا بقية عمره.

إذن فكل من الطالب الذى يجتهد وذلك الذى يلهو ويلعب، كل منهما أخذ لونًا من المتعة. ولكن أحدهما أخذ متعة قصيرة جداً ، ثم أصبح من صعاليك الحياة ، أما الثانى فقد قيَّد نفسه سنوات معدودة ليتمتع بمستقبل ناجح.

كذلك أنت فى الدنيا؛ إن قيدت نفسك بالتكاليف «افعل» و«لاتفعل»،

(١) عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات». أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٨٢٢) وأحمد فى مسنده (٣/ ١٥٣، ٢٥٤، ٢٨٤) والترمذى فى سننه (٢٥٥٩) وقال : حسن غريب من هذا الوجه صحيح.

(٢) وهذا فى مثل قوله تعالى ﴿ من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾ [النحل :٩٧]

أما الذى خرج عن منهج الله وأعرض عنه فقد قال عنه القرآن ﴿فمن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى﴾ [طه : ١٢٤]

فظاهـر الأمر أنك قَيَّدْتَ حريتك، وإن فعلت ذلك بـرضا، فـالله يعطيك راحة واطمئنانا ومتعة فى النفس. ولـذلك نجد الصلاة وهى التى يؤديها المسلم خمس مرات فى اليوم على الأقل؛ هذه الصلاة فى ظاهـرها أنها تأخذ بعضا من الوقت كل يوم، ولكنهـا تعطى راحة نفسيـة ، كما أنها تعطى اقتناعا يفـوق التصور إن خشع فيها الإنسـان وأداها بحقهـا، وكان صلى الله عليـه وسلم يقول: «يـابلالُ أرِحْنَا بالصلاة».(١)

كما قال صلى الله عليـه وسلم ضمن حديث رواه عنـه أنس بن مالك رضى الله عنه «وجُعلَتْ قُرَّة عينى فى الصلاة».(٢)

لأن التكليف ينتقل من المتعـة إلى الراحـة. ويتمتع الإنسـان فيها بتجليـات ربه وفيوضاته فترتاح نفسـه وتهدأ. وانظر إلى قول الحق سبحانه وتعالى ﴿يبشرهم ربهم﴾، تجد البشارة هنا آتيـة من رب خالق. والرب هو المالـك ؛ والمدبر الذى يرتب لك أمورك، وهو مأمون عليك.

﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ﴾ [التوبة: ٢١]

والـرحمة والـرضوان مـن صفات الله وهى صفـات ذاتيـة فى الله، ومتعلقـات العبد فيها أنه سبحانه يهبها لمن يشاء.

ويتابع المولى سبحانه وتعالى قوله:

﴿وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ [التوبة: ٢١]

ونجد أن هذا ترقٍّ وتدرجٌ فى النعمة، فقـد بشرهم الله سبحانه أولاً بالرحمة،

(١) أخـرجـه الإمـام أحمد فى مسنـده (٥/ ٣٦٤) وأبـو داود فى سننـه (٤٩٨٥) عن رجل من أسلم، قـالـه أحمد واللفظ له.

(٢) حـديث أنس أخرجـه أحمد فى مسنـده (٣/ ١٢٨، ١٩٩، ٢٨٥) والنسائى فى سننـه (٧/ ٦١) والحاكم فى مستدركـه (٢/ ١٦٠) وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجـاه ووافقه الـذهبى،وتمام الحديث «حبب إلىَّ من الدنيا النساء والطيب...»

وهى ذاتية فيه، ثم بنعمة دائمة فى الحياة. ولنلحظ أن هناك فارقا بين النعمة والمنعم. ونضرب لذلك مثلا ـ ولله المثل الأعلى ـ إذا دعاك إنسان فى بيته وقت الطعام ثم جاء بطبق فيه تفاح، لابد أن يكون التفاح فى الطبق يكفى كل الجالسين بحيث يأخذ كل واحد منهم تفاحة، فإذا أمسك صاحب البيت بتفاحة وأعطاها لأحد الجالسين. فهذا مظهر من مظاهر رعاية خاصة من صاحب البيت، وتمييز لشخص ضيفه عن بقية الضيوف ، وهذه تمثل درجة أعلى من الكرم والاهتمام؛ فهى تمثل الرحمة والرضوان. أما التفاح نفسه فهو النعمة، ومثله مثل الجنات.

وهكذا نرى أن هناك اختلافاً فى التكريم.و المؤمنون حين يرتقون فى درجة الإيمان؛ يعيشون دائما مع النعمة والمنعم، فإذا جاء الطعام قالوا: «باسم الله»، وإذا أكلوا قالوا: «الحمدلله»، ولكنهم إذا ارتقوا أكثر فى الإيمان عاشوا مع المنعم وحده، ولذلك يباهى الله بعباده الملائكة [1]؛ يباهى بعبادتهم وطاعتهم التى يلتزمون بها على أى حالة يكونون عليها ، ولو نزل بهم أشد البلاء وسلبت منهم النعم، وهؤلاء من أصحاب المنزلة العالية. ولذلك «فأشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون ، ثم الأمثل فالأمثل[2]» ؛ ليرى الحق سبحانه وتعالى من يحبه لذاته وإن سلب منه نعمة، وهذه منزلة عالية. فمن عبد الله ليدخل الجنة أعطاها له، ومن عبده سبحانه؛ لأنه يستحق أن يعبد، فسوف يرتقى فى الجنة ليرى وجه الله فى كل وقت؛ وأما الآخرون فيرونه لمحات ، ولذلك يكون الجزاء فى الآخرة على قدر العمق الإيمانى للعبد، لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى:

---

(١) أخرج ابن ماجه فى سننه (٨٠١) عن عبدالله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال : «أبشروا .. هذا ربكم قد فتح باباً من أبواب السماء ، يباهى بكم الملائكة . يقول : انظروا إلى عبادى قد قضوا فريضة ، وهم ينتظرون أخرى » وقد أخرج نحوه أحمد فى مسنده (٢/ ١٩٦) ، قال البوصيرى فى الزوائد : هذا إسناد صحيح ورجاله ثقات .

(٢) أخرجه أحمد (١/ ١٧٢) والترمذى (٢٣٩٨) وابن ماجه (٤٠٢٣) من حديث سعد بن أبى وقاص . قال الترمذى : حسن صحيح .

﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ١١٠]

وقال أحد الصالحين: «إنى لا أشرك بك أحدا حتى الجنة، لأن الجنة أحد» .

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ﴾ وقد ترحم ولكنك لاتنال الرضوان، فوضح المولى سبحانه وتعالى ذلك وأضاف «الرضوان» إلى «الرحمة»، ولذلك يقول الحق عز وجل: ﴿ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ ﴾ والرضوان هو ما فوق النعيم. وبعد الرضوان يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مِقِيمٌ﴾ .

ولقائل أن يقول : هل هناك جنة ليس فيها نعيم؟ ولماذا ذكرت النعيم؟ والجنة وجدت أصلا لينعم فيها الإنسان.

ونقول لمثل هذا القائل : انتبه والتفت جيدا إلى المعنى، فالمتحدث هو الله سبحانه وتعالى. وقد يكون عند الإنسان نعمة واسعة، ولكن يحيا فى الكثير من المنغصات ، مما يجعله لا يستمتع بالنعمة، كمرض يملؤه بالألم، أو ابن عاق يكدر حياته، أو زوجة تملأ الحياة كدرا ونكدا ، قد يحدث كل ذلك فلا يستمتع الإنسان بما يملك من نعمة الله؛ لأن المكدرات قد أحاطت به. وهنا يريد الحق سبحانه وتعالى أن يلفتنا إلى أن جنة الآخرة ليس فيها منغصات الدنيا، بل هى صفاء واستمتاع، يعطى فيها الحق سبحانه وتعالى لعبده ما تشتهيه نفسه ويبعد عنه جميع المنغصات، وقد يخاف الإنسان ألا يدوم مثل هذا النعيم، لذلك يطمئن الحق العبد المؤمن أنه ﴿نَعِيمٌ مَّقِيمٌ﴾ ، قد ينظر إنسان إلى أن الإقامة مقولة تحمل التشكيك، فقد تستغرق الإقامة زمناً طويلاً ثم

تنتهى، وشاء الله ـ عز وجل ـ أن يطمئن المؤمن بوعد حق، فوعد المؤمنين بالخلود الأبدى فى الجنة. فيقول سبحانه وتعالى:

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ٢٢﴾

وهذا ما يؤكد الاطمئنان فى قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ﴾، وكلمة ﴿لهم﴾ أعطت شبه الملكية لهذا النعيم. ولذلك مهما تملك الإنسان فى هذه الدنيا، فهذا الامتلاك لايتجاوز حدود أن يجلس ؛ ويقوم الخدم بتنفيذ أوامره ؛ لأن المتعة إما أن تكون بيدك، وإما أن تنعم بالراحة ويقدمها لك غيرك. وعلى سبيل المثال حين تريد أن تأكل ، فإما أن تعد الطعام لنفسك ، وإما أن يعده لك غيرك. ولا يوجد إنسان مهما أوتى من ملك بإمكانه أن يحقق كل مايريده بيده. بل لابد من الالتجاء إلى مساعدة الآخرين. ولكن المؤمن فى الجنة ينال مايتمناه بمجرد أن يخطر الشىء بباله، وهذا يختلف عن الدنيا ؛ لأنك حين ترغب فى شىء فى دنيانا، لابد أن تقوم به بنفسك ،أو تعتمد على غيرك؛ لينفذه لك، حتى وإن كان ماتطلبه هو مجرد فنجان من القهوة، وأنت تحدد لصانعها الهيئة والنوع إن كنت تريدها بدون سكر ،أو بقليل من السكر ،أو بكثير من السكر، لأن كلا منا فى الدنيا إنما يحيا مع أسباب الله. ولكن المؤمن فى الجنة إنما يحيا مع المسبب وهو الله القادر العظيم.

وحين يقول المولى سبحانه وتعالى: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ﴾ فنحن نلحظ مقابلة الجمع بالجمع ، وهى كما علمنا من قبل تقتضى القسمة آحاداً ، فإذا دخل الأستاذ الفصل وقال لتلاميذه: أخرجوا أقلامكم، فكل تلميذ لا يخرج أقلاما، بل يخرج كل تلميذ قلمه . وإذا قلنا: اركبوا

سياراتكم فليس معنى هذا أن يركب كل واحد كل السيارات، ولكن معناه أن يركب كل واحد سيارته.

وقول الحق: ﴿جَنَّاتٍ﴾ ليس معناه أن يدخل كل مؤمن كل الجنات، ولكن المعنى والمقصود أن يدخل كل منهم جنته على حسب الأعمال التى اكتسبها والمنزلة التى وصل إليها [1] .

ومن المهم أن نعلم أن صاحب الجنة عالية المنزلة لن يتلقى حسدا من صاحب الجنة متوسطة المنزلة. وصاحب الجنة الدنيا لن يحسد من هو أعلى منه، وكذلك لن يزهو صاحب الجنة عالية المنزلة على غيره. وكل واحد منهم يفرح بمكانة الآخر. مثلما يحدث أحيانا فى الدنيا حين يتفوق إنسان فى دراسته فقد نجد من هو أقل منه درجة يفرح له بصفاء نفس، وكذلك لا يزهو متفوق بمكانته على الأدنى منه، وإذا كان ذلك هو مايحدث فى الدنيا، فما بالنا بالآخرة؟ حيث يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ (٤٧)﴾ [الحجر]

أى :أن كلا من أهل الجنة يفرح بمنزلته، ويفرح بمنزلة الأعلى منه، لأنه سينال من فيوضات الخير، التى عند الأعلى منزلة. عندما يأتى لزيارته وقد قالوا فى قول الحق سبحانه وتعالى:

﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (٤٦)﴾ [الرحمن]

إن كل من علت منزلته فى الجنة له جنة خاصة به، وجنة أخرى ليتكرم بها على من هم دونه، وكأنها مضيفة لمن يحبهم، إذن ففى الآخرة يفرح أهل الجنة

(١) عن عبدالله بن عمرو عن النبى ﷺ قال: «يقال لصاحب القرآن: اقرأ وارتق ورتل كما كنت ترتل فى الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية تقرأبها» أخرجه أحمد فى مسنده (٢/ ١٩٢) والترمذى (٢٩١٤) وقال: حسن صحيح ، وأبو داود فى سننه (١٤٦٤).

بمن هم أعلى منهم ، لأنهم سينالون منهم خيرا.

وفى الدنيا إذا أراد إنسان أن ينال نعم كل الخلق، فلابد أن يفرح بالنعمة عند صاحبها؛ لأنه حين يفرح بالنعمة عند صاحبها أتت إليه واستفاد منها، وعلينا أن نوقن بأن النعمة تعشق صاحبها أكثر من عشق صاحبها لها، لأنها تعرف أن الله قد أرسلها إليه ، ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾ [إبراهيم: ٢٥]

وأنت حين تبذر بذرة الشجرة، تعطيك الشجرة الثمار، وهى التى تعطيك نتاجها. ولست أنت الذى تنتزعه منها، ولذلك نقول دائما: إن الرزق يعرف عنوانك جيدا ولكنك لاتعرف مكانه أبدا، فأنت تبحث عن الرزق فى كل مكان وقد لاتجده. ولكن ما قسمه الله لك من الرزق تجده يسعى إليك ويأتيك حتما.

وأهل الجنة لا يعرفون الحقد ولا الحسد ولا الغل. وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه وهم جالسون معه ذات يوم: « يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة».

ودخل الرجل وعرفه الصحابة، فأرادوا أن يعرفوا ماذا يعمله هذا الصحابى حتى يستحق بشارة رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة. قالوا له : ونحن نريد أن نعرف ماذا تفعل لنكون معك. فقال الرجل: إنى لأصلى كما تصلون وأصوم كما تصومون وأزكى كما تزكون. ولكنى أبيت وليس فى قلبى غل لأحد. فذهبوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا له: لقد قال الرجل كذا وكذا. فقال صلى الله عليه وسلم: «وهل فضلت الجنة على الدنيا إلا بهذا » [1]

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٣/ ١٦٦) وابن المبارك فى الزهد (٦٩٤) وعزاه الهيثمى فى المجمع (٨/ ٧٩) لأحمد والبزار بنحوه. وقال «رجال أحمد رجال الصحيح». وليس فيه «وهل فضلت الجنة على الدنيا إلا بهذا». وقد تتبعه عبدالله بن عمرو ليستطلع عمله ثم قال له: لم أرك تعمل كثير عمل فما الذى بلغ بك ما قال رسول الله ﷺ فقال: ما هو إلا ما رأيت... غير أنى لا أجد فى نفسى لأحد من المسلمين غشا ولا أحسد أحدا على خير أعطاه الله إياه. فقال عبدالله: هذه التى بلغت بك وهى التى لا نطيق.

فالله سبحانه وتعالى يقول فيها :

﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ ﴾ [الحجر : ٤٧]

ويقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾

والولى هو الذى يليك وينجز ماتحبه ، وتلجأ إليه فى كل أمر، وتأخذ منه النصيحة ، كما أنه القادر أن يجيرك حين تفزع إليه، ويكون دائما بمثابة المعين لك ، والقريب الذى يسمع منك، إذا استغثت يغيثك وينصرك ، ويكون معك فى كل أمورك .إن قارنا بين طلب المخلوق وطلب الخالق . والحق سبحانه وتعالى يوضح لنا هنا: إن أردتم أن يكون بناء الإسلام قويا لا خلل فيه، فإياكم أن يكون انتماؤكم غير انتماء الإيمان، فهو فوق انتماء النسب والحسب وغير ذلك، وإن قارنا بين طلب المخلوق وطلب الخالق، فما يطلبه الخالق فوق مايطلبه المخلوق ؛ لأنك إن أغضبت المخلوق فى رضا الخالق تكون أنت الفائز، ويقذف الله فى قلب كل من حولك رضاهم عنك ،وسيقال عنك صاحب مبدأ وضمير، ولاترضى أن تغضب الله ليرضى عنك أحد. وإن أسخطت الله لإرضاء مخلوق مهما كان، تجد أن الله يجعل هذا المخلوق يسخط عليك ويحتقرك[1] . فإن شهدت زورا لصالح بشر. يعرف عنك هذا الذى شهدت زوراً فى حقه أنك شاهد زور فلا يأمنك، وإن جئت بالصدفة لتشهد

(١) عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «من التمس رضا الله بسخط الناس رضى الله عنه وأرضى الناس عنه، ومن التمس رضا الناس بسخط الله سخط الله عليه وأسخط الناس عليه» أخرجه ابن حبان فى صحيحه (١٥٤٢)، وأخرجه الترمذى فى سننه (٢٤١٤) من وصية أرسلتها لمعاوية.

عنده فهو لا يقبل شهادتك ويحتقر كلامك.

ولذلك قال الحكماء: شاهد الزور قد يرفع رأسك على الخصم بشهادته، ولكنك تدوس بقدمك على كرامته لأنه سقط فى نظرك.

والانتماء إذن هو انتماء لله، فإن صادفك قريب يريد منك أن تفعل مايغضب الله فلا تطعه، ولكن لا تكن فظا معه. وخصوصا مع الوالدين لأن الله سبحانه وتعالى يقول عنهما:

﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾ [لقمان: ١٥]

والحق سبحانه وتعالى يقول هنا:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ ﴾ [التوبة: ٢٣]

إذن فالذى يربط كل شىء هو الكفر أو الإيمان. وقد أعطانا صحابة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ المثل الخالد. فقد كان سيدنا مصعب بن عمير أكثر الفتيان تدللا فى مكة، وكانت حياته فى مكة قبل إسلامه غاية فى الترف، وكان يرفل[1] فى الثياب الفاخرة، فلما هاجر إلى المدينة عاش ظروف الفقر المادى الصعب ، لدرجة أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ رآه فى الطريق ساترا عورته بجلد شاة فلفت النبى عليه الصلاة والسلام نظر الصحابة إلى حالته هذه وكيف فعل الإيمان بمصعب حيث فضل الإيمان على نعيم الدنيا كلها . لقد رأى مصعب ـ رضى الله عنه ـ أن شرفه بالانتماء إلى الإسلام أكبر من فاخر الثياب ، وترف العيش[2]. وانطبق عليه قول الحق تبارك وتعالى:

(١) يرفل : يتبختر فى مشيته ويجرُّ ذَيْله .

(٢) عن عمر بن الخطاب قال : نظر النبى ﷺ إلى مصعب بن عمير مقبلا وعليه إهاب (جلد) كبش قد تنطَّق به فقال ﷺ: «انظروا إلى هذا الرجل الذى قد نوَّر الله قلبه ، لقد رأيته بين أبوين يغذوانه بأطيب الطعام والشراب ، فدعاه حب الله ورسوله إلى ما ترون » أخرجه أبو نعيم فى حلية الأولياء (١/ ١٠٨) قال العراقى فى تخريجه لأحاديث الإحياء (٤/ ٢٩٥) إسناده حسن .

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠) يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ (٢١) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٢)﴾ [التوبة]

وأعطانا سيدنا مصعب ومن معه المثل العظيم فى الانتماء الإيمانى، والمجاهدة فى سبيل الله بالمال والنفس، وكيف نجعل اختيارنا مع منهج الله، هذا المنهج الذى يقيد الإنسان فيما له اختيار فيه. فالإنسان مقهور فى أشياء ومخير فى أشياء.

ونعلم أن التكليف لايأتى فى الأمور التى نحن مقهورون عليها. وإنما يأتى فيما لنا فيه اختيار. فإذا ما كان لنا اختيار، فلنراع أن نختار بين البدائل فى إطار منهج الله تعالى، ولانخرج بعيدا عن هذا الإطار. وكان المسلمون الأوائل يضحون بالبيت والمال والولد، ويهاجرون فى سبيل الله. واستقبلوا كل هذه التضحيات الصعبة بصدور مؤمنة، وصبر واحتمال شديدين ؛ لأنهم وثقوا فى البشارة من الله سبحانه وتعالى بأن لهم الجنة والرضوان ،والنعيم المقيم؛ خالدين فيه لايفارقهم ولايفارقونه. وبهذا أقيم بناء الإسلام.

وبعد أن بيَّن لنا الحق أسس الانتماء للدين، وجزاء هذا الانتماء، حذرنا أن ننحرف عنه لنرضى أبا أو إخوة أو أقارب ،فقال: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَتَتَّخِذُوا آباءكمْ وإخوانكمْ أولياءَ إنَ استحبُّوا الكفر على الإيمان ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون﴾ [التوبة : ٢٣]

ويريدنا الله سبحانه وتعالى أن نعرف أن الانتماء لله لايعلو عليه شىء، فإذا مِلْنَا عن الحق لنرضى أقارب ،أو لنحتفظ بمال أو منصب ، فذلك ظلم للنفس؛ لأن جزاء الحق ونعيمه أكبر، فلا ينصرن أحد الباطل ، ولا يجعل

أحدنا الإيمان خادما لكفار لايؤمنون بالله. ويوضح الحق سبحانه وتعالى هذه الصورة بقوله تعالى: ﴿إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ﴾، وكلمة «استحب» أى: طلب الحب ومثلها مثل «استخرج» أى: طلب إخراج الشىء. وإذا قلنا «استجاب الله» معناها : أجاب.

إذن فـ«استحب» معناها: أحب، ولكن «استحب» فيها افتعال. و«أحب» فيها اندفاع بلا افتعال.

وقول الحق تبارك وتعالى ﴿إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ﴾ يدل على أن الكفر مخالف للفطرة الإيمانية للإنسان،لأن الإنسان بفطرته مؤمن محب للإيمان، فإن حاول أن يحب غير الإيمان، لابد أن يتكلف ذلك؛ وأن يفتعله لأنه غير مفطور عليه ؛ وليس من طبيعته. ولذلك يقول القرآن الكريم:

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨]

وهذا التساؤل والتعجب يوضح لنا أن الذين يحكّمون المنطق والفكر والعقل يصعب عليهم الكفر بالله، لماذا؟ ؛ لأن الكون وجد أولا ، ثم وجد الإنسان، فكان من الواجب حين نأتى إلى كون لم نصنع فيه شيئا أن نسأل: من الذى أوجده؟ وكان من الطبعى أن يبحث العقل عن الموجد، وخصوصا أن فى الكون أشياء ،لا قدرة للبشر على إيجادها؛ كالشمس، والأرض ،والماء، والهواء، والنبات، والحيوان. وكلها تمثل الاستقبال الجامع لمقومات حياتك.

كان من الطبعى ــ إذن ــ أن نسأل: من الذى أوجد هذا الكون؟. خصوصاً أننا نفتش عمن اخترع لنا اختراعا بسيطا مثل :مصباح الكهرباء وندرس تاريخ حياته، وكيفية اكتشافه، لمجرد أنه أضاف إلى حياتنا اختراعا استفدنا منه، فما بالنا بمن خلق هذا الكون؟. ولقد رحمنا سبحانه وتعالى من ضلالات الحيرة، فأرسل لنا رسولا برحمة منه ؛لينبهنا ويقول لنا: إن هذا الكون

من خلق الله القادر العظيم. لماذا إذن لانصدق الرسول ، ونتبع المنهج الذى أنزل إلينا؟

ولقد ضربنا مثلاً ـ ولله المثل الأعلى ـ بشخص سقطت به الطائرة وسط الصحراء وبقى حيا، لكن لا ماء ولا طعام، ثم أخذته سِنَةٌ من النوم واستيقظ ليجد الطعام والشراب ،وكل مايحتاج إليه حوله؛ ألا يفكر قبل أن يأكل من كل هذا : من الذى جاء به؟. وأنت أيها الإنسان قد جئت إلى هذا الكون العظيم وقد أُعِدَّ إعداداً مثالياً لحياتك، وهو إعداد فوق القدرة البشرية، فكان يجب أن تفكر من الذى أوجد هذا الكون؟.

إذن: فالإيمان ضرورة فطرية ؛وضرورة عقلية أيضا، وإن ابتعدت عن الإيمان فهذا يحتاج إلى تكلف؛ لأنك تبتعد عن منطق الفطرة والعقل؛ لتحقق شهوات نفسك. وما دمت قد اتبعت هواك وخضعت لشهوات النفس، فهذا لون من التكلف الذى يصيب ملكاتك بالخلل، وعقلك بالخبل ، فحب الكفر لا يكون عاطفياً ،أو فطرياً ،كما لا يكون منسجما مع العقل السليم ، بل هو حب متكلَّف. فالذى يفعل حلالاً يحيا وملكاته كلها منسجمة، والذى يفعل حراما يعيش وملكاته مضطربة[1] ، والمثال: حين ينظر الرجل إلى زوجته ، فهو ينظر إلى حلاله ويشعر أن ملكاته منسجمة، ولكن إن نظر إلى امرأة أخرى ، فهو .. يشعر باضطراب الملكات. فالسلوك المتفق مع الإيمان سلوك سوى .أما السلوك الخارج عن منهج الإيمان فهو الذى يحتاج إلى تكلف، وهذا التكلف يعارض الطباع الإنسانية. بينما توابع الإيمان من الاستقامة لا تكلف شيئا، فالمؤمن يكون مستقيماً فلا يرتشى، ولا يسرق، ولا يدخل بنفسه إلى مزالق الهوى أو الشهوة، ويحيا حياة طيبة، فإن فتح «دولابه» الخاص، وأخذ منه شيئا فهو

(١) عن النواس بن سمعان الأنصارى قال : سألت رسول الله ﷺعن البروالإثم ؟ فقال : «البِرُّحُسْن الخلق ، والإثم ما حاك فى صدرك ، وكرهت أن يطلع عليه الناس » . أخرجه مسلم (٢٥٥٣) والترمذى (٢٣٨٩) وقال : حسن صحيح ، وأحمد فى مسنده (٤/ ١٨٢) .

يأخذ ما يريد بهدوء واطمئنان ، لكن المنحرف من يدخل إلى غير حجرته ليأخذ شيئا من «دولاب» ما، حتى ولو كان «دولاب» الأب النائم، لذلك نجده يسير على أطراف أصابعه متلصصا ليفتح «دولاب» أبيه.

إذن: فالاستقامة لاتحتاج إلى تكلف، ولكن الانحراف هو الذى يحتاج إلى تكلف، ولذلك قال الله سبحانه: ﴿اسْتَحَبُّوا﴾ ولم يقل؛ «أحبوا»، لأن الحب أمر فطرى، فالإنسان ـ مثلا ـ يحب ابنه حبا فطرياً عاطفياً، والحب العاطفى لايقنن. فأنت لا تستطيع أن تقول: سأحب فلانًا وسأكره فلاناً ؛ لأن العاطفة لاتأتى بهذه الطريقة ؛ لذلك أنت تحب ابنك عاطفياً ،حتى وإن كان فاشلاً فى دراسته. لكنك تحب ابن عدوك عقليا إن كان متفوقاً ، إذن فالحب العقلى هو الذى يقنن له.

وكذلك أنت تكره الدواء المر بعاطفتك، لكنك تحبه بعقلك إن كان فيه شفاؤك، فتبحث عنه ، وتدفع المال من أجله، وتحرص على أن تتناوله، وكلنا نعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون عنده أحب إليه من نفسه»[1]

ووقف عند هذه سيدنا عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ وقال: يا رسول الله: أنا أحبك عن مالى وأحبك عن ولدى، ولكن كيف أحبك عن نفسى؟ فكرر رسول الله صلى الله عليه وسلم الحديث قائلا : «لايؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه».

وكررها عليه الصلاة والسلام ثلاثا، فعلم عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن هذا تكليف. والتكليف لا يأتى إلا بالحب العقلى الذى يمكن أن يقنن. وقد يتسامى المؤمن فى الحب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ليصير حباً عقلياً

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٦٣٢) وأحمد فى مسنده (٤/ ٢٣٣) وفى إسناد أحمد بن لهيعة ولكن تابعه حيوة عن زهرة بن معبد . وباقى الحديث هنا مروى بالمعنى .

وعاطفياً. ولكن الحب العقلى هو مناط التكليف، أما الحب العاطفى فلا يكلف به. ولم يقنن الحق سبحانه وتعالى لانفعالات العواطف، لأنه سبحانه لايمنع العواطف أن تنفعل انفعالاتها الطبيعية، فأنت تحب من يسدى إليك معروفاً، وهناك من تحبه دون أن تعرف السبب. وهناك من تبغضه دون أن يكون قد عاداك أو آذاك [1] ، وكل ذلك متروك لك، ولكن الله سبحانه وتعالى نهى أن يؤدى ذلك إلى عدوان على الحق، فقال سبحانه وتعالى:

﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ﴾ [المائدة: ٨]

أى :لا يدفعكم كره قوم على أن تخرجوا عن طريق الحق وتظلموهم، فإن كرهتموهم فتمسكوا بالعدل معهم.

إذن فالله سبحانه وتعالى لم ينه عن الحب أو الكره ؛ ولكنه نهانا عن أن نظلم من نكره أو نجامل من نحب على حساب الحق والعدل.

ويعطينا سيدنا عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ صورة حية لهذا ؛ فقد قتل أبو مريم الحنفى زيد بن الخطاب شقيق سيدنا عمر فى معركة اليمامة، ثم دخل فى الإسلام؛ فكان كلما مر أمام سيدنا عمر قال له: إلو وجهك بعيدا عنى ، فإنى لاأحبك. فقال له أبو مريم الحنفى: أو عدم حبك لى يمنعنى حقاً من حقوقى.

قال: لا. فقال الرجل: إنما يبكى على الحب النساء.

والحق سبحانه وتعالى حين قال: ﴿إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ﴾ إنما يريد أن يلفتنا إلى أنهم عارضوا فطرتهم وعقولهم؛ ولذلك لا نجعل انتماءنا لهم فوق انتمائنا لله، فالولاء لله فوق كل حق ؛ حتى لو كان حق الأبوة ، صحيح أن الأب سبب وجودك، ولكنه سبحانه وتعالى خلق أباك الأول آدم من عدم ، فلا تجعل الخلق الفرعى يطغى على الخلق الأصلى. ولذلك يذيل الحق هذه

(١) عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «الأرواح جنود مجندة ، فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف » . أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٦٣٨) وأحمد فى مسنده (٢/ ٢٩٥ ، ٥٢٧ ، ٥٣٩) وأبو داود (٤٨٣٤) .

الآية الكريمة بقوله: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنكُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ لأنهم نقلوا الحق من الله سبحانه وتعالى إلى الخلق، ولأنهم ظلموا أنفسهم فحرموها من الجزاء فى الآخرة ليحققوا نفعا عاجلا فى الدنيا. ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٥٧) ﴾ [البقرة: ٥٧]

لأن أحدا لايستطيع أن يظلم الله سبحانه وتعالى ، والذى يتمرد على الإيمان بعد أن يسمع الدعوة إليه ولا يؤمن، ومن يأمره الحق بالطاعة فيعصى، فهذا تمرد على الإيمان ، وإن كنت من المتمردين وجاءك الله بمرض؛ فهل تقدر على دفع المرض ولا تمرض؟. وإذا جاءك الله بالموت. أتستطيع أن تتمرد على الموت وتبعده عنك فلا تموت؟. إذن: هناك أقدار لاتستطيع التمرد عليها ، وأنت متمرد ـ فقط ـ فيما لك فيه اختيار .

وبعد ذلك أراد الحق سبحانه وتعالى أن يخاطبهم خطاباً صريحاً فقال:

﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ (٢٤) ﴾

والخطاب هنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ليبلغه للمؤمنين. وقد جاء سبحانه وتعالى فى هذه الآية الكريمة بمراحل القرابة ، فذكر أولاً صلة النسب من آباء وأبناء وإخوة، ثم الزواج، وهو وسيلة التكاثر، ثم الأهل والعشيرة ،ثم الأموال التى نملكها فعلاً ، ثم الأموال التى نريد أن نكسبها، ثم المساكن التى نرضى بها، وبعد ذلك ذكر التجارة التى تزيد من المال. وفرَّق الله سبحانه بين الأموال التى فى حوزتنا وبين التجارة؛ لأن التجارة قد تأتى لنا بأموال فوق الأموال، والإنسان لا يحصل على سكن إلا إذا كان عنده فائض من المال. ويذكرنا الحق سبحانه هنا إن كانت أى مسألة من هذه الأشياء ، وهى زينة الحياة الدنيا أحب إليكم من الله ورسوله والجهاد فى سبيل الله ﴿فَتَرَبَّصُوا﴾ أى انتظروا حتى يأتيكم أمر الله، وحينئذ ستعرفون القيمة الحقيقية للدنيا وقيمة ماعند الله تعالى من رضاء ونعيم.

ولهذه الآية الكريمة أسباب نزول ، وهو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما أُمِرَ بالهجرة من مكة إلى المدينة ، أمر المسلمين بالهجرة ، فتركوا أموالهم التى اكتسبوها بمكة وتجاراتهم ومساكنهم ،وآبائهم وأبنائهم ،وإخوانهم وأزواجهم وعشائرهم ،التى تستطيع حمايتهم ، تركوا كل هذا وهاجروا لأرض جديدة .

ولكن من المسلمين من ركنوا للدنيا فبقوا بجوار أموالهم وأزواجهم وأبنائهم المشركين ، وكانت الواحدة من النساء المشركات تتعلق بقدمى زوجها المسلم الذى يريد الهجرة حتى لا يتركها فكان قلبه يرقُّ لها ، ومنهم من كان يخشى ضياع ماله وكساد تجارته ،التى بينه وبين المشركين ، فنزلت هذه الآية [١].

إن الحق سبحانه وتعالى أراد أن يوضح قيمة الانتماء الإيمانى ويدرب المؤمنين عليه. فقد كان المسلم لايتم إيمانه حتى يهاجر، ويصارم[٢] أهله

(١) انظر تفسير القرطبى (٤ / ٣٠٢١) طبعة دار الغد ، وأسباب النزول للإمام السيوطى (ص ٩٢ ، ٩٣) .
(٢) يصارم أهله : يقاطعهم قطعاً بائناً .

وأقاربه ويقاطعهم، فشق ذلك عليهم. وقالوا: يارسول الله إن نحن اعتزلنا من خالفنا فى ديننا قطعنا آباءنا وأبناءنا وأزواجنا وأقاربنا، وخفنا على أموالنا وتجارتنا من الفساد، وخفنا على مساكننا أن تخرب ، وبذلك نضيع ، فأنزل الله تعالى هذه الآية، وكأنها تأمرهم بأن كسب الإيمان أعلى من أى كسب آخر، فأنزل الحق سبحانه وتعالى الآية الكريمة:

﴿ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٢٤) ﴾ [التوبة]

ولما نزلت هذه الآية الكريمة أخذها الصحابة مأخذ الجد وهاجروا ؛ وقاطعوا آباءهم وأبناءهم ، حتى إن الواحد منهم كان يلقى أباه أو ابنه فلا يكلمه و،لا يدخله بيته ،ولا ينزله فى منزله إن لقيه ، ولا ينفق عليه ، إلى أن نزلت الآية الكريمة:

﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾ [لقمان: ١٥]

أى :أن المعروف معهم يقتصر فقط فى المعاملة وفى الإنفاق على المحتاج . أما الطاعة لهم فيما يغضب الله فهى محرمة. وحاول بعض المستشرقين أن يطعن فى القرآن، فمنهم من قال : إن هناك تعارضاً بين آيات القرآن الكريم، فالآيتان اللتان ذكرناهما ؛ الأولى تطلب مقاطعة الآباء والأبناء إن استحبوا الكفر على الإيمان، والآية الثانية تطلب مصاحبتهم بالمعروف أو عدم القطيعة، وآية ثالثة تقول:

﴿لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢]

ولم يفطن هؤلاء إلى أن هناك فارقاً بين الود والمعروف ، فالود هو عمل القلب، فأنت تحب بقلبك ، وتود بقلبك ، ولكن المعروف ليس من عمل القلب لأنك قد تصنع معروفاً فى إنسان لا تعرفه، وقد تصنع معروفاً فى عدوك حين تجده فى مأزق، ولكنك لا تحبه ولا توده.

إذن : فالمنهى عنه أن يكون بينك وبين من يحادون الله ورسوله حب ومودة، أما المعروف فليس منهيا عنه؛ لأن الله يريد للنفس الإيمانية أن تعترف بفضل الأبوة، فإن وجدت أباك وهو غير مؤمن فى مأزق فاصنع معه معروفاً وساعده، لكن عليك ألا تطيعه فيما يغضب الله؛ لأن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يربى فى النفس الإيمانية أن تحترم من له فضل عليها. والأب والأم من أسباب الوجود الفرعى فى الحياة، لذلك جاء الأمر بمصاحبتهما بالمعروف فى الدنيا، شرط ألا نقبل منهما دعوتهما للكفر إن كانا من أهل الكفر، لأن إيمانك بالله لابد أن يكون هو الأقوى. ولذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لايحبه إلا لله ،و أن يكره أن يعود فى الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف فى النار».[1]

وذلك حتى لا يكون مقياس الحب هو النسب أو القربى، وإنما يكون القرب من الله سبب الحب، والبعد عن الله سبب الكره. فقضية الإيمان تَجُبُّ قضية العاطفة. ففى معركة بدر كان سيدنا أبوبكر الصديق رضى الله عنه مع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، أما ابنه فلم يكن قد أسلم بعد وكان مع الكفار، فلما أسلم ابن أبى بكر وآمن؛ قال لأبيه: لقد رأيتك يوم بدر

(١) متفق عليه . أخرجه البخارى (١٦) ومسلم (٤٣) عن أنس بن مالك .

فلويت وجهى عنك حتى لا أقتلك. فرد سيدنا أبو بكر رضى الله عنه: لو أنى رأيتُكَ لقتلتُكَ. وهذا منطقى مع الإيمان لأن الموازنة النفسية اقتضت أن يقارن ابن أبى بكر بين أبيه وبين صنم يعبده ؛ فرجحت كفة أبيه، ولكن أبا بكر حين رأى ابنه قارن بين ربه وابنه فرجحت كفة ربه.

وإذا كان ذلك عن القرابة ، وكيف يَجُبُّ الإيمان العاطفة، فماذا عن المال؟ يتابع المولى سبحانه وتعالى: ﴿وَأَمْوالٌ اقْتَرَفْتَمُوهَا﴾ أى: أخذتموها بمشقة، وهى مأخوذة من «القرف» وهى القشر، وأنت إن أردت إزالة القشر عن حبة نبات ما، قد تجد شيئا من المشقة ؛ لأن هناك التصاقا بين القشرة والحبة، والحق هنا يقول: ﴿وَأَمْوالٌ اقْتَرَفْتَمُوهَا﴾ أى: أخذتموها بجهد ومشقة، وهو غير المال الموروث الذى لم يتعب فيه صاحبه، وإنما ورثه عن غيره، وفى هذه الحالة قد يكون أمره هيناً على صاحبه. أما المال الذى كسبه الإنسان بعرق جبينه وكدِّه[1] فصاحبه أكثر حرصاً عليه من المال الموروث. ويقال :«فلان اقترف كذا»، أى: أنه قام بجهد حتى حصل عليه، ويقال: «اقترف الكذب» و«اقترف السرقة»، بمعنى أنه قد بذل جهدًا ليكذب، أو بذل جهدًا ليسرق، أى: قام بعملية فيها مجهود.

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ وسبحانه هنا يوضح لهم: انتظروا أمر الله الذى سوف يأتى، لأنه سبحانه لا يهدى فاسقاً خرج عن الإيمان، ولا يهدى من جعلوا حبهم للعلاقات الدنيوية فوق حب الله فخرجوا عن مشيئة هداية الله تعالى، فسبحانه لايهديهم كما لايهدى الظالمين أو الكافرين؛ لأن هؤلاء هم من قدموا الظلم والكفر والفسق، فكان ذلك سببا فى أن الله لم يدخلهم فى مشيئة هداية المعونة على الإيمان، أما هداية الدلالة فقد قدمها لهم.

(١) الكدّ : الشدة والتعب فى تحصيل الشىء .

ثم أراد الحق سبحانه وتعالى أن يبعث الطمأنينة الإيمانية فى نفوس المؤمنين، فيوضح لهم : إن كنتم تريدون بالآباء والأبناء والعشيرة والأقربين والمال قوة، فاعلموا أن قوة المؤمن من ربه، وإياك أن تنظر إلى ولى آخر غير الله ؛ لأن ولاية البشر عرضة للتغير والتبدل، حيث إن الإنسان حدث يتقلب بين الأغيار، فالغنى فيها قد يصبح فقيرا، والسليم قد يصبح مريضاً، والقوى قد يصير ضعيفاً ، ولكن الولاية الدائمة إنما تكون من قادر قاهر لايتغير ،فإذا كان الله وليك فهو القادر دائمًا ، والقاهر دائمًا ، والغالب دائمًا، والموجود دائماً ، والناصر دائماً ، ولكن إذا كانت الولاية من إنسان لإنسان فالأغيار فى الدنيا تجعل الصديق ينقلب عدواً ، والمعين يصبح ضعيفاً لايملك شيئا، والموجود يصبح لاوجود له بالموت ، إذن : فلابد أن تجعل ولايتك مع الله سبحانه وتعالى : لأنه هو الدائم الباقى. ولهذا يعلِّم المولى ـ عز وجل ـ عبده المؤمن أن يكون دائماً يقظاً، فطناً، لبيباً، فيقول سبحانه وتعالى:

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ﴾ [الفرقان : ٥٨]

أى : لا تتوكل على من قد تصبح غداً فتجده ميتاً، ولكن توكل على الحى الموجود دائما ، العزيز الذى لا يقهر، القوى الذى لا يغلب. وينبه الحق سبحانه وتعالى المؤمنين: إن كنتم تخشون حين نعزلكم عن مجتمع الكفر لما فيه من عزوة كاذبة بالآباء والأبناء والإخوان والأقارب والمال، فاعلموا أن الله هو الذى ينصر، وهو الولى، ولكن الكافرين لا مولى لهم؛ لأنهم يتخذون موالى من أغيار، والأغيار لا ثقة فيها؛ لذلك يقال: إذا وصل الإنسان إلى القمة فهذه نهاية الكمال، لأنه ما دام قد وصل إلى القمة وكل شىء فى الدنيا يتغير، فلابد أن يتغير هو .ويقول القائل:

إذاَ تَمَّ شَيءٌ بَدَأ نقصُه ترقَّبْ زوالاً إذَا قِيل تَمّ

لأن كل شيء ابن أغيار لابد أن ينزل إلى أسفل، ويوضح الحق سبحانه وتعالى للمؤمنين أنه إذا كان قد طلب منهم أن يعزلوا أنفسهم عن مجتمع الكفر؛ فأفقدهم بذلك قوة ونصيراً، فهم فى مَنَعة أكبر؛ لأنهم حينئذ يكونون مع الله، والله هو النصير، وليس هذا كلاماً نظرياً، وإنما هو كلام مؤكد بالوقائع التى شهدتموها، وسبحانه وتعالى يقول بعد ذلك:

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾

وقوله: ﴿ لقَدْ نَصركُمُ الله فى مَواطنَ كثيرة ﴾ يلفتنا إلى أن النصر يكون من عند الله وحده، والدليل على أن النصر من عند الله أنه سبحانه قد نصر رسوله والذين معه فى مواطن كثيرة، و ﴿ مَواطنَ ﴾ جمع « موطن » والموطن هو ما استوطنت فيه . وكل الناس مستوطنون فى الأرض، وكل جماعة منا تُحيز مكاناً من الأرض ليكون وطناً لها، والوطن مكان محدد نعيش فيه من الوطن العام الذى هو الأرض؛ لأن الأرض موطن البشرية كلها، ولكن الناس موزعون عليها، وكل جماعة منهم تحيا فى حيز تروح عليه وتغدو إليه وتقيم فيه.

والله سبحانه هنا يقول: ﴿ لقَدْ نَصركُمُ الله فى مَواطنَ كثيرة ﴾، وما دام الحديث عن النصر، يكون المعنى: إن الحق سبحانه قد نصركم فى مواطن الحرب أى مواقعها، مثل يوم بدر، ويوم الحديبية، ويوم بنى النضير، ويوم الأحزاب، ويوم مكة، وكل هذه كانت مواقع نصر من الله للمسلمين، ولكنه

فى هذه الآية يخص يوماً واحداً بالذكر بعد الكلام عن المواطن الكثيرة، فبعد أن تحدث إجمالاً عن المعارك الكثيرة يقول: ﴿ وَيَوْمَ حُنَين إِذْ أَعجبتْكم كثرتكُمْ﴾ إذن: فكثرة عدد المؤمنين فى يوم حنين كان ظرفاً خاصًّا، أما المواطن الأخرى، مثل يوم بدر فقد كانوا قلة، ويوم فتح مكة كانوا كثرة، ولكنهم لم يعجبوا؛ ولم يختالوا بذلك، إذن: ففى يوم حنين اجتمعت لهم الكثرة مع الإعجاب، وبذلك يكون يوم حنين له مزية، فهو يوم خاص بعد الحديث العام.

﴿ وَيَوْمَ حُنَين إِذْ أَعجبتْكُم ﴾ هذا الإعجاب ظرف ممدود على اليوم نفسه، إذن فيوم حنين ليس معطوفاً على ﴿ مَواطنَ كَثيرة ﴾ ولكنه جملة مستقلة بنفسها؛ لأن الكثرة والإعجاب بالكثرة لم تكن فى بقية المواطن، وهذه دقة فى الأداء اللغوى تتطلب بحثاً لغوياً. فكلمة ﴿ مَواطنَ ﴾ هى ظرف مكان، و ﴿يَوْمَ حُنَين ﴾ هى ظرف زمان، فكيف جاز أن نعطف ظرف الزمان على ظرف المكان؟

ونقول: هذا هو ما يسميه العرب « احتباك »؛ لأن كل حدث مثل « أكل » و « شرب » و « ضرب » و « ذاكر »؛ كل حدث لابد له من زمان ولابد له من مكان، فإذا قلت: أكلت، نقول: متى؟ فى الصبح، أو فى الظهر، أو فى العصر، أو فى العشاء؟ وأين؟ فى البيت، أو فى الفندق، أو فى المطعم، أو فى الشارع.

إذن: فلابد لكل حدث من ظرف زمان وظرف مكان، فإذا راعيت ذلك أخذت الظرفية المطلقة؛ ظرفية مكان حدوث الفعل، وظرفية زمان حدوث الفعل. فإذا قلت: أكلت الساعة الثالثة ولم أسألك أين تم الأكل؟ أو إذا قلت: أكلت فى البيت ولم أسألك عن موعد الأكل ظهراً أو عصراً أو ليلاً، يكون الحدث غير كامل الظرفية.

ومعلوم أن الزمان والمكان يشتركان فى الظرفية، ولكنهما يختلفان، فالمكان

ظرف ثابت لا يتغير. والزمان دائم التغير، فهناك الصبح والظهر والعصر والمغرب والعشاء. والزمان يدور، هناك ماض وحاضر ومستقبل، وهكذا يشترك الزمان والمكان فى الظرفية، ولكن الزمان ظرف متغير، أما المكان فهو ظرف ثابت.

وجاءت الآية هنا بالاثنين، فـ ﴿ يَوْمَ حُنَين ﴾ هو زمان ومكان لحدث عظيم، وأخذت الآية ظرف المكان فى ﴿ مَواطنَ كثيرة ﴾ وظرف الزمان فى ﴿ يَوْمَ حنَين ﴾ فإذا قيل: لم يحضر ظرف الزمان والمكان فى كل واحدة، نقول: لا، لقد حضر ظرف المكان فى ناحية وظرف الزمان فى ناحية ثانية، وهذا يسمونه - كما قلنا - « احتباك ». وقد حذف من الأول ما يدل عليه الثانى، وحذف من الثانى ما يدل عليه الأول، فكان المعنى: لقد نصركم الله يوم مواطن كذا وكذا وكذا. فإذا عطفت عليها يوم حنين يكون المعنى «ومواطن يوم حنين »، أى: جاء بالاثنين هنا. ولكن شاء الله سبحانه وتعالى ألا يكون هناك تكرار، فأحضر واحدة هنا وواحدة هناك، وهذا يظهر واضحاً فى قوله تعالى:

﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَينِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ﴾

[آل عمران: ١٣]

فما دامت الأخرى ﴿ كافرةٌ ﴾ تكون الأولى « مؤمنة »، ولكن حذفت «مؤمنة » لأن ﴿ كافرةٌ ﴾ تدل عليها، وما دامت الأولى المؤمنة تقاتل فى سبيل الله، فالفئة الكافرة تقاتل فى سبيل الشيطان. وحذفت تقاتل فى سبيل الشيطان؛ لأن ﴿ تُقَاتلُ فى سبيل الله ﴾ دلَّتْ عليها. وذلك حتى لا يحدث تكرار. ونجد أن المؤمن الذى يستمع إلى كلام الله تعالى لابد أن يكون عنده عمق فهم، وأن يكون كله آذاناً صاغية حتى يعرف ويتنبه إلى أنه حذف من واحدة ما يدل على الثانية. إذن: فيكون ظرف الزمان موجوداً فى واحدة،

وظرف المكان موجوداً فى واحدة، وكلاهما يدل على الآخر. والمثال على ذلك أنه بعد أن انتهت هذه الغزوة، وعاد المسلمون إلى المدينة مجهدين لم يخلعوا ملابس الحرب، قال لهم رسول الله ﷺ: « لا يصلين أحد العصر إلا فى بنى قريظة » (١).

فانطلق المسلمون - دون أن يستريحوا - إلى أرض بنى قريظة، وهم اليهود الذين كانوا يسكنون المدينة، وخانوا عهد رسول الله ﷺ وتحالفوا مع الكفار ضد المسلمين، وبينما الصحابة فى طريقهم إلى بنى قريظة كادت الشمس تغيب، فقال بعض الصحابة : إن الشمس ستغيب ولابد أن نصلى العصر، وصلوا. وفرقة ثانية من الصحابة قالت: إن رسول الله ﷺ طلب منا ألا نصلى العصر إلا فى بنى قريظة ولم يُصَلُّوا حتى وصلوا إلى هناك.

ونقول: إن الفريقين استخدما المنطق؛ لأن الصلاة تحتاج إلى ظرف زمان وظرف مكان، فالذى نظر إلى ظرف الزمان قال: الشمس ستغيب، وصلى، والذى نظر إلى ظرف المكان الذى حدده رسول الله ﷺ؛ لم يُصَلِّ. وأقر رسول الله ﷺ الفريقين، واحترم اجتهادهما فى: ظرفية الزمان، وظرفية المكان. وفى هذا يروى نافع عن ابن عمر رضى الله عنهما أن النبى ﷺ قال يوم الأحزاب: « لا يصلين أحد العصر إلا فى بنى قريظة » فأدرك بعضهم العصر فى الطريق فقال بعضهم: لا نصلى حتى نأتيهم، وقال بعضهم: بل نصلى، لم يُرَدْ منا ذلك، فذُكر ذلك للنبى ﷺ فلم يعنف واحداً منهم.

﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئاً ﴾ والغنى هو عدم الحاجة إلى الغير، وحنين (٢) هو موضع فى وادٍ بين مكة والطائف، تجمَّع فيه الكفار الذين ساءهم فتح المسلمين لمكة، فأرادوا أن يقوموا بعملية مضادة تُضيِّع

(١) متفق عليه . أخرجه البخارى (٩٤٦) ، ومسلم (١٧٧٠) من حديث ابن عمر .
(٢) حنين : اسم موضع بأوطاس ، عرف باسم رجل اسمه : حنين بن قانية بن مهلائيل من العماليق ، كما فى معجم البكرى .

قيمة هذا النصر. فاجتمعت قبائل هوازن وثقيف، واختاروا مالك بن عوف ليكون قائدهم فى هذه المعركة. واستطاع مالك بن عوف أن يجمع أربعة آلاف مقاتل، وانضم إليهم عدد من الأعراب المحيطين بهم. ووضع مالك خطته على أساس أن يخرج الجيش ومعه ثروات المشاركين فى الجيش من مال، وبقر وإبل. وأن يخرج مع الجيش النساء والأطفال. وذلك حتى يدافع كل واحد منهم عن عرضه وماله فلا يفر من المعركة، ويستمر فى القتال بشجاعة وعنف؛ لأنه يدافع عن نسائه وأمواله وأولاده. وبذلك وضع كل العوامل التى تضمن له النصر. بينما المؤمنون عندما تبدأ المعركة سيقاتلون مدافعين عن دين الله ومنهجه.

واجتمع الكفار ونزلوا بواد اسمه « وادى أوطاس ». وكان فيهم رجل كبير السن ضرير. اسمه « دريد بنّ الصِّمة ». وكان رئيساً لقبيلة « جشم ». فلما وصل إلى مكان المعركة سأل: بأى أرض نحن؟ فقالوا: نحن بوادى أوطاس.. فابتسم وقال: لا حزناً ضرس ولا سهلاً دهس، أى أنها أرض مناسبة ليس فيها أحجار مدببة، تتعب الذى يسير عليها، وليست أرضا رخوة تغوص فيها أقدام من يسير عليها، من « الحزن » فالحزن هو: الخشونة والغلظة، و«ضرس » هو: التعب أثناء السير، وأيضاً ليست أرضاً سهلة منبسطة رملية تغوص فيها الأقدام.

وعندما سمع العجوز بكاء الأطفال وثغاء [1] الشاة، قال: أسمع بكاء الصبيان وخوار البقر. فقالوا له: إن مالك بن عوف استصحب ذراريه واصطحب كل أمواله، فقال: أما الأموال فلا بأس، وأما النساء والذرارى فهذا هو الأرعن - أى : لا يفهم فى الحرب - أرسلوه لى، فأحضروه له. فلما حضر قال: يا مالك ما حملك على هذا؟ قال: وماذا تريد؟ قال: ارجع بنسائك وذراريك إلى عُلَيَّا دارك، فإن كان الأمر لك؛ لحقك من وراءك. وإن

(١) ثغاء الشاة : صوت الغنم والماعز وضجيجها.

كان الأمر عليك لم تفضح أهلك وذراريك. فقال له مالك: لقد كبرت وذهب علمك وذهب عقلك. وأصر على رأيه. ثم بدأ مالك بن عوف يرتب الجيش فى الشِّعَاب وتحت الأشجار حتى لا يراهم المسلمون عند مجيئهم. فيتقدمون غير متنبهين للخطر، وحينئذ يتم الهجوم عليهم من كل جهة ومن كل مكان.

وعندما جاء جيش المسلمين لم يتنبهوا إلى وجود الكفار المختفين عن الأعين. وحينئذ أعطى مالك بن عوف إشارة البدء بالهجوم، فخرج الكفار من كل مكان. وفاجأوا المسلمين بهجوم شديد، قال المتحدث: فوالله ما لبث المسلمون أمامهم إلا زمن حلب شاة، حتى إنه من قسوة المعركة وضراوتها وقوة المفاجأة انهزم جيش المسلمين فى الساعات الأولى للمعركة، ووصل بعض الفارين من القتال إلى مكة ولم يبق مع رسول الله ﷺ فى ساحة المعركة إلا تسعة بينهم العباس عم رسول الله ﷺ. وكان ممسكاً بالدابة التى يركبها رسول الله ﷺ. وسيدنا على بن أبى طالب وكان يحمل الراية. وسيدنا الفضل، وكان يقف على يمين رسول الله ﷺ. وسيدنا أبو سفيان بن الحارث ابن عم رسول الله ﷺ وكان يقف على يساره. وكان معهم أيمن بن أم أيمن وعدد من الصحابة (١).

وهنا نتساءل: لماذا حدثت هذه الهزيمة للمسلمين فى بداية المعركة؟ لأنهم عندما خرجوا إلى الحرب قالوا: نحن كثرة لن نهزم من قلة، وبذلك ذهبوا إلى الأسباب وتناسوا المسبب، فأراد الله أن يعاقبهم عقاباً يخزيهم ويُعْلى من قدر رسول الله ﷺ. ولما رأى رسول الله ﷺ ما حدث، قال للعباس - وكان العباس صاحب صوت عال: أذن فى الناس، فقال العباس بصوت عال: يا معشر الأنصار - يا أهل سورة البقرة، يا أهل بيعة الشجرة. فلما سمع الناس نداء العباس، قالوا: لبيك لبيك. وكان الذى يقول: « لبيك » يسمعه من هم وراءه ويقولون مثله، حتى عاد عدد كبير من المؤمنين إلى القتال، وحمى القتال

(١) انظر: زاد المعاد فى هدى خير العباد (٢/ ١٨٥ ـ ١٨٧).

واشتدت الحرب وصار لها أوار[١] ، فضحك رسول الله ﷺ: الآن حمى الوطيس ، أى اشتدت الحرب ، ثم قال عليه الصلاة والسلام: « أنا النبى لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب».

ويروى هذا الحديث عن النبى ﷺ البراء بن عازب ، فقد جاء فى الصحيحين عن البراء بن عازب رضى الله عنه . أن رجلاً قال له : يا أبا عمارة أفررتم عن رسول الله ﷺ يوم حنين ؟ فقال : لكن رسول الله ﷺ لم يفر ، إن هوازن كانوا قوماً رُمَاةً ، فلما لقيناهم وحملنا عليهم انهزموا ، فأقبل الناس على الغنائم ، فاستقبلونا بالسهام ، فانهزم الناس ، فلقد رأيت رسول الله ﷺ، وأبو سفيان بن الحارث آخذ بلجام بغلته البيضاء وهو يقول : «أنا النبى لا كذب . أنا ابن عبد المطلب»[٢] أى : أنه رسول الله ، والله لن يتخلى عنه ولن يخذله، ولم يثبت أمام المؤمنين واحد من هوازن وثقيف، وانتهت المعركة عن ستة آلاف أسير من النساء ، كما غنم المسلمون أموالاً لا حصر لها وعدداً كبيراً من الإبل والبقر والغنم والحمير. وأحضر رسول الله ﷺ بديل بن ورقاء وقال له : أنت أمير على هذا المغنم. اذهب به وأنا سأتتبع الهاربين.

وانطلق جيش المسلمين إلى الطائف ليطارد الفارين. واختبأ مالك بن عوف قائد العدو. ثم عاد رسول الله ﷺ بعد ذلك وقسم الغنائم، وكاد تقسيم الغنائم أن يحدث فتنة بين المسلمين ؛ لأن الرسول ﷺ أعطى الغنائم للمؤلفة قلوبهم، ولسائر العرب ولم يعط منها الأنصار ، لقد أراد رسول الله ﷺ أن يقارن بين شيئين، بين سبايا هى أيضاً من متاع الدنيا فيعطى منها المؤلفة قلوبهم وبين حب الله ورسوله فيكون حظ الأنصار منه ، فالأنصار الذين آووه ﷺ فى رأيه ﷺ يستغنون بحبهم لرسول الله وقوة إيمانهم بالله عن مثل هذا المتاع الدنيوى، إلا أنه على الرغم من ذلك شعر بعض من الأنصار بالغُصَّة، وتأثر هذا البعض بذلك.

(١) الأوار : الدخان واللهب .
(٢) متفق عليه . أخرجه البخارى (٤٣١٧) ، ومسلم (١٧٧٦) عن البراء بن عازب .

لما أعطى رسول الله ﷺ ما أعطى من تلك العطايا فى قريش وقبائل العرب ولم يكن فى الأنصار منها شىء ، وجد هذا الحى من الأنصار فى أنفسهم حتى كثرت فيهم القالة ، حتى قال قائلهم : لقى رسول الله ﷺ قومه فدخل عليه سعد بن عبادة فقال : يا رسول الله إن هذا الحى قد وجدوا عليك فى أنفسهم لما صنعت فى هذا الفىء الذى أصبت ، قسمت فى قومك وأعطيت عطايا عظاماً فى قبائل العرب ، ولم يكن فى هذا الحى من الأنصار شىء . قال : فأين أنت من ذلك يا سعد ؟ قال : يا رسول الله ما أنا إلا امرؤ من قومى وما أنا . قال : فاجمع لى قومك فى هذه الحظيرة . قال : فخرج سعد فجمع الناس فى تلك الحظيرة . قال : فجاء رجال من المهاجرين فتركهم فدخلوا وجاء آخرون فردهم ، فلما اجتمعوا أتاه سعد فقال : قد اجتمع لك هذا الحى من الأنصار قال : فأتاهم رسول الله ﷺ فحمد الله وأثنى عليه بالذى هو له أهل . ثم قال : يا معشر الأنصار ما قَالَةٌ بلغتنى عنكم وجدَةٌ وجدتموها فى أنفسكم، ألم آتكم ضلالاً فهداكم الله ، وعالة فأغناكم الله ، وأعداء فألف الله بين قلوبكم . قالوا : بل الله ورسوله أمنُّ وأفضل . قال : ألا تجيبونى يامعشر الأنصار ؟ قالوا : وبماذا نجيبك يا رسول الله ولله ولرسوله المنُّ والفضل ؟ قال : أما والله لو شئتم لقلتم فلصدقتم وصدقتم ، أتيتنا مكذَّباً فصدقناك ، ومخذولاً فنصرناك ، وطريداً فآويناك ، وعائلاً فأغنيناك (١)

أى : أن رسول الله ﷺ ذكر لهم ثلاثة أشياء من فضل الإسلام عليهم، وهى أنه نقلهم من الضلال إلى الهدى ، ومن الفقر إلى الغنى ، ومن العداوة إلى الأخوة والمحبة.

وعندما تحدث رسول الله ﷺ عن فضل الأنصار على الدعوة ذكر أربع

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٣/ ٧٦) عن أبى سعيد الخدرى من طريق ابن إسحاق . وقد أورده ابن هشام فى سيرة النبى (٤/ ١٤٦).

فضائل ، وهى أن أهل مكة كانوا قد حاولوا قتل الرسول ﷺ فهاجر منها فآواه أهل المدينة ، وجاء الرسول والمؤمنون إلى المدينة لا يملكون شيئاً ، فأعطاهم الأنصار من أموالهم وزوجاتهم ، وكان الكفار يحاولون قتل رسول الله ﷺ فأمَّنه الأنصار ، وكان رسول الله ﷺ قد خذله قومه من قريش فنصره الأنصار.

عندما سمع الأنصار قول رسول الله ﷺ فى ذكر مفاخرهم. قالوا: المنة لله ولرسوله، أى : إننا معشر الأنصار لا نقول هذا الكلام الذى قلته أبداً؛ لأن حلاوة الإيمان وجزاء الإيمان أكبر من هذا بكثير ، وبهذا لا يكونون هم الذين أعطوا ، بل الإيمان هو الذى أعطاهم. فالإيمان نَفْعُه نَفْع أبدى. والحق تبارك وتعالى يقول:

﴿ قُل لاَّ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ ﴾

[الحجرات: ١٧]

وعندما قال الأنصار لرسول الله ﷺ : بل المنة لله ولرسوله ، قال لهم رسول الله عليه الصلاة والسلام:

« أوجدتم فى أنفسكم يا معشر الأنصار فى لعاعة (١) من الدنيا تألَّفْتُ بها قوماً ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم، أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير ، وترجعون برسول الله ﷺ فى رحالكم، فوالذى نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار ، ولو سلك الناس شعْباً وسلكت الأنصار شعباً لسلكت شعْب الأنصار ، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار». فلماَ سمعوا هذا القول من رسول الله ﷺ بكَوْا حتى اخضلَّتْ لحاهم وقالوا : رضينا بالله وبرسوله قسماً وحظّاً. وانتهت المسألة.

(١) لعاعة من الدنيا : أى بقية يسيرة . وهذا الحديث هو بقية الحديث السابق، وقد سبق تخريجه.

وهكذا نرى أنه حين تأتى مقارنة بين شيئين ، لابد أن نتفاخر بالشىء الدائم الباقى الذى حصلنا عليه، أما الشىء الذى مآله إلى فناء فإنَّ من ليس معه يعيش كمن عاش معه، وهو متاع الدنيا، تعيش معه وتعيش بدونه. ولكن لاأحد يستغنى عن الإيمان ، نستغنى عن الدنيا نعم، أما عن الإيمان وعن الله ورسوله فلا. وبعد أن قسم رسول الله ﷺ الغنائم، جاء وفد هوازن رسول الله ﷺ وهو بالجعرانة وقد أسلموا . فقالوا : يا رسول الله إنَّا أصل وعشيرة ، وقد أصابنا من البلاء ما لا يخفى عليك فامنن علينا منّ الله عليك . فقال رسول الله ﷺ : أبناؤكم ونساؤكم أحب إليكم أم أموالكم ؟ قالوا : يا رسول الله خيَّرتنا بين أحسابنا وبين أموالنا بل تردُّ علينا نساؤنا وأبناؤنا فهو أحب إلينا فقال لهم : أما ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم فإذا صليت للناس الظهر فقوموا فقولوا : إنا نستشفع برسول الله ﷺ إلى المسلمين وبالمسلمين إلى رسول الله ﷺ فى أبنائنا ونسائنا فسأعطيكم عند ذلك وأسأل لكم . فلما صلى رسول الله ﷺ بالناس الظهر قاموا فتكلموا بالذى أمرهم به فقال رسول الله ﷺ: أما ما كان لى ولبنى عبدالمطلب فهو لكم . قال المهاجرون : وما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ ، وقالت الأنصار : وما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ. قال الأقرع بن حابس : أما أنا وبنو تميم فلا . وقال عيَيْنة بن حصن بن حذيفة بن بدر : أما أنا وبنو فزارة فلا . قال عباس بن مرداس: أما أنا وبنو سليم فلا ، قالت بنو سليم : لا ، ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ. فقال عباس : يابنى سليم وهنتمونى . فقال رسول الله ﷺ : أما من تمسك منكم بحقه من هذا السبى فله بكل إنسان ست فرائض من أول شىء نصيبه ، فردوا على الناس أبناءهم ونساءهم [(١)] . . ذلك هو ما يشير إليه قول الحق، تبارك وتعالى:

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٢/ ٢١٨) والنسائى فى سننه (٦/ ٢٦٢) عن عبدالله بن عمرو بن العاص من طريق محمد بن إسحاق، وأورده ابن هشام فى السيرة (٤/ ١٣٥). وانظر: تفسير القرطبى (٤/ ٣٠٢٨) .

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ (٢٥)﴾ [التوبة]

أى : أنكم بدأتم المعركة ولم يكن الله فى حسبانكم، بل كنتم معتمدين على كثرتكم فلم تنفعكم ولم تحقق لكم النصر ؛ ولذلك فررتم خوفاً من الهزيمة ووجدتم الأرض ضيقة أمامكم، أى : تبحثون هنا وهناك عن مكان تختبئون فيه فلا تجدون، مع أن الأرض رحبة أى واسعة، ولكنها أصبحت ضيقة فى نظركم وأنتم تفرون من المعركة. إلا أن الحق سبحانه وتعالى لم يرد أن ينهى المعركة هذا الإنهاء. ولكنه أراد فقط أن ينزع من قلوب المسلمين المباهاة بكثرة العدد وظنهم أن اللجوء إلى الأسباب الدنيوية هو الذى سيحقق لهم النصر. أراد منهم سبحانه وتعالى أن يعلموا جيداً أنهم إنما ينتصرون بالله عز وجل، وأن كثرتهم دون الاعتماد عليه سبحانه لا تحقق لهم شيئاً.

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (٢٦)﴾

أى : أن الله تبارك وتعالى أنزل سكينته أولاً على رسوله وعلى المؤمنين الذين ثبتوا معه، ثم أنزلها على المؤمنين الذين فروا من المعركة ثم عادوا إلى القتال مرة أخرى، وقوله تعالى:

﴿وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٦]

وقد حدَّثونا عن أن الملائكة نزلت وثبَّتت المؤمنين، وألقت الرعب فى قلوب الكافرين وأنزلت العذاب بهم. والذين آمنوا هم الذين شهدوا بذلك؛ لأنهم وصفوا كائنات على جياد بُلْق [١] ولم يكن عندهم مثلها.

وإذا حدثنا القرآن الكريم بأن الملائكة قد نزلت وأن هناك من رآهم[٢]، فعلى الإنسان منا أن يقف موقف المؤمن، وأن يثق فى القائل وهو صادق فليؤمن بما قال ولا يبحث عن الكيفية. وإن كان منكم من يقف أمام هذه المسألة فعليه ألا يقف وقفة الرافض لوجودها، ولكن وقفة الجاهل لكيفيتها؛ لأن وجود الشىء مختلف تماماً عن إدراك كيفية وجوده.

وهناك أشياء كثيرة فى الكون، موجودة وتزاول مهمتها، ونحن لا ندرك كيفية هذا الوجود. وليس معنى عدم إدراكنا لها أنها غير موجودة. وكل الاكتشافات التى قدمها لنا العلم المعاصر كانت موجودة. ولكننا لم نكن ندرك كيفية وجودها من قبل. فالجاذبية الأرضية كانت موجودة. لكننا لم نكن ندرك وجودها ولا كيفية عملها، وكذلك الكهرباء كانت موجودة فى الكون منذ بداية الخلق، ولكننا لم نكن ندرك وجودها حتى كشف الله تعالى لنا وجودها فاستخدمناها، والميكروبات كانت موجودة فى الكون تؤدى مهمتها ولم نعرفها، حتى كشف الله لنا عنها فعرفنا وجودها وكيفية هذا الوجود، فكل هذه الأشياء كانت موجودة فى كون الله منذ خلق الله الكون. ولكننا لم نكن ندرك وجودها. وعدم معرفتنا لم ينقص من هذا الوجود شيئاً؛ ولذلك إذا حُدِّثْت بشىء لايستطيع عقلك أن يفهمه فلا تنكر وجوده؛ لأن هناك أشياء لم نكن نعرف عنها شيئاً، ثم أعطانا الله تعالى العلم فوجدنا أنها تعيش بقوانين

---

(١) البَلْق: سواد وبياض. والجياد البلق: هى السوداء التى ارتفع البياض إلى أفخاذها.

(٢) قال القرطبى فى تفسير الآية (٤/٣٠٢٨): ﴿وأنزل جنوداً لم تروها﴾ وهم الملائكة، يقوّون المؤمنين بما يلقون فى قلوبهم من الخواطر والتثبيت، ويُضعفون الكافرين بالتجبين لهم من حيث لا يرونهم ومن غير قتال، لأن الملائكة لم تقاتل إلا يوم بدر. وروى أن رجلاً من بنى نصر قال للمؤمنين بعد القتال: أين الخيل البلق، والرجال الذين كانوا عليها بيض، ما كنا فيهم إلا كهيئة الشامة، وما كان قتلنا إلا بأيديهم، أخبروا النبى ﷺ بذلك فقال: تلك الملائكة.

مادية محددة. إذن: فوجود الشيء يختلف تماماً عن إدراك هذا الوجود.

وقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ ثُمَّ أنزلَ الله سكينَتَهُ علَى رَسُوله وَعلى المؤمنينَ وأنزلَ جُنُوداً لَمْ تَروْهَا ﴾ كلمة ﴿ لَمْ تَروْهَا﴾ تعطى العذر لكل من لم ير، ويكفى أن الله قال ليكون هذا حقيقة واقعة. والحق سبحانه وتعالى يقول:

﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ ﴾ [المدثر: ٣١]

وحين كان يقال لنا: إنّ لله خلقاً هم الجن، كما أن له خلقاً آخرين هم الملائكة، والجن يروننا ونحن لا نراهم. كان البعض يقف موقف الاستنكار. وكذلك قال لنا رسول الله ﷺ: «إن الشيطان يَجْرِى من ابن آدم مَجْرى الدم»(١).

وكان بعض الناس ينكرون هذا الكلام ويتساءلون: كيف يدخل الشيطان عروق الإنسان ويجرى منها مجرى الدم ؟! وعندما تقدمنا فى العلم التجريبى واكتشفنا الميكروبات ورأينا من دراستها أنها تخترق الجسم وتدخل إلى الدم فى العروق، هل يحس أحد بالميكروب وهو يخترق جسمه؟ هل علم أحد بالميكروب ساعة دخوله للجسم ؟ طبعاً لا ، ولكن عندما يتوالد ويتكاثر ويبدأ تأثيره يظهر على أجسامنا نحس به، وهذا يدل على أن الميكروب بالغ الدقة مبلغاً لا تحس به شعيرات الإحساس الموجودة تحت الجلد. ومن فرط دقته يخترق هذه الشعيرات أو يمر بينها ونحن لاندرى عنه شيئاً ، ويدخل إلى الدم ويجرى فى العروق ونحن لا نحس بشيءمن ذلك ، والدم يجرى فى عروق يحكمها قانون هو: أن مربع نصف القطر يوزع على الكل، ومثال ذلك مايحدث فى توزيع المياه، فنحن نأتى بماسورة رئيسية نصف قطرها ثمانى بوصات وندخلها إلى قرية، تكون كمية الصب هى ٨ × ٨ . . أى ٦٤ بوصة

(١) متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٠٣٥ ومواضع أخرى) ، ومسلم (٢١٧٥) عن صفية بنت حُيَيٍّ زوج النبى ﷺ .

مربعة، حينما نأتى لنوزعها على مواسير أخرى فرعية نأخذ منها ماسورة نصف قطرها أربع بوصات ، ومنها نأخذ ماسورة نصف قطرها بوصتان ، ومنها نأخذ ماسورة نصف قطرها بوصة أو نصف بوصة ، المهم أن مربع أنصاف أقطار المواسير الفرعية يساوى ما تصبه الماسورة الكبيرة.

وهكذا عروق الدم ، فالدم يجرى فى شرايين واسعة وأوردة وشعيرات دقيقة.. ولكن دقة حجم الميكروب تجعله يخترق هذه الشعيرات فلا ينزل منها دم ، وعندما تضيق هذه الشرايين تحدث الأمراض التى نسمع عنها ، من تراكم الكوليسترول أو حدوث جلطات، فيتدخل الطب ليوسع الشرايين ؛ لأنها مواسير الدم. وهناك جراحات تجرى بأشعة الليزر أو غيرها من الاكتشافات الحديثة تخترق هذه الأشعة الجلد بين الشعيرات؛ لأنها أشعة دقيقة جداً فلا تقطع أى شعيرة ولا تُسيل أى دماء.

إذن : فكل ما فى داخل الجسم محسوب بإرادة الله تعالى ، ولكل ميكروب فترة حضانة يقضيها داخل الجسم دون أن نحس به، ثم بعد ذلك يبدأ تأثيره فيظهر المرض وتأخذ عمليات توالد الميكروب فى الدم ومقاومة كرات الدم البيضاء له فترة طويلة ، بينما نحن لا نحس ولا ندرك ما يحدث.

فإذا كان «الميكروب» وهو من مادتك، أى : شىء له كثافة وله حجم محدد ولا تراه إلا بالميكروسكوب فتجد له شكلاً مخيفاً ، وهو يتوالد ويتناسل وله دورة حياة، إذا كان هذا «الميكروب» لا تحس به وهو فى داخل جسمك؛ فما بالك بالشيطان الذى هو مخلوق من مادة أكثر شفافية من مادة الميكروب، هل يمكن أن تحس به إذا دخل جسدك؟ لا ، وإذا كان الشىء المادى قد دخل جسدك ولم تحس به، فما بالك بالمخلوق الذى خلقه الله تعالى من مادة أشف وأخف من الطين؟ ألا يستطيع أن يدخل ويجرى من ابن آدم مجرى الدم؟!

فإذا قال رسول الله ﷺ : «إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم».. فلا تتعجب ولا تُكذِّب لأنك لا تحس به. فالله أعطاك فى عالم الماديات ما هو

أكثر كثافة فى الخلق ويدخل فى جسدك ولا تحس به.

إذن : فالعلم أثبت لنا أن هناك موجودات لا نراها. ولو أننا باستخدام الميكروسكوبات الإلكترونية الحديثة فحصنا كل خلية فى جسم الإنسان فإننا سنرى العجب، سنرى فى جلد الإنسان الذى نحسبه أملسَ آباراً يخرج منها العرق، وغير ذلك من تفاصيل بالغة الدقة لا تدركها العين، فإذا حدَّثنا الله سبحانه وتعالى بأن هناك ملائكة تنزل وتقاتل، فنحن نصدق، وقد جعل الحق تبارك وتعالى لنا ما يطمئن بشريتنا فقال: ﴿جُنُوداً لَمْ تروْهَا﴾ ، فإن قال واحد: إنَّه رآها، وقال آخر: لم أرَ شيئاً ، نقول: إن قول الحق ﴿ لَمْ تَروْها﴾ أى: لم تروْها مجتمعين، فهناك من لمحها، وهناك من لم يرها.

وقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وعذَّبَ الذينَ كَفَرُوا﴾ أى: بالقتل أو بالأسر أو بسلب أموالهم، وقوله تعالى: ﴿وذلكَ جزاءُ الكَافرينَ﴾ أى: أن ما لحق بهم من هزيمة كان جزاءً لهم على كفرهم. ولكن البعضَ يتساءل: لماذا لم ينزل الجزاء وتتم الهزيمة من أول لحظة فى القتال؟ نقول: إن الله أراد أن يزيد عذابهم، فلو أنه ألحق بهم الهزيمة من أول لحظة، لكان ذلك أخف على أنفسهم وأقل عذاباً ، ولكنه أعطاهم أولاً فرحة النصر حتى تأتى الهزيمة أكثر قسوة وأكثر بشاعة ، والشاعر يقول :

كَما أدركَتْ قَوْماً عِطَاشاً غَمَامةٌ

فلمَّا رأوْهَا أقشعتْ (١) وتجلَّت

فحين تمر سحابة على قوم يعانون من شدة العطش، هم يحلمون أن تمطر عليهم، لكن الحلم يتبدد تماماً كالمسجون الذى يعانى من عطش شديد. فيطلب من السجان شربة ماء فيقول له السجان: سأحضرها لك. وفعلاً يذهب السجان ويحضر له كوب ماء مثلج فيعطيه له ويمسك المسجون الكوب بيده

(١) أقشعت : انقشعت وذهبت عن وجه السماء .

ونفسه تمتلئ فرحاً . وإذا بالسجان يضربه بشدة على يده فيسقط الكوب على الأرض، فيصاب المسجون بصدمة شديدة. وهذه أبشع طرق التعذيب. ولو أن السجان رفض إحضار كوب الماء من أول الأمر لكان ذلك أقل إيلاماً للسجين. لكن بعد أن يحضر كوب الماء للمسجون ويضعه فى يده ثم يحرمه منه فهذا أكثر عذاباً. وهكذا أراد الله أن يزيد من عذاب الكافرين فأعطاهم مقدمات النصر وحلاوته أولاً ، ثم جاءت من بعد ذلك مرارة الهزيمة لتسلبهم كل شىء، وبذلك تجتمع لهم فجيعتان : فجيعة الإيجاب ، وفجيعة السلب.

ثم تأتى لمحة الرحمة التى يغمر بها الله سبحانه وتعالى كونه كله، ويفتح الباب لكل عاص ليعود إلى طريق الإيمان فيتقبله الله، ويقول الحق تبارك وتعالى:

﴿ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٢٧﴾ ﴾

وهذه هى عظمة الخالق، الرحمن الرحيم، فهو يفتح الباب دائماً لعباده؛ لأنه هو خالق هذا الكون، وكل من عصى يفتح الله أمامه باب التوبة، وهذه مسألة منطقية ؛ لأن الذى يكفر والذى يعصى لا يضر الله شيئاً، ولكنه يؤذى نفسه ويحاول أن يفترى على نواميس الحق، وحين يعلم العاصى أنه لا ملجأ له إلا الله، فالله عز وجل يفتح له باب التوبة.

وبعد أن بيَّن الله سبحانه وتعالى لنا فى هذه السورة أن الله ورسوله برىء من المشركين، وكشف عن طبيعتهم بأنهم لا عهد لهم ولا ذمة، ويصفى هذه المسائل تصفية عقدية فى ﴿ بَرَاءَةٌ منَ الله ورسُوله ﴾ ، وطلب منا أن ننهى العقود التى بيننا وبينهم . . فمن نقضَ العهد انتهىَ عهده ، ومن حافظ عليه حافظنا نحن على العهد إلى مدته ، ثم طلب من المشركين ألا يقربوا المسجد الحرام، وصفَّى أى ضغينة أو ذنب بفتح باب التوبة. ومن بعد ذلك ينتقل

سبحانه من المعاهدة التى انتهت مع ذوات الكفار إلى ذوات الكفار بأنفسهم ، فيقول تبارك وتعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾

أى : أنه لا يكفى أن يقطع المؤمنون كل عهودهم مع المشركين، بل لا بد أن يبرأوا أيضاً من المشركين أنفسهم؛ لأنهم نجس، والنجس هو الشىء المستقذر الذى تعافه النفس وتنفر منه، وقد يكون المشرك من هؤلاء مقبولاً من ناحية الشكل والملبس، ولكن هذا هو القالب، والحق سبحانه وتعالى حينما يتكلم إنما يتكلم عن المعانى وعن الخلق. فالله عز وجل لا ينظر إلى القوالب، بل إلى القلوب، ويقول الرسول ﷺ فى الحديث الذى يرويه عنه أبو هريرة رضى الله عنه : «إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم»(١).

فقد تكون الصورة مقبولة شكلاً، لكن العقيدة التى توجد فى قلوب تلك الأجساد قذرة ونجسة، وسبحانه لا يأخذ بالظواهر ولا بالصور، بل بالقيم. وأنت إذا ما نظرت إلى القيم وإلى العقائد الحقة الصادقة، تجد كل عقيدة تنبئ عن تكوين مادتها، وعلى سبيل المثال، حينما تكون فرحاً، يتضح ذلك على

(١) يعنى : أن العبرة يوم الحساب بالنظر إلى قلوبكم لا إلى مظاهركم ، وفيه حث على الاعتناء بالقلب وتطهيره ، والحديث رواه الإمام مسلم (٢٥٦٤) وأحمد فى مسنده (٢/ ٢٨٥ ، ٥٣٩) وابن ماجه فى سننه (٤١٤٣) ، واللفظ لمسلم .

أساريرك ، ومن سيقابلك سيلحظ ذلك ويعرف أنك مبتهج، وإن كنت غاضباً أو تعانى من ضيق، فهذا يتضح على أساريرك.

إذن: فالمادة تنفعل بانفعال القيم، وما دامت القيم فاسدة فالمادة التى يتكون منها جسده تكون متمردة على صاحبها؛ لأن المادة بطبيعتها عابدة مسبحة لله، وكذلك الروح بطبيعتها عابدة مسبحة لله تعالى، ولا ينشأ الفساد إلا بعد أن توضع الروح فى المادة، ثم تتكون النفس من الاثنين معاً، المادة والروح، فإن غلَّبت النفس منهج الله صارت مطمئنة، وإن تأرجحت النفس بين الطاعة والمعصية، فإما أن تطيع فتكون نفساً لوامة، وإما أن تكفر وتتخذ طريق الشر فتكون نفساً أمارة بالسوء. أما قبل أن تنفخ الروح فى المادة، فكل منها مسبح لله تعالى ؛ لأن كل شىء فى الوجود عابد مسبح، والنفس فى كل سلوكها مقهورة لإرادة صاحبها بتسخير من الله عز وجل، وحين يأتى الموت، تنتهى الإرادة البشرية وتسقط سيطرة الإنسان على جسده، بل إن هذا الجسد يشهد على صاحبه يوم القيامة. والإنسان فى الحياة الدنيا يعيش وإرادته تسيطر على مادته بأمر من الله، فاليد قد تضرب إنساناً، وقد تعين إنساناً آخر وقع فى عسرة، ولسان المسلم يشهد أن لا إله إلا الله، ولسان الكافر يشرك مع الله آلهة أخرى.

إذن : فمادة الإنسان خاضعة لإرادة صاحبها فى دنيا الأغيار ، فإذا انتقل إلى الآخرة فلا تأثير له على المادة، وتتحرر المادة من طاعة صاحبها فى المعصية، وتتمرد عليه، وتشهد على صاحبها بأنه كان يستخدمها فى المعصية. والحق سبحانه وتعالى يقول:

﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾﴾ [فصلت]

فكأن جوارح الإنسان تقول له يوم القيامة : لقد أتعبتنى فى الدنيا وأكرهتنى على فعل أشياء لم أكن لأفعلها لأننى عابدة مسبحة لله، وإن ما أمرتنى به يخرج عن طاعة الله عز وجل ، وسبق أن ضربت المثل بقائد الكتيبة الذى يصدر أوامر خاطئة فيطيعه الجنود، فإذا ما عادوا إلى القائد الأعلى شكوا له مما كان قائد الكتيبة يكرههم عليه، كذلك أبعاض الجسم تشهد عليه عند خالقها يوم القيامة. فإن كنت عابداً مُسبِّحاً كانت جوارحك معك. وإن كنت غير ذلك كانت جوارحك ضدك، فاللسان مثلاً عابد مسبح فى ذاته، فإذا أكرهته على أن يشرك بالله فهو مُكْرَهٌ فى الدنيا، ويصير شاهداً عليك يوم القيامة. والحق سبحانه وتعالى ينادى يومئذ قائلاً :

﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾﴾ [غافر]

وهنا يقول الحق عز وجل: ﴿إنما المشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ أى : أن عقيدتهم الفاسدة تنضح على تصرفاتهم، وسبحانه وتعالى يربب المعانى الإيمانية فى النفوس أى يزيدها، ومثال ذلك: نحن نرجم إبليس كمنسك من مناسك الحج، نرجم قطعة من الحجر رمزنا إليها بالشيطان، ونحن لا نرى الشيطان، وقد وضعنا له رمزاً وأرسينا فى أعماقنا أن الشيطان عدو لنا ويجب أن نرجمه لنبتعد عن مراداته، وبذلك أبرزنا هذه المعانى فى أمر حسى؛ لنوضح للنفس البشرية أن الشيطان عدو لنا، وكلما وسوس الشيطان لنا بأمر نرجمه بأن نبين لأنفسنا قضايا الإيمان الناصعة فيهرب منا. وكل منا عليه أن يتذكر أن الشيطان سوف يضحك على العاصين والكافرين فى يوم القيامة، ويقول ما أورده الحق سبحانه وتعالى على لسانه:

﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾[إبراهيم: ٢٢]

وفى هذا القول سخرية ممن صدقوه ؛ لأن السلطان إما سلطان القهر بأن تأتى لإنسان بما هو أكبر منه وتقهره على فعل شىء بالقوة، وإما سلطان الإقناع

بأن تقنع إنساناً بأن يفعل شيئاً. والشيطان ليس له سلطان القهر والحجة.

والحق سبحانه وتعالى عندما يقول: ﴿ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ فإنه يوضح لنا أن نجسهم يحتم علينا أن نمنعهم من دخول الأماكن التى لا يدخلها إلا الإنسان الطاهر. وجعل الحق سبحانه وتعالى النجاسة المعنوية مثلها مثل النجاسة المادية، ولذلك قال العلماء: ما دام الحق قد وصفهم بأنهم نجس فلابد أن يكون فيهم نجس مادى، ولذلك إذا اقتربت منهم تجد لهم رائحة غير طيبة، لأنهم لا يتطهرون من حدث، ولا يغتسلون من جنابة. وعندما ذهبنا إلى الجزائر بعد تحريرها من فرنسا، لم نجد فى البيوت حمامات؛ لأن الواحد من المستعمرين لا يذهب إلى الحمام إلا كل عشرين يوماً مثلاً، لذلك جعلوا الحمامات بعيداً عن المساكن، ولكن بعد أن تحررت الجزائر صار فى البيوت حمامات؛ لأن الثقافة الإسلامية مبنية على الطهارة، ويتوجب على المسلم أنه كلما دخل الإنسان الحمام تطهر، وكلما كان جنباً اغتسل.

ولقد قال البعض: لو أننى سلَّمت على مشرك ويده رطبة.. فلابد أن أغسل يدى[1]. فإذا كانت يده جافة فيكفى أن أمسح على يدى. وفى هذا احتياط وتأكيد على اجتناب هؤلاء المشركين. وإذا كنا نجتنبهم أجساداً وقوالب، ألا يجدر بنا أن نجتنبهم قلوباً؟

وقد أنزل الحق سبحانه وتعالى هذه الآية الكريمة فى العام التاسع من الهجرة وهو العام الذى صدر فيه منع المشركين من الاقتراب من المسجد الحرام والبراءة من هؤلاء المشركين، وتساءل العلماء: هل الممنوع والمحرم هو اقتراب المشرك

(١) قال الحسن البصرى: من صافح مشركاً فليتوضأ، ذكره القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٠٣٠)، قال ابن كثير (٢/ ٣٤٦): «دلت هذه الآية الكريمة على نجاسة المشرك كما ورد في الصحيح «المؤمن لا ينجس». وأما نجاسة بدنه فالجمهور على أنه ليس بنجس البدن والذات؛ لأن الله تعالى أحل طعام أهل الكتاب، وذهب بعض الظاهرية إلى نجاسة أبدانهم، وقال أشعث عن الحسن: من صافحهم فليتوضأ.. رواه ابن جرير».

من المسجد الحرام، أم من الحرم كله؟ وحدد الإمام الشافعى التحريم على المشركين بالوجود فى المسجد الحرام. ومع احترامنا لاجتهاد الإمام الشافعى نقول: إن الحق سبحانه وتعالى قال: ﴿ فَلا يَقْرَبُوا﴾ ولم يقل : فلا يدخلوا . وتحريم الاقتراب يعنى ألا يكونوا قريبين منه ، وأقرب شىء للمسجد الحرام هو كل الحرم ، ولو كان المراد هو المسجد فقط لمنع الحق دخولهم إليه بالنص على ذلك(١) .

وهكذا نرى كيف يمكن أن يجتهد الإنسان ويبحث فى المعانى ليستخرج المضمون الحق. ويتابع المولى سبحانه وتعالى قوله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فسوفَ يُغنيكُمُ اللهُ من فَضْله إنْ شاءَ إنَّ اللهَ عَليمٌ حكيمٌ﴾ . وفى هَذا القول الكريم حديث عن الغيب. والغيب ـ كما عرفنا ـ هو مايغيب عنك وعن غيرك، أما الشىء الذى يغيب عنك ولا يغيب عن غيرك فلا يكون غيباً، فإذا سرق منك مال مثلاً فأنت لا تعرف من الذى سرق ، والسارق فى هذه الحالة غيب عنك، ولكنه ليس غيباً عن غيرك ؛ فالسارق يعرف نفسه ؛ والذى دبر له الجريمة يعرفه، ومن رآه وستر عليه يعرفه. وأنت ـ أيضاً ـ لا تعرف مكان المسروقات، ولكن السارق يعرف المكان الذى خبأها فيه.

إذن : فهى غيب عنك وليست غيباً عن غيرك. وهذه لعبة الأفاقين والنصابين الذين يُسخِّرون الجن، فما دام الشىء معروفاً ومعلوماً لغيرك من الناس؛ فالكشف عنه مسألة سهلة ، ولكنّ هناك غيباً عنك وعن غيرك، وهذا هو ما ينفرد به الحق سبحانه وتعالى فى قوله سبحانه:

﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ... (٢٧)﴾ [الجن]

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٠٣١) : «قال الشافعى رحمه الله : الآية عامة فى سائر المشركين ، خاصة فى المسجد الحرام ، ولا يمنعون من دخول غيره ، فأباح دخول اليهودى والنصرانى فى سائر المساجد . قال ابن العربى : وهذا جمود منه على الظاهر؛ لأن قوله عز وجل ﴿إنما المشركُونَ نَجَسٌ﴾ تنبيه على العلة بالشرك والنجاسة ».

ولكنْ هناك غيبٌ عن الناس جميعاً ، ولكنه لن يظل غيباً إلى آخر الزمان، فمثلاً الكهرباء كانت غيباً واكتشفناها، وتفتيت الذرة كان غيباً وعرفناه، وقوانين الجاذبية كانت غيباً ثم دخلت فى علم الإنسان فأصبحت معلومة له وليس هذا هو الغيب الذى يقصده الله سبحانه وتعالى فى قوله: ﴿عَالِمُ الغَيْبِ﴾، فهذا غيب يختص نفسه به، فلا تقل: إن فلاناً يعلم الغيب، ولكن قل: إنه مُعلَّم غيب، والمسائل الغيبية: إما أن يحجبها الزمان أو يحجبها المكان، فالآثار المطمورة مثلاً، تعبِّر عن شىء ماض واندثر، وفيه أخبار الأمم السابقة، ولا يعرفها أحد ، وستره حجاب الزمن الماضى، إلى أن يتم الكشف عنها ويهيِّئ الله لها من يفكُّ ألغازها.

أما إبلاغ الله رسوله من أنباء الأمم السابقة مما جاء فى القرآن الكريم فهو اختراق لحجاب الزمن الماضى ، نحو قوله تعالى :

﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ [آل عمران : ٤٤]

ويقول سبحانه وتعالى:

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٤٤) وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ .. (٤٥)﴾ [القصص]

وقوله سبحانه: ﴿وَمَا كُنْتَ﴾ فى آيات أخرى دليل على أن الله سبحانه وتعالى أخبر رسوله ﷺ بما كان مستوراً فى الزمن الماضى. أما الشىء الذى سوف يحدث فى المستقبل، فهو محجوب عنك بحجاب الزمن المستقبل، وقد اخترق القرآن الكريم حجاب المستقبل فى آيات كثيرة كلها تبدأ بحرف السين، وحرف السين دليل على أن الشىء لم يحدث بعدُ، وقوله تعالى:

﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ﴾ [فصلت: ٥٣]

دليل على أنه من الزمن المستقبل يكشف الله لنا عن آياته الموجودة فى الأرض، وقوله تعالى:

﴿الٓمٓ (١) غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣)﴾ [الروم]

وهذا اختراق لحجاب المستقبل ؛ لأن النصر حدث بعد نزول هذه الآية بتسع سنوات. إذن : فالذى يحدث فى المستقبل محجوب عنك بالزمن المستقبل، ولكن هناك شيئاً يحدث فى الحاضر ولا نعرفه وهو محجوب عنك بحجاب المكان، فما يحدث فى مكان لست موجوداً فيه لا تعرفه، فأنت إن كنت جالساً فى مكة مثلاً ، فأنت لا تعرف ما يحدث فى المدينة المنورة لأنه محجوب عنك بحجاب المكان ، وهناك أيضاً حجاب النفس، أى : أن مايدور فى نفسك لا يعرفه أحد غيرك ؛ لأنه محجوب بحجاب النفس.

وحين يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿إنما المشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُوا المسجدَ الحرامَ بَعْدَ عامهِمْ هَذَا﴾ فسبحانه وتعالى يخاطب قوماً يريد منهم أن ينفذوا هذا الأمر ، ولكنه سبحانه يعلم السرائر التى تستقبل النص. مثلما يأتى إنسان ويخبرك أن المخبز القريب من منزلك سوف يغلق فأول ما يتبادر إلى ذهنك السؤال: ومن أين سنأتى بالخبز؟ أو أن يقال لك : «إن الباخرة التى تحمل اللحم والخضروات ضلت الطريق» فأول ما يخطر على بالك لحظتها: ومن أين نأكل؟

وكان المشركون يأتون إلى الحج ومعهم أموالهم ويتاجرون وينفقون، هذه الفترة تمثل بالنسبة لمن يعيشون حول بيت الله الحرام فترة الرواج المادى الذى يعيشون عليه طوال العام.

فإذا كان الحق سبحانه وتعالى يقول لهم: ﴿ إنما المشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُوا المسجدَ الحرامَ بَعْدَ عامهِمْ هَذَا﴾ فأى شىء يختلج فى نفوس المسلمين؟ لابد أن يدور فى أعماقهم السؤال: ومن الذى سيشترى بضائعنا؟ لكن هل ترك الله عز وجل مثل هذا القول دون أن يرد عليه؟ لا ، فقد رد على التساؤل بقوله تعالى: ﴿ وإن خِفْتُمْ عَيْلَةً فسوْفَ يُغنيكُمُ اللهُ منْ فضله إنْ شَاءَ﴾ .

وهكذا كشف الله حجاب النفس، وردَّ على ما سيدور فى نفوس المؤمنين فى نفس الآية التى حرم فيها على المشركين أن يقتربوا من المسجد الحرام، ولم ينتظر الحق سبحانه وتعالى حتى يعلن المؤمنون ما فى أنفسهم، بل رد على ما يجول بخواطرهم قبل أن يعلنوه.

وحين يكشف الله عز وجل حجاب النفس بهذا الشكل، فالمؤمن الذكى يقول: هذا ما جاء فى بالى. ولأطمئن لأنه عرف ما بنفسى فسوف يرزقنى. ولو لم يأت ذلك فى بالهم لكَذَّبوا النص. ولو كذبوا النص لما بقوا على الإيمان، وما داموا قد بَقَوْا على الإيمان فقد جاء النص معبراً عما يجول بأنفسهم تماماً.

والله سبحانه وتعالى كشف حجاب النفس فى آيات كثيرة فى القرآن الكريم، منها قوله تعالى عن المنافقين والكفار:

﴿ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ ﴿٨﴾ ﴾ [المجادلة]

وقول النفس لا يسمعه أحد، ولو أن هؤلاء لم يقولوا هذا فى أنفسهم لقالوا: والله ما خطر ذلك فى نفوسنا. ولأنهم قالوه فى أنفسهم فقد بُهِتُوا لكشف القرآن الكريم لما يدور داخل أنفسهم. ولقد رد الله سبحانه وتعالى فى الآية الكريمة على ما سيدور فى خواطر المؤمنين عندما يستمعون إليها ، فلم ينتظر الحق سبحانه وتعالى حتى يشكو المؤمنون لرسول الله ﷺ خوفهم الفقر وقلة الرزق، بل أجاب سبحانه وتعالى على ذلك قبل أن يخطر على بالهم.

فكأن الحق سبحانه وتعالى يُشرِّع حتى للخواطر قبل أن تخطر على البال، ولا يترك الأمور حتى تقع ثم يُشرِّع لها.

وهنا يقول المولى سبحانه وتعالى: ﴿وإنْ خفْتُمْ عَيْلَةً﴾ والعيلة هى الفقر، ويتابع الحق جل وعلا: ﴿ فَسَوْفَ يُغنيكُمُ اللهُ من فَضْله إن شَاءَ﴾ ، ولم يقل الحق «سيغنيكم» بل قال: ﴿فَسوْفَ﴾ وهى تقتضى زمناً سيمر ولكنه زمن قريب ؛ لأن الخير الذى سيأتى له أسباب كثيرة كفيلة بتحقيقه كأن يعوضهم الله عما كان يأتى به الكفار بأن تمطر السماء مطراً فينبت النبات، وهذه تحتاج إلى زمن، وأن يأخذوا بالأسباب بأن يروج لهم تجارة على غير المشركين، أويكشف لهم من كنوز الأرض ما يغنيهم. ولذلك قال: ﴿فَسوْفَ﴾. والأسباب تحتاج إلى وقت، فنزلت الأمطار قرب جدة التى أسلمت ونبت الزرع فى وادى خليط ، وتبالى باليمن وجرش وصنعاء، وجاءت أحمال البعير بالخير لأهل مكة وحدثت الفتوحات الإسلامية ، فجاء الخير من الجزية والخراج. وهكذا نرى أن ﴿فَسوْفَ﴾ امتدت لمراحل كثيرة ، وما زالت موجودة ممتدة حتى الآن.

إذن : فقد أخذت الأمد الطويل. على أننا لا بد أن نلتفت إلى قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وإنْ خفْتُمْ عَيْلَةً﴾ هى حيثية بأن المؤمن عليه ألا يتهاون فى أمر دينه رغبة فى تحقيق أمر من أمور الدنيا ، فكل من يرتكب معصية خوفاً من أن تضيع منه فائدة مادية أو دنيوية ، كأن يخشى قول الحق خوفاً من أن يضيع منه منصبه ، أو يغضب عليه صاحب العمل فيطرده من وظيفته ، نقول له: لا عذر لك ؛ لأن الله سبحانه وتعالى قال: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فسوْفَ يُغنيكُمُ اللهُ مِن فضله ﴾ .

وحيث إن الرزق من عند الله سبحانه وتعالى، وهذا هو كلام الله عز وجل، فلا عذر لأحد أن يرتكب معصية بحجة المحافظة على رزقه، أو بحجة أنه يدفع الفقر عن نفسه وبيته وأولاده.

على أن قوله تعالى: ﴿إِن شَاءَ﴾ قد تجعل الإنسان يظن أن الزمن سوف يباعد بينه وبين الرزق ؛ لأنه سبحانه قد يشاء أو لا يشاء ، فكيف يكون هذا الأمر وهو سبحانه أراد بالآية طمأنة المسلمين .

وإذا كان الله قد قال: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فسوف يُغْنيكم اللهُ من فضلهِ﴾

فإننا نقول: إن الحق سبحانه وتعالى يريد الصلة الدائمة بعبده وألا يفسد على العبد الرجاء الدائم فى الله تعالى. وقوله عز وجل: ﴿إِن شَاءَ﴾ هو إبقاء لهذا الرجاء ؛ لأن العبد سيظل فى رجاء إلى الله عز وجل فيظل الله تعالى فى باله؛ ولأنه سيطلب دائماً رضا الله فإن هذا يجعله يبتعد عن المعصية ويتمسك بالطاعة.

وفوق ذلك كله ، فإن الحق تبارك وتعالى له طلاقة القدرة فى كونه ، فقدر الله وقضاؤه ليسا حجة على الله سبحانه وتعالى تقيد مشيئته سبحانه ، فمشيئة الله مطلقة لا يقيدها حتى قدر الله. فهو إن شاء حدث القدر. وإن شاء لم يحدث. وهكذا تظل طلاقة قدرة الله فى كونه.

وبعض العارفين بالله قد يكشف لهم الله لمحة من لمحات الغيب، فيخبر الواحد منهم الناس، فيخلف الله سبحانه وتعالى ما كشفه؛ حتى يظل الله وحده عالم الغيب؛ فما دام ذلك الذى اصطفاه الله بغيب أطلع الناس عليه. فسبحانه يُغيِّر أحداث الغيب ولا يعطى لذلك الشخص خبراً عن أى غيب آخر.

إذن فكلمة: ﴿إِن شَاءَ﴾ هى إثبات لطلاقة قدرة الله فى كونه، فإن شاء أعطاكم، وإن شاء لم يُعْطِكم، فالإعطاء له حكمة، والمنع له حكمة ، فقد يفترى البعض بالنعمة فيحجبها الحق عنهم، وهذا ما حدث فى كثير من البلاد

التى طغت وكفرت بنعمة الله عليها ؛ لأنه سبحانه لو ترك النعمة هكذا بدون ضوابط لاستشرى فى تلك البلاد الفساد والمعاصى، إذن : فالمشيئة تقتضى إعطاءً، أو منعاً، والإعطاء له حكمة، والمنع له حكمة ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى يعامل خلقه على أنهم من الأغيار القُلَّب؛ منهم من تأتيه النعمة فتطغيه، ولذلك يقول سبحانه وتعالى :

﴿فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦)﴾ [الفجر]

أى : أن الإنسان إذا أنعم الله تعالى عليه ، عدّ هذا كرماً من الله عز وجل ، وإذا ما ضيق الله عليه الرزق اعتبر ذلك إهانة وعدم رضا من الله .

ويرد الله تبارك وتعالى ليصحح المفهوم فيقول: ﴿كَلاَّ﴾ أى لا المال دليل على الإكرام، ولا قلة المال دليل على الإهانة.

﴿كَلاَّ بَل لاَّ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ (١٧) وَلا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ (١٨) وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَّمًّا (١٩) وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا (٢٠)﴾ [الفجر]

إذن : فالمال إذا جاء ليطغيك يكون نقمة عليك وليس نعمة لك، وإذا كانت قلة المال تمنع طغيانك فهى نعمة وليست نقمة. ولذلك قال تبارك وتعالى:

﴿كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ (٧)﴾ [العلق]

قد يمنع عنك المال الذى إن وصل إليك غرَّك فتحسب أنك فى غنى عن الله تعالى وتطغى ، وهذا المنع نعمة وليس نقمة، إذن فقوله تبارك وتعالى: ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِه إِن شَاءَ﴾ هو إبقاء لطلاقة القدرة فى الكون حتى يكون الإغناء لا بالمادة وحدها ولا بالمال وحده، ولكن بالقيم أيضاً، فلا يذهب المال قيم السماء ولا يبعد عن منهج الله.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿إِن شَاءَ﴾ يعنى: أنه سبحانه إن شاء أعطى،

وإن شاء منع ، فلا مانع لما أعطى ، ولا معطى لما منع ، وهى طلاقة المشيئة، فى حدود حكمة الله عز وجل، فلا تقل حين يمنع: إنه لم يحقق قوله: ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ﴾ لأن الإغناء كما يكون بالمادة، يكون أيضاً إغناء بالقيم. ويؤكد هذا قَوْلَه سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ أى: عليم بالأمر الذى يصلح لكم ، حكيم فى وضع العطاء فى موضعه والمنع فى موضعه.

ثم يقول الحق بعد ذلك :

﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾

وهنا يعود الحق سبحانه وتعالى إلى التحدث عن القتال، ونعلم أن الذين تحدث عنهم المولى سبحانه فى هذه السورة، هم المشركون وأحوالهم، والأمر بإلغاء المعاهدة معهم، وإبعاد ذواتهم عن المسجد الحرام، وتقتيل من يحاول البقاء منهم ليحض على الشرك؛ حتى لا يجتمع فى جزيرة العرب دينان (١) .

وعرفنا من قبل السبب، وأما الذين يتحدث عنهم الله فى هذه الآية فهم غيرهم. . . فرغم أن الحق سبحانه وتعالى أرسل لمشركى العرب محمداً ﷺ

(١) عن عائشة رضى الله عنها قالت : كان آخر ما عهد رسول الله ﷺ أن قال : «لا يترك بجزيرة العرب دينان» . أخرجه أحمد فى مسنده (٦/ ٢٧٥) قال الهيثمى فى المجمع (٥/ ٣٢٥) : «رواه أحمد والطبرانى فى الأوسط ورجال أحمد رجال الصحيح غير ابن اسحاق وقد صرح بالسماع» .

وهو رسول من أنفسهم، فهم يعرفونه حق المعرفة، كما أن المعجزة التى جاء بها ﷺ من جنس فصاحتهم، فإذا كذبوه فهم مخطئون، ورغم هذا كذبوه ولم يؤمنوا به، أما خارج الجزيرة فالرسول ليس منهم، والقرآن لم ينزل بلغتهم، وكان عليهم أن يأخذوا من المنهج التطبيق المناسب. وهكذا نرى أن مصادمة الإيمان لم تكن من مشركى مكة فقط، بل كانت أيضاً من بعض يهود المدينة وبعض من نصارى نجران ، وإذا كان الحق سبحانه وتعالى قد حدد فى هذه السورة موقف الإيمان من المشركين به ، فقد أراد أيضاً أن يحدد موقف الإيمان من أهل الكتاب.

ونحن نعرف أن هناك فرقاً بين أهل الشرك وأهل الكتاب، فالمشركون لم يكونوا يؤمنون بالله إلهاً واحداً بل معه شركاء، ولكن أهل الكتاب يؤمنون بالإله ويؤمنون برسول وكتاب سماوى، وهم بذلك أقرب إلى الإيمان. ولذلك نجد القرآن الكريم يعرض لنا مثل هذه القضية كطبيعة فطرية، فنجد أن النبى ﷺ قد حزن هو وصحابته حين غُلبتْ الروم فى أدنى الأرض(١). لماذا حزن الرسول ﷺ وهو يعلم أن الروم سيَقفون أيضاً ضده ؟ لقد حزن ﷺ لأنهم يؤمنون أن للكون خالقاً واحداً وأن له رسلاً يوحى إليهم وأن له كتباً منزلة، لكن الأمر يختلف بالنسبة للمشركين ،فهم يكفرون بالله وهذا قمة الكفر. صحيح أن بعضاً من أهل الكتاب وقفوا مع المشركين فى موقف العداء

(١) عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : كان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس لأنهم أهل كتاب، وكان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم لأنهم أهل أوثان ، فذكر ذلك المسلمون لأبى بكر رضى الله عنه فذكر ذلك أبو بكر للنبى ﷺ فقال له النبى ﷺ : أما إنهم سيهزمون فذكر أبو بكر لهم ذلك فقالوا : اجعل بيننا وبينك أجلاً فإن ظهروا كان لك كذا وكذا وإن ظهرنا كان لنا كذا وكذا فجعل بينهم أجل خمس سنين فلم يظهروا فذكر ذلك أبو بكر للنبى ﷺ فقال: ألا جعلته ـ أراه قال : دون العشرة ـ قال : فظهرت الروم بعد ذلك فذكر قوله تعالى ﴿ ألم غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون﴾ قال : فغلبت الروم ثم غلبَتْ بَعْدُ ﴿لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله﴾ قال سفيان : وسمعت أنهم ظهروا يوم بدر . أخرجه الترمذى فى سننه (٣١٩٣) وقال : حسن صحيح غريب . والحاكم فى مستدركه (٢/ ٤١٠) من حديث ابن عباس وقال : صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه وأقره الذهبى .

لرسول الله، لكن قلبه ﷺ معهم لأنهم أهل إيمان بالقمة. ويُسَرِّى الحق عن رسوله ﷺ فيقول:

﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ الرُّومُ ۝٢ فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣﴾ [الروم]

وهنا يبرز سؤال يقول: متى سيغلبون؟ تأتى الإجابة من الحق تبارك وتعالى:

﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ [الروم: ٤]

والبضع بالنسبة للزمن هو فترة تتراوح من ثلاث لتسع سنوات، ولم يحدد الحق سبحانه وتعالى البضع هنا؛ لأن المعارك لها أوليات ونهايات، لهذا جاء قول الحق تبارك وتعالى مراعياً لما تستغرقه هذه المراحل كلها، وجاء القول بأن نصر الروم على الفرس سوف يأتى بعد بضع سنين. وبالله قولوا لى: كيف يتحكم نبى أمى فى جزيرة تسكنها أمة أمية، ولا علم لهذا الرسول بأخبار الأمم وكيف لهذا النبى أن يأتى بأخبار نصر أمة على أخرى؟ ويظل هذا الخبر فى الكتاب الذى يحمل منهج رسالته قرآناً يُتْلَى ويتعبد به إلى قيام الساعة؟ لقد قالها بثقة فى حدوث ما جاء فى القرآن فى المستقبل القريب؛ لأنها جاءته عن ربه، وهو واثق أن قائل هذا الخبر قادر على إنفاذ ما يقول.

وإلا، فماذا كان يحدث لو أن الرسول ﷺ قال ذلك ثم مر بضع سنين ولم يأت نصر الروم؟ وماذا يكون موقف الذين آمنوا به كرسول من عند الله؟

إذن: هو ﷺ لم يكن ليجازف وينطقها إلا بثقة فى أن القائل هو الحق سبحانه الذى شاء أن ينزل بالخبر فى آية قرآنية تُتلى، وتُكتب، وتُحفظ، ويُصَلَّى بها فى كل وقت إلى أن تقوم الساعة. وينزلها سبحانه على محمد ﷺ وقت أن كان ضعيفاً لا يعرف ميزان القوى، ولا يعلم هل ستستعد الروم لتنتصر أم لا؟

ثم ألم يكن من الممكن أن يتصالح الروم والفرس؟ كل ذلك لم يكن فى حسبان محمد ﷺ؛ لأن الخبر جاء من الله وسبحانه القادر على إنفاذ ما يقول.

ألم يكن هناك إخبار عن أمور خالفت النواميس؟ نعم كانت هناك أمور خارجة عن النواميس وجاء بها الخبر من الله سبحانه وتعالى .. ألم يقل زكريا عليه السلام حين بُشِّر بالولد:

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا (٨) قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا (٩)﴾ [مريم]

أى: ما دام الله سبحانه وتعالى قد قال فقد تأكد الحدوث.

وكان المؤمنون أقرب إلى الروم لأنهم أهل كتاب؛ ولأن لهم صلة بالسماء، ومن له صلة بالسماء يمتلئ بالحنين إلى أخبار السماء، ويتسمع أخبار المؤمنين فى القمة العقدية. ومن العجيب أن هذه الآية تصدق فى الروم وفارس، فينتصر الروم على الفرس، وتصدق فى محمد ﷺ وأصحابه، فينتصر رسول الله وأصحابه فى بدر. ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ اللَّهِ .. (٥)﴾ [الروم]

وفى الآية الكريمة التى نحن بصدد خواطرنا عنها يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ (٢٩)﴾ [التوبة]

ونلحظ أن الحق سبحانه وتعالى قد وصفهم هنا بأنهم لا يؤمنون بالله مع أنهم أهل إيمان. والمعنى أنهم لا يؤمنون بالله الإيمان الذى يعطى الله جلال

الصفات وكمالها؛ لأن بعضهم قال: إن الله له ابن اسمه عزير، وقال البعض الآخر: المسيح ابن الله، إذن فهم لم يؤمنوا بالله حق الإيمان تسبيحاً وتنزيهاً لذاته الكريمة عَمَّا لا يليق بها، وكذلك يختلف إيمانهم باليوم الآخر عن الإيمان الحق به، إنه إيمان لايتفق مع مرادات الله تعالى؛ فهم يقولون مثلاً: إن النعيم فى الآخرة ليس مادياً ولكنه نعيم روحى. ونقول: عندما يحدثنا الله عن نعيم الآخرة فلابد أن نعرف هذا النعيم حتى نفهم المعنى، ونتساءل: ما هو النعيم الروحى؟ هل النعيم الروحى هو خواطر فى النفس فقط لا علاقة لها بالحقيقة؟ أيكون هذا هو نعيم الآخرة؟

لقد أوضح المولى سبحانه وتعالى بما لا يدع مجالاً للظن أو الشك أنه قد أعد جنة للمؤمنين وأعد ناراً للكافرين، وحكى لنا الحق سبحانه وتعالى عن هذه الحياة بما فيها من ثواب ومن عقاب؛ بما يقنعنا أن فيها نعيمًا مثل الذى نعرفه، فإذا كان هذا النعيم روحياً ونحن لا نعرف النعيم الروحى ولا نعلم شيئاً عنه، فكيف يغرينا الله عز وجل بشىء لا نعلمه؟ إذن: فإيمان هؤلاء الناس باليوم الآخر ليس إيماناً كما يريده الله.

فسبحانه حين يحدثنا عن الجنة إنما يحدثنا عن أشياء من جنس ما نعرف وليس من جنس ما لا نعرف. وصحيح أن الله سبحانه وتعالى قد بيَّن لنا بعض صور النعيم فى الجنة، وقال: إنها مثل كذا وكذا. قال الحق جل جلاله:

﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾ [الرعد: ٣٥]

إذن: فالله عز وجل يعطى مثلاً فقط. ومعلوم أن اللفظ فى اللغة لابد أن يوضع لمعنى معروف. ولذلك فعندما يحدثنا الله عن نعيم الجنة لابد أن يحدثنا بكلام نعرف معانيه. ورسول الله ﷺ قال عن الجنة:

«فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر»(١)

إذن : فلا توجد فى اللغة ألفاظ تعبر عن نعيم الجنة؛ لأن المعنى غير معروف لنا، ولكن الله أراد أن يحببنا فيها فأعطانا صورة نفهمها عن النعيم، فيقول عز وجل: ﴿ مَّثَلُ الجنَّةِ﴾ وهو يريدنا أن نعرف أن فيها نعيماً خالياً من كل المنغصات التى تكون فى المثل. فمثلاً الخمر فى الدنيا فيها خصلتان؛ الأولى أنها تغتال العقول (٢) والثانية : أنها لا تشرب بقصد اللذة، والذى يشرب الخمر لايشربها مثلما يشرب كوب عصير المانجو أو عصير الليمون الذى يستطعمه ويشربه على مهل، ولكنه يسكب الكأس فى فمه دفعة واحدة؛ لأن طعمها غير مستساغ وليقلل زمن مرور الخمر على الحس الذائق، ومعنى هذا أن طعمها غير مستطاب، ثم إنها تذهب بوعى الشارب لها فيفقد السيطرة على سلوكه، ويعتذر فى الصباح عما فعل أثناء احتسائه للخمر ويقول خجلاً: «لم أدر موقع رأسى من موقع قدمى » هذه خمر الدنيا، ولكن الخمر فى الجنة لا غَوْل فيها . . أى : لا تغتال العقول، حلوة المذاق، ولذلك يصفها الله سبحانه وتعالى بقوله:

﴿ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ ﴾ [محمد: ١٥]

أى: أنها مختلفة تماماً عن تلك الخمر التى حرمها الله فى الدنيا. وتتجلى الحكمة فى معنى الاستطعام فى قول رسول الله ﷺ:

«ثلاث من كُنَّ فيه وجد بهنَّ طعم الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه

(١) عن سهل بن سعد الساعدى قال : «شهدت من رسول الله ﷺ مجلساً وصف فيه الجنة حتى انتهى ، ثم قال ﷺ فى آخر حديثه : فيها ما لا عين رأت ولا أذُن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، ثم قرأ هذه الآية : ﴿تَتجافَى جُنُوبهم عن المضَاجع يَدعُونَ ربَّهم خوْفاً وطمعاً ومما رزقْنَاهُمْ ينفقُون . فَلا تعلَمُ نفسٌ مَا أُخْفى لهُمْ من قُرَّة أعين جَزَاءً بمآ كانُوا يعملُونَ ﴾ » أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٨٢٥) وأحمد (٥/ ٣٣٤) من طريق ابن وَهب عنَ أبى صخر به إلى سهل بن سعد ، وأخرجه الحاكم فى مستدركه (٢/ ٤١٣) من طريق عبد الله بن سويد عن أبى صخر به . وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وأقره الذهبى .

(٢) تغتال العقول : تسكرها وتذهب بها .

مما سواهما ، ومن أحب عبداً لا يحبه إلا لله، ومن يكره أن يعود فى الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يُلْقَى فى النار »(١) .

ومن رحمة الله تعالى بخلقه أنه لم يجعل الطعام وقوداً للطاقة فقط ، بل يغرى الناس على وقود الطاقة لاستبقاء الحياة بأن يستلذ الإنسان الطعام، ويطيل أمد اللذة ساعة تناوله، لا أن ينتظر النفع بعد أن يهضم الطعام. فكأن الإيمان لا يستمر إلا لمن يحب فى الله ويكره فى الله؛ فذلك يعطيه الطاقة التى تستبقى إيمانه؛ كما تستبقى طاقة الطعام حياة الإنسان. وشاء الله سبحانه وتعالى أن يعطينا فى تصوير الجنة المثل لما فى الجنة ، لا بتشخيص وتحديد لما فى الجنة فعلاً ، ويقول سبحانه وتعالى:

﴿ فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٧) ﴾ [السجدة]

وإذا كانت النفس لا تعلم شيئاً ، فهى لا تملك ألفاظاً تضع فيها ما لا تعلمه، فإذا خاطبها الله تعالى بواقع الجنة فهى لن تفهم، لذلك شاء الحق تبارك وتعالى أن يخاطبها بواقع المثل، فيقول عز وجل:

﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٥) ﴾ [البقرة]

إذن : فهو رزق يشبه الرزق الموجود فى الدنيا ولكن ليس هو (٢) ،أما أن

(١) متفق عليه . أخرجه البخارى (١٦) . ومسلم (٤٣) عن أنس بن مالك .

(٢) قال القرطبى فى تفسيره (١/ ٢٨٤) : ﴿من قَبْل﴾ يعنى فى الدنيا ، وفيه وجهان ، أحدهما : أنهم قالوا : هذا الذى وعدنا به فى الدنيا والثانى : هذا الذى رزقنا فى الدنيا ، لأن لونها يشبه لون ثمار الدنيا، فإذا أكلوا وجدوا طعمه غير ذلك. وقيل ﴿ من قَبْل﴾ يعنى فى الجنة لأنهم يرزقون ثم يرزقون، فإذا أتوا بطعام وثمار فى أول النهار فأكلوا منها، ثم أتوا منها فى آخر النهار، قالوا: هذا الذى رزقنا من قبل، يعنى أطعمنا فى أول النهار لأن لونه يشبه ذلك ، فإذا أكلوا منها وجدوا لها طعماً غير طعم الأول.
وقال ابن عباس : ﴿ وَأتوا به مُتشَابهاً﴾ : هذا على وجه التعجب ، وليس فى الدنيا شىء مما فى الجنة سوى الأسماء ، فكأنهم تعجّبوا لما رأوه من حسن الثمرة وعظم خلقها .

يقال : إن نعيم الجنة هو النعيم الروحى أو نعيم الخواطر أو ما نسميه آمال النفس، كأن يتخيل إنسان جائع أنه أكل كمية كبيرة من اللحم أو السمك؛ فتسعد روحه بذلك من غير واقع يحدث، فكل هذا غير حقيقى، ولكنهم يقولون هذا الكلام؛ لأنهم إذا ما تصوروا نعيم الجنة كالخواطر، فسوف يكون عذاب النار مقابلاً أيضاً لنعيم الجنة، أى سيكون عذاب الخواطر، وفى هذا تصور لعذاب سهل؛ لأنهم يخافون عذاب النار فيريدونه عذاباً روحياً.

ولكن الإحساس بالنعيم والعذاب لا بد أن يكون له واقع يشبهه فى الدنيا، وإلا ما وُجد فى أنفسنا ما يجعلنا نرغب فى نعيم الجنة ونخاف من عذاب النار. لذلكَ فإن نعيم الجنة حق، وعذاب النار حق. وشاء الله سبحانه أن يصفى النعيم من كل الشوائب، فقال عز وجل عن أنهار الجنة:

﴿ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُصَفًّى ﴾ [محمد: ١٥]

أى: ليس فيه كل الشوائب الموجودة فى عسل الدنيا. وكذلك قال عن لبن الجنة:

﴿ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ ﴾ [محمد: ١٥]

وكلمة ﴿ لَمْ يتغيَّرْ طَعْمُه ﴾ لها عند العرب أيام رسول الله ﷺ معنى؛ لأن العربى كان يحلب الجمال ويضع ألبانها فى الأوانى، وكان اللبن يتغير طعمه ويصير حامضاً، لكنه كان مضطراً أن يشربه؛ لذلك فحين يسمع ﴿وأنهَارٌ من لَّبَنٍ لَمْ يتغيَّرْ طَعْمُهُ﴾ فهو يعطيه المثل من حياته، بعد أن ينقيه من كل الشوائبِ التى تفسد طعم اللبن فى الحياة الدنيا.

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ قَاتلُوا الذينَ لا يُؤمنُونَ بالله ﴾ أى الإيمان الواجب بعظمة الله وتنزيهه. واليهود يؤمنون إيماناً إجمالياً بالله، ولكنهم يُجسِّمونه ويقولون: إنه جلس على صخرة ومد قدميه فى قصعة من الزمرد ثم استنكف الله أن يمد يده لبنى إسرائيل، وهذا تصوير لا يليق بكمال

الله ولا بذاته المقدسة، وهذا خطأ فى التصور. وكذلك كان خطؤهم فى تصور نعيم الجنة وعذاب النار، وبذلك لم يؤمنوا إيماناً حقاً باليوم الآخر، ولهذا جاء قول الحق: ﴿ولا باليوْمِ الآخر﴾ وهم لم يقفوا فقط ضد الإسلام كمنهج، بل وقفوا أيضاً من أديانهم مثلَ هذا الموقف، ويقول المولى سبحانه وتعالى:

﴿ ولا يُحرِّمون ما حَرَّمَ اللهُ ورسولهُ ﴾

وهم كأهل كتاب حرفوا وبدلوا فى دينهم فأحلوا ما حرم الله. ولذلك يقول سبحانه: ﴿ ولا يَدينون دين الحقِّ ﴾

والحق ـ كما نعلم ـ هو الشىء الثابت الذى لا يتغير. وإذا نظرنا إلى كل رسول فى عصره؛ نجده قد جاء بالحق، وإذا جاء رسول من بعده فهو لاينسخ العقائد، ولكنه ينسخ فى الأحكام، وهكذا نعلم أن كل رسول جاء بالعقائد الثابتة وبالأحكام التى تناسب الزمان إلى أن بعث الله محمداً ﷺ، فكان النبى الخاتم إلى أن تقوم الساعة، ولابد أن يكون الحق الذى جاء به هو الحق الثابت الذى لا يتغير؛ لأنه خاتم الأنبياء والمرسلين فلا رسول بعده، إذن فقوله: ﴿ولا يَدينُونَ دينَ الحقِّ منَ الذينَ أوتُوا الكتَابَ﴾ أى: أنهم لايؤمنون حتى بما جاء فى كُتبهم مَن بشارة به ﷺ، وهذا حكم خاص بهم؛ لأن المشكلة معهم أنهم لم يصدقوا بلاغ رسول الله ﷺ عن الله و أنه مرسل إليهم، وسَنَّ رسول الله ﷺ فى معاملتهم ما شرعه الله تعالى، وذلك أن يعاملوا معاملة مختلفة عن المشركين، فمعاملة المشركين كانت براءة من العهد، وإبعاداً عن المسجد الحرام، وقتالاً إن وجدناهم، أو أن يسلموا. أما معاملة رسول الله ﷺ مع أهل الكتاب فكانت: إما أن يسلموا، وإما أن يعطوا الجزية مع استبقاء الحياة، ولذلك قال الحق تبارك وتعالى:

﴿ حتَّى يُعْطُوا الجزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾

أى: حتى يؤدوا ما فُرض عليهم دفعه من أموال مقابل حصولهم على الأمان والحماية، وفى هذا صون لدمائهم، ولذلك نجد أن المسلمين قد فتحوا بلاداً غير إسلامية وصاروا قادرين على رقابهم ولم يقتلوهم، بل أبقوا عليهم، وإبقاء الحياة نعمة من نعم الإسلام عليهم ، وهناك نعمة ثانية وهى أنه لم يفرض عليهم ديناً، وإنما حمى اختيارهم الدين الذى يرونه، وفى ذلك رد على من يقول: إن الإسلام انتشر بالسيف، ونقول: إن البلاد التى فتحت بالمسلمين أقرت أهل الأديان على أديانهم، وحمت فقط حرية الاختيار، بل وقف المسلمون بالسيف أمام القوم الذين يقفون أمام اختيار الناس، وتركوا الناس أحراراً. لكننا نجد المغالطات تملأ كتابات الغرب حول مسألة السيف. ونرد دائماً أن الإسلام لو انتشر بالسيف لما وجدنا فى البلاد التى فتحها أناساً باقين على دياناتهم، بل كان الإسلام يأخذ الجزية ممن بَقَوْا على دياناتهم من أهل الكتاب. وأخْذُ الجزية دليل على أنهم ظلوا على دينهم وظلوا أحياء، وهاتان نعمتان من نعم الإسلام، وكان يجب أن يؤدوا جزاء على ذلك، وكان الجزاء هو الجزية. وهى مادة «جزى» و«يجزى». فكأن الجزية فعلة من «جزى» «يجزى» ؛ لأن الإسلام قدم لهم عملاً طيباً بأن أبقى على حياتهم وأبقاهم على دينهم من غير إكراه ، فوجب أن يُعطوا جزاء على هذه النعمة التى أنعم الله تعالى بها عليهم بالإسلام.

وأيضاً، فإنهم سيعيشون فى مجتمع إيمانى؛ الولاية فيه للإسلام، ويتكفل المسلمون بحمايتهم وضمان سلامتهم فى أنفسهم وأهلهم وفى أموالهم وفى كل شىء، فإذا كان المسلم يدفع لبيت المال زكاة تقوم بمصالح الفقراء والمسلمين، فأهل الكتاب الموجودون فى المجتمع الإسلامى ينتفعون ـ أيضاً ـ بالخدمات التى يؤديها الإسلام لهم، ويجب عليهم أن يؤدوا شيئاً من مالهم نظير تلك الخدمات، والإسلام مثلاً لا يكلف أهل الكتاب أن يدخلوا جنداً فى حرب ضد أى عدو للمسلمين إلا إذا تطوعوا هم بذلك، إذن: فالجزية ليست فرض قهر، وإنما هى مقابل منفعة أداها الإسلام لهم؛ إبقاءً على

حياتهم وإبقاء على دينهم الذى اختاروه ، وقرر الحق أن يعطوا الجزية ﴿عَنْ يَدٍ﴾ واليد هى الجارحة التى تُؤدَّى بها الأعمال ، وأغلب الأعمال إنما تُزَاوَلُ باليَد ، ونجد القرآن الكريم يقول :

﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلا يَشْكُرُونَ﴾ [يس : ٣٥]

واللسان أيضاً آلة الكلام، والحق تبارك وتعالى يجازى على القول الطيب أو السيىء، ولكن الأصل فى العمل هو « اليد »، وتطلق اليد ويراد بها القدرة التى تعمل، أو يراد بها النعمة، مثل قولنا: فلان له يد على فلان، وفلان له أياد بيضاء علىَ الناس .

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ حتَّى يُعْطوا الجزْيَةَ عَنْ يَدٍ ﴾.

فهل المقصود بـ ﴿ عَنْ يَدٍ ﴾ أى من يُعْطُونَ الجزية، أم أيدى الآخرين الآخذين للجزية ؟

إن هذا القول: ﴿ عَنْ يد ﴾ مثلما يقال: فلان نفض يده من هذا الأمر، أى خرج عن الأمر ولم يعد يعاون عليه . إذن يكون معنى ﴿ عَنْ يَدٍ ﴾ أى غير رد للنعمة . وعن يد منهم أى من المعطين للجزية، أو ﴿ عَنْ يَدٍ ﴾ أى: يداً بيده فلا يجلس الواحد من أهل الكتاب فى الأمة الإسلامية المحكومة بالإسلام فى مكانه ويرسل رسولاً من عنده ليسلم الجزية، لا، بل عليه أن يدفعها ويحضرها بيده. (١) أو نقول: ﴿ عَنْ يَدٍ ﴾ من معنى القدرة، فمن عنده قدرة، فنأخذ الجزية من القادر ولا نأخذها من العاجز (٢) .

إذن: يشترط فى اليد إن كانت منهم ثلاثة ملاحظ؛ الملحظ الأول: أن

---

(١) قوله تعالى ﴿عَنْ يَدٍ﴾ قال ابن عباس: يدفعها بنفسه غير مستنيب فيها أحداً. وقيل ﴿عَنْ يَدٍ﴾ عن إنعام منكم عليهم؛ لأنهم إذا أخذت منهم الجزية فقد أنعم عليهم بذلك. قال عكرمة: يدفعها وهو قائم والآخذ جالس، وقاله سعيد بن جبير، انظر تفسير القرطبى (٤ / ٤٢ . ٣).

(٢) عن عروة بن الزبير قال: مرَّ هشام بن حكيم بن حزام على أناس من الأنباط (فلاحو العجم) بالشام. قد أقيموا فى الشمس، فقال: ما شأنهم؟ قالوا: حُبسوا فى الجزية. فقال هشام: أشهد لسمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله يعذب الذين يعذبون الناس فى الدنيا». أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٦١٣) وأحمد فى مسنده (٣/ ٤٠٤) وأبو داود فى سننه (٣٠٤٥).

يكونوا موالين لا نافضين لأيديهم منا ومن حكمنا، والملحظ الثانى: أن يأتى بها بنفسه لا أن يرسل بها رسولاً من عنده، وإن جاء بها لابد أن يأتى بها وهو ماش وأن يعطيها وهو واقف ومن يأخذ الجزية قاعد، وهذا هو معنى ﴿وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾. ولماذا يعطونها عن صَغار؟ لأن الحق عز وجل أراد للإسلام أن يكون جهة العلو، وقد صنع فيهم الإسلام أكثر من جميل، فلم يقتلهم ولم يرغمهم على الدخول إلى الإسلام؛ لذلك فعليهم أن يتعاملوا مع المسلمين بلا كبرياء ولا غطرسة، وأن يخضعوا لأحكام الإسلام، وأن يكونوا موالين للمسلمين، لا نافضين الأيدى، وأن يؤدوا الجزية يداً بيد، وأما العاجز وغير القادر فيعفى من دفع الجزية (١).

﴿ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ والصَّغَار من مادة الصاد والغين والراء، وتدل على معنيين؛ إن أردتها عن السن يقال « صَغُر »« يَصْغُرُ» مثل قولنا: فلان كبر يكبر. وإن أردتها فى الحجم والمقام نقول « صَغِر » «يصغَر»، أى: صغر مقاماً أو حجماً، ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ [الكهف: ٥]

وهنا فى قوله: ﴿ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ تعنى أن يؤدوها عن انكسار لا عن علو، حتى إنَّ من يُعطى لا يظن أنه يعطى عن علو، ونقول له: لا، إن اليد الآخذة هنا هى اليد العليا.

ثم أراد الحق سبحانه وتعالى أن يعطينا حيثيات قتال الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، فقال بعد ذلك:

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٠٤١): «قال علماؤنا: أما عقوبتهم إذا امتنعوا من أدائها مع التمكن فجائز، فأما مع تبيّن عجزهم فلا تحل عقوبتهم، لأن من عجز عن الجزية سقطت عنه، ولايكلف الأغنياء أداءها عن الفقراء. وروى أبو داود عن صفوان بن سليم عن عدة من أبناء أصحاب رسول الله ﷺ عن آبائهم أن رسول الله ﷺ قال: «من ظلم معاهداً أو انتقصه أو كلّفه فوق طاقته أو أخذ شيئاً منه بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة». الحديث أخرجه أبو داود فى سننه (٣٠٥٢).

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

هذا الادعاء فيه مساس بجلال الله تعالى، فالإنسان يتخذ ولداً لعدة أسباب؛ إمَّا لأنه يريد أن يبقى ذكْره فى الدنيا بعد أن يرحل ، والله سبحانه دائم الوجود ؛ وإمَّا لكى يعينه ابنَه عندما يكبر ويضعف، والله سبحانه وتعالى دائم القوة؛ وإما ليرث ماله وما يملك، والله تبارك وتعالى يرث الأرض ومن عليها. وإما ليكون عزوةً له، والله جل جلاله عزيز دائماً. وهكذا تنتفى كل الأسباب التى يمكن أن تؤدى إلى هذا الادعاء. ولا يعقل أن يرسل الله سبحانه رسولاً ليبين للناس منهج الحق فإذا به يقول للناس: إنَّه ابن الله . إذن فهم لم يؤمنوا الإيمان الكامل بالله.

ويسوق الحق تبارك وتعالى قول كل من اليهود والنصارى: ﴿ وَقَالتِ اليهُود عُزَيْرٌ ابنُ الله وقالت النَّصارَى المسيحُ ابنُ الله ﴾.

وهكذا نجد أنهم لم ينزهوا الله وأخلُّوا بالإيمان الحق. ولابد أن نعلم أن من قالوا: إن عُزَيْراً ابن الله ليسوا هم كل اليهود، بل جماعة منهم فقط هى التى جعلت عُزَيْراً ابناً لله لما رأى أفرادها على يديه نعمة أفاءها الله تعالى عليه، فقالوا: هذه نعمة عظيمة جداً لا يمكن أن يعطيها ربنا لشخص عادى، بل أعطاها لابنه. ذلك أن اليهود بعد سيدنا موسى عليه السلام قتلوا الأنبياء، وعاقبهم الله بأن رفع التوراة من صدور الحافظين لها، ولكن طفلاً لم يعجبه

مشهد قتل الأنبياء فخرج شارداً فى الصحراء مهاجراً وهارباً، فقابله شخص فى الطريق فسأله: لماذا أنت شارد؟ فقال: خرجْت أطلب العلم. وكان هذا الشخص هو جبريل عليه السلام، فعلَّمه أن لله توراة، فحفظها فصار واحداً من أربعة، هم فقط من حفظوا التوراة: موسى، وعيسى، وعزير، واليسع، ولأن الكتب قديماً لم تكن تكتب على ورق رقيق مثل زماننا، بل كانت تكتب على الأحجار وسعف النخيل، لذلك كان وزن التوراة يقدر بسبعين حمْل بعير، وحين رجع عزير حافظاً للتوراة، اندهش قومه وقالوا: لابد أنهَ ابن الله؛ لأن الله أعطاه التوراة وآثره على القوم جميعاً [1]. ونشأت جماعة من اليهود تؤمن بذلك، وكان منهم سلاَّم بن مشكم، وشاس بن قيس، ومالك ابن الصيف، ونعمان بن أوفى. وحينما أنزل الله قوله: ﴿ وَقالت اليهُود عُزير ابنُ الله ﴾ لم ينكر اليهود المعاصرون لهذا النزول تلك المسألة ولَم يكذبوها، فكأن هناك من اليهود الذين كانوا بالمدينة من كان يؤمن بذلك، وإلا لاعترضوا على هذا القول، وهذا دليل على أن ما جاء بالآية يصدق على بعضهم أو هم عالمون بأن قوماً منهم قد قالوا ذلك. وكذلك قالت النصارى عن عيسى عليه السلام، فجاء قول الحق تبارك وتعالى: ﴿ وَقالتِ النَّصارى المسِيحُ ابنُ الله﴾.

ويتابع الحق: ﴿ ذُلك قولُهمْ ﴾ فيوضح لنا سبحانه أن البنوة لله جاءت فيها مشبهة، كان يجب أن يلتفتوا إليها وينزهوا الله عن ذلك؛ لأن الحق سبحانه وتعالى يصف عباده بأنهم عباد الله، وأن الخلق كلهم خلق الله تعالى.

فالمولى سبحانه وتعالى وهو الخالق والقادر على كل شىء خلق كل الخلق

---

(١) انظر قصة العُزير هذه فى تفسير القرطبى (٤/ ٣٠٤٣) وابن كثير (٢/ ٣٤٨). والعزير هو نبى من أنبياء بنى إسرائيل وهو الذى ضربه الله مثلاً لإحياء الموتى فى قوله تعالى: ﴿أو كالذى مرَّ على قَرْيَة وهى خَاوِيةٌ عَلَى عُرُوشها قال أنى يُحيى هذه الله بعْدَ موتهاَ فَأماتَهُ الله مائةَ عام ثُمَّ بعثهُ. . .﴾ (البقرة: ٢٥٩).
قال ابن كثير فى قصص الأنبياء (صَ ٣٨٠): «روى ابن عساكر عَن ابن عباس أنه سأل عبد الله بن سلام عن قول الله تعالى: ﴿وقالت اليهود عزير ابن الله﴾ لم قالوا ذلك؟ فذكر له ابن سلام ماكان من كَتْبه لبنى إسرائيل التوراة من حفظه، وقول بنى إسرائيل: لم يستطع موسى أن يأتينا بالتوراة إلا فى كتاب، وإن عزيراً قد جاءنا بها من غير كتاب. فرماه طوائف منهم وقالوا: عزير ابن الله».

من عدم ولم يتخذ صاحبة ولا ولداً. ولكن الشبهة عند بعض من أتباع المسيح جاءت من أنه أوجدَ من دون أب، ونقول لهم: لو أن هذا الأمر جاء لكم من هذا الطريق، فكانَ من الأوْلى أن تجيء ذات الشبهة فى خلق آدم؛ لأن قصارى ما فى المسيح أنه جاء من غير أب، ولكن آدم جاء من غير أب ومن غير أم، فأيهما كان أوْلى أن يكون ابن إله؟

ولذلك يقول القرآن الكريم: ﴿ إنَّ مثَل عيسى عند الله كمثَل آدَمَ ﴾. والحق سبحانه وتعالى يخلق الشيء - أى شيء - بأسباب، وكل الأسباب مخلوقة له، والولد منا - فى جمهرة الناس - ينشأ من اجتماع الأب والأم، والشيء المردود بين شيئين له صور منطقية أربعة: إما أن يوجد بوجود شيئين ذكر وأنثى، وإما أن يوجد بانعدام الشيئين مثل آدم، وإما أن يوجد بوجود واحد من الشيئين وهو الذكر مثل حواء، فقد خلقها الله من آدم مصداقاً لقوله: ﴿وَخلقَ منها زَوجها ﴾ ، وإما بوجود واحد من الشيئين وهى الأنثى وخلق عيسى عليه السلام منها بدون وجود الذكر. وليعلمنا الله سبحانه وتعالى جميعاً أن الأسباب لا دخل لها فى التكوين، وأن المسبِّب هو القادر على أن يوجد من غير أب وأم كما أوجد آدم، وأن يوجد من أب وأم كما أوجد جمهرة الناس، وأن يوجد من أم دون أب كما أوجد عيسى، وأن يوجد من دون أم كما أوجد حواء.

إذن: فالقسمة دائرة بقدرة الله وإرادته، ولا دخل لأحد إلا إرادة الحق سبحانه وتعالى، فالأسباب ليست هى الفاعلة فى ذاتها، بل إرادة الخالق سبحانه هى الفاعلة، ولذلك يقول المولى سبحانه وتعالى:

﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٥٠) ﴾ [الشورى]

أى: قد يوجد الذكر والأنثى ولا يعطى لهما الحق عز وجل أولاداً، وهذه

طلاقة قدرة من الله تعالى، فإياك أن تقول إنها بأسباب، بل سبحانه وتعالى يَهَبُ لمن يشاء إناثاً، ويهب لمن يشاء ذكوراً، ويجمع لمن يشاء بين الذكور والإناث، ويجعل من يشاء عقيماً، وكان استقبال الناس للمواليد يختلف؛ فالعرب كانوا يحبون إنجاب الذكر؛ لأنه قوى ويحقق العزوة ويركب الخيل، ويحارب الأعداء. ولم يكونوا يحبون إنجاب الفتاة لأنها قد تأتى منها الفضائح، ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (٥٨) يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ .. (٥٩) ﴾ [النحل]

وجاء الإسلام ليوضح: أنه مادام لا دخل لك فى الإنجاب والإنسال، فَدع الأمر لمن يهب الأبناء. وقد سمى الحق تبارك وتعالى الأبناء « هبة » ليذكرك أن الإنجاب شىء أعطاه سبحانه لك بلا مقابل منك، فالذكور هبة، والإناث أيضا هبة. فلا تفضل تلك الهبة عن هذه الهبة. ودائماً أقول للذى ينجب بنات، ويذهب هو وزوجته إلى الأطباء: لو استقبلتم هبة الله فى الإناث كما تستقبلونها فى الذكور، فإن الحق سبحانه وتعالى يجزيكم جزاء لا يخطر لكم على البال، فيحسن الله كل ابنة لكم فى عين رجل صالح ويتزوجها، فإن كُن عشر بنات فهُنَّ يأتين بعشرة رجال أزواج يعاملون الأب والأم لكل زوجة معاملة الأب والأم، وهكذا يرزق الله من يرضى بقسمة الله فى الإنجاب، ويصبح أزواج البنات أطوع من الأبناء الذكور، فالذى يرضى بالهبة فى الإناث يوضح له الله: رضيتَ بهبتى فيك ولم تكن على سنة العرب من كراهة الإناث؛ لذلك أهبك من أزواج البنات أبناء لم تتعب فى تربيتهم ويكونون أكثر حناناً وولاءً من أى أبناء تنجبهم أنت. ولذلك إذا ما وجدت إنساناً قد وُفِّقَ فى زيجات بناته، من رجال يصونون أعراضهم ويحسنون معاملة أهل الزوجة، فاعلم أن الأب قد استقبل ميلاد الأنثى بالرضا؛ لأنها هبة الله.

ويقول المولى سبحانه وتعالى:

﴿ وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا ﴿٥٠﴾ ﴾ [الشورى]

إذن: فالعقم أيضاً هبة إلهية؛ لأن الإنسان إذا ما استقبل العقم برضا الله؛ لَوَجَد فى كل رجل يراه ابناً له؛ لأنه استقبل الهبة فى المنع برضا، مثله مثل من استقبل الإناث كاستقبال الذكور. إذن: مادامت المسألة هبة من الله فيجب أن تستقبل عطاء الله ومنعه بالرضا.

وعيسى عليه السلام جاء بنسبة طلاقة القدرة من الخالق سبحانه وتعالى؛ لأن القسمة العقدية والعقلية لا تتم إلا به، ولن تتكرر؛ لأن آدم وُجِدَ أولاً، ومن وجدوا بعد آدم جاء كل منهم من أبوين، وكذلك حواء وُجِدت من قبلهم، فهذه ثلاث صور قد وجدت فى الكون وبقيت صورة ناقصة، هى أن يوجد إنسان من أم دون أب، فأتمها الله عز وجل بعيسى عليه السلام:

﴿ وَقَالتِ النَّصَارَى المسِيحُ ابنُ اللهِ ذَلِكَ قَولهم بأفواهِهِمْ ﴾

وقول الحق ﴿ ذَلِكَ ﴾ إشارة إلى القول بأن المسيح ابن الله أو عزير ابن الله، ويضيف الحق عز وجل توضيحاً ﴿ قَوْلهم بأفواهِهِمْ ﴾. ونسأل: وهل يوجد قول بغير أفواه؟ إن كل قول إنما يكون بالأفواه؛ حتى قول المؤمنين بأن الله واحد وأن محمداً رسول الله هو قول بالأفواه. ونقول: هناك قول بالفم فقط دون أن يكون له معنى من المعانى، وهناك قول بالفم أيضاً وله معنى، إلا أنه غير حقيقى، وكاذب.

ولنعرف أولاً: ما هو القول؟ إنه كلام يعبر به كل قوم عن أغراضهم؛ كأن تقول للطفل: اجلس، ولابد أن يكون الطفل فاهماً لمعنى الجلوس، وإن قلتها بالعربية لطفل إنجليزى فلن يفهم معناها.

إذن: فاللغة ألفاظ يعبر بها كل قوم عن أغراضهم، والغرض هو معنى متفق عليه بين المتكلم والسامع، ولابد أن يعرف الاثنان ما يشير إليه اللفظ من

موضوعات. فإن لم يعرف السامع اللفظ الذى يتكلم به المتكلم فهو لا يفهم شيئاً.

وهكذا نعلم أن الفهم بين المتكلم والمخاطب يشترط فيه أن يكونا عليمين باللفظ، فإذا تكلم متكلم بشىء لا علم للسامع به؛ فهو لا يفهم. وكانوا يضربون لنا المثل قديماً بعلقمة النحوى وكان مشهوراً فى النحو والألفاظ واللغة، ويتقعر فى استخدام الكلمات، ولا يتكلم إلا باللغة الفصيحة الشاذة التى لا يعرفها الناس، وكان عند علقمة خادم، فمرض علقمة النحوى مرة وذهب إلى طبيب اسمه « أعجز » ليشكو له علة عنده، وقال علقمة للطبيب: قد أكلت من لحوم هذه الجوازىء فقصأت منها قصأة أصابنى منها وجع من الوابية إلى دأبة العنق، ولم يزل يمنى حتى خالط الخلب وأملت منه السراسيب. ولم يكن الطبيب متخصصاً فى اللغة ولا معاجم عنده، فوقف مستغرباً من كلمات علقمة وقال له: أعدْ علىَّ ما قلته فإنى لم أفهم، فأعاد علقمةعليه ما قاله بغضب ولوم لأنه لم يفهم لغته، وعرف الطبيب تقعر علقمة فقال له: هات القلم والورقة لأكتب لك الدواء، وكتب له: خذ حرقة وسلقة ورهرقة واغسله بماروس واشربه بماء ماء. فقال علقمة: أعدْ علىَّ فوالله ما فهمت شيئاً، فقال الطبيب: لعن الله أقلَّنا إفهاماً لصاحبه. وَعرف علقمة أنه متقعر فى اللغة ويأتى بألفاظ ليست من الألفاظ الدائرة على ألسن الناس. وقال أساتذتنا لنا: ولم يؤدبه عن هذا إلا غلامه أى خادمه، فقد استيقظ علقمة ذات ليلة وقال: يا غلام أصعقت العتاريف، ولأن الغلام لم يفهم فقد رد قائلاً: زقفيلا، وقال علقمة للغلام: وما زقفيل؟ قال: وأنت ما أصعقت العتاريف؟ فقال له: يا بنى لقد أردت أصاحت الديكة؟ فقال: وأنا أردت لم تَصِحْ.

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾ إذن: القول هو اللفظ الملفوظ من الفم، وهذا القول إمَا أن يكونَ له معَنَى، وإما ليس له معنى. مثل كلمة « زقفيل » التى قالها خادم علقمة، هذه الكلمة ليس لها

وجود فى اللغة فهى قول باللسان ليس له معنى . وقد يكون القول له معنى ؛ إلا أنه كلام باللسان لا يؤيده واقع ، فهو كذب .

وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾ يحتمل الأمرين . إما أنهم يقولون كلاماً لا يقصدونه ولا يعرفون معنى ما يقولون ، والمثال : أن نقول : « كتب » ، وهى كلمة مكونة من الكاف والتاء والباء ، ويمكن أن نستخدم ذات الحروف فنقول : « كبت » وهى نفس الحروف أيضاً ولها معنى . أو نقول : « تكب » وهو لفظ غير مستعمل ، وهو كلام بالفم ولا معنى له فى اللغة ، بل هو لفظ مهمل . فإذا قال إنسان كلاماً له معنى فهمناه مثل قول : « زيد كان بالأمس بالمكان الفلانى » وهنا زيد معلوم ، والمكان معلوم ، وأمس معلوم . لكن زيداً لم يذهب إلى ذلك المكان ، وبذلك يكون القول فى حقيقته كذباً لم يحدث . ويكون كلاماً بالفم ، ولا واقع له فى الحياة .

إذن : فالقول بالفم إما أن يكون لا معنى له أبداً ، فيستعمل كلفظ مهمل لا وجود له فى اللغة ، وإما أن يكون له معنى فى ذاته إلا أنه ليس له واقع يؤيده .

والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ .. ﴿٤﴾ ﴾ [الأحزاب]

والله سبحانه يقول :

﴿ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ .. ﴿٤﴾ ﴾ [الأحزاب]

هذا إذن كلام لا وجود له فى الواقع ، فالزوجة لا تصير أمّاً لزوجها والولد المتبنى لا يكون ابناً للرجل أو المرأة ، لذلك يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ ﴾ [الأحزاب : ٥]

والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا (١) قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا (٢) مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا (٣) وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا (٤) ﴾

[الكهف]

أى : أن هذا القول منهم كلام له معنى فى اعتقادهم ، ولكن ليس له واقع ، ولذلك قال المولى سبحانه وتعالى : ﴿ كَبُرَتْ كلمةً تخرجُ مِنْ أفواههمْ﴾ أى : لا واقع لهذا القول يسنده فهو كذب .

﴿ ذَٰلِكَ قَوْلُهم بأفْواههمْ ﴾ وهل هذا القول بالأفواه أهم ابتكروه أم ابتدعوه ؟ إن الحق سبحانه يوضح لنا : ﴿ يُضَاهِئُون قَوْلَ الذينَ كفروا من قَبْل﴾ أى : أنهم لم يأتوا بهذا التصور من عندهم ، بل من شىء له واقع ، فقد قال المشركون ما أورده الحق على ألسنتهم :

﴿ وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا (١٩) ﴾ [الزخرف]

فقد توهم المشركون أن لله تعالى بنات والعياذ بالله - وسبحانه منزه عن ذلك ، فى ذلك يخاطبهم المولى ﴿ ألكُمُ الذَّكرُ ولَهُ الأنثى ﴾ - إذن : فهذا كلام قديم ؛ لذلك قال الحق عنهم : ﴿ يُضَاهِئُونَ ﴾ أى : يشابهون ويماثلون الذين من قبلهم حينما قالوا مثل ذلك ، كما أن البوذية فى الصين واليابان قالت ببنوة الإله والحلول وقد حفظ بعضهم من هؤلاء ، ولم يطرأ جديد من ألسنتهم ، وهم كما وصفهم القرآن الكريم ﴿ يُضَاهِئُونَ ﴾ أى : يشابهون ويماثلون به قول الذين كفروا من قبل ، و« المضاهاة » هى المماثلة والمشابهة ، وقالوا : إن مادتها مأخوذة من امرأة « ضَهْياء » (١) وهى التى ضاهت وشابهت

(١) قال فى لسان العرب : امرأة ضَهْيأ ، وهى التى لايظهر لها ثدى ، وقيل : هى التى لا تحيض ، فكأنها رجل شبهاً .

الرجل ، فى عدم الحيض أو الحمل أو الولادة ، وهى بذلك تكون شبيهة بالرجل .

﴿ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الذينَ كَفروا من قَبْل ﴾ والتعقيب هنا إنما يصدر من الحق تبارك وتعالَى عليهم ، وَلم يتركه الحَق لنا ، وساعة تسمع : ﴿ اتخذَ اللهُ ولَدًا ﴾ فالفطرة الإنسانية تفرض أن يقول السامع لهذا الكلام: قاتلهم الله كيف يقولون هذا ؟ وشاء الحق هنا أن يتحملها عنا جميعاً ؛ لأننا إن قلنا نحن : « قاتلهم الله أو لعنهم الله » فلا أحد منا يضمن استجابة الدعاء عليهم ، فالأمر قد لا يتحقق ، ولكن حين يقولها الحق سبحانه وتعالى . فتكون أمراً مقضياً . لذلك يقول الحق : ﴿ قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ ، وما معنى قاتلهم الله ؟ أنت إذا رأيت فعلاً قبيحاً من فرد ، تقول: قاتله الله . لأن حياته تزيد المنكرات ، ومثال ذلك من يسب أباه ، يقول من يسمعه « قاتله الله » بينما يقول الإنسان منا لإنسان يفعل الخير: « فليعش هذا الرجل الطيب » ؛ لأنك ترى أن حياته فيها خير للناس .

وقول الحق : ﴿ قَاتَلَهُمُ اللهُ ﴾ أى لعنهم وطردهم ، ويقول سبحانه وتعالى: ﴿ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ ، وكلمة ﴿ أَنَّى ﴾ ترد بمعنيين ، فمرة تعنى « من أين ؟» ، ومرة أخرى تعنى « كيف ؟» ، والمثال على معناها الأول قول الحق سبحانه وتعالى على لسان سيدنا زكريا لما دخل على مريم البتول [1] :

﴿ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ﴾ [آل عمران: ٣٧]

قال ذلك لأنه رأى عندها أشياء من الخيرات لم يأت بها إليها ، مع أنه هو الذى يكفلها ،والمفترض فيه أن يأتى لها بمقومات حياتها ، وعندما دخل عليها ووجد شيئاً هو لم يأت به ، سألها: ﴿ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ﴾ أى : من أين لك هذا؟ فأجابت مريم المصطفاة بما جاء فى القرآن الكريم :

---

(١) البتول من النساء : المنقطعة عن الرجال لا أرب لها فيهم، وبها سميت مريم أم المسيح . ويقال : البتول هى المنقطعة إلى الله عز وجل عن الدنيا .

﴿ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾

[آل عمران: ٣٧]

وجاء الحق بهذه الكلمة لتخدم أموراً إيمانية كثيرة جداً ، وجاء بها على لسان مريم المصطفاة ؛ لأن المسألة ليست مجرد طعام يأتيها من مصدر لا يعلمه البشر حتى من هى فى كفالته . بل هى تقديم لما سوف يحدث . فلا تظن أن الأمور تسير سير المسألة الحسابية بأسباب ومسببات ، وعلل ومعللات، ومقدمات ونتائج ، بل هى بإرادة الله تعالى؛ لأنها لو كانت من عند الإنسان لفعلها بحساب، ولكن الحق سبحانه وتعالى يعطى بلا حساب؛ لأنه خالق الأسباب ، وهو قادر على أن يخلق المسبَّب على الفور :

﴿ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران: ٣٧]

وحين أنطق الحق سبحانه وتعالى مريم بهذا إنما كان ليوضح لها ولزكريا فى آن واحد: إنك يا زكريا تأتى لها بالرزق فى حدود قدراتك وحساباتك البشرية، ولكن الله يأتيها بالرزق بغير حساب ، وهو ما لا تستطيع أن تأتى به قدرات البشر ، فقد يكون الرزق الذى رآه سيدنا زكريا عند سيدتنا مريم لوناً من الأطعمة لا يأتى إلا فى الصيف ، بينما كان الوقت شتاء ، أو العكس ، وقد يصح أن هذا الرزق ليس فى بلادهم مثله ،ولذلك قال : ﴿ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ﴾ وقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ﴾ هو قضية تربوية اجتماعية بمعنى أن الكفيل على قوم حينما يرى عندهم أشياء لم يأت بها هو، وجب عليه أن يسأل عن مصدرها، فحينما ترى فى يد ابنك قلم حبر غالى الثمن وأنت لم تحضره له، لا بد أن تسأله: من أين جئت به ؟ وذلك لتعرف التأثيرات الخارجية عليه ، هل سرقه ؟ أم أن أحداً أراد استدراجه إلى غرض سيِّئ فأغراه بهذا القلم ؟

لا بد إذن أن تسأل ابنك: من أين لك هذا ؟ وكذلك إن رأيت ابنتك ترتدى ثوباً لم تأتِ لها به ولا أتت به أمها بعلمك ، لا بد أن تسأل ابنتك: من أين

لك هذا ؟ وهذه القضية إن سيطرت على كل بيت من بيوتنا فلن يحدث فى البيوت ما يشينها ، لكننا للأسف الشديد نرى فى بعض البيوت طفلاً يدخل ومعه قطعة من الشيكولاتة ، ولا تسأله الأم: من أين لك هذا ؟ بل تربت عليه وتأخذ منه قطعة من « الشيكولاتة » لتأكل معه . لكن الأم التى تجيد التربية تماماً تسأل الابن : من أين أتيت بها ؟ حتى تعرف هل ثمنها مناسب لمصروف يده أم لا ، فإن لم تجد أنه قد جاء بهذه «الشيكولاتة» من مصدر معلوم لها وحلال فهى تحذره وتضرب على يده .

ولا بد لنا أن نعلم أن قانون: « من أين لك هذا ؟» يحكم العالم كله ؛ لأنه يتحكم فى التربية الاجتماعية كلها . وقد سبق الإسلام العالم بأربعة عشر قرناً حين أنزل الحق تبارك وتعالى قوله: ﴿ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ﴾ ، وأجابت سيدتنا مريم الإيجاب الإيمانى ، وأوضحت لسيدنا زكريا عليه السلام: أنت تتكلم بحسابك ولكنى أتكلم بحساب الله تعالى ؛ لأن الله يرزق من يشاء بغير حساب ، أنطقها الحق ذلك لأن هذا القول سوف يخدم قضايا عقدية متعددة فى الكون :

القضية الأولى : أنها ساعة أن قالت :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران: ٣٧]

نبهت زكريا إلى قضية عقدية ، وهى أن الله سبحانه وتعالى غير محكوم بالأسباب ، وسبحانه يعطى بلا حساب ، ونظر زكريا إلى نفسه متسائلاً: ما دام الله عز وجل يعطى بغير حساب ، وأنا قد بلغت من الكبر عتياً ، وامرأتى عاقر ، فلماذا لا أطلب منه أن يعطينى الولد ؟

إذن: فقد نبهت مريم سيدنا زكريا عليه السلام ولفتت نظره إلى قضية عقدية ، وهى أن الله يعطى بلا أسباب ، وبلا حساب ، فدعا الله أن يرزقه غلاماً فلما بشره الحق بالغلام تساءل: كيف يرزق بالغلام وامرأته عاقر ، وهو قد بلغ من الكبر عتيًا ؟ وجاءت الإجابة من الحق سبحانه وتعالى :

﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ [مريم: ٩]

وهكذا انتفع زكريا بعطاء الله بالابن، ولم يكتَف الحق سبحانه وتعالى بذلك، بل تكفل عن زكريا بتسميته، ولله ملحظ فى تسميته، ونحن نعلم أن الناس تسمى الوليد الصغير بأسماء تتيمن بها (١)، مثل أن يسمى رجل ابنه «سعداً» رجاء أن يكون سعيداً، وقد يسمونه «فارساً»، رجاء أن يكون فارساً، ويسمونه «فضلاً» رجاء أن يكون كريماً، ويسمون الفتاة «قمراً» لعلها تكون جميلة. إذن: فالتسمية باسم يحمل معنىً شريفاً على أمل أن يكون الوليد هكذا، وهناك شاعر كان أولاده يموتون بعد الولادة، فجاءه ابن وسمَّاه يحيى، فمات هذا الابن أيضاً فقال الشاعر متحسِّراً:

سَمَّيْتُه يَحْيى لِيَحْيا فَلَمْ ... يكُنْ لِرد قضاء الله فيه سَبِيلُ

إذن: فالتسمية بالاسم الشريف، أو بالاسم الذى يدل على الشىء المؤمّل هو رجاء أن يكون الوليد هكذا، لكن المسمى لا يملك أن يكون سعيداً، ولا أن يكون فارساً، ولا أن يعيش؛ لأن الذى يملك كل ذلك هو الله سبحانه وتعالى، فإذا كان الله هو الذى سمى يحيى، فلابد أن يكون الأمر مختلفاً؛ لأن الذى يملك هو الذى سمَّى، فهل سيعيش يحيى بن زكريا كالحياة التى نحياها وفيها الموت مُحتَّم على الجميع؟ نعم؛ لذلك شاء له الله أن يموت لتبقى حياته موصولة إلى أن تقوم الساعة. وهكذا رأت سيدتنا مريم آثار ذلك منذ أن قال لها زكريا عليه السلام ﴿أَنَّى لَكِ هَٰذَا﴾ وأجابت:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٧)﴾ [آل عمران]

---

(١) عن على بن أبى طالب قال: «لما ولد الحسن سميته حرباً، فجاء رسول الله ﷺ، فقال: أرونى ابنى ما سميتموه؟ قال: قلت حرباً، قال: بل هو حسن. فلما وُلدَ الحسين سميته حرباً. فجاء رسول الله ﷺ فقال: أرونى ابنى ما سميتموه؟ قال: قلت: حرباً، قال: بل هو حسين» أخرجه أحمد فى مسنده (١/ ٩٨، ١١٨) و الحاكم فى مستدركه (٣/ ١٦٥، ١٨٠) وصححه وأقره الذهبى.

لقد رأت كل ذلك فى سيدنا زكريا وفى ميلاد يحيى، وجعل الله كل ذلك مقدمات لها؛ لأنها ستُمتحن فى عِرْضها فهى التى ستنجب ولدا من غير أب، وعليها أن تتذكر دائماً قولها :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران: ٣٧]

ولذلك تجد القرآن الكريم فى قصصه العجيب يقول على لسان مريم :

﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ﴾ [مريم: ٢٠]

وقد بشَّرها الحق تبارك وتعالى بذلك فى سورة آل عمران :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ﴾

[آل عمران: ٤٥]

ومادام قد نسبه الله لها فلن يكون له أب، فتساءلت: كيف يكون لى غلام من غير أب. ويُذكِّرها الحق عز وجل بهذا القول :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران: ٣٧]

وقال لها :

﴿كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ﴾ [مريم: ٢١]

مثلما قال لزكريا من قبل، إذن ﴿أنّى﴾ هذه هى مفتاح الموضوع العقدى كله، فى زكريا ويحيى، وفى مريم وعيسى، وهذا هو معنى ﴿أنّى﴾ وقلنا إن «أنّى» تأتى بمعنى كيف؟ مثل قول الحق تبارك وتعالى على لسان إبراهيم عليه السلام : ﴿ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ ﴾ [البقرة: ٢٦٠]

وسيدنا إبراهيم لا يُكذب أن الله قادر على الإحياء، ولكنه يسأل عن الكيفية، وهنا يقول الحق: ﴿قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ أى : كيف يعدلون عن الحق؟ فالقضية منطقية ، وماكان يصح أن تغيب عنهم، فكيف يُصرَفون عن

هذه الحقيقة التى توجبها الفطرة الإيمانية؟ وكيف يضلون عن الحق وهو ظاهر ويعدلون إلى الباطل؟

ويقول سبحانه بعد ذلك عن أهل الكتاب :

﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ ﴾

و«الحَبْر» هو لقب عند اليهود، وهو العالم. ويقال فى اللغة «حبر» أو «حَبْرٌ» أى رجل يدقق الكلام ويزنه بأسلوب عالم. والرهبان عند النصارى والمقصود بهم المنقطعون للعبادة، فالحَبر عالم اليهود، والراهب عابد النصارى، أما عالم النصارى فيسمى «قسيسَ» ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا ﴾ [المائدة: ٨٢]

فإن قصدنا عالم الدين المسيحى قلنا : «قسيس» ، وإن قصدنا رجل التطبيق أى العابد قلنا: «الراهب» والراهب هو من يقول: إنه انقطع لعبادة الله فوق ما طلب الله منه من جنس ما طلب، ونعلم أنه لا رهبانية فى الإسلام[1]، ولكن الإنسان يستطيع أن يتقرب إلى الله كما يحلو له من جنس ما طلب الله منه، فإن كان الحق عز وجل قد أمر بإقامة الصلاة خمس مرات

(١) روى الإمام أحمد عن عروة قال : دخلت امرأة عثمان بن مظعون أحسب اسمها خولة بنت حكيم على عائشة وهى باذة الهيئة (أى : رثة الهيئة تاركة زينتها) فسألتها : ما شأنك؟ فقالت : زوجى يقوم الليل ويصوم النهار (أى : أنه منصرف عنها إلى قيامه وصيامه وعبادته) فدخل النبى ﷺ فذكرت عائشة ذلك له فلقى رسول الله ﷺ عثمان فقال : «ياعثمان إن الرهبانية لم تكتب علينا، أفما لك فىَّ أسوة، فوالله إنى لأخشاكم لله وأحفظكم لحدوده» أخرجه أحمد فى مسنده (٦/ ٢٢٦) وابن حبان (١٢٨٨ ـ موارد الظمآن).

فى اليوم، فالمسلم الذى يرغب فى زيادة التقرب إلى الله يمكنه أن يصلى ضعف عدد مرات الصلاة، وإذا كان الحق سبحانه قد فرض أن تكون الزكاة بمقدار اثنين ونصف فى المائة، فالعبد الصالح قد يزيد ذلك بضعفه أو أضعافه. وهذه زيادة من جنس ما فرض الله تعالى وزيادة، وهذا يعنى فى الإسلام الدخول إلى مقام الإحسان [١]، واقرأ إن شئت قول الحق تبارك وتعالى :

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦)﴾ [الذاريات]

أى: أنهم قد دخلوا إلى مقام الإحسان أى ارتقوا فوق مقام الإيمان. ويزيدنا الحق علماً بمقام الإحسان فيقول :

﴿كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩)﴾ [الذاريات]

وسبحانه لا يطلب منا فى فروض الدين ألا نهجع [٢] إلا قليلا من الليل، بل نصلى العشاء وننام إلى الفجر. لكن إنْ قام الإنسان منَّا وتهجد فذلك زيادة عما فرض الله ولكنه من جنس ما فرض الله. وكذلك الاستغفار فمن تطوع به فهو خير له. وكذلك الصدقة على غير المحتاج ، فهنا زيادة فى العطاء على ما فرضه الله من الزكاة التى حُدِّدَتْ من قبل فى قول الحق تبارك وتعالى :

﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ (٢٤)﴾ [المعارج]

والرهبانية كانت رغبة من بعضهم فى الدخول إلى مقام الإحسان، ولكن الحق لم يفرضها عليهم؛ لأنه هو الذى خلق وَعلم أزلاً قدرات من خلق،

---

(١) قال ابن رجب الحنبلى فى جامع العلوم والحكم (ص ٤٨): «الاحسان هو أن يعبد المؤمن ربه فى الدنيا على وجه الحضور والمراقبة، كأنه يراه بقلبه وينظر إليه فى حال عبادته، فكأن جزاء ذلك النظر إلى الله عياناً فى الآخرة.. وذلك يوجب الخشية والخوف والهيبة والتعظيم، ويوجب أيضًا النصح فى العبادة وبذل الجهد فى تحسينها وإتمامها وإكمالها».

(٢) الهجوع : النوم ليلا.

لذلك قال سبحانه وتعالى :

﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ ﴾ [الحديد : ٢٧]

هم إذن قد ابتدعوها ابتغاء رضوان الله وزيادة فى العبادة ، وليس فى ذلك ملامة عليهم ، ولكنها ضد الطبيعة البشرية ؛ لذلك لم يراعوا الرهبانية حق رعايتها ، ويقول المولى سبحانه وتعالى هنا فى الآية الكريمة التى نحن بصدد خواطرنا عنها :

﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا ﴾ فهل معنى ذلك أنهم يقولون للحبر أو الراهب « رب » ؟ لا ، ولكن كانت معاملتهم لهم كمن يعامل ربه ؛ لأن الله هو الذى يُحل ويحرم بـ « افعل » و « لا تفعل » ، فإذا جاء هؤلاء الأحبار وأحلُّوا شيئاً حرمه الله أو حرَّموا شيئاً أحلَّه الله، فهم إنما قد أخذوا صفة الألوهية فوصفوهم بها ؛ لأن التحليل والتحريم هى سلطة الله ، فلذلك عندما دخل عدى بن حاتم على سيدنا رسول الله ﷺ ووجد الرسول ﷺ فى عنق الرجل صليباً من الذهب أو من الفضة قال سيدنا رسول الله ﷺ : « اخلع هذا الوثن » ، ومن أدب الرجل مع الرسول خلع الصليب . وقال ﷺ : « إنكم لتتخذون الأحبار والرهبان أرباباً » . فقال الرجل : نحن لا نعبدهم . . قال له رسول الله ﷺ : أو لا تطيعونهم فيما حرموا وأحلوا ؟ قال : نعم . قال : تلك هى العبادة[1] .

﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ ﴾ ولسائل أن يسأل : وما معنى عطف المسيح على الأرباب ، وعلى الأحبار والرهبان ؟ والإجابة : إن الذى يحلل ويحرم إن لم يكن رسولاً ، فهو إنسان يطلب

---

(١) عن عدى بن حاتم قال : أتيت النبى ﷺ وفى عنقى صليب من ذهب ، فقال : «ياعدى اطرح عنك هذا الوثن» وسمعته يقرأ فى سورة براءة (اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ) .
قال : «أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم، ولكنهم كانوا إذا أحلُّوا لهم شيئاً استحلوه، وإذا حرموا عليهم شيئاً حرموه» . أخرجه الترمذى فى سننه (٣٠٩٥) وقال : هذا حديث غريب .

السلطة الزمنية، وذلك لا يتأتى من الرسول؛ لأن الرسول ﷺ إنما جاء ليلفت الناس إلى عبادة الله بما شرعه الله، وعيسى عليه السلام هو رسول لم يقم إلا بالبلاغ عن الله، ولكن البعض أخطأ التقدير وظن أنه ابن الله، ولذلك يتابع الحق قوله :

﴿وَمَآ أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ وهكذا يذكر الحق أن الأمر لم يصدر منه سبحانه وتعالى إلا بأن يعبد من يؤمن بالرسالات الإله الواحد. ورسولنا ﷺ يقول :

« خير ما قلته أنا والنبيون: لا إله إلا الله »(١).

وأنت حين تنظر إلى «لا إله إلا الله» تجد النفى فى «لا» والاستثناء من النفى والإثبات فى «إلا»، وهذا نفى الألوهية عن غير الله وإثباتها له وحده، وحين نقول : «الله واحد» فهذا يتضمن الإثبات فقط. ويأخذ الفلاسفة الذين يملكون قوة الأداء والبيان من هذه القضية «الإثبات والنفى»، أو «الموجب والسالب»، ويقولون : كل التقاء بين موجب وسالب إنما يعطى طاقة، والطاقة يمكن استخدامها فى الإنارة أو تدار بها آلة، وكذلك الطاقة الإيمانية تحتاج إلى «سالب وموجب»، ويقول الشاعر إقبال :

إنما التوحيدُ إيجَابٌ وسَلبٌ

فيهما للنفْسِ عزمٌ ومَضَاء

ويقول سبحانه وتعالى تذييلاً للآية الكريمة : ﴿سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ وحين تسمع كلمة ﴿سُبْحَانَهُ﴾ فاعرف أنها للتنزيه، فلا ذات مثل ذات الله، ولا صفة مثل صفات الله، فالله غنى وأنت غنى، فهل غناك الحادث مثل غنى الله الأزلى؟ وأنت حى والله حى ، فهل حياتك الموقوتة مثل حياته؟ فحياته

(١) أخرجه الترمذى فى سننه (٣٥٨٥) والبيهقى فى سننه (٤/ ٨٩، ٢٨٩) قال الترمذى : هذا حديث غريب من هذا الوجه.

ذاتية وحياتك موهوبة، فسبحانه حى بذاته، ولذلك يجب أن تفرق بين اسمه «الحى» واسمه «المحيى»، فهو حى فى ذاته، ومُحْى لغيره، وإن كانت الصفة لله فى الذات فهى لا تتعدى إلى الغير، إن الله يوصف بها ولا يوصف بنقيضها، فتقول «حى» ولا تقول المقابل، ولكن إن قلت: «محيى» فأنت تأتى بالمقابل وتقول «مميت». وتقول: «قابض وباسط» و«رحيم وقهار».

إذن: فصفة الذات يتصف الله بها ولا يتصف بمقابلها، وأما صفة الفعل فيتصف بها ويتصف بمقابلها لأنها فى غيره، فسبحانه هو مُحى لغيره، ومميت لغيره، لكنه حى فى ذاته. إذن فكلمة ﴿سُبْحَانَهُ﴾ تعنى التنزيه ذاتاً، وصفات، وأفعالاً، وإذا جاء فعل من الله، ويأتى مثله فعل من البشر، نقول: إن فعل الله عز وجل غير فعل البشر لأن فعل الله بلا علاج (١)، ولكن فعل البشر بعلاج، بمعنى أن كل جزئية من الزمن تأخذ قدراً من الفعل، كأن تنقل شيئاً من مكان إلى مكان، فأنت تأخذ وقتاً وزمناً على قدر قوتك، أما فعل الله عز وجل فلا يحتاج إلى زمن، وقوته سبحانه وتعالى لانهائية.

ولذلك حين قال سيدنا رسول الله ﷺ: لقد أسْرىَ بى إلى بيت المقدس، قال من سمعوه: أتدعى أنك أتيتها فى ليلة ونحن نَضرب إليها أكباد الإبل شهراً؟ (٢) لكن لم يلتفت أحد منهم إلى أن محمداً ﷺ لم يقل: لقد ذهبت

---

(١) أى أن فعل الله سبحانه وتعالى يتم فى الكون بدون معالجة أو تهيئة أسباب بل الأمر بالنسبة لله: كن فيكون.

(٢) أخرج أحمد فى مسنده (١/ ٣٠٩) عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: لما كان ليلة أسرى بى وأصبحت بمكة فظعت بأمرى، وعرفت أن الناس مكذبى، فقعد معتزلاً حزيناً. قال: فمر عدو الله أبو جهل فجاء حتى جلس إليه فقال له كالمستهزىء: هل كان من شىء؟ فقال رسول الله ﷺ: نعم، قال: ماهو؟ قال: إنه أسرى بى الليلة، قال: إلى أين؟ قال: إلى بيت المقدس. قال: ثم أصبحت بين ظهرانينا؟ قال: نعم. قال: فلم ير أنه يكذبه مخافة أن يجحده الحديث إذا دعا قومه إليه» الحديث، وعن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «لما كذبتنى قريش حين أسرى بى إلى بيت المقدس قمت فى الحجر فجلا الله لى بيت المقدس فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه» أخرجه أحمد فى مسنده (٣/ ٣٧٧). والبخارى فى صحيحه (٤٧١٠)، ومسلم (١٧٠).

وقد قال ابن إسحاق: فلما أصبح غدا على قريش، فأخبرهم الخبر فقال أكثر الناس: هذا والله الإمْر البين، والله إن العير لتطرد شهراً من مكة إلى الشام مدبرة وشهراً مقبلة، أفيذهب ذلك محمد فى ليلة واحدة ويرجع إلى مكة؟ (سيرة النبى لابن هشام: ٢/ ٤). والإِمْرُ: هو الشىء العظيم العجيب المنكر.

إليها بقوتى، بل قال: لقد أسرىَ بى من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى. إذن : فالذى أسْرَى هو الله القوى القادر ولا يحتاج الله إلى زمن.

إذن : فـ﴿سُبْحَانَهُ﴾ هى تنزيه لله سبحانه وتعالى عن أى شىء يوجد فى البشر. ولا تقارن قدرة الله سبحانه وتعالى بقدرة البشر مهما كان، بل إن العمل ينسب لقدرة صاحبه ، وكلما زادت القوة زادت القدرة والله هو القوى. وقوله تعالى: ﴿سُبْحَانَهُ عَمَّا يشركُونَ﴾ هو تنزيه لله، ولا تجد بشراً يقول لبشر حتى من الكفار الذين يعاندون الإيمان، لايقول واحد منهم لآخر «سبحانك» لأن التنزيه أمر يختص به الله عز وجل.

والناس تضع أسماء أولادها، فالأسماء مقدور عليها من البشر، ولكنك لاتجد كافراً معانداً محاربًا لدين الله عز وجل يسمى ابنه «الله» فالمؤمن لا يجرؤ على هذه التسمية لأنه يؤمن بالله، والكافر لا يجرؤ عليها أبدا بقدرة الله وقهره. لذلك فكلمة ﴿سُبْحَانَهُ﴾ ولفظ الجلالة «الله» لفظان يختص بهما الله وحده بالقدرة المطلقة لله سبحانه وتعالى، وسبحانه القائل :

﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا (٦٥)﴾ [مريم]

إذن : فالله سبحانه وتعالى - بالقدرة والقهر - حجز ألسنة البشر جميعاً أن يقول أحدهم لأحد : «سبحانك»، أو أن يسمى أحد ابنه «الله».

والله عز وجل يقول هنا : ﴿لا إله إلا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشرِكُونَ﴾، وموقف المشركين وأهل الكتاب واقع تحت هذه الآية ؛ لأن منهج السماء لا يأتى إلا إذا عَمَّ الفساد والله سبحانه وتعالى يريد من الإنسان الخليفة فى الأرض أن يكون صالحاً ومصلحاً ، وأقلُّ درجات الصلاح أن تترك الصالح فلا تفسده، فإن استطعت أن ترتقى به فهذا هو الأفضل. فإن كانت هناك بئر يشرب منها الناس، فالصلاح أن تترك هذه البئر ولاتردمها، والأصلح من ذلك أن تحمى

جدرانها بالطوب حتى لاتنهار الأتربة وتسُدَّها، وأن تحاول أن تسهل حصول الناس على الماء من البئر، والأصلح منه أن تصنع خزانا عاليا، ومن هذا الخزان تمتد المواسير ليصل الماء إلى الناس فى منازلهم بدون تعب، هذا إصلاح لأنك بذلك إنما تأخذ بأسباب الحق القائل عن تميز الفكر؛ عند ذى القرنين:

﴿وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا (٨٤) فَأَتْبَعَ سَبَبًا (٨٥)﴾

[الكهف]

أى: أن الله سبحانه وتعالى أعطى لذى القرنين الأسباب، وهو زَادَ باجتهاده أسباباً أخرى؛ إذن: فالحق سبحانه يريد من الإنسان أن يُصْلح فى الأرض حتى يسعد المجتمع بأى إصلاح فى الأرض ويستفيد منه الكل، ولذلك يعطى الحق سبحانه وتعالى اختيارات فى أشياء ولا يعطيها فى أشياء أخرى، فالإنسان له اختيار فى أن يصلى أو لا يصلى، يتصدق أو لا يتصدق، يعمل أو لا يعمل إلى آخر ما نعلمه، ولكن الكون الأعلى محكوم بالقهر، فالشمس والقمر والنجوم والهواء والماء وكل هذا له نظام دقيق، فلا الشمس ولا القمر ولاالنجوم، ولا غيرها من الكون الأعلى يخضع لاختيار الإنسان، وإلا لفسد الكون. وكل شىء مقهور سليم بالفطرة ولا يحدث فساد إلا فى الشىء الذى فيه اختيار للإنسان؛ لأن الاختيار قد يتبع الشهوة وهوى النفس، حتى المخلوقات المقهورة كالحيوانات التى سخرها الله للإنسان لايأتى منها الشر. بل إن مُخلَّفاتها تُستخدم فى زيادة خصوبة الأرض. ولكن الأشياء التى صنعها الإنسان ملأت أجواء الدنيا بالسموم ولوثت الجو؛ لأن الأولى مخلوقة بهندسة إلهية، والثانية بهندسة بشرية علم صانعها أشياء وغابت عنه أشياء.

وقد يعتقد الناس أن هناك بعضاً من الاكتشافات قد حلَّتْ مشكلات الكون، ثم بعد ذلك وعندما تمر السنوات يعرفون أنها جاءت بالشقاء للبشرية، ولعل تلوث البيئة الذى بدأ يؤثر على حياة الكون أخيراً يلفتنا إلى ذلك، حتى

إن الإنسان الذى قطع الأشجار وأزال الغابات التى خلقها الله فى هذا الكون لتكون مصدراً للهواء النقى وأنشأ بدلاً منها مصانع ومُدناً؛ بدأ الآن يحاول أن يعيد زراعة هذه الأشجار بعد أن علم أن تدخله فى الكون قد أفسد جَوّه وماءه وأفسد على جميع الكائنات حياتهم، ولو أن الإنسان المختار عاش فى الدنيا وفقاً لمنهج الله تعالى لاستقام أمر الدنيا ، كما استقام الكون الأعلى. ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿الرَّحْمَٰنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الإِنسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤) الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥) وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (٦) وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧)﴾ [الرحمن]

إذن : فالميزان للعلويات لا يختل أبداً، فإذا عرفتم ذلك فنِّفذوا أمر الحق سبحانه وتعالى فى قوله:

﴿أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾ [الرحمن: ٨]

فإذا سرتم على ضوء منهج الله تعالى، تستقيم أموركم الدنيا كما استقامت أموركم العليا، وها هو ذا الكون أمامكم يسير منضبطاً، وهذا شأن الشىء الذى فيه اختيار للإنسان؛ إنْ لم يسرْ على منهج الله عز وجل تجدوه غير مستقيم. وعلى هذا إذا رأيت عورة فى الكون من أى لون، فاعلم أن منهجاً من مناهج الله قد عُطِّل.

ولذلك نجد ـ أيضاً ـ أن المفسدين ساعة يرون أن مصلحاً قد جاء ليضرب على أيدى المفسدين، تجدهم يحاولون إفساده وجذبه إليهم ليعيش فسادهم، وإذا لم يتحقق لهم ذلك فهم يقفون أمام هذا المصلح لأنهم إنما يعيشون بالفساد وعلى الفساد، ويصنعون لأنفسهم السيادة والجبروت ويستعبدون غيرهم، وحين يرى المفسدون رجلاً يريد أن يعدل ميزان الكون فهم يحاربونه.

وأنت حين تشترى سلعة، فالبائع يزنُ لك بمقدار ما تدفع من ثمن، ويحتاج

البائع إلى ميزان منضبط ليزنَ لك به ما تشتريه، فإن كان بائعاً مخادعاً، فهو يعبث بالميزان ليبيع لك الأقل بالثمن الأكبر، وليبخسك حقك. ومثل هذا البائع مثل المفسدين الذين يرهقهم أن يأتى مصلح يعيد ميزان الكون لما أمر الله عز وجل من إقامة العدل وإصلاح المعوج.

ومن قبل قلنا : إنَّ الحق ضرب المثل فجعل له سبحانه نورين.. النور الأول حسى وهو فى الماديات، والنور الثانى معنوى وهو فى القيم، وكما أن النور الحسى يهدى الإنسان إلى طريقه دون أن يصطدم بأى شىء ؛ لأن الإنسان إن اصطدم بشىء أقل منه، فإنه يحطمه، وإذا كان الشىء أكبر من الإنسان فهو يحطم الإنسان، وهكذا يلعب النور دوراً فى الحسيات، وكذلك جعل الله للمعنويات نوراً، لذلك قال الحق سبحانه وتعالى :

﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [النور: ٣٥]

والمفسد يكره أن يوجد مثل هذا النور، بل يريد أن يطفئه، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك:

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾﴾

لكن هل يستطيعون أن يطفئوا نور الله؟ لا ؛ لأن الإنسان فى الأمر الحسّى لايستطيع أن يطفئ النور؛ لأن هناك فَرقاً بين مصدر النور وبين أداة التنوير، فالإنسان يمكنه أن يحطم الدائرة الزجاجية التى تحمل النور، لكن لا أحد بإمكانه أن يطفئ «المُنوِّر» والمنوِّرُ الأعلى هو الله ، ولا أحد يستطيع إطفاءه. ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يطفئُوا نُورَ الله بأفْواههمْ وَيَأبَى اللهُ﴾ أى: لا يريد الله شيئاً ﴿إلاَّ أن يُتِمَّ نُورَهُ﴾، وَسبحانه قدَ أرسل الرُّسُل حاملة لمنهج النور ولم يرسل الرسل

لينتصر عليهم الكفر، ولذلك يقول لنا : ﴿وَيَأْبَى اللَّهُ﴾ أى لا يريد ﴿إِلاَّ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ .

ويتابع الحق جل وعلا قوله :

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾

والرسول ﷺ إنما جاء بالقيم التى تهدى إلى الطريق المستقيم ، جاء بالدين الحق . فكلمة «دين» أخذَتْ واستعملت أيضاً فى الباطل ، ألم يأمر الحق سبحانه وتعالى نبيه ﷺ أَن يقول لكفار ومشركى مكة :

﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾﴾ [الكافرون]

فهل كان لهم دين؟ نعم كان لهم ما يدينون به مما ابتكروه واخترعوه من المعتقدات ؛ لكن ﴿دِينِ الْحَقِّ﴾ هو الذى جاء من السماء .

﴿هُوَ الذى أرسلَ رَسُولَهُ بالهُدَى ودين الحقِّ ليُظْهِرَهُ عَلَى الدِّين كُلِّه﴾ ولنلحظ أن الحق سبحانه وتعالى جاء بهذا القول ليؤكد أن الإسلام قد جاء ليظهر فوق أى ديانة فاسدة، ونحن نعلم أن هناك ديانات متعددة جاءت من الباطل، فسبحانه القائل :

﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ ﴿٧١﴾﴾ [المؤمنون]

ونتوقف عند قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿عَلَى الدِّين كُلِّه﴾، فلو أن الفساد كان فى الكون من لون واحد، كان يقال ليظهره على الدين الموجود الفاسد، ولكنَّ هناك أدياناً متعددة؛ منها البوذية وعقائد المشركين، وديانات أهل الكتاب والمجوس الذين يعبدون النار أو بعض أنواع من الحيوانات،

وكذلك الصابئة [١]. ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى لا يريد أن يظهر دينه ؛ الذى هو دين الحق على دين واحد ؛ من أديان الباطل الموجودة ، ولكن يريد سبحانه أن يظهره على هذه الأديان كلها، وأن يعليه حتى يكون دين الله واقفاً فوق ظَهْر هذه الأديان كلها، والشىء إذا جاء على الظَّهْر أصبح عالياً ظاهراً. والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ﴾ [الكهف: ٩٧]

أى: أن يأتوا فوق ظهره. وكل الأديان هى فى موقع أدنى بكثير من الدين الإسلامى. بعض الناس يتساءل: إذن كيف يكون هناك كفار ومجوس وبوذيون وصابئون وأصحاب أديان أخرى كاليهودية والنصرانية ، فما زالت دياناتهم موجودة فى الكون وأتباعها كثيرون ، نقول: لنفهم معنى كلمة الإعلاء، إن الإعلاء هو إعلاء براهين وسلامة تعاليم، بمعنى أن العالم المخالف للإسلام سيصدم بقضايا كونية واجتماعية ، فلا يجد لها مخرجاً إلا باتباع ما أمر به الإسلام ويأخذون تقنيناتهم من الإسلام، وهم فى هذه الحالة لا يأخذون تعاليم الإسلام كدين، ولكنهم يأخذونها كضرورة اجتماعية لا تصلح الحياة بدونها. وأنت كمسلم حين تتعصب لتعاليم دينك، فليس فى هذا شهادة لك أنك آمنت، بل دفعك وجدانك وعمق بصيرتك لأنْ تؤمن بالدين الحق ، ولكن الشهادة القوية تأتى حين يضطر الخصم الذى يكره الإسلام ويعانده إلى أن يأخذ قضية من قضايا الإسلام ليحل بها مشكلاته، هنا تكون الشهادة القوية التى تأتى من خصم دينك أو عدوك. ومعنى هذا أنه لم يجد فى أى فكر آخر فى الكون حلاً لهذه القضية فأخذها من الإسلام.

فإذا قلنا مثلاً: إن إيطاليا التى فيها الفاتيكان الذى يسيطر على العقائد

---

(١) الصابئة: قوم تركَّب دينهم بين اليهودية والمجوسية. وقال الخليل: هم قوم يشبه دينهم دين النصارى، إلا أن قبلتهم نحو مهب الجنوب، يزعمون أنهم على دين نوح عليه السلام. انظر: تفسير القرطبى (١/ ٤٧١) والملل والنحل للشهر ستانى (٢/ ٦٢) ونشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام للدكتور على سامى النشار (ص ٢١٣ وما بعدها).

المسيحية فى العالم الغربى كله، وكانت الكنيسة الكاثوليكية فى الفاتيكان تحارب الطلاق وتهاجم الإسلام لأنه يبيح الطلاق، ثم اضطرتهم المشكلات الهائلة التى واجهت المجتمع الإيطالى وغيره من المجتمعات الأوروبية إلى أن يبيحوا الطلاق؛ لأنهم لم يجدوا حلاً للمشكلات الاجتماعية الجسيمة إلا بذلك.

ولكن هل أباحوه لأن الإسلام أباحه ،أم أباحوه لأن مشاكلهم الاجتماعية لا تُحلُّ إلا بإباحة الطلاق؟ وساعة يأخذون حلاً لقضية لهم من ديننا ويطبقون الحل كتشريع، فهذه شهادة قوية، يتأكد لهم بها صحة دين الله ويتأكد بها قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ليظهرَهُ علَى الدِّين كُلِّه ولَوْ كَرِهَ الكَافِرُونَ﴾، وبالله لو كان الإظهار غلبة عقديَة، بمعنى ألاَّ يوجد على الأرض أديان أخرى، بل يوجد دين واحد هو الإسلام لما قال الحق هنا : ﴿ولَوْ كَرِهَ الكَافِرونَ﴾ ولما قال فى موضع آخر من القرآن : ﴿ولَوْ كَرِهَ المشْرِكُونَ﴾ وهذا يعنىَ أن الحق سبحانه وتعالى قد جعل من المعارضين لَلإسلام من يظهر الإسلام على غيره من الأديان لا ظهور اقتناع وإيمان، لا ، بل يظلون على دينهم ولكن ظروفهم تضطرهم إلى أن يأخذوا حلولاً لقضاياهم الصعبة من الإسلام. ومثال آخر من قضية أخرى، هى قضية الرضاعة، يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾

[البقرة: ٢٣٣]

وقامت فى أوروبا وأمريكا حملات كثيرة ضد الرضاعة الطبيعية، وطالبوا الناس باستخدام اللبن المجفف والمصنوع كيميائياً بدلاً من لبن الأم، وكان ذلك فى نظرهم نظاماً أكمل لتغذية الطفل، ثم بعد ذلك ظهرت أضرار هائلة على صحة الطفل ونفسيته من عدم رضاعته من أمه. واضطر العالم كله إلى أن يعود إلى الرضاعة الطبيعية وبحماسة بالغة. هل فعلوا ذلك تصديقاً للقرآن

الكريم أم لأنهم وجدوا أنه لا حَلَّ لمشكلاتهم إلا بالرجوع إلى الرضاعة الطبيعية؟

وكذلك الخمر نجد الآن حرباً شعواء ضد الخمر فى الدول التى أباحتها من قبل وتوسعت فيها، ولكن شنُّوا عليها هذه الحرب بعد أن اكتشف العلم أضرارها على الكبد والمخ والسلوك الإنسانى، هذا هو معنى ﴿لِيُظْهِرَهُ على الدِّينِ كُلِّه﴾ أى: يجعله غالباً بالبرهان والحجة والحق والدليل عَلىَ كل ما عداه. ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّه ولوْ كَرِهَ المشْرِكُونَ﴾ فقد ظهر هذا الدين وغلب فى مواجهة قضايا عديدة ظهرت فى مجتمعات المشركين والكافرين الذين يكرهون هذا الدين ويحاربونه، وهو ظهور غير إيمانى ولكنه ظهور إقرارى، أى رغماً عنهم.

وبعد أن بيَّن الله سبحانه وتعالى أن الأحبار والرهبان لايؤمنون بالله الإيمان الصحيح، ولا باليوم الآخر بالشكل السليم، ويحلون ماحرم الله، ويحرمون ماأحل الله، ويتخذهم أتباعهم أرباباً من دون الله. هنا يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ ﴾

وبعد أن شرح سبحانه لنا ما يدور فى ذواتهم ، وانحرافهم عن منهج الله تعالى ، والغرق فى حب الدنيا وحب الشهوات، وهم قد اشتروا بآيات الله

ثمناً قليلاً، وحرَّفوا تعاليم السماء حتى يأكلوا أموال الناس بالباطل، ولكن هل الأموال تؤكل؟ طبعاً لا، بل نشترى بالمال الطعام الذى نأكله، فلماذا استخدم الحق سبحانه عبارة ﴿لَيأكُلونَ أمْوالَ النَّاس﴾؟ أراد الحق سبحانه وتعالى بذلك أن يلفتنا إلى أنهم لا يأخذون المال على قدر حاجتهم من الطعام والشراب، ولكنهم يأخذون أكثر من حاجتهم ليكنزوه (١).

ولذلك يأتى قوله تعالى فى ذات الآية أنهم ﴿يَصدُّونَ عَنْ سبيل الله والذينَ يكنزُونَ الذهبَ والفضَّةَ ولاَ ينفقُونَهَا فى سَبيل الله فَبشِّرْهُمْ بعذاب أَليمَ﴾. هم إذن أكلوا أموال الناس بالباطل، مصداقاً لقولَ الحق سبحانه ﴿لَيأكُلونَ أمْوالَ النَّاس بالبَاطل﴾ ومعنى ذلك أنَّ هناك أكْلاً من أموال الناس بالحق فى عمليات تبادل المنافع، فالتاجر يأخذ مالك ليعطيك بضاعة؛ ويذهب التاجر ليشترى بها بضاعة وهكذا، وقانون الاحتياط هنا فى أن يكون هناك رهبان وأحبار محافظون على تعاليم الدين، ولا يأكلون أموال الناس بالباطل، وهذا ظاهر فى قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿إنَّ كثيراً منَ الأحْبَار والرُّهْبان ليأكُلُونَ أمْوالَ النَّاس بالبَاطل﴾ ولم يقل جل جلاله: كل الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل، بل قال ﴿إنَّ كثيراً منَ الأحْبَار والرُّهْبان﴾؛ لأنه قد يوجد عدد محدود من الأحبار والرهبان ملتزمون، والله لايظلم أحداً؛ لذلك جاء بالاحتمال. فلو أن الله سبحانه وتعالى عمَّم ووُجد منهم من هو ملتزم بالدين. فمعنى ذلك أن يكون القرآن الكريم لم يُغطِّ كل الاحتمالات، ومعاذ الله أن يكون الأمر كذلك؛ لأن الحق سبحانه وتعالى فى قرآنه يصون الاحتمالات كلها.

إذن: فاستيلاء بعض من هؤلاء الأحبار والرهبان على أموال الناس لا يكون بالحق، أى لا يحصلون فقط على ما يكفيهم، بل بالباطل أى بأكثر مما

(١) قال القرطبى فى تفسير الآية (٤/ ٣٠٤٩): «كانوا يأخذون من أموال أتباعهم ضرائب وفروضاً باسم الكنائس والبيع وغير ذلك، مما يوهمونهم أن النفقة فيه من الشرع والتزلف إلى الله تعالى. وهم خلال ذلك يحجبون تلك الأموال، كالذى ذكره سلمان الفارسى عن الراهب الذى استخرج كنزه» والتزلُّف هو: التقرب.

يحتاجون. وهم يأخذون المال ليصدوا به عن سبيل الله، وهم فى سبيل الحصول على الأموال الدنيوية؛ يُغيِّرون منهج الله بما يتفق مع شهوتهم للمال، وما يحقق لهم كثرة الأموال التى يحصلون عليها، ولهذا تأتى العقوبة فى ذات الآية فيقول المولى سبحانه وتعالى :

﴿والذينَ يكنزُونَ الذَّهبَ والفضَّةَ ولاَ ينفقُونَها فى سَبيلِ الله فَبشِّرْهُمْ بعَذاب أليم﴾ والكَنز مأخوذ من الامتلاء والتجمعَ، ولذلك يقالَ : «الشاة مكتنزة»، أى مليئة باللحم وتجمَّعَ فيها لحمٌ كثير.

إذن : فيكنزون أى يجمعون، وقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿يكْنزونَ الذَّهبَ والفضَّةَ﴾؛ وهذان المعدنان هما أساس الاقتصاد الدنيوى، فقد بدأ التعامل الاقتصادى بالتبادل، أى سلعة مقابل سلعة، وهى ما يسمى عمليات المقايضة، وعندما ارتقى التعامل الاقتصادى اخترعت العملة التى صارت أساساً للتعامل بين الناس والدول. والعملة من بدايتها حتى الآن ترتكز على الذهب والفضة. وحتى عندما وجدت العملة الورقية، كان لا بد أن يكون لها غطاء من الذهب لكى تصبح لها قيمة اقتصادية ؛ لأنَّ العملة الورقية لا يكون لها قيمة إلا بما يغطيها من الذهب والفضة.

ومن إعجاز القرآن الكريم أن الحق سبحانه وتعالى حين يتكلم عن الذهب والفضة وهما معدنان، يجعلهما الأساس فى النقد والتجارة، ولقد وجدت معادن أخرى أغلى من الذهب وأغلى من الفضة كالماس مثلاً. لكن لايزال الأساس النقدى فى العالم هو الذهب والفضة. وعلى مقدار رصيد الذهب الذى يغطى العملة الورقية ترتفع قيمة عملة أى بلد أو تنخفض.. فمثلاً فى مصر فى عهد الاحتلال البريطانى كان النقد المتداول ثمانية ملايين جنيه، ورصيدنا من الذهب عشرة ملايين جنيه فيكون الفائض من الذهب مليونى جنيه، وبذلك كانت قيمة الجنيه المصرى تساوى جنيهاً من الذهب مضافاً إليه قرشان ونصف القرش. والذى يهبط بالنقد إلى الحضيض أن يكون رصيد

الذهب قليلاً وكمية النقد المتداولة كثيرة، وهكذا يبقى الذهب هو الحجة والأساس فى الاقتصاد العالمى.

إذن: فالحق سبحانه وتعالى فى هذه الآية الكريمة أراد أن يلفتنا إلى أن الذهب والفضة هما أساس التعامل فى تسيير حركة العالم الاقتصادية، وأن هذا التعامل يقتضى الحركة الدائمة للمال؛ لأن وظيفة المال هى الانتفاع به فى عمارة الأرض، ولو أنك لم تحرك مالك وكنت مؤمناً، فإنه ينقص كل عام بنسبة ٢,٥٪ وهى قيمة الزكاة. ولذلك يفنى هذا المال فى أربعين سنة. فإن أراد المؤمن أن يُبْقى على ماله؛ فيجب أن يديره فى حركة الحياة ليستثمره وينميه ولا يكنزه حتى لا تأكله الزكاة؛ وهى نسبة قليلة تُدفَعُ من المال. ولكن إذا أدار صاحب المال مايملكه فى حركة الحياة، فسينتفع به الناس وإن لم يقصد أن ينفعهم به؛ لأن الذى يستثمر أمواله مثلاً فى بناء عمارة ليس فى باله إلا ما سيحققه من ربح لذاته، ولكن الناس ينتفعون بهذا المال ولو لم يقصد هو نفعهم؛ فمن وضع الأساس يأخذ أجراً، ومن جاء بالطوب يأخذ قدر ثمنه، ومن أحضر أسمنتاً أخذ، ومن جاء بالحديد أخذ، والمعامل التى صنعت مواد البناء أخذت، وأخذ العمال أجورهم؛ فى مصانع الأدوات الصحية وأسلاك الكهرباء وغيرها، والذين قاموا بتركيب هذه الأشياء أخذوا، إذن: فقد انتفع عدد كبير فى المجتمع من صاحب العمارة، وإن لم يقصد هو أن ينفعهم. ولذلك فإن الذى يبنى عمارة يقدم للمجتمع خدمة اقتصادية ينتفع بها عدد من الناس، وكذلك كل من يقيم مشروعاً استثمارياً.

إذن: سبحانه وتعالى لايريد من المال أن يكون راكداً، ولكنه يريده متحركاً ولو كان فى أيدى الكافرين؛ لأنه إذا تحرك أفاد الناس جميعاً فيحدث بيع وشراء وإنتاج للسلع وإنشاء للمصانع، وتشغيل للأيدى العاملة إلى غير ذلك، ولكن إن كنز كل واحد منا ماله فلم يستثمره فى حركة الحياة، فالسلع لن تستهلك، والمصانع ستتوقف، ويتعطل الناس عن العمل.

وكما يحث الإسلام على استثمار المال، يطالبنا أيضاً بألا يذهب المال إلى الناس بغير عمل؛ حتى لا يعتادوا على الكسب مع الكسل وعدم العمل. ولذلك قيل: إذا كثر المال ولم تكن هناك حاجة إلى مشروعات جديدة، فلا تترك الناس عاطلين؛ بل عليك أن تأمرهم ولو بحفر بئر ثم تأمرهم بطمّها أى ردمها، فى هذه الحالة سيأخذ العمال أجر الحفر والردم، فلا تنتشر البطالة ويتعود الناس أن يأكلوا بدون عمل؛ لأن هذا أقصر طريق لفساد المجتمع.

إذن: فالحق سبحانه وتعالى يريد للمال أن يتحرك ولا يكنز؛ ولذلك قال المولى سبحانه وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ لأنهم بكنزهم المال إنمَا يُوقفُونَ حركة الحياة التى أَرادَها الله تعالى لكَونه. وأنت ترى العالم الآن يعيش فى غائلة البطالة؛ لأن المال لايتحرك لعمارة الكون، بل هناك من يكتنزون فقط.

ولقائل أن يقول: ولكن الناس الآن يتعاملون بالنقد الورقى، بينما ذكر الله سبحانه وتعالى الذهب والفضة؛ نقول: إن العملة الورقية ليست نقداً بذاتها، ولكنها استخدمت لتعفى الناس من حمل كميات كبيرة وثقيلة من الذهب والفضة، قد لا يقدرون على حملها، إذن فهى عملية للتسهيل، وهى منسوبة إلى قيمتها ذهباً، إذن: فالذين يكنزون العملة الورقية ولاينفقونها فيما يعمر بها الكون وتتم عمارته تنطبق عليهم الآية الكريمة [(١)].

ولكن الكنز فى هذه الآية لا يأتى فقط بمعنى الجمع؛ ولكنه أيضاً بمعنى أنهم لايؤدون حق الله فيها. ولذلك فإن المال الذى أخرجتَ زكاته لا يُعدُّ كنزاً، لأنه يتناقص بالزكاة عاماً بعد آخر؛ أما المال المكنوز فهو المال الذى لا تُؤدَّى زكاته.

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٠٤٩): «الكنز أصله فى اللغة الضم والجمع، ولا يختص ذلك بالذهب والفضة. ألا ترى قوله ﷺ: «ألا أخبركم بخير مايكنز المرء: المرأة الصالحة» أى يضمه لنفسه ويجمعه. وخص الذهب والفضة بالذكر لأنه مما لايطلع عليه بخلاف سائر الأموال. قال الطبرى: الكنز كل شىء مجموع بعضه إلى بعض، فى بطن الأرض كان أو على ظهرها». والحديث الذى ذكره القرطبى هنا أخرجه أبو داود فى سننه (١٦٦٤) والحاكم فى مستدركه (١/ ٤٠٩) (٢/ ٣٣٣) وصححه وأقره الذهبى فى الموضع الأول.

والذى يملك مالاً مهما كانت قيمته ويؤدى حق الله فيه لا يعتبر كانزاً للمال. بل الكنز فى هذه الحالة ما لم يؤد فيه حق الله (١).

وإذا عُدْنا إلى نص الآية الكريمة: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا﴾ نتساءل: لماذا لم يقل الله: ولاَ ينفقونهما مع أنهما معدنان؟ ونقول: إن الحق سبحانه وتعالى استخدم أسلوب الجمع؛ لأن الذهب يطلق إطلاقات كثيرة، فهناك من يملك ألف دينار من الذهب، وغيره يملك مائة دينار من الذهب، وثالث ليس لديه إلاَّ دينار ذهبىّ واحد وكذلك الفضة، وما دام الجمع هنا موجوداً فلا بد أن تستخدم ﴿يُنفِقُونَهَا﴾.

ولم تقل الآية الكريمة: والذى يكنز. ولكنها قالت: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ﴾، إذن: فالمخاطبون متعددون، فهذا عنده ذهب، وهذا عنده ذَهب، وثالث عنده فضة، إذن فلا بد من استخدام صيغة الجمع. ويلفتنا القرآن الكريم إلى هذه القضية فى قوله تعالى:

﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾ [الحجرات: ٩]

ولم يقل «اقتتلا» لأن الطائفة اسم لجماعة مكونة من أفراد كثيرين، فإذا جاء القتال لاتقوم طائفة وتمسك سيفاً وتقاتل الثانية، وإنما كل فرد من الطائفة الأولى يقاتل كل فرد من الطائفة الثانية، إذن فهما طائفتان ساعة السلام، ولكن ساعة الحرب يتقاتل كل أفراد الطائفة الأولى مع كل أفراد الطائفة الثانية. ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿اقْتَتَلُوا﴾، ولم يقل «اقتتلا». أما فى حالة الصلح فقد قال سبحانه وتعالى:

﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات: ٩]

واستخدم هنا «المثنى» لأننا ساعة نصلح بين طائفتين، لا نأتى بكل فرد من الطائفة الأولى ونصلحه على كل فرد من الطائفة الثانية، ولكن نأتى بزعيم

(١) قال ابن عمر: ماأُدِّى زكاته فليس بكنز وإن كان تحت سبع أرضين، وكل مالم تؤدّ زكاته فهو كنز وإن كان فوق الأرض. ذكره القرطبى فى تفسيره. وقال: «ومثله عن جابر، وهو الصحيح».

الطائفة الأولى ونصالحه على زعيم الطائفة الثانية فيتم الصلح. ولذلك هنا تجب التثنية.

وكذلك فى قوله تعالى: ﴿وَالذينَ يَكْنِزونَ الذَّهبَ والفضَّةَ﴾ لم يقل ولاينفقونهما، ولكن قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلاَ يُنْفِقُونَهَا فى سَبيل الله﴾ والإنفاق فى سبيل الله يشمل مجالات متعددة، ففى سبيل الله تحدث حركة فى المجتمع يستفيد منها الناس، فحين تُخْرِجُ الزكاة يستفيد منها الناس، وحين تُجهِّزُ بها جيوش المسلمين يستفيد منها الناس، ونظرية عدم كنز المال ربما ظهرت حديثاً فى الاقتصاد العالمى ولكنها موجودة منذ نزول القرآن الكريم.

فأنت إن أنفقت ولم تكنز حدث رواج فى السوق. والرواج معناه إيجاد العمل ووسائل الرزق. وإيجاد الحافز الذى يؤدى إلى ارتقاء البشرية، وأنت حين تشترى لبيتك غسالة أو ثلاجة أو بنيت بيتاً صغيراً فإنك تُوجدُ رواجاً اقتصادياً فى المجتمع. وفى نفس الوقت ارتقيت بوسائل استخداماتك. والرواج يدفع إلى اكتشاف الأحسن الذى يفيد البشرية، ولكن إذا كنزت كل مالك ساد الكساد الاقتصادى.

وليس معنى ذلك أن ينفق صاحب المال كل ماله وزيادة؛ لأن الحق سبحانه وتعالى يريد الوسط فى كل الأشياء. ولذلك يقول سبحانه وتعالى:

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَينَ ذَٰلِكَ قَوَامًا (٦٧)﴾

[الفرقان]

والحق سبحانه وتعالى فى هذه الآية يحذر من سفاهة الإنفاق، وعدم الإبقاء على جزء من المال لمواجهة أى أزمة مفاجئة. لكنك إن قترت حدث كساد فى السوق وتوقف الإنتاج وتعطل العمال، والإسلام يريد نفقة معتدلة توجد الرواج السلعى، وادخاراً تستخدمه فى الارتقاء بحياتك ومواجهة الأزمات.

والإنفاق أنواع : إنفاق فى المساوى لإبقاء الحركة الدائمة بين المنتج والمستهلك، وإنفاق فى غير المساوى بإعطاء الزكاة للفقير والمحتاج والمعدم، والزكاة تنقى المجتمع من مفاسد كثيرة [(١)] ؛ فهى تمنع الحقد بين الناس ؛ لأن الفقير إذا وجد من يعطيه فهو يتمنى له دوام النعمة حتى يستمر العطاء فلا يسخط الفقير على الغنى، والغنى والفقير متساويان فى الانتفاع ؛ لأن الفقير عندما يأخذ لا يسخط على أنه فقير ، ولكنه يحس بالعطاء حوله، والغنى حين يعطى يحس أن هذا أمان له ؛ لأنه إن ذهبت عنه النعمة فسوف يجد من يعطيه .

وهكذا يحدث توازن فى المجتمع بين الناس، فلا يوجد من لا يستطيع الحصول على ضروريات الحياة، ولا يوجد من لديه فائض يحبسه عن الناس[(٢)] . ولهذا يدعونا الإيمان إلى العمل بما يزيد عن قدر الحاجة، ليكون هناك فائض للزكاة والصدقة . والإنسان إذا عمل فإنه لايفيد نفسه فقط بل يفيد المجتمع أيضاً. فسائق «التاكسى» مثلاً إذا كسب مائة جنيه فى اليوم قد يظن أنه نفع نفسه فقط، ولكنه فى الحقيقة نفع المجتمع كله بأن يسَّر على العباد مصالحهم، فنقل هذا إلى عمله؛ ونقل ذلك إلى المستشفى، ونقل غيرهما إلى السوق ليشترى ما يحتاج إليه، ونقل رابعاً ليزور قريباً أو ليحقق مصلحة وهكذا .

إذن : فالذى يعمل يكون عمله خيراً لنفسه وخيراً للمجتمع، وإن عمل كل الناس على قدر حاجاتهم فقط، فمن أين يعيش غير القادر على العمل؟ من أين يعيش المستحق للزكاة والصدقة؟ إنه لايعيش إلا بفائض القادر على

---

(١) ولذلك يقول عز وجل فى هذه السورة ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (التوبة : ١٠٣)

(٢) وقد أرشد الرسول ﷺ المسلمين إلى هذا ، فقال فيما رواه عنه أبو سعيد الخدرى : «من كان معه فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له، ومن كان له فضل زاد فليعد به على من لا زاد له» قال أبو سعيد: فذكر من أصناف المال ما ذكر، حتى رأينا أنه لا حَقَّ لأحد منا فى فضل . أخرجه مسلم فى صحيحه (١٧٢٨) وأحمد فى مسنده (٣/ ٣٤) وأبو داود فى سننه (١٦٦٣) .

العمل، ولذلك لابد للإنسان المسلم أن يعمل على قدر طاقته، وليس على قدر حاجته. والعمل على قدر الحاجة يجعله يوفى بحاجات من يعولهم، ولايضطرهم إلى أن يمدوا أيديهم للآخرين؛ أى أنه يقيهم شر الحاجة. أما العمل على قدر الطاقة فيجعله يأخذ حاجته، ويعطى لغير القادر ما يقيم حياته، وبذلك يقدم الخير لنفسه ومن يعولهم وللآخرين.

إن المجتمع الذى يجد فيه غير القادر حاجته، هو مجتمع يملؤه الاطمئنان بالنسبة للقادر وغير القادر. ونحن نعلم أننا نعيش فى دنيا أغيار، ولا يوجد من يدوم غناه أو من يدوم فقره؛ لأن دوام الحال من المحال، إن عاش الغنى فى مجتمع متكافل يجد فيه الفقير حاجته فهو لن يخشى تقلبات الزمن؛ لأنه وهو الآن يعطى الفقير، إن أصبح فقيراً فسوف يجد مقومات حياته، والفقير إذا أغناه الله تعالى فسيذكر أنه كان يأخذ من الأغنياء، فيبادر ليعين الفقراء كنوع من رَدِّ الجميل. وبذلك يعيش المجتمع كله حياة آمنة، كما أن الحياة فى مثل هذا المجتمع إنما تهيىء الاطمئنان للناس على أولادهم وذريتهم، ذلك أن الأعمار بيد الله، وعندما يحس الإنسان بأنه إن مات وترك أولاداً صغاراً ضعافاً فسوف يتكفل المجتمع بهم، عندئذ يحس بالأمان فى حياته، ولكن إذا كان المجتمع قاسياً يضيع فيه حق اليتيم، فالأب يعيش غير مطمئن على أولاده الصغار، ولهذا نجد أن الحق تبارك وتعالى قد أمر بكفالة اليتيم [(١)]؛ ليعوضه عن أب واحد بآباء متعددين يَرْعَونهُ، فَيُحسُّ الأب بالأمان وتُحس الأم بالأمان ويحس الصغار بالأمان، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

(١) كفالة اليتيم من الأمور التى حثَّ عليها الإسلام، وورد ذكر اليتيم واليتامى فى القرآن (٢٣ مرة)، وذلك من نحو قوله تعالى : ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ ﴾الآية (النساء: ٣٦).

وانظر إلى القرآن وهو يوصى كافلى اليتامى بالتعامل بحس إيمانى نابع من قلوبهم وضمائرهم مع أموال هؤلاء اليتامى فيقول عز وجل ﴿ وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴾ (النساء: ٦).

﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا (٩)﴾ [النساء]

وتقوى الله تكون ضماناً فى أن يكفل المجتمع اليتيم؛ فيدخل الأمن فى قلب كل أب يخشى أن يموت وأولاده صغار.

إذن : فساعة يكفل المجتمع اليتيم فالطفل لن يسخط على القدر الذى حرمه من أبيه لأنه وجد آباء يرعونه، وهناك قصة يرويها عدد من إخواننا العلماء، فقد مات زميل من زملائهم وأولاده صغار، وكانت الأم تبكى على أطفالها لأنهم تيتموا، ثم مرت السنوات وكبر الأطفال فصار هذا مهندساً وصار ذلك طبيباً ، والثالث أصبح محامياً ، بينما من لا يزال آباؤهم على قيد الحياة كانوا متعثرين فى دراستهم ، فقال أحدهم للآخر: ليتنا نموت حتى يفتح الله باب الرزق على أولادنا.

إذن : فهناك آباء محابس رزق ، إذا ذهبوا فاض الله بالرزق على أولادهم، وهذه صورة نراها فى الكون ؛ فنعرف أن المسألة فى يد الله سبحانه وتعالى القائل:

﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (٥٨)﴾ [الذاريات]

إذن : فالاقتصاد الإسلامى مبنى على وجود حركة فى الكون ، ولابد أن تكون هذه الحركة على قدر طاقة المتحركين ، وليس على قدر حاجاتهم ؛ حتى يكون هناك فائض يأخذه غير القادر من المتحرك القادر .

ثم يعطينا الله سبحانه وتعالى لمحة إيمانية، حينما نرى الفقير غير القادر وهو يتلقى العطاء من أى إنسان غنى يتعب فى عمله، وكأن من هم أغنى منه يعملون ليعطوه ، وسبحانه وتعالى حين سلب القوة من هذا الرجل فقد عوَّضه بأن أعطاه ثمرة من جهد وناتج عمل غيره فلا يسخط على اختبار الله تعالى له بالابتلاء .

﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾

وساعة تسمع كلمة ﴿فَبَشِّرْهُمْ﴾ تعرف أن البشارة عادة تكون فى خبر سار، وإن جاءت فى خبر محزن تكون تهكمًا ، فالإنسان الذى هو عزيز قومه ويجعل الناس له اعتباراً ، إن ظلم وطغى وخاف الناس أن يردوه ؛ لأنه لا يخشى الله فيهم، هذا الظالم يُؤتَى به يوم القيامة ويُعذَّب أشد العذاب ، ويقال له :

﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (٤٩) ﴾ [الدخان]

وبطبيعة الموقف فى النار هو مهان بعذاب جهنم ولا يمكن أن يكون عزيزاً كريماً، ولكن قول ملائكة النار : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾، هو تهكم شديد، وهو فى ذلك كقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ ﴾ [الكهف ٢٩]

وهم ساعةَ يسمعون كلمة ﴿يُغَاثُوا﴾ يفرحون؛ لأن عطشهم شديد وهم قد استغاثوا فقيل لهم إنهم سيغاثون ، وهذا خبر سار بالنسبة لهم، ولكن الإغاثة تأتيهم بماء يشوى وجوههم ، فهل هذه إغاثة ؟ إنه تهكم عليهم وزيادة فى عذابهم ، كذلك قول الحق سبحانه وتعالى هنا : ﴿فَبَشِّرْهُمْ بعذاب أليم﴾ ويصف لنا الحق هذا العذاب الأليم الذى سيتعرضون له، ويُبيِّن لنا خبرَ المغيَّب عنَّا فى الآخرة بصورة مُحَسَّة لنا فيقول :

﴿ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ (٣٥) ﴾

نحن نعلم أن النار لا تُحمى إلا للمعادن ، فإن كان ما كنزوه أوراقَ نقد فكيف يُحمَى عليها ؟ وإن كان ما كنزوه معادن فهى صالحة لأنْ تُكْوَى بها أجسادهم، أما الورق فكيف يتم ذلك ؟ ونقول: إن القادر سبحانه وتعالى يستطيع أن يجعل من غير المُحْمَى عليه مُحمىً ، أو يحولها إلى ذهب وفضة؛ وتكوى بها نَواحٍ متعددة من أجسادهم ، والكية هى أن تأتى بمعدن ساخن وتلصقه بالجلد فيحرقه ويترك أثراً.

وحين مات أحد الصحابة فى عهد الرسول ﷺ وبحثوا فى ثيابه فوجدوا فيها ديناراً ، قال الرسول ﷺ: « هذه كَيَّة من النار » ؛ لأن صاحبه كان حريصًا على أن يكنزه ، كما وجدوا مع صحابى آخر دينارين كنزهما ، فقال رسول الله ﷺ: «هاتان كَيَّتان» (١).

كان هذا قبل أن تشرع الزكاة ، أما إذا كان صاحب المال قد أدى حق الله فيه فلا يُعَدُّ كنزاً ، وإلا لو قلنا: إنَّ الإنسان إذا أبقى بعضاً من المال لأولاده حتى ولو أدى زكاته فإن ذلك يعتبر كنزاً ، لو قلنا ذلك لكنا قد أخرجنا آيات الميراث فى القرآن الكريم عن معناها ؛ لأن آيات الميراث جاءت لتورث ما عند المتوفى. والمال المورَّث المفترض فيه أنه قد أتى عن طريق حلال وأدى فيه صاحبه حق الله، لذلك لا يعتبر كنزاً.

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿فَتكْوَى بها جباهُهم وجُنوبهُم وظُهورُهمْ﴾ ، لماذا خَصَّ الله هذه الأماكن بالعذاب؟ لأن كل جارحة من هذه

---

(١) عن أبى أمامة قال: توفى رجل من أهل الصُّفَّة فوجد فى مئزره دينار، فقال رسول الله ﷺ: كية. ثم قال: توفى آخر فوجد فى مئزره ديناران، فقال رسول الله ﷺ: كيتان. أخرجه أحمد فى مسنده (٥/ ٢٥٢، ٢٥٣) قال الهيثمى فى مجمع الزوائد (١٠/ ٢٤٠): رجاله رجال الصحيح غير شهر بن حوشب . وقد وثق. وهذا الحديث ونحوه رواه أحمد عن عدة من الصحابة.

وقد يقول قائل: وما دينار أو ديناران حتى يكوى بهما بالنار ؟ والجواب: إن هذا رجل من أهل الصُّفة أى من الفقراء المعدمين الملازمين لمسجد رسول الله ﷺ ويأكل من صدقات المسلمين، بينما هو يكتنز الذهب ولو ديناراً فى طيات ثيابه فكأنه أخذ حق غيره وحرم مجتمع المسلمين مما يكتنزه ومن جهده فى العمل، فلو بهذا الدينار أتى بقدوم واحتطب كما فعل رسول الله ﷺ مع غيره لكان أنفع لنفسه ولأهله ولغيرهم ؛ ولهذا استحق الوعيد.

الجوارح لها مدخل فى عدم إنفاق المال فى سبيل الله. كيف؟ مثلاً: تجدون الوجه هو أداة المواجهة ، وإذا رأيت إنساناً فقيراً متجهاً إليك ليطلب صدقة، وأنت تعرف أنه فقير وقد جاءك لحاجته الشديدة ، فإن كان أول ما تفعله حتى لا تؤدى حق الله أن تشيح بوجهك عنه، أو تعبس ويظهر على وجهك الغضب، فإن هذا الفقير يحس بالمهانة والذلة ؛ لأن الغنى قد تركه وابتعد عنه، فإذا لم تنفع إشاحة الوجه واستمر الفقير فى تقدمه من الغنى ، فإنه يعرض عنه بأن يدير له جنبه ليحس بعدم الرضا ، فإذا استمر الفقير واقفاً بجانبه فإنه يعطى له ظهره.

إذن : فالجوارح الثلاث قد تشترك فى منع الإنفاق فى سبيل الله، وهى الوجه الذى أداره بعيداً، ثم أعطاه جانبه، ثم أعطاه ظهره. هذه هى الجوارح الثلاث التى تشترك فى منع حق الله عن الفقير ، ولذلك لابد أن تُعذَّب فَتُكْوى الجباه والجنوب والظهور.

ثم يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لأنفُسِكُمْ﴾، أى: هذا ما منعتم فيه حق الله، فإن كنز الإنسان مالاً كثيراً فسيكون عذابه أشد ممن كنز مالاً قليلاً ؛ لأن الكَىَّ سيكون بمساحة كبيرة ، أما إن كان الكنز صغيراً فتكون الكية صغيرة. ولهذا لا يجب أن يغتر المكتنز بكمية ما كنز؛ لأن حسابه سوف يكون على قدر ما كنز .

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تكنزونَ﴾ أى: أن عذابكم فى الآخرة سيكون بسبب كنزكم المال، فالمال الذى تفرحون بكنزه فى الدنيا كان يجب أن يكون سبباً فى حزنكم؛ لأنكم تكنزون عذاباً لأنفسكم يوم القيامة، ومهما أعطاكم كنز المال من تفاخر وغرور فى الحياة الدنيا ، فسوف يقابله فى الآخرة عذابٌ ، كُلٌّ على قدر ما كنز .

ويقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك :

﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ۚ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾

والشهر : هو دورة القمر كما هو معلوم ، ونحن نعرف أن الكون فيه شمس وقمر وفيه نجوم ، هذه هى الأشياء المرئية لنا ، وهناك كواكب أخرى بعيدة عنا تستطيع أن تأخذ مليون شمس فى جوفها ، كل هذا يعطيك فكرة عن مدى اتساع الكون ، فلا تعتقد أن الشمس هذه موجودة بذاتها ، بل هى تأخذ أشياء من كواكب أعلى منها كثيرة ، ولكن ما نراه بأعيننا محدود ، وهناك ما لا يمكننا أن نراه؛ لأنه غير منظور لنا. وأنت إذا نظرت إلى مصباح كهربائى ، فنور المصباح ليس ذاتياً، بل إن وراءه أجهزة كثيرة تمده بالكهرباء من أسلاك وكابلات وأكشاك، ثم محطة توليد الكهرباء التى تولد التيار الكهربائى ، ثم المصانع التى أنتجت الآلات التى تعمل فى محطة الكهرباء، إذن : فوراء هذا المصباح الصغير حجم هائل من العمل والأجهزة المختلفة .

ونحن نرى الشمس فيها ضياء ، والقمر فيه نور ، فما الفرق بين الضياء والنور؟

الضياء : فيه نور وفيه حرارة . والنور : فيه ضوء وليس فيه حرارة . ولذلك

يسمون ضوء القمر «الضوء الحليم» ، أى : أنك عندما تجلس فى ضوء القمر لا تحتاج إلى مظلة تحميك منه، ولكن إن جلست تحت ضوء الشمس فأنت تحتاج إلى مظلة تحميك من حرارة الشمس الشديدة.

والحق سبحانه وتعالى يسمى الشمس سراجاً وهَّاجاً ، والسراج فيه حرارة وفيه ضوء. أما القمر فسماه منيراً ؛ لأن أشعة الشمس تنعكس عليه فينير ، وهذان الكوكبان العلويان - الشمس والقمر - وضع الله فيهما موازين الزمن. والزمن له حالات كثيرة تتطلب موازين وقياسات مختلفة ، وأساس الزمن هو اليوم والليلة، وأساس اليوم هو صباح وظهر وعصر ومغرب ، وهناك الفجر الصادق والفجر الكاذب والشروق ، وهناك أوقات يتساوى فيها الشىء وظله، وأوقات يكون الظل مثْلَىْ الشىء. والليل فيه الظلام، ويأتى بعد النهار والليل - فى مقاييس الزمن - الشهورُ ، وبعد الشهور تأتى السنوات.

إذن : فمقاييس الزمن محتاجة لآلات تقاس بها، وأنت تعرف بداية اليوم بشروق الشمس. إذن فالشمس معيار اليوم. وأنت تعرف بداية الليل بغروب الشمس. وهكذا فالشمس تعطينا بداية ونهاية الليل والنهار ، ولكنها لا تعطينا شيئاً عن الشهور ، فإذا نظرت إلى الشمس فإنك لا تعرف هل أنت فى أول الشهر أو فى منتصفه أو فى آخره. ولكنك إذا نظرت إلى القمر عرفت، ففى أول الشهر يكون القمر هلالاً ، وفى منتصفه يكون بدراً ، وفى آخره المحاق[1]. والشهور عند الله اثنا عشر شهراً.

وهكذا نرى أن الحق سبحانه وتعالى قبل أن يخلق الإنسان، ويجعله خليفة فى الأرض؛ خلق له كوناً مُعَدًّا إعداداً حكيماً لاستقباله ، فقدَّر فى الأرض الأقوات وجعل الشمس والقمر وأنزل المطر ، فكل ما يقيم حياة الإنسان كان

---

(١) المحاق: آخر الشهر إذا امحق الهلال فلم يُر. وهو أن يَسْتسرَّ القمر ليلتين فلا يُرى غدوة ولا عشية. قال ابن الأعرابى: سمى المحاق محاقاً لأنه طلع مع الشمس فمحقته ، فلم يره أحد. انظر لسان العرب (مادة محق).

موجوداً فى الكون قبل أن يأتى الإنسان إليه. والإنسان جعله الله خليفة فى الأرض وله حركة ، وهى الأحداث التى تقع منه أو تقع فيه أو تقع عليه، والأحداث تتطلب زماناً ومكاناً ، ولذلك خلق الله لها الزمان والمكان. إذن : فالحياة كلها تفاعل بين حركة الإنسان الخليفة وبين الزمان والمكان.

وكما أعدَّ الله سبحانه وتعالى للإنسان فى كونه مقومات حياته اليومية.. أنزل له القيم التى تحفظ له معنويات حياته ، وأراد بها الحق سبحانه وتعالى أن تتساند حركة الإنسان ولا تتعاند ، ومعنى التساند أنْ تتحد حركة الناس جميعاً فى إيجاد النافع لمزيد من الإصلاح فى الأرض، أما إن تعاندت حركات البشر ضد بعضها البعض ، فإن الفساد يظهر فى الأرض ؛ لأن كل واحد يريد أن يهدم ما فعله الآخر .

ولكى تتساند حركات الإنسان فى الكون ؛ فلا بد من مُشَرِّع واحد ـ وهو المشرع الأعلى ـ يعطى قوانين الحركة البشرية لكل الناس. وإن ابتعد الناس عن تشريعات الله تعالى ، وأخذوا يقنِّنون لأنفسهم، نجد قوانين البشر تتبع أهواءهم، وكل واحد يحاول أن يحصل على مَيْزات لنفسه، ويأخذ حقوق الآخرين؛ فتفسد الحياة ، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ﴾ [المؤمنون: ٧١]

إن اتباع الحق لأهوائهم سيُخضعُ الكون لأهواء البشر ، هذا يريد وهذا لا يريد، والحق سبحانه يريد فى الكون حركة السلام والأمن والاطمئنان، وهذه لا تتم إلا إذا التزم كل إنسان بمنهج الله؛ حينئذ يوجد سلام دائم ومستوعب شامل، مستوعب لسلام الإنسان مع نفسه، ولسلام الإنسان مع الكون، ولسلام الإنسان مع الله، لكن الإنسان الذى خلقه الله مُخيَّراً وأنزل له المنهج بالتكليف، فى إمكانه أن يطيع هذا المنهج أو أن يعصيه. وإن عصى الإنسان المنهج فهو يفسد فى الأرض وينشر فيها الظلم والفساد.

وأراد الحق سبحانه أن يضع للسلام ضماناً ، وهو أن توجد قوة تقف أمام الفساد فى الأرض ؛ لذلك شاء الحق أن يكون للحرب وجود فى هذا الكون ؛ لتتصارع الإرادات ، فما دام للإنسان اختيار ، وما دام هناك من يعصى ومن يطيع ، فلا بد أن يحدث الصراع . أما الأمور التى لا اختيار للإنسان فيها فهى لا تعكر السلام فى الكون ، فلن تقوم ثورة - مثلاً - لكى تشرق الشمس ، أو تشتعل حرب لإنزال المطر ؛ لأن هذه الأمور تسير بقوانين القهر التى أرادها الله لها ، وتعطى نفعها للجميع ، ولكن الفساد يأتى من انحراف الناس عن منهج الله ، وما دام فى الكون حراس للمنهج من البشر ، بحيث إذا انحرف إنسان ضربوا على يده حتى يعود إلى الطريق السليم [1] ؛ فإن الحياة المطمئنة الآمنة تبقى . ولكن إن عَمَّ الفساد ، ولم يوجد فى المجتمع من يقف ضده تعاندت حركات الحياة وتعب الناس فى حياتهم وأرزاقهم.

ولكى يسود السلام فى الكون ؛ وضع الحق سبحانه فى الزمن وفى المكان حواجز أمام طغيان النفوس ؛ عَلَّها تفيق وتعود إلى الحق ، فجعل فى الزمان أشهراً حُرماً يمتنع فيها القتال ، ويسود فيها السلام بأمر السماء ، وأراد الحق أن يكون هذا السلام القسرى فرصة تجعل هؤلاء المتحاربين يفيقون إلى رشدهم وينهون الخلاف بينهم ، كذلك خصَّ الله بعض الأماكن بتحريم القتال فيها ، فإذا التقى الناس فى هذه الأماكن كانت هناك فرصة لتصفية النفوس وإنهاء الخلاف .

(١) عن النعمان بن بشير عن النبى ﷺ قال: «مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين فى أسفلها إذا استقوا من الماء مَرُّوا على من فوقهم، فقالوا: لو أنَّا خرقنا فى نصيبنا خرقاً، ولم نُؤذ من فوقنا ، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً». أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٤٩٣، ٢٦٨٦) وأحمد فى مسنده (٤/ ٢٦٨، ٢٦٩، ٢٧٠) والترمذى فى سننه (٢١٧٣) وقال: حسن صحيح، وانظر شرح ابن حجر العسقلانى لهذا الحديث فى فتح البارى (٥/ ٢٩٥، ٢٩٦) ففيه كلام قيم جداً.

والإنسان فى حربه مع أخيه الإنسان يُنهك بنيران ونتائج الحرب ، تنهكه دماً ، وتنهكه مالاً ، وتنهكه عتاداً ، ويصيب الضعفُ الإنسان نتيجة هذه الإنهاكات منتصراً كان أم مهزوماً ، ولكنه أمام عزة نفْسه فى مواجهة خصمه يريد أن يستمر فى الحرب حتى لا يظهر أمام الخصم بأنه قد ذُلَّ . فيشاء الله برحمته لخلقه أن يجعل فى الزمان وفى المكان ما يحرم فيه القتال ؛ حتى لا يقال: إن قبيلة ما أو جماعة ما قد أوقفت القتال خوفاً من خصومها ، أو لأن خصومها هم الأقوى ؛ ولكن ليقول الناس: إنهم أوقفوا الحرب بأمر الله.

وبهذا يحتفظ كل طرف من الأطراف المتحاربة بكرامته ؛ فيسهل الصلح وتسلم الأرواح والنفوس.

وكذلك إن لجأ واحد من المتحاربين إلى المكان أو الأماكن التى يحرم الله فيها القتال ،أمن على نفسه ، وفى هذا منع للشر أن يستمر ، وصون للنفوس من المهانة والذلة والانكسار أمام الغير ؛ لذلك أراد الله أن يوضح لنا: أنا خالقكم ، وأنا الرحيم بكم ، وسأجعل لكم من الزمان زماناً أحرم فيه القتال ، وأجعل لكم مكاناً مَنْ دخله كان آمناً ، فاستتروا وراء ذلك وكُفُّوا عن القتال.

وهذه هى بعض من رحمة الله ، يعطى بها سبحانه للناس فرص الحياة ، وهذا من عطاءات الربوبية ، وعطاء الربوبية من الله هو لخلقه جميعاً ، المؤمن منهم والكافر ، والطائع والعاصى ، وكل نعم الكون من عطاءات ربوبية الله.

إن عطاءات الله سبحانه لا تفرق بين المؤمن والكافر ، فالأرض مثلاً لا تعطى الزرع للطائع وتمنعه عن العاصى ، والشمس لاتضىء وتسقط دفئها وحرارتها للمؤمن دون الكافر ؛ فَنِعَمُ الكون المادية كلها من عطاء ربوبية الله سبحانه وتعالى لخلقه.

الأسباب - إذن - هى للناس جميعاً ، ولهم أن يتخذوا الأزمان المواتية لحركة الحياة كما يحبون ، فيسيرون الزراعات على أى تقويم ، ويحددون المواسم على حسب ما يفيدهم ، وهم يحددون بذلك مصالحهم المادية التى هى من عطاء الربوبية . ولكن الله رب قَيِّم ، ولذلك فهناك عطاء ألوهية لله فى المنهج الذى أرسل به الرسل للناس فأوضح : أنا أختار الزمان الذى أجده مناسباً للقيم والمعانى السامية ، وأختار الأماكن المناسبة للقيم والمعانى السامية .

وأراد الحق برسالة محمد ﷺ أن يشيع اصطفاء المكان والزمان لكل الزمان والمكان .

والشهور والأزمان عند الله هى اثنا عشر شهراً ، وما دام قد قال : ﴿ عِندَ اللَّهِ ﴾ ، فهناك "عند" غير الله ؛ وهناك « عند » الناس .

وأوضح سبحانه لخلقه : قَدِّروا أزمانكم بمصالحكم ، وهذا ما يحدث فى الواقع المعاش . . إنك تجد من يزرع حسب التقويم القبطى ، حيث تكون شهور الصيف فيه ثابتة ، وكذلك شهور الشتاء والربيع والخريف ؛ لأن التقويم القبطى قائم على التقويم الشمسى .

ولكن الحق سبحانه وتعالى يريد للقيم أزماناً مخصوصة ؛ لذلك قال : ﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا ﴾ وأوضح سبحانه : لا تجعلوا زمن القيم كالأزمان التى تجعلونها لمصالحكم .

وأراد الله سبحانه أن تعم القيَم كل الزمن ، ولا تكون مقصورة على أزمان معينة ، ولذلك اختار سبحانه أزماناً للصلاة مثلاً ، فصلاة الصبح لها وقت ، وصلاة الظهر لها وقت ، والعصر لها وقت ، والمغرب لها وقت ، والعشاء لها وقت . ولكن أوقات الصلاة رغم أنها محددة فهى تشمل

الزمن كله ؛ فالصلاة تقام مثلاً فى أسوان ، وبعد دقائق فى الأقصر ، وبعد دقائق فى القاهرة ، وبعد دقائق فى الإسكندرية ، ثم تتدرج إلى دول أوربا ، وهكذا . فكأنها لا تتوقف عند فترة معينة ، بل هى مستمرة حسب اختلاف الأوقات فى الدول المختلفة ، فصلاة الفجر - على سبيل المثال - قبل شروق الشمس. والشمس تشرق فى كل دقيقة على بقعة مختلفة من الأرض. فكأن الصلاة دائمة على سطح الأرض. بل أكثر من ذلك نجد أننا فى الوقت الذى نصلى فيه نحن الظهر ، قد يصلى غيرنا العصر فى شمال أوربا ، والمغرب فى أمريكا ، والعشاء فى كندا مثلاً ، فكأن الصلاة تقام فى كل وقت على ظهر الأرض ؛ ذلك لأن الكون كله مُسبِّح لله.

ونأتى بعد ذلك إلى اختيار الله ليوم وقفة عرفات ، ولشهر الصوم وغير ذلك من الأوقات ، فشهر رمضان يأتى مرة فى الصيف ، كما يأتى فى الشتاء وفى الربيع ، وفى الخريف . كذلك الحج يأتى فى فصول السنة المختلفة . وهكذا شاء عدل الله أن تكون الأيام المفضلة عنده مُوزَّعة على الزمن كله . وجعل الحق سبحانه وحدة الزمن هى اليوم ، واليوم يتكون من الليل والنهار ، والأيام وحدتها الشهر ، والشهور وحدتها العام ، وجعل من مهمة الشمس أن تحدد لنا اليوم ، ومن مهمة القمر أن يحدد لنا الشهر ؛ فهو فى أول الشهر هلال ، ثم تربيع أول وتربيع ثانٍ فبدْر إلى آخره . إذن فالقمر هو الذى يحدد بداية الشهر ونهايته.

ولقد حدد الحق سبحانه شهور العام ، فقال:

﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا﴾ وقال : ﴿مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ .

ولكن لماذا لم يجعل الحق كل الأشهر سلاماً ؟ نقول: إن الحق فى تشريعه أراد أن يسود السلام ، ولكن الحرب أيضاً قد تكون سبباً لتحقيق

السلام ، فليس كل إنسان أو مجتمع يسير على الجادة ، فمن الممكن أن تخرج جماعة عن الجادة ، و لهذا لا بد من قتال تلك الجماعة ، ولا بد كذلك من وقفة للخير أمام الشر ، وما دام الإنسان له اختيار ؛ فقد يسير فى اختياره إلى ناحية السوء ؛ لذلك لابد أن يضرب المجتمع على يد المسىء ، وإذا ما اختارت دولة قتال دولة أخرى اعتداءً ، فالحرب ضرورة للدفاع . وكذلك لو أن الحق قد جعل العام كله أياماً حُرُماً لأذلَّ الكفار والمشركون المؤمنين ؛ لأن الكفار والمشركين سيعصون الله ويحاربون ، والمؤمنون ملتزمون بأمر الله ، فكأن الله قد فرض العبودية على المؤمن به . وأعطى السيادة لغير المؤمن. ثم إن قوى الخير والشر تتصارع فى هذا الكون ، وقوى الحق والباطل تتقاتل ، ولابد من وقفة للحق أمام الباطل ، ولذلك أباح الحق فى الأشهر الحرم القتال ، حتى إذا استشرى الباطل تصدى له الحق بالقوة ، ولذلك قال شوقى:

الحرْبُ فى حَقٍّ لَديْكَ شريعةٌ

ومِنَ السُّمُومِ النَّاقِعَاتِ دَوَاءُ

إذن : فقد شاء الله أن يوجد من يقاوم الباطل ، وضمن للحق أن يحارب الباطل ويواجهه ؛ لذلك لم يشرع تحريم القتال فى العام كله. ولكنه شرع هذا التحريم فقط أربعة أشهر يذوق الناس فيها حلاوة السلام ويتوقف فيها القتال وتتاح الفرصة للصلح.

ولقد أوجد سبحانه فى الكون سُنَّة ، هى أنه إذا ما التقى حق وباطل فى المعركة فالباطل ينهزم فى وقت قصير . وإن رأيت معركة تطول سنوات طويلة فاعرف أنها بين باطل وباطل ، وإذا قامت الحرب بين باطل وباطل فإن السماء لا تتدخل ، وأما إذا قامت المعركة بين حق وباطل فإن السماء تنصر الحق على الباطل . ولا تقوم معركة بين حَقَّيْنِ أبداً ؛ لأن الحق

فى الدنيا كلها واحد ، فلا يوجد حقان ، بل حق وباطل ، وإن وجد الصراع فإنه لا يطول بينهما ؛ لأن الباطل زهوق بطبيعته ، وإن وجدت حرب بين باطلين ، فالسماء توضح لنا أنه لا يوجد باطل منهما أولى بأن ينصره الله على الآخر ؛ بل يترك سبحانه هذا الصراع لأسبابهم ؛ مما يطيل أمد الحرب.

وحين شرع الله الأشهر الحرم ، ضمن الناس مطلوبات السلام الدائم ؛ لأن الناس تنهكهم الحرب ويحبون أن يرتاحوا منها ، فإذا جاءت الأشهر الحرم كانت فرصة للناس ليوقفوا الحرب ، دون أن يشعر أحدهم بالذل والهوان والهزيمة. ونحن نلجأ إلى ذلك أحياناً ، فإذا كنا فى بيت يسكنه عدد من الناس - كما يحدث فى الريف - وسُرق شىء ثمين من هذا البيت ، والسارق من السكان ونريد منه أن يعيده دونَ أن ينكشف أمره فهم يحددون مكاناً معيناً ، وكل واحد من سكان البيت يأتى ليلاً ويضع حفنة من التراب فى هذا المكان ، لعل السارق يضع ما سرقه بين حفنة التراب ، وهو بذلك يأخذ فرصة من مجتمعه الصغير ليعيد ما سرقه دون أن يعرفه أحد ، وفى هذا ستر له فلا ينفضح أمام الناس.

والأشهر الحرم فرصة للسلام دون أن ينفضح أحد من الأطراف المتحاربة أمام الناس بأنه ضعيف أو غير قادر على الاستمرار فى الحرب ، وتتوقف خلالها الحرب وقد ستر الله كل أطرافها ، وتقوى خلالها فرص أكبر للسلام والصلح ، وبذلك تكون فرص السلام أكبر من فرص الحرب بكثير.

ولكن ماذا يحدث عندما يعتدى عصاة غير مطيعين لله على المؤمنين فى الأشهر الحرم التى حرم الله القتال فيها ؟ إن الحق سبحانه لا يعنى بتشريعاته أبداً أن تكون مصدر إذلال للمؤمنين وإعزاز للكافرين ؛ ولذلك ينبهنا إلى أننا يجب ألا نسمح لأعداء الله بأن يستغلوا حرمة الأشهر الحرم ليتمادوا

فى العدوان على المؤمنين ، فأباح للمؤمنين القتال فى هذه الأشهر إذا قاتلهم الكفار فيها ، وكذلك فى الأماكن المحرَّم فيها القتال ، فقال:

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ... (٢١٧)﴾

[البقرة]

وهكذا أباح الله القتال فى الشهر الحرام ليدافع المؤمنون فيه عن أنفسهم إذا بدأهم الكفار بالقتال ، وأباح الحق سبحانه أيضاً القتال فى المسجد الحرام إذا قام الكفار بقتال المؤمنين فيه ، رغم أننا نعلم أن تحريم القتال فى المسجد الحرام هو تحريم دائم ، ولكن الحق سبحانه وضع استثناء فقال:

﴿وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (١٩١)﴾ [البقرة]

وهكذا جاء التقنين الإلهى ليحمى المؤمنين من طغيان الكافرين ، فالمؤمنون يلتزمون بعدم القتال فى الأشهر الحرم كما أمر الله ؛ بشرط التزام الطرف الآخر الذى يقاتلهم ، فإن لم يلتزم الكفار بهذا التحريم ، فسبحانه لا يترك المؤمنين للهزيمة ، وهكذا شاء الحق أن يضع التشريعات المناسبة لهذا الموقف . فإن احترمها الطرفان كان بها ، أما إن خالفها الكفار فقد سمح الله للمؤمنين بالقتال.

وهنا يقول سبحانه:

﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ والكتاب يطلق على الشىء المكتوب المدوَّن ، ولا يُدوَّن الكلام إلا إذا كانت له أهمية ما ، أما الأحاديث التى تتم بين الناس فهم لا يكتبونها ولا تُدوَّن . بينما الكلام المهم وحده هو الذى يُكتب حتى يكون حجة فى الاستشهاد به فى حالة وجود خلاف.

ولكن أين ﴿كِتَابِ اللَّهِ﴾ الذى كُتِبَ فيه هذا ؟

إنه اللوح المحفوظ عند الله ، والمهيمن على كل الكتب التى نزلت فى مواكب الرسل ، ويقصد بالكتاب - أيضاً - القرآن الكريم الذى نزلت فيه هذه الآية ، وقد جاء القرآن جامعاً لمنهج الله بدءاً بآدم عليه السلام إلى أن تقوم الساعة . وتغير فى القرآن كثير من الأحكام الموجودة فى الرسالات السابقة ، أما العقائد فهى واحدة . كما أن القرآن قد تضمن الحقائق الكونية التى لم تكن معروفة وقت نزوله ، والمثال هو قوله الحق :

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ ... (١٨٩)﴾ [البقرة]

وأيضاً يقول الحق سبحانه :

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ... (٥)﴾ [يونس]

فكأنه ربط السنين والحساب بالقمر ، وهذا الحساب هو من ضمن إعجازات الأداء البيانى فى القرآن ؛ لأن العالم قد بحث عن أدق حساب للزمن ، فلم يجد أدق من حساب القمر ، وكل الأحياء المائية تعتمد فى حسابها على الحساب القمرى ، والله سبحانه يريد منا حين نقرأ كتاباً أن نتمعن فى وضع الألفاظ فى موضعها . فيقول سبحانه :

﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ ﴾ وبعد ذلك يأتى باستثناء هو : ﴿ مِنْهَا﴾ أى من الاثنى عشر شهراً ﴿ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ﴾ ، ولقائل أن يقول : لماذا لم يقل الله : " فيها " بدلاً من ﴿ فِيهِنَّ ﴾ ما دام قد قال من قبل : ﴿ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ﴾ ؟

ونقول: إن الحق ينهى عن الظلم العام فى كل الشهور ، وإن كان المقصود الأشهر الحرم الأربعة ، فالمقصود النهى عن ظلم الحرب . وهنا قاعدة لغوية يجب أن نلتفت إليها ؛ وعندنا فى اللغة جمع قلة وجمع كثرة ؛ جمع القلة من ثلاثة إلى عشرة ، ويختلط الأمر على بعض الناس فى مسألة جمع القلة وجمع الكثرة ، وجمع التكسير وجمع الصحيح . فجمع القلة وجمع الكثرة ، غير جمع التكسير ، والجمع الصحيح ؛ لأن التكسير هو أن تكسر بنية الكلمة ، فمثلاً بيت جمعها بيوت ، ورسول جمعها رسل ؛ هنا كسرْتَ بنية الكلمة أى: غيَّرتها.

أما إن قلت : " مسلم " فجمعها " مسلمون " ، وهنا تضيف "واواً ونوناً" ، ولكن كلمة " مسلم " صحيحة ، أى أننا لم نكسر المفرد . ولكن إن قلت: " سفينة " وجمعها " سفن " تكون قد كسرت المفرد.

وقول الحق هنا: ﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴾ فما دام العدد هو اثنا عشر شهراً تكون قد زادت عن جمع القلة ؛ لأن جمع القلة من ثلاثة إلى عشرة ، وجمع القلة يعاملونه معاملة الجماعة. وإن زاد على عشرة يعاملونه معاملة المفرد المؤنث ، مثل وضع الشهور الأربعة المحرمة فى كتاب الله ، ولذلك قال: ﴿ فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ﴾ وجاء هنا بـ"نون النسوة" للجمع . والقاعدة - كما قلنا - إن جمع القلة يعامل معاملة الجماعة ، فإن كان جمع كثرة عومل معاملة المفرد المؤنث ؛ لأن الفرد يكون معصوماً بالجماعة ، أى أنه بمفرده ضعيف. فإن وجد جماعة ينتمى إليها فهو يُحِسُّ بالقوة.

إذن : فالفرد يعصم بالجماعة ، وبهذا تعامل الجماعة كلها كهيئة واحدة ، وهناك شاعر يستهزىء بقوة جماعة ما ، فيقول:

لاَ أُبَالِى بِجَمْعِهِنَّ فَجَمْـ ـعُهُنَّ كُلُّ جَمْعٍ مُؤَنَّثِ

إذن: فكل جمع يكون مؤنثاً ، وهذا ما ينطبق على قوله سبحانه وتعالى هنا: ﴿ فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ﴾ . وأكرر : إن أردت الظلم العام فإن الله قد حرم الظلم فى كل شهور السنة ؛ سواء ظلمك لنفسك أم ظلمك للناس ، وإن أردتَ من معنى الكلام تحريم الحرب فى الأشهر الحرم تكون : ﴿فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ قد أتت بالمؤنث .

ومعنى قوله : ﴿ فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ﴾ أى: إياكم أن تظنوا أن مخالفتكم لمنهج الله يحدث منها شىء يضر الحق سبحانه ، فكل ما يحدث من ظلمكم لأنفسكم هو أن تضروا أنفسكم أو غيركم ، لكن لن يضر أحدكم الله ؛ لأن صفات الله فى الكون لا تتأثر أطاع الخلق أم عَصَوا . ولذلك فإن اتباع منهج الله هو أمر لصالح الناس ، لصالحنا نحن ، فانصرافنا عن المنهج لا يضر الله سبحانه شيئاً ولكن يضرنا نحن ، فكل ما أنزله الله من قيم هو لصالحنا حرباً وسلاماً ، وتحريماً وتحليلاً .

ولكن لماذا خصَّ الحق سبحانه الشمس بحساب اليوم ، والقمر بحساب الشهر ؟ وأقول: لأن الله سبحانه يريد أن يوزع الفضل على كل الزمن ، وأن ييسر على الناس أداء مناسكه وما يكلفهم به . فلو حسبت الشهور بالشمس لكان ميعاد الحج كل عام فى أشهر الصيف دائماً ، ومن يعيش مثلاً فى بلاد باردة إن ذهب إلى الحج صيفاً يتعرض لأخطار شديدة ، فكأنه ليس هناك عدل بين الذين يعيشون فى مناطق باردة ، والذين يعيشون فى مناطق حارة فى أداء مناسك الحج ، فلو كان ميعاد الحج هو الصيف دائماً ، فسوف يؤديه الذين يعيشون فى المناطق الحارة بسهولة ، بينما يؤديه من يحيا فى المناطق الباردة بصعوبة ، ولتمام عدل الله بين خلقه نجده سبحانه قد أدار الأشهر القمرية فى السنة الميلادية ، فلا يأتى الحج أبداً فى طقس واحد ، وبذلك تستوى كل البيئات وكل الناس فى أحكام الله .

وأيضا صوم رمضان لو كان يأتى فى الصيف دائماً ، لوجدنا بعض الناس سيصومون ثمانى أو تسع ساعات ، والذين يعيشون قرب القطب الشمالى يصومون عشرين ساعة فى اليوم ، ولكن مجىء رمضان فى فصول السنة كلها يجعل أولئك الذين يعيشون قرب القطب الشمالى يصومون مرة تسع عشرة ساعة مثلاً ، ومرة ساعتين أو ثلاثاً ، وهذه تعوض تلك ، فيتم العدل ، وإذا أخذنا متوسط ساعات الصيام بالنسبة لهؤلاء الناس على مدار السنة ، نجد أن فترات صومهم فترة تسع عشرة ساعة وفترات ثلاث ساعات ، وبذلك يتساوون فى المتوسط مع أولئك الذين يصومون ثمانى أو تسع ساعات يومياً .

ونجد بالحساب أن تقويم الهلال ينقص عن تقويم الشمس بمقدار أحد عشر يوماً وثلث يوم كل عام ، ويكون الفرق عاماً كاملاً كل ثلاث وثلاثين سنة وثلث العام ، أى أن رمضان يأتى مرة فى يناير ومرة فى فبراير ومرة فى مارس ، وكذلك الحج ، وبذلك تتكافأ الفرص بين المؤمنين جميعاً ، فالذين يصومون فى الصيف المعروف بيومه الطويل ، يصومون فى الشتاء ويومه قصير . والذين يعانون من الصوم فى حرارة الجو ، يصومون أيضاً فى برد الشتاء ، وهكذا يدور رمضان والحج فى شهور العام كله ، وبذلك يتم عدل الله على الجميع بالتشريع الحق ، ويدور التكليف مشقة ويُسْراً وصعوبة وسهولة على جميع المؤمنين .

وإذا نظرنا إلى ربط اليوم بالشمس نجد أن الحق سبحانه وتعالى الذى ربط أوقات الصلاة بالشمس ، كفل لها الدوام التكليفى ، لماذا ؟

لأن القمر نراه أياماً ، ولكننا لا نراه فى أيام المحاق ، فلو ربطنا الصلاة بالقمر لضاع منا الدوام ، مضافاً إلى ذلك أن القمر يظهر لنا فى أوقات غير متساوية ؛ فعندما يكون هلالاً لايظهر للعين فى الأفق إلا دقائق معدودة ،

ولكن الشمس تشرق كل يوم فى وقت محدد، وتغيب كل يوم فى وقت محدد ، وهى بضوئها ظاهرة للناس كل الناس من الشروق إلى الغروب ، فلا يجدون مشقة فى رؤيتها . ولذلك فربْطُ الصلاة بالشمس فيه يُسْر التكليف ودوامه ، وكما قال رسول الله ﷺ : " الصلاة عماد الدين ، من أقامها أقام الدين "[1] وهى الركن الوحيد من أركان الإسلام الذى لا يسقط أبداً ؛ لأن الفقير تسقط عنه الزكاة ، والمريض يسقط عنه الصوم ، وغير المستطيع يسقط عنه الحج ، وشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله يكفى أن تقال مرة واحدة فى العمر ، ولكن إقامة الصلاة لا تسقط أبداً . إذن فهى عماد الدين ، ولذلك تتكرر خمس مرات يومياً لكل أهل الأرض ، فالصبح فى دولة قد يكون ظهراً فى دولة ثانية ، وعصراً فى دولة ثالثة ومغرباً فى دولة رابعة وعشاء فى دولة خامسة ؛ وذلك بسبب فروق التوقيت بين دول العالم ، وهكذا تكون فى كل لحظة من الزمن جميع أوقات الصلاة قائمة على الأرض ، فيظل الله سبحانه وتعالى معبوداً بالصلاة فى كل الزمن فى كل بقاع الأرض . وهكذا يرتفع الأذان : الله أكبر أشهد أن لا إله إلا الله . أشهد أن محمداً رسول الله فى كل لحظة على الأرض.

قد نجد رجلاً أمياً لا يعرف القراءة أو الكتابة ، لكن له إشراقات نورانية ، أفاض الله عليه يقول: يا زمن وفيك كل الزمن ، أى يا فجر وفيك كل أوقات الصلاة على سطح الأرض . ولذلك فظاهر الأمر أن الصلوات خمس ، والحقيقة أن الصلاة دائمة على وجه الأرض فى كل

(١) حديث ضعيف . قال العجلونى فى كشف الخفاء (٢/ ٣٩): « رواه البيهقى فى الشعب بسند ضعيف من حديث عكرمة عن عمر مرفوعاً » قال العراقى فى تخريج أحاديث الإحياء (١/ ١٤٧): « قال الحاكم: عكرمة لم يسمع من عمر. قال: ورواه ابن عمر لم يقف عليه ابن الصلاح فقال فى مشكل الوسيط: إنه غير معروف». وقال النووى فى التنقيح: منكر باطل. ورده ابن حجر فى التلخيص (١/ ١٧٣): وليس كذلك ، بل رواه أبو نعيم شيخ البخارى فى كتاب الصلاة بلفظ : « الصلاة عمود الدين » وهو مرسل رجاله ثقات.

ثانية ، ولا يوجد جزء من الزمن إلا والله معبود فيه بعبادات كل الزمن ، أى أنه فى كل لحظة تمر نجد الله معبوداً بالصلوات الخمس على ظهر الأرض . وهذا سبب ربط الصلاة بالشمس .

وإذا عرفنا هذه الحقيقة ، وعلمنا أن الكون كله يصلى لله فى كل لحظة من الزمن ، فإننا نعلم أن القرآن يتسع لأشياء كثيرة ، وأن كل جيل يأخذ من القرآن على قدر عقله ، فإذا ارتقى العقل أعطى القرآن عطاءً جديداً . وهذا ما يؤكد أن آيات القرآن يتسع إدراكها فى الذهن كلما مر الزمن ، فنتنبه إلى معان جديدة لم نكن ندركها .

وعندما يأتى المستشرقون ليقولوا : إن فى القرآن تناقضاً فى الكونيات .

نقول لهم : مستحيل .

فيقولون : لقد جاء فى القرآن :

﴿ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ (٢٨) ﴾ [الشعراء]

ويقول :

﴿ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ (١٧) ﴾ [الرحمن]

ويقول :

﴿ فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ ... (٤٠) ﴾ [المعارج]

وبين هذه الآيات تناقض ظاهر .

ونرد : إن التقدم العلمى جعلنا نفهم بعمق معنى هذه الآيات ، فكل مكان على الأرض له مشرق وله مغرب ، هذه هى النظرة العامة ، إذن فقوله تعالى : ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ﴾ صحيح ، ثم عرفنا أن الشمس

حين تشرق عندى ، تغرب عند قوم آخرين ، وحين تغرب عندى تشرق عند قوم آخرين ، إذن فمع كل مشرق مغرب ومع كل مغرب مشرق ، فيكون هناك مشرقان ومغربان . ثم عرفنا أن الشمس لها مشرق كل يوم ومغرب كل يوم يختلف عن الآخر . وفى كل ثانية هناك شروق وغروب ، إذن فالقسم هنا ﴿ **بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ** ﴾ ؛ لأن المشارق والمغارب مختلفة على مدار السنة .

فإذا سأل أحدهم : لماذا تخصون القمر لحساب الزمن وتخصون الشمس لحساب اليوم ؟ نقول : إن الشمس مرتبطة بعلامة يومية ظاهرة وهى النهار ، واختفاؤها عنك مرتبط بعلامة يومية ظاهرة وهى الليل . ولكن القمر غير مرتبط بعلامة يومية ، صحيح أن القمر موجود دائماً ، ولكن الإنسان لا يستطيع أن يدركه أو يراه إلا فى أوقات محددة .

بعض الناس يقول : إذا كان المقصود بهذه الآية - التى نحن بصدد خواطرنا عنها - هو بيان الأشهر الأربعة الحرم ، فما فائدة باقى أشهر السنة ؟

ونقول : إنك لن تستطيع أن تحدد الأشهر الحرم إلا من خلال بيان وتوضيح أمر السنة ومعرفة عدد أشهرها ، وهذا أمر ضرورى أيضاً حتى تستطيع أن تحدد الأشهر الأربعة الحرم فى العام . وإلا كيف يمكن أن نميز هذه الأشهر وزمنها ؟ لابد لنا إذن من أن نعلم أن هناك عاماً ، وأن العام فيه اثنا عشر شهراً لنستطيع أن نحدد الأشهر الحرم . والأشهر الحرم منها ثلاثة متتابعة وشهر فرد ، والأشهر المتتابعة هى : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، وشهر رجب هو الشهر الفرد . وتحديد الحق لهذه الأشهر الأربعة يعنى أنها تتميز بخصوصيات ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى لو أراد أن تكون هذه الشهور فى أى وقت من السنة لتركها لنا لنحددها بمعرفتنا فنختار

أى أربعة أشهر على هوانا ،لنمتنع فيها عن القتال ، ولكن كون الله تبارك وتعالى حددها فذلك لخصوصيات فيها . جاء البعض وقال: ما دام سبحانه وتعالى قد جعل الشهور اثنى عشر شهراً وجعل منها أربعة حرماً ، ونحن نريد أن نحارب فى شهر المحرم فلنفعل ذلك ونمتنع عن القتال فى شهر آخر غيره ، وبذلك نكون قد حافظنا على عدد الأشهر الحرم وهى أربعة كما حددها الله .

ونقول: إنكم حافظتم على العدد ولم تحافظوا على المعدود . ولو أن رسول الله ﷺ لم يبين الأربعة الأشهر المقصودة بالآية الكريمة من الاثنى عشر شهراً ، لأصبح من حق كل جماعة أن تختار ما تريده من أشهر السنة ، ولكنه ﷺ خصصها ؛ لأننا علمنا بذلك كيف نحافظ على الفرق بين العدد والمعدود .

إن مسألة العدد والمعدود حَلَّتْ لنا إشكالات كثيرة ، منها إشكالات أثارها المستشرقون الذين يريدون أن يسيئوا إلى رسول الله ﷺ فقالوا: إن الزواج كان مطلقاً عند العرب ، ثم حدد الله سبحانه وتعالى عدد الزوجات بأربع ، وأمر النبى عليه الصلاة والسلام الذين كانوا قد تزوجوا بأكثر من أربع زوجات أن يمسك الواحد منهم أربعاً ويفارق الباقيات [1] ، وأضاف المستشرقون تساؤلاً: إذا كان الرسول قد شرع للناس ، فلماذا لم يطبق هذا الأمر على نفسه ، ولماذا اتخذ تسع زوجات ؟

ونقول: إننا إذا قمنا بعملية حسابية منصفة ، لوجدنا أنها ليست توسعة لرسول الله ﷺ وإنما هى تضييق عليه ، فأنت حين تأخذها من ناحية العدد فقط تقول: إن رسول الله ﷺ أخذ تسع زوجات وأمته أخذت أربعاً ، ولكنك لم تلاحظ مع العدد المعدود، أى أنه إذا ماتت زوجاتك الأربع

(١) عن ابن عمر قال: أسلم غيلان بن سلمة الثقفى وعنده عشر نسوة، فقال له النبى ﷺ: « خذ منهن أربعاً ». أخرجه أحمد فى مسنده (٢/ ٤٤)، وابن ماجه (١٩٥٣) والدار قطنى فى سننه (٣/ ٢٦٩). أما لفظ الإمساك والمفارقة فقد ورد فى حديث لابن عباس أخرجه الدار قطنى (٣/ ٢٦٩) . وفيه الواقدى وهو متفق على ضعفه.

أحلت لك أربع أخريات ، وإن ماتت واحدة أحلت لك أخرى ، إذن فأنت - كمسلم - عندك عدد لا معدود ، بحيث إذا طلَّقْتَ واحدة أو اثنتين حلَّت لك زوجة أو زوجتان أخريان ، فأنت مُقيَّد بالعدد ، ولكن المعدود أنت حُرٌّ فيه . أما رسول الله ﷺ فقد نزلت فيه هذه الآية الكريمة :

﴿ لا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ ... (٥٢) ﴾ [الأحزاب]

وهكذا نجد أن التشريع ضَيَّق على رسول الله ﷺ فى المعدود . وكان استثناؤه عليه الصلاة والسلام فى العدد للتشريع ، فقد كان الرسول ﷺ يتزوج بإرادة التشريع التى يشاؤها الله .

وسبحانه يقول فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها : ﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ ﴾ وعرفنا أن قوله سبحانه : ﴿ فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴾ معناها اللوح المحفوظ أو القرآن ، وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ ﴾ معناه : أنها مسألة لم تطرأ على الكون ، ولكنها محسوبة من قبل أن يُخلقَ الإنسان . فهى إذن مسألة من النظام الكونى الذى خُلق عليه الكون . وهو سبحانه قد خلق الكون بدقة وإحكام ، فكأن الحق يريد أن يلفتنا إلى أن من مهام الشمس والقمر أن يكونا حساباً للزمن ؛ لليوم والشهر والعام ، ولذلك يقول سبحانه :

﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥) ﴾ [الرحمن]

أى : أنهما خُلقَا بحساب دقيق، ويقول سبحانه :

﴿ فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ﴾ [الأنعام: ٩٦]

أى : أنه سبحانه يطالبنا بأن نستخدم الشمس والقمر حساباً لنا . وهذا يتفق مع منطق الأمور ، فالشىء الذى تريد أن تتخذه حساباً لك ، لابد أن يكون مصنوعاً بحساب دقيق . ولذلك فإن الساعة مثلاً إن لم تكن مصنوعة بدقة فإنها لا تصلح قياساً للوقت ؛ لأنها تقدم أو تؤخر . ولكن إن كانت مصنوعة بحساب دقيق فهى تعطيك الزمن الدقيق . إذن : فدقة قياس الزمن تعتمد أساساً على دقة صناعة آلات القياس.

وقبل أن يُنزلَ الحق هذه الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها ، كان العرب يعترفَون بالأشهر الأربعة الحرم ، ولكنهم كانوا يغيِّرون فى مواعيدها ، فكانت الجماعة منهم تقاتل الأخرى ، فإذا ما أحسوا بقرب انتصارهم وجاءت الأشهر الحرم قالوا: نستبدل شهراً بشهر ، أى نقاتل فى الشهر الحرام ، ثم نأخذ شهراً آخر نمتنع عن القتال فيه ، وحسبوا أنهم ماداموا قد حافظوا على العدد يكونون بذلك قد أدوا مطلوبات الله ، ولكنهم نسوا أنهم لم يحافظوا على المعدود ، ونسوا أن الدين مجموعة من القيم التى لابد أن نؤمن بها ونطبقها.

والإيمان - كما نعلم - هو انقياد وتسليم لله سبحانه وتعالى ، فإذا أمر الله بأمر من الأمور فلا اختيار لنا فيه ؛ لأنه سبحانه وتعالى يرى بحكمته وعلمه هدفاً أو أهدافاً أو حكمة ، وهنا يجب أن يقف الاختيار البشرى ، بمعنى أنه لا أحد يملك تعديل مرادات الله بأى شكل من الأشكال ؛ لأننا فى حياتنا اليومية حين نرى واحداً من البشر قد اشتهر بحكمته وعلمه فى أمر من الأمور أكثر منا ، نقول له: وكَّلْناكَ فى هذا الأمر ، وسنسير وراءك فيما تقرره . ومعنى هذا أننا سنسلم اختيارنا لاختيارات هذا الحكيم.

إننا لا نعطى أحداً هذه الصلاحية إلا إذا تأكدنا بالتجربة أنه عليم بهذه المسألة ، وأنه حكيم فى تصرفه .

وإن سألك أحد من الناس : لماذا تتصرف فى ضوء ما يقوله لك فلان ؟ فتقول : إنه حكيم وخبير فى هذه المسائل ، وهذا دليل منك على أنك واثق فى علمه ، وواثق فى صدقه ، وواثق فى حكمته .

والمثال الحى المتجدد أمامنا هو سيدنا أبو بكر رضى الله عنه عندما قيل له : إن رسول الله ﷺ أعلن أنه نبى الله ، قال أبو بكر رضى الله عنه : إن كان قد قال فقد صدق . قال أبو بكر رضى الله عنه هذا القول ؛ لأنه عرف ولمس أن رسول الله ﷺ لم يكذب قط فى كل الأحداث السابقة ، فإذا كان عليه الصلاة والسلام لا يكذب على أهل الأرض أيكذب على السماء ؟ [1] طبعاً هذا غير معقول .

وأنت لا تسلم زمام أمرك للمساوى لك إلا إذا كانت هناك مقدمات أثبتت أنه أعلى منك فى ناحية معينة ، صحيح أنه مساويك فى الفردية وفى الذاتية ، ولكنه أعلى منك علماً فى المجال الذى يتفوق فيه . فما يقوله تنفذه بلا نقاش لأنك وثقت فى علمه . وأنت إذا مرضت - لا قدر الله - وكان هناك طبيب تثق فى علمه وقال لك : خذ هذا الدواء ؛ أتناقشه أو تجادله ؟ طبعاً لا ، بل تفعل ما يأمرك به بلا نقاش .

فإذا سألك أحدهم : لماذا تتناول هذا الدواء ؟ تقول : لقد كتبه لى الطبيب الذى أثق فيه . وهذا يكفى كحيثية للتنفيذ .

(١) جاء هذا فيما وقفت عليه خاصاً بحديث الإسراء ، وقد سبق تخريجه ، وهو حديث عائشة قالت : لما أسرى بالنبى ﷺ إلى المسجد الأقصى أصبح يتحدث الناس بذلك فارتد ناس ممن كانوا آمنوا به وصدقوه وسعوا بذلك إلى أبى بكر فقالوا : هل لك إلى صاحبك يزعم أنه أسرى به الليلة إلى بيت المقدس . قال : أو قال ذلك ؟ قالوا : نعم . قال : لئن كان قال ذلك لقد صدق ، قالوا : أو تصدقه أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس وجاء قبل أن يصبح ؟ قال : نعم إنى لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك أصدقه بخبر السماء فى غدوة أو روحة . فلذلك سمى أبو بكر الصديق . أخرجه الحاكم فى مستدركه (٣/ ٦٢) وصححه وأقره الذهبى .

فإذا جئنا إلى الله سبحانه الذى أعدَّ لنا هذا الكون وأنزل إلينا منهجاً وطالبنا أن نُسلمَ له وجوهنا ، وأن نفعل ما يأمرنا به فى كل أمور الحياة ، فإن احتجنا إلى حكمة فهو الحكيم وحده ، وإن احتجنا إلى قدرة فهو القادر دائماً ، وإذا احتجنا إلى قهر فهو القاهر فوق عباده ، وإن احتجنا إلى رزق فهو الرزاق ، وعنده كنوز السماوات والأرض . أيوجد من هو أحق من الحق سبحانه لنُسْلمَ زمامنا له ونفعل ما يأمرنا به ؟ طبعاً لا يوجد ، وإذا سألنا أحد: لماذا نتبع هذا المنهج ؟ نقول : إنه سبحانه قد أمرنا باتباعه . وهذا هو الإسلام الحقيقى ؛ أن تسلم اختيارك فى الحياة لمرادات الخالق الأعلى ، فالدين معناه الالتزام والانقياد لله ، ولذلك يقول سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ أى قَيِّم على كل أمور حياتنا ، والدليل على ذلك قائم فيما تحدثنا عنه ، فمادام الله سبحانه وتعالى قد قال ، فنحن نفعل . إذن : فالدين قَيِّم علينا . والدين قَيِّم أيضاً على غيره من الرسالات السماوية ، أى مُهَيْمِنٌ عليها ، وفى هذا يقول الحق:

﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ... (٤٨)﴾ [المائدة]

حددت الآية - التى نحن بصدد خواطرنا عنها - أشهراً حُرماً يحرم فيها القتال وحذرت من الظلم بالحرب أو غيرها ، وقد يقال : إن معنى هذا أن تضعف حمية الحرب عند من يريد الحرب ضد الباطل ، فنرى الباطل أمامنا خلال الأشهر الحرم ولا نحارب.

نقول: إن هذا غير صحيح ، ففترة السلام هذه تكون شَحْذاً لهمَم المقاتلين ضد الكفر والظلم ؛ لأنك قد ترى الباطل أمامك لكنك تمتثلَ لأمر الله فى وقف القتال ، فإن ذلك يزيد الانفعال الذى يحدثه الباطل فى تحديه

للنفس المؤمنة ، فإذا انتهت الأشهر الحرم كنت أكثر حماسة . تماماً كالإنسان الحليم الذى يرى إنساناً يضايقه باستمرار فيصبر عليه شهراً واثنين وثلاثة ، فإذا نفد صبره كان غضبه قوياً شديداً ، وقتاله شرساً ، ولذلك قيل : « اتقوا غضب الحليم » ؛ لأن غضبه أقوى من غضب أى إنسان آخر . وكذلك يكون حلْم المؤمن على الكافر فى الأشهر الحرم ؛ شحذاً لهمته إذا استمر الباطل فى التحدى ، وفى هذا تحذير للمسلمين من أن تضعف فى نفوسهم فكرة القتال وعزيمتهم فيه ، ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ﴾

وكلمة ﴿ كَافَّةً ﴾ هنا سبقها أمران : ﴿ قَاتِلُوا ﴾ فإلى أى طرف ترجع ﴿ كَافَّةً ﴾ هنا ؟ هل تُرجعها إلى المؤمنين المقاتلين ، أم إلى المقاتلين من الكفار ؟ وهذا إثراء فى الأداء القرآنى فى إيجاد اللفظ الذى يمكن أن نضعه هنا ونضعه هناك فيعطيك المعنى .

ولكن هل يريدنا الحق أن نقاتل المشركين حالة كوننا - نحن المؤمنين - كافة ؟ أم نقاتل المشركين حالة كونهم كافة ؟ . إن « كَافَّةً » كما نعرف لفظ لا يُجمَعُ ولا يُثَنَّى ، فالرجل كافة ، والرجلان كافة ، والقوم كافة ، وهى مأخوذة من الكف . وتطلق أيضاً على حافة الشىء لأنها منعت امتداده إلى حيز غيره . وفى لغة من يقومون بحياكة الملابس يقال : « كافة الثوب » حين يكون الثوب قد تنسل ، فيقوم الحائك بمنع التنسيل بتكفيف الثوب .

والحق سبحانه هنا يقول : ﴿ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً ﴾ أى : يا أيها المؤمنون كونوا جميعاً فى قتال المشركين . وهى تصلح للفرد ، أى : للمقاتل الواحد ، وللمقاتلين ، ولجماعة المقاتلين .

وقوله : ﴿ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ﴾ ذلك أن الباطل يتجمع مع الباطل دائماً ، والمثال الواضح فى السيرة أن يهود المدينة تحالفوا

مع الكفار ضد المسلمين ، فكما أن الباطل يجتمع مع بعضه البعض فاجمعوا أنتم أيها المؤمنون وأصحاب الحق قوتكم لتواجهوا باطل الكفر والشرك.

ويقول الإمام على كرم الله وجهه: « أعجب كل العجب من تضافر الناس على باطلهم وفشلكم عن حقكم »[1] ويتعجب الإمام على رضى الله عنه من أن أهل الحق يفرطون فى حقهم رغم اجتماع أهل الباطل على باطلهم . ويعطينا القرآن صورة من تجمُّع أهل الباطل فى قول اليهود لكفار مكة:

﴿ هَؤُلاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً ... (٥١) ﴾ [النساء]

أى أن اليهود قالوا : إن عبدة الأصنام أهدى من رسول الله ﷺ وأتباعه[2]، قالوا ذلك رغم أن كتبهم قد ذكرت لهم أن رسول الله ﷺ سيأتى بالدين الخاتم حتى إنهم كانوا يقولون لأهل المدينة من المشركين: لقد أطل زمان نبى سنتبعه ونقتلكم به قتل عاد وإرم . كذلك فى كتب أهل الكتاب نبأ رسول الله وأوصافه وزمانه. وعندما تحقق ما فى كتبهم كفروا به واجتمعوا مع أهل الباطل.

وهنا يوضح لنا الحق: ما دام الباطل قد اجتمع عليكم وأنتم على الحق فلابد أن تجتمعوا على دحض الباطل وإزهاقه؛ ولذلك يقول سبحانه وتعالى:

---

(١) من خطبة خطبها الإمام على عندما أغار سفيان بن عوف الأزدى على الأنبار، فتقاعس المسلمون عن قتالهم فقال: « فيا عجباً من جد هؤلاء القوم فى باطلهم، وفشلكم عن حقكم، فقبحاً لكم وترحاً، حين صرتم هدفاً يرمى، وفيئاً ينتهب، يغار عليكم ولا تغيرون، وتُغْزَوْنَ ولا تَغزُونَ ، ويُعصَى الله وترضون ». انظر خطبته بكاملها فى كتاب « خطب إمام البلغاء » بتحقيقى. نشر دار الروضة - القاهرة.

(٢) وذلك أن كعب بن الأشرف خرج فى سبعين راكباً من اليهود إلى مكة بعد وقعة أحد ليحالفوا قريشاً على قتال رسول الله ﷺ ، فنزل كعب على أبى سفيان فأحسن مثواه، ونزلت اليهود فى دور قريش فتعاقدوا وتعاهدوا ليجتمعن على قتال محمد. فقال أبو سفيان: إنك امرؤ تقرأ الكتاب وتعلم، ونحن أميون لا نعلم ، فأينا أهدى سبيلاً وأقرب إلى الحق نحن أم محمد ؟ فقال كعب: أنتم والله أهدى سبيلاً مما عليه محمد. ذكره القرطبى فى تفسير الآية ٥١ من سورة النساء .

﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾

إذن : فالله يأمر المؤمنين بأن يجتمعوا على قتال الكافرين ، ولأن الله مع الذين آمنوا ؛ لذلك فهو ينصر المؤمنين ، وإذا وُجدَ الله مع قوم ولم يوجد مع آخرين ، فأىُّ الكفتين أرجح ؟ لابد من رجحان كفة المؤمنين. ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾

والعلم - كما قلنا - حكم يقين عليه دليل ، أى لا يحتاج إلى دليل ؛ لأن العلم هو أن تأتى بقضية غير معلومة ، ثم تقيم الدليل عليها لتصبح يقيناً.

وإذا قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَاعْلَمُوا﴾ فالعلم هنا ينتقل من علم يقين إلى عين يقين . والعلم - كما نعرف - قضية معلومة فى النفس يؤيدها الواقع وتستطيع أن تقيم عليها الدليل . فإذا علمت بشىء أخبرت به ، ويقينك بما علمت يكون على قدر ثقتك بمن أخبرك.

والمثال: حين قيل لأبى بكر رضى الله عنه: إن رسول الله ﷺ قال: إنه أُسْرىَ به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى وعُرجَ به إلى السماء السابَعة ، هنا قال الصدِّيق : إن كان قد قال فقد صدق [1]، وكانت هذه هى ثقته فى القائل ، وهو يستمد منها الثقة فيما قال وروى.

وحينما أخبر رسول الله ﷺ سيدتنا خديجة رضى الله عنها بخبر الوحى وأبدى خوفه مما يرى ، قالت: « كلا والله ما يخزيك الله أبداً ، إنك لتصلُ الرحم ، وتحمل الكَلَّ ، وتكْسبُ المعدوم ، وتقرى الضيف ، وتعين علَى نوائب الحق » [2]، وهى بذلك قد أخذت من المقدمات حيثيات الحكم وكانت أول مجتهدة فى الإسلام عملت بالقياس . فقد قاست الحاضر بالماضى.

---

(١) سبق تخريجه ص ٥٠٩٠ .

(٢) حديث بدء الوحى عن عائشة رضى الله عنها . أخرجه البخارى فى صحيحه (٣، وستة مواضع أخرى) ومسلم فى صحيحه (١٦٠) واللفظ للبخارى .

- تحمل الكل : أى تنفق على الضعيف واليتيم وغير القادر على الإنفاق.
- تكسب المعدوم : تعطى المعدوم مالاً مالاً ، والمعدوم مكارم وأخلاقاً أخلاقاً حسنة طيبة .
- تقرى الضيف : أى أنك كريم جواد تطعم الضيف طعام القِرى .
- تعين على نوائب الحق : حوادث الخير والشر .

وعندما يقول الحق: ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ فيكفينا أن يكون هذا كلام الله سبحانه ليكون يقيناً فى نفوسنا، وهناك علم يقين يأتيك ممن تثق فى علمه وصدقه، وأنت إن رأيت الشيء الذى أخبرت به وشاهدته يصبح عين يقين، فإذا اختبرته وعشْت فيه يصبح حقَّ يقين.

وحين قال الحق: ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ وجدنا بعض المؤمنين قد أخذوها على أنها علم يقين، أو عين يقين، أو حق يقين؛ لأنهم شاهدوا ذلك فى المعارك حين كانوا قلة، فمن أخذ كلام الله دون مناقشة عقلية - لأن الله هو القائل - أخذه علم يقين. والذى أخذ الكلام على أنه يصل إلى درجة المشاهدة أخذه على أنه حق يقين، والذى أخذ الكلام كأنه عايشه فهذا عين يقين، ولكى نعرف هذه المنازل نقرأ قول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ (١) حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ (٢) كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٤) كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (٥) ﴾ [التكاثر]

وهذه أولى الدرجات: علم يقين؛ لأنه صادر عن الحق سبحانه وتعالى:

﴿ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (٦) ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ (٧) ﴾ [التكاثر]

أى: أنكم فى الآخرة سوف ترونها بأعينكم بعد أن كنتم مؤمنين بها كعلم يقين، أما الآن فقد أصبحت عين يقين أى مشاهدة بالعين. وفى هذه السورة أعطانا الحق مرحلتين من مراحل اليقين هما: علم اليقين وعين اليقين، ففى الآخرة سوف يُضرب الصراط على جهنم، ويرى الناس - كل الناس، المؤمن منهم والكافر - نار جهنم، وهم يمرون فوق الصراط، ويرونها مشتعلة متأججة، وحين يمر المؤمن فوق الصراط ويرى جهنم وهولها، يعرف كيف نجاه الإيمان من هذا العذاب الرهيب فيفرح؛ فإذا دخل الجنة ورأى نعيمها يزداد فرحه؛ فله فرحة بأنه نجا من العذاب،

وفرحة بالنعم وبالمنعم ، ويقول المؤمن: الحمد لله الذى أنقذنى من النار. وهذه نعمة كبيرة وفوز عظيم ، ولذلك يقول الحق:

﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ... (١٨٥) ﴾ [آل عمران]

فالنجاة من النار وحدها فضل كبير ، ودخول الجنة فضل أكبر ، والحق هو القائل:

﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا (٧١) ﴾ [مريم]

ويَرِدُ الشىء أى يصل إليه دون أن يدخل فيه [1]، ويقال: ورد الماء أى وصل إلى مكانه دون أن يشرب منه . إذن فكل منا سوف يرى جهنم ، ويعرف المؤمن نعمة الله عليه ؛ لأنه أنجاه منها ، ويندم الكافر ؛ لأنه يُعذب فيها.

وقد ضربت من قبل مثلاً - ولله المثل الأعلى - بالقراءة عن مدينة نيويورك فى الولايات المتحدة الأمريكية ، ويعرف القارىء أنها مبنية على عدة جزر ، وفيها ناطحات سحاب وأنها مزدحمة بالسكان ، وهذه القراءة هى علم يقين ، فإذا ركب الإنسان الطائرة ورآها من الجو

---

(١) اختلف الناس فى الورود على أقوال:

١ - الورود: الدخول . عن جابر بن عبد الله قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « الورود الدخول، لايبقى بر ولا فاجر إلا دخلها فتكون على المؤمن برداً وسلاماً كما كانت على إبراهيم . . ثم ينجى الله الذين اتقوا ويذر الظالمين فيها جثياً » أخرجه الإمام أحمد (٣/ ٣٢٩) والحاكم فى مستدركه (٤/ ٥٨٧) وصححه وأقره الذهبى.

٢ - الورود: الممر على الصراط . ويستدل أصحابه بحديث المرور على الصراط .

٣ - الورود: ورود إشراف واطلاع وقرب. وذلك أنهم يحضرون موضع الحساب وهو بقرب جهنم، فيرونها وينظرون إليها فى حالة الحساب، ثم ينجى الله الذين اتقوا مما نظروا إليه، ويصار بهم إلى الجنة. ﴿ولما وَرَدَ مَاءَ مَدْيَن﴾ أى: أشرف عليه لا أنه دخله.

٤ - ورود المؤمنين النار هو الحمى التى تصيب المؤمن فى دار الدنيا، وهى حظ المؤمن من النار فلا يردها.

٥ - الورود : النظر إليها فى القبر، فينجى منها الفائز، ويصلاها من قدر عليه دخولها، ثم يخرج منها بالشفاعة أو بغيرها من رحمة الله تعالى، واحتجوا بحديث ابن عمر « إذا مات أحدكم عرض عليه مقعده بالغداة والعشى » .

وقد جمع الإمام القرطبى فى تفسيره (٦/ ٤٣٠٧) بين هذه الأقوال فقال: ظاهر الورود الدخول، إلا أنها تكون برداً وسلاماً على المؤمنين وينجون منها سالمين، قال خالد بن معدان: إذا دخل أهل الجنة الجنة قالوا: ألم يقل ربنا: إنَّا نرد النار؟ فيقال: لقد وردتموها فألفيتموها رماداً .

يكون ذلك عين يقين ، فإذا ما نزل وعاش على أرضها بين ناطحاتها وعايش ازدحامها بالسكان يكون ذلك حق اليقين .

وفى سورة التكاثر جاء الله سبحانه وتعالى بمرحلتين فقط من مراحل اليقين ، وجاء بالمرحلة الثالثة فى سورة الواقعة ، فقال :

﴿ فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٨٨) فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ (٨٩) وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩٠) فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩١) وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ (٩٢) فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ (٩٣) وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ (٩٤) إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ (٩٥) ﴾ [الواقعة]

وحقُّ اليقين هو آخر مراحل العلم ، والإنسان قد يكابر فى حقيقة ما حين يقرؤها ، وقد يجادل فى حقيقة يشاهدها ، ولكنه لا يستطيع أن يكابر فى واقع يعيشه ، وقد حدث ذلك وحملته لنا سطور الكتب عن سيدنا عمر وقد قال عن أحد المعارك : « وحينما شهرت سيفى لأقصف رأس فلان ؛ وجدت شيئاً سبقنى إليه وقصف رأسه »[1] أى : هناك من شاهد ذلك بنفسه .

وبعد ذلك يعطى الله الحكم فيمن يُغيِّر الأشهر الحرم أو يُبدلها فيقدمها شهراً ، أو يؤخرها شهراً ، فيقول :

﴿ إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ ۚ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَـٰلِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ (٣٧) ﴾

(١) لم أقف على أثر عمر رضى الله عنه هذا رغم طول بحث ، ولكن وقع من حديث أبى واقد الليثى قال : « إنى لأتبع يوم بدر رجلاً من المشركين لأضربه فوقع رأسه قبل أن يصل إليه سيفى » ذكره ابن حجر العسقلانى فى فتح الباري (٧/ ٣١٣) وعزاه لابن إسحاق .

والنسىء هو التأخير ، فكأنهم إذا ما دخلوا فى قتال وجاء شهر حرام قالوا : ننقله إلى شهر قادم ، واستمروا فى قتالهم ؛ وهم بذلك قد أحلُّوا الشهر الذى كان محرماً وجعلوا الشهر الذى لم تكن له حرمة ؛ شهراً حراماً ، وهنا يوضح الحق سبحانه أن هذا العمل زيادة فى الكفر ؛ لأنه أدخل فى المحلل ما ليس منه ، وأدخل فى المحرم ما ليس منه ؛ لأن الكفر هو عدم الإيمان فإذا بدَّلْتَ وغيَّرْتَ فى منهج الإيمان ، فهذا زيادة فى الكفر .

ثم يقول سبحانه : ﴿ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا ﴾ و﴿ يُضَلُّ ﴾ هنا مبنية للمجهول ؛ ومعنى ذلك أن هناك من يقوم بإضلال الذين كفروا ، وهذه مهمة الشيطان ؛ لأن هناك فرقاً بين الضلال والإضلال ، فالضلال فى الذات والنفس ، أما الإضلال فيتعدى إلى الغير ، فهناك ضال لا يكتفى بضلال نفسه ، بل يأتى لغيره ويضله ويغويه على المعصية بأن يزينها له . ولذلك هناك جزاء على الضلال ، وجزاء أشد على الإضلال ، فإذا كان هناك إنسان ضال فهو فى نفسه غير مؤمن ، أى أن ضلاله لم يتجاوز ذاته ، ولم ينتقل إلى غيره . ولكن إذا حاول أن يغرى غيره بالضلال والمعصية يكون بذلك قد ضلَّ وأضلَّ غيره . ويتخذ بعض المستشرقين هذه القضية مطعناً فى القرآن-بلا وعى منهم أو فهم- فيقولون : إن القرآن يقول :

﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ... ﴿١٨﴾ ﴾ [فاطر]

ثم يأتى فى آية أخرى فيقول :

﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ... ﴿١٣﴾ ﴾ [العنكبوت]

فكيف يقول القرآن : إن أحداً لا يتحمل إلا وزره ، ثم يقول : إن هناك من سيتحمل وِزْره ووِزْر غيره ؟

ونقول لهم : أنتم لم تفهموا المعنى ، فالأول : هو الضَّالُّ الذى يرتكب المعاصى ولكنه لم يُغْرِ بها غيره ، أى : أنه عصى الله ولم يتجاوز المعصية . أما الثانى : فقد ضلَ وأضل غيره . . أى : أنه لم يكتف بارتكاب المعصية بل أخذ يغرى الناس على معصية الله . وكلما أغرى واحداً على المعصية كان عليه نفس وزْر مرتكب المعصية .

وهنا يقول الحق : ﴿ **يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا** ﴾ وطبعاً التحليل والتحريم هنا حدث منهم لظنهم أن هذه مصلحتهم ، أى أنهم أخضعوا الأشهر الحرم لشهواتهم الخاصة ، وخرجوا عن مرادات الله فى كونه ، يوم خلق السموات والأرض .

ولكن لماذا يُحلُّونه عاماً ويُحرِّمونه عاماً ؟ تأتى الإجابة من الحق : ﴿ **لِّيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ** ﴾ أى : ليوافقوا عدة ما أحله الله حتى يبرروا ويقولوا لأنفسهم : نحن لسنا عاصين ، فإن كان الله يريد أربعة أشهر حرم ، فنحن قد التزمنا بذلك ! ولكن تشريع الله ليس فى العدد فقط ولكن فى المعدود أيضاً ، وقد حدد لنا رسول الله ﷺ الأشهر الحرم [1] .

وكان عمرو بن لحى أو نعيم بن ثعلبة هما أول [2] من قاما بعملية النسئ هذه ، فأحلَّ شهر المحرم ، وحرَّم غيره .

وهؤلاء الذين قاموا بهذا العمل كانوا يعرفون أن هناك أربعة أشهر حرم بدليل أنهم أحلوا وحرموا . ولو لم يعرفوها ما أحلوا ولا حرموا ، ولكن هم أرادوا أن يُخضعُوا تشريع الله لأهوائهم . وهذا هو المغزى من تحليل

(١) عن أبى بكرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال : « إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق السموات والأرض . السنة اثنا عشر شهراً ، منها أربعة حرم : ثلاثة متواليات : ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان » . أخرجه البخارى فى صحيحه (٣١٩٧) ومسلم فى صحيحه (١٦٧٩) .

(٢) اختلف العلماء فى تحديد أول من نسأ الشهور على العرب ، فكونه عمرو بن لحى هو قول ابن عباس . أما كونه نعيم بن ثعلبة فهو قول الكلبى . وقد قال ابن إسحاق : إنه القَلَمّس وهو حذيفة بن عبد ذكره ابن كثير فى تفسيره (٢/ ٣٥٧) وانظر تفسير القرطبى (٤/ ٣٠٦٤) والقلمس فى اللغة هو : الرجل الداهية . انظر لسان العرب .

شهر المحرم وتحريم شهر آخر ، وأرادوا بذلك إخضاع مرادات الله لشهوات نفوسهم ؛ لأن المحرم ثابت فيه التحريم ، وهو شهر حرام سواء قام الإنسان بتأجيله أم لم يؤجله ، فهو شهر حرام بمشيئة الله لا مشيئة الناس. ولذلك حكم الحق سبحانه على النسئ بأنه زيادة فى الكفر ؛ لأنك حين تؤخر حرمة شهر المحرم إلى شهر غيره ، تكون قد قُمْتَ بعمليتين ؛ أحللت شهراً حراماً وهذا كفر ،وحرمت شهراً حلالاً وهذا كفر آخر . .أى : زيادة فى الكفر . ثم يقول الحق سبحانه :﴿ لِّيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ ﴾ وقد حكم الله عليهم بالكفر بأنهم أحلوا ما حرمه الله .

ثم يقول الحق : ﴿ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ ﴾ والتزيين : هو أمر طارئ أو زائد على حقيقة الذات مما يجعله مقبولاً عند الناس ، فالمرأة مثلاً لها جمال طبيعى ، ولكنها تتزين بأن تبالغ فى إظهار مفاتنها حتى تكون أجمل فى عيون الرجال ،هذا هو التزيين . إذن : فالتزيين تغيير فى المظهر وليس فى الجوهر . وهناك تزيين فى أشياء كثيرة ، تزيين فى الفكر مثلاً ، بأن يكون هناك استعداد للقتال فيأتى القائد فيزين للمقاتلين دخول المعركة ، ويقول : أنتم ستنتصرون فى ساعات ، ولن يصاب منكم أحد وسيفرّ عدوكم ؛ هذا تزيين محمود.

ولذلك أراد الحق أن يكشف لنا حقيقة التزيين الذى قاموا به حين حللوا حرمة الأشهر الحرُم ، وكشف لنا سبحانه أن هذا لون من التزيين غير المحمود فقال : ﴿ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ وما دام قد زُيِّن لهم السوء فهذا العمل قد خرج عن منطقة الهداية ، وخرج عن نطاق التزيين المحمود إلى التزيين السيئ . وما داموا قد خرجوا عن هداية الله فلن يعينهم الله ؛ لأنه سبحانه لا يعين من كفر ، ولا يعين من ظلم ، ولا يعين من فسق.

ولذلك قال سبحانه : ﴿ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ أى : أنهم بكفرهم قد أخرجوا أنفسهم عن هداية الله ، فالحق سبحانه لم يمنع عنهم الهداية ، بل هم الذين منعوها عن أنفسهم بأن كفروا فأخرجوا أنفسهم عن مشيئة هداية الله لهم ، وهذا ينطبق فقط على هداية المعونة ، ونحن نعلم أن لله سبحانه هداية دلالة وهداية معونة ؛ هداية الدلالة هى للمؤمن وللكافر ، ويدل الله الجميع على المنهج ، ويريهم آياته ،وتبلغ الرسل منهج السماء الذى يوضح الطريق إلى رضاء الله والطريق إلى سخطه وعذابه . فمن آمن بالله دخل فى مشيئة هداية المعونة ، فيعينه الله فى الدنيا ويعطيه الجنة فى الآخرة. أما من يرفض هداية الدلالة من الله ، فالله لا يعطيه هداية المعونة ؛ لأن الكفر قد سبق من العبد . وكذلك الظلم والفسق ، فيكون قد منع عن نفسه هداية المعونة بارتكابه لتلك الآثام.

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٣٧) ﴾ [التوبة]

﴿ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٩) ﴾ [التوبة]

﴿ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٢٤) ﴾ [التوبة]

إذن : هم الذين قدَّموا الكفروالظلم والفسوق، فمنعوا عن أنفسهم هداية المعونة التى قال الحق عنها :

﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧) ﴾ [محمد]

وبعد أن طلب الحق سبحانه وتعالى من المؤمنين أن يواجهوا الباطل جميعاً ، كما يجتمع الباطل عليهم ويقاتلهم جميعاً . يقول سبحانه:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ ﴾

وساعةَ تسمع ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ فهذا نداء خاص بمن آمن بالله ؛ لأن الله لا يكلف من لم يؤمن به شيئاً ، ولكنه كلف الذين آمنوا ، فلا يوجد حكم من أحكام منهج الله فيه تكليف لكافر أو غير مؤمن . ولكن أحكام المنهج موجهة كلها للمؤمنين . ولذلك ساعةَ تسمع : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ تعرف أن الله يخاطب أو يأمر من آمن به ؛ لأنك أنت الذى آمنت باختيارك ، ودخلتَ على الإيمان برغبتك ، فالحق سبحانه لم يأخذك إلى الإيمان قهراً ، ولكنك جئت للإيمان اختياراً ، ولذلك يقول سبحانه وتعالى لك : ما دُمْتَ قد آمنت بى إلهاً قادراً قيُّوماً ، له مطلق صفات الكمال ، فاسمع منى ما أريده لحركة حياتكَ.

ولا يحسب أحد أنه قادر على أن يدخل فى الإيمان ولا ينفذ المنهج [1] ، ولا يحسب أحد أنه قادر أن يضر الله شيئاً ، وسبق أن ضربنا المثل بالمريض الذى يختار أبرع الأطباء ، ولم يجبره أحد على أن يذهب إليه ، وأجرى الطبيب الكشف على المريض ، وحدد الداء وكتب الدواء ، ولكن المريض بعد أن خرج من العيادة أمسك بتذكرة الدواء ومزقها ، أو أنه اشترى الدواء ولم يتناوله . أيكون بذلك قد عاقب الطبيب أم عاقب نفسه ؟

(١) وفى هذا يقول عز وجل : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب : ٣٦] .

إن الطبيب لن يتأثر ولن يضره شيء مما فعله هذا المريض ، ولكنه هو الذى سيزداد عليه المرض ويقود نفسه إلى الهلاك ، وكذلك الإنسان إن لم يتبع منهج الله ، فإنه يضيع نفسه ويُغرقها فى الشقاء ؛ لأن الحق سبحانه قد وضع هذا المنهج وفيه علاج لكل أمراض الإنسان ، فإن عمل به الإنسان نجا من بلاء الدنيا ، وإذا عمل به مجتمع لن يظهر فيه الشقاء . بل يمتلئ بالرخاء والأمن والطمأنينة ، ومن لم يعمل به فلن يضر الله شيئاً ، بل يحصل على الشقاء ويهلك نفسه .

وحين يخاطب الحق سبحانه الذين آمنوا يوضح : خذوا منى هذا التكليف ففيه سعادة الإنسان فى الدنيا والآخرة ، ولهذا نجد أن الحق سبحانه وتعالى لا يذكر أمراً من أوامره بأى تكليف أو نهياً من نواهيه ، إلا مسبوقاً بقوله سبحانه : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ مثل قوله تعالى :

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ ... (١٨٣) ﴾ [البقرة]

وقوله سبحانه :

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ ... (١٧٨) ﴾ [البقرة]

وهذه التكليفات لمَ تأت مبنية للمعلوم ، فمن الذين يكتب ؟ إنه الحق سبحانه ، كما أنها صيغة مبنية دائماً لما لم يُسَمَّ فاعله ، أى : أن الكتابة أتت من كثير . ونقول : صحيح أن الله سبحانه وتعالى هو الذى كتب ، فلماذا لم يقل : يأيها الذين آمنوا كتبتُ عليكم . ولماذا يقول : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ ﴾ ؟ . ونقول : لأن الله وإن كان قد كتب ، إلا أنه لم يكتبها على كل خلقه ، بل كتبها على الذين

آمنوا به ، وأنت بإيمانك أصبحت ملتزماً بعناصر التكليف [١] ، فكأن الحق سبحانه لم يكتب ثم يلزمك ، ولكن التزامك تم فى نفس اللحظة التى دخلت فيها باختيارك فى الإيمان . وبذلك تكون كل هذه الأحكام قد كُتبتْ علينا باختيار كل منا ، فمن لم يَخْتَرْ الإيمان ليس مكتوباً عليه أن ينفذ أحكام الإيمان ؛ لأنها لا تُنفذ إلا بالعقد الإيمانى بيننا وبين الحق سبحانه ؛ وقد احترم سبحانه دخولنا فى هذا العقد ، فلم ينسبه لذاته العلية فقط ، بل شمل أيضاً كل مَنْ دخل فى الإيمان .

ولذلك فإن سأل أحد عن حكمة التكليف من اللهَ ، نقول له : إن الحكمة تنبع من أنه سبحانه هو الذى كَلَّف . ثم إن معرفة الحكمة لا تكون إلا من المساوى للمساوى ، فإن ذهب المريض إلى الطبيب وكتب له الدواء ، وظل المريض يناقش الطبيب فى الدواء وفوائده ؛ فالطبيب يرفض المناقشة ، ويقول للمريض : ادخل كلية الطب واقْضِ فيها سبع سنوات ، واحصل على الدرجات العلمية ، ثم تَعَالَ وناقشنى .

إذن : فأنت تربط علة التكليف بأمر المكلف ، مع أن المكلف من البشر قد يخطئ . أما إذا جئنا بمجموعة من الأطباء ليكشفوا على مريض احتار الطب فيه ، ثم جلسوا بعد الكشف يتناقشون ، فكل منهم يقبل مناقشة الآخر ؛ لأنه مُسَاوٍ له فى الفكر والثقافة والعلم إلى آخره ، لكن إنْ أردتَ أن تسأل عن الحكمَة فى تكليف من الله فلن تجد مساوياً لله سبحانه وتعالى ، وبذلك تكون المناقشة مرفوضة .

(١) ويتضح هذا من حديث رسول الله ﷺ ، فعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ لمعاذ ابن جبل حين بعثه إلى اليمن : « إنك ستأتى قوماً من أهل الكتاب ، فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات فى كل يوم وليلة . . . » الحديث أخرجه البخارى فى صحيحه (١٤٩٦) ومسلم (١٩) .
قال ابن حجر العسقلانى فى شرح البخارى (٣/ ٣٥٩) : « قوله : « فإن هم أطاعوا لك بذلك » أى : شهدوا وانقادوا . . واستدل به على أن الكفار غير مخاطبين بالفروع حيث دُعُوا أولاً إلى الإيمان فقط ، ثم دُعُوا إلى العمل » .

إذن: فالمكلف لابد أن تكون له منزلة سابقة على التكليف ، ومنزلة الحق أنك آمنت به ، ولهذا أرى أن البحث عن أسباب التكليف هو أمر مرفوض إيمانياً ، فإذا قيل : إن الله فرض الصوم حتى يشعر الغنى بألم الجوع ؛ ليعطف على الفقير ، نقول : لا ، وإلا سقط الصوم عن الفقير ؛ لأنه يعرف ألم الجوع جيداً . وإذا قيل لنا : إن الصوم يعالج أمراض كذا وكذا وكذا . نقول : إن هذا غير صحيح ، وإلا لما أسقط الله فريضة الصوم عن المريض فى قوله تعالى :

﴿ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ... (١٨٥) ﴾ [البقرة]

فإذا كان الله قد أباح للمريض أن يفطر ، فكيف يأتى إنسان ويقول : إن علة فرض الصوم هى شفاء الأمراض ؟ كما أن هناك بعض الأمراض لا يُسْمَح معها بالصوم.

إذن : فنحن نصوم لأن الله فرض علينا الصوم ، وما دام الله قد قال فسبب التنفيذ هو أن القول صادر من الله سبحانه ، ولا شئ غير ذلك ، فإذا ظهرت حكمة التكليف فإنها تزيدنا إيماناً ، مثلما ثبت ضرر لحم الخنزير بالنسبة للإنسان ؛ لأن لحم الخنزير ملئ بالميكروبات والجراثيم التى يأكلها مع القمامة ، ونحن لا نمتنع عن أكل لحم الخنزير لهذا السبب ، بل نمتنع عن أكله لأن الله قد أمرنا بذلك ، ولو أن هذه الحكمة لم يكشف عنها الطب ما قَلَّلَ هذا من اقتناعنا بعدم أكل لحم الخنزير ؛ لأننا نأخذ التكليف من الله ، وليس من أى مصدر آخر.

ونعود إلى خواطرنا حول الآية الكريمة : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ ﴾ ، ونجد كلمة : ﴿ مَا لَكُمْ ﴾ تأتى حين نتعجب من حال لا يتفق مع حال ، وكأن حرب المؤمنين للكفار

أمر متوقع وتقتضيه الحال ؛ لأن المؤمنين حين يقاتلون الكفار إنما يدخلون شيئاً من اليقين على أهل الاستقامة ، فأهل الاستقامة إن لم يجدوا من يضرب على أيدى الكافرين فقد ينحرف منهم من تراوده نفسه على الانحراف ، أما إن وجد من يضرب على أيدى الكفار ، فإنه بفعله هذا يربب فى المؤمن إيمانه ؛ لأنه يرى عدوه وهو يتلقى النكال . كأن تقول للتلميذ : ما لك تهمل فى مذاكرتك وقد قَرُبَ الامتحان ؟ أى : أن المفروض أنه إذا قرب الامتحان لابد أن يجتهد الطالب فى المذاكرة . فإن أهمل التلميذ عمله فنحن نتعجب من سلوكه ؛ لأنه لا يتفق مع ما كان يجب أن يحدث . وبذلك نستنكر أن يحدث مثل هذا الإهمال ، مثلما نستنكر ونتعجب من مريض يترك الدواء بينما هو يتألم .

ويتعجب الحق سبحانه هنا من تثاقل المؤمنين حين يُدْعَوْنَ إلى القتال ؛ لأن قوة الإيمان تدعو دائماً إلى أن يكون هناك استعداد مستمر للقتال ، وهذا الاستعداد يخيف الكفار ويمنع عدوانهم واستهتارهم بالمؤمنين أولاً ، كما أنه ثانياً يجعل المؤمنين قادرين على الرد والردع فى أى وقت . ويعطى ثالثاً شيئاً من اليقين للمجتمع المؤمن عندما يرى أن هناك من يضرب على يد الكافرين إذا استهانوا بمجتمع الإيمان وحاولوا أن يستذلوا المؤمنين .

إذن : فَلِكَىْ يبقى المجتمع المؤمن قوياً وآمناً ؛ لابد أن يوجد استعداد دائم للقتال فى سبيل الله ورغبة فى الشهادة ، وهنا يقول الحق : ﴿**مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ**﴾ فكأن الاستعداد المستمر للقتال فى سبيل الله أمر لابد أن يوجد بالفطرة وبالعقل ، فإذا ضَعُفَ هذا الاستعداد أو قَلَّ صار هذا

الأمر موطناً للتعجب ؛ لأن المؤمنين يعرفون أن مجتمع الكفر يتربص بهم دائماً ، وعليهم أن يكونوا على استعداد دائم مستمر للمواجهة ، ويستنكر الحق أن يتثاقل المؤمنون إذا دُعُوا للقتال فى سبيل الله أو أن يتكاسلوا.

وقوله سبحانه : ﴿ **انفِرُوا** ﴾ من «النفرة» وهى الخروج إلى أمر يهيج استقرار الإنسان ، فحين يكون الإنسان جالساً فى مكانه ، قد يأتى أمر يهيجه فيقوم ليفعل ما يتناسب مع الأمر المهيج ، فأنت مثلاً إذا رأيت إنساناً سيسقط فى بئر ، فهذا الأمر يهيجك ، فتنطلق من مكانك لتجذبه بعيداً ، ومنه النُّفْرة التى تحدث بين الأحباب الذين يعيشون فى وُدٍّ دائم ، وقد يحدث بينهم أمر يُحوِّل هذا الود إلى جَفْوة.

إذن : فكلمة ﴿ **انفِرُوا** ﴾ تدل على الخروج إلى أمر مهيج ، وهو المنطق الطبيعى الذى يجب أن يكون ؛ لأن عمل الكفار يهيج المؤمنين على مواجهتهم . وقول الحق سبحانه : ﴿ **انفِرُوا** ﴾ يدل على الاستفزاز المستمر من الكفار للمؤمنين . ويقول الحق تعالى : ﴿ **مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ** ﴾ .

والثقل معناه : أن كتلة الشئ تكون زائدة على قدرة من يحمله ، فإن قلت : إن هذا الشئ ثقيل فهذا يعنى أن وزنه مثلاً أكبر من قوة عضلاتك فلا تستطيع أن تحمله . أما التثاقل فهو عدم موافقة الشئ لطبيعة التكوين. كأن تقول : فلان ثقيل أى أن وزنه ضخم ولا يستطيع أن يقوم من مكانه إلا بصعوبة ، ولا أن يتحرك إلا بمشقة.

ولكن التثاقل معناه تكلف المشقة ، أى : لك قدرة على الفعل ، ولكنك تتصنع أنك غير قادر ، كأن يكون هناك - على سبيل المثال - شئ وزنه رطل ، ثم تدَّعى أنه ثقيل عليك ولا تستطيع أن تحمله .

إذن : فقوله تعالى : ﴿ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ ﴾ أى : تكلفتم الثقل بدون حقيقة، فأنتم عندكم قدرة على القتال ولكنكم تظاهرتم بأن لا قدرة لكم.

وهكذا نعرف أن الموقف يقتضى النفرة ليواجهوا الكفر ؛ لأن المنهج الذى ارتضوه لأنفسهم والتزموا به يحقق السلامة والأمن والاطمئنان لهم ولغيرهم ، وكأن التثاقل إلى الأرض له مقابل ، فالنفرة تكون فى سبيل الله ، والمقابل فى سبيل الشيطان أو فى سبيل شهوات النفس.

لقد تحدث العلماء فى المسائل التى تجعل الإنسان يُقبلُ على المعصية ، وهى النفس التى تُحدِّث الإنسان بشئ ، فالإنسان يقبل عَلى المعصية بهذين العاملين فقط . فما الفرق بين الاثنين ؟ وكيف يتعرف الإنسان على ذلك ؟ قال العلماء : إذا كانت النفس تُلحُّ عليك أن تفعل معصية بعينها بحيث إذا صرفتها عنها عادت تُلحُّ عليك لاقتراف نفس المعصية لتحقق متعة عاجلة ، فهذا إلحاح من النفس الأمَّارة بالسوء.

ولكن الشيطان لا يريد منك ذلك ، إنه يريدك مخالفاً لمنهج الله على أى لون ، فإذا استعصى عليه أن يجذبك إلى المال الحرام ، فهو يزين لك شهوة النساء ، فإذا فشل جاء من ناحية الخمر . إذن : فهو يريدك عاصياً بأى معصية ، ولكن النفس تريدك عاصياً بنفس المعصية التى تشتهيها. وهذا هو الفرق.

وهكذا نعرف أن هناك واقعين ، واقعاً يدعو المؤمنين إلى قتال الكفار الذين يفسدون منهج الله فى الأرض ، وواقعاً يدعوهم إلى أن يتثاقلوا عن هذا القتال ، وذلك إما بسبب حب الدنيا لتحقيق شهوة النفس أو إغراء الشيطان ، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ ﴾ والرضا هو حب القلب ، فيقال : فلان رَاضٍ لأنه مسرور بالحال الذى هو فيه.

ومعنى تثاقل المؤمنين عن القتال فى سبيل الله ، أن هناك شيئاً قد غلب شيئاً آخر فى داخل نفوسهم ، فالرضا بالحياة الدنيا قد تغلَّبَ على حب الآخرة . ولكن المنطق الإيمانى يقول : إنه إذا كان هناك أمر آخر غير الدنيا ، أو حياة أخرى غير حياتنا الدنيوية ، فلابد أن نقارن بين ما تعطيه الدنيا وبين ما تعطيه الآخرة ، فإذا رضينا بما تقدمه لنا هذه الحياة المادية ، يكون المؤمن بلا طموح وبلا ذكاء ؛ لأنه رضى بمتاع قليل زائل وترك متاعاً أبدياً ممتداً بقدرة الله.

وأنت لو نظرت إلى الدنيا نظرة فاحصة ، تجد أنها متغيرة متبدلة ، فالصحيح يصبح مريضاً ، والغنى يصبح فقيراً ، والقوى يصبح ضعيفاً.

إذن : فمتاع الدنيا متغير ولا عصمة لك فيه ، وأنت لا تستطيع أن تعصم نفسك من المرض أو من الضعف أو من الفقر ؛ لأن هذه كلها أغيار تحكمك ولا تحكمها أنت ؛ تقهرك ولا تستطيع أنت أن تقهرها . فإن رضيت بمتاع الدنيا اليوم فأنت لا تضمن استمراره إلى غد.

ولهذا ينبغى ألا تؤخر تنفيذ ما يكلفك به الله ؛ لأنك الآن تستطيع أن تؤديه ، لكن أنت لا تضمن إن كنت قادراً غداً أم لا [1]. كذلك لا تأخذ التكليف على أنه قد يسلبك حريتك أو مالك ، بل هو يسلبك ويعطيك فى نفس الوقت. فإذا أمر الله سبحانه بأن تُخرِجَ الزكاة ، قد تعتقد أن هذا يُنقصُ مالك [2]، أو تقول : هذه غرامة. نقول : إن هذا فى ظاهر الأمر قد

(١) عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ لرجل وهو يعظه : « اغتنم خمساً قبل خمس : شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك » أخرجه الحاكم فى مستدركه (٤/ ٣٠٦) وصححه على شرط الشيخين، وأقره الذهبى. وقد أخرجه ابن المبارك فى الزهد (٢) من حديث عمرو بن ميمون مرسلاً بسند صحيح، قاله ابن حجر فى الفتح (١١/ ٢٣٥) .

(٢) عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ قال : « ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله » أخرجه مسلم (٢٥٨٨) وأحمد فى مسنده (٢/ ٢٣٥ ، ٣٨٦) والترمذى فى سننه (٢٠٢٩) .

يكون صحيحاً ، ولكنه سبحانه يأخذ منك هذا المال فيزيده لك ويُنميه [١] فإذا بالجنيه الواحد قد تضاعف إلى سبعمائة مثْل ، ثم تضاعف إلى ما شاء الله ، كما أن هذا الحكم الذى يأخذ منك الآنَ وأنت غنى ، هو بذاته الذى سوف يعطيك إن افتقرتَ ولجأت إلى الناس. فإذا كان الحكم الذى سيأخذ هو الذى سيعطى تكون هذه عدالة وتأميناً ضد الأغيار ، وعليك أن تقارن الصفقة النفعية بمقابلها ، وساعةَ تعطى أنت الذى لا يملك، لابد أن تتذكر أنه قد يأتى عليك يَوْمٌ لا تملك فيه.

وكلمة دنيا بالنسبة لحياتنا أعطتنا الوصف الطبيعى الذى ينطبق عليها ؛ لأن "الدنيا "مقابلها "العليا " . والحياة العليا تكون فى الآخرة . فإذا كانت هذه هى الحياة الدنيا . فلماذا تربط نفسك بالأدنى إلا أن يكون ذلك خَوَراً فى العزيمة ؟

والمثال للقوة الإيمانية هو : سيدنا عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ، وكان قبل أن يصبح خليفة المؤمنين يرتدى أفخر الثياب ويتعطر بأجمل العطور ، وكان الناس يدفعون أموالاً لمن يغسل ثياب عمر بن عبد العزيز ليدخلوا ثيابهم مع ثيابه حتى تمتلئ عطراً . وذلك من غزارة وجود العطر الذى كان يضعه عمر بن عبد العزيز على ثيابه فتخرج كل الثياب مليئة بالعطر . وعندما أصبح عمر بن عبد العزيز خليفة ، كانوا يأتونه بالثوب الخشن الذى كان يرفض ارتداءه قبل الخلافة ، فيرفضه ويقول : هاتوا أخشن منه ، وامتنع عن العطر ، أى : أن معاييره قد تغيرت وليس فى هذا أدنى تناقض ، بل هو علو فى الحياة ، ولذلك قال : اشتاقت نفسى إلى الإمارة فقلت لها : اقعدى يا نفْسُ ، فلما نلْتُهَا اشتاقت نفسى إلى الخلافة فنهيتها عن ذلك ، فلما نلْتُها ؛ أى نال الخلَافة ، اشتاقت نفسى إلى الجنة فسلكتُ كل طريق يؤدى إليها [٢] .

(١) انظر إلى قول رسول الله ﷺ : « لا يتصدق أحد بتمرة من كسب طيب إلا أخذها الله تعالى بيمينه، فيربيها كما يربى أحدكم فلوه (مهره) أو قلوصه (الفتية من الإبل) حتى تكون كالجبل أو أعظم » وهو حديث متفق عليه من حديث أبى هريرة ، أخرجه البخارى (١٤١٠) ومسلم (١٠١٤).
(٢) أورد هذا الأثر أبو نعيم الأصفهانى فى حلية الأولياء (٥/ ٣٣١).

وهكذا نعرف أن سلوكه رضى الله عنه لم يكن فى تناقض بل تعلية للصفقة الإيمانية . كان دائماً فى علو يريد أن يواصله ، فقد اشتاق أولاً إلى الإمارة ، فلما تحققت أراد أن يعلو فاشتاق للخلافة ، فلما تحققتْ أراد أن يعلوَ فاشتاق إلى الجنة ، إذن : فهو دائماً فى عُلُوٍّ.

وأقول : ليس فى سلوكه أدنى تناقض ؛ لأن علماء النفس يفسرون التناقض فى السلوك البشرى على أنه اختلاف فى المقارنة ، فالإنسان يقارن بشئ ثم يقارن بشئ آخر وهكذا ؛ لأن كل شئ فى الدنيا نسبى . ومعنى النسبية أن ينسب الشئ لما حوله ، فإذا قلت : إننى أسكن فوق فلان ، فأنت فى نفس الوقت تسكن تحت فلان الذى يعيش فى الطابق الذى يعلوك.

إذن : فأنت فوق فلان وتحت فلان فى نفس الوقت ، فلا تأخذ نقطة وتغفل عن الأخرى ، وهذا اسمه "معنى إضافى " أى : أن المعانى لا تتحقق بذاتها ، ولكن بالنسبة إلى شئ تقاس به ، وكذلك المقاييس بين الأشياء يجب أن نقيسها بالأمور التى تُصعد لك القيمة . فأنت إذا نظرت إلى الدنيا ؛ تجد أن الحق سبحانه أسماها : دُنْيا ولم يجد اسماً أقلَّ من هذا ليسميها به ، لماذا ؟ لأنك تتنعم فى الدنيا على قدر وجودك فيها ، أى على قدر عمرك ، وهو مهما زاد وطال فهو سنوات معدودة ، وقد يكون متاعك منها حتى سنِّ الثلاثين أو الأربعين أو الخمسين . أو أكثر من ذلك أو أقل . ومتاعك فيها بما تحققه قدراتك ، فالذى عنده ألف جنيه يتمتع على قدرها ، والذى عنده عدة ألوف متاعه على قدرها ، وصاحب الملايين متاعه أكبر.

إذن : فكل واحد يتمتع بقدر ما عنده من مال . وحتى إن وصل الإنسان إلى أعلى متاع فى الدنيا ؛ متاع صاحب الملايين ، فهذه الملايين إما أن تزول عن صاحبها ، وإما أن يترك هو هذه الملايين بالموت . وهذه تتحقق وهذه تتحقق. إذن : فنعمة الدنيا إما أن تنخلع منك أو تنخلع أنت منها.

فإذا جئتَ إلى المقابل وهو الآخرة تجد أن النعيم فيها دائم لايزول عنك ، وأنت خالد لا تزول عن النعمة بالفناء أو الموت ، وأنت لا تتمتع فى الآخرة بقدراتك أنت ، بل بقدرة الله سبحانه . فكأن المتاع أكبر كثيراً من قدرتك ، وأعلى كثيراً من كل ما تستطيع أن تحققه. فمثلاً : إن كان معك ريال وجاءك رجل فقير فأعطيته له ليأكل به ، تكون فى ظاهر الأمر قد آثرتَ الفقير على نفسك ؛ لأنك أعطيته كل ما تملك ليأكل به وحرمت نفسك منه ، ولكنك فى الحقيقة فضَّلْتَ نفسك على الفقير ؛ لأنك أعطيته هذا الريال ليكون عند الله عشرة إلى سبعمائة ضعف ، فمَنْ منكما الذى استفاد ؟ ومَنْ منكما الذى انتفع ؟ إنه أنت.

ولذلك نجد أن الدين الصحيح ضد الأنانية الحمقاء ، ويُعْلى فيك الأنانية العاقلة بأن يجعلك تحب نفسك حباً أعلى. فأنت حين تتصدق تحب نفسك ، ولذلك تريد أن تعطيها الأعلى والأنفع . فظاهر الأمر أنك أعطيت ، وفى حقيقته أنك قد أخذت . وأنت حين تعطى إنساناً مساوياً لك كأن تقدم له هدية فى مناسبة معينة ، تنتظر أن يرد إليك الهدية بمثلها فى مناسبة أخرى . إذن : فالعطاء مُتَساو ، وقد يرد هذا الإنسان الهدية ، وقد لا يردها . وقد ينوى ردها ولكن تصادفه ظروف لا تُمكِّنه من أن يردها لك. لكن الحق سبحانه يقول:

﴿مَن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً...(٢٤٥)﴾ [البقرة]

إذن : فحينما تعطى ابتغاء وجه الله فأنت لاتحصل على عطاء مُسَاو لما أعطيت . لكنك تحصل على عطاء مضاعف أضعافاً مضاعفة . والذى يعطيك الثواب هو الله سبحانه وتعالى دائم الوجود ، ولن ينفد عطاؤه لك ؛ لأنه دائم القدرة ، ولن يأتى عليه وقت يكون غير قادر على أن يرد

لك ما أعطيت ؛ لأن عنده كنوز السماوات والأرض ؛ وهو سبحانه قادر على أن يضاعف لك مهما كانت قيمة عطائك . فإن فضَّلْتَ الحياة الدنيا على الآخرة ، فأنت تقيس بمقاييس الكمال عندك وهى مقاييس ساقطة وهابطة ، ولو كنت تملك المقياس الصحيح لعرفتَ أن الذى يحقق لك النفع الأكبر هو أن تعطى وتعمل طلباً للآخرة وليس للدنيا . ولذلك فالحق سبحانه يقول هنا : ﴿ **أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ** ﴾ أى : أنكم أردتم الحياة الدنيا بدل الآخرة . وهذه مقارنة غير عاقلة وغير حكيمة .

وكلمة ﴿ **مِنَ** ﴾ تدل على البدل فى قوله : ﴿ **بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا** ﴾ ومادة البدل والاستبدال البيع والشراء ، ونعرف أن الباء تدخل على المتروك ، فأنت تقول : اشتريت الشىء بكذا درهم ، أى : تركت الدراهم مقابل شرائك الشىء ، كأن هؤلاء الراضين بالحياة الدنيا قد أخذوا الدنيا بدلاً من الآخرة ، وهذه صفقة تخلو من العقل والحكمة .

وبعد أن استنكر الله سبحانه وتعالى على المؤمنين أن يرضوا بالحياة الدنيا ويتركوا الآخرة يقول سبحانه : ﴿ **فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ** ﴾ والمتاع : هو ما يستمتع به . والإنسان لا يستطيع أن يوقن أنه سيستمتع بالحياة ، وهذا أمر مطعون فيه ، فليس كل كائن حى مستمتعاً بالحياة ، هناك أشقياء وهناك تعساء ، وهناك مَنْ حياتهم كلها تعب ، وحتى أولئك المستمتعون بالحياة فى الحاضر ، مَنْ يُدريهم ماذا يحمل المستقبل لهم ؟ ألا يمكن أن يكون استمتاعهم هذا وقتياً ؟ ألا يمكن أن يأتيهم ظرف من الظروف ؛ أو قدر من الأقدار يملأ حياتهم بالشقاء ؟

إننا نجد العقلاء - حين يرون فى نعمة الله عليهم ما يكدر حياتهم - يشكرون الله ، بينما نجد الإنسان السطحى التفكير والفهم يستاء وينفعل ويزيد الموقف معاناة . العاقل - إذن - يعرف أن الإنسان يعيش فى دنيا

أغيار ، ومعنى أننا نعيش فى دنيا أغيار أنه تأتى أحداث تنقلنا من حال إلى حال ، أى من الغنى إلى الفقر . أو من الصحة إلى المرض إلى غير ذلك من أحوال الدنيا المتقلبة المتغيرة ، ففى الدنيا لا يدوم حال ، وما دامت الدنيا أغياراً ؛ فأحوال الناس تتغير فيها دائماً.

وهَبْ أن إنساناً وصل إلى القمة التى لا يوجد أعلى منها . نقول له : لا داعى أن يأخذك الفرح والكبر والخيلاء ، ولا تنس أنك تعيش فى دنيا أغيار ، وأن دوام الحال من المحال ، فلو دامت لغيرك ما وصلتَ أنت إلى القمة ؛ لأن مَنْ كان عليها سقط فصعدتَ أنت .

إذن: فمعنى هذا أنك وإن وصلتَ للقمة فلن تثبت عليها وتبقى هكذا بلا تغيير . وما دمتَ قد وصلت إلى أعلى ما يمكن ، فالتغيير الوحيد الذى يمكن أن يحدث لك هو أن تنزل ؛ لأنك وصلت إلى قمة الصعود ، ولم يَعُدْ بعدها شىء تصعد إليه . فالتغيير المتوقع لابد أن يكون إلى أسفل ، ويقال : « ترقَّبْ زَوالاً إذا قيل تَمّ » ، ولهذا نجد أهل الحكمة والبصيرة يقولون : إن المصائب فى الأموال والأنفس من تمائم النعمة ، وكأن الحق لا يريد أن يتمم النعم ؛ لأنها إن تمت تزول ؛ لأن المصيبة ما دامت قد حدثت فلابد أن تزول.

وسبحانه حين يقول: ﴿ **فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِى الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ** ﴾ يريد أن يبين لنا أن متاع الآخرة أكبر ، فأنت حين تقول: شىء فى شىء . فأيهما يكون أكبر ؟ إنه الذى يدخل فيه الشىء الآخر ، فإذا قلنا: فلان فى البيت ، فمعنى ذلك أن البيت أكبر من فلان هذا ، وإلا لما احتواه داخله . وإن قلنا : محمد فى جدة أو فى المملكة السعودية أو فى مصر ؛ يكون هناك ظرف ومظروف ، والمظروف عادة أوسع من الظرف ، وسعته كبيرة لدرجة أنها تحيط بالظرف من كل جوانبه .

وقول الحق سبحانه: ﴿ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِى الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴾ معناه: أن متاع الدنيا يتوه فى متاع الآخرة ؛ لأن متاع الآخرة أوسع ويحتوى متاع الدنيا ويزيد ، وما دام الكلام بقدرة الله سبحانه وتعالى ، فمعنى ذلك أن سعة متاع الآخرة بالنسبة لمتاع الدنيا لا نهائية . فإذا زاد الحق سبحانه وقال: ﴿ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِى الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴾ فهو لإعطاء صورة لسعة متاع الآخرة.

لكن هذا الاستثناء فى قوله تعالى ﴿ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴾ إنما هو لمخاطبة العقول بالنسبة لقمة المتمتعين فى الدنيا .

ومثال هذا : أنك تجد إنساناً قد أعطاه الله قمة متاع الدنيا ، وتجده يعتقد أن المتاع لايمكن أن يزيد على ما وصل إليه ، فيوضح الحق سبحانه وتعالى له: لو أنك متمتع بكل ما تستطيع أن تعطيه لك الدنيا فهو بالنسبة لمتاع الآخرة قليل.

وإذا كان غير المتمتع بشىء من متاع الدنيا ينظر إلى مَنْ أعطاه الله سبحانه وتعالى قمة متاع الدنيا ويتساءل : هل هناك متاع أكثر من ذلك ؟ إن هذا الإنسان متمتع بكذا وكذا وكأنه يعيش فى الجنة ، ولا أعتقد أنه يمكن أن يكون هناك متاع أكثر من هذا . نقول له: لا، إن ما تحسبه نهاية لما يمكن أن يتمتع به الإنسان هو بالنسبة لمتاع الآخرة قليل.

إذن : فقوله سبحانه ﴿ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴾ ليس مقصوداً به المتعة العادية للدنيا التى يتمتع بها الناس ، ولكن المقصود به متاع القمة الذى لا يصل إليه ولا يحدث إلا لأفراد قليلين فى العالم . فقد يعيش إنسان فى قصر ضخم ، وحوله المئات من الناس يخدمونه ، وعنده من الأجهزة الإلكترونية وغيرها ما يجعله بمجرد أن يريد شيئاً يضغط على زر صغير فيجد ما يريده

أمامه ، وكل شيء حوله يحقق له رغباته ، بل إنه يعيش فى درجة الحرارة التى يريدها داخل قصره ، وعنده أفخر أنواع الطعام والشراب ، وإذا أراد أن ينتقل من مكان إلى آخر ؛ ضغط على زر فيتحرك به الكرسى إلى المكان الذى يريده ، وكل مَنْ حوله يطيعونه طاعة عمياء ، فكل رغباته أوامر ، وحياته تشبه الحلم الجميل .

إذا عاش إنسان فى هذا الجو وانبهر بهذه النعم كلها يستوقفه رب العزة سبحانه ويوضح له: لا تنبهر ، فهذا المتاع الذى تعيش فيه بالنسبة للآخرة قليل.

فإذا قرأ الناس أو سمعوا أو شاهدوا ما يعيش فيه هذا الإنسان من متعة وانبهروا بها ، يوضح لهم الله : لا تنبهروا ولا يأخذكم العجب ، فكل هذا الذى ترونه أمامكم بالنسبة لمتاع الآخرة قليل .

إذن : فقوله سبحانه ﴿ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴾ يدل على أن فطرة الله التى فطر الناس عليها لاتحب القليل من النعم بل تريد الكثير ، ولهذا نجد الحق سبحانه وتعالى يُنفِّر عباده من أن تفتنهم نعم الدنيا مهما بلغت ، فيوضح لهم: لا تظنوا أن هذه النعم كثيرة ، بل إنها نعم قليلة بالنسبة لما ينتظركم فى الآخرة ، فإذا كان الإنسان بفطرته يحب كثرة النعم ، ففى هذه الحالة لن تفتنه نعم الدنيا ، بل سوف يطلب نعم الآخرة . ورسول الله ﷺ يقول: « لو أن ابن آدم أعطى وادياً ملآن من ذهب أحبَّ إليه ثانياً ، ولو أعطى ثانياً أحب إليه ثالثاً » [1]

أى: أن الإنسان الذى امتلك واديين يريد أن يحتفظ بالواديين كما هما ويطمع فى امتلاك الوادى الثالث ، رغم أنه قد لا يعيش لينفق مقدار واد واحد . فالإنسان بطبعه لا يحب القليل من النعم بل يطلب الكثير ،

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٤٣٨) وأبو نعيم فى حلية الأولياء (١/ ٣٣٧) عن عبد الله بن الزبير .

لماذا ؟ لأن كثيراً من الناس ينسون الآخرة ، ويعتقدون أن هذه الحياة الدنيا هى كل شىء ، ولهذا تجد الإنسان منهم يريد أن يحتاط لنفسه ، فإذا أخذ ما يكفيه يريد أن يحتاط لأولاده ، فإذا كان عنده ما يكفيه هو وأولاده يريد أن يحتاط لأحفاده . ولكن المؤمن الحق هو من يعرف أن الحياة الدنيا طريق العبور إلى الآخرة ، وأنها رحلة قصيرة تنتهى ، فلا يهتم بهذا اللون من الاحتياط ، ولكن الذى يحرص على عملية الاحتياط هذه هو من يظن أن الحياة الدنيا هى الغاية من الخلق ، ولا يتنبه إلى أنها وسيلة للآخرة.

إننا نجد أولئك الذين يسرفون على أنفسهم ويتبعون شهواتهم وهم يحاولون أن يأخذوا من الدنيا كل شىء يمكن أن تعطيه لهم حلالاً أو حراماً ، وهذا واضح فى سلوكهم الدنيوى.

أما المؤمن فهو كالطالب الذى يَجدُّ فى دروسه ويجتهد ويستيقظ مبكراً ويذهب إلى المدرسة ، ويظل ساهراً ليذاكر ويحرم نفسه من مُتَع كثيرة ؛ لأنه بفطنته وذكائه يعرف أن هذا حرمان مؤقت . وهو إنما يفعل ذلك لفترة قصيرة ليستريح بقية العمر ، ويحصل على المركز المرموق والدخل المرتفع إلى آخر ما يمكن أن يعطيه له المستقبل . أما المسرف على نفسه فهو كالطالب الذى لا يذهب إلى المدرسة ويقضى وقته فى اللعب والاستمتاع ، وهو بمثل هذا السلوك كان قصير النظر ، وأعطى لنفسه شهوة عاجلة ليظل فى معاناة بقية حياته.

إذن: فكل من الطالبين أعطى نفسه ما تريد ؛ الأول : أعطى نفسه مستقبلاً مريحاً ممتداً ، وصار قمة من قمم المجتمع ، والثانى : أعطى نفسه متعة عاجلة زائلة ، ثم صار بعد سنوات قليلة صعلوكاً فى المجتمع لا يساوى شيئاً.

إذن: فإياك أن تنظر تحت أقدامك فقط ؛ لأن العالم لا ينتهى عند موقع وقوف قدميك هاتين ، ولكنه ممتد إلى آفاق بعيدة ، فإذا نظرتَ إلى هذه الآفاق ، فلا يليق بك أن تختار متعة وقتية قليلة.

وقول الحق سبحانه:

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ (٣٨) ﴾

[التوبة]

نزل فى غزوة تبوك [1]، وهى أول غزوة للمسلمين مع غير العرب ، وسبقتْها كل المعارك بين المسلمين وبين الكفار والمشركين ، ودارت على أرض الجزيرة العربية معارك مع المشركين فى بدر أو فى مكة ، أو مع اليهود فى مجتمع المدينة ، فقد كانت هذه معارك فى محيط الجزيرة العربية ، ولكن غزوة تبوك كانت مع الروم على الحدود الشمالية للجزيرة العربية . وحينما بدأ تجهيز الجيش ليذهب إلى تبوك لمحاربة الروم تثاقل المسلمون . وهنا يبرز استفهام : كيف يحارب المسلمون الروم ، وهم الذين حزنوا حين انتصر الفرس على الروم ؟ أيحزن المسلمون لهزيمة الروم ثم يذهبون ليحاربوهم ؟

نقول : نعم ؛ لأن المواقف الإيمانية ليست مواقف فى قالب من حديد ، ولكنها تتكيف تبعاً لمواقف الكفار من الإيمان والإسلام.

ولذلك فإن المؤمن الحق ينفعل للأحداث انفعالاً إيمانياً ، وعلى سبيل المثال ، نجد قلب سيدنا أبى بكر الصديق رضى الله عنه مملوءاً رقة ورحمة ،

(١) قال القرطبي فى تفسيره (٤/ ٣٠٦٦): « لا خلاف أن هذه الآية نزلت عتاباً على تخلُّف من تخلَّف عن رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك، وكانت سنة تسع من الهجرة بعد الفتح بعام ».

بينما قلب سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان مملوءاً قوة وحزماً ، انظر إلى موقف الاثنين عندما انتقل رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى ؛ وارتد عدد من المسلمين عن الإسلام ، ومنعوا الزكاة ؛ وقرر أبو بكر الصديق رضى الله عنه أن يحارب هؤلاء المرتدين ؛ لأنهم أنكروا ركناً من أركان الإسلام ، هنا وقف عمر بن الخطاب ضد رأى أبى بكر وقال: يا أبا بكر أنحارب أناساً شهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . فقال أبو بكر : أجبار يا عمر فى الجاهلية خوّار فى الإسلام ؟ و الله لو منعونى عقال بعير كانوا يؤدونه إلى رسول الله لقاتلتهم عليه [1] .

وهكذا انقلبت المواقف ؛ فالقوة والشدة ملأت قلب أبى بكر الذى كان مشهوراً بالرقة والرحمة والعطف ، بينما امتلأ قلب عمر باللين ، وهو المشهور بالشدة والقوة . ولو أن عمر هو الذى قال كلمة أبى بكر لقالوا : شدة ألفها الناس من عمر.

ولكن الناس قالوا عن عمر الشديد : « قد لاَنَ قلبه بينما اشتد قلب أبى بكر » هذه هى المواقف الإيمانية التى تملأ نفس كل مؤمن . فالذى يصنع موقف المؤمن هو إيمانه لا طبعه ؛ ولذلك قال الحق فى وصفه للمؤمنين:

﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ ... (٥٤) ﴾ [المائدة]

(١) عن ضبة بن محصن الغنوى قال: « قلت لعمر بن الخطاب: أنت خير من أبى بكر فبكى وقال: والله لليلة من أبى بكر ويوم خير من عُمْر عمر، هل لك أن أحدثك بليلته ويومه؟ قلت: نعم يا أمير المؤمنين. قال: أما يومه فلما توفى رسول الله ﷺ وارتدت العرب فقال بعضهم: نصلى ولا نزكى. وقال بعضهم: لا نصلى ولا نزكى ، فأتيته ولا آلوه نصحاً. فقلت: يا خليفة رسول الله تألّف الناس وارفق بهم . فقال: جبار فى الجاهلية خوار فى الإسلام، فبماذا أتألفهم ؟ أبشعر مفتعل أو سحر مفترى؟ » الحديث أورده المتقى الهندى فى منتخب كنز العمال (٤/ ٣٤٩) وعزاه للدينورى فى المجالسة ، وأبى الحسن بن بشران فى فوائده ، والبيهقى فى دلائل النبوة ، واللالكائى فى السنة .

وكيف يكون الإنسان عزيزاً وذليلاً فى الوقت نفسه ؟ وكيف يوصف الشخص نفسه بأنه عزيز وذليل ؟ وكيف يمكن أن يجتمع النقيضان فى شخص واحد ؟ لكنك تقرأ ما يطمئنك فى قول الحق:

﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ.. (٢٩)﴾ [الفتح]

لقد وصف الحق سبحانه المؤمنين بأنهم أشداء ، ووصفهم أيضاً بأنهم رحماء ، ولكى تفهم هذا المعنى عليك أن تعلم أن المواقف الإيمانية هى التى تحدد مشاعر المؤمن ، ولا تحددها طباعه الخاصة والشخصية ، وهو يُكيِّف مواقفه حسب الموقف الإيمانى وما يتطلبه ، فهو شديد ورحيم ، وذليل وعزيز .

ونعود إلى غزوة تبوك التى نزلت فيها الآية التى نتناولها بخواطرنا وإلى السؤال: كيف يحارب المسلمون الروم ، وقد حزنوا يوم هزيمة الروم من الفرس ؟ ونقول: لقد حزن المسلمون لأن إلحاداً ينكر الألوهية قد انتصر على إيمان مرتبط برسالات السماء ؛ ولأن الروم - وهم نصارى - مرتبطون برسالات السماء . ولذلك فهم أقرب إلى قلوب المؤمنين من الكفار ، إذن: فالمسألة قد أُخذَتْ من ناحية الوجود الإلهى . أما فى غزوة تبوك فقد أُخذَتْ من ناحيةَ قبول المنهج الناسخ ومنع الدعوة له ، ولهذا تحول الموقف فى غزوة تبوك إلى عداء إيمانى ، وهذا هو السبب الذى أدَّى إلى الحرب [1].

(١) قال ابن حجر العسقلانى فى فتح البارى (٨/ ١١١): « كان السبب فيها ما ذكره ابن سعد وشيخه وغيره قالوا: بلغ المسلمين من الأنباط الذين يقدمون بالزيت من الشام إلى المدينة أن الروم جمعت جموعاً، وأجلبت معهم لخم وجذام وغيرهم من متنصرة العرب، وجاءت مقدمتهم إلى البلقاء، فندب النبى ﷺ الناس إلى الخروج، وأعلمهم بجهة غزوهم ».

فإذا نظرنا إلى الغزوة نفسها نجد أن تبوك تبعد عن المدينة بمسافة كبيرة ، ووقت الغزوة كان صيفاً شديد الحرارة ، كما أنها كانت بعد غزوة حنين التى قاتل المؤمنون فيها قتالاً شديداً . وكان العام عام عسرة ، فلم يكن مع الجيش ما يكفيه من طعام أو خيل أو جمال.

إذن : فقد اجتمعت المشقة فى هذه الغزوة ؛ مع حرارة الجو ؛ وبُعْد المسافة ، وكانت قوى المسلمين مُنْهكَة من غزوة حنين . وكان رسول الله ﷺ إذا أراد الخروج لغزوة ، لا يخبر عنها أصحابه إلا عندما يصلون إلى مكان القتال ؛ إلا هذه الغزوة فقد بيَّنها رسول الله ﷺ لصحابته قبل أن يغادروا المدينة ؛ لكى يستعدوا للمشقة التى تنتظرهم . وتباطأ المسلمون ، وبعضهم كان يستمتع بالجلوس فى ظل البساتين الموجودة فى المدينة ويأكل من ثمارها . واستطاب - هذا البعض - الثمار والظلال ؛ لذلك تباطأوا فى الذهاب إلى القتال ، فنزلت هذه الآية ببيان اللوم ، ثم جاءت الآية التى بعدها لتوضح وتُبيِّن العقوبة ، فقال الحق:

﴿ إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾

أى: إن لم تذهبوا إلى القتال فإن الله ينذركم بالعذاب . وإذا أنذر الحق فلا بد أن يتحقق ما أنذر به ، فأنتم إن لم تنفروا مخافة العذاب المظنون ، وهو الإرهاق والتعب ، فما بالكم بالعذاب المحقق إن لم تنفذوا أمر الله بالنَّفْرة إلى القتال؟ وإذا كانت المقارنة بين مشقة السفر والقتال والحر

الشديد ، وبين عذاب الله ، فالمؤمن سوف يختار - بلا شك - مشقة الحرب مهما كانت ؛ لأن كل فعل إنما يكون بقياس فاعله ، فمظنة العذاب بالحر ، أو مشقة السفر ، وقسوة القتال لا يمكن قياسها بعذاب الله ؛ لأن العذاب الذى ينتظر مَنْ يتباطأ أو يفرُّ من الزحف أكبر من مشقة الاستجابة للزحف مهما كانت مرهقة .

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ إذن : فلا تظنوا أنكم بتباطئكم ؛ وعدم رغبتكم فى القتال ستضرون الله شيئاً ؛ لأن الله قادر على أن يأتى بخلق جديد ، وهو على ذلك قدير، لذلك يقول: ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ . وفى آية أخرى يقول الحق سبحانه:

﴿هَا أَنتُمْ هَؤُلاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ (٣٨)﴾ [محمد]

فلا تظنوا أنكم بما معكم من ثراء أو قوة قادرون على عرقلة منهج الله بالبخل أو التخاذل ؛ لأنه سبحانه قادر على أن يستبدلكم بقوم غيركم ، يملكون حمية القتال والتضحية فى سبيل الله ؛ لأنه القادر فوق كل الخلق .

وقوله سبحانه: ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ هو حيثية للأحكام التى سبقتها من قوله: ﴿إِلاَّ تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّوهُ شَيْئًا﴾ وإن ظن واحد منهم أن هذا كلام نظرى ، فالحق سبحانه يضرب لهم المثل العملى من الواقع الذى شاهدوه وعاصروه حينما اجتمع كفار قريش ليقتلوه فنصره الله عليهم ، فقال جل جلاله:

﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ
لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ
سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا
وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ
وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾

ووقف المستشرقون عند قول الحق سبحانه: ﴿إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾ وكعادتهم - كمشككين فى الإسلام - نجدهم يبذلون جهداً كبيراً فى محاولة التصيد لأخطاء يتوهمونها فى القرآن الكريم فيقولون: إن مهابة القرآن وقدسيته عندكم أيها المسلمون لا تُمكِّن أذهانكم من الجراءة اللازمة للبحث فى أساليبه؛ لتكتشفوا ما فيه من الخلل. ولكن إن نظرتم إلى القرآن ككتاب عادى لا قداسة له فسوف تجدون فيه التضارب والاختلاف.

وخصص المستشرقون باباً كبيراً للبحث فى مجال النحو بالقرآن الكريم، وجاءوا إلى مسألة الشرط والجزاء، ومن يقرأ نقدهم يتعرف فوراً على حقيقة واضحة هى جهلهم بعمق أسرار اللغة العربية، فهم قد أخذوا ظاهر اللغة العربية، ولا يملكون فيها مَلَكة أو حُسْن فهم، وقالوا: إن أساليب الشرط فى اللغة العربية تقتضى وجود جواب لكل شرط، فإن قلت: إن جاءك زيد فأكرمه، تجد الإكرام يأتى بعد مجىء زيد، وإن قلت: إن تذاكر تنجح، فالنجاح يأتى بعد المذاكرة. إذن: فزمن الجواب متأخر عن زمن الشرط.

وهم قدموا كل تلك المقدمات ليشككونا فى القرآن . ونقول لهم : إن كلامكم عن الشرط وجوابه صحيح ، ولكن افهموا الزائد ، فحين نحقق فى الأمر نجد أن الجواب سبب فى الشرط ؛ لأنك حين تقول: إن تذاكر تنجح ، فالطالب إن لم يستحضر امتيازات النجاح فلن يذاكر ، بل لابد أن يتصور الطالب فى ذهنه امتيازات النجاح ليندفع إلى المذاكرة ، إذن : فالجواب سبب دافع فى الشرط ، ولكن الشرط سبب فى الجواب ولكنه سبب واقع ، فتصُّور النجاح أولاً هو سبيل لبذل الجهد فى تحقيق النجاح ، وهكذا تكون الجهة منفكة ؛ لأن هذا سبب دافع ، وهذا سبب واقع .

وقوله تعالى: ﴿ إِلاَّ تَنصُرُوهُ ﴾ فعل مضارع ، زمنه هو الزمن الحالى ، ولكن الحق يتبع المضارع بفعل ماض هو : ﴿ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ ﴾ فهل يكون الشرط حاضراً ومستقبلاً ، والجواب ماضياً ؟ ونقول: إن المعنى : إلا تنصروه فسينصره الله . بدليل أنه قد نصره قبل ذلك . وهذا ليس جواب شرط ، وإنما دليل الجواب ، فحين يكون دليل الجواب ماضياً ، فهو أدل على الوثوق من حدوث الجواب ، فحين دعاهم الله لينفروا فتثاقلوا ، أوضح لهم سبحانه : أتظنون أن جهادكم هو الذى سينصر محمداً وينصر دعوته ؟ لا ؛ لأنه سبحانه قادر على نصره ، والدليل على ذلك أن الله قد نصره من قبل فى مواطن كثيرة ، وأهم موطن هو النصر فى الهجرة ، وقد نصره برجل واحد هو أبو بكر على قريش وكل كفار مكة ، وكذلك نصره فى بدر بجنود لم تروها ، إذن : فسابقة النصر من الله لرسوله سابقة ماضية ، وعلى ذلك فليست هى الجواب ، بل هى دليل الجواب .

ونرى فى قوله تعالى: ﴿ إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ ﴾ أن نصر الله له ثلاثة أزمنة ، فـ ﴿ إِذْ ﴾ تكررت ثلاث مرات ، فسبحانه يقول:

﴿ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ أى: أننا أمام ثلاثة أزمنة : زمن الإخراج ، وزمن الغار ، والزمن الذى قال فيه رسول الله ﷺ لأبى بكر: ﴿لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾، وقد جاء النصر فى هذه الأزمنة الثلاثة ؛ ساعة الإخراج من مكة ، وساعة دخل سيدنا رسول الله ﷺ مع أبى بكر إلى الغار ، وساعة حديثه مع أبى بكر .

ولسائل أن يسأل : هل أخرج الكفار رسول الله من مكة ، أم أن الله هو الذى أخرجه ؟ ونقول: إن عناد قومه وتآمرهم عليه وتعنُّتهم أمام دعوته ، كل ذلك اضطره إلى الخروج ، ولكن الحق أراد بهذا الخروج هدفاً آخر غير الذى أراده الكفار ، فهم أرادوا قتله ، وحين خرج ظنوا أن دعوته سوف تختنق بالعزل عن الناس ، فأخرجه الله لتنساح الدعوة ، وأوضح لهم سبحانه : أنتم تريدون إخراج محمد بتعنتكم معه ، وأنا لن أمكنكم من أن تخرجوه مخذولاً ، وسأخرجه أنا مدعوماً بالأنصار . وقالوا: إن الهجرة توأم البعثة . أى : أن البعثة المحمدية جاءت ومعها الهجرة ، بدليل أن رسول الله ﷺ حينما أخذته أم المؤمنين خديجة رضى الله عنها إلى ورقة بن نوفل ، بعد ما حدث له فى غار حراء ، قال له ورقة : ليتنى أكون حياً إذ يخرجك قومك . قال ورقة بن نوفل ذلك لرسول الله قبل أن يتثبت من النبوة ، فقال رسول الله ﷺ : أمُخْرِجيَّ هم ؟ قال ورقة بن نوفل: نعم ، لم يأت رجل بمثل ما جئت به إلا عُودِى [1]

إذن : فالهجرة كانت مقررة مع تكليف رسول الله ﷺ بالرسالة ، لماذا ؟ لأنه ﷺ كان أول من أعلن على مسامع سادة قريش رسالة الحق والتوحيد.

(١) متفق عليه من حديث عائشة، أخرجه البخارى فى صحيحه (٣، ومواضع أخرى)، ومسلم فى صحيحه (١٦٠) .

ففكرة الهجرة مسبقة مع البعثة ؛ ولأن البعثة هى الصيحة التى دوَّت فى آذان سادة قريش وهم سادة الجزيرة . ولو صاحها فى آذان قوم ليسوا من سادة العرب لقالوا: استضعف قوماً فصاح فيهم ، ولكن صيحة البلاغ جاءت فى آذان سادة الجزيرة العربية كلها ، فانطلقوا فى تعذيب المسلمين ليقضوا على هذه الدعوة . وشاء الله سبحانه وتعالى ألا ينصره بقريش فى مكة ؛ لأن قريشاً ألفَتْ السيادة على العرب ، فإذا جاء رسول لهداية الناس عامة إلى الإسلام ، لقال من أرسلَ فيهم : لقد تعصبتْ له قريش لتسود الدنيا كما سادت الجزيرة العربية . فأراد الحق سبحانه أن يوضح لنا: لا . لقد كانت الصيحة الأولى فى آذان سادة العرب ، ولا بد أن يكون نصر الإسلام والانسياح الدينى لا من هذه البلدة بل من بلد آخر ؛ حتى لا يقال : إن العصبية لمحمد هى التى خلقت الإيمان برسالة محمد ﷺ . ولكن الإيمان برسالة محمد هو الذى خلق العصبية لمحمد ﷺ .

ويلاحظ فى أمر الهجرة أن فعلها « هاجر » . وهذا يدلنا على أن رسول الله ﷺ لم يهجر مكة ، وإنما هاجر ، والمهاجرة مفاعلة من جانبين ، فكأن قومه أعنتوه فخرج ، والإخراج نفسه فيه نصر ؛ لأن رسول الله ﷺ خرج وحده من بيته ؛ الذى أحاط به شباب أقوياء من كل قبائل العرب ليضربوه ضربة رجل واحد ، وينثر عليهم التراب فتغشى أبصارهم ، وكان أبو بكر رضى الله عنه ينتظره فى الخارج [1]، وكأن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يثبت لهم أنهم لن ينالوا من محمد ؛ لا بتآمر خفى ، ولا بتساند علنى . وهذا نصر من الله.

(١) ليس المعنى هنا أن أبا بكر رضى الله عنه كان ينتظر رسول الله ﷺ خارج البيت أو فى مكان قريب منه، ولكن المقصود أنه ﷺ خرج وحده من بيته ليلاً واخترق صفوف أربعين فتى قوياً قد شهروا سيوفهم لقتله إن هو خرج من بيته وكان وحده ، فالثابت فى السيرة أن أبا بكر كان فى بيته مع أهل بيته وقت الظهيرة وجاءه رسول الله ﷺ متخفياً وقال له : « إنى قد أذن لى فى الخروج » فقال أبو بكر : الصحبة بأبى أنت يا رسول الله . فقال ﷺ : نعم . وتواعدا ثم خرجا من خوخة فى ظهر بيت أبى بكر . أخرجه البخارى (٣٩٠٥) وأحمد (٦/ ١٩٨ ، ٢١٢) وأبو نعيم فى دلائل النبوة (ص ٢٧٠) وسيرة ابن هشام (٢/ ٩٧) .

ويتابع الحق سبحانه : ﴿ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ ﴾ ، ويتأكد فى الغار نصر آخر . ذلك أن قصاص الأثر الذى استعانت به قريش واسمه كرز بن علقمة من خزاعة قد تتبع الأثر حتى جاء عند الغار ، وقال: هذه قدم محمد وهو أشبه بالموجود فى الكعبة ، أى أشبه بأثر قدم إبراهيم عليه السلام ، ثم قال: هذه قدم أبى بكر أو قدم ابنه وما تجاوزا هذا المكان . وكان قصاص الأثر يتعرف على شكل القدم وأثره على الأرض . وأضاف: إنهما ما تجاوزا هذا المكان ، إلا أن يكونا قد صعدا إلى السماء أو دخلا فى جوف الأرض . وبالرغم من هذا التأكيد فإنهم لم يدخلوا الغار ، ولم يفكر أحدهم أن يقلب الحجر أو يفتش عن محمد وصاحبه ، مع أن هذا أول ما كان يجب أن يتبادر إلى الذهن ، فمادامت آثار الأقدام قد انتهت عند مدخل الغار كان يجب أن يفتشوا داخله . لكن أحداً لم يلتفت إلى ذلك.

وجاء واحد منهم وأخذ يبول ، فجاء بعورته قبالة الغار ، وهذا هو السبب فى قول أبى بكر لرسول الله ﷺ: لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لرآنا.

فقال رسول الله ﷺ بفطنة النبوة: لو رأونا ما استقبلونا بعوراتهم [1] وهذا دليل على أن العربى كان يأنف أن تظهر عورته ، أو هى كرامة لمحمد ﷺ ألا يُريه عورة غيره ، وليأخذها القارىء كما يأخذها ، وهى على كل حال فيض إلهامى لرسول الله ﷺ ، كذلك جعل الحق سبحانه العنكبوت ينسج خيوطه على مدخل الغار ، وجعل الحمام يبنى عُشّاً فيه بيض ،

(١) قد جاء هذا فى أحاديث فيها مقال ، فعند الطبرانى من حديث أسماء بنت أبى بكر « فقال أبو بكر - لرجل مواجه الغار - : يا رسول الله إنه ليرانا . فقال : كلا إن ملائكة تسترنا بأجنحتها فجلس ذلك الرجل فبال مواجه الغار فقال رسول الله ﷺ : لو كان يرانا ما فعل هذا » فيه يعقوب بن حميد وثقه ابن حبان وغيره وضعفه أبو حاتم وغيره ، وبقية رجاله رجال الصحيح . قاله الهيثمى فى المجمع (٦/ ٥٤) وعند أبى يعلى الموصلى فى مسنده من حديث أبى بكر الصديق قال ﷺ : « لو رآنا لم يستقبلنا بعورته » وفيه موسى بن مطير وهو متروك . وانظر فتح البارى (٧/ ١١)

وجعل سراقة بن مالك يقول : لا يمكن أن يكون محمد وصاحبه دخلا الغار ، وإلا لكانا قد حطَّما عُشَّ الحمام ، وهتكا نسيج العنكبوت .

ونحن نعلم أن أوهى البيوت هو بيت العنكبوت ، فالحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت : ٤١]

ويظهر الإعجاز الإلهى هنا فى : أن الله سبحانه قد صد مجموعة كبيرة من المقاتلين الأقوياء بأوهى البيوت ، وهو بيت العنكبوت ، وقدرة الله تجلَّتْ فى أن يجعل خيط العنكبوت أقوى من الفولاذ، وكذلك شاء الحق أن يبيض الحمام وهو أودع الطيور ، وإنْ أهيجَ هاج . وهذا نصر ، ثم هناك نصر ثالث نفسى وذاتى ، فحين قال أبو بكر رضى الله عنه لرسول الله ﷺ: لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا ، نجد رسول الله ﷺ يرد فى ثقة بربه : « ما ظنك باثنين الله ثالثهما » (١) .

هذا الرد لا ينسجم مع سؤال أبى بكر ؛ لأن أبا بكر كان يخشى أنهم لو نظروا تحت أقدامهم لرأوا مَنْ فى الغار ، وكان الرد الطبيعى أن يقال : «لن يرونا» ، ولكن رسول الله ﷺ أراد أن يلفتنا لفتة إيمانية إلى اللازم الأعلى ، فقال : « ما ظنك باثنين الله ثالثهما » ، لأنه ما دام رسول الله ﷺ وأبو بكر فى معية الله ، والله لا تدركه الأبصار ؛ فمن فى معيته لا تدركه الأبصار .

وتكون كلمة رسول الله ﷺ الذى تعوَّد أبو بكر منه الصدق فى كل ما يقول ، تكون هى الحجة على صدق ما قال ، فعندما قال رسول الله ﷺ: إنه أسْرى به إلى بيت المقدس وعُرج به إلى السماء ، قال أبو بكر:

(١) متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٦٦٣) ومسلم فى صحيحه (٢٣٨١) .

إن كان قد قال فقد صدق[١] . فحين يقول رسول الله ﷺ لأبى بكر فيما يحكيه سبحانه : ﴿ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ ، فلابد أن يذهب الحزن عن أبى بكر ، وقد خشى سيدنا أبو بكر حين دخل الغار ووجد ثقوباً ، خشى أن يكون فيها حيات ، أو ثعابين، فأخذ يمزق ثوبه ويسد به تلك الثقوب ؛ حتى لم يَبْقَ من الثوب إلا ما يستر العورة ، فسدَّ الثقوب الباقية بيده وكعبه[٢] .

إذن : فأبو بكر يريد أن يفدى رسول الله ﷺ بنفسه ؛ لأنه إن حدث شىء لأبى بكر فهو صحابى ، أما إن حدث مكروه لرسول الله ﷺ فالدعوة كلها تُهدم . إذن : فأبو بكر لم يحزن عن ضعف إيمان ، ولكنه حزن خوفاً على رسول الله ﷺ أن يُصَابَ بمكروه .

ويأتى الحق سبحانه وتعالى فيقول : ﴿ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا ﴾ اختلف العلماء[٣] فى قوله تعالى ﴿عَلَيْهِ﴾ ، هل المقصود بها رسول الله ﷺ ؟ أو أن المقصود بها أبو بكر ؟ وما دامت السكينة قد نزلت ؛ فلا بد أنها نزلت على قلب أصابه الحزن . ولكن العلماء يقولون : إن الضمائر فى الآيات تعود على رسول الله ﷺ ، فالحق قال : ﴿ إِلاَّ تَنصُرُوهُ ﴾ أى محمداً عليه الصلاة والسلام ، وسبحانه يقول : ﴿ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ ﴾ أى محمداً ﷺ ، ويقول أيضاً : ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ﴾ أى محمداً ﷺ ، فكل الضمائر فى الآية عائدة على رسول الله ﷺ .

---

(١) سبق هذا الحديث قريباً وقد خرجناه هناك . ومن حديث أبى الدرداء قال النبى ﷺ عن أبى بكر « هل أنتم تاركو لى صاحبى ؟ (مرتين) إنى قلت : يأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً، فقلتم : كذبت، وقال أبو بكر : صدقت» . أخرجه البخارى (٣٦٦١، ٤٦٤٠) وابن أبى عاصم فى السنة (٢/ ٥٧٦) .

(٢) قال أبو بكر لرسول الله ﷺ : « والذى بعثك بالحق لا تدخله حتى أدخله، فإن كان فيه شىء نزل بى قبلك، فدخل فلم ير شيئاً فحمله فأدخله، وكان فى الغار خرق فيه حيات وأفاعى فخشى أبو بكر أن يخرج منه شىء يؤذى رسول الله ﷺ فألقمه قدمه فجعل يضربنه ويلسعنه الحيات والأفاعى» سبق إيراد جزء منه من حديث ضبة بن محصن ص ٥١١٩

(٣) انظر : تفسير القرطبى (٤/ ٣٠٧٤) وابن كثير (٢/ ٣٥٨) ، وقد رجح القاضى أبو بكر بن العربى أن سكينة الله إنما نزلت على أبى بكر .

ثم يأتى قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ ﴾ إذن: فلابد أن يعود الضمير هنا أيضاً على رسول الله ﷺ ، وأقول: ولكن لماذا لا نلتفت إلى قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ وهذا قول رسول الله ؛ ولابد أن قوله هذا يجعل السكينة تنزل على قلب أبى بكر . إذن : فالضمير هنا عائد على أبى بكر .

ويقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا ﴾ وقد رأى الكفار عُشَّ الحمام وبيت العنكبوت ، وهذا ما منعهم من أن يروا الرسول عليه الصلاة والسلام ، ولكن ليس هذا هو المقصود - فقط - بالآية ؛ لأن الله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا ﴾ والعنكبوت والحمام مرئيان ، وأول الجنود غير المرئية هو أنه لم يخطر على بال القوم ولا فكرهم أن ينظروا فى الغار ، مع أن آثار الأقدام انتهت إليه . لكن الله طمس على قلوبهم وصرفهم عن هذه الفكرة بالذات ، ولم تخطر على بالهم . ثم جاء حدث آخر حين استطاع سراقة بن مالك وهو من الكفار أن يلحق برسول الله ﷺ وأبى بكر ، وهما فى طريقهما إلى المدينة ، وكلما حاول الاقتراب منهما ابتلعت الأرض قوائم فرسه فى الرمال [1] ، وعلى أية حال ما دام الحق سبحانه وتعالى قال : ﴿ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا ﴾ وقال فى آية أخرى:

﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ ﴾ [المدثر: ٣١]

إذن: فالجنود الذين سخرهم الله لرسوله ﷺ ليحفظوه خلال الهجرة لا يعلمهم إلا الله . وكل شىء فى هذا الكون من جنود الله ؛ فهو سبحانه

(١) قصة سراقة بن مالك بن جعشم أخرجها مطولة تامة البخارى فى صحيحه (٣٩٠٦) معلقاً مجزوماً به من قول ابن شهاب الزهرى من حديث سراقة ، وأخرجه أحمد موصولاً فى مسنده (٤/ ١٧٦).

وتعالى الذى سخر الكافر لخدمة الإيمان ، ألم يكن دليل رسول الله ﷺ فى هجرته من مكة إلى المدينة هو عبد الله بن أريقط ، وكان ما زال على الكفر [١] ، فكأن الله سبحانه وتعالى يسخر له الكافر ليكون دليله فى رحلته من مكة إلى المدينة . وهكذا عمل الكافر فى خدمة الإيمان ، وفى الوقت نفسه فكل ما رصدته قريش من جُعل [٢] لمن يدلُّها على مكان رسول الله ﷺ لم يُغْرِ الدليل الكافر بالخيانة ، بل أدخل الله على قلب الكافر ما يجعله أميناً على رسول الله ﷺ.

الحق سبحانه يقول : ﴿ **وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ** ﴾ ، ولقد أراد الكفار القضاء على الدعوة بقتل رسول الله ﷺ ، أو نَفْيه بإخراجه إلى مكان بعيد ، أو سجنه [٣] ، وأراد الله سبحانه وتعالى أن يلفتنا إلى أن الباطل لا يمكن أن يعلو على الحق ، وأن الحق دائماً هو الأعلى ، ولذلك قال سبحانه وتعالى : ﴿ **وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ** ﴾ ولا يجعل الله كلمة الكفار السفلى إلا إذا كانت فى وقت ما فى عُلُوٍّ . وإن كان عُلوها هو علو الزَّبَدِ على الماء الذى قال عنه الحق سبحانه وتعالى :

﴿ **فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ** ﴾

[الرعد : ١٧]

---

(١) عن عائشة قالت : « استأجر النبى ﷺ وأبو بكر رجلاً هادياً خريتاً ؟ (أى ماهراً بالهداية) . . . وهو على دين كفار قريش ، فأمنّاه ، فدفعا إليه راحلتيهما وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال . . . » الحديث أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٢٦٣) . وقد كان ماهراً فعلاً بدروب الطريق إلى المدينة . انظر تفاصيل الطريق الذى سلكه بهما فى سيرة النبى لابن هشام (٢/ ١٠٤ - ١٠٨) .

(٢) الجعل : هو ما رصده كفار قريش مكافأة لمن يدلهم على محمد من مال وغيره .

(٣) ويقول عز وجل فى هذا : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ [الأنفال : ٣٠] . ومعنى يثبتوك : يجرحوك جراحة . . لا تقوم معها أو ليحبسوك

ولقد ضرب الله هذا المثل فقال:

﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ [الرعد: ١٧]

أى: أن كل واد أخذ ما قدره الله له من الماء.

﴿فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا﴾ [الرعد: ١٧]

وهذا نلاحظه عندما يحدث سيل، ونجده يأخذ معه القَشَّ والقاذورات التى لها كثافة قليلة؛ لتطفو على سطح الماء، ولكن أتظل عليه؟. لا، بل تُطرد إلى الجوانب بقوة التيار ويبقى الماء نظيفاً. ثم يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧]

إذن: فالحق سبحانه وتعالى يخبرنا أن كلمة الكفار كانت فى عُلُوٍّ كالزَّبَد، ولكن: لماذا أوجد الله علواً ولو مؤقتاً للكفر؟ أراد الحق ذلك حتى إذا جاء الإسلام وانتصر على الكفر يكون قد انتصر على شىء عال فيجعله أسفل؛ ولذلك جاء الله سبحانه وتعالى بالمقابل وقال: ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾، فالنسق الأدائى فى القرآن كان لابد أن يتم على أساس؛ لذلك جاء القول: ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾؛ لأن كلمة الله دائماً وأبداً هى العليا، وليست كلمة الله عُلْيَا جَعْلاً، فهى لم تكن فى أى وقت من الأوقات إلا

وهى العليا . ولهذا لم يعطفها بالنصب ؛ لأن كلمة الحق سبحانه وتعالى هى العليا دائماً وأبداً وأزلاً .

وإن كان الكفار قد أرادوا قتل رسول الله ﷺ ، أو أن يخرجوه إلى مكان بعيد لا يستطيع فيه أن يمارس دعوته ، أو يحبسوه ، فإنهم لم يظفروا بشىء من هذا ؛ لأن الله عزيز لا يُغلَبُ ، وعِزَّته مبنية على الحكمة .

وهنا يريد الحق سبحانه وتعالى أن يلفت المؤمنين إلى أن تثاقلهم عن الجهاد فى غزوة تبوك لن يضر الدعوة شيئاً ؛ لأن الله قد نصر رسوله وهو وحده ، ونصره بجنود لم يَرَوْهَا ، فإذا كان النصر لا يحتاج إلا لكلمة الله ، ولا يتم إلا بإرادة الله ، فلماذا إذن التثاقل ؟

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾

وهكذا يفتح الحق باب الوصول إليه ؛ ليهبُّوا إلى نصرة الرسول ويزيل الضباب من أذهانهم ، ويفتح لهم باب الوصول إليه لأنهم خلق الله وعياله ، فهو سبحانه يريد منهم أن يكونوا جميعاً مهديين ، وأن يشاركوا فى نُصْرة الدعوة إليه .

والقتال فى سبيل الله قد يكون مشقة فى ظاهر الأمر ، ولكنه يَهَبُ الدعوة انتشاراً واستقراراً . وحين يقوم المسلمون بنصر الدعوة إلى الله ،

ففى هذا القيام مغفرة وتوبة ، وهو رحمة من الله بهم . ورسول الله ﷺ هو القائل :

« الله أفرح بتوبة عبده من أحدكم سقط على بعيره وقد أضله فى أرض فلاة »(١)

ويقول الحق سبحانه وتعالى فى حديث قدسى : « قالت السماء : يا ربى إئذن لى أن أسقط كسَفاً على ابن آدم ؛ لأنه طَعِمَ خيرك ومنع شكرك ، وقالت البحار : يارب إئذن لى أن أغرِقَ ابن آدَم لأنه طَعِم خيرك ومنع شكرك ، وقالت الأرض مثلهما »

فماذا قال الحق سبحانه وتعالى ؟ قال : « دعونى وعبادى ، لو خلقتموهم لرحمتموهم ، إنْ تابوا إلىّ فأنا حبيبهم ، وإنْ لم يتوبوا فأنا طبيبهم »(٢) .

وهكذا نرى رحمة الله بخلقه .

وبعد أن لام الحق سبحانه المسلمين ؛ لأنهم لم يتحمسوا للجهاد ، يفتح أمامهم باب التوبة فقال : ﴿ انفِرُوا ﴾ أى : اخرجوا للقتال ، وهذا أمر من الله يوقظ به سبحانه الإيمان فى قلوب المسلمين ، وفى الوقت نفسه يفتح أمامهم باب التوبة لتباطئهم عن الخروج للقتال فى غزوة تبوك . ولذلك قال : ﴿ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً ﴾ والنفرة : هى الخروج إلى شىء بمهيج عليه ، والمثال : هو التباعد بين إنسان وصديق له كان بينهما وُدّ ،

(١) متفق عليه ، أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٣٠٩) ومسلم فى صحيحه (٢٧٤٧) واللفظ للبخارى . و« سقط على بعيره » أى : صادفه وعثر عليه من غير قصد فظفر به بعد أن ضَلّ منه ، والأرض الفلاة هى الصحراء المهلكة .

(٢) أورده الغزالى فى إحياء علوم الدين (٤/ ٥٢) من قول بعض السلف ولفظه : « ما من عبد يعصى إلا استأذن مكانه من الأرض أن يخسف به ، واستأذن سقفه من السماء أن يسقط عليه كسفاً ، فيقول الله تعالى للأرض والسماء : كُفَّا عن عبدى وأمهلاه فإنكما لم تخلقاه ، ولو خلقتماه لرحمتماه ، ولعله يتوب إلىّ فأغفر له ، ولعله يستبدل صالحاً فأبدله له حسنات » .

ثم حدث من هذا الصديق سلوك أو قول يُهيج على الخروج عليه ، فينفر منه الإنسان . والحق سبحانه هنا يأمر : ﴿ انفِرُوا ﴾ والذى يهيج على النفور هو رفعة دين الله وكلمته ، وحين ترفعون كلمة الله إنما يفتح لكم باب الارتفاع بها فقال : ﴿ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً ﴾ . والخفيف : هو الصحيح السليم القوى الذى لا تتعبه ولا ترهقه الحركة . والثقيل : هو المريض أو كبير السن .

والله يريد من الجميع أن يسارعوا إلى القتال ؛ لينجوا من العذاب الأليم ، وينالوا توبته ورضاه .

ولكن الصحيح خفيف الحركة يمكنه أن يقاتل ، فماذا يفعل المريض ؟ يفعل مثلما فعل سيدنا سعيد بن المسيَّب وكان مريضاً ، إذ قالوا له : إن الله أعفاك من الخروج إلى المعركة فى قوله تعالى :

﴿ لَيْسَ عَلَى الأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾ [الفتح : ١٧]

فقال : والله أكَثِّرُ سواد المسلمين وأحرس متاعهم (١) .

ومن الممكن أن يكون المريض متميزاً بالذكاء وصحة العقل ، ويمكن أن يُسْتشار فى مسألة ما . وقد يكون المريض أسْوة فى قومه ، فإذا خرج للقتال هاج قومه وخرجوا معه ، ويمكن أن يكون المريض أو الضعيف حافزاً للأقوياء على القتال . فحين يرى الأقوياء المريض وهو يخرج للقتال ؛ فإنهم يخجلون أن يتخلفوا هم .

(١) قال الزهرى : خرج سعيد بن المسيب إلى الغزو وقد ذهبت إحدى عينيه . فقيل له : إنك عليل . فقال : استنفر الله الخفيف والثقيل ، فإن لم يمكنى الحرب كثَّرت السواد وحفظت المتاع . ذكره القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٠٧٦) وتكثير السواد : تكثير أعدادهم .

واختلف العلماء [١] فى تفسير قوله تعالى : ﴿ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً ﴾ فبعضهم قال : إن هذه إشارة إلى ذات الإنسان ، فهناك ذات خفيفة وذات ثقيلة فى الوزن لا تستطيع الحركة بسهولة ، وقال آخرون : إن الفرد الواحد يمكن أن يكون فيه الوضعان ، وقوله تعالى: ﴿انفِرُوا﴾ هو أمر للجماعة ، و ﴿ خِفَافًا ﴾ جمع « خفيف » ، و ﴿ثِقَالاً﴾ جمع « ثقيل »، ومقابلة الجمع بالجمع تقتضى القسمة إلى آحاد .

والمعنى: أن ينفر كل واحد من المسلمين سواء كان خفيفاً أم ثقيلاً . وسبق أن ضربنا المثل حينما يدخل الأستاذ على الطلبة ويقول : أخرجوا كتبكم ، ومعنى هذا الأمر أن يُخرج كل تلميذ كتابه ، وإن قلت : اركبوا سياراتكم ، فمعنى ذلك أن يركب كل واحد منكم سيارته .

إذن فالآية تعنى : لينفر كل واحد منكم سواء كان ثقيلاً أم خفيفاً .

ولكن: كيف يكون الإنسان ثقيلاً وخفيفاً فى وقت واحد ؟ نقول : يكون خفيفاً أى : ذا نشاط للجهاد ، وثقيلاً أى : أنه سيدخل فى مشقَّة تجعل المهمة ثقيلة على نفسه . والله سبحانه وتعالى يقول:

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ﴾ [البقرة: ٢١٦]

والدخول فيما هو مكروه [٢] فى سبيل الله أمر يرفع درجات الإيمان . إذن: فالآية تحتمل أكثر من معنى ، فهى تحمل المعنى العام : أن يكون البعض خفيفاً والبعض ثقيلاً فى ذاته ، أو : أن يجمع القتال بين الخفة

(١) اختلف العلماء فى تفسير هذه الآية على عشرة أقوال . ذكرها القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٠٧٥) ثم قال: والصحيح فى معنى الآية أن الناس أُمروا جملة ، أى : انفروا خفَّت عليكم الحركة أو ثقلت .

(٢)قال القرطبى فى تفسيره (١/ ٩٥٢) : « إنما كان الجهاد كرهاً؛ لأن فيه إخراج المال ومفارقة الوطن والأهل والتعرض بالجسد للشجاج والجراح وقطع الأطراف وذهاب النفس، فكانت كراهيتهم لذلك، لا أنهم كرهوا فرض الله تعالى » .

فى الحركة والثقل فى المشقة ، أو : أن يكون الذى يملك دابة هو الخفيف ؛ لأن الدابة تزيل المشقة وأسرع فى الطريق ، والثقيل هو من يجاهد ماشياً ؛ لأنه سيتحمل طول المسافة . وساعة يشحن الحق سبحانه وتعالى قلوب المؤمنين ، فهو يطلب منهم ما يكلفهم به بقوة ، ثم تتجلى رحمته فيخفف التكليف . ولو جاء الحكم خفيفاً فى أول التشريع ، ثم يُصعَّد ؛ فإن هذا الأمر يكون صعباً على النفس ، ولكن عندما يأتى الحكم ثقيلاً ، ثم يخفف يكون أقرب إلى النفس ، والمثال فى قول الحق سبحانه وتعالى لرسوله ﷺ :

﴿ يَأَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ [الأنفال : ٦٥]

وهنا يعطى الحق مقياساً لقدرة المؤمن بالنسبة للكافر . فالعشرون يغلبون مائتين ، أى : أن النسبة هى واحد من المؤمنين إلى عشرة من الكافرين ، ولذلك فعندما نزلت هذه الآية كان على المؤمن الواحد أن يقتل عشرة من الكافرين ، لكن الحق سبحانه وتعالى قد علم أن هذا الأمر شديد على نفوس المؤمنين بأن يواجه المؤمن الواحد عشرة من الكفار ، فإنه لا يقدر على ذلك إلا أولو العزم ، فقال سبحانه :

﴿ الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ﴾ [الأنفال : ٦٦]

وما دام هناك ضعف فلا بد أن يُخفف الأمر بالنسبة للمؤمنين فى مواجهة الكفار أثناء القتال . ونقل الحق سبحانه وتعالى النسبة من : واحد إلى عشرة ، إلى : واحد إلى اثنين ، فقال سبحانه وتعالى :

﴿ الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٦٦) ﴾ [الأنفال]

لذلك : مَنْ فَرَّ من قتال اثنين يكون قد فَرَّ من الزحف ، ولكن إن فرّ من مواجهة ثلاثة لا يُحسب فَاراً [(١)] ؛ لأنهم أكثر من النسبة التى قررها الله .

وقول الحق فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها ﴿ **انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً** ﴾ هو أمر يشمل الجميع على اختلاف أشكالهم ، أى : أنها تحمل أمراً عاماً لكافة المسلمين [(٢)] . ولكن هناك قول آخر فى سورة التوبة ، أعفى بعض حالات معينة من المؤمنين الذين أخلصوا قلوبهم لله ، فيقول سبحانه :

﴿ **لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٩١) وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ (٩٢)** ﴾ [التوبة]

أى : ليس على هؤلاء الذين جاءت الآيتان الكريمتان [(٣)] بذكرهم أىُّ حرج فى أن يقعدوا عن القتال . وكان هذا هو الاستثناء من القاعدة العامة التى فرضت على كل مؤمن أن يقاتل فى سبيل الله ، وهو ما جاءت به الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها :

---

(١) عن ابن عباس أن النبى ﷺ قال : « من فر من اثنين فقد فر ، ومن فر من ثلاثة فلم يفر » . أخرجه الطبرانى فى المعجم الكبير (١١١٥١) مرفوعاً من طريق ابن أبى نجيح عن مجاهد عنه . قال الهيثمى فى المجمع (٥/ ٣٢٨) : « رجاله ثقات » . وقد أخرجه سعيد بن منصور فى سننه (٢٥٣٨) موقوفاً على ابن عباس من طريق ابن أبى نجيح عن عطاء عنه .

(٢) قال القرطبى (٤/ ٣٠٧٧) : « وذلك إذا تعيَّن الجهاد بغلبة العدو على قطر من الأقطار ، أو بحلوله بالعقر ، فإذا كان ذلك وجب على جميع أهل تلك الدار أن ينفروا ويخرجوا إليه خفافاً وثقالاً ، شباباً وشيوخاً ، كل على قدر طاقته ، من كان له أب بغير إذنه ومن لا أب له ، ولا يتخلف أحد يقدر على الخروج ، من مقاتلٍ أو مُكثِّر » .

(٣) قيل : إن آية ﴿ **انفروا خفافًا وثقالاً** ﴾ منسوخة بهاتين الآيتين ، وقيل : الناسخ لها قوله : ﴿ **فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ** ﴾ [التوبة : ١٢٢] . قال القرطبى (٤/ ٣٠٧٦) : « والصحيح أنها ليست بمنسوخة » قلت : فالجهاد أحوال حسب ظروف المعركة ، فمنها ما يتوجب فيها القتال على كل أحد كما بيناً ويكون الجهاد حينئذ فرض عين ، ومنها ما لا يتوجب فيها القتال فيكون فرض كفاية ، إذا قام به البعض سقط عن الآخرين وذلك إذا كان العدو خارج الحدود ولم يغز البلاد ويحتلها .

﴿ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ والمال هو الذى يجعلك تُعدُّ السلاح للحرب ، وحين يذهب الجيش إلى القتال لا بد أن يكون مُزوَّداً بالسلاح ، وبالمركبات وهى مثل الخيل على زمن رسول الله ﷺ ، وأيضاً لا بد من الزاد الذى يكفى لأيام القتال ، لذلك جاء الله سبحانه وتعالى بذكر المال أولاً ، ثم بعد ذلك ذكر الأنفس والأرواح ، ومن يملك القوة والمال فعليه أن يجاهد بهما ، ومن يملك عنصراً من الاثنين ؛ القوة أو المال ، فعليه أن يجاهد به . فإن كان ضعيفاً فعليه أن يعين بماله القوى القادر على القتال بأن يوفر له الأسلحة والخيول والدروع وغير ذلك من وسائل القتال.

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَجَاهِدُوا ﴾ ، و « جاهد » و «قاتل» مبنية على المفاعلة ، بمعنى : إن قاتلك واحد من الكفار ، فلابد أن تبذل كل جهدك فى قتاله ، و«جاهد» مثل «شارك» ، فهل تقول : شارك زيد ثم تسكت ، أم تقول : شارك زيد عَمْراً ، وقاتل زيد عمراً ؟ إذن: فهناك مفاعلة.

ولكن الحق سبحانه وتعالى يقول فى آية أخرى:

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٢٠٠) ﴾ [آل عمران]

وهذا القول هو أمر بالصبر على القتال . ولكن هَبْ أن عدوك صبر مثلك ، هنا يأتى أمر آخر من الحق سبحانه وتعالى : ﴿ صَابِرُوا ﴾ أى : اغلبه فى الصبر بأن تصبر أكثر منه . وكذلك ﴿ جَاهِدُوا ﴾ أى : اغلبوهم فى الجهاد ، بأن تجاهدوا أكثر منهم .

ونعود إلى قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ وسبيل الله هو: الطريق الموصل إلى الغاية التى هى رضا الله والجنة . ثم يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾، و « ذا » اسم إشارة ويشير إلى المفرد المستفاد من قوله تعالى : ﴿ وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ﴾ إذن : فـ « ذا » تشير إلى الجهاد بالمال والنفس ، و ﴿ لَّكُمْ ﴾ تشير للخطاب ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى يخاطب جماعة .

وبعض من لا يفهم اللغة يقول : ﴿ ذَلِكُمْ ﴾ كلمة واحدة خطاباً أو إشارة ، ونقول لهم : لا ، بل هى كلمتان؛ إشارة وخطاب . والإشارة هنا لشىء واحد ، والخطاب لجماعة . ومثال هذا أيضاً قول الحق سبحانه على لسان امرأة العزيز فى قصة يوسف عندما جمعت امرأة العزيز النسوة ، وأخرجت يوسف عليهن ، وصارت هناك جماعة من النسوة ، وهناك يوسف - أيضاً - :

﴿ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ ﴾ [يوسف: ٣٢]

و « ذا » المقصود بها يوسف ، و « لكُنَّ » هن: النسوة المخَاطَبات .

ومثال آخر أيضاً هو قول الحق سبحانه:

﴿ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ﴾ [القصص: ٣٢]

و « ذان » إشارة لاثنين ، وهما معجزتان من معجزات موسى عليه السلام ؛ العصا واليد البيضاء ، وحرف الكاف للمخاطب وهو موسى عليه السلام .

إذن: فقول الحق : ﴿ذَلِكُمْ ﴾ فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها مكون من كلمتين : الإشارة لواحد والخطاب لجماعة .

وقوله تعالى : ﴿ ذَلِكُمْ خَيْرٌ ﴾ . . عن أى خير يتحدث سبحانه ؟

إن نفرتم وجاهدتم بأموالكم وأنفسكم فهو خير ، ولابد أن يكون خيراً من مقابل له . والمقابل له هو القعود عن الجهاد بأموالكم وأنفسكم .

إذن : فالجهاد خير من القعود .

وكلمة ﴿ خَيْرٌ ﴾ تستعمل فى اللغة استعمالين ؛ الاستعمال الأول أن يراد بها الخير العام ، كقوله تعالى :

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨) ﴾ [الزلزلة]

ويكون مقابلها فى هذه الحالة هو الشر . ومرة تأتى «خير » بمعنى « أفعل التفضيل » ، كأن تقول : هذا خير من هذا . وفى هذه الحالة يكون كل من الأمرين خيراً ، ولكن أحدهما أفضل من الآخر ، مثل قول رسول الله ﷺ : « المؤمن القوى خَيْرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفى كُلٍّ خير »[1]

فإن جاءت « خير » دون أن تسبقها « من » فالمراد بها المقابل لها ، وهو «الشر» .

ونجد بعضاً من أساتذة اللغة العربية يقولون : عندما تستخدم كلمة « خير » كأفعل تفضيل لا تقل : « خير » ، بل قل : « الخير » ، ولكن اللفظ المستخدم هنا هو «خير» ، فإن استُعْمل فى أفعل التفضيل فهو يعطى الصفة الزائدة لواحد دون الثانى ، والاثنان مَشتركان فى الخيرية .

وعلى سبيل المثال كان عند رسول الله ﷺ عبد اسمه زيد بن حارثة اشترته خديجة رضى الله عنها ، وأهدته لرسول الله ﷺ ، وعرف أبو زيد

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٦٦٤) وأحمد فى مسنده (٢/ ٣٧٠) وابن ماجه فى سننه(٧٩، ٤١٦٨) والحميدى فى مسنده (١١١٤) عن أبى هريرة رضى الله عنه .

وعمه مكانه فذهبا إلى مكة ليروه ، فقال له رسول الله ﷺ: « فأنت قد علمت ورأيت محبتى لك فاخترنى أو اخترهما » . فقال زيد: ما أنا بالذى أختار عليك أحداً ، أى : أنه اختار أن يبقى مع رسول الله ﷺ ولا يذهب مع أهله ، فأراد رسول الله ﷺ أن يكافئه ؛ فألحقه بنفسه وقال: « يا من حضر اشهدوا أن زيداً ابنى يرثنى وأرثه »[1] وكان التبنى مباحاً عند العرب ، وأراد الحق أن يُلغى التبنى وأن يطبق رسول الله هذا الإلغاء بنفسه ، فجاء قول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ ﴾ [الأحزاب: ٤٠]

و هكذا أنهى الحق سبحانه وتعالى التبنى ، وقال سبحانه وتعالى:

﴿ ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ ﴾ [الأحزاب: ٥]

و ﴿ أَقْسَطُ ﴾ يعنى « أعدل » ، كأن الحق سبحانه وتعالى لم يَنْف عن رسوله ﷺ العدل ، ولكنه أنزل ما هو أعدل . إذن : فساعة ترى أفعل التفضيل ؛ فاعلم أنه يعطى الصفة الزائدة ويُبقى الصفة الأصلية . وفى الآية التى نحن بصددها ﴿ ذَلِكُمْ خَيْرٌ ﴾ ومقابلها : أن القعود عن الجهاد بالمال والنفس شر .

يقول الحق سبحانه : ﴿ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ إذن : فهناك موازين نعرف بها ما هو خير وما هو شر . . وحينما قال الحق : ﴿ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ فكأن هناك مقدمات للعلم ، فإن لم يكونوا يعلمون ؛ فالله يعلمهم ، ذلك أن الذى يجاهد بماله ونفسه يكون قد اقتنع بيقين أنه سوف يحصل من الجهاد على ما هو خير من المال والنفس . وأيضاً : إن قُتل فهو باستشهاده صار أسوة حسنة لمن يأتى بعده . وحين أوضح

(١) انظر قصة زيد بن حارثة بالتفصيل فى صفة الصفوة لابن الجوزى (١/ ١٩٩ - ٢٠١) وتفسير القرطبى (٧/ ٥٣٧٨) (٨/ ٥٤٦٢) طبعة دار الغد فى تفسير سورة الأحزاب.

سيدنا رسول الله ﷺ أنه من يقاتل صابراً محتسباً يدخل الجنة [١] ، جاء له صحابى [٢] فى فمه تمرة يمضغها فيقول : أليس بينى وبين أن أدخل الجنة إلا أن أقاتل فيقتلونى ؟ فلما أجاب النبى ﷺ : نعم . استبطأ الصحابى أن يضيع مضغ التمرة وقتاً ، وأن يتأخر عن القتال بسببها ، فرماها من فمه وقاتل حتى استشهد . وكان هذا دليلاً على أنه واثق تمام الثقة أن الاستشهاد يعطيه جزاءً أعلى بكثير مما ترك .

ثم بعد ذلك يعود الحق سبحانه وتعالى إلى الذين يتثاقلون عن الجهاد ليصفى المسائل كلها، فيقول جل جلاله:

﴿ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾

والعَرَضُ هو ما يقابل الجوهر ، والجوهر هو ما لا تطرأ عليه أغيار ، فالصحة عَرَض والمرض عرض ؛ لأن كليهما لا يدوم ، إذن فكل ما يتغير يسمى عَرَضاً يزول . ويقال: الدنيا عَرَضٌ حاضر يأكل منها البَرُّ والفاجر [٣] .

(١) قال ﷺ: « ياعبد الله بن عمرو، إن قاتلت صابراً محتسباً بعثك الله صابراً محتسباً » أخرجه أبو داود فى سننه (٢٥١٩) والحاكم فى مستدركه (٢/ ٨٥) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه .

(٢) وذلك أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ يوم أحد فقال له: أرأيت إن قتلت فأين أنا؟ قال: فى الجنة. فألقى تمرات فى يده، ثم قاتل حتى قُتِلَ. أخرجه البخارى (٤٠٤٦) ومسلم (١٨٩٩) فى صحيحيهما من حديث جابر بن عبد الله .

(٣) حديث ضعيف جداً . عن شداد بن أوس مرفوعاً إلى النبى ﷺ أخرجه أبو نعيم فى الحلية (١/ ٢٦٤) وابن عدى فى الكامل (٣/ ٣٦١) ط . دار الفكر فى ترجمة أبى مهدى سعيد بن سنان. قال الجوزجانى: أخاف أن تكون أحاديثه موضوعة. وقال البخارى: منكر الحديث. انظر: ميزان الاعتدال (ترجمة ٣٢٠٨). ولكن قد أورده أبو نعيم موقوفاً على شداد من طريق آخر من قوله . وهو الأوجه .

إذن : فقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا ﴾ أى : لو كان أمراً من متاع سهل التناول ، ومحبباً للنفس ؛ وليس فيه مشقة السفر والتضحية بالمال والنفس ؛ لأسرعوا إليه . ﴿ وَسَفَرًا قَاصِدًا ﴾ ، والقاصد هو المقتصد الذى فى الوسط ؛ وبعض الناس يسرف فى الكسل ، فلا يستنبط الخير من السعى فى الأرض ومما خلق الله ، وبعض الناس يسرف فى حركة الدنيا ويركض كركض الوحوش فى البرية ، ولا يكون له إلا ما قسمه الله . وأمزجة الناس تتراوح ما بين الإسراف والتقتير ، أما المؤمن فعليه أن يكون من الأمة المقتصدة . والحق هو القائل :

﴿ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ﴾ [المائدة : ٦٦]

لأن المؤمن لا يأخذه الكسل فيفقد خير الدنيا ، ولا يأخذه الإسراف فينسى الإيمان . إذن : فالحق سبحانه وتعالى يوضح لرسوله ﷺ أنه لو كان هناك متاع من متاع الدنيا أو سفر بلا مشقة ولا تعب لاتبعوك ، فهم لم يتبعوك ؛ لأنه ليست هناك مغانم دنيوية ؛ لأن هناك مشقة ، فالرحلة إلى تبوك ، ومقاتلة الروم ، وهم أصحاب الدولة المتحضرة التى تضع رأسها برأس دولة الفرس ، وهذه أيضاً مشقة ، والعام عُسْر والحر شديد ، ولو أن الأمر سهل مُيسَّر لاتبعوك .

ويتابع سبحانه : ﴿وَلَكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ﴾ أى : أن المشقة طويلة ، ثم يقول : ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ ﴾ هم إذن لم يتبعوك ؛ لأن المسألة ليست عرضاً قريباً ولا سفراً سهلاً ، بل هى رحلة فيها أهوال ، وتضحيات بالمال والنفس ، وحين تعود من القتال سوف يحلفون لك ؛ أنهم لو استطاعوا لخرجوا معكم للقتال .

وقد قال الحق ذلك قبل أن يأتى أوان الحلف ، وهذه من علامات النبوة ؛ لكى يعرف رسول الله ﷺ المنافقين منْ صادقى الإيمان . وسبحانه وتعالى يفضح غباء المنافقين ؛ لذلك قال : ﴿ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ ﴾ واستخدام حرف السين هنا يعنى أنهم لم يكونوا قد قالوها بعد ، ولكنهم سيقولونها فى المستقبل ، ولو أنهم تنبهوا إلى ذلك لامتنعوا عن الحلف . ولقالوا : إن القرآن قال سنحلف ، ولكننا لن نحلف . ولكن الله أعماهم فحلفوا ، وهكذا يأتى خصوم الإسلام ليشهدوا - رغم أنوفهم- للإسلام . ومثال آخر على نفس الأمر ؛ عندما حُوّلت القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة الشريفة ؛ قال الحق سبحانه وتعالى :

﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِى كَانُوا عَلَيْهَا ﴾

[البقرة : ١٤٢]

وقوله هنا ﴿ سَيَقُولُ ﴾ معناها أنهم لم يقولوا بعد، وإلا ما استخدم فيها حرف السين . وهذه الآية نزلت فى قرآن يتلى ولا يتغير ولا يتبدل إلى يوم القيامة . . ورغم أنه كان فى استطاعتهم ألا يقولوا ذلك القول ، ولو فعلوا لساهموا فى التشكيك بمصداقية القرآن ، ولهدموا قضية الدين التى يتمنون هدمها ، ولكنهم مع ذلك قالوا : ﴿ مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ﴾ وجاءوا مثبتين ومُصدِّقين للقرآن .

وفى هذه الأيام نجد شيئاً عجيباً ؛ نجد من يقول : أنا لا أتبع إلا ما جاء فى القرآن ، أما السنة فلستُ مطالباً بالالتزام بها . ونقول لمن يردد هذا الكلام : كم عدد ركعات الصبح وركعات الظهر والعصر والمغرب والعشاء ؟ وسوف يرد قائلاً : صلاة الصبح ركعتان ، والظهر أربع ،

والعصر أربع ، والمغرب ثلاث ، والعشاء أربع . ونقول : من أين أتيت بهذا ؟ يقول : من السنة .

نقول : إذن فلا بد من اتباع السنة حتى تستطيع أن تصلى ، ولن تفهم التطبيق العملى لكثير من الأحكام إلا باتباع السنة .

ويجبر الحق سبحانه هذا الذى يحارب سنة رسول الله ﷺ ويدعو إلى عدم الالتزام بها ؛ يجبره سبحانه على الاعتراف بضرورة اتباع السنة ، وبهذا يصدق قول رسول الله ﷺ :

« يوشك الرجل يتكىء على أريكته يُحدَّث بحديثى ، فيقول : بينى وبينكم كتاب الله ، فما وجدنا فيه حلالاً استحللناه ، وما كان فيه حراماً حرَّمْناه ، وإن ما حرم رسول الله ﷺ كما حرم الله »[1] .

وقد قالوا ذلك القول طَعْناً فى الكتاب ، ولكنهم من حيث لا يدرون أكدوا صدق رسول الله ﷺ ، فهم لم يمتلكوا الذكاء ؛ لأن الذكاء الذى لا يهدى للإيمان هو لون من الغباء وعَمى البصيرة ، وكذلك كان حال من حلفوا بعدم استطاعتهم الخروج للقتال ؛ فقد سبقهم قول الله : ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ وجاءوا من بعد ذلك وحلفوا ؛ ليؤكدوا صدق القرآن . وهم فى حلفهم يدّعون عدم استطاعتهم للقتال ، مع أن لديهم المال والقدرة .

ويقول الحق عنهم : ﴿ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ وما داموا قد حلفوا بالله كذباً ، فقد أدخلوا أنفسهم فى الهلاك ، فهم لم يكتفوا بعدم الجهاد ؛ بل كذبوا وفضح الله كذبهم .

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٤/ ١٣٢) والترمذى (٢٦٦٤) وابن ماجه (١٢) والدارقطنى (٤/ ٢٨٦) فى سننهم من طريق الحسن بن جابر عن المقدام بن معدى كرب . قال الترمذى : حديث حسن غريب من هذا الوجه . واللفظ للدارقطنى .

ويقول الحق بعد ذلك:

﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾﴾

وكلمة ﴿ عَفَا ﴾ تدل على أن هناك أثراً قد مُحى ؛ تماماً كما يمشى إنسان فى الرمال ؛ فتُحْدث أقدامه أثراً ، ثم تأتى الريح فتملأ مناطق هذا الأثر بالرمال وتزيله . وهى تُطلق فى الدين على محو الله سبحانه وتعالى لذنوب عباده فلا يعاقبهم عليها . وما دام الإنسان قد استغفر من ذنبه وقال: أستغفر الله الذى لا إله إلا هو الحى القيوم وأتوب إليه [(١)] ، فلا يجب أن يحرجه أحد بعد ذلك ، ولا أن يعايره أحد ، فقد استغفر عند من يملك الملك كله ، وهو وحده سبحانه الذى يملك العفو والمغفرة [(٢)] ، فلا يُدْخلنَّ أحدكم نفسه فى هذه المسألة ، ولا يجب أن يحرج إنسان مذنباً مادام قد استغفر مَنْ يملك العفو ، ومن يسمع مستغفراً عليه أن يقول: عفا الله عنك . ولا أحد يعرف إن كان الله قد عفا عنه أم لا ، فَلْتُعْنَهُ بالدعاء له ، ومن يعاير مذنباً نقول له : تأدب ؛ لأنه لم يرتكب الذنب عندك ، ولكنه ارتكبه عند ربه ، وإذا كان من يستغفر من ذنبه لا يُحرج به بين الناس ، فما بالنا بعفو الله سبحانه القادر وحده على العفو.

(١) أخرجه أبو داود (١٥١٧) والترمذى (٣٥٧٧) فى سننيهما من حديث زيد مولى النبى ﷺ . قال الترمذى: حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه. قال المنذرى فى الترغيب (٢/ ٢٦٩): « إسناده جيد متصل » وأخرجه الحاكم فى مستدركه (٢/ ١١٨) عن ابن مسعود وصححه على شرط مسلم، وأقره الذهبى.

(٢) فهذا شأن الرب العفو الغفور القائل سبحانه ﴿وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٣٥] ، أما شأن الناس فقد قال الله عنهم﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنفَاقِ وَكَانَ الإِنسَانُ قَتُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٠] ، فهم بالإضافة لتصيدهم لأخطاء الناس، لو كانت الرحمة بأيديهم وكلفوا إعطاء الناس منها لبخلوا بها.

وهنا يقدم الحق سبحانه العفو عن رسول الله ﷺ الذى أذن لهم بالقعود عن القتال ، ثم يأتى القرآن من بعد ذلك ليؤكد أن ما فعله رسول الله بالإذن لهم بالقعود كان صواباً ، فيقول فى موضع آخر من نفس السورة :

﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً ﴾ [التوبة : ٤٧]

إذن : فلو أنهم خرجوا لكانوا سبباً فى الهزيمة ، لا من أسباب النصر . وصوَّبَ الحق عمل الرسول ، وهو ﷺ له العصمة .

وهنا نحن أمام عفو من الله ، على الرغم من عدم وجود ذنب يُعفى عنه ، وهنا أيضاً إذن من الرسول لهم بالقعود ، ونزل القرآن ليؤكد صوابه.

وهناك من فهم قول الحق : ﴿ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ ﴾ على أنها استفهام استنكارى ، وكأن الحق يقول: كيف أذِنْتَ لهم بالعفو ؟

إذن : فرسول الله بين أمرين : بين عفو لا يُذْكَرُ بعده ذنب ، واستفهام يفيد عند البعض الإنكار .

ونقول : إن الحق سبحانه وتعالى أيَّد رسوله ﷺ بقوله:

﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً ﴾ [التوبة : ٤٧]

فكأن الرسول قد هُدِىَ إلى الأمر بفطرته الإيمانية ، وقد أشار القرآن إلى ذلك ؛ ليوضح لنا أن رسول الله ﷺ معصوم وفطرته سليمة ، وكان عليه أن يقدم البيان العقلى للناس ؛ لأنه الأسوة حتى لا يأتى من بعده واحد من عامة الناس ليفتى فى مسألة دينية ويقول : أنا رأيت بفطرتى كذا، بل لابد أن يتبين الإنسان ما جاء فى القرآن والسنة قبل أن يفتى فى أمر من أمور الدين .

وعلى سبيل المثال: اختلف الأمر بين المسلمين فى مسألة الفداء لأسرى بدر[١] ونزل القول الحق:

﴿لَوْلا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٨]

وأيَّد الله حكم رسوله وأبقاه. إذن فرسول الله ﷺ هُدِى إلى الأمر بفطرته الإيمانية، ولكن هذا الحق لا يباح لغير معصوم.

وقد أباح الحق سبحانه الاستئذان فى قوله:

﴿فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ [النور: ٦٢]

والحق سبحانه وتعالى يقول هنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ وهكذا يتبين لنا أن الرسول ﷺ قد أذن لهم بالمقدمات والبحث والفطرة، ورأى أن الإذن لهؤلاء المتخلفين هو أمر يوافق مراد الحق سبحانه؛ لأنهم لو خرجوا مع جيش المسلمين ما زادوهم إلا خبالاً[٢]، لعدم توافر النية الصادقة فى الجهاد؛ لذلك ثبطهم[٣] الله، وأضعف عزيمتهم حتى لا يخرجوا. والعفو هنا جاء فى شكلية الموضوع، حيث كان يجب التبيُّن قبل الإذن، فيقول الحق سبحانه:

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٧٦٣) وأحمد فى مسنده (١/ ٣٠، ٣١) من حديث عمر بن الخطاب من حديث طويل أن رسول الله ﷺ قال لأبى بكر وعمر: «ما ترون فى هؤلاء الأسارى؟». فقال أبو بكر: يا نبى الله، هم بنو العم والعشيرة، أرى أن تأخذ منهم فدية، فتكون لنا قوة على الكفار، فعسى الله أن يهديهم للإسلام. فقال رسول الله ﷺ: «ما ترى يا ابن الخطاب؟ فقال: .. أرى أن تمكنا فنضرب أعناقهم.. فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها» وقد أخذ رسول الله ﷺ برأى أبى بكر وأخذوا الفداء، ولكن نزل وحى الله ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ [الأنفال: ٦٧]

(٢) الخبال: الفساد والنميمة وإيقاع الاختلاف والأراجيف (الأكاذيب).

(٣) التثبيط: التخذيل وإضعاف العزيمة على الخروج.

﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ أى : أن رسول الله ﷺ لو لم يأذن لهم لكانوا قد انكشفوا ، ولكن إذنه لهم أعطاهم ستاراً يسترون به نفاقهم ، فهم قد عقدوا النية على ألا يخرجوا ، ولو فعلوا ذلك لافتُضِحَ أمرهم للمسلمين جميعاً ، فشاء الرسول ﷺ أن يسترهم [1] .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَـٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾﴾

ويلفتنا سبحانه : أن الذين طلبوا ذلك الإذن بالقعود فضحوا أنفسهم ، فقد استأذنوا بعد مجيء الأمر من الله ﴿ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً ﴾ ، وكل مؤمن بالله واليوم الآخر - فى تلك الظروف - لا يمكن أن يتخلف عن الجهاد فى سبيل الله . والمؤمن الحق لن يقدم الأعذار ليتخلف ، حتى وإن كانت عنده أعذار حقيقية ، بل سيحاول إخفاءها عن رسول الله ﷺ ليخرج معه مجاهداً بل إنه يسرع إلى الجهاد ، حتى ولو كان الله قد أعطاه رخصة بعدم الجهاد .

وهذه الآية - إذن - تحمل التوبيخ للذين استأذنوا ، بل وتحمل أكثر من ذلك ، فالمؤمن إذا دُعِىَ للجهاد مع رسول الله ﷺ وبأمر من الله لا يكون

(١) قال قتادة وعمرو بن ميمون : ثنتان فعلهما النبى ﷺ لم يؤمر بهما : إذنه لطائفة من المنافقين فى التخلف عنه ، ولم يكن له أن يمضى شيئاً إلا بوحى ، وأخذه من الأسارى الفدية ، فعاتبه الله .

تفكيره كالشخص العادى ؛ لأن الإنسان فى الأمور العادية إذا طُلبَ منه شىء أدار عقله وفكره ؛ هل يفعله أو لا يفعله ؟ ولكن المؤمن إذا دُعى للجهاد فى سبيل الله ، ومع رسول الله ، وبأمر من الله ؛ لا يدور فى عقله الجواب ، ولا تأتى كلمة « لا » على خاطره أبداً ، بل ينطلق فى طريقه إلى الجهاد .

وكيف يكون الأمر بالخروج إلى القتال صادراً من الله ، ثم يتحجج هؤلاء بالاستئذان بعدم الخروج ؟

إذن: فمجرد الاستئذان دليل على اهتزاز الإيمان فى قلوبهم ؛ لأن الواحد منهم فى هذه الحالة قد أدار المسألة فى عقله ، يخرج للجهاد أو لا يخرج ، ثم اتخذ قراراً بالتخلف . والغريب أن هؤلاء استأذنوا رسول الله ﷺ فى عدم الخروج ، مع أن أمر الجهاد صادر من الله سبحانه وتعالى ، ولم تكن المسألة تحتاج إلى أن يأذن لهم الرسول بالتخلف . إلا أنهم كانوا يبحثون عن عذر يحتمون به .

والمثال من حياتنا اليومية أننا نجد أولاد البلد يسخرون من البخيل الذى لا يكرم ضيفه ويدَّعى أنه سيكرمه ، فتجده ينادى ابنه ويقول له أمام الضيف : انزل إلى السوق وابحث لنا عن خروف نذبحه للضيف ولا تتأخر فنحن منتظرون عودتك . . وما إن يقول الضيف أدباً منه : لا . تجد البخيل يصرف ابنه . ويتخذ من رفض الضيف حجة لعدم إكرامه ، وكأنه يريد ذلك ، ولكن الواقع يقول : إنه لا يريده من أول الأمر .

ونعلم جميعاً أن الإنسان لا يستأذن فى إكرام ضيوفه . والمثال : هو إبراهيم عليه السلام عندما جاءته الملائكة فى هيئة رجال ، وأراد أن يكرمهم فلم يستأذنهم فى أن يذبح لهم عجلاً ، بل جاء به إليهم مذبوحاً ومشوياً [1] ، هذا سلوك مَنْ أراد إكرام الضيف بذبيحة فعلاً ، أما مَنْ يريد أن يبحث عن العذر ، فهو يتخذ أساليب مختلفة يتظاهر فيها بالتنفيذ ، بينما هو فى حقيقته لا يريد أن يفعل ، مثلما يقال لضيف: أتشرب القهوة أم أنت لا تحبها ؟ أو يقال له : هل تريد تناول العشاء أم تحب أن تنام خفيفاً ؟ أو يقال: هل تحب أن تنام عندنا أم تنام فى الفندق ، وهو أكثر راحةً لك ؟

وما دام هناك من سأل الرسول : أأخرج معك للقتال أم أقعد ، فهذا السؤال يدل على التردد ، والإيمان يفترض يقيناً ثابتاً ؛ لأن التردد يعنى الشك ، وهو الذهاب والرجوع على التوالى ، وهو يعنى أن صاحب السؤال متردد ؛ لأن طرفى الحكم عنده سواء .

إذن : فالمؤمنون بالله لا يستأذنون رسول الله ﷺ إذا دُعوا إلى الجهاد ؛ لأن مجرد الاستئذان فى الخروج إلى الجهاد لا يليق بمؤمن .

وقوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴾ أى : أن الله يعلم ما فى صدورهم من تقوى ، فهم إنْ خدعوا الناس ، فلن يستطيعوا خداع الله ؛ لأنه مُطَّلع على ما تُخفى الصدور .

(١) وقد ورد هذا فى قوله تعالى﴿ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴾ [هود : ٦٩] وقال : ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴾ [الذاريات : ٢٦] . ما لبث : أى : ما أبطأ عن مجيئه بعجل مشوى بحرّ الحجارة من غير أن تمسه النار ، وهو معنى الحنيذ .

ثم يُنزِل الله حكمه فى هؤلاء فيقول:

﴿ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾

وهكذا أصدر الله حكمه فيمن أقدموا على الاستئذان ، فما دام الإنسان قد تردد بين أن يخرج للجهاد أو لا يخرج ، فهذا يكشف عن اهتزاز إيمانه، وهذا الاهتزاز يعنى وجود شك فى نفسه ، فيما أعد الله له فى الآخرة ؛ لأنه إن كان واثقاً فى داخله يقيناً أنه سيدخل الجنة بلا حساب إنْ استشهد ، ما تردد ثانية واحدة ، ولا أدار الأمر فى رأسه هل يذهب أو لا يذهب ؟ فما دامت الجنة هى الغاية ، فأىُّ طريق مُوصل إليها يكون هو الطريق الذى يتبعه مَنْ فى قلبه يقين الإيمان ، وكلما كان الطريق أقصر كان ذلك أدعى إلى فرح الإنسان المؤمن ؛ لأنه يريد أن ينتقل من شقاء الدنيا إلى نعيم الآخرة ، وحتى لو كان يحيا فى نعيم فى الدنيا ، فهو يعرف أنه نعيم زائل وهو لا يريد هذا النعيم الزائل، بل يريد النعيم الباقى الذى لا يزول .

والتردد والاستئذان هنا معناهما: أن الشك قد دخل فى قلب الإنسان، ومعنى الشك - كما نعلم - هو وجود أمرين متساويين فى نفسك لا يرجح أحدهما حتى تتبعه . والنسب الكلامية والقضايا العقلية تدور بين أشياء متعددة ، فأنت حين تجزم بحكم فلا بد أن يكون له واقع يؤيده ؛ لأنك إن جزمتَ بشىء لا واقع له فهذا جهل، والجهل - كما نعلم - أن تعتقد أن

شيئاً ما هو حقيقة ، وهو غير ذلك ولا واقع له . فإذا أنت على سبيل المثال قلت : إن الأرض مبسوطة ، ثم جاءوا لك بصورة الأرض كروية وأصررت على أنها مبسوطة ، فهذا جهل وإصرار عليه . وفرق بين الجاهل والأمى ، فالأمى الذى لم يكن يعرف أن الأرض كروية ، ثم علم حقيقة العلم وصدقها فهو متى عرف الواقع صدقه وآمن به . ولكن الجاهل يؤمن بما يخالف الواقع . فإن جئت له بالحقيقة أخذ يجادل فيها مُصراً على رأيه . ولذلك نجد مصيبة الدنيا كلها ليست من الأميين، ولكن من الجهلة لأن الأمى يحتاج إلى مجهود فكرى واحد ، أن تنقل له المعلومة فيصدقها ، أما الجاهل فإقناعه يقتضى مجهودين : الجهد الأول : أن تخرج ما فى عقله من معلومات خاطئة ، وأوهام ليست موجودة فى الواقع ، والجهد الثانى : أن تقنعه بالحقيقة .

وإذا كان هناك واقع فى الحياة تستطيع أن تدلل عليه فهذا هو العلم . فإن لم تستطع التدليل عليه فهذا هو التلقين ، والمثال : أننا حين نُلقن الطفل الصغير أن الله أحد ، وهو لم يبلغ السن التى تستطيع عقلياً أن تدلل له فيها على ذلك . ولكنك قلت له : إن الله أحد ، وجزم بها الطفل ، وهذه حقيقة واقعة ، ولكنه لا يستطيع أن يدلل عليها . وهو فى هذه الحالة يُقلد أباه أو أمه أو مَنْ لقنه هذا الكلام حتى ينضج عقله ويستطيع أن يدلل على ما اعتقده فى صغره بالتلقين .

إذن : فالعلم يقتضى أن تؤمن بقضية واقعة عليها دليل ، ولكن إن كنت لم تصل إلى مرحلة الجزم ؛ تكون فى ذهنك نسبتان ؛ وليست نسبة واحدة . فإن لم ترجح نسبة على الأخرى ، فهذا هو الشك . وإن ظننتَ أنت أن إحداهما راجحة فهذا هو الظن ، فإن أخذت بالنسبة غير الراجحة فهذا هو الوهم .

الحق سبحانه وتعالى يقول:

﴿ إِنَّمَا يَسْتَئْذِنُكَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ ولو استقر فى قلوبهم الإيمان اليقينى بالله واليوم الآخر ، وأن مَردَّهم إلى الله سبحانه وتعالى ، وأنهم سوف يحاسبون على ما قدموا ، واعتبروا أن تضحيتهم بالمال والنفس عمل قليل بالنسبة للجزاء الكبير الذى ينتظرهم فى الآخرة ، لو كان الأمر كذلك لما استأذنوا ، ولكن ما دام الشك قد دخل قلوبهم فمعنى هذا أن هناك ريبة فى أمر ملاقاة الله فى اليوم الآخر . وهل هذا الأمر حقيقة يقينية ؟ ولأنهم يرتابون فى هذه المسألة فهل يضحون بأموالهم وأنفسهم من أجل لا شىء، ولذلك يقول عنهم الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ .

إذن: فالارتياب محله القلب ، والعلم أيضاً محله القلب ، ويمر كل من الارتياب والعلم على العقل ؛ لأن العقل هو الذى يُصفِّى مثل تلك المسائل بعد أن يستقبل المحسَّات ويناقش المقدمات والنتائج ، فإن صفَّى العقل هذه الأمور واستقر على الإيمان ، هنا يصبح الإيمان قضية يقينية ثابتة مستقرة فى القلب ، ولا تطفو مرة أخرى إلى العقل لتُناقَش من جديد ، ولذلك سمَّوْها عقيدة ، أى عقدت الشىء حتى يستقر فى مكانه ولا يتزحزح .

إن الطفل - مثلاً - إنْ قرَّب يده إلى شىء مشتعل فأحس بلسعة النار . هنا يعرف أن النار محرقة ولا يحاول تكرار نفس التجربة ، ولا يناقشها فى عقله ليقول : لن تلسعنى النار فى هذه المرة ، بل تستقر فى ذهنه المسألة ، وتنتقل من قضية حسية إلى قضية عقدية لا تخضع للتجربة من جديد ولايحتاج فيها إلى دليل .

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ ، وفى آية أخرى يقول سبحانه :

﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ [البقرة: ٧]

والقلب هو محل القضايا التى انتهت من مرحلة التفكير العقلى ، وصارت قضايا ثابتة لا يبحثها العقل من جديد .

وقوله هنا ﴿ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ معناه : أن الإيمان عندهم لم يصل إلى المرتبة التى لا يطفو فيها مرة أخرى للتفكير العقلى . . أيؤمن أو لا ؟ ، أى : لم يصل إلى مرتبة اليقين ، بل ما زال فى مرحلة الشك الذى يعيد القضايا من القلب إلى العقل لمناقشتها من جديد ، ولذلك يصفهم الحق سبحانه وصفاً دقيقاً فيقول : ﴿ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾ أى : أن الإيمان عندهم يتردد بين العقل والقلب ، فينزل إلى القلب ثم يطفو إلى العقل ليُناقَشَ من جديد ، ثم ينزل إلى القلب مرة أخرى ، وهكذا يتردد الأمر بين العقل والقلب ، ولا يستقر فى مكان ، وهم بذلك على غير يقين من الآخرة ، وما أعدَّ الله لهم فيها من جزاء . ويشكُّون فى لقاء الله فى اليوم الآخر . ويدور كل ذلك فى نفوسهم ، ولكنه لا يصل إلى مرتبة اليقين .

ويريد الله سبحانه وتعالى أن يوضح لنا الصورة أكثر فيقول :

﴿ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾

ففى ترددهم دلالة على أنهم لا يريدون الخروج للجهاد ؛ ولو كانوا عازمين بالفعل على ذلك لأعدوا ما يلزمهم للحرب من الزاد والراحلة والسلاح ، ولكنهم لم يفعلوا شيئاً من هذا قط ؛ لأنهم افتقدوا النية الصادقة للجهاد فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم .

ولقائل أن يقول : ألم يكن من الجائز أن يعدوا كل شيء للقتال فى آخر لحظة ؟ نقول : لا ، فالذاهب إلى القتال لا يمكن أن يستعد فى آخر لحظة . بل لابد أن يشغل نفسه بمقدمات الحرب من سلاح وزاد وراحلة وغير ذلك ، ولو لم يشغل نفسه بهذه المسائل قبل الخروج بفترة وتأكد من صلاحية سلاحه للقتال ؛ ووجود الطعام الذى سيحمله معه ؛ وغير ذلك ، لما استطاع أن يخرج مقاتلاً . فليست المسألة بنت اللحظة ، بل كان عدم استعدادهم للقتال يُعَدُّ كشفاً للخميرة المبيَّتة فى أعماقهم بألا يخرجوا ، وسبحانه قد اطلع على نواياهم ، وما تُخْفى صدورهم ، وقد جازاهم بما أخفوا فى أنفسهم . لذلك يقول:

﴿ وَلَـكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴾ وسبحانه وتعالى لا يحتاج إلى أحد من خلقه ، بل الخلق هم الذين فى احتياج دائم إليه سبحانه ؛ لذلك ثبط هؤلاء عن الخروج ، وكره سبحانه خروجهم للقتال ، و « ثبطهم » أى جعلهم فى مكانهم ، ولم يقبل منهم أن يعدوا العدة للقتال كراهية منه سبحانه أن يخرجوا بنشاط إلى القتال . والكره : عملية وجدانية. والتثبيط : عملية نزوعية.

وأضرب هذا المثل دائماً - ولله المثل الأعلى - أنت ترى الوردة ، فتدرك بعينيك جمالها ، فإنْ مددتَ يدك إليها لتقطفها ، هنا يتدخل الشرع ليقول لك : لا ؛ لأن هذا نزوع إلى ما لا تملك . وإن أردت أن تحوز وردة مثلها ، فإما أن تشتريها وإما أن تزرع مثلها ، إذن : فالمشرع يتدخل - فقط - فى الأعمال النزوعية .

وكراهية الله لنزوعهم تجلَّتْ فى تثبيطهم وخذلهم وردِّهم عن الفعل ، وزيَّن لهم فى نفوسهم ألا يخرجوا للقتال مع رسول الله ﷺ ؛ وذلك

لحكمة أرادها الحق سبحانه ، فوافقت ما أذن فيه رسول الله فى التخلف ، وهنا نلاحظ أن الحق سبحانه وتعالى قال: ﴿ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴾ وإذا كان التثبيط من الله ، فكأنه أوضح لهم: اقعدوا بإذن من الإرادة الإلهية . أو أن رسول الله ﷺ أذن لهم بالقعود والتخلف لمّا استشفَّ تراخيهم ، أو أن الشياطين أوحتْ لهم بالقعود ، فالحق هو القائل سبحانه:

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ [الأنعام: ١١٢]

وهكذا نجد أن كلمة : ﴿ قِيلَ ﴾ قد بُنيتْ لما لم يُسَمَّ فاعله لإمكان أن يتعدد القائلون ، فالله بتثبيطه لهم كأنه قال لهم : اقعدوا، والرسول ﷺ قال لهم : اقعدوا ، والشياطين حينما زينوا لهم القعود ؛ كأنهم قالوا لهم: اقعدوا . وقولهم بعضهم لبعض زيَّن لهم القعود ، وهكذا أعطتنا كلمة واحدة عطاءات متعددة .

وهل ينفى عطاءٌ عطاءً ؟ . لا ، بل كلها عطاءات تتناسب مع الموقف .

﴿ وَلَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴾ والمقصود بالقاعدين هنا : هم الذين لا يجب عليهم الجهاد من النساء والأطفال والعجائز . فكأنهم قد تخلوا بعدم خروجهم عن رجولتهم التى تفرض عليهم الجهاد . وهذه مسألة ما كان يصح أن يرتضوها لأنفسهم . وفى موقع آخر من نفس السورة قال الحق سبحانه :

﴿ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ [التوبة: ٨٧]

وقد كانت الرجولة تفترض فيهم أن يهبوا للقتال ، لكنهم ارتضوا لأنفسهم ضعف النساء والأطفال .

ونجد الشاعر العربى عندما أراد أن يستنفر أفراد قبيلته الذين تكاسلوا عن القتال معه، فقال :

وَمَا أدْرِى ولسْتُ إخَالُ أدْري

أقوْمٌ آلُ حِصْنٍ أمْ نِسَاءُ (١)

والقوم تُطلَقُ على الرجال دون النساء (٢). ثم يبين لنا الحق حكمة التثبيط ، فإن كان قعودهم من جانب الخير، فتثبيط الله لهم حكمة ، وإذن الرسول لهم بعدم الخروج حكمة. وإن كانت مسألة قعودهم من وسوسة الشياطين لهم أو وسوسة النفوس ، فقد خدمت وسوسة الشياطين ووسوسة النفوس قضية الإيمان ، وأعانوا على مراد الله ، وهذا هو الغباء الكفرى ، فزينت الوسوسة لهؤلاء المنافقين عدم الخروج للجهاد فى سبيل الله ؛ لأنهم لو خرجوا لحدث منهم ما قاله الحق سبحانه و تعالى فيهم :

﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾

والخبال مرض عقلى ينشأ معه اختلال موازين الفكر ، فتقول: فلان مخبول، أى: أنه يحكم فى القضايا بدون عقل ، إذن فقوله تعالى: ﴿ مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا ﴾ أى: أنهم لن يكونوا إلا مصدراً لبلبلة الأفكار لو خرجوا معكم للقتال ، فلا تستطيعون اتخاذ القرار السليم . فكأنهم عين

(١) البيت من قول زهير بن أبى سلمى

(٢) ويُقوِّى هذا قوله تعالى: ﴿ لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ﴾ [الحجرات : ١١] فلو كانت النساء من القوم لم يقل: ﴿ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ ﴾.

عليكم ، وضدكم وليسوا معكم ، وقد يكونون من عوامل الهزيمة التى لم يُرِدْهَا الله لكم ، وليسوا من عوامل النصر ، فكأن عدم خروجهم هو دفع لشَر ، كان سيقع لو أنهم خرجوا معكم . وشاء الحق عدم خروجهم حفاظاً على قوة المؤمنين وقدرتهم على الجهاد .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ ﴾ أى : أنهم كانوا سيُحْدثون فُرْقة بين صفوف المؤمنين ويُفرِّقونهم ، وسيتغلغلون بينهم للإفساد ؛ لأن الخلال هو الفُرْجة بين الشيئين أو الشخصين، فيدخل واحد منهم بين فريق من المؤمنين فيفسد ، وآخر يفسد فريقاً آخر ، وهكذا يمشون خلال المؤمنين ليفرقوا بينهم .

ولكن التساؤل : هل كانوا سيخرجون معهم أو فيهم ؟ هم كانوا سيدخلون فى الفُرج بين المؤمنين ليبلبلوا أفكارهم . ونقول : إن حروف الجر ينوب بعضها عن بعض ، وعندما تسمع كلمة "فيكُم" اعلم أنها تغلغل ظرف ومظروف ؛ ولذلك قال الحق سبحانه وتعالىَ فى موضع آخر من القرآن ما يوضح لنا الظرف والمظروف، قال الحق:

﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ (٧١) ﴾ [طه]

هل كان فرعون سيصلب السحرة فى داخل الجذوع أم على الجذوع ؟ وإن كان أهل اللغة قد قالوا : إن حروف الجر ينوب بعضها عن بعض . فإننا لا نرضى هذا الجواب ؛ لأننا إن رضيناه فى أساليب البشر ، لا يمكن أن نقبله فى أساليب كلام الله ؛ لأن هناك معنى «فى» الظرفية ؛ ومعنى آخر فى استخدام حرف "على" . ولو قال الحق سبحانه وتعالى: «لأصلبنكم على جذوع النخل» ، فإن لها معنى أن يكون الصَّلْب على الجذع ؛ أى: أنه صَلْبٌ عادى ، ولكن قوله تعالى: ﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ ﴾ معناه : أن

عملية الصَّلْب ستتم بقوة بحيث تدخل أجزاء من جسم المصلوب فى المصلوب فيه ، أى: أن جنود فرعون كانوا سَيَدقُّون على أجساد السحرة حتى تدخل فى جذوع النخل ، وتصبح هذه الأجساد وجذوع النخل وكأنها قطعة واحدة ، هذه صورة لقسوة الصلب وقوته .

لكن إذا قلنا : على جذوع النخل لكان المعنى أخفَّ ، ولكان الصَّلْب أقل قسوة ، فكأن القرآن الكريم قد استعمل ما يعطينا دقة المعنى . بحيث إذا تغيَّر حرف اختل المعنى . ونجد الحق سبحانه وتعالى يقول فى موضع آخر من القرآن الكريم:

﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ .. (١٣٣) ﴾ [آل عمران]

أى: أن سرعتنا فى العمل الصالح تنتهى بنا إلى المغفرة ، إذن: فنحن قبل أن نسرع إلى الصالح من الأعمال لم نكن فى المغفرة ، وعندما نسارع نصل إليها .

ثم نجد قول الحق سبحانه وتعالى أيضاً :

﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ .. (٩٠) ﴾ [الأنبياء]

ولم يقل: يسارعون إلى الخيرات ؛ لأن عملهم الآن خير ، وهم سيسارعون فيه ؛ أى سيزيدونه ؛ إذن : إنْ سارعتَ إلى شىء كأنه لم يكن فى بالك ، ولكنك ستسرع إليه ، ولكن سارعتَ فى الخير ، فكأنك فى الخير أولاً ثم تزيد فى فعل الخير .

وإذا تدبرنا قول الحق سبحانه : ﴿ وَلَأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ ﴾ نجد أن «أوضع» تعنى: أسرع بدرجة بين الإبطاء والسرعة ، فيقال : "أوضعت الدابة" ؛ أى مشتْ بخُطىً غير بطيئة وغير سريعة فى نفس الوقت ، ولو نظرتَ إلى

حالة هؤلاء المنافقين لو خرجوا مع المؤمنين للقتال ، لرأيتهم وهم يزينون لهم الفساد ، ويعملون على أن تصاب عقول المقاتلين بالخبل ، ولوجدتَ أن هذا الأمر يتطلب آخر البطء وأول السرعة فى الحركة ، كانوا يحتاجون إلى البطء ؛ لأنهم كانوا سيهمسون فى آذان المؤمنين بتزيين الباطل وهذا يقتضى بُطْئاً ، ثم ينتقل الواحد منهم إلى مؤمن ثان ليقوم معه بنفس العملية ، ولابد أن يسرع إلى التواجد بجانب المؤمن الآخر . إذن: فالحركة هنا تحتاج إلى البطء فى الوسوسة ؛ وسرعة فى الانتقال من مؤمن لآخر . وهذا أدقُّ وصف ينطبق على ما كان سيحدث .

ولكن ما هدف هؤلاء المنافقين من أن يضعوا الخبل فى عقول المؤمنين ؟ ويُفرِّقوهم جماعات ؟ الهدف: أن ينالوا من وحدتهم وقوتهم ، ويقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ ﴾ أى: يطلبون لكم الفتنة ؛ لأن الإنسان الشرير حين يرى خيراً يقوم به غيره ، يجد الملكات الإيمانية فى أعماقه تصيبه بنوع من احتقار النفس ، فيحاول التقليل من شأن فاعل الخير بأن يسخر مما يفعله أو أن يستهزىء به ، وهذا أوضح ما يكون فى مجالس الخمر ، حين يحس الجالسون فى هذه المجالس بالذنب الشديد ؛ إن وُجِدَ بينهم إنسان لا يشرب الخمر ، فتجدهم يحاولون أن يُغْروه بكل طريقة ؛ لكى يرتكب نفس الإثم ، فإذا رفض أخذوا يُعيِّرونه ويستهزئون به ، ويسخرون منه، ويدَّعُون أنه لم يبلغ مبلغ الرجال ،وغير ذلك من أساليب السخرية . وأيضاً تجد الكذاب يحاول دفع الناس إلى الكذب ، والسارق يغرى الناس بالسرقة ، والمرتشى يحاول نشر الرشوة بين جميع زملائه ، فإذا وُجِدَ إنسان نزيه وسط هؤلاء الذين يرتكبون هذه الألوان من السلوك السئ ؛ فهم يضطهدونه ويسخرون منه .

والمثال: حين يقوم إنسان للصلاة بين عدد من تاركى الصلاة، تجدهم يحاولون السخرية منه،، فهذا يقول له: خذنى على جناحك، وهذا يقول له مستهزئاً: يجعلنا الله من بركاتك. ويُبيِّن لنا القرآن الكريم هذه القضية ليعطينا المناعة الإيمانية فيقول:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٣٠) وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ (٣١) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَـٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ (٣٢) وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ (٣٣) فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٣٤) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ (٣٥) هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦) ﴾ [المطففين]

وهذه الآيات تعطينا صورة لما يحدث عندما يعمُّ الفساد فى الأرض، فالذين سخروا من المؤمنين يضحكون ضحكات ستزول حَتْماً طال الوقت أو قَصُر يتبعها عذاب فى الآخرة، أما أهل الإيمان فهم يخشون الله فى الدنيا؛ فيثيبهم الله فى الآخرة، ويضحكون ضحكة خالدة مستمرة.

إذن: فقوله تعالى: ﴿ يَغْوُنَكُمُ الْفِتْنَةَ ﴾ أي: إنهم من فَرْط حقدهم عليكم وعلى إيمانكم، يحاولون أن يفتنوكم فى دينكم حتى تنزلوا إلى مستواهم، تماماً كأنماط السلوك التى بيَّناها من قبل.

ثم يُبيِّن الحق سبحانه وتعالى أن الصف الإيمانى لن يكون فى مَنَعة مما كان سيفعله هؤلاء المنافقون، فصحيح أنهم لم يخرجوا مع المؤمنين، ولكن هناك بين المؤمنين من كان يستمع لهم، ويقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ وسمعتُ لفلان، أي: سمعتْ أذنى ما

قاله، وسمعت من فلان، أى: لصالح شخص آخر ، أى :من يستمع منهم أو من يستمع أخباركم فهو ينقلها إليهم .

إذن : فاللام تأتى بالمعنيين ، فمن المؤمنين من كان سيسمع لهؤلاء المنافقين مما يُحدث بلبلة فى فكرهم ، ومن هؤلاء المبلبلين للأفكار جواسيس لهم ينقلون إليهم أخبار المؤمنين ويعملون لحسابهم ، وهناك من المؤمنين مَنْ سيسمع لهم أولاً ، فإذا أصيبوا بالخبل بدأوا فى نقل أخبار المؤمنين إليهم ، وهكذا جاءت "اللام" فاصلة بين "سمعت له" أو "سمعت من غيره لصالحه" ويزيد الله سبحانه هذا الأمر إيضاحاً فى قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا (١٠٥) ﴾ [النساء]

فنجد السطحى التفكير يقول : إن هذا تحذير من مخاصمة الخائنين ؛ خوفاً من ألاَّ يقدر عليهم، أو أن يزدادوا فى إثمهم بسبب هذه الخصومة . ونقول : إنك لم تفهم المعنى ، فالمعنى الواضح هو : لا تكُنْ لصالح الخائنين خصيمًا ، أى: لا تترافع عن الخائنين أو تدافع عنهم.

وقوله تعالى ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ لأن الذى كان سيسمع ، والذين سيسمع لصالحهم ؛ كلاهما ظالم والله عليم بهم .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ (٤٨) ﴾

والحق سبحانه وتعالى يريد أن يُذكِّر المؤمنين بالوقائع السابقة التى ارتكبها المنافقون والكفار تجاه الإسلام والمسلمين من: مؤامرات على الإسلام، ومحاولات للإيقاع بين المسلمين؛ والتآمر على رسول الله ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ﴾ له ﷺ دليل على تلك الوقائع السابقة[1]. أما قوله تعالى ﴿وَقَلَّبُوا لَكَ الأُمُورَ﴾. فالتقليب: هو جعل أسفل الشيء عاليه، وعاليه أسفله؛ حتى لا يستتر منه شيء. وهذا مظهر نراه فى السوق؛ عندما تذهب عند الفاكهى وتجد ما هو موجود فى أعلى الفاكهة مُنْتقًى بعناية، فإذا اشتريتَ منه ملأ لك الكيس من الصنف الردىء الذى أخفاه أسفل القفص. وهكذا يأتى لك بالأسفل أو بالشيء الردىء المكشوف عورته. والذى لا يمكن أن تشتريه لو رأيته ويضعه لك[2].

وهكذا يفعل المنافقون حين يُقلِّبون الأمر على الوجوه المختلفة حتى يصادفوا ما يعطيهم أكبر الشر للمؤمنين دون أن يصابوا هم بشيء. والمثال الواضح: عندما تآمرت قريش على رسول الله ﷺ، وجاءوا من كل قبيلة بشاب ليضربوه ضربة رجل واحد ليضيع دمه بين القبائل.

لكن الحق سبحانه يأتى إلى كل هذه الفتن ويجعلها لصالح المؤمنين، ولذلك يقول جل جلاله:

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٣٦١). أما القرطبى فقد قال فى تفسير الآية (٤/ ٣٠٨٣): «أى: لقد طلبوا الإفساد والخبال من قبل أن يظهر أمرهم، وينزل الوحى بما سيفعلونه. وقال ابن جريج: أراد اثنى عشر رجلاً من المنافقين، وقفوا على ثنية الوداع ليلة العقبة ليفتكوا بالنبى ﷺ».

(٢) وقد حرم رسول الله ﷺ هذا، وذلك أنه ﷺ مَرَّ على صُبْرة طعام فأدخل يده فيها. فنالت أصابعه بللاً. فقال: ما هذا يا صاحب الطعام؟ قال: أصابته السماء يا رسول الله. قال: «أفلا جعلته فوق الطعام كى يراه الناس؟ من غش فليس منى» أخرجه مسلم فى صحيحه (١٠٢) وأحمد فى مسنده (٢/ ٢٤٢) والترمذى فى سننه (١٣١٥) عن أبى هريرة. قال الترمذى: حديث حسن صحيح.

﴿ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴾ فالتآمر على رسول الله ﷺ ومحاولة قتله جعل الأمور تؤدى إلى هجرته ﷺ من مكة وخروجه منها مما جعله الله سبحانه وتعالى سبباً فى إظهار الحق وانتشار الإسلام ؛ لأن الله لايرسل رسولاً ثم يخذله ، فما دام قد أرسل رسولاً فلابد أن ينصره (١) ، فأريحوا أنفسكم ، ولا تبغوا الفتنة؛ لأن السابق من الفتن انقلب عليكم وأدَّى إلى خير كثير للمؤمنين .

وفى هذا يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) ﴾ [الصافات]

وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ وهو قضية كونية عقدية ، فإذا رأيتَ قوماً مؤمنين التحموا بقتال قَوم كافرين وانهزموا ، فاعلم أنهم ليسوا من جنود الله حقّا ، وأن شرطاً من شروط الجندية لله قد اختل . ولذلك علينا أن نحاسب أنفسنا أولاً .

فمثلاً فى غزوة أُحد ، عندما طلب رسول الله ﷺ من الرماة ألا يتركوا أماكنهم فخالفوه (٢) ، هنا اختل شرط من شروط الجندية لله وهو طاعة الرسول ﷺ ؛ فماذا كان يحدث للإسلام لو أن هؤلاء الرماة خالفوا رسول الله وانتصروا ؟ لو حدث ذلك لَهانَتْ أوامر الرسول عليه الصلاة والسلام على المؤمنين .

(١) وفى هذا يقول عز وجل : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾ [غافر : ٥١] .

(٢) عن البراء بن عازب قال : « لقينا المشركين يومئذ ، وأجلس النبى ﷺ جيشاً من الرماة ، وأمَّر عليهم عبد الله بن جبير وقال : لاتبرحوا ، إن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلاتبرحوا ، وإن رأيتموهم ظهروا علينا فلا تعينونا » ولكنهم خالفوه ﷺ فوقع سبعون قتيلاً فى المسلمين . والحديث أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٠٤٣) وأحمد فى مسنده (٤/ ٢٩٤) .

ويوم حنين، حين اعتقد المؤمنون أنهم سينتصرون بكثرتهم وليس بإيمانهم ، وكانت النتيجة أنْ أصيبوا بهزيمة قاسية أول المعركة ؛ لتكون لهم درساً إيمانياً . ولذلك إذا رأيت إيماناً انهزم أمام كفر ، فاعلم أن شرطاً من شروط الجندية الإيمانية قد اختل . واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (١٤٦) وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (١٤٧) ﴾ [آل عمران]

إذن: فأول شيء فعله هؤلاء المقاتلون ؛ أنهم عرفوا أن الذنوب يمكن أن تأتى إليهم بالهزيمة ، فاستغفروا الله وتابوا إليه وحاربوا فنصرهم الله ، وإذا حدث ولم ينتصر المؤمنون ؛ فمعنى هذا أن هناك خللاً فى إيمانهم ؛ لأن الله لا يترك قضية قرآنية لتأتى حادثة كونية فتكذبها .

يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ ۚ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ (٤٩) ﴾

هؤلاء هم الذين استأذنوا رسول الله فى عدم الخروج للجهاد ، ومنهم من قال هذه العبارة : لا تفتنى بعدم إعطاء الإذن ، ولكن ما موضوع الفتنة؟ هل هو عذاب ، أم سوء ، أم شرك وكفر -والعياذ بالله- ؟ إن كل ذلك- وغيره - تجوز فيه الفتنة . والقول: ﴿ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي﴾ ظاهره أنه أمر ،

ولكنه هنا ليس أمراً ؛ لأن الأمر إذا جاء من الأدنى للأعلى فلا يقال إنه أمر، بل هو دعاء أو رجاء، وإن جاء من المساوى يقال: «مساو له» ، أما إن جاء من الأعلى إلى الأدنى؛ فهذا هو ما يقال له أمر ، وكلها طلب للفعل.

وكان الجد بن قيس -وهو من الأنصار- قد جاء إلى رسول الله ﷺ وقال: ائذن لى ولا تفتنى ؛ لأن رسول الله إن لم يأذن له فسيقع فى فتنة مخالفة أوامر رسول الله ﷺ (١) .

وقيل: إن هذا الأنصارى لم يكن له جَلَدٌ (٢) على الحرب وشدائدها . وقيل: إنه كان على وَلَع بحب النساء وسمع عن جمال بنات الروم ، وخشى أن يُفتنَ بهنَّ ، خصوصاً أن المعركة ستدور على أرض الروم . ومن المتوقع أن يحصل المقاتلون على سبايا من بنات الروم .

وقوله تعالى : ﴿ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي ﴾ أوقعه فى الفتنة فعلاً؛ لذلك جاء قول الحق : ﴿ أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ﴾ . وكان هذا الأنصارى سميناً، وشكا من عدم قدرته على السفر الطويل والحر ، فجاء الرد : إن كنتم من الحر والبرد تفرُّون فالنار أحقُّ بالفرار منها ؛ ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ .

وفى آية أخرى قال سبحانه :

---

(١) انظر : أسباب النزول للسيوطى (ص٩٤) . وابن كثير فى تفسيره (٢/ ٣٦٢) . وقد كان الجد بن قيس من أشراف بنى سلمة .

(٢) الجَلَد : الشدة والقوة والصبر على القتال .

﴿ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ (٨١) ﴾ [التوبة]

إذن: فجحيم النار أشد قسوة وحرارة من نار القتال [١] ، وحر الدنيا مهما اشتد أهون بكثير من نار الآخرة وهى تحيط بالكافرين.

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ (٥٠) ﴾

وما يزال الحديث عن المنافقين ، فبعد أن بيَّن الحق سبحانه وتعالى كيف حاول المنافقون الهروب من الحرب لأسباب وأعذار مختلقة ، أراد سبحانه وتعالى أن يزيد الصورة توضيحاً فى إظهار الكراهية التى تخفيها قلوب المنافقين بالنسبة للمؤمنين . وهنا يقول سبحانه :

﴿ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ ﴾ والمقصود بالحسنة هنا هى: الانتصار فى الحرب ، والنصر فى الحرب هو من وجهة نظر المنافقين ينحصر فى حصول المؤمنين على الغنائم، وهذه مسألة تسوء المنافقين وتحزنهم ؛ لأن الهمّ الأول للمنافقين هو الدنيا ، وهم يريدون الحصول على أكبر نصيب منها . وبما أنهم لم يخرجوا للجهاد والتمسوا الأعذار غير الصحيحة للهروب من الحرب ؛ لذلك فهم يحزنون إذا انتصر المؤمنون ؛ لأنهم حينئذ لن يكون لهم حق فى الغنائم . وفى هذه الحالة يقولون: يا ليتنا كنا معهم ؛ إذن لأصبْنَا الغنائم وأخذنا منها .

(١) وذلك قوله سبحانه : ﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴾ [التوبة : ٨١] .

أما إذا كانت الدائرة قد دارت على المسلمين وهُزِموا فى الحرب ؛ فهذه سيئة بالنسبة لكل مؤمن ، ولكن المنافقين يعتبرون الهزيمة لأهل الإيمان حسنة، وسيقولون لأنفسهم : لقد كنا أكثر رجاحةً فى الفكر واحتطْنا للأمر، ولم نخرج معهم ولذلك نجونا مما أصابهم . والمصيبة فى الحرب تكون في: الأرواح، والرجال والمال، والعتاد بالإضافة إلى مرارة الهزيمة . ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴾ وكأنهم قد احتاطوا قبل أن يبدأ القتال فلم يخرجوا ، وهم كمنافقين يمكن أن يفرحوا إنْ أصابت المسلمين كارثة أو مصيبة، وهى هنا الهزيمة فى الحرب . وسيقولون : ﴿ قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ ﴾ أى : قاموا بالاحتياط فلم يخرجوا للقتال، بينما لم يحتَطْ محمد وصَحْبُه وجيشه . ثم يديرون ظهورهم لِيُخْفُوا فرحتهم .

وحين يقول الحق : ﴿ إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ﴾ يوضح لنا أن أى نصر للإيمان يحزن المنافقين فى نفوسهم ، ويصير هذا القول قرآناً يُتلى ويُتعبد به ويسمعونه بآذانهم ، بالله لو لم تحُزنهم الحسنة التى ينالها المؤمنون ، ألم يكن ذلك دافعاً لأن يقولوا : نحن لم نفرح ولم نحزن ؟

بالله حين يفاجئهم القرآن بالكشف عن خبايا نفوسهم بالقرآن ؛ ألم يكن ذلك داعياً لهدايتهم ؟

لقد عرف محمد ﷺ الغيب الذى فى قلوبهم وفضح ضمائرهم وسرائرهم بعد أن أطلعه الحق على ذلك . ومع هذا أضمروا النفاق فى قلوبهم وانتظروا مَسَاءةً تَحل بمحمد ﷺ وصحبه .

ويرد الحق سبحانه وتعالى عليهم :

﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ ﴾

﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا ﴾ الحديث هنا عما يصيب الإنسان أو ما يحدث له ، فإن حدث للإنسان شيء يأتى منه خير ، يكون بالنسبة له حسنة ؛ وإن أتى منه شر يكون من وجهة نظره سيئة ، إذن فالإصابة هى التقاء هدف بغاية ، إذا تحقق الهدف وجاء بخير فهو حسنة ، وإن جاء بشَرٍّ فهو سيئة . والمصائب نوعان : مصيبة للنفس فيها غريم ،ومصيبة ليس فيها غريم ، فإن اعتدى علىّ واحد بالضرب مثلاً يصبح غريمى ، وتتولد فى قلبى حفيظة[1] عليه ، وغيظ منه ، وأرغب فى أن أرد عليه وأثأر لنفسى منه ، ولكن إن مرضت مثلاً فمن هو غريمى فى المرض ؟ لا أحد .

إذن : فالمصائب نوعان ؛ نوع لى فيه غريم ، ونوع لا يوجد لى غريم فيه ؛ النوع الأول الذى يكون لى فيه غريم يمتلىء قلبى عليه بالحقد ، ويُرغِّبنا الحق سبحانه وتعالى فى عدم الحقد والعفو عن مثل هذا الغريم، فيقول :

﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤) ﴾

[آل عمران]

وهنا ثلاث مراحل : الأولى كظم الغيظ ، والثانية هى العفو ، والثالثة هى أن تحسن؛ فترتقى إلى مقام من يحبهم الله وهم المحسنون .

(١) حفيظة : غضب وضغينة .

وكذلك يقول الحق :

﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ (٤٣) ﴾ [الشورى]

أى : من صبر على ما أصابه ، وغفر لغريمه وعدوه ، فالصبر والمغفرة من الأمور التى تحتاج إلى عزم وقوة حتى يطوّع الإنسان نفسه على العفو وعدم الانتقام .

أما المصائب التى ليس للإنسان فيها غريم فهى لا تحتاج إلى ذلك الجهد من النفس ، وإنما تحتاج إلى صبر فقط، إذ لا حيلة للإنسان فيها . ونجد الحق سبحانه وتعالى يقول فى هذا اللون من المصائب :

﴿ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ (١٧) ﴾ [لقمان]

لأن العزم المطلوب هنا أقل ، ولذلك لم تستخدم «لام التوكيد» التى جاءت فى قوله تعالى :

﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ (٤٣) ﴾ [الشورى]

ولابد أن نلتفت إلى قول الحق سبحانه عن المشاعر البشرية حين قال:

﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤) ﴾

[آل عمران]

هذه الآية الكريمة تمثل مراحل ما يحدث فى النفس ، فالمطلوب أولاً أن يكظم الإنسان غيظه ، أى أن الغيظ موجود فى القلب ، ويتجدد كلما رأى الإنسان غريمه أمامه ، ويحتاج هذا من الإنسان أن يكظم غيظه كلما رآه، ثم يرتقى المؤمن فى انفعاله الإيمانى ، فيأتى العفو، وهذه مرحلة ثانية وهى أن يُخرِجَ الغيظ من قلبه ، ويحل بدلاً منه العفو .

ثم تأتى المرحلة الثالثة :

﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤)﴾ [آل عمران]

أى : أن هذا إحسان يحبه الله ويجزى عليه ، وهو أن تحسن لمن أساء إليك ، فتنال حب الله ، وهذا من كمال الإيمان ؛ لأن العبيد كلهم عيال الله ، واضرب لنفسك المثل - ولله المثل الأعلى - هَبْ أنك دخلت البيت ، ووجدت أحد أولادك قد ضرب الثانى ، فمع من يكون قلبك وأنت رب البيت ؟ لابد أن يكون قلبك مع المضروب ، لذلك تُربِّتُ على كتفه وتصالحه ، وقد تعطيه مالاً أو تشترى له شيئاً لترضيه ، أى أنك تحسن إليه.

وما دمنا كلنا عيال الله ، فإن اجترأ عبد على عبد فظلمه فالله يقف فى صف المظلوم . إذن فمن أساء إليك إنما يجعل الله إلى جانبك . أفلا يستحق فى هذه الحالة أن ترد له هذه التحية بالإحسان إليه ؟

إن الولد الظالم يرى أخاه المظلوم وقد انتفع بعطف أبيه ، وقد يحصل الابن المظلوم على شيء يريده ، والظالم فى هذه الحالة إنما يحلم أن يكون هو الذى حدث عليه الاعتداء ليحصل على بعض من الخير .

والحق هنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها يوصينا حين تأتى المصائب أن نرد على الكافرين ونقول :

﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ وهكذا تُرَدُّ المسائل كلها إلى حكمة خالق الكون ومُدبِّر أمره ؛ فقد يحدث لى شىء أكرهه؛ ولكنه فى حقيقة الأمر يكون لصالحى ، فإن ضربنى أبى لأننى أهمل مذاكرتى ، أيكون ذلك عقاباً لى أم لصالحى ؟

إن أنت نظرت إلى المستقبل والنجاح الذى سوف تحققه فى الحياة إن ذاكرت، فهذا العقاب لصالحك وليس ضدك ، وكذلك لابد أن نأخذ أحداث الله فى كونه بالنسبة للمؤمنين ، فإن هُزموا فى معركة ، فالحق سبحانه وتعالى يريد أن يلفتهم إلى الخير فى دينهم ؛ وإلى أنهم لابد أن يعرفوا أن النصر له أسباب وهم لم يأخذوا بها؛ فلهذا انهزموا.

ولله المثل الأعلى ، فنحن نجد الأستاذ- وهو يأخذ الكراسات من التلاميذ ليصحح لهم أخطاءهم - يعاقب المخطىء منهم، وفى هذا تربية للتلاميذ .

إذن : إن رأيتم مصيبة قد نزلت بنا وظننتم أنها تسيئنا فاعلموا أننا نثق فيمن أجراها ، وأنه أجراها لحكمة تأديبية لنا ، وأن كل شىء مكتوب لنا لا علينا ، الذى كتبه وهو الحق سبحانه وتعالى هو القائل :

﴿ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِى .. (٢١) ﴾ [المجادلة]

إذن: فنحن نعلم بإيماننا أن كل ما يصيبنا من الله هو الخير ، وأن هناك أحداثاً تتم للتأديب والتهذيب والتربية ، لنسير على المنهج الصحيح فلا نخرج عنه، فالإنسان لا يربى إلا من يحب ، أما من لا يحب فهو لا يهتم بتربيته ، فما بالنا بحب الخالق لنا ؟ إن الأب إن دخل البيت ووجد فى فنائه عدداً من الأولاد يلعبون الورق ؛وبينهم ابنه، فهو ينفعل على الابن ، ولكن إن دخل البيت ووجد أولاد الجيران يلعبون الورق فقد لا يلتفت إليهم، فإذا أصابت المسلمين ما يعتبره المنافقون والكافرون مصيبة يفرحون بها ؛فهذا من غبائهم ؛ لأن كل ما كتبه الله هو لصالح المؤمنين به ، إما أدباً وإما ثواباً وإما ارتقاءً فى الحياة ، ولذلك فهو خير[1] ، ومن هنا كانت الآية

(١) عن صهيب الرومى قال رسول الله ﷺ : « عجباً لأمر المؤمن ، إن أمره كله خير ، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن ، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له » . أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٦٩٩) وأحمد فى مسنده (٤/ ٣٣٢، ٣٣٣) والدارمى فى سننه (٢/ ٣١٨) وأبو نعيم فى حلية الأولياء (١/ ١٥٤) .

الكريمة ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ وما كتب الله للمؤمنين إنما هو فى صالحهم .

ثم يزيد الحق سبحانه وتعالى المعنى تأكيداً ؛ فيقول سبحانه : ﴿هُوَ مَوْلانَا﴾ وما دام الحق سبحانه وتعالى هو الذى يتولى أمور المؤمنين وهو ناصرهم ، فالمولى الأعلى لا يسىء إلى مَنْ والاه ، ثم يأتى الإيضاح كاملاً فى قوله تعالى : ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ؛ لأن الله الذى آمنتَ به هو إله قادر حكيم ، فإذا جرتْ عليك أمور فابحثها ؛ إن كانت من فعل نفسك ، هنا عليك أن تلوم نفسك ، أما إن كانت من مجريات الله عليك، فلا بد أن تفهم أنها تحدث لحكمة .

والحق سبحانه وتعالى قد يعطى الكافر مقومات حياته ، ولكنه يعطى المؤمن مقومات حياته المادية والقيمية معاً. وبهذا المفهوم نعرف أنه إن أصابنا شىء نكرهه ، فليس معنى ذلك أن الله تخلى عنا ، ولكنه يريد أن يؤدبنا أو يلفتنا لأمر ما ، فإنه لو لم يؤدبنا أو يلفتنا لكان قد تخلى عنا حقاً .

والحق سبحانه وتعالى حين يخطىء المؤمن تجده سبحانه يلفته إلى خطئه ، وفى هذه الحالة يعرف المؤمن أن الله لم يتركه ؛ لذلك لا يقولن أحد: إن الله تخلى عنا ، فهذا ضعف فى الإيمان وبالتالى فإنه ضعف فى التوكل . ولكن قل: إن الله حين يؤدبك فهو لا يتخلى عنك، فساعة تأتى المصيبة اعلم أنه لا يزال مولاك . وما دام مولاك يحاسبك على أى خطأ ويُصوِّبه لك ، فثقْ به سبحانه وتوكل عليه.

وعلى سبيل المثال: لنفترض أن إنساناً اتكل عليك فى أمر من الأمور، ثم أخطأتَ أنت فى هذا الأمر ، لا بد أن يأتى لينبهك إلى ما أخطأت فيه ويقترح عليك وسيلة لإصلاح الخطأ ، وفى هذه الحالة ستجد نفسك ممتلئة

بالثقة فى هذا الإنسان ، فما بالنا بالله سبحانه وتعالى حين نتوكل عليه ويُصوِّب لنا كل أمر ؟

ولكن إياكم أن تنقلوا التوكل من القلوب إلى الجوارح . ولذلك يقال: الجوارح تعمل والقلوب تتوكل . فأنت تحرث الأرض وتضع فيها البذور وترويها ، وهذا من عمل الجوارح لا بد أن تؤديه ، وبعد ذلك تتوكل على الله وتأمل فى محصول وفير ينبته الزرع ، فلا تأتى آفة أو ظاهرة جوية مثل مطر غزير أو ريح شديدة؛ فتضيع كل ما عملته ، وبعد إتقانك لعملك يأتى دعاؤك لله سبحانه وتعالى أن يحفظ لك ناتج عملك .

أما الذين لا يعملون بجوارحهم ويعلنون أنهم متوكلون على الله ، فنقول لهم : أنتم كاذبون ؛ لأن التوكل ليس من عمل الجوارح بل من عمل القلوب ، فالجوارح تعمل والقلوب تتوكل .

لكن على مَنْ نتوكل ؟ إنك حين تتوكل على الحى الذى لا يموت، فلن يضيع عملك ، أما إن اتكلت على إنسان مثلك حتى وإن كان ذا قوة ، فقد تنقلب قوته ضعفاً ، وقد يُكْرِهُك أو يُذِلُّكَ ، وقد تصيبه كارثة فيموت .

ويُبلِّغ الحق سبحانه رسوله أن يرد على الذين يفرحون فى مصائب المسلمين ليكشف لهم أن فرحهم بالمصيبة هو فرح أغبياء . فيأتى قوله الحق :

﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾

وسبحانه وتعالى بهذه الآية إنما يرد على من يحزن إن أصابت الحسنة المؤمنين، ويفرح إن أصابتهم مصيبة ، فيأتى قول الحق سبحانه ليوضح : إن كل ما يصيب المؤمنين هو لصالحهم . ولذلك قال : ﴿ لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا ﴾ فلم يكتب سبحانه الأمور علينا ، بل لنا ، و"لنا" تفيد الملكية ؛ إما: تأديباً وإما تكفيراً عن ذنوب ، وإما اتجاهاً إلى الحق بعد زيغ الباطل ، وكل ذلك لصالحنا.

وجاء سبحانه بعد ذلك بالقول ﴿فَتَرَبَّصُوا﴾ أى: تمهلوا وانتظروا وترقبوا نهايتنا ونهايتكم . أما نهايتكم فاستدامة عذاب فى الدنيا وفى الآخرة .وأسباب العذاب مجتمعة لكم فى الدنيا ، وأسباب الخير ممتنعة عنكم فى الآخرة ، ونتيجة تربصنا لكم أن نرى السوء يصيبكم ، وتربصكم لنا يجعلكم ترون الخير وهو يسعى إلينا ، إذن فنتيجة المقارنة ستكون فى صالحنا نحن.

وبعد أن بيَّن الله ذلك يطرأ على خاطر المؤمن سؤال : ألا يصدر من هؤلاء الأقوام فعل خير ؟ وألا يأتى إليهم أدنى خير ؟ ونحن نعلم أن الحق سبحانه يجزى دائماً على أدنى خير .

ونقول : إن الحق شاء أن يبين لنا بحسم مسألة الخيانة العظمى وهى الكفر والعياذ بالله ، وبيَّن أن كل كافر بالله لا يُقبل منه أى عمل طيب ؛ لأن الكفر يُحبطُ أىَّ عمل، وإن كان لعملهم خير يفيد الناس ، فالحق يجازيهم مادياً فى الدنيا ، ولكن ليس لهم فى الآخرة إلا النار[1] ، ويقول:

(١) عن أنس بن مالك قال قال رسول الله ﷺ : «إن الله لا يظلم مؤمناً حسنة ، يعطى بها فى الدنيا ، ويجزى بها فى الآخرة ، وأما الكافر فيطعم بحسنات ما عمل بها لله فى الدنيا ، حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكن له حسنة يجزى بها » أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٨٠٨) وأحمد فى مسنده (٣/ ١٢٣ ، ١٢٥ ، ٢٨٣).

﴿ قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾

إذن: فشرط تقبُّل الله لأى عمل إنما يأتى بعد الإيمان بالله ، أما أن تعمل وليس فى بالك الله ، فخذ أجرك ممن كان فى بالك وأنت تعمل .

لذلك ضرب الله مثلاً بأعمال الذين كفروا فى قوله تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ ﴾

[النور]

ويعطينا الله سبحانه مثلاً آخر فى قوله تعالى :

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٨﴾ ﴾

[إبراهيم]

ويقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الشورى]

وهذا ما يشرح لنا ما استغلق على بعض العلماء فهمه فى قول الحق :

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾ ﴾ [الزلزلة]

فقد تساءل بعض من العلماء : أيجزى الحق سبحانه هؤلاء الكفار فى الآخرة أم فى الدنيا ؟ وقد استغلق عليهم الأمر لأن الآية عامة . ونقول : إن الحق يعطى فى الدنيا الجزاء لمن عمل للدنيا ، ويعطى فى الآخرة لمن عمل للدنيا والآخرة وفى قلبه الله . ولذلك فالذين يحسنون اتخاذ الأسباب المخلوقة لله بمنح الربوبية ينجحون فى حياتهم . والذين يتقدمون دنيوياً فى زراعة الأرض وانتقاء البذور والعناية بها يعطيهم الله جزاء عملهم فى الدنيا، ولا يبخس منه شيئاً ؛ ولكن الحق سبحانه يقول أيضاً :

﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا (٢٣) ﴾ [الفرقان]

هذا القول يوضح عطاء الآخرة ، ولذلك فالخير الذى يعمله غير المؤمن لا يُجزى عليه فى الآخرة (١)؛ لأنه عَمِلَ وليس فى باله الله ، فكيف ينتظر جزاءه ممن لم يؤمن به ؟

إن الله سبحانه يجزى مَنْ آمن به وعمل من أجله . ولكن من كفر بالله حبط كل عمله . وهذا أمر طبيعى ؛ لأنك ما دُمْتَ قد عملت الخير وليس فى بالك الله ، فلا تنتظر جزاءً منه . إن عملتَ للإنسانية أعطتْك الإنسانية، وإن عملتَ للمجتمع أعطاك المجتمع وصنعوا لك التماثيل وأطلقوا اسمك على الميادين والشوارع ، وأقيمت باسمك المؤسسات ، وتحقق لك الخلود فى الدنيا، وهذا هو جزاؤك . ولكن إن كنت مؤمناً بالله ، راجياً ثوابه تجىء يوم القيامة لتجد يد الله ممدودة لك بالخير الذى قدمته .

(١) عن عائشة رضى الله عنها قالت : قلت : يا رسول الله ، ابن جدعان كان فى الجاهلية يصل الرحم ويطعم المسكين ، فهل ذلك نافعه ؟ قال : « لا ينفعه ، إنه لم يقل يوماً : رب اغفر لى خطيئتى يوم الدين » . أخرجه مسلم فى صحيحه (٢١٤) وأحمد فى مسنده (٦/ ٩٣ ، ١٢٠) وقد أخرجه الحاكم فى مستدركه (٢/ ٤٠٥) من طريق آخر عن عائشة وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه وأقره الذهبى.

والحق سبحانه وتعالى يقول هنا : ﴿ قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ﴾ والطَّوْع : هو الفعل الذى تُقبل عليه بإرادتك دون أن تكون مكرهاً ، فكيف لا تجازى على خير فعلته بإرادتك ؟

ولا بد لنا أن نفرق بين «طوع» و«طائع» ، وكذلك نفرق بين هذا وبين الفعل الذى تقوم به حين يحملك غيرك ويُكرهك أن تفعله . والأفعال كلها إما أن تكون بالطواعية وبالإرادة ، وإما أن تكون بالإكراه . ولو كان الحق قد قال : أنفقوا ، طاعة لما قال : ﴿ لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ﴾ ؛ لأن الطاعة معناها انصياع عابد لإرادة معبود ، ولكن قوله هنا : ﴿ طَوْعًا ﴾ يكشف أن ما ينفقونه هو أمر اختيارى من عندهم . وكانت أحوال المنافقين كذلك ، فمنهم من قدم أولاده للجهاد ، ومنهم من قدم بعضاً من ماله ، وكانوا يفعلون ذلك طائعين لأنفسهم ويستترون بمثل هذه الأفعال حتى لا يفتضح نفاقهم ، وكان الواحد منهم يتقدم إلى الصف الأول من صفوف الصلاة فى المسجد ، ويفعل ذلك طوْعَ إرادته ، خوفاً من افتضاح نفاقه لا طاعة لله ، فطاعة الله هى طاعة عابد لمعبود ، أما مثل تلك الأفعال حين تنبع من طوع النفس فهى للمظهر وليست للعبادة .

﴿ قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ﴾ هل هذا أمر بالإنفاق ؟ أو هل الله يريد منهم أن ينفقوا فعلاً، خاصة أنه سبحانه لن يتقبل منهم ؟ لا ليس هذا أمراً بالإنفاق بل هو تهديد ووعيد . مثلما تقول لإنسان : اصبر ، فذلك ليس أمراً بالصبر ولكن تهديد بمعنى : اصبر فَستَرى منى هَوْلاً كثيراً . وهذا مثل قوله تعالى :

﴿ فَاصْبِرُوا أَوْ لاَ تَصْبِرُوا .. (١٦) ﴾ [الطور]

وقوله تعالى :

﴿ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ .. (٤٠) ﴾ [فصلت]

أى: أنكم إن صبرتم أو لم تصبروا فإن ذلك لن يغير شيئاً من الجزاء الذى سوف تلاقونه ، فالأمر سواء . ولو كان قوله تعالى: ﴿ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ ﴾ أمراً ؛لكان كل من عمل معصية داخلاً فى الطاعة؛ لأن الله أمره أن يفعل ما يشاء . ولكن هذا أمر تهديدى ، أى: افعلوا ما شئتم فأنتم عائدون إلى الله وسيحاسبكم على ما عملتموه . ولن تستطيعوا الفرار من الله سبحانه .

وقوله تعالى : ﴿ أَنفِقُوا﴾ هو -إذن- أمر تهديدي؛ لأنه لن يجديكم أن تنفقوا طوعاً أو كرهاً .

وكلمة ﴿ كَرْهًا ﴾ وردت فى القرآن الكريم فى أكثر من سورة ، فهى فى سورة آل عمران، وفى سورة النساء، وفى سورة التوبة ، وفى سورة الأحقاف، وفى سورةالرعد، وفى سورة فصلت ، قد ذكرت ﴿ كَرْهًا ﴾ بفتح الكاف وقرأها بعضهم بضم الكاف . وقال البعض : إن "كَرْهًا" بفتح الكاف و"كُرْهًا" بضم الكاف بمعنى واحد . نقول لهم : لا ، إن المعنى ليس واحداً ، فمثلاً قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا .. (١٥)﴾ [الأحقاف]

فالكُره هنا ليس للحمل ولا للوضع، ولكن للمشقة التى تعانيها الحامل أثناء حملها وعند الولادة . فلم يكرهها أحد على هذا الحمل . ولكن البعض يقول: إن الحمل يحدث وليس للمرأة علاج فى أن تحمل ولا أن تضع ، فلا توجد امرأة تقول لنفسها : "سوف أحمل الليلة" ؛ لأن الحمل يحدث دون أن تَعىَ هى حدوثه ، فالحمل يحدث باللقاء بين الرجل والمرأة . والمرأة لا تستطيع أن تختار ساعة الحمل ولا أن تختار ساعة الولادة ، ولا تستطيع أن تقول : سألد اليوم أو لن ألد اليوم . فكل هذا

يحدث إكراهاً بغير اختيار منها. ولذلك نقول لمن يقولون أن "كَرْهًا" بفتح الكاف و"كُرْهًا" بضم الكاف بمعنى واحد : لا؛ لأن "الكُرْه" بضم الكاف هو ما لا يريده الإنسان لأن فيه مشقة ، و"الكَره" بفتح الكاف هو ما فيه إكراه من الغير. إذن فـ"كَرْهاً" بفتح الكاف تختلف فى معناها عن "كُرْهًا" بضم الكاف(١).

الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ﴾ أى: لن يقبل الله منكم ما تنفقونه . ولكن ما الفرق ؟ لقد كان المنافقون يدفعون الزكاة ويقبلها الرسول منهم ولم يرفضها أدباً منه ﷺ ، فكل عمل يؤدى ثم يذهب إلى الرقيب الأعلى وهو الحق سبحانه وتعالى . ولكن حدث أن واحداً من هؤلاء هو ثعلبة طلب من رسول الله ﷺ أن يدعو له بالغنى ، فلما دعا له ورزقه الله الرزق الوفير بَخِل عن الزكاة، وحاول أن يتهرب من دفعها (٢)؛ فنزل القول الكريم :

﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥) فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَّهُم مُّعْرِضُونَ (٧٦) فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (٧٧) ﴾ [التوبة]

---

(١) وإلى هذا ذهب الفراء فقد قال : إن الكُره ما أكرهت نفسك عليه ، والكَره ما أكرهك غيرك عليه . نقله ابن منظور فى لسان العرب .

(٢) وذلك أن ثعلبة بن حاطب الأنصارى أتى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، ادع الله أن يرزقنى مالاً ، فقال ﷺ : ويحك يا ثعلبة قليل تؤدى شكره خير من كثير لا تطيقه . فقال ثعلبة : والذى بعثك بالحق لئن دعوت الله أن يرزقنى مالاً لأوتين كل ذى حق حقه . فقال ﷺ : « اللهم ارزق ثعلبة مالاً » وتدرج به الأمر حتى ترك الصلاة والجمعة ثم منع الزكاة وقال : ما هذه إلا جزية . وبعد ما نزلت آية التوبة (٧٥) أتى ثعلبة رسول الله ﷺ يرجوه أن يقبل صدقته فقال ﷺ : « إن الله قد منعنى أن أقبل صدقتك » فجعل ثعلبة يحثو التراب على رأسه . حديث طويل أخرجه الطبرانى فى معجمه الكبير (٧٨٧٣) من حديث أبى أمامة . قال الهيثمى فى المجمع (٧/ ٣٢) : « فيه على بن يزيد الألهانى وهو متروك » . وانظر أسباب النزول للواحدى (ص ١٤٥) .

وعندما نزلت هذه الآيات جاء ثعلبة ليدفع الزكاة لرسول الله ﷺ فلم يقبلها منه . وعندما توفى رسول الله ﷺ جاء ثعلبة إلى أبى بكر رضى الله عنه فلم يقبل منه الزكاة . وبعد أبى بكر جاء إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه فلم يقبلها منه . ومات ثعلبة فى عهد عثمان (١) . هذا هو عدم القبول .

ولكن هناك فى عهد رسول الله ﷺ من دفع الزكاة من المنافقين وقُبلَتْ منه ، ولكن الله لم يتقبلها منه . إذن : فكل عمل قد يُقبل من فاعله ، ولكن الله سبحانه وتعالى قد يتقبله أو قد لا يتقبله . إذن فالآية معناها : أن الله لن يتقبل من هؤلاء المنافقين إنفاقهم فى الخير ولو تقبله البشر .

ثم يعطينا الحق سبحانه وتعالى السبب فى ذلك فيقول :

﴿ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ وكما قلنا : إن كلمة الفاسق مأخوذة من "فسقت الرُّطَبَة" أى انفصلت القشرة عن الثمرة . وقشرة البلح مخلوقة لتحفظ الثمر . وعلمنا أن المعانى فى التكليف الشرعى قد أُخذت من الأمور الحسّية ؛ ولهذا تجد أن الدين سياج يمنع الإنسان من أن يخرج على حدود الله ويحفظه من المعصية ، والإنسان حين ينفصل عن الدين إنما يصبح كالثمرة التى انفصلت عن سياجها .

فالذى يشرب الخمر أو يرتكب الجرائم أو الزنا يُعاقب على معصيته ، أما إن كان الإنسان منافقاً بعيداً عن الإيمان بالله فطاعته لا تقبل . وهَبْ أن الإنسان مؤمن بالله ولكنه ضعيف أمام معصية ما ، هنا نقول : لا شىء يجور على شىء ، إن له ثوابَ إيمانه وعليه عقاب معصيته .

---

(١) عندما ولى عثمان الخلافة ، أتاه ثعلبة فسأله أن يقبل صدقته ، فقال : رسول الله ﷺ لم يقبلها ولا أبو بكر ولا عمر وأنا أقبلها ؟! فلم يقبلها عثمان . انظر : أسباب النزول للواحدى (ص ١٤٥ ، ١٤٦) .

إذن: فالفسق فى هذه الآية الكريمة ليس هو الخروج عن مطلق الطاعة . ولكنه فسق من نوع خاص ؛ لأن هناك فسقاً محدوداً وهو أن يخرج الإنسان عن مجرد تكليف . ولكن الفسق الكبير هو أن يكفر الإنسان بالله. ولذلك جاءت الآية الكريمة التالية :

﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾

إذن: فالفسق نوعان : فسق عام، وفسق خاص . وقد يقول البعض: إنك إن ارتكبت معصية فصلاتك وزكاتك وكل عباداتك لا تنفعك.

ونقول: لا فما دامت القمة سليمة ؛ إيماناً بالله وإيماناً بالرسول عليه الصلاة والسلام وتصديقاً بالمنهج ، فلكل عمل عبادى ثوابه ، ولكل ذنب عقابه ؛ لأن الحق سبحانه مطلق العدالة والرحمة، ولا يمكن أن يضع كل الشرور فى ميزان الإنسان . فمن كان عنده خصلة من خير فسوف يأخذ جائزتها وثوابها ، ومن كان عنده خصلة من شر فسوف ينال عقابها.

وقوله الحق هنا ﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلاَّ أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ ﴾ ، هذا القول الكريم هو حيثية للحكم بعدم قبول نفقاتهم ، وفى هذا تحديد لعموم الفسق وهو الكفر ، لا فى خصوص الفسق ، وحدد الحق ثلاثة أشياء منعت التقبل منهم : الكفر بالله ورسوله وهو كفر القمة ، ثم قيامهم إلى الصلاة وهم كسالى، ثم الإنفاق بكراهية .

ونفهم المنع على أنه رَدُّ الفعل إلى ما ينقض العمل أو ينافيه ؛ كأن يريد إنسان القيام فتُقعده ، أى أنك رددت إرادة القيام إلى القعود ، وهو ما ينافيه ، أو أن يحاول إنسان ضرب آخر فتمنع يده ، فتكون بذلك قد منعت غيره من أن يعتدى عليه . إذن فالمنع مرة يأتى للفاعل ومرة للمفعول . فأنت حين تمنع زيداً من الضرب تكون قد منعت الفاعل، وحين تمنع عنه الضرب تكون قد منعتَ المفعول، وكل فلسفة الحياة قائمة على المنع ، الذى يوجزه الفعل ورد الفعل ، تجد ذلك فى الإنسان وفى الزمان وفى المكان .

وإذا بحثت هذه المسألة فى الإنسان تجد أن حياته تقوم على التنفس والطعام والشراب ، والتنفس هو الأمر الذى لا يصبر الإنسان على التوقف عنه ، فإن لم تأخذ الشهيق انتهت حياتك ، وإن كتمت الزفير انتهت حياتك . وإذا منعت الهواءمن الدخول إلى الرئتين يموت الإنسان ، وإذا منعت خروج الهواء من الرئتين يموت الإنسان أيضاً .

وحركة العالم كله مبنية على الفعل وما يناقضه . فإذا حاول إنسان أن يضرب شخصاً آخر وأمسكتَ يده ، وقلت له: سيأتى أبناؤه أو إخوته أو عائلته ويضربونك ، حينئذ يمتنع عن الفعل خَوفاً من رد الفعل . والعالم كله لا يمكن أن يعيش فى سلام إلا إذا كان هناك خوف من رد الفعل[1] ؛ القوى يواجه قوياً ، والكل خائف من رَدِّ فعل اعتدائه على الآخر . ولكن إذا واجه قوى ضعيفاً ، تجد القوى يفتك بالضعيف .

وهكذا العالم كله ، فالكون إما ساكن وإما متحرك . وتجد الكون المتحرك فيه قوى متوازية تعيش فى سلام خوفاً من رد الفعل . وكذلك تجد العالم الساكن ؛ فالعمارة الشاهقة تستمد ثباتها وسكونها من أن الهواء

(١) وفى هذا يقول رب العزة سبحانه: ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾ [الأنفال : ٦٠] .

لا يأتى من جهة واحدة ، ولكن من جهات متعددة تجعل الضغط متوازناً على كل أجناب العمارة . ولكن لو فرَّغْتَ الهواء من ناحية وجعلته يهب من ناحية أخرى لتحطمت العمارة ، تماماً كما تُفرِّغ الهواء من إناء مغلق فيتحطم .

وقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِلاَّ أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ ﴾ لا يعنى أن ألسنتهم لم تنطق بالشهادة ، لا ، فقد شهد المنافقون قولاً ، ولكن هناك فرق بين قولة اللسان وتصديق الجنان ؛ فالإيمان محله القلب ، والمنافقون جمعوا بين لسان يشهد وقلب ينكر ، فأعطاهم الرسول حق شهادة اللسان ، فلم يتعرض لهم ولم يأسرهم ولم يقتلهم ، وأعطاهم نفس الحقوق المادية المساوية لحقوق المؤمنين ، وكل ذلك احتراماً لكلمة " لا إله إلا الله محمد رسول الله " التى نطقوا بها ؛ ولأن باطنهم قبيح ، فالحق سبحانه يجازيهم بمثل ما فى باطنهم ، ويعاقبهم ، فلا يأخذون ثواباً على ما يفعلونه ظاهراً وينكرونه باطناً . وهكذا كان التعامل معهم منطقياً ومناسباً . فما داموا قد أعطوا ظاهراً ، فقد أعطاهم الله حقوقاً ظاهرة ؛ ولأنهم لم يعطوا باطناً طيباً ، فلم يُعْطِهم الله غيباً من ثوابه وغيباً من جنته وعاقبهم بناره .

ونأتى إلى السبب الثانى فى قوله تعالى : ﴿ وَلا يَأْتُونَ الصَّلاةَ إِلاَّ وَهُمْ كُسَالَىٰ ﴾ والكسل : هو التراخى فى أداء المهمة . إذن فهم يصلون رياءً ، فإن كانوا مع المؤمنين ونُودى للصلاة قاموا متثاقلين . وإن كانوا حيث لا يراهم المؤمنون فهم لا يؤدون الصلاة . إذن فسلوكهم ملىء بالازدواج والتناقض .

والسبب الثالث : ﴿ وَلا يُنفِقُونَ إِلاَّ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴾ والنفقة هى بذل ما عندك من فضل ما أعطاه الله لك ؛ سواء أكان ذلك مالاً أم علماً أم جاهاً

أم قوة ، وهذا ما يحقق التوازن فى المجتمع ؛ لأن كل مجتمع به أعراض كثيرة ، تجد القوى والضعيف ، الغنى والفقير ، العالم والجاهل ، الصحيح والمريض . ولو أن كل إنسان تحرك فى حياته على قدر حاجته فقط لهلك الضعفاء والمرضى والعاجزون والفقراء . ولكن لابد أن يعمل كل إنسان على قدر طاقته ، وليس على قدر حاجته ، ولابد أن يأخذ من ناتج عمله على قدر حاجته ومن يعول ، فأنت تأخذ حاجتك من ثمرة طاقتك ، ثم تفىء على غيرك بفضل الله عليك ، خصوصاً على هؤلاء الذين لا يقدرون على الحركة فى الحياة ، فالصحيح يعطى المريض من قوته ما يعينه على الحياة . والغنى يعطى الفقير من ماله ما يعينه على الحياة . والقادر على الحركة يعطى من لا يقدر عليها ، هذا هو المجتمع المتكافل .

ومثل هذا السلوك هو لصالح الجميع ؛ لأن الغنى اليوم قد يكون فقيراً غداً ، والقوى اليوم قد يكون ضعيفاً غداً ، فلو أحس الإنسان بأنه يعيش فى مجتمع متكافل فهو لن يخشى الأحداث والأغيار . وهذا هو التأمين الصحيح للقادر والغنى ويشعر فيه كل إنسان بالتضامن والتكافل ، فلا ينشغل الفقير خوفاً من الأحداث المتغيرة ، وإن مات فلن يجوع عياله ، وإن افتقر الغنى فسوف يجد المساندة ، وإن مرض الصحيح فسوف يجد العلاج .

إذن : فالنفقة أمر ضرورى لسلامة المجتمع ، ونجد أن السوق توصف بأنها نافقة ، وهى التى يتم فيها بيع كل السلع وشراؤها . فمن أراد أن يبيع باع ، ومن أراد أن يشترى اشترى ، إذن فالحركة فيها متكافئة . وأنت حين تذهب إلى السوق لتبيع أو تشترى ، فإما أن تأخذ مالاً نقدياً مقابل ما بعْتَ ، وإما أن تدفع مالاً ثمناً لما اشتريت . وقديماً كان الإنسان يبادل السِّلعة بسلعة أخرى . وبعد اختراع النقود أصبح الإنسان يشترى السلع بثمن ، ومن ينفق ماله ويقدمه عند الله ، فالحق سبحانه يأتى له بكل خير .

وقد أراد الحق سبحانه للمنافقين العذاب الباطنى فى الدنيا، والعذاب الواقع أمام الكل فى الآخرة ، وبيَّن لهم أن إنفاقهم طَوْعاً أو كَرْهاً لن يأتى لهم بالخير .

ولكن من ينظر إلى المنافقين قد يجد أنهم يستمتعون بالمال والولد . ولا يلتفت الإنسان الناظر إليهم إلى أن المال والولد هما أدوات عذابه . وقد يقول إنسان : إن الله قد قال :

﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. (٤٦) ﴾ [الكهف]

ونقول لمن يقول ذلك : أكمل الآية :

﴿ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً (٤٦) ﴾ [الكهف]

والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ .. (١٥) ﴾ [التغابن]

والله يخاطب رسوله ﷺ، وفى طى هذا الخطاب خطابٌ لجميع المسلمين، وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ (٥٥) ﴾

وإياكم أن تروا واحداً من هؤلاء ممن رزقهم الله المال والولد ثم تقولون: كيف يكون عذابهم فى الدنيا وهم يملكون المال والولد ؟ ومثل هذا التعجب يعنى استحسان المال والولد ، والظن أن فيهما الخير كله ، لكنك إن نظرت

بعمق إلى المال والولد وكل حطام الدنيا فستجده لا يستحق الإعجاب ، وإياك أن تغتر بشيء يمكن أن يتركك ، ويمكن أن يكون سبباً فى عذابك ، فالمال والولد قد يجعلان الإنسان ملتفتاً إلى النعمة ويلهيانه عن المنعم . وإن لم يلتفت الإنسان إلى المنعم لا يذكره . وإن لم يذكر الله أهمل منهجه .

والمال والولد فى الحياة الدنيا قد يكونان سببين فى أن يخاف الإنسان ترك الدنيا . فإن لم يكن لك إيمان بما عند الله فى الآخرة ، فقد تخاف أن يتركك المال أو الولد . والذى لا يؤمن باليوم الآخر ؛ فالدنيا هى كل زمنه ؛ وإن فاتها كان ذلك مصيبة له ، وإن فاتته كان ذلك مصيبة عليه . وإن آمن الإنسان بالله واليوم الآخر لقال : لئن فاتتنى الدنيا فلى عند الله خير منها . ويريد الحق سبحانه أن يمنع عن المؤمنين به فتنة النعمة التى تُلْهِى عن المنعم، فيقول سبحانه:

﴿ فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ ﴾ والآية الكريمة تدلُّنا على أن للمال وحده إعجاباً ، وللأولاد وحدهم إعجاباً، فمن عنده مال معجب بما عنده . ومن ليس عنده مال وعنده أولاد معجب بهم أيضاً . فإذا اجتمع الاثنان معاً يكون الإعجاب أكبر وأشمل . والحق سبحانه وتعالى يريدنا أن نفهم أن اجتماع المال والولد يجب ألا يثير الإعجاب فى نفوسنا ، بل إن سياق الآية يحذرنا من أن نعجب بمن عنده المال وحده ، أو بمن عنده الأولاد وحدهم، لذلك كرر الحق سبحانه وتعالى كلمة : ﴿ لا ﴾ فقال: ﴿ فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ ﴾.

وأفهمنا الحق سبحانه وتعالى أنه إذا أمد الكافرأو المنافق بالمال والولد ؛ فذلك ليس رفعة من شأنه ، وإنما ليعذبه بهما فى الدنيا والآخرة . فقال : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا ﴾ ، واللام هنا فى "لِيُعَذِّبَهُم " هى لام تدخل

على الفعل واسمها "لام العاقبة" . وهى تعنى أننا ربما نقوم بالفعل لهدف معين ، ولكن قد تكون عاقبته شيئاً آخر تماماً غير الذى قصدناه ، بل ربما تكون عكس الذى قصدناه .

وعندما نقرأ القرآن نجد قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ... (٨) ﴾ [القصص]

هل التقط آل فرعون موسى عليه السلام ليكون لهم عدواً ؟ أم ليكون قرة عين لهم ؟

هم قد التقطوه ليكون قرة عين لهم ، ولكن الذى حدث كان عكس ما قصدوه ساعةَ قيامهم بفعل الالتقاط ، فبدلاً من أن يصبح موسى قرة عين ، أصبح عدواً لفرعون ،بل كان سبباً فى زوال مُلْكه ، إذن هذه هى لام العاقبة .

والله سبحانه وتعالى أعطى لبعض الكفار أموالاً وأولاداً ، وهذا فى ظاهره رفعة فى الدنيا ، ولكنهم بدلاً من أن يستخدموا هذه النعمة فى التقرب إلى الله ألهتهم عن الإيمان بالله ، ووصل بهم الأمر إلى أن يدخلهم الحق فى العذاب . ولم يُرِد الحق العذاب لهم، ولكنهم بحركتهم وفتنتهم بالمال والولد استحقوا أن يدخلوا فى العذاب . والعمل غير الشرعى فى تنمية المال أو إرضاء الأولاد هو الذى أوصلهم إلى العذاب .

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ وأول ألوان العذاب : أن تلهيهم تلك النعم عن المنعم . وتبعدهم عن منهج الله فيصيرون فى عداء مع المؤمنين بمنهج الله ، ويخافون إعلان هذا العداء ؛ لذلك حينما كان يرسل الرسول ﷺ فى طلب واحد من المنافقين أو اليهود كانوا يرتعدون

ويتساءلون [١] : هل اكتشف الرسول أمرنا أم كشف الله له بعض خبايانا ؟ وكانوا فى خوف أن يفتضح أمرهم ، فيعاملهم معاملة المشركين ويشردهم .

وثانياً : كانوا يخافون من أن يدخل الرسول ﷺ فى حرب ؛ لأنهم ما داموا قد أعلنوا الإيمان فهم مطالبون ببذل المال ، وأن يذهب أولادهم الذين بلغوا سن القتال مع جيش المسلمين، وكانوا يقولون بينهم وبين أنفسهم : ما لنا نبذل المال ونضحى بالأولاد فى سبيل ما لا نؤمن به . وهم بمشاعرهم تلك يختلفون عن مشاعر المؤمنين الذين يُلبُّون نداء رسول الله طمعاً فى الجنة أو النصر . وهذا لون من ألوان العذاب .

وهناك لون آخر من العذاب : عندما يخرج هؤلاء المنافقون إلى إحدى الغزوات ، فهم يخافون على أنفسهم من القتل أو الأذى بالأسر أو سبى النساء، فيكونون فى عذاب نفسى طوال الرحلة إلى الغزوة وفى أثناء الحرب .

ولون ثالث من ألوان العذاب : أن عابد المال يجمع المال من حرام ومن حلال ، لا يهمه من أين جاء المال ؟ ولكن يهمه أن يأتى ، والذى يكسب حلالاً يكون واضح الحركة فى الحياة ، والذى يكسب حراماً هو لص يخاف أن ينكشف أمام الناس ، ويعيش فى عذاب أليم دائم من أن يأتى يوم يكشف الله ستره فيعرف الناس أنه ارتشى ، أو أنه اختلس ، أو أنه زَوّرَ وَزيَّف . أو أنه فعل شيئاً يُحقّره فى أعين الناس أو يُعرِّضه للعقوبة ؛ كأن يكون قد تاجر فى المخدرات أو فى الأعراض . أو فى غير ذلك ، وخوفه من انكشاف أمره يجعله يعيش فى عذاب دائم وصراع مستمر .

---

(١) قال تعالى : ﴿ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة : ٦٤] . قال مجاهد : يقولون القول بينهم ثم يقولون : عسى الله ألا يفشى علينا سرنا هذا . وقال الحسن : كان المسلمون يسمون هذه السورة الحفارة ؛ لأنها حفرت ما فى قلوب المنافقين فأظهرته . انظر ابن كثير فى تفسيره (٢/ ٣٦٦) والقرطبى (٤/ ٣١٢١) .

وإذا أردنا أن نعرف الفرق بين الحلال والحرام نضرب هذا المثل : أنت إن أعجبك شيء فى بيت جارك ، وطلبته منه وأعطاك إياه ، فأنت لا تخشى أن يعرف الناس ما حدث . ولكن إذا أعجبك شيء فى بيت جارك وأردت أن تسرقه ، فأنت لا تأتى فى النهار ولا أمام الناس ، بل تأتى ليلاً وتحرص على ألا يراك أحد . ولا تدخل من باب الشقة ، بل تظل تدور وتخطط لتجد منفذاً تدخل منه دون أن يراك أحد . وتضع خطة للسرقة . وتدخل المنزل على أطراف أصابعك وأنت ترتعد . فإذا شعرت وأنت تنفذ الخطة بصوت أقدام تنزعج وتجرى لتختبىء وتأخذ الشيء وتكون حريصاً على إخفائه وإن رآه أحد عندك انزعجت ، وكل هذا عذاب يمر به كل من يجمع المال الحرام ، إذن فجمع المال الحرام عذاب .

وكل من يربى أولاده من مال حرام لا يبارك الله له فيهم ، فإما أن ينشأ الواحد منهم عذاباً لأبيه فى تربيته فيرسب فى الامتحانات . ويُتلف المال فى الإنفاق بلا وعى . فكلما أعطيته أكثر احتاج إلى المزيد من المال أكثر . ومثل هذا الابن لا يطيع أباه ، ويكون العذاب الأكبر حينما ينشأ أحد أبناء هذا الإنسان ويكون الابن مؤمناً إيماناً صادقاً بالله ، فيرفض أن يأكل أو يلبس من مال أبيه ، أو أن يناقشه من أين جاء بهذا المال ويسمع منه ما يكره ، ويتمرد دائماً عليه .

وفى عهد رسول الله ﷺ كان أبو عامر عدواً لله ورسوله . وكان ابنه حنظلة [1] مؤمناً ، وكلما رأى أبو عامر ابنه كان قلبه يغلى بالغيظ ، وعندما نودى للقتال ، وسمع حنظلة نداء الجهاد بعد أن فرغ من الاستمتاع مع زوجته [2] فلم يصبر إلى أن يغتسل من الجنابة ، بل سارع إلى الحرب

(١) هو : حنظلة بن الراهب عبد عمرو بن صيفى الأوسى وكنية أبيه أبو عامر ، وحنظلة من أهل الصُّفَّة .
(٢) جاء فى مستدرك الحاكم (٣/ ٢٠٤) أن هذه كانت أول ليلة له مع زوجته ، وترك جنيناً فى أحشائها ولد عام ٤ هـ هو عبد الله ، أصبح من أعلام التابعين وشجعانهم ، ولاه أهل المدينة أمرهم فقاتل جيش يزيد ابن معاوية قتالاً شديداً حتى قتل عام ٦٣ هـ . انظر الأعلام للزركلى (٤/ ٩٩) .

مع رسول الله ﷺ واستشهد فى المعركة . ولكن كيف عرف الصحابة قصة حنظلة ، مع أن هذه المسألة تكون سراً بين الرجل وزوجته لا يعرفه أحد ؟ لقد عرف المؤمنون بخبر حنظلة حين رأى رسول الله ﷺ بإشراقات الله أن الملائكة تنزل من السماء وتُغسِّل حنظلة . ولما كان الشهيد لا يُغسل[١] ، فقد عرف الرسول ﷺ أن هذا ليس غُسْلاً من الشهادة ، وإنما هو غُسْل حتى لا يُقبلَ الشهيد على الله وهو جُنُب ، رأى الرسول ﷺ ما حدث لحنظلة ، وعندما عاد إلى المدينة بعث إلى زوجة حنظلة وسألها : ماذا حدث ساعة خروج حنظلة إلى المعركة؟ فقالت: إنه عندما سمع نداء القتال ، خرج بدون غُسْل[٢] . وتأمل كيف نزلت الملائكة لتغسل شهيداً هو ابن عدو لله ورسوله . وكيف يكون هذا غَيْظاً فى قلب الأب.

وقصة أخرى : سيدنا عبد الله بن عبد الله بن أبىّ ؛ والده عبد الله بن أبىّ كان زعيم المنافقين فى المدينة، وهو الذى انسحب يوم أحد ومعه ثلث المقاتلين من المعركة [٣]. ويسمع عبد الله أن صحابة رسول الله ﷺ ، يطلبون منه الإذن بقتل والده ابن أبىّ ، انظروا إلى الإيمان . فها هو الابن يذهب إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام، ويقول له : يا رسول الله إن كنتَ آمراً

---

(١) عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال فى شهداء أحد : أنا شهيد على هؤلاء يوم القيامة . وأمر بدفنهم فى دمائهم ، ولم يغسلوا ولم يصل عليهم . . أخرجه البخارى فى صحيحه (١٣٤٣) وأبو داود (٣١٣٨) ، والترمذى (١٠٣٦) وابن ماجه (١٥١٤) والنسائى (٤/ ٦٢) فى سننهم . وقد أخرج أحمد فى مسنده عن جابر أيضاً (٣/ ٢٩٩) : « لا تغسلوهم فإن كل جرح أو كل دم يفوح مسكاً يوم القيامة ولم يصل عليهم » .

(٢) أخرجه أبو نعيم فى حلية الأولياء (١/ ٣٥٧) والحاكم فى المستدرك (٣/ ٢٠٤) وصححه والبيهقى فى دلائل النبوة (٣/ ٢٤٦) والبيهقى فى سننه الكبرى (٤/ ١٥) أن رسول الله ﷺ قال : « إن صاحبكم - يعنى حنظلة - لتغسله الملائكة ، فاسألوا أهله ما شأنه » فسئلت صاحبته فقالت : خرج وهو جنب حين سمع الهاتفة . فقال ﷺ : « لذلك غسَّلته الملائكة » .

(٣) قال ابن إسحاق : حتى إذا كانوا بالشوط - بين المدينة وأحد - انخزل عنه عبد الله بن أبى بن سلول بثلث الناس ، وقال : أطاعهم وعصانى (يقصد محمداً ﷺ) ، ما ندرى علام نقتل أنفسنا ههنا أيها الناس ؟ فرجع بمن اتبعه من قومه من أهل النفاق والريب . انظر سيرة النبى لابن هشام (٣/ ٨) .

بقتل أبى فأمرنى أنا بقتله ؛ حتى لا ألقى قاتله من المسلمين وفى قلبى غلٌّ عليه[١] . وعندما يسمع الأب أن ابنه يطلب أن يكون هو قاتله ، أليس هذا عذاباً فى قلبه؟ وهكذا نرى أن الأموال والأولاد الذين كان من المفروض أن يكونوا نعمة يصبحون نقمة ، أليس هذا عذاباً فى الدنيا ؟

ولكن غير المؤمنين لا يلتفتون إلى واهب النعمة، ولا إلى الجزاء الذى ينتظرهم فى الآخرة ، ولا يتنبهون إلى حكمة الخلق التى تؤكد أن الإنسان خليفة الله فى الأرض، وأن الله قد أعدَّ الأرض بكل ما فيها من إمكانات ومن خيرات لتكون فى خدمة هذا الخليفة ، أى: أنه أقبل على عالم كامل من كل شىء ؛ معداً له إعداداً فوق قدراته وطاقاته .

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى فى حديث قدسى : « خلقتُ الأشياء من أجلك، وخلقتُك من أجلى ، فلا تشتغل بما هو لك عما أنت له » .

أى: لا تشتغل بالنعمة عن المنعم ، تماماً كما يدخل الإنسان إلى وليمة كبيرة ، فيجد المائدة مُعدَّة بكل ألوان الطعام ، وصاحب المائدة واقف فلا يحييه ولا يسلم عليه ويذهب مباشرة إلى الطعام ، فيُحسُّ الناس أن هذا الإنسان جاحد بكرم الضيافة . بينما نجد رجلاً آخر يدخل فيسلم على صاحب الوليمة ويشكره على كرمه ويشيد به ، الأول: انشغل بالنعمة ، والثانى: لم يُنْسه انشغاله بالنعمة أن يشكر مَنْ أعدها له .

ومثال آخر: إن الصحة هى من أثمن النعم. أما المرض فإنه أقسى ما يمكن أن يصاب به الإنسان ؛ لأن الصحة هى التى تجعل الإنسان يتمتع بنعم الحياة ، أما المرض فيحرمه هذه النعمة . ولذلك فعندما يمرض الإنسان

(١) أورده ابن كثير فى تفسير آية ﴿ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ ﴾ [المنافقون: ٨] بنحو ألفاظه وعزاه لابن إسحاق .

يعوضه الله بأنه بدلاً من أن يكون فى معيّة النعمة ، يكون فى معيّة المنعم وهو الله سبحانه. ولذلك يقول فى حديث قدسى :

«عبدى فلان مرض فلم تَعُدْنى . فيقول له: يا رب وكيف أعودك وأنت رب العالمين ؟ فيقول له: أما علمْتَ أنك لو عُدته لوجدتنى عنده » (١)

قولوا لى بالله: أيضيق أى مريض عندما يعرف أن الصحة كانت نعمة من الله وفارقته ، ولكن المرض جعله مع المنعم، وهو الله سبحانه وتعالى ؟ لا ،بل إن ذلك يخفف عنه وطأة المرض ، ويجعله يشعر أن الأنْسَ بالله يخفف عنه الآلام . لكنك للأسف تجد الإنسان غير منطقى مع نفسه ، فالعالم خُلق من أجل الإنسان . والإنسان خُلق ليعبد الله . ولكنك تجده لا يلتفت لما خُلق من أجله ، بل يلتفت للأشياء التى خُلقت له . وقد كان من المنطقى أن ينشغل بما خُلق من أجله .

وإذا أخذنا مثلاً منطق الإنسان مع الزمن ، نجد أن الزمن إما أن يكون حاضراً أو ماضياً أو مستقبلاً . فإذا أردنا أن نذهب إلى ما لا نهاية نقول: إن الزمن حاضر وأزلى وأبدى . والأزلي: هو القديم بلا بداية . والأبد: هو المستقبل بلا نهاية . والحاضر: هو ما نعيش فيه .

والوجود الذى تراه أمامك خلقه الحق سبحانه واجبُ الوجود وبكلمة «كن» جاء كل «ممكن الوجود»؛ لأن كل وجود يحتاج إلى مُوجد هو وجود ممكن ، وسيأتى له عدم . أما الوجود غير المحتاج إلى موجد فهو وجود

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٥٦٩) من حديث أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله عز وجل يقول يوم القيامة : يا ابن آدم مرضت فلم تعدنى . قال : يا رب كيف أعودك وأنت رب العالمين ؟ قال : أما علمت أن عبدى فلاناً مرض فلم تعده . أما علمت أنك لو عدته لوجدتنى عنده ؟ » الحديث .

لا ينتهى. أى: أن واجب الوجود هو وجود الله وحده سبحانه وتعالى . ولذلك فهو وجود أزلى قديم بلا نهاية ، وأبد باقٍ بلا نهاية . وبذلك فهو يخرج عن الزمن .

نأتى بعد ذلك إلى المخلوقات الممكنة ، أى التى لها مُوجدٌ ، وهى كل ما فى الكون ما عدا الله سبحانه وتعالى ، ومنها هذه الدنيا التى يعبدها بعض الناس من دون الله ، هذه الدنيا ليس لها أزل ولا أبد ، فالدنيا لم توجد إلا عندما خلق الله السماوات والأرض ، أى ليس لها وجود بلا نهاية . ولكن كان وجودها ببداية . إذن فهى ليست أزلاً ، وهى ليست أبداً لأنها تنتهى بيوم القيامة .

ولذلك لا يجتمع فى قلب المؤمن حب الله وحب الدنيا ؛ لأن الله أزل وأبد، والدنيا لا أزل ولا أبد ، بل عمر الدنيا بالنسبة للإنسان هى بمقدار عمره فيها . وقبل ميلاده لا علاقة له بها ، وبعد الموت لا علاقة له بها . وحتى إذا أخذنا الدنيا فى عمومها فإن لها بداية ونهاية، فكيف يمكن أن يجتمع فى قلب المؤمن حب من لا بداية له ولا نهاية ، وحب من له بداية ونهاية ؟ لا يجتمعان .

ولذلك قال شيخنا الزمخشري[1] رضى الله عنه : ما دام هذا الكون فيه وجود ، يكون الوجود: إما واجباً ،وإما ممكناً . والوجود الواجب لله وحده . والوجود الممكن هو كل ما عدا الله ، ولا يوجد أزل ولا أبد إلا للحق سبحانه وتعالى .

---

(١) هو : أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشرى من أئمة العلم بالدين والتفسير واللغة . ولد فى زمخشر عام ٤٦٧ هـ . أشهر كتبه : الكشاف فى تفسير القرآن - أساس البلاغة كان معتزلى المذهب . توفى ٥٣٨ هـ الأعلام للزركلى (٧/ ١٧٨) .

فإذا قلنا: إن هناك وجوداً فيه أزل وليس فيه أبد ، نقول: إن هذا ممتنع عقلاً؛ لأن الذى لا تكون له بداية لا تكون له نهاية . أى: يكون دائم الوجود.

إذن: فيبقى أن يكون الوجود له أبد وليس له أزل، أى: له بداية وليس له نهاية. ونقول: إن هذا يجتمع فى اثنتين ؛ الآخرة والإنسان ؛ الإنسان له بداية هى تاريخ خَلْقه ، وليس له نهاية ؛ لأنه بعد أن يموت يبُعَثُ مرة أخرى ، إما أن يخلد فى النعيم ، وإما أن يُعذَّبَ قليلاً ، ويدخل الجنة وإمّا يخلد - والعياذ بالله - فى النار .

وكذلك الآخرة لم يأت زمنها بعد . إذن فهى لم تبدأ بعد ، ولكنها متى بدأت فليس لها نهاية ؛ لأن هناك حياة أبدية فى الجنة أو فى النار . إذن: فالإنسان والآخرة اشتركا فى شىء واحد ، ولابد أن يربط الإنسان نفسه بالآخرة ؛ فالذى يأخذ الدنيا إنما أخذ شيئاً له بداية ونهاية ، ولكن الذى يطبق منهج الله ويعبده عن حب واختيار أخذ مَنْ لا بداية له ولا نهاية له . والذى عمل للآخرة ، عمل لما لا نهاية له أو للذى سيخلد فيه ، وتكون فيه حياته الحقيقية .

ولذلك حين نقرأ قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٦٤)﴾ [العنكبوت]

نعرف أن الحياة الحقيقية هى فى الآخرة وليست فى الدنيا ؛ لأن الغايات فى أى شىء يجب أن تكون متساوية ، فمثلاً: إذا أردنا أن نصنع كُرْسياً . فالغرض من الكرسى أن نجلس عليه . إذن: فكل الكراسى مهما اختلفت أشكالها وألوانها لها غاية واحدة وهى أن نجلس عليها . والإنسان غايته

لابد أن تكون متساوية . وما دُمْنَا أفراداً لجنس واحد فلا بد أن تكون لنا غاية واحدة : ما هى ؟ أهى الصحة ؟ بعضنا مريض . أهى القدرة ؟ بعضنا عاجز . أهى طول العمر ؟ بعضنا عمره فى الدنيا ساعات .

وإذا استعرضنا كل ما فى الدنيا فلا نجد شيئاً نتفق فيه إلا الموت ، وفيما عدا ذلك فنحن نختلف . إذن فلا بد أن نلتفت فى حياتنا الدنيا من أول يوم إلى أننا سوف نموت ونلقى الله ، وعلينا أن نعد العدة لذلك ، وكلنا سائرون إلى هذه النهاية .

والحق سبحانه وتعالى يقول فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها :

﴿ فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ لم يقف عز وجل عند هذا الحد ، بل قال سبحانه : ﴿ وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾

و﴿ تَزْهَقَ ﴾ أى تخرج بصعوبة ، لماذا ؟ لأن عابد الدنيا عمل من أجلها فقط . ولم يعمل شيئاً من أجل الآخرة ، فعندما يأتى له الموت ، يجد أنه لم يقدم شيئاً لآخرته ، وأن ما ينتظره هو العذاب ، ولذلك يكره أن يترك نعيم الدنيا إلى عذاب الآخرة . أما صاحب الأعمال الطيبة عندما يأتى له الموت فهو يستبشر ؛ لأن الذى ينتظره خير يفوق كل الذى سيتركه . كمثل إنسان يعيش فى كوخ صغير ثم ينتقل إلى قصر فاخر ، ألا يكون سعيداً ؟ وكذلك المؤمن عندما يأتيه الموت يصبح كالذى ينتقل من كوخ صغير إلى قصر فاخر . أما صاحب الدنيا فمثل الذى يؤخذ من قصر إلى نار محرقة ، ولذلك فهو يكره ساعة الموت [١] .

---

(١) عن عائشة قالت قال رسول الله ﷺ : « من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه . ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه . فقلت : يا نبى الله أكراهية الموت ؟ فكلنا نكره الموت . فقال : « ليس كذلك . ولكن المؤمن إذا بشر برحمة الله ورضوانه وجنته أحب لقاء الله فأحب الله لقاءه . وإن الكافر إذا بشر بعذاب الله وسخطه كره لقاء الله ، وكره الله لقاءه » . أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٦٨٤) والترمذى فى سننه (١٠٦٧) وقال : حسن صحيح.

والمؤمن يفرح حين ينتقل من الدنيا الفانية إلى الحياة الخالدة الباقية ، ومن النعمة إلى المنعم ، ومن الحياة بالأسباب إلى الحياة مع المسبِّب ، فنحن فى الدنيا لابد أن نأخذ بالأسباب لنصنع ما نريد ، والمثال: أنك إنْ أردت أن تأكل فلا بد من أن تطهو الطعام أو أن يُعدّه لك غيرك ، وإنْ أردتَ أن تلبس فلا بد لك ممن يصنع لك القماش ويحيك الثوب . ووراء كل نتيجة توجد سلسلة طويلة من الأسباب . فهناك الذى يزرع، والذى يحصد، والذى ينقل إلى المطحن أو إلى المصنع ، والذى يطحن الدقيق أو ينسج القماش ، أما فى الآخرة فلا توجد أسباب ، بل بمجرد أن يخطر الشيء على بالك تجده أمامك ، أليست هذه حياةَ نعيمٍ ؟

إذن : فالذى تنفرج أساريره ساعة الموت هو المؤمن [1] ، والذى ينقبض وجهه ويتشنج عندما يأتيه مَلَكُ الموت هو الكافر والعاصى ؛ لأنه سينتقل من نعيم حتى ولو كان نسبيا إلى عذاب رهيب .

وقد قيل للإمام على رضى الله عنه : يا إمام، أريد أن أعرف نفسى أأنا من أهل الدنيا أم من أهل الآخرة ؟ فقال الإمام علىّ : الله أرحم من أن يجعل جواب هذا السؤال عندى وجعل جواب السؤال عندك أنت ، إن كنت تحب من يدخل عليك وهو يريد أن يأخذ منك أكثر مما تحب من يدخل عليك وهو يريد أن يعطيك هدية تكون من أهل الآخرة .

أى : إذا دخل عليك إنسان يطلب صدقة أو مالاً فاستقبلته بترحاب وتحية وتعطيه وأنت مسرور تكون من أهل الآخرة ؛ لأنك تعرف أنه أخذ منك فى الفانية ما يحمله لك أجراً فى الآخرة التى تعمل من أجلها ، ولذلك تحبه .

(١) قال الحسن البصري : لا راحة للمؤمن إلا في لقاء الله ، ومن كانت راحته في لقاء الله تعالي فيوم الموت يوم سروره وفرحه وأمنه وعزه وشرفه . (انظر : إحياء علوم الدين ٤/ ٤٦٥) .

أما إن كنت تحب من جاء يعطيك هدية أكثر ممن جاء يسألك تكون من أهل الدنيا ؛ لأن معطى الهدية يزيدك فى دنياك . وما دُمْتَ تفرح بذلك أكثر من فرحك بالذى يزيد آخرتك فأنت من أهل الدنيا.

ويقال: إن فلاناً أحسن الله خاتمته لأنهم دخلوا عليه لحظة الموت فوجدوا وجهه أبيض وملامحه سمحة مستريحة . نقول : إن هذا صحيح ، فهذه لحظة لا يكذب الإنسان فيها على نفسه . ونحن نعلم أن الإنسان حين يشتد عليه المرض فهو يتشبث بالأمل فى أن ينال الشفاء على يد طبيب بارع. لكن الأمر يختلف ساعة الاحتضار حين يعلم الإنسان أن الموت يتخلله وأنه ميت لا محالة، مصداقاً لقول الحق سبحانه:

﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾﴾ [الواقعة]

ويرى ما كان محجوباً عنه فى الدنيا . حينئذ يستعرض أعماله . فإنْ رأى شريط الحياة حُلْواً منيراً ، ابتسم وانفرجتْ أساريره [1] فيُقبَضُ على هذا الوضع . أما من امتلأت حياته بالسوء والمعاصى فوجهه يسوَدّ وتنقبض أساريره فيُقبض على هذا الوضع . وهذا ما نسميه الخاتمة ، فلحظة الاحتضار فيها يقين بالموت ، تماماً كساعة الامتحان حيث تجد التلميذ الخائب مصفر الوجه مرتعداً ومتشنجاً، أما التلميذ المجتهد فيكون مُبتسماً مُنْفرجَ الأسارير .

وفى ساعة الاحتضار يخلو الذهن من أى شىء إلا صحيفة عمله ، فهى التى تبقى فى بؤرة شعوره ، وبؤرة الشعور هى المكان الذى إن استقر فيه شىء فإنه لا يُنسَى أبداً . فإذا عرف طالب قبل الامتحان بفترة قصيرة،

(١) الأسارير : هى الخطوط التى فى الجبهة من التكسر فيها ، فإذا ضحك الإنسان انفرجت هذه الخطوط دليلاً على فرحه وسروره .

أن هناك سؤالاً سيأتى فى جزء معين من الكتاب وأمسك هذا الجزء وقرأه مرة واحدة تجد أنه وهو يقرؤه لا يفكر فى شىء آخر غيره ، ومجرد قراءته مرة تجعله يجيب الإجابة المتميزة ؛ لأن بؤرة الشعور مثل آلة التصوير، تأخذ صورة ما ترى مرة واحدة . إذن : فساعة الالتقاط هذه حيث لا شىء يشغل الذهن ، تجد أن الشعور لا يتسع إلا لخاطر واحد ، فلا يأتى خاطر آخر إليها إلا إذا تزحزح الخاطر الأول عنها .

ولذلك إذا سمعتَ شيئاً وحفظتَهُ من أول مرة ، فهذا دليل على أن بؤرة شعورك كانت خالية ومستعدة ساعة التقاط هذا الشىء. كذلك عند الموت ساعة الاحتضار لا يجد الميت فى بؤرة شعوره خاطراً آخر يناقض أو يزاحم أمر الآخرة ، فإن كانت حياته خيِّرة أشرق وجهه وانفرجت أساريره ، وإن كانت حياته سيئة انقبضت أساريره واسودَّ وجهه والعياذ بالله .

وقوله تعالى : ﴿ وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ يعطينا معنيين : المعنى الأول: أن النعمة تظل معهم تلهيهم عن الله حتى تأتى ساعة الموت . والمعنى الثانى: أن ساعة الموت تكون شاقة وصعبة على الكافر والمنافق ؛ لأنه يترك الأموال والأولاد ويذهب إلى العذاب .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾

لماذا أتى الله بهذه الآية بعد أن حذرنا من أن نُعجَبَ بأموال المنافقين وأولادهم ؟ لأن هذه ليست نعمة لهم ولكنها نقمة عليهم ، وأراد الحق

سبحانه وتعالى أن يشحننا ضد المنافقين وأن يجعلنا نحذر منهم كل الحذر ، ويضرب لنا المثل باليمين ، واليمين لا ينطق بها الإنسان عادة إلا بعد شبهة إنكار . فإذا جئت لإنسان بخبر وصدَّقه فأنت لا تضطر لأن تحلف له . ولكن إذا أنكره فأنت تحلف لتزيل شبهة الإنكار من نفسه ، ولذلك فأنت حين تروى الخبر لأول مرة لا تحلف ، فإن أنكره سامعك حلفْتَ .

ولكن لماذا يحلف المنافقون دون سابق إنكار ؟

إنهم يسمعون القرآن الذى ينزل من السماء مملوءاً بالغضب عليهم ، وهم يشعرون فى داخل صدورهم أن كل مسلم فى قلبه شك من ناحية تصرفاتهم، فيبدأون كلامهم بالحلف حتى يُصدِّقهم المؤمنون (١)، والمؤمنون قد متَّعهم الله بمناعة إيمانية ، فى صدورهم ؛ فلا يصدقون ما يقوله المنافقون، حتى يأخذوا حِذْرهم ويكونوا بمنجاة مما يدبره هؤلاء المنافقون من أذى ، ولذلك حذر سبحانه وتعالى المؤمنين من تصديق كلام المنافقين حتى ولو حلفوا .

ولو لم يُعْطِ الله المؤمنين هذه المناعة الإيمانية لصدَّقوا قولَ المنافقين بقداسة اليمين . وبماذا حلف المنافقون ؟ لقد حلفوا بأنهم من المؤمنين والحقيقة أنهم فى مظاهر التشريع يفعلون كما يفعل المؤمنون ، ولكن قلوبهم ليس فيها يقين أو صدق .

وما داموا على غير يقين وغير صدق ، فلماذا يحلفون ؟ نقول : إن هذا هو تناقض الذات ، وأنت تجد المؤمن غيْرَ متناقض مع نفسه ؛ لأنه مؤمن بقلبه ومؤمن بذاته ، ومؤمن بجوارحه ، ولا توجد مَلَكَاتٌ تتناقض فيه ،

(١) وفى ذلك يقول عز وجل : ﴿ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[المنافقون : ٢] جنة : أى وقاية .

والكافر أيضاً غير متناقض مع نفسه ؛ لأنه يعلن صراحة أنه لا يؤمن بالله ولا برسوله ، فليس هناك تناقض بين ظاهره وباطنه ، صحيح أن فيه ملكة واحدة ، ولكنها فاسدة ، ولكن ليس فيه تناقض بين ما يفعل ظاهراً وما فى قلبه .

أما المنافق فتتناقض ملكاته . فهو يقول بلسانه : "أنا مؤمن وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله" . لكن قلبه يناقض ما يقوله ، فلا يشهد بوحدانية الألوهية لله ، ولا يصدق رسالة رسوله ﷺ .

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى فى سورة « المنافقون » :

﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (١) ﴾ [المنافقون]

كيف يقول الحق سبحانه وتعالى ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾ ، مع أنهم شهدوا بما شهد به الله ، وهو أن محمداً ﷺ رسول الله ؟ نقول : إن الحق أراد أن يفضحهم ، فهم قد شهدوا بألسنتهم فقط ولكن قلوبهم منكرة . وفضح الله ما فى قلوبهم وأوضح أن ألسنتهم تكذب ؛ لأنها لا تنقل صدق ما فى قلوبهم .

إذن : فالمنافق يعيش فى تناقض مع نفسه ، وهو شر من الكافر ؛ لأن الكافر يعلن عداءه للدين فهو عدو ظاهر لك فتأخذ حذرك منه . أما المنافق فهو يتظاهر بالإيمان ، فتأمن له ويكون إيذاؤه أكبر ، وقدرته على الغَدْرِ أشد . ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ... (١٤٥) ﴾ [النساء]

ونحن نعلم أن تناقض الذات هو الذى يتعب الدنيا كلها ، ويبين لنا المتنبى هذه القضية، ويشرح كيف أنها أتعبُ شىءفى الوجود ، فيقول :

وَمِنْ نَكَدِ الدُّنْيا علَى الحرِّ أنْ يَرَى
عَـــدوّا له مَا مِنْ صَـــداقته بُـدُّ

هذا هو تناقض الملكَات حين تجد عدواً لك، وتحكم عليك الظروف أن تصادقه . وفى ذلك يقول شاعر آخر :

عَلَى الـذَّمِّ بِتْنَا مُجْمعِـــينَ وحـــالُنَا
مِنَ الخوْفِ حَالُ المجْمعين عَلىَ الحمْدِ

وشاعر ثالث يريد أن يصور التناقض فى المجتمع الذى يجعل الناس يمجدون هذا وهم كارهون له ، فيقول :

كَفَـــانَا هَـــواناً مِـــنْ تناقُـضِ ذَاتنا
متى تَصْدُقُ الأقوالُ بالألسُنِ الخُوَّفِ

إذن : فالمنافقون يحلفون بألسنتهم بأنهم من المؤمنين ، وهم كذلك فى ظاهر التشريع ، ولكنهم ليسوا منكم فى حقيقتهم ، فهم فى قلوبهم ليسوا منكم .

ويكمل الحق سبحانه وتعالى الصورة بقوله :

﴿ وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَـكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴾ والفَرَق معناه : الخوف ، أى أنهم فى فزع دائم ، ويخافون أن يُفتضَحَ أمرهم فيعزلهم مجتمع الإسلام ويحاربهم محاربته للكفار . ويُشرِّدهم ويأخذ

أموالهم ويَسْبى نساءهم وأولادهم. إذن: فالخوف هو الذى جعلهم يحلفون كذباً وخوفاً من افتضاح أمرهم ؛ ولذلك قال الحق لرسوله ﷺ عنهم:

﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ... (٣٠) ﴾ [محمد]

وفى هذا القول دعوة لفحص ما يقوله أهل النفاق ، حتى وإنْ بَدا القول على ألسنتهم جميلاً (١).

ثم يقول الحق جل وعلا :

﴿ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ (٥٧) ﴾

والملجأ: هو ما نلجأ إليه ليحمينا من الأذى مثل الحصون ، وكذلك المغارة وهى الكهف فى الجبل . والمدَّخَل: هو شىءيشبه النفق تحت الأرض تدخل فيه بمشقة والتواء ، إذن : فهناك ثلاثة ملاجىء يفرُّون إليها إنْ وُجدوا فى المعركة ؛ لأنهم يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم . وهم يتمنَّوْن الذهاب إلى مكان بعيد ؛ ليسبُّوا الإسلام على ما هم فيه من مشقة القتال ، وهم لا يستطيعون أن يفعلوا ذلك أمام المسلمين ؛ لذلك تجدهم فى حالة بحث عن مكان لا يسمعهم فيه أحد .

(١) وفى هذا يقول تعالى عن المنافقين ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ﴾ [المنافقون: ٤] . قال الكلبى: المراد عبد الله بن أبى وجد بن قيس ومعتب بن قشير ، كانت لهم أجسام ومنظر وفصاحة . أما لحن القول المذكور فى آية سورة محمد ، أى : لتعرفنهم يا محمد فى معنى الكلام وفحواه ودلالته غير الظاهرة .

﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَئًا أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلاً لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ فالكلام إذن عن المنافقين الذين ذكر الحق أوصافهم ، وعهودهم التى نقضوها ، وحَلِفهم كذباً ، وما يعيشه كل منهم من تناقض مَلَكاته ، ذلك التناقض الذى يورثه الشقاء ؛ لأن كل واحد منهم يُظهِرُ غير ما يبطن ويخاف من انكشاف أمره . فيظل مضطرباً لأن ما بداخله يتناقض مع واقع حياته .

إن هذه الحالة هى عكس حالة المؤمن الذى يعيش حياة منسجمة ؛ لأن ما فى قلبه هو ما يحكيه لسانه ، فضلاً عن انسجامه بالإيمان مع الكون الذى يعيش فيه، وكذلك فحالة المنافق تختلف عن حالة الكافر ، فالكافر قد أعلن الكفر الذى فى قلبه بلسانه . أما المنافق فله قلب يكفر ولسان ينطق كذباً بالإيمان. ولذلك فهو فى تعب مستمر من أن ينكشف أمره ، أو يعرف المؤمنون ما فى قلبه ؛ لأنه يُكِنّ الحقد لمنهج الله وإن كان يعلن الحب ظاهراً.

والإنسان إذا اضطر أن يمدح من يعاديه وأن يتظاهر له بالحب، فإن هذا السلوك يمثل ثقلاً نفسياً رهيباً يحمله على ظهره ، وهكذا نرى أن المنافقين يُتعبون أنفسهم قبل أن يُتعبوا المجتمع ، تماماً كالرجل البخيل الذى يتظاهر بأنه كريم، وكلما أنفق قرشاً ليؤكد هذا التظاهر فإن هذا القرش يذبحه فى نفسه ويسبب له آلاماً رهيبة . وحتى يرتاح الإنسان مع الدنيا لا بد أن يرتاح مع نفسه أولاً ويتوافق مع نفسه .

ومن هنا نجد المنافقين حين يريدون أن يُنفِّثوا عما فى صدورهم ، فهم يختَلُون ببعضهم بعضاً بعيداً عن أعين وآذان المسلمين ؛ليُظهروا ما فى نفوسهم من حقد وغلّ وكراهية لهذا الدين، ويبحثون عن ملجأ يكونون آمنين فيه ، أو مغارة فى الجبل بعيداً عن الناس حتى لا يسمعهم أحد ،

أو مُدَّخلاً وهو المكان الضيق الذى لا تستطيع أن تدخل فيه إلا بصعوبة . هم إذن يبحثون عن مكان يغيبون فيه عن سَمْع المؤمنين وأنظارهم ليُخرِجوا الكراهية المحبوسة فى صدورهم ، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَئًا أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلاً لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴾ و﴿وَلَّوْا ﴾ أى: انطلقوا إليه وقد شغلهم الإسراع للذهاب إلى المكان عن أى شىء آخر ، ﴿ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴾ والجماح هو أن تفقد السيطرة على الفرس الذى تركبه ، فلا تقدر على كَبْح جماحه أو التحكم فيه ، فينطلق بسرعة ، وحين يقال هذا عن الإنسان فهو يعنى الانطلاق بسرعة إلى المكان الذى يقصد إليه ولا يستطيع أحدٌ منعه ، وإنْ تعرض له أحد دفعه بعيداً لينطلق فى طريقه بسرعة .

والآية هنا تعطينا صورة دقيقة لحالة المنافقين فى أى معركة . فبمجرد بَدْء القتال تجدهم لا يتجهون إلى الحرب ، ولا إلى منازلة [١] العدو ، ولا يطلبون الاستشهاد ، ولكنهم فى هذه اللحظة التى يبدأ فيها القتال يبحثون عن مكان آمن يهربون إليه ، أو مغارة يختبئون فيها ، أو مُدَّخل فى الأرض ينحشرون فيه بصعوبة ليحميهم من القتال . فإذا انتهت المعركة خرجوا لينضموا إلى صفوف المسلمين ، ذلك أنهم لا يؤمنون . فكيف يقاتلون فى سبيل دين لا يؤمنون به ؟ ولذلك كنت تجدهم فى المدينة إذا نودى للجهاد فهم أول من يحاول الهروب ويذهبون للقاء النبى ﷺ طالبين التخلف عن المعركة ، ويقول الواحد[٢] منهم:

﴿ ائْذَن لِّي وَلاَ تَفْتِنِّي... (٤٩) ﴾ [التوبة]

(١) المنازلة : هى تقاتل الفرسان وهم فوق جيادهم دون النزول إلى الأرض.
(٢) هو الجد بن قيس، وقد سبق الكلام عليه فى تفسير الآية المذكورة.

وفى الصدقة يحاولون التشكيك فى توزيع الصدقة وكيف يتم ؛ فيقول الحق سبحانه وتعالى عنهم :

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾

وإذا جلسوا مع بعضهم البعض تجدهم يحاولون النَّيْل من رسول الله ﷺ بغرض إيذائه ولمزه، ويقول الله سبحانه وتعالى عنهم :

﴿ وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ ﴾ [التوبة]

هذه بعض صفات المنافقين التى يفضحهم الله بها بكشفها للمؤمنين . وقد جاء الحق سبحانه لنا بمزيد من الكشف لقبائحهم وفضائحهم . فقال فيهم :

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [التوبة]

كلنا أيضاً نقرأ قول الله سبحانه :

﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ ﴾ [الهمزة]

فما هى الهُمَزة وما هى اللُّمَزة ؟

«الهمزة» : هو من يعيب فى الآخرين عيباً خفياً ويسخر منهم خفية ، ويكون ذلك بإشارة من عينه أو بأى حركة من جوارحه، ومثال هذا: حين تكون هناك مجموعة من الناس جالسين ، ويحاول أحدهم النَّيْل من أحد الحضور خفية ، فيغمز بطرف عينه لإنسان آخر ، أو يكون باللسان هَمْساً فى أذن إنسان أو بأى طريقة أخرى ، المهم أن يُشَار إلى العيب بطريقة خفية لا يلحظها معظم الحاضرين .

أما اللُّمَزة فهم العيَّابون فى غيرهم فى حضورهم . فهناك القوى الذى يكشف العيوبَ بشجاعة وصراحة وهو اللمَّاز، أما الضعيف فهو يعيب خفية وهو الهمَّاز. واللمزة تطلق على من يعيب كثيراً فى الناس .

وهمزة لمزة ، من صيغة المبالغة "فُعَلَة" وتدل على كثرة فعل الشىء. فتقول "فلان أكَلة" - بضمة على الألف -أي: يأكل كثيراً . وفلان ضُحكة -بضمة على الضاد - أى: كثير الضحك .

إذن: فاللّمزة هى كثرة العيب فى الغير ، وهى تدل على ضعف من يقول بها ، ولو لم يكن ضعيفاً لقال ما يريد بصراحة .

والحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى الصَّدَقَاتِ ﴾ واللمز كما عرفنا هو البحث عن العيب، وهو هنا مظروف فى شىءهو الصدقات. وكان بعض من المنافقين يغتابون تشريع الصدقة ، وكانوا يعيبون أن يتعب الغنى ويشقى فى الحصول على المال ثم يأخذ الفقير المال بلا تعب، فهل يعيبون التشريع نفسه ؟ أم يعيبون كمية الصدقات المفروضة عليهم ويرونها كثيرة ؟ أم يعيبون حثَّ الله للناس على الصدقة ؟ أم يعيبون الطريقة التى يتم

بها صرف الصدقة للفقراء، وأن بعضهم يُعطَى كثيراً وبعضهم يُعطَى قليلاً ؟ لقد كانوا يعيبون فى كل هذه الأمور أو بعضها.

إذن: فاللمز إما أن يكون فى التشريع ، وإما أن يكون فى كمية الصدقات أو فى طريقة الصرف ، والحادثة التى وقعت ونزلت فيها هذه الآية الكريمة كانت فى مصارف الصدقة ، فقد قام حرقوص بن زهير، وهو رأس الخوارج، وهو ابن ذى الخويصرة ، وقال : اعدل يا محمد . فقال رسول الله ﷺ: ويلك ! ومَنْ يعدل إنْ لم أعدل ؟ قد خبت وخسرت إن لم أعدل . فقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : يا رسول الله إئذن لى فيه أضرب عنقه. فقال رسول الله ﷺ:

« دعه ، فإن له أصحاباً يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم . يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم . يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية . يُنظَر إلى نَصْله فلا يوجد فيه شىء، ثم يُنظر إلى رصافه فلا يوجد فيه شىء، ثم ينُظر إلى نَضيِّه وهو قدحه فلا يوجد فيه شىء، ثم يُنظر فى قُذَذه فلا يوجد فيه شيء. سبق الفرْثَ والدم . آيتُهم رجل أسود إحدى عضَديه مثل ثدى المرأة . أو مثل البضعة تَدرْدَرُ ، يخرجون على حين فُرْقة من الناس » (١)

(١) - لا يجاوز تراقيهم : أى لا يجاوز حلوقهم وحناجرهم فلا يصل إلى قلوبهم . والتراقى جمع ترقوة ، وهى العظم بين ثغرة النحر والرقبة .
- الرمية : أى الشىء الذى يصاب بالسهم إذا رماه صاحبه .
- النصل : الجزء الحاد فى السهم نفسه .
- الرصاف : مدخل النصل من السهم .
- النّضىّ : السهم بلا نصل ولا ريش .
- الفرث : ما فى داخل الكرش من فضلات .
- البضعة : قطعة اللحم .
- تدردر : تتحرك وتضطرب .

قال أبو سعيد الخدرى : فأشهد أنِّى سمعت هذا من رسول الله ﷺ ، وأشهد أن على بن أبى طالب رضى الله عنه قاتلهم وأنا معه . فأمر بذلك الرجل -أى الرجل الأسود- فالتُمس فوُجد فأتِى به ، حتى نظرتُ إليه على نَعْتِ رسول الله ﷺ الذى نعت (١).

ويقول الحق سبحانه موضحاً حال هؤلاء ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ أى: أن هؤلاء الناس إنْ أعْطوا من الصدقة كانوا راضين مُهلِّلين ، وإنْ لم يُعْطَوْا منها ملأ قلوبهم السخط ، وبدأوا باللَّمْز . إذن : فالكمية المعطاة لهم من الصدقة كانت هى أساس اللمز .

ومثل هذا قد حدث فى غزوة حنين. فقد وزع رسول الله ﷺ الغنائم على قريش وأهل مكة ، ولم يُعْطِ الأنصار شيئاً .

فلما لم يُدخل ﷺ الأنصار فى هذه القسمة ، استاء بعضهم من ذلك، فجمعهم رسول الله ﷺ وقال لهم :

« ألا ترضون أن يرجع الناس بالشاة والبعير ، وترجعون أنتم برسول الله ؟ المحيا محياكم والممات مماتكم، ولو سلك الناس شِعْباً وسلك الأنصار شِعْباً لسلكتُ شِعْبَ الأنصار » (٢)

وهنا بكى الأنصار، وعرفوا أنهم سيعودون بما هو أكبر كثيراً من الغنائم؛ سيعودون بصحبة رسول الله ﷺ. وقد يعطى رسول الله ﷺ حَديثَ عَهْد بالإسلام شيئاً من الصدقة ليربطه بهذا الدين ، وقد يعطى لتأليف القلوب ، وقد يعطى لفقير تأبى عزة نفسه أن يعترف أمام الناس بحاجته .

(١) متفق عليه . أخرجه البخارى (٦١٦٣ ، ٦٩٣٣) ، ومسلم (١٠٦٤) كتاب الزكاة حديث (١٤٨) من حديث أبى سعيد الخدرى واللفظ لمسلم .

(٢) حديث صحيح سبق تخريجه مراراً كثيرة .

ولذلك كانت لرسول الله ﷺ ملاحظ فى توزيع الصدقات والغنائم ، قد لا يلحظها أحد . وكان الواجب على المسلمين أن يقبلوا عمل رسول الله ﷺ؛ لأن سلوكه هو الحكم ، ولابد أن نقبله .

ففى الحديبية مثلاً حيث حدث عهد بين رسول الله ﷺ وبين كفار قريش بألا يتعرض أحد منهم للآخر مدة عشرة أعوام (١) ، هذا الصلح أثارغضب عدد من المؤمنين وقالوا لرسول الله ﷺ: أنرضى بالدنية فى ديننا؟ أى: كيف نعطيهم هذه العهود وهى مجحفة بالنسبة لنا ؟ حتى إن عمر بن الخطاب رضى الله عنه انفعل وأراد أن يقسو فى الكلام وقال لرسول الله عليه الصلاة والسلام : ألستَ على حق يا رسول الله ؟ فقال له أبو بكر : الزم غرزك يا عمر -أى اعرف مكانك- إنه رسول الله (٢). وبعد أن مرت فترة من الزمن وعرف المسلمون الحكمة من صلح الحديبية ، وما أتاحه هذا الصلح للإسلام من انتشار وقوة أدت إلى فتح مكة ، قال أبوبكر رضى الله عنه : ما كان نصر فى الإسلام أعظم من نصر الحديبية .

---

(١) لهذا الصلح شروط أخرى ذكرتها كتب السيرة والتفاسير :

١- أن يرجع رسول الله ﷺ وأصحابه فلا يدخلون مكة معتمرين هذا العام .

٢- يعودون العام التالى للاعتمار ولكن بدون سلاح إلا السيوف فى أغمادها فيقيم بمكة ثلاثاً ويخرج .

٣- هدنة مدة عشر سنوات .

٤- من ذهب إلى المسلمين من الكافرين مسلماً رجلاً أو امرأة رد إلى الكفار .

٥- من جاء من المسلمين إلى الكفار مرتداً لم يردوه إلى المسلمين .

وحديث صلح الحديبية حديث صحيح طويل أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٧٣١ ، ٢٧٣٢) من حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم ، وأخرجه مسلم فى صحيحه (١٧٨٥) من حديث سهل ابن حنيف .

(٢) قال عمر بن الخطاب : أتيت نبى الله ﷺ فقلت : ألست نبى الله حقاً ؟ قال : بلى . قلت : ألسنا على الحق وعدونا على الباطل ؟ قال : بلى . قلت : فلم نعطى الدنية فى ديننا إذاً ؟ قال : إنى رسول الله ولست أعصيه ، وهو ناصرى . قلت : أو ليس كنت تحدثنا أنَّا سنأتى البيت فنطوف به ؟ . . . وذهب عمر إلى أبى بكر فقال له نحو هذا فقال له أبو بكر : أيها الرجل ، إنه لرسول الله ، وليس يعصى ربه ، وهو ناصره، فاستمسك بغرْزِه فوالله إنه على الحق . (فتح البارى ٥/ ٣٣٢) . أى: استمسك بأمره واترك المخالفة له ﷺ .

ولكن المسلمين فى هذا الوقت لم يُحطْ فكرهم بما بين محمد وربه؛ لأن العباد دائماً يعجلُون ، والله لا يعجل عجلة العباد حتى تبلغ الأمور ما أراد.

وقد أراد الحق سبحانه وتعالى أن يُهدِّىء نفوس المؤمنين ، وقبل أن يصلوا إلى المدينة عائدين بعد صلح الحديبية ، نزل قوله تعالى :

﴿ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِى رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٢٥) ﴾ [الفتح]

وهكذا أطلع الله المؤمنين على علَّة قبول صلح الحديبية وعدم القتال مع المشركين فى هذا الوقت وذلك المكان ، فقد كان هناك مؤمنون فى مكة يكتمون إيمانهم ويعيشون فى مجتمع المشركين الذين يمكنهم البطش بهؤلاء المسلمين لو علموا بوجودهم . كما أن المسلمين القادمين مع رسول الله ﷺ لا يعرفون هؤلاء المؤمنين ، فإذا قامت المعركة فقد يقتل المسلم مسلماً ، لأن الذين قدموا من المدينة لو دخلوا مع أهل مكة فى قتال فقد يقتلون بعضاً من إخوانهم فى الإيمان الموجودين فى مكة ، فهم لا يعرفونهم . ولو كان المؤمنون فى ناحية والكفار فى ناحية لَعذَّب الحقُّ الكفار بأيدى المؤمنين عذاباً أليماً .

إذن: فقد علم رسول الله من ربه سراً ولم يُعْلِنْه إلا لوقته ، رغم تعجُّل من كانوا معه ﷺ .

ومثل هذا يحدث فى حياتنا ، فقد نجد مؤمناً يدعو الله ولا تجاب دعوته. وعلى هذا المؤمن ألا يحزن ، بل عليه أن يعلم أنه قد يكون فى عدم الإجابة خير لا يعلمه. وأن من رحمة الله أنه لم يُجبْ هذه الدعوة ، مثلما تحمى ابنك الشاب من أن يحمل سلاحاً ؛ خوفاً من أن يتهور فى أى مشاجرة ويقتل أحداً ، رغم أن السلاح معه حماية له ،ولكنه أسلوب حماية قد يحمل الضرر ، وقد يؤدى إلى عواقب وخيمة .

وحين تدعو الله ولا يجيب دعاءك، فَثِقْ أنه سبحانه يحميك من نفسك ؛ لأنك لا تعلم والله سبحانه وتعالى يعلَم . فقد تدعو بشىء تحسبُه خيراً والله سبحانه يعلم أنه شر . إذن : فعدم إجابة هذه الدعوة هو عين الإجابة لها [1].

الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾

والسخط هو: عدم الرضا فى القلب ، ثم يتعدى ذلك إلى اللسان ، مثلما قال حرقوص بن زهير لرسول الله ﷺ : اعدل يا محمد. أى: أنه سخط بقلبه أولاً ، ثم أساء بلسانه ثانياً .

وساعة يعرض الحق سبحانه لنا الداء فى المجتمع الإيمانى فهو جل وعلا يعطى الدواء الذى يحمى المجتمع من هذا الداء ، وهؤلاء الناس كانوا

(١) عن أبى سعيد الخدرى أن النبى ﷺ قال : « ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث : إما أن تعجل له دعوته ، وإما أن يدخرها له فى الآخرة ، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها . قالوا : إذاً نكثر . قال : الله أكثر ». أخرجه أحمد فى مسنده (٣/ ١٨) والحاكم فى مستدركه (١/ ٤٩٣) وصححه والطبرانى فى الصغير (٢/ ٩٢) .

يعيبون تشريع الصدقة ، رغم أنهم إنْ أعطوا منها رضوا ، وإن لم يُعطوا سخطوا ، إذن : فموازينهم مُختلة ،وليست موازين حق ثابت ، بل هى موازين هوى النفس ، لكن موازين الحق لا تتبع ولا تتوقف على هوى النفس ، بل هى موازين ثابتة يعدل فيها الإنسان حتى مع ألدِّ أعدائه (١).

ولكن هؤلاء الناس تختلف انفعالاتهم باختلاف مصلحتهم ، إذا أخَذُوا رضُوا ، وإذا مُنِعُوا سخِطوا ؛ لأن ميزانهم هو المصلحة الخاصة البعيدة عن كل عدل .

وهنا يأتى الحق سبحانه وتعالى بالعلاج فيقول جل جلاله :

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾

كيف يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ مَا آتَاهُمُ ﴾ مع أنهم لم يأخذوا شيئاً ، بل إنهم قد سخطوا ؛ لأنهم لم يأخذوا شيئاً .

نقول : إن الله يريد أن يلفتهم إلى أن له عطاء فى المنح وعطاء فى المنع . فعطاء الحق سبحانه لمن أخذ ، وحرمان الحق سبحانه للبعض ، كل ذلك فيه عطاء من الحق جل وعلا ، ولكن الناس لا يلتفتون إلى ذلك . ورسول الله ﷺ حين منع الغنائم عن الأنصار فى حنين أخذوا المعية مع رسول الله عليه أفضل الصلاة والسلام، وهذا أكبر وأسْمَى من الغنائم ، وقال لهم رسول الله ﷺ :

(١) وفى هذا يقول سبحانه : ﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾ [المؤمنون : ٧١] .

« المحيا محياكم، والممات مماتكم . لو سلك الناس شِعْباً وسلك الأنصار شِعْباً لَسلكْتُ شِعْب الأنصار » (١) .

وبذلك أخذوا ما هو أكبر وأهم وأعظم من الغنائم . إذن فقد يكون فى المنع إيتاء .

• الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴾ وهو عز وجل المشرِّع ، والرسول عليه الصلاة والسلام هو المبلِّغ والمنفِّذ ، فإذا ما رَضُوا بقسمة الله ، فالرِّضاء عمل قلبى كان عليهم أن يترجموه بكلام نزوعى هو: ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ ﴾ فكأن الرضا عمل القلب ، والتعبير عن الرضا عمل اللسان، وما داموا قد احتسبوا الأمر عند الله ، فالله هو الذى يرعى، وفى عطائه خير وفى منعه خير . ولذلك نجد الطيبين من الناس إن غُلبُوا على أمرهم يقولون : إن لنا رباً ، أى : إياك أن تفهم أنك حين منعتنى أو أخذت حقى بأن اعتديت عليّ ستمضى بهذا الفعل دون عقاب ؛ لأن لى رباً يغار علىّ ، وسبحانه سيُعوِّضنى أكثر مما أخذت ، ويجعل ما أخذته منى قَسْراً ؛ نقمة عليك.

ولذلك فأهم ما يجب أن يحرص عليه المؤمن ليس هو الصلة بالنعمة ولكن الصلة بالمنعم . وفى أن الله هو القادر على أن يُعوِّض أى شىءيفوت .

ويوضح لنا سبحانه الصورة أكثر فيقول : ﴿سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ أى سيعوضنا عنها بخير منها . وعطاء الله دائماً فضل ؛ لأنه يعطى الإنسان قبل أن يكون قادراً على عبادته ، حتى وهو فى بطن أمه لا يقدر على شىء ، فإذا كنت فى الدنيا قد فكرت بالعقل الذى خلقه لك الله ، وعملت بالطاقة

(١) حديث صحيح سبق تخريجه مراراً .

التى خلقها لك الله ، وفى الأرض التى خلقها الله ، فإنك فى بطن أمك لم تكن قادراً على أى شىء. وحين تخرج وتنمو وتكبر فأنت تحيا فى كون ملىء بنعم الله ، لم تخلق فيه شيئاً ، ولم تُوجد فيه خيراً . وإنما جئت إلى الكون وهو كامل النعم ، فلا أنت أوجدت الأرض ولا صنعتَ الشمس، بل إن نعمة واحدة من نعم الله ، وهى المطر؛ إن توقفت هلك كل من فى الأرض . ونلمس أثر ذلك حين تأتى مواسم الجفاف فى أى منطقة من العالم ، ونرى كيف يهلك كل شىء؛ الزرع والإنسان والحيوان .

والحق سبحانه وتعالى قد خلقنا فى عالم أغيار ، فالقادر اليوم قد يصبح غير قادر غداً ، والصحيح اليوم قد يصبح مريضاً معلولاً غداً ، والقوى يضعف ، حتى نعرف أن ما نملكه من قدرة وقوة ليست أموراً ذاتية فينا ، ولكنها منحة من الله ؛ يأخذها وقتما يشاء ، ونرى القوى الذى كان يفتك بيده ويؤذى بها غيره ويُذلُّ الناس بها . نراه وقد أصيبت يده ، فلا تصل إليها الأوامر من المخ فتُشَل . إذن : فقدرة أى إنسان ليست ذاتية فيه، بل هى من فضل الله سبحانه وتعالى ، وكل شىء فى الكون هو من فضل الله .

والحق سبحانه وتعالى يقول:

﴿ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴾ ويقال: رغب فى كذا أى أراده، ويقال: رغب عن كذا ، أى ترك هذا الأمر . ويقال: رغب إلى كذا أى سار فى الطريق نحوه . وهنا قال الحق :﴿ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴾ وما دُمْنا إلى الله راغبين ، كان يجب ألا نعزل عطاء الدنيا عن عطاء الآخرة، فالدنيا ليست كل شىء عندك؛ ما دُمْتَ راغباً إلى الله الذى سيعطيك نعيماً لا حدود له فى الآخرة . ولذلك فرغبتنا فى الله كان يجب ألا تجعلنا نسخط على نعيم فاتنا فى الدنيا ؛ لأن هناك نعيماً بلا حدود ينتظرنا فى الآخرة .

وأراد الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك أن يبين مصارف الصدقة حتى يعرف هؤلاء الراغبون فى متاع الدنيا هذه المصارف ويتعرفوا إلى حقيقة الأمر ، وليتبينوا هل هم يستحقون الصدقة أم لا ، فقال جل جلاله :

﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾ ﴾

وعندما تسمع كلمة ﴿ إِنَّمَا ﴾ فافهم أنه يُرَادُ بها القصر ، فإن قلتَ : إنما الرجل زيد ، أى : أنك قصرت الرجولة على زيد . وإن قلتَ : إنما الكريم حاتم ، تكون قد قصرت الكرم على حاتم . وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ ﴾ معناها : أن الصدقات محصورة فى هؤلاء ولا تتعداهم .

فمن هم هؤلاء الذين حصر الحق سبحانه وتعالى فيهم الصدقة ؟ وما المراد هنا بالصدقة ؟ هل هى صدقة التطوع أو الزكاة ؟

نقول : ما دام الحق سبحانه وتعالى قد حدد لها مصارف فهى الزكاة ، ولسائل أن يسأل : لماذا لم يَقُل الحق سبحانه وتعالى الزكاة وقال الصدقة ؟

ونقول : ألا ترى - فى المجتمعات غير الإيمانية الملحدة - أن من الناس مَنْ يفكرون فى إنشاء مؤسسات اجتماعية لرعاية الفقراء ؟ إن عطف الإنسان على أخيه الإنسان هو أمر غريزى خلقه الله فينا جميعاً ، ولذلك

كان يجب أن نفهم أن الزكاة صدقة ، ولو لم يشرعها الله لكان يجب أن يقدمها الإنسان لأخيه الإنسان . وحوادث الكون كلها تدل على صدق وصف الحق سبحانه وتعالى للزكاة بأنها صدقة ؛ لأنها تأتى تطوعاً من غير المؤمن وغير الملتزم بالتشريع ، ويحس القادر بالسعادة وهو يعطى لغير القادر ، وهى غريزة وضعها الله فى خلقه ليخفف من الشقاء فى الكون .

وهنا يقول الحق : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ ﴾ وقد احتار العلماء فى ذلك ، فقال بعضهم : إن الفقير هو الذى لا يجد شيئاً فهو مُعدم. والمسكين هو من يملك شيئاً ولكنه لا يكفيه ، وعلى هذا يكون المسكين أحسن حالاً من الفقير ، واستندوا فى ذلك إلى نص قرآنى فى قوله تعالى :

﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ ... (٧٩) ﴾ [الكهف]

وما دام هؤلاء المساكين يملكون سفينة إذن فعندهم شىء يملكونه . ولكن العائد الذى تأتى به السفينة لا يكفيهم .

ولكن بعض العلماء قالوا عكس ذلك ، ورأوا أن المسكين هو مَنْ لايملك شيئاً مطلقاً ، والفقير هو الذى يجد الكفاف .وعلى هذا يكون الفقير أحسن حالاً من المسكين ، ولا أعتقد أن الدخول فى هذا الجدل له فائدة ؛ لأن الله أعطى الاثنين . . الفقير والمسكين . وكلمة "فقير" معناها الذى أتعبت الحياةُ فَقَار ظهره أى فقرات ظهره ، وحاله يغنى للتعبير عنه ، والمسكين هو الذى أذهلته المسكنة.

ثم يأتى بعد ذلك : ﴿ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا ﴾ أى : الذين يقومون بجمع الصدقات ويأخذونها ممن يعطيها ويضعونها فى بيت المال ، ونلاحظ هنا أن ﴿ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا ﴾ جاءت مطلقة ؛ فلم تحدد هل يستحق الصدقة مَنْ كان

يجمعها وهو فقير ، أو مَنْ كان يجمعها وهو غير محتاج . ونقول : إن جمع الصدقة عمل ، ولوقلنا : إن غير المحتاج ويعمل فى جمع الصدقة لا يجب أن يأخذ أجراً ، هنا يصبح عمله لوناً من التفضل ، وما دام العمل تفضُّلاً فلن يكون بنفس الكفاءة التى يعمل بها ، إذا كان العمل بالأجر . وأيضاً حتى لا يُحرَم المجتمع من جامع صدقة ذكى نشيط ؛ لأنه غير محتاج ، ولكن نعطيه أجراً ليكون مسئولاً عن عمله ، والمسئولية لا تأتى إلا إذا ارتبطت بالأجر .

والعامل على جمع الصدقة إنما يعمل لصالح الدولة الإيمانية ، فهو يجمع الصدقات ويعطيها للحاكم أو الوالى الذى يوزعها . وفى هذا مصلحة لمجتمع المسلمين كله . خصوصاً إن كانت الصدقة توزع من بيت المال فلا يتعالى أحد على أحد ، ولا يذل أحد أمام أحد ، وفى هذا حفظ لكرامة المؤمنين ؛ لأن من يأخذ من غير بيت المال سيعانى من انكسار يده السُّفْلى .

ومن يعطى لغير بيت المال قد يكون فى عطائه لون من تعالى صاحب اليد العليا ، وكذلك فإن أولاد الفقير لن يروا أباهم وهو ذاهب إلى رجل غنى ليأخذ منه الصدقة ويُصَاب بالذلة والانكسار . ولا يرى أولاد الغنى هذا الفقير وهو يأتى إلى أبيهم ليأخذ منه الصدقة ؛ فَيتعالَوْنَ على أبناء الفقير . فإن أخذ الفقراء الصدقة من بيت المال ، كان ذلك صيانة لكرامة الجميع ، وإن حدث خلاف بين غنى وفقير فلن يقول الغنى للفقير : أنا أعطيك كذا وكذا، أو يقول أولاد الغنى لأولاد الفقير : لولا أبونا لَمُتُمْ جوعاً .

إذن : فقد أراد الحق سبحانه بهذا النظام أن يمنع طغيان المعطى ، ويمنع - أيضاً - ذلة السؤال ، فالكل يذهب إلى بيت المال ليأخذ أو يعطى . وحين يذهب الفقير ليأخذ من بيت المال بأمر من الوالى فلا غضاضة ؛ لأن كل المحكومين تحت ولايته مسئولون منه .

ثم يأتى الحق إلى فئة أخرى فيقول : ﴿وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ وهم من يريد الإسلام أن يستميلهم ،أو على الأقل أن يكفوا آذاهم عن المسلمين . وكان المسلمون فى الزمن الأول للإسلام ضعافاً لا يقدرون على حماية أنفسهم. وعندما أعز الله دولة المسلمين بالقوة والعزة والمكانة، منع الخليفة عمر بن الخطاب إعطاء المؤلفة قلوبهم نصيباً من الزكاة؛ لأنه لم يجد أن قوة الإسلام تحتاج أحداً غير صحيحى الإيمان ؛ لذلك لم يدخلهم عمر بن الخطاب فى فئات الزكاة (١).

وقول الحق سبحانه : ﴿وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ يثير سؤالاً : هل يُؤلَّف القلب ؟ . نقول : نعم ، فالإحسان يؤلف قلب الإنسان السَّوى ، وكذلك يؤلف جوارح الإنسان غير السوى ، فلا يعتدى على من أحسن إليه باللسان أو باليد .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ ومعناها العبيد الذين أُسروا فى حرب مشروعة . وكانت تصفية الرق من أهداف الإسلام ؛لذلك جعل من مصارف الزكاة تحرير العبيد . وبعض من الناس يدَّعُون أن الإسلام جاء بالرق وأقره . ونقول : لم يأت الإسلام بالرق ؛ لأن الرق كان موجوداً قبيل البعثة المحمدية ، وجاء الإسلام بالعتق ليصفى الرق ، فجعل من فَكِّ الرقبة كفارة لبعض الذنوب (٢) . وجعل من مصارف الزكاة عتق العبيد . وقد نزل القرآن وقت أن كانت منابع الرق متعددة .

---

(١) أسقط عمر سهمهم فى الصدقات لما رأى من إعزاز الدين . وهو أيضاً قول الحسن البصرى والشعبى وغيرهما. وقال الزهرى : لا أعلم نسخاً فى ذلك . وقال ابن العربى : إن قوى الإسلام زالوا ، وإن احتيج إليهم أعطوا سهمهم . انظر تفسير القرطبى (٤/ ٣١٠٦) .

(٢) وهذا مثل قتل المؤمن خطأ ، قال تعالى : ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَئًا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَن يَصَّدَّقُوا ..﴾ [النساء:٩٢] وكذلك كفارة اليمين قال تعالى : ﴿فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ...﴾ [المائدة: ٨٩]

وكان من المعتاد فى تلك الأيام أن المدين الذى يعجز عن سداد ما عليه من دَيْن ، فالدائن يأخذه أو يأخذ أحد أبنائه كعبد له .

وإذا فُعلَتْ جناية ، فالجانى يأخذ العفو من المجنى عليه مقابل أن يعطيه أحد أولاده عبداً . وإذا سُرق شىءفإن السارق لا يعاقب ، بل يعطى أحد أولاده عبداً للمسروق منه . وكان الأقوياء يستعبدون الضعفاء ؛ فيخطفون نساءهم وأولادهم بالقوة ويبيعونهم فى سوق الرقيق ، وهكذا كانت منابع الرق فى العالم متعددة ، ولا يوجد إلا مصرف واحد هو إرادة السيد ؛ إن شاء حرر وإن شاء لم يحرر .

وقد كان الرق موجوداً فى أوروبا وفى آسيا وفى أفريقيا ووُجد أيضاً فى أمريكا . إذن : كانت هناك منابع متعددة للرق ؛ ومصرف واحد هو إرادة السيد ، وقد كان الرق يتزايد ، وجاء الإسلام والعالمُ غارق فى الرق ، لماذا ؟

لأن الرق فى ذلك الوقت كان يشبه حوضاً تصب فيه صنابير متعددة ، وليس له إلا بالوعة واحدة . ولم يعالج الإسلام المسألة طفرة واحدة ، شأن معظم تشريعات الله ، ولكنه عالجها على مراحل ، تماماً كتحريم الخمر حين بدأ التحريم بالمنع عند الصلاة ، فقال الحق سبحانه وتعالى :

﴿ لاَ تَقْرَبُوا الصَّلاَةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ . . (٤٣) ﴾ [النساء]

ثم حرمها تحريماً قاطعاً (١) .

---

(١) مَرَّ تحريم الخمر بثلاث مراحل :
١ - ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا . . . (٢١٩) ﴾ [البقرة]
٢ - ﴿ لا تَقْرَبُوا الصَّلاَةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ . . . (٤٣) ﴾ [النساء]
٣ - ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ (٩١) ﴾ [المائدة]

وحين جاء الإسلام ليعالج قضية الرق ويحرر الإنسان من العبودية ، بدأ بإغلاق مصادر الرق . وجعل المصدر الوحيد هو الحرب الإيمانية المشروعة من ولى الأمر . أما كل الوسائل والألوان الأخرى من أبواب الرق ، كأن يتم استعباد أحد كعقوبة جنائية أو لعجزه عن تسديد دَيْن أو غير ذلك ، فقد أغلقها الإسلام بالتحريم . أما ناحية المصرف فلم يجعله مصرفاً واحداً هو إرادة السيد، بل جعله مصارف متعددة ؛ فالذى يرتكب ذنباً يعرف أن الله لن يغفر له إلا إذا أعتق رقبة ، ومن حلف يميناً ويريد أن يتحلل منها ؛ يعتق رقبة . فإذا لم يفعل هذا كله وأراد أن يحسن إحساناً يزيد من أجره عند الله ؛ أعتق رقبة (١) .

وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿فَلاَ اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (١١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (١٢) فَكُّ رَقَبَةٍ (١٣)﴾ [البلد]

وهكذا جعل الإسلام مصارف كثيرة لتصفية الرق حتى ينتهى فى سنوات قليلة ، ثم وضع بعد ذلك ما يُنهِى الرق فعلاً ، وإنْ لم يُنْهِه شكلاً .

فإذا كان عند أى سيد لون من الإصرار على أن يستبقى عبده ، فلا بد أن يُلبسه مما يلبس ، ويُطعمه مما يَطْعم ، فإن كلَّفه يعينه(٢) . وهكذا أصبح الفارق متلاشياً بين السيد وعبده .

وحين ألغتْ بعض الدول الإسلامية الرقَّ بالقانون ، ذهب الرقيق إلى أسيادهم وقالوا : دعونا نعش معكم كما كنا . وهم قد فعلوا ذلك لأن

(١) وفى فضل العتق يقول ﷺ : « من أعتق رقبة مسلمة أعتق الله بكل عضو منه عضواً منه من النار حتى فرجه بفرجه » متفق عليه من حديث أبى هريرة . أخرجه البخارى (٦٧١٥) ومسلم (١٥٠٩) .

(٢) عن أبى ذر أن رسول الله ﷺ قال : « هم إخوانكم ، جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن جعل الله أخاه تحت يده فليطعمه مما يأكل ، وليلبسه مما يلبس ، ولا يكلفه من العمل ما يغلبه ، فإن كلفه ما يغلبه فليعنه عليه» متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٠٥٠) ومسلم فى صحيحه (١٦٦١) .

حياتهم مع أسيادهم كانت طيبة . وهكذا ألغى الإسلام فوارق الرق كلها ، وأصبحت مسألة شكلية لا تساوى شيئاً .

ولكن بعض الناس يتساءل : وماذا عن قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ .. (٣٦) ﴾ [النساء]

نقول : افهم عن الله ، فهذا الأمر لا يسرى إلا إذا كانت المرأة المملوكة مشتركة فى الحرب ، أى : كانت تحارب مع الرجل ثم وقعت فى الأَسْر ، والذى يسرى على الرجل فى الأسر يسرى عليها ، ثم من أى مصدر ستعيش وهى فى بلد عدوة لها ؛ إنَّ تركها فى المجتمع فيه خطورة على المجتمع وعليها. كما أن لهذه المرأة عاطفة سوف تُكْبتُ ، فأوصى الإسلام السيد بأنه إذا أحب هذه الأمَة فلها أن تستمتع كما تستمتع زوجة السيد ، وإن أنجبت أصبحت زوجة حرة وأولادها أحراراً [1]، وفى هذا تصفية للرق .

ويقول الحق سبحانه وتعالى عن لون آخر من مستحقى الزكاة : ﴿ وَالْغَارِمِينَ ﴾ والغارم : هو من استدان فى غير معصية ، ثم عجز عن الوفاء بدَيْنه . ولم يمهله صاحب الدَّيْن كما أمر الله فى قوله تعالى :

﴿ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ .. (٢٨٠) ﴾ [البقرة]

ولم يسامحه ولم يتنازل عن دَيْنه ، وفى هذه الحالة يقوم بيت المال بسداد هذا الدَّيْن . لكن لماذا هذا التشريع ؟

لقد شاء الحق إعطاء الغارم الذى لا يجد ما يسد به دَيْنه حتى لا يجعل الناس ينقلبون عن الكرم وعن إقراض الذى يمر بعسر ، وبذلك يبقى اليُسْر

(١) وهى ما يسمى فى الشرع « أم ولد » ، وهى الأمة تصير حرة إذا ولدت من سيدها ، وله أن يستمتع بها ما دام حياً ، فإذا مات فهى حرة . انظر نيل الأوطار (٦/ ٩٦ - ٩٩) .

فى المجتمع ، وتبقى نجدة الناس للناس فى ساعة العسرة ، فلا يمتنع أحد عن إعطاء إنسان فى عسرة ؛ لأنه يعلم أنه إن لم يدفع فسيقوم بيت المال بالسداد من الزكاة. أو : أن الغارم هو الذى أراد أن يصلح بين طرفين ، كأن يكون هناك شخصان مختلفان على مبلغ من المال ، فيقوم هو بفضِّ الخلاف ودَفْع المبلغ ، ثم تسوء حالته ؛ لأنه غرم هذا المال بنخوة إيمانية ، فنقول له : خذ من بيت المال حتى يشيع فى النفوس تصفية الخلافات وإشاعة الحب بين الناس . إذن : فالغارم هو المستدين فى غير معصية ولا يقدر على سداد الدين، أو المتحمِّل لتكلفة إصلاح ذات البَيْن بين طرفين ، وهو مستحق لهذا اللون من المال .

ويقول الحق سبحانه: ﴿ وَفِى سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ . يقول جمهور الفقهاء: إنها تنطبق على الجهاد [1]؛ لأن الذى يضحى بماله مجاهداً فى سبيل الله ، لو لم يعلم أن الجهاد باب يدخله الجنة لما ضَحَّى بماله ، وعندما تضحى بالمال أو النفس فى سبيل الله يكون هذا من يقين الإيمان . فلو لم تكن على ثقة أنك إذا استشهدت دخلت الجنة ما حاربت . ولو لم تكن على ثقة بأنك إذا أنفقتَ المال جهاداً فى سبيل الله دخلتَ الجنة ما أنفقت .

والإسلام يهدف إلى أمرين : دين يبلَّغ ومنهج يُحقَّق ، والمجاهد فى سبيل الله أسوة لغيره من المؤمنين . والأسوة فى الإسلام هى التى تُقوِّيه وتُثبِّته فى النفوس ؛ لأنها الإعلام الحقيقى بأن ما تعطيه من نفسك أو مالك لله ستجازى عنه بأضعاف أضعاف ما أعطيت .

(١) قال القرطبى من المفسرين (٤/ ٣١١٠) : « ﴿وَفِى سَبِيلِ اللَّهِ﴾ هم الغزاة وموضع الرباط ، يعطون ما ينفقون في غزوهم كانوا أغنياء أو فقراء . وهذا قول أكثر العلماء . وهو تحصيل مذهب مالك رحمه الله . وقال ابن عمر : الحجاج والعمار » .

﴿وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أيضاً كل ما يتعلق بمصارف البر مثل : بناء المساجد والمدارس والمستشفيات[١] .

ثم يقول سبحانه موضحاً لمصرف جديد من مصارف الصدقة والزكاة : ﴿وَابْنِ السَّبِيلِ﴾، ونحن نعلم أن كل إنسان ينسب إلى بلده . فهذا دمنهورى وهذا طنطاوى ، إلى آخره حسب البلد الذى هو منه . ولكن لنفرض أن إنساناً مشى فى الطريق فى غير بلده فإلى من تنسبه وأنت لا تعرف بلده ؟ تنسبه إلى الطريق فيصبح : ابْن السَّبِيلِ ؛ لأن السبيل هو الطريق . وهذا الإنسان الغريب عن بلده لابد أن تعينه حتى يصل إلى بلده ، وإنْ وجد الإنسان مَنْ يعينه فى هذه الحالة ، فسوف يشجع ذلك سفرالشباب إلى الدول الأخرى لطلب الرزق ، وأيضاً هناك من يسافرليزداد خبرة أو يسافر للسياحة ، وهناك من يسافر للتجارة، وقد يكون غنياً ولكنه قد يفقد ماله فى الطريق . ويريد الحق سبحانه أن يكفل عباده وهم غرباء من أى مفاجأة قد تجعلهم فى عسر ، فالذين سافروا سياحة مثلاً ثم أصيبوا بكارثة أوجب الحق مساعدتهم ، والذين سافروا طلباً للرزق ولم يُوفَّقوا أوجب الله سبحانه وتعالى مساعدتهم ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى يريد من عباده أن يسيروا فى الأرض ليروا آياته ، وليبتغوا الرزق ، إذن: فابن السبيل هو كل غريب صادفته ظروف صعبة، ولا يجد ما يعود به إلى بلده.

ثم يقول الحق سبحانه :﴿ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ﴾ أى: أن كل من حدد الله سبحانه وتعالى استحقاقه للصدقة إنما يستحقها بفرض من الله ، فالصدقة فريضة للفقراء ، فريضة للمساكين ، فريضة للعاملين عليها ، والمؤلَّفة قلوبهم وفى الرِّقاب ، والغارمين ، وفى سبيل الله ، وابن السبيل .

(١) قال الزبيدى فى شرحه لإحياء علوم الدين (٤/ ٢٥٠) : « فيخرجها فيما تطلبه مكارم الأخلاق من غير اعتبار صنف من أصناف المخلوقين ، بل ما تقتضيه المصلحة العامة لكل إنسان بل لكل حيوان حتى الشجرة يراها تموت عطشاً ، فيكون عنده بما يشترى لها ما يسقيها به من مال الزكاة فيسقيها بذلك ، فإنه من سبيل الله ».

ويُنهى الحق سبحانه الآية بقوله : ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ ، والله هو واجب الوجود وخالقه ، خلق الإنسان وكرَّمه فجعله خليفة فى الأرض . وقبل أن يخلق سبحانه الإنسان أعدَّ له الكون الذى يعيش فيه ؛ الأرض والشمس والقمر والسماء والكواكب والنجوم . ثم جاء الإنسان إلى الكون؛ ليجد كل شىء قد أعدَّ لخدمته خاضعاً له ، فلا يوجد جنس من الأجناس يتأبى عن خدمة الإنسان ، فلا الأرض إذا زُرِعَتْ رفضت إنبات الزرع ، ولا الحيوان الذى سخره الله جل جلاله لخدمة الإنسان يتأبى عليه ؛ فالحمار تُحمِّله السباخ والقاذورات فلا يرفض ، وتنظفه وتجعله مَطيَّة تنقلك من مكان إلى آخر فلا يتأبى عليك .

وما دام سبحانه الذى خلق ، فهو أدرى بمن خلق ، وبما يصلحه وما يفسده - ولله المثل الأعلى- نحن نعرف أن المهندس الذى يصمم آلة إنما يضع لها قانون صيانتها . فما بالنا بخالق الإنسان المتعدد المشاعر والأطوار ؟ إن خلق الإنسان لا يقتضى علماً فقط ، ولكنه يقتضى أيضاً حكمة ؛ لأنك قد تعلم ، ولكنك لا تستخدم العلم فيما تفعل ، كأن تعلم قانون صيانة آلة معينة ثم لا تطبقه وتحاول أن تأتى بقانون من عندك ؛ لذلك فلا بد مع العلم من حكمة لتضع الشىء فى موضعه السليم . ولذلك قال الحق سبحانه : ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ .

ونحن نعلم أن الصدقات تقتضى مُتصدِّقاً وهو المعطى ، ومُتصدَّقاً عليه وهو مستحق الصدقة أو الذى يأخذها ، ومُتصدَّقاً به وهو الشىء الذى تتصدق به ، إذن فهناك ثلاثة عناصر : المتصدِّق، والمتصدَّق عليه ، والمتصدَّق به .

قد يتساءل بعض الناس: لماذا خلق الله الإنسان الخليفة فى الأرض وجعل بعضهم قادراً وبعضهم عاجزاً ، وهذا يعطى وهذا يأخذ ، ولماذا لم يجعل الكل قادرين ؟

نقول : إن مفارقات التقابل فى الأشياء تجعلها تتكامل ، فهناك ليل وهناك نهار ، فهل الليل ضد النهار ؟ لا ؛ لأن الليل مُكمِّل للنهار، والنهار مُكمِّل لليل . ولو لم يُخْلقَا معاً متكاملين ؛ لاختلَّ التوازن فى الكون .

والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٧٢) ﴾ [القصص]

إذن: فالإنسان يحتاج إلى ضوء النهار للحركة والعمل ، ويحتاج إلى ظُلْمة وسكون الليل للنوم ، وإن لم يَنَم الإنسان ويسترحْ فهو لا يستطيع مواصلة العمل . وهكذا نرى الليل والنهار متكاملين وليسا متضادين . كذلك الرجل والمرأة . وقد لا يفهم بعض الناس أن الرجل والمرأة متكاملان ، ويقولون: لا بد أن تساوى المرأةُ الرجلَ ، ونقول : إنكم تعتقدون أن المرأة والرجل جنسان مختلفان، ولكنهما جنس واحد مخلوق من نوعين ، وكل نوع له مهمة وله خاصية . وللإنسان المكوَّن من الرجال والنساء مهمة وخصائص يشتركون فيها ، ويتضح لنا ذلك عندما نقرأ قول الحق سبحانه وتعالى فى سورة الليل :

﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ (١) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ (٢) وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ (٣) ﴾ [الليل]

كأن الذكر والأنثى ، مثل الليل والنهار متساندان متكاملان، فلا تجعلهما أعداء بل انظر إلى التكامل بينهما ، ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ (٤) ﴾ [الليل]

أى: كُلٌّ له مهمة فى الحياة ، واقتضتْ حكمته سبحانه فى خلق الكون أن يجعل كل شىء يخدم الإنسان ؛ الجماد يخدم الإنسان ، وكذلك النبات ، وكذلك الحيوان ، حتى يكون الإنسان مستجيباً لمنهج الله ولعبادته . وكذلك اقتضتْ الحكمة أيضاً أن يخلق الله سبحانه وتعالى أشياء لا تستجيب للإنسان ؛ حتى يعرف الناس أن هذا الكون ليس مُذلَّلاً بقدراتهم هم ، بل بقدرة الله سبحانه وتعالى ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ كَلاَّ إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ (٧) ﴾ [العلق]

فتجد مثلاً الجمل بضخامته ينقاد لطفل صغير ، بينما الثعبان الصغير على دقَّة حجمه لا يجرؤ الإنسان أن يقترب منه .

وفى الوقت نفسه، فإن هذه الحكمة تقتضى أن يحس الإنسان أن قدراته وقوته موهوبة له من الله سبحانه وتعالى ، وأنها ليست من ذات الإنسان . ولذلك يخلق الله أناساً ضعافاً لا يقدرون على الكسب، ليلفت أنظارنا إلى أن قوة القوى هى هبة من الله ، وليست فى ذاتية الإنسان ، وإلا لو كانت ذاتية فى الإنسان ما وُجد عاجز . ولا بد أن يفهم كل قوى أن قوته هبة من الله يمكن أن تسلب منه فيصبح ضعيفاً مثل من يراهم أمامه من ضعاف البشر.

والضعيف غير القادر على العمل ، والأعمى غير القادر على الكسب ، والكسيح غير القادر على السير ، كل هؤلاء موجودون فى الكون ليلفتوا الأصحاء والأقوياء إلى أن الصحة والقوة من الله ، فلا يغتر الأصحاء والأقوياء بأنفسهم ويرتكبوا المعاصى ، بل عليهم أن يخافوا الله ، فسبحانه الذى أعطى يستطيع أن يأخذ .

كما اقتضت حكمة الله سبحانه وتعالى أن يقسم الأرزاق بيننا لتسير حركة الكون . وإلا لو أصبحنا كلنا ميسورين، فمن الذى يقوم بتنظيف الشارع ؟ ومن الذى يقوم بتسليك البالوعات؟ ومن الذى يحمل الطوب والأسمنت على كتفيه للبناء ؟ وإن كنا جميعاً نملك المال فلن يرضى أحد أن يقوم بالأعمال البسيطة والمزعجة والمرهقة ، وشاء الله أن يربط هذه الأعمال بالرزق ، بحيث يقوم بها بعضنا ليحصل على قوت أولاده ، وإلا لما أمسك أحد بمكنسة لتنظيف الطريق ، وما عمل أحد فى إصلاح المجارى ؛ لذلك قد ترى مَنْ يقومون بهذه الأعمال سعداء عندما تُسَدُّ المجارى ، أو يحتاج الطريق إلى نظافة ؛ لأن رزقهم يأتى من هذا العمل .

ولكن أيبقى هذا الحال على ما هو عليه ؟ لا ؛ لأن الأيام تُتداوَلُ بين الناس ، وكل واحد له عُرْس وله مَأتم . وتأتى أيام تكون فيها هذه الأعمال اليدوية هى مصدر الرزق الوفير ، وهى التى يملك أصحابها سعة الرزق ، أكثر من الذين درسوا فى الجامعات وأهِّلوا للمناصب ، لكنهم أقل دخلاً وأقل رزقاً .

وهكذا نعلم أن الكون يحتاج إلى المواهب المتعددة التى تتكامل فيه ، فأنت إذا أردت أن تبنى بيتاً تحتاج إلى مهندس ومقاول ونجار وحداد وبنَّاء إلى غير ذلك ، ولا يمكن لإنسان أن يملك هذه المواهب كلها فى وقت واحد . فلا بد أن تتكامل وأن يرتبط هذا التكامل بالرزق ولقمة العيش . بل وتجد أن الإنسان قد يتخصص فى عمل ويتقنه بينما يحتاج هو لبعض من وقته ليقوم بمثل هذا العمل لبيته فلا يجد ، ولذلك يقال : " باب النجار مخلّع " ؛ لأن الأبواب الأخرى التى يصنعها مرتبطة برزقه وهو يحاول أن يحسن صناعتها ، أما بابه هو فلا رزق له فيه ، ولذلك قد يكسل عن صيانته .

ولا بد أن يعرف الإنسان أنه ليس أصيلاً فى الكون ، بل مستخلف فيه ؛ لأن الفساد ينشأ دائماً حين يعتبر الإنسان نفسه أصيلاً فى الكون . وإياك أن تفهم أن المعْطى مُفضَّل على الآخذ ، أو أن الآخذ مُفضَّل على المعُطى ، بل هما متعادلان ، فالإيمان نصفان : نصف شكر ونصف صبر . إما أنك فى نعمة فتشكر . وإما أنك فى محنة فتصبر . وعندما نتأمل الغنى المستخلَف فى النعمة نجد أنه قد أخذ النصف الذى يخصه كشاكر ، وحُرِمَ من النصف الآخر الإيمانى وهو الصبر ؛ ولذلك يأتى الإسلام له بتشريع يأَخذ منه بعضاً من ماله الذى حصل عليه بعرقه وعمله ويعطيه لغير القادر على العمل ، وبذلك يحصل على جزء من الصبر ؛ لأنه يعطى بعضاً من فائدة عمله للعاجز عن العمل ، ويكون الفقير قد أخذ نصف الشكر ونصف الصبر . فقد صبر على فقره، وجاء له المال بلا تعب فشكر الله على نعمته . وهكذا نجد أن الاثنين إذا طبَّقا منهج الله أخذا نصف الصبر ونصف الشكر .

وعلى العاجز عن الكسب ألا يغضب ؛ لأن الله سبحانه وتعالى يعطيه الرزق بلا تعب . بل إنك قد تجد الغنى وهو يبحث عن مصارف الزكاة ويسأل عن الفقراء ليعطيهم .

وكثيراً ما نرى إنساناً عزيزاً فى أزمة ، ونجد من أصدقائه من يقترض ليعطيه . والله سبحانه وتعالى قال :

﴿مَن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٤٥)﴾ [البقرة]

ومع أن المال مال الله فقد احترم سبحانه عمل الإنسان الذى يأتيه بالمال ، وطلب منه أن يعطى بعضاً منه أخاه المحتاج ؛ابتغاء مرضاة الله ، واعتبر

سبحانه وتعالى هذا العمل إقراضاً له جل جلاله ، وكأن الذى يعطى المال للمحتاج يقرض الله ، ولله المثل الأعلى؛ كالأب الذى يعطى مصروفاً لأولاده ، فيضعه كل منهم فى حصالته ، ثم تأتى للأب أزمة مالية، فيستأذن أولاده حتى يأخذ ما فى حصالاتهم، رغم أن مال الأولاد هو من مال الأب ، ورغم ذلك نجد الأب قد احترم ما وهبه من المال لأولاده؛ فاعتبره مالهم . كذلك الحق سبحانه وتعالى احترم عمل الإنسان ، فاعتبر المال ماله، وطلب منه أن يقرضه .

وفى هذا مَيْزة للغنى والفقير ، فالغنى يأخذ ميزة وشرفَ أنه أعطى لله ، والفقير أخذ ميزة ؛ لأن الله سبحانه وتعالى اقترض من أجله .

وجعل الله الزكاة من أركان الإسلام ، وجعل هذا الركن لمصلحة الفقير. فالغنى ليس له ركن فى إيمان الفقير ، ولكن الفقير له ركن من إيمان الغنى . والغنى حين يعطى جزءاً من ماله فهو يستغنى عن هذا الجزء . وهناك فرق بين أن تستغنى عن الشىء وتستغنى بالشىء. والحق سبحانه وتعالى مستغن عن الكون وما فيه ، فكأنه أعطى الغنى صفة من صفات الحق ؛ لأن الله مستغن عن مال الدنيا كله ، والمال ليس سلعة مفيدة فائدة مباشرة للإنسان .

والمثال الذى أقوله دائماً ، يوضح ذلك : لنفرض أن رجلاً عنده جبل من ذهب وتاه فى صحراء لا يجد فيها لقمة خبز أو شربة ماء ، فما هى فائدة جبل الذهب هذا ؟ إنه لا يساوى شيئاً . إذن: فالمال ليس غاية فى حد ذاته ، ولكنه وسيلة . وعندما يمنع الغنى ماله عن الفقير يكون قد جعل المال غاية فلا ينفعه . أما إذا أعطى الغنى بعضاً من المال للفقير ؛ فهو قد أعاد إلى المال وظيفته فى أنه وسيلة من وسائل الحياة . وأنت تشترى بالمال ما تعتقد أنه ينفعك ؛ فعليك أن توظفه فى أكمل ما ينفعك ؛ وهو رضا الله سبحانه وتعالى وثوابه .

واحترم الحق سبحانه حركة الحياة فى العمل ؛ حتى يعمل كل إنسان على قدر طاقته ، وليس على قدر حاجته ؛ لأن الإنسان إذا عمل على قدر حاجته فقط لما وُجِد فائض من مال للزكاة.

ولذلك سمى الحق سبحانه وتعالى المال الذى يكسبه الإنسان فى الدنيا مال الإنسان ، حتى يعمل كل منا على قدر طاقته ؛ لأن المال ماله. وعندما يزيد ما عندك من مال على حاجتك فأنت لاتحب أن يفارقك المال الزائد، وفى الوقت نفسه تحرص على أن تنفقه فيما ينفعك ، فيرشدك الحق إلى إنفاق بعض المال فى خير ما ينفعك ، وهو أن تعمل لآخرتك.

إذن: فأنت محتاج إلى التصدق ببعض من المال الزائد لتحسُنَ آخرتك. والفقير محتاج إلى بعض من المال الزائد عن حاجتك ليَعيش. فكلاكما يحتاج الآخر ، ولكن الله سبحانه وتعالى احترم عمل الإنسان ، فجعل له النصيب الأكبر مما يكسب ، وللفقير نصيب أقل.

وعلى سبيل المثال: إن عشر الإنسان على كنز فزكاته عشرون فى المائة [(١)] ، وإذا زرع الإنسان وروى وحصد فزكاته هى عشرة فى المائة [(٢)] ، أما إذا كان رزق الإنسان من عمل يومى كالتجارة ، فالزكاة هى اثنان ونصف فى المائة ؛ ذلك أنه كلما كثرت حركة الإنسان فى عمله قلَّتْ الزكاة . وكلما قَلَّ عمل الإنسان فيما يكسب ؛ زادت الزكاة ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يشجع العامل على العمل . والمجتمع هو المستفيد بالعمل وإن لم يقصد صاحبه ذلك.

(١) زكاة الكنز: هو ما يسمى زكاة الركاز، وقد قال ﷺ: « وفى الركاز الخمس» أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٢٥٥) ومسلم (١٧١٠) عن أبى هريرة. والركاز هو ما ركز فى باطن الأرض من معادن وأحجار وغير ذلك.

(٢) فى هذا تفصيل ، فالقدر الذى يجب إخراجه يختلف باختلاف السقى، فما سقى بدون استعمال آلة كمطر وغيره ففيه عشر الخارج (أى ١٠٪) أما إن سقى بآلة أو بماء مشترى، ففيه نصف العشر (أى ٥٪)، ودليل هذا قول رسول الله ﷺ: « فيما سقت السماء والعيون، أو كان عثريا العشر، وفيما سقى بالنضح نصف العشر » رواه البخارى (١٤٨٣) عن ابن عمر.

فالذى يبنى عمارة - مثلاً - إنما يفتح باب العمل لمن يحضر الرمال ، ولمن يحضر الطوب والأسمنت والحديد ، وهو يدفع لوسائل نقل هذه المواد إلى موقع البناء ، ويدفع أجوراً لمن قاموا بصناعة وتركيب الأدوات الصحية ، والكهرباء ، وغير ذلك وقد لا يستفيد صاحب العمارة منها لانتهاء أجله .

إذن: فالمجتمع كله يستفيد من بناء العمارة ، حتى ولو لم يكن فى بال صاحبها أن يفيد المجتمع ، ويعتقد بعض الناس أن العمل وحده هو الذى يأتى بالمال ، وينسون أن الله هو الذى ييسره لهم، ويُمكّنُهم منه. ويلفتنا سبحانه إلى ذلك حين تأتى آفات تتلف الزرع وتُضَيّعُ تعب من قاموا بالحرث والبذر والسَّقْى ؛ لعلنا نلتفت إلى أن كل شىء يتم بإرادة الله ، وليس بالأسباب وحدها.

وسبحانه وتعالى حين يقضى بذلك ، يلفتنا أيضاً لفتة أخرى فيبارك فى زرع فى بلد آخر أو مكان آخر ، فإذا هلك محصول القمح فى دولة ، كانت هناك دولة أخرى يزيد فيها محصول القمح ، فيشترى هؤلاء من هؤلاء ، أو ترسل الدول التى جاءها محصول وفير إلى الدول التى هلك فيها الزرع كمعونة أو إغاثة ، وبذلك تتعادل سبل الحياة.

ولابد لنا أن نتذكر دائماً أن الله سبحانه وتعالى هو الذى أعطانا القدرة ، ولا أحد يستطيع أن يعطى القدرة للإنسان غير الله تبارك وتعالى. فالقدرة المطلقة هى لله سبحانه وتعالى ، وسبحانه يُمرِّر بعضاً من أثر قدرته إلى خلقه ، فنجد إنساناً يستطيع بقدراته أن يُعِين إنساناً آخر فى حَمْل شىء ثقيل لا يستطيع صاحبه أن يحمله.

وفَرْقٌ بين أن تتبرع أنت بأثر قوتك ؛ وبين أن تهبَ الغير هذه القوة. فالبشر يعطى أثر القوة ، ولكن الحق سبحانه وتعالى يهب القوة لمن يشاء.

المال - إذن -لا ينفع بذاته ، وإنما هو يُحضر الشيء النافع للإنسان ، فإذا احتجت إلى طعام أو شراب أو ملابس أو سيارة أو غير ذلك اشتريتها بالمال. إذن : فالمال هو وسيلة البشر للحصول على احتياجاتهم. ولذلك يعتز به الإنسان . والمثال : أن الأبناء الذين يأخذون المصروف كل شهر من الأب ، تجدهم يحرصون على لقاء الأب فى أول الشهر ، وقد لا يلتفتون إليه باقى الأيام. أما إذا كان المصروف فى كل يوم فتجد الأولاد يحرصون على لقاء أبيهم فى كل يوم.

والحق سبحانه وتعالى هو خالق النفس البشرية ، يعلم ما فى صدور الناس ؛ ولذلك يُلفت القادر إلى ضرورة أن يُخرِجَ بعضاً من ماله للعاجز عن الكسب.

ونحن نعيش فى عالم أغيار ، ومن الممكن أن يصبح القادر اليوم عاجزاً غداً. ولذلك نجد القادر يمتلىء بالقلق إن رأى عاجزاً. وهنا يتذكر نعمة الله عليه ؛ فيسرع ليدفع بعضاً من ماله إلى العاجز ؛ وهو راضٍ ، خوفاً من أن يحدث له مثل ما حدث لهذا العاجز . ويقول الحق:

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ... (١٠٣) ﴾ [التوبة]

إذن: فالصدقة تطهر الإنسان من الغفلة التى قد تصيبه، وتُزكِّى الإنسان أيضاً ، وشاء سبحانه أن تكون الزكاة نمواً وزيادة وإن بدت فى ظاهرها على أنها نقص . فالمائة جنيه [1] تصبح سبعة وتسعين ونصفاً بعد إخراج الزكاة ، وهى عكس الربا الذى قد تصبح فيه المائة مائتين ، وظاهر الربا أنه زيادة ،

(١) هذا مثال فقط، وليس معناه أن من معه مائة جنيه تجب فيها الزكاة، فزكاة المال لها نصاب محدد قدّره العلماء بما يعادل ثمن ٨٥ جراماً من الذهب ويحول عليها الحول.

ولكنه يمحق كل خير ، وظاهر الزكاة أنها نقص ، ولكنها فى حقيقتها نماء . والنماء أن يترقى الشىء فى مراتب الكمال ؛ فينمو طهارة ، وينمو تزكية ، وينمو بالزيادة والبركة . والإنسان يحتاج إلى المال ليحصل على ضروريات الحياة وكمالياتها ؛ فيطمئن إلى حاضره ومستقبله .

لكن لنفرض أن المال دام لك طول العمر ، وأنت تعرف أن العمر مهما طال ، قصير . ولا بد أن يأتى يوم تفارق فيه هذا المال بالموت . فى هذه اللحظة يكون ما كنزت من المال قد صار إلى ورثتك ، ولا يصحبك منه إلى آخرتك إلا ما أنفقت فى سبيل الله ، أى : أن ما أنفقت هو ما يبقى لك فى عالم الخلود لا يفارقك ولا تفارقه . وشاء الحق أن يضاعف لك الجزاء والثواب .

ويقول رسول الله ﷺ : « يقول ابن آدم : مالى مالى . . وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأبقيت ؟ » (١)

إذن : فالذى يحب ماله عليه أن يصحب معه هذا المال لمدة أطول ، وأن يتعدى به مجرد الوجود فى الدنيا ، وأن يصل به إلى دار الخلود . ومن يعشق المال - إذا أراد أن يبقيه - فلينفقه فى الصدقة .

ولنا الأسوة الحسنة فى رسول الله ﷺ حين جاءته شاة كهدية ، فقال للسيدة عائشة رضى الله عنها : « تصدقى بلحمها » . وكانت السيدة عائشة رضوان الله عليها تعرف أن رسول الله ﷺ يحب لحم الكتف ، فتصدقت بلحم الشاة كلها ، وأبقَتْ قطعة من لحم الكتف لرسول الله عليه الصلاة

(١) حديث صحيح . أخرجه مسلم (٢٩٥٨) وأحمد فى مسنده (٤/ ٢٤ ، ٢٦) والترمذى فى سننه (٢٣٤٢) والنسائى فى سننه (٦/ ٢٣٨) عن عبد الله بن الشخير .

والسلام . وعندما عاد رسول الله ﷺ ، سألها : ماذا فعلت بلحم الشاة ؟ قالت : تصدقت بها كلها وأبقيت كتفها . فقال : « بل قولى أبقيتها كلها إلا كتفها » [1].

وذلك لأن ما تصدقت به السيدة عائشة هو الباقى . وما أبقته لهما هو الذى سيفنى . وهكذا سمى رسول الله ﷺ الأشياء بحقيقة مسمياتها .

فالذى يحب صحبة ماله فى الدنيا والآخرة ، عليه أن يقدم بعضاً منه صدقة للفقير والمحتاج ، ليبارك الله له فى الدنيا ، ويجزيه خير الثواب فى الآخرة . وقد سأل رجل الإمام عليا رضى الله عنه : أريد أن أعرف : هل أنا من أهل الدنيا أم من أهل الآخرة ؟ . قال الإمام على كرم الله وجهه : الجواب عندك أنت ، لا عندى ، انظر إذا دخل عليك من يعطيك ، ودخل عليك من يطلب منك ، أيهما ترحب به وتقابله ببشاشة ؛ أيهما تحب ؟ إن كنت تحب من يأخذ منك فأنت من أهل الآخرة ، وإن كنت تحب من يعطيك فأنت من أهل الدنيا ؛ لأن من يأخذ منك يحمل حسناتك إلى الآخرة ، وأما من يعطيك فيزيدك من الدنيا ولا يعطى آخرتك شيئاً .

ونقول للذى يحب المال : اجعل حبك للمال يبقيه لك فترة أطول من عمر الدنيا ؛ فالدنيا ليست هى المقياس ، ودنياك قدر عمرك فيها . أما الآخرة فأنت خالد فيها ، فتصدق ببعض مالك يكن لك خيراً فى الآخرة .

ويذيل الحق الآية بقوله : ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ أى : أنه سبحانه وتعالى يضع الأشياء فى موضعها عن علم وحكمة مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤) ﴾ [الملك]

(١) حديث صحيح . أخرجه أحمد فى مسنده (٦/ ٥٠) والترمذى (٢٤٧٠) وقال: هذا حديث صحيح . وأخرجه أبو نعيم فى الحلية (٥/ ٢٣) ولفظ الحديث عن عائشة أنهم ذبحوا شاة فقال النبى ﷺ: « ما بقى منها ؟ » قالت: ما بقى منها إلا كتفها. قال: « بقى كلها غير كتفها».

وأما الحكمة فيدير بها الحق سبحانه حياة كل الناس ، وكلهم عبيد لله ، ولا فرق بين غنى وفقير . وشاء الحق أن يجعل التفرقة فقط فى الدنيا ؛ لأن العالم لا يحتاج إلى أفراد مكررين ، ولا يمكن أن تستقيم الحياة إن كنا كلنا أطباء أو كلنا مهندسين أو كلنا قضاة ؛ لذلك شاء سبحانه أن تتوزع المواهب على قدر ضروريات الحياة ، فنبغ كل واحد منا فى شىء ؛ أنا أتقن شيئاً ولا أعرف الباقى ، وغيرى يتقن شيئاً آخر ولا يعرف الباقى . فأكون فى حاجة إلى عمل غيرى ، وغيرى يحتاج عملى ، وبذلك يصير الرباط بيننا رباط حاجة ورباط رزق ، لا رباط تفضل وتطوع .

إذن : فالحكمة اقتضت أن يوزع سبحانه وتعالى المواهب على الخَلق بقدر ما تتطلب الخلافة فى الأرض من حركات الحياة ؛ فأعطى هذا زاوية من نبوغ ، وأعطى الآخر زاوية أخرى من النبوغ ، ومن مجموع هذه الزوايا يتكون المجتمع ، وسبق أن قلنا : إن مجموع كل إنسان يساوى مجموع الآخر ، ولكن الناس لا تنظر إلا للمال ، ولا يلتفتون إلى ما هو أهم من المال ، كالصحة ، والأخلاق ، وراحة البال ، وسعادة الأولاد وتوفيقهم ، ثم البركة فى الرزق وغير ذلك .

إنك لو وضعتَ لكل هذه الأشياء رقماً من عشرة مثلاً ؛ تجد أن مجموع كل إنسان فى النهاية يتساوى مع مجموع أى إنسان آخر ، ولا تفاضل إلا بالتقوى . وإن رأى إنسان عاجز غيره ممن يملكون المال ولا يخرجون منه زكاة أو صدقة ، فماذا يكون موقفه ؟ لابد أنه سيتمنى زوال النعمة عن هؤلاء . ولكن إن عادت نعمة القادر الغنى على من لا نعمة عنده ، فهذا يجعل العاجز الفقير مُحِباً لدوام النعمة عند صاحبها ؛ لأنه إن حُرِمَ الغنى

القوة ، حُرِم العاجز الفقير من آثارها ؛ ولذلك فعندما يعطى الغنى للفقير ، فهو يدعو له بالبركة ، وحين يبارك الله فى تلك النعمة سيعود على الفقير بعض منها .

وإن لم يأخذ الفقير المحتاج صدقة من الغنى ، فقد يأخذها تلصُّصاً بأن يتحايل عليه ليسرقه أو ينهبه ، أو ربما دفعه الحقد والحسد إلى أن يقتله أو يتآمر على قتله .

إذن : فالزكاة فى المجتمع تدفع شروراً كثيرة عن صاحبها . وهى ضرورة من ضروريات الحياة . ولذلك رأينا القادرين فى المجتمعات التى لا تؤمن بدين وهم يتطوعون لإقامة المؤسسات الاجتماعية لرعاية غير القادرين لدفع شرور العاجزين عن مجتمعاتهم ؛ لذلك تجد فى معظم دول العالم من يحاول تخصيص جزء من المال لكفالة العجزة والمتعطلين ليعيشوا حياة الكفاف ، وبذلك يأمن المجتمع شرورهم .

على أن قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ **إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ** ﴾ معناه : أن الصدقات قد فرضت لهؤلاء ، والذى فرضها هو الحق سبحانه بقوله : ﴿ **فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ** ﴾ .

وقد تُفرَض الصدقات من البشر كضريبة اجتماعية ، أو غير ذلك ، لدفع الشرور عن المجتمع ، ولكن هذا لايحدث إلا بعد أن تقع أحداث جسام يشقى بها مجتمع القادرين من مجتمع العاجزين ، ويخرج من يقول : لكى تأمنوا شرهم لابد أن نعطيهم حاجاتهم حتى يستقيم الأمر .

وهكذا نجد أن تشريعات البشر لا تأتى إلا بعد أن يشقى المجتمع لفترة طويلة من وضع موجود ، ولكن الحق سبحانه وتعالى رحمة منه بخليفته

فى الأرض جاء بالتشريع من أول الخلق ، بل من قبل الخلق ؛ حتى يرتب للإنسان حياة سعيدة خالية من الشقاء. ولذلك شرع الدين ورتَّبَ أحكامه لينزل إلى البشر ؛ فيكون منهجاً لهم يحميهم من شرور قاسية قبل أن تقع.

وشاء الحق سبحانه أن يجعل « سورة براءة » فاضحة كاشفة للمنافقين ؛ لذلك كان من بين أسمائها : « السورة الحافرة » ؛ لأن المنافق ربما يستر كفره ، ويفضح الله هذا الكفر بأن يحفر عليه ليخرجه - ولله المثل الأعلى - فالإنسان يحفر الأرض ليكشف المخبوء فيها ، وهذه السورة ذكرت من صفات المنافقين الكثير.

فقد قال الحق : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي .. (٤٩) ﴾ [التوبة]

وقال عز وجل: ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ .. (٧٥) ﴾ [التوبة]

وقال سبحانه: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ ... (٥٨) ﴾ [التوبة]

ولذلك يسمونها " مَنَاهِم التوبة ". وهنا يبين الحق صورة جديدة للمنافقين وتصرفاتهم فيقول:

﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦١) ﴾

ونعلم أن الإيذاء لرسول الله ﷺ جاء بعد النبوة ، وكان بعض الكفار يقولون ما حكاه القرآن على ألسنتهم :

﴿ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢) ﴾ [الأنفال]

وهذا دعاء مَنْ لا عقل له ، ولو كانوا يعقلون لقالوا : إن كان هذا الحق من عندك فَاهْدنا يارب إليه ، أو اجعلنا نؤمن به . ولكنهم من فَرْط حقدهم وضلالهم ، تمنَّوا العذاب على الإيمان بالحق . وهذا يكشف لنا تفاهة عقول الكفار.

وهنا يقول الحق سبحانه (١):

﴿ وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ ﴾ والذين يؤذون رسول الله ﷺ هم السادة ، وهم أصحاب النفوذ الذين يخافون أن يذهب منهج هذا النبى بنفوذهم ؛ وثرواتهم ؛ وما أخذوه ظلماً من الضعفاء. والضعفاء - كما نعلم - هم أول من دخل إلى دين الإسلام ؛ لأنهم أحسوا أن هذا الدين يحميهم من بطش الأغنياء واستغلالهم ونفوذهم. وشاء الحق أن يبدل خوف الضعفاء قوة وأمناً، وشاء سبحانه أن يضم إلى الإيمان عدداً من الأغنياء ؛ ومن رجال القمة مثل: أبى بكر الصديق ، وعثمان بن عفان ، وعمر بن الخطاب وغيرهم رضى الله عنهم أجمعين ، حتى لا يقول أقوياء قريش مثلما قال قوم نوح لنبيهم:

﴿ وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا ... (٢٧) ﴾ [هود]

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣١١٧) : « هذه الآية نزلت فى عتاب بن قشير ، قال : إنما محمد أذن يقبل كل ما قيل له . وقيل : هو نبتل بن الحارث . قاله ابن إسحاق » .

وهكذا كان الإيذاء له ﷺ بعد الرسالة، أما قبل الرسالة فكان فى نظر الجميع هو: الأمين والصادق والمؤتمن.

ومن العجيب أنهم، بعد أن نزل الوحى ، كانوا لا يستأمنون أحداً مثلما يستأمنون محمداً ﷺ. فإذا كان هناك شىء ثمين عند الكافرين المعارضين ، ذهبوا إلى رسول الله ليحفظوا هذه الأشياء الثمينة عنده . وهذا التناقض لا يفسره إلا وثوقهم فى أخلاقه ﷺ . ورغم ذلك كانوا فى غيظ وكَمَدٍ ؛ لأن القرآن قد نزل عليه . والحق هو القائل ما جاء على ألسنتهم:

﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١)﴾

[الزخرف]

وهم بذلك قد اعترفوا بألسنتهم بعظمة القرآن، بعد أن اعترفوا بسلوكهم بأمانة محمد ﷺ، ولكنهم اعترضوا على اختيار الحق سبحانه له، وتمنوا لو كان هذا القرآن قد نزل على أحد عظمائهم [1]. ورد الحق سبحانه عليهم:

﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا... (٣٢)﴾ [الزخرف]

وفى هذا دعوة لأن يتأدبوا مع الله سبحانه ، فهو لم يوكلهم فى اختيار من ينزل عليه رحمته ، ورسالته ، ولكنه سبحانه هو الذى يختار . وهو الذى قسم بين العباد معيشتهم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة . وإذا كان لأحد نعمة من مال أو جاه أو مجد ، أو غير ذلك ، فهذا ليس من قدرات البشر أو من ذواتهم ، ولكنه نعمة من الله .

(١) القريتان هنا : مكة والطائف . وقد اختلف العلماء فى تحديد الرجل العظيم المقصود. فمن مكة: الوليد بن المغيرة أو عتبة بن ربيعة. ومن الطائف: عروة بن مسعود أو عمير بن عبد ياليل. قال ابن كثير فى تفسيره (٤/ ١٢٧) : « الظاهر أن مرادهم رجل كبير من أى البلدتين كان ».

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿ وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ ﴾ إذن : فالإيذاء سببه أنه ﷺ جاء بدعوة الخير ، ولا يجيء رسول بدعوة الخير إلا إذا كان الشر قد عم المجتمع . وحين يعم الشر فى المجتمع فهناك مستفيدون منه ، فإذا أتى رسول الله بالخير أسرع جنود الشر ليؤذوا صاحب رسالة الخير ، إذن : فمن الطبيعى أن يكون للنبى أعداء .

والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ... (١١٢) ﴾ [الأنعام]

بل إن كل من يحمل من العلماء رسالة رسول الله ليبلغها إلى الأجيال التالية ، إن لم يكن له أعداء ، أنقص ذلك من حظه فى ميراث النبوة ، وكل من له أعداء ويقوم بهداية الناس إلى منهج الله ، نقول له : لا تنزعج ، واطمئن ؛ لأن معنى وجود من يعاديك ، أن فيك أثراً من آثار النبوة .

وتمثَّل إيذاء المنافقين له ﷺ فى عدة صور ؛ منها قولهم : ﴿ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ﴾ .

وللإنسان - كما نعلم - وسائل إدراك متعددة : فالأذن وسيلة إدراك ، والعين وسيلة إدراك ، والجوارح كلها وسائل إدراك . وكل إنسان له ملكات متعددة ، منها ملكات إدراكية وملكات نفسية ، والملكات الإدراكية هى التى يدرك بها الأشياء مثل : السمع والبصر والشم والذوق . أما الملكات النفسية فهذه يوصف بها الناس . وعلى سبيل المثال : نحن نسمى الجاسوس عيناً ؛ لأنه يتجسس وينقل ما يراه إلى غيره . ونسمى الرجل

الذى يسمع كل حدث « أُذُن » ، ونسمى اللص الذى يتعدَّى على مال غيره صاحب اليد الطويلة وهكذا.

إذن: كل جارحة لها حاسة ، والنظر والسمع والشم واللمس والذوق كلها من وسائل الإدراك الحسية التى تتكون منها الخمائر المعنوية ، ثم تصبح عقائد ، فوسائل الإدراك هذه تتلقى من العالم الحسى ما يعطيه لها من معلومات ، وتخزنها لتتصرف بعد ذلك على أساسها ، وتكون فى مجموعها هى ما يعلمه الإنسان ؛ ولذلك نجد الحق سبحانه يمتنُّ على خَلقه ، فيقول:

﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨) ﴾ [النحل]

والشكر لا يكون إلا على النعمة ، فكأن وسائل الإدراك هذه مما تسمعه أو تراه ببصرك ، أو تدركه بفؤادك هى من نعم الله التى يجب أن نشكره عليها ؛ لأنها أعطتنا العلم الحسى بعد أن كنا لا نعلم شيئاً.

وإذا أطلقَ على الإنسان اسم جارحة من جوارحه ، فاعلم أن هذه الجارحة هى العمدة فيه ، فكأن قول المنافقين وصفاً للرسول ﴿ هُوَ أُذُنٌ ﴾ هو سَبٌّ للرسول ، وكان الواحد منهم يقول : احذروا أن يبلغ ذلك رسول الله ﷺ فيكشف نفاقكم ويؤذيكم ؛ لأن محمداً عليه الصلاة والسلام فى رأيهم يُصدِّق كل شىء . أرادوا أن يتهموه ﷺ أنه لا يمحص القول الذى يُنقل إليه ويصدق كل ما يقال له ، كما نقول نحن فى العامية « فلان ودَنى» أى : يعطى أذنه لكل ما يقال له.

فيرد عليهم الله : ﴿ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ ﴾ ؛ لأنه ﷺ يستمع لمنهج السماء ويبلغه للبشر ليهدى أهل الأرض ، إذن: فهو خير للناس كلهم . وحتى إذا

أخذنا كلامهم فى أن رسول الله ﷺ يصدقهم إن كذبوا عليه ، فهذا خير لهم ؛ لأنه ﷺ لا يؤذيهم ، وهو ﷺ ﴿ أُذُنُ خَيْرٍ ﴾ لأنه لا يسمع إلا من الله بالوحى . ولذلك قلنا: إن الحكمة من أمية رسول الله عليه الصلاة والسلام ، أنه لم يستمع من مُسَاو له ، وإنما كان علمه من الله . فإذا كانت الأمية فينا نحن نقيصة ؛ فإنها الكمال كله فى حق رسول الله عليه الصلاة والسلام ؛ لأنه لم يأخذ إلا من خالقه ، وهو أذن خير ؛ لأنه الأذن التى استمعت إلى آخر إرسال ينزل من السماء لهداية الأرض.

فإذا كان المنافقون قد قالوا: (هُوَ أُذُنٌ) فقد قال سبحانه : ﴿ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ ﴾ ، وهو خير يعود نفعه على البشرية كلها ، ولكن ليس بالمعنى الذى تعيبونه عليه ، فهو قد يسمع إساءاتكم ، ثم يسمع اعتذاركم فلا يؤذيكم ويعفو عنكم.

وما دام هذا هو سلوك رسول الله ﷺ فلماذا تؤذونه وترهقونه ؟

وفى اللغة ما يسمونه "القول بالموجب" ، فإن قال لك واحد شيئاً تصدقه وتقول له : نعم ، ولكن قد تأخذها على مَحْمل آخر ، فإن كان هناك إنسان يُكثر الزيارة لإنسان ويقول له : أنا أثقلْتُ عليك ، ويرد عليه : أنت أثقلتَ كاهلى [1] بأياديك ، أى أن أفضالك علىَّ كثيرة . وإن قال لك واحد : "أنا طولت عليك" ، يرد عليه صديقه : لا ، أنت تطولت علىَّ ، أى : أعطيتنى نعمة بأنك أسعدتنى بمجلسك . إذن: فهو قد وافقه على ما قال ، ولكنه رد عليه بعكس ما قال.

وهم قد عابوا على الرسول أنه أذن ، فكأن أذنه تتحكم فى كل تصرفاته ، وإن سمع شيئاً تأثر به. وإن سمع شيئاً ينغصه ينقلب موقفه من

(١)الكاهل : هو ما بين كتفى الإنسان .

النقيض إلى النقيض . وحاولوا أن يدَّعوا عليه أنه يصدق كل ما يسمعه ولا يحتاط تجاه من يبلغه ، وقالوا : إنه ﷺ ﴿ أُذُنٌ ﴾ ، وردَّ الحق سبحانه ﴿ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ ﴾ وبطبيعة الحال لم يكن قول الحق موافقاً لما قالوه ؛ لأن "أُذُن" عندهم غير ﴿ أُذُن ﴾ التى أقرها الله سبحانه وتعالى .

وقد يقول بعض السطحيين : إن المنافقين قالوا عن رسول الله ﷺ ﴿ هُوَ أُذُنٌ ﴾ وهم يقصدون بذلك أنه يسمع ويصدق كل ما يقال له ، وليس له حكمة التمحيص والاختيار . لكن لنلتفت إلى أن الحق قد قال : ﴿ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ ﴾ ؛ لأن رسول الله ﷺ لا يسمع إلا من الله ، وما يسمعه من الله أطاعه وطبَّقه ، وما سمعه من الناس؛ عرضه على منهج الله ؛ فإن وافق المنهج نفذه ، وإن تعارض مع المنهج رفضه . إذن : فهو أذن للخير لا يسمع إلا من الله ، ولا يأتى من رسالته إلا الخير لمن اتبعه .

ولكن لماذا لم يقل الحق سبحانه وتعالى : أذن خير للمؤمنين ، وقال : ﴿ أُذُن خَيْرٍ لَّكُمْ ﴾ ؟ ؛ لأن خيرية رسول الله قد شملت الجميع ، وتعدَّتْ المؤمنين إلى المنافقين وإلى الكفار . فكان رسول الله ﷺ لايفضح منافقاً ، إلا إذا فضح الله المنافق بقرآن نزل من السماء .

وعلى سبيل المثال : كان المنافقون يأتون إلى الرسول ﷺ ، ويعتذرون عن الجهاد فى سبيل الله ؛ ويطلبون الإذن بالقعود . وكان رسول الله ﷺ يعطيهم الإذن . وحين كان المنافقون يأتون إلى الرسول الكريم ويحلفون له كذباً ، كان يصدقهم ، أو على الأرجح لا يفضح كذبهم أمام الناس .

إذن : فالخيرية فيه عليه الصلاة والسلام شملت المنافقين ؛ لأن خُلُقَه الكريم أبى أن يفضحهم أمام الناس . أما الكفار فقد شملتهم الخيرية أيضاً ؛

لأن دعوته لهم إلى الإسلام ، وإصراره ﷺ على هذه الدعوة ، جعل عدداً من الكفار يسلم ويؤمن ، وأصابهم خير عميم من اهتدائهم لدين الحق . إذن : فقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ ﴾ أى : للبشرية كلها .

وهكذا فرق الحق سبحانه وتعالى بين ما يريدونه ، وما يقصده الله جل جلاله . هم قصدوا وصف الرسول أنه أذن سَمَّاعة . والله يقول : إنها أذن خير ؛ وهذا ما يسمونه فى اللغة - كما قلنا - : " بالقول الموجب " ، أى : أن تتفق مع خصمك فيما قاله ، إلا أنك تحول ما قاله من الشر إلى الخير . والمثال أيضاً فيما يقوله الحق سبحانه وتعالى على ألسنة المنافقين حين قالوا :

﴿ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ .. (٨) ﴾ [المنافقون]

كانوا يقصدون أنهم هم الأعز ، أما الأذل فهم المؤمنون . ووافقهم الحق سبحانه وتعالى على ما قالوا ؛ نعم سيُخرِج منها الأعزُّ الأذلَّ . ولكنه أراد أن يبين لهم من هو العزيز ومن هو الذليل ؛ فقال :

﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ... (٨) ﴾ [المنافقون]

فكأن الحق سبحانه وتعالى يؤكد لهم أن الأعز سيُخرِج الأذل ، ولكنهم يحسبون أنفسهم هم الأعزاء ؛ فيقول لهم : ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ . هذا ما يسمونه بالقول الموجب ، أى : أن تتفق مع من يقول ، ويقصد أن يوجه كلامه وجهة الشر ؛ فتقلب المقصود من الكلام وتوجهه وجهة الخير . وهذا مقصود به هنا أن تزيد من ذلة المخاطب ، فأنت تجعله يعتقد أنك توافقه ، فتنفرج أساريره ويشعر بالسعادة ؛ ثم بعد ذلك تنقض ما قاله ؛ فيصاب بالذل . تماماً كما يأتى الحارس لسجين يشعر

بظمأ شديد ويُلِحُّ فى طلب كوب ماء . فيقول له الحارس : سأحضر لك كوب الماء. وفعلاً يحضر الكوب مليئاً بالماء المثلج ، ويفرح السجين ويظن أنه سينال ما يريده ، ولكن ما إن يقرب الحارس الكوب من فم السجين ، حتى يفرغه على الأرض ، فيكون تعذيبه أكبر مما لو رفض منذ البداية إحضار كوب الماء.

وهكذا شاء الحق سبحانه وتعالى أن يزيد ذلة المنافقين ، فوافقهم على أن رسول الله ﷺ "**أُذُن**" ثم جاء بنقيض ما كانوا يقصدونه فقال :

﴿ **أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ** ﴾ وما دام ﷺ يؤمن بالله فهو يأخذ منهجه من الله سبحانه وتعالى ، ويؤمن للمؤمنين ورحمة للذين آمنوا منكم.

إذن: فهناك ثلاثة أدلة على خيرية رسول الله ﷺ : أنه يؤمن بالله وينفذ منهجه. ثم يؤمن للمؤمنين ورحمة للذين آمنوا. ونلاحظ أن هناك اختلافاً بين قوله تعالى : ﴿ **يُؤْمِنُ بِاللَّهِ** ﴾ وبين قوله عز وجل :﴿ **وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ** ﴾. فبالنسبة للإيمان بالله جاء بالباء فى قوله : ﴿ **بِاللَّهِ** ﴾ وبالنسبة للمؤمنين جاء باللام فى قوله : ﴿ **لِلْمُؤْمِنِينَ** ﴾.

بعض الناس يقولون : إن هذه مترادفات ؛ لأن معنى ﴿ **يُؤْمِنُ بِاللَّهِ** ﴾ أى : يصدق بوجوده. والمنافقون كفرة بالله ، ﴿ **وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ** ﴾ معناها أنه ﷺ يصدق المؤمنين. أما المنافقون فهو ﷺ يعرف أنهم كاذبون فلا يصدقهم . ولكنه لا يفضحهم أمام المؤمنين ؛ حتى لا يقطع عليهم خط الرجعة إن كانوا ينوون الإيمان فعلاً .

ولو فضحهم ﷺ أمام المؤمنين لضاعت هيبتهم تماماً . وإن فكر أحدهم فى ترك النفاق إلى الإيمان ، لوجد صعوبة شديدة فى ذلك ؛ لأن أحداً لن

يصدقه . ولكن أراد ﷺ أن يسترهم أمام المؤمنين ؛ فجعل باب الإيمان مفتوحاً على مصراعيه ؛ لأنه ﷺ إنما جاء رحمة للعالمين ، ولذلك فهو يحرص على أن يبقى باب التوبة وباب الإيمان أمامهم مفتوحاً دائماً مع حفظ كرامتهم .

قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى : يصدقهم ، وكلمة الإيمان بالنسبة للناس جاءت فى آيات كثيرة ، منها قوله تعالى حين أعلن السحرة إيمانهم برب موسى وسجدوا ؛ قال لهم فرعون :

﴿ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِى عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ .. (٧١) ﴾ [طه]

ومعنى ﴿ آمَنتُمْ لَهُ ﴾ أى : صدَّقتموه ، ولكن ما هو الفرق بين الباء واللام ؟ أنت حين تقول : آمنا بالله . فأنت تعلن أنك قد آمنت بالذات بكل صفات الكمال فيها ، وحين تقول : آمنت للمؤمنين فيما قالوه ، أى صدقتهم لأنهم مؤمنون .

ومادة "آمن" تدور كلها حول الأمن والطمأنينة ، ولكنها تأتى مرة لازمة ومرة متعدية . مثلما تقول : "آمنت الطريق" أى : اطمأننت إلى أنه لن يصيبنى فيه شر . ومنها قول يعقوب عليه السلام لبنيه :

﴿ قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ... (٦٤) ﴾ [يوسف]

أى : أن السابقة هنا أنه آمنهم على يوسف فلم يرعوا الأمانة ، فصار لا يأمنهم على أخى يوسف ، وهذه آمن اللازمة . أما المتعدية فهى التى يتعدد فيها الأمن ، مثل قوله تعالى :

﴿ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ... (٤) ﴾ [قريش]

والخوف متعدد فى أشكاله ، فهناك مثلاً خوف من الظلام ، وخوف من العدو ، وخوف من مخاطر الطريق ، إذن : فالأمن هنا شمل أشياء متعددة وقد أدخلهم الحق سبحانه فى الأمان والطمأنينة من أشياء متعددة.

وقوله تعالى : ﴿ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ ﴾ هو إيمان بالذات ، وإيمان بالصفات، وإيمان بالمنهج ، وإيمان يسع أمة رسول الله ﷺ كلها ، فكأن الإيمان هنا قد تعددت جوانبه . أما الإيمان للمؤمنين فهو تصديق لهم وهذا هو الخير الثانى. وقوله سبحانه ﴿ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ ؛ لأنه ﷺ شفيع لهم يوم القيامة ، وقال : "أمتى أمتى" .(١) وهو رحمة لهم فى الدنيا ؛ لأنه يقودهم إلى الخير الذى يقودهم إلى سعادة الدنيا ثم إلى جنة الآخرة ، ويبعدهم عن الشر والنار ؛ فهو ﷺ رحمة تدفع الضرر وتأتى بالخير ، والرحمة إنما تأتى باتقاء الضرر.

والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ .. (٨٢) ﴾ [الإسراء]

الشفاء يعنى أن يكون هناك مرض ويشفى الإنسان منه ، والرحمة ألا يأتى المرض ، فكأن رسول الله ﷺ يبشر بمنهج إذا اتبعه الناس وآمنوا به ؛ كان لهم وقاية فلا يصيبهم شر فى الدنيا ولا نار فى الآخرة .

ويتساءل بعض الناس : لقد قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ ﴾ والمنافقون قد آمنوا بألسنتهم فقط فما موقفهم ؟ نقول : إن الرسول عليه الصلاة والسلام ؛ لأنه رحمة فقد احترم كلمة اللسان وصدقهم أمام الناس ، أما الحق سبحانه فينزلهم فى جهنم .

(١) حديث الشفاعة حديث طويل أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٧١٢) ومسلم فى صحيحه (١٩٤) من حديث أبى هريرة أنه ﷺ يأتى تحت العرش فيقع ساجداً ثم يفتح الله عليه من محامده وحسن الثناء عليه شيئاً لم يفتحه على أحد قبله . ثم يقال : يا محمد . ارفع رأسك ، سل تعطه واشفع تشفع ، فأرفع رأسى فأقول : يارب أمتى أمتى .

ثم يقول سبحانه وتعالى :

﴿ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

وإيذاء المنافقين لرسول الله ﷺ لم يكن بالمواجهة ؛ لأنهم أعلنوا كلمة الإيمان ، وكان الإيذاء لرسول الله ﷺ من المنافقين فى قلوبهم وفيما بينهم فى مجالسهم ، ولذلك لم يكن الإيذاء منهم مباشرة قط ، ولكن الآيات بينت أنواع الإيذاء بأنهم يلمزون فى الصدقات ، ويقولون : إنه أُذُنٌ ، ويحلفون له كذباً ليضللوه ، إلى آخر ما كانوا يفعلون .

ثم يأتى الحق بصورة أخرى من صور المنافقين فيقول سبحانه :

﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ ﴾

ومن العجيب أن سورة التوبة فيها أكبر عدد من لفظ "يحلفون" ، ولم ترد مادة "يحلف" فى سورة المائدة إلا مرة واحدة ، وفى سورة النساء مرة ، وفى سورة المجادلة ثلاث مرات ، أما فى سورة التوبة فقد جاءت سبع مرات ، وفى سورة القلم جاءت "حلاف" ، حتى إن سورة التوبة سميت "سورة يحلف" [1] ؛ لأن فيها أكبر عدد من ﴿ يَحْلِفُونَ ﴾ فى القرآن الكريم .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ ﴾ وفى هذا إصرار من المنافقين على الحلف كذباً ، وهو ما يوضح غباءهم وعدم فطنتهم .

(١) هذه السورة لها أسماء كثيرة فهى : براءة ، والتوبة ، والفاضحة ، والحافرة ، لأنها حفرت عن قلوب المنافقين . وقال حذيفة : هى سورة العذاب . وقال ابن عمر : كنا ندعوها المشقشقة . وقال الحارث بن يزيد : كانت تدعى المبعثرة ، ويقال لها : المسورة ، ويقال لها : البَحُوث ؛ لأنها تبحث عن أسرار المنافقين . انظر : البرهان فى علوم القرآن للزركشى (١/ ٢٦٩) .

وأيضاً يقول الحق :

﴿ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ ... (٩٥) ﴾ [التوبة]

واستخدام الحق سبحانه وتعالى حرف السين معناه أنهم لم يحلفوا بعد ، ولكنهم سيحلفون بعد فترة ،أى فى المستقبل ، أى : أن الآية الكريمة نزلت ولم يحلفوا بعد ، إنما هم سيحلفون بعد نزول الآية الكريمة ، ولو كان عندهم ذرة من ذكاء ما حلفوا ، ولقالوا : إن القرآن قال سنحلف ولكننا لم نحلف . ولكنهم ورغم نزول الآية جاءوا مصدقين للقرآن مثبتين للإيمان وحلفوا . وكلمة "حلف" هى القسم أو اليمين . وحين نتمعن فى القرآن نجد أن الحلف لا يطلق إلا على اليمين الكاذبة ، أما القسم فإنه يطلق على اليمين الصادقة واليمين الكاذبة . فمثلاً عندما نقرأ فى سورة المائدة :

﴿ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ... (٨٩) ﴾ [المائدة]

وما دامت هناك كفارة يمين ؛ يكون الحلف كذباً ؛ لأن الذى يستوجب الكفارة هو الكذب . وإذا استعرضنا بعد ذلك كل **"حلف"** فى القرآن نجد أنه يقصد بها اليمين الكاذبة ؛ ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَلا تُطِعْ كُلَّ حَلاَّفٍ مَّهِينٍ (١٠) ﴾ [القلم]

فالحلف هنا مقصود به القسم الكاذب . ولكن إذا قال الحق سبحانه وتعالى ﴿ أَقْسَمُوا ﴾ فقد يكون اليمين صادقاً ، وقد يكون كاذباً .

والحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ ﴾ أى : أن هدف الحلف كذباً هو إرضاء المؤمنين حتى يطمئنوا للمنافقين ولا يتوقعوا منهم الشر ، ثم يأتى الحق سبحانه وتعالى بالحقيقة : ﴿ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ ﴾ إذن : فهم يحلفون لترضَوْا أنتم عنهم ، أما المؤمن الحق فهو

لا يقسم إلا ليرضى الله ؛ لأن الإنسان قد يخدع البشر ، وقد يفلت من عدالة الأرض ، ولكنك لا تخدع الله ولا تفلت من عدالته أبداً .

ومن مهام الإيمان أن الإنسان يرعى الله فى كل معاملة له مع البشر ؛ ويبتغى رضاه ويخاف من غضبه ، ذلك هو المؤمن الحق.

وهنا نلاحظ أن الحق سبحانه وتعالى قال : ﴿ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ ﴾ وكان القياس اللغوى على حسب كلام البشر أن يقول: والله ورسوله أحق أن ترضوهما. وشاء الحق أن يأتى بها ﴿ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ ﴾ ؛ لأن رضا الله ورضا رسوله هو رضا واحد ؛ لأن الرسول ﷺ لا يأتى بالقرآن من عنده ، ولكنه وحى من عند الله . وإرضاء الرسول هو اتباع المنهج الذى فيه رضا الله . لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ ... ﴿١٠﴾ ﴾ [الفتح]

ويقول سبحانه:

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ... ﴿٣١﴾ ﴾ [آل عمران]

ويقول سبحانه:

﴿ مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ... ﴿٨٠﴾ ﴾ [النساء]

إذن: فلا توجد طاعة لله وطاعة للرسول ، ولا رضا لله ورضا للرسول ؛ لأن الرضا منهما رضا واحد.

إذن: فقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ ﴾ دليل على اتحاد الرضا من الله ومن رسوله ، فما يُرضى الله يُرضى الرسول ﷺ ، وما يُغضب الله يُغضب الرسول [1] .

(١) وقد جاء هذا فى حديث متفق عليه عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال « من أطاعنى فقد أطاع الله ، ومن عصانى فقد عصى الله » أخرجه البخارى (٧١٣٧) ومسلم (١٨٣٥) .

أو : أن الحق سبحانه وتعالى يريدنا أن نتأدب مع ذاته ، فى أنه إذا اجتمع أمران لله ولرسوله لا نجعل أحداً مع الله ، وإنما نجعله له سبحانه وهو الواحد . ولذلك فعندما ارتكب رجل ذنباً ، وقالوا له: أعلن توبتك أمام رسول الله ، قال الرجل: إنى أتوب إلى الله ولا أتوب إلى محمد. فقال له رسول الله : « وقعت على الخير »[(١)] . انظر إلى عظمة الرسول الكريم الذى يثنى على رجل يقول أمامه: إنى لا أتوب إلى محمد، وإنما أتوب إلى الله.

وقول الحق سبحانه : ﴿ **إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ** ﴾ أى: إن كان إيمانهم حقيقة ، وليس نفاقاً.

إذن: فنحن لا نطلب الرضا من خلق الله ، ولكن نطلبه من الله. ورضا الله سبحانه وتعالى ورضا المبلِّغ عنه رسوله ﷺ رضا واحد . ولذلك وحَّد الضمير ﴿ **وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ** ﴾ ولم يقل يرضوهما[(٢)] .

ثم يقول الحق بعد ذلك:

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ ﴾

(١) عن الأسود بن سريع أن النبى ﷺ أُتى بأسير فقال : اللهم إنى أتوب إليك ولا أتوب إلى محمد . فقال النبى ﷺ : « عرف الحق لأهلهَ » أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٣/ ٤٣٥) قال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ١٩٩) « وفيه محمد بن مصعب وثقه أحمد وضعفه غيره وبقية رجاله رجال الصحيح» وقد ضعف الحافظ العراقى إسناد هذا الحديث فى تخريجه للإحياء (١/ ٢٢٠) .

(٢) لأهل اللغة هنا تقديرات كثيرة لتوجيه إفراد الضمير هنا ، ذكر منها القرطبى ثلاثة تقديرات ثم قال : « وقيل: إن الله سبحانه جعل رضاه فى رضاه ، ألا ترى أنه قال ﴿ **مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ..** ﴾ [النساء: ٨٠] . وكان الربيع بن خيثم إذا مر بهذه الآية وقف ، ثم يقول : حرف وأيما حرف . فوَّض إليه فلا يأمرنا إلا بخير » . انظر تفسير القرطبى (٤/ ٣١١٩) .

إذا سمعت ﴿ أَلَمْ ﴾ ، فافهم أن هذا استنكار ، كأن وسائل العلم قد تقدمت ، وكان من الواجب أن تعلم . فإذا قلت لإنسان : ألم تعلم أنه حدث كذا وكذا ؟ فمعنى ذلك أنه قد أعلن عن هذا الحادث عدة مرات ، ومع ذلك لم يعلمه . وهذا استنكار لتخلُّف هذا الإنسان عن العلم.

وهنا يستنكر الحق عدم علم المنافقين بقضية أعلنها الله مرات ومرات ، وكان يجب أن يعلموها وألا تزول عن خواطرهم أبداً. وسبق أن قلنا: إن الاستفهام فيه نفى ، والهمزة همزة استفهام. ولم تأت للنفى ، وإذا دخلت همزة الاستفهام على النفى يكون استنكاراً . فإن قلت لإنسان : ألم أكرمك ؟ كأنك أكرمته عدة مرات وهو مُنكر لذلك.

وقول الحق سبحانه وتعالى ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا ﴾ هو إقامة للحجة على أن الحكم قد بلغهم ؛ لأنه من الجائز أن يقولوا : إن الحكم لم يبلغنا ، فيوضح لهم الحق : بل بلغكم الحكم وقد أعلمتكم به عدة مرات.

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ ﴾ ما معنى يحادد ؟ نجد فى الريف أن أهل الريف يضعون علامات من الحديد تفصل بين قطعة أرض وأخرى مجاورة لها ، كعلامة على الشىء الذى يفصل بين حق وحق ويسمونها حداً ، والذين يحادون الله هم الذين يجعلون الله فى جانب وهم فى جانب ، وبذلك لا يعيشون فى معية الله ولا ينعمون بنعمة الإيمان به سبحانه ولا يطبقون منهجه. بل يجعلون حداً بينهم وبين ما أمر به الله .

وعندما أراد العلماء تفسير هذه الآية قالوا :﴿ يُحَادِدِ ﴾ تعنى : يعادى ، وقالوا : بمعنى يشاقق ؛ أى : يجعل نفسه فى شق والله ورسوله ودينه فى شق آخر . أو : يحارب دين الله فيكون هو فى وجهة ودين الله

فى وجهة أخرى [(١)] . وهناك علاقة بين كلمة "يحارب" وكلمة "حد" ، فحدُّ السيف هو الجزء القاطع منه الذى يفصل أى شىء يقطعه إلى جزءين ، فكأن الذى يحادد هو من يحارب منهج الله ورسوله . فهو لا يكفر بالله فقط ، ولكنه يحمل السلاح ليجعل خلق الله يكفرون أيضاً .

والحق سبحانه وتعالى يريد من المؤمنين أن يكونوا دائماً فى جانب الإيمان ، وألا يقيموا حداً بينهم وبين الإيمان به . والأحكام الشرعية تسمى حدوداً ، أى : أن كل حكم قد وضع ليحدد حداً من حدود الله ، تحفظ به الحقوق والأوامر .

ومنهج الله إما أن يكون أوامر ، وإما أن يكون نواهى ؛ لأن منهج الدين كله فى "افعل" و "لاتفعل" ، ويضع الحق سبحانه وتعالى عقاباً لمن يتعدى حدوده سبحانه ، فيقول سبحانه :

﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوهَا ...(١٨٧) ﴾ [البقرة]

ويقول :

﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا ... (٢٢٩) ﴾ [البقرة]

ويسأل بعض الناس : ما الفرق بين اللفظين ﴿ تَعْتَدُوهَا ﴾ و﴿ تَقْرَبُوهَا ﴾ . ونقول : إذا كانت هناك أوامر فلا تتعد الأمر ، وإذا كانت هناك نواهٍ فلا تقترب من المنهى عنه .

ونلحظ أن الحق سبحانه وتعالى حين نهى آدم وحواء عن الأكل من الشجرة المحرمة لم يقل : لا تأكلا من الشجرة ، بل قال :

﴿ فَكُلا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَـذِهِ الشَّجَرَةَ ... (١٩) ﴾ [الأعراف]

---

(١) وقد جمع ابن كثير هذه المعانى كلها فى تفسيره للآية فقال : « أى شاقه وحاربه وخالفه وكان فى حد والله ورسوله فى حد » . انظر تفسير ابن كثير (٢/ ٣٦٦) .

وبذلك أباح سبحانه الأكل من كل ثمار الجنة ، ولكنه أمر ﴿ وَلاَ تَقْرَبَا هَـذِهِ الشَّجَرَةَ ﴾ لأن القرب من هذه الشجرة إغراء بالمعصية ؛ فقد يعجبهما منظر الثمرة . وقد تغريهما رائحتها ، وقد يفتنهما لونها . ولكن عندما لا يقتربان من هذه المغريات كلها فهما يحميان نفسيهما من المعصية .

وعندما تكلم الحق سبحانه وتعالى عن الخمر قال :

﴿ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ ... (٩٠) ﴾ [المائدة]

والحق لم يقل : لا تشربوا الخمر ، ولكن أمر باجتناب الخمر ، أى : لا نقرب أى مكان فيه خمر [(١)] ؛ لأن وجود الإنسان فى مكان فيه خمر قد يوحى إليه بتناولها . وقد يجد من الجالسين من يحاول إغراء من لا يشرب بأن يتناول ولو جرعة . إذن : فالحق سبحانه يريد أن يقى النفس المؤمنة من أن تغرى بالمعصية فتقع فيها .

ويقول سبحانه فى أدب الاعتكاف :

﴿ وَلا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ .. (١٨٧) ﴾ [البقرة]

المنهى عنه هنا هو المباشرة ، أى : إن تواجدت الزوجة مع زوجها فى المسجد ، فليس فى هذا الأمر معصية شرط ألا يباشرها الزوج [(٢)] ، ثم

(١) وعن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « لعن الله الخمر وشاربها وساقيها وبائعها ومبتاعها وعاصرها ومعتصرها وحاملها والمحمولة إليه » . أخرجه أحمد فى مسنده (٢/ ٩٧) وأبو داود فى سننه (٣٦٧٤) والحاكم فى مستدركه شاهداً وقال : ولم يخرجاه . والطبرانى فى الصغير (١/ ٢٦٦) .

(٢) « الأمر المتفق عليه عند العلماء أن المعتكف يحرم عليه النساء ما دام معتكفاً فى مسجده ، ولو ذهب إلى منزله لحاجة لا بد له منها فلا يحل له أن يثبت فيه إلا بمقدار ما يفرغ من حاجته تلك من قضاء الغائط أو الأكل وليس له أن يقبل امرأته ولا أن يضمها إليه ولا يشتغل بشىء سوى اعتكافه ولا يعود المريض لكن يسأل عنه وهو مار فى طريقه » انظر تفسير ابن كثير (١/ ٢٢٤) .

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ﴾ ولم يقل : فلا تفعلوها ، ولكنه قال :

﴿ فَلاَ تَقْرَبُوهَا ... (١٨٧) ﴾ [البقرة]

إذن : ففيما نهى الله سبحانه وتعالى عنه ؛ مطلوب من المسلم ألا يقرب منه ، أى : لا تكن أنت والشىء الذى نهى الله عنه فى مكان واحد ، بل عليك أن تبتعد عن المكان ؛ لأن المعصية لها إغراءات ، وما دمت بعيداً عن الإغراءات ؛ فأنت تعصم نفسك ، أما إن اقتربت منها فقد تقع فيها .

أما فى الأوامر ؛ فيقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿فَلاَ تَعْتَدُوهَا﴾ . وعلى سبيل المثال : إن نشأ خلاف بين الزوجين وفشلت كل محاولات الصلح بينهما ، يقول الحق سبحانه :

﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلاَ تَعْتَدُوهَا ... (٢٢٩) ﴾ [البقرة]

إذن : ففى الأوامر يقول الحق : ﴿فَلاَ تَعْتَدُوهَا﴾ ، وفى النواهى يقول سبحانه : ﴿ فَلاَ تَقْرَبُوهَا ﴾.

وهنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها ينذر الحق سبحانه وتعالى الذين يحادون الله ورسوله فيقول :

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ﴾ والإنذار هنا يتمثل فى أنه يوضح لهم أن ما ينتظرهم ليس هو العذاب الجسدى فقط ، ولكنه عذاب فيه خزى وهوان ، فمثلاً بعض الناس قد يتحمل ويتجلد أمام الألم حتى لا يشمت فيه عدوه ؛ لذلك

فالعذاب الذى يعدهم الله به فى الآخرة ليس أليماً فقط ، ولكن فيه خزى وهوان . ويتمثل الخزى فى أن المتكبر فى الدنيا يأتى إلى الآخرة ويهان أمام الخلق جميعاً ، ويكفى خزياً أن يكون فى النار . والمؤمنون الذين تكبَّر عليهم فى الدنيا يعيشون فى نعيم الجنة ، وتلك حسرة تصيبه ليس بعدها حسرة .

ثم يفضح الحق سبحانه وتعالى المنافقين فيقول :

﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾

والحذر معناه الاستعداد لدفع خطر أو ضرر متوقع ، وعلى سبيل المثال ؛ يقال لمن يسافر فى طريق محفوف بالأخطار : خذ حذرك وأنت تسير فى هذا الطريق . وهنا قد يصحب المسافر معه رفيقاً ، أو يأخذ معه سلاحاً يدافع به عن نفسه إن قابلته عصابة من قطاع الطرق . إذن : فالحذر هو الإعداد لدفع خطر أو ضرر متوقع .

ولكن إذا كانت السورة تتنزل من عند الله على رسوله فكيف يحذرون ويستعدون لنزول هذه السورة ؟

نقول : إن هذا استهزاء بهم ؛ لأنهم أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر ، ولأن آيات سابقة نزلت تفضح ما يخبئونه فى نفوسهم . فهم دائماً خائفون من أن تنزل آية جديدة تفضحهم أمام المسلمين .

الحق سبحانه وتعالى يريدهم أن يعرفوا أنه عليم بما فى نفوسهم ، ويخوفهم من أن تنزل آيات تكشفهم ، فهم يخشون أن يخرج ما فى بطونهم من كفر يخفونه ، وهو غيب عن المؤمنين . والغيب - كما نعلم - محجوب بزمان ومكان ، وغيب الزمان محجوب بالماضى أو بالمستقبل ، فإن كان هناك حدث قد مضى ولم تشهده ، فهو غيب عنك ما لم تعلمه من كتب التاريخ ، وكذلك إن كان هناك حدث سوف يأتى فى المستقبل ، فهو لم يقع بعد ، فهو إذن محجوب بالمستقبل ، أما حجاب المكان فهو حجاب الحاضر ، وعلى سبيل المثال : إن كنا الآن فى القاهرة فنحن لا نعلم ما يحدث فى الإسكندرية . والله سبحانه وتعالى هتك كل هذه الحجب فى القرآن الكريم ، فهتك الحق سبحانه حجاب الماضى فى أمثلة كثيرة أخبر بها رسوله ﷺ ، مثل قوله سبحانه :

﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٤٤) ﴾ [القصص]

وأيضاً يقول سبحانه :

﴿ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (٤٥) ﴾

[القصص]

فكأن الحق سبحانه وتعالى قد كشف لرسوله من حجب الزمن الماضى ، ما لم يكن يعلمه أحد ، وذلك مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ (٤٩) ﴾ [هود]

وكشف الله سبحانه وتعالى - أيضاً - لرسوله ﷺ والمؤمنين حجاب الزمن المستقبل ؛ فقال :

﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ... (١٤٢) ﴾ [البقرة]

وهؤلاء السفهاء سمعوا الآية قبل أن يتساءلوا عن تحويل القبلة [(١)] ، ورغم ذلك تساءلوا عن تحويل قبلة الصلاة . وأيضاً قال الحق من أمثلة كشف حجب المستقبل :

﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) ﴾ [القمر]

وقد نزلت هذه الآية والمسلمون يلاقون عذاباً شديداً من الكفار ، حتى إن عمر بن الخطاب قال : أى جمع هذا ؟ [(٢)]

وعندما حدثت غزوة بدر قال عمر : صدقت يا ربى : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ .

وكذلك كشف الحق سبحانه وتعالى حجاب المستقبل حين قال : ﴿ غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٥) ﴾ [الروم]

أى : أن الله تبارك وتعالى أعطى نتيجة المعركة بين الروم والفرس قبل أن تحدث بسنوات طويلة ، وحدد الجانب المنتصر وهو الروم ، وكذلك أنبأ

(١) قال الزركشي : « السين هنا للاستمرار ؛ لأن ذلك إنما نزل بعد قولهم : (ما ولاهم) ، فجاءت السين إعلاماً بالاستمرار لا بالاستقبال » . انظر : البرهان فى علوم القرآن (٤/ ٢٨٠) .

(٢) ذكر ابن كثير في تفسيره وعزاه لابن أبى حاتم (٤/ ٢٦٦) عن عكرمة قال : لما نزلت : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) ﴾ قال : قال عمر : أى جمع يهزم ؟ أى جمع يطلب ؟ قال عمر : فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ يثب فى الدرع وهو يقول : ﴿ سيهزم الجمع ويولون الدبر ﴾ فعرفت تأويلها يومئذ .

سبحانه وتعالى رسوله بما يحدث فى أعماق النفس . وما يدور فى صدور الخلق ، وساعة ما ينتهك حجاب النفس ، كأنه يوضح لكل إنسان : إن سِرَّك الذاتى مفضوح عند الله ، والمثال على هذا قول الحق سبحانه :

﴿ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ ... (٨) ﴾ [المجادلة]

هم قالوا فى أنفسهم ، ولو لم يقولوا لعارضوا ما أخبرهم به محمد ﷺ عما قالوه فى أنفسهم وأعلنوا أنه كذب . ولكنهم لم يُكذِّبوا رسول الله فيما أبلغ عن الله . وهذا يدلنا أيضاً على أن المنافقين كانوا فى حذر ، وكان يغلب على ظنهم صدق رسول الله .

والمثال هو قول الحق هنا : ﴿ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِءُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ (٦٤) ﴾ [التوبة]

وإن كان البعض منهم قد استهزأ قائلاً : لا داعى أن نتكلم حتى لا يُنزل فينا قرآناً ، فالحق يُبلِّغ رسوله أن يرد عليهم: ﴿ قُلِ اسْتَهْزِءُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ (٦٤) ﴾ [التوبة]

وما تحذرون منه أيها المنافقون سيكشفه الله لرسوله وللمؤمنين.

ويقول الحق بعد ذلك:

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ (٦٥) ﴾

وإن سألتهم يا رسول الله: هل تناولتم الإسلام بسوء أو عيب فى مجالسكم ، فسوف يقولون : إن كان هذا قد حدث فهو مجرد خوض ولعب ، وكلام مجالس لا قيمة له [(١)] .

والخوض أن تُدخلَ نفسك فى سائل ، مثل الذى يخوض فى الماء أو يخوض فى الطينَ ، وقد أطلق على كلٍّ خوض ، ثم اقتصر على الخوض فى الباطل ، أى: أن المسألة لم تكن جدية بل كانت مجرد تسلية ولعب.

ويقول الله لرسوله: ﴿ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴾ أى: إذا قالوا لك : إن هذا حديث تسلية ولعب ؛ فاللعب هو أمر لا فائدة منه إلا قتل الوقت ، قل : أليس عندكم إلا الاستهزاء بآيات الله ورسوله وأحكام الإسلام تقتلون به الوقت ؟ فهل فى هذه المسائل خوض ولعب ؟

ثم يعطيهم الله الحكم:

﴿ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾

وهل سبق للمنافقين إيمان ثم جاء كفر ؟ لا ، ولكن قوله تعالى ﴿ قَدْ كَفَرْتُمْ ﴾ يعنى: أنكم أيها المنافقون قد فضحتم أنفسكم ؛ لأنكم كنتم تعلنون الإيمان فقط ، ثم أظهر الحق أن إيمانكم إيمان لسان لا إيمان وجدان.

---

(١) وذلك أن رجلاً من المنافقين فى غزوة تبوك قال : ما رأيت مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطوناً ولا أكذب ألسناً ولا أجبن عند اللقاء ، يعنى رسول الله ﷺ وأصحابه . فقال عوف بن مالك : كذبت ولكنك منافق لأخبرن رسول الله ﷺ فذهب عوف ليخبره ، فوجد القرآن قد سبقه ، فجاء ذلك الرجل إلى رسول الله ﷺ وقد ارتحل وركب ناقته ، فقال : يا رسول الله إنما كنا نخوض ونلعب ونتحدث بحديث الركب نقطع به عناء الطريق. انظر: أسباب النزول -للواحدى ص ١٤٤ .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ انظر إلى رحمة الله ، وكيف أنه - جَلَّ وعلا - لم يوصد باب التوبة أمامهم ، بعد أن كشف ما فى نفوسهم ، هنا يعلن له الحق أن الطائفة التى ستتوب توبة صادقة ، والتى لم تشترك فى هذا الخوض سيغفر لهم الله . أما الذين بَقَوْا على نفاقهم وإجرامهم - والإجرام هو القطع ، وجرمت الثمرة أى قطعتها ، وسمى إجراماً لأنه قطع حقاً عن باطل - أى الذين قطعوا واقعهم بقلوبهم وسلوكهم عن الإيمان ، فسوف يعذبهم الحق سبحانه.

﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾

ثم يعود سبحانه وتعالى إلى الأحكام التكليفية ، وعادة تكون الأحكام التكليفية من الله كلها على الذكورة ، وليس فيها على الأنوثة إلا عدد قليل من الآيات مثل قوله تعالى:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلاَ نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ... ﴿١١﴾ ﴾ [الحجرات]

وقوله تعالى:

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ... ﴿٩٧﴾ ﴾ [النحل]

أما باقى الأحكام فتنصبُّ على الذكورة ، وتدخل الإناث فى الأحكام لأن الأنوثة مبنية على السِّتْر فى الذكورة . ولكنه كان لابد هنا من ذكر المنافقين والمنافقات كل على حدة ؛ لأن للرجال مجالس ، وللنساء مجالس ، ولكل منهما أفعال وأقوال تختلف عن الآخرين . . ولذلك كان لابد من النص على المنافقات .

وقول الحق سبحانه : ﴿ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ ﴾ أى : لا يتميز أحد من المنافقين والمنافقات عن الآخر فى الخسة والقبح والفضائح ، ويحدد الله خصالهم فى قوله تعالى : ﴿ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ﴾ فهم إن فعل الناس معروفاً ينهونهم عنه ، بل إنهم يشجعونهم على فعل المنكر ، وهم لا ينفقون فى سبيل الله إذا طُلِبَ منهم الإنفاق .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾ وهل يُنْسَى الحق سبحانه وتعالى بالفطرة ؟ لا ، ولكن المقصود أنهم نسوا مطلوبات الله وتكاليفه فنساهم الله أى أهملهم ، فمن يبعد عن الله يزده الله بُعْداً ، مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ... (١٠) ﴾ [البقرة]

فإن كنت مسروراً من أنك نسيت الله فسيزيدك نسياناً ، ويختم على قلبك فلا يخرج منه الكفر أبداً .

ثم يعطى الحق سبحانه الحكم : ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ وكلمة « منافق » - كما نعرف - مأخوذة من نفقاء اليربوع ، وهو حيوان يشبه الفأر ويسكن فى الصحراء ويحفر لنفسه نفقاً فى الأرض ؛ له بابان ، وإنْ ترصَّد له الصائد عند أحدهما خرج من الثانى ، وهكذا ترى أن المنافق له وجهان . والفسوق معناه الخروج عن منهج الطاعة ؛ وهو مأخوذ من «فسقت الرطب»

أى : انفصلت القشرة عن الثمرة. والقشرة - كما نعلم - مخلوقة لصيانة الثمرة ؛ فإذا فسقت عنها تلفت الثمرة . والإنسان إذا فسق خرج عن طاعة الله .

ثم يأتى الله بما أعدَّه للمنافقين فيقول :

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ ﴾

والوعد للخير والوعيد للشر ، ويقال : « أوعد » فى الشر ، وفى بعض الأحيان تستخدم كلمة « وَعَدَ » بدلاً من « أوعد » حتى إذا استمع السامع لها يتوقع خيراً . فإذا جاء الأمر بالعذاب كان ذلك أليماً على النفس. وهذا استهزاء بالمنافقين والكفار ، مثل قوله تعالى :

﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِى الْوُجُوهَ ... ﴿٢٩﴾ ﴾ [الكهف]

كأن الله أعطاهم وعداً أنهم إن يستغيثوا سيأتيهم الغوث ثم يقلبه عليهم ويجعله ماء يغلى ويشوى وجوههم - والعياذ بالله - ونلحظ أيضاً أن الحق سبحانه قد قدَّم المنافقين والمنافقات على الكفار، وهذا يؤيده قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِى الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً ﴿١٤٥﴾ ﴾

[النساء]

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾

وهكذا نرى أن المنافقين موقعهم الدرك الأسفل من النار. والكفار موقعهم الدرك الأعلى ، وقد يسأل سائل : كيف يكون ذلك ؟

ونقول: إن الكافر بكفره قد أعطانا مناعة ؛ فلأنه أعلن الكفر فنحن نأخذ حذرنا دائماً منه ، فلا يلحق بنا إلا ضرراً محدوداً ، أما المنافق فهو قد تظاهر بالإيمان فآمناه ، ويستطيع أن يلحق بنا شرّاً رهيباً ؛ لأنه بحكم ما أخذه من أمان منا ، يعرف أسرارنا ومواطن الضعف فينا ، وقد تكون طعنته قاتلة.

والعدو الخفى - كما نعلم - شر من العدو الظاهر ؛ لأننا نكون على حذر من العدو الظاهر ، لكننا لا نأخذ الحذر من العدو الخفى ، وهو يعرف ما فى نفسى ، ويعرف كل تحركاتى ، ويستطيع أن يغدر بى فى أى وقت دون أن أكون منتبهاً لهذا الغدر.

ولذلك إذا أراد قوم أن يكيدوا للإسلام دون أن يسلموا ، فكيدهم يفشل ؛ لأنهم وهم على الكفر سيجدون مناعة عند المسلمين من الاستماع إليهم . أما إن احتالوا ودخلوا على الإسلام من داخل المسلمين أنفسهم ، فهم يُجنِّدون عدداً من ضعاف الإيمان ليطعنوا فى هذا الدين ، وتكون طعنات هؤلاء المسلمين بالاسم ، هى القاتلة وهى المؤثرة.

هنا نلاحظ فى قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ ولم يقل الحق بالخلود أبداً فى النار إلا فى ثلاث آيات فقط فى القرآن الكريم.

فى قــوله تعــالى : ﴿إِلاَّ طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (١٦٩)﴾ [النساء]

وقوله عز وجل : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا (٦٤) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لاَّ يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا (٦٥)﴾ [الأحزاب]

وقوله جل جلاله: ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا (٢٣)﴾ [الجن]

و لكنه ذكر الخلود فى الجنة أبداً مرات كثيرة [١] .

ونقــول: إن الجنة هى بُشْــرى النعــيم للمــؤمنين . ويريد الحق سبــحــانه وتعالى أن يؤنس خلقه بالنعيم الذى ينتظرهم ، ولكن بالنسبة للنار فهى دار عذاب ، وتأبى رحمة الله وهو الخالق الرحيم بعباده ألا يُذكر الخلود فى النار متبوعاً بكلمة أبداً إلا فى ثلاث آيات ؛ حتى لا يظن الكفار أن الله سبحانه وتعالى بقوله : ﴿ خَالِدِينَ ﴾ دون ذكر الأبدية أنه خلود مؤقت فى النار ؛ لذلك يُذكِّرهم بأنه خلود أبدى . وفى نفس الوقت تأبى رحمته سبحانه وتعالى أن يكون ذلك فى كل آية تُذكَر فيها النار ؛ حتى يفتح طريق التوبة والرحمة لكل عاصٍ ، علَّه يتوب ويرجع إلى الله.

والحق سبحانه يقول:

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ (١٠٦) خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ (١٠٧) وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ (١٠٨)﴾ [هود]

---

(١) ذكر الخلود فى الجنة أبداً فى ٨ مواضع من القرآن الكريم [النساء: ٥٧ ، ١٢٢] ، [المائدة: ١١٩] ، [التوبة: ١٢ ، ١٠٠] ، [التغابن: ٩] ، [الطلاق: ١١] ، [البينة: ٨] .

وثار الحديث بين المستشرقين : كيف يقول الحق سبحانه وتعالى عن النار والجنة خالدين فيها أبداً ؟ ثم يأتى فى هذه الآيات ويستثنى ويقول: ﴿إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ والاستثناء وارد على المؤمن والكافر ؟

ونقول: إن الذين يثيرون هذا الاعتراض لم يفهموا القرآن ولا المنهج ، فالذين سيدخلون النار قسمان : قسم آمن ولكنه عصى وارتكب سيئات ؛ فُيعذَّب فى النار على قَدْر سيئاته ، ثم يُخرجه الله من النار إلى الجنة لأنه مؤمن ، وقسم آخر كافر أو منافق ، الاثنان يدخلان النار ، ولكن أولهما - وهو المؤمن - يُعذَّب على قَدْر سيئاته . والثانى يبقى خالداً فيها لأنه كفر أو نافق .

إذن: فالمؤمن العاصى لا يخلد فى النار ؛ ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ لأنه لن يبقى فى النار إلا بقدر سيئاته ، فكأن خلوده فى النار من البداية مؤقت وهو لا يبقى خالداً فيها؛ لأن مشيئة الله سبحانه وتعالى تدركه ، فتخرجه من النار إلى الجنة.

أما الكافر والمنافق فهما خالدان فى النار لا يخرجان منها ، فكأن هناك من يدخل النار ولا يكون خلوده فيها أبديّاً ، وهذا هو المؤمن العاصى. وهناك من يدخل النار ويخلد فيها أبداً ، وهذا هو الكافر أو المنافق.

وإذا جئنا إلى الجنة ، فهناك من سيدخل فيها خالداً أبداً ؛ أى منذ انتهاء الحساب إلى ما لا نهاية . وهذا هو المؤمن الذى غلبت حسناته سيئاته وأدخله الحق الجنة . ولكن هناك من سيدخل الجنة ، ولكن خلوده فيها يكون ناقصاً وهو المؤمن العاصى ؛ لأنه سيدخل النار أولاً ليجازى بمعاصيه.

إذن : فالمؤمن العاصى خلوده فى النار ناقص ؛ لأنه لن يبقى فيها أبداً. وكذلك يفتقد الخلود فى الجنة فور انتهاء لحظة الحساب ؛ لأنه لن يدخل

فيها بعد الحساب مباشرة ، بل سيدخل النار أولاً بقدر معاصيه . فقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ ينطبق على عصاة المؤمنين الذين سيأخذون حظهم من العذاب أولاً على قدر سيئاتهم ، ثم بعد ذلك يدخلون الجنة [(١)] .

وقول الحق عن خلود المنافقين فى النار : ﴿ هِيَ حَسْبُهُمْ ﴾ أى تكفيهم ، كأن يكون هناك إنسان شرير وأنت تريد أن تؤدبه ، فيأتى إنسان قوى ويقول لك: اتركه لى ، أنا وحدى كفيل أن أؤدبه ، فتقول: هذا حسبه ، أى يكفيه هذا ؛ ليتم التأديب المطلوب . كذلك النار ، فسبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلى أنها تكفيهم ، أى : أن ما سيعانونه فيها من ألم وعذاب كافٍ جداً لمجازاتهم على ما فعلوه من سيئات.

ثم يقول الحق: ﴿ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ أى : طردهم من رحمته ومن طاعته فلا يقبل لهم توبة ولا عودة ؛ لأن مكان التوبة هو الدنيا . وأما ما بعد الموت والآخرة ، فلا محل فيهما لتوبة ولا رجوع عن معصية ؛ لأن زمان ذلك قد انتهى . لذلك فالعذاب لمن لم يَتُبْ فى الدنيا هو عذاب مقيم فى الآخرة.

﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ وقد وصف الحق عذاب جهنم مرة بأنه عذاب أليم ، ومرة بأنه عذاب مهين ، ومرة بأنه عذاب مقيم ؛ لأنه يريدنا أن نعلم أن كل أنواع العذاب ستصيب أهل جهنم ، فإن كان الإنسان مُتجلِّداً له

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٢/ ٤٦٠) : « هذا الذى عليه كثير من العلماء قديماً وحديثاً فى تفسير هذه الآية الكريمة » . وقد أضاف الإمام أبو يحيى الأنصارى معنى جميلاً فى كتابه: « فتح الرحمن بكشف ما يلتبس فى القرآن » ص ١٩٥ فقال : « هو استثناء من الخلود فى عذاب أهل النار ، ومن الخلود فى نعيم أهل الجنة ؛ لأن أهل النار لا يخلدون فى عذابها وحده ، بل يعذبون بالزمهرير ، وبأنواع أخر من العذاب ، وبما هو أشد من ذلك ، وهو سخط الله عليهم . وأهل الجنة لا يخلدون فى نعيمها وحده ، بل ينعمون بالرضوان ، والنظر إلى وجهه الكريم وغير ذلك » .

كبرياء يتحمل الألم الشديد ولا يُظهر ما يعانى ، فالعذاب لن يكون أليماً فقط ، ولكنه مهين أيضاً ، والهوانَ هو إيلام النفس ، وإن كان ذا كبرياء مُتجلِّد فإنه يُجَرُّ على وجهه ويُهَانُ . وبعض الناس قد يتحمل الألم ، ولكن لا يتحمل الإهانة التى تصيبه بعذاب نفسى أكثر من العذاب البدنى ، فقد تأتى لكبير قوم وتهينه أمام أتباعه، أو لأب وتهينه أمام أولاده ، ويكون هذا أكثر إيلاماً لنفسه من أن تضربه.

وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ أى: عذاب دائم ، فإن كان أليماً يبقى الألم على شدته ولا يُخفَّف أبداً ، وإن كان مهيناً تبقى الإهانة مستمرة ولا تزول أبداً . وفى كلتا الحالتين هو عذاب فيه إقامة وفيه دوام واستمرار.

ثم يخاطب الحق سبحانه وتعالى الكفار والمنافقين ، ويقول جل وعلا للخارجين عن منهجه:

﴿ كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾

وهنا يُذكِّرهم سبحانه بمواكب الكفر التى صاحبت الرسل السابقين ، وقد كانت هذه المواكب فيها المنافقون وفيها الكفار ، وسبحانه وتعالى عندما يرسل رسولاً يؤيده ضد أعداء منهج الخير .

والحق سبحانه يريدنا أن نتذكر ما حدث للأمم السابقة الذين كانوا أكثر قوة وأكثر أموالاً وأولاداً من أولئك الكفار والمنافقين الذين يواجهون رسول الله ﷺ. ولنقرأ قول الحق جل جلاله:

﴿ وَالْفَجْرِ (١) وَلَيَالٍ عَشْرٍ (٢) وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ (٤) هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ (٥) أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (٨) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (١٠) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (١٤) ﴾ [الفجر]

ونحن لم نشهد ﴿ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾ التى وصفها الحق سبحانه وتعالى بقوله: ﴿ لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴾، ولكن القرآن أكد لنا أنها وصلت إلى درجة من الحضارة التى لم يصل إليها أحد. وقد يتساءل بعض الناس: أين ﴿ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾ من حضارات اليوم؟. ونقول: إن هناك أسراراً لله فى كونه قد أعطاها بعض خلقه ولم يُعْطِها لأحد حتى الآن.

وإذا نظرنا إلى الفراعنة مثلاً نجد أن الحق سبحانه وتعالى قد وصفهم فى القرآن بقوله: ﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴾. والأهرامات أوتاد، والمسلات أوتاد، وما زالت علوم حضارة الفراعنة تغيب عن البشر حتى الآن، فهناك من مظاهر هذه الحضارة ما نعجز عنه حتى الآن، مثل سر التحنيط وبناء الأهرام؛ فهذه الكتل الحجرية الضخمة التى ارتفعت ويمسك بعضها البعض، دون أية مواد مثبتة، وما زال العلم الحديث عاجزاً حتى اليوم عن أن يوجد هرماً مبنيّاً بنفس طريقة قدماء المصريين دون استخدام أى مواد

مثبتة ، ومع ذلك فهؤلاء الفراعنة لم يستطيعوا أن يسودوا الكون رغم قوتهم وحضارتهم ، بل أخذهم الله أخْذَ عزيز مقتدر . وجاءت الرمال فدفنت حضارتهم . ثم شاء الله لنا أن نكشف عن جزء بسيط منها ؛ فإذا بهذا الجزء البسيط يبهر الدنيا كلها . وإذا بالعالم كله يأتى ليشاهد حضارة الفراعنة ، ويتعجب من هذا الفن وهذا الرقى فى العلم . فإذا كانت هذه هى حضارة آل فرعون ، فما بالك بحضارة إرم ذات العماد التى لم يُخْلَق مثلها فى البلاد ؟

وهكذا نعلم أن بعض حضارة إرم ذات العماد ما زالت مخفية حتى الآن لا يعلم أحد عنها شيئاً . ومدفونة فى باطن الأرض. ولعل الله سبحانه وتعالى قد أبقاها ليكشفها فى زمن قادم يزداد فيه بُعْد الناس عن الدين ؛ لأن الإنسان كلما تقدم فى الحضارة ابتعد عن الإيمان ؛ لإحساسه بأنه متمكن فى الكون ؛ مسيطر عليه ؛ حينئذ ربما يكشف الحق سبحانه وتعالى عن حضارة ﴿ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾ ليعرف الناس أن ما وصلوا إليه لا يساوى شيئاً مما كشفه الله لهؤلاء القوم.

وإن سأل سائل : أين هى حضارة ﴿ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾ ؟ نقول له : إنها فى وادى الأحقاف [1] والهبّة الواحدة من الرياح فى هذا الوادى تستر قافلة بأكملها ؛ أى إذا هبّت ريح ، فإن الرمال لا تدارى الطريق وحده ؛ ولكنها تدارى القافلة كلها ، فكم عاصفة رملية هبّت على المكان الذى كانت تقطنه ﴿ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾ فأخفتْ حضارتهم ؟ لابد إذن من حفريات على مستوى عميق جـّداً لنعثر على تلك الحضارة ؛ لأننا نعلم ونرى أن كل الكشوف الأثرية تحتاج أن نحفر لها ؛ لأن الرمال تتراكم فوق

(١) الأحقاف : هى صحراء مترامية الأطراف بظاهر بلاد اليمن كانت عاد تنزل بها . والأحقاف فى اللغة هى: ما اعوج من الرمال واستطال .

الآثار . بل إننا نرى البيوت القديمة فى القرى ، لابد أن تنزل لها بدرجة أو درجتين لتدخل إليها من الباب ؛ لأن العوامل الطبيعية والرصف وغير ذلك تزيد من علو الطريق . فإذا كان هذا هو عمل الرياح العادية فى وقت قصير ، فما بالك بالأعاصير فى أزمان طويلة ؟

وأنت إذا سافرت وأغلقت نوافذ مسكنك إغلاقاً مُحْكماً ، وعُدْتَ بعد شهر واحد تجد الأثاث مغطى بطبقة من التراب ، فإن غبْتَ عاماً وجدت كمية كثيفة من التراب ، هذا بالنسبة لبيت محكم الإغْلاق ، فما بالك بحضارة معرضة لكل هذه الظواهر الطبيعية ، وتُسْتر كل شهر بطبقة جديدة كثيفة من التراب ؟

ويقول سبحانه : ﴿ كَانُوا أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً ﴾ أى : أن حضارتهم أكبر من حضارتنا ؛ لأن الحضارة كلما كانت متقدمة كانت الأمة قوية ، وكلما تأخر شعب حضاريّاً كان ضعيفاً .

إذن : فالذين من قبلنا كانوا أكثر حضارة وأكثر أموالاً وأولاداً . ولسائل أن يسأل : كيف تكون لهم كثرة أولاد والعالم يزداد عدداً كل عام ، وكيف تكون لهم كثرة أموال ونحن نكتشف كنوز الأرض جيلاً بعد جيل ؟ نقول : لا تأخذ الكثرة على أنها كثرة عددية ، بل خذها بنسبتها ؛ لأنك إذا جئت بمائة شخص ووضعتهم فى حجرة ، يقال عنهم : « كثير » . فإذا أخذت كل واحد منهم ووضعته فى مكان بعيد عن الآخر يكون العدد قليلاً . وكان العالم فى الماضى مسكوناً بأماكن محدودة ، بدليل أننا اكتشفنا قارات وأماكن لم يكن يعرفها أحد .

إذن : فالكثرة هنا بالنسبة للحيز ، وهم فى حيزهم الذى يعيشون فيه كانوا كثرة ، وبالأموال التى كانت بين أيديهم بعددهم المحدود كانوا أكثر منكم أموالاً بعددكم الكبير ، أى أن نصيب الفرد كان أكبر ، وكذلك الأولاد .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاَقِهِمْ ﴾ والخلاق هو النصيب أو الحظ الذى يصيب الإنسان من أى نعمة ، ويقول سبحانه :

﴿ فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ (٢٠٠) ﴾ [البقرة]

أى : ليس له فى الآخرة نصيب من نعم الله ، فالذين عملوا للدنيا وحدها ولم يكن فى بالهم الله ، يأبى عدل الحق سبحانه وتعالى أن يضيع عليهم نتيجة عملهم ، ولذلك فهو يعطيه لهم فى الدنيا ، ولكن من يعمل وفى باله الله يعطيه الله من الدنيا ويُوفِّيه أجره فى الآخرة .

ولذلك نجد بعضاً من المؤمنين يسألون : كيف يكون الكفار أحسن حالاً من المؤمنين فى الحضارة المادية ، ولماذا يأخذ الكفار من خيرات الأرض ما يكفيهم ويزيد ، لدرجة أنهم فى بعض البلاد يُلْقون بالفائض فى البحر ، بينما نجد المسلمين يعيشون فى حضارة مادية محدودة ، ويستوردون ما يأكلون ؟

ولنتذكر الحقيقة الواضحة التى أكررها دائماً لكل مسلم : إياك أن يغيب عنك أن هناك " عطاء للرب" و "عطاء للإله" . فعطاء الرب للجميع ؛ لأن الرب هو الذى خلق وربَّى ، وأمدنا بالأقوات ، وسبحانه ليس رب المؤمن فقط . لكنه رب المؤمن والكافر . ولذلك إذا أخذ المؤمن أو الكافر بالأسباب أعطاه الله ؛ فالأرض تعطى محصولاً وفيراً لمن يحسن زراعتها وينتقى لها التقاوى ويرعاها ، لا تفرق فى ذلك بين مؤمن وكافر ، والكون يعطى كنوزه لمن يبحث عنها ويجتهد ، لا فرق بين مؤمن وكافر ، وهذا عطاء الربوبية .

أما عطاء الألوهية فقد خصَّ الله سبحانه وتعالى به عباده المؤمنين الذين يتبعون منهجه ، هذا عطاء العبادة يجزى به الإنسان فى الآخرة ، والذى

يأخذ العطاءين هو السعيد ، يأخذ عطاء الربوبية فيستغل أسباب الحياة فيعطيه الله خير الدنيا ، ويأخذ عطاء الألوهية بأن يجعل حياته وفقاً لمنهج الله ، فيعطيه الله النعيم فى الآخرة.

والأسباب فى الدنيا لا تفرق بين مؤمن وكافر ، فالشمس تشرق على المؤمن والكافر ، والمطر ينزل على الطائع والعاصى ؛ لأن هذا عطاء ربوبية. من أحسن استخدامه أعطاه بصرف النظر عن الطاعة أو المعصية.

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا (٢٣)﴾ [الفرقان]

لماذا ؟ لأنك عملت للدنيا وحدها.. وكنت تعمل ليقال إنك مخترع أو مكتشف.. أو لتحصل على الأموال أو الأوسمة.. أو النفوذ والجاه فى الدنيا ، ولكنك لم تكن تعمل وفى بالك الله .

وبعض الناس يأتى ليقول لك: هل الذى اكتشف علاجاً لميكروب كان يفتك بالبشر ، أو اكتشف الكهرباء أو اكتشف كذا مما أسعد البشرية كلها ، أيكون هذا كافراً ويُعذَّب فى النار ؟

نقول له : نعم ؛ لأنه فعل هذا وليس فى باله الله .. وإنما فعله وفى باله الحصول على المجد أو المال أو النفوذ فى الأرض ؛ ولذلك أعطاه الله ، ما عمل من أجله ، فأصبح له ثروة طائلة وتاريخ يدرس فى المدارس ، وأعطوه النياشين وأطلقوا اسمه على الشوارع والميادين.

فما دام قد عمل للدنيا فإن الله سبحانه وتعالى يعطيه أجره فى الدنيا ، ولكن الذى عمل وفى باله الله يأخذ من الدنيا بالأسباب ، ولكنه يأخذ فى الآخرة من المسبب مباشرة ؟ فالإنسان قد ارتقى حضارياً ، حتى إنك الآن فى بعض الدول المتقدمة تضغط زراً يعطى لك القهوة أو الشاى ،

وآخر يعطيك الطعام . . نقول : إن هذا كله متاع الأسباب ، فقبل أن تضغط أنت هذا الزر ، كان هناك بشر أعدّوا لك القهوة أو الطعام ، والآلة أوصلته إليك .

ولكن مهما ارتقى الإنسان تكنولوجيّاً فلن يأتى اليوم الذى يجعل الشىء يخطر ببالك فتجده أمامك . . ولكنك فى الجنة بمجرد أن يخطر الشىء على بالك تجده أمامك [1] ؛ لأن عطاء الدنيا عطاء أسباب ، وعطاء الآخرة عطاء مسبب .

فالله سبحانه وتعالى أعطانا الاختيار والأسباب فى الدنيا ، ولكن فى الآخرة يأتى لك الشىء بلا عمل ، مختلفاً فى مذاقه ورائحته عن الدنيا .

إذن : فالذى يعمل وفى باله الأسباب فقط يعطى فى الدنيا ، والذى يعمل وفى باله خالق الأسباب يعطى فى الحياتين ؛ ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ ... (٣٩) ﴾ [النور]

والسراب الذى تمشى له متخيلاً أنه ماء فإنك حين تصل إليه لا تجده شيئاً ، هكذا الكافر يوم القيامة ، يفاجأ بأن الله موجود ، وجد الله سبحانه الذى لم يؤمن به ، ويطلب من الله الأجر فيقال له : أجرك ممن عملت له . وما دمت لم تعمل لله فلا يوجد لك أجر فى الآخرة ؛ لأن الله هو الذى يجزى فى الآخرة .

---

(١) ورد فى هذا حديث عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله ﷺ : « إنك لتنظر إلى الطير فى الجنة فتشتهيه فيخر بين يديك مشويّاً » أخرجه البزار (٣٥٣٢ - كشف الأستار) . فيه حميد بن عطاء الأعرج . قال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٤١٤) : ضعيف . ولكن قال الذهبى فى الميزان (٢/ ١٣٧) : متروك . فالحديث ضعيف .

وهنا يقول الحق سبحانه: ﴿ فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاَقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلاَقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلاَقِهِمْ ﴾ أى: أنهم أخذوا نصيبهم من الدنيا، ولكن الآخرة ليس لهم فيها نصيب؛ لأن النصيب فى الآخرة يأتى بـ «افعل» و «لا تفعل» فى التكليف، فإذا فعلت الاثنين ترتقى، بدليل أن حضارة المسلمين استمرت ألف سنة حين أخذوا بالأسباب، ولم ينسوا المسبب.. بل حرسوا الأسباب بقيم المسبب فى «افعل» و «لا تفعل»؛ فملكوا الدنيا ألف سنة. ولا توجد حضارة مكثت مثل هذه المدة، ولئن زالت الحضارة من أمم الإسلام سياسيّاً، فقد بقى دينهم فى نفوسهم، ولا توجد حضارة عاشت مبادئها بعد زوال الحضارة إلا الإسلام. فقد بقى منارة هادية، رغم ضعف المسلمين سياسيّاً.

وقول الحق سبحانه: ﴿ فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاَقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلاَقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلاَقِهِمْ ﴾ أى: خذوا نصيبكم من الدنيا بالأسباب، ولكن تذكروا أنه استمتاع موقوت بزمن لا يملكه الإنسان؛ لأن عمر الفرد فى الدنيا هو بعمر حياته فيها لا بعمر الدنيا نفسها؛ لأن الدنيا لك ولمن يأتى من بعدك. وعمرك فيها له حدود لا تعرف طوله. هل هو شهر أم سنة أم عشر سنين أم مائة عام؟ إذن: عمرك فى الدنيا مظنون موقوت، فعملك لأسباب الدنيا محدود المدة، بمقدار عمرك فى الدنيا.

وهَبْ أن عمرك طال وصرت من المعمرين فسوف ينتهى حتماً.

ويقول الحق سبحانه: ﴿ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلاَقِهِمْ ﴾ أى: أنتم تبعتموهم ومشيتم على أثرهم، وكلما فعلوا إثماً فعلتم إثماً، وهم خاضوا فى الأنبياء، وأنتم خضتم أيضاً فى الأنبياء، فأنتم شركاء الذين ذهبوا من

قبلكم فى أنكم أخذتم نصيبكم وحظكم فى الدنيا ، ولم تدعوا للآخرة شيئاً . فلكم نصيب فيما فعلوا ؛ هذه واحدة . أما الثانية : فقد بدلتم الحق بالباطل . إذن : فأنتم أخذتم المقدمات مثلهم فقادتكم إلى نفس النتائج .

﴿ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾ أى : فشلت وضاعت أعمالكم فى الدنيا ، كما حبطت أعمال من سبقوكم فى الدنيا وكانوا قسمين : قسماً وقف يحارب دعوة الخير حتى قتل ولم يأخذ شيئاً ، وقسماً لم ينله قتل فأفلت بدنياه ، ولكنه خرج منها دون أن يفعل شيئاً لآخرته فلم يأخذ شيئاً فى الآخرة .

فالذين حبطت أعمالهم فى الدنيا هم الذين قُتلوا وأسروا وشُردوا وغنمت أموالهم بأيدى المؤمنين ، فكأنهم خسروا الدنيا فلم يأخذوا من متاعها شيئاً ، وأيضاً خسروا الآخرة ، وهذا هو الخسران المبين ، أى الخسران المحيط بطرفى الزمن ؛ الدنيا والآخرة .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾

وبعد أن ذكر الحق فى الآية السابقة القضية العامة فى قوله : ﴿ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلاَقِهِمْ ﴾ جاء فى هذه الآية بالأعلام والأشخاص وهم الرسل ومن عاداهم فقال : ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ وساعة يقول: ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ ﴾ فهنا همزة الاستفهام ، ولام النفى. والهمزة تنفى هذا النفي، أى أتاهم نبأ هؤلاء. وحين ينفى النفى فى أمر فالمراد إثبات الأمر ، وأنت لا تستفهم الاستفهام الإنكارى ، إلا وأنت واثق من أن الجواب عند من تسأله هو : « نعم » ، فحين تقول لإنسان: أنت تخليت عنى فى محنتى . فيقول : ألم أزرك فى يوم كذا ؟ ألم أعطك كذا ؟ ألم أصنع مع ابنك كذا ؟ فهو واثق أنك لا تستطيع إنكار شىء من هذا لأنه ثابت ثبوتاً حقيقيّاً.

ونلحظ هنا أن الحق جاء بالخطاب للغيبة فقال: ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ ﴾ ولم يقل : « أَلَمْ يَأْتِكُمْ » ، فسبحانه يخاطبهم ترقيقاً لهم ، ثم يتكلم عنهم مرة ثانية وكأنهم غائبون . وكأن هذا أيضاً مزيد من حرص رسول الله ﷺ فى غيبتهم ، فهو ﷺ حريص على هدايتهم.

﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ والنبأ : هو الخبر الهام . ونحن لا نقول عن كل خبر : نبأ ، بل نقول عن الخبر الهام فقط إنه نبأ ، والنبأ أصله من النبوة ، والنبوة واضحة ظاهرة وليست مطموسة ؛ ولذلك فكل شىء هام ظاهر قد حدث يقال عنه نبأ . وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (١) عَنِ النَّبَأِ الْعَظِيمِ (٢) الَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ (٣) ﴾ [النبأ]

ولا يوجد نبأ أعظم من نبأ يوم القيامة.

وقد جاء الحق سبحانه وتعالى بالقضية الأولى التى كان الخطاب فيها مباشراً كقضية عامة ، وجاء بالقضية الثانية التى تكلم فيها عنهم غَيْباً كقضية خاصة .

ثم حدد الحق سبحانه المقصود بالذين من قبلهم ، وهم قوم نوح الذين أغرقهم الله بالطوفان . وكان قوم نوح كلما مروا عليه وهو يصنع السفينة سخروا منه ، وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى رداً على من سخروا من نوح :

﴿ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (٣٨) ﴾ [هود]

أى أنتم يا من تسخرون من نوح عليه السلام جاهلون بالغيب ، ولكن الله أعلم نوحاً وقومه بما سوف يكون ، ولذلك فالسخرية الحقيقية هى من أولئك الذين رفضوا الإيمان ، ولم يعلموا بما أعده الله لهم .

ثم ذكر الحق بعد ذلك عاداً وثمود وقوم إبراهيم وأصحاب مدين وهم قوم شعيب ، والمؤتفكات أى قوم لوط . ومعنى المؤتفك أى المنقلب . وقد جعل الله عاليها سافلها . ويقول الحق سبحانه :

﴿ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ (٥٣) فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ (٥٤) ﴾ [النجم]

أى : كانت عالية فأنزلها للهاوية . والإفك هو الصرف عن الحقيقة ، كما قالوا لإبراهيم :

﴿ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٢) ﴾ [الأحقاف]

أى : لتصرفنا عنهم .

ما قصة هؤلاء الأنبياء وأقوامهم ؟ يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ أى أن قوم نوح وقوم إبراهيم وغيرهم أتتهم رسالات السماء ولم تأتهم الرسالة كمنهج فقط ، بل جاءتهم معجزات تثبت صدق بلاغ الرسل عن ربهم ، فكأنه لا حجة لهم أن ينصرفوا عن منهج السماء أو أن يكذبوا به ؛ لأن كل منهج مُؤيَّد بمعجزة تثبت صدق الرسول فى رسالته . وقد تتابع هؤلاء الرسل على البشر ليهدوهم إلى منهج السماء ، ويبينوا لهم طريق الحق . وكان تعدد الرسالات فى أول الخلق ؛ لأن العالم كان منعزلاً عن بعضه البعض ، حتى إن أقواماً عاشوا على الأرض فى زمن واحد وأماكن متفرقة ؛ ولم يعلم أحد منهم عن الآخر شيئاً ، ولكن العالم الآن اتصل ببعضه البعض ، بحيث إذا وقعت الحادثة فى مكان ، نراها عن طريق الأقمار الصناعية فى ثوان ، وربما فى نفس الوقت الذى تحدث فيه ؛ إن كان الحادث مُعداً له مسبقاً ، وقد رأى العالم كله أول إنسان ينزل فوق سطح القمر فى نفس اللحظة التى نزل فيها .

وعندما كان العالم يعيش فى انعزال، كانت كل بيئة لها لون من المعصية والفساد ، فكان الرسول يأتى ليحارب هذا اللون من المعصية والفساد الموجود فى بيئة معينة ، ولا يوجد هذا اللون من المعصية والفساد فى بيئة أخرى .

ولكن عندما توحد العالم توحدت الداءات ؛ فالداء يظهر فى أمريكا مثلاً ، وبعد فترة قصيرة جـداً يظهر فى أوروبا أو فى مصر . ولذلك كان لابد أن يأتى رسول واحد ؛ لأن الداءات أصبحت واحدة ، واقتضى الأمر وحدة المعالجة ؛ لذلك كانت رسالة رسول الله ﷺ رسالة عامة لكل الأزمان وكل الأمكنة .

وحين يقول سبحانه: ﴿ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ فالبينات هى الشىء الذى يبين لك ما هو الحق ، والمعجزات التى صاحبت الرسالات السماوية بيَّنتْ وأكَّدتْ أن الرسول مُبلِّغ عن ربه ، وكانت المعجزة واضحة تماماً ليراها كل قوم رؤية تسمح باستيعابها . ولذلك كان كل رسول يأتى بآية يُجمع الكل على أنها معجزة . فأنت قد تأتى بشىء عجيب ، ولكن لا يُجمع الناس على أنه معجزة ، فعندما اختُرع الفانوس السحرى ، قال بعض الناس: إنه شىء عجيب . وبعضهم قال : إنه خداع نظر . ولكن معجزات الرسل لابد أن تستوعبها كل مستويات العقول ، يستوعبها المتعلم والذى لم يقرأ حرفاً فى حياته ؛ لأن الدين دين فطرة يخاطب أكبر العقول وأكثرها علماً كما يخاطب عقل البدوى الذى يقضى حياته كلها فى الصحراء ؛ لا يعرف شيئاً ولم يَعِشْ حضارة ولم يدرس علماً .

إذن: فالمعجزات لابد أن تكون واضحة لكل المستويات ؛ حتى لا يكون هناك عذر لأحد . ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ ﴾ ، وهذا دليل على أن الحق سبحانه وتعالى يحاسبهم على قدر استيعابهم للمعجزة ، فكأن كل العقول قد فهمت وأيقنت أن هناك معجزة. والذين استقبلوا المعجزة بالكفر ظلموا أنفسهم ؛ لأنهم بعد أن استوعبوا المعجزة ، وتحققوا أنها خَرْقٌ لقوانين الكون ولا يمكن أن يأتى به إلا الله سبحانه وتعالى ، ولكنهم رغم ذلك رفضوا الإيمان.

ويقول الحق عنهم: ﴿ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ والظلم أنك تأخذ حقّاً وتنقله إلى الباطل . ولكن الحقوق مختلفة ، فأىُّ حق ذلك الذى نقلته إلى الباطل ؟ إنه حق الوجود الأعلى الواجب الإيمان به وعبادته.

وكيف يظلم الإنسان نفسه ؟ يظلم الإنسان نفسه حين تُزيِّن له النفس شهوة فيرتكبها ؛ ليأخذ لذة عاجلة ويحرمها من نعيم دائم. وهناك من يظلم نفسه بظلم غيره ، مثل شاهد الزور [(١)] ؛ هذا الذى ينصر صاحب باطل على صاحب حق . ومن يشهد الزور يسقط حتى فى عين ذلك الذى شهد له . فإن جاء ليشهد أمامه فى قضية ، فهو لا يقبل شهادته وينظر إليه باحتقار ، وكان يجب على كل من يطلب من إنسان شهادة زور أن يضربه ؛ لأنه يريد أن يسقطه فى نظر الناس ، وفى نظر هذا الذى شهد من أجله ؛ لأن شاهد الزور حين أعان إنساناً على خَصْمه ، فالكل ينظر إلى مثل هذا الشاهد بالاحتقار .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ ﴾

جاءت هذه الآية بعد آية سابقة وُصفَ فيها المنافقون فى قوله تعالى :

﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ ... ﴿٦٧﴾ ﴾ [التوبة]

فناسب أن يقابلهم بالمؤمنين والمؤمنات ، وتلك مناسبة الضد بالضد ؛ لأن قياس الضد إلى ضده يُظهر الأمرين معاً . والمثال قول الشاعر حين

(١) عن أبى بكرة قال قال النبى ﷺ : « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ (ثلاثاً) قالوا : بلى يا رسول الله. قال : الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين - وجلس وكان متكئاً فقال - : ألا وقول الزور . قال : فما زال يكررها حتى قلنا : ليته سكت » . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٦٥٤) ومسلم (٨٧).

يمدح محبوبته فيقول:

فالوَجْهُ مثْلُ الصبح مُبيضٌ والشَّعْر مثل الليل مُسْودُّ
ضِدَّان لما استجمعا حَسُنَا والضِّدُّ يُظهِر حُسْنه الضِّدُّ

وبعد أن ذكر الحق فضائح المنافقين ومعايبهم ، وحنثهم فيما يحلفون ، وخلفهم فيما يعاهدون ، أراد أن يجعل تقابلاً بينهم وبين المؤمنين والمؤمنات . لكن التقابل هنا اختلف فى شىء ؛ لأنه سبحانه قال فى المنافقين :

﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ ﴾ ، وحين تكلم عن المؤمنين قال :

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ فالمنافقون والمنافقات وصفهم الحق ﴿ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ ﴾ أى أنهم كلهم متشابهون وسلوكهم مبنى على التقليد والاتباع ، فهم يقلدون بعضهم بعضاً. وبما أنهم قد أقاموا عقيدتهم على الشر ، فكلهم شر ، ولا يوجد بينهم من ينصحهم بالخير أو يحاول رَدَّهم عن النفاق ، بل هم يمضون فى تيار الشر إلى آخر مدى .

أما المؤمن فعقيدته مبنية على الاقتناع وعلى الخير . فإن وُجد فى مؤمن شر ؛ فَوليُّه من المؤمنين يبعده عن الشر ويعيده إلى طريق الخير ؛ ذلك لأن النفس البشرية لها أغيار متعددة ، ولا يسلك كل مؤمن السلوك الملتزم تمام الالتزام بمنهج الله فى كل شىء . بل هناك خصلة ضعف فى كل نفس بشرية . فإن وُجدَ فى المؤمن ضعف فأولياؤه من المؤمنين يُبيِّنون له نقطة ضعفه ويُبصِّرونه وينصحون له ، ويُرد فى نقطة ضعفه ،والمؤمن أيضاً يُنبِّه غيره ويُبصِّره ، وهكذا نجد أنه فى المجتمع المؤمن ، كل واحد يرد الآخر فى نقطة ضعفه ، وكل منهم ينصح الآخر ويعظه ، ليكتمل إيمان الجميع ، ومَنْ يقصر فى شىء يجد القريب منه ؛وهو يسد الثغرة الطارئة فى سلوكه.

أما المنافقون فيصفهم الحق ﴿ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ ﴾ أى : أنهم جميعاً من بعض ، فلا يتناهَوْنَ عن منكر فعلوه ، ولا يوجد بينهم ناصح .

وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ لم يبين لنا من المولى ومن الموَالَى ، فكل مؤمن هو ولى وهو موال ؛ لأن الولاية مأخوذة من « يليه » ، أى صار قريباً ، وضدها عاداهُ أى بَعُدَ عنه وتركه. إذن : فالموالاة ضدها العداوة . وفائدة القرب أن يكون الولى نصير أخيه المؤمن فى الأمر الذى هو ضعيف فيه.

فإذا كنت ضعيفاً فى أمر ما ، فأخى المؤمن ينصرنى فيه . وما دام أخى المؤمن ينصرنى فى أمر ما ، فإن صار هو ضعيفاً فى شىء أنصره أنا فيه ، فنتفاعل ونتكامل ويصبح كل منا ولياً ومُوَالَى .

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣) ﴾ [العصر]

ولو قيل : « وصَّوْا » لكان هناك أناس يوصون وأناس يتواصون ، لكن الحق قال: ﴿ وَتَوَاصَوْا ﴾ ومعناها أن كل مؤمن عليه أن يوصى أخاه المؤمن. فإن كان عندى نقطة ضعف فأنت توصينى وتقول : اعدل عن هذا ولا تفعله فأنت مؤمن . وإن كانت فيك نقطة ضعف أقول لك : لا تفعل هذا فأنت مؤمن.

إذن: فكل واحد منا مُوص ومُوصىً . كذلك الولاية فأنت وليى ،أى قريب منى تنصرنى فى ضعفى ، وأنا وليُّك ، أى قريب منك ، أنصرك فى ضعفك لأننا أبناء أغيار ؟ وكل واحد منا فيه نقطة ضعف تختلف عن نقطة ضعف الآخر .

والوَلاية تكون أيضاً فى الحق ، فقد أميل إلى الباطل فى نقطة فيقول لى أخى المؤمن : اعدل . وقد يميل هو إلى الباطل فأقول له : اعدل . وهكذا يتكامل الإيمان ؛ ولذلك تجد كلمة الوَلاية بمعنى القرب والنصرة فى قول الحق فى ذاته :

﴿ هُنَالِكَ الْوَلاَيَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ .. (٤٤) ﴾ [الكهف]

أى : أن النصر الحقيقى والقرب الحقيقى لله ؛ لأننا نعيش فى عالم أغيار ، فقد تطلب النصر عندى فتكون قوتى قد ذهبت ، أو يكون مالى قد فنى ، أو يكون نفوذى قد انتهى ، ولكن الحق سبحانه وتعالى هو وحده القوى دائماً ، والغنى دائماً ، الذى يُغيِّر ولا يتغير ، وعندما ينصرك الله فهذا هو النصر الحقيقى الدائم لا نصر الأغيار .

ونجد الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) ﴾ [يونس]

أى : أن الحق سبحانه وتعالى جعل أولياء لله .

وكذلك يقول تبارك وتعالى : ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا (٢٥٧) ﴾ [البقرة]

إذن : فالحق سبحانه وتعالى مرة يكون موالياً . ومرة يكون مُوَالىً ، فإن واليت الله بطاعتك يواليك سبحانه بنصره . ويقول تعالى :

﴿ إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ (٧) ﴾ [محمد]

أى : إذا تقربت إلى الله بطاعته ونصرة منهجه ، فهو يقرب منك فى أزماتك وينصرك ويُثبِّت أقدامك .

إذن : فالولاية فى الأصل هى القرب والتناصر ، ومادام هناك تناصر فلابد أن تكون هناك نقطة ضعف فى مؤمن ، ونقطة قوة فى مؤمن آخر ،

ولكن مَن الذى سيكون فى ضعف دائماً ، أو فى قوة دائماً ؟ لا أحد . إذن : فكل واحد يَنصر ، وكل واحد يُنصر .

وما دام الحق سبحانه وتعالى قد قال : ﴿ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ ولم يعين البعض ؛ فكل واحد صالح لأن يكون ناصراً ومنصوراً .

ولكى يتضح المعنى اقرأ قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَقَالُوا لَوْلاَ نُزِّلَ هَـذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) ﴾ [الزخرف]

إذن : فقد اعترف الكفار بصدق القرآن وإعجازه ولكنهم لا يؤمنون ؛ لأن القرآن نزل على رسول الله ﷺ ، ولم ينزل على أحد من زعماء قريش ، فيرد الله سبحانه وتعالى عليهم :

﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ... (٣٢) ﴾ [الزخرف]

وشاء الحق سبحانه وتعالى أن يجعل منكم السادة والعبيد ، ويجعل منكم الأغنياء والفقراء ، وذلك فى أمور الدنيا ، فإن كنتم تريدون أن تُقسموا أمور الدين ، فاقسموا أولاً معايشكم ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى هو الذى قسمها بينكم ، وحياتكم فى الدنيا تتبع قوانين الأسباب ، ومن السهل عليكم أن تقسموها بدلاً من أن تأتوا لتقسموا رحمة الله التى هى حق لله سبحانه وتعالى وحده.

ونلاحظ فى قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ ﴾ أن البعض مرفوع والبعض الآخر مرفوع عليه ، وما دامت كلمة ﴿ بَعْضٍ ﴾

مبهمة ، فإن كلاً منا مرفوع ومرفوع عليه . ولا يوجد واحد من البشر مرفوع على الجميع ، بحيث يكون وحده مجموعة متكاملة من المواهب . ولكن كلاً منا متميز فى ناحية وغير متميز فى ناحية أخرى ، حتى يكون التلاحم فى الكون تلاحم ضرورة حياة وليس تفضلاً ؛ ولذلك فإن الإنسان المؤمن إذا كان مرفوعاً عليه فى شىء فلابد أن يسأل نفسه : فى أى الأشياء أنا مرفوع فيه ؟ وفى أى الأشياء الناس أحسن منى ؟

ونقول له : أنت تتقن عملاً معيناً ولذلك أنت مرفوع فيه ، ولكن فى باقى الأشياء لا تعلم شيئاً ، فأنت مرفوع عليك . إذن : فأنا فى الشىء الذى لا أجيده مرفوع علىّ ، وفى الشىء الذى أجيده مرفوع على الناس ؛ ولذلك تجد كل واحد فى كون الله مرفوعاً مرة ومرفوعاً عليه مرة ، وهذا هو معنى : ﴿ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ ﴾ .

ولكن الآفة أننا لا ننظر فى الرفعة إلا إلى مجال واحد ؛ هذا غنى وهذا فقير ، ولكننا لا ننظر إلى الصحة ، أو العلم ، أو الأولاد ، أو صلاح الزوجة أو البركة فى الحياة ، وزوايا كثيرة ، وبعضنا إذا أخذ درجة عالية فى زاوية ، فإنه قد يأخذ صفراً فى زاوية أخرى . ومجموع كل إنسان فى نهاية الأمر يساوى مجموع أى إنسان آخر ، ولا تفاضل إلا بالتقوى . فإن رأيت واحداً متفوقاً عليك فى شىء ، فإياك أن تحسده ، ولكن اسأل نفسك فى أى مجال أنت تتفوق عليه ، وستجد هناك مجالات وزوايا أخرى تكون فيها أفضل من غيرك .

إذن : فكل منا مرفوع ومرفوع عليه ، ولابد أن نفهم أن كل صاحب موهبة يفيد المجتمع بموهبته ، وربما كان نفعه للمجتمع خيراً من نفعه

لنفسه . انظر إلى النجار مثلاً تجده يتقن عمل الأبواب والنوافذ للناس ، أما لنفسه فلا يتقنها ، لماذا ؟ لأن الباب الذى يصنعه لنفسه هو الباب الوحيد الذى لا يتقاضى عليه أجراً.

ولقد ضربنا مثلاً باليد اليمنى واليد اليسرى ، فعند غالبية الناس نجد أن اليد اليمنى تؤدى الأعمال بسهولة ، واليسرى تزاولها ببطء وتعثر ، فإذا أردت أن تقص أظافر يديك مثلاً ، فأنت تمسك المقص بيمينك وتقص أظافر اليد اليسرى بسهولة ، ثم تمسك المقص بشمالك وتتعثر فى قَصِّ أظافر اليد اليمنى .

وهكذا نرى أنه لا يوجد إنسان يستمتع بالمواهب المكتملة . بل هو يتقن شيئاً ولا يتقن أشياء ، ولكن مجموع مواهب كل إنسان ، تساوى مجموع مواهب كل إنسان آخر .

والعدل الإلهى يتدخل هنا ، فنجد - على سبيل المثال - الرجل الغنى الذى يأكل خبزاً من الدقيق الأبيض الفاخر ، ثم يأتى عليه وقت من الأوقات لا يستطيع أن يأكل إلا الدقيق الأسود أو السّن . وتجد من يسرف فى الطعام ؛ لابد أن يأتى عليه وقت ويحرمه الأطباء من الطعام ؛ لأنه أخذ منه أكثر من حقه . وتكون صحته فى أن يُحرم . والحق سبحانه وتعالى وضع نظاماً كونياً يتساند فيه الجميع ؛ لكى يلتحم الجميع . فأنت تحتاج لى فيما أتقنه وأنا أحتاج إليك فيما تتقنه ، وهكذا يتساند الناس ويتكون المجتمع السليم.

ولذلك يقال : الناس بخير ما تباينوا ؛ لأنهم لو لم يختلفوا وأصبحوا أصحاب موهبة واحدة أو عمل واحد لفسد الكون ، كأن نكون كلنا قضاة مثلاً ، فمن الذى يعالج المريض ؟ ومن الذى يحفر الأرض ؟ ومن الذى يحمل الطوب ؟ ومن الذى ينظف الطريق ؟ إننا لو تشابهنا فى الموهبة

أو الثراء أو العمل فلن نجد أحداً يقوم بهذه الأعمال ؛ لأننا لو كنا كلنا أطباء أو مهندسين أو صيادلة أو قضاة أو مشرعين لما استطعنا أن نعيش ، بل لابد أن نختلف لأكون أنا محتاجاً لك وأنت محتاج لى . وبذلك يتماسك المجتمع ، وتُقضَى مصالح الكون بسبب الحاجة ، وليس بالتفضل بين الناس .

ويصف الحق سبحانه المؤمنين بأنهم : ﴿ **يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ** ﴾ فإذا فعل مؤمن منكراً ؛ جاء أخوه المؤمن فنهاه عنه ، وإذا لم يفعل معروفاً جاء أخوه المؤمن وأمره بالمعروف . وكل واحد منا ناهٍ عن منكر ، ومنهى عن منكر .

وأنت لا يمكن أن تأمر بمعروف وأنت تفعل عكسه ، أو وأنت بعيد عنه ، فلا يمكن أن تكون فى يدك كأس من الخمر ؛ ثم تطلب من إنسان آخر يمسك كأس خمر أن يحطم الكأس التى فى يده ، لايمكن إذن أن تنهى عن منكر وأنت تفعله ؛ والذى يأمر بمعروف لابد أن يكون فاعله ، والذى ينهى عن المنكر لابد أن يكون بعيداً عنه [(١)] . فكل مؤمن آمر ومأمور بالمعروف . وناهٍ عن المنكر .

ويضيف الحق وصفاً للمؤمنين : ﴿ **وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ** ﴾ وإقامة الصلاة هى إعلان الولاء للخالق الأعلى ، ومن له ديمومة لا نهاية لها . والمؤمنون أولياء بعض ، ولكن مَنْ وليُّهم جميعاً ؟ إنه الله سبحانه وتعالى ، ولابد أن يلتحموا بمنهج الولى الأعلى الذى لا نستغنى عنه جميعاً .

(١) عن أسامة بن زيد قال ؛ سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى فى النار ، فتندلق أقتاب بطنه ، فيدور بها كما يدور الحمار فى الرحا ، فيجتمع إليه أهل النار فيقولون : يا فلان مالك ؟ ألم تك تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ؟ فيقول : بلى كنت آمر بالمعروف ولا آتيه ، وأنهى عن المنكر وآتيه » . أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٢٦٧) ومسلم (٢٩٨٩) . أقتاب البطن : أمعاؤها .

والله سبحانه وتعالى حين وصف المؤمنين بأنهم أولياء بعض، قال لنا:

﴿ إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ ... (٧) ﴾ [محمد]

إذن : فلابد أن نتجه جميعاً إلى الوالى [(١)] الكبير . فهو سبحانه فوق أسبابنا ، وفوق قوتنا وهو الذى ينصرنا إنْ عزَّتْ ولاية الأفراد المؤمنين لبعضهم البعض ، فنلجأ للولى الكبير . وما دامت الولاية لله الحق ، فلابد أن نستديم فى ولائنا له سبحانه وتعالى . واستدامة الولاء لا تكون إلا بالصلاة . وساعة تسمع المؤذن يقول : « الله أكبر » تسرع إلى الصلاة . لماذا ؟ لأن الله سبحانه وتعالى - وهو ربك وصانعك ووليك - قد دعاك إلى الصلاة ، فلابد أن تجيب الدعوة [(٢)] .

فإذا أحببت أن تزيد على الصلوات الخمس وتكون فى معية الله دائماً فافعل ، بعد أن تكون قد أدَّيْتَ ما فرضه سبحانه عليك من خمس صلوات فى اليوم الواحد ، وحين تُعْرَض الصنعة على صانعها خمس مرات كل يوم ففى هذا صلاح الإنسان . وأنت إنْ جئتَ بأى آلة وجعلتَ المهندس الذى صنعها يراها كل يوم خمس مرات فلن تعطب أبداً.

كذلك الإنسان وهو صنعة الله ، إذا عرض نفسه على الله خمس مرات كل يوم فإن العطب لا يدخل إلى نفسه . والصانع من البشر حين تعرض عليه الآلة فيصلحها بماديات ، سواء كان باكتشاف نقص فى الوصلات الكهربية أو كسر فى أى شىء ، فالمادة تصلح بالمادة ، ولكن الله سبحانه

---

(١) الوالى : من أسماء الله عز وجل : وهو مالك الأشياء جميعها المتصرف فيها . قال ابن الأثير : وكأن الولاية تشعر بالتدبير والقدرة والفعل .

(٢) عن أبى هريرة قال : أتى النبى ﷺ رجل أعمى . فقال : يا رسول الله إنه ليس لى قائد يقودنى إلى المسجد . فسأل رسول الله ﷺ أن يرخص له فيصلى فى بيته . فرخص له . فلما ولى دعاه فقال : « هل تسمع النداء بالصلاة ؟ » فقال : نعم . قال : « فأجب ». أخرجه مسلم فى صحيحه (٦٥٣) .

غيب ، ولذلك فهو يصلحنا بالغيب ، فلا تعرف ماذا فعل بك وأنت واقف أمامه تصلى . لكنك تشعر بلا شك أن شيئاً فيك قد انصلح .

ولهذا كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر - أى كان هذا الأمر فوق طاقته - قام إلى الصلاة [١] ؛ لأن أسبابه لم تستطع أن تفعل شيئاً فيتجه إلى المسبب ، ويقف بين يديه ؛ لأنه سبحانه وتعالى هو الذى يملك الحل . ولذلك كان ﷺ يقول لبلال : أرحنا بها يا بلال [٢] كأن الراحة بها ، أى : اجعل ملكاتنا تعتدل بالصلاة .

لذلك كان لابد أن يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ ﴾ لأن الصلاة استدامة الولاء لله ، والحق تبارك وتعالى يريدنا أن نكون موصولين به سبحانه ، وهذه الصلة تتم بالصلاة فرضاً خمس مرات فى اليوم ، وترك سبحانه الباب مفتوحاً لتطوعك ، فلا تترك ساعة تستطيع أن تكون فيها بين يدى الله إلا فعلت .

ولكى تعرف الفرق بين سيادة الله وسيادة البشر ، فإنك إذا ضعفت أسبابك أمام شىء ، فإنك تطلب أن تقابل من هو أعلى منك مركزاً ، فهو يملك أسباباً لقضاء حاجتك ، فإذا طلبت مقابلته قد يقول نعم ، وقد يقول لا . . فإذا قال نعم ، يسألك عم ستتكلم فيه . . فإذا قلت : إنك ستتكلم فى كذا ، حدد لك الساعة واليوم والمكان ومدة المقابلة .

ولكن الحق سبحانه وتعالى لا يفعل هذا . أنت تذهب له فى أى وقت تشاء ، وفى أى مكان تشاء ، وتتكلم فيما تريد ، وهو سبحانه لاينهى المقابلة أبداً ، أنت الذى تنهى المقابلة مع ربك .

(١) عن حذيفة قال : « كان النبى ﷺ إذا حزبه أمر صلى » أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٥/ ٣٨٨) وأبو داود فى سننه (١٣١٩) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٥/ ٣٦٤) وأبو داود فى سننه (٤٩٨٥) عن رجل من الصحابة .

ويقول رسول الله ﷺ : « لايمل الله حتى تملوا »[(١)].

والحق جل جلاله لا يشغله شيء عن شيء ؛ ولذلك فهو يقابل كل عباده فى وقت واحد ، ويستمع إليهم فى وقت واحد ، ويُجيبهم إلى ما يطلبون فى وقت واحد.

ويقول سبحانه : ﴿ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ﴾ والصلاة تأتى مع الزكاة باستمرار ؛ لأن فى الصلاة استدامة ولاء لله المعطى ، وفى الزكاة استبقاء حياة من يستحق أن تعطيه ، فأنت تعطيه لتستبقى له حياته فيواصل الولاء لله معك ؛ لأنه لا ولاء إلا بحياة ، وأنت تساعده على استبقاء هذه الحياة ؛ ولأن الزكاة إعطاء مال للفقير ، والمال يأتى بالعمل ، والعمل يحتاج إلى وقت ، إذن : فأنت ضحيت بجزء من وقتك لتتصدق به ، وفى الصلاة ضحيت بوقتك فى أوقات محددة.

وفى الأوقات التى تعمل فيها هناك استدامة الولاء ، بأن تخصص جزءاً من أثر هذا الوقت للزكاة ، فلا يكون كل وقتك للعمل ، وإنما يكون وقتك فيه عمل وفيه عبادة ، فحين تخصص جزءاً من مالك الذى سيأتيك من العمل للزكاة تكون قد زكَّيت الوقت بالصلاة ، وزكيت المال بالعطاء .

ويقول الحق : ﴿ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ . وقد ذكر الحق الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة. وهذه كلها طاعة لله بإقامة أركان الإسلام ، فلماذا يقول سبحانه : ﴿ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ ﴾ ؟

نقول : الله سبحانه ينبهنا إلى أن أركان الإسلام الخمسة وهى : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم

(١)متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٣) ومسلم فى صحيحه (٧٨٥) من حديث عائشة رضى الله عنها.

رمضان ، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً ، هذه الأركان ليست هى كل الإسلام . بل هى القواعد التى بُنِى عليها الإسلام ؛ لأن رسول الله ﷺ قال : « بنى الإسلام على خمس »[(١)] . إذن : فهذه هى الأعمدة أو الأسس التى بُنِى عليها الإسلام . ولكن الإسلام هو كل حركة فى الحياة تصلح ولا تفسد ، وتسعد ولا تشقى ، ولذلك أراد الحق سبحانه وتعالى أن نفهم أن الإسلام ليس فقط بالأسس التى وضعت ، ولكن لابد من طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ فيما أمرنا به فى كل حركة الحياة.

وحركات الحياة كلها متكاملة ، وإذا نظرت للشىء الذى تستفيد به تجده وليد حركات متعاقبة ممن سبقوك حتى آدم عليه السلام ، فإذا أخذنا أبسط الأشياء وهى وضع خميرة فى عجينة الخبز ؛ وكيف عرفنا هذا ؟ نجد أننا أخذناها جيلاً عن جيل ، والذى بدأها ألهمه الله بحادث يقع أو بخطأ يتم إلى أن وصل إلى قيمة وضع الخميرة فى العجين ليكسب الخبز طعماً ، ومعظم مبتكرات الحياة قد أتت بالصدفة أو نتيجة أخطاء. فالبنسلين - على سبيل المثال - اكتُشِف نتيجة خطأ. وقاعدة أرشميدس التى بنيت عليها نظرية الغواصات اكتشفت نتيجة ملاحظة ألهمها الله لأرشميدس. وحين يأتى ميلاد كشف جديد للبشرية ، فسبحانه يهدى خلقه إلى هذا الكشف ولو كان بخطأ يقع منهم.

ومثال آخر : ما الذى جعلك تفهم أن اللحم حين ينضج على النار أو يُشوى يكون طعمه أحلى ؟ ما الذى جعلك تطهو بعض أنواع الخضراوات ولا تطهو أنواعاً أخرى . كل هذا هدانا إليه الله .

(١) متفق عليه. أخرجه البخارى فى صحيحه (٨) ، ومسلم (١٦) من حديث ابن عمر رضى الله عنهما.

﴿ الَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَالَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ ﴾ [الأعلى]

إذن : فكل ما ننتفع به فى حركة الحياة ، قد أتانا من أجيال مضت ؛ ولذلك من يأتى ليقول : سأنقطع للعبادة صلاة وصوماً ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى قال فى كتابه العزيز :

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الذاريات]

نقول: سنوافقك على انقطاعك للصلاة والصوم فقط. ولكنك لكى تصلى ؛ أنت تحتاج إلى طعام يعطيك القوة والقدرة لتصلى وإلا فسيستحيل عليك أداء الصلاة . هَبْ أنك ستأكل رغيفاً من الخبز فقط ، من أين تأتى بهذا الرغيف ؟ من البقال. ومن أين أتى به البقال ؟ من المخبز . ومن أين جاء المخبز بالدقيق ؟ من المطحن . ومن أين جاء المطحن بالقمح ؟ من مخزن الغلال . ومن أين جاء المخزن بالقمح ؟ من المزارع . والمزارع أتى بمحاريث وآلات من المصانع لكى يحرث الأرض ، وجاء بآلات لكى يسقى.

إذن : فأنت لا تستطيع الانقطاع للعبادة إلا إذا استفدْتَ بحركة غيرك ، وكل عمل ذكرت فيه الله هو عبادة ، وكل حركة فى الحياة تعينك على أداء العبادة هى عبادة.

ومثال آخر : لكى تصلى لابد أن تستر عورتك فى الصلاة ، إذن : فأنت تحتاج إلى قماش تأتى به من التاجر ، والتاجر أتى به من مصنع النسيج ، ومصنع النسيج أتى به من مصنع الغزل ، ومصنع الغزل أتى بالقطن من المحلج ، والمحلج جاء به من الحقل ، والحقل جُنِّدَتْ له معامل الدنيا ليعطيك أوفر محصول ، ويقى القطن من الآفات . كل هذه هى من حركات الحياة التى مكَّنَتْكَ أن تستر عورتك فى الصلاة، وكل منها عبادة.

إذن : كان من الضرورى أن يقول ﴿ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ . بعد ﴿ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ﴾ . . . فبعد أن يقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة عليهم أن يطيعوا الله فى الإسلام الذى بنى على هذه الأركان .

ثم يقول الحق : ﴿ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ﴾ وأولئك إشارة إلى كل المؤمنين والمؤمنات الذين هم أولياء بعض ، والذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة، والذين يؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله ، هؤلاء سيرحمهم الله . وأيهما أبلغ : أن يقال أولئك يرحمهم الله ، أو يقال سيرحمهم الله ؟

الأبلغ أن يقال : ﴿ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ﴾ لأن السين تهتك ستار الزمن ؛ وبذلك يحيا المؤمن دائماً فى رحمة الله التى لا تنقطع .

ولذلك حكى الحق سبحانه وتعالى عن المؤمنين الذين يعملون الصالحات فقال : ﴿ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَـٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ ﴾ [مريم]

أى أن الود سيكون مستمراً ، حتى لمن استمع إلى هذه الآية ثم مات ، إنه أيضاً ينتفع بود الله . وأيضاً قال سبحانه لرسوله ﷺ :

﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴿٥﴾ ﴾ [الضحى]

ولم يقل : يعطيك ربك ، بل جاء بـ ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ ﴾ لترى عطاء الحق مستمراً .

وأنت حين تهدد أحداً لا تقل له : أنا أنتقم منك ، بل تقول : سأنتقم منك ، أى : أن الانتقام سيستمر مع الزمن .

وقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ﴾ تعطى أن صفة الرحمة فى حق الله سبحانه أعلى من صفة الرحمة فى المخلوق [(١)] ؛ لأن التراحم من الخلق على قدر الأسباب ، أما الرحمة من الحق سبحانه فتكون بصفات الكمال التى لا تتناهى ولا تنتهى. ومن الرحمة ألا يقع داء ، والشفاء أن يوجد داء فيشفى ؛ ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ ... (٨٢) ﴾ [الإسراء]

والاثنان يؤديان إلى سلامة المجتمع من الأمراض الاجتماعية التى تُشْقى الإنسان ، وهناك سلامة من أول الأمر. وهناك سلامة ليست من أول الأمر. ومن عنده خصلة سيئة - وهى داء - يشفيه منها القرآن ، أما الرحمة فهى ألا يأتى داء ابتداء ، ولذلك فالرحمة ممتدة.

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ ومعنى عزيز : أنه غالب على أمره ، وما يريده يقع؛ ولا يُغلب . ولكن إياك أن تفهم أن ذلك عن جبروت ظالم ، لا ؛ لأنه سبحانه لا يظلم أحداً ، ولأنه عزيز بحكمة . وهناك عزيز بلا حكمة ، تغريه عزته أن يطغى . لكن الله عزيز حكيم ، وعزته ليس فيها ظلم ولا طغيان ، ولكنها بحكمة إلهية.

ويأتى بعد ذلك وعد الله للمؤمنين والمؤمنات بالجزاء والنعيم فى الآخرة ، فيقول الله سبحانه وتعالى:

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «جعل الله الرحمة مائة جزء ، فأمسك عنده تسعة وتسعين، وأنزل فى الأرض جزءاً واحداً ، فمن ذلك الجزء تتراحم الخلائق ، حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها ، خشية أن تصيبه». متفق عليه أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٠٠٠) ومسلم فى صحيحه (٢٧٥٢).

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾ ﴾

والوعد: بشارة بخير يأتى زمانه بعد الكلام. والوعيد: إنذار بسوء يأتى بعد الكلام.

الوعد يشجع السامع على أن يبذل جهده ويعمل ؛ حتى يتحقق له الخير الذى وُعد به. والوعيد يعطى السامع فرصة أن يمتنع عما يغضب الله فلا يناله عذاب الله .

على أننا نلاحظ أن الحق سبحانه وتعالى قال:

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ ﴾ ثم ذكر العذاب الذى ينتظرهم ، وبعد ذلك قال :

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ ثم وصف النعيم الذى ينتظرهم ، مع أن الشائع فى اللغة أن الوعد يكون بالخير والوعيد يكون بالشر ، فكان من المناسب فى عرف البشر أن يقول الحق سبحانه وتعالى : « أوعد الله المنافقين » ؛ لأن الذى سيأتى بعد ذلك عذاب ونار وشر ، وأن يقول فى المؤمنين : وَعَدَ اللَّهُ لأن الذى سيأتى بعد ذلك جنة ونعيم وخير.

ولكن الأسلوب جاء مخالفاً للعرف البشرى ، فجاء بكلمة « وعد » ، وهى تقال دائماً للخير فى حديثه سبحانه وتعالى عن المنافقين والمؤمنين ،

واستخدام وعد بالنسبة للمؤمنين والمؤمنات موافق للمنطق البشرى ؛ لأنه وعد بخير.

ولكن بالنسبة للمنافقين فقد جاء الحق سبحانه وتعالى بكلمة « وعد » مكان « أوعد ».

فالذى يتكلم هنا هو الحق سبحانه ، فلا تَقِسْ كلام الله على كلام البشر ؛ لأن البشر يفوتهم فى كلامهم ملاحظَ ، ولكنها لا تفوت ولا تخفى على الله ، والبشر يتفاوتون فى الأداء وأساليبه ولكن الحق أسلوبه واحد.

فلماذا جاء سبحانه - إذن - بكلمة « وعد » بدلاً من « أوعد » ؟ نقول: إن الحق سبحانه وتعالى بعد أن عرَّف المنافقين والمنافقات ، ثم تكلم عن جزائهم إن أصرُّوا على نفاقهم ، كان ذلك تحذيراً حتى لا يصروا على النفاق مخافة العذاب الذى ينتظرهم ؛ عَلَّهم يقلعون عن النفاق وينصرفون إلى الخير من الإيمان.

إذن: فالحق سبحانه وتعالى حين حذرهم بالوعيد نصحهم ، كما تقول لمن يهمل فى دروسه : سترسب إذا أهملت دروسك . فتكون بذلك قد خدمت إقباله على المذاكرة . وأوصلته بالوعيد إلى أن يتجنب الأمر الذى أوعد به ؛ ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى :

﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلاَ تَنتَصِرَانِ (٣٥) فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٦) ﴾ [الرحمن]

هل الشواظ من النار نعمة حتى يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ أى : فبأى نعم ربك تكذب ؟ نقول : نعم إنه نعمة ؛ لأن

الحق سبحانه وتعالى حين يوضح لك: إن خالفت هذا فستذهب إلى النار ، يكون قد قدم لك العظة والنصيحة ، والعظة والنصيحة نعمة ؛ لأنه يجعلك تتجنب طريق النار وتختار طريق الجنة.

إذن: فحين يحذر الله المنافقين والمنافقات بالمصير الذى ينتظرهم ، يكون هذا خيراً ونعمة ؛ لأنهم إن اتعظوا وأقلعوا عن النفاق إلى الإيمان فهم ينجون أنفسهم من عذاب النار ، وفى هذا خير عميم . ولذلك استخدم الحق سبحانه وتعالى كلمة « وعد » ولم يستخدم « أوعد » ، وتكون الكلمة مؤدية للمعنى الذى أراده الله .

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ والوعد كما قلنا بشارة بخير مستقبلى ، والوعيد إنذار بشرٍّ يأتى فى المستقبل ، والوعد والإيعاد هما ميزان الوجود دنيا وآخرة ؛ لأنك إن وعدت من يلتزم بمنهج الله خيراً ، استحسن الناس جميعاً أن يصلوا إلى الخير باتباعهم المنهج ، وإن أوعدتهم بشر إن خالفوا منهج الله ؛ نفر الناس من المخالفة والمعصية خوفاً من العذاب وتجنبوا الشر . فإن صدق وعدك لأهل الخير بالخير ، وصدق وعيدك لأهل الشر بالشر ؛ استقام ميزان الحياة.

ولذلك نقول للذى يذاكر : إنك ستنجح ، فإن أتقنت المذاكرة حصلت على المجموع الذى يؤهلك لدخول الكلية التى تختارها ، وإن أهملت دروسك رسبت وفُصِلْتَ من التعليم وضاع مستقبلك . هنا وعد ووعيد. إن وفَّيْتَ ما وعدت ووقيت ما توعدت ، استقام ميزان الحياة . ولكن إذا جئت لإنسان لم يذاكر وأنجحته وأعطيته أعلى الدرجات مخالفاً بذلك وعيدك له ، فأنت تهدم قضية كونية يترتب عليها مصالح الخلق كلهم.

وإن وعدت من يحصل على ٩٠٪ مثلاً أنه سيدخل كلية الطب ، ثم أخلفت وعدك فدخل كلية الطب من حصل على ٧٠٪ واستُبعدَ الحاصل على ٩٠٪ بسبب تدخل الأهواء تكون أيضاً قد اعتديت على حركة الحياة كلها وتفسد قضية العمل الجاد فى حركة الحياة ، وكل من لا يملك القدرة على تنفيذ ما وعد به أو أوعد به ، لايكون لكلامه وزن فى حركة الحياة.

على أنه إذا كان الوعد والوعيد من الحق سبحانه وتعالى فإنه مختلف مع منطق البشر ؛ لأننا أهل أغيار ، فقد أعد بخير لا أستطيع تنفيذه ، وقد أعد بعقاب ثم أضعف بسبب ظروف معينة فلا أقوى على التنفيذ . إذن: فلكى تستقيم حركة الحياة ، لابد أن يأتى الوعد والوعيد من القادر دائماً ، القوى دائماً ، الموجود دائماً ؛ صاحب الكلمة العليا بحيث لا يوجد شىء يمكن أن يجعله لا يفى بوعده أو لا يُتِمُّ وعيده ، فإذا قرأت سورة المسد تجد الحق سبحانه يقول فيها:

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ (١) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (٢) سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (٣) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (٤) فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ (٥) ﴾

[المسد]

وقد حكم الله سبحانه وتعالى فى هذه السورة الكريمة ؛ بأن أبا لهب وامرأته سيموتان كافرين وسيدخلان النار ، ولكن كثيراً ممن كانوا كفاراً وقت نزول هذه السورة مثل : خالد بن الوليد ، وعكرمة بن أبى جهل ، وعمرو بن العاص [1] وغيرهم ؛ آمنوا وحَسُنَ إسلامهم وجاهدوا فى سبيل

(١) أسلم خالد بن الوليد فى العام السابع من الهجرة بعد غزوة خيبر. أما عكرمة فقد أسلم عام فتح مكة سنة ٨ هـ . أما عمرو بن العاص فقد أسلم قبل الفتح فى صفر سنة ٨ هـ. انظر : الإصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر (٢/ ٩٨) ، (٤/ ٢٥٨)، (٥/ ٢).

الله ، فلماذا حكم رسول الله بأن أبا لهب وامرأته لن يؤمنا كما آمن عمرو ، وكما آمن عكرمة ، وكما آمن خالد بن الوليد وغيرهم ؟ نقول: إن هذا ليس حكم رسول الله ﷺ ، ولكنه حكم الحق سبحانه وتعالى ، وإذا حكم الله فإياك أن تشُكَّ فى هذا الحكم ؛ لأنه لا إله إلا الله وهو على كل شئ قدير.

لذلك جاءت هذه السورة ، وبعدها فى المصحف الشريف فى سورة الإخلاص:

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) ﴾ [الإخلاص]

وما دام الله أحداً فأمره نافذ حتى فى الأمور الاختيارية فى الحياة ، فإذا قال الله : ﴿ لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ﴾. وإذا وعد بخير فإنه سيأتى لا محالة ، وإذا أوعد بشرّ فسوف يقع حتماً.

إذن: فلكى تستقيم موازين الحياة ، كان لابد أن يأتى الوعد والوعيد من الحق سبحانه وتعالى حتى نكون على يقين بأنه سيحدث ؛ لأنه لا أحد يشارك الله فى مُلْكه ، ولا يوجد قوى إلا الله ، ولا غالب إلا الله ؛ لأنه هو الله أحد.

وقد يأتى الحق سبحانه وتعالى بسنة كونية واقعة ، فأنت حين تزرع الأرض وتُحسن حَرْثها ، وريَّها ووضع البذور فيها يأتيك المحصول بخير عميم . وإذا أهملت الأرض وتركتها بلا حرث ولا زرع ولا بذور فهى لا تعطيك شيئاً.

إذن : فالسُّنة الكونية هنا أعطت وعداً للذى يجدُّ فى زراعة أرضه بالمحصول الوفير ، وأعطتْ وعيداً للذى لا يُقبل على زراعة أرضه بأنه

لا يحصل على ثمرة واحدة منها . ولو اختلف الأمر ووجدنا من زرع وحرث وسقى لم يحصل على الثمار ، ومن لم يزرع ولم يفعل شيئاً أعطته الأرض من ثمارها الكثير ، لانقلبت المعايير فى الكون ، وما وجدنا أحداً يزرع أرضه .

إذن : فلكى تستقيم سنة الحياة ، إما أن يكون الوعد والوعيد من قادر على التنفيذ لا يضعف ولا يتغير . وإما أن يكون بسنة كونية نراها أمامنا فى كل يوم ولا يقع ما هو مخالف لها . فالذى يجتهد ينجح ، والذى لا يذاكر يرسب . سُنة كونية . لو صدقت مع الواقع يعتدل ميزان الحياة . ولو لم تصدق مع الواقع وتدخلت الأهواء لتجعل من لا يذاكر ينجح ومن يذاكر يرسب ؛ اختلت حركة الحياة المثمرة الناجحة .

إذن : فميزان الوعد والوعيد هو دولاب حركة الحياة ، فإن اختل هذا الميزان وجاء الوعد مكان الوعيد ؛ أى كوفىء الذى لا يعمل وعوقب الذى يعمل فسد الكون . لماذا ؟ لأن كل إنسان يحب النفع لنفسه ، ولا يختلف فى ذلك مؤمن أو عاص أو كافر ، ولكن العاصى والكافر يحبان نفسيهما حبّاً أحمق ؛ فيحققانِ لها نفعاً قليلاً زمنه محدود ؛ بعذاب مستمر زمنه بلا حدود . أما المؤمن فهو إنسان يمتاز بالذكاء وبُعْد النظر ؛ لذلك فهو حرم نفسه من متعة عاجلة فى زمن محدود ، ليحقق لها متعة أكبر فى زمن لا ينتهى .

ولقد ضربنا مثلاً لذلك - ولله المثل الأعلى - فقلنا : هَبْ أن هناك أخوين : أحدهما يستيقظ من النوم مبكراً ، فيصلى ويفطر ويأخذ كتبه ويذهب إلى المدرسة ، ويحسن الإنصات للمدرسين ويعود إلى البيت ليذاكر دروسه . والآخر يظل نائماً يتمتع بالنوم ، ويقوم عند الضحى ،

فيخرج ليتسكع فى الشوارع ، وحين تُحدِّثه نفسه بأى متعة فهو يحققها بصرف النظر عن منهج الله وقيم الحياة.

إن كلا الأخوين يحب نفسه ، لكن الأول أحب نفسه فأعطاها مشقة محتملة فى سنوات الدراسة ؛ لتعطيه راحة ومركزاً ومالاً بقية حياته ، أما الأخ الثانى فقد أحب نفسه أيضاً وأعطاها المتعة العاجلة ولكنه أضاع مستقبله كله ، فلم يَعُدْ يساوى شيئاً فى المجتمع.

إذن: فكل منا يحب نفسه ، ولكن مقاييس الحب هى التى تختلف. فمنا مَنْ يأخذ المقياس السليم ، فيتحمل مشقة قليلة ليأخذ نعيماً أبديّاً ، ومنا من يعطى نفسه متعة عابرة ليفقد نعيماً مقيماً.

والعجيب أنك تجد أن هذه هى سنة الحياة الدنيا ، فلا تجد إنساناً ارتاح فى حياته إلا إذا كان قد أجهد نفسه فى سنواته الأولى ؛ ليصل إلى الراحة بقية عمره ، ولا تجد إنساناً فاشلاً عالة على المجتمع إلا إذا كان قد أخذ حظه من الحياة فى أولها ليشقى بقية عمره.

لذلك يقال دائماً : إنه لا يوجد من يأخذ حظه من الحياة مرتين أبداً ، فالذى يتعب فى أول حياته يرتاح بقية عمره ، والذى يرتاح أول حياته يتعب بقية عمره . والمثل الشائع يقول : من جار على شبابه ، أى : ضيَّعه فيما لا يفيد ؛ جارت عليه شيخوخته . والقائمون على الأمر عليهم أن ينبهوا المقبلين على الحياة بالوعد والوعيد حتى يستقيم أمر حياتهم ، وعليهم ألا يُؤجِّلوا الوعد إلى أن تنضج الثمرة . ولا الوعيد إلى أن يحدث الشر ويقع. وعلى كل ولى أمر ؛ فى أى مكان ؛ أن يراقب حركة المقبلين على الحياة من أبنائه أو من يتولى أمرهم ، فيشجع ويعد المجتهد ، ولا ينتظر

حتى ينجح ، بل لابد من الوعد لكى يتم الاجتهاد . ولابد من الوعيد قبل أن يرسب الابن أو يضيع حياته ، فلا ننتظر حتى يفسد الإنسان ثم بعد ذلك نتوعده ؛ لأن الوعد والوعيد هما اللذان يَزِنَانِ حركة الحياة.

ولكن إذا رأينا فى مجتمع ما أن الذى يعمل لا يأخذ شيئاً ، والذى لا يعمل يأخذ كل شىء ، نعرف أن مقاييس العمل قد اختلت. وأن المتاعب قد بدأت فى المجتمع ؛ لأن الذى يعمل حين يجد أن العمل لا يوصله إلى شىء فهو يوجه حركة حياته إلى غير عمله ، فيبذل جهده كله فى النفاق والرياء ، وقَلْب الحقائق وإرضاء الذى يملك الأمر . وتكون النتيجة هى فقدان المجتمع لقيمة العمل فيصبح المجتمع بلا عمل منتج ، ويصير مجتمعاً بارعاً فى النفاق والرياء وضياع الحق.

وقد وضع الحق سبحانه وتعالى مقياس حركة الحياة فى الوعد والوعيد ؛ فلا تُعْطِ حافزاً إلا لمستحق ، ولا مكافأة إلا لمجتهد ؛ ولكنك إذا بعثرت الحوافزَ على المنافقين ، والذين يحققون لك أهدافك الشخصية ، كأن يخدموك فى بيتك أو يقضوا لك مصالحك الخاصة ، ومنعت الحوافز عن الذى يعمل فى جد ، تكون بذلك قد أفسدت حركة الوعد والوعيد ؛ فتختل حركة الحياة فى المجتمع ؛ لأن حركة كل إنسان يتقن العمل ويجيده ، هى حركة تنفع المجتمع كله ، بصرف النظر عن صاحب الحركة نفسه ، فإذا وُجد عامل نشيط أنجز مصالح عشرات الناس ، أو موظف مخلص ارتاح كل من يتعاملون معه، فإنْ أضعْتَ أنت هؤلاء ، فكأن المجتمع هو الذى خسر.

لذلك نجد الحق سبحانه وتعالى فى سورة الكهف - ومعنى الكهف مغارة فى جبل ، والحقائق أيضاً لها كهوف - حين ضرب سبحانه وتعالى مثلاً عن

ذى القرنين قال :

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِى الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا (٨٣) ﴾ [الكهف]

فما هو الذكر الذى يعنيه الله سبحانه وتعالى هنا ؟

بعض الناس يحاول أن يُدخلَ نفسه فى متاهة بالسؤال عمَّنْ يكون ذو القرنين ، هل هو قورش ؟ أو الإسكندر الأكبر أو غيرهما ؟ نقول : إن هذا لا يعنينا ، بل ما يعنينا هو أن نلتفت إلى أن ذا القرنين هو إنسان مكَّنه الله فى الأرض [(١)] . وهذا ينطبق على كل إنسان مكَّنه الله فى الأرض ؛ فى أى زمان ، وفى أى مكان. ومهمة من يمكنه الله فى الأرض ألا يكتفى بعطاء الله من الأسباب ، بل عليه أن يُولد من الأسباب قوة ؛ مصداقاً لقوله تعالى:

﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِى الأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا (٨٤) فَأَتْبَعَ سَبَبًا (٨٥) ﴾

[الكهف]

مهمته - إذن - أن يثيب من يحسن عمله ، ويعاقب من أساء عمله ، وفى هذا يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا (٨٦) قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا (٨٧) وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا (٨٨) ﴾ [الكهف]

وأول ما يجب أن يهتم به كل مُمكَّن فى الأرض ، بعد توليد الطاقة من الأسباب ، هو معاقبة الظالم لتستقيم الأمور بالضرب على يده . وفى هذا

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٣/ ١٠١) : « قوله ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِى الأَرْضِ ﴾ أى : أعطيناه مُلْكاً عظيماً مُمكَّنا فيه من جميع ما يؤتى الملوك من التمكين والجنود وآلات الحرب والحصارات ولهذا ملك المشارق والمغارب من الأرض ، ودانت له البلاد وخضعت له ملوك العباد؛ وخدمته الأمم من العرب والعجم، ولهذا ذكر بعضهم أنه إنما سمى ذا القرنين لأنه بلغ قرنى الشمس مشرقها ومغربها ».

إصلاح لحركة الحياة فى الدنيا ، أما فى الآخرة فللظالم عذاب آخر ، ذلك أن الذين يعيثون فساداً فى الأرض لا يمكن أن نتركهم لعذاب الآخرة ؛ لأنهم لا يؤمنون بالآخرة . ولو تركناهم ؛ ولم نضرب على أيديهم ؛ لملأوا الأرض فساداً . والفساد فى المجتمع لا يصيب المفسد فقط ، ولكن يكتوى به المجتمع كله .

إذن : فلا بد أن نُعجِّل لهم بالعقوبة فى الدنيا ، لنحمى المجتمع من الفساد ، ثم يعذبهم الله فى الآخرة ، وهو سبحانه لم يؤمنوا به ، ولم يحسبوا حساب لقائه يوم القيامة ، وأما من آمن وأصلح فى المجتمع وصلح المجتمع بإيمانه ، فلابد أن نجازيه خيراً ونشجعه . هذا هو قانون صلاح الكون ، وتلك هى معاييره .

وكما قلنا ، يشترط فيمن يقوم بتنفيذ الوعد والوعيد القدرة الدائمة وعدم التغير والوجود الدائم ، فإذا كانت القدرة مطلوبة ، فلا يوجد أقدر من الله ، أمّا التغير فالله يُغير ولا يتغير ، وأما البقاء فلا بقاء ولا دوام لغير الله ؛ ولذلك نجد أن المؤمن الحق هو من يعلم أن وعد الله لا تمسُّه الأغيار ، أما وعد البشر فهو عُرْضة للأغيار . لذلك يطلب منك الحق أن تقول : " إن شاء الله " حين تعد بشئ لتكون صادقاً . ويقول سبحانه :

﴿ وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا (٢٣) إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَـٰذَا رَشَدًا (٢٤) ﴾ [الكهف]

وليس معنى هذا أن نمتنع عن التخطيط ووضع خطط لعام قادم أو لخمس سنوات قادمة ، ولكن قل : إن شاء الله سوف أفعل ذلك غداً ، و : إن شاء الله سأفعل كذا فى العام القادم ؛ لأن الذى تَعِدُ به ، قد يأتى وقت الوفاء ولا تجد عندك القدرة على أن تفعله .

فإذا قلت - مثلاً - لإنسان : سنتقابل غداً فى مسجد السيدة زينب رضى الله عنها ونتكلم فى موضوع كذا . هل أملك أن أعيش لغد ؟ أو يملك مَنْ وعدته أن يعيش لغد ؟ أو أملك أن يظل سبب اللقاء موجوداً ؟ يجوز أنى كنت سأقابله لأقترض منه عشرة جنيهات ،وجاءنى مال فى أثناء الليل ، أو غيَّرت رأيى .

إذن : فساعة تقول " سأفعل ذلك غداً " ، قل : " إن شاء الله" ؛ لأنك لا تملك شيئاً من أسباب الفعل . فكل فعل إنما يحتاج لفاعل وأنت لا تضمن بقاءك كفاعل.

ويحتاج كل فعل إلى مفعول يقع عليه ، وأنت لا تضمن بقاء المفعول ، وكل فعل يحتاج إلى قوة ليتم ، وأنت لا تضمن بقاء قوتك ؛ فيجوز أن تمرض ولا تقدر على الحركة . كذلك يحتاج كل فعل إلى سبب كى تفعله ، وقد يتغير السبب.

إذن : فأنت لا تضمن شيئاً من أسباب الفعل ؛ لذلك لا تقل سأفعل ذلك غداً ؛ لأن الذى يملك أن يبقيك لغد ، أو يُبقى السبب أو يُبقى القدرة هو الله ، إذن : فكل شئ نقوله لا بد أن نقول : "إن شاء الله" ؛ لأنه سبحانه وتعالى وحده الذى يملك عناصر الفعل.

ولكن إذا كان الذى وعد هو الحق سبحانه وتعالى ، فوعده محقق التنفيذ ؛ لأنه باق لا يموت ، قادر دائماً لا تضعف قدرته ، فعَّال لما يريد.

وبعد أن تكلم الحق جل جلاله عن المؤمنين والمؤمنات بأنهم أولياء بعض ، وأنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ويقيمون الصلاة ، ويؤتون الزكاة ، ويطيعون الله ورسوله ، وقد وعد سبحانه بأنه سيرحمهم. فكيف ستكون هذه الرحمة ؟

لذلك يقول سبحانه وتعالى : ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ﴾

إذن : فالحق سبحانه وتعالى وعد المؤمنين والمؤمنات بالجنة ، والجنة تطلق على البستان والأماكن الجميلة تملؤها الزهور والأشجار ، وهذه عامة للمؤمنين يتمتعون بها جميعاً ، ثم يأتى قوله تعالى : ﴿وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ﴾ وهذه المساكن زيادة على هذه الجنة ، وهنا وعد من الله لكل مؤمن بجنة خاصة بمفرده يكون له فيها مسكن طيب.

إذن : فعندنا جنات ، وهى لجميع المؤمنين ، ثم مساكن طيبة ، أى مسكن طيب لكل مؤمن ، وما هو الطيب فى هذه المساكن ؟

لنا أن نلاحظ أن الإنسان يحب الشيوع أولاً ، ثم يحب الانكماش ثانياً ، وإذا أراد أن يملك فهو يريد أن يملك مكاناً متسعاً خاصاً به ، ثم يخصص فى هذا المكان مأوى طيباً خاصّاً به .

وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً﴾ أى : ليس فيها ما يسئ أو يضايق ، بل كل ما فيها يملأ النفس بالسرور والبهجة . وكلمة "جنة" هى المكان الذى فيه زروع وخضرة ، وهذه الزروع تسترك وتخفيك عن الأعين ، أو أنها تسترك فلا تحتاج إلى أن تخرج منها ؛ لأن فيها كل مقومات حياتك من طعام وشراب . والحق سبحانه وتعالى أطلق لفظ " الجنة" على بساتين الأرض ، فقال :

﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ ... (٢٦٦)﴾ [البقرة]

ويقول تعالى أيضاً :

﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ ... (١٧)﴾ [القلم]

وعندما أراد الحق سبحانه وتعالى أن يعطينا صورة الجنة فى الآخرة ؛ كيف بيَّنها لنا سبحانه مع أن الجنة فيها مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ؟

نقول : الوجود المعروف فى الكون هو الوجود الذى تراه أو تسمعه ، وفى هذه الحالة يكون الوجود أوسع ؛ لأنك ستسمع الذى رآه غيرك حين يقصه عليك . إذن: فالسماع أوسع من الرؤية لأنه يأخذ مجالك ومجال غيرك . فأنت إذا قلت : إنك ذهبت إلى نيويورك مثلاً تكون قد رأيت ، فإذا لم تذهب ونقل إليك أحد أصحابك صورة هذه المدينة ، تكون دائرة معلوماتك أوسع ؛ لأنك أضفت إلى علمك ما رأيته وما رآه غيرك . وأما الأشياء التى لا تخطر على بال بشر ، فهى أوسع كثيراً مما ترى وتسمع ؛ لأنها أشياء فوق الحصر .

والكلمات توضع لمعانٍ معلومة ، فألفاظ اللغة لا بد أن توضع لمعان مرت على العين ، أو مرتٍ على السمع ، أو مرت على الخاطر . فقبل أنً يخترع التليفزيون لم يكن له اسم ، إذن : فلا يمكن أن يكون هناك اسم ، إلا إذا كان هناك وجود أولاً ، ولكن قبل الوجود لا يكون هناك فى اللغة ما يعبر عن شىء غير موجود . ولكن الألفاظ تضاف إلى اللغة بعد وجود الشىء . وهذه مهمة المجامع اللغوية فى العالم . فالأشياء توجد أولاً ، ثم تجتمع هذه المجامع لتختار لها أسماء .

ولكن الجنة فى الآخرة سيكون فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، فليس عندنا ألفاظ تعبر عما فى جنة الآخرة ، فإذا أضفنا إلى ذلك "ولا خطر على قلب بشر" تكون اللغة عاجزة تماماً عن أن تعبر عما فى جنة الآخرة .

وسبحانه وتعالى حين يريد أن يعطينا صورة عن الجنة التى وعد بها المتقين فهو يوضح : أنتم لا تستطيعون أن تأخذوا هذه الصورة من لغتكم ؛ لأن لغتكم قاصرة فأنتم لم تروا هذه الأشياء ، ولم تسمعوا عنها ولا تستطيع عقولكم أن تستوعب ما فى جنة الآخرة ؛ لأن فيها ما لم يخطر على قلب بشر . ولذلك فهو سبحانه وتعالى يعطينا فقط مثلاً ليقرب لنا الصورة فلا يقول الجنة ، وإنما يقول :

﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِى وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ... (١٥) ﴾ [محمد]

أى : أن هذا مثل فقط يقرب الصورة ، ولكنه ليس حقيقة ما هو موجود فى الجنة .

وهنا يقول سبحانه : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ﴾ و ﴿ جَنَّاتٍ ﴾ جمع "جنة" . ومادة الجيم والنون هذه مأخوذة من الستر والتغطية . اقرأ قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَـٰذَا رَبِّى فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ (٧٦) ﴾ [الأنعام]

يعنى : ستر وأظلم ، والجنون ستر العقل . والجنة تستر من فيها ؛ لأن أشجارها كبرت ونمت وترعرعت . بحيث يكون من يسير فيها مستوراً بأغصان الشجر وأوراقه ؛ فلا يراه أحد . ويكون مستوراً فى كل مطلوبات حياته . فلا يحتاج أن يخرج منها ؛ لأن فيها كل مطلوبات الحياة من الماء والطعام والمكان يجلس أو يتريض فيه ، وغيرها من النعم التى أنعم الله بها عليه .

فإذا كان الحق سبحانه وتعالى قد وعد المؤمنين والمؤمنات جنات ، فإن المؤمنين جماعة ، والمؤمنات جماعة ، والموعود به جنات جمع ، وتقابل الجمع بالجمع يقتضى القسمة لآحاد ، فيكون المعنى : أن الله وعد كل مؤمن جنة ، ووعد كل مؤمنة جنة ، والأفراد ستتكرر .

إذن : فالموعود به جنات لا بد أن تتكرر ، فإذا قسمناها عرفنا نصيب كل مؤمن ومؤمنة ، تماماً مثلما يقول الأستاذ لتلاميذه : أخرجوا كتبكم . و"أخرجوا" أمر لجماعة ، وكتبكم جمع ، أى : أن يخرج كل تلميذ كتابه. وقول المعلم " أمسكوا أقلامكم" يعنى : أن يمسك كل تلميذ قلمه .

إذن: فقول الحق سبحانه ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ﴾ أى : أن لكل واحد جنة . ولكن الحق سبحانه وتعالى يقول فى سورة الرحمن :

﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (٤٦)﴾ [الرحمن]

وهنا لا بد أن ننتبه لمعطيات الألفاظ فى سياقها ومقامها ؛ فسورة الرحمن لا تتكلم عن الإنس فقط ، وإنما تتكلم عن الإنس والجن . فسبحانه وتعالى يقول :

﴿ خَلَقَ الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ (١٤) وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ[1] مِّن نَّارٍ (١٥)﴾ [الرحمن]

وكذلك قوله جل جلاله :

﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلانِ (٣١)﴾ [الرحمن]

إذن : فيكون للإنس جنة وللجن جنة ؛ لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (٤٦)﴾ [الرحمن]

---

(١) **الصلصال** : الطين اليابس الذى يصلُّ من جفافه أى يُصدر صوتاً . **المارج** : الشعلة الساطعة ذات اللهب الشديد .

من خاف مقام ربه من الإنس له جنة ، ومن خاف مقام ربه من الجن له جنة .

ويمكن أن يكون المعنى أن لكل واحد جنتين ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى علم أزلاً ما سيصير إليه أمر عباده من التقوى أو الفجور ، ولكنه تبارك وتعالى لم يخلق للمتقين جنات تكفيهم وحدهم ، أو يخلق للكفار ناراً تكفيهم وحدهم ، بل خلق لكل واحد من خلقه إلى أن تقوم الساعة جنة ، ولكل واحد من خلقه إلى أن تقوم الساعة ناراً [(١)] ، فإذا دخل أهل الجنة الجنة ؛ بقيت الجنات التى خلقت ولم يدخلها أحد ؛ لأن أصحابها من أهل النار ، فيقوم الحق بتوزيعها على المؤمنين أصحاب الجنة ؛ مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٧٢) ﴾ [الزخرف]

أى : أنها لم تكن مخلوقة لكم ، ولكنكم ورثتموها ؛ لأن أصحابها من أهل النار [(٢)] .

ونزيد الأمر هنا توضيحاً ، فالقرآن الكريم له أسلوب مميز ؛ لأن الذى يتكلم هو الله سبحانه وتعالى . ولذلك فإن كل لفظ من ألفاظ القرآن الكريم يأتى مطابقاً للمعنى تماماً . وفى اللغة ، قبل أن تتكلم لا بد أن تكون عالماً بمعنى اللفظ . وأن يكون محدثك أيضاً عارفاً معناه حتى يستطيع أن يفهمك . فإذا قلت لإنسان مثلاً : أحضر لى كوباً من الماء لأشرب ، فلا بد أن يكون عارفاً لمعنى الماء ومعنى الكوب ، وإلا فإنه لن يفهم .

---

(١) عن أبى هريرة قال قال النبى ﷺ : « لايدخل أحد الجنة إلا أُرى مقعده من النار لو أساء ، ليزداد شكراً، ولايدخل النار أحد إلا أُرى مقعده من الجنة لو أحسن ليكون عليه حسرة » أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٥٦٩) وأحمد فى مسنده (٢/ ٥١٢) والجنة والنار منوطان باختيار الأعمال.

(٢) عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ : « مامنكم من أحد إلا له منزلان : منزل فى الجنة، ومنزل فى النار . فإذا مات فدخل النار، ورث أهل الجنة منزله. فذلك قوله تعالى: ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الوارثُون ﴾» أخرجه ابن ماجه فى سننه (٤٣٤١). قال البوصيرى فى زوائده : « إسناده صحيح على شرط الشيخين ».

إذن : فبالتخاطب توجد المعانى أولاً ثم توجد لها الألفاظ ؛ ولذلك قبل أن يتم اختراع التليفزيون لم يكن المعنى موجوداً ، وعندما اخترع وفهمنا معناه وضع له الاسم . فإذا وجدت لفظاً فى اللغة ، فاعلم أن المعنى قد وجد أولاً قبل أن يوضع اللفظ أو الاسم ، ولعل هذا هو أكبر دليل لغوى ضد من ينكرون وجود الواجد الأعلى .

نقول لهم : إن الله موجود فى كل لغة ؛ وبما أن المعنى فى اللغة يوجد أولاً . فوجود الله سبحانه وتعالى سابق لمعرفتنا باسمه سبحانه وتعالى ؛ لأن الاسم لا يمكن أن يوجد إلا بعد أن يوجد المعنى ، وما دمت قد نطقت بالاسم ، فهذا دليل على أن الله موجود . إذن : فقولك : إن الله غير موجود باطل ؛ لأنك ما دمت قلت : " الله " ، ووجد لفظ الجلالة فى لغتك؛ فلا بد أن الله سبحانه وتعالى موجود قبل وجود لفظ الجلالة . والكفر طرأ على اللفظ ، فحاول أن يستره ؛ ولذلك سمى الكفر ستراً لوجود الله . والستر لا يكون إلا لموجود .

إذن : فالذى كفر ، ستر موجوداً ؛ فأعطى دليل الإيمان ؛ لأنك أيها الكافر - والعياذ بالله - تعرف لفظ الله فى لغتك ، ولو لم يكن الله موجوداً ما وُجد لفظ «الله »سبحانه وتعالى فى اللغة .

إذن : فوجود الله سابق لمعرفتنا اسم الله ، ومحاولة ستر ذلك بالكفر إنما هى دليل على وجود الله ؛ لأنك لا تستر إلا ما هو موجود .

ولفظ الجنة فى القرآن الكريم أطلق على معان كثيرة ، فى قوله تعالى :

﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (١٧) ﴾ [القلم]

وقوله جل جلاله :

﴿ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ ...(٣٢) ﴾ [الكهف]

إذن : فالجنة أطلقت فى القرآن على المكان الذى فيه زروع وثمار وأشجار ، فهو يحجب من دخله ، أو يمنع الإنسان بالخير الذى فى داخله من الحاجة للخروج إلى مكان آخر ؛ لأن فيه كل مقومات الحياة . وحين يريد الحق سبحانه وتعالى أن يبشرنا بشىء فى الآخرة ، لا بد أن يشبهه لنا بشىء نفهم معناه فى الدنيا ؛ لأن اللغة مكونة من ألفاظ وأسماء سبقتها مَعَان حتى نستطيع أن نفهمها ، ولذلك إياك أن تفهم أن جنة الدنيا هى جنة الآخرة ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى يستخدم اللفظ الذى تفهم أنت معناه . ولكن جنة الآخرة فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

ولكن من أين نأتى بالألفاظ التى يمكن أن تعبر لنا عن ذلك ؟ إن اللفظ لا يوجد إلا إذا كان المعنى موجوداً أولاً ، ومن يستطيع أن يأتى بلفظ لم تره عين ، ولا سمعته أذن ولا خطر على قلب بشر ؟ مستحيل ؛ لأن المعنى غير موجود .

ولذلك ينبهنا الحق سبحانه إلى هذه النقطة ، ويوضح لنا أنه يعطينا معنى تقريبيّاً حتى نستطيع أن نفهمه ؛ فيقول سبحانه وتعالى :

﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ...(١٥) ﴾ [محمد]

أى : أنها ليست هى ، ولكنه مثل فقط ؛ يقرب المعنى إلى ذهنك . خذ صورة من المجتمع الذى تعيش فيه ، أنت تحتاج إلى مسكن لتسكن وتستريح فيه من عناء الحياة . وهناك من عنده مسكن من حجرة واحدة ، فإذا ترقى يكون المسكن من حجرة وصالة أو حجرتين وصالة ، ثم بعد ذلك

يزداد الرقى ، فيبحث عن شقة واسعة ، فإذا ارتقى كان له مسكن خاص (ڤيلا) ، فإذا ارتقى جعل حول مسكنه حديقة ، وهكذا يزداد الرقى . إذن: فالمسألة لم تَعُدْ مكاناً تأوى إليه فقط ،بل ترتقى فى الإيواء كلما ارتقيت فى الحياة. فتتحقق لك المتعة فى الإيواء ، وهذا موضوع آخر.

ولهذا يقول الحق سبحانه : ﴿ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً ﴾ أى : هناك جنات وهناك مساكن ؛ لأن الإنسان يحب فى بعض الأوقات أن يجلس بمفرده وحوله المتعة التى تخصه ، وفى أحيان أخرى يحب أن يجلس مع الناس فى مكان جميل ؛ مثلما يحدث فى الأعياد والمناسبات ، عندما نخرج إلى الحدائق والبساتين ، ونجلس معاً ، فكأن الجنات هى للرفاهية الزائدة ؛ عندما تحب أن تجتمع مع الناس ؛ أتمتع بها أنا وأنت وغيرنا . أما المساكن فهى للخصوصية . فيكون لكل واحد مكان خاص يجلس فيه ويتمتع بما حوله.

إذن : فالجنات صورة من البساتين ، ولكنها ليست مصنوعة بالأسباب ، بل هى من صناعة المسبب جل وعلا.

ونحن حينما نذهب إلى بيت إنسان ثرى ، قد نجد أن للبيت حديقة ؛ يشرف عليها بستانى متمكن من عمله ؛ ويقوم بتنسيق الزهور والأشجار بشكل يناسب ثراء المالك . ويكون إعجابنا فى هذه الحالة بالحديقة إعجاباً كبيراً ، بحيث نجلس فيها ، ونكره أن نغادرها ، فإذا كان هذا هو ما يحدث بقدرات البشر ، فكيف بهذه الحدائق التى صُنعت بقدرة الله سبحانه وتعالى ؟ وكيف يكون جمالها وحلاوتها والمتعة فيها ؟

إن الذى وعدنا بهذه الجنات هو الحق سبحانه وتعالى . وهو قادر على أن ينفذ ما وعدنا به ، من جنات فيها من الكماليات والرفاهية مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر . وجعل هذه الجنات واسعة شاسعة ، فيها زروع وأزهار وأشكال ؛ تسرُّ العين بجمالها ، وتمتع

اللمس بنعومتها ؛ وتملأ الأنوف برائحتها الزكية . ومن ميزات جمالها أن الأنهار تجرى من خلالها ، ولكنها لا تجرى من فوقها بل تجرى من تحتها ، ومنابعها من مكان آخر ، أو تحتها ، ومنابعها ذاتية ، أى ينبع من نفس المكان [(١)] . وكأن كل نهر ينبع من تحت جنة خاصة به . وإذا أردت أن تعرف جمال هذه الأنهار ؛ فهو جمال قد صنعه الحق سبحانه وتعالى .

وإذا كنا فى حياتنا نرى أن لكل نهر شاطئين ، فإن أنهار الجنة تجرى من غير شواطئ ؛ وإنما يمسكها الذى أمسك السماء أن تقع على الأرض [(٢)] ، ثم تجد الأنهار قد تشترك فى المجرى ؛ نهر اللبن ، ونهر العسل ، ونهر الماء ، ونهر الخمر [(٣)] ، وكلها تجرى فى مجرى واحد ولكنها لا تختلط ببعضها البعض ، فكل منها منفصل ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى هو الصانع وتبارك من صنع .

ويعطينا سبحانه وتعالى بعد كل ذلك ، ميزة الخلود فى هذه الجنات فيقول : ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ ونحن نعلم أن المتعة فى الدنيا قد توجد للإنسان ، ولكنها لا توجد خالدة أبداً ؛ فقد تزول عنك النعمة وتذهب المتعة ؛ كأن تصاب بكارثة مالية مثلاً أو تخسر خسارة كبيرة فى تجارتك أو غير ذلك ، وقد تزول أنت عن النعمة بالموت .

---

(١) ورد فى القرآن قوله تعالى : ﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ﴾ ٣٥ مرة ، وورد قوله تعالى : ﴿ تَجْرِى تَحْتَهَا الأَنْهَارُ ﴾ مرة واحدة فى [التوبة : ١٠٠] .

(٢) وذلك مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحج : ٦٥] .

(٣) فهى أنهار أربعة : نهر لبن فى غاية البياض والحلاوة والدسومة ، ونهر عسل فى غاية الصفاء وحسن اللون والطعم والريح ، ونهر ماء غير آسن أى غير متغير الرائحة ، ونهر خمر لا تغتال العقول . قال صاحب كتاب « حادى الأرواح » (ص١٧١) : « تأمل اجتماع هذه الأنهار الأربعة التى هى أفضل أشربة الناس ، فهذا لشربهم وطهورهم ، وهذا لقوتهم وغذائهم ، وهذا للذتهم وسرورهم ، وهذا لشفائهم ومنفعتهم » .

ولكنك فى جنات الآخرة تستمتع بقدر ما فيها من كمال وجمال ، ويزيدك الله فيها بأن يعطيك الخلود ، فلا تفارق النعمة ولا تفارقك ؛ لأنه ليس هناك أغيار ، وليس هناك موت.

وكل إنسان فى الدنيا يتمتع على قدر قدراته ، وتصورات الخلق لأنواع النعيم تختلف باختلاف بيئاتها ومقاماتها ، فقد تكون من الفلاحين ؛ وكل متعتك أن تجلس على مصطبة أمام بيتك ، وقد يكون عند إنسان آخر بيت فيه صالون كبير ، والثالث له بيت فيه عدة صالونات ، فكل واحد على قدر إمكاناته فى الدنيا ، ولكننا فى الآخرة نتمتع كلنا على قدر قدرات الحق سبحانه وتعالى ، ويكون متاعنا بقدرة لا تفوقها قدرة ، ويكون الجزاء بقدر ما فعلْتَ من خير فى الدنيا ، واتبعت منهج الله .

إذن : فأنت الذى تحدد المساحة التى لك فى الجنة ، وتحدد المسكن وأنواع النعيم بقدر عملك.

ثم ما الذى يهددك فى نعيم الدنيا ؟

الذى يهدد الناس فى الدنيا أحد شيئين : إما أن تزول عنهم النعمة فيفتقروا ، وإما أن يزولوا هم عن النعمة بالموت . ولكن نعمة الآخرة ليس فيها هذا التهديد . إنها النعمة الخالدة وأهل الجنة فيها خالدون . ولذلك يقال : يا أهل الجنة ، خلود بلا موت ونعيم بلا بؤس [(١)] .

ولقد زاد الحق تبارك وتعالى فى وصف الخلود فقال : ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ﴾ والخلود بقاء طويل جداً ، والأبدية لاتنتهى . وسبحانه حين تكلم

---

(١) عن أبى سعيد الخدرى وأبى هريرة عن النبى ﷺ : « ينادى مناد : إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً ، وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبداً . وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً . وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبداً » فذلك قوله عز وجل : ﴿ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف : ٤٣] أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٨٣٧) وأحمد فى مسنده (٢/ ٣١٩) (٣/ ٣٨ ، ٩٥) والترمذى فى سننه (٣٢٤٦) .

عن الخلود استثنى فيه ، فقال سبحانه و تعالى :

﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ ... (١٠٨) ﴾ [هود]

أيُّ سماء وأيُّ أرض تلك التى تحدَّث عنها الحق سبحانه وتعالى ؟ هل هى السماء التى نراها ؟ إننا نعلم أن الأرض التى نعيش عليها ستبدل وأن السموات ستمور [(١)] . ولكن الحق سبحانه وتعالى حين يتحدث عن السموات والأرض بالنسبة للآخرة . فهو يتحدث عن السموات والأرض المبدلتين ؛ مصداقاً لقوله تبارك وتعالى :

﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَٰوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (٤٨) ﴾ [إبراهيم]

إذن : فما دامت السموات والأرض ستتبدل ، فالله سبحانه وتعالى يحدثنا عن السموات والأرض فى الآخرة ؛ غير حديثه عن السموات والأرض فى الدنيا . ولكن بعض السطحيين يقول : إن القرآن يتحدث عن بقاء المؤمنين فى الجنة ما دامت السموات والأرض ؛ ثم يقول :

﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (١) وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ (٢) وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ (٣) ﴾ [التكوير]

فكأن هذه الأرض التى نعيش فيها ، والسماء التى تظلنا ستُدمَّر يوم القيامة ، فلماذا يقول الحق :

﴿ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَٰوَاتُ وَالأَرْضُ ... (١٠٨) ﴾ [هود]

---

(١) وذلك من قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ﴾ [الطور : ٩] ومعنى تمور أى تدور وتتحرك وتموج فى بعضها البعض .

فأين هو الخلود إذن ؟

نقول لهؤلاء : اقرأوا القرآن كله لتعرفوا أن الحق سبحانه وتعالى قال :

﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ ... (٤٨) ﴾ [إبراهيم]

إذن : فهذه الأرض هى أرض معاش وما فوقها من سماء هى سماء معاش ؛ ستتبدل بأرض مَعَاد ؛ لأن الأرض التى نعيش عليها فيها مقومات الحياة بالأسباب ، تزرع وتحصد وتصنع ، أما فى الآخرة فحياتك كلها بدون أسباب منك ؛ ولذلك ساعة يخطر الشىء على بالك تجده أمامك دون أن تتحرك أو تحرث أو تزرع أو تتحمل أى مشقة . أما هنا فى هذه الدنيا ، الأرض أرض المعاش تنعم فيها وتأخذ منها بقدر إمكاناتك ، ولكن أرض المعاد تأخذ منها بإمكانات الحق سبحانه وتعالى . ومهما ارتقت الدنيا وارتقت أسبابها ، لا يمكن أن تصل إلى أنك يخطر على بالك الشىء فتجده أمامك. وسبحانه يقول .

﴿ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ ﴾ فكأنه استثنى بعض الناس من الخلود .

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ (١٠٦) خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ ... (١٠٧) ﴾ [هود]

أى : أن الجنة والنار لهما خطان، وبمجرد أن يحاسب الإنسان ، إما إلى الجنة وإما إلى النار ، فإن كان الذى يحاسب من الكفار أو المنافقين ، يكون بدء خلوده من أول لحظة دخل فيها النار ويبقى فيها خالداً. وأما إن كان الذى يُحاسب مؤمناً عاصياً ، فهو يدخل النار على قدر ما عمل من السيئات ، ثم بعد ذلك يدخل الجنة .

إذن : فالذى دخل النار أولاً حالتان : حالة أبدية وهم المنافقون والكفار ، وحالة مؤقتة وهم عصاة المؤمنين ، والخلود فى النار بالنسبة

لعصاة المؤمنين ناقص من الآخر ، أما الذين عملوا الصالحات فهم يدخلون الجنة ابتداء وخلوداً ، أما عصاة المؤمنين فلا يدخلون الجنة إلا بعد أن ينالوا جزاءهم من العقاب . وبذلك يكون خلود عصاة المؤمنين فى الجنة ناقصاً من البداية ؛ لأنهم لم يدخلوها بعد الحساب مباشرة ، وخلودهم فى النار ناقص من الآخر ؛ لأنهم لم يخلدوا فيها :

ويقول سبحانه : ﴿وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ أى : أن مساكن المؤمنين فى الجنة ستكون أيضاً جنات خاصة بها، وكلمة ﴿عَدْنٍ﴾ ؛ مادتها العين والدال والنون معناها الإقامة . و« عَدَنَ فى المكان » ، أى أقام فيه. إذن : فهى جنات إقامة ؛ لأن هناك فارقاً بين أن تسكن فى فندق مثلاً، أو فى مكان مؤقت ، وبين أن تقيم خالداً .

وحين يعطى الحق سبحانه للمؤمن بُشْرى بأشياء ، فهو يريد دائماً ألا ننسى أنها منسوبة إلى قدرته سبحانه ، والشىء يتناسب مع قدرة صاحبه أو فاعله. فالرجل الفقير حين يبنى مسكناً يكون المسكن متواضعاً؛ مجرد حوائط تستر الإنسان ، أما صاحب الإمكانات الضخمة فيبنى قصراً كبيراً ، فإن كان واجد الوجود الأعلى هو الذى صنع ، فكل شىء إنما يتم على مقتضى قدرته وإمكاناته ؛ فهو الذى يمسك الأمور كلها ، ويأتى تنفيذه لأى شىء وفق ما يريد .

إذن : فالخلود فى جنات عدن خلود دائم ، وهى جنات يعلو فيها التنعيم لدرجة من علوها لا يحب الإنسان أن يتركها أبداً ؛ لأنها أعلى مراتب الجنة ولا يوجد أحسن منها . والإنسان حينما يكون بمكان فإنه لاينتقل منه إلا إذا زهد ما فيه ، فلو كان ما فى جنات عدن مما يُزهَدُ فيه بعد فترة ما وصفها الله بهذا الوصف .

ولكى يصل الإنسان الى النعيم لابد من موجد لهذا النعيم وهو الله سبحانه وتعالى ، وما يتمتع الإنسان به وهو الجنة ، والمُنْعَمُ عليهم بالنعمة ،

وهم المؤمنون والمؤمنات . ومن أطاع الله طمعاً فى الحصول على نعيم الله فى الآخرة ، يأخذ هذا النعيم . والذى أطاع الله لذات الله ، ولأنه سبحانه وتعالى يستحق أن يعبد لذاته ويطاع ، يكون فى الآخرة مع التعظيم والتكريم والمحبة واللقاء بالمُنْعِم.

إذن : فكل إنسان لما عمل له ، فإذا زادت عبادتك عما فرض الله عليك ، وأحببت أن تكون دائماً فى لقاء مع الله ، بأن تقوم الليل وتتهجد، وتقرأ القرآن وتصلى والناس نيام ، وتتقن العمل الذى ترتقى به حياتك وحياة غيرك ، وتفعل ذلك محبة فى الله الذى يستحق التعظيم ، فأنت تستحق المنزلة الأعلى ، وهى أن تكون فى معيّة الله . ويقول سبحانه [1] :

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣) ﴾ [القيامة]

والحق سبحانه وتعالى يتجلى على أهل الجنة فترات ، ويتجلى على أهل محبوبية ذاته دائماً [2] ، وعندما يتجلى الحق سبحانه على أهل الجنة ويقول : « يا أهل الجنة . فيقولون : لبيك ربنا وسعديك والخير فى يديك . فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : وما لنا لا نرضى يا رب وقد أعطيتنا مالم تعط أحداً من خلقك . فيقول : ألا أعطيكم أفضل من ذلك ؟ فيقولون :

---

(١) انظر إلى جمال هذا الموقف ، المؤمنون قد تنعموا بنعيم الجنة فى قصورها وبنسائها وأنهارها وفاكهتها ولحوم طيرها، وبلبنها وعسلها ومائها وخمرها ، حتى أنك ترى فى وجوههم آثار هذا النعيم ، فها هى ذى وجوههم نضرة تمتلىء بهاء وجمالاً وصفاء ، وهم على هذه الحالة ينظرون إلى وجه الرحمن سبحانه خالق الخلق ، مالك الملك ، يفيض عليهم من نوره ، وبهائه ورحماته ورضوانه ، كل الوجوه ناظرة إلى الله ، عبدوه سنين الدنيا ولم يروه ، وها هم يرونه ، فسبحان المنعم الوهاب .

(٢) عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « وإن أفضلهم منزلة لينظر إلى وجه الله كل يوم مرتين » أخرجه أحمد فى مسنده (٢/ ١٣) وأبو نعيم فى حلية الأولياء (٥/ ٨٧) وأخرجه أحمد أيضاً (٢/ ٦٤) والترمذى فى سننه (٣٣٣٠) بلفظ « وأكرمهم على الله من ينظر إلى وجهه غدوة وعشية » قال الترمذى : حديث غريب .

يارب وأى شىء أفضل من ذلك ؟ فيقول : أحل عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم بعده أبداً » [(١)] .

ولذلك نجد أن الحق سبحانه وتعالى بعد أن تحدث عن المتعة والنعيم والجنات التى تجرى من تحتها الأنهار ، والمساكن الطيبة التى فى جنات عدن . أوضح سبحانه أن هناك شيئاً أكبر من هذا كله ، وهو رضوان الله فى قوله تعالى :

﴿ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ فالذى عمل للجنة يعطيه الله الجنة ، والذى عمل لذات الله يعيش فى معية الله سبحانه .

ويذيل الحق الآية الكريمة بقوله :

﴿ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ فما هو المقصود بالفوز العظيم ؟ لقد تقدمت أشياء كثيرة ؛ تقدمت جنات تجرى من تحتها الأنهار ، وجنات عدن ، ومساكن طيبة ، ورضوان الله ، فأيها هو الفوز العظيم ؟

نقول : كلها فوز عظيم ، فالذى فاز بالنعيم الأول فى الجنة أخذ فوزاً عظيماً ، والذى فاز بالمساكن الطيبة فى جنات عدن أخذ فوزاً عظيماً ، والذى أخذ رضوان الله يكون قد أخذ الفوز الكبير والعظيم .

ونلحظ أن القرآن حين يعرض منهج الله ، فهو لا يتحدث عن الجزاء فى باب منفصل ، والمنهج فى باب منفصل ، بل يجمع بين المنهج والجزاء وبين الوعد والوعيد ؛ لأنه ساعة يصف لى الجنة وما فيها من نعيم ، لابد أن ينبهنى إلى المنهج الذى يوصلنى إليها . وحين يعطينى صورة من المنزلة العالية التى تنتظر المؤمن فى الآخرة ، لابد أن ينبهنى - أيضاً - إلى العذاب الذى ينتظر المنافق والكافر ؛ حتى أتجنب الطريق الذى يؤدى بى إلى النار والعياذ بالله .

---

(١) متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٥٤٩) ، ومسلم فى صحيحه (٢٨٢٩) عن أبى سعيد الخدرى .

ولذلك نجد الحق سبحانه وتعالى بعد أن حدثنا عن جنته ورضوانه يقول:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ ﴾

إذن: فبعد أن ذكر الحق لنا الجنة وما فيها ، وما يجعل النفس مشتاقة إلى الجنة ، فهو يُذكِّرنا بما يجب علينا أن نفعله لخدمة منهج الله - ولله المثل الأعلى - مثلما تقول لابنك : عندما تتخرج طبيباً ستكون لك عيادة كبيرة ثم مستشفى ، وترتقى معه فيما ينتظره من مستقبل كبير ، وتُذكِّره بضرورة أن يجتهد فى المذاكرة حتى يصل إلى ما يتمناه . وبذلك تكون قد حبَّبته فى الغاية التى سيصل إليها ، ثم انتقلت لتحببه فى الوسيلة التى ستوصله إلى هذه الغاية .

وهنا يقول الحق سبحانه:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾ والحق جَلَّ وعلا يخص رسوله ﷺ بالتكريم والتعظيم ، فلم يُناده باسمه . بل قال[1] : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا النَّبِيُّ ﴾ وفى مواقع أخرى يناديه : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا الرَّسُولُ ﴾ .

ولكن النداء من الحق لباقى الأنبياء ، يكون مثل قوله تعالى :

﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ... ﴿٣٥﴾ ﴾ [البقرة]

وقوله تعالى:

﴿ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ ... ﴿٤٨﴾ ﴾ [هود]

---

(١) ورد نداء رسول الله ﷺ بـ ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا النَّبِيُّ ﴾ ١٣ مرة فى القرآن ، أما نداء ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا الرَّسُولُ ﴾ فقد ورد مرتين فقط .

ونادى الحق إبراهيم:

﴿يَـٰإِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّءْيَا ... (١٠٥)﴾ [الصافات]

ونادى الحق موسى:

﴿يَا مُوسَىٰ (١١) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ ... (١٢)﴾ [طه]

وخاطب الحق سيدنا عيسى :

﴿يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ...(١١٦)﴾ [المائدة]

فكل رسول ناداه الحق سبحانه وتعالى باسمه ، إلا رسول الله ﷺ فقد ناداه بقوله : ﴿يَـٰأَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ ، و ﴿يَـٰأَيُّهَا الرَّسُولُ﴾ تكريماً للرسول عليه الصلاة والسلام ، ورفعاً لمقامه عند ربه.

وهنا يطلب الحق من رسوله ﷺ أن يجاهد الكفار والمنافقين [(١)].

ونحن نعلم أن السماء لا تتدخل لإرسال رسول إلا إذا فسد المجتمع فساداً عامّاً . ونعلم أن النفس الإنسانية فيها قد فُطرتْ على محبة الخير ، فإن لم يحكمها هواها فهى تفعل الخير وتحبه ، فإنَ حكمها هواها ستر عنها الخير وفتح الهوى للنفس أبواب الشر . وقد يطيع الإنسان هواه فى أمر من الأمور ، ثم يفيق ؛ فتلومه نفسه على ما فعل، هذه هى النفس اللوامة ، التى تلوم صاحبها على الشر ، وتدفعه إلى الخير . ولكن هناك نفس تتوقف فيها ملكات الخير فتفعل الشر ، ولا تندم عليه ، ثم ترتقى النفس فى الشر فتصبح أمَّارة بالسوء ، وتأبى ألا تكتفى بفعل الشر ، بل تأمر به الناس وتُحبِّبه لهم . إذن : فمراحل النفس البشرية كثيرة ، فهناك النفس التى تطمئن لمنهج الله وتطيعه . وهذه هى النفس المطمئنة ؛ التى يقول فيها الحق:

---

(١) قال ابن عباس فى تفسير هذه الآية : « أمر بالجهاد مع الكفار بالسيف ، ومع المنافقين باللسان وشدة الزجر والتغليظ » انظر تفسير القرطبى (٤/ ٣١٢٩) .

﴿ يَـٰأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (٢٨) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (٢٩) وَادْخُلِي جَنَّتِي (٣٠) ﴾ [الفجر]

وإذا وُجدت النفس المطمئنة والنفس اللوامة ، فاعلم أن المجتمع بخير ؛ لأن النفس المطمئنة تطيع ، وتأمر بالطاعة ، والنفس اللوامة تلوم صاحبها على الشر ، ولكل مؤمن نقطة ضعف ، فإذا ضعف مؤمن ، يسرع له أخوه المؤمن ليلومه على ضعفه ، ويصحح له مساره ؛ ولأن نقط الضعف مختلفة ، نجد أن المجتمع يستقيم كلما وُجد من يلفت النظر إلى المنكر وينهى عنه ، وهؤلاء هم الذين يقول الحق عنهم :

﴿ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣) ﴾ [العصر]

ولكن عندما تصدأ النفوس جميعاً ، ولا يصبح هناك من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، بل تجد من ينهى عن المعروف ويأمر بالمنكر ، حينئذ لا بد أن يتدخل الحق سبحانه ليعيد للحق مكانه فى الدنيا .

إذن : فرب العزة لا يتدخل فى حالة وجود نفوس مطمئنة تطبق منهج الله وتأمر بطاعته ، أو وجود نفوس لوامة ، سواء فى ذات النفس البشرية أو فى المجتمع تراجع من يرتكب الإثم وتلومه ، ولكن إذا عَمَّ الفساد فى المجتمع ، ولم يصبح هناك من ينهى عن المنكر ويأمر بالمعروف ، وأصبح أهل الخير فيه عاجزين عن أن يفعلوا شيئاً ، جاءت الرسل لتعيد منهج الحق لينظم حياة هذا المجتمع .

وحين يأتى الرسول فهو يعلم أنه ما أُرسل إلا بعد أن عَمَّ الشر فى الكون ، وأن أهل الفساد هم الأغلبية ، وهم أَصحاب النفوذ والسلطان ، وينتفعون بالفساد والانحراف المستشرى فى المجتمع . وهؤلاء إذا سمعوا

بصيحة الحق ؛ فلن يقفوا متفرجين ، بل سيحاربون كل من يحمل منهج الحق إليهم . ولابد للرسول من أن يصمد أمامهم ، وأن يجاهدهم .

و« جاهد » من « فاعل » ، مثل : « شارك » ، فأنت تشارك فلاناً ، ومثل : « قاتل » فأنت تقاتل فلاناً ، إذن : فلابد أن تحدث مفاعلة بين الرسول ومن اتبعوه ، وبين أئمة الكفر والفساد فى المجتمع .

ولابد أن يستعد الرسول والمؤمنون بمنهجه لتحمُّل الإيذاء من غير المؤمنين بالمنهج ؛ لأن الكفار منتفعون بالفساد ، ولكى يستمر هذا الانتفاع ، لابد أن يقف الكفار ضد حَمَلَة منهج الحق ، وأن يقاوموهم ليضمنوا لأنفسهم استمرار الميزات التى يعطيها الباطل لهم . وينبه الله سبحانه وتعالى رسوله إلى حقيقة هؤلاء الكفار المنتفعين بالفساد ، وأنهم سيحاربونه . ولذلك لم يقل سبحانه وتعالى لرسوله ﷺ : اتحد معهم ، ولكنه قال : ﴿جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ ، أى : اصمد أمامهم فى المعركة ، وجاءت الكثير من الآيات التى يأمر فيها الله رسوله والمؤمنين بالصبر على الجهاد ، والجهاد يقتضى المواجهة ، لذلك قال سبحانه : ﴿اصْبِرُوا﴾ .

ولكن لنفرض أن عدوِّى صبر أيضاً فى الحرب ، إن أنا صبرت وعدوى صبر تساوت الكفتان ؛ ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿اصْبِرُوا وَصَابِرُوا ... (٢٠٠)﴾ [آل عمران]

أى : إن واجهكم عدوكم بالصبر ، فليكن صبركم أقوى منه ، فتغلبوه بالصبر والتحمل ، فقف صابراً فى مواجهتهم ومعك المؤمنون برسالتك ، فمعسكر الإيمان لابد أن يواجه معسكر الكفر والنفاق ، والكافر هو الذى جحد الإيمان بقلبه وأعلن الكفر بلسانه ، أما المنافق فهو من كفر فى باطنه ويعلن الإيمان فى ظاهره . وهذا هو الذى يجب أن نحذر منه أشد الحذر ؛

لأننا لا نعرفه فنتقى شره مثل الكافر ، فقد يطعنًا المنافق من الخلف ونحن آمنون له مطمئنون إليه ، فتكون طعنته مؤثرة وأليمة.

ويوضح الحق لرسوله ﷺ : إن العداوة التى سيواجهها وهو يُبشِّر بمنهج الله ستأتيه من اثنين ؛ من كافر أو منافق ، أى من مجاهر بعدم الإيمان ، أو ممن كفر بقلبه وتظاهر بالإيمان بلسانه . أما المنافق فإنه عدو صعب ؛ لأنه يغشنا فلا نأمنه ، رغم أن النفاق فى حد ذاته بالنسبة لمنهج الله هو دليل قوة هذا المنهج ؛ لأنه لا ينافَق إلا القوى ، أما الضعيف فلا ينافقه أحد.

ولذلك لم يكن هناك منافقون أثناء وجوده ﷺ فى مكة قبل الهجرة ؛ لأن المسلمين كانوا قلة ضعافاً ، وكانوا مُعذَّبين مضطهدين . ولم يكن هناك ما يغرى أحداً بنفاقهم ؛ لأنه لا توجد استفادة من هذا النفاق ، بل سيتعرض من يتعاطف معهم للتعذيب والاضطهاد . والمنافق فى إظهاره غير ما يبطن إنما يحقق لنفسه مصلحة ذاتية.

واختلف الحال بعد أن هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة ، وظهر المنافقون بعد أن أصبح للإسلام دولة وقوة . والمنافق فى هذه الحالة إنما يعلن إيمانه زَيْفاً ، ليستفيد من قوة المسلمين لصالحه . إذن : فالنفاق ظاهرة مرضية فى المنافق ، ولكنها دليل قوة للمؤمن الذى ينافقه.

ونلحظ أنه سبحانه وتعالى قد قدَّم فى هذه الآية ذكر الكفار على المنافقين . وقدَّم فى آيات أخرى المنافقين على الكفار [1] . والصدام - كما نعلم - قد حدث أولاً مع الكفار ، ففى أول الدعوة لم يوجد هذا الصنف المنافق ، بل كان هناك مؤمنون وكفار ، وجهاد الكفار جاء على مراحل ،

---

(١) وذلك من نحو قوله تعالى﴿إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾ [النساء: ١٤٠]، وكذلك قوله ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ ﴾[التوبة: ٦٨].

وليس على مرحلة واحدة ، وكانت أولى مراحل الجهاد هى الجهاد بالحجة ؛ لأن المؤمنين فى أول الأمر كانوا قلة ضعيفة لا يملكون قوة يواجهون بها هذا المد الكبير من الكفار . وكان رسول الله ﷺ يعرض قضايا الإيمان بالحجة لإقناع العقل ؛ لعل عقولهم تفيق فيؤمنون بمنهج الحق . فيسألهم مثلاً عمَّنْ خلق السموات والأرض ؟

وحين يديرها الكافر فى عقله لا يجد أن أحداً ادعى - أو يستطيع أن يدعى - أنه خلق السموات والأرض ، فلا يكون جوابهم إلا أن الخالق هو الله سبحانه وتعالى [1] ، لماذا ؟ لأن الإنسان فى تكوينه قد يدعى أشياء ليست له ، ولكنه لا ينفى أمراً هو صاحبه . فمخترع أى شىء أو صانعه لا يمكن أن ينكر أنه صنع أو اخترع ، بل يحب أن تعرف الدنيا كلها أنه اخترع أو صنع ؛ ولهذا فأنت لاتجد شيئاً ينتفع به فى الكون مهما كان تافهاً إلا وعرفنا تاريخه ، ومن أين جاء ، ومن الذى اخترعه أو اكتشفه أو صنعه ، والمثال هو ما درسناه فى المدارس عن الذى اكتشف الكهرباء ، والذى صنع المصباح الكهربائى ، ومن الذى طوره . وكذلك اختراع الطائرة ، ومعروف لنا كيف نشأت فكرة الطيران بعباس بن فرناس ؛ الذى حاول الطيران بذاته بواسطة أجنحة كبيرة ، وهكذا كانت البداية .

إذن : فكل شىء نافع فى الكون معروف من الذى اكتشفه أو صنعه أو اخترعه . فإذا كان هذا هو الحال بالنسبة للصناعات البشرية المحدودة ، فما بالك بالنسبة للكون ؟ وحين نسأل : من الذى أوجد الشمس ؟ ألا يستحق خالقها أن نعرف من هو ، خصوصاً ونحن نعرف من الذى اخترع مصباح الكهرباء وأوجده فى حياتنا ؟

وإذا كنا نملأ الدنيا بالحديث عن مخترع مصباح الكهرباء الذى ينير حجرة محدودة لوقت ، وقامت مصانع كبيرة لتنتج هذا الاختراع ، أفلا نستحق أن

---

(١) ومصداقاً لقوله عز وجل : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ [لقمان : ٢٥] .

نعرف من الذى أوجد الشمس التى تنير نصف الكرة الأرضية فى نفس اللحظة ؟ هذه الشمس التى تشرق منذ ملايين السنين ، ولم تنطفىء مرة واحدة ، ولا احتاجت قطعة غيار طوال هذا العمر الطويل ، ولابد أن يكون لها صانع ؛ تتناسب قوته وقدرته مع ذلك الإعجاز الذى نراه سواء فى الضوء ، أو فى خصائص هذا الضوء ، أو فى دقة الصنع ؛ فهى لا تتأخر ثانية ولا تتقدم ثانية عن الظهور ، ولابد أن يكون صانعها له من القوة ما يتناسب مع عظمة هذا الخلق.

فإذا جاء الرسول وأبلغنا أن الله هو الذى خلق الشمس ، فإما أن يكون صادقاً ؛ فنسلم جميعاً بأن الله هو الخالق والموجد . وإما أنه غير صادق ، فنقول: لماذا لم يخرج إذن أحد يدعى أنه هو الذى خلقها.

ولكن دقة وإعجاز الخلق الذى لا يمكن أن تصل إليه قوة بشرية مفردة ، أو قوى بشرية متعددة متعاونة ، جعل القضية محسومة له سبحانه وتعالى [1] . وإلى أن يأتى من يدعى أنه خلق الشمس ، ولن يأتى ؛ فقضية الخلق محسومة لله سبحانه وتعالى ، ولا يوجد هناك منازع.

ويأتى رسول ليقول : إن خالق الأرض والشمس والسموات والكون هو الحق سبحانه وتعالى ، فلم يَأت أحد ويدَّعى أنه قد خلق شيئاً من هذا ، مما يؤكد صحة دعوى الرسول ، مَما يؤكد أن من أوجد هذا الكون هو قوة بلا حدود ، وقدرة بلا قيود ، وهو الأحق بالعبادة من هذه الأصنام والآلهة التى يدعونها.

وتمضى الدعوة بالمنطق ليسألهم من الذى خلقهم ؟ مصداقاً لقول الحق سبحانه وتعالى :

---

(١) حتى أن مجادلة ومحاجة إبراهيم عليه السلام للنمروذ لم تكن فى خلق الشمس ، إنما كانت فى الإتيان بها من مكان غير الذى تأتى منه ، فقال تعالى : ﴿ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ﴾ [البقرة: ٢٥٨] .

﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥)﴾ [الطور]

فإذا كان الجواب : لا هذا ولا هذه ، إذن : فلابد أن هناك خالقاً وموجداً لنا ، فإذا جاء لنا الرسول وأبلغنا : إن خالق هذا الكون وخالقنا هو الله ، فلا بد أن نصدقه ؛ لأنه لم يدَّعِ أحد ولا يستطيع أن يدعى أنه خلق هذا الكون أو خلق نفسه ، تماماً كما نكون قد جلسنا فى مكان . وبعد أن انصرفنا ، وُجِدَت حافظة نقود ، فجاء صاحب المكان وسأل كل الذين كانوا حاضرين ، فنفوا جميعاً ملكيتهم لحافظة النقود ، عدا واحداً ، حينئذ تكون حافظة النقود ملكه ؛ لأنه هو وحده الذى ادعاها ولا يوجد معارض.

وفى خلق السموات والأرض وخلق الإنسان لا يجرؤ بشر أن يعارض الحق سبحانه وتعالى ؛ ويدعى أنه خلق . إذن : فالقضية محسومة تماماً لله . هذا هو جهاد الحجة حيث يقتنع العقلاء بالمنطق ، أو يقتنع من يستمع إليه فيفهمه ، فإذا وصلنا إلى أن الحق سبحانه وتعالى هو الخالق والموجد ، يمكننا أن نتساءل : من الذى يضع المنهج للإنسان على الأرض ؟ لابد أن نُقدِّر أن من يضع المنهج للإنسان على الأرض هو خالقه وموجده ، تماماً كما نثق أن صانع أى آلة هو الأقدر على وضع أسلوب عملها ، فهو يعلم ما يصلحها وما يفسدها.

والمثال: أن الإنسان منا يعطى ساعة يده لمن تخصص فى إصلاح الساعات ، ويستدعى المتخصص فى إصلاح الثلاجة إن أصابها عطب ، ويستدعى الإنسان كل متخصص لإصلاح الآلة التى درس تفاصيلها ، وكل متخصص يعود إلى كتاب التصميم الذى وضعه مَنْ اخترع الآلة ، وبيّن فيه ما يصلحها وما يفسدها ، ولذلك فأنت لن تستدعى نجاراً ليصلح التليفزيون.

إذن: فما دام سبحانه وتعالى قد وضع منهجاً فلا بد أن نتبعه ؛ لأنه هو موجد هذا الكون وموجدنا ، ويعلم ما يصلحنا وما يفسدنا.

فإن فشل جهاد الحجة ، يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ وبماذا يغلظ رسول الله ﷺ عليهم ؟ إنه يغلظ لإيضاح المصير الذى ينتظرهم ، وكل كافر هو عابد للدنيا ويخاف أن تضيع منه الدنيا لأنه لا يؤمن بالآخرة ، فأنذره بالآخرة ، وأنذره بالعذاب الذى ينتظره ، وقُلْ له : أنت لست خالداً فى الدنيا ، وما ينتظرك فى الآخرة هول كبير.

ولكن المؤمن يعرف أن الدنيا وراءها آخرة وجنة ؛ ولذلك وجدنا المؤمن الذى يقول لرسول الله ﷺ فى الحرب : ادع لى يا رسول الله لأستشهد . ويقول آخر : أليس بينى وبين دخول الجنة إلا أن أقاتل هؤلاء فيقتلونى ؟ فيقول له رسول الله ﷺ : نعم ، فيلقى الرجل بتمرة كان يأكلها وينطلق إلى المعركة ويستشهد .

هذا هو معنى الإيمان ، ولو لم يكن المؤمن واثقاً تمام الثقة أنه سيذهب إلى نعيم ليس بعده نعيم ، لما انطلق إلى المعركة طالباً الشهادة.

إذن : وهم يُقْدمون على الشهادة بهذه الشجاعة تمتلىء أعماقهم بالإيمان وبأحكام الله فيه ، وتدفعهم القناعة التامة - بأن هناك جنة فى الآخرة - إلى الاستشهاد ، وفى المقابل نعرف أن الذى ينتظر الكفار هو النار . وهكذا نفهم قوله الحق : ﴿ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾ أى: أنذرهم بالعذاب الرهيب الذى ينتظرهم عَلَّهُمْ يفيقون . والشاعر يقول:

أَنَاةٌ فإنْ لَمْ تُغْنِ عقِّب وَعيداً ... فإنْ لَمْ يُغْنِ أغنَتْ عَزَائمه
وَمَا هُو إلاَّ السيفُ أو حَدُّ طَرْفه ... يقيمُ زباه أخْدعَ كُلِّ مَائلِ
فَهذا دَوَاءُ الدَّاء منْ كُلِّ جَاهلِ ... وَذاك دَواءُ الداء منْ كُلِّ عَاقلِ (١)

(١) عزائم الوعيد : إنفاذه فيمن يستحقونه . زباه : طرف السيف . أخدع : الأخدع عرق فى العنق فكأن عنقه مائل عن اتباع الحق .

فمن آمن بالمنطق آمن ، ومن لا يؤمن نقول له : دع كلمة الحق تُعلَنُ على الناس جميعاً ، وأنت حر فى أن تؤمن أو لا تؤمن ، وإنْ أردتَ الحياة فى كنف الأمة الإسلامية فأهلاً بك ، ولا يهم أن تؤمن أو لا تؤمن ؛ لأن الحق قال :

﴿ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ... (٢٩) ﴾ [الكهف]

واعلم أنه يشترط فى كل من يدخل الإسلام أن يكون مقتنعاً بهذا الدين ، ومقتنعاً أيضاً بأنه الدين الحق.

والذى لا يؤمن ، يعيش فى كنف الأمة الإسلامية وله حريته الكاملة فى اتباع عقيدته ، ولكن منهج الحياة وحركتها لابد أن تسير وفقاً لمنهج الله، وما دام الإيمان هو الذى يسيطر على حركة الحياة ﴿ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ ؛ فذلك لا يؤثر فى حركة المجتمع المؤمن ؛ ما دام المجتمع كله سائراً بالمنهج ، وتسير الحياة كما أرادها الحق سبحانه وتعالى.

والله هو خالق الإنسان ، وهو الذى جعله خليفة فى الأرض ، وهو يغار على خلقه ، تماماً كما تأتى لشىء جميل صنعه فنان أو عامل ، وتحطم أنت هذا الشىء أمام صانعه . إن قلب الصانع - فى هذه الحالة - يمتلىء بالغضب، ويسرع بعقابك.

والحق سبحانه وتعالى عندما يرى إنساناً يفسد صنعته فى الكون ، ويحاول أن يحطمها ، فسبحانه يغار على صنعته ؛ لأن الله خلقنا مختارين ، ولكى يكون الحساب عَدْلاً ، لابد من البلاغ أولاً ، وأن تصل الدعوة إلى آذان الناس ، فمتى وصلت الدعوة فهذا إتمام لرسالة أمة محمد ﷺ ، ثم يختار الإنسان من بعد ذلك أن يؤمن أو لا يؤمن ، لذلك طلب الحق من رسوله ﷺ أن يجاهد الكفار والمنافقين ، وأن تكون الدعوة أولاً بالبرهان والإقناع . فإن لم يَأتِ البرهان بنتيجة ، وحاول أحدهم أن يقاوم

الدعوة بالسلاح فَلْيُردع بالسلاح.

لذلك يقول الحق سبحانه : ﴿وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ ولا تأخذك بهم رأفة ؛ لأن الرأفة قد تغرى بالذنب ؛ والمثال : حين يسرق الإنسان ثم تتركه بلا عقاب فقد يغريه ذلك ويغرى غيره على السرقة . ولكن تنفيذ العقوبة ولو مرة واحدة ، إنما يمثل رادعاً وحماية للمجتمع كله ، ولذلك نجد أن عقاب القاتل بالقتل أنفى للقتل ، وأنت حين تأتى بالقاتل وتقتله أمام عدد من الناس ، فهذا العمل يمنع أى إنسان أن يفكر فى القتل ، أو أن يقتل.

إذن : فنحن بالعقوبة نحمى المجتمع من أن تنتشر فيه الجرائم .

وبعض السطحيين يقول لك : هل مَنْ يسرق تُقطع يده ؟ نقول لهم : نعم ؛ لأننى لو قطعت يد فرد لمنعت جريمة السرقة فى المجتمع ، فليس الهدف أن أقطع يداً . ولكن الهدف هو ألا يسرق أحد ، وأنت حين تأتى بالعقوبة وتتأكد من الجريمة ؛ إياك أن تأخذك الرحمة فى تنفيذ العقاب . فلو أخذتك الرحمة فى هذه اللحظة فأنت تشجع الجريمة . وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى [1] :

﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢)﴾ [النور]

---

(١) الجلد هو حكم من زنى وهو بكر لم يتزوج ، أما من تزوج ووطىء فى نكاح صحيح وهو حر بالغ عاقل ثم زنى فحكمه الرجم بالحجارة ، وفى هذا قال عمر بن الخطاب : إن الله قد بعث محمداً ﷺ بالحق وأنزل عليه الكتاب ، فكان مما أنزل عليه آية الرجم قرأناها ووعيناها وعقلناها فرجم رسول الله ﷺ ورجمنا بعده ، فأخشى إن طال بالناس زمان أن يقول قائل : ما نجد الرجم فى كتاب الله ، فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله وإن الرجم فى كتاب الله حق على من زنى إذا أحصن من الرجال والنساء إذا قامت البينة أو كان الحبل أو الاعتراف . أخرجه مالك فى الموطأ (٢/ ٨٢٣) ومسلم (١٦٩١). والزنا الموجب للحد هو : تغييب حشفة الرجل أى رأس ذكره فى فرج محرم مشتهى بالطبع ، من غير شبهة نكاح ، ولو لم يكن معه إنزال . ويشترط فيه رؤية أربعة شهود عدول لهذه الهيئة من الجماع المحرم . انظر « فقه السنة » للشيخ سيد سابق (٢/ ٤٠٠) .

ولكن الحوار حول العقوبات[1] فى الإسلام لا يتوقف ، ونقول لهؤلاء: هل هناك مجتمع ليس فيه تجريم أو عقوبات ؟ وانظر إلى المجتمعات غير الدينية ، ألا توجد بها جرائم وعقوبات ؟ إن كل مجتمع إنما يحمى نفسه بتوصيف الأفعال التى تعتبر جرائم ، ويضع لها عقوبات ، ولا عقوبة إلا بتجريم ، ولا تجريم إلا بنص .

إذن : فكل دولة وكل مجتمع لابد أن تكون فيه عقوبات، وإلا أصبحت الحياة فوضى يستحيل معها العيش فى أمان . فإذا كان حاكم أى دولة بسيطة قد وضع تجريماً وعقوبات ، وهو يحكم فيما لا يملك ، أفليس لله أن يضع التوصيف لما يرى أنه جرائم ، وأن يُشرِّع العقوبة الملائمة لكل جريمة ، وهو سبحانه يحكم فيما يملك ؟ وإذا كان سبحانه قد حكم بقطع يد هو خالقها ؛ فهو أراد ذلك ليمنع ملايين الأيدى من أن تمتد إلى مال الغير .

ولذلك يجب ألا تطول الفترة بين تنفيذ العقوبة ووقت وقوع الجريمة ؛ لأن الذى يتعب الناس فى الدنيا ، هو طول الإجراءات والأخذ والرد ، فينسى الناس الجريمة ، وتأخذهم الشفقة والرحمة بالمجرم ، مع أنه لو وُقِّعتْ العقوبة فور حدوث الجريمة ؛ لما طلب أحد الرأفة بالمجرم .

والحق تبارك وتعالى يقول: ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّبِىُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾ وقد عرفنا كيف يكون الجهاد مع الكافرين ، فماذا يكون الجهاد مع المنافقين وهم الذين يتظاهرون بالإيمان ؟

---

(١) قرر الكتاب والسنة عقوبات محددة لجرائم معينة هى جرائم الحدود ، وهى : الزنا ، والقذف ، والسرقة ، والسُّكر ، والمحاربة ، والردة ، و البغى . وذلك لتحقيق صيانة المجتمع من نواحى : الدين ، العقل ، المال ، العرض ، النفس . ولكل جريمة من هذه الجرائم شروط يجب توافرها ليتم تنفيذ العقوبة الخاصة بها . انظر تفصيل هذا فى كتب الفقه (أبواب الحدود) .

نقول : إن الجهاد معهم هو توقيع العقاب عليهم [(١)] ، وقد كان المنافقون يرتكبون الإثم ، ويسألهم رسول الله ﷺ ، فينكرونه ، فيصفح عنهم ، ويوضح الحق سبحانه لرسوله ﷺ : اغلظ عليهم إذا ارتكبوا إثماً ، وقد وجدنا فى سورة التوبة أن المنافقين يحلفون كذباً فى كثير من الأمور ، فيذكر الحق سبحانه :

﴿ وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ ... (٥٦) ﴾ [التوبة]

﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ ... (٧٤) ﴾ [التوبة]

﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ ... (٦٢) ﴾ [التوبة]

وفى سورة المجادلة يقول سبحانه :

﴿ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤) ﴾

فكأنما كلما حلفوا صدَّقهم رسول الله ﷺ وعفا عنهم ، ففضحهم الله بأنهم كاذبون ، وطلب من رسوله ﷺ أن يُغلظ عليهم فى العقوبة . ولكن هل غلظة الرسول ﷺ معهم تعفيهم من عقاب الآخرة ؟ نقول : لا ؛ لأن الغلظة عليهم فى الدنيا لضمان سلامة حركة الحياة ، وليعلم كل منافق أنه مفضوح من الله . ولكن هذا لا يعفى من عقاب الآخرة.

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ والمصير هو المرجع الأخير لأى شىء ، وكل عقوبة يكون لها مظنة ألا تمتد إلى الفترة المقررة لها ، فالذى عاقب قد يعفو ، وقد يخرج الإنسان قبل انتهاء مدة العقوبة ؛ كأن يكون هناك إفراج صحى ، أو بقضاء ثلاثة أرباع

(١) قال الحسن البصرى فى معنى هذه الآية بالنسبة للمنافقين : « جاهد المنافقين بإقامة الحدود عليهم وباللسان ، وكانوا أكثر من يصيب الحدود » . وقد رد أبو بكر بن العربى على هذا « بأن العاصى ليس منافقاً ، إنما المنافق بما يكون فى قلبه من النفاق كامناً ، لا بما تتلبس به الجوارح ظاهراً ، وأخبار المحدودين يشهد سياقها أنهم لم يكونوا منافقين » انظر تفسير القرطبى (٤/ ٣١٢٩) .

المدة أو غير ذلك . ولكن العقوبة للمنافقين تكون بلا خروج ، وفى هذا ترهيب منها ؛ لأنك لو علمت يقيناً أن العقوبة أبدية ، فسوف تخشى الإقدام على الجريمة .

ثم يعطينا الحق سبحانه وتعالى صورة أخرى عن الحلف والكذب الذى كان يفعله المنافقون ؛ فيقول سبحانه :

﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا ۚ وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ ۚ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ ۖ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾ ﴾

وفى هذه الآية الكريمة يبين لنا الحق سبحانه وتعالى حلقات الحلف بالكذب للمنافقين ؛ فهم يحلفون أنهم ما قالوا ، ويجعلون الله عرضة لأيمانهم ؛ مع أنهم قالوا كلمة الكفر ، وكفروا بعد أن أعلنوا الإسلام بلسانهم ، وإسلامهم إسلامٌ مُدَّعىً .

ولهذه الآية الكريمة قصة وقعت أحداثها فى غزوة تبوك التى حارب المسلمون فيها الروم ، وكانت أول قتال بين المسلمين وغير العرب ، حيث دعا رسول الله ﷺ إلى هذه الغزوة فى فترة شديدة الحرارة ، وكان كل واحد فى هذه الفترة يفضل الجلوس فى الأخياف [1] ، أى الحدائق

(١) الأخياف فى اللغة : أماكن وسط بين مجرى السيل فى الجبل ، وبين صخوره ، تنبت فيها الحشائش . انظر لسان العرب (مادة : خ ى ف) .

الصغيرة ، ويجلسون تحت النخيل والشجر فى جو رطب ولا يرغبون فى القيام من الظل.

وعندما دعا رسول الله للجهاد فى سبيل الله ، والذهاب إلى قتال الروم ، تلمَّس المنافقون الأعذار الكاذبة حتى لا يذهبوا للجهاد ؛ فظلَّ القرآن ينزل فى هؤلاء الذين تخلفوا عن هذه الغزوة شهرين كاملين ، فقال رجل اسمه الجلاس بن سويد : والله إن كان ما يقوله محمد عن الذين تخلفوا عن القتال صدْقاً فنحن شرٌّ من الحمير . وهنا قال عامر بن قيس الأنصارى : لقد صَدق رسول الله ﷺ وأنتم شر من الحمير . وأنت يا جلاس شر من الحمار . وهنا قام عدد من المنافقين ليفتكوا بعامر بن قيس الأنصارى ؛ لأن الجلاس بن سويد كان من سادة قومه . وذهب عامر بن قيس إلى رسول الله ﷺ وأخبره بما حدث ، فاستدعى رسول الله ﷺ ابن سويد وسأله عن الخبر ، فحلف بالله أن كل ما قاله عامر بن قيس لم يحدث . وتركه رسول الله ﷺ بعد أن حلف بالله . وهنا رفع عامر بن قيس يده إلى السماء ، وقال : اللهم إنى أسألك أن تنزل على عبدك ونبيك محمد ﷺ تصديق الصادق وتكذيب الكاذب . فقال رسول الله ﷺ « آمين »[1] . ولم ينتهوا من الدعاء حتى نزل الوحى بقول الحق جل جلاله : ﴿ **يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا** ﴾ .

وهكذا حسمت هذه الآية الكريمة الموقف . وأظهرت من هو الصادق ومن هو الكاذب ؛ فيما رواه عامر بن قيس وأنكره الجلاس.

ولكن الآية الكريمة تجاوزت ما عُرف من الحادثة إلى ما لم يبلغ رسول الله ﷺ ؛ فقال سبحانه : ﴿ **وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا** ﴾ ذلك أن الله تبارك وتعالى

---

(١) انظر تفسير ابن كثير (٢/ ٣٧١ - ٣٧٣) .

أراد أن يُعلم المنافقين أن سبحانه يخبر نبيه بما يخفيه المنافقون عنه ، ولو نزلت الآية فقط فى حادثة الحلف الكذب ، لقال المنافقون : ما عرف محمد- عليه الصلاة والسلام - إلا ما قاله عامر ، ولكن هناك أشياء لم يسمعها عامر ؛ وهم قالوها ، ذلك أن المنافقين كانوا قد تآمروا على حياة النبى ﷺ واتفقوا على قتله عند عبوره العقبة ، والعقبة هذه هى مجموعة من الصخور العالية التى تعترض الطريق ، فيتحايلون على اجتياز هذه العقبة بأن يعبروها أحياناً من أنفاق منخفضة ، وأحياناً يعبرونها بأن يصعدوا فوقها ثم ينزلوا .

ودبر المنافقون [1] أن يدفعوا رسول الله ﷺ من أعلى الصخور ، فيسقط فى الوادى ، ولكن حذيفة بن اليمان الذى كان يسير خلف ناقة رسول الله ﷺ تنبه للمؤامرة ، فهرب المنافقون ، وهكذا لم ينالوا ما يريدون ، مثلما لم ينالوا ما أرادوه عندما أتى رسول الله ﷺ مهاجراً إلى المدينة ، فقد كانوا يعدون العُدَّة ليجعلوا عبد الله بن أبىّ ملكاً عليهم ، ولكن مجىء رسول الله ﷺ لم يُمكنهم من ذلك.

وقيل : إنهم تآمروا على قتل عامر بن قيس ؛ لأنه أبلغ رسول الله ﷺ ما قاله الجلاس بن سويد ، ولكنهم لم يتمكنوا.

---

(١) كانوا اثنى عشر رجلاً ماتوا محاربين لله ورسوله . عن حذيفة بن اليمان قال : كنت آخذاً بخطام ناقة رسول الله ﷺ أقود به ، وعمار يسوقه . حتى إذا كنا بالعقبة فإذا أنا باثنى عشر راكباً ، قد اعترضوه فيها ، فأنبهت رسول الله ﷺ بهم ، فصرخ بهم فولوا مدبرين ، فقال لنا رسول الله ﷺ: هل عرفتم القوم ؟ قلنا : لا يا رسول الله ، كانوا متلثمين ، ولكنا قد عرفنا الركاب . قال : هؤلاء المنافقون إلى يوم القيامة ، وهل تدرون ما أرادوا ؟ قلنا : لا . قال : أرادوا أن يزحموا رسول الله ﷺ فى العقبة ، فيلقوه منها . قلنا : يا رسول الله أو لا تبعث إلى عشائرهم حتى يبعث إليك كل قوم برأس صاحبهم ؟ قال : لا ، أكره أن تحدث العرب بينها أن محمداً قاتل بقوم ، حتى إذا أظهره الله بهم أقبل عليهم يقتلهم ، ثم قال : اللهم ارمهم بالدبيلة . قلنا : يا رسول الله وما الدبيلة؟ قال : شهاب من نار يقع على نياط قلب أحدهم فيهلك » . أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٥/ ٢٦٠ ، ٢٦١) وفيه عنعنة ابن إسحاق .

وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَا نَقَمُوا إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ ﴾ و ﴿ نَقَمُوا ﴾ تعنى : كرهوا ، والغنى - كما نعلم - أمر لا يُكره ، ولكن وروده هنا دليل على فساد طبعهم وعدم الإنصاف فى حكمهم ؛ لأن الغنى والأمن الذى أصابهم ليس عيباً ولا يولد كراهية . بل كان من الطبيعى أن يولد حباً وتفانياً فى الإيمان.

والحق سبحانه وتعالى يوضح لهم : ماذا تعيبون على محمد ؟ وماذا تكرهون فيه ؟ هل تكرهونه وقد جاءكم بالعزة والغنى ؟

وقبل أن يأتى رسول الله ﷺ ، كان الذين كرهوا مجىء الرسول إلى المدينة فقراء لا يملكون شيئاً ، ولكنهم لما نافقوا ودخلوا فى الإسلام ، أخذوا من الغنائم ، وأغناهم الله [1] ؛ بل إن الجلاس بن سويد لما قُتل له غلام دفع له رسول الله ﷺ اثنى عشر ألف درهم ديّة . إذن: فقد جاء على يد الرسول ﷺ الغنى للجميع ، فهل هذا أمر تكرهونه ؟ طبعاً لا . ولكنه دليل على فساد طباعكم وعدم إنصافكم فى الحكم ، وما دام الله سبحانه وتعالى قد أغناكم بمجىء رسوله ؛ ما كان يصح أن يُعاب ذلك على رسول الله ﷺ ، بل كان يجب أن يُمدح به ، وأن تتفانوا فى الإيمان به ونصرته.

وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ مِن فَضْلِهِ ﴾ يلفتنا إلى أسلوب القرآن الكريم . ولقد قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴾ وكان قياس كلام البشر أن يقال « الله ورسوله من فضلهما » ، ولكنه قال: ﴿مِن فَضْلِهِ﴾ لأن الله لا يُثنَّى مع أحد ، ولو كان محمد بن عبد الله .

ولذلك عندما سمع رسول الله ﷺ خطيباً يخطب ويقول : من أطاع الله ورسوله فقد نجا ، ومن عصاهما فقد هلك ، فقال رسول الله ﷺ : بئس خطيب القوم أنت ؛ لأن الخطيب جمع جَمْعَ تثنية بين الله ورسوله.

---

(١) قال الكلبى : « كانوا قبل قدوم النبى ﷺ فى ضنك من العيش ، لا يركبون الخيل ولا يحوزون الغنيمة ، فلما قدم عليهم النبى ﷺ استغنوا بالغنائم » ذكره القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣١٣٢) .

وهنا توقف الخطيب وقال: فماذا أقول يا رسول الله ؟ فقال رسول الله ﷺ : قل ومَنْ يعْص الله ورسوله فقد هلك [(١)] ، ولا تقل: عصاهما ، لا تجمع مع الله أحداً ولا تُثنِّ مع الله أحداً ؛ ولذلك نجد القرآن الكريم لم يَقُلْ « أغناهم الله ورسوله من فضلهما » ، ولكنه قال : ﴿ مِن فَضْلِهِ ﴾ لأن الفضل واحد . فإن كان لرسول الله ﷺ فضل ؛ فهو من فضل الله .

وعلى أية حال فالله لا يُثنَّى معه أحد ؛ ولذلك نجد فى القرآن الكريم:

﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ (٦٢) ﴾ [التوبة]

وهنا نرى أيضاً أن الحق سبحانه قد استخدم صيغة المفرد فى الرضا ؛ لأن رضا الله سبحانه وتعالى ورضا رسوله ﷺ يتحدان ، ولأنه إذا جاء اسم الله فلا يُثنَّى معه أحد.

وبعد أن فضح الحق سبحانه وتعالى المنافقين وبيّن ما فى قلوبهم ؛ لم تتخلّ رحمته عنهم ؛ لأنه سبحانه وتعالى رحيم بعباده ، ولذلك فتح لهم باب التوبة فقال : ﴿ فَإِن يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾ ، وفَتْحُ باب التوبة رحمة لحركة الحياة كلها ؛ فلو أغلق الله باب التوبة لأصبح كل من ارتكب ذنباً مصيره للنار . وإذا علم الإنسان أن مصيره للعذاب مهما فعل ، فلا بد أن يستشرى فى الذنب ، ويزداد فى الإثم ، ما دام لا فرق بين ذنب واحد وذنوب متعددة . ولكن حين يعلم أى إنسان يخطىء أن باب التوبة مفتوح ؛ فهو لا يستشرى فى الإثم ، ثم إن الذى يعانى من الشرور والآثام حقيقة هو المجتمع ككل ، فإذا وُجد لص خطير مثلاً ؛ فالذى يعانى من سرقاته هو المجتمع . وإذا وُجد قاتل محترف فالذى يعانى من جرائمه هم الذين سيقتلهم من أفراد المجتمع.

---

(١) عن عدى بن حاتم أن رجلاً خطب عند النبى ﷺ فقال : من يطع الله ورسوله فقد رشد . ومن يعصهما فقد غوى . فقال رسول الله ﷺ « بئس الخطيب أنت . قل : ومن يعص الله ورسوله فقد غوى » . أخرجه مسلم فى صحيحه (٨٧٠) ، وأحمد فى مسنده (٤/ ٢٥٦ ، ٣٧٩) وأبو داود فى سننه (١٠٩٩) .

إذن: ففتح باب التوبة رحمة للمجتمع ؛ لأنها لا تدفع المجرم إلى الاستشراء فى إجرامه . وإذا نظرت إلى الآية الكريمة ، فالله سبحانه وتعالى بعد أن أظهر الحق ، وبيّن للرسول ﷺ وللمؤمنين أشياء كان المنافقون يخفونها ؛ فتح للمنافقين باب التوبة ، وحينئذ قال الجلاس بن سويد زعيم المنافقين : يا رسول الله . لقد عرض الله عليّ التوبة . والله قد قلت ما قاله عامر ، وإن عامراً لَصَادقٌ فيما قاله عنى. وتاب الجلاس وحسُن إسلامه[1] .

أما الذين تُعرَض عليهم التوبة ولا يتوبون إلى الله ، فقد قال سبحانه:

﴿ وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ ﴾ . إذن : فجزاء من يرفض التوبة ولا يعترف بخطئه هو العذاب الأليم ، لا فى الآخرة فقط ، ولكن فى الدنيا والآخرة . وعذاب الدنيا إما بالقتل وإما بالفضيحة ، وعذاب الآخرة فى الدرك الأسفل من النار.

ولكن قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ ﴾ قد يفهمه بعض الناس فهماً خاطئاً ، بأن العذاب فى الدنيا فقط ، ولكن هناك أرض فى الدنيا ؛ وأرض فى الآخرة هى أرض المعاد[2] ؛ مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَـوَاتُ ... (٤٨) ﴾ [إبراهيم]

إذن: فكلمة ﴿ الأَرْضِ ﴾ تعطينا صورتين فى الدنيا وفى الآخرة.

وقوله تعالى: ﴿ وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ ﴾ يوضح لنا أن الوليّ هو القريب منك الذى تفزع إليه عند الشدائد ، ولا تفزع عند الشدائد

---

(١) انظر: الإصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر العسقلانى (ترجمة ١١٧٢) .

(٢) قال أبو يحيى الأنصارى فى فتح الرحمن (ص١٧٠) : « لما كانوا لا يعتقدون الوحدانية ، ولا يصدقون بالآخرة ، كان اعتقادهم وجود الولى والنصير مقصوراً على الدنيا ، فعبر عنها فى الأرض أو : أراد بالأرض أرض الدنيا والآخرة » .

إلا لمن تطمع أن ينصرك ، أو لمن هو أقوى منك، أما النصير فهو من تطلب منه النصرة . وقد يكون من البعيدين عنك ولا ترتبط به ولاية ، إذن: فلا الولىّ القريب منك ، ولا الغريب الذى قد تفزع إليه لينصرك يستطيعان أن يفعلا لك شيئاً ، فلا نجاة من عذاب الله لمن كفر أو نافق.

ثم يعرض الحق سبحانه وتعالى صورة أخرى من صور المنافقين ؛ فيقول:

﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾

﴿ وَمِنْهُم ﴾ أى: من المنافقين الذين عرض الله صوراً كثيرة لهم فى هذه السورة الكريمة، فقال :﴿ وَمِنْهُم ﴾ ، و ﴿ وَمِنْهُم ﴾ و ﴿ وَمِنْهُم ﴾ ، واختلفت روايات المفسرين والرواة فى مدلول قوله تعالى ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ ﴾ . فقال بعضهم: إنه ثعلبة بن حاطب ، وقال آخرون : إنه مُعتِّب بن قشير ، وقال رأى ثالث: إنه الجد بن قيس ، وقال قائل رابع : إنه حاطب بن أبى بلتعة . كل هذه خلافات تحتملها الآية الكريمة [1]؛ لأن الحق سبحانه وتعالى قال:

﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ ولم يقل الحق : « فلما آتيناه من فضلنا بخل به » بحيث ينطبق على حالة واحدة ، ولكن الحق تبارك وتعالى جاء بها بصيغة الجمع فقال سبحانه:

﴿ فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ ... ﴿٧٦﴾ ﴾ [التوبة]

---

(١)ذكر القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣١٣٤) هذه الروايات ، ورجح أنها نزلت فى ثلاثة من المنافقين : نبتل ابن الحارث ، وجد بن قيس ، ومعتب بن قشير . أما كونه ثعلبة بن حاطب فقد رفضه القرطبى ؛ لأنه شهد بدراً ، أما الحافظ ابن حجر العسقلانى فقد فرّق بين الذى شهد بدراً وغيره . انظر الإصابة فى تمييز الصحابة (ترجمة ٩٢٤) .

إذن: فهناك جمع . والروايات كلها يمكن أن تكون صحيحة فى أن الآية الكريمة نزلت فى أفراد متعددين ، وسبحانه يقول :﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ ﴾ فكيف يكون للمنافقين عهد مع الله ؟ نقول : لقد عُومل هؤلاء المنافقون بظواهر ألسنتهم ، فهم قد أعلنوا إسلامهم ، وكان الواحد منهم يقول : أعاهد الله على كذا وكذا ؛ تماماً كما يأتى الواحد منهم للصلاة ويحرص بعضهم على التواجد فى الصف الأول للمصلين ، فهل منعه النفاق من الصلاة ظاهراً ؟ لم يمنعه أحد ، كذلك عندما يعاهد الله فهو يعاهده بظاهر لسانه .

وقصة الآية [1] : أن رجلاً فقيراً من الأنصار ذهب إلى رسول الله ﷺ وقال : إنى فقير مملق - أى شديد الفقر - فادع لى الله يا رسول الله أن يوسع علىّ دنياى . وبفطنة النبوة قال ﷺ : إن قليلاً تؤدى شكره خير من كثير لا تطيقه ، فعاوده وقال : ادع الله لى أن يوسّع علىّ . فدعا له فوسّع الله عليه .

ولسائل أن يسأل : كيف يستجيب الرسول ويدعو لمنافق ؟ وإذا كان الرسول قد دعا ترضية له وتأليفاً لقلبه ؛ فكيف يجيب الله رسوله فى طلب منافق منه ؟

ونقول : ربما كان ذلك ؛ لأن المنافق أراد أن يجرب : أرسول الله رسول حق ، بحيث إن دعا الله أجيب ؟

فلما دعا رسول الله ؛ أراد الحق سبحانه وتعالى أن يُعْلم هذا المنافق أنه : نعم هو رسول الله ؛ وإن دعا لأى أحد يُجِبْه الله ، فتكون هذه للنبى ﷺ .

فلما دعا رسول الله لثعلبة ، أو للجد بن قيس ، أو لحاطب بن أبى بلتعة ؛ استجاب الله لدعاء رسوله ؛ وأعطى مَنْ سأل الدعاء مالاً وفيراً ، وقالوا : ولقد تكاثر مال ثعلبة ، وكانت ثروته من الأغنام قد تناسلت

(١) سبق تخريج هذه القصة عند تفسير الآية ٥٣ من سورة التوبة .

حتى ضاقت بها شعَاب المدينة ؛ فهرب بها إلى شعاب الجبال ، وإلى الصحراء الواسعة ، فامتلأت ، فشغلته أمواله أول ما شغلته عن صلاة الجماعة ، وأصبح لا يذهب للصلاة إلا فى يوم الجمعة ؛ فلما كثرت كثرة فاحشة ؛ شغلته أيضاً عن صلاة الجمعة . وفى ذلك دليل صدق لتنبؤ رسول الله له . إذن : فكل الأمر إنما جاء تأييداً لمنطق الرسول معهم ؛ حتى يُسفِّههم فى أنهم نافقوا فى الإسلام.

وبعد ذلك سأل عنه رسول الله ﷺ ، فقالوا : إنه فى الشعاب شغله ماله. فقال : يا ويح ثعلبة . وأرسل إليه عامل الصدقة [1] ؛ لأن ثعلبة قد عاهد الله وقال : ﴿ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ ﴾ فذهب عامل الصدقة إليه، فلما قال له: هات ما كتب الله عليك من الصدقة من مالك . قال : أهى أخت الجزية [2] ؟ وذكَّره عامل الصدقة : أنت الذى عاهدت ، ومن ضمن عهدك أنك إن أوتيت تصدقت وكنت من الصالحين ، فما لك لا توفى بالعهد . ورد ثعلبة على عامل الصدقة: اذهب حتى أرى رأيى.

إذن: هو قد عاهد الله ، ودعا رسول الله ، واستجاب الله له ، وكثرت أمواله ، وبعد ذلك صدَّقَ الله نبيه فى قوله: « قليل تؤدى شكره ، خير من

---

(١)وذلك حينما نزلت آية: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ [التوبة:١٠٣] . فثعلبة هنا كان قد عاهد الله لئن رزقه وأعطاه ليتصدقن ، ولم تكن محددة فلما نزلت آية : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ .. ﴾ [التوبة:١٠٣] وفرضت الزكاة رفض إنفاذ ما عاهد عليه الله . وهذا نظير ما حكاه رب العزة عن بنى إسرائيل: ﴿ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ ﴾ [البقرة:٢٤٦] .

(٢) الجزية : هى مبلغ من المال يوضع على من دخل فى ذمة المسلمين وعهدهم من أهل الكتاب ، وقد فرضها الإسلام عليهم فى مقابل فرض الزكاة على المسلمين ، ونظير قيامهم بالدفاع عن الذميين وحمايتهم فى البلاد الإسلامية التى يقيمون فيها ، وهى تجب على من كان : ذكراً ، مكلفاً ، حراً. ولا تجب على مساكين وفقراء أهل الكتاب. انظر: فقه السنة للشيخ سيد سابق (٣/ ١١٢ - ١١٧).

كثير لا تطيقه » ، فلما عاد عامل الصدقة إلى رسول الله بردِّ ثعلبة. قال ﷺ: ويح ثعلبة . فلما علم ثعلبة أن قرآناً قد نزل فيه ، انزعج انزعاجاً شديداً ، وأسرع إلى رسول الله ﷺ ، وعرض عليه الزكاة . فلم يقبلها رسول الله منه ، فأخذ يتردد عليه للقبول ، فلم يقبلها رسول الله منه . لقد أراد ﷺ بذلك أن يثبت أن الله وفقراء الله فى غنى عن مالك يا ثعلبة.

فلما انتقل رسول الله إلى الرفيق الأعلى جاء ثعلبة بالصدقات المؤخرة عليه كلها إلى أبى بكر ، فقال أبو بكر : ما كان لرسول الله أن يمتنع عنها ثم يأخذها أبو بكر .

لما توفى أبو بكر جاء إلى عمر ، فقال عمر مقالة أبى بكر . وجاء لعثمان ، إلا أنه قبل أن يصل إليه كان قد هلك فى عهد عثمان.

﴿ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ ﴾ ، وكلمة ﴿لَئِنْ ﴾ قَسَم ، والقَسَم هو صورة العهد ، فكأنه قال : أقسم بالله إن آتانى الله مالاً لأفعلنَّ كذا . وقد فهمنا أنها قَسَم من وجود اللام فى جواب القَسَم ﴿لَنَصَّدَّقَنَّ﴾ و«الصدقة» هى الصدقة الواجبة أى الزكاة ، و﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أى: نزيد فى التطوعات ، والمروءة ، والأريحية ، وكل ما يدل على الصلاح.

ويقول الحق بعد ذلك:

﴿ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾

ولله عطاءان : عطاء الأسباب ، وعطاء التفضل . و«عطاء الأسباب» يتمثل فى أن يَجدَّ الإنسان فى أى عمل من الأعمال ؛ فيعطيه الله ثمرة عمله ؛ مؤمناً كان أو كافراً ؛ طائعاً أو عاصياً ؛ لأن الإنسان قد أخذ

الأسباب وأتقنها ، ولذلك تجد بعضاً من الكافرين بالله وهم يعيشون فى سعة ؛ لأنهم يحسنون الأسباب ، وما داموا قد أحسنوا الأسباب ، وهم عبيد الله أيضاً ، وسبحانه هو الذى استدعاهم للوجود ، فضمن لهم أن تستجيب لهم الأسباب ، ولا تضنّ عليهم ؛ فالشمس تشرق على المؤمن والكافر ، وعلى الطائع والعاصى ، والمطر ينزل على الأرض . وكذلك كل شىء فى الأرض تستجيب عناصره لما يزرعون أو لما يفعلون ، إذن فهذا عطاء الأسباب.

ولكن الحق سبحانه يستر عطاء الفضل فى عطاء الأسباب ، كمن يسير فى طريق مجهول فيجد كنزاً ، أو أن ثمار محصوله لا يأتى عليها ريح أو إعصار يقلل من ناتج المحصول . ويبارك له الحق سبحانه فى بيع محصوله ، ويبارك له فى رزقه منه ، فلا يصرفه فيما يضيع ويذهب ماله . وهذا كله اسمه عطاء الفضل . وعطاء الأسباب عَامٌّ للناس جميعاً . أما عطاء الفضل فهو خاص بأولياء الله الذين أخلصوا عملهم لله طاعة وامتثالاً.

وقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ ﴾ دليل على أن الرزق الذى جاءهم لم يخضع للأسباب وحدها . بل زاد عما تعطيه الأسباب بفضل من الله . فالتكاثر الذى حدث فى أغنام ثعلبة لم يكن تكاثراً بالأسباب فقط ،بل فيه بركة جعلت البطن الواحدة من الشاة تأتى بأكثر من وليد ، والعشب الذى ترعاه يُدرّ كمية كبيرة من اللبن .

﴿ فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ ﴾ ما هو البخل ؟ هناك فى اللغة أسماء للامتناع عن العطاء ، فهناك بُخْل ، وشُح ، وكزازة ، وكلها أسماء للامتناع عن عطاء شىء ، لكن منازل العطاء والبخل تختلف ؛ بمعنى أن هناك إنساناً لا يعطى إلا من سأله ؛ تلك منزلة ، وإنساناً آخر لا يعطى كل

من سأله ، بل يعطى من سأله بأسباب تثير عواطفه نحوه ، كأن يقول: ولدى مريض ، أو احترق بيتى ، فالسائل هنا لا يسأل فقط ، ولكنه يجىء بعلة السؤال مثيرة للعواطف . وهناك من يعطى بغير سؤال.

هى إذن : ثلاث مراحل للعطاء ؛ واحد يعطى من يراه هكذا ؛ مظنة أن حالته رقيقة من غير أن يسأل ، وهذه منزلة من منازل القرب من الله ، ينير الله بها بصائر قوم لتكون يدهم هى يد الله عند خلق الله . بل إن هناك أناساً يعاتبون أنفسهم إذا جاء إنسان فسألهم صدقة أو معونة ؛ كالرجل الذى ذهب فطرق الباب ، فخرج إليه صاحب البيت فسأله عما يريد ، فطلب السائل منه مالاً فدخل صاحب البيت بيته وأخذ شيئاً من مال وأعطاه للسائل ، فعلمت امرأته أنه جاء يسأله مالاً فأعطاه ، ولكن الزوج الذى أعطى مالاً رجع يبكى . فقالت له : وما يبكيك وقد أجبْتَهُ إلى مطلبه ؟ فقال : يبكينى أننى تركته ليسألنى ، أى : أنه يبكى لأنه لم يملك فِطْنَةً تجعله يستشفُّ مسائل الناس من حوله ليعطى المحتاجين بغير سؤال .

إذن: فواحد يعطى عن مسألة ؛ تلك مرتبة ، وهناك من يعطى من غير مسألة ، بل يعطى عن فضل عنده ، أى : يملك الكثير ويعطى منه . وثالث : يعطى نصف ما عنده ؛ يقاسمه فيما يملك ، أو يعطى أكثر ما عنده حسب ما ينقدح فى ذهنه من حاجة الإنسان المعطى .

هى إذن ثلاث مراحل : رجل يعطى من غير سؤال ، ورجل يعطى بسؤال فيه أسباب مثيرة ومُهيِّجة للعاطفة ، ورجل يعطى بمجرد السؤال.

فمن هو البخيل ؟

أفظع درجة للبخل ؛ أن يبخل الرجل على من يسأله مسألة مُسبَّبة بأحداث تهيج العواطف ، ومع ذلك لا يرق قلبه ، هذا هو البخيل . ﴿فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ واحد من هؤلاء لم

يبخل فقط ، بل انصرف عن الذى يسأله ، مثل الذى انصرف عن العامل الذى جاء يأخذ الصدقة ، وقد كان عليه - مثلاً - أن يُجْلس العامل ، ويقدم له التحية الواجبة ؛ ثم يقول له سنرى رأينا ، ولكنه تولَّى وأعرض عنه .

ويأتى الحق هنا بعقاب من يسلك مثل هذا السلوك فيقول :

﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾

وقوله سبحانه : ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ ﴾ أى : جعل العاقبة لهذا التصرف ؛ أن جعل فى قلوبهم النفاق ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ ﴾ أى : إلى يوم القيامة . وما دام الله قد قال هذا فمعناه أن الذى عمل مثل هذا العمل ، وسئل الصدقة فمنعها وبخل وتولى وأعرض ، فهذا إعلام من الله أن هذا الإنسان لا يموت على إيمان أبداً . ولم يمت واحد من هؤلاء على الإيمان ، وقد كان هذا العقاب بسبب أنهم أخلفوا الله ما وعدوه فقال سبحانه : ﴿ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ ﴾ وكذلك جاءهم العقاب بسبب أنهم : ﴿ كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ فكأن الواحد منهم قد كذب كلمة العهد أولاً ، وكذب ثانياً فى أنه قال : أهى أخت الجزية ؟ مع أنه يعرف أن الزكاة عن المال هى ركن من أركان الإسلام .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ ﴾

والعلم هنا مقصود به معرفة الخبر الذى لم يكن معروفاً قبل ذلك ،

وقوله سبحانه : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا ﴾ فيه همزة الاستفهام ؛ ولم النافية مثل قول الحق سبحانه :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) ﴾ [الفيل]

ونحن نعرف أن الإخبار بين المتكلم والمخاطب له عدة صور : الصورة الأولى ؛ أن يخبر المتكلم المخاطب بما عنده ، وهذا «خبر». والصورة الثانية : أن لا يخبر المتكلم مخاطبه بالخبر ، بل يجعل المتكلم نفسه يقول الخبر ، مثل قول أحد المحسنين : ألم أحسن إليك ؟ وكان فى استطاعته أن يقول « أنا أحسنت إليك » ، فيكون خبراً من جهته ، لكنه يريد أن يعطى للخبر قوة ، فجعل الكلام من المِسْتَفهَم منه ، وكأنه عرض الأمر مَعْرِض السؤال فى معرض النفى ؛ ثقة فى أن المخاطَب لن يجد إلا جواباً واحداً هو : نعم أحسنت إلىّ .

إذن : فالخبر إما أن يكون خبراً مجرداً عن النفى ، أو خبراً معه النفى ، أو خبراً معه الاستفهام . وأقوى أنواع الإخبار : الخبر الموجود معه النفى ، والموجود مع النفى الاستفهام ؛ لأن الخبر على الصورة الأولى يكون من المتكلم ، والخبر من المتكلم قابل لأن يكون صادقاً وأن يكون كاذباً . ولكن الاستفهام يقتضى جواباً من المخاطَب ، ولا يجيب المخاطَب إلا بما كان فى نفس المتكلم ؛ ولو كان المتكلم يعلم أن المخاطَب قد ينكر فلن يسأله . أو يقول لإنسان : أنا راضى ذمتك ، وهذا القول يعنى أن قائله علم أنه لا حق غير هذا ، ومن يدير الكلام فى عقله لن يجد إلا أن ما يسمعه هو الحق .

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ ﴾ وما هو السر ؟ وما هى النجوى ؟ السر : هو ما تكتمه فى نفسك ولا تطلع عليه أحداً ، فليس السر هو ما تُسِرُّ به للغير ؛ لأن هذه هى النجوى ، وأصل النجوى البُعْد .

ويقال : فلان بنجوة عن كذا ، أى : بعيد عن كذا . وأصل النجوى أيضاً المكان المرتفع فى الجبل ، فكأن المرتفع بالجبل بعيد عن مستوى سطح الأرض . وحين يرغب إنسان أن يكلم أحداً بكلام لا يسمعه غيرهما ؛ فهو يستأذنه فى الابتعاد عن بقية الجلوس ليتكلم معه كما يريد ، أو يُخفض من صوته فلا يسمعه سوى الإنسان الذى يريد أن يهمس له بكلمة ، ولا يسمعها أحد آخر [1] ، ولذلك سموها المناجاة ؛ وهى كلام لا يسمعه القريب ؛ لأنك خفضت صوتك خَفْضاً يخفى على القريب ، فكأنه صار بعيداً.

إذن ، فالسر : هو ما احتفظت به فى نفسك ، والنجوى : هو ما أسررت به للغير بحيث لا يعلمه من يجالسك.

والذين منعوا الصدقة ، لابد أنهم اتفقوا على ذلك فيما بينهم ، وأنهم تكلموا فى هذا الأمر - منع الصدقة - بعد أن صاروا أغنياء ولهم أموال كثيرة ، وتمردوا على منطق الإسلام مع أنهم كانوا حريصين دائماً أن يظهروا فى إسلامهم مظهراً يفوق المسلمين الحقيقيين ، فكانوا دائماً فى الصفوف الأولى للصلاة كى يستروا نفاقهم.

وحين يوضح الحق سبحانه وتعالى أنهم أسرّوا فى نفوسهم كلاماً ؛ فهذا الإسرار فى النفس حين يُخبر به الله ؛ هو هتك لحجاب المكان والزمان معاً ، وأعلم سبحانه رسوله ﷺ بما دار فى هذا الإسرار ، كما هتك له من قبل حجب الزمان الماضى . وذلك فى الأمور التى لم يشهدها ، ولم يسمعها من معلم ، ولم يقرأها فى كتاب لأنه أمّى ، فأخبر رسول الله عن أكثر من أمر لم يشهده ولم يسمعه ولم يقرأه.

---

(١) وقد ورد النهى عن مناجاة اثنين دون الثالث ، فعن عبد الله بن مسعود قال قال ﷺ : « إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون صاحبهما ، فإن ذلك يحزنه » . أخرجه مسلم فى صحيحه (٢١٨٤) وأحمد فى مسنده (١/ ٤٣١) والترمذى فى سننه (٢٨٢٥) . وقال : حديث صحيح .

إذن : من أين جاء بذلك ؟ أعلمه به الحق سبحانه الذى يعلم خُبْأة[(١)] السموات والأرض ، وهتك له أيضاً حجاب الزمن المستقبل ؛ فعلم ﷺ الأحداث قبل أن تقع ، وأعلمه إياها مَنْ ملكَ ناصية الزمان ، وملك ناصية المكان ، وملك ناصية الأحداث . وهذا هو هَتْكُ حجاب الزمن المستقبل ، وهتك سبحانه لرسوله حجاب المكان ، فكان ﷺ يخبرهم عن شىء فى نفوسهم ، فقد أوحى له الحق :

﴿ وَيَقُولُونَ فِى أَنفُسِهِمْ لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ ... (٨) ﴾ [المجادلة]

بالله عندما يسمع الرجل من هؤلاء لما قاله فى نفسه ، ويخبره رسول الله بما قال ، فمن الذى هتك الحجاب لرسول الله ﷺ ؟

إن الذى هتك الحجاب لرسول الله هو من يعلم السرّ وأخفى ؛ فلا توجد حجب غائبة عن الله ؛ لأن حجب الغيب إنما تكون على البشر ؛ حجاب ماض ، وحجاب مستقبل ، وحجاب مكان ، وحجاب زمان .

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ ﴾ أى : أن علم الله ليس مقصوراً على معرفة أمورهم هم ، بل علم الله سرّهم ونجواهم ؛ لأن صفته القيومية ، وأنه علام الغيوب ؛ يعلم غيب هذا ، وغيب هذا ، وغيب هذا ، وغيب هذا، وجاءت المبالغة من تكرار علم غيب كل أحد .

إذن : ﴿ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ ﴾ تعنى أنه يعلم حتى ما حاولْتَ كتمه وستره ، فقد قال سبحانه :

﴿ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى السَّمَوَاتِ أَوْ فِى الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ ... (١٦) ﴾ [لقمان]

---

(١) الخبأة والخبء : كل شىء غائب مستور . ويقول تعالى فى سورة النمل : ﴿ أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِى يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ [النمل : ٢٥] . وقال ابن أسلم : هو ما جعل فيهما من الأرزاق : المطر من السماء ، والنبات من الأرض . (انظر : ابن كثير ٣/ ٣٦١) .

إذن: فعلم الحق جل جلاله لا يغيب عنه شيء.

ثم ينقلنا الحق سبحانه وتعالى إلى صورة أخرى من صور المنافقين وما يفعلونه بالمؤمنين.. فقال جل جلاله:

﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ﴾

واللمز: معناه العيب، ولكن بطريق خفى، كإشارة بالعين أو باليد أو بالفم أو بغير ذلك. إذن: فهناك مجموعة من المنافقين يعيبون فى المطوِّعين لجمع الزكاة من المؤمنين، ومن هؤلاء المنافقين من يعيب بالقول، ومن يعيب بالفعل، ومن يعيب بالإشارة، والمطوِّعون هم الذين يتطوعون بشيء زائد من جنس ما فرض الله.

فالله فرض مثلاً خمس صلوات، وهناك من يصلى خمس صلوات أخرى تطوعاً، وفرض الحق الزكاة اثنين ونصفاً بالمائة، وهناك من يصرف عشرة بالمائة تطوعاً، وفرض الحق صيام شهر رمضان، وهناك من يصوم فوق ذلك كل اثنين وخميس. وهذا ما نسميه دخول المؤمن فى مقام الإحسان؛ بأن تتقرب [1] إلى الله بما يزيد على ما فرضه الله عليك، من جنس ما فرضه الله.

---

(١) عن أبى هريرة قال قال ﷺ: «إن الله قال: من عادى لى ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلىَّ عبدى بشيء أحب إلىَّ مما افترضته عليه، وما يزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به، ويده التى يبطش بها، ورجله التى يمشى بها، وإن سألنى لأعطينه، ولئن استعاذ بى لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددى عن نفس المؤمن، يكره الموت وأنا أكره مساءته». أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٥٠٢) وأحمد فى مسنده (٦/٢٥٦).

وأنت إن أديت المفروض تكون قد التزمت بالمنهج ، وقد سأل رجل رسول الله ﷺ عن فرائض الإسلام ثم قال : لا أزيد ولا أنقص ، فقال الرسول الكريم : « أفلح إن صدق »[(١)] .

والزيادة على ما فرضه الله ، ومن جنس ما فُرِضَ يكون لها ملحظان : الأول : أن العبد يشهد لربه بالرحمة ؛ لأنه كُلِّفَ دون ما يستحق . والملحظ الثانى : هو أن عمل الطاعة قد خفّف على المؤمن فاستراح بها . ألم يقل رسول الله ﷺ عن الصلاة : « أرحنا بها يا بلال »[(٢)] .

إذن : فالمطوِّع هو الذى يزيد على ما فرض الله عليه من جنس ما فرض الله ؛ وهؤلاء هم المحسنون ؛ الذين قال الحق عنهم فى سورة الذاريات :

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩) ﴾ [الذاريات]

فالمنهج لا يلزمنى بأن أنام قليلاً من الليل وأقضى بقيته فى الصلاة ، ولم يلزمنى أحد بالاستغفار فى الأسحار[(٣)] . ولم يقل الله سبحانه فى هذه الآية إن فى المال حقاً معلوماً ؛ لأن الإنسان المؤمن هنا يعطى بأكثر مما فُرض . وعندما يتطوع مؤمن ويزيد على ما فرض الله ، أيستحق أن يُذَمَّ ويُعَابَ ويُلْمز ؟ أم أنه يستحق أن يُكرَّم ويُقدَّر ؟ ولكنه اختلال موازين المنافقين فى

---

(١) عن طلحة بن عبيد الله قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ من أهل نجد ثائر الرأس يسمع دوى صوته ولا يفقه ما يقول حتى دنا ، فإذا هو يسأل عن الإسلام . فقال رسول الله ﷺ : « خمس صلوات فى اليوم والليلة » . . . حتى ذكر صيام رمضان والزكاة . قال طلحة : فأدبر الرجل وهو يقول : والله لا أزيد على هذا ولا أنقص . قال رسول الله ﷺ : « أفلح إن صدق » . أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٦) ومسلم (١١) .

(٢) سبق تخريجه .

(٣) الأسحار : جمع سحر . وهو آخر الليل قبيل الصبح .

الحكم على الأشياء. لذلك اعتبروا الحسنة نقيصة ، تماماً كالذى يُخرج ماله للفقراء ، ونجد من يسخر منه بالقول عنه « إنه أبله » ، مع أن المؤمن حين يتصدق كثيراً ؛ فهو يشيع فائدة ماله فى المجتمع ، وهو الأكثر ذكاء منهم ؛ لأنهم أنفقوا المال على أنفسهم فَأفْنَوْه ، بينما تصدق هو به فأبقاه.

وقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ لها واقعة ، فقد هاجر عبد الرحمن بن عوف إلى المدينة ، وترك أمواله وكل ما يملك فى مكة ، وآخى رسول الله بين المهاجرين والأنصار ، فجعل لكل رجل من الأنصار رجلاً من المهاجرين يشاركه فى ماله.

ولما جاء عبد الرحمن بن عوف قال له أخوه من الأنصار [1]: أقاسمك مالى . قال : بارك الله لك فى مالك ، دُلَّنى على السوق . وذهب إلى السوق . وبارك الله له فى تجارته . فكان يقسم ربحه نصفين نصفاً للصدقة ونصفاً لأهله . وقد جاء عبد الرحمن بن عوف إلى رسول الله ﷺ ، وقال: يا رسول الله اكتسبت ثمانية آلاف درهم أقرض الله أربعة وأبقى لأهلى أربعة ، فقال له رسول الله ﷺ : « بارك الله لك فيما أقرضت وفيما أبقيت ». وحينما مات عبد الرحمن بن عوف أحصوا ثروته ، وحدث خلاف فى تقديرها ، وأراد الورثة أن يسترضوا زوجته الرابعة ، وكان اسمها « تماضر» بأن يعطوها ثمانين ألف درهم ، ولما كانت تماضر واحدة من أربع نساء ، والنساء الأربع يرثن ثُمُنَ الثروة ، أى : أن قيمة الثروة كلها على أقل تقدير بلغت مليونين وخمسمائة وستين درهماً. وكان عبد الرحمن لا يتاجر إلا فى ماله.

---

(١) آخى رسول الله ﷺ بين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع الخزرجى الأنصارى . انظر : سيرة النبى لابن هشام (٢/ ١٢٥) .

فلما بلغ المنافقين ما تصدق به عبد الرحمن بن عوف قالوا: ما تصدق عبد الرحمن إلا رياء وسمعة . وهل الرياء يطلع عليه الناس أم يعرفه الله وحده ؟ وجاء عاصم بن عدى ، وكان صاحب بستان أعطى ثمراً كثيراً ، فجاء بمائة حمْل من التمر وتصدق بها ، فقال المنافقون : والله ما فعل عاصم هذا إلا رياء . وجاء رجل يُدْعَى أبا عقيل الأنصارى إلى رسول الله ﷺ وقال : يا رسول الله ، لقد بتُّ ليلتى أعمل ، وأخذت أجرى صاعين من التمر ، احتفظت لأهلى بصَاع وجئتك بصاع لأتصدق به . قال المنافقون : تصدق بصاعٍ من التمر ، الله ورسوله غنى عن صاعك يا أبا عقيل.

هم إذن قد عابوا على عبد الرحمن بن عوف الذى تصدق بالكثير وقالوا هذا رياء ، وعندما جاء عاصم بن عدىّ قالوا : يرائى بالتصدق بنصف ثمار حديقته ، وعندما جاء من لا يملك إلا صاع تمر يتصدق به قالوا : الله ورسوله غنى عن تمرك ، لقد سخروا ممن أعطى الكثير ، وسخروا ممن أعطى القليل . وكان يجب أن يُمدَح المتصدقون ولا يُسخَر منهم ؛ لأن كلاً منهم تصدق على قدر طاقته ، وهم أعطوا منه فضل ما أعطاهم الله ؛ قلَّ أو كثُر [(١)] .

ولذلك فمَنْ يسخر من هؤلاء المؤمنين ؛ لابد أن يُلاَمَ على الخُلق السيىء الذى تمثل فى مقابلة السلوك الإيمانى بالسخرية والاستهزاء ، ولذلك كان جزاء الساخرين أن سخر الله منهم ، وجعل لهم عذاباً أليماً. والسخرية هى الاستهزاء بفعل شخص ما . وهؤلاء المنافقون حين يسخرون من المؤمنين ، فسخريتهم لم تتجاوز عدم رضاهم عمَّنْ فعل الخير ، وهم بسخريتهم لم يستطيعوا إلا الإيذاء المعنوى للمؤمنين المتصدقين ، ولكن حين يسخر الله ؛

(١) عن أبى ذر قال قال لى النبى ﷺ: «لا تحقرن من المعروف شيئاً، ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق » . أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٦٢٦) وأحمد فى مسنده (٥/ ١٧٣) .

فهذه أولاً عدالة الجزاء لأنها من جنس ما فعلوا ، ولكن هل سخرية الحق سبحانه وتعالى تقتصر على عدم الرضا أم أن هناك جزاء ؟

هناك جزاء من الله . وإذا كان الجزاء يتفاوت بتفاوت قدرة الساخر . فهناك فارق شاسع بين قدرات الله وقدرات البشر . والذين سخروا من المؤمنين حين تصدقوا بالقليل الذى يملكونه ؛ تصدى الله سبحانه وتعالى ليرد عليهم وعلى سخريتهم . ويريد الحق بذلك أن يعطينا صورة عن كيفية دفاعه عن المؤمنين المخلصين فى إيمانهم . فإذا أضفنا إلى ذلك أن الحق تبارك وتعالى ، هو الذى سيعاقب المنافقين ، فالعقاب سيكون أليماً مهيناً .

وقلنا من قبل : إن الذى يخطىء فى حق غيره ، فهذا الغير يرد الخطأ بعقاب على حسب قدرته . ولكن إن عفا عنه ، نقول لمن أخطأ : لا تعتبر هذا العفو لصالحك ، بل هو عكس ذلك تماماً ؛ لأن الذى يعفو إنما ترك الحكم لله ، وسوف يكون عقابك لا قدر قوة وطاقة مَنْ عفا عنك ، ولكنه ترك عقابك لله ، وسيكون عقابك على قدر قدرات الله .

إذن : فالذى ينتقم ويرد على من أخطأ فى حقه ، إنما يأخذ على قدر قُوَّته ، وأما الذى يعفو فهو يأخذ على قدر قدرات الله ، وهناك مرتبة أعلى من ذَلك جعلها الله سبحانه وتعالى للمذنب ، والذى وقع الاعتداء عليه ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى رب الاثنين : فإن أساء إليك إنسان قد ترد عليه الإساءة بطاقتك ، وقد تعفو فيرد الله عليه بقدرته وطاقته.

ولكن خير من ذلك أن تحس أن الذى أساء إليك فى حقيقة الأمر قد أحسن إليك ، مع أنه لم يقصد ذلك ، كيف ؟ إذا دخلت بيتك ووجدت أحد أبنائك قد ضرب أخاه وأساء إليه ، مع من يكون قلبك وعطفك ؟ إن قلبك يكون مع الذى اعتدى عليه وأسىء إليه فتحاول أن ترضيه ، وتأتى إليه بهدية أو تعطيه مبلغاً من المال ، أو غير ذلك من أنواع الإرضاء ، وقيل: من آداب دينك - الإسلام - أن تحسن إلى مَنْ أساء إليك ؛ لأنه

يقدم معروفاً دون أن يقصد . ولذلك فالحق سبحانه وتعالى يطلب منك أن تعفو عمن أساء إليك. ويقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ ﴾ وإذا سمعت فعلاً من البشر يقابله فعل من الله ، إياك أن تفهم الفعل من الله كما فهمت فعل البشر ، فحين يقول سبحانه : ﴿ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ ... (٥٤) ﴾ [آل عمران]

وحين يقول: ﴿ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ... (١٤٢) ﴾ [النساء]

هنا نجد فعلاً من صنع الله ، وقد نرى من البشر من يفعل نفس الفعل ، لكن نحن المسلمين نأخذ الفعل من الله على غير الفعل من البشر.

وعلى سبيل المثال : إذا جئنا لقول الله : ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ ﴾ المكر هو التغلب بالحيلة على الخصم ؛ بأن توهمه أنك تفعل له خيراً ، بينما أنت تضمر له الشر ، كأن تحفر حفرة كبيرة مثلاً وتغطيها ببعض الحشائش والزهور ، ثم تطلب من خصمك أن يأتى لك بزهرة ، فيسقط فى الحفرة وتتكسر عظامه.

إذن: فأنت قد كدْتَ له كَيْداً خَفيّاً . والكيد والمكر لا يَدُلان على القوة ؛ إنما يدلان على الضَعف ؛ لأن الشَجاع القوى هو الذى يجاهر بعدائه ؛ لأنه قادر على عدوه ، لكن الضعيف هو الذى يستخدم الحيلة والمكر ليوقع بخصمه . ولذلك نجد الحق سبحانه وتعالى يقول فى النساء:

﴿ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ (٢٨) ﴾ [يوسف]

وما دام كيدهن عظيماً ، فضعفهن عظيم ؛ لأن الضعيف هو من يكيد ، ولكن القوى لا يعجزه طلب خصمه ويقول له : اذهب حيثما شئت ، وسآتى بك عندما أريد ، لايوجد مكان تهرب فيه منى ، إنما الضعيف إذا تملك من خصمه فإنه يقضى عليه تماماً ؛ لأنه يعرف أنها فرصة لن تتكرر.

ولذلك قال الشاعر:

وَضَعِيفَةٌ فإذَا أصَابَتْ فُرْصة ... قتلتْ كذلكَ فُرْصَةُ الضُّعفَاءِ

أما القوى فإنه يقدر ويعفو ؛ لأنه يعرف أنه يستطيع الإتيان بخصمه وقتما يشاء.

والأصل فى المكر هو الشجرة الملتفة الأغصان كأنها مجدولة ؛ بحيث لا تستطيع أن تميز الورقة التى تراها من أى فرع نبتت ، فيلتبس عليك الأمر، كذلك المكر تختلط عليك الأمور بحيث لا تعرف أين الحقيقة . وأنت تمكر بقدر تفكيرك وعقلك ، ولكن الحق سبحانه وتعالى حين يجازيك بمكرك يكون الجزاء رهيباً ؛ لأن مكرك مفضوح عند الله ، ولكنك لا تعرف شيئاً مما أعدَّه الله لك.

ولقد نصر الحق سبحانه وتعالى رسوله ﷺ فى الأمور العلنية فى المعارك ، ونصره أيضاً فى كل أمر مكروا فيه وبيَّتوه له . وعلى سبيل المثال ، حين وقف الكفار على باب بيت رسول الله ﷺ ليقتلوه فى ليلة الهجرة . أوحى له ربه أن : اخرج ولا تَخْشَ مكرهم ، فخرج ﷺ ليجدهم نياماً وهم واقفون ، أعينهم مفتوحة ولكن لا تبصر . ويخرج ﷺ من وسطهم. ويأخذ التراب، ويلقيه عليهم وهو يقول: «شاهت الوجوه»[(١)] .

وعندما يبتعد ﷺ عن المكان يستيقظون مرة أخرى ، ويتعجبون كيف أفلت منهم . وقد أراد الحق سبحانه أن يعلموا أنهم لن يستطيعوا النَّيْل من رسول الله ﷺ ، لا بالمعارك المفتوحة ولا بالمكر الخفى .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ ﴾ تعرف منه أن سخرية الله جاءت جزاءً لهم على سخريتهم ، والساخر من البشر لا يتجاوز

(١) ورد قول رسول الله ﷺ هذا فى حديث الهجرة عن ابن عباس عند أحمد فى مسنده (١/ ٣٦٨) ، وكذلك فى غزوة حنين فى صحيح مسلم (١٧٧٧) من حديث إياس بن سلمة عن أبيه ، وأحمد فى مسنده (١/ ٢٨٦) والدارمى فى سننه (٢/ ٢١٩) من حديث أبى عبد الرحمن الفهرى .

فى فعله أكثر من العيب فى غيره. ولكن سخرية الله تتجاوز إلى العذاب. ولذلك قال الحق سبحانه: ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ وهذا هو التميُّز فى فعل الله عن فعل البشر ، فالذين سخروا من المؤمنين عابوا عليهم ما فعلوه ، يسخر منهم الحق يوم القيامة أمام خلقه جميعاً ، ثم يزيد على ذلك بالعذاب الأليم.

لقد عرفنا من قبل أن هناك عذاباً أليماً ، وهناك عذاب عظيم ، وعذاب مهين ، وكلها صفات للعذاب ، فالعذاب هو الإيلام ، ولكن هناك من يفزعه الألم فيصرخ . وهناك من يحاول أن يتجلد ويتحمل ؛ لأن كبرياءه يمنعه أن يصرخ ، وفى هذه الحالة يكون عذابه مهيناً ؛ لأنه بكبريائه تحمَّل الألم ؛ فيُهَانُ فى كبريائه وبذلك يكون عذابه مهيناً.

والعذاب قد يأخذ زمناً طويلاً أو قصيراً ، وهناك عذاب عظيم فى الإيلام وعظيم فى الإهانة . والعذاب العظيم فى الإيلام ؛ أى مبالغ فيه من ناحية الألم . والعذاب العظيم فى الإهانة مبالغ فيه من ناحية الإهانة. والعذاب العظيم فى الوقت مبالغ فيه من ناحية الزمن ، ولذلك يقال عنه «عذاب مقيم» أى : يأخذ الزمن كله لا يتوقف ولا يقل.

ثم يعرض الحق سبحانه وتعالى صورة أخرى من صور تعامل رسول الله ﷺ مع المنافقين .ومع أن رسول الله ﷺ يعرف المنافقين ، وقد أعلمه سبحانه بأمرهم حين قال:

﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ ... (٣٠) ﴾ [محمد]

أى : بمجرد نظر رسول الله إليهم ، وكأن على جبهة كل منهم توجد كلمة « منافق » وهو يعرفهم مصداقاً لقوله الحق:

﴿ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ...(٣٠) ﴾ [محمد]

وبمجرد أن ينطقوا يعرفهم ﷺ من طريقة نطقهم . ولكن الله يريد أن يُخرج رسوله إلى المؤمنين به وبرسالته سليم الصدر [(١)] ، بدون انقباض عن أحد ، حتى يتجلى نوره على الجميع ، ولعل شعاعاً من النور يمسُّ منافقاً ؛ فيتوب إلى الله ويعود إلى الإيمان الصحيح ، كما حدث لكثير من المنافقين ، فقد أعلن بعضهم التوبة وحَسُنَ إسلامهم .

ونحن نعرف أن رأس المنافقين عبد الله بن أبىّ بن سلول ، كان سيُتوَّج ملكاً على المدينة [(٢)] . وأثناء الإعداد لمهرجان التتويج ؛ فوجئوا بوصول رسول الله ﷺ مهاجراً إلى المدينة . وكان هذا من أسباب حقد عبد الله بن أبىّ على رسول الله ﷺ فقد ضاع منه الملْك . وكان لعبد الله بن أبىّ ولد أسلم وحَسُن إسلامه اسمه عبد الله بن عبد الله بن أبىّ . وكان من حُسْن إسلام هذا الابن أنه ذهب إلى رسول الله ﷺ ؛ حين علم أنه ﷺ سيأمر بقتل أبيه ؛ لأنه قال فى غزوة من الغزوات [(٣)] . ﴿ **لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ ...(٨)** ﴾ [المنافقون]

وكان ابن أبىّ يعنى بـ « الأعز » المنافقين فى المدينة ؛ وبـ « الأذل » المسلمين من المهاجرين والأنصار . ورد الله سبحانه بأن صدَّق على قوله أن الأعز سيُخرج الأذل ، فقال الحق سبحانه وتعالى :

﴿ **وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ... (٨)** ﴾ [المنافقون]

---

(١) وقد كان رسول الله ﷺ يحب هذا ، حتى أنه أوصى أصحابه فقال : « لا يبلغنى أحد عن أحد من أصحابى شيئاً ، فإنى أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر » الحديث . أخرجه أحمد فى مسنده (١/ ٣٩٦) والترمذى فى سننه (٣٨٩٦) وأبو داود فى سننه (٤٨٦٠) .

(٢) أورد ابن إسحاق فى السيرة أن قوم عبد الله بن أبى كانوا « قد نظموا له الخرز ليتوِّجوه ثم يملكوه عليهم ، فجاءهم الله برسوله وهم على ذلك ، فلما انصرف قومه عنه إلى الإسلام ضغن ورأى أن رسول الله قد استلبه ملكاً ، فلما رأى قومه قد أبوا إلا الإسلام دخل فيه كارهاً مصراً على نفاق وضغن » سيرة ابن هشام (٢/ ٢١٦) .

(٣) هى غزوة بنى المصطلق ، وقد كانت فى شهر شعبان سنة ٦ هجرية . انظر سيرة النبى لابن هشام (٣/ ٣٣٤) .

فكأن الحق سبحانه وتعالى قد أقر على أن الأعز هو الذى سيخرج الأذل من المدينة ، ولكن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ، إذن : فسيخرج المنافقون من المدينة ، وسيبقى فيها المؤمنون ، وتكون لهم العزة.

ولما علم عبد الله بن عبد الله بن أبىّ أن رسول الله ﷺ سيأمر بقتل والده عبد الله بن أبىّ ، ذهب إلى رسول الله ﷺ ، وقال : يا رسول الله إن كنت ولابد آمراً بقتل أبى فأمرنى أنا بقتله ؛ لأنى أخاف أن يقتله أخ مؤمن فأكرهه ، وأنا لا أحب أن أكره مؤمناً.[1]

وهكذا نرى قوة وصدق الإيمان ، وأراد رسول الله ﷺ أن يكرم ذلك المنافق من أجل ابنه فلم يأمر بقتله ، ومن بعد ذلك[2] قال الابن : يا رسول الله استغفر لأبى ، أى : اطلب له من الله المغفرة ؛ ولأنه ﷺ يعلم أنه قد أرسل رحمة للعالمين ؛ لذلك طلب المغفرة لعبد الله بن أبىّ . وحينئذ نزلت الآية الكريمة :

﴿ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾

---

(١) أورد ابن إسحاق أن عبد الله بن عبد الله بن أبى لما بلغه ما كان من أمر أبيه أتى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله إنه بلغنى أنك تريد قتل عبد الله بن أبى فيما بلغك عنه ، فإن كنت فاعلاً فمرنى به فأنا أحمل إليك رأسه ، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبرّ بوالده منى ، إنى أخشى أن تأمر به غيرى فيقتله فلا تدعنى نفسى أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبى يمشى فى الناس فأقتله مؤمناً بكافر فأدخل النار ، فقال ﷺ : « بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقى معنا » . انظر تفسير ابن كثير (٤/ ٣٧٢) .

(٢) وذلك عندما توفى عبد الله بن أبىّ ،وأراد ابنه من رسول الله ﷺ أن يصلى عليه ، فاعترض عمر ابن الخطاب ، فأعطاه قميصه ليكفنه فيه وصلى عليه . انظر الحديث الآتى بعد فى البخارى (٤٦٧٠) ومسلم (٢٤٠٠) من حديث ابن عمر .

ووقف العلماء فى هذه الآية عند شىء اسمه مفهوم المخالفة ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى حدد مرات الاستغفار غير المقبول بسبعين مرة ، وقد أوضح رسول الله ﷺ الذى أرسلَ رحمة للعالمين ؛ أنه ما دامت مرات الاستغفار قد حُددت بسبعين مرة فَلأزيد على السبعين قليلاً [(١)] وبذلك غلّب الرسول الكريم جانب الرحمة ، وجانب الإكرام لعبد الله بن عبد الله بن أبى الذى أسلم وحَسُنَ إسلامه .

وكانت السبعة دائماً هى نهاية العدد عند العرب ، وعندما يأتى عدد آخر يكون زائداً ، فالأصل فى العدد هو مكررات الواحد ، أى : أن الواحد أصل العدد ، يضاف له واحد يكون اثنين ، ويضاف لهما واحد فيكون المجموع ثلاثة ، وتستمر الإضافة حتى يصير العدد سبعة ، وإذا تركنا الواحد جانباً لأنه الأصل ، نجد عندنا ثلاثة أعداد زوجية ، هى : اثنان وأربعة وستة ، وثلاثة أعداد فردية هى : ثلاثة وخمسة وسبعة ، ويكون العدد سبعة جامعاً للمفرد والمثنى والجمع .

ولذلك كانوا إذا أرادوا الزيادة على سبعة فلابد أن يأتوا بحرف العطف . ونجد قول الحق سبحانه وتعالى فى سورة الكهف :

﴿ سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ... (٢٢) ﴾ [الكهف]

ولم يقل : ثامنهم كلبهم ، بل جاء بواو العطف ؛ لأن الثمانية كانت من نوع آخر [(٢)] .

---

(١) قال ﷺ : «إنما خيَّرنى الله تعالى فقال : ﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً ﴾ وسأزيد على سبعين » أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٦٧٠) ومسلم فى صحيحه (٢٤٠٠) من حديث ابن عمر .

(٢) انظر تفسير القرطبى (٥/ ٤١١٣) فى تفصيل هذه المسألة ، بين من قال : إن نهاية العدد عند العرب هو العدد ٧ . ومنهم من قال : إن هذا تحكم لا دليل عليه . ومنهم من سمى الواو بين السبعة والثمانية : واو الثمانية .

وحين سمع رسول الله ﷺ « السبعين » ؛ قال : نزيد على السبعين ، وبذلك يكون قد احترم قول الله ، واحترم تكريمه لعبد الله بن عبد الله بن أبىّ ؛ الذى طلب منه أن يستغفر لأبيه . وهنا قالوا: كيف يغيب عن رسول الله ﷺ وهو الذى يقول عن نفسه : « أنا أفصح العرب بيد أنِّى من قريش»[1] ، أن عدد السبعين يُقصد به الكثرة مهما بلغت ، والشاعر القديم يقول:

* أسِيئى بِنَا أوْ أحْسِنى لاَ مَلُومَةَ *

أى: افعلى ما تشائين.

فكأن الحق سبحانه وتعالى فى قوله: ﴿ **اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً** ﴾ شاء أن يأتى بمضاعفات العدد النهائية وهى السبعون ليحسم الأمر.

وجاء قول الحق سبحانه : ﴿ **سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ... ٦** ﴾ [المنافقون]

أى : مهما استغفرت بأى عدد من الأعداد فلن يغفر الله لهم.

ونقول: إن الأمر هنا له شقان ؛ الشق الأول: أن يغفر الله. والشق الثانى: هو مجاملة رسول الله ﷺ لعبد الله بن عبد الله بن أبىّ، فهو ﷺ يعلم أن الله لن يغفر للمنافقين. وفى استغفار رسول الله ﷺ إنما هو لاحترام طلب الابن ، وأيضاً فالاستغفار من رسول الله كان مجرد مجاملة لعلمه أن الله لن يغفر للمنافقين ؛ لأنه ﷺ يعلم أن استغفاره من أجل منافق لن يقبله الله ، وهناك استغفار تنشأ عنه المغفرة ، واستغفار ينشأ عنه إرضاء عبد الله بن عبد الله بن أبىّ. ولكن ألا توجد ذاتية للأب؟

---

(١) قال السيوطى فى « اللآلىء المصنوعة » : « معناه صحيح . ولكن لا أصل له ، كما قال ابن كثير وغيره من الحفاظ ، وأورده أصحاب الغريب ، ولا يعرف له إسناد » . انظر كشف الخفاء (١/ ٢٣٢) والأسرار المرفوعة (ص ٧٠ ، ٧١) .

نقول : إن التاريخ يقول إن عبد الله بن أبىّ نال حظه من الدنيا ، والحق سبحانه يقول : ﴿ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً (٣٠) ﴾ [الكهف]

وجزاء العمل يُعطى للبعض فى الدنيا ، ويُعْطى للبعض فى الآخرة ؛ مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ (٢٠) ﴾

[الشورى]

ولقد حدثنا علماء السيرة أن رسول الله ﷺ قال: « إن أبا لهب يُخفَّفُ عنه العذاب يوم الاثنين » ، وأبو لهب نزل فيه قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (٢) سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (٣) ﴾ [المسد]

ولماذا يُخفَّف العذاب عن أبى لهب يوم الاثنين ؟ لأن هذا اليوم هو الذى ولد فيه رسول الله ﷺ ، وقد سُرّ أبو لهب بميلاد الرسول الكريم ، فأعتق الجارية التى بشَّرته بميلاد الرسول ؛ ومن هنا يُخفَّف العذابُ عن أبى لهب يوم الاثنين جزاء عمله.

كما أن عبد الله بن أبىّ كان له موقف يحسب له فى واقعة الحديبية حين ذهب المسلمون لأداء العمرة ، وصدهم الكفار عن بيت الله الحرام ؛ وانتهت بصلح الحديبية وهى أول معاهدة بين الإيمان والكفر ، ورغم أن رسول الله ﷺ وصحابته رُدُّوا عن بيت الله الحرام ، فقد فطن أبو بكر لما فى يوم الحديبية من عطاءات الله ؛ من اعتراف كفار قريش بمحمد وبالمسلمين حين وقعوا معاهدة بينهم وبين رسول الله ﷺ ، وتفرغ نبينا الكريم للدعوة فى الجزيرة العربية ، وهو آمن من قريش ، وانتشر الإسلام إلى أن نقضت قريش العهد وتم فتح مكة.

نعود إلى قصة عبد الله بن أبىّ يوم الحديبية : لقد كان الكفار يعلمون أن فى نفسه شيئاً من رسول الله ﷺ ؛ لأن مجىء الرسول ﷺ منع تتويج عبد الله بن أبىّ ملكاً على المدينة . وكانوا يعلمون أيضاً أنه أسلم نفاقاً ؛ فأرادوا أن يُحدثوا ثغرة فى نفوس المسلمين ، فقالوا : محمد وأصحابه لا يدخلون ، ولكننا نسمح لعبد الله بن أبىّ ومن معه بدخول مكة وأداء العمرة فرفض عبد الله بن أبىّ وقال : إن لى فى رسول الله أسوة حسنة ، لا أريد أن أذهب للعمرة إلا إذا ذهب رسول الله ﷺ . وهذا موقف يُحمد له .

كذلك كان له موقف آخر فى غزوة بدر، حينما أُسر العباس عم رسول الله ﷺ . وكان العباس طويل القامة وثيابه تمزقت فى المعركة ، فلم يجدوا طويلاً مثله إلا عبد الله بن أبىّ ، فأعطاهم قميصه ليلبسه العباس ، فلم يَنْسَ رسول الله ذلك له .

ومن أجل هذا استغفر له رسول الله ، لكن الحكم الأعلى قد جاء ﴿ **اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ** ﴾ فليس المهم فقط هو استغفار رسول الله ؛ لأن هناك ممحصات للذنب، فمن أذنب عليه أن يأتيك أولاً يا رسول الله ، ليستغفر الله ، ثم يسألك أن تستغفر له الله ، حتى يجد الله تواباً رحيماً ، فسبحانه القائل:

﴿ **وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا** (٦٤) ﴾ [النساء]

فالذى يريد أن يتوب ويستغفر ، لا يستغفر له رسول الله ﷺ ، إلا إذا استغفر مرتكب الذنب أولاً ، فلا بد أن يستغفروا الله من الذنوب أولاً ثم يستغفر لهم الرسول . ولا يستغفر لهم الرسول وهم لا يستغفرون ، وهكذا نعلم أن عبد الله بن أبىّ لم يفطن إلى كيفية الاستغفار ، فقد كان عليه أن

يأتى لرسول الله صاغراً ليستغفر الله أمامه ، لا أن يبحث عمن يطلب له الاستغفار.

ثم يأتى الحق سبحانه وتعالى موضحاً سبب عدم غفرانه ، فيقول:

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ وحين ينفى الحق سبحانه وتعالى الهداية عن إنسان ، فليس معنى هذا أن يقول الفاسق: الله لم يَهْدنى فماذا أفعل ؟ ويُحمِّل المسألة كلها لله . بل نسأل الفاسق : لماذا لم يَهْدِك ؟ لأنك فسقت.

إذن: فعدم الهداية من الله لك كان بسبب أنك أخذت طريق الفسق والبعد عن منهج الله ، ومن هنا فالهداية المقصودة فى هذه الآية ؛ ليست هى الهداية بمعنى الدلالة على طريق الخير ؛ لأن الدلالة إلى طريق الخير تأتى من الله للمؤمن والكافر ، فمنهج الله الذى يُبلَّغ للناس كافة ، يريهم طريق الخير ويدلهم عليه . ولكن المقصود هنا هو الهداية الأخرى التى يعطيها الحق لمن دخل فى رحاب الإيمان وآمن وحَسُنَ عمله ، وتتمثل فى قوله الحق:

﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧) ﴾ [محمد]

إذن: فكل مَنْ مشى فى طريق الإيمان أعانه الله عليه . وفى المقابل نقرأ قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠) ﴾ [الأحقاف]

و كذلك قوله سبحانه : ﴿ وَاللَّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٣٧) ﴾ [التوبة]

وأيضاً قوله الكريم : ﴿ وَاللَّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٥) ﴾ [الصف]

لا نقول أبداً : إن هؤلاء معذورون ؛ لأن الله لم يَهْدهم ؛ لأنه سبحانه قد هداهم ودلَّهم جميعاً على طريق الخير ، ولكنهم هم الذين أخذوا طريق الكفر والظلم والفسوق.

واقرأ إن شئت قول الله عز وجل : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ (١٧) ﴾[فصلت]

فماذا صنعوا في هدايته لهم : ﴿ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ ﴾ ، أى : أن الحق سبحانه بيَّن لثمود طريق الخير ، ولكنهم اختاروا الضلالة .

إذن : فهداية الدلالة للجميع ، وهداية المعونة للمؤمنين.

ثم يعطينا الحق سبحانه وتعالى صورة أخرى للمنافقين فيقول:

﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ (٨١) ﴾

والفرح هو السرور من فعل تبتهج النفس به . والمخلَّفون هم الذين أخلفهم نفاقهم ، وتركهم رسول الله ﷺ فى المدينة وذهب إلى الجهاد . بعد أن جاءوه بالمعاذير الكاذبة التى قالوها ، وقد تركهم رسول الله ﷺ ؛ لأن الحق سبحانه قال :

﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً (٤٧) ﴾ [التوبة]

ومن لا يريد أن يجاهد فى سبيل الله إن أخذته معك كرهاً ، يكون ضدك وليس معك . وسيشيع الأكاذيب بين المؤمنين ، ويحاول أن يخيفهم من الحرب ، وإذا بدأ القتال فهو أول من يهرب من المعركة . ويبحث عن مغارة أو حجر يختفى خلفه . إذن : فهو ليس معك ولكنه ضدك ؛ لأنه لن يقاتل معك ، بل ربما أعان عدوك عليك . وفى نفس الوقت هو يضر بالمسلمين ، ويحاول أن يشيع بينهم الرعب بالإشاعات الكاذبة.

ويُبيِّن الحق سبحانه وتعالى هنا فطرة رسول الله الإيمانية بأنه أذن لهؤلاء بعدم الخروج للجهاد مع أن عذرهم كاذب ؛ فجاء قوله : ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ والمقعد هو مكان القعود . والقعود رمز للبقاء فى أى مكان . والقيام رمز لبداية ترك المكان إلى مكان آخر ، والذين غزوا مع رسول الله ﷺ قاموا واستعدوا للقتال ، أما الذين تخلفوا فقد قعدوا ولم يقوموا رغبة فى البقاء فى أماكنهم.

ويقول تعالى : ﴿ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ وحين نسمع كلمة ﴿ خِلافَ ﴾ نعرف أن مصدرها خالف خلافاً ؛ ومخالفة ؛ كما تقول : قاتل قتالاً ومقاتلة . وهى إما أن تكون مخالفة فى الرأى ، كأن تقول : فلان فى خلاف مع فلان ، أى : أن لكل منهما رأياً . وإما أن تكون فى السير ، كأن تقوم أنت لتغادر المكان ؛ ويخالفك زميلك أو من معك فيقعد ، أو تقعد أنت ، فيخالفك هو ويمشى.

والخلاف من ناحية الرأى هو عملية قلبية ، والخلاف من ناحية الحركة يشترك فيها القالب أو الجسد ، وهم حين فرحوا بالقعود بعد قيام رسول الله ﷺ والمؤمنين للجهاد ، فهذا دليل على أن مسألة القعود هذه صادفت هوى فى نفوسهم وارتاحوا لها . وبذلك خالفوا شرط الإيمان ؛ لأن الذين يحق لهم أن يتخلفوا عن الجهاد قد حددهم القرآن الكريم فى قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ (٩١)﴾ [التوبة]

وقوله: ﴿وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ (٩٢)﴾ [التوبة]

أى : أوضحت لهم أنك لا تملك ما يركبون عليه ، ليصلوا معك إلى موقع القتال [١] . وقد بيّن لنا الحق حال هؤلاء الذين لم يخرجوا مع رسول الله ﷺ بسبب هذه الأعذار فقال عنهم :

﴿ تَوَلَّوْا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ (٩٢) ﴾ [التوبة]

إذن : فهؤلاء الذين تخلفوا بأعذار يملؤهم الحزن ، وتفيض أعينهم بالدمع ؛ لأنهم حُرِموا ثواب الجهاد فى سبيل الله [٢] . أما الذين يفرحون بالتخلف عن الجهاد فهم منافقون .

وقوله سبحانه : ﴿ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ ﴾ نجد فيه أيضاً أن كلمة ﴿خِلافَ﴾ تستعمل أيضاً بمعنى «بعد» ، أى بعد رسول الله ، فما أن ذهب رسول الله ﷺ للغزوة قعدوا هم بعده ولم يذهبوا . وجلسوا مع الضعيف والمريض وأصحاب الأعذار الحقيقية ، وكذلك الذين لم يجد رسول الله ﷺ لهم دواب ليركبوها ، هؤلاء هم مَنْ تخلفوا . ويبيّن الحق سبحانه سبب تخلف المنافقين فيقول : ﴿ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ .

أى : أنهم كرهوا أن يقاتلوا ، وكرهوا الجهاد . وليت الأمر قد اقتصر على هذا ، بل أرادوا أن يُثبِّطوا المؤمنين ويُكرِّهوهم فى القتال فى سبيل الله ﴿ وَقَالُوا لا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ ﴾ فهم لم يكتفوا بموقفهم المخزى ، بل أخذوا فى تحريض المؤمنين على عدم القتال . وقد كانت هذه الغزوة «غزوة تبوك» فى أيام الحر . وكانت المدينة تمتلىء بظلال البساتين وثمارها ، بينما الطريق إلى

---

(١) سيأتى سبب نزول هذه الآيات عند تفسير الآيتين ٩١ ، ٩٢ من سورة التوبة .

(٢) عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « لقد خلفتم بالمدينة رجالاً ما قطعتم وادياً ولا سلكتم طريقاً إلا شركوكم فى الأجر حبسهم المرض » أخرجه مسلم فى صحيحه (١٩١١) وأحمد فى مسنده (٣/ ٣٠٠) وابن ماجه فى سننه (٢٧٦٥) .

الحدود مع الروم طويلة . إذن : فهى غزوة كلها مشقة [(١)] .

وقال المنافقون للمؤمنين ﴿ لا تَنفِرُوا ﴾ ، والنفور هو كراهية الوجود لشىء ما . ويقال : فلان نافر من فلان ، أى : يكره وجوده معه فى مكان واحد . ويقال : فلان بينه وبين فلان نفور ، أى : يكرهان وجودهما فى مكان واحد . والذى يخرج للحرب كأنه نفر من المكان الذى يجلس فيه ذاهباً إلى مكان القتال . ويكون القتال والتضحية بالمال والنفس فى سبيل الله أحب إليه من القعود والراحة .

إذن : فقوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ ﴾ أى : أنهم يريدون أن يعطوا لأنفسهم عذراً لعدم الخروج للجهاد ؛ لأن الجو حار وفيه مشقة . ولكنهم أغبياء ؛ لأنهم لو خافوا من الحر ومشقته ؛ وجلسوا فى الظل ومتعته ، لأعطوا لأنفسهم متعة زمنها قصير ليدخلوا إلى مشقة زمانها طويل .

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى لرسوله ﷺ : ﴿ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴾ فإن كانوا قد اعتقدوا أنهم بهروبهم من الحر قد هربوا من مشقة ، فإن مشقة نار جهنم والخلود فيها أكبر بكثير . والإنسان إن بُشِّر بأشياء تسره عاماً أو أعواماً ، ثم يأتى بعدها أشياء تسوؤه وتعذبه ، فهو بمعرفته بما هو قادم يعانى من الألم ولا يستطيع الاستمتاع بالحاضر ؛ لأن الإنسان يحاول دائماً أن يتحمل ؛ ليُؤمِّن مستقبله . ولذلك تجد من يعمل ليلاً ونهاراً وهو سعيد ، فإذا سألته كيف تتحمل هذا الشقاء ؟ يقول : لأؤمن مستقبلى . إذن : فسرور عام أو أعوام تفسده أيام أو أعوام قادمة

---

(١) وقد سميت أيضاً بغزوة العسرة ، وذلك فى قوله تعالى : ﴿ لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ ﴾ [التوبة : ١١٧] . قال ابن كثير فى تفسيره (٢/ ٣٩٦) « قال قتادة : خرجوا إلى الشام عام تبوك فى لهبان الحر على ما يعلم الله من الجهد ما أصابهم منها جهد شديد ، حتى لقد ذكر لنا أن الرجلين كانا يشقان التمرة بينهما ، وكان النفر يتداولون التمرة بينهم يمصها هذا ثم يشرب عليها ثم يمصها هذا ثم يشرب عليها ، فتاب الله عليهم وأقفلهم من غزوتهم» . ولكن المنافقين تخلفوا عن الخروج مع رسول الله ﷺ ابتداء .

فيها سوء وعذاب ، فماذا عن خلودهم فى النار ؟

ولكن هل قالوا : ﴿لا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾ فى خواطرهم دون أن ينطقوا بهما ، أم قالوها لبعضهم البعض سراً ؟ ومن الذى أعلم رسول الله ﷺ ما قالوه ؟ نقول : قد يكون ذلك هو ما دار فى خواطرهم . وشاء الله أن يعلموا أنه سبحانه وتعالى يعلم ما فى نفوسهم . وشاء أن يفضح ما فى سرائرهم ، لعل هذا يُدْخل الخوف فى قلوبهم ، من أنه سبحانه مطلع على كل شىء ، فيؤمنوا خوفاً من عذاب النار .

ومثال هذا أن الحق حين أراد أن يمنع المشركين من حج بيته الحرام قال : ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا ... (٢٨)﴾ [التوبة]

وكان المشركون حين يذهبون إلى الحج ينعشون اقتصاد مكة ، وكان الخير يأتى من كل مكان إلى مكة فى موسم الحج ، بل إنهم كانوا يقولون : إياكم أن تطوفوا بالبيت فى ثياب عصيتم الله فيها ، وكأن التقوى تملأ نفوسهم ! وحقيقة الأمر أنهم كانوا بعيدين عن التقوى لأنهم كانوا يعبدون الأوثان . وكانوا يقولون ذلك حتى يضطر الحجاج أن يخلعوا ثيابهم ويشتروا ثياباً جديدة ليطوفوا بها ، ومن لا يملك المال يطوف عارياً .

إذن : فقد كان الحج موسماً اقتصادياً مزدهراً لأهل مكة ؛ يربحون خلاله ما يكفى معيشتهم طوال العام ، فلما جاء البلاغ من الله سبحانه وتعالى : ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ . فالخاطر الذى يأتى فى النفس البشرية ؛ وكيف سنعيش ؟ . هذا هو أول خاطر يأتى على البال ؛ لأنه سؤال عن مقومات الحياة ، والذى خلقهم عليم بما يدور فى خواطرهم. وإن لم يجر على ألسنتهم ، حينئذ جاء قول الحق سبحانه : ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ... (٢٨)﴾ [التوبة]

إذن : فالله سبحانه وتعالى قد علم ما يدور فى خواطرهم ، فرد عليه قبل أن ينطقوه .

كذلك قول الحق سبحانه : ﴿ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ والفقه هو الفهم الدقيق . فأنت حين تعرف شيئاً بسطحياته تكون قد عرفته، ولكنك إن عرفته بكل معطياته الخلفية تكون قد فقهته . وأنت إذا ذهبت للجهاد فى الحر قد تتعب ، ولكن إذا قعدت عن الجهاد سوف تكون عقوبتك أكبر وتعبك أشد .

إذن : فعلمك بشىء وهو الحر الذى ستواجهه إن خرجت للجهاد ، يجب ألا ينسيك ما غاب عنك ، وهو أن نكوص الإنسان عن الجهاد يدخله ناراً أشد حرارة ، يخلد فيها . ومعنى ذلك أنه لم يفقه ؛ لأنه علم شيئاً وغاب عنه أشياء .

ومن هذا المنطق القرآنى ، رد الإمام على كرم الله وجهه على القوم حينما دعاهم إلى الجهاد ضد الخوارج فقال : « أما بعد ، فإن الجهاد باب من أبواب الجنة ، فمن تركه رغبة عنه سيم الخسف » .

ثم يقول بعد ذلك : « إن قلت لكم : اغزوهم فى الشتاء ، قلتم : هذا أوان قر وصر . . أى برد شديد . وإن قلت لكم : اغزوهم فى الصيف ، قلتم : أنظرنا - أى أمهلنا - حتى ينصرف الحر عنا ، فإذا كنتم فى البرد والحر تفرون ، فأنتم والله فى النار . يا أشباه الرجال ولا رجال »[1]

---

(١)من خطبة خطبها الإمام على عندما أغار سفيان بن عوف الأزدى على الأنبار ، فتقاعس المسلمون عن قتالهم فقال : « أما بعد ، فإن الجهاد باب من أبواب الجنة ، فمن تركه رغبة عنه ألبسه الله ثوب الذل ، وشمله البلاء ، ولزمه الصغار ، وسيم الخسف ، ومنع النصف » ثم قال : « فإذا أمرتكم بالسير إليهم فى أيام الحر قلتم : حمارة القيظ ، أمهلنا ينسلخ عنا الحر ، وإذا أمرتكم بالسير فى البرد قلتم : أمهلنا ينسلخ عنا القر ، كل ذا فراراً من الحر والقر . فإذا كنتم من الحر والقر تفرون ، فأنتم والله من السيف أفر ، يا أشباه الرجال ولا رجال ، ويا أحلام الأطفال وعقول ربات الحجال » انظر خطبته كاملة فى كتاب « خطب إمام البلغاء » بتحقيق : عادل أبو المعاطى . نشر دار الروضة - القاهرة .

وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴾ أى : أنهم لو كانوا قد فرحوا وابتهجوا بأنهم لم يجاهدوا فى الحر ، فهم سوف يندمون كثيراً على ذلك ، مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

والضحك هو انفعال [1] غريزى فطرى ، يحدث للإنسان عندما يقابل شيئاً يسره ، أو أحداثاً يجد فيها مفارقة لم يكن يتوقعها . أما البكاء فهو انفعال غريزى أيضاً تجاه أحداث تدخل الحزن أو الشجن ، وهو تذكر ما يحزن بالنسبة للإنسان ، وكلتاهما ظاهرتان فطريتان ، أى أنهما تحدثان بفطرة بشرية واحدة بالنسبة للناس جميعاً ، ولا دخل فيها للجنس أو اللون أو البيئة ، فلا يوجد بكاء روسى وبكاء أمريكى ، أو ضحك روسى وضحك إنجليزى ، أو ضحك شرقى وضحك غربى . ذلك أن الضحك والبكاء انفعال طبيعى موحد لا تؤثر فيه البيئة ولا الثقافة ولا الجنس . وقد أسنده الحق تبارك وتعالى لنفسه . فكما قلنا : إن الله سبحانه وتعالى وحده هو الذى يحيى ، وهو سبحانه وحده الذى يميت . فهو سبحانه وحده الذى يضحك ، وهو سبحانه وحده الذى يبكى . مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ ﴾ [النجم]

---

(١) هناك فرق بين الانفعال والافتعال ؛ لأن الانفعال فطرة والافتعال صنعة ، فالانفعال الذى يظهر على وجه الإنسان سواء كان سروراً أو حزناً أو اهتماماً بشىء هو أمر غريزى فطره الله عليه استجابة لمؤثرات خارجية ، أما الافتعال فهو اصطناع الانفعال كأن يتكلف السرور فى مقام لا يقتضى هذا .

ولذلك فالضحك والبكاء يأتيان بلا مقدمات ، لا أقول لنفسى : سأضحك الآن فأضحك ، ولا أقول : سأبكى الآن فأبكى ؛ لأن هذا انفعال غريزى لا دخل للإرادة ولا للاختيار فيه . ولكننا أحياناً نلجأ إلى التضاحك أو إلى التباكى وهو مجرد ادعاء بلا حقيقة . ويكون ظاهراً فيه الافتعال . فحين يروى لك إنسان نكتة سخيفة ، والمفروض أنه قالها لتضحك ، ولكنها لا تضحكك ، وفى نفس الوقت أنت تريد أن تجامله فتفتعل الضحك ، أى تضحك بافتعال . وكذلك البكاء فيه افتعال أيضاً مثل بكاء النادبة التى تجلس وسط أهل الميت وتبكى . وقد تضع بعض نقط الجلسرين فى عينيها لتفتعل الدموع ، وهذا كله افتعال . أما الضحك والبكاء الحقيقى ، فأمران بالفطرة يملكهما الله سبحانه وتعالى وحده .

وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً ﴾ جاء بعد قوله : ﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ أى : أنهم فرحوا عندما بَقَوْا هم فى المدينة ، وخرج المؤمنون للجهاد . جلسوا فى حدائق المدينة وهم فرحون فى راحة وسرور يضحكون ؛ لأنهم يعتقدون أنهم قد فازوا بعدم اشتراكهم فى الجهاد . ولكن هذا الضحك هو لفترة قليلة . وسيأتى بعدها بكاء وندم لفترة طويلة وأبدية ، عندما يدخلون جهنم والعياذ بالله .

ونلحظ أن الحق سبحانه وتعالى قال: ﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً﴾ ولم يقل : سيضحكون قليلاً وسيبكون كثيراً ، لماذا ؟

نقول: عندما يُسند الفعل إلى المخلوق الذى يعيش فى عالم الأغيار ، والمختار فى عدد من أفعاله ، يُحتمل أن يحدث أو يجوز ألا يحدث . ولكن الحق سبحانه وتعالى حين يقول : ﴿ فَلْيَضْحَكُوا ﴾ أى: أمر بالضحك، ثم يجىء فى البكاء ويقول: ﴿ وَلْيَبْكُوا ﴾ أى: ابكوا. والأمر بالضحك والبكاء هو أمر اختيارى من الله سبحانه وتعالى ، تجوز فيه الطاعة وتجوز فيه المعصية ؟

إذا كان كذلك ، فهل سيطيع المنافقون أمراً اختيارياً لله ؟ ونقول : إن ذلك أمر غير اختيارى ؛ لأن الحق سبحانه هو وحده الذى يضع فى النفس البشرية انفعال الضحك أو انفعال البكاء للأحداث . وكما بيَّنا فإن الإنسان لا يستطيع الانفعال بالضحك أو البكاء.

والحق حين يقول : ﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً ﴾ معناها : أن انفعال الضحك قضاء عليهم لابد أن يحدث . وإذا قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَلْيَبْكُوا كَثِيراً﴾ فلا بد أن يبكوا ؛ لأن انفعال البكاء مكتوب عليهم من الله ، وكما يقولون : إن الذى يضحك أخيراً يضحك كثيراً ، وكذلك الذى يبكى أخيراً يبكى كثيراً .

إذن : فالأمور كلها مرهونة بالخاتمة . فقد يأتى للإنسان حادث يسرّه ، ثم تأتيه ساعة بؤس تمحو هذا السرور كله ، والعكس صحيح . وإذا كان هؤلاء المنافقون قد ضحكوا قليلاً فى الدنيا . فعمر كل منهم فى الدنيا قليل ؛ لأنه حتى وإن عاش فى الدنيا ضاحكاً طوال عمره فكم سيضحك ؟ أربعين سنة ؟ خمسين سنة ؟

إن كلاّ منا له فى الدنيا مدة محدودة ، فأنت إذا نسبت الحدث إلى الدنيا على إطلاقها فهو قليل . وإذا نسبته إلى عمرك فى الدنيا فهو أقل القليل ، ثم تأتى الآخرة بالخلود الطويل الذى لا ينتهى ، ويكون بكاء المنافق فيه طويلاً طويلاً.

ولذلك فلا بد لكل إنسان أن يضع مع المعصية عقوبتها ، ومع الطاعة ثوابها ؛ لأن الإنسان قد يرتكب المعصية لإرضاء شهوات نفسه ، وساعة ارتكاب المعصية فهو لا يستحضر العقوبة عليها ، ولو أنه استحضر العقوبة لامتنع عن المعصية . فالسارق لو استحضر ساعة قيامه بالسرقة ، أنه قد

يضبط ، وقد يحاكم وتقطع يده ، لو تأكد من هذا فلن يسرق أبداً . ولكنه يقوم بالسرقة لأنه يعتقد أنه سيفلت من العقاب . وما من لص خطط لسرقة وفى باله أنه سيضبط ، بل يكون متأكداً أنه سيسرق ويفلت.

ولذلك قال رسول الله ﷺ : « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن »[1]

لأنه ساعة يزنى لو تخيل أو تأكد أنه سيُلْقى فى النار جزاء ما فعل ، فلن يقدم على الزنا أبداً . وكذلك شارب الخمر لا يمكن أن يضع الكأس فى فمه . إذا تخيل النار وهو يُعذَّب فيها . ولكن الغفلة عن الإيمان تحدث لحظة ارتكاب المعصية ؛ لأن الإيمان يقتضى أن تستحضر العقوبة ساعة تُقدم على المعصية ، وأن تعلم يقيناً أن كل ما تفعله ستُحاسب عليه فى الآخرة ، وسيكون هناك جزاء.

فإذا ضحكت من مطلوبات الإيمان فلابد أن تبكى فى الآخرة . فإن فرحت - مثلاً - بترك الصلاة أو الزكاة ، واعتقدت أنك قد غنمت فى الدنيا ، فلا بد أن تندم ويصيبك الغمُّ فى الآخرة . وإذا تنعمت بمال حرام فلا بد أن تُعذَب به فى الآخرة . والحق سبحانه يقول:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٣٠) وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ (٣١) ﴾ [المطففين]

هكذا يعطينا الله عدة صور من السخرية التى يتعرض لها المؤمنون فى الدنيا ، وأولى هذه الصور هى ضحك المنافقين والكفار من المؤمنين ، كأن يقول أحدهم لإنسان مؤمن يقوم إلى الصلاة : خذنا على جناحك فى الآخرة . ثم بعد ذلك يأتى الغمز واللمز ، ثم إذا ذهب المنافق إلى أهله

(١)متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٤٧٥) ومسلم فى صحيحه (٥٧) .

أخذ يسخر من الطائعين ويقول : لقد فعلت كذا وكذا لإنسان متدين. وسخرت منه ولم يستطع أن يرد . ويشعر بالسرور وهو يحكى القصة فرحاً بما عمل . وينسى أنه قد ارتكب ثلاثة جرائم : جريمة العمل ، وجريمة الفرح بالعمل ، وجريمة الإخبار بالعمل . فلو أنه سخر من المؤمن ، ثم ندم بعد ذلك ، ربما كانت عقوبته هيِّنة . ولكن ما دام قد فرح بذلك تكون له عقوبة أكبر ، فإذا انقلب إلى أهله يروى لهم ما حدث ، وهو فخور مسرور تكون له عقوبة ثالثة .

وليتهم توقفوا عند ذلك بل اتهموا المؤمنين بالضلال ؛ مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلاءِ لَضَالُّونَ (٣٢) وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ (٣٣) ﴾ [المطففين]

أى : أنهم زادوا على كل هذا باتهام المؤمنين بالضلال . هذا ما صنعوه فى الدنيا . وهى فانية وعمرها قليل . ثم يأتى سبحانه وتعالى بالمقابل فى الآخرة ؛ فيقول : ﴿ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٣٤) عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ (٣٥) هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦) ﴾ [المطففين]

فكما ضحك الكفار من المؤمنين فى الدنيا ؛ سيضحك المؤمنون من الكفار فى الآخرة ، وسيجلس المؤمنون على الأرائك فى الجنة وهم ينظرون إلى الكفار وهم يُعذَّبون فى النار ، أى : أن الله جزاهم بمثل عملهم مع الفارق بين قدراتهم المحدودة وقدراته - سبحانه - التى لا حدود لها.

ولم يقل الحق سبحانه وتعالى : « سيضحكون » ككلام خبرى ، يجوز أن يحدث أو لا يحدث ، بل جاء به مُؤكداً . وقوله هنا فى المنافقين ﴿ فَلْيَضْحَكُوا ﴾ . يعنى : أن الضحك لابد أن يحدث ؛ لأن هذا كلام من الله سبحانه وتعالى.

فقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ يعطينا العلة أو السبب فى أن ضحكهم سيكون قليلاً ، وبكاءهم سيكون كثيراً ؛ لأن هذا جزاء ما فعلوه فى الدنيا . لقد فرحوا بالفرار من الجهاد . وسُرّوا بالراحة فى المدينة، فلابد أن يُلاَقوا فى الآخرة جزاءهم عن هذا العمل ، كما سَيُثاب المؤمنون على ذهابهم للجهاد فى الحرِّ.

إذن : فالحق سبحانه لم يظلمهم ، بل أعطاهم جزاء ما عملوه . كما قال : ﴿ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ وكلمة ﴿ يَكْسِبُونَ ﴾ هنا لها ملحظ لا بد أن نُبيِّنه ، فقد كان من الممكن أن يُقال "جزاء ما كانوا يعملون" ، أو "جزاء ما كانوا يفعلون" ، فلماذا جاء الحق بـ ﴿يَكْسِبُونَ﴾ ، وما الفرق بينها وبين "ما يفعلون" و "ما يعملون" ؟

نعلم أن لكل جارحة من جوارح الإنسان مجالَ عمل ؛ فالأذن تسمع ، والعين ترى ، واليد تمسك ، والقدم تمشى ، والأنف يشُمُّ ، والأنامل تلمس . إذن : فكل عضو له مهمة. فإن كانت المهمة هى النطق باللسان نسميها القول . وإن كانت مهمة من مهام باقى الجوارح عدا اللسان نسميها الفعل . فاللسان وحده أخذ القول ، وكل الجوارح أخذت الفعل . والقول والفعل معاً نسميهما عملاً.

فإذا قال الحق سبحانه وتعالى : "يفعلون" يكون ذلك مقابل يقولون ؛ لأن الإنسان قد يقول بلسانه ولا يفعل بجوارحه . وتوضح ذلك الآية الكريمة : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ (٣) ﴾ [الصف]

ولكن إذا اتحد القول والفعل يكون هناك عمل . وكل شئ لا يتسق منطقياً مع قيم المنهج يكون فيه افتعال ، فالكسب عمل ، والاكتساب افتعال الكسب ؛ لأن الكسب عمل طبيعى ، والاكتساب هو افتعال الكسب . وسبحانه يقول :

﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ...(٢٨٦)﴾ [البقرة]

لأن الاكتساب بالحرام فيه افتعال يتعب النفس ، ولا يجعلها منسجمة مع جوارحها ، فالرجل مع زوجته فى البيت مستقر الجوارح لا يخشى شيئاً. لكنه مع زوجة غيره يهيج جوارحه ؛ فيقفل النوافذ ويُطفىء الأنوار . وإنْ دقَّ جرس الباب يصاب بالذعر والهلع ؛ لأن ملكات النفس ليست منسجمة مع العمل.

أما إذا اعتادت النفس الإثم مثل من اعتاد الإجرام ، فلا يهيجها الحرام . وفى هذه الحالة تنقلب عملية الاكتساب إلى كسب ، وتعتاد النفس على المعصية وعلى الإثم ، ويصبح جزاؤها عند الله أليماً وعذابها عظيماً.

ويقول الحق سبحانه فى هذه الآية : ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ وكان مقتضى الكلام أن يقال : " جزاء بما كانوا يكتسبون " لأن هذه عملية فيها إثم وفيها معصية ، فلا بد أن يكون فيها افتعال ، ولكن الحق سبحانه وتعالى يلفتنا إلى أن هؤلاء المنافقين قد اعتادوا المعصية ، وعاشوا فى الكفر، فأصبحت العملية سهلة بالنسبة لهم ، ولا تحتاج منهم أى افتعال .

واقرأ قول الحق : ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللَّهِ...(٣٨)﴾ [المائدة]

والسرقة ليست أمراً طبيعياً ، لذلك يقوم بها السارق خفية ويُبيِّت لها ويفتعل ؛ ولذلك كان من المنطقى أن يقال "اكتسبوا" لكن شاء الحق أن نعرف أن السرقة قد أصبحت فى دم هؤلاء ، ومن كثرة ما ارتكبوها فهى بالنسبة لهم عملية آلية سهلة . وقد وضع التشريع لها نطاقاً وهو ربع دينار مثلاً [1] . والذى يسرق دون هذا النطاق لا يُطبق عليه حَدُّ قطع اليد . لماذا ؟ لأن ربع الدينار فى ذلك الوقت كان يكفى لقوت أسرة متوسطة العدد لمدة

(١)عن عائشة رضى الله عنها قالت : « كان رسول الله ﷺ يقطع السارق فى ربع دينار فصاعداً » أخرجه مسلم (١٦٨٤) وأحمد (٦/ ٣٦) والترمذى (١٤٤٥) وقال : حسن صحيح .

يوم واحد . فإذا سرق أى إنسان ما يكفى قوت أسرة لمدة يوم واحد ، يقال : ربما فعلها لأن أسرته لا تجد ما تأكله ، فإذا أخذ أكثر من الضرورة ، يكون قد أخذ أكثر مما يحتاج إليه ، وتكون السرقة قد حدثت ويُقام عليه الحد [(١)] .

ونحن نعلم أن العقل البشرى وظيفته الاختيار بين البدائل ، ومفروض أن يُقَدِّر الإنسان العقوبة ويستحضرها ساعة وقوع المعصية ، وأن يستحضر الثواب ساعة القيام بالطاعات ترغيباً للإنسان فى الطاعة . ونحن نأتى للطالب المجتهد ونطلب منه أن يُخفِّف من المذاكرة ، لكنه لا يترك الكتاب لأنه استحضر النجاح ؛ وما سيحدث بعد النجاح من دخوله الكلية التى يريدها ، أو بعد تخرجه من الجامعة إن كان قد وصل إلى مرحلة التخرج ، وكذلك استحضر نظرة أهله وأساتذته وزملائه إليه ، وهو يستحضر كل ذلك ؛ مما يدفعه لقضاء ساعات طويلة فى المذاكرة دون أن يشعر بالتعب .

إذن : فالذى يُحبِّبك فى الطاعة هو استحضار لذة الثواب القادم . والذى يُكرِّهك فى المعصية هو استحضارألم العقاب الذى لابد أن يحدث .

ولكن هؤلاء المنافقين والكفار قد اعتادوا المعصية والكفر ؛ حتى أصبح سلوكهم المخالف للإيمان إنما يحدث منهم دون أن يستحضروا عقوبة المعصية ، فهم يرتكبون المعاصى وهم فرحون . ولو قال الحق كلمة : "يقولون" لكان كلامهم بغير فعل . ولو قال : "يفعلون" لكان فعلاً

---

(١) السرقة نوعان : نوع يوجب التعزير ، ونوع يوجب الحد . فالذى يوجب التعزير هى التى لم تتوفر فيها شروط إقامة الحد ، مثل سارق الثمار على الشجر ، أما التى يجب فيها الحد فهى التى توفر فيها ثلاثة شروط :

١- أخذ مال الغير بما لا يقل عن ربع دينار .

٢- أن يكون هذا المال فى حرز كخزينة أو بيت أو مسجد .

٣- أن تتم السرقة على هيئة الاختفاء والاستتار . وبهذا لا يعتبر المنتهب أو المختلس أو الخائن (أى : النصاب) سارقاً يجب فيه قطع اليد . وإذا ثبتت جريمة السرقة بكل هذه الشروط فتقطع يد السارق اليمنى من مفصل الكف ، فإذا سرق ثانياً تقطع رجله . انظر تفاصيل إقامة هذا الحد فى فقه السنة للشيخ سيد سابق (٢/ ٤٦١ - ٤٧٦) .

لا يشترك فيه اللسان بالقول . ولو قال "يعملون" لكان فعلاً وقولاً فقط . ولو قال " يكتسبون" لفهمنا أن المعصية تثير انفعالاً وتهيجاً فى داخلهم ؛ لأنهم لم يعتادوها . ولكن جاء قوله تعالى ﴿يَكْسِبُونَ﴾ ليعطينا المعنى الصحيح فى أنهم قد اعتادوا المعصية ؛ حتى أصبحوا يفعلونها بلا افتعال .

ويأتى الحق سبحانه وتعالى ليُرينا حكمه فى الدنيا على هؤلاء المنافقين الذين فرحوا بتخلفهم عن الجهاد فى سبيل الله ، فيقول :

﴿ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾

والله سبحانه وتعالى يوضح لرسوله ﷺ : عندما تنتهى الغزوة وتعود إلى المدينة ، فهناك حكم لابد أن تطبقه مع هؤلاء المنافقين ، الذين تخلفوا وفرحوا بعدم الجهاد .

وقوله : ﴿فَإِن رَّجَعَكَ﴾ كلمة "رجع" من الأفعال ، وكل فعل يجب أن يكون له فاعل ومفعول ، فلا يمكن أن تقول : "ضرب محمد" ثم تسكت؛ لأنه عليك أن تبين من المضروب . ولا يمكن أن تقول " قطف محمد " ، بل لابد أن تقول ماذا قطف ؟ وهكذا نحتاج إلى مفعول يقع عليه الفعل . ولكن هناك أفعالاً لا تحتاج إلى مفعول . كأن تقول : "جلس فلان" والفعل الذى يحتاج إلى مفعول اسمه « فعل مُتعَدٍّ » أما الفعل الذى لا يحتاج إلى مفعول فاسمه « فعل لازم » . إذن : فهناك فعل متعد وفعل لازم .

وهنا فى هذه الآية الكريمة يقول الحق سبحانه : ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ﴾ والحق سبحانه هو الفاعل ، والكاف فى ﴿ رَّجَعَكَ ﴾ هى المفعول به. ولكن لأنها ضمير ملتصق بالفعل يتقدم المفعول على الفاعل . إذن : ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ﴾ رجع فعل متعد ، والفاعل لفظ الجلالة . والمفعول هو الضمير العائد على رسول الله ﷺ ؛ أى : أن الله رجعك يا محمد.

ولكن هناك آية فى القرآن الكريم تقول :

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا ... (١٥٠)﴾ [الأعراف]

فى الآية التى نحن بصددها ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ﴾ الفاعل هو الله ، أما فى قوله الحق : ﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ ﴾ نجد أن موسى هو الفاعل ولا يوجد مفعول به ، إذن فـ" رجع" يمكن أن يكون فعلاً لازماً [1] ، كأن تقول: "رجع محمد من الغزوة" . ويمكن أن يكون فعلاً متعدياً كقوله سبحانه : ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ ﴾ أى: يا محمد من الغزوة . إذن : فرجع تستعمل لازمة وتستعمل متعدية . ولكن فى قصة سيدنا موسى عليه السلام ؛ عندما ألقته أمه فى البحر والتقطه آل فرعون ؛ ومشت أخته تتبعه ؛ ثم حرَّم الله عليه المراضع ليعيده إلى أمه كى يزيل حزنها ، يقول الحق سبحانه :

﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ... (٤٠)﴾ [طه]

ما هو الفرق بين الآيات الثلاث ؟ ولماذا استعمل فعل « رجع» لازماً ومتعدياً ؟

---

(١)الفعل المتعدى هو الذى ينصب بنفسه مفعولاً به أو اثنين أو ثلاثة دون أن يحتاج إلى مساعدة حرف جر أو غيره . أما اللازم فهو الذى لا ينصب بنفسه مفعولاً به أو أكثر ، وإنما ينصبه بمعونة حرف جر . وهناك نوع يصح أن يكون النوعين معاً مثل : شكر ، ونصح . وفعل رجع المذكور فى الآية من هذا النوع الأخير .

نقول : إنه فى قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ هنا هيىء لموسى من ذاته أن يرجع ، أى : أنه قرار اختيارى من موسى ، أما قوله تعالى : ﴿فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ﴾ ، فموسى فى هذه المرحلة ؛ كان طفلاً رضيعاً لا يستطيع أن يرجع بذاته ، ولا بد أن يهيىء له الحق طريقة لإرجاعه ، أى : من يحمله ويرجعه . أما قوله تعالى : ﴿فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ﴾ فقد كان من الممكن أن يقال : " وإذا رجع إلى طائفة منهم" مثلما قال فى موسى عليه السلام : ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ﴾ ولكن الحق استخدم ﴿رَّجَعَكَ﴾ ليدل على أن زمام محمد عليه الصلاة والسلام فى الفعل والترك ليس بيده .

وكأنه سبحانه وتعالى يوضح : إياكم أن تنسبوا الأحداث إلى بشرية محمد ﷺ ، فإن محمداً إذا ذهب إلى مكان فالله هو الذى أذهبه إليه . وإن عاد من مكان فهو لا يعود إلا إذا أرجعه الله منه . كما كانت هجرة رسول الله ﷺ إلى المدينة بإذن من الله ، فقبل أن يأذن الله له بالهجرة ، لم يكن رسول الله ﷺ ببشريته يستطيع أن يهاجر . إذن : فالحق سبحانه وتعالى يريد أن نعرف دائماً : أن ذهاب محمد ﷺ ورجوعه من أى مكان ، ليس ببشرية رسول الله ﷺ ، بل بإرادة الحق سبحانه .

ولكن لماذا قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ﴾ وكان من الممكن أن يقول " فإن رجعك الله إليهم " أو : " فإن رجعك الله إلى المدينة " ؟ نقول : إن الحق سبحانه وتعالى يريد الحديث هنا عن الطائفة التى حدثت منها المخالفة ، فهناك من بقوا فى المدينة رغماً عنهم ولم يكن لديهم ما ينفقونه أو لم يكن لدى رسول الله ﷺ ما يحملهم عليه . وكذلك المرضى وكبار السن الذين لا يستطيعون قتالاً . وهؤلاء حَسُنَ إسلامهم وقَبِل الله ورسوله أعذارهم .

ولكن الحق سبحانه يتحدث هنا عن الطائفة التى تخلفت عن الجهاد وهى قادرة ، والتى امتنعت عن الخروج ، وهى تملك المال والسلاح وكل مقومات الجهاد ، هذه الطائفة هى التى فرحت بالتخلف عن القتال . أما الطوائف الأخرى ؛ فكانت عيونها تفيض بالدمع من الحزن على عدم اشتراكهم فى الجهاد .

إذن : فالحق يقصد هنا طائفة المنافقين الذين استمروا على نفاقهم ، فمن تاب منهم قبل نزول هذه الآية قبلت توبته ، ومن مات منهم قبل نزول هذه الآية فإنما حسابه على الله . وبقيت طائفة المنافقين الذين فرحوا وضحكوا عندما بقوا فى المدينة ، وكان عقاب الله لهم بأن مسح أسماءهم من ديوان المجاهدين فى سبيل الله ، ومنعهم الثواب الكبير للجهاد .

ويقول سبحانه : ﴿فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَئْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ﴾ فكيف استأذنوا أول الأمر للقعود وتحايلوا عليه ، وكيف يستأذنون الآن للخروج ؟ نقول : إنهم عندما رأوا المؤمنين وقد عادوا بالغنائم ، كان ذلك حسرة فى قلوبهم ؛ لأنهم أهل دنيا . وحينئذ طلبوا الخروج حتى يحصلوا على الغنائم والمغانم الدنيوية . ولكن الحق سبحانه وتعالى طلب من رسوله عليه الصلاة والسلام ألا يأذن لهم بالجهاد مع المسلمين ، فقال: ﴿ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا﴾ أى : أن أسماءكم قد شطبت من ديوان المجاهدين والغزاة ، ولماذا قرر الحق سبحانه وتعالى ألا يعطيهم شرف الجهاد وثواب الخروج مع رسول الله ﷺ ؟ يقول الحق سبحانه : ﴿ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ .

ولكن الحق يقول أيضاً هنا : ﴿فَاسْتَئْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ﴾ وهذا أمر لا يحدث إلا فى الغزوات ، فما هو موقفهم إذا حدث اعتداء على المدينة ؟ ويبين الحق سبحانه لرسوله ﷺ ألا يقبل منهم قتالاً حتى فى هذه الحالة ، فطلب

من رسوله عليه الصلاة والسلام أن يعلمهم بذلك ، ويقول لهم : ﴿ وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا ﴾ إذن : فقد حسمت المسألة ، فلا هم مسموح لهم بالخروج فى الغزوات ، ولا بقتال الأعداء إذا هاجموا المدينة ؛ لأنهم أُسقطوا تماماً من ديوان المجاهدين ، ولا جهاد لهم داخل المدينة أو خَارجها ؛ ما داموا قد فرحوا بالقعود ، ورفضوا أن يشتركوا فى الجهاد وهم قادرون ؛ لذلك حكم الحق أن يبقوا مع الخالفين .

وما معنى خالفين ؟ المادة هى " خاء" و"لام" و"فاء" ، فيها "خلف" و"خلاف" و"خلوف" وغير ذلك . و"خالفين" إما أن يكونوا قد تخلفوا عن الخروج مع رسول الله ﷺ ، وإما أن يكونوا خالفوا الرسول بأنهم رفضوا الخروج ، وإما أن يكونوا خلوفاً . ويقول ﷺ فى حديث عن الصيام : « لخلوف فم الصائم أطيب عند الله يوم القيامة من ريح المسك »[1]

والخلوف هو تغير الرائحة ، وتغير الرائحة يدل على فساد الشىء ، فكأنهم أصبحوا فاسدين . ومخالفين تعنى فاسدين لأنهم قد خالفوا أمر رسول الله ﷺ ، وتعنى أنهم تخلفوا عن رسول الله ﷺ ، ولم يقتصر جزاء هؤلاء المتخلفين فقط أن تشطب أسماؤهم من سجلات المجاهدين ، بل هناك جزاء آخر يبينه قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾

وصلاة رسول الله ﷺ على ميت هى رحمة له ، وغفران لذنوبه ؛ لأن الصلاة على الميت أن تطلب له الرحمة والمغفرة ، وأن تطلب له من الله أن

(١) متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (١٩٠٤) ومسلم فى صحيحه (١٦٣) عن أبى هريرة رضى الله عنه .

يُلحقَه بالصالحين . وإذا قال رسول الله ﷺ هذا الكلام ، ودعا بهذا الدعَاء ، فإن دعوة رسول الله مستجابة من الله . وهكذا حرمهم الله سبحانه وتعالى من رحمة يكون الإنسان فى أشد الحاجة إليها حين ينتقل من الحياة الدنيا إلى حياة البرزخ [(١)] .

وقول الحق لرسوله : ﴿ وَلا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا ﴾ معناها نهى عن فعل لم يأت زمنه . وقوله تعالى : ﴿وَلا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ ﴾ أى : لا تذهب إلى قبره وتطلب له الرحمة ، ولكن الحق سبحانه وتعالى قال : ﴿ وَلا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا﴾ مع أن النهى عن المستقبل ، أى : من مات بعد نزول هذه الآيات ، فلماذا لم يقل الحق "يمت" أو "يموتوا" واستخدم الفعل الماضى ﴿مَّاتَ ﴾ ؟ . ونقول : لأن الموت عملية حتمية مقررة عند الله ومُقدَّرة ، فموعد الموت مكتوب ومعروف عند الله ، وهو شىء لا يقرره الله مستقبلاً ، بمعنى أن موعد الموت لا يحدد قبل حدوثه بليلة أو ليلتين ، ولكن الموعد قد حُدِّد وانتهى الأمر .

أما قوله الحق : ﴿وَلا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم﴾ فهو يدلنا على أن هذا الأمر ليس خاصّاً بسبب ، ولكنه عموم حكم ، فهناك : سبب للحكم ، وهناك عموم حكم . وسبب الحكم مثل الآية التى نزلت فى زعيم المنافقين عبد الله ابن أبىّ ، فعندما مرض عبد الله بن أُبىّ مرض الموت ؛ جاء ابنه عبد الله إلى رسول الله ﷺ ، وطلب منه أن يعطيه قميصه يُكفِّن فيه أباه، فأعطاه ، ثم سأله أن يصلى عليه ، فقام رسول الله ﷺ ليصلى عليه ويستغفر له [(٢)] . وذهب رسول الله ﷺ مجاملة لابنه عبد الله بن عبد الله بن أبىّ الذى أسلم وحَسُن إسلامه .

---

(١)حياة البرزخ هى حياة بين الموت والبعث ، ومنه قوله عز وجل﴿ وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٠٠] والبرزخ فى كلام العرب : الحاجز بين الشيئين . ومنه قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ [الفرقان: ٥٣] .

(٢)سبق تخريجه عند تفسير الآية: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ...﴾ [التوبة: ٨٠] .

وعندما وقف رسول الله ﷺ بجوار عبد الله بن أبىّ ، قال له : « أهلكك حب يهود »[(١)] ؛ لأن ابن أُبىّ كان يجامل اليهود ويعاونهم ، ونفاقه فى الإسلام كان مجاملة لليهود وكان يُظهر أمام اليهود الكفر ، ويُظهر أمام المسلمين الإيمان . وهنا قال ابن أبىّ : يا رسول الله ، إنما أرسلتَ إليك لتستغفر لى ولم أرسل إليك لتؤنبنى .

فاستغفر له الرسول ﷺ ، وهنا نزلت الآية الكريمة :

﴿ **اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ** ...(٨٠) ﴾ [التوبة]

وطلب عبد الله بن أبىّ من رسول الله ﷺ أن يهبه ثوبه لكى يُكفَّن به ، فلما ذهب رسول الله ﷺ إلى بيته ، أرسل له الثوب الأعلى . وقد كان ﷺ يلبس ثوبين ؛ ثوباً يلى جسده وثوباً فوقه . فلما جاء ابن أبىّ الثوب الأعلى ، قال : أنا أريد الثوب الذى لامس جسد رسول الله ﷺ .

انظر إلى زعيم المنافقين والذى كان يملؤه الكبرياء فى حياته ، كبرياء على المؤمنين ؛ ها هو ذا يطلب كل هذه الطلبات ساعة احتضاره . فماذا صنع رسول الله ﷺ ؟ أرسل له القميص الذى لامس جسده الشريف . وكان كل هذا إرضاء لابنه عبد الله بن عبد الله بن أبىّ .

ولم يتقبل هذا الفعل عدد من المؤمنين ولم يشعروا بالارتياح ، فعندما مات ابن أبىّ جاء ابنه عبد الله ، وطلب من رسول الله ﷺ أن يصلى عليه .

---

(١) أورده ابن كثير فى تفسيره (٢/ ٣٧٩) من مرسل قتادة . وقد أورده ابن حجر فى الفتح (٨/ ٣٣٤) وعزاه لعبد الرزاق والطبرى عن قتادة . قال ابن حجر : هذا مرسل مع ثقة رجاله ، ويعضده ما أخرجه الطبرانى عن ابن عباس بنحوه .

وعندما هَمَّ النبى أن يصلى عليه ، وقف عمر بن الخطاب رضى الله عنه بين الرسول وبين القبلة [(١)] . وهنا حسم الحق سبحانه وتعالى الموقف ونزلت الآية الكريمة : ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا ﴾ فقد أراد رسول الله ﷺ أن يصلى على ابن أُبىّ ؛ لأنه رسول رحمة للعالمين . ولكن عمر بن الخطاب رضى الله عنه وقف بينه وبين القبلة حتى لا يصلى ، فأنزل الحق قوله : ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا ﴾ وقالوا : تلك من الأمور التى وافق الوحى فيها عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

ومن المسائل التى وافق الوحى فيها عمر بن الخطاب رضى الله عنه تغيير القبلة من بيت المقدس إلى بيت الله الحرام . فقد كان عمر يرجوها ، وكان يقول لرسول الله ﷺ : يا رسول الله ، لو اتخذت مقام إبراهيم مصلّى [(٢)]

ومن هذه الأمور أيضاً رأيه فى أسرى بدر ، وأن من الواجب قتلهم ، وكان رأى أبى بكر أن يقوم الأسرى بتعليم المسلمين القراءة والكتابة ؛ أو يؤخذ فيهم الفداء ، فنزلت الآية الكريمة :

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ (٦٧) ﴾ [الأنفال]

بعض الناس يتساءل : كيف يستدرك عمر على رسول الله ﷺ ؟ نقول : لأن الرسول ﷺ لن يُخلَّد فى أمته ؛ لذلك أراد أن يعطيهم الأُسْوة بأنه ﷺ متى رأى رأياً حسناً نزل عليه . وبعض المستشرقين يقولون : إنكم تقولون دائماً عمر فعل كذا ، ولماذا لا تقولون لنا محمد فعل كذا ؟ ونقول : إذا فعل محمد فهو رسول الله ، أما غير الرسول عندما يفعل فهو دليل على أن الفطرة الإسلامية من الممكن أن ترى شيئاً يتفق مع ما يريده الله .

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٦٧١) وأحمد فى مسنده (١/ ١٦) والترمذى فى سننه (٣٠٩٧) والنسائى (٤/ ٦٧) قال الترمذى : حديث حسن صحيح غريب .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٤٨٣) عن أنس ، وقد ذكر فيه موافقة الوحى لعمر فى ثلاث : تحويل القبلة ، حجاب نساء النبى ﷺ ، معاتبة نساء النبى .

وبعد أن نزل قول الحق : ﴿ وَلاَ تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا ﴾ صار الحكم عاماً فى ألا يصلى رسول الله على المنافقين . لكن من أراد من الناس أن يصلى فليُصلِّ . وكان الرسول عليه الصلاة والسلام يكرم كل مسلم بالصلاة عليه ، فلما نزلت هذه الآية امتنع عن الصلاة على المنافقين.

كذلك امتنع ﷺ عن الصلاة على الميت وعليه دين ، فكان يسأل أهل الميت : هل عليه دَيْن ؟ فإن قالوا : نعم . سأل : هل ترك ما يسده ؟ . فإن قالوا : لا ، قال : « صَلُّوا على صاحبكم »[(١)] ، وامتنع هو عن الصلاة.

ولكن ما ذنب من عليه دين حتى يُحرَم صلاة رسول الله عليه ؟ نجد الإجابة فى قوله ﷺ :

« مَنْ أخذ أموال الناس يريد أداءها أدى الله عنه ، ومَنْ أخذها يريد إتلافها أتلفه الله »[(٢)].

فلو كان هذا الميت المدين ينوى سداد دينه لأعانه الله على أنْ يُسدِّده ، أما إذا ترك ما يفى بهذا الدين من عقارات أو أراض أو أموال فى البنوك فلا يكون مديناً .

ويقول الحق سبحانه هنا : ﴿وَلاَ تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ﴾ ونحن نعلم أن رسول الله عليه الصلاة والسلام كان يذهب إلى قبر حمزة رضى الله عنه ، ويقف على قبور المؤمنين . ويقول : « السلام عليكم دار قوم مؤمنين »[(٣)]. ومنعه الحق

---

(١)متفق عليه . أخرجه البخارى (٢٢٩٨) ومسلم (١٦١٩) عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ كان يؤتى بالرجل المتوفى عليه الدين ، فيسأل : هل ترك لدينه فضلاً ؟ فإن حدِّث أنه ترك لدينه وفاء صلى ، وإلا قال للمسلمين : صلوا على صاحبكم .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٣٨٧) وأحمد فى مسنده (٢/ ٣٦١ ، ٤١٧) وابن ماجه فى سننه (٢٤١١) عن أبى هريرة .

(٣) أخرجه مسلم (٢٤٩) وأحمد فى مسنده (٢/ ٣٧٥) وابن ماجه (٤٣٠٦) والنسائى (١/ ٩٤) من حديث أبى هريرة .

من ذلك العمل على قبور المنافقين[(١)] . ويعطينا الحق سبحانه العلة فى ذلك فيقول : ﴿ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ وعرفنا كيف كفروا بالله ورسوله ، لكن ماذا عن قوله الحق : ﴿ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ . فهل ماتوا وهم خارجون عن المنهج ؟ نعم ، تماماً مثلما نقول : فسقت الرطبة ؛ لأن البلح فى نضجه يكون أحمر اللون أو أصفر وتلتصق قشرته به ، فإذا رطب انفصلت القشرة عن البلحة ، بحيث تستطيع أن تنزعها بسهولة ، فكأن منهج الله بالنسبة للمؤمن لا بد أن يلتصق به كقشرة البلحة الحمراء ، وإذا انفصل عنه مثل قشرة الرطبة يُصَابُ بالفساد .

ولكن هنا نتساءل : أليس الكفر أكبر مرتبة من الفسق ؟ لأننا نعلم أنه ليس بعد الكفر ذنب ؟ فكيف يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ مع أنهم كفروا ، والكفر أكبر الذنوب ؟

ونقول : إن الكفر هو عدم الإيمان بالله ورسوله وعدم الدخول فى الإسلام ، ولكن الفسق هو عدم الالتزام بأية قيم ، ذلك أن الدين قد أوجد فى النفوس عامة قيماً معروفة يتبعها حتى الذين كفروا ، فمثلاً عندما أرادوا بناء الكعبة قبل الإسلام ، قالوا : نريد أن نبنيها بمال حلال ، لا يدخل فيه مال بَغِىٍّ[(٢)] . وكانوا فى الماضى يُحضرون البغايا ، ويُقيمون لهن الرايات ، ويأخذون من أموالهن . لم يكن الإسلام قد جاء بَعْد ، ولكن كانت هناك قيم من مناهج السماء التى جاءت قبل الإسلام . وجاء الإسلام موافقاً لبعضها .

---

(١) ومما ورد فى سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ ﴾ [التوبة : ٨٤] أنه لما مات عبد الله بن أبى أتى ابنه النبى ﷺ فقال : يا رسول الله ، وإنك لم تأته لم نَزَلْ نُعيِّر بهذا ، فأتاه النبى ﷺ فوجده قد أُدْخل فى حفرته فقال: « أفلا قبل أن تدخلوه ؟ » فأخرج من حفرته وتفل عليه من ريقه من قرنه إلى قدَمه وألبسه قميصه . أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٣/ ٣٧١) .

(٢)وذلك أنه عندما أرادت قريش أن تبنى الكعبة قام أبو وهب بن عمرو بن مخزوم وتناول من الكعبة حجراً ، فوثب من يده ، حتى رجع إلى موضعه ، فقال : يا معشر قريش ، لا تُدخلوا فى بنائها من كسبكم إلا طيباً ، لا يدخل فيها مهر بغى ، ولا بيع ربا ، ولا مظلمة أحد من الناس . انظر السيرة النبوية لابن هشام (١/ ١٩٤) .

إذن : فقوله الحق : ﴿كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ ، أى : لم يكونوا مسلمين. ﴿وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾ أى : لم يلتزموا بأية قيم .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾

ونعلم أن الحق قال فى آية سابقة :

﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ (١) أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (٥٥)﴾ [التوبة]

والنص القرآنى إذا ما اتفق مع نص آخر ، نقول: إن الأداء الخاص ومقتضيات الأحوال تختلف ، ومن ينظر إلى خصوصيات ومقتضيات الأحوال يعلم أن هذا تأسيس وليس تكراراً ،فقد تحمل آيتان معنى عامّاً واحداً، ولكن كل آية تمس خصوصية العطاء، ولنأخذ مثالاً من قوله الحق:

﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ... (١٥١)﴾ [الأنعام]

وقوله تعالى : ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ... (٣١)﴾ [الإسراء]

وقد ادعى بعض المستشرقين أن فى القرآن تكراراً ، وهذا غير صحيح ؛ لأنهم ينظرون إلى عموم الآية ولا ينظرون إلى خصوصية العطاء . وخصوصية العطاء فى الآية توافق مقتضى كل حال . ففى قوله

(١) زهقت نفسه : خرجت ومات ، وزهق الباطل: زال وبطل فهو زاهق وزهوق: قال تعالى: «وتزهق أنفسهم »أى : تخرج ؛ فيموتون .

سبحانه عن رزق الأولاد لم يلتفتوا إلى صدرى الآيتين بل التفتوا إلى عجُز الآيتين ، وذلك من جهلهم بملكة الأداء فى البيان العربى .

ولنا أن نسأل هؤلاء المستشرقين الذين يثيرون مثل هذه الأقاويل : هل ترون أن آية من الآيتين أقل بلاغة من الأخرى ؟ ولن نجد إجابة عندهم ؛ لأنهم لا يعرفون دقة البيان العربى . ونقول لهم : أنتم إن نظرتم إلى عَجُز كل آية وصدرها لوجدتم أن آخر الآية يقتضى أولها ، وإلا لما استقام المعنى ، فالله سبحانه وتعالى لم يَقُلْ فى الآيتين : ﴿ وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ ﴾ وإنما قال: ﴿مِنْ إِمْلاقٍ ﴾ وقال: ﴿ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ ﴾ ، ولم يقل فى الآيتين : ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾ بل قال: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ و قال : ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾.

إذن: فبداية الآيتين مختلفة ؛ الآية الأولى : ﴿ وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُم مِّنْ إِمْلاَقٍ ﴾ . والإملاق هو الفقر ، فكأن الفقر موجود فعلاً . وقوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاَقٍ ﴾ ، فكأن الفقر غير موجود ، ولكن الإنسان قد يخشى أن يأتى الفقر بمجىء الأولاد .

إذن: فالآية الأولى تخاطب الفقراء فعلاً، والآية الثانية تخاطب غير الفقراء الذين يخشوْنَ مجىء الفقر إن رُزقوا بأولاد ؛ والفقير - كما نعلم - يُشغل برزقه أولاً قبل أن يُشغلَ برزق أولاده . ولذلك يطمئنه الحق سبحانه وتعالى على أن أولاده لن يأخذوا من رزقه شيئاً ، فيقول : ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾ أى : اطمئن أيها الفقير على رزقك فلن يأخذ أولادك منه شيئاً ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى يرزقك أولاً ويرزق أولادك أيضاً .

أما غير الفقير الذى يخشى أن يجىء الولد ومعه الفقر فقد ينشغل بأن المولود الجديد سيأتى ليُحوِّل غناه إلى فقر . ويخاطبه الحق سبحانه وتعالى بقوله : ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾ أى : أن رزقهم يأتى من عند الله قبل رزقكم أنتم ، فلا تخشوا الفقر وتقتلوا أولادكم ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى سيرزقهم ، فلن يصيبكم الفقر بسبب الأولاد . وهكذا نرى أن معنى الآيتين مختلف تماماً وليس هناك تكرار .

كذلك فى الآية التى نحن بصددها ، يقول بعض الناس : إن هذه الآية قد وردت فى نفس السورة، نقول لهم : نعم . ولكن هذه لها معنى والأخرى لها معنى آخر ؛ فأين الاختلاف فى الآيتين ؛ حتى نعرف أنهما ليستا مكررتين ؟ الآية الأولى تقول :

﴿ فَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (٥٥) ﴾ [التوبة]

والآية الثانية التى نحن بصددها تقول :

﴿ وَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (٨٥) ﴾ [التوبة]

أول اختلاف نجده فى بداية الآيتين ؛ ففى الآية الأولى : ﴿ فَلاَ تُعْجِبْكَ ﴾ ، والثانية : ﴿ وَلاَ تُعْجِبْكَ ﴾ .

ففى الآية الأولى جاء الحق سبحانه وتعالى بالفاء ، والفاء تقتضى الترتيب . إذن : فهذه الآية مترتبة على ما قبلها ، وهى قوله تعالى : ﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلاَّ أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلاَ يَأْتُونَ الصَّلاَةَ إِلاَّ وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلاَ يُنفِقُونَ إِلاَّ وَهُمْ كَارِهُونَ (٥٤) ﴾ [التوبة]

فكأن هذه حيثيات كفرهم ؛ فهم لا يُصلُّون إلا نفاقاً ، ولا ينفقون مالاً في سبيل الله إلا وهم يكرهون ذلك.

والمتعة في المال أن تنفقه فيما تحب ، فإذا أحببت طعاماً اشتريته ، وإذا أحببت ثوباً ابتعته [١] . وتكون في هذه الحالة مسروراً وأنت تنفق مالك ، ولكن هولاء ينفقون المال وهم كارهون.

والمؤمن عندما ينفق ماله في صدقة أو زكاة فهو يفعل ذلك إيماناً منه بأن الله سبحانه وتعالى سيعطيه أضعاف أضعاف الأجر في الدنيا والآخرة. إذن: فحين ينفق المؤمن ماله في الزكاة ، يكون فرحاً لأنه عمل لدنياه ولآخرته.

أما المنافق الذي يضمر الكفر في قلبه ، فهو لا يؤمن بالآخرة ولا يعرف البركة في الرزق ، فكأنه أنفق ماله دون أن يحصل على شيء ، أي: أن المسألة في نظره خسارة في المال ولا شيء غير ذلك . وإن أنفق الإنسان وهو كاره ، فالمال الموجود لديه هو ذلة وتعب ؛ لأنه حصل على المال بعد عمل ومشقة ، ثم ينفقه وهو لا يؤمن بآخرة ولا بجزاء.

ويريد الحق سبحانه أن يلفتنا إلى أن رزقه لهؤلاء الناس هو سبب في شقائهم وإذلالهم في الدنيا فيجعلهم يجمعون المال بعمل وتعب ثم ينفقونه بلا ثواب ، أي: يخسرونه . والواحد منهم يذهب إلى الحرب نفاقاً ، فينفق على سلاحه وراحلته [٢] ، ولا يأخذ ثواباً ، ويُربِّي أولاده ثم تأتي الحرب ، فيذهبون نفاقاً للقتال ؛ فيموتون دون استشهاد إن كانوا منافقين مثل آبائهم. وهكذا نجد أن كل أموال المنافق الذي يتظاهر بالإسلام ، وهو كافر ، تكون حسرة عليه.

---

(١) ابتاع : اشترى .

(٢) الراحلة : كل بعير قادر على مشقات السفر أو الجهاد .

ومن هنا فإياك أيها المؤمن أن تعجبك أموالهم ؛ لأنها ذلة لهم فى الدنيا ؛ فهم يبذلونها نفاقاً ، فإذا امتنعوا عن الإنفاق وعن الجهاد وهم يتظاهرون بالإسلام ؛ فكأنهم قد أعلنوا أنهم منافقون ، وهكذا نجد إنفاقهم كرهاً هو إذلال لهم ، وإن لم ينفقوا فهذا أمر يفضحهم ، فكأن الأموال والأولاد عذاب لهم ، وهذا أمر لا يقتضى الإعجاب ، وإنما يقتضى الإشفاق عليهم.

ولا تظن أنك حين حذفتهم من ديوان الغُزاة والمجاهدين بعدم الخروج معك وأنهم لن يقاتلوا معك عدواً ، أن فى أموالهم عوضاً عن الخروج ، فلا تعجبك فإنها عقاب وفضيحة وإذلال لهم.

ولكن فى الآية الأولى ، يقول الحق سبحانه:

﴿ فَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ ﴾ لماذا ؟ لأن منهم من له مال يعتز به ، ومنهم من له أولاد كثيرون هم عِزْوته، ومنهم من له المال والولد.

إذن: فهم مختلفون فى أحوالهم؛ لذلك جاء القول: ﴿ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ ﴾ لتؤدى المعانى كلها . ولتشمل من عنده مال فقط ، ومن عنده أولاد فقط ، ومن عنده المال والولد.

أما فى الآية الثانية التى نحن بصددها:

﴿ وَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾

إذن : فالحقُّ سبحانه وتعالى قد أعطاهم المال والولد للعذاب . ولكن هناك من يقول : ما دام الحق يريد تعذيبهم بالأموال والأولاد ، فهل المال والأولاد علة للعذاب ؟ وهل لأفعال الله علّة ؟ ألا يقول المسلمون : إن أفعال الله لا علة لها ؛ ونقول : لقد قالوا مثل ذلك القول فى قوله الحق:

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ (٥٦)﴾ [الذاريات]

ولم يلتفتوا إلى أن العلة فى الخلق لا تعود إلى الله ، ولكنها علة ترجع للمخلوق ؛ لأن فى العبادة مصلحة ومنفعة للمخلوق. فسبب الخلق هو العبادة ، وهذا السبب ليس راجعاً إلى الخالق ولا تعود على الله أدنى منفعة ، فلا شىء يزيد فى ملكه ولا شىء ينقصه . أو هى لام العاقبة. ومعنى « لام العاقبة » أن تفعل شيئاً فتأتى العاقبة بغير ما قصدت مصداقاً لقوله الحق :

﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا .. (٨)﴾ [القصص]

هل التقط آل فرعون موسى ليكون لهم عدواً ؟ أم التقطوه ليكون لهم قرة عين [1] ؟. لقد التقطوه ليكون قرة عَيْن لهم ، ولكن النهاية جاءت بغير ما قصدوا ؛ فأصبح الذى التقطوه ليكون وَلِيّاً ونصيراً لهم هو الذى جاءت على يديه نهايتهم ، ولو كان فرعون يعلم الغيب لما التقط موسى بل لَقتله ، وشاء الحق أن يخفى عنه الغيب ليقوم هو بتربية من سيقضى على مُلكه ، تماماً كما تُدخل ابنك إلى المدرسة فيفشل ، وتنفق عليه فلا يتخرج ، هل أنت أدخلته المدرسة ليخيب ؟ طبعاً لا .

كذلك قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ لِيُعَذِّبَهُم ﴾ ويريدنا الله أن نفهم أن العذاب ليس هو سبب جمعهم المال ، وإنما السبب فى ذلك هو حُبُّهم للمال والمتعة ، وكذلك الأولاد ليس الهدف منهم أن يكونوا سبباً فى عذاب آبائهم ، بل هم يريدون الأولاد عزْوة لهم. ولكن الحق سبحانه وتعالى شاء أن يعذبهم بالمال والأبناء فى الدنيا. فالمال يجمعه المنافق من حلال ومن حرام ، ثم بعد ذلك إما أن يفارقه المال بكارثة تصيبه ، وإما أن يفارق هو

(١) قرة عين : مصدر سرور وفرح وسعادة قلب .

المال بالموت ، وإما أن يكون هذا المال عذاباً له ؛ فيعيش مع خشية الفقر وزوال النعمة ، كذلك الأولاد يربيهم ويتعب فى تربيتهم ، ثم بعد ذلك إما أن يفارقوه بالموت ، وإما أن يكبروا فاسدين ؛ فيكونوا مصدر عذاب لهم.

فكأن قول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ فَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ هو كلام من الحق سبحانه وتعالى للمؤمنين ؛ لأن هؤلاء المنافقين قد يعطيهم الله الأموال والأولاد ؛ ولكنها ليست خيراً لهم، بل هى عذاب لهم ؛ لأنهم بإبطانهم الكفر وتظاهرهم بالإيمان ؛ يفرضون على أنفسهم تكاليف تأخذ جزءاً من أموالهم وأولادهم ، وحينئذ تكون عذاباً لهم لأنهم خسروا كل شىء ولم يكسبوا شيئاً ، فليس لهم أجر على موت أبنائهم إن قتلوا ، ولا أجر الزكاة والصدقة فيما ينفقونه رياء ونفاقاً.

أما الآية الثانية :

﴿ وَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ فهى حكم عام على من يعطيهم الله نعمة الدنيا ويكفرون به ، وتكون هذه النعمة عليهم عذاباً ، فهم فى خوف من ضياع المال أو فقد الولد ؛ لذلك يعانون من العذاب . وهم من خوفهم من الموت وترك النعمة مُعذَّبون ، فهم لا يريدون أن يموتوا لأنهم لا يعتقدون فى الآخرة ، ويكون المال والولد حسرة عليهم ؛ لأن المؤمن إن مات منه ولد ، علم أن افتقاد الابن إنما يسند طاقة جهنم ، ويقوده إلى رحمة الله ، وله أجر على ذلك ، فإن كان الولد صغيراً كان ذخراً له فى الآخرة ، وإن كان كبيراً فهو يتذكر قول الحق:

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ .. (٢١) ﴾ [الطور]

وفى هذا سلوى عن افتقاد الولد ، لكن المنافق يحيا فى خوف وحسرة . وفى هذا عذاب . ويلفتنا الحق سبحانه إلى أن مال الكافر هو حسرة عليه دائماً فيقول : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ (٣٦) ﴾ [الأنفال]

أى أن الله سبحانه وتعالى يعاقب من ينفق لمحاربة دينه بأن يتركه ينفق ، ثم ينصر الله دينه ليجعل ذلك حسرة فى نفسه حين يرى المال الذى أنفقه وقد جاء بنتيجة عكسية هى انتصار الدين وانتشاره.

وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ وهذه هى الحسرة الكبرى ، فحين يموت الكافر ولايجد له رصيداً فى الآخرة إلا النار ؛ لأنه مات على غير يقين بالجنة وعلى غير يقين بأنه قد قدم شيئاً ، يُلْقَى فى النار محسوراً على ما تركه فى الدنيا ، ولا يقتصر الأمر على ذلك ، بل نقرأ قول الله :

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ... (٥٠) ﴾ [الأنفال]

وهكذا يذوقون العذاب.

ثم يعطينا الحق سبحانه وتعالى صورة أخرى للمنافقين فى قوله :

﴿ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ (٨٦) ﴾

وهكذا شاء الحق أن يفضح المنافقين ، هؤلاء الذين استمرأوا الاستمتاع بنفس حقوق المؤمنين لمجرد إعلانهم الإسلام ، بينما تبطن قلوبهم الكفر والكيد للمسلمين . وقوله الحق : ﴿ وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ ﴾ هو خطاب للمنافقين يكشف بطلان إيمانهم ؛ ولذلك جاء قوله الحق : ﴿ أَنْ آمِنُوا ﴾ أى : اجعلوا قلوبكم صادقة مع ألسنتكم ، فالله يريد إيماناً بالقلب واللسان ، فيتفق السلوك مع العقيدة . وقوله الحق : ﴿ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ ﴾ أى: انفروا للجهاد مع رسول الله ، فهذا هو التعبير العملى عن الإيمان ، ولاتفرحوا بتخلفكم عن القتال فى سبيل الله ؛ لأن الجهاد والقتال فى سبيل الله شرف كبير له ثواب عظيم. وامتناع إنسان عن الجهاد هو تنازل عن خير كبير ، فالحق سبحانه يعطى جزيل الأجر لمن جاهد جهاداً حقيقياً .

ويقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ اسْتَئْذَنَكَ أُوْلُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ ﴾ و«استأذن» من مادة استفعل ، وتأتى للطلب ، كأن تقول : « استفهم » أى: طلب أن يفهم ، و« استعلم » أى : طلب أن يعلم . إذن : فقوله : ﴿ اسْتَئْذَنَكَ ﴾ أى: طلبوا الإذن ، ولأنهم يتظاهرون بالإيمان ويبطنون الكفر ، تجدهم ساعة النداء للجهاد لا يقفون مع المؤمنين ، وكان من المفروض أن يكونوا بين المجاهدين ، وأن يجدوا فى ذلك فرصة لإعلان توبتهم ؛ ورجوعهم إلى الحق فيكون جهادهم تكفيراً عما سبقه من نفاق ، ولكنهم لم يفعلوا ذلك ، بل طلبوا الإذن بالقعود.

ومن الذى طلب الإذن ؟

إنهم أولو الطَّوْل . و« أولو» معناها أصحاب القوة والقدرة . و«الطَّوْل» هو أن تطول الشىء ، أى : تحاول أن تصل إليه ، فإذا لم تصل يدك إليه ؛ يقال: إن هذا الشىء يدك لم تَطُلْه ، أى : لم يكن فى متناول يدك.

و﴿أُوْلُوا الطَّوْلِ﴾ أى : الذين يملكون مقومات الجهاد من سلامة البدن من الأمراض ووجود القوة ، ولا يعانون من ضعف الشيخوخة ، وأن يكون الإنسان قد بلغ مبلغ الرجولة وليس صبيّاً صغيراً ؛ لأن الشيخ الكبير ضعيف لا يقدر على الجهاد ، وكذلك الصبى الصغير لا يملك جَلَداً على الحرب . وأيضاً نجد المريض الذى قد يعوقه مرضه عن الحركة.

أما أولو الطول فهم الذين يملكون كل مقومات الحرب ، من قوة بدنية وسلاح ، والذين لم يبلغوا سن الشيخوخة ، ولا هم صبيان صغار ولا مرضى.

إذن : فعندما تنزل آية فيها الجهاد ، فالذين يستأذنون ليسوا أصحاب أعذار- لأنهم معفون- لكن الاستئذان يأتى من المنافقين الذين تتوافر فيهم كل شروط القتال ، ويستأذنون فى القعود وعدم الخروج للقتال . ويقولون ما يخبرنا الحق به : ﴿ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُن مَّعَ الْقَاعِدِينَ ﴾ والقاعد مقابله القائم . والقيام - كما نعلم - هو مقدمة للحركة . فإذا أراد الإنسان أن يمشى ، قام من مكانه أولاً ، ثم بدأ المشى والحركة ، ومن القيام أخذتْ مادة (القوم)[1] أى : الجماعة القائمة على شئونها ، والقوم هم الرجال ، أما النساء فلا يدخلن فى القوم ، مصداقاً لقول الحق:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلاَ نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ... (١١) ﴾ [الحجرات]

---

(١) القوم : جماعة من الرجال ليس معهم نساء ، ويستعمل لفظ القوم فيشمل الأمة كلها رجالاً ونساء ؛ مثل قوم نوح وقوم إبراهيم . قال ابن منظور فى اللسان (مادة قوم) : « ربما دخل النساء فيه على سبيل التبع ؛ لأن قوم كل نبى رجال ونساء ، والقوم يذكر ويؤنث ؛ لأن أسماء الجموع التى لا واحد لها من لفظها إذا كانت للآدميين تذكر وتؤنث . قال تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ (٦٦)﴾ [الأنعام] ، فذكر . وقال تعالى : ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ (١٠٥)﴾ [الشعراء] ، فأنث ».

إذن: فالقيام يقابله القعود ، والقوم يقابلهم النساء . والقعود هو مقدمة للسكون ، فمتى جلس الإنسان فهناك مقدمة لفترة من السكون ، وقعود المنافقين وتخلفهم واستئذانهم أن يبقوا مع النساء والعجزة والمرضى والصبية هو حَطٌّ من شأنهم.

ولذلك يقول عنهم الحق سبحانه وتعالى:

﴿ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾

و﴿الْخَوَالِفِ﴾ ليست جمع «خَالف» ولكنها جمع «خالفة» ؛ لأن «خَالف» لا تجمع على «فواعل» ، وإنما «خالفة» هى التى تُجمَعُ على «فواعل» [1] ، وهم قد ارتضوا لأنفسهم أن يطبق عليهم الحكم الذى يُطبق على النساء.

ولذلك كانوا ﴿ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ لأنهم ارتضوا لأنفسهم وصفاً لا يليق بالرجال وفرحوا بهذا الوصف دون أن يتنبهوا لما فيه من إهانة لهم ؛ لأنهم يهربون من القتال كما تهرب النساء . والمنافق - كما قلنا - له ملكتان : ملكة قولية ، وملكة قلبية . فقول المنافق إعلان بالإيمان ، أما قلبه فهو ممتلىء بالكفر ؛ وفى هذه الحالة تتضارب ملكاته.

والله سبحانه وتعالى يوضح لهم : سوف نعاملكم فى الدنيا بظاهر كلامكم ، ونعاملكم فى الآخرة بباطن قلوبكم ، وسوف نطبع على هذه

---

(١) لا يجمع " فاعل" صفة للمذكر العاقل على «فواعل» ، إلا فى أمثلة قليلة اعتبرها الأقدمون شاذة عن القاعدة مثل : (فارس ، فوارس) - (هالك ، هوالك) - (ناكس ، نواكس) وقد وصل بها المعاصرون إلى أكثر من ثلاثين مثالاً ، وإن كانوا قد قالوا : الأفضل الالتزام بالقاعدة ، وهى: « لا تجمع صيغة فاعل على فواعل إذا كانت وصفاً لمذكر عاقل » . انظر فى هذه المسألة النحو الوافى لعباس حسن (٤/ ٦٥٣ - ٦٥٥) ولابن منظور فى هذا كلام فى مادة (فرس) .

القلوب ؛ فلا يخرج منها كفر ، ولا يدخل إليها إيمان ، ولذلك قال الحق سبحانه هنا ﴿ وَطُبِعَ [١] عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ .

وقد قال الحق سبحانه :

﴿ خَتَمَ [٢] اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ... (٧) ﴾ [البقرة]

وقال سبحانه :

﴿ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ... (٩٣) ﴾ [التوبة]

وما دام الكافر قد أعجبه كفر قلبه ؛ فالحق سبحانه يختم على قلبه ، بحيث لا يخرج ما فيه من كفر ، ولا يدخل إلى قلبه ؛ ما هو خارجه من إيمان ، تماماً كما تختم الشيء بالشمع الأحمر ؛ فيظل ما فى داخله كما هو ، وما فى خارجه كما هو . ويطبع الله على قلبه ؛ فيمنع ما فيه من الكفر أن يخرج ، ويمنع ما فى خارجه من الإيمان أن يدخل إليه .

ويقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فَهُمْ لاَ يَفْقَهُونَ ﴾ والفقه هو الفهم ، أى : لا يفهمون ما حُرِموا منه من ثواب ونعيم الآخرة ؛ لأنهم قد فرحوا بتخلفهم عن الجهاد ، وهم يحسبون أن هذا خير لهم ولكنه شر لهم.

ثم يريد الحق سبحانه أن يضع الطمأنينة فى نفوس المؤمنين ، ويطلب منهم ألا يفزعوا ؛ لتخلف هولاء القادرين عن القتال رغم أنهم أصحاب الطَّوْل الذين يملكون الأموال والأولاد . ويزيل الحق أثر ذلك من نفوس المؤمنين ، فيقول سبحانه :

---

(١) الطبع لا يفك أبداً ، فالذى طبع على قلبه ليس له قبول لأنه غير قابل ولا مقبول .

(٢) الختم قد يفك ، وقد يكون له مدة معلومة وقد يقبل مع التوبة الخالصة .

﴿ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾

أى : إياكم أن تحزنوا على هؤلاء المنافقين بسبب قعودهم عن الجهاد معكم ولا تقولوا : نحن خسرناهم فى قتالنا ؛ لأن الحق لا يحتاج إليهم ولا إلى جهادهم . وسبحانه القائل : ﴿ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [الأنعام]

ويقول سبحانه :

﴿ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [فصلت]

وكذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾ ﴾ [محمد]

وأيضاً نجد قوله الحق :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ... ﴿٥٤﴾ ﴾ . [المائدة]

إذن : فتخلف بعض أصحاب القوة والمال والجاه عن الجهاد ، يجب ألا يشيع الفزع أو الحزن فى نفوس المؤمنين ؛ لأن الله معهم ، ولأنهم لهم

الخيرات ، أى : لهم كل ما يطلق عليه خير [١] : ﴿وَأُوْلَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ والمفلح : هو الفائز الناجى المستفيد بثمرة عمله، وأصلها فلح الأرض أى: شقها؛ لأن الزراعة تقتضى أن تحرث الأرض أولاً، وهذه مهمة الإنسان ليخرج الزرع. والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (٦٤)﴾ [الواقعة]

ونحن حين نحرث الأرض نهيجها ،وبدلاً من أن تكون صلبة لا يدخلها هواء ولا تتخللها أشعة الشمس ، تصير بعد الحرث مستقبلة للهواء وتتخللها أشعة الشمس ؛ فتخلصها من أى ماء راكد فى داخلها ، وبذلك يتوافر للأرض الهواء اللازم لنمو جذور النبات ؛ لأنك إذا وضعت الحَبّ فى أرض غير محروثة ، فالزرع لا ينبت ؛ لعدم وجود الهواء الذى تتنفس منه الجذور . ولكن إذا حرثت الأرض ؛ جعلت أشعة الشمس تتخلل ما هو تحت السطح ؛ وتبخر الماء المخزون ؛ ليدخل الهواء بدلاً منه ؛ فتستطيع جذور النبات أن تنمو . إذن : فكل عمل يؤدى إلى نتيجة طيبة نُسمِّيه فَلاحاً . وهو مأخوذ من الأمر الحسّى ، الذى نراه كل يوم وهو الفلاحة.

وحين يريد الحق سبحانه وتعالى أن يوضح لنا أمراً معنويّاً ، فهو سبحانه يستحضر لنا صورة محسّة من الذى نراه أمامنا ؛ حتى نستطيع أن نُقرِّب المعنى إلى الأذهان ؛ خصوصاً فى الغيبيات التى لا نراها ، فإذا أراد سبحانه أن يُقرِّبها إلى أذهاننا؛ فهو يضرب لنا الأمثال بأمور حسيّة. والإنسان حين يفلح الأرض ويشقها ويبذر فيها الحب ، تعطيه محصولاً وفيراً . وكذلك فإن كل عمل يؤدى إلى نتيجة طيبة نسميه فلاحاً.

---

(١) الخيرات : جمع خير ، فالمعنى: لهم منافع الدارين . وإن كان قد قال الحسن : الخيرات : النساء الحسان . ودليله قوله عز وجل : ﴿ فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ ﴾ [الرحمن : ٧٠] . انظر تفسير القرطبى (٤/٣١٤٩) .

وعندما يحدثنا الحق سبحانه ، فهو يعطينا المثل مما نراه كل يوم ؛ ليقرب إلى أذهاننا جزاء الصدقة والزكاة [(١)] ، ومضاعفته لنا الأجرَ ، فيقول :

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ ... (٢٦١) ﴾ [البقرة]

فإذا كانت الحبة عندما تضعها فى الأرض تنبت سبعمائة حبة ، وإذا كانت الأرض ، وهى مخلوقة لله ، قد أعطتك عن الشىء الواحد سبعمائة ضعف ، فكم يعطى خالق الأرض ؟ وكم يضاعف ؟

إنها صورة مُحَسّة للجزاء على الصدقة والزكاة . وأنت ساعة تزرع الأرض لا تقول : أنا أنقصت المخزون عندى كيلة [(٢)] من القمح أو إردباً [(٣)] من القمح ؛ لأنك تعلم أنك تأخذ مما عندك إردباً من القمح ؛ لتزرعه فى الأرض . ولكنك لا تنظر إلى الإردب الذى أخذته من المخزون عندك ، بل انظر إلى ما سوف يجىء لك من هذا الإردب ساعة الحصاد ، وكذلك الزكاة : إياك أن تنظر إلى ما سينقص من مالك عندما تؤدى الزكاة ، ولكن انظر إلى كم سيضاعف الله لك هذا المال .

وقد ضرب الحق مثلاً بشىء مُحَسٍّ يعلمه الجميع ، ومن صورة ما نراه أمامنا لنفهم ما ينتظرنا ، فإذا كانت الأرض - وهى المصدر الأول للاقتيات [(٤)] - تُلقى فيها الحبة الواحدة ، فتعطى لك سبع سنابل فى كل

---

(١) الصدقة : ما يخرج من المال على وجه القُربة إلى الله تعالى : ﴿ إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ (٢٧١) ﴾ [البقرة]

وتصدَّق : أخرج الصدقة : ﴿ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ (٢٨٠) ﴾ [البقرة] بحذف إحدى التاءين

واصّدّق : أخرج الصدقة . وصدّقه : آمن بكلامه - والصَّدُقَة : صداق المرأة ومهرها لا تدل على صدق الرغبة . وفى مادة الصدقة : صدق مع الله وصداقة مع الناس وصداقة مع النفس . وأما الزكاة فهى ما فرض بمقدار ونصاب محدد .

(٢) الكَيْلَة : وعاءٌ تُكال به الحبوب ، ومقداره الآن ثمانية أقداح . والجمع : كَيْلات .

(٣) الإرْدَبُّ : مكيال يسع أربعة وعشرين صاعاً ، أو ست وَيبات . والجمع : أرادِبُ .

(٤) الاقتيات : القوت والرزق .

سنبلة مائة حبة ، وإذا كانت الأرض المخلوقة لله تعوضك عما وضعته فيها بسبعمائة ضعف ، فكم يعطيك خالق الأرض ؟

إذن: فهو سبحانه قادر أن يضاعف لمن يشاء بغير حساب. ولذلك يبشر الحق سبحانه وتعالى المؤمنين بقوله:

﴿ وَأُوْلَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ وهذا جزاء المؤمنين فى الدنيا ، ولكن هناك جزاءاً آخر فى الآخرة . وفى هذا يُبشِّرنا الحق سبحانه فى قوله :

﴿ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ ﴾

وقد عرفنا من قبل أخبار الجنات والأنهار ، وهنا يوضح لنا الحق الخير الذى يخلد فيه المؤمنون.

ولماذا سمى الله سبحانه وتعالى جزاء الآخرة بأنه : ﴿ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾.

ذلك لأن هناك فارقاً بين الخير والفلاح فى الدنيا ، والفوز فى الآخرة ؛ فالدنيا موقوتة بعمرك وتتمتع فيها بقدر أسبابك . إذن : ففيها فوز محدود لا يسمى فوزاً عظيماً . أما الآخرة فالنعمة فيها لا تفارقك ، ولا تفارقها أنت ، فالنعمة خالدة ، وأنت خالد ، وهذه النعمة - فى الوقت نفسه - ليست بقدراتك أنت ، بل بقدرات خالقك سبحانه وتعالى ، ولا تحتاج منك أى تعب أو عمل أو اجتهاد ، بل يأتيك الشىء بمجرد أن يخطر على بالك ، وهذا لا يحدث إلا فى الآخرة وفى الجنة وهذا هو الفوز العظيم ؛ لأنه دائم وبلا نهاية.

ويقول الحق بعد ذلك:

﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾﴾

والحديث هنا عن المنافقين الذين كانوا يعيشون حول المدينة وكانوا يُسمَّون «الأعراب» ، وقد تحدثت الآيات السابقة عن منافقى المدينة الذين جاء فيهم قول الحق : ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ [1] ... (١٠١)﴾ [التوبة]

وهنا يأتى الحديث عن المنافقين الذين كانوا يسكنون فى البوادى التى حول المدينة وهم الأعراب.

والحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿الْمُعَذِّرُونَ﴾، وهناك « مُعْذرون » و «معتذرون» ، والمعذِّرون هم المعتذرون ؛ فالمعتذر جمعه معتذرون بفتحة فوق التاء ، لكن إذا وُضعَتْ الفتحة فوق العين فالحرف الذى بعدها يُسكّن ، وعندما يُسكّن ما بعد العين ، فهذا يعنى أن هناك افتعالاً.

إذن : فالمعذّرون أو المعتذرون هم الذين يريدون أن يتخلفوا عن القتال بأعذار مفتعلة [2]، وهم أرادوا القعود والسكون ولم يتحركوا للقتال ، وقد فعلوا ذلك دون عذر حقيقى . ويقال : « المعذرون» ، و« الْمعَذّر» ، و«أعذره» أى : أذهب عذره ، مثل : « أعجم الكتاب » أى : أذهب عُجْمته.

---

(١) النفاق : أن يظهر الإنسان بخلاف ما يبطن ، وأطلق " المنافق" فى صدر الإسلام على من أظهر الإسلام وأضمر الكفر ، والنفاق : مصدر نافق . ومردوا على النفاق : اعتادوا عليه وتمرسوا به ، وكأنه أصبح حرفة لهم .

(٢) المُعْذر : الذى يعتذر وله عذر حقيقى . المعتذر : مثله . المُعَذِّر : الذى يعتذر وليس له عذر ، بل يفتعله ويختلقه .

ويقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ لقد كذبوا الرسول فى الإيمان نفسه ؛ لأنهم لم يكلفوا أنفسهم حتى مجرد الاعتذار وتخلفوا ، ولو كانوا قد صدقوا فى الإيمان لما تقاعسوا عن القتال ، أو لاستأذنوا رسول الله فى القعود .

ثم يقول الحق : ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ والكفر - كما نعلم - هو ستر الإيمان . والمنافقون من الأعراب أظهروا الإيمان وكانت قلوبهم تمتلىء بالكفر . ويقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ... (١٤) ﴾ [الحجرات]

أى أنهم يؤدون أمور الإسلام الظاهرية بينما قلوبهم لم يدخلها الإيمان .

ويعرفنا الحق سبحانه بالجزاء الذى ينتظر هؤلاء المتخلفين من الأعراب فيقول : ﴿ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ وعرفنا من قبل أن وصف العذاب فى القرآن إما أن يكون أليماً ، وإما أن يكون مهيناً ، وإما أن يكون عظيماً ، وإما أن يكون مقيماً .

وأراد الحق سبحانه أن يعطى رخصة للذين لا يقدرون على القتال ولهم العذر فى أن يتخلفوا عنه ؛ فقال :

﴿ لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٩١) ﴾

ونحن نعلم أن الضعيف هو من لا يقدر على العمل ، لا بسبب المرض ، بل لكبر سنه ، أو هو صغير السن لا يقدر على الحرب ، وكذلك يعفى الحق المرضى من القتال ؛ وهم من أصيبوا بعاهة طارئة تجعلهم غير قادرين على القتال . وكذلك أعفى الله الذين لا يجدون ما ينفقون ؛ لأنهم من شدة فقرهم لا يستطيعون شراء دابة تحملهم أو معدات قتال يقاتلون بها .

والنفقة - كما نعلم - هى أن تقدر أن تعول نفسك فى الذهاب والإقامة مدة الحرب والعودة . وكان على كل مجاهد أن يُعدَّ مطلوبات الحرب . فالله سبحانه قد رفع الحرج عن الذين لا يجدون ما ينفقونه ، وجعل لهم وظيفة أخرى تخدم الجهاد ، فقال سبحانه وتعالى :

﴿ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ أى : ينصحون ويشجعون أولئك القادرين على الجهاد ؛ ليُحَمِّسوهم على القتال ، ثم يكونون فى عون أهل المجاهدين [1] ، ويواجهون الإشاعات والأكاذيب التى يطلقها المنافقون فى المدينة ؛ للنيل من الروح المعنوية للمسلمين فيردون عليها ليُخْرِسوا ألسنة السوء .

ثم يقول الحق : ﴿ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ والسبيل : هو الطريق ، ومعناها : ما عليهم من إثم أو لوم أو توبيخ أو تعنيف . وكل هذا لا يجد سبيلاً على المحسنين ، ولم يقل الحق : « مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ » ؛ لأن السبيل يمر عليهم ولا ينتهى إليهم بلوم ؛ لأن هناك فارقاً بين أن يمر عليهم وأن ينتهى إليهم ، فالمرور أمر عادى ،

---

(١)عن زيد بن خالد الجهنى أن رسول الله ﷺ قال : « من جهز غازياً فى سبيل الله فقد غزا ، ومن خلف غازياً فى أهله بخير فقد غزا » متفق عليه . أخرجه البخارى (٢٨٤٣) ومسلم (١٨٩٥) قال النووى فى شرحه لمسلم : « هذا الأجر يحصل لكل خالف له فى أهله بخير من قضاء حاجة لهم وإنفاق عليهم أو مساعدتهم فى أمرهم » .

وليس هو الغاية ؛ لذلك يوضح الحق أنه لا يوجد سبيل إليهم ولا إلى عتابهم ؛ لأنهم أدوا كل ما تطلّبه الجهاد منهم ، ولكنهم لم يذهبوا إلى ميدان القتال ؛ لأسباب خارجة عن إراداتهم ،وفعلوا كل ما يتطلّبه الإيمان.

أما إذا كان المجاهد لديه ما ينفقه ، ولكنه لا يملك راحلة يركبها ، فعليه أن يذهب إلى رسول الله ﷺ ، ويطلب منه راحلة ، فإذا قال له رسول الله ﷺ : ﴿ لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ فهذا إذن بالقعود ، وفى هذا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾

إذن : فالمعفوْن من الجهاد هم : الضعيف والمريض ، والذى لا يجد قوتاً ، ولا يجد راحلة ؛ فيطلبها من رسول الله ﷺ فيقول له رسول الله [1] : ﴿ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ ومن فى مثل هذه الحالة يحزن مرتين ولا يفرح ؛ الحزن الأول : بسبب عجز المسلمين فى ذلك الوقت أن يملكوا ما ينهض بنفقات المقاتلين أو أن يجهزوا لهم وسائل الانتقال إلى ميدان القتال ، والحزن الثانى : بسبب عدم تواجده فى ميدان القتال مشاركاً ومجاهداً ، ولا يبقى له إلا مشاركة الاستطاعة بجهاد يختلف عن الجهاد فى ميدان القتال .

إنه جهاد حماية القاعدين من إشاعات المنافقين . ذلك أن المنافقين لن يسكتوا عن محاربة الإيمان ، بل سيرجفون بنقل الأخبار الكاذبة إلى أهالى

---

(١) قال القرطبى: « روى أن الآية نزلت فى عرباض بن سارية . وقيل : نزلت فى عائذ بن عمرو . وقيل : نزلت فى بنى مقرِّن - وعلى هذا جمهور المفسرين - وكانوا سبعة إخوة ، كلهم صحبوا النبى ﷺ » وهناك أقوال أخرى كثيرة ذكرها القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣١٥٣).

المقاتلين ، وهم من نسميهم فى الاصطلاح الحديث "الطابور الخامس" ، وهم من يُثبِّطون همم ومعنويات أهالى المقاتلين . إذن : فمن قعد عن القتال بسبب عذر حقيقى فله جهاد آخر فى حماية الجبهة الداخلية من أهالى المقاتلين فى مواجهة حرب الإشاعات التى يقودها المنافقون .

وهكذا نجد الجهاد [1] فريضة من فرائض الإسلام ، ومجاهدة غير المسلمين تكون لأمرين : الأمر الأول : حين يعارض غير المسلمين الدعوة إلى الإيمان ، وأن يقفوا فى سبيل الداعى ليسكتوه عن الدعوة إلى الله ، والأمر الثانى : أن ينتشر المسلمون فى الأرض ليُعْلوا كلمة الله ، ليس إكراهاً عليها ، فالدين لا إكراه فيه ، و السيف الذى حُمل فى الإسلام ، لم يُحمل ليفرض ديناً ، وإنما حُمل ليكفل حرية الاختيار للإنسان فى أن يختار الدين الذى يريد اعتناقه بلا إكراه . وتحرير اختيار الإنسان ؛ إنما ينشأ بإزاحة العقبات التى تفرض عليه ديناً آخر ، ثم يستقبل الإنسان الأديان كلها ، فيختار بحرية الدين الذى يرتضيه .

إذن : فالإسلام لم يفرض بالسيف ، وإلا فمن الذى فرض الإسلام على الذين سبقوا إليه حين كان ضعيفاً لا يملك أن يحمى من دخل فيه ؟!

وما دام الجهاد فريضة بهذا المعنى ، فكل مسلم مكلف بأن يجاهد ، إما فرض عين - إن غلب المؤمنون على أمر مكروه ، وإما فرض كفاية - إن قام به البعض سقط عن الباقين . ولم يعذر الله من الجهاد إلا هذه الطوائف؛ الضعفاء بشيخوخة أو صغَر ، والمرضى أصحاب الداءات ، والذين لا يجدون ما ينفقون ، وهم قسمان : قسم لا يجد ما ينفقه على نفسه ،

(١) الجهاد يكون فرضاً عينياً إذا حصل الاعتداء من الأعداء واحتلت البلد ويكون فرض كفاية إذا حدث اعتداء ولم تحتل البلد ، وكذلك لنشر دعوة الله فيكون الجهاد بالإقناع والدليل ؛ لأن الإسلام لا يعرف السيف إلا عند الاعتداء ووقوع الظلم على المسلمين من الغير .

وقسم لا يجد ما ينفقه على الحرب ، أى : لا يجد أدوات القتال أو الراحلة التى يركبها .

ورفع الحق سبحانه الحرج عن هؤلاء ، ووظَّفهم سبحانه فى وظيفة إيمانية تخدم الجهاد بأن يكونوا فى عون أهل المجاهدين ، ويقمعوا المرجفين الذين يريدون النيل من الروح المعنوية للمسلمين ، وأن يردوا عليها ، ويخرسوا ألسنة السوء ، هذا بالنسبة للذين لا يجدون ما ينفقونه على أنفسهم خلال الجهاد من طعام وسلاح وغير ذلك [1] .

أما الذى يجد ما ينفق ، ولا يجد الوسيلة التى تنقله إلى ساحة القتال ؛ فعليه أن يذهب إلى ولى الأمر ليسأله الراحلة ، وكان رسول الله ﷺ هو قائد الجهاد فى حياته ، فإن قال لأحد : ليس عندى ما أنقلك عليه إلى مكان القتال . فهذا إذن بالقعود ، لكنه إذن لا يكفى لرفع الحرج عنه ، بل يجب أن يعلن بوجدانه انفعاله فى حب الجهاد ، وحزنه على أنه لم يكن مع الذين يجاهدون .

ولذلك قال الحق : ﴿ **تَوَلَّوْا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ** ﴾ وكلمة " تفيض أعينهم " توضح ما فى قلب هؤلاء المؤمنين . والفيض دائماً للدموع ، والدموع هى ماء حول العين ؛ يهيجه الحزن فينزل ، فإذا اشتد الحزن ونفد الدمع وجمدت العين عن البكاء ؛ يؤخذ من سائل آخر فيقال : " بكيت دماً " .

وأراد الحق سبحانه وتعالى أن يبين لنا شدة حزن المؤمنين على حرمانهم من الجهاد ، فلم يقل سبحانه وتعالى : " فاضت دموعهم " ، ولم يقل : " بكوا دماً بدل الدموع " ، وإنما قال : ﴿ **وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ** ﴾ ، فكأن العين

---

(١) وذلك بالإعلام الدينى وتحجيم الإشاعات الكاذبة .

ليس فيها ماء ، ولا دم ، ولم يعد إلا أن تفيض العين على الخد ، وذلك إظهار لشدة الحزن فى القلب ، وهذا المجاهد لا لوم عليه ولا ذنب ؛ لأنه فعل ما فى وسعه وما فى طاقته وعبر عن ذلك بحرقة مواجيده على أنه لم يكن من أهل الجهاد .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾

هناك قال سبحانه : ﴿ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ﴾ الذين كانت لهم أعذارهم فى التخلف عن الجهاد ، ولكن كانوا محسنين فى تخلفهم هذا فقال تعالى : ﴿ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ . إذن : فعلى من يكون السبيل ؟

وهنا تأتى إجابة الحق سبحانه : ﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ ﴾ .

أى : أن طريق الإثم واللوم والتعنيف والتوبيخ إنما يتجه إلى هؤلاء الأغنياء الذين استأذنوا فى أن يقعدوا عن القتال ، ونعلم أن الغنى إذا أطلق ينصرف إلى غنى المال ، ولكن الغنى إذا جاء بالمعنى الخاص ، يكون معناه ما يدل عليه النص . فالذى لا يجد ما ينفقه أعْفىَ . إذن : فمن يجد ما ينفقه فهو غنىّ بطعامه . والضعيف قد أعْفىَ ، إذن : فالقوىّ غنىّ بقوته . والمريض أعْفىَ ، إذن : فالصحيح غنىّ بصحته . ومن لا يجد ما ينقله إلى مكان الجهاد فقد أعْفىَ ، إذن : فمن يملك راحلة فهو غنىّ براحلته .

وعلى ذلك لا تأخذ كلمة « الغنى » على المال فقط ، بل انظر إلى من تنطبق عليه شروط الجهاد ؟ إذن : فاللوم والتوبيخ والتعنيف والإثم على الأغنياء بهذه الأشياء ، وطلبوا أن يقعدوا عن الجهاد.

ولسائل أن يقول : ولماذا يستأذنون وهم أغنياء ؟

نقول : لأنهم منافقون ، وقد وضعهم نفاقهم في موضع الهوان ، حتى قال الحق سبحانه وتعالى عنهم : ﴿ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ ﴾ ومن يَرْضَ أن يكون وضعه مع الخوالف ، فهو يتصف بدناءة النفس وانحطاط الهمة ؛ فهم رضوا أن يُعاملوا معاملة النساء ، والخوالف - كما نعلم - جاءت على مراحل ، فهم قالوا:

﴿ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ الْقَاعِدِينَ (٨٦) ﴾ [التوبة]

وقلنا من قبل : إن القعود مقابل للقيام ، والقيام من صفات الرجولة ؛ لأن الرجل قَيِّم على أهله . والقعود للنساء ، والخوالف ليست جمع خالف ، وإنما هى جمع « خالفة » ، ولا يجمع بها إلا النساء ، وكذلك كلمة « القواعد » يقول سبحانه:

﴿ وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ ... (٦٠) ﴾ [النور]

أى: أنهم ارتضوا لأنفسهم دناءة وخسة ؛ فتنازلوا عن مهام الرجال ، وارتضوا أن يكونوا مع النساء هرباً من القتال ، والشاعر يقول:

وَمَا أدْرِى ولسْتُ إخَالُ أدْرى أقَوْمٌ آلُ حِصْنٍ أمْ نِسَاءُ

أى : « القوم » فى مقابل « النساء » .

ثم يعلمنا الحق سبحانه وتعالى بعقابهم ، فيقول : ﴿ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ .

وفي الآية السابقة يقول سبحانه : ﴿ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ... (٨٧) ﴾ [التوبة]

ما الفرق بين النصين ؟

إذا رأيت فعلاً تكليفياً مبنياً للمجهول ، كقوله تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ... (٢١٦) ﴾ [البقرة]

وقوله سبحانه : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ ... (١٨٣) ﴾ [البقرة]

قد يقول قائل : كان المفروض أن يقال : « كتب الله عليكم القتال» و « كتب الله عليكم الصيام » ، لأنه صار أمراً لازماً مفروضاً ، فكان الأولى أن يقول : كتب الله ، أى أن الذى يفرض هو الله. رغم أن الحق سبحانه هو الذى يكلف ، إلا أن كل التكليفات تأتى بصيغة المبنى للمجهول كقوله تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَىٰ بِالْأُنثَىٰ ... (١٧٨) ﴾ [البقرة]

وقوله سبحانه : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ... (١٨٠) ﴾ [البقرة]

والسبب فى ذلك أن الله سبحانه وتعالى لم يكلف كافراً بأى تكليفات إيمانية ؛ فسبحانه لم يكلف بأى حكم من أحكام الإيمان إلا من آمن به وأسلم له ؛ لذلك فعندما يخاطب سبحانه بالتكليف يقول : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ ... (١٧٨) ﴾ [البقرة]

ومن هذا نعلم أنه سبحانه لم يكتب فرضاً أو مهمة على من لم يؤمن ، والإنسان يدخل فى الإيمان باختياره ، فإذا دخل فى الإيمان كتب الله عليه . إذن : فالإيمان هو مدخل الفريضة . وما دُمْتَ قد آمنتَ فقد أصبحتَ طرفاً فيما فرضه الحق سبحانه وتعالى عليك ؛ لأنك لو لم تؤمن

فليست عليك فرائض ، إذن : فأنت الذى ألزمتَ نفسك بحكم الله ؛ لأنك آمنت به إلهاً خالقاً معبوداً . وبإيمانك أنت ؛ فرض الله عليك ، فأنت طرف فى كل فريضة عليك. ورغم أنه سبحانه وتعالى هو الذى فرض ، فقد أحبَّ فيك أنك دخلْتَ فى نطاق التكليف بإيمانك ؛ فبنى الفعل للمجهول.

وإذا جئنا إلى قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ نجد أن الحق يلفتنا هنا إلى أن المنافقين هم الذين جلبوا لأنفسهم هذا الطبع على القلوب ؛ لأنهم وضعوا فى قلوبهم الكفر ، ثم أخذوا يتحدثون بألسنتهم عن الإيمان ، ويحاولون خداع المؤمنين ، ويخادعون الله ؛ فأراد الله سبحانه وتعالى أن يوضح لهم : مادمتم قد اخترتم النفاق والكفر فى قلوبكم ؛ فسنطبع على هذه القلوب ، ونختم عليها حتى لا يخرج الكفر منها ولا يدخل إليها الإيمان.

فسبحانه وتعالى - إذن - هو الذى طبع على قلوبهم ، ولكن بعد أن ملأوا قلوبهم بالكفر ونافقوا ، وهم الذين تسببوا بهذا الطبع لأنفسهم ، بعد أن بدأوا بالكفر ، فطبع الحق سبحانه وتعالى على قلوبهم بما فيها من مرض ، ولو لم يبدأوا بالكفر لما طبع الله على قلوبهم ؛ ولهذا جاء الفعل مبنيّاً للمجهول ، فهم مشتركون فيه .

أما الآية التى نحن بصددها فيقول تعالى:

﴿ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ وساعة ينسب الطَّبْع إلى الله يكون أقوى طبع على القلوب ، ويأتى الطبع من الله سبحانه وتعالى كحكم نهائى من أن الله قضى عليهم به ، فلا يخرج من قلوبهم ولو كان قدراً ضئيلاً من النفاق ، ولا تغادر قلوبهم ذرة من كفر ، ولا يتسرب إلى قلوبهم ذرة من إيمان ؛ لأنهم لا يعلمون قدر الإيمان الحق ، والإنسان قد لا يفهم شيئاً ، أى : لا يفقهه . ولكن قد يفهمه غيره ويعلمه هو عنه.

لذلك فنفْى الفقه أو الفهم لا ينفى العلم ، ولكن حين ينفى العلم فهو ينفى الفهم عن الذات ، وينفى الفهم عن الغير ، ولذلك حين يقال : ﴿ لاَ يَفْقَهُونَ ﴾ أى : لا يفهمون بذواتهم ، ولكن قد يتعلمون العلم من غيرهم. أما إذا قلنا : ﴿ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ فالمقصود أنهم لا يفهمون ولا يتعلمون. إذن: نفى العلم ينسب إلى طبع الله على قلوبهم ، أما نفى الفقه فينسب نسبة عامة للفعل المبنى للمجهول .

فعندما نفى الحق سبحانه وتعالى الفقه عنهم بالفعل المبنى للمجهول أوضح أنهم بنفاقهم لا يفقهون ، ولكنه سبحانه وتعالى لم يَنْفِ احتمال أن يعلموا من غيرهم فى المستقبل . ولكن عندما قال الحق : ﴿ فَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ قد نفى عنهم - أيضاً - العلم بذواتهم ، وكذلك نفى قدرتهم على العلم من غيرهم ، وهذه أقوى أثراً ، وبذلك يكون الطبع على قلوبهم أقوى ؛ لأنهم رفضوا العلم من ذواتهم ورفضوه من غيرهم.

ولذلك نجد ﴿ لاَ يَفْقَهُونَ ﴾ فى موضع ، ونجد ﴿ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ فى موضع آخر ، وكلٌّ تناسب موقعها الذى قيلت فيه.

ثم يقول سبحانه:

﴿ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ۚ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ۚ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾

ومعنى «يعتذر» أى: يبدى عذراً عن شىء يُخرجه من اللوم أو التوبيخ، ويقال : « اعتذر فلان » أى : فعل شيئاً مظنة أنه ذم ، فيريد أن يعتذر عنه .

والحق هنا يقول : ﴿ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ﴾ وفى آية سابقة يقول مخاطباً النبى ﷺ :

﴿ فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ ... (٨٣) ﴾ [التوبة]

وهكذا نلاحظ أنه سبحانه حين نسب الرجوع إلى الصحابة والمجاهدين قال : ﴿ رَجَعْتُمْ ﴾ ، وعندما نسبه إلى رسول الله ﷺ قال : ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ ﴾ مما يدلنا على أن زمام محمد ﷺ بيد ربه وحده ، ولكن زمام أتباعه يكون باختيارهم .

وهنا يقول الحق : ﴿ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ﴾ ويأتى بعدها ذلك الرد الواضح على محاولة المنافقين فى الاعتذار : ﴿ قُل لاَّ تَعْتَذِرُوا ﴾ ، وفى هذا رد حاسم ، فأنت حين يعتذر إليك إنسان فقد تستمع لعذره ولكنك لا تقبله ، ومجرد استماعك للعذر معناه أن هناك احتمالاً فى أن يكون هذا العذر مقبولاً أو مرفوضاً . ولكن حين ترفض مجرد سماع العذر ، فمعنى ذلك ألاَّ وجه للمعذرة .

والحق سبحانه وتعالى يقول لنبيه ﷺ : ﴿ قُل لاَّ تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ ﴾ فكأنما ساعة أقبل المنافقون على رسول الله ﷺ والمؤمنين ؛ وتهيأوا للاعتذار ؛ وقبل أن ينطقوا بالعذر ؛ أوضح لهم الرسول عليه الصلاة والسلام : لا تعتذروا ، ورفض مجرد إبدائهم للعذر . ثم فاجأهم بالحكم فى قوله تعالى : ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ ﴾ ومادة «آمن» تدور حول عدة معان ، نقول : «آمن » أى : اعتقد وصدق مثل قولنا : « آمن بالله » ، ويقال : « آمن بالشىء » أى : صدَّقه ، و « آمن بكذا » أى : صدَّق ما قيل . والحق هو القائل :

﴿ فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ ... (٨٣) ﴾ [يونس]

وقال إخوة يوسف لأبيهم:

﴿وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ (١٧)﴾ [يوسف]

أى : لن تصدقنا . وآمن إذا تعدَّتْ بالباء فمعناها الاعتقاد ، وإن تعدَّتْ باللام فمعناها التصديق ، وإن تعدت بغير الباء وغير اللام فمعناها إعطاء الأمان ، مثل قوله تعالى:

﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِى أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ (٤)﴾ [قريش]

وتجىء أيضاً « آمن » و « أمن » بمعنى الائتمان ، مثل قول الحق سبحانه وتعالى على لسان يعقوب :

﴿هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ... (٦٤)﴾ [يوسف]

إذن : فـ « آمن» إن تعدت بالباء فيكون معناها الاعتقاد الإيمانى ، وإنْ تعدَّتْ باللام فمعناها التصديق ، وإنْ تعدَّتْ بنفسها إلى الفعل فهى إعطاء الأمان والسلام والاطمئنان ، وإن تعدت بالمفعول أيضاً ؛ فمعناها القدرة على أداء الأمانات ، مصداقاً لقوله الحق:

﴿ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ...(٧٥)﴾ [آل عمران]

وفى الآية التى نحن بصددها يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ قُل لاَّ تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ ﴾ أى: لن نصدقكم . فقد جاء المنافقون ليعتذروا بأعذار كاذبة ، ولكن رسول الله ﷺ يرفض مجرد سماع الاعتذار ، وأعلن لهم :لن نصدقكم . ولو امتلك المنافقون ذرة من ذكاء لفهموا أن رب محمد عليه الصلاة والسلام قد أخبره بكل شىء ؛ حتى بما فى قلوبهم

قبل أن ينطقوه ، ولو امتلكوا ذرة من فطنة لرجعوا عن نفاقهم ، ولدخلوا فى الإيمان ، ولكنهم لم يستوعبوا الدرس ، فجاء الحق سبحانه وتعالى بالأمر واضحاً فى قوله سبحانه : ﴿ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ﴾ فكأن المسألة ليست فراسة استنتاج ، ولكنها وحى من الله.

ثم يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ﴾ .

ما هو العمل الذى سيراه الله سبحانه وتعالى ورسوله ، بعد أن رفض رسول الله عذرهم ، وأخبرهم بأن الله قد أخبره بما يُخْفونه من كذب فى صدورهم ؟ فسبحانه العالم بالسرائر كلها ، لقد شاء سبحانه ألا يغلق أمامهم باب المرجع إليه ، وكان يجب من بعد ذلك أن يرتدعوا وأن يتيقنوا أن رب محمد ﷺ لا تخفى عليه حتى نواياهم . ومادُمْتم قد علمتم صدق محمد ﷺ فى كل ما أبلغكم به ، أصبح عليكم - إذن - أن ترجعوا وتخرجوا من دائرة النفاق لتدخلوا حظيرة الإيمان ؛ وتراكم الدنيا من بعد ذلك وقد اختلفت أعمالكم من النفاق إلى الإيمان ، أما إنْ أصررتم على ما أنتم فيه ؛ فمعنى ذلك أنكم لم تستفيدوا من العملية الإعجازية التى أنبأ الله فيها رسوله بكذبكم.

إذن: فقد فتح الله باب التوبة أمامكم رحمة منه سبحانه ، فانتهزوا هذه الفرصة ؛ لأنه سبحانه سيرى أعمالكم فى المستقبل ، وعلى أساس هذه الرؤية يرتب لكم الجزاء على ما يكون منكم.

ولذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم (١) بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٤) ﴾ [التوبة]

وما دام سبحانه عالم الغيب ، فمن باب أوْلى أنه عليم بعالم الشهادة .

---

(١) الأنباء : الأخبار الهامة. قال الحق: ﴿لِكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ (٦٧)﴾[الأنعام] -وأنبأه بالشىء ونبأه به: أخبره ، وذكر له قصته .

والغيب - كما نعرف - هو ما غاب عنك ، فلم تعرف عنه شيئاً . ولكن إنْ غاب عنك ولم يَغبْ عن غيرك فهو غَيْبٌ نسبى ؛ لأن هناك حجباً منعت عنك العلم ، والمثَال : إن سُرق منك شىء فأنت لا تعرف السارق ؛ ولكن السارق نفسه يعرف ، ومن شاركه يعرف . والذى أخفى السارق عنده المسروقات يعرف . والذى ابتاع المسروقات يعرف.

إذن : فهو غيب عنك وليس غيباً على غيرك . أما الغيب المطلق فهو ما غاب عنك وعن غيرك ، وهناك من يلجأ إلى الدجالين ممن يدّعون قراءة الأفكار ، ويسمونهم المنوِّمين المغناطيسيين ، ويطلب المنوّم من أى واحد أن يُخرج ما فى جيبه من نقود وأن يقوم بعدّها ، ثم يخبره بعددها ، وإن أردت أن تكشف ألاعيبه ؛ ضع يدك فى جيبك وأخرج كمية من النقود لا تعرف أنت مقدارها، واسأله عن هذا المقدار فلن يعرف ، لماذا ؟ لأنك نقلت المسألة من غيب قد يعرفه غيرك إلى غيب مطلق.

إذن : فالغيب [1] المطلق هو ما غاب عنك عن غيرك ، وهو أيضاً ما لا تكون له مقدمات توصلك إليه ، فأنت إذا أعطيت ابنك تمريناً هندسيّاً ليحله ؛ فالحل غيب عنه ساعة يقرأ المسألة ، ثم يستخدم المقدمات والنظريات حتى يصل إلى الحل ، فكأن هناك أشياء لها مقدمات توصل إلى النتائج ، وهذه ليست غيباً ؛ لذلك لا يقال لمن اكتشف الكهرباء والذى اكتشف تفتيت الذرة أنهما علما الغيب . فقد كانت هناك مقدمات فى الكون أوصلتهما إلى كشف بعض القوانين الموجودة بالفعل ، لكنّنا لم نكُنْ نعرفها.

---

(١) الغيب: مصدر ويسمى به ما غاب واستتر . قال تعالى : ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴿٣﴾﴾[البقرة].
والغيب : هو ما غاب عن العيون كالجنة والنار والملائكة والجن ، وجمعه : غيوب قال تعالى : ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾﴾ [المائدة] وهذا هو الغيب المطلق .
أما الغيب النسبى: فهو الذى يغيب عنك ولم يغب عن غيرك ، وقد تعرفه عند الإذن بميلاده .

وفى بعض التدريبات ، نجد من يضع المسألة المطلوب حلّها ، ويضع النتيجة الأخيرة بجانبها ؛ لأنه لا يهدف إلى معرفة النتيجة ، ولكنه يهدف لتعليم التلميذ كيف يصل إلى أسلوب الحل الصحيح .

ولذلك إذا أردت أن تحلّ شيئاً فى الهندسة مثلاً ، فلا بد لك من معطيات توصلك إلى الحل ؛ كأن يُطلب منك - مثلاً - إثبات أن الخطين متوازيان ، وفى هذه الحالة يجب أن تكون كل زاويتين متناظرتين متساويتين ، وكل زاويتين متبادلتين متساويتين . إذن : فأنت قد أخذت مقدمات أو معطيات أوصلتك إلى النتيجة ، وكذلك فى تساوى ضلعى المثلث أو أضلاعه ؛ يكون إثباته بتساوى الزوايا . فهل فى هذه الحالة يقال : إنك اهتديت إلى الغيب ؟ أم أنك استخدمت مقدمات أوصلتك إلى نتائج ؟

وأنت حين تبرهن على صحة النظرية المباشرة ، تقول : إن هذا يساوى هذا حسب النظرية رقم تسعة مثلاً ، وإن هذا مقابل لهذا حسب النظرية الجديدة ، وإذا وصلت فى براهينك إلى نظرية رقم واحد فهى النظرية التى لا مقدمات لها ، ولا بد أن تكون بديهية .

وهكذا نجد أن كل علم فى هذا الكون بُنى على نظريات أو مقدمات بديهية ، ثم تطورت بعد ذلك إلى اكتشاف ما أودعه الله فى كونه من أسرار [1] . أما الحق سبحانه وتعالى فهو يقول عن نفسه : ﴿ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ أى أنه سبحانه عالم بالغيب المطلق ، الذى لا توجد له مقدمات توصلنا إليه ؛ ولذلك لا نستطيع أن نعرف الغيب المطلق ؛ لأنه ليس معروفاً

(١) هذه الاكتشافات التى عرفت من المقدمات والنظريات والتجارب لا يطلق عليها أنها غيب - وإن كانت غائبة قبل التعامل مع المقدمات أو التجارب ، فهذا لجهلنا بالتعامل مع العلم ، وأن ميلاد ظهورها لم يَحِنْ بعد ، فهذا بتقدير العزيز العليم .

عند البعض ، ومجهولاً عند غيرهم ، وليس له مقدمات توصلنا إليه ؛ لأنه الغيب الذى ينفرد به الحق عزّ وجلّ .

ونجد الحق سبحانه يقول:

﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ... (٢٧) ﴾ [الجن]

فسبحانه عالم الغيب المطلق ، وهو يختلف عن الغيب المستور عن البعض ، ويقول الحق عن مواعيد الكشف عن أسرار الغيب المستور :

﴿ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ ... (٢٥٥) ﴾ [البقرة]

وحين يشاء الله أن يكشف عن بعض أسرار الغيب فهو يحدد الوقت الذى يشاؤه لذلك ، وكل شىء فى الكون له ميعاد ميلاد ؛ مثل : الكهرباء ، والذرة، والوصول إلى القمر ، وغزو الفضاء ، وهذه كلها أشياء لها مواعيد ميلاد . ويبحث العلماء عنها باستخدام المقدمات . ولكنهم لا يصلون إلى سر ميلاد أى اكتشاف إلا بإذن الله حين يلفتهم إلى هذا السرّ ؛ إما بالبحث العلمى ، وإما أن يتم معرفته صدفة.

وهكذا نجد أن البشر يُحَاطون عِلْماً بهذه الأسرار بعد مقدمات وبإذن من الله.

وما دام الحق سبحانه هو عالم الغيب ؛ فيكون سبحانه عالماً بالشهادة [1] من باب أولى ، وقد يظن ظان أنه إن جلس فى مكان معزول مستور

---

(١) الشهادة : خبر قاطع ، والشاهد اسم فاعل وجمعه شُهَّد (كراكع ورُكَّع) وجمع الجمع : شهود أو شهود : جمع شاهد ، مثل : قاعد وقعود . والشهادة بمعنى ما يشاهد بالمدركات والوجدانيات للوصول إلى الاختيار ، ذلك عند الإنسان ، أما بالنسبة لله سبحانه فهو عالم الغيب والشهادة فهو (عَلاَّم الغيوب) لأنه خالقها فهو أعلم بغيبها وظاهرها .

ويفعل ما يريد ، فلن يشهده الله ؛ لأنه قد يفعل ما يريد دون أن يراه أحد ، لكن ذلك غير حقيقى ؛ لأن الحق سبحانه عالم الغيب والشهادة ، فلا يوجد مستور عنه فى هذا الكون ، فلا الغيب يغيب عن علمه ، ولا العالم المشهود يغيب عن علمه.

وما دام قد جاء الحق هنا بقوله : ﴿ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ فلا بد أن يأتى بعدها ﴿يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أى : يخبركم مقدماً بجزاء ما ستفعلونه من خير أو شر حتى لا يقول أحد : إنه لم يكن يعرف ، أو أنه لو علم أن فعله يؤدى إلى الشر لما فعل ؛ وحتى يكون كل إنسان شهيداً على نفسه ؛ لأن الله أبلغه بالجزاء ، فيكون الجزاء عدلاً لا ظلماً.

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (١٤) ﴾ [الإسراء]

فأنت الذى تحكم على نفسك.

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ (٩٥) ﴾

وكلمة ﴿ سَيَحْلِفُونَ ﴾ فيها سرّ إعجازى من الله ؛ لأن حرف « السين » هنا تدلنا على أنهم لم يحلفوا بعد ، أى أن الآية نزلت وقُرئت وسمعها المؤمنون والمنافقون قبل أن يحلف المنافقون ، وآيات القرآن تُتْلى وتُقرأ فى الصلاة ، ولا تتغير ولا تتبدل إلى يوم القيامة.

ولو كان للمنافقين قدرة على التدبر لما جاءوا وحلفوا . ولقالوا : إن رسول الله ﷺ قال فى قرآن يوحى إليه : إننا سنأتى ونحلف ، ونحن لن نأتى ولن نحلف ؛ ولكن لأن الله هو القائل وهو الخالق وهو الفاعل ، فقد شاء أن تغيب الفطنة عن أذهانهم ، مثلما قال سبحانه من قبل:

﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ... (١٤٢) ﴾ [البقرة]

وهم قد قالوا ذلك بعد نزول الآية[١] .

والحق سبحانه وتعالى يقول هنا : ﴿ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ ﴾ والانقلاب معناه التحول من حال إلى حال . ومعنى الانقلاب فى هذه الآية مقصود به العودة إلى المدينة مقر السلام والأمن بعد الحرب ، فكأن الاعتدال فى القتال والانقلاب فى العودة إلى المدينة . ولكن لماذا سيحلف المنافقون بالله للمؤمنين ؟ يقول الحق سبحانه : ﴿ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ ﴾ أى : لتعرضوا عن توبيخهم ولومهم وتعنيفهم ؛ لأنهم لم يجاهدوا معكم.

فقال الحق : ﴿ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ ﴾ أى أعطوهم مطلوبهم من الإعراض ولكنه لون آخر من الإعراض ، فلا تلوموهم ولا توبخوهم ولا تؤثموهم ، بل أعرضوا عنهم إعراض احتقار وإهانة، لا إعراض صفح ومغفرة[٢] ؛ جزاءً لهم على ما فعلوا ؛ لأن التأنيب والتوبيخ هما من ألوان الجزاء على المخالفة ، ولكنه قد يحمل الأمل فى المخالف ليعود إلى الصواب. فأنت إن لم يذهب ابنك إلى المدرسة مثلاً تُوبِّخه وتُعنِّفه ، وأنت تفعل ذلك لأنك تأمل فى أن ينصلح حاله ، ولكن إذا استمر على مثل هذا الحال فأنت تهمله ، والإهمال دليل على أنك فقدت الأمل فى إصلاحه.

---

(١) لأن الله سبحانه وتعالى يعلم الماضى والحاضر والمستقبل وما فيها ومن فيها .

(٢) إعراض الصفح والمغفرة قد ورد فى القرآن الكريم فى قوله سبحانه فى سورة يوسف من قول العزيز ليوسف : ﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴾ [يوسف: ٢٩] أى : اصفح يا يوسف عما حدث واتهمتك به المرأة ولا تذكره لأحد .

كذلك كان الأمر بالنسبة للمنافقين . لو أن التوبيخ والإهانة كانت ستجعلهم يفيقون ويعودون إلى حظيرة الإيمان ، فهذا دليل على أن هناك أملاً فى الإصلاح ، وهم لن ينصلح حالهم ، وهم فى ذلك يختلفون عن المؤمنين ، فالمؤمن إن ارتكب إثماً فهو يستحق العتاب والتوبيخ من إخوته فى الإيمان ، وفى هذا إيلام له . والمؤمن عرضة أن تصيبه غفلة فيرتكب إثماً ، فإذا حدث بعد هذا الإثم إيلام له من نفسه ، أو بواسطة إخوانه المؤمنين، فهو يفيق ويشعر بالذنب ، وشعوره بالذنب وصول به إلى التوبة .

أما هؤلاء المنافقون فلا ينفع معهم التوبيخ أو الإيلام النفسى ؛ لأنهم لن يعودوا أبداً إلى حظيرة الإيمان ، ولذلك جاء الأمر : فأعرضوا عنهم ؛ لأنهم لا يستحقون - حتى - اللوم ، فالتوبيخ جزاء على ذنب قد يُقلع عنه من ارتكبه. ولكن هؤلاء لا أمل فيهم ، والعلة يأتى بها القرآن : ﴿ **إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ** ﴾ والرجس يطلق على معان متعددة ، وقوله: ﴿ **إِنَّهُمْ رِجْسٌ** ﴾ أى: هم الخباثة بذاتها ، ويقول العلماء: أى أن فيهم خبثاً وقذارة . وأقول : إن الرجس هو القذارة نفسها ، فلا نقول: إنهم قذرون ؛ لأننا إن قلنا ذلك فالمعنى يفيد أنهم طُهُرٌ أصابهم قذر، وهم ليسوا كذلك ، إنهم «قذر» فى حد ذواتهم ،ولا يطهرهم شىء؛ لأن الذى يخرج من القذارة يكون مثلها ؛ فهم خباثة لا يطهرها لَوْم أو توبيخ . وأطلق الرجس هنا مثلما قال الحق:

﴿ **إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ** [1] ... (٢٨) ﴾ [التوبة]

ولم يقل : « نجسون » بل هم أنفسهم نجس.

---

(١) نَجِسَ ينجَسُ نَجَساً . فهو نَجِسٌ لحقه دنس أو قذر ، وهو فى المحسوس حقيقة وفى المعنوى مجاز ، ويوصف بالمصدر للمبالغة فيستوى فيه المفرد وغيره ، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ (٢٨) ﴾ [التوبة] والنجاسة هنا معنوية فهو الكفر والضلال.

والرجس يطلق أيضاً على الشيء القذر حسيّاً ؛ مثل الميتة ، والحق سبحانه يقول : ﴿ قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ... (١٤٥) ﴾ [الأنعام]

إذن : فالميتة قذارة حسّية ، كذلك الخمر التى يقول فيها الحق :

﴿ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ... (٩٠) ﴾ [المائدة]

فالخمر نفسها رجس ، أى : قذارة حسّية ، وعطف عليها الحق - سبحانه - الميسر والأنصاب ، والأزلام [1] ؛ وأخذوا حكم الخمر ، وهكذا نفهم أن الخمر رجس حسّى ، بينما الأنصاب والأزلام والميسر رجس معنوى .

وهناك أيضاً الرجز ، ويطلق على وسوسة الشيطان ، فالحق يقول :

﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ ... (١١) ﴾ [الأنفال]

إذن : فالرجس له متعلقات؛ معناه هنا الكفر ، والكافر هو قذارة فى حَدِّ ذاته لا أنه إنسان أصابته قذارة .

ويقول الحق : ﴿ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ والمأوى : هو المكان الذى يؤويك من شر يلحقك ، ويقال : « آوى إلى كذا » أى : هرب من شر يُراد به ، فإذا كان المأوى الذى يفزعون إليه هو جهنم ، فمعنى ذلك أنهم بحثوا عن منفذ فلم يجدوا منفذاً إلا أن يدخلوا جهنم ، وهى بطبيعة الحال بئس المصير .

---

(١) الأزلام : سهام لا ريش لها ، مكتوب على بعضها : افعل ، والبعض الآخر : لا تفعل . فإذا أراد رجل سفراً أو نكاحاً أتى سادن الكعبة فقال : أخرج لى زلماً ، فإن خرج بـ « افعل » فعل ، وإن كانت « لا تفعل » لم يفعل .

وهل ذلك افتئات [١] عليهم أم جزاء ؟ يقول الحق : ﴿ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ ونعرف أن الحسنة يقال عنها : « كسب » ، والسيئة يقال عنها « اكتسب » [٢] ، والحق هو القائل :

﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ... (٢٨٦) ﴾ [البقرة]

وذلك لأن عمل الحرام المخالف لمنهج الله لابد أن يشوبه الافتعال ، أما عمل الحلال فهو أمر فطرى لا يكلف النفس مشقة ، ولا تتنازع فيه مَلَكَات ، لكن بعض الناس الذين يعملون السيئات يألفونها إلْفَاً بحيث تصبح سهلة ؛ فلا تكلفهم شيئاً ، ويعتبر الواحد منهم السيئة كسباً ، كأن تأتى لإنسان ، فيحدثك بمغامراته فى الخارج ، ويروى عن رحلاته فى باريس ولندن ، وما فعل فيهما من منكرات . هو يظن أنه يحكى عن مكاسب ، ولا يعلم أنه يحكى عن مصائب وقع فيها باختياره .

مثل هذا الإنسان يفعل السيئة ، وهو معتاد عليها ؛ فتصير كَسْباً . وهو عكس إنسان آخر وقعت عليه المعصية ؛ فيظل يبكى ويبكى ، ويندم ، وقد يضرب نفسه كلما تذكر المعصية ، ويندم عليها [٣] . فالأول فرح بخطاياه ومعاصيه واعتبرها كسباً ، وصارت له دُرْبة وله رياضة وله إلْفٌ بتلك المعاصى .

وهنا يقول الحق سبحانه :

---

(١) الافتئات : الاختلاق والقول بالباطل .

(٢) تعتبر السيئة كسباً عند هؤلاء لأنها أصبحت عادة عندهم .

(٣)عن عبد الله بن مسعود قال : « إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه ، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذبابة مرت على أنفه فقال به هكذا » . أى : نحاه بيده أو دفعه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٣٠٨) وأحمد فى مسنده (١/ ٣٨٣) والترمذى (٢٤٩٧) . قال ابن حجر فى الفتح (١١/ ١٠٥) : « هذا شأن المسلم أنه دائم الخوف والمراقبة ، يستصغر عمله الصالح ويخشى من صغير عمله السيِّىء » .

﴿ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٩٦﴾ ﴾

والرضا هو اطمئنان القلب إلى أمر فيه نفعٌ ؛ فحين أقول : أنا راضٍ بالشيء الفلانى ، فمعنى هذا أن كمية النفع التى آخذها منه تكفينى . ومرحلة الإرضاء تختلف من إنسان إلى آخر ، فقد ترضى أنت بنفع ما ، وعند غيرك ما هو أحسن منه لكنه غير راضٍ ، ويتميز المؤمن بأن كل ما يجرى عليه من غير كسب منه ، لا بد أن يرضىً به ؛ لأن مجريه رحيم. وقد تكون الرحمة لأمر لا يعلمه المؤمن الآن ؛ فقد يُضَن عليه بمال ؛ لأنه سبحانه لو زَوَّده بالمال فقد يبعثره على أولاده ، ويصبح المال وسيلة انحرافهم [1] ، فالحق سبحانه يعطيه المال بقدر ما يطعم أولاده إلى أن يمر أبناؤه من فترة المراهقة ، ثم ينعم ربنا عليه بالمال بعد أن وصل الأبناء إلى النضج ، وضنّ الحق على العبد أحياناً هو عين العطاء ، ولذلك يقال : «إذا لم يكُنْ ما تريد، فَلْتُرِدْ ما يكون ».

ولماذا يحلف المنافقون [2] ؟ وتأتى الإجابة من الحق: ﴿ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ ﴾ وماذا يحقق رضا المؤمنين لهؤلاء المنافقين ؟ ثم هل للمؤمن رضاء من خلف رضاء رسول الله ؟ وهل لرسول الله رضا من خلف رضاء ربه ؟

إن ما يُفرح هو رضا مَنْ يملك النفع ، فأنتم حين ترضون عنهم بعد أن يحلفوا لكم ، وتقتنعوا ببشريتكم ؛ فترضوا عنهم ، فليس لكم رضا ينفعهم ، ولا لرسول الله رضا من وراء رضا ربه ، فالرضا الحق هنا هو

(١) قال الشيخ: المنع من الله عين العطاء ، وقد يكون العطاء نقمة .

(٢) ذكر القرطبى فى تفسيره (٤/٣١٥٦) : « حلف عبد الله بن أبى ألا يتخلف عن رسول الله ﷺ بعد ذلك ، وطلب أن يرضى عنه ».

رضا الله ، فإياكم أن يخدعوكم بمعسول الكلام ، وزيف الأساليب ؛ كى ترضوا عنهم.

ثم يقول الحق: ﴿ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ ﴾ .

أى: إن تحقق هذا الرضا منكم عنهم ، فهو رضاً بعيد عن رضا الله ورسوله ، وليس من باطن رضا رسول الله ، ولا من باطن رضا الله ؛ لذلك يُنهى الحق الآية بقوله : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ وإن لم يَرْضَ الله فرضاكم لن ينفعهم ، وطلبهم الرضا منكم غباء منهم ، فإن رضاكم عنهم لن يقدم ، ولن يؤخر ؛ إلا إن كان من باطن رضا الله ، ورضا رسوله.

وهنا ملحظ: هم فاسقون أم كافرون ؟ نقول: إن الحق سبحانه أوضح لنا :

﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِى الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ... (١٤٥) ﴾ [النساء]

أى أن مكان المنافق فى النار أسفل من مكان الكافر. وكيف يكون المنافق فاسقاً مع أن المؤمن قد يكون فاسقاً؟ فالمؤمن قد يفسق بأن يرتكب كبيرة من الكبائر ، وسبحانه يقول:

﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللَّهِ ... (٣٨) ﴾ [المائدة]

فالمؤمن قد يسرق، وقد يزنى أيضاً. فسبحانه يقول:

﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِى ... (٢) ﴾ [النور]

وما دام سبحانه قد جرّم الفعل ، ووضع له عقوبة ؛ فمن الممكن أن يرتكبه المؤمن ، ولكن علينا أن نُفرِّق بين الفاسق والعاصى ، فمن يرتكب

الكبائر فهو فاسق ، ومن يرتكب الصغائر فهو عاص . فكيف يصف الله المنافقين بالفسق [١] ؟ ولنذكر ما نقوله دائماً من أن الكفر ، إنما هو كفر بمحمد وبالإسلام ، والفسق إذا جاء مع الكفر فهو ليس فسق ارتكاب المعصية والإنسان على دين الإسلام ، لكنه الخروج عن الطاعة حتى فى الأديان التى يتبعها أى قوم ، فالأديان كلها تضم قدراً من القيم ، وأتباعها محاسبون على القيم التى فى أديانهم ، لكنهم أيضاً يفسقون عنها .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ ﴾

وقد تكلم الحق من قبل فى المنافقين من غير الأعراب ، وهم العرب الذين نزل لهم وللناس كافة منهج الله ، وهنا يتكلم سبحانه عن الأعراب ، فما الفرق بين العرب والأعراب ؟

العرب هم سكان القرى المتوطنون فى أماكن ، يذهبون منها أو فيها إلى مصالحهم ؛ ويأوون إليها ؛ وهذه مظهرها البيوت الثابتة ، والتأهيل المستقر ، لكن الأعراب هم سكان البوادى ، وليس لهم استقرار فى مكان ، إنما يتتبعون مواضع الكلأ ؛ وليس لهم توطُّن ، ولا أنس لهم بمقام ولا بمكان .

ومعنى ذلك أن كلاّ منهم ليس له سياسة عامة تحكمه فى تلك البادية ، وكل واحد منهم- كما يقال - صوته من دماغه ، أو من دماغ رئيس القبيلة ، وما داموا بهذا الشكل ، وليس عندهم توطن ؛ يوحى بالمعاشرة

(١) الفسق إذا تعلق بالعقيدة فهو كفر ، فكل ما يفعله فهو فسوق أى خروج عن أمر الله ومراده ، وفسق المؤمن هبوط نفس مؤقت له التوبة، يقول الحق : ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ﴿١٧﴾ ﴾ [النساء] .

التى تقتضى لين الجانب وحسن التعامل ؛ لذلك يقال عن كل واحد منهم «مستوحش » أى : ليس له ألفة بمكان أو جيران أو قانون عام.

أما الذى يحيا فى القرية ويتوطنها فله جيران ، وله قانون يحكمه ، وله إلف بالمكان ، وإلف بالمكين ، ويتعاون مع غيره ، ويتطبع بسكان القرية ويألفهم ويألفونه ومع الإلف والائتلاف يكون اللين فى التعامل ، عكس من يحيا فى البادية ، فهو يمتلىء بالقسوة ، والفظاظة ، والشراسة ؛ لأن بيئته نضحت عليه [1] والوحدة عزلته .

فإذا سمعت « أعراب » فاعلم أنهم سكان البادية المشهورون بالغلظة ؛ لأنه لا يوجد لهم تجمع يوحى لهم بلطف سلوك ، وأدب تعامل ، وكلمة «الأعراب » مفردها « أعرابىّ» . وهناك أشياء الفرق بين مفردها وجمعها التاء ، مثل « عنب » و « عنبة » هى المفرد ، وقد يفرق بين الجمع والمفرد « ياء» مثل « روم » والمفرد « رومى » .

فـ « أعراب » - إذن - هى جمع « أعرابى » وليست جمع عرب. وهؤلاء مقسومون قسمين : قسم له إلف بالحضر ؛ لأن كل أهل حضر قد يكون لهم بادية يلجأون إليها ، أى أن الأعرابى حين يذهب إلى البادية فهو ينزل ضيفاً عليهم ، ويسمون « المعارف » ، وكل واحد فى البادية قد يكون له واحد فى الحضر ، إذا اضطر للذهاب للمدينة أو للقرية فهو ينزل عنده . وهناك قسم آخر لا بادية لهم ولا حاضرة.

وبعد أن تكلم الحق عن العرب ونفاقهم، يتكلم هنا عن الأعراب فيقول:

---

(١)ومن أمثلة غلظتهم أن أبا هريرة قال : قبّل رسول الله ﷺ الحسن بن على وعنده الأقرع بن حابس التميمى جالساً ، فقال الأقرع : إن لى عشرة من الولد ما قبلت منهم أحداً . فنظر إليه رسول الله ﷺ ثم قال : « من لا يرحم لا يرحم » . أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٩٩٧) ومسلم فى صحيحه أيضاً (٢٣١٨) .

﴿ الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

ولماذا هم أشد كفراً ونفاقاً ؟ لأنهم بعيدون عن مواطن العلم والدعوة[(١)] ، وعندهم غِلْظة ، وعندهم جفاء ، وقوله سبحانه :

﴿وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ﴾ يعنى : أحق ألاّ يعلموا حدود ما أنزل الله [(٢)] ؛ لأن عرفان حدود ما أنزل الله من الأوامر والنواهى ، والحلال والحرام ، يأتى من التواصل مع العلم ، وهذا لا يتأتَّى بالتنقل من مكان إلى آخر ، بل لا بد من الاستقرار . والعلم - كما نعرف - ألا تغيب عن العالم قضية من قضايا الكون ؛ وكل واحد منا يعلم علماً على قدر تجربته ومراسه فى الحياة ، وعلى قدر جلوسه إلى العلماء ، لكن الله وحده يعلم علم الجميع .

والعلم عند البشر قد يوظّف ، وقد لا يوظّف ، وكثير من الناس عندهم العلم لكنهم لا يُوظِّفونه ، ومن لا يُوظِّف علمه يصير علمه حُجة عليه . أما من يُوظِّف علمه ، ويضع الأمر فى محله ، والنهى فى محله ، والحلال فى محله ، والحرام فى محله ، والمشتبه يضع له حكماً مناسباً ، فهو يوصف بالحكيم ؛ لأنه وضع كل شىء فى محله .

---

(١) قد يقول قائل : كيف هذا ونحن نستشهد بأشعارهم ولغاتهم ، وعلماء اللغة من الأصمعى وغيره كانوا يجوبون قبائل الأعراب لتعرف لغاتهم . يقول أبو يحيى الأنصارى فى فتح الرحمن ص (١٧٢) : « وصفهم بالجهل إنما هو فى أحكام القرآن ، لا فى ألفاظه ، ونحن لا نحتج بلغتهم فى بيان الأحكام ، بل فى بيان معانى الألفاظ ؛ لأن القرآن والسنة جاءا بلغتهم » .

(٢) ومن طريف ما يروى فى هذا عن إبراهيم النخعى قال : جلس أعرابى إلى زيد بن صوحان وهو يحدث أصحابه ، وكانت يده قد أصيبت يوم «نهاوند» فقال الأعرابى : والله إن حديثك ليعجبنى ، وإن يدك لتريبنى . فقال زيد : ما يريبك من يدى إنها الشمال ؛ فقال الأعرابى : والله ما أدرى اليمين يقطعون أو الشمال . فقال زيد بن صوحان : صدق الله ورسوله ﴿ الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ ﴾ [التوبة : ٩٧]

فإذا شرع الله أمراً ، فسبحانه قد شرع عن « علم » وعن « حكمة » ، وما دام قد شرع يجب ألا نخالفه ؛ لأن كل تشريع ينزله الله على رسوله إنما هو لتنظيم حركة الحياة ؛ لأنه سبحانه هو الذى خلق الحياة وخلق كل المخلوقات ، وإياك أن تدس أنت أنفك فتشرِّع ما يغضب الحق ؛ لأن فساد الكون كله قد جاء من الذين أرادوا أن يُقنِّنوا للخلق ، رغم أنهم لم يخلقوهم . ونقول لهم : دعوا التقنين للخلق لمن خلق الخلق ، فهو الصانع العالم بحدود ما صنع ووضع قوانين صيانة ما خلق ، وهو سبحانه الذى يمكنه أن يصلحها إن أصابها عطب أو فساد.

ومن هؤلاء الأعراب - الذين هم أشد كفراً ونفاقاً ، وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله - قوم آخرون يقول عنهم الحق:

﴿ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ ﴾

وعلى سبيل المثال : إذا ذهب إليهم داعية من الدعاة ، وقال لهم فكرة عن الإسلام . فالواحد من هؤلاء الأعراب يدَّعى فى ظاهر الأمر أنه يتبع الإسلام ، وإن عُلِمَ أن فى الإسلام زكاة فهو يعطى عامل الزكاة النصاب المقرر عليه ، ويعتبر ما دفعه « مغرما » أى غرامة ؛ لأنه أعطى النصاب وهو كاره . ومادُمْتَ كارهاً فأنت لا تؤمن بحكمته ، وتظن أن ما دفعته مأخوذ منك . وتقول : « أخذوا عرقى» و« أخذوا ناتج حركتى » وأعطوه لمن لم يعرق ولم يتحرك فى الحياة ، متناسياً أن هذا الأخذ هو تأمين لحياتك ؛ لأنك حين تعجز ستجد من يعطيك ، والإسلام يأخذ منك وأنت قادر ، ويعطيك إذا عجزت ، وفى هذا تأمين لحياتك.

وأنت تعلم أن الأشياء أعراض فى الكون ؛ القوة عرض ، والمرض عرض ، والصحة عرض ، والعجز عرض ، وأنت عُرْضة إن كنت قادراً أن تصير عاجزاً ، وإن كنت صحيح الجسد فأنت عرضة لأن تمرض ، فإذا ما طمأنك المشرع على أن أخاك العاجز حين عجز أخذنا منك له حين قدرت ؛ وبذلك تواجه أنت الحياة برصيد قوى من الإيمان والشجاعة ، ويبين الحق لك أنك لا تعيش وحدك ، ولكنك تعيش فى مجتمع متكافل ، إن أصابك شىء من عجز ، فقدرة الباقى هى المرجع لك.

وكان الواحد من هؤلاء الأعراب يؤدى نصاب الزكاة وهو كاره ويعتبرها مَغْرماً ، ومنهم من كان يتمنى أن تصيب المسلمين كارثة ؛ حتى لا يأخذوا منه الزكاة ، وهكذا كان الواحد منهم يتربص بالمسلمين الدوائر ، مصداقاً لقول الحق : ﴿ وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ ﴾ . أى يتمنى وينتظر أن يصيب المسلمين كارثة ؛ فلا يأخذوا منه الزكاة التى اعتبرها مغرماً .

ولماذا قال الحق : ﴿ الدَّوَائِرَ ﴾ ؟ نعلم أن الخطْبَ الشديد حين يصيب الإنسان أو القوم إن كان فظيعاً وقويّاً يقال : « دارت عليهم الدوائر » . أى أن المصيبة أحاطت بهم ؛ فلا منفذ لهم يخرجون منه ، وكان بعض من الأعراب يتربصون بالمسلمين الدوائر ؛ لأنهم كارهون لدفع الزكاة ويظنون أنها غرامة ، ولا يستوعبون أن الزكاة تُكْتب فى الميزان ، وأنها تطهير ونماء للمال ، وأنها حمل لعجز العاجز ، إن عجز الواحد منهم ؛ فسوف يجد من يحمله.

والذى يتربص بكم الدوائر ، ولا يفطن إلى حكمة الأخذ منه ، هو الذى تأتى عليه دائرة السوء مصداقاً لقوله الحق : ﴿ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ ؛ لأن أيّاً منهم لم يفطن وينتبه لقيمة الوجود فى

المجتمع الإيمانى الذى يعطى له الزكاة إن عجز ، فإن تربصت الدائرة بمن يأخذ منك ، ولم تفطن إلى أن من يأخذ منك يصح أن يأخذ من الغير لك ؛ فسوف تأتى الدائرة عليك .

وقوله الحق : ﴿ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ﴾ تبدو كأنها دعوة ، ومن الذى يدعو ؟ إنه الله . وهناك فرق بين أن يدعو غير قادر ، وبين أن يدعو قادراً . إن كان ربنا هو من يقول : ﴿ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ﴾ ، فدائرة السوء قادمة لهم لا محالة .

وينهى الحق الآية : ﴿ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ ، فسبحانه يسمع كلماتهم حين يأتى عامل الزكاة ليأخذ نصاب الزكاة ، وكيف كانوا يستقبلونه بما يكره ، وقد يكرهون فى طى نفوسهم ولا يتكلمون ، فإن تكلموا فالله سميع ، وإن لم يتكلموا ، وكتموا الكراهية فى قلوبهم ، فالله عليم ، إذن : هم محاصرون بعلم الله وسمعه .

وبعد ذلك جاء الحق سبحانه للصنف الثانى ، وهم من لهم قليل من الإلف ، فإن كان من البادية فله أهل من الحضر ، أو كان من الحضر فله أهل من البادية ، فيقول سبحانه :

﴿ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ ۚ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾ ﴾

ومن هؤلاء من يؤمن بالله ، ويؤمن باليوم الآخر ، وما ينفقه من زكاة أو صدقة فهو يتخذه قربى إلى الله الذى آمن به ، وكنزاً له فى اليوم

الآخر ، و" قربى" : أى : شىء يقربه إلى الله ؛ يدخره له فى اليوم الآخر ، وقوله الحق : ﴿ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ ﴾ أى : يجعل ما ينفق قربة إلى الله وكذلك طلباً لدعاء الرسول ؛ لأن الصلاة فى الأصل هى الدعاء ، فساعة يصل إلى رسول الله ﷺ نفقة للمسلمين الضعاف ممن يعتبرها قربة ، فهو ﷺ يدعو له .

وقد قال ﷺ : « اللهم اغفر لآل أبى أوفى ، وبارك لهم » .

وقد دعا بذلك حين جاء له ما تزكى وتصدق به بنو أبى أوفى ، ودعوة الرسول مجابة إلا ما قال الله إنه سبحانه لا يجيبه [1] لحكمة .

ولقائل أن يقول : ألا يعلم من يقدم الزكاة والصدقة قربى ، أنه سبحانه غير مستفيد من هذا العمل ؟ ألا يعلم أنها قربى له شخصيّاً ؟ نعم إنه يعلم ، ويعلم أن الله يثيبه على أمر ينتفع به الفقراء ، وفى هذه إشارة إلى أن كل تكليف من الله إنما يعود نفعه إلى المكلَّف لا إلى المكلِّف . وما دام العائد إلى المكلَّف ؛ فالله يدعوك لصالح ذاتك وإلى خير لك .

ومن اعتبرها قربى إلى الله يأت لهم القول الحق : ﴿ أَلاَ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ ﴾ وقد قالَ ذلك للأعراب الذين أنفقوا قربى لله ، وطمعاً فى دعوات الرسول ﷺ ، فأوضح لهم سبحانه أنها قربى لهم ؛ لأنهم المنتفعون بها ، وأنه سيدخلهم فى رحمته . ورحمة الله هى نعيم مقيم ، وهى دائمة وباقية ببقاء الله الذى لا يُحَدّ ، أما الجنة فباقية وخالدة . بإبقاء الله لها . إذن : فدخولك فى رحمة الله أعلى من دخولك جنته .

فحين يقال : " دخل فى الرحمة " فمعنى ذلك أن الرحمة ستظله إلى ما لا نهاية .

---

(١) وذلك من نحو قوله تعالى : ﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴾ [التوبة : ٨٠] .

وحينما يسمع أى أعرابى قول الحق : ﴿ وَمِنَ الأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلاَ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ ﴾ ؛ فعندما سمع الأعرابى هذه الآية جلس يحدث نفسه بالعطاءات الإلهية . فيكبح جماح خطرات السوء فى نفسه، أو بالزلات أو بالهفوات التى قد ينطق بها ، وقد يقول الأعرابى لنفسه : إنى أخاف ألا يغفر الله الخطرات أو السيئات والهفوات ، فتأتى الآية مطمئنة له ما دام قد فعل السيئة بغفلة أو بسهو ، وعليه أن يعلم أن الله غفور رحيم ، ولا داعى أن يعكر على نفسه بالظَّن بأنه لن يدخل فى رحمة الله [(١)] .

لذلك جاء سبحانه بالقول : ﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ لعل واحداً ممن يسمع هذا ؛ يظن أن الجزاء والقربى والدخول فى رحمة الله خاصٌّ بمن لم يذنب ذنباً أبداً ، فيوضح له القول : اطمئن . إن كانت قد حصلت منك هفوة أو غفلة ، فاعلم أن الله غفور رحيم ، فلا يعكر عليك ذنبك إيمانك بأنك سوف تدخل فى رحمة الله .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ ﴾

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال النبى ﷺ : يقول الله تعالى : أنا عند ظن عبدى بى ، وأنا معه إذا ذكرنى ، فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، وإن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منهم ، وإن تقرب إلى شبراً تقربت إليه ذراعاً ، وإن تقرب إلىَّ ذراعاً تقربت إليه باعاً ، وإن أتانى يمشى أتيته هرولة » . أخرجه البخارى فى صحيحه (٧٤٠٥) ومسلم (٢٦٧٥) .

و " السابق " هو الذى حصل منه الفعل - بصدد ما هو فيه - قبل غيره ، وكلنا والحمد لله مؤمنون ، ومن آمنوا أولاً ، ومن آمنوا بعد ذلك كلهم مؤمنون ، لكنْ هناك أناس سبقوا إلى الإيمان ، فهل كان سبقهم سبق زمان أم سبق اتباع ؟ إن سبق الزمان يتحدد فى الذين عاصروا رسول الله ﷺ ، فإن ظن ظان أن المقصود بالسابقين هم الذين سبقونا سبق زمان ، فقد يقول منا قائل : وما ذنبنا نحن وقد جئنا بعد زمانهم ؟

ولذلك نقول : إنما السبق يعتبر من معاصر ، أى : كان معهم أناس غيرهم وهم سبقوهم ؛ ولذلك جاء القول : ﴿ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ ﴾ ونعلم أن الذين هاجروا مع الرسول لم يكن كل مسلمى مكة ، وجاء قوله : ﴿ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ ﴾ وأيضاً لم يكن كل الأنصار من أهل المدينة هم من السابقين .

وينحصر المعنى فى الذين سبقوا إلى الإيمان فى مكة ، وسبقوا إلى النصرة فى المدينة ، هؤلاء هم ﴿ السَّابِقُونَ ﴾ .

وفى سورة الواقعة يقول الحق : ﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (١٠) أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (١١) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (١٢) ﴾ [الواقعة]

ثم يأتى من بعدهم فى المرتبة : ﴿ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ (٢٧) ﴾ [الواقعة]

ثم يحدد الحق هؤلاء فيقول : ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ (١٣) وَقَلِيلٌ مِّنَ الآخِرِينَ (١٤) ﴾ [الواقعة]

ولذلك حينما يأتى من يقول : لن يستطيع واحد من أمة محمد ﷺ تأخر عن عصر محمد ﷺ أن يصل إلى منزلة الصحابة ؛ لأن الله قال:

﴿وَالسَّابِقُونَ﴾ ، نقول له : لا ، بل افطن إلى بقية قوله سبحانه :﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ . وَقَلِيلٌ مِّنَ الآخِرِينَ ﴾ ، وهذا دليل على أن بعضاً من الذين جاءوا بعد زمان رسول الله ﷺ سينالون المرتبة الرفيعة ، وهكذا لم يمنع الحق أن يكون من أمة محمد ﷺ إلى أن تقوم الساعة مَنْ يصل إلى منزلة الصحابة .

وقد طمأن النبى ﷺ الناس الذين لم يدركوا عهده حين قال :

« وددت أنِّى لقيت إخوانى » . فقال أصحاب النبى ﷺ : أو ليس نحن إخوانك ؟ . قال : « أنتم أصحابى ، ولكن إخوانى الذين آمنوا بى ولم يرونى »[1] .

وهذا قول صادق من المصطفى ﷺ ؛ لأن منا من تنحصر أمنيته فى أن يحُجَّ ويزور القبر الشريف . ويضيف النبى ﷺ فى وصف أحبابه :

« عمل الواحد منهم كخمسين » . قالوا : منهم يا رسول الله أم منا ؟ قال : بل منكم ؛ لأنكم تجدون على الخير أعواناً ، وهم لا يجدون على الخير أعواناً » .

وهذا ما يحدث فى زماننا بالفعل .

ولكن من هم السَّابِقُونَ المقصودون فى الآية التى نحن بصددها ؟

﴿ وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ ﴾ ونعلم أن السابقين من المهاجرين هم أهل بدر ، الذين دخلوا أول معركة فى الإسلام ، مع أنهم خرجوا من المدينة ، لا ليشهدوا حرباً ، ولكن ليتعرضوا عيراً تحمل بضائع ، ويرجعوا بالغنائم . ومع ذلك دخلوا الحرب ، لا مع القوافل التى ضمَّتْ العير

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٣/ ١٥٥) عن أنس بن مالك . وأورده الهيثمى فى مجمع الزوائد (١٠/ ٦٦) : « فى إسناد أحمد جسر وهو ضعيف » .

والحراس والرعاة [١] ، ولكن دخلوا الحرب مع النفير ، وهم من جاءوا ونفروا من مكة ، وهم صناديد قريش [٢] . وهكذا كانت منزلة أهل بدر ، أنهم من سبقوا إلى الجهاد فى أول معركة للإسلام .

ولذلك حين وشى حاطب بن أبى بلتعة بغزوة رسول الله ﷺ إلى مكة ، فجاء به ﷺ وقال له : ما الذى حملك على هذا ؟ وكان ﷺ يريد أن يفتح مكة دون أن يعلم أحد ؛ حتى لا يقاتل المسلمون القادمون بعضاً من المؤمنين الموجودين فى مكة ولم يعرفهم أحد ؛ لذلك أراد ﷺ المفاجأة فى الفتح ؛ حتى تهبط الشراسة الكفرية ، لكن حاطب بن أبى بلتعة كتب خطاباً إلى بعض أهل قريش ، فأخبر الله نبيه ﷺ ، فقال النبى ﷺ لعلىٍّ رضى الله عنه ومن معه : اذهب إلى مكان اسمه « روضة خاخ » فى الطريق بين مكة والمدينة ، فستجد ظعينة (مسافرة) معها كتاب إلى أهل مكة ، خبأته فى عقيصتها [٣] .

فلما ذهب على - رضى الله عنه - ومن معه يبحثون عن المرأة فى الموضع الذى ذكره لهم رسول الله ﷺ ، وجدوا المرأة ولكنها أنكرت أن معها كتاباً ، فهددوها ؛ فأخرجته من عقيصتها ؛ فوجده من حاطب بن أبى بلتعة إلى ناس من مشركى قريش . وعاد به إلى النبى ﷺ ، فأحضر النبى ﷺ حاطباً ، وقال له : ما حملك على هذا يا حاطب ؟ قال له : يا رسول

---

(١) وذلك أن أبا سفيان قد أخذ طريق الساحل بالعير، فقد قال له أحد عيونه : رأيت راكبين قد أناخا إلى هذا التل ، ثم استقيا فى شن لهما ، ثم انطلقا . فأتى أبو سفيان مناخهما ، فأخذ من أبعار بعيريهما ، ففته ، فإذا فيه النوى فقال : هذه والله علائف يثرب . فرجع إلى أصحابه سريعاً ، فضرب وجه عيره عن الطريق ، فساحل بها ، وترك بدراً بيسار ، وانطلق حتى أسرع . انظر : سيرة النبى لابن هشام (٢/٦١٨) .

(٢) الصناديد هم العظماء الأشداء ، وهم هنا : أبو جهل و أمية بن خلف وغيرهما من كبار كفار قريش .

(٣) العقيصة : هى نوع قريب من تضفير المرأة لشعرها . قال الليث : العقص أن تأخذ المرأة كل خصلة من شعرها فتلويها ثم تعقدها حتى يبقى فيها التواء ثم ترسلها .

الله : أنا لصيق [١] بقريش ولى فيها أهل ومال ، وليس لى بها عزوة ؛ فأردت أن أتخذ يداً [٢] عند قريش يعرفونها لى ؛ فيحافظوا على أهلى وعلى مالى ، وعرفت أن ذلك لا يضرك شيئاً وأن الله ناصرك . وما فعلته ينفعنى ولا يضرك ، قال : صدقت . صدقت . وأراد عمر - رضى الله عنه - أن ينزل عليه بسيفه ، فقال النبى ﷺ : « إنه قد شهد بدراً ، وما يدريك لعل الله اطّلَع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » [٣] .

لأن أهل بدر دخلوا المعركة بدون عُدَّة ، وبدون استعداد ، ومع ذلك هانت نفوسهم عليهم ، فكأن الله قال : أنتم عملتم ما عليكم ، وقد غفرت لكم كل ما تفعلونه من السيئات .

إذن : فالسابقون من المهاجرين هم أهل بدر وأهل الحديبية ، وهم أهل بيعة الرضوان الذين رُدُّوا مع رسول الله ﷺ عن العمرة ، ثم عقد النبى ﷺ مع القرشيين المعاهدة .

والسابقون من الأنصار هم من جاءوا للنبى فى مكة ، وأعطوا له العزوة وأعطوا له الأمان والعهد ، وكانوا اثنى عشر فى بيعة العقبة الأولى ، وخمسة وسبعين فى العقبة الثانية [٤] . هؤلاء هم السابقون ، وأضاف الحق إليهم ﴿ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ ﴾ أى : من يأتى من بعدهم .

---

(١) اللصيق : هو الرجل يقيم فى الحى وليس له بهم صلة نسب أو قرابة . وهذا كان حال حاطب . وقد جاء به الحديث .

(٢) يداً : أى فضلاً عليهم يعرفونه لى عند غزو المسلمين لمكة .

(٣) متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٠٠٧ ، ٤٨٩٠) ومسلم فى صحيحه (٢٤٩٤) . عن على بن أبى طالب رضى الله عنه .

(٤) انظر عدد من بايع رسول الله ﷺ من الأنصار فى البيعتين الأولى والثانية فى سيرة النبى ﷺ (٢/ ٤٣١ ، ٤٥٤) . أما عند بدء عرض الإسلام عليهم فقد كانوا ستة من الخزرج ، ولكنها لم تكن بيعة .

وسيدنا عمر له وقفة فى هذه الآية ، فقد كان رضى الله عنه يقرأها هكذا: « والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار » أى: يعطف كلمة الأنصار على « السابقون » وكانت قد نزلت : ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ﴾ ويكمل سيدنا عمر بعد « والأنصار » « الذين اتبعوهم بإحسان » أى: أنه جَعل « الذين اتبعوهم » صفة للأنصار.

وجاء زيد بن ثابت ليقول لسيدنا عمر : « قرأناها على غير هذا الوجه يا ابن الخطاب » . قال : فماذا ؟ قال : ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم﴾ .

فقال عمر : ابعث إلى أبىّ بن كعب ، وكان ابن كعب حجة فى القرآن[1] فقال أبىّ: هكذا سمعتها - كما قال زيد - من رسول الله ﷺ وأنت تبيع القَرَظ[2] فى البقيع. أى أن أبىّ بن كعب كان ملازماً للنبى ﷺ بينما عمر يبيع القرظ ، فضحك عمر وقال: لو قلت شَهِدت أنت وغِبْنا نحن ، وقرأها عمر من بعد ذلك كما نزلت[3] .

﴿ وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ ﴾ خصوصاً أن سيدنا أبيّاً البصير بالقرآن جاء بأكثر من دليل من غير هذه الآية فقد قال الحق:

﴿وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ ... ③﴾ [الجمعة]

---

(١) كان أبىّ بن كعب الأنصارى من أصحاب العقبة الثانية وشهد بدراً والمشاهد ، قال له النبى ﷺ : «ليهنك العلم أبا المنذر » أخرجه مسلم فى صحيحه (٨١٠) وأحمد بنحوه (٥/ ١٤٢) . وقال له : « إن الله أمرنى أن أقرأ عليك » . قال : آلله سمانى لك ؟ قال : الله سماك لى . قال : فجعل أبى يبكى » متفق عليه أخرجه البخارى (٤٩٦٠) ومسلم (٧٩٩) وكان عمر يسميه سيد المسلمين ويقول: اقرأ يا أبى . انظر : الإصابة فى تمييز الصحابة (١/ ١٦) ترجمة :٣٢ .

(٢) القرظ : ورق شجر كانت تدبغ به الجلود فى أرض العرب .

(٣)انظر تفسير ابن كثير (٢/ ٣٨٣) والقرطبى (٤/ ٣١٦٤) .

وقوله الحق فى سورة الحشر:

﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ ... (١٠) ﴾ [الحشر]

وهى معطوفة أيضاً [١].

وهنا فى الآية التى نحن بصددها يقول الحق:

﴿ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٠٠) ﴾ [التوبة]

وفى هذا القول ما يطمئن أمة محمد ﷺ ، فلم يَأت لنا فقط بخبر الفئة السيئة من المنافقين من العرب ، والمنافقين من الأعراب ، ولكنه أوضح لنا أن هناك أناساً أوصلوا لنا جمال هذا الإيمان.

ويقول الحق بعد ذلك:

﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ (١٠١) ﴾

أوضح سبحانه: وطِّنوا أنفسكم على أن من حولكم من الأعراب ومن أهل المدينة منافقون ، وهذا التوطين يعطى مناعة اليقظة ؛ حتى لا يندس واحد من المنافقين على أصحاب الغفلة الطيبين من المؤمنين ، فينبههم

(١) وقد استشهد أبىّ بن كعب أيضاً بآية : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُوْلَئِكَ مِنكُم ... ﴾ [الأنفال: ٧٥]

الحق : انتبهوا فأنتم تعيشون فى مجتمع محاط بالمنافقين. والتطعيم ضد الداءات التى تصيب الأمم وسيلة من وسائل محاربة العدو ، ونحن نفعل ذلك ماديّاً حين نسمع عن قرب انتشار وباء ؛ فنأخذ المصل الواقى منه ، رغم أنه داء إلا أنه يعطينا مناعة ضد المرض.

وهكذا يربى الحق المناعة بحيث لا يمكن أن يُهاجَم المؤمنون عن غفلة ، فيقول: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ﴾ و «مرد» يمرد أى : تدرب وتمرن ، ويبقى الأمر عنده حرفة ، وكأن الواحد منهم يجيد النفاق إجادة تامة. وكل ذلك ليوجد مناعة فى الأمة الإسلامية ؛ حتى يكون المؤمن على بصيرة فى مواجهة أى شىء ، فإذا رأى أى سلوك فيه نفاق اكتشفه على الفور . واليقظة تدفع عنك الضر ، ولا تمنع عنك الخير.

وافرض أن واحداً قال لك: إن هذا الطريق مَخُوف لا تمشِ فيه وحدك بالليل . ثم جاء آخر وقال : إنه طريق آمن ومشينا فيه ولم يحدث شىء ، فلو أنك احتطْتَ وأخذت معك سلاحاً أو رفيقاً فقد استعددت للشر لتتوقاه، فَهَبْ أنه لم يحدث شىء، فما الذى خسرته ؟ إنك لن تخسر شيئاً.

وهذه قضية منطقية فلسفية يُردّ بها على الذين يشككون فى دين الله ، مثل المنجِّمين ، ومَن يدَّعون الفلسفة ، ويزعمون أنه لا يوجد حساب ولا حشر ولا يوم آخر ، فيقول الشاعر:

زَعَم المنجِّم والطَّبيبُ كلاهما ... لا تُحْشَرُ الأجسَاد قلْتُ إليكُمَا

إنْ صَحَّ قولكُمَا فَلسْتُ بخَاسرٍ ... أوْ صَحَّ قَوْلِى فَالخسَار عليكُما

أى: إن كان كلامكم صحيحاً من أنه لا يوجد بعث - والعياذ بالله - فلن أخسر شيئاً ؛ لأنى أعمل الأعمال الطيبة . وإن كان هناك بعث - وهو

حق - فسوف ألقى الجزاء فى الجنة ؛ وبذلك لم أخسر ، بل كسبت . لكن افرضوا أنكم عملتم الشر كله وجاء البعث فأنتم الخاسرون . والقضية الفلسفية المنطقية هنا هى: إن لم أكسب فلن أخسر ، وأنتم إن لم تخسروا فلن تكسبوا.

والحق فى هذه الآية يقول:

﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ..﴾ وكلمة ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم ﴾ تفيد أنكم محاصرون ، لا ممن حولكم فقط ، بل أيضاً ببعض من الموجودين بينكم فى المدينة ، وهم من تدربوا على النفاق حتى صارت لهم ألفة به.

وهذه الآيات - كما نعلم - قد نزلت تحكى حال المنافقين. والنفاق تتعارض فيه ملكات النفس الإنسانية بأن توجد ملكة كفر فى القلب ، بينما توجد ملكة إيمان فى اللسان ، فلا يتفق اللسان مع القلب ، فالذين آمنوا يوافق ما ينطقون به ما فى قلوبهم ، والذين كفروا وافقت قلوبهم ألسنتهم.

أما الصنف الثالث: وهم الذين نطقوا بالإيمان بألسنتهم، ولم تؤمن قلوبهم ، فهؤلاء هم المنافقون.

وهو لفظ مأخوذ من « نافقاء اليربوع » ، وهو حيوان صحراوى يشبه الفأر ، ويخدع من يريد صيده ، فيجعل لبيته أو جحره عدة فجوات ، فإذا طارده حيوان أو إنسان يدخل من فجوة ، فيتوهم الصائد أنه سيخرج منها ، ويبقى منتظراً خروجه ، بينما يخرج اليربوع من فجوة أخرى ، فكأنه خادع الصائد ، فالصائد يظن أن للجحر باباً واحداً ، ولكن الحقيقة أن للجحر أكثر من مدخل ومخرج . والنفاق بهذه الصورة فيه ظاهرتان : ظاهرة مَرَضيّة فى المنافق ، وظاهرة صحية فى المنافَق ؛ ولذلك لم ينشأ النفاق فى مكة ، وإنما نشأ فى المدينة.

ومن العجيب أن ينشأ النفاق فى المدينة التى آوت الإسلام وانتشر منها ، وانساح إلى الدنيا كلها ، ولم يظهر فى مكة التى أرادت أن تطمس الإسلام ، وحارب سادتُها وصناديدُها الدعوةَ.

إذن: فلا بد أن نأخذ من النفاق ظاهرتين : الظاهرة الأولى وهى الظاهرة المرضّية ، حيث قال الحق:

﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ... (١٠)﴾ [البقرة]

أما الظاهرة الثانية فهى الظاهرة الصحية ، فقد أصبح الإسلام قويّاً بالمدينة غيره عند بدء الدعوة فى مكة . إنما يُنَافَق القوى [1] ؛ لأن المنافق يريد أن ينتفع بقوة القوى ، كما أن المنافق يعرف أنه لن يستطيع مواجهة القوى ، أو أن يقف منه موقف العداء الظاهر.

إذن: فالنفاق حين يظهر ، إنما يظهر فى مجالات القوة ، لا فى مجالات الضعف ، فالرجل الضعيف لا ينافقه أحد ، والرجل القوى ينافقه الناس . إذن: فالنفاق ظاهرة مرضية بالنسبة للمنافق ، وظاهرة صحية فى المنافَق.

وأراد الحق سبحانه أن يكشف للمؤمنين أمر المنافقين الذين يتلصصون عليهم ، أى : يتخذون مسلك اللصوص ؛ فى أنهم لا يُواجهون إلا فى الظلام ، ويحاولون أن يدخلوا من مداخل لا يراهم منها أحد ، ويتلمَّسون تلك المداخل التى لا تظهر ، ويُخْفون غير ما يظهرون.

أما مواجهة الكافر فهى مسألة واضحة ، صريحة ؛ فهو يعلن ما يبطن ، ويواجهك بالعداء . وأنت تواجهه بجميع قوتك وكل تفكيرك ؛ لأنه واضح الحركة . أما المنافق الذى يُظهر الإيمان وفى قلبه الكفر ، فهو

---

(١) لأنها تبين طبيعة نفسه ، فهذه النفس تنافق الأقوياء لضمان النفع ، ولا نفاق لفقير أو ضعيف لأنهما ليسا مصدرين لمنافع فلا ينافقهما أحد .

يتلصص عليك ، وعليك أن تحتاط لمداخله ؛ لأنه ينتظر اللحظة التى يطعنك فيها من الخلف.

وينبهنا الحق إلى ضرورة الاحتياط ، وأن يمتلك المؤمنون الفطنة والفراسة وصدق النظر إلى الأشياء ، وعدم الانخداع بمظاهر تلك الأشياء ، فكشف لنا سبحانه كل أوجه النفاق ؛ كشف منافقى المدينة حيث يوجد منافقون وغير منافقين ، ومنافقى الأعراب الذين يوجد بينهم منافقون وغير منافقين ، وعلّم الحق سبحانه المؤمنين كيف يتعرفون على المنافقين بالمظاهر التى تكشف ما يدور فى صدورهم.

وسبحانه القائل عن المنافقين : ﴿ **وَلَوْ نَشَاءُ لأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ** ... (٣٠) ﴾ [محمد]

ولكنْ هناك لون من النفاق ، نفاق فنى دقيق ، يغيب على فطنة المتفطن ، وعلى كياسته . ولذلك يوضح لنا سبحانه : أنا لا أكلُكم إلى فطنتكم لتعلموا المنافقين ، وإنما أنا أعلمه وأنتم لا تعلمونه ؛ لأنهم قد برعوا فى النفاق ﴿ **لاَ تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ** ﴾ ورغم فطنة رسول الله ﷺ وكياسته فقد أوضح له الحق أنه سيغيب عنه أمرهم ؛ لأنهم احتاطوا بفنّية النفاق فيهم حتى لا يظهر.

لقد عبّر القرآن التعبير الدقيق ، فقال : ﴿ **مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ** ﴾ والمادة نفسها فى كلمة ﴿ **مَرَدُوا** ﴾ هى من مرد ، يمرد ، مروداً ، ومارداً ، ومريداً ، هذه المادة تصف الشىء الناعم الأملس الذى لا تظهر فيه نتوءات، ومنه الشاب الأمرد ، يعنى الذى لم ينبت له شعر يخترق بشرته ، إذن : المادة كلها تدل على الثبات على شىء ، وعدم وجود شىء فيه يخدش هذا الثبات.

ويوضح سبحانه : تنبَّهوا ، فممَّن حولكم من الأعراب منافقون ، وقوله الحق : ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم ﴾ يشعرَ بأنهم محاطون بالنفاق ، ولماذا يحاطون بالنفاق ؟ لأن الدعوات الإيمانية لا تظهر إلا إذا طمّ الفساد فى بيئة .

ونعلم أن الحق قد جعل فى النفس أشياء تطرد الباطل ، وإن ألحّ الباطل عليها فترة ، تتنبه النفس إليه وتطرده [1] . وهؤلاء هم الذين يتوبون ، يقترفون الذنب ثم ترجع إليهم نفوسهم الإيمانية فتردعهم . إذن: فالردع إما أن يكون ذاتيّاً فى النفس ، وإما أن يكون من المجتمع للنفس التى لا يأتيها الردع من الذات ، فهى نفس أمَّارة بالسوء ، وهى لا تأمر بالسوء مرة وتنتهى ، بل هى أمّارة به ، أى : اتخذت الأمر بالسوء حرفة ؛ لأن صيغة « فعّال» تدلنا على المزاولة والمداومة .

وإذا كانت المناعة فى النفس فهذا أمر يسير ويأتى من النفس اللوامة ، وقد يكون المجتمع الذى حول الإنسان هو الذى يردع النفس إن ضعفت فى شىء . وبهذا تكون المناعة فى المجتمع ، أما إذا طمّ الفساد أيضاً فى المجتمع ؛ فلا النفس تملك رادعاً ذاتيّاً ، ولا المجتمع فيه رادع ؛ هنا لا بد أن تتدخل السماء ، وتأتى دعوة الحق بآياتها ، وبيناتها ، ومعجزة الرسول .

هنا يقف أصحاب الفساد - وتكون نفوسهم أمّارة بالسوء - موقفاً ينافقون به القوة الطارئة الجديدة ، بينما تظل نفوسهم أمّارة بالسوء ، فتظهر ظاهرة النفاق .

وقوله الحق : ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ ﴾ أى أنكم مطوقون فى ذاتكم ومن حولكم ، فالنفاق فى ذات المكان الذى تقيمون فيه ، وفيما حولكم أيضاً .

---

(١) يقول تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ ﴾ [الأعراف: ٢٠١] أى : استقاموا وصحوا مما كانوا فيه . قاله ابن كثير فى تفسيره (٢/ ٢٧٩) .

وأخشى ما يخشاه الإنسان ، أن يوجد الأمر الضار حوله و فيه ؛ لأنه إن كان الأمر الضار فى المكان الذى يعيش فيه ، فمن حوله يستطيعون إنقاذه أو يستطيع هو أن يهجر المكان ، لكن إن كان محاصراً بالضرر ممن حوله ومن المكان الذى يحيا فيه ، فإلى أين يذهب ؟

ويريد سبحانه أن ينبه المؤمنين إلى أن ظاهرة النفاق متفشية ؛ منها ما تستطيعون - أيها المؤمنون - معرفته بمعرفة حركات المنافقين وسكناتهم ولحن قولهم وتصرفاتهم [(١)] ، ومنها أمر دقيق خفى لا تعلمونه ، ولكنه سبحانه يعلمه ؛ ولأنكم غير مسلمين لأنفسكم ، ولكم رب يعلمكم ما لا تعلمون فاطمئنوا ؛ فسوف يفضحهم لكم . ونتيجة هذا العلم أنكم سترون فيهم العقوبات ؛ فيأتى فيهم القول الحق : ﴿ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ [(٢)] ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾ .

هم إذن سيعذبون مرتين فى الدنيا ، ثم يردون لعذاب الآخرة ، وأول عذاب لمن يستر نفاقه أن يفضح نفاقه ؛ولذلك خطب رسول الله ﷺ فقال: "قم يا فلان فأنت منافق ، قم يا فلان فأنت منافق ، قم يا فلان فأنت منافق" [(٣)]

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : « إن للمنافقين علامات يعرفون بها : تحيتهم لعنة ، وطعامهم نهبة ، وغنيمتهم غلول ، ولا يقربون المساجد إلا هجراً ، ولا يأتون الصلاة إلا دبراً ، مستكبرين لا يألفون ولا يؤلفون ، خشب بالليل ، صخب بالنهار » . أخرجه أحمد فى مسنده (٢/ ٢٩٣) والبزار (٨٥ - كشف الأستار) قال الهيثمى فى المجمع (١/ ١٠٢) : « فيه عبد الملك بن قدامة الجمحى ، وثقه يحيى بن معين وغيره وضعفه الدارقطنى وغيره » .

(٢) إحداهما فى الدنيا والأخرى فى القبر بعرض ما يعذب به فى الآخرة .

(٣) عن أبى مسعود الأنصارى قال : خطبنا رسول الله ﷺ خطبة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « إن فيكم منافقين ، فمن سميت فليقم . ثم قال : قم يا فلان ، قم يا فلان ، قم يا فلان . حتى سمى ستة وثلاثين رجلاً . . » . أخرجه أحمد فى مسنده (٥/ ٢٧٣) والبيهقى فى دلائل النبوة (٦/ ٢٨٦) قال الهيثمى فى المجمع (١/ ١١٢) : « فيه عياض بن عياض عن أبيه ولم أر من ترجمهما » .

أو تأتى له مصائب الدنيا . ولقائل أن يقول : وهل المصائب عذاب للمنافق ، إن المصائب قد تصيب المؤمن أيضاً ؟

ونرد : إن المصائب تأتى للمؤمن لإفادته ، ولكنها تأتى للمنافق لإبادته . فالمؤمن حين يصاب ؛ إما أن يكفر الله به عنه ذنباً ، وإما أن يرفعه درجة به [1] لكن المصائب حين تصيب المنافق فهى مغرم فقط ؛ لأن المنافق لا يرجو الآخرة ؛ ولذلك يقال :

إن المصاب ليس من أصيب فيما يحب ، ولكن المصاب هو من حرم الثواب .

فإن استقبل المؤمن المصيبة بالرضا ، وعلم أن الذى أجراها عليه حكيم ، ولا يجرى عليه إلا ما يعلم الخير وإن لم يعلمه ؛ فهو ينال الثواب على الصبر والأجر على الرضا ، وهكذا يخرج من دائرة الألم العنيف . أما غير المؤمن فهو يتمرد على القدر ، وبعدم إيمانه يُحْرَم من الثواب .

أو أن العذاب مرتين ، غير الفضيحة بنفاقهم ، فيتمثل فى محاولتهم أن يظهروا بمظهر الإيمان والإسلام ، فيخرج الواحد منهم الزكاة من ماله ، والمال محبب للنفس ؛ لذلك فهو يخرج الزكاة مرغماً ، ويشعر أنه قد خسر المال لأنه لا يؤمن بإله ؛ لذلك فمصيبته كبيرة . وقد يرسل المنافق ابنه للحرب وهو يعلم أنه ليس له فى ذلك ثواب ، وهذا لون آخر من العذاب .

وهذا العذاب متحقق بقول الحق : ﴿ **وَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى الدُّنْيَا ...** (٨٥) ﴾ [التوبة]

---

(١) عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : « ما يصيب المؤمن من شوكة فما فوقها ، إلا رفعه الله بها درجة ، أو حط عنه بها خطيئة » . أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٥٧٢) و أحمد فى مسنده (٦/٤٢) والترمذى فى سننه (٩٦٥) وقال : حديث حسن صحيح .

أو أن يكون العذاب فى الدنيا هو ما يرونه حين تغرغر النفس ، لحظة أن تبلغ الروح الحلقوم ، ويرى المُغَرْغِر الملائكة مصداقاً لقوله الحق :

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (٥٠) ﴾ [الأنفال]

وكل هذه ألوان من العذاب فى الدنيا .

والإنسان - كما نعلم - فى استقبال الزمن له ثلاث حالات : زمن هو حياته الدنيا ، وزمن هو زمن موته ، وزمن هو زمن آخرته . فحين يصاب المؤمن فى الزمن الأول - زمن حياته - يُعزِّيه فى مصابه الزمنُ الأخير ، وهو زمن آخرته .

أما حين يصاب الكافر أو المنافق فى زمن حياته ، فلا شىء يعزيه أبداً ؛ لأنه لا يؤمن بالله ولا هو يطمع فى شىء من خيره سبحانه .

ويأتيه الزمن الثانى ، وهو زمن الموت ، وفيه عذاب القبر .

والعذاب إنما يكون بأحد اثنين : إما عرض ما يعذب به ، أو دخول فيما يعذب به ، وهذا يكون فى الآخرة . أما عرض العذاب فهو فى القبر [(١)] كأنه يقول لك : انظر ما ينتظرك [(٢)] . وما دام الإنسان يرى الشر الذى

---

(١) وذلك من نحو قوله سبحانه : ﴿ وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ (٤٥) النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ (٤٦) ﴾ [غافر] قال ابن كثير فى تفسيره (٤/ ٨١) : «دلت الآية على عرض الأرواح على النار غدواً وعشياً فى البرزخ ، وليس فيها دلالة على اتصال تألمها بأجسادها فى القبور ، إذ قد يكون ذلك مختصاً بالروح ، فأما حصول ذلك للجسد فى البرزخ وتألمه بسببه فلم يدل عليه إلا السنة فى الأحاديث المرضية » .

(٢) عن ابن عمر قال: قال ﷺ : « إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشى ، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة ، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار فيقال : هذا مقعدك حتى يبعثك الله عز وجل إليه يوم القيامة » . أخرجه البخارى فى صحيحه (١٣٧٩) ومسلم فى صحيحه (٢٨٦٦) . واللفظ لمسلم .

ينتظره ، أليس هذا عذاباً ؟

إنه عذاب مؤكد .

﴿ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾ ولو قال الحق : " نعذبهم مرتين" فقط بدون السين ، لصار لها معنى آخر مختلف تماماً . يتلخص فى أن من يصيبه عذاب ، فقد انتهى حسابه . لكن قوله : ﴿ سَنُعَذِّبُهُم ﴾ يؤكد لنا كلما قرأناه أن العذاب متصل .

ويُنهى الحق الآية الكريمة بقوله :

﴿ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾ وكلمة ﴿ يُرَدُّونَ ﴾ مثلها مثل ﴿ يُرْجعون ﴾ أو ﴿ يَرْجعون ﴾ و نحن نقول مرة : " يُرْجعون" وأخرى "يَرْجعون" ، فكأن النفس البشرية تألف جزاءها فى قولنا : "يَرْجعون" ، أما قولنا : " يُرْجعون" ففى الكلمة قوة عليا تدفعهم ألا يتقاعسوا .

وهكذا نجد المعذَّب إما مدفوع بقوة عُليا ، وإما أن توجد فيه قوة ذاتية تجعله يذهب إلى العذاب . والإنسان قد يتصرف تصرفاً ما ، ثم يرد إلى أفكاره فلا يعجبه هذا التصرف ، ويستقبل نفسه بالتوبيخ وبالتعنيف ؛ لأن هناك إلحاحاً من النفس على العقوبة ، وهو إلحاح يأتى من ذات النفس .

والنفس الأمارة بالسوء قد تقضى حياتك معها فى أمر بالسوء ، ثم حين يأتى العقاب فأنت تقول لها : " اشربى أيتها النفس نتيجة ما فعلت " .

إذن فالمعذَّب يُدفع مرة للعذاب ، وأخرى يندفع بذاته .

﴿ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾ ومثلما قلنا من قبل : فإن هناك ألواناً متعددة من العذاب ، فهناك العذاب العظيم ، والأليم ، والمهين ، والمقيم. والعذاب العظيم يأتى إما بأسباب وإما بمسبِّب ، وعذاب الدنيا كله

بأسباب، فقد يكون العذاب بالعصا ، أو بالكرباج ، أو بالإهانة ، والأسباب تختلف قوة و ضعفاً ، أما عذاب الآخرة فهو بمسبِّب ، و المعذِّب فى الآخرة واحد وقوته لا نهاية لها ، وإن قسْتَ عذاب الآخرة بالعذاب فى الدنيا فمن المؤكد أن عذاب الآخرة عذاب عظيم [(١)] .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾

وقوله الحق : ﴿ وآخَرُونَ ﴾ معطوفة على قوله : ﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ ﴾ ، فهل يظلون جميعاً على النفاق ، أم أن منهم من يثوب إلى رشده ؛ ليجد أن موقفه مخز حتى أمام نفسه ؟ لأن أول ما ينحط المنافق إنما ينحط أمام نفسه ؛ لأنه نافق ولم يقدر على المواجهة ، واعتبر نفسه دون من يواجهه ؛ فيحتقر نفسه ، ولا بد أن منهم من يأنف من هذا الموقف ، ويرغب فى حسم المسألة : إما أن يؤمن وإما أن يكفر ، ثم يرجح الإيمان ، ويتخلص من النفاق ؛ بأن يعترف بذنوبه .

وبذلك يصبح ممن يقول الحق عنهم : ﴿ وآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ ﴾ أى : ممن لم يُصرّوا على النفاق [(٢)] ، واعترفوا بذنوبهم ، والاعتراف لون من الإقرار . والإقرار بالذنب أنواع ، فهناك من يقر بالذنب إفاقة ، وآخر

---

(١) عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « ناركم جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم . قيل : يا رسول الله إن كانت لكافية ، قال : فضلت عليهن بتسعة وستين جزءاً كلهن مثل حرها » . أخرجه البخارى (٣٢٦٥) ومسلم (٢٨٤٣) .

(٢) اعترافهم وتوبتهم عن التخلف عن رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك .

يقر الذنب فى صفاقة ، مثلما تقول لواحد : هل ضربت فلاناً ؟ فيقول : نعم ضربته ، أى أنه اعترف بذنبه ، وقد يضيف : وسأضرب من يدافع عنه أيضاً ، وهذا اعتراف فيه صفاقة .

أما من يعترف اعتراف إفاقة ، فهو يقر بأنه ارتكب الذنب ويطلب الصفح عنه ، وهذا هو الاعتراف المقبول عند الله . وهم قد ﴿ **اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ** ﴾ اعتراف إفاقة ، بدليل أن الله قال فيهم : ﴿ **خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا** ﴾ وعملهم الصالح هنا هو إقرارهم بالذنب ومعرفتهم أن فضيحة الدنيا أهون من فضيحة الآخرة ، أما عملهم السيىء فهو التخلف عن الجهاد والإنفاق .

واعترافهم هذا هو اعتراف الإفاقة ، واختلف العلماء : هل هذا الاعتراف يعتبر توبة أم لا ؟

نقول : إن الحق سبحانه وتعالى حينما قال : ﴿ **اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا** ﴾ ثم قوله : ﴿ **عَسَى** [1] **اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ أى : رجاء أن يتوب عليهم ، وهذه مقدمات توبة وليست توبة ، فإن صاحبها الندم على ما مضى ، والإصرار على عدم العودة فى المستقبل فينُظر هل هذا كان منه مخافة أن يُفضح أم موافقة لمنهج الله [2] ؟

إن كان الأمر موافقة لمنهج الله فتكون التوبة مرجوَّة لهم .

وكلمة ﴿**خَلَطُوا**﴾ تؤدى معنى جمع شيئين كانا متفرقين ، وجمع الشيئين أو الأشياء التى كانت متفرقة له صورتان ؛ الصورة الأولى : أن يجمعهم

---

(١) عسى فعل جامد دال على الترجى ، وإذا أسند الفعل إلى الله تعالى فمعناه أنه وعد بنفاذ الأمر المرجو أنه نافذ حتماً ، وعسى من أفعال الرجاء وتستعمل على أوجه أكثرها وجهان : الأول : أن يذكر بعدها اسم ظاهر ، والوجه الثانى : أن يذكر بعدها المصدر المؤول .

(٢) فإن كان موافقاً لمنهج الله كان القبول من الله .

على هيئة الافتراق ، كأن تأتى بالأشياء التى لا تمتزج ببعضها مثل: الحمص واللب والفول ، وتخلط بعضها ببعض فى وعاء واحد ، لكن يظل كل منها على هيئة الانفصال ، فأنت لم تدخل حبة اللب فى حبة الحمص ، ولم يتكون منهما شىء واحد ؛ لأنه لو حدث هذا لصار مزيجاً لا خلطاً ، مثلما تخلط الشاى باللبن ؛ لأنك بعد أن تجمعهما يصيران شيئاً واحداً ، بحيث لا تستطيع أن تفصل هذا عن ذاك .

إذن: فهم حين خلطوا العمل الصالح والعمل السَّيِّئ ، لم يجعلوا من العمل الصالح والعمل السَّيِّئ مزيجاً واحداً. لكن العمل الصالح ظل صالحاً ، والعمل الفاسد ظل فاسداً.

وقوله سبحانه : ﴿ عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ كلمة ﴿ عَسَى ﴾ معناها الرجاء [1] وهو ترجيح حصول الخير . وهو لون من توقع حصول شىء محبوب. والرجاء يخالف التمنى ؛ لأن التمنى هو أن تحب شيئاً وتتمنى أن يكون موجوداً ، لكنه لا يأتى أبداً، مثل قول الشاعر:

ألا لَيْتَ الشَّبابَ يَعُودُ يَوْماً ... فَأخبِرُه بِماَ فعلَ المشِيبُ

إنه قد تمنى أن يعود شبابه ، وهذا دليل على أن فترة الشباب محبوبة ، لكن ذلك لا يحدث. إذن: فإظهار الشىء المحبوب له لونان : لون يتأتى، ولون لا يتأتى ، فالذى يتأتى اسمه (رجاء) ، والذى لا يتأتى نسميه (التمنى) ، مثل قول الشاعر:

لَيْتَ الكَوَاكِب تَدْنُو لِى فَأنظمَهَا ... عُقُودَ مَدْحٍ فما أرضَى لَكُمْ كَلمَا

(١)قال القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣١٦٩) : « هذه الآية وإن كانت نزلت فى أعراب فهى عامة إلى يوم القيامة فيمن له أعمال صالحة وسيئة » . وقال ابن كثير (٢/ ٣٨٥) : « هذه الآية وإن كانت نزلت فى أناس معينين إلا أنها عامة فى كل المذنبين الخطائين المخلطين المتلوثين » - والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

فالشاعر يتمنى حدوث ذلك ، ولكنه لن يحدث. أما الرجاء فهو أمل يمكن أن يحدث ، والرجاء له منازل ومراحل بالنسبة للنفس الإنسانية. فأنت عندما ترجو لواحد شيئاً فتقول: «عسى فلان أن يمنحك كذا » ، فأنت هنا مُترَجٍّ ، وهناك مترجّىً له، هو من تخاطبه ، ومترجّىً منه ، وهو من يعطى ، فهذه ثلاثة عناصر.

لكن ألك ولاية على من يمنح ؟ لا ، لكن إن قلت: عسى أن أمنحك أنا كذا ، فأنت ترجو لواحد غيرك أن تمنحه أنت ، وهذا أرجى أن يتحقق. وحين تقول : « عسى أن أمنحك » فقد تقولها فى لحظة إرضاء للذى تتحدث معه . ثم قد يبلغك عنه شىء يغير من نفسك ، أو جئت ؛ لتعطيه ، فلم تجد ما تعطيه له ، هنا لم يتحقق الرجاء.

لكن عندما تقول : « عسى الله أن يمنحك » ، فأنت ترجو له من الله ، وهو القادر على كل شىء ولا تؤثِّر فيه أغيار ، أما إذا قال الله عن نفسه: « عسى الله أن يفعل » ، فهذا أقوى وسائل الرجاء.

إذن: فنحن أمام أربع وسائل للرجاء . أن تقول : « عسى فلان أن يمنحك » أو أن تقول : « عسى أن أمنحك أنا » ، أو تقول: « عسى الله أن يمنحك » وقد يجيبنى الله ، أو لا يجيب دعائى ، لكن حين يقول الحق: « عسى أن أفعل» فهذا هو اللون الرابع من ألوان الرجاء ، وقالوا : الرجاء من الله إيجاب.

﴿ عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ ، فهذا رجاء أن يتوب الله عليهم ، أما توبة [1] العبد فمسألة تقتضى الندم على ما فات ، والرجوع إلى منهج الله ،

(١) تاب : رجع عن المعاصى ، وتاب إلى الله رجع إليه بالطاعة بعد المعصية ، وتاب الله عليه وفقه للتوبة وقبلها منه - قال تعالى: ﴿فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ﴿٣٩﴾﴾ [المائدة]

والعزم على ألا يغضب الله فى المستقبل . أما توبة الله فهى تضم أنواع التوبة، فتشريع الله للتوبة رحمة بمن ارتكب الذنب ، ورحمة بالناس الذين وقع عليهم السلوك الذى استوجب التوبة. فإن تُبْتَ ؛ فقبول التوبة رحمة ثانية ، فلو لم يشرع الله التوبة لا ستشرى كل من ارتكب ذنباً واصطلى المجتمع بشروره. لكن حين يشرع الله التوبة ؛ فهناك أمل أن يرجع العبد إلى الله ، ويتخلص المجتمع من إمكانية عودته للذنب ، وانتهى هو من أن يوقع مصائب بغيره.

فإذا قَبِلَ الله التوبة ، يقال : « تاب الله على فلان »، فلله إذن أكثر من توبة، ولذَلك حين تقرأ قوله الحق :

﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ... (١١٨) ﴾ [التوبة]

أى : شرع لهم التوبة ؛ ليتوبوا ، فإذا تابوا فسبحانه قابل التوب . إذن: فالتوبة ثلاث مراحل : تشريع للتوبة ، ثم توبة واقعة ، فقبول للتوبة . والتوبة رجوع عن شىء ، وهى بالنسبة للعبد رجوع عن ذنب ، وبالنسبة لله إن كان الذنب يستحق أن يعاقب الله به ، فإذا تبت أنت ، فالحق يعفو ويرجع عن العقوبة [1].

ويُنهى الحق الآية : ﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ ؛ لأن المغفرة بالنسبة للعبد صعبة ، فإن سرق واحد منك شيئاً فهو يضرك ، ويلحّ عليك حب الانتقام منه ؛ لأن الضرر أتعبك ، لكن أيُتْعبُ أحد ربه بالمعصية ؟ لا ؛ لأنك إن

(١) قال الإمام أبو حامد الغزالى فى شرح اسم الله (التواب) : « هو الذى يرجع إلى تيسير التوبة لعباده مرة بعد أخرى ، بما يظهر لهم من آياته ، ويسوق إليهم من تنبيهاته ، ويطلعهم عليه من تخويفاته وتحذيراته ، حتى إذا اطلعوا بتعريفه على غوائل الذنوب استشعروا الخوف بتخويفه ، فرجعوا إلى التوبة ، فرجع إليهم فضل الله تعالى بالقبول » . المقصد الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى (ص ١٢٣) ط . مكتبة القرآن .

كنت قد أضررت بأحد فإنما أضررت بنفسك ، ولم تضر الله سبحانه ؛ لأنه سبحانه لا يلحقه ضررٌ بذنبك [(١)] ، وإنما الذنب لحقك أنت .

فحين يقول سبحانه : ﴿ غَفُورٌ ﴾ فهو غفور لك ، و﴿ رَّحِيمٌ﴾ بك . والمصائب أو الكوارث نوعان ؛ نوع للإنسان فيه غريم ، ونوع يصيب الإنسان ولا غريم له . فإن مرض إنسان فليس له غريم فى المرض ، أما إذا سرق إنسان فاللص هو غريمه ، ومصيبة الإنسان التى فيها غريم تدفع النفس إلى الانفعال برد العقوبة إليه ، أما حين تكون المصيبة من غير غريم فهى تحتسب عند الله ، ويقال : إن المصيبة التى ليس فيها غريم هى التى تحتاج لشدة إيمان ، والحق يقول :

﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ (٤٣) ﴾ [الشورى]

هنا يؤكدها ؛ لأن غريمه يلح عليه ، فساعة يراه يتذكر ما فعله غريمه به ، فتكون هناك إهاجة على الشر.

أما قوله سبحانه :

﴿ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ (١٧) ﴾ [لقمان]

فلم يؤكدها ، فالمصيبة هنا من سيكون غريمه فيها ؟ والذين اعترفوا بذنوبهم هم قوم تخلفوا بغير عذر ، ثم جاءوا وقالوا : ليس لنا عذر ، ولم يختلقوا أعذاراً ؛ لأننا نعلم أن هناك أناساً لم يعتذروا ، وأناساً آخرين

---

(١) عن أبى ذر عن النبى ﷺ فى الحديث القدسى : « يا عبادى . إنكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى . ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى . يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم . كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك فى ملكى شيئاً . يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكى شيئاً » . أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٥٧٧) وأحمد فى مسنده (٥/ ١٥٤ ، ١٧٧) والترمذى فى سننه (٢٤٩٥) وكذا ابن ماجه (٤٢٥٧) .

اعتذروا بأعذار صادقة ، وآخرين اعتذروا باعتذارات كاذبة ، وهم قد ﴿ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ ﴾ أى : أعلنوا أن اعتذاراتهم عن الغزوة لم تكن حقيقية وأنه لم يكن عندهم ما يبرر تخلفهم عن الغزو ؛ فهؤلاء تاب الله عليهم فى نفوسهم أولاً ، ورسول الله لا يزال فى الغزوة فى تبوك التى تخلفوا عنها .

ثم عاد الرسول من الغزوة ، ودخل المسجد كعادته حين يرجع إلى المدينة ، وأول عمل كان يعمله بعد العودة هو أن يدخل المسجد ، ويصلى فيه ركعتين[1] . فوجد أناساً قد ربطوا أنفسهم بسوارى المسجد وهى الأعمدة فسأل عن هؤلاء ، فقالوا : هؤلاء قوم تخلفوا و كانت أعذارهم كاذبة لكنهم اعترفوا بذنوبهم ، وقد عاهدوا الله ألا يحلوا أنفسهم حتى تكون أنت الذى تحلهم وترضى عنهم فقال ﷺ : «وأنا أقسم بالله لا أطلقهم ولا أعذرهم حتى أؤمر بإطلاقهم ؛ رغبوا عنى وتخلفوا عن الغزو مع المسلمين »[2] . فلما أنزل الله هذه الآية حلهم رسول الله ومنهم : أبو لبابة .

ولذلك من يذهب ليزور المدينة إن شاء الله ، سيجد أسطوانة اسمها " أسطوانة أبى لبابة " وهو أول من ربط نفسه على السارى ، وقلده الآخرون . وهذا يدلك على أن المؤمن حين تختمر فى نفسه قضايا الإيمان فهو لا ينتظر أن يعاقب من الله ، بل يبادر هو إلى أن يعاقب نفسه .

ومثال ذلك : المرأة التى زنت ، والرجل الذى زنا ، واعترفا لرسول الله ليرجمهما[3] ، ومعنى ذلك أنهما لم ينتظرا حتى يعذبهما الله ، بل ذهب

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٧٦٩) ضمن حديث طويل عن كعب بن مالك فى توبته من تخلفه عن غزوة تبوك مع رسول الله ﷺ . وأخرجه مختصراً أحمد فى مسنده (٣/ ٤٥٥) وأبو داود فى سننه (٢٧٧٣) .

(٢) انظر سبب نزول الآية فى تفسير القرطبى (٤/ ٣١٦٨) وأسباب النزول للواحدى (ص ١٤٨) .

(٣) الرجل هو ماعز بن مالك الأسلمى ، أخرج قصته البخارى فى صحيحه (٦٨١٥) ومسلم (١٦٩١) وفى بعض طرق مسلم أن ماعزاً قال : يا رسول الله إنى قد ظلمت نفسى وزنيت وإنى أريد أن تطهرنى . أما المرأة فهى الغامدية . أخرج قصتها مسلم (١٦٩٥) .

كل منهما بنفسه . ولذلك حين جاء سيدنا عمر ، وكاد أن يركل جثة أحدهما قال الرسول : « دعها يا عمر فقد تابت توبة لو وزعت على أهل الأرض لوسعتهم»[(١)] .

وكون أبى لبابة يربط نفسه بالسارية ، فهذا يدل على أن المؤمن إذا اختمرت فى نفسه قضية الإيمان ، فإنه لا يترك نفسه إلى أن يلقاه الله بعذابه ، بل يقول : لا ، أنا أعذب نفسى كى أنجو من عذاب الله ، فهو قد تيقن أن هناك عذاباً فى الآخرة أقسى من هذا العذاب . فلما اعترفوا بذنوبهم وراجعوا أنفسهم متسائلين : ما الذى شغلنا عن الغزو ، وجعلنا نعتذر بالكذب ؟ وجدوا أنهم فى أثناء غزوة تبوك وقد كانت فى الحر ، وفيه كانت تطيب جلسات العرب تحت الظلال وأن يأكلوا من التمر . فقالوا : والله ، إن المال هو الذى شغلنا عن الغزو وجعلنا نرتكب هذا الذنب ، و لابد أن نتصدق به ؛ لذلك قلنا : إن هذه لم تكن الصدقة الواجبة ، بل هى صدقة الكفارة .

وهؤلاء قالوا للرسول ﷺ : خذ هذا المال الذى شغلنا عن الجهاد ، فلم يقبل حتى ينزل قول من الله ، فأنزل الحق قوله :

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾

هذه هى الصدقة غير الواجبة ؛ لأنها لو كانت الصدقة الواجبة لما احتاجت إلى أمر جديد ، بل هى صدقة الكفارة .

---

(١) وذلك أن رسول الله ﷺ أمر بالمرأة فرجمت . ثم صلى عليها . فقال له عمر : تصلى عليها يا نبى الله وقد زنت ؟ . فقال : « لقد تابت توبة لو قسمت بين سبعين من أهل المدينة لوسعتهم ، وهل وجدت توبة أفضل من أن جادت بنفسها لله تعالى » أخرجه مسلم فى صحيحه (١٦٩٦) وأحمد فى مسنده (٤/ ٤٤٠) .

وقوله الحق : ﴿ مِنْ أَمْوَالِهِمْ ﴾ يعنى أموال من اعترفوا بذنوبهم ، وقد نسب الأموال وملكيتها لهم ، رغم أن المال كله لله ، مصداقاً لقوله :

﴿ وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِى آتَاكُمْ ... (٣٣) ﴾ [النور]

ولكن الحق ينقله إلى خلقه تفضلاً منه ، وأوضح سبحانه إذا قلت لكم : أخرجوا شيئاً من المال الذى وهبتكم إياه فلن أرجع فيما وهبته لكم ، ولذلك إذا احتاج مؤمن شيئاً من مؤمن مثله ، فالحق سبحانه وتعالى يقول:

﴿ مَن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ ... (٢٤٥) ﴾ [البقرة]

وسبحانه واهب المال وهو يحترم هبته لصاحب المال .

وقوله : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً ﴾ لاحظ فيه العلماء أن المال حين يضاف إلى صاحبه فهو تطمين له ، حتى يتحرك فى الحياة حركة فوق ما يحتاج ، ويبقى له شىء يتموّله ، وبذلك يحرص الإنسان على الحركة التى ينتفع بها الغير ، وإن لم يقصد . فيوضح له الحق : اطمئن إلى أن كل شىء سيزيد عن حاجتك يصبح ملكاً لك ، ولا يخرج المال عن ملكية صاحبه إلا إذا كان صاحبه غير أهل للتصرّف [1] ، مصداقاً لقوله الحق :

﴿ وَلاَ تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ ... (٥) ﴾ [النساء]

لأن السفيه [2] لا يصح أن يتملك ؛ لأنه بالحمق قد يضيع كل شىء ،

---

(١) وهذا ما يعرف بالحَجْر ، قال ابن كثير فى تفسير ﴿ وَلاَ تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ (٥) ﴾ [النساء] : « ومن ههنا يؤخذ الحجر على السفهاء ، وهم أقسام ، فتارة يكون الحجر للصغر فإن الصغير مسلوب العبارة ، وتارة يكون الحجر للجنون ، وتارة لسوء التصرف لنقص العقل أو الدين ، وتارة للفلس وهو ما إذا أحاطت الديون برجل مضاق ماله عن وفائها ، فإذا سأل الغرماء الحاكم الحَجْر عليه حَجَر عليه » . (١/ ٤٥٢) .

(٢) السفيه : هو ناقص العقل سىء التصرف يقول الحق: ﴿ وَلا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ (٥) ﴾ [النساء] أى : الذين يسيئون التصرف لجهلهم أو نقص عقولهم ، ويقول الحق أيضاً : ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ ... (١٣٠) ﴾[البقرة] حملها على الجهل والطيش .

فينزل الحق الحكم : إن مال السفيه الذى يملكه ليس ماله إنما هو مالكم . ولكن إلى متى ؟ فيأتى القول الحق :

﴿ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ .. (٦) ﴾ [النساء]

أى : ردوا إليهم أموالهم متى عادوا إلى الرشد وصاروا أهلاً للملكية .

والحق فى هذه الآية يقول :

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ والله سبحانه وتعالى هو صاحب المال ، وهو يأتى بالمال ، بالأسباب التى جعلها للبشر فى حركة الحياة ، وأمَّنهم على عرقهم ، وأمَّنهم على ما يملكون ؛ حتى لا يزهد أحد فى الحركة ؛ فلو أخذ كل واحد من حركته على قدر نفسه ، ولم يتملك المال ؛ لضنّ الناس بالحركة . وإذا ضن الناس بالحركة ؛ فلن يستفيد غير القادرين على الحركة ، فأراد الله سبحانه وتعالى أن يجعل ما يزيد على حاجات الناس ملْكاً لهم ؛ لأن النفس تحب أن تتملك، والتملك أمر غريزى فى النفس ؛ بدليل أن الله سبحانه وتعالى هو الذى طلب أن يؤخذ من الأموال ، وأوضح أنه يضاعفها له ، ومعنى أنه يضاعفها عنده أنه يُنمى فيه غريزة التملك.

وقوله الحق : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ ﴾ نلحظ فيه أن الأموال أضيفت لأصحابها ، ما لم يكن فيهم سفه فى التصرف أو عدم رشد ؛ بأن يكون وارث المال قاصراً لا يقدر على التصرف فيه ، فأوضح لنا سبحانه : لا تعتبروا مال السفيه ولا مال القاصر ماله ، ولكن ليرعى الوصىّ المال باعتبار أنه ماله هو ، وحذَّر سبحانه الوصىَّ : إياك أن تتعدى فى ملكية هذا المال ؛ لأن الذى جعله مالك ، إنما جعل الملكية من أجل القيامة على المال، ولأجل هو أن يبلغ القاصر رشده ، أو يرجع السفيه إلى عقله.

﴿ وَلاَ تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا ... (٥) ﴾[النساء]

فإياك أيها الوصى ، أن تظن أن الله قد أعطى لك هذا المال ، بل جعل لك حق القيام عليه فقط ، ثم يقول سبحانه : ﴿ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ﴾ ولم يقل : « فادفعوا إليهم أموالكم » وإلا كان الأمر صعباً على الناس .

وهنا ملحظية لحظها العلماء رضى الله عنهم ، وهو أن المال إذا كان فيه حق معلوم للسائل [1] والمحروم ، فلا يصح أن ينسب الإنسان المال كله لنفسه؛ لأن له شركاء فيه هما السائل والمحرو م ، فالمال - إذن - ملكية صاحبه باستثناء حق السائل والمحروم.

وفى آية أخرى قال الحق:

﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ (٢٤) لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (٢٥) ﴾ [المعارج]

و«الحق المعلوم » هو الزكاة المفترضة من نصاب معلوم بقدر معلوم ، وأما الأمر الثانى فهو حق أيضاً ، ولكن الذى يوجبه ويحدده هو صاحب المال على نفسه ، وهو التطوع ، ولذلك لم يقل : حق معلوم كما فى سورة الذاريات:

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ الَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩) ﴾ [الذاريات]

---

(١) الحق المعلوم هو الزكاة المفروضة ، والحق الغير معلوم هو ما ترك لاختيار النفس فى العطاء للوصول إلى مقام الإحسان بقدر كرمه مع الله .

لقد ذكر سبحانه هنا الحق ولم يقل إنه معلوم ؛ لأن صاحب المال داخل فى مقام الإحسان [(١)] ، وهو المقام الذى يلزم الإنسان فيه نفسه بشىء فوق ما فرض الله من جنس ما فرض الله . والله سبحانه لم يفرض على الإنسان أن يقوم الليل كله ، أو يظل الليل يستغفر ، بل إن المسلم له أن يصلى العشاء وينام ، ثم يقوم لصلاة الفجر. لكن إن وجد فى نفسه نشاطاً ، فهو يقوم الليل ؛ لأنه يريد أن يدخل فى مرتبة الإحسان.

وكذلك يؤدى المسلم الزكاة وهذا حق معلوم ، أما إن رغب المسلم فى أن يدخل فى مقام الإحسان فهو يزيد على الزكاة ، وقد جعل الله هذا حقّاً لكنه غير معلوم ؛ ليفسح لأريحيات الكرام أن يتجاوزوا الحق المعلوم ، فبدلاً من اثنين ونصف بالمائة ، قد يجعلها الداخل إلى مقام الإحسان ضعف ذلك أو أكثر.

ووقف العلماء رضى الله عنهم هنا وقالوا : إن قوله الحق : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ ﴾ لا يعنى اعتبار الجزء المأخوذ من المال للفقير هو حق الفقير ، بل هو مال المؤدى ، ولو بيّن الله حق الفقير وعزله عن مال صاحبه ، فهذا يعنى أن المال إن هلك فليس للفقير شىء ، ولكن لأن المال مال الغنى فحق الفقير محفوظ فى ذمة صاحب المال ، وهذا أفضل للفقير ، فإن الغنى لو لم يؤد الزكاة فى ساعتها ، وبعد ذلك حدث أن هلك المال ، فالغنى ضامن لحق الفقير.

---

(١) حَسُن الشىء صار حسناً جميلاً قال تعالى: ﴿ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ﴾ [النساء] - أى : صار رفيقاً حسناً - « وأحسنُ » أفعل تفضيل ، مؤنثه « الحسنى» قال الحق : ﴿ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴿١٨﴾ ﴾[الزمر] - وقال: ﴿ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ﴿٩٥﴾ ﴾ [النساء] - أى : المنزلة التى هى أحسن المنازل ، والإحسان هو الكرم المخلص والعطاء الخالص ، والإحسان إلى الوالدين إكرامها - وهو أعلى مقامات القرب إلى الله .

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ ﴾ والصدقة تطهرهم ؛ لأن الذنب الذى فعلوه واعترفوا به تسبّب فى تقذير أنفسهم بالمعصية ، وماداموا قد قذروا أنفسهم بالمعصية [(١)] ، فهم فى حاجة أن يُطهَّرُوا بالمال الذى كان سبباً فى عدم ذهابهم إلى الغزوة.

وانظر هنا إلى ملحظ « الأداء البيانى » فى القرآن ، فالحق سبحانه يقول: ﴿ خُذْ ﴾ وهو أمر للنبى ﷺ ، ويقول: ﴿ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً ﴾ من أموال الأغنياء ، هذه الصدقة ستذهب للمحتاج ، إذن هنا أربعة عناصر: آخذٌ هو رسول الله ﷺ ، ومأخوذ منه هو صاحب المال ، ومأخوذ هو المال ، ومأخوذ له هو الفقير المحتاج.

وما دام الأمر لرسول الله ﷺ ، فهذا الأمر ينسحب بالتالى على كل من وَلِىَ أمراً من أمور المسلمين . ولقائل أن يقول: ولكنها صدقة وليست زكاة. ونقول : ما دام الله هو الذى أمر بها تطهيراً فقد صارت واجباً، والآية صريحة ، وتقتضى أنه مادامت هناك ولاية شرعية ، فولى الأمر هو الذى يأخذ من الناس ويؤدى للفقراء ، أو لأوجه الصرف التى شرعها الله [(٢)] ؛ لأن الله لا يريد أن يعذب الفقير بأن يمد يده آخذاً من مُسَاوٍ له ، أما إن أخذ من الوالى وهو المسئول عن الفقراء ، فلن يكون عيباً ، كما أن

---

(١) أى: جعلوا أنفسهم محلا للّوم والتقبيح . وقد أخرج الإمام مالك فى موطئه (ص ٨٢٥) من حديث زيد بن أسلم مرسلاً أن رسول الله ﷺ قال: « أيها الناس قد آن لكم أن تنتهوا عن حدود الله، من أصاب من هذه القاذورات شيئاً فليستتر بستر الله . فإنه من يبدى لنا صفحته نُقِم عليه كتاب الله » .

(٢) ومصارف الزكاة قد بينها سبحانه فى قوله :﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾ ﴾ [التوبة] ، وقد سبقت خواطر فضيلة الشيخ وإلهاماته عند تفسير الآية. ولولى الأمر الذى يطبق شرع الله أن يأخذ من أموال المسلمين لإقامة صرح العدالة فى المجتمع مصداقاً لمفهوم الآيات .

الحق سبحانه يريد أن يحمى أهل الفقير من أن يعلموا أن البيت الفلانى يعطى لهم زكاة ، فيعانى أولاد الآخذ من المذلة أمام أولاد المعطى ، ويعيش أبناء المعطى فى تعال لا لزوم له. إذن: فحين يكون الوالى هو الذى يعطى فلن يكون هناك مُسْتعلٍ أو مُستعلًى عليه.

أما إن لم تكن هناك ولاية إسلامية، ولا يعلم الإنسان إلى أين ستذهب الأموال، فهنا يصبح على كل إنسان أن يراعى محيط دينه وهو يخرج الزكاة وحينئذ يكون عندنا مُعْطٍ هو صاحب المال، ومال مُعْطًى ، ومعطًى له هو الفقير.

وعلى من يعود قوله الحق : ﴿ تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم ﴾ ؟ السطحيون فى الفهم يقولون: إنها تطهر من نأخذ منه المال، وتزكّى المال الذى نأخذ منه. لكن من يملك عمقاً فى الفهم يقول: مادامت هناك فى هذه الآية عناصر، فضرورى أن يعود التطهير [1] والتزكية عليها ، وإنها تطهر وتزكى المأخوذ منه صاحب المال ، وكذلك تطهر وتزكى المال المأخوذ ، وأيضاً تطهر وتزكى المأخوذ له وهو الفقير ، لأن التطهير معناه إزالة قَذَر ، والتزكية نماء.

القذارة أمر عارض على الشىء الذى نغسله ونطهره ، وتنمية له بشىء عائد عليه فيزداد ، وهكذا تُطهر الصدقة وتزكى عناصر الفعل كلها. والتطهير لمن يعطى، له معنى معه ، والزكاة لها معنى معه ؛ لأنك إن أخذت منه المال ، فقد يكون قد غفل وأدخل فى ماله شيئاً فيه شبهة، فالصدقة والزكاة تطهران هذا المال.

---

(١) طهُرَ يَطهُر من باب كَرُم ونصر - طُهراً وطهَارة زال عنه الدنس والقذر حسياً ومعنوياً ، وطهرت النفس سلمت من الآفات الخلقية وتنزهت عن النفاق وعن الحقد وعن كل الرذائل قال تعالى : ﴿ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا ﴿٦﴾ ﴾ [المائدة] . هذا فى الحسيات وقوله تعالى : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴿١٠٣﴾ ﴾[التوبة] تنزه قلوبهم وأنفسهم من الآفات الخلقية ، وهذا فى المعنويات .

أما كيف تنمِّى صاحب المال ؟ أنت إن أخذت منه وهو قادر، معنى ذلك أنك تطمئنه أنه إذا احتاج فستعطيه ، وبهذا يعرف أنه لا يعيش فى المجتمع بمفرده ، ولا يخاف أن يضيع منه المال ، واطمأن لحظة أن أخذت منه المال وهو قادر كى تعطى المحتاج ، فكأنك تطمئنه وتقول له: أنت لو احتجت فلن تضيع ، وبذلك تُنمِّى تواجده وثقته ، وطهرته أيضاً من أن يكون فى ماله شبهة ، هذا من ناحية صاحب المال.

أما من ناحية المال نفسه ، فالصدقة تطهر المال ؛ لأن المال قد يزيد فيه شىء فيه شبهة فالزكاة تطهره.

وقد يخيل إليك أنك حين تأخذ من المال فهو ينقص ، عكس الربا الذى يزيد المال ، فالربا مثلاً يحقق زيادة للمائة جنيه فتصبح مائة وعشرة مثلاً، أما المزكِّى فالمائة جنيه تصير سبعة وتسعين ونصفاً ، والسطحى يرى أن الزكاة أنقصت المال وأن الربا يزيده ، ولكن هذا بمقاييس البشر ، لا بمقاييس من يملك الأشياء ؛ فالزكاة التى تعتبرونها نقصاً تنمِّى ، والربا الذى تعتبرونه ينمّى إنما يُنقص ، والحق يقول:

﴿ يَمْحَقُ اللَّهُ (١) الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ ... (٢٧٦) ﴾ [البقرة]

إذن : فهناك مقاييس عند البشر ، ومقاييس أخرى عند الحق ، فما رأيته منقصاً لك ، هو عند الله زيادة ، وما رأيته مزيداً لك ، هو فى الواقع نقصٌ ، كيف ؟ لأن الناس لا ينظرون إلا إلى رزق الوارد الإيجابى ، ويظنون أن هذا هو الرزق ، ولا يتذكرون أن هناك رزقاً اسمه « رزق السلب» ، فرزق الإيجاب قد يزيد دخلك مثلاً من مائة إلى مائة وعشرة .

---

(١) محقه من باب فتح : أنقصه ، أو أبطله ، أو أهلكه قال تعالى : ﴿ وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ (١٤١) ﴾ [آل عمران] أى يهلكهم وقال: ﴿ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا (٢٧٦) ﴾[البقرة] أى ينقصه أو يهلكه ، نقيض ما يفعل بالصدقات .

ورزق السلب يتمثل فى أنك تصرف سبعين فقط ، بدلاً من أن تصرف مائةً ، فيبقى لك ثلاثون ، بالإضافة إلى أنه يمنع عنك مصارف الشر ، هذا من ناحية المال.

والحق يقول:

﴿ وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلاَ يَرْبُو عِندَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ (٣٩) ﴾ [الروم]

وكيف تكون الصدقة تطهيرا للآخذ وهو لم يذنب ذنباً يحتاج إلى تطهير ، بل هو مُعطىً له لأنه محتاج ؟ ونقول: إن الآخذ حين يأخذ من مال غيره ، وهو عاجز عن الكسب فهو يتطهر من الحقد على ذى النعمة ؛ لأنه وصله بعض من المال الذى عند ذى النعمة ، فلا يحقد عليه ولا يحسده ، فهو إن رأى عنده خيراً ، دعا له بالزيادة ؛ لأن بعضاً من الخير يعود عليه.

والفلاحون فى ريف مصر يهدون بعضهم بعضاً من لبن ماشيتهم ، أو بعضا من الخير الخارج من لبنها ، وساعة أن تمر إحداها على أهل القرية يدعون الله بحمايتها ، وهكذا تتطهر نفس الفقير من الحقد والحسد.

هذا عن التطهير ، فماذا عن التزكية والنماء ؟ إن الفقير ساعة يرى نفسه فقيراً ، ويرى أن المجتمع الإيمانى يقوم برعايته ولا يتركه وحيداً ، ويتسابق أهل الخير لنجدته ، فنفسه تنمو بالاطمئنان ؛ لأنه فى مجتمع إيمانى. إذن: فقوله الحق : ﴿ تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم ﴾ راجع لكل العناصر فى الآية.

ثم يقول سبحانه: ﴿ وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ﴾ أى: ادع لهم بالخير؛ ولذلك كان النبى ﷺ كلما أتاه قوم بأى صدقة قال: « اللهم صَلِّ عليهم » فأتاه

أبو أوفى بصدقته ، فقال : « اللهم صَلِّ على آل أبى أوفى »[(١)] ، هذه هى التزكية القولية التى يحب كل مسلم أن يسمعها فيعطِى ، ويجدّ ويجتهد من ليس عنده ؛ ليسمعها من رسول الله ﷺ .

وقوله الحق : ﴿ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ﴾ أى : اطمئنان لهم ، وما دام الرسول ﷺ قد دعا له ، فهو قد اطمأن إلى أن صدقته وصلت إلى مرتبة القبول حيث جازاها رسول الله بالدعاء . وإذا ما سمعها الآخذ للصدقة يقول بينه وبين نفسه : ولماذا لا أجدّ فى حياتى وأجتهد ؛ حتى أظفر بتلك الدعوة من رسول الله ﷺ ؟

ويُنهى الحق الآية بقوله : ﴿ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ أى أنه سبحانه ﴿ سَمِيعٌ ﴾ لكل ما تعتبره قولاً . و﴿ عَلِيمٌ ﴾ بكل ما تعتبره فعلاً .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ ﴾

و﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا ﴾ مكونة من ثلاث كلمات هى : همزة استفهام ، « لم » حرف نفى ، و«يعلم» وهو فعل . فهل يريد الله هنا أن ينفى عنهم العلم أم يقرر لهم العلم ؟ لقد جاء سبحانه بهمزة يسمونها « همزة الاستفهام الإنكارى » والإنكار نفى ، فإذا دخل نفى على نفى فهو إثبات ، أى «فليعلموا » .

---

(١) متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (١٤٩٧) ومسلم (١٠٧٨) من حديث عبد الله بن أبى أوفى .

ولماذا لم يأت بالمسألة كأمر ؟ نقول: إن الحق حين يعرضها معرض الاستفهام فهو واثق من أن المجيب لا يجيب إلا بهذا ، وبدلاً من أن يكون الأمر إخباراً من الله ، يكون إقراراً من السامع .

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ ﴾ لماذا جاء الحق بكلمة ﴿هُوَ﴾ ، وكان يستطيع سبحانه أن يقول : "ألم يعلموا أن الله يقبل التوبة" ولن يختل الأسلوب ؟

أقول : لقد شاء الحق أن يأتى بضمير الفصل ، مثلما نقول : فلان يستطيع أن يفعل لك كذا . وهذا القول لا يمنع أن غيره يستطيع إنجاز نفس العمل، لكن حين تقول : فلان هو الذى يستطيع أن ينجز لك كذا . فهذا يعنى أنه لا يوجد غيره . وهذا هو ضمير الفصل الذى يعنى الاختصاص والقصر ويمنع المشاركة.

لذلك قال الحق: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ ...(١٠٤)﴾ [التوبة]

وهل كانت هناك مظنة أن أحداً غير الله يقبل التوبة ؟ لا ، بل الكل يعلم أننا نتوب إلى الله ، ولا نتوب إلى رسول الله. ونحن إذا استعرضنا أساليب القرآن، وجدنا أن ضمير الفصل أو ضمير الاختصاص هو الذى يمنع المشاركة فيما بعدها لغيرها؛ وهو واضح فى قصة سيدنا إبراهيم حين قال :

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (٧٠) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ(٧١) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (٧٣) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٧٤) قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (٧٧)﴾ [الشعراء]

ولم يقل سيدنا إبراهيم : "إنهم أعداء" ، بل جمعهم كلهم فى عصبة واحدة وقال : ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي ﴾.

و﴿إِنَّهُمْ ﴾ - كما نعلم - جماعة ، ثم يقول بعدها ﴿ عَدُوٌّ ﴾ وهو مفرد ، فجمعهم سيدنا إبراهيم وكأنهم شيءٌ واحد . وكان بعضٌ من قوم إبراهيم يعبدون إلهاً منفرداً، وجماعة أخرى يعبدون الأصنام ويقولون : إنهم شركاء للإله . إذن : كانت ألوان العبادة فى قوم إبراهيم عليه السلام تتمثل فى نوعين اثنين.

ولما كان هناك من يعبدون الله ومعه شركاء، فقول إبراهيم قد يُفسر على أن الله داخل فى العداوة ؛ لذلك استثنى سيدنا إبراهيمُ وقال : ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ ، أى : أن الله سبحانه ليس عَدُوّاً لإبراهيم عليه السلام، وإنما العداوة مقصورة على الأصنام . أما إن كان قومه يعبدون آلهة دون الله ، أى : لايعبدون الله ، لم يكن إبراهيم ليستثنى .

والاستثناء هنا دليل على أن بعضاً من قومه هم الذين قالوا :

﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ... ﴿٣﴾ ﴾ [الزمر]

وهكذا تبرأ سيدنا إبراهيم عليه السلام من الشركاء فقال : ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ وهذا كلام دقيق محسوب . وأضاف:

﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ ﴾[1] [الشعراء]

ولم يقل: " الذى خلقنى يهدينى" ، بل ترك "خلقنى" بدون "هو" وخَصَّ الله سبحانه وحده بالهداية حين قال : ﴿ فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ ؛ لأن "هو"

---

(١) إن الأفعال التى لا تصدر إلا عن الله سبحانه وتعالى ، وليس للمخلوق فيها دخل لم يأت بضمير التخصيص ، مثل قوله تعالى :﴿ الَّذِي خَلَقَنِي ﴿٧٨﴾ ﴾ [الشعراء] أما إذا كان الفعل يدعى البعض أنه فاعله فإن الأسلوب القرآنى يرد عليه بضمير الاختصاص ؛ لأن الهداية من الله ، وليس للعبد دخل فيها إلا بالقبول والالتزام .

لا تأتى إلا عند مظنة أنك ترى شريكاً له ، أما مسألة الخلق فلا أحدٌ يدّعى أنه خلق أحداً . فالخلق لا يُدَّعى ، ولذلك لم يقل " الذى هو خلقنى " .

والحق سبحانه هو القائل :

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ... (٨٧) ﴾ [الزخرف]

فليس هناك خالق إلا هو سبحانه . إذن : فالأمر الذى لا يقول به أحد غير الله لا يأتى فيه الضمير . لكن الأمر الذى يأتى فيه واحد مع الله ، فهو يخصَّص بـ" هو " تأكيداً على تخصيصه لله وحده ﴿ الَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ فليس لأحد أن يُدخل أنفه فى هذه المسألة ؛ لأن أحداً لم يدّع أنه خلق أحداً ، فمجىء الاختصاص - إذن - كان فى مجال الهداية بمنهج الحق ، لا بقوانين من الخلق . فمن الممكن أن يقول بشر : أنا أضع القوانين التى تسعد البشر ، وتنفع المجتمع ، وتقضى على آفاته ، ونقول : لا ، إن الذى خلقنا هو وحده سبحانه الذى يهدينا بقوانينه .

إذن : فما لا يُدَّعى فلا تأتى فيه (هو) ، أما ما يمكن أن يُدَّعَى فتأتى فيه (هو). وقوله سبحانه :

﴿ وَالَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ (٧٩) ﴾ [الشعراء]

وجاء هنا أيضاً بضمير الفصل؛ لأن الإنسان قد يرى والده وهو يأتى له بالطعام والشراب فيظن أن الأب شريك لله ؛ لذلك جاء بـ ﴿هُوَ﴾ ، فأنت إن نسبت كل رزق يأتى به أبوك، لانتهيت إلى مالم يأت به الأب ؛ لأن كل شىء فيه سببٌ للبشر ينتهى إلى ماليس للبشر فيه أسباب ، فكل شىء من الله ؛ لذلك قال سيدنا إبراهيم :

﴿ وَالَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) ﴾[الشعراء]

وخصص الشفاء أيضاً ؛ حتى لا يظن ظان أن الطبيب هو الذى يشفى ، وينسى أن الله وحده هو الشافى ، أما الطبيب فهو معالج فقط ؛ ولذلك تجد أننا قد نأخذ إنساناً لطبيب ، فيموت بين يدى الطبيب؛ ولذلك يقول الشاعر عن الموت :

إنْ نَام عنْكَ فَأىُّ طِبٍّ نَافِعٌ أوْ لم يَنَمْ فالطِّبُّ مِن أذنَابِهِ

فقد يعطى الطبيب دواءً للمريض ، فيموت بسببه هذا المريض. وجاء سيدنا إبراهيم بالقصر فى الشفاء لله ؛ حتى لايظن أحد أن الشفاء فى يد أخرى غير يد الله سبحانه. ثم يقول سيدنا إبراهيم :

﴿ وَالَّذِى يُمِيتُنِى ... (٨١) ﴾ [الشعراء]

ولم يقل : "هو" يميتنى ؛ لأن الموت مسألة تخص الحق وحده ، وقد يقول قائل : كان يجب أن يقول : "هو يميتنى" ، ونقول : انتبه إلى أن الموت غير القتل ، فالموت يتم بدون نقض للبنية ، والقتل لا يحدث إلا بنقض البنية ، ويضيف الحق على لسان سيدنا إبراهيم :

﴿ وَالَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١) ﴾ [الشعراء]

وأيضاً لم يقل : "هو يحيينى " ؛ لأن هذا أمر خارج عن أى توهم للشركة فيه ، فقد جاء بـ "هو " فى الأمور التى قد يُظن فيها الشركة ، وهو كلام بالميزان :

﴿ وَالَّذِى أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيئَتِى يَوْمَ الدِّينِ (٨٢) ﴾ [الشعراء]

لم يأت أيضاً بـ "هو" ؛ لأن المغفرة لا يملكها إلا الله [(١)] .

---

(١) وفى هذا يقول سبحانه : ﴿ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ ..﴾ [آل عمران: ١٣٥] .

إذن: فكل أمر معلوم أنه لا يشارك فيه جاء بدون «هو» ، وكل ما يمكن أن يُدَّعى أن فيه شركة يجيء بـ «هو» [(١)] .

وهنا يقول الحق: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ وظاهر الأمر أن يقال: ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة «من» عباده ، ولكنه ترك «من» وجاء بـ «عن». والبعض يقولون: إن الحروف تنوب عن بعضها ، فتأتى «من» بدلاً من «عن». ونقول: لا ، إنه كلام الحق سبحانه وتعالى ولا حرف فيه يغنى عن حرف آخر؛ لأن معنى التوبة ، أن ذنباً قد حدث ، واستوجب المذنب العقوبة ، فإذا قَبل الله التوبة، فقد تجاوز الله عن العقوبة؛ ولذلك جاء القول من الحق محدداً : ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ﴾ أى: متجاوزاً بقبول التوبة عن العقوبة.

وهكذا جاءت «عن» بمعناها ؛ لأنه سبحانه هو الذى قَبِل التوبة ، وهو الذى تجاوز عن العقوبة.

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ ﴾ صحيح أن الله هو الذى قال للرسول : ﴿ خُذْ ﴾ ولكن الرسول هو مناول ليد الله فقط ، و«يأخذ» هنا معناها « يتقبل » واقرأ قول الحق:

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ ...(١٦)﴾ [الذاريات]

أى: متلقين ما آتاهم الله . ومثال هذا ما يُروى عن السيدة فاطمة حينما دخل عليها سيدنا رسول الله ﷺ فوجدها تجلو درهماً ، والدرهم عملة من فضة . والفضة من المعادن التى لا تصدأ ، والفضة على أصلها تكون لينة

---

(١) وهذا يتلاقى مع ما ذكره القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣١٧٦) : « قوله تعالى: «هو» تأكيد لانفراد الله سبحانه وتعالى بهذه الأمور . وتحقيق ذلك أنه لو قال : إن الله يقبل التوبة ؛ لاحتمل أن يكون قبول رسوله قبولاً منه ، فثبتت الآية أن ذلك مما لا يصل إليه نبى ولا ملك » .

لذلك يخلطونها بمعدن آخر يكسبها شيئاً من الصلابة. والمعدن الذى يعطى الصلابة هو الذى يتأكسد ؛ فتصدأ الفضة ؛ لذلك أخذت سيدتنا فاطمة تجلو الدرهم. فلما دخل عليها سيدنا رسول الله ﷺ سألها: ما هذا ؟ قالت: إنه درهم . واستفسر منها لماذا تجلو الدرهم ؟ فقالت: كأنى رأيت أن أتصدق به ، وأعلم أن الصدقة قبل أن تقع فى يد الفقير تقع فى يد الله فأنا أحب أن تكون لامعة .

فعلت سيدتنا فاطمة ذلك ؛ لأنها تعلم أن الله وحده هو الذى يأخذ الصدقة.

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ . كل هذه الآية نفى لمظنة أن يتشككوا إذا فعلوا ذلك مع رسول الله ﷺ ، وأخذ رسول الله الصدقات ، فإن توبتهم قد قُبلَتْ ، ولكن الذى يقبل التوبة هو الله ، والذى يأخُذ الصدقات هو الله ؛ لأنه هو التواب الرحيم ؛ لذلك جاء قول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾

إذن : هم أعلنوا التوبة بعد أن اعترفوا بذنوبهم ، وخلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً ، وربطوا أنفسهم فى سوارى المسجد ، وقالوا: لا نحل أنفسنا حتى يحلّنا رسول الله ﷺ ، وقالوا: خذ من أموالنا صدقة لتطهرنا ؛ كل هذا جعل هناك حداً فاصلاً بين ماضٍ ندموا عليه ، ومستقبل يستأنفونه

قد ولد الآن . وبدأت صفحة جديدة ، فهل أنتم ستسيرون على مقتضى هذه التوبة أم لا ؟

ولا تظنوا أن أموركم ستكون فى الخفية بل ستكون فى العلن أيضاً، أما أموركم الخفية فسيعلمها الله ؛ لذلك قال: ﴿فَسَيَرَى اللَّهُ﴾. أما الأمور التى تحتاج لفطنة [1] النبوة فالرسول ﷺ بفطرته سيراها بنوره فى سلوككم . أما الأمور الظاهرة الأخرى فسيراها ﴿الْمُؤْمِنُونَ﴾.

نحن هنا أمام ثلاثة أعمال : عمل يراه المؤمنون جميعاً ، فالتزموا بهذا المنهج حتى يشهد لكم المؤمنون بما يرون من أعمالكم ، وإياكم أن تخادعوا المؤمنين ؛ لأن رسول الله بفطنته ونورانيته وصفائه وشفافيته سيعرف الخديعة ، أما إن كانت المسألة قد تتعمَّى على المؤمنين وعلى الرسول ، فالله هو الذى يعلم.

﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا ﴾ أى: اعملوا عملاً جديداً يناسب اعترافكم بذنوبكم ، ويناسب إعلانكم التوبة ، ويناسب أنكم ربطتم أنفسكم فى المسجد ، ويناسب أنكم تصدقتم بالأموال ، عمل تستأنفون به حياتكم بصفحة جديدة ، واعلموا أننا سنرقب عملكم ، الله يرقبه فيما لا يعلمه البشر ، وهو النيَّات ، ورسول الله يعلمه فيما يطابق نورانيته وإشراقه ، والمؤمنون يعلمونه فى عاديات الأمور [2].

---

(١) لأن للرسول صفات تليق به وهى : العصمة والأمانة والبلاغ والفطانة .

(٢) عن أبى سعيد الخدرى عن رسول الله ﷺ قال: « لو أن أحدكم يعمل فى صخرة صماء ليس لها باب ولا كوة لخرج عمله للناس كائناً ما كان » . أخرجه أحمد فى مسنده (٣/ ٢٨) والحاكم فى مستدركه (٤/ ٢١٤) وصححه وأقره الذهبى . وكذا أخرجه ابن حبان (١٩٤٢ - موارد الظمآن) .
وفى الحديث أن رسول الله ﷺ قال : « اتقوا فراسة المؤمن فإنه يرى بنور الله » . روى عن خمسة من الصحابة - فيما وقفت عليه - وكلها لا تسلم من مقال . ومنها حديث أبى سعيد الخدرى عند الترمذى فى سننه (٣١٢٧) وقال : غريب . فيه مصعب بن سلام . وللحديث طرق وروايات أخرى .

وهذه الرؤية من الله ومن الرسول ومن المؤمنين لا تكون لها قيمة إلا إذا ترتب عليها الجزاء ثواباً أو عقاباً ، فهى ليست مجرد رؤية ، بل إن الرائى يملك أن يثيب أو أن يعاقب. وأنكم راجعون إليه لا محالة. وإذا كنتم فى الدنيا تعيشون فى الأسباب التى يعيش فيها الكافر والمؤمن ، ويعيش فيها الطائع والعاصى ، فهناك عالم الغيب الذى يملكه الله وحده:

﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾﴾ [غافر]

إذن: سيعامل التائب معاملة جديدة ، ومادام قد تاب ، فلعله بسبب الغفلة التى طرأت عليه فأذنب ؛ غفل عن اليوم الآخر ، فيحتاج إلى تجديد التذكير بالإيمان.

لذلك قال: ﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾.

قوله سبحانه : (فَسَيَرَى) ذكر الفعل مرة واحدة ، فالرؤية واحدة ملتحمة بعضها ببعض لتروا هل أنتم على المنهج أم لا ؟

﴿ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ أما عالم الغيب فانفرد به الله سبحانه ، وأما عالم الشهادة فالرسول سوف يعلم عنكم أشياء ، وكذلك المؤمنون يعلمون أشياء ، وربنا عالم بالكل . وسبحانه لا يجازى على مجرد العلم ، بل بنية كل إنسان بما فعل ، وسبحانه يقول:

﴿ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾ [الإسراء]

ولذلك يُنهى الحق هذه الآية بقوله:

﴿ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ وهؤلاء الذين اعترفوا بذنوبهم ، وربطوا أنفسهم فى السوارى ، وتصدقوا بالأموال ، وأعطى الله فيهم حكمه بأن

جعل رسول الله هو من يحل وثاقهم من السوارى ، وقبل منهم الصدقات؛ ليسوا وحدهم ، فهناك أناس آخرون فعلوا نفس الأمر ، لكنهم لم يربطوا أنفسهم فى سوارى المسجد ، ولا اعترفوا بذنوبهم ؛ لذلك يجىء قوله الحق:

﴿ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ﴾

والمقصودون بهذه الآية هم الثلاثة الذين سيخصهم القرآن بآيات خاصة يقول فيها:

﴿ وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾ [التوبة]

وهؤلاء الثلاثة هم : كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيع [1] . وهم قد تخلفوا أيضاً عن غزوة تبوك ، ولم يكن لهم عذر فى التخلف أبداً ، فكل واحد يملك راحلته ، وعندهم مالهم ، وعندهم كل

---

(١) كعب بن مالك الأنصارى شاعر مشهور شهد بيعة العقبة الثانية وتخلف عن غزوة بدر وشهد ما بعدها ثم تخلف فى تبوك. توفى عام ٥٠ هـ فى زمن معاوية. (الإصابة فى تمييز الصحابة ٥/ ٣٠٩) .

أما هلال بن أمية الأنصارى فقد شهد بدراً وما بعدها ، مات فى خلافة معاوية ، وهو الذى ظهر صدقه فى قذفه لامرأته بالزنا (الإصابة ٦/ ٢٨٩) . أما مرارة بن الربيع الأنصارى ، فهو صحابى مشهور شهد بدراً أيضاً (الإصابة ٦/ ٧٦) .

شيء . وقد قصّ واحد منهم حكايته [(١)] ، وبيّن لنا أنه لم يكن له عذر : «وما كنت فى يوم من الأيام أقدر على المال والراحلة منى فى تلك الغزوة ، كنت أقول : أتجهز غداً ، ويأتى الغد ولا أتجهز ، حتى انفصل الركب ، فقلت ألحق بهم ، ولم ألحق بهم » .

هؤلاء هم الثلاثة الذين جاء فيهم القول : ﴿ وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ﴾

و﴿ مُرْجَوْنَ ﴾ أو «مرجَئون» والإرجاء هو التأخير . أى : أن الحكم فيهم لم يظهر بعد ؛ لأن الله يريد أن يبين للناس أمراً ، وخاصَّةً أن رسول الله ﷺ لم ينشىء فى الدولة الإسلامية سجناً يُعزَل فيه المجرم ؛ وهذا لحكمة ، فكونك تأخذ المجرم وتعزله عن المجتمع وتحبسه فى مكان فهذا جائز . لكن النكال فى أن تدعه طليقاً ، وتسجن المجتمع عنه .

وهكذا تتجلى عظمة الإيمان ؛ لذلك أصدر ﷺ أمراً بأن يقاطعهم الناس ، فلا يكلمهم أحد ، ولا يسأل عنهم أحد ، حتى أقرباؤهم ولا يختلط بهم أحد فى السوق أو فى المسجد .

وكان أحدهم يتعمد أن يصلى قريباً من النبى ﷺ ويختلس النظرات ليرى هل ينظر النبى له أم لا ؟ ثم يذهب لبيت ابن عمه ليتسلق السور ، ويقول له : أتعلم أننى أحب الله ورسوله ؟ فيرد عليه : الله ورسوله أعلم . وهكذا عزل رسول الله ﷺ المجتمع عنهم ، ولم يعزلهم عن المجتمع . وكذلك

---

(١) هو كعب بن مالك ، قال : « لم أكن قط أقوى ولا أيسر منى حين تخلفت عنه فى تلك الغزوة ، والله ما جمعت قبلها راحلتين قط حتى جمعتهما فى تلك الغزوة . . وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال ، فأنا إليها أصغى (أى : أميل) فتجهز رسول الله ﷺ والمسلمون معه ، وطفقت أغدو لكى أتجهز معهم فأرجع ولم أقض شيئاً وأقول فى نفسى : أنا قادر على ذلك إذا أردت ، فلم يزل ذلك يتمادى بى حتى استمر بالناس الجد . . . فلم يزل ذلك يتمادى بى حتى أسرعوا وتفارط الغزو . . . » حديث طويل أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٧٦٩) .

عزلهم عن زوجاتهم ، وهو الأمر الذى يصعب التحكم فيه. وحذر ﷺ زوجاتهم أن يقربوهم إلى أن يأتى الله بأمره.

﴿ وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾

هذا بالنسبة لنا - إما أن يعذبهم وإما أن يتوب عليهم. لكن الحق سبحانه وحده هو الذى يعلم مصير كل واحد منهم.

فالتشكيك إذن هو بالنسبة لنا ؛ لأنهم مُرْجَوْن لأمر الله ولم يبت فيهم بحكم لا إلى النار ولا إلى الجنة ، ولم يَبت فيهم بالعفو . أما أمرهم فهو معلوم له سبحانه إما أن يعذب وإما أن يتوب ؛ لأن كل حكم من الله له ميعاد يولد فيه ، ولكل ميلاد حكمة ، وهناك قوم عجّل الله بالحكم فيهم، وقوم أخّر الله الحكم فيهم ؛ ليصفى الموقف تصفية تربية ، لهم فى ذاتهم ، ولمن يشهدونهم.

وقد استمرت هذه المسألة أكثر من خمسين يوماً ؛ ليتأدبوا الأدب الذى يؤدبهم به المجتمع الإيمانى ، فلم يشأ الله أن يبين الحكم حتى يستوفى هذا التأديب.

وإذا أُدِّب هؤلاء ، فإن تأديبهم سيكون على مَرْأى ومسمع من جميع الناس ، فيأخذون الأسوة من هذا التأديب.

ولو أن الله عجّل بالحكم ، لمرّت المسألة بغير تأديب للمعتذرين كذباً وغيرهم ، فقال: ﴿ وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لأَمْرِ اللَّهِ ﴾ ومادام سبحانه قد حكم هنا بأنهم مؤخَّرون لأمر الله ، فليس لنا أن نتعجل قصتهم ، إلى أن يأتى قول الله فيهم:

﴿ وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا ... (١١٨) ﴾ [التوبة]

وأراد الله أن يقص لنا قصة أخرى من أحوالهم ، فقال :

﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ ۖ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٠٧) ﴾

يقص لنا القرآن هنا حالاً من أحوال المنافقين [(١)] ، وأحوالهم مع الإيمان متعددة . وقد ذكر الحق سبحانه عنهم أشياء صدَّرها بقوله : ﴿ وَمِنْهُمْ ﴾ ، ﴿ وَمِنْهُمْ ﴾ و ﴿ وَيَحْلِفُونَ ﴾ ، ﴿ وَيَحْلِفُونَ ﴾ ؛ ولذلك يسميها العلماء «مناهم التوبة» ، مثل قوله :

﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ ... (٧٥) ﴾ [التوبة]

وقول الحق :

﴿ وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ ... (٦١) ﴾ [التوبة]

وقوله الحق :

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي ... (٤٩) ﴾ [التوبة]

---

(١) وهم اثنا عشر من المنافقين اتخذوا مسجداً ضراراً ؛ مضارة لأهل مسجد «قباء» وكفراً ؛ لأنهم بنوه بأمر أبى عامر الراهب ، ليكون معقلاً له يقوم فيه من يأتى من عنده ، وكان قد ذهب ليأتى بجنود من قيصر لقتال النبى ﷺ وتفريقاً بين المؤمنين الذين يصلون فى قباء ، وإرصاداً وترقّبًا لمن حارب الله ورسوله ﴿ مِن قَبْلُ (١٠٧) ﴾ [التوبة] أى : قبل بنائه ، ﴿ وَلَيَحْلِفُنَّ ﴾ كذباً ما أردنا بالبناء ﴿ إِلَّا الْحُسْنَىٰ ﴾ من الرفق بالمسكين من المطر وحرارة الشمس ، والتوسعة على المسلمين ، ﴿ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ [الجلالين] بتصرف .

وقال الحق عنهم أيضاً : ﴿وَيَحْلِفُونَ﴾ ، ﴿وَيَحْلِفُونَ﴾ ، ﴿وَيَحْلِفُونَ﴾ ويقولون عنها : «محالف[1] التوبة» ، ويقص الحق هنا حالاً آخر من أحوال المنافقين ، وقد قص له نظيراً فيما سبق ، وهؤلاء المنافقون - كما قلنا - متعارضون فى ملكاتهم ، ملكة لسانية تؤمن ، وملكة قلبية تكفر. والمزاوجة بين الملكات المتناقضة أمر عسير على النفس وشاق ، ويتطلب مجهوداً عاطفياً ، ومجهوداً عقلياً ، ومجهوداً حركياً ، فَهُم إذا خَلَوْا إلى شياطينهم قالوا كلاماً ، وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا كلاماً ، ويقص الحق ذلك حين يعلنون الإيمان بألسنتهم فى قوله :

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا ... (١٤)﴾ [البقرة]

أما إذا خَلَوْا إلى أنفسهم فالحق يصف حالهم :

﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ ... (١٤)﴾ [البقرة]

---

(١) ذكرت مادة يحلفون فى سورة التوبة فى سبعة مواضع هى :

- ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ [التوبة : ٤٢]
- ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ [التوبة : ٥٦]
- ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ [التوبة : ٦٢]
- ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ﴾ [التوبة : ٧٤]
- ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ [التوبة : ٩٥]
- ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ..﴾ [التوبة : ٩٦]
- ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ..﴾ [التوبة : ١٠٧]

وكذلك وردت فى مواضع أخرى من القرآن :

ففى سورة النساء :

- ﴿ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾ [النساء : ٦٢]

وفى سورة المجادلة :

- ﴿مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [المجادلة : ١٤]
- ﴿فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ [المجادلة : ١٨]

وهكذا تُكْبَت ملكات لسانهم فى أن يقولوا وقت أن يكونوا مع المؤمنين، أما حين يكونون مع إخوانهم فهم يُنفِّسون عن ملكاتهم فيقولون قولاً مختلفاً ، وهذه مسألة متناقضة ؛ ولذلك قال القرآن فيما سبق:

﴿ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَئًا أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلاً لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ(٥٧) ﴾ [التوبة]

أى: لو أنهم يجدون مكاناً أميناً ، لا يراهم فيه المؤمنون ، لنفّسوا عن أنفسهم ، وسبّوا النبى ، وسبّوا المؤمنين ، وقالوا ما يريدون ، إلا أنهم لا يجدون هذا المكان ، إنهم يتمنون لو وجدوا ملجأ يلجأون إليه ،أو مغارة يدخلون فيها ؛ لكى يُنفِّسوا عن أنفسهم ؛ إذن : ﴿ لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴾ [1] ، لكنهم لا يجدون.

ويقص الحق سبحانه وتعالى هنا قصة أخرى من أحوالهم فيقول عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا ...(١٠٧) ﴾ [التوبة]

نحن نعلم أن كلمة «مسجد» فى عمومها هى مكان السجود ، وفى الخصوص هى مكان يحجز للسجود وللصلاة فقط ، فإن أردت المعنى العام، فكل الأرض مسجد[2]، وتستطيع أن تصلى فى أى مكان فيصير

---

(١) جمح الفرس : انطلق يعدو لا يثنيه شيءٌ ، أو غلب راكبه فجرى كما يريد ، قال تعالى : ﴿لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴾ [التوبة: ٥٧] أى: فروا خوفاً وفزعاً إلى أى ملجإ لا يردهم شيء كالخيل الجامحة.

(٢) عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال : « أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلى : كان كل نبى يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى كل أحمر وأسود ، وأحلت لى الغنائم . ولم تحل لأحد قبلى ، وجعلت لى الأرض طيبة طهوراً ومسجداً ، فأيما رجل أدركته الصلاة صلى حيث كان ، ونصرت بالرعب بين يدى مسيرة شهر ، وأعطيت الشفاعة » . متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٣٥) ومسلم (٥٢١) .

مسجداً ، لا بالمكان ولكن بالمكين [(١)] ، وبعد ذلك تزاول فيه أعمال الحياة ، وقد تصلى فى الفصل الدراسى أو المكتب أو المصنع أو الحقل أو فى أى مكان تزاول فيه أسباب الحياة.

وبذلك يصبح المكان الذى تصلى فيه مسجداً بالمكين ، ولكن هناك مسجد آخر مخصص دائماً للصلاة حين يؤخذ حيز من المكان ، ويقال: «حجز ليكون مسجداً » ، فلا تباشر فيه أى عملية من عمليات الحياة إلا الصلاة وهو مسجد - بالمكان - ، ونحن نعلم أن أول مسجد أسِّس هو مسجد قباء والذين بنوه هم بنو عمرو بن عوف ، ثم أراد المنافقون أن يُنفِّسوا عن أنفسهم فى صورة طاعة ، فبنوا مسجداً ضراراً ، وقد بناه بنوغُنْم بن عوف وأرادوا بهذا المسجد أن ينافسوا مسجد قباء.

ونعلم كيف يكون الضرار بين المتنافسين على شىء ، كما يحدث الآن تماماً ، وتسمع من يقول : ولماذا أقام الحى الفلانى مسجداً ، ولم نُقم نحن مسجداً ؟

وعلى ذلك فكل مسجد فيه هذه الصفة ؛ صفة التنافس للحصول على سمعة أو تحيز لجهة على جهة ، أو رياء ، فهذا يعتبر مسجداً ضراراً ؛ لأن كل هذه المسائل فرقت جماعة المسلمين.

وقد يقول قائل : ولكن هذا الأمر ظاهرة صحية ، ونقول : لا ، إن لنا أن نعرف أنها ظاهرة مرضية فى الإيمان ؛ لأنك حين ترى المسجد وليس

---

(١) مكُنَ من باب كَرُمَ - مكانة فهو مكين : ثبت واستقر فهو ثابت ومستقر قال تعالى : ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ [يوسف: ٥٤] أى : عظيم ثابت المنزلة ومَكَّن له فى الشىء ثبته قال تعالى : ﴿أَوَ لَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا ﴾[القصص: ٥٧] أى : حرماً ثابتاً ، وأمكنه من عدوه نصره عليه ، قال تعالى : ﴿فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ﴾ [الأنفال: ٧١] .

فيه صفان مكتملان ، ثم يوجد بعده بعدة أمتار مسجد ، وهناك مسجد ثالث بعد عدة أمتار ، ثم مسجد رابع ، فهذه كلها مساجد ضرار[(١)] .

إذن : فـ«المسجد» بمعناه الخاص هو المكان الذى يحيز حتى يصير مسجداً ، لا يزاول فيه شيء غير المسجدية ، ولذلك نجد النبى ﷺ حين رأى واحداً ينشد ضالته فى المسجد ، قال له : « لا رد الله عليك ضالتك »[(٢)] . لأن المسجد حين تدخله فأنت تعلن نية الاعتكاف لتكون فى حضرة ربك ، وعندك من الوقت خارج المسجد ما يكفيك لتتكلم فى مسائل الدنيا .

إذن : فهؤلاء القوم أرادوا أن يُنفِّسوا عن نفاقهم بمظهر من مظاهر الطاعة ، فقالوا : نقيم مسجداً ، وبذلك نفرق جماعة المسلمين ، فجماعة يصلون هنا ، وجماعة يصلون هناك ، وإن قعدنا نحن نصلى فيه فنكون أحراراً ، ونتكلم مثلما نريد ، أما حين نذهب للصلاة فى المسجد الآخر ، فنحن نجلس هناك مكبوتين ، وغير قادرين على الكلام ، ونحن نريد أن ننفس عن أنفسنا .

فهم بَنَوْا المسجد ، ثم طلبوا من رسول الله ﷺ أن يصلى معهم فى المسجد الجديد أثناء خروجه لغزوة تبوك فاعتذر رسول الله ﷺ وأوضح

---

(١) هذا يتلاقى مع ما قاله القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣١٨٠) : « قال علماؤنا : لا يجوز أن يبنى مسجد إلى جنب مسجد ، ويجب هدمه والمنع من بنائه لئلا ينصرف أهل المسجد الأول فيبقى شاغراً ، إلا أن تكون المحلة كبيرة فلا يكفى أهلها مسجد واحد فيبنى حينئذ . وكذلك قالوا : لا ينبغى أن يبنى فى المصر الواحد جامعان وثلاثة ، ويجب منع الثانى ، ومن صلى فيه الجمعة لم تجزه » . واللغة تقول : ضاره يضاره مضارة وضراراً مفاعلة بين اثنين ﴿لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ﴾[البقرة: ٢٣٣] وإحداث مسجد كهذا ضار لجمع المسلمين ومدعاة للتفرق .

(٢) عن أبى هريرة قال قال ﷺ: « إذا رأيتم من يبيع أو يبتاع فى المسجد فقولوا : لا أربح الله تجارتك ، وإذا رأيتم من ينشد ضالة فقولوا : لا ردها الله عليك » . أخرجه النسائى فى عمل اليوم والليلة (ص ٧٣) والدارمى (١/ ٣٢٦) والترمذى (١٣٢١) وقال : حسن غريب .

لهم: إننا فى حال لا يسمح بذلك ، وإن شاء الله عند عودتنا من الغزوة نصلى فيه . وبعد أن عاد من الغزوة حاولوا أن يستوفوه وعده ، ويطلبوا منه الوفاء بوعده ، فإذا بجبريل ينزل عليه بالآيات التى توضح حكاية هذا المسجد ، وكيف أنه مسجد ضرار ؛ لأن الله علم نيتهم فى ذلك.

ومعنى «الضرار» من المضارة ، وأنهم أرادوا أن يأخذوا راحتهم فى كل الزمن ، وأن يبتعدوا عن التواجد مع المؤمنين فى المسجد الذى يصلى فيه رسول الله ، ويريدون أن يخلو بعضهم ببعض ، وأن يتكلموا كما يريدون فى مضارة المسلمين ، ويفرقوا بين جماعة المسلمين . ثم يقول سبحانه: ﴿ وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ .

إذن: فكل ما يفتت جماعة المسلمين هو أمر ضار بمصلحة الإسلام ؛ لأن الإسلام يريد أن يعلم الناس أنهم قوة مجتمعة ، ويكون أمر هذه القوة واضحاً ؛ ولهذا أباح الحق أن تصلى الصلوات فى أى مكان ، وحتَّم أن نصلى جميعاً يوم الجمعة فى مكان واحد ؛ ليفرح المسلمون حين يرون أنفسهم مقبلين على الدين ، ويلتقى كل واحد منهم بالآخر ؛ ولذلك كان مسجد الضرار هذا تفريقاً بين المسلمين.

ثم يقول سبحانه:

﴿ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ﴾ والإرصاد [1] هو الترقب ، ولذلك يقال : لقد استمر القوم فى المكان الفلانى لرصد فلان ، أى: أنهم أناس يترقبون مجيئه بمكان ليفتكوا به ، وهذا هو ترقب الكراهية لا ترقب

(١) أرصد : أعد وجهز ، قال تعالى: ﴿وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ﴾ [التوبة: ١٠٧] أى : أعدوه لأعداء الإسلام الذين كانوا ولايزالون يحاربونه ، فمسجد الضرار كان مأوى لمن يريد أن يكيد للإسلام .

الحب. والذين أقاموا هذا المسجد أرصدوه مترقبين ومنتظرين إنساناً له سابقة فى عداء رسول الله ﷺ [(١)]، وهو الذى طلب منهم إقامة هذا المسجد وهو «أبو عامر الراهب» وقد سماه رسول الله «الفاسق».

وأبو عامر هذا رجل تنصَّر فى الجاهلية، ولم تكن الجاهلية بيئة ديانات، فمن كان مثلاً يسافر إلى مكان ويسمع بدين فهو يأتى به ليدعو لهذا الدين ويترأس من يتبعونه، وأبو عامر من هؤلاء الذين تنصَّروا وصاروا فى المدينة، فلما جاء رسول الله ليبطل كل هذه الأشياء فى المدينة وزالت رياسته، عادَى رسول الله ﷺ، حتى قال له فى أحد: ما رأيت قوماً يقاتلونك إلا قاتلتكَ معهم. وحين تمكن الإسلام فى المدينة فر إلى مكة، ولما فتحت مكة فرّ إلى الطائف، فلما آمن أهل الطائف، لم يجد له وطناً فذهب إلى الروم «بالشام». ثم كتب للمنافقين أن أعدّوا مسجداً؛ لأنى سآتى لكم بقوة من ملك الروم؛ لأهاجم محمداً وأحاربه وأخرجه من المدينة [(٢)].

إذن: فهم قد بَنَوْا ذلك المسجد ضراراً، وكفراً، وتفريقاً، وإرصاداً، أى: ترقباً وانتظاراً لذلك الراهب الذى سيذهب إلى الشام ويأتى بجنود لمحاربة الله ورسوله. ورغم أنهم قد فعلوا ذلك، فقد امتلكوا جراءة الطلب من رسول الله أن يصلى معهم فيه بهدف ترسيم هذا المكان مسجداً ليصلى

(١) من هذا ما ذكره ابن هشام فى السيرة النبوية فى غزوة أحد (٣/ ٨٠): «وقع رسول الله ﷺ فى حفرة من الحفر التى عمل أبو عامر ليقع فيها المسلمون، وهم لا يعلمون، فأخذ على بن أبى طالب بيد رسول الله، ورفعه طلحة بن عبيد الله حتى استوى قائماً». انظر أيضاً تفسير ابن كثير (٢/ ٣٨٧).

(٢) قصة نفاق هذا الرجل وعدائه لرسول الله ﷺ مذكورة فى أسباب النزول للواحدى (ص١٤٩)، وتفسير القرطبى (٤/ ٣١٨٣) وابن كثير (٢/ ٣٨٧، ٣٨٨) وسيرة ابن هشام (٣/ ٨٠). وهو والد صحابى جليل هو حنظلة غسيل الملائكة، استشهد يوم أحد وهو جنب فغسلته الملائكة.

فيه الناس ما دام رسول الله ﷺ قد صلى فيه ، وظنوا أن هذه المكيدة سوف تفلح ، ولكن الله الذى يحرس نبيه ، ويحرس دينه من المنافقين ، كشف له حقيقة هذا المسجد.

وقد يتغافل رسول الله ﷺ عن المنافقين بعض الشىء لحكمة ؛ فهم قد أخذوا بالإسلام لوناً من الصحبة ، ولم يفضحهم أولا حتى لا يقال : إن محمداً يحارب أصحابه[1] ؛ لذلك فرسول الله ﷺ كان يعلم ما لم يكن يعلمه غيره ؛ لذلك أراد أن يحمى الإسلام من لسان من لم يعلم . ولكن بعد أن انكشف الأمر أرسل رسول الله ﷺ «مالك بن الدُّخْشم» و«عامر بن السكن» ، و«وحشىّ» قاتل حمزة، و«معن بن عدى» ليهدموا هذا المسجد ، وأن يجعلوا فى موضعه مكان «القمامة». وبذلك فُضِحَ المنافقون ، فَأسرُّوها فى نفوسهم.

وأنت إذا رأيت من عدوك فعلاً تكرهه ، فعليك أولاً أن تفسد عليه الفعل، هذه أول مرحلة ، فإذا تكرر الفعل منه ، ولم يرتدع ، لابد أن تضعه فى مكانه اللائق به . والمنافقون أرادوا بهذا المسجد الضرر والإضرار بالإسلام ، وكان يجب أن يكفوا عن مثل هذا العمل ما دام الحق قد كشفهم. لكنهم لم يكفوا ، وظلوا سادرين فى العداوة للإسلام ؛ لذلك كان لابد كما تخلصت أولاً من الفعل أن تتخلص من الفاعل ؛ لذلك أصبحوا خائفين من أن يتجه الردع إلى الفاعل ، والحق سبحانه يقول:

---

(١) وقد كان رسول الله ﷺ حريصاً على ألا يقول الناس : إن محمداً يقتل أصحابه ، وقد ورد هذا فى حديث جابر بن عبد الله أن عبد الله بن أبى قال : أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . فبلغ النبى ﷺ فقام عمر فقال : يا رسول الله دعنى أضرب عنق هذا المنافق ، فقال النبى ﷺ : « دعه ، لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه » أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٩٠٥) ومسلم فى صحيحه (٢٥٨٤) .

﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِءُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ (٦٤)﴾ [التوبة]

ونعلم أن المريب يكاد أن يقول : خذونى . إنه بسلوكه إنما يدل على نفسه ، ويأتى القرآن فى سورة ثانية فيقول:

﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ... (٤)﴾ [المنافقون]

وهم يتصرفون هكذا لأن الريبة تملأ أعماقهم [(١)]، وكلما رأى واحد منهم مؤمناً يسير إلى ناحيته يظن أنه جاء ليؤدبه ضرباً أو قتلاً.

والحق سبحانه يقول هنا:

﴿وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ﴾ ، وكلمة ﴿مِن قَبْلُ﴾ فيها إيحاء بأن لهم سوابق فى محاربة رسول الله بغرض أن يؤذوه ﷺ ، ولكن الحق سبحانه يحميه دائماً ، ولم يعد هناك مكر أو حرب يمكن أن ينالوا بها منه ﷺ.

وفى هذا الأمر أمثلة كثيرة، فالقرآن حينما يقص على رسول الله ﷺ أحوال اليهود ويوضح له : ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ...(٦١)﴾ [البقرة]

أليس هذا القول يدفع فى خاطره احتمال أن يقتلوه؟ بلى فهم ما دامت عندهم الجرأة على قتل الأنبياء فما الذى يمنعهم من قتله؟ لكن الحق يطمئنه ويكبتهم ويقطع عندهم الأمل، ويأتى قوله الحق:

---

(١) وفى هذا يقول رب العزة عنهم: ﴿لاَ يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ ...﴾ [التوبة: ١١٠] يقول ابن كثير فى تفسيرها : « أى شكاً ونفاقاً بسبب إقدامهم على هذا الصنيع الشنيع أورثهم نفاقاً فى قلوبهم » .

﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ .. (٩١)﴾ [البقرة]

وقوله : ﴿مِن قَبْلُ﴾ هنا يعنى أن ذلك لن يحدث الآن ، فقد اختلف الموقف. وهكذا طمأن الله رسوله ﷺ ، وبذلك كُبتت هذه الفكرة إن فكروا فيها [(١)].

وأيضاً حين يأتى القرآن بشىء فى نيتهم أن يفعلوه ، ولم يفعلوه بعد ، ويفضحهم القرآن بإعلان ما فى نيتهم ، ومن غبائهم فهم يفعلون الأمر المفضوح ، ولو كان عندهم قليل من ذكاء لامتنعوا عن فعل ما فضحهم به القرآن.

ويتمثل ذلك فى أحد المواقف التى يحلفون فيها ، ولو كان فيهم رجل رشيد يملك التفكير المتوازن لقال لهم: إنكم سوف تحلفون ﴿إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَىٰ﴾ فلا تحلفوا حتى يشك المسلمون فى القرآن ، ومن غبائهم أيضا أنهم حلفوا فى أمر لهم فيه اختيار أن يفعلوه أو لا يفعلوه ، مثلما قال الحق سبحانه:

﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ...(١٤٢)﴾ [البقرة]

إنهم لم يكونوا قد قالوا بعد ، وأنزل الحق ذلك فى قرآن يتلى كل صلاة ، ويعرفه كل مسلم ، فكيف يقولون نفس القول بعد أن نزل به القرآن ؟ لقد فعل اليهود ذلك ؛ وهم بهذا الفعل قد اختاروا أن يكونوا سفهاء ، ولم يخرج منهم عاقل واحد يحثهم على ألا يقولوا.

---

(١) عن عائشة رضى الله عنها قالت : « كان النبى ﷺ يحرس حتى نزلت هذه الآية :﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ... (٦٧)﴾ [المائدة] فأخرج رسول الله ﷺ رأسه من القبة ، فقال لهم : يأيها الناس انصرفوا فقد عصمنى الله » . أخرجه الترمذى فى سننه (٣٠٤٦) واستغربه ، وأخرجه أيضاً أبونعيم فى الحلية (٦/ ٢٠٦) والحاكم فى مستدركه (٢/ ٣١٣) وصححه .

وهنا يقول الحق: ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَىٰ﴾ والحق هنا قد أكد الأمر حين جاء بلام القطع. وهم قد أقسموا وقالوا: ما أردنا باتخاذ هذا المسجد إلا مصلحة المسلمين ولنيسر على المعذورين والمرضى، والعاجزين عن السير إلى المسجد الآخر، وإن كانت ليلة مطيرة أو ليلة شاتية، فيستطيع الناس أن يجدوا مسجداً ثانياً ليصلوا فيه [1]، ولكن حكم الله ينزل ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

ويقول الحق بعد ذلك:

﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ۚ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾

فهل قوله الحق: ﴿لاَ تَقُمْ [2] فِيهِ أَبَدًا﴾ معناه أن يظل المسجد قائما ولا تقام فيه صلاة؟ هل ﴿لاَ تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ صيغتها النهى، أى لا تُصَلِّ فيه، أم أنها إخبار من الحق بأنك لن تقيم فيه صلاة أبداً؛ لأنه لن يكون له وجود؟

---

(١) قال ابن إسحاق في السيرة: «كان أصحاب مسجد الضرار قد كانوا أتوه وهو يتجهز إلى تبوك، فقالوا: يا رسول الله، إنَّا قد بنينا مسجداً لذى العلة والحاجة والليلة المطيرة والليلة الشاتية، وإنا نحب أن تأتينا، فتصلى لنا فيه، فقال: إنى على جناح سفر، وحال شغل، ولو قد قدمنا إن شاء الله لأتيناكم، فصلينا لكم فيه» [سيرة النبى لابن هشام ٤/ ٥٣٠].

(٢) قام يقوم: نهض معتدلاً دون عرج، ويستعار للاعتدال في السلوك والأخلاق، وقام بالمكان مكث فيه على أى حال مثل أقام، ومن ذلك قوله تعالى ﴿وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾ [البقرة: ٢٠] أى: توقفوا عن السير ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ ﴿١٢﴾﴾ [الروم] أى: تقع وتتحقق، وقوله ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ ﴿١٩﴾﴾ [الجن] أى: نهض واجتهد فى الدعوة إلى الله، وهنا النهى منصب على أن الصلاة لا تقام فيه؛ لأنه لن يكون له وجود.

إن قوله الحق سبحانه يعنى أن هذا المسجد يجب ألا يكون له وجود ، ثم تجد الله سبحانه يقول : ﴿ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾ إذن: فالمسألة ليست فى بناء المسجد ، ولكنها فيمن يدخل المسجد ويعمره ، فهنا مسجد ، وهناك مسجد ، أما المسجد الأول [(١)] فقد أسس على التقوى ، وفيه أناس يحبون أن يتطهروا ، أما مسجد الضرار فقد أقامه منافقون يحبون أن يتقذروا ؛ لأنهم المقابل لمن يحبون أن يتطهروا.

ومعنى الحب هو ميل الطبع إلى شىء تنبسط له النفس وتخفُّ لعمله.

وحينما نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ : «يا معشر الأنصار ، إن الله قد أثنى عليكم فى الطهور ، فما طهوركم هذا ؟ قالوا: يا رسول الله نتوضأ للصلاة ونغتسل من الجنابة ،فقال رسول الله ﷺ: فهل مع ذلك من غيره؟»

وهنا قال أهل قباء: «لا ، غير أن أحدنا إذا خرج من الغائط أحب أن يستنجى بالماء» [(٢)] ، وكان الواحد منهم يمسك الحجر ويمسح به محل قضاء الحاجة ؛ فيخفف من استخدام المياه ؛ لأن المياه كانت قليلة عندهم ، ثم يستخدم الماء بعد الأحجار [(٣)] ليكمل ويتم نظافته ، وأضافوا : «ولا نبيت على جنابة ، ولا نُصرّ على ذنب ، فإن غلبنا الذنب تعجّلنا التوبة».

﴿ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴾ والحب هنا متبادل ، فلا شىء أقسى على النفس من أن يكون الحب من طرف واحد ، وهذا هو الشقاء بعينه. والشاعر يقول:

---

(١) هو مسجد قُباء، وهو أول مسجد بنى فى الإسلام، بنى قبل مسجد النبى ﷺ.

(٢) أخرجه ابن ماجه فى سننه (٣٥٥) والدارقطنى فى سننه (١/ ٦٢) والحاكم فى مستدركه (١/ ١٥٥) (٢/ ٣٣٤) وصححه. قال الزيلعى: سنده حسن لكن فيه عتبة بن أبى حكيم ليس بقوى.

(٣) هى ثلاثة أحجار يستنجى بها من الغائط ، فعن عائشة أن النبى ﷺ قال : « إذا ذهب أحدكم إلى الغائط فليستطب بثلاثة أحجار فإنها تجزىء عنه » أخرجه أحمد (٦/ ١٠٨ ، ١٣٣) وأبو داود فى سننه (٤٠) والنسائى (١/ ٤١ ، ٤٢) والدارقطنى فى سننه (١/ ٥٤) . فأهل قباء كانوا يضيفون الماء بعد هذه الأحجار الثلاثة حجراً بعد الآخر، وذلك لشدة حرصهم على الطهارة .

أنتَ الحبيبُ ولكنِّى أعُوذُ بِكَ مِنْ أنْ أكُونَ حَبِيباً غَيْرَ مَحْبُوبِ

وشقاء المحبين أن يكون الحب من جانب واحد ، أما حين يكون الحب متبادلاً من الجانبين فهو قمة الإسعاد ، وكذلك حين تكون العداوة من جانبين فهى تأخذ قمة الإيعاد والإبعاد ، فحين تكون العداوة من جانب واحد ، تنتهى بسرعة ، لكن عندما تكون من الجانبين فإنها لا تنتهى بل تزداد اشتعالاً .

إذن: فحين يكون الحب متبادلاً تجد المحب كلما رأى حبّاً من حبيبه رد عليه بحب ، فينمو الحب ويزداد ، ولا يكون الأمر كذلك إلا إذا كان حب القلوب فيما لا يتغير وهو «الحب فى الله » ، فإذا رأيت حبّاً بين اثنين يتناقص بمرور الزمن ؛ فاعلم أنه حب لغير الله ، وإن رأيت الحب ينمو كل يوم ، فاعلم أنه حب فى الله.

والحق سبحانه يقول فى قصة فرعون وموسى:

﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ... ﴿٨﴾ ﴾ [القصص]

هم لم يلتقطوه ليكون عدواً لهم ؛ فهذا الاحتمال لو كان قد جاء فى بال آل فرعون لقتلوه ، ولكنهم التقطوه ليكون قرة عين لهم ، فانظر كيف يدخل الله على تغفيل الكافرين به [1] ، فآل فرعون هم من يربون موسى ؛ ولذلك قال له فرعون : ﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ ﴾ [الشعراء]

ولكن موسى عليه السلام لا يجامل فى الحق ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى هو من ربّاه ، أما تربية فرعون فلم يكن لها اعتبار فى ميزان الحق ، وقد

(١) وفى هذا يقول سبحانه : ﴿ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴾ [القصص : ٩]

تكون العداوة هينة لو كانت من جانب موسى وحده ، ولكن شاء سبحانه ألا تكون العداوة من جانب موسى فقط ، بل من جانب فرعون أيضاً ، فيقول سبحانه :

﴿ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ ... (٣٩) ﴾ [طه]

ويقول سبحانه فى مجال الحب المتبادل :

﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ... (٥٤) ﴾ [المائدة]

فحين يحبون الله يرد سبحانه على تحية الحب بحب زائد [(١)] ، وهم يردون على تحية الحب منه سبحانه بحب زائد، وهكذا تتوالى زيادات وزيادات ؛ حتى نصل إلى قمة الحب ، ولكن الحب عند الله لا نهاية له ، وأنت حين تقرأ القرآن تجد قوله سبحانه وتعالى :

﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ .. (٥٩) ﴾ [النمل]

ويقول سبحانه أيضاً : ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ ... (٤٤) ﴾ [الأحزاب]

لم يأت سبحانه هنا بـ «الـ » التعريفية ؛ لأنها لو جاءت لانحصر السلام فى لون واحد. فأنت حين تقول : لَقيت الرجل ، فأنت تحدد الرجل . لكنك إنْ قلت : لقيت رجلاً. فقد يكون الرجل هذا أو ذاك أو غيرهما. فإن جاء الاسم نكرة صار شائعاً ، أما إن كان بالتعريف فيكون محدداً.

والحق حين تكلم عن يحيى عليه السلام قال :

﴿ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا (١٥) ﴾ [مريم]

---

(١) عن أبى هريرة قال قال النبى ﷺ : «يقول الله تعالى : أنا عند ظن عبدى بى ، وأنا معه إذا ذكرنى ، فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، وإن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منهم ، وإن تقرب إلىّ شبراً تقربت إليه ذراعاً ، وإن تقرب إلىّ ذراعاً ، تقربت إليه باعاً ، وإن أتانى يمشى أتيته هرولة» أخرجه البخارى فى صحيحه (٧٤٠٥) ومسلم (٢٦٧٥).

لأنه يريد أن يكثر السلام. وحين تكلم عيسى عليه السلام عن نفسه قال:

﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (٣٣)﴾ [مريم]

وحين يلقاك إنسان فهو يقول لك: «سلام عليكم»، وأنت ترد: «وعليكم السلام»، لماذا؟ لأن «سلام عليكم» معناها أن السلام منى يكون عليك وعلى غيرك، أما ردُّك «وعليكم السلام» فيعنى أنك خَصَصْته بهذا السلام.

وهنا الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها زادت فى التحية حيث يقول الحق سبحانه:

﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ وهذا لأن الذى يحب أن يكون طاهراً دائماً، قد أنس بفيوضات الله عليه [(١)]، وما دامت ذراته كلها طاهرة من النجاسات المعنوية ومن النجاسات الحسية يصبح جهاز استقبال الفيوضات من الله عنده صالحاً دائماً للاستقبال، والحق سبحانه وتعالى يرسل إمداداته فى كل لحظة، ولا تنتهى إمداداته على الخلق أبداً، وسبحانه يصف نفسه بأنه القيوم فاطمئنوا أنتم، فإن كنتم تريدون أن تناموا فناموا؛ فربكم لا تأخذه سنة ولا نوم.

إذن: فقد جاء الإيمان ليريحنا لا ليتعبنا، كما أنه سبحانه يصف نفسه [(٢)]:

﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ... (٦٤)﴾ [المائدة]

---

(١) لأنهم تخلوا عن النجاسات حساً ومعنى، وتحلوا بالطهر والعبادة، فتجلى الله عليهم بفيضه ونوره.

(٢) وذلك أن اليهود وصفوا الله سبحانه بأنه بخيل لا ينفق فقالوا: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا ...﴾ [المائدة: ٦٤]. وقد أخرج الشيخان البخارى ومسلم فى صحيحيهما عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «إن يمين الله ملأى لا يغيضها نفقة سحّاء الليل والنهار، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السماوات والأرض فإنه لم ينقص ما فى يمينه، وعرشه على الماء، وبيده الأخرى الفيض، يرفع ويخفض». أخرجه البخارى (٧٤١٩) ومسلم (٩٩٣)

أى: يطمئن الخلق أنهم بمجرد إيمانهم ستأتيهم إمدادات الله وفيوضاته المعنوية والمادية. فصحِّح جهاز استقبالك؛ بألا توجد فيه نجاسة حسيّة أو نجاسة معنوية؛ ولذلك إذا رأيت إنساناً عنده فيوضات من الحق فاعلم أن ذرات جسمه مبنية من حلال [(١)]، ولا توجد به قذارة معنوية، ولا قذارة حسّية، ويتضح ذلك كله على ملامح وجهه، وكلماته، وحسن استقباله. وإن كان أسمر اللون فتجده يأسرك ويخطف قلبك بنورانيته. وقد تجد إنساناً أبيض اللون، لكن ليس فى وجهه نور؛ لأن فيوضات ربنا غير متجلية عليه.

وكيف تأتى الفيوضات؟ إنها تأتى بتنقية النفس؛ لأن الإنسان إن افتقر إلى الفيوضات الربانية، فعليه أن يبحث فى جهازه الاستقبالى. وأضرب هنا مثلاً بالإرسال الإذاعى، فمحطات الإذاعة ترسل، ومن يملك جهاز استقبال سليم فهو يلتقط البث الإذاعى، أما إن كان جهاز الاستقبال فاسداً فهذا لا يعنى أن محطات الإذاعة لا تبث برامجها.

ولذلك قال الحق:

﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ... (٦٤) ﴾ [المائدة]

فاحرص دائماً على أن تتناول من يد ربك المدد الذى لا ينتهى، والحديث الشريف يقول:

« إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسىء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسىء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها » [(٢)].

---

(١) عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال: «والذى نفس محمد بيده، إن مثل المؤمن كمثل النحلة أكلت طيباً ووضعت طيباً» أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٢/ ١٩٩).

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٧٥٩) وأحمد فى مسنده (٤/ ٣٩٥، ٤٠٤) من حديث أبى موسى الأشعرى.

والليل قد ينتهى عند إنسان ، ويبدأ عند إنسان آخر ، وهكذا النهار ، فالليل مستمر دائماً والنهار مستمر دائماً ، فيداه سبحانه مبسوطتان دائماً ولا تنقبضان أبداً.

ثم يقول سبحانه:

﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ (١)

وقوله : ﴿أَفَمَنْ﴾ استفهام (٢)، وكأنه يقول: وكيف تساوون بين مسجد أسِّسَ على التقوى من أول يوم ، ومسجد اتُّخِذ للضرار وللكفر ولتفريق جماعة المسلمين وإرصاداً لمن حارب الله ؟

إنهما لا يستويان أبداً ، وساعة يطرح الحق هذه العملية بالاستفهام فسبحانه واثق من أن عبده سيجيب بما يريد الله .

وقوله الحق : ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ (٣) بُنْيَانَهُ﴾ نجد كلمة « بنيان» وهى مصدر؛ «بنى» «بنياناً» ، لكن أطلق على الشىء المبنى ، فنقول : إن هذا البنيان جميل ، أو نقول مثلاً: إن طراز هذا البنيان فرعونى.

إذن: هناك فرق بين عملية البناء وبين الشىء الذى ينشأ من هذه

(١) على شفا جُرف : على حرف بئر لم تُبْنَ بالحجارة. هَارٍ : هائر متصدع أو متهدم. فانهار به : سقط البنيان بالبانى.

(٢) جاء الاستفهام هنا بالهمزة، وهى ترد لطلب التصور والتصديق، بخلاف هل، فإنها للتصديق خاصة، وسائر أدوات الاستفهام للتصور خاصة. (الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى ٢/ ١٤١)، والاستفهام هنا استفهام معناه التقرير، أى تقرير أن من أسس بنيانه على تقوى من الله خير ممن أسس بنيانه على شفا جرف هار.

(٣) أسس بنيانه : أقامه على أساس قوى وعلى قواعد راسخة.

العملية ، وكلمة البنيان اسم جنس جمعى[1] ؛ لأنه يصح أن يكون جمعاً ومفرده «بنيانة» مثلما نقول: «رمان» ، ومفرده «رمانة»، و«عنب» ومفرده «عنبة»، وأيضاً «روم» مفرده «رومى» فياء النسب هنا دخلت على الجمع فجعلته مفرداً . إذن: يُفرق بين الواحد والجمع، إما بالياء وإما بالتاء.

وقد حكم سبحانه بألا يصلوا فى مسجد الضرار ، وعليهم أن يصلوا فى المسجد الآخر ، وهو مسجد قباء ، ثم يرد سبحانه الأمر إلى المؤمنين، ليعرفوا أن ما حكم به سبحانه هو ما تقبله العقول ، وأن حكمهم يوافق حكم ربهم.

ثم يقول سبحانه:

﴿ أَمَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ﴾ وهنا ثلاث كلمات: شفا ، وجُرف ، وهَار. والشفا مأخوذ من الشَّفَة، و«الشفا» حرف الشىء وطرفه . وسكانُ سواحِل البحار يعرفون أن البحار لها نحر من تحت الأرض ، وتجد الماء يحفر لنفسه مساحة تحت الأرض ويترك شفة من الأرض ، ولو سار عليها الإنسان لوقع ؛ لأنها الطرف الذى ليس له قاعدة وأسفله مَنْحور.

و«شفا جُرُف » أى طرف سينهار ؛ لأنه «هار» أى غير متماسك، فتكون الصورة أن الماء ينحر فى الساحل ، فيصنع شفة لها سطح وليس لها قاعدة تحتها ، وهذه اسمها «شفا جُرُف».

وقد قال القرآن فى موضع آخر:

---

(١)اسم الجنس الجمعى: هو ما له مفرد يشاركه فى لفظه ومعناه معاً، ولكن يمتاز المفرد بزيادة تاء التأنيث فى آخره أو ياء النسب. قال الفيروز آبادى فى «بصائر ذوى التمييز» (ص ٢٧٧) : «البنيان، واحد لا جمع له. وقال بعضهم: جمع واحدته «بنيانة» على حد «نخلة ونخل» وهذا النحو من الجمع يصح تذكيره وتأنيثه».

﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا . . (١٠٣) ﴾

[آل عمران]

إنها الحفرة فى النار ، فكيف يكون شكلها ؟ لابد أنه مرعب.

ونحن نعلم أنهم كانوا حين يحفرون الآبار ليأخذوا منها الماء ، كانوا يضعون فى جدار البئر أحجاراً تمنع ردمه ؛ لأن البئر إن لم يكن له جدار من حجارة قد ينهار بفعل سقوط الرمال من على فوهته ، وهكذا تمنع الأحجار أى جزء متآكل من سطح البئر من الوقوع فيه ، والجزء المتآكل هو جرف هَارٍ ، وهكذا كان مسجد الضرار، ينهار بمن فيه فى نار جهنم.

ويذيل الحق الآية : ﴿ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ وهم كانوا ظالمين بالنفاق ؛ لذلك لم يَهْدِهم الله إلى عمل الخير ؛ لأن الله لا يهدى الظالم. وسبحانه يقول فى أكثر من موضع بالقرآن:

﴿ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (١٠٨) ﴾ [المائدة]

ويقول سبحانه:

﴿ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِى الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٢٦٤) ﴾ [البقرة]

ويقول عز وجل:

﴿ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٢٥٨) ﴾ [البقرة]

والهداية - كما علمنا من قبل - قسمان: هداية الدلالة ، وهى لجميع الخلق ويدل بها الله الناس على طريق الخير، ولهم أن يسلكوه أو لا يسلكوه،

فهم أحرار ، فلله هداية شملت الجميع ، وهى هداية الدلالة ، أما الهداية المنفية هنا فهى هداية المعونة .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾ ﴾ (١)

البنيان الذى بنوا هو مسجد الضرار ، وأرادوا به ضراراً وكفراً وتفريقاً وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله ، وكان رسول الله ﷺ قد وعدهم أن يصلى فيه ، وكشف له الحق أنهم أرادوا بصلاة رسول الله فيه ذريعة (٢) وأن يرسموا الصلاة فيه .

ولما عاد ﷺ من غزوة تبوك أنزل الله عليه : ﴿لا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ وأرسل ﷺ بعضاً من صحابته (٣) ليهدموا هذا المسجد ، ولم يكتف بالهدم ، بل أمر أن يُجْعَل مكان المسجد قمامة إشعاراً منه ﷺ بأن المسجد بنيته الأولى كانت نجاسته نجاسة معنوية ، وحين توضع فيه النجاسة الحسّية ، تكون طهارة بالنسبة للنجاسة المعنوية ، فكأنه طهر المكان من النجاسة المعنوية بالنجاسة الحسيّة .

ورسول الله يعلمنا هنا أن الأمر ليس أمر نجاسات حسيّة ، وإنما النجاسات المعنوية أفظع من النجاسات الحسيّة ، فالإنسان قد يتحرز من

(١) ريبة : شكاً ونفاقاً فى قلوبهم .
(٢) ذريعة : أى وسيلة وتوصلاً لهدف معين .
(٣) منهم : مالك بن الدخشم ومعن بن عدى . أما مالك فقد شهد بدراً . و أما معن بن عدى بن الجد حليف الأنصار فقد شهد غزوة أحد . (انظر الإصابة فى تمييز الصحابة) .

النجاسات الحسيّة ، لكن النجاسات التى تخامر [1] القلوب والعقائد والعواطف فهى التى تسبب للإنسان الشقاء.

وهنا يقول الحق: ﴿ لاَ يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِى بَنَوْا رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ ﴾ فبعد أن هدم رسول الله ﷺ هذا البنيان وصار موقعه موضع القذارة، بقى أمر هذا البنيان موضع شك منهم وصاروا يتوجسون أن ينزل بهم رسول الله ﷺ العقاب ، وظلوا فى شك من أن يصيبهم رسول الله ﷺ بسوء، ولن يذهب هذا الشك من قلوبهم إلا أن تقطع تلك القلوب بالموت.

إن الشك والريبة محلها القلب ، والقلب هو العضو الثانى فى استبقاء الحياة، أما العضو الأول فى استبقاء الحياة فهو المخ ، فما دامت خلايا المخ سليمة ، فمن الممكن أن تعود الحياة إلى الإنسان ولكن برتابة ، أما القلب فحين يتوقف فالأطباء يحاولون أن يعيدوا له الحركة ، إما بشق الصدر أو تدليك القلب ليعود إليه النبض ، وقد يفلحون ما دامت خلايا المخ سليمة ، فالمخ فى الإنسان هو سيد الجسم كله ، ولذلك تجدون أن الحق قد صان المخ بأقوى الصيانات بعظام الجمجمة.

وكذلك النخاعات التى تتحكم فى إدارة الجسد ، نجده سبحانه قد كفل لها من العظام أعلى درجات الصيانة. ونرى فى الحفريات أن الجماجم هى أبقى شىء ، مما يدل على أنه للحفاظ على المخ قد جعل الله له أقوى العظام ، وما دام المخ سيد الجسم سليماً فمن الممكن أن تستمر الحياة ، ولذلك نجد أن الجسم كله يخدم المدبر للجسم ، ويحافظ على صيانته.

والإنسان إن تعرض للجوع يأكل من شحمه ، وحين يفوته ميعاد تناوله للطعام ، يعرض عليه الطعام يقول: ليس لى رغبة فى الأكل ، وهذا ليس إلاّ تعبيراً علمياً لما حدث فى الجسم ، فأنت أكلت بالفعل ، فما دام قد مر

(١) خامر القلوب: خالطها وامتزج بها.

ميعاد طعامك ولم تأكل فإن جسمك يأخذ ما يحتاجه من الدهون المخزونة به ، وإذا ما انتهى الدهن يأخذ الإنسان من لحمه ، وإذا ما انتهى اللحم يأخذ الإنسان غذاءه من عظامه ، وكل ذلك من أجل أن يبقى السيد وهو «المخ» مصاناً.

ولذلك تجد القرآن حينما عرض مسألة سيدنا زكريا ، قال على لسانه:

﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي ... ﴿٤﴾﴾ [مريم]

أى: أن آخر مخزن للقوت قد قارب على الانتهاء ، أما النبات فهو عكس الإنسان ، فسيد النبات أسفل شىء فيه وهو الجذر ، ويحاول النبات المحافظة على جذره ، فإن امتنع الغذاء عن النبات بامتناع المياه عنه ، بدأت أوراق النبات فى الذبول ؛ لأنها تعطى حيويتها ومائيتها للجذر ، ثم تجد الساق تجف لأنها تعطى حياة للجذر ليستمر إلى أن يأتى قليل من المياه أو قليل من الغذاء ، فيعود الجذر قويّاً.

والقلب هو محل العقائد والاعتقادات ، وهى الأشياء التى تنشأ من المحسّات ، وتتكون فى الفؤاد[1] لتصير عقائد لا تطفو للمناقشة من جديد ، أما العقل فهو يناقش كل المسائل ، وما إن ينتهى من الاقتناع بفكرة حتى تستقر فى القلب.

وهنا يوضح لنا الله أن هذا البنيان سيظل أثره فى قلوبهم ، ولن ينتهى منهم أبداً إلا بشىء واحد هو : ﴿ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ﴾ والقلوب لا تتقطع إلا بالموت، وكأن الشك من هذا البنيان سيظل يلاحقهم إلى أن يموتوا.

(١) القلب هو مضخة الدم فى شرايين الجسم وعروقه هذا تعريف المادة ، والفؤاد هو عقل القلب وهو محل العقائد الناشئة عن الإدراك ، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا ﴿٤٦﴾﴾ [الحج] وقوله: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾﴾ [محمد] ويطلق القلب على الفؤاد ، كما يطلق الفؤاد على القلب . فهما متلازمان . كالقلب يصل إلى الاعتقاد بالإدراك ثم يصير الإدراك انفعالاً ، وبعد الانفعال يكون الاختيار بمناقشة المسائل ، ثم يكون الاختيار فى البدائل وينتهى بالإقناع .

أو : ﴿ إِلاَّ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ﴾ أى : أن تتقطع توبة وأسفاً وحزناً .

وهذا تهديد لهم بأن مسيئاتهم ليست من الخارج ، وإنما مسيئاتهم من ذوات نفوسهم . ووجود الريبة فى نفوسهم ، يعنى أنها لن تجعلهم يستشرون فى الإفساد لخوفهم المستمر من العقاب .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ وعلمه سبحانه شامل فلا تخفى عليه خافية ، وحكمته سبحانه أنه يضع كل شىء فى مكانه .

ثم يقول سبحانه :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ﴾

بعد أن تكلم الحق عن الذين تخلفوا عن الغزو ، وعن الذين اعتذروا بأعذار كاذبة ، وعن الذين أرجأ الله فيهم الحكم ، أراد أن يبين سبحانه أن تخلفهم ليس له أى أهمية ؛ لأن الله سبحانه وتعالى عوَّض الإيمان وعوّض الإسلام بخير منهم ، فإياكم أن تظنوا أنهم بامتناعهم عن الغزو سوف يتُعبون الإسلام ، لا ؛ لأن الحق سبحانه ينصر دينه دائماً .

فيقول الله سبحانه :

﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ[1] مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم ﴾

يقول العلماء: كيف يشترى الله من المؤمنين أنفسهم وأموالهم، وهو الذى خلق الأنفس وهو الذى وهب المال ؟ وقالوا : ولكن هبة الله لهم لا يرجع فيها ، بدليل أن المال مال الله ، وحين أعطاه لإنسان نتيجة عمله أوضح له: إنه مالك بحيث إذا احتاجه أخ لك فى الدين ، فأنا أقترضه منك، ولم يقل: «أسترده». فسبحانه القائل:

﴿ مَن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٤٥) ﴾ [البقرة]

لقد احترم الحق الهبة للإنسان ، واحترم عرقه وسعيه ، وكأنه سبحانه حينما وهب البشر الحياة ، ووهبهم الأنفس أعلن أنها ملكهم حقّاً ، ولكنه أعطاها لهم ، وحين يريد أخذها منكم فلا يقول : إنه يستردها بل هو يشتريها منكم بثمن ؛ ولذلك يقول النبى عليه الصلاة والسلام: «إن سلعة الله غالية ، إن سلعة الله غالية ، إن سلعة الله هى الجنة».

أى: اجعلوا ثمنها غالياً.

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم﴾ . وكلمة ﴿اشْتَرَى﴾ تدل على أن هناك صفقة ، عملية شراء وبيع. وإذا كان هذا ملكاً لله ، فالله هو المشترى ، والله هو البائع ، فلابد أن لهذا الأمر رمزية ، وهذه الرمزية يلحظها الإنسان فى الولى على اليتيم أو السفيه ، فقد يصح أن يكون عندى

---

(١) الشراء والاشتراء : التملك بالمبادلة والعوض. وشَرَى يَشْرِى : بمعنى باع وبمعنى اشترى ، والمشترى يعطى شيئاً ويأخذ بدله شيئاً ، فهو بائع وهو مُشْتر، وجاء شرى بمعنى باع فى قوله تعالى: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ ..(٢٠)﴾ [يوسف] أى : باعوه وجاء اشترى بمعنى أخذ السلعة ودفع الثمن فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ...(١١١)﴾ [التوبة].

شيء وأنا ولى على يتيم، فأشترى هذا الشيء بصفتى ، ثم أبيعه بصفتى الأخرى ، فالشخص الواحد يكون هو الشارى وهو البائع [(١)] ، فكأن الله يضرب لنا بهذا المثل: «إنكم بدون منهج الله سفهاء، فدعوا الله يبيع ودعوا الله يشترى».

وما الثمن؟ يأتى التحديد من الحق: ﴿ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ﴾ هذا هو الثمن الذى لا يفنى ، ولا يبلى ، ونعيمك فيها على قدر إمكانيات الله التى لا نهاية لها ، أما نعيمك فى حياتك فهو على قدر إمكانياتك أنت فى أسباب الله ، وهكذا يكون الثمن غالياً.

وحينما جاء الأنصار فى بيعة العقبة لرسول الله ﷺ قال له عبد الله بن رواحة: اشترط لربك ولنفسك ما شئت.

قال: «أشترط لربى أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، وأشترط لنفسى أن تمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم».

قالوا: فما لنا إذا فعلنا ذلك ؟

ماذا قال رسول الله ؟ أقال لهم ستفتحون قصور بُصْرى والشام وتصيرون ملوكاً ، وينفتح لكم المشرق والمغرب ؟

لم يقل ﷺ شيئاً من هذا ، بل قال: «الجنة» ؛ لأن كل شيء فى الدنيا تافه بالنسبة لهذا الثمن ، قالوا: «ربح البيع لا نقيل ولا نستقيل» [(٢)] وبمجرد

---

(١) هذا يجوز عند الإمام مالك بشرط ألاّ يحابى نفسه فى الشراء من مال اليتيم أو البيع إلى نفسه. انظر فقه السنة للشيخ سيد سابق (٣/ ٣٣٤).

(٢) حينئذ نزلت هذه الآية. وقد أورد سبب نزول هذه الآية السيوطى فى أسباب النزول (ص ١٠١) طبعة دار الشعب ، وعزاه لابن جرير الطبرى من مرسل محمد بن كعب القرظى ، وكذا أورده ابن كثير فى تفسيره (٢/ ٣٩١)، والقرطبى فى تفسيره (٤/ ٣١٩٣).

عقد الصفقة العهدية بين رسول الله ﷺ وبين الأنصار [(١)]، كان من الممكن أن يموت واحد أو اثنان أو ثلاثة قبل أن يبلغ الإسلام حظه وذروته ، وقد يقال: فلان مات ولم يأخذ شيئاً من ماديات الحياة . لكنه ﷺ حين قال: «الجنة» ، فمن مات يدخلها.

﴿ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ﴾ هذا هو الثمن ، وهو وعد بشيء يأتى من بعد ، ولكنه وعد ممن يملك إنفاذه ؛ لأن الذى يقدح فى وعود الناس للناس ، أنك قد تعدُ بشيء ولكن تظل حياتك ولا تفى به ، أو أن تقل إمكاناتك عن التنفيذ.

إذن: الوعد الحق هو ممن يملك ويقدر ، وحىّ لا يموت ، لذلك يقول فى هذه الآية:

﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ﴾

ويقول فى آخرها :

﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا ﴾ و«وَعْد» مصدر، فأين الفعل؟ إننا نفهمها: أى وعدهم الله بالجنة وعداً منه سبحانه وهو الذى يملك وهو وعد حق. والقرآن حين يأتى بقضية كونية ، فالمؤمن يستقبلها بأنها سوف تحدث حتماً، فإذا ما جاء زمنها وحدثت صارت حقّاً ثابتاً ، مثلما يقول سبحانه:

﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) ﴾ [الصافات]

هذه قضية قرآنية، حدثت من قبل و ثبتت فى الكون.

وماذا بعد أن اشترى الله من المؤمنين أموالهم وأنفسهم ؟ هنا يحدد الحق المهمة أمامهم:

---

(١) كانوا ثلاثة وسبعين رجلاً وامرأتين من الأوس والخزرج منهم : سعد بن الربيع، وعبد الله بن رواحة، وأبو مسعود الأنصارى ، والبراء بن معرور ، وسعد بن عبادة ، والمرأتان هما : نسيبة بنت كعب، وأسماء بنت عمرو.

﴿ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ﴾ و«قَاتَل» من «فَاعَلَ» ، و«قَتَلَ» غير «قَاتَلَ» . فالقتل عمل من جهة واحدة ، لكن «قَاتَلَ» تقتضى مفاعلة ، مثلها مثل «شَارَكَ زيدٌ عَمْراً» . وكل مادة «فاعَلَ» و«تفاعَلَ» توضح لنا الشركة فى الأمر ، فكل واحد منهم فاعل ، وكل واحد منهم مفعول. ولذلك تجد فى أساليب العرب ما يدلك على أن ملحظ الفاعلية فى واحد هو الغالب ، وملحظ المفعولية فى الآخر هو الغالب ، ولكن على التحقيق فإن كل واحد منهم فاعل من جهة ، ومفعول من الجهة الأخرى.

فمثلاً: الرجل الذى سار فى الصحراء التى فيها حيَّات وثعابين ، ولم يُهِج الرجل أثناء سيره الحيّات ولا الثعابين ، بل تجنبها ، والثعبان ما دُمْت لاَ تهيجه فهو لا يفرز سمّاً ؛ لأن سم الثعبان لا يفرز إلا دفاعاً.

وساعة يرى الثعبان أنك ستواجهه يستعمل سُمَّه، فإذا كان الرجل سائراً وله قدرة المحافظة على عدم إهاجة الثعابين ولا الحيات ، فهو قد «سالمها»، والشاعر يقول:

قد سَالَمَ الحيَّاتُ منه القَـدَما والأفْعُوان [1] والشُّجَاعَ الشَّجْعَما [2]

والأفعوان هو الثعبان الفظيع ، ونلحظ أن «الأفعوان» منصوب ، وأن «الحياتُ» مرفوعة ، إذن : فالقدم مفعول ، والحيات فاعل وجاء بالقدم منصوبة ، وكذلك الشجعم لما فى الحيات من المفعولية ؛ لأن الحيّات إذا سالمت القدمَ فقد سالمها القدمُ ، فكأنه قال : سالم القدمُ الحيّاتِ ، ثم جعل الأفعوان بدلاً منها.

---

(١) الأفعوان : ذكر الأفاعى . والمؤنث « أفعى » وهى الحية .
(٢) الشجاع الشجعم: الثعبان الضخم.

وهنا يقول الحق:

﴿ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ ﴾ فمن يقاتل ، إما أن يَقْتل وإما أن يُقْتَل ، وفى قراءة الحسن يقدم الثانية على الأولى ، [(١)] ويقول : «فيُقْتَلُون ويَقْتُلُونَ»؛ فالمسألة صفقة بمقتضى قوله : ﴿ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ﴾ لذلك يُقدم قتلهم ، وهو الأقرب لمعنى الصفقة. وأيضاً فإن المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً ، [(٢)] وإذا ما جاء المؤمنون فى جانب ؛ والكفار فى جانب آخر فالمؤمنون بنيان ، والحق هو القائل:

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾ ﴾ [الصف]

فإذا ما سبق قوم من المؤمنين بأن يُقْتَلوا ، فكأن الكل قُتل . إذن : فحين قتل بعض المؤمنين ، يمكننا أن نقرأ قول الحق على قراءة الحسن ونقول : « فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ».

أو: أنهم حينما دخلوا إلى القتال وضعوا فى أنفسهم أن يقتلوا ، ولم يغلبوا جانب السلامة.

وكلنا نعرف قصة الصحابى الذى قال لرسول الله ﷺ: أليس بينى وبين الجنة إلا أن ألقى هؤلاء فيقتلونى ؟ قال له: «نعم» فأخرج الصحابى تمرة كانت فى فمه، ودخل إلى القتال وكأنه يستعجل الجنة [(٣)].

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣١٩٤): « قرأ النخعى والأعمش وحمزة والكسائى وخلف بتقديم المفعول على الفاعل. وقرأ الباقون بتقديم الفاعل على المفعول».

(٢) عن أبى موسى الأشعرى قال قال رسول الله ﷺ : «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً» أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٤٤٦)، ومسلم فى صحيحه (٢٥٨٥) واللفظ لمسلم.

(٣) وذلك أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ يوم أحد فقال له: أرأيت إن قُتلت فأين أنا؟ قال: فى الجنة. فألقى تمرات فى يده، ثم قاتل حتى قُتل. أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٠٤٦) ومسلم (١٨٩٩) فى صحيحه من حديث جابر بن عبد الله .

﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرآنِ﴾، وهذا تأكيد بأن لهم الجنة، وهو وعد من الحق فى التوراة والإنجيل والقرآن لمن يدخلون المعارك دفاعاً عن الإيمان.

وكل دين فى وقته له مؤمنون به، ويدخلون المعارك دفاعاً عنه. إذن: فالقتال فى سبيل نصرة الدين والدفاع عنه ليس مسألة مقصورة على المسلمين، لكنها لم تكن عامة عند الرسل، فقد كان الحق سبحانه وتعالى هو الذى يتدخل لعقاب أهل الكفر، وكان الرسول يبلِّغ، فإذا لم يستجِبْ له قومه؛ عاقبهم الله سبحانه، والقرآن يقول:

﴿ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ... (٤٠) ﴾[1] [العنكبوت]

ولم تَأْتِ مسألة القتال فى سبيل الله إلا عندما طلب اليهود من بعد سيدنا موسى عليه السلام[2] أن يقاتلوا فى سبيل الله:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلأِ مِن بَنِى إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ ... (٢٤٦) ﴾ [البقرة]

إذن: فهذا وعد من الله فى التوراة للذين آمنوا بموسى عليه السلام، وطالبوا بالقتال فى سبيل الله، وكذلك فى الإنجيل للذين آمنوا بعيسى عليه

---

(١) هذه أربعة أنواع من العذاب: «الحاصب» وهى ريح شديدة البرد عاتية شديدة الهبوب جداً تحمل حصباء الأرض فتلقيها على الناس وتقتلعهم من الأرض وقد عذب الله بها قوم «عاد». و«الصيحة» التى أخذت قوم «ثمود» فقضت عليهم. و«الخسف» الذى عاقب الله به قارون. و«الغرق» الذى قضى الله به على فرعون وجنوده وعلى الكافرين من قوم نوح عليه السلام.

(٢) كان هذا بعد سيدنا موسى بما يقرب على الألف عام، والنبى هنا الذى طلب منه قوم بنى إسرائيل أن يبعث لهم ملكاً يقاتلون معه فى سبيل الله هو: شمعون أو شمويل، قاله السدى ومجاهد ووهب بن منبه. وهو ما رجحه ابن كثير فى تفسيره (١/ ٣٠٠)

السلام ، وأخيراً فى القرآن للذين آمنوا بمحمد ﷺ [(١)] .

أو: أن هذا الوعد خاص بأمة محمد ﷺ ؛ لأنها الأمة المأمونة للدفاع عن كلمة الله بالمجهود البشرى. وبهذا يكون الوعد فى التوراة والإنجيل والقرآن هو وعد لأمة محمد ﷺ ، فكأن التوراة قد بُشِّر فيها بهذا للمسلمين المؤمنين بمحمد ﷺ ، وكذلك الإنجيل قد بُشِّر فيه بهذا الوعد للأمة المسلمة. والدليل على ذلك هو قول الحق سبحانه فى آخر سورة الفتح:

﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ .. (٢٩) ﴾ [الفتح]

إذن: فالدين لا يطبع المتدين لا على الشدة ولا على الرحمة ، إنما يطبعه انطباعاً يصلح لموقف الشدة فيكون شديداً ، ولموقف الرحمة فيكون رحيماً. ولو أنه مطبوع على الشدة لكان شديداً طوال الوقت ، ولو طُبع على الرحمة فقط لكان رحيماً كل الوقت، ولكن شاء الحق أن يطبع المؤمنين ليكونوا أشداء على الكفار رحماء بينهم ؛ ولذلك فالدين لا يطبع الناس على ذلة ولا على عزة ، إنما يجعلهم أذلة على المؤمنين ، وأعزة على الكفار.

وبذلك يُطوِّع المؤمن نفسه ، فهو شديد ورحيم ، عزيز وذليل ، فهو طوع للمنهج ، فحين يتطلب منه منهج الله أن يكون شديداً يشتد ، وحين

(١) قال القرطبى (٤/ ٣١٩٤) فى تفسير الآية: «هذا إخبار من الله تعالى أن هذا كان فى هذه الكتب، وأن الجهاد ومقاومة الأعداء أصله من عهد موسى عليه السلام» وقد قال عز وجل على لسان سيدنا موسى: ﴿ يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلاَ تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴾ [المائدة : ٢١] إلى أن قال: ﴿ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلاَ إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾ [المائدة: ٢٤] .

يتطلب منهج الله منه أن يكون رحيماً يرحم ، وحين يتطلب الله من أن يكون ذليلاً بالنسبة لإخوانه المؤمنين يذل ، وحين يتطلب الله منه أن يكون عزيزاً على الكافرين يعز.

﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ.. (٢٩) ﴾ [الفتح]

وتتتابع صفات المؤمنين فى قوله سبحانه:

﴿ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا .. (٢٩) ﴾ [الفتح]

وهم فى ركوعهم وسجودهم إنما يعبرون عن قيم الولاء لله.

ثم يصفهم سبحانه:

﴿ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ... (٢٩) ﴾ [الفتح]

وهم لا يريدون إلا رضاء الله وفضله ، والنور يشع من وجوههم؛[1] لأنهم أهل للقيم ، ويضيف سبحانه:

﴿ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ ... (٢٩) ﴾ [الفتح]

أى: أن التوراة جاءت فيها البشارة بأن محمداً سيجىء بأمة فيها الخصال الإيمانية والقيمية التى لا توجد فى اليهود ، هؤلاء الذين تغلب عليهم المادية ولا ترتقى أرواحهم بالقيم الدينية، فأنت إن نظرت إلى التوراة المحرفة

---

(١) عن ابن عباس رضى الله عنهما، أن نبى الله ﷺ قال: «إن الهدى الصالح والسمت الصالح والاقتصاد جزء من خمسة وعشرين جزءاً من النبوة». أخرجه أحمد فى مسنده (١/ ٢٩٦) وأبو داود فى سننه (٤٧٦٦). وقال بعض الصالحين: إن للحسنة نوراً فى القلب، وضياء فى الوجه، وسعة فى الرزق، ومحبة فى قلوب الناس. انظر ابن كثير (٤/ ٢٠٤).

فلن تجد فيها أى شىء عن اليوم الآخر ، بل كلها أمور مادية .

أما فى الإنجيل فقد جاءت المسيحية بالرهبنة ، والماديات فيها ضعيفة ؛ ولذلك جاء القرآن منهجاً متكاملاً تنتظم به الحياة ، قيماً حارسة ، ومادة محروسة ؛ فالعالم يفسد حين تأتى المادة فتطغى وتنحسر القيم ، أو حين توجد قيم ليس لها قوة مادية[1] تدافع عنها ، فيأبى القوى الظالم إلا أن يطغى بقوته المادية على القيم الروحية فيكون الخلل فى البناء الاجتماعى .

إذن : فنحن فى حاجة دائمة إلى قيم تحرسها مادة ، ومادة تحرسها قيم . وأخبر الله قوم موسى : أنتم لا تملكون القيم المعنوية ، وتعتزون بالقيم المادية ، لذلك ستأتى أمة محمد وهى تملك قيم الروح والمادة ، فهم رُكَّع ، سُجَّد ، يبتغون فضلاً من الله ورضواناً ، وسيماهم فى وجوههم من أثر السجود .

وأبلغ سبحانه قوم عيسى عليه السلام أنه سيأتى فى أمة محمد بمنهج يعطيهم ما فقدتموه من المادة ؛ بسبب أنكم انعزلتم عن الحياة وابتدعتم رهبنة ما كتبها الله عليكم ، بينما نحن نريد حركة فى الحياة .[2]

﴿ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ[3] يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ... (٢٩) ﴾ [الفتح]

---

(١) جمع الإسلام بين عقل المادة بالتخطيط وعقل الروح بالتهذيب ، ومن هنا يكون الانسجام بين طاقة الروح وطاقة المادة ، وطاقة العقل ، فرسالة الإسلام هى عقل القيم ، يقول الحق ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ .. (١٣) ﴾ [الشورى]

(٢) يقول سبحانه : ﴿ وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ (٢٧) ﴾ [الحديد] .

(٣) شطأه : طرفه . يقال : أشطأ الزرع إذا نبت ونما . آزره : أزر الزرع وتأزّر : قوّى بعضه بعضاً . استغلظ فاستوى على سوقه : صار غليظاً وقويت واستحكمت نبتته .

ومن حق المسلمين أن يقولوا: أيها الكافرون ليست لكم مادة تطغون بها علينا؛ لأن الإسلام يريد من حركة حياتنا على ضوء منهجه فى الأرض أن تتوازن المادة مع القيم؛ لأن القيم هى التى تحرس الحضارة، والمادة إنما تحرس القيم، وحين يمتلك المسلمون القوة المادية فسيرتدع أى إنسان عن أن يطمع فى فتنة المسلمين فى دينهم؛ ولذلك قال الحق سبحانه:

﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ... ﴿٦٠﴾﴾ [الأنفال]

فالكفار إذا رأوك قد أعددْتَ لهم يتهيبون.

وفى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها، يقول الحق:

﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ﴾

وما دام الحق قد أعطى الوعد، فلن يوجد من هو أوفى منه؛ لذلك يقول: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾ وبذلك يطمئننا سبحانه على أن وعده محقق؛ لأن العهد ارتباط بين مُعَاهَد ومُعَاهِد، والذى يخرج عن هذا الارتباط أمران:

الأول: ألا يكون صادقاً حين أعطى عهداً، بل كان فى نيته ألا يوفى، ولكنه أقام العهد خديعة حتى يستنيم له المعَاهَد.

والأمر الثانى: أن يكون قد أعطى وعداً بما لا يستطيع تنفيذه، فهو كاذب.

والله لا يليق به لا الكذب ولا الخديعة؛ فسبحانه مُنزَّه عن كل ذلك، ولا أحد أوْفَى بالعهد من الله.

فقد يُطعن فى العهد والوفاء به عدم القدرة، لكن قدرة الحق مستوفية.

إذن: فالعهد الحقيقى إنما يؤخذ من الله ، وقد جاء الحق بهذه القضية بشكل استفهامى ﴿ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ ﴾ ؟ فالإجابة: لا أحد ؛ لأن الذى يقدح فى مسألة العهد الخُلف والكذب وغير ذلك.

والله سبحانه مُنزَّه عن الكذب والخديعة ؛ لأن الخديعة لا تأتى إلا من ماكر ، وإذا سمع أى إنسان ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾ ثم أدار فكره فى الكون ليبحث عن جواب ، فلا يجد إلا أن يقول : «الله» ، ولا أحد أوفى من الله بالعهد. وما دام الوعد بالجنة ، فالجنة لا يملكها إلا هو سبحانه ووعده حق ، وكلها تأكيدات بأن المسألة واقعة وحادثة.

ولهذا يقول سبحانه : ﴿ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِى بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١١) ﴾ [التوبة]

فالنتيجة لهذه المسألة كلها من شراء الله من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة، ثم وعده الحق المبيَّن فى التوراة والإنجيل والقرآن ، وكلها شهادات مسجلة هى الاستبشار بما باعه المؤمن لله. فالإنسان - ولله المثل الأعلى - لا يسجل إلا ما يكون فى صالح قضيته، ولا يسجل للخصم ، فعندما يكون عندك صَكٌّ[1] على فلان ، فأنت الذى تحتفظ به وتحرص عليه؛ لأنه يؤيد حقك.

والحق سبحانه يقول:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩) ﴾ [الحجر]

والقرآن هو الحجة الكاملة الشاملة فى كل أمور الدنيا والآخرة، ومن فَرْط صدق القرآن أن البشر قد يصلون إلى قضية كونية ما ، ومن بعد ذلك تُخَالَف ، وحين تعود إلى القرآن تجد أن كلام القرآن هو الذى صدق ، وقد حفظ الحق سبحانه القرآن لأن قضايا الكون الذى خلقه الله لا يمكن أن

(١) الصَّك: الكتاب، فارسى معرب. يقيد فيه الديون والأعطيات.

تخرج عن قضايا القرآن ؛ لأن منزل القرآن وخالق الكون واحد ، فلا شيء يصادمه .

﴿فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ﴾

قوله الحق : ﴿فَاسْتَبْشِرُوا﴾ مأخوذ من «البشرة»، وهى الجلد عامة، وإن كان الظاهر منه هو الوجه .

وحين يقول الحق سبحانه : ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم﴾ فقد يفهم أحد أن النفس سوف تضيع ، وأن الأموال سوف تنفق، وهذا قد يُقبِضُ النفس فهذا فيه الموت ، وخسارة للمال ، وكان من الطبيعى أن يشحب وجه الإنسان ويفزع ويخاف . ولكن ساعة يقول الحق سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ﴾ تجد بشرة المؤمن تطفح بالسرور. والبشر ، ويحدث له تهلل وإشراق، مع أنه هنا سيأخذ نفسه، ولكن المؤمن يعرف أنه سبحانه سيأخذ نفسه ليعطيه الحياة الخالدة .

إذن: قضايا الإيمان كلها هكذا لا يجب أن تصيبنا بالخوف ، بل علينا أن نستقبلها بالاستبشار ، ولذلك يقول الحق : ﴿ فَاسْتَبْشِرُوا ﴾ أى: فليظهر أثر ذلك على بشرتكم إشراقاً وسروراً وانبساطاً [1] .

﴿فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ﴾ وهل يستبشر الإنسان بالبيع ؟ نعم ؛ لأن الإنسان لا يبيع إلا ما يستغنى عنه عادة، ويشترى ما يحتاج إليه، فهنا الاستبشار بالبيع وليس بالشراء ، فالمؤمن هنا يبيع فانياً بباق .

﴿ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِى بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ وأنت إذا ما نظرت إلى الذين يخالفون العهد الذى أخذ عليهم ، تجد الواحد منهم

(١) وعلى المؤمن أن يكون له نصيب من هذا فى تعامله مع الناس، فعن أبى موسى قال: كان رسول الله ﷺ إذا بعث أحداً من أصحابه فى بعض أمره قال: «بشروا ولا تنفروا، ويسروا ولا تعسروا». أخرجه أحمد فى مسنده (٤/ ٣٩٩) ومسلم (١٧٣٢) فى صحيحيهما.

يحتاج للمخالفة لأن وفاءه يتعبه. لكن الحق سبحانه ليس فى حاجة لأحد وهو غنى عن الجميع ، ولا يوجد أدنى مبرر لخُلْف الوعد أبداً.

وتأتى ﴿وَذَلِكَ﴾ إشارة إلى الصفقة التى انعقدت بينكم وبين ربكم.

﴿وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ والفوز هو بلوغ الغاية المأمولة فى عرف العقل الواعى ، كما تقول لابنك : «ذاكر لتفوز بالنجاح» وتقول للتاجر : «اجتهد فى عملك بإخلاص لتفوز بالربح».

إذن: فهناك «فوز»، وهناك «فوز عظيم» والفوز فى الدنيا أن يتمتع الإنسان بالصحة والمال وراحة البال. وهناك فوز أعظم من هذا؛ أن تضمن أن النعمة التى تفوز بها لا تفارقك ولا أنت تفارقها، فيكون هذا هو الفوز الذى لا فوز أعظم منه [(١)].

ويقول الحق بعد ذلك:

﴿ التَّائِبُونَ [(٢)] الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ ﴾

---

(١) وهذه طبيعة الإنسان التى تطمح نفسه دائماً إلى الخلود وخلود ما أنعم عليه به، وقد لمح إبليس فيه هذا فقال : ﴿ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [طه] . فإبليس يمنيه بالخلد وبالنعيم الذى لا يزول ولا يفنى.

(٢) التائبون : من الشرك ولم ينافقوا فى الإسلام. العابدون : الذين ذلوا خشية لله وتواضعاً . الحامدون : الذين حمدوا الله على كل حال فى السراء والضراء . السائحون : الصائمون . الراكعون الساجدون : المصلون . الحافظون لحدود الله : المنتهون إلى أمره (راجع تفسير الطبرى).

وبعد أن عرض الحق هذه الصفقة، فمن هم المقبلون عليها [(١)] ؟ إنهم التائبون ، والتوبة: هى الرجوع عن أى باطل إلى حق.

وعمَّ يتوب هؤلاء التائبون ؟

نحن نعلم أن هناك إيماناً اسمه إيمان الفطرة. نجد ذلك فى قول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣) ﴾ [الأعراف]

إذن : فالإيمان أمر فطرى ، والكفر هو الذى يطرأ عليه ، وقلنا من قبل: إن الكفر هو الدليل الأول على الإيمان ؛ لأن الكفر هو الستر [(٢)] ،

---

(١) لمس فضيلة الشيخ هنا معنى هاماً فى تفسير هذه الآية، فلن يقبل على الدخول فى هذه البيعة إلا من توافرت فيه هذه الصفات، ولكن ليس على سبيل الشرط، فقد ثبت فى السنة أن هناك من استشهد ولم يركع لله ركعة ، وكذلك جاء فى السنة أن الشهيد تغفر له ذنوبه مع أول قطرة دم (أخرجه أحمد فى مسنده (٤/ ١٣١) وحسَّن إسناده المنذرى فى الترغيب (٢/ ١٩٤) وقد اختلف المفسرون فى هذه الآية: هل هى متصلة بالآية قبلها أم منفصلة ؟ فاتصالها بها معناه أنه لن يدخل فى هذه البيعة إلا القليل النادر، أما انفصالها فمعناه أن هذه أوصاف للكمَلة من المؤمنين الأقرب لبيع أنفسهم وأموالهم فى مقابل الجنة. انظر تفسير القرطبى (٤/ ٣١٩٧) .

(٢) الكفر على أربعة أنحاء: كفر إنكار بأن لا يُعرف اللهُ أصلاً ولا يُعترف به، وكفر جحود، وكفر معاندة، وكفر نفاق، من لقى ربه بشىء من ذلك لم يغفر له. . . فأما كفر الإنكار فهو كفر بالقلب واللسان. وأما كفر الجحود فهو أن يعترف الكافر بقلبه ولا يقرّ بلسانه ككفر إبليس وأمية بن أبى الصلت ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ (٨٩) ﴾ [البقرة] . وأما كفر المعاندة فهو أن يعرف الله بقلبه ويقرّ بلسانه ويأبى أن يدين به حسداً وبغياً ككفر أبى جهل. وأما كفر النفاق فهو إقرار باللسان وكفر بالقلب. نقله ابن منظور فى اللسان (مادة: كفر).

فمن يكفر بالله - والعياذ بالله - إنما يستر وجوده ، فكأن وجوده هو الأصل ، ثم يطرأ الكفر فيستره ، ثم يأتى من ينبه فى الإنسان مشاعر اليقين والإيمان فيرجع الإنسان إلى الإيمان بالله بعد أن يزيل الغشاوة التى طرأت على الفطرة.

و﴿التَّائِبُونَ﴾: منهم التائبون عن الكفر الطارىء على إيمان الفطرة ، وأخذوا منهج الله الذى آمنوا به، ومن هنا نشأت العبادة التى تقتضى وجود عابد ومعبود ، والعبادة تعنى الانصياع من العابد لأوامر ونواهى المعبود.

﴿ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ﴾ والعبادة كلها طاعة تتمثل فى تطبيق ما جاء به المنهج من «افعل» و«لا تفعل»، وقد يتدخل المنهج فى حريتك قليلاً ، وأنت بقوة الإيمان تعتبر أن هذا التدخل فى هذه الحرية نعمة يجب أن تحمد الله عليها ؛ لأنه لو تركك على هواك ، كما يترك ولى أمر التلميذ ابنه على هواه فهو يفشل ، ولكن الأب الذى يحث ابنه على المذاكرة وينهاه عن اللعب والعبث ، فلا بد أن ينجح.

إذن: الأوامر والنواهى هنا نعمة ، كان يجب أن نحمد ربنا عليها ، وكل ما يجريه الله على العبد المؤمن يجب أن يأخذه العبد على أساس أنه نعمة.

إذن: فالذين تابوا عن الكفر الطارىء على إيمان الفطرة هم تائبون يأخذون منهج الإيمان من المعبود ، ويصبحون بذلك عابدين لله ، أى: منفذين الأوامر ، ومبتعدين عن النواهى ، وهم يعلمون أن الأوامر تقيد حركة النفس وكذلك النواهى، ولكنهم يصدقون قوله ﷺ: «حُفَّتِ الجنةُ

بالمكاره ، وحُفَّت النارُ بالشَّهوات »[١]

حين تعرف أن العبادة أوصلتك إلى أمر ثقيل على نفسك ، فاعرف أن هذا لمصلحتك وعليك أن تحمد الله عليه ؛ وبذلك يدخل المؤمن فى زمرة **الْحَامِدِينَ**.

وأنت حين تؤمن بالله ، يصبح الله فى بالك ، فلا يشغلك كونه عنه سبحانه ، وإياك أن تشغل بالنعمة عن المنعم ، واجعل الله دائماً فى بالك، والحق سبحانه يقول:

﴿ **كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ (٧)** ﴾ [العلق]

لذلك يفكر المؤمن فى الله دائماً ويشكر المنعم على النعمة وآثارها من راحة فى بيت وأولاد وعمل.

و﴿ **الْحَامِدُونَ** ﴾أيضاً لابد أن يستقبلوا كل قدر لله عليهم بالرضا ؛ لأن الذى يُجرى عليهم القدر - ما دام لم يأمرهم بما لم يقع فى اختيارهم - فهو حكيم ولا يُجْرى سبحانه عليهم إلا ما كان فى صالحهم. وبعد أن ترضى النفس بما أجرى عليها تعرف الحكمة ؛ ولذلك يقول سبحانه :﴿ **اتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ... (٢٨٢)** ﴾ [البقرة]

ويتابع الحق صفات المقبلين على الصفقة الإيمانية فيقول: ﴿ **السَّائِحُونَ** ﴾

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٣/ ١٥٣، ٢٥٤، ٢٨٤) ومسلم فى صحيحه (٢٨٢٢) والترمذى فى سننه (٢٥٥٩) والدارمى فى سننه (٢/ ٣٣٩) عن أنس بن مالك. قال النووى فى شرحه لمسلم (١٧/ ١٧١) «فأما المكاره فيدخل فيها الاجتهاد فى العبادات، والمواظبة عليها، والصبر على مشاقها وكظم الغيظ والعفو والحلم والصدقة والإحسان إلى المسىء، والصبر عن الشهوات ونحو ذلك. وأما الشهوات التى حُفَّت بها النار ، فالظاهر أنها الشهوات المحرمة كالخمر والزنا والنظر إلى الأجنبية والغيبة واستعمال الملاهى ونحو ذلك، وأما الشهوات المباحة فلا تدخل فى هذه لكن يكره الإكثار منها مخافة أن يجر إلى المحرمة أو يقسّى القلب أو يشغل عن الطاعات أو يحوج إلى الاعتناء بتحصيل الدنيا للصرف فيها ونحو ذلك ».

ومعنى «سائح» هو من ترك المكان الذى له موطن ، فيه بيته وأهله وأولاد وأنس بالناس ، ثم يسيح إلى مكان ليس له فيه شىء ما ، قد يتعرض فيه للمخاطر ، والمؤمن إنما يفعل ذلك ؛ لأنه لا شىء يشغله فى الكون عن المكوِّن ، ويقول الحق سبحانه :

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا ...(١١)﴾ [الأنعام]

إذن : فالسياحة هى السير المستوعب ، والسير فى الأرض منه سير اعتبار لينظر فى ملكوت السموات والأرض ، وليستنبط من آيات الله ما يدل على تأكيد إيمانه بربه ، ومنه سير استثمار بأن يضرب فى الأرض [1] ليبتغى من فضل الله .

إذن : فالسياحة إما سياحة اعتبار ، وإما سياحة استثمار ، أما سياحة الاستثمار فهى خاصة بالذين يضربون فى الأرض ، وهم الرجال .

أما سياحة الاعتبار ؛ فهى أمر مشترك بين الرجل والمرأة ، بدليل أن الله قال ذلك فى وصف النساء :

﴿عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ...(٥)﴾ [التحريم]

إذن : ﴿سَائِحَاتٍ﴾ هنا مقصود بها سياحة الاعتبار ، أو السياحة التى تكون فى صحبة الزوج الذى يضرب فى الأرض .

وقيل أيضاً : إن السياحة أطلقت على «الصيام» ؛ لأن السياحة تخرجك عما ألفْتَ من إقامة فى وطن ومال وأهل ، والصيام يخرجك عما ألفْتَ من

---

(١) الضرب فى الأرض : السفر لطلب الرزق والتجارة . يقول سبحانه : ﴿وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ (٢٠)﴾ [المزمل]

طعام وشراب وشهوة [١] .

إذن: القَدْرُ المشترك بين الرجال والنساء هو فى سياحة الاعتبار وسياحة الصوم.

ثم يقول الحق سبحانه:

﴿الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ﴾ أى: المقيمون للصلاة ، وقد جاء بمظهرين فقط من مظاهر الصلاة ، مع أن الصلاة قيام وقعود وركوع وسجود ؛ لأن الركوع والسجود هما الأمران المختصان بالصلاة ، وأما القيام فقد يكون فى غير الصلاة ، وكذلك القعود . إذن: فالخاصيَّتان هما ركوع وسجود ؛ والحق يقول:

﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي [٢] لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ (٤٣)﴾ [آل عمران]

أى: صلّى مع المصلِّين ، وهكذا نجد أن الركوع والسجود هما الأمران اللذان يختصان بالحركة فى الصلاة.

ثم يقول سبحانه: ﴿ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر هو حيثية تخص الأمة المحمدية لتكون خير أمة أخرجت للناس ، فالحق سبحانه يقول:

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ...(١١٠)﴾ [آل عمران]

فإذا أمرت بالمعروف ونهيت عن المنكر ، فلا بد أن تكون بمنأى عن هذا

---

(١) قيل للصائم : «سائح» ؛ لأن الذى يسيح متعبداً يسيح ولا زاد معه إنما يطعم إذا وجد الزاد، والصائم لا يطعم أيضاً فلشبهه به سمى سائحاً. نقله ابن منظور فى اللسان.

(٢) القنوت: أداء الطاعة فى خضوع وخشوع مع الإقرار بالعبودية لله.

المنكر فليس معقولاً أن تنهى عن شيء أنت مزاول له [(١)]. إذن: فالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، صلاح أو هدى مُتَعدٍّ من النفس إلى الغير، بعد أن تكون النفس قد استوفَتْ حظها منه.

ويقتضى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أن تعرف المعروف الذى تأمر به، وأن تعرف المنكر الذى تنهى عنه؛ لذلك لا بد أن تكون من أهل الاختصاص فى معرفة أحكام الله، ومعرفة حدود الله حلاً وحُرْمة، أما أن يأتى أى إنسان ليُدخل نفسه فى الأمر ويقول: أنا آمرَ بمعروف وأنا أنهى عن منكر، هنا نقول له: لا تجعل الدين، ولا تجعل التقوى فى مرتبة أقل من المهن التى لا بد أن يزاولها أهل فكر ومتخصصون فيها.

ثم يقول سبحانه: ﴿وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾ و«الحدود» جمع «حد» وتأتى الحدود فى القرآن على معنيين: المعنى الأول هو المحافظة على الأوامر، وتلك يردفها الحق بقوله:

﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا ... (٢٢٩)﴾ [البقرة]

وكل أمر يقول فيه ذلك هو حد الله فلا تتعدَّ هذا الحد، أما المعنى الثانى: فهو البعد عن المنهيات فلا يقول لك: لا تتعداها، بل يقول سبحانه:

﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلاَ تَقْرَبُوهَا ... (١٨٧)﴾ [البقرة]

ويُنهى الحق سبحانه الآية بقوله: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أى: بَشِّرْ هؤلاء

---

(١) عن أسامة بن زيد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يُجاء برجل فيطرح فى النار فيطحن فيها كطحن الحمار برحاه، فيطيف به أهل النار فيقولون: أى فلان ألست كنت تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟ فيقول: كنت آمر بالمعروف ولا أفعله، وأنهى عن المنكر وأفعله». أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٢٦٧) ومسلم بلفظ مقارب (٢٩٨٩)

ويقول الشاعر:

لاَ تَنْهَ عَن خُلُقٍ وتأتى مثْلهُ ... عَارٌ عليكَ إذا فعلْتَ عَظِيمُ

الذين يسلكون هذا السلوك مطابقاً لما اعتقدوه من اليقين والإيمان ، لا هؤلاء المنافقين الذين قد يصلون أو يصومون ظاهراً. وكلمة ﴿وَبَشِّرِ﴾ و«استبشر» و«البشرى» و«البشير» كلها مادة تدل على الخبر السار الذى يجعل فى النفس انبساطاً وسروراً ؛ بحيث إذا رأيت وجه الإنسان وجدته وجهاً متهللاً تفيض بشرته بالسرور.

وبعد ذلك يتكلم الحق عن أمر شغل بال المؤمنين الذين كان لهم آباء على الكفر ؛ ومن حقوق هذه الأبوة على الأبناء أن يستغفروا لهم لعل الله يغفر ، وأراد الحق سبحانه وتعالى أن يبين لنا أن رعاية حدود الله وحقوقه أوْلَى من قرابة الدم ، وأوْلى من عاطفة الحنوّ والرحمة ؛ فالحق سبحانه وتعالى أوْلى بأن يكون الإنسان بارّا به من أن يكون بارّا بالأب الكافر ، وقد جعل الحق سبحانه النسبَ فى الإسلام نفسه.

ثم يقول الحق سبحانه:

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾﴾

قبل أن يحظر الحق سبحانه على المؤمنين الاستغفار لآبائهم المنافقين ، بدأ برسول الله ﷺ ، فقال : ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ﴾، وإذا كان النبى ينهى ، فالمؤمنون من باب أوْلى ليس لهم الحق فى ذلك ؛ لأن الله لو أراد أن يكرم أحداً من الآباء لأجل أحد ، لأكرم آباء النبى إن كانوا غير مؤمنين.

وكلمة ﴿ مَا كَانَ ﴾ تختلف عن كلمة «ما ينبغى» فساعة تسمع «ما ينبغى لك أن تفعل ذلك» فهذا يعنى أن لك قدرة على أن تفعل ، لكن لا يصح أن

تفعل ، ولكن حين يقال : «ما كان لك أن تفعل» ، أى : أنك غير مؤهل لفعل هذا مطلقاً.

ومثال ذلك أن يقال لفقير جداً : «ما كان لك أن تشترى ڤيديو» ؛ لأنه بحكم فقره غير مؤهل لشراء مثل هذا الجهاز ، لكن حين يقال لآخر : «ما ينبغى لك أن تشترى ڤيديو» أى: عنده القدرة على الشراء ، لكن القائل له يرى سبباً غير الفقر هو الذى يجب أن يمنع الشراء . إذن: فهناك فَرْق بين نفى الإمكان ، ونفى الانبغاء.

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُوْلِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾

أى: ما كان [1] للنبى ولا المؤمنين أن يستغفروا للذين ماتوا على الشرك والكفر ، ولو كانوا أولى قربى . فهذا أمر لا يصح [2] .

وحتى لا يحتج أحد من المؤمنين بأن سيدنا إبراهيم عليه السلام قد استغفر لأبيه جاء الحق بالقول الكريم:

---

(١) قوله: «ما كان» يأتى فى القرآن على وجهين:
- النفى: نحو قوله تعالى: ﴿ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا (٦٠) ﴾ [النمل] ، وقوله : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ (١٤٥) ﴾ [آل عمران].
- النهى: نحو قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ (٥٣) ﴾ [الأحزاب] ، وقوله : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ (١١٣) ﴾ [التوبة]

(٢) مما جاء فى سبب نزول هذه الآية أنه: لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله ﷺ فوجد عنده أبا جهل وعبد الله بن أبى أمية بن المغيرة فقال رسول الله ﷺ : يا عم قل: لا إله إلا الله . كلمة أشهد لك بها عند الله فقال أبو جهل وعبد الله بن أبى أمية: يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب. فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه ويعيد له تلك المقالة حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم هو على ملة عبد المطلب وأبى أن يقول: لا إله إلا الله ، فقال رسول الله ﷺ : أما والله لأستغفرن لك ما لم أنه عنك . فنزلت الآية : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُوْلِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١١٣) ﴾ [التوبة]. أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٤) .

﴿ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ ﴾

فقد وعد سيدنا إبراهيم عليه السلام أباه ما ذكره القرآن:

﴿ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ ﴾ [مريم]

﴿حَفِيًّا﴾ أى: أن ربَّ إبراهيم يحبه وسيكرمه فى استغفاره لأبيه [1].

﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ ويأتى الحق سبحانه بالحيثية الموحية، بأن إبراهيم له من صفات الخير، الكثير جداً، لدرجة أن الله خالقه يقول فيه:

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً ... ﴿١٢٠﴾ ﴾ [النحل]

أى: أن خصال الخير فى إبراهيم عليه السلام لا توجد مجتمعة فى إنسان واحد، ولا فى اثنين ولا فى ثلاثة، بل خصال الخير موزعة على الناس كلها، فهذا فيه صفة الأمانة، وثان يتحلى بالصدق، وثالث يتميز بالشهامة، ورابع موهوب فى العلم، إذن: فخصال الخير دائماً ينشرها الله فى خلقه، حتى يوجد تكافؤ الفرص بين البشر، كالمهن، والحرف، والعبقريات، والمواهب، فلا يوجد إنسان تتكامل فيه المواهب كلها ليصبح مجمع مواهب.

---

(١) حفياً: مبالغاً فى الإكرام وإجابة حاجته على سبيل البر واللطف به. وقد جاء استغفار إبراهيم لأبيه فى القرآن مرتين: ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴿٤١﴾ ﴾ [إبراهيم]، ﴿ وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ [الشعراء]. ولكن هذا قبل أن يتبين له أن أباه عدو لله.

لكن شاء الحق أن يجمع لسيدنا إبراهيم عليه السلام خصال خير كثيرة فقال: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ أى: فيه عليه السلام من خصال الخير التى تتفرق فى الأمة. وبعد ذلك يعطينا الحيثية التى جعلت من سيدنا إبراهيم أمة، وجامعاً لصفات الخير بهذا الشكل، فإن أعطاه الله أمراً فهو ينفذه بعشق [1]، لا مجرد تكليف يريد أن ينهيه ويلقيه من على ظهره، بل هو ينفذ التكليف بعشق، واقرأ قول الله سبحانه:

﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ .. (١٢٤)﴾ [البقرة]

أى: أتى بها على التمام، فلما أتمهن أراد الله أن يكافئه، فقال:

﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ... (١٢٤)﴾ [البقرة]

فهو - إذن - مأمون على أن يكون إماماً للناس لأنه قدوة، أى أنه يشترك مع الناس فى أنه بشر، ولكنه جاء بخصال الخير الكاملة فصار أسوة للناس، حتى لا يقول أحد: إنه فعل الخير لأنه ملك، وله طبيعة غير طبيعة البشر، لا.. إنه واحد من البشر، قال فيه الحق سبحانه:

﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ... (١٢٤)﴾ [البقرة]

أى: أسوة وقدوة، والأسوة والقدوة يشترط فيها أن تكون من الجنس نفسه فلا تكون من جنس مختلف، فلا يجعل الله للبشر أسوة من الملائكة؛ حتى لا يقول أحد: وهل أنا أستطيع أن أعمل مثل عمله؟ ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى فى عرض هذه القضية:

﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلاَّ أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولاً (٩٤)﴾ [الإسراء]

---

(١) العشق هنا أعلى مراتب الحب.

فحين تعجَّب بعض الناس [(١)] من أن ربنا قد بعث من البشر رسولاً أنزل الحق هذا القول وأضاف سبحانه:

﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولاً (٩٥)﴾ [الإسراء]

فما دُمْتم أنتم بشر فلا بد أن يرسل لكم رسولاً منكم لتحقق الأسوة، لهذا يقول الحق سبحانه:

﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ (٩)﴾ [الأنعام]

ولنَر كيف أتم سيدنا إبراهيم عليه السلام بعض التكاليف بعشق، فلننظر إلى قول الحق سبحانه:

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ ... (١٢٧)﴾ [البقرة]

ومعنى رفع القواعد أى إيجاد البعد الثالث، وهو الارتفاع؛ لأن البيت الحرام له طول وهذا هو البعد الأول، وله عرض وهو البعد الثانى وبهما تتحدد المساحة. أما الارتفاع فبضربه فى البعدين الآخرين يعطينا الحجم، وقد أقام سيدنا إبراهيم عليه السلام البعد الثالث الذى يبرز الحجم، وقد قال بعض السطحيين: إن سيدنا إبراهيم عليه السلام هو الذى بنى الكعبة، لا لم يبن الكعبة، بل رفع القواعد التى تبرز حجم الكعبة؛ بدليل أنه حينما جاء هو وامرأته هاجر ومعها الرضيع إسماعيل عليه السلام قال:

---

(١) جمع الله ذكر هؤلاء المتعجبين فى قوله تعالى فى سورة إبراهيم: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لاَ يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٩) قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (١٠)﴾ [إبراهيم].

﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ..(٣٧) ﴾
[إبراهيم]

وهذا دليل على أن البيت كان معروفاً من قبل إبراهيم عليه السلام ، وقد استقرت به هاجر وطفلها إسماعيل إلى أن كبر واستطاع أن يرفع مع أبيه القواعد ، ولذلك نقول : إن هناك فرقاً بين « المكان » و« المكين» فالذى فعله إبراهيم هو إقامة « المكين» أى المبنى نفسه ، أما المكان فقد كان معروفاً.

ولنفترض أنه جاء سيل على الكعبة وهدمها فإلى أى شىء سنصلى ؟ إلى أن نقيم المكين . إذن : عملية البناء هذه للمكان ، وليست للمكين .

ويقول الحق عن البيت الحرام :

﴿ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ ...(٩٧) ﴾ [آل عمران]

وآيات جمع ، وبينات جمع ، ولم يأت من الآيات البينات إلا « مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ » :

﴿ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ ... (٩٧) ﴾ [آل عمران]

أى : أن « مقام إبراهيم » هو مجموع الآيات البينات ؛ لأن الله قد أمره أن يرفع القواعد ، وكان لا بد أن يبحث عن الإمكانات التى تساعده فى الرفع ؛ لأنه لو رفعها على قدر ما تطول يده لما بلغ طول الكعبة فوق مستوى ما تطوله اليدان ؛ لذلك فكر سيدنا إبراهيم وتدبر وجاء بحجر ليقف فوقه ليطيل فى ارتفاع جدران الكعبة ، وهذا من دلائل أنه ينفذ التكليف بعشق ، وعلى أتم وجه ؛ لذلك قال الحق :

﴿ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ ﴾ وفى هذا آيات واضحة على أن الإنسان

إذا كلف أمراً فعليه ألا ينفذ الأمر لينهى التكليف بأية طريقة ، ولكن عليه أن يؤدى ما يكلف به بعشق ، ويحاول أن يزيد فيه ، وبذلك يؤدى «الفرض » والزائد على الفرض وهو « النافلة» .

ونحن هنا فى قضية الاستغفار ﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾

وهنا وقفة توضح لنا طبع سيدنا إبراهيم كأواه حليم ، والأواه هو الذى يكثر التوجع والتأوه على نفسه مخافة من الله ، وعلى الناس إن رأى منهم معصية ، فيحدث نفسه بما سوف يقع عليهم من عذاب ، إنه يشغل نفسه بأمر غيره ، فهذه فطرته ، وهو أواه لأن التأوه لون من السلوى يجعلها الله فى بعض عباده للتسرية عن عبادٍ له آخرين [(١)] .

ولذلك يقول الشاعر :

ولا بد من شكوى إلى ذى مروءةٍ يواسيك أو يسلّيك [(٢)] أو يتوجع

أى : أنه إذا أصابت الإنسان مصيبة فهو يشكو إلى صاحب المروءة ، فإما أن يساعده فى مواجهة المشكلة ، وإما أن يواسيه ليحمل عنه المصيبة ، بأن يتأوه له ويشاركه فى تعبه لمصيبته ، وهذا التأوه علامة رقة الرأفة وشفافية الرحمة فى النفس البشرية .

فإبراهيم ﴿ أَوَّاهٌ ﴾ ، وهذا طبع فيه يسلكه مع كل الناس ، فما بالك إن كان لقريب له ؟ لا بد إذن أن يكثر من التأوه ، وخصوصاً إن كان الأمر يتعلق بأبيه ، ومع ذلك أراد الله أن يضع طبع إبراهيم عليه السلام فى التأوه

(١) ومن معانى الأوّاه أيضا : كثير الدعاء والتضرُّع إلى الله موقناً بالإجابة . انظر اللسان (مادة : أوه) .
(٢) يسلّيك : يكشف عنك همَّك .

فى موضعه الصحيح ، ولكن الله أوضح له : إياك أن تستغفر لأبيك ولا شأن لك به ، فالمسألة ليست فى الطبع ، ولكن فى رب الطبع الذى أمر بذلك.

وهنا قضية هامة أحب أن تصفى بين مدارس العلم والعلماء فى العالم كله ؛ لأنها مسألة تسبب الكثير من المشاكل ، وتثار فيها أقضية كثيرة .

لقد أمر الحق سبحانه إبراهيم عليه السلام ألا يستغفر لأبيه ،بعد أن تبين له أنه عدو لله ، وما دام والد إبراهيم قد وصف بهذه الصفة وأنه عدو لله ومحمد ﷺ من نسل إبراهيم إذن : فلماذا يقول الرسول : « إننى خيار من خيار من خيار » ؟

ولو فهمنا قول الحق :إن أبا إبراهيم عدو لله ، ففى هذا نقض لحديث رسول الله ، وما دام أبو إبراهيم كان عدوا لله وتبرأ منه وقال له الحق : لا تستغفر . إذن :ففى نسبه ﷺ أحد أعداء الله ، وفى ذلك نقض لقوله ﷺ : « خيار من خيار من خيار ، ما زلت أنتقل من أصلاب الطاهرين إلى أرحام الطاهرات » .

ولهذا نريد أن نصفى هذه المسألة تصفية علماء ، لا تصفية غوغاء ، ولنسأل من هو الأب ؟ الأب هو من نَسَلَكَ وأنجبك ، أو نسل من نسلك . إذن : فهناك أب مباشر و أبوه يعتبر أبا لك أيضاً إلى أن تنتهى لآدم ، هذا هو معنى كلمة « الأب» كما نعرفه ، لكننا نجد أن القرآن قد تعرض لها بشكل أعمق كثيراً من فهمنا التقليدى ، وأغنى السور بالتعرض لهذه المادة « سورة يوسف » ؛ لأن مادة « الأب» جاءت ثمانى وعشرين مرة خلال هذه السورة ، فمثلاً تجد فى أوائل سورة يوسف،قول يوسف عليه السلام:

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا ... ﴿٤﴾﴾

[يوسف]

وبعد ذلك جاءت السورة بأن الله سوف يجتبى يوسف ويعلمه من تأويل الأحاديث:

﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ [(١)] رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ ... (٦)﴾ [يوسف]

والأبوان المقصودان هنا هما إبراهيم وإسحاق عليهما السلام، ثم قال الحق من بعد ذلك: ﴿إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ [(٢)] إِلَىٰ أَبِينَا .. (٨)﴾

[يوسف]

ثم جاء قوله الحق على لسان إخوة يوسف : ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٨)﴾ [يوسف]

وفى نفس السورة يقول الحق عن إخوة يوسف :

﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ ... (٩)﴾ [يوسف]

ثم يمهد إخوة يوسف للتخلص منه ، فيبدأون بالحوار مع الأب :

﴿يَـأَبَانَا مَا لَكَ لاَ تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ (١١) أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (١٢)﴾ [يوسف]

وبعد أن ألقوه فى غيابة الجب [(٣)] ، وعادوا إلى والدهم :

﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ (١٦)﴾ [يوسف]

---

(١) يجتبيك : يختارك ويصطفيك لنبوته . وتأويل الأحاديث : هو تفسير الأحلام والرؤى .
(٢) يقصدون أخا يوسف من أمه راحيل ، واسمه بنيامين .
(٣) الجُبّ: البئر . وغيابته : أى: قعره، فى منهبط منه .

وكانت هذه هى المرة الثامنة فى ذكر كلمة أب فى سورة يوسف ، ثم تأتى التاسعة :

﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا ... (١٧) ﴾[يوسف]

ثم تدور أحداث القصة إلى أن دخل سيدنا يوسف السجن ، وقابل هناك اثنين من المسجونين وأخبراه أنهما يريانه من المحسنين ، وأن عندهما رؤى يريدان منه أن يفسرها لهما فقال لهما :

﴿ لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ ... (٣٧) ﴾ [يوسف]

وينسب ذلك الفضل إلى الحق سبحانه فيقول :

﴿ ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٣٧) وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ... (٣٨) ﴾ [يوسف]

وهكذا ذكر اسم ثلاثة من آبائه : إبراهيم وإسحق ويعقوب عليهم السلام .

ثم خرج يوسف من السجن [1] وتولى أمر تنظيم اقتصاد مصر ، وجاء إخوته للتجارة فعرفهم ، ويحكى القرآن عن لقائه بهم دون أن يعرفوه ، وقال :

﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ... (٥٩) ﴾ [يوسف]

وقال أيضاً :

---

(١) رفض يوسف عليه السلام الخروج من السجن للقاء الملك إلا بعد أن تظهر براءته مما نسب إليه تجاه امرأة العزيز ؛ لذلك قال لرسول الملك : ﴿ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ (٥٠) ﴾[يوسف] وتم له ما أراد ، فقالت النسوة : ﴿حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ﴾ وقالت امرأة العزيز : ﴿ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٥١) ﴾ [يوسف] .

﴿قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ[١] ... (٦١)﴾ [يوسف]

ثم عادوا إلى أبيهم يرجونه أن يسمح لهم باصطحاب أخيهم الأصغر معهم[٢]، وسمح لهم يعقوب عليه السلام باصطحابه بعد أن آتوه موثقاً من الله أن يأتوه به إلا أن يحيط بهم أمر خارج عن إرادتهم، ونزلوا مصر وطلبوا الميرة[٣].

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ[٤] فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ[٥] إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ (٧٠) قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ (٧١) قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ[٦] (٧٢) قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ (٧٣) قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ (٧٤) قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ ... (٧٥)﴾ [يوسف]

قالوا: ﴿إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٧٨)﴾ [يوسف]

قال يوسف:

﴿مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ ... (٧٩)﴾ [يوسف]

---

(١) المراودة: المراجعة وطلب الإذن منه برفق.

(٢) وذلك أنهم قالوا لأبيهم: ﴿يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ [يوسف: ٦٥] قال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٤٨٤): «وذلك أن يوسف عليه السلام كان يعطى كل رجل حمل بعير».

(٣) الميرة: هي الطعام يمتاره الإنسان أي يجلبه.

(٤) السقاية: هو إناء من فضة كانوا يكيلون الطعام به، وربما شربوا به. ويسمى أيضاً الصواع.

(٥) العير: القافلة، والعير القوم معهم دوابهم وأحمالهم من الطعام. قال تعالى: ﴿أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ [يوسف: ٧٠] أي: أيها القوم الراحلون.

(٦) زعيم: كفيل.

ويأمرهم سيدنا يوسف عليه السلام :

﴿ ارْجِعُوا إِلَىٰ أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ (٨١) ﴾ [يوسف]

ويعودون إلى أبيهم الذى يعاتبهم : ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا . . . (٨٣) ﴾ [يوسف]

ثم يأمرهم أن يعودوا مرة أخرى قائلاً :

﴿ يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ . . . (٨٧) ﴾ [يوسف]

وعندما عرفهم يوسف بنفسه وعلم منهم أن والدهم قد صار أعمى قال لهم : ﴿ اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا (٩٣) ﴾ [يوسف]

ثم يأمرهم يوسف عليه السلام بأن يأتوا بأهلهم أجمعين . ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلا أَن تُفَنِّدُونِ [1] (٩٤) ﴾ [يوسف]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ [2] وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِن قَبْلُ . . . (١٠٠) ﴾ [يوسف]

وما يهمنا فى كل ذلك آيتان اثنتان : الأولى هى قوله سبحانه : ﴿ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦) ﴾ [يوسف]

---

(١) تفنّدون : أى تكذبونى وتتهمونى بالخرَف وضعف الرأى والعقل .
(٢) العرش : سرير الملك .

وإسحق هو أبو يعقوب ، وإبراهيم هو الأب الثالث. وحين قال يوسف :

﴿ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ [1] آبَائِي ... (٣٨) ﴾ [يوسف]

و« آبائى » جمع أب . وعندما أراد أن يذكر الأعلام من آبائه قال :

﴿ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ... (٣٨) ﴾ [يوسف]

ويعقوب هو أبو يوسف ، وإسحق أبو يعقوب ، وإبراهيم أبو إسحق ، إذن : فإبراهيم أب ، وإسحق أب ، ويعقوب أب . وهكذا نرى أن كلمة «الأب» تطلق على الجد ، وآباء الجد إلى آدم . وإذا نظرت فى سورة البقرة تجد قول الحق سبحانه :

﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ... (١٣٣) ﴾ [البقرة]

ومقابلة الجمع بالجمع تقتضى القسمة آحاداً ، وهكذا يكون إبراهيم أباً ، وإسماعيل أباً ، وإسحق أباً ، ولكن إسماعيل أخ لإسحق ، إذن فقد أطلق الأب هنا وأريد به العم ، وهكذا ترى أنه إذا ألحق بكلمة « أب» اسم معين هو المقصود بها ، فالمعنى ينصرف إما إلى الجد وإما إلى العم ، وإن جاءت من غير تحديد الاسم ، فهى تنصرف إلى الأب المباشر فقط .

والحق يقول فى شأن إبراهيم مع أبيه :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ ... (٧٤) ﴾ [الأنعام]

---

(١) المِلَّة : الشريعة والدين .

لقد ذكر الحق هنا اسم الأب وحدده بـ« آزر »[١] ولو أنه أبوه حقيقة لما قال آزر ، مثلما يأتيك إنسان ليسأل : أين أبوك ؟ هنا نفهم أن السؤال ينصرف إلى الأب المباشر ، لكن إذا قال : هل أبوك محمد هنا ؟ فهذا التحديد قد ينصرف إلى العم .

إذن : قول الله : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ ﴾ يبين لنا أن آزر ليس هو الصُّلب الذى انحدر منه رسول الله ، ولكنه عمه ، وبذلك نحل الإشكال واللغز الذى حير الكثيرين .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ[٢] حَلِيمٌ (١١٤)﴾ [التوبة]

و« الحليم» هو خلق يجعل صاحبه صبوراً على الأذى صفوحاً[٣] عن الذنب .

وقد شغل صحابة رسول الله ﷺ بإخوانهم المؤمنين ، الذين ماتوا قبل أن تكتمل عندهم أحكام الإسلام ؛ لأن منهج الإسلام نزل فى « ثلاثة وعشرين عاماً» . وليس من المفروض فيمن آمن أن يأتى بكل أحكام

(١) آزر : اسم أعجمى . وقد اختُلف فى اسم أبى إبراهيم ، فالنسابون والمفسرون على أن اسم أبيه «تارح» وبعضهم قال : «تارخ» وبعضهم قال : إنهما اسمان له كما لكثير من الناس وكما كان ليعقوب عليه السلام فهو إسرائيل أيضاً . والبعض قال : إن تارح اسم وآزر لقب . وقيل : إن آزر هو اسم للصنم الذى كانوا يعبدونه . انظر فى هذا : تفسير القرطبى (٣/ ٢٥٤٤) ، وابن كثير (٢/ ١٤٩) وقصص الأنبياء لابن كثير (ص ١٠٤) ، ولسان العرب (مادة أزر) وقصص الأنبياء - عبد الوهاب النجار (ص ٩٣ - ٩٦)

(٢) أواه : كثير الدعاء والتأوه خوفاً من الله .

(٣) الحلْم : الصبر ، و«الحليم» صيغة مبالغة من الحلم ، أى : كثير الحلم ، و«الصبور» صيغة مبالغة من الصبر أى : كثير الصبر ، و«الصَّفُوح» صيغة مبالغة من الصفح أى : كثير الصفح ، والصفح : هو العفو والمغفرة .

الإسلام عند بداية إيمانه ، بل قد يكون قد آمن فقط بالشهادة ، فاعتبر مسلماً ، ومثال هذا مخيريق اليهودى [(١)] الذى لم يصل ركعة واحدة فى الإسلام ؛ لأن الحرب قامت بعد إسلامه مباشرة ، وقال : مالى كله لمحمد وسأذهب لأحارب معه ، وحارب فقتل ، وهكذا صار شهيداً . لأنه لم يمكث زمناً ينفذ فيه ما جاء به الإسلام قبل ذلك .

ومن باب أولى أن الذى مات قبل أن تتم أحكام الإسلام يعتبر مسلماً ، والذى مات مثلاً قبل أن تحرم الخمر تحريماً نهائياً ، أيقال : إنه عاصٍ أو كافر؟ لا ، إنه مسلم ، والذى مات قبل أن يعلم أن القبلة قد حولت من بيت المقدس إلى الكعبة يعتبر مسلماً [(٢)] وشاء الحق أن يبين للمسلمين ألا يحزنوا على هؤلاء ، فنزل الوحى :

﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١١٥) ﴾ [التوبة]

وهذا يوضح ما نعرفه فى عرف التقنين البشرى أنه لا جريمة إلا بنص ، ولا عقوبة إلا بتشريع ، فنحن لا نعاقب إلا بعد تحديد الفعل الذى يعاقب عليه ، وأن يكون النص المحدد للجريمة والعقوبة سابقاً على الفعل .

إذن : لا عقوبة إلا بتجريم ، ولا تجريم إلا بنص . والذى لم يبلغه

---

(١) مخيريق النضرى الإسرائيلى من بنى النضر ، أسلم واستشهد فى «أحد» ، وكان عالماً . وقد أوصى بأمواله للنبى ﷺ فجعلها النبى ﷺ صدقة . انظر : الإصابة فى تمييز الصحابة (٦/ ٧٣) . وسيرة النبى (٣/ ٨٨) .

(٢) عن ابن عباس قال : لما وُجِّه النبى ﷺ إلى الكعبة قالوا : يا رسول الله كيف بإخواننا الذين ماتوا وهم يصلون إلى بيت المقدس ، فأنزل الله : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ (١٤٣) ﴾ [البقرة] وأخرجه الترمذى فى سننه (٥/ ٢٠٨) وقال : حسن صحيح . والحاكم فى مستدركه (٢/ ٢٦٩) وصححه وأقره الذهبى .
قال ابن حجر العسقلانى فى الفتح (١/ ٩٨) : «الذين ماتوا بعد فرض الصلاة وقبل تحويل القبلة من المسلمين عشرة أنفس» وذكر أسماءهم ، ثم قال : «فهؤلاء العشرة متفق عليهم» .

النص ؛ لأنه مات قبل أن يوجد النص ؛ لا نأخذه بالعقاب ؛ لأنه لا رجعية فى القانون السماوى ، إنما الرجعية فقط عند البشر ؛ ولذلك نجد الحق يقول فى كثير من الآيات : ﴿إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ ... (٢٢)﴾ [النساء]

إذن : فلا تحزنوا على من مات من إخوانكم قبل أن يستكمل الإسلام كل أحكامه . فإسلامهم هو ما بلغهم من هذه الأحكام ؛ فإن أدوها استووا بالذى يؤديها بعد أن تتم أركان الإسلام كلها ؛ لذلك جاء قوله الحق :

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾

وهنا الهداية هى هداية الدلالة حتى يبين لهم ما يتقون ؛ ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا﴾ أى : ما كان الله ليحكم بضلالة قوم حتى يبين لهم ما يتقون . والتقوى التزام أمر الله ونهيه ، فإذا وافقوا البيان هداهم هداية معونة ، وإذا لم يوافقوا كانوا ضالين ، وقد حكم الله بضلالة عم إبراهيم وما حكم الله بضلالته إلا بعد أن بين له منهج الهداية .

وقد بين إبراهيم لعمه منهج الهداية فلم يهتد . ولذلك أمر الله سبحانه وتعالى إبراهيم ألا يستغفر له .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾﴾

ومادة الـ(م.ل.ك) يأتى منها « مالك » ، و« مَلك» ، و«ملْك» ، ومنها «مُلْك» ، ومنها « ملكوت» ، و« الملْك » هو ما تملكه أنت فى حيزك ، فإن كان هناك أحد يملكك أنت ومن معَك ويملك غيرك ، فهذا هو المَلك ، أما ما اتسع فيه مقدور الإنسان أى الذى يدخل فى سياسته وتدبيره ، فاسمه مُلك ، فشيخ القبيلة له ملك ، وعمدة القرية له ملك ، وحاكم الأمة له ملك ، ويكون فى الأمور الظاهرة . . . وأما الملكوت فهو ما لله فى كونه من أسرار خفية .

مثل قوله تعالى :

﴿ وَكَذَلِكَ نُرِى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَـوَاتِ وَالأَرْضِ ... (٧٥) ﴾ [الأنعام]

وساعة ترى « تاء المبالغة » فى مثل « رهبوت» ، و«عظموت » تدرك أنها رهبة عظيمة .

إذن : إياك أن تفهم أن الله حين يمنعك أن تستغفر لآبائك ، وأنك إن قاطعتهم فذلك يخل بوجودك فى الحياة ؛ لأنهم هم ومن يؤازرهم داخلون فى ملك الله ، وما دام الله له ملك السموات والأرض ، فلا يضيرك أحد أو شىء ولا يفوتك مع الله فائت ، وما دام الله سبحانه موجوداً فكل شىء سهل لمن يأخذ بأسبابه مع الإيمان به .

والحق سبحانه يبين لنا أنه سبحانه وحده الذى بيده الملك ؛ فقال :

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِى الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ ... (٢٦) ﴾ [آل عمران]

وفى هذا القول الكريم أربعة أشياء متقابلة :﴿ تُؤْتِى الْمُلْكَ ﴾ و ﴿ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ ﴾ ، وإيتاء الملْك فى أعراف الناس خير ، ونزعه فى أعراف الناس

شر ، وإعزاز الناس خير ، وإذلالهم شر ، ولم يقل الله بيده : « الخير والشر» . وإنما قال فى كُلّ : ﴿ بِيَدِكَ الْخَيْرُ ﴾ .

إذن : فحين يؤتى الله إنساناً مُلْكاً ؛ نقول : هذا خير وعليك أن تستغله فى الخير . وحينما ينزع الله منه الملك نقول له : لقد طغيت وخفف الله عنك جبروت الطغيان ، فنزعه الله منك فهذا خير لك . وإن أعزك الله ، فقد يعذبك حقّاً ، وإن أذلهم الله ، فالمقصود ألا يطغوا أو يتجبروا . إذن : فكلها خير .

﴿ تُؤْتِى الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ ... (٢٦) ﴾ [آل عمران]

ساعة تجد ملكاً عضوضاً [(١)] ، إياك أن تظن أن هذا الملك العضوض قد أخذ ملكه دون إرادة الله ، لا ، بل هو عطاء من الله . ولو أن المملوك راعى الله فى كل أموره لرقق عليه قلب مالكه . ولذلك يقول لنا فى الحديث القدسى : « أنا الله ملك الملوك ، قلوب الملوك ونواصيها بيدى ، فإن العباد أطاعونى جعلتهم عليهم رحمة ، وإن هم عصونى جعلتهم عليهم عقوبة ، فلا تشتغلوا بسب الملوك ، ولكن أطيعونى أعطفهم عليكم» .

وما دام الأمر كذلك ، فلا بد أن نعرف أن كل حادث له حكمة [(٢)] فى الوجود .

---

(١) الملك العضوض : هو ملك شديد فيه ظلم وقهر . وهى من صيغ المبالغة . والعضوض : جمع عِضٍّ وهو الخبيث الشرس . وسُمِّى هذا الملك عضوضاً كأنه يعض الناس .

(٢) الحكمة : الصواب والسداد والحق والعلم والعدل والحلم والنبوة والقرآن والإنجيل قال تعالى : ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ (١٢٩) ﴾ [البقرة] .

وإن رأيت واحداً قد أخذ الملك وهو ظالم[(١)] ، فاعلم أن الله قد جاء به ليربى به المملوكين ، وسبحانه لا يربى الأشرار بالأخيار ؛ لأن الأخيار لا يعرفون كيف يربون[(٢)] ؛ وقلوبهم تمتلىء بالرحمة ؛ ولذلك يعلمنا سبحانه :

﴿ وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا ... (١٢٩) ﴾ [الأنعام]

والخيِّر لا يدخل المعركة بل يشاهد الصراع من بعيد ، ويجرى كل شىء بعلم الله ؛ لأنه سبحانه له ملك السموات والأرض وهو الذى يحيى ويميت ، فإياك أن تُفْتَن فى غير خالقك أبداً ؛ لأن الخلق مهما بلغ من قدرته وطغيانه ، لا يستطيع أن يحمى نفسه من أغيار الله فى كونه ؛ ولذلك فليأخذ المؤمن من الله وليّاً له ونصيراً .

وبعد أن قال لنا سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ يأتى لنا بالأمر الذى يظهر فيه أثر القدرة ، ولا يشاركه فيه غيره ، فقال : ﴿ يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ . وقال بعض العلماء فى قوله : ﴿ يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ أنه سبحانه « يحيى الجماد » ، و« يميت الحيوان» ؛ لأنهم ظنوا أن الحياة هى الحس والحركة التى نراها أمامنا من حركة وكلام وذهاب وإياب ، ونسوا أن الحياة

---

(١) عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « . . . إن الله عز وجل يعطى الدنيا من يحب ومن لا يحب ، ولا يعطى الدين إلا لمن أحب » . قطعة من حديث أخرجه أحمد فى مسنده (١/ ٣٨٧) والحاكم فى مستدركه (١/ ٣٣) (٢/ ٤٤٧) (٤/ ١٦٥) ، وصححه ووافقه الذهبى ، وعزاه الهيثمى فى مجمع الزوائد (١٠/ ٢٢٨) لأحمد وقال : رجاله وثقوا ، وفى بعضهم خلاف .

(٢) التربية هنا بمعنى التأديب والزجر ، وهذا ملمح دقيق جداً ، فالله سبحانه يعلم من قلوب المؤمنين الرحمة والرأفة والرقة والعفو والصفح ، ولذلك عند تطبيق حد الزنا مثلاً قال سبحانه : ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢) ﴾ [النور] .

هى ما أودعه الله فى كل ذرة فى الكون ، مما تؤدى به مهمتها ، ففى ذرة الرمل حياة ، والجبل فيه حياة ، وكل شىء فيه حياة ، بنص القرآن حيث يقول :

﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ ... (٤٢) ﴾ [الأنفال]

إذن : فالحياة مقابلها الهلاك ، وفى آيات أخرى يقابل الحياة الموت ، فالهلاك هو الموت . فإذا قال الحق سبحانه :

﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ ... (٨٨) ﴾ [القصص]

إذن : فكل شىء قبل أن يكون هالكاً كان حيّاً ، وهكذا نعرف أن الحياة ليست هى الحس والحركة الظاهرتين ، وبعد التقدم العلمى الهائل فى المجاهر الدقيقة تكشفت لنا حركة وحس كائنات كنا لا نراها ، وإذا كان الإنسان قد توصل بالآلات التى ابتكرها إلى إدراك ألوان كثيرة من الحياة فيما كان يعتقد أنه لا حياة فيها ، إذن : فكل شىء فى الوجود له حياة تناسبه فلو جئت بمعدن مثلاً وتركته ستجده تأكسد ، أى حدث فيه تفاعل مع مواد أخرى . . فهذه حياة .

بعد ذلك يقول الحق :

﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١١٧) ﴾

قلنا : إن التوبة لها مراحل ، فهناك توبة شرعها الله ، ومجرد مشروعية التوبة من الله رحمة بالخلق ، وهى أيضا رحمة بالمذنب ؛ لأن الحق سبحانه لو لم يشرع التوبة لاستشرى الإنسان فى المعاصى بمجرد انحرافه مرة واحدة، وإذا استشرى فى المعاصى فالمجتمع كله يشقى به ، إذن : فمشروعية التوبة نفسها رحمة بمن يفعل الذنب ، وبمن يقع عليه الذنب ، وقبول التوبة رحمة أخرى بمن عمل الذنب . وأنت إذا سمعت قوله الحق سبحانه :

﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ... (١١٨) ﴾ [التوبة]

فافهم أن تشريع التوبة إنما جاء ليتوب العباد فعلاً ، وبعد أن يتوبوا ، يقبل الله التوبة.

والحق هنا يقول : ﴿ لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ ﴾ وعطف [1] على النبى ﷺ ﴿ الْمُهَاجِرِينَ وَالأنصَارِ ﴾ ، فأى شىء فعله رسول الله ﷺ حتى يقول الله : ﴿ لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ ﴾ ؟! ونقول : ألم يقل الحق سبحانه له :

﴿ عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ ... (٤٣) ﴾ [التوبة]

فحين جاء بعض المنافقين واستأذنوا النبى ﷺ فى التخلف عن الغزوة [2] ، فأذن لهم ، مع أن الله سبحانه قال :

﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً [3] ... (٤٧) ﴾ [التوبة]

---

(١) العطف هو إشراك شيئين أو أكثر فى حكم ما .

(٢) هى غزوة تبوك، وهى آخر غزوة غزاها رسول الله ﷺ ، وقد كانت فى شهر رجب عام تسع من الهجرة، وقد كانت فى شدة حر وجدب وعُسْر بينما المدينة بها الظلال والأشجار وقد طابت الثمار؛ ولذلك كانت امتحاناً عسيراً زلزل القلوب، وتراوحت ردود الأفعال تجاه الاستجابة للنفس على حسب الإيمان الذى يسكن القلوب .

(٣) خبالاً : المراد : أصابوكم بالفساد والضعف والاضطراب وعدم الثبات أمام الأعداء .

إذن : فرسول الله ﷺ كان بالفطرة السليمة قد اتخذ القرار الصائب ، ولكن الحق سبحانه لا يريد أن يتبعوا فطرتهم فقط ، بل أراد أن يضع تشريعاً محدداً .

وشاء الحق سبحانه أن يخبرنا بأنه قدم العفو لرسول الله ﷺ ؛ لأنه أذن لمن استأذنه من المنافقين ألا يخرجوا إلى القتال ، وهناك أشياء يأخذها الله على عبده ؛ لأن العبد قام بها ضد صالح نفسه ، ومثال هذا من حياتنا ولله المثل الأعلى : أنت إذا رأيت ولدك يذاكر عشرين ساعة فى اليوم ؛ فإنك تدخل عليه حجرته لتأخذ منه الكتاب أو تطفىء مصباح الحجرة ، وتقول له : « قم لتنام» . وأنت فى هذه الحالة إنما تعنف عليه لأنك تحبه ، لا ، لأنه خالف منهجاً ، بل لأنه أوغل فى منهجٍ وأسلوب عملٍ يرهق به نفسه [(١)] .

وحين سمح النبى ﷺ لقوم أن يتخلفوا ، فهل فعل ذلك ضد مصلحة الحرب أم مع مصلحة الحرب ؟ إنهم لو اشتركوا فى الحرب لكثر ثوابهم حتى ولو حرسوا الأمتعة أو قاموا بأى عمل ، إذن : فإذنه ﷺ لهم بالتخلف هو تصعيب للأمر على نفسه .

ولذلك نجد أن كل عتب على نبى الله ، إنما كان عتباً لصالحه لا عليه فسبحانه يقول له :

﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ ...(١)﴾ [التحريم]

---

(١) عن أنس بن مالك قال : دخل رسول الله ﷺ المسجد وحبل ممدود بين ساريتين . فقال : ما هذا؟ قالوا : لزينب . تصلى . فإذا كسلت أو فترت أمسكت به فقال : «حلّوه . ليصل أحدكم نشاطه . فإذا كسل أو فتر قعد» . أخرجه البخارى فى صحيحه (١١٥٠) ، ومسلمَ فى صحيحه (٧٨٤) .

والنبى ﷺ لم يحل ما حرم الله بل حرم على نفسه ما أحل الله له ، وهذا ضد مصلحته ، وكأن الحق يسائله : لماذا ترهق نفسك ؟ . إذن : فهذا عتب لمصلحة النبى ﷺ ، وأيضاً حين جاء ابن أم مكتوم [(١)] الأعمى يسأل رسول الله فى أمر من أمور الدين ، وكان ذلك فى حضور صناديد قريش [(٢)] ، فالتفت ﷺ إلى الصناديد وهم كافرون ، يريد أن يلين قلوبهم ، وترك ابن أم مكتوم ؛ فنزل القول الحق :

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ۝١ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ۝٢ ﴾ [عبس]

وابن أم مكتوم جاء ليستفسر عن أمر إيمانى ، ولن يجادل مثلما يجادل صناديد قريش ، فلماذا يختار الرسول ﷺ الأمر الصعب الذى يحتاج إلى جهد أكبر ليفعله ؟ . إذن : العتب هنا لصالح محمد ﷺ ، وحين يقول الحق له :

﴿ عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ .. ۝٤٣ ﴾ [التوبة]

ثم جاء هنا فى الآية بالمهاجرين والأنصار معطوفين على رسول الله ، وذلك حتى لا يتحرج واحد من المهاجرين أو الأنصار من أن الله تاب عليه ، بل التوبة تشمله وتشمل الرسول ﷺ نفسه ؛ فلا تحرُّج [(٣)] .

---

(١) المشهور أن اسمه عبد الله ، ويقال : عمرو . أما أمه أم مكتوم فهى عاتكة بنت عبد الله . أسلم قديماً بمكة وكان من المهاجرين الأولين . استخلفه رسول الله على المدينة ١٣ مرة أثناء خروجه فى الغزوات . (الإصابة فى تمييز الصحابة ٤/ ٢٨٥) .

(٢) صناديد قريش : عظماؤهم ، وعلية القوم فيهم . وهم هنا : عقبة بن ربيعة والحكم بن هشام (أبو جهل) والعباس بن عبد المطلب ، وقد كان يرجو إسلامهم . وقد أتى ابن أم مكتوم رسول الله ﷺ فجعل يقول : أرشدنى : وعند رسول الله ﷺ رجل من عظماء المشركين . فجعل النبى يعرض عنه ويقبل على الآخر ويقول : «أترى بما أقول بأساً ؟» فيقول : لا . ففى هذا أنزلت ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ۝١ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ۝٢ ﴾[عبس] أخرجه الترمذى فى سننه (٣٣٣١) وقال : حديث غريب . وابن حبان (١٧٦٩ - موارد الظمآن) .

(٣) وقد قال بعض العلماء : إنما ذُكر النبى ﷺ فى التوبة ؛ لأنه لما كان سبب توبتهم ذُكر معهم . نقله القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٢٠٤) .

وهذه المسائل التى حدثت كان لها مبررات ، فقد قال الحق : ﴿مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾ ويزيغ : يميل ، أى : يترك ميدان المعركة كله ؛ لأنها كانت معركة فى ساعة العسرة ، ومعنى العسرة الضيق الشديد ، فالمسافة طويلة ، والجنود الذين سيواجهونهم هم جنود الروم ، والجو حارٌّ ، وليس عندهم رواحل [1] كافية ، فكل عشرة كان معهم بعير واحد ، يركبه واحد منهم ساعة ثم ينزل ليركبه الثانى ، ثم الثالث ، وهكذا ، ولم يجدوا من الطعام إلا التمر الذى توالد فيه الدود.

وقد بلغ من العسرة أن الواحد منهم كان يمسك التمرة فيمصها بفيه يستحلبها قليلاً ، ثم يخرجها من فيه ليعطيها إلى غيره ليستحلبها قليلاً ، وهكذا إلى أن تصير على النواة ، وكان الشعير قد أصابه السوس ، وبلغ منه السوس أن تعفن ، وقال من شهد المعركة : «حتى إن الواحد منا كان إذا أخذ حفنة من شعير ليأكلها يمسك أنفه حتى لا يتأذى من رائحة الشعير». كل هذه الصِّعاب جعلت من بعض الصحابة من يرغب فى العودة . ولا يستكمل الطريق إلى الغزوة.

إذن : فالتوبة كانت عن اقتراب زيغ قلوب فريق منهم . وجاء الحق بتقدير ظرف العسرة ، ولذلك تنبأ بالخواطر التى كانت فى نواياهم ومنهم أيضاً من همّ ألا يذهب، ثم حدثته نفسه بأن يذهب مثل أبى خيثمة [2] الذى بقى من بعد أن رحل رسول الله ﷺ إلى الغزوة ومرت عشرة أيام ، ودخل الرجل بستانه فوجد العريشين [3] ، وعند كل عريش زوجةٌ له حسناء ، وقد

(١) رواحل : جمع راحلة، وهى كل بعير قادر على مشقات السفر، سواء كان ذكرًا أو أنثى.

(٢) هو عبد الله بن خيثمة الأنصارى السالمى، شهد أحداً، وبقى إلى خلافة يزيد بن معاوية. انظر الإصابة (٧/ ٥٣) وانظر (٤/ ٦٣).

(٣) العريش : شىء يشبه الخيمة تكون داخل البستان مظللة بسعف النخيل.

طَهَتْ كل منهما طعاماً ، وهكذا رأى أبو خيثمة الظلال الباردة ، والثمر المدلَّى ، فمسّته نفحة من صفاء النفس ؛ فقال : "رسول الله فى الفيح - أى الحرارة الشديدة جداً - والريح ، والقُرّ والبرد ، وأنا هنا فى ظل بارد ، وطعام مطهوّ ، وامرأتين حسناوين ، وعريش وثير [(١)] ، والله ما ذلك بالنَّصَفة لك يارسول الله ، وأخذ زمام راحلته وركبها فكلّمته المرأتان ، فلم يلتفت لواحدة منهما وذهب ليلحق برسول الله ﷺ . فقال صحابة رسول الله : يارسول الله إنَّا نرى شبح رجل مُقْبل . فنظر رسول الله ﷺ وقال : «كن أبا خيثمة » [(٢)] ، ووجده أبا خيثمة ، هذا معنى قوله الحق :

﴿ لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ [(٣)] مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١١٧) ﴾ [التوبة]

وفى واقعة الصحابة الذين راودتهم أنفسهم أن يرجعوا وتاب الله أيضا على آخرين اعترفوا بذنوبهم ، فتاب الحق عليهم حين قال :

---

(١) وثير : ناعم . يقصد الوسائد والفُرش التى فرشت داخل العريش .
النَّصَفَة : الإنصاف والعدل . زمام الراحلة : الحبل الذى يُقاد به البعير .

(٢) قصة أبى خيثمة وردت تامة فى السيرة النبوية لابن هشام عن ابن إسحاق (٤/ ٥٢٠) وذكر ابن هشام أبياتًا لأبى خيثمة فى هذا :

لَمَّا رأيتُ الناسَ فى الدِّين نَافَقُوا ... أتيتُ التى كانتْ أعفَّ وأكْرَمَا
وَبَايعْتُ باليُمْنَى يَدى لمُحَمَّد ... فَلَمْ أكْتَسبْ إثْمًا ولم أغْشَ محرمَا
تركْتُ خَضيبًا فى العريشِ وَصرمةً ... صَفَايا كرامًا بُسْرُهَا قَد تَحمَّمَا
وكنتُ إذا شَكَّ المنافقُ آسْمَحَتْ ... إلى الدين نَفْسى شَطرَهُ حيثُ يَمَّمَا

خضيباً : المرأة قد خضبت يدَيها بالحناء . صرمة : مجموعة من النخل .
صفايا : قد تحملت بالتمر . بسرها : التمر قبل أن يطيب .
تحمما : أى : أخذ فى الإرطاب ؛ فاسود .
وقد ورد قوله ﷺ : « كن أباخيثمة» فى حديث توبة كعب بن مالك عند مسلم فى صحيحه (٢٧٦٩) .

(٣) العسرة : من النفقة والظهر والزاد والماء .

﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٠٢)﴾ [التوبة]

وأرجأ الحق أمر آخرين نزل فيهم قوله :

﴿وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لأَمْرِ اللَّهِ ...(١٠٦)﴾ [التوبة]

وما دام الله قد قال: ﴿مُرْجَوْنَ لأَمْرِ اللَّهِ﴾ أى : ما بَتّ الله سبحانه فى أمرهم بشىء ؛ فلا بد من الانتظار إلى أن يأتى أمر الله ، ويجب ألا نتعرض لهم حتى يأتى قول الله . وتاب أيضاً على الثلاثة [1] الذين خلفوا ، فى قوله سبحانه :

﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾﴾

قد يظن أحد أن (خُلِّفُوا) هنا تدل على أن أحداً قال لهم : اقعدوا عن الخروج مع رسول الله ﷺ ، ولكن لم يقل لهم أحد هذا . إنما (خُلِّفُوا) معناها : لم يظهر أمر الشارع فيهم كما ظهر فى غيرهم ، بل قال الحق فيهم من قبل : ﴿وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لأَمْرِ اللَّهِ﴾ ، وما دام قد تأخر فيهم الحكم فلا بد من الانتظار.

---

(١) الثلاثة هم : كعب بن مالك ، وهلال بن أمية ، ومرارة بن ربيعة .

﴿ وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١١٨) ﴾ [التوبة]

ونعلم أن الإنسان إذا شغله همّ يُحدّث نفسه بأن يترك المكان الذى يجلس فيه ، ويسبب له الضيق، لعل الضيق ينفك [(١)] . ولكن هؤلاء الثلاثة قابلوا الضيق فى كل مكان ذهبوا إليه حتى ضاقت عليهم الأرض بسعتها، فلم يجد واحد منهم مكاناً يذهب إليه ، وهذا معناه أن الكرب الذى يحيطهم قد عَمَّ ، والإنسان قد تضيق عليه الأرض بما رحبت ولكن نفسه تسعه .

والحق يقول عنهم : ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ﴾ أى: ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، وضاقت عليهم أنفسهم أيضاً ، فقد تخلف الثلاثة عن الغزوة ، لا لعذر إلا مجرد الكسل والتوانى ، وأمر رسول الله ﷺ المسلمين بمقاطعتهم، فكان كعب بن مالك [(٢)] يخرج إلى السوق فلا يكلمه أحد، ويذهب إلى أقربائه فلا يكلمه أحد ، ويتسوَّر [(٣)] عليهم الحيطان لعلهم ينظرون إليه ، فلا ينظرون إليه.

---

(١) ينفك : يتخلص منه الإنسان . ومنه « فك الرقبة » أى: تخليصها من العبودية والرق . قال ابن الأعرابى: فك فلان أى خلص وأريح من الشىء . [لسان العرب – مادة : فكك] .

(٢) كان كعب بن مالك يجالد الناس ويخرج للناس يتلمس منهم أن يكلموه ، أما صاحباه مرارة بن الربيع وهلال بن أمية فقد لزما بيتيهما ، أما هو فيقول : « كنت آتى رسول الله ﷺ فأسلم عليه ، وهو فى مجلسه بعد الصلاة ، فأقول فى نفسى : هل حرك شفتيه برد السلام أم لا ؟ ثم أصلى قريباً منه وأسارقه النظر ، فإذا أقبلت على صلاتى نظر إلىَّ ، وإذا التفت نحوه أعرض عنى » .

(٣) تسوّر : تسلّق الحائط حتى علاه . ومنه قوله تعالى : ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ (٢١) ﴾ [ص] .

وبعد ذلك يتصاعد الأمر فى عزل هؤلاء ، حتى تعدى إلى نسائهم ، فأمرهم رسول الله ﷺ بألا يقربوا نساءهم[1] هكذا بلغ العزل[2] مبلغاً شديداً ودقيقاً ، فقد كان التحكم أولاً فى المجتمع ، ثم فى الأقارب ، ثم فى خصوصيات السكن وهى المرأة ، حتى إن امرأة هلال بن أمية ذهبت إليه وقالت: يا رسول الله إن هلال بن أمية ، رجل مريض ضعيف ، وأنا أستأذنك فى أن أصنع له ما يقيمه ، قال لها: «ولكن لا يقربنك». قالت: والله يا رسول الله ما به حركة إلى شىء ، ووالله ما زال يبكى منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا. وذهب بعض المسلمين إلى كعب بن مالك ليبلغوه أن رسول الله صرح لامرأة هلال أن تخدمه ، وقالوا له: اذهب إلى رسول الله واستأذنه أن تخدمك امرأتك.

قال: إن هلالاً رجل شيخ، فماذا أقول لرسول الله وأنا رجل شاب ؟ والله لا أذهب له أبداً.

وظل الثلاثة فى حصار نفسى ومجتمعى لمدة خمسين يوماً إلى أن جاء الله بالتوبة ، وفى هذا تمحيص[3] لهم ، فكعب بن مالك - على سبيل المثال - يقص عن حاله قبل الغزوة قائلاً : «لم أكن قط أقوى ولا أيسر منِّى حين تخلفت عنه فى تلك الغزوة ، والله ما جمعت قبلها راحلتين قط حتى جمعتهما فى تلك الغزوة» . أى : أنه لم يكن له عذر يمنعه .

بعد ذلك يجىء البشير بأن الله قد تاب عليه ، فيأتى واحد من جبل سَلْع

---

(١) وفى هذا يقول كعب : « حتى إذا مضت أربعون من الخمسين واستلبث الوحى إذا رسول رسول الله ﷺ يأتينى ، فقال : إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك . فقلت : أطلقها أم ماذا أفعل ؟ قال : لا ، بل اعتزلها فلا تقربنها » .

(٢) وهو ما يسمى بالعزل العام اجتماعياً وأسرياً ونفسياً .

(٣) تمحيص : ابتلاء واختبار وتخليص من الذنوب . وقد بلغ البلاء مداه بكعب أن ملك غسان بعث له كتاباً يقول له فيه : « قد بلغنا أن صاحبك - يقصد محمداً - قد جفاك ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة فالحق بنا نواسك » . فألقى به كعب بعد قراءته فى النار .

فيقول: يا كعب أبشر بخير يوم مرّ عليك . فقد أنزل الله فيك قرآناً وأنه تاب عليك.

قال كعب: فلم أجد عندى ما أهديه له لأنه بشَّرنى إلا ثوبىّ فخلعتهما وأعطيتهما له ، ثم استعرت ثوبين ذهبت بهما إلى مسجد رسول الله ﷺ.

وقال: يا رسول الله ، إن من تمام توبتى أن أنخلع من مالى - الذى سبَّب لى هذا العقاب - صدقة إلى الله وإلى رسوله ﷺ [1].

إذن: فتأخر الحكم كان المراد منه تمحيص هؤلاء، وإعطاء الأسوة لغيرهم . فحين يرون أن الأرض قد ضاقت عليهم بما رحبت، وكذلك ضاقت عليهم أنفسهم يتيقنون من قول الحق:

﴿وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ [2] مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ...(١١٨)﴾ [التوبة]

أى : أن أحداً لا يجير إلا الله ، وسبحانه يجير من نفسه. كيف ؟ أنت تعلم أنك ساعة لا يجيرك إلا من يتعقبك، فاعلم أنه لا سلطان لأحد أبداً؛ ولذلك نقول: أنت تلجأ إلى الله لا من خلقه ، ولكنك تلجأ [3] إلى الله ليحميك من الله ، فسبحانه له صفات جلال وصفات جمال ، وتتمثل صفات الجلال فى أنه : قهار ، وجبار ، ومنتقم ، وشديد البطش ، إلى آخر تلك الصفات. وفى الحق سبحانه صفات جمال مثل غفور ، ورحيم ، وغيرها ، فإذا ما أذنب الإنسان ذنباً ، فالمجال فى هذه الحالة أن يُعاقب من صفات الجلال ، ولا ينفع العبد وقاية من صفات الجلال إلا صفات الجمال.

---

(١) فقال له رسول الله ﷺ : « أمسك بعض مالك فهو خير لك » . فقال كعب: فإنى أمسك سهمى الذى بخيبر . والحديث بطوله أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٤١٨) ومسلم(٢٧٦٩) .

(٢) ملجأ : المعقل والملاذ والمجير .

(٣) اللجوء يكون إلى صفات الجمال للحماية من صفات الجلال ، وهنا يكون اللجوء إلى الله ليحميك من الله.

وكلنا يعلم أن رسول الله ﷺ قد دعا الله بقوله: «أعوذ بك منك »[(١)]

أى: أعوذ بصفات الجمال فيك من صفات جلالك، فلن يحمينى من صفات جلالك إلا صفات جمالك.

ولذلك حينما جاء فى الحديث الشريف عن آخر ليلة من رمضان قوله ﷺ:

« فإذا ما كانت آخر ليلة من رمضان تجلَّى الجبَّار بالمغفرة » .

يظن بعض الناس أن هذه المسألة غير منطقية ، فكيف يتجلّى الجبّار بالمغفرة ؟ ألم يكن من المناسب أن يقال : «يتجلّى الغفّار» ؟ ونقول : لا ؛ فإن المغفرة تقتضى ذنباً ، ويصبح المقام لصفة الجبار ، وهكذا تأخذ صفة الرحمة من صفة الجبار سُلْطتها ، وكأننا نقول: يا جبار أنت الحق وحدك ، لكننا نتشفع بصفات جمالك عند صفات جلالك. هذا هو معنى : «يتجلى الجبار بالمغفرة».

وقد سمع الأصمعى[(٢)] - وهو يطوف - مسلماً عند باب الملتزم، يقول: اللهم إنى أستحى أن أطلب منك المغفرة ؛ لأنى عصيتك ، ولكنى تطلَّعْتُ فلم أجد إلهاً سواك.

فقال له: يا هذا، إن الله يغفر لك لحُسْن مسألتك[(٣)].

---

(١) قطعة من حديث أخرجه مسلم (٤٨٦) وأحمد فى مسنده (٦/ ٥٨ ، ١٢٠) من حديث عائشة رضى الله عنها قالت : فقدت رسول الله ﷺ ليلة من الفراش ، فالتمسته ، فوقعت يدى على بطن قدميه وهو فى المسجد . وهما منصوبتان وهو يقول : « اللهم أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك ، لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك » .

(٢) الأصمعى: هو عبد الملك بن قريب أبو سعيد الأصمعى ، أحد أئمة العلم باللغة والشعر والبلدان ، مولده ووفاته فى البصرة عن ٩٥ عاماً ، وتوفى عام ٢١٦ هـ . الأعلام للزركلى (٤/ ١٦٢) .

(٣) ومما يروى أيضاً عن الأصمعى فى نفس هذا المعنى أنه سمع أعرابياً يدعو الله وهو يقول : هربت إليك بنفسى ، يا ملجأ الهاربين بأثقال الذنوب ، أحملها على ظهرى ، لا أجد شافعاً إليك إلا معرفتى بأنك أكرم من قصد إليه المضطرون ، وأمَّل فيما لديه الراغبون. انظر : الأمالى لأبى على القالى (١/ ٣٢).

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾ والتوبة أولاً - كما عرفنا - هى تشريعها ، ثم تأتى التوبة بالقبول ، وقوله : ﴿لِيَتُوبُوا﴾ أى : أنها تصبح توبة رجوع وعودة إلى ما كانوا عليه قبل المعصية .

ويُنهى الحق الآية بقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ فلا توَّاب ولا رحيم سواه سبحانه وتعالى .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (١١٩) ﴾

وساعة ينادى الحق عزّ وجلّ عباده المؤمنين ، فهو سبحانه إما أن يناديهم بحكم يتعلق بالإيمان ، وإما أن يناديهم بالإيمان ويطلب منهم الإيمان مثل قوله الحق :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا (١) بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ... (١٣٦) ﴾ [النساء]

والحق سبحانه يُبيّن للذين آمنوا به قبل أن يخاطبهم ، أنه من الممكن أن يؤمن الإنسان ثم يتذبذب فى إيمانه ، فيطلب منه الحق «دوام الإيمان» . فإذا طلب الله من عباده ما كان موجوداً فيهم ساعة الخطاب ، فالمطلوب دوامه ، وإن طلب منهم حكماً يتعلق بالإيمان ، فهو يوجّههم إلى الاستماع وتطبيق ما يطلب منهم ، ومثال هذا قول الحق سبحانه :

﴿ اتَّقُوا اللَّهَ ... (١١٩) ﴾ [التوبة]

---

(١) وهنا يقول العارف بالله : إن الإيمان إما أن يطلب على جهة الهداية ، وإما على جهة الدلالة ، وإما على جهة المعية ؛ فإيمان الهداية بالإدراك ، وإيمان الدلالة بالانفعال مع المدركات ، وإيمان المعية بالاختيار ، فالنداء إذا تكرر مطلوبه فهو مقامات إيمانية ، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) ﴾ [الأنفال] .

وكلمة ﴿اتَّقُوا﴾ تعنى: اجعلوا بينكم وبين الله وقاية ، ويتساءل البعض: هل يطلب أحد من الإنسان أن يجعل بينه وبين ربه وقاية ؟ إن العبد المؤمن يطلب أن يكون فى معيَّة الله . وهنا تأتى ضرورة فهم صفات الجمال وصفات الجلال . إن قوله سبحانه : ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾ يعنى: اجعلوا بينكم وبين صفات الجلال وقاية ، مثلما قال سبحانه : ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ (٢٤)﴾ [البقرة]

لأن النار من جنود صفات الجلال ، فاجعلوا بينكم وبين الله وقاية من صفات الجلال.

وهنا يقول الحق: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾، وفسر بعض العلماء قوله : ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ بمعنى كونوا من الصادقين ، أى : أن «مع» هنا بمعنى «من» والمقصود أن يعطى هذا القول معنى إجماليّاً عامّاً. لكنى أقول: هناك فرق بين ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ و«كونوا من الصادقين»، فقوله الحق : ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ أى: التحموا بهم فتكونوا فى معيّتهم ، وبعد أن تلتحموا بهم يأتى الذين من بعدكم ويجدونكم مع الصادقين.

ويقتضى الأمر هنا أن نتذكر ما سبق أن قلناه عن النسبة الكلامية والنسبة الذهنية ، فأىُّ قضية تمر على ذهنك قبل أن تقولها هى نسبة ذهنية ، مثل قولك : «محمد زارنى» ، وأنت قبل أن تقول هذه العبارة جاء إلى ذهنك أن تنطقها ، وهذه «نسبة ذهنية». ومن يسمعك لا يدرى بها، ولكونك المتكلم فأنت وحدك الذى تدرى بها، فإذا ما نطقتها وسمعها منك المخاطب؛ علم أن نسبة ذهنية جاءت فى ذهنك فترجمتها قولاً بالنسبة الكلامية. فحين قلت: «محمد زارنى بالأمس»؛ جاءت فى ذهنك قبل أن تقولها، فلما سمعها السامع عرف أن هناك نسبتين؛ نسبة سمعها عن نسبة عندك.

وحين يمحّص السامع هذا القول ؛ يعلم أن هناك واحداً فى الواقع اسمه محمد وعلم منك أنه قد زارك، وخبرته معك دائماً أنك صادق ، إذن:

فالصدق [١] هو أن تتطابق النسبة الكلامية مع الواقع. أما إذا قلت : إن محمداً قد سافر إلى أمريكا ، وهو لم يسافر، فهذا يعنى أن النسبة الكلامية لم تتطابق مع النسبة الواقعية وهذا هو الكذب. إذن: فهناك «نسبة ذهنية» و«نسبة كلامية» و«نسبة واقعية». فإن تطابقت النسبة الكلامية مع النسبة الواقعية، فذلك هو الصدق، وإن لم تتطابق يكون الكذب.

وكل نسبة تقولها تحتمل أن تكون صادقة أو كاذبة، والفيصل فى هذا الأمر هو الواقع ، هل يتطابق ما تقول مع الواقع أم لا ؟ . أما إن قلت لك: «زُرْ فلاناً» فهذه نسبة إنشاء ؛ لأن الواقع يأتى بعدها ، لا قبلها.

وهنا يقول الحق سبحانه: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ والصدق هو الخَلَّة [٢] التى تجمع كل الإيمان ، ولنر التطبيق لذلك فى قصة الرجل البدوى الذى ذهب إلى رسول الله ﷺ وقال: يا رسول الله ، إن فىَّ خلالاً ثلاثة لاأقدر على التخلِّى عنها أبداً ، أما الأولى فهى النساء، وأما الثانية فهى الخمر ، وأما الثالثة فهى الكذب ، وقد جئتك يا رسول الله ، لتختار لى خصلة [٣] من الثلاثة وتقوِّينى عليها، وأعاهد ربنا عليها. فاختار رسول الله ﷺ للأعرابى أن يتوب عن الكذب ، وأن يتحلّى بالصدق ، فقال له : كن صادقاً وما عليك. وحين أحب الأعرابى أن يشرب كأس خمر ؛ تساءل : وماذا إن سألنى النبى ﷺ أشربت الخمر ؟ وامتنع عن الخمر حتى لا يكذب على الرسول . وحين جاء ليختلس النظر إلى امرأة ، قال لنفسه : « وماذا إن سألنى ﷺ وكيف أُخزى نفسى بصفة لا تليق بمسلم ؛ فامتنع عن النظر إلى المحارم ، وهكذا سيطر الصدق على الرجل فهذّب سلوكه . وحين سئل رسول الله ﷺ : أيكون المؤمن جباناً ؟ فقال : نعم.

---

(١) أن تتطابق النسبة الكلامية مع الواقع فهو الصدق ، وإذا خالفت النسبة الكلامية الواقع كان الكذب ، وهذا ما ذهب إليه علماء البلاغة والمنطق .

(٢) الخلَّة : الصفة والخلُق ، جمعها خلال .

(٣) الخَصْلة : الخَلَّة والصفة . جمعها خِصال وخَصَلات .

فقيل له : أيكون المؤمن بخيلاً ؟ فقال : نعم . فقيل له : أيكون المؤمن كذاباً ؟ فقال : لا [(١)] . لأن مدخل الإيمان هو التصديق بالقضية العقدية الجازمة ، وهكذا تجد أن الصدق هو «رأس الأمر كله» .

وقوله الحق : ﴿ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ أى : لا تقولوا كلاماً لا يصادفه الواقع ، وكذلك إياكم أن تقولوا كلاماً تناقضه أفعالكم ، لهذا يقول الحق سبحانه :

﴿ لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لاَ تَفْعَلُونَ (٣) ﴾ [الصف]

وفى سورة البقرة يقول الحق سبحانه :

﴿ لَيْسَ الْبِرَّ [(٢)] أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ ... (١٧٧) ﴾ [البقرة]

ولننتبه إلى الملاحظ الدقيقة فى هذه الآية ، فقد قال الحق هنا : ﴿ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ ... (١٧٧) ﴾ [البقرة]

ثم ذكر إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، فلماذا إذن ذكر ﴿ وَآتَى الْمَالَ ﴾ ؟ أقول : لقد ذكر الحق هنا المال الذى ينفقه المؤمن دون أن يكون مفروضاً عليه إخراجه مثل الزكاة ، فالزكاة واجبة ، أما إيتاء المال تصدقاً ، فهذا فوق الواجب [(٣)] .

ثم يقول سبحانه :

---

(١) أخرجه الإمام مالك فى موطئه (ص ٩٩٠) من حديث صفوان بن سليم مرسلاً .
(٢) البر : هو الخير والإحسان ، وهو الإيمان الصادق وفعل الخيرات .
(٣) الزكاة فرض ، وإيتاء المال تصدقاً : فضل ، والخير لمن جمع بينهما .

﴿ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ [(١)] وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (١٧٧) ﴾ [البقرة]

هذه هى صفات من صدقوا، وهم هنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها قد صدقوا واتقوا.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (١١٩) ﴾ [التوبة]

وقد جاء الحق بصفة «الصدق» هنا؛ لأن المجال هو الحديث عمن تخلّف عن الغزوات، وكذب فى الأعذار التى افتعلها؛ لذلك يأتى التوجيه السماوى أن ادخلوا من باب الصدق [(٢)].

يقول الحق بعد ذلك:

﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ [(٣)] وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١٢٠) ﴾

---

(١) البأساء: أى: فى حال الفقر. الضراء: فى حال المرض والسقم. حين البأس: فى حال القتال ولقاء الأعداء.

(٢) عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله ﷺ: «عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدى إلى البر، وإن البر يهدى إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صدِّيقاً، وإياكم والكذب فإن الكذب يهدى إلى الفجور، وإن الفجور يهدى إلى النار، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً». أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٦٠٧) والبخارى فى صحيحه (٦٠٩٤).

(٣) الظمأ: العطش. والنصب: التعب. والمخمصة: المجاعة. يطأون: يدوسون.

والحديث هنا فيه رجوع إلى الذين تخلفوا عن الغزوة ، وعرفنا من قبل أنك ساعة تقول : « ما كان لك أن تفعل كذا » أى : أنك تنفى القدرة على الفعل ، أما إن قلت : «ما ينبغى» أى : عندك قدرة على الفعل ، ولا يجب أن تفعله .

وهنا يقول الحق : ﴿مَا كَانَ لأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ﴾ وبعضهم قد تخلف عن رسول الله ﷺ فى الغزو .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَلا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ﴾ وهنا حديث عن نوعين من الأنفس : أنفس من قالوا بالتخلف ، ونفس رسول الله ﷺ ، وأنت إذا قلت : «رغبت» ، معناها : أنك ملتَ ميلاً قلبياً ، فإن قلت : «رغبت فى» كان الميل القلبى إلى ممارسة الفعل وفيها التغلغل ، أما إن قلت : «رغبت عن» وفيها التجاوز ، هذا يعنى أن الميل القلبى يهدف إلى الابتعاد عن الفعل . إذن : فحرف الجر هو الذى يحدِّد لون الميل القلبى .

وقوله الحق : ﴿وَلا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ﴾ أى : أنهم زهدوا فى أمر صدر عن رسول الله ﷺ وفضَّلوا أمر نفوسهم على أمر رسول الله ﷺ ، فيبين الحق لهم أنهم ما كان لهم أن يفعلوا ذلك ؛ لأنكم ما دمتم آمنتم بالله ، فإيمانكم لا يكمل حتى يكون رسول الله ﷺ أحب إليكم من نفوسكم [(١)] .

ولذلك نجد سيدنا عمر رضى الله عنه لما سمع أن النبى ﷺ قال : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه » [(٢)] ، فقال : يا رسول الله ، أنا أحبك عن أهلى وعن مالى إنما عن نفسى ، فلا .

---

(١) عن أنس بن مالك عن النبى ﷺ : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يقذف فى النار » أخرجه البخارى فى صحيحه (١٦) ومسلم (٤٣) .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٦٣٢) وأحمد فى مسنده (٤/ ٢٣٣) وفى إسناد أحمد ابنُ لهيعة ولكن تابعه حيوة عن زهرة بن معبد . وباقى الحديث هنا مروى بالمعنى .

وهكذا كان صدق عمر رضى الله عنه ، فكرر رسول الله ﷺ القول : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه» . فعلم عمر أن رسول الله ﷺ حازم فى هذه القضية الإيمانية ، وعلم أن الحب المطلوب ليس حب العاطفة ، إنما هو حب العقل ، وهناك فرق بين حب العاطفة وحب العقل ؛ فحب العاطفة لا تكليف فيه ، لكن حب العقل يأتى بالتكليف .

وعلى سبيل المثال : فأنت تحب ابنك بعاطفتك ، حتى وإن لم يكن ذكيّاً ، لكنك تحب بعقلك ابن عدوك إن كان ذكيّاً وأميناً وناجحاً . وضربنا المثل من قبل وقلنا : إن الإنسان قد يحب الدواء المرّ ؛ لأن فيه الشفاء ، والإنسان لا يحب هذا الدواء بعواطفه ، ولا يتلذذ به وهو يشربه ، بل يحبه بعقله ؛ لأن هذا الدواء قد يكون السبب فى العافية ، وإن لم يجده فى الصيدليات يغضب ويشكو ، ويسرّ بمن يأتى له به من البلاد الأخرى .

إذن : فالذين تخلفوا عن رسول الله ﷺ من أهل المدينة أو ممن حولهم ما كان لهم أن يتخلفوا ؛ لأن هذا يناقض إيمانهم فى أن يكون رسول الله ﷺ أحب إليهم من أنفسهم ، وكان من الواجب أن يرغبوا فى رسول الله ﷺ عن أنفسهم ، أما أن يكون الأمر بالعكس ، فلا . لأن اتباع رسول الله ﷺ إنما يأتى لهم بالخير [(١)] .

أما اتباع حبهم لأنفسهم فهو حب ضيق البصيرة ، سيأتى لهم بالشرور ،

---

(١) وفى هذا يقول رب العزة : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ .. (٢٤) ﴾ [الأنفال] . أى : يُحيى دينكم وقلوبكم . وقد روى البخارى فى صحيحه (٤٦٤٧) عن أبى سعيد بن المعلَّى قال : كنت أصلى فى المسجد فدعانى رسول الله ﷺ فلم أجبه ، ثم أتيته فقلت : يا رسول الله ، إنى كنت أصلى . فقال ﷺ : « ألم يقل الله عز وجل : (اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ) ثم قال ﷺ : لأعلمنك أعظم سورة فى القرآن قبل أن أخرج ، فذهب رسول الله ﷺ ليخرج ، فذكرت له فقال ﷺ : هى الحمد لله رب العالمين ، السبع المثانى» .

وإن جاء لهم بخير فخيره موقوت ، وبحسب إمكاناتهم ، ولكن حبهم لرسول الله ﷺ عن أنفسهم يأتى لهم بالخير الثابت الدائم الذى يتناسب مع قدرة الله سبحانه.

ثم يقول سبحانه: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لاَ يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ﴾ و﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى حيثيات الترغيب التى يأخذون بها الجزاء الطيب من الحق سبحانه بأنهم﴿ لاَ يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ ﴾ ، ونعلم أن الظمأ قد أصابهم فى جيش العسرة لدرجة أن المقاتل كان يذبح البعير ، ويصفى الماء الذى فى معدته ليبُلَّ ريقه، وريق زملائه.

﴿وَلا نَصَبٌ﴾ والنَّصَب :هو التعب ، وكانت الغزوة فى جو حار مرهق.

﴿وَلا مَخْمَصَةٌ ﴾ أى: المجاعة، وقد كانوا يأكلون التمر الذى أصابه الدود، والشعير الذى انتشر فيه السوس. وإن كانوا قد عانوا من كل ذلك فهو فى سبيل الله القادر على أن يمُنَّ عليهم بكل خير جزاء لما يقدمونه فى سبيل نصرته.

﴿وَلا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ ﴾ نعلم أن الكفار كان لهم رقعة من الأرض يتمركزون فيها ، فحين يغير عليهم المؤمنون ويزحزحونهم عن هذا المكان ، وينزلون إلى الوديان والبساتين التى يملكها الكفار ، فهذا أمر يغيظ أهل الكفر ، إذن: فهم حين يطأون موطئاً، فهذا يغيظ الكفار.

﴿وَلاَ يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً﴾ أى: يأخذون من عدوٍّ منالاً ، والمعنى :أن يقهروا العدو فيتراجع ويشعر بالخسران ، حينئذ يأخذون الجزاء الخيِّر من الله ، وكل ما حدث أن الظمأ والنصب والمخمصة ووطء موطىء يغيظ الكفار والنيل من عدوهم نيلاً. كل واحدة من هذه الأحداث لها جزاء يحدده الحق : ﴿ إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ﴾.

إذن: فالذين رغبوا عن رسول الله بأنفسهم ولم يخرجوا للغزوة قد

خسروا كثيراً؛ خسروا ما كتبه الحق سبحانه من عمل صالح جزاءً لكل حادث قابله مَنْ خرجوا مع الرسول ﷺ [(١)].

ويُنهى الحق سبحانه الآية: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ فهؤلاء الذين أحسنوا لا يضيع الله أجرهم أبداً.

ثم يأتى بأحداث أخرى غير الظمأ والنصب والمخمصة ووطء الموطىء الذى يغيظ الكفار، والنَّيْل من عدو الله نيلاً، فيقول سبحانه:

﴿ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾ ﴾

كل شىء - إذن - محسوب، فحتى هؤلاء الذين أنفقوا، فالله سبحانه يعلم ماذا أنفقوا وسيجازيهم عليه، وهؤلاء الذين ساروا الطريق الطويل وقطعوا الوديان ليلحقوا برسول الله ﷺ فى غزواته، فالله سبحانه يكتب لهم الخير. وبعد ذلك تدفق المسلمون على تنفيذ أوامر رسول الله ﷺ، حتى كادت المدينة تفرغ من المسلمين؛ ليلحقوا بالسرايا التى يبعثها رسول الله ﷺ لنشر الدعوة.

وجاء قول الحق:

---

(١) هذه الآية تقتضى وجوب النفير على آحاد المسلمين، وقد قال بعض العلماء: إنها منسوخة بالآية الآتية بعد ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً .. ﴿١٢٢﴾ ﴾[التوبة]. وقال قتادة: كان هذا خاصّاً بالنبى ﷺ، إذا غزا بنفسه فليس لأحد أن يتخلف عنه إلا بعذر، فأما غيره من الأئمة والولاة فلمن شاء أن يتخلف خلفه من المسلمين إذا لم يكن بالناس حاجة إليه ولا ضرورة. وقال آخرون: إنها محكمة. قال القرطبى: قول قتادة حسن، بدليل غزوة تبوك. انظر: تفسير القرطبى (٤/ ٣٢١٧).

﴿ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾

هذه الآية جاءت عقب آيات المتخلفين عن الغزو مع رسول الله ، وجاءت بعد أن بيّن الله سبحانه مزايا المجاهدين وما يثيبهم الله به جزاء هذا الجهاد فى قوله سبحانه :

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لاَ يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً وَلا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾ ﴾ [التوبة]

كانت تلك هى الحيثيات التى ترغِّب الناس فى الجهاد ترغيباً يخرجهم عمّا ألفوا من العيش فى أوطانهم وبين أهليهم وأموالهم ؛ لأن الثمن الذى يتلقونه مقابل ذلك الجهاد ثمن كبير ، ثم جاءت هذه الآية .

وحينما استقبل العلماء هذه الآية قالوا : إنها تتمة لآيات الجهاد ، وما دام الله قد رغَّب فى الجهاد هذا الترغيب ، فإن الناس أقسموا بعده ألا يتركوا غزوة من الغزوات ولا سرية من السرايا إلا ذهبوا إليها ، فنشأ عن ذلك أن المدينة كادت تخلو على رسول الله ﷺ وحده ، ورسول الله ﷺ يستقبل وحى الله .

واستقبال وحى الله يقتضى وجود سامعين ليبلغوه ، فلما انصرف الناس إلى مسألة الجهاد أراد الله أن يعدل هذه الموجة من الرغبة فى الجهاد ، فبيَّن أن الإسلام مُنزَّل من الله على رسوله ليبلغه للناس ؛ لأن دين الله يحتاج إلى أمرين : أمر يحمله إلى الناس ، وأمر يثبت صدقه فى الناس ، وحين يرى الناس إنساناً يضحى بنفسه ويدخل معركة ، وآخر يضحى بماله، حينئذ يعلم الناس أن من يفعل ذلك لا بد أنه متيقن تمام التيقن من العقيدة التى يبذل فى سبيلها الغالى والرخيص.

لكن يبقى أمر آخر، هو ضرورة وجود من يحملون العلم بالإسلام، فإذا كان المناضلون المضحّون بالنفس، والمنفقون المضحّون بالمال هم دليل صدق الإيمان ، فهذا لا يعنى الاستغناء عن هؤلاء الذين عليهم أن يسمعوا من رسول الله ﷺ ما يوحى به الله.

إذن: فهناك منهج من الله ، وهناك استقبال لهذا المنهج من رسول الله ﷺ أولا ، ومن السامعين لرسول الله ثانياً؛ ليسيحوا به فى البلاد ، سياحة إعلام بدين الله لنشر الإسلام ، وهكذا كانت الإقامة مع رسول الله هى استقبال لذلك الإعلام ، وإلا فماذا يُعْلِمون ؟

إذن: فلا بد أن يحافظ المسلمون على أمرين: أمر بقاء الاستقبال من السماء ، وأمر الإعلام [1] بما استقبلوه إلى البلاد . فإن كنتم قد انصرفتم إلى الجهاد فى سبيل الله فقد حقّقتم أمراً واحداً ، ولكنكم لم تحققوا الأمر الآخر وهو أن تظلوا ؛ لتستقبلوا من رسول الله . فأراد الله سبحانه أن يقسم الأمرين بين مجاهدين يجاهدون للإعلام ، وباقين مع رسول الله ليستقبلوا إرسال السماء لهذه الأرض ، فقال: ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً ﴾.

---

(١) لأن الجهاد فى سبيل الله لملاقاة العدو فرض بدوافعه وبمقتضى حال الدعوة ، أما الجهاد الإعلامى فهو مطلوب حتى قيام الساعة ، فهو جهاد موصول ما دام هناك باطل يناهض حقاً .

وساعة تسمع «كَانَ» منفيةً فاعلم أنها جحود لهذه المسألة ، أى: ما كان يصح أن ينفر المسلمون كافة ، أى : جميعاً ، بدون أن يبقى منهم أحد.

و﴿كَافَّةً﴾ مأخوذة من كف الشىء ، وأنت تسمع خائط الثياب يقول: «أريد أن أكفّف الثوب» معنى هذا أن الخائط حين يقص القماش ، فهناك بعض من الخيوط تخرج منه ؛ فيكففها حتى لا يتفكك نسيج الثوب، إذن: فمعنى كلمة ﴿كَافَّةً﴾ : جميعاً.

ولنا أن نتساءل: لماذا لا ينفر المسلمون إلى الجهاد جميعاً ، أليس الجهاد إعلاماً بمنهج الله؟

نقول: نعم هو إعلام وسياحة بمنهج الله فى الأرض ، ولكن الذى يسيح للإعلام بمنهج الله لا بد أن تكون عنده حصيلة يُعْلم بها ، وهذه الحصيلة كانت تأتى فى زمن رسول الله ﷺ من منهج السماء حين ينزل على رسول الله ﷺ.

إذن: فلا بد من أناس يسمعون وحى السماء ثم يعلمون به ويرسلونه لأهل الأرض[1] جميعاً ، ولو انصرف كل هؤلاء المؤمنين إلى الجهاد لما تحقق أمر حمل الدعوة للإسلام ؛ لذلك قال الحق: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً﴾ وفى هذا نفى أمر فيه انبغاء أى : لهم قدرة عليه ، ويستطيعون تنفيذ ما يطلبه رسول الله ﷺ منهم.

ونحن نعلم أن رسول الله ﷺ نشأ فى أمة عربية لها فصاحة وبلاغة ، أمة بيان وأداء قوىّ يسحر ، وكان فى هذه الأمة أناس كثيرون يتمتعون بموهبة الشعر والقول ، لكن رسول الله ﷺ لم يشتهر بهذا ، وحاول بعضهم أن

---

(١) إن الإعلام الدينى هو جهاد له صفة الاستمرارية ؛ لأنه وسيلة إقناع دائمة لتدعيم قيم السماء لتنظيم فوضى الأرض، ولا يكون الجهاد بالسيف إلا بعد الإقناع والتمادى فى الباطل لطمس معالم الحق. ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴿١٨﴾﴾ [الأنبياء].

يقلل من فصاحة رسول الله ﷺ ، فقالوا: إنها فصاحة دون من خطب ، ودون من قال ، ودون من شعر ، فجاء الرد عليهم من الحق:

﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ ... (٦٩)﴾ [يس]

أى: أنه ﷺ كان يستطيع أن يتفوق فى ذلك ، لكن الحق سبحانه لم يُعلِّمه الشعر ؛ لأنه لا ينبغى له أن يتعلَّمه ، لماذا ؟ لأن العرب يعلمون أن أعذب الشعر أكذبه ، وما دام أعذبه أكذبه ، فالحق سبحانه لا يريد أن يعلم الناس أن محمداً ﷺ مُرْتاض [1] على صناعة البيان وأساليب الأدب ، وبعد ذلك يُفاجىء الدنيا بالبيان الأعلى فى القرآن ، ويعلن ﷺ أن هذا البيان ليس من عنده.

وقد عاش الرسول ﷺ بينهم مدة طويلة، ولم يسمعوا منه شعراً، فكل ما جاء به بلاغاً عن الله لا يُنسب لمحمد ، ولكنه منسوب إلى رب محمد.

وقوله الحق :﴿وَمَا يَنبَغِي لَهُ﴾ أى: لا يصح أن يكون هذا الأمر، رغم استعداد محمد ﷺ لذلك، وكان من الممكن أن يُعلِّمه ربه الشعر وفنون القول؛ ولذلك حينما قال أناس: إن القرآن من عند محمد، جاء القول الحق مُبلِّغاً محمداً:

﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ .. (١٦)﴾ [يونس]

وقد عاش بينهم رسول الله ﷺ أربعين عاماً ولم يقل قصيدة أو مقالة.

ومن الذى يستطيع أن يؤخر عبقريته إلى الأربعين؟ نحن نعلم أن ميعاد بَدْء العبقرية إنما يظهر من قبل العشرين ، أى: فى العقد الثانى من العمر، ولا أحد يؤخر ظهور عبقريته.

---

(١) مرتاض : أى معتاد على قول الشعر ، قد ذللت له القوافى والبحور والأوزان واللغة لينظم ما شاء ، وهذا لا ينبغى لرسول الله ﷺ ، وإلا كان موضع طعن فى القرآن.

إذن: فرسول الله ﷺ حينما نزل عليه القرآن بالترغيب فى الجهاد كادت المدينة تخلو من المسلمين؛ فجاء قوله الحق:

﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (١٢٢) ﴾ [التوبة]

وفى هذا القول الكريم محافظة على أمرين؛ أمر استقبال وحى الله، وأمر الإعلام به، وبذلك يتنوع الجهاد، طائفة تستقبل، وطائفة تُعلِّم وترسل؛ لأنهم لو تركوا الرسول ﷺ جميعاً، فكيف يصل الوحى من الرسول ﷺ إلى المؤمنين؟ ولو أنهم جلسوا جميعاً فى المدينة فمن الذى يسيح فى الأرض معلِّماً الناس؟ أما إذا بقى الرسول ﷺ والمؤمنون معه، فى فترة لا قتال فيها، فهذا أمر مختلف؛ لأنها ستكون فترة استقبال فقط.

وكذلك إن خرج رسول الله ﷺ إلى القتال فعلى المؤمنين القادرين على القتال أن يصحبوه؛ لأن الرسول القادر على استقبال الوحى من الله موجود معهم، وكذلك الإعلام بالرسالة موجود.

إذن: فالمشكلة كانت فى حالة عدم وجود رسول الله ﷺ مع الخارجين للجهاد، فإذا ما خرج المقاتلون للجهاد، وظل رسول الله ﷺ فى المدينة، فعليهم أن ينقسموا قسمين: قسماً يبقى مع رسول الله ليتعلم منهج الله، وقسماً يخرج إلى القتال.

حين كان الرسول يخرج إلى القتال فالمهمة تسمى غزوة، وإذا لم يخرج رسول الله ﷺ، وأرسل جماعة للقتال سُمِّيت العملية بـ «السَّرية»[1].

---

(١) كان عدد الغزوات التى خرج فيها رسول الله ﷺ بنفسه غازياً سبعاً وعشرين، وقد قاتل بنفسه فى تسع منها، هى: بدر، وأحد، والمريسيع، والخندق، وقريظة، وخيبر، وفتح مكة، وحنين، والطائف. وبلغ عدد بعوثه أو سراياه سبعاً وأربعين، وقيل: بل نحواً من ستين.

ولم يخرج عن التسمية بالسرية إلا عملية واحدة سُمِّيت غزوة ولم يخرج فيها رسول الله ، وكان المفروض أن تُسمى سرية ولكنها سميت غزوة [(١)] .

وقد خرجت المهمة القتالية عن اصطلاح السرية إلى اصطلاح الغزوة ، رغم أن رسول الله لم يحضرها ؛ لأن المعركة حدث فيها أشياء كالتى تحدث فى الغزوات ، فقد كانت معركة حاسمة وقُتل فيها عدد من المسلمين ، وحمل الراية مقاتل واستشهد فحملها غيره وقتل ، فحملها ثالث ، وكانت المعركة حامية الوطيس فقالوا : لا يمكن أن نسمى تلك المعركة بـ «السَّرية» بل هى غزوة ؛ لأن فيها عنفاً شديداً.

لم يلحظوا شيئاً واحداً وهو أن التسمية بالغزوة انطبقت تمام الانطباق على مؤتة ؛ لأن رسول الله ﷺ كان فى المدينة والمسلمون خارجون للغزو وأرسل إلى القوات: إن مات فلان فى القتال فيليه فلان ، وإن مات فلان ففلان يخلفه [(٢)] ، أى : أنه ﷺ قد سلسل أمور الغزوة قبل أن تبدأ.

وهى الحملة القتالية الوحيدة التى خرجت بهذه التعليمات، من بين مثيلاتها من الحملات المحددة التى لم يخرج فيها رسول الله ﷺ مع المقاتلين، وكأنه ﷺ كان يعلم مُقدّماً بمن سيموت من هؤلاء الخارجين إلى القتال.

ثم وصلت الحملة إلى موقعها ودار القتال ، وكان الرسول ﷺ فى المدينة والتفت الصحابة فسمعوا رسول الله ﷺ يتكلم ؛ قال: أخذ الراية فلان

(١) هى غزوة مؤتة ، ومؤتة هى قرية من أرض البلقاء من الشام من أعمال دمشق ، وكانت تسمى أيضاً جيش الأمراء .

(٢) أخرج البخارى فى صحيحه (٤٢٦١) عن عبد الله بن عمر قال : « أمَّر رسول الله ﷺ فى غزوة مؤتة زيد ابن حارثة . فقال رسول الله ﷺ : إن قتل زيد فجعفر ، وإن قتل جعفر فعبد الله بن رواحة . قال عبد الله : كنت فيهم فى تلك الغزوة ، فالتمسنا جعفر بن أبى طالب ، فوجدناه فى القتلى ، ووجدنا ما فى جسده بضعاً وتسعين من طعنة ورمية » .

فقُتل ، ثم أخذها بعده فلان فقُتل . ثم قال: وأخذها بعده فلان ، وكان ﷺ يقصّ المعركة [1] وهو فى المدينة فقالوا: لم يقل ذلك إلا لأنه شهد.

وحينما عاد المقاتلون عرف الصحابة منهم أن الأمر قد دار كما رواه رسول الله ﷺ وهو جالس فى المدينة ، وقد حدث مطابقاً غاية التطابق ، فقالوا: شهدها رسول الله ؛ وما دام قد شهدها رسول الله ﷺ فهى غزوة.

ونعود إلى الآية التى يقول فيها الحق:

﴿فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِى الدِّينِ ... (١٢٢)﴾[التوبة]

وساعة تسمع كلمة «لولا» فلك أن تعرف أن فى اللغة ألفاظاً قريبة من بعضها ، فـ «لو» و«لولا» و«لوما» و«هلاَّ»، هى - إذن - ألفاظ واردة فى اللغة ، وإذا سمعت كلمة «لو» فهذا يعنى أن هناك حكماً بامتناع شيئين. شىء امتنع لامتناع شىء ، مثل قولك: «لو كان عندك زيد لجئتك» وهنا يمتنع مجيئك لامتناع مجىء زيد ، فكلمة «لو» حرف امتناع لامتناع، وتقول: لو جئتنى فى بيتى لأكرمتك. إذن: فأنا لم أكرمك لأنك لم تأت.

وتقول: « لولا زيد عندك لجئتك» أى: أنه قد امتنع مجيئى لك لوجود زيد. إذن: فـ «لولا» حرف امتناع لوجود. ونلحظ أن «لولا» هنا جاء بعدها اسم هو «زيد» ، فماذا إن جاء بعدها فعل، مثل قولك: «لولا فعلت كذا» ؟ هنا يكون فى القول حضٌّ على الفعل ، مثل قوله الحق:

﴿لَّوْلاَ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْراً (١٢)﴾ [النور]

---

(١) عن أنس بن مالك قال : خطب رسول الله ﷺ فقال : أخذ الراية زيد فأصيب ، ثم أخذها جعفر فأصيب ، ثم أخذها عبد الله بن رواحة فأصيب وإن عينيه لتذرفان ، ثم أخذها خالد من غير إمرة ، ففتح الله عليه ، وما يسرنى أنهم عندنا - أو قال : ما يسرهم أنهم عندنا . أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٢٦٢) وأحمد فى مسنده (٣/ ١١٣) .

ومثل قوله: ﴿لَّوْلاَ جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ ... ﴿١٣﴾﴾ [النور]

ومثلها أيضاً «لوما» مثل قوله الحق:

﴿لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلاَئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧﴾﴾ [الحجر]

وأيضا قولك: «هَلاَّ». فهى أيضاً تحضيض مثل قولنا: «هلا ذاكرت دروسك» ؟ وأنت بذلك تستفهم بـ (هل)، وجئت بالمد لتصبح (هلاَّ)؛ لتحثه على المذاكرة. أو قولك: «هلا أكرمت فلاناً ؟» وفى هذا حَثٌّ على أن تكرم فلاناً [1].

والأسلوب هنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها يجمع المؤمنين ويقول لهم: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً﴾ ثم يأتى الحث على أن ينقسموا إلى قسمين فى قوله: ﴿فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ﴾، والقسمان يذهب أحدهما للإعلام وللجهاد. والقسم الثانى يظل مع رسول الله ﷺ وهو يستقبل منهج السماء.

وقوله الحق: ﴿فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ﴾ فيه كلمة ﴿نَفَرَ﴾ وهى من النفور. لكنها استعملت دائماً فى مسألة الخروج للحرب، مثل قوله الحق:

﴿مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ [2] إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلاَّ تَنفِرُوا ... ﴿٣٩﴾﴾ [التوبة]

ولماذا يجىء الحق بالنفرة فى الجهاد ؟ نقول: لأن الذى يعوق الإنسان عن

---

(١) الأدوات الثلاثة (لولا - لوما، هلاَّ) لا يليها إلا المضارع ظاهراً أو مقدراً. فإن دخلت على ماض خلصت زمنه للمستقبل، بشرط أن تفيد التحضيض. ومنها الآية التى معنا، ومثلها قوله تعالى: ﴿رَبِّ لَوْلاَ أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ ... ﴿١٠﴾﴾ [المنافقون] وانظر: النحو الوافى لعباس حسن.

(٢) اثاقلتم: تثاقلتم وأخلدتم إلى الأرض، فتباطأتم عن تلبية النفير خوفاً على أنفسكم وأموالكم. انظر: لسان العرب.

الجهاد حبه لدَعَته [١]، ولراحته ، ولسعادته بمكانه ، وبأهله ، وبماله ، فإذا ما خرج للقتال شَق ذلك على نفسه ، ولذلك يقول الحق:

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ... (٢١٦)﴾ [البقرة]

وفى ذكر أمر الكُرْه إنصاف لهم ، فصحيح أن القتال أمر صعب ويكرهه الإنسان ، لكن الحق قد كتبه ، والمسلم إذا استحضر الجزاء عليه فهو يحتقر ما يتركه ؛ لأنه قليل بالنسبة لعطاء الله ؛ لذلك ينفر المؤمن الحق من الذى يملكه ، ويذهب للثواب الأعلى ، وهذا هو معنى التحديد فى أنهم سمّوا الجهاد نفرة ، فحين يقارن المؤمن بين حصيلة ما يأخذه من الجهاد وما يمسكه عن الجهاد لتساءل : ما الذى يجعلنى أتمسك بالأقل ما دام هناك عطاء أكثر ؟

فلما جاءت ﴿فَلَوْلاَ نَفَرَ﴾ فهموا أن هذه الآية من تتمة الكلام عن الجهاد، ولتبقى طائفة من المؤمنين؛ لتسمع من رسول الله الوحى، وقد يتساءل المسلم حين يقرأ الآية ويجد قوله الحق : ﴿فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ ، هنا يقول المسلم لنفسه : وهل تنفر الطائفة التى تتفقه فى الدين ، إنها الفرقة الباقية والمستقرة مع رسول الله فى المدينة ؟

ونجيب: إن قوله الحق : ﴿فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ نجد فيه كلمة ﴿فِرْقَةٍ﴾ وهى الجماعة ، والجماعة إنما تنقسم إلى طوائف. مثلما نسمى فى الجيوش «الفرقة الأولى» و«الفرقة الثانية» و«الفرقة الثالثة» ، ثم نقسم الفرقة الواحدة إلى : «جماعة الاستطلاع» و«جماعة التموين» و«الشئون المعنوية» ، ونجد كلمة ﴿طَائِفَةٌ﴾ وهى تعنى «بعض الكثرة» [٢].

---

(١) الدَّعَة : ترف العيش والراحة .

(٢) الطائفة: الرجل الواحد إلى الألف . والدليل على أن الواحد يقال له طائفة لأنه أصل الجمع قوله تعالى : ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ... (٩)﴾ ثم قال : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ... (١٠)﴾ [الحجرات] .

وما دام الحق قد قال: ﴿فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ فهذا يعنى أنه سبحانه قسمهم إلى طائفتين، إحداهما تنفر، والأخرى تبقى لتتفقه فى الدين. إذن: فكأن أسلوب القرآن أسلوب أدائى كل ينفر لمهمته.

﴿فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ يبين أن طائفة منهم تكون قتالية والأخرى إعلامية مهمتها ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا فِى الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ﴾ فمن يجلس مع رسول الله ﷺ ليستمع إليه، فهو يجهز للمقاتل حيثيات ما يجاهد على مقتضاه، وحين يرجع المقاتلون يُبلِّغهم من جلس مع الرسول ما نزل عليه ﷺ من وحى، ويتناوب المسلمون الجلوس مع الرسول فى المدينة، والقتال، وكل طائفة تؤدى مهمتها.

وهناك من العلماء من رأى رأياً آخر، وأخذ المسألة كلها مكتملة على بعضها، وقال: إن من بقى مع رسول الله له لون آخر من المجاهدة، ولأنه يأخذ من الرسول ﷺ علْماً جديداً، يتبادله مع المقاتلين فى ساحة القتال بعد أن يعودوا، فالمقاتلون فى ساحة الجهاد يعودون بما يؤكد نصرة الله للقلة على الكثرة، وإمداد الله سبحانه للمؤمنين بالملائكة، وتهدم العدو، والمعجزات التى رأوها من رسول الله ﷺ كنبوع الماء من بين أصابعه فى حال قلة المياه عند العطش [(١)].

ثم إنهم يسمعون من المجاهدين الجالسين لتلقى العلم أخبار الوحى والفقه، وهكذا يتكافأ المؤمنون فى المهام، وكأنهم البنيان المرصوص يشدّ بعضه بعضاً.

وما تقدم هو فهم للآية إذا كانت خاصة بالجهاد، فماذا إذا كان للآية موضوع آخر غير الجهاد؟ نقول: إن الجهاد إعلام بمنهج الله فى الأرض،

(١) قيل لجابر بن عبد الله: كم كنتم يوم الشجرة؟ قال: كنا ألفاً وخمسمائة، وذكر عطشاً أصابهم، قال: أتى رسول الله ﷺ بماء فى تور، فوضع يده فيه. فجعل الماء يخرج من بين أصابعه كأنه العيون، قال: فشربنا ووسعنا وكفانا، قال: قلت: كم كنتم؟ قال: لو كنا مائة ألف كفانا. كنا ألفاً وخمسمائة. أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٤/ ١١٥).

والإعلام بمنهج الله فى الأرض يقتضى المنهج المعلوم من السماء الذى يوضح مصير المجاهدين، ومصير المتخلفين. وهو هنا سبحانه يوضح أمر استقبال ما نجاهد من أجله.

﴿فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ﴾ أى: يذهب بعض المسلمين إلى البلاد التى حول المدينة؛ ليقولوا للناس حقيقة الإسلام، وأيضاً أن يأتى آخرون من البلاد الأخرى لِيَعْلَمُوا أمر الدين، ويعلموه لأهاليهم.

ويكون قول الحق: ﴿فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ مقصود به هؤلاء الذين يأتون من الأماكن البعيدة عن المدينة؛ ليجلسوا إلى رسول الله ﷺ ليسمعوا، ويتفقهوا فى الدين؛ ليرجعوا إلى مجتمعاتهم، ويعلموهم أمور الإيمان.

إذن: فالآية إما أن تكون من تتمة آيات الجهاد، وإما أن تكون أمراً مستقلاً للذين يبعد بهم المكان عن منبع المنهج، وهو رسول الله ﷺ، فهو ﷺ يعلِّم من يأتون إليه من أى مجتمع؛ ليرجعوا بعد ذلك لقومهم، ويبلغوهم مطلوبات المنهج، وهذه مسألة بعيدة عن القتال.

إذن: تكون النفرة للتفقه فى الدين على أى معنى، ليس هناك فرق بين الطائفة الباقية التى تتفقه؛ لتعلِّم الطائفة التى تجاهد، أو الطائفة التى تجاهد تتفقه بالمعجزات و بالأحداث التى حدثت أثناء قتالهم وتعلمها للطائفة التى لم تخرج للقتال.

أو أن المعنى هو الأمر الثانى الذى لا قتال فيه، بل يتناول أمر استقبال الرسول ﷺ لطائفة من كل بلد ليسمعوا منه ﷺ، وقد سماها الحق «نفرة»؛ لأنها جهاد فى البحث فى المنهج وتعلمه، وهى نفرة النفرة؛ لأن النفرة للجهاد بالقتال تتطلب فهماً لحيثيات الدفاع عن هذا المنهج المنزَّل من الله.

وقوله الحق : ﴿ فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ ﴾ علمنا منه أن الفرقة هى الجماعة ، والجماعة إما أن تنقسم إلى أفراد وإما إلى طوائف ، والفرقة أقلها ثلاثة ؛ لأنها جمع . وحينما يذهب اثنان من هذه الفرقة للتعلم من رسول الله ﷺ ، ويعودان للبلاغ عنه ﷺ نكون أمام خبر من شاهدين اثنين بأن النبى قال كذا وأبلغ بكذا ، وكذلك قد يصح أن يكون المبلِّغ عن الرسول شاهداً واحداً ، واختلف العلماء المسلمون فيما بينهم ، هل يأخذون الخبر عن واحد فقط مبلِّغ عن رسول الله ﷺ أم لا بد من الأخذ بالخبر من شاهدين اثنين؟

وقد جاءت الآية صريحة فى أنه ﴿فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ والفرقة أقلها ثلاثة ، والطائفة إما أن تكون اثنين وإما أن تكون شخصاً واحداً يرجع إلى قومه ؛ ليفقههم فى الدين ، ويؤدى البلاغ عن رسول الله ﷺ .

وتحفَّظ البعض على ذلك بأن قالوا: إن الذى نفر ليس فرداً من الفرقة، بل طائفة من الفرقة ، ومفردات الفرقة طوائف لا واحد، وكلمة طائفة مقصود بها الجماعة .

والنفرة لها علة محددة يذكرها الحق: ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ فالتفقُّه إذن هو سبب النفرة ، مثلما نبعث بعثة فى أى بلد متقدم ؛ لنأخذ بعلوم الحضارة ، فإن خرج واحد عن حدود البعثة ؛ ليلعب، ويلهو، فهو لم يحقق النفرة. لا بد إذن من أن يستوعب كل واحد فى البعثة أنه قد جاء للتفقه [1] .

والفقه فى اللغة : هو الفهم ، ويقال عن أى أمر تفهمه : فقهتُ الأمر

---

(١) لطلب العلم والتفقه آداب ، منها : أن يكون لوجه الله ، لا لطلب سمعة أو غيره ، فعن كعب بن مالك قال قال ﷺ : « من طلب العلم ليجارى به العلماء ، أو ليمارى به السفهاء ، ويعرف به وجوه الناس إليه أدخله الله النار » أخرجه الترمذى فى سننه (٢٦٥٤) ، والحاكم فى المستدرك (١/ ٨٦) شاهداً ، وابن أبى الدنيا فى الصمت (حديث١٤١) والعقيلى فى « الضعفاء الكبير » (١/ ١٠٤) . فيه إسحق بن يحيى تكلموا فيه من قبل حفظه .

الفلانى . فإن فهمت فى الهندسة فهذا فقه ، وإن فهمت فى العلوم فهذا فقه ، ولكن المعنى الذى غلب هو الفقه لأحكام الله ؛ لأن هذا الأمر هو أهم أمور الحياة ، فالفقيه فى الدين هو من يبيّن للناس حدود المنهج بـ «افعل» و«لا تفعل».

إذن: الفقه مطلقاً هو الفهم ، لكنه أصبح مصطلحًا يعنى فهم أحكام الله ؛ لأنه هو الذى يحدد الصواب والخطأ . ولا يقال : «الفقيه» إلا لمن فَقُه. وهناك فرق بين فَقه وفَقُه . فَقُهَ فى دين الله ، أى : أصبح الفقه عنده ملكة ، وساعة تسأله فى أى موضوع لا يتردد ، بل يجيب ؛ لأن الفقه صار ملكة عنده ، والملكة : الصفة التى ترسخ فى النفس من مزاولة أى عمل ؛ فيسهل أداء هذا العمل . وكذلك الفقه. وهكذا نعرف أن معنى فَقِهَ: «فهم شيئاً». أما فَقُهَ فمعناها: صار الفقه عنده مَلَكَة.

وقوله الحق :﴿ لِّيَتَفَقَّهُوا﴾ أى: ليعلموا أحكام الله ، ويصير هذا العلم: من بعد ذلك مَلَكَة عندهم.

ولكنْ ماذا إن نفروا لشىء آخر مثلما ينفر واحد من البدو ليسأل جماعته: إلى أين تذهبون ؟ فيجيبون: نذهب إلى رسول الله لنسمع منه ، فيذهب معهم. لكنه لا يسمع بل يذهب هنا أو هناك ، ولا يجلس لتفقُّه العلم ، على الرغم من أن علّة نفوره مع غيره هى التفقّه فى الدين ؛ وليعلم حقائق هذا الدين ؛ لينذر به قومه حين يعود إليهم ، فالفقيه لايطلب جاهاً ، أو رئاسة، أو وظيفة، بل هو يبين للناس متطلبات الحركة على هذا المنهج الحق ، ولينذرهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ أى: يتجنَّبون مايضرُّهم.

وحين ندقق فى هذا الأمر نجده عدة مراحل: ﴿فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ هذه هى المرحلة الأولى ، ثم ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ هذه هى المرحلة

الثانية وهى التفقه ، أما الثالثة فهى ﴿وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ﴾ ، ومن تفقه لغير هذا ؛ليشار إليه بالبنان مثلا [(١)] ؛ نقول له : أنت من الذين قال الله فيهم :

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤)﴾ [الكهف]

إذن : فالتفقه يكون للدعوة تبشيراً وإنذاراً؛ حتى يتجنب القوم ما يضرهم .

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (١٢٣)﴾

ينقلنا الحق هنا إلى الحديث عن الجهاد مرة أخرى . ولنا أن نتساءل : لماذا - إذن - جاء الحديث عن النفرة والفقه كفاصل بين حديث متصل عن الجهاد ؟ أجيب : شاء سبحانه هنا أن يعلمنا أن كل من ينفر ؛ لتعلُّم الفقه ، وليعلِّم غيره ؛ هذا المسلم فى حاجة إلى مرحلة التعلُّم ، ومعرفة الأسباب التى يقاتل من أجلها المسلمون وحيثيات الجهاد فى سبيل الله .

وقد قسَّم الحق سبحانه الناس فى آيات الجهاد إلى قسمين : فرقة تنفر ، وطائفة منها تبقى مع رسول الله ﷺ . فإذا استوى الأمر ، فرقة تجاهد ، وفرقة تَتَعَلم وتعلِّم [(٢)] ، وتتبادل الفرقتان الخبرة الإيمانية والقتالية ، تصبح

---

(١) البنان : الأصابع . مفردها بنانة . ومنه قوله تعالى : ﴿بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ (٤)﴾ [القيامة] قال الفارسى : أى : نجعلها كخف البعير فلا ينتفع بها فى صناعة . نقله ابن منظور فى اللسان .

(٢) ففرقة التعليم والتعلم هى ما يعبر عنه حديثاً بالتوجيه المعنوى ، والتوجيه المعنوى أساس الانطلاق الإيمانى نحو ما يريده الله سبحانه لدعوته .

الملكات الإيمانية متساندة غير متعاندة ، ومن بعد ذلك يتجهون إلى الكفار.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم ﴾ وهذا يعنى أن هناك قوماً قريبين منهم ما زالوا كافرين، وهناك قوم أبعد منهم، والحق قد قال:

﴿ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ... (٣٦) ﴾ [التوبة]

إذن: فهناك أولويات فى القتال ، وقتال الكفار القريبين منك فيه تأمين لمعسكر الإيمان ؛ لذلك جاء الأمر بقتال الأقرب ؛ لأنه قتال لن يتطلب رواحل ولا مؤونة للسفر البعيد ، كما أن العدو القريب منك أنت أعلم بحاله أكثر من علمك بحال الكفار البعيدين عنك ؛ لذلك فأنت تعلم مواطن قوتهم وضعفهم ، وكيفية تحصيناتهم . فإذا تيسر أمر قتال العدو الأقرب كان ذلك طريقاً لمجابهة العدو الأبعد ، بدلاً من أن تواجه العدو البعيد ؛ فيتفق مع العدو القريب ، ويصنع الاثنان حولك «كماشة» بلغة الحرب ، فلا بد أن تحمى ظهرك أولاً ، من شر العدو الأقرب.

إذن: فلا تعارض بين محاربة العدو البعيد والعدو القريب. ولا تَعارض بين قوله الحق: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ﴾ وقوله سبحانه: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾ ؛ لأن معنى ﴿كَافَّةً﴾ أى: جميعاً ، ولكن الجماعة لها أولوية. فخذ القريب منك ؛ لتضمه إليك ، ومتى ضممته إليك نقصت أرضا من عدوك ، وأصبح زائداً فيك ، فإذا كان الخصم معه سيف ومعك سيف ، وبعد ذلك دخلت المعركة فأوقعت سيفه من يده ؛ فأخذته ؛ فبذلك يصبح معك سيفان وهو لا سيف معه.

ولذلك يوضح الحق سبحانه وتعالى للكفار: اعتبروا أيها الكفار ، فأنتم لا ترون الأرض كل يوم وهى تنقص من تحت أقدامكم [1] ، وما ينقص من

---

(١) قال عز وجل: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا .. (٤١) ﴾ [الرعد]. قال ابن عباس فى تفسيرها ، أولم يروا أنا نفتح لمحمد ﷺ الأرض بعد الأرض . وهو الأولى فى تفسير هذه الآية، وهو ظهور الإسلام على الشرك قرية بعد قرية . ذكره ابن كثير فى تفسيره (٢/ ٥٢٠).

أرض الكفار يزيد فى أرض الإيمان . وما دام الحق قد جاء بكلمة «قتال» فهذه الكلمة تحتاج إلى عزيمة ، وجرأة تُجَرِّىء على القتال ، وصبر عليه ، فقد تجد فى مواجهتك من هو أقوى منك أو من هو أشجع منك ، فإن رأى شجاعة منك تفوق شجاعته ، وأحسَّ منك قوة ومثابرة تفوق قوته ومثابرته ، فهذا ينزع من قلبه الأمل فى الانتصار عليك ؛ ولذلك يقول الحق:

﴿وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ والغلظة صفة ، ويقال: غلْظَة ، وغُلْظَة ، وغَلْظَة [1] ، والمعروف أنها الشدة ، فحين تضرب عدوكَ اضربه بقوة ، وبجرأة، وبشجاعة.

وحين يحاول عدوك أن يضربك استقبلْ الضربة بتحمُّل ، وهكذا نجد أن الغلظة مطلوبة فى حالتين اثنتين ؛ فى حالة الإرسال منك ، وفى حالة الاستقبال منه ، فلا يكفى أن تضرب عدوك ضربة قوية ، وحين يردُّ لك الضربة تخور وتضعف . إن الحق يطلب منك غلظة تحمِلُ على عدوّك ، وغلظة تتحمَّل من عدوّك.

ولذلك نجد آية آل عمران يقول فيها الحق:

﴿اصْبِرُوا... (٢٠٠)﴾ [آل عمران]

ولكنْ هَبْ أن عدوَّك يصبر أيضاً ، فيأتى الأمر من الحق:

﴿وَصَابِرُوا ... (٢٠٠)﴾ [آل عمران]

أى: حاول أن تغلبه فى الصبر . وحذَّر الحقُّ من إلقاء السلاح بعد انتهاء

(١) قال الفراء: لغة أهل الحجاز وبنى أسد « غلظة » بكسر الغين . ولغة بنى تميم « غُلظة» بضم الغين. وقال الزجاج : فيها ثلاث لغات : غِلْظة ،وغُلْظَة ، وغَلْظة. انظر : لسان العرب مادة (غ ل ظ)

المعركة ؛ لأن العدو قد يستنيم [1] المؤمن؛ لذلك جاء الأمر من الحق:

﴿ وَرَابِطُوا... (٢٠٠) ﴾ [آل عمران]

أى: استقر أيها المؤمن فى الأرض ؛ ليعلم العدو أنك تنتظره إن حاول الكرّة من جديد أو حدَّثته نفسه بالقتال مرة أخرى . إذن: فالغلظة تطلب منك أن تهاجم ، وتطلب منك أن تتحمّل ، والتحمُّل يقتضى صبراً، والتحامل يقتضى شجاعة ، فإذا ما كان فى خصمك صبر وشجاعة ؛ فعليك أن تصابره أى : تصبر أكثر منه ، وهى مأخوذه فى الأصل من «نافس فلان فلانا . .أى سابقه وحاول أن يسبقه» ، والمنافسة من النفس ، والحق يقول :

﴿ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ (٢٦) ﴾ [المطففين]

أى: تنافسوا فى الخير ، ونحن نعلم أن تركيبة النفس الإنسانية تحتاج إلى شىء مرة أو مرتين فى اليوم ، وتحتاج إلى شىء آخر خمس أو ستَّ مرات فى اليوم. وتحتاج إلى شىء ثالث دائماً . فأنت فى الأكل تأكل ثلاث وجبات ، وفى الشراب تحتاج إلى لترين أو أربعة من الماء أو أكثر. أما التنفس فأنت لا تصبر على الانقطاع عنه ، وهو أهم الضروريات لحياة الإنسان.

وقلنا قديماً: إن من رحمة الله سبحانه وتعالى أنه قد يملك إنسان طعامَ إنسان ، وقد يستطيع الإنسان الصبر عن الطعام لأسابيع ، ولا يصبر الإنسان عن انقطاع الماء إلا أياماً تتراوح من ثلاثة إلى عشرة ، حسب كمية المياه التى فى جسمه ؛ لذلك لم يُملِّك الحق سبحانه الماء مثلما مَلَّك

(١) يستنيم المؤمن : أى ينتهز منه نومة أو غفلة عن سلاحه . ويقول عز وجل : ﴿وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً... (١٠٢) ﴾ [النساء] فالغفلة عن السلاح والمتاع أثناء القتال هى حلم للكافرين يتحينون به أى فرصة لحدوثها ليميلوا على المؤمنين ميلة واحدة ، فيأخذونهم مرة واحدة .

الطعام ، وأما الهواء فأنت لا تصبر على افتقاده للحظات ؛ ولذلك لم يملِّك الله الهواء لأحد أبداً ، وكأنه سبحانه علم أن عباده غير مأمونين على بعضهم البعض ، ولذلك سُمّى استنشاق الهواء وزفيره بالتنفس ، وهو من النفس ، وهو سبب وجود النفْس وهى مزيج من المادة والروح ، والأساس هو نَفَس الهواء الذى يضمن استمرار النفس فى الحياة.

وإذا ما نافست العدو فأنت تصطاد الشىء النفيس ، وهو إعلاء منهج الله. وحين تصابر أهل الباطل ، فكل واحد من أهل الباطل قد يصابر لحاجة [1] لمدة قصيرة ثم يتراجع ؛ لأن الباطل زهوق ، وهنا يقول سبحانه: ﴿وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ أى: غلظة تحمل بها على العدو ، وغلظة تتحمَّل من العدو، وأن تصبر، وتصابر، وترابط .

وكيف يطلب الله منا أن تكون لنا غلظة عليهم مع أنه قال لرسوله ﷺ: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ .. (١٥٩)﴾ [آل عمران]

فإن هذا ينفى الغلظة ، وأقول: لنُفرق بين أمرين ، أمر الغلظة فى أن تكون الحجة قوية ، وأمر الغلظة التى يتطلبها القتال ، أما المعايشة والمآكلة والملاطفة ، فهذه تحتاج إلى لين ورِقَّة.

وقوله الحق : ﴿ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً ﴾ يفيد أن الغلظة ليست صفة دائمة، بل تعنى أنك إن تَطَلَّبَ الأمْرُ فيجب أن تتوافر فيك ، وكذلك قلنا: إن الله

---

(١) أصل الرباط من مرابط الخيل التى تربط بها فى مواجهة الأعداء فى الثغور والحدود مع العدو ، ففيه معنى التربص به والحذر من غدره . ومما ورد فى فضل الرباط فى سبيل الله : « رباط يوم فى سبيل الله خير من الدنيا وما عليها ، وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما عليها ، والروحة يروحها العبد فى سبيل الله أو الغدوة خير من الدنيا وما عليها » أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٨٩٢) وأحمد فى مسنده (٥/ ٣٣٩) والترمذى فى سننه (١٦٦٤) عن سهل بن سعد الساعدى ويستعمل الربط فى المعانى كقوله تعالى: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ (١٤)﴾ [الكهف] أى ثبتنا قلوبهم وعزائمهم على الإيمان . وهم فتية أهل الكهف.

لم يطبع المؤمن على الغلظة ، ولم يطبعه على الشدة ، ولم يطبعه على العزة ، بل قال :

﴿ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ... (٢٩) ﴾ [الفتح]

وقال :

﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ ... (٥٤) ﴾ [المائدة]

ويُنهى الحق الآية :

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ . إياك أن تفهم أنك تواجه أعداءك من الكفار بعددك وعُدَّتك ، ولكن العدد والعدة أمران مطلوبان ؛ لتدخل المعركة ، وعندك شيء من الاطمئنان. ومثال هذا من يسلك مفاوز [(١)] أو صحارى مقفرة [(٢)] أو طريقا موحشاً ، ويحتمل أن يصادف قُطَّاع طريق، نجده يستعد بحمل سلاح ؛ فهو يعطيه شيئاً من الاطمئنان فقط ، وهكذا الحال مع العدد والعدة.

أما النصر فهو من المدد الرَّبَّانى من الحق سبحانه وتعالى. وما دام الله مع المتقين ، ولله معيّة مع المتقين فلا بد أن يمدهم بمدده ؛ لذلك جاء الحق هنا بقوله : ﴿ أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ لننتبه إلى أن الداخل فى الحق هو من سيسلك سلوكاً غليظاً مع الأعداء ، وقد يسلك بالغلظة طمعاً فى المغنم ، فيدخل على الكافر بالقسوة ، وقد يكون قلب هذا الكافر مستعداً للإيمان ، فيقول: أسلمت واستسلمت ، لكن من دخل عليه تعجبه مطية [(٣)] هذا الكافر ، ويعتبرها مغنماً .

---

(١) المفاوز : جمع مفازة ، وهى الصحراء المهلكة ، وسميت هكذا ؛ لأن من دخلها وخرج منها وقطعها فاز . قال ابن شميل : المفازة التى لا ماء فيها.

(٢) مقفرة : خالية من الكلأ والناس .

(٣) المطية : البعير أو الناقة يمتطى ظهرها أى : تركب . والجمع مطايا .

لذلك يأتى التحذير فى قول الحق سبحانه : ﴿ أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ فإن سلَّم لك و استسلم ؛ فاستأسره ، وإياك أن تؤذيه أو تأخذ معداته على أنها مغنم ، فأنت لم تذهب للقتال من أجل الغنائم ، أو لتكسب مكانة فى مجتمعك كمقاتل ، بل أنت تقاتل حين يكون القتال مطلوباً ، وتسلك بالخلق الإيمانى اللائق فى إطار أنك من المتقين لله ، وتحارب لتكون كلمة الله هى العليا [1] وهنا تكون معيه الله لك ﴿ أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (١٢٣) ﴾ .

إذن : فالغلظة لا تعنى أنها طبع أصبح فيك ، ولكن عدوك يجد فيك غلظة إن احتاج الأمر إلى غلظة . فإن لم يحتج الأمر إلى غلظة ؛ فلا بد أن يوجد فى طبعك اللين والموادعة .

ولذلك يقولون : الرجل كل الرجل هو من كانت له فى الحرب شجاعة ، وفى السلم وداعة ، وخيركم من كان فى الجيش كميّاً وفى البيت صبيّاً ، فلا يصطحب غلظته مع العدو إلى البيت والزوجة والأبناء ؛ لأن ذلك وضع للطاقة فى غير مجالها .

هكذا نفهم قوله الحق :

﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (١٢٣) ﴾ [التوبة]

أى : كونوا فى حربكم غلاظاً بما يناسب الموقف ؛ لأن الحرب تتطلب القسوة والشدة ، ولكن إياك أن تستعمل هذه الأمور لصالحك ، ولكن

---

(١) عن أبى موسى الأشعرى أن رجلاً أعرابياً أتى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله ، الرجل يقاتل للمغنم ، والرجل يقاتل ليذكر ، والرجل يقاتل ليرى مكانه ، فمن فى سبيل الله ؟ فقال رسول الله ﷺ : « من قاتل لتكون كلمة الله أعلى فهو فى سبيل الله » وفى رواية « هى العليا فهو فى سبيل الله » . أخرجه البخارى فى صحيحه (١٢٣) ، ومسلم (١٩٠٤) .

استعملها لله ؛ لتضمن أن تكون فى معية الله [(١)]

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾

قوله الحق : ﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ ﴾ يعنى : إذا نزلت ، ونعلم أن هناك «نَزَل» و«أَنْزلَ» و«نَزَّل» فـ « أَنزَل» للتعدية ، فالقرآن نزل من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا . ثم نزّله الحق نجوماً [(٢)] . فالتنزيل معناه : موالاة النزول لأبعاض القرآن ، فالقرآن قد أنزل كله ، ثم بعد ذلك نزله الحق ، ونزل به جبريل - عليه السلام - على سيدنا محمد ﷺ .

وقد جمعت الآية تنزيل الحق للقرآن من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا ، ثم نزول جبريل - عليه السلام - بالقرآن على رسول الله ﷺ ، والحق سبحانه يقول :

﴿ وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ ... ﴿١٠٥﴾ ﴾ [الإسراء]

وفى آية أخرى يقول سبحانه :

﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ ﴾ [الشعراء]

---

(١) عن معاذ بن جبل عن رسول الله ﷺ أنه قال : « الغزو غزوان ، فأما من ابتغى وجه الله ، وأطاع الإمام ، وأنفق الكريمة ، وياسر الشريك ، واجتنب الفساد ، فإن نومه ونبهه أجر كله ، وأما من غزا فخراً ورياء وسمعة ، وعصى الإمام وأفسد فى الارض ، فإنه لم يرجع بالكفاف » أخرجه أحمد فى مسنده (٥/ ٢٣٤) وأبو داود فى سننه (٢٥١٢) والنسائى فى سننه (٦/ ٤٩) .

(٢) على حسب الحوادث .

وهنا يقول الحق : ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ والسورة هى الطائفة من القرآن المسورة بسور خاص ؛ أوله مثلاً : ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ وآخره تأتى بعده سورة أخرى تبدأ بقوله الحق : ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ ومأخوذة من السور الذى يحدد المكان[1] . وهل المقصود بقوله الحق هنا نزول سورة كاملة من القرآن أم نزول بعض من القرآن ؟ إن المقصود هو نزول بعض من القرآن .

وتتابع الآية : ﴿ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا﴾ والمقصود بهذا المنافقون الذين رجعوا عن الإيمان . ونحن نعلم أن القرآن حق وأنه من عند الله ، وله أسر وفاعلية إشراقية فى صفاء النفس ، وقد سمعه الكفار من قبل ، وشهدوا له[2] ، أما المؤمنون فحين سمعوه فقد أسرهم .

وهذا الأمر بسبب الاستعداد لتلقيه ؛ لأن المسألة فى كل الأحداث ليست من الفاعل وحده ، ولكن من الفاعل والقابل للفعل - ولله المثل الأعلى - أنت تأتى بمطرقة مثلاً ، وتطرق قطعة حديد فترق وتزيد مساحتها ، أما إن طرقت بالمطرقة قطعة صلب أقوى من المطرقة ؛ فلن تؤثر فيها .

إذن : فالطرق شىء وقابلية الطرق شىء آخر ، وهكذا لا بد للفاعل من قابل ، والمطلوب من القابل للشىء أن يستقبله بغير خصومة له نابعة من قلبه . فإذا أراد أحد أن يسمع القرآن فعليه أن يخرج ما فى قلبه مما هو ضد

---

(١) فالسورة فى التعريف الاصطلاحى هى قرآن يشتمل على آى ذوات فاتحة وخاتمة ، وأقلها ثلاث آيات ، وكل سورة معجزة وآية من آيات الله تعالى ، ومنها سور طوال ومنها قصار ، ومع هذا فسورة مثل سورة الكوثر وهى ثلاث آيات لها نفس إعجاز سورة البقرة . انظر تفصيل هذا فى البرهان فى علوم القرآن للزركشى (١/ ٢٦٣ - ٢٦٥) .

(٢) من هؤلاء الوليد بن المغيرة الذى حاول معه الكفار أن يصف القرآن بأنه كهانة أو تخليط مجنون ، أو أنه شعر ، أو أنه قول ساحر . فقال : والله إن لقوله لحلاوة ، وإن أصله لعذق ، وإن فرعه لجناة ، وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عرف أنه باطل . سيرة النبى لابن هشام (١/ ٢٧٠) .

القرآن ، ويضع القرآن وضده خارج قلبه وليسمع هذا وهذا وما ينفذ إلى قلبه بعد هذا فليصدقه . لكن أن يستقبل القرآن بما فى قلبه من كراهية القرآن ؛ فلن يتأثر به ، مثلما قابل بعض المنافقين القرآن وقالوا : لم نتأثر به .

وسبب هذا أن هناك ما يسمى بالحيز ، وعدم التداخل فى الحيز ، فالقلب حيز لا يسع الشىء ونقيضه ، فلا تملأ قلبك ببغضك للدين ، ثم تقول : لقد سمعت القرآن ولم يؤثر فىَّ . هنا نقول لك : أخرج من قلبك ما يكون ضد القرآن ، واجعل القرآن أيضاً خارج قلبك ، ثم انظر فى الاثنين لترى ما الذى يستريح له قلبك ، لكن أن تكون مشحوناً ضد القرآن ثم تقول : إن القرآن لم يؤثر فيك ، فهذا يعنى أنك لم تنتبه إلى الفرق بين الفاعل والقابل ، ولم تنتبه إلى ما يسمى بالحيز ، ومدى قدرته على الاستيعاب .

فالزجاجة ذات الفوهة الضيقة لا تستقبل بداخلها الماء إن أغرقتها فيه ؛ لأن ضيق الفوهة لا يساعد الهواء الذى بداخلها على الخروج ، ولا يساعد الماء على الدخول ؛ لأن الماء لن يدخل إلا إذا خرج الهواء ؛ لذلك لا بد أن تكون فوهة الزجاجة واسعة تسمح بخروج الهواء ودخول الماء ، وعند ذلك سترى فقاقيع الهواء وهى تعلو الفوهة . وإذا كان الأمر كذلك فى الحسيات ، فما بالك فى الأمور المعنوية وهى مثل الأمور الحسية .

إذن : فأخْرِج ما يناقض الحق من قَلْبك ، واجعل الباطل والحق خارجاً ، ثم استَقبل الاثنين . لا يمكن لك فى مثل هذه الحالة إلا أن تستقبل[1] الحق . ويصف سبحانه المصرين على الكفر :

﴿ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ... (٩٣) ﴾ [التوبة]

---

(١) مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (٢٤) ﴾ [محمد] . فالقلب مغلق بغير الله ، وبغير كلامه فلم يتدبروا .

أى : أن ما هو خارج هذه القلوب لا يدخل إليها ، وما فى داخلها لايخرج منها .

إذن : ما دام الحق قد ختم على قلوبهم ؛ فلن تنفتح هذه القلوب للإيمان ، وستظل محتفظة بالكفر . فإذا كان من هؤلاء الكافرين أو المنافقين من يسمع القرآن ، ولا يأسره بيانه ؛ فذلك بسبب عجزهم عن النظر إلى ما فيه من معان وقيم [(١)] ؛ لأن الإنسان حينما يسمع القرآن ، وتكون نفسه صافية ليس فيها ما يشوش على ما فى القرآن من جاذبية وبيان يؤثر فيه وتطمئن إليه نفسه .

ولذلك حين قرأ عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - القرآن ، وكان من قبل ذلك شديداً على الإسلام ، ثم ذهب إلى أخته ؛ ليتحقق من أمر إسلامها ، وحين سال منها الدم رقت عاطفته لها ، ثم قرأ القرآن فاستقر فى قلبه [(٢)] .

إذن : لا بد أن تخرج ما فى ذهنك أولاً ؛ لتستقبل القرآن . فإذا ما أنزلت سورة يستقبلها المؤمن بصفاء [(٣)] . أما الكافرون والمنافقون ، فمنهم

---

(١) ومما يرويه ابن إسحاق من هذا فى السيرة النبوية أن بعض كفار قريش خرجوا ليلة ليستمعوا خفية إلى القرآن من رسول الله ﷺ وهو يصلى فى بيته ، وباتوا يستمعون له ، وكل منهم لا يعلم بالآخرين ، حتى إذا طلع الفجر انصرفوا فجمعهم الطريق فتلاوموا ثم تعاهدوا على عدم تكرار ذلك ، إلا أنهم عادوا للاستماع للقرآن عدة مرات . وسأل أحدهم (الأخنس بن شريق) أبا سفيان : أخبرنى يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد ؟ فقال : يا أبا ثعلبة والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها ، وسمعت أشياء ما عرفت معناها . ووجَّه الأخنس نفس السؤال لأبى جهل فرد عليه : ماذا سمعت ، تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف ، أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تحاذينا على الركب ، وكنا كفرسى رهان ، قالوا : منا نبى يأتيه الوحى من السماء ، فمتى ندرك مثل هذه ، والله لا نؤمن به أبداً . [انظر سيرة ابن هشام ١/ ٣١٥ - ٣١٦] .

(٢) قصة إسلام عمر بن الخطاب أوردها ابن هشام فى السيرة النبوية (١/ ٣٤٣ ، ٣٤٦) نقلاً عن ابن إسحاق .

(٣) وفى هذا يقول سبحانه : ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ ... (٢٣) ﴾ [الزمر] .

من يقول : ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا﴾ وتعطينا الآية معنى أننا أمام فريقين : واحد يقرأ ، والثانى يسمع . ونفهم من سياق الآية أن الذى يتساءل مثل هذا السؤال إنما يوجهه لفريقين : أحدهما من ضعاف الإيمان ، أو حديثى الإسلام ، أو المنافقين ، وهؤلاء هم الذين لم يُخْرجوا الكفر أو بعضه من قلوبهم ، وقابلية بعضهم لاستقبال الإيمان لم تتأكد بعد ، ومنهم من قال فيهم الحق :

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا ...(١٦)﴾ [محمد]

ويقول :

﴿وَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ [١] وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ..(٤٤)﴾ [فصلت]

إذن : الفاعل شىء ، والقابل شىء آخر . هم سمعوا القرآن بدليل أن الحق يقول :﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ ﴾ وسياق الآية يوحى لنا أن هناك همساً من بعضهم : ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا﴾ وهذا الهمس يأتى بلهجة المستهزىء ، وقائل الهمس يعنى أن سماعه للقرآن لم يزد شيئاً عنده ، ولم ينقص، وهو يهمس لمنافق مثله ،أو لضعيف الإيمان ﴿ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا﴾ فيرد الله على القضية النفسية ، ويعلمنا أنه سبحانه قد قسم الناس قسمين : قسم كافر أو منافق ، وهذا القسم يزيده القرآن كفراً [٢]، أما القسم المؤمن ؛ فاستقباله للقرآن يزيد من إيمانه [٣].

---

(١) وَقْر : ثقل فى السمع ، وقيل : هو الصمم .

(٢) وذلك فى قوله تعالى الآتى بعد : ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ (١٢٥)﴾ [التوبة] .

(٣) مصداقاً لقوله تعالى : ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢)﴾ [الأنفال] .

إذن : الفاعل شيء والقابل مختلف . ووقف العلماء أمام هذه الآية موقفاً فيه اختلاف بينهم ﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا﴾ فقال بعضهم : إن الإيمان ينقص و يزيد ، وقال بعضهم : إن الإيمان لا ينقص ولا يزيد ، وقامت معركة بين علماء الكلام ، ولا تتسرب معركة بين عقلاء إلا إذا كانت جهة الفهم فى الأمر الذى يختلفون فيه منفكة ، فمنهم من يذهب فكره إلى ناحية ، ومنهم من يتجه فكره إلى ناحية أخرى [(١)] .

فالذين قالوا : إن الإيمان لا يزيد ولا ينقص ، فلحظة أن يتألق الإيمان فى القلب ؛ يستقر فيه ، وهو الإيمان بالله، و أن لا إله إلا الله ولا معبود سواه ، وأن محمداً رسوله المبلغ عنه ؛ هذا الإيمان لا يزيد ولا ينقص . والمثال : هو قول الإمام على كرم الله وجهه : لو انكشف عنى الحجاب ما ازددت يقيناً .

أما العلماء الذين قالوا بأن الإيمان يزيد أو ينقص ، فقد قصدوا بذلك تطبيق مستلزمات الإيمان من الآيات ، فكل آية تحتاج ممن يصدقها أن يكون مؤمناً بالله أولاً ، ثم ينفذ متطلبات الآية .

وكل المسلمين مؤمنون بالله ، ولكن فى جزئيات التطبيق نجد من يطبق عشرين جزئية وآخر يطبق ثلاثين ، أما أصل الإيمان الذى استقبل به الإنسان التكليف وهو التوحيد ، فلا يزيد أو ينقص . وهؤلاء المنافقون عندما قالوا : ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا﴾ هل تداولوا ذلك سراً أم قالوه علناً ؟ لا بد أنهم قالوا ذلك سراً وفضحهم الحق سبحانه ، وكان يكفى أن يعلموا أن الله

---

(١) الذين قالوا بأن الإيمان لا يزيد ولا ينقص نظروا إلى مسمى الإيمان اللغوى أى التصديق والإقرار ، وهذا لا يحتمل نقصاناً . أما الآخرون فقد نظروا إلى أن الإيمان : تصديق بالقلب ، وقول باللسان ، وعمل بالجوارح . فالعمل بالجوارح يزيد وينمى معانى الإيمان فى قلب العبد إن كانت فى طاعة ، أما إن كانت فى معصية فهى تنقصه بمعنى أنها تخدش ثباته فى القلب . انظر فى تفصيل هذا كتب علم الكلام والعقائد .

يخبر رسوله ﷺ بكل ما يكتمونه ، ولكنهم احترفوا اللجاجة [١] ؛ لذلك قالوا : ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا﴾ .

ويرد الحق سبحانه :

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ و" يستبشر" أى : يملأ السرور بشرته ، فترى البريق ، والفرحة ، والانبساط . وكلها من علامات الاستبشار ، ومن يستبشر بآية من آيات الحق فهو الذى يفهم من الآية شيئاً جديداً ؛ يدخل على نفسه السرور ؛ ولذلك فهو يرتاح لنزول تكليفات إيمانية جديدة ، ليعظم ويزداد ثوابه ، وهو غير ذلك الذى يكره أن ينزل حكم جديد من الله .

هذا هو معنى "يستبشر" .

أما الآخرون فيقول الحق سبحانه عنهم :

﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٢٥﴾ ﴾

والرجس [٢] : هو الشيء المستقذر ، وتكون القذارة حسية ، ومرة تكون معنوية . فالميتة مثلاً قذارتها حسية ؛ لأنها ماتت ودمها فيها ، والدم - كما نعلم - له مجريان ؛ مجرى للدم قبل أن يكرر ، ومجرى آخر للدم بعد أن يكرر ، والدم قبل أن يكرر يمر على الرئة والكلى فتنقيه الرئة والكلى من

---

(١) اللجاجة : الجدال والمراء بغير حق . لسان العرب مادة (ل ج ج)

(٢) الرجس : القذر والنَّتَن حسياً ومعنوياً ، ويطلق على ما يستقبح فى الشرع ، والرجس والرجز معناهما واحد ، ويطلق الرجس والرجز على العذاب قال تعالى : ﴿ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ﴿٧١﴾ ﴾ [الأعراف] وقوله : ﴿ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ ﴿١٢٥﴾ ﴾ [التوبة] يعنى : قذارة معنوية ونفسية وقوله : ﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ ﴿١٣٤﴾ ﴾ [الأعراف] أى : العذاب .

الأشياء الضارة التى تصل إليه نتيجة تفاعلات أعضاء الجسم المختلفة . وبعد أن تتم تنقيته عن طريق الرئتين والكلى يصير دماً صالحاً .

فإذا مات الحيوان بقى فيه دمه الصالح ودمه الفاسد ؛ لذلك نحن نذبح الحيوان قبل أن نأكله ، ونضحى بدمه الصالح مع الفاسد ؛ حتى لا يصيبنا الدم الفاسد بالأمراض ؛ ولذلك تعتبر الميتة رجساً . والخمر أيضاً نجاسة حسية ورجس . وهناك رجس معنوى ، ولذلك قال الحق :

﴿ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ [1] رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ ... (٩٠) ﴾ [المائدة]

إذن : فهناك رجس حسى ، ورجس معنوى ، ويطلق الرجس على الكفر أيضاً ، ومرة يطلق الرجس على همسات الشيطان ووسوسته .

وفى ذلك يقول الحق :

﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ .. (١١) ﴾ [الأنفال]

وهنا يقول الحق : ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ ولأنهم يكفرون بالله وبآياته ؛ فهذا يزيدهم رجساً على رجسهم ويصبح كفرهم مركَّباً ، وهكذا نجد البشارة للمؤمنين ، أما الكافرون فلهم النذارة ؛ لأن كفرهم يزيد ، ويموتون على ذلك الكفر .

ويقول سبحانه بعد ذلك :

---

(١) الأنصاب : كل ما عُبدَ من دون الله من الأصنام والأوثان التى كان الكفار ينصبونها حول الكعبة لعبادتها والذبح عندها . أما الأزلام : فهى سهام لا ريش لها ، مكتوب على بعضها "افعل" والبعض الآخر "لا تفعل" فإذا أراد رجلٌ السفر أو النكاح أتى سادن الكعبة فقال : أخرجْ لى زلماً ، فإن خرج بـ "افعل" فعل ، وإن كانت "لا تفعل" لم يفعل . انظر : لسان العرب مادة (ن ص ب) .

﴿ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ﴾

وقوله الحق : ﴿ أَوَلَا يَرَوْنَ ﴾ أى : ألا يستشهد المنافقون تاريخهم مع الإسلام ، ويعلمون أنهم يفتنون فى كل عام مرة بالمصائب ومرة بالفضيحة ، فنجد رسول الله حين يراهم يخرج بعضهم من بين الصفوف ويقول لهم : « اخرج يا فلان فإنك منافق »[(١)] . ثم بعد شهور يتكرر الموقف ، وهنا يذكرهم الحق سبحانه بأن رسول الله ﷺ يصفيهم كل عام مرة أو مرتين .

الأصل فى الفتنة أنها امتحان واختبار ، وهى ليست مذمومة فى ذاتها ، لكنها تذم بالنتيجة التى تأتى منها ، فالامتحان - أى امتحان - غير مذموم ، لكن المذموم هو أن يرسب الإنسان فى الامتحان . إذن : الابتلاء أو الفتنة[(٢)] فى ذاتها ليست مذمومة ، إنما المذموم أن تأتى النتيجة على غير ما تشتهى ، وهم يفتنون حين يرون انتصار المسلمين رغم نفاقهم وكيدهم للمسلمين ، وكان يجب أن يعلموا أنهم لن يستطيعوا عرقلة سير الإسلام ؛ لأنه منتصر بالله . وكان يجب أن يعتبروا ويتوبوا لينالوا خير الإسلام ،

---

(١) عن أبى مسعود الأنصارى قال : خطبنا رسول الله ﷺ خطبة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : " إن فيكم منافقين ، فمن سميت فليقم . ثم قال : قم يا فلان ، قم يا فلان ، قم يا فلان . حتى سمى ستة وثلاثين رجلاً . . . " . أخرجه أحمد فى مسنده (٥/ ٢٧٣) والبيهقى فى دلائل النبوة (٦/ ٢٨٦) . قال الهيثمى فى المجمع (١/ ١١٢) : " فيه عياض بن عياض عن أبيه ولم أر من ترجمهما " .

(٢) لكلمة الفتنة معان كثيرة فى اللغة ، تدور كلها حول الاختبار والإيقاع فى امتحان بعد امتحان ليميز الطيب من الخبيث ، وأصلها مأخوذ من فتنة الفضة والذهب أى : إذا أذبتهما بالنار لتعرف الردئ من الجيد ، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ﴿٣٥﴾ ﴾ [الأنبياء] .

فخيره ممدود رغم أنوفهم ، والخسارة لن تكون على الإسلام ، وإنما الخسارة على من يكفر به .

ونحن نعلم أن الإسلام بدأ بين الضعفاء إلى أن سار الأقوياء إليه ، وتلك سنة الله فى الكون ، بل إننا نجد أن النبى ﷺ فى بدء الرسالة كان مطلوباً منه أن يؤمن بأنه رسول . وكما تقول أنت : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله ، كان على النبى ﷺ أيضاً أن يقول : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله . وسبحانه جل شأنه ، الخالق الأكرم ، آمن بنفسه أولاً ، بدليل قوله سبحانه :

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ... (١٨) ﴾ [آل عمران]

فأول شاهد بالألوهية الحقة هو الله ، وقد شهد لنفسه ، ومعنى ذكر شهادته لنفسه لنا أن نؤمن بأنه سبحانه يزاول قيوميته وطلاقة قدرته بكلمة "كن" وهو عالم أن مخلوقاته تستجيب قطعاً ، وكان لا بد أن يعلمنا أنه آمن أولاً بأنه الأول ، وأنه الإله الحق ، بحيث إذا أمر أى كائن أمراً تسخيرياً فلا بد أن يحدث هذا الأمر ، وسبحانه لا يتهيب أن يأمر ؛ لذلك قال لنا : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ﴾ شهادة الذات للذات ، وشهدت الملائكة شهادة المشهد وشهد أولو العلم شهادة الاستدلال ، وحين يشهد محمد ﷺ أنه رسول الله فهو يؤمن بأنه رسول ، ولو لم يؤمن برسالته لتهيب أن يبلغنا بالرسالة ، وبعد أن آمن ﷺ أنه رسول من الله جاءه التكليف من الحق :

﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ (٢١٤) ﴾ [الشعراء]

وظل رسول الله ﷺ يدعو إلى الإسلام ، ويبلغ آيات الحق إلى أن جاءت آيات الدفاع عن دين الله ، وقال الحق :

﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم ..(١٢٣)﴾ [التوبة]

إذن : فى البداية كان لا بد أن يؤمن أنه رسول ، وأن يبلغ الدعوة إلى قريش وسائر الجزيرة ، وتعبر دعوته بعد ذلك من الجزيرة إلى الشام ، وتتعدى الرسالة الشام بالإعلام وإن لم تتعد بالفعل ؛ حتى يأتى أتباعه من الصحابة وينساحوا بالإسلام فى كل بقاع الأرض ، ولذلك كانت الرمزية فى إرسال الكتب : كتاب لفلان وكتاب لفلان وكتاب لفلان [(١)] ؛ ليفهم العالم أن دعوة النبى ﷺ بالإيمان والإسلام دعوة متعدية ؛ لأنها خالفت دعوات الرسل عليهم السلام ، فقد كان كل رسول إنما يعلم أن حدود دعوته هى أمته [(٢)] .

أما محمد ﷺ فقد كانت لرسالته مراحل : آمن بذاته أولاً ، ثم دعا الأقربين ، ثم من بعد ذلك قريش ، ثم أبلغ العرب ، ثم الشام ، وتعدت الدعوة بالكتب إلى جميع الملوك فى العالم ، وصارت أمة محمد ﷺ مؤتمنة على حمل الدعوة ونشرها فى أى مكان ومعها حجتها وهى القرآن .

وشاء الله أن يختم رسول الله الرسالات ، وأرسله بالإسلام الذى يغلب الحضارات ، رغم أنه ﷺ من أمة أمية لا تعرف شيئاً [(٣)] ؛ حتى لا يقال عن

---

(١) بعث رسول الله ﷺ كتباً إلى ملوك الأرض من حول أرض الحجاز كقيصر الروم وكسرى فارس ومقوقس مصر وغيرهم ، يدعوهم إلى الإسلام مع جماعة من أصحابه ، ووجّه كلاً منهم إلى وجهة ، وقال لهم : "إن الله بعثنى رحمة وكافة ، فأدوا عنى يرحمكم الله " أورده ابن هشام فى السيرة النبوية (٤/ ٦٠٧) عن ابن إسحاق .

(٢) وهذا مما خُص به رسول الله ﷺ ، فعن جابر بن عبد الله الأنصارى قال قال رسول الله ﷺ : "أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلى . كان كل نبى يبعث إلى قومه خاصة ، وبعثت إلى كل أحمر وأسود وأُحلّت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى ، وجعلت لى الأرض طيبة طهوراً ومسجداً فأيما رجل أدركته الصلاة صلّى حيث كان ، ونُصرت بالرعب بين يدى مسيرة شهر وأُعطيت الشفاعة " . متفق عليه ، أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٣٥) ومسلم (٥٢١) .

(٣) قال رب العزة فى هذا : ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٢)﴾ [الجمعة] .

الإسلام أنه مجرد وثبة حضارية ، وجاء لهم منهج غلب الحضارات المعاصرة له : فارس والروم فى وقت واحد .

إذن : فالمسألة كانت مسألة قبيلة ، يحكمهم واحد منهم هكذا ، دون تمرس بالنظم الاجتماعية ، ولم يعرفوا شيئاً قبل الإسلام ، بل هم أمة متبدية [1] لا شأن لها بالنظم السياسية أو الاقتصادية ، وطن الواحد منهم جمله وخيمته وبضعة أدوات تعينه على الحياة ، وتستقر كل جماعة فى أى مكان يظهر به العشب ويوجد به الماء ، وبعد أن تأكل الأغنام والأنعام العشب ، ينتقل العربى مع جماعته إلى مكان آخر ، بعد أن ينظر الواحد منهم إلى السماء ؛ ليعرف مسار الغمام وأين ستمطر السحب ، ثم ينساح هؤلاء بالدعوة بعد ذلك ، فلو كان لهم انتماء إلى وطن أو بيت أو مكان لصار الرحيل صعباً عليهم ، لكنهم كانوا متمرسين بالسياحة فى الأرض .

والآية التى نحن بصددها تكشف ضعف إيمان البعض ، ونفاق البعض ، فيقول الحق : ﴿ أَوَلاَ يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لاَ يَتُوبُونَ وَلاَ هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ أى : كان لا بد أن يتوبوا أو يتعظوا ويعلموا أن وقوفهم ضد الإسلام لم ولن يحجب الإسلام وأنهم سينسحقون ويضيعون ، فلماذا لا يتذكر كل منهم نفسه ، ويرى مصلحته فى الإيمان .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾

---

(١) تبدَّى الرجل : أقام بالبادية . وقيل للبادية بادية لظهورها وبروزها . انظر : اللسان (ب د و) .

ومن قبل جاء قول الحق :

﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا . . . (١٢٤) ﴾ [التوبة]

أى : أن هؤلاء المنافقين يشعرون بالضيق والحصار ، ويخافون أن يتكلموا ؛ لأنهم موجودون مع المسلمين ، ولكنهم لا يعدمون وسيلة للتعبير عن كفرهم ، فيغمز الواحد منهم بعينه ، أو يشير إشارة بيده ، فإذا ما كانوا قد تساءلوا من قبل بـ﴿ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا ﴾ فقد كان هذا السؤال يتعلق بالتكاليف ، أما فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها فليس فيها تكاليف جديدة .

لقد كانوا يريدون أن يقولوا شيئاً ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يتكلموا بأفواههم ، فتكلموا بأعينهم ونظراتهم ، فكأن النظر نفسه كان فيه هذه الكلمة : ﴿ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ﴾، وهذا قد تراه من واحد يسمع خطبة الخطيب ، ولكنه يرى بها أشياء لا تعجبه ، فتجده يعبر بانفعالات وجهه عن عدم رضاه .

إذن : فهناك نظر ، وهناك كلام ، وهم قد تساءلوا : هل يراكم من أحد ؟ ومثلها مثل قولك : ما عندى من مال ؟ أى أنك لا تملك بداية ما يقال عنه مال، والقول الكريم أبلغ بالقطع من أن تقول: هل يراكم أحد.

إن قوله الحق :﴿ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ﴾ دليل على أنهم فى خوف من أن يضبطهم أحد ، ومن بعد ذلك تجدهم يتسللون خارج دائرة الاستماع للقرآن أو للرسول ؛ لأنهم لا يطيقون الاستمرار فى الاستماع ؛ لأن منطق الحق يلجم الباطل ، والواحد منهم غير قادر على أن يؤمن بالحق وغير قادر على إعلان الكفر ؛ فينسحبون ، وينصرف كل واحد منهم ؛لذلك نجد أن بعضهم قد قال من قبل :

﴿لاَ تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرآنِ وَالْغَوْا فِيهِ [(١)] .. (٢٦)﴾ [فصلت]

وقد قالوا ذلك لأن الكافر أو المنافق قد تأتيه لحظة غفلة عن الباطل ، فيتسلل الإيمان إلى قلبه ، كما أن المؤمن قد تأتيه لحظة غفلة عن الحق ، لكنه يستغفر الله عنها .

وإذا ما أتت للمنافق أو الكافر لحظة غفلة عن كفره أو نفاقه ؛ فتأتيه هجمة الإيمان فيخافها ، فيقول لمن هم مثله : من الأفضل أن نقول لمن معنا لا تسمعوا هذا القرآن . لماذا ؟ حتى لا يصادف فترة غفلة عن النفاق ، فإذا صادف فترة غفلة عن النفاق فمن الممكن أن يدخل الإيمان القلب . ولذلك قالوا : ﴿لاَ تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرآنِ﴾ ، ولم يقتصر الأمر على ذلك ، بل طلبوا من الأتباع أن يلغوا فيه ، أى : أن يشوشوا عليه :

﴿وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (٢٦)﴾ [فصلت]

إذن : لا غلبة لهم مطلقاً إلا بعدم الاستماع إلى القرآن ، أو أن يشوشوا عند سماع القرآن ؛ حتى لا ينفذ القرآن إلى القلوب [(٢)] .

وهنا يقول الحق سبحانه عن هؤلاء المنافقين :

﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ كانوا يقولون ذلك ؛ لأنهم كمنافقين سبق لهم إعلان الإسلام ، وكانوا يدعون أنهم متقدمون فى تطبيق أحكام الإيمان ، وكانوا يصرون على الوقوف أثناء الصلاة فى الصف الأول ؛ حتى يدفعوا عن أنفسهم تهمة النفاق ، وكما

---

(١) الغوا فيه : الغطوا فيه ، أى : تكلَّموا بصوت عال ، بكلام مبهم مختلط وجلبة وضجة ، حتى لا يفهم منه أحد شيئاً ، وتبقى قلوب أتباعهم فى غطاء عن قبول هدى الله .

(٢) وقد كان هذا دأب المشركين والكفار مع كل وحى يأتى من السماء ، مثل قوم نوح الذين قال عنهم : ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (٧)﴾ [نوح] .

يقـول المثل : يكاد المريب أن يقـول خـذونى . وينظر بعـضـهم إلى بعض متسائلين : ﴿ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا﴾ لأنهم لا يطيقون الجلوس إلى الرسول ﷺ أو إلى المؤمنين . وينهى الحق الآية :

﴿ صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ﴾ وذلك نتيجة لانصرافهم نفسيّاً إلى النفاق ؛ فيساعدهم سبحانه على ذلك ، فما داموا لا يعرفون قيمة الإيمان ؛ فليذهبوا بعـيداً عنه ، فالحق لم يصرفـهم إلا باختيـارهم ، حتى لا يقول أحد : إن الله هو مصرف القلوب ، فما ذنبهم ؟ لا ، لقد انصرفوا هم بما خلقه الله فيهم من اختيار ، فصرف الله قلوبهم ، لماذا ؟ لأنهم﴿ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ﴾ أى : لا يفهمون [1] .

والفهم أول مرحلة من مراحل الذات الإنسانية ، وهناك فرق بين الفهم والعـلم . فالفـهم يعـنى أنك تملك القدرة على تَفَهُّم ذاتية الأشياء بملكة فيك ، لكن العلم يعنى أنك قد لا تفهم أنت بذاتك ، وإنما يفهم غيرك ويعلمك . فأنت قد تعلم جزئية لا من عندك وإنما من معلم لك . ولكن قد يقول قائل : ما داموا لا يفقهون فما ذنبهم ؟ ونقول : الذى لا يفهم عليه أن يتقبل التعليم ، لكن هؤلاء لم يفهموا ولم يتعلَّموا ، وأصروا على عدم قبول العلم .

وبعد ذلك يأتى ختام سورة التوبة .

والسورة بدأت بالقطيعة :

﴿ بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ ﴾ [التوبة]

---

(١) وهذا مثل قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٥﴾ ﴾ [الصف] عن قوم موسى .

ووردت لنا أحوال الكفار والمنافقين وتكاليف الجهاد الشاقة ، وأراد الحق أن يختم السورة بما يبرر هذه المشقات المتقدمة ، فبيَّن لنا : إياكم أن تنفضُّوا عن الرسول أو تغضبوه ؛ لأنه وإن جاء لكم ببلاغ فيه أمور شاقة عليكم فخذوا هذه الأمور الشاقة على أنها من حبيب لكم ، لا من عدو لكم .

إنك مثلاً إن رأيت عدوّا ضرب ابنك وجرحه ، يكون وقع هذا الأمر شديداً عليك ؛ لأنه عدو . لكنك إذا أخذت ابنك للطبيب وقرر الطبيب إجراء جراحة للابن ، فأنت تقبل ذلك ؛ لتزيل عن ابنك خطراً . إذن : فهناك فارق بين جرح عدوك لابنك وجرح الطبيب له رغم أن الإيلام قد يكون واحداً .

إذن : لا ترفض الأمور الشاقة عليك لمجرد ورود المشاق عليك ، ولكن اعرف أولاً من الذى أجرى المشاق عليك ، فإن كان ربك ، فربك بك رحيم . وإن كان الرسول فخذ أوامر الرسول وطبقها ؛ لأنها من حبيب يريد لك الخير .

وهنا يقول الحق :

﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾

ونلحظ هنا أن الحق قد نسب المجيء هنا للرسول ﷺ ، ولم يقل : جئتكم برسول . وكلنا يعلم أن الرسول ﷺ لم يأت من عند نفسه ، ولم يدع هذا الأمر الجليل لنفسه ، ولكن الشحنة الإيمانية تفيد أنه خلق بما

يؤهله للرسالة [١] ، وبمجرد أن نزل عليه الوحى امتلك اندفاعاً ذاتيّاً لأداء الرسالة ، ولم يحتج لمن يدفعه لأداء الرسالة ؛ لذلك أراد الحق سبحانه أن يثبت للرسول ﷺ المجىء ذاتيّاً ، ولكن هذا المجىء الذاتى ليس من عند محمد ﷺ فى البداية ، بل هو رسول من عند الله ، فأتى الحق سبحانه هنا بكلمة "جاء" .

وكلمة ﴿ رَسُولٌ ﴾ تدل على أنه ليس من عنده ، وكلمة "جاء" تدل على أن الشحنة الإيمانية جعلت لذاته عملاً ، فهو ﷺ يعشق الجهاد من أجل الرسالة ، ويعشق الكفاح من أجل تحقيق هذه الرسالة .

إذن : لا تنظروا إلى ما جاءكم به الرسول ﷺ نظرتكم إلى الأمور الشاقة التى تتعبكم ، ولكن انظروا ممن جاءت ، إن كانت من الأصل الأصيل فى إرسال الرسل ، فالرب رحيم ، خلقكم من عدم وأمدكم من عدم ، ويوالى نعمه عليكم حتى وأنتم فى معصيته . فأنت تعصاه ويحب الله سبحانه من يستر عليك [٢] ، فلا تشكك ولا تتشكك . وعليك أن تأخذ التكاليف على أنها من حبيب فلا تقل : إنها مشقة . فأنت - ولله المثل الأعلى - تطلب من ابنك أن يستذكر دروسه ، وتراجعها معه قهراً عنه فى بعض الأحيان ، وأنت قد تمسك بيدى ابنك ليعطيه الطبيب حقنة من الدواء الذى جعله الله سبباً للشفاء .

---

(١) لأن فطرته هى الخلق العظيم وتأدب بأدب ربه وعاش منفعلاً بالإيمان سموا ، وبالفعل تفكيراً فى الله ، وبالنفس سكينة إليه وبالجسد حركة له ، وبالقلب توحيداً وحباً ، فكان المجىء ذاتياً بمعية الله . يقول الحق : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ [القلم] .

(٢) وهذا حق من حقوق المسلم على أخيه المسلم ، وهو أمر يحبه الله من عبده . عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ولا يسلمه ، ومن كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته ، ومن فرج عن مسلم كربة فرّج الله عنه كربة من كربات القيامة ، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة » متفق عليه . أخرجه البخارى (٢٤٤٢) ومسلم (٢٥٨٠) . ويجب أن نفهم هنا أن الستر المقصود هنا ليس السكوت عن فجور من هو مقيم على معصية ، بل هو ستر معصية وقعت من إنسان وانقضت .

إذن : فلا تأخذ الأحوال بوارداتها عليك ، ولكن خذها بوارداتها ممن قدرها وقضاها ؛ وهو الحق سبحانه وتعالى .

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ أى : أن الحق سبحانه لم يأت بإنسان غريب عنكم ، بل جاء بواحد منكم قادر على التفاهم معكم . ولقوله الحق : ﴿ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ معان متعددة ، فمرة يكون معناها بـ" من جنسكم " ، مثلما قال الحق عن حواء :

﴿ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ... (١) ﴾ [النساء]

أى : خلق حواء من نفس جنس آدم البشرى ، فلا يقولن أحد : كيف بعث الله لنا بشراً رسولاً ؟ لأن الحق أراد الرسول من البشر رحمة بالناس ؛ ولذلك يؤكد ﷺ على بشريته أكثر من مرة وفى مواقع كثيرة [1] . والقرآن يقول :

﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلاَّ أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولاً (٩٤) ﴾ [الإسراء]

إذن : فبشرية رسول الله ﷺ لا تؤخذ على الله ، ولكن تؤخذ لله ؛ لأنه أرسل واحداً من نفس الجنس ؛ ليكون قادراً على أن يتفاهم مع البشر ، وتكون الأسوة به سهلة . ولذلك قال سبحانه :

---

(١) يقول عز وجل : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ... (٦) ﴾ [فصلت] . وقد أكد الرسول ﷺ على هذا المعنى كثيراً جداً ، منها :

- فعن أم سلمة عن رسول الله ﷺ « أنه سمع خصومة بباب حجرته ، فخرج إليهم فقال : إنما أنا بشر ، وإنه يأتينى الخصم ، فلعل بعضكم أن يكون أبلغ من بعض ، فأحسب أنه صدق فأقضى له بذلك ، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هى قطعة من النار ، فليأخذها أو ليتركها » أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٤٥٨) ومسلم (١٧١٣) .

- وعن جابر بن عبد الله قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إنما أنا بشر ، وإنى اشترطت على ربى عز وجل ، أىُّ عبد من المسلمين سببته أو شتمته ، أن يكون ذلك له زكاة وأجراً » أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٦٠٢) وأحمد فى مسنده (٣ / ٣٩١ ، ٤٠٠) .

﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولاً (٩٥)﴾ [الإسراء]

وقوله الحق : ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أى : من جنس العرب ، ولم يأت به من الروم أو من فارس ، لكن اختار لكم من هو أعلم بطبائعكم . أو أن معنى ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أى : من نفس القبيلة التى تنتمون إليها معشر قريش .

أو أن ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ تعنى : أنكم تعلمون تاريخه ، وتعرفون أنه أهل لتحمل أمانة السماء للأرض ، كما تحمل أماناتكم من الأرض للأرض ؛ ولأن هذا هو سلوكه ، فهو قادر على أن يتحمل أمانة السماء للأرض . ولقد سميتموه الصادق الأمين ، والوفى ، وكلها مقدمات كانت توحى بضرورة الإيمان به كرسول من عند الله . وإن كانت سلسلة أعماله معكم تثير فخركم ، فمجيئه كرسول إنما يرفع من ذكركم ، ويعلى من شأنكم . فأنتم أهل قريش ومكة ولكم السيادة فى البيت الحرام ، وقد جاء محمد ﷺ ؛ ليزيد من رقعة السيادة لكم ، فإذا كنتم قبل بعثته ﷺ سادة البيت ، فأنتم بعد بعثته سوف تصيرون سادة العالم .

ويقول الحق سبحانه :

﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ (٤٤)﴾ [الزخرف]

فهو نبى للعالم أجمع ومن العرب ومن قريش ، وكان يجب أن يفرحوا برسالته وأن يؤيدوها ، لكن الله لم يشأ ذلك ؛ لأن قريشاً قبيلة قد ألفت السيادة على العرب ، وهذا جعل العرب يعملون لها حساباً ، وخافت منها كل قبائل العرب فى أنحاء الجزيرة العربية ، وكانت لها مهابة هائلة ؛ لأن كل العرب مضطرون للحج إلى الكعبة ، وأثناء الحج تكون القبائل كلها فى

أرض قريش ؛ لذلك كانت كل القبائل ترعى قوافل قريش ، ولا تتعرض أى قبيلة لقريش أبداً ، فقوافلها تروح وتغدو ، جنوباً وشمالاً ، ولا تقدر قبيلة أن تقف فى مواجهة قريش ، أو أن تتعرض لها .

وكل هذه المكانة وتلك المهابة أخذتها قريش من خدمتها لبيت الله الحرام ؛ ولذلك شاء الحق ألا يمكن أبرهة من هدم البيت لتظل السيادة لقريش ، فلو انهدم البيت الحرام وانصرف الحج إلى اليمن كما كان يريد أبرهة ، فمن أين تأتى السيادة لقريش ؟ لذلك قال الحق عن أبرهة وقومه :

﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ (١) ﴿٥﴾ ﴾ [الفيل]

وأتبعها بقوله :

﴿ لإِيلافِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ﴿٢﴾ ﴾ [قريش]

وما دام الحق سبحانه قد شاء هذا فيأتى أمره فى الآية التالية :

﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ﴿٣﴾ الَّذِى أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴿٤﴾ ﴾ [قريش]

وشاء الحق سبحانه أن يبعث بمحمد ﷺ رسولاً يدعو أولاً الصناديد ، والقبيلة ذات المهابة والمكانة ، وأن تكون الصيحة الإيمانية فى آذان سادة الجزيرة الذين تهابهم كل القبائل ، حتى لا يقال : إن محمداً قد استضعف قلة من الناس وأعلن دعوته بينهم ، لا ، بل جاءت دعوته فى آذان الصناديد ، والسادة ، وسفه أحلامهم ، وحين رفضوا دعوته هاجر ، ثم جاءه الإذن بقتالهم ، ولم تأت نصرة الإسلام من السادة ، بل آمن به الضعاف أولاً ، ثم هاجر إلى المدينة ؛ لتأتى منها النصرة .

---

(١) كعصف مأكول : له معنيان : أحدهما : أنه جعل أصحاب الفيل كورق أخذ ما فيه من الحَبِّ وبقى هو لا حَبَّ فيه . والآخر : أنه أراد أنه جعلهم كورق النبات الذى أكلته البهائم ثم رائته . وكلاهما فى لسان العرب (مادة : ع ص ف) .

فلو أن النصرة جاءت من السادة لقالوا : جاءت نصرة الإسلام من قوم ألفوا السيادة ، ولما ظهر واحد منهم يقول : إنه رسول ؛ أرادوا أن يسودوا به ، لا الجزيرة العربية ، بل الدنيا كلها ، فتكون العصبية لمحمد هى التى خلقت الإيمان بمحمد ، والله يريد أن تكون النصرة من الضعيف ؛ حتى يفهم الجميع أن الإيمان بمحمد ﷺ هو السبب فى العصبية لمحمد .

هكذا نفهم معنى : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ ﴾ أى : مرسل من الله و﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ بكل ما تعنيه مراحل النفس ، وهو مبلغ عن الله ، فلم يأت بشىء من عنده ، بل كل البلاغ الذى جاء به من ربه ، والرب بإقراركم هو الذى خلق لكم ما تنتفعون به من السموات والأرض . وسبحانه يقول :

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ .. (٨٧) ﴾ [الزخرف]

ويقول :

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ .. (٢٥) ﴾ [لقمان]

إذن : فالمخلوق هو الخليفة الإنسان ، وما خلقه الله فى الكون ، إنما خلقه لخدمتكم كلكم ، وأنتم تقرون ذلك ، فإذا كان الرب قد سبق لكم بهذه النعم ، وجاء الرسول الذى جاء لكم من عنده بما يسعدكم ، وقد استقبلتم خيره قبل أن يأتى لكم بالتكاليف ، واستقبلتم نعمته قبل أن تكونوا مخاطبين له ، إذن : فالله الذى أرسل رسوله بالتكاليف والمنهج لكم ، لا بد أن يكون قد كلف من هو مؤتمن عليكم ، وهو ﷺ لم يأت من جنس الملائكة ، بل هو بشر مثلكم ، فإذا قال لكم : افعلوا كذا وكذا وأنا أسوة لكم فى الفعل ، فلا تتعجبوا ، لكن غباء الكافرين بالله جعلهم يريدون أن يكون الرسول ملكاً ، فقال الحق :

﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلاَّ أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَراً رَّسُولاً (٩٤) قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلاَئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولاً (٩٥)﴾ [الإسراء]

أى : إن كنتم تريدون مَلَكاً ، فالملك له صورة لا ترونها ، ولا بد أن نجعله ملكاً فى صورة بشر ؛ ليخاطبكم ، إذن : فهل المشكلة مشكلة هيئة وشكل ؟ ثم إن الملائكة بحكم الخلق :

﴿لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٦)﴾ [التحريم]

فإذا قال لكم الرسول الملك : أنا أسوة لكم فى العمل الصالح ، أكانت تصح الأسوة ؟ من المؤكد أن بعضنا سيقول : لا ، لن تنفع الأسوة ؛ لأنك مَلَك مطبوع على الخير ، وليس لك شهوة بطن ، ولا شهوة فرج ، إذن : فأسوتنا بك لا تصلح .

إذن : فمن رحمته سبحانه بكم أن جعل لكم رسولاً من أنفسكم ، ومن قبيلتكم ، ومن العرب ، لا من فارس أوالروم ، وهو يخاطبكم بلغتكم ؛ لأنكم أنتم أول آذان تستقبل الدعوة ؛ فلا بد أن يأتى الرسول بلسانكم ، وجاءكم محمد ﷺ بالأنس والألفة ؛ لأنه من قريش التى لها بطون فى كل الجزيرة ولها قرابات ، وأنس وألفة بكل العرب ، وأنس ثالث أنه من البشر ، وجاء به الحق سبحانه فرداً من الأفراد ، محكوم له بالصدق والأمانة قبل أن يبلغكم رسالته من الله .

إذن : فإذا جاءكم الرسول بتكليف قد يشق عليكم ، فاستصحبوا كل هذه الأشياء؛ لتردوا على أنفسكم: هو بشر وليس مَلَكاً. هو من العرب

وليس من العجم . هو من قبيلتكم التى نشأ بينكم فيها . هو من تعرفون سلوكه قبل أن يبلغ عن الله ، فما كذب على البشر فى حق البشر . أفيكذب على البشر بحق الله ؟

وقرأ عبد الله بن قسيط المكى هذه الآية : ﴿ مِّنْ أَنفَسِكُمْ ﴾ أى : أنه ﷺ بالمقياس البشرى هو من أقدركم وأحسنكم [1] . ولذلك حينما جاء الرسول ﷺ بالدعوة عن الله ، هل انتظرت سيدتنا خديجة رضى الله عنها أن يأتى لها بمعجزة ؟ هل انتظر أبو بكر أن يأتى له بمعجزة ؟ لا ، لم ينتظر أحدهما لأن كلاّ منهما أخذ المعجزة من ناحية تاريخه الماضى .

وحينما قال لخديجة : " يأتينى ويأتينى ويأتينى " وكانت ناضجة التكوين والفكر والعقل ، وعلمنا مما قالت لماذا اختار الله له أن يتزوجها وعمره خمسة وعشرون عاماً ، وعمرها أربعون سنة ، مع أن المألوف أن يحب الإنسان الزواج ممن هى دونه فى العمر .

لكن المسألة لم تكن زواجاً بالمعنى المعروف ، لكنه زواج لمهمة أسمى مما نعرف ، ففى فترة هذا الزواج ستكون الفترة الانتقالية بين البشرية العادية إلى البشرية التى تتلقى من السماء ، وهذه فترة تحتاج إلى قلب أم ، ووعاء أم تحتضنه وتُربِّت عليه .

فلو كانت فتاة صغيرة وقال لها مثلما قال ﷺ لخديجة لشكت فى قواه العقلية ، لكن خديجة العاقلة استعرضت القضية استعراضاً عقليّاً بحتاً . فحين قال لها : أنا أخاف أن يكون الذى يأتينى رئى [2] من الجن . قالت

---

(١) لذلك اختصه الله بصفات حسية ومعنوية تحيله من أنفس خلق الله على الله ، يقول الحق : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا النَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ ﴾ [الأحزاب] .

(٢) رئى من الجن : تابع قد ألفه الإنسان من كثرة رؤيته له . وقد تكون من الرأى أى أنه صاحب رأيه . وانظر اللسان (مادة : رأى) .

له : " إنك لتصل الرحم ، وتكسب المعدوم وتعين على نوائب الحق ، والله لا يخزيك الله أبداً " [(١)] .

إذن : فقد أخذت من مقدمات حياته قبل البعثة ما يدل على صدقه بعد البعثة .

وكذلك أبو بكر رضى الله عنه ، حينما قالوا له : إن صاحبك يدعى أنه رسول . قال : أهو قالها ؟ قالوا : نعم . قال : إنه رسول من الله لأنه لم يكذب طوال عمره [(٢)] .

وبعد ذلك يقول الحق : ﴿ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ . وكلمة ﴿عَزِيزٌ﴾ أى : لا يُنال ولا يقدر عليه أحد ، والشىء العزيز أى نادر الوجود . وقد تقول لإنسان : " قد تكون وزيراً " ؛ فيصمت رجاء، لكن إن قلت له : "ستصبح رئيس وزراء" فيقول: هذه مسألة مستعصية وكبيرة علىَّ بعض الشىء .

إذن : فالعزة تأتى لامتناع شىء إما لقدرته ، أو عزيز بمعنى نادر ، أو يستحيل . والعزيز - هو الأمر الذى يعز على الناس أن يتداولوه ، فيقال : "عز علىّ أن أصل إلى قمة الجبل " . ﴿ عَزِيزٌ عَلَيْهِ ﴾ أى : شاق عليه أن يعنتكم بحكم ؛ فقلبه رحيم بكم ، وهو لا يأتى لكم بالأحكام

---

(١) ذلك أن رسول الله ﷺ بعد ما جاءه جبريل فى غار حراء، رجع إلى السيدة خديجة ترجف بوادره فقال : « زملونى زملونى » فزملوه حتى ذهب عنه الروع . ثم قال لخديجة : «أى خديجة مالى » وأخبرها الخبر . فقال : لقد خشيت على نفسى . فقالت له : كلا . أبشر ، فوالله لا يخزيك الله أبداً . والله إنك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق » أخرجه البخارى فى صحيحه (٣) ومسلم (١٦٠) عن عائشة . بوادره : اللحمة التى بين الكتف والعنق دلالة على شدة الفزع . زملونى : غطونى . تحمل الكَلَّ : أى : تنفق على الضعيف واليتيم وغير القادر على الإنفاق . تقرى الضيف : أى : أنك كريم جواد تطعم الضيف . نوائب الحق : حوادث الخير والشر .

(٢) عن أبى الدرداء أن النبى ﷺ قال عن أبى بكر : « هل أنتم تاركو لى صاحبى ؟ » (مرتين) إنى قلت : « يأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً فقلتم : كذبت ، وقال أبو بكر : صدقت » . أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٦٦١، ٤٦٤٠) وابن أبى عاصم فى السنة (٢/ ٥٧٦) .

لكى تشق عليكم ، بل تنزل الأحكام من الله لمصلحتكم ، فهو نفسه يعز عليه أن يشق عليكم .

ولذلك قال النبى ﷺ « مثلى كمثل رجل استوقد ناراً ، فلما أضاءت ما حولها جعل الفراش وهذه الدواب التى فى النار يقعن فيها . وجعل يحجزهن ويغلبنه فيتقحمن فيها . قال : فذلكم مثلى ومثلكم . أنا آخذ بحجزكم عن النار . هلم عن النار . هلم عن النار . فتغلبونى تقحمون فيها [1] » .

فإذا كان الرسول صفته أنه من أنفُسكم أو من أنفَسكم أو يحبكم حبّاً يعز عليه أن تكونوا فى مشقة . إذن : فخذوا توجيهاته بحسن الظن وبحسن الرأى فيها ، وذلك هو القانون التربوى الذى يجب أن يسود الدنيا كلها . فقد يقسو والد على ولده بأوامر ونواه : " افعل كذا " و" لا تفعل كذا" لا تذهب إلى المكان الفلانى ، ولا تجلس إلى فلان ، ولا تسهر خارج المنزل بعد الساعة كذا .

كل هذه أوامر قد تشق على الولد فنقول له : مشقة التكليف ممن صدرت ؟ لقد صدرت من أبيك الذى تعرف حبه لك ، والذى يشقى ليوفر لك بناء المستقبل ، ويتعب ؛ لترتاح أنت ، فكيف تسمح لنفسك أن تصادق صعاليك يخرجونك عن طاعة أبيك إلى اللهو وإلى الشر . وانظر إلى والدك الذى تحمل المشقة حتى لا تتحمل أنت المشقة ، ويشق عليه أن تتعب فهو أولى بأن تسمع كلامه .

ورسول الله ﷺ عزيز عليه مشقتكم ، والمشقات أنواع : مشقات فى الدنيا تتمثل فى التكاليف التى يتطلبها الإيمان ، ولكنها تمنع مشقات أخلد

---

(١) متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٤٨٣) ومسلم (٢٢٨٤) بروايات متعددة ، عن أبى هريرة . ومعنى (آخذ بحُجُزكُم) أى : آخذ بمعاقد أزركم وسراويلكم . الحجزة : هى معقد الإزار ، ومن السراويل : موضع التكة .

فى الآخرة ؛ لذلك فالرسول ﷺ يحزن أن ينالكم فى الآخرة تعب ، وتعب الدنيا موقوت وينتهى ، لكن تعب الآخرة هو الذى يرهق حقّاً ويتعب [١] .

ولذلك يقول الحق فى تصوير هذه المسألة بقوله :

﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ [٢] نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا (٦) ﴾ [الكهف]

لماذا ؟ لأنك تعرف يا محمد أنهم إن لم ينتهوا فسوف يجدون العنت كله فى الآخرة .

أو أن مشقة الآخرة هى التى يجب أن نتلافاها ، وأن نتحمل المشقات الزائلة العرضية التى تورد ثماراً.

فنحن قد نجد الرجل يقول لابنه مثلاً :اخرج إلى الحقل ، واحمل السباخ فوق الحمار واحرث وارْو ؛ كل هذه مشقات ستجد لذتها يوم الحصاد ، وتعطيك الأرض من خير الله كذا إردب قمحاً أو غير ذلك. ولو ترك الأب ابنه لكسله فهذه هى المشكلة الأكبر، وحث الأب لابنه على العمل هو دفع لمغبة [٣] الضياع.

وقد يأخذ الأب ابنه للطبيب ، ويجد الطبيب مشغولاً، ويرجوه الأب أن يجرى للابن جراحة تنجيه وتنقذه من خطر رغم أن الأب يعلم أن الطبيب سيستخدم مع ابنه أدوات جراحية كالمشارط وغيرها ، ولكن ليعلم الابن أن

---

(١) ومن دقيق ما نقله ابن حجر العسقلانى فى الفتح (٦/ ٤٦٤) عن أبى حامد الغزالى فى الفرق بين تهافت الفراش على النار وتهافت العصاة على الوقوع فى النار أنه قال : (التمثيل وقع على صورة الإكباب على الشهوات من الإنسان بإكباب الفراش على التهافت فى النار ، ولكن جهل الآدمى أشد من جهل الفراش لأنها باغترارها بظواهر الضوء إذا احترقت انتهى عذابها فى الحال ، والآدمى يبقى فى النار مدة طويلة أو أبداً) .

(٢) باخع نفسك : أى مكثر فى لومها وقهرها .

(٣)المغبة من كل شىء عاقبته وآخره .

هذا المشرط سيمسُّ أباك قبل أن يمسَّك ، وعلى ذلك إذا أُمرت بتكليف شاق فانظر مَنْ أمرك ؟ أهو ممن تعز عليه وممن تحبه وممن يريد لك الخير ؟ إن كان الأمر كذلك ؛ فعليك أن تقبل ولا تسيء الظن ، ولا تُرهق مَنْ يحبك .

واعلم أن والدك حين يصرفك عن أصدقاء السوء - مثلاً - فهو يرد عنك مصارف الشر ؛ لأنك إن اجتهدت فى عملك ؛ فسوف تحصد النتيجة الطيبة ، أما إن اتجهت إلى مصارف الشر فسوف تُشَرّد وتجوع ، وسوف تدق باب بيت أبيك . وعندئذ ستسمع مثلاً عامّياً يلخص الحكمة التى تقول «من يأكل لقمتى فليسمع كلمتى» .

وهنا يقول الحق : ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ ومعنى الحرص : أن يحوطكم بالرعاية ؛ حتى لا تقعوا فى المشقة الأكبر . ولذلك قلنا : إن الرسول ﷺ قد صوَّر هذه المسألة بقوله ﷺ : «مثلى ومثلكم كمثل رجل أوقد ناراً فجعل الجنادب والفراش يقعن فيها وهو يذبهن عنها وأنا آخذ بحجزكم عن النار - أى أمسككم من خلفكم حتى لا تذهبوا إلى النار - وأنتم تفلتون من يدى »[1] .

والحق يُسَرّى عن رسوله ﷺ فيقول :

﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ ... ﴿٦﴾﴾ [الكهف]

ويقول الحق أيضاً لرسوله :

﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾ [الشعراء]

---

(١) هذه رواية عند مسلم من حديث جابر (٢٢٨٥) ، وقد سبق تخريجه من حديث أبى هريرة عند البخارى ومسلم .

فالرسول ﷺ يدعو الناس إلى إتقان العمل فى الدنيا ؛ ليصلوا إلى الجنة فى الآخرة ؛ لأن كل مؤمن عزيز عليه ﷺ ويخشى أن يُرهَق إنسان واحد فى الآخرة ، ولذلك قال الحق :

﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴿٤﴾﴾ [الشعراء]

أى : إياك أن تحزن أنك حريص على أن يؤمنوا ؛ لأن الحق سبحانه يقدر أن ينزل عليهم آية تجعل رقابهم خاضعة ، ولكن الرب لا يريد رقاباً تخضع ؛ وإنما يريد قلوباً تخشع .

﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾

والرأفة والرحمة قد تلتقيان فى المعنى العام ، ولكن هناك أموراً تسلب مضرّة ، وأموراً تجلب منافع . وسلب المضرّات - دائماً - مُقدّم على جلب المنافع ، فحين نواجه عملاً يضر وعملاً ينفع ؛ نُقدم على العمل لدرء [1] ما يضر ، ثم ننجز العمل النافع .

وساعة يطرأ عليك أمر يضر ، وأمر ينفع ، وأنت فى حال متساوية ولا بد أن تدرأ عن نفسك الأمر الضار الذى يخرجك عن الاستواء ، ثم تقبل على الأمر الذى يزيد من الارتقاء .

وحتى نقرب هذه المسألة إلى الذهن ، سأضرب هذا المثل الحسّى : هَبْ أن واحداً معه حجر يريد أن يضربك به ، وآخر يريد أن يقذفك بتفاحة ، فهل تنشغل بالتقاط التفاحة أو تنشغل برد الحجر ؟ إنك تنشغل أولاً بدرء الضرر ، ثم تقبل على جلب المنفعة .

---

(١) الدرء : الدفع والإبعاد .

ومثال آخر : هب أنك ترى إنساناً يغرق أمامك فى البحر ، فهل توبخه ؛ لأنه نزل البحر دون أن يتعلم العوم ؟ أم تنقذه أولاً وتدفع الأذى عنه ، ثم توبّخه وتعاقبه بعد ذلك جزاء إهماله ؟

إنك تنقذه أولاً ، وبذلك تكون قد قدمت الإحسان بدفع المضرة أولاً ، وحتى إن عاقبته فهو يقبل منك العقاب أو النهر [1] ؛ لأن صنيعك أنقذه من الموت.

والحق يقول : ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ (١٨٥) ﴾

[آل عمران]

إذن : فمراحل الفوز أن يُزْحزح الإنسان أولاً عن النار ، ففى هذا سلب للمضرَّة ، وجلب للمنفعة ، وإن ظل الإنسان فى موقعه لا هو فى الجنة ولا هو فى النار ؛ فهذا هين أيضاً. وإن أدخل الجنة فهذا هو الخير كله.

وإذا كانت هذه هى بعض من خصال الرسول ﷺ : ﴿ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ ، و﴿ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ﴾ ، و﴿ حَرِيصٌ عَلَيْكُم ﴾ ، و﴿ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ [2] ﴾ ، فهذه خصال إن استوعبها الإنسان فهو يندفع إلى اتباع هذا الرسول.

وقوله الحق : ﴿ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ نرى فيه الوصف بـ «الرءوف» والرأفة هى سلب ما يضر من الابتلاء والمشقة ، و«رحيم» هو الذى يجلب ما ينفع من النعيم والارتقاء.

وحسبكم من هاتين الصفتين أن الله سبحانه وتعالى وصف رسوله بهذين

---

(١) النهر : الزجر والإغضاب.

(٢) والآية الكريمة تعطى الوداد مع الله ومع رسوله ومع النفس والود عين القرب .

الوصفين [(١)] ﴿ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ وقد ثبت أنه سبحانه قد وصف نفسه بقوله سبحانه :

﴿ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٧) ﴾ [النحل]

إذن: فالرسول ﷺ لا يسلك بما عنده ، بل يسلك برأفة مستمدة من رأفة العلى الأعلى ، وكذلك رحمته ﷺ مستمدة من رحمة العلى الأعلى. وكأن الحق سبحانه يبيّن لنا أنه أعطى محمداً ﷺ بعضاً من الصفات التى عنده ، فكما يبلغكم المشقات فى التكاليف ، فهو يبلغكم السلامة من المشقات فى الرأفة ، وترقية المنعمات بالرحمة ؛ ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ .. (٨٢) ﴾ [الإسراء]

ونعلم أن الشفاء إنما يكون من المرض ، أى: أن القرآن يسلب المضرة أولاً ، ثم يأتى لنا بالمنفعة بعد ذلك وهى الرحمة.

وقوله الحق : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ هذا القول خلاصته: إن استقبلتم مشقات التكليف من رسول الله ﷺ ؛ فاعلموا ممن جاءت هذه المشقات ، واعلموا أن مجيئه بها إنما هو ليرفع عنكم مشقات أكبر وأخلد ؛ لأن مشقات التكليف تنتهى بانتهاء زمن التكليف وهو الدنيا ، ثم يذهب المؤمن إلى الجنة ليحيا بلا تكليف ، وما يخطر على باله من أشياء ، يجده فوراً ؛ بدءاً من الطعام والشراب وجميع ما خلقه الله لأهل الجنة من نعيم [(٢)] .

---

(١) وقد أورد القرطبى فى هذا قول الحسن بن الفضل : لم يجمع الله لأحد من الأنبياء اسمين من أسمائه إلا للنبى محمد ﷺ فإنه قال : ﴿ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٢٨) ﴾[التوبة] ، وقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٦٥) ﴾[الحج] . انظر [تفسير القرطبى ٤/ ٣٢٢٨] .

(٢) عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله ﷺ : « إنك لتنظر إلى الطير فى الجنة فتشتهيه فيخر بين يديك مشويا » أخرجه البزار (٣٥٣٢ - كشف الأستار) فيه حميد بن عطاء الأعرج قاله الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٤١٤) .

وإن نظرنا إلى متع الدنيا نجد أن من اجتهدوا فى حياتهم ، يستأجرون من يقوم لهم بالأعمال التى كانوا يقومون بها لأنفسهم؛ فالثرى الذى كان يطهو طعامه قبل الثراء ، يستأجر طاهياً ؛ ليعد له طعامه ، والفلاح الذى كان يبنى بيته لنفسه ، ثم رزقه الله بالرزق الوفير فاستأجر من يبنى له ، وكل الأعمال التى تسعد الإنسان وكان يقوم بها بنفسه ولنفسه، صار يستأجر من يقوم له بها، فما بالنا بالآخرة حيث تعيش فى رضا الله وبأسرار كلمة ﴿كُن﴾.

وهكذا نجد الحق سبحانه وتعالى قد جاء فى هذه السورة بمشقات التكليف، والثواب عليها وطمأن المؤمنين بأن الرسول ﷺ يتميز بكل المواصفات الموحية: من أنه بشر ، وأنه حريص عليهم ، وأنه لا يكلفهم إلا بالمشقات التى تنجيهم من المشقات الأبدية ، وأنه رءوف بهم ورحيم.

فإن استمعوا إلى هذه الحيثيات وآمنوا ، فأهلاً بهم فى معسكر الإيمان، وإن تولوا ولم يسمعوا لهذه الحيثيات ولم يدخل القرآن قلوبهم ، فإياك أن تظن - يا رسول الله - أنك منصور بهم؛ لأنك منصور بالله ، فإن تولوا عنك [1] وأعرضوا عن الإيمان بالله ، وأعرضوا عن الاستماع لك ، فاعلم أن ركنك الشديد [2] هو الله ، لذلك يختم الحق السورة بقوله:

---

(١) تولوا : أعرضوا ورفضوا الهدى . والتولى : من أسماء الأضداد أى : أنها تحمل المعنى وضده . قال تعالى : ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ.. ﴿٣٨﴾﴾ [محمد] أى : إن تعرضوا عن الإسلام . ويقول سبحانه : ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ .. ﴿٥١﴾﴾[المائدة] أى : من يتبعهم وينصرهم .

(٢) الركن الشديد : القوى الذى لا يغلب من التجأ وركن إليه . ومنه قوله عز وجل عن لوط عليه السلام ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾﴾ [هود] وعنه قال رسول الله ﷺ : « رحمة الله على لوط لقد كان يأوى إلى ركن شديد ، فما بعث الله بعده من نبى إلا فى ثروة من قومه » أخرجه أحمد فى مسنده (٢/ ٣٣٢) والترمذى فى سننه (٣١١٦) من حديث أبى هريرة .

﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾

ولم يقل الحق لرسوله : «إن تولوا وأعرضوا فاعتقد أن حسبك الله »[1] لا ، بل أعلنها للناس كافة ؛ حتى يسمعوها ، ولعل فى إعلانك لها ما يلفتهم إلى الحقيقة ؛ لأنك إن قلتها ؛ فلن تقولها إلا وعندك رصيد إيمانى بها ، وإن فعل أحدهم شيئاً ضدك ؛ فسوف يعاقبه الله.

وحين تعلن: ﴿حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ بعد أن كذبوك ، فالأحداث التى سوف تأتى بعد إعلانك ﴿حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ ستؤكد أن حسبك فى مكانه الصحيح ، ولله المثل الأعلى - أنت تقول : «حسبى نصرة فلان»؛ لأنك تثق فى قدرة فلان هذا، ولكن القوة فى الحياة أغيار ، وحين تقول : ﴿حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ فلا إله غيره سبحانه ، ولا إله آخر يعارضه فى هذا أو فى غيره.

وقل: ﴿حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ برصيد ﴿لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ ، و ﴿لاَ إِلَهَ﴾ نفى ، و ﴿إِلاَّ هُوَ﴾ إثبات ، إذن : ففى هذا القول ﴿لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ نفى منطقى مع سلب ، وإثبات منطقى مع الإيجاب ، وهنا نفى أىِّ ألوهية لغير الله ، والاستثناء من ذلك هو الله ، ورحم الله شيخنا عبد الرحمن عزام حين ترجم عن محمد إقبال[2] شاعر باكستان الكبير ، فقال:

إنَّما التوحيدُ إيجابٌ وسلبٌ ... فيهما للنفسِ عزمٌ ومضاءُ

إيجاب فى ﴿إِلاَّ هُوَ﴾، وسلب فى ﴿لاَ إِلَهَ﴾، فيهما للنفس عزم ومضاء، أى: هما للنفس قطبا الكهرباء، فاسلب الألوهية من غير الله وأثبتها لله.

---

(١) الحسب : اسم بمعنى كاف . وحسبى الله ، أى : يكفينى الله .

(٢) محمد إقبال شاعر ومفكر إسلامى جاهد بقلمه ونفسه فى سبيل الإسلام وتحرير بلاده ، وله آثار أدبية وشعرية تميل إلى الإسلام وتدرس فى المؤسسات العلمية ، وهو باكستانى المنشأ إسلامى الوطن ، عالمى الفكر - ترجم له فى مصر الدكتور عبد الرحمن عزام والصاوى شعلان .

والناس - كما نعلم - ثلاثة أقسام: قسم ينكر وجود إله للكون مطلقاً، وهم الملاحدة ، وقسم ثان يقول : إن هناك الله الذى يوحده المسلمون ؛ لكن له شركاء ينفعوننا عند الله. وقسم ثالث يقول بوحدانية الله.

وساعة نقول ﴿لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ نكون قد أثبتنا الألوهية لله ، وأثبتنا أن لا شريك له ، وأثبتنا ألا إله غيره ، وسبحانه يقول:

﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ وهذا أمر طبيعى، ويمكن أن نعرفه بالحساب؛ ولذلك جاء بـ ﴿حَسْبِيَ﴾ من الحساب. واحسبها فلن تجد إلا الله. وما دام حسبك الله ولا إله إلا هو ، فسبحانه يبسط عليك حمايته ونصرته لك، فمن العقل أن تضع نفسك بين يدى رسولك، الذى أبلغك البلاغ الكامل عن الله، وأن تتوكل عليه سبحانه.

وما دام سبحانه هو حسبك ولا إله إلا هو، والواجب يفرض عليك أن تظل فى مَعيَّته سبحانه، ومعيّة الله مرحلتان: الأولى بأخذ الأسباب التى أمدّ بها خلقه، ومعية إيمانك المطلق بأن الأسباب إن عجزت معك، فأنت تلجأ إلى مسبِّب الأسباب الموجود وهو رب الوجود .

وترى - مثلاً - الناس وهى تحتاج إلى المياه ؛ لأنها ضرورة للحياة ؛ فيذهبون إلى البئر فلا يجدون الماء رغم وجود البئر ؛ لأن المياه التى تأتى من جوف الأرض لم تعد تتسرب إليه ، ولماذا ؟ لأن المخزون من ماء المطر الذى كان يأتى من أعالى الجبال ويتسرب تحت الأرض قد نفد ، ولهذا نحتاج إلى مدد من أمطار السماء ؛ لتجرى إلى المسارب تحت الأرض وتعود المياه إلى البئر.

وإذا جفَّتْ الآبار المحيطة بنا، هل نيأس؟ لا ؛ لأن ربنا بيَّن لنا : ارفعوا [1] أيديكم لربكم. إذن: فنحن إذا استنفدنا الأسباب نطلب من

(١) ارفعوا أيديكم بالدعاء والتضرع بشرط الاستجابة له والإيمان به تجدون الإجابة مع الرشاد.

المسبب، ولذلك أتحدى أن يستنفد واحد أسباب الله الممدودة إليه، ويلجأ إلى الله فيرده.

إن يد الله ممدودة لنا بالأسباب ولا يصح أن يهمل إنسان ولا يأخذ بالأسباب، ويقول: أنا متوكل على الله، إن على الإنسان أن يأخذ أولاً بالأسباب وأن يستنفدها، وبعد ذلك يقول: ليس لى ملجأ إلا أنت سبحانك، واقرأ إن شئت قول الله سبحانه:

﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ .. (٦٢)﴾ [النمل]

والمضطّر: هو من استنفد أسبابه، وليس له إلا الله. لكن أن يقول إنسان: أنا أدعو الله ليل نهار وأسبِّحُه سبحانه وأقرأ سورة يس مثلاً، ولا يستجيب الله لدعائى [1]. ونقول لمثل هذا القائل: أنت لا تدعو عن اضطرار ولم تأخذ بالأسباب، خذ بالأسباب التى خلقها الله، أولاً، ثم ادْعُ بعد ذلك. ولا تدْعُ إلا إذا استنفدت الأسباب؛ فيجيبك المسبِّب؛ وبذلك لا تفتن بالأسباب، فحين تمتنع الأسباب؛ تلجأ إلى الله. ولو كانت الأسباب تعطى كلها لفُتِنَ الإنسان بالأسباب، والحق سبحانه يقول:

﴿كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ (٧)﴾ [العلق]

لذلك نجد الحق يبيّن دائماً أن كل الأسباب بيده، فنرى من يحرث ويبذر ويروى ويرعى، ثم يقترب الزرع من النضج، وبعد ذلك تأتى موجة حارة تميته، أو ينزل سيل يجرفه. إذن: خذ بالأسباب واجعل المسبب دائماً فى بالك، وهنا يصح توكلك على الله.

---

(١) من آداب الدعاء ألا يستبطىء الداعى استجابة الله لدعائه، فتجده يمل ويدع الدعاء، بينما كان عليه أن يدرك أن الله يريد الأصلح لعبده، فقد يدعو عبد بما يظن أنه خير له، ولكن علم علام الغيوب أنه شر له، وفى هذا يقول رسول الله ﷺ: «لا يزال يستجاب للعبد مالم يدع بإثم أو قطيعة رحم ما لم يستعجل. قيل: يا رسول الله ما الاستعجال؟، قال يقول: قد دعوت وقد دعوت، فلم أر يستجب لى فيستحسر عند ذلك ويدع الدعاء». أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٧٣٥) الرواية الثالثة للحديث.

وكثير من الناس يخطىء فى فهم كلمة «التوكُّل» ، وأقول : إن التوكل يعنى أن تأخذ ، أولاً ، أسباب الله التى خلقها سبحانه فى كونه ، فإن عَزّت الأسباب ولم تصل إلى نتيجة ؛ فاتجه إلى الله ، مصداقاً لقوله : ﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾ .

ونحن ندعو أحياناً عن غير اضطرار ونهمل الأسباب ، والمثال تجده فى حياتنا حين يقول الابن لأمه : «ادعى لى حتى أنجح» وتجيب الأم الأمية قائلة كلمة بسيطة هى : «ساعد الدعاء بقليل من المذاكرة» ، وهى بذلك تدل ابنها على ضرورة الأخذ بالأسباب .

إذن : فمعنى التوكل ، أن تستنفد الأسباب التى مَدَّتها يد الله إليك . فإذا استنفدتها ؛ إياك أن تيأس ؛ لأن لك ربّاً ، وهو سبحانه ركن شديد ترجع إليه .

ومثال آخر : إذا كنت سائراً فى الشارع ومعك جنيه واحد مثلاً ثم وقع منك أو سُرق ، ولا تملك فى البيت أو فى البنك مليماً واحداً ، هنا تغضب وتحزن ، أما إن كان فى البيت عشرة جنيهات ؛ فنسبة الغضب والحزن ستكون قليلة ، وإذا كان فى البيت عشرة جنيهات وفى البنك مائة جنيه ؛ فلن تحزن أو تغضب لضياع الجنيه الواحد .

وهكذا تثق بالمثل عوضاً عن المثل ، أفلا تثق بواهب هذا المثل عن عوض المثل ؟

إذن : فالتوكل هو أن تعمل الجوارح وتتوكل القلوب[1] . والكسالى هم من يريدون أن يكون التوكل للجوارح وليس القلوب .

---

(١) يقول عز وجل : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾ ﴾ [الطلاق] .

وكان من الممكن أن يغيّر الحق الأسلوب فى الآية فيقول: توكلت عليه . بدلاً من ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ ولكن إن وفقت الفهم عن قوله الحق، ستجد أن الإنسان إن قال: «أنا اعتمدت عليك» فقد تعطف قائلا : «وعلى فلان وعلى فلان». لكن قولك: عليك توكلت لا يمكن أن تعطف من بعدها ، وفيها تنزيه لله ولا أحد غيره يتوكل عليه الخلق، مثلما تقول فى الفاتحة : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ أى: لا نعبد غيرك ، فتكون قد قصرت العبادة عليه سبحانه.

وتوكلك على الله له رصيد ؛ لأنه ربك ورب الكون الذى استقبلك ، ولا تصل قدرتك إليه ، فأنت فى الأرض تحرثها ، وتبذرها ، وترويها ، ثم تأخذ من عطاء الله لك ؛ فهو ربك ، ورب الكون الذى استقبلك، وأصبح هذا الكون مسخراً لك، وأنت لم تكن قادراً على تسخير الكون.

صحيح أنك قد تُسخِّر الدابة وتربطها وتمتطيها وتحمل عليها السماد مثلاً وكل ذلك مسخر لك وفى قدرتك ، وهذا من فضل الله عليك. ويزيد فضله سبحانه ، وترى مخلوقات مُسخَّرة لك ، وليست فى قدرتك ؛ فالشمس مُسخّرة لك ؛ تشرق كل يوم بالدفء وبالحرارة ، وكذلك القمر ، والغمام ، وكل هذه مخلوقات ليس فى قدرتك السيطرة عليها ، بل سخرها الله لخدمتك.

وربك ورب الكون الذى استقبلك سخر لك ما ليس فى يدك ، وهو سبحانه رب الملكوت الذى يدير كل ذلك وأنت لا تراه ، وهو الذى يدير كل هذه الأشياء . فلا تنظر إلى ظواهر العطاء فقط ، بل انظر إلى مسبِّبات العطاء فى ظواهر العطاء ، ولا تلتفت إلى ظاهرة إلا لتعرف ما وراء هذه الظاهرة . وما وراء أى ظاهرة كثير.

ويقول الحق سبحانه: ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ نعم، هو رب الكون الذى استقبلك وسخر لك ما فى يدك وما ليس فى يدك، وما وراء المرئيات من

عالم الملكوت ؛ ليدير بكمال قدرته كل شيء، وكل ما فى الكون ملك لله.

وله سبحانه العرش العظيم ، فما هو العرش ؟ نعرف لأول وهلة أن العرش هو السقف [(١)] ، فحين تبنى دوراً واحداً تصنع له السقف ؛ ليحميك من وهج الشمس والمطر ، وإن كانت الأرض رخوة فالمبانى تهبط ، وبنينا السقوف حتى تحمى الجدران من عوامل التعرية.

وقول الله سبحانه : ﴿ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ معناها: استواء الأمر استواءً يدخل فيه كل مقدور ؛ ولذلك عبر سبحانه عن الملك مثلاً فى ملكة سبأ على لسان الهدهد فقال :

﴿ إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) ﴾ [النمل]

العرش، إذن، رمز السيطرة، وفى حياتنا - ولله المثل الأعلى - نجد أن الذى يأخذ الملك من واحد قبله يبدأ فى تطهير الجيوب المحيطة به ويبحث عن الأنصار ؛ ليعيد ترتيب الملك بما يراه مناسباً له ؛ حتى تستقر له الأمور، ثم يجلس بعد ذلك على العرش.

إذن: فالجلوس على العرش معناه استتباب الأمر إستتباباً نهائياً للمالك الأعلى.

وسبحانه يقول:

﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ...(٧) ﴾ [غافر]

وساعة تسمع كلمة «العرش» خذها على أنها رمز لاستتباب الأمر لله ، وأن كل شيء دخل فى حيِّز قدرته ، وفى حيِّز ﴿كن﴾، كما يستقر الأمر

---

(١) العرش: المُلْك ، واستوى الملك على عرشه : أى : ملك . ومن معانيه أيضاً سرير الملك مثل قوله تعالى : ﴿ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) ﴾[النمل] ومنه أيضاً سقف البيت وقد يطلق على البيت نفسه ، وكلها معان تدل على استقرار الأمر وثباته . انظر اللسان (مادة : عرش).

للملك المحَسِّ ، فلا يجلس على العرش ، ولا يهدأ ، إلا إذا استقرت الأمور . هذا ما نراه فى الأمور الدنيوية ، فما بالنا باستقرار كل الكون من الأزل لله سبحانه وتعالى ؟

يقول الحق سبحانه :

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ .. (٥٤)﴾ [الأعراف]

أى: أن الأمور قد استتبت له. وهكذا نجد أن كلمة «الْعَرْش» وردت فى عروش الدنيا ، وفى عرش الله سبحانه ، فعروش الدنيا [١] ترمز إلى استتباب الأمر لمن يجلس عليها ، والعرش بالنسبة لله رمز لاستتباب أمر الكون كله له سبحانه لا ينغص عليه شىء ولا يخرج من ملكه شىء . والكون كله ، بكل ما فيه مستتب لكلمة «كن» ومخلوق بها وخاضع لسلطان الحق سبحانه وتعالى.

وهنا يقول الحق : ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ ولا يوصف العرش بأنه عظيم إلا وفى أذهان الناس عروش الملوك التى نراها فى حياتنا ، مثلما قال الهدهد عن ملكة سبأ:

﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ [٢] (٢٣)﴾ [النمل]

أى: بمقاييس البشر.

أما قوله تعالى هنا ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (١٢٩)﴾ [التوبة]

فهو بمقاييس رب البشر ، إنه عرش الخالق العظيم سبحانه وهو فوق التصور البشرى ؛ لذلك نفهمه فى إطار ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ..(١١)﴾ [الشورى]

---

(١) إن عروش الدنيا تشير إلى استتباب الأمر لمن يملك عليها ، أما عرش الله فيشير إلى استتباب أمر الكون لله سبحانه .

(٢) عروش ملوك البشر محدودة المكان والزمان ، أما عرش الله سبحانه فلا حدود له فهو مالك الملكوت.

سُورَةُ يُونُسَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وتبدأ سورة يونس [(١)] بقوله : ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ و﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ من آيات القرآن ، ولكن المختلف فيه : أهى آية من كل سورة ؟ أم نزلت بين السور للفصل والابتداء ؟

وسور القرآن مائة وأربع عشرة سورة، وقد وردت ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ فى أوائل مائة وثلاث عشرة سورة ، ومرة واحدة فى صلب سورة النمل :

﴿إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ (٣٠)﴾ [النمل]

إذن : فـ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ فى سورة النمل بعض آية من القرآن ، وآية من السورة ، ومن قال من العلماء : إنها آية من كل سورة ؛ يجهر بها فى الصلاة ، ويسميها الآية رقم واحد ، والآية التى تأتى بعدها برقم اثنين . ومن قال : إنها نزلت للفصل بين السور ، نقول له : إن نزلت ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ للفصل بين السور ؛ فما كانت لتأتى فى سورة الفاتحة ؛ لأن الفاتحة أول سور القرآن . ولكن صاحب هذا الرأى ، يرى أنها جاءت ابتداء للقرآن تبركاً .

ونحن نرى أنها آية من سورة الفاتحة ، وقد حسبوها كذلك فى طباعة المصاحف ، حيث ترقم ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ كآية أولى ثم ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ هى الآية الثانية ، ولكن فى بقية السور لا ترقم ﴿بِسْمِ اللَّهِ

---

(١) سورة (يونس) مكية عدد آياتها (١٠٩) آيات .

وبعض آياتها مدنية على اختلاف بين العلماء ، فذكر ابن عباس أن منها ثلاث آيات مدنية هى آيات : ٩٤، ٩٥، ٩٦ ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ ..(٩٤)﴾ إلى قوله تعالى : ﴿لَا يُؤْمِنُونَ (٩٦)﴾ . وقال الكلبى : إنها مكية إلا قوله : ﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِ ... (٤٠)﴾ [يونس] . ولكن ذهب الحسن وعكرمة وغيرهما إلى أن السورة كلها مكية .

الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ كآية أولى ، بل ترقم الآية التى بعدها فى السور القرآنية برقم واحد.

وقد اتفق جمهور العلماء على أنها هى آية من القرآن ، ولكنها ليست آية من كل سورة ، إلا فى الفاتحة . وفى بداية خواطرنا حول القرآن الكريم قلنا: إن الإنسان يبدأ كل عمل باسم الله ؛ لأنه حين يقبل على الأعمال ، فهذه الأعمال لا تستجيب لقدرته هو ، ولكن تستجيب له بتسخير القادر له ، فأنت تحرث الأرض ، وتضع البذور ، وتروى الأرض ؛ وينبت لك الحق الزرع . صحيح أنك حرثت لكنك لم تزرع ؛ لأنك لا تعرف كيف وضع الحق سبحانه فى البذرة كلَّ النبات الذى سوف يخرج منها ؛ ولذلك يقول الحق:

﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ(٦٤) ﴾ [الواقعة]

وهناك أفعال للإنسان تستجيب له ، لا بقدرته عليها ، ولكن لأن الله شاء ذلك ، فليس لإنسان قدرة على الهواء ، ولا على العناصر التى فى الأرض . وأنت إن فكرت تفكيراً بسيطاً فى النبتة البسيطة الخارجة من البذرة أو من حبة الفول التى تضعها فى رطوبة الأرض سوف تلتفت لتجدها قد نبتت وخرج منها الزبان [1] البسيط ؛ ليكوِّن الجذور، فكيف لهذا الزبان البسيط الضعيف من قدرة تخرق الأرض ؟ وإن كانت الحبة فى جبل ، فهذا الزبان يدخل فى أى فتحة فى الجبل ؛ لينشق الجبل ، هذا هو الزبان البسيط التافه فى رؤية الإنسان.

وأنت أيضاً قد لا تعرف القدرة الموجودة فى المياه ، وهى قدرة هائلة

(١) الزبان : أصله فى اللغة زبانى العقرب أى طرفا قرنيه ، شبه به طرف النبتة الصغيرة الخارج من البذرة وانظر اللسان (ز ب ن).

لدرجة أنهم فى الأزمان السابقة حين كانوا يريدون تفتيت الجبل الصخرى ، قبل اختراع «الديناميت» ، كانوا ينقرون ثقباً فى الجبل الصخرى ، ثم يضعون فيه وتداً من الخشب ، ويدقون فى هذا الثقب خشباً جافاً ثم يقطرون عليه مياهاً ، ولحظة أن يتشرب الخشب بالمياه ينفجر الجبل.

وأنت حين تضع الحبة فى الأرض ، فالحبة تخرج نبتاً بسيطاً ؛ لتتكون منها الجذور التى تمتص الغذاء من الأرض ، أما قبل ذلك فكانت الحبة تضم الغذاء الذاتى اللازم لتنشئة الجذر ، ثم يشبك الجذر فى الأرض . وتَرِقّ فلقتا الحبة إلى أن تصيرا ورقتين خضراوين ، ولم يعرف الإنسان أسرار تلك المسألة إلا حديثاً ، فهى من الكونيات المسخرة للإنسان قبل أن يبحثها علمياً.

وأنت حينما تذهب لتزرع فإنك لا تزرع بقوتك ، بل بقوة من سخّر الأرض لك ، وحين تأتى لتزرع وتقول : باسم الله أزرعك ، فهذا إقرار منك بأن الحق سبحانه هو الذى سخر لك الأرض لتزرعها ، وحين تريد حمل شىء ثقيل وتقول : باسم الله أرفعك ، فأنت تستثمر قوة من الذى خلقك ؛ لأنك قد تأتى لرفع الشىء الثقيل فلا تصل الأوامر من المخ وقد تتعطل اليد.

إذن: فإن أقبلت على كل عمل ، فافهم أنك لا تُقبل عليه بقدرة منك على العمل ، ولكن بتفضُّل المسخِّر للمنفعل لك . فَادخل على كل عمل وقل : باسم الله أحرث ، وباسم الله أزرع ، وباسم الله أذاكر ، وباسم الله أصنع ؛ لأنه هو سبحانه الذى سخَّر لك كل شىء.

ولذلك قال رسول الله ﷺ : «كل عمل لا يبدأ باسم الله فهو أبتر»[1] .

---

(١) الأبتر : الأقطع ، وهى صيغة أفعل تؤدى معنى المبالغة ، والبتر : القطع . ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴿٣﴾ ﴾ [الكوثر] أى المقطوع الذكر . والمقصود أن العمل إذا لم يبدأ فيه ببسم الله أو بالحمد فهو مقطوع الخير وغير تام .

لأنك إذا اعتمدت على قوتك ؛ فلن ينفعل لك شيء ، فكل شيء ينفعل ؛ لأن الله جعله منفعلاً لك ، إذن: فابدأ كل شيء باسم الله . وفى أعرافنا السياسية يقول القاضى لحظة الحكم : «باسم الدستور حكمت بما يلى» أى : أنه يقر أنه لم يحكم بذاته ، بل باسم الدستور.

إذن: حين تُقبل على العمل باسم الله ، فكأنك تذكِّر المنفعل لك بأنه لا ينفعل لك أنت ، وإنما ينفعل لمن خلقك وخلقه.

وساعة تقبل على أى عمل وتتذكر واهبَ الطاقة لك ، وواهب الشيء المنفعل لك ، وواهب الحركة ، وواهب كل شيء ، تكون قد بَرِئت من حَولِكَ ومن قوتك .

وهنا يقول الحق : ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ وهنا الرحمة بالخلق ؛ ليرفع عن العاصى الحرج فى أنه يقبل على نعم الله باسم الله الذى عصاه ، ويُذكِّرك الحق بأنه ﴿ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ .

وتبدأ الآية الأولى فى سورة يونس :

﴿ الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ ﴾

و﴿الٓر﴾ ثلاثة حروف ، وقد سبقتها سورة البقرة بـ ﴿الٓمٓ﴾ و ﴿الٓمٓ﴾ فى أول سورة آل عمران ، وفى أول سورة الأعراف ﴿الٓمٓصٓ﴾ وهنا ﴿الٓر﴾ فى أول سورة يونس . ونلاحظ أن ﴿الٓمٓ﴾ و ﴿الٓمٓصٓ﴾و ﴿الٓر﴾ كلها أسماء حروف .

وكل شيء له اسم وله مسمى ، أنا اسمى الشعراوى صحيح ، والمسمَّى هو صورتى . فإذا أُطلق الاسم جاءت صورة المسمَّى فى الذهن .

فساعة نقول : « السماء » يأتى إلى الذهن « ما علاك » . وساعة تقول : « المسجد » يأتى إلى الذهن المكان المحيّز للصلاة .

إذن : فهناك فرق بين الاسم والمسمّى . وكل إنسان أميّ ، أو متعلم ، له قدرة على الكلام ، لكن لا ينطق بأسماء الحروف إلا من تعلَّم . وفى الإنجليزية نطلب ممن يتعلمها أن يتهجّى أسماء الحروف .

إذن : فالكُلّ - كل متكلم - يعرف النطق بمسمَّيات الحروف ولكن الذى يعرف المسميات ويعرف الأسماء هو من جلس إلى معلِّم . وعرف أنك حين تقول : « أكلت » ، فهذه الكلمة مكونة من (همزة ، وكاف ، ولام ، وتاء) .

فإن كانت بعض سور القرآن قد بَدأت بـ ﴿الٓمٓ﴾ وهذه أسماء حروف ، لا مسمَّيات حروف ، ومحمد ﷺ أمّيّ لم يتعلم ، فمن الذى علَّمه أسماء الحروف ؟

هى ، إذن ، رمزية على أنه - بإقرار الجميع - أمى ولم يجلس إلى معلم ، ولم يقل له أحد شيئاً ، ثم نطق بعد ذلك بأسماء الحروف " ألف لام ميم " ولو نظرت إلى المنطوق بالأسماء تجدها أربعة عشر حرفاً تكررت [1] ، وهى نصف حروف الهجاء .

ومن العجيب أن توصيف حروف الهجاء جاء بعد أن نزل القرآن . وقسمناها نحن إلى حروف مجهورة وحروف مهموسة وحروف رقيقة وحروف رخوة . وقد حدث هذا التقسيم بعد أن نزل القرآن . وبالاستقراء تجد الأربعة عشر حرفاً التى تأتى فى فواتح السور تمثل كل أنواع الحروف .

---

(١) جمع بعض العلماء هذه الحروف المقطعة التى فى أوائل السور وحذف المكرر منها ، فكان مجموعها أربعة عشر حرفاً ، وكونوا منها جملة جاءت هكذا : نص قاطع حكيم له سر .
وقد اختلف العلماء فى معنى هذه الحروف على أقوال :
١- أنها مما استأثر الله بعلمه .
٢- أنها دلالة على أسماء السور .
٣- أنها دلالة على أسماء الله تعالى وصفاته ، فالألف مفتاح الله ، واللام مفتاح اسمه (اللطيف) ، والميم مفتاح اسمه (المجيد) .

من: رقيق ، ومفخم ، ومجهور ، ومهموس ، ومستعلٍ [١] ، وبدأ الله بها على أشكال مختلفة ، فمرة يبدأ بحرف واحد :

﴿صٓ وَالْقُرْآنِ ذِى الذِّكْرِ ۝١﴾ [ص]

ويقول سبحانه :

﴿قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ۝١﴾ [ق]

ويقول سبحانه :

﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١﴾ [القلم]

إذن : فثلاث سور ابتدأت بحرف واحد .

وهناك سور ابتدأت بحرفين اثنين مثل : ﴿طه﴾ . ﴿يسٓ﴾ . ﴿طسٓ﴾ ، ﴿حمٓ﴾ .

وهناك سور بدئت بثلاثة حروف : ﴿الٓمٓ﴾ مثلما بدئت سورة البقرة ، وسورة آل عمران ، وسورة العنكبوت ، وسورة الروم ، وسورة السجدة .

وهناك سور قد بدئت بـ ﴿الٓرٰ﴾ .

وثلاث سور تتفق فى الألف واللام . وتختلف فى " الميم والراء" . و﴿الٓرٰ﴾ فى أول سورة يونس و ﴿الٓرٰ﴾ فى أول سورة يوسف . و﴿الٓرٰ﴾ فى أول سورة إبراهيم ، و﴿الٓرٰ﴾ فى أول سورة الحجر .

---

(١) هذه الحروف لها صفات بحسب طريقة النطق بها ، فمنها صفات لها أضداد مثل : (الجهر ، الهمس) - (الشدة ، الرخو) - (الاستعلاء، الاستفال) - (الانفتاح ، الإطباق) - (الإصمات ، الإذلاق) . وكمثال لهذا أن الهمس هو ضعف الصوت عند النطق بالحرف فيكون فيه خفاء ، وهى : الفاء ،الحاء ، الثاء ، الهاء ، الشين ، الخاء ، الصاد ، السين ، الكاف التاء وبجمعها قولهم : « فحثه شخص سكت » وما عدا هذه الحروف فهى « حروف جهرية » أى : فيها قوة فى النطق بها . انظر تفاصيل هذا فى كتاب « هداية القارى إلى تجويد كلام البارى » للشيخ عبد الفتاح السيد المرصفى (ص ٧٩ - ٩٣) غفر الله له ورحمه .

وهناك سورة قد بدئت بأربعة حروف مثل : ﴿الٓمٓصٓ﴾ فى أول سورة الأعراف ، وكذلك سورة الرعد بدأت بـ ﴿الٓمٓرٰ﴾ .

وهناك سور قد بدئت بخمسة حروف مثل سورة مريم ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ . وكذلك سورة الشورى بدأت بـ ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢﴾ .

ومرة يطلق الحرف أو الحرفان فى أول السورة ولا تعتبر آية وحدها ؛ بل جزءاً من آية ، وهناك سورتان تبدآن بأحرف وتعتبر آية مثل ﴿طه﴾ ، و﴿يسٓ﴾ . أما فى سورة النمل فهى تبدأ بـ ﴿طسٓ﴾ ولا تعتبر آية وحدها .

إذن : فمرة تنطق الحروف وحدها كآية مكتملة ، ومرة تكون الحروف بعضاً من آية ، ومرة تأتى خمسة حروف مثل ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ ، وكل هذا يدلك على أن القرآن توقيفى[1] . ولم تأت آياته على نسق واحد ؛ لننتبه إلى أن الحق سبحانه أنزل هذه الحروف هكذا ، وكذلك نجد كلمة " اسم" فى القرآن فى ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ وتكتب من غير ألف[2] ، وهى ألف وصل ، أى : تنطقها حين تقرأها لكن الحرف يسقط عند الكتابة ، ولكنها لا تسقط عندما نكتب الآية الأولى من سورة العلق :

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ ۝١﴾ [العلق]

---

(١) توقيفى أى : أن الله قد أوقف محمداً ﷺ على كل شىء فى القرآن من فواتح السور والفواصل بين الآيات وترتيب السور فى المصحف ، ولم يترك هذا لاجتهاد الرسول ﷺ ولا لاجتهاد الصحابة ، بل كان بلاغاً من الله إليه على لسان جبريل .

(٢) وردت كلمة (باسم) فى القرآن ٤ مرات فى قوله تعالى : ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١﴾[العلق] ، و﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ فى ثلاثة مواضع [الواقعة : ٧٤ ، ٩٦] ، و [الحاقة : ٥٢] .
ووردت كلمة (بسم) بدون الألف ثلاث مرات فى القرآن [الفاتحة] ، وقوله : ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا .. ۝٤١﴾ [هود] ، و﴿إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝٣٠﴾ [النمل] بالإضافة إلى جميع مواضع البسملة فى بدايات سور القرآن إذا اعتبرنا البسملة آية فى أولها .

ومثال آخر لو استعرضت فى القرآن الكريم كلمة « تبارك » ، ستجد فيها ألفاً بعد الباء ، وتأتى مرة من غير ألف [(١)] ، وكلمة " البنات" نجدها مرة بألف ومرة من غير ألف [(٢)] ، كل ذلك ؛ لنفهم أن المسألة ليس لها رتابة كتابة ؛ لأنها لو كانت رتابة كتابة ؛ لجاءت على نظام واحد .

وقد شاء الحق هذا الأمر ؛ لتكون كتابة القرآن معجزة ، كما كانت ألفاظه وتراكيبه معجزة . وقد قال البعض : إن العرب المعاصرين لرسول الله ﷺ لم يكونوا أهل إتقان للكتابة ، ونقول : لو كانوا على غير دراية بالكتابة لما كتبوا « بسم» من غير ألف فى موقعها ، لقد علموا أن القرآن يجب أن يكتب كما نزل به جبريل عليه السلام على رسول الله ﷺ كتابة توقيفية ، أى : كما أمر الحق سبحانه [(٣)] .

وعجيبة أخرى أن كل آيات القرآن مبنية على الوصل ، فأنت لا تقرأ ختام السورة بالسكون ، بل تلتفت لتجد الكلمة التى فى ختام أى سورة مشكلة بغير السكون .

---

(١) كلمة « تبارك » وردت فى القرآن ٩ مرات ، منها موضعان فقط بدون ألف فى قوله تعالى : ﴿ تَبَـٰرَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِى الْجَلَـٰلِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾ ﴾ [الرحمن] ، وقوله : ﴿ تَبَـٰرَكَ الَّذِى بِيَدِهِ الْمُلْكُ ... ﴿١﴾ ﴾ [الملك] أما المواضع السبعة الأخرى فهى : ﴿تَبَـٰرَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَـٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾[الأعراف] ، ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَـٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [المؤمنون] ، [الفرقان ﴿١﴾ ، ﴿١٠﴾ ، ﴿٦١﴾] ، [غافر ﴿٦٤﴾] ، [الزخرف ﴿٨٥﴾] .

(٢)وردت كلمة البنات فى القرآن ١٢ مرة ، منها ثلاثة مواضع بدون الألف وهى : ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَـٰتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ .. ﴿١٠٠﴾ ﴾ [الأنعام] وقوله : ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَـٰتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [النحل] ، وقوله : ﴿ أَمْ لَهُ الْبَنَـٰتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [الطور] .

(٣) هذا علم هام من علوم القرآن ، وهو علم مرسوم الخط ، تحدث فيه العلماء وبينوا دقائقه ، وهم على عدم ترك ما استقر عليه الأولون الأقدمون فى قواعد الرسم القرآنى ، وأن لهذا الرسم حكماً خفية تكلم فيها علماء . انظر : البرهان فى علوم القرآن للزركشى (١/ ٣٧٦ - ٤٣١) والإتقان فى علوم القرآن للسيوطى (٤/ ١٤٥ - ١٦٦) .

والمثال هو : ﴿ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ وجاء الحرف الأخير بالكسر لا بالسكون ؛ لتقرأ موصولة بما بعدها ، فتقرأ كالآتى : ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ .

وهذه الحركة دلت على أن جميع آيات القرآن موصولة ببعضها ، وإياك أن تجعل القرآن ﴿ عِضِينَ﴾ [(١)] فلا تأخذ بعضاً من آياته مفصولاً عن غيرها ، بل القرآن كلهَ موَصول ، فليس فى القرآن من وقف واجب [(٢)] ، بل الآيات كلها مبنية على الوصل ، وإن كانت الكلمة الأخيرة تنتهى بالفتحة فأنت تقرأها منصوبة ومن بعدها ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ فنحن لا نُسكِّن الحرف الأخير فى أى سورة ؛ لأنها موصولة بما بعدها .

وحتى فى الحكم التجويدى إن وجد إقلاب ننطقه إقلاباً ، وإن وجد إظهار [(٣)] ننطقه إظهاراً ؛ لأن آيات القرآن مبنية على الوصل .

ولقائل أن يقول : إذا كان القرآن قد بنى على الوصل ، فكان المفروض أن آيات القرآن التى بدئت بحروف المعجم تنبنى على طريقة المعجم . فلا نقول (ألف لام ميم) بل نقول " ألم" .

---

(١) عضين : أى : أجزاء متفرقة ، ومنه قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ (٩١) ﴾ [الحجر] . ذكر المفسرون فى الآية أقوالاً أخرى منها ، أن أهل الكتاب جزءوه أجزاء فآمنوا ببعض وكفروا ببعض .

(٢) أى : أنك تجد نهايات الآيات متحركة وليست ساكنة ، وكذلك نهايات السور ، وإلا فهناك وقف لازم فى داخل بعض الآيات مثل قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (٣٦) ﴾ [الأنعام] .

(٣) الإظهار والإقلاب : حكمان من أحكام تجويد القرآن عند النطق بالنون الساكنة أو التنوين .

- أما الإظهار : فهو إذا وقع بعد النون الساكنة أو التنوين حرف من الحروف الحلقية أى : التى مخرجها من الحلق وهى : الهمزة ، الهاء ، العين ، الحاء ، الغين ، الخاء . عندها يجب الإظهار ، أى : إظهار النون الساكنة والتنوين عند ملاقاتهما بحرف من هذه الأحرف .

- أما الإقلاب : فهو أن تأتى باء بعد النون الساكنة أو التنوين ، فتقلب النون والتنوين ميماً مع إظهار الغُنَّة ، ومثال هذا : ﴿ أَنبِئُونِي ...(٣١) ﴾ [البقرة] ، ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٤) ﴾ [التغابن] .

ونقول لمثل هذا القائل : لا ، إن حروف القرآن التى بدئت بها السور يجب أن ننطقها كما هى ، فننطق « ألف» ثم نقف ، ونقرأ " لام" ثم نقف ، ونقرأ "ميم" ثم نقف ؛ لأن هذه الحروف جاءت هكذا ، وعلّمها جبريل عليه السلام لرسول الله ﷺ هكذا ، حتى لا نقول رتابة كلام ، بل إن لذلك حكمة عند الله سواء فهمتها أنت الآن أم لم تفهمها .

وقد نزل القرآن على أمة عربية وظل أناس على كفرهم ، وكانوا يعاندون رسول الله ، ويترصدون لأى هفوة ؛ ليدخلوا منها للتشكيك فى القرآن ، ولكن أسمعتم رغم وجود الكافرين الصناديد أن واحداً قال : ما معنى ﴿الٓمٓ﴾ ؟

لم يقل أحد من الكافرين ذلك ، رغم حرصهم على أن يأتوا بمطاعن فى القرآن ، بل اعترفوا بمطلق بلاغة القرآن الكريم ، مما يدل على أنهم فهموا شيئاً من ﴿الٓمٓ﴾ بملكتهم العربية ، ولو لم يفهموا منها شيئاً ؛ لطعنوا فى القرآن . لكنهم لم يفعلوا .

وأيضاً صحابة رسول الله ﷺ وهم أهل حرص على الفهم ، هل سمعت أن أحداً سأل رسول الله عن معنى ﴿الٓمٓ﴾ ؟ لم يحدث ، مما يدل على أنهم انفعلوا لقائلها بسرِّ الله فيها ، لا بفهم عقولهم لها ؛ لأن الوارد من عند الله لا يوجد له معارض من النفس ، وإن لم يقبله العقل فهو لا يرفضه[1] مع استراحة النفس له .

---

(١) عن على بن أبى طالب قال : « لو كان الدين بالرأى لكان أسفل الخف أولى بالمسح من أعلاه ، وقد رأيت رسول الله ﷺ يمسح على ظاهر خفيه » أخرجه أبو داود فى سننه (١٦٣) والدارقطنى فى سننه(١/ ١٩٩) .

وضربنا من قبل مثلاً ، فقلنا : إن آل فرعون حين استحيوا [(١)] نساء بنى إسرائيل وذبحوا الذكور ، فماذا فعلت أم موسى ؟ لقد أوحى [(٢)] لها الله ما جاء خبره فى القرآن :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ .. (٧) ﴾ [القصص]

هات أىَّ أُمٍّ و قُلْ لها : حين تخافين على وليدك فارميه فى البحر ، طبعاً لن تنفذ أى أم هذا الاقتراح .

كان من الممكن أن تحاول أم موسى إخفاء موسى بأى وسيلة .

أما أن تلقيه فى البحر مظنّة أن تنجيه من الذبح ، فهذا أمر غير متخيَّل ، ولكن هذا أمر وارد من الرحمن بالإلهام والوحى ، فلا يأتى الشيطان ؛ ليعارضه أبداً ؛ ولذلك طمأنها الحق سبحانه ؛ لأن الآيات وردت :

﴿ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ ... (٧) ﴾ [القصص]

---

(١) استحياء النساء : أى : الإبقاء عليهن أحياء ، ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٤) ﴾ [القصص] . وكان هذا على سبيل الإهانة لبنى إسرائيل والاحتقار والخوف من أن يوجد منهم الغلام الذى كان قد تخوف أن يظهر بينهم ويكون سبباً لهلاكه وذهاب دولته .

(٢) مادة الوحى وردت فى القرآن فى ٧٥ آية من كتاب الله - راجع المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم : صـ ٧٤٦ ، ٧٤٧ .

والوحى فى اللغة : الإشارة والكتابة والمكتوب والرسالة والإلهام والكلام الخفى ، وكل ما ألقيته إلى غيرك والصوت يكون فى الناس ، وأوحى إليه : بعثه وألهمه ، ومنه الإعلام فى خفاء ، والبعث والأمر والإيحاء والإشارة والتصويت شيئاً بعد شىء ويرد الوحى لغير إعلام الله لأنبيائه مثل قوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ .. (٦٨) ﴾ [النحل] والوحى هنا بمعنى : الإلهام ، أما الذى بمعنى الإعلام فهو الوحى الخاص بالأنبياء والرسل .

وكأن هناك تمهيداً يعلِّمها الاستعداد للأمر قبل أن يقع ، وحين جاء الأمر :

﴿ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ (٣٨) أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ [1] فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ ... (٣٩) ﴾ [طه]

والكلام هنا كلام عَجَلَة ؛ لأن هذا وقت التنفيذ ، وطمأنها سبحانه بأن أصدر أوامره للبحر أن يقذفه إلى الشاطئ :

﴿ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ [2] ... (٣٩) ﴾ [طه]

وأصدر الحق أوامره إلى العدوِّ أن يأخذه ؛ ليربيه :

﴿ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ ... (٣٩) ﴾ [طه]

إذن : وارد الرحمن لا يأتى له رد أبداً .

وكذلك يستقبل المؤمن ﴿ الٓمٓ ﴾ بسر الله فيها ، لا بفهم عقله .

وأنا أنصح من يريد أن يقرأ القرآن تعبداً ألا يشغل نفسه بالمعنى ، على خلاف من يقول : " اقرأ لتستنبط " ؛ لأن من يريد أن يستنبط هو الذى يقف عند اللفظ ، ويطلب معناه . فإذا قرأت القرآن للتعبد ؛ فلتقرأه بسر الله فيه ؛ حتى لا تحدد القرآن بمعلوماتك ؛ فتأخذه أخذاً ناقصاً بنقصك البشرى ؛ لذلك فى قراءة التعبد نأخذ اللفظ بسر الله فى اللفظ ؛ فليس كل قارىء للقرآن متخصصاً فى اللغة ؛ ليعرف أصل كل كلمة ، والكثير منا أمى ، يريد التعبد بالقرآن ، إذن - فليأخذ القرآن بسر الله فيه .

---

(١) التابوت : الصندوق .

(٢) اليم : يطلق على ما كان ماؤه ملحًا ، أو النهر الكبير العذب الماء ، والمراد به هنا نهر النيل بمصر . وساحل اليم : شاطئه .

والمثال من حياتنا - ولله المثل الأعلى - نجد الجيش يضع كلمة اسمها: " كلمة السر " ، وهذه الكلمة قد لا يكون لها معنى ، ولكن لا أحد يتحرك أو يخرج أو ينضم إلى المعسكر إلا إذا قالها . ولتكن الكلمة "عدس" على سبيل المثال ، ومن يعرفها يعرف أنها منجية من الموت ، وساعة يعود مقاتل إلى كتيبته وينطق بكلمة "عدس" ، هنا يعرف حارس بوابة المعسكر أنه منهم ، أما من لا يعرفها فقد يُقتل . ومن يقولها ، إنما ينطقها بسر من لقنه إياها .

وقد فهم العربى القديم عن الحروف التوقيفية فى أوائل بعض السور أشياء ، وللغته فيها نظائر ؛ لأنه مثلاً حين يقرأ الشعر ، ويلتفت إلى شاعر [(١)] يقول :

* ألا هُبِّى بِصحْنكِ فَاصْبحِينا *

ويقول :

ألا لايَجْهَلنْ أحدٌ عليْنا فَنجْهَل فوْقَ جَهْل الجَاهلينَا [(٢)]

ما معنى ألا هنا ، ولماذا جاءت ؟ فالمعنى واضح بدونها ، لكن العربى القديم قد نطق هذا البيت ، وعرف أن الكلام وسيلة إفهام وفهم بين المتكلم والسامع . والمتكلم هو مالك الزمام فى أن يتكلم ، أو لا يتكلم ، والسامع مفاجأ بالكلام ، فإذا ما ألقيت الكلام إلى السامع ؛ قد يكون ذهنه مشغولاً ، وإلى أن ينتبه لكلماتك ، قد تفوته جزئية من جزئيات الكلام ؛ فتنبهه أنت إلى ما قلت ؛ فيتنبه ؛ ليستوعب كل ما قلت [(٣)] .

---

(١) هو : عمرو بن كلثوم أبو الأسود ، شاعر جاهلى ، من الطبقة الأولى ، ولد فى شمال جزيرة العرب ، ساد قومه تغلب وهو فتى ، وعمّر طويلاً ، توفى نحو عام ٤٠ قبل الهجرة . من أشهر شعره معلقته (الأعلام للزركلى ٥/ ٨٤) .

(٢) هذه الأبيات من معلقة عمرو بن كلثوم ، وعدد أبياتها (١٠٣) ، وهى من بحر الوافر .

(٣) فـ « ألا » هنا حرف استفتاح يفيد التنبيه ، ويدل على تحقق ما بعده . ولها أربعة معان أخرى هى : التمنى والاستفهام عن النفى والحث والتحضيض والتوبيخ والإنكار .

إذن : فما المانع أن يكون الحق سبحانه وتعالى يريد أن يهيىء الأذهان بـ ﴿الٓمٓ﴾ ؛ حتى نسمع ، ثم تأتى الآيات الحاملة للمنهج من بعد ذلك ؟

وما المانع فى أن نفهم أن النبى الأمى لا يعرف كيف ينطق بأسماء الحروف ، فهو إن نطق فإنما يصدر ذلك بعد تعليم الله له ؟

ولماذا لا نفهم منها أيضاً أن وسائل الفهم لا تنتهى إلى أن تقوم الساعة ؟ وإلا لو انتهت عند البشر ؛ لكان كلام الله قد حددت صفته بفهم البشر ، وسبحانه قد شاء أن نغترف من معانى كلماته الكثير على مدى الأزمان ، والقرآن كلام الله، وكلام الله صفته، وصفته لا تتناهى فى الكمال، فإن عرفت كل مدلولاتها ، تكون قد حددت الكمال بعلم ، لكن القرآن لا نهاية له[1] .

ولماذا لا نفهم أن القرآن الذى بيَّن الحق سبحانه وتعالى أنه معجزة محمد ﷺ هو من جنس ما نبغ فيه قومه؛ فتحداهم من جنس ما برعوا فيه. ويقول لهم: هاتوا مثيلاً له ،ولن تستطيعوا[2] ، ولو أنه جاء بالقرآن على غير لغتهم فى الكلام لقالوا : لا نستطيع ؛ لأن حروف هذه اللغة جديدة علينا.

وقد شاء الحق أن يكون القرآن من نفس الحروف التى يتحدثون بها ، وبالكلمات التى يعرفونها فى لغتهم ، وشاء سبحانه أن يجعل حروف وكلمات وآيات وأساليب القرآن غير قابلة للتقليد ؛ لأن المتكلم مختلف ، وبهذا جاءت عظمة القرآن لا من ناحية المادة الخام التى تبنى منها

---

(١) يقول تعالى : ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا (١٠٩)﴾ [الكهف] ، ويقول : ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ .. (٢٧)﴾ [لقمان] .

(٢) وفى هذا يقول تعالى : ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٣)﴾ [البقرة] ، ويقول سبحانه : ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٣)﴾ [هود] .

الكلمات وهى الحروف ؛ بل بالمعانى والنسق [١] الذى جاءت به الحروف ، فالمادة الخام - وهى الحروف - واحدة . وصار القرآن معجزة ؛ لأن المتكلم هو الله .

وضربنا من قبل المثل لنقرب ذلك إلى الأذهان : هب أننا نريد أن نقيس مهارة من ينسجون الأقمشة ، ونضع أمام كل منهم مجموعة من غزل الصوف وغزل القطن ، وغزل الحرير ، وهذه مواد خام يختلف كل منها عن الآخر ، ونقول لهم : كل واحد منكم عليه أن ينسج قطعة من كل صنف لنعرف الأفضل فى النسج .

وسنسمع من يقول : إن نتيجة نسج الصوف نسيج خشن ، وناسج القطن سينسج قطعة تأخذ صفات القطن ، وناسج الحرير سينسج لنا نسيجاً ناعماً ، أما إن أعطينا كلاً منهم نوعاً واحداً من الغزل ؛ صوفاً أو قطناً أو حريراً ، هنا سنعرف من الأقدر على النسج .

إذن : لو أن القرآن جاء بغير حروف العرب ، وبغير كلمات العرب ؛ لقالوا : لو كانت عندنا هذه الحروف وهذه الكلمات ؛ لأتينا بأحسن منها [٢] .

---

(١) النسق من كل شىء : ما كان على طريقة نظام واحد .

(٢) قد يقول قائل : ولكن الواقع أن القرآن الكريم به ألفاظ أعجمية كثيرة مثل : أباريق ، أبّ ، أرائك ، إستبرق ، أكواب ، أسفار . الجبت . وغيرها كثير ذكرها الزركشى فى البرهان (١/ ٢٨٧ - ٢٩٠) والسيوطى فى الإتقان (٢/ ١٠٥ - ١٢٠) وذكر فيه (١١٨) كلمة أعجمية بين : حبشية ونبطية وسريانية ورومية وفارسية وعبرانية وقبطية وعبرية . نقول : اختلف العلماء فى هذه الكلمات ، فمنع الشافعي وابن جرير والقاضى أبو بكر القول بأن فى القرآن كلمات أعجمية مستدلين بقوله تعالى : ﴿ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ... ﴿٢﴾ ﴾ [يوسف] .

وقال آخرون بوقوع الكلام الأعجمى فيه وأن هذا لا يعنى أنه ليس قرآنا عربياً ، فهذه الكلمات اليسيرة لا تخرجه عن كونه عربياً .

قال أبو عبيد القاسم بن سلام : « الصواب عندى مذهب فيه تصديق القولين جميعاً ، وذلك أن هذه الأحرف أصولها أعجمية كما قال الفقهاء ، ولكنها وقعت للعرب ، فعربتها (أى : الكلمات) بألسنتها وحولتها عن ألفاظ العجم إلى ألفاظها ، فصارت عربية ، ثم نزل القرآن وقد اختلطت هذه الحروف بكلام العرب ، فمن قال : إنها عربية فهو صادق ، ومن قال : أعجمية فصادق » .

لذلك شاء الحق أن يأتى القرآن من جنس الحروف والكلمات . ولذلك تحوم العقول حول مقدمات آيات السور ؛ لتعرف شيئاً من الإيناسات بعد أن تواصلت الثقافات ، ولم تعد اللغة العربية متوافرة مثلما كان الحال أيام نزول القرآن ، ومن كانوا يملكون هذه الملكة الصافية أيام الرسول ﷺ سمعوا الحروف التى فى أوائل بعض السور وقبلوها، والحق سبحانه يقول:

﴿الٓر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (١)﴾ [يونس]

و﴿تِلْكَ﴾: إشارة ، ولا بد أن نفرق بين الإشارة والخطاب ؛ لأن البعض يخلط بينهما ، فالإشارة هى التى تشير إلى شىء مثل قولنا: هذا وذا ، أو تلك ، وهذا : إشارة لمذكر ، والمثال هو قولنا : هذا القلم جميل ، أما قولنا : تلك الدواة جميلة ، فهذه إشارة لمؤنثة . أما «الكاف» : فهى حرف للخطاب ، فالتاء : إشارة للآيات وهى مؤنثة ، و«الكاف» فى ﴿تِلْكَ﴾ : للمخاطب ، وهو محمد ﷺ. فالله يقول لرسوله: تلك الآيات يا محمد.

وعلى ضوء الفوارق بين الإشارة والخطاب تختلف أساليب القرآن ، مثل قوله الحق:

﴿فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ (١) مِن رَّبِّكَ ... (٣٢)﴾ [القصص]

و«ذَانِكَ»: إشارة لشيئين اثنين : للعصا .

و ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ ...(١٢)﴾ [النمل]

ويقول الحق أيضاً:

﴿ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي ...(٣٧)﴾ [يوسف]

---

(١) البرهان : الحجة الفاصلة البينة ، والدليل القوى الواضح .

وهذا ما قاله سيدنا يوسف عليه السلام للسجينين اللذين كانا معه. وتُظهر لنا العبارة أنه كان يخاطب اثنين ، ولكنه يشير إلى التأويل بـ «ذا»[(١)].

وحين دعت امرأة العزيز النسوة ؛ ليشاهدن جمال سيدنا يوسف ، وأعطت كل واحدة منهن سكيناً ، وقالت: اخرج عليهن ، ولأنه مفرد مذكر ، وهن جماعة إناث ، فالعبارة تأتى بخطاب لجماعة الإناث ، وإشارة إلى المفرد المذكر فقالت:

﴿فَذَٰلِكُنَّ الَّذِى لُمتُنَّنِى فِيهِ ...(٣٢)﴾ [يوسف]

و «ذا» إشارة إلى سيدنا يوسف ، و«كن» خطاب للنسوة. والقرآن حين يخاطب جماعة يقول:

﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ ... (٢٣)﴾ [فصلت]

إذن: فهناك فرق بين الإشارة والآيات ، فالـ «ت» إشارة للآيات، والآيات مؤنثة ، والمخاطب الأول بالتكليف هو رسول الله ﷺ .

والآيات - كما عرفنا من قبل - جمع آية ، والآية[(٢)] هى الأمر

---

(١) من العبارات النحوية الذائعة الصيت عن باب الإشارة ما يقال: (اسم الإشارة لمن تشير إليه ، والكاف لمن تخاطبه) وتتضمن هذه العبارة الأمرين الآتيين :
الأول : أن أسماء الإشارة يراعى فى لفظها ما تشير إليه - مفرداً أو مثنى أو جمعاً مذكراً أو مؤنثاً .
الثانى : أن حرف الخطاب (الكاف وما تفرع عنها) يراعى فى لفظها المخاطب - مفرداً أو مثنى أو جمعاً ، مذكراً أو مؤنثاً .
فالكاف حرف لمجرد الخطاب لا موضع له من الإعراب ، فهى إذن حرف للخطاب لا للمخاطب ، وهكذا يصفها المعربون (النحو المصفى ص ١٥٦ - ١٦٤) .

(٢) الآية العلامة الواضحة والمعجزة ؛ لأنها علامة على صدق الرسول ، والآية العبرة الدالة على العظمة ، والآية من القرآن سميت آية ؛ لأنها معجزة أو جزء من المعجزة قال تعالى : ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا .. (١٠٦)﴾ [البقرة] وقال تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً .. (٥٠)﴾ [المؤمنون] أى : معجزة دالة على قدرة الله وعظمته ، وقوله : ﴿لَوْلا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ .. (١١٨)﴾ [البقرة] أى: معجزة خارقة للعادة ، وهناك آيات كونية يرجع إليها فى كتاب الله ، وتجمع الآية على آى وآيات ، وكلها تدور حول العظمة والقدرة لتوحيد الخالق وعظمته .

العجيب ، وكل منا يسمع من يقول : إنها آية فى الحسن أو آية فى الجمال ، أو آية فى الفن ، أو آية فى الروعة .

فالآية إذن هى الشىء العجيب ، أو الشىء الذى بلغ من الحسن ومن الجمال درجة هائلة . وتطلق الآيات إطلاقات متعددة : فهى إما أن تكون المعجزات التى أمدَّ اللهِ بها رسله ؛ ليثبت صدقهم .

﴿ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ [1] (١٣٢) ﴾ [الأعراف]

وإما أن تطلق الآيات على الأشياء العجيبة فى الكون مثل قوله الحق :

﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ الَّيْلُ نَسْلَخُ [2] مِنْهُ النَّهَارَ ... (٣٧) ﴾ [يس]

وقوله سبحانه :

﴿ وَجَعَلْنَا الَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ ... (١٢) ﴾ [الإسراء]

وقوله الحق :

﴿ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً ... (٥٠) ﴾ [المؤمنون]

إذن : فالآية إما أن تكون شيئاً فى الكون ، وإما أن تطلق على المعجزة التى جاء بها الرسل ؛ لتثبت صدقهم فى البلاغ عن الله ، وقد يكون المقصود بها آيات القرآن .

إذن : فالآيات تطلق على ثلاثة أمور : الآيات الكونية للنظر والاعتبار ، وآيات إعجازية لصدق الرسول ﷺ فى البلاغ عن الله ، وآيات قرآنية تحمل الأحكام والتحدى للمشركين أن يأتوا بمثلها .

---

(١) قالها آل فرعون لموسى ، فعاقبهم الله فأرسل عليهم الطوفان والجراد والقُمَّل والضفادع والدم .

(٢) انسلخ النهار من الليل : خرج منه خروجاً لا يبقى معه شىء من ضوئه ؛ لأن النهار مكوَّر على الليل ، فإذا زال ضوؤه بقى الليل غاسقاً قد غشى الناس . ويسلخ الله النهار من الليل أى : يخرجه منه .

وهنا فى قوله الحق : ﴿الٓر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ﴾ المراد بها : الآيات القرآنية [(١)]، وما دام الله هو خالق الآيات الكونية الحسية ، وخالق المعجزات ؛ وهو منزِّل القرآن ؛ فلا تعارض بين الآيات ؛ لأن مصدرها واحد .

وقوله : ﴿الٓر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ۝١﴾ [يونس]

وكلمة ﴿الْحَكِيمِ﴾ معناها : الذى يضع الشىء فى موضعه الدقيق بحكمة ، فلا ينظر إلى ظاهر معطيات الشىء الآن ويغفل ما قد يأتى به من مضرّة .

ولله المثل الأعلى أقول : إنك قد تصل إلى الشىء ، وتظن أنه يخلصك من متاعب أخرى ، لكنه قد يؤدى إلى شىء أضر ، وهذا هو السبب فى اختلاف ألوان ووظائف العقاقير المختلفة ، ولذلك نجد الطبيب الحاذق يكتب عدداً من الأدوية ؛ ليستخلص المريض منها ما يشفيه ، ويحاول بقدر الإمكان أن يُجنبه الآثار الجانبية لتلك الأدوية .

إذن : فهذه حكمة ؛ لأن الطبيب لا يكتب الدواء الواحد الذى قد يأتى منه أثر ضار ، بل يكتب معه دواء آخر يخفّف من ضرره ، وهذه حكمة منه لأنه يعمل احتياطات لما قد ينشأ من ضرر أو أثر جانبى .

وفى أوائل الخمسينات ، حاول العلماء أن يقللوا من أثر تهديد الحشرات للزروع ، واخترعوا مادة اسمها «د . د . ت» لمقاومة الحشرات ، وافتخروا بهذا كل الفخر حتى علا كل صوت ، وهذا لأن البشرية وصلت إلى مادة تقضى على الحشرات ، ولكنهم اكتشفوا أن هذه المادة تضر الكائنات الحية

(١) المتعارف عليه عند النحويين أن اللام فى تلك للبعد ، وعلى هذا ذهب بعض المفسرين إلى أن المشار إليه هنا هو الكتب السابقة على القرآن . وذهب آخرون إلى أن اللام هنا ليست للبعد ، وأن تلك بمعنى هذه ، وعلى هذا تكون (تلك) إشارة إلى آيات القرآن ؛ لأنه لم يجر ذكر للكتب المتقدمة ، ولأن الحكيم وصف للقرآن ، دليل هذا : ﴿الٓر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ... ۝١﴾[هود] .

الأخرى ، والآن تُوقع العقوبة على من يستخدم تلك المادة ؛ لأن ذلك عمل قد تم بغير حكمة. قد نأخذ منه ظاهر النفع ، لكن له جوانب متعددة من الضرر ، فقد سمّم الحيوانات وسمّم الزروع.

إذن: فالحكمة [1] تعنى : أن تضع الشىء فى موضعه ؛ ليعطيك فائدة لا تحدث ضرراً فيما بعد.

وقد أنزل الله المنهج فى الكتاب ليقود حياتنا إلى كل صلاح. فإن طبقناه ؛ فلسوف يأتى منه كل نفع ، ولن يأتى لنا أى ضرر ، وضربنا المثل فى المعطيات التى أعطاها الحق لنا فى الكون ، فسبحانه خلق لنا الحيوانات ؛ لنأخذ من لبنها ، ونأخذ من أصوافها ، ونأخذ من جلودها ، ونأكل من لحومها. وهو القائل:

﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ... (٧) ﴾

[النحل]

أى: أنها ستعطينا درجة من الراحة ، وإذا كان الإنسان قد اخترع أدوات أخرى تحمل عنا هذه المشقات ، وتبلغنا غاياتنا بدون تعب ؛ فهذه اختراعات تحقق مصلحة البشرية - وقد كانت البشرية تحمل أمتعتها فوق الحمار أو البغل - وقد صنع الإنسان هذه الاختراعات ؛ فصارت عندنا السيارات الكبيرة التى تحمل أطناناً من المواد والمتاع ، ولكن لم نلتفت إلى ما تحدثه من عوادم تسبب فساد الهواء ، وتلوثه على عكس فضلات الحمار أو البغل ، التى تفيد فى خصوبة الأرض.

---

(١) الحكمة : الصواب والسداد والحق والعلم والعدل والحلم والنبوة والقرآن والإنجيل . قال تعالى : ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ .. (١٢٩) ﴾ [البقرة] والحكيم : ذو الحكمة والرشاد الذى يتقن كل أمر يتولاه من حكم يحكم حكماً فهو حكيم ، والحكيم من أسماء الله الحسنى قال تعالى : ﴿ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ..(٢٠٩) ﴾ [البقرة] .

إذن: فصناعة السيارات إن لم تتخلص من عيوب عوادمها بأسلوب ما ، فهى اختراع بلا حكمة ، ويجب البحث عن وسائل لإزالة أضرار احتراق الوقود ، وبذلك نستفيد من سرعة السيارات ، وقدرتها على حمل البضائع ، ونتخلص مما تسببه من ضرر. وهكذا نعرف أن الحكمة هى: وضع الشىء فى موضعه المفيد فائدة دائمة لا يأتى من بعدها ضرر.

ولقائل أن يقول: وما معنى قول الحق : ﴿الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ هل الكتاب بمفرده له حكمة ؟ أم أن الحكيم هو من أنزل الكتاب؟ ونقول: إن معنى ﴿الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ أنه الكتاب الذى يمتلىء بالحكمة الصادرة من الله، أو الكتاب الذى أنزله الرب الحكيم. وكلمة «حكيم» على وزن «فعيل»، ومثلها مثل «كريم» و«رحيم» وتأتى مرة بصيغة فاعل ، ومرة بصيغة فعيل [(١)]، وموضعها هو الذى يبين لنا ذلك.

ومعنى كلمة «الْحَكِيمِ» يتضح لنا من سياقها: فإن نسبت الأمر إلى الحكم فهو كتاب صادر من الحق سبحانه ، وإن أردت الوصف بمعنى فاعل فهو من حاكم ؛ والحاكم هو الذى يحكم فى قضايا ؛ ليبين وجه الحق فيها ، والقرآن يحكم فى كل قضايا الإيمان. وقمة العقيدة التى يحكم فيها القرآن هى لا إله إلا الله . ومن يفعل عكس ذلك هو الظالم ، وسبحانه القائل:

﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣)﴾ [لقمان]

والقرآن يحسم هذه القضايا ، وهو حاكم فاصل فيها [(٢)].

---

(١) صيغة فاعل تصاغ للدلالة على اسم الفاعل من الفعل الماضى الثلاثى المتصرف ، وقياساً على هذا فإن فعل (كرم) مثلاً تصاغ منه صيغة اسم الفاعل (كارم) وكذلك (بخل) يصاغ (باخل) وهذا يدل على معنى طارىء غير ثابت ، أما إن كان المعنى ليس طارئاً حادثاً وإنما هو دائم ، فيجب التصرف بتغيير صيغة « فاعل» الدالة على الحدوث إلى أخرى دالة على الثبوت كأن نقول : كريم ، بخيل . ومن هذا أيضاً حكيم . فهى صفة لها ثبوت ودوام فى حق الله ، ولذلك غيرت الصيغة من « فاعل» إلى « فعيل» . انظر: (النحو الوافى ٣/ ٢٤٢) .

(٢) القرآن حكيم ؛ لأنه صادر من أحكم الحاكمين .

فإن قلت : «محكم» تكون قد نسبته لله ، وإن قلت : «حاكم» فهو الفاعل وهو يحكم فى قمة العقيدة «لا إله إلا الله » ، وهى شهادة ذات لذات ، وشهادة مشهد من الملائكة ، وشهادة أدلة من الخلق :

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ والْمَلاَئِكَةُ وأُوْلُوا الْعِلْمِ ...(١٨) ﴾[آل عمران]

وساعة يفصل القرآن فى هذه القضية ، فهو يحكم فيها حكماً عدلاً يبين وجه الحق فى قمة العقائد . وهو حاكم فى الأفعال ؛ فيبين الحلال من الحرام ويضع حداً فاصلاً فى الأحكام بين الحلال والحرام . وحاكم فى الأخلاق .

إذن : «حاكم» تعنى ما يبين وجه الحق فيما تتعارض فيه الآراء والأفكار والمعسكرات المتضاربة .

و« حكيم » : إما أن تكون بمعنى «فاعل» وإما أن تكون بمعنى (مفعول) ووقعت الحكمة من قائله عليه ، فصار «محكماً» ، وإن كانت كلمة الحكيم بمعنى فاعل تكون بمعنى «حاكم» وكلمة حاكم تدل على أن هناك فريقين : فريق يقول قضية ، وفريق آخر يناقضه ، فيأتى الحاكم ؛ ليفصل بين الأمرين ، وليعدل وينصف .

وقد جاء القرآن هكذا : حاكماً فى أمر القمة التى اختلف الخلق فيها ؛ فمنهم من أنكر وجود إله وهم الملاحدة . ومنهم من قال : إن الإله هو غير الله ، ومنهم من قال : الإله شريك لغيره ، فجاء القرآن ؛ ليفصل فى هذه المسألة ، وحكم فيها حكماً واضحاً ، وبيَّن : يا من تقولون : لا إله ؛ أنتم كذابون ، ويا من تقولون : إن الإله غير الله ؛ أنتم كذابون ، ويا من تقولون : إن الإله له شركاء مع الله ؛ أنتم كذابون ، بل هو إله

واحـد ، وهذا أول حـكم فى قضية القمة .

ومـا دام الحكم فى قـضيـة القـمـة قد صح ؛ إذن : فالاستـقـبال للـمنهج سيكون واحداً ، فلا آلهة متعددة يضارب هذا ذاك ، أو يناقضه ، بل هو إله واحـد ، يصـدر عنه حكم واحـد يحـقق الوحـدة فى التكاليف للناس جميعاً ، ويُخرج جميع الناس من أهوائهم إلى مراده هو سبحانه ، ويكون القرآن حاكماً أيضاً فى الأفعال ، فقد يختلف الناس فى تقييمهم لفعل واحد . فهذا يقول : فعل حسن ، وآخر يقول : فعل قبيح ، ويحسم القرآن الأمر ويحدد الفعل الحسن ؛ فيأمر به ؛ ويحدد الفعل القبيح ؛ فينهى عنه ، ويبين القرآن لنا الحلال من الحرام[1] .

إذن : فالقرآن حكم فى العقائد وفى الأفعال وفى ذوات الأشياء حلاّ وحُرْمة ، وهو يحكم أيضاً فى قضية هامة تلى قضية الحكم فى قمة العقيدة ، وهى صدق البلاغ عن الله ، فهذا الرسول الذى يحمل البلاغ عن الله لا بد أن يكون صادقاً ، وقد جاء القرآن بالحكم فى هذه القضية بمعنى أنه قد جاء معجزاً ، فإن لم تكونوا قد صدقتم بأن هذا رسول ؛ فأتوا بمثل ما جاء به هذا الرسول . فإن عجزتم ؛ فالرسول بنفسه يخبركم أن القرآن ليس من عنده ، بل من عند خالقه وخالقكم .

وسواء أكانت «حكيم» بمعنى «فاعل» أم بمعنى «مفعول» فقد دلتنا على أنها تعنى وضع الأشياء فى نصابها وضعاً يحقق النفع منها دائماً ، ولا ينتج عنها ضارة أبداً .

ثم يقول الحق بعد ذلك :

---

(١) وفى هذا يقول رب العزة سبحانه : ﴿ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ .. ﴿٢١٣﴾ ﴾ [البقرة] فالحكيم هنا بمعنى حاكم ، أى : أنه حاكم بالحلال والحرام ، وحاكم بين الناس بالحق .

﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ ﴾

ما هو العجيب [1] - إذن - فى أن الله أوحى إلى رجل منكم أن يبلغكم إنذار الله وبشارته؟ ما الذى تعجبتم منه؟ وما موضع العجب فيه ؟ وجاء تحديد العجب فيه ما ذكرته الحيثية فى آخر السورة السابقة من أنه:

﴿ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ... ﴿١٢٨﴾ ﴾ [التوبة]

أى: من البشر، ومن العرب ، ومن قبائلكم ، ومن أنفسكم ممن تعرفون كل خُلُقه، فما العجيب فى أن يرسله الله رسولاً إليكم ؟ إنكم قد ائتمنتموه على أموركم من قبل أن ينزل عليه الوحى من الله ، فكأنكم احترمتم طبعه الكريم، وأنكم فى كثير من الأشياء قبلتم منه ما يصل إليه من أحكام.

ودليل هذا أنكم حين اختلفتم فى بناء الكعبة ، وقالت كل قبيلة : نحن أولى بأن نضع بأيدينا أقدس شىء فى الكعبة ، وهو الحجر ، حين ذلك اختلفت القبائل ؛ فما كان إلا أن حكَّموا أول داخل ؛ فشاء الله أن يكون

---

(١) الشىء العجيب : غير المألوف للناس ، والآدمى إنما يتعجب من الشىء إذا عظم موقعه عنده ، وخفى عليه سببه . وقد تعجب المشركون من قضايا لم تستطع عقولهم استيعابها ، فاحتاج الأمر من القرآن أن ينفى العجب عن هذه القضايا ، وأن يدلل على عكس ما فى أذهان هؤلاء المشركين، أما القضايا فمنها:

١- قضية توحيد الله سبحانه ، فقالوا : ﴿ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ ﴾ [ص]

٢- قضية إرسال رجل منهم أى: من البشر ، فقالوا : ﴿ وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ... ﴿٤﴾ ﴾[ص]

٣- قضية البعث ، فقالوا : ﴿ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ .. ﴿٥﴾ ﴾ [الرعد].

أول داخل هو محمد بن عبد الله ، فكيف يحل محمد بن عبد الله هذه المشكلة [١] ، ولم يكن قد نزل عليه وحى بعد ؟ إنها الفطرة التى جعلته أهلاً لاستقبال وحى الله فيما بعد ، فماذا صنع ؛ لينهى هذا الخلاف ؟

جاء برداء ، ووضع الحجر على الرداء ، ثم قال لكل قبيلة : أمسكوا بطرف من الرداء ، واحملوا الحجر إلى مكانه . وتلك هى الفطرة السليمة . ورأينا أيضاً سيدنا أبا بكر عندما قالوا له وهو راجع من الرحلة التى كان يقوم بها : لقد ادعى صاحبك النبوة ، قال : «إن كان قد قالها فقد صدق» .

من أى أحداث جاء حكم أبى بكر ؟ أهو سمع من رسول الله كلاماً معجزاً ؟ أسمع منه قرآناً ؟ لا ، بل صدّقه بمجرد أن أعلن أنه رسول . فقد جربه فى كل شىء ووجده صادقاً ، وجربه فى كل شىء ووجد أنه أمين ، فما كان محمد ليصْدُقَ فيما بين البشر ، ليكذب على الله .

وكذلك خديجة بنت خويلد حينما قال لها رسول الله ﷺ : يأتينى كذا وأخاف أن يكون كذا ، فبينت له أن المقدمات التى فى حياته لا توحى بأن الله يخذله ويفضحه ويسلط عليه الجن : « إنك لتصل الرحم ، وتحمل

---

(١) كان محمد ﷺ يبلغ من العمر حينذاك ٣٥ سنة ، أى : قبل بعثته بـ ٥ سنوات ، وكانت القبائل من قريش قد اختلفت فيمن يضع الحجر الأسود فى مكانه ، وأعدوا للقتال ، وتعاقد بنو عبد الدار وبنو عدى على الموت ، ووضعوا أيديهم فى جفنة مملوءة دماً . وبقى الأمر على هذا أربع ليال أو خمساً . ويروى ابن إسحاق فى السيرة (١/ ١٩٧) ارتضاء قريش حكومة محمد فى هذا الأمر أن « أبا أمية بن المغيرة قال : يا معشر قريش ، اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا المسجد يقضى بينكم فيه ففعلوا . فكان أول داخل عليهم رسول الله ﷺ ، فلما رأوه قالوا : هذا الأمين ، رضينا ، هذا محمد ، فلما انتهى إليهم وأخبروه الخبر ، قال ﷺ : هلم إلىّ ثوباً ، فأتى به ، فأخذ الركن (أى : الحجر الأسود) فوضعه فيه بيده . ثم قال : لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ، ثم ارفعوه جميعاً ، ففعلوا ، حتى إذا بلغوا به موضعه وضعه هو بيده ، ثم بنى عليه » .

الكَلَّ وتنصف المظلوم ، ولن يخزيك الله أبداً» [١] وبذلك كانت السيدة خديجة أول فقيه مستنبط [٢] فى الإسلام .

وقوله سبحانه : ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا﴾ يعنى : التعجب من أن يصدر منهم العجب ، والقرآن يتعجب كيف يصدر منهم هذا العجب ؟ وما دام يتعجب كيف يصدر منهم هذا العجب ؟ فمن المنطقى ألا يكونوا قد تعجبوا ؛ لأنك حين تتعجب من شىء فإما أن تتعجب منه ؛ لأنه بلغ من الحسن مبلغاً فوق مستوى ما تعرف من البشر ، مثلما ترى صنعة جميلة وتقول : ما أحسن هذه الصنعة ، وتتساءل : ما الذى جعل هذه الصنعة جميلة إلى هذا الحد غير المتصور ؟

وأنت تقول ذلك ؛ لأن الصنعة قد بلغت من الجمال مبلغاً لا تصدق به أن أحداً من الموجودين فى إمكانه أن يصنعها . والمثال على ذلك : نجد من يقول : ما أحسن السماء ؛ وهو يتعجب من الشىء الذى يفوق تصوره . وقد يتعجب من شىء قبيح ، ما كان يجب أن يرد على الخاطر ، ولذلك يقول القرآن :

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ ... (٢٨)﴾ [البقرة]

---

(١) حديث بدء الوحى عن عائشة رضى الله عنها أخرجه البخارى فى صحيحه (٣ ، ٦ ومواضع أخرى) ومسلم فى صحيحه (١٦٠) .

- كانت السيدة خديجة بهذه المقولة قد لخصت رسالة الرسول فى كلمات : تعيش مشاكل الناس ناصراً للمظلوم مساعداً للمحروم فتحمل الكل .

وصلة الرحم ارتقاء بالأرحام والأقرباء وهو دفء الإنسانية ، يعيش فيه المجتمع بوجدان الجماعة وحنان الإخاء وإنصاف المظلوم هو اعتدال الموازين العدل ، والقول هو الإسلام ، وبهذا صدق قول الشيخ فإنها أول قضية تستنبط رسالة الإسلام من حالة الرسول قبل تمام الوحى .

(٢) الاستنباط فى الفقه : هو استخراج الفقيه للأحكام الشرعية من بطون الأدلة باجتهاده وفهمه . ومنه قوله تعالى : ﴿لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ ... (٨٣)﴾ [النساء] . والاستنباط فى اللغة : استخراج الماء من قعر البئر إذا حفرت .

أى: قولوا لنا: كيف قبلتم لأنفسكم الكفر ؟

لأن الكفر مسألة عجيبة تتنافى مع الفطرة.

وهنا يقول الحق:

﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ ... (٢)﴾ [يونس]

وهنا نتساءل: كيف تتعجبون وقد جئناكم برسول من أنفسكم ، ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٢٨)﴾ [التوبة]

أليس هذا هو المطلوب فى الرائد ، فكيف تعجبون ؟ [1].

إن عجبكم يدل على أن بصيرتكم غير قادرة على الحكم على الأشياء، وما كان يصح أن يُستقبل الرسول بالعجب ، ونحن نتعجب من عجبكم هذا.

وحين تتعجب من العجب ؛ فأنت تبطل التعجب.

﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا ... (٢)﴾ [يونس]

أى: أن إيحاءنا لرجل منكم كان عجيباً عندكم ، وما كان يصح أن يكون أمراً عجيباً ؛ لأنه أمر منطقى وطبيعى.

ثم ما هو الوحى؟ لقد سبق أن أوضحنا أن الوحى هو الإعلام بخفاء. وهناك إعلام واضح مثل قولك لابنك: يا بنى اسمع كذا، وافعل كذا . هذا إعلام واضح . وهناك إعلام بخفاء ، كأن يدخل عندك ضيف ؛ ثم يسهو خادمك - مثلاً - عن تحيته ، فتشير للخادم إشارة ؛ تعنى بها أن

(١) روى ابن عباس فى سبب نزول هذه الآية أنه : لما بعث الله تعالى محمداً ﷺ رسولاً أنكرت الكفار ، وقالوا : الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً مثل محمد ، فأنزل الله تعالى هذه الآية . ومما قاله المشركون : ما وجد الله من يرسله إلا يتيم أبى طالب ؟ انظر: أسباب النزول للواحدى (ص ١٥٢) وتفسير القرطبى (٤/ ٣٢٣٢) وابن كثير فى تفسيره (٢/ ٤٠٦) .

يُسرع بتقديم التحية للضيف ؛ من مرطبات ، أو حلوى ، وهكذا تكون قد أعلمت خادمك بخفاء.

والحق سبحانه وتعالى يوحى إلى الجماد ، فسبحانه يقول : ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا (١) وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا (٢) وَقَالَ الإِنسَانُ مَا لَهَا (٣) يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا (٤) بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا (٥)﴾ [الزلزلة]

أى: أنه سبحانه وتعالى قد أعلمها إعلاماً خفيّاً ؛ وهى قد فهمت بطريقة لا نعرفها.

وسبحانه يوحى للحيوانات، فهو القائل :

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ [1] ... (٦٨)﴾ [النحل]

وأنت لا يمكنك أن تقول: أنا سمعت الله وهو يوحى للنحل ؛ لأن الوحى إعلام بخفاء ، وهو سبحانه أعلم بالطريقة التى تم بها هذا الوحى ، والنحل قد فهم عنه سبحانه ، ولا شأن لك بذلك ، فلا تسأل عن كيفية هذا الوحى. ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (٦٨)﴾ [النحل]

أى: أنها فهمت عن الله بما أودع فيها من الغرائز.

وسبحانه يوحى للملائكة وهو القائل :

﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ ... (١٢)﴾ [الأنفال]

ويوحى الحق سبحانه إلى غير الرسل ؛ كما أوحى إلى أم موسى

(١) قال الزجّاج : جائز أن يكون سمى نحلاً ؛ لأن الله عز وجل نحل الناس العسل الذى يخرج من بطونها.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ ... (٧)﴾ [القصص]

وأوحى سبحانه إلى الرسل جميعاً.

إذن: فسبحانه يوحى للجماد، ويوحى للحيوان، ويوحى للملائكة ويوحى للصالحين من غير الأنبياء، ويوحى للأنبياء وللرسل.

والوحى - كإعلام بخفاء - يقتضى مُعْلماً، وهو الحق سبحانه وتعالى، ومُعْلَماً؛ وهو إما: الأرض، وإما النحلَ، وإما الملائكة، وإما إلى بعض الصالحين من غير الأنبياء، وإما إلى الرسل والأنبياء.

وقد يأتى الوحى من غير الله، فسبحانه يقول: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ (١) الْقَوْلِ غُرُورًا (٢) ... (١١٢)﴾ [الأنعام]

إذن: فالشياطين يُعلمون بعضهم البعض إعلاماً خفياً.

ويقول الحق: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ... (١٦٣)﴾ [النساء]

والموحى إليه هو محمد رسول الله ﷺ، وهو وحى خاص بالرسول، فلا تقل: أنا لم أسمع ماذا أوحى إلى محمد، ولا أعرف كيف نزل

---

(١) زخرف: الزخرف: الزينة، والمراد هنا: التمويه والتزوير، وزخرف القول غروراً: أى: حسن القول بتزيين الكذب.

(٢) الغُرور: ما غرك من إنسان وشيطان وغيرهما، والغَرور: الشيطان ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ (٣٣)﴾ [لقمان]. والغرور: الأباطيل، ويجوز أن يكون الغُرور جمع غارّ، مثل شاهد وشهود. والغرور: الدنيا ومتاعها، والغرور: الإغراء بالوعد الكاذب والتمنية. ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (٦)﴾ [الانفطار] و ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ... (٣٣)﴾ [لقمان]. والغرور: الخداع وتزيين الشر والمعاصى. وغرر بنفسه وماله تغريراً وتغرة: عرضهما للهلكة من غير أن يعرف. والغَرر: الخطر، وقد نهى رسول الله ﷺ عن بيع الغَرر، وهو مثل بيع السمك فى الماء والطير فى الهواء. والتغرير: حمل النفس على الغَرر.

الوحى [(١)] ، فقد جاء جبريل إلى رسول الله ﷺ ، وبلغه أن يعلن ما أوحى إليه ، ولو كنت أنت قادراً على سماع الوحى من جبريل ، فما ضرورة إرسال الرسول إذن ؟

إن الطاقة والقدرة العالية المرسلة إلى الموحى إليه تحتاج إلى قوة تحمل ، وضربنا المثل من قبل بأن الإنسان حين ينقل طاقة من مصدر عال قوى إلى مصدر ضعيف فهو لا يُسرب الطاقة من القوىّ إلى الضعيف دفعةً واحدة ، وإلا لما تحمَّل الضعيف تلك الطاقة القادمة إليه من القوى ، ولذلك نحن نأتى بمحوِّل يتحمل طاقة القوى ، ثم ينقل للضعيف ما يناسب قدرته ، ومثال ذلك هو شراؤنا لمحول كهربى حين ننقل الكهرباء من مصدر طاقة عالى الجهد إلى مصدر آخر ضعيف قليل الجهد ؛ مثل المصباح الصغير الذى تضيئه فى المنزل ليلاً لينير بالقدر المناسب كيلا نرتطم بالأشياء ، وهو ما نسميه بالعامية «ونّاسة». إذن : فمهمة المحول أن يستقبل من مصدر الطاقة القوى ؛ ليضىء لمصدر الطاقة الضعيف.

فإذا كان الله سبحانه وتعالى هو الذى يوحى للرسول ، والرسول من البشر لا يمكنه التلقى المباشر عن الله ؛ لذلك لا بد من واسطة تبلغ فى الارتقاء بما يسمح لها بالتلقى عن الله ، وتستطيع أن تلتقى بالبشر؛ وهذه خاصية المَلَك.

ورغم هذا أصاب الجهد والتعب سيدنا رسول الله ﷺ فى أول تلقيه للوحى ، وكان ﷺ يعرق حتى يتفصد [(٢)] العرق من جبينه ، وإذا انصرف

---

(١) عن عائشة رضى الله عنها أن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله كيف يأتيك الوحى ؟ فقال رسول الله ﷺ : « أحياناً يأتينى مثل صلصلة الجرس وهو أشده علىَّ فيفصم عنى وقد وعيت عنه ما قال ، وأحياناً يتمثل لى الملك رجلاً فيكلمنى فأعى ما يقول » أخرجه البخارى فى صحيحه (٢) ومسلم (٢٣٣٣) .

(٢) تفصد العرق : أى : سال العرق من جبينه . وقد قالت عائشة رضى الله عنها : ولقد رأيته ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢) ومسلم (٢٣٣٣) من حديث عائشة واللفظ للبخارى .

عنه الوحى قال: « زمّلونى . . زملونى »[(١)] ويرتعد.

وكان الصحابة يقولون: كان إذا نزل الوحى على رسول الله ، وهو قاعد ؛ وقد تكون ركبته على فخذ أحد الصحابة ، فيجد الصحابى ثقلاً على رجله من شدة وطأة ركبة الرسول ﷺ ، وإذا نزل الوحى ، والرسول يركب مطية فهى تئط منه[(٢)].

إذن : كان الوحى يُتعب رسول الله ﷺ ، وبعد أن يُسرَّى عنه التعب[(٣)] ؛ تبقى له حلاوة ما أوحى إليه ؛ فيتشوّق ثانية للوحى.

وقد شاء الحق أن يشوّق النبى ﷺ ، للوحى ففتر[(٤)] الوحى لمدة من الزمن. وحين اشتاق النبى للوحى ؛ كان ذلك يعنى أنه قد شحنَ نفسه بطاقة متقبلة لاستقبال هذا الوحى ؛ بما فيه من تعب.

ولله المثل الأعلى دائماً ، قسْ أنت الجهد المبذول فى رحلة إلى من تحب ، أثناء المطر ، والأرض موحلة[(٥)] ومليئة بالشوك ، ورغم ذلك أنت تقطع الرحلة دون أن تلتفت لما فيها من إرهاق وتعب.

وشاء سبحانه أن يُرغِّب رسوله شوقاً إلى الوحى ، رغم ما فيه من جهد؛ لأنه التقاء مَلَك ببشر ، وهذا اللقاء يكون على صورتين : إما أن

---

(١) المراد بالتزميل هنا : طلب الحماية وإذهاب الخوف والروع والرعدة التى ألمت بجسمه مما رآه ؛ عن طريق لف جسمه بالثياب وتغطيته . وزمل الشىء : أخفاه ، وزمله فى ثوبه : أى : لفه . والتزمل : التلفف بالثوب ، وقد تزمل بثيابه أى : تدثر . وفى حديث قتلى أحد : « زملوهم فى ثيابهم » أى : لفوهم فيها. أخرجه أحمد فى مسنده (٥/ ٤٣١) من حديث عبد الله بن ثعلبة .

(٢) تئط الناقة : تئن من ثقل الركبان . عن أسماء بنت يزيد قالت : إنى لآخذة بزمام العضباء ناقة رسول الله ﷺ إذ نزلت عليه المائدة كلها وكادت من ثقلها تدق عنق الناقة . أخرجه أحمد فى مسنده (٦/ ٤٥٥) .

(٣) يسرى عنه التعب : أى: يذهب عنه .

(٤) فتر الوحى : انقطع . والفترة : ما بين كل نبيين ، وفى الصحاح : ما بين كل رسولين من رسل الله - عز وجل - من الزمان الذى انقطعت فيه الرسالة . ومنه قوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ ... ﴿١٩﴾ ﴾ [المائدة] .

(٥) أرض موحلة : أى: أصابها الوَحل ، وهو الطين الرقيق الذى ينتج من أثر مطر أو ماء يصيب الأرض .

ينقلب الملَك إلى مرتبة بشرية ؛ وهذه الصورة ليس فيها إجهاد على رسول الله ﷺ ؛ لأن عملية التحويل جاءت فى الأعلى بينما يظل رسول الله ﷺ كما هو ، مثلاً دخل جبريل على رسول الله ، وكان معه بعض من الصحابة ، وسأل النبى ﷺ : ما الإيمان ؟ وما الإسلام ؟ وما الإحسان ؟ ثم اختفى السائل ، فسأل الصحابة رسول الله عن هذا السائل ؛ فقال : «هذا جبريل جاءكم يُعلِّمكم أمور دينكم» [(١)] .

هذه هى الصورة الأولى فى الوحى ، والتحول فيها كان من جهة الإرسال فلا مشقة فيها على النبى ﷺ .

أما الصورة الثانية ، فقد كان فيها مشقة على رسول الله ﷺ ؛ لأن الملك يظل على طبيعته ، والتحول إنما يحدث لمحمد ﷺ ، وكان التحول يقتضى عملية كيماوية تصيبه بالجهد ؛ فيقول بعد أن يُسرى عنه : «زمّلونى» .

وشاء الحق أن يتلطف برسوله ، ففتر الوحى فترة من الزمن . وقال الكافرون من العرب : إن رب محمد قد قلاه [(٢)] وهذا غباء منهم ؛ لأنهم

(١) عن عمر بن الخطاب قال : بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم ، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ، لا يرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منا أحد ، حتى جلس إلى النبى ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ، ووضع كفيه على فخذيه ، وقال : يا محمد أخبرنى عن الإسلام ، فقال ﷺ : « الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً . قال : صدقت . قال : فعجبنا له يسأله ويصدقه قال : فأخبرنى عن الإيمان ؟ قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره . قال : صدقت . قال : فأخبرنى عن الإحسان . قال : أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك . . . . » الحديث أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٠) ومسلم فى صحيحه (٨) . والشاهد من الحديث أن جبريل أتى رسول الله ﷺ فى صورة بشرية ، فلم تكن شاقة عليه ﷺ .

(٢) عن جندب البجلى قال : أبطأ جبريل على رسول الله ﷺ فقال المشركون : قد وُدِّع محمد . فأنزل الله عز وجل : ﴿ وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ ﴾ [الضحى] أخرجه مسلم فى صحيحه (١٧٩٧) والترمذى فى سننه (٣٣٤٥) وقال : حديث حسن صحيح . وقد أورد ابن كثير فى تفسيره (٤/ ٥٢٢) من الطريق الذى أخرج مسلم من الترمذى حديثه إلى جندب ، بلفظ : « فقال المشركون : ودع محمداً ربه » .

اعترفوا أن لمحمد ربّـا . وما داموا قد اعترفوا ، فعدم إيمانهم صلف [(١)] وغباء ، وأرادوا بذلك أن ينسبوا النقص لمحمد ﷺ ، فقالوا: إن الله قد قلى [(٢)] محمداً.

وقد شاء الحق أن ينقطع الوحى عن محمد ﷺ هذه المدة ؛ ليكشفهم أمام أنفسهم وأمام غيرهم ، لتنكشف نواياهم ، وتثبت قلّة بصيرتهم ، وافتقادهم للمنطق السليم ، فهم حين اعترفوا أن لمحمد ربًّا ، كان عليهم أن يحتكموا إلى عقولهم ؛ ليعرفوا أنهم قد أقروا بالألوهية ، لكنهم أرادوا بهذا الاعتراف أن ينسبوا النقص لرسول الله ﷺ .

ولو قاضيناهم إلى عقولهم ، وإلى الكون الذى عاشوا فيه ، وإلى الظواهر المادية المحسوسة لهم ، لعرفوا أن الأحداث لا بد لها من زمان ومكان ؛ لأن كل حديث يتطلب زماناً ومكاناً ، وإذا لم يوجد حدث ؛ لا يوجد زمان أو مكان.

ولذلك أقول دائماً لمن يسأل : أين كان الله ؟ أقول له: أنت جئت بالأينية من الزمان ، والمكانية من المكان ، وهذا لا يتأتى إلا بوجود حدث. وما دام الله غير حدث ، فلا زمان يحدده ، ولا مكان يُحيّزه؛ لأن الزمان كان به ، والمكان كان به. والأحداث هى عند البشر ، فهم من يستقرون فى المكان ، ويتوالى عليهم الزمان.

والزمان الذى يحدث فيه أى حدث اسمه «ظرف زمان» [(٣)] ، والمكان

---

(١) الصَّلف: مجاوزة الحد فى الادّعاء والتكبّر.

(٢) قليته: كرهته غاية الكراهة ؛ فتركته. والقلَى: البُغْض.

(٣) الظرف: هو الزمن أو المكان الذى وقع فيه الحدث، ويسميه النحاة «المفعول فيه» أى: أن الحدث أو الفعل قد وقع (أو يقع - أو سيقع) فى زمن ما، ومكان ما.

الذى يحدث فيه الحدث اسمه «ظرف مكان»؛ وظرف المكان ظرف قارّ [١] ثابت ، بينما ظرف الزمان غير قارٍّ ، بل هو حال ، وبعد قليل يصبح الحال زمناً ماضياً ؛ ويأتى المستقبل ليكون حاضراً ، ثم يصبح ماضياً.

وهكذا نعلم أن زمناً يحدث فيه التناوب بين المستقبل والحال والماضى، والليل والنهار هما أوضح صور ظرف الزمان وفيهما اختلاف ، فالليل يأتى والنهار خلفه [٢] ؛ لأن النهار جعله الله ضياء ؛ للحركة والكدح والعمل ، وجعل سبحانه الليل ظلاماً ؛للسكون والراحة، فإن لم ترتحْ بالليل؛ لا تقوى على العمل فى الصباح ، وهكذا يكون الليل مكملاً للنهار لا مناقضاً له [٣] .

وكذلك شاء الحق أن يكون الوحى بهذا الشكل ، فحين جاء الوحى لأول مرة أجهد رسول الله ﷺ ، ثم فتر الوحى ليستريح ﷺ ؛ وتتجدد قدرته على استقبال الوحى من بعد ذلك.

وحين قال الكافرون: إن ربَّ محمد قد قلاه ، ردّ عليهم الحق سبحانه

---

(١) قار : مستقر ثابت. ومنه أيضاً القرار بمعنى الاستقرار، كقوله تعالى: ﴿ اللَّهُ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً .. (٦٤) ﴾ [غافر] .

(٢) قال عز وجل: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ .. (١٦٤) ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ .. (١٦٤) ﴾ [البقرة] قال ابن كثير فى تفسيره (١/ ٢٠١) : « أى : هذا يجىء ثم يذهب ويخلفه الآخر ويعقبه لا يتأخر عنه لحظة» ويقول سبحانه أيضاً: ﴿ وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا (٦٢) ﴾ [الفرقان] أى: جعلهما يتعاقبان توقيتاً لعبادة عباده له عز وجل، فمن فاته عمل فى الليل استدركه فى النهار، ومن فاته عمل فى النهار استدركه فى الليل. وقال مجاهد وقتادة: خلفة، أى: مختلفين، أى: هذا بسواده، وهذا بضيائه.

(٣) يقول تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ .. (١٢) ﴾ [الإسراء] وهاتان آيتان على توحيد الله وأن لهذا الكون إلهاً واحداً، ولذلك يقول رب العزة: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلا تُبْصِرُونَ (٧٢) ﴾ [القصص] .

وتعالى: ﴿وَالضُّحَىٰ (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣)﴾ والضحى ضحوة النهار وهى - كما قلنا - للعمل والحركة ، فإذا جاء الليل فهو يبدو وكأنه ضد النهار ، لكنه غير ذلك ، بل هو مكمل له ويساعده.

إذن: ففتور الوحى لمدة من الزمن كان لمساعدة رسول الله ﷺ لتجديد الحيوية. وقد أقسم الحق سبحانه بالضحى والليل ، وهو قسم بالظاهرة الكونية المشاهدة والتى يعترف بها كل إنسان ، مؤمنهم ، وكافرهم!

أقسم الحق بالضحى أنه ما قلى رسوله (٣) ، بل شاء بفتور الوحى أن يعطيه طاقة تزيد من حركته ، وتزيد من جهده ليشتاق ﷺ لأمر الوحى. وبذلك أعانه الحق على مهمته ، وفى هذا أبلغ ردٍّ على من قالوا: إن رب محمد قد قلاه ، وإثبات أن الحق قد شاء لفترة فتور الوحى أن تكون كالليل سكوناً ، ليهدأ ﷺ بعد الضحى المجهد الذى استقبل به الوحى.

---

(١) أقسم الله بالضحى والليل إذا سجى ؛ لأن عظمة الأمل تتجلى فيهما ، وذلك لاستقبال العطاءات الإلهية قائلاً : ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣)﴾ [الضحى] وهذه حماية ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ (٤)﴾ [الضحى] تمام العناية ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ (٥)﴾ [الضحى] قمة الرعاية ثم أقام له الدليل على العطاء قائلاً : ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ (٦) وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ (٧) وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ (٨)﴾ [الضحى] ما دمت أعطيت هذه العطاءات الثلاث فأطلب منك ثلاثاً : ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (٩) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ (١٠) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (١١)﴾ [الضحى] وبهذا يكون انشراح الصدر .

(٢) سجى : سكن وأظلم وامتد. والليل إذا سجى : إذا سكن بالناس أو إذا لَبِسَ الناس. وسُجُوُّ الليل : تغطيته للنهار. وسجا يسجو سجواً، وسجَّى يسجِّى وأسْجَى يُسْجِى : غَطَّى شيئاً ما. والتسجية : التغطية.

(٣) تأمل هذا المعنى الذى أشار إليه فضيلة الشيخ فى القسم بالضحى محل الحركة والكد والتعب ثم بالليل محل السكون لتجديد الطاقة، ومطابقة هذا لنزول الوحى وجَهْد النبى فى استقباله ثم انقطاعه لتجديد طاقة الرسول ﷺ . وقد أضاف ابن القيم ملمحاً مكملاً لهذا المعنى فى كتابه : «التبيان فى أقسام القرآن» فقال: «تأمل مطابقة هذا القسم وهو نور الوحى الذى وافاه بعد احتباسه عنه، حتى قال أعداؤه: ودّع محمداً ربه، فأقسم بضوء النهار بعد ظلمة الليل على ضوء الوحى ونوره بعد ظلمة احتباسه واحتجابه». نقله السيوطى فى «الإتقان فى علوم القرآن» (٤/ ٥١).

وبعد أن تتجدد حيويته ﷺ يأتى الوحى من جديد ؛ لذلك قال الحق :

﴿وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴿٥﴾﴾ [الضحى]

وبعد هذه السورة يقول الحق سبحانه فى سورة الشرح : ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ [1] ﴿٢﴾ الَّذِى أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾﴾ .

وهكذا بيَّن لنا الحق أن مسألة فتور الوحى وعودته هى عملية متكاملة ، لكن الأغبياء فقط هم من يظنون أنها متناقضة ويقولون : (ظلمة - وضوء) ، و(ليلٌ ، ونهارٌ) والحق أنها متكاملة .

ومثل هذا الأمر تجده أيضاً فيمن يحاولون خَلْق عداوة بين الرجل والمرأة ، ولم يتفهَّموا أن الذكر متمّم للأنثى ، وأن الأنثى متمّمة للذكر .

وهنا يقول الحق : ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا ... ﴿٢﴾﴾ [يونس]

والإنذار - كما نعلم - هو الإخبار بشىء يمكن أن تتلافاه . أما البشارة [2] فهى الإخبار بخير يحثُّك من يبشرك على أن تقتنيه . وأنت تنذر من يهمل فى دراسته بأنه قد يرسب ، وأنت حين تنذره إنما تطالبه بأن يجتهد ، وفى المقابل فأنت تبشر المجتهد بالنجاح وبالمستقبل الطيب .

إذن : فالإنذار يعنى أن تحث الإنسان على ألا يقبل أو يُقْدِمَ على

---

(١) الوزر : الحمل الثقيل . أنقض ظهرك : أثقلك حمله .

(٢) البشارة المطلقة لا تكون إلا بالخير ، أما البشارة المقيدة فتكون بالشر كقوله تعالى : ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾﴾ [آل عمران] ويكون على سبيل الاستهزاء بهم والسخرية .

مـا يضره . والتبشير يعنى أن تحث الإنسان على أن يجتهد ؛ لينال ما يحبه . والأمور فى الأحداث كلها تدور بين سَلْب وإيجاب .

ولسائل أن يقول : ولماذا جاء سبحانه بالإنذار قبل البشارة ؟

فنقول : إن كلمة «الإنذار» كلمة عامة لكل الناس ، حتى يتجنبوا ما يقودهم إلى النار ، لكن البشارة تكون لمن آمن فقط . أو أن الإنذار والبشارة للمؤمنين ، ولكن شاء الحق أن يجعل المؤمنين فى صف البشارة دائماً ، وأن يكون الإنذار لوناً من ضرورة التخلية من العيوب ، قبل التحلية بالكمال .

فأنت تدفع عن نفسك الأمر الذى يأتى بالضُرّ أولاً ، ثم تتجه إلى ما يجلب النفع من بعد ذلك ؛ لأن دَرْء [1] المفسدة مُقدّم على جلب المصلحة [2] .

ونجد الحق سبحانه يحدد الإنذار بأنه للناس ، والناس : هم الجنس المنحدر من آدم إلى أن تقوم الساعة . وقد وقف بعض المستشرقين عند كلمة «الناس» ، وأرادوا أن يدخلونا من خلالها إلى متاهات التشكيك فى القرآن ، وقالوا : إن القرآن فيه تكرار لا لزوم له .

وأهم سورة أخذها هؤلاء المستشرقون هى سورة «الناس» حيث يقول الحق : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَهِ النَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ

---

(١) الدَّرْء : الدفع . يقول تعالى : ﴿ وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الرعد] . قال ابن كثير فى تفسيره (٢/ ٥١٠) « أى : يدفعون القبيح بالحسن ، فإذا آذاهم أحد قابلوه بالجميل صبراً واحتمالاً وصفحاً وعفواً» .

(٢) المقصود بالمصلحة هو المحافظة على مقاصد الشارع الأساسية ، والتى دل الاستقراء على أنها خمس ضروريات لا بد منها ، وهى : حفظ الدين والعقل والنفس والنسل والمال . فكل تشريع أو حكم يحفظ أحد هذه الأمور فهو مصلحة ، وكل ما يضر بها فهو مفسدة .

الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ [١] ﴿٤﴾ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ الْجِنَّةِ [٢] وَالنَّاسِ ﴿٦﴾﴾ [الناس]

وهذا الجمع من المستشرقين فهموا أن المعنى لكلمة «الناس» فى كل آية من آيات هذه السورة هو معنى واحد. ولأنهم لم يتمتعوا بملكة اللغة ؛ لم يلتفتوا إلى أن معنى كلمة «الناس» فى كل موقع هو معنى مختلف وضرورى ؛ لأن الحق سبحانه أراد بكل كلمة فى القرآن أن تكون جاذبة لمعناها ، وأن يكون كل معنى جاذباً للكلمة المناسبة له.

والمثال أيضا فى كلمة «الناس» ؛ هو قول الحق سبحانه : ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ... ﴿٥٤﴾﴾ [النساء]

فهل كل الناس تتلقى الحسد ؟ لو كان الأمر كذلك فمن الحاسد؟ إذن: فقوله الحق: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ ... ﴿٥٤﴾﴾ [النساء]

إنما يعنى أن هناك أناساً حاسدين [٣] ، وآخرين محسودين. ولا تكون كلمة «الناس» عامة شاملة لكل الأفراد إلا فى حالة الحكم العام.

---

(١) خنس يخنس خنوساً وخناساً: انقبض وتأخَّر. والوسواس الخناس المتحيِّن للفرص فساعة ضعف النفس ينقض ، وساعة عزيمة النفس ينفض ، وهو الذى يوسوس فى صدور الناس من الإنس والجن ، وهو إبليس يوسوس فى صدور الناس، فإذا ذكر الله خنس، وعن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الشيطان واضع خَطْمه (مقدَّم أنفه وفمه) على قلب ابن آدم، فإن ذكر الله خنس، وإن نسى التقم قلبه. فذلك الوسواس الخناس». أخرجه أبو يعلى فى مسنده (٧/ ٢٧٨) وأبو نعيم فى الحلية (٦/ ٢٦٨). ضعف إسناده ابن حجر فى الفتح (٨/ ٧٤٢) وقال : «فيه عدى بن أبى عمارة، وهو ضعيف» وقيل إن له رأسا كرأس الحية ، يجثم على القلب ، فإذا ذكر العبد الله تعالى تنحى الشيطان وخنس ، أى : ابتعد كمن صدم أو أصابه شىء أبعده . والوسوسة : هى الإيحاء بالشر.

(٢) الجِنَّةُ: هم الجن، سموا بهذا لاستتارهم عن أعين الناس، ومنه: جنَّ عليه الليل، أى: ستره، ومنه الجَنين ؛ سمى بهذا لاستتاره فى بطن أمه.

(٣) حسد من باب نصر وضرب - حَسَداً : كره نعمة الله على غيره وتمنى زوالها ، وقد يسعى ليزيلها . قال تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾﴾ [الفلق] . أى : إذا حاول أن يزيل نعمة الله بمختلف الوسائل ونظرات الحاسد منبعها الحقد « القاموس القويم للقرآن الكريم » ص ١٥٣ .

والمثال هو قوله الحق : ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ .. (٩٦)﴾ [آل عمران]

وهذا القول الحق يحل لنا إشكالاً عاماً ، فالبيت الحرام موضوع لكل الناس ، من لَدُن [١] آدم ، وآدم هو أبو الناس.

ولا بد - إذن - أن يكون البيت موضوعاً قبل أن يكون آدم ، وأن الذى وضعه هو من غير الناس ، فالذى وضعه هو بأمر من الحق سبحانه ، فلا يقولن أحد: إن إبراهيم - عليه السلام - هو الذى وضع البيت الحرام ؛ لأن مهمة إبراهيم - عليه السلام - كانت هى رفع القواعد من البيت ؛ لأننا لو قلنا: إن ابراهيم - عليه السلام - هو الذى بنى البيت؛ فكيف ينسجم هذا مع قوله الحق:

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ [٢] مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ ... (١٢٧)﴾ [البقرة]

وهو قول نفهم منه أن إسماعيل كان شريكاً لوالده فى الرفع والبناء ، ولا بد أن يكون قد امتلك درجة من القوة تجعله قادراً على مساعدة الأب فى العمل.

وهذا القول أيضاً نفهم منه أن عملية رفع القواعد من البيت لم تتم وقت أن كان إسماعيل رضيعاً [٣]؛ لأن الحق سبحانه قال على لسان إبراهيم عليه السلام : ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ... (٣٧)﴾ [إبراهيم]

وهذا يعنى أن البيت كان موجوداً قبل ذلك.

---

(١) لَدُن : ظرف زمان ، والمراد : من زمن آدم عليه السلام .

(٢) القواعد: جمع قاعدة وهى السارية وأساس البناء.

(٣) كان عُمْر إسماعيل عليه السلام وقت رفع القواعد مع أبيه إبراهيم ١٣ سنة ، أما كونه كان رضيعاً فهو من الإسرائيليات المتلقاة عن أهل الكتاب.

وقولنا هذا يرد على بعض العلماء الذين قالوا: إن إبراهيم - عليه السلام - هو أول من بنى الكعبة فنقول لهم: وماذا عن الخلق البشرى من قبل إبراهيم إلى لَدُنْ آدم ؛ أليسوا ناساً ؛ فلماذا لم يكن لهؤلاء الناس من قبل إبراهيم بيتٌ محرّمٌ ؟

وهكذا شاء الحق سبحانه أن يكون البيت الحرام لكل الناس من لدن آدم ، وأنه موضوع من قِبَلِ الله .

وكلمة الناس - إذن - عامة حين يتعلق الأمر بحكم عام ، وتكون خاصة فى مواقع أخرى ، مثل قوله :

﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ... (٥٤)﴾ [النساء]

وأما سورة «الناس» التى قال بعض المستشرقين : إن فيها تكراراً . فالأمر ليس كذلك ، بل هيأ لهم ذلك عجزهم عن امتلاك ملكة فهم اللغة .

وحين نتناول كلمة «الناس» بالاستقراء [1] الدقيق فى هذه السورة ، نجد الحق سبحانه يقول: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١)﴾ [الناس]

وهذا إعلان للربوبية لكل الخلق ، فهو الرب الذى أوجد وأعطى الصفات لكل مخلوق .

ولا تحسب أنك تستطيع أن تشرد منه؛ فهو سبحانه يقول:

﴿مَلِكِ النَّاسِ (٢)﴾ [الناس]

أى: أنه يملك كل الخلق ، وجعل لهم الاختيار فى أشياء؛ ومنع عنهم

(١) الاستقراء: القراءة مع التفكير الدقيق فى النص؛ للوصول إلى المعنى المراد منه . وفى الاصطلاح: تتبع الجزئيات للوصول إلى نتيجة كلية . (المعجم الوسيط) .

الاختيار فى أشياء ، ولم يقل سبحانه : «مليك النَّاس» ؛ لأن هذا القول يعنى أنهم مجبورون على الإيمان ، ولا يسعهم غير هذا ، ولكن الله جعلهم مختارين فى الأمور التى هى مَنَاط للتكليف [(١)] ، وغير مختارين فى أمور هى ليست محلاً لهذا [(٢)] .

وأقول لأى واحد ممن تمرّدوا على الإيمان؛ فكفروا بالله ؛ أقول: أنت متمرّد على الله ، وتكفر به ، وتنكر الألوهية ، فلماذا لا تكون منطقيّاً مع نفسك ، وتتمرّد على كل الأحداث التى تصيبك ، فإن أصابك مرض ؛ قل له: لا ، لن أمرض.

فلا أحد يستطيع أن يدفع عن نفسه قدراً شاءه الله ؛ لأن الأحداث [(٣)] ستنال من كل إنسان ما قدره الله له.

إذن: فكل إنسان هو مملوك لله. وهكذا نجد الفرق بين أن يقول سبحانه:

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١) ﴾ [الناس]

وأن يقول : ﴿ مَلِكِ النَّاسِ (٢) ﴾ [الناس]

و«الناس» فى الآية الأولى هم المربوبون ، والناس فى الآية الثانية هم «المملوكون لله» فلا أحد يخرج عن قدرة الله فى الأمور القهرية.

وتأتى «الناس» فى الآية الثالثة: ﴿ إِلَـهِ النَّاسِ (٣) ﴾ [الناس]

---

(١) مناط للتكليف: أى محل وموضع للتكليف. مثل الإيمان أو عدمه ثم مقتضيات هذا الإيمان ولوازمه وشروطه. وهى أشياء جعل الله الإنسان مختاراً فيها، فله أن يؤمن أو يكفر. فإذا آمن فعليه أن يلتزم بمتطلبات هذا الإيمان، وهو وإن كان ملزماً بهذا إلا أن له الاختيار فى أن يفعل أو لا يفعل، وبموجب هذا يكون الثواب والعقاب فى الدنيا والآخرة.

(٢) أما الأمور التى يكون الإنسان فيها مجبراً غير مختار فهى التى تتعلق بوجوده فى هذه الحياة من زمن ميلاده ومكانه والظروف المحيطة به ورزقه وهيئته وخروجه من هذه الدنيا.

(٣) الأحداث: حوادث الدهر وحدثانه أى: نُوَبُه وما يحدث منه، واحدها حَدَثٌ؛ والحدث من أحداث الدهر: شبه النازلة والرزء والمصيبة.

لتؤكد أن الحق هو الإله المعبود بحق ، وهو الذى يقيك مما ستأتى به الآية الرابعة : ﴿مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿٤﴾﴾ [الناس]

والآية الخامسة : ﴿الَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ النَّاسِ ﴿٥﴾﴾ [الناس]

والوسواس الخناس: هو الذى يزين لك أفعال الشر فى أذنك، وهو خنّاس ؛ لأنه يخنس ساعة يسمع قولك : «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم [1]» وهو يوسوس فى صدور الناس الموَسْوَسِ إليهم.

وهكذا نجد أن كلمة «الناس» قد جاءت؛ لتعبر عن المربوبين ، والمملوكين ، والمألوهين ، والموسوس [2] إليهم ، وأن من يوسوِس قد يكون من الجن ، وقد يكون من الناس.

إذن: فليس هناك تكرار بل جاءت الكلمة الواحدة بمعنى يناسب كل موضع جاءت فيه.

والمثال من حياتنا - ولله المثل الأعلى - قد أكون معلِّماً متميزاً واختارتنى الكلية التى أقوم بالتدريس فيها لأكون رائداً للطلاب ، ورئيساً لجمعيتهم الصحفية ، ومشرفاً عليهم فى الرحلات ، ومراجعاً لتصحيح أوراق إجاباتهم ، وهكذا تكون كلمة «الطلاب» لها معنى مختلف فى كل موقع.

---

(١) الشيطان: فَيعال من شَطَنَ إذا بَعُد، وهو كل عاتٍ متمرد من الجن والإنس والدواب . والشاطن: الخبيث.

والرجم: الرمى بالحجارة. رجمه يرجمه رجماً، فهو مرجوم ورجيم، والرجم: اللعن ؛ ومنه «الشيطان الرجيم»، أى: المرجوم بالكواكب، صُرِفَ إلى فعيل من مفعول. والرجيم: الملعون، المرجوم باللعنة، المُبْعَد، المطرود. والرَّجم: ما رُجِمَ به، والجمع رُجوم . والرُّجْم والرُّجوم: النجوم التى تُرمى بها الشياطين : ﴿وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ .. ﴿٥﴾﴾ [الملك] .

(٢) الوسوسة والوسواس فى اللغة: الصوت الخفى الذى يشبه الهمس. وهو أيضاً صوت الحَلْى (وهو حُلى المرأة).

والحق يقول فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها : ﴿أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ [1] عِندَ رَبِّهِمْ ... (٢)﴾ [يونس]

والحديث موجه لمحمد ﷺ وهو الرسول الخاتم.

إذن: فالمراد بإنذار الناس هنا؛ هم جميع الناس.

وما المقصود بقوله : ﴿ بِأَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ...(٢)﴾ [يونس]

إن القدم [2] كما نعرفه : هو آلة السعى إلى الحركة ، كما أن اليد آلة الإعطاء؛ فتقول: فلان له يد عندى ، أو تقول: أنا لا أنسى أياديك علىّ حين يقدم لك صديق هدية ما ، وهو قد سار على قدميه؛ ليحضر لك الهدية ، ولكنه يناولك لها بيديه.

إذن: فكل جارحة [3] لها ظاهر فى الحركة ؛ وفى الأعمال. فالقدم تسعى إلى الأشياء ، واليد تتحرك فى العطاء ، والأذن فى السمع ، والعين فى الرؤية. وهكذا يكون معنى ﴿قَدَمَ صِدْقٍ﴾هو سابقة فضل ؛ لأنهم حين استمعوا إلى منهج الله ، وأدَّوْا مطلوبات هذا المنهج كما يحب الله ؛ فعليك

---

(١) قدم صدق: كل ما قدمت من خير. قال ابن قتيبة: أى : أن لهم عملاً صالحاً قدموه. وقدم الصدق: المنزلة الرفيعة والسابقة. ويقول ذو الرمة:

وَأَنْتَ امْرُؤٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِ ذُؤابة ... لَهُمْ قَدَمٌ مَعْرُوفَةٌ وَمَفَاخِرُ

(٢) القدم : ما يطأ الأرض من الرجل وجمعه أقدام قال تعالى : ﴿ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ .. (١١) ﴾ [الأنفال] وهنا بث روح الشجاعة فى نفوس المؤمنين . وقد يأتى اللفظ عن طريق الكناية فى قوله تعالى : ﴿ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالأَقْدَامِ .. (٤١) ﴾ [الرحمن] كناية عن شدة العذاب ، والقدم يستعمل مجازاً مرسلاً للمآثر والمكارم التى يقدمها أهل الخير كقوله تعالى : ﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ .. (٢) ﴾ [يونس] .

(٣) جارحة جمعها: جوارح، والمراد بها: أعضاء الجسم. وهى مأخوذة من الجرح بمعنى الكسب . جَرَح الشىء واجترحه: كسبه. كقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ .. (٦٠) ﴾ [الأنعام] ويقول سبحانه: ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ... (٢١) ﴾ [الجاثية]. جرحتم: كسبتم. واجترحتم: اكتسبتم.

يا محمد أن تبشرهم بالجنة. ، ذلك أن لهم سابق قدم ، سعى إلى الخير ، وهو قدم صدق.

لكن هل هناك ما يمكن أن نسميه «قدم كذب» ؟

نعم ، وهو ما يخلعه الأفاقون على تواريخ الناس ، فيصفونهم بما لم يكن فيهم ، وهكذا نفرق بين قدم الصدق وقدم الكذب.

قدم الصدق - إذن - هو سابقة فى الفضل أهّلتهم لأن يكونوا موضع البشارة ، فهم قد صدقوا المنهج ، وأعطوا من واعد حق. والصدق - كما نعلم - هو الخصلة التى لا يمكن لمؤمن أن يتنحى عنها ؛ لأنه لو تنّحى عنها ، فهذا يعنى التنحّى عن الإيمان. وحينما سئل رسول الله ﷺ: أيكون المؤمن جباناً ؟ فقال : نعم ، فقيل له: أيكون المؤمن بخيلاً ؟ فقال: نعم ، فقيل له: أيكون المؤمن كذاباً ؟

فقال : لا [1].

إذن: فالصدق هو جماع الخير. وعلى الصدق تدور الحركة النافعة فى الكون.

وحين يصدق التاجر فى ثمن الأشياء ؛ ويصدق العامل فى إخلاصه للعمل ؛ ويصدق الصحفى فى نقل الخبر ، ويصدق كل فرد فى المجتمع ، هنا يتكامل المجتمع وينسجم ؛ لأن الفساد فى الكون إنما ينشأ من الكذب ، والكذب هو الذى يخل بحركة الحياة.

لذلك أتى الله بكلمة الصدق فى القرآن فى أكثر من موضع ، فهو القائل : ﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا [2] بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ ...(٩٣) ﴾ [يونس]

---

(١) أخرجه الإمام مالك فى موطئه (ص ٩٩٠) من حديث صفوان بن سليم مرسلاً.

(٢) بَوَّأَ: أنزلَ وأسكن. والمُبَوَّأ: المكان الذى أنزلهم الله تعالى فيه.

فحين قالوا : ﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ ... ﴿٦١﴾﴾ [البقرة]

أنزلهم الله بمكان يحقق لهم ما طلبوا من طعام ، [(١)] فلم يخدعهم سبحانه ، ويأتى الحق مرة ثانية بكلمة الصدق فيقول :

﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ [(٢)] صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الشعراء]

أى : اجعل لى ذكْراً حسناً فيمن يأتون من بعدى ، فلا يقال فى تاريخى كلام كذب ، وألا يخلع علىَّ الناس ما ليس فىّ.

وقد قال الحق سبحانه وتعالى حينما تكلم عن الإنسان : ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ [(٣)] ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي [(٤)] أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾﴾ [الأحقاف]

---

(١) هؤلاء هم بنو إسرائيل بعد ما خرجوا من مصر وأنقذهم الله من فرعون وجنوده، وأنزل عليهم المن والسلوى طعاماً لهم، فقالوا: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾﴾ [البقرة].

(٢) اللسان معروف وهو فى تجويف الفم يحرك الطعام ويكيف الصوت وينوعه . قال تعالى : ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴿١٦﴾﴾ [القيامة] .

واللسان : أحد حواس الذوق والنطق . قال تعالى : ﴿وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾﴾ [البلد] واللسان : اللغة . قال تعالى : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ .. ﴿٢٢﴾﴾ [الروم] ولسان صدق : السمعة الطيبة والذكر الحسن .

(٣) الفصال : الفطام . والمعنى : أن مدى حمل المرأة إلى منتهى الوقت الذى يُفصَل فيه الولد عن رضاعها ثلاثون شهراً؛ وفصلت المرأة ولدها ، أى : فطمته . وفَصَل المولود عن الرضاع يفصله فصلاً وفصالاً وافتصله : فطمه .

(٤) أوزعنى : أى : ألهمنى ووفقنى إلى أن أشكر نعمتك . .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ (١٦)﴾ [الأحقاف]

ولماذا يصف الحق الوعد هنا بأنه وعد صدق ؟ لأن هناك من يعد الوعد الكاذب ، حين يعد أحدهم بما لا يملك ، أو أن تعد بما لا تقدر عليه ، أو أن تعد بما لا تمهلك الحياة لإنفاذه.

ولذلك قال الحق لنا : ﴿وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا (٢٣) إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ ... (٢٤)﴾ [الكهف]

إذن: لا بد لك أن تسبق أى وعد بمشيئة الله ؛ لأنك حين تَعد ؛ قد لا تملك إنفاذ ما وعدت به ، فقد تعد إنساناً بأن تلقاه فى الغد فى مكانٍ ما لتتحدثا فى أمرٍ ما.

ونقول: أضمنت أن تستمر حياتك إلى الغد ؟ هذا هو أول عنصر قد يُفقد ؛ ثم أضمنت أن تستمر حياته ؟ هذا هو العنصر الثانى الذى قد يُفقد ، ثم أضمنت ألا يتغير السبب الذى من أجله تلقاه ؟ ثم أضمنت إن اجتمعت كل هذه العناصر ألا تُغير أنت رأيك فى هذه المسألة ؟

إذن: لا تجازف بأن تعد بشىء ليس عندك عنصر من عناصر الوفاء له ، وأسند كل عمل إلى من يملك كل العناصر ، وقل :

﴿إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ ... (٢٤)﴾ [الكهف]

إذن: فوعد الصدق معناه أن يكون الوعد ممن هو قادر على أن يحققه قطعاً ، ولا تخرج [1] الأشياء مهما كانت عن قدرته ، ولم يترك الأشياء ؛

(١) مصداقاً لقوله تعالى : ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ .. (٥٨)﴾ [الفرقان] ، وقوله : ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ .. (١٥٩)﴾ [آل عمران] .

لأنه باق . ولن يتغير رأيه ؛ لأنه ليس حدثاً يتغير. بل بيده كل شيء وهو على كلِّ شيء قدير . وسبحانه وتعالى يقول : ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (٥٤) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ (٥٥)﴾ [القمر]

هكذا وعد الحق عباده المتقين [(١)] بأنهم سوف يقعدون فى حضرته مقعد صدق وهو المليك المقتدر. وسبحانه يقول: ﴿أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ ... (٨٠)﴾ [الإسراء]

أى: أدخلنى فى هذه البلدة مدخل صدق للغاية التى لا أستحى من أن أقولها ، لا أن أدخل بغرض أمام الناس وأنا أخفى غرضاً آخر ، وكذلك أخرجنى منها مخرج صدق.

إذن: فكلمة الصدق دائرة ﴿قَدَمَ صِدْقٍ﴾ و﴿مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾ و﴿مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ و﴿مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾ و ﴿مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ وكل هذا يُحببنا فى الصدق ؛ لأن كل أمور الحياة ؛ وفضائلها ؛ وخيراتها ، وما ينتظر الناس من سعادة ؛ كل ذلك قائم على كلمة الصدق [(٢)] .

وهنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها يقول الحق سبحانه: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ ... (٢)﴾ [يونس]

أى: أن لهم سابقة فَضْل عند ربهم يجازيهم بها ؛ لأنهم عملوا بمقتضى

---

(١) من هؤلاء المتقين الذين وردت السنة بأنهم فى مقاعد صدق عند الله عز وجل، المقسطون، فعن عبد الله ابن عمرو عن النبى ﷺ أنه قال: «إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن عز وجل، وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون فى حكمهم وأهليهم وحاولوا» أخرجه مسلم فى صحيحه (١٨٢٧) والنسائى فى سننه (٨/ ٢٢١).

(٢) عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « عليكم بالصدق ، فإن الصدق يهدى إلى البر ، وإن البر يهدى إلى الجنة ، وما زال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً . . » الحديث متفق عليه أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٠٩٤) ومسلم (٢٦٠٧) .

منهجه ، أما موقف الكافرين فهو مختلف ؛ لذلك يقول فيه الحق سبحانه :

﴿ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ (٢) ﴾ [يونس]

ولماذا جاء سبحانه بخبر الكافرين هنا رغم أن الموقف هو إنذار وبشارة ؟

ونقول : إن الرسول ﷺ حين أبلغ المنهج عن الله ، استقبله أهل الإيمان بالتصديق ، أما الكافرون فقد اختلف موقفهم ، فَاتَّهَمَ بعضهم رسول الله ﷺ بأنه ساحر [(١)] .

وجاء قول الحق على هذه الصورة المبينة بالآية ؛ لأن القرآن يحذف أشياء أحياناً [(٢)] ، لأن لباقة السامع ستنتهى إليها ، فلا يريد أن يكرر القول . وانظر إلى قصة بلقيس ، حيث نجد الهدهد يقول لسيدنا سليمان :

﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ ... (٢٢) ﴾ [النمل]

هذا هو الهدهد وهو المخلوق الأقل من سليمان عليه السلام يقول له : لقد عرفت ما لم تعرفه أنت ، وكأن هذا القول قد جاء ؛ ليعلمنا حسن الأدب مع من هو دوننا ، فهو يهب لمن دوننا ما يُعَلِّمُه لنا ، ألم يُعلِّمنا الغراب كيف نوارى سوأة الميت ؟

---

(١) اختلف الكافرون فيما بينهم فى الوصف الذى يريدون إطلاقه على محمد ﷺ لتشويه صورته أمام وفود الحجيج القادمة فى الموسم فأرادوا أن يجمعوا على رأى فيه ، أورد ابن هشام فى السيرة النبوية (١/ ٢٧٠) : «اجتمع نفر من قريش إلى الوليد بن المغيرة ، وكان ذا سن فيهم ، وقد حضر الموسم فقال لهم : يا معشر قريش ، إنه قد حضر هذا الموسم ، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه ، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا ، فأجمعوا فيه رأياً واحداً ، ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضاً ، ويرد قولكم بعضه بعضاً ، قالوا : فأنت يا أبا عبد شمس ، فقل وأقم لنا رأياً نقول به ، وانتهى الأمر على القول بأنه ساحر رغم التناقض فيما بينهم .

(٢) الحذف هو نوع من أنواع الإيجاز ، ويكون حسناً لقوة الدلالة عليه ، أو يقصد به تعديد أشياء ، فيكون فى تعدادها طول وسآمة ، فيحذف ويكتفى بدلالة الحال ، وتترك النفس تجول فى الأشياء المكتفى بالحال عن ذكرها .

﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ ...(٣١)﴾ [المائدة]

ويقول قابيل : ﴿يَا وَيْلَتَىٰ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ [(١)] أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ (٣١)﴾ [المائدة]

وهكذا يتعلم الإنسان ممن هو دونه ، وممن سخره الله له . وانظر كيف أبرز لنا الله أن الأدنى إن رأى خبراً ، لا بد أن يبلغه للأعلى ، فتتحقق سيولة المعلومات ، التى يتخذ الأعلى على ضوئها القرار المناسب ؛ فالهدهد يقول لسيدنا سليمان : ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ [(٢)] بِنَبَإٍ يَقِينٍ (٢٢)﴾ [النمل]

ويتخذ سليمان قراراً ينفذه الهدهد : ﴿اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ (٢٨)﴾ [النمل]

وتتتابع الحكاية من بعد ذلك فيقول الحق : ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (٢٩)﴾ [النمل]

فكأن الهدهد أخذ الكتاب وألقاه إلى بلقيس فلما قرأته ؛ جمعت قومها ؛ لتخبرهم. وهكذا حذف القرآن بعضاً من التفاصيل التى إن رُويت تكون تكراراً ، ولكن جاءت المسألة بهذه الصورة ؛ ليدلنا الحق على أن أوامر التلقى كانت سريعة بحيث لا يوجد فاصل بين الأمر وتنفيذ الأمر ، فالتحم الأمران معاً.

---

(١) السوأة فى اللغة : العورة . والسوأة : الفَرْج . قال تعالى : ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا ... (٢٠)﴾ [الأعراف] وقال : ﴿بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا ...(٢٢)﴾ [الأعراف] وقال : ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ ... (٢٦)﴾[الأعراف]. والمراد بالسوأة هنا : جسم الميت (قابيل).

(٢) سبأ : اسم بلدة باليمن كانت تملكها بلقيس ، وهى مدينة تعرف بمأرب قريبة من صنعاء .
وسبأ : اسم رجل يجمع عامة قبائل اليمن ، وهو « سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان » .

إذن : فقوله الحق : ﴿ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ (٢) ﴾ [يونس]

جاء منسجماً مع ما يُفهم من النص ، فهم لم يقولوا ذلك الاتهام إلا بعد أن بلغهم ﷺ أن الله قال له : بَشِّر وأنذر ، فلما بشَّر وأنذر ، جاء قولهم بأن الرسول ساحر ، وهكذا نفهم كيف تكوَّن موقفهم هذا من سياق الآية ؛ لأنهم لم يقولوا ذلك إلا بعد بلاغ الإنذار ، أو بلاغ البشارة.

وهكذا نجد أن القرآن قد لا يذكر الأشياء التى إذا سمع السامع الأسلوب أخذها من نفسه دون أن يتطلبها كلام منطوق ، ومثل هذا الأمر جاء فى لقطة أخرى فى قصة سبأ ، فبعد أن ائتمر الهدهد بأمر سليمان وذهب بالكتاب فألقاه إلى ملكة سبأ ، وقرأته ، وجمعت القوم ؛ لتأخذ رأيهم فيما تفعله مع سليمان ، فكان من أمرها معهم ما ذكره القرآن [(١)] ثم علم سيدنا سليمان بأمر مقدمها مع قومها [(٢)] ، فنجد سيدنا سليمان عليه السلام يسأل من حوله :

﴿ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣٨) ﴾ [النمل]

---

(١) قال سبحانه : ﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (٢٩) إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣٠) أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣١) قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ (٣٢) قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ (٣٣) قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ (٣٤) ﴾ [النمل] .

(٢) وذلك أن بلقيس قالت لقومها : ﴿ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ (٣٥) ﴾ [النمل] ثم جاءها رد سليمان على هديتها حيث قال : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ (٣٦) ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ (٣٧) ﴾ [النمل] حينئذ قالت بلقيس : قد والله عرفت ما هذا بملك ومالنا به من طاقة ، وما نصنع بمكابرته شيئاً ، وبعثت إليه : إنى قادمة عليك بملوك قومى لأنظر ما أمرك ؛ وما تدعونا إليه من دينك . ثم أمرت بسرير ملكها الذى كانت تجلس عليه ، وكان من ذهب مفصص بالياقوت والزبرجد واللؤلؤ فجعل فى سبعة أبيات بعضها فى بعض ثم أقفلت عليه الأبواب . ذكره ابن كثير فى تفسيره (٣/ ٣٦٣) .

إذن : فهو قد عَلم أنهم مُقبلون عليه بالإسلام ، فأراد أن ينقل العرش من مملكتها إلى مملكته ؛ قبل أن يجيئوا ، وماداموا قادمين فى الطريق ، فعلى من يذهب ليفك العرش وينقله ، لا بد أن تكون له طاقة تفوق قدرة الإنسان العادى ؛ ولذلك لم يتكلم الإنس العادى ، لكن الذى تكلم جنى غير عادى ، ذكى ، فمن الجن من يتميز بالذكاء ، ومنهم غير ذلك.

وجاء قول الحق سبحانه : ﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ [1] مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (٣٩) ﴾ [النمل]

ومقام سليمان مع قومه قد يستمر ساعة أو ساعتين أو ثلاث ساعات [2] . وسيدنا سليمان يريد التعجيل بنقل عرش بلقيس ، لذلك تجده يستمع إلى من عنده علم من الكتاب : ﴿ قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ [3] أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ .. (٤٠) ﴾ [النمل]

ألم يكن مثل هذا القول يحتاج إلى إذن من سيدنا سليمان ، وأن يقول سليمان اذهب فيذهب ويحل العرش ويعود به ؟ نعم ، الأمر يحتاج كل ذلك ، ولكن القرآن جاء بالقصة فى تصوير متتابع للسرعة ، وجاء القرآن بخبر العرش ، وقد جاء إلى حيث يجلس سليمان عليه السلام :

﴿ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ .. (٤٠) ﴾ [النمل]

---

(١) العفريت : الشديد القوى . وقد يكون من الإنس أو من الجن . وقيل : إن اسمه كوزن وإنه كان كأنه جبل من ضخامة جسمه وقوته .

(٢) قال السدى وغيره : كان سليمان يجلس للناس للقضاء والحكومات من أول النهار إلى أن تزول الشمس .

(٣) هو آصف بن برخياء كاتب سليمان ، وكان صدِّيقاً يعلم الاسم الأعظم . قيل : إنه قال : ياذا الجلال والإكرام . وقيل : إنه قال : يا إلهنا وإله كل شىء إلهاً واحداً لا إله إلا أنت ائتنى بعرشها . قاله مجاهد فيما نقله ابن كثير عنه فى تفسيره (٣/ ٣٦٤) .

وهكذا حذف التفاصيل التى يسهل معرفتها ، والتى وقعت بين قول مَنْ عنده علم من الكتاب ، وبين تنفيذ نقل عرش بلقيس.

وكذلك حذف القرآن قدراً من الأحداث فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها ، فعندما بلَّغهم رسول الله الإنذار ، هنا قال الكافرون: ﴿ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ [1] مُّبِينٌ ﴿٢﴾ ﴾ [يونس]

وقد قال الكافرون هذا الاتهام أكثر من مرة ، فمرة يقولون عن القرآن : إنه سحر ، ومرة يقولون عن محمد : إنه ساحر [2]. ولنسأل : ما معنى كلمة ساحر ؟ إن الساحر هو الذى يصنع أشياء ، ويوهمك أنها حقيقة ؛ وهى ليست بحقيقة.

ولذلك يجب أن نفرق بين السحر وبين معجزة موسى ، حتى لا يقال : إن معجزة موسى عليه السلام وهى العصا كانت من جنس ما برع فيه سحرة فرعون ، صحيح أنها من جنس ما برع فيه قوم فرعون ، ولكنها ليست سحراً ؛ لأن الحق شاء أن يُغير من حقيقة العصا فجعلها أفعى ، أما سحر قوم فرعون [3] فهو لا يغير حقيقة الأشياء ، بل يوهم مَنْ يراها بأنها تغيرت.

---

(١) وردت الآية بقراءتين ، فقد قرأها ابن محيصن والكوفيون عاصم وحمزة والكسائى « لساحر » وصفاً لرسول الله ﷺ. وقرأها الباقون (لسحر) وصفاً للقرآن. نقله القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٢٣٣). والقراءتان مؤداهما واحد.

(٢) اتهم الكفار القرآن بأنه سحر فى بضع آيات من القرآن:
- ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ ﴾ [سبأ].
- ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الزخرف].
- ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ ﴾ [الأحقاف].
* وفى آيات أخرى اتهموا محمداً ﷺ بأنه ساحر:
- ﴿ وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ ﴾ [ص].

(٣) سحر قوم فرعون هو من نوع سحر التخييل والأخذ بالعيون والشعبذة، ومبناه على أن البصر قد يخطىء ويشتغل بالشىء المعين دون غيره، ولذلك قال تعالى: ﴿ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ ﴾ [طه].

والسحر يقتضى ساحراً ، ويقتضى مسحوراً ، ويقتضى عملية السحر ذاتها . أما عن الساحر فهو الذات التى تقوم بعملية السحر .

ويقول الحق عن السحرة : ﴿ سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ ... (١١٦) ﴾ [الأعراف]

أى : سحروا الأعين التى ترى الأمر المسحور على غير حقيقته ، رغم بقاء الشىء المسحور على حقيقته .

إذن : فهم قد أوهموا المسحورين بغير واقع ، لكن المعجزة - معجزة موسى - ليست كذلك ؛ لأنها لا تُغير من الرائى ، بل تغير من [(١)] حقيقة المرئى فعلاً . وقد دَلَّنا القرآن على حقيقة هذه المسألة بالتجربة العملية حين اختار الله موسى وقال له : ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ (١٧) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ [(٢)] بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ [(٣)] أُخْرَىٰ (١٨) ﴾ [طه]

وحين أمر الحق سبحانه موسى بإلقاء العصا ، رآها موسى عليه السلام حيّةً تسعى :

﴿ قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ (١٩) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ (٢٠) ﴾ [طه]

فعندما رأى موسى عصاه ، قد تحوَّلتْ إلى حية تسعى على الأرض ، فرَّ هارباً خائفاً ، ولكن الله أراد أن يثبّت قلبه ويؤمنه إعداداً له للموقف الذى سيقفه فيما بعد أمام سحرة فرعون فقال له رب العزة : ﴿ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ (٢١) ﴾ [طه]

---

(١) السحر : هو التأثير الشديد ، فإن كان من المخلوق فهو تخيل وحيل ، وإن كان من الخالق فهو إعجاز وتغيير ماهية الشىء بقدرته ، والسحر يطلق على الشىء الجميل المؤثر مصداقاً لحديث رسول الله ﷺ « إن من البيان لسحراً ، وإن من الشعر لحكمة » وقد يكون السحر بحاسة من الحواس فيقال : عينه ساحرة وكلامه ساحر ، وقد يكون بالتناسق العام فى المخلوقات التى أبدعها الله .

(٢) ﴿ وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي (١٨) ﴾ [طه] أى : أهز بها الشجرة ليتساقط ورقها لترعاه غنمى . نقله ابن كثير فى تفسيره (٣/ ١٤٥) .

(٣) مآرب أخرى : مصالح ومنافع وحاجات أخرى غير ذلك .

إذن : فلم يكن هناك سحر فى عينى موسى ، ولكن كان هناك تغيُّر فعلىّ فى حقيقة العصا . فلما خاف طمأنه الحق سبحانه وأمره بأن يلتقط العصا ؛ لأنها ستعود - بإذن الله - إلى سيرتها الأولى . والدليل على أن التغير قد حدث فى حقيقة العصا ، أن السحرة الذين جمعهم فرعون من كل مكان ، ووقفوا فى منافسة مع سيدنا موسى ، وقالوا له : ﴿ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ (٦٥) ﴾ [طه]

وقبل موسى عليه السلام التحدى ، وتجد القرآن يصور المسألة فيقول : ﴿ قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ (٦٦) ﴾ [طه]

وقوله : ﴿ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ ﴾ يعنى : أن الحبال والعصى لم تتغير حقيقتها ولم تسعَ . وما إن رمى موسى عصاه حتى تحولت إلى حية فعْليّة تلقف ما صنعوا ، وهذا ما جعل السحرة يسجدون ويعلنون الإيمان ؛ لأنهم رأوا حقيقة واضحة ، وهى أن العصا قد تحولت بالفعل إلى حية .

إذن : فالساحر [1] يرى الشىء على حقيقته ، والمسحور هو الذى تتغير رؤيته إلى الشىء ، فيُخيَّل إليه أنه شىء آخر ؛ ولذلك لم يقل أحد : إن موسى تعلّم السحر ، وإن من علّمه غلبهم ، لا ، بل عرفوا أنها مسألة أكبر من طاقة البشر ؛ لأن حقيقة العصا نفسها قد تغيرت ، فقالوا :

﴿ آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ (٧٠) ﴾ [طه]

ولم يقولوا : آمنا بموسى .

---

(١) الساحر اسم فاعل ، قال تعالى : ﴿ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ .. (٦٩) ﴾ [طه] والمسحور والمسُحَّر مَنْ به صرع أو جنون يظن الناس أنه من عمل الساحر ، والسحار صيغة مبالغة مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ (٣٧) ﴾ [الشعراء] والسحر : الجزء الأخير من الليل حتى مطلع الفجر وجمعه أسحار قال تعالى : ﴿ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ .. (١٧) ﴾ [آل عمران] .

إذن : فالتخييل إنما يحدث فى عينى المسحور. أقول ذلك حتى نفهم غباء كفار قريش حين اتهموا رسول الله ﷺ بأنه ساحر ، يسحر الناس ، فيخرج الولد على أبيه ، وأهله . ويجعل العبيد يتمردون على سادتهم . ولو كان رسول الله ساحراً ، فلماذا لم يُسحَر من قالوا هذا الاتهام . وبقاء من يقول بمثل هذا الاتهام دليل على أن مسألة الإيمان بالمنهج وبالرسول لا علاقة لها بالسحر .

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ ﴾

ومن بعد ذلك يرد الحق على حكاية العجب من أن الله أوحى لرسوله ، وكذلك مسألة اتهام الرسول بالسحر ، فيلفتهم إلى قضية فوق هذه القضية ، وأنهم كان عليهم أن يروا العجب فى غير مسألة الوحى إلى الرسول ﷺ .

أى : كان عليكم أن تروا هذه المسألة العجيبة ، وهى خلق السموات والأرض وتتأملوا صنعها [1] ، وكيف حدثت ؟

وإذا كان الله هو الذى خلق السموات والأرض ، وجعلك أيها الإنسان تطرأ على عالم ، وعلى كون معّد لك إعداداً دقيقاً ، فكان يجب أن تلتفت إلى هذه المسألة قبل أى شىء آخر.

---

(١) القرآن الكريم مثبوت بالآيات التى تدعو إلى التفكر والتأمل فى خلق السموات والأرض وما بينهما ، فيقول عز وجل : ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ ﴾ [الغاشية] .

وضربنا من قبل المثل ، وقلنا : هَبْ أن إنساناً ركب طائرة ، ثم نفد وقودها وسقطت فى الصحراء ، وكُتبت له النجاة وتلفَّت حوله فلم يجد ماء أو طعاماً أو أى دليل من أدلة الحياة ، ثم غلبه النوم ، فلما استيقظ من نومه ، وجد مائدة عليها من أطايب الطعام ، وأطايب الشراب ، أما كان يسأل نفسه قبل أن يأكل ويشرب : من الذى صنع وأحضر كل هذا الطعام ، وكل هذا الشراب ؟

وهذا الكون قد أعدَّ لك أيها الإنسان ، أما كان يصح أن تفكر فيمن أعدَّ لك هذا الكون ، وخلق لك كل ما ليس فى متناول قدرتك ، وسخّر كل ذلك لك ؟ وقد أبلغك الحق : أنا خلقت السماء ، وخلقت الأرض ، والشمس ، والنجوم ، وحين وصلك هذا البلاغ ، فإما أن يكون صدقاً ، فلتنفذ ما أمر به الخالق. وإن لم يكن هذا الكلام صدقاً ، فمن الذى خلق إذن ؟ إن كان هناك إله غيره قد خلق الكون ، وسمع مثل هذا البلاغ ، ولم يتحرك لبيان صدق المسألة ، لما كان هذا الآخر يستحق أن يكون إلها [1] .

وما دام لم يظهر معارض له سبحانه ، فهو الخالق ؛ لأن الدعوى إذا ما صدرت من واحد ، ولم يظهر لها معارض ، فصاحبها هو من أصدرها إلى أن يوجد له معارض.

وقد ضربنا مثلاً ، فقلنا : هَبْ أن جماعة من أصدقائك جاءوا

---

(١) وقد أكد رب العزة سبحانه على هذا المعنى فى كثير من الآيات قائلاً سبحانه وتعالى فى سورة النمل : ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (٦٠) أَمَّن جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٦١) أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ (٦٢) أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٣) أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٦٤) ﴾ [النمل] . وقال تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا .. (٢٢) ﴾ [الأنبياء] .

لزيارتك ، ثم خرجوا من عندك ، ووجدت أنت حافظة نقود ، ولم تعرف لمن هى ، ثم بعثت بخادمك ؛ ليسأل من كانوا فى زيارتك ، وقال كل واحد منهم : إن حافظة نقوده لم تضعْ منه ، إلا واحداً قال : نعم ، هى حافظة نقودى . وهكذا تثبت ملكية هذا القائل لحافظة النقود ، إلى أن يثبت العكس.

والحال هنا هكذا ، فحين أبلغنا الحق أنه خلق السماء والأرض والشمس والقمر والنجوم وجعل فى الأرض رزق البشر ، ولم يعارضه أحد ، إذن : يجب أن نصدق أنه الخالق.

وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد خلق لكم كل هذا الكون مُسخَّراً [1] أفلا تتركون له حرية أن يختار رسولاً منكم إليكم ؟ فما وجه الاعتراض إذن ؟

يكشف الحق منطقهم حين قالوا :

﴿ لَوْلاَ نُزِّلَ هَذَا الْقُرآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) ﴾ [الزخرف]

إذن : هم قد اعترفوا أن القرآن لا غبار عليه ، لكنهم ساخطون ويعيشون فى ضيق ؛ لأن هذا القرآن قد جاء على يد يتيم أبى طالب [2] .

ويكشفهم الحق أيضاً فيأتى بما جاء على ألسنتهم : ﴿ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ ..(٣٢) ﴾ [الأنفال]

---

(١) مسخراً : أى : مذللاً ومقهوراً لخدمة الآدميين، ومنه قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ (٣٢) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٣٣) ﴾ [إبراهيم] .

(٢) مما قاله المشركون فى هذا : ما وجد الله من يرسله إلا يتيم أبى طالب، فنزلت : ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ ...(٢) ﴾ [يونس]. نقله القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٢٣٢).

ولم يقولوا : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا .

فالعداوة هى لرسول الله ، وهى عداوة حاقدة غير منطقية ؛ لأن كل واحد منكم كان إذا ملك شيئاً نفيساً عزيزاً عليه ، فهو لا يجد أميناً عليه إلا محمداً .

إذن : فلماذا لا تغشون أنفسكم فى مسألة استئمان محمد على الأشياء النفيسة ، ولو كنتم غير مؤمنين بصدقه . فلماذا استأمنتموه على نفائسكم ؟ أليس هو محمد بن عبد الله الذى هاجر وترك علىَّ بن أبى طالب ؛ ليرد الأمانات لأصحابها ؟

إذن : فلا محمد دون مستوى الرسالة والأمانة ، ولا القرآن دون المستوى ، بشهادتكم أنتم ؛ بشهادتى القول والفعل .

وهنا يقول الحق : ﴿ **إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ...** (٣) ﴾ [يونس]

وفى موقع آخر بالقرآن يقول سبحانه : ﴿ **لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ** (٥٧) ﴾ [غافر]

وما دام هذا الخلق العجيب قد صدر منه ، فالتصرفات التى دون ذلك لا بد أن تكون مقبولة منه سبحانه وتعالى ، وأن تكون لحكمة ما . وتعالوا نتحاكم إلى أنفسكم ، أنتم تقولون : ﴿ **لَوْلاَ نُزِّلَ هَذَا الْقُرآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ** (١) **عَظِيمٍ** (٣١) ﴾ [الزخرف]

إذن : لا شك عندكم فى أن القرآن لا طَعْنَ فيه ، بل تطعنون فى مسألة

---

(١) يقصد بالقريتين هنا : مكة والطائف . واختلفت الأقوال فى تحديد هذين الرجلين ، فقيل : إنهما الوليد ابن المغيرة ، وعروة بن مسعود الثقفى . وقيل : إنهما عمير بن عمرو بن مسعود ، وعتبة بن ربيعة . وقيل : ابن عبد ياليل . والمقصود أنه رجل كبير من أى البلدتين كان . انظر ابن كثير (٤/ ١٢٧) .

أنه جاء على يد محمد ﷺ ، وتمنيتم لو أن القرآن قد جاء على يد واحد آخر تقبلونه. وأنتم فى هذه المسألة غير منطقيين ؛ لأنكم تريدون أن تتدخلوا فى قسمة الله ورحمته فى أن يُنزِل الوحى على من تشاءون ، لا من يشاء هو سبحانه.

وأنتم بذلك تريدون أن تتحكموا فى الرحمة العليا من الله فى أن يختار رسولاً ؛ ليبلغكم عنه. وتتناسون أنكم فى هذه الدنيا لا تقسمون الأرزاق ؛ لذلك يقول الحق : ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ..(٣٢)﴾ [الزخرف]

فإذا كنتم تريدون أن تقسموا رحمة الله ، فاعلموا هذا القول من الله : ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ..(٣٢)﴾ [الزخرف]

وهذا الأمر السهل ؛ تقسيم المعيشة فى الحياة الدنيا تصرف فيه الحق سبحانه[1] ، فكيف لكم - إذن - أن تطمعوا فى تقسيم الأمر العلوى وهو رحمة الله العليا فى أن يرسل رسولاً.

والحق سبحانه يقول فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها : ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ﴾ .

وساعة تسمع كلمة «رب» ينصرف الذهن إلى الخلق وإلى التربية ، ولذلك نحن نستعمل هذه الكلمة ونقول : «فلان رب هذه الأسرة» أى : أنه المتولى تربيتها ، وكلمة «الرب» بمعناها المطلق تنصرف إلى الله[2] ، فهو

(١) عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله قسم بينكم أخلاقكم، كما قسم بينكم أرزاقكم، وإن الله عز وجل يعطى الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطى الدين إلا لمن أحب» أخرجه أحمد فى مسنده (١/ ٣٨٧) والحاكم فى مستدركه (١/ ٣٣) (٢/ ٤٤٧) (٤/ ١٦٥) وصححه ووافقه الذهبى، وعزاه الهيثمى فى مجمع الزوائد (١٠/ ٢٢٨) لأحمد وقال: رجاله وثقوا وفى بعضهم خلاف.

(٢) الرب فى اللغة يطلق على: المالك، والسيد، والمدبر، والمربى، والقيم، والمنعم والصاحب . ولا يطلق غير مضاف إلا على الله عز وجل، وإذا أطلق على غيره أضيف، فيقال: رب كذا، مثل رب الإبل، رب الغُنَيْمة. انظر لسان العرب.

الخالق الذى خلق من عَدَم وأمدَّ من عُدْمٍ [١] ، وهو بهذا الوصف ربّ لكل خلقه : المؤمن والكافر ، والطائع والعاصى.

وما دام الله سبحانه ربّاً لكل الخلق ، فهو الرازق لكل خلقه ، فهو الذى استدعى خلقه إلى هذه الدنيا ، وهو الذى يعطى كل مخلوق الرزق الذى كتبه الله له ، وهو سبحانه يأمر نواميس [٢] الكون وأسبابه أن تعطى له أو لا تعطى ، فإن زرع الأرض وأحسن زراعتها ؛ أعطى سبحانه الأمر للأرض أن تعطى هذا المخلوق الرزق.

وكل مخلوق يأخذ بالأسباب ، يوفر له الحق النجاح فى الأسباب.

وأقول دائماً لمن يرون تقدم الكفار فى أمور الدنيا ، ويتساءلون : لماذا يتقدم الكفار فى أمور الدنيا ونتأخر نحن ؟ أقول لهم : لقد أخذوا من عطاء الربوبية فى الأسباب ، وأنتم لم تأخذوا من عطاء الربوبية. وعليكم أيها المسلمون أن تأخذوا بالأسباب ، وهى عطاء الربوبية ؛ حتى لا يسبقكم الكافرون إليها ، ولا تجلسوا فى موقع المتفرج ، بل المفروض فيكم أن تسبقوا الكفار إلى عطاء الربوبية.

أما عطاء الألوهية ، وهو أن يُقرَّ الإنسان بأن الله هو المعبود بحق ، وهو المطاع فى «افعل» و«لا تفعل» ، فهذا العطاء لا يناله إلا مَنْ آمن به.

اذن : فالله رب الجميع ، ولكنه إله مَنْ آمن به. إذن : هناك فارق بين

---

(١) العَدَمُ، والعُدْمُ، والعُدُمُ : فقدان الشىء وانعدامه. وهذه المادة لم تردْ فى القرآن، بل جاء بمعناه مثل قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ۝١﴾ [الإنسان].

(٢) نواميس الكون: الأسرار التى أودعها الله فى الكون، من قوانين تنظم حركة أجزائه ومكوناته. والناموس أيضًا: صاحب سر الملك أو الرجل الذى يطلعه على سره وباطن أمره ويخصه بما يستره عن غيره. ومنه الناموس: جبريل؛ لأن الله تعالى خصه بالوحى والغيب اللذين لا يطلّع عليهما غيره.

عطاء الإله ، وهو المنهج المتمثل فى «افعل» و«لا تفعل» ، وعطاء الربوبية المتمثل فى الأمور المادية وهى شركة بين كل الناس: المؤمن والكافر، والطائع والعاصى . وحين يُحسن الكافرُ الأخذ بالأسباب ؛ فهو يأخذ نتائجها.

والحق سبحانه هو القائل :

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ (٢٠)﴾ [الشورى]

إذن : فواجب على المؤمنين أن يستقبلوا عطاء الربوبية بحسن الأخذ بالأسباب ؛ ليأخذوا النتيجة ، ولا يتقدم أهل الكفر عليهم ؛ لأن الكافر حين يسبقك فى الأخذ بالأسباب ، ربما استغل هذه المسألة فى أن يفرض عليك ما يخالف دينك.

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ ... (٣)﴾ [يونس]

أى : أن الذى ربَّى ، هو الذى كلَّف ، ويجب أن تستمعوا إلى منهجه.

ثم يقول سبحانه : ﴿ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ... (٣)﴾ [يونس]

وكلمة ﴿سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ هذه وردت فى كل آيات القرآن التى تحدثت عن زمن مدة الخلق للأرض والسموات ، لكن هناك آية جاءت بتفصيل ويظهر من أسلوبها أن الخلق قد استغرق ثمانية أيام ، وهى فى سورة فصلت :

﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ [1] وَتَجْعَلُونَ لَهُ

(١) «يوما خلق الأرض من جملة الأربعة بعدهما، والمعنى فى تتمة أربعة أيام، وهى مع يومىْ خلق السموات ستة أيام. . يوم الأحد والاثنين لخلق الأرض، ويوم الثلاثاء والأربعاء للجعل المذكور فى الآية وما بعده، ويوم الخميس والجمعة لخلق السموات» قاله أبو يحيى زكريا الأنصارى فى كتابه «فتح الرحمن بكشف ما يلتبس فى القرآن» ص ٣٧٣. وانظر ابن كثير (٤/ ٩٣).

أَندَادًا [١] ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ [٢] مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا [٣] فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ [فصلت]

وهذه ستة أيام.

ثم يقول سبحانه : ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ [٤] سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾ [فصلت]

وهكذا يكون المجموع ثمانية أيام ، وهذا هو الفهم السطحى ؛ لأن آيات الإجمال جاءت كلها بخبر الخلق فى ستة أيام. وتعلم أن كل مُجمل يفسره مُفصَّله إلا العدد ؛ فإن مفصَّله محمول على مجمله ، فالأرض خلقها الله فى يومين ، وجعل فيها رواسى ، وبارك فيها ، وكل مخلوق ثان هو تَتمَّة للأول ، فاليومان الأولان إنما يدخلان فى الأربعة الأيام ، وأخذت بقية الخلق اليومين الأخيرين ، فصار المجموع ستة أيام.

إذن : فالزمن تتمة الزمن. ولذلك تجد أن اليوم على كوكب الزهرة أطول من عامها ؛ لأن عامها بتوقيت الأرض هو مائتان وخمسة وعشرون يوماً ، أما طول اليوم فيها فهو بتوقيت الأرض مائتان وأربعة وأربعون يومًا.

إذن : فاليوم على كوكب الزهرة أطول من العام فيها. والسر فى ذلك أن كوكب الزهرة يخضع لدورة تختلف فى سرعتها عن سرعة الدورة التى

---

(١) الأنداد : جمع ندّ ، وهو الشبيه والنظير والمثيل. والأنداد : الأصنام المعبودة من دون الله .

(٢) الرواسي : الجبال الثابتة الراسخة. وقد تحدث رب العزة عن حكمة خلق هذه الجبال فقال سبحانه : ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ ﴿٣١﴾﴾ [الأنبياء] أى : لئلا تتحرك بهم وتضطرب ، فلا يصلح لهم عيش عليها.

(٣) الأقوات : جمع قوت وهو ما يقوم به بدن الإنسان من الطعام والمقصود به الرزق مطلقاً.

(٤) قضى الشيء قضاء : صنعه وقدَّره. فقضاهن هنا بمعنى : خلقهن وعملهن وصنعهن وقطعهن وأحكم خلقهن.

تخضع لها الأرض ، فدورة كوكب الزهرة حول نفسه بطيئة، ودورته حول الشمس سريعة.

إذن : فكل كائن له نظام.

وما هو اليوم إذن ؟ اليوم فى اعتبارنا هو دورة الأرض حول نفسها دورة يتحقق فيها الليل والنهار. ولكننا نجد القرآن الكريم يطلق كلمة اليوم ويفصلها عن الليل ، فيقول سبحانه : ﴿ **سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا** ... (١٨) ﴾ [سبأ]

وهنا جعل الحق اليوم للضوء والكدح ، والليل للظُّلمة والراحة. والحساب الفلكى يسمى الليل والنهار يوماً.

ويبين القرآن لنا أن هناك يوماً للدنيا ، ويوما للآخرة ، ويوم الدنيا هو ما نحسبه نحن من شروق إلى شروق آخر ، وكذلك هناك يوم عند الله هو بحساب الدنيا يقدر بألف سنة مما يحسبه البشر : ﴿ **وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ** (٤٧) ﴾ [الحج]

ويقول الحق فى موضع آخر : ﴿ **تَعْرُجُ** (١) **الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ** (٢) **إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ** (٤) ﴾ [المعارج]

إذن : فالأزمنة متعددة ، ومنوعة ، وتختلف من قياس إلى آخر ، ومن

---

(١) تعرج، أى: تصعد. عرج يعرُج عروجاً. وفيه ﴿ مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ (٣) ﴾ [المعارج]؛ المعارج: المصاعد والدرج. قال قتادة: ذى المعارج أى: ذى الفواضل والنعم. وقيل: معارج الملائكة هي مصاعدها التى تصعد وتعرج فيها. وقال الفرّاء: ذى المعارج من نعت الله ؛ لأن الملائكة تعرج إلى الله، فوصف نفسه بذلك. والقرّاء كلهم على التاء فى قوله: ﴿ تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ .. (٤) ﴾ [المعارج] إلا ما ذكر عن عبد الله ، وكذلك قرأ الكسائى.

(٢) للمفسرين فى لفظ الروح فى الآية هنا عدة أقوال هى:

١- جبريل، ويكون من باب عطف الخاص على العام (أى: الملائكة المذكورين قبله).

٢- اسم جنس لأرواح بنى آدم، فإنها إذا قبضت يصعد بها إلى السماء.

٣- خلق من خلق الله يشبهون الناس وليسوا أناساً.

كوكب إلى آخر. وما أظهره الله لنا فى القرآن من الأزمنة إنما يدل على اختلافها ، لا على التعارض والتناقض [(١)].

ثم يقول الحق سبحانه فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها : ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ ووقف العلماء عند كلمة «اسْتَوَى» [(٢)] طويلاً ، واستعرضوا القرآن كله ؛ ليحصروها فى كتاب الله ؛ فوجدوها قد جاءت فى اثنتى عشرة سورة : البقرة والأعراف ويونس والرعد وطه والفرقان والقصص والسجدة وفصلت والفتح والنجم والحديد.

وأول سورة جاء فيها ذكر استواء الله على العرش هى «الأعراف» يقول الحق : ﴿الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِى [(٣)] الَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا [(٤)] وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ

---

(١) فاليوم الذى كألف سنة ، أى : كل يوم من الأيام التى خلق الله فيها السموات والأرض. قاله ابن عباس ومجاهد وعكرمة ، ونص عليه الإمام أحمد بن حنبل فى كتاب «الرد على الجهمية».
- أما اليوم الذى كخمسين ألف سنة ففيه أربعة أقوال :
١- المراد به مسافة ما بين العرش العظيم إلى أسفل السافلين ، وهو قرار الأرض السابعة.
٢- مدة بقاء الدنيا منذ خلق الله هذا العالم إلى قيام الساعة.
٣- المراد به يوم القيامة. جعله الله على الكافرين مقدار خمسين ألف سنة.

(٢) سئل الإمام مالك بن أنس : استوى كيف استوى ؟ فقال : الكيف غير معقول ، والاستواء غير مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة. وقوله عز وجل : ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ ... ﴿١٤﴾﴾ [القصص] قال أبو منصور : كلام العرب أن المجتمع من الرجال والمستوى الذى تم شبابه وذلك إذا تمت له ثمان وعشرون سنة ، ويحتمل أن يكون بلوغ الأربعين غاية الاستواء وكمال العقل. [اللسان : مادة (سوا)].

(٣) غشَّيتُ الشىء تغشيةً إذا غطّيته ، وغَشيَه الأمر وتغشاه وأغشيته إياه. يقول تعالى : ﴿يُغْشِى الَّيْلَ النَّهَارَ ...﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف]. وقال اللحيانىَ : وقرىء (يُغَشِّى). وقرىء فى الأنفال : ﴿يَغْشَيكُمُ النُّعَاسَ... ﴿١١﴾﴾ [الأنفال] و(يغشِّيكم) ، و(يغشاكم). وغشاء كل شىء : ما تغشاه كغشاء القلب والسَّرْج والرَّحْل والسيف ونحوها. وغَشيه يغشاه غشيانا إذا جاءه ، وغشّاه تغشية إذا غطاه. وغَشىَ الشىء إذا لابسه ، قال تعالى : ﴿وَالَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾﴾[الليل]. وقال: ﴿وَالَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴿٤﴾﴾ [الشمس]. [اللسان : مادة (غشا)].

(٤) حثيثاً أى : مسرعاً حريصاً. ورجل حثيث ومحثوث : حادٌّ سريع فى أمره كأن نفسه تحثُّه. والحثُّ : الإعجال فى اتصال ، وقيل : هو الاستعجال. وحثَّه واحتثَّه ، أى : حَضَّه وشجَّعه على فعل شىء. [اللسان : مادة (حَثّ)].

مُسَخَّرَاتٍ [١] بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٥٤) ﴾[الأعراف]

ومادام الله سبحانه هو الذى خلق فلا تعترض أن يكون الأمر له ، وأن يبعث سبحانه من شاء ؛ ليكون رسولاً ؛ لذلك فلا عجب أن أرسل لكم رجلاً منكم ؛ لأنه لو كان هناك غيره سبحانه هو الذى خلق ، ثم جاء ليفتئت [٢] فيأمر فيما خلق ، لكان للخلق شأن آخر ، لكن الله هو الذى خلق ، وهو سبحانه الذى أرسل الرسول ﷺ .

والآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها يقول فيها الحق : ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾، أى : استتب له الأمر.

ثم تأتى آية سورة الرعد : ﴿اللَّهُ الَّذِى رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (٢) ﴾ [الرعد]

أما الصفات التى توجد فى البشر ، ووصف الله نفسه بها ، هذه الصفات لا تؤخذ على مقتضى ما هى فى البشر ، فكل إنسان هو ممكن الوجود. ولكن الحق سبحانه وتعالى هو واجب الوجود ؛ لذلك تؤخذ تلك الصفات فى إطار ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ ... (١١) ﴾ [الشورى]

ومثال هذا : أن الحق سبحانه وتعالى له علْم بأنك تقرأ الآن فى التفسير ، وفى أى مكان تقرأه ، والذين من حولكَ يعلمون ذلك ، ولكنْ أعلْمُ الله يساوى علمَك وعلمَ مَنْ حولك ؟ لا ، فعلمه سبحانه وتعالى هو

---

(١) النجوم مسخّرات : جارياتٌ مجاريَهُنَّ. وتسخير الشمس والقمر والنجوم للناس هو الانتفاع بها فى بلوغ منابتهم ، والاقتداء بها فى مسالكهم ، والتسخير : التذليل. [اللسان : مادة (سخر)].

(٢) يفتئت : يختلق ويكذب.

علْم أزلىّ [(١)]، علْم قبل أن توجد أنت أو يوجد غيرك ؛ لذلك فأنت إذا عَلمت شيئاً ، وَعَلمَ الله شيئاً ، فعلْم الله يناسبه ، وعلْم البشر يناسبك. وأىُّ صفة من صفات الله مطلقة ، وَأىُّ صفة من صفاتك نسبية ؛ لأن الحق سبحانه هو واجب الوجود الأزلى ، وأنت فى هذه الحياة مجرد حدث محدود العمر بين قوى الميلاد والموت.

فالله غنى ، وقد تكون أنت غنيّاً ، لكن غناك لا يمكن أن يتساوى مع غنى الله . وأنت موجود والله موجود ، ولكن وجودك لا يمكن أن يُقَاس بوجود الله . فذاتُ الله ليست كذواتنا ، وكذلك صفات الله ليست كصفاتنا ، وفعْله ليس كفعْلنا ، واستواؤه سبحانه ليس كاستوائنا ، بل فى إطار ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ لأن الذى يُفْسد الفهم أن يقال : «استوى» بمعنى : قعد . أو فلنأخذ الاستواء كتمثيل لَلسيطرة ، وسبحانه مسيطر على كل شىء ، والاستواء : يعنى التمكن. وسبحانه القائل : ﴿وَلَمَّا بَلَغَ [(٢)] أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ ... (١٤)﴾ [القصص]

إذن : فاستوى : تعنى بلوغ تكوين الكمال فى الذات. والإنسان منا وهو صغير - قبل البلوغ - إنما تنقصه بعض من درجات النضج فى الجهاز العصبى ، وكذلك فى الجهاز التناسلى ، فإذا ما بلغ اكتمل النضج ، ويقال: (اسْتَوَى) أى: صار قادراً على إنجاب مثله ، وتمت له رجولته . ويقال عن الثمرة : إنها استوت ﴿فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ﴾ [الفتح]

أى : نضجت نُضْجاً يبلغها أن تعطى من ثمرتها مثل ذاتها ، وبذلك تضمن بقاء نوعها.

---

(١) الأزَلُ : هو القدَم. ومنه قولهم : هذا شىء أزلىّ ، أى : قديم. وقيل : إن أصل هذه الكلمة قولهم للقديم : لَمْ يَزَلْ ، ثم نُسبَ إلى هذا فلم يستقم إلا بالاختصار ؛ فقالوا : يَزَلىّ ، ثم أبْدلَت الياء ألفاً ؛ لأنها أخفُّ فقالوا : أزلىّ.

(٢) المقصود هنا هو موسى عليه السلام ، أى : لما اكتمل تكوينه ، وقيل: إن هذا يكون عند سن الأربعين.

وحين بلغ الطوفان تمامه استوت مركب سيدنا نوح ومعه المؤمنون من قومه ، وقال الحق : ﴿ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ [(١)] ... (٤٤) ﴾ [هود]

أى : استقرت على الجبل واستتب الأمر.

إذن : فكل استواء لله يجب أن يؤخذ على أنه استواء يليق بذاته ، وصفاته ، التى قد يوجد فى البشر مثلها ، لكنها صفات مطلقة فى إطار : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ... (١١) ﴾ [الشورى]

وفعْل الله لا يمكن أن يتساوى مع فعل البشر ؛ ولذلك قلنا فى حديث الإسرَاء [(٢)] : إن الكفار المعاصرين للإسراء حينما كذَّبوا النبى ﷺ فى أنه قد أسرى به ، قالوا : أتدَّعى أنك أتيتَ بيت المقدس فى ليلة ، ونحن نضرب إليها أكباد الإبل شهراً ؟ [(٣)] وهذا القول المستنكر يؤكد أنهم قد فهموا أن الإسراء قد حدث حقيقة.

ورغم ذلك تجد بعض المعاصرين - الذين يدعون المعاصرة والفهم - يتساءلون : ولماذا لا تقولون : إن الإسراء قد تَمَّ بالروح ؟ ونقول لهم : إن كفار قريش أنفسهم الذين عاصروا رسول الله ﷺ لم يقولوا ذلك ، وفهموا أن الإسراء قد تمَّ بالجسد ؛ لذلك قالوا : «أنضرب إليها أكباد الإبل شهراً ،

---

(١) الجودى : موضع ، وقيل : جبل ، قال الزجاج : هو جبل بآمد ، وقيل : جبل بالجزيرة استوت عليه سفينة نوح عليه السلام.

(٢) أسْرَيت وسَرَيت إذا سرْت ليلاً. يقول تعالى : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً ... (١) ﴾ [الإسراء] وأسرى بعبده : سَيَّر عَبده. وأسراه ، وأسرى به بمعنى واحد. ويقول تعالى : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ (٤) ﴾ [الفجر] معنى يَسْر : يمضى. أو يُسْرَى فيه. وقد حدث الإسراء برسول الله ﷺ قبل الهجرة بسنة ، وقيل بستة عشر شهراً.

(٣) ذكر ابن إسحاق أن رسول الله ﷺ لما أصبح غدا على قريش ، فأخبرهم الخبر فقال أكثر الناس : هذا والله الإمْرُ البين ، والله إن العير لتطرد شهراً من مكة إلى الشام مدبرة وشهراً مقبلة ، أفيذهب ذلك محمد فى ليلة واحدة ويرجع إلى مكة ؟ (سيرة النبى لابن هشام ٢/ ٤). والإمْرُ : هو الشىء العظيم العجيب المنكر.

وتدّعى أنك أتيتها فى ليلة ؟» بل ، ولم يقولوا له : إنه رأى بيت المقدس فى رؤيا أو حُلْم [(١)] ؛ لأنه لا أحد يُكذِّب رؤيا أو حُلْماً ، وهكذا كان تكذيبهم دليلاً على التصديق للإسراء إلى أن تقوم الساعة.

ونقول لمن يدَّعى أن الإسراء إنما تَمَّ بالروح : افهم جيّداً أن رسول الله ﷺ قال : «أسرى بى».

إذن : فعْل الإسراء منسوب لله ، فلا تأخذ الإسراء بالقانون البشرى ، ولكن بالقانون الإلهى.

والزمن فى مسألة الإسراء منسوب لله ، لا لمحمد ﷺ . والقرآن يقول : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً (١) ﴾ [الإسراء]

وما دام الحق قد قال : (سُبْحَانَ) أى : أن الله مُنَزَّهٌ عَمَّا فى بال البشر من المسافات والقوة وغيرها.

ولقد ضربنا مثلاً لهذا - ولله المثل الأعلى - برجل يصعد بابنه الرضيع قمة جبل « إفرست » ، فلا يقال : وهل يصعد الرضيع قمة الجبل ؟ فالصعود منسوب هنا للرجل ، ولقدرة الرجل وقوته ، لا إلى الطفل.

وهكذا - ولله المثل الأعلى - فالزمن والقدرة على الإسراء منسوبان لله سبحانه ، لا إلى محمد ﷺ .

ونحن فى مجالنا البشرى تختلف قدراتنا فى قطع المسافات وأزمانها ، فمن يركب عربة يجرُّها حصان فقد يصل من القاهرة إلى الإسكندرية فى

(١) عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال : «لما كذبتنى قريش حين أسرى بى إلى بيت المقدس قمت فى الحجْر ، فجلا الله لى بيت المقدس ، فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه». أخرجه أحمد فى مسنده (٣/ ٣٧٧) ، والبخارى فى صحيحه (٤٧١٠) ومسلم (١٧٠). فوصف لهم رسول الله ﷺ بيت المقدس باباً باباً ونافذة نافذة وأعمدته والطريق إليه. وهذا لا يعقل أن يكون حُلماً أو رؤيا مهما كانت رؤيا صادقة أن تكون دالة على كل هذه التفاصيل.

أيام ، ومَنْ يركب سيارة فقد يصلها فى ساعتين. ومَنْ يركب طائرة فقد يصلها فى نصف ساعة.

إذن : فكلما زادت القوة تجد الزمن يقل ، فما بالنا بقوة القوىِّ ؛ أيكون معها زمن؟ طبعاً لا.

وقال الحق سبحانه لسيدنا نوح : ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ[1] .. (٢٨)﴾ [المؤمنون]

أى : بعد أن ركب معك يا نوح مَنْ آمن من قومك ، واطمأننت على نجاتهم ، ستسير السفينة بإذن ربها.

إذن : فقول الحق عن ذاته : ﴿اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ... (٣)﴾ [يونس]

يعنى : أن الأمور قد استتبت وتمت. وهكذا نفهم أن كل شىء يتعلق بالحق سبحانه وتعالى نأخذه فى إطار : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ (١١)﴾ [الشورى]

وأن كل صفة من صفاته يأتى تمثيلها ليقرب المعنى فقط ولا يعطى حقيقة المعنى ؛ لأنه سبحانه ليس كمثله شىء. وهكذا فسبحانه له استواء يليق بذاته ، لا كاستواء البشر.

والشاعر أبو تمام[2] حين جاء ليمدح الخليفة المعتصم ، نظر إلى الصفات التى اشتهر بها بعض القوم ، «فحاتم» على سبيل المثال كان قمة الكرم.

---

(١) الفُلْك : السفينة ، تُذكّر وتؤنَّث ، وتقع على الواحد والاثنين والجمع. قال تعالى : ﴿فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١١٩)﴾ [الشعراء] ، وقال : ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ ... (١٢)﴾ [فاطر] ، وقال : ﴿وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ..(١٦٤)﴾ [البقرة] وقال : ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم ..(٢٢)﴾ [يونس].

(٢) هو حبيب بن أوس الطائى ، ولد بقرية من قرى الشام (١٨٠ هـ) ، نشأ نشأة متواضعة ، حيث كان يعمل صبياً لحائك توفى (٢٣١ هـ) عن ٥١ عاماً.

و«عنترة» [١] هو قمة الشجاعة ، «والأحنف بن قيس» [٢] قمة الحكمة ، فقال الشاعر أبو تمام عن الخليفة :

إِقْدَامُ [٣] عَمْرٍو فى سَمَاحَةِ حاتِمٍ ... فى حِلْمِ أَحْنَفَ فى ذكاء إِيَاسِ

وهكذا صار الخليفة مَجْمع فضائل ؛ لأنه أخذ إقدام عمرو ، وكرم حاتم ، وحلم الأحنف ، وذكاء إياس. ولكن حاسد الشاعر قال : إن الأمير فوق كل من وَصَفْتَ ، فهؤلاء جميعاً بالنسبة للخليفة صغار. وقال أحد الشعراء :

وشبهه المدَّاح فى البأس [٤] والنَّدى [٥] ... بَمنْ لو رَآهُ كان أصغرَ خادمِ

ففى جَيْشِه خَمسُونَ أَلْفاً كَعَنْتَرٍ ... وَفى خَزَائنه ألفُ ألفِ حاتِمِ

وحين سمع الشاعر الأول ذلك ، وكانت قصيدته الأولى «سينية» ، أى : أن آخر حرف فى كل أبياتها هو حرف السين ، فجاء بأبيات أخرى من نفس بحر القصيدة الأولى ، وقال :

لا تُنْكِروا ضَرْبِى له مَنْ دُونهُ ... مَثلاً شَروداً [٦] فى النَّدَى والباس [٧]

فالله قَدْ ضَرَبَ الأَقَلَّ لنوره ... مثلاً من المِشْكَاة [٨] والنِّبراس [٩]

---

(١) هو : عنترة بن شداد ، أشهر فرسان العرب فى الجاهلية ، من أهل نجد ، أمه حبشية اسمها زبيبة . توفى نحو ٢٢ قبل الهجرة .

(٢) هو : الأحنف بن قيس ، سيد تميم ، يضرب به المثل فى الحلم ، ولد فى البصرة (٣ ق هـ) وأدرك زمن النبى ولم يره ، توفى بالكوفة (٧٢ هـ) عن ٧٥ عاماً .

(٣) الإقدام : هو المضىّ إلى الأعداء بجراءة وشجاعة .

(٤) البأس : الشدة فى الحرب . ورجل شديد البأس : شجاع .

(٥) الندى : السخاء والكرم والجود .

(٦) مثلاً شروداً : خارجاً عن المألوف والعادة .

(٧) الباس : هو البأس . خففت همزتها لضرورة الشعر .

(٨) المشكاة : كوة فى جدار البيت ليست بنافذة وتعرف فى قرانا بـ«الطاقة» ، مع نطق القاف همزة .

(٩) النبراس : المصباح والسراج : والشاعر هنا يقصد قوله تعالى : ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ... ﴿٣٥﴾﴾ [النور] .

إذن : فهناك فَرْق بين تمثيل الشيء ، وبين حقيقة الشيء ، فحين قال الحق : ﴿ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ...(٣٥) ﴾ [النور]

فهذا مثل توضيحى للبشر. وشاء الحق ذلك ليعطينا مجرد صورة ؛ لأنه يتكلم عن أشياء لا وجود لها عندك. ولذلك نجد الرسول ﷺ يقول عن الجنة : « فيها ما لا عَينٌ رأت ، ولا أذُنٌ سمعتْ ، ولا خَطَر[1] على قلبِ بَشَر »[2].

وأنت حين ترى ؛ فللرؤية حدود. وحين تسمع فأنت تسمع مرائى غيرك ، وما لا يخطر على البال هو القمة ، فقد ارتقى الرسول فى وصفه للجنة من حدود ما تراه العين إلى آفاق ما تسمعه الأذن ، ثم ارتقى من حدود السمع إلى ما لا يخطر على البال ؛ لأنه ﷺ علم أن اللغة هى ألفاظ تعبر عن معان ، والمعانى توجد أولاً ثم نأتى لها بالألفاظ ؛ ولذلك فالأمثال لمجرد التوضيحً باللغة.

وهكذا نكون قد استوفينا فهم قوله الحق : ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ بما يليق بذات الله ، فلا نأخذ الاستواء على المعنى الذى يدل على مكان محيّز ؛ لأنه سبحانه مُنَزَّه عن أن يكون متحيزاً فى مكان ؛ فذاته سبحانه ليست كالذوات ، وفعله ليس كالأفعال ، وصفاته ليست كالصفات.

---

(١) خطر : الخاطر : ما يخطر فى القلب من تدبير أو أمر ، والخاطر : الهاجس. ويقال : خطر ببالى وعلى بالى كذا إذا وقع ذلك فى بالك ووهمك. والجمع : خواطر.

(٢) عن سهل بن سعد الساعدى قال : شهدت من رسول الله ﷺ مجلساً وصف فيه الجنة حتى انتهى ، ثم قال ﷺ فى آخر حديثه : «فيها ما لا عين رأت ، ولا أذُن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر» ، ثم قرأ هذه الآية : ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (١٦) فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٧) ﴾ [السجدة] أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٨٢٥) وأحمد (٥/ ٣٣٤) من طريق ابن وهب عن أبى صخر به إلى سهل بن سعد ، وأخرجه الحاكم فى مستدركه (٢/ ٤١٣) من طريق عبد الله بن سويد عن أبى صخر به. وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وأقره الذهبى.

ثم يقول بعد ذلك : ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ﴾ أى : أنه يرتب الوجود ترتيباً يجعل كل شىء موضوعاً فى مكانه بحكمة. والحق سبحانه وتعالى له صفة علم ، وصفة إرادة ، وصفة قدرة ، وصفة العلم هى التى تضع كل شىء فى مكانه بحكمة. وصفة الإرادة هى التى تخصص الممكن ببعض ما يجوز عليه. وصفة القدرة تبرز المراد لله.

إذن : فهناك علم ، وهناك إرادة ، وهناك قدرة تبرز المراد على وفق العلم. ومن المنطقى أن يدبر الله كل أمر ؛ لأنه سبحانه هو الذى خلق السموات وخلق الأرض. واستوت له الأمور بحيث لم يعد هناك خلق جديد إلا ما يبرزه بـ «كن». وهو سبحانه بعد أن خلق السموات والأرض وخلق الإنسان وسخَّر له السموات والأرض ؛ لذلك لا بد أن يدبر سبحانه للإنسان أمور مادياته ، وأمور قيمه.

أما أمور الماديات فقد ظهرت فى خلق السموات والأرض والشمس والقمر والنجوم والماء والهواء. وما فى الأرض من عناصر تنبت للإنسان ما يحتاج إليه فى قوام حياته ، وهو سبحانه الذى خلق كل ذلك قبل أن يخلق الإنسان ، ثم جاء بالإنسان ليكون الخليفة والسيد.

إذن : فالإنسان هو الذى طرأ على هذه الأمور المادية ، وكان لا بد أن يُنزلَ الحق سبحانه قيماً يحيا بها الإنسان كخليفة فى هذه الأمور المادية.

وهكذا خلق الله القيم المعنوية ، فلا تقولوا : لماذا أرسل رسولاً لايُحسب فى نظر بعض الناس من عظماء أقوامهم ، ولا تقولوا لماذا أرسل محمداً بالتحديد؛ لأن هذا الإرسال هو من ضمن تدبير الأمور ، و﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ .. (١٢٤)﴾[1] [الأنعام]

---

(١) قوله سبحانه : ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ (١٢٤)﴾ [الأنعام] جاء رداً على من قال الله سبحانه فيهم : ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ .. (١٢٤)﴾ [الأنعام].

إذن : فقوله : ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ﴾ جاء ليؤكد نَفْى التعجب من أن يكون الوحى لمحمد ﷺ : ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا .. (٢) ﴾ [يونس]

وعلتها أن الله هو ربكم وهو الذى خلق ، ولا يجادل أحدٌ الله فيما خلق ، وفيمن خلق. وإذا كان هو سبحانه الذى خلق الإنسان والكون ، فلا بد أن ينظم حركة الوجود بين الإنسان والكون ؛ لذلك اختار الرسول المناسب ؛ ليحمل منهج القيم للإنسان فى «افعل كذا» و«لا تفعل كذا». ثم ترك الحق للإنسان أموراً لا يقول له فيها : افعلها أو لا تفعلها ، فهى من المباحات.

وإذا استقرأت الأفعال والأحداث ، ستجد أن الذى قال الله فيه «افعل» قليل ، والذى قال الله فيه « لا تفعل» قليل. وبذلك تجد المباحات أكثر من «افعل» وأكثر من «لا تفعل» [(١)].

وما دام سبحانه هو الذى شاء ذلك ، وترك لك أيها الإنسانُ الكثير من الأمور المباحة ، فاترك القيم لله ؛ لأن الكون المادى المخلوق لله فى غاية الدقة وفى غاية النظام ، ولم تمتنع الشمس أن تشرق أو تعطى ضوءها وحرارتها للناس ، وما امتنع القمر أن يعطى نوره ، وما امتنع السحاب أن يسقط مطراً مدراراً ، وما امتنعت الأرض أن تتفاعل مع أى غَرْس تغرسه فتعطيك الغذاء ، وكل شىء داخل فى نطاق القدرة فى النواميس العليا ؛ مُحكم ؛ ولا خلل فيه [(٢)].

---

(١) ولهذا نجد أن المحرمات منصوص عليها فى القرآن من نحو قوله تعالى : ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُم مِّنْ إِمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلاَ تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ... (١٥١) ﴾ [الأنعام] ولذلك تعارف الفقهاء على قاعدة فقهية هى : الأصل فى الأشياء الإباحة.

(٢) عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله عز وجل يعطى الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطى الدين إلا لمن أحب». أخرجه أحمد فى مسنده (١/ ٣٨٧) والحاكم فى مستدركه (١/ ٣٣) (٢/ ٤٤٧) (٤/ ١٦٥) وصححه ووافقه الذهبى. وعزاه الهيثمى فى مجمع الزوائد (١٠/ ٢٢٨) لأحمد وقال : «رجاله وثقوا وفى بعضهم خلاف».

وإذا نظرتم إلى غير ذلك وجدتم الخلل قد حدث ؛ لأن الشىء الذى لا تدخل فيه قدرة الإنسان وإرادته هو على أتم ما يكون من النظام ، ولا يفسد إلا الشىء الذى للإنسان فيه عمل واختيار ، ولا يعنى ذلك أن كل أعمال الإنسان تعانى من الخلل ، لكن الأعمال التى تعانى من الخلل هى الأعمال التى يُقبل عليها الإنسان دون منهج الله . ولو اخترنا البدائل على ضوء منهج الله ، لاستقامت القيم كلها، كما استقامت لنا نواميس الكون العليا [(١)] .

فإذا رأيتم فساداً فلوموا أنفسكم ؛ لأن الأمر الذى لا تتناولونه بأيديكم ولا دخل لكم فيه ، يعمل غاية فى الدقة ، فإن أردتم أن تعمل أموركم الاختيارية بغاية الدقة ؛ فخذوا منهج الله فى الأفعال ، ولا تفسدوها أنتم بأن تختاروا البدائل على غير مرادات الله.

ولذلك أقول دائماً : إنك إذا ما رأيت عورةً فى الوجود ، يتعب منها المجتمع ، فاعلم أن حداً من حدود الله قد عُطِّل . وإن وجدت أمة متخلفة ، فاعلم أنها عطلت حدود الله ، وإن وجدت أمة تعانى من أمراض اجتماعية جسيمة ، فاعلم أنها لا تطبق منهج الله.

ويخطىء مَنْ يقصر فَهْمَ عبادة الله على أنها الانقطاع فى المسجد ، أو الصوم ، أو إخراج الزكاة فى ميعادها ، أو الذهاب إلى الحج ، فكل هذه هى رءوس الإسلام تشحن العبد ليعمل وَفْق منهج الله ، فالصلاة هى إعلان الولاء لله خمس مرات فى اليوم ، ومدة الصيام شهر كل عام ،

---

(١) قال سبحانه وتعالى : ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤١) ﴾ [الروم] والفساد هنا قد يكون النقص فى الزروع والثمار على البر وأخذ السفن غصباً فى البحر فيما كان يعرف بأعمال القرصنة ، وقد يكون خللاً يحدث فى البيئة .

والزكاة إنما هى من فائض المال ، والحج هو تَرْكٌ للمال والأهل والولد.

كل ذلك من أجل شحن الطاقة ، فإذا ما شحنت الطاقة ، فوجِّه الطاقة إلى عمل آخر. ولنأخذ الصلاة مثلاً : فأنت تحتاج إلى طاقة تُقيمك وتُقعدك وتستبقى حياتك ؛ وقوة حركتك تحتاج كل ذلك لتصلى!

إذن: فأنت تحتاج إلى طعام ، ولن تُطْعم ما لم يكُنْ لك عمل يتيح لك شراء الطعام ، وحتى يبيع لك التاجر الخضر واللحم ، والفاكهة والخبز ، هو يحتاج إلى مَنْ ينتج ذلك ، ومَنْ ينتج الأطعمة يحتاج إلى مَنْ يدرس طبيعة الأرض والبذور ومعرفة الأوقات ، وكل هذه الأمور تحتاج إلى أجهزة منظمة لإنتاج الطعام . فمن يزرع يحتاج إلى محاريث تحرث ، وهذا يستلزم وجود الحديد وآخرين ليصهروه ويستخرجوا منه ما يصلح لصناعة المحاريث.

إذن : فقيامك إلى الصلاة يحتاج إلى كل هذه الأعمال. وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب. وهكذا تجد أن كل الأعمال التى تُسهِّل لك العبادة هى أعمال واجبة. والمثال : أنك حين تصلى تحتاج إلى سَتْر عورتك ؛ لذلك تشترى القماش ليُفصِّل لك الخائط ما ترتديه من ملابس ، وكل هذه الأعمال التى تنتج القماش وتصنع الثياب هى أعمال واجبة ، بدءاً من زراعة القطن أو الكتان أو التيل وغيرها إلى المغازل ومصانع النسيج ، وغير ذلك. وهكذا تجد أن كل الأعمال التى يتم الواجب بها هى أعمال واجبة ، فَسَتْر العورة أمر شرعى ، وهكذا يتسع مفهوم العبادة ليكون معناها : كل حركة تؤدى إلى إبقاء الصالح على صلاحه وزيادة الصالح إلى ما هو أصلح.

والمثال الذى أضربه دائماً : هو حاجة الإنسان إلى الماء للشرب ،

والغُسْل من الجنابة[١] وطهو الطعام وغير ذلك ، وكان الإنسان قديماً يشرب من الآبار ، ثم تطور التفكير إلى إقامة شبكات لتوزيع المياه بعد تنقيتها ، كل هذه أعمال تُزيد الأمر الصالح صلاحاً ؛ لأنك أخذت الماء من المطر الذى ملأ النهر ، وأعليْتَ الماء فى خزانات لتنقيته ، ثم اكتشفت قوانين الاستطراق[٢] ومضخات المياه ؛ ليصل الماء الطاهر إلى كل من يحتاجه. وهكذا تزيد الصالح صلاحاً بالتفكير واستخدام العلم بما يفيد الإنسان ، إذن : فهذا عمل عبادى ما دامت النية فيه لله .

وانظر إلى يوم السوق فى أى قرية ، تجد من يدخله ومعه الماشية والأنعام[٣] التى يرغب فى بيعها ، وتجد مَنْ يدخل بالفواكه والأطعمة ، ومَنْ يدخل ومعه الثياب أو أدوات المنزل ، وتجد من يدخل ليس معه شىء ، وبعد انتهاء السوق تجد كل إنسان قد خرج بما يحتاج ، لا بما دخل لبيعه . وهكذا ألقى الله الخواطر فى قلب وتفكير إنسان ما ليبيع ما لا يحتاجه ، وآخر ليشترى ما يحتاجه من إنتاج غيره.

وأنت إذا نظرت إلى قرية ما ، ستجد واحداً من أعيانها يرغب فى بيع أرضه وقصره ، ويرغب فى الرحيل إلى بلدة أخرى ، وهكذا ترى الميزان الاقتصادى الإلهى ، الذى يوزع العباد فى الأماكن التى تليق بكل واحد

---

(١) الجنابة : إنزال الرجل ماءَه من جماع أو نوم ، وسُمِّى الرجل جُنُباً لأنه يجتنب الصلاة والطواف حال جنابته. ويجب عليه الاغتسال غُسْل الجنابة وله كيفية ذكرتْها سنة رسول الله ﷺ، فعن عائشة رضى الله عنها قالت : «كان رسول الله ﷺ إذا اغتسل من الجنابة يبدأ فيغسل يديه ، ثم يُفرغ بيمينه على شماله ، فيغسل فرجه ، ثم يتوضأ وضوءه للصلاة ، ثم يأخذ الماء ، فيدخل أصابعه فى أصول الشعر ، حتى إذا رأى أن قد استبرأ حَفَن على رأسه ثلاث حفنات ، ثم أفاض على سائر جسده ، ثم غسل رِجْليه». أخرجه مسلم فى صحيحه (٣١٦) والبخارى فى صحيحه (٢٤٨) بنحوه.

(٢) الاستطراق : عدّة أنابيب مختلفة الأحجام والأشكال ، متصل بعضها ببعض بأنبوبة أفقية ، فإذا وضع سائل فى إحدى هذه الأنابيب ارتفع سطح السائل إلى مستوى أفقى واحد. [المعجم الوسيط - مجمع اللغة العربية].

(٣) الأنعام هى : الإبل والبقر والغنم. ومثلها الماشية ، ومعنى المشاء : النماء. فالماشية أى : التى تنمو وتكثر. ولفظ الأنعام جاء به القرآن ٤٢ مرة ، بل نزلت سورة باسمها وهى سورة الأنعام.

منهم ، فإذا ما زاد واحد عن الحاجة فى مكان ، فهو يرحل إلى مكان آخر يحتاجه. وهذا هو التدبير الإلهى على أحسن ما يكون.

وقد تجد - مثلاً - الطفل يكتب بيده اليسرى ، على عكس أقرانه ، وقد تضربه على ذلك ، فيعجز عن الكتابة باليمنى وباليسرى ، وحين يقول لك الطبيب : لقد شاء الله أن يجعل ابنك موهوباً فى الخط الجميل ، وهو يكتب بيده اليسرى ، فأنت تتعجب ، وتكتشف بالفعل أن خط الطفل باليد اليسرى جميل.

وأقول دائماً لمن يشكون أن بعضاً من أولادهم يكتبون باليد اليسرى أو يأكلون باليد اليسرى ، أقول لهم : إن هذه مسألة تتعلق بالجهاز العصبى للإنسان ، فهناك من خلقه الله ليَعْملَ باليد اليمنى ، وهناك من خلقه الله ليعمل باليد اليسرى [1] ، وهناك من خلقه الله ليعمل بيديه الاثنتين ، مثل سيدنا عمر - رضى الله عنه - وكان «أضبطْ» [2] أى : يعمل بيديه الاثنتين .

وعلينا أن نحترم أقدار الله فيما خلق ومَنْ خلق. فسبحانه يخلق ما يريد ، لا وَفْق قوالب ، بل يخلق ما يشاء ، ومع كل خَلْق مراد معين. وكما أحسن الحق تدبير ما ليس لكم دَخْلٌ فيه ، فاعلموا أنه قَد أنزل المنهج

---

(١) المقصود به هنا من خُلق هكذا لا يستطيع أن يستخدم يمينه ، أما الذى يستطيع استخدام يده اليمنى ولكنه يأكل أو يشرب أو يرتدى بشماله ويفضلها على اليمنى فقد خالف استحباب استخدام اليد اليمنى الذى وردت به سنة رسول الله ﷺ ، فعن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال : «إذا أكل أحدكم فليأكل بيمينه ، وإذا شرب فليشرب بيمينه ، فإن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله» أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٠٢٠) وأحمد فى مسنده (٢/ ٣٣٢٨).

وعن سلمة بن الأكوع أن رجلاً أكل عند رسول الله ﷺ بشماله فقال : « كل بيمينك ». قال : لا أستطيع. قال : لا استطعت. ما منعه إلا الكبر. قال : فما رفعها إلى فيه. أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٠٢١) فهذا الرجل استنكف أن يطيع رسول الله ﷺ فى مثل هذا الأمر لا أن عنده عذراً خلقياً أو شرعياً يمنعه ، ولذلك دعا عليه رسول الله ﷺ ، فشُلَّت يده.

(٢) الأضبط : هو الذى يعمل بيديه جميعاً ، يعمل بيساره كما يعمل بيمينه. ذكره ابن منظور فى لسان العرب (مادة : ضبط) .

لِيُحسِّن مما لكم فيه دَخْلٌ ، ويجعل أموركم منتظمة ، وكل ذلك يدخل ضِمْن تدبير الأمر.

وأنت إذا نظرت إلى معنى كلمة «أمر» تجد أنها كل شىء ينشأ ، ولماذا عدل سبحانه عن قول : «شىء» إلى قول : «أمر» ؟ ؛ لأن كل شىء لا يوجد فى الوجود إلا بـ «كن» وهى أمر. وسبحانه القائل : ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٨٢)﴾ [يس]

وسبحانه يدبر الأمر فى السنن المادية التى لا تتناولها يد الإنسان ، فإن أراد الإنسان أن يضبط أمور حياته ، فليأخذ بالمنهج الذى أنزله الله بـ «افعل» و«لا تفعل» ، وأما المباحات فهى كثيرة ، والإنسان حرٌّ فيها.

وإذا ما سأل سائلٌ : ولماذا أتَّبِع المنهج؟ أقول : إن الحق شاء أن يخلق الإنسان على هيئتين : هيئة إرغامية [1] قهرية ، وهيئة اختيارية ، فأنت أيها الإنسان مقهور فى أشياء ، ومُختار فى أشياء أخرى ؛ أنت مقهور فى التنفس ، وتتنفس آلياً دون تدخُّل منك ، تتنفس مستيقظاً أو نائماً ، ولو كان التنفس باختيارك ، لاحتجْتَ إلى مَنْ يدير حركة تنفسك وأنت نائم ؟

إذن : فمن رحمته سبحانه أن جعلك مقهوراً فى مثل هذه المسألة وكذلك نبضات قلبك ، أنت مقهور فيها ، وكذلك أنت مقهور فى الحركة الدودية للأمعاء ، وللحركة الانبساطية والانقباضية فى المعدة ، وإفراز العصارات الهضمية ، كل ذلك أنت مقهور فيه ، وأنت مُختار فى أشياء أخرى ، كأن تشترى من البائع الفلانى ، أو بائعٍ غيره ، وأنت مُخَيَّر فى أن تختار أصناف الطعام التى تهواها.

---

(١) أرْغَمه : حَمَلَه على ما لا يقدر أن يمتنع عنه. والرُّغْم : القسر والإجبار.

والمباحات فى الوجود كثيرة ، وما أكثر ميادين الحرية فى الحياة ، وما حدده لك الحق سبحانه وتعالى بـ«افعل» و«لا تفعل» ، لا يخرج عن أمور محصورة تصونك وتصون مجتمعك ، وكذلك الكون الذى تحيا فيه. وإنْ مارسْتَ أيها الإنسان حريتك فى الأمور المباحة على أى لون شئت ، فذلك لا يفسد الكون.

وقد شاء الحق سبحانه - أيضًا - أن تكون مقهوراً فى بعض الأمور حتى لا يفسد الكون ، فإن أكلت ما شئت من المأكولات غير المحرمة ؛ فأنت حُرٌّ ، وإن سلك كل إنسان كما يهوى فى الأمور المباحة ؛ فلا مانع لذلك. وكل البشر يختلفون.

وأراد سبحانه أن يحمى الإنسان والكون ؛ لأنه علم أزلاً أن أهواء البشر تتضارب ، وهو القائل : ﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ [1] لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ ... (٧١) ﴾ [المؤمنون]

ولهذا نرى أن تدبير الله فيما لا دخل لنا فيه ، تدبير مُحكَم ، وما يسير بدون تَدَخُّل من البشر إنما يتبع نظاماً مستقيماً ، وشاء الحق أن يجعل نواميس الكون تعمل بدقة يندهش لها المؤمنون بالله والكافرون به [2] ، فسبحانه يحكم فى مُلْكه بدقة متناهية ؛ حتى إن بعض العلماء ممن لا يؤمنون بمنهج الله قد حددوا مواعيد الكسوف الكلى أو الجزئى

(١) هَوَى النفس : إرادتها ، والجمع : أهواء. والهوى : محبة الإنسان الشىء وغلبته على قلبه ، قال تعالى : ﴿ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ (٤٠) ﴾ [النازعات] أى : نهاها عن شهواتها ، وما تدعو إليه من المعاصى. ومتى تُكُلِّم بالهَوَى مطلقاً لم يكن إلا مذموماً حتى يُنعت بما يُخرِج معناه ، كقولهم : هَوًى حَسَنٌ ، وهَوًى موافقٌ للصواب.

(٢) نواميس الكون : أسراره. والناموس فى اللغة : صاحب سر الملك أو الرجل الذى يطلعه على سره وباطن أمره ويخصه بما يستره عن غيره.

للشمس أو القمر [١] بدقة متناهية وذلك باستقرائهم لمعطيات الكون.

وما دُمْتم أنتم تتميزون على الكافرين بالإيمان بالله ، فخذوا منهج الله فى حياتكم ؛ لتستقيم أموركم بمثل استقامة الكون.

ولذلك قال سبحانه : ﴿ يُدَبِّرُ الأَمْرَ ... (٣) ﴾ [يونس]

ويضيف : ﴿مَا مِن شَفِيعٍ [٢] إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ وجاء الحق بمسألة الشفاعة بعد مسألة تدبير الأمر ؛ لأن هؤلاء الكافرين الذين تعجبوا من إرسال الله لرسوله ﷺ ، كانوا يعبدون ما لا يضرهم ولا ينفعهم ، ويقولون : إن تلك الأصنام تشفع لهم عند الله ، مصداقاً لقوله الحق : ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاَءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ ..(١٨) ﴾ [يونس]

ولذلك يُفصِّل الحق سبحانه مسألة الشفاعة. فالإنسان لا يحتاج إلى شفاعة عند مَنْ يملك الأمر إلا إذا ارتكب جُرْماً أو حدث منه تقصير فى أمر ما . والآية أوضحت أنهم يعبدون ما لا يضرهم إن لم يعبدوه ، وما لا ينفعهم إن عبدوه ، وأقروا أن مثل هذه الأصنام إنما تشفع لهم ، والشفاعة من الشفع ، والشفع ضد الوتر. والوتر هو ما لا يقبل القسمة على اثنين ، فيكون الوتر رقماً فرديّاً [٣] .

---

(١) الكسوف : احتجاب نور الشمس ، أو نقصانه ؛ بوقوع القمر بينها وبين الأرض. وهو للشمس كالخسوف للقمر.

(٢) شفيع : صيغة مبالغة من (شافع) وهو الذى يشفع أى : يطلب العفو لشخص آخر ، والشافع : الطالب لغيره. والجمع : شفعاء. قال تعالى : ﴿مَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُ كِفْلٌ مِّنْهَا ... (٨٥) ﴾ [النساء].

(٣) الشفع : خلاف الوَتْر ، وهو الزوج. تقول : كان وَتْراً فشفعته شفعاً. وشَفَعَ الوَتْرَ من العدد شفعاً أى : صَيَّره زوجاً. والشفيع من الأعداد : ما كان زوجاً . تقول : كان وَتْراً فشفعته بآخر. قال تعالى : ﴿ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ (٣) ﴾ [الفجر]. قال الأسود بن يزيد : الشفع هو يوم الأضحى والوتر يوم عرفة. وقال عطاء : الوتر هو الله ، والشفع خَلْقُه. وقال ابن عباس : الوتر آدم شُفِعَ بزوجته. وقيل فى الشفع والوتر : إن الأعداد كلها شفع ووتر.

والعبد من هؤلاء له موقف من الإله الذى يعبده ، وهو غير قادر على مواجهته ؛ لأنه مقصر ، فبدلاً من أن يقابله فرداً يأتى بآخر معه ؛ ليشفع له ، وهكذا يكون معنى الشفع هو تعضيد [1] الفرد بواحد آخر ؛ فينتقل من كونه وتراً إلى كونه شفعاً.

وكان الكفار على عهد رسول الله ﷺ يقولون عن تلك الأصنام : إنهم شفعاء لهم عند الله ، فيقول الحق سبحانه فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها : ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ... ﴿٣﴾﴾ [يونس]

لأن الشفاعة تقتضى شافعاً ومشفوعاً عنده ، ومشفوعاً له ، ومشفوعاً فيه ، هذه هى الأربعة العناصر فى الشفاعة. والذى يستشفع هو المقصِّر ، وهؤلاء الكفار قالوا عن الأصنام : إنها شفعاء لهم عند الله ، وهذا إقرار منهم بالتقصير ، وأقروا بأن المشفوع عنده هو الله ، وأما المشفوع فيه ؛ فهو تخفيف العذاب أو إنهاء العذاب.

إذن : فالمشفوع فيه أمر مشترك ، والمشفوع عنده أمر مشترك ، أما الأمر فى الشافع ، والأمر فى المشفوع له ، فهما مختلفان. وأنت - على سبيل المثال ، لا تأتى بإنسان يسير فى الطريق وترسله ليشفع لك (مثلاً) عند المحافظ أو عند الوزير ؛ إن كانت لك حاجة عند أى منهما ، بل تأتى بإنسان تعلم رضا المحافظ عنه أو رضا الوزير عنه ، وله منزلة ومكانة ، وهذه المنزلة والمكانة تسمحان له بالإذن فى أن يكلِّم المحافظ أو الوزير فى أمور الناس.

وإذا كان هذا هو الحال فى الشفاعة من البشر لدى البشر ، فما بالنا

---

(١) الاعتضاد : التقوّى والاستعانة ، واعتضدت بفلان : استعنت به ، والمعاضدة : المعاونة. وهى مأخوذة من العضد : وهو الساعد ، أى : ما بين المرفق إلى الكتف. والعضد : القوة ؛ لأن الإنسان إنما يقوى بعضده فسميت القوة به. قال تعالى : ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ ... ﴿٣٥﴾﴾ [القصص].

بالشفاعة للإنسان لدى الله ؟ لذلك بيَّن الحق هنا أن الشفيع لا بد أن يكون بإذن منه سبحانه ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ... (٣) ﴾ [يونس]

وفى سورة البقرة يقول سبحانه : ﴿ مَن ذَا الَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ (٢٥٥) ﴾ [البقرة]

وفى آية أخرى يقول سبحانه :

﴿يَوْمَئِذٍ لاَّ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِىَ لَهُ قَوْلاً (١٠٩) ﴾ [طه]

إذن : فالشفيع لا بد له من إذن ورضًا من الله .

أما المشفوع له فقد قال الحق :

﴿وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَىٰ .. (٢٨) ﴾ [الأنبياء]

هكذا بيَّن لنا الحق عناصر الشفاعة : الشافع ، والمشفوع له ، والمشفوع عنده وهو الله سبحانه ، والمشفوع فيه هو الذنوب وهى معروفة.

ولقائل أن يتساءل : ما دام الحق سبحانه قد رضى عن عبد ، فلماذا يحتاج العبد إلى الشفاعة ؟

وأقول : لننتبه إلى أن الإنسان يتعرض لأعمال كثيرة، وله نقاط ضعف فى حياته؛ قد تكون كثيرة، وقد تكون قليلة، فإذا جاء فى نقطة الضعف وأذنب ذنباً، فعليه أن يزيد من فعل النقاط القوية التى تُكتب له بها الحسنات؛ لأن المعيار هو : ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ [1] يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ...(١١٤) ﴾ [هود]

---

(١) ذهب بعض علماء التفسير إلى أن الحسنات هنا بمعناها المطلق أى : فعل الخير مطلقاً. وذهب بعضهم إلى أن الحسنات هنا المقصود بها الصلوات الخمس ، واستدلوا بحديث أبى هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : «أرأيتم لو أن بباب أحدكم نهراً غمراً يغتسل فيه كل يوم خمس مرات هل يبقى من درنه شىء ، قال : فذلك مثل الصلوات الخمس ، يمحو الله بهن الخطايا» متفق عليه أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٢٨) ومسلم (٢٨٣).

فالعبد حين يزيد من الحسنات فالحق سبحانه قد يمحو السيئات ، وليعلم كل إنسان أنه إن اختلس من الله حكماً فهو لن يستطيع أن يهرب من العقاب ، وعليه أن يزيد من الحسنات ، ويرجو المغفرة من الله ؛ وقبول التكفير بالحسنات عن السيئات ، ولن يُفلت أحد من ملكوت [(١)] الله .

وهَبْ أن إنساناً فيه نقطة ضعف ، وأذنب ذنباً ، وعنده نقطة قوة يطيع فيها الله بسهولة ويُسْر ، هذا الإنسان له أن يعلم أن الله يحبه لأجل نقطة قوته هذه ، وقد يرحمه الله سبحانه فيما أذنب من الذنوب ، ويجعل المأذون له فى الشفاعة يشفع له عنده سبحانه .

فلماذا أراد الحق ذلك ؟

شاء الحق ذلك حتى لا يُحرَمُ العالم من الحسنات التى يجيدها ذلك الإنسان . ويحكى لنا الحديث النبوى الشريف عن الرجل الذى لقى كلباً يلهث من العطش ، ولم يجد الرجل إناء يملأه ماء من البئر ليسقى الكلب ، فنزل البئر وملأ خفه [(٢)] ، وعاد إلى الكلب ليسقيه . وبطبيعة الحال لم يكن هذا الرجل لينافق الكلب ، بل منتهى الرحمة بهذا الحيوان ، كذات خلقها الله ؛ لذلك غفر الحق سبحانه لهذا الرجل [(٣)] .

وهكذا نفهم أن الحق يغفر ويمحو السيئات . وقد جعل الحق سبحانه الشفاعة لرسول الله تكريماً له ﷺ ، وكذلك فى المأذون له فى الشفاعة ،

---

(١) ملكوت الله : سلطانه وعظمته . والملكوت : ملك الله خاصةً ، قال تعالى : ﴿ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ (٨٨) ﴾ [المؤمنون] . قال أبو إسحاق : ملكوت كل شيء معناه : القدرة على كل شيء .

(٢) الخف : النعل يلبسه الإنسان فى قدمه .

(٣) عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : بينما رجل يمشى بطريق اشتد عليه العطش ، فوجد بئراً فنزل فيها فشرب ، ثم خرج فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش ، فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذى كان بلغ بى ، فنزل البئر فملأ خفه ثم أمسكه بفيه فسقى الكلب ، فشكر الله له فغفر له . قالوا : « يا رسول الله وإن لنا فى البهائم أجراً ؟ فقال : فى كل ذات كبد رطبة أجر » أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٠٠٩) ومسلم فى صحيحه (٢٢٤٤) .

حتى يعلم المسلم أن الرسول قد يشفع له ، وأن المؤمن قد يشفع لأخيه ، وأن الأب قد يشفع لابنه [(١)] ، وحين يعلم المسلم ذلك ، فهو يحسن إلى كل هؤلاء ؛ لعله يحصل على الشفاعة منهم ، ويحسن اتباع سنة الرسول ﷺ ، ويحسن معاملة المؤمنين ، ويحسن الابن معاملة والديه ، وهكذا يعيش المجتمع فى كرامة الشفاعة بعمل الخيّر وإخلاص النية .

وإذا رأيت إنساناً محسناً فى دينه ، فلا بد لك أن تحترمه ؛ لأن إحسانه فى دينه قد ينفعك أنت ؛ ولذلك نجد الحق سبحانه وتعالى فى سورة الفاتحة يقول : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ﴾ [(٢)] [الفاتحة]

وكان الحق سبحانه قادراً أن ينزلها « إياك أعبد وإياك أستعين » ولكنه شاء أن تنزل على صورتها تلك ؛ حتى يأذن سبحانه بقبول الصفقة من كل قائليها ، فيتقبل من عباده أعمالهم بما يغفر لبعضهم الأشياء المعيبة .

ولذلك أقول : إن رأيت إنساناً مستغرقاً فى العبادة فلا تسخر منه ولا تهزأ به ؛ لأن حرصه على الطاعة وانشغاله بالعبادة قد تنفعك أنت .

وساعة تتلقى أمراً من رسول الله ﷺ وتجده شاقّاً ، فعليك أن تتذكر أنه المرجع الذى قد يشفع لك فى الأمور التى لم تقدر عليها .

---

(١) هذه الشفاعة مقيدة بألا تكون فى حد من حدود الله ، وهذا ما دلت عليه السنة الصحيحة ، فعن عائشة رضى الله عنها أن قريشاً أهمهم شأن المرأة التى سرقت فى عهد النبى ﷺ فى غزوة الفتح ، فقالوا : من يكلم فيها رسول الله ﷺ ؟ فقالوا : ومن يجترىء عليه إلا أسامة بن زيد حبّ رسول الله ﷺ فأتى بها رسول الله ﷺ فكلمه فيها أسامة بن زيد ، فتلون وجه رسول الله ﷺ فقال : « أتشفع فى حد من حدود الله ؟ » فقال له أسامة : استغفر لى يا رسول الله » الحديث . أخرجه مسلم فى صحيحه (١٦٨٨) والبخارى فى صحيحه (٦٧٨٨) .

(٢) مراد الشيخ أن العبادة أولاً ثم يأتى العون ؛ لذلك نجد سيدنا إبراهيم عليه السلام عندما أودع هاجر وإسماعيل إلى البيت الحرام قال : ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ۝٣٧ ﴾ [إبراهيم] فالعبادة سبقت ، والعبادة وسيلة العطاءات والشفاعات وبالعبادة يأتى العون .

ولا بد أن يرضى الحق عن المشفوع له ؛ لأنه قد أجاد فعل حسنات . وإن كانت له سيئات ، وقد رأى رجل سيدنا عمر فى رؤيا ، فسأل الرائى سيدنا عمر بن الخطاب : ماذا فعل الله بك يا ابن الخطاب ؟ فقال سيدنا عمر : غفر الله لى . فسأل الرائى : بماذا ؟ أجاب سيدنا عمر : لأنى رأيت غلاماً يعبث بعصفور فاشتريته حتى لا أفجعه فى عصفور يملكه ، وأخذت العصفور وأطلقته .

واعترض أحد السامعين للرؤيا متسائلاً : ألم يفعل ابن الخطاب أعمالاً تؤهله لمغفرة الله إلا مسألة العصفور هذه ؟ فقال له قائل : أحسن الفهم يا رجل ؛ فمسألة إطلاق العصفور إنما تخص غفر الخطايا ، وأما أعمال عمر بن الخطاب الجليلة فهى لرفع الدرجات .

وفى القرآن آيتان جاءتا بنص متقارب ، فالحق يقول :

﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ [1] ... (٤٨) ﴾ [البقرة]

والآية الثانية تقول : ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ ... (١٢٣) ﴾ [البقرة]

ومن حاولوا المقارنة بين الآيتين بغرض الطعن فى القرآن ، هم من الغرباء عن اللغة ولا يملكون ملكة [2] البيان التى يمكن أن يستقبلوا الأساليب بها ، ولو امتلكوا هذه الملكة لعلموا أن الصدر فى الآيتين محتمل

---

(١) عدل : فداء أو بدل .

(٢) الملكة : صفة راسخة فى النفس أو استعداد عقلى خاص لتناول أعمال معينة بحذق ومهارة ، مثل : الملكة اللغوية .

لوجهين ، فهناك نفس جازية هى التى تتشفع ونفس مجزىٌّ عنها هى التى يُتشفع لها.

والضمير الذى يأتى فى قوله الحق : ﴿وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا﴾ و ﴿وَلاَيُؤْخَذُ مِنْهَا﴾ و ﴿وَلاَ تَنفَعُهَا﴾ ، هذا الضمير يصح أن يرجع إلى النفس الشافعة ، ويصح أن يرجع إلى النفس المشفوع لها . والإنسان منا إذا ما كان عليه شىء لإنسان آخر ، وغير قادر على أن يستبرىء ذمته منه ، فهو يلجأ إلى صديق لهذا الآخر ، له مكانة عنده ليستشفع له . وفور أن يذهب صاحب المكانة إلى هذا الآخر فهو يقول له : هل تقبل شفاعتى لفلان ؟ فإن قال صاحب الأمر : لن أقبل الشفاعة ، فالمستشفع عنده يقول له : إذن: سأدفع العدل، أى: ما يساوى قيمة ما كنت سأتشفع له فيه. وهكذا نجد أنفسنا أمام نفسين : شافعة ، ومشفوع لها . والضمير يعود على أى من النفسين.

وهكذا نجد أن صدر كل آية من الآيتين اللتين يقال عنهما : إنهما متشابهتان ، صدر كل منهما منسجم مع عجزها .

وينهى الحق سبحانه الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها بعد أن أوجزت الآية فكرة عن خلق الله تعالى للكون ، وأنه يشفع لمن شاء ويختار من يقدم له الشفاعة ، فيقول : ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ ③﴾ [يونس]

فسبحانه خلق الكون ، واستتبَّت بيده مقاليد الأمور ، وخلق الإنسان ليعمر هذا الكون ، ونعلم أنه سبحانه قد شهد لنفسه أنه لا إله إلا هو ، وحين يشهد الحق لنفسه ، فسبحانه على ثقة تامة بأن أوامره فى كونه نافذة .

وقوله سبحانه : ﴿ ذَلِكُمُ﴾ أى : إشارة إلى ما تقدم من خلق السموات والأرض ، والاستواء على العرش ، وتدبير الأمر كله ،

ولا أحد يشفع عنده إلا بإذنه ، هذا هو الله ربكم ، وما دام هو ربكم فاعبدوه ؛ لأنه هو الذى خلق من عدم ، وأمد من عُدْم ، وله كل صفات الكمال المطلق .

وهذه العبادة لا تعود عليه سبحانه بأى فائدة ، فسبحانه منزَّه عن فائدة تعود عليه ؛ لأنكم إن عبدتموه فلن تزيدوا فى ملكه شيئاً ، وإن لم تعبدوه فلن تنقصوا من ملكه شيئاً [1] . والعبادة يعود نفعها عليكم ؛ لأنكم ستأخذون بها منهجاً يخرج كل الخلق عن أهوائهم ، ويصير هوى الموجِّه واحداً ، فلا تصطدم إرادة بإرادة ، بل تتساند الإرادات ؛ فيتكامل العالم .

إذن : فالعبادة توحِّد أهواء الخلق إلى مراد واحد ، لا يأنف [2] الإنسان منا أن يخضع له ؛ لأن هذا ليس خضوعاً من بشر لبشر ، بل خضوعاً من مخلوق لخالق ، وبذلك تستقيم أموركم الاختيارية ، كما استقامت أموركم غير الاختيارية .

وهكذا لا تنحصر العبادة فى أركان الإسلام الخمسة فقط ، بل تكون هذه الأركان الخمسة هى الدعائم التى تقوم عليها عمارة الإسلام ، وكل الإسلام هو كل أمر لله وكل نهى له سبحانه ؛ ولذلك حين نتابع تسلسل الأمور ، سنجد أن أركان الإسلام الواجبة تعتمد على حركة الحياة كلها ، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب .

---

(١) عن أبى ذر عن النبى ﷺ فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال : « . . . يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ، ما زاد ذلك فى ملكى شيئاً . يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ، ما نقص ذلك من ملكى شيئاً . . » أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٥٧٧) وأحمد فى مسنده (٥/ ١٥٤ ، ١٧٧) .

(٢) يأنف : يكره .

ويقول الحق فى آخر الآية: ﴿ أَفَلا تَذَكَّرُونَ ﴾والذهن أو المخ - كما نسميه - فيه ملكات متعددة مثل : ملكة التخيُّل ، وملكة الحفْظ والاختزان ، وكثير من الملكات الأخرى منها مَلَكَةُ التذكُّر . ومعنى التذكُّر أن شيئاً سبق لك إلْفٌ [1] به ، فطرأ عليك ما أنساك ، وحين تنسى أمراً يخصُّ أحد أقرانك ، فهو يقول لك: تذكر يا أخى الأمر الفلانى ، وهو لا يأتى لك بأمرٍ مجهول لم تعرفه أولاً ، بل يأتى لك بأمر كان معلوماً لك ، ولكنك نسيته.

والإنسان حين ينظر إلى الكون نظرة غير متحيزة لا بد أن يؤمن بأن لهذا الكون إلهاً ، وهذا الأمر لا نأخذه من الفلاسفة ، بل من رجل الشارع ، وراعى الشاة ؛ فقد جاء فى الأثر أن راعياً كان يسير فى الصحراء فرأى بَعْراً [2] فى الطريق ، فقال : إذا كان البعر يدل على البعير ، والسير يدل على المسير، أفلا يدل كل هذا الكون على وجود اللطيف الخبير ؟!

والمثال من حياتنا اليومية: أن غسّالة الملابس الكهربية - وهى لا تدل على شىء ضرورى فى الحياة، بدليل أن السابقين علينا كانوا يغسلون ملابسهم بدونها ، فهى تمثل ترفاً ، لا ضرورة - نجد الناس يعرفون من الذى ابتكرها ، ومن أوصلها بالكهرباء ومَنْ صنع لها توقيتات دورات الغسيل ، ومثلها مثل المصباح الكهربى الذى يفسد بعد عدد معيّن من الساعات ، ونجد التلاميذ يدرسون تاريخ من صنعه ، فهل يمكن أن ننسى من خلق الشمس التى تضىء الكون ؟

---

(١) ألفْتُ الشىء وآلفتُه: لزمته، أو أنست به، أو اعتدته، فهو مألوف. قال تعالى: ﴿ لإِيلافِ قُرَيْشٍ ۝١ ﴾ [قريش] .

(٢) البَعْرة: واحدة البعر، وهو رجيع الخُفِّ ، والظِّلف من البعير.

بل ونجد فى زماننا العالم الكافر وهو يمدُّنا بأدلة الإيمان ، فكل اختراع نجد مَنْ يسجله ؛ حتى لاَ يسرقه غيره ، فما بالنا بالشمس التى تضىء وتُدْفىء ، والقمر الذى يحدد الشهور ، والنجوم التى تدل الناس على الاتجاهات [1] ولا شىء فى كون الله يحتاج إلى قطع غيار ، ألا نعترف بمن خلق كل ذلك ، ها هو ذا سبحانه يدلنا على مَنْ خلق ويبلغنا ما يسجل له ملكية ما خلق ، فأنزل القرآن على الرسول ﷺ ليدلنا على أنه سبحانه الذى خلق ، وأبقى الله الكافرين ليتحدى مَنْ يناقض قضية الخلق . وسجل الحق سبحانه ما خلقه لنفسه، ولم يقدر أحد من الكافرين على إنكار ذلك.

ولن نأخذ الأدلة على وجود الله من الفلاسفة الذين يرتبون النتائج على المقدمات ، ومطابقة قياس الشكل على الموضوع ، بل سوف نأخذ الدليل من كلمة « الكفر» نفسها ، هذه الكلمة (كفر) تعنى : (ستر) ، فهل يُسْتَرُ إلا موجودٌ ؟

إذن : فالكفر بالله دليل على وجود الله ، وما دام الكفر سَتْراً ، فالكفر أمر طارىء ، نتيجة للغفلة ، والغفلة إنما تأتى لأن مقتضيات الإيمان تقيد النفس فى حركتها ؛ لذلك قد يغفل الإنسان متناسياً أن قيود المنهج لا تطبق عليه وحده ، بل تطبق على كل الناس .

فحين يُحرِّم الله السرقة ، فهو لم يحرمها على إنسان واحد ، بل حرمها على كل إنسان ، فقيَّد الآخرين ومنعهم من أن يسرقوا منك .

---

(١) ملأ الله سبحانه الكون بدلائل ربوبيته ووحدانيته وأنه الخالق سبحانه وهو البديع الذى أبدع الأشياء على غير مثال سابق ، وجعلها سبحانه ظاهرة للأعين :
منها الشمس التى قال عنها سبحانه : ﴿ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ ﴾ [النبأ] وقال عنها وعن القمر : ﴿هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ ﴿٥﴾ ﴾ [يونس] وعن النجوم قال سبحانه : ﴿ وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِى ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴿٩٧﴾ ﴾ [الأنعام] .

وحين يأمرك بغضٍّ بصرك [١] عن محارم جارك ، فهو يحمى محارمك أن ينظر إليها غيرك .

إذن : فالإيمان جاء بالنفعية لكل إنسان . وما دام الأمر كذلك ، نجد الحق سبحانه يقول [٢] : ﴿ اذْكُرُوا .. ﴿٣﴾ ﴾ . [فاطر]

وحين يجلس الإنسان بمفرده ولا تُحركه شهواته فهو يهتدى إلى الإيمان بأن هذا الكون لم يَأتِ صدفة .

واسم الخالق للكون لا يمكن أن يعرفه الإنسان بعقله ؛ لأن التصورات تختلف من إنسان لآخر . وتجد أن الفلاسفة حين أقروا بأن هذا الكون لا بُدَّ له من خالق لم يتعرفوا على الاسم ، بل أخطأ بعضهم التصور وظنوا أن من خلق الكون ترك النواميس لتعمل ، وتناسوا أن الخالق لا يباشر سلطانه فى الكون مرة واحدة . لذلك جاء الرسل بالمعجزات التى تخرق النواميس ؛ ليدلنا سبحانه على أنه هو الذى خلق ، وله قيومية على ما خلق ، فليست المسألة مسألة نواميس تعمل بذاتها ، بل شاء سبحانه أن يدلنا على عدم الآلية فى الكون .

ونحن نعلم أن الآلية التى يصممها البشر فى بعض المعدات تتسبب فى إحداث جمود ، فالعقل الإلكترونى ليست له قيومية على المعلومات المختزنة فيه ، فلا يستطيع أن يخفى منها شيئاً إذا طلبت منه .

أما عقل الإنسان فله سيطرة على معلوماته ويستطيع أن يخفى ما شاء منها ، ولذلك قال الحق سبحانه :

---

(١) يقول عز وجل : ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ .. ﴿٣١﴾ ﴾ [النور] .

(٢) ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾ ﴾[فاطر] ، فالنعمة موجودة أوجدها الخالق سبحانه فى الكون ، وطرأ الإنسان على الكون ، ولكنه تغافل فاحتاج إلى التذكرة من خالقه .

﴿وَلَا تَلْبِسُوا [1] الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (٤٢)﴾ [البقرة]

فما دام قيل للإنسان : لا تكتم الحق . إذن : فله قدرة على الإخفاء .

والوردة الطبيعية - على سبيل المثال - حيويتها فى ذبولها على عكس الوردة الصناعية التى تظل على جمودها ليس فيها حياة .

والحق حين يقول : ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ .. (٨٠)﴾ [المؤمنون]

أو ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ .. (٤)﴾ [السجدة]

فهو يحرّض الإنسان على أن يتذكر ، ويتفكر ، ويعتبر . ولو كان القرآن يريد أن يخدع الإنسان ، لما أثار انتباهه إلى ضرورة التذكر والتفكر والتدبر والاعتبار .

وأضرب هذا المثل - ولله المثل الأعلى : هب أنك ذهبت إلى محل للصوف لتشترى قماشاً متميزاً ، فتجد البائع يفرد أمامك القماش ، ويشده بيديه ليبين لك متانته ، ثم يأخذ منه خيطاً ويحرقه ليبين لك أنه صوف خالص نقى ، إن هذا البائع يحاول أن يشرح لك خبايا صناعة الصوف ؛ لأنه واثق من جودة ما يبيع .

هذا ما يحدث فيما بين البشر ، فما بالنا حين يعرض خالق الكون على مخلوقاته أسرار الكون ويدعوهم عبر منهجه إلى التذكُّر والتعقُّل والتفكُّر والتدبُّر والاعتبار .

والحق سبحانه يطلب منا ذلك ثقة منه فى أن الإنسان منا ، إن فعل ذلك ؛ فسيصل إلى مراد الحق من الخلق .

---

(١) التبس عليه الأمر : اختلط واشتبه . التلبيس : كالتدليس والتخليط . إلباس الحق بالباطل : خلطه به ومنه قوله تعالى : ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا .. (٦٥)﴾ [الأنعام] .

وإياكم أن تظنوا أن الله خلَق لكم ، ثم خلَق لكم ، ثم أنزل لكم المنهج ليسعد حياتكم فى الدنيا والآخرة ، ثم اعتزلكم . لا ، بل هو قيُّوم حياتكم ولا تأخذه سنةٌ ولا نوم ، ولا يفلت منه شىء ، ولا أحد بقادر على أن يختلس منه شيئا .

وفى الحديث القدسى : « يا عبادى إن كنتم تعتقدون أنى لا أراكم فالخلل فى إيمانكم . وإن كنتم تعتقدون أنى أراكم فَلِم جعلتمونى أهون الناظرين إليكم » .

وأنت فى الحياة اليومية تعرف أن أحداً لا يقترب من إنسان قوى منتبه .

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ ۚ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ (١) وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾ ﴾

وحين يقول سبحانه : ﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ﴾ فهذا إعلام لكل الخلق أن كل الأمور معلومة له سبحانه ، فقد أنزل التكليف الذى قد يُطاع ؛ وقد يُعصى . فمن أطاع يفرح بقوله سبحانه : ﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ﴾ ، ومن عصى يحزن ؛ لأنه سيلقى عقاب العصاة حين يرجع إلى الله (٢) .

---

(١) حميم : ماء شديد الحرارة والسخونة .

(٢) وقد دلَّ القرآن على أن المؤمنين رغم طاعتهم لله إلا أنك تجدهم مشفقين من يوم القيامة وما فيه من أهوال وهذا لعظم إيمانهم بأن الله سريع الحساب وأنه سبحانه شديد العقاب ؛ ولأنهم يعملون الطاعات ويخافون ألا تقبل ، ويقعون فى المعاصى ويخشون ألاَّ يُغفر لهم . يقول سبحانه : ﴿ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ (٤٩) ﴾ [الأنبياء] .

ونجد القرآن يقول مرة : «يُرْجَعُون» ومرة يقول : « يَرْجعون»[1] ، فمن عمل صالحاً ؛ فهو يفرح بالرجوع إلى الله ، ومن عصى وكَفر ؛ فهو يحزن ويخاف ويتردد ويحاول ألا يرجع ، لكنه يُرجَع رغم أنفه ، والحق سبحانه يقول: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ[2] إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾﴾ . [الطور]

وقوله سبحانه هنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها : ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ... ﴿٤﴾﴾ . [يونس]

وسُمِّى هذا المرجع فى نفس الآية : ﴿وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا .. ﴿٤﴾﴾ [يونس]

ولقائل أن يقول: ولكن الوعد يطلق على الأمر الذى سيأتى بخير ، فإن كان المرجع للطائع فهذا هو الخير ، ولكن العاصى لن يرى فى الرجوع خيراً ، فلماذا لم يقل الله : إن المرجع للعاصى وعيد ؟

وأقول : إن الحق سبحانه إنما ينبه الإنسان لما ينتظره فى المستقبل ، ويعظه ، وترك له الاختيار ، وهذا تقديم للخير ، وهكذا تصبح المسألة كلها وعْداً . والصيغة التى يتقدم فيها المجرور رغم أن من حقه التأخير ، فهى تعنى تفرُّد المرجع ، فكلنا نرجع إليه سبحانه ، مثل قوله سبحانه :

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ .. ﴿٥﴾﴾ . [الفاتحة]

إذن: فالطائع يفرح بجزاء الله له ، وعلى العاصى أن يراجع نفسه قبل أن

---

(١) ورد قوله تعالى ﴿ يُرْجَعُونَ﴾ فى ستة مواضع من القرآن الكريم: فى آل عمران (٨٣) والأنعام (٣٦) ومريم (٤٠) والنور (٦٤) والقصص (٣٩) وغافر (٧٧) .

* أما قوله سبحانه : ﴿يَرْجِعُونَ﴾ فقد وردت ستة عشر مرة :[البقرة : ١٨] ، [آل عمران : ٧٢] ، [الأعراف : ١٦٨ ، ١٧٤] ، [يوسف : ٦٢] ،[الأنبياء : ٥٨ ، ٩٥]، [النمل : ٢٨]، [الروم : ٤١] ، [السجدة : ٢١]، [يس : ٣١ ، ٥٠ ، ٦٧]، [الزخرف : ٢٨ ، ٤٨] ، [الأحقاف : ٢٧] .

(٢) يدعّون: يُدفعون دفعاً عنيفاً. والدَّعّ: الطرد والدفع. قال تعالى: ﴿فَذَٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ﴿٢﴾﴾ [الماعون] .

يرجع إلى الله . وأضرب هذا المثل - ولله المثل الأعلى - أنت تنبه التلاميذ إلى أن يذاكروا طوال العام ، فالذى يذاكر فعلاً ، يفرح بالامتحان ؛ لأنه سوف ينجح فيه ، والذى لا يذاكر قد يراجع نفسه ويقبل على المذاكرة خوفاً من الرسوب ، والتذكير لون من ألوان الإنذار ؛ ليتهيب الموقف ويرتدع ، وهكذا يصير التذكير وعداً لا وعيداً.

ويضيف الحق سبحانه لوصف وعده بأنه حق ، فيقول: ﴿وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا﴾ ولقائل أن يقول : أليس كل وعد من الله حقّاً ؟ ونقول : نعم . كل وعد من الله هو حق ، وشاء الحق سبحانه هنا أن يَصفَ وعده بأنه حق ليذكرنا بأن الحق هو الشىء الثابت ؛ فإن خُيِّل إليك فىَ بعض الأوقات أن الباطل هو السائد والسيد ، فلتعلم أن الباطل لا ثبات له ولا سيادة.

وسبحانه يقول:

﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا (١) رَّابِيًا (٢) وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً (٣) وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ (١٧)﴾ . [الرعد]

فحين ينزل المطر نجد كل واد يأخذ من الماء على قَدْر حاجته ، وساعة ينزل المطر ويتجمع ، نجد القشّ يطفو ومعه الحشائش والأشياء التى لا فائدة منها ؛ لأن الماء فى لحظة النزول إنما يُنظف المكان الذى ينزل عليه ؛ لذلك تطفو الأشياء الخفيفة وغير المفيدة.

---

(١) الزَّبَد : هو ما يعلو ماء البحر إذا هاج موجُه. وبحرٌ مُزْبِدٌ، أى : مائج يقذف بالزَّبَد . وزبَد الماء: طفاوتُه وقَذَاهُ. والجمع : أزباد.

(٢) رابياً: مرتفعاً؛ لأنه يكون أعلى سطح الماء.

(٣) جفاء السيل: هو ما يقذفه من الزَّبَد والوَسَخ ونحوهما.

كذلك الباطل إنما يطفو على السطح لكنه لا يفيد ولا يزعزع الحق الذى يستقر وينفع الأرض والناس ، وطفو الباطل إنما هو تنبيه لجنود الحق ، والباطل مَثَلُه مَثَلُ الألم الذى ينبه للمرض ، وأخطر الأمراض هو الذى لا ألم فيه ، فيستفحل إلى الدرجة التى يصبح علاجه صعباً ومستحيلاً .

إذن: فالألم كالباطل ينبه جنود الحق ؛ ولذلك أنت تلحظ أنه إذا ما أهيج الإسلام من أى عدو ، تجد الحماسة وقد دبَّتْ فى الناس جميعاً ، حركة وتعاوناً ، ونسياناً للأحقاد ؛ للدفاع عن الإسلام .

وفى الأمراض التى تنتقل ببعض الڤيروسات ، نجد الأطباء وهم يُطَعِّمون الناس من نفس ميكروبات أو ڤيروسات المرض بجرعات ضعيفة لتستثير مقاومة الجسم ، إذن : فالباطل جندى من جنود الحق ، كما أن الألم جندى من جنود العافية .

وإذا كان الحق هو القائل : ﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ [1] جَمِيعًا ﴾ فلا بد أنه الوعد الحق ؛ لأنه سبحانه يملك ما يعد به ، وسبحانه منزه عن الكذب وعن الخديعة ؛ لأنه القائل : ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً (١٢٢) ﴾ [النساء]

ولأنه أقوى مما خلق ؛ وممَّنْ خلق. ولا تخونه إمكاناته ؛ لأنه يملك الكون كله .

وكلمة «الرجوع» فى قوله تعالى : ﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ﴾ تفيد أن تكون

---

(١) مادة : رجع من باب ضرب - يرجع رجوعاً ، ورجع عاد إلى مكان منه قد بدأ ، فهو هنا لازم ، ورجعه غيره أعاده ورده متعد بنفسه ، ورجع بصره رده مرة بعد مرة فمن اللازم قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ .. (١٥٠) ﴾ [الأعراف] . أى : عاد ، ومن المتعدى : ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ .. (٨٣) ﴾ [التوبة] . أى : أعادك وردك ، ومن المعنوى قوله : ﴿ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ .. (٤) ﴾ [الملك] - القاموس القويم صـ ٢٥٦ ، ٢٥٧

على شـيء ثم تفارق هـذا الشيء وبعد ذلك ترجع له ، فهى وجود أولاً، ثم خـروج عن الوجـود ، ثم عـودة إلى الوجـود الأول . فـإذا كنت فى مـكان ، ثـم ذهبـت إلى مـكان آخـر ، وترجـع إلى المكان الأول ، فـهـذا هـو الرجوع.

والقول هنا يفيد أننا سنموت جميعاً ، مصداقاً لقوله الحق: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٢٧) ﴾ [الرحمن]

وقد قـال الكافـرون ما ذكـره القرآن : ﴿ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ (٣) ﴾. [ق]

كـأنهم قـد استبعـدوا فكرة البعث ، وقـالوا أيضـاً : ﴿ أَئِذَا ضَلَلْنَا [1] فِي الْأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ .. (١٠) ﴾ . [السجدة]

أى: أنهم تساءلوا: هل بعد الموت والدفن وتحلُّل الجثمان [2] إلى عناصر تمتزج بعناصر الأرض ، أبعد كل ذلك بعث ونشور [3] ؟

وجـاء هنـا قـوله سبـحـانه : ﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ﴾ ليـفـيـد أن الخـروج إلى الوجـود بالميـلاد إلى الحيـاة ، ثـم بعـد ذلك خـروج على

---

(١) ضللنا فى الأرض أى : ذهب أثرنا فى الأرض وخفينا بسبب تحلل أجسامنا .

(٢) الجثمان : الجسد. قال تعالى: ﴿ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٦٧) ﴾[هود] أى: أجساداً ملقاة فى الأرض.

(٣) النشور: بَعْث الموتى يوم القيامة. قال تعالى: ﴿ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ (٢٢) ﴾ [عبس] أى: أحياه وبعثه. وقال : ﴿ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ (١٥) ﴾ [الملك] ومنه يوم النشور: يوم القيامة.

وقضية البعث والنشور إحدى أربع قضايا رئيسية كان الكافرون ينكرونها، ويحكى عنهم القرآن قولهم: ﴿ وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٤٩) ﴾ [الإسراء] ويقول سبحانه : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩) ﴾ [يس] .

الحياة إلى مقابلها وهو الموت ، ومن بعد ذلك البعث.

وقد وقف الكافرون عند هذه النقطة واستبعدوها ، فأراد الله أن يبيّن لنا هذه المسألة ؛ لأنها تتمة التمسك بالمنهج ، وكأنه يقول لنا: إياكم أن تظنوا أنكم أخذتم الحياة ، وأفلتم بها وتمتعتم ، ثم ينتهي الأمر [1] ؟ لا ، إن هناك بعثاً وحساباً . لذلك قال : ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا..(٤)﴾ [يونس]

فإن قال قائل: كيف يكون ذلك ؟ يأتي القول الحق : ﴿إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ فالذى قدر على أن يخلق من عدم ؛ أيعجز أن يعيد من موجود ؟ إنه الحق القائل:

﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا (٩)﴾ . [مريم]

فإذا شاء أن يعيدكم فلا تتساءلوا كيف ؟ لأن ذراتكم موجودة ، والحق سبحانه يقول :

﴿أَفَعَيِينَا [2] بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ [3] مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ (١٥)﴾ [ق]

هكذا يستدل الحق سبحانه بالخلق الأول على إمكان الخلق الثانى ، فإن كنتم تتعجبون من أنكم تعودون بعد أن أوجد الحق أجزاءكم وذراتكم ومواصفاتكم ؛ فانظروا إلى الخلق الأول ؛ فقد خلقكم من لا شيء ؛ أفيعجز أن يعيدكم من شيء ؟ ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ﴾ .

---

(١) وفى هذا يقول سبحانه وتعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى (٣٦)﴾ [القيامة] قال ابن زيد ومجاهد: أيظن ابن آدم أنه يخلى مهملاً فلا يُؤمر ولا يُنْهى. وقيل: أيحسب الإنسان أن يُترك فى قبره كذلك أبداً لا يبعث. ذكره القرطبى فى تفسيره (١٠/ ٧١٥٢) .

(٢) عَيَّ الإنسان بأمر: عجز عنه.

(٣) اللبس: اختلاط الأمر، والشك.

وجاء الفلاسفة وأقاموا ضجة [(١)] ، فجاء الحق سبحانه وتعالى من الكون بالأدلة ، وقال :

﴿ وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً ... ۝٥ ﴾ [الحج]

أى : أرضاً ميتة وليس فيها أى حياة .

﴿ فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ [(٢)] وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝٥ ﴾ [الحج]

إذن : فلا عجب أن تصدر حياة عن موت ، وأنتم ترون ذلك كل ساعة . والحياة التى تراها أمامك ليست إلا دورة ؛ لأن الله حين خلق الكون ، خلق عناصره ، ولا زيادة على هذه العناصر .

وخذ مادة واحدة وهى المياه ، فمنذ أن خلق الحق سبحانه المياه لم تزد ولم تنقص ، ويشرب منها الإنسان والحيوان ، ولو أخذ كل واحد فى حياته أىّ قدر من المياه ، تظل المياه كما هى ؛ لأن هذا الإنسان يفرز ما شربه على هيئة عرق وإفرازات مختلفة ، وكل ذلك يخرج منه ، ويبقى ما يمثل وزنه .

إذن : فما أخذته من المياه إنما يخرج منك مختلطاً بأشياء نتيجة التفاعل الذى يعطيك طاقة الحياة ، وبعد ذلك يتبخر الماء ، وعملية التبخير هى

---

(١) قامت ضجة الفلاسفة على شبهات وافتراضات نشأت فى عقولهم عن استحالة البعث بعد الموت وأعطوا أمثلة ظنّوها تؤيد فكرهم السقيم منها : من أكلته أسماك وحيوانات البحر أو أكله أسد أو وحوش مفترسة ، وهى شبهات تقوم على أساس ما ذكره فضيلة الشيخ صفحة ٥٧١٤ عن مذهب الفلاسفة فى أن الله قد خلق الكون ثم ترك عناصره تتفاعل بقوانينها الذاتية ، أى : أن الله ليست له قيومية على كونه . وقد رد القرآن على هذه الشبهات بوضوح بقول الله سبحانه عن خلق الله هذا الكون وقيوميته عليه وعلمه الذى يسع كل جزئيات الكون فلا تغيب عنه مثقال ذرة وهو سبحانه القادر الذى لا يخرج عن قدرته شىء . وما دام الله قد خلق الكون من عدم ، فإن إعادته بعد فنائه أهون عليه سبحانه ، ويقول عز وجل : ﴿ وَهُوَ الَّذِى يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۝٢٧ ﴾ [الروم] . ويقول تعالى : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٢٨ ﴾ [البقرة] .

(٢) رَبَتْ : عَظُمَت وانتفخت وزادت .

تقطير [١] للماء ، فأنت إذا أردت تقطير المياه تسخنها إلى درجة الغليان فتتحول بعد ذلك إلى بخار ، ثم تكثفها [٢] لتعود مياهاً من جديد.

إذن: فالماء له دورة ، نروى منه الزرع ؛ فيأخذ المائية ويصير أخضر اللون ، ويخرج منه الماء الزائد عن حاجته فى عملية النتح [٣] ، ثم يجف ، بعد أن تخرج منه المياه بالتبخر، وكل ذلك دون أن يشعر أحد بحكاية التبخير هذه.

وأنت حين تُحضِّر كوباً من الماء المقطر فى الصيدلية ، تتكلف كثيراً ، وتحتاج موقداً وإناءً وأنابيب ، ثم إلى مياه أخرى باردة لتكثف البخار ، ولكن هذه مسألة تحدث فى الكون ملايين المرات ، ولا يدرى بها أحد.

وبعد أن تتبخر المياه تصير سحاباً ، ثم ينهمر المطر وهو مياه مقطّرة. ولذلك تجد أن مساحة رقعة الماء ثلاثة أرباع الأرض لتخدم الربع الباقى (اليابسة) ؛ لأن الله يريد اتساع سطح الأرض ، وهذا الاتساع هو الذى يساعد على التقطير والتبخير والتكثيف.

مثلما تجىء أنت بكوب ماء ، وتضعه فى حجرة ، ثم تغيب شهراً عن الحجرة ، فعند عودتك إليها قد تجد الكوب نقص ما مقداره نصف سنتيمتر تقريباً ، لكنك إن أخذت كوب الماء نفسه وألقيت ما فيه من ماء ليسيح على أرض الغرفة ، فستجد أن الأرض جفت خلال ساعات قليلة ، وهكذا نجد أن اتساع الرقعة إنما يساعد على سرعة البخر.

---

(١) التقطير: تنقية الماء وتصفيته مما قد يعلق به من مواد غريبة ضارة.
والتقطير: تحويل السائل إلى بخار بالحرارة ثم تبريده ليعود سائلاً كما كان وذلك بجهاز التقطير (المعجم الوسيط).
والبخار: كل ما يصعد كالدخان من السوائل الحارة (المعجم الوسيط) وتبخير الماء: تسخينه حتى يتحول إلى حالته الغازية ويتصاعد على هيئة بخار.

(٢) التكثيف: هو تعريض بخار الماء إلى سطح بارد ليتكثف عليه ويبرد فيعود إلى حالته السائلة [بواسطة جهاز التقطير].

(٣) نتح: رشح ، يقال: نتح العرق من الجلد، ونتح الإناء بما فيه ونتحه الحرّ، ونتح الماء من النبات نتحاً أى: خرج منه الماء الزائد عن حاجته. [المعجم الوسيط «بتصرف»].

إذن: الكمية التى خلقها الله من المياه كما هى ، لم تَزدْ ولم تنقص ، تدور الدورة التى شاءها الحق ، وهكذا نرى أن الشىء يعود إلى أصله مرة أخرى ، ويمكن أن نرى ذلك فى كل أوجه الحياة ، والحق سبحانه يقول:

﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ﴿١﴾ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ﴿٢﴾ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ﴿٣﴾ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا (١) ﴿٤﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾﴾. [الذاريات]

يقسم الحق سبحانه هنا بالرياح التى تحمل السحاب ، وتمطر كل سحابة على الموقع المحدَّد لها بأمر من الله ، ويلفتنا الحق سبحانه هنا إلى دورة الماء ، الذى هو قوام الحياة ، بأن الوعد منه سبحانه يتحقق حتماً.

تأمّل الوردة ، تجد لها نعومة ونضارة ؛ لأن فيها شيئاً كثيراً من المائية ، ولها لون جميل ورائحة ذكية تفوح ، فإذا قطفتها تتساقط أوراقها وتجف ؛ لأن ما فيها من المائية يتبخر ؛ فما أخذته الوردة من الماء عاد إلى مخزنه مرة أخرى ، وكذلك الرائحة تظل فى أوراقها الذابلة إلى أن تنتهى ، وكذلك اللون ، ثم تخرج وردة جديدة.

إذن: حياة كل كائن فى الوجود والعالم فى حركته ناشئة عن هذه الدورة ، فإذا كانت مائية حياتكم تدور ؛ أتستبعد أن تدور أنت بمكوناتك ؟ هَبْ أن إنساناً وُجد ومات ؛ بخروج الروح من الجسد ويُوارى الجثمان ويتبخر ما فيه من ماء ، وتتحلل مواد الجثمان مع عناصر الأرض

(١) الذاريات: الرياح. ذَرَت الريح التراب وغيره تذروه ذروا: أطارته وأذهبته. قال تعالى: ﴿تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ ﴿٤٥﴾﴾ [الكهف] والحاملات وقرا: السحاب. والجاريات يسرا: السفن. والمقسمات أمرا: الملائكة. وقد ثبت عن الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه أنه صعد منبر الكوفة، فقال: لا تسألونى عن آية فى كتاب الله تعالى ولا عن سنة عن رسول الله ﷺ إلا أنبأتكم بذلك، فقام إليه ابن الكواء فقال: يا أمير المؤمنين، ما معنى قوله تعالى: ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ﴿١﴾﴾ قال على رضى الله عنه: الريح. قال: ﴿فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ﴿٢﴾﴾ قال: السحاب. قال: ﴿فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ﴿٣﴾﴾ قال: السفن، قال: ﴿فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ﴿٤﴾﴾ قال رضى الله عنه: الملائكة. [ذكره ابن كثير فى تفسيره ٤/ ٢٣١].

لتصير تراباً ، فهل يعجز الحق أن يعيد إلى الوجود أبعاض هذا الإنسان؟ طبعاً لا يمكن أن يعجز.

الحياة - إذن - احتكاك هذه الدورات لتلك العناصر ، فلم يزد شيء عليها ، ولم ينقص منها شيء.

واقرأ القرآن بتبصر تجد قوله الحق:

﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ﴿٤﴾﴾ [ق]

وهكذا يبيِّن لنا الحق أن العناصر كلها موجودة فى الكون ، قد تزيد فى مخلوق عن الآخر ، لكن المجموع الكلى لكل العناصر ثابت ، وإذا كان العلم قد توصل إلى أن هناك ستة عشر عنصراً تكوِّن الكائنات [1] ، فهذه العناصر ثابتة الكمية ، وإن اكتشفوا زيادة فى عددها ، فالزيادة فى عدد العناصر ستكون أيضاً ثابتة الكَمِّ لكل عنصر.

وقال العلماء: إن الستة عشر عنصراً هى: الأوكسوجين، والكربون ، والهيدروجين، والنتروجين، والمغنسيوم، والبوتاسيوم، والصوديوم، وغيرها.

كل هذه العناصر تعود إلى أصلها بعد أن تموت الكائنات وتتحلل.

هكذا يصدق قول الحق:

﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ...﴿٤﴾﴾ [ق]

وقد حاول بعض الفلاسفة أن يعترضوا اعتراضاً ثانياً وقالوا: هب أن إنساناً مات ، ثم تحللت عناصره فى الأرض . ألا تذهب عناصره إلى

(١) كل كشف هو من أسرار غيبه سبحانه ، وله ساعة ميلاد يتجلى بها الخالق على كل من يتعامل مع الكون بحثاً وتأملاً وانتفاعاً ، وما دام القرآن خالداً فمدد الكشف سيظل وارداً ، وفي ورده انتفاع نحو المراد بقول الحق: ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾ [الكهف].

كائنات أخرى ، مثل شجرة أنتجت ثمرة أوغير ذلك ، ثم أكلها إنسان آخر ، فدخلت فى أجزائه ، إذن: فمن مات ونشأت على أنقاضه ثمرة ، أو غير ذلك ، ودخلت المكونات فى إنسان آخر ، فكيف يبعث الله كلَّ إنسان من جديد ؟

ونقول: أنت عرفت شيئاً ، وغابت عنك أشياء. انظر مثلاً إلى السِّمنة والنحافة كظاهرة موجودة فى الناس وتراها كل يوم ، ومعنى السمنة أن كمية من مادة معينة تزيد فى الإنسان السمين أكثر من مادة الإنسان الآخر النحيف . وقد يطرأ على السمين ما يجعله نحيفاً أو العكس . فهل هذا يغيِّر من شخصيته ؟ طبعاً لا ، وهكذا نجد فارقاً بين المشخصات وبين تكوين المشخصات من العناصر.

وما دام الحق سبحانه قد أعلمنا أنه لا شىء ينقص من الأرض إلا بمقدار مكونات الكائنات الموجودة عليها ، فالعناصر التى فى الأرض تكفى كل الكائنات ، ويوزعها سبحانه بالنسب اللازمة ، وأنت إن جمعت هذه العناصر فستجدها ثابتة الكم وإن اختلفت فى كيفية تكوين الكائنات.

مثال ذلك: أنك تجد إنساناً وزنه مائة كيلو جرام ، ويمرض ؛ فيهزل وينقص وزنه إلى سبعين كيلو جراما ، ومعنى ذلك أن الثلاثين كيلو جراما الأخرى ذهبت إلى الأرض ، فلكل جسم قاعدة يقف عندها الوزن إلى سن معينة ، وتُعتبر هذه هى القاعدة التى يزيد فوقها الوزن ، أو يقل عنها حسب ظروف التغذية والصحة.

وأنت ترى الطفل يفرز أقل مما يتناول من الغذاء ؛ حتى ينمو ، ولو كان يُخرج إفرازات تساوى - فى الكمية - ما يأكل ويشرب لَمَا كبر. ومن بعد ذلك يكبر إلى أن يصل إلى وزن ثابت تقريباً ، فتخرج منه إفرازات تساوى

ما يدخل إليه ، ثم تأتى الشيخوخة فيخف الوزن ، وهذا يعنى أن ما يخرج منه أكثر مما يدخل إليه ؛ فتنشأ النحافة.

وهَبْ أن طبيباً حاذقاً [١] استطاع أن يعلم الداء الذى يسبب إصابة مريض ما بالهزال ، وأعطاه من الدواء ما جعله يسترد عافيته [٢] ومعها ما فُقد من الوزن ، وتتحسن تغذية هذا المريض أثناء فترة العلاج ، فهل تتغير شخصية هذا المريض ؟ طبعاً لا ؛ لأن ما خرج منه أثناء الهزال ذهب إلى الأرض ، ثم استرد مثله من الأغذية أثناء الشفاء.

إذن: فلا تقل : إن هناك شيئاً نقص ، فعند الله كتاب حفيظ فيه مكونات كل الكون ، ويأتى بعناصر معينة ، ويأمرها بـ «كن» فتكون إنساناً ، أو تكون كائناً آخر حسب مشيئة الله سبحانه.

وإذا كنا نتحدث الآن كيميائياً فنحن نتكلم بذلك ؛ ليثبت عقديّاً [٣] وعقليّاً ؛ لأننا آمنا بأن هناك منهجاً من المكلِّف ، والمنهج عُرْضة لأن يطاع أو يعصى ، ومَنْ يُطع الله فى المنهج ، فهو يحدد حريته ، والذى لم يُطع الله واستسلم للضياع فهو الخاسر ؛ لأن منطق العقل يؤكد أن من يأخذ المنهج ويلتزم به ويكبح شهواته [٤] ؛ لا يمكن أن يستوى مع من

---

(١) الحذق: المهارة فى العمل. تقول: حَذَق فلان فى عمله فهو حاذق ماهر.

(٢) مادة : عفا تقول مصادر اللغة عفا المنزل يعفو عَفواً وعُفُواً وعفاءً . أى : درس ، وعفته الريح يستعمل لازماً ومتعدياً . ومنه : عفا الله عنك أى : محا ذنوبك ، وعفوت عن الحق : أسقطته - وعافاه الله محا عنه الأسقام . والعافية اسم منه ، وهى مصدر جاء على فاعلة كناشئة - المصباح صـ ٤١٩ .

(٣) عَقَدىّ : نسبة إلى العقيدة، والعقيدة: صيغة مبالغة من العَقْد. والعقد: العهد والإيمان. والعقيدة: الحكم الذى لا يقبل الشك فيه لدى معتقده. والعقيدة الدينية: يقصد بها الإيمان والاعتقاد فى الدين، كعقيدة وجود الله ، وبعثة الرسل. والعقيدة الإسلامية هى الاعتقاد بصحة الدين الإسلامى وصدقه.

(٤) يكبح شهواته: يتحكم فيها فلا تطغى عليه، وهذا كالرجل الممسك بلجام فرسه أو دابته حتى لا تجمح منه وتفلت من قيادها. (لسان العرب مادة ك ب ح).

عبث [١] ولا بد أن يفترض منطق العقل أن يوجد بعث يجازى بالطيبات مَنْ سار على المنهج ، ويعاقب مَنْ خرج على المنهج.

وما دام قد وجد إله ، ووجد بلاغ عن الله بواسطة الرسل ، ووجد تكليف بـ«افعل» و«لا تفعل» ، ووجدت طاعة للتكليف ، ومعصية للتكليف ، إذن : لا بد بعد هذه الحياة من بعث ، ويأخذ من أحسَنَ جزاءه ، وينال مَنْ أساء عقابه ؛ ولذلك قال الحق:

﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ ... (٤)﴾ [يونس]

جاء هذا القول مطمئناً الملتزمين بالمنهج بأن هناك بعثاً وحساباً ؛ لأن المؤمن المطيع لا بد أن ينال حسن الثواب ، وأن ينال العاصى الشرير الذى شقيت الدنيا كلها بعصيانه العقاب، ولذلك لا بد من الإعادة ؛ ليجزى الله كل واحد بعمله بالقسط [٢]. والقسط - كما أوضحنا من قبل - معناه العدل ، والمادة هى القاف والسين والطاء. ننطقها مرة «القسط» بكسر القاف. وننطقها مرة أخرى «القسط» بفتح القاف والقسط «بالكسر» هو العدل ؛ والقسط «بالفتح» هو الظلم ، ولذلك نجد قوله الحق:

---

(١) وهذا هو ميزان العدل الذى يثاب به الطائع ويجازى به العاصى، يقول سبحانه وتعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٢١)﴾ [الجاثية] .

(٢) قسط : من أسماء الله تعالى الحسنى« المُقْسط »: هو العادل. يقال: أقسَطَ، يُقْسط، فهو مُقْسط إذا عَدَلَ. والقسْط والإقساط: العدل. يقال: أَقْسَطَ وقسَطَ إذا عدل. قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ (١٥٢)﴾ [الأنعام] وقال سبحانه :﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ (٣٥)﴾ [الإسراء] وهو أقوم الموازين وقال عز وجل : ﴿وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٩)﴾ [الحجرات] .

ومن معانى القسْط أيضاً: الحصّة والنصيب، والميزان، والمكيال. وقَسَّط الشىء: فرَّقه وقسَّمه. أما القَسْط والقُسُوط فهو الجور والعدول عن الحق. [اللسان : مادة (قسط)].

﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا (١) (١٥)﴾ [الجن]

والمقصود بالقاسطين: الجائرون على حقوق غيرهم.

ونجد قوله الحق:

﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٤٢)﴾ [المائدة]

والمقْسِطون: هم العادلون بين الناس.

إذن: فهناك «قسْط» و«قَسْط»، وهناك شيء اسمه «قَسَط» (٢) بالفتحتين وهو الانحراف فى الرِّجلين. إلا أن المستعمل فى كلمة «قسْط» هنا مقصود به العدل، واسم الفاعل منها «قاسط» واستعملتَ فى الجوْر. وهى مأخوذة من القَسْط لا من القسْط، وتجد من أسماء الله «المُقْسط» (٣)، ولم يصف نفسه بالقاسط بمعنى العادل، أى: ابتدأ بالعدل أولاً، وشاء سبحانه فوصف نفسه بالمُقْسِط؛ لأنه هو الذى يرفع الجور فيحقق العدل.

وفى الآية التى نحن بصددها يقول الحق سبحانه: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ﴾ أى: جزاء منه بالعدل، وأيضاً يمكن أن نقول: إنه سبحانه يجزيهم؛ لأنهم عدلوا فى العقيدة؛ لأن القرآن الحكيم - كما نعلم - جاء حاكماً وفيصلاً بين قضايا العقائد وقضايا الاختيار فى الأفعال

(١) الحطب: ما أعدّ من الشجر لإشعال النار. والمراد أنهم سيكونون فى عذاب شديد؛ إذ جعلهم الله فى جهنم بمثابة الحَطب للنار؛ زيادةً فى عذابهم، وتحقيراً لشأنهم.

(٢) القَسَط: عيب فى الرِّجْل، والرِّجْل القَسْطاء هى التى فى ساقها اعوجاج حتى تتباعد القدمان وتنضم الساقان. [اللسان: مادة (قسط)].

(٣) اسم الله «المقسط» لم يرد به القرآن اسماً من أسماء الله تصريحاً، بل على سبيل الإشارة، قال تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ (١٨)﴾ [آل عمران]، وهو من صفات الأفعال، وعن أبى موسى الأشعرى أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله لا ينام ولا ينبغى له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه» أخرجه مسلم فى صحيحه (١٧٩) وأحمد (٤/ ٤٠٠، ٤٠١) وابن ماجه فى سننه (١٩٥).

وقضايا الأخلاق ، وهؤلاء قد أخذوا المنهج بدون ظلم لله فلم يشركوا به أحداً ، والحق سبحانه هو القائل:

﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣) ﴾. [لقمان]

إذن: فهم بعدلهم وبقسطهم فى أمر العقيدة وأنهم لم يرتكبوا إثم الشرك الذى هو ظلم عظيم [(١)] ؛ وبذلك لم يظلموا أنفسهم أيضاً ، ولم يأخذ واحد منهم لنفسه متعة عاجلة ؛ لذلك أنقذهم الله من الشقاء الأبدى الطويل ، وهم لم يظلموا الناس. ولكل ما تقدم لا بد أن يجزيهم الله على العمل الصالح بسبب عدلهم وقسطهم.

وقد يقال: إن الجزاء بالقسط لا زيادة فيه ولا نقصان ، فإذا كان الجزاء من الله ، فالعدل على مقتضى التشريع أن تكون الحسنة بعشر أمثالها ، ويضاعف سبحانه لمن شاء [(٢)] ، هذا هو عدل الله بالتشريع. أو أن الجزاء يُعطى بلا زيادة ولا نقصان جزاء العدل ، ولكن ذلك لم يحدد الفضل فى هذه الآية. ولذلك حدث إشكال بين علماء الكلام فى قول الله سبحانه:

---

(١) عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال: لما نزلت: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ (٨٢) ﴾ [الأنعام] قال أصحاب رسول الله ﷺ: وأينا لم يظلم نفسه؟ فقال ﷺ: «إنه ليس الذى تعنون ، ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح: ﴿ يَا بُنَيَّ لاَ تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣) ﴾ [لقمان] إنما هو الشرك». أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٢) وأحمد فى مسنده (١/ ٣٧٨).

(٢) يقول سبحانه وتعالى: ﴿ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَىٰ إِلاَّ مِثْلَهَا وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ (١٦٠) ﴾ [الأنعام] ، وكان العدل والقسط يقتضى أن يكون جزاء الحسنة حسنة مثلها ، وجزاء السيئة سيئة مثلها ، ولكن فضل الله ورحمته أن الحسنة بعشر أمثالها ، والسيئة بمثلها ، وعلى هذا دلَّتْ أحاديث رسول الله ﷺ ، فعن ابن عباس عن رسول الله ﷺ فيما يروى عن ربه تبارك وتعالى قال: «إن ربكم عز وجل رحيم. من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة ، فإن عملها كتبت له عشراً إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ، ومن همَّ بسيئة فلم يعملها كتبت له حسنة فإن عملها كتبت له واحدة». أخرجه مسلم فى صحيحه (١٣١) وأحمد فى مسنده (١/ ٢٧٩) واللفظ لأحمد. ومن دعاء العارفين: اللهم عاملنا بفضلك لا بعدلك وبإحسانك لا بميزانك.

﴿وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ (٣٩)﴾ [النجم]

فقال بعضهم: إذا كان الإنسان لا يأخذ إلا جزاء ما سعى ، فكيف يُجزى جزاء على الحسنة بعشر أمثالها ؟ وكذلك ماذا عن صلاة الجنازة ؟ وهل ينتفع بها الميت حين ندعو له بالمغفرة [(١)] ؟ وإن كان الإنسان لا يأخذ إلا ما سعى فلن ينتفع بها الميت ، فلماذا كلفنا الحق سبحانه بصلاة الجنازة كفرض كفاية ، لا فرض عين [(٢)] ؟

ونقول: إن وجود اللام فى قوله : ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ﴾ يفيد الملْك ، أى: الحق ، والآية تعطى الحق ولكنها لم تمنع الفضل ، أو نقول: هل نصلى على كل ميت ؟ نحن نصلى على الميت المؤمن ، والإيمان من عمله ، وهو يُجَازى بصلاتنا عليه ، أى: جزاء عمله.

ويقول سبحانه : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ وهكذا نعرف أن العذاب الأليم قد جاء لهم بسبب الكفر ، مثلما يجىء الجزاء على الأعمال الصالحة للمقابل لهم بسبب الإيمان والعمل الصالح.

إذن: فالقسط هنا تعود على قسط الله ، وهو العدل ، وكذلك قسطهم هم ؛ لأنهم حكموا فى الربوبية بالعدل . أما الكافرون ، فالعدل معهم أن

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا صليتم على الميت فأخلصوا له الدعاء» أخرجه ابن ماجه فى سننه (١٤٩٧) وأبو داود (٣١٩٧) وفيه عنعنة ابن إسحاق ، قال شمس الحق فى شرحه لسنن أبى داود (٨/ ٣٤٤): «لكن أخرجه ابن حبان من طريق أخرى عنه مصرحاً بالسماع وصححه».

ومن الأدعية المأثورة الواردة فى هذا ما ذكره أبو هريرة قال: «كان رسول الله ﷺ إذا صلى على جنازة، يقول: «اللهم اغفر لحينا وميتنا ، وشاهدنا وغائبنا، وصغيرنا وكبيرنا، وذكرنا وأنثانا. اللهم من أحييته منا فأحيه على الإسلام، ومن توفيته منا فتوفه على الإيمان. اللهم لا تحرمنا أجره ولا تضلنا بعده». أخرجه ابن ماجه فى سننه (١٤٩٨) وأبو داود (٣١٩٩) وأحمد فى مسنده (٢/ ٣٦٨).

(٢) معنى فرض الكفاية أنه إذا قام به بعض المسلمين سقط عن الآخرين، وإذا لم يقم به أحد أثم الجميع. أما فرض العين : فهو الفرض الذى يتوجب على كل فرد من أفراد المسلمين عمله مثل الصلاة وغيرها من العبادات إذا انتفت الأعذار وتحققت شروطها فى حق آحاد المسلمين.

يذيقهم الله شراباً من حميم بما كانوا يكفرون ، وهذا ما يرجح أن القسط هنا هو قسطهم هم.

وكلمة ﴿حَمِيمٍ﴾ مأخوذة من مادة «الحاء» و«الميم» و«الميم» وهى مادة كل موارد معانيها فيها الحرارة والسخونة.

والحق سبحانه يقول فى آية أخرى:

﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ [1] يَشْوِى الْوُجُوهَ... (٢٩)﴾ [الكهف]

و﴿كَالْمُهْلِ﴾ أى: أنه يغلى ، وحين تكون المادة من غير الماء ، فدرجة حرارتها أثناء الغليان تكون أعلى من درجة حرارة غليان الماء ؛ فالنحاس مثلاً حين يغلى تكون درجته أعلى من درجة غليان الماء ، وكذلك الحديد والذهب وغيرها ، وسبحانه يقول:

﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ [2] (٤٣) طَعَامُ الأَثِيمِ [3] (٤٤) كَالْمُهْلِ يَغْلِى فِى الْبُطُونِ (٤٥) كَغَلْىِ الْحَمِيمِ (٤٦)﴾ [الدخان]

---

(١) المهل : النحاس المذاب أو الزيت المغلى . قال تعالى : ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ (٨)﴾ [المعارج]. [اللسان : مادة (مهل)] . ومن معانى المهل أيضاً : الماء الغليظ مثل دردى الزيت . وقيل : هو كالدم والقيح .

(٢) الزقُّوم : طعام أهل النار . قال ابن سيده : لما أنزلت آية الزقوم ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ (٤٣) طَعَامُ الأَثِيمِ (٤٤)﴾ [الدخان] لم يعرفه قريش ، فقال أبو جهل : إن هذا لشجر ما ينبت فى بلادنا ، فمن منكم يعرف الزقوم؟ فقال رجل قدم عليهم من إفريقية : الزقوم بلغة إفريقية : الزبد بالتمر ؛ فقال أبو جهل : يا جارية ، هاتى لنا تمراً وزبداً نزدقمه ؛ فجعلوا يأكلون منه ويقولون : أفبهذا يخوفنا محمد فى الآخرة ؟ فبيّن الله تعالى ذلك فى آية أخرى ، فقال فى صفتها : ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِى أَصْلِ الْجَحِيمِ (٦٤) طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ (٦٥)﴾ [الصافات] . وقال الأزهرى : افتتن بذكر هذه الشجرة جماعات من مشركى مكة ، فقال أبو جهل : ما نعرف الزقوم إلا أكل التمر بالزبد ، فقال لجاريته : زقّمينا . وقال رجل آخر من المشركين : كيف يكون فى النار شجر ، والنار تأكل الشجر ؟ فأنزل الله تعالى : ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِى أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِى الْقُرْآنِ (٦٠)﴾ [الإسراء] أى : وما جعلنا هذه الشجرة إلا فتنة للكفار . ومن معانى الزقوم : كل طعام يَقْتُل ، والزَّقْمَة : الطاعون . [اللسان : مادة (زقم)]

(٣) قال الفراء : الأثيمُ الفاجر ، وقال الزّجّاج : عُنى به هنا أبو جهل بن هشام . والأثيم صيغة مبالغة من الإثم ، أى : كثير الذنوب . [اللسان : مادة (أثم)].

إذن : فدرجة غليان المهل أعلى من درجة غليان الماء ، والمادة كلها تفيد الحرارة.

وإن نظرنا إلى كلمة «حمّام» و«استحم» ، فهى تعنى أن الماء حين ينزل على البدن يكون له ثلاث صور: الصورة الأولى مسح ، والصورة الثانية غسل ، والصورة الثالثة استحمام. والمسح أن تبل الشىء بالماء بدون أن يقطر منه شىء ، والغسل أن تُسَيِّل الماء من الجسد المغسول ، والاستحمام أيضاً فيه سيولة للماء . والغسل للتطهير ، لكن الاستحمام للتنظيف ، فإن أحدثت [1] فأنت تقوم لتتوضأ.

﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ ... ﴿٦﴾﴾ [المائدة]

تنفيذاً لأمر الله وهو غسل التطهير ، ويقوم مقامه التراب فى حالة عدم وجود الماء وهو التيمم [2] . أما إذا كانت المسألة تنظيفاً فهى تحتاج إلى الاستحمام ؛ لأن مسام الإنسان لها إفرازات قد تكون دهنية ، وبعد ذلك تطرأ عليها أتربة تسدها ، وهذه المسام أبعاض من الإنسان وأبعاض من تراب طاهر جاء على الجسم ، وهى لا تنجسه ، فإن اغتسلت فيكفى أن تصب الماء على الجسم ، ولو بقى بعض من ذرات التراب على البدن فهذا لا يمنع الطهارة ، لكن حين يستحم الإنسان فهو يأتى بماء حار ؛ ليذيب القذارة وينقّى المسام ، وتخرج بعض الأتربة ومعها الخلايا الجلدية الميتة وكأنها خيوط رفيعة.

---

(١) الإحداث: خروج شىء من أحد السبيلين من فساء أو ضراط أو براز وبول. وكل هذا يوجب الوضوء للصلاة.

(٢) التيمم فى اللغة هو القصد. وفى اصطلاح الشرع هو القصد إلى الصعيد الطاهر وهو كل ما صعد على الأرض من التراب وغيره، لمسح الوجه واليدين عند فقدان الماء حقيقة أو حكماً ، وكيفية التيمم أن يقدم النية ثم يُسمِّى الله تعالى، ويضرب بيديه الصعيد الطاهر، ويمسح بهما وجهه ويديه إلى الرسغين، ومن السنة عند البخاري ومسلم (٣٦٨) من حديث عمار بن ياسر أنه لمن تيمم بالتراب أن ينفض يديه وينفخهما منه، ولا يعفر به وجهه.

إذن: هناك فرق بين الغَسْل وهو للتطهير ؛ وبين الاستحمام الذى هو للنظافة . ونأخذ منه الحمام ، إذن: مادة الحاء والميم والميم فيها الحرارة [(١)] وفيها السخونة .

ويقول الحق هنا: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾ ، وكلمة ﴿شَرَابٌ﴾ تفيد الارتواء ، فلماذا جاء بها الله هنا ؟ إنها تصعيد للعذاب ؛ لأن الإنسان يرغب فى الشراب ليرطِّب جوفه ، فإذا ألهبه ما يشرب ، فهذا أكثر إيلاماً مثل قوله تعالى:

﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا [(٢)] يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِى الْوُجُوهَ بِئْسَ [(٣)] الشَّرَابُ ...(٢٩)﴾ [الكهف]

وحين تسمع هذه الآية تجد انبساط الأمل فى صدر الآية ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا﴾ وهم يستشرفون للنجاة ، ثم يأتيهم غوث من لون يناسب ما اقترفوه من ذنوب ﴿يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ﴾ .

إذن: فـ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ أى: بسبب كفرهم. وعرفنا أنهم كفروا بالقضايا العقدية .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

---

(١) حم الماء يحم حما من باب فرح . قال تعالى : ﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ .. (٧٠)﴾ [الأنعام] اشتدت حرارته فهو حميم أى : ساخن شديد الحرارة ومنه الاستحمام للفعل والحمام للمكان والفعل معاً ويطلق الحميم: على القريب المشفق لأنه ذو حرارة وجدة قال تعالى: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ (١٠٠) وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ (١٠١)﴾ [الشعراء] .

(٢) يستغيثون: يصرخون طالبين الغوث والماء من شدة العذاب والعطش؛ فيأتيهم الغوث (العون) عذاباً جديداً، ماء شديد السخونة كالزيت المغلى يحرق وجوههم. وهو غوث مناسب لأعمالهم السيئة وذنوبهم وآثامهم فى الدنيا. [اللسان : مادة (غوث)].

(٣) بئس: كلمة تطلق على كل ما يستحق الذَّمَّ الشديد. [اللسان : مادة (بأس)].

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ[(١)] لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ ﴾

وبعد أن بيَّن الحق أنه خلق السماء والأرض وخلق الكون كله وسخره للإنسان جاء لنا بنعم من آياته التى خلقها لنا ، والتى جعلها الله سبحانه وتعالى سبباً لقوام[(٢)] الحياة ؛ فالشمس هى التى تُنضج لنا كل شىء فى الوجود ، وتعطى لكل كائن الإشعاع الخاص به ، كما أن الشمس تبخر المياه - كما قلنا من قبل - لينزل الماء بعد ذلك عذباً فراتاً[(٣)] ، يرتوى منه الإنسان وتشرب منه الأنعام ونروى به الزرع.

والشمس هى الأم لمجموعة من الكواكب التى تدور حولها ، فدورة الأرض حول الشمس تمثل السنة ، ودورة الأرض حول نفسها تمثل اليوم. فيقول الحق سبحانه هنا:

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ ولو نظرت إلى المعنى

---

(١) منازل القمر: مواضع تحركه، أى: مداره حول الأرض. ومواقعه بين الشمس والأرض، وتبعاً لتغير هذه المواقع تتغير صورته التى نراه عليها. قال تعالى: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾﴾ [يس]، وقال سبحانه: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ﴿٩٦﴾﴾ [الأنعام].

(٢) قوام كل شىء: أى: ما يقوم به، وعماد كل شىء ونظامه. ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا ﴿٥﴾﴾ [النساء] أى: تقوم بها معايشكم من التجارات وغيرها.

(٣) الفرات: الماء الشديد العذوبة. يقال: ماء فرات، ونهر فرات. قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ ﴿٥٣﴾﴾ [الفرقان]، وقال: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ ﴿١٢﴾﴾ [فاطر]، وقال: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾﴾ [المرسلات]. [المعجم الوسيط: مادة (فرت)].

السطحى فى الشمس والقمر لقلت : إن الشمس تعطى نوراً وكذلك القمر ، ولكن النظرة الأعمق تتطلب منك أن تفرِّق بين الاثنين ؛ فالشمس تعطى ضياء ، والقمر يعطى نوراً . والفرق بين الضياء والنور يتمثل فى أن الضياء تصحبه الحرارة والدفء ، والنور إنارة حليمة ، ولذلك يسمى نور القمر النور الحليم ؛ فلا تحتاج إلى الظل لتستظل من حرارته ، لكن الشمس تحتاج إلى مظلة لتقيك حرارتها .

إذن : فالنور هو ضوء ليس فيه حرارة ، والحرارة لا تنشأ إلا حين يكون الضوء ذاتيّاً من المضىء مثل الشمس . أما القمر فضوؤه غير ذاتى ويكتسب ضوءه من أشعة الشمس حين تنعكس عليه ، فهو مثل المرآة حين تسلط عليها بعضاً من الضوء فهى تعكسه .

إذن : القمر مضىء بغيره ، أما الشمس فهى تضىء بذاتها . لذلك قال الحق هنا : ﴿جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً﴾ .

وكلمة ﴿ضِيَاءً﴾ إما أن تعتبرها مفرداً مثل صام صياماً ، وقام قياماً ، وضاء ضياءً . وإما أن تعتبرها جمعاً ، مثلها مثل حوض - جمعه : حياض ، ومثل روض - جمعه : رياض ، وكذلك جمع ضوء هو ضياء .

إذن : كلمة ﴿ضِيَاءً﴾ تصلح أن تكون جمعاً وتصلح أن تكون مفرداً ، وحين يجىء اللفظ صالحاً للجمع وللإفراد ، لا بد أن يكون له عند البليغ ملحظ ؛ لأنه يحتمل هذه المعانى كلها ، وقبل معرفتنا أسرار ضوء الشمس وقبل تحليله ، كنا نقول : إنه ضوء ، لكن بعد أن حللنا ضوء الشمس ، وجدنا أن ألوان الطيف سبعة منها ضوء أحمر ، وضوء أخضر ، وضوء أصفر ، وغيرها [1] .

---

(١) ضياء تصلح للإفراد باعتبار أن الضياء مصدر ألوان الطبيعة ، وتصلح للجمع باعتبار الألوان المنبثقة من الضياء ، وهذه إشارة لأسرار الله فى كونه .

إذن : فـ «ضياء» تعبر عن تعدد الألوان المخزونة فى ضياء الشمس ، فإن قلت : ضياء جمع ضوء ، فهذا بتحليل الضوء إلى عناصره كلها ، وإن قلت : ضياء مثل قيام ، ومثل صيام ، فهذا يصلح فى المعنى العام.

ولذلك كان القرآن ينزل بما تحتمله العقول المعاصرة لنزوله التى لا تعرف المعانى العلمية للظواهر . ولو قال القرآن هذه الحقائق ، لقال واحد : إننى أرى الشمس حمراء لحظة الغروب ، وأراها صفراء لحظة الظهيرة ، وهو لا يعلم أن الحمرة وقت الغروب هى حمرة فى الرؤية لطول الأشعة الحمراء ، وهى لا تظهر إلا حين الغروب حيث تكون الشمس فى أبعد نقطة ، فلا يصل إلينا إلا الضوء الأحمر ، أما بقية الأضواء فهى تشع فى الكون ولا تصل إلينا.

إذن : كلمة ﴿ضِيَاءً﴾ ، إما أن تعتبرها جمع ضوء ، مثل سوط وسياط ، وحوض وحياض ، وروض ورياض ، وإما أن تعتبرها مفردة . هذه صالحة للمعنى العام ، وتلك صالحة للمعنى التحليلى ؛ ولذلك يقول الحق سبحانه فى آية أخرى:

﴿تَبَارَكَ الَّذِى جَعَلَ فِى السَّمَاءِ بُرُوجًا (١) وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا (٢) وَقَمَرًا مُّنِيرًا (٦١)﴾ [الفرقان]

والسراج هو ما يعطى الضوء والحرارة ، وهو وصف مناسب للشمس.

---

(١) من معانى البروج : الكواكب والنجوم والقصور، وبروج (أبراج) الفَلَك وهى اثنا عشر برجاً تبدأ بالحَمَل. قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ (١)﴾ [البروج] وقال: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا (١٦)﴾ [الحجر] ، وقال: ﴿وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ (٧٨)﴾ [النساء]. [اللسان: مادة (برج)].

(٢) السراج: المصباح الزاهر الذى يُسرج بالليل، ووُصفت الشمس بالسراج؛ لأنها سراج النهار، أى: مصباحه ومصدر نوره. قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا (١٣)﴾ [النبأ] ، وقال: ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا (١٦)﴾ [نوح]. [اللسان : مادة (سرج)].

وهنا يقول الحق : ﴿ هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ﴾ ، وكلمة ﴿وَقَدَّرَهُ﴾ تعود فى ظاهر الأمر إلى القمر . لكن فى الواقع أن الشمس لها منازل [(١)] أيضاً ، وقال الحق : ﴿وَقَدَّرَهُ﴾ لأن هناك شيئاً اسمه «الجعل» [(٢)] ، فهو سبحانه جعل الشمس ضياء ، وجعل القمر نوراً.

إذن : فالجَعْل جاء بأمرين اثنين ؛ جعل للشمس ضياء وجعل للقمر نوراً ، هذا الجعل نفسه جعله الله لنقدر به الزمن ، فهو صالح للاثنين ؛ للشمس وللقمر ؛ لنعلم عدد السنين والحساب.

وفى العبادات نحتاج إلى تحديد بداية شهر رمضان [(٣)] ؛ لنمارس عبادة الصوم ، ونحتاج إلى تحديد أشهر الحج [(٤)] ، وكذلك تحتاج المرأة مثلاً إلى حساب شهور العدة [(٥)] ، وكل هذه التقديرات تخضع للهلال ، فهو علامة واضحة للكل ، فهو يبدأ صغيراً ويكبر ثم يصغر.

---

(١) قال تعالى : ﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴿٢﴾ ﴾ [الرعد] ، وقال: ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ ﴾ [يس]، وقال: ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ ﴾ [الرحمن].

(٢) جعل: خلق أو صيَّر. قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الأنبياء] وقال: ﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾ ﴾ [الفيل] وقال: ﴿ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا الَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ ﴾ [النبأ]. [اللسان : مادة (جعل)].

(٣) عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : «الشهر تسع وعشرون، فإذا رأيتم الهلال فصوموا، وإذا رأيتموه فأفطروا، فإن غُمَّ عليكم فاقدروا له» أخرجه مسلم فى صحيحه (١٠٨٠).

(٤) شهور الحج هى: شوال، وذو القعدة، وعشر من ذى الحجة. قال ابن عمر رضى الله عنهما: أشهر الحج شوال وذو القعدة ، وعشر من ذى الحجة. [فقه السنة : ١/ ٤٦٢]. وقيل شهر ذى الحجة بتمامه .

(٥) العدة: مأخوذة من العدد والإحصاء، أى: ما تحصيه المرأة وتعده من الأيام والأقراء. وهى أنواع بحسب حال المرأة، فإن كانت زوجة غير مدخول بها، فلها حالتان، إذا طُلِّقت فلا عدة عليها، أما إن مات زوجها فعليها العدة أربعة أشهر وعشراً. أما إن كان مدخولاً بها، فإما أن تكون ممن يحضن ، فتكون عدتها ثلاثة قروء، وإما أن تكون ممن لا يحضن، فتكون عدتها ثلاثة أشهر. أما عدة الحامل فهى بوضع الحمل، سواء أكانت مطلقة أم متوفى عنها زوجها. انظر تفصيل هذا فى فقه السنة للشيخ سيد سابق (٢/ ٣٤١ - ٣٥٠) .

﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ [١] الْقَدِيمِ (٣٩)﴾ [يس]

و«العرجون» هو ما نسميه «السباطة [٢]» التى تحمل «شماريخ» البلح، وكانوا يصنعون منها قديماً المكانس التى يكنسون بها بيوت البادية والريف، وهكذا أعطانا الله تشبيهاً من البيئة التى عاش فيها العربى القديم.

وفى أول كل شهر كلنا نرى الهلال كعلامة مخبرة عن ميلاد الشهر، وهكذا تعلَّم الإنسان أن يحسب الشهور بتقدير منازل القمر، وبالنسبة للسنة؛ فالحق سبحانه يقول:

﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ... (٣٦)﴾ [التوبة]

والتقدير هنا اثنا عشر شهراً هلاليّاً. أما اليوم فيقدر بالشمس؛ لذلك فهى تدخل فى تقدير المنازل. وهكذا نجد أن الحق سبحانه قد شاء أن يجعل «الجعل» لأمرين؛ مجعول الشمس، ومجعول القمر، مصداقاً لقوله: ﴿وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾.

والحق - كما أوضحنا - هو الشىء الثابت الذى لا يتغير. وحين نتأمل مسار الأفلاك [٣]، ومسار الشمس، ومسار القمر، لا نجد فيها خلافاً، بل نجد مراصد الكفار تعلن مواعيد تواجد القمر بين الأرض والشمس، وقد توجد الأرض بين القمر والشمس، ويتسبب هذا فى ظاهرتى

---

(١) العرجون: العذق اليابس أو الغصن الجاف، قال ابن عباس: العرجون هو أصل العذق وهو العنقود من الرطب إذا عتق ويبس وانحنى. والقمر فى آخر الشهر يكون صغيراً ويشبه العرجون. [اللسان: مادة (عرجن)].

(٢) المراد بالسباطة: جريد النخل اليابس.

(٣) الفلك: مدار النجوم. وفَلَكُ كل شىء: مُسْتداره ومُعْظمه. قال تعالى: ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٣٣)﴾ [الأنبياء]. [اللسان: مادة (فلك)].

الكسوف للشمس ، والخسوف للقمر ، وكل هذه الأمور تجدها عندهم غاية فى الدقة .

﴿وَلاَ الَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يس]

وهذا القول الحكيم قد أثبت للعرب حكماً يعتقدونه ، ونفى حكماً آخر يعتقدونه ، فالعرب كانت تعتقد أن الليل قبل النهار ، بدليل أن تحديد الليلة الأولى فى رمضان هو الميعاد الذى يبدأ فيه شهر الصوم ، وما داموا قد حكموا بأن الليل هو الذى يسبق النهار ، فلا بد من حكم مقابل ؛ وهو أن النهار لا يسبق الليل .

وجاء القرآن إلى القضية المتفق عليها وتركها ، وهى أن النهار لا يسبق الليل مثلما اعتقد العرب ، ونفى القرآن أن يسبق الليل النهار . وكان المخاطب - إذن- يعتقد أن الليل يسبق النهار ، ويصحح الله المفاهيم فلا الليل يسبق النهار ولا النهار يسبق الليل .

وهكذا عرض الحق سبحانه للكونيات عرضاً رمزيّاً فى القرآن ؛ لأنه لو جاء بالتوضيح العلمى لذلك لكَذَّب العرب القرآن ، فلو قال القرآن بصريح العبارة : إن الأرض كروية ، لعارض الناس ذلك وقت نزول القرآن ، وما زلنا نجد من يعارض تلك الحقيقة فى أواخر القرن العشرين ؛ لذلك لم يكشف الحق كل الحقائق الكونية ،بل أشار إليها بما يحتمل قبول العربى البسيط لها .

وما دام الليل لا يسبق النهار ، والنهار لا يسبق الليل ، فكيف جاء هذا الأمر - إذن ؟

ونقول : هل خلق اللهُ الشمسَ مواجهة لسطح الأرض أولاً ، ثم غابت الشمس فجاء الليل ؟ كان هذا الأمر يصح لو أن الأرض كانت مسطوحة ،

ولكن الحق سبحانه خلق الأرض كروية ، وذلك دليل على أن الحق سبحانه خلق الشمس والأرض على هيئة يوجد فيها الليل والنهار معاً ، ولا يكون ذلك إلا إذا كانت الأرض كروية ، فالنصف المواجه للشمس يكون الوقت فيه نهاراً ، وغير المواجه لها يكون الوقت فيه ليلاً ، ثم تدور الأرض ؛ فيأتى النهار إلى القسم الذى كان ليلاً ، ويأتى الليل للقسم الذى كان نهاراً.

إذن : فالحق سبحانه حكى فى القرآن الكريم عن الأمور الكونية - التى سوف تستكشفها العقول بعد نزول القرآن - وعالجها بحكمة ودقة ، وعلى سبيل المثال نجد قوله الحق :

﴿ وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً ... (٦٢) ﴾ [الفرقان]

ثم يأتى التعليل :

﴿ لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً (٦٢) ﴾ [الفرقان]

فالليل خلْفة النهار ، ومعنى خلفة أى : يخلف غيره . والمثال من حياتنا نجده فى دوريات الحراسة ، نجد إنساناً يحرس موقعاً ما - مدّة ست ساعات مثلاً - وبعد انتهاء فترة الحراسة يسلم المهمة لحارس ثان ، وبذلك يخلف واحدٌ الآخر ، لكن من الذى بدأ المهمة الأولى فى الحراسة قبل أن يأتى إنسان ليتسلم منه دورية الحراسة ؟

وكذلك الأمر فى الليل والنهار ، فبيّن الحق سبحانه أن الليل والنهار خلْفة ، ومعنى ذلك أن كلا منهما كان موجوداً من البدء ولأن الأرض تدور جَاء النهار فى البلاد التى تشرق فيها الشمس ، وجاء الليل فى البلاد التى تغيب عنها الشمس ، وتتابع الليل والنهار . هكذا فَصَّل الحق سبحانه آياته

لنا ، وقال سبحانه : ﴿يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [(١)] .

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿إِنَّ فِي ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾﴾

وهكذا بينّ الحق اختلاف الليل عن النهار مما يؤكد أنهما وجدا معاً ، وعطف عليها ﴿وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ ؛ لأنه سبحانه خلق الكون بما فيه من مقومات حياة من مأكل ومشرب وهواء ، وغير ذلك ، ثم سخَّر الكون كله ؛ لخدمة السيد وهو الإنسان.

ولو نظرتَ إلى مقومات الحياة لوجدت فيها احتياجات أساسية تتمثل فى نفس هواء ، وشراب ماء ، وطعام ؛ هذه أهم احتياجات الإنسان من مقومات الحياة . ويصبر الإنسان على المأكل أكثر مما يصبر على المشرب ، ويصبر على المشرب أكثر مما يصبر على نَفَس الهواء ، بل ولا يملك الإنسان الصبر على نَفَس الهواء مقدار شهيق وزفير.

لذلك شاء الحق أن يملك قومٌ طعام غيرهم ؛ لأن الجسم يمكنه أن يصبر على الطعام لمدة قد تصل إلى الشهر ويعتمد فى ذلك على إذابة الدهن المتراكم بداخله ، عكس ما اخترع البشر من آلات ، فالسيارة لا يمكن أن تسير لمتر واحد دون وقود . أما الجسم فيتحمل لعل مَنْ يملك الطعام

(١) فصل عن المكان من باب ضرب : جَاوَزَهُ قال تعالى : ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ ﴿٩٤﴾﴾ [يوسف] والفصال : الفطام ، قال تعالى : ﴿وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ ﴿١٤﴾﴾ [لقمان] والفصل : التمييز . ويوم الفصل : يوم القيامة. وفصل الخطاب : القول الصائب المميز بين الحق والباطل، قال تعالى : ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا ﴿١٧﴾﴾ [النبأ] ، وفصل الشيء جعله أقساماً متميزة قال تعالى : ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً ﴿١٢﴾﴾[الإسراء] وقال تعالى : ﴿آيَاتٍ مُّفَصَّلاتٍ ﴿١٣٣﴾﴾ [الأعراف] . أى : مبينات ومنه قوله تعالى : ﴿يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾﴾ [يونس] - القاموس القويم : ص ٨٢ ، ٨٣ .

يخفف من القيود ، أو لعل الإنسان الجائع يجد طريقه لينال ما يقتات به .

أما الماء فقد شاء الحق أن يقلل من احتكار البشر له ؛ لأن الإنسان أكثر احتياجاً للماء من الطعام .

أما الهواء فسبحانه وتعالى لم يُملِّك الهواء لأحد ؛ لأن الهواء هو العنصر الأساسى للحياة ؛ ولذلك اشتق منه لفظ النّفس ، ونَفْس ، ونَفَس .

ولو نظرتَ إلى الهواء فى الوجود كله لوجدته عامل صيانة لكل الوجود من ثبات الأرض ، إلى ثبات المبانى التى عليها ، إلى ثبات الأبراج ، إلى ثبات الجبال ، كل ذلك بفعل الهواء ؛ لأن تياراته التى تحيط بجوانب كل الأشياء هى التى تثبّتها ، وإنْ تخلخل الهواء فى أى ناحية حول تلك المبانى والجبال فهى تنهدم على الفور .

إذن : الهواء هو الذى يحفظ التوازن فى الكون كله . ولذلك قلنا : إنك لو استعرضتَ ألفاظ القرآن لوجدت أن الحق سبحانه حينما يتكلم عن تصريف [1] الرياح ، فهو سبحانه يتكلم بدقَّة خالقٍ ، بدقة إله حكيمٍ ، فهو يرسل من الرياح ما فيه الرحمة ، مثل قوله الحق :

﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ [2] ... (٢٢) ﴾ [الحجر]

---

(١) وتصريف الرياح تحويلها من جهة إلى جهة ، وتصريف الأمور إدارتها من حال إلى حال . والصرف : رد الشىء من حال إلى حال . وصرف النقود تغييرها أو إنفاقها ، وصرف السجين أخلى سبيله ، وصرف القلوب - تحويلها من الهدى إلى الضلال كقوله تعالى : ﴿ صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم (١٢٧) ﴾ [التوبة] القاموس القويم جـ ١ : ص ٧٤ ، ٧٥ .

(٢) قال ابن السكيت والأزهرى : لواقح أى : حوامل ؛ لأنها - الرياح - تحمل الماء والسحاب وتقلّبه وتصرّفه ، ثم تستدرّه . قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ (٥٧) ﴾ [الأعراف] . [اللسان : مادة (لقح) . . بتصرف] .

لكن إذا جاء بذكر ريح ففى ذلك العقاب ، مثل قوله :

﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ [(١)] عَاتِيَةٍ (٦)﴾ [الحاقة]

ومثل قوله :

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا [(٢)] مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا ..(٢٥)﴾

[الأحقاف]

لأن الرياح تأتى من كل ناحية ، فتوازن الكائنات ، أما الريح فهى تأتى من ناحية واحدة فتدهم [(٣)] ما فى طريقها .

وهنا يقول سبحانه :

﴿وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أى : أنه جاء بالمخلوقات الأخرى مجملة بعد أن جاء بذكر الشمس والقمر كآيتين منفصلتين ، ثم ذكر السموات والأرض وما فيهما من آيات أخرى : من رعد ، وبرق ، وسحاب ، ونجوم وعناصر فى الكون ، كل ذلك مجمل فى قوله : ﴿وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ ؛ لأنه لو أراد أن يفصِّل لَذَكَرَ كثيراً من الآيات والنعم ، وهو القائل :

﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا ... (٣٤)﴾ [إبراهيم]

---

(١) ريح صرٌّ وصَرْصَرٌ : شديدة البرد والصوت . قال تعالى : ﴿كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ (١١٧)﴾ [آل عمران] . وصَرَّ الطائر : صاح ، وصَرّ الباب يصرّ صريراً : أصدر صوتاً عالياً ممتداً ، والصَرَّة : الضّجّة والصيحة والشدة من الكرب والحرب وغيرهما . [اللسان : مادة (صرر)] .
وعاتية : شديدة جداً . والعاتى : الجبّار . [اللسان : مادة (عتا)] .

(٢) العارض : السَّحابة إذا كانت فى ناحية من السماء ، والعارض يكون أبيض اللون . [اللسان : مادة (عرض)] .

(٣) تدهم : تهجم بشدة حتى تغشى مَنْ وما فى طريقها . [اللسان : مادة (دهم) بتصرف] .

والقرآن ليس كتاباً لبسط المسائل كلها ، بل هو كتاب منهج ، ومن العجيب أنه جاء بـ«إن» وهى التى تفيد الشك فى قوله : ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لاَ تُحْصُوهَا ﴾ ؛ لأن أحداً مهما أوتى من العلم ليس بقادر أن يُحصى نعمَ الله فى الكون ؛ ولأن الإقبال على العَدّ فرض إمكان الحصر ، ولا يوجد إمكان لذلك الحصر ؛ لذلك لم يأت بـ«إذا» ، بل جاء بـ«إنْ» وهى فى مقام الشك .

والأعجب من هذا أنك تجد أن العَدَّ يقتضى التكرار ، ولم يقل الله سبحانه : وإن تعدوا نعم الله ، بل جاء بـ«نعمة» واحدة ، وإذا استقصيتَ ما فى النعمة لوجدتَ فيها آلاف النعم التى لا تُحصَى .

ويُنهى الحق الآية بقوله : ﴿لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ ، والآيات تطلق ثلاث إطلاقات : الإطلاق الأول آيات القرآن ، والإطلاق الثانى على المعجزة الدالة على صدق الرسول [1] ، والإطلاق الثالث للآية أنها تحمل عجيبة من عجائب الكون الواضحة فى الوجود [2] الدالة على عظمة الله سبحانه .

وهذه الآيات خلقها الله لتُلْفت إلى مُكَوِّن [3] هذه الآيات ، واللفتة إلى مُكوِّن هذه الآيات ضرورة لينشأ الإنسان فى انسجام مع الكون الذى أنشىء

---

(١) والآية بمعنى أنها معجزة من المعجزات الدالة على صدق الرسول قد جاء بها القرآن على لسان المشركين والكافرين فقال سبحانه : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ لَوْلاَ يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ ﴿١١٨﴾ ﴾ [البقرة] ونحو قولهم : ﴿ وَقَالُوا لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الأنعام] .

(٢) وهى الآيات الدالة على قدرة الله على الخلق وتدبير الكون وتسييره بنظام لا يختل ، وذلك نحو قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الروم]

(٣) والالتفات إلى المكون يقتضى مراحل ثلاث : مرحلة الإدراك ، ومرحلة الانفعال ، ومرحلة الاختيار ، فإدراك الآية يجعلك تنفعل بها ، فإذا انفعلت اخترت المكون توحيداً بحب وعبادة بصفاء وانسجاماً بأخلاق ، وهنا تتم النعم بمعية الله .

من أجله ، بحيث لا يأتى له بعد ذلك ما ينغّص هذا الانسجام ، فهبْ أن إنساناً ارتاح فى حياته الدنيا ثم استقبل الآخرة بشقاء وجحيم ، فما الذى استفاده من ذلك ؟

إذن : كل المسائل التى تنتهى إلى زوال لا يمكن أن تُعتبر نعمة دائمة ؛ لأن النعمة تعنى أن تتنعم بها تنعُّماً يعطيك يقيناً أنها لا تفارقك وأنت لا تفارقها ، والدنيا فى أطول أعمارها ؛ إما أن تفوت النعمةُ فيها الإنسان ، وإما أن يفوت هو النعمةَ.

والحق - سبحانه وتعالى - يبقى الذين يريدون أن يتقوا الله ؛ ليصلوا إلى نعيم لا يفوت ولا يُفَات ، ويجب أن ينظروا فى آيات الكون ؛ لأنهم حين ينظرون فى آيات الكون بإمعان يكونون قد أفادوا فائدتين : الفائدة الأولى أن يفيدوا مما خلق الله ، والفائدة الثانية أن يعتبروا بأن هذا الكون الذى خلقه الله إنما جعله وسيلة ومَعْبراً إلى غيره ، فقد خلق فيه الخلق ليعيش بالأسباب، ولكنه يريد أن يُسْلمه بعد ذلك إلى حياة يعيش فيها بالمسبِّب وهو الله . فالذين يتقون هم الذين يلتفتون ، والذين لا يتقون لا يعتبرون بالنظر فى الكون وتمر على الإنسان منهم الأشياء فلا يعتبرون بها ، كما قال الله :

﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١) (١٠٥) ﴾ [يوسف]

إذن : فهم لا يلتفتون إلى ما فى آيات الحق من الآيات الدالة على عظمة قدرة الله سبحانه ؛ فهم غير حريصين على أن يَقُوا أنفسهم عذاب الآخرة.

ويقول الحق بعد ذلك:

---

(١) أعْرَضَ يُعْرِضُ إعراضاً، فهو مُعْرِضٌ، والجمع: مُعْرِضون. أعرض عن الشىء: إذا ولاه ظهره وابتعد عنه. [اللسان: مادة (عرض).. بتصرف].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ۝٧﴾

والرجاء هو طلب شيء محبوب متوقع ، والتمنى طلب شيء محبوب إلا أنه غير ممكن الحدوث ، ولكنك تعلن بتمنّيك أنه أمر تحبه ، مثل من قال :

ألا ليتَ الشبابَ يعودُ يوماً فأخبرَهُ بما فَعَلَ المَشيبُ

هو بهذا القول يبين أن الشباب أمر محبوب ومرغوب . لكن هل يتأتى هذا ؟ طبعاً لا . إذن : التمنى هو طلب شيء محبوب لا يمكن أن يقع ؛ ومثل قول الشاعر :

ليتَ الكواكبَ تَدْنُو لى فَأَنْظِمَها عُقُودَ مَدْحٍ فما أرضَى لكُم كَلِمِى

وهذا غير ممكن .

أما الرجاء فهو أن تطلب شيئاً محبوباً من الممكن أن يقع .

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿إِنَّ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ ، فلماذا لا يرجون لقاء الله ؟ لأن الذى يرجو لقاء الله هو من أعد نفسه لهذا اللقاء ؛ ليستقبل ثواب الله ، لكن الذى لم يفعل أشياء تؤهله إلى ثواب الله ، وعمل أشياء تؤهله إلى عقاب الله ؛ فكيف له أن يرجو لقاء الله ؟ إنه لا يرجو ذلك [1] .

وعلى سبيل المثال : إن الرجل الذى يستشهد ويقدم نفسه للشهادة ، ونفسه هى أعز شيء عنده ، إنما يفعل ذلك لوثوقه بأن ما يستقبله

---

(١) الرجاء : الأمل المتوقع قريباً ، ضد اليأس . رجاه ، من باب نصر - يرجوه رجواً ورجاء : توقعه مع إرادته إياه وسروره به ، أو مع خوفه منه ، ويستعمل الرجاء بمعنى الخوف ، قال تعالى : ﴿مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً ۝١٣﴾ [نوح] . وقوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا .. ۝٧﴾ [يونس] . أى : لا يخافون لقاءنا أو لا يأملون لقاءنا ، فيعملون على تهيئة نفوسهم لهذا اللقاء العظيم بالعمل الصالح ، والرجا : الناحية وجمعه أرجاء . قال تعالى : ﴿وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا ۝١٧﴾ [الحاقة] .

بالاستشهاد خير مما يتركه من الحياة.

إذن : فالذى يرجو لقاء الله هو الذى يُعدُّ نفسه لهذا اللقاء ؛ بأن يتقى الله فى أوامره ، ويتقى الله فى نواهيه ؛ ولذلك تمر على الإنسان أحداث شَتّى ؛ وهى فى مقاييس اليقين بين أمرين اثنين : حسنات وسيئات ، وكل واحد يعلم أية حسنات قد فعل ، وأية سيئات قد اقترف ، ولا يغشُّ أحد نفسه ، فإذا ما كان حيّاً فقد يجعله الأمل يكذّب نفسه ، ولا يرى إلا ما فات من المغريات.

أما إذا جاءته لحظة الغرغرة [1] فى الموت ، فهو يستعرض كل صفحته . فإن كانت حسنة استبشر وجهه ، وإن كانت سيئة اكفهرَّ وجهه ، ولذلك يقال : «فلان كانت خاتمته سيئة ، وفلان كانت خاتمته متهللة» . وهذا كلام صحيح؛ لأن الروح ساعة أن تُقبض فهى تترك الجسم على ما هو عليه ساعة فراقها ، فإن كان ضاحكاً ومستبشراً ، فقد رأى بعضاً مما ينتظره من خير.

والإنسان وقت الغرغرة لا يكذب على نفسه ، فهو ساعة يمرض بمرض فهو يأمل فى العافية ، فإذا أتى وقت انتهاء الحياة تُعْرَضُ عليه أعماله عَرْضاً سريعاً ، فإن كانت الأعمال حسنة تنفرج أساريره ؛ لأنه يستشرف ما سوف يلقاه من جزاء.

وهذا مثل التلميذ حين يكون مُجداً ومجتهداً ثم يقولون له : هناك من جاء لك بالنتيجة ؛ فيجرى عليه مطمَئناً . وإن كان غير مُجدٍّ ؛ لم يجب ، ويخاف من لقاء مَنْ يحمل النتيجة.

كذلك الذين يرجون لقاء الله ؛ عملوا استعداداً لهذا اللقاء وينتظرون

---

(١) الغرغرة: تردُّد الروح فى الحلْق . [اللسان : مادة (غرر)]. ولحظات الغرغرة ووصول الروح إلى الحلق هى التى ينقطع عندها قبول التوبة، فعن عبدالله بن عمر عن رسول الله ﷺ قال: «إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر» أخرجه أحمد فى مسنده (٢/ ١٣٢) والترمذى فى سننه (٣٥٣٧) وقال: حديث حسن غريب، والحاكم فى مستدركه (٤/ ٢٥٧) وصححه ووافقه الذهبى وابن حبان (٢٤٤٩ - موارد الظمآن).

الجزاء من الله ، أما من لم يعملوا فهم يخافون من لقاء الله ولا يرجونه وسبب ذلك أنهم لم يعملوا للآخرة ﴿وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا﴾ وكأنهم قد اكتفوا بها ولم يرغبوا فى الآخرة . وقد سمى الله هذه الدار اسماً كان يجب بمجرد أن نسمعه ننصرف عنها ، فقال : ﴿بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ . ولا يوجد اسم أقل من ذلك ، والمقابل للحياة الدنيا هى الحياة العليا [(١)] .

والإنسان قد يبحث فى عُمْر الدنيا ويقول : إنها تستمر عشرة ملايين من السنين ، أو مائة مليون سنة ، وقد لا يلتفت إلى أن عمره هو موقوت فى هذه الدنيا .

إذن : فالدنيا بالنسبة لك هى مقدار عمرك فيها ، لا مقدار عمرها الحقيقى إلى أن تقوم الساعة ، وماذا تستفيد منها وهى تطول لغيرك؟ إن عمر الدنيا بالنسبة للإنسان هو مقدار مُكْث الإنسان فيها ، وهو مظنون وغير متيقن ، وقد يموت وهو فى بطن أمه أو يموت وهو ابن شهر ، أو ابن سنة ، أو بعد أن يبلغ المائة . فالذى يرضى بغير المتيقن قصير النظر .

ولذلك انظر إلى القرآن وهو يقول :

﴿أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ [(٢)] الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِى

---

(١) عن المستورد بن شداد قال قال رسول الله ﷺ : «والله ما الدنيا فى الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه فى اليم فلينظر بم يرجع؟» أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٨٥٨) وأحمد فى مسنده (٤/ ٢٢٩، ٢٣٠) والترمذى فى سننه (٢٣٢٣) وقال : حديث حسن صحيح .

(٢) ذكر الله تعالى المتاع ، والتمتع ، والاستمتاع ، والتمتيع فى مواضع من كتابه الكريم ، ومعانيها وإن اختلفت راجعة إلى أصل واحد . والمتاع : هو كل شىء ينتفع به ويتبلغ به ويتزود ، والفناء يأتى عليه فى الدنيا . قال تعالى : ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ ﴿٧٧﴾﴾ [النساء] . وقال تعالى : ﴿تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴿٣﴾﴾ [هود] . وقال تعالى : ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ ﴿٧٩﴾﴾ [يوسف] . وقال تعالى : ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِى هَٰذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ﴿٦٥﴾﴾ [يوسف] . وقال تعالى : ﴿وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ ﴿١٠٢﴾﴾ [النساء] . وقال تعالى : ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ ﴿١٩٦﴾﴾ [البقرة] . [اللسان : مادة (متع) . . بتصرف] .

الآخِـرَةِ إِلاَّ قَلِيـلٌ (٣٨) ﴾ [التوبة]

وحتى إن قسْت عُمْر الدنيا من بدء الخلق إلى أن تقوم الساعة ، فهى إلى فناء ، وما دامت إلى فناء ، فهى متاع قليل ، ومن يطمئن إلى هذا المتاع القليل فهو غافل ؛ لذلك يُنهى الحق الآية : ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾ عكس ما قال فى الذين يعرفونَ قيمة العمل للآخرة.

حين يقول الحق : ﴿ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ (٦) ﴾ [يونس]

والغفلة [(١)] : هى ذهاب المعنى عن النفس ، فما دام المعنى موجوداً فى النفس ، فاليقظة توجد ، والغفلة تذهب . إذن : الغفلة ذهاب المعنى عن النفس ، واليقظة هى استقرار المعنى فى النفس.

ونحن نعرف أن المعلومات التى يستقبلها الذهن البشرى إنما تلتقطها بؤرة [(٢)] الشعور ، مثلما تلتقط آلة التصوير الفوتوغرافية أية صورة.

وإياك أن تظن أن الإنسان يعرف المعلومة من تكرارها مرتين مثلاً أو أكثر ؛ لأن كل الأذهان تتفق فى أنها تلتقط المعلومة من مرة واحدة ، ويتميز إنسان عن آخر فى قدرته على أن يستقبل المعلومة بذهن مستعد لها ؛ لأن بؤرة الشعور لا تلتقط إلا معنى واحداً ، ثم يتزحزح المعنى إلى حاشية الشعور ؛ لتأتى المعلومة الثانية ، فإن استقبلت المعلومة وفى بؤرة شعورك معنى آخر ؛ لا تثبت المعلومة ؛ لذلك تكرر القراءة مرة واثنتين وثلاث مرات ، حتى تصادف المعلومة خُلُوَّ بؤرة الشعور.

ومثال هذا : الطالب حين يحاول حفظ قصيدة ، فلو كان ذهنه مستعداً

---

(١) أغفلت الشىء : تركته غَفَلاً وأنت له ذاكر . قال تعالى : ﴿ وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٣٦) ﴾ [الأعراف] أى : أنهم كانوا فى تركهم الإيمان بالله والنظر فيه والتدبّر له بمنزلة الغافلين ، أو أنهم كانوا عمّا يُراد بهم من الإثابة عليه غافلين . [اللسان : مادة (غفل)].

(٢) بؤرة الشعور : مراكز الشعور والإحساس والإدراك فى المخ . وبؤرة كل شىء مركزه. [المعجم الوسيط : مادة (بأر) . . بتصرف].

لاستقبال القصيدة فهو يحفظها من مرة واحدة.

إذن : الذهن كآلة الفوتوغرافيا ؛ ولذلك فالحق سبحانه وتعالى يقول:

﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ (١) فِي جَوْفِهِ ... (٤)﴾ [الأحزاب]

فإن كنت تريد أن تستقبل معلومة ما ، فكُن حريصاً على أن تُفرِّغ ذهنك من أى معلومة ؛ لتأتى المعلومة الجديدة ، فتصادف خلاء لبؤرة الشعور ؛ فتستقر فيها.

والمدرس الناجح هو الذى يلفت أذهان كل التلاميذ لما يقول ، وما دامت الأذهان قد التفتت إليه ؛ فلن تمر كلمة دون أن يستوعبها التلاميذ ، عكس المدرس غير الناجح الذى يؤدى عمله برتابة (٢) وركاكة (٣) تَصْرِف عنه التلاميذ . ونجد المدرس الناجح ، وهو يُلفت انتباه تلاميذه ويقطع الدرس ؛ليسأل أى واحد منهم عمّا قال؛ فيستمع إليه التلاميذ من بعد ذلك بانتباه ؛ لأن كل واحد منهم يتوقع أن يُسأل عن المعلومة التى قِيلتْ من قبل.

والتلميذ المجتهد هو الذى يقرأ الدرس بعقلية قادرة على مناقشة ما فيه من أساليب ومعلومات ، وهو يستصحب حضور الذهن أثناء القراءة ، أما التلميذ الفاشل فهو يقرأ دون يقظة أو انتباه.

مثال آخر : إن الفلاح الذى ينام على حافة بئر الساقية لا يقع فى بئرها ؛ لأنه ينام وهو مستصحب لفكرة أنه إن تقلَّب على جنبٍ ما فسوف يقع فى

---

(١) ويعبر عن القلب بالعقل المفكر ، ويستعمله القرآن بمعنى العقل كثيراً لقوله تعالى : ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (٢٤)﴾ [محمد] . وقال : ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا (١٧٩)﴾ [الأعراف] . أى : عقول ، والقلب يرفض الثنائية فى الفكر ، ومن هنا تتكون بؤرة الشعور فى القائل الموجود والفكر الواحد .

(٢) الرتابة : السير أو النهج على نظام واحد لا يتغير . [اللسان، مادة : رتب] .

(٣) الركاكة : الضعف فى اللفظ والأسلوب.

البئر [(١)]. وكذلك الإخوة حين ينام اثنان منهم على سرير واحد ، يقوم كل واحد منهما فى الصباح وهو مستصحب أن هناك آخر بجانبه ، ولكن إذا نام كل منهما فى سرير منفصل ، فهو يستيقظ ليجد رأسه فى ناحية وساقيه فى ناحية أخرى ، وتسمى هذه عملية الاستصحاب واليقظة ، ويقال : «فلان يقظ»، وكلمة «يقظ» ضد «نائم» [(٢)]؛ لأن اليقظان يحتفظ بالوعى والانتباه.

إذن : فالغفلة هى ذهاب المعنى من النفس وانطماسه ، والذين يمرون بالآيات وهم غافلون عنها لن ينتفعوا بشىء من هذه الآيات ، ثم تأتى لهم محصلة غفلتهم فى الآخرة.

ويقول الحق سبحانه عنهم:

﴿أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝٨﴾

وأنت تقول : «أويت [(٣)] إلى كذا» ، إذا كان هذا هو المكان الذى يعصمك من شىء [(٤)] ، وهنا يقول الحق : ﴿مَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾ فإذا كان ذلك هو المأوى ، فلا بد أن ما خارجها بالنسبة لهم أشد عذاباً . وهم يأوون إلى النار ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أى: بسبب ما كانوا يعملون من ذنوب وسيئات.

---

(١) وقد ورد نهى رسول الله ﷺ عن النوم على ظهر بيت ليس له حجار (أى : سور يمنع سقوطه من على سطح البيت)، فعن على بن شيبان قال قال ﷺ : «من بات على ظهر بيت ليس له حجار فقد برئت منه الذمة» أخرجه أبو داود فى سننه (٥٠٤١) ونحوه عند أحمد فى مسنده (٥/ ٧٩ ، ٢٧١) .

(٢) اليقظة : نقيض النوم، وقد تكون ضد الغفلة وعدم الفطنة، ويقال : رجل يقُظٌ ويقظ إذا كان متيقظاً فيه معرفة وفطنة.

(٣) أويت : عُذْتُ. والمأوى: اسم مكان (مفعل) من أوَى يأوى، والمأوى: المنزل، والمكان. أى: أن مكانهم ومنزلهم واستقرارهم يكون فى النار؛ لقاء ما فعلوا من الذنوب والآثام وغفلتهم عن الحق وآياته البينات. [اللسان: مادة (أ و ا). . بتصرف].

(٤) ومثال هذا قول ابن نوح عليه السلام عندما عَمَّ الطوفان الأرض: ﴿سَآوِى إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ الْمَاءِ ﴿٤٣﴾﴾ [هود] .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝٩﴾

هنا يتحدث الحق سبحانه عن المقابل، وهم الذين آمنوا، ويعلِّمنا أنه سبحانه: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾.

والهداية - كما قلنا من قبل - معناها الدلالة على الخير، بالمنهج الذى أرسله الحق سبحانه لنا، وبه بيَّن الحق السُّبُلَ أمام المؤمن والكافر، أما الذى يُقبل على الله بإيمان فيعطيه الحق سبحانه وتعالى هداية أخرى؛ بأن يخفف أعباء الطاعة على نفسه، ويزيده سبحانه هدى بالمعروف؛ لذلك قال سبحانه:

﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ (١) (٤٥)﴾ [البقرة]

وهكذا يتلقى المؤمن مشقات الطاعة بحب؛ فيهوِّنها الحق سبحانه عليه ويجعله يدرك لذة هذه الطاعة؛ لتهون عليه مشقتها، ويمده سبحانه أيضاً بالمعونة.

يقول الحق سبحانه:

---

(١) قال الإمام أبو حامد الغزالى فى كتابه «إحياء علوم الدين» (١/ ١٧١): «الخشوع ثمرة الإيمان، ونتيجة اليقين الحاصل بجلال الله عز وجل، ومن رُزق ذلك فإنه يكون خاشعاً فى الصلاة وفى غير الصلاة، بل فى خلوته، وفى بيت المال عند الحاجة، فإن موجب الخشوع معرفة اطلاع الله تعالى على العبد ومعرفة جلاله ومعرفة تقصير العبد، فمن هذه المعارف يتولد الخشوع وليست مختصة بالصلاة». يشير الشيخ إلى أن القرآن هداية، والرسول بسنته دليلها، والله المعين عليها، والوصول للمعية هو عين القرب من الله.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ (١)﴾

وما داموا قد آمنوا ؛ فسبحانه يُنزل لهم الأحكام التى تفيدهم فى حياتهم وتنفعهم فى آخرتهم ، أو أن الهدايَة لا تكون فى الدنيا بل فى الآخرة ، فما داموا قد آمنوا ، فهم قد أخذوا المنهج من الله سبحانه وتعالى وعملوا الأعمال الصالحة ، يهديهم الحق سبحانه إلى طريق الجنة.

ولذلك يقول الحق سبحانه:

﴿ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم... (١٢)﴾ [الحديد]

ويقول سبحانه : ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا ... (٨)﴾ [التحريم]

أى : أن نورهم يضىء أمامهم . أما المنافقون فيقولون للذين آمنوا:

﴿انظُرُونَا نَقْتَبِسْ (٢) مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا (٣) نُورًا... (١٣)﴾ [الحديد]

أى : أن هذا ليس وقتَ التماس النور ، فالوقت - لالتماس النور - كان فى الدنيا ؛ باتباع المنهج والقيام بالصالح من الأعمال.

---

(١) الباء فى ﴿بِإِيمَانِهِمْ﴾ تحتمل وجهين:

١- أن تكون سببية ، أى: بسبب إيمانهم فى الدنيا يهديهم الله يوم القيامة على الصراط المستقيم حتى يجوزوه ويخلصوا إلى الجنة.

٢- أن تكون للاستعانة ، أى : أن يصبح إيمانهم نوراً يمشون به على الصراط . انظر تفسير القرطبى (٤/ ٣٢٣٨) وابن كثير (٢/ ٤٠٨).

(٢) نقتبس: نأخذ. قال تعالى حكاية عن موسى عليه السلام: ﴿لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى (١٠)﴾ [طه] . وقال: ﴿سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (٧)﴾ [النمل]. والقَبَس : النار. واقتباسها: الأخذ منها. والاقتباس من نور أهل الجنة دليل على شدة هذا النور وقوته. [اللسان: مادة (قبس). . بتصرف].

(٣) التمسوا: اطلبوا. والتمس الشىء وتَلَمَّسَه: طلبه. [اللسان : مادة (لمس)].

إذن : فالحق سبحانه يهدى للمؤمنين نوراً فوق نورهم فى الآخرة.

والآية تحتمل الهداية فى الدنيا ، وتحتمل الهداية فى الآخرة.

ويصف الحق سبحانه حال المؤمنين فى الآخرة فيقول : ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِى جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٩)﴾ [يونس]

وقلنا : إن الجنة على حوافِّ الأنهار ؛ لأن الخضرة أصلها من الماء . وكلما رأيتَ مجرى للماء لا بد أن تجد خضرة ، والجنات ليست هى البيوت ، بدليل قول الحق سبحانه:

﴿وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّاتِ عَدْنٍ [1] ... (٧٢)﴾ [التوبة]

ونجد الحق سبحانه يقول مرة:

﴿تَجْرِى تَحْتَهَا الأَنْهَارُ .. (١٠٠)﴾ [التوبة]

ويقول سبحانه فى مواضع أخرى [2] :

﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ..(٢٥)﴾ [البقرة]

والحق سبحانه يعطينا صوراً متعددة عن الماء الذى لا ينقطع، فهى مياه ذاتية الوجود فى الجنة لا تنقطع أبداً.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (١٠)﴾

---

(١) عَدَنَ فلان بالمكان يَعْدن ويَعْدُن عَدْناً وعُدُناً: أقام. ومركز كل شىء مَعْدنه، وجنات عدن: أى: جنات إقامة دائمة بمكان الخُلْد. قال تعالى: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا (٧٦)﴾ [طه].

(٢) ورد قوله تعالى ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ ٣٥ مرة فى القرآن ، وقد وردت مرة واحدة ﴿تَجْرِى تَحْتَهَا الأَنْهَارُ﴾ .

دعواهم : أى دعاؤهم .

وهل الآخرة دار تكليف؛ حتى يواصلوا عبادة الله ؟ لا، ولكنها عبادة الالتذاذ، وهم كُلَّما رأوا شيئاً يقولون: لقد أكلنا ذلك من قبل ، ولكنهم يعرفون حين يأكلون ثمار الجنة أن ما فى الأرض كان يشبه تلك الثمار، لكنه ليس مثلها.

﴿قَالُوا هَذَا الَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا ... (٢٥)﴾ [البقرة]

أو يقولون : ﴿سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾ اعترافاً بالنعمة ، وأنت حين ترى شيئاً يعجبك تقول : سبحانك يارب . وبعد أن تأتى لك النعمة وتقول : سبحان الله ، وتُفاجَأ بأشياء لم تكن فى الحسبان - من فرط جمالها ؛ فتقول : الحمد لله[1] .

إذن: فأنت تستقبل النعمة « بسبحان الله » ، وتنتهى من النعمة «بالحمد لله ». ولذلك يقول الحق سبحانه: ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ والذى يجعل للحياة الدنيا معنى، ويجعل لها طعماً ويجعل لها استقراراً ، أن يكون الإنسان فى سلام ، ومعنى السلام : الاطمئنان والرضا ؛ فلا مُهيِّجات ، ولا مُعكِّرات ، ولا يأتى ذلك إلا بعدم اصطدام فى ملكات النفس ؛ فيتحقق سلام الإنسان مع نفسه ، وسلام الإنسان مع أهله ، وهذا هو المحيط الثانى ، وسلام الإنسان مع قومه ، وسلام الإنسان مع العالم كله ، كل ذلك اسمه سلام ، أى: لا مُنغِّص ، لا من نفسه ، ولا من أهله ، ولا من قومه ، ولا من العالم . وكلما اتسعت رقعة السلام زاد إحساس الإنسان بالاطمئنان .

---

(١) إن استقبال النعمة بـ (سبحان الله) كلمة إعجاب لجمال يقودك إلى التنزيه والتوحيد والتفريد فتنطق بالتوحيد جمالاً وجلالاً وتنزيهاً ، وعند تمام النعمة يكون النطق تلقائياً ﴿ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠) ﴾ [يونس] فأول الشىء إعجاب بتنزيه وآخره حمد بيقين .

وحين يقول الحق سبحانه: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ ، فالسلام وارد فى أشياء متعددة ، والحق سبحانه يقول:

﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ (١) (٥٥) هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ (٢) مُتَّكِئُونَ (٥٦) لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ (٥٧) سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ (٥٨)﴾ [يس]

وهذا هو السلام الذى له معنى ؛ فهو سلام من الله . ولم يقل سبحانه: «سلام يورثك اطمئناناً ونفساً راضية» فقط ، بل هو سلام بالقول من الله ، وانظر أى سعادة حين يخاطبك الحق سبحانه وتعالى مباشرة. وهناك فرق بين أن يشيع الله فيك السلام وبين أن يحييك كلامه بالسلام. وهذا هو السبب فى قوله:

﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ (٥٨)﴾ [يس]

وهذا سلام الله ، ثم من بعد هذه المنزلة يأتى سلام الملائكة:

﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلَامٌ عَلَيْكُم ...(٢٤)﴾ [الرعد]

إذن : فقول الحق هنا : ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ نجد فيه كلمة السلام رمز الرضا والاستقرار فى الجنة ؛ فالسلام هو أول الأحاسيس التى تحبها فى نفسك ، ولو كانت الناس كلها ضدك. لكنك ساعة تستقر ، فأنت تسائل نفسك : ماذا فعلت ليكون البعضُ ضدى ؟ وحين تجيب نفسك : «إننى لم

---

(١) فاكهون: ناعمون معجبون بما هم فيه من نعيم الجنة. قال تعالى: ﴿فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ (١٨)﴾ [الطور] .

(٢) الأرائك: السُّرُر أو الفُرُش. والأريكة: السرير فى الحَجَلة من دونه ستر ، أو هى كل ما اتُّكِىء عليه من سرير أو فراش أو منَصة. قال تعالى: ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا (٣١)﴾ [الكهف]. [اللسانَ: مادة (أرك). . بتصرف].

أفعل إلا الخير» ؛ فأنت تحس السلام فى نفسك. وإذا ما رحَّب الآخرون بما تفعل ، فالحياة تسير ، بلا ضدّ ولا حقد ، وهذا ما قاله رسول الله ﷺ :

«يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة»[(١)] فيدخل رجل عرفه القوم فلما انصرف ؛ قام واحد من الصحابة[(٢)] ، وذهب إلى الرجل ؛ ليعلم ماذا يصنع ، وسأله : ماذا تفعل حتى يبشّرك الرسول ﷺ بالجنة ؟ فوجد سلوك الرجل مستقيماً ومتبعاً للمنهج دون زيادة ، فسأله الصحابى : لماذا - إذن - بشّرك رسول الله ﷺ بالجنة ؟

قال الرجل : والله إنى لأصلّى كما تصلّون ، وأصوم كما تصومون ، وأزكّى كما تزكون ، ولكنى أبيت وما فى قلبى غلٌّ لأحد.

هذا هو السلام النفسى ، وإذا ما وصل الإنسان إلى السلام مع النفس ؛ فلا تضيره الدنيا إن قامت ، و بعد ذلك يضمن أن يوجد سلامه مع

---

(١) وتمام هذا الحديث أن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : كنا جلوساً مع رسول الله ﷺ فقال : يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة . فطلع رجل من الأنصار تَنْطفُ لحيته تقطر من وضوئه قد تعلق نعليه فى يده الشمال . فلما كان الغد قال النبى ﷺ مثل ذلك ، فطلع ذلك الرجل مثل المرة الأولى ، فلما كان اليوم الثالث قال النبى ﷺ مثال مقالته أيضاً ، فطلع ذلك الرجل على مثل حاله الأولى ، فلما قام النبى ﷺ تبعه عبد الله بن عمرو بن العاص فقال : إنى لاحيت (خاصمت) أبى ، فأقسمت ألا أدخل عليه ثلاثاً ، فإن رأيت أن تؤوينى إليك حتى تمضى فعلت . قال : نعم . قال أنس : وكان عبد الله يحدث أنه بات معه تلك الليالى الثلاث فلم يره يقوم من الليل شيئاً غير أنه إذا تعار «استيقظ» وتقلب على فراشه ذكر الله عز وجل وكبّر حتى يقوم لصلاة الفجر . قال عبد الله : غير أنى لم أسمعه يقول إلا خيراً ، فلما مضت الثلاث ليال وكدت أن أحتقر عمله . قلت : يا عبد الله إنى لم يكن بينى وبين أبى غضب ولا هجر ثَمَّ ، ولكن سمعت رسول الله ﷺ يقول لك ثلاث مرار : يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة ، فطلعت أنت الثلاث مرار ، فأردت أن آوى إليك لأنظر ، ما عملك فأقتدى به ، فلم أرك تعمل كثير عمل ، فما الذى بلغ بك ما قال رسول الله ﷺ فقال : ما هو إلا ما رأيت؟ قال : فلما وليت دعانى . فقال : ما هو إلا ما رأيت غير أنى لا أجد فى نفسى لأحد من المسلمين غشاً ، ولا أحسد أحداً على خير أعطاه الله إياه . فقال عبد الله : هذه التى بلغت بك وهى التى لا نطيق . . أخرجه أحمد فى مسنده (٣/ ١٦٦) وابن المبارك فى الزهد (٦٩٤) .

(٢) هو : عبد الله بن عمرو بن العاص ، صحابى من أهل مكة ، كان يكتب فى الجاهلية ، ويحسن اللغة السريانية ، وأسلم قبل أبيه ، ولد ٧ ق هـ وتوفى ٦٥ هـ . كان كثير العبادة ، وقتال الأعداء وكان مشهوراً أنه يضرب بسيفين . (الأعلام للزركلى ٤/ ١١١) .

الله تعالى. ومن عنده سلام مع نفسه، ومع بيئته، ومع مجتمعه؛ فهو ينال سلاماً من الله سبحانه . ويقول لنا القرآن عن الذين يعانون من مأزق فى الآخرة:

﴿يَوْمَ يَأْتِ لاَ تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ (١) فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ (١٠٥)﴾ [هود]

هؤلاء هم الذين شقوا فى النار ، أما الذين سُعدوا ففى الجنة ، فماذا عن حال الذين لا هم شقوا ولا هم سعدوا - وهم أهل الأعراف ؛ لأن الموقف يوم القيامة ينقسم الناس فيه إلى ثلاثة أقسام ؛ فقد قال الله سبحانه :

﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ (٦) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ (٧) وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ (٨) فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ (٢) (٩)﴾ [القارعة]

ولم يقل الحق سبحانه لنا أمر الذين تساوت الكفتان لهم أثناء الحساب ؛ لأنه سبحانه قال فى حديث قدسى:

«إن رحمتى غلبت غضبى» (٣) .

ويبين لنا الحق سبحانه رحمته فيقول:

---

(١) قوله تعالى هنا ﴿بِإِذْنِهِ﴾ مُقيِّد لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا .. (١١١)﴾ [النحل] ، فليس لنفس أن تتكلم أو تجادل عن نفسها إلا بإذن الله ، ولا ينافى ذلك قوله تعالى : ﴿هَذَا يَوْمُ لاَ يَنطِقُونَ (٣٥) وَلاَ يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ (٣٦)﴾ [المرسلات] ، لأن فى يوم القيامة مواقف، ففى بعضها لا يؤذن لهم فى الكلام، فيكفون عنه، وفى بعضها يؤذن لهم فيه ، فيتكلمون. قاله أبو يحيى الأنصارى فى كتابه (فتح الرحمن بكشف ما يلتبس فى القرآن) ص ١٩٣، ١٩٤ .

(٢) ثقلت موازينه: رجحت حسناته على سيئاته.

فى عيشة راضية: فى الجنة. فإذا كانت العيشة راضية فالمُعايِش لها مرضى عنه .

خفت موازينه: رجحت سيئاته على حسناته.

﴿فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾ : ساقط بأمّ رأسه فى نار جهنم، وعبَّر عنه بأمه يعنى: دماغه.

(٣) أخرجه البخارى فى صحيحه (٣١٩٤) ومسلم فى صحيحه (٢٧٥١) وتمامه: عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «لما قضى الله الخلق كتب فى كتابه، فهو عنده فوق العرش: إن رحمتى غلبت غضبى» وفى بعض روايات الحديث: تغلب، سبقت .

﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (٤٤) ﴾ [الأعراف]

ويأتى أمر رجال الأعراف فيقول سبحانه:

﴿ وَعَلَى الْأَعْرَافِ (١) رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ (٢) .. (٤٦) ﴾ [الأعراف]

لقد عرفوا المؤمنين بسيماهم ، وعرفوا الكفار بسيماهم ، وجلس البعض على الأعراف ؛ ينتظرون وينظرون لأهل الجنة قائلين:

﴿ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ (٤٦) ﴾ [الأعراف]

ثم يعطينا الحق سبحانه صورة ثانية فيقول:

﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ (٥٠) ﴾ [الأعراف]

أهل الأعراف - إذن - يسعدون بعطاء الله لأهل الجنة ، ويطمعون أن يغفر الله - سبحانه وتعالى - لهم.

ونحن فى حياتنا نسمع المشرفين على المساجين أو المحكوم عليهم بالإعدام يقولون : قبل أن يحكم على المجرم بالإعدام ينخفض وزنه ، ثم

---

(١) الأعراف فى اللغة: جمع عرف، وهو كل عال مرتفع؛ قال الزجّاج: الأعراف أعالى السور.
والأعراف: أعالى سور بين أهل الجنة وأهل النار. وقيل عن أصحاب الأعراف: هم قوم تساوت حسناتهم وسيئاتهم فلم يستحقوا الجنة بالحسنات، ولا النار بالسيئات، فكانوا على الحجاب الذى بين الجنة والنار. [اللسان : مادة (عرف) .. بتصرف].

(٢) السِّيماء: العلامة يعرف بها الخير والشر. ومنه قوله تعالى: ﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ (٢٩) ﴾ [الفتح] ، وقوله: ﴿ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا (٢٧٣) ﴾ [البقرة] هذا فى أهل الخير والفضل، أما الأشرار فقال تعالى عنهم: ﴿ يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ (٤١) ﴾ [الرحمن].

يزيد بعد الحكم ؛ لأن الأمر قد استقر. والذين يُشغلون بأن يعرفوا مكانهم فى الآخرة ، أهو فى الجنة أو فى النار ، لا ينسون أن يقولوا للمؤمنين:

﴿أَن سَلَامٌ عَلَيْكُمْ .. (٤٦)﴾ [الأعراف]

وهنا يقول الحق سبحانه عن أهل الجنة : ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وقد تكون آخر دعواهم ،أى: آخر كلمة.

فالواحد منهم يقول : أنا حمدت ربنا على الشىء الفلانىْ والشىء الفلانى . وآخر حَمْد هو قمة الحمد ؛ لأنهم حمدوا الله على النعمة فى الدنيا التى تزول ، ويحمدونه فى الآخرة على النعمة التى لا تزول ، فلئنْ يوجد حَمْد على النعمة التى لا تزول فهو قمة الحمد[1].

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ[2] فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ[3] يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾﴾

وهذه الآية تتناول قضية عقدية قد تكون شُغُل الناس الشاغل فى الدعاء

---

(١) الحمد على الإيجاد ، والحمد على الإمداد فى الدنيا ، والحمد على نعمة البقاء فى دار الخلود وهى قمة الحمد .

(٢) نذر: نترك. قال تعالى: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (٢٦)﴾ [نوح] . [اللسان : مادة (وذر) . . بتصرف] .

طغيانهم: مجاوزتهم الحدّ فى الظلم والكفر والعصيان. قال تعالى: ﴿وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٥)﴾ [البقرة] .

(٣) يعمهون: العَمَهُ: التحيُّر والتردد فى الضلال، والعَمَهُ يكون فى الرأى، والعَمَى يكون فى البصر. قال ابن الأثير: العَمَهُ فى البصيرة كالعمى فى البصر. قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ (٤)﴾ [النمل] .

لله تعالى، وقد لا يُجاب دعاؤهم مع كثرة الدعاء، ويُحزنهم على أنفسهم، ويقول الواحد منهم : لماذا لا يقبل الله دعائى ؟ أو يقع بعضهم فى اليأس.

ونقول لكل إنسان من هذا الفريق : لا ، أنت تدعو ، مرة تدعو بالشر ومرة تدعو بالخير ، فلو أن الله سبحانه وتعالى قد أجابك فى جميع الدعاء ، فسوف يجيب دعاءك فى الشر ودعاءك فى الخير ، ولو أن الله سبحانه وتعالى عجَّل لك دعاء الشر ، كما تحب أن يُعجَّل لك دعاء الخير ؛ لَقُضِى إليك أجلك وانتهت المسألة ، وهناك من قالوا [1] :

﴿ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢) ﴾ [الأنفال]

ولو استجاب الحق لمثل هذا الدعاء ، لكان وبالاً على مَنْ دعوا ذلك الدعاء.

إذن : فمن مصلحتك حين تدعو على نفسك [2] أو تدعو بأى وبال ألا يجيبك الله تعالى ، وافهم أن لله تعالى حكمة فى الإجابة ؛ لأنه سبحانه

---

(١) هم بعض كفار قريش، قيل: إنه أبو جهل، وقيل: هو النضر بن الحارث بن كلدة. ودعاؤهم هذا دليل سفه وجهل وشدة عناد وتكذيب. وكان الأولى بهم أن يقولوا: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا له ووفقنا لاتباعه. وهؤلاء قال عنهم رب العزة : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٣) ﴾ [العنكبوت] ، وجعل الله تأخير العذاب عنهم فضيلة من فضائل رسول الله ﷺ على قومه فقال سبحانه : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣) ﴾ [الأنفال] .

(٢) ثبت فى صحيح مسلم النهى عن الدعاء على النفس والأولاد والأموال، فعن جابر بن عبدالله رضى الله عنه قال: سرنا مع رسول الله ﷺ فى غزوة بطن بواط وهو يطلب المجدى بن عمرو الجهنى، وكان الناضح يعتقبه منا الخمسة والستة والسبعة ، فدارت عقبة رجل من الأنصار على ناضح له فأناخه فركبه ثم بعثه فتلدن عليه بعض التلدن فقال له: شأ لعنك الله . فقال رسول الله ﷺ : من هذا اللاعن بعيره؟ قال: أنا يا رسول الله . قال: «انزل عنه فلا تصحبنا بملعون، لا تدعوا على أنفسكم، ولا تدعوا على أولادكم، ولا تدعوا على أموالكم، لا توافقوا من الله ساعة يسأل فيها عطاء فيستجيب لكم» أخرجه مسلم (٣٠٠٩) .

وتعالى مُنزَّه عن أن يكون موظفاً عند الخلق ، ومَن يدعُهُ بشىء يجبه عليه ، بل لا بد من مشيئته سبحانه فى تقرير لون الإجابة ؛ لأنه لو كان الأمر عكس ذلك لانتقلت الألوهية للعبد.

لقد صان الحق سبحانه عباده بوضع رقابة على الدعاء ؛ وأنت تعتقد أن دعاءك بخير ، ولكن رقابة الحق سبحانه التى تعلم كل شىء أزلاً [1] تكاد أن تقول لك : لا ، ليس خيراً. وانتظر الخير بعدم استجابة دعائك ؛ لأنه القائل سبحانه :

﴿ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ .. (٢١٦) ﴾ [البقرة]

إذن : فمعرفتك ليست نهائية فى تقرير الخير والشر ؛ لذلك دَعِ الإلهَ الأعلى - وهو المأمون عليك - أن يستجيب أو لا يستجيب لما تدعوه وأنت فى ظنك أنه الخير ، فالمعرفة العليا هى التى تفرق بين الخير والشر ، وفى المنع - أحياناً - عين العطاء [2] ؛ ولذلك يقول الحق :

﴿ وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً (١١) ﴾ [الإسراء]

وقد تلحّ فى دعاء لو استجيب لك ؛ لكان شراً. والله سبحانه يعلم ما هو الخير لك ، وهو سبحانه يجيب أحياناً بعض خلقه فى أشياء كان الإنسان منهم يتمنى أن توجد ، ثم يكتشف الإنسان أنها لم تكن خيراً. وأحياناً يأتى لك بأشياء كنت تظن أنها شر لك ، فتجد فيها الخير. وهكذا يصحّح لك الحق سبحانه بحكمته تصرفاتك الاختيارية.

---

(١) الأزَل : القدم : قال أبو منصور : ومنه قولهم : هذا شىء أزلىٌّ أى : قديم.

(٢) عن أبى سَعيد الخدرى أن النبى ﷺ قال : « ما من مسلم يدعو الله بدعوة ليس فيها مأثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه إحدى ثلاث : إما أن يستجيب له دعوته ، أو يصرف عنه من السوء مثلها ، أو يدخر له من الأجر مثلها. قالوا : يا رسول الله .. إذن : نكثر. قال : الله أكثر. أخرجه الحاكم فى مستدركه (١/ ٤٩٣) وقال : «هذا حديث صحيح الإسناد» وأقره الذهبى فى التلخيص. ومن أقوال الشيخ : المنع عين العطاء وقد يكون العطاء نقمة.

وقد قال الكافرون[1] لرسول الله ﷺ:

﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢)﴾ [الأنفال]

ومن قالوا هذا القول هم: العاص بن وائل السهمى، والوليد بن المغيرة، والأسود بن عبد المطلب والأسود بن عبد يهود، وكانوا قد وصلوا إلى قمة الاضطراب؛ فهم قد اضطربوا أولاً حين اتهموه بأنه ساحر، ولم ينتبهوا إلى غباء ما يقولون؛ لأنه إن كان لرسول الله ﷺ قدرة السحر؛ فلماذا لم يسحرهم هم ليؤمنوا أيضاً؟

واضطربوا مرة ثانية، وحاولوا أن يقولوا: إن القرآن شعر، أو له طبيعة الشعر والكلام المسجوع، والقرآن ليس كذلك. ولو أن جماعة غيرهم قالت مثل هذا القول لكان لهم عذرهم لأنهم ليسوا أهل لغة، أما هؤلاء فهم قوم أهل دُرْبة على الفصاحة والبلاغة، وكانوا يعقدون أسواق الشعر والخطابة، ثم اضطربوا مرة ثالثة، وحاولوا الطعن فى مكانة محمد ﷺ وهم يُقرّون بعظمة القرآن؛ فقالوا:

﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ[2] عَظِيمٍ (٣١)﴾ [الزخرف]

---

(١) عن أنس بن مالك قال: قال أبو جهل: ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢)﴾ [الأنفال] فنزلت: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣)﴾ [الأنفال] أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٦٤٨) وكذا مسلم (٢٧٩٦). وقال ابن حجر العسقلانى فى «فتح البارى بشرح صحيح البخارى» (٨/ ٣٠٩): «قوله «قال أبو جهل» ظاهر فى أنه القائل ذلك، وإن كان هذا القول نسب إلى جماعة فلعله بدأ به ورضى الباقون فنسب إليهم، ولكن نسبته إلى أبى جهل أولى».

(٢) القريتان المقصودتان هنا: مكة والطائف. وقد اختلف العلماء فى تحديد اسم الرجل العظيم المقصود. فمن مكة: الوليد بن المغيرة أو عتبة بن ربيعة. ومن الطائف: عروة بن مسعود أو عمير بن عبد ياليل. قال ابن كثير فى تفسيره (٤/ ١٢٧): «الظاهر أن مرادهم رجل كبير من أى البلدتين كان».

والحق سبحانه وتعالى حينما يتعرض لحادثة وقعت فى زمن النبى ﷺ مع الكافرين ؛ لا يقتصر فى الحدث على ما وقع، ولكنه يعالج قضية عامة كونية إلى أن تقوم الساعة، ويجعل الحدث الحاصل فى زمنه سبباً فقط ؛ ليعطى عموم الحكم فى كل زمان وفى كل مكان. وإلا اقتصر الأمر على معالجة حدث وقع لشخص الحدث وشخص الحكم فى القوم الموجودين مع رسول الله ﷺ. وقد جاء القرآن للناس كافة، وجاء للزمان عامة، فلا بد أن تكون القضية المعروضة - أىّ قضية - أمام رسول الله ﷺ من قوم عاصروه لها سبب خاص ، ولكن العبرة بعموم الموضوع لا بخصوص السبب.

ويعالج الله سبحانه وتعالى فى هذه المسألة الشخصية من هؤلاء الذين قالوا ذلك قضيةً كونيةً ستظل إلى أن تقوم الساعة.

فقد دَعَوْا على أنفسهم:

﴿إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢)﴾ [الأنفال]

كما قال قوم عاد لهود:

﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧٠)﴾ [الأعراف]

إذن : هم قد دعوا بشرٍّ على أنفسهم.

ويعالج الله قضية الدعاء بالخير أو الدعاء بالشرّ ؛ لأن الإنسان قد يضيق ذَرْعاً [1] بأمور تحيط بذاته أو بالمحيط به ؛ فإذا ضاق ذرعاً بأمور تحيط به فى

---

(١) الذَّرْعُ : الطاقة والقُدرة. وضقْتُ بالأمر ذرعاً مثل ضقت به ذراعاً؛ فأصل الذرع إنما هو بسط اليد، فكأنك تريد: مددت يدى إليه فلم أنَلْهُ. وضاق بالشىء ذَرْعاً وذراعاً أى: ضَعُفت طاقته، ولم يجد مَخْلصاً، ولم يُطقْه، ولم يَقْو عليه. قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا (٧٧)﴾ [هود]. وقال تعالى: ﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ (٣٢)﴾ [الحاقة]. [اللسان : مادة (ذرع) . . بتصرف].

ذاته من ألم كمرض - مثلاً ، أو عاهة لا يقوى على الصبر عليها ، أو لا يقوى على تحمّلها ؛ فيقول : «يارب ، أرحنى يارب» ، وهو هنا يدعو على نفسه بالموت . فلو أن الله سبحانه وتعالى استجاب دعاءه لَقُضيت المسألة .

ولكن الله هو الحكيم العزيز ، لا يأتمر بأمر أحد من خلقه ، ولا يعجل بعَجَلة العباد ، وكما يؤجل لك استجابته لدعوة الخير منك ، فهو يؤجل أيضاً إجابتك لدعوة الشرّ منك على نفسك ؛ وفى ذلك رحمة منه سبحانه .

وإذا كنت تقول : أنا أدعو بالخير ، والله سبحانه وتعالى لا يعطينى ، فخذ مقابلها : أنك تدعو بالشرّ على نفسك ، ولا يجيبك الله . ثم ألا يضيق الأب أحياناً ذَرْعا بمن حوله ، فيقول : فليأخذنى الله ؛ لأستريح من وجوهكم ؟ هَبْ أن الله سبحانه أجابه إلى هذه الدعوة ، فماذا يكون الموقف ؟ وقد تجد من يقول : يارب أصبنى بالعمى فلا أراهم ، أو تدعو المرأة على نفسها أو على أولادها .

وأنتم تحبون أن يجيب الله تعالى دعاءكم ، فلو كان يجيبكم على دعاء الشرّ لانتهت حياتكم إلى الفزع ، مثل هذه الأم التى تدعو بالمتناقضات فتقول لولدها - مثلاً : «ربنا يسقينى نارك» فتطلب السُّقيا بالنار ، رغم أن السُّقيا للرِّى ، والنار للحرارة .

إذن : قد يضيق الإنسان ذرعاً بنفسه ، أو يضيق ذرعاً بمن حوله ؛ فيدعو على نفسه بالشرّ ، وحين يدعو الإنسان فيجب عليه أن ينزّه الحق سبحانه وتعالى عن أن ينفذ ما يدعو العبد به دون أن يمر الدعاء على حكمته سبحانه وتعالى .

﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم [(١)] بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ ، فكما قبلتم أن يؤجل الله تعالى لكم دعاء الشر على أنفسكم ؛ فاقبلوا منه تأجيل دعائكم بالخير ؛ لأن الخير فيما تطلبون غير الخير فيما يعلم الله ؛ فهو العليم الخبير . وقد تطلب خيراً تعلمه ولكن الله يعلم فيه شراً ؛ فمن مصلحتك ألا يجيبك . وكما تحترم عدم إجابته لك فى الشر على نفسك ، أو على من تحب ، فاحترم عدم إجابته لك فيما تظنه خيراً لك ، أو لمن تحب ؛ لأن الله لا يعجل بعجلة عباده ؛ لأنه سبحانه هو الذى خلقهم ، وهو أعلم بهم ، فهو القائل:

﴿خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ [(٢)] ...(٣٧)﴾ [الأنبياء]

وهو سبحانه القائل:

﴿سَأُوْرِيكُمْ آيَاتِي فَلا تَسْتَعْجِلُونِ (٣٧)﴾ [الأنبياء]

والحق سبحانه لو استجاب لهؤلاء الذين دعوا:

---

(١) عَجِل يعجل - عَجَلاً وعَجَلَةً : أسرع . قال تعالى : ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ (٨٤)﴾ [طه] وعجل الأمر طلبه قبل أوانه بدافع الشهوة . وعجل الأمر : سبقه ، قال تعالى : ﴿أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ (١٥٠)﴾ [الأعراف] وأعجله : حمله على العجل . أى : استحثه أو سبقه . قال تعالى : ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ (٨٣)﴾ [طه] وعجل الأمر : قدمه سريعاً ، قال تعالى : ﴿عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ (١٨)﴾ [الإسراء] واستعجل الأمر طلبه عاجلاً قال تعالى : ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ .. (١١)﴾ [يونس] . . القاموس القويم جـ٢ صـ ٩٢٨

(٢) العَجَل والعَجَلَة : السرعة . قال الفرَّاء : خُلق الإنسان من عَجَل وعلى عَجَل ، كأنك قلت رُكِّبَ على العَجَلَة ، بِنْيَتُهُ العجلة ، وخلْقته العجلة ، وعلى العجلة ونحو ذلك . قال أبو إسحق : خوطب العرب بما تعقل ، والعرب تقول للذى يُكثر الشيء : خُلقت منه . وقيل : إن آدم عليه السلام ، لما بلغ منه الروح الرُّكبتين هَمَّ بالنهوض قبل أن تبلغ القدمين فقال الله عز وجل : ﴿خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ (٣٧)﴾ [الأنبياء] فأورثنا آدم عليه السلام العجلة . وقال تعالى : ﴿وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً (١١)﴾[الإسراء] وقال تعالى : ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ (١)﴾ [النحل] .

﴿ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً .. (٣٢) ﴾ [الأنفال]

لكانت نهايتهم بجنس ما دعوا به ، وقُضى عليهم ، ثم انتهوا بعد ذلك إلى عذاب الجحيم.

ولكن الحق سبحانه شاء لهم البقاء ؛ ليؤمن من يختار الإيمان ، أما من اختار الكفر ؛ فعليه أن يتحمّل تبعة [1] الطغيان التى تتمثل فى أن الواحد منهم لا يختار الكفر فقط ، بل يتجاوز الحد ، ويطلب ممن آمن أن يرتد عن إيمانه ، وفى ذلك مجاوزة للحد ؛ ولذلك فهم يعمهون فى هذا الطغيان ، أى : تتكاثر عليهم الظروف ، ويثبت - لهم ولمن بعدهم - عجز الكفر عن مواجهة قدرة الحق.

وفى الحياة أمثلة - ولله المثل الأعلى - فهناك من يملك عدوه ، فيضربه ؛ لكنه لا يقتله ، ثم يتكرر من هذا الخصم الإساءة ، فيضربه من جديد ، ثم تتكرر الإساءة فيضربه ، وهو لا يقتله أبداً ليداوم على إذلاله ، والقوىّ لا يقتل خصمه ، بل يؤلمه ؛ فلا يرفع الخصم رأسه.

والحق سبحانه يقول:

﴿ فَنَذَرُ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِى طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾

أى : أن الحق سبحانه يترك أهل الباطل ؛ لتتجمع عليهم سيئاتهم ، ويذوقون ويل [2] خصومة الإسلام فلا يرفعون رءوسهم ؛ لأن أهل الإسلام يردّون لهم الإساءة مضاعفة ، ولسوف ييأس أهل الباطل من أنهم

---

(١) تَبِعَة الأمر : عاقبته، وما يترتب عليه من أثر . [المعجم الوسيط : مادة (تبع)].

(٢) ويل : كلمة عذاب تعنى حلول الشر . والويل : واد فى جهنم، وقيل : هو باب من أبوابها . قال تعالى : ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ (١) ﴾ [المطففين] وقال : ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (١٥) ﴾ [المرسلات] .

سينتصرون على الحق بأى شكل وبأى لون. وهم مهما تحايلوا فى أساليب النكاية [١] فى الإسلام ، تجد الحق سبحانه وتعالى ينصر المسلمين.

والمثل أمامنا من سيرته حين أمره الحق سبحانه بأن يهاجر ، وكان الكفار يحاصرون بيته بشباب من القبائل ، فخرج ﷺ ولم يشعروا ، وقال ﷺ : «شاهت [٢] الوجوه».

وشاء سبحانه ذلك ؛ ليعلموا أنهم لن يستطيعوا الانتصار على محمد ﷺ ، لا بالمواجهة ، ولا بتبييت المكر.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾

يصور الحق سبحانه حال البشر ؛ الذين لم يرتبطوا دائماً بالإله ، وبمنهج الإله ؛ هؤلاء الذين يتجهون إلى الله فى لحظات الأزمات ، ثم ينسون الإيمان وتكاليفه من بعد ذلك. وحياتنا مليئة بهذا الصنف من البشر.

وفى قريتنا - على سبيل المثال - كان الذى يشرف على رعاية صحة

---

(١) نَكَى العَدُوَّ نكايةً : أوقع به وهزمه وغلبه. والمراد بالنكاية هنا: أساليب أعداء الله فى محاربة الإسلام والتآمر عليه وعلى المسلمين، وهى أساليب مآلها الفشل بإذن الله . قال تعالى: ﴿ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [الصف] . [اللسان، والمعجم الوسيط : مادة (نكى) . . بتصرف].

(٢) شاهت الوجوه تَشُوهُ شَوْهاً : قَبُحَتْ . وفى حديث النبى ﷺ: أنه رمى المشركين يوم حنين بكفٍّ من حصى وقال: شاهت الوجوه. وفيه: قال لابن صيّاد: شاه الوجه. ويُقال للخطبة التى لا يُصلَّى فيها على النبى ﷺ: شوهاء أى: قبيحة. [اللسان : مادة (شوه)].

الناس حلاّق الصحة ، إلى أن تخرَّج أحد أبناء القرية فى كلية الطب ، فأخذ حلاق الصحة يشيع عنه ما لا يليق. وفى أحد الأيام لاحظ الفلاحون خروج حلاق الصحة مبكراً وهو يحمل لفَافة كبيرة ، فأرادوا أن يعرفوا ما بها ، واكتشفوا أن ابن حلاق الصحة مريض وهو يريد أن يذهب به إلى الطبيب ، هو - إذن - لا يخدع نفسه ، رغم محاولته خداع أهل القرية بالشائعات الكاذبة عن الطبيب.

وكذلك الإنسان مع منهج الله ، قد يخدع الآخرين فى لحظة اليسر ، لكنه لا ينسى الله لحظة العسر. وساعة يأتيه الضر ، وحين تعزُّ الأسباب عليه فهو لا يجد إلا كلمة «يارب». وأنت تجدها من أعتى الفُجَّار [1] ، ومن أقسى العُتاة ، تجد الواحد من هؤلاء وهو يدعو الله ساعة الضرّ.

وهذا ما يقوله الحق سبحانه هنا : ﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ﴾.

والمثل من حياة هؤلاء الكافرين الذين دعوا على أنفسهم ، ولو كانوا يرغبون فى إنهاء الحياة ، فلماذا يدعون الله وهم قد كفروا به ؟ إنه كذب مفضوح ، والإنسان حين يضيق بنفسه قد يدعو على نفسه بالضُّر ؛ مثلما قال المتنبى [2] :

كَفَى بِكَ داءً أن تَرَى الموتَ شَافياً ... وحَسْبُ المنايا [3] أن يكُنَّ أمَانِيَا

أى : يكفى أن يصل الإنسان إلى الدرجة التى يتمنى فيها الموت.

---

(١) الفجّار : جمع فاجر وهو المكثر من المعاصى والسيئات. والفجور أصله الميل عن الحق. قال ابن شميل : الفجور : الركوب إلى ما لا يحلّ. قال تعالى : ﴿بَلْ يُرِيدُ الإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ۝﴾ [القيامة] . وقال : ﴿وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ۝﴾ [الانفطار]. [اللسان : مادة (فجر) . . بتصرف].

(٢) المتنبى شاعر من شعراء الدولة العباسية له باعه فى الشعر

(٣) المنايا : جمع مَنِيَّة وهى الموت. والمَنَى : القَدَر، ومَنَى الله لك شيئاً أى : قدَّره لك. ومَنَى الله عليك خيراً يَمْنِى مَنْياً، وبه سُمِّيت المَنِيَّة وهى الموت؛ لأنها مقدَّرة بوقت مخصوص. [اللسان : مادة (منى)].

ونلحظ أن الحق سبحانه قد جاء بموقف الإنسان من الضر فى أكثر من موضع ، فنجد آية تفرد الإنسان بمعنى ؛ وآية ثانية تفرده بمعنى آخر ، وآية ثالثة تصور وضع الإنسان بشكل آخر.

يقول سبحانه :

﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا (١) إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ (٢) نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ ... (٨) ﴾ [الزمر]

ويقول الحق فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا ﴾

ويقول سبحانه فى موضع آخر:

﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ (٣) (٥٣) ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٥٤) ﴾ [النحل]

إذن : فالحق سبحانه يأتى بها مفردةً مرّة ، ومرة يأتى بها جمعاً. ومرة يأتى بها مفردة على ألوان شتّى ، ومرة يأتى بها جمعاً بألوان شتّى ، ومرة يذكرها فى البر ، ومرة يذكرها فى البحر:

﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ ... (٦٧) ﴾[الإسراء]

إذن : فالآيات تستوعب حالات الإنسان المختلفة ؛ إذا ما أصابه ضرّ ،

---

(١) منيباً: راجعاً إلى الله بالتوبة . أناب إلى الله إنابة فهو منيب: أقبل إليه تائباً ورجع إلى الطاعة. قال تعالى: ﴿ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ (٥٤) ﴾ [الزمر] ، وقال: ﴿ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلاَّ مَن يُنِيبُ (١٣) ﴾ [غافر] .

(٢) خَوَّلَهُ الله نعمة : مَلَّكه إياها . وهى مأخوذة من التخويل وهو التمليك. والمراد: إذا كشف الله عنه الضر، ووهبه النعم نسى فضل الله عليه ووقع فى المعاصى. [لسان العرب - بتصرف] .

(٣) تجأرون: ترفعون أصواتكم بالتضرع والدعاء إلى الله . [اللسان مادة : ج أ ر] .

ولم يجد مَفْزعاً له لا من ذاته ولا من البيئة المحيطة به ، فلا يجد من يلجأ إليه إلا ربه. ومن الأسف أن هذا الإنسان يكون كافراً بالله.

والآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها تعطينا صوراً متعددة ؛ فالحق سبحانه يقول : ﴿ دَعَانَا لِجَنْبِهِ ﴾ أى : وهو مضطجع ، ﴿ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَائِماً ﴾ . وهكذا تتناول الآية الإنسان فى تصرفاته فى الكون . والآية متمشية مع أطوار تكوين الإنسان ؛ فالطفل الصغير لا يستطيع أن يتقلّب ، بل يقلّبه أهله ؛ لينام على جنبه، وحين يكبر قليلاً فهو يتقلب بمفرده ثم تأتى حركة القوة الثانية ؛فيقعد الطفل ، ثم يقف دون أن يمشى ، ثم يمشى من بعد ذلك.

والآية هنا تعطينا التصوير الدقيق لثلاث حالات : ﴿دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَائِماً﴾، ولم تَأت حركة المشى؛ لأن المتحرك للمشى لا يقعده الضر، لكن من يمر بالمراحل الأخرى قائماً أو قاعداً أو راقداً على الجنب، فقد يناله الضر.

وتلك هى مراحل النقض لمظاهر الحياة ، فالإنسان يعيش الطفولة ، ثم فُتوَّة الشباب ، ثم يأتيه الضعف والشيب ، فلا يستطيع أن يمشى بقوة الشاب ، وإن كان يستطيع الوقوف ، ثم تدخل عليه الشيخوخة ؛ فيقعد ، ولا يستطيع أن يقف ، ثم تتقدم به الشيخوخة ؛ فلا يمشى ، ولا يقف ، ولا يقعد ، ويظل راقداً على جنبه ، وقد يقلّبه أهله [1] .

إذن : نقض كل شىء إنما يأتى على عكس بنائه ؛ فكما بنيت مراحل الإنسان هكذا جنباً ، فقعوداً فقياماً ، فسعياً وحركة ، فهى تنتهى بالعكس ؛ لأن النقض دائماً على عكس البناء.

---

(١) وهو القائل سبحانه : ﴿ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ ﴾ [الروم] .

ومن هذا خرجنا بالاستدلال على صدق الله فى إخباره لخلقه بكيفية الخلق ؛ لأننا لم نشاهد عملية الخلق ، مصداقاً لقوله سبحانه :

﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ (١) عَضُدًا (٢) (٥١) ﴾ [الكهف]

ولأن الحق لم يُشْهِدْ أحداً على كيفية خَلْق السماء والأرض وخلق الإنسان ، فنحن لا نأخذ معلومات عن كيفية الخلق بعيداً عن القرآن ؛ لذلك لا نصدق الافتراضات القائلة بأن الأرض كانت قطعة من الشمس وانفصلت عنها ثم انخفضت درجة حرارتها ؛ فكل هذه افتراضات لم تثبت صحتها ، والحق سبحانه قد قال :

﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَلاَ خَلْقَ أَنفُسِهِمْ ... (٥١) ﴾ [الكهف]

وهذا القول يدل على أن العقل البشرى لا يمكن أن يصل إلى معرفة كيفية خلق السموات والأرض ، وخلق الإنسان ، وهو معزول عن منهج السماء . فإن حُدِّثْتُمْ كيف خُلقتم بصورة تختلف عما جاء فى القرآن فقولوا : كذبتم ، وإن حُدِّثتم كيفَ خُلقت السموات والأرض بغير ما جاء فى كتاب الله ؛ فقولوا : كذبتم ؛ لأن الله هو الذى خلق السموات والأرض والإنسان وحده ، ولا أحد معه ، وما شهد أحد من هؤلاء مشهداً ليخبركم به . ويقول الحق سبحانه :

---

(١) ضَلَّ يَضلّ فهو ضالٌّ ، وأضلَّ يُضلّ فهو مُضلّ ، والمُضلّ يكون ضالاً ولا يكتفى بضلال نفسه بل يُضلُّ غيره أيضاً . وأضلَّه : جعله ضالاً ، والضلال : ضد الهدى والرشاد . قال تعالى : ﴿ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَـٰؤُلاَءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ (١٧) ﴾ [الفرقان] . وقال : ﴿ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِىُّ (٨٥) ﴾ [طه] وقال : ﴿ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٦٩) ﴾ [آل عمران] .

(٢) والعَضُد من الإنسان وغيره : الساعد وهو ما بين المرفق إلى الكَتف . والمراد بالعَضُد هنا : العون والمساعدة . قال تعالى : ﴿ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا .. (٣٥) ﴾ [القصص] .

﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾﴾ [الكهف]

والمضلون : هم الذين يقولون لكم افتراضات غير صحيحة عن تطور القرد حتى صار إنساناً ، وأن الأرض كانت قطعة من الشمس وانفصلت عنها ؛ كل هذه افتراضات قالها من سمّاهم الحقُّ سبحانه : ﴿الْمُضِلِّينَ﴾ . ولو لم يقل الله تعالى هذه الآية ، ثم جاء قوم ليقولوا : الإنسان كان فى الأصل قرداً ، لقلنا : إن القرآن لم يتعرض لذلك ، وكان من الممكن أن نصدقهم، لكن الله سبحانه شاء لنا أن تكون لدينا المناعة ضد هذا الإضلال.

وعملية الخلق غيب عنا ، أخبرنا عنها من خلقنا سبحانه ، فلم يكن معه شاهدٌ رأى هذا المشهد ؛ ليقول لنا. والخلق الذى به الحياة ينقضه الموتُ ، ولكن الموت مشهد نشهده ، وأى نقض لشىء - كما عرفنا - إنما يأتى على عكس بنائه ، فإن بنينا عمارة من عشرين طابقاً ، وأردنا أن نهدمها لسبب أو لآخر ؛ فنحن نهدم الطابق العشرين أولاً ، ثم نوالى الهدم بعد ذلك ، فما بُنى أولاً يهدم أخيراً ؛ لأن نَقْض كل شىء يأتى على عكس بنائه.

وبما أن الموت نَقْضٌ للحياة ؛ فالروح إذا ما خرجت من الجسم ، وتُرك الجثمان بلا دفن ، فالجثمان يتصلَّب ، ثم يصير جيفَةً [1] ، ثم يتبخر منه الماء ، ويتحلل الجسد إلى العناصر الأولى فى التراب ، هذه مراحل الموت.

وقد أخبرنا الحق عن كيفية الخلق ، فبيَّن أنه سبحانه خلق الإنسان من التراب والماء فصار طيناً ، ثم استوى الطين ، فصوَّره الحق صورة الإنسان ونفخ فيه الروح [2] ، وآخر مراحله فى الإيجاد هى الروح ؛ لذلك فخروج الروح هو أول مرحلة فى الموت.

---

(١) الجيفة : هى جثة الميت إذا أنتنت وكان لها رائحة. والجمع جيف وأجياف. (اللسان . مادة جيف) .

(٢) وفى هذا يقول سبحانه : ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾﴾ [السجدة] .

والله سبحانه وتعالى فى هذه الآية جاء بوضع الإنسان على الجنب وقائماً وقاعداً ، ولم يأت بالمشى ؛ لأن الماشى عنده قدرة فلا ضرّ فى ذاته ، وإن أصابه ضرّ فمن غيره ، والضرّ مقابل النفع ، والنافع هو مَنْ يُبقِى الشىء على صلاحه الممتع المريح ، فى الذات أو فى الخارج .

فساعة تكون ذاتك مستقيمة وملكاتها وأعضاؤها كلها سليمة ، فليس عندك ضرّ ، لكن إذا حدث خلل فى أى عضو من الأعضاء ؛ فالمتاعب تبدأ ، ولذلك يقال عن السلامة العامة : هى ألا تشعر بأن لك أعضاء ؛ لأنك حين تشعر أن لك عَيْناً - مثلاً - فاعرف أنها تؤلمك ، وإذا شعرت بأذنك فاعرف أنها تؤلمك . وأنت تطحن الطعام بضروسك وتأكل ولا تدرى بها . ويوم أن تدرى بها فهذا يعنى أن ألماً قد بدأ .

وهكذا لا يشعر الإنسان بفقد السلامة إلا إذا عرف وانتبه إلى أن له عضواً من أعضائه ، فيقول : «آه يا عينى» ، و«آه يا أذنى» .

ونقول : إن وجع العين مؤلم ألماً مخصوصاً ، وكذلك نقول : على أى عضو من الأعضاء ، أما من لا يشكو بأعضائه فهو لا يشعر بها ؛ لأنها تؤدى أعمالها على الوجه المناسب . والسلامة فيمن حولك تتمثل فى أن يحققوا لك المتعة والصفاء بدون كدر . وبذلك تظهر منفعتهم لك .[1]

وكل إنسان له كبرياء ذاتى ، يبيّنها قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧ ﴾ [العلق]

ولا يذل الإنسان إلا حين يعانى من آفة[2] ما ، ولا يأتى طغيانه إلا عند استكمال النعمة فى الخارج والنعمة فى الداخل ، وإن بدأت النعمة فى

---

(١) عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده» أخرجه مسلم فى صحيحه (٤١) وأخرجه البخارى فى صحيحه (١٠) من حديث عبد الله ابن عمرو بن العاص .

(٢) آفة : عاهة ، أو مرض ، أو فساد ، أو نقص ، أو عيب . يقال : آفة الظَّرف الصَّلَف ، وآفة العلم النسيان .

الانقباض عن الإنسان ؛ فكبرياؤه تتطاير . ومن كان يستعرض قوته على الناس ، قد يرجو القيام من الرقود ؛ ليخطو بضع خطوات فلا يستطيع .

والإنسان لا يستغنى إلا بما هو ذاتى فيه ؛ لا بما هو موهوب له ؛ لذلك فعليه ألا يغتر ؛ لأن الواهب الأعلى قد يقبض هبتَه ، فقد يأخذ منك العافية ، وكثيراً ما رأينا أصحّاء قد مرضوا ، ورأينا أغنياء قد افتقروا ، وأصحاب جاه [1] قد خرجوا من جاههم .

إذن : فلا داعى للغرور ؛ لأن الله قد وهبك كل شىء ، وليس لك شىء ذاتىٌّ فيك أبداً ؛ لذلك يجب أن ينعدم الغرور ، فما دام كل ما فيك موهوبًا من الواهب الأعلى سبحانه ، فالواهب قد يسلب ما وهب ، وما إن تُسلب من الإنسان نعمة فهو ينتبه . فلا داعى - إذن - لأن يغتر أحد ؛ حتى لا يسلم نفسه رخيصة للضياع .

والمثال : قد تكون عاديْتَ طبيباً ، وهو الوحيد فى المكان الذى تقطنه ، وقد يحاول البعض الإصلاح بينك وبين هذا الطبيب ، فتتأبَّى أنت ، ثم يأتى لك مرض ؛ فتلجأ إليه ؛ لأن الله قد وهبه القدر السليم من التشخيص بالعلم ، فلا يجب - إذن - أن تغتر أو تتعالى على أحد .

لكن الإنسان هو الإنسان ؛ لذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ .. (١٢) ﴾ [يونس]

والكافر ما إن يمسّه الضرّ ؛ حتى يقع فى بئر الهوان . أما المؤمن فهو مع ربه دائماً ، وإذا مسّه الضرّ فهو يدعو الله تعالى دائماً ولا ينساه ؛ لذلك يتلطف به سبحانه ، عكس الكافر الذى يدعو الله ساعة الضرّ فقط . وأين

(١) الجاه : المنزلة والقدر . قال تعالى : ﴿ وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا (٦٩) ﴾ [الأحزاب] .

كان ذلك الكافر ساعة أن دعاه الله سبحانه بالرسل إلى الإيمان ؟

ونسيان الإنسان أمر وارد فى تكوينه الفطرى الأول [(١)] ؛ لأن الإنسان حين يعيش فى محيط ما . فهو يحب النفع من خارجه ، وإذا امتنع عنه هذا النفع الخارجى ، فهو يأخذ النفع من ذاته ؛ من تحرُّك أبعاضه وخدمتها لبعضها البعض . ثم لا يجد له مفزعاً إلا أن يؤمن بمن خلقه أولاً . وانظر إلى التعبير القرآنى :

﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِى الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ .. (٦٧) ﴾ [الإسراء]

إذن : فمن يَعْبُد غيرَ الله - سبحانه وتعالى - يضل عنه معبوده ، ولا يعرف كيف ينقذ من يعبده ؛ لذلك يعود المشرك إلى الله ، ولا يجد سواه سبحانه ، فهو الذى ينقذ الإنسان لحظة الخطر ؛ لأنه الرب الخالق هو أرحم بصنعته ، وهذه الرحمة تنقذ الإنسان حتى لو كان كافراً ، وهذا كلام منطقى ؛ لأننا شهدنا بوحدانية الله تعالى فى عالم الذر [(٢)] ؛ حينما

---

(١) ومن هذا قول الله عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا (١١٥) ﴾ [طه] ، فجنس الإنسان فى تكوينه النسيان ، ولذلك تجاوز الشرع عن النسيان والخطأ وما استكره عليه الإنسان ، فعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : «إن الله عز وجل تجاوز لأمتى عن الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه» أخرجه الحاكم فى مستدركه (٢/ ١٩٨) . قال الحاكم : صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، وأقره الذهبى . وحسنه ابن رجب الحنبلى فى جامع العلوم والحكم (ص ٤٤٢) طبعة مؤسسة الرسالة ١٩٩١م .

أما النسيان بمعنى التناسى والتغافل عن أوامر الله والالتزام بمنهج الله سبحانه فلا يتجاوز الله عنه بل يؤاخذ الإنسان به ، يقول عز وجل : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ (٤٤) ﴾ [الأنعام] .

(٢) عالم الذر : هو يوم نثر الله ذرية آدم من ظهره ونشرها . قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣) ﴾ [الأعراف]

أخذ الله سبحانه علينا العهد الأول ،[1] وقال لنا :

﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ .. (١٧٢) ﴾ [الأعراف]

قلنا :

﴿ بَلَىٰ ... (١٧٢) ﴾ [الأعراف]

وهذا إيمان الفطرة قبل أن توجد الغفلة أو التقليد ؛ لذلك حين تتفرق الآلهة الباطلة من حول الكافر فهو يرجع إلى نفسه ويدعو الله ، بل ويوسِّط من يسأله أن يدعو له الله سبحانه .

وقد يدعو الإنسان من يواسيه لحظة المرض فلا يجد ولداً من أبنائه ، أو قريبا من أقربائه ، ولكنه فور أن يدعو الله تعالى ؛ تلمسه رحمته سبحانه ، وقد تجد إنساناً حين يستجيب الحق سبحانه لدعائه قد تركبه حماقة الغرور من جديد ، ويقول ما جاء به الحق على لسان قارون :

﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي[2] ... (٧٨) ﴾ [القصص]

ويقول : كنت محتاطاً وقد رتبت أمورى . ثم يأخذه الحق سبحانه وتعالى أخْذَ عزيز مقتدر .

فإذا مسكم الضر ؛ فلن تجدوا من البيئات الخارجة عنكم ، ولا من ذوات نفوسكم ، ما يغنيكم عن خالقكم ، وفى لحظة الخطر لا تستطيعون

---

(١) العهد الأول هو إشهاد ذرية بنى آدم وأخذ الميثاق عليهم بأن الله ربُّ الخلائق كلها ، وهنا كان الإيمان بالوحدانية فطرة يسكن بها القلب ، ويطمئن معها العقل وتستريح النفس ، أما العهد الثانى فهو التكليف على يد الرسل فى افعل ولا تفعل ، وهو امتداد للعهد الأول ، ويجمع ذلك كله قوله : ﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ .. (٣٥) ﴾ [البقرة] ومن هنا كان الأمر والنهى وعليهما مدار الحساب .

(٢) أى : أن قارون أنكر فضل الله عليه ، فيما أنعم عليه به من الأموال والكنوز التى قال الله عنها : ﴿ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦) ﴾ [القصص] .

الكذب على أنفسكم ؛ فلا تسألون حينئذ أحداً إلا الله سبحانه ، وتتذكرون فى تلك اللحظة عهد الذَّر الأول ، وتعودون إليه سبحانه.

وهنا يقول الحق سبحانه: ﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا﴾

وقوله الحق: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا [1] عَنْهُ ضُرَّهُ﴾ يصوّر الضرّ وكأنه يغطى الإنسان ويلفّه ، فلا منقذ له أبداً ؛ لأن الكشف هو رفع لغطاء يغطى كل الإنسان . وهكذا يعطينا الله تعالى صورة لاستيعاب الضرّ للجسم كله ؛ حتى وإن كان بأداة من أدوات الإدراك مثل قوله سبحانه:

﴿ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١١٢) ﴾ [النحل]

فكأن الجوع والخوف قد لفّ القرية كلها ، فلم تعُد البطون وحدها هى الجائعة ، بل كل ما فى الأجسام جائع وخائف.

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ﴾

وكلمة ﴿مَرَّ﴾ تفيد أن هنا وقفة ، فحين يقال: إن فلاناً مرّ علىَّ ؛ مقابلها: وقف عندى.

ونفهم من قوله الحق : إن هذا الذى مسهّ الضرّ كان له وقفة عند الله سبحانه ؛ حين لفّه الضرّ ولم يجد معيناً له غير الله تعالى، أما قبل ذلك فقد كان يأخذ الخير من الله ولا يتذكر الإيمان به سبحانه ، وبعد أن يذهب عنه

---

(١) كشف الشيء يكشفه كشفاً: أظهره أو رفع عنه ما يستره فى المحسوسات والمعانى . قال تعالى : ﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ .. (٥٤)﴾ [النحل] كأن الضر غطاء ثقيل فوق الرؤوس كشفه الله وأزاله ، ومن الحسى قوله تعالى : ﴿وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا .. (٤٤)﴾ [النمل] - أما قوله تعالى : ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ .. (٤٢)﴾ [القلم] فهو كناية عن شدة الخوف والرغبة فى الفرار ، وقوله: ﴿فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ .. (٥٦)﴾ [الإسراء] أى : إزالته وهو كشف معنوى . . القاموس القويم : ص ١٦٢ ، ١٦٣ .

الضرّ وينسى الإيمان ؛﴿ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ ﴾ وكأنه قد نسى تذلّله إلى الله ، فهو يمر من مرحلة الذلة والخضوع والدعاء إلى الله إلى مرحلة الاستكبار ، فلم يقف عند من أنقذه من ضره ، وهذه هى الصفاقة [(١)] .

ويُنهى الحق سبحانه وتعالى الآية بقوله : ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وهنا تأتى قضية ثانية ؛ فالحادثة حادثة خاصة وينقلها الحق سبحانه إلى عمومية تأتى فى الكون كله ؛ فالمسرفون قديماً حصل لهم هذا ، والذى زَيَّن لهم المرور إما أن يكون الشيطان ، وإما أن يكون الحمل من الحق على صفات موجودة فيه ، فالحق سبحانه هو القائل :

﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا [(٢)] ... (١٠) ﴾ [البقرة]

وقوله تعالى هنا :

﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ .. (١٢) ﴾ [يونس]

وهذا ما حدث للمسرفين سابقاً ، وما سوف يحدث من المسرفين لاحقاً. والإنسان له عمل مكوَّن من القول والفعل ، والعمل هو كل حادثة متفرعة عن جوارح الإنسان ،وإن كان القول مقابله الفعل ؛ فالاثنان عمل.

وبعد أن يعرض الحق سبحانه هذه القضية فى عمومها ، وفى

---

(١) أصل مادة (صفق) التصفيق باليد، والضرب الذى يُسْمع له صوت، ومنه صَفْقُ الباب أى : فتح الباب ثم إغلاقه مع حدوث صوت. ومنه الصفقة للعهد والبيع والشراء، ومن حديث رسول الله ﷺ : «إن من أكبر الكبائر أن تقاتل أهل صفقتك». وهو أن يعطى الرجل عهدَه وميثاقه ثم يقاتله؛ لأن المتعاهدين يضع أحدهما يده فى يد الآخر كما يفعل المتبايعان. (انظر : اللسان – مادة صفق) فالمادة من الممكن أن نخرج منها بمقصود فضيلة الشيخ من هذه الكلمة.

(٢) المراد بالمرض هنا : النفاق. وهو خلق ذميم يصيب صاحبه بأشد الأضرار، ويضر المجتمع كله. ووصف النفاق بالمرض إذ إن المرض هو السقم وهو ضد الصحة. وتمريض الأمور : توهينها. وريح مريضة : ضعيفة الهبوب. وكل ما ضَعُفَ فقد مرض. والرأى المريض، أى : فيه انحراف عن الصواب. قال تعالى : ﴿ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ .. (٥٢) ﴾ [المائدة] [اللسان : مادة (مرض) .. بتصرف] .

خصوصها، وفى انسحابها على الكون كله ، يبيّن لنا ضرورة الانتباه للكافرين برسالة محمد ﷺ ، ويحذر الكافرين: أأسلمنا رسولاً إلى خصومه أم نصرنا كل رسول جاء على خصومه ؟ إن السوابق تدل على أن كُـلّاً أخذناه بذنبه ، فاحذروا أن تكونوا كذلك.

ويقول سبحانه بعد ذلك:

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ (١) ﴿١٣﴾ ﴾

فإياكم أن تسوّل (٢) لكم أنفسكم أن تظلوا على عداوتكم لمحمد ﷺ ؛ لأنكم لن تنالوا منه شيئاً ، وسيتم الله نوره ،فلستم بدعاً عن سابق الخلق.

و﴿ ٱلْقُرُونَ ﴾ (٣) : جمع قرن ، والقرن من المقارنة ، وكل جماعة اقترنوا

---

(١) المراد بالمجرمين : الكافرون لأنهم كذبوا بآيات الله وظلموا واستكبروا. وجَرُمَ الإنسان: إذا عظم جُرْمه، أى: أذنب. قال تعالى: ﴿ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ .. ﴿٨٦﴾ ﴾ [مريم] [اللسان : مادة (جرم)] .

(٢) تسوّل لهم أنفسهم شيئاً : تُزيِّن لهم الخطأ . والتسويل: تحسين الباطل وتزيينه وتحبيبه إلى الإنسان ليفعله أو يقوله. قال تعالى: ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ .. ﴿١٨﴾ ﴾ [يوسف] ، وقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ﴾ [محمد] . [اللسان: مادة (سول)] .

(٣) القَرْن: الأمة تأتى بعد الأمة. والقرن: أهل كل زمان، مأخوذ من الاقتران، فكأنه المقدار الذى يقترن فيه أهل ذلك الزمان فى أعمارهم وأحوالهم. يقال: القرن من الزمان مائة سنة ، وقيل غير ذلك، والجمع: القرون. قال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾ ﴾ [الأنعام] . وقال ﷺ : «خيركم قرنى (يعنى : أصحابى) ثم الذين يلونهم» ، يعنى: الذين أخذوا عن التابعين.

فى شىء نسميهم «قرنا» . وقد يكون القرن فى الزمنية ، ولذلك حسبوا القرن مائة سنة ، والبشر الذين يجتمعون فى مائة سنة يسمونهم قرناً.

أو القرن جماعة يقترنون فى شىء يجمعهم ، مهما طال بهم الأمد [1].

وقوله الحق: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ فهل لو أمهلهم الله - تعالى - كانوا سيؤمنون ؟ لا ، فلله علمٌ أزلىٌّ ، يعلم الأشياء على وفق ما تكون عليه اضطراراً أو اختياراً.

والمثل من حياتنا وأعرافنا - ولله المثل الأعلى - نجد الإنسان حين يريد بناء بيت ، فالأمر يختلف حسب مقدرته ؛ الفقير مثلاً يطلب بناء حجرتين ؛ فيخطط رجل البناء لبناء حجرتين ، وإذا كان الإنسان متوسط الحال ؛ فهو يتجه إلى مهندس يصمِّم له بناء على قدر سعته ، وإن كان الإنسان ثرياً ؛ فهو يستدعى المهندس الذى يبنى له بيتاً حسب إمكانات ورغبات هذا الثرى ، ويصمم المهندس نموذجاً للبناء قبل أن يبدأ فيه ، وتظهر فيه كل التفاصيل ، حتى ألوان النوافذ والأبواب والحجرات.

والعالم قبل أن يخلقه الله سبحانه وتعالى كانت هيئته مقدرة أزلاً عنده سبحانه ، وهذا هو مطلق القدرة من الحق تعالى ، ويأتى واقع الكون على وفق ما قدره الخالق سبحانه أزلاً ؛ حتى ولو كان هناك اختيار للمخلوق الكافر ، فالله سبحانه يعلمه.

وقد صحَّ أن القلم جفَّ حتى فى الأمور الاختيارية ، وسبحانه يعلم ما تجرى به الأمور القهرية وما يقضيه على خلقه بدون اختيار منهم ، أما فى

---

(١) الأمد: الغاية. والأمد: منتهى الأجل. قال تعالى: ﴿وَلاَ يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ .. ﴿١٦﴾﴾ [الحديد] . [اللسان: مادة (أمد)].

الأمور الاختيارية فقد أعطى لخلقه الاختيار . وقد علم ما سوف يفعلونه غيباً [(١)] ، فصمم المسألة على وفق ما علم.

وإياك أن تظن أنه أراد بذلك أن يُلزمك ، لا ، فقد علم أنك ستختار . وهكذا علم الحق سبحانه من سيظلم نفسه - أزلاً - وسبق فى علمه أن أهل القرون السابقة الذين أهلكهم لا يؤمنون.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾ والظلم معناه نقل الحق من صاحبه إلى غيره . والحقوق الموهوبة من الخالق للبشر قد يظلمون فيها بعضهم البعض ، لكن أعلى درجات الظلم حين يظلم أحدٌ حقَّ الإله الأعلى فى أن يكون إلهاً واحداً ، وأن ينقل ذلك لغيره . تلك هى قمة الظلم ؛ لذلك قال سبحانه:

﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣)﴾ [لقمان]

وهم قد ظلموا فى قضية العقيدة الأولى ، أو ظلموا فى الحقوق بينهم وبين أنفسهم مصداقاً لقوله تعالى:

﴿وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٤)﴾ [يونس]

والواحد منهم ظالم ومظلوم فى آن واحد ؛ لأن الإنسان ملكاته متعددة ، ومن هذه الملكات ملكة الإيمان الفطرى ، وملكة النفع العاجل الذاتى . فإذا تغلبت ملكة النفع العاجل ؛ تخرج النفس اللوَّامة [(٢)] ؛ لتعيد الأمر إلى صوابه ، أما إن كانت نفس تأمر بالسوء فهى تطلب تحقيق

---

(١) الغيب: ما غاب عن العيون وإن كان محصّلاً فى القلوب. والغيب: ما غاب عنك ولا يغيب عن علاّم الغيوب. قال تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ .. (٣)﴾ [البقرة] . وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ .. (١٨)﴾ [الحجرات] . [لسان العرب : مادة (غيب) . . بتصرف] .

(٢) اللوَّامة : صيغة مبالغة من اللائمة . أى: كثيرة اللوم . والنفس اللوامة : هى التى تكثر من لوم صاحبها على أخطائه . قال تعالى: ﴿لاَ أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ (١) وَلاَ أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ (٢)﴾ [القيامة] .

الشهوات فقط ؛ لأنها نفس أمَّارة [١] بالسوء . أما إن اطمأنت النفس إلى حكم الله تعالى ورضيت به ونفذت ما قاله الله سبحانه، فهى نفس مطمئنة [٢] . ومن يظلم نفسه فهو الذى يتبع شهوات [٣] نفسه ، وهو قد أعطاها متعة عاجلة ؛ ليستقبل بعد ذلك شقاءً آجلاً [٤] ؛ فيكون قد ظلم نفسه .

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ﴾

والحق سبحانه لم يتركهم ، بل أرسل الرسل مُؤيَّدين بالمعجزات ؛ ليبصّروهم . لكن الله تعالى يعلم أنهم لا يؤمنون ؛ لذلك قال: ﴿وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ أى: أنه سبحانه لو تركهم أحياء فلن يؤمنوا ، فهو الذى خلقهم وقد علم أزلاً أنهم لن يختاروا الإيمان .

والحق سبحانه هو العالم الأعلى الذى يعلم الأشياء على وفق ما تكون عليه ، لا على وفق ما يقهر خلقه عليه ، فلو كان علمه - سبحانه - على وفق ما يَقْهر الخلق عليه لكانت المسألة منتهية .

والمثال - ولله المثل الأعلى - أنت فى البيت وتريد أن تقوم وزوجتك برحلة ، فإن كان الأولاد صغاراً ؛ فأنت تغلق عليهم الباب بعد أن تقول لهم: إن طعامكم فى الثلاجة ؛ لحماً وسمكاً وجبناً وزيتوناً . وبعد أن

---

(١) أمَّارة : صيغة مبالغة من الآمرة . أى: كثيرة الأمر . والنفس الأمارة هى النفس المسيطرة والمتسلِّطة على صاحبها، وقد ورد فى القرآن ذكرها فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ .. (٥٣)﴾ [يوسف] .

(٢) النفس المطمئنة هى التى اطمأنت بالإيمان ورضيت بربها وأطاعته؛ فهى ثابتة وساكنة بالجزاء الحسن من الله سبحانه . قال تعالى: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (٢٨)﴾ [الفجر] [اللسان : مادة (طمن) . . بتصرف] . ذكر العارفون : إن النفوس سبعة : النفس الأمارة ، واللوامة ، والملهمة ، والمطمئنة ، والراضية ، والمرضية ، والكاملة .

(٣) اشتهى الشىء شهوةً : أحبَّه ورغب فيه . والجمع : شهوات . قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ .. (١٤)﴾ [آل عمران] .

(٤) الآجل: نقيض العاجل . والآجلة: الآخرة، والعاجلة: الدنيا . وقال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ .. (٥٣)﴾ [العنكبوت] . والأجل المسمى: يوم القيامة . [اللسان : مادة (أجل) . . بتصرف] .

تخرج أنت وزوجتك تقول لها: إن أبناءنا لن يأكلوا إلا جبناً وزيتوناً ؛ لأنهم سوف يستسهلون هذا الطعام . ولو لم يكن فى الثلاجة إلا الجبن ، لما قلت ذلك ؛ لأن هذا هو لون الطعام القهرى.

لكن ما دام فى الأمر اختيار ؛ فأنت تستشف من سابق سلوك الأبناء . وعندما ترجع تجد أبناءك قد تصرفوا وفق ما حكمت به ، رغم أنك تركت لهم الاختيار . ومثال هذا فى القرآن قوله الحق:

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ (١) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (٢) سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (٣) ﴾. [المسد]

وفى هذا حكم من الله تعالى بأن أبا لهب [1] سيموت كافراً ، وهذا حكم مُعْلَن ويُردَّد فى الصلاة ، ونحفظه ، وأبو لهب هو عم رسول الله ﷺ ، وكان كافراً مثل غيره من الكفار . وقد آمن من الكفار الكثير . ألم يسلم عمر ؟ ألم يسلم عكرمة بن أبى جهل ؟ ألم يسلم عمرو بن العاص ؟ ألم يسلم خالد بن الوليد ؟ فما المانع أن يسلم أبو لهب هو الآخر ؟ لا ، لم يسلم وعلم رسول الله ﷺ من ربه أن ذلك لن يكون منه . وما كان من الممكن أن يمكر أبو لهب ويعلن إسلامه تكذيباً للقرآن ؛ لأن الحق علم أزلاً سلوك أبى لهب.

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَٰلِكَ نَجْزِى الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴾ .

---

(١) أبو لهب هو أحد أعمام رسول الله ﷺ ، واسمه عبد العزى بن عبد المطلب، وكنيته أبو عتبة، وإنما سمى أبا لهب لاحمرار وجهه وإشراقه كأنه اللهب.

وسبب نزول السورة التى ذكر فيها، أن النبى ﷺ خرج إلى البطحاء فصعد الجبل فنادى «يا صباحاه» فاجتمعت إليه قريش فقال : « أرأيتم إن حدثتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم أكنتم تصدقونى ؟ قالوا: نعم . قال: فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد. فقال أبو لهب: ألهذا جمعتنا ؟ فأنزل الله : ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ إلى آخرها. أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٠٨) عن ابن عباس.

وقوله: ﴿كَذَلِكَ﴾ أى: مثل هذا الجزاء الذى كان للأمم السابقة التى أهلكت فى القرون الماضية تجزى ممن يحدِّد كل شىء ؛ لأن القضايا فى الكون واحدة . فالقضية الإيمانية موجودة من أول ما أرسلت الرسل إلى أن تنتهى الدنيا.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِن بَعْدِهِم لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾

و﴿خَلَائِفَ﴾ : جمع خليفة [1]، وهو من يَخْلُف غيره . والحق سبحانه وتعالى حينما وصف الإنسان أصدر أول بيان عن الإنسان قال للملائكة:

﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً .. ﴿٣٠﴾﴾ [البقرة]

والله سبحانه وتعالى قادر ، وسميع ، وعليم ، وله كل صفات الكمال المطلق ، وأنت قد تكون لك قدرة وقد تُعَدِّى أثر قدرتك إلى غيرك ، ولكنك لن تستطيع أن تُعدِّى قدرتك إلى سواك ، فإن كنت قويّاً ؛ فلن تستطيع أن تَهَبَ ضعيفاً قدراً من قوتك . بل كل الذى تستطيعه هو أن تهبه أثر قدرتك ، فإن كان غير قادر على أن يحمل شيئاً ؛ فأنت قد تحمله عنه ، وإن كان غير قادر على المشى ؛ فأنت تأخذ بيده ، لكنك لا تستطيع أن تهبه جزءاً من قوتك الذاتية ، فيظل هو عاجزاً ، وتظل أنت قادراً - كما أنت.

هذا هو حال الخلق: تجد غنياً وآخر فقيراً ، ويُعطى الغنى للفقير من غناه ، ويُعطى العالمُ للجاهل بعضَ العلم ، لكنه لا يهبه مَلَكَة العلم ؛ ليعلم.

---

(١) وقد تجمع خليفة على خلفاء ، قال تعالى : ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ .. ﴿٦٩﴾﴾ [الأعراف] .

أما الحق الأعلى سبحانه فهو وحده القادر على أن يهب من قدرته المطلقة للخلق قدرة موهوبة محدودة ، وقد أعطاهم سبحانه أثر القدرة العالية فى الأفلاك التى صنعها ولا دخل للإنسان فيها ؛ من شمس ، وقمر ، ونجوم ، ورياح ، ومطر .

وأعطى الحق سبحانه للإنسان طاقة من قدرته فى الأمور التى حوله ؛ فأصبح قادراً على أن يفعل بعض الأفعال التى تتناسب مع هذه الطاقة الموهوبة . وبذلك عدَّى له الحق سبحانه من قدرته ؛ ليقدر على الفعل ، ومن غناه ؛ ليعطى الفقير ، ومن علمه ؛ ليعطى الجاهل ، ومن حلمه ؛ ليحْلِم على الذى يؤذيه .

إذن : فالخلق لا يعدّون [1] صفاتهم إلى غيرهم ولكنهم يعدون آثار صفاتهم إلى غيرهم ، وتظل الصفة هنا قوة ، والصفة هناك ضعفاً . أما الواحد الأحد فهو الذى يستطيع أن يهب من قدرته للعاجز قدرة ؛ فيفعل . فهل كل الكون هكذا ؟

إن الكون قسمان : قسم وهبه الله سبحانه وتعالى للإنسان بدون مجال له فيه . وقد أقامه الحق بقدرته ، وهذا القسم من الكون مستقيم فى أمره استقامة لا يتأتّى لها أى خَلَل ، مثل : نظام الأفلاك والسماء ودوران الشمس والقمر والريح وغيرها ، ولا تعانى من أى عطب [2] أو خلل ، ولا يتأتى لهذا القسم فساد إلا بتدخُّل الإنسان .

---

(١) أعديته فعدا ، وعدوته أعدوه : تجاوزته إلى غيره ، واستعديت الأمير على الظالم طلبت منه النصرة ، فأعدانى عليه : أعاننى ونصرنى فالاستعداد طلب التقوية والنصرة - المصباح المنير صـ ٣٩٧ ، ٣٩٨ .

(٢) العَطَب : الهلاك ، يكون فى الناس وفى غيرهم . وفى الحديث الشريف : ذكْرُ عَطَب الهَدْى ، وهو هلاكه ، وقد يُعبَّر به عن آفة تعتريه ، تمنعه من السير ، فيُنْحَر . والمراد بالعطب هنا : الفساد أو العيب أو الخطأ . [اللسان : مادة (عطب) . . بتصرف] . يقول سبحانه وتعالى : ﴿ الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ . . ﴿٣﴾ ﴾ [الملك] .

وقسم آخر فى الكون تركه الحق سبحانه للإنسان ؛ حتى يقيمه بالقوة الموهوبة له من الله .

وأنت لا تجد فساداً فى كون الله تعالى إلا وجدت فيه للإنسان يداً ، أما الأمور التى ليس للإنسان فيها يد فهى مستقيمة، ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (١) (٥) ﴾ [الرحمن]

والمراصد تحدِّد موقع الأرض بين الشمس والقمر ، وموقع القمر بين الأرض والشمس بدقة تتناسب مع قوله الحق : ﴿بِحُسْبَانٍ﴾ ؛ لأن الإنسان ليس له دخل فى هذه الأمور.

وفيما لنا فيه اختيار علينا أن نتدخل بمنهج الله تعالى ؛ لتستقيم حركتنا مثل استقامة الحركة فى الأكوان العليا التى لا دخل لنا فيها.

إذن : فالذى يُفْسد الأكوان هو تدخُّل الإنسان - فيما يحيط به ، وفيما ينفعل له وينفعل به - على غير منهج الله؛ ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى :

﴿ الرَّحْمَٰنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الْإِنسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٢) (٤) الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥) ﴾ [الرحمن]

---

(١) الحسبان : الحساب . والشمس والقمر بحسبان أى : بحساب ومنازل حددّها الله سبحانه فلا يعدوانها . وقال الزجاج : «بحسبان» يدل على عدد الشهور والسنين وجميع الأوقات . وقال أبو العباس : حسبان مصدر حَسبَ يحسبُه حساباً وحسباناً . وقال الأخفش وأبو الهيثم : الحسبان جمع حساب . قال تعالى : ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا .. (٩٦)﴾ [الأنعام] . [اللسان : مادة (حسب) . . بتصرف].

(٢) البيان : ما بُيِّنَ به الشىء من الدلالة وغيرها . وبان الشىء بياناً : اتّضح ، فهو بَيِّنٌ . وكذلك أبان الشىء إبانة فهو مبين . والبيان : الفصاحة والإفصاح مع ذكاء ، والبيان : إظهار المقصود بأبلغ لفظ . قال تعالى : ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ (١٣٨)﴾ [آل عمران] . وقال : ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ (١٩)﴾ [القيامة] [اللسان : مادة (بين) . . بتصرف].

أى: هذه الأكوان مخلوقة بحساب ، وتستطيعون أن تُقَدِّروا أوقاتكم وحساباتكم على أساسها . ويقول سبحانه:

﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥) وَالنَّجْمُ [(١)] وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (٦) وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧) أَلاَّ تَطْغَوْا فِى الْمِيزَانِ (٨) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلاَ تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (٩) ﴾ [الرحمن]

وحتى تستقيم لكم الأمور الدنيا فى حركتكم فى الكون - كما استقامت لكم الأمور العليا ؛ وازنوا كل الأمور بالعدل ؛ فلا يختل لكم ميزان ؛ لأن الذى يُفسد الكون أنكم تتدخلون فيما أعطى لكم من مواهب الله قدرة وعلماً وحَركة على غير منهج الله . فادخلوا على أمور حياتكم بمنهج الله فى «افعل» و«لا تفعل» [(٢)] ؛ ليستقيم لكم الكون الأدنى كما استقام لكم الكون الأعلى.

وهنا يقول الحق سبحانه: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلاَئِفَ فِى الأَرْضِ﴾ وقد خلف الإنسانُ الله تعالى فى الأرض ، فى أنه - مثلاً - يحرث الأرض ويسقيها ؛ فيخرج له الزرع ، وحين يأخذ الإنسان أسباب الله فهو ينال نتيجة الأخذ بالأسباب . ولكن آفة الإنسان بغروره ، حين تستجيب له الأشياء ، فهو يظن أنه قادر بذاته ، لا بأسباب الله .

والحق سبحانه وتعالى يُعطى بعطاء ربوبيته للمؤمن ، وللكافر ؛ لأنه سبحانه هو الذى استدعى الإنسان إلى الوجود ، لكنه جلّ وعلا ميَّز المؤمن ، لا بعطاء الأسباب فقط ، ولكن بالمنهج ، والتكليف المتمثل فى

(١) نَجَمَ الشىء : طلع وظهر . ويقال لكل ما طلع وبدا: نَجْمٌ . ولذلك اختلف المفسرون فى تفسير النجم فى الآية، فقال ابن عباس: النجم ما انبسط على وجه الأرض (يعنى: من النبات). وقال مجاهد: النجم الذى فى السماء. انظر لسان العرب - مادة (نجم) وتفسير ابن كثير (٤/ ٢٧٠).

(٢)افعل ولا تفعل عليهما مدار التكاليف الشرعية من: الفرض ، والواجب ، والمندوب ، والمستحب والحرام ، والمكروه ، والمباح.

«افعل كذا» و«لا تفعل كذا» ، فإن أخذ العطاءين من الله يبقَ له حسن الجزاء فى الدنيا والآخرة ، وإن أخذ العطاء الثانى فى «افعل» و«لا تفعل» ، فهو يأخذ الآخرة ، أما دنياه فتظل متخلّفة.

ومن يُرِدْ أن يأخذ حُسْن الدنيا والآخرة ، فليأخذ عطاء ربوبية الله تعالى بالأخذ بالأسباب ، وعطاء الألوهية باتّباع المنهج.

إلا أن آفة الخليفة فى الأرض أنه يرى بعض الأمور مستجيبة له ؛ فيطغى [1] ، ويظن أنه أصيل فى الكون . ونقول له: ما دمت تظن أنك أصيل فى الكون فحافظ على روحك ، وعلى قوتك ، وعلى غناك . وأنت لن تستطيع ذلك . فأنت إنْ تمردت على أوامر الله بالكفر - مثلاً ، فلماذا لا تتمرد على المرض أو الموت ؟

إذن: أنت مقهور للأعلى غصباً عنك ، ويجب أن تأخذ من الأمور التى تنزل عليك بالأقدار ؛ لتلجمك ، وتقهرك ، إلى أن تأخذ الأمور التى لك فيها اختيار بمنهج الله سبحانه.

ولو ظن الخليفة فى الأرض أنه أصيل فى الكون ، فعليه أن يتعلّم مما يراه فى الكون ، فأنت قد توكّل محامياً فى العقود والتصرفات ؛ فيتصرف فى الأمور كلها دون الرجوع إليك ولا يعرض عليك بياناً بما فعل ، فتقوم أنت بإلغاء التوكيل . فيلتفت مثل هذا المحامى إلى أن كل تصرف له دون التوكيل قد صار غير مقبول . فماذا عن توكيل الله للإنسان بالخلافة ؟ يقول الحق سبحانه:

---

(١) يقول عز وجل : ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝٦ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ۝٧﴾ [العلق] ومثال هذا : صاحب الجنتين اللتين قال عنهما رب العزة : ﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَرًا ۝٣٣﴾ [الكهف] ولكنه طغى بنعمة الله فقال : ﴿مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا ۝٣٥ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ۝٣٦﴾ [الكهف] .

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ﴾ فإذا كنتم قد خَلَفْتُم من هلكوا ، فمن اللازم أن تأخذوا العظة والعبرة فى أن الله تعالى غالب على أمره [(١)] ، ولا ترهقوا الرسل ، بل تأخذوا المنهج ، أو على الأقل ، لا تعارضوهم إن لم تؤمنوا بالمنهج الذى جاءوا به من الله . واتركوهم يعلنون كلمة الله ، وليعيدوا صياغة حركة المؤمنين برسالاتهم فى هذا الكون على وفق ما يريده الله سبحانه ، وأنتم أحرار فى أن تؤمنوا أو لا تؤمنوا .

﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ .. (٢٩)﴾ [الكهف]

والدليل على ذلك أن الإسلام حينما فتح كثيراً من البلاد ترك لهم حرية اعتناق الإسلام أو البقاء على أديانهم ، مع أنه قد دخل بلادهم بالدعوة أو الغلبة ، ولكنه لم يقهر أحداً على الدين ، وأخذ المسلمون منهم الجزية [(٢)] مقابل حماية المسلمين لهم .

ولو كان الإسلام قد انتشر بالسيف لما أبقى أحداً على دينه ، ولكن الإسلام لم يُكْره أحداً ، وحمى حرية الاختيار بالسيف . ولأن الذين لم يؤمنوا بالإسلام عاشوا فى مجتمع تتكفّل الدولة الإسلامية فيه بكل متطلبات حياتهم ، والمسلم يدفع زكاة لبيت المال ، فعلى من لم يؤمن- وينتفع بالخدمات التى يقدمها المجتمع المسلم-أن يدفع الجزية مقابل تلك الخدمات .

---

(١) لقد حثَّ الله سبحانه الناس على النظر فى عاقبة السابقين وما حدث لهم فى أزمانهم ، وذلك فى آيات كثيرة من القرآن ، منها : ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١٣٧)﴾ [آل عمران] . و﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ .. (١٠٩)﴾ [يوسف] . والله سبحانه قد حسم مسألة الصراع بين الحق والباطل فى قوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢١)﴾ [يوسف] .

(٢) الجزية : هى مبلغ من المال يوضع على من دخل فى ذمة المسلمين وعهدهم من أهل الكتاب ، فرضها الإسلام عليهم فى مقابل فرض الزكاة على المسلمين ، ونظير قيامهم بالدفاع عن الذميين وحمايتهم فى البلاد الإسلامية التى يقيمون فيها ، وهى تجب على من كان : ذكراً ، مكلفاً ، حراً . ولا تجب على مساكين وفقراء أهل الكتاب . انظر : فقه السنة للشيخ سيد سابق (٣/ ١١٢ - ١١٧) .

وإذا اعتقد الإنسان أنه خليفة ، وظل متذكراً لذلك ، فهو يتذكر أن سطوة من استخلفه قادرة على أن تمنع عنه هذه الخلافة.

إذن: فخذوا الأمر بالتسليم ، وساعدوا النبى ﷺ على دعوته ، وآمنوا به أولاً ، وإن لم تؤمنوا به فاتركوه ؛ ليعلن دعوته ، ولا تعاندوه ، ولا تصرفوا الناس عنه ؛ لأن الحق هو القائل: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِن بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٤)﴾ [يونس]

وساعة تأتى لأمر يعلله الله بكلمة ﴿لِيَعْلَمَ .. (٩٤)﴾ [المائدة]

أو ﴿لِنَنظُرَ ... (١٤)﴾ [يونس]

فاعلم أن الله عالم وعليم ، علم كل الأمور قبل أن توجد ، وعلم الأشياء التى للناس فيها اختيار ، وهو القائل:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ [1] لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ .. (٢٥)﴾ [الحديد]

وقد علم الحق سبحانه أزلاً كل شىء ، وإذا قال الله : ﴿وَلِيَعْلَمَ﴾ فليس معنى ذلك أن هناك علماً جديداً لم يكن يعلمه سوف ينشأ له ، لكنه يعلم علم مشهد وإقرار منك ؛ حتى لا يقول قائل: لماذا يحاسبنا الله على ما عَلِمَ أزلاً ؟ بل يأتى الله سبحانه بالاختبار الذى يحدِّد للعبد المعايير التى تتيح للمؤمن أن يدخل الجنة ، وللعاصى أن يُحاسَب ويُجازَى.

---

(١) الميزان: العدل ، والميزان : المقدار. والميزان: الآلة التى توزن بها الأشياء، وجمعه: موازين. قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ .. (١٧)﴾ [الشورى] . وقال: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ .. (٤٧)﴾ [الأنبياء] . [اللسان : مادة (وزن) . . بتصرف] .

راجع أصله وخرج أحاديثه فضيلة الشيخ / محمد السراوى المستشار بالأزهر . والأستاذ / عادل أبو المعاطى .

وبذلك يعلم الإنسان أن الحق سبحانه شاء ذلك ؛ ليعرف كل عبد عِلم الواقع ، لا عِلْم الحصول.

إذن: فذكر كلمة ﴿وَلِيَعْلَمَ﴾ وكلمة ﴿لِنَنظُرَ﴾ فى القرآن معناها علم واقع ، وعلم مشهد ، وعلم حُجّة على العبد ؛ فلا يستطيع أن ينكر ما حدث ، وقوله الحق:

﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ .. (٢٥)﴾ [الحديد]

هذه الآية تبين لنا أدوات انتظام الحكم الإلهى: رسل جاءوا بالبرهان والبينة ، وأنزل الحديد للقهر ، قال الحق سبحانه :

﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ .. (٢٥)﴾ [الحديد]

وقرن ذلك بالرسل ، فقال: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ﴾ والنصرة لا تكون إلا بقوة ، والقوة تأتى بالحديد [1] الذى يظل حديداً إلى أن تقوم الساعة ، وهو المعدن ذو البأس ، والذى لن يخترعوا ما هو أقوى منه ، وعلْم الله سبحانه هنا علْم وقوع منكم ، لا تستطيعون إنكاره ؛ لأنه سبحانه لو أخبر خبراً دون واقع منكم ؛ فقد تكذبون ؛ لذلك قال سبحانه: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ﴾ وفى هذا لون من الاحتياط الجميل.

وقوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ﴾ كأن الله يطلب منكم أن تنصروه ، لكن إياكم أن تفهموا المعنى أنه سبحانه ضعيف ، معاذ الله ، بل هو قوى وعزيز . فهو القائل:

﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ .. (١٤)﴾ [التوبة]

---

(١) الحديد : الفلز المعروف تصنع منه الآلات المختلفة النافعة للناس . يقول الحق سبحانه : ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ .. (٢٥)﴾ [الحديد] أى : فيه صلابة وقوة ، وهو وسيلة من وسائل النصر والعمران ، وقد يكون وسيلة للدمار ؛ إذا وضع فى يد من لا ضمير له ولا إيمان عنده .

بل يريد سبحانه أن يكون أعداء الإيمان أذلاء أمامكم ؛ لأنه سبحانه يقدر عليهم.

إذن: فقول الحق سبحانه: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ﴾ إنما يعنى: أن يكون علم الله بمن ينصر منهجه أمراً غيبياً ؛ حتى لا يقول أحدٌ إن انتصار المنهج جاء صدفة ، بل يريد الحق سبحانه أن يجعل نُصْرة منهجه بالمؤمنين ، حتى ولو قَلَّت عدَّتُهم ، وقلّ عددهم.

إذن: قوله سبحانه وتعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِن بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ .. (١٤)﴾ [يونس]

أى: نظر واقع ، لا نظر علم.

ويقول سبحانه بعد ذلك:

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ[1] قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي[2] ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ۖ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥)﴾

نحن نعرف أن الآيات ثلاثة أنواع: آيات كونية ، وهى العجائب التى فى الكون ويسميها الله سبحانه آيات ، فالآية هى عجيبة من العجائب ، سواء

---

(١) الآية: العبرة ، والآية: المعجزة أو الشىء العجيب. والجمع: آيات، وآى. قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ..(٥٣)﴾[فصلت] ، والآيات هنا: الأدلة الواضحة على وحدانية الله وكمال قدرته وقيوميته. [لسان العرب: مادة (أيا) .. بتصرف].

(٢) التِّلقاء: مصدر لَقِيَ . يقال: يسرنى تلقاؤك أى: لقاؤك. ويستعمل ظرف مكان بمعنى جهة اللقاء والمقابلة .

فى الذكاء أو الجمال أو الخُلُق ، وقد سَمَّى الحق سبحانه الظواهر الكونية آيات ؛ فقال تعالى :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ .. (٣٧) ﴾ [فصلت]

وقال سبحانه :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا .. (٢١) ﴾ [الروم]

وهذه من الآيات الكونية .

وهناك آيات هى الدليل على صدق الرسل - عليهم السلام - فى البلاغ عن الله ، وهى المعجزات ؛ لأنها خالفت ناموس الكون المألوف للناس . فكل شىء له طبيعة ، فإذا خرج عن طبيعته ؛ فهذا يستدعى الانتباه .

مثلما يحكى القرآن عن سيدنا إبراهيم - عليه السلام - أن أعداءه أخذوه ورموه فى النار فنجّاه الحق سبحانه من النار ؛ فخرج منها سالماً ، ولم يكن المقصود من ذلك أن ينجو إبراهيم من النار ، فلو كان المقصود أن ينجو إبراهيم عليه السلام من النار ؛ لحدثت أمور أخرى ، كألا يمكِّنهم الحق - عزَّ وجلّ - من أن يمسكوه ، لكنهم أمسكوا به وأشعلوا النار ورموه فيها ، ولو شاء الله تعالى أن يطفئها لفعل ذلك بقليل من المطر ، لكن ذلك لم يحدث ؛ فقد تركهم الله فى غيّهم [1] ، ولأنه واهب النار للإحراق قال سبحانه وتعالى لها :

﴿ يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) ﴾ [الأنبياء]

---

(١) الغَىّ : الضلال . غَوَى غَيّاً وغَوَايَةً : أمعن فى الضلال ، قال تعالى : ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ (٢) ﴾ [النجم] وتَغَاوى القوم : تجمعوا وتعاونوا على الشر . واستغواه بالأمانىّ الكاذبة : طلب غَيَّه وأضَلَّه . وقال تعالى : ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ .. (٢٥٦) ﴾ [البقرة] . [المعجم الوسيط : مادة (غوى) . . بتصرف] .

وهكذا تتجلّى أمامهم خيبتهم.

إذن: الآيات تُطلَق على الآيات الكونية، وتطلق على الآيات المعجزات، وتطلق أيضاً على آيات القرآن ما دامت الآيات القرآنية من الله والمعجزات من الله، وخلق الكون من الله، فهل هناك آية تصادم آية؟ لا؛ لأن الذى خلق الكون وأرسل الرسل بالمعجزات وأنزل القرآن هو إله واحد، ولو كان الأمر غير ذلك لحدث التصادم بين الآيات، والحق سبحانه هو القائل:

﴿.. وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا (٨٢)﴾ [النساء]

وقوله تعالى:

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ ..(١٥)﴾ [يونس]

أى: آيات واضحة. ثم يقول الحق سبحانه: ﴿قَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾

وعرفنا أن الرجاء طلب أمر محبوب ومن الممكن أن يكون واقعاً، مثلما يرجو إنسان أن يدخل ابنه كلية الطب أو كلية الهندسة. ومقابل الرجاء شىء آخر محبوب، لكن الإنسان يعلم استحالته، وهو التمنِّى، فالمحبوبات - إذن - قسمان: أمور مُتمنَّاة وهى فى الأمور المستحيلة، لكن الإنسان يعلن أنه يحبها، والقسم الثانى أمور نحبها، ومن الممكن أن تقع، وتسمى رجاء.

﴿الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ هم مَن لا يؤمنون، لا بإله، ولا ببعث؛ فقد قالوا:

﴿مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ [1] (٢٤)﴾ [الجاثية]

---

(١) الدَّهر: الزمان الطويل، ومدّة الحياة الدنيا. قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا (١)﴾ [الإنسان]. وقال ﷺ: «لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر» ومعناه: أن ما أصابك من الدهر، فالله فاعله وليس الدهر، فإذا شتمت الدهر، فكأنك أردت به الله تعالى سبحانه عما يقولون أو يصفون. [لسان العرب: مادة (دهر) - بتصرف].

وقالوا:

﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ .. (٨٢)﴾ [المؤمنون]

وإذا كان الإنسان لا يؤمن بالبعث ؛ فهو لا يؤمن بلقاء الله سبحانه؛ لأن الذى يؤمن بالبعث يؤمن بلقاء الله ، ويُعدّ نفسه لهذا اللقاء بالعبادة والعمل الصالح ، ولكن الكافرين الذين لا يؤمنون بالبعث سيُفاجَأون بالإله الذى أنكروه ، وسوف تكون المفاجأة صعبة عليهم ؛ ولذلك قال الحق سبحانه:

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ (١) بِقِيعَةٍ (٢) يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا ..(٣٩)﴾ [النور]

السراب: هو أن يمشى الإنسان فى خلاء الصحراء ، ويخيل إليه أن هناك ماءً أمامه ، وكلّما مشى ظن أن الماء أمامه ، وما إن يصل إلى المكان يجد أن الماء قد تباعد. وهذه العملية لها علاقة بقضية انعكاس الضوء ، فالضوء ينعكس ؛ ليصور الماء وهو ليس بماء:

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ .. (٣٩)﴾ [النور]

إنه يُفاجَأ بوجود الله سبحانه الذى لم يكن فى باله ، فهو واحد من الذين لا يرجون لقاء الله ، وهو ممن جاء فيهم القول:

---

(١) السَّراب: ما يُرى فى نصف النهار من اشتداد الحرّ كالماء فى الصحراء يلتصق بالأرض. وهو من خداع البصر. وقد سُمِّى السراب سراباً لأنه يسرب سروباً ، أى: يجرى جرياً ، أى: يتحرك حركة تخدع الرائى من بعيد ؛ فيظنه ماء وهو ليس بماء ، بل خداع ضوئى وبصرى ناتج عن الحالة النفسية للشخص عند شدة عطشه ووجوده فى صحراء قاحلة ؛ فأى حركة من بعيد يظنها ماء ؛ ويجرى إليها ؛ ليفاجأ بعدم وجود شىء.

(٢) القيعة: أرض واسعة مستوية لا تنبت الشجر. قال الفرّاء: القيعة جمع القاع ، والقاع: ما انبسط من الأرض. قال تعالى: ﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (١٠٦)﴾ [طه] . [اللسان: مادة (قوع) . . بتصرف].

﴿ وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ [(١)] أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ (١٠) ﴾ [السجدة]

رغم أن الكون الذى نراه يُحتِّم قضية البعث ؛ لأننا نرى أن لكل شىء دورة ، فالوردة الجميلة الممتلئة بالنضارة تذبل بعد أن تفقد مائيَّتها ، ويضيع منها اللون ،ثم تصير تراباً. وأنت حين تشم الوردة فهذا يعنى أن ما فيها من عطر إنما يتبخر مع المياه التى تخرج منها بخاراً ، ثم تذبل وتتحلل بعد ذلك.

إذن: فللوردة دورة حياة. وأنت إن نظرت إلى أى عنصر من عناصر الحياة مثل المياه سوف تجد أن الكمية الموجودة من الماء ساعة خلق الله السموات والأرض هى بعينها ؛ لم تَزِدْ ولم تنقص. وقد شرحنا ذلك من قبل. وكل شىء تنتفع به له دورة ، والدورة تُسلم لدورة أخرى ، وأنت مستفيد بين هذه الدورات ؛ هدماً وبناءً.

والذين لا يرجون لقاء الله ، ولا يؤمنون بالبعث ، ولا بثواب أو عقاب، لا يلتفتون إلى الكون الذى يعيشون فيه [(٢)]؛ لأن النظر فى الكون وتأمُّل أحواله يُوجِب عليهم أن يؤمنوا بأنها دورة من الممكن أن تعود.

وسبحانه القائل:

---

(١) ضللنا فى الأرض: قال أبو منصور: الأصل فى كلام العرب أن يقال: أضللت الشىء إذا غيَّبته ، وأضللت الميت : دفنته. فالضلال من معانيه: الفساد والعصيان ونقيض الهداية والرشاد. ومن معانيه: التغييب والدفن. فكأنهم يقولون: «إذا دُفنَّا وغُيِّبْنَا تحت الأرض.. فهل نحيا من جديد ؟» فيردّ عليهم الحق سبحانه بقوله: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ .. (٢٧) ﴾ [الروم] . [لسان العرب: مادة (ضلل) - بتصرف].

(٢) وقد حكى الله تعالى عنهم هذا فقال: ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥) ﴾ [يوسف] ويقول سبحانه: ﴿ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ (٣٢) ﴾ [الأنبياء].

﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ [(١)] نُعِيدُهُ .. (١٠٤)﴾ [الأنبياء]

وهؤلاء الذين لا يرجون لقاء الله يأتى القرآن بما جاء على ألسنتهم: ﴿ائْتِ بِقُرآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ .. (١٥)﴾ [يونس]

هم هنا يطلبون طلبين: ﴿ائْتِ بِقُرآنٍ غَيْرِ هَذَا﴾ ، ﴿أَوْ بَدِّلْهُ﴾ .

أى: يطلبون غير القرآن. ولنلحظ أن المتكلم هو الله سبحانه ؛ لذلك فلا تفهم أن القولين متساويان.

﴿ائْتِ بِقُرآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ﴾ هما طلبان: الطلب الأول: أنهم يطلبون قرآناً غير الذى نزل. والطلب الثانى: أنهم يريدون تبديل آية مكان آية ، وهم قد طلبوا حذف الآيات التى تهزأ بالأصنام ، وكذلك الآيات التى تتوعدهم بسوء المصير [(٢)].

ويأتى جواب من الله سبحانه على شق واحد مما طلبوه وهو المطلب الثانى ، ويقول سبحانه: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي﴾ ولم يرد الحق سبحانه على قولهم: ﴿ائْتِ بِقُرآنٍ غَيْرِ هَذَا﴾.

وكان مقياس الجواب أن يقول: « ما يكون لى أن آتى بقرآن غير هذا أو أبدله» ؛ لكنه اكتفى بالرد على المطلب الثانى ﴿أَوْ بَدِّلْهُ﴾ ؛ لأن الإتيان بقرآن يتطلب تغييراً للكل. ولكن التبديل هو الأمر السهل. وقد نفى

---

(١) عن ابن عباس قال: قام فينا رسول الله ﷺ خطيباً بموعظة فقال: يأيها الناس إنكم تحشرون إلى الله حُفَاةً عُرَاةً غُرْلاً: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ (١٠٤)﴾ [الأنبياء] الحديث أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٥٢٤) بنحوه ، ومسلم (٢٨٦٠) واللفظ لمسلم.

(٢) وهذا يتفق مع ما قاله القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٢٤٥) لهذه الآية. قال: فى قولهم ذلك ثلاثة أوجه:

أحدها: أنهم سألوه أن يحوّل الوعد وعيداً والوعيد وعداً ، والحلال حراماً والحرام حلالاً. قاله ابن جرير الطبرى.

الثانى: سألوه أن يسقط ما فى القرآن من عيب آلهتهم وتسفيه أحلامهم. قاله ابن عيسى.

الثالث: أنهم سألوه إسقاط ما فيه من ذكر البعث والنشور. قاله الزجاج.

الأسهل ؛ ليسلِّموا أن طلب الأصعب منفى بطبيعته.

وأمر الحق سبحانه لرسوله ﷺ: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي﴾ أى: أن أمر التبديل وارد، لكنه ليس من عند رسول الله ﷺ [(١)]. بل بأمر من الله سبحانه وتعالى، إنما أمر الإتيان بقرآن غير هذا ليس وارداً.

إذن: فالتبديل وارد شرط ألا يكون من الرسول ﷺ، ولذلك قال الحق سبحانه:

﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ [(٢)] وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ .. (١٠١)﴾ [النحل]

وهو ما تذكره هذه الآية: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي﴾ و﴿تِلْقَاءِ﴾ من «لقاء»؛ فتقول: «لقيت فلاناً»، ويأتى المصدر من جنس الفعل أو حروفه، ويسمون «التلقاء» هنا: الجهة.

والحق سبحانه يقول فى آية أخرى:

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ [(٣)] .. (٢٢)﴾ [القصص]

---

(١) يقول سبحانه وتعالى عن محمد ﷺ: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (٤٧)﴾ [الحاقة]، فهذا تأكيد أن محمداً ﷺ لا يستطيع أن يزيد أو ينقص فيما يوحى إليه من عند الله، وإلا لبطش الله به ولقطع نياط قلبه وأماته.

(٢) وهذا هو نسخ التبديل؛ للتيسير على الناس أو لحكم يعلمها الله سبحانه، والتيسير ورفع الحرج هو من مقاصد الشريعة، يقول سبحانه: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ .. (٧٨)﴾ [الحج] ويقول تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا .. (١٠٦)﴾ [البقرة] والنسخ فى القرآن أنواع:

١- ما نسخ تلاوته وحكمه معاً، قالت عائشة: كان فيما أنزل «عشر رضعات معلومات فنسخن بخمس معلومات».

٢- ما نسخ حكمه دون تلاوته، وهو قليل جداً فى القرآن، وأكثر فيه بعض الناس بغير مقتضٍ.

٣- وقسم نسخ شرائع من قبلنا وما كان عليه الأمر فى الجاهلية. انظر: الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى (٣/ ٥٩ - ٧٧).

(٣) مَدْيَن: اسم قرية شعيب - عليه السلام.

و﴿تِلْقَاءَ مَدْيَنَ﴾ أى: جهة مدين. و«التلقاء» قد تأتى بمعنى اللقاء ؛ لأنك حين تقول : «لقيته» أى : أنا وفلان التقينا فى مكان واحد ، وحين نتوجّه إلى مكان معيّن فنحن نُوجَد فيه. ويظن بعض الناس أن كل لفظ يأتى لمعنيين يحمل تناقضاً ، ونقول: لا ، ليس هناك تناقض ، بل انفكاك جهة ، مثلما قال الحق سبحانه:

﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ[1] الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ .. (١٤٤) ﴾ [البقرة]

والشطر معناه: الجهة ؛ ومعناه أيضاً: النصف ، فيقال: «أخذ فلان شطر ماله» ، أى: نصفه ، و«اتجهت شطر كذا» ، أى: إلى جهة كذا.

وهذه معان غير متناقضة ؛ فالإنسان منا ساعة يقف فى أى مكان ؛ يصبح هذا المكان مركزاً لمرائيه ، وما حوله كله محيطاً ينتهى بالأفق.

ويختلف محيط كل إنسان حسب قوة بصره ، ومحيط الرؤية ينتهى حين يُخيَّل لك أن السماء انطبقت على الأرض ، هذا هو الأفق الذى يخصُّك ، فإن كان بصرُك قويّاً فأفقك يتَّسع ، وإن كان البصر ضعيفاً يضيق الأفق.

ويقال: «فلان ضَيِّق الأفق» أى: أن رؤيته محدودة ، وكل إنسان منا إذا وقف فى مكان يصير مركزاً لما يحيطه من مَرَاء ؛ ولذلك يوجد أكثر من مركز ، فالمقابل لك نصف الكون المرئى ، وخلفك نصف الكون المرئى الآخر ، فإذا قيل : إن «الشطر» هو «النصف» ، فالشطر أيضاً هو «الجهة».

---

(١) شَطْر الشىء: ناحيته ، وشَطْر كل شىء: نحْوه وقصْده ، وقصدتُ شَطْرَهُ أى: ناحيته. «وشَطْرَ المسجد الحرام» : نحوه وتلقاءه. قال تعالى: ﴿ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ .. (١٤٤) ﴾ [البقرة] . وشَطْر الشىء: نصْفُه ، والجمع: أشْطُر ، وشُطُور. وشَطَرْتُه: جعلته نصفين. وشاطره ماله: ناصَفَه. وفى الحديث: أَن سعداً استأذن النبى ﷺ أن يتصدّق بماله كله ، قال: «لا» قال: فالشَّطْر ، قال: «لا» ، قال: الثلث ، فقال. «الثلث ، والثلث كثير». وفى الحديث: «الطُّهور شَطْر الإيمان» أخرجه مسلم فى صحيحه عن أبى مالك الأشعرى (٢٢٣) ؛ لأن الإيمان يظهر بحاشية الباطن ، والطّهور يظهر بحاشية الظاهر. [لسان العرب : مادة « شَطَرَ » - بتصرف] .

وهنا يقول الحق سبحانه: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ .

أى: أنه ﷺ لا يأتى بالقرآن من عند نفسه ﷺ ، بل يُوحَى إليه.

ويُنهى الحق سبحانه الآية بقوله: ﴿إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ .. (١٥)﴾ [يونس]

أى: أنه ﷺ لو جاء بشىء من عنده ، ففى هذا معصية لله تعالى ، ونعلم أن رسول الله ﷺ لم يُعرف عنه أنه كان شاعراً ، ولا كان كاتباً ، ولا كان خطيباً. وبعد أن نزل الوحى عليه من الله جاء القرآن فى منتهى البلاغة.

وقد نزل الوحى ورسول الله ﷺ فى الأربعين من عمره ولا توجد عبقرية يتأجَّل ظهورها إلى هذه المرحلة من العمر ، ولا يمكن أن يكون النبى ﷺ قد أجَّل عبقريته إلى هذه السِّن ؛ لأنه لم يكن يضمن أن يمتد به العمر.

ويأتى لنا الحق سبحانه بالدليل القاطع على أن رسول الله ﷺ لا يتَّبِع إلا ما يُوحَى إليه فيقول:

﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥)﴾ [يونس]

ويأتى الأمر بالرَّدِّ من الحق سبحانه على الكافرين:

﴿قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٦)﴾

وهنا يبلِّغ محمدٌ ﷺ هؤلاء الذين طلبوا تغيير القرآن أو تبديله: لقد عشت طوال عمرى معكم، ولم تكن لى قوة بلاغة أو قوة شعر، أو قوة أدب. فمن له موهبة لا يكتمها إلى أن يبلغ الأربعين، ورأيتم أنه ﷺ لم يجلس إلى معلِّم، بل عندما اتهمتموه وقلتم:

﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ..(١٠٣)﴾ [النحل]

وفضحكم الحق سبحانه بأن أنزل فى القرآن قوله تعالى:

﴿لِّسَانُ الَّذِى يُلْحِدُونَ (١) إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ (٢) وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ(١٠٣)﴾ [النحل]

ولم يخرج النبى ﷺ من شبه الجزيرة العربية، ولم يقرأ مؤلَّفات أحد. فمن أين جاء القرآن إذن؟

لقد جاء من الله سبحانه، وعليكم أن تعقلوا ذلك، ولا داعى للاتهام بأن القرآن من عند محمد؛ لأنكم لم تجرّبوه خطيباً أو شاعراً، بل كل ما جاء به رسول الله ﷺ، بعد أن نزلت عليه الرسالة، هو بلاغ من عندالله.

وبطبيعة الحال لا يمكن أن يُنسَب الكمال إلى إنسان فينفيه، فالعادة أن

---

(١) لَحَدَ فى الدين وألْحَدَ والْتحد: مال عنه، وحَادَ، وابتعد. والإلحاد: الجدال والمراء، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِى آيَاتِنَا لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا .. (٤٠)﴾ [فصلت] وقال تعالى: ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِى أَسْمَائِهِ .. (١٨٠)﴾ [الأعراف]. والإلحاد: الظلم والجور. قال تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ..(٢٥)﴾ [الحج]. والإلحاد فى اللغة: الميل عن القصد. وقوله: ﴿لِّسَانُ الَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ..(١٠٣)﴾ [النحل] وأصل الإلحاد: الميل والعُدُول عن الشىء. والملتحَد: الملجأ؛ لأن اللاجىء يميل إليه. [لسان العرب: مادة (لحد) - بتصرف].

(٢) عجم: العُجْم والعَجَم: خلاف العُرْب والعَرَب. ورجل عَجَمىّ وأعجمىّ: غير عربىّ. قال أبو إسحاق: الأعجم: الذى لا يُفصح ولا يُبيِّن كلامه وإن كان عربيّاً. والعجمى هو الذى من جنس العجم أفصح أو لم يُفصح. قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الأَعْجَمِينَ (١٩٨) فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ (١٩٩)﴾ [الشعراء].

يسرق شاعر - مثلاً - قصيدة من شاعر آخر ، أو أن ينتحل[1] كاتب مقالة من آخر . لكن رسول الله ﷺ يبلِّغكم أن كمال القرآن ليس من عنده، بل هو مجرد مبلِّغ له ، وكان يجب أن يتعقَّلوا تلك القضية بمقدِّماتها ونتائجها ؛ فلا يلقوا لأفكارهم العنان[2] ؛ ليكذبوا ويعاندوا ، فالأمر بسيط جداً[3] .

يقول الحق سبحانه لرسوله ﷺ :

﴿ قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٦) ﴾ [يونس]

إذن: فالمقدمة التى يريد الحق سبحانه وتعالى أن يقنع بها الكافرين أن رسول الله ﷺ قد أرسله الله رسولاً من أنفسهم[4] ، فإن قلت:

﴿ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ .. (١٦٤) ﴾ [آل عمران]

أى: أنه ﷺ من جنس الناس ، لا من جنس الملائكة ، أو ﴿مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أى: من أمة العرب ، لا من أمة العَجَم ، أو ﴿مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أى: من قبيلتهم التى يكذِّب أصحابُها رسولَ الله ﷺ.

إذن: فحياته ﷺ معروفة معلومة لكم ، لم يَغِبْ عنكم فترة ؛ لتقولوا

---

(١) ينتحل الشىء : ينسبه إلى نفسه. نحله القول: نسبه إليه. ونُحِل الشاعر قصيدة إذا نسبت إليه وهى من قيل غيره. [لسان العرب: مادة نحل].

(٢) العنان: عنان اللِّجام: السَّيْر الذى تُمسك به الدابة ، والجمع: أعنَّة. والعنان: الحبْل. والمراد هنا: تشبيه الأفكار بالبعير الذى له عقال أو عنان ؛ إذا أرخيته له سار وانطلق كما يشاء ويهوى على غير هدى. والعنان للدَّواب كالعقل للإنسان فإذا فسد العقل ضلّ صاحبه ، وإذا لم يعقل الإنسان أفكاره يضلّ. [لسان العرب: مادة (عنن) - بتصرف].

(٣) فرسول الله ﷺ كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، يقول الحق سبحانه : ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ (٤٨) ﴾ [العنكبوت].

(٤) وفى هذا يقول الحق سبحانه : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٢٨) ﴾ [التوبة] .

بُعثَ بعثةً ؛ ليتعلَّم علماً من مكان آخر ، ولم يجلس إلى معلِّم عندكم ولَا إلى معلِّم خارجكم ، ولم يَتْلُ كتاباً ، فإذا كان الأمر كذلك ، فيجب أن تأخذوا من هذا مقدِّمة وتقولوا : فمن أين جاءت له هذه الحكمة فجأة ؟

أنتم تعلمون أن المواهب والعبقريات لا تنشأ فى الأربعينات ، ولكن مخايل العبقرية إنما تنشأ فى نهاية العقد الثانى وأوائل العقد الثالث ، فمن الذى أخّر العبقرية عند رسول الله ﷺ ليقول هذا القول البليغ الذى أعجزكم ، وأنتم أمّة البلاغة وأمة الفصاحة المرتاضون [1] عليها من قديم ، وعجزتم أمام ما جاء به محمد ﷺ ؟

كان يجب أن تقولوا : لم نعرف عنه أنه يعلم شيئاً من هذا ، فإذا حَلّ لكم اللغز وأوضح لكم : أن القرآن ليس من عندى ؛ كان يجب أن تصدقوه ؛ لأنه ﷺ يعزوه إلى خالقه وربه سبحانه . والدليل على أنكم مضطربون فى الحكم أنكم ساعة يقول لكم : القرآن بلاغ عن الله ، تكذِّبونه ، وتقولون : لا ، بل هو من عندك ، فإذا فَترَ عنه الوحى مرّةً قلتم : قلاه [2] ربُّه .

لماذا اقتنعتم بأن له ربّاً يَصِلُه بالوحى ويهجره بلا وحى ؟

أنتم - إذن - أنكرتم حالة الوصل بالوحى ، واعترفتم بالإله الخالق عندما غاب عنه الوحى ، وكان يجب أن تنتبهوا وتعودوا إلى عقولكم ؛ لتحكموا على هذه الأشياء ، وقد ذكر الحق سبحانه ذلك الأمر فى كثير من آياته ، يقول سبحانه :

---

(١) المرتاضون : الذين لهم دُرْبة ، قد ذللت ألسنتهم على الفصاحة والبلاغة .

(٢) قلاه ربه : أبغضه وتركه . ولذلك قال له ربه : ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ ﴾ [الضحى] .

﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ[1] أَيُّهُمْ يَكْفُلُ[2] مَرْيَمَ (٤٤)﴾[آل عمران]

ويقول سبحانه:

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ[3] إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الأَمْرَ..(٤٤)﴾ [القصص]

ويقول سبحانه:

﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا[4] فِي أَهْلِ مَدْيَنَ .. (٤٥)﴾ [القصص]

ويقول سبحانه:

﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ (٤٨)﴾ [العنكبوت]

فمن أين جاءت تلك البلاغة؟ كان يجب أن تأخذوا هذه المقدِّمات؛ لتحكموا بأنه صادق فى البلاغ عن الله؛ لذلك يُنهى الحق سبحانه الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها بقوله: ﴿أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾.

وحين ينبهك الحق سبحانه وتعالى إلى أن تستعمل عقلك، فهذا دليل على الثقة فى أنك إذا استعملت عقلك؛ وصلت إلى القضية المرادة. والله

---

(١) أقلامهم: سهامهم، وقيل: أقلامهم التى كانوا يكتبون بها التوراة. قال الزجاج: الأقلام هنا: القِدَاح. وهى قداح جعلوا عليها علامات يعرفون بها من يكفل مريم، على جهة القُرعة، وإنما قيل للسَهم: القلم؛ لأنه يُقْلَم، أى: يُبْرَى. وكلّ ما قطعت منه شيئاً بعد شىء فقد قَلَمْتَه، من ذلك القلم الذى يكتب به، وإنما سُمِّى قلماً؛ لأنه قُلِم مرة بعد مرة، ومن هذا قيل: قلَمْتُ أظفارى. قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ .. (٢٧)﴾ [لقمان]. [لسان العرب: مادة (قلم) - بتصرف].

(٢) يكفل: يعول، والكافل: العائل. قال تعالى: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ..(٣٧)﴾ [آل عمران].

(٣) الغربىّ: الجبل الغربىّ الذى كَلَّم الله سبحانه نبيّه موسى عليه السلام عنده من الشجرة التى هى شرقية على شاطىء الوادى المقدس (طُوَى). [تفسير ابن كثير: ٣/ ٣٩١ - بتصرف].

(٤) ثاوياً: مقيماً والثواء: الإقامة، ثويت بالمكان: أقمت فيه. قال تعالى: ﴿وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ..(١٥١)﴾ [آل عمران]. [لسان العرب: مادة (ثوا) - بتصرف].

سبحانه وتعالى مُنزَّه عن خديعة عباده ، فمن يخدع الإنسان هو من يحاول أن يصيب عقله بالغفلة ، لكن الذى ينبّه العقل هو من يعلم أن دليل الحقيقة المناسبة لما يقول ، يمكن الوصول إليه بالعقل.

وقول الحق سبحانه فى آخر الآية: ﴿أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ يدلنا على أن القضية التى كذَّبوا فيها رسول الله ﷺ نشأت من عدم استعمال عقولهم ، فلو أنهم استعملوا عقولهم فى استخدام المقدمات المُحسَّة التى يؤمنون بها ويسلمون ؛ لانتهوا إلى القضية الإيمانية التى يقولها رسول الله ﷺ .

ولو أنهم فكّروا وقالوا: محمد نشأ بيننا ولم نعرف له قراءة ، ولا تلاوة كتاب ولا جلوساً إلى معلِّم ، ولم يَغبْ عنا فترة ليتعلَّم ، وظل مدة طويلة إلى سنِّ الأربعين ولم يرتض على قول ولا على بلاغة ولا على بيان ؛ فمن أين جَاءته هذه الدفعة القوية ؟

كان يجب أن يسألوه هو عنها: من أين جاءتك هذه ؟ وما دام قد قال لهم : إنها جاءته من عندالله ، فكان يجب أن يصدِّقوه.

ومهمة العقل دائما مأخوذة من اشتقاقه ، «فالعقل»[1] مأخوذ من «عقال» البعير. وعقال البعير هو الحبل الذى تربط به ساقى الجمل ؛ حتى لا ينهض ويقوم ؛ لنوفِّر له حركته فيما نحب أن يتحرك فيه ، فبدلاً من أن يسير هكذا بدون غرض ، وبدون قصد ، فنحن نربط ساقيه ؛ ليرتاح ولا يتحرك، إلى أن نحتاجه فى حركة.

إذن: فالعقل إنما جاء ؛ ليحكم المَلَكَات ؛ لأن كل مَلَكَة لها نزوع إلى شىء ، فالعين لها مَلَكَة أن ترى كل شىء ، فيقول لها العقل: لا داعى أن

---

(١) العقل: النُّهى ، ضد الحمق ، وعقل يعقل فهو عاقل. قال ابن الأنبارى: الرجل العاقل هو الجامع لأمره ورأيه ، مأخوذ من عقلت البعير إذا جمعت قوائمه ، وقيل: العاقل هو الذى يحبس نفسه ويردّها عن هواها. والعقل: التثبُّت فى الأمور .

تشاهدى ذلك ؛ لأنه منظر سيؤذيك ، والأذن تحب أن تسمع كل قول ، فيقول لها العقل: لا تسمعى إلى ذلك ؛ حتى لا يضرك [(١)].

إذن: فالعقل هو الضابط على بقية الجوارح. وكذلك كلمة «الحكْمة» ، مأخوذة من «الحَكَمة» [(٢)] وهى فى «اللِّجام» الذى يوضع فى فم الفرس؛ حتى لا يجمح ، وتظل حركته محسوبة ؛فلا يتحرك إلا إلى الاتجاه الذى تريده.

إذن: شاء الحق سبحانه أن يميّز الإنسان بالعقل والحكمة ؛ ليقيم الموازين لملكات النفس ؛ فخذوا المقدمات المُحَسَّة التى تؤمنون بها وتشهدونها وتسلمونها لرسول الله ﷺ لتستنبطوا أنه جاء بكلامه من عند الله تعالى.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ [(٣)] عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

وهنا يوضح القرآن على لسان الرسول ﷺ : أأكذب على الله ؟ إذا كنت لم أكذب عليكم أنتم فى أمورى معكم وفى الأمور التى جرَّبتموها ، أفأكذب على الله ؟! إن الذى يكذب فى أول حياته من المعقول أن يكذب

---

(١) وقد قال سبحانه: ﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [الإسراء].

(٢) حكَمة اللجام: ما أحاط بحَنَكَى الفرس ، سميت بذلك لأنها تمنعه من الجرى الشديد. وقيل: الحكمة حديدة فى اللجام تكون على أنف الفرس وحنكه تمنعه عن مخالفة راكبه. [لسان العرب: مادة (حكم)].

وعن ابن عباس عن رسول الله ﷺ قال: «ما من آدمى إلا فى رأسه حكمة بيد ملك ، فإذا تواضع قيل للملك: ارفع حكمته ، وإذا تكبر قيل للملك: ضع حكمته» أخرجه الطبرانى فى معجمه الكبير (١٢٩٣٩) وأورده الهيثمى فى مجمع الزوائد (٨/ ٨٢) وقال: إسناده حسن.

(٣) افترى: اختلق. الفرية: الكذب. و«افترى» تفيد المبالغة فى الكذب.

فى الكِبَر ، وإذا كنت لم أكذب عليكم أنتم ، فهل أكذب على الله ؟

وإذا لم أكن قد كذبت وأنا غير ناضج التفكير ، فى طفولتى قبل أن أصل إلى الرجولة ، فأنا الآن لا أستطيع الكذب. فإذا كنتم أنتم تتهموننى بذلك، فأنا لا أظلم نفسى وأتهمها بالكذب ، فتصبحون أنتم المكذبين ؛ لأنكم كذبتمونى فى أن القرآن مبلغ عن الله ، ولو أننى قلت: إنه من عند نفسى لكان من المنطق أن تُكذِّبوا ذلك ؛ لأنه شرف يُدَّعى. ولكن أرفعه إلى غيرى ؛ إلى من هو أعلى منى ومنكم.

وقوله الحق: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ أى: لا أحد أظلم ممن افترى على الله سبحانه كذباً ؛ لأن الكاذب إنما يكذب ليدلِّس على من أمامه ، فهل يكذب أحد على من يعلم الأمور على حقيقتها ؟ لا أحد بقادر على ذلك . ومن يكذب على البشر المساوين له يظلمهم ، لكن الأظلم منه هو من يكذب على الله سبحانه.

والافتراء كذب متعمد ، فمن الجائز أن يقول الإنسان قضية يعتقدها ، لكنها ليست واقعاً ، لكنه اعتقد أنها واقعة بإخبار من يثق به ، ثم تبين بعد ذلك أنها غير واقعة ، وهذا كذب صحيح ، لكنه غير متعمد ، أما الافتراء فهو كذب متعمد .

ولذلك حينما قسم علماء اللغة الكلام الخبرى ؛ قسموه إلى : خبر وإنشاء ، والخبر يقال لقائله : صدقت أو كذبت ، فإن كان الكلام يناسب الواقع فهو صدق ، وإن كان الكلام لا يناسب الواقع فهو كذب .

وقوله الحق : ﴿ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ يبين لهم رسول الله ﷺ : إن قلتم إننى ادعيت أن الكلام من عند الله ، وهو ليس من عند الله . فهذا يعنى أن الكلام كذب وهو من عندى أنا ، فما موقف من يكَذب بآيات الله ؟

إن الكذب من عندكم أنتم ، فإن كنتم تكذبوننى وتدَّعون أنى أقول إن هذا من الله ، وهو ليس من الله ، وتتمادون وتُكذِّبون بالآيات وتقولون هى من عندك ، وهى ليست من عندى ، بل من عند الله ؛ فالإثم عليكم .

والكذب إما أن يأتى من ناحية القائل ، وإما من ناحية المستمع ، وأراد الرسول ﷺ عدالة التوزيع فى أكثر من موقع ، مثلما يأتى القول الحق مبيِّناً أدب النبوة :

﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ [1] .. (٢٤) ﴾ [سبأ]

وليس هناك أدب فى العرض أكثر من هذا ، فيبين أن قضيته ﷺ وقضيتهم لا تلتقيان أبداً ، واحدة منهما صادقة والأخرى كاذبة ، ولكن من الذى يحدد القضية الصادقة من الكاذبة ؟ إنه الحق سبحانه .

وتجده سبحانه يقول على لسان رسوله ﷺ : ﴿أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ وفى ذلك طلب لأن يعرضوا الأمر على عقولهم ؛ ليعرفوا أى القضيتين هى الهدى ، وأيهما هى الضلال [2] .

وفى ذلك ارتقاء للمجادلة بالتى هى أحسن من رسول الله ﷺ .

ويقول الحق سبحانه :

---

(١) هذا من باب اللف والنشر ، وهو لون من ألوان البديع فى القرآن ، وتعريفه : « أن يُذكر شيئان أو أشياء ، إما تفصيلاً بالنص على كل واحد أو إجمالاً ، بأن يؤتى بلفظ يشتمل على متعدد ، ثم يذكر أشياء على عدد ذلك ، كل واحد يرجع إلى واحد من المتقدم ، ويفوَّض إلى عقل السامع رد كل واحد إلى ما يليق به » (الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى ٣/ ٢٧٩ ، ٢٨٠) وهو هنا تفصيلى ، وذلك مثل قوله تعالى : ﴿ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ .. (٧٣) ﴾ [القصص] ، فالسكون راجع إلى الليل ، والابتغاء راجع إلى النهار .

(٢) وقد استخدم صحابة رسول الله ﷺ هذا المنهج مع المشركين ، فكانوا يقولون لهم : « والله ما نحن وإياكم على أمر واحد إن أحد الفريقين لمهتد » ذكره ابن كثير فى تفسيره (٣/ ٥٣٨) من قول قتادة . وهو دعوة لإعمال الفكر والعقل من جانب المشركين .

﴿قُل لاَّ تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ...(٢٥)﴾ [سبأ]

أى : كل واحد سيُسأل عن عمله ، فجريمتك لن أسأل أنا عنها ، وجريمتى لا تُسأل أنت عنها . ونسب الإجرام لجهته ولم يقل : " قل لا تُسألون عما أجرمنا ولا نُسأل عما تجرمون " وشاء ذلك ليرتقى فى الجدل ، فاختار الأسلوب الذى يُهذِّب ، لا ليهيِّج الخصم ؛ فيعاند ، وهذا من الحكمة ؛ حتى لا يقول للخصم ما يسبب توتره وعناده فيستمر الجدل بلا طائل .

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ فإذا كان الظلم من جهتى ؛ فسوف يحاسبنى الله عليه ، وإن كان من جهتكم ؛ فاعلموا قول الحق سبحانه : ﴿إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾ ولم يحدد من المجرم ، وترك الحكم للسامع .

كما تقول لإنسان له معك خلاف : سأعرض عليك القضية واحكم أنت ، وساعة تفوضه فى الحكم ؛ فلن يصل إلا إلى ما تريد . ولو لم يكن الأمر كذلك لما عرضت الأمر عليه .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١) ﴿١٨﴾﴾

---

(١) قال الجوهرى : الشرك الكفر . وأشرك يشرك إشراكاً فهو مشرك وهم مشركون . وفى الحديث : « الشرك أخفى فى أمتى من دبيب النمل » ، قال ابن الأثير : يريد به الرياء فى العمل فكأنه أشرك فى عمله غير الله . وفى الحديث : « من حلف بغير الله فقد أشرك » . [اللسان : مادة (شرك) بتصرف] .

وكلمة ﴿ وَيَعْبُدُونَ ﴾ تقتضى وجود عابد ؛ ووجود معبود ؛ ووجود معنى للعبادة . والعابد أدنى حالاً من المعبود ، ومظهر العبادة والعبودية كله طاعة للأمر والانصراف عن المنهى عنه .

هذا هو أصل العبادة ، ووسيلة القرب من الله .

وحتى تكون العبادة فى محلها الصحيح لا بد أن يقر العابد أن المعبود أعلى مرتبة فى الحكم على الأشياء ، أما إن كان الأمر بين متساويين فيسمونه التماساً .

إذن : فهناك آمر ومأمور ، فإن تساويا ؛ فالمأمور يحتاج إلى إقناع ، وأما إن كان فى المسألة حكم سابق بأن الآمر أعلى من المأمور ؛ كالأستاذ بالنسبة للتلميذ ، أو الطبيب بالنسبة للمريض ، ففى هذا الوضع يطيع المأمور الآمر لأنه يفهم الموضوع الذى يأمر فيه .

وكذلك المؤمن ؛ لأن معنى الإيمان أنه آمن بوجود إله قادر له كل صفات الكمال المطلق ؛ فإذا اعتقدت هذا ؛ فالإنسان ينفذ ما يأمر به الله ؛ ليأخذ الرضاء والحب والثواب . وإن لم ينفذ ؛ فسوف ينال غضب المعبود وعقابه .

إذن : فأنت إن فعلت أمره واجتنبت نهيه ؛ نلت الثواب منه ، وإن خالفت ؛ تأخذ عقاباً ؛ لذلك لا بد أن يكون أعلى منك قدرة ، ويكون قادراً على إنفاذ الثواب والعقاب ، والقادر هو الله جل علاه .

أما الأصنام التى كانوا يعبدونها ، فبأى شىء أمرتهم ؟ إنها لم تأمر بشىء ؛ لذلك لا يصلح أن تكون لها عبادة ؛ لأن معنى العبادة يتطلب أمراً ونهياً ، ولم تأمر الأصنام بشىء ولم تنه عن شىء ، بل كان المشركون هم الذين يقترحون الأوامر والنواهى ، وهو أمر لا يليق ؛ لأن المعبود هو الذى عليه أن يحدد أوجه الأوامر والنواهى .

إذن : فمن الحمق [(١)] أن يعبد أحدٌ الأصنام ؛ لأنها لا تضر من خالفها ، ولا تنفع من عبدها ، فليس لها أمر ولا نهى .

ومن أوقفوا أنفسهم هذا الموقف نسوا أن فى قدرة كل منهم أن ينفع الصنم وأن يضره ، فالواحد منهم يستطيع أن يصنع الصنم ، وأن يصلحه إذا انكسر ، أو يستطيع أن يكسره بأن يلقيه على الأرض . وفى هذه الحالة يكون العابد أقدر من المعبود على الضر وعلى النفع ، وهذا عين التخلف العقلى .

إذن : فمثل هذه العبادة لون من الحمق ، ولو عُرِضَتْ هذه المسألة على العقل ؛ فسوف يرفضها العقل السليم .

وعندما تجادلهم ، وتثبت لهم أن تلك الأصنام لا تضر ولا تنفع ، تجد من يكابر قائلاً : ﴿هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ وهم بهذا القول يعترفون أن الله هو الذى ينفع ويضر ، ولكن أما كان يجب أن يتخذوا شفيعاً لهم عند الله ، وأن يكون الشفيع متمتعاً بمكانة ومحبة عند من يشفع عنده [(٢)] ؟

ثم ماذا يقولون فى أن من تُقدم له شفاعة هو الذى ينهى عن اتخاذ الأصنام آلهة وينهى عن عبادتها ؟

وهل هناك شفاعة دون إذن من المشفوع عنده ؟ من أجل ذلك جاء الأمر من الحق سبحانه لرسوله ﷺ :

---

(١) الحمق : وضع الشىء فى غير موضعه ، والحمق : ضد العقل أو قلة العقل وضعفه . والحميقاء : الخمر ؛ لأنها تعقب شاربها الحمق . والأحمق مأخوذ من انحماق السوق إذا كسدت ، فكأنه فسد عقله حتى كسد . قال ابن الأعرابى : الحمق أصله الكساد . ويقال : الأحمق الكاسد العقل . والحمق أيضاً : الغرور . وانحمق الرجل : ضعف عن الأمر . [اللسان : مادة (حمق)] .

(٢) يقول سبحانه : ﴿يَوْمَئِذٍ لاَّ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً (١٠٩)﴾ [طه] ، إن ادعاء المشركين أن الأصنام تشفع لهم عند الله - ادعاء باطل ومع بطلانه اعتراف منهم بأن الشفاعة لا تكون إلا من الله سبحانه وشفاعة الله لا تكون إلا لحبيب ومحبوب يعمله فرضاً وفضلاً .

﴿قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي السَّمَـوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ .. (١٨)﴾ [يونس]

إذن : فمن أين جئتم بهذه القضية ؛ قضية شفاعة الأصنام لكم عند الله ؟ إنها قضية لا وجود لها، وسبحانه لم يبلغكم أن هناك أصناماً تشفع ، وليس هذا وارداً ، فقولكم هذا فيه كذب متعمد وافتراء .

فهو سبحانه الذى خلق السموات وخلق الأرض ، ويعلم كل ما فى الكون ، وقضية شفاعة الأصنام عنده ليست فى علمه ، ولا وجود لها ، بل هى قضية مفتراة ، مُدَّعاة .

وقوله الحق هنا : ﴿أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ﴾ مثلها مثل قوله الحق :

﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ .. (١٦)﴾ [الحجرات]

ويعنى هذا القول بالرد على من قالوا ويقولون : إن المطلوب هو تشريعات تناسب العصر ، وكلما فسد العصر طالبوا بتشريعات جديدة ، وما داموا هم الذين يشرِّعون ، فكأنهم يرغبون فى تعليم خالقهم كيف يكون الدين ، وفى هذا اجتراء وجهل بقدرة وحكمة مَنْ خلق الكون ، فأحكمه بنظام .

وقوله الحق : ﴿قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي السَّمَـوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ فيه تنزيه له سبحانه ، فهو الخالق لكل شىء ، خالق الملك والملكوت ويعلم كل شىء ، وقضية شفاعة الأصنام إنما هى قضية مفتراة لا وجود لها ؛ لذلك فهى ليست فى علم الله ، والحق سبحانه مُنزَّه أن توجد فى ملكه قضية لها مدلول يقينى ولا يعلمها ، ومُنزَّه جل وعلا عن أن يُشرك به ؛ لأن الشريك إنما يكون ليساعد من يشركه ، ونحن

نرى على سبيل المثال صاحب مال يديره فى تجارة ما ، ولكن ماله لا ينهض بكل مسئوليات التجارة ، فيبحث عن شريك له .

وسبحانه وتعالى قوى وقادر ، ولا يحتاج إلى أحد فى ملكية الكون وإدارته ، ثم ماذا يفعل هؤلاء الشركاء المدَّعون كذباً على الله ؟

إن الحق سبحانه يقول :

﴿ قل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا [1] إِلَى ذِى الْعَرْشِ سَبِيلاً (٤٢) ﴾ [الإسراء]

وهذا القول الحكيم ينبه المشركين إلى أنه بافتراض جدلى أن لهؤلاء الشركاء قوة وقدرة على التصرف ، فهم لن يفعلوا أى شىء إلا بابتغاء ذى العرش ، أى : بأمره سبحانه وتعالى . وهم حين ظنوا خطأ أن لكل فلك من الأفلاك سيطرة على مجال فى الوجود ، وأن النجوم لها سيطرة على الوجود ، وأن كل برج من الأبراج له سيطرة على الوجود ، فلا بد فى النهاية من الاستئذان من مالك الملك والملكوت .

ومن خيبة من ظنوا مثل هذه الظنون ، ومعهم الفلاسفة الذين أقروا بأن هناك أشياء فى الكون لا يمكن أن يخلقها إنسان ، أو أن يدَّعى لنفسه صناعتها ؛ لأن الجنس البشرى قد طرأ على هذه المخلوقات ، فقد طرأ الإنسان على الشمس والقمر والنجوم والأرض ، ولا بد إذن أن تكون هناك قوة أعلى من الإنسان هى التى خلقت هذه الكائنات . كل هذه الكائنات تحتاج إلى مُوجد ، ولم نجد معامل لصناعة الشمس أو القمر أو الأرض أو وجدنا من ادعَى صناعتها أو خلقها .

ولكن الفلاسفة الذين قبلوا وجود خالق للكون لم يصلوا إلى اسمه

---

(١) ابتغوا : طلبوا . قال تعالى : ﴿ لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الأُمُورَ .. (٤٨) ﴾ [التوبة] [اللسان : مادة (بغى)] .

ولا إلى منهجه ، وقوة الحق سبحانه مطلقة ، ولا يحتاج إلى شريك له . وإذا أردنا أن نتأمل ولو جزءاً بسيطاً من أثر قوة الله التى وهبها للإنسان ، فلنتأمل صناعة المصباح الكهربى .

وكل منا يعلم أنه لا توجد بذرة نضعها فى الأرض ، فتنبت أشجاراً من المصابيح ، بل استدعت صناعة مصباح الكهرباء جهد العلماء الذين درسوا علم الطاقة ، واستنبطوا من المعادلات إمكان تصور صناعة المصباح الكهربى، وعملوا على تفريغ الهواء من الزجاجة التى يوضع فيها السلك الذى يضىء داخل المصباح ، وهكذا وجدنا أن صناعة مصباح كهربى واحد تحتاج إلى جهد علماء وعمل مصانع ، كل ذلك من أجل إنارة غرفة واحدة لفترة من الزمن . فما بالنا بالشمس التى تضىء الكون كله ، وإذا كان أتفه الأشياء يتطلب كمية هائلة من العلم والبحث والإمكانات الفنية والتطبيقية ، وتطوير للصناعات ، فما بالنا بالشمس التى تضىء نصف الكرة الأرضية كل نصف يوم ، ولا أحد يقدر على إطفائها ، ولا تحتاج إلى صيانة من البشر ، وإذا أردت أن تنسبها فلن تجد إلا الله سبحانه.

وأنت بما تبتكره و تصنعه لا يمكن أن يصرفك عن الله ، والذكى حقاً هو من يجعل ابتكاراته وصناعاته دليلاً على صدق الله فيما أخبر .

وإذا كان الحق سبحانه قد خلق الشمس[1] - ضمن ما خلق-وإذا أشرقت أطفأ الكل مصابيحهم ؛ لأنها هى المصباح الذى يهدى الجميع ، وإذا كان ذلك هو فعل مخلوق واحد لله ، فما بالنا بكل نعمة من سائر مخلوقاته . ونور الشمس إنما يمثل الهداية الحسية التى تحمينا من أن نصطدم بالأشياء فلا تحطمنا ولا نحطمها، فكذلك يضىء لنا الحق سبحانه المعانى والحقائق .

---

(١) يقول الحق سبحانه : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ .. (٢٥) ﴾ [لقمان] ويقول سبحانه : ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ .. (٣٣) ﴾ [الأنبياء] ، ويقول سبحانه : ﴿ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً .. (٤٥) ﴾ [الفرقان] .

وإياك أن تقول : إن الفيلسوف الفلانى جاء بنظرية كذا ؛ فخذوا بها ، بل دع عقلك يعمل ويقيس ما جاء بهذه النظرية على ضوء ما نزل فى كتاب الحق سبحانه ، وإن دخلت النظرية مجال التطبيق ، وثبت أن لها تصديقاً من الكتاب ، فقل : إن الحق سبحانه قد هدى فلاناً إلى اكتشاف سر جديد من أسرار القرآن ؛ لأن الحق يريد منا أن نتعقل الأشياء وأن ندرسها دراسة دقيقة ، بحيث نأخذ طموحات العقل ؛ لتقربنا إلى الله ، لا لتبعدنا عنه ، والعياذ بالله .

وإذا قال الحق سبحانه : ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ فذلك لأن الشركة تقتضى طلب المعونة ، وطلب المعونة يكون إما من المساوى وإما من الأعلى ، ولا يوجد مساوٍ لله تعالى ، ولا أعلى من الله سبحانه وتعالى .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾﴾

وقد جاءت آية فى سورة البقرة متشابهة مع هذه الآية وإن اختلف الأسلوب ، فقد قال الحق سبحانه فى سورة البقرة : ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ[1] .. (٢١٣)﴾ والذين يقرأون القرآن بسطحية وعدم تعمق قد

---

(١) الذين ذهبوا إلى أن الناس كانوا أمة واحدة على الكفر ، فاختلفوا فى عبادة مظاهر القوى ، ثم أدركوا أن القوى الكونية زائلة ؛ فاهتدوا بالعقل إلى الله تعالى . هؤلاء نسوا الميثاق الأول فى قوله تعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢)﴾ [الأعراف] ، ولكن الناس كانوا أمة واحدة على فطرة الإيمان ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ .. (٣٠)﴾ [الروم] ، فاختلفوا بعبادة غير الله ؛ فبعث الله الرسل ، وإلا كان إرسال الرسل عبثاً إذا كان الناس أمة واحدة على الكفر واهتدوا بعقولهم إلى الله سبحانه ، وهذا فهم قاصر .

لا يلتفتون إلى الآيات المشابهة لها فى المعنى العام ، وهذه الآيات توازن بين المعانى فلا تضارب بين آية وأخرى .

ولذلك نجد بين المفكرين العصريين من يقول : إن الناس كانوا كلهم كفاراً ، ثم ارتقى العقل محاولاً اكتشاف أكثر الكائنات قوة ؛ ليعبدوه ، فوجدوا أن الجبل هو الكائن العالى الصلب ؛ فعبدوه . وأناس آخرون قالوا : إن الشمس أقوى الكائنات فعبدوها ، وآخرون عبدوا القمر ، وعبد قوم غيرهم النجوم ، واتخذ بعض آخر آلهة من الشجر ، وكل جماعة نظرت إلى جهة مختلفة تتلمس فيها القوة .

وهم يأخذون من هذا أن الإنسان قد اهتدى إلى ضرورة الدين بعقله ، ثم ظل هذا العقل فى ارتقاء إلى أن وصل إلى التوحيد .

ونرد على أصحاب هذا القول : أنتم بذلك تريدون أن تعزلوا الخلق عن خالقهم ، وكأن الله الذى خلق الخلق وأمدهم بقوام حياتهم المادية قد ضَنَّ عليهم بقوام حياتهم المعنوية ، وليس هذا من المقبول أو المعقول ، فكيف يضمن لهم الحياة المادية ،ولا يضمن لهذه المادية قيمًا تحرسها من الشراسة وتحميها من الفساد والإفساد ؟

وقوله الحق :

﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٢١٣) ﴾ [البقرة]

لذلك فَهِمَ البعض أن الناس كانوا أمة واحدة فى الكفر ، وحين جاء

النبيون ، اختلف الناس ؛ لأن منهم من آمن ومنهم من ظل على الكفر ، ولكن لو أحسن الذين قالوا مثل هذا القول الاستنباط وحسن الفهم عن الله لوجدوا أن مقصود الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها الآن إنما هو : ما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا ؛ فبعث الله النبيين ؛ ليخرجوهم عن الخلاف ويعيدوهم إلى الاتفاق على عهد الإيمان الأول الذى شهدوا فيه بربوبية الحق سبحانه وتعالى [(١)] ؛ لأن الأصل فى المسألة هو الإيمان لا الكفر [(٢)] .

ومن أخذ آية سورة البقرة كدليل على كفر الناس أولاً ، نقول له : اقرأ الآية بأكملها ؛ لتجد قوله الحق : ﴿ **كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ .. (٢١٣)** ﴾ [البقرة]

وهكذا نرى أن الاختلاف الذى حدث بين الناس جاء فى آية البقرة فى المؤخرة ، بينما جاء الاختلاف فى هذه الآية فى المقدمة ، وهذا دليل على أن الناس كانوا أمة واحدة على الإيمان [(٣)] ، فليس هناك أناس أولَى من

---

(١) وذلك قوله تعالى : ﴿ **وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢)** ﴾ [الأعراف] .

(٢) وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : كان بين نوح وآدم عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين . أورده ابن كثير فى تفسيره (١/ ٢٥٠) .

(٣) إن تصدير الاختلاف فى آية سورة يونس وتأخيره فى سورة البقرة ، فأول القضية أن الأمة واحدة على دين الله ومنهجه ، والخلاف عارض ؛ لهذا كان الرسل ، أما موقف سيدنا إبراهيم عليه السلام فى آية الأنعام فى قوله تعالى : ﴿ **فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٧٩)** ﴾ [الأنعام] فسيدنا إبراهيم كان فى مرحلة إيمان الهداية ، ثم بالتأمل يصل إلى إيمان الدلالة حتى يصل إلى إيمان اليقين .

أناس عند الخالق سبحانه وتعالى ، ولم يكن عدل الله ليترك أناساً متخبطين فى أمورهم على الكفر ، ويرسل الرسل لأناس آخرين بالهداية ؛ فالناس بالنسبة لله سواء . وما دام الحق سبحانه قد أوجد الخلق من البشر فلا بد أن يُنزل لهم منهجاً ؛ ولذلك حين نقرأ قول الحق سبحانه : ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ [1] مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ (٩٦)﴾ [آل عمران]

نجد فيه الرد على من يقول إن إبراهيم عليه السلام هو أول من بنى الكعبة ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى لم يترك الخلق من آدم إلى إبراهيم دون بيت يحجون [2] إليه ، ولكن الحق سبحانه وضع البيت ؛ ليحج إليه الناس من أول آدم إلى أن تقوم الساعة ، والذى وضع البيت ليس من الناس ، بل شاء وضع البيت خالق الناس ، وما فعله سيدنا إبراهيم - عليه السلام - هو رفع القواعد من البيت الحرام .

أى : أنه أقام ارتفاع البيت بعد أن عرف مكان البيت طولاً وعرضاً ، مصداقاً لقول الحق سبحانه :

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا [3] لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ .. (٢٦)﴾ [الحج]

---

(١) بكة : موضع البيت الحرام . ومكة : الحرم كله وتدخل فيه البيوت . وبعض علماء التفسير مثل مجاهد ذهب إلى أن كليهما واحد ، وأن الميم مبدلة من الباء . ثم قيل : بكة مشتقة من البك وهو الازدحام أى : ازدحامهم في موضع طوافهم . والبك أيضاً : دق العنق ، وسميت بذلك لأنها كانت تدق رقاب الجبابرة إذا ألحدوا فيها بظلم . بتصرف من تفسير القرطبى (٢/ ١٤٨٦) .

(٢) يحجون إليه : يقصدونه بشد الرحال إليه للعبادة والتعظيم . قال الجرجانى فى كتابه : « التعريفات » (ص ٧٢) : « الحج : القصد إلى الشىء المعظم ، وفى الشرع قصد لبيت الله تعالى بصفة مخصوصة فى وقت مخصوص بشرائط مخصوصة فى أماكن مخصصة » .

(٣) بوأنا له : أنزلناه بمكان البيت الحرام وهديناه إليه . والتبوّء : أن يعلم الرجل الرجل على مكان لينزل به . وبوأنا له : هيأنا له المكان ومكناه منه . قال تعالى : ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ .. (٥٦)﴾ [يوسف] . [اللسان : مادة (بوأ) - بتصرف] .

وهكذا يَصْدُق قول الحق سبحانه بأن البيت قد وُجد للناس قبل آدم ، وهو للناس إلى أن تقوم الساعة ، وهكذا نعلم أن الحق سبحانه خلق الخلق وأنزل لهم المنهج ، وأن الأصل فى الناس هو الإيمان ، لكن الكفر هو الذى طرأ على البشر من بابين : باب الغفلة ، وباب تقليد الآباء .

والدليل على ذلك أن الحق سبحانه وتعالى حينما تكلَّم عن ميثاق الذر ، قال :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ [(١)] وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣) ﴾ [الأعراف]

إذن : فالتعصِّى عن الحكم الإيمانى مدخله بابان : الأول باب الغفلة ، أى : أن تكون قد علمتَ شيئاً ، ولم تجعله دائماً فى بؤرة [(٢)] شعورك ؛ لأن عقلك يستقبل المعلومات ، ويستوعبها من مرة واحدة ، إن لم تكن مُشتَّتَ الفكر فى أكثر من أمر ، فإن كنت صافى الفكر ومنتبهاً إلى المعلومة التى تَصلُكَ ؛ فإن عقلك يستوعبها من مرة واحدة ، ومن المهم أن يكون الذهن خالياً لحظة أن تستقبل المعلومة الجديدة .

ولذلك نجد فارقاً بين إنسان وإنسان آخر فى حفظ المعلومات ، فواحد يستقبل المعلومة وذهنه خالٍ من أى معلومة غيرها ، فتثبت فى بؤرة

---

(١) ذريّة الرجل : ولده ، والجمع : الذريات والذرارى . قال تعالى : ﴿ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ .. (٣٤) ﴾ [آل عمران] والذرية مأخوذة من ذَرَأ الله الخلق ، أى : خلقهم . فالذرية : اسم يجمع نسل الإنسان من ذكر وأنثى ، وأصلها الهمز ولكنهم حذفوه فلم يستعملوها إلا غير مهموزة ؛ وقيل : الذرية أصلها من الذَّرِّ بمعنى : التفريق ؛ لأن الله تعالى ذَرَّهم فى الأرض ، أى : فرَّقهم . [اللسان : مادة (ذرر)] .

(٢) بأر الشىء : خبأه وادَّخره . ومنه قيل للحفرة : البؤرة . ومنها بؤرة الشعور أى : حفرة ومركز الشعور الذى يحتفظ فيها الإنسان بمعلوماته ومشاعره تجاه الأحداث التى تواجهه . انظر لسان العرب (مادة : بأر) .

الشعور ، بينما يضطر الآخر إلى تكرار قراءة المعلومة إلى أن يخلو ذهنه من غيرها ؛ فتستقر المعلومة فى بؤرة الشعور ، وحين تأتى معلومة أخرى ، فالمعلومة الأولى تنتقل إلى حاشية الشعور إلى حين أن يستدعيها مرة أخرى.

وإذا أراد طالب - على سبيل المثال- أن يستوعب ما يقرأ من معلومات جديدة ، فعليه أن ينفض عن ذهنه كل المشاغل الأخرى [(١)] ؛ ليركِّز فيما يدرس ؛ لأنه إن جلس إلى المذاكرة وباله مشغول بما سوف يأكل فى الغداء ، أو بما حدث بينه وبين أصدقائه ، أو بما سوف يرتدى من ملابس عند الخروج من البيت ، أو بغير ذلك من المشاغل ، هنا سوف يُضطر الطالب أن يعيد قراءة الدرس أكثر من مرة ؛ حتى يصادف الدرسُ جزئية خالية من بؤرة الشعور ؛ فتستقر فيها [(٢)].

وقد نجد طالباً فى صباح يوم الامتحان وهو يسمع من زملائه أن الامتحان قد يأتى فى الجزء الفلانى من المقرر ؛ فيفتح الكتاب المقرر على هذا الجزء ويقرأه مرة واحدة ؛ فيستقر فى بؤرة الشعور ، ويدخل الامتحان ، ليجد السؤال فى الجزء الذى قرأه مرة واحدة قبل دخوله إلى اللجنة ؛ فيجيب عن السؤال بدقة.

---

(١) ولذلك أرشد العلماء طلاب العلم أن يقللوا علائق الاشتغال بالدنيا ، فإن العلائق - كما يقول الإمام أبو حامد الغزالى - فى إحيائه(كتاب العلم) « شاغلة وصارفة و﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ .. ④ ﴾ [الأحزاب] ، ومهما توزعت الفكرة قصرت عن دَرْك الحقائق ؛ ولذلك قيل : «العلم لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك» والفكرة المتوزعة على أمور متفرقة كجدول تفرق ماؤه فنشَّفت الأرض بعضه واختطف الهواء بعضه ، فلا يبقى منه ما يجتمع ويبلغ المزارع ». قال الزبيدى فى اتحاف السادة المتقين (١/ ٥٠٤) : «لذا كرهوا للمتعلم الاشتغال فى درسين فى علمين مستقلين لئلا تتوزع الفكرة ، والانتقال من فن إلى فن آخر قبل استكمال الأول».

(٢) وأمر تخلية الذهن والفكر من الشواغل والخواطر شىء حَثَّ عليه حديث رسول الله ﷺ بالنسبة للصلاة ، فعن عائشة رضى الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «لا صلاة بحضرة طعام ، ولا وهو يدافعه الأخبثان» أخرجه مسلم فى صحيحه (٥٦٠) والأخبثان هما البول والبراز. فكذلك درس العلم يجب على المتعلم أن يعطيه كل ذهنه وتركيزه فلا يشغله عنه شىء.

ولذلك فالتلميذ الذكى هو من يقوم بما يسمِّيه علم النفس «عملية الاستصحاب» ، أى: أن يقرأ الدرس ثم يغلق الكتاب ؛ ليسأل نفسه: «ما الجديد من المعلومات فى تلك الصفحة ؟» ويحاول أن يتذكر ذلك ، ويحاول أن يتعرف حتى على الألفاظ الجديدة التى فى تلك الصفحة ، وما هى الأفكار الجديدة التى صحَّحَتْ له معلومات أو أفكاراً خاطئة كانت موجودة لديه.

وهكذا يستصحب الطالب معلوماته بتركيز وانتباه.

وكذلك الأستاذ المتميز هو من يشرح الدرس ثم يتوقف ؛ ليسأل التلاميذ ؛ ليثير انتباههم ؛ حتى لا ينشغل أحدهم بما هو خارج الدرس ، والأستاذ المتميز هو الذى يلقى درسه بما يستميل التلاميذ ، كما تستميلهم القصة المروية ، وحتى لا تظل المعلومات الدراسية مجرد معلومات جافة.

وبهذا يستمر الذهن بلا غفلة ، والغفلة تأتى إلى القضايا الدينية ؛ لأن فى الإنسان شهوات تصادم الأوامر والنواهى ؛ فيتناسى الإنسان بعض الأوامر وبعض النواهى إلى أن يأتى الران [1] الذى قال عنه الحق سبحانه: ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [المطففين]

ويبين النبى ﷺ ذلك بالحديث الشريف : « نزلت الأمانة فى جذر [2] قلوب الرجال ، ثم نزل القرآن فعلموا من القرآن وعلموا من السُّنَّة». ثم يحدثنا ﷺ عن رفع الأمانة فيقول: «ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة

(١) الرين: الطَّبع والدَّنس. وهو كالصدأ يغشى القلب. قال الحسن: هو الذنب على الذنب حتى يسوادَّ القلب. بتصرف من لسان العرب (مادة : رين) والرين : الصدأ يعلو السيف فيذهب ببريقه ويستعار للغشاوة تغطى على القلب بسبب الذنوب ، وران الصدأ عليه : غلب عليه وغطَّاه كله . قال تعالى: ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [المطففين].

(٢) جَذْر كل شىء: أصله. ومنه هذا الحديث: جَذْر قلوب الرجال ، أى : فى أصلها. (اللسان مادة : جذر).

من قلبه ؛ فيظل أثرها مثل أثر الوكْت [١] » [٢] أى : مثل لسعة النار وهكذا تتوالى ؛ حتى يأتى الرَّانُ على القلب.

إذن: فالغفلة تتلصص على النفس الإنسانية ، وكلما غفل الإنسان فى نقطة ، ثم يغفل عن أخرى وهكذا. ولكن من لا يغفل فهو من يتذكر الحكم ، ويطبقه ، ويذوق حلاوته [٣]. ومثال هذا: المسلم الذى يشرح الله تعالى قلبه للصلاة ، فإن لم يُصَلِّ يظل مُرْهقاً وفى ضيق.

ولذلك جاء فى الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «تُعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عوداً ، فأىّ قلب أشْربها نكت فيه نكتة سوداء ، وأى قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء حتى تصير على قلبين : على أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض ، والآخر أسود مرباداً كالكوز مُجَخِّياً لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً إلا ما أشرب من هواه» [٤].

إذن: فالغفلة هى أول باب يدخل منه الشيطان ؛ فيبعد الإنسان عن

---

(١) الوكتة: الأثر فى الشىء ، كالنقطة من غير لونه ، والجمع: وكت. وفى الحديث: «لا يحلف أحد ولو على مثل جناح بعوضة ، إلا كانت وكتة فى قلبه» . ومنه فى حديث حذيفة: « . . ويظل أثرها كأثر الوكت». [اللسان: مادة (وكت)].

(٢) متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٤٩٧) ومسلم (٢٤٣) من حديث حذيفة بن اليمان وهو حديث طويل ، هاتان قطعتان منه .

(٣) هذه الحلاوة تحدث عنها رسول الله ﷺ فقال: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة طعم الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود فى الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف فى النار» متفق عليه . أخرجه البخارى (١٦) ومسلم (٤٣) عن أنس بن مالك .

(٤) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٤٤) وأحمد فى مسنده (٥/ ٣٨٦ ، ٤٠٥) من حديث حذيفة بن اليمان.
مثل الصفا: الصخرة الملساء العريضة.
مرباداً : أسود مشوباً بغبرة.
كالكوز : كلمة عربية صحيحة لا فارسية وهو كوب بعُروة.
مجخياً : مائلاً ، أى : عن الاستقامة والاعتدال ، فشبه القلب الذى لا يعى خيراً بالكوز المائل الذى لا يثبت فيه شىء لأن الكوز إذا مال انصب ما فيه. [انظر لسان العرب مادة : جخى].

أحكام الله . وإذا ما غفل الأب ، فالأبناء يُقلِّدون الآباء ، فتأتيهم غفلة ذاتية. وهكذا يكون الغافل أسوة لمن بعده.

ولذلك قال الحق سبحانه عن الأبناء الذين يتبعون غفلة الآباء:
﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا [1] عَلَيْهِ آبَاءَنَا .. (١٧٠)﴾ [البقرة]

وإلْف تقليد الآباء قضية كاذبة ؛ لأننا إن سلسلنا مسألة الإيمان إلى آدم عليه السلام ، وهو الأب الأول لكل البشر ؛ لوجدنا أن آدم عليه السلام قد طبَّق كل مطلوب لله [2] ، فإن قلت: ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ فهذا القول يحتم عليك ألا تنحرف عن الإيمان الفطرى ، وإلا كنت من الكاذبين غير المدققين فيما دخل على الإيمان الفطرى من غفلة أو غفلات ، تبعها تقليد دون تمحيص.

والحق سبحانه قد شاء أن تكون كل كلمة فى القرآن لها معنى دقيق مقصود ، فالحق سبحانه يقول على ألسنة الكافرين فى القرآن: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ (٢٣)﴾ [الزخرف]

ولم يقل: «مهتدون» بل قال: «مقتدون» ، والمقتدى من هؤلاء هو من اتخذ أباه قدوة ، لكن المهتدى هو مَنْ ظن أن أباه على حق.

إذن: فالمقتدى هو من لا يهتم بصدق إيمان أبيه ، بل يقلده فقط ، وتقليد الآباء نوعان: تقليد على أنه اقتداء مطلق لا صلة له بالهدى أو الضلال ، وتقليد على أنه هدى صحيح لشرع الله تعالى.

---

(١) ألفينا: وجدنا . يقال: ألفيت الشىء إذا وجدته وصادفته ولقيته. انظر اللسان مادة (لفى).

(٢) إن آدم عليه السلام طبَّق المطلوب ، أما أكله من الشجرة التى نُهى عنها ، فكان نسياناً ، والنسيان وارد وعارض ؛ لذلك علمه الله كلمات فتاب عليه وهدى ، بدليل قوله تعالى: ﴿فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ..(١١٥)﴾ [طه] وهذا لا ينافى أنه طبق كل المطلوب.

وقد حدث خلاف حول آدم عليه السلام أهو رسول أم نبى فقط [(١)] ؟ فهناك مَنْ قال: إن أول الرسل هو نوح عليه السلام ونقول : وهل من المعقول أن يترك الله الخلق السابقين على نوح عليه السلام دون رسول ؟

إن الحق سبحانه هو القائل: ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا [(٢)] فِيهَا نَذِيرٌ (٢٤) ﴾ [فاطر]

والذى أشكل على هؤلاء المفسرين الذين قالوا: إن أول رسول هو نوح عليه السلام أنهم قد فكروا تفكيرا سطحياً ، وفهموا أن الرسول يطرأ على المرسل إليهم ، وما دام لم يكن هناك بشر قبل آدم فكيف يكون آدم مبعوثاً برسالة ، ولمن تكون تلك الرسالة؟

ولم يفطن هؤلاء المفسرون إلى أن آدم عليه السلام كان رسولاً وأسوة إلى أبنائه ، فالحق سبحانه قد قال له: ﴿ .. فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨) ﴾ [البقرة]

وسبحانه قد قال لآدم عليه السلام: ﴿ .. فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَىٰ (١٢٣) ﴾ [طه]

وما دام الحق سبحانه قد ذكر الهدى ، فهذا ذكر للمنهج ، وهو الذى طبقه سلوكاً يقلده فيه الأبناء. وغفل هؤلاء المفسرون أيضاً عن استقراء قوله الحق: ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا [(٣)] .. (٢٧) ﴾ [المائدة]

---

(١) هناك فرق بين النبى والرسول ، فالنبى هو من نُبِّىءَ وأوحىَ إليه دون أن ينزل عليه كتاب أو يؤمر بتبليغ قومه رسالة معينة ، لذلك كان كل رسول نبياً ، وليس كل نَبى رسولاً .

(٢) خلا : مضى . أى: مضى وأرسل . ويقال : القرون الخالية : الماضية ومنها قوله عز وجل: ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ .. (١٣٤) ﴾ [البقرة] ، وقوله عز وجل: ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (٢٤) ﴾ [الحاقة].

(٣) القربان: ما قُرِّب إلى الله – عز وجل – وتقرَّبت به ، تقول: قرَّبتُ لله قرباناً. وتقرّب إلى الله بشىء ، أى : طلب به القُرْبة عنده تعالى. قال الليث: القربان ما قرَّبت إلى الله ، تبتغى بذلك قربة ووسيلة. [اللسان : مادة (قرب) – بتصرف].

وابْـنَا آدم عليه السلام قد قدَّما القربان إلى الله تعالى. إذن: فهما قد عرفا أن هناك إلهاً.

وحين قال قابيل لأخيه: ﴿لأَقْتُلَنَّكَ (٢٧)﴾ [المائدة]

بعد ما تقبل الله قربان أخيه ولم يتقبل منه. قال هابيل: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٢٧)﴾ [المائدة]

ثم في قول هابيل: ﴿لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٢٨)﴾ [المائدة]

إذن: لو لم يكن آدم عليه السلام رسولاً فمن بلَّغ أبناءه بأن الله يثيب ويعاقب؟

والحق سبحانه يقول في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها: ﴿وَلَوْلا كَلِمَةٌ (١) سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ وفي هذا إشارة إلى أن الله سبحانه - قبل رسالة محمد عليه الصلاة والسلام - كان يعاقب مَن يكذِّب البلاغ عنه وما جاء به السابقون من الرسل، يقول سبحانه:

﴿فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا (٢) وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ (٣) وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ (٤) وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٠)﴾ [العنكبوت]

---

(١) وعد الله سبحانه أنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه، وأنه قد أجل الخلق إلى أجل معدود لقضى بينهم فيما اختلفوا فيه فأسعد المؤمنين وأعنت الكافرين [ابن كثير ٢/ ٤١١].

(٢) الحاصب: ريح صرصر باردة شديدة البرد عاتية شديدة الهبوب جداً تحمل عليهم حصباء الأرض، فتلقيها عليهم وتقتلعهم من الأرض. [ابن كثير ٣/ ٤١٣].

(٣) عُذِّب بها قوم ثمود، جاءتهم صيحة أصمَّت آذانهم وأخمدت منهم الأصوات والحركات. [ابن كثير ٣/ ٤١٣].

(٤) الخسف: إذهاب الأشياء في الأرض. وخُسف بالرجل: إذا أخذته الأرض وغاب فيها، وقد عُذِّب بهذا قارون. [ابن كثير ٣/ ٤١٣].

إلا أمة محمد ﷺ فقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣)﴾ [الأنفال]

أى: أنه سبحانه قد أجَّلَ الجزاء والعقوبة عن أمة محمد ﷺ إلى الآخرة. وهذه الكلمة التى سبقت، أنه سبحانه لا يؤاخذ أمة محمد ﷺ بذنوبهم فى الدنيا، ولكنه يؤخِّر ذلك إلى يوم الجزاء. ويقضى سبحانه فى ذلك اليوم بين من اتبعوا الرسول ﷺ ومن عاندوه، وبطبيعة الحال يكون الحق سبحانه فى جانب من أرسله، لا من عاند رسوله ﷺ.

ويقول سبحانه بعد ذلك:

﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ (٢٠)﴾ (١)

والآية كما عرفنا هى الشىء العجيب، وإما أن تكون آية كونية، أو آية إعجاز، أو آية قرآن تشتمل على الأحكام.

ولماذا لم يصدقوا آيات القرآن، وهى معجزة بالنسبة إليهم؟

نقول: إن استقبال القرآن فَرْع تصديق للرسول ﷺ، وقد حدث اللبس عندهم؛ لأنهم ظنوا أن الآية هى الآيات المحسّة الكونية المشهودة، وما علموا أن الآيات التى سبق بها الرسل إنما جاءت لتناسب أزمان

---

(١) تستعمل (لولا) أداة عرض وتحضيض، مثل (هلا) وتختص بالدخول على المضارع كقوله تعالى: ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ .. (٤٦)﴾ [النمل] وتدخل على ماض فى تأويل المضارع كقوله تعالى: ﴿لَوْلَا أَخَّرْتَنِى إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ .. (١٠)﴾ [المنافقون] أى: لولا تؤخرنى، وتستعمل (لولا) للتوبيخ والتنديم فتختص بالماضى كقوله تعالى: ﴿لَوْلَا جَآءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ .. (١٣)﴾ [النور]، ولها استعمالات أخرى يرجع إليها فى كتب اللغة [القاموس القويم: ٢/٢٠٧، ٢٠٨].

رسالاتهم ، ولتناسب مواقعهم من المرسل إليهم.

فقد كان الرسل السابقون لرسول الله ﷺ - وعلى جميع الرسل السلام - قد بُعث كل منهم لأمة محدودة زماناً ومكاناً ؛ ولذلك كانت الآيات التى اصطحبوها آيات حسية ، وكل آية كانت من جنس ما نبغ فيه القوم المبعوث إليهم.

أما رسالة محمد عليه الصلاة والسلام فهى لعامة الزمان وعامة المكان [1]. فلو جعل الله سبحانه له آية حسية لآمن بها مَنْ شاهدها ، ولَصارَتْ خبراً لمن لم يشاهدها.

ونحن على سبيل المثال كمسلمين لم نصدِّق أن موسى - عليه السلام - قد ضرب البحر فانشق له البحر ؛ إلا لأن القرآن قال ذلك ؛ لأن كل أمر حسى يقع مرة واحدة فمن شاهده آمن به ، ومن لم يره إن حُدِّث به له أن يكذِّب ، وله أن يصدِّق ، ولكنّا صدقنا ؛ لأن القائل هو الحق سبحانه وقد أبلغنا ذلك فى القرآن. وثقتنا فيمن قال هى التى جعلتنا نصدق معجزات الرسل السابقين على رسول الله ﷺ .

وقد يتساءل البعض عن السر فى عدم إرسال معجزات حسية مع رسول الله ﷺ ، فنقول: لقد شاء الله سبحانه أن يرسل الرسول ﷺ بمعجزة باقية إلى أن تقوم الساعة وهى معجزة القرآن. وتتحدث كتب السيرة أن الماء نبع من بين أصابعه ﷺ ، فمن صدَّق صدَّق ، وإن قرأت ولم تصدِّق ذلك ، فاعلم أنك لست المقصود بها ، فقد كان المقصود بها هم المعاصرون

---

(١) وهذا مما خص به الله رسوله ﷺ وأمته ، ويدل عليه حديث رسول الله ﷺ : أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلى : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً ، فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل ، وأحلت لى المغانم ولم تحل لأحد قبلى ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبى يُبعث إلى قومه خاصة وبُعثت إلى الناس عامة» من حديث جابر بن عبد الله. أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٣٥) ومسلم (٥٢١).

لها ، وقد جاءت لتربيب الإيمان فى القوم المعاصرين ؛ لأنهم كانوا فى حاجة إلى شَدِّ أزْرِهم الإيمانى ، وحدَّثتنا كتب السيرة أيضًا عن حفنة الطعام التى أكل منها عدد كبير من الرجال ، ومن صدَّق الرواية ؛ فليصدِّقها ، ومَن لم يصدِّقها ، فهذه الآية لم تأتِ له ، لكنها جاءت للمعاصرين له ﷺ .

وهذا لا يمنع أن يكون للرسول ﷺ معجزات حسية كباقى إخوانه من الرسل علينا أن نؤمن بها بالثقة فيمن أخبر بها .

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ وإن دخلت «لولا» [1] على جملة اسمية ، فالمقصود بها عدم شىء لوجود شىء ، كقول إنسان لآخر : لولا زيد عندك لأتيتك ، وبذلك ينعدم ذهابه إلى فلان لوجود زيد عنده . وهكذا تكون «لولا» حرف امتناع لوجود ، وكذلك كلمة «لوما» إن وجدتها تدخل على جملة اسمية فاعرف أنها امتناع شىء ، لوجود شىء وإن دخلت «لولا» على جملة فعلية فاعلم أنها حثٌّ وتحضيض .

وهم هنا قد قالوا : ﴿لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ﴾ وكأنهم لا يعترفون بالقرآن ، وطلبوا آية حسية ؛ لذلك نجد الحق سبحانه يقول فى موقع آخر بالقرآن الكريم : ﴿لَوْلا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ ﴿٤٨﴾﴾ [القصص]

وهذا تأكيد أنهم طلبوا الآية الحسية ؛ لأنهم علموا بالآيات الحسية للرسل السابقين على رسول الله ﷺ ، ولكن قولهم هذا كان تشبثاً بالكفر

---

(١) « لولا» حرف شرط لا يعمل ، ويدل على امتناع الجواب لوجود الشرط وجملة الشرط اسمية (مبتدأ وخبر) ويحذف الخبر وجوباً إذا كان كوناً عاماً وإذا وليها مضمر يكون ضمير رفع منفصلاً مثل : ﴿ لَوْلا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ .. ﴿٣١﴾ ﴾ [سبأ] وجملة الجواب فعلية وتقترن باللام إذا كانت مثبتة فى الغالب وتتجرد منها إذا كانت منفية . قال تعالى : ﴿ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا .. ﴿٢١﴾ ﴾ [النور] وقد يحذف الجواب إذا دل عليه دليل كقوله تعالى : ﴿ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ ﴾ [النور] القاموس القويم جـ ٢/ ٢٠٧

رغم أنهم شهدوا رسول الله ﷺ فى كل أحواله ، وقد حدثت الآيات الحسية ورآها مَنْ آمن به ، وزاد تمسكهم بالإيمان.

والذين طلبوا أن يأتى لهم محمد ﷺ بمعجزة حسية ، كمعجزة موسى عليه السلام ، نسوا أن موسى عليه السلام قد بُعث إلى قوم محدودين هم بنو إسرائيل.

أما محمد ﷺ فقد بُعث إلى الناس كافة ؛ لذلك كان لا بد أن تكون معجزته متجدّدة العطاءات ، وتحمل المنهج المناسب لكل زمان ومكان. أما المعجزة الحسية فهى تنقضى بانقضاء زمانها ومكانها.

أو هم طلبوا الآيات التى اقترحوها مثل قولهم: ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا (١) (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا (٢) أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا (٣) (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ (٤) أَوْ تَرْقَىٰ (٥) فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ .. (٩٣)﴾ [الإسراء]

إذن: فهم قد طلبوا آيات اقترحوها بأنفسهم ، والآيات لا تكون باقتراح المرسل إليهم ، بل بتفضُّل المُرْسِل.

---

(١) الينبوع: العين الجارية والجدول الكثير الماء ، والجمع ينابيع. (اللسان: مادة نبع).

(٢) كسَفاً: جمع كِسْفة وهى القطعة ، والمراد: العذاب. قال تعالى: ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ .. (٩)﴾ [سبأ]. [اللسان: مادة (كسف)].

(٣) القبيل: الجماعة من أى شىء.

(٤) زخرف: نقش وزينة وتمويه بالذهب. والزخرف: الذهب فى غيره. قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا .. (٢٤)﴾ [يونس]. [اللسان: مادة (زخرف)]

(٥) ترقى: تَصْعَد ، والرقىّ: الصعود. وفى الحديث: «كنت رقَّاءً على الجبال» أى: صعَّاداً عليها ، وفعّال للمبالغة. قال تعالى: ﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ (٢٦) وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ (٢٧)﴾ [القيامة].

ولقائل أن يقول: ولماذا لم يُرسِل الحق سبحانه لهم آية حسية معجزة كما قالوا؟

فنقول: إن الحق سبحانه قد قال: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ .. (٥٩)﴾ [الإسراء]

وعلى ذلك يكون قولهم بطلب الآيات مدحوضاً [١]؛ لأن الحق سبحانه قد أرسل الآيات من قبل وكذَّب بها الأولون، أو هم طلبوا آيات اقترحوها، ويقول الحق سبحانه ما جاء على ألسنتهم: ﴿لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ وفى هذا إقرار منهم بأن لمحمد ﷺ رباً، وهو ﷺ يُبلِّغ عنه، فكيف - إذن - يُنكرون أنه رسول؟!

ونعلم أنهم قالوا من قبل: «إن رب محمد قد قلاه [٢]» حين فتر [٣] الوحى عنه ﷺ، ولكن الحق سبحانه ردّ عليهم:

﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣)﴾ [الضحى]

إذن: هم قد ناقضوا أنفسهم، ففى الوصل منعوا وأنكروا أن يكون له ربٌّ، وفى الهجر سلّموا بأن له ربّاً، وهذا تناقض فى الشىء الواحد، وهو لون من التناقض يؤدى إلى اضطراب الحكم، واضطراب الحكم يدل على يقظة الهوى [٤].

---

(١) الدحض: الدفع والبطلان. ومنه قوله تعالى: ﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ ..(١٦)﴾ [الشورى] أى: باطلة.

(٢) قلاه: أبغضه وتركه وتخلى عنه، عن جندب البجلى قال: أبطأ جبريل على رسول الله ﷺ فقال المشركون: قد وُدِّع محمد. فأنزل الله عز وجل: ﴿وَالضُّحَىٰ (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣)﴾ [الضحى] أخرجه مسلم فى صحيحه (١٧٩٧) والترمذى فى سننه (٣٣٤٥) وقال: حديث حسن صحيح. وقد أورد ابن كثير فى تفسيره (٤ / ٥٢٢) من الطريق الذى أخرجه مسلم والترمذى إلى جندب بلفظ: «فقال المشركون: ودع محمداً ربُّه».

(٣) فتر الوحى: انقطع.

(٤) أى: أنه يُحَكِّمُ هواه فى كل تصرفاته ومنازع تفكيره، أى: يتخذ هواه إلهاً له، يأتمر بأمره، وينتهى بنهيه؛ لهذا يحدث التناقض. ويقول سبحانه: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (٢٣)﴾ [الجاثية].

ثم يقول الحق سبحانه رداً على طلبهم للآية الحسية : ﴿فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ وهكذا يُعلِّم الحق سبحانه وتعالى رسوله ﷺ جواباً احتياطياً ، فمن الممكن أن يُنزل الحق سبحانه الآية الحسية ، ومن الممكن ألا ينزلها ، فرسول الله ﷺ لا يحكم على ربه ؛ لأن الغيب أمر يخصه سبحانه ، إن شاء جعل ما فى الغيب مشهداً ، وإن شاء جعل الغيب غيباً مطلقاً ، وليس عليكم إلا الانتظار ، ويعلن رسول الله ﷺ أنه معهم من المنتظرين ﴿فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [يونس]

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا(١) يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾﴾

والرسول ﷺ حين ضاق ذرعاً بالكافرين من صناديد قريش دعا عليهم أن يهديهم الحق بسنين الجدب كالسنين التى أصابت مصر واستطاع سيدنا يوسف عليه السلام أن يدبر أمرها ، فسلط الحق سبحانه على قريش الجدب والقحط (٢) ، ثم جاء لهم بالرحمة من بعد ذلك . وكان من المفروض أن يرجعوا إلى الله ، وأن يؤمنوا برسالة رسوله ﷺ ، بعد أن علموا أن ما

---

(١) المقصود بالرسل هنا : الحفظة من الملائكة . قال تعالى : ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الانفطار] .

(٢) الجدب : نقيض الخصْب . أى : الجفاف وانقطاع المطر . وفى حديث الاستسقاء : «هلكت المواشى وأجدبت البلاد» ، أى : قحطتْ وغَلَت الأسعار . [اللسان : مادة (جدب)] .

القحط : احتباس المطر ، والقحط : الجدب ؛ لأنه من أثره . وفى حديث الاستسقاء : «قحط المطر واحمرّ الشجر» هو من ذلك . وقد يشتق القحط لكل ما قلّ خيره ، والأصل للمطر . والقحط فى كل شىء قلة خيره . [اللسان : مادة (قحط)] .

مسَّهم من القحط ومن الجدب كان بسبب دعوة الرسول ﷺ: «اللهم اجعلها عليهم سنين كَسِنِيِّ يوسف»[(١)].

وانتهت السنوات السبع وجاءت لهم الرحمة ممثلة فى المطر، ولم يلتفتوا إلى ضرورة شكر الله والإيمان برسوله ﷺ، ولكنهم ظلوا يبحثون عن أسباب المطر، فمنهم من قال: لقد جاء مطرنا نتيجة لنوْء[(٢)] كذا، ولأن الرياح هبَّت على مناطق كذا، وفعلوا ذلك دون التفات لانتهاء دعوة رسول الله ﷺ، مثلهم مَثَل مَنْ جلس يبحث فى أسباب النصر فى الحرب، وجعلوا أسبابها مادية فى العُدَّة والعتاد[(٣)]. ولا أحد ينكر أهمية الاستعداد للقتال وجدواه، ولكن يبقى توفيق الله سبحانه وتعالى فوق كل اعتبار؛ لأن المؤمنين بالله الذين استعدوا للقتال ودخلوا المعارك وجدوا المعجزات تتجلى بنصر الله؛ لأن الحق سبحانه ينصر مَنْ ينصره.

أما الذين يحصرون أسباب النصر فى الاستعداد القتالى فقط، فالمقاتلون الذين خاضوا الحرب بعد التدريب الجاد، يعلمون أن التدريب وحده لا يصنع روح المقاتل، بل تصقل[(٤)] روحه رغبته فى القتال ونَيْل الشهادة ودخول الجنة.

---

(١) عن أبى هريرة أن النبى ﷺ كان إذا رفع رأسه من الركعة الآخرة يقول: «اللهم اشدد وطأتك على مضر، اللهم اجعلها سنين كسنى يوسف..» الحديث أخرجه البخارى فى صحيحه (١٠٠٦) وأحمد فى مسنده (٢/ ٤٧٠، ٥٠٢، ٥٢١).

(٢) ناء ينوء نوأ من باب قال يقول أى: نهض. ومنه النوء للمطر وجمعه أنواء. المصباح (٢/ ١٥١).

(٣) العتاد: العُدَّة، والجمع: أعتدة وعُتُد. قال الليث: العتاد: الشىء الذى تعدّه لأمر ما وتهيّئه له. وفى حديث صفته ﷺ: «لكل حال عنده عتاد» أى: ما يصلح لكل ما يقع من الأمور. والمراد هنا بالعتاد: الأسلحة وآلات الحرب. قال تعالى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ۝٤﴾ [الإنسان]. [اللسان: مادة (عتد)].

(٤) الصقل: الجلاء والشَّحْذ، والمراد: الحمية الدينية والتعبئة النفسية والمعنوية للمقاتلين. [اللسان: مادة (صقل) - بتصرف].

إذن: فلمدد السماء مدخل، وَمن رأى من المقاتلين آية مخالفة لنواميس الكون، فليعلم علم اليقين أن يد الله كانت فوق أيدى المؤمنين المقاتلين. ومن يدعى أن أى نصر هو نتيجة للحضارة، يجد الرد عليه من المقاتلين أنفسهم بأن الحضارة بلا إيمان هى مجرد تقدم مادة هش[1] لا يصنع نصراً[2]، والنصر لا يكون بالمادة وحدها، وقد أمرنا الله بحسن الاستعداد المادى، ولكن النصر يكون بالإيمان فوق المادة.

ولذلك نجد مَنْ خاضوا حربنا المنتصرة فى العاشر من رمضان ١٣٩٣ هـ يعلمون أن مدد الله كان معهم بعد أن أحسنوا الاستعداد، ولا أحد من المقاتلين يصدق أن الاستعداد المادى وحده يمكن أن يكفى للنصر، إنه ضرورة، ولكن بالإيمان وحسن استخدام السلاح يكون النصر؛ ولذلك لا يصدق المقاتلون من ينسب النصر للمادة وحدها، وينسحب عدم التصديق على كل ما يقوله من ينكر دور الإيمان فى الانتصار.

وهكذا نجد أن مَنْ يجرد النصر من قيمة الإيمان إنما يخدم الإيمان؛ لأن إنكار الإيمان يقلل من قيمة الرأى المادى. وهكذا ينصر الله دينه حتى يثبته فى قلوب جنده، ويقلل من قيمة ومكانة مَنْ ينكرون قيمة الإيمان.

ومثال هذا فى تاريخ الإسلام أن اليهود الذين كانوا يستفتحون على أهل المدينة من الأوس والخزرج بأن رسولاً سوف يظهر، وأنهم - أى: اليهود- سيتبعونه[3]، وسوف يقتلون العرب من الأوس والخزرج قَتْل عاد وإرم.

---

(١) الهشّ والهشيش من كل شيء: ما فيه رخاوة ولين، والمراد: الضعف.

(٢) يقول تعالى: ﴿.. وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١٢٦)﴾ [آل عمران].

(٣) وقد حكى الله سبحانه هذا لنا فى قرآنه، فقال عن اليهود: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٨٩)﴾ [البقرة]. وعن أشياخ من الأنصار قالوا: كنا قد علوناهم قهراً دهراً فى الجاهلية ونحن أهل شرك وهم أهل كتاب وهم يقولون: إن نبياً سيبعث الآن نتبعه قد أظل زمانه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم، فلما بعث الله رسوله من قريش واتبعناه كفروا به. ذكره ابن كثير فى تفسيره (١/ ١٢٤) نقلاً عن ابن إسحاق.

ولما جاء وقت ظهور محمد بن عبد الله ﷺ بمكة ، أسرعت الأوس والخزرج إلى الإيمان به ، وقالوا: إنه النبى الذى تهددنا به يهود ، فَلْنسبق إليه حتى لا يسبقونا.

هكذا كانت كلمة اليهود هى دافع الأوس والخزرج إلى الإيمان.

إذن: فالله ينصر دينه بالفاجر [(١)] ، رغم ظن الفاجر أنه يكيد للدين.

وكذلك حين جاءت لهم الرحمة بعد القحط أرجفوا [(٢)] وظلوا يحللون سبب سقوط المطر بأسباب علمية محدودة بالمادة ، لا بالإيمان الذى فوق المادة.

ولذلك يقول الحق سبحانه هنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها:

﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ [(٣)] فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ (٢١)﴾ [يونس]

---

(١) وقد ورد بهذا حديث رسول الله ﷺ ، فعن أبى هريرة قال: شهدنا مع رسول الله ﷺ حُنيناً. فقال لرجل ممن يُدْعَى بالإسلام «هذا من أهل النار» فلما حضرنا القتال قاتل الرجل قتالاً شديداً فأصابته جراحة. فقيل: يا رسول الله، الرجل الذى قلت له آنفاً «إنه من أهل النار» فإنه قاتل اليوم قتالاً شديداً. وقد مات فقال النبى ﷺ: «إلى النار» فكاد بعض المسلمين أن يرتاب. فبينما هم على ذلك إذ قيل: إنه لم يمت ولكن به جراحاً شديداً فلما كان من الليل لم يصبر على الجراح فقتل نفسه ، فأخبر النبى ﷺ بذلك فقال: «الله أكبر أشهد أنى عبد الله ورسوله» ثم أمر بلالاً فنادى فى الناس «إنه لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة ، وإن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر». حديث صحيح ، متفق عليه ، أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٠٦٢) ومسلم (١١١).

(٢) أرجفوا: اضطربوا اضطراباً شديداً. (اللسان مادة: رجف).

(٣) المكر: احتيال فى خفية. قال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (٥٠)﴾ [النمل]. قال أهل العلم بالتأويل: المكر من الله تعالى جزاء سُمِّى باسم مكر المجازى كما قال تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا .. (٤٠)﴾ [الشورى] فالثانية ليست بسيئة فى الحقيقة ، ولكنها سميت سيئة لازدواج الكلام ، وكذلك قوله تعالى: ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ .. (١٩٤)﴾[البقرة] فالأول ظلم والثانى ليس بظلم ، ولكنه سُمِّى باسم الذنب ليُعلَم أنه عقاب عليه وجزاء به. قال ابن الأثير: مكر الله إيقاع بلائه بأعدائه دون أوليائه. [اللسان: مادة (مكر)].

والمكر: هو الكلام الملتوى الذى لا يريد أن يعترف برحمة الله ، والادعاء بأن نوء كذا هو السبب فى سقوط المطر ، وبرج كذا هو السبب فى سقوط المطر.

وقوله الحق: ﴿مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا﴾ والمكر هو الكيد الخفى ، والمقصود به هنا محاولة الالتفاف ؛ لتجريد العجائب من صنع الله لها ، وحتى العلم وقوانينه فهو هبة من الله ، والحق هو القادر على أن يوقف الأسباب وأن يفعل ما يريد وأن يخرق القوانين ، فهو سبحانه رب القوانين ، فلا تنسبوا أى خبر إلا له سبحانه ؛ حتى لا نضل ضلال الفلاسفة الذين قالوا بأن الله موجود ، وهو الذى خلق الكون وخلق النواميس ؛لتحكم الكون بقوانين.

ونقول: لو خلق الحق سبحانه القوانين والنواميس وتركها تتحكم لما شَذَّ شىء عن تلك القوانين ، فالمعجزات مع الرسل - على سبيل المثال - كانت خروجاً عن القوانين . وأبقى الله فى يده التحكُّم فى القوانين ، صحيح أنه سبحانه قد أطلقها ، ولكنه ظل قيُّومًا عليها، فيعطل القانون متى شاء ويبرزه متى شاء ويُوجِّه كيفما شاء .

والمكر كما نعلم مأخوذ من التفاف أغصان الشجرة كالضفيرة ، فلا تتعرف على منبت ورقة الشجر ومن أى غصن خرجت ، فقد اختلطت منابت الأوراق ؛ حتى صارت خفية عليك ، وأخذ من ذلك الكيد الخفىّ ، وأنت قد تكيد لمساويك ، لكنك لن تقدر على أن تكيد لمن هو أعلى منك ، فإن كنتم تمكرون فإن الله أسرع مكراً ، والحق سبحانه يقول: ﴿قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ ، وهذه اسمها «مشاكلة التعبير»[1] .

---

(١) المشاكلة: مصطلح بلاغى جاء فى القرآن كثيراً ، وهو يعنى: ذكر الشىء بلفظ غيره ، لوقوعه فى صحبته تحقيقاً أو تقديراً. وذلك مثل قوله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ ..(٥٤)﴾ [آل عمران] فإن إطلاق المكر فى جانب البارىء تعالى إنما هو لمشاكلة ما معه . (الإتقان فى علوم القرآن: ٣/ ٢٨١).

أى: عليك أن تـأخذ ذلك فى مقابله فى ذات الفاعـل والفعل ، ولكن لاتأخـذ من هذا القـول اسـماً لله ، فـإياك أن تقـول : إن الله - سـبحـانه وتعالى- ماكر ؛ لأن المكر كيد خفىٌّ تفعله أنت مع مسـاويك ، ولكنك لن تسـتطيع ذلك مـع من هـو مُطَّـلع على كـيـدك ، ولا تطّلع أنت على ما يشـاء لك.

وانظر إلى أى جماعة تكيد لأى أمر ، وستجد من بينهم من يبلغ عنهم السلطات ، وأجهزة الأمن ، فإذا كان كيد البشر للبشر مفضوحاً بمن يشى منهم بالآخرين ، بل هناك من البشر غير الكائدين من يستطيع بنظرته أن يستنبط ويستكشف من يكيدون له.

وهناك من الأجـهـزة المعـاصـرة مـا تسـتطيع تسـجـيل مكالمات الناس والتنصُّت [1] عليهم ؛ وكل ذلك مكر من البشر للبشر ، فما بالنا إن كاد الله لأحد ، وليس هناك أحد مع الله - سبحانه وتعـالى - ليبـلغنـا بكـيده ، ولا أحد يستطيع أن يتجسَّس عليه ؟!

مكر الله سبحانه - إذن - أقوى من أى مكر بشرى ؛ لأن مكر البشر قد يُهدَم من بعض الماكرين أو من التجسس عليهم ، لكن إذا كاد الله لهم ، أيعلمون من كيده شيئاً ؟ طبعاً لا يعلمون.

وكلمة ﴿أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ تلفتك إلى أن هناك اثنين يتنافسان فى سباق ، وحين تقول : فلان أسرع من فلان ، فمعنى ذلك: أن كلاّ منهما يحاول الوصول إلى نفس الغاية ، لكن هناك واحداً أسرع من الآخر فى الوصول إلى الغاية.

ومكركم البشرى هو أمر حادث ، لكن الله - سبحانه - أزلى الوجود ،

---

(١) التَّنَصُّت: المراد به: التجسس. وأنْصَتَ الرجل إنصاتاً: استمع باهتمام. قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا .. (٢٠٤)﴾ [الأعراف]. [اللسان: مادة (نصت) - بتصرف].

يعلم كل شيء قبل أن يقع ، ويرتِّب كل أمر قبل أن يحدث ؛ لذلك فهو الأسرع فى الرد على مكركم ، إن مكرتم.

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا (١) لَهُم مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا﴾ و«إذا» الأولى ظرف ، أما إذا الثانية فهى « إذا الفجائية » مثلما تقول : خرجت فإذا الأسد بالباب.

وهم حين أنزل الحق لهم الأمطار رحمة منه، فهم لا يهدأون ويستمتعون ويذوقون رحمة الله تعالى بهم من الماء الذى جاءهم من بعد الجدب ، بل دبروا المكر فجأة ، فيأتى قول الحق سبحانه: ﴿قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾.

وهكذا ترى أن ما يبطل كيد الماكرين من البشر ، يكون بإحدى تلك الوسائل : إما أن يكون بوشاية من أحد الماكرين ، وإما أن يكون بقوة التخابر من الغير ، وإما أن يكون من رسل العلىّ القدير وهم الملائكة الذين يكتبون كل ما يفعله البشر ، فسبحانه القائل: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (١٠) كِرَامًا كَاتِبِينَ (١١) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ (١٢)﴾. [الانفطار]

واقرأ أيضاً قول الحق سبحانه : ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (١٤)﴾. [الإسراء]

---

(١) « إذا » تأتى لمعنيين : شرطية ، وفجائية . وإذا الشرطية : اسم شرط للزمن المستقبل فتختص بالدخول على الجملة الفعلية ، وتعرب ، وتدخل أحياناً على الأسماء المرفوعة ، فيكون ما بعدها فاعلاً لفعل محذوف يفسره الفعل الذى بعده مثل قوله تعالى : ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ (١١)﴾ [التكوير] ، وقد تكون « إذا» للمفاجأة وتختص بالجمل الإسمية كقوله تعالى : ﴿فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ (٢٠)﴾ [طه] ، وقد اجتمعت الشرطية والفجائية فى قوله تعالى : ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ (٢٥)﴾ [الروم] . وكما فى الآية : ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا .. (٢١)﴾ [يونس] .

وجاء الحق سبحانه بكل ما سبق ؛ لأنه سبحانه قد شاء أن يعطى لقريش فرصة التراجع فى عنادها للرسول ﷺ ، هذا العناد الذى قالوا فيه : إنهم يتبعون ما وجدوا عليه آباءهم ، وهذا قول مغلوط ؛ لأن الآباء فى الأصل كانوا مؤمنين ، ولكن جاءهم الضلال كأمر طارىء ، والأصنام التى عبدوها طارئة عليهم من الروم ، جاء بها إنسان ممن ساحوا فى بلاد الروم هو «عمرو بن لحىّ»[1] ، فإن رجعتُم إلى الإيمان بعد عنادكم ؛ فهذا هو الطريق المستقيم الذى كان عليه آباؤكم بالفطرة والميثاق الأول .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾

وهذه الآية الكريمة جاءت مرحلة من مراحل إخبار الله سبحانه وتعالى عن المعاندين لدعوة الإسلام ، التى بدأها الحق سبحانه بأنه قد رحمهم فأجّل لهم استجابة دعائهم على أنفسهم بالشر ، ولو أنه أجابهم إلى ما دَعَوْا به على أنفسهم من الشر فى قولهم : ﴿ **إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ** .. ﴿٣٢﴾ ﴾ [الأنفال]

---

(١) ذكر ابن هشام فى السيرة النبوية (١ / ٧٧) أن عمرو بن لحىّ خرج من مكة إلى الشام فى بعض أموره ، فلما قدم مآب من أرض البلقاء ، وبها يومئذ العماليق ، رآهم يعبدون الأصنام ، فقال لهم : ما هذه الأصنام التى أراكم تعبدون؟ قالوا له : هذه أصنام نعبدها ، فنستمطرها فتمطرنا ، ونستنصرها فتنصرنا ، فقال لهم : أفلا تعطوننى منها صنماً ، فأسير به إلى أرض العرب ، فيعبدوه؟ فأعطوه صنماً يقال له هُبَل ، فقدم به مكة ، فنصبه وأمر الناس بعبادته وتعظيمه .

لقضى أمرهم . فمن رحمة الله تعالى أنه لم يُجِبْهم إلى دعائهم.

وإذا كان الله سبحانه قد أجَّل استجابة دعائهم على أنفسهم بالشر رحمة بهم ، فيجب أن يعرفوا أن تأجيل استجابتهم بدعاء الخير رحمة بهم أيضاً ؛ لأنهم قد يدعون بالشر وهم يظنون أنهم يدعون بالخير ، وبعد ذلك دلّل على كذبهم فى دعائهم على أنفسهم بالشر بأنهم إذا مسّهم ضرٌّ دعوا الله تعالى مضطجعين [1] وقاعدين وقائمين.

فلو كانوا يحبون الشر لأنفسهم ؛ لظلوا على ما هم فيه من البلاء إلى أن يقضى الله تعالى فيهم أمراً.

ثم عرض سبحانه قضية أخرى ، وهى أنه سبحانه إذا مسهم بضر ؛ ليعتبروا ، جاء الله سبحانه برحمته ؛ لينقذهم من هذا الضر . فياليتهم شكروا نعمة الله تعالى فى الرحمة من بعد الضر ، ولكنهم مرُّوا كأن لم يدعوا الله سبحانه إلى ضر مسَّهم.

وهنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها ، يصور لنا الحق سبحانه وضعاً آخر ، هو وضع السير فى البر والبحر ، فيقول: ﴿**هُوَ الَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ .. (٢٢)**﴾. [يونس]

وكلمة ﴿**يُسَيِّرُكُمْ**﴾ تدل على أن الذى يسِّير هو الله ، ولكن فى القرآن آيات تثبت أن السير يُنسب إلى البشر حين يقول: ﴿**قُلْ سِيرُوا فِى الأَرْضِ .. (٦٩)**﴾. [النمل]

---

(١) الاضطجاع: الاستلقاء ووضع الجنب إلى الأرض. قال ابن المظفر: كانت هذه الطاء تاء فى الأصل ، ولكنه قبح عندهم أن يقولوا (اضتجع) فأبدلوا التاءَ طاءً . قال تعالى: ﴿**تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا .. (١٦)**﴾ [السجدة]. [اللسان: مادة (ضجع)].

وحين يقول الحق سبحانه : ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ..(٢٩)﴾. [القصص]

وهو سبحانه يقول: ﴿سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ..(١٨)﴾. [سبأ]

فكأن هذه الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها قد نسبت التسيير إلى الله سبحانه ، وبعض الآيات الأخرى نسبت التسيير إلى النفس الإنسانية ، ونقول لمن توهموا أن فى ذلك تعارضاً :

لو أنكم فطنتم إلى تعريف الفاعل عند النحاة [1] وكيف يرفعونه ؛ لعرفتم أن تحقق أى فعل إنما يعود إلى مشيئة الله سبحانه ، فحين نقول: «نجح فلان» فهل هو الذى نجح ، أم أن الذى سمح له بالنجاح غيره ؟ إن الممتحن والمصحِّح هما من سمحا له بالنجاح ؛ تقديراً لإجاباته التى تدل على بذل المجهود فى الاستذكار.

وكذلك نقول: «مات فلان» ، فهل فلان فعل الموت بنفسه ؟ خصوصاً ونحن نعرب «مات» كفعل ماض ، ونعرب كلمة (فلان) «فاعل» أو نقول: إن الموت قد وقع عليه و اتَّصفَ به ؛ لأن تعريف الفاعل : هو الذى يفعل الفعل ، أو يتّصف به.

وإذا أردنا أن ننسب الأشياء إلى مباشرتها السببية ؛ قلنا: «سار الإنسان».

وإذا أردنا أن نؤرِّخ لسير الإنسان بالأسباب ، وترحَّلنا به إلى الماضى ؛ لوجدنا أن الذى سيَّره هو الله تعالى.

وكل أسباب الوجود إنْ نظرتَ إليها مباشرة ؛ وجدتها منسوبة إلى من هو فاعل لها ؛ لكنك إذا تتبَّعتها أسباباً ؛ وجدتّها تنتسب إلى الله سبحانه.

---

(١) لأن تعريف الفاعل عند النحاة هو : كل اسم مرفوع سبقه فعل متعد أو لازم ، وهذا الاسم هو الذى فعل الفعل أو قام به أو اتصف به ، مثل : قرأ محمد الكتاب ، ونجح محمد ، وأثمرت الشجرة .

فمثلاً : إذا سُئلت : مَنْ صنع الكرسى ؟ تجيب : النجار . وإنْ سألت النجار : من أين أتيت بالخشب ؟ سيجيبك : مِن التاجر . وسيقول لك التاجر أنه استورده من بلاد الغابات ، وهكذا .

إذن : إذا أردت أن تسلسل كل حركة فى الوجود ؛ لا بد أن تنتهى إلى الله تعالى[1] .

وحين قال الحق سبحانه : ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الأَجَلَ[2] وَسَارَ بِأَهْلِهِ .. (٢٩) ﴾ [القصص]

نفهم من ذلك أن موسى - عليه السلام - قد سُيِّر بأهله ؛ لأن التسيير فى كل مقوماته من الله تعالى .

والمثال الآخر : نحن نقرأ فى القرآن قوله الحق : ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ (٤٣) ﴾ [النجم]

فهو سبحانه الذى خلق الضحك ، وخلق البكاء .

فنجد من يقول : كيف يقول الله سبحانه إنه خلق الضحك والبكاء وهو الذى يقول فى القرآن : ﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً .. (٨٢) ﴾ [التوبة]

ونقول : أنت إن نظرت إلى القائم بالضحك ، فهو الإنسان الذى ضحك ، وإن نظرت إلى من خلق غريزة الضحك فى الإنسان ؛ تجده الله سبحانه .

---

(١) يقول عز وجل : ﴿ يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ .. (٢) ﴾ [الرعد] ويقول سبحانه : ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ .. (١٢٣) ﴾ [هود] .

(٢) وذلك أن شعيباً قال لموسى : ﴿ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِندِكَ .. (٢٧) ﴾ [القصص] . فقال له موسى : ﴿ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (٢٨) ﴾ [القصص] ، وقد ثبت فى الحديث أن موسى عليه السلام قضى الأجل الأتم والأكمل وهو عشر سنين (ابن كثير : ٣ / ٣٨٤ - ٣٨٧) .

وغريزة الضحك موجودة باتفاق شامل لكل أجناس الوجود ، وكذلك البكاء فلا يوجد ضحك عربى ، وضحك انجليزى ، ولا يوجد بكاء فرنسى ، أو بكاء روسى.

إذن : فالله سبحانه وتعالى هو الذى خلق الضحك والبكاء.

وقد صدق قوله الحق: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ (٤٣)﴾ [النجم]

لكن الضاحك والباكى يقوم به الوصف. وكذلك قوله الحق: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ .. (١٧)﴾. [الأنفال]

فقد شاء الحق سبحانه أن يمكن رسوله ﷺ بالبشرية أن يرمى الحصى ، ولكن إيصال الحصى لكل فرد فى الجيش المقابل له، فتلك إرادة الله [(١)].

إذن: فقول الحق سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ . لا يتعارض مع أنهم هم الذين يسيرون ، وأنت إذا علّلت السير فى الأرض أو فى البحر ؛ ستجد أن السير هو انتقال السائر من مكان إلى مكان ، وهو يحدِّد غاية السير بعقله ، والأرض أو البحر الذى يسير فى أى منهما بأقدامه أو بالسيارة أو بالمركب ، هذا العقل خلقه الله تعالى ، والأرض كذلك ، والبحر أيضاً ، كلها مخلوقات خلقها الله سبحانه وتعالى. وأنت حين تحرِّك ساقيك ؛ لتسير ، لا تعرف كيف بدأت السير ولا كَمْ عضلة تحركت فى جسدك ، فالذى أخضع كل طاقات جسمك لمراد عقلك هو الله تعالى .

إذن: فكل أمر مرجعه إلى الله سبحانه.

---

(١) عن ابن عباس رضى الله عنهما: رفع رسول الله ﷺ يديه يعنى يوم بدر فقال: «يارب إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد فى الأرض أبداً» فقال له جبريل: خذ قبضة من التراب فارم بها فى وجوههم ، فأخذ قبضة من التراب فرمى بها فى وجوههم فما من المشركين أحد إلا أصاب عينيه ومنخريه وفمه تراب من تلك القبضة فولوا مدبرين. أخرجه أبو نعيم (ص ٤٠٤) والبيهقى (٣/ ٧٩) كلاهما فى دلائل النبوة ، وذكره ابن كثير فى تفسيره (٢/ ٢٩٤).

وهنا ملحظ فى السير فى البر والبحر ، فكلاهما مختلف ، فالإنسان ساعة يسير فى الأرض على اليابسة ، قد تنقطع به السبل ، ويمكنه أن يستصرخ [١] أحداً من المارة، أو ينتظر إلى أن يمر عليه بعض المارة؛ ليعاونه.

أما المرور فى البحر ؛ فلا توجد به سابلة أو سالكة [٢] كثيرة ؛ حتى يمكن للإنسان أن يستصرخهم.

إذن : فالمرور فى البحر أدق من المرور فى البر ؛ ولذلك نجد أن الحق سبحانه وتعالى فى هذه الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها يقول عن السير فى البحر : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٢٢) ﴾ [يونس]

وهكذا لا نجد أن فى الآية نفسها حديثاً عن السير فى البر ؛ لأن الحق سبحانه ما دام قد تكلم عن إزالة الخطر للمضطر فى البحر ، فهذا يتضمن إزالته عمن يسير فى البر من باب أولى . وإذا ما جاء الدليل الأقوى ، فهو لا بد أن ينضوى [٣] فيه الدليل الأقل .

ومثال هذا قول الحق سبحانه :

﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا .. (١٥) ﴾ . [الأحقاف]

وجاءت كل الحيثيات بعد ذلك للأم ، ولم يأت بأى حيثية للأب ،

---

(١) يستصرخ : يصرخ طالباً النجدة . والصرخة : الصيحة الشديدة عند الفزع أو المصيبة . قال تعالى : ﴿ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ .. (١٨) ﴾ [القصص] . وقال : ﴿ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلا صَرِيخَ لَهُمْ وَلا هُمْ يُنقَذُونَ (٤٣) ﴾ [يس] . والصريخ : المغيث . [اللسان : مادة (صرخ) . . بتصرف] .

(٢) سبيل سابلة : طريق مسلوكة . والسابلة : أبناء السبيل المختلفون على الطرقات فى حوائجهم ، والجمع : السوابل . والسلوك : مصدر سلك طريقاً ومن يسلكون طريقاً فهم سالكة . قال تعالى : ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً .. (٥٣) ﴾ [طه] . [اللسان : مادة (سبل) ، (سلك)] .

(٣) ضَوَى إليه : انضم ولجأ . وينضوى فى الشىء : يدخل فيه ويندرج تحته . [اللسان : مادة (ضوا) . بتصرف] .

فيقول : ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ (١) ثَلاثُونَ شَهْرًا (١٥)﴾ [الأحقاف]

وشاء الحق سبحانه ذلك ؛ لأن حيثية الأم مبنية على الضعف ، فيريد أن يرقق قلب ابنها عليها ، فالأب رجل ، قد يقدر على الكدح فى الدنيا ، كما أن فضل الأب على الولد يدركه الولد ، لكن فضل أمه عليه وهو فى بطنها ؛ لا يعيه ، وفى طفولته الأولى لا يعى أيضاً هذا الفضل . ولكنه يعى من بعد ذلك أن والده يحضر له كل مستلزمات حياته ، من مأكل وملبس ، ويبقى دور الأم فى نظر الطفل ماضياً خافتاً .

إذن : فحيثية الأم هى المطلوبة ؛ لأن تعبها فى الحمل والإرضاع لم يكن مُدْرَكاً من الطفل .

وكذلك هنا فى هذه الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها ، ترك الحق سبحانه حيثية البر وأبان بالتفصيل حيثية البحر :

﴿هُوَ الَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِى الْفُلْكِ (٢) (٢٢)﴾ [يونس]

---

(١) الفصال : الفطام . والمعنى : أن مدى حمل المرأة إلى منتهى الوقت الذى يُفصل فيه الولد عن رضاعها ثلاثون شهراً ، وفصلت المرأة ولدها أى : فطمته . وقال تعالى : ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِى عَامَيْنِ .. (١٤)﴾ [لقمان] . وقال تعالى : ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ .. (٢٣٣)﴾ [البقرة] . [اللسان : مادة (فصل) - بتصرف] . وقد استنبط العلماء من هذا أن أقل مدة للحمل هى ستة أشهر ، وقد حدث أن امرأة رفع أمرها إلى على بن أبى طالب وأنها حملت ستة أشهر واتهمها زوجها بالزنا ، وبرَّأها على استدلالاً بالجمع بين هذه الآيات . وهو مذهب الجمهور [فقه السنة : ٣/ ٣٦٧] .

(٢) الفلك : السفينة للمذكر والمؤنث والواحد والجمع ، قال تعالى : ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١١٩)﴾ [الشعراء] جعله مفرداً ومذكراً ، أى : المركب ؛ وقال : ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ .. (١٤)﴾ [النحل] جعل الفلك جمعاً ووصفه بقوله : (مَوَاخِرَ) أى : السفن . القاموس القويم (٢/ ٨٩) .

وكلمة (الفلك) تأتى مرة مفردة ، وتأتى مرة جمعاً ، والوزن واحد فى الحالتين ومثال هذا أنه حين أراد الله سبحانه أن ينجى نوحاً عليه السلام ، وأن يغرق الكافرين به ، قال لسيدنا نوح : ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا .. (٣٧)﴾. [هود]

إذن : هى تطلق على المفرد ، وعلى الجمع ، ولها نظائر فى اللغة فى كلتا الحالتين ، فهى فى الإفراد تكون مثل : قُفْل ، وقُرْط . وعند الجمع تكون مثل : أسْد .

والحق سبحانه وتعالى يصف الريح هنا بأنها طيبة ، والقرآن الكريم من طبيعة أسلوبه حين يتكلم عن الريح بلفظ الإفراد يكون المقصود بها هو العذاب ، مثل قوله الحق : ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا .. (٢٥)﴾. [الأحقاف]

وإن تكلم عنها بلفظ الجمع فهى للرحمة ، وسبحانه القائل :

﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ [1] .. (٢٢)﴾. [الحجر]

ويقول سبحانه أيضًا :

﴿وَهُوَ الَّذِى يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ .. (٥٧)﴾. [الأعراف]

---

(١) لواقح : حوامل ؛ لأنها تحمل الماء والسحاب وتقلّبه وتصرّفه ، ثم تستدره ، فهى تلقح السحاب بالماء فيدر ماء وينزل المطر وتلقح الشجر فتعطى نتاجها . [لسان العرب : مادة : (لقح)] وابن كثير (٢/ ٥٤٩).

والرياح هنا جاءت فى صيغة الجمع ، وعلّة وجود ريح للشر [(١)] ، ورياح للخير ، يمكنك أن تستشفها من النظر إلى الوجود كله ؛ هذا النظر يوضح لك أن الهواء له مراحل ، فهواء الرُّخَاء هو الذى يمر خفيفاً ، مثل النسيم العليل ، وأحياناً يتوقف الهواء فلا تمر نسمة واحدة ، ولكننا نتنفس الهواء الساكن الساخن أثناء حرارة الجو ، ثم يشتد الهواء أحياناً ؛ فيصير رياحاً قوية بعض الشىء ، ثم يتحول إلى أعاصير.

والهواء - كما نعلم - هو المقوِّم الأساسى لكل كائن حى ، ولكل كائن ثابت غير حى ، فإذا كان الهواء هو المقوم الأساسى للنفس الإنسانية ، فالعمارات الضخمة - مثل ناطحات السحاب - لا تثبت بمكانها إلا نتيجة توازن تيارات الهواء حولها ، وإن حدث تفريغ للهواء تجاه جانب من جوانبها ؛ فالعمارة تنهار.

إذن: فالذى يحقق التوازن فى الكون كله هو الهواء.

ولذلك نجد القرآن الكريم قد فصّل أمر الرياح وأوضح مهمتها ، وهنا يقول الحق سبحانه: ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ وكأنه سبحانه يتكلم هنا عن السفن الشراعية التى تسير بالهواء المتجمِّع فى أشرعتها. وإذا كان التقدم فى صناعة السفن قد تعدَّى الشراع ، وانتقل إلى البخار ، ثم الكهرباء ، فإن كلمة الحق سبحانه: ﴿رِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ تستوعب كل مراحل الارتقاء ، خصوصاً وأن كلمة «الريح» قد وردت فى القرآن الكريم بمعنى القوة أيا كانت: من هواء ، أو محرك يسير بأية طاقة. وسبحانه

---

(١) ومن الريح ما يسخره الله ويجعله ريح خير ، مثل قوله تعالى عن سليمان عليه السلام: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾﴾[ص] والريح الرخاء هى: الريح اللينة السريعة التى لا تزعزع شيئاً من مكانه. انظر [اللسان مادة (رخو)].

القائل: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ[1] .. (٤٦)﴾. [الأنفال]

وهكذا نفهم أن معنى الريح ينصرف إلى القوة. وأيضاً كلمة «الريح» تنسجم مع كل تيسيرات البحر.

وقوله الحق: ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا﴾ هذا القول الكريم يضم ثلاثة وقائع: الوجود فى الفُلْك، وجرى الفُلْك بريح طيبة، ثم فرحهم بذلك؛ هذه ثلاثة أشياء جاءت فى فعل الشرط، ثم يأتى جواب الشرط وفيه ثلاثة أشياء أيضاً:

أولها: ﴿جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ وثانيها: ﴿وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ وثالثها: ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾.

أما الريح العاصف: فهى المدمرة، ويقال: فلان يعصف بكذا، وفى القرآن: ﴿كَعَصْفٍ[2] مَّأْكُولٍ .. (٥)﴾. [الفيل]

إذن: ﴿رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ هى الريح المدمِّرة المغرِقة. وقوله الحق: ﴿وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾.

فالموج يأتى من أسفل، والريح تأتى من أعلى، وترفع الريح الموج فيدخل الموج إلى المركب، ونعلم أنهم يقيسون ارتفاع الموج كل يوم حسب

---

(١) أى: قوتكم، فالريح هنا معناها القوة وذهاب الريح أى: ذهاب القوة والهيبة، فالقوة هى التوازن فى الحياة، إن استعملت بأخلاق عادت على الإنسانية بالخير والسلام، أما إذا تجردت من الأخلاق أصبحت طغياناً وفساداً فى الأرض وفيما حكاه التاريخ ونشاهده فى دنيا الواقع لأكبر دليل. وقد تطلق على الرائحة، مثل قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ .. (٩٤)﴾ [يوسف]، وهذا يخدم معنى القوة أيضاً، فإن من ذهبت رائحته من الوجود، فهذا دليل على ذهاب قوته.

(٢) العصف المأكول: التبن. والعصف له معنيان:

- أنه جعل أصحاب الفيل كورق أخذ ما فيه من الحَبّ وبقى هو لا حَبّ فيه.
- أو أراد أنه جعلهم كعصف قد أكلته البهائم. [اللسان (مادة: عصف)].

قوة الريح ، فحين تكون الريح خفيفة ؛ يظهر سطح مياه البحر مجعّداً [(١)] ، وحين تكون الريح ساكنة ؛ فأنت لا تجد صفحة المياه مجعدة ، بل مبسوطة ، وقد جاءتهم الريح عاصفاً فيزداد عنف الموج ، ويتحقق نتيجة لذلك الظن بأنهم قد أحيط بهم.

ومعنى الإحاطة هو عدم وجود منفذ للفرار ؛ ولذلك نجد الحق سبحانه يتكلم عن الكافرين بقوله : ﴿ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ..(١٩) ﴾ . [البقرة]

أى: ليس هناك منفذ يفلتون منه.

ولحظة ظنهم أنه قد أحيط بهم ؛ لا يسلمون أنفسهم لهذه الحالة ؛ بدعوى الاعتزاز بأنفسهم غريزياً ، بل يتجهون إلى الله بالدعاء ، هذا الإله الذى أنكروه ، لكنهم لحظة الخطر لا يكذب أحد على نفسه أو يخدعها [(٢)] .

ولذلك نجد سيدنا جعفر الصادق يجيب على سائل سأله: أهناك دليل على وجود الصانع الأعلى ؟ فيقول سيدنا جعفر: ما عملك ؟ فيجيب السائل: تاجر أبحر فى البحر. فسأله سيدنا جعفر: أوَ لم يحدث لك فيه حال ؟ قال الرجل : بل حدث . فسأل سيدنا جعفر : ما هو ؟ قال: حملت بضائعى فى سفينة ، فهبت الريح وعلا الموج وغرقت السفينة وتعلقت بلوح من الخشب. قال سيدنا جعفر: ألم يخطر على بالك أن تفزع إلى شىء ؟ قال الرجل: نعم. قال سيدنا جعفر: هذا الصانع الأعلى.

وكذلك لجأ هؤلاء الذين كفروا بالله إلى الله تعالى حين عصفت بهم الريح ، وعلا عليهم الموج ، وظنوا أنهم قد أحيط بهم ويقول الحق سبحانه

---

(١) المراد بتجعُّد سطح الماء: التموجات التى تبدو على سطح المياه إذا هبّ عليها الهواء.

(٢) لأن فطرة الميثاق الأول تستجيب للإنسان عند الحاجة وعند إيضاح الحقيقة يقول الحق : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ .. (٢٥) ﴾ [لقمان] ، فهذا القول نابع من الفطرة التى غابت عنهم فى زحمة العناد ، ويظهر ذلك جلياً عند حدوث الأخطار .

وتعالى عنهم - وهم فى مثل هذه الحالة: ﴿دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ وهذا يعنى أنهم لم يدعوه فقط ، بل دَعَوْه بإخلاص وأقروا بوحدانيته ، وألاّ شريك له أبداً ؛ لأنهم يعلمون أن مثل هذا الشريك لن ينفعهم أبداً.

ثم يجىء الحق سبحانه بصيغة دعائهم : ﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ فهل وَفَّوْا بالعهد؟ لا ؛ لأن الحق سبحانه يقول بعد ذلك:

﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾

وبعد أن أنجاهم الحق سبحانه مباشرة تأتى «إذا» الفجائية لتوضح لنا أنهم لم ينتظروا إلى أن يستردوا أنفاسهم ، أو تمر فترة زمنية بينهم وبين الدعاء ، وتحقق نتيجة الضراعة ، لا ، بل بغوا [1] - على الفور - فى الأرض ﴿فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾.

والبغى: هو تجاوز الحدّ فى الظلم وهو إفساد ؛ لأن الإنسان إذا ما أخرج أى شىء عن صلاحه ، يقال: «بغى عليه» ، فإن حفرت طريقاً مُمهّداً ؛ فهذا إفساد ، وإنْ ألقيت بنفاية [2] فى بئر يشرب منه الناس ؛ فهذا إفساد وبغى ، وأى شىء قائم على الصلاح فتخرجه عن مهمته وتطرأ عليه بما يفسده ؛ فهذا بغى.

---

(١) البَغْى: الظلم والفساد والكبْر والاستطالة على الناس والإيذاء والجور وأصل البغى: مجاوزة الحدّ. قال تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِى الأَرْضِ .. ﴿٢٧﴾﴾ [الشورى] . وقال: ﴿فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِى تَبْغِى .. ﴿٩﴾﴾ [الحجرات]. [اللسان : مادة (بغى) - بتصرف] .

(٢) نفاية الشىء: بقيته وأردؤه. والنفاية: ما نفيته من الشىء لرداءته. والمراد بالنفاية هنا: الفضلات وكل ما من شأنه تلويث الشىء وإفساده. [اللسان : مادة (نفى) . بتصرف].

والبغى : أعلى مراتب الظلم ؛ لأن الحق سبحانه هو القائل : ﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ .. (٧٦) ﴾ . [القصص]

ويعطينا رسول الله ﷺ صورة البغى الممثَّلة فى الاعتداء بالفساد على الأمر الصالح ، فيقول ﷺ : «أسرع الخير ثواباً : البرّ وصلة الرحم ، وأسرع الشر عقوبة : البغى وقطيعة الرحم»[(١)] .

والحق سبحانه لا يؤخر عقاب البغى وقطيعة الرحم إلى الآخرة ، بل يعاقب عليهما فى الدنيا ؛ حتى يتوازن المجتمع ؛ لأنك إن رأيت ظالماً يحيا فى رضاً ورخاء ثم يموت بخير ، فكل مَنْ يراه ويعلم ظلمه ولم يجد له عقاباً فى الدنيا ، سوف يستشرى فى الظلم .

ولذلك تجد أن عقاب الله تعالى لمثل هذا الظالم فى الدنيا وأن يُرِى الناس نهايته السيئة ، وحين يرى الناس ذلك يتعظون ؛ فلا يظلمون ، وهذا ما يحقق التوازن فى المجتمع .

وإلا فلو ترك الله سبحانه الأمر لجزاء الآخرة ؛ لشقى المجتمع بمن لا يؤمنون بالآخرة ويحترفون البغى ؛ ولذلك يرى الناس عذابهم فى الدنيا ، ثم يكون لهم موقعهم من النار فى الآخرة .

ويقول ﷺ محذراً : «لا تَبْغِ ، ولا تكُنْ باغياً »[(٢)] .

فالباغى إنما يصنع خللاً فى توازن المجتمع . والذى يبغى إنما يأخذ حق الغير ، ليستمتع بناتج من غير كدِّه وعمله ، ويتحوّل إلى إنسان يحترف

---

(١) أخرجه ابن ماجه فى سننه (٤٢١٢) وابن عدى فى الكامل (٤/ ٧٠) ط . دار الفكر ، والذهبى فى ميزان الاعتدال (ت ٣٨٣١) من حديث عائشة ، كلاهما فى ترجمة صالح بن موسى الطلحى ، وهو كوفى ضعيف . وقال ابن عدى : لا يتعمد الكذب . وسياق نص الحديث يؤخذ به .

(٢) أخرجه الحاكم فى مستدركه على الصحيحين (٢/ ٣٣٨) عن أبى بكرة ، وقال : صحيح الإسناد ، ولم يخرجاه . وأقره الذهبى .

فرض الإتاوات [١] على الناس ، ويكسل عن أى عمل غير ذلك. وأنت ترى ذلك فى أبسط المواقع والأحياء ، حين يحترف بعض ممن يغترون بقوتهم الجسدية ، وقد تحولوا إلى (فتوات) [٢] يستأجرهم البعض لإيذاء الآخرين ، والواحد من هؤلاء إنما احترف الأكل من غير بذل جهد فى عمل شريف.

والبغى - إذن - هو عمل مَنْ يفسد على الناس حركة الحياة ؛ لأن من يقع عليهم ظلم البغى ، إنما يزهدون فى الكَدِّ والعمل الشريف الطاهر. وإذا ما زهد الناس فى الكَدِّ والعمل الشريف ؛ تعطلت حركة الحياة ، وتعطلت مصالح البشر ، بل إن مصالح الظالم نفسها تتعطل ؛ ولذلك قال الحق سبحانه: ﴿إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ..(٢٣)﴾. [يونس]

ولقائل أن يسأل: وهل هناك بَغْى بحق ؟

أقول: نعم ؛ لأن البغى اعتداء على الصالح بإفساد. وأنت ساعة ترى إنساناً يفسد الشىء الصالح ، فتسأله: لماذا تفعل ذلك ؛ وقد يجيبك بأن غرضه هو الإصلاح ، ويُعدِّد لك أسباباً لهذا البغى ، فهذا بغى بحق ، أما إن كان بغياً بدون سبب شرعى فهذا هو البغى ، بل قمته.

ومثال البغى بحق ، أقول: ألم يَسْتول النبى ﷺ على أرض «بنى قريظة» ، وأحرق زرعهم وقطع الأشجار فى أراضيهم ، وهدم دورهم؟ أليس فى ذلك اعتداء على الصالح ؟

---

(١) إتاوات: جمع إتاوة وهى قدر من المال يُدْفع غصباً وإجباراً - بدون وجه حق - إلى ذوى السطوة والتسلُّط. وهى تشبه المكوس.

(٢) هذا لفظ يستعمله الناس لكل إنسان منحرف ليتخذ من قوته تهديداً للأمن والسطو على ممتلكات الناس وتخويف الناس. وفى لغة العرب: الْفَتىّ: هو الشاب القوى والفتى: العبد ، وجمعه على القلة فتية. وفى الكثرة فتيان ، والأمة: فتاة ، وَجمعها فتيات. والفتوة عرفت عند العرب بأهل النجدة والعون والاحتساب ، ولكن هذه الكلمة أطلقت على كل منحرف ومحترف الإفساد.

لقد فعل رسول الله ﷺ ذلك ؛ لأنه ردّ على عدوان أقسى من ذلك.

وهكذا نرى أن هناك بغياً بحق ، وبغياً بغير حق. ولذلك يسمي الله جزاء السيئة سيئة مثلها [(١)] ، ويقول سبحانه: ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ (١٩٤)﴾ [البقرة]

ويسميه الحق سبحانه «اعتداء» رغم أنه ليس اعتداء، بل ردّ الاعتداء.

ويطلقها الحق سبحانه وتعالى قضية تظل إلى الأبد بعد ما تقدم ، فيقول: ﴿يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا (٢٣)﴾

[يونس]

وهنا يبين الله سبحانه وتعالى وكأنه يخاطب الباغى: يا مَنْ تريد أن تأخذ حق غيرك ، اعلم أن قصارى [(٢)] ما يعطيك أخذ هذا الحق هو بعض من متاع الدنيا ، ثم تجازى من بعد ذلك بنار أبدية [(٣)].

وأنت إنْ قارنت زمن المتعة المغتصبة الناتجة عن البغى بزمن العقاب عليها ؛ لوجدت أن المتعة رخيصة هينة بالنسبة إلى العقاب الذى سوف تناله عليها ولا تأخذ عمرك فى الدنيا قياساً على عمر الدنيا نفسها ؛ لأن الحق سبحانه قد يشاء أن يجعل عمر الدنيا عشرين مليوناً من السنوات ، لكن عمرك فيها محدود.

---

(١) وذلك فى نحو قوله تعالى ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ..(٤٠)﴾ [الشورى] . وهذا من قبيل المشاكلة ، وهو مصطلح بلاغى مؤداه ذكر الشىء بلفظ غيره لوقوعه فى صحبته ، فالجزاء هنا حق لا يوصف بأنه سيئة ، ولكنه سمى هكذا لمشاكلته لما معه . انظر (الإتقان فى علوم القرآن ٣ / ٢٨١).

(٢) قصارى الشىء: آخره وغايته وهى من معنى القصر، أى: الحبس ؛ لأنك إذا بلغت الغاية حَبَسْتَك. [اللسان : مادة (قصر) - بتصرف].

(٣) ومن أمثلة الغصب والبغى بغير الحق ما رواه ابن مسعود قال: قلت يا رسول الله ، أىّ الظلم أعظم؟ قال: ذراع من الأرض ينتقصها المرء المسلم من حق أخيه ، فليس حصاة من الأرض يأخذها أحد إلا طوّقها يوم القيامة إلى قعر الأرض ، ولا يعلم قعرها إلا الذى خلقها. أخرجه أحمد فى مسنده (١/ ٣٩٦) والطبرانى فى معجمه الكبير (١٠ / ٢٦٦) . قال الهيثمى فى المجمع (٤/ ١٧٤) : «إسناد أحمد حسنٌ».

فاربأوا [(١)] على أنفسكم وافهموا أن متاع الدنيا قليل ، إن كان هذا المتاع نتيجة ظلمكم لأنفسكم ؛ لأن نتيجة هذا الظلم إنما تقع عليكم ؛ لأن مقتضى ما يعطيكم هذا الظلم من المتعة والنعمة هو أمر محدود بحياتكم فى الدنيا ، وحياتكم فيها محدودة ، ولا يظن الواحد أن عمره هو عمر البشرية فى الدنيا ، ولكن ليقسْ كل واحد منكم عمره فى الدنيا وهو محدود.

ولذلك يقول الحق سبحانه فى آية أخرى: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ..(٧٧)﴾ [النساء]

وهنا يؤكد الحق سبحانه : ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم (٢٣)﴾ [يونس]

وقد يتمثل جزاء البغى فى أن يشاء الحق سبحانه ألا يموت الظالم إلا بعد أن يرى مظلومه فى خير مما أخذ منه ؛ ولذلك أقول دائمًا: لو علم الظالم ما ادخره الله للمظلوم منَّ الخير ؛ لضنَّ عليه بالظلم.

وعلى فرض أن الظالم يتمتع بظلمه وهو من متاع الدنيا القليل ، نجد الحق سبحانه يقول: ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ ..(٢٣)﴾ [يونس]

وحين نرجع إلى الله تعالى فلا ظلم أبداً ؛ لأن أحدكم لن يظلم أو يُظلم فكل منكم سوف يَلْقى ما ينبئه به الله سبحانه إنْ ثواباً أو عقاباً ؛ مصداقاً لقوله الحق: ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم [(٢)] بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٣)﴾ . [يونس]

وقد جاء الخبر عن نبأ الجزاء من قبل أن يقع ؛ ليعلَم الجميع أن لكل فعلٍ

---

(١) اربأوا على أنفسكم : حافظوا عليها وأبعدوها عن كل ما من شأنه أن يجلب لها العذاب فى الآخرة. وفى الحديث : «مثلى ومثلكم كرجل ذهب يربأ أهله» أى : يحفظهم من عدوِّهم. [اللسان مادة (ربأ)].

(٢) الأنباء : الأخبار الهامة . قال الحق : ﴿تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا .. (١٠١)﴾ [الأعراف] وقال : ﴿لِكُلِّ نَبَأٍ مُّسْتَقَرٌّ .. (٦٧)﴾ [الأنعام] . أى : لكل خبر عام وقت أو مكان يقع فيه فى المستقبل أو فى الماضى . ونبأه مثل أنبأه . والتضعيف يفيد المبالغة والتكرار . قال الحق : ﴿وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ .. (١٤)﴾ [المائدة] - القاموس القويم جـ ٢ صـ ٢٥٠ ، ٢٥١

مقابلاً من ثواب أو عقاب ، كما أن فى ذكر النبأ مقدَّماً تقريعاً لمن يظلمون أنفسهم بالبغى .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ (١) وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

والماء الذى ينزل من السماء ، هو الماء الصالح للرى وللسقى ؛ لأن المياه الموجودة فى الوجود ، هى مخازن للحياة ، وغالباً ما تكون مالحة ، كمياه البحار والمحيطات ، وشاء الحق سبحانه ذلك ؛ لحمايتها من العفن والفساد ، ثم تتم عملية تقطير المياه بأشعة الشمس التى تحوّل الماء إلى بخار ، ويتجمع البخار كسحاب ، ثم يسقط ماء عَذْباً مقطراً صالحاً للشرب والرّى .

---

(١) الزخرفة : الزينة . قال ابن سيده : الزخرف : الذهب ، هذا الأصل ، ثم سُمّى كل مموَّه مزوَّر به . وبيت مزخرف . وزخرف البيت : زيَّنه وأكمله . وفى الحديث : أن النبى ﷺ لم يدخل الكعبة حتى أمر بالزخرف فنُحِّىَ . وقوله تعالى : ﴿إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا .. ﴿٢٤﴾ ﴾ [يونس] المراد بالزخرف هنا : زينة الحياة الدنيا ومتاعها الزائل الذى يخدع بريقه أعين الغافلين عن الآخرة وما فيها من نعيم مقيم . [اللسان : مادة (زخرف) - بتصرف] . وقال القرطبى : زخرفها ، أى : حُسنها وزينتها . والزخرف : كمال حسن الشىء ومنه قيل للذهب زخرف (تفسير القرطبى : ٤/ ٣٢٥٤) . وقال ابن كثير : زخرفها ، أى : زينتها الفانية . وازيّنت ، أى : حَسُنت بما خرج فى رُبَاها من زهور نضرة مختلفة الأشكال والألوان (تفسير ابن كثير : ٢ / ٤١٣) .

والحق سبحانه يقول هنا: ﴿كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ (٢٤)﴾ [يونس]

والاختلاط: اجتماع شيئين أو أشياء على هيئة الانفصال بحيث يمكن أن تعزل هذا عن ذاك، فإن خلطت بعضاً من حبات الفول مع بعض من حبّات الترمس؛ فأنت تستطيع أن تفصل أيا منهما عن الأخرى، ولكن هناك لوناً آخر من جمع الأشياء على هيئة المزج، مثلما تعصر ليمونة على ماء محلّى بالسكر، وهذا ينتج عنه ذوبان كل جزىء من الليمون والسكر فى جزيئات الماء.

وهنا يقول الحق سبحانه: ﴿كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ﴾ وقد يُفهم من ذلك أن الماء والنبات قد اختلطا معاً، لكن النبات - كما نعلم - ككائن حى مخلوق من الماء مصداقاً لقول الحق سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ .. (٣٠)﴾ [الأنبياء]

وهنا لا بد أن نلتفت إلى الفارق بين «باء» الخلط، و«باء» السببية [(١)] فالباء هنا فى هذه الآية هى باء السببية، وبذلك يكون المعنى: فاختلط بسببه نبات الأرض. وأنت ترى بعد سقوط المطر على الأرض أن المياه تغطى الأرض، ثم تجد بعد ذلك بأيام أو أسابيع، أن سطح الأرض مغطى بالزروع، وكلها مختلطة متشابكة، وكلما تشابكت الزروع مع بعضها فهذا دليل على أن الرى موجود والخصوبة فى هذه الأرض عالية، وهذا نتيجة تفاعل الماء مع التربة.

---

(١) الباء: حرف يجر الاسم الظاهر والمضمر، ويقع أصلياً أو زائداً، ويؤدى عدّة معان، أشهرها خمسة عشر، هى: الإلصاق، والاستعانة، والسببية، والتعدية، والظرفية، والعوض، والمصاحبة، والتبعيض، والمجاوزة، والاستعلاء، والتوكيد، وأن تكون بمعنى كلمة (بدل)، وأن تكون بمعنى كلمة (إلى). انظر تفصيل ذلك فى النحو الوافى (٢/ ٤٩٠ - ٤٩٧).

أما إن كانت الأرض غير خصبة ، فأنت تجد نَبْتة فى منطقة من الأرض ، وأخرى متباعدة عنها ، وهذا ما يطلق عليه أهل الريف المصرى أثناء زراعة الذرة - على سبيل المثال : «الذرة تفلس» أى: أن كل عود من أعواد الذرة يتباعد عن الآخر نتيجة عدم خصوبة الأرض.

إذن: فخصوبة الأرض لها أساس هام فى الإنبات والماء موجود لإذابة عناصر الغذاء للنبات ، فتنتشر بها جذور النبات.

وإن سمحتْ لك الظروف بزيارة المراكز العلمية للزراعة فى «طوكيو» أو «كاليفورنيا» ؛ فلسوف ترى أنهم يزرعون النباتات على خيوط رفيعة ؛ تُسقى بالماء الذى يحتوى على عناصر الغذاء اللازمة للإنبات ؛ لأنهم وجدوا أن أى نبات يأخذ من الأرض المواد اللازمة لإنباته بما لا يتجاوز خمسة فى المائة من وزنه ، ويأخذ من الهواء خمسة وتسعين فى المائة من وزنه .

إذن: فالمطر النازل من السماء خلال الهواء هو الذى يذيب عناصر الأرض ؛ ليمتصها النبات.

والحق سبحانه وتعالى هنا أراد أن يضرب لنا المثل ، والمثل: هو قول شُبِّه مَضْرِبُهُ بِمَوْلده ،أى : شىء نريد أن نمثله بشىء ، ولا بد أن يكون الشىء الممثَل بهَ معلَوماً ، والشىء المأخوذ كمثلٍ هو الذى نريد أن نوضح صورته ؛ ولذلك لا يصح أن نمثل مجهولاً بمجهول ، وإنما نمثل مجهولاً بمعلوم.

وتجد من يقول لك: ألا تعرف فلاناً ؟ فتقول: لا أعرفه ، فيرد عليك صاحبك: إنه مثل فلان فى الشكل. وهكذا عرَّفْتَ المجهول بمعلوم.

وبعض من الذين يحاولون الاعتراض على القرآن ، دخلوا من هذه الناحية ، وقالوا: إذا كان الشىء مجهولاً ونريد أن نعرِّف به ، ألا نعرِّفه

بمعلوم ؟ فما بال الله - سبحانه وتعالى - يقول فى شجرة الزقوم [(١)] : ﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ (٦٤) طَلْعُهَا [(٢)] كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ (٦٥) ﴾ [الصافات]

ما بال الله سبحانه يبين شجرة الزقوم ، وهى شجرة فى النار لا نعرفها ، فيعرِّفها للمؤمنين به بأن طلعها يشبه رءوس الشياطين ، وبذلك يكون سبحانه قد مثَّل مجهولاً بمجهول. والذين قالوا ذلك فاتهم أن الذى يتكلم هو الله تعالى. وقد أراد الحق سبحانه أن يُمثِّل لنا شجرة الزقوم بشىء بشع معلوم لنا ، والبشع المعلوم هو الشيطان.

وشاء الحق سبحانه ألا يحدد البشاعة ؛ حتى لا ينقضى التشبيه ؛ لأن الشىء قد يكون بشعاً فى نظرك ، وغير بشع فى نظر غيرك. ويريد الله سبحانه أن يبشع طلع شجرة الزقوم ؛ فاختار الشىء المتفق على بشاعته ، وهو رءوس الشياطين ، وليتصور كل إنسان صورة الشيطان ، بما ينفر منه ويقبِّحه ، وهكذا تتجلَّى عظمة الحق سبحانه فى أن جعل شكل الشيطان مبهماً [(٣)] .

وأما المثل الذى نحن بصدده هنا وهو تشبيه الحياة الدنيا بأنها كالماء الذى أنزله الحق سبحانه من السماء فاختلط به نبات الأرض ، والحياة الدنيا نحن ندرك بعضها ، وكلٌّ منا يدرك فترة منها ، ولم يدرك أولها ، وقد لايدرك آخرها ، فجاء الحق سبحانه بمثل يراه كل واحد منا ، وهو الزرع

---

(١) شجرة الزقوم هى الشجرة الملعونة فى القرآن، قال تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ .. (٦٠) ﴾ [الإسراء] وأخبر الله تعالى فى كتابه الكريم أنها تخرج فى أصل الجحيم. وثمرها هو الزقوم وهو طعام أهل النار. [اللسان : مادة (زقم) - بتصرف].

(٢) الطلع : غلاف يشبه الكوز ، ينفتح عن حَبّ منضود ، فيه مادة إخصاب النخلة [المعجم الوسيط : مادة (طلع)].

(٣) مبهماً : خافياً. واستبهم الأمر إذا استغلق. والمبهم سمى كذلك لأنه أبهم عن البيان فلم يُجعل عليه دليل. ومنه قيل لما لا ينطق «بَهِيمة» [اللسان : مادة (بهم)].

الذى يرتوى بالمطر ، فأراد الحق سبحانه أن يجمع لنا صورة الدنيا فى مثل معروف لنا جميعاً ، وندركه جميعاً ؛ فندرك ما سبق ،وما يلحق ، فكلٌ شىء يأخذ حظه فى الازدهار ، والجمال ، ثم ينتهى ، كذلك الدنيا.

يقول الحق سبحانه :

﴿كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ (٢٤)﴾ [يونس]

والزخرف: هو الشىء الجميل المستميل للنفس وتُسرُّ به حينما تراه ، وتتزين الدنيا بالألوان المتنوعة فى تنسيق بديع ، ثم يصبح كل ذلك حصيداً [(١)] وهذا ما نراه فى حياتنا ، وهكذا جمع الله سبحانه وتعالى مثل الحياة الدنيا من أولها إلى آخرها بالصورة المرئية لكل إنسان ، حتى لا يخدع إنسان بزخرف الدنيا ولا بزينتها.

والحق سبحانه هو القائل:

﴿فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ (٢٤) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا [(٢)] (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً (٢٩) وَحَدَائِقَ غُلْبًا [(٣)] (٣٠) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا [(٤)] (٣١) مَتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ (٣٢) فَإِذَا

---

(١) حصيداً : محصودة مقطوعة لا شىء فيها ، قال أبو عبيدة : الحصيد : المستأصل. [تفسير القرطبى ٤ / ٣٢٥٤] .

(٢) قال الحسن البصرى : القضب : العلف الذى تأكله الدواب [تفسير ابن كثير : ٤/ ٤٧٢ - بتصرف].

(٣) حدائق غُلباً ، أى : بساتين. وقيل : هى نخل غلاظ كرام. وقيل : هى الشجر الذى يُستظل به. [تفسير ابن كثير : ٤/ ٤٧٢].

(٤) قال ابن عباس : الأب ما أنبتت الأرض مما يأكله الدواب ولا يأكله الناس. وقيل : هو الحشيش للبهائم وقيل : الأب الكلأ. [تفسير ابن كثير : ٤ / ٤٧٢ ، ٤٧٣].

جَاءَتِ الصَّاخَّةُ [(١)] (٣٣) يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٣٧)﴾. [عبس]

إذن: فالدنيا بكل جمالها الذى تراه إنما تذوى [(٢)]، وما تراه من بديع ألوانها إنما يذبل، ومهما ازدانت الدنيا فهى إلى زوال، فإياك أن تبغى؛ لأن البغى فيه متاع الدنيا، والدنيا كلها إلى زوال؛ كزوال الروض التى ينزل عليها المطر؛ فتنبت الأرض الأزهار، ثم يذوى كل ذلك.

وقد قال الحق سبحانه:

﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (١٧) وَلَا يَسْتَثْنُونَ (١٨) فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ (١٩) فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ [(٣)] (٢٠)﴾. [القلم]

إذن: فالدنيا بهذا الشكل وعلى هذا الحال.

---

(١) الصاخة: قال ابن عباس: هى اسم من أسماء يوم القيامة عظَّمه الله وحذَّر منه. وقال البغوى: الصاخة يعنى: صيحة يوم القيامة، سُمِّيت بذلك؛ لأنها تصخ الأسماع، أى: تبالغ فى إسماعها حتى تكاد تصمها. [تفسير ابن كثير: ٤ / ٤٧٣].

(٢) تذوى: تذبل. ذوى النبات: أصابه الحر والعطش فَذَبُلَ وضعف. وذوى عود النبات: يبس. [اللسان: مادة (ذوى)].

(٣) هذا مثل ضربه الله تعالى لكفار قريش فيما أهدى إليهم من الرحمة العظيمة وأعطاهم من النعمة الجميلة، وهو بعثة محمد ﷺ إليهم، فقابلوه بالتكذيب والرد والمحاربة، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ﴾ أى: اختبرناهم ﴿كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ وهى البستان المشتمل على أنواع الثمار والفواكه ﴿إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾ أى: حلفوا فيما بينهم ليَجُذُّن ثمرها (يجمعونه) ليلاً لئلا يعلم بهم فقير ولا سائل؛ ليتوفر ثمرها عليهم، ولا يتصدقوا منه بشىء. ﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾ أى: فيما حلفوا به، ولهذا حَنَّثهم الله فى أيمانهم، فقال تعالى: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ أى: أصابتها آفة سماوية ﴿فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾ قال ابن عباس: أى: كالليل الأسود. وقال الثورى والسدى: أى: هشيماً يبساً. [تفسير ابن كثير: ٤ / ٤٠٦].

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ (٢٤) ﴾ [يونس]

والأرض تتزين بأمر ربها ، والحق سبحانه ينسب الإدراكات إلى ما لا نعرف أن له عقلاً أو إرادة. ألم يقل الحق سبحانه فى قصة العبد الصالح : ﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ [1] .. (٧٧) ﴾. [الكهف]

فهل يملك الجدار إرادة أن ينقضَّ ؟ ولو حققنا الأمر جيداً ؛ لوجدنا أن الحق سبحانه جعل لكل كائن فى الوجود حياة تناسبه ، وله إرادة تناسبه ، وله انفعال يناسبه. وقد ضرب الحق سبحانه لنا فى ذلك صوراً شتّى، فنجد أن الشىء الذى يعزُّ على عقولنا أن تفهمه يبرز لنا ببيان من الله تعالى.

ومثال هذا: معرفة الهدهد فى قصة سليمان عليه السلام بالتوحيد ، وكيف أخبر هذا الهدهد سيدنا سليمان عليه السلام بحكاية مملكة سبأ حيث يسجد الناس هناك للشمس من دون الله ، فكأن الهدهد قد علم مَنْ يستحق السجود له إذ قال : ﴿ أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِى يُخْرِجُ الْخَبْءَ [2] فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ .. (٢٥) ﴾. [النمل]

ومن كان يظن أن الهدهد ، وهو طائر ، يكون على هذه البصيرة بالعقائد على أصفى ما تكون؟ لأن الحق سبحانه أراد أن يبيّن لنا أن هذا

---

(١) يريد أن ينقض : الانقضاض السقوط بسرعة وإضافة إرادة الانقضاض إلى الجدار مجاز عن قرب سقوطه ، وذلك على التشبيه بحال منْ يريد الفعل ، وفى كتاب الله قوله : ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ .. (١٥٤) ﴾ [الأعراف] وقوله : ﴿ فَإِذَا عَزَمَ الأَمْرُ .. (٢١) ﴾ [محمد] [تفسير سورة الكهف للشيخ محمد محمد المدنى - بتصرف] .

(٢) الخبء: ما خُبىء . والخبء الذى فى السمـٰوات هو المطر ، والخبء الذى فى الأرض هو النبات . وقيل: الخبء كل ما غاب، فيكون المعنى: يعلم الغيب فى السمـٰوات والأرض. [اللسان: مادة (خبأ)].

الطائر لا هوى له يفسد عقيدته ، وأن أهواءنا هى التى تفسد العقائد ، ومَنْ أعطاه الله سبحانه البدائل هو الذى يفسد الاختيار ما دام لا يحرس الاختيار بالإيمان ، وأن يختار فى ضوء منهج الله تعالى.

ونحن نرى أن ما دون الإنسان من طائر أو حيوان لا يفسد شيئاً ؛ لأن غريزته تقوده ، فلا نجد حيواناً يأكل فوق طاقته ، لكننا نجد إنساناً يصيب نفسه بالتخمة [(١)] ، ولا نجد حماراً يقفز فوق قناة من الماء لا يقدر عليها ، بل نراه وهو يتراجع عنها ، ولكنا نجد إنساناً يشمر عن ساعديه [(٢)] ؛ ليقفز فوق قناة مياه ؛ فيقع فيها [(٣)] .

إذن: فنحن بأهوائنا التى تسيطر على غرائزنا نوقع أنفسنا فيما يضرنا ، ما لم نحرس أنفسنا بمنهج الله سبحانه وتعالى. ونجد فى مثال الهدهد صفاءً عقدياً فى التوحيد كأصفى ما يكون المتصوِّفة ، ويأتى بما يهمه ﴿ **أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِى يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِى السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ** ﴾ لأن الخبء هو رزق الهدهد ، فهو لا يأكل من الشىء الظاهر على سطح الأرض ، بل يضرب بمنقاره الأرض ؛ ليأتى لنفسه بما يطعمه .

ويعطينا الحق سبحانه مثلاً آخر بالنملة التى قالت: ﴿ **يَـٰأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (١٨)** ﴾ .

[النمل]

---

(١) التخمة: الذى يصيب الإنسان من الطعام إذا استوخمه أى: استثقله. وقد تطلق «التخمة» على كثرة الطعام والمبالغة فى الأكل والشرب حتى يثقل على الجسم هضم الطعام ؛ فيصاب الإنسان بالوخم والثقل وعدم القدرة على الحركة. [اللسان: مادة وخم].

(٢) الساعد: ملتقى الزندين من عند المرفق إلى الرسغ. والساعد: ساعد الذراع ، وهو ما بين الزندين والمرفق ، سُمِّى ساعداً لمساعدته الكَفّ. وجمع الساعد: سواعد. [اللسان: مادة (سعد)].

(٣) وهذا مصداق قوله تعالى: ﴿ **إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً (٧٢)** ﴾ [الأحزاب].

وهذه دقة عدالة من هذه النملة ، فإنها لم تقل: إن سليمان وجنوده سيحطمون أخواتها من النمل ظلمًا لهم ، بل قالت : ﴿وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ لأنكم لا تظهرون تحت أرجلهم.

إذن: كل كائن فى الوجود له حياة تناسبه ، ولكن الآفة أننا نريد أن نتصور الحياة فى كل كائن ، كتصورها فى الكائن الأعلى وهو الإنسان.

ولا بد لنا أن نعلم أن النبات له حياة تناسبه ، والحيوان له حياة تناسبه ، والجماد له حياة تناسبه ، وكل شىء فى الحياة له لون من الحياة المناسبة له.

وقد أوضحنا من قبل أن الحق سبحانه قد قال: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ .. (٤٢)﴾. [الأنفال]

والهلاك مقابل للحياة ، والحياة مقابلة للموت ، والهلاك يساوى الموت. والحق سبحانه يصور الحالة يوم القيامة فيقول: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ ..(٨٨)﴾. [القصص]

إذن: فالجماد هالك ، ولكنه يتمتع بلون من الحياة لا نعرفه ، وكذلك كل كائن له حياة تناسبه ، والآفة أن الإنسان يريد أن يعرِّف الحياة التى فى الجماد كالحياة فى الإنسان.

وانظر إلى دقة الأداء القرآنى فى قوله الحق : ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا(٢٤)﴾ [يونس]

وقد جاء هذا القول من قبل أن يتقدم العلم ويثبت أن الأرض تشبه الكرة ، وأنها تدور ، وأن كل ليل يقابله نهار ، وكذلك جاء قول الحق

سبحانه: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ (٩٧) أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى .. (٩٨)﴾. [الأعراف]

إذن: فأمر الله سبحانه يتحقق حين يشاء، وهو أمر واحد عند من يكونون فى ضحى أو فى ليل.

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا [١] كَأَن لَّمْ تَغْنَ [٢] بِالْأَمْسِ (٢٤)﴾. [يونس]

أى: كأنها لم يكن لها وجود.

ويُنهى الحق سبحانه الآية بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢٤)﴾ [يونس]

فإذا كانت الدنيا كلها مثل عملية الزرع فى الأرض الذى ينمو ويزدهر ويزدان، ثم ينتهى، ألا يجب أن ننتبه إلى أن كل زخرف إلى زوال؛ وعلينا ألا نفتتن بزينة الدنيا ومتاعها فى شىء، وأن نحرص على ألا نبغى فى الأرض؛ لأن البغى متاع الحياة الدنيا، وهى إلى زوال[٣].

ونجد القرآن يأتى بذكر التفصيل للآيات، ويتبع ذلك بأن هذا التفصيل لقوم «يتفكرون»، أو «يتذكرون»، أو «يعقلون»، أو «يتدبرون».

وكل هذه عمليات تتناول المعلوم الواحد فى مراحل متعددة، فالتعقُّل:

---

(١) الحصيد والحصد: الزرع المحصود بعد ما يحصد، والمراد بالحصيد هنا: تشبيه وتصوير إهلاك الله للأرض فى نهاية الدنيا بما يحدث عند حصد النبات من اقتلاعه وتقطيعه. [اللسان: مادة (حصد) - بتصرف].

(٢) ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ﴾ أى: لم تكن عامرة، والمغانى فى اللغة: المنازل التى يعمرها الناس. وقال قتادة: كأن لم تنعم. وقرأ قتادة (يغن) بالياء، يذهب به إلى الزخرف، يعنى: فكما يهلك الزرع هكذا، كذلك الدنيا. [تفسير القرطبى: ٤/ ٣٢٥٤].

(٣) يقول الله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٢٧)﴾ [الرحمن].

هو أن تأتى بالمقدمات ؛ لتستنبط ولترى إلى أى نتائج تصل . والتذكُّر يعنى: ألا تنسى وألا تغفل عن الأمر الهام . والتفكُّر: هو أن تُعْمل الفكر. والفارق بين الفكر والعقل هو أن العقل أداة التفكُّر . والتدبُّر [1]: هو ألا تنظر إلى ظواهر الأشياء ، بل إلى المعطيات الخفية فى أى أمر .

والحق سبحانه يقول: ﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرآنَ ..(٨٢) ﴾. [النساء]

أى: اجعل بصيرتك تمحِّص البدايات والنهايات ؛ لتعرف أن المرجع والمصير إلى الله تعالى. والعاقل هو مَنْ يعدّ نفسه للقاء الله سبحانه ، وقد يرهق نفسه فى الدنيا الفانية ؛ ليستريح فى الآخرة.

وإذا نظرنا إلى الدنيا والآخرة من خلال معادلة تجارية ، سنجد أن الآخرة لا بد وأن ترجح كفتها ؛ لأن عمر الإنسان فى الدنيا مظنون ، ولا يعرف فرد هل يحيا فى الدنيا عاماً أو عشرة أو سبعين أو مائة عام.

ومهما طالت الدنيا مع كل الخَلْق فهى منتهية ، والنعيم فيها على قدر إمكاناتك البشرية وعلى قدر تصورك للنعيم ، أما الآخرة فهى بلا نهاية ، وأمر الإنسان فيها متيقَّن ، والنعيم فيها على قدر عطاءات الله تعالى ومراده سبحانه للنعيم . فإن قارنت هذا بذاك وقارنت الدنيا بالآخرة لرجحتْ كفّة الآخرة.

لذلك يقول الحق سبحانه: ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ [2] لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٦٤) ﴾. [العنكبوت]

---

(١) التدبر فى الأمر. التفكر فيه وأن تنظر إلى ما تؤول إليه عاقبته ، وفلان ما يدرى قبال الأمر من دباره ، أى: أوّله من آخره. ويقال: إن فلاناً لو استقبل من أمره ما استدبره لهُدىَ لوجهة أمره ، أى: لو علم فى بدء أمره ما علمه فى آخره لاسترشد لأمره . قال تعالى: ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الأَلْبَابِ (٢٩) ﴾ [ص] . [اللسان: مادة (دبر) - بتصرف].

(٢) ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ .. (٦٤) ﴾ [العنكبوت] أى: هى الحياة الدائمة التى لا زوال لها ولا انقضاء ، بل هى مستمرة أبد الآباد. [تفسير ابن كثير : ٣/ ٤٢١].

وفى قوله سبحانه: ﴿لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾ . مبالغة فى كونها حياة لا فناء فيها. فاتبع منهج الله سبحانه ؛ ليأخذك هذا المنهج إلى دار السلام والسلامة من الآفات. واضمن لنفسك الخروج من دار الفناء والأغيار ، وَضَعْ يدك فى يد من يدعوك إلى دار السلام.

ولذلك يقول الحق سبحانه:

﴿وَاللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ[1] وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾

ودار السلام: هى الآخرة التى تختلف عن دار الدنيا المليئة بالمتاعب ، هذه الدنيا التى تزهو وتتزخرف ، وتنتهى إلى حطيم ؛ لذلك يدعو الله تعالى إلى دار أخرى ، هى دار السلام ؛ لأن من المنغِّصات على أهل الدنيا ، أن الواحد منهم قد يأخذ حظه جاهاً ، ومالاً ، وصحة ، وعافية ، ولكن فى ظل أرق من أمرين: الأول هو الخوف من أن يفوته هذا النعيم وهو حى ، والثانى أن يفوت هو النعيم.

أما الآخرة فالإنسان يحيا فيها فى نعيم مقيم ؛ ولذلك يقول الله سبحانه: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ﴾.

وهذه الآخرة لن يشاغب فيها أحدٌ الآخر ، ولن تجد من يأكل عرق غيره

---

(١) دار السلام هى الجنة ؛ لأنها دار الأمان والسلامة من كل سوء يقول الحق: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ .. (٥٤)﴾ [الأنعام] وسلم تأتى لمعان منها: ألقى السلام وانقاد وأذعن ، وسلمه الله: أنجاه . وسلمه الأمانة أوصلها لصاحبها ، وأداها فهى مُسلَّمة ، يقول الحق: ﴿مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا .. (٧١)﴾ [البقرة] وأسلم قلبه: أخلص . وأسلم: دخل فى دين الإسلام ، يقول الحق: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٣١)﴾ [البقرة] القاموس القويم جـ ٢ صـ ٣٢٥

مثلما يحدث فى الدنيا [(١)] ، وإذا كنا نعيش فى الدنيا بأسباب الله ، فنحن فى الآخرة نعيش بالله سبحانه وتعالى، فكل ما يخطر على بالك تجده .

فإذا كانت الأسباب تتنوع فى الدنيا وتختلف قدرات الناس فيها مع أخذهم بالأسباب ، فإنهم فى الآخرة يعيشون مع عطاء الله سبحانه دون جهد أو أسباب ؛ لأن دار السلام هى دار الله تعالى ، فالله تعالى هو السلام.

ولله المثلى الأعلى ، فأنت إذا دعاك ولى أمرك إلى داره ، فهو يُعدّ لدعوتك على قدره هو ، وبما يناسب مقامه ، فما بالك حين يدعوك خالقك سبحانه وقد اتبعت منهجه. إنه سبحانه هو القائل:

﴿ إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَاكِهُونَ [(٢)] (٥٥) هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِى ظِلالٍ عَلَى الأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ [(٣)] (٥٦) لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ (٥٧) سَلامٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ (٥٨) ﴾. [يس]

وهذا السلام ليس من البشر ؛ لأن من البشر من يعطيك السلام وهو يُكِنُّ لك غير السلام ، أو قد يعطيك السلام وهو يريد بك السلام ، ولكنه

---

(١) وفى هذا يقول رب العزة عن أهل الجنة : ﴿ لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلا تَأْثِيمًا (٢٥) إِلاَّ قِيلاً سَلامًا سَلامًا (٢٦) ﴾ [الواقعة] . فهم لا يسمعون فيها كلاماً عبثاً أو فيه تبح ، بل قولهم لبعضهم سلاماً سلاماً ، أى : تسليمهم على بعضهم ، فهى دار السلام .

(٢) ﴿فِى شُغُلٍ فَاكِهُونَ﴾ : مرفّهون ناعمون بنعيم الجنة . قال تعالى : ﴿ فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ .. (١٨) ﴾ [الطور] . [اللسان : مادة (فكه) - بتصرف].

(٣) ﴿عَلَى الأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ﴾ قال المفسرون: الأرائك: السُّرُر فى الحجال ، وقيل: هى الفُرُش. وقيل: الأريكة: سرير منجَّد مزين فى قُبَّة أو بيت. وقيل: الأريكة: هو كل ما اتكىء عليه من سرير أو فراش أو منصة. قال تعالى: ﴿ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ .. (٣١) ﴾ [الكهف]. [اللسان: مادة (أرك) - بتصرف].

من الأغيار [١]؛ فيتغير فلا يقدر أن يعطيك هذا السلام ، لكن إذا ما جاء السلام من الله تعالى ، فهو سلام من رب لا يعجزه شيء ، ولا يُعوزه شيء ، ولا تلحقه أغيار ؛ لذلك يقول سبحانه : ﴿ **وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلامٌ عَلَيْكُم.. (٢٤)** ﴾ . [الرعد]

والملائكة حين يقولون ذلك إنما أخذوا سلامهم من باطن سلام الله تعالى ، وحتى أصحاب الأعراف [٢] الذين لم يدخلوا الجنة ، ويرون أهل الجنة وأهل النار ، هؤلاء يلقون السلام على أهل الجنة . وهكذا يحيا أهل الجنة فى سلام شامل ومحيط ومطمئن ؛ لأن الداعى هو الله سبحانه ، ولا أحد يجبره على أن ينقض سلامه .

ودعوة الله سبحانه هى منهجه الذى أرسل به الرسل ؛ ليحكم به حركة الحياة حركة إيمانية ، يتعايش فيها الناس تعايشاً على وَفْق منهج الله تعالى ، بما يجعل هذه الدنيا مثل الجنة ، ولكن الذى يرهق الناس فى الدنيا أن بعض الناس يعطلون جزئية أو جزئيات من منهج [٣] الله سبحانه .

وأنت إذا رأيت مجتمعاً فيه لون من الشقاء فى أى جهة ؛ فاعلمْ أن جزءًا من منهج الله تعالى قد عُطِّل .

---

(١) فالسلام عند أهل الأغيار يتغير حسب المصالح ، أما سلام الله فلا يلحقه التغيير ولا التبديل ، لأن وعده الحق ، وقوله الصدق ، وهو السلام ، ومنه السلام .

(٢) أصحاب الأعراف هم قوم تساوت حسناتهم وسيئاتهم ، فيقفون بين الجنة والنار يوم القيامة ، ينظرون إلى أهل هذه وأهل تلك ، ينتظرون عفو الله عنهم ، وفيهم قال سبحانه : ﴿ **وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ (٤٦) وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤٧)** ﴾ [الأعراف] .

(٣) منهج الله تعالى : طريقه وشريعته ، قال تعالى : ﴿ **لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا (٤٨)** ﴾ [المائدة] . فقد وضع منهجاً للروح سمواً ، وللقلب حباً ، وللنفس سكينة وللعقل فكراً وتأملاً وللجسم حركة . ومنهج هذه الطاقات يوجد مجتمع الربوبية بعقيدة توحده ، وعباده تحبه وتخشاه ومعاملات بأخلاق فإذا اختلت طاقة من هذه الطاقات بسبب نسيانه أو غفلة تعطل المسير فى المنهج نحو الله جل علاه .

ولو أن الناس قد ساروا على منهج الله سبحانه وتعالى ؛ لما كان بالوجود عورة واحدة ؛ فالذى يُظهر عورات الوجود هو غفلة بعض الناس عن منهج الله سبحانه.

وأنت إنْ رأيت فقراء لا يجدون ما يأكلونه ؛ فاعلمْ أن هناك مَنْ عطَّل منهج الله تعالى ، إما من الفقراء أنفسهم ، الذين استمرأ [1] بعضهم الكسل ، وإما أن الأغنياء قد ضنوا برعاية حق الله تعالى فى هؤلاء الفقراء ؛ وبذلك يتعطل منهج الله سبحانه.

أما إذا سيطر منهج الله تعالى على الحياة ؛ لصارت الحياة مثل الجنة.

ويقول الحق سبحانه: ﴿وَيَهْدِى مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ ونعلم أن الهداية نوعان: هداية الدلالة بالمنهج ، فمن أخذ المنهج سهَّل الله تعالى له طريق الصراط المستقيم ؛ وبذلك انتقل العبد من مرحلة الهداية بالدلالة إلى الهداية بالمعونة ، وحين تقوم القيامة يهديهم الله سبحانه بالنور إلى الجنة: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ ..(٩)﴾. [يونس]

إذن: فمن أخذ هداية الله بالدلالة وهى المنهج ، واتبع هذا المنهج ؛ فالحق سبحانه يجعل له نوراً يسعى بين يديه: ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ .. (٨)﴾. [التحريم]

والحق سبحانه يقول: ﴿وَيَهْدِى مَن يَشَاءُ (٢٥)﴾ [يونس]

لأن كل شىء فى هذا الكون لا يخرج عن مشيئته سبحانه ، فالقوانين لا تحكمه ، بل هو الذى يحكم كل شىء.

وإذا كان الله قد بيّن من شاء هدايته ، فهو أيضاً قد بيّن لنا من شاء إضلاله بقوله سبحانه: ﴿وَاللَّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٣٧)﴾. [التوبة]

---

(١) استمرأ : استحسن الشىء واعتاده. [اللسان : مادة (مرأ) - بتصرف].

وقوله سبحانه: ﴿وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٢٤)﴾. [التوبة]

إذن: فقد بيّن الحق سبحانه لنا من الذين يهديهم إلى الجنة ومن الذين لا يهديهم، فلا يقولن أحد: وما ذنب الكافرين والفاسقين [(١)]؟ لأن الحق سبحانه قد بين منهجه، فمن أخذ به؛ جعل له نوراً يسعى بين يديه، ويدخله الجنة.

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه:

﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٦)﴾

وكلمة ﴿الْحُسْنَى﴾ مثلها مثل قولنا: «امرأة فُضْلى» ونقول أيضاً: امرأة كبرى، وهى أفعل تفضيل، أى: مبالغة فى الفضل [(٢)].

والمقصود بقوله سبحانه: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ﴾ أى: بالغوا فى أداء الحسنات، والحسنة كما نعلم بعشرة أمثالها، وهنا يقول الحق سبحانه: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ فما هذه الزيادة؟

نقول: هى عطاء زائد فى الحسنات، فهناك «كادر» للجزاء بالحسنات، يبدأ بعشرة أمثال الحسنة ويصل إلى سبعمائة ضعف، أما السيئة

---

(١) يقول الحق سبحانه: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ (١٢٦)﴾ [طه].

(٢) أفعل التفضيل: اسم مشتق على وزن (أفعل) يدل غالباً على أن شيئين اشتركا فى معنى، وزاد أحدهما فيه على الآخر. مثل (أحسن - أفضل - أكبر) فى مثل قولنا: نعيم الآخرة أحسن وأفضل وأكبر من متاع الدنيا. وعند التأنيث تصاغ الكلمة على وزن (فُعْلَى) مثل: (حُسنَى - فُضْلَى - كُبْرَى). انظر تفصيل ذلك فى (النحو الوافى: ٣/ ٣٩٤ - ٤١٥).

فبواحدة [(١)]. وهذا «الكادر» لا يحدد فضل الله تعالى ، بل الحق سبحانه يزيد من فضله مَنْ يشاء.

ولذلك يجب ألا نفرق بين عدل الله سبحانه فى أن الشىء يساوى الشىء ، وفضل الله تعالى فى أن يجزى على الشىء الحسن بأضعاف أضعاف ما نتصور.

والحق سبحانه يقول: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا..(٥٨)﴾ [يونس]

وقال قوم من العارفين بالله: إن الزيادة المقصودة هى فى العشرة الأمثال والسبعمائة ضعف ، والفضل هو ما فوق ذلك.

وهكذا تتعدد مراتب الجزاء : فهناك العشرة الأمثال ، والسبعمائة ضعف ، والحسنى ، والزيادة عن الحسنى ، وقد قال رسول الله ﷺ فى ذلك: «إذا دخل أهل الجنة الجنة قال: يقول الله تبارك وتعالى: تريدون شيئاً أزيدكم. فيقولون: ألم تُبيِّض وجوهنا ؟ ألم تُدخلنا الجنة وتُنجِّنا من النار ؟ قال: فيكشف الحجاب فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل» [(٢)].

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾ أى: لا يغطى وجوههم غبار ، وهو سبحانه القائل: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣)﴾. [القيامة]

---

(١) عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : قال الله عز وجل: «إذا هَمَّ عبدى بحسنة ولم يعملها كتبتها له حسنة ، فإن عملها كتبتها عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف ، وإذا هم بسيئة ولم يعملها لم أكتبها عليه، فإن عملها كتبتها سيئة واحدة» أخرجه مسلم فى صحيحه (١٢٨) والبخارى فى صحيحه (٦٤٩١) بلفظ آخر عن ابن عباس .

(٢) أخرجه مسلم (١٨١) وأحمد فى مسنده (٤/ ٣٣٢) والترمذى فى سننه (٢٥٥٢) من حديث صهيب الرومى.

وهو سبحانه القائل : ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤٠) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (١) (٤١)﴾ . [عبس]

وترهقها : أى : تغطيها ، وقترة تعنى : الغبار ، وهى مأخوذة من القُتار وهو الهواء الذى يمتلىء بدخان الدُّهْن المحترق من اللحم المشوى ، وقد تكون رائحته أخَّاذة ويسيل لها اللعاب ، ولكن مَنْ يوضع على وجهه هذا القتار يصنع له طبقة سوداء .

ويقول الحق سبحانه : ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ (٢٦)﴾ [يونس]

لأنهم اتقوا الله سبحانه وأحبوا منهجه .

ويقول الحق سبحانه : ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ .. (١٠٦)﴾

[آل عمران]

فليس المقصود هو لون الوجه فى الدنيا ؛ لأنك قد تجد إنساناً أسود اللون لكنه بالإيمان قد أشرق وجهه ، وأحاطت ملامحه هالة من البهاء . وهناك من هو أبيض الوجه ولكنه من فرط معصية الله صار وجهه بلا نور .

ويقول الحق سبحانه : ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٦)﴾ [يونس]

أى : أنهم ملازمون للجنة ملازمة الصاحب لصاحبه ، أو «أصحاب الجنة» أى : مَنْ يملكونها .

يقول الحق سبحانه بعد ذلك :

---

(١) القَتَرُ : جمع القَتَرة ، وهى الغَبَرة . وفى التهذيب : القترة غبرة يعلوها سواد كالدخان ، والقُتَار : ريح القدْر ، وقد يكون من الشِّواء والعظم المحترق ، وريح اللحم المشوىّ . وفى حديث جابر ، رضى الله عنه : لا تؤذ جارك بقُتار قدْرك . [اللسان : مادة (قتر)] .

﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٧)﴾

وما دام الحق سبحانه قد جاء بمن دعاهم إلى دار السلام وأعطاهم الجنة جزاء للعمل الحسن ، فذكر مقابل الشيء يجعله ألصق بالذّهن ، والحق سبحانه هو القائل : ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً .. (٨٢)﴾ . [التوبة]

وأيضاً من أمثلة المقابلة [1] فى القرآن قوله الحق : ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (١٤)﴾ [الانفطار]

إذن : فمجيء المقابل للشيء إنما يرسِّخه فى الذهن ؛ ولأن الحق سبحانه قد تكلم عن الدعوة إلى دار السلام ، ومن دخل هذه الدعوة ؛ فله الجنة خالداً فيها ، لا يرهق وجهه قتر ولا ذلة ، كان لا بد أن يأتى بالمقابل ، وأن يبشِّع رفض الدعوة لدار السلام ، ويحسِّن الأمر عند من يقبلون الدعوة .

ولا بد - إذن - أن يفرح المؤمن ؛ لأنه لن يكون من أهل النار ، ولا بد أيضاً أن يخرج بعض من الذين ضلّوا عن الغفلة ؛ ليهربوا من مصير النار ، ويتحولوا إلى الإيمان .

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ .. (٢٧)﴾ [يونس]

---

(١) المقابلة نوع من أنواع المطابقة أو الطباق ، ويقصد بها الجمع بين متضادين فى الجملة ، فالمقابلة هى أن يُذكر لفظان فأكثر ، ثم أضدادهما على الترتيب . ومن أمثلتها أيضاً قوله تعالى : ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ (١٥٧)﴾ [الأعراف]. انظر : الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى (٣/ ٢٨٤ - ٢٨٧).

ونحن نعلم أن الكسب إنما يكون فى الأمر الفطرى ويناسب الطاعات ؛ لأن الطاعة أمر مناسب وملائم للفطرة ، فلا أحد يستحى أن يصلِّى، أو يتصدق ، أو يصوم ، أو يحج ، لكن من الناس من يستحى أن يُعرف عنه أنه كاذب ، أو مُرَابٍ ، أو شارب خمر .

والإنسان حين يرتكب السيئة يمر بتفاعلات متضاربة ؛ فالذى يسرق من دولاب والده وهو نائم ، تجده يتسلل على أطراف أصابعه ويكون حذراً من أن يرتطم بشىء يفضح أمره ، كذلك الذى ينظر إلى محارم غيره .

كل هذا يدل على أن ارتكاب الشىء المخالف فيه افتعال ، أى : يحتاج إلى اكتساب ، ولكن الكارثة أن يستمر الإنسان فى ارتكاب المعاصى حتى تصير دُرْبة ، ويسهل اعتياده عليها ؛ فيمارس المعصية باحتراف ؛ فتتحول من اكتساب إلى كسب .

أو أن يصل الفاسق من هؤلاء إلى مرتبة من الاستقرار على الانحلال ؛ فيروى ما يفعله من معاص وآثام بفخر ، كأن يقول : « لقد سهرنا بالأمس سهرة تخلب العقل ، وفعلنا كذا وكذا » ، ويروى ذلك ، وكأنه قد كسب تلك السهرة بما فيها من معاص وآثام .

ومن رحمة الله سبحانه بالخلق أنه يجازى مرتكب السيئة بسيئة مثلها ، فيقول سبحانه : ﴿ **جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا** ﴾ ، وتتجلى أيضاً رحمة الحق سبحانه وتعالى حين يعطى من لا يرتكب السيئة مرتبة ؛ فيصير ضمن من قال عنهم الحق سبحانه : ﴿ **لَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ** ﴾ لكن الذين لم يهتدوا منهم من يقول الحق سبحانه عنهم : ﴿ **مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ** ﴾ أى : لن يجيرهم أحد عند الله تعالى ، ولن يقول أحد لله سبحانه : لا تعذِّبْهم .

أو أن (لا عاصم لهم) بمعنى : أن الله تعالى لن يأمر بعد ذلك بألاّ يُعذَّبوا .

ولا يقتصر أمرهم على ذلك فقط ، بل يقول الحق سبحانه : ﴿كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا﴾ أى : كأن قطعاً من الليل المظلم قد غطت وجوههم ، ويكون مأواهم النار ﴿أُوْلَـٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ .

هذا هو حال الذين كذَّبوا بآيات الله تعالى وكذبوا الرسل ، وتأبَّوا عن دعوة الله سبحانه وتعالى إلى دار السلام واتبعوا أهواءهم واتخذوا شركاء من دون الله تعالى .

وشاء الحق سبحانه أن يُجلِّى لنا ذلك كله فى الدنيا ؛ حتى يكون الكون كله على بصيرة بما يحدث له فى الآخرة ؛ لأنه نتيجة حتمية لما حدث من هؤلاء فى الدنيا .

يقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ ۚ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾﴾

والحشر : هو أخذ الناس من أمكنة متعددة إلى مكان واحد ، وستقذف هذه الأمكنة المتعددة مَنْ فيها مِنَ الكَفَرة ؛ ليصيروا فى المكان الذى شاءه الله سبحانه لهم .

وكلما اقترب الناس من هذا المكان ؛ ازدحموا ، وذلك شأن الدائرة

بمحيطها ، والمحيطات الداخلة فيها إلى أن تلتقى فى المركز ، فأنت إذا نظرت إلى محيط واسع فى دائرة ، وأخذت بعد ذلك الأفراد من هذا المحيط الواسع ؛ لتلقى بهم فى المركز ؛ فلا شك أنك كلما اقتربت من المركز ؛ فالدوائر تضيق ، ويحدث الحشر .

فكأننا سنكون مزدحمين ازدحاماً شديداً ، ولهذا الازدحام متاعب ، ولكن الناس سيكونون فى شغل عنه بما هم فيه من أهوال يوم القيامة [(١)] .

وقوله الحق : ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ﴾ تفيد الجمع المؤكد لحالات الذين لم يستجيبوا لمنهج الله تعالى ، ولا لدعوة الله سبحانه لهم لدار السلام ، وكذبوا رسلهم ، واتخذوا من دون الله تعالى أنداداً ، فيجمع الله سبحانه المُتَّخِذَ أنداداً [(٢)] ، والمُتَّخَذَ نداً ، ويواجههم ؛ لتكون الفضيحة تامة وعامة ، بين عابد عبد باطلاً ، ومعبود لم يطلب من عابده أن يعبده ، أو معبود طلب من عابده أن يعبده .

لذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ .. (٢٨) ﴾ [يونس]

وهكذا يتلاقى من عَبَدَ الملائكة مع الملائكة ، ويتلاقى من عَبَدَ رسولاً وجعله إلهاً ، ومن عبد صنماً ، أو عبد شمساً ، أو عبد قمراً ، أو جنّاً

---

(١) عن عائشة رضى الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غُرْلاً » قلت : يا رسول الله ، النساء والرجال جميعاً ينظر بعضهم إلى بعض . قال ﷺ : « يا عائشة الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض » . أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٨٥٩) والبخارى (٦٥٢٧) فهول يوم القيامة هول شديد ، حتى إن الناس يتمنون أن ينتهى يوم الحساب حتى ولو كان مصيرهم إلى النار .

(٢) الند : المثل والنظير ، والجمع أنداد . قال تعالى : ﴿ وجعلوا لله أنداداً .. (٣٠) ﴾ [إبراهيم] أى : أضداداً وأشباهاً . وقال تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ (١٦٥) ﴾ [البقرة] [اللسان : مادة (ندد)] .

أو شيطاناً من شياطين الإنس أو شياطين الجن.

إذن : فالمعبودون متعددون ، وكل معبود من هؤلاء له حكم فى ذلك الحشر ، وستكون المواجهة علنية مكشوفة .

فإذا نظرنا إلى العابد الذى اتخذ إلهاً باطلاً سواء أكان من الملائكة أو رسولاً أرسل إليهم ؛ ليأخذهم إلى عبادة إله واحد - هو الله سبحانه وتعالى - ففتنوا فى الرسول وعبدوه ، أو عبدوا أشياء لا علم لها بمن يعبدها : كالأصنام ، والشمس ، والقمر ، والأشجار .

أما المعبود الذى له علْم ، وله دعوة إلى أن يعبده غيره ، فهو يتركز فى شياطين الإنس ، وشياطين الجن ، وإبليس .

أما الملائكة فإن الله - سبحانه وتعالى - يواجههم بمن عبدهم ، فيسألهم : أأنتم وعدتم هؤلاء ؛ ليتخذوكم آلهة ، فيقولون : سبحانك أنت ولِّينا ، ويتبرأون من هؤلاء الناس ، مصداقاً لقول الحق سبحانه : ﴿ **إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا .. (١٦٦)** ﴾ [البقرة]

والملائكة لا علم لهم بمن اتخذهم آلهة ، وإذا انتقلنا إلى البشر وعلى قمَّتهم الرسل عليهم السلام ، فيأتى سيدنا عيسى ابن مريم عليه السلام ، ويقول الحق سبحانه له : ﴿ **أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِى وَأُمِّيَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ .. (١١٦)** ﴾ [المائدة]

فيقول سيدنا عيسى عليه السلام ما جاء على لسانه فى القرآن الكريم : ﴿ **سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِى أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ .. (١١٦)** ﴾ [المائدة]

فكأن هؤلاء قد عبدوا من لا علم له بهذا التأليه ، ولم يَدْعُ إليه .

والأصنام كذلك ليس لها علم بمن ادَّعى ألوهيتها ، ولكن الذى له علم بتلك الدعوة هو إبليس ، ذلك أنه حينما عز عليه أنه عاص لله ، أغوى آدم ، ثم تاب آدم عليه السلام وقَبِل الله سبحانه وتعالى توبته ، أما إبليس فلم يتب عليه الحق سبحانه ؛ لأنه رد حكم المولى - عز وجل - بالسجود لآدم ، واستكبر ، وظن نفسه أعلى مكانة [1] . أما آدم عليه السلام فلم يرد الحكم على الله تعالى .

يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ (١١) قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ (١٢) ﴾ [الأعراف]

ومن ذلك نأخذ مبدأ إيمانياً موجزه أن الذين لا يقدرون على أنفسهم فى إخضاعها لمنهج الله تعالى ، فمن الخير لهم أن يقولوا : إن منهج الله سبحانه هو الصدق ، وحكمه سبحانه هو الحق ، ولكننا لم نستطع أن نُخضِعَ أنفسنا للحكم ؛ وبذلك يخرجون من دائرة رد الأمر على الآمر ، وبإمكانهم أن يتوبوا بنية عدم العودة إلى المعصية .

إذن : فالمخاصمة والمحاجّة [2] موجهة من إبليس لذرية آدم ، فقد أقسم

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : «إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد ؛ اعتزل الشيطان يبكى يقول : يا ويله ، أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة ، وأمرت بالسجود فأبيت فلى النار» أخرجه مسلم فى صحيحه (٨١) .

(٢) المحاجَّة : المغالبة والجدال . والحُجَّة : الدليل والبرهان . وحَجَّه وحَاجَّه : غلبه على حُجَّته . قال تعالى : ﴿ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ .. (٢٠) ﴾ [آل عمران] قال الأزهرى : إنما سميت الحُجّة حُجَّة ؛ لأنها تُحَجّ ، أى : تُقْصَد لأن القصد لها وإليها ؛ وكذلك مَحَجَّة الطريق هى المقصد والمسلك [اللسان : مادة(حجج)] .

إبليس بعزة الله سبحانه أن يُغوى كل أبناء آدم إلا الذين استخلصهم الله لعبادته سبحانه وتعالى ؛ فقد علمَ إبليس أنه غير قادر على إغوائهم[(١)] .

وهكذا تكون عزة الله سبحانه هى التى تمكِّن إبليس - وذريته من الشياطين - من غواية أو عدم غواية خلق الله سبحانه وتعالى .

والشياطين هم الجن العُصَاة ؛ لأننا نعلم أن الجن جنس يقابل جنس البشر ، ومن الجن من هو صالح طائع ، ومنهم من هو عاص ، ويُسمّى شيطاناً ، ويخدم إبليس فى إغواء البشر ، فيتسلَّط على الإنسانَ فيما يعلم أنها نقطة ضعف فيه .

فمن يحب المال يدخل الشيطان إليه من ناحية المال ، ومن يحب الجمال يدخل له الشيطان من ناحية الجمال ، ومن يحب الجاه يجد الشيطان وهو يزيِّن له الوصول إلى الجاه بأية وسيلة تتنافى مع الأخلاق الكريمة ومنهج الله عز وجل .

وكل إنسان له نقطة ضعف فى حياته يعرفها الشيطان ويتسلل منها إليه ، وقد يُجنِّد إبليس وذريته أناساً من البشر يعملون بهدف إغواء الإنسان لإفساده .

فهناك - إذن - ثلاثة يطلبون أن ينصرف الناس عن منهج الله تعالى ودعوة الحق ؛ وهؤلاء الثلاثة هم : إبليس ، والعاصون من الجن (أى : الشياطين) ، ثم البشر الذين يشاركون إبليس فى الإغواء ، وهم شياطين الإنس الذين يعملون أعمالاً تناهض منهج الرسل .

---

(١) قال سبحانه عن إبليس : ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣) ﴾ [ص] ، وهؤلاء المخلَصون هم عباد الرحمن الذين ذكر الله أوصافهم فى سورة الفرقان آيات (٦٣ - ٧٤) ، وعن أبى سعيد الخدرى فى حديث أن إبليس قال : «يا رب وعزتك وجلالك لا أزال أغويهم ما دامت أرواحهم فى أجسادهم . فقال الله تعالى : وعزتى وجلالى ولا أزال أغفر لهم ما استغفرونى» أخرجه أحمد فى مسنده (٣/ ٢٩) والحاكم فى مستدركه (٤/ ٢٦١) وصححه وأقره الذهبى .

وهل يكون الحوار - يوم القيامة - بين الملائكة ومَنْ عَبَدُوهم منَ البشر؟ وهل يكون الحوار بين الأصنام والذين عبدوها دون علمها ؟ وهل يكون الحوار بين عيسى عليه السلام ومن اتخذوه إلهاً دون علمه ؟

ها نحن نجد عارفاً بالله يقول على لسان الأصنام :

«عَبَدُونا ونحن أعْبَدُ لله مِنَ القائمينَ بالأسْحَارِ [1]»

لأن الحق سبحانه هو القائل : ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ .. (٤٤)﴾ [الإسراء]

ويكمل العارف بالله :

«اتَّخَذُوا صَمْتَنَا علينا دليلاً فَغَدَوْنا لَهُم وَقُودَ النارِ»

والحق سبحانه هو القائل : ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ .. (٢٤)﴾ [البقرة]

ويتابع العارف بالله :

«قَدْ تَجَنَّوا جهلاً كما تَجَنَّوا على ابنِ مَرْيم والحَوَارِى [2]»

فما موقف الله سبحانه من هؤلاء وأولئك ؟ فنقول:

إن للمُغَالِى جَزَاءهُ ، والمُغَالَى فيه تُنْجِيه رحمةُ الغَفَّارِ».

وهكذا وَضُحَ موقف كل من يعبد غير الله سبحانه أو يشرك به ، هؤلاء

---

(١) الأسحار : جمع السَّحَر وهو آخر الليل قبيل الصبح . لسان العرب (مادة سحر) . والقائمون بالأسحار هم المتعبدون المتهجدون بالليل .

(٢) أى : الحواريون وهم أصحاب عيسى عليه السلام وأنصاره ، الذين خلصوا من كل عيب ، كالدقيق الأبيض الذى ينقى من اللباب . (اللسان : مادة حور) .

الذين يشملهم قول الحق سبحانه: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ..(٢٨)﴾[1] [يونس]

وهكذا يُحشَر مَنْ عبدوا الأصنام أو الكواكب أو أشركوا بالله ، وكذلك شياطين الجن والإنس ، الجميع سيحشرون فى الموقف يوم الحشر ، وليتذكر الجميع فى الدنيا أن فى الحشر ستُكشَفُ الأمور ويُفضح فيه كل إنسان أشرك مع الله غيره ، سبحانه ، وستحدث المواجهة مع مَنْ أشركه بالعبادة مع الله سبحانه دون علْم من الملائكة أو الرسل أو الكواكب أو الحجارة بأمر هؤلاء ، ويأتيهمَ جميعاً أمر الحق سبحانه : ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ..(٢٨)﴾ [يونس]

وحين تسمع الأمر : «مكانك» فهو يعنى : «الزمْ مكانك» وهى لا تُقال للتحية ، بل تحمل التهديد والوعيد ، وانتظار نتيجة موقف لن يكون فى صالح من تُقال له ، ونعرف أن الملائكة ، والرسل ، والكواكب ، والحجارة ليس لها علم بأمر هؤلاء الذين عبدوهم.

إذن : فالذين ينطبق عليهم هذا الأمر هم هؤلاء المشركون الذين ظنوا أن بإمكانهم الإفلاتَ من الحساب ، لكنهم يسمعون الأمر ﴿مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ﴾ ، فهل يعنى ذلك أنهم سوف يأتون مع الملائكة ومَنْ عُبد من الرسل والكواكب والحجارة فى موكب واحد ؟ لا ؛ لأن هؤلاء العبيد اتفقوا على موقف باطل ، ويشاء الحق سبحانه أن يفصل بين الحق والباطل.

لذلك يقول الحق سبحانه : ﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ (٢٨)﴾[2] [يونس]

---

(١) نحشرهم : نجمعهم للحساب. ومنه يوم المَحْشَر. والحَشْر : جمع الناس يوم القيامة. قال تعالى : ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ..(٢٠٣)﴾ [البقرة].

(٢) زيَّلنا بينهم : فَرَّقْنا بينهم. والتَّزايل : التباين. قال تعالى : ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٢٥)﴾ [الفتح] [اللسان : مادة (ز ى ل)].

أى : جعل من المشركين فريقاً ، وجعل من الذين عُبدُوا دون علمهم فريقاً آخر ، وأعلن فريقُ مَنْ عُبدوا دون علمهم : ﴿مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ .. (٢٨)﴾ [يونس]

أى : ما كنتم تعبدوننا بعلمنا .

وانظروا إلى الموقف المُخْزى لمن عبدوا غير الله سبحانه ، أو أشركوا به ، إن الواحد منهم قد عبد معبوداً دون أن يدرى به المعبود ، مع أن الأصل فى العبادة هو التزام العابد بأمر المعبود ، وهذه المسألة تَصْدُق على الملائكة وسيدنا عيسى عليه السلام ، وتصدق أيضًا على الكواكب والأحجار ؛ لأن الحق سبحانه الذى يُنطق أبعاض الإنسان يوم القيامة ؛ لتشهد على صاحبها ، قادر على أن يُنْطِق الأحجار .

والحق سبحانه هو القائل :

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٩) حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٠) وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِى أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ .. (٢١)﴾ [فصلت]

ونجد الصنم يوم القيامة وهو يلعن مَنْ عبده ، تماماً مثلما يتبرأ الجلد من صاحبه إنْ عصى الله تعالى ، فالحق سبحانه يقول : ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤)﴾ [النور]

ولكن لا تترك عقلك يتخيل كيفية تكلُّم الصنم ، فأنت آمنت أن جوارح الإنسان من يد ورجل وجلد ستنطق يوم القيامة ، فهل تعقَّلت كيف تنطق اليد ، وكيف ينطق الجلد ، وكيف تنطق الرِّجْل فى الآخرة ، أنت تؤمن بخبر الآخرة فلا تنظر إلى معطيات أمور الآخرة بقوانين الدنيا ؛ لأن كل

شىء يتبدَّل فى الآخرة ، ألم تخبرك السنة أنك ستأكل فى الجنة ، ولا تُخْرِج فضلات [١] ؟

وهذا أمر غير منطقىّ - بقوانين الدنيا - ولكننا نؤمن به ، وإذا كان الحق سبحانه وتعالى يخبرنا بأشياء سوف تحدث فى الجنة ، لو قسْناها بعقولنا على ما نعرف فى الدنيا لوقفت أمامها عاجزة ، لكن القلب المؤمن يعقل أمور القيامة والآخرة على أساس أنها غيب ، والمقاييس تختلف فيها ؛ لأن الإنسان مظروف [٢] بين السماء والأرض. وللدنيا أرض وسماء ، وللآخرة أيضاً أرض وسماء ؟

والحق سبحانه يقول : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَـٰوَاتُ.. (٤٨) ﴾ [إبراهيم]

إذن : فكل شىء يتبدّل يوم القيامة ، فإذا حُدِّثْتَ أن الأصنام تنطق مستنكرة أن تُعبَد من دون الله تعالى ، وأن الملائكة تلعن من عبدوها من دون الله سبحانه ، فلا تتعجب.

ثم يقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَـٰفِلِينَ (٢٩) ﴾

إذن : فالكائنات التى عُبدتْ من دون الله تعالى تعلن رفضها لمسألة عبادتها ، فإذا كان الطير - ممثلاً فى الهدهد - قد أعلن من قبل اندهاشه

(١) عن جابر بن عبد الله قال : سمعت النبى ﷺ يقول : «إن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون ولا يتفلون ولا يبولون ولا يتغوطون ولايتمخطون. قالوا : فما بال الطعام ؟ قال : جشاء أو رشح كرشح المسك ، يُلْهَمُون التسبيح والتحميد». أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٨٣٥) ، وأحمد فى مسنده (٣/ ٣٦٤).

(٢) أى : أن الإنسان محل لظروف الزمان والمكان ، بين أرض الدنيا وسمائها وأرض الآخرة وسمائها ، تختلف بينهما قوانين الحياة فى كل منهما.

من أن بعضاً من البشر قد عبد غير الله تعالى [(١)].

واستدل الهدهد - على قدرة الحق سبحانه - بما يخصُّه هو من الرزق ، حيث يعلم أن الحق سبحانه قد عَلِمَ الخبء فى السموات والأرض ، إذا كان الهدهد قد عرف ذلك فالاستنكَار أمر منطقى من غيره من المخلوقات ، سواء أكانت من الملائكة ، أو من عيسى عليه السلام ، أو من الأصنام والأشجار والكواكب.

ولذلك نجد الحق سبحانه يضرب المثال بسؤاله للملائكة : ﴿ **أَهَـٰؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ** ..(٤٠) ﴾ [سبأ]

فيجيب الملائكةُ بقولهم : ﴿ **سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ** .. (٤١) ﴾ [سبأ]

والحق سبحانه وتعالى يعرض هذه المواقف فى سُوَر القرآن الكريم عرضاً منثوراً [(٢)] مكرراً بما لا يدع للغفلة أن تصيب الإنسان ، فمثلاً يقول الحق سبحانه :

﴿ **وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم** [(٣)] **مِّنَ الإِنسِ** ..(١٢٨) ﴾ [الأنعام]

ويقول على ألسنة من اتخذوا الشياطين أولياء :

﴿ **وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُم مِّنَ الإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِى أَجَّلْتَ لَنَا** .. (١٢٨) ﴾ [الأنعام]

---

(١) وذلك فى قصة الهدهد مع سليمان : ﴿ **إِنِّى وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ (٢٤)** ﴾ [النمل].

(٢) المنثور : الشىء يُلْقى متفرقاً هنا وهناك كالحَبِّ وغيره. [اللسان : مادة نثر].

(٣) أى : أضللتم منهم كثيراً وأكثرتم من إغوائهم وإضلالهم.

وقولهم هذا يتضمن الحديث عن ذواتهم والحديث عن الجن.

ولسائل أن يسأل : وكيف يأخذ الجن كثيراً من الإنس؟

ونقول : إن الحق سبحانه قد خلق الجن على هيئة تختلف عن هيئة الإنس ، فجعل للجن خواصّاً تختلف عن خواصِّ الإنس ، ومن هذه الخواص ما قال عنه الحق سبحانه : ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ[1] مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ .. (٢٧)﴾ [الأعراف]

وأعطى الحق سبحانه للجن قوة أكثر مما أعطى للإنس ، وأعطاهم القدرة على النفاذ من السواتر الحديدية والجدران وغيرها ، وهذا أمر منطقى مع أصل تكوين الجن ، فالجن مخلوق من النار ، والإنسان مخلوق من الطين. وهناك اختلاف بين طبيعة كل من النار والطين ، فما يخرج من الطين قارٌّ[2] ، أى : لا يشع ، وما يخرج من النار له إشعاع وحرارة.

بمعنى : أنك لو كنت تجلس فى حجرة ، وخلف ظهرك فى الحجرة الأخرى نار موقدة ؛ فالساتر - أيا كان - سوف يحمل لك بعضاً من حرارة النار ، إلا لو كان عازلاً للحرارة.

أما لو كانت هناك تفاحة - وهى مخلوقة من الطين - موجودة فى الحجرة الأخرى ، فلن ينفذ طعمها أو رائحتها إليك.

إذن : فالنار لها قانونها ، والطين له قانونه. وقانون المادة المخلوقة من الطين لا ينتقل إلا إذا نَقَلْتَ الجِرْم[3] إلى المكان الذى توجد فيه.

---

(١) القَبيل : الجماعة من الناس يكونون من الثلاثة فصاعداً من قوم شتّى ، كالعرب ، والروم ، والزنج ، وقد يكونون من نحو واحد ، وربما كان القبيل من أب واحد كالقبيلة. وكل جيل من الجن والناس قبيل. قال تعالى : ﴿ أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً (٩٢) ﴾ [الإسراء]. [اللسان : مادة (قبل)].

(٢) قار : أى : مستقر فى مكانه لا ينتقل منه شىء إلا إذا نقلته أنت. يقال : فلان قارٌّ ، أى : ساكن ثابت. (اللسان : مادة قرر).

(٣) الجِرْم : الجسم. والجمع (الأجرام).

ونلمح هذه المسألة التقنينية فى قصة سيدنا سليمان عليه السلام حين علم أن ملكة سبأ تسير فى الطريق إليه لتعلن إسلامها ، وأراد سيدنا سليمان عليه السلام أن يأتى لها بعرشها من مكانه قبل أن تصل .

فقال لمن هو فى مجلسه : ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ .. (٣٨)﴾ [النمل]

وهذا يدل على أنه كان فى مجلسه أجناس مختلفة ، ولكل جنس منهم قدرات مختلفة عن قدرات الجنس الآخر ، ونقل العرش من اليمن إلى مكان سيدنا سليمان عليه السلام يحتاج إلى زمن وإلى قوة ، فلو أنهم كانوا متساوين فى قدراتهم ما قال : ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِى .. (٣٨)﴾ [النمل]

فكان أول من تقدم لتنفيذ ما أراده سليمان عفريت من الجن - لا جنّاً عادياً ، فمن الجن من هو خائب قليل الذكاء ،ومنهم من هو ذكى ، فهم وإن كانوا من جنس واحد فهم متفاوتون أيضًا ، وكان عفريت الجن هو أول من تكلم ، وقال : ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ .. (٣٩)﴾ [النمل]

ولكن مقام سليمان قد يستمر ساعة أو بضع ساعات [1] ، والمتكلم هو عفريت من الجن الذى يعلم أن له صفات أقوى من صفات الإنس . أما الإنس العادى - ممن كان حاضراً مجلس سليمان- فلم يتكلم ؛ لأن المطلوب ليس فى قدرته ، أما الذى تكلم من الإنس فهو مَنْ عنده علم من الكتاب، فقال : ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ [2] .. (٤٠)﴾ [النمل]

ولم يأخذ الأمر شيئاً من الزمن ؛ لذلك عبَّر القرآن التعبير السريع بعد ذلك، فقال : ﴿فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَـٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى .. (٤٠)﴾[النمل]

---

(١) كان سليمان عليه السلام يجلس للقضاء بين الناس فى مظالمهم من أول النهار إلى أن تزول الشمس .

(٢) الطرف : طرف العين ، وهو أيضاً إطباق الجفن على الجفن . (اللسان : مادة طرف) .

إذن : فللجن قوة على أشياء لا يقوى عليها الإنس [(١)] ، ولم يأخذ الجنِّى خواصَّه فى الخفة والقدرة ومهارة اختزال الزمن بذات تكوينه ، ولكن بإرادة المكوِّن سبحانه ؛ ولذلك شاء الحق أن يُذكِّر الجن أنهم قد أخذوا تلك الخصوصيات بمشيئته سبحانه ، والحق هو القادر على أن يجعل الإنس وهو الأدنى قدرة ، قادراً على تسخير الجن ؛ ولذلك يحاول الإنس أن يأخذ من تسخير الجن قوة له فيقوى على نظيره من الإنس.

ولكن الحق سبحانه أصدر الحكم على مَنْ يحاول ذلك بأن تسخير الجن يزيد رَهَقاً [(٢)] .

واقرأوا قول الحق سبحانه :

﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَـٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ .. (١٠٢) ﴾

[البقرة]

إذن : فتعليم الجن السحر للإنس دليل على تفوق قدرات الجن وتميزها عن قدرات الإنس.

---

(١) يقول الإمام : إن للجن قوة بحسب تكوينه النارى تفوق قوة الإنسان ، ثم يفيض علينا أن الإنسان بمنهج الله له قوة مددية من الله إذا عايش المنهج ، وفهم أسرار الكتاب ، يتجلَّى ذلك فى أن الشيطان قال لسليمان : ﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (٣٩) قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ (٤٠) ﴾ [النمل] إذن : الواصل بالله أقوى من الكل ، هذا من حيث العطاء الإلهى ، أما من حيث التكوين فالإنسان من طين ، والطين ليس كالنار .

(٢) وذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا (٦) ﴾ [الجن] أى : ذلة وضعفاً. قال السدى : كان الرجل يخرج بأهله فيأتى الأرض فينزلها فيقول : أعوذ بسيد هذا الوادى من الجن أن أضر أنا فيه أو مالى أو ولدى أو ماشيتى. ذكره ابن كثير فى تفسيره (٤/ ٤٢٨).

ولكن الملكين هاروت وماروت [١] حينما عَلَّمَا الإنسان السحر حذَّراه أولاً من أن يأخذ من ذلك فرصة زائدة تطغيه على بنى جنسه ويظلم بها ، إنما الأمر كله اختبار ، فإن تعلَّمته فذلك لتقىَ نفسك من الشر لا لتوقعه بغيرك ، ثم إنك - أيها الإنسان - من الأغيار قد تضمن نفسك وقت التحمُّل ، ولكن ماذا عن وقت الأداء ؟

مثلما يأتى لك إنسان ليُودعَ عندك ألفاً من الجنيهات كأمانة ، ولكن أتظل على الأمانة، أم أنك قد تنكر المال أصلاً حين يطالبك به صاحبه، أو قد تمر بك أزمة مالية فتتصرف بهذا المال ؟

ولذلك تجد الذكى هو مَنْ يقول لمودع هذا المال : «احفظْ عليك مالك ، لأنى من الأغيار».

وتلك هى القضية الإيمانية الأصيلة فى الكون كله ؛ لأن الحق سبحانه هو القائل :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ [٢] عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً (٧٢) ﴾[الأحزاب]

والأمانة هى ما يكون فى ذمة المؤتمن، ولا حجة للمؤتمن عنده إلا ذمته، ولا شهود عليه ، ولا يوجد إيصال بتلك الأمانة ، بل هى وديعة لا توثيق فيها ؛ إلا ذمة المؤتمن ، قد يقرُّ بها ، وقد يُنكرها.

---

(١) هاروت وماروت ملكان من السماء ، أنزلا إلى الأرض ، وقيل إنهما لم تعجبهما أحكام بنى آدم فى العباد ، فأهبطا ليحكما بين الناس ، وكانا يعلمان الناس السحر ، فأخذ عليهما أن لا يعلمان أحداً حتى يقولا : إنما نحن فتنة فلا تكفر .

(٢) اختلف العلماء فى تفسير الأمانة فى الآية ، ولكن أجمع قول فيها أنها الطاعة بالاختيار ، قال ابن عباس : هى الطاعة عرضها عليهم قبل أن يعرضها على آدم فلم يطقنها ، فقال لآدم : إنى قد عرضت الأمانة على السموات والأرض والجبال فلم يطقنها فهل أنت آخذ بما فيها؟ قال : يا رب وما فيها؟ قال : إن أحسنت جزيت ، وإن أسأت عوقبت . فأخذها آدم فتحمَّلها . انظر ابن كثير فى تفسيره (٣/ ٥٢٢) .

وعلى ذلك فحقُّ المؤتمن عند المؤتَمَن خاضعٌ لخيار المؤتَمَن ؛ ولذلك وجدنا السماء والأرض والجبال قالت : يا رب لا نريد أن نُدخلَ أنفسنا فى هذه التجربة ، افعل بنا ما شئت واجعلْنَا مقهورين ولا اختيَار لنا ، ولا نريد تحمُّل الأمانة .

أما الإنسان فقد ميَّزه الله بالعقل ، وقدرة الاختيار بين البدائل ؛ لذلك قَبلَ الإنسان حَمْل الأمانة ، وحين جاء وقت الأداء لم يجد نفسه أميناً على الأَشياء مثلما ظَنَّ فى نفسه وقت التحمُّل .

وكذلك الذين يتعلمون السحر ، يقول الواحد منهم لنفسه : سوف أتعلمه لأدفع الضُّرَّ عن نفسى ، ونقول له : أنت لا تضمن نفسك ؛ لأنك من الأغيار ، فقد يغضبك أو يثير أعصابك إنسان ؛ فتستخدم السحر فتصيب نفسك بالرَّهق .

إذن : فحين قال الله سبحانه : ﴿ **يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الإِنسِ** .. (١٢٨) ﴾ [الأنعام]

أى : أخذتم من الإنس كثيراً بأن أعطيتموهم سلاحاً يحقق لهم فرصة وقوة على غيرهم من البشر .

وقد ذكر الحق - سبحانه وتعالى - لنا أن بعض البشر الذين استجابوا للجن قالوا : ﴿ **اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ** .. (١٢٨) ﴾ [الأنعام]

واستمتاع الإنس بالجن مصدره أن الإنس يأخذ قوة فوق غيره من البشر ، واستمتاع الجن بالإنس مصدره أنه سوف يُعين هذا الإنسان على معصيته ؛ تطبيقاً لِقَسَمِ إبليس اللعين : ﴿ **فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ** [1] **أَجْمَعِينَ** .. (٨٢) ﴾ [ص]

---

(١) الإغواء : الإضلال . قال تعالى : ﴿ فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ (٣٢) ﴾ [الصافات] . [اللسان : مادة (غوى)] .

ولكن هذا الاستمتاع فى النهاية لا يعطى أمراً زائداً عن المقدور لكل جنس ؛ ولذلك تجد أن كل مَنْ يعمل بالسحر وتسخير الجن إنما يعانى ؛ مصداقاً لقول الحق سبحانه : ﴿ **فَزَادُوهُمْ رَهَقًا** ..(٦) ﴾ [الجن]

وأنت تجد رزق الذى يقوم بالسحر أو تسخير الجن يأتى من يد مَنْ لا يعلم السحر ، ولو كان فى تعلُّم ذلك ميزة فوق البشر ؛ لجعل رزقه من مصدر آخر غير من لا يعلمون السحر أو تسخير الجن.

وأنت حين ترى الواحد من هؤلاء ، تجد على ملامحه غَبَرَةً ، وفى ذريته آفة أو عيباً ، فمنهم مَنْ هو أعور أو أكتع [1] أو أعرج ؛ لأنه أراد أن يأخذ فرصة فى الحياة أكثر من غيره من البشر ؛ بواسطة الجن ، وهذه الفرصة تزيده رهقاً ؛ ولذلك فليلزم كل إنسان أدبه وقدره الذى شاءه الله - سبحانه وتعالى - له ؛ فلا يفكر فى أخذ فرصة تزيد من رهقه.

ونحن نرى فى البشر مَنْ يستخدم صاحب القوة الجسدية أو قدرة تصويب السلاح ؛ ليُرهب غيره ، وقد ينجح فى ذلك مرة أو أكثر ، ثم ينقلب هذا (الفتوَّة) أو ذلك القاتل المأجور على مَنْ استأجره.

إذن : فلا بد أن يحترم كل إنسان قَدَر الله - سبحانه وتعالى - فى نفسه ، وألاّ يأخذ فرصة من جنس آخر ؛ يظن أنها تزيده فى دنياه شيئاً ، لكنها فى الواقع ستزيده تعباً وتزيده رهقاً.

ولذلك نجد الحق - سبحانه وتعالى - يقول عنهم : ﴿ **رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِى أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ** [2] ..(١٢٨) ﴾ [الأنعام]

---

(١) الأكتع : مَنْ رجعت أصابعه إلى كَفِّه ، وظهرت مفاصل أصول أصابعه. و«أكتع» يجىء فى التوكيد إتباعاً ، فيقال : جاء الجيش أجمعَ أكتعَ. [المعجم الوسيط : مادة (كتع)].

(٢) المثوى : مكان الإقامة والاستقرار. والجمع : المثاوى. قال تعالى : ﴿ **وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ** (١٥١) ﴾ [آل عمران] [اللسان : مادة (ثوى)].

وهكذا نرى أن مصير الاستمتاع بقوة الجن هو النار للإنس الذى استخدم الجن ، وللجن الذى أغوى الإنس.

ثم يعرض لنا الحق - سبحانه وتعالى - قضية أخرى فى هذه المسألة ؛ فيقول سبحانه : ﴿ الأَخِلاَّءُ (١) يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ (٦٧) ﴾ [الزخرف]

والأخلاء : هم الجماعة التى يجمع أفرادها صحبة ومودَّة ، ويتخلّل كل منهم حياة الآخر. وأنت تجد الناس صنفين:

أناساً اتخذوا الخُلَّة (٢) فى الله تعالى، فيذهبون إلى المساجد ، ويستذكرون العلم ، ولا يأكلون إلا من حلال ، ويقرأون القرآن ، وإن همَّ واحد منهم بمعصية وجد من صديقه ما يردّه عن المعصية ، ويحجّون إلى بيت الله الحرام ، ويعتمرون ، وتدور حياتهم فى إطار حديث المصطفى ﷺ : «رجلان تحابّا فى الله اجتمعا عليه وتفرّقا عليه » (٣) وهذا لون من الخُلَّة.

واللون الآخر يضم أناساً يساعد بعضهم البعض على المعصية ، ويشربون الخمر ، ويلعبون الميسر ، ويفعلون كل المعاصى ، فإذا جاء يوم القيامة يقابلون حكم الله تعالى : ﴿ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلا خُلَّةٌ .. (٢٥٤) ﴾ [البقرة]

فلا خُلَّة إلا خُلَّة اللقاء فى الله تعالى ، فإذا التقى الأخلاء فى الله تعالى فرحوا ببعضهم ؛ لأن كلاّ منهم حمى أخاه من معصية ، أما من كانوا

---

(١) الأخلاّء : جمع (خليل) وهو الصديق. قال تعالى : ﴿ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً ..(١٢٥) ﴾ [النساء] . وقالَ تعالى - حكاية عن الكافرين يوم القيامة : ﴿ يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاَنًا خَلِيلاً (٢٨) ﴾ [الفرقان] . [اللسان : مادة (خ ل ل)].

(٢) الخُلَّة : الصداقة والمحبة. والخلُّ : الوُدُّ والصديق. [اللسان : مادة (خ ل ل)].

(٣) عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قَال : «سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله : الإمام العادل ، وشاب نشأ فى عبادة الله ، ورجل قلبه مُعلَّق فى المساجد ، ورجلان تحابَّا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال : إنى أخاف الله ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم يمينه ما تنفق شماله ، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه» أخرجه مسلم فى صحيحه (١٠٣١) والبخارى فى صحيحه (٦٦٠).

يجتمعون فى الدنيا على المعصية ، فكل منهم يلعن الآخر ، ويصدق حكم الله سبحانه وتعالى : ﴿ الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ (٦٧) ﴾ [الزخرف]

ولذلك نجد الحوار بين الذين استضعفوا والذين استكبروا ، ونجد الحق سبحانه وتعالى يأتى لنا بهذا الحوار فى القرآن : ﴿ فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ .. (٢١) ﴾ [إبراهيم]

فيرد الآخرون : ﴿ لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا [١] أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ [٢] .. (٢١) ﴾ [إبراهيم]

وبعد ذلك يأتى اعتراف الشيطان الذى يقول عنه الحق سبحانه :

﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ [٣] إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ [٤] .. (٢٢) ﴾ [إبراهيم]

---

(١) الجَزَع : نقيض الصبر . قال تعالى عن الإنسان : ﴿ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) ﴾ [المعارج] . [اللسان : مادة (جزع)].

(٢) محيص : مَهْرَب . قال تعالى : ﴿ أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا (١٢١) ﴾ [النساء] . [اللسان : مادة (حيص)].

(٣) السلطان : سلطان القهر فى قهرهم على اتباعه . ويطلق السلطان أيضاً على الحجة والبرهان . يقول تعالى عن سليمان وهو يهدد الهدهد : ﴿ لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٢١) ﴾ [النمل].

(٤) مصرخكم : مغيثكم . والصريخ : المغيث . وقال تعالى : ﴿ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ .. (١٨) ﴾ [القصص] . وقال تعالى : ﴿ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلا صَرِيخَ لَهُمْ وَلا هُمْ يُنقَذُونَ (٤٣) ﴾ [يس] . [اللسان : مادة (صرخ)].

وهذا الحوار هو الذى يكشف لنا ما سوف يحدث يوم القيامة ، ونجد الحق سبحانه يقول :

﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ .. (١٦) ﴾ [الحشر]

هذه كلها لقطات من مشاهد يوم القيامة ، جاءت فى خواطرنا ونحن نتناول قول الحق سبحانه : ﴿ فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ (٢٩) ﴾ [يونس]

هكذا يعلن كل مَنْ عُبد من الملائكة أو الرسل أو الأصنام ، وبذلك تتم فضيحة الذين عبدوهم من دون الله سبحانه ويأخذون طريقهم إلى النار.

ولذلك نجد الحق سبحانه يقول : ﴿ احْشُرُوا [1] الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) ﴾ [الصافات]

ولننتبه هنا إلى أن الأزواج متقدمون فى الإغواء والتوجيه إلى الشر ، قبل الأعداء ؛ لأن الزوج أو الزوجة قد يكون هو الشيطان الملازم الذى يُهيِّىء الانحراف إلى ما يريد [2].

ونجد الحق سبحانه يقول بعد ذلك : ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ (٢٤) ﴾ [الصافات]

ومثلها مثل قوله سبحانه : ﴿ مَكَانَكُمْ ﴾ نفهم من ذلك أنهم كانوا معاً فى الدنيا وهى دار الاختيار ، وهم الآن فى دار جبرية الاقتدار ؛ لذلك يقول الحق سبحانه :

---

(١) احشروا : اجمعوا. و الحشر : جمع الخلائق يوم القيامة للحساب. [اللسان : مادة (حشر)].

(٢) يقول سبحانه وتعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ .. (١٤) ﴾ [التغابن].

﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ (٢٤) مَا لَكُمْ لا تَنَاصَرُونَ (٢٥) بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (٢٦) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٧) قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ (٢٨)﴾ [الصافات]

أى: كنتم تستعملون قوتكم ؛ لتجعلونا نتبعكم ، فلا يظنن ظانٌّ أنها قوة البطش فقط ، أو قوة التذليل ، بل المقصود بذلك أىّ قوة ، حتى وإن كانت قوة الإغواء.

إذن: فالمواقف مفضوحة ، وهذا لون ومقدمة من ألوان العذاب ؛ ليبين الله - سبحانه وتعالى - صدقه فى قوله: ﴿الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ [1] (٦٧)﴾ [الزخرف]

وشاء الحق سبحانه ذلك ؛ ليبين لنا كيف يختار الإنسان خليله فى الدنيا ، فلا يختار الخليل الذى يزيِّن الخطأ والمعصية ، بل يختار الذى يعينه على الطاعة.

ويذكر الحق سبحانه موقفاً من مواقف يوم القيامة فيقول سبحانه:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلاَّنَا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ [2] نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الأَسْفَلِينَ (٢٩)﴾ [فصلت]

هكذا يكون حال الذين ضلُّوا يوم القيامة، يتبرأون ممن أوقفهم هذا الموقف بل يطلبون من أضلهم لإيقاع العذاب بهم بأنفسهم ؛ لذلك يقول الحق

---

(١) عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ : «لو أن رجلين تحابا فى الله ، أحدهما بالمشرق ، والآخر بالمغرب لجمع الله تعالى بينهما يوم القيامة يقول : هذا الذى أحببته فىَّ» ذكره ابن كثير فى تفسيره (٤/ ١٣٤) وعزاه للحافظ ابن عساكر.

(٢) عن على بن أبى طالب أن ﴿اللَّذَيْنِ أَضَلاَّنَا .. (٢٩)﴾ [فصلت] فى الآية المقصود بهما : إبليس أول من عصى الله جحوداً لأمره ، وابن آدم الذى قتل أخاه فكان أول من سن ارتكاب الكبائر والمعاصى فى الأرض. ذكره ابن كثير فى تفسيره (٤/ ٩٨).

سبحانه في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها: ﴿فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا (١) عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ (٢٩)﴾ [يونس]

هكذا يتبرأ الملائكة والرسول الذي عُبِدَ، وحتى الأصنام، من الذين عَبَدُوهم في الدنيا.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك: (٢)

﴿هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ ۚ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٣٠)﴾

وقول الحق سبحانه: ﴿هُنَالِكَ﴾ يعني: في هذا الوقت، أو في هذا المكان. والزمان والمكان هما ظَرْفَا الحدث؛ لأن كل فعل يلزم له زمان ومكان، فإن كان الزمان هو الغالب، فيأتي ظرف الزمان، وإذا كان المكان هو الغالب فيأتي ظرف المكان.

وجاءت ﴿هُنَالِكَ﴾ أيضاً في قصة سيدنا زكريا عليه السلام، إذ يقول الحق سبحانه: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ .. (٣٨)﴾ [آل عمران]

أي: في ذلك الوقت الذي قالت فيه مريم - رضي الله عنها - قولةً أدَّت بها قضية اعتقادية إيمانية لكفيلها، وهو سيدنا زكريا عليه السلام وهو الذي يأتي لها بالطعام، وشاء لها الحق - سبحانه وتعالى - أن تعلِّمه هي. يقول

---

(١) إِنْ كُنَّا: أي: ما كنا. فإنْ هنا للنفي، وتدخل على الجملة الاسمية نحو قوله تعالى: ﴿إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ...(٢٠)﴾ [الملك] وتدخل على الجملة الفعلية نحو قوله تعالى: ﴿إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ .. (١٠٧)﴾ [التوبة].

(٢) ﴿تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ ..(٣٠)﴾ [يونس]: تذوق جزاء ما عملت وقدَّمت. وقيل: تختبر. وقيل: تتبع، أي: تتبع كل نفس ما قدّمت في الدنيا. وقرأ حمزة والكسائي «تتلو» أي: تقرأ كل نفس كتابها الذي كُتب عليها. [تفسير القرطبي ٤/ ٣٢٦١] وابن كثير [٢/ ٤١٦].

سبحانه: ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا .. (٣٧) ﴾ [آل عمران]

والرزق ما به انتفع ، وكان زكريا - عليه السلام - يكفلها بكل شيء تحتاجه ، لكنه فوجيء بوجود رزق لم يَأت هو به ؛ بدليل أنه قال: ﴿ أَنَّىٰ [1] لَكِ هَـٰذَا .. (٣٧) ﴾ [آل عمران]

وهذه ملحظية ويقظة الكفيل حين يجد مكفوله يتمتع بما لم يأت به. وهذه هى قضية «من أين لك هذا ؟» ، وهى قضية الكفيل العام للمجتمع حين يرى واحداً يتمتع بما لا تؤهله له حركته فى الحياة ، وبذلك يُكتشف مختلس الانتفاع بما يخص الغير دون أن يَعرف كافله ، ولو أن كافله أصرَّ على معرفة من أين تأتى مصادر دخله ؛ لَحَمى المجتمع من الفساد.

وانظر إلى جواب مريم عليها السلام على قول زكريا عليه السلام الذى ذكره رب العزة سبحانه: ﴿أَنَّىٰ لَكِ هَـٰذَا .. (٣٧)﴾ [آل عمران]

قالت مريم: ﴿هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ..(٣٧) ﴾ [آل عمران]

ثم تعلِّل الجواب: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ [2] ..(٣٧) ﴾

[آل عمران]

قالت ذلك ؛ لأنه وجد عندها أشياء لا توجد فى مثل هذا الوقت من

---

(١) أنَّى لك هذا؟ : كيف ومن أين لك هذا ؟

(٢) لله فى عطائه رزق بحساب ، ورزق بغير حساب ، فرزق الحساب بقدر ما تقدمه من خير وعمل صالح ، يُقاس العطاء بمقياس العدل الإلهى . أما الرزق الذى بغير حساب فهو رزق الذين وهبوا كلياتهم إلى الكل المطلق ﴿ قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) ﴾ [الأنعام] . إذن : فكون الرزق هنا بلا حدٍّ مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٢١٢) ﴾ [البقرة] لأن الإمام العارف قال : من دخل على الله بحساب أعطاه بحساب ، ومن دخل عليه بغير حساب أعطاه بغير حساب .

السنة ، فعجَبُ سيدنا زكريا عليه السلام - إذن - كان من أمرين اثنين : شيء لم يأت هو به ، وشيء مخالف للفترة التى هو فيها ، كأنْ وجد عندها عنباً فى زمن غير أوانه ، أو وجد برتقالاً فى غير أوانه [1] ، وسؤاله كان دليل يقظة الكفيل ، وإجابتها كانت قضية إيمانية عقدية ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ..(٣٧)﴾ [آل عمران]

وما دام ﴿مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ - سبحانه وتعالى - ما طرح حسابك أنت للأشياء فى ضوء هذه القضية.

ولكن هل غفل سيدنا زكريا - عليه السلام - عن قضية الإيمان بأن الله تعالى يرزق مَنْ يشاء بغير حساب ؟

فنقول: لا ، لم يغفل عنها ، ولكنها لم تكن فى بؤرة شعوره حينئذ ؛ فجاءت بها قولة السيدة مريم لتذكر بهذه القضية ، وهنا تذكَّر زكريا نفسه ، كرجل بلغ من الكبر عتياً [2] ، وامرأته عاقر ، وما دام الله سبحانه يرزق من يشاء بغير حساب ، فليس من الضرورى أن يكون شاباً أو تكون زوجته صغيرة لينجب ، فجاء الحق معبراً عن خاطر زكريا فى قوله :

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ .. (٣٨)﴾ [آل عمران]

أى: فى هذا الوقت أو ذلك المكان ، أو فى الاثنين معاً زماناً ومكاناً ، وهنا جاءته الإجابة من ربه سبحانه وتعالى: ﴿قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ..(٩)﴾ [مريم]

---

(١) ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا .. (٣٧)﴾ [آل عمران] قال مجاهد وعكرمة وآخرون : يعنى : وجد عندها فاكهة الصيف فى الشتاء ، وفاكهة الشتاء فى الصيف. وهذا فيه دلالة على كرامات الأولياء [تفسير ابن كثير : ١/ ٣٦٠].

(٢) عتَا الشيخ عتيـاً وعَتِيّاً وعُتِيّاً : كَبرَ وأسنَّ. [اللسان : مادة (عتى)].

وقد جاء الحق سبحانه بهذه القضية ليمنع أيَّ ظانٍّ من أن يسيء الظن بعفة مريم عليها السلام ؛ لأنها فى موقف اللجوء فأنطقها الحق بقوله : ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ .. (٣٧)﴾ [آل عمران]

وما دام الرزق بغير حساب وفى غير وقته وغير مكانه وبلا سبب وبغير علم كافلها ، فعند ذلك تحقق اللجوء إلى الله بالقبول الحسن الذى دعت به امرأة عمران :

﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٣٦) فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ [1] وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ..(٣٧)﴾ [آل عمران]

ويطبقها زكريا عليه السلام على نفسه ، ثم تتعرض هى لها، حين يبشِّرها الحق سبحانه بغلام اسمه المسيح عيسى ابن مريم - عليهما السلام .

فهى ستلد من غير أن يمسسها ذكر ، وهى تعلم أن الأسباب جارية فى أنه لا يوجد تناسل إلا بوجود ذكر وأنثى ، وشاء الحق سبحانه أن يقدِّر لها أن تلد دون هذه العملية ، فجاء سبحانه بتلك المقدمة على لسانها ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ..(٣٧)﴾ [آل عمران]

وحين تساءلت : ﴿رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ .. (٤٧)﴾ [آل عمران]

جاءتها الإجابة بأن اسمه المسيح عيسى ابن مريم ، يقول سبحانه : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ..(٤٥)﴾[آل عمران]

فبيقظتها الإيمانية فطنت إلى أن هذا الطفل سينسب إلى أمه ؛ فعرفت أن

---

(١) تقبُّل الشيء وقبوله دليل على أخذ الشيء برضا ، فأنت قد تأخذ بكُرْه أو على مضض ، أما أن تتقبل فذلك يعنى الأخذ بقبول ورضا . أما القبول الحسن فهو زيادة فى الرضا .

أباه ملغى ؛ وأدركت أن هذا الولد لن يأتى نتيجة زواج ولو فيما بعد ، وبذلك كان عليها أن تعود إلى القضية الإيمانية التى ذكرتها : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٧)﴾ [آل عمران]

وهنا في الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها يقول الحق سبحانه : ﴿هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ .. (٣٠)﴾ [يونس]

أى : فى ذلك الوقت تُختبر كل نفس ، وترى هل الجزاء طيب أم لا؟ فإن كانت قد عملت الشر ؛ فستجد الجزاء شَرّاً .

إذن : فالإنسان وقت النتائج يختبر نفسه بما كان منه .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ[1] الْحَقِّ .. (٣٠)﴾ [يونس]

وكأنهم كانوا فى الدنيا عند مولًى آخر غير الإله الحقّ سبحانه ، والمولى غير الحق هو الشريك أو الشركاء الذين اتخذهم بعض الناس مَوالِىَ لهم ، وهنا فى اليوم الآخر يُردُّون إلى الإله الحق والمولى الحق سبحانه .

وكلمة «رُدُّوا إلى كذا» لا تدل على أنهم كانوا مع الضِّدِّ ، وجاءوا له ، بل تدل على أنهم كانوا معه أولاً ، ثم ذهبوا إلى الضِّدِّ ، ثم رُدُّوا إليه ثانياً ، مثل قول الحق سبحانه عن موسى عليه السلام :

﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ .. (١٣)﴾ [القصص]

فدلَّت على أنه كان مع أمه ، ثم فارقها ، ثم رُدّ إليها .

وقول الحق سبحانه هنا : ﴿وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ[2] الْحَقِّ .. (٣٠)﴾ [يونس]

---

(١) المولى : النصير والوليّ الذى يلى عليك أمرك ، ولا يليك إلا من هو قريب منك ، وهو الناصر والمعين الذى تفزع إليه فى شدائدك .

(٢) قال تعالى هنا : ﴿وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ .. (٣٠)﴾ [يونس] فأثبت أن الله هو مولاهم الحق ، وقال فى آية أخرى : ﴿وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ .. (١١)﴾ [محمد] . فهو سبحانه ليس مولى لهم فى النصرة والمعونة ، بل هو مولى لهم فى الرزق وإدرار النعم .

أى: أنهم كانوا مع الله أولاً ، ثم أخذهم الشركاء ، وفى هذا اليوم الآخر يرجعون لربهم سبحانه.

والإنسان يكون مع ربّه أولاً بالفطرة التكوينية المؤمنة ، ثم يتجه به أبواه إلى المجوسية أو أىّ ديانة أخرى تحمل الشرك بالله تعالى [(١)] ، وهم فى ظل تلك الديانات المشركة ، كانوا عند مولًى وسيِّد وآمر ومشرِّعٍ ، لكنه مَوْلًى غير حق ؛ لأن الحق هو الثابت الذى لا تدركه الأغيار.

﴿هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ ..(٣٠)﴾ [يونس]

أى: عرفت كل نفس ما فعلت ، ويُعرف كل إنسان بفضيحته فى جزئيات ذاته ، وكذلك الفضيحة العامة لكل إنسان أشرك بالله سبحانه.

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٣٠)﴾ [يونس]

أى: أن الآلهة التى عبدوها لا تتعرف إلى أمكنتهم ومواقعهم ، وأنهم فى خطر ؛ فتأخذ بأيديهم ؛ لأن هذه الآلهة لا علم لها بهم ، ولو أن هذه الآلهة التى كانوا يعبدونها من دون الله - سبحانه - على شىء من الحق ؛ ووجدوهم فى مأزق ؛ لكان يجب أن يدافعوا عنهم ، لكنهم لم يعرفوا أماكنهم ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ..(٣٠)﴾ [يونس]

أى: ما كانوا يكذبونه كذباً متعمداً.

وبعد أن كشف - سبحانه - المسألة وما سوف يحدث فى الآخرة ،

---

(١) عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة ، فأبواه يهوِّدانه أو ينصِّرانه أو يمجِّسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء ، هل تحسون فيها من جدعاء؟ ثم قال: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ..(٣٠)﴾ [الروم]. متفق عليه. أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٧٧٥) ومسلم (٢٦٥٨).

وخوَّفهم وبشَّع لهم ما سوف ينتظرهم من مصير إنْ ظلوا على الكفر ؛ لعلَّهم يرتدعون [(١)] ، ويتذكرون ضرورة العودة إلى عبادة الإله الحق سبحانه ، يأتى الحق سبحانه وتعالى بما يعيد إليهم رُشْدَ الإيمان فى نفوسهم ، فيقول :

﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ [(٢)] أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ ﴾

أى : أن الحق سبحانه يقول لرسوله ﷺ : اسألهم هذا السؤال ، ولا يسأل هذا السؤال إلا مَنْ يثق فى أن المسئول لو أدار فى ذهنه كل الأجوبة ، فلن يجد جواباً غير ما عند السائل .

ومثال ذلك من حياتنا - والله المثل الأعلى - إن جاء لك من يقول : أبى يهملنى ، فتمسك به ، وتسأله : من جاء لك بهذه الملابس وذلك القلم ويُطعمك ويُعلِّمك ؟ سيقول لك : أبى .

وأنت لا تسأله هذا السؤال إلا وأنت واثق أنه لو أدار كل الأجوبة فلن يجد جواباً إلا الذى تتوقعه منه ، فليس عنده إجابة أخرى ؛ لأنك لو كنت تعرف أنه سوف يجيبك إجابة مختلفة لما سألته فكأنك ارتضيت حكمه هو فى المسألة .

---

(١) الارتداع : الكف عن الشىء . وترادع القوم : ردع بعضهم بعضاً ، فزجروهم وكفوهم عن المعاصى وإيذاء الناس . [وانظر : لسان العرب - مادة ردع] .

(٢) فى الآية منطق الفطرة بالتوحيد ، فالكافر إذا سئل عن خلق الكون ، وعن تدبير الأمر ، وعن عجائب الآيات لا يجد جواباً إلا أن يقول بدافع الفطرة : الخالق هو الله ، والمدبر هو الله .

والحق سبحانه وتعالى قال فى بداية هذه الآية الكريمة: ﴿قُلْ﴾ كما أنزل عليه مثيلاتها مما بُدِىء بقوله سبحانه: ﴿قُلْ﴾ مثل قوله سبحانه:

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١)﴾ [الصمد]

وهذا ما اقتضاه خطاب الحق سبحانه دائماً للخَلْق، ويختلف عن خطاب الخَلْق للخَلْق، فحين تقول لابنك: «اذهب إلى عمِّك، وقُلْ له كذا». فالابن يذهب إلى العمِّ ويقول له منطوق رسالة الأب، دون أن يقول له: «قُلْ»، أما خطاب الحق سبحانه للخلق، فقد شاء سبحانه أن يبلِّغنا به رسوله ﷺ كما نزل ﴿قُلْ﴾ فالرسول ﷺ أمين فى البلاغ عن الله تعالى، لا يترك كلمة واحدة من الوحى دون أن يبلِّغها للبشر، وما دام الحق سبحانه وتعالى هو الذى أمره، فهو يبلغ ما أُمِرَ، حتى لا يحرم آذان خلق الله تعالى من كل لفظ صدر عن الله سبحانه.

وكذلك أمر الحق - سبحانه - هنا لرسوله ﷺ بأن يقول: ﴿مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ .. (٣١)﴾ [يونس]

ونحن نعلم أن الرزق هو ما يُنتفع به، والانتفاع الأول مُقوِّم حياة، والثانى تَرَفٌ أو كماليات حياة، والرزق الذى هو أصل الحياة هو ماء ينزل من السماء، ونبات يخرج من الأرض [1].

وهكذا قال الحق سبحانه السؤال والإجابة معروفة مقدَّماً، فلم يَقُلْ لرسوله ﷺ: «أجبْ أنت» بل ترك لهم أن يجيبوا بأنفسهم.

وكذلك جاء الحق سبحانه بسؤال آخر: ﴿أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ .. (٣١)﴾ [يونس]

---

(١) وهذا الرزق هو ما ذكره رب العزة فى قوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ (٢٤) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً (٢٩) وَحَدَائِقَ غُلْبًا (٣٠) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (٣١) مَتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ (٣٢)﴾ [عبس].

والسمع والبصر هما السيدان لملَكَات الإدراك ؛ لأن إدراك المعلومات[١] له وسائل متعددة ، إنْ أردتَ أنْ تُدرك رائحة ؛ فبأنفك ، وإنْ أردتَ أنْ تدرك نعومة ؛ فبلمسك وببشرتك ، وإنْ أردتَ أن تدرك مذاق شىء فبلسانك ، وإنْ أردت أن تتكلم فبأجهزة الكلام وعمدتها اللسان ، وإنْ أردتَ أن تسمع فبأذنك .

وكذلك تتجلَّى لك المرائى[٢] بعينيك ، ثم تأتى إدراكات متعددة من الحواس ؛ لتُكوِّن أشياء نسميها الخميرة ، توجد منها القضية العقلية الأخيرة ، فَالطفل أمام النار يجد منظرها جميلاً جذاباً ، لكن ما إن يلمسها حتى تلسعه ؛ فلا يقرب منها أبداً من بعد ذلك ؛ لأنه اختبرها بحواسه فارتكزت لديه القضية العقلية وهى أن هذه نار محرقة ، واستقر هذا لديه يقيناً .

وهكذا تكون الإدراكات الحسية إدراكات متعددة تصنع خميرة فى النفس تتكون منها الإدراكات المعنوية .

إذن : فوسائل العلم للكائن الحى هى الحواس ، وهذه الحواس تعطى العقل معطيات تنغرز فيه لتستقر من بعد ذلك فى الوجدان ؛ فتصبح عقائد .

إذن : فمراحل الإدراك هى : إدراك حسىٌّ ، وتفكُّر عقلىٌّ ، فانتهاء عَقَدِىٌّ ؛ ولذلك نسمِّى الدين عقيدة .

أى : أنك عقدت الشىء فى يقينك بصورة لا تحلُّه بعدها من جديد لتحلّله ، فهذا يُسمى عقيدة .

---

(١) الإدراك يعطى الوجدان ، والوجدان يعطى الاختيار ، والاختيار يعطى الفكر والتأمل ، وعن طريق الفكر المتأمل يكون توحيد الله .

(٢) رأى يرى فهو راءٍ ، وما يقع عليه البصر فهو مرئىّ ، والجمع : مَرَائى .

ولذلك حينما أراد الله - سبحانه وتعالى - أن يقصَّ علينا مراحل الإدراك فى النفس الإنسانية ؛ ليربى الإنسان معلوماته ، قال الحق سبحانه : ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨) ﴾ [النحل]

لذلك يقال : «كما ولدته أمه» ، أى : لم يُعْطَ القدرة على استخدام حواسِّه بعد ، ثم يجعل له الحق سبحانه الحواس ، ويجعله قادراً على استخدامها .

ولم يذكر بقية الحواس ، بل جاء بالسيدين ، وهما السمع والبصر ؛ لأن آيات الكون تحتاج إلى الرؤية ، وإبلاغ الرسل يحتاج للسماع ، وهما أهم آلتين فى البلاغ ، فأنت ترى بالعين آيات الكون ومعجزات الرسل ، وتسمع البلاغ بمنهج الله سبحانه وتعالى من الرسل .

وقد لفتنا الإمام على بن أبى طالب - رضى الله عنه - إلى العجائب فقال : « اعجبوا لهذا الإنسان ، ينظر بشحمٍ ، ويتكلم بلَحْمٍ ، ويسمع بعظمٍ ، ويتنفس من خَرْمٍ »[1] .

فالصوت يطرق عظمة الأذن ، ويرنّ على طبلتها ، ونرى بشحمة[2] العين ، وننطق بلحمة اللسان .

وأضاف البعض : «ونشمّ بغضروف ، ونلمس بجلد ، ونفكر بعجين» . فالإنسان يولد وكأن مخه قطعة من العجين التى تعمل فى استقبال المعلومات من الكون وتخزينها فيه ، وهى التى ستكون ركيزة لتشكيل الفؤاد من بعد ذلك .

---

(١) ذكره الشريف الرضى فى كتابه «نهج البلاغة» (٤/ ٤) طبعة مؤسسة الأعلمى للمطبوعات - بيروت .

(٢) شحمة العين : مُقلتها ، وقيل : حدقتها أو ما تحت الحدقة . أما شحمة الأذن فهو ما لان من أسفلها ، وهو مُعَلَّق القُرط . [اللسان : مادة (شحم)] .

وجاء قول الحق سبحانه هنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها بوسيلتين من وسائل الإدراك ، وترك بقية الوسائل الثلاث الأخرى الظاهرة ، مع أن العلم الحديث حين تكلم عن وظائف الأعضاء ، احتاط للأمر وقرر أن هذه الحواس هى الحواس الخمس الظاهرة.

وهذا يعنى أن هناك حواسّاً أخرى غير هذه سيكشف عنها ، وهى حواس لم يكن القدماء يعرفونها ، مثل حاسة البَيْنَ بَيْنَ ، التى نفرق بها بين أنواع الأقمشة والأوراق وغيرها ، وكثافة هذا النوع من ذاك ، وهذه الحاسة توجد بين لمستين من إصبعين متقاربين [(١)].

وكذلك حاسة العَضَل التى تزن ثقل الأشياء ، وتعرف حين تحمل ثقلاً ما مدى الإجهاد الذى يسببه لك، وهل يختلف عن إجهاد حَمْل ثقلٍ آخر.

وحين نظر العلماء فى معانى الألفاظ قالوا: «النظائر حين تخالف فلا بد من علّة للمخالفة» فالسمع آلة إدراك ، والبصر آلة إدراك ، فلماذا قال الحق سبحانه فى آلة الإدراك «السمع» ، وقال فى الآلة الثانية «الإبصار» ؟، ولماذا جاء السمع بالإفراد ، وجاء الإبصار بالجمع ، ولم يأتْ بالاثنين على وتيرة [(٢)] واحدة ؟

فنقول : إن المتكلم هو الله تعالى ، وكل كلمة منه لها حكمة وموضوعة بميزان ، وأنت حين تسمع ، تسمع أى صوت قادم من أى مكان ، لكنك بالعين ترى من جهة واحدة ، فإنْ أردتَ أن ترى ما على يمينك فأنت تتجه

---

(١) وهذا غير حاسة اللمس التى ندرك بها نعومة أو خشونة هذا القماش أو ذاك ، فهذا يُدرك بحاسة اللمس وعادة يكون هذا بإمرار كفِّ اليد على القماش ، أما إدراك (تخانة) هذا القماش أو ذاك فيكون بإدراكه بهذه الحاسة.

(٢) الوتيرة : الطريقة. مأخوذة من التواتر أى : التتابع ، وجَرَتِ الأشياء على وتيرة واحدة : أى : بنفس الصفة والطريقة . [اللسان : مادة (وتر)].

بعينيك إلى اليمين ، وإنْ أردت أن ترى ما خلفك ، فأنت تغيِّر من وقفتك ، فالأذن تسمع بدون عمل منك ، لكن البصر يحتاج إلى عمليات متعددة ؛ لترى ما تريد.

وأيضاً فالسمع لا اختيار لك فيه ، فأنت لا تستطيع أن تحجب أذنك عن سماع شيء ، أما الإبصار فأنت تتحكم فيه بالحركة أو بإغلاق العين.

وجاء الحق - سبحانه وتعالى - بالسمع أولاً ؛ لأن الأذن هى أول وسيلة إدراك تؤدى مهمتها فى الإنسان ، أما العين فلا تبدأ فى أداء مهمتها إلا من بعد ثلاثة أيام إلى عشرة أيام غالباً.

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ .. (٣١)﴾ [يونس]

والحق سبحانه يملكها ؛ لأنه خالقها وهو القادر على أن يصونها ، وهو القادر سبحانه على أن يُعَطِّلها ، وقد أعطانا الحق مثالاً لهذا فى القرآن فقال عن أصحاب الكهف : ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا (١١)﴾ [الكهف]

فَعَطَّل الله سبحانه أسماعهم بأن ضرب على آذانهم ، فذهبوا فى نوم استمر ثلاثة قرون من الزمن وازدادوا تسعاً.

كيف حدث هذا ؟ .. إن أقصى ما ينامه الإنسان العادى هو يوم وليلة ، ولذلك عندما بعثهم الله تساءلوا فيما بينهم : ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ .. (١٩)﴾ [الكهف]

ولكن هيئتهم لم تكن تدل على هذا ، فإن شعورهم قد طالت جداً ، بل إن لونها الأسود قد تبدل وأصبحوا شيبًا وكهولاً ، ولذلك قال الحق سبحانه : ﴿لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا .. (١٨)﴾ [الكهف]

ونلحظ هنا ملحظاً يجب الانتباه إليه ، ففى هذه الآية الكريمة يقول الحق سبحانه : ﴿أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ .. (٣١)﴾ [يونس]

بينما يقول فى آية أخرى فى سورة السجدة : ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ .. (٩)﴾ [السجدة]

ولا بد أن ننتبه إلى الفارق بين «الخَلْق» و«الجَعْل» ، و«المِلْك» ، فالخلق قد عرفنا أمره ، وملكية كل شىء لله - تعالى - أمر مُلْزِمٌ فى العقيدة ، ومعروف ، أما «الجَعْل» ، فهو توجيه ما خلق إلى مهمته .

فأنت تجعل الطين إبريقاً ، والقماش جلباباً ، هذا على المستوى البشرى ، أما الحق سبحانه وتعالى فقد خلق المادة أولاً ، ثم جعل من المادة سمعاً وبصراً ، وزاد من بعد ذلك ﴿أَمَّن يَمْلِكُ﴾ ، فمن خَلَق هو الله تعالى ، ومن جَعَلَ هو الله تعالى ، ومن مَلَكَ هو الله تعالى .

وهو سبحانه ينبهنا إلى ذلك ، فالأشياء النافعة لابن آدم يخلقها الله سبحانه ، ويجعلها ، ثم يُملِّكها له .

أما ذات الإنسان وأبعاضه من سمع وبصر وغيرهما وإن كانت قد خُلقت فى الإنسان ، وجُعلت له للانتفاع بها ، ولكنها ستظل مِلْكاً لله ، يبقيها على حالها ، أو يخطفها أو يصيبها بآفة ، أو يعطلها [1] .

إذن : فهى خُلقت لله ، وجُعلت من الله ، وتظل مملوكة لله ، ويُصيِّرها كيف يشاء ، فدقات القلب والحب والكراهية والأمور اللاإرادية التى تعمل لصالح الإنسان هى مملكة الله .

---

(١) يقول سبحانه : ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠)﴾ [البقرة] .

والحق سبحانه - على سبيل المثال - جعل لكلِّ حيوان جلداً ؛ ننتفع به وندبغه إلا جلدين اثنين: جلد الإنسان وجلد الخنزير ، وقد حُرِّم استخدام جلد الإنسان ؛ لكرامته عند خالقه ، وحُرِّم استخدام جلد الخنزير ؛ ليدُلَّ على حرمته ونجاسته .

وعلينا أن ننتبه إلى أن الحق سبحانه قد خَلَقَ وجَعَلَ ومَلَكَ ، ودليل ملكية الحق - سبحانه وتعالى - أنه حَرَّم الجنة على المُنتحر [1] ؛ لأنه لا يأخذ الحياة إلا واهبُ الحياة ، فأنت أيها الإنسان لستَ ملْكَ نفسك. ولا عذر لأحد ما دام قد وصله هذا البلاغ ، وعليه أن يستوعبه أما من لا يستوعب ؛ فيلقى مصيره.

لذلك فإنه سبحانه هو الذى رزق ، وهو - سبحانه - الذى يملك.

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ .. (٣١)﴾ [يونس]

ونحن نعلم أن لكل كائن فى الوجود حياة تناسبه ، بدليل قول الحق سبحانه: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ .. (٨٨)﴾ [القصص]

وما دام كل شىء سيأتى له وقت يهلك فيه ، فمعنى ذلك أن لكل شىء حياة ، إلا أن حياتنا نحن فى ظاهر الأمر عبارة عن الحس والحركة ، والإنسان يأكل الخضروات والخبز والفاكهة ، ومن هذه المأكولات وغيرها يكوِّن الجسمُ الحيوانات المنوية فى الرجل ، والبويضات فى المرأة ، ومنهما يأتى الإنسان ، وكذلك يخرج الكتكوت من البيضة المخصَّبة ؛ لأن البيضة

---

(١) عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ : « من قتل نفسه بحديدة فحديدته فى يده يتوجأ بها فى بطنه فى نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً ، ومن شرب سماً فقتل نفسه فهو يتحساه فى نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً ، ومن تردى من جبل فقتل نفسه فهو يتردى فى نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً » . أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٧٧٨) ومسلم (١٠٩) واللفظ لمسلم .

غير المخصبة لا تُخرج كتكوتاً ؛ فهى بدون حياة ؛ ولذلك لا يتكون منها جنين ، فهناك فرق بين قابلية الحياة ، وبين الحياة نفسها.

وكذلك نواة التمرة ، إذا ما ألقيتْ دون أن توضع فى الأرض ، فلن تكون نخلة أبداً ، ولكن إذا ما زُرعتْ فى الأرض ، ووجدت لها البيئة المناسبة ؛ خرجَتْ نخلة.

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ .. (٣١) ﴾ [يونس]

والتدبير هو عملية الإدارة لأى شىء ؛ حتى يؤدى مهمته ، وبالله من يُدير قلبك ؟ ومن يدير حركة أمعائك ؟ لتستخلص من الطعام ما يفيدك ، ثم تخرج ما لا يفيدك.

إياك أن تقول : إننى أنا الذى أدير ذلك؟ ونقول : كنت طفلاً فى مرحلة الطفولة ، فهل كنت تدير حركة قلبك أو أمعائك ؟ ومَنْ الذى يدير حركة رئتيك ؟ إن الذى يديرها هو خالقها ؛ لذلك اطمئنوا على حركة أجهزتكم التى لا دخل لكم فيها ؛ لأن الذى خلقها فيكم قيُّوم لا تأخذه سنة [١] ولا نوم ، ولا يؤوده حفظ ذلك [٢].

ويجيب مَنْ يسألهم الرسول ﷺ على كل تلك الأسئلة - بأمر الله تعالى- الإجابة التى حددها الله سبحانه سلفاً ﴿ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ .. (٣١) ﴾ [يونس]

إذن : أما كان يجب أن نرهف الآذان ، ونُعْمل الأبصار ؛ لنرى قدرة الله سبحانه الذى وهب لنا كل تلك النعم من رزق ، وسمع ، وبصر ، وإحياء ، وإماتة ، وإحياء من ميت ، وتدبير الأمر كله ؟

---

(١) السنة : النعاس من غير نوم. وقيل : السنة نعاس يبدأ فى الرأس ، فإذا صار إلى القلب فهو نوم. [اللسان مادة : وسن].

(٢) لا يؤوده حفظ السموات والأرض : أى: لا يعجزه سبحانه ولا يثقل عليه. يقال : آده الأمر: بلغ منه المجهود والمشقة. [اللسان مادة : أود].

أما كان يجب أن نقول: يا مَنْ خَلَقْتَنَا ماذا تنتظر منَّا ؛ لنعمِّر الكون الذى أوجدتنا فيه ؟ فكيف - إذن - يتجه البعض بالعبادة لغير الله تعالى ؛ لشمس أو قمر ، أو ملائكة ، أو نبىّ ، أو صنم ؟ كيف ذلك والعبادة معناها إطاعة العابد للمعبود فيما يأمر به ؟ وهل هناك إله بغير منهج يأمر به عباده ، ومن عبد الشمس هل كلَّفته بشىء ؟ . . لا .

إذن: يتساوى عندها مَنْ عبدها ، ومَنْ لم يعبدها ، وفى هذا نقض لألوهية كل معبود غير الله تعالى .

ولذلك يُنهى الحق سبحانه الآية بقوله: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ . . (٣١)﴾ [يونس]

فما دام الله سبحانه هو الذى خلق كل ذلك ، وأنزل منهجاً ، فعليكم أن تجعلوا بينكم وبينه وقاية ؛ تحميكم من صفات الجلال ، وتقرّبكم من آثار صفات الجمال [1] وأن تسمعوا إلى البلاغ من الرسل عليهم السلام ، وإلى مطلوباته سبحانه .

وما دام كل إنسان سيجيب عن أسئلة هذه الآية ، ويعترف أن الخالق سبحانه والمالك هو الله تعالى ، فعلى الإنسان أن يقى نفسه النار .

والعجيب أن الجميع يجيب بأن الله سبحانه هو الذى خلَق ، فالحق سبحانه يقول: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ . . (٨٧)﴾ [الزخرف]

ويقول أيضاً: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ . . (٢٥)﴾ [لقمان]

وما دام الله تعالى هو الذى خلق ، ورزق ، ودبَّر الأمر ، فكيف تتركون عبادته وتتجهون لعبادة غيره ؟

---

(١) صفات الجمال هى صفات الرحمة والمغفرة والرضا ، أما صفات الجلال فهى صفات القهر والعلو وكونه سبحانه هو العزيز . فعلى العبد أن يهرب من آثار صفات الجلال ليذوق حلاوة آثار صفات الجمال ؛ ليدخل فى عباد الله المتقين .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ (١) ﴿٣٢﴾ ﴾

وقد جاء قول الحق سبحانه: ﴿فَذَٰلِكُمُ﴾ إشارة منه إلى ما ذكره قَبْلاً من الرزق، وملكية السمع والأبصار، وقدرة إخراج الحىّ من الميت، وإخراج الميت من الحى، وتدبير الأمر.

إذن: فقوله سبحانه: ﴿فَذَٰلِكُمُ﴾ إشارة إلى أشياء ونعم كثيرة ومتعددة أشار إليها بلفظ واحد؛ لأنها كلها صادرة من إله واحد.

﴿ فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ .. (٣٢) ﴾ [يونس]

ولا يوجد فى الكون حقَّان (٢)، بل يوجد حق واحد، وما عداه هو الضلال؛ لذلك يقول الحق سبحانه: ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ .. (٣٢) ﴾ [يونس]

إذن: أنتم إنْ وجَّهتم الأمر بالربوبية إلى غيره؛ تكونون قد ضللتم الطريق، فالضلال أن يكون لك غاية تريد أن تصل إليها، فتتجه إلى طريق لا يوصِّل إليها. فإن صُرفتم من الإله الحق فأنتم تصلون إلى الضلال.

ولذلك يُنهى الحق سبحانه الآية بما يبين أنه لا يوجد إلا الحق أو الضلال، فيقول سبحانه: ﴿ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ .. (٣٢) ﴾ [يونس]

---

(١) فأنى تُصرفون: أى: كيف تصرفون عقولكم إلى عبادة ما لا يرزق ولا يُحيى ولا يميت. [تفسير القرطبى ٤/ ٣٢٦٧].

(٢) الحق واحد لا بمنظور الفكر البشرى ولكنه بمنهج الحق ذاته؛ لأن حقائق الأشياء ثابتة، والعلم بها متحقق خلافاً للسفسطائية، وخلافاً لمن يعتقدون أن الباطل حق، والحق باطل فليس الحق خاضعاً لتخريف العقول، وتخريف الفكر بغية المخالفة والمغالطة.

أى: أنكم إن انصرفتم عن الحق - سبحانه وتعالى - فإلى الضلال، والحقُّ واحد ثابت لا يتغيَّر.

ومَنْ عبد الملائكة أو الكواكب أو النجوم؛ أو بعض رسل الله - عليهم السلام - أو صنماً من الأصنام؛ فقد هوى إلى الضلال.

وإن كنتم تريدون أن نجادلكم عقلياً، فَلْنقرأ معاً قول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك:

﴿ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

قوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما تقدم من رزق الله تعالى للبشر جميعاً، ومن ملْك السمع والبصر، ومن تدبير الأمر كله، ومن إخراج الحىّ من الميت، وإخراج الميت من الحى، ذلك هو الإله الحق سبحانه، وقد ثبت ذلك بسؤاله سبحانه وتعالى هذا السؤال الذى علم مُقدَّماً ألا إجابة له إلا بالاعتراف به إلهاً حقاً: ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ .. (٣٢) ﴾.

ومثل هذه القضية تماماً قَوْلُ الحق سبحانه: ﴿ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (٣٣) ﴾ [يونس]

لأنهم أساءوا الفهم فى الوحدانية، وفى العقيدة، واستحقوا أن يُعذَّبوا؛ لأنهم صرفوا الحق إلى غير صاحب الحق.

وقد كان هذا خطاباً للموجودين فى زمن النبى ﷺ، لكن بعضهم آمن بالله تعالى؛ ولذلك فالعذاب إنما يحُلّ على مَنْ لم يؤمن.

وهذا القول متحقق فيمَنْ سبق فى علم الله سبحانه أنهم لا يؤمنون،

وكذلك حقَّتْ كلمة ربك على هؤلاء الذين فسقوا ولا ينتهون عن فسقهم وكفرهم ، وإصرارهم على الانحراف بالعبودية لغير الله الأعلى والرَّبِّ الحق سبحانه وتعالى .

والدليل على العلم الأزلىِّ لله سبحانه ما نقرأه فى سورة البقرة : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (٦) ﴾[1] [البقرة]

إذن : معلوم لله تعالى مَنْ يؤمن ومَنْ لا يؤمن ، ومَنْ يستمر ويُصِرّ على كفره ؛ هو الذى يَلْقَى العذاب ، بعلم الله تعالى فيه أنه لن يؤمن .

ثم يذكر الحق بعد ذلك ما يمكن أن يُجادَلَ به الكافرون بمنطق أحوالهم ، ففى ذوات نفوس غير المؤمنين بإله توجد نزعة فطرية لفعل الخير ، وتوجيه غيرهم إليه ، وهو موجود حتى فى الأمم غير المؤمنة ، فكل قوم يُوجِّهون إلى الخير بحسب معتقداتهم ، فنجد بين الشعوب غير المؤمنة بإله حكماء وأطباء وعلماء ، وهؤلاء يوجهون الناس إلى بعض الخير الذى يرونه .

ونجد الطفل الصغير يكتسب المعتقدات والعادات والاتجاهات من والديه ، ومما يسمعه من توجيهاتهم ، فتجده يبتعد عن النار مثلاً أو الكهرباء ؛ لأنه ترسخت فى ذهنه توجيهات ونصائح غيره ؛ بل إنه يتعلم كيف يتعامل مع هذه الأشياء دون أن تصيبه بالضرر .

إذن : يوجد توجيه من الخلق إلى الخلق لجهات الخير ، ألا نجد فى الدول غير المؤمنة بإله مَنْ يرشد الناس إلى الطرق التى يمكن أن يسيروا فيها

---

(١) فى الآية إشارة إلى مجتمع النفاق ومجتمع النفاق يعيش بين مجتمعين : المجتمع الإيمانى مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥) ﴾ [البقرة] ، والمجتمع الكافر مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩) ﴾[النور] ، ومجتمع النفاق أخطر من مجتمع الكفر ، فالكفر معلن وأنا مستيقظ له ، أما النفاق فهو خداع .

باتجاهين ، والطرق التى عليهم أن يسيروا فيها باتجاه واحد ؟

ألا يوجد مَنْ يدل الناس على المنحنيات الخطرة على الطرق ، وكذلك يوجّههم إلى ضرورة خفض سرعة السيارات أمام مدارس الأطفال ؟

نعم ، يوجد فى البلاد غير المؤمنة مَنْ يفعل ذلك.

إذن: فالتفكير فى الخير لصالح الأمم أمر طبيعى غريزى موجود فى كل المجتمعات ، وإذا كان التوجيه للخير يحدث من الإنسان المساوى للإنسان ، ألا يكون الله سبحانه هو الأحق بالتوجيه إلى الخير ، وهو سبحانه الذى خلق الإنسان ، وخلق له ما يقيم حياته على الأرض ، ولذلك يقول الحق سبحانه:

﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (١) ﴿٣٤﴾ ﴾

وهنا يأمر الحق سبحانه رسوله ﷺ أن يسألهم: ﴿ **هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ** .. (٣٤) ﴾ [يونس]

ومعنى أن الله يسأل القوم هذا السؤال أنه لا بد أن تكون الإجابة كما أرادها هو سبحانه . وإنْ قال قائل: وكيف يأمنهم على مثل هذا الجواب ، ألم يكن من الجائز أن ينسبوا هذا إلى غير الله ؟

---

(١) الإفك : الكذب والإثم. أنّى تؤفكون: كيف تكذبون ؟! [اللسان : مادة (أفك)] والإفك أخطر من الكذب ، حيث إن الإفك فى افتراء متخيل ومبالغة باهتة لها التأثير المضر على المجتمعات والأفراد ؛ ولذلك يقول الحق : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١) ﴾ [النور] ، ولم يقل بالكذب مع أنه كذب ، ولكنه عبر بالإفك ؛ لأن فيه افتراء على كرامات الناس وقيم المجتمع .

نقول: إن هذا السؤال لا يُطرح إلا وطارحه يعلم أن له إجابة واحدة، فلن يجد المسئول إجابة إلا أن يقول: إن الذى يفعل ذلك هو الله سبحانه ولا يمكن أن يقولوا: إن الصنم يفعل ذلك؛ لأنهم يعلمون أنهم هم الذين صنعوا الأصنام، ولا قدرة لها على مثل هذا الفعل.

فالإجابة معلومة سلفاً: إن الله سبحانه وتعالى وحده هو القادر على ذلك، وهذا يوضح أن الباطل لجلج والحق أبلج [1]، وللحق صَوْلة [2]؛ فأنت ساعة تنطق بكلمة الحق فى أمر ما، تجدها قد فعلت فعْلها فيمن هو على الباطل، ويأخذ وقتاً طويلاً إلى أن يجد كلاماً يرد به ما قلته، بل يحدث له انبهار واندهاش، وتنقطع حجته [3].

ولذلك لم يَقُل الحق سبحانه هنا مثلما قال من قبل: ﴿فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ .. (٣١)﴾ [يونس]

بل قال: ﴿قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ .. (٣٤)﴾ [يونس]

وجاء بها الحق سبحانه هكذا؛ لأنهم حينما سُئلوا هذا السؤال بهرهم الحق وغلب ألسنتهم وخواطرهم؛ فلم يستطيعوا قول أى شىء.

ومثال ذلك - ولله المثل الأعلى - نجد وكيل النيابة يضيّق الخناق على المتهم بأسئلة متعددة إلى أن يوجه له سؤالاً ينبهر المتهم من فرط دقته وليس له إلا إجابة واحدة تتأبى طباعه ألا يجيب عنه، فيجيب المتهم معترفاً.

---

(١) اللجلجة: اختلاط الأصوات. قال أبو زيد: يقال: «الحق أبلج، والباطل لجلج»، والأبلج: المضىء المستقيم. أما اللجلج فهو المختلط المُعْوَجُّ والمتردد غير المستقر. [اللسان: مادة (لجج) - بتصرف].

(٢) الصولة: الوَثْبة والقوة على إزهاق الباطل.

(٣) وذلك مثلما حدث من إبراهيم عليه السلام مع النمرود، وقد قصَّه الله عز وجل فى قرآنه: ﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ .. (٢٥٨)﴾ [البقرة]، فبهت، أى: فوجىء بالحجة ومنطقها فتحيَّر فى جوابه ولم يجد رداً.

والإنسان - كما خلقه الله تعالى - صالح لأن يؤمن ، وصالح لأن يكفر ، فإرادته هنا تتدخل ، لكن أبعاضه مؤمنة عابدة مسبحة ، فاللسان الذى قد ينطق الكفر ، هو فى الحقيقة مؤمن مُسبِّحٌ ، حامد ، شاكر ، لكن إرادة الإنسان التى شاءها الله - سبحانه - متميزة بالاختيار قد تختار الكفر - والعياذ بالله - فينطق اللسان بالكفر .

وقد تأتمر اليد بأمر صاحبها ؛ فتمتد لتسرق ، أو تسعى الأقدام - مثلاً - إلى محل احتساء الخمر ، ولكن هل هذه الفاعلات راضية عن تلك الأفعال ؟

لا ، إنها غير راضية [1] ، إنما هى خاضعة لإرادة الفاعل .

وحين يسأل السؤال : من يبدأ الخلق ثم يعيده ؟ فاللسان بفطرية تكوينه المؤمنة يريد أن يتكلم ؛ لكنه لا يملك إرادة الكلام ، فيبين الحق سبحانه للنبى ﷺ أن يجيب نيابة عن الأبعاض المؤمنة ، فيقول سبحانه : ﴿ **قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ** .. (٣٤) ﴾ وهو بذلك يؤكد الصيغة ، ويكفى أن يقول محمد ﷺ هذا القول مُبلِّغاً عن ربه ، وينال هذا القول شرف العندية : ﴿ **قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ** (٣٤) ﴾ .

والإفك : هو الكذب المتعمَّد ، وهو الافتراء ، وهناك فارق بين الكذب غير المتعمد والكذب المتعمد ، فالكذب غير المتعمد هو من ينقل ما بلغه عن غيره حسبما فهم واعتقد ، وهو لون من ألوان الكذب لا يصادف الحق ، ويتراجع عنه صاحبه إن عرف الحق .

أما الافتراء فهو الكذب المتعمد ، أى : أن يعلم الإنسان الحقيقة

---

(١) بدليل أنها ستأتى يوم القيامة وتصبح هى الشاهدة على الإنسان ، يقول سبحانه : ﴿ **يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** (٢٤) ﴾ [النور] .

ويقلبها [(١)] ؛ ولذلك نجد العلماء قد وقفوا هنا وقفة ؛ فمنهم من قال : هناك صدق ، وهناك كذب ، لكن علماء آخرين قالوا : لا ، إن هناك واسطة بين الصدق والكذب .

ومثال ذلك : أن يدخل ابنٌ على أبيه ، بعد أن سمع هذا الابن من الناس أن هناك حريقاً فى بيت فلان ، فيقول الابن لوالده : هناك حريق فى بيت فلان ؛ فيذهب الأب ليعاين الأمر ، فإن وجد حريقاً فقول الابن صدق ، وإن لم يكن هناك حريق فالخبر كاذب ، ولكن ناقل الخبر نقله حسبما سمع .

إذن : فهناك فَرْق بين صدق الخبر وصدق المُخْبِر ، فمرة يَصْدُق الخبر ويصدُق المخبر ، ومرة يصدُق الخبر ولا يصدُق المخبِر ، ومرة يصدق المخبر ولا يصدق الخبر .

فهُنا أربعة مواقف ، والذين قالوا إن هناك واسطة بين الصدق والكذب هم مَنْ قالوا : إن الصدق يقتضى مطابقة بين الواقع والخبر . أما الكذب فهو ألا يطابق الواقع الخبر .

لذلك يجب أن نفرِّق بين صدق الخبر فى ذاته ، وصدق المخبر ؛ بأنه يقول ما يعتقد . أما صدق الخبر فهو أن يكون هو الواقع .

وقول الحق سبحانه : ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ أى : فكيف تقلبون الحقائق ؛ لأنكم تعرفون الواقع وتكذبونه كذباً متعمداً ؟

وكلنا نعلم قول الحق سبحانه : ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ [(٢)] (٥٣)﴾ [النجم]

---

(١) المؤتفكة : البلدة التى ائتُفكت بأهلها أى : انقلبت . والائتفاك : الانقلاب . [اللسان : مادة (أفك)] .
وقال ابن كثير : ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ (٥٣)﴾ [النجم] : يعنى مدائن قوم لوط قلبها الله - تعالى - عليهم ، فجعل عاليها سافلها . [تفسير ابن كثير : ٤/ ٢٥٩ - بتصرف] .

(٢) وهو الذى قصده رسول الله ﷺ فى قوله : «إياكم والكذب ، فإن الكذب يهدى إلى الفجور ، وإن الفجور يهدى إلى النار ، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً» . أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٦٠٧) والبخارى فى صحيحه (٦٠٩٤) .

والمؤتفكة: هى القرى التى كُفئت أعلاها إلى أسفلها ، كذلك الكذَّاب يقلب الحقيقة.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

وهذا أمر للرسول ﷺ بأن يسألهم سؤالاً جديداً ، لا إجابة له إلا ما يفرضه الواقع ، والواقع يؤكد أن الهداية لا تكون إلا للحق ؛ لأن كل كائن مخلوق لغاية ، فلا شىء يُخلق عبثاً [(١)].

ونحن بقُدرتنا المحدودة نصنع (الميكرفون) و(التليفزيون) أو الثلاجة أو السرير وغيرها ، كلّ منها له غاية ، وكل له قوانين صيانته الخاصة به ، والذى يحدِّد الغاية من هذا المصنوع أو ذاك هو صانعه ، ويضع لها قوانين صيانتها ؛ لتؤدّى غايتها ، فالغاية من أى شىء توجد قبل الشىء نفسه ؛ ليوجد الشىء على مقتضى الغاية منه.

وآفة العالم الآن أنهم يعلمون أن الله سبحانه خلق الإنسان ، ولكنهم يصنعون من عندهم قوانين لصيانة الإنسان وحركة الإنسان ، وهذا غباء وغفلة من الذين يفعلون ذلك ، كان عليهم أن يتركوا أمر صيانة الإنسان للقوانين التى وضعها خالق الإنسان سبحانه.

---

(١) يقول تعالى فى سورة المؤمنون: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ ﴾ [المؤمنون] وقال سبحانه فى الذاريات: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الذاريات] فللخلق غاية وحكمة وهى العبادة بمعناها المطلق أى: الطاعة.

فالحق سبحانه وتعالى قد حدد الغاية من خَلْق الإنسان وحدّد قوانين صيانته ، والشر الموجود حالياً بسبب الجهل بغاية الإنسان ، والعدول عن المنهج الذى يجب أن يسير عليه الإنسان ، فقال الحق سبحانه: ﴿ **قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَهْدِى إِلَى الْحَقِّ** .. (٣٥) ﴾ .

أى: هل من هؤلاء الشركاء مَنْ يهدى الإنسان إلى غايته ؟ هل قالت الشمس - مثلاً - غايتها ؟ هل قالت الملائكة غايتها ؟ هل قالت الأشجار أو الأحجار أو الرسل الذين عبدتموهم شيئاً غير مراد الله تعالى ؟

إنهم آلهة لا يعرفون الغاية من العابد لهم ، ولا يعرفون الطريق الموصل إلى تلك الغاية .

ولذلك يأتى القول الفصل : ﴿ **قُلِ اللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ** .. (٣٥) ﴾ .

فالله هداك أيها الإنسان إلى الحق فى كل حركة تتحركها بالمنهج الذى أنزله الله سبحانه مكتملاً على رسوله ﷺ من بدء « لا إله إلا الله » إلى إماطة الأذى عن الطريق [(١)] ، وهو منهج مستوعب مستوفٍ لكل حركات الإنسان .

وجاءت الإجابة من الله تعالى على لسان رسوله ﷺ ؛ لأنهم انبهروا بالسؤال وتلجلجوا ولم يوجد عند أى منهم قدرة على المعارضة ، فالغاية من خلق الإنسان وغيره يوجزها قول الحق سبحانه : ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ** (٥٦) ﴾ [الذرايات]

والعبادة ليست أركان الإسلام فقط، بل هى عمارة الكون كبنيان حىّ

---

(١) عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «الإيمان بضع وسبعون، أو بضع وستون شعبة. فأفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان». أخرجه البخارى فى صحيحه (٩)، ومسلم فى صحيحه (٣٥).

للإسلام ، والذى حدد الغاية هو الخالق سبحانه ، وهو سبحانه الذى يحدد طريق الوصول إليها .

ونحن حين نرغب فى الوصول إلى مكان فى الصحراء مثلاً ، إنما نحدد أولاً المكان ، ونختار طريق الوصول ، فإن كان الطريق المستقيم مليئاً بالعقبات والجبال ، فإنك ستضطر للانحراف عن هذا الطريق وصولاً إلى غايتك ، فهذا الطريق المعوج هو الطريق المستقيم ؛ لأنه الطريق الذى يجنبنا العقبات .

ومثال ذلك : السيول التى تنزل على هضاب الحبشة ، فاختارت لنفسها المجرى السهل فكان نهر النيل ، فلا أحد قد حفر النيل مثلما حفرنا الرياحات أو قناة السويس ، بل نزل السيل واختار لنفسه الطريق السهل فسار فيه بين التعاريج والرمال والصخور .

ولذلك أنت تجد كل ما لا دخل للبشر به قد يتعرج لينفذ ، أما ما صنعه البشر فلا يستطيع ذلك .

وكل خلق لا بد له من غاية ؛ لذلك نجد سيدنا إبراهيم عليه وعلى نبينا السلام يقول : ﴿ **الَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ** (٧٨) ﴾ [الشعراء]

فمن خلق هو الذى يحدد الغاية ؛ لأن هذه الغاية توجد عنده أولاً ليخلق ، وتتجلى الدقة فى قول القرآن على لسان سيدنا إبراهيم عليه السلام ، فلم يقل : الذى خلقنى يهدينى ، بل قال : ﴿ **الَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ** ﴾ مما يدل على أن هذه القضية ستخالَف ، وبعد أن يخلق الإنسان سيقوم بعض الناس - حماية لمصالحهم - بوضع طريق أخرى تخالف الغاية ؛ فتوصل إلى الضلال .

أما الحق سبحانه فقد أنزل القرآن فيه الهداية الحقة ، فالذى خلق هو

الذى يقنن ، ولذلك يذكر القرآن على لسان سيدنا إبراهيم عليه السلام :
﴿ وَالَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ (٧٩) ﴾ [الشعراء]

وبهذا القول وصل سيدنا إبراهيم عليه السلام إلى أن الذى رزق الآباء قدرة استنباط الرزق مطعماً ومشرباً هو الله سبحانه .

وذكر القرآن على لسان سيدنا إبراهيم عليه السلام : ﴿ وَالَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١) ﴾ [الشعراء]

فالإماتة والإحياء هما من الحق سبحانه ، فلا أحد يسأل عمن يملك الإماتة والإحياء ، أما عن شفاء المرض فقال: ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) ﴾ [الشعراء] (١)

فأنت قد تذهب إلى الطبيب وتظن أنه هو الذى يشفيك ؛ بل هو يعالج ، ولكن الله هو الذى يشفى .

وهكذا نعلم أن قول سيدنا إبراهيم عليه السلام : ﴿ الَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) ﴾ [الشعراء]

هو كلام منطقى ؛ لأن خالق الشىء هو الذى يهدى إلى الغاية من الشىء ؛ فالغاية أولاً ، ثم الخلق ، ثم توضيح الطريق الموصل إلى تلك الغاية ، فإذا خولف فى شىء من ذلك فلا صلاح لكون أبداً .

وتجد فى القرآن على لسان سيدنا موسى عليه السلام : ﴿ قَالَ رَبُّنَا الَّذِى أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ (٥٠) ﴾ [طه]

---

(١) عن أبى رمثة رضى الله عنه قال: انطلقت مع أبى نحو النبى ﷺ ، فإذا هو ذو وفرة، بها ردع حناء وعليه بردان أخضران فقال له أبى: أرنى هذا الذى بظهرك فإنى رجل طبيب. قال: « الله الطبيب، بل أنت رجل رفيق، طبيبها الذى خلقها».

فما دام الحق سبحانه قد خلق فهو يهدى إلى السبيل الموصل إلى الغاية ، ويقول القرآن أيضاً : ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى (١) الَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ (٢) وَالَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ [1] (٣) ﴾ [الأعلى]

وهكذا يتأكد لنا أنه ما دامت هناك غاية ، فلا بد من وجود طريق يهدينا إليه من خَلَقَنَا .

وهنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها يقول الحق سبحانه : ﴿ قُلِ اللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ .. (٣٥) ﴾ لأنه سبحانه هو الذى خلق ؛ ولذلك فمن المنطقى أن يأتى بعد ذلك التساؤل : ﴿ أَفَمَن يَهْدِى إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يَهِدِّى إِلاَّ أَن يُهْدَىٰ .. (٣٥) ﴾ ؟

وسبب وجود اللام فى قوله : ﴿ يَهْدِى لِلْحَقِّ ﴾ هو النظرة إلى الغاية ، وسبب وجود : ﴿ إِلَى الْحَقِّ ﴾ هو لفت الانتباه إلى أن الوصول إلى الغاية يقتضى طريقاً ، فأراد الحق سبحانه فى آية واحدة أن يجمع التعبيرين معاً .

ونحن نعلم أن هذه الآية قد نزلت فى الذين اتخذوا لله شركاء ، فهم يعترفون بالله تعالى ولكنهم يشركون به غيره ، فالله سبحانه وتعالى تفرَّد بالألوهية بربوبيته للخلق ؛ لأنه خلق من عَدَم ، ورزق من عُدْم ، وخَلَق لنا وسائل العلم ودبَّر لنا الأمر ، وأخرج الحىَّ من الميت ، وأخرجَ الميت من الحى ، وهدى للحق .

فأين - إذن - هؤلاء الشركاء الذين اتخذتموهم مع الله تعالى ؟ وهل صنع واحد منهم أو كُلُّهم مجتمعين شيئاً واحداً من تلك الأشياء [2] ؟

---

(١) ﴿ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ .. (٢) ﴾ [الأعلى] أى : خلق الخليقة وسَوَّى كل مخلوق فى أحسن الهيئات . وقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ .. (٣) ﴾ [الأعلى] . قال مجاهد : هدى الإنسان للشقاوة والسعادة وهدى الأنعام لمراتعها . [تفسير ابن كثير : ٤/ ٥٠٠] .

(٢) ويقول سبحانه فى سورة الروم : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَلِكُم مِّن شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٤٠) ﴾ [الروم] .

لذلك قال سبحانه : ﴿ **هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ** .. (٣٥) ﴾ [يونس]

إذن : فالذى يهدى هو الذى خَلَق ، وهؤلاء الذين أشركوا اعترفوا بالله خالقاً بشهاداتهم حين قال الحق سبحانه : ﴿ **وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ** .. (٨٧) ﴾ [الزخرف]

إذن : فالذين أشركوا قد ارتكبوا الإثم العظيم ، وهؤلاء الشركاء إما أن يكونوا من الملائكة ، أو من الأنبياء والرسل الذين فُتن بهم بعض الناس ، وهناك من اتخذ وسائط أخرى مثل : الشمس والقَمر والنجوم ؛ وهذه أشياء عُلوية ، وبعض الناس اتخذوا وسائط سفلية كالأشجار والأحجار ، فهل أى شىء من كل ذلك يهدى إلى الحق ؟ وما منهج أى منهم إذن ؟ وكيف بلَّغوكم به ؟

إن كل هؤلاء يعلمون أن أيّاً منهم لا يستطيع أن يَهدى ، بل هو يُهْدَى من الله سبحانه وتعالى، فمن أين قلتم إن الملائكة ستهديكم؟ أو من أين جاء الذين فُتنوا برسولهم واتخذوه إلهاً ؟ ومن أين جاء هذا الرسول بمنهجه ؟

إن كل كائن لا يَهدى إلا بعد أن يُهدى من الله أولاً ، وإن كانت الأشياء - المتخذة شركاء - لا هداية لها ، ولا منهج ، ولا عقل ، ولا تفكير ، كالشمس والقمر والنجوم فى العلويات ، والأشجار والأحجار فى السفليات ، فماذا قالت هذه الأشياء ؟ إنها لم تقل شيئاً .

وهكذا لا يستقيم أمر اتخاذهم شركاء مع الله ، حتى الملائكة ، فالله هو الذى يختار منهم المَلَكَ الذى يُبلِّغ عن الله سبحانه ، وكذلك الرسل عليهم السلام : ﴿ **أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يَهِدِّي إِلاَّ أَن يُهْدَى** .. (٣٥) ﴾ [يونس]

﴿ لاَّ يَهِدِّى﴾ تقرأ هكذا ، وللغة فيها عملية تخفيف جَرْس لسلامة نطقها واستقامة اللغة العربية ، فنحن نعرف أن ﴿يَهِدِّى﴾ يعنى : يهتدى . . أصلها يهتدى . . ويهتدى فيها هاء ساكنة وتاء ودال وياء . . وفيها تقارب لمخارج الحروف ، وهذا التقارب يجعل المعنى غائماً ، والنطق ثقيلاً ، فتقوم اللغة بعملية إبدال وإدغام ، وتخلّص من التقاء الساكنين فتصل إلى مسامعنا كما أنزلها الله تعالى لسلامة النطق وجمال المعنى ؛ لأن القرآن أدَّب اللغة بكلام السماء ؛ لتكون خالدة اللفظ والمعنى . فإذا كنتم على طريق هداية ، فالأصل فى الهداية هو الله تعالى .

ويُنهى الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله : ﴿ **فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ** . . (٣٥) ﴾ [يونس]

أى : ماذا أصاب عقولكم لتحكموا هذا الحكم ؛ فتشركوا بالله ما لا منهج له ، أو له منهج ولكنه موصول بالله تعالى جاء ليبلغه لهم ؟

وساعة تسمع ﴿كَيْفَ﴾ فهى للاستفسار عن عملية عجيبة ما كان - فى عُرْف العاقل - أن تحدث . كأن تقول : « كيف ضربت أباك ؟ » أو « كيف سببت أمك ؟» ، وهذا كله من الأمور التى تأباها الفطرة ويأباه الطبع والدين .

وقوله سبحانه : ﴿ **فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ** ﴾ كأنه أمر عجيب ما كان يصح أن يحدث ؛ لأن الحق سبحانه وحده هو الإله ، والحق هو الشىء الثابت الذى لايتغَّير غاية وطريقاً . والله سبحانه وحده هو الذى حدد لنا الغاية والطريق الموصل إليها ، وهو سبحانه القائل : ﴿ **وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلامِ** . . (٢٥) ﴾ [يونس]

والمنهج هو الطريق الذى يوصل إلى دار السلام من آفة الأغيار [1] ؛

(١) أى : أن أحوال الدنيا تتغير وتتبدل ولا تثبت على حال واحدة .

لأن الدنيا كلها أغيار ، فأنت قد تكون قوياً ثم تضعف أو صحيحاً فيصيبك المرض ، أو غنياً فتفتقر ، أو مبصراً فيضيع منك بصرك ، أو تكون صحيح الأذن سميعاً فتصير أصم بعد ذلك [(١)] .

إذن : فهى دنيا أغيار ، وهَبْ أن إنساناً أخذ من دنياه كل نصيبه عافية وأمناً وسلامةً وغنًى وكل شىء ؛ سنجده فى قلق من جهتين : الجهة الأولى أنه يخاف أن يفارقه كل هذا النعيم ، أو يخاف أن يترك هو هذا النعيم ، هذا ما نراه فى حياتنا .

إذن : فالدنيا بما فيها من أغيار لا أمان لها ؛ لنفهم أن كل عطاءات المخلوق إنما هى هبة من الخالق سبحانه وتعالى ؛ لأنها لو كانت من ذاتك لاستطعت الحفاظ عليها ، ولكنها هِبَاتٌ من الحق الأعلى سبحانه .

والأمر الموهوب قد يصبح مسلوباً .

ثم يقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

وقول الحق سبحانه : ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا .. ﴿٣٦﴾ ﴾ يفيد أن بعضهم كان يتبع يقيناً ؛ لأن مقابل الظن [(٢)] هو اليقين ، فالنسب التى تحدث

---

(١) ولأن الدنيا دنيا أغيار أوصى رسول الله ﷺ رجلاً وهو يعظه : « اغتنم خمساً قبل خمس : شبابك قبل هرمك ، وصحتك قبل سقمك ، وغناك قبل فقرك ، وفراغك قبل شغلك ، وحياتك قبل موتك » أخرجه الحاكم فى مستدركه (٤/ ٣٠٦) وصححه على شرط الشيخين عن ابن عباس ، وأقره الذهبى .

(٢) الظن كما أنه شكٌّ فإنه أيضاً يقين إلا أنه ليس بيقين عيان ، إنما هو يقين تدبُّر ، فأما يقين العيان فلا يقال فيه إلا علْم ، وهو يكون اسماً ومصدراً ، وجمع الظن : ظنون . قال تعالى : ﴿ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا .. ﴿١٠﴾ ﴾ [الأحزاب] [لسان العرب : مادة (ظن)] .

بين الأشياء تربط بين الموضوع والمحمول ، أو المحكوم والمحكوم عليه ، وهى نسب ذكرناها من قبل ، ونذكِّر بها ، فهناك شىء أنت تجزم به ، وشىء لا تجزم به . وما تجزم به وتُدلِّل عليه هو علم يقين ، أما ما لا تستطيع التدليل عليه فليس علم يقين ، بل تقليد ، كأن يقول الطفل : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) ﴾ [الإخلاص]

وهذا حق ، لكن الطفل لا يستطيع أن يدلل عليه أو أن يقال شىء ومن يقوله جازم به ، وهو غير واقع ؛ فذلك هو الجهل .

والعلم هو القضية المجزوم بها ، وهى واقعة وعليها دليل ، على عكس الجهل الذى هو قضية مجزوم بها وليس عليها دليل .

والظن هو تساوى نسبتين فى الإيجاب والسلب ، بحيث لا تستطيع أن تجزم بأى منهما ؛ لأنه إن رجحت كفة كانت قضية مرجوحة ، والقضية المرجوحة هى شك أو ظن أو وهم . فالظن هو ترجيح النسب على بعضها . والشك هو تساوى الكفتين .

وقول الحق سبحانه : ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا .. (٣٦) ﴾ يبين لنا أن الذين كانوا يعارضون رسول الله ﷺ فعلوا ذلك إما عناداً - رغم علمهم بصدق ما يبلغ عنه ، وإما أنهم يعاندون عن غير علم ، مصداقاً لقول الحق سبحانه : ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ .. (٣٩) ﴾ [يونس]

وكان الواحد منهم إذا تمعَّن فى البلاغ عن الله تعالى والأدلة عليه ، يعلن الإيمان ، لكن منهم من تمعن فى الأدلة وظل على عناده ، والذين اتبعوا الظن إنما اتبعوا ما لا يغنى من الحق شيئاً .

لذلك يبيّن لهم الحق سبحانه أنه عليم بخفايا نفوسهم ، ويعلم إن كان

إنكارهم للإيمان نابعاً من العناد أو من العجز عن استيعاب قضية الإيمان ؛ لذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ .. (٣٦) ﴾ [يونس]

إذن : فقد علم الله سبحانه أزلاً أن بعضهم فى خبايا نفوسهم يوقنون بقيمة الإيمان ، لكنهم يجحدونها ، مصداقاً لقول الحق سبحانه :

﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَـٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٣٣) ﴾ [الأنعام]

إذن : فالحق سبحانه وتعالى عليم ، ولا يخفى عليه أنهم كذَّبوا بما لم يحيطوا بعلمه ، وبعضهم لم يفهم قيمة الإيمان ، ومن علم منهم قيمة الإيمان جحدها ، عناداً واستكباراً .

يقول الحق سبحانه : ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا .. (١٤) ﴾ [النمل]

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا كَانَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ (٣٧) ﴾

وحين تستمع للقرآن وما فيه من سر الأعداد والإخبار بالمغيبات التى لا تخضع لمنطق الزمان ، ولا لمنطق المكان ، فالفطرة السليمة توقن أن هذا القرآن لا يمكن أن يُفتَرى ، بل لا بد أن قائله ومُنزِّله عليم خبير ؛ لأن القرآن جاء مصدقاً لما بين يديه من الكتب السابقة .

أى : أن ما به دائماً هو أمام الناس ، أو مواجه لهم ، وهو كتاب مصدِّق للكتب السابقة من قبل تحريفها كالتوراة والإنجيل والزبور [(١)] ، وهى الكتب التى سبقت القرآن نزولاً ، لا واقعاً ، فجاء القرآن مصدِّقاً لها .

أى : هى تصدقه ، وهو يصدقها من قبل تحريفها ، وهى الكتب التى بشَّرت بمحمد ﷺ رسولاً ، مثلما جاء فى القرآن عن تصديق عيسى عليه السلام بمجىء محمد عليه الصلاة والسلام : ﴿ **وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِن بَعْدِى اسْمُهُ أَحْمَدُ .. (٦)** ﴾ [الصف]

فلما جاء أحمد (محمد ﷺ) ونزل عليه القرآن صدَّق الإنجيل فى قوله هذا ، وما جاء فى القرآن من عقائد أصيلة هى عقائد جاءت بها كل الكتب السماوية ، فالحق سبحانه يقول :

﴿ **إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا (١٦٣)** ﴾ [النساء]

ويقول الحق سبحانه :

﴿ **شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ .. (١٣)** ﴾ [الشورى]

إذن : فهناك أصول جاءت بها كل الكتب السماوية ، وهناك كذلك أخبار أخبرت عن حدوثها الكتب السماوية ، وأبلغنا رسول الله ﷺ بالقرآن وفيه تلك الأخبار ، فمن أين جاء محمد ﷺ بتلك العقائد الصحيحة ،

---

(١) الزبور : هو كتاب داود عليه السلام . وأصله : كل كتاب مزبور أى : مكتوب . قال تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا .. (٥٥)** ﴾ [الإسراء] .

وتلك الأخبار الموجودة فى الكتب السابقة ، وهو ﷺ لم يكن من أهل الكتاب ، ولا عَلِمَ منهم شيئاً [(١)] ؟

إذن : فعندما يقول محمد ﷺ ما جاء ذكره فى الكتب السابقة على القرآن ، فهذه الكتب مصدقة لما جاء به محمد ﷺ ؛ لأن هذه الأخبار قد وقعت ، وهذا تأكيد لصدقه ؛ لأنه بشهادة أهل زمانه لم يجلس إلى معلِّم ، ولم يقرأ كتاباً ، وتاريخه وسيرته معروفة ؛ لأنه من أنفسكم ، ولم يُعْلَم عنه أنه قد زاول كلاماً بليغاً ، أو خطب فى قوم قبل الرسالة ، أو قال شعراً .

وبعد ذلك فوجىء هو - كما فوجئتم أنتم - بمجىء هذا البيان الرائع ، فمن أين جاء به ؟

أنتم تقولون إنه هو الذى جاء به ، لكنه ﷺ ينسب الرفعة لصاحبها ، ويعلن أنه ﷺ مُبلِّغ فقط ، فيقول ما أمره الله به أن يقوله : ﴿ **قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ** (١٦) ﴾ [يونس]

ويحضُّ القرآن الكريم النبىَّ ﷺ أن يسألهم : هل لاحظوا على كلماته - من قبلُ - البلاغةَ والفصاحةَ أو الشعرَ ؟!

ولننظر فى «ماكُنَّات» [(٢)] القرآن الكريم ، وهى الآيات التى يقول فيها الحق سبحانه : ﴿ **وَمَا كُنتَ** ﴾ مثل قوله سبحانه :

---

(١) وفى هذا يقول الحق سبحانه : ﴿ **وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ** (٤٨) ﴾ [العنكبوت] .

(٢) « ماكُنَّات » القرآن هى الآيات التى وردت فيها لفظة : ﴿ **مَا كُنتَ** ﴾ ، وهذا فى إحدى عشرة آية هى : [آل عمران : ٤٤] ، [هود : ٤٩] ، [يوسف : ١٠٣] ، [القصص : ٤٤، ٤٥، ٤٦، ٨٦] ، [العنكبوت : ٤٨] ، [الشورى : ٥٢] .

﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ (١) أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ .. (٤٤) ﴾ [آل عمران]

وهذا أمر ثابت فى الأخبار .

وقول الحق سبحانه : ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٤٤) ﴾ [القصص]

والوحى إلى موسى - عليه السلام - والمكان الذى نزل فيه ذلك الوحى أمر ثابت فى الأخبار .

وقول الحق سبحانه : ﴿ وَلَـكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ (٢) تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (٤٥) ﴾ [القصص]

وكثير من هذه الآيات تجعل محمداً ﷺ وكأنه يسأل المعاصرين له : كيف أخبرت بوقائع وأخبار لم أكن موجوداً فى زمانها أو مكانها ؟

لا بد - إذن - أن الله الحق - سبحانه - هو الذى أخبرنى بما وافق ما عندكم من أخبار .

وبعد ذلك جاء القرآن الكريم مصدقاً لما بين يديه : ﴿ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ .. (٩٧) ﴾ [البقرة]

أى : أنه الكتاب الذى يضم صدق كل حدث قادم ؛ لأن القرآن خرق حُجُبَ وحُجُزَ الماضى والمستقبل .

ونحن نعلم أن الأشياء الغيبية تحدث بسببين ؛ الأول : أن يتكلم عن

---

(١) الأقلام هنا : القداح ، وهى قداح جعلوا عليها علامات يعرفون بها من يكفل مريم على جهة القرعة ، وإنما قيل للقدْح : القلم لأنه يُقلم أى : يُبرى . [اللسان مادة : قلم] .

(٢) ثاوياً : مقيماً ، ومدين : قرية شعيب عليه السلام .

شيء سبق الزمان الذى نزل فيه ، فهو يتكلم فى الماضى الذى لم يكن رسول الله ﷺ من أهل الاطلاع والتعلم ليعرفه ويعلمه .

وكذلك خرق القرآن الكريم حجب الحاضر الذى عاصر نزوله ، هذا الحاضر الذى قد يكون محجوباً بالمكان .

وأضرب هذا المثل - ولله المثل الأعلى - فقد يحدث حادث فى الإسكندرية فى نفس الوقت الذى تكون أنت فيه موجوداً بالقاهرة ، وأنت لا تعلم هذا الحدث ؛ لأنه محجوب عنك ببعد المكان ، وحاجز المكان يتمثل - غالباً - فى الأمور الحاضرة ، أما أمور المستقبل فهى محجوبة عنا بالزمان والمكان معاً .

وحين يخبرنا القرآن الكريم بحدث ماض لم يشهده رسول الله ﷺ ، ولم يتعلمه ، ولم يقرأ عنه ؛ إذن : فالقرآن إنما يخرق أمامنا حجاب الزمن الماضى . وإذا أخبر القرآن بحدث حاضر فى غير مكان نزوله على سيدنا رسول الله ﷺ ، فهذا خرق لحجاب المكان مثل قول الحق سبحانه : ﴿ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ .. (٨) ﴾ [المجادلة]

وحين سمع المنافقون والكفار هذا القول الكريم ، لم ينكروا أنهم قالوا فى أنفسهم ما جاء به القرآن ، وهكذا خرق القرآن حاجز المكان فى أنفسهم هم .

إذن : فأخبار الغيب فى القرآن إما خَرْقٌ لزمان ماضٍ أو خرق لزمان الحال ، وإما خرق لزمان ومكان الاستقبال .

ونحن نعلم أن القرآن كان ينزل والمسلمون ضعاف ، لا يستطيعون حماية أنفسهم ، ولا أحد يجير على أحد ، ويتجه النبى ﷺ إلى الطائف

ليعرض الإسلام على أهلها ، لعلَّه يلتمس لهم مجيراً من أهل الطائف ؛ ولكنه ﷺ لا يجد إلا الإيذاء والإعراض [(١)] ، ويوصى بعضاً من صحابته أن يهاجروا إلى الحبشة [(٢)] .

وفى ظل كل هذه الأزمات ، ينزل قول القرآن : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ .. (٤٥) ﴾ [القمر]

حتى إن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - يتساءل : أىُّ جمع هذا الذى يهزم ، ونحن غير قادرين على حماية أنفسنا ؟ ثم تأتى غزوة بدر ويشهد عمر هزيمة وفرار مقاتلى قريش ؛ فيرى رأى العين صدق ما جاء به الوحى من قبل [(٣)] .

وهكذا تأكد الجميع أن القرآن الكريم غير مُفترىً ، فكيف يُتَّهم رسول الله ﷺ أنه افتراه ؟

---

(١) كان هذا بعد وفاة عمه أبى طالب ، الذى كان مدافعاً عنه ، حامياً له من أذى المشركين ، ولكن أهل الطائف قعدوا له ﷺ صفين على طريقه ، وجعلوا لا يرفع رجليه ولا يضعهما إلا ضربوهما بالحجارة حتى أدموا رجليه . [دلائل النبوة للبيهقى ٢/ ٤١٥] . عند ذلك قال رسول الله ﷺ : « اللهم إنى أشكو إليك ضعف قوتى وقلة حيلتى » . منحه الله الإسراء فوق العقل البشرى ، والمعراج فوق الفوق ؛ وذلك لحمايته له ورعايته لدينه .

(٢) عن أم سلمة أنها قالت : « لما ضاقت علينا مكة ، وأوذى أصحاب رسول الله ﷺ، وفتنوا ورأوا ما يصيبهم من البلاء والفتنة فى دينهم ، وأن رسول الله ﷺ لا يستطيع دفع ذلك عنهم ، وكان رسول الله ﷺ فى منعة من قومه ومن عمه ، لا يصل إليه شىء مما يكره مما ينال أصحابه ، فقال لهم رسول الله ﷺ : « إن بأرض الحبشة ملكاً لا يظلم أحد عنده ، فالحقوا ببلاده حتى يجعل الله لكم فرجاً ومخرجاً مما أنتم فيه » حديث طويل أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٢/ ٣٠١) وأورده ابن هشام فى السيرة بنحوه (١/ ٣٢١) .

(٣) عن عكرمة قال : لما نزلت : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) ﴾ [القمر] قال عمر : أىّ جمع يُهزم ؟ أى : أىّ جمع يُغلب ؟ قال عمر : فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ يثب فى الدرع وهو يقول : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) ﴾ [القمر] فعرفت تأويلها يومئذ . ذكره ابن كثير فى تفسيره (٤/ ٢٦٦) وعزاه لابن أبى حاتم .

وإذا كان هذا القرآن مفترىً ، فلماذا لا تفترون مثله ؟ وفيكم الشعراء والبلغاء والخطباء ؟! ولم يقل محمد ﷺ أنه بليغ أو خطيب أو شاعر ، ولم يطلب القرآن الكريم منهم أن يأتوا بواحد مثل محمد ﷺ ، لا صلة له بالبلاغة أو الفصاحة ، بل يطلب منهم أن يأتوا بالفصحاء كلهم ، ويدعوهم أن يقولوا مثل آية واحدة من القرآن .

وإن قالوا : إن ما جاء به هو السحر ، وإن محمداً ساحر قد سخر العبيد والضعاف ، وأدخلهم فى الإسلام ، فلماذا لم يسحركم محمد ؟

إن بقاءكم من غير سحر يدل على أن إطلاقكم كلمة السحر على ما جاء به دعوى كاذبة .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ **وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ** ..(٣٧) ﴾ [يونس]

فالقرآن قد جاء فيه تفصيل كل الأحكام الصالحة إلى قيام الساعة ، أما الكتب السابقة على القرآن فكانت تضم الأحكام المناسبة لزمانها ، ولأمكنة نزولها .

وهو كتاب ﴿**لا رَيْبَ فِيهِ**﴾ أى : لا شك فيه ، يكشف الكفار ، ويفضح ارتيابهم وكذبهم ، فَهُمْ قد اعترفوا بعظمة القرآن وقالوا : ﴿ **لَوْلا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ** ..(٣١) ﴾ [الزخرف]

إذن : فهم قد عرفوا أن القرآن لا عيب فيه ، ولا ريب ، حتى من الكافرين به .

ويأتى الرد على قولهم بالافتراء ، فى قول الحق سبحانه :

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣٨) ﴾

وقد سبق هذا المجيء بالتحدى أسبابُ عجزهم عن النجاح فى التحدى ؛ لأن الآية السابقة تقرر أن الكتب السماوية السابقة تُصَدِّق نزول القرآن الكريم ، وبينها وبين القرآن تصديق متبادل.

فهم مهزومون فيه قبل أن ينزل .

ويقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ .. (٣٨) ﴾ [يونس]

وقد جاء التحدى مرة بالكتاب فى قول الحق سبحانه :

﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (٨٨) ﴾ [الإسراء]

ولم يستطيعوا ، فنزلت درجة التحدى ؛ وطالبهم أن يأتوا : ﴿ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ .. (١٣) ﴾ [هود]

فلم يستطيعوا الإتيان بعشر سور ، فطالبهم أن يأتوا بسورة تقترب - ولو من بعيد - من أسلوب القرآن ، فلم يستطيعوا ﴿ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ .. (٢٣) ﴾ [البقرة]

فكيف - إذن - من بعد كل ذلك يدَّعون أن محمداً ﷺ قد افترى القرآن ، وهو ﷺ لم تكن له صلة بالأساليب البلاغية أو الفصاحة ؟!

لقد دعاكم أن تأتوا بكل الفصحاء والبلغاء ليفتروا ، ولو سورة من مثله ، ووضع شرطاً فقال : ﴿ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ .. (٣٨) ﴾ [يونس]

لأن الله سبحانه وتعالى هو القادر الوحيد على أن يُنزل قرآناً ؛ لذلك دعاهم رسول الله ﷺ أن يدعوا الشركاء ؛ وذلك حتى لا يقول الكفار وبعضهم من أهل اللجاجة [١] : سندعو الله ؛ ولذلك يأتى القرآن بالاستثناء ﴿ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ..(٣٨) ﴾ . وهم بطبيعة الحال غير صادقين فى هذا التحدى .

والله - سبحانه وتعالى - حين يرسل رسولاً إلى قوم ؛ ليعلِّمهم منهجه فى حركة الحياة ، إنما يريد سبحانه أن تؤدى حركة الحياة إلى الغاية المطلوبة من الإنسان الخليفة فى الأرض ؛ ولذلك يأتى الرسول من جنس المرسل إليهم ؛ ليكون أسوة لهم ؛ لأن الرسول إن جاء مَلَكاً لما صحَّت الأسوة ، بل لا بد أن يكون بشراً [٢] .

والحق سبحانه لا يرسل أى رسول إلا ومعه بينة ودليل صدق على أنه رسول يبلِّغ عن الله تعالى .

والبينة لا بد أن تكون من جنس نبوغ [٣] القوم ، فلا يأتى لهم بمعجزة فى شىء لم يعرفوه ولم يألفوه ؛ حتى لا يقولوا : لو تعلمنا هذا لجئنا بمثل ما جاء .

وقد جاء القرآن ليثبت عجزهم عما نبغوا فيه من صناعة الكلام ؛ شعراً ونثراً وخطابة .

وكان القرآن هو معجزة رسول الله ﷺ فى قوم فصحاء يعقدون للشعر

---

(١) اللجاجة : التمادى فى الجدال والمراء .

(٢) لذلك قال رب العزة : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولاً (٩٥) ﴾ [الإسراء] فالرسول يكون من جنس من أرسل إليهم ، ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ (٩) ﴾ [الأنعام] .

(٣) النبوغ : الإجادة والبراعة فى علم أو فن معين . [المعجم الوسيط] .

أسواقاً ، ويعلِّقون الفائز من هذا الشعر على جدران الكعبة شهرة له وشهادة به .

إذن : فهم أصحاب دراية بصناعة الكلام ، وجاءت المعجزة مع الرسول ﷺ من جنس ما نبغوا فيه ؛ لتتحداهم . والتحدى يستدعى استجماع قوة الخصم ؛ ليرد على هذا المتحدى ، فإذا عجز مع التحدى ، يصير العجز ملزماً .

وقد تحدى الحق سبحانه العرب جميعاً بالقرآن كله : ﴿ **قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَـٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا** [1] (٨٨) ﴾ [الإسراء]

فلم يستطيعوا أن يأتوا بمثله ، فتدرَّج القرآن معهم فى التحدى فطلب منهم ما هو أقل من ذلك ، وهو أن يأتوا بعشر سور مثله فى قوله تعالى : ﴿ **قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ** .. (١٣) ﴾ [هود]

ثم تحداهم بالإتيان بمثل سورة من القرآن .

وعند التأمل نجد أن الأسلوب الذى جاء بطلب سورة كان على لونين : فمرة يقول : ﴿ **بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ** .. (٣٨) ﴾ [يونس]

ومرة يقول : ﴿ **بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ** .. (٢٣) ﴾ [البقرة]

وكل من اللونين بليغ فى موضعه فـ ﴿ **بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ** .. (٣٨) ﴾ تبين أن المثلية هنا محققة ، أى : مثل ما جاء من سور القرآن . وقوله : ﴿ **بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ** .. (٢٣) ﴾ [البقرة]

---

(١) الظهير : المعين والمساعد . قال تعالى : ﴿ **فَلا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ** .. (٨٦) ﴾ [القصص] . وذهب بعض العلماء إلى أن التحدى كان مقصوداً به الإنس فقط دون الجن ، لأن الجن ليسوا من أهل اللسان العربى ، وإنما ذكرهم الله فى الآية تعظيماً لإعجاز القرآن ، لأن عجزهما معاً عن أن يأتوا بمثله دليل على أن الفريق الواحد منهم أعجز . [انظر : البرهان فى علوم القرآن - للزركشى ٢/ ١١١] .

أى : سورة من مثل محمد - ﷺ - فى أنه لم يجلس إلى معلِّم ، ولم يقرأ ، ولا عُرف عنه أنه تكلم بالبلاغة فى أى فترة من مراحل حياته قبل الرسالة[(١)] .

وقال الحق سبحانه : ﴿ قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٦) ﴾ [يونس]

إذن : ﴿ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ .. (٢٣) ﴾ [البقرة]

أى : مثل محمد ﷺ الذى لم يتعلم وكان أمياً ، ولكن لماذا يأتى هذا اللون من التحدى ؟

لأنهم قالوا عن القرآن :

﴿ أَسَاطِيرُ[(٢)] الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا[(٣)] فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٥) ﴾ [الفرقان]

بل واتهموه فى قمة غفلتهم أنه يتعلم من رجل كان بمكة ، فيلفتهم القرآن إلى أن الرجل - الذى قالوا إنه معلم للرسول ﷺ - كان أعجمياً غير عربى ، يقول الحق سبحانه : ﴿ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ[(٤)] إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ .. (١٠٣) ﴾ [النحل]

---

(١) وفى تفسير هذه الآية قول ثالث ذكره القرطبى فى تفسيره (١/ ٢٧٧) فقال : « ﴿ مِّن مِّثْلِهِ .. (٢٣) ﴾ [البقرة] أى : من مثل التوراة والإنجيل . فالمعنى : فأتوا بسورة من كتاب مثله فإنها تصدِّق ما فيه » وكل من هذه الأقوال صواب ومحتمل .

(٢) الأساطير : جمع أسطورة . أى : مما سَطَّره الأولون وكتبوه . والأساطير أيضاً : الأباطيل ، وأحاديث باطلة لا أصل لها قد سطرها وألفها الأولون . [لسان العرب مادة : سطر] .

(٣) اكتتبها : طلب من النساخ نسخها له .

(٤) يلحدون إليه : يميلون إليه . واختلف المفسرون فى تسمية هذا الرجل الذى قال المشركون أن محمداً ﷺ تعلم منه ، وليس المهم البحث عن اسمه . بل المهم أنه أعجمى فكيف يعلم محمداً ﷺ هذا القرآن العربى .

ويزيد الحق سبحانه أن يصنفهم ، فيقول بعد ذلك :

﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (٣٩) ﴾

وهذا الصنف من الناس الذين ﴿ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ .. (٣٩) ﴾ ، وهم من أخذتهم المفاجأة حين حُدِّثوا بشيء لا يعرفونه ، والناس أعداء ما جهلوا ؛ فكذبوا ما جاء به رسول الله ﷺ من القرآن قبل أن يتبينوا جمال الأداء فيه ، ونسق القيم العالية ، وإذا ما سنحت لهم فرصة يتبينون فيها جمال الأداء ، ودقة الإعجاز فهم يتجهون إلى الإيمان .

ومثال ذلك : عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - فقد كان كافراً ثم علم أن أخته وزوجها قد أسلما ؛ فذهب إليها فى منزلها وضربها ، فأسال دمها ، وسيل الدم من أخت بضربة أخيها مثير لعاطفة الحنان ، وهذا ما حدث مع عمر ؛ فهدأت موجة عناده ، فاستقبل القرآن بروح لا عناد فيها ؛ فذهب فآمن برسول الله ﷺ [(١)] ، وكان من قبل ذلك ممن : ﴿ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ..(٣٩) ﴾ أى : لم يعرفوا مراميه ، وبمجرد أن سمعوا عن رسالته ﷺ فجأة ، اتهموه بالكذب والعياذ بالله .

ولذلك اقرأ قول الحق سبحانه : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا [(٢)] .. (١٦) ﴾ [محمد]

---

(١) حديث إسلام عمر بن الخطاب ذكره ابن هشام فى السيرة النبوية (١/ ٣٤٣ - ٣٤٦) .

(٢) آنفاً : من قبل ، وقد نزلت هذه الآية فى المنافقين كانوا يستمعون كلام رسول الله ﷺ فإذا خرجوا من عنده سألوا أصحاب رسول الله ﷺ استهزاءً وإعلاماً أنهم لم يلتفتوا إلى ما قال : ﴿ مَاذَا قَالَ آنِفًا ..(١٦) ﴾ [محمد] أى : ماذا قال سالفاً وسابقاً ؟ . [اللسان : مادة (أ ن ف) - بتصرف] .

وهذا يدل على أنهم لم يفهموا ما نزل على رسول الله ﷺ من القرآن ، وتأتى الإجابة من الحق سبحانه وتعالى : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ [1] وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى .. (٤٤) ﴾ [فصلت]

إذن : فالقرآن هدى لمن تتفتح قلوبهم للإيمان ، أما القلوب المليئة بالبغض لقائله وللإسلام ؛ فهؤلاء لا يمكن أن يصح حكمهم .

وإن أراد أى منهم حكماً صحيحاً فليُخرجْ من قلبه ما يناقض ما يسمع ، ثم عليه أن يستقبل الأمرين ؛ ولسوف يدخل قلبه الأقوى حجة ، وهو الإسلام .

إذن : فمن امتلأ قلبه بعقيدة كاذبة ؛ لا يمكن له أن يهتدى .

﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ .. (٣٩) ﴾ [يونس]

والتأويل [2] هو ما يرجع الشىء إليه ، وهذا يوضح لنا أن هناك أقضية من القرآن لم يأت تفسيرها بعد ، ستفسرها الأحداث ، وقد يقول القرآن الكريم قضية غيبية ، ثم يأتى الزمن ليؤكد هذه القضية ، هنا نعرف أن تأويلها قد جاء .

وهؤلاء القوم قد كَذَّبوا من قبل أن يأتى لهم التأويل ، وكان عدم مجىء التأويل هو السبب فى تأخر بيان الحق فى المسألة لتأخر زمنه .

وعلى سبيل المثال ، ها هو ذا عمار بن ياسر صاحب رسول الله ﷺ حين قامت المعركة بين معاوية بن أبى سفيان والإمام على - رضى الله عنه - وَقاتَلَ عمَّار فى صف علىّ ، وقُتل . هنا تنبه الصحابة إلى تأويل

---

(١) الوقر : ضعف السمع . وقيل : الصمم . [اللسان : مادة (وقر)] .

(٢) التأويل والمعنى والتفسير واحد . وأصله ما يؤول إليه الشىء ؛ ويقول تعالى : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ .. (٥٣) ﴾ [الأعراف] أى : أنهم ينتظرون تحقق العذاب ووقوعه .

حديث من رسول الله ﷺ حيث قال : « ويح عمار . . تقتله الفئة الباغية »[(١)] .

وهكذا جاء تأويل حديث رسول الله ﷺ عندما تحقق فى الواقع ، وكان هذا سبباً فى انصراف بعض الصحابة عن جيش معاوية .

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ .. (٣٩) ﴾ [يونس]

أى : أن التأويل لم يظهر لهم بعد .

ومن أدوات النفى : « لم» مثل قولنا : « لم يَجِىءْ فلان » ، ونقول أيضاً : « لما يجىء فلان » ، والنفى فى الأولى جزم غير متصل بالحاضر ، كأنه لم يأت بالأمس .

أما النفى بـ « لما» فيعنى أن المجىء مُنْتف إلى ساعة الكلام ، أى : الحاضر ، وقد يأتى من بعد ذلك ؛ لأن « لما» تفيد النفى ، وتفيد توقُّع الإثبات .

والحق سبحانه يقول : ﴿ قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا .. (١٤) ﴾ [الحجرات]

وهؤلاء القوم من الأعراب قالوا : ﴿آمَنَّا﴾ رغم أنهم راءوا المسلمين وقلدوهم زيفاً ونفاقاً[(٢)] ، ولم يكن الإيمان قد دخل قلوبهم بعد ، وحين سمعوا قول الحق سبحانه : ﴿ وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِى قُلُوبِكُمْ .. (١٤) ﴾ [الحجرات]

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٤٧) ومسلم فى صحيحه (٢٩١٥) بنحوه عن أبى سعيد الخدرى ، وتمامه أنه عند بناء المسجد النبوى ، قال أبو سعيد : « كنا نحمل لبنة لبنة ، وعمار لبنتين لبنتين . فرآه النبى ﷺ ، فينفض التراب عنه ويقول : ويح عمار تقتله الفئة الباغية يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار » .

(٢) ذهب البخارى إلى أن هؤلاء الأعراب كانوا منافقين ، وقد استدرك بعض العلماء هذا عليه فقالوا : إنهم كانوا مسلمين ولكنهم أول ما دخلوا فى دين الإسلام ادعوا لأنفسهم مقام الإيمان ولم يكن الإيمان قد تمكن فى قلوبهم بعد . انظر تفسير ابن كثير (٤/ ٢١٨ ، ٢١٩) .

قالوا : الحمد لله ؛ لأن معنى ذلك أن الإيمان سوف يدخل قلوبهم .

وكذلك قول الحق سبحانه : ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ (١٤٢)﴾ [آل عمران]

فحين سمعوا ذلك قالوا : إذن : وثقنا أنه سيأتى علم الله سبحانه بنا كمجاهدين وصابرين .

وهكذا نعرف أن ﴿لَمَّا﴾ تعنى أن المنفى بها متوقع الحدوث . والتأويل كما نعلم هو مرجع الشىء .

وقد جاء فى القرآن الكثير من الأخبار لم تكن وقت ذكرها بالقرآن متوقعة ، أو مظنة أن توجد . وحين وُجدت ولا دخل لبشر فى وجودها ، فهذا يعنى أن قائل هذا الكلام قد أخذه عَمَّن يقدر على أن يوجد ، مثلما جاء فى خبر انتصار الروم على الفرس رغم هزيمة الروم .

قال الحق سبحانه :

﴿غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي بِضْعِ [1] سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ اللَّهِ .. (٥)﴾ [الروم]

جاء هذا الخبر وانتظر المسلمون تأويله ، وقد جاء تأويله طبقاً لما أخبر القرآن .

أو أن التأويل سيأتى فى الآخرة ، ومايؤول الأمر فى التكذيب سيعلمونه من بعد ذلك .

---

(١) البضع : ما دون العشر ، وأدنى الأرض : بين أذرعات وبصرى فى الشام ، وهى أقرب بلاد الشام إلى الجزيرة العربية . [تفسير ابن كثير : ٣/ ٤٢٢ - ٤٢٤] .

والحق سبحانه يقول : ﴿ وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥٢) هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ .. (٥٣) ﴾ [الأعراف]

هم ينتظرون ما يؤول إليه القرآن وما يؤولون إليه ، إن كان فى الدنيا فنصر أهل القرآن ، وإن كان فى الآخرة ، فهذا قول الحق سبحانه :

﴿ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ..(٥٣) ﴾

[الأعراف]

هذا هو التأويل الذى كذَّبه البعض من قبل .

إذن : فالتأويل إما أن يكون لمن بقى من الكفار فيرى ما أخبر به القرآن وقد جاء على وفق ما أخبر به نبىٌّ لا يملك أن يتحكم فى مصائر الأشياء ، وتأتى على وفق ما قال .

فكأن محمداً ﷺ كان يجازف بأن يقول كلاماً لا يتحقق ؛ فينصرف عنه الذين آمنوا به ، ولكنه ﷺ لم يقل إلا ما هو واثق ومطمئن من وقوعه ؛ لأن الخبر به جاء من لدن عليم خبير .

وإما أن التأويل - أيضاً - يأتى فى الآخرة .

وهنا قال الحق سبحانه : ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ .. (٣٩) ﴾ [يونس]

والحق سبحانه هنا يلفت رسوله ﷺ إلى أن ما حدث معه قد حدث مع رسل من قبله ، فقال سبحانه فى نفس الآية : ﴿ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (٣٩) ﴾ [يونس]

أى : انظر لموكب الرسل كلهم من بدء إرسال الرسل ، هل أرسل الله رسولاً ونصر الكافرين به عليه ؟ . . لا ، لقد كانت الغلبة دائماً لرسل الحق عز وجل مصداقاً لقوله سبحانه : ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي . . (٢١) ﴾ [المجادلة]

وعرفنا ما حدث للظالمين ، فمنهم من أغرقه الله ، ومنهم من خسف به الأرض ، ومنهم من أخذه بالصيحة[1] .

إذن : فالتأويل واضح فى كل مواكب الرسل التى سبقت رسالة محمد ﷺ ، وإذا كان كل قوم من الظالمين قد نالوا ما يناسب رسالة رسولهم ، فسينال القوم الظالمين الكافرين برسالة محمد ﷺ ما يناسب عمومية رسالته ﷺ .

وحين يقول الحق سبحانه : ﴿ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ . . (٣٩) ﴾ لا بد لنا أن نعرف معنى الظلم ، إنه نقل الحق لغير صاحبه ، والحقوق تختلف فى مكانتها ، فهناك حق أعلى ، وحق أوسط ، وحق أدنى .

فإذا جئت للحق الأدنى فى أن تنقل الألوهية لغير الله سبحانه وتعالى فهذا قمة الظلم ، والحق سبحانه يقول : ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ[2] . . (١٣) ﴾ [لقمان]

لأن فى هذا نقل الألوهية من الله سبحانه إلى غيره ، ويا ليت غيره كان

---

(١) قال تعالى : ﴿ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٠) ﴾ [العنكبوت] . والحاصب : هى ريح شديدة البرد والهبوب تحمل حصباء الأرض فتلقيها على الناس وتقتلعهم من الأرض وقد عذب الله بها قوم «عاد» . أما الصيحة فقد عوقب بها قوم ثمود ، وعوقب قارون بالخسف ، أما فرعون وجنوده فقد عوقبوا بالغرق .

(٢) العظمة للقيمة المنحرفة انحطاط ، وللقيمة السوية رفعة .

صاحب دعوة بينه وبين الله تعالى ، لا ، فليس ذلك المنقول له الألوهية بصاحب دعوة ، بل تطوَّع الظالم من نفسه بذلك ، واتخذ من دون الله شريكاً لله ، وفى هذا تطوع بالظلم بغير مُدَّع .

وهَبْ أن الله تعالى قال : لا إله إلا أنا ، فإما أن القضية صحيحة ، وإما أنها غير ذلك ، فإن افترض أحد - معاذ الله - عدم صحتها ، فالإله الثانى كان يجب أن يعلن عن نفسه ، ولا يترك غيره يسمع له ويعلن عنه ، وإلا كان إلهاً أصمَّ غافلاً ، ولكن أحداً لم يعلن ألوهيته غير الله سبحانه ؛ لذلك تثبت الألوهية الواحدة للإله الحق سبحانه وتعالى .

وقد بيَّن لنا الحق سبحانه : لا إله إلا أنا ، أنا الخالق ، أنا الرازق . ولم يصدر عن أحد آخر دعوى بأنه صاحب تلك الأعمال ، إذن : فقد صَحَّت الدعوى فى أنه لا إله إلا الله .

والدرجة التالية فى الظلم هى الظلم فى الأحكام ، فإذا حكم أحد بحلِّ الربا فهذا ظلم فى قضية كبيرة ، ولكن إن حكم قاض على مدين بأن يردَّ الدَّين فقط فهذا عدل ؛ وكذلك القاضى الذى يظلم فى أحكامه إنما ينقل حقوق الناس إلى غيرهم .

إذن : فالظلم يأخذ درجات حسب الشىء الذى وقع فيه الظلم .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾

والكلام هنا فى الذين كذَّبوا ، فكيف يقسِّم الله المكذبين - وهم

بتكذيبهم لا يؤمنون - إلى قسمين : قسم يؤمن ، وقسم لا يؤمن ؟

ونحن نعلم أن الإيمان عمل قلوب ، لا عمل حواس ، فنحن لا نطَّلع على القلوب ، والحق سبحانه يعلم مَنْ مِنْ هؤلاء المكذبين يخفى إيمانه فى قلبه .

إذن : فمن هؤلاء من يقول بالتكذيب بلسانه ويخفى الإيمان فى قلبه ، ومنهم من يوافق تكذيبه بلسانه فراغُ قلبه من الإيمان ، ومن الذين قالوا : إن هذا القرآن افتراء إنما يؤمن بقلبه أن محمداً رسول من الله ، وصادق فى البلاغ عن الله ، ولكن العناد والمكابرة والحقد يدفعونه إلى أن يعلن عدم الإيمان .

وكذلك منهم قسم آخر لا يؤمن ويعلن ذلك .

إذن : فالمقسم ليس هو الإيمان الصادر عن القلب والمعبَّر عنه باللسان، ولكن المُقسِّم هو إيمان بالقلب غير مُعبَّر عنه ، ولم يصل إلى مرتبة الإقرار باللسان .

والذى جعل إيمان بعضهم محصوراً فى القلب غير مُعبَّر عنه باللسان هو الحقد والحسد والكراهية وعدم القدرة على حكم النفس على مطلوب المنهج .

وبعض العرب حين أعلن لهم رسول الله ﷺ أن يقولوا : لا إله إلا الله ؛ فيضمن لهم السيادة على الدنيا كلها [1] . ورفضوا أن يقولوا الكلمة ؛ لأنهم يعلمون أنها ليست كلمة تقال، بل فهموا مضمون ومطلوب

(١) فقد قال له عمه أبو طالب : يا ابن أخى ما تريد من قومك؟ قال : إنى أريد منهم كلمة واحدة تدين لهم بها العرب ، وتؤدى إليهم العجم الجزية . قال : كلمة واحدة ؟ قال : كلمة واحدة . قال : «يا عم يقولوا : لا إله إلا الله» أخرجه أحمد فى مسنده (١/ ٢٢٧) والترمذى فى سننه (٣٢٣٢) وقال : حديث حسن .

الكلمة، وعرفوا أن «لا إله إلا الله» تعنى: المساواة بين البشر، وهم يكرهون ألاَّ تكون لهم السيادة والسيطرة فى أقوامهم.

وهذا يدل أيضاً على أن الحق سبحانه قد شاء أن يبدأ الإسلام فى مكة، حيث الأمة التى تعلن رأيها واضحاً؛ ولذلك نجد أن النفاق لم ينشأ إلا فى «المدينة»، أما فى مكة، فهم قوم منسجمون مع أنفسهم، فهم حين أعلنوا الكفر لم يعانوا من تشتت المَلَكَات، لكن المنافقين فى المدينة وغيرها هم الذين كانوا يعانون من تشتت الملكات، ومنهم من كان يلعب على الطرفين، فيقول بلسانه ما ليس فى قلبه.

ولذلك يُعزِّى الحق رسوله الكريم ﷺ ويُسَرِّى [1] عنه ويبين له: إياك أن تحزن لأنهم يكذبونك؛ لأنك محبوب عندهم وموقَّر، فيقول الحق سبحانه: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ .. (٣٣)﴾ [الأنعام]

أى: أنك يا محمد مُنزَّه عن الكذب؟

ويقول الحق سبحانه: ﴿وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ [2] .. (٣٣)﴾ [الأنعام]

أى: أنه سبحانه يحملها عن رسوله ﷺ؛ لأن الحق سبحانه يعلم أن رسوله أمين عند قومه، وهم فى أثناء معركتهم معه، نجد الواحد منهم يستأمنه على أشيائه النفيسة [3].

والذين آمنوا برسالته ﷺ ولم يعلنوا إيمانهم، والذين لم يؤمنوا، هؤلاء

---

(١) يُسرِّى عنه: يكشف عنه الهم والحزن. [اللسان: مادة: (سرى)]

(٢) الجحود: نقيض الإقرار، قال الجوهرى: الجحود الإنكار مع العلم. قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا .. (١٤)﴾ [النمل] [اللسان: مادة (جحد)].

(٣) ذكره ابن هشام فى السيرة النبوية (٢/ ٤٨٥) نقلاً عن ابن إسحاق ثم قال: «وكان رسول الله ﷺ ليس بمكة أحد عنده شىء يخشى عليه إلا وضعه عنده، لما يُعلم من صدقه وأمانته ﷺ».

وأولئك أمرهم موكول إلى الله تعالى ؛ ليلقوا حسابهم عند الخالق سبحانه ؛ لأنه سبحانه الأعلم بمن كذَّب عناداً، ومن كذَّب إنكاراً.

والحق سبحانه هو الذى يُعذِّب ويُعاقب، وكل إنسان منهم سوف يأخذ على قَدْر منزلته من الفساد ؛ لذلك يُنهى الحق سبحانه الآية بقوله: ﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ..(٤٠) ﴾ [يونس]

والمفسد كما نعلم هو الذى يأتى إلى الشىء الصالح فيصيبه بالعطب [(١)] ؛ لأن العالَم مخلوقٌ قبل تدخُّل الإنسان - على هيئة صالحة، وصنعة الله سبحانه وتعالى - لم يدخل فيها الفساد إلا بفعل الإنسان المختار، وصنعة الله تؤدى مهمتها كما ينبغى لها.

وأنت أيها الإنسان إن أردت أن يستقيم لك كل أمر فى الوجود، فانظر إلى الكون الأعلى الذى لا دخل لك فيه، وستجد كل ما فيه مستقيماً مصداقاً لقول الحق سبحانه:

﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧) أَلاَّ تَطْغَوْا فِى الْمِيزَانِ (٨) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ [(٢)] (٩) ﴾ [الرحمن]

أى: أتقنوا أداء مسئولية ما فى أيديكم وأحسنوه كما أحسن الله سبحانه ما خلق لكَم بعيداً عن أياديكم، والمطلوب من الإنسان - إذن - أن يترك الصالح على صلاحه، إن لم يستطع أن يزيده صلاحاً؛ حتى لا يدخل فى دائرة المفسدين.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

---

(١) العطب: الفساد والهلاك.

(٢) تطغوا: من الطغيان، بمعنى الظلم، أى: اعدلوا فى جميع أموركم وزنوا الأمور والأشياء بميزان العدل، ولا يظلم بعضكم بعضاً. والقسط: العدل. [اللسان: مادة (قسط) .. بتصرف].

﴿ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ (٤١) ﴾

وهذه آية تضع الاطمئنان فى قلب رسول الله ﷺ فلم يَقُل الله سبحانه: «إذا كذَّبوك» بل قال: ﴿إِن كَذَّبُوكَ ..(٤١)﴾ وشاء الحق سبحانه أن يأتى بالتكذيب فى مقام الشك، وأتبع ذلك بقوله للنبى ﷺ: ﴿فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ .. (٤١)﴾ أى: أبْلغْهم: أنا لا أريد أن أحْملكم على ما أعمل أنا، إنما أريد لكم الخير فى أن تعملوا الخير، فإن لم تعملوا الخير؛ فهذا لن يؤثر فى حصيلتى من عملى.

وبذلك يتضح لنا أن الرسول ﷺ لا يُجازَى على عدد المؤمنين به، بل بأداء البلاغ كما شاءه الله سبحانه [(١)].

وقد شاء الحق سبحانه أن ينقل محمد ﷺ الخير إلى أمته، فإن ظلوا على الشر؛ فهذا الشر لن يناله لأن خير البلاغ بالمنهج يعطيه ﷺ خيراً، لأنه يطبِّقه على نفسه، وشر الذين لا يتبعونه إنما يعود عليهم؛ لأن الذين يتأبون على الاستجابة لأى داعٍ إنما يظنون أن الداعى سوف يستفيد [(٢)].

والبلاغ عن الله، إنما يطبقه الرسول ﷺ منهجاً وسلوكاً

---

(١) ومما يدل على هذا أن نوحاً مكث فى قومه يدعوهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، ورغم هذا قال عنه رب العزة: ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ ..(٤٠)﴾ [هود] واختلفوا فى عدة من آمن معه بين عشرة أنفس، وثمانين نفساً من بينهم أبناؤه. انظر تفسير ابن كثير (٢/ ٤٤٥).

(٢) ولذلك كان نوح يقول لقومه: ﴿وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ ..(٢٩)﴾ [هود]، وهود يقول لقومه عاد: ﴿يا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلا تَعْقِلُونَ (٥١)﴾ [هود] وهكذا قال صالح لقومه ثمود: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٤٥)﴾ [الشعراء]، ولوط لقومه: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٤)﴾[الشعراء]، وشعيب لقومه أهل مدين: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨٠)﴾ [الشعراء].

ويُجازَى عليه[(١)].

فلا يجوز الخلط فى تلك المسائل ﴿لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ .. (٤١)﴾ .

ثم يقول الحق سبحانه على لسان رسوله ﷺ : ﴿أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِىءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ..(٤١)﴾ [يونس]

وكلمة ﴿بَرِىءٌ﴾ تفيد أن هناك ذنباً، وهذا القول الحق فيه مجاراة للخصوم، وشاء الحق سبحانه أن يُعلِّم رسوله ﷺ والمؤمنين أدب الحوار والمناقشة ، فيقول : ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٢٤)﴾ [سبأ]

أى : أننا - الرسول ومعه المؤمنون - وأنتم أيها الكافرون إما على هدى ، أو فى ضلال. والرسول ﷺ موقن أنه على هدى وأن الكافرين على الضلال، ولكنه يجاريهم ؛ عدالة منه ﷺ ومجاراة لهم.

كذلك يعلِّمه ربه سبحانه أن يقول: ﴿قُل لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا .. (٢٥)﴾ [سبأ]

أى : أنه يبين لهم: هَبُوا أنِّى أجرمتُ فأنتم لن تُسألوا عن إجرامى، ومن أدب الرسول ﷺ شاء له الحق سبحانه أن يقول: ﴿وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٢٥)﴾ [سبأ]

ولم يقل: «ولا نُسأل عما تُجرمون» . وكذلك شاء الحق سبحانه أن تأتى هنا فى هذه الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها: ﴿أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِىءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ..(٤١)﴾ [يونس]

---

(١) فالرسول مكلف ببلاغ ما أرسل به، لا يزيد فيه ولا ينقص ، ولذلك يقول رب العزة عن نبيه ﷺ : ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (٤٧)﴾ [الحاقة].

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾

وكلمة « مَنْ » تطلق وقد يراد بها المفرد ، وقد يراد بها المفردة، وقد يراد بها المثنى، وقد يراد بها الجمع، ومرة يطابق اللفظ فيقول سبحانه: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ..(٢٥) ﴾ [الأنعام]

ومرة يقصد المعنى فيقول: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ ..(٤٢) ﴾ [يونس]

لأن ﴿مَّن﴾ صالحة للموقعين.

والسماع كما نعلم هو استقبال الأذن للصوت، فإن كان صوتاً مُبْهماً كأصوات الحيوانات أو أصوات الأعواد ، **فهذه الأصوات** لا تفيد إلا ما تفيده النغمة فى الجسم من هزة أو ارتجاج.

وإما أن يكون الصوت له معنى تواضُعىٌّ ، كاللغات المختلفة التى يتخاطب بها الناس فى البلدان المختلفة، فإن تكلمتَ بالإنجليزية فى بلد يتكلم أهله بهذه اللغة فهموك وفهمت عنهم. هذا هو معنى التواضع فى اللغة، أى: أن المتكلم والسامع على درجة واحدة من الاتفاق على اللغة.

والنبى ﷺ عربى يتحدث بلسان عربى مبين لقوم من العرب، فما العائق عن السمع إذن ؟

إن العائق عن السمع نفض الأذن لما يأتى من جهة الخصم، والسماع - كما نعلم - هو استشراف المخاطب إلى ما يفهم من المتكلم ، فإن لم يوجد عند المخاطب استشراف إلى أن يسمع، فالكلام يُقال ولا يصل.

إذن: لا بد للسامع من حالة الاستشراف إلى فهم ما يقوله المتكلم. وكما يقول المثل: «أذن من طين وأخرى من عجين». أو كما تقول المزحة أن واحداً مال على أذن صديق له وقال: «أريد أن أقول لك سراً» فاقترب الصديق مستشرفاً سماع السر، فقال الرجل: «أريد مائة جنيه كقرض»؛ فقال الصديق: «كأنى لم أسمع هذا السر».

إذن: فالكلام ليس مجرد صوت يصل إلى الأذن، لكن لا بد من استشراف نفسى للتلقى. وهم لا يملكون هذا الاستشراف؛ لذلك قال الحق سبحانه: ﴿ **أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ** .. (٤٢) ﴾ أى: كأن سمعهم لا يسمع.

ومثال ذلك: أننا نجد المدرس الذى يشرح الدرس للتلاميذ، وبين التلاميذ من يستشرف السمع؛ ولذلك يفهم الدرس، أما الذى لا يستشرف فكأنه لم يسمع الدرس.

وهم قد فاتوا الصُّمَّ؛ لأن الأصم قد يفهم بالحركة أو الإشارة أو لغة العين، ولكن هؤلاء لا يسمعون ولا يعقلون ﴿ **أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لا يَعْقِلُونَ** .. (٤٢) ﴾ [يونس]

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾

والرؤى أيضاً تحتاج إلى استشراف، وأن يُقْبِل المرء على ما يريد أن يراه، وأحياناً لا يكون الرائى مستشرفاً؛ لأن قلبه غير متجه للرؤية.

وسُئل واحد: إنك تقول: من رأى فلاناً الصالح [(١)] يَهْده الله . فردَّ عليه السامع متسائلاً: كيف تقول ذلك؟! فردَّ القائل: لقد رأى أبو جهل خيراً من هذا، ومع ذلك ظل كافراً. فردَّ السامع: إن أبا جهل لم يَرَ محمداً رسول الله ﷺ ، ولكنه رأى يتيم أبى طالب [(٢)] .

وهكذا شرح الرجل أن أبا جهل لم ينظر إلى محمد ﷺ على أنه رسول؛ لأنه لو نظر إليه بهذا الإدراك لتسللت إليه سكينة الإيمان وهَيبة الخشوع وجلال الورع.

ونحن قد نلقى رجلاً صالحاً فى بشرته أدْمة [(٣)] أو سواد ، وصلاحه يضىء حوله ، وله أسْر [(٤)] من التقوى، وجاذبية الورع.

ولو أن أبا جهل رأى محمداً ﷺ على أنه رسول لتغيَّر أمره.

وها هو «فضالة» [(٥)] يحكى عن لحظة أراد فيها أن يقتل رسول الله ﷺ وهو يطوف بالبيت عام الفتح، فلما اقترب منه ؛ قال له رسول الله ﷺ : ماذا كنت تحدِّث به نفسك؟ قال: لا شىء ، كنت أذكر الله. قال: فضحك النبى ﷺ ، ثم قال: استغفرِ الله ، ثم وضع يده على صدر فضالة.

وساعة سمع فضالة هذا، ورأى محمداً ﷺ وهو يقول ذلك القول، قال: ما كان أبغض إلىَّ من وجهه، ولكنى أقبلت عليه فما كان أحَبَّ

---

(١) إن رؤية الصالحين فيها جذب إيمانى ؛ لأن الرائى يرى نور الإيمان يناديه ، فيلاقيه ، ويلتقى به .
أما رؤية أبى جهل فهى رؤيا انقطاع إيمانى ؛ لأن استقباله للإيمان مقطوع ، فلم ير نوراً ، ولم يحس به ، وإنما كانت رؤيته من خلال الحقد الذى جعله لا يرى فى رسول الله ﷺ إلا يتيماً لابن أبى طالب ، وذلك بخلاف موقف فضالة الذى أحس بالنور فأحبه .

(٢) ذكر القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٢٣٢) أن المشركين قالوا : ما وجد الله من يرسله إلا يتيم أبى طالب .

(٣) الأدمة فى الناس : السمرة الشديدة ، وقيل : هى من أدمة الأرض ، وهو لونها ، وبه سمى آدم أبو البشر - عليه السلام . [اللسان : مادة(أدم)] .

(٤) الأسْر : السَّمْت الذى يستولى على مشاعر المحيطين به .

(٥) هو : فضالة بن عمير بن الملوح الليثى .

إلىَّ فى الأرض كلها من وجهه [(١)].

هذا هو السماع ، وهذا هو البصر ، وكلاهما - السمع والبصر - أكرم المتعلقات وأشرفها ؛ لأن السمع هو وسيلة الاستماع لبلاغ الله عنه ، والإنسان قبل أن يقرأ لا بد له من أن يكون قد سمع .

والمقصود هنا بالعمى فى قول الحق سبحانه : ﴿ أَفَأَنتَ تَهْدِى الْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا لا يُبْصِرُونَ (٤٣) ﴾ هو عمى البصيرة .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَـٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٤) ﴾

كلمة «الله» هى اسم عَلَم على واجب الوجود المتصف بكل صفات الكمال التى عرفناها فى أسماء الله الحسنى التسعة والتسعين ، وإن كان لله تعالى كمالات لا تتناهى ؛ لأن الأسماء أو الصفات التى يحملها التسعة والتسعون اسماً لا تكفى كل كمالات الله سبحانه ، فكمالاته سبحانه لا تتناهى .

ولذلك قال النبى ﷺ :

«أسألك بكل اسم سمَّيت به نفسك ، أو علَّمته أحداً من خَلْقك ، أو استأثرت به فى علْم الغيب عندك» [(٢)].

---

(١) ذكره ابن هشام فى السيرة النبوية (٤/ ٤١٧) بلفظ : « والله ما رفع يده عن صدرى حتى ما من خَلْق الله شىء أحب إلىَّ منه » .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (١/ ٣٩١ ، ٤٥٢) والحاكم فى مستدركه (١/ ٥٠٩) من حديث ابن مسعود وصححه على شرط مسلم إنْ سَلِم من الإرسال .

وإن سأل سائل: ولماذا يستأثر الله سبحانه ببعض من أسمائه فى علم الغيب ؟

أقول: حتى يجعل لنا الله سبحانه فى الآخرة مزيداً من الكمالات التى لم نكن نعرفها ؛ ولذلك نجد الحق سبحانه يفتح على رسوله ﷺ «من محامده وحُسن الثناء عليه شيئاً لم يفتحه على أحد قبله» [(١)].

وهذا بعض من فيض لا ينفد من آفاق اسم عَلَمٍ على واجب الوجود ، وصفات علم واجب الوجود ، والتسعة والتسعون اسماً التى نعلمها [(٢)] هى اللازمة لحياتنا الدنيا ، ولكننا سنجد فى الآخرة صفات كمال أخرى ، وكلمة «الله» هى الجامعة لكل هذه الأسماء ، ما عرفناها ؛ وما لم نعرفها.

والإنسان منا حين يُقبل على عمل ، فهذا العمل يتطلب تكاتُفَ صفات متعددة ، يحتاج إلى قدرة ، وعلم ، وحكمة ، ولُطْف ، ورحمة ، وغير ذلك من الصفات ، فإن قلت: باسم القوىّ ؛ فأنت تحتاج إلى القوة ، وإن قلت: باسم القادر ؛ فأنت تحتاج إلى القدرة ، وإن قلت: باسم الحليم ؛ فأنت تحتاج إلى الحِلْم ، وإن قلت: باسم الحكيم ؛ فأنت تحتاج إلى الحكمة ، وإن قلت: «بسم الله» فهى تكفيك فى كل هذا وغيره أيضاً ؛

---

(١) وذلك فى يوم القيامة فى مقام شفاعة رسول الله ﷺ بعد تأخر إخوانه من الأنبياء عنها ، وعن أبى هريرة - رضى الله عنه - « أن رسول الله ﷺ يأتى تحت العرش فيقع ساجداً ، ثم يفتح الله عليه من محامده وحسن الثناء عليه شيئاً لم يفتحه على أحد قبله . ثم يقال : يا محمد ، ارفع رأسك ، سل تعطه ، واشفع تشفع ، فيرفع الرسول ﷺ رأسه ويقول : يا رب أمتى ، أمتى » . من حديث طويل أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٧١٢) ، ومسلم فى صحيحه (١٩٤) .

(٢) عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « إن لله تسعة وتسعين اسماً ، مائة إلا واحداً ، من أحصاها دخل الجنة » أخرجه البخارى فى صحيحه (٧٣٩٢) ومسلم (٢٦٧٧) وقد ورد ذكر أسماء الله الحسنى بالتفصيل فى رواية أخرى عن أبى هريرة أخرجها الترمذى فى سننه (٣٥٠٧) وابن ماجه (٣٨٦١) وطريق الترمذى أصح .

ولذلك يكون بدء الأعمال [١] بـ «بسم الله» ، فإذا احتجت إلى قدرة وجدتها ، وإن احتجت إلى غِنَىً وجدته ، وإن احتجت إلى بَسْطٍ [٢] وجدته .

وكل صفات الكمال أوجزها الحق سبحانه لنا فى أن نقول : «بسم الله» . وحين تبدأ عملك باسم الله ؛ فأنت تُقرُّ بأن كل حَوْل [٣] لك موهوب من الله ، والأشياء التى تنفعل لك ، إنما تنفعل باسم الله ، وكل شىء إنما يسخر لك باسم الله ، وهو القائل :

﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (٧١) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (٧٢) ﴾ [يس]

ولو لم يذلِّل الله لنا الأنعام والأشياء لتنفعل لنا ما استطعنا أن نملكها ، بدليل أن الله تعالى قد ترك أشياء لم يذللها لنا حتى نتعلَّم أننا لا نستطيع ذلك ، لا بعلْمنا ، ولا بقُدْرتنا ، إنما الحق سبحانه هو الذى يُذلِّل .

فأنت ترى الطفل فى الريف وهو يسحب الجمل ، ويأمره بالرقود ؛ فيرقد ، ويأمره بالقيام ؛ فيقوم . أما إن رأينا ثعباناً فالكثير منا يجرى ليهرب ، ولا يواجهه إلا من له دُرْبة على قتله . والبرغوث الصغير الضئيل قد يأتى ليلدغك ليلاً ، فلا تعرف كيف تصطاده ؛ لأن الله لم يذلِّله لك .

وكذلك الثمرة على الشجرة إذا قطفتها قبل نضجها تكون غير

---

(١) أخرج الإمام أحمد فى مسنده (٢/ ٣٥٩) عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « كل كلام - أو أمر - ذى بال لا يفتح بذكر الله عز وجل فهو أبتر - أو قال : أقطع » .

(٢) أى : أن يبسط فى رزقك ، فهو سبحانه الباسط . يقول سبحانه وتعالى : ﴿ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ .. (٢٦) ﴾ [الرعد] .

(٣) الحول : القوة ، والحيلة والقدرة على تسيير أمورك فى الحياة .

مستساغة ، أما إن قطفتها بعد نضجها فأنت تستمتع بطعمها ، ثم تأخذ منها البذرة لتعيد زراعتها ، وتضمن بقاء النوع ، بل إن الثمرة تسقط من على الشجرة حين تنضج وكأنها تنادى من يأكلها .

وكذلك الإنسان حين يبلغ ، أى : يصبح قادراً على أن ينجب غيره ، فيكلّفه الله بعد ذلك بالتكاليف الإيمانية ؛ لأنه لو كلَّفه قبل ذلك [1] ثم طرأتْ عليه مشاكل المراهقة ؛ فقد لا يستطيع أن يتحمل التكليف .

ولذلك شاء الحق سبحانه أن يخلق من عدم ، وأن يربِّى حتى يكتمل الإنسان ، ثم حدَّد التكليف من لحظة البلوغ ، ووضع شرط اكتمال العقل والرشد ، وألا توجد آفة أو جنون .

ولا أقوى من الله سبحانه يمكن أن يُكلِّف لتفعل غير ما يريد الله ؛ لذلك شاء الحق سبحانه أن يكتمل للإنسان الرشد ساعة التكليف ، أما المجنون فلم يكلفه الله سبحانه ، وكذلك يسقط التكليف عن المُكْرَه ؛ لأن التكليف فى مضمونه هو اختيار بين البدائل ، وهذه منتهى العدالة فى التشريع .

وأنت حين تستقبل التكليف عليك ألا تنظر إلى ما تأخذه منك العبادات ، لأنها لا تأخذ من حريتك ، بل تحترم أنت حرية الآخرين ، ويحترمون هم حريتك ، فإن حرَّم عليك أن تسرق ، فهو سبحانه قد حماك بأن حرَّم على جميع الخلق أن يسرقوا منك [2] .

---

(١) لما استطاع القيام بما كلف به لأنه ليس بالغاً ؛ ولذلك كان التكليف مصاحباً للبلوغ ؛ ليكون هناك توازن تربوى يروض النفس إلى مرادات الله ، ولوقام الصبى بالتكاليف فله ثواب .

(٢) عن جابر بن عبد الله قال : سمعت النبى ﷺ يقول : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده » أخرجه مسلم فى صحيحه (٤١) فجعل رسول الله ﷺ السلامة من الإيذاء سواء باللسان أو اليد علامة على حسن إسلام العبد .

إذن: فالقيد قد جاء لصالحك.

وهَبْ أنك أطلقت يدك فى الناس، فماذا تصنع لو أطلقوا هم أياديهم فيما تملك ؟

وحين حرَّم عليك التكليف أن تنظر إلى محارم غيرك ، فهو قد حرم على الغير أن ينظروا إلى محارمك .

وحين أمرك أن تزكِّى ، فهو قد أخذ منك ؛ ليعطى الفقير من المال الذى استخلفك الله فيه.

فلا تنظر إلى ما أخذ منك، بل انظر إلى ما قد يعود عليك إن أصابك القدر بالفقر ، والشىء الذى تستشعر أنه يؤخذ منك فالله سبحانه يعطيك الثواب أضعافاً كثيرة [(١)] .

وبعد ذلك انظر إلى حركة الحياة ، وانظرْ إلى ما حَرَّم الله تعالى عليك من أشياء ، وما حَلَّل لك غير ذلك؛ فستجد المباح لك أكثر مما منعك عنه.

إذن: فالتكليف لصالحك .

ثم بعد كل ذلك: أيعود شىء مما تصنع من تكاليف على الحق سبحانه ؟ لا .

أيعطيه صفة غير موجودة ؟

لا ؛ لأن الحق سبحانه قد خلقنا بكل صفات كماله ، وليس فى عملنا ما يزيده شيئاً.

---

(١) يقول الله - عز وجل - فى كتابه الكريم : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا (٤٠) ﴾ [النساء] . وقد قال عز وجل : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (٤) ﴾ [المؤمنون] - ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ .. (١٠٣) ﴾ [التوبة] -﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ (٢٤) لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (٢٥) ﴾ [المعارج].

إذن: فمن المصلحة أن تطبّق التكاليف لأنها تعود عليك أنت بالخير.

وانظر - مثلاً - إلى الفلاح فى الحقل، إنه يحرث الأرض، وينقل السماد، ويبذر، ويروى ويتعب، وبعد ذلك يستريح فى انتظار الثمار.

وأنت حين تنفِّذ تكاليف الحق [1] سبحانه فأنت تجد العائد، وأنت ترى فى حياتك أن الفلاح الكسول يصاب بحسرة يوم الحصاد، فما بالنا بحساب الآخرة.

والفلاح الذى يأخذ من مخزنه إردبّاً؛ ليزرعه، وهو فى هذه الحالة لا ينقص مخزنه؛ لأنه سيعود بعد فترة بخمسة عشر إردبّاً.

وهكذا من ينفِّذ التكاليف يعود عليه كل خير؛ ولذلك أقول: انظر فى استقبالات منهج الله تعالى فيما تعطيه، لا فيما تأخذه.

وهكذا ترى أنه لا ظلم؛ لأننا صنعة الله، فهل رأيتم صانعاً يفسد صنعته؟

إذن: فالصانع الأعلى لا يظلم صنعته ولا يفسدها أبداً، بل يُحسِّنها ويعطيها الجمال والرونق [2]؛ لذلك يقول الحق سبحانه:

---

(١) تكاليف الحق سبحانه هى أوامره ونواهيه، يكلف بها الله من آمن به، ومثله قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢) وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِى مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٥٣)﴾ [الأنعام]

(٢) وفى هذا يقول رب العزة: ﴿الَّذِى أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ (٧)﴾ [السجدة] ويقول فى آية أخرى: ﴿اللَّهُ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ .. (٦٤)﴾ [غافر].

﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٤) ﴾ [يونس]

أى: أن الناس هم الذين يظلمون أنفسهم، ومن الظلم جَحْد الحق، وهذا هو الظلم الأعلى، ومن الظلم أن يعطى الإنسان نفسه شهوة عاجلة؛ ليذوق من بعد ذلك عذاباً آجلاً، وهو بذلك يحرم نفسه من النعيم المقيم، وهو حين يظلم نفسه يكون قد افتقد القدرة على قياس عمره فى الدنيا، فالعمر مهما طال قصير، وما دام الشىء له نهاية فهو قصير.

والحق سبحانه وتعالى حين يخاطب الناس، فهو قد نصب لهم آيات باقية إلى أن تقوم الساعة، وكلهم شركاء فيها، وهى الآيات الكونية [(١)]، وبعد ذلك خَصَّ كل رسول بآية ومعجزة، وأنزل منهجاً بـ «افعل» و«لا تفعل»، وبيَّن فى آيات الكتاب ما المطلوب فعله، وما المطلوب أن نمتنع عنه [(٢)]، وترك لك بقية الأمور مباحة.

والمثال الذى أضربه دائماً: هو التلميذ الذى يرسب آخر العام، هذا التلميذ لم تظلمه المدرسة، بدليل أن غيره قد نجح؛ لذلك لا يصح أن يقال: إن المدرسة أسقطت فلاناً، ولكن الصحيح أن نقول: إن فلاناً قد أسقط نفسه، وأن زميله قد أنجح نفسه، ودور المدرسة فى ذلك هو إعلان النتيجة.

---

(١) قد جعل الله فى الكون آيات خاطب بها الله كل الناس ليتفكروا فيها وليصلوا بها إلى أن لهذا الكون خالقاً واحداً، وقد جمعها الله فى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِى تَجْرِى فِى الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٦٤) ﴾ [البقرة]

(٢) وذلك فى نحو قوله تعالى: ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) ﴾ [الأنعام].

ومن الظلم أيضاً أن يستكثر الظالم نعمة عند المظلوم ، فيريد أن يأخذها منه ، ولا يمكن أن يكون الحق سبحانه وتعالى ظالماً يستكثر نعَم عباده ؛ لأنه مُنزَّه عن ذلك ؛ فضلاً عن أن خَلْقه ليس عندهم نعَم يريدها هو ، فهو الذى أعطاها لهم ؛ ولذلك لا يأتى منه سبحانه أى ظلم ، وإنْ جاء الظلم فهو من الإنسان لنفسه .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ[1] يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۚ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾

فهذه الدنيا التى يتلهف عليها الإنسان ، ويأخذ حظه فيها ، وقد ينسى الآخرة ، فإذا ما قامت القيامة فأنت تشعر كأنك لم تمكث فى الدنيا إلا ساعة ، والساعة هى الساعة الجامعة التى تقوم فيها القيامة ، ولكن الساعة فى الدنيا هى جزء من الوقت ، ونحن نعلم أن اليوم مقسَّم لأربع وعشرين ساعة ، وأيضاً تُطلق الساعة على تلك الآلة التى تُعلَّق على الحائط أو يضعها الإنسان على يده ، وهى تشير إلى التوقيت .

والتوقيت ثابت - بمقدار الساعة والدقيقة والثانية - منذ آدم عليه السلام وإلى من سوف يأتون بعدنا ، ولكن التوقيت يختلف من مكان إلى آخر ، فتشير الساعة فى القاهرة - مثلاً - إلى الثانية ظهراً ، وتكون فى نيويورك السابعة صباحاً ، وتشير فى بلد آخر إلى الثالثة بعد منتصف الليل ، ولا تتوحد الساعة بالنسبة لكل الخلق إلا يوم القيامة .

---

(١) لبث : مكث .

ولذلك يقول الحق سبحانه:

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ .. (٥٥) ﴾ [الروم]

وهم - إذن - يُفاجَأون أن دنياهم الطويلة والعريضة كلها مرَّتْ وكأنها مجرد ساعة [(١)]، وهكذا يكتشفون قصَر ما عاشوا من وقت، ولا يقتصر الأمر على ذلك، بل إنهم لم ينتفعوا بها أيضاً فهى مدة من الزمن لم تكن لها قيمة.

والحق سبحانه يقول:

﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ (٣٥) ﴾ [الأحقاف]

أى: أن الدنيا تمر عليهم فى لهو ولعب ومشاغل، ولم يأخذوا الحياة بالجد اللائق بها [(٢)]؛ فضاعت منهم وكأنها ساعة.

ولذلك يقول الحق سبحانه هنا:

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ .. (٤٥) ﴾ [يونس]

ويوم الحشر ينقسم الناس قسمين: قسم مَنْ كانوا يتعارفون على البر، وقسم مَنْ كانوا يتعارفون على الإثم، فالذين تعارفوا فى الحياة الدنيا على

---

(١) الساعة: أصلها جزء من الزمن غير محدد يلاحظ فيه القلة، قال تعالى: ﴿ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ.. (٥٥) ﴾ [الروم] أى: مدة قليلة، وقوله: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ (٣٤) ﴾ [الأعراف] أى: لا يتأخرون لحظة، والساعة يوم القيامة قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ .. (٥٥) ﴾ [الروم] أى: القيامة.

(٢) ولذلك يقول الحق سبحانه: ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَـئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُوراً (١٩) ﴾ [الإسراء]، فالسعى للآخرة لا بد أن يكون بالنسبة إلى عِظَم هذا اليوم الأخير.

البر يفرحون ببعضهم البعض ، وأما الذين تعارفوا فى الحياة الدنيا على الإثم فهم يتنافرون بالعداء ، والحق سبحانه هو القائل : ﴿ **الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ (٦٧)** ﴾ [الزخرف]

وكذلك قال فى الذين تعارفوا على الإثم :

﴿ **إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا .. (١٦٦)** ﴾ [البقرة]

هم سيتعارفون على بعضهم البعض ، ولكن هذه المعرفة لا تدوم ، بل تنقلب إلى نكران ، فالواحد منهم لا يريد أن يرى مَنْ كان سبباً فى أن يؤول إلى هذا المصير ، وتعارفهم سيكون تعارف تعنيف .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ **قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ .. (٤٥)** ﴾ [يونس]

وساعة تسمع كلمة «خسر» فاعرف أن الأمر يتعلق بتجارة ما ، والخسارة[1] تعنى : أن يفقد الإنسان المتاجر إما جزءاً من رأس المال ، أو رأس المال كله .

ومراحل التجارة - كما نعرف - إما كسب يزيد رأس المال المتاجَر فيه ، وإما ألاَّ يكسب التاجر ولا يخسر ؛ لكنه يشعر بأن ثمن عمله ووقته فى هذه التجارة قد ضاع ، وكل ذلك يحدث فى الصفقات .

---

(١) خسر : أى خسر الرجل فى تجارته خسراً وخساراً وخسارة وخسراناً ، غبن فيها ولم يربح وأصابه النقص . وخسر الرجل : ضل . فهو خاسر ، وهو خسير ، قال تعالى : ﴿ **قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ ..(٣١)** ﴾ [الأنعام] . وخسر نفسه : أهلكها بالضلال ، وقوله تعالى : ﴿ **خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ..(١١)** ﴾ [الحج] .

ومن الفعل اللازم قوله تعالى : ﴿ **فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا (١١٩)** ﴾ [النساء] ، وقد يأتى متعدياً ، ومثله قوله تعالى : ﴿ **قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ..(١٥)** ﴾ [الزمر] [القاموس القويم] .

ونجد الحق سبحانه وتعالى يصف العملية الإيمانية فى الدنيا بقوله:

﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) ﴾ [الصف]

ويقول سبحانه:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً (١) لَّن تَبُورَ (٢٩) ﴾ [فاطر]

والتجارة تعتمد على أنك لا تُقبل على عقد صفقة إلا إذا غلب على ظنك أن هذه الصفقة سوف تأتى لك بأكثر مما دفعت فيها.

ولذلك يقول الحق سبحانه عن الصفقات الخاسرة:

﴿ أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (١٦) ﴾ [البقرة]

ويقول أيضاً:

﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا .. (١١) ﴾ [الجمعة]

---

(١) تجر من باب نصر - تجراً وتجارة: باع واشترى طلباً للربح، وتطلق التجارة على المال الذى يتجر فيه التاجر - وتطلق التجارة مجازاً على العمل الذى يترتب عليه خير، كأن الثواب ربح، وكأن الحرمان منه خسارة، قال تعالى: ﴿ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ .. (٢٨٢) ﴾ [البقرة]، التجارة هى المتجر فيه، وقوله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ (٢٩) ﴾ [فاطر] هى الأعمال الصالحة، وقوله: ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) ﴾ [الصف]، هى التجارة بالمعنى المجازى أى العمل الصالح. [القاموس القويم]

وشاء الحق سبحانه أن يجعل معنى التجارة واضحاً ومعبِّراً عن كثير من المواقف ؛ لأن التجارة تمثِّل جماع كل حركة الحياة ؛ فهذا يتحرك فى ميدان ؛ لينفع نفسه ، وينفع غيره ، وغيره يعمل فى ميدان آخر ؛ فينفع نفسه ، وينفع غيره.

وبهذا يتحقق نفع الإنسان من حركة نفسه وحركة غيره ، وهو يستفيد من حركة غيره أكثر مما يستفيد من حركته هو ، ومن مصلحة أى إنسان أن يحسِّن كل إنسان حركته ؛ فيرتاح هو ؛ لأن ما سوف يصل إليه من حركة الناس سيكون جيد الإتقان.

والتجارة تحمل أيضاً الوساطة بين المنتج والمستهلك .

ولذلك حين أراد الله سبحانه أن نستجيب لأذان الجمعة قال:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٩) ﴾ [الجمعة]

ولم يقل الله سبحانه: اتركوا الزراعة أو اتركوا الصناعة ، أو اتركوا التدريس ، بل اختار من كل حركات الحياة حركة البيع ؛ لأن فيه تجارة ، والتجارة هى الجامعة لكل حركات الحياة.

والتاجر وسيط بين منتج ومستهلك وتقتضى التجارة شراءً وبيعاً ، والشراء يدفع فيه التاجر ثمناً ، أما فى البيع فهو يأخذ الثمن ، والغاية من كل شىء أن يتموَّل الإنسان .

لذلك فالبيع أفضل عند التاجر من الشراء ، فأنت قد تشترى شيئاً وأنت كاره له ، لاحتياجك إليه ، ولكنك عند بيع البضاعة تشعر بالسعادة والإشراق ، ولأن الشراء فيه أخذ ، والبيع فيه عطاء ، والعطاء يرضى النفس دائماً ؛ لأن ثمرة الصفقة تأتيك فى لحظتها.

وإن كنت مزارعاً فأنت تُعدّ الأرض ، وتحرثها ، وتبذر البذور ، وترويها ، وتُشَذِّب النبات ، وتَنتظر إلى أن ينضج الزرع ، وكذلك تقضى الكثير من الوقت فى إتقان الصنعة إن كنت صانعاً ، لكن البيع فى التجارة يأتى لك بالكسب سريعاً ، فكأن ضَرْبَ المثل فى التجارة ، جاء من أصول التجارة بالبيع ولم يأت بالشراء .

إذن : لا بد أن نعتبر أن دخولك فى صفقة الإيمان تجارة ، تأخذ منها أكثر من رأسمالك ، وتربح ، أما إن تركت بعضاً من الدِّين ؛ فأنت تخسر بمقدار ما تركت ، بل وأضعاف ما تركت .

وأنت فى أية صفقة قد تعوِّض ما خسرت فيما بعد ، وإن استمرت الخسارة فإن أثرها لا يتجاوز الدنيا ، ويمكن أن تربح بعدها ، وإذا لم تربح ، فسيضيع عليك تعبك فقط ؛ ولأن الدنيا محدودة الزمن ؛ فخسارتها محتملة ، أما الخسارة فى الزمان غير الموقوت - الزمن الدائم - فهى خسارة كبيرة ؛ لأن الآخرة ليس فيها أغيار كالدنيا ، وأنت فى الآخرة إما فى جنة ذات نعيم مقيم ، وفى هذا ربح وكسب كبير ، وإما إلى نار ، وهذه هى الخسارة الحقيقية .

والخسران الحقيقى أن يكذِّب الإنسان ، لا بنعيم الله فقط ، ولكن بلقاء الله أيضاً .

يقول الحق سبحانه :

﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ . . (٤٥) ﴾ [يونس]

أى : أن الله سبحانه لم يكن فى بالهم ، وهم حين تقوم الساعة يجدون الله - سبحانه وتعالى - أمامهم .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ [(١)] يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً .. (٣٩) ﴾ [النور]

والسراب كما نعلم يراه السائر فى الصحراء ، وهو عبارة عن انعكاس للضوء ؛ فيظن أن أمامه ماء ، ولكن إن سار إليه الإنسان لم يجده ماء ، وهكذا شبَّه الحق سبحانه عمل الكافر بمن يسير فى صحراء شاسعة ، ويرى السراب ؛ فيظنه ماءً ، لكنه سراب ، ما إن يصل إليه حتى ينطبق عليه قول الحق سبحانه :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ .. (٣٩) ﴾ [النور]

أى : أنه يُفاجأ بوجود الله سبحانه وتعالى ، فيوفيه الله حسابه .

ولذلك فالذى يكفر بالله ويعمل ما يفيد البشر ، فإنه يأخذ حسابه ممن عمل له ، ولا يُحسب له ذلك فى الآخرة ، وتجد الناس يُكرّمونه ، ويقيمون له التماثيل أو يمنحونه الجوائز وينطبق عليه قول الرسول ﷺ :

«فعلتَ ليقال ، وقد قيل» [(٢)] .

---

(١) السراب : ما يُرى فى نصف النهار من اشتداد الحر كالماء فى الصحراء يلتصق بالأرض . وهو من خداع البصر . وقد سُمِّى السراب سراباً لأنه يسرب سروباً ، أى : يجرى جرياً ، أى : يتحرك حركة تخدع الرائى من بعيد ؛ فيظنه ماء وهو ليس بماء ، بل خداع ضوئى وبصرى ناتج عن الحالة النفسية للشخص عند شدة عطشه ووجوده فى صحراء قاحلة ؛ فأى حركة من بعيد يظنها ماء ؛ ويجرى إليها ؛ ليفاجأ بعدم وجود شىء . [اللسان : مادة (س ر ب) بتصرف] .
والقيعة : أرض واسعة مستوية لا تنبت الشجر . قال الفرّاء : القيعة جمع القاع ، والقاع : ما انبسط من الأرض . قال تعالى : ﴿ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (١٠٦) ﴾ [طه] . [اللسان : مادة (ق و ع) بتصرف] .

(٢) عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتى به فعرفه نعمه فعرفها . قال : فما عملت فيها ؟ قال : قاتلت فيك حتى استشهدت . قال : كذبت ولكنك قاتلت لأن يقال : جرىء فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار ، ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن فأتى به فعرفه نعمه فعرفها . قال : فما عملت فيها ؟ قال : تعلمت العلم وعلّمته وقرأت فيك القرآن . قال : كذبت ، ولكنك تعلَّمت العلم ليقال : عالم ، وقرأت القرآن ليقال : هو قارىء . فقد قيل . ثم أمر به فسُحب على وجهه حتى ألقى فى النار . . » . الحديث أخرجه مسلم فى صحيحه (١٩٠٥) والنسائى فى سننه (٦/ ٢٣) طبعة دار الكتب العلمية - بيروت .

وهنا يقول الحق سبحانه عن الذين كَذّبوا بلقاء الله تعالى:

﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (٤٥)﴾ [يونس]

أى: لم يكونوا سائرين على المنهج الذى وضعه لهم خالقهم سبحانه؛ هذا المنهج الذى يمثِّل قانون الصيانة لصنعة الله تعالى، وقد خلق الله سبحانه الإنسان لمهمة، والله سبحانه يصون الإنسان بالمنهج من أجل أن يؤدى هذه المهمة.

والهداية هى الطريق الذى إن سار فيه الإنسان فهو يؤدى به إلى تحقيق المهمة المطلوبة منه؛ لأن الحق سبحانه قد جعله الخليفة فى الأرض.

ومن لا يؤمن برب المنهج سبحانه وتعالى ولا يطبق المنهج فهو إلى الخسران المبين، أى: الخسران المحيط.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ (٤٦)﴾

وقول الحق سبحانه: ﴿وَإِمَّا﴾ مكونة من «إن» و«ما» مدغومتين، وهنا يبين لنا الحق سبحانه أنه يعد الذين كذبوا رسوله ﷺ بالعذاب والهوان والعقاب والفضيحة.

أى: يا محمد، إما أن ترى ما قلناه فيهم من خذلان وهوان، وإما أن نتوفينَّك قبل أن ترى هذا فى الدنيا، ولكنك ستراه فى الآخرة حين تشاهدهم فى الهوان الأبدى الذى يصيبهم فى اليوم الآخر.

وفى هذا تسرية لرسول الله ﷺ.

وقول الحق سبحانه:

﴿ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ .. (٤٦) ﴾ أى: أن نريك ما وعدناهم من الخذلان والهوان فى هذه الحياة، وإن لم تره فى الحياة الدنيا فلسوف ترى هوانهم فى الآخرة، حيث المرجع إلى الله تعالى؛ لأنه سبحانه سيصيبهم فى أنفسهم بأشياء فوق الهوان الذى يُرى فى الناس؛ كحسرة فى النفس، وكبْت للأسى حين يرون نصر المؤمنين.

أما الذى يُرى فهو الأمر الظاهر، أى: الخذلان، والهزيمة، والأسى، والقتل، وأخْذ الأموال، وسَبْى النساء والأولاد، أو غير ذلك مما سوف تراه فيهم - بعد أن تفيض روحك إلى خالقها - فسوف ترى فيهم ما وعدك الله به.

وأنت لن تحتاج إلى شهادة من أحد عليهم، لأنه سبحانه: ﴿ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ (٤٦) ﴾.

وكفاك الله سبحانه شهيداً: ﴿ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا (٧٩) ﴾ [النساء]

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ(١) وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٤٧) ﴾

---

(١) قسَطَ يقسط - كضرب - قسطاً وقسوطاً، وقسط يقسط قسطاً كنصر: ظلم أو عدل، من الأضداد، وتفهم بالقرائن، واستعمله القرآن بمعنى ظلم فى قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا (١٥) ﴾ [الجن] وأقسط: عدل وأزال الظلم، واستعمله القرآن بمعنى العدل فى قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ ..(٢٩) ﴾ [الأعراف]. والقسطاس: الميزان والعدل. «القاموس القويم».

والحق سبحانه لا يظلم أحداً ، ولا يعذب قوماً إلا بعد أن يكفروا بالرسول الذى أرسله إليهم ، وهو سبحانه القائل :

﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا (١) فِيهَا نَذِيرٌ (٢٤) ﴾ [فاطر]

وهو سبحانه القائل أيضاً :

﴿ لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ (١٣١) ﴾ [الأنعام]

فلا تجريم ولا عقوبة إلا بنص وببيان لتجريم هذا الفعل أو ذاك ، بإرسال الرسل ؛ حتى لا يحتج أحد بأنه لم يصل إليه شىء يحاسب بمقتضاه .

والحق سبحانه هنا يبيِّن أن لكل أمة رسولاً يتعهدها بأمور المنهج .

وقد خلق الحق سبحانه كل الخلق ، وكانوا موحِّدين منذ ذرية آدم - عليه السلام - ثم اقتضت الأحداث أن يتباعدوا ، وانتشروا فى الأرض ، وصارت الالتقاءات بعيدة ، وكذلك المواصلات ، وتعددت الآفات بتعدد البيئات .

ولكن إذا تقاربت الالتقاءات ، وصارت المواصلات سهلة ، فما يحدث فى الشرق تراه فى لحظتها وأنت فى الغرب ، فهذا يعنى توحُّد الآفات أو تكاد تكون واحدة ؛ لذلك كان لا بد من الرسول الخاتم ﷺ ، أما فى الأزمنة القديمة ، فقد كانت أزمنة انعزالية ، تحيا كل جماعة بعيدة عن الأخرى ؛ ولذلك كان لا بد من رسول لكل جماعة ؛ ليعالج داءات البيئة ، أمَا وقد التقت البيئات ، فالرسول الخاتم يعالج كل الداءات (٢) .

---

(١) خلا : مضى وسلف . ومنه قوله تعالى : ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (٢٤) ﴾ [الحاقة] أي : الماضية .

(٢) وذلك لأن رسالة الإسلام هى جماع القيم لكل دين سابق ، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ (١٣) ﴾ [الشورى] .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (٤٧) ﴾ [يونس]

وقد حكى التاريخ لنا ذلك ، فكل رسول جاء آمن به البعض ، وكفر به البعض الآخر ، والذين آمنوا به انتصروا ، ومَنْ كفروا به هُزِمُوا.

أو أن الآية عامة ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ ﴾ أى : تُنادى كل أمة يوم القيامة باسم رسولها ، يا أمة محمد ﷺ ، ويا أمة موسى ، ويا أمة عيسى . . . إلخ.

والحق سبحانه يقول:

﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَـٰؤُلاءِ شَهِيدًا [1] (٤١) يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الأَرْضُ وَلا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا (٤٢) ﴾ [النساء]

إذن : فالحق سبحانه هنا يبيِّن أن لكل أمة رسولاً جاءها بالبلاغ عن الله ، وقد آمن به مَنْ آمن ، وكفر به مَنْ كفر ، وما دام الإيمان قد حدث - وكذلك الكفر - فلا بد من القضاء بين المؤمنين والكافرين.

---

(١) عن عبد الله بن مسعود قال : قال لى رسول الله ﷺ : «اقرأ علىَّ» فقلت : يا رسول الله أقرأ عليك وعليك أنزل . قال : «نعم ، إنى أحب أن أسمعه من غيرى» فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلاءِ شَهِيدًا (٤١) ﴾[النساء] فقال ﷺ : «حسبك الآن» فإذا عيناه تذرفان . أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٠٥٠) وأحمد فى مسنده (١/ ٣٨٠).

واللغة تقول : الشهيد صيغة مبالغة فى الشاهد ، والشهيد من أسماء الله الحسنى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا (٣٣) ﴾ [النساء] وقوله : ﴿ وَلا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلا شَهِيدٌ . . (٢٨٢) ﴾ [البقرة] أى شاهد . والشهيد من قتل فى سبيل الله ، والشهادة : خبر قاطع ، والشاهد اسم فاعل وجمعه شهد وشهود . [القاموس القويم] .

لذلك يقول الحق سبحانه:

﴿ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (٤٧) ﴾ [يونس]

وما دام فى الأمر قضاء ، فلا بد أن المؤمن يَعتبر الكافر منازعاً له ، وأن الكافر يَعتبر المؤمن منازعاً له ، ويصير الأمر قضية تتطلب الحكم ؛ لذلك يقول الحق سبحانه:

﴿ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (٤٧) ﴾ [يونس]

أى: يُقضى بينهم بالعدل ، فالمؤمنون يتقصَّى الحق سبحانه حسناتهم ويزيدها لهم ، أما الكافرون فلا توجد لهم حسنات ؛ لأنهم كفروا بالله الحق ؛ فيوردهم النار ، وهم قد أبلغهم رسول الله ﷺ أنه سيأتى يوم يُسألون فيه عن كل شىء ، فاستبعدوا ذلك وقالوا:

﴿ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (١٦) أَوَ آبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ (١٧) ﴾ [الصافات]

لقد تعجبوا من البعث وأنكروه ، لكنهم يجدونه حتماً وصدقاً.

ويشاء الحق سبحانه أن يُدخل عليهم هذه المسألة دخولاً إيمانياً ، فيقول:

﴿ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ ..(١٥) ﴾ [ق]

فأنتم إذا متُّم وتحلَّلتم فى التراب ، أيعجز الله سبحانه أن يخلقكم من جديد ؟ لا ؛ إنه سبحانه القائل:

﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ (٤) ﴾ [ق]

أى: أنه سبحانه يأمر العناصر الخاصة بكل إنسان أن تتجمَّع كلها ، وليس هذا بعسير على الله الذى خلقهم أولاً.

وهم قد كَذَّبوا واستنكروا واستهزأوا بمجيء يوم القيامة والبعث ، وبلغ استهزاؤهم أن استعجلوا [(١)] هذا اليوم ، وهذا دليل جهلهم ، وكان على الواحد منهم أن يفر من هول ذلك اليوم.

ولذلك يقول الحق سبحانه بعد ذلك على ألسنتهم:

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾

هذا الإنكار والتكذيب والاستهزاء هو منطق المشركين والملحدين [(٢)] فى كل زمان ومكان ، وفى العصر القريب قاله الشيوعيون عندما قاموا بثورتهم الكاذبة ، وذبحوا الطبقة العليا فى المجتمع بدعوى رفع الظلم عن الفقراء .

وإذا ما كانوا قد آمنوا بضرورة الثواب والعقاب ، فمن الذى يحكم ذلك ؟ هل الظالم يحكم على ظالم ، فتكون النتيجة أن الظالم سيهلك بالظالم ، وقد حدث ، فأين الشيوعيون الآن ؟

لماذا لم يلتفتوا إلى أن لهذا الكون خالقاً يعاقب من ظلموا من قبل ، أو من يظلمون من بعد ؟

إنهم لم يلتفتوا ؛ لأنهم اتخذوا المادة إلهاً ، وقالوا : لا إله ، والحياة مادة ، فأين هم الآن ؟

وإن كنتم قد تملّكتم فى المعاصرين لكم ، وادعيتم أنكم نشرتم العدل بينهم ، فماذا عن الذين سبقوا ، والذين لحقوا ؟

---

(١) وقد قال رب العزة عنهم: ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ .. (٤٧) ﴾ [الحج] ، ويقول سبحانه فى آية أخرى: ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ .. (٥٣) ﴾ [العنكبوت].

(٢) الملحدون: جمع ملحد ، وهو الطاعن فى الدين ، المائل عنه. قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا .. (٤٠) ﴾ [فصلت]. [المعجم الوسيط : مادة (لحد)].

هم - إذن - لم يلتفتوا إلى أن الله سبحانه وتعالى قد شاء ألا يموت ظالم إلا بعد أن ينتقم الله منه[(١)] .

وهم لم يلتفتوا إلى أن وراء هذه الدار داراً أخرى يجُازَى فيها المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته.

وكان المنطق يقتضى أن يؤمن هؤلاء بأن لهذا الكون إلهاً عادلاً ، ولابد أن يجيء اليوم الذى يجازى فيه كل إنسان بما عمل ، ولكنهم سخروا مثل سخرية الذين كفروا من قبلهم ، وجاء خبرهم فى قول الله سبحانه على ألسنتهم : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٤٨) ﴾ [يونس]

ولكن وعد الله حق ، ووعد الله قادم ، ومحمد ﷺ رسول من الله ، يبلغ ما جاء من عند الله تعالى ، فرسول الله ﷺ لا يملك لنفسه شيئاً.

ولذلك يقول القرآن بعد ذلك :

﴿ قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۚ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (٤٩) ﴾

والرسول ﷺ يبرِّىء نفسه من كل حَوْل وطَوْل[(٢)] ، ويعلن ما أمره الحق

---

(١) يقول الحق : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ (٤٢) مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ (٤٣) ﴾ [إبراهيم] ، ويقول الرسول ﷺ : «إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته» .

(٢) الحَوْل : الحذق وجودة النظر والقدرة على دقة التصرف فى الأمور.

والطول : الفضل والغنى واليسر. قال تعالى : ﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم .. (٢٥) ﴾ [النساء]. [المعجم الوسيط].

سبحانه أن يعلنه ، فهو ﷺ لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ؛ لأن النفع أو الضر بيد خالقه سبحانه ، وهو سبحانه وتعالى خالقكم ، وكل أمر هو بمشيئته سبحانه .

وهذه الآية جاءت رداً على سؤالهم الذى أورده الحق سبحانه فى الآية السابقة : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٤٨) ﴾ [يونس]

لقد تساءلوا بسخرية عن هذا الوعد بالعذاب ، وكأنهم استبطأوا نزول العذاب تهكُّماً ، وهذا يدل على أن قول الحق سبحانه :

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (٤٧) ﴾ [يونس]

هذه الآية لم تنزل ليوم القيامة ، بل نزلت لتوضح موقف مَنْ كفروا برسول الله ﷺ والذين قالوا بعد ذلك :

﴿ مَتَىٰ هَـٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٤٨) ﴾ [يونس]

وهذا يعنى أنهم قالوا هذا القول قبل أن تقوم القيامة ، والآية التى توضح أن لكل أمة رسولاً تؤيدها آيات كثيرة ، مثل قوله سبحانه :

﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً (١٥) ﴾ [الإسراء]

وكذلك قول الحق سبحانه :

﴿ لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ (١٣١) ﴾ [الأنعام]

وكذلك قول الحق سبحانه :

﴿ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً .. (١٣٤) ﴾ [طه]

وكل ذلك يؤيد أن الرسول المرسل إلى الأمة هو الرسول الذى جاء بمنهج الله تعالى ؛ فآمن به قوم ، وكذَّب به آخرون ، وقضى الله بين المؤمنين والكافرين بأن خذل الكافرين ونصر المؤمنين.

وإن استبطأ الكافرون الخذلان فلسوف يرونه ؛ ولذلك أمر الحق سبحانه رسوله ﷺ :

﴿ قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلا نَفْعًا .. (٤٩) ﴾ [يونس]

أى : أنكم إن كنتم تسألون محمداً ﷺ عن الضر والنفع ، فهو ﷺ مبلِّغ عن الله تعالى ، ولا يملك لنفسه ضَرّاً ولا نفعاً ، فضلاً عن أن يملك لهم هم ضَرّاً أو نفعاً ، وكل هذا الأمر بيد الله تعالى ، ولكل أمة أجلٌ [(١)] ينزل بالذين كفروا فيها بالعذاب ، ويقع فيها القول الفصل.

وقول الحق سبحانه :

﴿ إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ .. (٤٩) ﴾ [يونس]

يفيد أن مشيئة الله هى الفاصلة ، ويدل على أن النبى والناس لا يملكون لأنفسهم الضر أو النفع ؛ لأن الإنسان خُلق على هيئة القَسْر [(٢)] فى أمور ، وعلى هيئة الاختيار فى أمور أخرى ، والاختيار هو فى الأمور التكليفية

---

(١) الأجل - مدة الشىء ، وغاية الوقت ووقت الحياة ، أو وقت الدين أو وقت العمل . والأجل نفس الوقت الذى أجل له الأمر : ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الأَجَلَ ..(٢٩) ﴾ [القصص] أى : أتم المدة المحددة له ، وأجّل الشىء : حدد له أجلاً مستقبلاً : ﴿ لأَىِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ (١٢) ﴾ [المرسلات] أى : حد الموت أو الهرم وقوله : ﴿ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلاً وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ ..(٢) ﴾ [الأنعام] الأول : هو مدة البقاء فى الدنيا ، والثانى : هو مدة البقاء فى القبور إلى يوم القيامة ، أو مدة الحياة الآخرة ، وقوله : ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ ..(٢٣٤) ﴾ [البقرة] . أى : نهاية مدة العدة . والآجل ضد العاجل ، والآجلة ضد العاجلة . [القاموس القويم] .

(٢) القسر : القهر والإجبار .

مصداقاً لقوله سبحانه: ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ .. (٢٩)﴾ [الكهف]

وأنت حُـــرٌّ فى أن تطيع أو أن تعـــصى ، وكل ذلك داخل فى نطاق اختيارك ، وإن صنع الإنسان طاعة ، فهو يصنع لنفسه نفعاً ، وإن صنع معصية ، صنع لنفسه ضَرّاً.

إذن: فهناك فى الأمور الاختيارية ضر ونفع .

ومثال ذلك: من ينتحر بأن يشنق نفسه ، فهو يأتى لنفسه بالضر ، وقد ينقذه أقاربه ، وذلك بمشيئة الله سبحانه.

إذن: ففى الأمور الاختيارية يملك الإنسان - بمشيئة الله - الضر أو النفع لنفسه ، والله سبحانه يبين لنا أن لكل أمة أجلاً ، فلا تحددوا أنتم آجال الأمم ؛ لأن آجالهم - استئصالاً ، أو عذاباً - هى من عند الله سبحانه وتعالى.

والعباد دائماً يعجلون ، والله لا يعجل بعجلة العباد ، حتى تبلغ الأمور ما أراد سبحانه ، فالله تعالى مُنزَّه أن يكون موظفاً عند الخلق ، بل هو الخالق الأعلى سبحانه وتعالى .

وهو سبحانه القائل:

﴿سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلا تَسْتَعْجِلُونِ (٣٧)﴾ [الأنبياء]

وهو سبحانه القائل:

﴿وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً [1] (١١)﴾ [الإسراء]

---

(١) عَجُولاً: صيغة مبالغة تفيد التعجّل فى الأمور. واستعجل الأمر طلبه عاجلاً سريعاً ، قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ..(١١)﴾ [يونس] والعاجل: السريع ضد الآجل، والعاجلة الدنيا ، والآجلة الآخرة ، يقول الحق: ﴿كَلاَّ بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ (٢٠)﴾ [القيامة] . أى: الدنيا، وعجل الأمر طلبه قبل أوانه بدافع الشهوة ، وعجل الأمر سبقه . قال الحق سبحانه: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ..(١٥٠)﴾ [الأعراف] .

إذن: فالحق سبحانه يؤخِّر مراداته رحمة بالخَلْق ، وإذا جاء الأجل فهو لا يتأخر عن ميعاده ، ولا يتقدم عن ميعاده.

لذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلا يَسْتَئْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ (٤٩) ﴾ [يونس]

وقوله سبحانه : ﴿يَسْتَقْدِمُونَ﴾ ليست من مدخلية جواب الشرط الذى جاء بعد ﴿ إِذَا [1] جَاءَ أَجَلُهُمْ ..(٤٩) ﴾ [يونس]

لأن الجواب هو : ﴿فَلا يَسْتَئْخِرُونَ﴾.

فهم لا يستقدمون قبل أن يحين الأجل.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ (٥٠) ﴾

وهذا رَدٌّ شاف على استعجالهم للعذاب ، فإن جاءكم العذاب فَلْنَرَ ماذا سيكون موقفكم ؟

وهُمْ باستعجالهم العذاب يبرهنون على غبائهم فى السؤال عن وقوع العذاب.

وقول الحق سبحانه: ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ . أى: أخبرونى عما سوف يحدث لكم.

---

(١) إذا : تأتى لمعنيين شرطية وفجائية . إذا الشرطية : اسم شرط للزمن المستقبل ، فتختص بالدخول على الجملة الفعلية ، وتعرب إذا ظرف لما يستقبل من الزمان خافض لشرطه منصوب بجوابه ، قال تعالى : ﴿ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ ..(٥٤) ﴾ [الأنعام] ، وتدخل أحياناً على الأسماء المرفوعة ، فيكون المرفوع بعدها فاعلاً لفعل محذوف يفسره الفعل الذى بعده مثل : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ (١) ﴾ [الانشقاق] أى : إذا انشقت السماء ، وإذا تكون حرفاً للمفاجأة ، وتخفض بالجملة الإسمية ، قال تعالى : ﴿ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ (٢٠) ﴾ [طه] « القاموس القويم» .

وشاء الحق سبحانه أن يأتى أمر العذاب هنا مبهماً من جهة الزمان فقال سبحانه:

﴿إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا ..(٥٠)﴾ [يونس]

والبيات مقصود به الليل؛ لأن الليل محل البيتوتة، والنهار محل الظهور.

والزمن اليومى مقسوم لقسمين: ليل، ونهار.

وشاء الحق سبحانه إبهام اليوم والوقت، فإن جاء ليلاً، فالإنسان فى ذلك الوقت يكون غافلاً نائماً فى الغالب، وإن جاء نهاراً، فالإنسان فى النهار مشغول بحركة الحياة.

والحق سبحانه يقول فى موضع آخر:

﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا [1] بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ (٩٧)﴾ [الأعراف]

ويقول سبحانه:

﴿أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٩٨)﴾ [الأعراف]

ولو نظرت إلى الواقع لوجدت أن العذاب يأتى فى الليل وفى النهار معاً؛ لأن هناك بلاداً يكون الوقت فيها ليلاً، وفى ذات الوقت يكون الزمن نهاراً فى بلاد أخرى.

وإذا جاء العذاب بغتة، وحاولوا إعلان الإيمان، فلن ينفعهم هذا

---

(١) بأسنا: عذابنا والبأس القوة، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ .. (٢٥)﴾ [الحديد]، أى: قوة وصلابة، وقوله تعالى: ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا ..(٨٤)﴾ [النساء] شدتهم وقوتهم فيصدهم عنكم، وقوله الحق: ﴿وَحِينَ الْبَأْسِ ..(١٧٧)﴾ [البقرة]، أى: وقت الحرب الشديدة، وقول الحق: ﴿وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ.. (٨١)﴾ [النحل]، أى: شدتكم وقوتكم فى الحرب، فتحفظكم الدروع من أخطار الحرب. والبأساء: الفقر والشدة، ويقول الحق: ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ .. (١٧٧)﴾ [البقرة] فى وقت الفقر والحاجة.

الإيمان ؛ لأن الحق سبحانه يقول فيمن يتخذ هذا الموقف :

﴿آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٩١)﴾ [يونس]

فإن جاءكم العذاب الآن لما استقلتم منه ؛ لأنه لن ينفعكم إعلان الإيمان ، ولن يقبل الله منكم ، وبذلك يصيبكم عذاب فى الدنيا ، بالإضافة إلى عذاب الآخرة ، وهذا الاستعجال منكم للعذاب يضاعف لكم العذاب مرتين ، فى الدنيا ، ثم العذاب الممتد فى الآخرة .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنتُم بِهِ آلْآنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (٥١)﴾

أى : إذا ما وقع العذاب فهل ستؤمنون؟

إن إعلان إيمانكم فى هذا الوقت لن يفيدكم ، وسيكون عذابكم بلا مقابل .

إذن : فاستعجالكم للعذاب لن يفيدكم على أى وضع ؛ لأن الإيمان لحظة وقوع العذاب لا يفيد .

ومثال ذلك : فرعون[1] حين جاءه الغرق ﴿قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ الَّذِى

---

(١) وذلك أن فرعون خرج فى جيش كبير يقدر بمائة ألف ولحق بموسى عند حافة البحر وقت شروق الشمس ، فأوحى الله إلى موسى أن يضرب البحر بعصاه : ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٣)﴾ [الشعراء] ، ثم يقول سبحانه : ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠)﴾ [يونس]

وعن ابن عباس أن النبى ﷺ قال : « لما أغرق الله فرعون قال : آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل . قال جبريل : يا محمد فلو رأيتنى وأنا آخذ من حال البحر (أى : طين البحر) فأدسه فى فيه (أى : فمه) مخافة أن تدركه الرحمة » أخرجه الترمذى فى سننه و قال : حديث حسن . وانظر تفسيرى ابن كثير (٢/ ٤٣٠) والقرطبى (٤/ ٣٣٠٥) .

آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ ..(٩٠)﴾ [يونس]

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ[1] هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ (٥٢)﴾

وهذا إخبار عن العذاب القادم لمن كفروا ويلقونه فى اليوم الآخر ، فهم بكفرهم قد ظلموا أنفسهم فى الدنيا ، وسيلقون العذاب فى الآخرة ، وهو ﴿عَذَابَ الْخُلْدِ﴾ أى: عذاب لا ينتهى .

وينهى الحق سبحانه الآية بقوله: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ .

أى: أن الحق سبحانه لم يظلمهم ، فقد بلغهم برسالة الإيمان عن طريق رسول ذى معجزة ، ومعه منهج مفصَّل مؤيَّد ، وأمهلهم مدة طويلة ، ولم يستفيدوا منها ؛ لأنهم لم يؤمنوا.

إذن: فسيلقون عذاب الخلد ، وقد جاء سبحانه هنا بخبر عذاب الخلد ؛ لأن عذاب الدنيا موقوت ، فيه خزى وهوان ، لكن محدوديته فى الحياة يجعله عذاباً قليلاً بالقياس إلى عذاب الآخرة المؤبد.

وجاء الحق سبحانه بأمر عذاب الخلد كأمر من كسبهم ، والكسب زيادة عن الأصل ، فمن يتاجر بعشرة جنيهات ، قد يكسب خمسة جنيهات.

وهنا سؤال: هل الذى يرتكب معصية يكسب زيادة عن الأصل؟

نعم ؛ لأن الله سبحانه حرَّم عليه أمراً ، وحلله هو لنفسه ، فهو يأخذ

---

(١) الخلد: الدوام ، والمراد أنه عذاب دائم. [اللسان: مادة (خ ل د)].

زيادة فى التحليل ، وينقص من التحريم وهو يظن أنه قد كسب [١] بمفهومه الوهمى الذى زين له مراد النفس الأمارة ، وهذا يعنى أنه ينظر إلى واقع اللذة فى ذاتها ، ولا ينظر إلى تبعات [٢] تلك اللذة ، وهو يظن أنه قد كسب ، رغم أنه خاسر فى حقيقة الأمر.

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه:

﴿ وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي [٣] وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ [٤] ﴿٥٣﴾ ﴾

وهم قد قالوا من قبل: ﴿ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ .. ﴿٤٨﴾ ﴾ [يونس]

وهم هنا قد عادوا للتساؤل. ﴿وَيَسْتَنبِئُونَكَ﴾ أى: يطلبون منك النبأ. والنبأ هو الخبر المتعلق بشىء عظيم ، وهم يطلبون الخبر منك يا رسول الله ويتساءلون: أهو حق ؟

وكلمة «حق» هنا لها معطيات كثيرة ؛ لأن ﴿هُوَ﴾ يمكن أن تعود على أصل الدين قرآناً ؛ ونبوَّة ، وتشريعاً ، وهى كلمة تحمل التصديق بأن القرآن حق ، والتشريع حق ، والنبوة لمحمد ﷺ حق ، والقيامة والبعث حق ، والكلام عن العذاب فى الدنيا بخذلانهم ونصرة المؤمنين عليهم حق.

---

(١) قال الله تعالى: ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ .. ﴿٢٨٦﴾ ﴾ [البقرة] فالذى يحلل الحرام وأدخله على نفسه عليه أن يتحمل التبعات المترتبة على هذا ، فله بعمله الصالح الكسب ، وعليه بعمله السىء جزاء ما اكتسب.

(٢) تبعة الشىء: نتيجته وعاقبته وما يترتب عليه من أثر. [المعجم الوسيط: مادة (ت ب ع)].

(٣) إى: نعم. حرف جواب.

(٤) أى: أنكم لن تُعجزوا الله عن أن يعيدكم بعد موتكم وأن يحشركم وأن يعذبكم بما كنتم تكسبون.

إذن: فقولهم: ﴿وَيَسْتَنبِئُونَكَ[1] أَحَقٌّ هُوَ .. (٥٣)﴾ لها أكثر من مرجع، كأنهم سألوا: هل القرآن الذى جئت به حق؟

وهل النبوة التى تدَّعيها حق؟

وهل الشرائع - التى تقول: إن الله أنزلها كمنهج يحكم حركة الإنسان - حق؟

وهل القيامة والبعث حق؟

وهل العذاب فى الدنيا حق؟

إنها كلمة شاملة يمكن أن تؤول إلى أكثر من معنى.

ويأتى الجواب من الله تعالى:

﴿قُلْ إِى وَرَبِّى إِنَّهُ لَحَقٌّ..(٥٣)﴾ [يونس]

وأنت حين يستفهم منك أحد قائلاً: هل زيد موجود؟ فأنت تقول: نعم موجود. ولا تقول له: والله إن زيداً موجود؛ لأنك لن تؤكد الكلام لمن يسألك؛ لأنه لا ينكر وجود زيد.

إذن: فأنت لن تؤكد إجابةً ما إلا إذا كان هناك فى السؤال شبهة إنكار.

إذن: فأنت تستدل من قول الحق سبحانه:

---

(١) النبأ: الخبر، أو الخبر ذو الشأن، قال تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (١) عَنِ النَّبَأِ الْعَظِيمِ (٢)﴾ [النبأ] وهذا النبأ هو البعث. وأنبأه بالشىء ونبأه به: أخبر به، وأنبأ يتعدى لمفعول به واحد، مثل قوله تعالى: ﴿أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ ..(٣٣)﴾ [البقرة]، ويتعدى لمفعولين مثل: ﴿قَالَتْ مَنْ أَنبَأَكَ هَذَا ..(٣)﴾ [التحريم]، وقد يتعدى بحرف الجر (عن) كقوله: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ (٥١)﴾ [الحجر] أى: حدثهم. واستنبأه: طلب أن ينبئه كقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِى وَرَبِّى إِنَّهُ لَحَقٌّ ..(٥٣)﴾ [يونس].

﴿ وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ .. (٥٣) ﴾ على أن سؤالهم يحمل معانى الإنكار والاستهزاء ؛ ولذلك جاء الجواب بـ «إى» [١] وهو حرف جواب يعنى: «نعم» ، وتأتى «إى» دائماً مع القسم.

ولكل حرف من حروف الجواب مقام ، فهناك «بلى» وهى تأتى فى جواب سؤال منفى ، فى مثل قوله تعالى:

﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ .. (١٧٢) ﴾ [الأعراف]

وقول الحق سبحانه هنا : ﴿ إِى وَرَبِّى .. (٥٣) ﴾ [يونس]

تعنى: نعم وأقسم بربى إنه لحق. وأنت لا تُقسم على شىء إلا إذا كان السائل عنده شبهة إنكار ، وتأتى بـ «إن» لمزيد من هذا التأكيد.

ومثال ذلك فى قوله سبحانه:

﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ [٢] إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (١٣) إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا [٣] بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ (١٤) ﴾ [يس]

وماذا كان رد من بُعث اليهم الثلاثة؟

﴿ قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ (١٥) ﴾ [يس]

هكذا كان إنكار المكذبين للرسل الثلاثة شديداً. فقال لهم الرسل:

---

(١) إى : حرف جواب ، مثل نعم . ويقع بعد القسم كقوله تعالى : ﴿ وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِى وَرَبِّى إِنَّهُ لَحَقٌّ .. (٥٣) ﴾ [يونس] .

(٢) قيل : هى أنطاكية ، بين سوريا وتركيا وقد تكون قرية أخرى ، وكان ملكها يعبد الأصنام ، فبعث الله تعالى إليه ثلاثة من الرسل فكذَّبهم . من تفسير ابن كثير (٣/ ٥٦٨) بتصرف .

(٣) عزَّزنا : أيَّدنا وقوَّينا .

﴿ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ (١٦) ﴾ [يس]

فكان قولهم هذا مناسباً لإنكار الكافرين الشديد.

إذن: فالتأكيد فى أسلوب المسئول إنما يأتى على مقدار الإنكار ، فإن لم يكن هناك إنكار ؛ فلا يحتاج الأمر إلى تأكيد.

أما إذا صادف الكلام إنكاراً قليلاً ، فالتأكيد يأتى مرة واحدة .

وإن صادف الكلام لجاجة فى الإنكار جاء التأكيد مرتين .

أما إذا ما صادف الكلام تبجُّحاً فى الإنكار فالتأكيد يأتى ثلاث مرات.

وقد علَّم الحق سبحانه رسوله ﷺ هنا أن يرد على استنبائهم بأن يقول لهم: ﴿ إِى وَرَبِّى إِنَّهُ لَحَقٌّ ..(٥٣) ﴾ [يونس]

وهنا يقسم الرسول ﷺ بالرب ؛ لأن الرب هو من كلَّفه ، ثم يؤكد ﴿إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ لأن سؤالهم تضمَّن الإنكار والاستهزاء.

وما دام قد قال: ﴿ إِى وَرَبِّى إِنَّهُ لَحَقٌّ ﴾ فهم إن لم يؤمنوا فسوف يلقون العذاب ؛ لأنه ليس هناك مَنْجًى من الله تعالى ، ولن تُعْجزوا الله هرباً ، ولن تعجزوه شفاعة من أحد ، ولن تعجزوه بيعاً ، ولن تعجزوه خُلَّة تتقدم لتشفع لكم.

ثم يأتى قوله سبحانه فى نهاية الآية :

﴿ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ (٥٣) ﴾ [يونس]

وقد أراد الحق سبحانه أن يفسر لمحة من الإعجاز ، ذلك أن الله سبحانه وتعالى من الممكن أن يقبل شفاعة الشافعين ، ومن الممكن أن يقبل

الفداء [(١)] ؛ ولذلك جاء الإيضاح فى الآية التالية ، فيقول سبحانه :

﴿ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ ۗ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ [(٢)] لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ ۖ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾

وساعة يأتى العذاب فالإنسان يرغب فى الفرار منه ، ولو بالافتداء .

وانظر كيف يحاول الإنسان أن يتخلص من كل ما يملك افتداء لنفسه ، حتى ولو كان يملك كل ما فى السموات وما فى الأرض [(٣)] .

ولكن هل يتأتى لأحد - غير الله سبحانه - أن يملك السموات والأرض؟

طبعاً لا .

إذن : فالشر لا يتأتَّى . وهَبْ أنه تأتَّى ، فلن يصلح الافتداء بملك ما فى السموات وما فى الأرض ؛ لأن الإنسان الظالم فى الدنيا قد أخذ حق الغير ، وهذا الغير قد كسب بطريق مشروع ما أخذه الظالم منه ، والظالم إنما يأخذ ثمرة عمل غيره ، ولو صحَّ ذلك لتحوَّل البعض إلى مغتصبين لحقوق الغير ، ولأخذوا عرق وكدح غيرهم ، ولتعطلت حركة الحياة .

---

(١) الفداء : ما يقدم من مال ونحوه لتخليص المفدى . قال تعالى : ﴿ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧) ﴾ [الصافات] . [المعجم الوسيط : مادة (ف د ى)] .

(٢) ندم على ما فعل يندم ندماً وندامة ، من باب فرح : أسف وتحسر وتمنى أنه لم يفعله ، قال تعالى : ﴿ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ .. (٥٤) ﴾ [يونس] ونادم اسم فاعل قال الحق : ﴿ فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ .. (٣١) ﴾ [المائدة]

(٣) يقول سبحانه : ﴿ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ (١١) وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ (١٢) وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ (١٣) وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ (١٤) ﴾ [المعارج] .

ولذلك إن لم يردع الله - سبحانه وتعالى - الظالم فى الدنيا قبل الآخرة لاستشرى الظلم ، وإذا استشرى الظلم فى مجتمع ، فالبطالة تنتشر فيه ، ويحاول كل إنسان أن يأخذ من دم وعرق غيره ، وبهذا يختلّ ميزان العدل وتفسد حركة الحياة كلها.

وهَبْ أن الظالم أخذ مُلْك الدنيا كلها ، وأراد أن يفتدى به نفسه ساعة يأتى العذاب ، ويفاجأ بأن كسبه من حرام لا يُقْبَل فداءً ، أليس هذا هو الخسران الكبير؟ وهذه ظاهرة موجودة فى دنيا الناس.

وهَبْ أن واحداً ارتشى أو اختلس أو سرق ، ويفاجئه القانون ليمسكه من تلابيبه [1] فيقول: خذوا ما عندى واتركونى. ولن يقبل القائمون على القانون ذلك. وإن كان مثل هذا التنازل يحدث فى (الجمارك) فنرى من يتنازل عن البضائع المهربة مقابل الإفراج عنه ، هذا ما يحدث فى الدنيا ، لكنه لن يحدث فى الآخرة.

وفى سورة البقرة يقول الحق سبحانه:

﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ [2] وَلا هُمْ يُنصَرُونَ (٤٨) ﴾ [البقرة]

وقال الحق سبحانه فى آية أخرى:

---

(١) التلابيب: مجامع ثياب الرجل. والتلبيب: هو جمع الثوب الذى يلبسه عند صدره ونحْره ، وجرّه. [اللسان مادة لبب].

(٢) العدل: الفدية المماثلة ، قال تعالى: ﴿ وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ ..(٤٨) ﴾ [البقرة] أى: لا ينجيها من العذاب دفع فدية مماثلة ولا تقبل منها. وعدل الشىء وعدّله أقامه وسواه ، قال الحق: ﴿ الَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (٧) ﴾ [الانفطار] وعدل المشرك بربه: جعل له مساوياً. قال تعالى: ﴿ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ..(١) ﴾ [الأنعام] وما كان ينفى أن يعدلوا غيره ، فليس كمثله شىء ، ومثلها قوله: ﴿ أَإِلَـٰهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (٦٠) ﴾ [النمل] أى: يجعلون له شريكاً مساوياً. وأما قوله: ﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (١٨١) ﴾ [الأعراف] أى: يحكمون بالعدل [القاموس القويم].

﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ (١٢٣) ﴾ [البقرة]

وقال بعض المشككين أن الآيتين متشابهتان ، ولم يلتفتوا إلى أن كل آية تختلف عن الأخرى فى التقديم للعدل ، والتأخير للشفاعة .

والبلاغة الحقَّة تتجلَّى فى الآيتين ؛ لأن القارىء لصَدْر كل آية منهما ، والفاهم للمَلَكة اللغوية العربية يعرف أن عَجُز كل آية يناسب صدرها .

ومن يقرأ قول الحق سبحانه :

﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ ..(٤٨) ﴾ [البقرة]

يرى أنه أمام نفسين : النفس [1] الأولى هى التى تقدِّم الشفاعة ، والنفس الثانية هى المشفوع لها . والشفاعة هنا لا تُقبل من النفس الأولى الشافعة ، وكذلك لا يُقبل العدل .

وفى الآية الثانية لا تُقبل الشفاعة ولا العدل من النفس المشفوع لها ، فهى تحاول أن تقدم العدل أولاً ، ثم حين لا ينفعها تأتى بالشفيع .

وهكذا جاء التقديم والتأخير فى الآيتين مناسباً للموقف فى كل منهما .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى الأَرْضِ لافْتَدَتْ بِهِ ..(٥٤) ﴾ [يونس]

وفى هذا القول تعذُّر ملْك النفس الواحدة لكل ما فى الأرض ، ولو افترضنا أن هذه النفس ملكته فلن تستطيع الافتداء به ؛ وتكون النتيجة هى ما يقوله الحق سبحانه :

---

(١) فالآية الأولى تتحدث عن عدم القبول من النفس الشافعة ، والآية الثانية تتحدث عن عدم قبول العدل أولاً والشفاعة ثانياً من النفس المشفوع لها ، هذا ما يفهم من مرادات الشيخ رضى الله عنه .

﴿ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ .. (٥٤) ﴾ [يونس]

أى: أخفوا الحسرة التى تأتى إلى النفس ، وليس لها ظاهر من انزعاج لفظى أو حركى.

إن كلاً منهم يكتم هَمَّه فى قلبه ؛ لأنه ساعة يرى العذاب ينبهر ويُصعَق ويُبهَت [1] من هول العذاب ، فتجمد دماؤه ، ولا يستطيع حتى أن يصرخ، وهو بذلك إنما يكبت ألمه فى نفسه ؛ لأن هول الموقف يجمِّد كل دم فى عروقهم ، ويخرس ألسنتهم ، ولا يستطيع أن ينطق ؛ لأنه يعجز عن التعبير الحركى من الصراخ أو الألم.

ونحن نعلم أن التعبير الحركى لون من التنفيس البدنى ، وحين لا يستطيعه الإنسان ، فهو يتألم أكثر.

هم - إذن - يُسرُّون الندامة حين يرون العذاب المفزع المفجع ، والكلام هنا عن الظالمين ، وهم على الرغم من ظلمهم ، فالحق سبحانه يقول:

﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ [2] وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (٥٤) ﴾ [يونس]

وهؤلاء رغم كفرهم واستحقاقهم للعذاب يلقون العدل من الله ، فَهَبْ أن كافراً بالله بمنأى عن الدين ظلم كافراً آخر ، أيقف الله سبحانه من هذه المسألة موقفاً محايداً ؟

لا ؛ لأن حق خَلْق الله سبحانه - الكافر المظلوم - يقتضى أن يقتص الله سبحانه له من أخيه الكافر الظالم ؛ لأن الظالم الكافر ، إنما ظلم مخلوقاً لله ، حتى وإن كان هذا المظلوم كافراً .

ولذلك يقضى الله بينهم بالحق ، أى: يخفِّف عن المظلوم بعضاً من

---

(١) يبهت: أى: يتملكه هول ما يحدث ؛ فينقطع عن الكلام أو غيره.

(٢) القِسط: المراد به هنا العدل.

العذاب بقدر ما يثقله على الظـالم .

هذا هـو معنى ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم﴾ لأنها تتطلب قضاء ، أى : عدم تحيز ، وتتطلب الفصل بين خصومتين .

ويترتب على هذا القضاء حكم ؛ لذلك يبين لنا الحق سبحانه أنهم - وإن كانوا كافرين به - إلا أنه إن وقع من أحدهم ظلم على الآخر ، فالحق رب الجميع وخالق الجميع ، كما أعطاهم بقانون الربوبية كل خير مثلما أعطى المؤمنين ، فهو سبحانه الذى أعطى الشمس ، والماء ، والهواء ، وكل وسائل الرزق والقُوت لكل الناس - مؤمنهم ، وكافرهم - فإذا ما حدث ظلم بين متدينين بدين واحد ، أو غير متدينين ، فلا بد أن يقضى فيه الحق سبحانه بالفصل والحكم بالعدل .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾﴾ (١)

و«ألا» فى اللغة يقال عنها «أداة تنبيه» وهى تنبه السامع أن المتكلم سيقول بعدها كلاماً فى غاية الأهمية ، والمتكلم - كما نعلم - يملك زمام لسانه ، بحكم وضعه كمتكلم ، لكن السامع يكون فى وضع المُفاجَأ .

وقد يتكلم متكلم بما دار فى ذهنه ليبرزه على لسانه للمخاطب ، ولكن المخاطب يفاجأ ، وإلى أن ينتبه قد تفوته كلمة أو اثنتان مما يقوله المتكلم .

---

(١) وعده شيئاً يعده وعداً وعدة : أخبره أنه سيحققه له أو سيعطيه إياه ، يتعدى لمفعولين ، وقد يحذف أحد المقولين للعلم به ، قال الحق : ﴿وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ .. (٩٥)﴾ [النساء] كلا : مفعول به أول مقدم ، والحسنى مفعول به ثان . أى : أخبرهم الله أنه سيعطيهم أحسن الدرجات ، والوعد يأتى للخير كثيراً ، وللشر أحياناً كما فى قوله : ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ ..(٢٦٨)﴾ [البقرة] أى : ينذركم ويخوِّفكم بالشر ، والفعل متعدّ لمفعولين « كم» مفعول أول ، والفقر مفعول ثان . [القاموس القويم - بتصرف] .

والله سبحانه وتعالى يريد ألاَّ يفوت السامع لقوله أى كلمة ، فأتى بأداة تنبيه تنبه إلى الخبر القادم بعدها ، وهو قول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. (٥٥) ﴾ [يونس]

هكذا شاء الحق سبحانه أن تأتى أداة التنبيه سابقة للقضية الكلية ، وهى أنه سبحانه مالك كل شىء ، فهو الذى خلق الكون ، وخلق الإنسان الخليفة ، وسخَّر الكون للإنسان الخليفة ، وأمر الأسباب أن تخضع لمسببات عمل العامل ؛ فكل من يجتهد ويأتى بالأسباب ؛ فهى تعطيه ، سواء أكان مؤمناً أو كافراً.

وإذا خدمت الأسبابُ الإنسانَ ، وكان هذا الإنسان غافلاً عن ربه أو عن الإيمان به ، ويظن أن الأسباب قد دانت له بقوته ، ويفتن بتلك الأسباب ، ويقول مثلما قال قارون:

﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ (١) عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي .. (٧٨) ﴾ [القصص]

فالذى نسى مسبِّب الأسباب ، وارتبط بالأسباب مباشرة ، فهو ينال العذاب ، إن لم يكن فى الدنيا ففى الآخرة ؛ فكأن الحق سبحانه ينبههم: تَنبَّهوا أيها الجاهلون ، وافهموا هذه القضية الكبرى: ﴿ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ.. (٥٥) ﴾ [يونس]

فإياك أيها الإنسان أن تغترَّ بالأسباب ، أو أنك بأسبابك أخذت غير ما يريده الله لك ، فهو سبحانه الذى أعطاك وقدَّر لك ، وكل الأسباب

---

(١) وقد قال سبحانه : ﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُوْلِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦) ﴾ [القصص]. وقارون هو ابن عم موسى عليه السلام ، أعطاه الله من الأموال المودعة فى الخزائن حتى أن مفاتيحها لا تستطيع الجماعة من الناس حملها لكثرتها وثقلها ، فأهلكه الله ببغيه وفرحه بماله وتعظمه على الناس ، وقوله : ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي .. (٧٨) ﴾ [القصص] فكان جزاؤه : ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ (٨١) ﴾ [القصص] .

تتفاعل لك بعطاء وتقدير من الله عز وجل.

وفى أغيار الكون الدليل على ذلك ، ففكرك الذى تخطِّط به قد تصيبه آفة الجنون ، والجوارح مثل اليد أو القدم أو اللسان أو العين أو الأذن قد تُصاب أىٌّ منها بمرض ؛ فلا تعرف كيف تتصرف.

وكل ما تأتى فيه الأغيار ؛ فهو ليس من ذاتك ، وكل ما تملكه موهوب لك من مسبِّب الأسباب.

فإياك أن تنظر إلى الأسباب ، وتنسى المسبِّب ؛ لأن لله ملك الأشياء التى تحوزها والأدوات التى تحوز بها ؛ بدليل أنه سبحانه حين يشاء يسلبها منك ، فتنبه أيها الغافل ، وإياك أن تظن أن الأسباب هى الفاعلة ، بدليل أن الله سبحانه وتعالى يخلق الأسباب ؛ ثم يشاء ألا تأتى بنتائجها ، كمن يضع بذور القطن - مثلاً - ويحرث الأرض ، ويرويها فى مواعيدها ، ثم تأتى دودة القطن لتأكل المحصول.

إذن: فمردُّ كل مملوك إلى الله تعالى.

واعلمْ أن هناك ملْكاً ، وأن هناك مُلْكاً ، والمِلْك [1] هو ما تملكه ؛

---

(١) الملك : فى الأعيان والمحسوسات حقيقة ، وفى المعانى مجاز ، فمن الملك الحقيقى قال تعالى : ﴿إِنِّى وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ .. (٢٣)﴾ [النمل] ، ومن المجاز قوله : ﴿أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ..(٣١)﴾ [يونس] .

ومالك اسم فاعل ، وجمعه مالكون ، قال الحق : ﴿فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ..(٧١)﴾ [يس] ومملوك اسم مفعول كقوله تعالى : ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْدًا مَّمْلُوكًا ..(٧٥)﴾ [النحل] والملك مصدر ، قال تعالى :﴿قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا ..(٨٧)﴾ [طه] أى : بإرادتنا واختيارنا . والملك مصدر بمعنى السلطان ، قال تعالى: ﴿عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ..(١٠٢)﴾ [البقرة] أى : على عهد ملك سليمان . والملك : الحاكم ، قال تعالى :﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ..(٥٤)﴾ [يوسف] هو فرعون ، وقرىء ملك يوم الدين ، ومالك يوم الدين . والملك والمالك والمليك من أسماء الله الحسنى ، والملكوت : الملك العظيم ، وهو لله خاصة ، قال الحق : ﴿بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ ..(٨٣)﴾ [يس] والملك واحد الملائكة « القاموس القويم - بتصرف» .

جلباباً ؛ أو بيتاً ، أو حماراً ، إلى غير ذلك ، أما المُلْك فهو أن تملك من له ملْك ، وتسيطر عليه ، فالقمة - إذن - فى المُلْك .

وانظر إلى قول الحق سبحانه :

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِى الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ .. (٢٦) ﴾ [آل عمران]

إذن : فالمُلك فى الدنيا كله لله سبحانه .

وكلمة «ألا» جاءت فى أول الآية - التى نحن بصدد خواطرنا عنها - لتنبِّه الغافل عن الحق ؛ لأن الأسباب استجابت له وأعطته النتائج ، فاغترَّ بها ، فيجعل الله سبحانه الأسباب تختلف فى بعض الأشياء ؛ ليظل الإنسان مربوطاً بالمسبِّب .

ويقول الحق سبحانه فى نفس الآية :

﴿ أَلا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ .. (٥٥) ﴾ [يونس]

والوعد إن كان فى خير فهو بشارة بخير يقع ، وإن كان بِشَرٍّ فهو إنذار بشرّ يقع ؛ ويغلب عليه كلمة «الوعيد» .

إذن : ففى غالب الأمر تأتى كلمة «وعد» للاثنين : الخير والشر ، أما كلمة «وعيد» فلا تأتى إلا فى الشر .

والوعد : هو إخبارٌ بشىء سيحدث من الذى يملك أن يُحْدِث الشىء .

وإنفاذ الوعد له عناصر : أولها الفاعل ، وثانيها المفعول ، وثالثها الزمان ، ورابعها المكان ، ثم السبب .

والحدث يحتاج إلى قدرة ، فإن قلت : «آتيك غداً فى المكان الفلانى لأكلمك فى موضوع كذا» فماذا تملك أنت من عناصر هذا الحدث ؛ إنك

لا تضمن حياتك إلى الغد ، ولا يملك سامعك حياته ، وكذلك المكان الذى تحدد فيه اللقاء قد يصيبه ما يدمِّره ، والموضوع الذى تريد أن تتحدث فيه ، قد يأتى لك خاطر ألا تتحدث فيه من قبل أن يتم اللقاء.

وهَبْ أن كل العناصر اجتمعت ، فماذا تملك أنت أو غيرك من عناصر الوعد ؟ لا شىء أبداً .

ولذلك يعلِّم الله سبحانه خَلْقه الأدب فى إعطاء الوعود ، التى لا يملكونها ، فيقول سبحانه :

﴿ وَلا تَقُولَنَّ [1] لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا (٢٣) إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ ..(٢٤) ﴾ [الكهف]

وحين تقدِّم المشيئة فإن حدث لك ما يمنع إنفاذ الوعد فلن تكون كذاباً.

وهكذا يعلّمنا ربنا صيانة أخبارنا عن الكذب ، وجعلنا نتكلم فى نطاق قُدراتنا ، وقُدراتنا لا يوجد فيها عنصر من عناصر الحدث ، لكن إذا قال الله سبحانه ، ووعد ، فلا رادّ لما وعد به سبحانه ؛ لأنه منزَّه عن أن يُخْلف الميعاد ؛ لأن عناصر كل الأحداث تخضع لمشيئته سبحانه ، ولا تتأبَّى عليه [2] ، ووعده حق وثابت .

أما أنت فتتحكم فيك الأغيار التى يُجريها الحق سبحانه عليك .

---

(١) ذكر محمد بن إسحاق أن كفار قريش بعثوا وفداً منهم إلى أحبار اليهود يسألونه عن صفة الرسول ﷺ قائلين لهم : إنهم أهل الكتاب الأول ، وعندهم ما ليس عندنا من علم الأنبياء ، فأوصى اليهود كفار قريش بسؤال محمد ﷺ عن ثلاثة أمور ، منها : «سلوه عن فتية فى الدهر الأول ما كان من أمرهم فإنهم قد كان لهم حديث عجيب » فسألوه فقال رسول الله ﷺ : «أخبركم غداً عما سألتم عنه » ولم يستثن - أى : لم يقل : إن شاء الله ، فمكث رسول الله ﷺ خمس عشرة ليلة لا يوحى إليه فى ذلك شىء فنزلت هذه الآية . ذكره ابن كثير فى تفسيره (٣/ ٧١).

(٢) التأبى : هو الامتناع وعدم الانصياع . والإباء : أشد الامتناع . [اللسان : مادة أبى].

وهَبْ أنك أردت أن تبنى بيتاً ، وقلت للمهندس المواصفات الخاصة التى تريدها فى هذا البيت ، لكن المهندس لم يستطع أن يشترى من الأسواق بعضاً من المواد التى حددتها أنت ، فأنت - إذن - قد أردت ما لا يملك المهندس تصرُّفاً فيه .

لكن الأمر يختلف بالنسبة للخالق الأعلى سبحانه ؛ فهو الذى يملك كل شىء ، وهو حين يَعد يصير وَعْدُه محتَّم النفاذ ، ولكن الكافرين ينكرون ذلك ؛ ولذلك قال الله سبحانه :

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٥٥)﴾ [يونس]

أى : أنهم لا يعلمون هذه الحقيقة ، فقد سبق أن قالوا :

﴿مَتَىٰ هَـٰذَا الْوَعْدُ .. (٤٨)﴾ [يونس]

أو أن ﴿أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ تعنى : أن الإنسان يجب ألاَّ يضع نفسه فى موعد دون أن يقدِّم المشيئة ؛ لأنه لا يملك من عناصر أى وعد إلا ما يشاؤه الله تعالى .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٥٦)﴾

ونحن نعلم أن حركة الحياة ، والمِلْك والمُلْك ، هى فروع من الأحياء ، وهو سبحانه حَىٌّ ؛ لأنه مالك الأصل ، وهو القادر على أن يميت ، وكل ما يصدر عن الحياة يسلبه [1] الله سبحانه بالموت ، فهو

(١) سلبه الشىء ويسلبه من باب نصر سلباً : فزَّعه منه قهراً أو اختلسه ، يقول الحق : ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ .. (٧٣)﴾ [الحج] أى : ينزع منهم شيئاً ، وهو فعل يتعدى لمفعولين «القاموس القويم» .

مالك الأشياء ، والأسباب التى تُنتج الأشياء ، ولا يفوته شىء من وعد ولا وعيد ، ونحن نحيا بمشيئته سبحانه ، ونموت بمشيئته سبحانه ، فلن نفلت منه .

لذلك قال سبحانه : ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ فمن لا يعتبر بأمر الأحياء ؛ عليه أن يرتدع بخوف الرجعة .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾

والخطاب هنا للناس جميعاً ؛ لأن الحق سبحانه حين يخاطب المؤمنين بقوله تعالى :

﴿يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ..(١٠٤)﴾ [البقرة]

فهذا خطاب لمن آمن بالمنهج .

والحق سبحانه وتعالى يخاطب الناس كافّةً بأصول العقائد ، مثل قول الحق سبحانه :

﴿يَـٰٓأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ ..(١)﴾ [النساء]

أما المؤمنون فسبحانه يكلّفهم بخطابه إليهم ، من مثل قول الحق سبحانه :

﴿يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ ..(١٨٣)﴾ [البقرة]

ومثل قول الحق :

﴿ يَـــأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ [(١)] فِي الْقَتْلَى .. (١٧٨) ﴾ [البقرة]

أى: أن خطابه سبحانه للمؤمنين يكون دائماً فى الأحكام التى يخاطب بها المؤمنين ، أما فى أصول العقائد والإيمان الأعلى بالواجد الموجِد ، فهذا يكون خطاباً للناس كافة .

والحق سبحانه يقول هنا:

﴿ يَـــأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ .. (٥٧) ﴾ [يونس]

والآية هنا تصوِّر الموعظة وكأنها قد تجسَّدت وصار لها مجىء ، رغم أن الموعظة هى كلمات ، وأراد الله تعالى بذلك أن يعطى للموعظة صورة الحركة التى تؤثِّر وتحضُّ على الإيمان.

والموعظة [(٢)] هى الوصية بالخير والبعد عن الشر بلَفْظ مؤثِّر ، ويقال: فلان واعظ متميز ، أى: أن كلامه مستميل وأسلوبه مؤثر وجميل ، والموعوظ دائماً أضعف من الواعظ ، وتكون نفس الموعوظ ثقيلة ، فلا تتقبل الموعظة بيسر إلا ممن يجيد التأثير بجمال الكلمة وصدق الأداء [(٣)] ؛

---

(١) القصاص: هو توقيع العقاب على من قتل أو جرح غيره بمثل ما قتل أو جرح ، وهى شريعة جاءت التوراة بها وأقرّتها شريعة الإسلام ، قال تعالى: ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ .. (٤٥) ﴾ [المائدة].

(٢) وَعَظه يعظه وعظاً وعظة : نصحه بالطاعة والعمل الصالح ، وأرشده إلى الخير . قال تعالى مصوراً عناد الكافرين : ﴿ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ (١٣٦) ﴾ [الشعراء] فهم لعنادهم يتساوى عندهم الأمران . والموعظة ما يوعظ به من قول أو فعل كقوله تعالى : ﴿ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (٦٦) ﴾ [البقرة] وقال : ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ .. (١٢٥) ﴾ [النحل] ، والموعظة لها مقدمات بلاغية من منطلق إيمانى . مادة وعظ بتصرف . من «القاموس القويم» .

(٣) وقد كان رسول الله ﷺ الأسوة الحسنة والمثل الأعلى فى الموعظة الحكيمة ، فعن العرباض بن سارية قال: قام فينا رسول الله ﷺ ، ذات يوم ، فوعظنا موعظة بليغة ، وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون . . » الحديث أخرجه ابن ماجه فى سننه (٤٢) والترمذى (٢٦٧٦) وأحمد فى مسنده (٤/ ١٢٦ ، ١٢٧).

لأن الموعوظ قد يقول فى نفسه: لقد رأيتنى فى محل دونك وتريد أن ترفعنى ، وأنت أعلى منى. فإذا قدَّر الواعظ هذا الظرف فى الموعوظ فهو يستميل نفسه.

ولنتذكر الحكمة التى تقول: «النصح ثقيل ، فلا تجعلوه جَدَلاً ، ولا ترسلوه جَبَلاً ، واستعيروا له خفَّة البيان» ؛ وذلك لتستميل أذن السامع إليك فتأتى له بالأسلوب الجميلَ المقنع الممتع الذى يعجبه ، وتلمس فى نفسه صميم ما ترغب أن يصل إليه.

والموعظة تختلف عن الوصية ؛ لأن الوصية عادة لا تتأتى إلا فى خلاصة حكمة الأشياء ، وهَبْ أن إنساناً مريضاً وله أولاد ، وحضرته الوفاة ، فيقوم بكتابة وَصِيَّته ، ويوصيهم بعيون [1] المسائل.

والحق سبحانه يقول هنا:

﴿ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ ..(٥٧) ﴾ [يونس]

والموعظة إما أن تسمعها أو ترفضها ، ولأنها موعظة قادمة ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ فلا بد من الالتفات والانتباه ، وملاحظة أن الحق سبحانه قد اختص الموعظة بأنها من الرب ، لا من الإله ؛ لأن الإله يريدك عابداً ، لكن الرب هو المربِّى والكفيل ، وإن كفرت به.

وهذه الموعظة قادمة من الرب ، أى: أنها من كمالات التربية ، ونحن نعلم أن متعلقات الربوبية تتوزع ما بين قسمين: القسم الأول هو مقوِّمات الحياة التى يعطيها الحق سبحانه من قُوت ورزق - وهذه المقومات للمؤمن ، وللكافر - والقسم الآخر هو مقومات القيم التى ترسم منهج حركة الحياة ، وهذه للمؤمن فقط.

---

(١) عيون المسائل : أى : أصولها ، والمهم منها ، وعين كل شىء : خياره . [اللسان : مادة (عين)] .

إذن: فالموعظة هى نوع من التربية جاءت من ربكم المأمون عليكم ؛ لأنه هو الذى خَلَق من عَدَم وأمَدّ من عُدْم ، ولم يختص بنعمة الربوبية المؤمنين فقط ، بل شملت نعمته كل الخلق.

إذن: فالموعظة تجىء ممن يُعطى ولا ينتظر منك شيئاً ، فهو سبحانه مُنزَّه عن الغرض ؛ لأنه لن ينال شيئاً منك [1] فأنت لا تقدر على شىء مع قدرته سبحانه.

والموعظة القادمة بالمنهج تخصُّ العقلاء الراشدين ؛ لأن حركة العاقل الراشد تمر على عقله أولاً ، ويختار بين البدائل ، أما حركة المجنون فهى غير مرتَّبة ولا منسَّقة ، ولا تمر على عقله ؛ لأن عقله مختل الإدراك وفاقد للقدرة على الاختيار بين البدائل.

ولكن لماذا يُفسِد العاقل الاختيار بين البدائل [2] ؟

إن الذى يفسد حركة اختيار العاقل هو الهوى ، والهوى إنما ينشأ مما فى النفس والقلب ؛ ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها :

﴿ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ .. (٥٧) ﴾ [يونس]

---

(١) وقد أعطانا القرآن مثالاً لهذا عن الهدى الذى يذبحه الحجيج ، فيقول سبحانه: ﴿ لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ (٣٧) ﴾ . [الحج].

(٢) بدل الشىء غيَّره ، وبدل الكلام : غيره وحرفه ، قال تعالى : ﴿ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٥٩) ﴾ [البقرة] أى : غيروه بكلام آخر ، ويقول الحق : ﴿ إِلاَّ مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١١) ﴾ [النمل] أى : عمل الخير والحسن بعد عمل السوء ، وأبدله الشىء من الشىء ، وأبدل الشىء بالشىء جعله بدلاً منه ، وتبدل الشىء بالشىء ومن الشىء جعله بدلاً منه ، كقوله تعالى : ﴿ لا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلاَّ مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا (٥٢) ﴾ [الأحزاب] .

أى: أنه سبحانه قد أنزل عليكم ما يشفى صدوركم من غلّ يؤثر فى أحكامكم، وحقد، وحسد، ومكر، ويُنقِّى باطن الإنسانَ؛ لأن أى حركة من حركات الإنسان لها نبع وجدانى، ولا بد أن يُشفى النبع الوجدانى؛ ليصحَّ؛ حتى تخرج الحركات من الجوارح وهى نابعة من وجدان طاهر مُصفّى وسليم؛ وبذلك تكون الحركات الصادرة من الإنسان سليمة [1].

ولذلك قال الحق سبحانه:

﴿وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٥٧)﴾ [يونس]

وجاءت كلمة «الشفاء» أولاً؛ لتبيِّن أن الهداية الحقَّة إلى الطريق المستقيم تقتضى أن تُخْرِج ما فى قلبه من أهواء، ثم تدلَّه إلى المنهج المستقيم.

وإن سأل سائل عن الفارق بين الشفاء والرحمة؟ نجيب: إن الشفاء هو إخراج لما يُمْرِض الصدور، أما الرحمة فهى اتْباع الهداية بما لا يأتى بالمرض مرة أخرى، واقرأ إن شئت قول الحق سبحانه:

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ..(٨٢)﴾ [الإسراء]

وهكذا يتبيَّن لنا أثر الموعظة: شفاء، وهدى، ورحمة، إنها تعالج ليس ظواهر المرض فقط، ولكن تعالج جذور المرض.

إذن: فشفاء الصدور يجب أن يتم أولاً؛ لذلك نجد الطبيب الماهر هو من لا ينظر إلى ظواهر المرض فقط ليعالجها، ولكنه يبحث عما خلف تلك الظواهر، على عكس الطبيب غير المدرَّب العَجُول الذى يعالج الظواهر دون علاج جذور المرض.

---

(١) عن النعمان بن بشير قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهى القلب» أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٢) ومسلم فى صحيحه (١٥٩٩).

ومثال ذلك: طبيب الأمراض الجلدية غير الماهر حين يرى بثوراً ؛ فهو يعالجها بما يطمسها ويزيلها مؤقَّتاً ، لكنها تعود بعد قليل ، أما الطبيب المدرَّب الفاهم فهو يعالج الأسباب التى تُنتج البثور ، ويزيلها بالعلاج الفعَّال ؛ فيقضى على أسباب ظهورها.

وفى القرآن الكريم نجد قصة ابتلاء سيدنا أيوب عليه السلام ، فقد قال له الحق سبحانه:

﴿ ارْكُضْ [1] بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ (٤٢) ﴾ [ص]

أى : اضربْ برجلك ذلك المكان يخرجْ لك منه ماء بارد ، تغتسل منه ؛ فيزيل الأعراض الظاهرة ، وتشرب منه ليعالج أصل الداء.

إذن: فالموعظة وكأنها تجسَّدت ، فجاءت من ربكم - المأمون عليكم - شفاءً حتى تعالج المواجيد [2] التى تصدر عنها الأفعال ، وتصبح مواجيد سليمة مستقيمة ، لا تحلُّل فيها ، وهدى إلى الطريق الموصِّل إلى الغاية الحقَّة ، ورحمة إن اتبعها الإنسان لا يُصَابُ بأىِّ داءٍ ، وهذه الموعظة تؤدى إلى العمل المقبول عند الله سبحانه .

ولكن إنْ صحَّتْ لك الأربعة النابعة من الموعظة : الشفاء ، والهدى ،

---

(١) ابتلى الله سبحانه عبده ونبيه أيوب - عليه السلام - بالمرض فى جسده وفقد ماله وأولاده . واستمر هذا البلاء مدة ثمانى عشرة سنة عاشها صابراً على قضاء الله ، ولم يبق معه إلا زوجته التى اضطرت للعمل فى خدمة الناس حتى توفر لنفسها ولزوجها الطعام ، ولما دعا أيوب ربه : ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٨٣) ﴾ [الأنبياء] استجاب الله له وأزال عنه الضر إذ قال له : ﴿ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ (٤٢) ﴾ [ص] لقد أمره الله أن يقوم ويركض الأرض برجله ففعل ، فأنبع الله فى الأرض عيناً وأمره أن يغتسل منها ، فأذهب جميع ما كان فى بدنه من الأذى ، ثم أمره أن يضرب الأرض فى مكان آخر ففعل فأنبع الله له عيناً أخرى وأمره أن يشرب منها ؛ فأذهبت جميع ما كان فى باطنه من السوء ، وتكاملت له العافية ظاهراً وباطناً . [ذكرها ابن كثير فى تفسيره ٤/ ٣٩ ، ٤٠] وقال عنه سبحانه : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ..(٤٤) ﴾ [ص] .

(٢) المواجيد : المقصود بها أعمال القلب التى إن استقامت استقامت الجوارح .

والرحمة ، والعمل الصالح ، فإيّاك أن تفرح بذلك ؛ ففوق كل ذلك فضل الله عليك ؛ ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾

وأنت وكل المؤمنين مهما عملوا فى تطبيق منهج الله ، فكلُّنا بعباداتنا لن نؤدى حَقَّ النعم الموجودة عندنا قبل أن نُكَلَّف ، وعلينا أن نتدبَّر قول رسول الله ﷺ : « لن يدخل أحدكم الجنة بعمله » . قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : « ولا أنا إلا أنْ يتغمَّدنى [1] الله برحمته [2] » .

إذن : فإن افتخر إنسان بطاعته لله ، فهذه الطاعة تعود على العبد فى دنياه ، وهو لن يؤدى بطاعته حق كل النعم التى أسبغها الله عليه .

ومثال ذلك : إن العبد لا يُكلَّف إلا عند البلوغ ، أى : فى سنّ الخامسة عشرة تقريباً ، فإن نظر إلى النعم التى أسبغها الله تعالى عليه حتى وصل إلى هذه السِّنِّ ، فهو لن يحصيها [3] ، فما بالنا بالنعم التى تغمرنا فى كل العمر ، وحين يجازينا الحق فى الآخرة ، فهو لا يجازينا بالعدل ، بل يعاملنا بالفضل .

إذن : إياك أن تقول : أنا تصدَّقتُ بكذا ، أو صلّيت كذا ؛ حتى لا تورثك استجابتك لمنهج الله غروراً بعملك التعبُّدىِّ ، وتذكَّر القول

---

(١) تغمَّده الله برحمته : أدخله فيها وغمره بها . قال أبو عبيد : قوله «يتغمدنى» : يُلبسنى ويتغشَّانى ويسترنى . [لسان العرب : مادة (غ م د)] .

(٢) متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٤٦٣) ومسلم فى صحيحه (٢٨١٦) عن أبى هريرة .

(٣) وقد قال الحق سبحانه : ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا .. ﴿١٨﴾ ﴾ [النحل] وقد أفرد سبحانه النعمة هنا ؛ لأن كل نعمة من نعم الله عليك وإن اعتبرتها واحدة فى نظرك فهى مشتملة على نعم لا تحصى ولا تُعَدُّ ، فما بالك بالنعم مجتمعة .

المأثور : « رُبَّ معصية أورثتْ ذُلاً وانكساراً ، خيرٌ من طاعةٍ أورثتْ عِزّاً واستكباراً » .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾

إن تمتع الإنسان فى الحياة بالمُلْك والملْك ، فكل ذلك يحتاج إلى استبقاء الحياة بالرزق الذى يهبُنَا الحق سبحانه إيّاه ، وكذلك استبقاء النوع بالتزاوج بين الذكر والأنثى .

ولكن الرزق الذى يستبقى الحياة لا بُدَّ أن يكون حلالاً ؛ لذلك حدَّد لنا الحق سبحانه وتعالى المحرَّمات فلا تقربها ، وأنت عليك بالالتزام بما حدَّده الله ، فلا تدخل أنت على ما حلّل الله لتحرِّمَه [1] ؛ لأن الحق سبحانه حدَّد لك من الطعام ما يستبقى حياتك ويعطيك وقوداً لحركة الحياة ، فعاملْ نفسك كما تعامل الآلة التى تصنعها ، فأنت تعطى كل آلة الوقود المناسب لها لتؤدى مهمتها ، كذلك جعل الله سبحانه لك المواصفات التى تنفعك وتستفيد منها وتؤدى حركات الحياة بالطاقة التى يمدّك بها ما حَلَّله الله لك .

وكذلك حرَّم الله عليك ما يَضُرُّك .

وإياك أن تقول : ما دامت هذه الأشياء تضرّنى فلماذا خلقها الله ؛ لأن عليك أن تعرف أن هناك فارقاً بين رزق مباشر ، ورزق غير مباشر ، وكل

(١) يقول رب العزة سبحانه : ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ .. (١١٥) ﴾ [النحل].

ما فى الكون هو رزق ، ولكنه ينقسم إلى رزق مباشر تستفيد منه فوراً ، وهناك رزق غير مباشر .

ومثال ذلك : النار ، فأنت لا تأكل النار ، لكنها تُنضِج لك الطعام .

إذن : فهناك شئ مخلوق لمهمة تساعد فى إنتاج ما يفيدك .

والحق سبحانه قد حلّل لك - على سبيل المثال - لحم الضأن والماعز ، والإبل والبقر وغيرها ، وحرَّم عليك لحم الخنزير [1] ، فلا تسألْ : لماذا خلق الله الخنزيرَ ؛ لأنه خَلقه لمهمة أخرى ، فهو يلملم قاذورات الوجود ويأكلها ، فهذا رزق غير مباشرٍ ، فاتركه للمهمة التى أراده الله لها .

وبعض الناس قد حرَّم على نفسه أشياء حلَّلها الله تعالى [2] ، وهم بذلك يُضيّقون على أنفسهم ، ويظن البعض أنه حين يحلّل ما حرَّم الله أنه يوسِّع على نفسه ، فيأمر الحق سبحانه رسوله ﷺ أن يقول :

﴿ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ .. (٥٩) ﴾ [يونس]

أى : أخبرونى ما أنزل الله لكم من رزق ، وهو كل ما تنتفعون به ، إما مباشرةً ، وإما بالوسائط ، فكيف تتدخلون بالتحليل والتحريم ، رغم أن الذى أنزل الرزق قد بيَّن لكم الحلال و الحرام ؟!

وكلمة ﴿ أَنزَلَ ﴾ تفيد أن الرزق كله قادم من أعلى [3] ، وكل ما ترونه

---

(١) يقول الحق سبحانه : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (٨٧) وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ (٨٨) ﴾ [المائدة] .

(٢) يقول الحق سبحانه عن يعقوب عليه السلام : ﴿ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٩٣) ﴾ [آل عمران] .

(٣) يقول الحق سبحانه : ﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (٢٢) ﴾ [الذاريات] فنزول المطر من السماء هو رزق ينزله الله سبحانه ، فتحيا به الأرض الميتة فتنبت الزرع فيأكل منه كل كائن حى على الأرض من إنسان أو حيوان ، ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ .. (٢٤) ﴾ [يونس] .

حولكم هو رزق ، تنتفعون به مباشرة ، أو بشكل غير مباشر ، فالمال الذى تُشترى به أغلب الأرزاق لا يأكله الإنسان ، بل يشترى به ما يأكله .

وكلمة ﴿أَنزَلَ﴾ تعنى : أوْجَدَ ، وخلق منْ أعلى ، وما دام كل شىء قد وُجد بمشيئة مَنْ هو أعلى من كل الوجود ، فكل شىء لصالحك مباشرة أو بوسائط .

ولا تأخذ كلمة ﴿أَنزَلَ﴾ من جهة العلوّ الحسية ، بل خُذها من جهة العلوِّ المعنوية ، فالمطر - مثلاً - ينزل من أعلى حسيّاً ، ويختلط بالأرض فيأخذ النبات غذاءه منها ، والرزق بالمطر ومن الأرض مُقدَّر ممّن خَلَق ، وهو الأعلى سبحانه .

وقد قال الحق سبحانه :

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ[1] .. (٢٥) ﴾ [الحديد]

نعم ، فقد أنزل الحق سبحانه منهجه على الرسل عليهم السلام لتصلح حياة الناس ، وأنزل الحديد أيضاً ، هذا الذى نستخرجه من الجبال ومن الأرض .

إذن : فالمراد هنا بالإنزال ، أى : الإيجاد ممن هو أعلى منك لصالحك أيها الإنسان .

وما دام الحق سبحانه هو الذى أنزل الرزق ، وبيَّن الحلال والحرام ، فلماذا تُدخلون أنوفكم فى الحلال والحرام ، وتجعلون بعض الحلال حراماً ،

(١) البيِّنات : الآيات الواضحة . والقسط هنا : العدل . والبأس : القوة . [لسان العرب] .

وبعض الحرام أو كُلَّ الحرام حلالاً ؟ لماذا لا تتركون الجَعْل لمن خَلَق وهو سبحانه أدْرى بمصلحتكم ؟

﴿ قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ .. (٥٩) ﴾ [يونس]

أى : هل أعطاكم الله سبحانه تفويضاً فى جَعْلِ الحلال حراماً ، والحرام حلالاً ؟ ﴿ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ (٥٩) ﴾ أى : على الله تتعمدون الكذب .

وقد جاء الحق سبحانه بالحلال والحرام ليبيِّن لنا مدى قُبح السلوك فى تحريم ما أحلّ الله ، وتحليل ما حرَّم الله .

ويشير الحق سبحانه - فى إجمال هذه الآية - إلى آيات أخرى فَصَّلت الحرام ، وسبق أن تناولناها بخواطرنا ، مثل قوله تعالى :

﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلا سَائِبَةٍ وَلا وَصِيلَةٍ وَلا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ (١٠٣) ﴾ [المائدة]

والبَحيرة - كما ذكرنا - هى الناقة التى أنجبتْ خمس بُطون آخرها ذَكَر ، وكانوا يشقُّون أذنها ، ويعلنون أنها قامت بواجبها ويتركونها سائمة [(١)] غير مملوكة ، لا يركبها أحد ، ولا يحمل عليها أحد أىَّ حمْل ، ولا يحلبها أحد ، ولا يجزّ صوفها أحد ، ثم يذبحها خُدَّام الآلهَة التى كانوا يعبدونها ، وسَمَّوها «بَحيرة» [(٢)] ؛ لأنهم كانوا يشقون آذانها علامةً على أنها أدَّتْ مهمتها .

---

(١) السائمة : الغنم والماشية ترعى حيث شاءت . والسائم : الذاهب على وجهه حيث يشاء . [اللسان مادة سوم] .

(٢) وسبب التسمية بالبحيرة هو أن شق أذنها يكون شقاً واسعاً فأشبه البحر فى سعته . (بتصرف من أحكام القرآن للجصاص ٢/ ٦٠٨) ؛ وفى تحديد المقصود بالبحيرة - هل هى الناقة التى ولدت خمسة أبطن أم بنتها التى ولدت فى آخر بطن ؟ - اختلاف . انظر فى هذا تفسير ابن كثير (٢/ ١٠٧ ، ١٠٨) وكذا أحكام القرآن للجصاص ، ولذلك قيل فى بعض الأقوال أن السائبة هى أم البحيرة .

أما السائبة فهى غير المربوطة ؛ لأن الربط يفيد الملكية ، وكان الواحد منهم إذا شفى من مرض أو أراد شيئاً [(١)] وَهَبَ أن يجعل ناقةً لخدَّام الأصنام ، واسمها سائبة ، وهى أيضاً لا تُركب ، ولا تُحلب ، ولا يُحمل عليها ، ولا أحد يتعرَّض لها .

والوصيلة : هى الأنثى تلدها الناقة فى بطن واحدة مع ذكر ، فيقولون : «وَصَلَتْ أخاها » ؛ فلا يذبحونه للأصنام من أجل أخته .

﴿ وَلا حَامٍ ﴾ والحام : هو الفَحْل الذى يحمى ظهر نفسه بإنجاب عشرة أبْطُن ، فلا يركبه أحد بعد ذلك ، ولا يُحْمَل عليه ، ويترك لخدَّام الأصنام .

هذه هى الأنعام المحلَّلة التى حرَّموها على أنفسهم ، بينما يأكلها خُدَّام الأصنام ، وفى ذكر عدم تحريم تلك الأنعام رأفة بهم .

وهناك أيضاً قول الحق سبحانه :

﴿ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٤٣) وَمِنَ الإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٤٤) ﴾

[الأنعام]

إذن : فقد حَرَّموا بعضاً مما أحلّ الله لهم ، وقالوا ما أورده القرآن :

---

(١) كان الرجل فى الجاهلية إذا قدم من سفر بعيد ، أو برىء من علّة ، أو نجَّته دابةٌ من مشقة أو حرب قال : ناقتى سائبة أى : تسيب فلا ينتفع بظهرها ، ولا تُحلأ عن ماء ، ولا تمنع من كلأ ، ولا تركب . [ذكره ابن منظور فى اللسان مادة (سيب)] .

﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ [١] مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَـٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ [٢] وَهَـٰذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (١٣٦) ﴾ [الأنعام]

وأجمل الحق سبحانه كل ذلك فى قوله الحق :

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلالاً قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ (٥٩) ﴾ [يونس]

وهكذا تدخَّلوا فى تحريم بعض الحلال وحلَّلوا بعضاً من الحرام ، وفى هذا تعدٍّ ما كان يجب أن يقترفوه [٣] ؛ لأن الحق سبحانه هو خالقهم ، وهو خالق أرزاقهم ، وفى هذا كذب متعمَّد على الله سبحانه .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ (٦٠) ﴾

وهذه الآية توضح أن كل أمر بحساب ، فالذين يفترون على الله الكذب سيجدون حسابهم يوم القيامة عسيراً ، فالحق سبحانه منزّه عن الغفلة ، ولو ظنوا أنه لا توجد آخرة ولن يوجد حساب ؛ فهم يخطئون الظن .

---

(١) ذرأ : خلق . والحرث : هو الزرع والثمار .

(٢) بزعمهم ، أى : بقولهم الكذب . [لسان العرب] .

(٣) وقد أجمل الحق سبحانه المحرمات من المطاعم فى قوله : ﴿ قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٤٥) ﴾ [الأنعام] .

ولو استحضروا ما أعدَّه الله لهم من العذاب والنكال [١] يوم القيامة لما فعلوا ذلك ، ولكنهم كالظَّان بأن الله - سبحانه وتعالى - غافل عن أفعالهم ، وكأنها أفعال لا حساب عليها ، ولا كتابة لها ، ولا رقيب يحسبها .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ (٦٠) ﴾ [يونس]

إن الله سبحانه متفضِّل على كل خَلْقه - وأنتم [٢] منهم - بأشياء كثيرة ؛ فلم تحرمون أنفسكم من هذا الفضل ؟! ولو شكرتم الله تعالى على هذا التفضل لزاد من عطائكم ، لكنكم تنسون الشكر .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ [٣] عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٦١) ﴾

---

(١) النكال : إيقاع العقوبة والعذاب على وجه يجعل من يفعل هذا الفعل عبرة لغيره ، وهذا نحو قوله تعالى : ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٣٨) ﴾ [المائدة] .

(٢) المقصود بهم أهل مكة ، يقول الحق سبحانه : ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ (٦٧) ﴾ [العنكبوت] ، وقال أيضاً : ﴿ أَوَ لَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٥٧) ﴾ [القصص] .

(٣) تفيضون فيه : أي : تندفعون فيه وتنبسطون في ذكره . ما يعزب : لا يبعد ، ولا يغيب عن علمه سبحانه . [لسان العرب] .

والخطاب هنا لرسول الله ﷺ ، أى: ما تكون يا محمد فى شأن .
والشأن: هو الحال العظيم المتميز الذى يطرأ على الأمر.

ونحن فى حياتنا اليومية نقول: ما شأنك اليوم أو ما حالك؟ وهنا يجيب السامع بالشىء الهام الذى حدث له أو فعله ، ويتناسى التافه من الأمور.

ولذلك يصف الله تعالى نفسه فيقول :

﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ (٢٩) ﴾ [الرحمن]

أى: لا تظنوا أن ربنا - سبحانه وتعالى - خلق النواميس والقوانين ، وقال لها: اعملى أنتِ ، لا فهو سبحانه كل يوم فى شأن.

ولذلك حين سئل أحد العلماء[1]: ما شأن ربك الآن ؛ وقد صَحَّ أن القلم قد جَفَّ ؟ فقال: «أمور يبديها ولا يبتديها ».

أى: أنه سبحانه قد رسم كل شىء ، وجعل له زماناً ليظهر ، فهو سبحانه قيُّوم ، أى: مُبَالِغ فى القيام على مصالحكم ؛ ولذلك يطمئننا سبحانه - وقد جعل الليل لنومنا وراحتنا - بأنه سبحانه قيوم لا تأخذه سِنَةٌ ولا نوم ، وهو يراعينا.

فالحديث فى الآية التى نحن بصددها موجَّه لرسول الله ﷺ :

﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ ..(٦١) ﴾ [يونس]

وشأن رسول الله ﷺ الذى يهتم به ليس المأكل ولا المشرب ، إنما المهم بالنسبة له هو بلاغ الرسالة بالمنهج بـ «افعل و«لا تفعل».

﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ ..(٦١) ﴾ [يونس]

---

(١) هو: الحسين بن الفضل ، وذلك أن عبد الله بن طاهر دعاه ليفسر له ثلاث آيات أشكلت عليه ، منها هذه الآية ، فقال: إنها شئون يبديها لا شئون يبتديها. ذكره القرطبى فى تفسيره (٩/ ٦٥٦٧).

و«منه» هنا بمعنى اللام ، أى : ما تتلو له [(١)] ، وتعنى تأبيداً لآيات القرآن .

وهناك فى موضع آخر من القرآن يقول الحق سبحانه :

﴿ مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ [(٢)] أُغْرِقُوا .. (٢٥) ﴾ [نوح]

أى : أغرقوا لأجْل خطيئاتهم .

وهنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها نفهم ما تكون فى شأن وما تتلو لأجل هذا الشأن من قرآن ، فالنبى ﷺ فى شأن هام هو الرسالة ، ويتلو من القرآن تأبيداً لهذا الشأن وهو البلاغ بالمنهج .

ويدخل فى هذا الشأن ما فُوِّض رسول الله ﷺ فيه حسب قول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا آتَاكُمُ [(٣)] الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا .. (٧) ﴾ [الحشر]

ومثال ذلك : تحديد كيفية الصلاة وعدد ركعات كل صلاة ، وكذلك نصَاب [(٤)] الزكاة ، وهذه أمور لم يأت بها القرآن تفصيلاً ، ولكن جاءت بها الأحاديث النبوية .

إذن : فهناك تفويض من الحق للرسول ﷺ ليكتمل البلاغ بمنهج الله ، بنصوص القرآن ، وبتفويض الله تعالى له أن يشرِّع .

---

(١) ما تتلو له : أى : لهذا الشأن . وهذا يتوافق مع ما ذكره الفراء والزجاج أن الهاء فى «منه» تعود على الشأن ، أى : تحدث شأناً ، فيتلى من أجله القرآن ، فيعلم كيف حكمه . ذكره القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٢٨٣) .

(٢) هم قوم نوح عليه السلام .

(٣) آتاكم : أمركم .

(٤) نصاب الزكاة : هو المقدار الذى إذا بلغه مال المسلم أو ماشيته أو تجارته وجبت فيه الزكاة ، بالمقادير التى حددتها السنة .

إذن: فكل شأن رسول الله ﷺ إما بلاغ عن الله بالنص القرآنى، وإما تطبيق فعلىّ للنص القرآنى بالحديث النبوى، وبالأسوة التى تركها لنا ﷺ فى سُنَّته.

والحُجَّة على الحُكم - أى حُكم - يأتى بها القرآن، فإن كانت الأحكام غير صادرة من الله مباشرة، فيكفى فيها أنها صدرت عن رسول الله ﷺ بتفويض من الله تعالى ليشرِّع.

وبذلك نردُّ على المنافقين الذين إذا حُدِّثوا بشىء من حديث رسول الله ﷺ قالوا: «بيننا وبينكم كتاب الله»[1]، وهدفهم أن يردُّوا حديث رسول الله ﷺ - فعْلاً، أو قولاً، أو إقراراً.

ثم ينقل الحق سبحانه الخطاب من المفرد إلى الجماعة فيقول جَلَّ شأنه:

﴿ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا .. (٦١) ﴾ [يونس]

وفى هذا انتقال للسامعين للقرآن، المبلَّغ إليهم هذا المنهج، فكل عمل إنما يشهده الحق سبحانه.

والعمل هو مجموع الأحداث التى تصدر عن الإنسان، فكل حدث يصدر من الإنسان - ولو بنيَّة القلب - يسمَّى عملاً؛ لأن عمل القلوب هو النية. ولكن إذا صدر الحدث من اللسان كان قولاً، وإذا صدر الحدث من بقية الجوارح كان فعلاً.

وهكذا ينقسم العمل إلى قسمين: قول، وفعل.

---

(١) عن المقدام بن معد يكرب أن رسول الله ﷺ قال: «يوشك الرجل يتكىء على أريكته يُحدَّث بحديثى فيقول: بينى وبينكم كتاب الله، فما وجدنا فيه حلالاً استحللناه، وما كان فيه حراماً حرمناه، وإن ما حرم رسول الله ﷺ كما حرم الله». أخرجه أحمد فى مسنده (٤/ ١٣٢) والترمذى (٢٦٦٤) وابن ماجه (١٢) والدارقطنى (٤/ ٢٨٦) فى سننهم، واللفظ للدارقطنى.

وقد اختُصَّ حدث اللسان باسم القول ؛ لأن أصل مستندات التكليف كلها قولية.

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ أى: تسرعون إلى العمل بنشاط وحيوية وإقبال مما يدل على حسن الاستجابة للمنهج فور أن يبلِّغه الرسول ﷺ.

والإقبال على العمل التكليفى بهذا الشوق، وتلك اللهفة، وحسن الاستقبال، وإخلاص الأداء، كل هذه المعانى يؤول إليها قول الحق سبحانه: ﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ كما يفيض ماء الإناء إذا امتلأ لينزل. أى: أن تقبلوا على أعمال التكليف بسرعة وانصباب وانسكاب.

وقد قال الحق سبحانه: ﴿فَإِذَا أَفَضْتُمْ [1] مِّنْ عَرَفَاتٍ ..(١٩٨)﴾ [البقرة]

أى: شَرَعْتُم [2] فى الذهاب مسرعين ؛ لأنكم أدَّيتم نُسُكاً أخذتم منه طاقة، وتقبلون بها على نُسُك ثانٍ.

إذن: فالحق سبحانه يشهد كل عمل منكم، لكن ماذا عن النيَّات وما يُبيَّت فيها من خواطر؟

ها هو الحق سبحانه يخبرنا أن كل شىء مهما صغر واختفى فهو معلوم ومحسوب.

يقول الحق سبحانه:

---

(١) يسن الإفاضة من عرفة بعد غروب الشمس، ولكن بالسكينة رفقاً بالناس ؛ لأن هذا اليوم يتزاحم فيه الناس ويدفع بعضهم بعضاً ؛ ولذلك سميت إفاضة. انظر فقه السنة (١/ ٥١٨) وقد ثبت عنه ﷺ أنه كان يضم إليه زمام ناقته «حتى إن رأسها ليصيب مورك رحله، ويقول بيده اليمنى: أيها الناس السكينة السكينة» أخرجه مسلم فى صحيحه (١٢١٨) من حديث جابر بن عبد الله.

(٢) شرعت فى الأمر: بدأته ودخلت فيه.

﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٦١) ﴾ [يونس]

أى: أن كل أمورك، وأمور الخلق، والمخلوقات كلها معلومة لله تعالى، ومكتوبة فى كتاب مبين واضح، فلا أحد بقادر على أن يختلس حركة قلب، أو يختلس حركة ضمير، وكلمة «يعزب» تعنى: يغيب ويختفى.

والحق سبحانه يخبرنا أنه لا يضيع عنده جزاء أى عمل أو نية مهما بلغ العمل أو النية أدنى درجة من القلَّة.

ولم يوجد عند العرب ما يضرب به المثل على الوزن القليل إلا الذَّرَّة، وهى النملة الدقيقة الصغيرة جداً، ثم أطلقت الذرة على الهَبَاء الشائع فى الجو، ويمكنك أن ترى هذا الهَبَاء إن جلست فى حجرة مظلمة مغلقة، ثم دخلها شعاع من ضوء، هنا ترى هذا الضوء وهو يمر من الثقب وكأنه سهم، وترى مكوِّنات هذا السهم من ذرات الهباء المتحركة الموجودة فى الجو، تلك الذرات التى لا تراها وأنت فى الضوء فقط أو فى الظلام فقط، ولكن التناقض بين الضوء والظلام يُبرزها.

وأنت لا تدرك الشىء ولا تحسه لأمرين: إما لتناهيه فى الصغر، وإما لتناهيه فى الكبر؛ فلا تحيط به، وحين تقدم العلم التطبيقى اخترعوا المَجَاهر التى تُكبِّر الشىء المتناهى فى الصغر آلاف، أو ملايين المرات.

وأنت لو وضعت جلدك تحت عدسة المجهر فسترى فجوات وكأنها آبار لم تكن تراها أو تحسها من قبل؛ لأنها بلغت من الدقة والصِّغر بحيث

لا تستطيع عيناك أن تدركها ، فإن رأيتها بالمجهر كَبُرَت فترى فجوات وتعاريج وعُلُوّاً وانخفاضاً - مهما كان الجلد الذى تراه تحت المجهر ناعماً.

وكذلك أنت لا تقدر على إدراك الشىء الضخم ، وقد تفصل بينك وبين الشىء الكبير مسافة ؛ فتراه أصغر من حجمه ، وكلما ابتعد صَغُرَ ، فأنت إذا رأيت - مثلاً - رجلاً طويلاً على مسافة كبيرة ، فأنت تراه وكأنه طفل صغير ، وكلما اقتربت منه زاد طوله فى عينيك.

إذن: لا الضخامة ولا البُعد ، ولا القِلَّة تمنع من علم الحق سبحانه لأى شىء.

وقد خاطب الحق سبحانه العرب بأصغر ما عرفوه ، وهو الذرة ، أى: النملة الصغيرة.

وأنت إذا وطأتَ نملة فى أرض رملية فهى لا تموت ، بل تدخل فى فجوات الرمل ، وتجد لنفسها طريقاً إلى سطح الأرض مرة أخرى.

قد بيَّن الحق سبحانه هذه المسألة حين تحدَّث عن سليمان - عليه السلام - فى وادى النمل ، فقال تعالى:

﴿ .. قَالَتْ نَمْلَةٌ يَـٰأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (١٨) ﴾ [النمل]

لأنهم لا يرونهم ؛ لحجمهم المتناهى فى الصغر .

وهكذا يعطينا الحق سبحانه بياناً عن كل أمة فى الحياة ، وأن من بينهم جنوداً يحرسون بيقظة ، فالنملة قامت بإنذار قومها من سليمان وجنوده ،

لأنهم لن يروا النمل الصغير[١] .

إذن: الذَّرُّ إما أن يكون النمل الصغير ، وإما أن يكون الذرَّات الهبائية .

وأراد الله سبحانه أن يضرب لنا مثلاً بإحاطة علمه فى أنه لا يعزب عنه مثقال ذرة .

ويعزب ، أى: يغيب ، ويقال: «هذا البئر ماؤه عازب» ، أى: قادم من عمق بعيد ، ويحتاج استخراجه إلى دَلْوٍ وحبال طويلة .

ونسمِّى الرجل الذى يبعد عن أهله «عَزَب» .

وقول الحق سبحانه: ﴿وَمَا يَعْزُبُ﴾ . أى: لا يبعد ولا يغيب عنه أصغر شىء ولا أكبر شىء .

يقول سبحانه ذلك ؛ ليطمئننا أن كل خاطرة من خواطر الإنسان إنما يشهدها الله ، ويَعْلَمُها ، وهو المُجَازِى عليها .

وإن استطاع إنسان أن يُعمِّى على قضاء الأرض ، فلن يستطيع أن يُعمِّى على قضاء السماء[٢] .

ومسألة الذرَّة والصغر يقول عنها الحق سبحانه:

---

(١) قال تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٧)﴾[النمل] وسار سليمان بموكبه العظيم هذا: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ .. (١٨)﴾ [النمل] أى: مَرُّوا على وادى النمل فقالت نملة لإخوانها: ﴿ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (١٨)﴾ [النمل] فهى خافت على النمل أن تحطمها الخيول بحوافرها فأمرتهم بالدخول إلى مساكنهم ، ففهم ذلك سليمان: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ (١٩)﴾[النمل] . أى: ألهمنى أن أشكر نعمك التى أنعمت بها علىَّ من تعليمى منطق الطير والحيوان وعلى والدىّ بالإسلام لك . [ابن كثير: ٣/ ٣٥٧ - ٣٥٩] .

(٢) عن أم سلمة قالت: قال رسول الله ﷺ: «إنكم تختصمون إلىَّ ، وإنما أنا بشر ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض ، فأقضى له على نحو مما أسمع منه ، فمن قطعت له من حق أخيه شيئاً فلا يأخذه ، فإنما أقطع له به قطعة من النار» أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٦٨٠) ومسلم (١٧١٣) .

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨) ﴾ [الزلزلة]

هذا للمتساوى فى الثقل والوزن ، أما إن كان أصغر من الذرة ، فقد ذكره الحق سبحانه هنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها فقال :

﴿ وَلا أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ .. (٦١) ﴾ [يونس]

وعلى زمن نزول القرآن الكريم لم يكن أحد يعرف أن هناك ما هو أصغر من الذرة ، وكنا جميعاً حتى ما قبل الحرب العالمية الأولى لا نعلم أن هناك شيئاً أصغر من الذرة ، وكان العلماء يعتقدون أن الذرة هى الجزء الذى لا يتجزأ ؛ لأنها أصغر ما يقع عليه البصر ، فضرب الله مثلاً بالأقل فى زمن نزول القرآن.

ولما تقدم العلم بعد الحرب العالمية الأولى واخترعت ألمانيا آلةً لتحطيم الذرة قيل عنها : إنها آلة تحطيم الجوهر الفرد. أى: الشىء الذى لا ينقسم ، وهذه الآلة مكونة من اسطوانتين مثل اسطوانتى عَصَّارة القصب ، والمسافة بين الاسطوانتين لا تكاد تُرَى ، وحين حَطَّمت ألمانيا ما قيل عنه «الجوهر الفرد» تحول إلى ما هو أقل منه ، وتفتَّتت الذرّة.

وقد جعل الحق سبحانه المقياس فى الصغر هو الذرة.

وحين اخترعت ألمانيا تلك الآلة توجَسّ المتصلون بالدين وخافوا أن يقال: إن الحق سبحانه لم يذكر ما هو أقل من الذرة ، ولكنهم التفتوا إلى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها ، فقرأوا قول الحق سبحانه:

﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٦١) ﴾ [يونس]

و﴿مَا يَعْزُبُ﴾ أى: لا يبعد أو يغيب ﴿عَن رَّبِّكَ﴾ أى: عن علمه ﴿مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾. أى: وزن ذَرَّة.

وقديماً قلنا: إن البعض يقول: إن «من» قد تكون حرفاً زائداً فى اللغة، كقولنا: «ما جاءنى مِنْ رجل» وتعرب كلمة «من»: حرف جر زائد، و«رجل»: فاعل مرفوع بالضمة الظاهرة التى منع من ظهورها اشتغال المحلِّ وهو «اللام» بحركة حرف الجر الزائد.

ولكن فى كلام الله لا يوجد حرف زائد [1]، فـ «مِنْ» فى قوله: ﴿مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾. أى: من بداية ما يقال له «مثقال».

ويقول الحق سبحانه فى آية أخرى:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ ..(٣)﴾ [سبأ]

وكلمة ﴿وَرَبِّي﴾ مُقْسَمٌ به، وحرف «الواو» هو حرف الجر، ولم يأت هنا بالشهادة، وجاء بالغيب، ولم يأت بعلم الغيب فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها.

وعالم الشهادة، تعنى: أنه عَالِمٌ بكل ما يشهد، ويظن البشر أنها غير مُحَاط بها لعظمتها؛ أو لأن الله غيب فلا يرى إلا الغيب، لكن الحق سبحانه يرى ويعلم الغيب والشهادة.

---

(١) «حرف الجر الزائد» مصطلح نحوى يقصد به النحاة الزيادة اللفظية فى الكلام. والحق أن حروف الجر «الزائدة» تلك ليست بزائدة لأن لها وظيفة بلاغية. فكلمة «من» فى جملة «ما جاءنى من رجل» تفيد تأكيد معنى النفى. وهناك مثال آخر كثيراً ما يذكره فضيلة الشيخ فى مقولاته، بضرب هذه الأمثلة؛ لأن الحرف ما دام موظفاً فلا يكون زائداً. فيقول: «ما معى مال» و «ما معى من مال». فكلمة «من» فى الجملة الأخيرة تفيد تأكيد نفى وجود أىِّ مال مع المتكلم، وهذا التأكيد ليس موجوداً فى جملة «ما معى مال».

لقد قال الحق كلمة «مثقال ذرة» ثلاث مرات:

مرة حين قال سبحانه: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ..(٧)﴾ [الزلزلة]

ومرة حين قال هنا:

﴿مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ ..(٦١)﴾ [يونس]

وجاء بـ «من» هنا ليبين أنه لا يغيب عن الله تعالى من بداية ما يقال له «مثقال».

وقال الحق سبحانه فى موضع آخر:

﴿لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَـوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ ..(٣)﴾ [سبأ]

وجاء بالسموات أولاً، وجاء فى الآية - التى نحن بصدد خواطرنا عنها - بالأرض أولاً، وهو فى الآيتين يتكلم عن علمه للغيب [1]، فيأتى بمثقال الذرة ويقدِّم السماء ويأتى بها مفردة، ثم يأتى بما هو أقل من الذرة ويقدِّم الأرض.

وهذا كله من إعجاز أساليب القرآن التى أراد البعض من المستشرقين أن يعترضوا عليها، وكانت جميع اعتراضاتهم نتيجة لعجزهم عن امتلاك مَلَكة الأداء البيانى.

وإنْ عرضنا الرد على تساؤلاتهم نجد أن الحق سبحانه قَدَّم الأرض فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها؛ لأنه سبحانه يتكلم عن أهل الأرض:

---

(١) غاب الشىء يغيب غيباً، استتر عن العين أو عن علم الإنسان فى المعنوى. والغيبة: اسم مرة من غابه، أى: ذكره فى غيبته بالسوء كاغتابه، قال الحق: ﴿وَلا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ..(١٢)﴾ [الحجرات] والغيبة: اسم هيئة منه. والغيب مصدر ويسمى به من غاب واستتر، يقول الحق: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ..(٣)﴾ [البقرة] كالجنة والنار والملائكة والجن، وجمعه غيوب. يقول الحق: ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ (١٠٩)﴾ [المائدة].

﴿ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ .. (٦١) ﴾[يونس]

وجاء أيضاً بالسماء ، وهى السماء الدنيا التى يراها أهل الأرض .

أما الآية الأخرى فهو سبحانه يقول :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى السَّمَـوَاتِ وَلا فِى الأَرْضِ ..(٣) ﴾ [سبأ]

والكلام هنا عن الساعة ، وعلمها عند الله تعالى ، ولم تنزل من السموات إلى السماء الدنيا حتى نقول للمكلَّفين فى الأرض : قوموا ها هى الساعة .

ولذلك جاء الحديث هنا عن السموات أولاً ؛ لأن علم الساعة عند ربِّى ، ولن ينزل إلا بمشيئته سبحانه .

وهكذا جاء كل أسلوب لا بإجمال المعنى ، ولكن بدقة جزئياته ، فتكلم فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها ، وآية سبأ عن العلم والذرَّة ، والسماء والأرض ، وكل آية جاءت الكلمات فيها بتقديم أو تأخير يناسب مجالها .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿إِلاَّ فِى كِتَابٍ مُّبِينٍ[1] (٦١) ﴾ [يونس]

ولنا أن نلتفت إلى أن الاستثناء هنا لا يُخْرِج ما قبله ، بل كل شىء

---

(١) بان الشىء يبين بياناً ظهر واتضح ، فهو بيّن وهى بينة . أى : ظاهر وظاهرة ، ويستعمل البين والبينة بمعنى المظهر والمظهرة والموضح والموضحة .

يقول الحق سبحانه : ﴿ كَمْ آتَيْنَاهُم مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ .. (٢١١) ﴾ [البقرة] والبينة تستعمل بمعنى الحجة والبرهان ، وقوله : ﴿ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ (١٥) ﴾ [المائدة] أى : موضح للحق اسم فاعل من أبان المتعدى ، وقوله : ﴿ وَهُوَ فِى الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ (١٨) ﴾ [الزخرف] أى : غير مظهر [حرف ب من : القاموس القويم] .

مكتوب فى الكتاب المبين ، ونحن فى الدنيا نجد الإنسان إن كان له دَين عند آخر فهو يحتفظ بالوثائق المكتوبة التى تُسجِّل ما له وما عليه. ولكن ، أيحتفظ الحق سبحانه بأعمالنا ونيَّاتنا مكتوبة كحجة له ، أم حجة لنا ؟

إنه سبحانه يعلم أزلاً كل أعمالنا ، ولكنه يُسجِّل لنا بالواقع تلك الأعمال والنيات ؛ لنعلم عن أنفسنا ماذا فعلنا ؛ لتنقطع حجة من أساء إذا وقع به العقاب.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾

وجاءت هذه الآية بعد كلامه الحق عن نفسه سبحانه بأنه عالم الغيب ، ولا يخفى عليه شىء ، وشاء الله سبحانه بذلك أن يعلّمنا أنه قد يفيض على بعض خلقه فيوضات الإمداد على قَدْر رياضات المرتاضين ، فَهَبْ أن الله قد امتن عليك بنفحة ، فإياك أن تقول إنها من عندك ، بل هى من عند عالم الغيب سبحانه الذى لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء.

وعلى ذلك فلا يقال : إن فلاناً قد عَلم غيباً لأنه ولىٌّ لله ، بل لنقل : «إن فلاناً مُعَلَّمُ غَيْب» ؛ لأن الغيب هو ماَ غاب عن الناس ، وما يغيب عنك ولا يغيب عن غيرك فهو ليس غيباً مطلقاً.

ومثال ذلك : الرجل الذى سُرق منه شىء ، هو لا يعرف أين يوجد الشىء الذى سُرق منه ، ولكن اللص يعرف ، وكذلك من ساعد اللص وأخفاه وأخفى له المسروقات ، كل هؤلاء يعلمون ، وأيضاً الجن الذين كانوا فى نفس مكان السرقة يعلمون ، وهذا ليس غيباً مطلقاً.

وأيضاً أسرار الكون التى كانت غيباً موقوتاً ، مثل جاذبية الأرض ، والسالب والموجب فى الكهرباء ، وتلقيح الرياح للسحاب [١] لينزل الماء ، كل ذلك كان غيباً فى زمن ما ، ثم شاء الحق سبحانه فحدَّد لكل أمرٍ منها ميعادَ كشفٍ ؛ فصارت أموراً مشهورة .

وقد شاء الحق سبحانه ذلك ؛ ليعمل الإنسان ويجتهد ليكشف أسرار الكون .

ومن العجيب أن الباحث قد يعمل من أجل كشف معين ، فيصادف كشفاً آخر ؛ لأن الله تعالى قد أذن لذلك الكشف الذى كان غيباً أن يولد ، وإن لم يبحث عنه أهل الأرض .

ومن اكتشف «البنسلين» رأى العفن الأخضر حول بعض المواد العضوية فبحث عن أسرار ذلك ، واكتشف «البنسلين» .

و«أرشميدس» الذى اكتشف قانون الطفو ، واستفادت منه صناعات السفن والغواصات ، وكل ما يسير فى البحر ، وقد تم اكتشاف قانون الطفو صدفة .

إذن : ففى الكون غيب قد يصير مَشْهَداً ، إما بمقدِّمات يتابعها خَلْقُ الله بالبحث ، وإما أن تأتى صدفة فى أثناء أى بحث عن شىء آخر .

ومثال ذلك : عصر البخار الذى بدأ من رجل رأى إناء مُغَطّى يغلى فيه الماء ، فظل غطاء الإناء يرتفع ليُخرج بعضاً من البخار ، وانتبه الرجل إلى

---

(١) يقول سبحانه : ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الحجر] والرياح لواقح أى : أنها تحمل حبوب اللقاح التى تلقح بها النبات والشجر ، أو أنها تستدر السحب لينزل منها الماء . [بتصرف من اللسان] .

أن البخار يمكن أن يتحول إلى طاقة تجرّ العربات التى تسير على عَجَل ، وهكذا جاء عصر البخار.

إذن: فميلاد بعض من أسرار الكون كان تنبيهاً من الله تعالى لأحد عباده لكى يتأمل ؛ ليكتشف سِرّاً من تلك الأسرار[1].

وأغلب أسرار الكون تم اكتشافها صدفة ، لنفهم أن عطاء الله بميلادها - دون مقدمات من الخَلْق - أكثر مما وُصِل إليه بالعطاء من مقدمات الخلق.

ولذلك تجد التعبير الأدائى فى القرآن عن لونَى الغيب ، تعبيراً دقيقاً لنفهم أن هناك غيباً عن الخلق جميعاً وليست له مقدمات ، ولا يشاء الله سبحانه له ميلاداً ، واستأثر الله بعلمه ؛ فلا يعلمه إلا هو سبحانه.

يقول الحق سبحانه:

﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ .. (٢٥٥) ﴾ [البقرة]

هذا هو الغيب الذى يكشفه الله سبحانه لهم ، إما بالمقدمات ، أو بالصدفة ، وقد نسب المشيئة له سبحانه ، والإحاطة من البشر ، وهذا هو غيب الابتكارات.

أما الغيب الآخر الذى لا يعلمه أحد إلا هو سبحانه ولا يُجَلِّيه إلا الرسول ﷺ ، فيقول الحق عنه:

---

(١) من الغيب ما يصير مشاهداً عند الإذن بميلاده بأمر الله سبحانه ، إما بمقدمات أو بغير مقدمات رحمةً للبشرية ، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ .. (١) ﴾ [النحل] ، وهناك غيب لله لا يظهره لأحد إلا من ارتضى من رسول.

﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ [1] عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ..(٢٧)﴾ [الجن]

إذن: فالحق سبحانه يفيض من غيبه الذاتى على بعض خَلْقه ، والقرآن الكريم فيه الكثير من الغيب ، وأفاضه الله تعالى على رسوله ﷺ ، وتحققت الأحداث كما جاءت فى القرآن.

والحق سبحانه يهب بعضاً من خلقه بعضاً من فيوضاته ، وقد أعطى الله سبحانه رسوله ﷺ بعضاً من الهِبَات وحدَّد من يعطيه بعضاً من الغيب :

﴿إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ..(٢٧)﴾ [الجن]

وهى ليست للحصر ؛ لأن الرسول ﷺ أسوة [2] ، وقال فيه الحق سبحانه :

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا (٢١)﴾ [الأحزاب]

ومن يعمل بعمل الرسول ﷺ ويقتدى به ؛ يهبه الله تعالى هبةً يراها الناس فيعرفون أن مَنْ يتّبع الرسول ﷺ كقدوة يعطيه الله سبحانهَ الهبات النورانية ، ولكن هذه الهبَة ليست وظيفة ، وليست (دُكّاناً) للغيب ، بل هى مِنْ عطاءات الله تعالىَ.

---

(١) ظهر الشىء يظهر ظهوراً من باب فتح بمعنى تبين ، وبرز بعد الخفاء ، قال الحق : ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ .. (٣٣)﴾ [الأعراف] وظهر على خصمه غلبه ، يقول الحق : ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ ..(٢٠)﴾ [الكهف] أى : إن ينتصروا عليكم يقتلوكم رمياً بالحجارة ، وأظهر الرجل على عدوه نصره عليه حتى تمكّن منه ، ومنه قوله تعالى : ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ..(٣٣)﴾ [التوبة] أى : لينصره على جميع الأديان (حرف الظاء - القاموس القويم) .

(٢) الأسوة: القدوة . [لسان العرب: مادة (أ س ى)] . أى: الاقتداء بفعل الغير واتخاذه مثلاً يحتذى ، سواء أكان فى الخير أو فى الشر ، وشاع استخدامها فى الخير .

وانظر إلى دقة القرآن حين يقول:

﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ[1] .. (٥٩)﴾ [الأنعام]

أى: أنه سبحانه لم يُعْط مفتاح الغيب لأحد، والولىّ من أولياء الله إنما يأخذ الهبة منه سبحانه، لكن مفتاح الغيب هو عند الله وحده.

وعندما نتأمل قول الحق سبحانه:

﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢)﴾ [يونس]

نجد أن كلمة «ولىّ» من وَلِيَهُ، يليه، أى: قريبٌ منه، وهو أول مَفزَع يفزع إليه إن جاءه أمر يحتاج فيه إلى معاونة من غيره، وإن احتاج إلى نصرة فهو ينصره، وخيره يفيض على مَنْ والاه.

ومَنْ يقْرُب عالماً يأخذ بعضاً من العلم، ومَنْ يقرب قويّاً يأخذ بعضاً من القوة، ومَنْ يقرب غنيّاً، إن احتاج، فالغنى يعطيه ولو قَرْضاً.

إذن: فالولَىّ هو القريب الناصر المُعين المُوالِى.

وتطلق «الولى» مرةً لله سبحانه، وقد قال القرآن:

﴿فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِىُّ[2] .. (٩)﴾ [الشورى]

---

(١) قال الزجاج: جاء فى التفسير أنه عنى قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ .. (٣٤)﴾ [لقمان]. قال: فمن ادعى أنه يعلم شيئاً من هذه الخمس فقد كفر بالقرآن؛ لأنه قد خالفه. [لسان العرب: مادة (ف ت ح)].

(٢) تقول اللغة: الولى: هو القريب بالنسب أو بالمحبة أو بالطاعة، أو الولى الصديق، وهو ضد العدو، والولى: المطر بعد المطر والولى من يلى أمر إنسان، ويقوم على شئونه، كالوكيل، ويجمع على أولياء، وأولياء الله هم المؤمنون المتقون، يقول الحق: ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣)﴾ [يونس] والولى: من تولاه الله بالرعاية، وتولى هو منهج الله بالسلوك للهداية، ولذلك يقول سبحانه: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِى الآخِرَةِ لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٤)﴾ [يونس] (حرف الواو - القاموس القويم).

لأنه سبحانه القريب من كل خَلْقه ، عكس الخَلْق الذين يقتربون من بعضهم أو يتباعدون حسب إمكاناتهم ، أما الله سبحانه وتعالى فهو الولىّ المُطلَق ، فقُربه منْ خَلْق لا يبعده عن خَلق ، ولا يشغله شىء عن شىء ، فهو الولىّ الحقُّ ، وهو سبحانه يقول:

﴿ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ ..(٤٤) ﴾ [الكهف]

فمن يحتاج إلى الولاية الحقَّة فَليلجأ إلى الله ، وهو سبحانه يُفيض على الأوفياء لمنهجه من الولاية.

ونجد التعبير القرآنى الدقيق :

﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا ..(٢٥٧) ﴾ [البقرة]

فهو سبحانه يقرب من عباده المؤمنين ، والمؤمنون يقربون من الله تعالى فى قول الحق سبحانه :

﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ .. (٦٢) ﴾ [يونس]

إذن: فالولاية المطلقة لله ، وإنْ قُيِّدت بشىء مضاف ومضاف إليه ، فهى مرة تكون من المؤمنين لله ، ومرة تكون من الله للمؤمنين.

والحق سبحانه لا تحكمه قوانين ؛ فبطَلاقة قُدرته سبحانه إذا رأى فى إنسان ما خَصْلة من خير ، فيكرمه أولاً ، فيصير هذا العبد طائعاً من بعد ذلك.

وتسمع من يقول: إن فلاناً قد خُطف من المعصية أى: أنه كان عاصياً ، ثم أحب الله تعالى خَصْلة خيرٍ فيه ، فهداه.

ومثال ذلك: الرجل الذى سقى كلباً ، بل احتال ليسقيه بأن ملأ خُفَّه

بالماء من البئر ليروى ظمأ الكلب ؛ فغفر الله - سبحانه وتعالى - له سيئاته[1] .

هذا الرجل لم يكن ليروى الكلب نفاقاً للكلب ، ولكن لأن الرجل شعر بالعطف على كائن ذى كبد رطبة .

إذن : فليست المسائل عند الله تعالى آلية أو ميكانيكية ، بل طلاقة قُدرته سبحانه تقدّر كل موقف كما قدَّرتْ اختلاف الخَلْق ، ولذلك قال سبحانه :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ[2] وَأَلْوَانِكُمْ ..(٢٢) ﴾ [الروم]

فليس عند الله تعالى قالب يضع فيه الخلق ، بل سبحانه يخلق الطويل والقصير والسمين والرفيع والأشقر والزنجى ، وهذا بعضٌ من طلاقة قدرته سبحانه ، وبرحمته سبحانه قرب من خَلْقه الذين آمنوا أولاً ، وقربه سبحانه منهم : ﴿ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ..(٢٥٧) ﴾ [البقرة]

فمن يتبع المنهج يأخذ النور ، فإذا علم الله سبحانه عمله بمنهجه فهو سبحانه يُقرّبه قُرْباً أكثر فيعطيه هبةً اصطفائية يراها الذين حوله وقد يقتدون به .

والحق سبحانه يريد من المؤمن الأدب مع خَلْق الله ، فإذا علم سيئةً عن إنسان فعليه أن يسترها ؛ لأن الحق سبحانه يحب السَّتْر ويحب من يَستر .

---

(١) وذلك أن أبا هريرة روى أن رسول الله ﷺ قال : « بينما رجل يمشى بطريق اشتد عليه العطش ، فوجد بئراً فنزل فيها فشرب ، ثم خرج فإذا كلب يلهث ، يأكل الثرى من العطش ، فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذى كان بلغ بى ، فنزل البئر ، فملأ خفه ، ثم أمسكه بفيه(بفمه) فسقى الكلب ، فشكر الله له ، فغفر له» . قالوا : يا رسول الله ، وإن لنا فى البهائم أجراً ؟ فقال : « فى كل ذات كبد رطبة أجر » . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٠٠٩) ، ومسلم فى صحيحه (٢٢٤٤) .

(٢) اختلاف الألسنة : اختلاف اللغات .

وأنت قد تكره إنساناً تعلم عنه سيئةً ما ، وقد تكره كل حسنة من حسناته ، فيريد الله ألاّ يحرمك من حسنات مَنْ له سيئة فيسترها عنك لتأخذ بعضاً من حسناته ، ويأمرك الحق ألاّ تحتقر هذا المسىء ؛ لأنه قد يتمتع بخَصْلة خير واحدة ، فيكرمه الله سبحانه من أجلها أولاً ، ثم يطيعه هذا العبد ثانياً.

والحق سبحانه يقول فى الحديث القدسى:

« يا ابن آدم أنا لك محبٌّ فبحقّى عليك كن لى مُحِبّاً ».

ويقول الله سبحانه فى حديث قدسى:

« أنا عند ظن عبدى بى ، وأنا معه إذا ذكرنى ، فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، وإنْ ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منهم».

وفى هذا القول يضع مسئولية القُرب من الله فى يد الخَلْق ، ويضيف الحق سبحانه:

«وإنْ تقرَّب إلىَّ شبراً تقرّبتُ إليه ذراعاً ، وإن تقرب إلىَّ ذراعاً تقربت إليه باعاً ، وإن أتانى يمشى أتيته هرولة»[1].

ومن يريد أن يأتيه الله هرولة فليذهب إلى الله ماشياً .

إذن : فالإيمان بالله يسلِّم المؤمن مفتاح القرب من الله .

ومن يكن من أصحاب الخُلُق الملتزمين بالمنهج يُقرِّبْه الله منه أكثر وأكثر.

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٧٤٠٥) ومسلم (٢٦٧٥) عن أبى هريرة. والذراع من الإنسان من طرف المرفق إلى طرف الإصبع الوسطى. والذراع من المقاييس ، ومن أشهر أنواعه الذراع الهاشمية وهى ٣٢ إصبعاً أو ٦٤ سنتيمتراً. [المعجم الوسيط : ذرع]. والباع: مسافة ما بين الكفين إذا انبسطت الذراعان يميناً وشمالاً، والمراد: المبالغة فى الاتساع [المعجم الوسيط : ب و ع] . والهرولة: الإسراع.

إذن: فمن الناس مَنْ يصل بطاعة الله إلى كرامة الله ، ويدق على باب الحق ، فينفتح له الباب ، ومن الناس مَنْ يصل بكرامة الله أولاً إلى طاعة الله ثانياً.

ولله المثل الأعلى : أنت كواحد من البشر قد يدق بابك إنسانٌ يحتاج إلى لقمة أو صدقة فتعطيه ، وهناك إنسان آخر تحب أنت أن تعطيه ، وعندما تعطيه يطيعك من منطلق الإحسان إليه، فما بالنا بعطاء الحق لعباده ؟

إذن: فمنهم مَنْ يصل بكرامة الله إلى طاعة الله ، ومنهم من يصل بطاعة الله إلى كرامة الله ، وحين يصل الإنسان إلى القرب من الله ، ويقرب الله من العبد ، هنا يكون العبد فى معية الله ، وتفيض عليه هذه المعية كثيراً.

وقد قال أبو العلاء المعرى [1] لمحبوبته:

أنت الحبيبُ ولكنى أعوذ بهِ ... من أن أكون حبيباً غير محبوبِ

أى: أنه يستعيذ بالله من أن يكون محباً لمن يرفض حبّه ، ولكن محبة الله تختلف عن محبة البشر ، وسبحانه لا يعامل محبيه كذلك ، فأنت حين تحبْ الله يقرّبك أكثر وأكثر ، ويسمَّى ذلك « المصافاة » ، فإذا أفاض الله سبحانه على بعض خَلْقه هبات من الكرامات فعلى العباد الذين اختصهم الحق سبحانه بذلك أن يُحَسنوا الأدب مع الله ، وألا يتبجَّح واحد منهم متفاخراً بعطاء الله سبحانه له.

فالمباهاة بالكرامات تضيعها ، ويسلبها الحق سبحانه من الذى يتبجَّح بها

---

(١) هو أحمد بن عبد الله بن سليمان، شاعر فيلسوف، ولد ٣٦٣ هـ ومات فى معرَّة النعمان (٤٤٩ هـ) عن ٨٧ عاماً، عمى فى الرابعة من عمره، قال الشعر وهو ابن إحدى عشرة سنة. ولما مات وقف على قبره ٨٤ شاعراً يرثونه. [الأعلام للزركلى (١/ ١٥٧)].

ويتفاخر ويتباهى ، فمن تظاهر بالكرامة ليس له كرامة .

إذن: فالحق سبحانه يريد أن يكون العبد دائماً فى معيّته ، وهو سبحانه الذى بدأ وبيَّن بالآية الواضحة أنه سبحانه ولىّ المؤمنين ؛ ولذلك سيخرجهم من الظلمات إلى النور[1] . فقال:

﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ..(٢٥٧) ﴾ [البقرة]

ونحن نعلم أنه سبحانه يأتى بالمحسَّات ليبيِّن المعنويات ؛ لأن إلْفَ الإنسان أولاً بالمحسَّات ، وهى أقرب إلى تقريب المراد ، فحين يضرب الحق سبحانه لنا المثل بالكفر والإيمان ، يصف الكفر بالظلمة ، والإيمان بالنور ، إنما يريد الحق أن يجعل لك المراد واضحاً موصولاً بمفهومك.

وإذا كنا نتجنَّب معاطب الظلمات الحسية ، أليس الأجدر بنا - أيضاً - أن نتجنب معاطب الظلمات المعنوية ، إن الظلمة الحسية تستر الأشياء فلا نرى الأشياء ، وقد نرتطم بأضعف شىءٍ فنحطِّمه أو نصطدم بأقوى شىء فيحطمنا.

إذن: فَحَجْب المرائى يسبِّب الكوارث ، أما حين يأتى النور ؛ فهو يبيِّن ملامح الأشياء فتسير على هُدىً وأنت مطمئن.

وهَبْ أنك فى مكان مظلم ويوجد شىء آخر فى مكان منير ، فأنت فى الظلمة ترى مَنْ يوجد فى النور ، وهذه مسألة لم يفطن لتفسيرها علماء

---

(١) يقول الحق : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (٤١) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (٤٢) هُوَ الَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا (٤٣) ﴾ [الأحزاب] فقد عبر القرآن بالظلمات ، والمراد بها الكفر ، وبالنور والمراد به الإيمان ، وهذه هى بلاغة الإعجاز فى كتاب الله .

ما قبل الإسلام ، حيث كانوا يظنون أن الرؤية إنما تحدث من انتقال شعاع من عين الرائى إلى المرئىِّ ، حتى جاء «الحسن بن الهيثم» العالم الإسلامى واكتشف قوانين الضوء ، وكشف خطأ ما سبقه من نظريات ، وحدَّد أن المرئىّ هو الذى يصدر منه شعاع إلى الرائى ، وإذا ما كان المرئى فى ظُلمة فلن يراه أحد ، ولو كان هناك شعاع يخرج من الرائى ؛ لرأى الإنسان فىً الظلام.

إذن: أول ولاية من الله للمؤمنين أنه سبحانه يخرجهم من الظلمات إلى النور ، والظلمة المعنوية أقوى من الظلمة الحسية ، وكذلك النور المعنوى أقوى من النور الحسّى ، فعالَمُ القيم قد يكون أقوى من عالم الحس ؛ لأن الجبر فى عالم الحسّ يمكن أن يحدث ، أما فى عالم القيم فهو أمر شاق ؛ ولذلك قال الشاعر:

جراحاتُ السنانِ[1] لها التئامُ ... ولا يلتامُ ما جَرَحَ اللسانُ

ويقول الحق سبحانه فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها:

﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) ﴾ [يونس]

و«ألا» كما أوضحنا من قبل أداة تنبيه من المتكلِّم للمخاطب حتى لا تفوته كلمة واحدة مما يجىء فى الخطاب.

وقوله سبحانه: ﴿ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ..(٦٢) ﴾. أى: لا خوف عليهم من غيرهم ﴿وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) ﴾ أى: أن الحزن لن يأتى منهم ، والخوف يكون من توقع شىء ضار لم يقع حتى الآن ، ولكنه قد

(١) السنان: السهام والرماح. وجراحاتها: آثار الجروح نتيجة الإصابة بها. والالتئام: هو اندمال هذه الجروح. [انظر لسان العرب].

يحدث فى المستقبل.

وفى حياتنا اليومية نجد الأب يمسك بيد ابنه فى الزحام خوفاً عليه ، وقد ترى وليّاً من أولياء الله وقد أصيب ابنه فى حادث أو مات الابن ، تجد الولىّ فى ثبات لأنه يعلم حكمة الله فى قضائه ، فلا تتطوع أنت بالخوف عليه.

إذن: فالخوف يأتى من المستقبل ، وهو أمر مرتقب ، أما الحزن فهو إحساس يحدث على شىء فات.

والحق سبحانه يقول:

﴿لِكَيْلا تَأْسَوْا (١) عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ ..(٢٣)﴾ [الحديد]

والحزن على ما فات عبث ؛ لأن ما فات لا يعود.

وأولياء الله تعالى لا خوف عليهم ؛ لأنهم دائماً بصدد معرفة حكمة الله ، ومَنْ لا يعرف حكمة الله تعالى فى الأشياء قد يقول: «إن فلاناً هذا مسكين» ؛ لأنك لا تعرف ماذا جرى له.

وأما الحزن فهو مشاعر قلبية يريد الله من المؤمن أن تمر على باله.

وقد قال ﷺ حين افتقد ابنه: «وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون» ولكنه حزن الوَرَع الذى يتجلَّى فى قوله ﷺ :

«إن العين تدمع ، والقلبُ يحزن ، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا »(٢).

---

(١) الأسى: الحزن الشديد. وتمام الآية: ﴿وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ .. (٢٣)﴾ [الحديد] بل عليه أن يكون متوازناً، فلا يحزن على شىء فاته، ولا يفرح بشىء جاءه قد يذهب بعد حين.

(٢) متفق عليه. أخرجه البخارى فى صحيحه (١٣٠٣) ومسلم (٢٣١٥) من حديث أنس بن مالك.

ويبيّن الله سبحانه لنا شروط الولاية فيقول:

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾

والإيمان هو الأمر الاعتقادى الأول الذى يُبنى عليه كل عمل ، ويقتضى تنفيذ منهج الله ، الأمر فى الأمر ، والنهى فى النهى، والإباحة فى الإباحة.

والتقوى - كما علمنا - هى اتقاء صفات الجلال فى الله تعالى ، وأيضاً اتقاء النار ، وزاد رسول الله ﷺ فى صفات من تصدر عنه التقوى ؛ لأنها مراحل ، فقال ﷺ يصف المتقين:

«هم قوم تحابُّوا بروح الله على غير أرحام بينهم ، ولا أموال يتعاطونها ، فوالله إن وجوههم لنور، وإنهم لَعلَى نور»[(١)].

وقد سُئل عمر - رضى الله عنه - عن المتقين فقال: « الواحد منهم يزيدك النظر إليه قُرباً من الله». وكأنه-رضى الله عنه - يشرح لنا قول الحق سبحانه:

﴿ سِيمَاهُمْ[(٢)] فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [الفتح]

وساعة ترى المتقى لله تُسَرُّ وتفرح به ، ولا تعرف مصدر هذا السرور إلا حين يقال لك: إنه ملتزم بتقوى الله ، وهذا السرور يلفتك إلى أن تقلده ؛ لأن رؤياه تذكِّرك بالخشوع[(٣)] ، والخضوع[(٤)] ، والسكينة ، ورقَّة

---

(١) أخرجه أبو داود فى سننه (٣٥٢٧) من حديث عمر بن الخطاب، وتمامه: «إن من عباد الله لأناساً ما هم بأنبياء ولا شهداء، يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من الله تعالى» قالوا: يا رسول الله، تخبرنا: من هم؟ قال: « هم قوم تحابوا بروح الله على غير أرحام بينهم ، ولا أموال يتعاطونها ، فوالله إن وجوههم لنور ، وإنهم لعلى نور ، لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس» وقرأ هذه الآية: ﴿ ألا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [يونس].

(٢) سيماهم: علامات التقوى والإيمان ، وهو ذلك النور فى وجوههم.

(٣) خَشَع (خشوعًا) إذا خضع ، وخَشَعَ فى صلاته ودعائه . وقيل: بقلبه على ذلك ، وهو مأخوذ من (خَشَعَتْ) الأرض إذا سكنت واطمأنت [المصباح المنير] .

(٤) وخضع لغريمه (يخضع) خضوعاً: ذَلَّ واستكان فهو خاضع وأخضعه الفقر: أذله . والخضوع قريب من الخشوع إلا أن الخشوع أكثر ما يستعمل فى الصوت ومنه: ﴿ وَخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَـٰنِ .. ﴿١٠٨﴾ ﴾ [طه] والخضوع فى الأعناق ومنه قول الفرزدق: خضع الرقاب نواكس الأبصار . [المصباح المنير]

السَّمْت ، وانبساط الأسارير.

والواحد من هؤلاء ينظر إلى الكون ولا يجد فى هذا الكون أى خَلَل، بل يرى كل شىء فى موضعه تماماً، ولا يرى أى قُبح فى الوجود، وحتى حين يصادف القبح، فهو يقول: إن هذا القبح يبيِّن لنا الحُسْن، ولولا وجود الباطل ومتاعبه لما عشق الناسُ الحقّ، وهكذا يصير الباطل من جنود الحق.

إن وجود الشرّ يدفع الناس إلى الخير ؛ ولذلك يقال: كُنْ جميلاً فى دينك تَرَ الوجود جميلاً ؛ لأنك حين ترى الأشياء وتقبل قدر الله فيها ، هنا يفيض الله عليك بهبات من الفيض الأعلى، وكلما تقرَّبت إلى الله زاد اقتراب الله سبحانه منك ، ويفيض عليك من الحكمة وأسرار الخلق[(١)].

ومثال ذلك: العبد الصالح الذى آتاه الله من عنده رحمة وعلَّمه من لدنه علماً ، هذا العبد يعلّم موسى عليه السلام[(٢)] ، فحين قارن بين خَرْق العبد الصالح لسفينة سليمة ، ولم يكن يعلم أن هناك حاكماً ظالماً يأخذ كل سفينة غَصْباً ؛ ولذلك ناقش موسى العبد الصالح ، وتساءل: كيف تخرق سفينة سليمة؟ وهنا بيَّن له العبد الصالح أن الملك الظالم حين يجد السفينة مخروقة فلن يأخذها ، وهى سفينة يملكها مساكين[(٣)].

وحين قَتل العبدُ الصالح غلاماً ، كان هذا الفعل فى نظر سيدنا موسى

---

(١) ويقول رسول الله ﷺ : « ما تقرب إلىَّ عبدى بشىء أحبّ إلىَّ مما افترضته عليه ، وما يزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، وإن سألنى لأعطينه ، ولئن استعاذ بى لأعيذنه » أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٥٠٢) وأحمد فى مسنده (٦/ ٢٥٦) عن أبى هريرة .

(٢) قال سبحانه عن موسى وفتاه فى لقائهما بالخضر عليه السلام : ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا (٦٥) قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا (٦٦) قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٦٧) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا (٦٨) قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا (٦٩) قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا (٧٠) ﴾ [الكهف].

(٣) وذلك أن موسى استنكر عليه فعله هذا فقال : ﴿ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا (٧١) ﴾ [الكهف] فكان رده عليه فيما بعد : ﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا (٧٩) ﴾ [الكهف].

جريمة ، ولم يعلم سيدنا موسى ما علمه العبد الصالح أن هذا الولد سوف يسىء إلى أهله ، وأمر الله العبد الصالح بقتله قبل البلوغ حتى لا يفتن أهله [(١)] ، وسوف يدخل هذا الولد الجنة ويصير من دعاميص [(٢)] الجنة.

ويقال: إن من يموت من قبل البلوغ ليس له مسكن محدّد فى الجنة ، بل يذهب حيث يشاء ؛ فهو كالطفل الصغير الذى يدخل قصراً ، ولا يطيق البقاء فى مكان واحد ، بل يذهب هنا وهناك ، وقد يذهب إلى حيث سيدنا محمد ﷺ أو أبو بكر الصديق ، أو عند أى صحابى جليل.

وأيضاً حين دخل سيدنا موسى - عليه السلام - مع العبد الصالح إلى قرية واستطعما أهلها فرفضوا أن يطعموهما - وطلب الطعام . هو أصدق ألوان السؤال - فأبى أهل القرية أن يطعموهما ، وهذا دليل الخسَّة واللؤم ؛ فأقام العبد الصالح الجدار الآيل للسقوط فى تلك القرية.

ولم يكن سيدنا موسى - عليه السلام - قد علم ما علمه العبدُ الصالح من أن رجلاً صالحاً قد مات وترك لأولاده كنزاً تحت هذا الجدار ، وبناه بناية موقوتة بزمن بلوغ الأبناء لسن الرشد؛ فيقع الجدار ليجد الأبناء ما ترك لهم والدهم من كنز ، ولا يجرؤ أهل القرية اللئام على السطو عليه [(٣)] .

---

(١) قال موسى : ﴿ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا (٧٤) ﴾[الكهف] فنبأه الخضر بتأويل ما لم يستطع فهمه أ. استيعابه فقال له : ﴿ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا (٨٠) فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا (٨١) ﴾ [الكهف].

(٢) دعاميص: هم صغار الأطفال، فسر بالدويبة التى تكون فى مستنقع الماء، قال: والدُّعْموص: الدخَّال فى الأمور ، أى: أنهم سيَّاحون فى الجنة دَخَّالون فى منازلها، لا يُمنعون من موضع، كما أن الصبيان فى الدنيا لا يُمنعون من الدخول على الحُرَم، ولا يحتجب منهم أحد. [لسان العرب: مادة (دع م ص)].

(٣) وهذا أمر ذكره رب العزة فى كتابه فقال عن موسى والخضر : ﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا (٧٧) ﴾ [الكهف] . فقال له الخضر فيما بعد : ﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي .. (٨٢) ﴾ [الكهف].

إذن : هذه هباتٌ من فيض الحق سبحانه على عباده الصالحين ، وهو سبحانه وتعالى يجعل مَثَل هؤلاء العباد كالصوارى المنصوبة التى تهدى الناس ، أو كالفنار الذى يهدى السفن فى الظلمة .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ ﴾

والبُشرى [(١)] : من البشْر والبشارة والتبشير ، وكلها مأخوذة من البشرة ، وهى الجلد ؛ لأن أى انفعال فى باطن النفس الإنسانية إنما ينضح على البشرة ، فإذا جئت للإنسان بأمر سارٍّ تجد أثر هذا السرور على أساريره ، وإن جئت للإنسان بخبر سيِّىء تجد الكدر وقد ظهر على بشرته ، فالبشرة هى أول منفعل بالأحداث السارة أو المؤلمة .

وحين يقال : «بشرى» فهذا يعنى كلاماً إذا سمعه السامع يظهر على بشرته إشراق وسرور ؛ لأنه كلام مبشِّر بخير .

وحين سئل رسول الله ﷺ عن البشرى ، قال : « إنها الرؤية الصالحة تُرى للمؤمن أو يراها »، وقال ﷺ : « إنها جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة» [(٢)] .

---

(١) بشرَ بكذا ، ويبشر ، مثل : فرح ، وزناً ومعنىً ، وهو الاستبشار ، والمصدر : البشور واسم الفاعل من المخفف : بشير ، وهو البشير فى الخير أكثر من الشر ، والبشر . والبُشْرَى : فُعْلَى من ذلك ، والبشارة إذا أطلقت اختصت بالخير . والبشْر : طلاقة الوجه . والبَشْرة : ظاهر الجلد . وبين البشرى بمعنى السرور ، والبشرة ظاهر الجلد تفاعلٌ يظهر مرئياً فى السرور وغيره . [المصباح المنير - بتصرف] .

(٢) متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٩٨٣) ومسلم (٢٢٦٤) عن أنس بن مالك أنه ﷺ قال : «الرؤيا الحسنة من الرجل الصالح جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة» .

وقد أوحى للنبى ﷺ بالرؤيا ستة أشهر ، وأوحى إليه فى اليقظة ثلاثة وعشرين عاماً ، فإذا نسبت الستة أشهر إلى الثلاثة والعشرين عاماً ، تجد أن الستة أشهر تمثل جزءاً من ستة وأربعين جزءاً.

والرؤيا ليست هى الحُلْم ؛ لأن الرؤيا هى شىء لم يشغل عقلك نهاراً ، وليس للشيطان فيه دخل.

والمثل العامى يقول: «الجوعان يحلم بسوق العيش» فإن كان ما يراه الإنسان فى أثناء النوم له علاقة بأمر يشغله ، فهذا هو الحلم ، وليس الرؤيا ، وإن كان ما يراه الإنسان فى أثناء النوم شيئاً يخالف منهج الله ، فهذه قذفة من الشيطان [(١)].

إذن: فهناك فارق بين الرؤيا والحلم ، وأضغاث الأحلام [(٢)].

البشرى - إذن - هى الرؤيا الصالحة ، أو هى المقدمات التى تُشْعر خَلْق الله بهم فتتجه قلوب الناس إلى هؤلاء الأولياء ، وقد تجد واحداً أحبه الله تعالى فى السماء ، فيقول الله سبحانه وتعالى لجبريل عليه السلام: « إنى أحب فلاناً فأحبَّهْ. قال: فيحبه جبريل ، ثم ينادى جبريل فى السماء فيقول: إن الله يَحب فلاناً فأحِبُّوه ، فيحبه أهل السماء. قال: ثم يُوضع له القبول فى الأرض [(٣)] » .

---

(١) ونحو ذلك رواه جابر بن عبد الله عن رسول الله ﷺ أنه قال لأعرابىّ جاءه فقال: إنى حلمت أن رأسى قطع فأنا أتبعه، فزجره النبى ﷺ وقال: « لا تُخْبِرْ بتلعُّب الشيطان بك فى المنام» أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٢٦٨).

(٢) أضغاث الأحلام: الرؤيا التى لا يمكن تأويلها لاختلاطها والتباسها ، والضغث: الحلم الذى لا تأويل له ولا خير فيه، وفى التنزيل العزيز: ﴿ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ ..(٤٤) ﴾ [يوسف] أى: رؤياك أخلاط ليست برؤيا بينة، ﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ (٤٤) ﴾ [يوسف] أى: ليس للرؤيا المختلطة عندنا تأويل. [لسان العرب: مادة (ض غ ث)]. وهم قالوا هذا لعجزهم عن تأويلها ، ولكن يوسف فسرها للملك، فلا تكون أضغاث أحلام

(٣) متفق عليه. أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٢٠٩) ومسلم (٢٦٣٧) من حديث أبى هريرة. واللفظ لمسلم، وتمامه عنده «وإذا أبغض عبداً دعا جبريل فيقول: إنى أبغض فلاناً فأبغضه. قال: فيبغضه جبريل. ثم ينادى فى أهل السماء: إن الله يبغض فلاناً فأبغضوه. قال: فيبغضونه. ثم توضع له البغضاء فى الأرض».

وساعة تراه مكتوباً له القبول ، فالكل يُجمعون على أن فى رؤيتهم لهذا المحبوب من السماء سَمْتاً طيباً ، وهذه هى البشرى .

أو أن البشرى تأتى لحظة أن يأتى مَلَكُ الموت ، فيُلْقى عليه السلام ، ويشعر أن الموت مسألة طبيعية ، مصداقاً لقول الحق سبحانه :

﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٢) ﴾ [النحل]

أو ساعة يبيضُّ الوجه حين يأخذ الإنسان من هؤلاء كتابه بيمينه ، وهذه بشرى فى الدنيا وفى الآخرة .

والحق سبحانه يقول :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا . . (٣١) ﴾ [فصلت]

إذن : فهؤلاء الأولياء [(١)] يتلقون من فيوضات [(٢)] الله عليهم بواسطة الملائكة ويتميزون عن غيرهم ؛ لأن الواحد منهم قد يفرض على نفسه نوافل فوق الفروض ؛ لأن الفروض هى أقل القليل فى التكاليف .

وقد يرى واحد منهم أن القيام بالفروض لا يتناسب مع حبه لله تعالى ؛

---

(١) هؤلاء الأولياء الذين تخلَّوا عن المعاصى وتحلَّوا بالطاعات فتجلَّى سبحانه عليهم بالفيوضات ومن هذا الفيض القبول والرؤيا الصالحة .

(٢) من عطاءات القبول باقى الآيات فى قوله تعالى : ﴿ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (٣١) نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ (٣٢) ﴾ [فصلت] وهناك عطاءات وإمدادات لا نعلمها ، الله يعلمها ، وهو علام الغيوب .

فيزيد من جنسها على ما فرض الله ، ويصلِّى - بدلاً من خمسة فروض - عشرة أخرى نوافل ، أو يصوم مع رمضان شهراً أو اثنين ، أو يصوم يومى الاثنين والخميس من كل أسبوع .

وهذا دليل على أنه وجد أن الفروض قليلة بالنسبة لدرجة حبه لله تعالى ، وأن الله تعالى يستحق أكثر من ذلك ، وهذا معناه أن مثل هذا العبد قد دخل فى مقام الود [1] مع الله تعالى ، وهنا يفيض الله سبحانه وتعالى عليه بما يشاء ، وينال من رضوان الله ما جاء فى الحديث القدسى :

«من عادى لى وليّاً فقد آذنته بالحرب ، وما تقرَّب إلىَّ عبدى بشىء أحب إلىَّ مما افترضته عليه ، وما يزال عبدى يتقرب إلىَّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجْلَهُ التى يمشى عليها ، وإن سألنى لأعطينَّه ، ولئن استعاذنى لأعيذنَّه ، وما ترددت عن شىء أنا فاعله ترددى عن نفس المؤمن ، يكره الموت وأنا أكره مساءته» [2] .

وهكذا تختلف المقاييس بين عبد يحب الله تعالى ويؤدى فوق ما عليه ، وعبد آخر يقوم بالتكاليف وحدها .

ويُنهى الحق سبحانه الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها بقوله :

﴿ لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٤) ﴾ [يونس]

---

(١) وَدَّ : أحبَّ . والاسم : المودة . وودود ، أى : مُحبٌّ ، يستوى فيه الذكر والأنثى . [المصباح المنير] .
(٢) المساءة : نقيض المسرَّة ، وأصلها : مسوأة ، علَى مفعلة ، ولهذا ترد الواو فى الجمع فيقال : هى (المساوى) لكن استعمل الجمع مخفَّفًا ، وبَدَتْ مساويه أى : نقائصه ، والسوءة : العورة ، والجمع : سوءات ، وسمّيت سوأة لأنها بانكشافها تسوء صاحبها . [المصباح المنير] .
والحديث أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٥٠٢) وأحمد فى مسنده (٦/ ٢٥٦) عن أبى هريرة .

وما دام الحق سبحانه قد قال: ﴿لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ..﴾ فلن تجد أحداً قادراً على ذلك، كما أن الخلق مقهورون كلهم يوم القيامة؛ ومَنْ كان يبيح له الله تعالى أن يملك شيئاً فى الدنيا لم يعد مالكاً لشىء، بدليل أن الكل سيسمع قول الحق سبحانه:

﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦)﴾ [غافر]

وما دام الحق سبحانه قد وعد ببشرى الدنيا وبشرى الآخرة، فلا تبديل لما حكم به الله، فلا شىء يتأبَّى على حكم الله تعالى، والوعد بالبُشريات فى الدنيا وفى الآخرة فوز عظيم مؤكد.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦٥)﴾

تجىء هذه الآية بعد أن بيَّن لنا الله سبحانه وتعالى اعتراضات الكفار، وإيذاءهم لرسول الله ﷺ وتكذيبهم له وقولهم فيه ما قالوه، وفيما قالوه ما أحزنه ﷺ؛ لذلك طلب منه الحق سبحانه ألاَّ ينفعل لما قالوه انفعال الحزين، فقد قالوا: ساحر، وكاذب، ومُفْتَر، ومجنون، وقد نفى عنه الحق سبحانه كل ما قالوه، فلو كان محمد ﷺ ساحراً فلماذا لم يسحرهم هم أيضاً، وهل للمسحور إرادة مع الساحر؟!

إذن: كَذَّبَ قولَهم فى أنه ﷺ سحر عبيدَهم وأولادَهم.

وقالوا: مجنون، ولم يكن فى سلوكه ﷺ أدنى أثر من جنون، وفنَّد أقوالهم هذه بقوله سبحانه:

﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (١) مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (٢) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ (١) (٣) وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤)﴾ [القلم]

فالمجنون لا يكون على خُلُق عظيم أبداً .

وحين قالوا : إنه افترى القرآن ، تحداهم أن يأتوا بسورة من مثل ما قال (٢) ، وعجزوا عن ذلك رغم أنهم مرتاضون (٣) للشعر والأدب والبيان .

وقول الحق سبحانه :

﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ .. (٦٥)﴾ لأن أقوالهم لا حصيلة لها من الوقوف أمام الدعوة ؛ لأن ﴿.. الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا .. (٦٥)﴾ والعزة هى القوة ، والغلبة ، ويقال : هذا الشىء عزيز ، أى : لا يوجد مثله ، وهو سبحانه العزيز المُطْلَق ؛ لأنه لا إله إلا هو لا يُغلَب ولا يُقهَر .

وتلحظ حين تقرأ هذه الآية وجود حرف «الميم» فوق كلمة ﴿قَوْلُهُمْ﴾ (٤) وتعنى : ضرورة الوقف هنا .

---

(١) مَنّ عليه بالعتق وغيره (مَنّا) من باب قتل . وامنن عليه به : أنعم عليه به . والاسم المنَّة ، والجمع (منن) والمُنة بالضم : القوة ، وهى من الأضداد . ومننت عليه : أى : عددت له ما فعلت له من الصنائع . وفى هذا تكدير وتغيير تنكسر منه القلوب . لهذا نهى الشارع عنه فى قوله : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِى يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٢٦٤)﴾ [البقرة] . ومننت الشىء أيضاً إذا قطعته فهو ممنون . والمنّ : شىء يسقط من السماء . فيجنى . [المصباح - بتصرف] .

(٢) وذلك قوله تعالى : ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣٨)﴾ [يونس] .

(٣) مرتاضون للشعر : أى : لهم دُرْبة على قول الشعر ونَظْمه .

(٤) وهذا هو الوقف اللازم ، ومثله قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ..(٣٦)﴾ [الأنعام] .

ولسائل أن يقول:

كيف يلزم الوقف هنا مع أن القرآن الكريم مبنىٌّ على الوصل ؛ وآخر حرف فى كل سورة تجده مُنوَّناً ، وليس فى القرآن ما يُلزِم الوقف للقارىء ؟

وأقول رَدّاً على هذا التساؤل: إن العلماء حين لاحظوا ضعف مَلَكة اللغة ؛ جاءوا بهذا الوقف ليتفهم القارىء - الذى لا علم له بالبيان العربى - كيف يقرأ هذه الآية ، فهَبْ أن واحداً لا يملك فطنة الأداء ، فينسب ﴿ .. **إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا** ..(٦٥) ﴾ إلى ﴿ **وَلا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ** .. (٦٥) ﴾. ويخطىء الفهم ، ويظن - معاذ الله - أن العزة لله هى أمر يُحزِن النبى ﷺ ؛ لذلك جاء العلماء بالوقف هنا لندقِّق القراءة ونُحْسِن الفهم.

ولذلك علينا أن نقرأ ﴿ .. **وَلا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ** .. (٦٥) ﴾ ثم نتوقف قبل أن نتابع القراءة ﴿ **إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا** .. (٦٥) ﴾ ؛ وبهذا نفهم المعنى : يجب ألاَّ تحزن يا محمد ؛ لأن أقوالهم لن تغيّر فى مجرى حتمية انتصارك عليهم.

ويريد الحق سبحانه هنا أن يطمئن رسوله ﷺ فى أمر محدد ، هو أنه ﷺ مهمته هى البلاغ فقط ، وليس عليه أن يُلزمهم بالإيمان برسالته والتسليم لمنهجه .

وبيّن له الحق سبحانه : أنهم إذا ما صدُّوا بعد بلاغك ، فلا تحزن مما يقولون ؛ فأقوالهم لا يقوم عليها دليل ، ولا تنهض لها حُجَّة ، وقد جاء فيهم قول الحق سبحانه :

﴿ **وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا**[1] **أَنفُسُهُمْ** ..(١٤) ﴾ [النمل]

---

(١) الجحود: الإنكار رغم العلم. واستيقن الأمر: علمه على سبيل اليقين. [لسان العرب: مادة (ى ق ن)].

وأقوالهم لن تقف فى سبيل دعوتك ، وسيُتمُّ الله نوره ، ولا يوجد أعز من الله سبحانه وتعالى ، ولن يجير أحد على الله أحداً ، فهو سبحانه يُجير ولا يُجار عليه .

وإذا كانت العزة هى القهر والغلبة ، وقد تكون عزة حُجّة ، وقد تكون عزة حلْف ، وقد تكون عزة حكمة ، وكل واحد من خلق الله سبحانه قد توجد له عزة مجال ما أو محيط ما ، لكن العزة لله سبحانه شاملة مطلقة فى كل محيطٍ وفى كل مجال ، شاملة لكل شىء وأى شىء .

ولماذا لم يأت الحق سبحانه بأسلوب القَصْر [1] فى هذه الآية ؟

أى : أن تأتى الصفة للموصوف وتنفيها عما عداه ؛ كأن نقول : «لزيد مالٌ ليس لغيره» . وإذا قدمنا الجار والمجرور - وهو المتعلّق - فنقول : «لفلان كذا» ، وهذا يعنى أن غير فلانٍ ليس له كذا .

وإنْ قلنا : «فلان له كذا» فيصح أن نقول : «ولفلانٍ كذا ، ولفلانٍ كذا ، ولفلانٍ كذا» .

أما إذا قلت : «لفلان كذا» فمعناها : امتناع أن يكون لغير فلان شىء من مثل ما قلت .

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿ ..إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ..(٦٥) ﴾ وجاء بالتأكيد ولم يأت لها بأسلوب القصر الذى يعطى العزة لله سبحانه وينفيها عن غيره ؛ لأنه لا يوجد لهذه الآية مناهض ، وهو كلام ابتدائى يخبر به الله سبحانه خبراً كونياً بأن العزة لله جميعاً .

---

(١) أسلوب القصر (أو الحصر) : هو تخصيص أمر بآخر بطريق مخصوص ، وهو إثبات الحكم للمذكور ونفيه عما عداه . وينقسم إلى : قصر الموصوف على الصفة ، وقصر الصفة على الموصوف ؛ وكل منهما إما حقيقى وإما مجازى . [الإتقان فى علوم القرآن ، لجلال الدين السيوطى - ٣/ ١٤٩] .

وما دام الحق سبحانه هو الذى يقول ذلك - وهو خالق الخلق - فلن تأتى قضية كونية تناقضها ، ولو وجدت - معاذ الله - قضية كونية تناقضها ، فالآية لن تكون صادقة. وهذا لم ولن يحدث أبداً مع آيات الحق سبحانه ؛ لأنه هو خالق الكون ، وهو مُنزل الآيات ؛ فلا يمكن أن يحدث تناقض أبداً بين الكون وكلام خالق الكون سبحانه وتعالى .

وقد حدث أن ادعى بعضهم [1] العزة لنفسه وقالوا:

﴿ ..لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ ..(٨) ﴾ [المنافقون]

وكان مغزى قولهم هو ادعاء العزة لأنفسهم ، وادعاء الذلة للمؤمنين.

إذن: فالعزة قد ادُّعيت ، وما دامت قد ادعيت فلماذا لم تأت بأسلوب القصر؟

نقول: لا ، لقد شاء الحق سبحانه أن يقول:

﴿ ..وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ..(٨) ﴾ [المنافقون]

فالعزة لله لا تتعداه ، ولكنه سبحانه شاء أن تكون عزة رسوله ﷺ وعزة المؤمنين من باطن عزة الله تعالى.

وقول الحق سبحانه هنا:

﴿ .. إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا .. ﴾ أى: فى كل ألوانها هى لله سبحانه وتعالى ، إن كانت عزة حكمة فهو الحكيم ، وإنْ كانت عزة القبض على الأمور فهو

---

(١) هو عبد الله بن أبىّ رأس النفاق فى المدينة، وكان ذلك فى غزوة بنى المصطلق فى شهر شعبان فى السنة السادسة من الهجرة ، وذلك أنه وصف محمداً وصحبه فقال: « قد نافرونا وكاثرونا فى بلادنا، والله ما أعدنا وجلابيب قريش إلا كما قال الأول: سَمِّن كلبك يأكلك، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنَّ الأعز منها الأذل. ثم أقبل على من حضره من قومه فقال لهم: هذا ما فعلتم بأنفسكم، أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم». أورده ابن هشام فى السيرة النبوية (٣/ ٢٩٠ ، ٢٩١).

العزيز ، وإن كانت عزة الحلْم فهو الحليم ، وإنْ كانت عزة الغضب والانتقام فهو المنتقم الجبّار ، وكلُّ ألوان العزة لله تعالى :

﴿ .. هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦٥) ﴾ [يونس]

وما دامت العزة هى الغلبة والقهر ، فالله سبحانه يسمع من يستحق أن يُقهر منه ، وما دام الأمر فيه قول فهو يجىء بالسمع ، وإنْ كان فيه فعل ، فهو يأتى بصفة العليم ، فهو السميع لما يُقال والعليم بما يُفعل .

ونحن نعلم أن المنهىَّ عنه هنا هو : ﴿ وَلا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ .. (٦٥) ﴾[يونس]

لذلك كان المناسب أن يقال : ﴿هُوَ السَّمِيعُ ..﴾ أولاً .

ويريد الحق سبحانه أن يدلِّل على هذه القضية دلالة كونية فى آيات الله تعالى فى الكون ، وليس فى الوجود أو الكون مَنْ يقف أمامه سبحانه ؛ لذلك لا بد أن نلحظ أن قانون «العزة لله جميعاً » محكوم بأن لله تعالى ما فى السموات وما فى الأرض .

لذلك يقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (٦٦) ﴾ (١)

فالحق سبحانه - إذن - لن يَخرج كائنٌ مَنْ كان عن ملكه .

وساعة تجد الحق سبحانه يبيِّن الشىء وضده ، فهو يأتى بالقانون والإطار

(١) يخرصون : يتبعون ظنونهم وكذبهم وإفكهم [تفسير ابن كثير (٢/ ٤٢٤)] .

﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ..(٢٨٤)﴾ [البقرة]

ومثال ذلك: حين تبع قوم فرعون موسى - عليه السلام - وقومه ، قال أصحاب موسى: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١)﴾ [الشعراء]

قالوا ذلك ؛ لأنهم رأوا البحر أمامهم ، فشاء الحق سبحانه أن يبيِّن لهم أن البحر لن يعوق مشيئته سبحانه ، ولم ينفلت البحر من قوة الله تعالى ؛ لأن لله ما فى السموات وما فى الأرض ، والبحر منها ؛ لذلك انفلق البحر ، فكان كل فِرْقٍ كالطود العظيم [1] .

فلا شىء يخرج عن مُلكه سبحانه تعالى ؛ ولذلك يأتى الحق سبحانه بالنقيض ، فبعد أن جعل الحق سبحانه لهم مسلكاً فى البحر ، وكل فرْق كالطود العظيم ، ويظل البحر مفلوقاً فيدخل قوم فرعون فيه .

والحق سبحانه يقول لموسى عليه السلام : ﴿وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ (٢٤)﴾ [الدخان]

فيأمر الحق سبحانه البحر أن يعود كما كان ؛ فيغرق قوم فرعون بعد أن أنجى الله - سبحانه وتعالى - موسى - عليه السلام - ومن معه ، فأهلك وأنجى بالشىء الواحد ؛ لأنه سبحانه له ما فى السموات وما فى الأرض ، وليبيِّن الحق سبحانه لنا أنه لا شىء فى كون الله تعالى يقوم مقام عزته سبحانه أبداً .

---

(١) يقول رب العزة سبحانه : ﴿فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١) قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢) فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٣) وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الآخَرِينَ (٦٤) وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ (٦٥) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ (٦٦) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (٦٧) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٦٨)﴾ [الشعراء] .

والفِرْق : الفلق أو الجزء منه . والطود : الجبل الكبير . [ذكره ابن كثير فى تفسيره (٣/ ٣٣٦)]، و[لسان العرب : مادة (ف ر ق)] .

وهناك مثال آخر: حين يقول نوح - عليه السلام - لابنه:
﴿ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا .. (٤٢) ﴾ [هود]

فيردّ الابن قائلاً:

﴿ سَآوِى إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ الْمَاءِ [(١)] .. (٤٣) ﴾ [هود]

وهذا كلام صحيح من ناحية أن الجبل يعلو مستواه عن مستوى المياه، ولكن ابن نوح نسى أن لله تعالى جندياً آخر هو الموج؛ فكان من المغرَقين.

صحيح أن ابن نوح فطن إلى أن السفينة سوف تستوى على «الجودى» [(٢)]، وأن من يركبها لن يغرق، وكذلك من يأوى إلى الجبل العالى، لكنه لم يفطن إلى الموج الذى حال بينه وبين الجبل؛ فكان من المغرقين.

إذن: فكل كائن هو مؤتمر بأمر من الله تعالى، وما دامت العزة لله جميعاً فمصداقها أن لله تعالى ما فى السموات وما فى الأرض، وليس هناك كائن فى الوجود يتأبَّى على أن يكون جندياً من جنود الحق سبحانه، فيكون جندياً للإهلاك، وجندياً للنجاة فى نفس الوقت [(٣)].

وقول الحق سبحانه هنا: (ألا) نعلم منه أن (ألا) أداة تنبيه للسامع فلا يؤخذ على غرَّة، ولا تفوته حكمة من حكم الكلام، وينتبه إلى أن

---

(١) يقول رب العزة سبحانه: ﴿ قَالَ سَآوِى إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (٤٣) ﴾ [هود] لقد اعتقد ابن نوح بجهله أن الطوفان لا يبلغ إلى رءوس الجبال، وأنه لو تعلق فى رأس جبل لنجاه ذلك من الغرق. [تفسير ابن كثير ٢/ ٤٤٦].

(٢) الجودى: قال مجاهد: هو جبل بالجزيرة، وهو الذى رست عليه سفينة نوح - عليه السلام. [تفسير ابن كثير ٢/ ٤٤٦]. وقيل: إنه جبل أرارات فى شرق تركيا بالأناضول.

(٣) يقول تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (٤) ﴾ [الفتح] ويقول أيضاً: ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ .. (٣١) ﴾ [المدثر].

هناك خطاباً عليه أن يجمع عقله كله ليحسن استقبال ما فى هذا الخطاب.

ويقول الحق سبحانه :

﴿ أَلا إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ .. (٦٦) ﴾ [يونس]

ولقائل أن يقول: هناك كثير من الكائنات غير العاقلة ، وقوله هنا ﴿مَن﴾ مقصود به الكائنات العاقلة ؟

ولنا أن نتساءل للرَّدِّ على هذا القائل :

وهل هناك أى شىء فى الوجود لا يفهم عن الله ؟

طبعاً لا ، والله سبحانه وتعالى هو القائل عن الأرض :

﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا (٤) بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا (٥) ﴾ [الزلزلة]

إذن: فكل الكائنات فى عُرف الاستقبال عن الله سبحانه سواء بـ «مَنْ» أو بـ «ما» ، وكل من فى الوجود يفهم عن الله .

ونلحظ أن الحق سبحانه يأتى مرة بالقول: ﴿ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا .. (٨٣) ﴾ [آل عمران]

ومرة يقول الحق سبحانه:

﴿ أَلا إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ .. (٦٦) ﴾ [يونس]

كما جاء فى هذه الآية التى نحن بصددها الآن .

شاء الحق سبحانه ذلك ؛ لأن هناك جنساً فى الوجود يوجد فى السماء ويوجد فى الأرض ، وهم الملائكة المُدَبِّرَات [1] أمْراً ، هؤلاء هم المقصودون بأن لله ما فى السموات والأرض.

---

(١) المدبِّرات أمراً : هى الملائكة تُدبِّر الأمر من السماء إلى الأرض بأمر ربها - عز وجل .

ولله سبحانه وتعالى أيضاً جنس فى السموات لا يوجد فى الأرض وهم الملائكة المهيمون [١] العالين ، وليس لهم وجود على الأرض ، كما أن لله تعالى جنوداً فى الأرض ليس لهم وجود فى السماء ، فإن لاحظنا الملائكة المدبرات أمراً ، نجد أن قول الحق سبحانه :

﴿ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. (٢٨٤) ﴾ [البقرة]

مناسب لها .

وإن لاحظنا أن لله ملائكة مهيمين فى السماء ، وجنوداً فى الأرض لا علاقة لهم بالسماء يكون مناسباً لذلك قول الحق سبحانه :

﴿ لِلَّهِ مَن فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ .. (٦٦) ﴾ [يونس]

وما دام كل شىء فى الكون مملوكاً لله تعالى فلا شىء يخرج عن مراده سبحانه ، فلا يوجد مثلاً غار يدخله كائن فراراً من الله ؛ لأنه سبحانه قادر على أن يسد الغار ، وإن شاء الله سبحانه أن يساعد من دخل الغار فهو تعالى يعمى بصر من يرقب الغار [٢] .

إذن : فلن يجير [٣] شىء على الله تعالى ، وستظل له صفة العزة

---

(١) المهيمون : الذين يهيمون فى عبادة الله وطاعته ، فمن الملائكة من لا شغل لهم إلا العبادة فتجد منهم القائمين فلا يركعون ، والركع فلا يسجدون ، والسجود فلا يرفعون . وهناك الملائكة الكروبيون ، وهم أقرب الملائكة لحملة العرش الثمانية ، قال عنهم سبحانه : ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا .. (٧) ﴾ [غافر] .

(٢) استجار به : طلب حمايته . قال تعالى : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ .. (٦) ﴾ [التوبة] وأجاره : تكفل بحمايته . قال تعالى : ﴿ .. وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ .. (٨٨) ﴾ [المؤمنون] أى : أنه يتكفَّل بحمايته من يلجأ إليه ولا يستطيع أحد أن يجير من يُريد الله عقابه . [القاموس القويم - بتصرف] .

(٣) هذا إشارة إلى ما حدث فى هجرة الرسول ﷺ ومعه أبو بكر من مكة إلى المدينة عندما دخلوا الغار وأثبت الله على بابه شجرة وأوجد حمامتين ترقدان على البيض ، وعنكبوتاً كبيراً قد سد باب الغار بخيوط علاها تراب وكأنه تراب السنين .

لا يخدشها خادش من وجود الله فى الكون.

ثم يقول الحق سبحانه:

﴿وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ.. (٦٦)﴾ [يونس]

ومعنى اتباعهم شركاء كأن هناك شركاء، رغم أن الأصل والحقيقة ألاَّ شركاء له سبحانه.

إذن: فهم يتبعون غير شىء؛ والدليل على ذلك موجود فى طى القضية، فهم يعبدونهم من دون الله تعالى، ومعنى العبادة أن يطاع أمر وينهى نهى، وما يعبدونه من أشياء لا أوامر لها ولا نواهى؛ فليس هناك منهج جاءوا به.

إذن: فلا ألوهية لهم.

إذن: فالأصل ألا شركاء لله تعالى، ولو كان له شركاء لأنزلوا منهجاً ولأوجدوا أوامر، وكان لهم نواه؛ لأن الذى يقول: «اعبدنى» إنما يحدد طريقة وأسلوب العبادة. وهاتوا واحداً من الذين تتبعونهم وتدعون لهم يكون له منهج، ولن يستطيعوا ذلك، والحق سبحانه هو القائل:

﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً (٤٢)﴾ [الإسراء]

أى: أننا لو افترضنا أن هناك آلهة ولها مظهر قوة كالشمس التى تضىء والقمر الذى ينير، والمطر الذى ينزل من السماء، والملائكة التى تدبِّر الأمر، لو صدَّقنا أن كل هؤلاء آلهة، فهم سيبحثون عن الإله الواحد الأحد؛ ليأخذوا منه القوة التى ظننتم أنها لهم.

ولذلك يقول الحق سبحانه:

﴿ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَـٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (٩١) ﴾ [المؤمنون]

إذ لو كان هذا الأمر صحيحاً لكانت هناك ولايات إلهية.

ولذلك قال الحق سبحانه:

﴿ أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ .. (٥٧) ﴾ [الإسراء]

و هم قالوا إنهم يعبدون الملائكة، وعليهم أن يعلموا أن الملائكة نفسها تعبد الله سبحانه وتعالى، وما دام لا يوجد شركاء لله لتتبعوهم؛ إذن: فأنتم تتبعون الظن.

لذلك جاء قول الحق سبحانه:

﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ [1] وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ [2] (٦٦) ﴾ [يونس]

ونحن نجد الذين أولعوا بأن يُوجدوا فى القرآن ظاهر تعارض ليشكِّكوا فيه، قالوا: إن هذه الآية مثالَ على ذلك؛ فيقولون: فى بداية الآية يقول: ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ .. (٦٦) ﴾ [يونس]

فينفى أن المشركين يتبعون شركاء لله، ثم يأتى فى آخر الآية فيقول إنهم يتَّبعون الظن والخرص، ففى أولها ينفى الاتباع، وفى آخرها يثبته.

---

(١) الظن: ما يحصل فى النفس عن أمارة، فهو شك راجح وفعله من أفعال الرجحان، من باب نصر. والظن مصدر، والظن: اسم لهذا الخاطر الذى يحصل فى النفس. قال تعالى: ﴿ وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا (٢٨) ﴾ [النجم] وجمعه: ظنون. ويستعمل الظن بمعنى اليقين مجازاً كقوله تعالى: ﴿ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسَابِيَهْ (٢٠) ﴾ [الحاقة] بمعنى تيقنت. [القاموس القويم - بتصرف].

(٢) الخرص: الكذب والقول بغير علم. وقال تعالى: ﴿ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ (١٠) ﴾ [الذاريات] قال الرجاج أى: الكذابون. [لسان العرب: مادة (خ ر ص) - بتصرف].

وهذا جهل ممن قال بهذا وادعى أن هناك تناقضاً فى الآية ، فالله سبحانه ينفى أن يكون ما يدعوه هؤلاء المشركون شركاء لله فى ملكه ، فللَّه من فى السموات ومن فى الأرض ، ولكنه يثبت أنهم يتَّبعون الظن والخرص والتخمين .

ونقول : ما هو الظن؟ وما هو الخرص؟

إن الظن حكم بالراجح كما أوضحنا من قبل فى النسب من أن هناك نسبة إنْ لم تكن موجودة فهى مشكوك فيها ، أو نسبة راجحة ، أو أن نسبة يتساوى فيها الشك مع الإثبات ، فإنْ كان الشك مساوياً للإثبات فهذا هو الشك . وإن رجحت ، فهذا هو الظن . أما المرجوح فنسميه وهماً .

الظن - إذن - حكم بالراجح . والخَرْص : هو التخمين ، والقول بلا قاعدة أو دليل .

والحق سبحانه يقول هنا :

﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ (٦٦) ﴾ [يونس]

والقرآن حين يوجه خطاباً فهو يأتى بالخطاب المستوعب لكل ممكن ، وهو سبحانه حكم عليهم هنا أنهم يتَّبعون الظن والخرص .

ونحن نعلم أن الكافرين قسمان : قسم يُعْلم حقيقة الشىء ، ولكنه يغيّر الحقيقة إلى إفك [1] وإلى خَرْص ، وقسم آخر لا يعرف حقيقة الشىء ، بل يستمع إلى من يعتقد أنه يعرف .

---

(١) أفكَ ، يَأفَك ويأفك - من باب « فرح » و« ضرب » : كذب وافترى باطلاً والإفك بكسر الهمزة : الكذب : وأفاك صيغة مبالغة أى : كثير الكذب . قال تعالى : ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٧) ﴾ [الجاثية] . [القاموس القويم] بتصرف .

إذن: فهناك مُتَّبِع - بكسر الباء - وهناك مُتَّبَع - بفتح الباء - المُتَّبَع - بفتح الباء - يعلم أن ما يقوله هو كلام ملتو، يشوّه الحقيقة ويزينها، أما المتّبِع - بكسر الباء - فيظن أنه يتبع أناساً عاقلين أمناء فأخذ كلامهم بتصديق.

إذن: فالمتبع (بكسر الباء) يكون الظن من ناحيته، أما المتبع (بفتح الباء) فيكون الخَرْص والكذب والافتراء من ناحيته؛ ولذلك يقول لنا الحق سبحانه:

﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ (٧٨) ﴾ [البقرة]

هؤلاء - إذن - يصدِّقون ما يقال لهم؛ لأنهم أميُّون، والكلام الذى يقال لهم راجح، وهم لو فكروا بعقولهم لما انتهوا إلى أنه كلام راجح.

أما الآخرون فيقول فيهم الحق سبحانه:

﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً ..(٧٩) ﴾ [البقرة]

وهؤلاء هم الذين يأتى منهم الخَرْص والإفك وقول الزور والبهتان[1].

إذن: فالكفار إن كانوا من الأميين فهم من أهل الظن، وينطبق عليهم قول الحق سبحانه: ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ ..(٦٦) ﴾.

وإن كانوا من القادة والرؤساء فهؤلاء هم من ينطبق عليهم قول الحق سبحانه: ﴿ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ (٦٦) ﴾.

---

(١) البهتان: الافتراء و الكذب. قال تعالى: ﴿ وَلا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ .. (١٢) ﴾ [الممتحنة] [لسان العرب: مادة (ب هـ ت)].

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾﴾

وشاء الحق سبحانه بعد أن بيَّن الإيمان والمؤمنين، وما يمكن أن يدَّعيه الكافرون فى نبىِّ الرسالة، وبعد أن بيَّن المنهج، ها هو سبحانه يأتى بالكلام عن آياته سبحانه فى الكون تأييداً للمطلوب بالموجود.

فالمطلوب أن نؤمن برسول يبلِّغ منهجاً عن الله؛ ليكون هذا المنهج نافعاً لنا، وإنْ أراد أحد دليلاً على ذلك فلينظر إلى الآيات التى وجدت للإنسان من قبل أن يُكلَّف، أهى فى مصلحته أم فى غير مصلحته؟

ومادامت الآيات الموجودة فى الكون - والمسخَّرة للإنسان - تفيد الإنسان فى حياته، فلماذا لا يشكر من أعطاه كل تلك النعم، وقد أعطى الحق - سبحانه وتعالى - الإنسان من قبل التكليف الكثير من النعم، وفور أن يصل إلى البلوغ يصير مكلَّفاً.

إذن: فالله سبحانه لم يكلِّف أحداً إلا بعد أن غمره بالنعم النافعة له باعتقاد من العبد، وصدق من الواقع.

فإذا ما جاء لك التكليف، فَقِسْ ما طُلب منك على ما وُجد لك، فإذا كنت تعتقد أن الآيات الكونيةَ التى سبقَت التكليف نافعة لكَ قبل أن يطلب منك «افعل كذا» و«لا تفعل كذا»؛ فَخُذْ منها صدقاً واقعاً يؤيد صدق ما طُلِب منك تكليفاً، فكما نفعك فى الأولى، فالحق سبحانه

سينفعك باتباعك التكليف ، واستقبلْ حركة الحياة على ضوء هذا التكليف ؛ لتسعد [١] .

ونحن نعلم أن الأصل فى الإنسان أن يرتاح أولاً ليتحرك ، ثم يتعب ، ثم يرتاح ؛ ولذلك نجد التكاليف قد جاءت على نفس المنوال ، فقد أراحك الحق سبحانه إلى سن البلوغ وأخذت نعم الله تعالى وتمتعت بها إلى سن البلوغ ، ارتحت اختياراً ، وارتحت فى مراداتك ، ثم تجىء «افعل» و«لا تفعل» لتلتزم بما يُصْلِح لك كل أحوالك .

وإذا كان التكليف سيأخذ منك بعضاً من الجهد ، فهناك فاصل زمنى للراحة ، وأنت فى حياتك تجد وقتاً للراحة ، ووقتاً للحركة ، والراحة تجعلك تسعى بنشاط إلى الحركة ، والحركة تأخذ منك الجهد الذى تحب أن ترتاح بعده .

إذن : فالحركة تحتاج للراحة ، والراحة تحتاج للحركة .

وجاء الحق سبحانه إلى الفترة الزمنية المسماة «اليوم» ، فبيَّن لنا أنه كما قسَّم الوجود الإنسانى إلى مرحلتين :

الأولى : هى ما قبل البلوغ ولا تكليف فيها .

والثانية : هى ما بعد البلوغ وفيها التكليف .

فقد قسَّم الله سبحانه أيضاً «اليوم» إلى وقت للراحة ووقت للحركة ، فقال تعالى : ﴿ **هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا** .. ﴿٦٧﴾ ﴾ [يونس]

---

(١) مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [فصلت] .

فكما خلق الحق سبحانه لنا اليوم وفيه وقت للراحة ، ووقت للحركة ، كذلك شرع الحق سبحانه منهج الدين ؛ لتستقيم حركة الحياة ؛ لأن الإنسان - الخليفة فى الأرض - لا بد أن يتحرك ، ولا بد أن تكون حركته على مقتضى «افعل كذا» و«لا تفعل كذا» ، وما لم يَرِدْ فيه «افعل» و«لا تفعل» فهو مباح ؛ إن شاء فعله ، وإن شاء لم يفعله[1] .

وكل فعل ، وكل نهى يتطلب حركة ، وإياك أن تتصور أن النهى لا يتطلب حركة ؛ لأنك تتحرك فى أمر ما ثم يأتيك قرار التوقف ، وقد تتوهم أن التوقف لا يحتاج إلى حركة ؛ لأنه سلبك ملكة القيام بما تعمل ، ولكنك تنسى أن هناك حركة داخلية ، وهى الدوافع التى كانت تلح عليك أن تقوم بما تشتهيه نفسك ولا يواكب منهج الله ، وأنت تكبت تلك الدوافع وتكبح جماحها[2] ؛ لأن الله سبحانه قد أمرك بذلك .

وما دامت هناك حركة فلا بد أن يأتى منها تعب ؛ لذلك جعل الله تعالى لك حقّاً فى الراحة .

وكذلك عُمْر الإنسان ، لم يكلِّف الله - تعالى - الإنسان إلا بعد البلوغ ، وترك له الفترة الأولى من عمره دون تكليف منه وحساب ، لكنه سبحانه لم يقطع عنه التكليف فى تلك المرحلة بتاتاً ، وإنما منع حسابه على ما «يفعل» أو «لا يفعل» ، وترك مسئولية التدريب على التكليف للأب مثلاً ، فالأب يقول لابنه : «لا تكذبْ» فإن كذب ؛ فالأب يعاقبه ، وهكذا يكون الأمر من الوالد ، والنهى للولد والأمر والنهى يتطلب ثواباً أو عقاباً .

---

(١) لأن كلمة (افعل) يندرج تحتها الأمر من الله ورسوله ﷺ فى الواجبات والفرائض والسنن والمندوبات والمستحبات . وكلمة (لا تفعل) يندرج تحتها النهى من الله ورسوله ﷺ وذلك فى الحرام والمكروه . أما غير ذلك فهو مباح .

(٢) تكبح جماحها : تمنعها عن المعاصى . مأخوذة من كبح الدابة أى : جذبها إليه باللجام ، وضرب فاها به ؛ كى تقف ولا تجرى . [لسان العرب : مادة (ك ب ح)] .

ويبيِّن لنا رسول الله ﷺ هذا الأمر فيقول: «مروا أولادكم بالصلاة لسبع سنين ، واضربوهم عليها لعشر سنين »[(١)] .

والذى يأمر هنا الابن بالصلاة هو الأب ، وهو أيضاً الذى يعاقب على ترك الصلاة ، وهو الذى يثيب ابنه إن أراد أن يجعل الصلاة محبوبة للابن ، وأن يجعل للابن أنساً بالعبادة.

وحين يكلِّف الأب ابنه بالصلاة ، فالابن يطيع ؛ لأن الأب هو الذى يقضى حاجات الابن ، ويحقق له مصالحه ، والابن يعلم أن والده لن يكلفه إلا بما يحقق تلك المصالح ، وهو يفعل ذلك ؛ لأنه يحبه ؛ لذلك جعل رسول الله ﷺ الأمر والنهى من النافع للابن ؛ لتوجد حيثية قبول فى النفس.

وما إن يأت البلوغ فيكون التكليف من الله والأمر من الله ، والثواب والعقاب منه سبحانه.

إذن: فالأمر والنهى قبل البلوغ يأتيان من الأب ؛ ليتعود الإنسان استقبال الأمر والنهى من ربه ورب أبيه.

وإذا كانت الحياة والسير فيها على ضوء منهج الله تعالى يقتضى حركة فى «افعل» و «لا تفعل» فلا بد أن يحتاج الإنسان إلى راحة من الحركة ؛ لذلك يبيِّن لنا الله سبحانه أنه جعل فى «اليوم» ليلاً ونهاراً ، ولكلٍّ مهمة ، فإياك أن تضع مهمة شىء مكان شىء آخر ؛ حتى لا ترتبك الأمور ، ولكن الظروف قد تضطرك إلى ذلك ، فهناك من يسهر للحراسة ، وهناك من يسهر للعمل فى المخابز ، أو إعداد طعام الإفطار للناس ؛ ولذلك فهناك احتياط قدرى ، فقال الحق سبحانه فى آية ثانية:

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٢/ ١٨٧) وأبو داود فى سننه (٤٩٥) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص. واللفظ لأحمد.

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ .. (٢٣) ﴾ [الروم]

لأن الحق سبحانه قد علم أزلاً أن هناك مصالح لا يمكن إلا أن تكون ليلاً ، فالذى يعمل ليلاً يرتاح نهاراً ، ولو أن الآية جاءت عمومية ؛ لقلنا لمن ينام [1] بالنهار : لا ، ليس هذا وقت السكن والراحة .

ولكن شاء الحق سبحانه أن يضع الاحتياطىَّ القدرىَّ ؛ ليرتاح من يتصل عمله بالليل.

وهنا يقول الحق سبحانه:

﴿ هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ .. (٦٧) ﴾ [يونس]

ونحن نعلم أن هناك فارقاً بين «الخَلْق» ، و«الجَعْل» ، و«المِلْك» ، والمثال على الخلق: أنه سبحانه خَلَق الزمن ، ثم جاء لهذا الزمن ليجعل منه ليلاً ونهاراً [2] .

إذن: فالجعل هو توجيه شىء مخلوق لمهمة.

ومثال ذلك - ولله المثل الأعلى - وهو مُنزَّه عن أى تشبيه أو مثل:

تجد صانع الفخَّار وهو يمسك بالطين ؛ ليجعل منه إبريقاً ، فهو يصنع الطين أولاً بأن يخلط الماء بالتراب ويعجنهما معاً ، ثم يجعل من الطين

---

(١) نام فلان نومًا : اضطجع أو نَعَسَ وإليه سكن واطمأن ووثق به ومن حاجته غفل عنها ولم يهتم بها وأنامه : أرقده ، ونوَّم فلان : أرقده . والتناوم التظاهر بالنوم . واستنام : نام واطمأن . والنوم من آيات الله ؛ لأنه راحة وسكن ، والراحة مع السكن تعطى قوة الحركة والثبات فى التفكير والتركيز . [المعجم الوجيز - بتصرف] .

(٢) يقول سبحانه : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٧٢) وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٣) ﴾ [القصص] .

إبريقاً أو أصُصَ زرع أو زهرية ورد ، وهو بذلك إنما يحوِّل مخلوقاً إلى شيء له مهمة.

والزمن كله لله سبحانه ، جعل منه قسم الليل ، وقسم النهار ، مثلما خلق الإنسان ، ووجَّه جزءاً منه ؛ ليجعله سمعاً ، وجزءاً آخر ؛ ليجعله بصراً ، وجزءاً آخر ؛ ليصير مخاً ، وجزءاً آخر ؛ ليكون رئة ، كل ذلك مأخوذ مما خلقه الحق سبحانه.

أى: أنه سبحانه جعل أشياء مما خلق أصلاً ؛ لتؤدى مهمة للمخلوق.

وفى حياتنا - ولله المثل الأعلى - نجد من يغزل من القطن خيوطاً ، وهناك من ينسج من تلك الخيوط قماشاً ، وبعد ذلك نجد من يأخذ هذا القماش ؛ ليجعل منه جلباباً أو بنطلوناً أو قميصاً أو لحافاً.

إذن: فالجعل هو أخذ من شيء مخلوق لمهمة. والخلق قد يترتب عليه ملْك ، والجعل أيضاً قد يترتب عليه ملْك ؛ فمن عمل قِدْراً من الطين هو مَالكه ، ومن جعل من الطين إبريقاً إنماَ يملكه.

وهكذا نجد الخَلْق والجَعْل قد يترتب عليهما ملكية ما ، لكن الملكية المنسحبة بعد الخلق والجعل تجعلك تنتفع بالأشياء وقد لا تملكها ؛ لذلك نجد قول الحق سبحانه:

﴿أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ .. (٣١)﴾ [يونس]

والحق سبحانه خلق لنا الأنعام ، وذلَّلها لنا ، وملَّكها لنا ، وإذا قال الحق سبحانه: «ملْك» فملكيته سبحانه لا تنتهى لأحد أبداً سواء من الخلق أو الجعل ، بل يظَل مملوكاً ؛ ولذلك قلنا: إن نقل الأعضاء هو تحكُّم فيما لا يملكه المخلوق ، بل يملكه الخالق سبحانه وتعالى.

يذكر الحق سبحانه الليل والنهار فيقول:

﴿هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا .. (٦٧)﴾ [يونس]

وكان مقتضى الكلام أن يقول:

جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار لتتحركوا .

وشاء سبحانه أن يأتى هنا بالأداء القرآنى المعجز فقال: ﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ .

فهل النهار هو الذى يُبصر أم نحن؟

هل النهار مُبصِر أم مُبصَر فيه؟

وقديمًا لم يكونوا قد وصلوا إلى الحقيقة العلمية التى وصلنا إليها الآن ، فقد كانوا يعتقدون أن الضوء [1] يخرج من العين إلى المرئى فتراه ، إلى أن جاء «الحسن بن الهيثم» العالم العربى المسلم ، وأوضح بالتجربة أن الضوء إنما ينعكس من المرئى إلى العين ، بدليل أن المرئى إن كان فى النور وأنت فى الظلام ، فأنت تراه ، وإذا كان الأمر بالعكس فأنت لا تراه.

إذن: فقد سبق القرآن كل النظريات ، وبيَّن لنا أن النهار إنما يأتى بالضوء فينعكس الضوء من الكائنات والموجودات إلى العين فتراه.

إذن: فالنهار هو المبصر ؛ لأنه جاء بالضوء اللازم لانعكاس هذا الضوء من المرائى إلى العيون.

ونحن نجد القرآن حين يتعرض لليل والنهار يقول:

---

(١) الضَّوء - بفتح الضاد والضُّوء - بضمها والضياء ، والضِّوَاء : النور الذى ينتشر من الأجسام المضيئة ، وقد يُخصُّ الضوء لما كان صادراً من شىء مضىء بنفسه كضوء الشمس ، وقد يُخصص بالنور لما كان مستمداً من ضوء ، كنور القمر . قال تعالى : ﴿هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا ..(٥)﴾ [يونس] . [القاموس القويم] بتصرف .

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ ..(٣٧) ﴾ [فصلت]

ويقول:

﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا [1] آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً ..(١٢) ﴾ [الإسراء]

وهى مبصرة كما أثبت الحسن بن الهيثم العالم المسلم ، وإن كانت فى ظاهر الأمر مُبْصَرٌ فيها.

ويعطى لنا الحق سبحانه تجربة حية مع موسى عليه السلام ، وذلك فى قوله سبحانه لموسى - عليه السلام :

﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ (١٧) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ (١٨) قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ (١٩) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ (٢٠) ﴾ [طه]

وشاء الحق سبحانه ذلك ؛ ليتعرف موسى بالتجربة على ما سوف يحدث من عصاه أمام فرعون ، ثم أمام السحرة ، ثقة منه سبحانه أن موسى حين يراها تنقلب إلى حية أمام عينيه لأول وهلة سوف يفزع ؛ فيطمئنه الحق سبحانه بقوله:

﴿ ..خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ [2] (٢١) ﴾ [طه]

وكانت المرة الأولى لتحوُّل العصا إلى حية ، هى تجربة للاستعداد ؛ حتى لا يجزع موسى - عليه السلام - أو يخاف لحظة أن يمر بالتجربة العملية ، وحتى يقبل على تقديم المعجزة وهو واثق تمام الثقة أمام فرعون.

---

(١) جعل الله لليل آية وهى القمر ، وجعل للنهار آية وهى الشمس ، وجعل آية النهار مبصرة أى : منيرة تنير الكون كله ، أما القمر فقد محا آيته وهو سواد القمر الذى فيه . بتصرف من تفسير ابن كثير (٣/ ٢٧) .

(٢) أى : سنعيدها كما كانت (عصا) .

ثم قال الحق سبحانه لموسى - عليه السلام :

﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ [(١)] .. (١٢) ﴾ [النمل]

والجيب : هو المكان الذى تنفذ منه الرقبة فى الجلباب ويسمى (القبة) ، فلا يظن أحد أن الجيب المقصود هنا هو مكان وضع النقود ؛ لأن مكان وضع النقود قديماً كان يوجد من داخل الجلباب ، مثل جيب (الصديرى) الذى يرتديه أهل الريف ، وقد سُمِّى الجيب الذى نضع فيه النقود جيباً ؛ لأن اليد لا تذهب إلى الجيب إلا إذا دخلت فى الفتحة التى تخرج منها الرقبة .

وقد قال الحق سبحانه لموسى - عليه السلام :

﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ..(١٢) ﴾ [النمل]

ويخبره الحق سبحانه :

﴿ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (١٢) فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً ..(١٣) ﴾ [النمل]

هكذا كانت الآيات مبصرة [(٢)] وكأنها تقول للعين : أبصرينى .

---

(١) الجيب : النحر والصدر . قال تعالى : ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ .. (٣١) ﴾ [النور] .

(٢) بَصُرَ به : رآه ببصره ، فهو بصير ، وبَصُر بالأمر : عَلِمه كأنه رآه ببصره . وقوله : ﴿ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ .. (١١) ﴾ [القصص] أى : رأته من أحد جوانب البيت . وأبصر : رأى . قال تعالى : ﴿ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٩) ﴾ [الصافات] أى : انظر وترقَّبْ . وأبصره : جعله يُبصر ، وجعله يعلم علم من يبصر . قال تعالى : ﴿ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٥) ﴾ [الصافات] . والبصير : من أسماء الله الحسنى ، والبصير : مَنْ له عينان يُبصر بهما ، ضد الأعمى . قال تعالى : ﴿ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ..(٥٠) ﴾ [الأنعام] والبصيرة : نور القلب والحجة الواضحة ومن المجاز قولهم : نهار مبصر ، أى : مضىء . قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ..(٦٧) ﴾ [يونس] ، وقوله : ﴿ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً .. (١٢) ﴾ [الإسراء] وقوله : ﴿ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً .. (٥٩) ﴾ [الإسراء] أى : معجزة واضحة . وقوله : ﴿ ..إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ (٢٠١) ﴾ [الأعراف] أى : عارفون الحق . [القاموس القويم - بتصرف] .

وهنا فى الآية - التى نحن بصدد خواطرنا عنها - يقول الحق سبحانه:

﴿هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ..(٦٧)﴾ [يونس]

ولم يقل: لتتحركوا فيه، بل جاء بما يضمن سلامة الحركة، فقال سبحانه: ﴿مُبْصِرًا﴾ لأن الضوء الذى ينعكس على الأشياء هو الذى يحفظ للإنسان سلامة الحركة.

ولكن البعض من الناس فى زماننا يستخدمون نعمة الكهرباء فى الإسراف فى السهر، وحين يأتى الليل يسهرون حتى الصباح أمام جهاز (التليفزيون) أو (الڤيديو) أو فى غير ذلك من أمور الترفيه، ثم ينامون فى النهار، وينسون أن الليل للرقود، والنهار للعمل. وقد ثبت أن للضوء أثراً على الأجسام، فالضوء يؤثر فى الكائن الحى، وقد سبق النبى ﷺ ذلك الاكتشاف بزمان طويل وقال:

«أطفئوا المصابيح إذا رقدتم»[(١)]؛ وذلك حتى لا ينشغل الجسم بإشعاعات الضوء التى تتسبب فى تفاعلات كيماوية فى الجسم.

لذلك أقول دائماً: خذوا الحضارة بقواعد التحضير لها؛ لأننا يجب أن نتيح للفلاح أن يذهب إلى حقله والعامل إلى مصنعه؛ لأن السهر ضار، وإذا ادَّعى الإنسان أنه هو الذى تحضَّر، فليحترم قيمة العمل الذى يصنع الحضارة؛ لأن الآلة التى يسهر لمراقبتها ومشاهدتها هى إنتاج أناس يلتزمون بقواعد الحضارة، واحترام قيمة العمل فى النهار، وقيمة الترفيه فى الوقت المخصص.

نحن نسىء استخدام أدوات الحضارة، فالزمن الذى وفَّرته الثلاجة للزوجة؛ حتى لا تقف فى المطبخ نصف النهار لتعد الطعام، وصارت

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٦٢٤) وأحمد فى مسنده (٣/ ٣٨٨) عن جابر بن عبد الله، واللفظ للبخارى.

تطهو وجبات ثلاثة أيام وتحفظها فى الثلاجة ، وتستخدم الغسالة الكهربائية فتنهى الغسيل فى ساعة من الزمن ، لكن بقية الوقت يضيع أمام (التليفزيون) ولا تلتفت إلى تربية الأبناء.

وهكذا يسىء البعض استخدام الآلات المتحضرة ، وفى هذه الإساءة نوع من التخلف ، فإذا أخذنا الحضارة بمنطقية فهذا هو التحضر.

وعلى سبيل المثال: أقول لمن يركب سيارة: إياك أن تسرع بها فى طريق متربة حتى لا يثور الغبار ويملأ صدور الناس بالحساسية.

وإياك أن تهمل صيانة سيارتك حتى لا يفسد الموتور ؛ ويخرج العادم الضار بصحة الناس والبيئة ، فلا يسافر الإنسان فى الطريق المتربة أو بسيارة غير جيدة الصيانة ؛ فيصيب صدور الناس بالمرض ، ويصيب الزروع ويفسد الهواء.

ويجب ألاَّ نأخذ الحضارة بتلصص ، إنما علينا أن نرتقى إلى مدارجها بصيانة أساليبها ؛ لأن من لا يأخذ الحضارة بقواعدها هو من يتخلف رغم تقدُّم الآلة ، فتصير الآلة أكثر تحضُّراً منه.

إذن: فإن أخذنا كل أمر بمهمته فنحن نحقق الراحة لأنفسنا ولغيرنا.

ولذلك قلنا فى تفسير قول الحق سبحانه:

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢﴾ [الليل]

وإن بدا للإنسان أن هناك تعارضاً بين غشيان الليل (أى: تغطيته للمرئيات) وتجلِّى النهار (أى: كشف المرئيات) فهذا ليس تعارضاً، بل هو التكامل ؛ لأن حركة النهار تتولد من الليل ، وراحة الليل تتولد من النهار.

ثم يقول الحق سبحانه:

﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ (٣)﴾ [الليل]

وهذا الخلق للذكر والأنثى هو للتكامل ، لا للتناقض ، هكذا جاء الحق سبحانه بنوعين :

الأول : هو الزمن ليلاً ونهاراً .

والثانى : هو الإنسان ذكراً وأنثى .

ويقول الحق سبحانه : ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ (١) (٤)﴾ [الليل]

أى : أن حركتكم هى الموصِّلة إلى غايتكم ، والحركات شتى (أى : مختلفة) ، سواء فى الليل أو النهار أو للذكر أو للأنثى ، فإن خلطنا الحركة وعبثنا بأنظمة الحياة ؛ فالحياة ترتبك ، ونعانى من مرارة التجربة إلى أن تتعقد الأمور ، فنبحث لها عن حلول .

وقد نادينا أن تعمل المرأة نصف الوقت لتعطى البيت بعضاً من الوقت ، أو أن تعتنى بالبيت إن كان لها ما يكفيها من دخل ، أو كان لزوجها ما يكفى لحياة الأسرة ، ولكن أحداً لم يلتفت إلىٰ ذلك إلا بعد مرارة التجارب .

وهناك مثال آخر : فى قول البعض أن الليل فى تلك البلاد المتحضِّرة لا ينتهى وأنت تجد السهر هناك حتى الصباح ، وعندما أسمع مثل هذا القول أقول : إن هذا ليس فى مصلحة سكان تلك البلاد ؛ لأن الليل يجب أن يكون سباتاً لتأتى الحركة المنتجة فى النهار .

---

(١) شت الجميع يشتُّ شتّا ، وشتاتاً : تفرق فهو شتيت ، وهم شتى وأمر شتٌّ متفرق وجمعه أشتات . قال تعالى : ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا .. (٦١)﴾ [النور] أى : متفرقين . وقوله : ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ (٤)﴾ [الليل] أى : متنوع منه الحسن ومنه السيء وقوله : ﴿.. أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ (٥٣)﴾ [طه] مختلفة الطعم والنوع ، وقوله : ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ .. (١٤)﴾ [الحشر] أى : متفرقة . [القاموس القويم - بتصرف] .

إذن: فالآفة أن تنقل مهمة نوع إلى مهمة نوع آخر ، سواء أكان فى الزمان أو فى الإنسان ، واقرأ جيداً قول الحق سبحانه:

﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ (٤)﴾ [الليل]

فكل فرد من أفراد الكون له مهمة وله سعى يختلف عن سعى الآخرين.

وهنا فى الآية - التى نحن بصدد خواطرنا عنها - يُنهى الحق سبحانه الآية فيقول :

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٦٧)﴾ [يونس]

ولقائل أن يقول: لم يقل «إن فى ذلك لآيات لقوم يبصرون» .

ونقول: لننتبه إلى أن الحق سبحانه حين يتكلم عن زمان فهو يبيِّن فى هذا الزمان مهمته ، وهو القائل فى صدر الآية ووسطها :

﴿جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ..(٦٧)﴾ [يونس]

فالعلَّة فى هذه الآية هى سكون الليل ، لا حركة النهار ، والعين فى الليل لا تؤدى مهمتها ، بل السمع هو الذى يؤدى مهمته .

والحق سبحانه هو القائل:

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا [1] إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (٧١)﴾ [القصص]

أى: أن أحداً لن يستطيع الحركة فى مثل هذا الليل السرمدى ولا أحد سيتبيَّن شيئاً.

---

(١) السرمد: دوام الزمان من ليل أو نهار. وليل سرمد: طويل. قال الزجَّاج: السرمد الدائم. [لسان العرب: مادة (س ر م د)].

والحق سبحانه هو القائل:

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٧٢)﴾ [القصص]

إذن: فقد جاء الحق سبحانه فى آية الليل بالسمع[1]، وجاء فى آية النهار بالأبصار، وبعد أن تكلم الله سبحانه عن مجال الحركة بالنهار والراحة فى الليل، يأتى الكلام عن الينبوع الذى يجب أن تَصْدُرَ عنه الحركة أو السكون، وهو ضرورة الامتثال لأمر إله واحد حتى لا تصطدم حركتك بأمر إله آخر يقول ما يناقض حركة الإله الأول.

وكما تتحرك فى النهار، وترتاح فى الليل لا بد أن تكون حركتك صادرة عن أمر واحد، هذا الأمر الواحد صادر من الآمر الواحد، وهو الله تعالى الذى تعبده بلا شريك، ومن يقول بغير ذلك إنما يربك حركة الحياة.

والله سبحانه يقول:

﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍ بِمَا خَلَقَ ..(٩١)﴾ [المؤمنون]

ولذلك يقول الله سبحانه بعد ذلك:

﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَـٰذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦٨)﴾

---

(١) وهنا يلفتنا فضيلة الشيخ إلى الإعجاز القرآنى فى أسراره، حيث وضع الحاسة فى مكان وظيفتها التى تستطيع الأداء فيه، فجعل الإبصار للنهار لأنه مكانه، وجعل السمع لليل حيث إن البصر لا يؤدى مهمته، وإنما المهمة هنا تخص السمع، وهذا كمال الأدب وجلال الأسرار فى كتاب الله بلاغة بيان، ومعنى يرقى.

ونفس نص الآية الكريمة يكذِّبهم فيما يدَّعونه .

ومثال ذلك : أنك حين تقول : «اتخذ فلان بيتاً» أى : أن فلاناً له ذاتية سابقة على اتخاذه للبيت ، وبها اتخذ البيت ، فإذا قيل : ﴿ **اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا** ..(٦٨) ﴾ [يونس]

فهذا اعتراف منهم بكمال الله تعالى وذاتيته قبل أن يتخد الولد .

وهم قد اختلفوا فى أمر هذا الولد ، فمنهم من قال : إن الملائكة هن بنات الله وكذَّبهم الحق سبحانه فى ذلك ، ومنهم من قال : عزير ابن الله وهم اليهود [(١)] وقد كذَّبهم الله سبحانه فى ذلك ، وطائفة من المسيحيين قالوا : إن المسيح ابن الله [(٢)] ، وكذَّبهم الحق سبحانه فى ذلك [(٣)] .

ثم ما الداعى أن يتخذ الله الولد؟

هل استنفد قوته حتى يساعده الولد ؟!

وهل يمكن أن يضعف سبحانه - معاذ الله - فيمتد بقوة الولد أو يعتمد عليه؟!

مثلما يقال حين يواجه شيخٌ شابّاً ، ويعتدى الشاب على الشيخ ، فيقال للشاب : احذر ؛ إن لهذا الشيخ ولداً أقوى منك ؛ فيرتدع الشاب ، أو أن يقول الشيخ للشاب : إن أبنائى يفوقونك فى القوة ، وفى هذا اعتداد بالأولاد .

ويريد الحق سبحانه أن يغفل كل هذه الدعاوى ولتكون حركة الحياة متماسكة متلازمة ، لا متعارضة ولا متناقضة ؛ لذلك ينبغى أن يكون

---

(١) يقول رب العزة سبحانه وتعالى : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ ..(٣٠) ﴾ [التوبة] .

(٢) يقول الله عز وجل : ﴿ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ .. (٣٠) ﴾[التوبة] .

(٣) يقول الله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٣٠) ﴾ [التوبة] .

المحرِّك إلهاً واحداً تصدر منه كل الأوامر ، فلا تعارض فى تلك الأوامر ؛ لأن الأوامر إن صدرت عن متعدد فحركة الحياة تتصادم بما يبدد الطاقة ويفسد الصالح .

ولذلك لا بد أن يكون الأمر صادراً من آمر واحد يُسْلَّم له كل أمر ، وهذا الإله منزَّه عن كل ما تعرفه من الأغيار ، فله تنزيه فى ذاته ؛ فلا ذات تشبه ذاته ، ومنزَّه فى صفاته ؛ فلا صفة تشبه صفته ، ومنزَّه فى أفعاله ؛ فلا فعل يشبه فعله [(١)] .

وحتى نضمن هذه المسألة لا بد أن يكون الإله واحداً ، ولكن بعضاً من القوم جعلوا لله شركاء ، ومن لم يجعل له شريكاً ، توهَّم أن له ابناً وولداً .

ونقول لهم :

إن كلمتكم : ﴿ اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا .. (٦٨) ﴾ ترد عليكم ؛ لأن معنى اتخاذ الولد أن الألوهية وُجِدَتْ أولاً مستقلة ، وبهذه الألوهية اتخذ الولد .

ومن المشركين من قال : إن الملائكة بنات الله .

فردَّ عليهم الحق سبحانه :

﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَىٰ (٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ [(٢)] (٢٢) ﴾ [النجم]

والكمال كله لله سبحانه فهو كمال ذاتى ؛ ولذلك يأتى فى وسط الآية ويقول تعالى :

---

(١) وذلك مصداق لقوله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١١) ﴾ [الشورى] ، فهو سبحانه لا مثل له فى ذاته ولا فى صفاته ولا فى أفعاله .

(٢) ضاز فى الحكم : أى : جار . وقسمة ضيزى وضوزى أى : جائرة ليس فيها حق ولا عدل . [لسان العرب : مادة (ض ى ز) - بتصرف] .

﴿ سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ .. (٦٨) ﴾ [يونس]

وسبحانه تعنى: التنزيه ، وهو الغنى أى: المستغنى عن مُعِيْن كما تستعينون أنتم بأبنائكم ، وهو دائم الوجود ؛ فلا يحتاج إلى ابن مثل البشر ، وهم أحداث تبدأ وتنتهى ؛ لذلك يحبون أن يكون لهم أبناء كما يقول الشاعر:

* ابنى يا أنا بعد ما أقْضَى *

ويقال: «من لا ولد له لا ذكْر له» ، كأن الإنسان لما علم أنه يموت لا محالة أراد أن يستمر فى الحَياة فى ولده.

ولذلك حين يأتى الولد للإنسان يشعر الإنسان بالسرور والسعادة ، والجاهل هو من يحزن حين تلد له زوجته بنتاً ؛ لأن البنت لن تحمل الاسم لمن بعدها ، أما الولد والحفيد فيحملان اسم الجد ، فيشعر الجد أنه ضمن الذِّكْر فى جيلين.

إذن: فاتخاذ الولد إما استعانة وإما اعتداد ، والحق سبحانه غنىٌّ عن الاستعانة ، وغنى عن الاعتداد ؛ لأنك تعتد بمن هو أقوى منك ، وليس هناك أقوى من الله تعالى ، وهو سبحانه لا يحتاج لامتداد ؛ لأنه هو الأول وهو الآخر ، وعلى ذلك ففكرة اتخاذ الولد بالنسبة لله تعالى لا تصح على أى لون من ألوانها.

ولذلك يقول الحق سبحانه مرادفاً لتلك الفكرة: ﴿سُبْحَانَهُ[1] ﴾ لأنها تقطع كل احتمالات ما سبقها ، ويُتْبِع ذلك بقوله: ﴿هُوَ الْغَنِيُّ ﴾ لأنه

---

(١) سَبَح يَسْبَحُ من باب فتح: سَبْحا ، وسباحة: عام ومرَّ فى الماء. ومن المجاز سبح الجواد ، أى جرى كأنه يسبح فى الماء ، ومن المجاز سبحت النجوم ، أى: سارت فى أفلاكها. قال تعالى: ﴿.. كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٣٣) ﴾ [الأنبياء] وعوملت معاملة العقلاء لانتظامها فى سيرها. وسبِّح اسم ربك: نزِّه اسمه عن كل نقص وصفه بكل كمال أو قل: سبحان الله ومعناها أنزه الله تنزيهاً عن النقص وأصفه بالكمال ، وهو منصوب على المصدرية ، ومصدر نائب عن فعله. [القاموس القويم - بتصرف]

غنى عن اتخاذ الولد ، وغنى عن كل شيء ، وقوله : ﴿ سُبْحَانَهُ ﴾ تنزيه له ، والتنزيه : ارتفاع بالمُنَزَّه عن مشاركة شيءٍ له - فى الذات أو الأفعال .

وإذا ورد شيء هو لله وصفٌ ولخَلْقه وصفٌ ، فإياك أن تأخذ هذه الصفة مثل تلك الصفة .

فإن قابلت غنياً من البشر ، فالغنى فى البشر عَرَضٌ ، أما غنى الله تعالى ففى ذاته سبحانه .

وأنت حى[1] والله سبحانه حى ، ولكن أحياتك كحياته؟ لا ؛ لأن حياته سبحانه لم يسبقها عدم ، وحياتك سبقها عدم ، وحياته سبحانه لا يلحقها عدم ، وأنت يلحق حياتك العدم .

والله موجود وأنت موجود ، لكن وجوده سبحانه وجود ذاتىٌّ ، ووجودك وجود عَرَضِىٌّ .

وإذا قال الحق سبحانه :

إن له - سبحانه وتعالى - يداً ﴿ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ .. (١٠) ﴾ [الفتح]

فلا يمكن أن تكون يد الله سبحانه مثل يدك ؛ لأن ذاته سبحانه ليست كذاتك ، وصفاته سبحانه ليست كصفاتك ، وهو سبحانه القادر الأعلى ، ولا يمكن أن يكون مقدوراً لأحد .

ولذلك حين يتجلَّى الله سبحانه لخلقه ، فسوف يتجلى بالصورة التى

---

(١) حَيِى يَحْيا ، كرضى يرضى وحىّ بالإدغام يحيا حياة وحيواناً ضد مات فهو حى ، وهو خاص بكل ذى روح ، ويطلق مجازاً على الأرض . قال تعالى : ﴿ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا .. (٩) ﴾ [فاطر] ويستعار أيضاً لمعنى الصلاح والإيمان ، قال تعالى : ﴿ أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ .. (١٢٢) ﴾ [الأنعام] والحى من أسماء الله الحسنى ، قال تعالى : ﴿ اللَّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ .. (٢٥٥) ﴾ [البقرة] والحياة الدنيا تقابلها الحياة الآخرة ، قال تعالى : ﴿ .. وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ (١٨٥) ﴾ [آل عمران] والمحيا : مصدر ميمى بمعنى الحياة ، قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) ﴾ [الأنعام] أى : حياتى وموتى .

تختلف عن كل خيال العبد ، وهذه الصورة تختلف من عبد إلى آخر ، ولو كانت الصورة التى يتجلى بها الله سبحانه مقدوراً عليها لكان معنى ذلك أن هناك ذهناً بشرياً قد قدر على الإحاطة بها. وما خطر ببالك فالله سبحانه بخلاف ذلك ؛ لأن ما خطر بالبال مقدور عليه لأنه خاطر ، والله سبحانه لا ينقلب أبداً إلى مقدور عليه.

وأنت حين تأتى بمسألة فى الحساب أو الهندسة - مثلاً - وتعطيها لتلميذ ويقوم بحلها ، فمعنى ذلك أن عقله قد قدر عليها ، أما إن جئت لتلميذ فى المرحلة الإعدادية - مثلاً - بمسألة هندسية مقررة على طلبة كلية الهندسة ؛ فعقله لن يقدر عليها.

إذن: لو أن الإنسان قد أدرك شيئاً عن الله غير ما قاله الله لانقلب الإله إلى مقدور عليه ، والحق سبحانه مُنَزَّه عن ذلك ؛ لأنه القادر الأعلى الذى لا ينقلب أبداً إلى مقدور.

لذلك يعلِّمنا الحق سبحانه أن نقول تنزيهاً لله تعالى كلمة ﴿سُبْحَانَهُ﴾ ، وهو التنزيه الواجب عن كل شىء يخطر ببال الإنسان عن الله تعالى ، وهذه السبحانية أو هذا التنزيه هو صفة ذاتية فى الله تعالى ، قبل أن يوجد شىء ، وبعد أن خَلَق الخَلْق ، فعلى كل المخلوقات تنزيهه ، وبدأ الخلق فى التسبيح.

والتسبيح فعل مستمر لا ينقطع ولا ينقضى ؛ لذلك تجد استدلالات القرآن فى السور التنزيهية [1] تؤكد ذلك ، فيقول الحق سبحانه:

---

(١) فتجد التسبيح فى الماضى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝١﴾ [الحديد] وفى المضارع: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١﴾ [التغابن] وفى الأمر: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ۝١﴾ [الأعلى] وفى المصدر سبحانه ، وبهذا نلاحظ أن الماضى يسبحه ، والمستقبل يسبحه والحال يذكره ، والكون مع الزمن فى تسبيح مستمر: ﴿.. وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ۝٤٤﴾ [الإسراء].

﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُ ..(١) ﴾ [الإسراء]

وإياك أن تظن أن محمداً ﷺ قد سرى بقرار من نفسه ، بل الذى أسرى به هو الحق سبحانه ، فلا تظن أن المسافة يمكن أن تمنع مشيئة الحق المطلقة ، ولا المكان ، ولا الزمن ؛ لأن الفعل منسوب لله تعالى ، ولا يمكن أن نقيس فعلاً منسوباً لله تعالى بقياس الزمان أو المكان ، أو حسب قانون الحركة النسبية ؛ لأن الحق سبحانه له طلاقة القدرة ، وأنت بشر مجرد حادث محدود الزمان والمكان.

وأنت إذا سرْت من هنا إلى الإسكندرية - مثلاً - على قدميك فستقطع المسافة فى أسابيع ، وإن امتطيت دابة فقد تأخذ فى الوصول إلى الإسكندرية أياماً ، وإن ركبت سيارة فسوف تقطع المسافة فى ساعتين ، وإن ركبت صاروخاً ، فستصل خلال دقائق.

أى: أنك كلما زادت قوة أداة الوصول قَلَّ زمن الوصول ، وهذا موجز نظرية الحركة ، وإذا كان الذى أسرى هو الله سبحانه ، وهو قوة القوى ؛ لذلك لا يمكن أن يقاس بالنسبة لمشيئة قوة أخرى ، أو أن يقاس الأمر ببُعْد أو قُرْب المكان أو كيفية الزمان الذى تعرفه.

وإياك أن تفهم أن إسراء الله تعالى مثل إسرائك ؛ لأن الفعل إنما يأخذ قوته من الفاعل ، وما دام الفاعل هو الله سبحانه فلا أحد بقادر أن يَحُدَّ أفعاله بزمن.

وقد استهل الحق سبحانه سورة الإسراء بالسبحانية وآياتها الأولى تتكلم فى أدق شىء تكلم فيه رسول الله ﷺ عن ذاته بأنه قد أسْرِىَ به ، وبذلك

أثبت بحادث الإسراء حقيقة المعراج ، وأن الناموس [1] قد خُرق له ، وحدَّثنا عما نعلم لنصدِّق حديثه عما لا نعلم ، وحتى نقيس ما لا نعلم على ما نعلم ، فيتأكد لنا صدقه ﷺ في حديثه عما لا نعلم.

كلمة «سبحانه» -إذن - هي للتنزيه ، وهي لله تعالى أزلاً قبل أن يَخلق الخَلق ، فقد شهد سبحانه لذاته أنه إله واحد ، ثم شهدت الملائكة ، ويتكرر التسبيح من كل المخلوقات التي أوجدها الله سبحانه.

وأنت تجد سور القرآن الكريم التي جاء فيها التسبيح مؤكدة أنه سبحانه مُنزَّه ، وله التسبيح من قبل أن يخلق الخلق ، ثم خلق الخلق ؛ ليسبِّحوا ، ففي سورة الحديد يقول سبحانه:

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ..(١) ﴾ [الحديد]

ويقول سبحانه في سورة الحشر:

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ..(١) ﴾ [الحشر]

فهل سبَّح كل من في السموات ومن في الأرض مرة واحدة وانتهى الأمر؟ لا ؛ لأن الله سبحانه يقول:

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ .. (١) ﴾ [الجمعة]

ويقول سبحانه في سورة التغابن:

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) ﴾ [التغابن]

---

(١) نواميس الكون: الأسرار التي أودعها الله - سبحانه وتعالى - في الكون، من قوانين تنظم حركة أجزائه ومكوناته.

إذن: فالسبحانية لله أزلاً ، وسبَّح ويسبِّح الخَلْق وكل الوجود بعد أن خلقه الله سبحانه ، سموات وأرض وما فيهما ومن فيهما ، وما بقى إلا أنت أيها الإنسان فسبِّحْ باسم ربك الأعلى.

وفى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها يقول الحق سبحانه:

﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ .. (٦٨) ﴾ [يونس]

وعلة التسبيح والتنزيه عن أن يكون له ولد تأتى فى قوله تعالى: ﴿ هُوَ الْغَنِيُّ ﴾ ؛ لأن اتخاذ الولد إنما يكون عن حاجة ، إما استعانة ، وإما اعتماداً ، وإما اعتداداً ، وإما امتداداً ، وكل هذه أمور باطلة بالنسبة له سبحانه ، وهو الحق الأعلى ، وهو سبحانه القائل فى آية أخرى :

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ (١١٦) ﴾ [البقرة]

والقنوت [(١)] معناه: الإقرار بالعبودية لله تعالى والخضوع له وإطاعته.

ويقول سبحانه فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها :

﴿ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (٦٨) ﴾ [يونس]

و«إنْ» قد تأتى للنفى فى مثل قول الحق سبحانه:

﴿ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلاَّ اللاَّئِي وَلَدْنَهُمْ .. (٢) ﴾ [المجادلة]

وفى قول الحق سبحانه هنا:

---

(١) قنت يقنتُ كنصرَ - ذل وخضع ليده ، وقنت المؤمن بالله : أطاعه وأقر له بالعبودية ، وقنت فى صلاته خشع واطمأن ، وقنت دعا وأطال الدعاء ، والقنوت الطاعة والدعاء . قال تعالى : ﴿ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ .. (٣١) ﴾ [الأحزاب] وقوله : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ (١١٦) ﴾ [البقرة] أى : خاضعون معترفون بألوهيته مطيعون - [القاموس القويم - بتصرف]

﴿ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَذَا .. (٦٨) ﴾ [يونس]

أى: ليس عندكم حُجَّة تدل على أن الله تعالى اتخذ ولداً.

ولذلك يُنهى الحق سبحانه الآية بقوله:

﴿ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (٦٨) ﴾ [يونس]

أى: أنكم لا تملكون إعلاماً من الله تعالى بذلك، فلا إعلام عن الله إلا من الله، وليس لأحد أن يُعْلِم عن ربه، فهو سبحانه من يُعْلِم عن نفسه.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ (٦٩) ﴾

والحق سبحانه وتعالى حينما يتكلم عن الإيمان وثمرته ونهايته يأتى بالفَلاَح كنتيجة لذلك الإيمان، فهو سبحانه القائل:

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا [1] (٩) ﴾ [الشمس]

وهو سبحانه القائل:

﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) ﴾ [المؤمنون]

ويقول أيضاً:

﴿ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٥٧) ﴾ [الأعراف]

وكلها من مادة «الفلاح» وهى مأخوذة من الأمر الحسى المتصل بحياة الكائن الحى، فمقومات وجود الكائن الحى: نَفَس، وماء، وطعام،

---

(١) زكاها: طهرها وبرأها من أقذار البدن والنفس.

والتنفس يأتى من الهواء الذى يحيط بالأرض ، والماء ينزل من السماء أو يُستنبط مما تسرب فى باطن الأرض. والطعام يأتى من الأرض ، وكل ما أصله من الأرض يُستخرج بالفلاحة.

لذلك نقول: إن الفلاَحة هى السبب الاستبقائى للحياة ، فكما يُفْلِح الإنسان الأرض ، ويشَقها ويبذر فيها البذور ، ثم يرويها ، ثم تنضج وتخرج الثمرة ، ويقال: أفلح ، أى: أنتجت زراعته نتاجاً طيباً.

وشاء الحق سبحانه أن يسمِّى الحصيلة الإيمانية الطيبة بالفلاح.

وبيَّن لنا رسول الله ﷺ أن الدنيا مزرعة الآخرة ، فإن كنت تريد ثمرة فابذل الجهد.

وإياك والظن أن الدين حينما يأخذ منك شيئاً فى الدنيا أنه يُنْقِص ما عندك ، لا ، بل هو يُنمِّى لك ما عندك [1].

والمثل الذى أضربه دائماً - ولله المثل الأعلى - نجد الفَلاَّح حين يزرع فداناً بالقمح ، فهو يأخذ من مخزنه إردباً ؛ ليستخدمه كبذور فى الأرض ، ولو كانت امرأته حمقاء لا تعرف أصول الزراعة ستقول له: «أنت أخذت من القمح ، وكيف تترك عيالك وأنت تنقصهم من قوتهم ؟ »

هذه المرأة لا تعلم أنه أخذ إردبَّ القمح المُخَزَّن ؛ ليعود به بعد الحصاد عشرة أو خمسة عشر إردبّاً من القمح.

كذلك مطلوب الله سبحانه فى الدنيا قد يبدو وكأنه ينقصك أشياء ، لكنه يعطيك ثمار الآخرة ويزيدها.

---

(١) يقول الحق سبحانه : ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ .. (٩٦) ﴾ [النحل] وقوله : ﴿ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ .. (٦٠) ﴾ [الأنفال] وقوله : ﴿ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا .. (١٦٠) ﴾ [الأنعام] وقوله : ﴿ إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ . (١٧) ﴾ [التغابن]

إذن: فالفلاح مادة مأخوذة من فلح الأرض وشقها وزرعها لتأخذ الثمرة.

وكما أنك تأخذ حظك من الثمار على قدر حظك من التعب ومن العمل، فذلك أمر الآخرة وأمر الدنيا.

ومثال ذلك: الفلاح الذى يحرث الأرض، ويحمل للأرض السماد على المطية [1]، ثم يستيقظ مبكراً فى مواعيد الرى، تجد هذا الفلاح فى حالة من الانشراح والفرح فى يوم الحصاد، وأمره يختلف عمن يهمل الأرض ويقضى الوقت على المقهى، ويسهر الليل أمام التليفزيون، ويأتى يوم الحصاد ليحزن على محصوله الذى لم يحسن زراعته.

وقول الحق سبحانه:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ [2] (٦٩) ﴾ [يونس]

أى: هؤلاء الذين يقولون عن الله تعالى أو فى الله تعالى بغير علم من الله، هم الذين لا يفلحون.

وأوضحت من قبل أن كل ما يتعلق بالله تعالى لا يُعْلَم عنه إلا عن طريق الله. لكن ما الذى يحملهم على الافتراء؟

نعم، إن كل حركة فى الحياة لا بد أن يكون الدافع إليها نفعاً، وتختلف النظرة إلى النفع وما يترتب عليه، فالطالب الكسول المتسكع فى الشوارع، الرافض للتعلم، نجده راسباً غير موفق فى مستقبله، أما التلميذ الحريص على علومه، فهو من يحصل على المكانة اللائقة به فى المجتمع، والتلميذ الأول كان محدود الأفق ولم ير امتداد النفع وضخامته، بل قصر النفع على لذة عاجلة مُضحِّياً بخير آجل.

---

(١) المطية: الدابة، وهى الناقة التى يُركَب مطاها أى: ظهرها. وجمعها: مطايا. [لسان العرب: مادة (م ط ى)].

(٢) يفترون الكذب: يكذبون، أو يقولون بغير علم. لا يفلحون: لا يفوزون ولا ينتصرون. قال تعالى: ﴿ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى (٦١) ﴾ [طه].

والذى جعل هؤلاء يفترون على الله الكذب هو انهيار الذات ، فكل ذات لها وجود ولها مكانة ، فإذا ما انهارت المكانة ، أحس الإنسان أنه بلا قيمة فى مجتمعه .

والمثل الذى ضربته من قبل بحَلاَّق الصحة فى القرية ، وكان يعالج الجميع ، ثم تَخرَّجَ أحد شباب القرية فى كلية الطب وافتتح بها عيادة ، فإن كان حلاق الصحة عاقلاً ، فهو يذهب إلى الطبيب ليعمل فى عيادته ممرضاً ، أو (تمرجياً) ، أما إن أخذته العزة بالإثم ، فهو يعاند ويكابر ، ولكنه لن يقدر على دفع عِلْم الطبيب .

وكذلك عصابة الكفر ورؤساء الضلال حينما يُفاجَأون بمَقْدم رسول من الله ، فهم يظنون أنه سوف يأخذ السيادة [1] لنفسه ، رغم أن أىَ رسول من رسل الله تعالى - عليه السلام - إنما يعطى السيادة لصاحبها ، ألا وهو الحق الأعلى سبحانه .

وحين يأخذ منهم السيادة التى كانت تضمن لهم المكانة والوجاهة والشأن والعظمة ، فهم يصابون بالانهيار العصبى ، ويحاولون مقاومة الرسول دفاعاً عن السلطة الزمنية .

ومثال ذلك : هو مَقْدمُ النبى ﷺ إلى المدينة ، وكان البعض يعمل على تنصيب عبد الله بن أبىّ ليكون مَلكاً [2] ؛ ولذلك قاوم الرجل الإسلام ،

---

(١) وهذا مخالف لمنطق الرسول ﷺ ومفهوم الدعوة ، حيث عرض عليه الكفار المال والملك والسلطان والجاه ، فاختار رب الكل ، وقال قولته التى سجلها الزمن وحفظتها العقول الواعية : « والله ولو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله ، أو أهلك فيه ما تركته » أورده ابن هشام فى السيرة النبوية (١/ ٢٦٦) .

(٢) أورد ابن إسحاق فى السيرة أن قوم عبد الله بن أبى كانوا «قد نظموا له الخرز ليتوجوه ثم يملِّكوه عليهم، فجاءهم الله برسوله وهم على ذلك، فلما انصرف قومه عنه إلى الإسلام ضغن ورأى أن رسول الله ﷺ قد استلبه ملكاً، فلما رأى قومه قد أبوا إلا الإسلام دخل فيه كارهاً مُصِراً على نفاق وضغن» سيرة ابن هشام (٢/ ٢١٦) .

وحين لم يستطع آمن نفاقاً ، وظل على عدائه للإسلام ، رغم أنه لو أحسن الإسلام واقترب من رسول الله ﷺ لنال أضعاف ما كان سيأخذه لو صار ملكاً .

وهكذا قادة الضلال وأئمة الكفر ، هم مشفقون على أنفسهم وخائفون على السلطة الزمنية ؛ لأن الرسول حينما يجيء إنما يُسوِّى بين الناس ؛ لذلك يقفون ضد الدعوة حفاظاً على السلطة الزمنية .

ولذلك يقول الحق سبحانه عن سبب افترائهم الكذب :

﴿ مَتَٰعٌ فِي ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ (١)

ويعزُّ - إذن - على قادة الكفر وأئمة الضلال أن يسلبهم الرياسة والسيادة داعٍ جديد إلى الله سبحانه وتعالى ، ويخافون أن يأخذ الداعى الجديد لله الأمر منهم جميعاً ، لا إلى ذاته ، ولكن إلى مراد ربه .

ولو كان الداعى إلى الله تعالى يأخذ السلطة الزمنية لذاته ؛ لقلنا : ذاتٌ أمام ذات ، ولكنه ﷺ أوضح أنه يعود - حتى فيما يخصه - إلى الله سبحانه وتعالى .

ويكشف لنا الحق سبحانه الكسب القليل الذى يدافعون عنه أنه :

---

(١) المتاع : التمتع ، وهو كل ما ينتفع به ويرغب فى اقتنائه ، كالطعام ، وأثاث البيت ، والسلعة ، والأداة ، والمال [المعجم الوسيط] والمراد أن الله سبحانه وتعالى يترك الكفار يتمتعون بمتاع الدنيا الزائل - لأن الدنيا كلها لا تساوى عند الله سبحانه جناح بعوضة - ولكنه سيعاقبهم على كفرهم بالعذاب الشديد فى الآخرة ويحرمهم من نعيم الجنة . ويقصد بالمتاع أيضاً الزوجة الصالحة مصداقاً لقول رسول الله ﷺ «الدنيا متاع ، وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة » .
أخرجه مسلم فى صحيحه كتاب الرضاع - باب خير متاع الدنيا المرأة الصالحة ، حديث (٥٩) عن عبد الله بن عمرو ، وعند أبى نعيم فى حلية الأولياء (٣/ ٣١٠) زيادة « إن نظر إليها سرته ، وإن أمرها أطاعته» .

﴿ مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ..(٧٠) ﴾ ؛ لأن كُلاً منهم يحب أن يقنع نفسه ، بحُمْق تقدير المنفعة ، وكلمة «الدنيا» لا بد أن منها حقيقة الشيء المنسوبة إليه.

والأسماء - كما نعلم - هى سمات مسميات ، فحين تقول: إن فلاناً طويل ، فأنت تعطيه سمة الطول.

وحين تقول: «دنيا» فهى من «الدُّنُوِّ» أو « الدناءة» .

وإن اعتبرت الدنو هو طريق موصل إلى القمة ، فهذا أمر مقبول ؛ لأن الدرجة الأولى فى الوصول إلى الأعلى هى الدنو ، وتلتزم بمنهج الله تعالى فتصعد عُلواً وارتفاعاً إلى الآخرة.

إذن: فمن يصف الدنيا بالدناءة على إطلاقها نقول له: لا ، بل هى دنيا بشرط أن تأخذها طريقاً إلى الأعلى ، ولكن من لا يتخذها كذلك فهو من يجعل مكانته هى الدنيئة ، أما من يتخذها طريقاً إلى العلو فهو الذى أفلح باتِّباع منهج الله تعالى.

إذن: فالدنيا ليست من الدناءة ؛ لأن الدين ليس موضوعه الآخرة ، بل موضوعه هو الدنيا ، ومنهج الدين يلزمك بـ «افعل» و «لا تفعل» فى الدنيا ، والآخرة هى دار الجزاء ، والجزاء على الشيء ليس عين موضوعه ، وأنت تستطيع أن تجعل الدنيا مفيدة لك إنْ جعلتها مزرعة للآخرة.

وإياك أن تعمل على أساس أن الدنيا [1] عمرها ملايين السنين ؛ لأنه لا يعنيك كعائش فى الدنيا إن طال عمرها أم قَصُرَ ، بل يعنيك فى الدنيا مقدار مُكْثك فيها ، وعمرك فيها مظنون ، بل وزمن الدنيا كله

---

(١) وقد وصف لنا رب العزة سبحانه الدنيا فقال : ﴿ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَىٰ ..(٧٧) ﴾ [النساء] وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢٤) ﴾ [يونس]

مظنون ، وهناك من يموت وعمره ستة أشهر ، وهناك من يموت وعمره مائة سنة ، وكلٌّ يتمتع بقدر ما يعيش ، ثم يرجع إلى الله سبحانه وتعالى .

وهؤلاء الذين ضَلُّوا وقالوا على الله سبحانه افتراء ، هؤلاء لن يفلتوا من الله ؛ لأن مرجعهم إليه سبحانه ككل خَلْقه ، وهؤلاء المُضلُّون لم يلتفتوا إلى عاقبة الأمر ، ولا إلى من بيده عاقبة الأمر ، ولم يرتدعوا .

ولكن من نظر إلى عاقبة الأمر وأحسن فى الدنيا فمرجعه إلى حسن الثواب والجنة ، ومن لم ينظر إلى عاقبة الأمر وافترى على الله - سبحانه وتعالى - الكذب فالمآب والمآل [1] إلى العذاب مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٧٠) ﴾ [يونس]

ودرجة العذاب تختلف باختلاف المعذِّب ، فإن كان المعذِّب ضعيفاً ، فتعذيبه يكون ضعيفاً ، وان كان المعذِّب متوسط القوة ؛ فتعذيبه يكون متوسطاً ، أما إن كان المعذِّب هو قوة القوى فلا بد أن يكون عذابه شديداً ، وهو سبحانه الحق القائل :

﴿ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ [2] (١٠٢) ﴾ [هود]

وبعد أن تكلم الحق سبحانه عن مبدأ تنزيه الألوهية عن اتخاذ الولد ، فهو سبحانه الغنىُّ الذى له ما فى السموات والأرض ، وبيَّن لنا سبحانه أننا يجب أن نأخذ المنهج من مصدر واحد وهو الرسل المبلِّغون عن الله تعالى ، شاء الحق سبحانه أن يكلمنا عن موكب الرسالات ؛ لأن الكلام حين يكون كلاماً نظرياً ليس له واقع يسنده ، فقد تنسحب النظرية عليه .

أما إن كان للكلام واقع فى الكون يؤيد الكلام النظرى ، فهذا دليل على صحة الكلام النظرى ؛ ولذلك فنحن حين نحب أن نضخِّم مسألة من

---

(١) المآب والمآل : المرجع والمصير .

(٢) أليم : صيغة مبالغة من الألم ، وشديد : صيغة مبالغة من الشدة ، أى : شديد الألم .

المسائل فى داء اجتماعى ، نحاول أن نصنع منه رواية ، أى : أمراً لم يحدث حقيقة ، ولكننا نتخيل أنه حقيقة ؛ لنبيِّن الأمر النظرى فى واقع متخيَّل .

ويقص علينا الحق سبحانه فى القرآن قصصاً من الموكب الرسالى ؛ ليبيِّن للكفار : أنكم لن تستطيعوا الوقوف أمام هذه الدعوة ، وأمامكم سجل التاريخ ، وأحداث الرسل مع أممهم ؛ المؤيدين بالمؤمنين ؛ والكفار المعاندين والمعارضين ، فإن كان قوم من السابقين قد انتصروا على رسولهم ، فللكفار الحق فى أن يكون لهم أمل فى الانتصار على رسول الله ﷺ [(١)] .

ولا بد أن يكون هذا الكلام موجهاً إلى أناس لهم علم ببعض أحداث الموكب الرسالى . ولكن قد يكون علم هذا قد بهت ؛ لأن الزمان قد طال عليه .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ ﴾ [(٢)]

---

(١) وقد جاءت آيات كثيرة فى القرآن الكريم تحث الكافرين وغيرهم على النظر فى عاقبة المكذبين والمجرمين ، نحو قوله تعالى : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ﴾ [الأنعام] .
وقوله تعالى : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [النمل] .

(٢) كبر : عظم وشق عليكم . مقامى : إقامتى بينكم . تذكيرى بآيات الله : دعوتى إياكم إلى الإيمان بالله تعالى . فعزمتم على قتالى وطردى ، فبالله آمنت ، وبه وثقت ، وعليه اعتمدت وتوكلت . فأجمعوا أمركم : اعزموا على ما تعزمون عليه وادعوا شركاءكم . غمة : ملتبساً مبهماً ، أى : كونوا جميعاً يداً واحدة ضدى ، واقضوا إلىَّ : أى : امضوا إلى ما فى أنفسكم وافرغوا منه . ولا تُنظرون : لا تؤخرون ولا تمهلون . وشدة إيمان نوح - عليه السلام - بالله تعالى وثقته فى نصرته إياه هى التى دعته لأن يتحدى قومه الكافرين هذا التحدى ؛ فكان نصر الله له ، والغرق والهلاك لأعدائه بالطوفان . [مختصر تفسير الطبرى - بتصرف] .

ولقائل أن يقول: ولماذا جاء الله سبحانه هنا بخبر نوح - عليه السلام - ولم يأت بخبر آدم -عليه السلام - أو إدريس - عليه السلام - وهُمَا من الرسل السابقين على نوح عليه السلام ؟

ومن هنا جاءت الشبهة فى أن آدم لم يكن رسولاً ؛ لأن البعض قد ظن أن الرسول يجب أن يحمل رسالته إلى جماعة موجودة من البشر ، ولم يفطن هؤلاء البعض إلى أن الرسول إنما يُرْسَل لنفسه أولاً.

وإذا كان آدم - عليه السلام - أول الخلق فهو مُرسَل لنفسه ، ثم يبلِّغ من سوف يأتى بعده من أبنائه.

وقد أعطى الله سبحانه وتعالى التجربة لآدم - عليه السلام - فى الجنة ، فكان هناك أمر ، وكان هناك نهى هو ﴿ **وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ ..(٣٥)** ﴾ [البقرة]

وحَذَّره من الشيطان [١] ، ثم وقع آدم عليه السلام فى إغواء الشيطان ، وأنزله الله تعالى إلى الأرض واجتباه [٢] ، وتاب عليه ، ومعه تجربته ، فإن خالف أمر ربه فسوف يقع عليه العقاب ، وحذره من اتباع الشيطان حتى لا يخرج عن طاعة الله تعالى.

---

(١) الشيطان : كل عاد متمرد من الإنس والجن ، والشيطان من الجن مخلوق حيث خلق من النار ، وهو عدو للإنسان يغريه بالشر إلا من حفظه الله بإيمانه يقول الحق : ﴿ **وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ (١٧)** ﴾ [الحجر] أى : حفظ السماء من عبث الشياطين وقال تعالى : ﴿ **إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا .. (٦)** ﴾[فاطر] وقال : ﴿ **وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ .. (١١٢)** ﴾ [الأنعام] [القاموس القويم - بتصرف]

(٢) اجتباه: اصطفاه واختاره، ومصداقه قوله تعالى عن آدم: ﴿ **ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى (١٢٢)** ﴾ [طه].

إذن: فقد أعطاه الحق سبحانه المنهج ، وأمره أن يباشر مهمته فى الأرض ؛ فى نفسه أولاً ، ثم يبلغه لمن بعده.

وكما علَّمه الحق سبحانه الأسماء كلها ، علَّم آدم الأسماء لأبنائه فتكلموا: وكما نقل إليهم آدم الأسماء نقل لهم المنهج ، وقد علمه الحق سبحانه الأسماء ؛ ليعمر الدنيا ، وعلَّمه المنهج ؛ ليحسن العمل فى الدنيا ؛ ليصل إلى حسن جزاء الآخرة.

واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ (١٢١) ﴾ [طه]

ويتبعها الحق سبحانه بقوله تعالى:

﴿ ثُمَّ اجْتَبَاهُ .. (١٢٢) ﴾ [طه]

ومعنى الاجتباء : هو الاصطفاء بالرسالة لنفسه أولاً ، ثم لمن بعده بعد ذلك ، والحق سبحانه هو القائل:

﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى .. (٣٨) ﴾ [البقرة]

والهدى: هو المنهج المنزَّل على آدم عليه السلام ، والرسالة ليست إلا بلاغ منهج وهدى من الله سبحانه للخلق.

وإذا كان الحق سبحانه وتعالى هو القائل:

﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً (١٥) ﴾ [الإسراء]

فالسابقون لنوح - عليه السلام - هم من أبلغهم آدم عليه السلام ، والدليل هو ما جاء من خبر ابنى آدم فى قول الحق سبحانه:

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَىْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا [1] .. (٢٧)﴾ [المائدة]

وهما قد قدَّما القربان إلى الله تعالى.

إذن : فخبر الألوهية موجود عند ابنى آدم بدليل قول الحق سبحانه:

﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٢٧)﴾ [المائدة]

إذن: فهم قد أقروا بوجود الله تعالى ، وأيضا عرفوا النهى ؛ لأنه فى إحدى الآيتين قال:

﴿لَئِن بَسَطتَ [2] إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٢٨)﴾ [المائدة]

إذن: فالذين جاءوا بعد آدم - عليه السلام - عرفوا الإله الواحد ، وعلموا المنهج.

إذن: فالذين يقولون: إن آدم - عليه السلام - لم يكن رسولاً ، نقول لهم: افهموا عن الله جيداً ، كان يجب أن تقولوا: هذه مسألة لا نفهم فيها ، وكان عليهم أن يسألوا أهل الذِّكْر ليفهموا عنهم أن آدم - عليه السلام - رسول ، وأن من أولاده قابيل وهابيل ، وقد تكلما فى التقوى.

أما لماذا جاء الحق سبحانه هنا بالحديث عن نوح ، عليه السلام ، فلنا أن نعلم أن آدم عليه السلام هو الإنسان الأول ، وأنه قد نقل لأولاده المنهج

---

(١) القربان: هو ما يتقرب به العبد إلى الله أو إلى الآلهة المزعومة، وقد كان أحد أبناء آدم صاحب غنم، فقرب أكرم غنمه وأسمنها وأحسنها طيبة بها نفسه، أما الآخر فكان صاحب حرث فقرب أشر حرثه غير طيبة بها نفسه، فتقبل الله قربان صاحب الغنم الذى قدم أفضل ما عنده طيبة بها نفسه. انظر تفسير ابن كثير (٢/ ٤٢).

(٢) بسطت: مددت.

المُبلِّغ له ، ودلَّهم على ما ينفعهم ، ثم طال الزمن ونشأت الغفلة ، فجاء إدريس عليه السلام ، ثم تبعته الغفلة ، إلى أن جاء نوح عليه السلام.

وهنا يأتى لنا الحق سبحانه بخبر نوح - عليه السلام - فى قوله:

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ .. (٧١) ﴾ [يونس]

والنبأ: هو الخبر الهام الذى يلفت الذهن ، وهو الأمر الظاهر الواضح.

والحق سبحانه يقول:

﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (١) عَنِ النَّبَأِ الْعَظِيمِ (٢) الَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ (٣) ﴾ [النبأ]

إذن : فالنبأ هو الخبر الهام المُلْفت ، وقد جاء هنا خبر نوح - عليه السلام - الذى يُبلِّغ قومه أى: يخاطبَهم ، وهو قد شهد لنفسه أنه رسول يبلِّغ منهجاً.

وكلمة ﴿قَوْمِ﴾ لا تطلق فى اللغة إلا على الرجال [1] ، يوضح القرآن ذلك فى قول الحق سبحانه:

﴿ لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ..(١١) ﴾ [الحجرات]

إذن: فالقوم هم الرجال ، والمرأة إنما يُبنى أمرها على السر ، والحركة فى الدنيا للرجل ، وقد شرحنا ذلك فى حديث الحق سبحانه لآدم - عليه السلام - عن إبليس ، فقال تعالى:

---

(١) القوم: جماعة من الرجال ليس معهم نساء، ويستعمل لفظ القوم فيشمل الأمة كلها رجالاً ونساء، مثل قوم نوح وقوم إبراهيم . قال ابن منظور فى اللسان (مادة قوم) : «ربما دخل النساء فيه على سبيل التبع؛ لأن قوم كل نبى رجال ونساء».

﴿إِنَّ هَـٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ (١١٧)﴾ [طه]

ولأن الخطاب لآدم فقد قال الحق سبحانه: ﴿فَتَشْقَىٰ (١١٧)﴾ [طه]

ولم يقل: فتشقيا؛ مما يدل على أن المرأة لا شأن لها بالأعمال التى خارج البيت والتى تتطلب مشقة، فالمرأة تقرُّ[1] فى البيت؛ لتحتضن الأبناء، وتُهيِّىء السكن للرجل بما فيها من حنان وعاطفة وقرار واستقرار.

أما القيام والحركة فللرجل.

والحق سبحانه يقول:

﴿فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ (١١٧)﴾ [طه]

إذن: فالكدح للرجل ومتطلبه القيام لا القعود.

ثم يقول الحق سبحانه على لسان نوح - عليه السلام:

﴿يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي .. (٧١)﴾ [يونس]

وهنا يُحنِّن نوح قومه بإضافات التحنن، أى: جاء بالإضافة التى تُشْعر المخاطبين بأنه منهم وهم منه، وأنه لا يمكن أن يغشهم فهم أهله، مثل قول النائب الذى يخطب فى أهل دائرته الانتخابية: «أهلى وعشيرتى وناخبىّ» وكلها اسمها إضافة تحنن.

وكذلك مثل قول لقمان لابنه:

﴿يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣)﴾ [لقمان]

---

(١) القر فى البيت: الاستقرار فيه، وذلك قوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَىٰ (٣٣)﴾ [الأحزاب].

وقوله:

﴿ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ (١) فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (١٦) ﴾ [لقمان]

وقوله:

﴿ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ ..(١٧) ﴾ [لقمان]

وهذه إضافات التحنن وفيها إيناس للسامع أن يقرب ويستجيب للحق.

﴿ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي ..(٧١) ﴾ [يونس]

و«الكاف والياء والراء» تأتى لمعنيين:

الأول: كبر السن، وهى: كبر يكبر.

والثانى: العظمة والتعظيم، إلا أن التعظيم يأتى ليبيِّن أنه أمر صعب على النفس، مثل قول الحق سبحانه:

﴿ ..كَبُرَتْ (٢) كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا (٥) ﴾ [الكهف]

أى: أن هذه الكلمة التى خرجت من أقوالهم أمر صعب وشاق، وهى قولهم:

---

(١) مثقال حبة من خردل: زنة حبة من خردل. والخردل: نبات عشبى ينبت فى الحقول وعلى حواشى الطرق، تستعمل بزوره فى الطب، ومنه بزور يتبل بها الطعام. الواحدة خردلة. ويضرب به المثل فى الصِّغر، فيقال: ما عندى خردلة من كذا. [المعجم الوسيط: مادة (خ ر د ل)].

(٢) ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ .. (٥) ﴾ [الكهف] أى: أن قول الكفار بأن لله - سبحانه وتعالى عما يقولون - ولداً، قول فيه خطأ كبير؛ لأن الله سبحانه منزه عن الصاحبة والأولاد، وعن الشركاء والأنداد. قال تعالى: ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا (٩٣) ﴾ [مريم]. وقال سبحانه: ﴿ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (٦٨) ﴾ [يونس] من إثبات الولد له، والولد يقتضى المجانسة والمشابهة، والله تعالى لا يجانس شيئاً، ولا يشابه شيئاً.

﴿ ..قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا (٤) ﴾ [الكهف]

وهذه الكلمة إنما تعظم على المؤمن ، وهى مسألة صعبة لا يمكن قبولها فلا يوجد مؤمن قادر على أن يقبل ادعاء خلق من خلق الله تعالى أن له سبحانه ولداً.

ومرة تكون العظمة من جهة أخرى ، مثل قول الحق سبحانه:

﴿ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ..(١٣) ﴾ [الشورى]

أى: عَظُم على المشركين ، وصَعُب على أنفسهم ، وشَقَّ عليهم ما تدعوهم إليه من أن الإله هو واحد أحد ، ولا سلطان إلا له سبحانه.

وهكذا ، إن كانت الكلمة مناقضة للإيمان فهى تكبر عند المؤمنين ، وإن كانت الكلمة تدعو الكافرين إلى الإيمان فهى تشق عليهم.

وهنا يأتى على لسان سيدنا نوح عليه السلام:

﴿ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي [1] ..(٧١) ﴾ [يونس]

ونحن نعلم أن سيدنا نوحاً - عليه السلام - مكث فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً.

---

(١) المقام : مصدر ميمى بمعنى القيام واسم مكان القيام الحسى ، ويطلق مجازاً على المكانة والمنزلة الأدبية ، وقوله : ﴿ وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ..(١٢٥) ﴾ [البقرة] أى : مكان قيامه المسجد الحرام . وقوله : ﴿ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٥٨) ﴾ [الشعراء] أى : موطن فيه خيرات . وقوله : ﴿ وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ (١٦٤) ﴾ [الصافات] أى : منزلة معلومة . وقوله : ﴿ يا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ .. (٧١) ﴾ [يونس] أى : قيامى بالدعوة إلى الله وتذكيركم بآياته ، ومقام هنا مصدر ميمى .

والمقام (بالضم) مصدر ميمى من أقام الرباعى المزيد بالهمزة بمعنى الإقامة . واسم مكان واسم زمان . وقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَارًا (١٣) ﴾ [الأحزاب] أى : لا إقامة لكم فى أمن مع المجاهدين فارجعوا إلى بيوتكم . . [القاموس القويم - بتصرف] .

أى: أن حياته طالت كثيراً بين قومه ، كما أن تقريعه للكافرين جعله ثقيلاً عليهم.

أو أن : ﴿كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي .. (٧١)﴾ [يونس]

تعنى: أنه حمَّلهم ما لا يطيقون ؛ لأن نوحاً - عليه السلام - أراد أن يُخرجهم عما ألفوا من عبادة الأصنام ، فشقَّ عليهم ذلك.

إذن: فمبدأ عبادة الإله الواحد يصعب عليهم.

أو أن الأصل فى الواعظ أو المبلِّغ أن يكون على مستوى القيام وهم قعود ، وكان سيدنا عيسى عليه السلام يتكلم مع الحواريين وهو واقف ، والوقوف إشعار بأن مجهود الهدى يقع على سيدنا عيسى - عليه السلام - بينما يقعد الحواريون ليستمعوا له فى راحة.

إذن: فقول الحق سبحانه:

﴿إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي .. (٧١)﴾ [يونس]

أى: إن صعب عليكم ما أدعوكم اليه.

ويصح أن نأخذها من ناحية طول الوعظ والتكرار فى ألف سنة إلا خمسين عاماً ، أو أن مقامى كبر عليكم ، بمعنى: أننا انقسمنا إلى قسمين ؛ لأن المنهج الذى أدعو إليه لا يعجبكم ، وكنت أحب أن نكون قسماً واحداً.

وها هو ذا سيدنا عمر بن الخطاب - رضى الله عنه ، وأرضاه - حين أحس أن الخلافة تقتضى أن يسمِّى من يَخْلُفُهُ من بعده ، قال له بعض الناس: لماذا لا تولى علينا عبد الله بن عمر ، فقالَ ابن الخطاب: بحسب

آل خطاب أن يُسأل منهم عن أمة محمد ﷺ رجل واحد. ثم أضاف: أعلم أنكم مَلَلْتُم حُكْمى ؛ لأنى شديد[1] عليكم .

إذن: فقد أحس نوح - عليه السلام - أنه انقسم هو وقومه إلى قسمين: هو قد أخذ جانب الله سبحانه الذى يدعو إلى عبادته ، وهم أخذوا جانب الأصنام التى ألفوا عبادتها.

لذلك يقول الحق سبحانه على لسان نوح - عليه السلام :

﴿ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ .. (٧١) ﴾ [يونس]

أى: أننى لن أتنازل عن دعوتى ، ونلحظ أنك إن قلت: «توكَّلتُ على الله» فقد يعنى هذا أنك قد تقول: وعلى فلان ، وفلان ، وفلان ، لكنك إن قلت: ﴿ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ .. (٧١) ﴾ [يونس]

فأنت قد قصرت توكُّلك على الله فقط.

وهكذا واجه نوح - عليه السلام - قومه ، ورصيده فى ذلك هو الاعتماد والتوكل على من أرسله سبحانه ، ويحاول أن يهديهم ، لكنهم لم يستجيبوا ، وقال لهم:

﴿ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً .. (٧١) ﴾ [يونس]

ومعنى جمع الأمر: (أى: جمع شتات الآراء كلها فى رأى واحد) ، أى: اتفقوا يا قوم على رأى واحد ، وأنتم لن تضرونى. وجمع أمر الأجيال التى ظل سيدنا نوح - عليه السلام - يحاول هدايتها تحتاج إلى جهد ؛ لأن الجيل العقلى ينقسم إلى عشرين سنة.

---

(١) فسيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه لم يردها مُلْكاً وإنما أرادها للرأى والشورى ليضرب المثل للأجيال أن الأمر فى حياة الاستقرار للشورى مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ .. (٣٨) ﴾ [الشورى] ولكنه أجاب جواباً ذكياً يحمل ما يريده ، وما يراد منه .

وقد ظل سيدنا نوح - عليه السلام - يدعو القوم بعدد ما عاش فيهم ، أى : ألف سنة إلى خمسين ، فكم جيل - إذن - ظل نوح يعالجه ؟

إنها أجيال متعددة ، ومع ذلك لم يظفر إلا بقدر قليل من المؤمنين [1] بحمْل سفينة واحدة ، ومعهم الحيوانات أيضاً ، فضلاً عن أن ابنه خرج - أيضاً - مع القوم الكافرين ، وناداه نوح - عليه السلام - ليركب معه وأن يؤمن ، فرفض ، وآثر أن يظل فى جانب الكفر ، بما فيه من فناء للقوم الكافرين ، وظن أنه قادر على أن يأوى إلى جبل يعصمه من الطوفان ، ولم ينظر ابن نوح إلى جندى آخر من جنود الله سبحانه يقف عقبة فى سبيل الوصول إلى الجبل ، وهو الموج.

إذن: فقول نوح عليه السلام:

﴿ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ ..(٧١) ﴾ [يونس]

له رصيد إيمانى ضمنى ، فلا يوجد مجير على الله من خلق الله ؛ لأن الخلق كله - جماده ونباته وحيوانه - إنما ينصاع لأمر الله تعالى فى نصرة نوح - عليه السلام - ولن يتخلف شىء.

هكذا كان توكُّل نوح - عليه السلام - على الله تعالى بما فى هذا التوكل من الرصيد الإيمانى المتمثل فى :

﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ ..(١٢٠) ﴾ [المائدة]

و﴿ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ ..(٢٨٤) ﴾ [البقرة]

---

(١) ومصداق ذلك قوله تعالى: ﴿ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ (٤٠) ﴾ [هود] فعن ابن عباس: كانوا ثمانين نفساً منهم نساؤهم، وعن كعب الأحبار: كانوا اثنين وسبعين نفساً، وقيل : كانوا عشرة. وقيل غير ذلك. وأيّاً كان عددهم فهو قليل جداً بالنسبة لمدة مكث نوح فيهم.

ولن يخرج شيء عن ملكه سبحانه.

ومن العجيب أنه لم يخرج عن مراد الله فى «كن» إلا الإنسان المختار، لم يخرج بطبيعة تكوينه، ولكن الحق سبحانه وهبه من عنده أن يكون مختاراً، ولو لم يهبه الله تعالى أن يكون مختاراً لما استطاع أن يقف، ولكان كل البشر من جنود الحق.

وقد قال نوح - عليه السلام:

﴿فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ[1] .. (٧١)﴾ [يونس]

والإنسان حين يهمه أمر من الأمور يظل متردداً بين خواطر شتى، ويحاول أن يرى ميزات كل خاطر، ويختار أفضلها، وإذا ما جمع الإنسان خواطره كلها فى خاطر واحد، فهذا يعنى استقراره على رأى واحد، وجمع أمره عليه.

أما إذا كان الأمر متعدد الناس، فكل واحد منهم له رأى، فإن اجتمعوا وقرروا الاتفاق على رأى واحد، فهذا جمعٌ للأمر.

والاتفاق على رأى واحد إنما يختلف باختلاف هويّة المجتمعين، فإن كانوا أهل خير فهم ينزلون بالشر، وإن كانوا أهل شر فهم يصعدون بالشر.

ومثال ذلك: أبناء يعقوب - عليه السلام - حينما حدث بينهم وبين أخيهم من الحسد لمكانة يوسف - عليه السلام - فقالوا:

---

(١) كلمة «شركاءكم» هنا منصوبة على أنها:
١- مفعول به لفعل مضمر تقديره: وادعوا شركاءكم.
٢- مفعول معه، أى: أجمعوا أمركم مع شركائكم.
٣- معطوف على أمركم، فتكون أجمعوا بمعنى العزم على فعل الشيء وكذلك جمع الشركاء.
وفى ضبط «شركاءكم» تفصيل انظره فى تفسير القرطبى (٤/ ٣٢٩٠).

﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ [١] لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ..(٩)﴾[يوسف]

أى: أن الاقتراح بقتل يوسف هدفه ألا يلتفت وجه يعقوب وقلبه إلى أحد سواهم، وأتبعوا اقتراحهم بقتل يوسف باقتراح التوبة، فقالوا لبعضهم البعض:

﴿وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ [٢] (٩)﴾ [يوسف]

وهم قد ظنوا أن التوبة إن نفَّذوا القتل ستصبح مقبولة.

وهذا الشر البادى فى حديثهم لم يقبله بعضهم فى بادىء الأمر؛ لأنهم أبناء نبوّة، وما يزالون هم الأسباط [٣]، لا يصعد فيهم الشر، بل ينزل، فقال واحد منهم: لا تقتلوه بل ﴿اطْرَحُوهُ أَرْضًا ..(٩)﴾ [يوسف]

أى: أنه خفَّف المسألة من القتل إلى الطرح أرضاً، وهذه أول درجة فى نزول الأخيار عن الشر الأول، وأيضاً تنازلوا عن الشر الثانى، وهو طرحه أرضاً؛ حتى لا يأكله حيوان مفترس، وجاء اقتراح: ﴿وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ [٤] إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ (١٠)﴾ [يوسف]

ثم أجمعوا أمرهم أخيراً حتى نزل الشر مرة أخرى لاحتمال ورود النجاة.

---

(١) يخل: فعل مجزوم لأنه جواب الأمر، معناه: يخلص ويصفو. [تفسير القرطبى: (٤/ ٣٤٥٢)].

(٢) قوماً صالحين: أى: تائبين. وقيل: ﴿صالحين﴾ أى: يصلح شأنكم عند أبيكم من غير أثرة ولا تفضيل. [تفسير القرطبى (٤/ ٣٤٥٢)].

(٣) الأسباط فى بنى إسرائيل بمنزلة القبائل فى بنى إسماعيل، فالأسباط هم بنو يعقوب اثنا عشر رجلاً. ولد كل رجل منهم أمة من الناس فسموا الأسباط. انظر تفسير ابن كثير (١/ ١٨٧).

(٤) غيابة، أى: مكان مظلم من الجب. والجب: البئر. أى: ألقوه فى موضع مظلم من الجب؛ حتى لا يلحقه نظر الناظرين. قيل: هو بئر بيت المقدس، وقيل: هو بالأردن، قاله وهب بن منبه. وسميت البئر جباً لأنها قطعت فى الأرض قطعاً. والسيارة: الجمع الذين يسيرون فى الطريق للسفر، وإنما قال القائل هذا حتى لا يحتاج إلى حمله إلى موضع بعيد؛ ويحصل المقصود، فإن من يلتقطه من السيارة يحمله إلى موضع بعيد، وكان هذا وجهاً فى التدبير حتى لا يحتاجوا إلى الحركة بأنفسهم؛ فربما لا يأذن لهم أبوهم، وربما يطلع على قصدهم. [تفسير القرطبى: ٤/ ٣٤٥٣، ٣٤٥٤)].

إذن: فالأخيار حين يجتمعون على شر لا بد أن ينزل.

ومثال ذلك: رجل طيب رأى ابنه وهو يُضرَب من آخر، فيفكر للحظة فى أن يضرب غريم ابنه بطلقة من (مسدس)، ثم يستبدل هذه الفكرة بفكرة الاكتفاء بضربه ضرباً مبرحاً بالعصا، ثم يتنازل عن ذلك بأن يفكر فى صفعه صفعتين، ثم يتنازل عن فكرة الصفع ويفكر فى توبيخه، ثم يتنازل عن فكرة التوبيخ ويكتفى بالشكوى لوالده، وهكذا ينزل الشر عند أهل الخير.

أما إن كان الرجل من أهل الشر، فهو يبدأ بفكرة الشكوى لوالد من ضرب ابنه، ثم يرفضها ليصعد شره إلى فكرة أن يصفعه هو، ثم لا ترضيه فكرة الصفع، فيفكر فى أن يضربه ضرباً شديداً، ولا ترضيه هذه الفكرة، فيقول لنفسه: «سأطلق عليه الرصاص». وهكذا يتصاعد الشر من أهل الشر.

وهنا يقول الحق سبحانه على لسان سيدنا نوح عليه السلام:

﴿ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ .. (٧١) ﴾ [يونس]

أى: اجتمعوا والزموا رأياً واحداً تحرصون على تنفيذه أنتم وشركاؤكم، وهو ينصحهم رغم أنهم أعداؤه، وكان عليه أن يحرص على اختلافهم، ولكن لأنه واثق من توكله على ربه؛ فهو يعلم أنهم مهما فعلوا فلن يقدروا عليه، ولن ينتصروا على دعوته إلا بالإقدام على إهلاك أنفسهم.

أو أنه مثلما يقول العامة: «أعلى ما فى خيولكم اركبوه» أى: أنه يهددهم، ولا يفعل ذلك إلا إذا كان له رصيد من قوة التوكل على الله تعالى.

ولا يكتفى بذلك بل يضيف:

﴿ ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً [(١)] .. (٧١) ﴾ [يونس]

والغمة: منها الغمام، ومنها الإغماء، أى: فقد الوعى وسَتْر العقل، أى: أنه قال لهم: لا تتعبوا أنفسكم بتبادل الهمسات فيما بينكم، بل افعلوا ما يحلو لكم، ولا تحاولوا ستر ما سوف تفعلون.

إن عليكم أن تجتمعوا على رأى واحد أنتم وشركاؤكم الذين تعتمدون عليهم، وتعبدونهم، أو شركاؤكم فى الكفر، ولم يأبَهْ نوح - عليه السلام - بتقوية العصبية المضادة له؛ لأنه متوكل على الله فقط.

لذلك يقول: ﴿ ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلا تُنظِرُونِ (٧١) ﴾ [يونس]

أى: أنه يُحفِّزهم على الاجتماع على أمر واحد ومعهم شركاؤهم - سواء من الأصنام التى عبدوها أو من أقرانهم فى الكفر - وأن يصمموا على المضىّ فى تنفيذ ما اتفقوا عليه.

و«قضى» أى: حكم حكماً، لكن الحكم على شىء لا يعنى الاستمرار بحيث ينفذ، فقد يُقضَى على إنسان بحكم؛ ويوقف التنفيذ.

لكن قوله: ﴿اقْضُوا إِلَيَّ﴾ يعنى: أصدروا حكمكم وسيروا إلى تنفيذ ما قضيتم به.

ثم يقول: ﴿وَلا تُنظِرُونِ﴾ أى: لا تمهلونى فى تنفيذ ما حكمتم به علىَّ.

والمتأمل للآية الكريمة يجد فيها تحدياً كبيراً، فهو أولاً يطلب أن يجتمعوا على أمر واحد، هم وشركاؤهم، ثم لا يكون على هذا الأمر

---

(١) غُمَّة وغُمَّ سواء، ومعناه: التغطية، من قولهم: غم الهلال إذا استتر، أى: ليكن أمركم ظاهراً منكشفاً تتمكنون فيه مما شئتم، ليس كمن يخفى أمره فلا يقدر على ما يريد. وهذا دليل على ثقة نوح عليه السلام من ربه سبحانه، ونصره إياه على قومه الكافرين. [تفسير القرطبى: ٤/ ٣٢٩٠].

غُمَّة [١] ، ثم اقضوا إليَّ ما اتفقتم عليه من حكم ونفِّذوه ولا تؤجلوه ، فهل هناك تحدٍّ للخصم أكثر من ذلك ؟

لقد كانوا خصوماً معاندين ، ظل نوح - عليه السلام - يترفق إليهم ويتحنن لهم ألف سنة إلا خمسين عاماً ، وصبر عليهم كل هذا الوقت ، ولا بد - إذن - من حدوث فاصل قوى ، ولهذا كان الترقِّى فى التحدى ، فدعاهم إلى جمع الأمر ومعهم الشركاء ، ثم بإصدار حكمهم عليه وعدم الإبطاء فى تنفيذه ، كان هذا هو التحدى الذى أخذ يترقى إلى أن وصل إلى قبول تنفيذ الحكم.

والنفسية العربية - على سبيل المثال - حين سامحت ، وصبرت ، وصفحت فى أمر لا علاقة له بمنهج الله ، بل بأمر يخص خلافاً على الأرض ، تجد الشاعر العربى يقول عن «بنى ذُهْل» الذين أتعبوا قوم الشاعر كثيراً ، ولكن قومه صفحوا عنهم ؛ يقول الشاعر [٢] :

صَفَحْنا عن بنى ذُهْلٍ ... وقلنا : القومُ إخوانُ
عسى الأيامُ أنْ يرجعـ ... ـنَ قوماً كالذى كانوا
فلما صَرَّحَ الشرُّ ... فأمْسَى وهو عريانُ
ولم يبقَ سوى العدوا ... ن دنَّاهم كما دانوا
مَشَيْنا مِشْيةَ الليث ... غَدَا والليثُ غضبانُ

---

(١) غم الشىء يغمه - كنصر - غماً : أخفاه وغطاه وستره وغمه الأمر : كربه وأحزنه ، قال تعالى : ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ (٨٨) ﴾ [الأنبياء] والغمة : التباس الأمر وعدم وضوحه ، قال تعالى : ﴿ ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً .. (٧١) ﴾ [يونس] وقال : ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ .. (١٦٠) ﴾ [الأعراف]

(٢) هو شهل بن شيبان ويلقب بالفنْد الزِّمّانى ، توفى نحو ٧٠ ق هـ ، من بنى بكر بن وائل . شاعر جاهلى سمى الفند لعظم خلقته تشبيهاً بالقطعة من الجبل وهى الفند . (الأعلام للزركلى ٣/ ١٧٩).

بِضرب فيه توهينٌ وتخضيعٌ[1] وإقرانُ
وطعْن كَفَمِ الزقِّ[2] غَدا والزِّقُّ مَلْآنُ
وفى الشرِّ نجاةٌ حيـ ـن لا يُنجيكَ إحسانُ
وبعضُ الحِلْمِ عند الجهْـ ـلِ للذِّلَّةِ إذعانُ[3]

إذن: فالمناجزة بين نوح - عليه السلام - وقومه اقتضت التشديد، لعل بشريتهم تلين، ولعل جبروتهم يلين، ولعلهم يعلنون الإيمان بالله تعالى، ولكنهم لم يرتدعوا.

لذلك يقول الحق سبحانه على لسان نوح بعد ذلك:

﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ[4] فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ[5] إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ[6] ﴿٧٢﴾﴾

أى: إن توليتم عن دعوتى لعبادة الإله الحق، فأنا لا أدعوكم إلى مثيل لكم هو أنا، بل أدعوكم إلى من هو فوقى وفوقكم، فأنا لا أريد أن أستولى على السلطة الزمنية منكم، ولا أبحث عن جاهٍ، فالجاه كله لله تعالى.

---

(١) التخضيع: تقطيع اللحم.
(٢) الزق: الإناء.
(٣) أورد هذه الأبيات أبو على القالى فى الأمالى (١/ ٣٠٩، ٣١٠)، وهى من بحر الهزج.
(٤) ﴿تَوَلَّيْتُمْ﴾: أعرضتم عما جئتكم به ﴿فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾ أى: فليس ذلك لأنى سألتكم أجراً؛ فيثقل عليكم مكافأتى. [تفسير القرطبى (٤/ ٣٢٩١)].
(٥) إنْ - هنا - نافية بمعنى (ما) أى: ما أجرى إلا على الله - سبحانه وتعالى.
(٦) ﴿الْمُسْلِمِينَ﴾ أى: الموحدين لله تعالى. [تفسير القرطبى (٤/ ٣٢٩١)].

والله لا يحتاج إلى جاه منكم لأن جاهه سبحانه ذاتى فيه ، ولكن لنمنع جبروتكم وتجبُّركم ؛ لتعيشوا على ضوء المنهج الحق ؛ لتكون حياتكم صالحة ، وكل ذلك لمصلحتكم .

﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ .. (٧٢) ﴾ فهل يُمَالىء [1] نوح - عليه السلام - أعداءه .

إن الإنسان يُمَالىء العدو ؛ لأنه يخاف أن يوقع به شراً ، ونوح عليه السلام لا يخافهم ؛ لأنه يعتمد على الله تعالى وحده ، بل هو يدلُّهم على مواطن القوة فيهم ، وهو يعلم أن قوتهم محدودة ، وأن شرهم مهما بلغ فهو غير نافذ ، وقد لا يكون منهم شر على الإطلاق ، فهل هناك نفعٌ سيعود على نوح - عليه السلام - ويُمنَع عنه ؟

لا ؛ لأنه يعلن أنه لا يأخذ أجراً على دعوته .

هم - إذن - لا يقدرون على ضُرِّه ، ولا يقدرون على نفعه ، وهو لا يريد منهم نفعاً ؛ لأن مركزه بإيمانه بالله الذى أرسله مركزٌ قوىٌّ .

وهو لا يسألهم أجراً ، وكلمة «أجر» [2] تعنى : ثمن المنفعة ، والأثمان تكون عادة فى المعاوضات ، إما أن تكون ثمناً للأعيان والذوات ، وإما أن تكون ثمناً للمنفعة .

ومثال ذلك : أن إنساناً يرغب فى شراء «شقة» فى بيت فيذهب إلى رجل يملك بيتاً ، ويطلب منه أن يبيع له عدداً من الأسهم بقيمة الشقة .

---

(١) يمالىء : يعاون ويساعد . قال أبو عبيد : يقال للقوم إذا تتابعوا برأيهم على أمر : قد تمالؤوا عليه . [لسان العرب : مادة (م ل أ)] .

(٢) الأجر : الجزاء على العمل ، والجمع : أجور . والأجر : الثواب ؛ وقد أجره الله يأجُره ويأجِره أجراً وآجره . أى : أعطاه الثواب . [لسان العرب : مادة (أ ج ر)] .

وهناك آخر يريد أن يستأجر شقة فيذهب إلى صاحب البيت ؛ ليدفع له قيمة إيجار شقة فى البيت ، أى: يدفع له قيمة الانتفاع بالشقة ، والأجر لا يُدفع إلا لطلب منفعة مُلِحَّة.

وكان على نوح - عليه السلام - أن يطلب منهم أجراً ؛ لأنه يهديهم إلى الحق ، هذا فى أصول التقييم للأشياء ؛ لأنه يقدِّم لهم نفعاً أساسياً ، لكنه يعلن أنه لا يطلب أجراً وكأنه يقول: إن عملى كان يجب أن يكون له أجر ؛ لأن منفعته تعود عليكم ، وكان من الواجب أن آخذ أجراً عليه.

ولكن نوحاً - عليه السلام - تنازل عن الأجر منهم ؛ لأنه أراد الأجر الأعلى ، فلو أخذ منهم ؛ فلسوف يأخذ على قدر إمكاناتهم ، ولكن الأجر من الله تعالى هو على قدر إمكانات الله سبحانه وتعالى ، وفارق بين إمكانات المحدود العطاء وهو البشر ، ومن له قدرة عطاء لا نهاية لها وهو الله سبحانه وتعالى .

وهنا يقول: ﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ .. (٧٢) ﴾ [يونس]

فهذا التولِّى والإعراض لا يضرُّنى ولا ينفعنى ؛ لأنكم لا تملكون لى ضُرّاً ولا تملكون لى نفعاً ؛ لأنى لن آخذ منكم أجراً.

ومن العجيب أن كل مواكب الرسل - عليهم السلام - حين يخاطبون أقوامهم يخاطبونهم بهذه العبارة :

﴿ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ .. (٨٦) ﴾ [ص]

إلا فى قصة سيدنا إبراهيم - عليه السلام - وقصة موسى عليه السلام ، فعن قصة سيدنا إبراهيم يأتى قول الحق سبحانه:

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (٧٠) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ [1] (٧١) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (٧٣) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ (٧٤) ﴾ [الشعراء]

ولم يأت الحق سبحانه فيها بشىء عن عدم السؤال عن الأجر.

وأيضًا فى قصة سيدنا موسى - عليه السلام - قال الحق سبحانه:

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ (١٢) وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ (١٣) وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ (١٤) قَالَ كَلاَّ فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ (١٥) فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦) أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٧) ﴾ [الشعراء]

وهنا أيضاً لا نجد قولاً لموسى - عليه السلام - فى عدم السؤال عن الأجر.

أما هنا فى قصة نوح - عليه السلام - فنجد قول الحق سبحانه:

﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٧٢) ﴾ [يونس]

وكذلك جاء نفس المعنى فى قصة هود عليه السلام، حيث يقول الحق سبحانه:

---

(١) العكوف على الشىء هو الإقامة والاستمرار عليه، أى: أنهم مقيمون مستمرون على عبادة الأصنام [تفسير ابن كثير (٣/ ٣٣٧)].

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلا تَتَّقُونَ (١٢٤) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٢٥) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٢٦) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢٧) ﴾ [الشعراء]

وجاء نفس المعنى أيضاً فى قوم ثمود ، إذ قال الحق سبحانه :

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ (١٤١) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلا تَتَّقُونَ (١٤٢) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٤٣) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٤٤) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٤٥) ﴾ [الشعراء]

وكذلك جاء نفس القول على لسان لوط عليه السلام ، فيقول الحق سبحانه :

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ (١٦٠) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلا تَتَّقُونَ (١٦١) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٦٢) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٦٣) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٤) ﴾ [الشعراء]

ونفس القول جاء على لسان شعيب عليه السلام فى قول الحق سبحانه :

﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ [1] الْمُرْسَلِينَ (١٧٦) إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلا تَتَّقُونَ (١٧٧) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٧٨) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٧٩) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨٠) ﴾ [الشعراء]

إذن : فغالبية الموكب الرسالى يأتى على ألسنتهم الكلام عن الأجر :

---

(١) أصحاب الأيكة : هم أهل مدين - على الصحيح - وكان نبى الله شعيب ، عليه السلام ، من أنفسهم ، وإنما لم يقل سبحانه هنا : أخوهم شعيب ؛ لأنهم نسبوا إلى عبادة الأيكة ، وهى شجرة كانوا يعبدونها . [ذكره ابن كثير فى تفسيره (٣/ ٣٤٥)] .

﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ..(١٦٤)﴾ [الشعراء]

فكأن الرسل عليهم السلام يقولون للبشر الذين أرسلوا إليهم: لو أنكم فطنتم إلى حقيقة الأمر لكان من الواجب أن يكون لنا أجر على ما نقدمه لكم من منفعة ، لكنَّا لا نريد منكم أنتم أجراً ، إنما سنأخذ أجرنا من ربِّ العالمين ؛ لأن المنفعة التى نقدمها لكم لا يستطيع بشر أن يقوِّمها ، وإنما القادر على تقييمها هو واضع المنهج - سبحانه - ومُنزِله على رسله.

وها هو القرآن الكريم يأتى على لسان رسول الله محمد ﷺ ، ويقول:

﴿قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِى الْقُرْبَىٰ ..(٢٣)﴾ [الشورى]

أما لماذا لم تأت مسألة الأجر على لسان سيدنا إبراهيم - عليه السلام - فنحن نعلم أن إبراهيم عليه السلام أول ما دعا ؛ دعا عمه ، وكان للعم حظ تربية إبراهيم ، وله على سيدنا إبراهيم حق الأبوة.

وكذلك سيدنا موسى عليه السلام ، فقد دعا فرعون ، وفرعون هو الذى قام بتربية موسى ، وكانت زوجة فرعون تريده قرة عين لها ولزوجها ، حتى إن فرعون فيما بعد قد ذكَّره بذلك ، وقال:

﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ [1] فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (١٨)﴾ [الشعراء]

أما هنا فى دعوة سيدنا نوح - عليه السلام - فيأتى قول القرآن على لسان نوح بما يوضِّح الأمر لقوم نوح:

فإن توليتم فلا حزن لى ، ولا جزع ؛ لأنكم لن تصيبونى بضُرٍّ ، ولن تمنعوا عنى منفعة ؛ لأنكم لم تسألونى أن آتى لكم بالهدى لآخذ أجرى منكم ، ولكن الحق سبحانه هو الذى بعثنى ، وهو الذى سيعطينى أجرى ،

(١) لبثت: عشت ومكثت بيننا.

وقد أمرنى سبحانه أن أكون من المسلمين له حَقّاً وصدقاً.

وفى حياتنا نجد أن صديقاً يرسل إلى صديقه عاملاً من عنده ليصلح شيئاً، فهو يأخذ الأجر من المرسل، لا من المرسل إليه، وهذا أمر منطقى وطبيعى.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ[1] وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ[2] وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾﴾

وكأن الأمر الذى وقع من الحق سبحانه نتيجة عدائهم للإيمان كان من الممكن أن يشمله؛ لأنه لا يقال: نجَّيتُك من كذا إلا إذا كان الأمر الذى نجيتك منه، توشك أن تقع فيه، وكان هذا بالفعل هو الحال مع الطوفان، فالحق سبحانه يقول:

﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ[3] (١١) وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا .. (١٢)﴾ [القمر]

---

(١) الفلك: السفينة.

(٢) خلفَه يخلفه من باب نصر: جاء بعده فصار مكانه - خَلَفا وخلافةً وخلفه خلفاً: صار خَلْفَه قال تعالى: ﴿قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي .. (١٥٠)﴾ [الأعراف] والخلف: القرن من الناس بعد القرن، أى الجيل بعد الجيل، والخلف الولد الصالح أو غير الصالح. قال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ .. (١٦٩)﴾ [الأعراف] والخَلف بالفتح: البعض والبدل والولد الصالح أو الولد غير الصالح. والخليفة من يخلف غيره، أو ينوب عنه، قال تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً .. (٣٠)﴾ [البقرة]، وخليفة جمعها خلفاء وخلائف يقول تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ .. (٦٩)﴾ [الأعراف] وقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ .. (١٦٥)﴾ [الأنعام]. [القاموس القويم - بتصرف].

(٣) ماء منهمر: مطر غزير.

ومن المتوقع أن تشرب الأرض ماء المطر ، لكن الذى حدث أن المطر انهمر من السماء والأرض أيضاً تفجَّرتْ بالماء ؛ ولذلك نجد الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (١٢) ﴾ [القمر]

أى : أن ذلك الأمر كان مقدَّراً ؛ حتى لا يقولن أحد : إن هذه المسألة ظاهرة طبيعية .

لا إنه أمر مُقدَّر ، وقد كانت السفينة موجودة بصناعة من نوح عليه السلام ؛ لأن الحق سبحانه قد أمره بذلك فى قوله تعالى فى سورة هود :

﴿ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا .. (٣٧) ﴾ [هود]

ويقول الحق سبحانه فى الآية التى بعدها :

﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ (١) مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (٣٨) ﴾ [هود]

ويركب نوح - عليه السلام - السفينة ، ويركب معه من آمن بالله تعالى ، وما حملوا معهم من الطير والحيوان من كُلٍّ نوع اثنين ذكراً وأنثى .

وقول الحق سبحانه :

﴿ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ .. (٧٣) ﴾ [يونس]

يوحى أن الذى صعد إلى السفينة هم العقلاء من البشر ، فكيف نفهم مسألة صعود الحيوانات والطيور إلى السفينة ؟

---

(١) ملأ : جماعة .

نقول: إن الأصل فى وجود هذه الحيوانات وتلك الطيور أنها مُسخَّرة لخدمة الإنسان، وكان لا بد أن توجد فى السفينة؛ لأنها ككائنات مسخّرة تسبِّح الله [١]، وتعبد الحق سبحانه، فكيف يكون علمها فوق علم العقلاء الذين كفر بعضهم، ثم أليس من الكائنات المسخَّرة ذلك الغراب الذى علَّم «قابيل» كيف يوارى سوأة أخيه [٢]؟! إنه طائر، لكنه علم ما لم يعلمه الإنسان!

والحق سبحانه هو القائل:

﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ ..(٣١)﴾ [المائدة]

ثم يقول الحق سبحانه فى الآية التى نحن بصددها الآن:

﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ (٧٣)﴾ [يونس]

وكلمة «الفُلْك» من الألفاظ التى تطلق على المفرد، وتطلق على الجماعة.

وقول الحق سبحانه: ﴿فَنَجَّيْنَاهُ﴾ نعلم منه أن الفعل من الله تعالى، وهو سبحانه حين يتحدث عن أى فعل له، فالكلام عن الفعل يأتى مثل قوله سبحانه:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ [٣] وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩)﴾ [الحجر]

---

(١) يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (٤٤)﴾ [الإسراء].

(٢) يوارى سوأة أخيه: يخفى جسد أخيه «هابيل» الذى قتله أخوه بغير حق. أى: يدفنه.

(٣) الذِّكْر: القرآن الكريم. قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٤٤)﴾ [النحل].

ولكنه حين يتحدث عن ذاته ، فهو يأتى بكلمة تؤكد الوحدانية وتكون بضمير الإفراد مثل : ﴿ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ .. (١٤) ﴾ [طه]

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ .. (٧٣) ﴾ [يونس]

كلمة «أنجى» للتعددية ، وكلمة «نَجَّى» تدل على أن هناك معالجة شديدة للإنجاء ، وعلى أن الفعل يتكرر .

وقول الحق سبحانه :

﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ [1] .. (٧٣) ﴾ [يونس]

تعنى : أن الخليفة هو من يجىء بعد سابق ، وكلمة «الخليفة» تأتى مرة للأعلى ، مثل الحال هنا حيث جعل الصالح خليفة للصالح ، فبعد أن أنجى الله سبحانه العناصر المؤمنة فى السفينة ، أغرق الباقين .

إذن : فالصالحون على ظهر السفينة أنجبوا الصالحين من بعدهم .

ومرة تأتى كلمة «الخليفة» للأقل ، مثل قول الحق سبحانه :

﴿ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ .. (٥٩) ﴾ [مريم]

فهنا تكون كلمة الخليفة موحية بالمكانة الأقل ، وهناك معيار وضعه الحق سبحانه لتقييم الخليفة ، هو قول الحق سبحانه :

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِن بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٤) ﴾

[يونس]

---

(١) خلائف : جمع خليفة وهو الذى يخلف من سبقه . وتجمع أيضاً على «خلفاء» . قال تعالى : ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ .. (٦٩) ﴾ [الأعراف] .

ولأن الإنسان مخيَّر بين الإيمان والكفر ، فسوف يَلْقَى مكانته على ضوء ما يختار.

ويقول الحق سبحانه:

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا .. (٥٥) ﴾ [النور]

إذن: فالخليفة إما أن يكون خليفة لصالحٍ ، وإما أن يكون صالحاً يَخْلُفُ فاسداً.

وهنا يقول الحق سبحانه:

﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا .. (٧٣) ﴾ [يونس]

والآيات - كما قلنا من قبل - إما آيات الاعتبار التى تهدى إلى الإيمان بالقوة الخالقة ، وهى آيات الكون كلها ، فكل شىء فى الكون يدلُّكَ على أن هذا الكون مخلوق على هيئة ولغاية ، بدليل أن الأشياء فى هذا الكون تنتظم انتظاماً حكيماً.

وإذا أردت أن تعرف دقة هذا الخلق ، فانظر إلى ما ليدك فيه دَخْلٌ ، وما ليس ليدك فيه دخل ؛ ستجد كل ما ليس ليدك فيه دخل على درجة هائلة من الاستقامة ، والحق سبحانه يقول:

﴿ لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ[1] يَسْبَحُونَ (٤٠) ﴾ [يس]

---

(١) الفَلَك: المدار يسبح فيه الجِرْم السماوى. والجمع: أفلاك. [المعجم الوسيط: مادة (ف ل ك)].

أما ما ليدك فيه دخل ، فاختيارنا حين يتدخل فهو قد يفسد الأشياء.

وهكذا رأينا أن الآيات الكونية تلفت إلى وجود الخالق سبحانه وهى مناط الاستدلال العقلى على وجود الإله ، أو أن الآيات هى الأمور العجيبة التى جاءت على أيدى الرسل - عليهم السلام - لتقنع الناس بأنهم صادقون فى البلاغ عن الله سبحانه وتعالى.

ثم هناك آيات القرآن الكريم التى يقول فيها الحق سبحانه:

﴿ هُوَ الَّذِى أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ .. (٧) ﴾ [آل عمران]

وهى الآيات التى تحمل المنهج .

وحين يقول الحق سبحانه:

﴿ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا .. (٧٣) ﴾ [يونس]

فهو يعلِّمنا أنه أغرق من كذَّبوا بالآيات الكونية ولم يلتفتوا إلى بديع صنعه سبحانه ، وحكمة تكوين هذه الآيات ، وترتيبها ورتابتها [(١)] ، وهم أيضاً كذَّبوا الآيات المعجزات ، وكذلك كذَّبوا بآيات الأحكام التى جاءت بها رسلهم.

ويُنهى الحق سبحانه وتعالى هذه الآية بقوله:

﴿ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ [(٢)] (٧٣) ﴾ [يونس]

والخطاب هنا لكل من يتأتَّى منه النظر ، وأوَّلُهم سيدنا محمد ﷺ ،

---

(١) رتابتها: أى: سيرها على نظام واحد لا يتخلف، يقول الحق سبحانه: ﴿ لا الشَّمْسُ يَنبَغِى لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٤٠) ﴾ [يس].

(٢) عاقبة: عقاب وجزاء ونهاية. المنذرين: اسم مفعول يشير إلى من وقع عليهم الإنذار، وهم قوم نوح الذين أنذرهم نبيهم، فلم يؤمنوا؛ فاستحقوا العقاب والعذاب.

وهو أول مُخاطَب بالقرآن.

وأنت حين تقول: «انظر» ؛ فأنت تُلْفت إلى أمر حسِّى ، إن وجَّهت نظرك نحوه جاء الإشعاع من المنظور إليه ، ليرسم أبعاد الشىء ؛ فتراه.

والكلام هنا عن أمور غائبة ، فهى أحداث حسية وقعت مرة واحدة ثم صارت خبراً ، فإن أخبرك بها مخبر فيكون تصديقك بها على مقدار الثقة فيه.

فمن رأى عصا موسى - عليه السلام - وهى تلقف الحبال التى ألقاها السحرة ؛ آمن بها ، مثلما آمن من شاهد النار عاجزة عن إحراق إبراهيم عليه السلام ، ومن رأى عيسى عليه السلام وهو يُشفى الأكْمَهَ والأبْرص [1] ويُحيى الموتى بإذن الله تعالى ، فقد آمن بما رأى ، أما من لم ير تلك المعجزات فإيمانه يتوقف على قدر توثيقه لمن أخبر ، فإن كان المخبر بذلك هو الله سبحانه وفى القرآن الكريم فإيماننا بتلك المعجزات هو أمر حتمى ؛ لأننا آمنا بصدق المبلِّغ عن الله تعالى.

ونحن نفهم أن الرسالات السابقة على رسالة محمد ﷺ ، كانت رسالات موقوتة زماناً ومكاناً ، لكن الإسلام جاء لينتظم الناس الموجَّه إليهم منذ أن أرسل الله رسوله محمداً ﷺ إلى أن تقوم الساعة.

لذلك جاء القرآن آيات باقيات إلى أن تقوم الساعة ، وهذا هو السبب فى أن القرآن قد جاء معجزة عقلية دائمة يستطيع كل من يدعو إلى منهج رسول الله ﷺ أن يقول: محمد رسول من عند الله تعالى ، وتلك هى معجزته.

وساعة يقول الحق سبحانه: ﴿فَانظُرْ﴾ فمثلها مثل قول الحق سبحانه

---

(١) الكمه: العَمَى الذى يولد به الإنسان. أما البَرَص فهو: مرض جلدى عبارة عن بقع بيضاء تكون فى الجسد. انظر اللسان.

وتعالى لرسوله ﷺ:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١)[1] ﴾ [الفيل]

وحادثة الفيل قد حدثت فى العام الذى ولد فيه رسول الله ﷺ، وبطبيعة الحال فسيدنا رسول الله ﷺ لم ير حادثة الفيل، ولكن الذين رأوها هم الذين كانوا يعيشون وقتها، وهذا ما يلفتنا إلى فارق الأداء، فعيونك قد ترى أمراً، وأذنك قد تسمع خبراً، ولكن من الجائز أن تخدعك حواسك، أما الخبر القادم من الله تعالى، وإن كان غائباً عنك الآن وغير مسموع لك فخذه على أنه أقوى من رؤية العين.

ولقائل أن يقول: لماذا لم يقل الحق: «ألم تعلم» وجاء بالقول:

﴿أَلَمْ تَرَ..(١)﴾ ؟ [الفيل]

وأقول: ليدلنا الله سبحانه على أن العلم المأخوذ من الله تعالى عن أمر غيبى عليك أن تتلقاه بالقبول أكثر من تلقيك لرأى العين.

إذن: ﴿فَانظُرْ﴾ تعنى: اعلمْ الأمر وكأنه مُجسَّم أمامك؛ لأنك مؤمن بالله تعالى وكأنك تراه، ومُبلِّغك عن الله سبحانه هو رسول تؤمن برسالته، وكل خبر قادم من الله تعالى ورسوله ﷺ لا يمكن أن يتسرب إليه الشك، ولكن الشك لا يمكن أن يتسرب إلى المخبر الصادق أبداً.

ولقائل أن يقول: ولماذا لم يقل الحق: «فانظر كيف كان عاقبة الكافرين» بدلاً من قول الحق سبحانه:

﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ (٧٣)﴾ ؟ [يونس]

---

(١) أصحاب الفيل، هم جيش «أبرهة» الحبشى حين قدموا لهدم الكعبة، فمزقهم الله شر ممزق وأرسل عليهم طيوراً من السماء ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم الله كعصف مأكول. ووافق ذلك قبل مولد النبى ﷺ بخمس وخمسين ليلة، فهو لم ير الحادث بعينيه، ولكن إخبار الله له أمر لا يحتمل إلا الصدق، فكأنه قد رآه بعينيه فعلاً.

وهنا نقول:

إن الحق سبحانه وتعالى قد بيَّن أنه لن يعذِّب قبل أن يُنْذِر[(١)]، فهو قد أنذر أولاً، ولم يأخذ القوم على جهلهم.

«فانظر» - كما نعلم - هى خطاب لرسول الله ﷺ، وخطاب رسول الله ﷺ يشمل أمته أيضاً، وجاء هذا الخبر تسلية لرسول الله ﷺ، فإن صادف من قومك يا محمد ما صادف قوم نوح - عليه السلام - فاعلمْ أن عاقبتهم ستكون كعاقبة قوم نوح.

وفى هذا تحذير وتخويف للمناوئين لرسول الله ﷺ.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ[(٢)] فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِن قَبْلُ[(٣)] كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾﴾

---

(١) يقول الحق سبحانه: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ [فاطر] ويقول: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ [الإسراء] النذير والإنذار وجمعه نذر، قال تعالى: ﴿مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ..﴿١٩﴾﴾ [المائدة].

والنذير هنا: هو الرسول المنذر بالعذاب. والنذر اسم مصدر بمعنى الإنذار كقوله تعالى: ﴿فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾﴾[المرسلات] وقوله: ﴿.. وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [يونس] يحتمل أنها الإنذارات. أو المنذرون من الرسل جمع نذير، وقوله: ﴿وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ.. ﴿٢١﴾﴾ [الأحقاف]، والمراد بالنذر هم الرسل المنذرون.

(٢) بالبينات: أى: بالحجج والأدلة والبراهين على صدق ما جاءوهم به. [ذكره ابن كثير فى تفسيره (٢/ ٤٢٦)].

(٣) الطبع: هو الختم على القلب، ولكنه لا يُمحَى ولا يُفك أبداً. أما الختم فقد يفك، وقد تكون له مدة معلومة، وقد يقبل مع التوبة الخالصة. وبكلا الأمرين ورد القرآن: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ﴿١٠٨﴾﴾ [النحل]. وقال سبحانه: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ.. ﴿٧﴾﴾ [البقرة].

وكلمة «بعث» هنا تستحق التأمل ، فالبعث إنما يكون لشىء كان موجوداً ثم انتهى ، فيبعثه الله تعالى .

وكلمة ﴿بَعَثْنَا﴾ هذه تلفتنا إلى أن الحق سبحانه أول ما خلق الخلق أعطى المنهج لآدم عليه السلام ، وأبلغه آدم لأبنائه ، وكل طمس أو تغيير من البشر للمنهج [1] هو إماتة للمنهج .

وحين يرسل الحق سبحانه رسولاً ، فهو لا ينشىء منهجاً ، بل يبعث ما كان موجوداً ، ليذكِّر الفطرة السليمة .

وهذا هو الفرق بين أثر كلمة «البعث» عن كلمة «الإرسال» ، فكلمة البعث تشعرك بوجود شىء ، ثم انتهاء الشىء ، ثم بعث ذلك الشىء من جديد ، ومثله مثل البعث فى يوم القيامة ، فالبشر كانوا يعيشون وسيظلون فى تناسل وحياة وموت إلى يوم البعث ، ثم يموت كل الخلق ليبعثوا للحساب .

ولم يكن من المعقول أن يخلق الله سبحانه البشر ، ويجعل لهم الخلافة فى الأرض ، ثم يتركهم دون منهج ؛ وما دامت الغفلة قد طرأت عليهم من بعد آدم - عليه السلام - جاء البعث للمنهج على ألسنة الرسل [2] المبلِّغين عن الله تعالى .

---

(١) نَهَج الطريق من باب فتح ، نهجاً : سلكه . ونهج الطريق له : أوضحه ، والنهج والمنهج والمنهاج : الطريق الواضح والمذهب حسياً ومعنوياً ، قال تعالى : ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا .. (٤٨)﴾ [المائدة] أى : مذهباً أو طريقة أو ديناً ، فهو هنا معنوى .

(٢) الرسالة : اسم لما يُرسل منقولة عن المصدر ، ورسالة الرسول ما أمر بتبليغه عن الله للناس ، ودعوته الناس إلى ما أوحى إليه . والرسول : المرسل . والرسول مصدر بمعنى الرسالة ، وإذا وصف بالمصدر فلا يؤنث ولا يثنى ولا يجمع . قال الزمخشرى : الرسول يكون بمعنى المرسل ، وبمعنى الرسالة فجعله القرآن فى سورة طه بمعنى المرسل ، فلم يكن بُدٌّ من تثنيته . يقول الحق : ﴿إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ ..(٤٧)﴾ [طه] أما فى آية الشعراء فبمعنى الرسالة ، فجازت التسوية فيه إذا وصف به بين المفرد والمثنى ، فلهذا قال : ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦)﴾ [الشعراء] وأرسل تأتى لمجرد البعث والإطلاق مثل : ﴿فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ .. (١٠٥)﴾ [الأعراف] (الزمخشرى - بتصرف) .

وبعد نوح - عليه السلام - بعث الحق سبحانه رسلاً ، وهنا يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِ ..(٧٤) ﴾ [يونس]

أى: من بعد نوح ، فمسألة نوح - عليه السلام - هنا تعنى مقدمة الرَّكْب الرسالى ؛ لأن نوحاً عليه السلام قد قالوا عنه إنه رسول عامٌّ للناس جميعاً أيضاً ، مثله مثل محمد ﷺ ، وهو لم يُبعث رسولاً عامّاً للناس جميعاً ، بل كان صعوده إلى السفينة هو الذى جعله رسولاً لكل الناس ؛ لأن سكان الأرض أيامها كانوا قِلّة.

والحق سبحانه قد أخذ الكافرين بذنبهم وأنجى المؤمنين من الطوفان ، وكان الناس قسمين: مؤمنين ، وكافرين ، وقد صعد المؤمنون إلى السفينة ، وأغرق الحق سبحانه الكافرين.

وهكذا صار نوح - عليه السلام - رسولاً عامّاً بخصوصية من بقوا وهم المرسَل إليهم بخصوصية الزمان والمكان [(١)].

وهنا يقول الحق سبحانه:

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِ رُسُلاً إِلَىٰ قَوْمِهِمْ ..(٧٤) ﴾ [يونس]

فهل قَصَّ الله تعالى كل أخبار الرسل عليهم السلام؟ لا ؛ لأنه سبحانه وتعالى هو القائل:

﴿ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ..(٧٨) ﴾ [غافر]

---

(١) أما رسالة محمد ﷺ فهى لعامة الزمان والمكان ، وهذا مما خصَّ به الله رسوله ﷺ وأمته ، ويدل عليه حديث رسول الله ﷺ : « أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلى : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً ، فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فَلْيُصلِّ ، وأحلت لى المغانم ولم تحل لأحد قبلى ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبى يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة » أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٣٥) ومسلم (٥٢١) من حديث جابر بن عبد الله .

وجاء الحق عز وجل بقصص أولى العزم منهم [(١)]، مثلما قال سبحانه:

﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ [(٢)] (١٤٧)﴾ [الصافات]

فمن أرسله الله تعالى إلى من هم أقل من مائة ألف، فقد لا يأتى ذكره، ونحن نعلم أن الرسول إنما كان يأتى للأمة المنعزلة؛ لأن العالم كان على طريقة الانعزال، فنحن مثلاً منذ ألف عام لم نكن نعلم بوجود قارة أمريكا، بل ولم نعلم كل القارات والبلاد إلا بعد المسح الجوى فى العصر الحديث، وقد توجد مناطق فى العالم نعرفها كصورة ولا نعرفها كواقع.

ونحن نعلم أن ذرية آدم - عليه السلام - كانت تعيش على الأرض، ثم انساحت [(٣)] فى الأرض؛ لأن الأقوات التى كانت تكفى ذرية آدم على عهده، لم تعد تكفى بعدما اتسعت الذرية، فضاق الرزق فى رقعة الأرض التى كانوا عليها، وانساح بعضهم إلى بقية الأرض.

والحق سبحانه هو القائل:

﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً [(٤)] .. (١٠٠)﴾ [النساء]

---

(١) أولو العزم من الرسل هم: محمد ﷺ، وإبراهيم، ونوح، وموسى، وعيسى عليهم السلام. قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ .. (٣٥)﴾ [الأحقاف].

(٢) هو يونس - عليه السلام - أنجاه الله سبحانه وتعالى من بطن الحوت ثم أرسله إلى قومه وهم أهل «نينوى» بجهة الموصل، وكان عددهم مائة ألف أو يزيد على المائة ألف - على اختلاف بين المفسرين. [تفسير الجلالين ص ٣٩٦] و[تفسير ابن كثير (٤/ ٢٢)]، و[صفوة التفاسير للصابونى (٣/ ٢٤)].. بتصرف.

(٣) انساح: من السياحة وهى الذهاب فى الأرض، أو الهجرة من مكان إلى مكان. [لسان العرب: مادة (س ى ح)].

(٤) مراغماً كثيراً: المراغمة الهجران والتباعد. والمراد: أنه يجد أماكن كثيرة تصلح لأن يهاجر إليها ليعيش فيها. [اللسان - بتصرف].
وسعة: أى: بعيداً عن تضييق المشركين، وقيل: سعة، أى: كثرة فى الرزق. [مختصر تفسير الطبرى] بتصرف.

وهكذا انتقل بعض من ذرية آدم - عليه السلام - إلى مواقع الغيث [١]، فالهجرة تكون إلى مواقع المياه ؛ لأنها أصل الحياة.

ويلاحظ مؤرِّخو الحضارات أن بعض الحضارات نشأت على جوانب الأنهار والوديان ، أما البداوة فكانت تتفرق فى الصحارى ، مثلهم مثل العرب ، وكانوا فى الأصل يسكنون عند سد مأرب ، وبعد أن تهدم السد وأغرق الأرض ، خاف الناس من الفيضان ؛ لأن العَدُوَّين اللذين لم يقدر عليهما البشر هما النار والماء.

وحين رأى الناس اندفاع الماء ذهبوا إلى الصحارى ، وحفروا الآبار التى أخذوا منها الماء على قَدْر حاجتهم ؛ لأنهم عرفوا أنهم ليسوا فى قوة المواجهة مع الماء.

وهكذا صارت الانعزالات بين القبائل العربية ، ومثلها كانت فى بقية الأرض ؛ ولذلك اختلفت الداءات باختلاف الأمم ؛ ولذلك بعث الحق سبحانه إلى كل أمة نذيراً ، وهو سبحانه القائل:

﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ [٢] .. (٢٤) ﴾ [فاطر]

وقصَّ علينا الله سبحانه قصص بعضهم ، ولم يقصص قصص البعض الآخر.

يقول الحق سبحانه :

---

(١) الغيث : المطر .

(٢) إن: نافية بمعنى (ما) . أى: ما من أمة إلا أرسل الله إليهم من ينذرهم. خلا: مضى وسبق. قال تعالى: ﴿ كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ .. (٣٠) ﴾ [الرعد].

نذير: صيغة مبالغة من الإنذار، أى: كثير الإنذار لهم بعذاب الله إذا لم يؤمنوا به. قال تعالى: ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلا نَذِيرٍ .. (١٩) ﴾ [المائدة].

﴿ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ ..(٧٨) ﴾ [غافر]

وهنا يقول الحق سبحانه:

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلاً إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ ..(٧٤) ﴾ [يونس]

فهل هؤلاء هم الرسل الذين لم يذكرهم الله ؟

لا ؛ لأن الحق سبحانه أرسل بعد ذلك هوداً إلى قوم عاد ، وصالحاً إلى ثمود ، وشعيباً إلى مدين ، ولم يأت بذكر هؤلاء هنا ، بل جاء بعد نوح - عليه السلام - بخبر موسى عليه السلام ، وكأنه شاء سبحانه هنا أن يأتى لنا بخبر عيون الرسالات [1] .

وما دام الحق سبحانه قد أرسل رسلاً إلى قوم ، فكل قوم كان لهم رسول ، وكل رسول بعثه الله تعالى إلى قومه.

وكلمة «قوم» [2] فى الآية جمع مضاف ، والرسل جمع ، ومقابلة الجمع بالجمع تقتضى القسمة آحاداً ، مثلما نقول: هَيَّا اركبوا سياراتكم ، والخطاب لكم جميعاً ، ويعنى: أن يركب كل واحد منكم سيارته.

وجاء كل رسول إلى قومه بالبينات ، أى: بالآيات الواضحات الدالة على صدق بلاغهم عن الله تعالى.

ثم يقول الحق سبحانه فى نفس الآية:

---

(١) عيون الرسالات: أكبرها وأهمها ذكرها تفصيلاً ، وذكر غيرها إجمالاً .

(٢) القوم : جماعة الرجال ليس معهم نساء . قال تعالى : ﴿ لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ .. (١١) ﴾ [الحجرات] ، ثم قال : ﴿ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ .. (١١) ﴾[الحجرات] فدلَّ على أن المقصود بالقوم هنا الرجال فقط ، ويستعمل لفظ القوم فيشمل الأمة كلها رجالاً ونساء ، مثل قوم نوح وقوم إبراهيم . [القاموس القويم] وانظر [لسان العرب مادة : قوم] .

﴿ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ (٧٤) ﴾ [يونس]

أى: أن الناس جميعهم لو آمنوا لانقطع الموكب الرسالى، فموكب إيمان كل البشر لم يستمر، بل جاءت الغفلة [(١)]، وطبع الله تعالى على قلوب المعتدين. والطبع - كما نعلم - هو الختم.

ومعنى ذلك أن القلب المختوم لا يُخرج ما بداخله، ولا يُدخل إليه ما هو خارجه؛ فما دام البعض قد عشق الكفر فقد طبع الله سبحانه على هذه القلوب ألاّ يدخلها إيمان، ولا يخرج منها الكفر، والطبع هنا منسوب لله تعالى.

وبعض الذين يتلمَّسون ثغرات فى منهج الله تعالى يقولون: إن سبب كفرهم هو أن الله هو الذى طبع على قلوبهم.

ونقول: التفتوا إلى أنه سبحانه بيَّن أنه قد طبع على قلوب المعتدين، فالاعتداء قد وقع منهم أولاً، ومعنى الاعتداء أنهم لم ينظروا فى آيات الله تعالى، وكفروا بما نزل إليهم من منهج، فهم أصحاب السبب فى الطبع على القلوب بالاعتداء والإعراض.

وجاء الطبع لتصميمهم على ما عشقوه وألفوه، والحق سبحانه وتعالى هو القائل فى الحديث القدسى:

«أنا أغنى الشركاء عن الشرك» [(٢)].

ولله المثل الأعلى، فأنت تقول لمن يَسْدِر [(٣)] فى غَيِّه: ما دمت تعشق ذلك الأمر فاشبع به.

---

(١) الغفلة: سهو يعترى الإنسان من قلة التحفظ وعدم اليقظة، قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا .. (٢٢) ﴾ [ق]، أى: غافلاً عن إدراك القيامة وغافلاً عن أحداث ما بعد الموت. [القاموس القويم]

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٩٨٥) وابن ماجه فى سننه (٤٢٠٢) عن أبى هريرة رضى الله عنه.

(٣) السادر فى غيه: الممعن فى ضلاله المستمر عليه لا يهتم لشىء ولا يبالى ما صنع. [اللسان مادة: سدر].

ومَثَل هؤلاء الذين طبع الله سبحانه وتعالى على قلوبهم ، مثل الذين كذَّبوا من قبل وكانوا معتدين .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ[1] بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾

وكل من موسى وهارون - عليهما السلام - رسول ، وقد أخذ البعث لهما مراحل ، والأصل فيها أن الله تعالى قال لموسى - عليه السلام :

﴿ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ (١٣) ﴾ [طه]

وقال الحق سبحانه وتعالى لموسى - عليه السلام :

﴿ اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (٤٣) ﴾ [طه]

ثم سأل موسى - عليه السلام - ربه سبحانه وتعالى أن يشدَّ عَضُدَه بأخيه ، فقال الحق سبحانه وتعالى :

﴿ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ (٣٦) ﴾ [طه]

لأن موسى - عليه السلام - أراد أن يفقه قوله ، وقد رجى موسى ربه سبحانه وتعالى بقوله :

﴿ وَاحْلُلْ عُقْدَةً[2] مِّن لِّسَانِي (٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي (٢٨) ﴾ [طه]

---

(١) ملئه : قومه . وقيل : هم أشراف القوم ووجوههم ورؤساؤهم الذين يُرجع إلى قولهم . [اللسان ، مادة : ملأ] .

(٢) العقدة : تطلق على رتة اللسان وصعوبة النطق ، قال تعالى حاكياً عن موسى عليه السلام : ﴿ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي (٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي (٢٨) ﴾ [طه] .

وبعد ذلك جاء تكليف هارون بالرسالة مع موسى عليه السلام.

وقال الحق سبحانه: ﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (١) (٢٤)﴾ [طه]

فالأصل - إذن - كانت رسالة موسى - عليه السلام - ثم ضم الله سبحانه هارون إلى موسى إجابة لسؤال موسى، والدليل على ذلك أن الآيات كلها المبعوثة فى تلك الرسالة كانت بيد موسى، وحين يكون موسى هو الرسول، وينضم إليه هارون، لا بد - إذن- أن يصبح هارون رسولاً.

ولذلك نجد القرآن معبِّراً عن هذا: ﴿إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ .. (٤٧)﴾ [طه]

أى: أنهما رسولان من الله.

وفى آية أخرى يقول الحق سبحانه:

﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦)﴾ [الشعراء]

فهما الاثنان مبعوثان فى مهمة واحدة، وليس لكل منهما رسالة منفصلة، بل رسالتهما واحدة لم تتعدد، وإن تعدد المرسل فكانا موسى وهارون.

ومثال ذلك - ولله المثل الأعلى - حين يوفد ملك أو رئيس وفداً إلى ملك آخر، فيقولون: نحن رسل الملك فلان.

وفى رسالة موسى وهارون نجد الأمر البارز فى إلقاء الآيات كان لموسى. ولكن هارون له أيضاً أصالة رسالية؛ لذلك قال الحق سبحانه:

﴿إِنَّا رَسُولا .. (٤٧)﴾ [طه]

---

(١) طغى: تجاوز الحد. ومنه قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ (١١)﴾ [الفجر] أى: ظلموا وتجاوزوا الحد فى العصيان. وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ (١١)﴾ [الحاقة].

ذلك أن فرعون كان متعالياً سَمْجاً [١] رَذْل [٢] الخُلُق ، فإن تكلم هارون ليشد أزر [٣] أخيه ، فقد يقول الفرعون: وما دخلك أنت؟

ولكن حين يدخل عليه الاثنان ، ويعلنان أنهما رسولان ، فإن رد فرعون هارون ، فكأنه يرد موسى أيضاً .

أقول ذلك حتى نغلق الباب على من يريد أن يتورك [٤] القرآن متسائلاً: ما معنى أن يقول القرآن مرة «رسول» ومرة «رسولا» ؟

وفى هذا ردٌّ كافٍ على هؤلاء المتورّكين.

ويقول الحق سبحانه هنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها:

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا .. (٧٥) ﴾ [يونس]

والملأ: هم أشراف القوم ، ووجوهه وأعيانه والمقرَّبون من صاحب السيادة العليا ، ويقال لهم : «ملأ» ؛ لأنهم هم الذين يملأون العيون ، أى: لا ترى العيون غيرهم.

وفرعون - كما نعلم - لم يصبح فرعوناً إلا بالملأ ؛ لأنهم هم الذين نصَّبوه عليهم ، وكان «هامان» مثلاً يدعم فكرة الفرعون ، وكان الكهنة يؤكدون أن الفرعون إله.

---

(١) سَمُجَ الشيء: قَبُحَ. والسَّمْجُ والسَّميج: الذى لا خير فيه [لسان العرب: مادة (س م ج)- بتصرف].

(٢) الرَّذْل والرَّذيل: الدون من الناس، وقيل: هو الخسيس. وقيل: هو الردىء من كل شيء. [لسان العرب: مادة (ر ذ ل)].

(٣) الأَزْر: القوة والشدة ، وأَزَرَهُ وآزره: أعانه وساعده. [لسان العرب: مادة (أزر)].

(٤) التوريك: إضافة الذنب أو النقص إلى الشيء، وحمله عليه على غير الحقيقة، وتحمل معنى إسقاط عيبه على غيره [انظر: لسان العرب - مادة: ورك] والمراد أنهم يُحمِّلون القرآن تناقضاتهم.

ولكل فرعون ملأ يصنعونه ، والمثل الشعبى فى مصر يقول: «قالوا لفرعون من فَرْعَنك ، قال : لم أجد أحداً يردّنى».

أى: أنه لم يجد أحداً يقول له: تَعقَّلْ . ولو وجد من يقول له ذلك لما تفرعن.

والآيات [1] التى بعث بها الله سبحانه إلى فرعون وملئه مع موسى وهارون من المعجزات الدالة على صدق نبوة موسى وهارون - عليهما السلام ، وفيها ما يُلْفِت إلى صدق البلاغ عن الله .

أو أن الآيات هى المنهج الذى يثبت وجود الخالق الأعلى ، لكن فرعون وملأه استكبروا. والاستكبار: هو طلب الكبر ، مثلها مثل «استخرج» أى: طلب الإخراج ، ومثل «استفهم» أى: طلب الفهم. ومن يطلب الكبر إنما يفتعل ذلك ؛ لأنه يعلم أن مقوماته لا تعطيه هذا الكبر.

وينهى الحق سبحانه هذه الآية بقوله :

﴿ .. وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ (٧٥) ﴾ [يونس]

وشرُّ الإجرام هو ما يتعدى إلى النفس ، فقد يكون من المقبول أن يتعدى إجرام الإنسان إلى أعدائه ، أما أن يتعدى الإجرام إلى النفس فهذا أمر لا مندوحة [2] له ، وإجرام فرعون وملئه أودى بهم إلى جهنم خالدين مخلدين فيها ملعونين ، وفى عذاب عظيم ومهين.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

---

(١) قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا (١٠١) ﴾ [الإسراء] والآيات التى أرسل بها موسى عليه السلام هى : العصا ، وإخراج يده بيضاء من غير سوء ، وسنىٍّ الجدب ، والبحر ، والطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم .

(٢) المندوحة : اتساع الأمر . والمراد: أن فعلهم هذا لا سبب معقول له، ولا مبرر. [لسان العرب: مادة (ن د ح) بتصرف].

﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾﴾ (١)

وقد جاءهم الحق على لسان الرسل - عليهم السلام - وعلى كل إنسان أن يفهم أنه حين يستقبل من الرسول رسالة الحق ، فليفهم أنها رسالة ليست ذاتية الفكر من الرسول ، بل قد أرسله بها الله الخالق الأعلى سبحانه وتعالى .

ولذلك فالمتأبِّى (٢) على الرسول ، لا يتأبَّى على مساو له ؛ لأن الرسولَ هو مُبلِّغ عن الله تعالى ، والله سبحانه هو الذى بعثه ، ويجب على الإنسان أن يعرف قدر البلاغ القادم من الله الحق ؛ لأنه سبحانه هو الحق الأعلى ، وهو الذى خلق كل شىء بالحق: سماء مخلوقة بالحق ، وأرض مخلوقة بالحق ، وشمس تجرى بالحق ، ومطر ينزل بالحق ، وكل شىء ثابت ومتحرك بقوانين أرادها الحق سبحانه .

ولو سيطر الإنسان - دون منهج - على قوانين الكائنات لأفسدها ؛ لأن الفساد إنما يتأتى مما للإنسان دخل فيه ، ويدخل إليه بدون منهج الله .

والفساد إنما يجىء من ناحية اختيار الإنسان للبدائل التى لا يخضع فيها لمنهج الله تعالى .

ولذلك إن أردتم أن تستقيم حياتكم استقامة الكائنات العليا التى لا دخل لكم فيها ، فامتثلوا لمنهج الحق وميزانه ؛ لأنه سبحانه هو القائل:

---

(١) اللام فى كلمة «لسحر» للتوكيد . والمعنى : أن ما جئت به ما هو إلا سحر قوى ظاهر ، والسحر هو كل أمر يخفى سببه ، ويتخيَّل على غير حقيقته بالتمويه والخداع ، قال تعالى عن سحرة فرعون : ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾﴾ [طه].

(٢) التأبى : الرفض والكراهية . [اللسان : مادة (أ ب ى)].

﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧) أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ [(١)] (٨) ﴾ [الرحمن]

أى: إن كنتم تريدون أن تعتدل أموركم ، وتنضبط انضباط الكائنات الأخرى فلتكن إرادة الاختيار المخلوقة لكم خاضعة لمنهج الله تعالى ، وتسير فى إطار هذا المنهج الربانى.

وحين نتأمل قول الحق سبحانه:

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا .. (٧٦) ﴾ [يونس]

نجد فى هذا القول توجيهاً إلى أن الحق لم يأت من ذوات الرسل ؛ فهذه الذوات لا دخل لها فى الموضوع ، وإياك أن تهاجم رسالة حق جاءتك من إنسان لا تحبه ، بل ناقش الحق فى ذاته ، ولا تدخل فى متاهة البحث عمَّن جاء بهذا الحق ، وانظر إلى من كفروا بمحمد رسول الله ﷺ، فَهُمْ من قالوا:

﴿ لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ [(٢)] .. (٣١) ﴾ [الزخرف]

وهم بذلك قد أدخلوا النازل عليه القرآن فى الحكم ، مع أن العقل كان يقتضى أن ينظروا إلى القرآن [(٣)] فى ذاته ، وأن يأخذوا الحكمة من أى وعاء خرجت .

وعليك أنت أن تستفيد من هذا الأمر ، وخُذ الحكمة من أى قائل لها ،

---

(١) لأن اعتدال الموازين ثبات للحق ، وإذا ثبت الحق وأخذ طريقه استقامت موازين الحياة ، وعند استقامتها لا نجد محروماً ولا مظلوماً .

(٢) القريتان هما: مكة والطائف. واختلفت الأقوال فى تحديد هذين الرجلين، فقيل: إنهما الوليد بن المغيرة، وعروة بن مسعود الثقفى. وقيل: إنهما عمير بن عمرو بن مسعود، وعتبة بن ربيعة، وقيل: ابن عبد ياليل. والمقصود أنه رجل كبير من أى البلدتين كان. انظر ابن كثير (٤/ ١٢٧).

(٣) وقد نقلت لنا كتب السيرة أن الوليد بن المغيرة قال فى وصف القرآن: والله إن لقوله لحلاوة ، وإن أصله لعذق ، وإن فرعه لجناة ، وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا ساحر ، جاء بقول هو سحر يفرق به بين المرء وأبيه ، وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجته ، وبين المرء وعشيرته » سيرة ابن هشام (١/ ٢٧٠) فرغم قوله فى القرآن ومدحه فيه ، إلا أنه مسايرة لقومه ، وحفاظاً على مكانته بينهم جحد القرآن واتهم محمداً ﷺ بالسحر .

ولا تنظر إلى من جاءت الحكمة منه، فإن كنت تكرهه فأنت ترفض أن تأخذ الحكمة منه، وإن كنت تحبه أخذتها. لا، إن عليك أن تأخذ الحكمة ما دامت قد جاءت بالحق؛ لأنك إن لم تأخذها أضعت نفسك [(١)].

والحق هو الشيء الثابت، وإن ظهر في بعض الأحيان أن هناك من طمس الحق، وأن الباطل تغلّب عليه، فهذا يعني ظهور المفاسد؛ فيصرخ الناس طالبين الحق.

وانتشار المفاسد هو الذي يجعل الناس تستدعي الحق، وتتحمس له؛ لأن الباطل حين يَعَضُّ الناس، تجدهم يتجهون إلى الحق ليتمسكوا به.

والحق سبحانه هو القائل:

﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا [(٢)] رَّابِيًا [(٣)] وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً [(٤)] وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ [(٥)] (١٧)﴾ [الرعد]

---

(١) عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «الكلمة الحكمة ضالة المؤمن، فحيث وجدها فهو أحقُّ بها». أخرجه الترمذي في سننه (٢٦٨٧) وابن ماجه في سننه (٤١٦٩). قال الترمذي: حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وإبراهيم بن الفضل، يُضعَّف في الحديث من قِبَل حفظه.

(٢) الزبد: هو ما يعلو ماء البحر إذا هاج موجه. وبحر مُزْبد، أي: مائج يقذف بالزَّبد. وزبد الماء: طفاوته وقذاه. والجمع: أزباد. [لسان العرب: مادة (ز ب د)].

(٣) رابياً: مرتفعاً؛ لأنه يكون أعلى سطح الماء. [اللسان: مادة (ر ب ى)].

(٤) جفاء السيل: هو ما يقذفه من الزبد والوسخ ونحوهما. [اللسان: مادة (ج ف ى)].

(٥) المثل: الصفة العجيبة يشبَّه بها غيرها. فالأمثال تصور المعاني بصورة الأشخاص، لأنها أثبت في الأذهان لاستعانة الذهن فيها بالحواس. وأمثال القرآن قسمان:

- قسم ظاهر مصرح به، مثل قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَّا يُبْصِرُونَ (١٧)﴾ [البقرة]

- قسم كامن، مثل قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا (٦٧)﴾ [الفرقان] وهو يؤدي معنى مثل «خير الأمور أوساطها». [انظر: الإتقان في علوم القرآن ٤/ ٤١].

والحق سبحانه هنا يضرب المثل النازل كسيل من السماء على الجبال ، فيأخذ كل واد أسفل الجبال على قدر احتماله ، ويرتوى الناس ، وترتوى الأرض ، لكنَّ السيل فى أثناء نزوله على الجبال إنما يحمل بعضاً من الطمى ، والقش ، ويستقر الطمى فى أرض الأودية ؛ لتستفيد منه ، أما القش والقاذورات فتطفو على سطح الماء ، وتسمى تلك الأشياء الطافية زَبَداً ، وساعة تضعها فى النار ، فهى تصدر أصواتاً تسمى (الطشطشة).

ومثال ذلك: حين نوقد النار ؛ لنصهر الحديد ، نجد الخبث هو الذى يطفو ، ويبقى الحديد النقى فى القاع.

هذا الزبد الذى يوجد فوق الماء ينزاح على الجوانب ، ومثال ذلك: ما نراه على شواطىء البحر حين يقذف الموج بقاذورات على الشاطىء ، هذه القاذورات التى ألقتها البواخر ، فيلفظها البحر بالموج ، وهذا الزبد يذهب جُفاءً ، أما ما ينفع الناس فيبقى فى الأرض ؛ لذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ .. (١٧) ﴾ [الرعد]

إذن : فالله سبحانه يترك للباطل مجالاً ، ولكن لا يسلم له الحق ، بل يترك الباطل ؛ ليحفز غيرة الناس على الحق ، فإن لم يغاروا على الحق غار هو عليه [(١)].

وهنا يقول الله سبحانه وتعالى:

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ (٧٦) ﴾ [يونس]

ولأنهم كانوا مشهورين بالسحر ؛ ظنوا أن الآيات التى جاءت مع موسى - عليه السلام - هى السحر المبين ، أى : السحر الظاهر الواضح .

(١) عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله ﷺ : « ليس أحد أحب إليه المدح من الله ، من أجل ذلك مدح نفسه ، وليس أحد أغير من الله ، من أجل ذلك حرم الفواحش » أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٧٦٠) ، والبخارى فى صحيحه (٤٦٣٤) .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾

وفى هذه الآية ما يوضح رد سيدنا موسى عليه السلام :

﴿ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا .. ﴿٧٧﴾ ﴾ [يونس]

والذين يتوركون على القرآن يقولون : كيف يأتى القرآن ليؤكد أنهم قالوا إن هذا لسحر مبين ، ثم يأتى فى الآية التى بعدها ليقول إنهم قالوا متسائلين : أسحرٌ هذا ؟

وفَهم هؤلاء الذين يتوركون على القرآن أن كلمة ﴿ أَسِحْرٌ هَذَا ﴾ من كلماتهم ، ولكن هذا هو قول موسى عليه السلام ، وكأن موسى عليه السلام قد تساءل ؛ ليعيدوا النظر فى حكمهم : هل ما جاء به سحر ؟ وهذا استفهام استنكارى ، وأريد به أن يؤكد أن هذا ليس بسحر ، ولكن جاء بصيغة التساؤل ؛ لأنه واثق أن الإجابة الأمينة ستقول : إن ما جاء به ليس سحراً.

ولو جاء كلام موسى - عليه السلام - كمجرد خَبَر لكان يحتمل الصدق ، ويحتمل الكذب ، لكنه جاء بصيغة الاستفسار ؛ لأن المكذِّب له سيجيب بلجلجة [1] .

ومثال ذلك - ولله المثل الأعلى - أنت حين تذهب لشراء قماش ، فيقول لك البائع : إنه صوف خالص ونقى ، فتمسك بعود كبريت وتشعل

(١) اللجلجة والتلجلج : التردد فى الكلام ، والاختلاط والاضطراب فيه . ولذلك قيل : « الحق أبلج ، والباطل لجلج » . أى : أن الحق واضح قوى ظاهر ، أما الباطل فهو ضعيف مضطرب لا ثبات له . [لسان العرب : مادة (ل ج ج) - بتصرف] .

النار فى خيط من القماش ، فإن احترق الصوف كما يحترق البلاستيك أو القماش الصناعى ، فأنت تقول للبائع : وهل هذا صوف نقى يا رجل ؟ وهنا لن يجيب البائع إلا بالموافقة ، أو بصمت العاجز عن حجب الحقيقة .

إذن : أنت إن طرحت الأمر باستفهام إنكارى فهذا أبلغ من أن تقوله كخبر مجرد ؛ لأن السامع لك لا بد أن يجيب .

وقول الحق سبحانه وتعالى على لسان موسى عليه السلام :

﴿ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ .. (٧٧) ﴾ [يونس]

يفيد ضرورة النظر إلى الحق مجرداً عمَّن جاء به .

ولذلك لم يقل موسى عليه السلام : أتقولون للحق لما جئناكم به : إنه سحر مبين ؟

إن القول الحكيم الوارد فى الآية الكريمة هو تأكيد على ضرورة النظر إلى الحق مجرداً عمّن جاء به .

وينهى الحق سبحانه هذه الآية بقوله :

﴿ ..أَسِحْرٌ هَذَا وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ (٧٧) ﴾ [يونس]

إذن : فسيدنا موسى - عليه السلام - قد أصدر الحكم بأن السحر لا ينفع ، ولكن الآيات التى جاء بها من الحق سبحانه قد أفلحت ، فقد ابتلعت عصاه - التى صارت حية - كل ما ألقوه من حبالهم ؛ وكل ما صنعوه من سحر [1] .

---

(١) يقول الحق سبحانه : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (١١٧) فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٨) ﴾ [الأعراف] .

وأراد الحق سبحانه لعصا موسى أن تكون آية معجزة [١] من جنس ما نبغ فيه القوم .

فالله سبحانه حين يرسل معجزةً إلى قوم ؛ يجعلها من جنس ما نبغوا فيه ؛ لتكون المعجزة تحدياً فى المجال الذى لهم به خبرة ودربة [٢] ودراية ؛ فأنت لن تتحدى رجلاً لا علم له بالهندسة ؛ ليبنى لك عمارة ، ولكنك تتحدى مهندساً أن يبنى لك هرماً ؛ لأن العلوم المعاصرة لم تتوصل إلى بعض ما اكتشفه القدماء ولم يسجلوه فى أوراقهم ، أو لم يعثر على كشف يوضح كيف فرَّغوا الهواء بين كل حجر وآخر فتماسكت الحجارة .

وقول الحق سبحانه وتعالى هنا :

﴿ .. وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ (٧٧) ﴾ [يونس]

يبين لنا أن الفلاح مأخوذ من العملية الحسية التى يقوم بها الفلاح من جهد فى حرث الأرض ووضع البذور ، ورى الأرض وانتظار الثمرة بعد بذل كل ذلك الجهد .

والفلاح أيضاً مأخوذ من فلح الحديد ، أى : شق الحديد ، ككتل أو كقطع ، ولا يصلح إلا إذا أخذ الحديد الشكل المناسب للاستعمال .

وقول الحق سبحانه :

﴿ وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ .. (٧٧) ﴾ [يونس]

هو لَفْتٌ لنا أن السحر نوع من التخييل ، وليس حقيقةً واقعةً .

ولذلك قال الحق سبحانه فى موضع آخر من القرآن :

---

(١) المعجزة هى : الأمر الخارق للعادة يُجريها الله على يد النبى أو الرسول تأييداً له وتصديقاً لرسالته ، كمعجزات موسى وعيسى عليهما السلام انقلاب العصا حية وانفلاق البحر وإبراء الأكمه والأبرص . وخصَّ ﷺ بمعجزة القرآن الخالدة ، وله ﷺ معجزات حسية كنبوع الماء من بين يديه ﷺ .

(٢) دربة : عادة وخبرة أو تدريب .

﴿ سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ .. (١١٦) ﴾ [الأعراف]

وقال الحق سبحانه أيضاً :

﴿ .. فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ (٦٦) ﴾ [طه]

إذن : فالسحر هو تخييل فقط [(١)] وليس تغييراً للحقيقة .

ولأن معجزة موسى - عليه السلام - تحدَّت كل القدرات [(٢)] ؛ لذلك أعلن فرعون التعبئة العامة بين كل من له علاقة بالسحر ، الذى هم متفوقون فيه ، أو حتى من لهم شبهة معرفة بالسحر [(٣)] .

ولأن السحر مجرد تخييل ، وجدنا السحرة حين اجتمعوا وألقوا حبالهم وعصيهم ، ثم ألقى موسى عصاه ، فإذا بعصاه قد تحولت إلى حية تلقف [(٤)] ما صنعوا ، وهنا ماذا فعل السحرة ؟

يقول الحق سبحانه وتعالى فى سورة طه :

﴿ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَـٰرُونَ وَمُوسَىٰ (٧٠) ﴾ [طه]

لأن الساحر يرى ما يفعله على حقيقته ، وهم خيَّلوا لأعين الناس ، لكنهم يرون حبالهم مجرد حبال أو عصيهم مجرد عصى .

---

(١) سحر قوم فرعون هو من نوع سحر التخييل والأخذ بالعيون ، ومبناه على أن البصر قد يخطىء ويشتغل بالشىء المعين دون غيره ؛ ولذلك قال تعالى : ﴿ سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ .. (١١٦) ﴾ [الأعراف] . وقال تعالى : ﴿ .. يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ (٦٦) ﴾ [طه] .

(٢) السحر : هو التأثير الشديد ، فإن كان من المخلوق فهو تخيل وحيل ، وإن كان من الخالق فهو إعجاز وتغيير ماهية الشىء بقدرته سبحانه ؛ ولذلك انتصر موسى - عليه السلام - على السحرة ؛ لأن الله سبحانه أعانه عليهم بقدرته التى لا راد لها .

(٣) وذلك أن فرعون من مكره جعل الملأ من حوله هم الذين يصعّدون المواجهة مع موسى بأن قال لهم : ﴿ .. إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (٣٤) يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (٣٥) ﴾ [الشعراء] . فكان ردّهم عليه أن قالوا له : ﴿ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٣٦) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ (٣٧) ﴾ [الشعراء] .

(٤) اللقف : سرعة الأخذ والتناول . [اللسان : مادة (ل ق ف)] .

أما عصا موسى - عليه السلام - فلم تكن تخييلاً ، بل وجدها السحرة حية حقيقية ، ولقفت بالفعل ما صنعوا ؛ ولذلك خرُّوا [(١)] ساجدين ، وأعلنوا الإيمان برب موسى وهارون .

هم - إذن - لم يعلنوا الإيمان بموسى وهارون ، بل أعلنوا الإيمان :

﴿ بِرَبِّ هَـٰرُونَ وَمُوسَىٰ ..(٧٠) ﴾ [طه]

لأنهم عرفوا بالتجربة أن ما ألقاه موسى ليس سحراً ، بل هو مِنْ فعل خالق أعلى .

وكان ثبات موسى - عليه السلام - فى تلك اللحظة نابعاً من التدريب الذى تلقَّاه من ربه ، فقد سأله الحق سبحانه :

﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ (١٧) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ [(٢)] عَلَيْهَا وَأَهُشُّ [(٣)] بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي ..(١٨) ﴾ [طه]

وقد أجمل موسى وفصَّل فى الرد على الحق سبحانه ؛ إيناساً وإطالة للأنس بالله تعالى ، وحين رأى أنه أطال الإيناس أوجز وقال بأدب :

﴿ ..وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ [(٤)] أُخْرَىٰ (١٨) ﴾ [طه]

إذن : فقد أدركته أولاً شهوة الأنس بالله تعالى ، وأدرك ثانياً أدب التخاطب مع الله تعالى ، ودرَّبه الحق سبحانه على مسألة العصا حين أمره

---

(١) خر : سقط ووقع . والمراد أنهم أسرعوا بالسجود لله رب العالمين .

(٢) أتوكأ عليها : أتحمل وأعتمد وأستند عليها . [اللسان : مادة (و ك أ) - بتصرف] .

(٣) ﴿ وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي ..(١٨) ﴾[طه] أى : أهز بها الشجر لتتساقط أوراقه لترعاه غنمى . نقله ابن كثير فى تفسيره (٣/ ١٤٥) .

(٤) مآرب أخرى : أى : مصالح وحاجات ومنافع أخرى غير ذلك .

أولاً أن يلقيها ، فصارت أمامه حية تسعى ، ولو كانت من جنس السحر لما أوجس [(١)] منها خيفة ولرآها مجرد عصا.

إذن: فالفرق بين معجزة موسى وسحرة فرعون، أن سحرة فرعون سحروا أعين الناس وخُيِّل إلى الناس من سحرهم أن عصيَّهم وحبالهم تسعى ، لكن معجزة موسى - عليه السلام - فى إلقاء العصا، عرفوا هم بالتجربة أن تلك العصا قد تغيرت حقيقتها.

والعصا -كما نعلم -أصلها فرع من شجرة، وكان باستطاعة الحق سبحانه وتعالى أن يجعلها تتحول إلى شجرة مثمرة ، لكنها كانت ستظل نباتاً.

وشاء الحق سبحانه أن ينقلها إلى المرتبة الأعلى من النبات ؛ وهى المرحلة الحيوانية ، فصارت حية تلقف كل ما ألقاه السحرة.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا [(٢)] عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا [(٣)] ٱلْكِبْرِيَآءُ [(٤)] فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾

---

(١) أوجس : أى: وقع فى نفسه وقلبه الخوف والفزع . [انظر اللسان مادة وجس] وقد وقع هذا الخوف لاثنين من الأنبياء ذكرهما القرآن : الأول إبراهيم عليه السلام عندما جاءته الملائكة فى صورة بشر ليبشروه بإسحاق ويعقوب ، وقد ذكر هذا فى القرآن مرتين : الأولى فى سورة هود: ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (٦٩) فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ (٧٠) ﴾ [هود] . أما الثانية ففى سورة الذاريات آية ٢٨ .

أما النبى الثانى فهو موسى عليه السلام: ﴿ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ (٦٥) قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ (٦٦) فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ (٦٧) قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ (٦٨) ﴾ [طه] .

(٢) لتلفتنا : لتثنينا وتبعدنا عن آلهة الآباء والأجداد .

(٣) لكما : أى : لموسى وهارون عليهما السلام .

(٤) الكبرياء : العظمة والرياسة . [ابن كثير ٢/ ٤٢٦] .

وهنا نجد سحرة فرعون ينسبون مجيء معجزة تحول العصا إلى حية، ينسبونها لموسى - عليه السلام - رغم أن موسى عليه السلام قد نسب مجيء المعجزة إلى الله تعالى .

وكان واجب المرسل إليه - فرعون وملئه - أن ينظر إلى ما جاء به الرسول ، لا إلى شخصية الرسول [1] .

ولو قال فرعون لموسى : « جيْءَ بك» لكان معنى ذلك أن فرعون يعلن الإيمان بأن هناك إلهاً أعلى ، ولكن فرعون لم يؤمن لحظتها ؛ لذلك جاء قوله : ﴿أَجِئْتَنَا﴾ فنسب المجيء على لسان فرعون لموسى عليه السلام .

ولماذا المجيء ؟

يقول الحق سبحانه على لسان فرعون وقومه :

﴿ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا .. (٧٨) ﴾ [يونس]

والالتفات هو تحويل الوجه عن شيء مواجه له ، وما دام الإنسان بصدد شيء ؛ فكل نظره واتجاهه يكون إليه ، وكان قوم فرعون على فساد وضلال ، وليس أمامهم إلا ذلك الفساد وذلك الضلال .

وجاء موسى عليه السلام ؛ ليصرف وجوههم عن ذلك الفساد والضلال ، فقالوا :

﴿ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا .. (٧٨) ﴾ [يونس]

---

(١) فمما قاله فرعون عن موسى يطعن في شخصيته ما حكاه رب العزة في قوله تعالى : ﴿ وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلا تُبْصِرُونَ (٥١) أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلا يَكَادُ يُبِينُ (٥٢) ﴾ [الزخرف] وذلك أن موسى كان لسانه لا ينطلق بالكلام ، وقد عبر عن ذلك في دعائه : ﴿ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (٢٥) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (٢٦) وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي (٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي (٢٨) ﴾ [طه] .

وهكذا يكشفون حقيقة موقفهم ، فقد كانوا يقلدون آباءهم ، والتقليد يريح المقلِّد ، فلا يُعْمِل عقله أو فكره فى شىء ليقتنع به ، ويبنى عليه سلوكه [(١)] .

والمثل العامى يصور هذا الموقف بعمق شديد حين يقول : « مثل الأطرش فى الزفة » أى : أن فاقد السمع لا يسمع ما يقال من أى جمهرة ، بل يسير مع الناس حيث تسير ، ولا يعرف له اتجاهاً .

والمقلِّد إنما يعطل فكره ، ولا يختار بين البدائل ، ولا يميز الصواب ليفعله ، ولا يعرف الخطأ فيتجنَّبه .

وفرعون وملؤه كانوا على ضلال ، هو نفس ضلال الآباء ، والضلال لا يكلف الإنسان تعب التفكير ومشقة الاختيار ، بل قد يحقق شهوات عاجلة .

أما تمييز الصواب من الخطأ واتباع منهج السماء ، فهو يحجب الشهوة ، ويلزم الإنسان بعدم الانفلات عكس الضلال الذى يطيل أمد [(٢)] الشهوة .

إذن : فالمقلد بين حالتين :

الحالة الأولى : أنه لا يُعْمِل عقله ، بل يفعل مثل من سبقوه ، أو مثل من يحيا بينهم .

---

(١) وهذا التقليد نهى عنه رسول الله ﷺ فى حديثه ، فعن حذيفة بن اليمان أن رسول الله ﷺ قال : « لا تكونوا إمعة ، تقولون : إن أحسن الناس أحسنَّا ، وإن ظلموا ظلمنا ، ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا ، وإن أساءوا فلا تظلموا » أخرجه الترمذى فى سننه (٢٠٠٧) وقال : حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه .

(٢) أمد الشهوة : غايتها . والأمد : منتهى الأجل . وقد وردت هذه اللفظة ثلاث مرات فى القرآن ، فقال تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ أَدْرِى أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّى أَمَدًا ﴿٢٥﴾ ﴾ [الجن] أى : زماناً بعيداً . وقال سبحانه : ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا ..﴿٣٠﴾ ﴾ [آل عمران] أى : فى غاية البعد . وقال تعالى : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ﴿١٢﴾ ﴾ [الكهف] أى : مدة وزماناً .

والحالة الثانية: أنه رأى أن ما يفعله الناس لا يلزمه بتكليف ، ولكن الرسول الذى يأتى إنما يلزمه بمنهج ، فلا يكسب - على سبيل المثال - إلا من حلال ، ولا يفعل منكراً ، ولا يذم أحداً ، وهكذا يقيد المنهج حركته ، لكن إن اتبع حركة آبائه الضالين ، فالحركة تتسع ناحية الشهوات.

ولذلك أقول دائماً: إن مسألة التقليد هذه يجب أن تلفت إلى قانون التربية ، فالنشء ما دام لم يصل إلى البلوغ فأنت تلاحظ أنه بلا ذاتية ويقلد الآباء ، لكن فور أن تتكون له ذاتية يبدأ فى التمرد ، وقد يقول للآباء: أنتم لكم تقاليد قديمة لا تصلح لهذا الزمان ، لكن إن تشرَّب النشء القيم الدينية الصحيحة ؛ فسيمتثل لقانون الحق ، ويحجز نفسه عن الشهوات.

ونحن نجد أبناء الأسر التى لا تتبع منهج الله فى تربية الأبناء وهم يعانون من أبنائهم حين يتسلط عليهم أقران [1] السوء ، فيتجهون إلى ما يوسع دائرة الشهوات من إدمان وغير ذلك من المفاسد .

لكن أبناء الأسر الملتزمة يراعون منهج الله تعالى ؛ فلا يقلدون أحداً من أهل السوء ؛ لأن ضمير الواحد منهم قد عرف التمييز بين الخطأ والصواب.

ثم إن تقليد الآباء قد يجعل الأبناء مجرد نسخ مكررة من آبائهم ، أما تدريب وتربية الأبناء على إعمال العقل فى كل الأمور ، فهذه هى التنشئة التى تتطور بها المجتمعات إلى الأفضل إن اتبع الآباء منهج الله تعالى ، وتتكون ذاتية الابن على ضوء منهج الحق سبحانه ، فلا يتمرد الابن متجهاً إلى الشر ، بل قد يتمرد إلى تطوير الصالح ليزيده صلاحاً.

التقليد - إذن - يحتاج إلى بحث دقيق ؛ لأن الإنسان الذى سوف تقلده ، لن يكون مسئولاً عنك ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى هو القائل:

---

(١) أقران : جمع قرن (بكسر القاف وتسكين الراء) وهو النظير والمثيل . والمراد بأقران السوء : أصدقاء السوء ورفقاء الشر والرذائل . [لسان العرب : مادة (ق ر ن) - بتصرف] .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْـًٔا .. (٣٣) ﴾ [لقمان]

إذن: فأمر الابن يجب أن يكون نابعاً من ذاته ، وكذلك أمر الأب ، وعلى كل إنسان أن يُعْمِل عقله بين البدائل[1] .

ولذلك تجد القرآن الكريم يقول على ألسنة مَنْ قلَّدوا الآباء:

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا[2] عَلَيْهِ آبَاءَنَا .. (١٧٠) ﴾ [البقرة]

ثم يرد عليهم الحق سبحانه:

﴿ ..أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ (١٧٠) ﴾ [البقرة]

فإذا كانت المسألة مسألة تقليد ، فلماذا يتعلم الابن ؟ ولماذا لا ينام الأبناء على الأرض ولا يشترون أسرَّة ؟ ولماذا ينجذبون إلى التطور فى الأشياء والأدوات التى تسهِّل الحياة ؟

فالتقليد هو إلغاء العقل والفكر ، وفى إلغائهما إلغاء التطور والتقدم نحو الأفضل .

إذن : فالقرآن يحثنا على أن نستخدم العقل ؛ لنختار بين البدائل ، وإذا كان المنهج قد جاء من السماء ، فَلْتهْتد بما جاء لك ممن هو فوقك ، وهذا الاهتداء المختار هو السُّمو نحو الحياة الفاضلة .

---

(١) البدائل : ما يصلح لأن يختار منه الإنسان ، فهى مواضع الاختيار فى التكليف ، فله أن يختار بين الإيمان والكفر ، الطاعة والمعصية ، قال تعالى : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا (١٠) ﴾ [الشمس] .

(٢) ألفينا : وجدنا . ألفى الشىء وجده. قال تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ (٦٩) ﴾ [الصافات]، وقال : ﴿ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ ..(٢٥) ﴾ [يوسف] أى : وجداه .

يقول الحق سبحانه:

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا (١) مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ..(١٠٤) ﴾ [المائدة]

أى: أنهم أعلنوا أنهم فى غير حاجة للمنهج السماوى فَردَّ عليهم القرآن:

﴿ ..أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ (١٠٤) ﴾ [المائدة]

وهكذا نجد أن القرآن قد جاء بموقفين فى آيتين مختلفتين عن المقلّدين:

الآية الأولى: هى التى يقول فيها الحق سبحانه وتعالى:

﴿ .. بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ (١٧٠) ﴾ [البقرة]

والآية الثانية: هى قول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ ..حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ (١٠٤) ﴾ [المائدة]

وهم فى هذه الآية أعلنوا الاكتفاء بما كان عليه آباؤهم.

وهناك فارق بين الآيتين، فالعاقل غير من لا يعلم؛ لأن العاقل قادر على الاستنباط، ولكن من لا يعلم فهو يأخذ من استنباط غيره.

---

(١) حسبنا: يكفينا. وهناك فارق بين قولة الكافرين المقلدين لآبائهم هنا، وبين قول المؤمنين لهذه الكلمة: ﴿ حَسْبُنَا ﴾، فالمؤمنون قالوا: ﴿ ..حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) ﴾ [آل عمران]، وقالوا: ﴿ حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ ..(٥٩) ﴾ [التوبة]، فالمؤمنون اكتفوا بما جاءهم عن الله وأوكلوا الأمر إلى الله رغم معاداة الآباء لهم ورغم أن موقفهم هذا سيضرهم فى دنياهم وقد يقطع أرزاقهم، فهم قد نظروا إلى الآخرة، أما الكافرون فإنهم يعيشون دنياهم بكل ما فيها من ملذات وشهوات.

إذن: فالذين اكتفوا بما عند آبائهم ، وقالوا:

﴿ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا .. (١٠٤) ﴾ [المائدة]

هؤلاء هم الذين غالوا فى الاعتزاز بما كان عند آبائهم ؛ لذلك جاء فى آبائهم القول بأنهم لا يعلمون .

أى : ليس لهم فكر ولا علم على الإطلاق ، بل يعيشون فى ظلمات من الجهل.

وهنا يقول الحق سبحانه على لسان فرعون وقومه:

﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الأَرْضِ .. (٧٨) ﴾ [يونس]

أى: هل جئت لتصرفنا ، وتحوِّل وجوهنا أو وجهتنا أو طريقنا وتأخذنا عن وجهة آبائنا الذين نقلدهم؛ لتأخذ أنت وأخوك الكبرياء فى الأرض؟

وهكذا يتضح أنهم يعتقدون أن الكبرياء الذى لهم فى الأرض قد تحقق لهم بتقليدهم آباءهم ، وهم يحبون الحفاظ عليه ، والأمر هنا يشمل نقطتين:

الأولى: هى تَرْكُ ما وجدوا عليه الآباء.

والثانية: هى الكبرياء [1] والعظمة فى الأرض.

ومثال ذلك: حين يقول مقاتل لآخر: « ارْمِ سيفك » وهى تختلف عن قوله: «هات سيفك »، فَرَمْىُ السيف تجريد من القوة ، لكن أخذ السيف يعنى إضافة سيف آخر إلى ما يملكه المقاتل الذى أمر بذلك.

---

(١) الكبرياء : العظمة والملك . وهى عبارة عن كمال الذات وكمال الوجود ، ولا يوصف بها إلا الله تعالى . قال صاحب « القاموس القويم» : هى العظمة والتجبّر والسلطان والسيطرة ، وهى فى حق الله سبحانه العظمة الحق ، والسلطان القوى ، والسيطرة الكاملة » بتصرف .

وهم هنا وجدوا فى دعوة موسى عليه السلام مصيبة مركبة.

الأولى: هى ترك عقيدة الآباء.

والثانية: هى سلب الكبرياء، أى: السلطة الزمنية والجاه والسيادة والعظمة والائتمار [(١)]، والمصالح المقضية، فكل واحد من بطانة [(٢)] الفرعون يأخذ حظه حسب اقترابه من الفرعون.

ولذلك أعلنوا عدم الإيمان، وقالوا ما يُنهى به الحق سبحانه الآية الكريمة التى نحن بصددها:

﴿ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ (٧٨) ﴾ [يونس]

أى: أن قوم فرعون والملأ أقرُّوا بما حرصوا عليه من مكاسب الدنيا والكبرياء فيها، ورفضوا الإيمان بما جاء به موسى وهارون- عليهما السلام.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (٧٩) ﴾

وكان فرعون يعلم تقدُّم السحرة فى دولته، ويكفى أنه شخصياً خَيَّل للناس أنه إله، وجاء أمره أن يأتى أعوانه بالسحرة، وفور أن قال الأمر جىء بالسحرة.

وأورد الحق سبحانه فى الآية التى بعد ذلك:

﴿ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ (٨٠) ﴾

---

(١) الائتمار: التشاور فى الأمر والتواصى به. ويسمى التشاور ائتماراً لأن المتشاورين يقبل بعضهم أمر بعض. ومنه قوله تعالى: ﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ .. (٢٠) ﴾ [القصص]. [القاموس القويم. وانظر تفسير ابن كثير ٣/ ٣٨٣].

(٢) بطانة الرجل: خاصته. [لسان العرب: مادة (ب ط ن)].

وكأن المسافة بين نطق فرعون بالأمر وبين تنفيذ الأمر هى أضيق مسافة وقتية ، وذلك حتى نفهم أن أمر صاحب السلطان لا يحتمل من الناس التأجيل أو التباطؤ فى التنفيذ.

والقرآن حينما يعالج أمراً من الأمور فهو يعطى صورة دقيقة للواقع ، ولا يأتى بأشياء تفسد الصورة.

يقول الحق سبحانه:

﴿ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ (٨٠) ﴾ [يونس]

وفى هذه الآية تلخيص للموقف كله ، فحين علم السحرة أن فرعون يحتاجهم فى ورطة [(١)] تتعلق بالحكم ، فهذه مسألة صعبة وقاسية ، وعليهم أن يسرعوا إليه.

ولم يأت الحق سبحانه هنا بالتفصيل الكامل لذلك الموقف؛ لأن القصة تأتى بنقاطها المختلفة فى مواضع أخرى من القرآن ، وكل آية توضح النقطة التى تأتى بذكرها [(٢)].

لذلك لم يقل الحق سبحانه هنا: إن أعوان فرعون نادوا فى المدائن [(٣)] ليأتى السحرة ، مثلما جاء فى مواضع أخرى من القرآن [(٤)].

---

(١) الورطة : الوحل تقع فيه الغنم فلا تقدر على التخلص منه . يقال : تورطت الغنم إذا وقعت فى ورطة ، ثم صار مثلاً لكل شدة وقع فيها الإنسان . وتورط فلان فى الأمر ، واستورط فيه : إذا ارتبك فيه ، فلم يسهل له المخرج منه . [لسان العرب : مادة (و ر ط)] .

(٢) وهذه ميزة القصص القرآنى فى الإشارة إلى قصصه عدا قصة يوسف عليه السلام .

(٣) المدائن : جمع مدينة ، وهى القرى الكبيرة . وقد ورد هذا الجمع فى القرآن خاصاً بقصة موسى ثلاث مرات ، أما المفرد منه فقد جاء ١٤ مرة منها ٤ مرات خاصة بمدينة الرسول ﷺ [التوبة : ١٠١ ، ١٢٠] [الأحزاب : ٦٠] [المنافقون : ٨] .

(٤) وذلك فى قوله تعالى عن سحرة فرعون : ﴿ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (١١١) ﴾ [الأعراف] ، وقال تعالى : ﴿ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٣٦) ﴾ [الشعراء] .

ولم يقل لنا إن السحرة أرادوا أن يستفيدوا من هذه المسألة ، وقالوا للفرعون [(١)] :

﴿ .. إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (١١٣) ﴾ [الأعراف]

ووَضْع مثل هذا الشرط يوضح لنا طبيعة العلاقات فى ذلك المجتمع ، فطلبهم للأجر ، يعنى أن عملهم مع الفرعون من قبل ذلك كان تسخيراً وبدون أجر ، ولما جاءتهم الفرصة ورأوا الفرعون فى أزمة؛ طالبوا بالأجر.

ووعدهم فرعون بالأجر ، وكذلك وعدهم أن يكونوا مقرَّبين [(٢)] ؛ لأنهم لو انتصروا بالسحر على معجزة موسى؛ ففى ذلك العمل محافظة وصيانة للمُلْك ، ولا بد أن يصبحوا من البطانة المستفيدة ، ووعدهم الفرعون بذلك شحذاً لهمتهم ليبادروا بإبطال معجزة موسى؛ ليستقر عرش الفرعون.

وشاء الحق سبحانه الإجمال هنا فى هذه الآية - التى نحن بصدد خواطرنا عنها - وجاء ببقية اللقطات فى المواضع الأخرى من القرآن.

وهنا يقول الحق سبحانه:

﴿ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ (٨٠) ﴾ [يونس]

---

(١) فرعنة : الفرعنة الكبر والتجبر ، وفرعون الذى ذكر فى كتاب الله ترك صَرْفه فى قول بعضهم ؛ لأنه لا سمىَّ له وكإبليس فيمن أخذه من أبلسه . وقال ابن سيده : إن فرعون عَلَم أعجمى ، ولذلك لم يصرف . الجوهرى : فرعون لقب الوليد بن مصعب ملك مصر، وكل عات فرعون ، والعتاة الفراعنة ، وقد تفرعن ، وهو ذو فرعنة أى دهاءً وتكبراً . وقيل : الفرعون بلغة القبط : التمساح (لسان العرب) وقيل فى القاموس القويم : فرعون لقب يسمى به كل ملك فى مصر فى الزمن القديم ، وفرعون موسى هو منفتاح ، وقيل رمسيس الثانى . والعبرة بالأحداث لا بذات فرعون ، قال تعالى : ﴿ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (٢٤) ﴾ [طه] والله أعلم.

(٢) وذلك أن السحرة عندما طلبوا الأجر بقولهم : ﴿ .. إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (١١٣) ﴾ [الأعراف] قال فرعون : ﴿ .. نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (١١٤) ﴾ [الأعراف] فزادهم القرب منه فوق الأجر ؛ لذلك جاء عقابه لهم شديداً بعدما اتبعوا موسى ؛ لأن ما وعدهم به كان عظيماً ، فجاء العقاب على قدره .

وألقى السحرة عِصيَّهم وحبالهم.

ويقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك:

﴿ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾

ونحن نعلم أن الحق سبحانه هنا شاء الإجمال، ولكنه بيَّن بالتفصيل ما حدث، فى آية أخرى، قال فيها سبحانه عن السحرة:

﴿ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾ [الأعراف]

ونحن نعلم أن المواجهة تقتضى من كل خصم أن يدخل بالرعب على خصمه؛ ليضعف معنوياته.

وهنا أوضح لهم موسى - عليه السلام - أن ما أتوا به هو سحر ومجرد تخييل.

وقد أعلم الحق سبحانه نبيه موسى - عليه السلام - أن عصاه ستصير حية حقيقية، بينما ستكون عصيهم وحبالهم مجرد تخييل [1] للعيون.

وقال لهم موسى - عليه السلام - حكم الله تعالى فى ذلك التخييل:

﴿ .. مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ [يونس]

---

(١) والخيال ما تشبَّه لك فى اليقظة أو فى النوم من صورة. والظل: ما يتصوره ذهنك من شىء - والخيال إحدى قوى العقل التى يتخيل بها الأشياء، ويتصورها.
قال تعالى: ﴿ .. يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ ﴾ [طه] أى: تشبه له، ويصور له بسبب سحرهم أنها تسعى كالحيات، والحقيقة أنها ليست حيَّات، ولكنه توهُّم وتخيُّل (القاموس القويم).

وهكذا جاء القول الفصل الذى أنهى الأمر وأصدر الحكم فيما فعل فرعون ومَلَؤُه [١] والسحرة ، فكل أعمالهم كانت تفسد فى الأرض ، ولولا ذلك لما بعث الله سبحانه إليهم رسولاً مؤيَّداً بمعجزة من صنف ما برعوا فيه ، فهم كانوا قد برعوا فى السحر ، فأرسل إليهم الحق سبحانه معجزة حقيقية تلتهم ما صنعوا ، فإن كانوا قد برعوا فى التخييل ، فالله سبحانه خلق الأكوان بكلمة «كُنْ» وهو سبحانه يخلق حقائق لا تخييلات.

ولذلك يقول الحق سبحانه من بعد ذلك:

﴿ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ [٢] وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

فالمسألة التى يشاؤها سبحانه تتحقق بكلمة «كن» فيكون الشىء.

وقوله سبحانه وتعالى:

﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾ [يس]

و«كن فيكون» عبارة طويلة بعض الشىء عند وقوع المطلوب ، ولكن لا توجد عبارة أقصر منها عند البشر؛ لأن الكاف والنون لهما زمن ، وما يشاؤه الله سبحانه لا يحتاج منه إلى زمن ، والمراد من الأمر «كن» أن الشىء يوجد قبل كلمة «كن» ؛ لأن كل موجود إنما يتحقق ويبرز بإرادة الله تعالى.

ويريد الحق سبحانه هنا أن يبيِّن لنا أن الحق إنما يأتى على ألسنة الرسل ، ومعجزاتهم دليل على رسالتهم ؛ ليضع أنوف المجرمين فى الرَّغام [٣] ،

(١) ملؤه: آل فرعون ومن يرجع إليهم.
(٢) يحق: يثبت ويظهر. بكلماته: بمواعيده [تفسير الجلالين : ص ١٨٦].
(٣) الرغام: التراب. والمراد: إذلالهم وعقابهم على عصيانهم وإجرامهم.

وليريح العالم من إضلالهم ومن مفاسدهم.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾

وإذا كان السحرة - وهم عُدَّة فرعون وعتاده لمواجهة موسى - أعلنوا الإيمان، فعاقبهم الفرعون وقال:

﴿ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ .. (٧١) ﴾ [طه]

فهذا يدل على أن فكرة الألوهية كانت ما تزال مسيطرة على عقله؛ ولذلك خاف الناس من إعلان الإيمان؛ ولذلك قال الحق سبحانه:

﴿ فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ .. (٨٣) ﴾ [يونس]

وكلمة «ذرية» تفيد الصغار الذين لم تلمسهم خميرة من الفساد الذى كان منتشراً، كما أن الصغار يتمتعون بطاقة من النقاء، ويعيشون فى خُلُوٍّ من المشاكل، ولم يصلوا إلى مرتبة السيادة التى يُحْرَصُ عليها، ومع ذلك فهم قد آمنوا:

---

(١) ذرية: طائفة (جماعة) من أولاد قوم فرعون [تفسير الجلالين ص ١٨٦]. وقيل: من بنى إسرائيل [مختصر تفسير الطبرى: ص ٢٣٩].

(٢) ملئهم: آل فرعون والمقربون منه والموافقون له.

(٣) يفتنهم: يصرفهم عن دينهم بتعذيبه لهم.

(٤) عال فى الأرض: جبار مستكبر. والمراد بالأرض هنا أرض مصر.

(٥) المسرِفين: المتجاوزين الحد بادعاء الربوبية. [تفسير الجلالين: ص ١٨٦].

﴿ عَلَىٰ خَوْفٍ[1] مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ .. (٨٣) ﴾ [يونس]

وكلمة ﴿عَلَىٰ خَوْفٍ﴾ تفيد الاستعلاء ، مثل قولنا : «على الفرس» أو «على الكرسى» ويكون المستعلى فى هذه الحالة متمكّناً من «المستعلى عليه» ؛ ومن يستعلى إنما يركب المستعلى ، ويحمل المستعلى العبء .

ولكن من استعمالات «على» أنها تأتى بمعنى «مع» .

ومثال ذلك هو قول الحق سبحانه :

﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ .. (٨) ﴾ [الإنسان]

أى : يطعمون الطعام مع حبه .

وحين يأتى الحق سبحانه بحرف مقام حرف آخر فلا بد من علة لذلك .

ومثال ذلك هو قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ .. (٧١) ﴾ [طه]

جاء الحق سبحانه بالحرف «فى» بدلاً من «على» ؛ ليدل على أن عملية الصلب ستكون تصليباً قوياً ، بحيث تدخل أجزاء المصلوب فى المصلوب فيه .

وكذلك قول الحق سبحانه وتعالى :

---

(١) الخوف هو الفزع لتوقع حدوث مكروه ، أو فوت أمر محبوب ، والخوف ضد الأمن ، قال تعالى : ﴿ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ (٤) ﴾ [قريش] وقال : ﴿ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٨٢) ﴾ [البقرة] أى : فزع لتوقعه ظلم الموصى وجوره خوّفه جعله يخاف . قال تعالى : ﴿ ..وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا (٦٠) ﴾ [الإسراء] وخوفه فلاناً أى : جعله يخافه يتعدى لمفعولين قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ .. (١٧٥) ﴾ [آل عمران] .

﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ .. (٨) ﴾ [الإنسان]

فكأنهم هم المستعلون على الحب؛ ليذهب بهم حيث يريدون .

وكذلك قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ عَلَىٰ خَوْفٍ .. (٨٣) ﴾ [يونس]

أى: أنهم فوق الخوف يسير بهم إلى دهاليز توقُّع الآلام [1] .

وهم هنا آمنوا : ﴿ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ .. (٨٣) ﴾ [يونس]

والكلام هنا من الحق الأعلى سبحانه يبيِّن لنا أن الخوف ليس من فرعون؛ لأن فرعون إنما يمارس التخويف بمن حوله ، فمثلهم مثل زُوَّار الفجر فى أى دولة لا تقيم وزناً لكرامة الإنسان .

وفرعون فى وضعه ومكانته لا يباشر التعذيب بنفسه، بل يقوم به زبانيته .

والإشارة هنا تدل على الخوف من شيعة فرعون وملئهم.

وقال الحق سبحانه هنا: ﴿ يَفْتِنَهُمْ ﴾ ، ولم يقل: «يفتنوهم»؛ ليدلنا على ملحظ أن الزبانية لا يصنعون التعذيب لشهوة عندهم ، بل يمارسون التعذيب لشهوة عند الفرعون.

---

(١) من معانى الحرف (على): الاستعلاء؛ وهو أكثر معانيه استعمالاً، نحو قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ .. (٢٥٣) ﴾ [البقرة]. والظرفية؛ نحو قوله تعالى: ﴿ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا .. (١٥) ﴾ [القصص] أى: فى حين غفلة. والمصاحبة؛ نحو قوله تعالى: ﴿ .. وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ (٦) ﴾ [الرعد] أى: مع ظلمهم؛ ونحو قوله تعالى: ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا (٨) ﴾ [الإنسان]. أى: مع حبهم للمال. ومن معانيها أيضاً: أن تكون بمعنى (من) نحو قوله تعالى: ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ (١) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) ﴾ [المطففين] أى: من الناس . ومن معانى (على) أيضاً: المجاوزة، والتعليل، والإضراب، وأن تكون بمعنى الباء. انظر تفصيل ذلك فى [النحو الوافى: (٢/ ٥٠٩ - ٥١٢)].

وهكذا جاء الضمير مرة جمعاً ، ومرة مفرداً؛ ليكون كل لفظ فى القرآن جاذباً لمعناه.

وحين أراد المفسرون أن يوضحوا معنى (ذرية) قالوا [(١)] : إن المقصود بها امرأة فرعون (آسية) ، وخازن فرعون ، وامرأة الخازن ، وماشطة فرعون ، ومَنْ آمن مِنْ قوم موسى - عليه السلام - وكتم إيمانه.

كل هؤلاء منعتهم خشية عذاب فرعون من إعلان الإيمان برسالة موسى؛ لأن فرعون كان جَبَّاراً فى الأرض، مدّعياً للألوهية ، وإذا ما رأى فرعون إنساناً يخدش ادعاءه للألوهية ؛ فلا بد أن يبطش به بطشة فاتكة.

لذلك كانوا على خوف من هذا البطش ، فقد سبق وأن ذبح فرعون - بواسطة زبانيته - أبناء بنى إسرائيل واستحيا نساءهم [(٢)] ، وهم خافوا من هؤلاء الزبانية الذين نفَّذوا ما أراده فرعون.

ولذلك جاء الضمير مرة تعبيراً عن الجمع فى قوله سبحانه وتعالى:

﴿ وَمَلَئِهِمْ .. (٨٣) ﴾ [يونس]

وجاء الضمير مفرداً معبراً عن فرعون الآمر فى قوله سبحانه وتعالى:

﴿ أَن يَفْتِنَهُمْ .. (٨٣) ﴾ [يونس]

---

(١) هذا قول ابن عباس ، ذكره القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٢٩٦) وعلى هذا يكون الضمير فى ﴿قَوْمِهِ﴾ عائداً على فرعون. وقد ذكر القرطبى قولاً آخر - ونسبه للفرَّاء - يجعل الضمير يحتمل عوده على موسى وفرعون فى نفس الوقت، باعتبار أن الذرية أقوام آباؤهم من القبط أى: آل فرعون وأمهاتهم من بنى إسرائيل.

(٢) استحياء النساء: أى : تركهم أحياء. وقد كان بنو إسرائيل واقعين تحت الإيذاء والاستضعاف من قبل أن يأتيهم موسى، فبطش فرعون بهم كان مستمراً، ولذلك قالوا لموسى: ﴿ قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا .. (١٢٩) ﴾ [الأعراف] ، وقد قال سبحانه عن فترة إيذاء فرعون لبنى إسرائيل قبل مجىء موسى: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٤) ﴾ [القصص].

فهم خافوا أن يفتنهم فرعون بالتعذيب الذى يقوم به أعوانه.

والحق سبحانه وتعالى هو القائل:

﴿ .. وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى الأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ (٨٣) ﴾ [يونس]

والمسرف: هو الذى يتجاوز الحدود. وهو قد تجاوز فى إسرافه وادَّعى الألوهية.

وقد قال الحق سبحانه ما جاء على لسان فرعون:

﴿ ..أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ (٢٤) ﴾ [النازعات]

وقال الحق سبحانه أيضاً:

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰأَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى..(٣٨) ﴾[القصص]

وعلا فرعون فى الأرض علوَّ طاغية من البشر على غيره من البشر المستضعفين.

وقال الحق سبحانه على لسان فرعون:

﴿ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ (١) وَهَـٰذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِى مِن تَحْتِى ..(٥١) ﴾[الزخرف]

إذن: فقد كان فرعون مسرفاً أشد الإسراف.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَـٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ (٨٤) ﴾

---

(١) المصر: البلد العظيم، قال تعالى: ﴿ اهْبِطُوا مِصْراً.. (٦١) ﴾ [البقرة] أى: بلداً عظيماً كبيراً.
ومصر بغير تنوين هى بلادنا العزيزة، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِى اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لامْرَأَتِهِ .. (٢١) ﴾ [يوسف] [القاموس القويم].

وهنا شرطان ، فى قوله تعالى :

﴿ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ ..(٨٤) ﴾ [يونس]

وجاء جواب هذا الشرط فى قوله سبحانه :

﴿ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا ..(٨٤) ﴾ [يونس]

ثم جاء بشرط آخر هو : ﴿ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ..(٨٤) ﴾ [يونس]

وهكذا جاء الشرط الأول وجوابه ، ثم جاء شرط آخر ، وهذا الشرط الآخر هو الشرط الأول وهو الإسلام لله ؛ لأن الإيمان بالله يقتضى الإسلام وأن يكونوا مسلمين .

ومثال ذلك فى حياتنا : حين يريد ناظر إحدى المدارس أن يعاقب تلميذاً خالف أوامر المدرسة ونظمها ، ويستعطف التلميذ الناظر ، فيرد الناظر على هذا الاستعطاف بقوله : «إن جئت يوم السبت القادم قَبلتك فى المدرسة إن كان معك ولىُّ أمرك؛ ومجىء ولى الأمر هنا مرتبط بالموعد الذى حدده الناظر لعودة التلميذ لصفوف الدراسة ، وهكذا نجد أن الشرط الآخر مرتبط بالشرط الأول .

وهنا يتجلَّى ذلك فى قول الحق سبحانه :

﴿ .. إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ [1] (٨٤) ﴾ [يونس]

والإيمان - كما نعلم - عملية وجدانية قلبية ، والإسلام عملية ظاهرية ، فمرة ينفذ الفرد تعاليم الإسلام [2] ، وقد ينفك مرة أخرى من

---

(١) لأنه لا إيمان موصول إلا بالإسلام ، ولا إسلام واصل إلا بالإيمان ، فبينهما تلازم حقيقى لبلوغ المراد .

(٢) الإسلام هو الانقياد لله تعالى ولما جاء به الرسول ﷺ من الشرائع والأحكام ، فهو الانقياد الظاهرى لجميع أحكام الإسلام أما الإيمان فهو اعتقاد القلب وتصديقه الجازم الذى لا يدخله شك ، قال تعالى : ﴿ قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِى قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا ..(١٤) ﴾ [الحجرات] .

تنفيذ التعاليم رغم إيمانه بالله ، ومرة تجد واحداً ينفذ تعاليم الإسلام نفاقاً من غير رصيد من إيمان.

ولذلك نجد الحق سبحانه وتعالى يقول:

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ..(٢٥) ﴾ [البقرة]

ونجده سبحانه يبيِّن هذا الأمر بتحديد قاطع فى قوله تعالى:

﴿ قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا ..(١٤) ﴾ [الحجرات]

والإيمان عملية قلبية ؛ لذلك يأتى الأمر الإلهى:

﴿ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِى قُلُوبِكُمْ .. (١٤) ﴾ [الحجرات]

أى: أنكم تؤدون فروض الإسلام الظاهرية ، لكن الإيمان لم يدخل قلوبكم بعد.

وهنا يقول الحق سبحانه:

﴿ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا ..(٨٤) ﴾ [يونس]

وهكذا نرى أن التوكل مطلوب الإيمان ، وأن يُسلم الإنسان زمامه فى كل أمر إلى مَنْ آمن به؛ ولذلك لا ينفع الإيمان إلا بالإسلام ، فإن كنتم مسلمين مع إيمانكم فتوكلوا على الله تعالى .

لكن إن كنتم قد آمنتم فقط ولم تسلموا الزمام لله فى التكاليف إلى الله فى «افعل» و «لا تفعل» ، فهذا التوكل لا يصلح.

وهكذا يتأكد لنا ما قلناه من قبل من أنك إذا رأيت أسلوباً فيه شرط تقدم ، وجاء جواب بعد الشرط ، ثم جاء شرط آخر ، فاعلم أن الشرط

الأخير هو المقدَّم ؛ لأنه شرط فى الشرط الأول [١] ، وبالمثل هنا فإن التوكل لن ينشأ إلا بالإسلام مع الإيمان.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً [٢] لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ [٣] ﴿٨٥﴾ ﴾

أى: أنهم استجابوا لدعوة موسى - عليه السلام - بمجرد قولهم: ﴿ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ .

وإذا تقدم الجار على المجرور فمعنى ذلك قَصْر وحَصْر الأمر ، وهنا قصر وحصر التوكل على الله تعالى ، ولا توكل على سواه.

ويأتى بعد ذلك دعاؤهم :

﴿ ..رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [يونس]

والفتنة: اختبار ، وهى - كما قلنا من قبل - ليست مذمومة فى ذاتها ، بل المذموم أن تكون النتيجة فى غير صالح من يمر بالفتنة.

ويقال: فتنت الذهب ، أى: صهرت الذهب ، واستخلصته من كل

(١) يجوز أن تتوالى أداتان - أو أكثر - من أدوات الشرط، باتصال مباشر، أو غير مباشر. والتوالى مع الاتصال المباشر يكون الاعتبار فيه للأداة الأولى؛ فهى وحدها التى تحتاج لشرط وجواب. أما التوالى مع الاتصال غير المباشر فتكون لكل أداة جملتها الفعلية الشرطية التى تليها مباشرة ، وتفصل بينها وبين الأداة الشرطية التى بعدها وتحتاج كل أداة بعد هذا إلى جملة جوابية تخضع لعدة أحكام ، منها أنه إذا كان التوالى بغير عطف فالجواب للأداة الأولى وحدها ما لم تقم قرينة تعين غيرها. أما باقى الأدوات التالية فجواب أى منها محذوف لدلالة جواب الأداة الأولى عليه. . انظر تفصيل ذلك فى [النحو الوافى: ٤/ ٤٨٩، ٤٩٠].

(٢) فتنة: موضع عذاب. [كلمات القرآن: للشيخ حسنين محمد مخلوف].

(٣) لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين: أى: لا تظهرهم علينا فيظنوا أنهم على الحق؛ فيفتتنوا بنا. [تفسير الجلالين: ص ١٨٦].

الشوائب ، ونحن نعلم أن صُنَّاع الذهب يخلطونه بعناصر أخرى ؛ ليكون متماسكاً ؛ لأن الذهب غير المخلوط بعناصر أخرى لا يتماسك.

والفتنة التى قالوا فيها:

﴿ ..رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٨٥) ﴾ [يونس]

هى فتنة الخوف من أن يرتد بعضهم عن الإيمان لو انتصر عليهم فرعون وعذَّبهم ، وكأنهم يقولون: يا رب لا تسلّط علينا فرعون بعذاب شديد.

هذا إن كانوا مفتونين ، فماذا إن كانوا هم الفاتنين؟

إنهم فى هذه الحالة لو لم يتبعوا الدين التتبع الحقيقى لما علم فرعون وآله أن هؤلاء الذين أعلنوا الإيمان هم مسلمون بحق ، وهم لو انحرفوا عن الدين لقال عنهم آل فرعون: إنهم ليسوا أهل إيمان حقيقى.

ونجد سيدنا إبراهيم - عليه السلام - وهو أبو الأنبياء وله قدره العظيم فى النبوة ، يقول:

﴿ رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا..(٥) ﴾ [الممتحنة]

ودعوة إبراهيم عليه السلام تعلمنا ضرورة التمسك بتعاليم الدين؛ حتى لا ينظر أحد إلى المسلم أو المؤمن ويقول: هذا هو من يعلن الإيمان ويتصرف عكس تعاليم دينه.

ولذلك كان سيدنا إبراهيم - عليه السلام - يؤدى الأوامر بأكثر مما يطلب منه ، ويقول فيه الحق سبحانه:

﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ [1] ..(١٢٤) ﴾ [البقرة]

أى: أنه كان يتم كل عمل بنية وإتقان؛ لأنه أسوة [2] ، فلم يقم بعمل

(١) ابتلى: اختبر. بكلمات: بأوامر ونواه كلّفه الله بها.
(٢) أسوة: قدوة حسنة.

إيمانى بمظهر سطحى.

إذن: فإن كانوا هم المفتونين، فهم يدفعون الفتنة عن أنفسهم، وإن كانوا هم الفاتنين؛ فعليهم التمسك بتعاليم الدين؛ حتى لا يتهمهم أحد بالتقصير فى أمور دينهم، فيزداد الكافرون كفراً وضلالاً.

وجاء قول الحق سبحانه:

﴿ ..رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٨٥) ﴾ [يونس]

ليدل على انشغالهم بأمر الدين، فاتنين أو مفتونين.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٨٦) ﴾

وهنا توضح الآية الكريمة أنهم إن كانوا مشغولين بأمر الغير من الكافرين فهذا يعنى أنهم طمعوا فى إيمان العدو؛ لعل هذا العدو يعود إلى رشد الإيمان.

ورسول الله ﷺ يقول: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»[1].

وهم أرادوا إيمان العدو رغم أنه ظالم.

وهكذا يعلّم الحق - سبحانه وتعالى - الخلق أنه من حُمْق العداوة أن يدعو الإنسان على عدوِّه بالشر؛ لأن الذى يتعبك من عدوك هو شرُّه، ومن صالحك أن تدعو له بالخير؛ لأن هذا الخير سيتعدى إليك.

---

(١) متفق عليه. أخرجه البخارى فى صحيحه (١٣)، ومسلم فى صحيحه (٤٥) كتاب الإيمان عن أنس بن مالك بلفظ: «والذى نفسى بيده، لايؤمن عبد حتى يحب لجاره - أو قال: لأخيه - ما يحب لنفسه».

وعلى المؤمن أن يدعو لعدوِّه بالهداية ، لأنه حين يهتدى ؛ فلسوف يتعدَّى النفع إليك ، وهذه من مميزات الإيمان أن نفعه يتعدَّى إلى الغَيْر.

وهم حين دعوا ألاَّ يجعلهم الله فتنةً للقوم الظالمين ، فإن ذلك يوضّح لنا أن الظلم درجاتٌ ، وأن فرعون وملأه كانوا فى قمة الظلم ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى هو القائل :

﴿ ..إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣) ﴾ [لقمان]

فقمة الظلم أن تأخذ حَقَّ الغير وتعطيه لغير صاحب الحق. وفرعون وملؤه أشركوا بالله - سبحانه وتعالى - فظن فرعون أنه إله ، وصدَّقه من حوله .

فقمة الظلم هو الشرك بالله سبحانه ، ثم بعد ذلك يتنزل إلى الظلم فى الكبائر ، ثم فى الصغائر .

وقولهم فى دعائهم للحق سبحانه :

﴿ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٨٦) ﴾ [يونس]

أى : اجعلنا بنجوة[1] من هؤلاء .

وكان الذى يخيف الأقدمين هو سيول المياه ، حين تتدفَّق ، ولا ينجو إلا مَنْ كان فى ربوة عالية - والنجوة هى المكان المرتفع - وهذا هو أصل كلمة "النجاة" .

وهنا يقول الحق سبحانه على لسانهم :

﴿ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٨٦) ﴾ [يونس]

---

(١) النجوة : المرتفع من الأرض. ويقال : هو بنجوة من هذا الأمر : أى : بعيد عنه برىء سالم. [المعجم الوسيط : مادة (ن ج و)].

والرحمة هى الوقاية من أن يجىء الداء.

والحق سبحانه يقول :

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ .. (٨٢) ﴾ [الإسراء]

والشفاء إذا وُجد الدَّاء ، والرحمة هى ألاَّ يجىء الداء .

وأراد الحق سبحانه أن يكرم - بعد ذلك - موسى عليه السلام وقومه فقال سبحانه وتعالى :

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا (١) وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ (٨٧) ﴾

وأوضحنا من قبل أن موسى وهارون عليهما السلام رسولان برسالة واحدة.، وأن الوَحْى قد جاء للاثنين برسالة واحدة.

فالحق سبحانه ساعة يختار نبيّاً رسولاً ، فإنما يختاره بتكوينٍ وفطرةٍ تؤهّله لحَمْل الرسالة والنطق بمرادات الله تعالى .

وإذا كان الخَلْق قد صنعوا آلات ذاتية الحركة من مواد جامدة لا فكر لها

---

(١) تبوءا : اتخذا واجعلا . قبلة : مصلى تصلون فيه لتأمنوا من الخوف . وكان فرعون قد منعهم من الصلاة . أقيموا الصلاة : أتموها . وبشر المؤمنين : بالنصر والجنة . [تفسير الجلالين : ص ١٨٦].
وذكر ابن كثير فى تفسيره (٢/ ٤٢٨ ، ٤٢٩) : أن الله تعالى أمر موسى وأخاه هارون عليهما السلام أن يتبوّءا أى : يتخذا لقومهما بمصر بيوتاً، واختلف المفسرون فى معنى قوله تعالى : ﴿ وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً .. (٨٧) ﴾ فعن ابن عباس : قال : أمروا أن يتخذوها مساجد . وعن إبراهيم النخعى قال : كانوا خائفين فأمروا أن يصلوا فى بيوتهم ، وكذا قال غير واحد من علماء التفسير ، وكان هذا والله أعلم لما اشتد بهم البلاء من قبل فرعون وقومه وضيقوا عليهم أمروا بكثرة الصلاة كقوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ .. (١٥٣) ﴾ [البقرة]. وقال سعيد بن جبير فى تفسير هذه الآية : (قبلة) أى : يقابل بعضها بعضاً . [من تفسير ابن كثير . . بتصرف].

ولا رَوِيّة [١] ، مثل الساعة التى تُؤذِّن ، أو المذياع الذى يذيع فى توقيت محدد ، إذا كان البشر قد صنعوا ذلك فما بالنا بالله سبحانه الخالق لكل الخلق والكون ومرسل الرسل؟

إنه سبحانه وتعالى يختار رسله بحيث يسمح تكوين الرسول أن يؤدى المهمة الموكولة إليه فى أى ظرف من الظروف.

وقول الحق سبحانه هنا:

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ .. (٨٧) ﴾ [يونس]

يبيِّن لنا أن الوحى شمل كلاً من موسى وهارون عليهما السلام ، بحيث إذا جاء موقف من المواقف يقتضى أن يتكلم فيه موسى ، فهارون أيضاً يمكن أن يتكلم فى نفس الأمر؛ لأن الشحنة الإيمانية واحدة ، والمنهج واحد .

وقد حدث ذلك بعد أن غرق فرعون وقومه ، وخلا لهم الجو ، فجاء لهم الأمر أن يستقروا فى مصر ، وأن يكون لهم فيها بيوت.

ولكن لنا أن نسأل:

هل فرعون هذا هو شخص غرق وانتهى؟

لا . . إن فرعون ليس اسماً لشخص ، بل هو تصنيف لوظيفة ، وكان لقب كل حاكم لمصر قديماً هو «فرعون» ؛ لذلك لا داعى أن نشغل أنفسنا: هل هو تحتمس الأول ؟ أو رمسيس؟ أو ما إلى ذلك؟ فهب أن فرعون المعنىَّ هنا قد غرق ، ألا يعنى ذلك مجىء فرعون جديد ؟

نحن نعلم من التاريخ أن الأسر الحاكمة توالت ، وكانوا فراعنة ، وكان منهم من يضطهد المؤمنين ، ولا بد أن يكون خليفة الفرعون أشد ضراوةً وأكثر شحنةً ضد هؤلاء القوم .

---

(١) الروية: النظر والتفكير فى الأمور، وهى خلاف البديهة [المعجم الوسيط: مادة (ر و ى)].

وقول الحق سبحانه وتعالى فى الآية الكريمة التى نحن بصدد خواطرنا عنها :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا [1] لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا .. (٨٧) ﴾ [يونس]

نجد فيه كلمة « مصر » [2] وهى إذا أطلقت يُفهم منها أنها « الإقليم » .

ونحن هنا فى بلدنا جعلنا كلمة « مصر » علماً على الإقليم الممتد من البحر المتوسط إلى حدود السودان ، أى : وادى النيل .

ومرة أخرى جعلنا من « مصر » اسماً لعاصمة وادى النيل .

ونحن نقول أيضاً عن محطة القطارات فى القاهرة : « محطة مصر » .

وقول الحق سبحانه هنا :

﴿ .. أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا (٨٧) ﴾ [يونس]

نفهم منه أن التبوُّء هو اتخاذ مكان يعتبر مباءةً [3] ؛ أى : مرجعاً يبوء الإنسان إليه .

التبوُّء - إذن - هو التوطن فى مكان ما ، والإنسان إذا اتخذ مكاناً كوطن له فهو يعود إليه إن ذهب إلى أى بلد لفترة .

---

(١) تبوأ : نزل وسكن .

(٢) ورد اسم «مصر» فى القرآن الكريم أربع مرات علماً على مصر فرعون فى قوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا .. (٨٧) ﴾ [يونس] . وفى قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ .. (٢١) ﴾ [يوسف] . وفى قوله تعالى : ﴿ .. وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ (٩٩) ﴾ [يوسف] . وفى قوله تعالى : ﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ .. (٥١) ﴾ [الزخرف] . أما قوله تعالى : ﴿ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ .. (٦١) ﴾ [البقرة] فقد وقعت فيها كلمة مصر منونة ، دلالة على أنه ليس المقصود بها مصر فرعون العلم الأعجمى الذى يُمنع من الصرف والتنوين ، فهى مصر من الأمصار أى : بلد من البلاد .

(٣) المباءة : المكان الذى ينزل به الإنسان ويسكن فيه . [لسان العرب : مادة (ب و أ) - بتصرف] .

ويعتبر الخروج من الوطن مجرد رحلة تقتضى العودة ، وكذلك البيت بالنسبة للإنسان ؛ فالواحد منا يطوف طوال النهار فى الحقل أو المصنع أو المكتب ، وبعد ذلك يعود إلى البيت للبيتوتة [1] .

والبيوت التى أوصى الله سبحانه وتعالى بإقامتها لقوم موسى وهارون - عليهما السلام - كان لها شرط هو قول الحق سبحانه :

﴿ وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً .. (٨٧) ﴾ [يونس]

والقِبلة هى المتجَه الذى نصلى إليه .

ومثال ذلك : المسجد ، وهو قبلة مَنْ هو خارجه ، وساعة ينادى المؤذن للصلاة يكون المسجد هو قبلتنا التى نذهب إليها ، وحين ندخل المسجد نتجه داخله إلى القبلة ، واتجاهنا إلى القبلة هو الذى يتحكم فى وضعنا الصفِّى .

والأمر هنا من الحق سبحانه :

﴿ وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ .. (٨٧) ﴾ [يونس]

فإقامة البيوت هنا مشروطة بأن يجعلوا بها قبلة لإقامة الصلاة بعيداً عن أعين الخصوم الذين يضطهدونهم ، شأنهم شأن المسلمين الأوائل حينما كان الإسلام - فى أوليته - ضعيفاً بمكة ، وكان المسلمون حين ذاك يصلون فى قلب البيوت ، وهذا هو سر عدم الجهر بالصلاة نهاراً ، وعدم الجهر يفيد فى ألا ينتبه الخصوم إلى مكان المصلين .

وأما الجهر بالصلاة ليلاً وفجراً ، فقد كان المقصود به أن يعلمهم كيفية قراءة القرآن .

---

(١) البيتوتة : مصدر للفعل بات يبيت ، حيث إن البيت هو محل البيات والمبيت . [لسان العرب : مادة (ب ى ت) - بتصرف] .

وهنا يقول الحق سبحانه:

﴿ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً .. (٨٧) ﴾ [يونس]

وقد يكون المقصود بذلك أن تكون البيوت متقابلة.

وإلى يومنا هذا أنت إن نظرت إلى ساحات [1] اليهود فى أى بلد من بلاد الدنيا تجد أنهم يقطنون حيّاً واحداً، ويرفضون أن يذوبوا فى الأحياء الأخرى..

ففى كل بلد لهم حى يسكنون فيه، ويسمى باسم «حى اليهود». وكانت لهم فى مصر «حارات» كل منها تسمى باسم «حارة اليهود».

وقد شاء الحق - سبحانه وتعالى - ذلك وقال فى كتابه العزيز:

﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ .. (٦١) ﴾ [البقرة]

وهم يحتمون بتواجدهم معاً، فإن حدث أمر من الأمور يفزعهم؛ يصبح من السهل عليهم أن يلتقوا.

أو ﴿ وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً .. (٨٧) ﴾ [يونس]

أى: أن يكون تخطيط الأماكن والشوارع التى تُبنى عليها البيوت فى اتجاه القبلة.

وأى خطأ معمارى مثل الذى يوجد فى تربيعة بناء مسجد الإمام الحسين بالقاهرة، هذا الخطأ يوجب الاتجاه إلى اليمين قليلاً مما يسبب بعض

---

(١) الساحات: جمع ساحة وهى الناحية من البيوت. وهى أيضاً فضاء يكون بين بيوت الحى. وساحة الدار: باحتها. [اللسان مادة: س و ح] ومنه قوله تعالى: ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (١٧٦) فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ (١٧٧) ﴾ [الصافات] أى: بالمحلة أو الديار التى يسكنونها.

الارتباك للمصلين؛ لأن الانحراف قليلاً إلى اليمين فى أثناء الصلاة يقتضى أن يقصر كل صف خلف الصف الآخر.

وحين نصلى فى المسجد الحرام بمكة ، نجد بعضاً من المصلين يريدون مساواة الصفوف ، وأن تكون الصفوف مستقيمة ، فنجد من ينبه إلى أن الصف يعتدل بمقدار أطول أضلاع الكعبة، ثم ينحنى الصف.

وكذلك فى الأدوار العليا التى أقيمت بالمسجد الحرام نجد الصفوف منحنية متجهة إلى الكعبة.

ولذلك أقول دائماً حين أصلى بالمسجد الحرام: إن معنى قول الإمام: «سووا صفوفكم» أى: اجعلوا مناكبكم [1] فى مناكب بعضكم البعض ، أما خارج الكعبة فيكفى أن نتجه إلى الجهة التى فيها الكعبة ، ونحن خارج الكعبة لا نصلى لعين الكعبة ، ولكننا نصلى تجاه الكعبة؛ لأننا لو كنا نصلى إلى عين الكعبة لما زاد طول الصف فى أى مسجد عن اثنى عشر متراً وربع المتر ، وهو أطول أضلاع الكعبة.

وقول الحق سبحانه هنا:

﴿ وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً [2] .. (٨٧) ﴾ [يونس]

أى: خططوا فى إقامة البيوت أن تكون على القبلة ، وبعض الناس يحاولون ذلك ، لكن تخطيط الشوارع والأحياء لا يساعد على ذلك.

ثم يقول الحق سبحانه:

---

(١) المناكب: جمع منكب ، وهو مجتمع عظم العضد والكتف. [لسان العرب: مادة (ن ك ب)].

(٢) القبلة: الوجهة. قال تعالى: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ .. (١٤٤) ﴾ [البقرة] ، وهى الجهة التى نتجه إليها فى صلاتنا. ومعنى الآية هنا أن يبنوا بيوتهم ، مواجهة للقبلة. أو: اجعلوها قبلة للناس يتجهون إليها لنيل الخير.

﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ .. (٨٧) ﴾ [يونس]

وهذا الأمر نفهم منه أن الصلاة فيها استدامة الولاء [1] لله تعالى ، فنحن نشهد ألا إله إلا الله مرة واحدة فى العمر ، ونُزكِّى - إن كان عندنا مال - مرة واحدة فى السنة ، ونصوم - إن لم نكن مرضى - شهراً واحداً هو شهر رمضان ، ونحج - إن استطعنا - مرة واحدة فى العمر.

ويبقى ركن الصلاة ، وهو يتكرر كل يوم خمس مرات ، وإن شاء الإنسان فَلْيُزِد ، وكأن الحق سبحانه وتعالى هنا ينبه إلى عماد الدين وهى الصلاة.

ولكن مَن الذى اختار المكان فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها ؟ هل هو موسى وأخوه هارون ؟ أم أن الخطاب لكل القوم ؟

نلحظ هنا أن الأمر بالتبوّء هو لموسى وهارون - عليهما السلام - أما الأمر بالجعل فهو مطلوب من موسى وهارون والأتباع ؛ لذلك جاء الجعل هنا بصيغة الجمع.

ويُنهى الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله :

﴿ .. وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (٨٧) ﴾ [يونس]

وفى هذا تنبيه وإشارة إلى أن موسى هو الأصل فى الرسالة ؛ لذلك جاء له الأمر بأن يحمل البشارة للمؤمنين.

ونلحظ هنا فى هذه الآية أن الحق سبحانه جاء بالتثنية فى التبوء ، وجاء بالجمع فى جعل البيوت ، ثم جاء بالمفرد فى نهاية الآية لينبهنا إلى أن موسى - عليه السلام - هو الأصل فى الرسالة إلى بنى إسرائيل.

---

(١) الولاء : الحب والنصرة . يقول سبحانه : ﴿ وَمَا لَهُمْ أَلاَّ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٣٤) ﴾ [الأنفال] .

والبشرى على الأعمال الصالحة تعنى: التبشير بالجنة.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ (١) وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ (٢) فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ (٣) ﴿٨٨﴾ ﴾

والزينة: هى الأمر الزائد عن ضروريات الحياة ومقوماتها الأولى، فاستبقاء الحياة يكون بالمأكل لأى غذاء يسدُّ الجوع، وبالمشرب الذى يروى العطش.

أما إن كان الطعام منوَّعاً فهذا من ترف الحياة، ومن ترف الحياة الملابس التى لا تستر العورة فقط، بل بالزى الذى يتميز بجودة النسج والتصميم والتفصيل.

وكذلك من ترف الحياة المكان الذى ينام فيه الإنسان، بحيث يتم تأثيثه

---

(١) اطمس على أموالهم: قال ابن عباس ومجاهد: أى: أهلكها. وقال الضحاك وآخرون: جعلها الله حجارة منقوشة.

(٢) واشدد على قلوبهم: اطبع عليها. وهذه الدعوة كانت من موسى عليه السلام غضباً لله ولدينه، على فرعون وملئه الذين تبين له أنهم لا خير فيهم ولا يجىء منهم شىء. [ذكره ابن كثير فى تفسيره: ٢/ ٤٢٩].

(٣) رأى: نظر بعينه كأبصر. ورأى بفكره وقلبه بمعنى: علم. ورأى: اعتقد. ورأى فى نومه رؤيا: حلم. والرؤيا: الحلم فى النوم. ورأى: هنا هى البصرية. أى: حتى يروا العذاب بأعينهم ويعاينوه معاينة.

بفاخر الرياش [١]، ولكن الضرورة في النوم يكفي فيها مكان على الأرض ، وأي فراش يقي من برودة الأرض أو حرارتها.

إذن : فالزائد عن الضرورات هو زينة الحياة ، والزينة تأتي من الأموال، والرصيد الأصيل في الأموال هو الذهب ، ثم تأخذ الفضة المرتبة الثانية.

ومن مقومات الاقتصاد أن الذهب يعتبر قيمة الرصيد لغنى أية دولة ، مهما اكتشفوا من أحجار أغلى من الذهب.

وهذه الأحجار الكريمة - كالماس مثلاً - إن كُسرت أو خُدشت تقل قيمتها ، لكن الذهب مهما تفتَّت فأنت تعيد صَهْرَه ، فتستخلَص ذهباً مُجمَّعاً.

وكان الفراعنة الأقدمون يحكمون مصر حتى منابع النيل ، وكانوا يسخِّرون الناس في كل الأعمال ، حتى استخراج الذهب سواء من المناجم أو من غربلة رمال بعض الجبال لاستخلاص الذهب منها .

وأنت قد تستطيع استخلاص الذهب من أماكن معينة ، ولكن الفرق دائماً إنما يكون في القيمة الاقتصادية لاستخراج الذهب ، فحين يكون المنجم وفير العطاء ، فيه كثير من عروق الذهب ، هنا يصبح استخراج الذهب مسألة مربحة اقتصادياً .

أما إن كانت التكلفة أعلى من القيمة الاقتصادية للذهب المستخرج ، فلا أحد يستخرج هذا الذهب.

---

(١) الرياش والريش : الخصب، والمعاش، والمال، والأثاث واللباس الحسن الفاخر. قال تعالى : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (٢٦) ﴾ [الأعراف].

وأنت إن نظرت إلى زينة الفراعنة تجد قناع «توت عنخ آمون» آية فى الجمال ، وكذلك كانت قصورهم فى قمة الرفاهية ، ويكفى أن ترى الألوان التى صنعت منها دهانات الحوائط فى تلك الأيام؛ لتعرف دقة الصنعة ومدى الترف ، الذى هو أكثر بكثير من الضرورات.

وفى هذه الآية الكريمة يقول الحق سبحانه:

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ . . (٨٨) ﴾ [يونس]

وهم لم يَضلُّوا فقط بل أرادوا أن يُضِلّوا غيرهم ؛ لذلك تحملوا وِزْر ضلالهم ، ووِزْر إضلال غيرهم.

فهل أعطاهم الله سبحانه المال والزينة للضلال والإضلال ؟

لا ، فليس ذلك علة العطاء، ولكن هناك لام العاقبة ، مثلما تعطى أنت ابنك عشرة جنيهات وتقول له: افعل بها ما تريد ، وأرجو أن تتصرف فيها تصرفاً يعود عليك بالخير. وقد ينزل هذا الابن ليشترى شيئاً غير مفيد ولا يشترى - مثلاً - كتباً تفيده.

هنا أنت أعطيت هذا الابن قوة شرائية لكنه لم يحسن التصرف فيها ، وغاية الاختيار هَدَتْه إلى اللعب. وهذا ما يسمى لام العاقبة ، ولام العاقبة لا يكون المقصود بها سبب الفعل ، ولكنها تأتى لبيان عاقبة الفعل [1].

وحين أراد الحق سبحانه وتعالى أن ينجى موسى - عليه السلام - فى طفولته من القتل أوحى إلى أم موسى - عليهما السلام - بقوله تعالى:

---

(١) أى: أن فرعون لم تكن علة التقاطه لموسى أن يكون عدواً له بل ليتخذه ولداً ، وأضافت امرأته أن يكون قرة عين لها ولفرعون، ولكن كانت العاقبة غير ذلك ، أى: أن ما حدث كان عكس ما كان يريده فرعون.

﴿ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ [١] وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي .. (٧) ﴾ [القصص]

ولا توجد أم تُقبل على تنفيذ مثل هذا الأمر ؛ لأنه موت محقق؛ لأن الابن إن خُطف أو فُقد فهذا كله موت مظنون ، أما إلقاؤه فى الماء فليس فيه موت مظنون ، بلَ موت مؤكد ، إن لم يُنجِّه الله تعالى .

ولكن أم موسى - لإيمانها بالله - فعلت ما أوحى به الله - سبحانه وتعالى - لها ؛ لأن الوارد من الله تعالى لا يجد فى الفطرة منازعاً له .

أما نزغات الشيطان فهى تجد ألف منازع لها فى النفس ، وكذلك هواجس النفس .

ولذلك نفَّذت أم موسى ما أوحى الله تعالى به إليها ، وإن كان مخالفاً للعقل والمنطق .

وحين التقطه آل فرعون ، وقد كانوا يقتلون الأطفال [٢] ، وألقى الحق سبحانه وتعالى محبة موسى فى قلوبهم ، قال :

﴿ .. وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي (٣٩) ﴾ [طه]

فهم ساعة رؤيتهم لموسى - عليه السلام - وهو طفل ، أحبُّوه فلم يقتلوه ، وهكذا نفذت مشيئة الله تعالى ووعده لأمه :

﴿ .. إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧) ﴾ [القصص]

أى : أن لموسى - عليه السلام - مهمة مسبقة أرادها له الحق سبحانه .

---

(١) اليم : الماء الكثير المجتمع . والمراد به : نهر النيل فى مصر .

(٢) كان فرعون وزبانيته يذبحون أبناء بنى إسرائيل ويستحيون نساءهم بعد أن سمع فرعون النبوءة التى قيلت عن أن ولداً من بنى إسرائيل سيقضى على فرعون . قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٤) ﴾ [القصص] وقال تعالى : ﴿ .. وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ (٦) ﴾ [القصص] .

ولذلك نجد أن هناك أوامر متتابعة جاء بها القرآن الكريم فى مسألة إلقاء أم موسى لابنها ، فقال الحق سبحانه :

﴿ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ (٣٨) أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ [1] فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ [2] ..(٣٩) ﴾ [طه]

وكلها أوامر من الحق سبحانه ، فتراه زوجة فرعون فتقول لزوجها :

﴿ قُرَّتُ عَيْنٍ [3] لِّي وَلَكَ ..(٩) ﴾ [القصص]

فهل كان فرعون يعلم أن هذا الطفل الذى التقطه سيكون عدواً له ؟

لا ، لقد التقطه وأعطاه حياة الترف ؛ ليكون قُرَّة عين له ، وهذه علة الالتقاط ، ولكن العاقبة انتهت إلى أن يكون عدواً ؛ ولو كانت العلة هى العداوة لما التقطه فرعون أو لقتله لحظة الالتقاط .

ولذلك يترك الحق سبحانه وتعالى فى كونه أشياء تكسر مكر البشر ؛ فأخذه فرعون وربَّاه ، وكانت العاقبة غير ما كان يتوقع فرعون .

وقول الحق سبحانه هنا فى الآية التى نحن بصددها : ﴿ لِيُضِلُّوا ﴾ نفهم منه أن - سبحانه وتعالى - لم يُعْطِهم المال ليضلوا ، ولكنهم هم الذين اختاروا الضلال .

وقد أعطى الله سبحانه وتعالى الكثير من الناس مالاً وجاهاً وأرادوا به الخير ، وهكذا نرى اختيار الإنسان ، إن له أن يضل أو يهتدى .

وقد قال موسى عليه السلام تنفيساً عن نفسه :

---

(١) التابوت : الصندوق الذى وضعت فيه أم موسى ابنها قبل إلقائه فى اليم ؛ ليحفظه من الماء .

(٢) الساحل : شاطىء النهر القريب من قصر فرعون .

(٣) قرة عين : مسرة وفرح . [كلمات القرآن : للشيخ حسنين محمد مخلوف] .

﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ .. (٨٨) ﴾ [يونس]

ومعنى الطمس أى: إخفاء المعالم؛ مثل قول الحق سبحانه:

﴿ مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ [(١)] وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا .. (٤٧) ﴾ [النساء]

ومعنى الطمس هنا: إخفاء معالم تلك الوجوه؛ فتكون قطعة واحدة بلا جبهة أو حواجب أو عينين أو أنف أو شفاه أو ذقن.

إذن: فالطمس هو إهلاك الصورة التى بها الشىء. ودعوة موسى - عليه السلام - هنا:

﴿ اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ .. (٨٨) ﴾ [يونس]

أى: امسخها.

وقال بعض الرواة [(٢)] أنها مُسخت، فمن كان يملك بعضاً من سبائك الذهب وجدها حجارة، ومن كان يملك أحجاراً كريمة كالماس وجدها زجاجاً.

أو أن ﴿ اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ .. (٨٨) ﴾ [يونس]

أى: أذهبهما؛ لأن الأموال كانت وسيلة إضلال.

---

(١) وردت مادة «الطمس» بالقرآن الكريم فى خمسة مواضع، هى قول الله تعالى: ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ . (٦٦) ﴾ [يس]، وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ (٣٧) ﴾ [القمر]، وقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ (٨) ﴾ [المرسلات]، وقوله تعالى: ﴿ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا ..(٤٧) ﴾ [النساء]، وقوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ..(٨٨) ﴾ [يونس].

(٢) قاله ابن عباس ومحمد بن كعب القرظى: صارت أموالهم ودراهمهم حجارة منقوشة كهيئتها صحاحاً وأثلاثاً وأنصافاً، ولم يبق لهم معدن إلا طمس الله عليه فلم ينتفع به أحد بعد.

وقوله عليه السلام بعد ذلك :

﴿ .. وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ (٨٨) ﴾ [يونس]

أى: أحْكِمْ يا رب الأربطة على تلك القلوب ؛ فلا يخرج ما فيها من كفر ، ولا يدخل ما هو خارجها من الإيمان؛ لأن هؤلاء قد افتروا افتراءً عظيماً ، وأن تظل الأربطة على قلوبهم؛ حتى يروا العذاب الأليم.

ولماذا دعا موسى - عليه السلام - على آل فرعون هذا الدعاء ، ولم يَدْعُ مثلما دعا سيدنا محمد ﷺ : «اللهم اهْدِ قومى فإنهم لا يعلمون» ؟

والإجابة: لا بد أن الحق سبحانه وتعالى قد أطلعه على أن هؤلاء قوم لن تفلح فيهم دعوة الإيمان.

وكان خوف موسى - عليه السلام - لا من ضلال قوم فرعون ، ولكن من استمرار إضلالهم لغيرهم.

إذن: فقد دعا عليهم موسى - عليه السلام - بما جاء فى هذه الآية :

﴿ ..رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ (٨٨) ﴾ [يونس]

وفى موضع آخر من القرآن الكريم يقول الحق سبحانه:

﴿ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ..(٨٥) ﴾ [غافر]

وهكذا يتبين لنا الفارق بين إيمان الإلجاء والقصر [1] وبين إيمان الاختيار [2].

---

(١) القصر والقسر: الإجبار على كره. ومنه: قصرت نفسى على الشىء إذا حبستها عليه وألزمتها إياه. انظر [لسان العرب مادة: قصر ، قسر].

(٢) قال تعالى : ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ .. (٢٩) ﴾ [الكهف] وقال تعالى : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (٢) إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا (٣) ﴾ [الإنسان]

فحين يأتى الرسول داعياً إلى الإيمان يصبح من حق السامع لدعوته أن يؤمن أو أن يكفر ؛ لأن الله تعالى قد خلق الإنسان وله حق الاختيار ، أما إيمان الإلجاء والقصر فهو لا ينفع الإنسان.

ومثال ذلك: فرعون ، فساعة أن جاءه العذاب أعلن الإيمان [(١)] . فالحق سبحانه وتعالى يقول:

﴿ ..حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِى آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠) ﴾ [يونس]

وإذا كان موسى - عليه السلام - قد دعا على قوم فرعون ، فقد سبقه نوح عليه السلام فى مثل هذا الدعاء مما أورده القرآن فى قوله:

﴿ ..رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا [(٢)] (٢٦) إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا (٢٧) ﴾ [نوح]

واستجاب الحق سبحانه لدعوة موسى عليه السلام:

---

(١) قال تعالى : ﴿آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٩١) ﴾ [يونس] . قيل : هو من قول الله تعالى . وقيل : هو من قول جبريل أو ميكائيل عليهما السلام . ففرعون الذى قال : ﴿ .. أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ (٢٤) ﴾ [النازعات] وقال : ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِى .. (٣٨) ﴾ [القصص] جاء الآن عندما عاين الموت وآية الله على صدق موسى فنطق بالإيمان ، ورب العزة سبحانه يقول : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ (١٥٨) ﴾ [الأنعام] .

(٢) دياراً: أحداً. أى: استئصال كل نسمة كافرة من قوم نوح ، حتى طال هذا ولده من صلبه ، وقد أورد ابن كثير فى تفسيره (٤/ ٤٢٧) حديث ابن عباس ، وعزاه لابن أبى حاتم أن رسول الله ﷺ قال: «لو رحم الله من قوم نوح أحداً لرحم امرأة ، لما رأت الماء حملت ولدها ثم صعدت الجبل ، فلما بلغها الماء صعدت به منكبها ، فلما بلغ الماء منكبها وضعت ولدها على رأسها ، فلما بلغ الماء رأسها رفعت ولدها بيدها ، فلو رحم الله منهم أحداً لرحم هذه المرأة» . قال ابن كثير: هذا حديث غريب ، ورجاله ثقات.

﴿ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾

ويلاحظ أن الذى دعا هو موسى عليه السلام ، ولكن قوله سبحانه : ﴿ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا .. ﴿٨٩﴾ ﴾ يدل على أن هارون - عليه السلام - قد دعا مع موسى .

وقد قلنا من قبل : إننا إن نظرنا إلى الأصالة فى الرسالة لوجدنا موسى - عليه السلام - هو الأصيل فيها ، وجاء هارون ليشد عضده[1] ، وإن نظرنا إلى طبيعة الاثنين فكل منهما رسول ، والاثنان لهما رسالة واحدة .

وما دام الحق سبحانه قد أرسل الاثنين لمهمة واحدة ، فإن انفعل واحد منهما لشىء فلا بد أن ينفعل الآخر لنفس الشىء ؛ لذلك فلا يوجد ما يمنع أن هارون ساعة سمع أخاه داعياً بمثل هذا الدعاء ، قد دعا هو أيضاً بالدعاء نفسه ، أو أنه - أى : هارون - قد دعا بهذا الدعاء سِراً .

والدعاء معناه : أنك تفزع إلى من يقدر على تحقيق ما لا تقدر عليه ، فأنت لا تدعو إلا فى أمر عَزَّتْ عليك أسبابه ؛ فتقول : إن لى ربّاً أومن به ، وهو يقدر على الأسباب لأنه خالق الأسباب ، وقادر على أن يعطى بلا أسباب ، والمؤمن الحق يستقبل الأحداث ، لا بأسبابه ، ولكن بقدرة مَنْ آمن به ، وهو المسبِّب الأعلى سبحانه .

ولذلك تجد موسى عليه السلام ومعه قومه حين وصلوا إلى شاطىء البحر ، وكان من خلفهم قوم فرعون يطاردونهم ، فقال قوم موسى :

---

(١) العضد من الإنسان وغيره : الساعد ، وهو ما بين المرفق إلى الكتف ، والمراد بالعضد هنا : العون والمساعدة . قال تعالى : ﴿ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا .. ﴿٣٥﴾ ﴾ [القصص] .

﴿ ..إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١) ﴾ [الشعراء]

فَرَدَّ موسى عليه السلام:

﴿ .. كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢) ﴾ [الشعراء]

أى: لا ترتِّبوا الأمر بترتيب البشر؛ لأن معى رب البشر، فجاءه الإنقاذ:

﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ [1] (٦٣) ﴾ [الشعراء]

إذن: فالدعاء إنما يكون فزعاً إلى من يقدر على أمر لا تقدر عليه.

والموضوع الذى كان يشغل موسى وهارون عليهما السلام هو بقاء آل فرعون على ضلالهم وإصرارهم على إضلال غيرهم، فلا بد أن يدعو كل منهما نفس الدعاء، ومثل هذا نجده فى غير الرسل ونسميه «التخاطر»، أى: التقاء الخواطر فى لحظة واحدة.

ومثال ذلك فى التاريخ الإسلامى، لحظة أن كان سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه مشغولاً بالتفكير فى جيش المسلمين المقاتل فى إحدى المعارك، وكان عمر فى المدينة يخطب على المنبر، فإذا به يقول فجأة: «يا سارية [2] الجبل» وهى كلمة لا موضع لها فى منطق الخطبة، ولكن كان فكره مشغولاً بالقائد الذى يحارب، وسمع القائد - وهو على البعد - الأمر؛ فانحاز إلى الجبل.

---

(١) الفرق: الجزء. والطود: الجبل الكبير. [تفسير ابن كثير: (٣/ ٣٣٦)].

(٢) هو سارية بن زنيم الدئلى. أمَّره عمر بن الخطاب على جيش وسيَّره إلى فارس سنة ٢٣ هـ، فوقع فى خاطر عمر وهو يخطب يوم الجمعة أن الجيش المذكور لاقى العدو وهم فى بطن واد قد همُّوا بالهزيمة وبالقرب منهم جبل فقال فى أثناء خطبته «يا سارية: الجبل، الجبل» ورفع صوته فألقاه الله فى سمع سارية فانحاز بالناس إلى الجبل، وقاتلوا العدو من جانب واحد، ففتح الله عليهم وانتصروا. [الإصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر العسقلانى: ٢/ ٥٢، ٥٣].

ويقال فى هذه المسألة: إن الخاطر قد شغل مع الخاطر ، مثلما تطلب أحداً فى الهاتف فيرد عليك الشخص الذى تريد الكلام معه قائلاً: لقد كنت على وشك أن أتصل بك هاتفياً ، وهذا يعنى أن الخاطرين قد انضبطا معاً.

وإذا كان هذا ما يحدث فى حياتنا العادية ، فما بالنا بما يحدث فى الأمور الصفائية ؛ وفى أرقى درجاتها وهى النبوة ؟

أو أن الذى دعا هو موسى وما كان هارون إلا مؤمِّناً [1] ، والمؤمِّن هو أحد الداعيين ، وما دام الحق سبحانه قد قَبِل دعوة موسى عليه السلام ، فقد قَبِل أيضاً دعوة المؤمِّن معه.

ويظن بعض الناس أن إجابة الدعوة هى تحقيق المطلوب فور الدعاء ، ولكن الحقيقة أن إجابة الدعوة هى موافقة على الطلب ، أما ميعاد إنجاز الطلب ، فقد يتأجل بعض الوقت ، مثلما حدث مع دعوة موسى عليه السلام على فرعون وملئه ، فحين دعا موسى ، وأمَّن هارون ، جاءت إجابة الدعاء : ﴿ **قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا** ..(٨٩) ﴾ بعد أربعين عاماً ، ويحقق الله سبحانه الطمس على المال.

فالسماء ليست موظفة عند من يدعو ، وتقبل أى دعاء ، ولكن قبول الدعوة يقتضى تحديد الميعاد الذى تنفذ فيه.

وهذه أمور من مشيئة الله سبحانه ؛ فالحق سبحانه وتعالى منزَّه عن أن يكون منفِّذاً لدعاء ما ، ولكنه هو الذى بيده مقاليد كل أمر ، فإذا ما أجيبت دعوة ما ، فهو سبحانه بمشيئته يضع تنفيذ الدعوة فى الميعاد الملائم ؛ لأنها لو أجيبت على الفور فقد تضر.

---

(١) التأمين: هو قولهم آمين وراء الداعى. ومنه التأمين فى الصلاة وراء الإمام.

والحق سبحانه وتعالى هو القائل:

﴿ وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً (١) (١١) ﴾ [الإسراء]

لذلك يحدد الحق سبحانه ميعاد تطبيق الدعوة فى مجال التنفيذ والواقع.

وهو سبحانه وتعالى يقول:

﴿ ..سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلا تَسْتَعْجِلُونِ (٢) (٣٧) ﴾ [الأنبياء]

والإنسان يعرف أنه قد يكون قد دعا بأشياء، فحقق الله سبحانه الدعاء وكان شراً، وكم من شىء يدعو به الإنسان ولم يحققه الله تعالى وكان عدم تحقيقه خيراً.

إذن: فالقدرة العليا رقيبة علينا، وتعلم ما فى صالحنا؛ لأننا لسنا آلهة تأمر بتنفيذ الدعوات، بل فوقنا الحكيم الأعلى سبحانه.

ولذلك نقول فى بيان قول الحق سبحانه:

﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم (٣) بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ (٤) ..(١١) ﴾ [يونس]

---

(١) عجولاً: صيغة مبالغة من العجل والعجلة وهو السرعة. والمراد: أن الإنسان مجبول على حب الخير، وعلى العجلة فى طلبه لنفسه، ويلح فى الدعاء، حتى لو كان الأمر شراً وهو يظن بجهله أنه خير. قال تعالى: ﴿ خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ .. (٣٧) ﴾ [الأنبياء]. وقال تعالى: ﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ .. (١) ﴾ [النحل].

(٢، ٣) عجل يعجل - عجلاً وعجلة. واستعجل استعجالاً. قال تعالى: ﴿ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ .. (١٥٠) ﴾ [الأعراف] وقال: ﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ (٨٣) ﴾ [طه] وعجل الأمر: طلبه قبل أوانه بدافع الشهوة. وعجل الأمر: سبقه. [القاموس القويم].

(٤) الأجل: المدة من الزمن، والمراد: العمر.

لأن الإنسان قد يدعو بالشر على نفسه [(١)]، ألا تسمع أمّاً تدعو على ابنها أو ابنتها رغم حبها لهما ، فلو استجاب الله لدعائها على أولادها الذين تحبهم أليس فى ذلك شر بالنسبة للأم.

والولد قد يقول لأمه مغاضباً: يا رب تحدث لى حادثة ؛ حتى تستريحى منى. فهَبْ أن الله استجاب لهذا الدعاء ، أيرضى ذلك من دعا على نفسه أو يرضى أمه ؟

طبعاً لا ؛ فإذا كان الله سبحانه قد أبطأ عليك بدعاء الشر فهذا خير لك ، فعليك أن تأخذ إبطاء الله سبحانه عليك بدعاء الخير على أنه خير لك.

ولذلك شاء الحق سبحانه أن يقول لموسى وهارون عليهما السلام:

﴿ .. قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ (٨٩) ﴾ [يونس]

أى: ابقيا على الطريق السوى ، ولا تُدْخِلا نفسيكما فيما لا علم لكما به. أليس الحق سبحانه هو القائل:

﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (٤٥) قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ

---

(١) ثبت فى صحيح مسلم النهى عن الدعاء على النفس والأولاد والأموال ، فعن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال: سرنا مع رسول الله ﷺ فى غزوة بطن بواط وهو يطلب المجدى بن عمرو الجهنى ، وكان الناضح يعتقبه منا الخمسة والستة والسبعة ، فدارت عقبة رجل من الأنصار على ناضح له فأناخه فركبه ثم بعثه فتلدن عليه بعض التلدن فقال له: شأ لعنك الله. فقال ﷺ: «من هذا اللاعن بعيره» ؟ قال: أنا يا رسول الله. قال: «انزل عنه فلا تصحبنا بملعون ، لا تدعوا على أنفسكم ، ولا تدعوا على أولادكم ، ولا تدعوا على أموالكم ، لا توافقوا من الله ساعة يسأل فيها عطاء فيستجيب لكم» أخرجه مسلم (٣٠٠٩).

فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ (١) أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٤٦) ﴾ [هود]

أى: كُنْ مؤدَّباً مع ربك حين تدعو وتنفِّس عن نفسك، ودَعْ لحكمة الحكيم الإجابة أو عدمها، وقد تكون الإجابة فورية أو مؤجَّلة إلى حين أوانها، وكلاهما خير.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ (٩٠) (٢) ﴾

قال الحق سبحانه:

﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ.. (٩٠) ﴾ لأن الاجتياز لم يكن بأسباب بشرية، بل بفعل يخرج عن أسباب البشر، فلو أن موسى عليه السلام قد حفر نفقاً تحت الماء، أو لو كان قد ركب سفناً هو وقومه لكان لهم مشاركة

(١) الوعظ: النصح بالطاعة والعمل الصالح الإرشاد إلى الخير. قال ابن سيده: هو تذكيرك للإنسان بما يُلِيِّن قلبه من ثواب وعقاب. [ذكره ابن منظور فى اللسان مادة: وعظ]. قال القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٣٦٦): ﴿ إِنِّي أَعِظُكَ.. (٤٦) ﴾ [هود]. أى: إنى أنهاك عن هذا السؤال وأحذرك لئلا تكون من الجاهلين. أى: الآثمين. قال ابن العربى: وهذه زيادة من الله وموعظة يرفع بها نوحاً عن مقام الجاهلين.

(٢) أتبعهم: اتبع أثرهم؛ ليدركهم. وكان موسى وقومه بنو إسرائيل فى خروجهم ستمائة ألف وعشرين ألفاً، وتبعهم فرعون مصبحاً فى ألفى ألف وستمائة ألف. بغياً وعدواً: أى: فى حال بغى وظلم واعتداء. وقال المفسرون: بغياً: طلباً للاستعلاء بغير حق فى القول، «وعدواً» فى الفعل. أدركه الغرق: ناله ووصله. قال آمنت: أى: صدَّقت، أو آمنت - والإيمان لا ينفع حينئذ، والتوبة مقبولة قبل رؤية البأس. [ذكره القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٣٠٤، ٣٣٠٥) - بتصرف].

فى اجتياز البحر ، لكن المجاوزة كانت بأسباب غير ملحوظة بالنسبة للبشر ، فالحق سبحانه هو الذى أوحى لموسى :

﴿ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ ..(٦٣) ﴾ [الشعراء]

ومياه البحر كأية مياه أخرى تخضع لقانون السيولة ، والاستطراق [1] هو وسيلة السيولة ، وهى عكس التجمد الذى يتسم بالتحيز.

والاستطراق هو الذى قامت عليه أساليب نقل المياه من صهاريج المياه التى تكون فى الأغلب أعلى من طول أى منزل ، ويتم ضخ المياه إليها ؛ لتتوزع من بعد ذلك حسب نظرية الأوانى المستطرقة على المنازل ، أما إذا كانت هناك بناية أعلى طولاً من الصهريج ، هنا يقوم سكان المبنى بتركيب مضخة لرفع المياه إلى الأدوار العالية.

وإذا كان قانون البحر هو السيولة والاستطراق ، فكيف يتم قطع هذا الاستطراق؟

يقول الحق سبحانه :

﴿ ..فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٣) ﴾ [الشعراء]

فكيف تحول الماء إلى جبال يفصل بينها سراديب وطرق يسير فيها موسى عليه السلام وقومه؟

كيف يسير موسى وقومه مطمئنين ؟

لا بد أنها معية الله سبحانه التى تحميه ، وهى تفسير لقول الحق سبحانه :

﴿ .. إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢) ﴾ [الشعراء]

---

(١) الاستطراق : عدة أنابيب مختلفة الأحجام والأشكال ، متصل بعضها ببعض بأنبوبة أفقية ، فإذا وضع سائل فى إحدى هذه الأنابيب ارتفع سطح السائل إلى مستوى أفقى واحد فى جميع الأنابيب. [المعجم الوسيط - مجمع اللغة العربية].

ورغم ذلك يتبعهم فرعون وجنوده لعله يدركهم ، وأراد سيدنا موسى - عليه السلام - بمجرد نجاحه فى العبور هو وقومه أن يضرب البحر بعصاه ؛ ليعود إلى قانون السيولة ، ولو فعل ذلك لما سمح لفرعون وجنوده أن يسيروا فى الممرات التى بين المياه التى تحولت إلى جبال ، ولكن الله - سبحانه وتعالى - يريد غير ذلك ، فقد أراد الحق سبحانه أن ينجى ويهلك بالشىء الواحد ، فأوحى لموسى عليه السلام :

﴿ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا [1] إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ (٢٤) ﴾ [الدخان]

أى : اترك البحر على حاله ؛ فينخدع فرعون وجنوده ، وما إن ينزل آخر جندى منهم إلى الممر بين جبال الماء ؛ سيعود البحر إلى حالة السيولة فيغرق فرعون وجنوده ، وينجو موسى وقومه .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ ..(٩٠) ﴾ [يونس]

فهل كان هذا الإتباع دليل إرادة الشر ؟

أكان من الممكن أن تكون نية الفرعون أن يدعو موسى وقومه إلى العودة إلى مصر ليستقروا فيها؟

لا ، لم تكن هذه هى نية الفرعون ؛ لذلك قال الحق سبحانه عن هذا الإتباع : ﴿ بَغْيًا وَعَدْوًا ..(٩٠) ﴾ [يونس]

أى : أنه اتباع رغبة فى الانتقام والإذلال والعدوان .

ويصور القرآن الكريم لحظة غرق فرعون بقوله :

---

(١) قال الأزهرى : رهواً ساكناً من نعت موسى ، أى : على هَيْئَتِكَ . قال : وأجود منه أن تجعل رهواً من نعت البحر ، وذلك أنه قام فرْقاه ساكنين فقال لموسى : دع البَحر قائماً ماؤه ساكناً واعبر أنت البحر . [ذكره ابن منظور فى اللسان ، مادة : رها] فقوله تعالى : ﴿ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا ..(٢٤) ﴾ [الدخان] أى : ساكن الأمواج ليغتروا فينزلوا فيه .

﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ ..(٩٠) ﴾ [يونس]

والإدراك: قصد للمدرك أن يلحق بالشيء ، والغرق معنى ، فكيف يتحول المعنى إلى شيء يلاحق الفرعون ؟

نعم ، فكأن الغرق جندى من الجنود ، وله عقل ينفعل ؛ فيجرى إلى الأحداث :

﴿ ..حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِى آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ [1] (٩٠) ﴾ [يونس]

والإيمان إذا أطلق فهو الإيمان بالقوة العليا ، بدليل أن الحق سبحانه وتعالى قد قال:

﴿ قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا .. (١٤) ﴾ [الحجرات]

لأن الإيمان يتطلب انقياد القلب ، والإسلام يقتضى اتباع أركان الإسلام ، فالإيمان كما قال رسول الله ﷺ : « قل آمنت بالله ثم استقم »[2] . وفى هذا القول ذكر محدد بأن الإيمان إنما يكون لله الأعلى.

لكن لو قلت - مثلاً: «آمنت أنك رجل طيب» فهذا إيمان له متعلق ، أما إذا ذُكر الإيمان بإطلاق فهو ينصرف إلى الإيمان بالله تعالى ؛ ولذلك قال الله سبحانه للأعراب:

﴿ وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا ..(١٤) ﴾ [الحجرات]

---

(١) وأنا من المسلمين ، أى: من الموحدين المستسلمين بالانقياد والطاعة. وهو قول متأخر جداً جاء بعد فوات الأوان.

(٢) عن سفيان بن عبد الله الثقفى قال: قلت يا رسول الله قل لى فى الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك. قال: «قل آمنت بالله ثم استقم». أخرجه مسلم فى صحيحه (٣٨) وأحمد فى مسنده (٤/ ٣٨٥).

وهنا يأتى القول على لسان فرعون:

﴿ ..آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِى آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠) ﴾ [يونس]

والخلاف هنا كان بين الفرعون كجهة كفر ، وبين موسى وهارون وقومهما كجهة إيمان ، وأعلن فرعون إيمانه ، وقال أيضاً :

﴿ ..وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠) ﴾ [يونس]

ولم يقبل الله ذلك منه بدليل قول الحق سبحانه:

﴿ ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ (٩١) ﴾ [(١)]

وهذا يعنى: أتقول إنك آمنت الآن وإنك من المسلمين. إن قولك هذا مردود ؛ لأنه جاء فى غير وقته ، فهناك فرق بين إيمان الإجْبار وإيمان الاختيار ، أتقول الآن آمنت وأنت قد عصيت من قبل ، وكنت تفسد فى الأرض.

وكان من الممكن أن يقبل الله سبحانه منه إيمانه وهو فى نجوة [(٢)] بعيدة عن الشر الذى حاق [(٣)] به.

---

(١) قيل: هو من قول الله تعالى. وقيل: هو من قول جبريل. وقيل: ميكائيل ، أو غيرهما من الملائكة - عليهم السلام - وقيل: هو من قول فرعون فى نفسه ، ولم يكن ثَمَّ قول باللسان ، بل وقع ذلك فى قلبه فقال فى نفسه ما قال حيث لم تنفعه الندامة. ونظيره: ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ ..(٩) ﴾ [الإنسان] أثنى عليهم الرب سبحانه بما فى ضميرهم ، لا لأنهم قالوا ذلك بلفظهم. والكلام هنا هو كلام القلب. [ذكره القرطبى فى تفسيره ٤/ ٣٣٠٦] - بتصرف.

(٢) النجوة: ما ارتفع من الأرض.

(٣) حاق به الشىء يحيق حيقاً: نزل به ، وأحاط به. وقيل: الحيق فى اللغة هو أن يشتمل على الإنسان عاقبة مكروه فَعَلَه. قال تعالى: ﴿ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ (٤٥) ﴾ [غافر] وقال تعالى: ﴿ ..إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٢٦) ﴾ [الأحقاف].

فالحق سبحانه لا يقبل إيمان أحد بلغت روحه الحلقوم ، فهذا إيمان إجبار ، لا إيمان اختيار.

ولو كان المطلوب إيمان الإجبار لأجبر الحق سبحانه الخلق كلهم على أن يؤمنوا ، ولما استطاع أحد أن يكفر بالله تعالى ، وأمامنا الكون كله خاضع لإمرة الله - سبحانه وتعالى - ولا يتأبى فيه أحد على الله تعالى.

وقدرة الحق - عز وجل - المطلقة قادرة على إجبار البشر على الإيمان ، لكنها تثبت طلاقة القدرة ، ولا تثبت المحبوبية للمعبود.

وهذه المحبوبية للمعبود لا تثبت إلا إذا كان لك خيار فى أن تؤمن أو لا تؤمن. والله سبحانه يريد إيمان الاختيار [1].

إذن: فالمردود من فرعون ليس القول ، ولكن زمن القول.

ويقال: إنها رُدَّتْ ولم تُقبل - رغم أنه قالها ثلاث مرات - لأن قوم موسى فى ذلك الوقت كانوا قد دخلوا فى مرحلة التجسيم لذات الله وادعوا - معاذ الله - أن الله - تعالى الله عما يقولون - جلس على صخرة وأنزل رجْليه فى حوض ماء ، وكان يلعب مع الحوت .. إلى آخر الخرافاتَ التى ابتدعها بنو إسرائيل .

وحين أعلن فرعون أنه آمن بالإله الذى آمنت به بنو إسرائيل ، فهذا يعنى أنه لم يؤمن بالإله الحق سبحانه.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾

---

(١) يقول الحق سبحانه: ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ ﴾ [يونس].

ونحن نعرف أن الإنسان مكوَّن من بدن ، وهو الهيكل المادى المصوَّر على تلك الصورة التى نعرفها ، وهناك الروح التى فى البدن ، وبها تكون الحركة والحياة.

وساعة نقول : «بدن» ، فافهم أنها مجردة عن الروح ، مثلما نقول: جسد . وإذا أطلقت كلمة «جسد» فمعناها الهيكل المادى المجرد من الروح.

والحق سبحانه هو القائل:

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا .. (٣٤) ﴾ [ص]

وكان سيدنا سليمان - عليه السلام - يستمتع بما آتاه الله سبحانه من الملك ما لا ينبغى لأحد من بعده ، وسخَّر له الجن والرياح وعلّمه كل اللغات ، وكان صاحب الأوامر والنواهى والهيمنة ، ثم وجد نفسه قاعداً على كرسيه بلا حراك وبلا روح ، ويقدر عليه أى واحد من الرعية ، ثم أعاد الله له روحه إلى جسده ، وهو ما يقوله الحق سبحانه:

﴿ ..ثُمَّ أَنَابَ [1] (٣٤) ﴾ [ص]

أى: أنه أفاق لنفسه ، فعلم أن كل ما يملكه هو أمر مُفاضٌ عليه ، لا أمر نابع من ذاته.

وهنا فى الآية الكريمة التى نحن بصددها الآن يقول الحق سبحانه:

﴿ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً [2] ..(٩٢) ﴾ [يونس]

---

(١) أناب: رجع إلى الله تعالى بالتوبة. [كلمات القرآن: للشيخ حسنين محمد مخلوف].

(٢) ننجيك: نخرجك من البحر. ببدنك: بجسدك الذى لا روح فيه. لتكون لمن خلفك: بعدك. آية: عبرة ؛ فيعرفوا عبوديتك ولا يقدموا على مثل فعلك. وعن ابن عباس أن بعض بنى إسرائيل شكوا فى موته فأخرج لهم ليروه. [تفسير الجلالين : ص ١٨٧] . وقد قرأ اليزيدى وابن السميقع «ننحِّيك» بالحاء ، أى : تكون على ناحية من البحر ليروك.

وبالله ، لو لم يأمر الحق البحر بأن يلفظ جثمان فرعون ، أما كان من الجائز أنَ يقولوا: إنه إله ، وإنه سيرجع مرة أخرى ؟

ولكن الحق سبحانه قد شاء أن يلفظ البحر جثمانه كما يلفظ جيفة أى حيوان غارق ؛ حتى لا يكون هناك شك فى أن هذا الفرعون قد غرق ، وحتى ينظر من بقى من قومه إلى حقيقته ، فيعرفوا أنه مجرد بشر ، ويصبح عبرة للجميع ، بعد أن كان جباراً مسرفاً طاغية يقول لهم :

﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِى.. (٣٨) ﴾ [القصص]

وبعض من باحثى التاريخ يقول: إن فرعون المقصود هو «تحتمس» ، وإنهم حلَّلوا بعضاً من جثمانه ، فوجدوا به آثار مياه مالحة.

ونحن نقول: إن فرعون ليس اسماً لشخص ، بل هو توصيف لوظيفة ، ولعل أجساد الفراعين المحنطة تقول لنا: إن علة حفظ الأبدان هى عبرة ؛ وليتعظ كل إنسان ويرى كيف انهارت الحضارات ، وكيف بقيت تلك الأبدان آية نعتبر بها.

وقد تعرض القرآن لمسألة الفرعون ، فقال الحق سبحانه :

﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِى الأَوْتَادِ [1] (١٠) ﴾ [الفجر]

ويقول سبحانه فى نفس السورة عن كل جبار مفسد :

﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ [2] (١٤) ﴾ [الفجر]

---

(١) قيل فى معنى ذى الأوتاد: لأن فرعون كان يعذب الناس بأربعة أوتاد [مختصر تفسير الطبرى: ص ٥١٣]. وذكر فى تفسير الجلالين (ص ٣٩٨) أن فرعون كان يَتدُ لكل من يغضب عليه أربعة أوتاد يشد إليها يديه ورجليه ويعذبه. وفى [كلمات القرآن للشيخ حسنَين محمد مخلوف] الأوتاد: الجنود أو المبانى القوية.

(٢) إن ربك لبالمرصاد: يرقب أعمالهم ويجازيهم عليها. [كلمات القرآن].

ونلحظ أن كلام الحق سبحانه عن فرعون فى سورة الفجر كان كلاماً يضمُّ إلى جانب حضارة الفراعنة حضارات أخرى قديمة ، مثل حضارة عاد وحضارة ثمود .

وكذلك تكلم الحق سبحانه عن الفرعون فى أثناء لقطات قصة موسى عليه السلام ، ولكن الكلام يختلف فى قصة يوسف عليه السلام ، فلا تأتى وظيفة الفرعون ، بل يحدثنا الحق سبحانه عن وظائف أخرى ، هى وظيفة «عزيز مصر» - أى: رئيس وزرائها - ويحدثنا الله سبحانه عن ملك مصر بقوله :

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِى بِهِ..(٥٠)﴾ [يوسف]

ولم يُكْتَشَف الفارق بين وظيفة «الفرعون» ووظيفة «الملك» فى التاريخ المصرى إلا بعد أن جاءت الحملة الفرنسية إلى مصر وفك «شامبليون» رموز اللغة الهيروغليفية من خلال نقوش حجر «رشيد» ، فعرفنا أن حكام مصر القديمة كانوا يسمون « الفراعنة» إلا فى فترة كانت فيها مصر تحت حكم «ملوك الرعاة» أو «الهكسوس» الذين أغاروا على مصر ، وحكموها حكماً ملكياً وقضوا على حكم الفراعنة ، ثم عاد الفراعنة إلى حكم مصر بعد أن خلصوها من سيطرة «الهكسوس» .

وهكذا نجد أن إشارة القرآن فى قصة يوسف - عليه السلام - كانت إلى الملك ، ولم يأت فيها بذكر فرعون ، وهذا دليل على أن القرآن قد سبق بعلمه أى اكتشاف ، وكلما جاء اكتشاف جديد أو ابتكار حقيقى ، نجده يؤيد كتاب الله .

وينهى الحق سبحانه الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها بقوله :

﴿.. وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ [1] (٩٢)﴾ [يونس]

---

(١) وإن كثيراً من الناس : أى : أهل مكة . عن آياتنا غافلون : لا يعتبرون بها . [تفسير الجلالين ص ١٨٧] .

وهذا القول يوضح أن هناك من يغفل عن الآيات ، وهناك من لا يغفل عنها ، و ينظر إلى تلك الآيات ويتأملها ويتدبرها ، ويتساءل عن جدوى كل شيء ، فيصل إلى ابتكارات واختراعات ينتفع بها الإنسان، أُذِن بميلادها عند البحث عنها ؛ لتستبين عظمة الله فى خلقه .

وحين ينظر الإنسان فى تلك الابتكارات سيجدها وليدة أفكار مَنْ نظروا بإمعان ، وامتلكوا قدرة الاستنباط ، ولو لم يغفل الناس عن النظر فى آيات الكون ، والسموات والأرض ، لزادت الابتكارات والاختراعات ، والحق سبحانه هو القائل :

﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ [1] فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥) ﴾ [يوسف]

وحين ننظر إلى مكتشف قانون الجاذبية «نيوتن» الذى رأى ثمرة تفاح تسقط من شجرتها ، نجد أن هناك عشرات الآلاف أو الملايين من البشر شاهدوا من قبله مشهد سقوط ثمرة من على شجرة ، ولكن نيوتن وحده هو الذى تفكر وتدبر ما يحدث أمامه إلى أن اهتدى إلى اكتشاف قانون الجاذبية .

وجاء من بعد نيوتن من بنى سفن الفضاء التى تستفيد من هذا القانون وغيره .

وكذلك نجد من صَمَّم الغواصات ، والبواخر العملاقة التى تشبه المدن العائمة ، هؤلاء اعتمدوا على من اكتشف قانون «الطفو» وقاعدة «أرشميدس» الذى لاحظ أنه كلما غطس شيءٌ فى المياه ، ارتفع الماء بنفس حجم الشيء الغاطس فيه .

---

(١) كأين من آية : كم من آية - كثير من الآيات . [كلمات القرآن : للشيخ حسنين محمد مخلوف] .

كل هؤلاء اكتشفوا - ولم يخلقوا - أسراراً كانت موجودة فى الكون ، وهم تميَّزوا بالانتباه لها.

وكذلك العالم الذى اكتشف «البنسلين» قد لاحظ أن أصيصاً [1] من المواد العضوية كانت تنزل منه قطرات من الماء العفن ، ورأى الحشرات التى تقترب من هذا الماء تموت ، فأخذ عينة من هذا العفن وأخذ يُجرى عليها بعض التجارب فى معمله إلى أن اكتشف «البنسلين».

وقول الحق سبحانه:

﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥) ﴾ [يوسف]

فكأنهم لو لم يعرضوا لاستنبطوا من آيات الكون الشىء الكثير.

وكذلك القصص التى تأتى فى القرآن ، إنما جاءت ليعتبر الناس ويتأملوا ، فحين يرسل الله رسولاً مؤيَّداً بمعجزة منه لا يقدر عليها البشر ؛ فعلى الناس أن يسلّموا ويقولوا: «آمنا» ، لا أن يظلوا فى حالة إعادة للتجارب السابقة ؛ لأن ارتقاءات البشر فى الأمور المادية قد تواصلت ؛ لأن كل جيل من العلماء يأخذ نتائج العلم التى توصل إليها مَنْ سبقوه ، فلماذا لا يحدث هذا فى الأمور العقدية ؟

ولو أن الناس بدأوا من حيث انتهى غيرهم ؛ لوجدنا الكل مؤمناً بالله تعالى ، ولأخذ كل مولود الأمر من حيث انتهى أبوه ، ولَوصَل خير آدم

(١) الأص (بفتح الهمزة ، وبكسرها ، وبضمها): الأصل. والأصيص: أصل الدَّن (إناء) أى: أسفله ويقال: هو كهيئة الجر له عروتان يُحمل فيه الطين. وفى الصحاح: الأصيص ما تكسر من الآنية ، وهو نصف الجر أو الخابية تزرع فيه الرياحين. [لسان العرب: مادة (أ ص ص)]. وتطلق هذه الكلمة على أوانٍ من الفخار تصنع خصيصاً لزراعة الأزهار والنباتات.

إلى كل من وُلِدَ بعد ذلك ، لكن آفة البشر أن الإنسان يريد أن يجرب بنفسه .

ونحن نجد ذلك فى أمور ضارة مثل : الخمر ، نجدها ضارة لكل من يقرب منها ، فإذا حرَّمها الدين وجدنا من يتساءل : لماذا تُحرَّم ؟

وكذلك التدخين ؛ نجد من يجربه رغم أن التجارب السابقة أثبتت أضراره البالغة ، ولو أخذ كل إنسان تجارب السابقين عليه ؛ فهو يصل عمره بعمر الآخرين .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١) ﴿٩٣﴾ ﴾

وكلمة «تبوأ» تعنى إقامة مباءة أى : البيوت التى يكون فيها السكن الخاص ، وإذا أطلقت كلمة «مبوأ» فهى تعنى الإقليم أو الوطن .

والوطن أنت تتحرك فيه وكذلك غيرك ، أما البيت فهو للإنسان وأسرته كسكن خاص .

أما الثرى فقد يكون له جناح خاص فى البيت ، وقد يخصص الثرىُّ فى منزله جناحاً لنفسه ، وآخر لولده وثالثاً لابنته .

أما غالبية الناس فكل أسرة تسكن فى «شقة» قد تتكون من غرفة أو اثنتين أو ثلاثة حسب إمكانات الأسرة .

---

(١) بوأنا : أنزلنا . مبوأ صدق : منزل كرامة وهو مصر والشام . فما اختلفوا : بأن آمن بعضهم وكفر بعضهم . [تفسير الجلالين : ص ١٨٧ - بتصرف] .

إذن: فيوجد فرق بين تبوُّء البيوت وتبوء المواطن ، فتبوُّء المواطن هو الوطن.

وسبق أن قال الحق سبحانه لموسى وهارون عليهما السلام:

﴿ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا .. (٨٧) ﴾ [يونس]

هذا فى التبوء الخاص ، أما فى التبوء العام فهو يحتاج إلى قدرة الحق تعالى ، وهو سبحانه يقول هنا:

﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ .. (٩٣) ﴾ [يونس]

والحق سبحانه أتاح لهم ذلك فى زمن موسى - عليه السلام - وأتاح لهم السكن فى مصر والشام ، وهو سبحانه القائل:

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ [1] بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ .. (١) ﴾ [الإسراء]

وما دام الحق سبحانه قد بارك حوله فلا بد أن فيه خيراً كثيراً ، ولا بد أن تكون الأرض التى حوله مُبوَّأ صدق.

وكلمة «الصدق» تعنى جماع الخير والبر ؛ ولذلك نجد الرسول ﷺ حينما سئل: أيكون المؤمن جباناً ؟ قال: «نعم» . وحين سئل : أيكون المؤمن بخيلاً ؟ قال: «نعم» . وحين سئل: أيكون المؤمن كذاباً ؟ قال: «لا»[2] .

---

(١) سبحان الذى أسرى بعبده: تنزيهاً وتبرئة لله سبحانه وتعالى مما يقول فيه المشركون . والإسراء والسُّرى: السير فى الليل. المسجد الأقصى: بيت المقدس. الذى باركنا حوله: لسكانه فى معايشهم وأقواتهم. [مختصر تفسير الطبرى : ص ٣١٣].

(٢) أخرجه الإمام مالك فى موطئه (ص ٩٩٠) من حديث صفوان بن سليم مرسلاً .

ولذلك فأنت تجد فى الإسلام عقوبة على الزنا ، وعقوبة تقام على السارق [١] ، أما الكذب فهو خصلة لا يقربها المسلم ؛ لأن عليه أن يكون صادقاً. وكل خصال الخير هى مُبوأ الصدق.

ولذلك نجد قول الحق سبحانه:

﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ [٢] (٨٠) ﴾ [الإسراء]

وقول الحق سبحانه:

﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ [٣] .. (٢) ﴾ [يونس]

وقول الحق سبحانه:

﴿ وَاجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى الآخِرِينَ [٤] (٨٤) ﴾ [الشعراء]

أى: اجعل لى ذكرى حسنة فلا يقال فلان كان كاذباً ، وأما قدم الصدق فهى سوابق الخير التى يسعى إليها ؛ ولذلك كان الجزاء على الصدق هو ما يقول عنه الحق سبحانه:

﴿ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ [٥] (٥٥) ﴾ [القمر]

---

(١) قرر الكتاب والسنة عقوبات محددة لجرائم معينة هى جرائم الحدود ، وهى: الزنا ، والقذف ، والسرقة ، والسُّكْر ، والمحاربة ، والردة ، والبغى ؛ وذلك لتحقيق صيانة المجتمع من نواحى: الدين ، العقل ، المال ، العرض ، النفس. ولكل جريمة من هذه الجرائم شروط يجب توافرها ليتم تنفيذ العقوبة الخاصة بها. انظر تفصيل هذا فى كتب الفقه (أبواب الحدود).

(٢) وقل رب أدخلنى مدخل صدق، أى: أدخلنى المدينة إدخالاً مرضياً لا أرى فيه ما أكره. وأخرجنى: من مكة مخرج صدق: إخراجاً لا ألتفت بقلبى إليها. [تفسير الجلالين: ص ٢٥١].

(٣) قدم صدق: سابقة فضل ، ومنزلة رفيعة. [كلمات القرآن: للشيخ حسنين محمد مخلوف].

(٤) لسان صدق: ثناء حسناً وذكراً جميلاً. [كلمات القرآن].

(٥) مقعد صدق: مكان مرْضى. [كلمات القرآن]. عند مليك: ذى مُلك. مقتدر: على كل ما يشاء ، لا إله إلا هو. [مختصر تفسير الطبرى: ص ٦٠٧].

وهو مقعد عند مليك لا يبخل ، ولا يجلس فى رحابه إلا من يحبه ، ولا يضن بخيره على من هم فى رحابه .

ومقعد الصدق هو جزاء لمن استجاب له ربه فأدخله مدخل صدق ، وأخرجه مخرج صدق ، وجعل له لسان صدق ، وقدم صدق.

وبعد أن بوَّأ الحق سبحانه بنى إسرائيل مُبوَّأ صدق ، فى مصر والشام ، وبعد أن قال لهم :

﴿ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ [1] .. (٦١) ﴾ [البقرة]

أى : أن الحق سبحانه حقق قوله :

﴿ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ .. (٩٣) ﴾ [يونس]

وأنجاهم من فرعون ، وكان من المفترض أن تستقيم أمورهم.

ويقول الحق سبحانه :

﴿ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ .. (٩٣) ﴾ [يونس]

والمقصود بذلك هو معرفتهم بعلامات الرسول الخاتم محمد ﷺ ، ومنهم من ترقب مجىء النبى ﷺ ليؤمن به ، ومنهم من تمادى فى الطغيان ؛ لذلك قطَّعهم الله - سبحانه - فى الأرض أمماً.

وحين ننظر إلى دقة التعبير القرآنى نجده يحدد مسألة التقطيع هذه ، فهم فى كل أمة يمثلون قطعة ، أى : أنه سبحانه لم يُذبْهم فى الشعوب. بل لهم فى كل بلد ذهبوا إليه مكانٌ خاصٌ بهم ، ولا يذَوبون فى غيرهم.

والحق سبحانه يقول :

﴿ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ [2] لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ .. (١٠٤) ﴾ [الإسراء]

---

(١) اهبطوا : انزلوا. مصراً : من الأمصار ، أى : بلداً من البلاد.
(٢) من بعده : أى من بعد إغراق فرعون.

وقد يقول أحد السطحيين: وهل هناك سكن فى غير الأرض ؟

ونقول: لنا أن نلحظ أن الحق سبحانه لم يحدد لهم فى أية بقعة من الأرض يسكنون ، فكأن الحق سبحانه قد بيَّن ما أصدره من حكم عليهم بالتقطيع فى الأرض أمماً ؛ فهو سبحانه القائل:

﴿ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأَرْضِ أُمَمًا [1] .. (١٦٨) ﴾ [الأعراف]

وإذا كنا نراهم فى أيامنا هذه وقد صار لهم وطن ، فاعلم أن الحق سبحانه هو القائل :

﴿ وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا (٤) ﴾ [الإسراء]

وقد قال فى آخر سورة الإسراء:

﴿ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا [2] (١٠٤) ﴾ [الإسراء]

والمجىء بهم لفيفاً إنما يعنى أن يجمعهم فى وطن قومى لتأتى لهم الضربة القاصمة التى ذكرها الحق سبحانه فى قوله :

﴿ .. فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوؤُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا [3] (٧) ﴾ [الإسراء]

---

(١) أى: فرقناهم فى الأرض فرقاً . [تفسير الجلالين: ص ١٤٦].

(٢) لفيفاً: جميعاً.

(٣) أى: إذا أفسدتم الكرَّة الآخرة وجاء أعداؤكم ليسوءوا وجوهكم ، أى: يهينوكم ويقهروكم ﴿ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ ..(٧) ﴾ أى: بيت المقدس ﴿ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ ..(٧) ﴾ أى : فى التى جاسوا فيها خلال الديار ﴿ .. وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا (٧) ﴾ أى: يدمروا ويخربوا ما ظهروا عليه تدميراً. بتصرف من تفسير ابن كثير (٣/ ٢٦) وقد ذكر ابن كثير قول قتادة: قد عاد بنو إسرائيل فسلط الله عليهم هذا الحى محمداً ﷺ وأصحابه يأخذون منهم الجزية عن يد وهم صاغرون ، وهذا لا ينفى أن يحدث عدة مرات ، ولذلك قال رب العزة: ﴿ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ..(٨) ﴾ [الإسراء].

لأننا لن نستطيع أن نحاربهم فى كل بلد من البلاد التى قطَّعهم الله فيها ، لكنهم حين يجتمعون فى مكان واحد، إنما يسهل أن ينزل عليهم قضاء الله.

وحين ننظر إلى رحلتهم نجد أن «يثرب» كانت المكان الذى اتسع لهم بعد اضطهادات المجتمعات التى دخلوا إليها ، وحين اجتمعوا فى يثرب صار لهم الجاه ؛ لأنهم أهل علم ، وأهل اقتصاد ، وأهل حرب.

وهم قد اجتمعوا فى المدينة ؛ لأن المخلصين من أهل الكتاب أخبروهم أن هذه المدينة هى المهجر لنبى ورسول يأتى من العرب فى آخر الزمان ؛ فمكثوا فيها انتظاراً له ، وكانوا يقولون لكفار قريش: «لقد أظل زمان يأتى فيه نبى نتبعه ، ونقتلكم فيه قَتل عاد وإرم »[1].

وكان من المفروض أن يؤمنوا برسالته ﷺ ، لكنه ما إن أطل رسول الله ﷺ بنور رسالته حتى أنكروه خوفاً على سلطتهم الزمنية.

وهو ما تقول عنه الآية الكريمة التى نحن بصدد خواطرنا عنها :

﴿ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ .. (٩٣) ﴾ [يونس]

أى: أن علمهم بمجىء الرسول ﷺ هو مصدر اختلافهم ، فمنهم من سمعوا إشارات عنه ﷺ وعرفوا علاماته ﷺ ؛ فآمنوا به ، ومنهم من لم يؤمن به.

---

(١) قال الحق سبحانه: ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٨٩) ﴾ [البقرة] وعن أشياخ من الأنصار قالوا: كنا قد علوناهم قهراً دهراً فى الجاهلية ونحن أهل شرك وهم أهل كتاب وهم يقولون: إن نبياً سيبعث الآن نتبعه ، قد أظل زمانه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم ، فلما بعث الله رسوله من قريش واتبعناه كفروا به. ذكره ابن كثير فى تفسيره (١/ ١٢٤) نقلاً عن ابن إسحاق.

وهم لم يختلفوا من قبل وكانوا متفقين ، وتوعَّدوا المشركين من قريش. وما إن أهلَّ الرسول ﷺ وعلمت به «الأوس» و«الخزرج» أنه رسول من الله تعالى قد ظهر بمكة ، فقالت الأوس والخزرج: إنه النبى الذى توعَّدتنا به يهود ، فهيا بنا لنذهب ونسبقهم إليه قبل أن يسبقونا ، فيقتلونا به.

فكأن اليهود هم الذين تسببوا فى هجرة النبى ﷺ إلى المدينة ؛ لأن الأوس والخزرج سبقوهم إليه ؛ وهذا لنعلم كيف ينصر الله تعالى دينه بأعدائه.

ولذلك نجد أنهم فى اختلافهم يأتى عبد الله بن سلام [1] إلى رسول الله ﷺ ويقول: إن اليهود قوم بُهْتٌ ، وإذا أنا آمنت بك يا رسول الله سيقولون فىَّ ما يسىء إلىَّ ؛ لذلك فقبل أن أعلن إسلامى اسألهم عنِّى .

وكان ابن سلام فى ذلك يسلك سلوكاً يتناسب مع كونه يهودياً ، ولما اجتمع معشر اليهود ، سألهم النبى ﷺ وقال: ما تقولون فى ابن سلام ؟

قالوا: حَبْرُنا وشيخنا وهو الورع فينا ، وبعد أن أثنوا عليه ثناء عظيماً ، قال ابن سلام: يا رسول الله أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله .

وهنا بدأ اليهود يكيلون له السِّباب ، فقال ابن سلام: ألم أقُلْ لك يا

---

(١) هو: عبد الله بن سلام بن الحارث الإسرائيلى ، أبو يوسف ، أسلم عند قدوم النبى ﷺ المدينة ، كان اسمه الحصين وسماه النبى ﷺ عبد الله ، شهد مع عمر فتح بيت المقدس والجابية. ولما كانت الفتنة بين على ومعاوية اتخذ سيفاً من خشب ، واعتزلها ، وأقام بالمدينة إلى أن مات عام ٤٣ هـ (الأعلام - للزركلى ٤/ ٩٠).

رسـول الله إنهـم قـوم بُـهْت[1] ؟

إذن : فمعنى قوله سبحانه :

﴿فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ ..(٩٣)﴾ [يونس]

أى : أن أناساً منهم بقوا على الباطل ، وأناساً منهم آمنوا بالرسول الحق ﷺ .

وينهى الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله تعالى :

﴿.. إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٩٣)﴾ [يونس]

أى : أن الله سبحانه وتعالى سوف يقضى بين من جاءوا فى صف الإيمان ، وبين مَنْ بَقَوْا على اليهودية المتعصبة ضد الإيمان .

ونحن نلحظ أن كلمة ﴿بَيْنَهُمْ﴾ توضح أن الضمير عام ، لهؤلاء ولأولئك .

ونقول : إن الحق سبحانه وتعالى يقضى يوم القيامة بين المؤمنين والكافرين ، ويقضى أيضاً بين الكافرين ، فمنهم من كان ظالماً لكافر ،

---

(١) عن أنس بن مالك أن عبد الله بن سلام بلغه مقدم النبى ﷺ المدينة ، فأتاه يسأله عن أشياء فقال : إنى سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبى : ما أول أشراط الساعة؟وما أول طعام يأكله أهل الجنة ؛ وما بال الولد ينزع إلى أبيه أو إلى أمه؟ قال : أخبرنى به جبريل آنفاً . قال ابن سلام : ذاك عدو اليهود من الملائكة . قال : أما أول أشراط الساعة فنار تحشرهم من المشرق إلى المغرب ، وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد الحوت . وأما الولد فإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد ، وإذا سبق ماء المرأة ماء الرجل نزعت الولد . قال : أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله . قال : يا رسول الله ، إن اليهود قوم بهت ، فاسألهم عنِّى قبل أن يعلموا بإسلامى . فجاءت اليهود ، فقال النبى ﷺ : أى رجل عبد الله بن سلام فيكم؟ قالوا : خيرنا وابن خيرنا . وأفضلنا وابن أفضلنا . فقال النبى ﷺ : أرأيتم إن أسلم عبد الله بن سلام ؟ قالوا : أعاذه الله من ذلك . فأعاد عليهم ؛ فقالوا مثل ذلك . فخرج إليهم عبد الله فقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، قالوا : شرنا وابن شرنا ، وتنقَّصوه ، قال : هذا ما كنت أخاف يا رسول الله . أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٩٣٨) وأحمد فى مسنده (٣/ ١٠٨ ، ٢٧١ ، ٢٧٢) .

ومنهم من كان مختلساً أو مرتشياً ، ومنهم من عمل على غير مقتضى دينه ؛ لذلك يقضى الله سبحانه بينهم.

والآية تفيد العموم فى القضاء ماضياً وحاضراً ومستقبلاً بين كل مؤمن وكافر ، وبين كل تائب وعاصٍ .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾

والخطاب هنا لرسول الله ﷺ .

ونحن نعلم أن الرسول ﷺ قد قال من البداية إنه لا يشك فى رسالته ، وحين وعده أهله بالسيادة قال:

«والله لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى يسارى على أن أترك

---

(١) المخاطب بهذه الآية محمد ﷺ والمراد به غيره ، وكذلك الآية بعدها: ﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾[يونس] ، وقد تأول بعض العلماء الشك هنا بأنه ضيق الصدر ، أى : إن ضاق صدرك بكفر هؤلاء فاصبر ، واسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك يخبروك صبر الأنبياء من قبلك على أذى قومهم وكيف عاقبة أمرهم . [تفسير القرطبى ٤/ ٣٣١٠] .

(٢)فإن كنت فى شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك: من أهل التوراة والإنجيل ، كعبد الله بن سلام. وقيل: إن رسول الله ﷺ - لما نزلت هذه الآية - قال: «ما أشك ولا أسأل». وقد علم الله ذلك منه ، ومخرج هذا القول ، كقول الرجل لابنه: إن كنت ابنى فبرنى - من البر - أى: كن باراً بى. وهو لا يشك فى أنه ابنه. من الممترين: الشاكِّين. [مختصر تفسير الطبرى: ص ٢٤١].

(٣) امترى فى الشىء : شك فيه ولم يستيقن . وتمارى القوم به : تجادلوا . وتمارى فى الشىء : تشكك فيه . قال تعالى : ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ ﴾ [النجم] أى: تشكك ، ويتضمن معنى التكذيب . [القاموس القويم] وراجع : لسان العرب مادة [مرى] .

هـذا الأمـر حتى يُظهره الله ، أو أهلك فيه ، ما تركته »[١] .

نقول : إن الحق سبحانه وتعالى يضمر خطاب الأمة فى خطاب رسوله ﷺ ؛ لأن الأتباع حين يقرأون ويسمعون الخطاب وهو موجَّه بهذا الأسلوب إلى الرسول ﷺ فهم لن يستنكفوا[٢] عن أىِّ أمر يصدر إليهم .

ومثال ذلك : لو أن قائداً يصدر أمراً لاثنين من مساعديه اللذين يقودان مجموعتين من المقاتلين ، فيقول القائد الأعلى لكل منهما : إياك أن تفعل كذا أو تصنع كذا . والقائد الأعلى بتعليماته لا يقصد المساعدين له ، ولكنه يقصد كل مرءوسيهم من الجند .

وجاء الأمر هنا لرسول الله ﷺ ؛ لتفهم أمته أن الرسول ﷺ ما كان ليتأبَّى على أمر من أوامر الله ، بل هو ﷺ ينفّذ كل ما يؤمر به بدقة[٣] ؛ وذلك من باب خطاب الأمة فى شخصية رسولها ﷺ .

وقول الحق سبحانه :

﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْئَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ .. (٩٤) ﴾ [يونس]

---

(١) أورده ابن هشام فى السيرة النبوية (١/ ٢٦٦) معزواً لابن إسحاق ، أن قريشاً قالوا لأبى طالب : يا أبا طالب ، إن لك سناً وشرفاً ومنزلة فينا ، وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا ، وإنا و الله لا نصبر على هذا من شَتْم آبائنا ، وتسفيه أحلامنا ، وعَيْب آلهتنا ، حتى تكفه عنا ، أو ننازله وإياك فى ذلك ، حتى يهلك أحد الفريقين ، فبعث أبو طالب إلى رسول الله ﷺ فقال له : يا بن أخى ، إن قومك قد جاءونى ، فقالوا لى كذا وكذا ، فأبْقِ علىَّ وعلى نفسك ، ولا تحملنى من الأمر ما لا أطيق . فقال له رسول الله ﷺ هذه المقالة .

(٢) الاستنكاف : الامتناع تكبراً وأنفة . ومنه قوله تعالى : ﴿ لَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا (١٧٢) ﴾ [النساء] .

(٣) ومصداق ذلك قوله سبحانه : ﴿ فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ .. (١٥) ﴾ [الشورى] .

هذا القول دليل على أن الذين عندهم علم بالكتاب من السابقين على رسول الله ﷺ ، يعرفون الحقائق الواضحة عن رسالته ﷺ .

وإن الذين يكابرون ويكفرون برسول الله ﷺ ورسالته إنما يعرفونه كما يعرفون أبناءهم .

وقد قال عبد الله بن سلام : «لقد عرفت محمداً حين رأيته كمعرفتى لابنى ، ومعرفتى لمحمد أشد»[(١)] .

إذن : فالحق عندهم واضح مكتوبٌ فى التوراة[(٢)] من بشارة به ﷺ ، وهذا يثبت أنك يا محمد صادق فى دعوتك ، بشهادة هؤلاء .

ويُنهى الحق سبحانه الآية بقوله تعالى :

﴿ .. لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (٩٤) ﴾ [يونس]

والحق القادم من الله تعالى ثابت لا يتغير ؛ لأنه واقع ، والواقع لا يتعدد ، بل يأتى على صورة واحدة .

---

(١) ذكره ابن كثير فى تفسيره (٢/ ١٩٤) أن عمر بن الخطاب سأل عبد الله بن سلام : أتعرف محمداً كما تعرف ولدك؟ قال : نعم وأكثر ، نزل الأمين من السماء على الأمين فى الأرض بنعته فعرفته ، وإنى لا أدرى ما كان من أمه .

(٢) يقول تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٥٧) ﴾ [الأعراف]

وعن عطاء بن يسار عن عبد الله بن عمرو ، كان يقول : إن هذه الآية التى فى القرآن : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٤٥) ﴾ [الأحزاب] هى فى التوراة : يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحرزاً للأميين ، أنت عبدى ورسولى ، سميتك : المتوكل ، لست بفظٍّ ولا غليظ ولا سخاب بالأسواق ، ولا يدفع السيئة بالسيئة ، ولكن يعفو ويصفح ، ولن نقبضه حتى نقيم به الملة العوجاء حتى يقولوا : لا إله إلا الله ، فيفتح بها أعيناً عمياً ، وآذاناً صُمّاً ، وقلوباً غلفاً . أخرجه البخارى فى كتاب التفسير (٨/ ٥٨٥ فتح) والبيهقى فى الدلائل (١/ ٣٧٥) .

أما الكذب فيأتى على صور متعددة .

ولذلك فمهمة المحقِّق الدقيق أن يقلِّب أوجه الشهادات التى تقال أمامه فى النيابة أو القضاء ؛ حتى يأتى حكمه مصيباً لا مدخل فيه لتناقض ، ولا يعتمد على تخيُّل أو أكاذيب .

وقول الحق سبحانه :

﴿ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ ..(٩٤) ﴾ [يونس]

إنما يدل على أن الذين قرأوا الكتاب قد عرفوا أنك رسول الله حقّاً ، ومنهم من ترك معسكر اليهودية ، وجاء إلى معسكر الإيمان بك ؛ لأن الحق الذى جاء لا دخل للبشرية فيه ، بل جاء من ربك :

﴿ ..فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (٩٤) ﴾ [يونس]

ومجىء الخطاب بهذا الشكل ، هو كما قلت موجَّه إلى الأمَّة المؤمنة فى شخص الرسول ﷺ .

والحق سبحانه يقول :

﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ [1] ..(٦٥) ﴾ [الزمر]

هذا القول نزل على رسول الله ﷺ ، ومن غير المعقول أن يشرك النبى ﷺ ، وكل الآيات التى تحمل معانى التوجيه فى الأمور المنزَّه عنها رسول الله ﷺ خاصَّة بأمته .

وأيضاً يقول الحق سبحانه :

---

(١) أى : لئن أشركت بالله أحداً ؛ ليبطلن عملك . [مختصر تفسير الطبرى : ص ٥٢٧] بتصرف . وحبوط الأعمال بطلانها وفسادها رغم تحصيلها . وأصله إذا حبطت الماشية . أى : تأكل فتكثر حتى تنتفخ بطونها ولا يخرج عنها ما فيها [انظر اللسان مادة : حبط] .

﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٩٥) ﴾ [يونس]

والقول الحكيم ساعة يوجِّه إلى الخير قد يأتى بمقابله من الشر ؛ لتتضح الأشياء بالمقارنة .

ونحن فى حياتنا اليومية نجد الأب يقول لابنه : اجتهد فى دروسك ، واستمع إلى مدرِّسيك جيّداً حتى تنجح ، فلا تكن مثل فلان الذى رسب ، والوالد فى هذه الحالة يأتى بالإغراء الخيِّر ، ويصاحبه بمقابله ، وهو التحذير من الشر .

وقد قال الشاعر :

فالوَجْهُ مثلُ الصُّبحِ مُبْيَضٌّ ... والشَّعْرُ مثلُ الليلِ مُسْوَدُّ
ضِدَّانِ لمّا استجمعا حَسُنَا ... والضِّدُّ يُظْهِر حُسنَهُ الضِّدُّ (١)

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾

وآيات الله سبحانه كما نعرفها متعددة ؛ إما آيات كونية وهى الأصل فى المعتقد الأول بأن خالقها هو الخالق الأعلى سبحانه ، وتُلْفت هذه الآيات إلى بديع صُنْعه سبحانه ، ودقة تكوين خلقه ، وشمول قدرتِه .

وكذلك يُقصد بالآيات ؛ المعجزات المنزلة على الرسل - عليهم السلام - لتظهر صدق كل رسول فى البلاغ عن الله تعالى .

---

(١) الأضداد : فى ظهورها تظهر ميزات ما فيها ، فنحن لا نعرف قيمة الحق إلاَّ إذا تذوَّقنا مرارة الباطل ، ولا نعرف قيمة النهار إلا إذا عشنا الليل فى إظلامه ، ولا نعرف جمال العدل إلا إذا اكتوينا بنار المظالم .

وآيات القرآن الكريم التى تحمل منهج الله .

وهم كانوا يُكذِّبون بكل الآيات.

والخطاب فى هذه الآية هو خطاب للنبى ﷺ ، وجاء معطوفاً على ما فى الآية السابقة ، حيث يقول الحق سبحانه:

﴿ فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ .. (٩٤) ﴾ [يونس]

وكل ما يرد من مثل هذا القول لا يصح أن نفهم منه أن رسول الله ﷺ من الممكن أن يشك ، أو من المحتمل أن يكون من الذين كذَّبوا بآيات الله - سبحانه وتعالى - ولكن إيراد مثل هذا الأمر ، هو إيراد لدفع خواطر البشرية ، أيًّا كانت تلك الخواطر ، فإذا وجدنا الخطاب المراد به رسول الله ﷺ فى التنزيل ، فغاية المراد اعتدال موازين الفهم فى أمّته تعليماً وتوجيهاً؛ لأن المنهج مُنزّل عليه لتبليغه لأمته فهو شهيد على الأمم (١) .

وإذا كانت الآية التى سبقت توضح: إن كنت فى شك فاسأل ، فهو سبحانه يعطيه السؤال ؛ ليستمع منه إلى الجواب ، وليُسْمعه لكل الأمة ؛ الجواب القائل: أنا لا أشك ولا أسأل ، وحسبى ما أنزل الله سبحانه علىَّ.

ألم يَرِدْ فى القرآن الكريم أن الحق سبحانه وتعالى يقول للملائكة يوم القيامة بمحضر من عبدوا الملائكة ، ويشير إلى هؤلاء الذين عبدوا الملائكة ومخاطباً ملائكته :

﴿ .. أَهَـٰؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ (٤٠) ﴾ [سبأ]

ونحن نعلم أن الملائكة :

﴿ ..لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٦) ﴾ [التحريم]

---

(١) وذلك مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ..(١٤٣) ﴾ [البقرة] .

والحق سبحانه يعلم مسبقاً جواب الملائكة ، وهم يقولون :

﴿ سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ..(٤١) ﴾ [سبأ]

ولكنه سبحانه وتعالى أراد أن يُسْمِع من فى الحشر كلهم جواب الملائكة وهم يستنكرون أن يعبدهم أحد من الخلق ، فهؤلاء الخلق إنما عبدوا الجن .

إذن : فالسؤال جاء ؛ ليبين الرد عليه ، مثلما يرد عيسى عليه السلام حين يُعبد من بعض قومه ، ويسأله سبحانه عن ذلك :

﴿ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ..(١١٦) ﴾ [المائدة]

فيأتى الجواب :

﴿ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ..(١١٦) ﴾ [المائدة]

إذن : فالمراد أن يقول الرسول ﷺ : أنا لا أشك ولا أسأل .

والشك [(١)] - كما نعلم - معناه : تساوى كفة النفى وكفة الإثبات ، فإن رجحت واحدة منهما فهذا ظن ، وتكون المرجوحة وَهْماً وافتراء وكذباً .

وكلمة «الشك» مأخوذة من مسألة حسية ، فنحن نرى الصيادين وهم يصعون كل سمكة بعد اصطيادها فى خيط يسمى «المشكاك» .

وكذلك نرى من يقوم بـ(لضْم) العقود ، وهو يشك الحبة فى الخيط [(٢)] .

من هذا نأخذ أن الشك معناه : ضَمُّ شىء إلى شىء ، ومنه الشكائك [(٣)] ، وهى البيوت المنتظمة بجانب بعضها البعض .

---

(١) الشك : حالة نفسية يتردد معها الذهن بين الإثبات والنفى ، ويتوقف عن الحكم . [المعجم الوسيط] .
(٢) شك الشىء واشتكه : ضم أجزاءه . [المعجم الوسيط : مادة (ش ك ك)] .
(٣) الشكائك : جمع شكيكة ، وهى مجموعة أشياء شُكَّ - أى ضُمَّ - بعضها إلى بعض . [المعجم الوسيط : مادة (ش ك ك)] .

ومنه «شاك السلاح [1]» أى: الذى ضَمَّ نفسه إلى الدرع.

فالشك هو ضم شىء إلى شىء، وفى النسب تضم النفى والإثبات معاً؛ لأنك غير قادر على أن ترجِّح أحدهما.

وكل خطاب فى الشك يأتى على هذا اللون.

والآية التى نحن بصددها تقول:

﴿ وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٩٥) ﴾ [يونس]

ونحن نعلم أن الرسول ﷺ هو نفسه آية من الآيات، وهكذا نرى أن الخطاب مُوجَّه لأمته، فمن المستحيل أن يكون الرسول ﷺ من المكذِّبين لآيات الله - سبحانه وتعالى - لأن التكذيب بآيات الله تعالى يعنى: إخراج الصدق إلى الكذب، وإخراج الواقع إلى غير الواقع.

والذين كذبوا بالآيات إما أنهم لا يؤمنون بإله، أو يؤمنون بإله ولا يؤمنون برسول، أو يؤمنون بإله ويؤمنون برسول ولا يؤمنون بما أنزل على الرسول ﷺ.

والذى يؤيد هذا وجود آية فى آخر السورة يقول فيها الحق سبحانه:

﴿ قُلْ يَـأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ [2] اللَّهِ .. (١٠٤) ﴾ [يونس]

---

(١) الشَّكة: ما يحمل أو يلبس من السلاح. [المعجم الوسيط: مادة (ش ك ك)].

(٢) دون: نقيض فوق، وتكون ظرفاً، وتأتى بمعنى أمام، وبمعنى وراء، وبمعنى غير، وبمعنى قرب أو جهة، وبمعنى قبل، وبمعنى أقل. والتمييز بين هذه المعانى يكون بالقرائن. وهى فى الآية ﴿ قُلْ يَـأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٤) ﴾ [يونس] بمعنى (غير). [القاموس القويم] بتصرف.

فكأن الخطاب المقصود منه الأمة.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ[1] ﴿٩٦﴾﴾

وهذا القول يوضح لنا أن الحق سبحانه وتعالى قد علم عِلْماً أزليّاً بأنهم لن يُوجِّهوا اختيارهم للإيمان.

فحكمه هنا لا ينفى عنهم مسئولية الاختيار، ولكنه علم الله الأزلى بما سوف يفعلون، ثم جاءوا إلى الاختيار فتحقق علم الله سبحانه وتعالى بهم من سلوكهم.

وحُكْمه سبحانه مبنىٌّ على الاختيار، وهو حكم تقديرى.

ومثال ذلك - ولله المثل الأعلى- حين يأتى وزير الزراعة، ويعلن أننا قدَّرنا محصول القطن هذا العام، بحساب مساحة الأراضى المنزرعة قطناً، وبالمتوسط المتوقع لكل فدان، وقد يصيب الحكم، وقد يخيب نتيجة العوامل والظروف الأخرى المحيطة بزراعة القطن، فمن المحتمل أن يُصاب القطن بآفة من الآفات، مثل: دودة اللوزة، أو دودة الورقة.

إذن: ففى المجال البشرى قد يصيب التقدير وقد يخطىء؛ لأن الإنسان يُقدِّر بغير علم مُطْلق، بل بعلم نسبى.

أما تقدير الحق سبحانه فهو تقدير أزلى، وحين يُقدّر الحق سبحانه فلا بد من وقوع ما قدَّره.

---

(١) حقت: وجبت عليهم كلمة ربك بالعذاب [تفسير الجلالين: ص ١٨٧].

ولذلك يجب أن نفرق بين قضاء حكم لازم قهرى ليس للإنسان فيه تصرف، وبين قدر قد قُدِّر من الله تعالى أن يفعله الإنسان باختياره ، وهذه هى عظمة علم الغيب.

ومثال ذلك: هو سلوك أبى لهب [(١)] ، فقد نزل فيه قرآن يُتلَى:

﴿ تَبَّتْ [(٢)] يَدَا أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ ﴾ [المسد]

وقد نزلت السورة وأبو لهب على قيد الحياة ؛ لأن الحق سبحانه قد علم أزلاً أن خواطر أبى لهب لن تدفعه إلى الإيمان ، ولو أن أبا لهب امتلك ذرة من ذكاء لجاء لرسول الله ﷺ وقال: أنت قلت عنِّى إننى سأصْلَى [(٣)] النار ، لكن ها أنذا أعلن أننى أشهد ألا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله .

لكن ذلك الذكاء لم يكن يملكه أبو لهب ، فقد علم الله أزلاً أن خواطره لن تدفعه إلى الإسلام ، مثلما دفعت حمزة بن عبد المطلب عم النبى ﷺ وعمر بن الخطاب ، وخالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص. وكان إسلام هؤلاء رغم وقوفهم ضد النبى ﷺ أمراً وارداً.

وقد يُقدِّر البشر التقدير ، لكن هذا التقدير إنما يتم حسب المعلومات

---

(١) أبو لهب هو أحد أعمام رسول الله ﷺ ، واسمه عبد العزى بن عبد المطلب ، وكنيته أبو عتبة ، وإنما سمى أبا لهب لاحمرار وجهه وإشراقه كأنه اللهب.

وسبب نزول السورة التى ذُكر فيها ، أن النبى ﷺ خرج إلى البطحاء فصعد الجبل فنادى: يا صباحاه. فاجتمعت إليه قريشَ فقال: أرأيتم إن حدثتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم ، أكنتم تصدقونى؟ قالوا: نعم. قال: فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد. فقال أبو لهب : تَبّاً لك ، ألهذا جمعتنا؟ فأنزل الله : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ ﴾ إلى آخرها. أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٠٨) عن ابن عباس.

(٢) تبت: هلكت أو خسرت أو خابت. [كلمات القرآن: للشيخ حسنين محمد مخلوف].

(٣) وهو قوله تعالى: ﴿ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ ﴾[المسد] أى: سيُشوى بنار جهنم.

المتاحة لهم ، ولا يملك إنسان علماً كونيّاً أزليّاً بتقديراته ، فعلمه محدود ، وقد يأتى الأمر على غير ما يُقدِّر ؛ لأن الإنسان لا يملك ما يقدر .

ولا يقولنَّ أحدٌ : إن الله يعاقب بعد أن قدَّر مسبقاً ؛ لأن تقدير الحق سبحانه نابع من علمه الأزلى ، وهم كانوا يتمتعون بحق الاختيار . والله سبحانه هو القائل :

﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٤) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا (١) إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ (١٢٥) ﴾ [التوبة]

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٩٧) ﴾ (٢)

إذن : فمجىء الآيات وتكرارها لن يفيدهم فى الاتجاه إلى الإيمان ؛ لأن الحق سبحانه يعلم أنهم سيتوجهون باختيارهم إلى الكفر ؛ فقد قالوا - من قبل - ما أورده الحق سبحانه فى كتابه العزيز :

﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا (٣) (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ

---

(١) الرجس : القَذَر والنتن حسياً ومعنوياً ويطلق على ما يُستقبح فى الشرع . والرجس والرجز معناهما واحد ويطلق الرجس على العذاب لأنه سبب عنه . قال تعالى : ﴿ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ..(٧١) ﴾ [الأعراف] أى : عذاب بسبب الرجس الذى اقترفوه [القاموس القويم] بتصرف .

(٢) ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم : فلا ينفعهم حينئذ . [تفسير الجلالين : ص ١٨٧] .

(٣) الينبوع : العين التى لا ينضب ماؤها .

كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا [١] أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً [٢] (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ [٣] أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً [٤] (٩٣) ﴾ [الإسراء]

وكأن الحق سبحانه يأمر رسوله أن يقول موضحاً: لستُ أنا الذى يُنزل الآيات ، بل الآيات من عند الله تعالى ، ثم يأتى القرآن بالسبب الذى لم تنزل به تلك الآيات التى طلبوها ، فيقول سبحانه:

﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ .. (٥٩) ﴾ [الإسراء]

إذن: فقد نزلت آيات كثيرة لمن سبق فى المعاندة والمعارضة ، ويقابل قضية عرض الإيمان عليه بكفر يملأ قلبه.

فإن كان هناك من يبحث عن الإيمان فليدخل على بحث الإيمان بدون مُعتقد سابق ، ولينظر إلى المسألة ، وما يسمح به قلبه فليُدخله فيه ؛ وبهذا الاختيار القلبى غير المشروط بمعتقد سابق هو قمة القبول .

وقد قال الحق سبحانه فى الآيات السابقة كلاماً فى الوحدانية ، وكلاماً فى الآيات المعجزات ، وكلاماً فى صدق النبوة ، وكلاماً عن القيامة ،

---

(١) كسفاً: قطعاً. والكسف: السحاب المقطع قطعاً ، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ .. (٤٨) ﴾ [الروم].

(٢) قبيلاً: متقابلين. والمراد رؤيتهم عياناً.

(٣) الزخرف هنا: هو الذهب. والزخرف: الزينة ، وقد يقصد به التمويه والتزوير وتزيين الكذب ، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا .. (١١٢) ﴾ [الأنعام].

(٤) ينبوعاً: عيناً تنبع لنا بالماء ببلدنا هذا. جنة: بستان. فتفجر الأنهار: بأرضنا هذه التى نحن بها. خلالها: يعنى: خلال النخيل والكروم. وخلالها: بينها فى أصولها. تفجيراً: سيلاً يسيل بينها. كسفاً: قطعاً. قبيلاً: مقابلة أو جميعاً ، فنعاينهم معاينة. زخرف: ذهب. ترقى: تصعد فى درج إلى السماء. [مختصر تفسير الطبرى: ص ٣٢٤ ، ٣٢٥] بتصرف.

وقصَّ لنا سبحانه بعضاً من قصص مواكب الرسل ، من نوح عليه السلام ، ثم فصَّل قليلاً فى قصة موسى وهارون عليهما السلام ، ثم سيأتى من بعد ذلك بقصة يونس عليه السلام.

ونحن نلحظ أن الحق سبحانه جاء بقصة نوح عليه السلام فى إطناب [1] ، ثم جاء بخبر عن رسل لم يَقُلْ لنا عنهم شيئاً ، ثم جاء بقصة موسى وهارون عليهما السلام ، ثم سيأتى من بعد ذلك بقصة يونس عليه السلام ، فالسورة تضم ثلاثاً من الرسالات: رسالة نوح ، ورسالة موسى وهارون ، ورسالة يونس ، وهو الرسول الذى سُمِّيت السورة باسمه.

ولسائل أن يقول: ولماذا جاء بهؤلاء الثلاثة فى هذه السورة ؟

وأقول: لقد تعبنا كثيراً ، ومعنا كثير من المفسرين حتى نتلمَّس الحكمة فى ذلك ، ولماذا لم تأت فى السورة قصة هود ، وثمود ، وشعيب ، وكان لا بد أن تكون هناك حكمة من ذلك .

هذه الحكمة فيما تجلى لنا أن الحق سبحانه وتعالى يعرض موكب الرسالة وموكب المعارضين لكل رسول ، والنتيجة التى انتهى إليها أمر الأعداء ، وكذلك النتيجة التى انتهى إليها أمر الرسول ومَنْ آمن به.

ونجد الذين ذكرهم الله سبحانه هنا قد أهلكوا إهلاكاً متحداً بنوع واحد فى الجميع ، فإهلاك قوم نوح كان بالغرق ، وكذلك الإهلاك لقوم فرعون كان بالغرق ، وكذلك كانت قصة سيدنا يونس لها علاقة بالبحر ، فقد ابتلعه الحوت وجرى فى البحر.

---

(١) الإطناب والمساواة والإيجاز من فنون البلاغة فالإطناب : شرح بإفاضة . والمساواة : مساواة اللفظ للمعنى . والإيجاز : اللفظ القليل للمعنى الكبير ولكل مقام مقاله . [شرح دلائل الإعجاز] بتصرف.

إذن: فمَنْ ذُكر هنا من الرسل كان له علاقة بالماء، أما بقية الموكب الرسالى فلم تكن لهم علاقة بالماء.

ونحن نعرف أن الماء به الحياة، وبه الإهلاك؛ لأن واهب الحياة يهب الحياة بالشىء، ويُهلك بالشىء نفسه. وكأن الحق سبحانه يبيِّن لنا الحكمة: أنا أهلكتُ بالغرق هناك، ونجَّيْتُ من الغرق هنا.

إذن: فطلاقة القدرة الإلهية هى المستولية على هذه السورة، كما تظهر طلاقة القدرة فى مجالات أخرى، وبألوان أخرى[1].

وسُمِّيت هذه السورة باسم يونس؛ لأن الحق سبحانه أرسله إلى أكثر من مائة ألف[2]، وهم الأمة الوحيدة فى هذا المجال التى استثناها الحق سبحانه من الإهلاك، فقد أغرق قوم نوح، وأغرق قوم فرعون؛ فكلاهما قد كذَّب الرسل، ولكن قوم يونس أول ما رأوا البأس[3] آمنوا فأنجاهم الله سبحانه.

وسُمِّيت السورة باسم من نجا؛ لأنه عاد إلى الحق سبحانه قبل أن يعاين العذاب، ولكنهم رأوا فقط بشائر العذاب، فنجَّوا أنفسهم بالإيمان.

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى:

---

(١) من طلاقة القدرة توظيف الشىء فى ضدّه مثل النار، فوظيفتها الإحراق ولكنها كانت على سيدنا إبراهيم برداً وسلاماً. والماء به الحياة وفيه الغرق، وبه النجاة؛ فقد نجى الله سبحانه موسى عليه السلام وأغرق به فرعون.

(٢) يقول سبحانه: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (١٤٧)﴾ [الصافات] وهم من قرية «نينوى» جهة الموصل بالعراق الحالية.

(٣) البأس: العذاب. يقول تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا..(١٤٨)﴾ [الأنعام]، ويقول: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ (٤)﴾ [الأعراف]. والبأس: شدة الحرب، يقول تعالى: ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ.. (١٧٧)﴾ [البقرة]. والبأس: القوة. يقول تعالى عن قوم بلقيس ملكة سبأ حين شاورتهم فى أمر سليمان: ﴿قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ..(٣٣)﴾ [النمل].

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾ (١) (٢)

وهكذا يبيِّن لنا الحق سبحانه أن هناك كثيراً من القرى لم تؤمن إلا وقت العذاب ، فلم ينفع أيّاً منهم هذا الإيمان ، ولكن قوم يونس قبل أن تأتى بشائر العذاب والبأس أعلنوا الإيمان فَقَبِل الحق سبحانه إيمانهم ؛ لأنه سبحانه لا يظلم عباده.

فمَنْ وصل إلى العذاب ، وأعلن الإيمان من قلب العذاب لا يُقبَلُ منه ، ومن أحس واستشفَّ بواكير العذاب وآمن فالحق سبحانه وتعالى يقبله.

وكلمة «لولا» إذا سمعتها فمثلها مثل «لوما» ، وإذا دخلت «لولا» على جملة اسمية فلها حكم يختلف عن حكمها لو دخلت على جملة فعلية ، فحين تدخل على جملة اسمية مثل: «لولا زيد عندك لأتيتك» تفيد أن امتناع المجىء هو بسبب وجود زيد ، لكنها إن دخلت على جملة فعلية فيقال عنها: «أداة تحضيض وحَثّ» مثل قول الحق سبحانه:

﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِى ٱلدِّينِ ..﴿١٢٢﴾﴾ [التوبة]

---

(١) لولا : حرف شرط لا يعمل ويدل على امتناع الجواب لوجود الشرط ، وجملة الشرط (اسمية) ويحذف الخبر وجوباً إذا كان كوناً عاماً وإذا وليها مضمر يكون ضمير رفع منفصل [القاموس القويم] .

(٢) ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ ..﴿٩٨﴾﴾ : يقول عز وجل : لم تكن قرية آمنت فنفعها الإيمان إذا نزل بهم بأس الله ﴿إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ ..﴿٩٨﴾﴾ قيل : إنهم لما أظلهم العذاب ، وظنوا أنه قد دنا منهم ، وفقدوا يونس ، قذف الله فى قلوبهم التوبة ، وفرَّقوا بين كل أنثى وولدها ، وعَجُّوا - أى : رفعوا صوتهم بالتلبية - إلى الله أربعين ليلة ؛ فلما عرف صدق توبتهم كشف عنهم العذاب . ﴿..وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾ : لم نعاجلهم بالعقوبة ، واستمتعوا بآجالهم فى الدنيا ، إلى حين مماتهم ووقت فناء أعمارهم . [مختصر تفسير الطبرى : ص ٢٤١ ، ٢٤٢].

أى: أنه كان يجب أن ينفر من كل طائفة عدد ليتدارسوا أمور الدين.

والحق سبحانه وتعالى يقول هنا:

﴿ فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ ..(٩٨) ﴾ [يونس]

أى: أنه لو أن هناك قرية آمنت قبل أن ينزل بها العذاب لأنجيناها كما أنجينا قوم يونس، أو كنا نحب أن يحدث الإيمان من قرية قبل أن يأتيها العذاب.

إذن: فقوم يونس هنا مُسْتثنون؛ لأنهم آمنوا قبل أن يأتيهم العذاب.

وهناك آية أخرى تتعلق بهذه القصة، يقول فيها الحق سبحانه:

﴿ فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ [1] (١٤٤) ﴾ [الصافات]

أى: أن الذى منع يونس عليه السلام أن يظل فى بطن الحوت إلى يوم البعث هو التسبيح.

وهنا يبيِّن الحق سبحانه الاستثناء الذى حدث لقوم يونس حين يقول:

﴿ فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْىِ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ (٩٨) ﴾ [يونس]

---

(١) المسبحون: هم المصلّون لله تعالى، قبل البلاء والعقوبة التى نزلت به. وقيل: المسبحون: هم الذاكرون، بقوله كثيراً فى بطن الحوت: ﴿ .. لاَّ إِلَٰهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) ﴾ [الأنبياء].

﴿ .. لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤٤) ﴾ [الصافات]: لصار بطن الحوت قبراً له إلى يوم القيامة. [مختصر تفسير الطبرى، وتفسير الجلالين].

أى: أن الإيمان نفع قرية قوم يونس قبل أن يقع بهم العذاب.

ولذلك يقول الحق سبحانه:

﴿.. لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ (٩٨)﴾ [يونس]

ونحن نعلم أن كلمة «قرية» تعنى: مكاناً مُهيّأ، أهله متوطنون فيه، فإذا ما مَرَّ عليهم زائر فى أى وقت وجد عندهم قِرىً [١] أى: وجبة طعام.

ونحن نجد من يقول عن الموطن كثير السكان كلمة «بلد»، وهؤلاء من يملكون طعاماً دائماً، أما من يكونون قلة قليلة فى موطن ففى الغالب ليس عندهم من الطعام إلا القليل الذى يكفيهم ويكفى الزائر لمرة واحدة.

وتسمى مكة المكرمة «أم القرى» [٢]؛ لأن كل القرى تزورها.

وقرية قوم يونس اسمها «نينوى» قد حكى عنها النبى ﷺ فى قصة الذهاب للطائف، وهى قرية العبد الصالح يونس بن مَتَّى [٣]، وهى فى

---

(١) القرى: هو طعام الضِّيفان. والقرية فى اللغة: المصر أو البلد الكبير مثل: مصر، مكة، الطائف، نينوَى، وغيرها مما أشار إليه القرآن، فقد وردت كلمة «القرية» فيه بهذا المعنى (٣٧ مرة) غير المثنى منها (١) والجمع (١٩) مرة.

(٢) قال عنها الحق سبحانه: ﴿وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا..(٩٢)﴾ [الأنعام]، ويقول: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا..(٧)﴾ [الشورى].

(٣) وذلك أن رسول الله ﷺ قابل غلاماً نصرانياً لعتبة وشيبة ابنى ربيعة يقال له عداس، فعندما هَمَّ رسول الله ﷺ بالأكل من عنب بستانهما قال: باسم الله. ثم أكل، فنظر عداس فى وجهه، ثم قال: والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد. فقال له ﷺ: ومن أهل أىّ البلاد أنت يا عداس، وما دينك؟ قال: نصرانى، وأنا رجل من أهل نينوى، فقال رسول الله ﷺ: من قرية الرجل الصالح يونس بن متى. فقال له عداس: وما يدريك ما يونس بن متى؟ فقال رسول الله ﷺ: ذاك أخى، كان نبياً وأنا نبى، فأكبّ عداس على رسول الله ﷺ يُقبِّل رأسه ويديه وقدميه. أورده ابن هشام فى السيرة النبوية (٢/ ٤٢١).

العراق ناحية الموصل ، ويونس هو من قال عنه الله سبحانه :

﴿ وَذَا النُّونِ [1] إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا .. (٨٧) ﴾ [الأنبياء]

وكلمة «مغاضب» غير كلمة «غاضب» ، فالغاضب هو الذى يغضب دون أن يُغضبه أحد ، لكن المغاضب هو من أغضبه غيره .

وكذلك كلمة «هجر» ، ومهاجر ، فالمهاجر هو من أجبره أناس على أن يهاجر ، لكن من هجر هو من ذهب طواعية بعيداً .

والمغاضبة - إذن - تكون من جهتين ، وتسمى «مفاعلة» .

والحق سبحانه يقول :

﴿ وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) ﴾ [الأنبياء]

وسُمِّى سيدنا يونس عليه السلام بذى النون ؛ لأن اسمه اقترن بالحوت الذى ابتلعه .

وكلنا نعرف القصة ، حينما دعا قومه إلى الإيمان وكفروا به فى البداية ؛ لأن الرسول حين يجىء إنما يجىء ليقوِّم الحياة الفاسدة ؛ فيضطهده من يعيشون على الفساد ؛ لأنهم يريدون الاحتفاظ بالجبروت الذى يسمح لهم بالسرقة والاختلاس وإرواء أهواء النفس ، فلما فعلوا ذلك مع سيدنا يونس - عليه السلام - خرج مغاضباً ، أى : أنهم أغضبوه .

والمغاضبة - كما قلنا - من المفاعلة وتحتاج إلى عنصرين ، مثلما أوضحنا أن الهجرة أيضاً مفاعلة ؛ لأن الرسول ﷺ لم يهجر مكة ، بل ألجأه قومه إلى أن يهاجر ، فكان لهم مدخل فى الفعل .

---

(١) النون : الحوت . و(ذو ، ذا ، ذى) بمعنى : صاحب . أى : صاحب الحوت ، وهو يونس عليه السلام .

وأبو الطيب المتنبى [١] يقول فى هذا المعنى:

إذَا ترحَّلت عن قومٍ وقد قَدروا ... ألاَّ تُغادِرهم فَالرَّاحِلون هُمُ

أى: إن كنت تعيش مع قوم، وأردت أن تفارقهم وقد قدروا أن تعيش معهم، فالذى رحل حقيقة هم هؤلاء القوم.

ويقول الحق سبحانه وتعالى بعد خروج يونس مغاضباً:

﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ ..(٨٧)﴾ [الأنبياء]

أى: أنه رجَّح أن الحق سبحانه لن يُضيِّق عليه الأرض الواسعة، وسيهيىء له مكاناً آخر غير مكان المائة الألف أو يزيدون الذين بعثه الله تعالى إليهم.

وكان من المفروض أن يتحمل الأذى الصادر منهم تجاهه، لكن هذا الظن - والظن ترجيح حكم - يدلنا على أن معارضة دعوته كانت شديدة تُحْفِظ [٢] وتملأ القلب بالألم والتعب.

وكان عليه أن يُوطِّن نفسه على مواجهة مشقات الدعوة.

والقرية التى أرسل إليها يونس عليه السلام هى قرية «نينوى»، وهى التى جاء ذكرها فى أثناء حوار بين النبى ﷺ والغلام النصرانى «عداس» الذى قابله ﷺ فى طريق عودته من الطائف.

---

(١) هو: أحمد بن الحسين المتنبى، شاعر حكيم، ولد بالكوفة عام ٣٠٣ هـ، ونشأ بالشام، ثم تنقل فى البادية يطلب الأدب وعلم العربية وأيام الناس. توفى مقتولاً بالنعمانية ببغداد عام ٣٥٤ هـ عن ٥١ عاماً (الأعلام للزركلى ١/ ١١٥).

(٢) تحفظ: تغضب. والحفيظة: الغضب. ويقال: إن الحفائظ تذهب الأحقاد: أى: إذا رأيت حميمك يُظلم حميت له، وإن كان عليه فى قلبك حقد. [اللسان مادة حفظ].

وكان النبى ﷺ قد ذهب إلى الطائف ليطلب من أهلها النصرة بعد أن آذاه قومه فى مكة فلم يجد النصير [(١)]، وجلس النبى ﷺ قريباً من حائط بستان.

فلما رآه صاحبا البستان - عتبة وشيبة ابنا ربيعة - وما لقى من السفهاء ؛ تحركت له رحمهما ، فدعوا غلاماً لهما نصرانياً ، يقال له عَدَّاس ، فقالا له: خُذْ قطْفاً من هذا العنب ، فضعه فى هذا الطبق ، ثم اذهب به إلى ذلك الرجَل ، فقل له يأكل منه ، ففعل عَدَّاس ، ثم أقبل به حتى وضعه بين يدى رسول الله ﷺ ثم قال له: كُلْ ، فلما وضع رسول الله ﷺ فيه يده ، قال: باسم الله ، ثم أكل ، فنظر عداس فى وجهه ، ثم قال: والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد ، فقال له رسول الله ﷺ : «ومنْ أهل أىِّ البلاد أنت يا عدَّاس ، وما دينك؟» . قال: نصرانى ، وأنا رجَل من أهل نينوى ؛ فقال رسول الله ﷺ : «من قرية الرجل الصالح يونس ابن مَتَّى » ؛ فقال له عداس: وما يدريك ما يونس بن متَّى ؟ فقال رسول الله ﷺ : «ذاك أخى ، كان نبياً وأنا نبى» ، فأكبَّ عداس على رسول الله ﷺ يُقبِّل رأسه ويديه وقدميه.

ولما سأل صاحبا البستان عدَّاساً عن صنيعه هذا. قال لهما: لقد أخبرنى بأمر ما يعلمه إلا نبى [(٢)].

---

(١) لما يئس رسول الله ﷺ من قومه بمكة الذين آذوه وآذوا المسلمين لجأ إلى «الطائف» يطلب نصرة «ثقيف» وكلمهم وعرض عليهم الإسلام ، فما كان منهم إلا أن رفضوا الأمر ، وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم ، يسبونه ويصيحون به ، حتى اجتمع عليه الناس ، وألجأوه إلى حائط (بستان) لعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة . ورجع عنه سفهاء ثقيف ، فعمد إلى ظل شجرة عنب فجلس فيه . وهنا دعا رسول الله ﷺ ربه قائلاً : «اللهم إليك أشكو ضعف قوتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت ربُّ المستضعفين ، وأنت ربى ، إلى من تكلنى؟ إلى بعيد يتجهمنى؟ أم إلى عدو ملكته أمرى؟ إن لم يكن بك علىَّ غضب فلا أبالى ، ولكن عافيتك هى أوسع لى ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بى غضبك ، أو يحل علىَّ سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك» . [السيرة النبوية لابن هشام : ٢/ ٤١٩ ، ٤٢٠] . . بتصرف .

(٢) انظر : تفصيل هذه القصة فى السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٤١٩ - ٤٢١) .

ونحن نعلم أن العبد الصالح - يونس عليه السلام - قد تأثر وحزن وغضب من عدم استجابة قومه لرسالته الإيمانية ، إلى أن رأوا غَيْماً يملأ السماء وعواصف ، وألقى الله تعالى فى خواطرهم أن هذه العواصف هى بداية عذاب الله لهم [(١)] ؛ فَهُرعوا إلى ذوى الرأى فيهم ، فأشاروا عليهم بأن هذه هى بوادر العذاب ، وقالوا لهم: عليكم بإرضاء يونس ؛ لأن الله سبحانه وتعالى هو الذى أرسله ، فآمِنوا به ليكشف عنكم الغُمَّة.

وهُرع الناس إلى الإيمان بالحى الذى لا يموت ، الحىُّ حين لا حىَّ ، والقيوم والمُحيى والمميت.

وذهب قوم يونس عليه السلام لاسترضائه ؛ وحين رضى عنهم بدأوا ينظرون فى المظالم التى ارتكبوها ، حتى إن الرجل منهم كان ينقض ويهدم جدار بيته ؛ لأن فيه حجراً قد اختلسه من جار له [(٢)].

وكشف الله سبحانه وتعالى عنهم العذاب ، وهنا يقول سبحانه:

﴿ .. كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا [(٣)] وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ (٩٨) ﴾ [يونس]

ومن لوازم قصة يونس عليه السلام ، ليست المغاضبة فقط ، بل قصته مع الحوت ، فقد كان عليه السلام بعد مغاضبته لقومه قد ركب سفينة ،

---

(١) وهذا يتوافق مع ما قاله الزجاج: «إنهم لم يقع بهم العذاب ، وإنما رأوا العلامة التى تدل على العذاب ، ولو رأوا عين العذاب لما نفعهم الإيمان» واختاره القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٣١٢).

(٢) نقله القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٣١٢) من قول ابن مسعود.

(٣) اختلف المفسرون ، هل كشف عنهم العذاب الأخروى مع الدنيوى ، أم كشف عنهم العذاب فى الدنيا فقط ؟ على قولين:

* الأول: إنما كان ذلك فى الحياة الدنيا ، على ظاهر الآية الكريمة.

* والثانى: كشف العذاب فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ؛ لقول الله تعالى: ﴿ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (١٤٧) فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ (١٤٨) ﴾ [الصافات] فأطلق عليهم الإيمان ؛ والإيمان منقذ من العذاب الأخروى ، وهذا هو الظاهر ، و الله أعلم. [ذكره ابن كثير فى تفسيره (٢/ ٤٣٣)].

فلعبت بها الأمواج فاضطربت اضطراباً شديداً ، وأشرفت على الغرق بركابها ؛ فألقوا الأمتعة فى البحر ؛ لتخفَّ بهم السفينة ؛ فاستمر اضطرابها ، فاقترعوا على أن يلقوا إلى البحر مَن تقع عليه القرعة ، فوقعت القرعة على نبى الله يونس عليه السلام.

مثلما نركب مصعداً ، فنجد الضوء الأحمر وقد أضاء إنذاراً لنا بأن الحمولة زائدة ، وأن المصعد لن يعمل فيخرج منه واحد أو أكثر حتى يتبقى العدد المسموح به ، وعادة يكون الخارج من أحسن الموجودين خُلقاً ، لأنهم أرادوا تسهيل أعمال الآخرين.

كذلك كان الأمر مع السفينة التى ركبها يونس عليه السلام ، كادت أن تغرق ، فاقترعوا ، وصار على يونس أن ينزل إلى البحر.

والحق سبحانه يقول:

﴿ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ [1] (١٤١) ﴾ [الصافات]

ونزل يونس عليه السلام إلى البحر فالتقمه [2] الحوت وابتلعه.

ويقول الحق سبحانه وتعالى عن وجود سيدنا يونس عليه السلام فى بطن الحوت:

﴿ فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤٤) ﴾ [الصافات]

وهنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها يقول الحق سبحانه:

---

(١) ساهم: قارع ، أى: اشترك فى الاقتراع. المدحضين: المغلوبين إذ وقع الاقتراع عليه. [ابن كثير ٤/ ٢٠ - بتصرف].

(٢) التقمه: ابتلعه فى سرعة. قال سبحانه: ﴿ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (١٤٢) ﴾ [الصافات] ، والمليم: هو مَنْ أتى ذنباً يُلام عليه.

﴿ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ..(٩٨) ﴾ [يونس]

وعذاب الخزى فى الحياة الدنيا يمكن أن تراه مُجسَّداً فيمن افترى وتكبَّر على الناس ، ثم يراه الناس فى هوان ومذلة ، هذا هو عذاب الخزى فى الدنيا ، ولا بد أن عذاب الآخرة أخْزَى وأشَدُّ.

ويُنهى الحق سبحانه الآية بقوله:

﴿ ..وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ (٩٨) ﴾ [يونس]

أى: أنهم نَجَوْا من الهلاك بالعذاب إلى أن انتهت آجالهم بالموت الطبيعى.

ويقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك:

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٩٩) ﴾ (١)

والحق سبحانه وتعالى يبيِّن لنا أنه إن قامت معركة بين نبى مرسل ومعه المؤمنون به ، وبين من كفروا به ، فلا بد أن يُنزِل الحق سبحانه العذاب بمن كفروا .

---

(١) تُكره الناس: تلزمهم وتلجئهم. أى: ليس ذلك عليك يا محمد - صلوات الله وسلامه عليه - بل الله تعالى يُضل من يشاء ويهدى من يشاء. كما قال تعالى فى ذلك: ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١١٩) ﴾ [هود]. وقال تعالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ .. (٢٧٢) ﴾ [البقرة]. وقال تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ .. (٥٦) ﴾ [القصص]. إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الله سبحانه هو الفعال لما يريد ، الهادى من يشاء ، المضل لمن يشاء ؛ لعلمه وحكمته وعدله - سبحانه. [تفسير ابن كثير: ٢/ ٤٣٣] بتصرف.

وإياك أن تفهم أن الحق سبحانه يحتاج إلى عبادة الناس ؛ لأن الله عَزَّ وجل قديم أزلىٌّ بكل صفات الكمال فيه قبل أن يخلق الخلق ، وبكماله خلق الخلق ، وقوته سبحانه وتعالى فى ذاته ، وهو خالق من قبل أن يخلق الخلق ، ورازق قبل أن يخلق الرزق والمرزوق ، والخلق من آثار صفات الكمال فيه ، وهو الذى أوجد كل شىء من عدم.

ولذلك يُسمّون صفاته سبحانه وتعالى صفات الذات ؛ لأنها موجودة فيه من قبل أن يوجد متعلقها.

فحين تقول: حىٌّ ، ومُحْىٍ ، فليس معنى ذلك أن الله تعالى موصوف بـ «مُحْىٍ» بعد أن وجد مَنْ يحييه ، لا ، إنه مُحىٍ ، وبهذه الصفة أحيا.

ولله المثل الأعلى ، وهو سبحانه مُنزَّه عن كل تشبيه: قد نرى المصوِّر أو الرسام الذى صنع لوحة جميلة ، هنا نرى أثر موهبة الرسم التى مارسها ، واللوحة ليست إلا أثراً لهذه الموهبة.

الحق سبحانه وتعالى - إذن - له كل صفات الكمال قبل أن يخلق الخلق ، وبصفات الكمال خَلَق الخَلْق.

فإياك أن تفهم أن هناك أمراً قد جَدَّ على الله تعالى ، فلا شىء يجِدُّ على الحق سبحانه ، وهو سبحانه لا ينتفع من خلقه بل هو الذى ينفعهم.

ونحن نعلم أن الإيمان مطلوب من الإنسان ، وهو الجنس الظاهر لنا ونحن منه ، ومطلوب من جنس آخر أخبرنا عنه الله - تبارك وتعالى - وهو الجن [1]

---

(١) وذلك فى قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ (٥٦)﴾ [الذاريات].

وأما بقية الكون فمُسبِّح [١] مؤمن بالله تعالى ، والكون عوالم لا حصر لها ، ولكلٍّ نظام لا يحيد عنه.

ولو أراد الله سبحانه وتعالى أن يُدخل الثقلين - الإنس والجن - فى نظام التسخير ما عَزَّ عليه ذلك ، لكن هذا التسخير يثبت له القدرة ولا يثبت له المحبوبية.

ولذلك ترك الحق سبحانه الإنسان مختاراً ليؤمن أو لا يؤمن ، وهذا ما يثبت له المحبوبية إن جئته مؤمناً ، وهذا يختلف عن إيمان القَسْر والقهر ، فالإيمان المطلوب من الإنسان أو الجن هو إيمان الاختيار.

وأما إيمان القسر والقهر ، فكل ما فى الكون من عوالم مؤمن بالحق سبحانه ، مُسبِّح له.

والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ..(٤٤) ﴾ [الإسراء]

وهذا ليس تسبيح [٢] دلالة ورمز ، بل هو تسبيح حقيقى ، بدليل قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ..(٤٤) ﴾ [الإسراء]

فإن فقَّهك الله تعالى فى لغاتهم لعلمت تسبيح الكائنات ، بدليل أنه

---

(١) يقول رب العزة سبحانه : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَـٰوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ..(٤٤) ﴾ [الإسراء]. ويقول تعالى : ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) ﴾ [الحشر].

(٢) تسبيح الدلالة والرمز نلحظه يقيناً فى حركة الجماد وحركة ونمو وتنفس النبات ، وحركة ونمو وتنفس وغريزة الحيوان ، وحركة ونمو وتنفس وتعقل الإنسان ؛ فكل حركة لها محرك ، وفى الحركة تسبيح ، وفوق ذلك نجد للأرض والسماء بكاء فى قوله تعالى : ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ (٢٩) ﴾[الدخان] ، والبكاء يصدر عن عاطفة والعاطفة تصدر عن علم ، وهذه المراتب تسبيح بحقيقة لا يدركها عقل وقد يحسُّها قلب .

عَلَّم سليمان عليه السلام منطق الطير [١] ، وسمع النملة تقول:

﴿ ..يَـٰٓأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (١٨) ﴾ [النمل]

والهدهد قال لسليمان عليه السلام ما رآه عن بلقيس ملكة سبأ:

﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ (٢٤) ﴾ [النمل]

إذن: فكل ما فى الكون مُسبِّح لله تعالى ، يسير على منهجه سبحانه ما عدا المختار من الثقلين: الإنسان والجان ؛ لأن كلاً منهما فيه عقلٌ ، وله مَيْزة الاختيار بين البدائل.

ومن عظمة الحق سبحانه وتعالى أن خلق للإنسان الاختيار حتى يذهب المؤمن إليه اختياراً ، ولو شاء الحق سبحانه وتعالى أن يجبر الإنسان على الإيمان لَفعلَ.

أقول ذلك حتى لا يقولن أحد: ولماذا كل هذه المسائل من خَلْق وإرسال رُسل ، وتكذيب أناس ، ثم إهلاك المكذِّبين ؟

ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى:

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٩٩) ﴾ [يونس]

---

(١) فربُّ العزة سبحانه يقول عن سليمان عليه السلام: ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَـٰٓأَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ (١٦) ﴾ [النمل].

إذن: فالحق سبحانه خلق الإنسان وسخَّر له كل الأجناس، ولم يجبره على الإيمان، بل يقول سبحانه لرسوله ﷺ:

﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ (١) نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣)﴾ [الشعراء]

وكان رسول الله ﷺ مُحبّاً مخلصاً لقومه وعشيرته، وذاق حلاوة الإيمان، وحزن لأنهم لم يؤمنوا، فينبهه الحق سبحانه وتعالى أن عليه مهمة البلاغ فقط، فلا يكلّف نفسه شَطَطاً (٢).

والحق سبحانه وتعالى شاء أن يجعل للإنسان حقَّ الاختيار وسخَّر له الكون، ومن الناس من يؤمن، ومن الناس من يكفر، بل ومن المؤمنين من يطيع مرة، ويعصى أخرى، وهذه هى مشيئة الحق ليتوازن الكون، فكل صفة خيِّرة إنْ وجد من يعارض فيها فهذا ما شاءه الله سبحانه وتعالى للإنسان، فلا تحزن يا رسول الله؛ فالحق سبحانه وتعالى شاء ذلك.

وإنْ غضب واحد من أن الآخرين لم يعترفوا بصفاته الطيبة نقول له: إن الحق سبحانه هو خالق الكون وهو الرازق، قد كفروا به وألحدوا، وجعلوا له شركاء، فتَخلَّقوا بأخلاق الله؟

ولذلك قال الحق سبحانه:

---

(١) باخع: أى: مهلك نفسك، أى: مما تحرص وتحزن عليهم لعدم إيمانهم. وهذه تسلية من الله سبحانه وتعالى لرسوله ﷺ فى عدم إيمان من لم يؤمن به من الكفار. كما قال تعالى: ﴿فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ .. (٨)﴾ [فاطر]. وكقوله سبحانه: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ .. (٦)﴾ [الكهف].
قال مجاهد وعكرمة وآخرون: باخع نفسك: أى: قاتل نفسك. وقد قال الشاعر:

ألا أيهذا الباخعُ الحزُن نفَسه ... لشىء نحتَّه عن يديهِ المقَادرُ

[ذكره ابن كثير فى تفسيره (٣/ ٣٣١)] بتصرف.

(٢) الشطط: الجور ومجاوزة القَدْر فى كل شىء، والمقصود: لا تظلم نفسك، ولا تتجاوز الحد فى الحزن عليهم. ومنه قوله تعالى عن الخصمين اللذين طلبا حكم داود بينهما، فقالا له: ﴿.. فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ (٢٢)﴾ [ص].

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٩٩) ﴾ [يونس]

إنه سبحانه وتعالى يريد إيمان المحبة وإيمان الاختيار .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ (١) عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (١٠٠) ﴾

هكذا يُبيِّن لنا الحق سبحانه أن أحداً لا يؤمن إلا بإذن من الله تعالى ؛ لأن معنى أن تؤمن أن يكون إيمانك إيمان فطرة نتيجة تفكُّر فى سماء ذات أبراج (٢) ، وأرض ذات فِجَاج (٣) ، وبحار تَزْخر (٤) ، ورياح تَصْفِر ، كل ذلك يدل على وجود الخَالق سبحانه .

لكن أتَرَكَ الله سبحانه وتعالى الناس للفطرة ؟

---

(١) الرجس : الخبال والضلال . [ابن كثير ٢/ ٤٣٣] . قال الزجاج : الرجس فى اللغة اسم لكل ما استقذر من عمل ، فبالغ الله تعالى فى ذم هذه الأشياء وسمَّاها رجساً . وللرجس معانٍ أخرى ، فهو العذاب كالرِّجز ، وهو المأثم وهو الشك فى مثل قوله تعالى : ﴿ .. إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا (٣٣) ﴾ [الأحزاب] .

(٢) الأبراج : جمع برج . وهى منازل الأفلاك فى السماء أو هى الكواكب . وقيل : هى النجوم . [انظر لسان العرب : مادة برج] .

(٣) فجاج : جمع فج . وهو الطريق الواسع بين جبلين . ومنه قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا (١٩) لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا (٢٠) ﴾ [نوح] . وقال : ﴿ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣١) ﴾ [الأنبياء] . وقال تعالى فى صيغة المفرد : ﴿ .. وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧) ﴾ [الحج] .

(٤) بحار تزخر : أى : كثر ماؤها وارتفعت أمواجها . وزخر القوم : جاشوا لنفير أو حرب . [لسان العرب ، مادة : زخر] وهذه الجمل من خطبة خطبها قُس بن ساعدة الإيادى فى الجاهلية ، كان أولها : « أيها الناس اسمعوا وعوا ، من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت» انظر : البيان والتبيين- للجاحظ (١/ ٣٠٨) .

لا ، بل أرسل سبحانه لهم الرسل ليذكِّروهم بالآيات الموجودة فى الكون ، ولينتبه الغافل ؛ لأنه سبحانه لا يريد أن يأخذ الناس على حين غفلة .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ ..لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ (١٣١) ﴾ [الأنعام]

لذلك ينبههم الحق سبحانه بأن هناك أشياء كان يجب أن تُذكر ، وكأن الحق سبحانه يُبيِّن لنا : إياكم أن تفهموا أن أحداً يخرج عن مُلكى إلا بإرادتى ، فأنا بخلقى له مختاراً سمحت له أن يكفر أو يؤمن ، وسمحت له أن يطيع أو أن يعصى .

كل ذلك من أجل أن يثبت لى صفة المحبوبية .

لذلك فلا أحد يؤمن إلا بإذن الله سبحانه وتعالى ، ولا أحد يكفر إلا بإذنه سبحانه ؛ لأن مَنْ خلقه مختاراً عَلِمَ برضاء منه بما يكون من المخلوق ، فالكافر لم يكفر قهراً ، والمؤمن لم يؤمن قهراً من الله سبحانه .

وساعةَ يأتى الرسول ليعرض قضية الإيمان ، يتذكر الإنسان إيمان الفطرة ويقول : لقد جاء هذا الرسول بهذا المنهج ليعدِّل لى حياتى ، فلا بد أن أرْهِفَ[1] له السمع .

وساعة يُقْبِل العبد على الله تعالى ، فسبحانه يأذن له أن يدخل إلى حظيرة الإيمانَ .

إن العبد منَّا إذا ما ذهب للقاء عبد مثله له سيادة وجاه ، ويدرك العبد صاحب السيادَة والجاه - بفضل من الله - السبب الذى جاء من أجله العبد الآخر ؛ فيقول صاحب السيادة لمعاونيه : لا تُدْخلوه . وهو يقول ذلك ؛

(١) إرهاف السمع : الإنصات الشديد . والرهافة فى اللغة : الرقة واللطف . [اللسان : مادة رهف] .

لأن الله سبحانه أطلعه على ما فى قلب العبد الآخر من غلٍّ ومن حقدٍ ومن نفاق.

أما إذا دقَّ بابه عبد آخر ، فتجده يأمر معاونيه أنْ يُدخلوه وأن يفسحوا له ؛ لأنه علم بما فى قلبه من محبة ورغبة فى صِدْق اللقاء والمودة.

إذا كان هذا يحدث بين العباد ، وهم كلهم أغيار ، فما بالنا بالحق سبحانه وتعالى؟

والله سبحانه هو القائل فى حديث قدسى : «من ذكرنى فى نفسه ذكرتُه فى ملأ خير منه».

ما بالنا بالعبد إذا دخل على الإيمان بالله غير مشحون بعقيدة عدا الله.

إذن : أقْبلْ على الله سبحانه وعلى ذكر الله ، وأنت إنْ ذكرت الله فى نفسك ، فالَله يذكرك فى نفسه ، وإن ذكرته فى ملأ ذكرك فى ملأ خير منه ، فالملأ الذى ستذكره فيه ملأ خَطَّاءٌ ، والله سبحانه سيذكرك فى ملأ طاهر.

ويقول الحق سبحانه فى ذات الحديث القدسى [1] : «إنْ تقرَّب إلىَّ شبراً تقرَّبت إليه ذراعاً».

والذراع أطول من الشِّبر.

ويقول : «وإن أتانى يمشى أتيته هرولة».

فالمشى قد يُتعب العبد ، لذلك يُسرع إليه الحق عز وجل ، وهو سبحانه بكل ربوبيته ما إنْ يعلمْ أن عبداً قد صفا قلبه من خصومة الله تعالى فى

---

(١) حديث متفق عليه. أخرجه البخارى فى صحيحه (٧٤٠٥) ومسلم (٢٦٧٥) ، وتمامه : «أنا عند ظن عبدى بى، وأنا معه حيث يذكرنى، والله، لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم يجد ضالته بالفلاة، من تقرب إلىَّ شبراً تقربت إليه ذراعاً ، ومَنْ تقرب إلىَّ ذراعاً تقربت إليه باعاً ، وإذا أقبل إلىَّ يمشى أقبلت إليه أهرول».

شيء ، حتى يفتح أمامه أبواب محبته سبحانه ، فيحبِّب فيه خلقه ، ويجعل له مدخل صدق فى كل أمر ومخرج صدق من كل ضيق، وهو الحق القائل:

﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧)﴾ [محمد]

ونلحظ أن الحق سبحانه يؤكد فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها أنه لو شاء لآمن مَنْ فى الأرض جميعاً ؛ ليبيِّن لنا أنه حتى إبليس الذى دخل فى جدالٍ مع الله ، لو شاء الحق سبحانه لآمن إبليس.

وجاء الحق سبحانه بهذا التأكيد ؛ لِيُحْكِمَ الأمرَ حول كل خَلْقه ومخلوقاته ، فلا يشذ منهم أحد.

ثم يقول الحق سبحانه فى نفس الآية :

﴿ ..أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٩٩)﴾ [يونس]

أراد الحق سبحانه أن يُنبِّه رسوله ﷺ وكل المؤمنين أنه :

﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ..(٢٥٦)﴾ [البقرة]

لأن مطلوبات الدين ليست هى المطلوبات الظاهرة فقط التى تقع عليها العين ، فهناك مطلوبات أخرى مستترة ، فَهَبْ أنك أكرهت قالباً أتستطيع أن تُكرِه قلباً ؟

والحق سبحانه وتعالى يريد قلوباً لا قوالب [(١)].

وهكذا لا يصلح الإكراه فى قضية الدين ، ولكن على الإنسان ألاَّ يسحب الإكراه إلى غير موضعه أو مجاله ؛ لأنك قد تجد مسلماً

---

(١) عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ : «إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم» أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٥٦٤) وأحمد فى مسنده (٢/ ٢٨٥ ، ٥٣٩) وابن ماجه فى سننه (٤١٤٣) ، واللفظ لمسلم. والقلوب لها الوجدان والاختيار والحب والكره ، والقوالب مادة تسير حسب الإدراك الذى انفعل بوجدان ، ووجدان وضع أمامه البدائل ليختار ، ويُسمَّى (النزوع) .

لا يصلّى فينهره صديقه ، فيردّ : لا إكراه فى الدين. وهذا استخدام غير صحيح واستدلال خاطىء ؛ لأن الإكراه فى الدين إنما يكون ممنوعاً فى القضية العقدية الأولى.

ولكن مَنْ أعلن أنه مسلم ، وشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فهذا إعلان بالالتزام بكل أحكام الإسلام ، وهو محسوب على الإسلام ، فإنْ أخلّ بحكمٍ من أحكام الإسلام فلا بد من محاسبته.

ولا إكراه فى الدين ، فيما يخصُّ القضية العقدية الأولى ، وأنت حُرٌّ فى أن تدخل إلى الإسلام أو لا تدخل ، فإنْ دخلت الإسلام فأنت ملتزم بأحكام الإسلام ؛ لأنك آمنت به وصرْتَ محسوباً عليه ، واحفظ حدود الإسلام ولا تكسرها ؛ لأنك على سبَيل المثال - لا قدر الله - إن سرقت ؛ تُقطع يدك ، وإنْ زنيت تُرجَم أو تُجلد [1] ، وإنْ شربت الخمر تُجلد ؛ لأنك قبلتَ قواعد الإسلام وشريعته.

وإنْ رأى واحدٌ مسلماً يسرق ، فلا يقولن إن الإسلام يُسرِّق ، ولكن إن رآه يُعاقَب ، فهو يعرف أن الإسلام يعاقب مَنْ يجرم.

إذن : فـ ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ .. (٢٥٦) ﴾ [البقرة]

تخص المنع عن الإكراه على أصل الدين ، ولكن بعد أن تؤمن فأنت ملتزم بفرعيات الدين ، وتعاقب إنْ خرجتَ على الحدود.

والرسول ﷺ يقول : «مَثَلُ القائم على حدود الله ، والواقع فيها كمثل قوم استهموا [2] على سفينة ، فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها ،

---

(١) للزنا فى شريعة الإسلام عقوبتان : الرجم، أو الجلد. أما الرجم فيعاقب به الزانى المحصن الذى قد أحصن بالزواج. أما الجلد مائة فهو لغير المتزوج أو لم يسبق له الزواج، فيجلد مائة جلدة تطبيقاً لقول الله عز وجل : ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢) ﴾ [النور].

(٢) استهموا : اقترعوا.

فكان الذين فى أسفلها إذا اسْتَقَوْا من الماء مرُّوا على مَنْ فوقهم فقالوا : لو أنَّا خرقنا فى نصيبنا خُرْقاً ولم نُؤذ مَنْ فوقنا ، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ، ونجوا جميعاً»[(١)] .

إذن : فالالتزام بفروع الدين أمر واجب ممن دخل الدين دون إكراه ، وإنْ خدش حكماً من الأحكام يُعاقب .

وهناك ما هو أشدُّ من ذلك ، وهو حكم مَنْ ارتد عن الإسلام ، وهو القتل[(٢)] .

وقد يقول قائل : إن هذا الأمر يمثل الوحشية . فنقول له : إن من التزم بالدين ، إنما قد علم بداية أنه إنْ آمن ثم ارتد ، فسوف يُقتَل ؛ ولذلك فليس له أن يدخل إلى الإسلام إلا بيقين الإيمان .

وهذا الشرط للدين ؛ لا على الدين . فلا تدخل على الدين إلا وأنت متيقِّن أن أوامر الدين فوق شهواتك ، واعلمْ أنك إنْ دخلتَ على الدين ثم تَخلَّيْتَ عنه فسوف تُقْتَل ، وفى هذا تصعيب لأمر دخول الدين ، فلا يدخله أحد إلا وهو واثق من يقينه الإيمانى ، وهذا أمر محسوب للدين لا ضد الدين .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ .. وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ (١٠٠) ﴾ [يونس]

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٤٩٣) وأحمد فى مسنده (٤/ ٢٦٨) والترمذى فى سننه (٢١٧٣) وقال : حسن صحيح .

(٢) عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : «مَنْ بدَّل دينه فاقتلوه» . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٩٢٢) وأحمد فى مسنده (١/ ٢١٧ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ٣٢٣) وابن ماجه فى سننه (٢٥٣٥) .
- وقد قال رسول الله ﷺ فى حديث آخر عن ابن مسعود : «لا يحل دم امرىء مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأنِّى رسول الله بإحدى ثلاث : النفس بالنفس ، والثيب الزانى ، والمفارق لدينه التارك للجماعة» أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٨٧٨) ومسلم (١٦٧٦) .

والرجس : هو العذاب ، وهو الذنب ، ويجعله الحق سبحانه وتعالى على الذين لا يعقلون ؛ لأن قضية الدين إذا طُرِحَتْ على العقل بدون هَوىً ؛ لا بُدَّ أن ينتهى العقل إلى الإيمان.

ولذلك تجد القمم الفكرية حين يدرسون الدين ؛ فهم يتجهون إلى الإسلام ؛ لأنه هو الدين الذى يشفى الغُلَّة [1] ، أما الذين أخذوا الدين كميراث عن الآباء ، فهم يظلون على حالهم.

وبعض القمم الفكرية فى العالم التى اتجهت إلى اعتناق الإسلام ، لم تتجه إليه بسبب رؤيتهم لسلوك المسلمين ؛ لأن سلوك المنسوبين للإسلام فى زماننا قد ابتعد عن الدين .

ولذلك فقد اتجهت تلك القمم الفكرية للإسلام إلى دراسة مبادىء الإسلام ، وفرَّقوا بين مبادىء الدين ، وبين المنتمين للدين ، وهذا إنصاف فى البحث العقلى ؛ لأن الدين حين يُجرِّم عملاً ، فليس فى ذلك التجريم إذْنٌ من الدين بحدوث مثل هذا الفعل المجرم ، بدليل تقدير العقاب حسب خطورة الجريمة .

فالحق سبحانه قد قال :

﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا .. (٣٨) ﴾ [المائدة]

إنه الإذن باحتمال ارتكاب السرقة ، وكذلك الأمر بالنسبة للزنا [2] ،

---

(١) الغلة فى اللغة : شدة العطش ، فاستعير لما يتلهف الإنسان لمعرفته ودرسه كالظمآن يطلب الماء .

(٢) يقول رب العزة سبحانه : ﴿ وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً (٣٢) ﴾ [الإسراء]. ويقول سبحانه : ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢) الزَّانِي لا يَنكِحُ إِلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لا يَنكِحُهَا إِلاَّ زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (٣) وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَداً وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٤) إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥) ﴾ [النور].

وغير ذلك من الجرائم التى جعل لها الحق سبحانه عقوبات تتناسب مع الضرر الواقع على النفس أو المجتمع من وقوعها ، فإذا رأيت مسلماً يسرق ، فتذكَّر العقاب الذى أوقعه الإسلام على السارق ، وإنْ رأيتَ مسلماً يزنى ، فَتذكَّر العقوبة التى حددها الحق سبحانه للزانى .

وهكذا الحال فى جميع الجرائم .

وكبار المفكرين العالميين الذين يتجهون إلى الإسلام إنما يدرسون مبادىء الدين مفصولة عن سلوك المسلمين المعاصرين ، الذين ابتعدوا عن مبادىء الدين الحنيف .

وها هو ذا «چينو» المفكر الفرنسى يقول : « الحمد لله الذى هدانى للإسلام قبل أن أعرف المسلمين ، فلو كنتُ قد عرفتُ المسلمين قبل الإسلام لكان هناك احتمال لزلزلة فى النفس تجعلنى أتردد فى الدخول إلى هذا الدين الرفيع المقام» .

إذن : فإعمال العقل الراقى لا بد أن يؤدى إلى الإسلام لأنه فطرة الله ، والإسلام يُنمِّيها ، ويرتقى بها ، والعقل هو مَنَاطُ التكليف .

والرجس والذنب والعذاب كله إنما يقع على الذين لا يُعْملون عقولهم ، وإعمال العقل المتعقل للقيم ينفى الرجس ؛ لأنهم سيُقبلون على التدين بإذن الله تعالى لهم أن يدخلوا على الإيمان به .

وإذا سألنى سائل : ما هو العقل ؟ وما هو مَنَاطُ التكليف ؟

نجد أن كلمة «عقل» مأخوذة من عِقَال البعير ، وهو ما يُشَدُّ على رُكْبته حتى لا ينهض ، ويظل ساكناً ، وحين يريد صاحبه أن يُنهضه فهو يفكُّ العقال .

وأهل الخليج يضعون على رؤوسهم غطاء للرأس (غُتْرة) ويثبتونه بنسيج مغزول على هيئة حلقتين ، ويسمون هاتين الحلقتين «العقال» ؛ لأنه يمنع غطاء الرأس من أن يحركه الهواء ، أو يُطيّره.

إذن : فالعقل أراده الله سبحانه لنا ليحجزنا عن الانطلاق والفوضى فى تحقيق شهوات النفس ؛ لأنه سبحانه قد خلق النفس البشرية ، ويعلم أنها تحب الشهوات العاجلة ، فأراد سبحانه للإنسان أن يكبح جماح تلك الشهوات بالعقل.

فحين يفكر الإنسان فى تحقيق الشهوة العاجلة ، يجد عقله وهو يهمس له : إنك ستستمتع بالشهوة العاجلة دقائق ، وأنت قد تأخذها من غيرك ؛ من محارمه أو من ماله ، فهل تسمح لغيرك أن يأخذ شهوته العاجلة منك؟

إذن : عليك أن تعلم أن العقل إنما أراده الله سبحانه لك ليعقلك عن الحركة التى فيها هَوى ، وتحقق بها شهوة ليست لك ، ومغبَّتها [1] متعبة.

ويخطىء مَنْ يظن أن العقل يفتح الباب أمام الانطلاق اللا مسئول باسم الحرية ، ونقول لمن يظن مثل هذا الظن : إن العقل هو مَنَاطُ التكليف ، وهو الذى يوضِّح لك آفاق المسئولية فى كل سلوك.

ومن عدالة الحق سبحانه أنه لم يكلِّف المجنون ؛ لأن حكم المجنون على الأشياء والأفعال هو حكم غير طبيعى ؛ لأنه يفتقد آلة الاختيار بين البدائل.

وكذلك لم يكلف الله سبحانه مَنْ لم ينضج بالبلوغ ؛ لأنه غير مُسْتوفٍ للمَلَكات ، ولم تستوِ لديه القدرة على إنجاب مثيل له.

وقد ضربنا من قبل المثل بالثمرة ، وقلنا : إنه لا يقال إن الثمرة نضجت وصار طَعْمها مقبولاً مستساغاً إلا إذا أصبحت البذرة التى فيها قادرة على

---

(١) غِبّ الأمر مَغَبَّتُهُ: عاقبته وآخره. [لسان العرب: مادة (غ ب ب)].

أن تنبت منها شجرة إن زرعناها فى الأرض.

وأنت مثلاً حين تقطع البطيخة ، وتجد لُبَّها أبيض اللون فأنت لا تأكلها، وتحرص على أن تأكل البطيخة ذات البذر الذى صار أسود اللون ؛ لأنه دليل نُضْج البطيخة ، وأنت حين تأخذ هذا اللبَّ وتزرعه ينتج لك بطيخاً.

إذن : فاكتمال الإنسان بالبلوغ يتيح لعقله أن يَزِنَ السلوك قبل الإقدام عليه ، والتكليف إنما يكون للعاقل البالغ غير المكره بقوةٍ تقهره على أن يفعل ما لا يعقله.

أما قبل البلوغ فالتكليف ليس من الله ، بل من الأسرة ، لتدربه على الطاعة.

ورسول الله ﷺ يقول لنا : «مروا أولادكم بالصلاة لسبع سنين ، واضربوهم عليها لعشر سنين ، وفرِّقوا بينهم فى المضاجع [(١)]» [(٢)].

وهنا نجد أن الذى يأمر هو الأب وليس الله ، والذى يعاقب هو الأب ، وليس الله ، وما إن يصل الابن إلى مرحلة البلوغ يبدأ تكليفه من الله .

أما إذا جاء مَنْ يُكْرِهه على أن يرتكب معصية بقوة تفوق قوته كأن يمسك (مسدساً) ويقولَ له : إن لم تشرب الخمر أطلقتُ عليك النار ، فهنا يرفع عنه التكليف.

ورسول الله ﷺ يقول فى الحديث الشريف : «إن الله تجاوز عن أمتى: الخطأ ، والنسيان ، وما اسْتُكرِهوا عليه» [(٣)].

---

(١) المضاجع : أماكن النوم سواء أكانت فُرُشاً أو غيرها.

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٢/ ١٨٧) ، وأبو داود فى سننه (٤٩٥) عن عبد الله بن عمرو بن العاص.

(٣) أخرجه ابن ماجه فى سننه (٢٠٤٥) والدار قطنى فى سننه (٤/ ١٧٠) والحاكم فى المستدرك (٢/ ١٩٨) وصححه على شرط الشيخين ، عن ابن عباس ، ولكن إسناد ابن ماجه منقطع .

فالعقل - إذن - هو مناط التكليف ، وعمله أن يختار بين البدائل فى كل شىء ، ففى الطعام مثلاً نجد مَنْ يهوى وضع (الشطة) فوق الطعام ؛ لأنها تفتح شهيته للطعام ، وبعد أن يأكل نجده صارخاً من الحموضة ، ويطلب المهضِّمات ، وقد لا تفلح معه ، بل وقد تُفسد له الغشاء المخاطى الموجود على جدار المعدة لحمايتها ؛ فَرُبَّ أكْلة منعتْ أكلات ؛ ولذلك نجد عقله يقول له : احذر من هذا اللون من المشهيات ؛ لأنه ضارٌّ بك.

وهكذا نجد العقل هو الذى يوضح للإنسان نتائج كل فعل ، وهو الذى يدفع إلى التأنى والإجادة فى العمل ؛ ليكون ناتج العمل مفيداً لك ولغيرك باستمرار ، ولم يأتِ العقل للإنسان ليستمرىء به الخطأ والخطايا.

وهكذا نجد أن العقل يدرك ويختار السلوك الملائم لكل موقف ، بل إن العقل يدعو الإنسان إلى الإيمان حتى فى مرحلة ما قبل التكليف ، فحين يتأمل الإنسان بعقله هذا الكون لا بُدَّ أن يقوده التأمل إلى الاعتراف بجميل صنيع الخالق سبحانه وتعالى.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِي ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾ (١)

وهنا يُحدِّثنا الحق سبحانه عن عالم المُلْك الذى تراه ، ولا يتكلم عن عالم الملكوت الذى يغيب عنك ، وكأنك إن اقتنعت بعالم الملك ، وقلت :

---

(١) قل انظروا ماذا فى السموات والأرض : أمر للكفار بالنظر والاعتبار فى المصنوعات الدالة على الصانع والقادر على الكمال ، والآيات هنا بمعنى : الأدلة والبراهين على ألوهية الله ووحدانيته ، والآية تفيد عموم النظر فى ملكوت الله لكل مَنْ أراد أن يتذكر أو يتدبر . والنذر : الرسل ، جمع نذير ، وهو الرسول ﷺ . عن قوم يؤمنون : أى : عمَّن سبق له فى علم الله سبحانه أنه لا يؤمن . [تفسير القرطبى : ٤/ ٣٣١٤] - بتصرف.

إن لهذا العالم خالقاً إلهاً قادراً قوياً ، وتؤمن به ؛ هنا تهبُّ عليك نفحات الغيب ؛ لتصل إلى عالم الملكوت ؛ لأنك اكتشفت فى داخلك أمانتك مع نفسك ، وأعلنت إيمانك بالخالق سبحانه ، ورأيت جميل صُنْعه فى السماء والكواكب ، وأعجبْتَ بدقة نظام سَيْر تلك الكواكب.

وترى التوقيت الدقيق لظهور الشمس والقمر ومواعيد الخسوف الكلى أو الجزئى ، وتُبهر بدقة المنظِّم الخالق سبحانه وتعالى ، ولن تجد زحام مرور بين الكواكب يعطل القمر أو يعطل الأرض ، ولن يتوقف كوكب ما لنفاد وقوده ، بل كما قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (١) (٤٠) ﴾ [يس]

ونحن فى حياتنا حين نرى دقة الصنعة بكثير فيما هو أقل من السماء والشمس والقمر ، فنحن نكرِّم الصانع ، وقد أكرمت البشرية مصمِّم التلغراف ، ومصمم جهاز التليفزيون ، فما بالنا بخالق الكون كله سبحانه.

ويكفى أن نعلم أن الشمس تبعد عنا مسافة ثمانى دقائق ضوئية ، والثانية الضوئية تساوى ثلاثمائة ألف كيلو متر ، وهى شمس واحدة تراها ، غير آلاف الشموس الأخرى فى المجرَّات الأولى ، وكل مجرَّة فيها ملايين من المجموعات الشمسية ، ويكفى أن تعلم أن الحق سبحانه قد أقسم

(١) لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر : قال الثورى : أى : لا يدرك هذا ضوء هذا، ولا هذا ضوء هذا. وقال عكرمة : يعنى أن لكل منهما سلطاناً، فلا ينبغى للشمس أن تطلع بالليل . ولا الليل سابق النهار : قال مجاهد : يطلبان حثيثين يُسلخ أحدهما من الآخر، والمعنى فى هذا أنه لا فترة بين الليل والنهار، بل كل منهما يعقب الآخر بلا مهلة ولا تراخ ؛ لأنهما مسخران دائبان والفلك : جمع أفلاك ، وهى المدارات فى السماء التى تدور فيها النجومُ والكواكب؛ فكأنها تسبح فى الفضاء . [تفسير ابن كثير : ٣/ ٥٧٣] بتصرف . « وهذا دليل على تقدير العزيز العليم » .

بالشمس [١]، وقال عن كوكب الشِّعْرى :

﴿ وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَىٰ [٢] (٤٩) ﴾ [النجم]

لأن كوكب الشعرى أكبر من الشمس.

وحين تتأمل السموات والأرض تجد فى الأرض جبالاً شامخة ، وتمر عليها فتُدْهش من دقة التكوين ودقة التماسك ، وتجد فى داخلها نفائس ومعادن بدرجات متفاوتة ، وقد تجد أسطح الجبال مُكوَّنة من مواد خصبة بشكل هشٍّ ، فإذا ما نزل عليها المطر ، فهو يصحبها معه إلى الأرض ؛ لأنها تكون مجرد ذرات كذرات برادة الحديد ، وتتخلل الأرض التى شقَّقتها حرارة الشمس.

والمثل الواضح على ذلك هو ما كان يحمله النيل من غرْيَن [٣] فى أثناء الفيضان إلى الدلتا قبل بناء السد العالى ، وكانت مياه النيل فى أيام الفيضان تشبه مادة «الطحينة» من فرط امتزاجها بذرات الغرْين ، وفى مثل هذا الغرين يوجد الخِصْب الذى نأخذ منه الأقوات [٤].

ولو أن الجبال كلها كانت هشَّة التكوين ، لأزالها المطر مرة واحدة ، وجعلها مجرد مسافة نصف متر مضاف لسطح الأرض ، ولاختفى الخصب من الأرض بعد سنوات ، لكن شاء الحق سبحانه أن يجعل الجبال

---

(١) قال الحق سبحانه فى سورة الشمس : ﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (١) ﴾ [الشمس] . وقد ذكر الله عز وجل الشمس فى كتابه العزيز (٣٢) مرة ، بل إنه سبحانه جعل سورة كاملة باسم هذا النجم.

(٢) قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وابن زيد وغيرهم عن (الشعرى) إنه هو النجم الوقاد الذى يقال له مرزم الجوزاء ، وكانت طائفة من العرب يعبدونه فى الجاهلية . [تفسير ابن كثير : ٤/ ٢٥٩].

(٣) الغرين : ما بقى فى أسفل الحوض والغدير من الماء أو الطين ، وقيل : هو الطين الذى يحمله السيل فيبقى على وجه الأرض رطباً أو يابساً ، وكذلك (الغريل) . قال الأصمعى : الغرين أن يجىء السيل فيثبت على الأرض ، فإذا جفَّ رأيت الطين رقيقاً على وجه الأرض قد تشقق . [لسان العرب : مادة (غ ر ن)].

(٤) أقوات : جمع قوت ، وهو الرزق ، ويطلق لفظ قوت على كل ما يُقتات به من رزق الله سبحانه وتعالى.

متماسكة ، وجعل سطحها فقط هو الهش لينزل المطر فى كل عام مرة ؛ ليحمل الخصب إلى الأرض.

ومَنْ يتأمل هندسة التكوين فى الاقتيات يجد الجبال مخازن للقوت.

فالبشر يحتاجون إلى الحديد ليصنعوا منه ما يفيدهم ، سواء أكان آلات لحرث الأرض ، أو أى آلات أخرى تساعد فى تجميل الحياة ، وتجد الحديد مخزوناً فى الجبال.

وكذلك نجد المواد الأخرى مثل الفوسفات أو المنجنيز ، أو الرخام ، أو الفيروز أو الغازات .

إذن : فالمطمور [1] فى الجبال إما للاقتيات ، أو وسيلة إلى الاقتيات ، أو وسيلة للتَّرف فوق الاقتيات.

وحين ينزل المطر فوق الجبال فهو يأخذ الخصْب من الطبقة الهشَّة [2] على سطح الجبال وتبقى المواد الأخرى كثروات للنَاس ، ففى إفريقيا مثلاً توجد مناجم للفحم والماس ، وفى بلاد أخرى تجد عود الطيب ، وهو عبارة عن جذور أشجار.

وأنت لو شققت الأرض كقطاع من محيط الأرض إلى المركز تجد الأرض الخصبة مع الصحراء ، مع المياه ، مع الجبال ، متساوية فى الخير مع القطاع المقابل للقطاع الأول.

---

(١) طمر الشىء : خبَّأه . ومطمور : اسم مفعول من طمر ، وطمر : إذا تغيَّب واستخفى ، والمراد : خيرات الله المختفية داخل الأرض تنتظر إذن الله تعالى لها بالظهور.

(٢) والشىء الهش الغير متماسك ، وهشم الشىء اليابس هشماً كسره قال تعالى : ﴿ ..كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ ﴾ [القمر] أى : كالحطب والخشب المحطم فى يد المحتظر . أى : صانع الحظيرة [القاموس القويم صـ ٣٠٣ باختصار] .

وقد تختلف نوعيات العطاء من موقع إلى آخر على الأرض ، فأنت لو حسبت مثلاً ما أعطاه المطر للنيل من خصْب الجبال من يوم أن خلق الله - عز وجل - النيل فى أرض وادى النيل فى إفريقيا ، وحسبت ما أعطاه النفط (البترول) فى صحراء الإمارات مثلاً ، ستجد أن عطاء النيل يتساوى مع عطاء البترول ، رغم أن اكتشاف البترول قد تَمَّ حديثاً .

وكل قُوت محسوب من مخازن القوت ، وكل قوت له زمن ، فهناك زمن للفحم ، وزمنٌ للبترول ، كل ذلك بنظام هندسى أنشأه الحكيم الأعلى سبحانه .

وما دام الحق سبحانه وتعالى قد قال : ﴿يَعْقِلُونَ﴾ فى مجال النظر فى السموات وفى الأرض ، فهذه دعوة لتأمل عجائب السموات والأرض .

ومن تلك العجائب أن الجبال الشاهقة لها قمة ، ولها قاعدة ، مثلها مثل الهرم ، وتجد الوديان على العكس من الجبال ؛ لأن الوادى يكون بين جبلين ، وتجد رأس الوادى فى أسفله ، ورأس الجبل فى قمته .

وحين ينزل المطر فهو يمرُّ برأس الجبل الضيق ؛ ليصل إلى أسفل قاع الوادى الضيق ، وكلما نزل المطر فهو يأخذ من سطح الجبل ؛ ليملأ مساحة الوادى المتسعة ، وكلما ازداد الخلق ، زاد الله سبحانه رقعة الاقتيات .

ومثال ذلك تجده فى الغرْيَن القادم من منابع النيل ؛ ليأتى إلى وادى النيل والدلتا ، وكانت هذه الدلتا من قبل مجرد مستنقعات مالحة ، وشاء لها الحق سبحانه أن تتحول إلى أرض خصبة .

وحين نتأمل ذلك نرى أن كل شىء فى الكون قد أوجده الحق سبحانه بحساب .

والذى يفسد الكون هو أننا لا نقوم بتكثير ما تكاثر ، بل ننتظر إلى أن تزدحم الأرض بمن عليها ، ثم نفكر فى استصلاح أراضٍ جديدة ، وكان يجب أن نفعل ذلك من قبل .

وكلما نزل المطر على الجبال فهى تتخلخل وتظهر ما فيها من معادن ، يكتشفها الإنسان ويُعْمِل عقله فى استخدامها.

والمؤمن حين يرى ذلك يزداد إيماناً ، وكلما طبَّق المؤمن حُكْماً تكليفياً مأموراً به ، يجد نور الإيمان وهو يشرق فى قلبه.

وليُجرِّب أى مسلم هذه التجربة [1] ، فليجرب أن يعيش أسبوعاً فى ضوء منهج الله سبحانه وتعالى ، ثم يَزِنْ نفسه ويُقيِّمها ليعرف الفارق بين أول الأسبوع وآخر الأسبوع ، سيَكتشف فى هذا الأسبوع أنه يصلى فى مواقيت الصلاة ، وسيجد أنه يعرق فى عمله ليكسب حلالاً ، وسيجد أنه يصرف ماله فى حلال.

زنْ نفسك يقيناً فى آخر الأسبوع ستجد أن نفسك قد شفَّت شفافية رائعَة ؛ لتجد ضوء ونور الإيمان وهو يصنع انسجاماً بينك وبين الكون كله فى أبسط التفاصيل وأعقدها أيضاً.

ومثال ذلك : إنك قد تجد الرجل من هؤلاء الذين أسبغ عليهم تطبيقُ منهج الله الشفافيةَ تسأله زوجته : ماذا نطبخ اليوم ؟ فيقول لها : فَلْنقْضِ اليوم بما بقى من طعام أمس ، ثم يُفَاجأ بقريب له يزوره من الريف ، وقدَ جاءه ومعه الخير .

لقد وصل الرجل إلى درجة من الشفافية تجعله منسجماً مع الكون كله ، فيصله رزق الله تعالى له من أىِّ مكان.

وتجد الشفافية أيضاً فى أعقد الأمور ، ألم يَقُلْ يعقوب عليه السلام :

﴿إِنِّى لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ..(٩٤)﴾ [يوسف]

---

(١) هذه تجربة التريض الإيمانى : فالمسلم الذى تخلى عن المعاصى وتحلى بالطاعات تجلى الله عليه بالفيوضات والنفحات .

وكان إخوة يوسف - عليه السلام - ما زالوا على أبواب مصر خارجين منها للقاء أبيهم ، حاملين قميصَ يوسف ، الذى أوصاهم يوسف بإلقائه على وجه أبيه ليرتد إليه بصره [(١)] .

لقد جاءت ريح يوسف عليه السلام لأبيه يعقوب ؛ لأن يعقوب عليه السلام قد عاش فى انسجام مع الكون ، ولا توجد مُضَارة بينه وبين الكون .

والمثال الحىّ لذلك هو فرح الكون لمجىء رسول الله ﷺ ، يوم مولده ، لقد فرح الكون بمقدم الرسول ﷺ ؛ لأن الكون عابد مُسبِّح لله سبحانه ، فحين يأتى مَنْ يدعو العباد إلى التوحيد لا بُدَّ أن يفرح الكون ، أما مَنْ يَعْصِ الله تعالى ، فالكون كله يكرهه ويلعنه ، ويتلاعن الاثنان .

وقد فرح الكون بمجىء الرسول الذى أراد الله سبحانه أن تنزل عليه الرسالة الإلهية ليعتدل ميزان الإنسان مع الكون .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِى السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ . . (١٠١) ﴾ [يونس]

والكون كله أمامهم ، فلماذا لا ينظرون ؟ إنهم يبصرون ولا يستبصرون ، مثل الذى يسمع ولا يسمع ؛ ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى :

---

(١) وذلك أن يوسف عليه السلام بعد ما تعرَّف عليه إخوته قال لهم : ﴿ قَالَ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٩٢) اذْهَبُوا بِقَمِيصِى هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيراً وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ (٩٣) وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلا أَن تُفَنِّدُونِ (٩٤) ﴾ [يوسف] أى : لولا أن تتهمونى بفساد الرأى والخرف .

﴿ .. وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ[١] عَنْ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ (١٠١) ﴾ [يونس]

إذن : فعدم إيمانهم أفقدهم البصيرة والتأمل.

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ[٢] (١٠٢) ﴾

وهؤلاء الذين لا يؤمنون يظلون فى طغيانهم يعمهون[٣] ، وكأنهم ينتظرون أن تتكرر معهم أحداث الذين سبقوا ولم يؤمنوا ، لقد جاءهم الرسول ببيان ككل المكذِّبين السابقين.

ونحن نعلم أن اليوم[٤] هو وحدة من وحدات الزمن ، وبعده الأسبوع ، وبعد الأسبوع نجد الشهر ، ثم نجد السنة ، وكلما ارتقى الإنسان قسَّم اليوم إلى ساعات ، وقسَّم الساعات إلى دقائق ، وقسَّم الدقائق إلى ثوانٍ.

وكلما تقدمت الأحداث فى الزمن نجد المقاييس تزداد دقة ، واليوم - كما قلنا - جعله الله سبحانه وتعالى وحدة من وحدات الزمن ، وهو مُكوَّن من ليل ونهار.

---

(١) النذر : جمع نذير ، وهو الرسول بحججه وآياته وبراهينه .

(٢) خلوا : مضوا وسبقوا . أى : فما ينتظرون بكفرهم إلا مثل ما وقع للأمم التى سبقتهم من العذاب والعقاب . [تفسير الجلالين ص ١٨٨] .

(٣) يعمهون : يتحيَّرون ويترددون فى الضلال . قال ابن الأثير : العَمَهُ فى البصيرة كالعمى فى البصر . [لسان العرب : مادة (ع م هـ)] .

(٤) اليوم : فى علم الفلك هو مقدار دوران الأرض حول محورها مرة ، ومدته أربع وعشرون ساعة وجمعه أيام . وأيام العرب : وقائعهم . وأيام الله : أيام جلت فيها نعمه وعذابه . القاموس القويم صـ ٣٧٤ .

ولكن قد يُذكر اليوم ويُراد به ما حدث فيه من أحداث مُلْفِتة ، مثلما نقول : «يوم ذى قَرَد» [(١)] و«يوم حنين» [(٢)] و«يوم أحُد» .

إذن : فقد يكون المقصود باليوم الحدث البارز الذى حدث فيه ، وحين ننظر فى التاريخ ، ونجد كتاباً اسمه «تاريخ أيام العرب» ، فنجد «يوم بُعَاث» [(٣)] و«يوم أوطاس» [(٤)] وكل يوم يمثل حرباً .

إذن : فاليوم ظرف زمنى ، ولكن قد يُقصَد به الحدث الذى كان فى مثل هذا اليوم .

ومثال ذلك أنك قد تجد من أهل الزمن المعاصر مَنْ عاش فى أزمنة سابقة فيتذكر الأيام الخوالى ويقول : كانت الأسعار قديماً منخفضة ، وكان كل شىء مُتوفراً ، فيسمع مَنْ يرد عليه قائلاً : لقد كانت أياماً ، أى : أنها أيام حدث الرخاء فيها .

إذن : فقد يُنسَب اليوم إلى الحدث الذى وقع فيه .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلاَّ مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا .. (١٠٢) ﴾ [يونس]

---

(١) ذو قرد : مكان به ماء من أرض نجد ، على مسافة يوم من المدينة ، مما يلى بلاد غطفان . ذهب أكثر كتب السيرة إلى أنها كانت قبل الحديبية ، أما البخارى فى صحيحه فقد ذهب إلى أنها قبل خيبر بثلاث سنين ، وذكرها بعد الحديبية . انظر : سيرة ابن هشام (٣/ ٢٨١) ودلائل النبوة (٤/ ١٧٨ - ١٩٣) .

(٢) كان فى السنة الثامنة للهجرة بعد فتح مكة ، وقد قال سبحانه فيه : ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ (٢٥) ﴾ [التوبة] .

(٣) يوم بُعَاث : هو يوم اقتتلت فيه الأوس والخزرج ، وكان الظفر فيه يومئذ للأوس على الخزرج ، وكان على الأوس يومئذ حضير بن سماك الأشهلى أبو أسيد بن حضير ، وعلى الخزرج عمرو بن النعمان البياضى ، فَقُتلا جميعاً . (سيرة ابن هشام ٢/ ٥٥٥) .

(٤) يوم أوطاس هو نفسه يوم حنين ، وكان فى سنة ثمان للهجرة بعد فتح مكة . وأوطاس : واد فى ديار هوازن ، كانت فيه وقعة حنين .

والذين خلوا منهم قوم نوح عليه السلام وقد أغرقهم الله سبحانه ، وقوم فرعون الذين أغرقهم الله تعالى أيضاً.

والله سبحانه هو القائل:

﴿ فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا [1] وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٠) ﴾ [العنكبوت]

وهذه أيام حدثت فيها أحداث يعلمونها ، فهل هم ينتظرون أياماً مثل هذه ؟

بالطبع ما كان يصحُّ لهم أن يستمرئوا الكفر ، حتى لا تتكرر معهم مآسٍ كالتى حدثت لمن سبقهم إلى الكفر.

ونحن نجد فى العامية المثل الفطرى الذى ينطق بإيمان الفطرة ، فتسمع من يقول : «لك يوم يا ظالم» أى : أن اليوم الذى ينتقم فيه الله تعالى من الظالم يصبح يوماً مشهوراً ؛ لأن الظالم إنما يفترى على خلق الله ؛ لذلك يأتى له الحق سبحانه بحدث ضخم يصيبه فيه الله تعالى ويذيقه مجموع ما ظلم الناسَ به.

وقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ .. قُلْ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ (١٠٢) ﴾ [يونس]

---

(١) الحصب : كل ما يلقى فى النار ، لتُسعَّر به . قال تعالى : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ .. (٩٨) ﴾ [الأنبياء] ، وحصبه : قَذفه بالحصى ، قال تعالى : ﴿ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا .. (١٧) ﴾ [الملك] أى : إعصاراً شديداً يقذفكم بالحصى ، فيهلككم ، والرياح العاصفة تفعل أكثر من ذلك .

وقوله هنا : ﴿فَانتَظِرُوا﴾ فيه تهديد ، وقوله : ﴿إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ (١٠٢)﴾ فيه بشارة ؛ لأن الرسول ﷺ سينتظر هذا اليوم ليرى عذابهم ، أما هو ﷺ فسوف يتحقق له النصر فى هذا اليوم.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٣)﴾ (١)

والحق سبحانه قد أنجى - مِنْ قَبْل - رُسله ومَنْ آمنوا بهم ، لتبقى معالم للحق والخير.

ومن ضمن معالم الخير والحق لا بد أن تظل معالم الشر ، لأنه لولا مجىء الشر بالأحداث التى تعَضُّ الناس لما استشرف الناس إلى الخير.

ونحن نقول دائماً : إن الألم الذى يصيب المريض هو جندى من جنود العافية ؛ لأنه ينبه الإنسان إلى أن هناك خللاً يجب أن يبحث له عن تشخيص عند الطبيب ، وأن يجد علاجاً له.

والألم يوجد فى ساعات اليقظة والوعى ، ولكنه يختفى فى أثناء النوم ، وفى النوم رَدْع ذاتىٌّ للألم.

وقول الحق سبحانه هنا :

﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٣)﴾ [يونس]

هذا القول يقرر البقاء لعناصر الخير فى الدنيا.

---

(١) أى : أن الله سبحانه قد نجَّى رسله السابقين والذين آمنوا معهم من العذاب، وسينجى النبى ﷺ وأصحابه والمؤمنين به حين تعذيب الكفار والمشركين. [تفسير الجلالين ص ١٨٨ - بتصرف].

وكلما زاد الناس فى الإلحاد زاد اللهِ تعالى فى المدد ، ففى أىِّ بلد يُفْترى فيها على الإيمان ويُظْلم المؤمنون ، ويكثر الطغاة ؛ تجد فيها بعض الناس منقطعين إلى الله تعالى ، لتفهُّم حقيقة القيم ، وحين تضيق الدنيا بالظلمة والطغاة تجدهم يذهبون إلى هؤلاء المنقطعين لله، ويسألونهم أن يدعوا لهم.

وقد ألزم الحق - سبحانه وتعالى - هنا نفسه بأن يُنجى المؤمنين فى قوله سبحانه : ﴿ .. كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٣) ﴾ .

ويقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك :

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٤) ﴾

والشَّكُّ[1] معناه: وضَعْ أمرين فى كِفَّتين متساويتين.

وهنا يأمر الحق سبحانه رسوله ﷺ بأن يعرض على الكافرين قضية الدين ، وأن يضعوها فى كفة ، ويضعوا فى الكفة المقابلة ما يؤمنون به.

ويترك لهم الحكم فى هذا الأمر.

هم - إذن - فى شك : هل هذا الدين صحيح أم فاسد ؟

وعَرْض الرسول ﷺ لأمر الدين للحكم عليه ، يعنى : أن أمر الدين ملحوظ أيضاً عند أىِّ كافر ، وهو ينتبه أحياناً إلى قيمة الدين.

---

(١) الشك : نقيض اليقين، وجمعه : شكوك . قال تعالى : ﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ .. (١٠) ﴾ [إبراهيم] . [لسان العرب : مادة (ش ك ك)] .

فإن كنتم فى شكٍّ من الدين الذى أنزلَ على رسول الله ﷺ ، وهل ينتصر الرسول ﷺ ومَنْ معه عليهم ، أم تكون لهم الغلبة ؟

وحين يعرض الرسول ﷺ أمر الدين عليهم ، ويترك لهم الحكم ، فهذه ثقة منه ﷺ بأن قضايا دينه إنْ نظر إليها الإنسان ليحكم فيها ، فلا بد أن يلتجىء الإنسان إلى الإيمان.

ويحسم الحق سبحانه وتعالى أمر قضية الشرك به ، ويستمر أمره إلى الرسول ﷺ أن يقول :

﴿ فَلا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ .. (١٠٤) ﴾ [يونس]

أى : أنه ﷺ لا يمكن أن يعبد الشركاء وأن يعبد الله ؛ لأنه لن يعبد إلا الله ﴿ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ (١٠٤) ﴾ .

ثم جاء سبحانه بالدليل الذى لا مراء [1] فيه ، الدليل القوى ، وهو أن الحق سبحانه وتعالى وحده هو المستحق للعبادة ؛ لأنه ﴿ الَّذِى يَتَوَفَّاكُمْ ﴾ [2] ، و لا يوجد مَنْ يقدر أو يتأبى على قَدَر الله سبحانه حين يُميته.

وهنا قضيتان :

الأولى : قضية العبادة فى قوله سبحانه : ﴿ فَلا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِى يَتَوَفَّاكُمْ .. (١٠٤) ﴾ [يونس]

---

(١) المراء، والمماراة ، والتمارى، والامتراء : الجدال والشك. قال تعالى : ﴿ ..فَلا تُمَارِ فِيهِمْ إِلاَّ مِرَاءً ظَاهِرًا وَلا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا (٢٢) ﴾ [الكهف]. وقال تعالى : ﴿ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ (١٢) ﴾ [النجم]. وكذلك المرية (بكسر الميم، وبضمها)، قال تعالى : ﴿ وَلا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ .. (٥٥) ﴾ [الحج] [لسان العرب : مادة (م ر ى)] بتصرف.

(٢) يتوفاكم : يميتكم ويقبض أرواحكم. وهو من توفية العدد ، أى : يقبض أرواحكم أجمعين، فلا ينقص واحد منكم. ومن ذلك قوله عز وجل : ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ..(٤٢) ﴾ [الزمر] أى : يستوفى مُدد آجالهم فى الدنيا. [اللسان : مادة وفى].

وكان لا بُدَّ أن يأتى أمر المسألتين معاً : مسألة عدم عبادة الرسول لمن هم من دون الله ، ومسألة تخصيص الله تعالى وحده بالعبادة.

والفصل واضح بما يُحدِّد قطع العلاقات بين معسكر الإيمان ومعسكر الشرك ، كما أورده الحق سبحانه فى قوله :

﴿ قُلْ يَـٰأَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ (٤) وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (٦) ﴾ [الكافرون]

والذين يقولون : إن فى سورة (الكافرون) [1] تكراراً لا يلتفتون إلى أن هذا الأمر تأكيد لقطع العلاقات ؛ ليستمر هذا القطع فى كل الزمن ، فهو ليس قطعاً مؤقَّتاً للعلاقات [2].

وهذا أول قَطْع للعلاقات فى الإسلام ، بصورة حاسمة ليست فيها أية فرصة للتفاهم أو للمساومة ، ويظل كل معسكر على حاله.

---

(١) نزلت سورة الكافرون فى رهط من قريش قالوا: يا محمد ، هلم اتبع ديننا ونتبع دينك، تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة، فإن كان الذى جئت به خيراً مما بأيدينا قد شركناك فيه وأخذنا بحظنا منه، وإن كان الذى بأيدينا خيراً مما فى يدك قد شركت فى أمرنا وأخذت بحظك، فقال: معاذ الله أن أشرك به غيره. فأنزل الله تعالى : ﴿ قُلْ يَـٰأَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) ﴾ إلى آخر السورة، فغدا رسول الله ﷺ إلى المسجد الحرام وفيه الملأ من قريش، فقرأها عليهم حتى فرغ من السورة، فأيسوا منه عند ذلك. [أسباب النزول - للواحدى ص ٢٦١].

(٢) أقوال مُفسِّرى وعلماء سلفنا الصالح تتلاقى كلها فيما قاله فضيلة الشيخ هنا. فقال البعض منهم البخارى وغيره أن المراد بـ ﴿ لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) ﴾ [الكافرون] فى الماضى و﴿ وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ (٤) وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) ﴾ [الكافرون] فى المستقبل. وقال البعض الآخر: إن هذا تأكيد محض. وهناك قول آخر نصره الإمام ابن تيميه، وهو أن المراد بقوله: ﴿ لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) ﴾ [الكافرون] نفى الفعل لأنها جملة فعلية ﴿ وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ (٤) ﴾ [الكافرون] نفى قبوله لذلك بالكلية؛ لأن النفى بالجملة الاسمية آكد، فكأنه نفى الفعل وكونه قابلاً لذلك، ومعناه نفى الوقوع، ونفى الإمكان الشرعى أيضاً. انظر تفسير ابن كثير (٤/ ٥٦١).

يقول الحق سبحانه وتعالى فى سورة النصر :

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا (٣)﴾ [النصر]

هنا يتأكد الأمر ، فبعد أن قطع الرسول ﷺ العلاقات مع معسكر الشرك ، جاء نصر الله سبحانه وتعالى وفَتْحه ، فَهُرِع الناس من معسكر الشرك إلى معسكر الإيمان [1] .

هم - إذن - الذين جاءوا إلى الإيمان . . هذه هى **القضية الأولى** :

﴿فَلا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ . . (١٠٤)﴾ [يونس]

وهم كانوا يعبدون الأصنام المصنوعة من الحجارة .

وأنت إذا نظرتَ إلى الأجناس فى الوجود ، فأكرمها هو الإنسان الذى سخَّر له الحق سبحانه بقية الأجناس لتكون فى خدمته .

والجنس الأقل من الإنسان هو الحيوان .

ثم يأتى الجنس الأقل مرتبةً من الإنسان والحيوان ، وهو النبات .

ثم يأتى الجماد كأدنى الأجناس مرتبةً ، وهم قد اتخذوا من أدنى الأجناس آلهة ، وهذه هى قمة الخيبة .

وتأتى **القضية الثانية** فى قول الحق سبحانه وتعالى :

---

(١) كان بين سورتى «الكافرون» ، و«النصر» ما يزيد على ١٥ سنة ، فسورة الكافرون نزلت فى بداية الدعوة ومحاولة قريش إثناء رسول الله ﷺ عن الاستمرار فى دعوته ، ثم حدثت المفاصلة ، ثم الهجرة ، ثم الغزوات ، إلى أن تَمَّ نصر الله بفتح مكة ، ودخل الناس فى دين الله أفواجاً ، فكانت سورة النصر . وهذا يؤكد ما قاله فضيلة الشيخ من امتداد القطع مع معسكر الشرك ؛ ليشمل الزمن كله بالنسبة لقضية الإيمان ماضياً وحاضراً ومستقبلاً .

﴿ ..وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٤) ﴾ فإذا كان رسول الله ﷺ قد رفض العبادة لمن هُمْ دون الله سبحانه ، فمعنى ذلك أنه لن يعبد سوى الله تعالى .

وليس هذا موقفاً سلبياً ، بل هو قمة الإيجاب ؛ لأن العبادة تقتضى استقبال منهج الله بأن يطيع أوامره ، ويجتنب نواهيه .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا[1] وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٥) ﴾

وما دام الخطاب مُوجَّهاً لرسول الله ﷺ ، فهو ككل خطاب مِنَ الحقِّ سبحانه لرسوله ﷺ ، إنما ينطوى على الأمر لكل مؤمن .

وإذا ما عبد المؤمن الله سبحانه فهو يستقبل أحكامه ؛ ولذلك يأتى الأمر هنا بألا يلتفت وجه الإنسان المؤمن إلى غير الله تعالى ، فيقول الحق سبحانه :

﴿ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا .. (١٠٥) ﴾ [يونس]

فلا يلتفت فى العبادة يميناً أو يساراً ، فما دام المؤمن يعبد الله ولا يعبد غيره ، فليعلم المؤمن أن هناك - أيضاً - شِرْكاً خفياً[2] ، كأن يعبد الإنسان مَنْ هم أقوى أو أغنى منه ، وغير ذلك من الأشخاص التى يُفتن بها الإنسان .

---

(١) حنيفاً : مائلاً عن كل طرق ومناهج الضلال ، إلى طريق الحق وحده .

(٢) الشرك الخفى : هو الرياء وطلب السمعة والصيت . فعن شداد بن أوس قال قال ﷺ : «إن أخوف ما أتخوَّف على أمتى الإشراك بالله . أما إنى لست أقول : يعبدون شمساً ولا قمراً ولا وثناً . ولكن أعمالاً لغير الله ، وشهوة خفية» أخرجه ابن ماجه فى سننه (٤٢٠٥) .

ونحن عرفنا من قبل قول الحق سبحانه :

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا [(١)] مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ [(٢)] إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا .. (١٢٥) ﴾ [النساء]

والحنف [(٣)] أصله ميل فى الساق ، وتجد البعض من الناس حين يسيرون تظهر سيقانهم متباعدة ، وأقدامهم مُلْتَفَّة ، هذا اعوجاج فى التكوين.

أما المقصود هنا بكلمة (حنيفاً) أى : معوج عن الطريق المعوج ، أى : أنه يسير باستقامة.

ولكن : لماذا يأتى مثل هذا التعبير ؟

لأن الدين لا يجىء برسول جديد ومعجزة جديدة ، إلا إذا كان الفساد قد عَمَّ ؛ فيأتى الدين ؛ ليدعو الناس إلى الميل عن هذا الفساد. وفى هذا اعتدال لسلوك الأفراد والمجتمع.

ويحذرنا رسول الله ﷺ من أن نقع فى الشرك الخفى بعد الإيمان بالله تعالى.

---

(١) الدين : الطاعة والانقياد والشريعة والجزاء ، والعقيدة والمنهج والصراط المستقيم [القاموس القويم - باختصار صـ ٢٣٩] .

(٢) الملة (بكسر الميم ، وتضعيف اللام) : الشريعة ، والدين. قال تعالى : ﴿ .. إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٣٧) ﴾ [يوسف]. وقال تعالى : ﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ .. (٧٨) ﴾ [الحج] . [لسان العرب : مادة : م ل ل] . . بتصرف.

(٣) الحنف فى القدمين : إقبال كل واحدة منهما على الأخرى بإبهامها. ورجل أحنف ، وامرأة حنفاء ، وبه سُمِّى «الأحنف بن قيس» ، واسمه «صخر» ؛ لحنف كان فى رجْله. قال الجوهرى : الحنف : الاعوجاج فى الرِّجْل. وقال أبو عمرو : الحنيف هو المائل من خير إلى شر ، أو من شر إلى خير. وحنف عن الشىء وتحنف : مال. والحنيف : المسلم الذى يتحنف عن الأديان ، أى : يميل إلى الحق ، وقيل : هو الذى يستقبل قبلة البيت الحرام على ملة إبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ، قال تعالى : ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلاَ نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا .. (٦٧) ﴾ [آل عمران]. وقيل : الحنيف هو الذى يميل عن الضلال ، ويبعد عنه ليتجه إلى الحق ، وقد صارت هذه الكلمة علماً على المسلمين. [لسان العرب : مادة (ح ن ف) - بتصرف].

ويأتى الكلام عن هذا الشرك الثانى فى قول الحق سبحانه :

﴿ ..وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٥) ﴾ [يونس]

وهذا الشرك الثانى هو أقل مرحلة من شرك العبادة ، ولكن أن تجعل لإنسانٍ أو لأىِّ شىء مع الله عملاً .

فإن رأيت - مثلاً - للطبيب أو للدواء عملاً ، فَقُلْ لنفسك : إن الطبيب هو مَنْ يصف الدواء كمعالج ، ولكن الله سبحانه وتعالى هو الذى يشفى ، بدليل أن الطبيب قد يخطىء مرة ، ويأمر بدواء تحدث منه مضاعفات ضارة للمريض .

- وعلى المؤمن ألا يُفتنَ فى أىِّ سبب من الأسباب .

ونذكر مثالاً آخر لذلك ، وهو أن بلداً من البلاد ذات الرقعة الزراعية المتسعة أعلنت فى أحد الأعوام أنها زرعت مساحة كبيرة من الأراضى بالقمح بما يكفى كل سكان الكرة الأرضية ، ونبتت السنابل وأينعتْ ، ثم جاءتها ريح عاصف أفسدت محصول القمح ، فاضطرت تلك الدولة أن تستورد قمحها من دول أخرى .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ (١٠٦) ﴾

والمشرك من هؤلاء لحظة أنْ عبدَ الصنم ودعاه من دون الله تعالى ، فهل استجاب له ؟ وحين عبده هل قال الصنم له : افعل كذا ، ولا تفعل كذا ؟

إن الأصنام التى اتخذها المشركون آلهة لم يكُنْ لها منهج ، ولا أحد منها

ينفع أو يضر ، وحين يجيء النفع لا يعرف الصنم كيف يمنعه ، وحين يجيء الضُّر لا يقدر الصنم أن يدفعه.

إذن : فمَنْ يدعو من دون الله - سبحانه وتعالى - هو دعاء لمن لا ينفع ولا يضر.

ومَنْ يفعل ذلك يكون من الظالمين ؛ لأن الظلم هو إعطاء حقٍّ لغير ذى حق ، سواء أكان فى القمة ، أو فى غير القمة[1].

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ ﴾

هذا كلام الربوبية المستغنية عن الخلق ، فالله سبحانه وتعالى خلق الناس ، ودعاهم إلى الإيمان به ، وأن يحبوه ؛ لأنه يحبهم ، ويعطيهم ، ولا يأخذ منهم ؛ لأنه فى غِنىً عن كل خلقه.

ويأتى الكلام عن الضُّر هنا بالمسِّ ، ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ .. ﴿١٠٧﴾ ﴾ [يونس]

ونحن نعلم أن هناك «مساً» و«لمساً» و«إصابة».

وقوله سبحانه هنا عن الضر يشير إلى مجرد المسِّ ، أى : الضر البسيط ، ولا تَقُلْ : إن الضر ما دام صغيراً فالخلق يقدرون عليه ، فلا أحد

(١) أى : سواء كان ظلماً فى القمة - أى : بالإشراك بالله- أو ظلماً فى غير القمة بظلم العباد بأخْذِ حقوقهم والتعدِّى عليهم.

يقدر على الضر أو النفع ، قَلَّ الضر أم كَبُرَ ، وكَثُر النفع أو قَلَّ ، إلا بإذن من الله تعالى.

والحق سبحانه وتعالى يذكر الضر هنا بالمسّ ، أى : أهون الالتصاقات ، ولا يكشفه إلا الله سبحانه وتعالى.

ومن عظمته - جَلَّ وعلا - أنه ذكر مع المس بالضر ، الكشفَ عنه ، وهذه هى الرحمة.

ثم يأتى سبحانه بالمقابل ، وهو «الخير» ، وحين يتحدث عنه الحق سبحانه ، يؤكد أنه لا يرده.

ونحن نجد كلمة ﴿يُصِيبُ﴾ فى وَصْف مجىء الخير للإنسان ، فالحق سبحانه يصيب به من يشاء مِنْ عباده.

ويُنهى الحق سبحانه وتعالى الآية بهذه النهاية الجميلة فى قوله تعالى :

﴿ .. وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٠٧) ﴾ [يونس]

وهكذا تتضح لنا صورة جلال الخير المتجلى على العباد ، ففى الشر جاء به مسّاً ، ويكشفه ، وفى الخير يصيب به العباد ، ولا يمنعه.

والله تعالى هو الغفور الرحيم ؛ لأنه سبحانه لو عامل الناس - حتى المؤمنين منهم - بما يفعلون لعاقبهم ، ولكنه سبحانه غفور ورحيم ؛ لأن رحمته سبقت غضبه [(١)] ؛ ولذلك نجده سبحانه فى آيات النعمة يقول :

﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا [(٢)] .. (١٨) ﴾ [النحل]

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : «لما قضى الله الخلق كتب فى كتابه، فهو عنده فوق العرش : إن رحمتى غلبت غضبى» أخرجه البخارى فى صحيحه (٣١٩٤) ومسلم (٢٧٥١).

(٢) الإحصاء : العد والحصر.

وجاء الحق سبحانه بالشكِّ ، فقال ﴿إن﴾ ولم يقل : «إذا تعدون نعمة الله» ؛ لأن هذا أمر لن يحدث ، كما أن الإقبال على العَدِّ هو مظنَّة أنه يمكن أن يحصى ؛ فقد تُعدُّ النقود ، وقد يَعدّ الناظر طلاب المدرسة ، لكن أحداً لا يستطيع أن يعُدّ أو يُحصى حبَّات الرمال مثلاً.

وقال الحق سبحانه وتعالى :

﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا.. (١٨)﴾ [النحل]

وهذا شَكٌّ فى أن تعدوا نعمة الله .

ومن العجيب أن العدَّ يقتضى التجمع ، والجمع لأشياء كثيرة ، ولكنه سبحانه جاء هنا بكلمة مفردة هى ﴿نِعْمَةَ﴾ ولم يقل : «نِعَم» فكأن كل نعمة واحدة مطمور فيها نِعَمٌ شتَّى.

إذن : فلن نستطيع أن نعدَّ النِّعَم المطمورة فى نعمة واحدة.

وجاء الحق سبحانه بذكر عَدِّ النعم فى آيتين :

الآية الأولى تقول :

﴿..وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ [1] (٣٤)﴾ [إبراهيم]

والآية الثانية تقول :

﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٨)﴾ [النحل]

---

(١) ظلوم : صيغة مبالغة من (الظلم) ، أى : كثير الظلم لنفسه أو لغيره ، أو لهما معاً.
وكفَّار : صيغة مبالغة من (الكفر) ، أى : شديد الكفر ، والكفر فى اللغة : الستر ، من ستر الشىء إذا أخفاه. فكأن الإنسان بعدم شكر الله على النعمة يكون قد كفرها. أى : سترها وأخفاها ولم يؤدِّ حقها من الذكر والشكر.

وصَدْر الآيتين واحد ، ولكن عَجُزَ كل منهما مختلف ، ففى الآية الأولى : ﴿ .. إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤) ﴾ [إبراهيم]

وفى الآية الثانية : ﴿ .. إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٨) ﴾ [النحل]

لأن النعمة لها مُنْعم ؛ ومُنْعَم عليه ، والمنعَم عليه - بذنوبه - لا يستحق النعمة ؛ لأنه ظلوم وكفار. ولكن المنعم سبحانه وتعالى غفور ورحيم ، ففى آية جاء مَلْحظ المنعِم ، وفى آية أخرى جاء ملحظ المنعَم عليه.

ومن ناحية المنعَم عليه نجده ظَلُوماً كفَّاراً ؛ لأنه يأخذ النعمة ، ولا يشكر الله عليها.

ألم تَقُلْ السماء : يارب! ائذن لى أن أسقط كِسَفاً على ابن آدم ؛ فقد طَعِم خيرك ، ومنع شكرك.

وقالت الأرض : ائذن لى أن أنخسف بابن آدم ؛ فقد طَعِم خيرك ، ومنع شكرك.

وقالت الجبال : ائذن لى أن أسقط على ابن آدم.

وقال البحر : ائذن لى أن أغرق ابن آدم الذى طَعِم خيرك ، ومنع شُكْرك.

هذا هو الكون الغيور على الله تعالى يريد أن يعاقب الإنسان ، لكن الله سبحانه رب الجميع يقول: « دعونى وعبادى ، لو خلقتموهم لرحمتموهم ، إنْ تابوا إلىَّ فأنا حبيبهم ، وإنْ لم يتوبوا فأنا طبيبهم».

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ ﴾ (١)

إذن: فالحق سبحانه لم يُقصِّر مع الخلق، فقد خلق لكم العقول، وكان يكفى أن تفكّروا بها لتؤمنوا من غير مجىء رسول، وكان على هذه العقول أن تفكر فى القوىُّ الذى خلق الكون كله، بل هى التى تسعى لتطلب أن يرسل لها القوىّ رسولاً بما يطلبه سبحانه من عباده، فإذا ما جاء رسول ليخبرهم أنه رسول من الله ويحمل البلاغ منه، كان يجب أن تستشرف آذانهم لما يقول.

إذن: كان على العباد أن يهتدوا بعقولهم؛ ولذلك نجد أن الفلاسفة حين بحثوا عن المعرفة، قالوا: إن هناك «فلسفة مادية» تحاول أن تتعرف على مادية الكون، وهناك «فلسفة ميتافيزيقية» (٢) تبحث عما وراء المادة.

فَمَنْ أعلمَ الفلاسفة - إذن - أن هناك شيئاً وراء المادة.

وكأن العقل المجرد ساعةَ يرى نُظُم الكون الدقيقة كان يجب أن يقول: إن وراء الكون الواضح المُحَسِّ قوة خفية.

ولم يذهب الفلاسفة إلى البحث فيما وراء المادة، إلا لأنهم أخذوا من

---

(١) الوكيل: الكفيل الموكل بأرزاق الناس وأمورهم، والحفيظ الذى يحفظ أعمال الناس. قال سبحانه: ﴿ ..وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [الأنعام]، وقد نفى الله سبحانه هذا عن نبيه ورسوله محمد ﷺ.

(٢) الفلسفة: لفظ يونانى ومعناه البحث عن الحقيقة. والميتافيزيقا: ما وراء الطبيعة والكون. أى: الغيبيات التى لا تخضع لقوانين المادة.

المادة أن وراءها شيئاً مستوراً.

والمستور الذى وراء المادة هو الذى يعلن عن نفسه ، فهو أمر لا نعرفه بالعقل.

وقديماً ضربنا مثلاً فى ذلك ، وقلنا: هَبْ أننا جالسون فى حجرة ، ودقَّ جرس الباب ، فعلم كل مَنْ فى الحجرة أن طارقاً بالباب ، ولم يختلف أحد منهم على تلك الحقيقة.

وهذا ما قاله الفلاسفة حين أقرُّوا بوجود قوة وراء المادة ، ولكنهم تجاوزوا مهمتهم ، وأرادوا أن يُعرِّفونا ماهية أو حقيقة هذه القوة ، ولم يلتفتوا إلى الحقيقة البديهية التى تؤكد أن هذه القوة لا يمكن أن تُعْرَف بالعقل ؛ لأننا ما دُمْنا قد عرفنا أن بالباب طارقاً يدق ؛ فنحن لا نقول من هو ، ولا نترك المسألة للظن ، بل نتركه هو الذى يحدد لنا مَنْ هو ، وماذا يطلب؟ لأن عليه هو أن يخبر عن نفسه.

اطلبوا منه أن يعلن عن اسمه وصفاته ، وهذه مسائل لا يمكن أن نعرفها بالعقل.

إذن: فخطأ الفلاسفة أنهم لم يقفوا عند تعقُّل أن هناك قوة من وراء المادة ، وأرادوا أن ينتقلوا من التعقُّل إلى التصور ، والتصورات لا تأتى بالعقل ، بل بالإخبار.

وهنا يقول الحق سبحانه:

﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ .. (١٠٨) ﴾ [يونس]

والحق - كما نعلم - هو الشىء الثابت الذى لا يتغير أبداً ، وأن يأتى

الحق من الرب الذى يتولى التربية بعد أن خلق من عدم وأمدَّ من عُدْم [(١)]، ولا يكلفنا بتكاليف الإيمان إلا بعد البلوغ ، وخلق الكون كله ، وجعلنا خلفاء فيه .

هو - إذن - مأمون علينا ، فإذا جاء الحق منه سبحانه وتعالى ، فلماذا لا نجعل المنهج من ضمن التربية ؟

لماذا أخذنا تربية المأكل والملبس وسيادة الأجناس ؟

كان يجب - إذن - أن نأخذ من المربِّى - سبحانه وتعالى - المنهج الذى ندير به حركة الحياة ؛ فلا نفسدها .

وحين يقول الحق سبحانه :

﴿ جَاءَكُمُ الْحَقُّ [(٢)] مِن رَّبِّكُمْ .. (١٠٨) ﴾ [يونس]

فمعنى ذلك أنه لا عُذْر لأحد أن يقول : «لم يُبلغْنى أحدٌ بمراد الله » ، فقد ترك الحق سبحانه العقول لتتعقل ، لا أن تتصور .

وجاء التصوُّر للبلاغ عن الله تعالى ، حين أرسل الحق سبحانه رسولاً يقول : أنا رسول من الله ، وهو القوة التى خلقت الكون ، وكان علينا أن نقول للرسول بعد أن تَصْدُق معجزته : أهلاً ، فأنت مَنْ كنا نبحث عنه ، فَقُلْ لنا : ماذا تريد القوة العليا أن تبلغنا به ؟

ثم يقول الحق سبحانه فى نفس الآية :

---

(١) العَدَم والعُدْم والعُدُم : فقدان الشىء وذهابه . ومثله فى ضبط حروف الكلمة : الرُّشْد والرَّشَد - الحُزْن والحَزَن . ومثله قوله تعالى : ﴿ لا إِكْرَاهَ فِى الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ .. (٢٥٦) ﴾ [البقرة] . وقوله تعالى : ﴿ .. رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا (١٠) ﴾ [الكهف] .

(٢) الحق : الأمر الثابت ضد الباطل ، والحق من أسماء الله الحسنى ، والحق القرآن ، والحق العدل والصدق والحكمة والبعث وكمال الأمر ، والحق الواقع الثابت الذى لا خلاف فيه ، قال تعالى : ﴿ أَلا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ أَلا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٥٥) ﴾ [يونس] ، والحق ما وجب عليك لغيرك [القاموس القويم بتصرف صـ ١٦٤ ، ١٦٥] .

﴿فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ..(١٠٨)﴾ [يونس]

لأن حصيلة هدايته لا تعود على مَنْ خلقه وهداه ، بل تعود عليه هو نفسه انسجاماً مع الكون ، وإصلاحاً لذات النفس ، وراحة بال ، واطمئناناً ، وانتباهاً لتعمير الكون بما لا يفسد فيه ، وهذا الحال عكس ما يعيشه مَنْ ضل عن الهداية .

ويقول الحق سبحانه عن هذا الصنف من الناس :

﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ..(١٠٨)﴾ [يونس]

وكلمة ﴿ضَلَّ﴾ تدل على أن الإنسان الذى يضل كانت به بداية هداية ، لكنه ضَلَّ عنها .

ويُنهى الحق سبحانه الآية بقوله : ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ (١٠٨)﴾ [يونس]

وأنت لا توكِّل إنساناً إلا لأن وقتك لا يسع ، وكذلك قدرتك وعلمك وحركتك ، وهنا يُبلغ الرسول القوم : أنا لا أقدر أن أدفع عنكم الضلال ، أو أجبركم على الهداية ؛ لأنى لست وكيلاً عليكم ، بل علىَّ فقط مهمة البلاغ [1] عن الله سبحانه وتعالى ، وهذا البلاغ إن استمعتم إليه بخلاء القلب من غيره ، تهتدوا .

وإذا اهتديتم ؛ فالخير لكم ؛ لأن الجزاء سيكون خلوداً فى نعيم تأخذونه مقابل تطبيق المنهج الذى ضيَّق على شهوات النفس ، ولكنه يهدى حياة نعيم لا يفوته الإنسان ، ولا تفوت النعم فيه الإنسان .

---

(١) وقد ورد تأكيد هذا فى آيات كثيرة من القرآن الكريم ، ومنه قوله تعالى : ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاغُ ..(٤٨)﴾ [الشورى] . وقال تعالى : ﴿..وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ (٥٤)﴾ [النور] . فكل المطلوب من الرسول هو إبلاغ رسالته ، وأن يكون هذا البلاغ مبيناً جلياً واضحاً .

وإذا كان الإنسان منَّا يقبل أن يتعب ؛ ليتعلَّم حرفة أو عملاً أو صنعة أو مهنة ؛ ليكسب الإنسان من إتقان هذا العمل بقية عمره.

أليس على هذا الإنسان أن يُقبل على العبادة التى تصلح باله ، وتسرع به إلى الغاية انسجاماً مع النفس ، ومع المجتمع ، وتقويماً وتهذيباً لشهوات النفس ، وينال من بعد ذلك خلود النعيم فى الآخرة.

أما من يستكثر على نفسه الجدَّ والاجتهاد فى تحصيل العلم ، أو تعلُّم مهنة أو حرفة ، فهو يحيا فى ضيق وعدم ارتقاء ، فهو لا يبذل جهداً فى التعلّم.

ونرى مَنْ يتعلم ويبذل الجهد ، وهو يرتقى فى المستوى الاجتماعى والاقتصادى ؛ ليصل إلى درجة الدكتوراة - مثلاً - أو التخصص الدقيق الذى يأتى له بسَعة الرزق.

وكلما كانت الثمرة التى يريدها الإنسان أينع [1] وأطول عمراً كانت الخدمة من أجلها أطول.

وقارن بين خدمتك لدينك فى الدنيا بما ينتظرك من نعيم الآخرة ؛ وسوف تجد المسافة بين عطاء الدنيا وعطاء الآخرة شاسعاً ، ولا مقارنة.

وقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَن ضَلَّ [2] فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا .(١٠٨) ﴾ [يونس]

---

(١) أينع : أكثر نُضْجاً . واليَنْع : النضج . ومنه قوله تعالى : ﴿ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ ..(٩٩) ﴾ [الأنعام].

(٢) ضَلَّ الكافر : غاب عن الحجة المقنعة ، وعدل عن الطريق المستقيم ، ولم يعرف الحق . والضلال : النسيان والضياع . وضلَّ الشىء : خفى وغاب فهو فعل لازم ، وضل المسافر الطريق مُتعدٍّ : لم يعرفه . [القاموس القويم صـ ٣٩٤ - بتصرف] .

تجد فيه كلمة ﴿عَلَيْهَا﴾ وهى تفيد الاستعلاء على النفس ، أى : أنك بالضلال - والعياذ بالله - تستعلى على نفسك ، وتركب رأسك إلى الهاوية .

وفى المقابل تجد قول الحق سبحانه :

﴿فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ .. (١٠٨)﴾ [يونس]

وتجد «اللام» هنا تفيد الملْك ؛ لذلك يقال : «فلان له» و«فلان عليه» .

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه فى ختام سورة يونس :

﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (١٠٩)﴾

وإذا كان الحق سبحانه قد أورد على لسان رسوله ﷺ : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ .. (١٠٨)﴾ [يونس]

فهذا يعنى البلاغ بمنهج الله - تعالى - النظرى ، ولا بُدَّ أن يثق الناس فى المنهج ، بأن يكون الرسول هو أول المنفذين للمنهج ، لأنه - معاذ الله - لو غشَّ الناس جميعاً لما غشَّ نفسه .

إذن : فبعد البلاغ [1] عن الحق سبحانه ، وتعريف الناس بأن الهداية

---

(١) البلاغ : اسم مصدر بمعنى الكفاية أو الإبلاغ أو التبليغ . قال تعالى : ﴿هَٰذَا بَلَاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ .. (٥٢)﴾ [إبراهيم] وقال تعالى : ﴿إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ (١٠٦)﴾ [الأنبياء] أى : فيما ذُكر من الأخبار والمواعظ .

ومبلغ الشىء : حدّه ونهايته التى يصل إليها ، أو مقداره الذى ينتهى به . قال تعالى : ﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ .. (٣٠)﴾ [النجم] [القاموس القويم - بتصرف ١/ ٨٣ ، ٨٤] .

لا يعود نفعها على الحق ، بل هى للإنسان ، فيملك نفسه ؛ ويملك زمام حياته ، فيسير براحة البال فى الدنيا إلى نعيم الآخرة ، وأن الضلال لا يعود إلا باستعلاء الإنسان على نفسه ؛ ليركبها إلى موارد التهلكة.

والرسول ﷺ ليس وكيلاً عنكم ، يأتى لكم بالخير حين لا تعملون خيراً ، ولا يصرف عنكم الشر وأنتم تعملون ما يستوجب الشر.

ولذلك كان على رسول الله ﷺ أن يكون هو النموذج والأسوة :

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ (١) حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ (٢) وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا (٢١) ﴾ [الأحزاب]

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ .. (١٠٩) ﴾ [يونس]

أى : عليك أن تكون الأسوة ، وحين تتَّبع ما يُوحَى إليك ؛ ستجد عقبات ممن يعيشون على الفساد ، ولا يرضيهم أن يوجد الإصلاح ، فَوطِّن العزم على أن تتبع ما يوحى إليك ، وأن تصبر.

---

(١) الأسوة : القدوة ، والمثل الأعلى الذى يُقتدى به . ورسول الله ﷺ هو أسوتنا وقدوتنا . وقد قال سبحانه عن إبراهيم عليه السلام أيضاً : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ .. (٤) ﴾ [الممتحنة] ثم قال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ .. (٦) ﴾ [الممتحنة].

(٢) ورد الرجاء فى القرآن على معان عدة :

- منها : الطلب والأمل فى تحقق شىء ، وذلك مثل قوله تعالى : ﴿ أُوْلَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ .. (٢١٨) ﴾ [البقرة] . وقوله تعالى : ﴿ وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللاَّتِي لا يَرْجُونَ نِكَاحًا .. (٦٠) ﴾ [النور].

- منها : الخوف ، مثل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ (٧) أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨) ﴾ [يونس].

ومجىء الأمر بالصبر دليل على أن هناك عقبات كثيرة ، وعليك أن تصبر وتعطى النموذج لغيرك [١] ، والثقة فى أنه لو لم يكن هناك خير فى اتباع المنهج لما صبرت عليه ؛ حتى يأتى حكم الله ﴿ .. وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (١٠٩) ﴾ [يونس]

وليس هناك أعدل ولا أحكم من الله سبحانه وتعالى.

وهذه السورة التى تُخْتَم بهذه الآية الكريمة ، تعرضت لقضية الإيمان بالله ، قمة فى عقيدة لإله واحد يجب أن نأخذ البلاغ منه سبحانه ؛ لأنه الرب الذى خلق من عَدَم ، وأمدَّ من عُدْم ، ولم يكلِّفنا إلا بعد مرور سنوات الطفولة وإلى البلوغ ؛ حتى يتأكد أن المكلَّف يستحق أن يُكلَّف بعد أن انتفع بخيرات الوجود كله ، وتثبَّت من صدق الربوبية.

ومعنى الربوبية هو التربية ، وأن يتولى المربِّى المربَّى إلى أن يبلغ حَدَّ الكمال المرجوّ منه.

وقد صدقتْ هذه القضية فى الكون.

إذن: نستمع إلى الرب - سبحانه وتعالى - الذى خلق ، حين يُبيِّن لنا مهمتنا فى الحياة بمنهج تستقيم به حركة الحياة ، ويستقيم أمر الإنسان مع الغاية التى يعرفها قبل أن يخطو أى خطوة.

ومن المحال أن يخلق الله - سبحانه وتعالى - المخلوق ثم يُضيِّعه ، بل لا بد أن يضع له قانون صيانة نفسه [٢] ؛ لأن كل صنعة إنما يضع قانونها

---

(١) يقول سبحانه: ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ .. (٣٥) ﴾ [الأحقاف]. فالصبر هو اقتداء بالرسل الأعلام ، الذين صبروا على إيذاء أقوامهم صبراً تعجز عنه قدرات البشر ، مثل: نوح وموسى وعيسى وإبراهيم ومحمد ﷺ.

(٢) يقول تعالى: ﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى (٣٦) ﴾ [القيامة]. قال ابن كثير فى تفسيره (٤/ ٤٥٢): «الآية تعمُّ الحالين. أى: ليس يترك فى هذه الدنيا مهملاً لا يؤمر ولا ينهى، ولا يترك فى قبره سدى لا يبعث ، بل هو مأمور منهى فى الدنيا ، محشور إلى الله فى الدار الآخرة».

ويحدد الغاية لها مَنْ صنعها ، فإذا ما خالفنا ذلك نكون قد أحَلْنا [١] وغيَّرنا الأمور ، وأدخلنا العالم فى متاهات ، وصار لكل امرىء غاية ، ولكل امرىء منهج ، ولكل عقل فكر ، ولَصار الكون متضارباً ؛ لأن الأهواء ستتضارب ، فتضعف قوة الأفراد ؛ لأن الصراع بين الأنداد [٢] يُضعِف قوة الفرد عن معالجة الأمر الذى يجب أن يعالجه.

فأراد الله - سبحانه وتعالى - توحيداً [٣] فى العقيدة ، وتوحيداً فى المنهج.

وأراد الحق سبحانه وتعالى أن يضرب لنا مثلاً تطبيقياً فى مواكب الرسالات ، فذكر لنا فى هذه السورة قصة نوح - عليه السلام - وقصة موسى وهارون - عليهما السلام - وذكر بينهما القصص الأخرى.

ثم ذكر قضية يونس عليه السلام.

ثم ختم السورة بقوله سبحانه:

﴿ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ .. (١٠٩) ﴾ [يونس]

بلاغاً عن الله تعالى.

وما دُمْتَ تبلّغ ، وأمتك أمة محسوبة - إلى قيام الساعة - أنها وارثة

---

(١) أحلنا الأمور: حوَّلناها وبدلناها لغير ما وضعت له. وفى اللسان: كل شىء تغير عن الاستواء إلى العوَج فقد حال واستحال. ويقال: حال الرجل يحول مثل تحوَّل من موضع إلى موضع. (مادة: حول).

(٢) الأنداد: الأمثال والنظراء.

(٣) الرسالات فى جوهرها تسير بالتوحيد وعليه وبه ، يقول الحق سبحانه: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ .. (١٣) ﴾ [الشورى].

النبوة ، ولم تَعُدْ هناك نبوة بعدك يا محمد ﷺ تسليماً كثيراً.

وأراد الحق سبحانه لأمتك أن يحملوا الدعوة للمنهج الذى نزل إليك.

إذن: فرسول الله ﷺ سيكون شهيداً بأنه قد بلّغ ، ويجب أن تكون أمته شهيدة بأنها بلغت ، وأوصلت رسالة الله إلى الدنيا [1] ، وهذا شرف مهمة أمة محمد ﷺ .

ولم يكن لأمة غيرها مثل هذا الشرف ؛ فقد كان الأمر قبل رسول الله ﷺ أن دعوة أىِّ رسول تفتُر ، وتبهت تكاليفه [2] ، ويغفل عنها الناس ، فيرسل الله - سبحانه وتعالى - رسولاً ، ولكن الأمر اختلف بعد رسالة محمد عليه الصلاة والسلام ، فلم تَعُدْ هناك نبوة ، ولا رسالة ، ولكن صار هناك مَنْ يحملون منهج الله تعالى.

والرسول ﷺ هو الأسوة ؟ لأنه مُبلغ منهج الله ، وهو أسوة فى تطبيق قانون صيانة الإنسان وحركته ، ونموذج تطبيقى حتى لا يكلف الناس فوق ما تطيقه إنسانيتهم ؛ ولذلك كان يُصِر على أنه بشر ، وأوضح القرآن الكريم ذلك بلا أدنى غموض:

﴿ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ .. (٦) ﴾ [فصلت]

---

(١) يقول رب العزة سبحانه وتعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا .. (١٤٣) ﴾ [البقرة]. وقال تعالى: ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ (٧٨) ﴾ [الحج].

(٢) أى: يطول عليهم الزمن فتُنسى رسالة الرسول، ويقع فيها التحريف والتبديل والتغيير، وقد حدث أكثر هذا مع بنى إسرائيل.

ليؤكد صدق الأسوة ؛ لأنه ﷺ لو لم يكن بشراً وطلب من الناس أن يفعلوا مثله لقالوا: لن نستطيع لأنك لست مثلنا.

ولذلك نلحظ أن القرآن يؤكد على بشرية رسول الله ﷺ ، ولكنه ﷺ يزيد عن البشر باصطفاء الله سبحانه له ؛ ليكون رسولاً يُوحَى إليه ، فمهمته الرسالية الأولى أن يُبلغ هذا الوحى ، والمهمة الثانية أن يؤكد بسلوكه أنه مقتنع بهذا الوحى ويُطبِّقه على نفسه.

ويقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ[1] .. (٢١)﴾ [الأحزاب]

وكان رسول الله ﷺ من ناحية الثراء أقلَّ الناس مالاً ، وهو غير متكبر ، ولا جبَّار ، وهو كنموذج سلوكى تتوازن فيه وبه كل الفضائل ؛ فلم يطلب لنفسه شيئاً ، بل إنه منع أقاربه وأهله من حقوق أقرها لغيرهم من المسلمين ، فأقاربه لم يُعطهم الحق فى أن يرثوا شيئاً مما يملكه بعد وفاته وقد حرمهم ؛ ليكونَ كل عمل صادر منه ﷺ أو ممن ينتسبون بالقرابة إليه هو عمل خالص لوجه الله تعالى.

وهذا السلوك هو عكس سلوك الرئاسات البشرية ، أو السلطات الزمنية ، فهذه الرئاسات أو تلك السلطات تفيض أول ما تفيض على نفسها بالخير ، ثم تفيضه على الدوائر القريبة منها حسب أقطار القرب ؛ فالقريب جداً يأخذ أولاً وكثيراً ، ومَنْ يبعد فى القرابة يأخذ الأقل حسب درجة بُعْده.

---

(١) الأسوة والإسوة: القدوة. ويقال: ائتس به ، أى: اقتد به وكُنْ مثله. قال الليث: فلان يأتسى بفلان ، أى: يرضى لنفسه ما رضيه ويقتدى به. وقال الهروى: تأسَّى به: اتبع فعله واقتدى به. [لسان العرب: مادة (أ س ا)].

لكن الذى فى دائرة القرابة مع رسول الله ﷺ لا يأخذ حتى ما يأخذه الفقير فى أمة محمد عليه الصلاة والسلام ، وكأن الله سبحانه وتعالى يدلنا بذلك على أنه من العيب أن يكون الإنسان منسوباً لآل بيت النبوة ، ويكون موضعاً لأخذ الزكاة.

إذن: فالاتِّباع الذى أمر الله تعالى به ، هو اتباع الوحى بلاغاً ، واتباع ما يُوحَى به تطبيقاً ، وسيتطلب هذا مواجهة متاعب كثيرة ، وسيلقى عقبات من الجبابرة المنتفعين بالفساد فى الأرض ، فلا بُدَّ أن يصادموا هذه الدعوات ؛ ليحافظوا على سلطتهم الزمنية ، فيأمر الحق سبحانه وتعالى رسوله ﷺ بأن يصبر ، وفى الأمر بالصبر إشارة إلى أن الرسول ﷺ مُقْبِل على عقبات فَلْيُعِدّ نفسه لتحمُّل هذه العقبات بالصبر [(١)].

وفى آية أخرى يأمره الحق سبحانه وتعالى أن يصبر ويصابر هو والمؤمنون.. يقول سبحانه:

﴿ اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا [(٢)] .. (٢٠٠) ﴾ [آل عمران]

أى: إن صبرت ، فقد يصبر خَصْمك أيضاً ، وهنا عليك أن تصابره ، وكلمة «اصبروا» توضح أن دعاة منهج الحق سبحانه لا بد أن يتعرضوا لمتاعب ، وإلا ما كانت هناك ضرورة لأن يجىء ، فلو كان العالم مستقيم الحركة ، فما ضرورة المنهج إذن ؟

---

(١) وقد كان الحق سبحانه يُعدُّ نبيه ﷺ لهذا ، من نحو قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ (٣٤) ﴾ [الأنعام].

(٢) اصبروا على الطاعات والمصائب ، واصبروا عن المعاصى. وصابروا الكفار فلا يكونوا أشد صبراً منكم. ورابطوا أى: جاهدوا وأقيموا عليه واستمروا فيه. [تفسير الجلالين: ص٦٤]. وصيغة «صَابَر» من «فَاعَل» تدل على شدة الفعل والمبالغة فيه ، أى: شدة الصبر والتحمُّل. و الاستمرار عليه حتى الوصول للهدف.

ولكن المنهج قد جاء ؛ لأن الفساد قد عَمَّ الكون ، ويحتاج إلى إصلاح ، وإلى مواجهة المفسدين ، وهذا ما يرهق الداعين إلى الله تعالى ، وليُوطّن كل داعية نفسه على ذلك ، ما دام قد قام ليدعو إلى منهج الحق سبحانه وتعالى .

وكل داع إلى الله لا يصيبه أذى ، فهذا يُنقص من حظه فى ميراث النبوة ؛ لأن الذى يأتى له الأذى هو الذى يأخذ حظاً من ميراث النبوة ، فالأذى لا يجىء إلا بمقدار خطورة الداعى إلى الله سبحانه على الفساد والمفسدين ، وهم الذين يتجمعون ضده .

ورسول الله ﷺ يقول : «نضَّر [1] الله امرأ سمع مقالتى فوعاها [2] وحفظها وبلَّغها ، فرُبَّ حامل فقه إلى مَنْ هو أفقه منه» [3] .

إذن : فنحن أمة محمد ﷺ قد ورثنا منه البلاغ ، وورثنا منه الأسوة الحسنة :

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً (٢١) ﴾ [الأحزاب]

إذن : فقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ .. (١٠٩) ﴾ [يونس]

هو دليل على أن الوحى بصدد الإنزال ؛ لأن الوحى لم ينزل بالقرآن

---

(١) النضارة : إشراق الوجه ونوره .

(٢) وعاها : حفظها ، فكان كالوعاء يعى ما يوضع فيه ، وإن لم يدرك تفاصيل ما وعاه .

(٣) أخرجه الترمذى فى سننه (٢٦٥٨) وأبو نعيم فى حلية الأولياء (٧/ ٣٣١) من حديث عبد الله بن مسعود .

دَفْعة واحدة ، فقد كان الوحى ينزل على رسول الله ﷺ طوال حياته [(١)] .

وهكذا تكون حياة رسول الله ﷺ هى مقام الاستقبال للوحى .

وقول الحق سبحانه :

﴿ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ .. (١٠٩) ﴾ [يونس]

يوضح لنا أنه سبحانه قد وضع حداً تؤمل فيه أن الأمر لن يظل صبراً ، وأن القضية ستُحسم من قريب بحكم من الله تعالى .

وكلمة ﴿ يَحْكُمَ ﴾ توضح أن هناك فريقين ؛ كُلٌّ يدَّعى أنه على حق ، ثم يأتى مَنْ يفصل فى القضية ، والحجة إما الإقرار أو الشهود ، وبطبيعة الحال لن يُقرَّ الكفار بكفرهم ، والشهود قد يكونون عُدولاً ، أو يكونون ممن يُدارونَ فسْقهم فى ظاهر العدالة . فإذا كان الله سبحانه وتعالى هو الحاكم ، فهو لا يَحتاج إلى شهود ؛ لأنه خير الشاهدين ، والله سبحانه لا يحكم فقط دون قدرة إنفاذ الحكم ، لا بل هو يحكم وينفذ .

إذن : فهو سبحانه قد شهد وحكم ونفَّذ ، ولا توجد قوة تقف أمام قدرة الله تعالى ، أو تقف أمام حكم الله عز وجل .

ونحن فى زماننا نرى القُوى وهى تختلف ، فنجد القوىَّ من الدول وقد تسلَّط على الضعيف ، فيلجأ الضعيف إلى الأمم المتحدة ومجلس الأمن ، ويصدر كل منهما قرارات ، وحتى لو افترضنا عدالة الحكم ، فأين قوة التنفيذ ؟ إنها غير موجودة .

---

(١) أى : كان ينزل مُنجّماً على حسب الأحوال والوقائع ، وهذا جعل القرآن بالنسبة لأصحاب رسول الله ﷺ غَضّاً رطباً ، لأنه ينزل بما يناسب حالهم . ومعلوم أن القرآن له تنزُّل آخر ، حيث نزل جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا . راجع الإتقان فى علوم القرآن (١/ ١١٦) .

ولكن قدرة الحق الأعلى سبحانه هى قدرة خير الحاكمين ، لأنه هو سبحانه الذى يشهد ، وهو سبحانه لا يحتاج إلى مَنْ يُدلِّس عليه فى الشهادة ؛ لأنك إن عمَّيت على قضاء الأرض ، فلن تُعمِّى على قضاء السماء (١) .

وبعد ذلك يحكم الحق سبحانه حُكْماً لا هوى فيه ؛ لأن آفة الأحكام أن يدخلها الهوى فتميل ، والحق سبحانه لا هوى له ؛ لأنه لا مصلحة له عند العباد ، فهو الخالق عز وجل ، ولن يأخذ مصلحة من مخلوق (٢) .

ويطمئننا الحق سبحانه على أن رسوله ﷺ أيضاً لا ينطق عن الهوى.

فيقول رب العزة سبحانه :

﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤ ﴾ [النجم]

---

(١) عن أم سلمة عن رسول الله ﷺ «أنه سمع خصومة بباب حجرته ، فخرج إليهم فقال : إنما أنا بشر ، وإنه يأتينى الخصم ، فلعل بعضكم أن يكون أبلغ من بعض ، فأحسب أنه صدق فأقضى له بذلك ، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هى قطعة من النار ، فليأخذها أو ليتركها» أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٤٥٨) ومسلم (١٧١٣).

(٢) يقول سبحانه : ﴿ لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ .. ۝٣٧ ﴾ [الحج]. فالله تعالى هو الغنى عما سواه ، وقد كان أهل الجاهلية إذا ذبحوا الهدايا والضحايا لآلهتهم وضعوا عليها من لحوم قرابينهم ونضحوا عليها من دمائها . فبيَّن عز وجل أن ما يناله الله منهم هو التقوى وإخلاص القلب لله . (تفسير ابن كثير ٣/ ٢٢٤ بتصرف).

(٣) الهوى : هوى النفس ، وإرادتها ومحبتها الشىء ، قال تعالى : ﴿ ..وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٤٠ ﴾ [النازعات] أى : منعها عن المعاصى والشهوات ، وإذا تكلم بالهوى مطلقاً لم يكن إلا مذموماً حتى يُنعت بما يخرجه عن معناه كقولهم : هوى حسن ، أو هوى موافق للصواب . أما المراد به فى الآية فهو الهوى المذموم . قال تعالى : ﴿ ..فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا ۝١٣٥ ﴾ [النساء] . وقال تعالى : ﴿ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ..۝٢٦ ﴾ [ص]. وقال تعالى : ﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ ..۝٤٣ ﴾ [الفرقان] وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ .. ۝٥٠ ﴾ [القصص] . وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ .. ۝٧٧ ﴾ [المائدة] . وقال تعالى : ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ .. ۝١١٩ ﴾ [الأنعام]. [لسان العرب : مادة (هـ و ى) - بتصرف].

أى: اطمئنوا إلى حكمه ؛ لأنه لا ينطق عن هوى فليس فى نفسه ما يريد تحقيقه إلا دعوة الخلق إلى حُسْن عبادة الخالق سبحانه.

وقد يقول قائل: ولكن الحق - عز وجل - عدَّل للرسول بعضاً من الأحكام.

ونقول: لقد كان رسول الله ﷺ يجتهد ببشريته فيما لم يُنزل الله فيه حُكْماً ، وحين يُنزل الله حُكْماً ، فهو ﷺ ينزل على أمر الله تعالى ، ولم يكن رسول الله ﷺ يحكم حتى فيما اجتهد فيه عن هوى ، بل حكم بما رآه عدلاً ، وحين يُنزل الحق سبحانه وتعالى حُكْماً مغايراً فهو يبلغ المسلمين ويُعدِّل من الحكم.

إذن: فالتعديل للحكم هو قمة الأمانة مع البلاغ عن الله سبحانه وتعالى ، ورسول الله ﷺ قد أقبل على الحكم فى أمر لم ينزل فيه حكم من الله ، فهو قد حكم بما عنده من الرأى ، فيبلغ ﷺ الحكم من الله ، والذى عدَّل له ليس مساوياً له بل هو خالقه.

ثم إن الذى أخبرنا أن الله سبحانه قد عدَّل له هو النبى ﷺ ، فهل يوجد مَنْ يُضعِف مركز كلمته ، ويبلغ أن الحكم الذى صدر منه قد عُدِّل له ؟

ولكن رسول الله ﷺ الذى استقبل الوحى تحلّى بأمانة البلاغ عن الله ، وهو الذى نقل لنا عتاب ربه له [1].

---

(١) عاتبه ربه فى شأن عبد الله بن أم مكتوم الأعمى الذى جاءه يسعى ليتعلم منه ، فتلهَّى عنه رسول الله ﷺ بدعوة زعماء قريش للإيمان ، فنزلت سورة عبس: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ① أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ② وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ ③ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ ④ أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ ⑤ فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ ⑥ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ⑦ وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ ⑧ وَهُوَ يَخْشَىٰ ⑨ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ⑩ ﴾ [عبس]. وعاتبه أيضاً بقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ① ﴾ [التحريم].

وهذه قمة الصدق فى البلاغ عن الله ، وكان اجتهاد رسول الله ﷺ محصوراً فى الأمور التى لم يصدر فيها حكم من الله ، وكان فى ذلك أسوة حسنة لنا لنتجرأ ونجتهد.

وقد بعث رسول الله ﷺ معاذ بن جبل إلى اليمن فقال : كيف تصنع إن عرض لك قضاء ؟ قال : أقضى بما فى كتاب الله . قال : فإن لم يكن فى كتاب الله ؟ قال : فبسنة رسول الله ﷺ . قال : فإن لم يكن فى سنة رسول الله ﷺ ؟ قال : أجتهد رأيى لا آلو[1] . قال : وضرب رسول الله ﷺ صدرى ثم قال : الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله ﷺ لما يُرضى رسول الله ﷺ[2] .

والحق سبحانه وتعالى خير الحاكمين ؛ لأنه الشاهد الذى يعلم خائنة الأعين وما تُخفى الصدور[3] ، وهو سبحانه لا تخفى عليه خافية[4] ، ولا هوى له ، وهو الذى يصدر الحكم بمطلق عدله وبفضله ، وهو القادر على إنفاذ ما يحكم به ، ولا توجد قوة تجُير عليه ، ولا يوجد حاكم بقادر

---

(١) لا آلو : لا أقصِّر فى اجتهادى وبحثى المسألة . ومنه قولهم : فلان لا يألو خيراً . أى : لا يدعه ولا يزال يفصله . ويقول سبحانه : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا ..(١١٨) ﴾ [آل عمران] أى : لا يقصرون فى فسادكم .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٥/ ٢٣٠ ، ٢٣٦ ، ٢٤٢) وأبو داود فى سننه (٣٥٩٢) والترمذى (١٣٢٧) وقال : ليس إسناده عندى بمتصل . لا نعرفه إلا من هذا الوجه .

(٣) يقول رب العزة سبحانه : ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ (١٩) ﴾ [غافر] . فالله عز وجل يعلم العين الخائنة وإن أبدت أمانة ، ويعلم ما تنطوى عليه خبايا الصدور من الضمائر والسرائر . قال ابن عباس رضى الله عنهما : هو الرجل يدخل على أهل البيت بيتهم ، وفيهم المرأة الحسناء ، أو تمر به وبهم المرأة الحسناء فإذا غفلوا لحظ إليها ، فإذا فطنوا غضَّ بصره عنها ، فإذا غفلوا لحظ ، فإذا فطنوا غضَّ ، وقد اطلع الله من قلبه أنه ود أن لو اطلع على فرجها . ذكره ابن كثير فى تفسيره (٤/ ٧٥) .

(٤) يقول عز وجل : ﴿ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ (٨) عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ (٩) سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ (١٠) ﴾ [الرعد] .

على كل هذا إلا الله سبحانه.

وشاء الحق - عز وجل - أن يكرِّم المؤمنين الذين يحكمون بين الناس بأن جعل ذاته ضمنية بتفوق الخيرية على الحاكمين.

وواقع الأمر أن هناك بشراً يحكمون غيرهم، ولكن الحق سبحانه حكم بأنه خيرهم، فمن الحاكمين مَنْ قد يُدلس [1] عليه غيره، ومن الممكن أن يدخل الهوى فى أحكام هؤلاء الحاكمين، لكنه سبحانه لا تَخْفى عليه خافية، ولا يمكن أن يدخل الهوى إلى حكمه، وأحكامه نافذة بطلاقة قدرته سبحانه؛ لذلك فهو خير الحاكمين إطلاقاً.

وإذا سمعت جمعاً يدخل الله ذاته مع خلقه فيه؛ فاعلم أن ذلك إيذان بأن تأخذ من واقع ما تشهد حقيقة مَنْ لا تشهد؛ فالحق سبحانه يقول:

﴿ ..فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ﴾ [المؤمنون]

ويقول تعالى:

﴿ ..وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١) ﴾ [الجمعة]

ويقول تعالى:

﴿ ..رَبِّ لا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ (٨٩) ﴾ [الأنبياء]

ويقول تعالى:

﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ (٨) ﴾ [التين]

وكلما وجدت جَمْعاً أدخل الله ذاته مع عباده ممن لهم هذا الوصف، فهذا يَدلُّك على أن الموصوفين معه لهم تلك الصفات المذكورة، ولكنه

(١) التدليس: الإخفاء والمخادعة بعدم تبيين العيب فى الشىء. ومنه التدليس فى الإسناد بأن يُحدِّث المحدِّث عن شيخه الأكبر بما لم يسمعه منه، بل سمعه ممن هو دونه فى المرتبة.

سبحانه وتعالى أزلىٌّ مُطْلق الصفات ، وهم أحداث [١] وأغيار تنتابهم القوة والتغيُّر والضعف.

وتجد الله سبحانه وتعالى وهو يَصِفُ نفسه بأنه :

﴿ ..أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ﴾ [المؤمنون]

وكلنا نعلم أن الله سبحانه هو خالق كل شىء من عدم ، ولكن هناك من الخلق مَنْ يخلق شيئاً من موجود ؛ ولذلك فالله سبحانه وتعالى هو أحسن الخالقين.

والحق سبحانه يصف نفسه بأنه :

﴿ .. خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١) ﴾ [الجمعة]

والرزق هو ما به يُنتفع ، وقد يأتى لك ولىٌّ أمرك بالمأكل والمشرب والملبس ، ويعطيك ما تنتفع به ، ولكن الحق سبحانه وتعالى هو الذى خلق الرزق فى الكون كله.

ويقول الحق سبحانه واصفاً نفسه :

﴿ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٥٤) ﴾ [آل عمران]

والإنسان حين يمكر قد يُدارِى مسألة ، ويغفل عن ركن فيها ، لكن الله تعالى لا يغفل عن شىء.

إذن: فالخيرية فى الحكم لها نصيب من طلاقة قدرة الله تعالى ، ونحن عرفنا أن الرسول ﷺ حين حكم فى بعض الأحكام وعدَّلها له الله سبحانه وتعالى ، لم يكن لله تعالى حكم قبل أن يحكم رسول الله ﷺ.

---

(١) الأحداث: جمع حادث ، وهو ما يكون مسبوقاً بالعدم ، ويسمى حدوثاً زمانياً ، وقد يُعبَّر عن الحدوث بالحاجة إلى الغير ، ويسمى حدوثاً ذاتياً. (التعريفات للجرجانى - ص ٧١).

ومثال ذلك: قصة زيد بن حارثة [(١)]، وكان مولى أو عبداً لخديجة بنت خويلد [(٢)] رضى الله عنها، ووهبته لسيدنا رسول الله ﷺ، ثم علم أهله الذين كانوا يبحثون عنه أنه فى مكة، وكان قد خُطف صغيراً من بلده وبيع فى مكة، كعادة العرب فى الجاهلية مع الرقيق [(٣)]، فلما علموا بذلك ذهبوا إلى رسول الله ﷺ ليستردوا ابنهم، فقال لهم رسول الله: «والله إنى لأخَيِّره، فإن اختاركم فخذوه، وإن اختارنى فهو لى». فاختار زيد أن يبقى مع رسول الله ﷺ.

ولم يكن رسول الله بعد ذلك ليفرِّط فيه؛ فأعطاه شرف البنوَّة، فأسماه زيد بن محمد [(٤)].

---

(١) زيد بن حارثة بن شراحيل، صحابى، من أقدمهم إسلاماً، كان ﷺ لا يبعثه فى سرية إلا أمَّره عليها، وجعل له الإمارة فى مؤتة، فاستشهد فيها عام ٨ هـ (الأعلام ٣/ ٥٧).

(٢) هى: زوج رسول الله ﷺ تزوجها قبل البعثة بـ ١٥ عاماً، وأول مَنْ صدَّقتْ ببعثته ﷺ، كانت مُوسرةً، تَاجَر رسول الله بمالها، وكانت خير معين له فى رسالته. توفيت سنة عشر من البعثة بعد خروج بَنى هاشم من الشِّعب. راجع الإصابة فى تمييز الصحابة (٨/ ٦٠ - ٦٢).

(٣) الرقيق: العبيد، وقد سُمِّى العبيد رقيقاً لأنهم يرقون لمالكهم ويذلون ويخضعون. [راجع اللسان مادة رقق] وقال الجرجانى فى التعريفات (ص ٩٩): «الرق فى اللغة: الضعف. ومنه رقة القلب، وفى عُرْف الفقهاء عبارة عن عجز حكمى شرع فى الأصل جزاء عن الكفر. أما إنه عَجْز فلأنه لا يملك ما يملكه الحر من الشهادة والقضاء وغيرهما، وأما إنه حكمى فلأن العبد قد يكون أقوى فى الأعمال من الحرّ حسّاً».

(٤) وذلك أن حَارثة بن شراحيل جاء هو وأخوه كعب عم زيد إلى رسول الله ﷺ بمكة، وذلك قبل الإسلام، فقالا له: يا بن عبد المطلب، يا بن سيد قومه، أنتم جيران الله، وتفكون العانى (الأسير)، وتطعمون الجائع، وقد جئتك فى ابننا عبدك، فتحسن إلينا فى فدائه، فقال: أو غير ذلك؟ فقالا: وما هو؟ فقال: أدعوه وأخيِّره، فإن اختاركما فذاك، وإن اختارنى فوالله ما أنا بالذى أختار على من اختارنى أحداً، فقالا له: قد زدت على النصف، فدعاه رسول الله ﷺ، فلما جاء قال: من هذان؟ فقال: هذا أبى حارثة بن شراحيل، وهذا عمى كعب بن شراحيل، فقال: قد خيرتك إن شئت ذهبت معهما، وإن شئت أقمت معى، فقال: بل أقيم معك. فقال له أبوه: يا زيد، أتختار العبودية على أبيك وأمك وبلدك وقومك؟ فقال: إنى قد رأيت من هذا الرجل شيئاً، وما أنا بالذى أفارقه أبداً، فعند ذلك أخذ رسول الله ﷺ بيده، وقام به إلى الملأ من قريش فقال: اشهدوا أن هذا ابنى وارثاً وموروثاً. فطابت نفس أبيه عند ذلك، وكان يُدْعى زيد بن محمد، حتى أنزل الله تعالى: ﴿ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ ..۝﴾ [الأحزاب].

وهكذا رأى النبى ﷺ فى التبنِّى وسيلة تكريم ، ولكن الله عز وجل يريد أمراً غير هذا ، فقال سبحانه وتعالى :

﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٤٠) ﴾ [الأحزاب]

لأن الأبوة بالتبنِّى قد تحُدث خَلْطاً فى الأنساب ، فالابن بالتبنى له حق الزواج من ابنة مَنْ تبنَّاه ، فكيف نمنع عنه هذا الحق ، والابن بالتبنى قد تحرم عليه زوجة مَنْ تبناه إن رحل عنها أو طلقها.

لذلك شاء الحق سبحانه وتعالى أن يحفظ للأنساب حقوقها ومسئولياتها ، فقال سبحانه :

﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ . . (٤٠) ﴾ [الأحزاب]

ومهمته ﷺ كرسول من الله بالنسبة لكم أفضل من الأبوة لكم.

وقال الحق سبحانه فى تعديل حكم التبنى :

﴿ ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ [1] عِندَ اللَّهِ . . (٥) ﴾ [الأحزاب]

وهذا رَدٌّ لحكم من رسول الله بتكريم لرسول الله ، فما صنعه محمد ﷺ عَدْلٌ وقسْط بعُرْف البشر ، لكن حكم الله سبحانه وتعالى هو الأقسط والأعدلَ ، فينتهى بذلك نسب زيد من محمد ، ويعود إلى نسبه الفعلى «زيد بن حارثة» .

---

(١) القسط : العدل والحق ، ومنه قوله تعالى : ﴿ . . وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٤٢) ﴾ [المائدة]. أما القاسطون فهم الجائرون ، قال تعالى : ﴿ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا (١٥) ﴾ [الجن].

وحتى لا يؤثر هذا الأمر فى نفس زيد ، نجد الحق سبحانه وتعالى يكرمه تكريماً لم يُكرِّمه لصحابى غيره ، فهو الصحابى الوحيد الذى ذُكِر اسمه بالشخص والعَلَم فى القرآن ، فقال الحق سبحانه :

﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا [1] زَوَّجْنَاكَهَا .. (٣٧) ﴾ [الأحزاب]

وصار اسم «زيد» كلمة فى القرآن تُتْلَى ويُجْهَر بها فى الصلاة ، فإذا كان قد نفى عنه النسب إلى محمد ﷺ فقد أعطاه ذِكْراً ثانياً خالداً فى القرآن المحفوظ ، ومنحه بذلك شرفاً كبيراً .

وقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ .. وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (١٠٩) ﴾ [يونس]

يفيد أن حكم الله تعالى أعمُّ من أن يكون حكماً فى الدنيا أو الآخرة فقط ، فحكم الله سبحانه فى الدنيا نَصْرٌ لدين الله ، ومَنْ مات من المؤمنين أو الكفار لهم حكم آخر .

وختم الله تعالى سورة يونس بهذا الحكم ، وأهدى الله سبحانه كل مؤمن بيونس - كنبى من أنبياء الله تعالى - قضية عندما ذهب مغاضباً ، قال فيه الحق سبحانه :

﴿ وَذَا النُّونِ [2] إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) ﴾ [الأنبياء]

وأهداه الحق سبحانه وساماً بقوله :

---

(١) الوطر : قال الليث : الوطر كل حاجة كان لصاحبها فيها همة ، فهى وطره . وجمع الوطر : أوطار . وقال الزجاج : الوطر والأرب فى اللغة بمعنى واحد . وقال الخليل بن أحمد : الوطر كل حاجة يكون لك فيها همة ، فإذا بلغها البالغ قيل : قضى وطره وأربه . [لسان العرب : مادة (و ط ر)] .

(٢) النون : الحوت . وذو النون : لقب يونس بن متى عليه السلام . أى : صاحب الحوت ، وهو الحوت الذى ابتلع يونس عليه السلام بعد إلقائه فى البحر .

﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ [(١)] .. (٨٨) ﴾ [الأنبياء]

وأشركنا الحق سبحانه وتعالى فى هذا الوسام بقوله تعالى:

﴿ .. وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ (٨٨) ﴾ الأنبياء]

وهكذا أسدى [(٢)] إلينا سيدنا يونس جميلاً كبيراً، حين هداه الله إلى قوله:

﴿ .. لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) ﴾ [الأنبياء]

واستجاب الله تعالى لدعائه، وأنجاه من الغَمِّ، وهو أعنف جنود الله؛ لأن الشىء الذى يضايقك هو الذى لا تستطيع له دَفْعاً.

ولذلك يقال: إن العدو كلما لَطُفَ [(٣)] عَنُفَ؛ لأن العدو إن كان ضخم الحجم، تكون الوقاية منه أسهل من العدو الصغير سريع الحركة، فإن كان العدو ضخماً، فالإنسان يرى ضخامته من على البُعْد، فيجرى منه الإنسان أو يختبىء، لكن إن كان العدو ثعباناً رفيعاً - مثلاً - فقد لا يراه الإنسان، وقد لا يستطيع الفرار منه، وإنْ كان ميكروباً أو فيروساً لا يُرى بالعين المجرَّدة؛ فهو أعنفُ قدرةً وقوةً فى مهاجمة الإنسان.

إذن: كل مُتْعب فى الدنيا من الممكن أن تحتاط منه إلا ما يتلصَّص عليك بدقَّة ولُطْف؛ فإنك لا تعرف مدخله.

ونحن نسمع أن فلاناً قد أصيب بمرض ما، لأنه أخذ عدوى من فيروس ما، هذا الإنسان لا يعرف متى اخترق الفيروس جسده، لكنه فوجىء

---

(١) غم الشىء يغمه غماً: أخفاه وغطَّاه وستره.
وغمَّه الأمر: أحزنه.
قال تعالى: ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ .. (٨٨) ﴾ [الأنبياء]
والغمة: التباس الأمر وعدم وضوحه، قال تعالى: ﴿ ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً .. (٧١) ﴾ [يونس]
[القاموس القويم - ٢ / صـ ٦٠، ٦١ بتصرف]

(٢) أسدى: أعطى، وأهدى. [لسان العرب: مادة (س د ى)].

(٣) لطف الشىء يلطف: صَغُر. [لسان العرب: مادة (ل ط ف)].

بأعراض المرض تظهر عليه بعد كمون [١] الفيروس فى جسده لأسبوعين ، وهكذا نجد أن العدو كلما لَطُفَ عَنُفَ.

والغمُّ من أشد وأقسى أنواع البلاء ، وكلنا نعرف قصة الإمام على - كرَّم الله وجهه - وهو المشهور بالفُتْيا [٢] ، وكان الناس يستفتونه فيما يعجزون عن العثور على حل له ، واجتمع بعض من الناس وقالوا: نريد أن نجمع بعض الأشياء الصعبة ونسأله عنها لنختبره ، فلما اجتمعوا قالوا لعلىٍّ كرم الله وجهه: نريد أن نستعرض كون الله تعالى ، فقد جلسنا معاً لنعرف أقوى ما خلق الله ، واختلفنا فقال كل واحد اسم القوة على حَسْب ما يراها.

لم يتروَّ على بن أبى طالب ، ولم يَقُلْ كلاماً مَسْروداً [٣] بحيث إن وقف ، لا يطالبه أحد بزيادة ، بل حدَّد من الجملة الأولى عدد القوى حسب ترتيبها وقوتها ، حتى تطابق العدد على المعدود ، وهذا دليل على أنه مُسْتحضِرٌ للقضية استحضار الواثق. وفرد أصابع يديه وقال:

أشدُّ جنود الله عشرة: الجبال الرواسى ، والحديد يقطع الجبال ، والنار تذيب الحديد ، والماء يطفىء النار ، والسحاب المسخَّر بين السماء والأرض

---

(١) الكمون: الاختفاء والاستتار. ومنه : الكمين فى الحرب. وحزن مُكْتمِن فى القلب: مُخْتفٍ. [اللسان : مادة كمن].

(٢) الفتيا: تبيين المشكل من الأحكام ، أصله من الفتى ، وهو الشاب الحدث (الحديث السنّ) الذى شبَّ وقوى ، فكأنه يقوِّى ما أشكل ببيانه فيشب ويصير فَتيّاً قوياً. وأفتى المفتى إذا أحدث حكماً. وأفتاه فى الأمر: أبانه له. وأفتى الرجل فى المسألة. واستفتيته فيها فأفتانى إفتاء. قال تعالى: ﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا ..(١١) ﴾ [الصافات] وقال تعالى: ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ ..(١٧٦) ﴾ [النساء] أى: يسألونك. وقال تعالى: ﴿ .. قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ (٤١) ﴾ [يوسف] ، وقال تعالى عن بلقيس ملكة سبأ: ﴿ قَالَتْ يَـٰأَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِى فِى أَمْرِى ..(٣٢) ﴾ [النمل]. [لسان العرب: مادة (ف ت ى)] - بتصرف.

(٣) الكلام المسرود: الكلام المتتابع ، بعضه إثر بعض ، بحيث لا يدرك السامع أوله من آخره ، فلا يستطيع أن يستدرك شيئاً على المتكلم ، أو يحفظ منه شيئاً.

يحمل الماء ، والريح تقطع السحاب ، وابن آدم يغلب الريح ، يستتر بالثوب أو الشيء ويمضى لحاجته ، والسُّكْر يغلب ابن آدم ، والنوم يغلب السُّكْر ، والهمُّ يغلب النوم ، فأشد جنود الله - سبحانه - الهَمُّ.

هكذا قال سيدنا على بن أبى طالب ، فالهمُّ والغمُّ من أشد جنود الله تعالى ، وكان سيدنا يونس عليه السلام سبباً فى أن قدَّم الله سبحانه لكل مؤمن به إلى أن تقوم الساعة مَنْجًى من الهمِّ والغمِّ بالدعاء الذى ألهمه ليونس عليه السلام فى قوله تعالى:

﴿ ..لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِى الْمُؤْمِنِينَ (٨٨) ﴾ [الأنبياء]

وهكذا تعدَّتْ «النجاة من الغم» من الخصوصية إلى العمومية ، وقد أخذها جعفر الصادق - رضى الله عنه - وجعل منها «تذكرة طبية» للمؤمن حتى يستقبل أحداث الحياة كلها ، فى كل جوانبها المفزعة ؛ لأن الإنسان يهدده الخوف مما يعلم .

أما الهم فلا يعرف الإنسان فيه سبب الخطر ، ولا يعلم الإنسان مكر الناس به ؛ لأن الإنسان لا يعلم ماذا بَيَّتوا له.

وشغل الإنسان بأمر الدنيا وأن يكون منعَّماً ومرفَّهاً فى كل أمور الحياة ، يجعله عُرْضة للهموم .

وكان سيدنا جعفر الصادق [1] له بصر وبصيرة بآيات القرآن ومتعلقاتها ، فقال : «عجبت لمن خاف ولم يفزع إلى قول الحق سبحانه:

﴿ ..حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) ﴾ [آل عمران]

---

(١) هو : جعفر بن محمد بن على بن الحسين ، أبو عبد الله ، كان مشغولاً بالعبادة عن حب الرياسة ، روى عنه شعبة والثورى ومالك . توفى بالمدينة عام ١٤٨ هـ .

ولا يتُعجب لمن يخيفه شيء إلا إذا كان عند المتعجب شيء يزيل الخوف.

فمن عنده صداع يمكنه أن يعالجه بالأسبرين ، أما الخوف فقد وصف سيدنا جعفر دواءه ، بقول الله سبحانه:

﴿ ..حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) ﴾ [آل عمران]

فذلك هو الدرع من كل خوف.

ويقدم جعفر الصادق لنا السبب فيقول: لأن الله سبحانه قال عقبها:

﴿ فَانقَلَبُوا [1] بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ ..(١٧٤) ﴾

[آل عمران]

أى: أن سيدنا جعفراً جاء بالحيثية من نفس القرآن ، وأضاف جعفر الصادق: «وعجبت لمن اغتمَّ - وهو الموضوع الذى نبحثه الآن - ولم يفزع إلى قول الله سبحانه:

﴿ ..لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) ﴾ [الأنبياء]

فإنى سمعت الله تعالى بعقبها يقول :

﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ (٨٨) ﴾ [الأنبياء]

وعجبت لمن مُكر به كيف لا يفزع إلى قول الله سبحانه:

﴿ .. وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (٤٤) ﴾ [غافر]

لأنى سمعت الله تعالى بعقبها يقول:

---

(١) انقلبوا: رجعوا. أى: أنهم لما توكلوا على الله كفاهم ما أهمَّهم وردَّ عنهم بأس من أرادوا كيدهم، فرجعوا إلى بلدهم بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء مما أضمر لهم عدوهم. (ابن كثير ٢/ ٤٣١).

﴿فَوَقَاهُ (١) اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ (٢) بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ (٤٥)﴾ [غافر]

وعجبت لمن طلب الدنيا وزينتها كيف لا يفزع إلى قول الله سبحانه:

﴿مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ ..(٣٩)﴾ [الكهف]

لأنى سمعت الله تعالى بعقبها يقول:

﴿فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا (٤٠)﴾ [الكهف]

وهكذا وجد جعفر الصادق رضى الله عنه فى كتاب الله أربع آيات لأربع حالات نفسية تصيب البشر ، وجاء مع كل حالة دليلها من القرآن الكريم.

وقول الحق سبحانه وتعالى فى آخر سورة يونس:

﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ .. (١٠٩)﴾ [يونس]

مناسب لقوله سبحانه فى الآية الأولى من السورة التى تليها:

﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (١)﴾ [هود]

لأن الوحى كتاب أحكمت آياته حقاً وصدقاً.

---

(١) وقاه الله وَقْياً ووقاية وواقية: صانه. ووقيت الشيء إذا صنته وسترته عن الأذى. ووقاه ما يكره: حماه منه. وقال تعالى: ﴿فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ ..(١١)﴾ [الإنسان] وقال تعالى: ﴿..وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ (٩)﴾ [غافر] [لسان العرب: مادة (و ق ى)].

(٢) حاق: أحاط. والحوق: الإحاطة بالشيء والإطار المحيط به المستدير حوله. قال الليث: الحيق ما حاق بالإنسان من مكر أو سوء عمل يعمله؛ فينزل ذلك به. وقيل: الحيق فى اللغة هو أن يشتمل على الإنسان عاقبةُ مكروه فَعَله. وقال الزجاج: حاق بهم العذاب أى: أحاط بهم جزاء ما كانوا يستهزئون، كما تقول: أحاط بفلان عمله وأهلكه كَسْبه، أى: أهلكه جزاء كسبه. قال تعالى: ﴿..فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٨٣)﴾ [غافر]. وقال تعالى: ﴿وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ .. (٤٣)﴾ [فاطر]. [لسان العرب: مادة (ح و ق، ح ى ق)].

سُورَةُ هُودٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تبدأ سورة هود [(١)] بقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ١﴾

وتبدأ الآية بحروف توقيفية مقطعة من الحروف التى تبدأ بها بعض سور القرآن الكريم ، أى: أن كل حرف من تلك الحروف يُنطَق بمفرده ، والحرف - كما نعلم - له اسم ، وله مسمى ، ونحن حين نكتب أو نتكلم نكتب أو ننطق بمسمى الحرف لا باسمه.

ولكن بعض سور القرآن الكريم تبدأ بحروف نقرأها باسم الحرف ، وما عداها يُنطق فيها بمسميات الحرف.

وإن أردنا معرفة الفارق بينهما ، فنحن نقرأ فى أول سورة البقرة ونقول:

---

(١) سورة هود هى السورة الحادية عشرة فى ترتيب سور القرآن ، وهى سورة مكية فى قول الحسن وعكرمة وغيرهما. وقال ابن عباس وقتادة: إلا آية ، وهى قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ ..(١١٤)﴾ [هود] . وعدد آياتها (١٢٣) آية.

سميت باسم نبى الله هود عليه السلام ، الذى أرسل إلى قوم ثمود ، ذكر فيها اسم النبى هود ٥ مرات. وذكر فى سورة الشعراء آية ١٢٤ ، وفى الأعراف آية ٦٥.

قال عنها رسول الله ﷺ: «شيبتنى هود وأخواتها: الواقعة ، وعم يتساءلون ، وإذا الشمس كورت» أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (١/ ٣٥٨).

قال الترمذى الحكيم أبو عبد الله فى «نوادر الأصول»: فالفزع يورث الشيب ، وذلك أن الفزع يذهل النفس فينشف رطوبة الجسد وتحت كل شعرة منبع ، ومنه يعرق ، فإذا نشَّف الفزع رطوبته يبست المنابع فيبس الشعر فابيضَّ ، كما ترى الزرع الأخضر بسقائه ، فإذا ذهب سقاؤه يبس فابيضَّ.

فالنفس تذهل بوعيد الله ، وأهوال ما جاء به الخبر عن الله ، فتذبل ، وينشف ماءها ذلك الوعيد والهول الذى جاء به ، فمنه تشيب.

وسورة هود ، فيها ذكر الأمم ، وما حلَّ بهم من عاجل بأس الله تعالى ، فأهل اليقين إذا تلوْها تراءى على قلوبهم من ملكه وسلطانه ولحظاته البطش بأعدائه ، فلو ماتوا من الفزع لحقَّ لهم ، ولكن الله تبارك وتعالى اسمه يلطف بهم فى تلك الأحايين حتى يقرءوا كلامه. نقله القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٣١٩).

«ألف. لام. ميم» رغم أنها مكتوبة : ﴿الٓمٓ ١﴾ [1] [البقرة]

إذن: فنحن ننطقها بمسميات الحروف عكس قراءتنا لقول الحق سبحانه:

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ [2] لَكَ صَدْرَكَ ١﴾ [الشرح]

ونحن ننطقها بأسماء الحروف.. لماذا ؟

لأن الرسول ﷺ سمعها هكذا من جبريل عليه السلام ، والقرآن أصله سماع ، وأنت لا تقرأ قرآناً إلا إذا سمعت قرآناً ؛ لتعرف كيف تقرأ الحروف المقطعة بأسماء الحروف ، وتقرأ بقية الآيات بمسميات الحروف.

وكنا قديماً قبل أن نحفظ القرآن «نصحح» اللوح ، أى: أن يقرأ الفقيه أولاً ليُعلمنا كيف نقرأ قبل أن نحفظ.

والذى يُتعب الناس أنهم يريدون أن يقرأوا القرآن الكريم دون أن يجلسوا إلى فقيه أو دون أن يستمعوا إلى قارىء للقرآن.

ونقول لهم: إن القرآن ليس كتاباً عادياً نقرأه ، إن القرآن كتاب له خاصية مميزة ، فَصُور الحروف تختلف ، فمرة ننطق اسم الحرف ، ومرة نقرأ مسمى الحرف.

وقول الحق سبحانه: ﴿الٓمٓ﴾ فى أول سورة هود ؛ يجعلنا نلحظ أنه من العجيب فى فواتح السور - التى بدأت بهذه الحروف - أن القرآن مبنىٌّ على الوصل دائماً ، فأنت لا تأتى إلى آخر الآية وتقف ، لا ، بل كل القرآن وَصْل ، مثلما نقرأ قول الله سبحانه:

---

(١) ﴿الٓمٓ﴾ ذكرت فى افتتاح ست سور هى : البقرة ، آل عمران ، العنكبوت ، الروم ، لقمان ، السجدة . وتحسب آية مستقلة .

(٢) أى : وسَّعناه معنوياً ، وأزلنا عنه الضِّيق والهم . والمراد : أرضيناك وسررناك . أو هو شق الصدر فعلاً حسياً . أو هما معاً . [القاموس القويم] .

﴿ مُدْهَامَّتَانِ [(١)] (٦٤) فَبِأَيِّ آلاءِ [(٢)] رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٥) فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ [(٣)] (٦٦) ﴾ [الرحمن]

وإن كان هناك فاصل بين كل آية وغيرها ، إلا أن الآيات كلها مبنية على الوصل .

وفى آخر سورة يونس يقول الحق سبحانه :

﴿ .. وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (١٠٩) ﴾ [يونس]

فلو لم تكن موصولة لنطقت الحرف الأخير مبنياً على السكون ، ولكنك تقرأه منصوباً بالفتحة . وهى موصولة بما بعدها (بسم الله الرحمن الرحيم) .

ومن العجيب أن فواتح السور مع أنها مكونة من حروف مبنية على الوصل إلا أننا نقرأ كل حرف موقوفاً ، فلا نقول : «ألفٌ لامٌ ميمٌ» بل نقول : «ألفْ لامْ ميمْ» .

وكذلك نقرأ فى أول سورة مريم «كافْ هاءْ ياءْ عينْ صادْ» ، ولا نقرأ الحروف بتشكيلها الإعرابى ، وهذا يدل على أن لها حكمة لا نعرفها .

وفى القرآن الكريم آيات بُدئت بحرف واحد مثل قول الحق سبحانه :

﴿ صٓ وَالْقُرْآنِ ذِى الذِّكْرِ (١) ﴾ [ص]

وقول الحق سبحانه :

---

(١) مدهامتان : سوداوان من شدة خضرتهما وكثرة الظلال وهذا كناية عن النعيم التام (وهو وصف للجنتين اللتين ورد ذكرهما فى قول الله تعالى فى آية : ﴿ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ (٦٢) ﴾ [الرحمن] .

(٢) الآلاء : النعم ، مفردها : إلىً أو ألى (بكسر الهمزة ، وبفتحها) قال تعالى : ﴿ .. فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٦٩) ﴾ [الأعراف] ، وقال تعالى : ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ (٥٥) ﴾ [النجم] . [القاموس القويم - بتصرف] .

(٣) نضاختان : فوَّارتان بالماء لا ينقطعان . ويخرج ماؤهما غزيراً ، ونضَّاخة : صيغة مبالغة تدل على الكثرة . [تفسير الجلالين : ص ٤٧٠] و[القاموس القويم] بتصرف .

﴿قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ۝١﴾ [ق]

وقول الحق سبحانه:

﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ[1] ۝١﴾ [القلم]

ونلحظ أن الحرف فى هذه السور ليس آية ، ولكنك تقرأ قول الحق سبحانه: ﴿حمٓ ۝١﴾[2] [الشورى]

وهى آية ، وكذلك تقرأ قول الحق سبحانه:

﴿عٓسٓقٓ ۝٢﴾ [الشورى] كآية مع أنها حروف مقطعة ، وتقرأ قول الحق سبحانه:

﴿كٓهيعٓصٓ ۝١﴾ [مريم] كآية بمفردها .

وتقرأ قول الحق سبحانه: ﴿طه ۝١﴾ [طه] كآية بمفردها .

وكذلك تقرأ قول الحق : ﴿يسٓ ۝١﴾ [يس] كآية بأكملها .

وتجد أيضاً : ﴿الٓمٓصٓ ۝١﴾ [الأعراف] كآية .

و﴿طسٓمٓ ۝١﴾ [الشعراء ، والقصص] كآية .

وتجد أيضاً ﴿الٓمٓرٓ ..۝١﴾ [الرعد] ملتحمة بما بعدها فى آية واحدة .

وتقرأ فى أول سورة النمل: ﴿طسٓ ۝١﴾ ملتحمة بما بعدها فى آية واحدة .

---

(١) يسطرون: يكتبون . من سطر الكتاب أى: جعله سطوراً.

(٢) ﴿حم﴾ : ذكرت فى افتتاح سبع سور هى: غافر ، وفصلت ، والشورى ، والزخرف ، والدخان ، والجاثية ، والأحقاف. وتحسب آية مستقلة - والله أعلم بمعناها. [القاموس القويم] . وتسمى الحواميم.

إذن: فالمسألة لا نسق لها، ومعنى ذلك أن لكل موقف وكل حرف حكمة، والحكمة نجدها حين نتأمل العالم المادى فى الحياة، فنفطن إلى عبَر الله سبحانه وتعالى فى آيات الكون المحسَّة، ويجد الدليل على صدق الله تعالى فيما لم نعلم.

ومثال ذلك: حين ينزل الإنسان فى فندق راق فهو يجد لكل غرفة مفتاحاً، وهذا المفتاح لا يفتح إلا باب غرفة واحدَة، ولكن فى كل طابق من طوابق الفندق هناك مفتاح مع المسئول عن الطابق يسمى «سيد المفاتيح» وهو يفتح كل غرف الطابق، وقد صنعوا ذلك؛ حتى لا يفتح كل نزيل غرفة الآخر.

ومع التقدم العلمى جعلوا الآن لكل غرفة بطاقة الكترونية، ما إن يُدخلها الإنسان من فتحة معينة من باب الغرفة حتى ينفتح الباب، وكل غرفة لها بطاقة معينة، وأيضاً يوجد مع مسئول الطابق فى الفندق بطاقة واحدة، تفتح كل غرف الطابق.

وأنت حين تقرأ فواتح السور فافهم أن كل آية لها مفتاح، وكل حرف فى هذه الفواتح قد يشبه المفتاح، وإن لم يكن معك المفتاح ذو الأسنان التى تفتح باب الغرفة؛ فلن تنفتح لك السورة.

إذن: فكتاب الله له مفاتيح، ونحن نقرأ حروفاً مُقطَّعة على أنها آية، أو نقرأها كجزء من آية.

وتقول من قبل القراءة: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم»[1] لتخلص نفسك من الأغيار المناقضة لمنهج قائل القرآن، ثم تضع البطاقة الخاصة مثل قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿الٓمٓ ۝١﴾ [البقرة]

---

(١) قال عز وجل: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ۝٩٨﴾ [النحل]، عن عطاء قال: الاستعاذة واجبة لكل قراءة فى الصلاة أو غيرها. أورده السيوطى فى الدر المنثور (٥/ ١٦٥) طبعة دار الفكر، وعزاه لعبد الرزاق فى المصنف وابن المنذر.

فينفتح لك باب القراءة.

وهكذا نعرف أن هناك مفتاحاً ، وأن هناك فاتحاً.

وخذ فواتح السور على أنها مفاتيح ، وكل مفتاح له شكل ونحت معين ، إن نقلته لسورة أخرى فهو لا يفتحها.

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿الٓر﴾ وهى مكونة من ثلاثة حروف ، مثل ﴿الٓمٓ﴾ ، وقد وردت فى خمس سور من القرآن الكريم هى: يونس ، وهود ، ويوسف ، وإبراهيم ، والحجر.

ولكن ﴿الٓمٓ﴾ تقرأ كآية ، ولكنها هنا فى مقدمة سورة «هود» جزء من آية رغم أنك تقرأها مثلها مثل سورة يونس ، وسورة هود ، وسورة يوسف وسورة إبراهيم ، و تقرأها كآية.

وأيضاً (الٓمٓصٓ) هى أربعة حروف تقرأها آية فى سورة الأعراف ، وهناك أربعة حروف فى أول سورة الرعد ، وتقرأها كجزء من آية فى سورة الأعراف.

إذن: فليس هناك قانون لهذه الحروف التى فى أوائل السور ، بل كل حرف له خصوصية لم تتكشف كل أسرارها بعد [1] ، لهذا ذهب بعض المفسرين إلى قولهم « الله أعلم بمراده» .

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿الٓر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ۝١﴾ [هود]

---

(١) قال السيوطى فى «الإتقان فى علوم القرآن» (٣/ ٢١) : «المختار فيها أنها من الأسرار التى لا يعلمها إلا الله تعالى. عن عامر الشعبى: أنه سئل عن فواتح السور. فقال: إن لكل كتاب سراً ، وإن سر هذا القرآن فواتح السور».

قال ابن كثير فى تفسيره (١/ ٣٧) : «مجموع الحروف المذكورة فى أوائل السور بحذف المكرر منها أربعة عشر حرفاً وهى: أ ل م ص ر ك هـ ى ع ط س ح ق ن - يجمعها قولك: نص حكيم قاطع له سر».

والله سبحانه يقول مرة عن القرآن أنه : ﴿كِتَابٌ﴾ ومرة يقول :

﴿قُرْآنٍ (٦١)﴾ [يونس]

والقرآن يُقرأ ، والكتاب يُكتب ، وشاء الحق سبحانه ذلك ؛ ليدلُّك على أن الحافظ للقرآن مكانان : صدور ، وسطور . فإن ضَلَّ الصدر ، تذكر السطر .

ولذلك حين أراد المسلمون الأوائل جمع القرآن [(١)] ، ومطابقة ما فى الصدور على ما فى السطور ، وضعوا أسساً لتلك العملية الدقيقة ، من أهمها ضرورة وجود شاهدين على كل آية ، ووقفوا عند آخر آيتين فى سورة التوبة [(٢)] ، ولم يجدوا إلا شاهداً واحداً هو «خزيمة» ، وصدَّقوا «خزيمة» وكتبوا الآيتين عنه ؛ لأن رسول الله ﷺ كان قد منحه وساماً ، حين قال عنه : «من شهد له خزيمة فهو حسبه» [(٣)] .

إذن : فإطلاق صفة الكتاب على القرآن ، سببها أنه مكتوب ، وهو قرآن ؛ لأنه مقروء .

ولم تكن الكتابة فى الأزمنة القديمة مسألة سهلة ، فلم يكن يُكتب إلا النفيس من الأعمال ، أو لأن القرآن كتاب ؛ لأنه فى الأصل مكتوب فى اللوح المحفوظ .

---

(١) المقصود به هنا جمع القرآن على عهد أبى بكر رضى الله عنه ، بعد أن اشتد القتل بقراء القرآن فى الغزوات ، فأشار عليه عمر بجمع القرآن ، فأرسل إلى زيد بن ثابت رضى الله عنه وقال له : إنك شاب عاقل ، لا نتهمك ، وقد كنت تكتب الوحى لرسول الله ﷺ ، فتتبع القرآن فاجمعه . فأخذ زيد يجمعه من العسب (هو سعف النخيل) واللخاف (حجارة بيض عريضة رقاق) وصدور الرجال . انظر الإتقان فى علوم القرآن (١/ ١٦٥) .

(٢) هاتان الآيتان هما : ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٢٨) فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (١٢٩)﴾ [التوبة] .

(٣) أخرجه الحاكم فى مستدركه (٢/ ١٨) والطبرانى فى معجمه الكبير (٤/ ١٠١) من حديث خزيمة بن ثابت . قال الهيثمى فى المجمع (٩/ ٣٢٠) : « رجاله كلهم ثقات» .

وحين يقول الحق سبحانه وتعالى واصفاً القرآن :

﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ..(١) ﴾ [هود]

ومادة الحاء والكاف والميم [(١)] تدل على أمر مُحسٍّ وهو إتقان البناء ، بحيث يمنع عنه الفساد ؛ فلا خلل فيه ، ولا تناقض ، ولا تعارض ولا انهيار.

ولا بد من توازن هندسى لكل فتحة فى البناء ؛ حتى لا تكون الفتحات التى فى البناء متوازية على خط واحد ، فتحدث شروخ فى الجدران أو انهيار البناء كله. هذا هو إحكام البناء فى عالم المحسَّات.

وشاء الحق سبحانه أن يصف القرآن ، وهو الجامع لكل المنهج بأنه :

﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ..(١) ﴾ [هود]

فخذوا من هذا الإحكام [(٢)] ما يمنع فسادكم ؛ لأن القرآن جاء على هيئة تمنع الفساد فيه ، وعقد منع الفساد يكون الإصلاح والصلاح .

ولو نظرتَ إلى أن القرآن الكريم فى اللوح المحفوظ ستجده قد نزل جملة واحدة ، من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا ، وجاء الوحى بعد ذلك حسب الأحداث التى تتطلب الأحكام ، وقد نثر الحق سبحانه فى القرآن أحكاماً وفصولاً ونجوماً.

---

(١) أحكم الأمر : أتقنه. قال تعالى : ﴿ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ ..(٥٢) ﴾ [الحج] ، أى : يبينها ويجعلها متقنة مقنعة محكمة ، وآيات محكمة : متقنة مقنعة واضحة ، وقيل : محكمة غير منسوخة أو محكمة غير متشابهة فلا تحتاج إلى تأويل ، قال تعالى : ﴿ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ..(٧) ﴾ [آل عمران] ، وقال تعالى : ﴿ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ .. (٢٠) ﴾ [محمد] . أى : متقنة. [القاموس القويم].

(٢) قال القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٣٢٠) : «أحسن ما قيل فى معنى : ﴿ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ..(١) ﴾ [هود] قول قتادة ، أى : جعلت محكمة كلها لا خلل فيها ولا باطل ، والإحكام منع القول من الفساد ، أى : نظمت نظماً محكماً ، لا يلحقها تناقض ولا خلل».

إذن: فالقرآن قد أحكِم أولاً، ثم فُصِّل [١].

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ .. (١) ﴾ [هود]

والفواصل الكبيرة فى القرآن هى السور، والفواصل الصغيرة هى الآيات، وأراد المسلمون أن يشجعوا حفظ القرآن، فقسموه إلى ثلاثين جزءاً، وكل جزء قسموه إلى حزبين، وكل حزب قسموه إلى أربعة أرباع، لكن التفصيل الذى جاء لنا من القرآن أنه سور، وكل سورة هى مجموعة من الآيات.

وقد يكون المعنى أن القرآن قد أحْكِمَ وفُصِّل؛ لأنه نزل منهجاً جامعاً من الله سبحانه وتعالى.

وحين تنظر إليه تجده مُنوَّعاً، فمرة يتكلم فى العقيدة وقمتها، ومرة يتكلم فى النبوة وموكبها الرسالى، والمعجزات، ومرة يتكلم فى الأحكام، ومرة يتكلم فى القصص، والأخلاقيات، والكونيات. ومرة يتكلم فى علم الفرائض [٢].

إذن: فهو مفصل فى اللفظ أو فى المعنى، وهو يتناول معانى كثيرة، وكل معنى تتطلبه العقيدة، قمة فى الشهادة بأن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ويتناول الجزئيات حتى أدق التفاصيل.

أو أحكم نزولاً؛ لأنه قد نزل مرة واحدة إلى السماء الدنيا، ثم فُصِّل حسب الحَوادث، وهذا أدْعَى إلى أن تتعلق النفس بكل نجم من نجوم القرآن حين ينزل وقت طلبه.

---

(١) فصَّل الشيء: جعله أقساماً متميزة واضحة، قال تعالى: ﴿ .. وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً (١٢) ﴾ [الإسراء]، وقال تعالى: ﴿ آيَاتٍ مُّفَصَّلاتٍ .. (١٣٣) ﴾ [الأعراف] أى: معجزات مبينات واضحات، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ .. (٥٢) ﴾ [الأعراف].

(٢) الفرائض المعنى بها علم المواريث، أخذاً مما فرضه الله لكل واحد من أصحاب الفروض.

وأنت حين تُعد لنفسك صيدلية صغيرة فى البيت ، قد تأتى فيها بكل الأدوية ، لكن إنَ أصابك صداع ، فقد تفتش عن أقراص «الأسبرين» فلا تجدها. أما إذا أرسلت إلى الصيدلية الكبيرة ، فسوف تجد «الأسبرين» حين تحتاجه.

وكذلك حين تكون ظمآن ، قد تفتح ثلاجة بيتك فلا تجد زجاجة الماء رغم أنها أمامك ، وذلك بسبب لهفة العطش.

إذن: فنزول القرآن منجماً شاءه الحق - سبحانه - لتنتعش النفس الإنسانية وهى تعشق استقبال القرآن.

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ (١) لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ (٢) وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً (١٠٦) ﴾ [الإسراء]

وقد جاء فى القرآن على لسان الكافرين:

---

(١) قرئت هذه الكلمة بقراءتين: فرَقناه ، فرَّقناه (بتشديد الراء) - فعلى القراءة الأولى فمعناه: فصلناه من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة من السماء الدنيا ، ثم نزل مفرقاً منجماً على الوقائع إلى رسول الله ﷺ فى ثلاث وعشرين سنة ، قاله عكرمة عن ابن عباس.

- وعلى القراءة الثانية فمعناه: أنزلناه آية آية مبيناً مفسراً، قاله ابن عباس أيضاً. ولهذا قال: ﴿ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ ..(١٠٦) ﴾ أى: لتبلغه الناس وتتلوه عليهم: ﴿ عَلَىٰ مُكْثٍ ﴾ أى: مهل. ﴿ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً ﴾ أى: شيئاً بعد شىء. تفسير ابن كثير (٣/ ٦٨).

(٢) مكث: أقام فى مكانه ، وتفيد التأنى وعدم العجلة. وقوله تعالى: ﴿ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ .. (١٠٦) ﴾ [الإسراء] أى: على مهل وتأن بغير عجلة فى أزمنة متطاولة. وقال تعالى: ﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ .. (٢٢) ﴾ [النمل] أى: استمر الهدهد فى غيبته مدة لكنها غير طويلة. وقال تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ .. (١٧) ﴾ [الرعد] أى: يبقى مدة طويلة فيها فيزيدها خصباً. وقال تعالى: ﴿ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا ..(١٠) ﴾ [طه] أى: أقيموا فى مكانكم منتظرين. [القاموس القويم].

﴿لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً .. (٣٢)﴾ [الفرقان]

فيكون الرد من الحق سبحانه:

﴿.. كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً (٣٢)﴾ [الفرقان]

ولو كان القرآن قد نزل مرة واحدة على رسول الله ﷺ لما التفت الناس إلى كل ما جاء فيه، ولكن شاء الحق سبحانه وتعالى أن ينزل القرآن مُنجَّماً [1] على الرسول ﷺ، ليكون فى كل نجم تثبيت لرسول الله ﷺ فى المواقف المختلفة، والرسول ﷺ وكذلك أمته من بعده فى حاجة إلى تثبيتات متعددة حسب الأحداث التى تعترضهم، ولذلك قال الحق سبحانه:

﴿.. كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً [2] (٣٢)﴾ [الفرقان]

فساعة أن يسمع المؤمنون نجماً من نجوم القرآن، يكونون أقدر على استيعابه وحفظه وتطبيق الأحكام التى جاءت فيه.

ولم يُنزل الحق سبحانه آية واحدة، بل أنزل آيات، بدليل أنهم إن جاءوا بحكم ما، فهو سبحانه وتعالى ينزل الحق فى هذا الحكم وأكثر تفصيلاً؛ ولذلك يقول سبحانه:

﴿وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً (٣٣)﴾ [الفرقان]

ولو نزل القرآن جملة واحدة، فكيف يعالج أسئلتهم التى

---

(١) منجماً: مفرقاً؛ لأن القرآن أنزل إلى سماء الدنيا جملة واحدة، ثم أنزل على النبى ﷺ آية آية، وكان بين أول ما نزل منه وآخره عشرون سنة. [لسان العرب، مادة: نجم] فنزول القرآن كان منجماً حسب مقتضى حال الدعوة، فالآيات المكية تناولت العقيدة وتقويم العادات، وإعلاء القيم والتمهيد لعبادة الله، والآيات المدنية تناولت العبادات والمعاملات لإقامة صرح العدالة فى المجتمع.

(٢) رتلناه ترتيلاً: أنزلناه مرتلاً منسقاً مجوداً حسن التأليف [القاموس القويم] قال ابن منظور فى اللسان: «أى: أنزلناه على الترتيل، وهو ضد العجلة والتمكث فيه».

جاءت فى القرآن: ﴿يسألونك عن﴾ [١].

ويضرب الله مثلاً بالبعوضة، فيتساءلون ساخرين: كيف يضرب الله مثلاً بالبعوضة؟

فينزل قول الحق سبحانه:

﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِ أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ..(٢٦)﴾ [البقرة]

ولو كانوا عقلاء لتساءلوا: كيف ركَّب الحق سبحانه فى هذا الكائن الضئيل - البعوضة [٢] - كل أجزاء الكائن الحى؛ من محلِّ الغذاء إلى قدرة الهضم، إلى محل التنفس، إلى محل الدم، إلى محل الأعصاب.

وكان يجب أن يأخذوا من هذا الخلق دلائل العظمة؛ لأن عظمة الصنعة تكون فى أمرين: إما ضخامة الشىء المصنوع، وإما أن يكون الشىء المصنوع تحت إدراك الحس.

ومثال ذلك - ولله المثل الأعلى - أن الفنيين حين صنعوا ساعة «بج بن» التفت الناس إلى ضخامة تلك الساعة، ودقة أدائها، وحين صنع الفنيون فى «سويسرا» ساعة دقيقة وصغيرة جداً فى حجمها، زاد إعجاب الناس بدقة الصنعة.

وهكذا نجد أن القدرة تتجلى فى صناعة الشىء الكبير فى الحجم، أو صناعة الشىء الدقيق جداً؛ فما بالنا بخالق الكون كله، بأكبر ما فيه وأصغر ما فيه.

---

(١) قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ .. (١٨٩)﴾ [البقرة]. وقال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ .. (٢١٧)﴾ [البقرة].
وقال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ ..(٢١٩)﴾ [البقرة].
وقد وردت فى القرآن ١٥ آية تبدأ بـ (يسألونك).

(٢) البعوضة: حشرة صغيرة طائرة لها جناحان دقيقان، وخرطوم تستقى به الدم، فهى حشرة لاسعة ضارة، وهى أنواع كثيرة جداً، منه ما ينقل أمراضاً مهلكة.

والحق سبحانه وتعالى يضرب المثل بالذبابة فيقول:

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ..(٧٣)﴾ [الحج]

فلو اجتمع الخلق المشركون أو المتجبرون وسألوا أصنامهم أن يخلقوا لهم ذبابة، أو حتى لو حاولوا هم خَلْق ذبابة لما استطاعوا، ولا يقتصر الأمر على ذلك العجز فقط، بل يتعداه إلى عجز آخر:

﴿..وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ [1] وَالْمَطْلُوبُ (٧٣)﴾ [الحج]

فإن جاءت ذبابة على أى طعام، وأخذت بعضاً من الطعام، فهل يستطيع أحد أن يستخلص من الذبابة ما أخذته؟

لا، وكذلك نرى ضعف الاثنين: الطالب والمطلوب.

وهنا يقول الحق سبحانه:

﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ [2] حَكِيمٍ خَبِيرٍ (١)﴾ [هود]

فالإحكام [3] لا يتناقض مع التفصيل؛ لأن الحق سبحانه هو الذى

---

(١) الطالب: اسم فاعل. والمطلوب: اسم مفعول. أى: ضعف الإنسان الطالب، وضعف الذباب المطلوب [القاموس القويم] قال ابن عباس: الطالب الصنم، والمطلوب الذباب. وقال السدى وغيره: الطالب العابد والمطلوب الصنم. [لسان العرب - مادة: طلب].

(٢) لدن: ظرف مكان أو زمان بمعنى (عند) مبنى على السكون وإذا أضيف إلى ياء المتكلم فصلت بينهما نون الوقائية وأدغمت فى نونها مثل قوله: ﴿.. قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا (٧٦)﴾ [الكهف] وجاءت مضافة إلى ضمير المخاطب مثل: ﴿وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً .. (٨)﴾ [آل عمران] وإلى ضمير المتكلمين «نا». قال تعالى: ﴿..وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا (٦٥)﴾ [الكهف]. وتضاف إلى ضمير الغائب كقوله: ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ ..(٢)﴾ [الكهف] [القاموس القويم].

(٣) الإحكام والحكمة فى الشىء قدرة تحمل أسرار فيها حكمة الخلق والإبداع، والتفصيل الوزن وإقامة العدل، فالإحكام أساس، والتفصيل بناء، وهما متلازمان تلازم الحكم مع خبرة الإطلاق.

أحكم ، وهو سبحانه الذى فصَّل ، وهو سبحانه حكيم بما يناسب الإحكام ، وهو سبحانه خبير بما يناسب التفصيل ، بطلاقة غير متناهية .

وهو سبحانه حكيم يخلق الشىء مُحْكماً لا يتطرق إليه فساد ، وهو سبحانه خبير عنده علم بخفايا الأمور .

ويقول الحق سبحانه وتعالى فى آية أخرى :

﴿ لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ [1] الْخَبِيرُ (١٠٣) ﴾ [الأنعام]

فالله سبحانه لا تدركه عين ، وعينه - سبحانه وتعالى - لا تغفل عن أدق شىء وأخفى نية .

إذن : فقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (١) ﴾ [هود]

يبيِّن لنا أن القرآن كلام الله القدير الذى بُنى على الإحكام ، ونزل مُحْكماً جملة واحدة ، ثم جاءت الأحداث المناسبة لينزل من السماء الدنيا نجوماً مفصلة تناسب كل حدث .

وإحكام الكتاب ثم تفصيله له غاية ، هى الغاية من المنهج كله ، ويبيِّنها الحق سبحانه فى الآية التالية :

﴿ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ (٢) ﴾

إذن : فقد أحكمت آيات الكتاب وفصِّلت لغاية هى : ألا نعبد إلا الله .

والعبادة هى طاعة العابد للمعبود فيما أمر ، وفيما نهى .

---

(١) اللطيف : صفة من صفات الله واسم من أسمائه ، ومعناه : الرفيق بعباده . قال ابن الأثير : اللطيف هو الذى اجتمع له الرفق فى الفعل والعلم بدقائق المصالح وإيصالها إلى من قدرها له من خلقه . [اللسان مادة : لطف] .

وهكذا نجد أن العبادة تقتضى وجود معبود له أمر وله نهى ، والمعبود الذى لا أمر له ولا نهى لا يستحق العبادة ، فهل مَنْ عَبَدَ الصنم تلقَّى منه أمراً أو نهياً ؟

وهل مَنْ عَبَدَ الشمس تلقَّى منها أمراً أو نهياً ؟

إذن: فكلمة العبادة لكل ما هو غير الله هى عبادة باطلة ؛ لأن مثل تلك المعبودات لا أمر لها ولا نهى ، وفوق ذلك لا جزاء عندها على العمل الموافق لها أو المخالف لها.

والعبادة بدون منهج «افعل» و«لا تفعل» لا وجود لها ، وعبادة لا جزاء عليها ليست عبادة.

وهنا يجب أن نلحظ أن قول الحق سبحانه :

﴿ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ ..(٢) ﴾ [هود]

غير قوله سبحانه:

﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ ..(٧٢) ﴾ [المائدة]

ولو أن الرسل تأتى الناس وهم غير ملتفتين إلى قوة يعبدونها ويقدسونها لكان على الرسل أن يقولوا للناس: ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ ..(٥٩) ﴾ [الأعراف]

ولكن هنا يقول الحق سبحانه : ﴿ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ .. (٢) ﴾ [هود]

فكأنه سبحانه يواجه قوماً لهم عبادة متوجهة إلى غير من يستحق العبادة ؛ فيريد سبحانه أولاً أن يُنهى هذه المسألة ، ثم يثبت العبادة لله.

إذن: فهنا نفى وإثبات ، مثل قولنا: «أشهد ألا إله إلا الله » ، هنا ننفى أولاً أن هناك إلهاً غير الله ، ونثبت الألوهية لله سبحانه.

وأنت لا تشهد هذه الشهادة إلا إذا وُجِد قوم يشهدون أن هناك إلهاً غير

الله تعالى ، ولو كانوا يشهدون بألوهية الإله الواحد الأحد سبحانه ؛ لكان الذهن خالياً من ضرورة أن نقول هذه الشهادة [١] .

ولكن قول الحق سبحانه : ﴿ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ .. (٢) ﴾ [هود]

معناه النفى أولاً للباطل ، وإذا نُفى الباطل لا بد أن يأتى إثبات الحق ، حتى يكون كل شىء قائماً على أساسَ سليم .

ولذلك يقال : «درء [٢] المفسدة مقدَّم دائماً على جلب المنفعة» فالبداية ألا تعبد الأصنام ، ثم وجِّه العبادة إلى الله سبحانه .

وما دامت العبادة هى طاعة الأمر ، وطاعة النهى ، فهى - إذن - تشمل كل ما ورد فيه أمر ، وكل ما ورد فيه نهى .

وإنْ نظرت إلى الأوامر والنواهى لوجدتها تستوعب كل أقضية الحياة من قمة الشهادة بأن لا إله إلا الله ، إلى إماطة [٣] الأذى عن الطريق [٤] .

وكل حركة تتطلبها الحياة لإبقاء الصالح على صلاحه أو زيادة الصالح ليكون أصلح ، فهذه عبادة .

---

(١) لأن الشهادة تكون فى قضية وعلى قضية ، فالذى يشهد أن لا إله إلا الله : فقد نفى الألوهية لغير الله ، وأثبتها له ؛ لأن المقام يقتضى ذلك ، فهذا إحكام فى المبنى والمعنى ، فقوله تعالى : ﴿ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ .. (٢) ﴾ [هود] فقد قصر العبادة لله ، أما الشهادة على القضية فالكون بما فيه ومن فيه يثبت ألوهية الواحد الأحد الفرد الصمد ، الذى بيده الملك ، وهو على كل شىء قدير .

(٢) درء : دفع وإبعاد . قال تعالى : ﴿ وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ ..(٨) ﴾ [النور] أى : ويدفع عنها عذاب الحد أن تشهد هذه الشهادات ، وبقية الحكم فى سورة النور فى الآيتين رقمى (٨ ، ٩) . [القاموس القويم] .

(٣) إماطة الأذى عن الطريق : تنحيته وإبعاده عن طريق الناس حتى لا يؤذيهم . والأذى قد يكون أحجاراً أو أى شىء قد يؤذى الناس ويعوق سيرهم فى الطريق .

(٤) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : «الإيمان بضع وسبعون - أو بضع وستون شعبة - فأفضلها قول لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان» . أخرجه مسلم فى صحيحه (٣٥) كتاب الإيمان ، وكذا أخرجه البخارى فى صحيحه (٩) دون : أفضلها ، وأدناها .

إذن: فالإسلام لا يعرف ما يقال عنه «أعمال دنيئة» ، و«أعمال شريفة» ، ولكنه يعرف أن هناك عاملاً دنيئاً وعاملاً شريفاً.

وكل عامل يعمل عملاً تتطلبه الحياة بقاء للصالح أو ترقية لصلاحه وعدم الإفساد ، فهذا عامل شريف ؛ وقيمة كل امرىء فيما يحسنه.

وهكذا نجد أن كلمة العبادة تستوعب كل أقضية الحياة ؛ لأن هناك أمراً بما يجب أن يكون، وهناك نهياً عما يجب ألا يكون، وما لم يرد فيه نهى لك الخيار فى أن تفعله أو لا تفعله، فإذا نظرت إلى نسبة ما تؤمر به، ونظرت إلى ما تُنهى عنه بالنسبة لأعمال الحياة، لوجدت أنها نسبة لا تتجاوز خمسة فى المائة من كل أعمال الحياة، ولكنها الأساس الذى تقوم عليه كل أوجه الحياة.

ولذلك قال رسول الله ﷺ : « بُنى الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وحج البيت وصوم رمضان »[1] .

وأعداء الإسلام يحاولون أن يحددوا الدين فى هذه الأركان الخمسة ، ولكن هذه الأركان هى الأعمدة التى تقوم عليها عمارة الإسلام.

وأركان الإسلام هى إعلان استدامة الولاء لله تعالى ، وكل أمر من أمور الحياة هو مطلوب للدين ؛ لأنه يصلح الحياة.

وهكذا نجد أن العلم بالدين ضرورة لكل إنسان على الأرض ، أما العلوم الأخرى فهى مطلوبة لمن يتخصص فيها ويرتقى بها ليفيد الناس كلهم ، وكلما كان المتفوق من المسلمين كان ذلك تدعيماً لرفعة الإسلام.

إذن: فالقاسم المشترك فى الحياة هو العلم بالدين ، ولكن يجب أن نفهم هذه القضية على قدرها ، فلا يأتى إنسان لا يعرف صحيح الدين ليتكلم

---

(١) متفق عليه. أخرجه البخارى فى صحيحه (٨) ، ومسلم (١٦) من حديث عبد الله بن عمر رضى الله عنهما.

والعَوْل [١]، والرد [٢]؛ لأن المسلم قد تمر حياته كلها ولا يحتاج رأياً فى قضية التوريث ،أو أن يتعرف على المستحقين للميراث وأنصبتهم ، وغير ذلك.

وإن تعرَّض المسلم لقضية مثل هذه ، نقول له: أنت إذا تعرضت لقضية مثل هذه فاذهب إلى المختصين بهذا العلم ، وهم أهل الفقه والفتوى ، لأنك حين تتعرض لقضية صحية تذهب إلى الطبيب ، وحين تتعرض إلى قضية هندسية تذهب إلى المهندس ، وإن تعرضت لعملية محاسبية تذهب إلى المحاسب ، فإن تعرضت إلى أى أمر دينى ، فأنت تسأل عنه أهل الذكر [٣].

وأنت إذا نظرت إلى العبادة ، تجد أنها تتطلب كل حركة فى الحياة ، وسبق أن ضربت لذلك مثلاً وقلت: هَبْ أن إنساناً يصلى ، ولا يفعل شيئاً فى الحياة غير الصلاة ، فمن أين له أن يشترى ثوباً يستر به عورته ما دام لا يعمل عملاً آخر غير الصلاة ، وهو إن أراد أن يشترى ثوباً ، فلا بد له من عمل يأخذ مقابله أجراً ، ويشترى الثوب من تاجر التجزئة ، الذى اشترى الأثواب من تاجر الجملة ، وتاجر الجملة اشتراها من المصنع ،

---

(١) العول فى اللغة : الارتفاع. وعند الفقهاء: زيادة فى سهام ذوى الفروض ، ونقصان من مقادير أنصبتهم فى الإرث. وهى مسألة تظهر عند حساب الأنصبة ، فيضطر مقسم التركة إلى الزيادة فى جانب والنقصان فى جانب.

(٢) الرد: أى: رد ما فضل من التركة إلى أصحاب الفروض بنسبة فروضهم ، عند عدم استحقاق الغير ، ويتحقق ذلك بأركان ثلاثة:

١- وجود صاحب الفرض.

٢- بقاء فائض من التركة.

٣- عدم العاصب.

راجع تفصيلات هذه المسائل وتطبيقاتها فى كتاب (فقه السنة) للشيخ سيد سابق، وغيره من كتب الفقه.

(٣) يقول رب العزة سبحانه وتعالى: ﴿.. فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ۝٧﴾ [الأنبياء].

فى الدين ؛ لأن العلم بالدين يقتضى اللجوء إلى أهل الذكر .

فإن قيل : الدين للجميع ، نقول : صدقت بمعنى التدين للجميع ، أما العلم بالدين فله الدراسة المتفقهة [(١)] .

وأهل الذكر أيضاً فى العلوم الأخرى يقضون السنوات لتنمية دراساتهم ، كما فى الطب أو الهندسة أو غيرهما ، وكذلك الأعمال المهنية تأخذ من الذى يتخصص فيها وقتاً وتتطلب جهداً ، فما بالنا بالذى يُصلح أسس إقامة الناس فى الحياة ، وهو التفقه فى الدين .

لذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ .. فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (١٢٢) ﴾ [التوبة]

فنحن لا نطلب من كل مسلم - مثلاً - أن يدرس المواريث ليعرف العَصبة [(٢)] وأصحاب الفروض [(٣)] ، وأولى الأرحام [(٤)] ،

---

(١) الفقه : الفهم ، وفقه يفقه فهو فقيه : صار عالماً فاهماً . والفقه فى الاصطلاح : علم أحكام العبادات والمعاملات وهو فرع من فروع المعارف الدينية . قال تعالى : ﴿ ..فَمَالِ هَـٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا (٧٨) ﴾ [النساء] . وقال تعالى : ﴿ فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ .. (١٢٢) ﴾ [التوبة] أى : ليدرسوا أحكام الدين وليتعلموها . [القاموس القويم - بتصرف] .

(٢) العصبة : هم بنو الرجل وقرابته لأبيه . والمقصود بهم فى المواريث الذين يصرف لهم باقى التركة بعد أن يأخذ أصحاب الفروض أنصباءهم المقدرة لهم . وأمثلتهم الأخ والعم ، والأب إذا بقى شىء بعد تقسيم التركة يأخذه بالتعصيب بجانب الفرض الذى فرضه الله له .

(٣) أصحاب الفروض هم الذين لهم فرض - أى : نصيب - وهم اثنا عشر : أربعة من الذكور ، وهم : الأب والجد الصحيح وإن علا ، والأخ لأم ، والزوج . وثمان من الإناث ، وهن : الزوجة ، والبنت ، والأخت الشقيقة ، والأخت لأب ، والأخت لأم ، وبنت الابن ، والأم ، والجدة الصحيحة وإن علت ، ولكل منهم نصيب مقدر ذكره القرآن الكريم .

(٤) أولو الأرحام هم كل قريب ليس بذى فرض ولا عصبة . ذهب مالك والشافعى إلى عدم توريثهم ، ويكون المال لبيت المال ، وذهب أبو حنيفة وأحمد إلى توريثهم ، فى حالة عدم وجود أصحاب الفروض والعصبات .

والمصنع قام بتفصيل الثياب بعد أن نسجها مصنع آخر ، والمصنع الآخر نسج الثياب من غزل القطن أو الصوف. والقطن جاء من الزراعة ، والصوف جاء من جز [1] شعر الأغنام.

وهكذا تجد أن مجرد الوقوف أمام خالقك لتصلى يقتضى أن تكون مستور العورة فى صلاتك ، هذا الستر يتطلب منك أن تتفاعل مع الحياة بالعمل .

وانظر لنفسك واسألها: ماذا أفطرتَ اليوم ؟

وأقلُّ إجابة هى: أفطرت برغيف وقليل من الملح ، وستجد أنك اشتريت الرغيف من البقال ، وجاء البقال بالرغيف من المخبز ، والمخبز جاء بالدقيق من المطحن، والمطحن أنتج الدقيق بعد طحن الغلال التى جاءت من الحقل . وكذلك تمت صناعة آلات الطحن فى مصانع أخرى قد تكون أجنبية.

وهكذا تمت صناعة الرغيف بسلسلة هائلة من العمليات ، فهناك الفلاح الذى حرث ، وهناك مصمم آلة الطحن الذى درس الهندسة ، وهناك عالم « الچيولوچيا » الذى درس طبقات الأرض ليستخرج الحديد الخام من باطنها ، وهناك مصنع الحديد الذى صهر الحديد الخام ؛ ليستخلص منه الحديد النقى الصالح للتصنيع.

وهكذا تجد أن كل حركة فى الحياة قد خدمت قضية دينك ، وخدمت وقوفك أمام خالقك لتصلى ، فلا تقل: «سأنقطع للعبادة» بمعنى أن تقصر حياتك على الصلاة فقط ، لأن كل حركة تصلح فى الحياة هى عبادة ، وإن أردت ألا تعمل فى الحياة ، فلا تنتفع بحركة عامل فى الحياة. وإذا لم تنتفع بحركة أى عامل فى الحياة ، فلن تقدر أن تصلى ، ولن تقدر أن يكون لك قوة لتصلى.

---

(١) جز الشعر والصوف: قطعه.

إذن: فالعبادة هى كل حركة تتطلبها الحياة فى ضوء «افعل» و «لا تفعل» [(١)].

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ [(٢)] وَبَشِيرٌ [(٣)] (٢)﴾ [هود]

والنذير [(٤)]: هو من يُخبر بشرٍّ زمنه لم يجىء، لتكون هناك فرصة لتلافى العمل الذى يُوقع فى الشر، والبشير هو من يبشِّر بخير سيأتى إن سلك الإنسان الطريق إلى ذلك الخير.

إذن: الإنذار والبشارة هى أخبار تتعلق بأمر لم يجىء.

وفى الإنذار تخويف ونوع من التعليم، وأنت حين تريد أن تجعل ابنك مُجداً فى دراسته؛ تقول له: إن لم تذاكر فسوف تكون كابن فلانٍ الذى أصبح صعلوكاً تافهاً فى الحياة.

---

(١) افعل: أمر من الآمر وهو الله. ولا تفعل: نهى من الله. والأمر يعطى الفرض والسنة والمستحب. والنهى يعطى الحرام، والمكروه المسكوت عنه مباح، هذا هو التكليف الشرعى، وهو مبدأ الاختيار، وهذا التكليف الشرعى يندرج تحته الأمر بفعل الخير، سواء كان تعبدياً أو معاشياً، ومن هنا تعتدل موازين العدل الاجتماعى.

(٢) النذير: الذى ينذر الكافرين والمشركين والعصاة بعذاب الله. وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ..(١١٩)﴾ [البقرة] وقال تعالى: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ..(٢١٣)﴾ [البقرة].

(٣) البشير: الذى يبشر القوم بالخبر السار، وهو هنا بمعنى الرسول الذى يبشر المؤمنين بثواب الله وجنته ونعيمه جزاءً على إيمانهم وعبادتهم. قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا (٩٧)﴾ [مريم]. أى: قوماً شديدى الخصومة. وقال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ ..(٢٥)﴾ [البقرة]. [القاموس القويم - بتصرف].

(٤) النذير: الإنذار والمنذر، وجمعه نذر. قال تعالى: ﴿مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ..(١٩)﴾ [المائدة] والنذير هنا: هو الرسول المنذر بالعذاب، وقوله: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (١٦)﴾ [القمر] يحتمل إنذاراتى، ويحتمل نتائج إنذاراتى، أى عقوباتى التى أنذروا بها، وحذفت ياء المتكلم تخفيفاً. راجع القاموس القويم صـ ٢٥٨، ٢٥٩ جـ ٢

إذن: فأنت تنذر ابنك ؛ ليتلافى من الآن العمل الذى يؤدى به إلى الفشل الدراسى.

وكذلك يبشر الإنسان ابنه أو أى إنسان آخر بالخير الذى ينتظره حين يسلك الطريق القويم.

إذن: فالعبادة هى كل حركة من حركات الحياة ما دام الإنسان مُتَّبعاً ما جاء بالمنهج الحق فى ضوء «افعل» و «لا تفعل» ، وما لم يرد فيه «افعل» و «لا تفعل» فهو مباح.

وعلى الإنسان المسلم أن يُبصِّر نفسه ، ومن حوله بأن تنفيذ أى فعل فى ضوء «افعل» هو العمل المباح ، وأن يمتنع عن أى فعل فى ضوء «لا تفعل» ما دام الحق سبحانه وتعالى قد نهى عن مثل هذا الفعل ، وعلى المسلم تحرِّى الدقة فى مدلول كل سلوك.

ونحن نعلم أن التكليفات الإيمانية قد تكون شاقة على النفس ، ومن اللازم أن نبيِّن للإنسان أن المشقة على النفس ستأتى له بخير كبير.

ومثال ذلك: حين نجد الفلاح وهو يحمل السماد العضوى من حظيرة البهائم ؛ ليضعه على ظهر الحمار ويذهب به إلى الحقل ؛ ليخلطه بالتربة ، وهو يعمل هذا العمل بما فيه من مشقة انتظاراً ليوم الحصاد.

ويبيِّن الحق - سبحانه وتعالى - هنا على لسان رسوله أن الأمر بعدم عبادة أى كائن غير الله ، هو أمر من الله سبحانه ، وأن الرسول ﷺ هو نذير وبشير من الله.

وقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ .. (٢) ﴾ [هود]

فيه نفى لعبادة غير الله ، وإثبات لعبودية الله تعالى.

وهذا يتوافق ويتسق مع الإنذار والبشارة [(١)] ؛ لأن عبادة غير الله تقتضى نذيراً ، وعبادة الله فى الإسلام تقتضى بشيراً.

ولأن الحق سبحانه وتعالى هو خالق الإنسان ويعلم ضعف الإنسان ، ومعنى هذا الضعف أنه قد يستولى عليه النفع العاجل ، فيُذهبه عن خير آجلٍ أطول منه ، فيقع فى بعض من غفلات النفس.

لذلك بيَّن الحق سبحانه أن من وقع فى بعض غفلات النفس عليه أن يستغفر الله ؛ لأن الله سبحانه وتعالى لا يبخل برحمته على أحدٍ من خلقه.

وإن طلب العبد المذنب مغفرة الله ، فسبحانه قد شرع التوبة ، وهى الرجوع عن المعصية إلى طاعة الله تعالى.

ولا يقع عبد فى معصية إلا لأنه تأبَّى على منهج ربه ، فإذا ما تاب واستغفر ، فهو يعود إلى منهج الله سبحانه ، ويعمل على ألا يقع فى ذنب جديد.

وهنا يقول الحق سبحانه:

﴿ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا [(٢)] إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ ﴾

---

(١) البشرى والبشارة : ما يُعطى للمبشر بالخير السَّار . والبشير الذى يبشر القوم بالأخبار المحبوبة ، والرسول بشير ؛ لأنه يبشر المؤمنين بالجنة وبثواب الله . يقول الحق : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ ﴾ [الفتح] ، ويقول الحق : ﴿ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ ﴾ [الأحزاب] القاموس القويم باختصار .

(٢) المتاع : يطلق على الكثير والقليل باعتباره مصدراً ، ويُجمع على أمتعة باعتبار ما يُنتفع به وما يُتمتع به . قال تعالى : ﴿ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ .. ﴿١٧﴾ ﴾ [الرعد] أى : وصنع أشياء يُنتفع بها . وقوله تعالى : ﴿ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [الزخرف] . أى : أطلت مدة انتفاعهم بالحياة ونعمها ، ومتَعه ومتَّعه بمعنى واحد . وقال تعالى : ﴿ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾ [الواقعة] أى : متاعاً للمسافرين التاركين ديارهم خاوية . أو متاعاً للجائعين . (انظر : ابن كثير ٤/ ٢٩٧).

وهكذا يبيِّن الحق سبحانه أن على العبد أن يستغفر من ذنوبه السابقة التى وقع فيها ، وأن يتوب من الآن ، وأن يرجع إلى منهج الله تعالى ، لينال الفضل من الحق سبحانه.

المطلوب - إذن - من العبد أن يستغفر الله تعالى ، وأن يتوب إليه.

هذا هو مطلوب الله من العاصى ؛ لأن درء [1] المفسدة مقدَّم على جلب [2] المصلحة ، وحين يعجل العبد بالتوبة إلى الله تعالى فهو يعلم أن ذنباً قد وقع وتحقق منه ، وعليه ألا يؤجل التوبة إلى زمنٍ قادم ؛ لأنه لا يعلم إن كان سيبقى حياً أم لا.

ولذلك يقول الحق سبحانه:

﴿ وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى .. (٣) ﴾ [هود]

والحق سبحانه يُجمل قضية اتباع منهجه فى قوله تعالى :

﴿ .. فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَىٰ (١٢٣) ﴾ [طه]

وقال فى موضع آخر:

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً .. (٩٧) ﴾ [النحل]

فالحياة الطيبة فى الدنيا وعدم الضلال والشقاء متحققان لمن اتبع منهج الله تعالى.

---

(١) الدرء: الدفع والإبعاد.

(٢) الجَلْب: سَوْق الشىء من موضع إلى آخر. وجَلَب الشىء: طلبه وكسبه. [لسان العرب: مادة (ج ل ب)].

وظن بعض العلماء أن هذا القول يناقض فى ظاهره قول النبى ﷺ بأن «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر»[(١)]. و«إن أشد الناس بلاءً الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل[(٢)] فالأمثل»[(٣)].

وقال بعض العلماء: فكيف نقول: ﴿يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا .. (٣)﴾ [هود]

هنا نقول: ما معنى المتاع؟

المتاع: هو ما تستمتع به وتستقبله بسرور وانبساط.

ويعلم المؤمن أن كل مصيبة فى الدنيا إنما يجزيه الله عليها حسن الجزاء، ويستقبل هذا المؤمن قضاء الله تعالى بنفس راضية؛ لأن ما يصيبه قد كتبه الله عليه، وسوف يوافيه بما هو خير منه.

وهناك بعض من المؤمنين قد يطلبون زيادة الابتلاء.

إذن: فالمؤمن كل أمره خير؛ وإياك أن تنظر إلى من أصابته الحياة بأية مصيبة على أنه مصاب حقاً؛ لأن المصاب حقاً هو من حُرِم من الثواب.

ونحن نجد فى القرآن قصة العبد الصالح الذى قتل غلاماً كان أبواه

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٩٥٦) وابن ماجه فى سننه (٤١١٣) من حديث أبى هريرة. قال النووى فى شرح مسلم (١٨/ ٣٠٥): «معناه: أن كل مؤمن مسجون ممنوع فى الدنيا من الشهوات المحرمة والمكروهة مكلف بفعل الطاعات الشاقة، فإذا مات استراح من هذا، وانقلب إلى ما أعد الله تعالى له من النعيم الدائم والراحة الخالصة من النقصان. وأما الكافر فإنما له من ذلك ما حصل فى الدنيا مع قلته وتكديره بالمنغصات، فإذا مات صار إلى العذاب الدائم وشقاء الأبد».

(٢) الأمثل فالأمثل: أى الأشرف فالأشرف، والأعلى فالأعلى فى الرتبة والمنزلة. يقال: هذا أمثل من هذا، أى: أفضل وأدنى إلى الخير. وأماثل الناس: خيارهم. [لسان العرب - مادة: مثل].

(٣) أخرجه أحمد فى مسنده (١/ ١٧٢) والترمذى فى سننه (٢٣٩٨) وابن ماجه (٤٠٢٣) من حديث سعد ابن أبى وقاص. قال الترمذى: حديث حسن صحيح. وتمام الحديث: «ويُبتلى الرجل على حسب دينه، وما زال البلاء بالعبد حتى يمشى على الأرض، ليس عليه خطيئة».

مؤمنين ، فخشى العبد الصالح أن يرهقهما طغياناً وكفراً ، فهذا الولد كان فتنة ، ولعله كان سيدفع أبويه إلى كل محرم ، ويأتى لهما بالشقاء [١] .

إذن : فالمؤمن الحق هو الذى يستحضر ثواب المصيبة لحظة وقوعها .

ومنَّا من قرأ قصة المؤمن الصالح الذى سار فى الطريق من المدينة إلى دمشق ، فأصيبت رجْله بجرح وتلوث هذا الجرح ، وامتلأ بالصديد مما يقال عنه فى الاصطلاح الحديث «غرغرينة» وقرر الأطباء أن تُقطع رجله ، وحاولوا أن يعطوه «مُرَقِّداً» أى : مادة تُخدِّره ، وتغيب به عن الوعى ؛ ليتحمل ألم بتر الساق ، فرفض العبد الصالح وقال :

إنى لا أحب أن أغفل عن ربى طرفة عين .

ومثل هذا العبد يعطيه الله سبحانه وتعالى طاقة على تحمُّل الألم ؛ لأنه يستحضر دائماً وجوده فى معية الله ، ومفاضٌ عليه من قدرة الله وقوته سبحانه .

وحينما قطع الأطباء رجله ، وأرادوا أن يكفنوها وأن يدفنوها ، فطلب أن يراها قبل أن يفعلوا ذلك ، وأمسكها ليقول : اللهم إن كنت قد ابتليت فى عضو ، فإنى قد عوفيت فى أعضاء .

إذن : فصاحب المصيبة حين يستحضر الجزاء عليها ، إنما يحيا فى متعة ،

---

(١) يقول رب العزة سبحانه فى سورة الكهف عن موسى عليه السلام والعبد الصالح الذى صحبه موسى ليتعلم منه : ﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا (٧٤) قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٥) ﴾ [الكهف] . ويقول سبحانه على لسان العبد الصالح : ﴿ .. سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا (٧٨) أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا (٧٩) وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا (٨٠) فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا (٨١) ﴾ [الكهف] .

ولذلك لا تتعجب حين يحمد أناس خالقهم على المصائب ؛ لأن الحمد يكون على النعمة ، والمصيبة [١] قد تأتى للإنسان بنعمة أوسع مما أفقدته .

ولذلك نجد اثنين من العارفين بالله وقد أراد أن يتعالم كل منهما على الآخر ؛ فقال واحد منهما :

كيف حالكم فى بلادكم أيها الفقراء ؟

- والمقصود بالفقراء هم العُبَّاد الزاهدون ويعطون أغلب الوقت لعبادة الله تعالى - فقال العبد الثانى :

حالنا فى بلادنا إنْ أعطينا شكرنا ، وإنْ حُرمنا صبرنا .

فضحك العبد الأول وقال :

هذا حال الكلاب فى «بلخ» [٢] أى : أن الكلب إن أعطيته يهز ذيله ، وإن منعه أحد فهو يصبر .

وسأل العبد الثانى العبد الأول :

وكيف حالكم أنتم ؟

فقال : نحن إن أعطينا آثرنا [٣] ، وإن حُرِمنا شكرنا .

إذن : فكل مؤمن يعيش فى منهج الله سبحانه وتعالى فهو يستحضر فى كل أمر مؤلم وفى كل أمر متعب ، أن له جزاءً على ما ناله من التعب ؛ ثواباً عظيماً خالداً من الله سبحانه وتعالى .

---

(١) قال الشيخ : « ذل البلاء خير من عزة النعماء »

(٢) بلخ : مدينة من مدن خراسان من بلاد ما وراء النهر .

(٣) أى : إن نالنا العطاء فإننا نؤثر غيرنا به . أى : نفضلهم على أنفسنا .

ولذلك يقول الحق سبحانه:

﴿ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا .. (٣) ﴾ [هود]

والحسن هنا له مقاييس ، يُقاس بها اعتبار الغاية ؛ فحين تضم الغاية إلى الفعل تعرف معنى الحسن.

ومثال ذلك : هو التلميذ الذى لا يترك كتبه ، بل حين يأتى وقت الطعام ، فهو يأكل وعيناه لا تفارقان الكتاب.

هذا التلميذ يستحضر متعة النجاح وحُسْنه ونعيم التفوق ، وهو تلميذ يشعر بالغاية وقت أداء الفعل.

ويقول الحق سبحانه فى نفس الآية :

﴿ وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُ .. (٣) ﴾ [هود]

أى: يؤتى كل ذى فضل مجزول [1] لمن لا فضل له ، فكأن الحق سبحانه ينمِّى الفضل للعبد.

ومثال ذلك: الفلاح الذى يأخذ من مخزن غلاله إردباً من القمح ليبذره فى الأرض ؛ ليزيده الله سبحانه وتعالى بزراعة هذا الإردب ، ويصبح الناتج خمسة عشر إردباً .

والفضل هو الأجر الزائد عن مساويه ، فمثلاً هناك فضل المال قد يكون عندك ، أى: زائد عن حاجتك ، وغيرك لا يملك مالاً يكفيه ، فإن تفضلت ببعض من الزائد عندك ، وأعطيته لمن لا مال عنده فأنت تستثمر هذا العطاء عند الله سبحانه وتعالى.

والحق سبحانه وتعالى قد يعطيك قوة، فتعطى ما يزيد منها لعبد ضعيف.

---

(١) الجزل: الكثير العظيم من كل شىء ، والجزل الكريم المعطاء [المعجم الوسيط: مادة (ج ز ل)].

وقد يكون الحق سبحانه قد أسبغ [(١)] عليك فضلاً من الحلم ، فتعطى منه لمن أصابه السفه وضيق الخلق.

إذن: فكل ما يوجد عند الإنسان من خصلة طيبة ليست عند غيره من الناس ، ويفيضها عليهم ، فهى تزيد عنده لأنها تربو [(٢)] عند الله ، وإن لم يُفِضْها على الغير فهى تنقص.

ولذلك يقول الحق سبحانه:

﴿ وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ [(٣)] (٣٩) ﴾ [الروم]

ويقول الحق سبحانه وتعالى فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها:

﴿ وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ .. (٣) ﴾ [هود]

وبعض من أهل المعرفة يفهم هذا القول الكريم بأن الإنسان الذى يفيض على غيره مما آتاه الله ، يعطيه الحق سبحانه بالزيادة ما يعوضه عن الذى نقص ، أو أنه سبحانه وتعالى يعطى كل صاحب فضلٍ فضل ربه ، وفضل الله تعالى فوق كل فضل.

---

(١) أسبغ: أنعم وأجزل العطاء. وسبوغ الشيء: تمامه واتساعه. [المعجم الوسيط: مادة (س ب غ) بتصرف]. وقال تعالى: ﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً .. (٢٠) ﴾ [لقمان].

(٢) ربا الشيء، يربو: زاد ونما. وأربيته: نميته.

(٣) أضعف الرجل: نما ماله وزاد واتسع ، فصار أضعافاً. واسم الفاعل مُضعف: ﴿ .. فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ (٣٩) ﴾ [الروم] أى: الذين يأخذون ثواب أعمالهم أضعافاً مضاعفة. قال ابن كثير فى تفسير هذه الآية (٣/ ٤٣٤): «أى: من أعطى عطية يريد أن يرد عليه الناس أكثر مما أهدى لهم، فهذا لا ثواب له عند الله. بهذا فسره ابن عباس ومجاهد والضحاك وقتادة وعكرمة ومحمد بن كعب القرظى والشعبى، وهذا الصنيع مباح وإن كان لا ثواب فيه، إلا أنه قد نُهى عنه رسول الله ﷺ خاصة، قاله الضحاك واستدل بقوله تعالى: ﴿ وَلا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ (٦) ﴾ [المدثر]. أى: لا تعط العطاء تريد أكثر منه. وقال ابن عباس: الربا رباءان: فرباً لا يصح ، يعنى: ربا البيع ، ورباً لا بأس به ، وهو هدية الرجل يريد فضلها وأضعافها ثم تلا هذه الآية﴿ وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ .. (٣٩) ﴾ [الروم] وإنما الثواب عند الله فى الزكاة.

ثم يقول الحق سبحانه:

﴿ ..وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ (٣) ﴾ [هود]

فإن أعرضوا عنك فأبلغهم أنك تخاف عليهم من عذاب اليوم الآخر، ويُوصف العذاب مرة بأنه كبير، ويوصف مرة بأنه عظيم، ويوصف مرة بأنه مهين؛ لأنه عذاب لا ينتهى ويتنوع حسب ما يناسب المعذب، فضلاً عن أن العذاب الذى يوجد فى دنيا الأغيار هو عذاب يجرى فى ظل المظنة بأنه سينقضى، أما عذاب اليوم الآخر فهو لا ينقضى بالنسبة للمشركين بالله أبداً.

ويقول الحق من بعد ذلك:

﴿ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤) ﴾

أى: إلى الله مرجعكم [1] فى الإيجاد والإمداد، والبداية والنهاية، وبداية النهاية التى لا انتهاء معها وهى الآخرة، فيثيب المحسن على إحسانه، ويعاقب المسىء على إساءته، فيؤتى سبحانه لكل ذى عمل صالح فى الدنيا أجره، وثوابه فى الآخرة.

ومن كثرت حسناته على سيئاته دخل الجنة، ومن زادت سيئاته على حسناته دخل النار.

وفى الدنيا من زادت حسناته على سيئاته وعاش بين القبض والبسط.

والقبض والبسط هو إقبال على الله بتوبة وباعتراف بالذنب، والإقرار بالذنب هو بداية التوبة.

---

(١) المرجع: الرجوع، أو اسم زمان، أو اسم مكان، يقول الحق: ﴿ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ .. (٥٥) ﴾ [آل عمران] أى: رجوعكم، أو زمن رجوعكم، أو مكان الرجوع، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ .. (٢٣) ﴾ [يونس].

ومن كثرت سيئاته على حسناته كان فى ضنك [(١)] العيش وقلق النفس.

ويؤتى الحق سبحانه كل ذى فضل فضله ، فمن عمل لله عز وجل ؛ وفقه الله فيما يستقبل على طاعته، والذين أعرضوا يُخاف عليهم من عذاب يوم كبير.

﴿ ..وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤) ﴾ [هود]

لأنه سبحانه القادر على الإيجاد وعلى الإمداد ، وعلى البداية والنهاية المحدودة ، وبداية الخلود إما إلى جنة وإما إلى نار ، فهو القادر على كل شىء.

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك:

﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ [(٢)] لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ [(٣)] أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ [(٤)] يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ (٥) [(٥)] ﴾

---

(١) الضنك: ضيق العيش. ومنه قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ..(١٢٤) ﴾ [طه] قال ابن كثير فى تفسيره (٣/ ١٦٨) : «فلا طمأنينة له، ولا انشراح لصدره، بل صدره ضيق حرج لضلاله، وإن تنعم ظاهره ، ولبس ما شاء، وأكل ما شاء، وسكن حيث شاء، فإن قلبه ما لم يخلص إلى اليقين والهدى فهو فى قلق وحيرة وشك، فلا يزال فى ريبة يتردد، فهذا من ضنك المعيشة».

(٢) يثنون صدورهم: يطوونها على عداوة المسلمين، ويُكنُّون لهم البغض والكراهية.

(٣) الاستخفاء: طلب الخفاء والاختفاء. ومن جهلهم يريدون الاستخفاء من الله تعالى، وهو سبحانه لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء. قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ (٥) ﴾ [آل عمران] . وقال تعالى: ﴿ إِن تُبْدُوا۟ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا (٥٤) ﴾ [الأحزاب].

(٤) يستغشون ثيابهم: يتغطون بها مبالغة فى الاستخفاء. [كلمات القرآن].

(٥) ذكر الواحدى فى «أسباب النزول» (ص ١٥٣) أن هذه الآية نزلت فى الأخنس بن شريق، وكان رجلاً حلو الكلام حلو المنظر، يلقى رسول الله ﷺ بما يحب، ويطوى بقلبه ما يكره.
وقال الكلبى: كان يجالس النبى ﷺ يظهر له أمراً يسرُّه، ويضمر فى قلبه خلاف ما يظهر.

وإذا وجدت «ألا» فى أول الكلام فأنت تعلم أنها للتنبيه ، ومعنى التنبيه أنه أمر يوقظ لك السامع إن كان غافلاً ؛ لأنك تحب ألا تفوته كلمة من الكلام الذى تقوله.

وحين تنبهه بغير أداء الأسلوب الذى تريده منه ، هنا يكون التنبيه قد أخذ حقه ، ومن بعد ذلك يجىء الكلام الذى تقوله ، وقد تهيَّأ ذهن السامع لاستقبال ما تقول.

فـ «ألا» - إذن - هى أداة تنبيه ؛ لأن الكلام ستار بين المتكلم والمخاطب ، والمخاطب لا يعرف الموضوع الذى ستكلمه فيه ، والمتكلم هو الذى يملك زمام الموقف ، وهو يهيىء ذهنه لترتيب ما يقول من كلمات ، أما المستمع فسوف يفاجأ بالموضوع ؛ وحتى لا يفاجأ ولا تضيع منه الفرصة ليلتقط كلمات المتكلم من أولها ، فهو ينبهه بأداة تنبيه ليستمع [1].

ويقول الحق سبحانه هنا :

﴿ أَلا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ .. (٥) ﴾ [هود]

ويقال: ثنيت الشىء أى: طويته ، وجعلته جزئين متصلين فوق بعضهما البعض.

وحين يثنى الإنسان صدره ، فهو يثنيه إلى الأمام ناحية بطنه ، ويدارى بذلك وجهه ، والغرض هنا من مداراة الوجه هو إخفاء الملامح ؛ لأن

---

(١) وردت ألا فى القرآن على أوجه:

الأول: التنبيه، فتدل على تحقق ما بعدها، وتدخل على الجملتين الاسمية والفعلية، نحو ﴿ .. أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لاَّ يَعْلَمُونَ (١٣) ﴾ [البقرة] ، ﴿ أَلا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ .. (٨) ﴾ [هود] .

الثانى والثالث: التحضيض والعرض، ومعناهما طلب الشىء، لكن الأول طلب بحثٍ ، والثانى طلب بلين، وتختص فيهما بالدخول على الجملة الفعلية نحو: ﴿ أَلا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ .. (١٣) ﴾ [التوبة] ، ﴿ .. أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ (٢٢) ﴾ [النور].

انفعال مواجيد [١] النفس البشرية ينضح على الوجوه .

وهم كارهون للرسول ﷺ ، وحاقدون عليه ؛ ولا يريدون أن يلحظ الرسول ﷺ ما على ملامحهم من انفعالات تفضح مواجيدهم الكارهة .

ومثل ذلك جاء من قوم نوح عليه السلام ، حين قال الحق سبحانه على لسان نوح :

﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا [٢] ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (٧) ﴾ [نوح]

ومن البداهة أن نعرف أن الإصبع لا تدخل كلها إلى الأذن ، إنما الأنملة [٣] تسد فقط فتحة السمع ، وعدَّل القرآن الكريم ذلك بمبالغة تكشف موقف نوح - عليه السلام - ، فكل منهم أراد أن يُدخل إصبعه فى أذنه حتى لا يسمع أى دعوة ، وهذا دليل كراهية ، وهذه شهادة ضدهم ؛ لأنهم يفهمون أنهم لو سمعوا فقد تميل قلوبهم لما يقال .

ولذلك نجد القرآن الكريم وهو ينقل لنا ما قاله مشركو مكة لبعضهم البعض :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا [٤] فِيهِ .. (٢٦) ﴾ [فصلت]

فكأنهم تواصوا بالتشويش على القرآن ، ثقة منهم فى أن القرآن

---

(١) مواجيد : مفرد موجدة . وقد وجد فلان وجداً : حزن أو غضب . والمراد : انفعالات النفس البشرية . [المعجم الوسيط : مادة (و ج د)] بتصرف .

(٢) استغشوا ثيابهم : تغطوا بها كى لا يروا نوحاً ولا يسمعوا كلامه . قاله ابن عباس . ذكره السيوطى فى (الدر المنثور) (٨/ ٢٨٩) طبعة دار الفكر .

(٣) الأنملة : عقدة الإصبع أو سلاماها . وهى أيضاً : المفصل الأعلى من الإصبع الذى فيه الظفر . والجمع : أنامل . [المعجم الوسيط مادة (ن م ل)] .

(٤) اللغو : ما لا يعتد به من كلام وغيره ، ولا يحصل منه على فائدة ولا نفع . [المعجم الوسيط] . والغوا فيه : ائتوا باللغو والباطل عند قراءته [كلمات القرآن] . قال ابن عباس : بالتصفير والتخليط على رسول الله ﷺ إذا قرأ القرآن . ذكره السيوطى فى الدر المنثور (٧/ ٣٢١) وعزاه لابن أبى حاتم .

لو تناهى [١] إلى الأذن فقد يؤثر فى نفسية السامع ؛ لأن النفس البشرية أغيار ، وقد تأتى للنفس ما يجعلها تميل دون أن يشعر صاحبها.

ولو كان هذا القرآن باطلاً ، فلماذا خافوا من سماعه ؟

ولكنه الغباء فى العناد والكفر.

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ .. (٥) ﴾ [هود]

وهم قد استغشوا ثيابهم ليغطوا وجوههم ؛ مداراة للانفعالات التى تحملها هذه الوجوه [٢] ، وهى انفعالات كراهية ، أو أنها قد تكون انفعالات أخرى ، فساعة يسمع واحد منهم القرآن قد ينفعل لما يسمع ، ولا يريد أن يُظهر الانفعال.

إذن: فالانفعال قد يكون قسرياً [٣] ، وكان كفار قريش رغم كيدهم وحربهم لرسول الله ﷺ ، يتسللون ناحية بيت النبى ﷺ ليسمعوا القرآن ، وكانوا يضبطون بعضهم البعض هنالك ، ويدّعى كل منهم أنه إنما مرَّ على بيت النبى ﷺ مصادفة [٤].

وفى ذلك يقول الشاعر :

---

(١) تناهى : بلغ ووصل . الإنهاء : الإبلاغ . أنهيت إليه الخبر : أبلغته له . (لسان العرب – مادة : نهى).

(٢) قال قتادة : أخفى ما يكون العبد إذا حنى ظهره ، واستغشى ثوبه ، وأضمر فى نفسه همَّه . ذكره القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٣٢٤).

(٣) قسرياً : أى خارجاً عن إرادة الإنسان.

(٤) وذلك أن أبا سفيان بن حرب ، وأبا جهل بن هشام ، والأخنس بن شريق خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله ﷺ ، وهو يصلى من الليل فى بيته ، فأخذ كل رجل منهم مجلساً يستمع فيه ، وكل لا يعلم بمكان صاحبه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا . فجمعهم الطريق ، فتلاوموا . وقال بعضهم لبعض : لا تعودوا ، فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم فى نفسه شيئاً ، ثم انصرفوا . حتى إذا كانت الليلة الثانية ، عاد كل رجل منهم إلى مجلسه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا . . وهكذا إلى ليلة ثالثة حتى قال بعضهم لبعض : لا نبرح حتى نتعاهد ألاّ نعود ، فتعاهدوا على ذلك ، ثم تفرقوا . (سيرة ابن هشام ١/ ٣١٥).

اذكُروهُمْ وقد تسلَّل كلٌّ ... بعدَ ما انفضَّ مجلسُ السُّمَّار[١]
اختلاساً يسْعَى لحجرة طَهَ ... لسَماعِ التنزيلِ فى الأسْحَار[٢]
عُذْرهم حُسْنُهُ فلمّا تَراءَوْا ... عَلَّلوها ببَارزِ الأعْذَار

وجاء الحق سبحانه وتعالى هنا فى نفس الآية بـ «ألا» فى قوله:

﴿ ..أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٥) ﴾ [هود]

فهم إن داروا على محمد ﷺ، فهل هم قادرون على المداراة على رب محمد؟ والذى لا يدركه بصر محمد فربُّ محمد سيُعلمه به.

وما دام الحق سبحانه يعلم ما يسرون، فمن باب أولى أنه سبحانه وتعالى يعلم ما يعلنون.

والحق سبحانه وتعالى غيب، وربما ظن ظان أنه قد يفلت منه شىء، ولكن الحق سبحانه يُحصى ولا يُحصَى عليه، فإن ظن ظان أن الحق سبحانه يعلم الغيب فقط؛ لأنه غيب، فهذا ظن خاطىء؛ لأنه يعلم السر والعلن، فهو عليم بذات الصدور، وكلمة «عليم» صيغة مبالغة[٣]، وهى ذات فى كنهها العلم.

وقول الحق سبحانه:

﴿ .. عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ[٤] (٥) ﴾ [هود]

---

(١) السمار: هم الناس يسمرون بالليل، ويكون عادة فى ضوء القمر.

(٢) الأسحار: جمع سحر، وهو الثلث الأخير من الليل إلى مطلع الفجر. قال تعالى: ﴿ وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) ﴾ [الذاريات].

(٣) عليم: صيغة مبالغة من العلم، أى: بالغ العلم لا حدَّ لعلمه سبحانه.

(٤) الصدر: مقدم كل شىء وأوله، وصدر الإنسان معروف، وبداخله أضلاعه وقلبه ورئتاه. وفى الصدر تظهر آثار الانفعال انقباضاً فى الحزن وانشراحاً فى السرور، قال الحق سبحانه: ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (١) ﴾ [الشرح] وقال: ﴿ ..إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١١٩) ﴾ [آل عمران] أى: بالأسرار المصاحبة للصدور [القاموس القويم باختصار].

نجد فيه كلمة ﴿ذَاتِ﴾ وهى تفيد الصحبة ، و(ذَاتِ الصُّدُورِ) أى : الأمور المصاحبة للصدور .

ونحن نعلم أن الصدر محل القلب ، ومحل الرئة ، والقلب محل المعتقدات التى انتُهى إليها ، وصارت حقائق ثابتة ، وعليها تدور حركة الحياة .

ويُقصد بـ ﴿ذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أى : المعانى التى لا تفارق الصدور ، فهى صاحبات دائمة الوجود فى تلك الصدور ، سواء أكانت حقداً أو كراهية ، أو هى الأحاسيس التى لا تظهر فى الحركة العادية ، سواء أكانت نية حسنة أو نية سيئة .

وكل الأمور التى يسمونها ذات الصدور ، أى : صاحبات الصدور ، وهى القلوب ، وكأن الجِرْم [1] نفسه وهو القلب معلوم للحق سبحانه وتعالى ، فخواطره من بابَ أولى معلومة .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ [2] فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا [3] كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾ ﴾

---

(١) جرم كل شىء : جسمه . والمقصود القلب البشرى نفسه .

(٢) الدابة : اسم فاعل ، وغلب على غير العاقل ، ويستوى فيه المذكر والمؤنث ، وقد يشمل العاقل وغيره ، كقوله تعالى : ﴿ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ .. ﴿١٦٤﴾ ﴾ [البقرة] تشمل الإنسان وغيره ، وكذلك قوله : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [الشورى] ، الدابة تشمل الكائنات الحية فى الأرض والسماء ، وفيها دليل على أن فى السماء كائنات حية وعاقلة .

أما قوله تعالى : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لاَّ تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ .. ﴿٦٠﴾ ﴾ [العنكبوت] ، الدابة هنا كل حيوان ما عدا الإنسان بدليل (وإياكم) .

(٣) مستقرها : موضع استقرارها فى الأصلاب أو فى الأرحام ونحوها . ومستودعها : موضع استيداعها فى الأرحام ونحوها ، أو فى الأصلاب . [كلمات القرآن] للشيخ حسنين محمد مخلوف .

وحين يذكر القرآن الكريم لقطة توضح صفة ما ، فهو يأتى بما يتعلق بهذه الصفة ، وما دام الحق سبحانه عليماً بذات الصدور ، فهذا علم بالأمور السلبية غير الواضحة ، والحق سبحانه يعلم الإيجابيات أيضاً ، فهو يعلم النية الحسنة أيضاً ، ولكن الكلام هنا يخص جماعة يثنون صدورهم.

وجاء فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها، وبيَّن أنه عليم بكل شىء.

وقال سبحانه:

﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِى الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا .. (٦) ﴾ [هود]

والدابة: كل ما يدب على الأرض ، وتستخدم فى العرف الخاص للدلالة على أى كائن يدب على الأرض غير الإنسان.

وفى آية أخرى يقول الحق سبحانه:

﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِى الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم .. (٣٨) ﴾ [الأنعام]

وذكر الحق سبحانه وتعالى عن موسى عليه السلام أنه شُغل - حينما كُلِّف - بخواطر عن أهله ، وتساءل: كيف أذهب لأداء الرسالة وأترك أهلى؟

فأوحى له الله سبحانه أن يضرب حجراً فانفلق الحجر عن صخرة ، فأمره الحق سبحانه أن يضرب الصخرة ، فضربها فانفلقت ليخرج له حجر ، فضرب الحجر فانشق له عن دودة تلوك [1] شيئاً كأنما تتغذى به ، فقال: إن الذى رزق هذه فى ظلمات تلك الأحجار كلها لن ينسى أهلى على ظهر

(١) لاك الشىء يلوكه لوكاً: مضغه. [اللسان: مادة (ل و ك)].

الأرض . ومضى موسى عليه السلام إلى رسالته.

وهذا أمر طبيعى ؛ لأن الحق سبحانه خالق كل الخلق ، ولا بد أن يضمن له استبقاء حياة واستبقاء نوع ؛ فاستبقاء الحياة بالقوت [(١)] ، واستبقاء النوع بالزواج والمصاهرة.

إذن: فمن ضمن ترتيبات الخلق أن يوفر الحق سبحانه وتعالى استبقاء الحياة بالقوت ، واستبقاء النوع بالتزاوج.

ولذلك نقول دائماً: يجب أن نفرق بين عطاء الإله وعطاء الرب ، فالإله سبحانه هو رب الجميع ، لكنه إله من آمن به.

وما دام الحق سبحانه هو رب الجميع ، فالجميع مسئولون منه ؛ فالشمس تشرق على المؤمن وعلى الكافر ، وقد يستخرج الكافر من الشمس طاقة شمسية وينتفع بها ، فلماذا لا يأخذ المؤمن بالأسباب ؟

والهواء موجود للمؤمن وللكافر ؛ لأنه عطاء ربوبية ، فإن استفاد الكافر من الهواء ودرسه ، واستخدم خواصه أكثر من المؤمن ؛ فعلى المؤمن أن يجدَّ ويكدَّ فى الأخذ بالأسباب.

إذن: فهناك عطاء للربوبية يشترك فيه الجميع ، لكن عطاء الألوهية إنما يكون فى العبادة ، وهو يُخرجك عن مراداتك إلى مرادات ربك ، فحين تطلب منك شهواتك أن تفعل أمراً فيقول لك المنهج: لا. [(٢)]

---

(١) القوت: ما يمسك الرمق من الرزق. وفى الصحاح: هو ما يقوم به بدن الإنسان من الطعام. [لسان العرب: مادة (ق و ت)].

(٢) وأصحاب المنهج الذين قاموا به وعليه ، يقول الله فى حقهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (٣١) نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ (٣٢)﴾ [فصلت]

وفى هذا تحكم منك فى الشهوات ، وارتقاء فى الاختيارات ، أما فى الأمور الحياتية الدنيا ، فعطاء الربوبية لكل كائن ليستبقى حياته .

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا [1] .. (٦) ﴾ [هود]

وكلمة «على» تفيد أن الرزق حق للدابة ، لكنها لم تفرضه هى على الله سبحانه وتعالى ، ولكنه سبحانه قد ألزم نفسه بهذا الحق .

ويقول سبحانه :

﴿ وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا .. (٦) ﴾ [هود]

ولأنه سبحانه هو الذى يرزق الدابة فهو يعلم مستقرها وأين تعيش ؛ ليوصل إليها هذا الرزق .

والمستقر : هو مكان الاستقرار ، والمستودع : هو مكان الوديعة .

والحق سبحانه يُعْلمنا بذلك ليطمئن كل إنسان أن رزقه يعرف عنوانه ، والإنسان لا يعلم عنوان الرزق .

فالرزق يأتى لك من حيث لا تحتسب ، لكن السعى إلى الرزق شىء آخر ؛ فقد تسعى إلى رزق ليس لك ، بل هو رزق لغيرك .

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٣٢٤) : «الرزق حقيقته ما يتغذى به الحى ، ويكون فيه بقاء روحه ونماء جسده ، ولا يجوز أن يكون الرزق بمعنى الملك ، لأن البهائم ترزق وليس يصح وصفها بأنها مالكة لعلفها ، وهكذا الأطفال ترزق اللبن ، ولا يقال : إن اللبن الذى فى الثدى ملك للطفل .
وقال تعالى : ﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ .. (٢٢) ﴾ [الذاريات] وليس لنا فى السماء ملك ، ولأن الرزق لو كان ملكا لكان إذا أكل الإنسان من ملك غيره أن يكون قد أكل من رزق غيره ، وذلك محال ، لأن العبد لا يأكل إلا رزق نفسه» .

فمثلاً: أنت قد تزرع أرضك قمحاً فيأتى لك سفر للخارج ، وتترك قمحك ؛ ليأكله غيرك ، وتأكل أنت من قمح غيرك.

ولذلك يقول الحق سبحانه:

﴿ .. وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٦) ﴾ [هود]

أى: أن كل أمر مكتوب ، وهناك فرق بين أن تفعل ما تريد ، ولكن لا يحكم إرادتك مكتوب ؛ فما يأتى على بالك تفعله، وبين أن تفعل أمراً قد وضعت خطواته فى خطة واضحة مكتوبة ، ثم تأتى أفعالك وفقاً لما كتبته.

ومن عظمة الخالق سبحانه أنه كتب كل شىء ، ثم يأتى كل ما فى الحياة وفق ما كتب.

والدليل على ذلك - على سبيل المثال - أن الله سبحانه كان يوحى إلى رسوله بالسورة من القرآن الكريم ، وبعد ذلك يُسرِّى [1] عن رسول الله ﷺ الوحى ، فيتلو السورة على أصحابه ، فمن يستطيع الكتابة فهو يكتب ، ومن يحفظ فهو يحفظ.

ثم يأتى الرسول ﷺ إلى الصلاة ، فيقرأ السورة كما كُتِبَتْ ، ويأتى كل نجم من القرآن فى مكانه الذى قاله النبى ﷺ لصحابته ، فكيف كان يحدث ذلك ؟

لقد حدث ذلك بما جاء به الحق سبحانه ، وأبلغه لرسوله ﷺ:

﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنسَىٰ (٦) ﴾ [الأعلى]

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

---

(١) التسرية: انكشاف الوحى عنه ﷺ ، بما فيه من شدة تؤدى إلى أن يتصبب رسول الله ﷺ عرقاً.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ ﴾

وقد تعرض القرآن الكريم لمسألة خلق الأرض والسماء أكثر من مرة.

وقلنا من قبل: إن الحق سبحانه وتعالى قد شاء أن يخلق الأرض والسموات فى ستة أيام من أيام الدنيا ، وكان من الممكن أن يخلقها فى أقل من طرفة عين بكلمة «كن» وعرفنا أن هناك فارقاً بين إيجاد الشىء ، وطرح مكونات إيجاد الشىء.

ومثال ذلك - ولله المثل الأعلى - حين يريد الإنسان صنع «الزبادى» ، فهو يضع جزءاً من مادة الزبادى - وتسمى «خميرة» - فى كمية مناسبة من اللبن الدافىء ، وهذه العملية لا تستغرق من الإنسان إلا دقائق ، ثم يترك اللبن المخلوط بخميرة الزبادى ، وبعد مضى أربع وعشرين ساعة يتحول اللبن المخلوط بالخميرة إلى زبادى بالفعل.

وهذا يحدث بالنسبة لأفعال البشر ، فهى أفعال تحتاج إلى علاج ، ولكن أفعال الخالق سبحانه وتعالى لا علاج فيها ؛ لأنها كلها تأتى بكلمة «كن».

أو كما قال بعض العلماء: إن الله شاء أن يجعل خلق الأرض والسموات فى ستة أيام ، وقد أخذ بعض المستشرقين من هذه الآية ، ومن

---

(١) العرش في اللغة: سرير الملك. وقد سمى سبحانه سرير ملكة سبأ بالعرش، فقال سبحانه: ﴿ .. وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ [النمل]. وعرش البارى سبحانه لا يُحَدُّ، ذكره رب العزة فى كتابه (٢١ مرة) مضافاً إليه سبحانه.

(٢) ليبلوكم: ليختبركم ، وهو أعلم بأمركم.
أحسن عملاً: أطوع لله وأروع عن محارمه. [كلمات القرآن].

آيات أخرى مجالاً لمحاولة النيل من القرآن الكريم ، وأن يدَّعوا أن فيه تعارضاً ، فالحق سبحانه وتعالى هنا يقول:

﴿ وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ .. (٧) ﴾ [هود]

وجاءوا إلى آية التفصيل وجمعوا ما فيها من أيام ، وقالوا: إنها ثمانية أيام ، وهى قول الحق سبحانه:

﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا (١) ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ (٢) مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا (٣) فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ (١٠) ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ (٤) فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) فَقَضَاهُنَّ (٥) سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ .. (١٢) ﴾ [فصلت]

---

(١) الند: المثل والنظير. وجمعه: أنداد. وقال تعالى: ﴿ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا .. (٢٢) ﴾ [البقرة] أى: أمثالاً شركاء. تعالى الله عما يقولون [القاموس القويم] بتصرف.

(٢) رسا الشىء يرسو رسواً: ثبت ورسخ، وأرساه: جعله ثابتاً راسخاً، وأرسى السفينة: ثبتها على الشاطىء فلا تسير. والمراد بالرواسى: الجبال لأنها تثبت الأرض حتى تستقر ولا تميل. قال تعالى: ﴿ وَأَلْقَىٰ فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ .. (١٥) ﴾ [النحل] وقال تعالى: ﴿ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا (٣٢) ﴾ [النازعات]. [القاموس القويم - بتصرف].

(٣) الأقوات: جمع قوت. وهو ما يمسك الرمق من الرزق. وفى الصحاح للجوهرى: هو ما يقوم به بدن الإنسان من الطعام. [اللسان - مادة: قوت].

(٤) ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ .. (١١) ﴾ [فصلت]. الدخان: بخار الماء المتصاعد منها حين خلقت الأرض. ذكره ابن كثير فى تفسيره [٤/ ٩٣].

(٥) فقضاهن: خلقهن. فالقضاء هنا بمعنى الخلق. وهى من الكلمات التى تأتى على وجوه كثيرة من المعانى، ومن معانيها:

الفراغ: ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ .. (٢٠٠) ﴾ [البقرة].

الأمر: ﴿ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا .. (١١٧) ﴾ [البقرة].

العهد: ﴿ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الأَمْرَ .. (٤٤) ﴾ [القصص].

الوصية: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ .. (٢٣) ﴾ [الإسراء].

وهنا قال بعض المستشرقين: لو كانت هذه هى قصة الخلق للأرض والسموات لطابقت آية الإجمال آية التفصيل.

وقال أحدهم: لنفرض أن عندى عشرة أرادب من القمح، وأعطيت فلاناً خمسة أرادب وفلاناً ثلاثة أرادب، وفلاناً أعطيته إردبين، وبذلك ينفد[1] ما عندى؛ لأن التفصيل مطابق للإجمال.

وادَّعى هذا البعض من المستشرقين أن التفصيل لا يتساوى مع الإجمال. ولم يفطنوا إلى أن المتكلم هو الله سبحانه وتعالى، وهو يكلم أناساً لهم ملكة أداء وبيان وبلاغة وفصاحة؛ وقد فهم هؤلاء ما لم يفهمه المستشرقون.

هم فهموا، كأهل فصاحة، أن الحق - سبحانه وتعالى - قد خلق الأرض فى يومين، ثم جعل فيها رواسى وبارك فيها، إما فى الأرض أو فى الجبال، وقدَّر فيها أقواتها، وكل ذلك تتمة للحديث عن الأرض.

ومثال ذلك: حين أسافر إلى الإسكندرية فأنا أصل إلى مدينة طنطا فى ساعة - مثلاً - وإلى الإسكندرية فى ساعتين، أى: أن ساعة السفر التى وصلت فيها إلى طنطا هى من ضمن ساعتى السفر إلى الإسكندرية.

وكذلك خلق الأرض والرواسى وتقدير القوت، كل ذلك فى أربعة أيام[2]

---

(١) نفد - ينفد نفداً ونفاداً: فنى وذهب وانقطع ولم يبق، من النفاد، وهو الانتهاء. وقال تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ .. (٩٦)﴾ [النحل].

(٢) اليوم: فى علم الفلك الحديث مقدار دوران الأرض حول محورها مرة، ومدته أربع وعشرون ساعة تقريباً، وجمعه أيام. وأيام العرب: وقائعهم الحربية. وأيام الله أيام حَلَّتْ فيها نِقَم الله وعذابه على الأمم الماضية العاصية، وأيامه التى أنعم فيها على أمم مطيعة صالحة.

ويوم الدين: يوم القيامة. ويوم حنين: حدثت فيه موقعة حنين. واليوم عند الله مقداره يختلف عن اليوم عندنا فأحياناً يكون ألف سنة، ولكل نجم يومه، ولكل كوكب يومه. قال تعالى: ﴿.. وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ (٤٧)﴾ [الحج]. وقد يكون المقدار خمسين ألف سنة، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿.. فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ (٤)﴾ [المعارج]، وبهذا التقدير نفهم معنى قوله تعالى فى خلق السموات والأرض: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ .. (١٢)﴾ [فصلت] فالله أعلم بمقدار هذين اليومين. [القاموس القويم - بتصرف]

متضمنة يَوْمَىْ خَلْق الأرض [(١)] ، ثم جاء خلق السماء فى يومين.

ثم يقول الحق سبحانه:

﴿ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ .. (٧) ﴾ [هود]

كل هذه المسائل الغيبية لها حجة أساسية ، وهى أن الذى أخبر بها هو الصادق ، فلا أحد يشك أن الأرض والسموات مخلوقة ، ولا أحد يشك فى أن السموات والأرض أكبر خلقاً من خلق الناس ، وليس هناك أحد من البشر ادَّعى أنه خلق الأرض أو خلق السموات.

وكل المخترعات البشرية نعرف أصحابها ، مثل: المصباح الكهربى ، والهاتف ، والميكروفون ، والتليفزيون ، والسيارة ، وغيرها.

ولكن حين نجىء إلى السموات والأرض لا نجد أحداً قد ادعى أنه قد خلقها.

وقد أبلغنا الحق سبحانه أنه هو الذى خلقها ، وهى لمن ادّعاها إلى أن يظهر مُعارِض ، ولن يظهر هذا المعارض أبداً.

وكل هذا الخلق من أجل البلاء:

﴿ لِيَبْلُوَكُمْ [(٢)] أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً .. (٧) ﴾ [هود]

---

(١) ولذلك قال أبو يحيى زكريا الأنصارى فى كتابه «فتح الرحمن بكشف ما يلتبس فى القرآن» ص ٣٧٣: «يوما خلق الأرض من جملة الأربعة بعدهما ، والمعنى فى تتمة أربعة أيام، وهى مع يومى خلق السموات ستة أيام. يوم الأحد والاثنين لخلق الأرض، ويوم الثلاثاء والأربعاء للجعل المذكور فى الآية وما بعده، ويوم الخميس والجمعة لخلق السموات».

(٢) بلوت الشىء - أبلوه بلواً وبلاء: امتحنته واختبرته، قال تعالى: ﴿ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً .. (٣٥) ﴾ [الأنبياء] أى: نختبركم بالشر والنعم، أو بالخير والنعم؛ لنعلم مدى صبركم أو شكركم ومدى إيمانكم أو كفركم. وقوله تعالى: ﴿ هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ .. (٣٠) ﴾ [يونس] أى: تعرف حقيقة عملها الذى قدمته كما يعرف المختبر الشىء الذى يختبره. وقوله تعالى: ﴿ .. وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ (٣١) ﴾ [محمد]. أى: نعرف صدقها من كذبها. ومن أغراض البلاء والابتلاء إظهار حقيقة العمل والتمييز بين العمل الحسن وغيره؛ تمهيداً للثواب أو العقاب. [القاموس القويم] بتصرف.

أى : ليختبركم أيكم أحسن عملاً [(١)] ، ولكن من الذى يحدد العمل ؟

إنه الله سبحانه وتعالى .

وهل الحق سبحانه فى حاجة إلى أن يختبر مخلوقاته ؟

لا ، فالله سبحانه يعلم أزلاً كل ما يأتى من الخلق ، ولكنه سبحانه أراد بالاختبار أن يطابق ما يأتى منهم على ما علمه أزلاً ؛ حجة عليهم .

وهكذا فاختبار الحق سبحانه لنا اختبار الحجة علينا .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ..وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ (٧) ﴾ [هود]

وهنا يصور الحق - سبحانه وتعالى - تكذيب المعاندين لرسول الله ﷺ ، فهم يلقون بالألفاظ على عواهنها [(٢)] من قبل أن تمر على تفكيرهم .

فلو أنهم قد مروا بهذه الكلمات على تفكيرهم ؛ لاستحال منطقياً أن يقولوها .

والرسول ﷺ يخبرهم ببلاغ الحق سبحانه وتعالى لهم بأنهم مبعوثون من بعد الموت .

---

(١) عن عبد الله بن عمر أن النبى ﷺ تلا : ﴿ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً .. (٧) ﴾ [هود] . قال : «أيكم أحسن عقلاً، وأورع عن محارم الله، وأسرع فى طاعة الله » أورده القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٣٢٧) والسيوطى فى الدر المنثور (٤/ ٤٠٤) وعزاه لابن جرير الطبرى وابن أبى حاتم والحاكم فى التاريخ وابن مردويه بنحوه .

(٢) ألقى الكلام على عواهنه : لم يتدبره، وقيل : هو إذا لم يهتم أصاب أم أخطأ ، وقيل : إذا تهاون به . وقال ابن الأثير : العواهن أن تأخذ غير الطريق فى السير أو الكلام، جمع عاهنة . وعهن الشىء : أى : أرسل الكلام على ما حضر منه وعجل، من خطأ وصواب . أى : عدم التفكير فى الكلام قبل التلفظ به وإلقاؤه على علاّته . [اللسان : مادة (ع هـ ن)] بتصرف .

وهذا كلام إخبارى بأنهم إن ماتوا - وهم سيموتون لا محالة - سيبعثهم الله سبحانه ، فما كان منهم إلا أن قالوا:

﴿ .. إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ (٧) ﴾ [هود]

والخبر الذى يقوله لهم هو خبر ، فما موقع السحر منه ؟ إنهم يعلمون أنه ﷺ لم يقل ذلك إلا من نص القرآن الكريم ، وهم يقولون عن القرآن الكريم إنه سحر ، فكأن النص نفسه من السحر الذى حكموا به على القرآن.

وأوضحنا من قبل أن إبطال قضية السحر فى القرآن الكريم دليله منطقى مع القول ؛ لأنهم إن كانوا قد ادعوا أن رسول الله ﷺ أو أن محمداً - فى عرفهم - قد سحر القوم الذين اتبعوه.

فالساحر له تأثير على المسحور ، والمسحور لا دخل له فى عملية السحر ، فإذا كان محمد قد سحر القوم الذين اتبعوه ، فلماذا لم يسحر هؤلاء المنكرين لرسالته ؛ بنفس الطريقة التى سحر بها غيرهم ؟

وحيث إنهم قد بقوا على ما هم عليه من عناد لرسول الله ﷺ ، فهذا دليل على أن المسألة ليست سحراً ، ولو كان الأمر كذلك لسحرهم جميعاً.

وقولهم: ﴿ .. إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ (٧) ﴾ [هود]

يدل على أنه سحر محيط ، لا سحر لأناس خاصين ، فكلمة ﴿سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ تعنى: سحراً محيطاً بكل من يريد سحره.

وبقاء واحد على الكفر دون إيمان برسول الله يدل على أن المسألة ليست سحراً.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ (١) (٢) لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ (٣) أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ (٤) بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨﴾﴾

وساعة تجد ﴿لَئِنْ﴾ فافهم اللام الأولى التى بعد «و» إنما جاءت ؛ لتدل على أن الكلام فيه قسم مؤكد ، وإن كان محذوفاً ، واكتفى باللام عن القسم ، وتقديره: «والله لئن».

والقسم يأتى لتأكيد المقسم عليه بالمقسم به ، وتأكيد المقسم عليه إنما يأتى لأن هناك من يشك فيه.

فأنت لا تُقسم لإنسان تلقاه وتقول له: والله لقد كنت عند فلان بالأمس.

---

(١) الأمة: اسم مشترك، يقال على ثمانية أوجه:

١- فالأمة تكون الجماعة، كقوله: ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ ..(٢٣)﴾ [القصص].

٢- والأمة: أتباع الأنبياء عليهم السلام.

٣- والأمة: الرجل الجامع للخير الذى يُقتدى به، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا ..(١٢٠)﴾ [النحل].

٤- والأمة: الدين والملة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ .. (٢٢)﴾ [الزخرف].

٥- والأمة: الحين والزمان، كقوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ ..(٨)﴾ [هود].

٦- والأمة: القامة، وهو طول الإنسان وارتفاعه.

٧- والأمة: الرجل المنفرد بدينه وحده ولا يشركه فيه أحد. قال النبى ﷺ: «يبعث زيد بن عمرو بن نفيل أمة وحده».

٨- والأمة: الأم. يقال: هذه أمة زيد، يعنى: أم زيد.

[راجع تفسير القرطبى (٤/ ٣٣٢٧)، ولسان العرب].

(٢) أمة معدودة: إلى أمد معدود أى: أجل محدد. والأمة فى هذا الموضع: الأجل والحين. وقال تعالى فى سورة يوسف: ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ ..(٤٥)﴾ [يوسف].

(٣) يحبسه: يمنعه.

(٤) حاق بهم: نزل بهم، وأحاط بهم. وقال تعالى: ﴿.. وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ (٤٥)﴾ [غافر].

[مختصر تفسير الطبرى] بتصرف.

إذن: فالقسم يأتى لشك طرأ [1] عند السامع ، وأنت لا تقسم ابتداء.

ويأتى القسم على مقدار مراتب الشك ، وتأكيداً بأدواته .

والقرآن الكريم يقول هنا:

﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ .. (٨) ﴾ [هود]

فالواو هنا هى واو القسم ، وهنا أيضاً شرط ، والقسم يحتاج لجواب ، والشرط أيضاً يحتاج إلى جواب.

وإذا اجتمع الشرط والقسم فبلاغة الأسلوب تكتفى بجواب واحد ، مثلما نقول: «والله إن فعلت كذا لأفعلن معك كذا».

وهكذا يُغْنى جواب القسم عن جواب الشرط. والمتقدم سواء أكان قسماً أو شرطاً هو الذى يغنى جوابه عن الآخر.

مثلما نقول: «والله إن جاء فلان لأكرمته» ، فالقسم هنا متقدم ، وأغنى جوابه عن جواب الشرط. وإن قلت: إن جاءك فلان والله لتكرمه ، فهنا الشرط هو المتقدم.

والاثنان متحدان ، لكن غاية ما هناك أن القسم تأكيد والشرط تأسيس ، فإذا تقدم ذو خبر على الاثنين - على الشرط وعلى القسم - نأتى بجواب الشرط فوراً ، مثلما نقول: «زيد والله إن جاءك أكرمه» ؛ لأن الشرط كما قلنا تأسيس ، والقسم تأكيد، ويرجح هنا الشرط ، لأن التأسيس أولى من التأكيد.

وهنا يقول الحق سبحانه:

﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ .. (٨) ﴾ [هود]

---

(١) طرأ الشك: حدث ووقع فى عقل السامع مما يستدعى من المتكلم أن يقسم على ما يقول ليصدقه سامعه.

والجواب هنا للقسم ، وهو يغنى عن جواب الشرط .

أى : أن العذاب يُؤخَّر .

وقد أوعد الحق - سبحانه - الكافرين بمحمد ﷺ بأن يعذبهم ، وكان العذاب للأمم السابقة هو عذاب استئصال ، منهم من أرسل الله سبحانه عليه عاصفة ، ومنهم من أخذته الصيحة ، ومنهم من أغرقه ، ومنهم من خسف [(١)] به الأرض .

فكأن مهمة الرسل السابقين أن يبلغوا الدعوة ، ثم تتولى السماء تأديب الكافرين بالرسالات .

ولكن الحق سبحانه وتعالى قد شاء أن يفضِّل أمة محمد ﷺ على الأمم كلها ، وأن تعذِّب الكافرين فى المعارك .

وحين يتوعدهم الرسول ﷺ بعذاب ، فللعذاب ميلاد ، وقد يُؤخَّر ليرى المحيطون بالكافرين الضلال والفساد ، فإذا ما وقع عذاب الله سبحانه على هؤلاء الكافرين ، فلن يحزن عليهم أحد .

وهكذا أراد الله سبحانه الإمهال والإملاء [(٢)] ليكون لهما معنى واضح فى الحياة ، والإملاء للظالم [(٣)] ؛ لتزداد مظالمه زيادة تجعل الأمة التى يعيش فيها

---

(١) قال عز وجل : ﴿ فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٠) ﴾ [العنكبوت] ، أما الذين عُذِّبوا بالحاصب - وهى الريح العاتية الشديدة البرد الحاملة لحصباء الأرض - فهم قوم عاد .

أما ثمود فقد أخذتهم الصيحة ، وأما من عوقب بالخسف فهو قارون ، وأما من عوقب بالغرق فهو فرعون ووزيره هامان وجنودهما .

(٢) الإملاء : الإرجاء والإمهال . قال تعالى : ﴿ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (١٨٣) ﴾ [الأعراف] . [المعجم الوسيط] بتصرف .

(٣) عن أبى موسى رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « إن الله عز وجل ليُملى للظالم ، حتى إذا أخذه لم يُفْلِتْه . ثم قرأ : ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (١٠٢) ﴾ [هود] أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٦٨٦) ومسلم (٢٥٨٣) البر والصلة .

تكره ظلمه ، فإذا وقع عليه عذاب ، لا يعطف عليه أحد.

ونحن نعلم أن النفس البشرية بنت المشهد ، فحين يُقتل واحد وتمر سنوات على قضيته ، ثم يصدر الحكم بإعدامه ، فالناس تنسى لذعة القتل الأول ، وتعطف على القاتل حين يصدر الحكم بإعدامه.

ولذلك أقول دائماً:

إن من دواعى استمرار الجرائم إبطاءات المحاكمة ، تلك الإبطاءات التى تجعل عواطف الناس مع المجرم ؛ لأن مشهد المقتول أولاً قد انتهى من ذاكرتهم.

ولكن لو استحضر الناس - وقت العقوبة - ظرف الجريمة ؛ لَفرِحوا بالحكم على القاتل بالقتل.

ولذلك نجد الحق - سبحانه وتعالى - حينما يريد أن يعذب أحداً يقول:

﴿ ..وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ (١) مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢) ﴾ [النور]

وذلك ليتم التعذيب أمام المجتمع الذى شقى بإفسادهم وشقى بمظالمهم ، فمن يُعتدَى على عرضه ، ويرى عذاب المعتدى فهو يُشْفى.

وهنا يبيِّن الحق سبحانه وتعالى لرسوله ﷺ : لقد توعدتهم بالعذاب. ونحن نبطن العذاب بالإمهال لهم ، ولكنهم جعلوا من ذلك مناط السخرية والاستهزاء والتهكم ، وتساءلوا: أين هو العذاب ؟

ونحن نجد القرآن يقول على ألسنتهم :

---

(١) طائفة: جماعة. قيل: ثلاثة. وقيل: أربعة، عدد شهود الزنا. والمراد بالعذاب فى هذه الآية الكريمة هو حد الزنا لغير المحصن. وتمام الآية ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢) ﴾ [النور] . [تفسير الجلالين] بتصرف.

﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا [١] قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ (١٦)﴾ [ص]

والقط: هو جزاء العمل ، وهو مأخوذ من القط أى: القطع.

والعذاب إنما يتناسب مع الجرم ، فإن كانت الجريمة كبيرة فالعذاب كبير ، وإن كانت الجريمة صغيرة فالعذاب يكون محدوداً ، فكان العذاب موافقاً للجريمة.

ومن العجيب أن منهم من قال:

﴿..اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢)﴾ [الأنفال]

وجاء على ألسنتهم ما أورده القرآن الكريم فى قولهم:

﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا [٢] .. (٩٢)﴾ [الإسراء]

ولاشك أن الإنسان لا يتمنى ولا يرجو أن يقع عليه العذاب ، ولكنهم قالوا ذلك تحديا وسخرية واستهزاءً.

وشاء الحق سبحانه وتعالى ألا يعذب الكافرين المعاصرين لرسول الله ﷺ مثلما عذب الكافرين الذين عاصروا الرسالات السابقة ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى هو القائل:

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ .. (٣٣)﴾ [الأنفال]

فضلاً عن أن هناك أناساً منهم ستروا إيمانهم ؛ لأنهم لا يملكون القوة

---

(١) قطنا: أى: نصيبنا من العذاب الذى أوعدته. [كلمات القرآن للشيخ حسنين محمد مخلوف]. وقط الشىء وقطَّطه: قطعه. [المعجم الوسيط].

(٢) كسفاً: قطعاً. [مختصر تفسير الطبرى] و[كلمات القرآن].

والكسفة (بكسر الكاف وسكون السين وفتح الفاء): القطعة من الشىء . والجمع: كِسْف، وكِسَف. وقد قرئت كسفاً بفتح السين، وقرئت بتسكينها. [المعجم الوسيط: مادة (ك س ف)].

التى تمكنهم من مجابهة [(١)] الكافرين ، ولا يملكون القوة ليرحلوا إلى دار الإيمان بالهجرة ، وحتمت عليهم ظروفهم أن يعيشوا مع الكافرين.

وهناك فى سورة الفتح ما يوضح ذلك ، حين قال الحق سبحانه وتعالى:

﴿ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا [(٢)] أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ [(٣)] فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ [(٤)] بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا [(٥)] لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٢٥) ﴾ [الفتح]

أى: لو تميَّز الكافرون عن المؤمنين لسلّط الحق سبحانه العذاب الأليم على الكافرين ، لكن لو دخل المسلمون بجيشهم الذى كان فى الحديبية على مكة ، ودارت هناك معركة ، فهذه المعركة ستصيب كل أهل مكة ، وفيهم المؤمنون المنثورون بين الكافرين ، وهم غير متحيزين فى جهة بحيث يوجه المسلمون الضربة للجانب الكافر.

إذن: فلو ضرب المسلمون المقاتلون ، لضربوا بعضاً من المؤمنين [(٦)] ،

---

(١) المجابهة: أى: المواجهة والرد على الخصوم. وقد جبهه: أى: صك جبهته، أو قابله بما يكره، أو ردَّه عن حاجته. [المعجم الوسيط] بتصرف.

(٢) الهدى: البُدن التى ساقها الرسول ﷺ لتنحر عند الحرم، وهو من مناسك الحج. ومعكوفاً: محبوساً وممنوعاً عن الوصول إلى مكان النحر وهو الحرم. [تفسير الجلالين وكلمات القرآن] بتصرف.

(٣) تطئوهم: تهلكوهم مع الكفار.

(٤) معرَّة: مكروه ومشقة أو سُبَّة.

(٥) تزيَّلوا: تميزوا من الكفار فى مكة. [كلمات القرآن] للشيخ مخلوف.

(٦) لذلك قال تعالى: ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (٩٤) ﴾ [النساء].

ومن أسباب نزول هذه الآية أن المقداد بن الأسود قتل أعرابياً قال: أشهد أن لا إله إلا الله، فقال له رسول الله ﷺ: «كان رجل مؤمن يخفى إيمانه مع قوم كفار فأظهر إيمانه، فقتلته، وكذلك كنت تخفى إيمانك بمكة قبل» أورده ابن كثير فى تفسيره (١/ ٩٤) وعزاه للبزار. وعزاه السيوطى فى الدر المنثور (٢/ ٦٣٣) للدارقطنى فى الأفراد والطبرانى من حديث ابن عباس.

وهذا ما لا يريده الحق سبحانه وتعالى.

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ .. (٨) ﴾ [هود]

والأمة: هى الطائفة أو الجماعة من جنس واحد، مثل أمة الإنس، وأمة الجن، وأمة النمل.. وغير ذلك من خلق الله.

والحق سبحانه هو القائل:

﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا (١) فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ (٣٨) ﴾ [الأنعام]

والأمة: طائفة يجمعها نظام واحد وقانون واحد، وأفرادها متساوون فى كل شىء، فتكون كل واحدة من هذه الأمم أمة. وهناك الأمة: الطائفة من الزمن. مثل قول الحق سبحانه:

﴿ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ (٢) بَعْدَ أُمَّةٍ .. (٤٥) ﴾ [يوسف]

أى: أن هذا الذى تذكر بعد فترة من الزمن، وقد تكون الفترة المسماة «أمة»، هى الزمن الذى يتحمل جيلاً من الأجيال.

الأمة - إذن - هى جماعة وطائفة لها جنس يجمعها، ولها تميزات أفرادية، وهى تلتقى فى معنى عام.

---

(١) ما فرطنا: أى: أن الجميع علمهم عند الله، ولا ينسى واحداً من جميعها من رزقه وتدبيره سواء أكان برياً أو بحرياً. قاله ابن كثير فى تفسيره (٢/ ١٣١).

(٢) ادكر: أصلها اذتكر. على وزن افتعل، قلبت تاء الافتعال دالاً وذال الفعل دالاً، وأدغمت الدالان. ومنه قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (١٧) ﴾ [القمر].

فـأمة الإنسـان هى حيـوان ناطق مفكر ، وهناك قدر عام يجمع كل إنسان ، ولكن هناك تفاوتات فى المواهب.

ولا توجد نفس بشرية واحدة تملك موهبة الهندسة والطب والتجارة والصيدلة والمحاسبة ؛ لأن كل حرفة من تلك الحرف تحتاج إلى دراسة.

ولا يملك إنسان من العمر ما يتيح له التخصص فى كل تلك المجالات ؛ ولذلك يتخصص كل فرد فى مجال ؛ ليخدم غيره فيه ، وغيره يتخصص فى مجال آخر ويخدم الباقين ، وهكذا .

وفى هذا تكافل اجتماعى ، يشعر فيه كل فرد بأنه يحتاج للآخرين ، وأنه لا يستطيع أن يحيا مستقلاً بذاته عن كل الخلق.

ولو عرف واحد كل الحرف التى فى الدنيا ، من طب وهندسة وقضاء ، وسباكة ، ونجارة ، وزراعة ، وغيرها فلن يسأل عن الباقين ؟

لذلك شاء الله سبحانه وتعالى أن تلتحم المجتمعات ضرورة وقسراً ، لا تفضُّلاً من أحد على أحد.

والذى يكنس الشارع أو يعمل فى تنظيف الصرف الصحى لا يفعل ذلك تفضُّلاً ، بل يفعل ذلك احتياجاً ؛ لأنه يحتاج إلى العمل والرزق ؛ لأن جسمه يحتاج إلى الطعام ، وإلى الستر بالملابس ، وأولاده يطلبون الطعام والمأوى والملبس ، ولولا ذلك لما عمل فى تلك المهنة.

وإذا أخلص فى عمله فالله سبحانه يحببه فيها ، وإن ارتقت أحواله ، يظل فى هذا العمل ؛ لأنه عشق إتقان مهنته.

ولقد رأيت رجلاً كان يعمل فى هذه المهنة ، ويحمل الأقذار على كتفه ، وحين وسَّع الله عليه ، اشترى عربة يجرها حمار ليحمل فيها ما ينزحه من تلك المجارى.

وحين وسَّع الله عليه أكثر ؛ اشترى سيارة فيها ماكينة شفط للقاذورات ، وصار يجلس على الكرسى ، ويدير «موتور» نزح المجارى لداخل خزان السيارة المخصص لذلك.

إذن: فارتباطات المجتمع لا بد أن تنشأ عن حاجة ، لا عن تفضُّل ؛ لأن التفضل ليس فيه إلزام بالعمل ، لكن الحاجة هى التى فيها إلزام بالعمل ؛ لتسير حركة الحياة .

ومن يعشق عمله على أى وضع كان ، يوفقه الله تعالى فيه أكثر ؛ لأنه احترم قدر الله تعالى فى نفسه ، ولم يستنكف [1] ، ويعطيه الله سبحانه كل الخير من هذا العمل ، بقدر حبه للعمل وإخلاصه فيه .

وإن نظرت إلى العظماء فى كل مهنة مهما صغرت ، فستجد أن تاريخهم بدأ بقبولهم لقدر الله سبحانه وتعالى فيهم.

ونحن نعلم أن قيمة كل امرىء فيما يحسنه ؛ ولذلك تجد الأمة مكونة من مواهب متكاملة لا متكررة ، حتى يحتاج كل إنسان إلى عمل غيره.

ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى:

﴿ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا [2] .. (٣٢) ﴾ [الزخرف]

---

(١) الاستنكاف: الاستكبار والامتناع وأن تأخذه الأنفة من فعل الشىء. ومنه قوله تعالى: ﴿ لَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا (١٧٢) ﴾ [النساء].

(٢) سخرياً: مسخَّراً فى العمل، مستخدماً فيه. [كلمات القرآن] أى: يستخدم بعضهم بعضاً فى الأعمال المختلفة حسب إجادة كل منهم لها. وقد جعل الله تعالى ذلك سبباً للمعاش فى الدنيا؛ ليترابط الناس ويتآلفوا، ولا ينعزل كل منهم بعيداً عن الآخرين فتفسد الحياة.

لأن أحداً لا يسخِّر الآخر لعمل إلا إذا كان المسخَّر فى حاجة إلى هذا العمل .

ولذلك تجد من يطرق بابك ويسأل: ألا تحتاج إلى سائق ؟ ألا تحتاج إلى خادم ؟

وصاحب الحاجة هو الذى يعرض نفسه ؛ لعله يجد العمل الذى يتقنه.

ولذلك يجب ألا يتصور أهل أى إنسان أنه حين يخدم فى أى حرفة من الحرف أنه يخدم المخدوم ، لا . . إنه يخدم حاجة نفسه.

وهكذا تترابط الأمة ارتباط حاجات ، لا ارتباط تفضل.

وقد قال الحق سبحانه وتعالى عن سيدنا إبراهيم عليه السلام:

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً [1] . . (١٢٠)﴾ [النحل]

لأن هناك مواهب متعددة قد اجتمعت فيه ، وهى مواهب لا تجتمع إلا فى أمة من الناس.

وكلمة « أمة» تطلق على الزمن ، وتطلق على الجماعة من كل جنس ، وتطلق على الرجل الجامع لكل خصال الخير.

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ [2] . . (٨)﴾ [هود]

وعادة ما تأتى كلمة ﴿مَّعْدُودَةٍ﴾ لتفيد القلة ؛ مثل قول الحق سبحانه:

---

(١) سئل عبد الله بن مسعود عن الأمة القانت فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ . . (١٢٠)﴾ [النحل] قال: الأمة معلم الخير، والقانت: المطيع لله. ذكره ابن كثير فى تفسيره (٢/ ٥٩٠).

(٢) أمة معدودة: طائفة من الأيام قليلة. [كلمات القرآن].

﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ (١) (٢٠)﴾ [يوسف]

وما دام الثمن بَخْساً فلا بد أن تكون الدراهم معدودة.

والسبب فى فهمنا لكلمة ﴿مَعْدُودَةٍ﴾ أنها تفيد القلة ، هو أننا لا نُقبل على عَدِّ شىء إلا مظنة أننا قادرون على عَدِّه ؛ لأنه قليل ، لكن مالا نُقبل على عدِّه فهو الكثير.

ومثال ذلك: أن أحداً لم يعد الرمل ، أو النجوم.

ولذلك جاء قول الحق سبحانه:

﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا ..(٣٤)﴾ [إبراهيم]

و«إن» - كما نعلم - تأتى للشك ، ونعم الله سبحانه ليست مظنة الحصر.

ورغم أن البشرية قد تقدمت فى علوم الإحصاء فهل تفرَّغ أحد ليُحصى نعم الله ؟

طبعاً لا.. وبطبيعة الحال يمكن إحصاء السكان والعاملين فى أى مجال أو تخصص.

وقديماً (٢) كان القائمون على فتح صناديق النذور ليحسبوا ما فيها ، فيضعوا الورق من فئة المائة جنيه معاً ، والورق من فئة العشرة جنيهات

---

(١) شروه: باعوه. قيل: هم السيارة (القافلة) تبايعوا يوسف - عليه السلام - بثمن بخس: قليل. وقيل: حرام؛ لأنه كان حراماً عليهم لا يحل لهم أكل ثمنه. وكانوا فيه من الزاهدين: قيل: هم السيارة كانوا فيه زاهدين، لا يعلمون كرامته على الله تعالى ونبوته. [مختصر تفسير الطبرى].

وذكر الجلالان فى تفسيرهما أن «بخس» أى: ناقص. وأن الدراهم المعدودة عشرون أو اثنان وعشرون درهماً. وأن إخوته هم الذين كانوا فيه من الزاهدين، فجاء به السيارة الذين اشتروه إلى مصر ، فباعه الذى اشتراه بعشرين ديناراً وزوجى نعل وثوبين. [تفسير الجلالين] بتصرف.

(٢) ذكر فضيلة الإمام هذا العمل ؛ لأنه عرض عليه يوم أنْ كان وكيلاً للدعوة بوزارة الأوقاف.

معاً ، وكذلك بقية الفئات من الأوراق المالية ، إلى أن يصلوا إلى القروش ، فيقوموا بوزن كيلو جرام منها ، ويحسبوا كم قرشاً فى الكيلو جرام ، ويزنوا بعد ذلك بقية القروش ؛ ليحسبوا المجموع على حساب عدد القروش التى حصروها فى الكيلو جرام الأول.

وقول الحق سبحانه هنا:

﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ .. (٨) ﴾ [هود]

كأنهم يتساءلون سخرية واستهزاء: لماذا يتأخر العذاب الذى توعَّدهم به رسول الله ﷺ ؛ لأن الإنسان لا يتشوق إلى ما يؤلمه ، ولا يقال مثل هذا الكلام إلا على سبيل التهكم.

ويأتى الرد عليهم بأداة التنبيه ، وهى «ألا» أى: تَنبَّهوا إلى هذا الرد.

ويقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا (١) عَنْهُمْ .. (٨) ﴾ [هود]

وهذا تأكيد أن العذاب سيأتى ، ولكن العباد دائماً يعجلون.

والله سبحانه لا يعجل بعجلة العباد ؛ حتى تبلغ الأمور ما أراد ، وكل أمر له وقت وله ميلاد ، وسيأتيهم ما كانوا يستعجلون ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى يقول:

﴿ .. وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (٨) ﴾ [هود]

وقد جاء تأكيد وصول العذاب إليهم بأشياء: أولها: «ألا» وهى أداة تنبيه ، وكذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمْ﴾ ، وهذا خبر بأن العذاب آت لا محالة ؛ لأن الذى يخبر به هو الله سبحانه وتعالى.

---

(١) ليس مصروفاً: ليس مدفوعاً. [تفسير الجلالين].

وأيضاً فهذا العذاب : ﴿ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ .. (٨) ﴾ [هود]

أى : أنه عذاب مستمر .

وقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ .. وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (٨) ﴾ [هود]

يعنى : أنه حل بهم ونزل عليهم ، ووقع لهم العذاب الذى استهزأوا به من قبل .

ونحن نعلم أن كلمة (حاق) فعل ماض ، والكلام على أمر مستعجل ، ويُعبَّر عن الأمر المستعجل بالمضارع ؛ لأنَّ الفعل المضارع يدل على الحال أو الاستقبال ، فكيف يستعجلون أمراً ، ويأتى التعبير عنه بالفعل الماضى [1] ؟

ولكن القائل هنا هو الله الحق سبحانه وتعالى ، والكلام مأخوذ بقانون المتكلم ، وكل فعل يُنسَب إلى قوة فاعله ، والله سبحانه هو قوة القوى .

وقال الحق سبحانه وتعالى فى موضع آخر من القرآن :

﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ .. (١) ﴾ [النحل]

وكلمة «أتى» فى عرفنا اللغوى فعل ماض ، أى : أن الكلام جاء من المتكلم بعد وقوع النسبة خارجاً ، مثلما نقول : «نجح محمد» فهذا يعنى أن النجاح قد حدث بالفعل .

---

(١) هنا التعبير بالماضى عن المضارع يصدر من مالك الزمن والمكان والحركة ؛ لتحقق الوقوع ، وقد يُعبَّر بالمضارع عن الماضى لتخفيف الحدث ، كما فى قوله تعالى عن مقالة إبراهيم لابنه إسماعيل : ﴿ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ .. (١٠٢) ﴾ [الصافات] ، ومثل الأول قوله تعالى : ﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١) ﴾ [النحل]

وحين يقول الله سبحانه: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ﴾ نفهم أن ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ﴾ نسبة كلامية سبقتها نسبة واقعية.

وقوله سبحانه بعد ذلك: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ يدل على أن الأمر لم يقع، ولكن المتكلم هنا هو الله سبحانه وتعالى.

والمعنى أن الأمر واقع لا محالة؛ ذلك لأن كل فعل إنما ينسب لقوة الفاعل.

ومثال ذلك من حياتنا - ولله المثل الأعلى - أنك قد ترغب فى أن تنقل حقيبة ضخمة وثقيلة، فيقول ابنك الشاب: دعنى أحملها لك، وهو يقول ذلك لأنه قادر على أن يحملها فى زمن يناسب قوته.

وإن جاءك ابنك الصغير وقال: سأحملها أنا. فهو لن يحمل الحقيبة إلا فى مقدار زمن يناسب قوته، وهى قوة ضعيفة.

إذن: ففى المجال البشرى أنت تحكم على الماضى، وقد يكون الحكم صادقاً أو كاذباً، ولكنك بالنسبة لأمر مستقبل، لا تستطيع أن تحكم عليه؛ لأنك لا تملك من المستقبل شيئاً.

أما إذا كان قائل الكلام قادراً على إنفاذ ما يقوله الآن فى المستقبل، ولا عائق يعوقه، فاعلم أن الأمر قادم لا محالة.

وهنا نجد الإخبار من الله سبحانه وتعالى، ولا شىء فى الكون يتأبَّى[1] على الله سبحانه.

ومادام الحق سبحانه قد قال إنه أمرٌ قد أتى، فهو آت لا محالة.

---

(١) أبى الشىء: يأباه من باب فرح - إباءً وإباءةً: وأبى الشىء يأبيه - من باب ضرب - امتنع عنه وكرهه ولم يرضه. قال الحق سبحانه: ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ ..﴿٣٤﴾﴾ [البقرة] وقوله: ﴿فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا .. ﴿٧٢﴾﴾ [الأحزاب] وقوله: ﴿وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ .. ﴿٣٢﴾﴾ [التوبة] ويتأبى يمتنع. القاموس القويم بتصرف.

ولذلك قال سبحانه :

﴿ وَحَاقَ بِهِم .. ﴿٨﴾ ﴾ [هود]

مع أن السياق فى العرف البشرى أن يقال: وسيحيق بهم ما كانوا به يستهزئون ؛ لأنهم كانوا يستعجلون العذاب.

وجاء قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَحَاقَ﴾ لأن الأمر بالنسبة له سبحانه لن يحول بينه وبين وقوعه أى عائق.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ ﴾ (١)

وهنا أيضاً تبدأ الآية الكريمة بقوله سبحانه: ﴿وَلَئِنْ﴾ وهذا يعنى أن اللام قد سبقت لتدل على القسم ، وكأنه يقول: لئن أذقنا الإنسان رحمة ، ثم نزعناها منه لوقع فى اليأس.

وهنا أيضاً قسم وشرط ، والقسم متقدم ، فالجواب يكون للقسم.

وكلمة ﴿أَذَقْنَا﴾ توضح أن الإذاقة محلها الأول الفم ، ومعناها: تناول الشىء لإدراك طعمه: حلو أو مر ، لاذع أو غير لاذع ، قلوى أم حامض.

ومن العجيب فى دقة التكوين الإنسانى أن كل منطقة فى اللسان لها طعم تنفعل له ، فطرف اللسان ينفعل لطعم معين ، ووسط اللسان ينفعل لطعم آخر ، وجوانب اللسان تنفعل لطعم ثالث ، وهكذا.

---

(١) يئوس: صيغة مبالغة من اليأس. أى: يظل يائساً قانطاً من رحمة الله وخيره. وكفور: صيغة مبالغة من الكفر أى: قليل الشكر على النعم ، وكفران النعم هو جَحْدها وعدم شكر الله عليها. [مختصر تفسير الطبرى] بتصرف.

كل ذلك فى عضو واحد شاء له الحق سبحانه هذه الدقة فى التركيب.

وكل «حلمة» من مكوِّنات اللسان لها شىء تحس به ؛ ولذلك نجد الإنسان يذوق الطعام ، فيقول: إن هذا الطعام ينقصه الملح ، أو يذوق الحلوى - مثل الكنافة - فيقول: إن السكر المحلاة به مضبوط.

وكذلك حرارة الجسم ، يقيس الإنسان حرارته ، فإن وجدها سبعة وثلاثين درجة ونصف الدرجة ؛ فيقول: إنها حرارة طبيعية. وإن نقصت حرارة الإنسان عن ذلك يقال: إنه مصاب بالهبوط. وإن ارتفعت يقال: مصاب بالحمى.

وهذا قياس للحرارة بالجملة لجسم الإنسان ، ولها المنافذ الخاصة بها. ولكن كل عضو فى الجسم تلزمه درجة حرارة خاصة به ليؤدى عمله .

فالكبد إن قلَّت درجة حرارته عن أربعين درجة لا يؤدى مهمته. وجسم الإنسان فيه جوارح متعددة ؛ وحرارة العين مثلاً تسع درجات ؛ لأنها لو زادت حرارتها عن ذلك لانفجرت العين ، وحرارة الأذن ثمانى درجات.

وأنت لا تستطيع أن تأتى بأشياء مختلفة الحرارة وتضعها مع بعضها ، ولكن الحق سبحانه وتعالى شاء ذلك بالنسبة للجسم الإنسانى.

وهنا يقول الحق سبحانه:

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنسَانَ .. (٩) ﴾ [هود]

والذوق هو للإدراك [1] ، لا للأكل ، فأنت حين تشترى فاكهة يقول لك البائع: «تفضَّل ذُقْ» فتأخذ واحدة منها لتستطيب طعمها.

---

(١) الإدراك يكون بالحواس ، وبالإدراك يحصل الانفعال الوجدانى ، وعن طريق الوجدان يكون الاختيار ، فالذوق هو تناول الشىء لإدراك طعمه فيحصل الاختيار .

فالذوق - إذن - هو تناول الشيء لإدراك طعمه.

والنعمة [1] حين يشاء الحق سبحانه وتعالى أن تصيب الإنسان، ثم تُنزَع منه، هنا يصاب الإنسان بالقلق أو الحزن أو الهلع، أو اليأس.

والنعمة مهما قلَّت فالإنسان يستطيبها، وإن نُزعت منه فهو يئوس كفور.

واليأس: هو قطع الأمل من حدوث شيء، ولأن الإنسان لا يملك الفعل، ولو كان يقدر عليه لما يئس.

والمؤمن لا ييأس أبداً؛ لأن الله سبحانه هو القائل:

﴿.. إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ [2] اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ (٨٧)﴾ [يوسف]

اليأس - إذن - هو أن تقطع الأمل من أمر مراد لك، ولا تملك الوسائل لتحققه.

والذى ييأس هو الذى ليس له إله يركن إليه؛ لأن الله تعالى هو الركن الرشيد الشديد، والمؤمن إن فقد شيئاً يقول: «إن الله سيُعوِّضنى خيراً منه».

أما الذى لا إيمان له بإله فهو يقول: «إن هذه الصدفة قد لا تتكرر مرة أخرى».

---

(١) نَعِم يَنْعَم فهو ناعم، من باب فرح، ويأتى من باب كرُم، نعمةً ونعْمة بفتح النون وكسرها. ونعيماً كان فى رغد من العيش، وفى تمتع به. والنعيم ما يتلذذ به من مأكل وملبس وصحة، يقول الحق: ﴿.. فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٩)﴾ [يونس] أى: التى فيها كل نعيم. والنعمة بالفتح: النعيم، وتطلق على ما يتمتع به الإنسان من وسائل الرفاهية. يقول الحق: ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُوْلِي النَّعْمَةِ ..(١١)﴾ [المزمل] فى الدنيا، والنعمة بكسر النون. مصدر بمعنى النعيم. وتطلق على المتاع والخير الذى يتمتع به الإنسان يقول الحق: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا .. (١٨)﴾ [النحل] القاموس القويم. بتصرف.

(٢) روح الله: رحمته وفرجه، ولطفه بالعباد بإزالة كربهم. [كلمات القرآن] بتصرف. واليأس هو انقطاع الأمل، ولا ينقطع أمل الإنسان فى الله سبحانه وتعالى إلا إذا كان كافراً.

فالإنسان الذى يُسْرَق منه جنيه قد يحزن ، ولكن إذا ما كان عنده فى المنزل عشرة جنيهات فهو يحزن قليلاً على الجنيه المفقود.

والإنسان لا ييأس إلا عند عدم يقينه بمصدر يرد عليه ما يريده ، ولكن حين يؤمن بمصدر يرد عليه ما يريده فلا تجده يائساً قانطاً.

والمؤمن يعلم أن النعمة لها واهب ، إن جاءت شكر الله عليها ، وإن سُلبت منه ، فهو يعلم أن الحق سبحانه قد سلبها لحكمة [1].

والحق سبحانه وتعالى يقول هنا:

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ..(٩) ﴾ [هود]

ونحن نعلم أن الإنسان مقصود به كل أبناء آدم - عليه السلام - وهم كثيرون ، منهم المؤمن ، ومنهم الكافر.

وهنا تأتى كلمة «الإنسان» على إطلاقها ، ولكن الحق سبحانه وتعالى يستثنى المؤمن فى موضع آخر حين يقول الحق سبحانه:

﴿ وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ [2] (٢) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا ..(٣) ﴾ [العصر]

و«الإنسان» مفرد يدل على الإنسان فى كل مدلولاته ، ويستثنى من نوع الإنسان من آمن به .

فإن رأيت كلمة إنسان فاعلم أن المراد بالإنسان أفراد الإنسان كلهم.

---

(١) عن صهيب الرومى قال قال رسول الله ﷺ : «عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له» أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٩٩٩).

(٢) الخسر: الهلاك والنقصان.

والإنسان لو عزل نفسه عن منهج الله تعالى فهو فى خسران إلا إذا اتبع منهج الله ، فالمنهج يحميه من الزلل ، وتسير غرائزه إلى ما أراد الحق سبحانه لها .

فقد خلق الحق سبحانه الغرائز لمهام أساسية ، فغريزة الجوع تجعل الإنسان يطلب الطعام ، والعطش أراده الله سبحانه وتعالى لينتبه الإنسان إلى طلب الارتواء بالماء .

وغريزة بقاء النوع تدفع الإنسان للزواج ، وغريزة حب الاستطلاع هى التى تدفع الإنسان إلى كشف المخترعات .

والحق سبحانه وتعالى هو القائل عن الساهين عن استكشاف آيات الله تعالى :

﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ [1] فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥) ﴾ [يوسف]

والباحث العلمى التجريبى المعملى ينظر فى ظواهر الكون ليستطلع أسرار الكون .

وهناك فارق بين حب الاستطلاع لاكتشاف أسرار الكون ، وحب الاستطلاع لأخبار الناس .

إن حب الاستطلاع عموماً هو مدار التقاءات الكون ، ولكن الدين والخلق هو الذى يوجه حب الاستطلاع .

---

(١) وكأين : بمعنى «وكَمْ» . وآية هنا : عبرة وحجة ، كالشمس والقمر وغيرهما من آيات الله سبحانه وتعالى ، يرونها ويعاينونها ولا يتفكرون فيها . [مختصر تفسير الطبرى] .
وقد أخرج أبو الشيخ الأصبهانى عن الضحاك فى تفسير معنى الآية : يعنى شمسها وقمرها ونجومها وسحابها . وفى الأرض ، ما فيها من الخلق والأنهار والجبال والمدائن والقصور . ذكره السيوطى فى الدر المنثور (٤/ ٥٩٣) .

إذن: فالقرائن لها مهمة يجب ألاّ تنفلت إلى غيرها ، والدين قد جاء ليعلى من الغرائز ويوجهها إلى مهامها.

لذلك نجد الحق سبحانه وتعالى يقول:

﴿وَلَا تَجَسَّسُوا [1] .. (١٢)﴾ [الحجرات]

أى: لا تتبعوا العورات [2]؛ لأننا لو أبحنا لواحد أن يتتبع عورات الناس ؛ لأبحنا لكل الآخرين أن يتتبعوا عوراته.

وحين منع الحق - سبحانه وتعالى - الإنسان من تتبُّع عورات غيره ، فهو قد حماه من تتبع عوراته .

وهنا يقول الحق سبحانه:

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ ..(٩)﴾ [هود]

وكلمة «النزع» تفيد أن الإنسان حريص على ما وهبه له الله تعالى من خير وصحة وعافية ويُسْر . وحين تؤخذ منه النعمة فهو يقاوم .

والنزع يعنى: استمساك المنزوع منه بالشىء المنزوع.

ولذلك يقول الحق سبحانه فى سورة آل عمران:

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ .. (٢٦)﴾ [آل عمران]

---

(١) لا تجسسوا: أى: لا تتجسسوا، حذف منه إحدى التاءين - لغرض بلاغى - والمراد: عدم تتبع عورات الناس ومعايبهم بالبحث عنها. [تفسير الجلالين] بتصرف.

(٢) العورة: ما يستره الإنسان من جسمه حياءً . والعورة: الخلل والعيب . والبيت عورة: أى فيه خلل وقوله: ﴿يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ .. (١٣)﴾ [الأحزاب] أى: فيها خلل يخشى أن يدخل الأعداء منه ، وذلك ليرجعوا عن الجهاد . القاموس القويم باختصار .

كأن الموجود فى الملك يتشبث به جداً.

وهنا يقول الحق سبحانه:

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا (١) مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ (٩) ﴾[هود]

وفى نفس السورة يأتى الاستثناء ، فيقول الحق سبحانه:

﴿ إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (١١) ﴾ [هود]

وسنأتى لها بالخواطر من بعد ذلك.

ويقول الحق - سبحانه وتعالى - فى المقابل لمن نُزِعَتْ منه الرحمة واليئوس الكفور:

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ (٢) بَعْدَ ضَرَّآءَ (٣) مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ (٤) عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ (٥) فَخُورٌ (٦) ﴿١٠﴾ ﴾

وهنا نجد الضراء هى الموجودة ، والنعماء هى التى تطرأ ، عكس الحالة الأولى ، حيث كانت الرحمة - من خير ويسر - هى الموجودة.

---

(١) المقصود الرحمة التى أنعم الله بها عليه.

(٢) النعماء: أثر النعمة على بدن وحياة الإنسان، فتكون ملازمة له.

(٣) الضراء: أثر الفقر والشدة. وقال تعالى: ﴿ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ..(١٧٧) ﴾ [البقرة]. وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ ..(٤٢) ﴾ [الأنعام].
ومسته: أصابته. [تفسير الجلالين ومختصر تفسير الطبرى] بتصرف.

(٤) السيئات: المصائب والشدائد والعسر.

(٥) فرح: صيغة مبالغة من الفرح، وهو البطر بالنعمة [كلمات القرآن].

(٦) فخور: صيغة مبالغة من الفخر، أى: كثير الفخر بما نال من الناس، وفخور على الناس بما أوتى، وغير شاكر لله تعالى على نعمه. [مختصر تفسير الطبرى، وتفسير الجلالين] بتصرف.

فالنزع فى الأولى طرأ على رحمة موجودة ، والنعماء طرأت على ضرَّاء موجودة .

وهناك فرق بين نعماء ونعمة ، وضراء وضر ؛ فالضر هو الشىء الذى يؤلم النفس ، والنعمة هى الشىء الذى تتنعم به النفس.

لكن التنعُّم والألم قد يكونان فى النفس ، ولا ينضح أى منهما على الإنسان ، فإن نضح على الإنسان أثر النعمة يقال فيها «نعماء» ، وإن نضح عليه أثر من الضر يقال : «ضراء».

وهنا يقول الحق سبحانه:

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي . . (١٠) ﴾ [هود]

ولا يفطن من يقول ذلك إلى المُذْهِب الذى أذهبَ السيئات ؛ لأن السيئة لا تذهب وحدها .

ولو كان القائل مؤمناً لقال: رفع الله عنى السيئات.

لكنه غير مؤمن ؛ ولذلك يغرق فى فرح كاذب وفخر لا أساس له.

ويصفه الحق سبحانه وتعالى بقوله:

﴿ . . إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ (١٠) ﴾ [هود]

وكأن الفرح بالنعمة أذهله [١] عن المنعم ، وعمن نزع منه السيئة.

وأما الفخر ، فنحن نعلم أن الفخر هو الاعتداد بالمناقب [٢] ، وقد تجد

---

(١) الذهول عن الشىء: أن يشغلك عنه أمر آخر. ذهل عن الشىء: تركه على عمد أو غفل عنه أو نسيه لشغل. [اللسان، مادة : ذهل].

(٢) مناقب : جمع منقبة ، وهى كرم الفعل . وكريم المناقب : حَسَن الخلق كريم الفعال . [اللسان] بتصرف.

إنساناً يتفاخر على إنسان آخر بأن يذكر له مناقب وأمجاداً لا يملكها الآخر.

ونحن نعلم أن التميز لفرد ما يوجد فى المجتمع ، ولكن أدب الإيمان يفرض ألا يفخر الإنسان بالتميز.

ولذلك نجد النبى ﷺ يقول: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر»[(١)].

وفى إحدى المعارك نجده ﷺ يقول:

«أنا النبى لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب[(٢)]».

وقد اضطر رسول الله ﷺ أن يقول ذلك ؛ لأن الكافرين فى تلك المعركة ظنوا أنهم حاصروه هو ومن معه وأنه سوف يهرب ، لكنه ﷺ بشجاعته أعلن:

«أنا النبى لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب»[(٣)] وكان أقرب المسلمين إلى مكان الأعداء الكافرين وفى مواجهتهم.

ونحن نجد المتصارعين أو المتنافسين ، واحدهم يدخل على الآخر بصوت ضخم ليهز ثقة الطرف الآخر بنفسه.

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٢٧٨) والبيهقى فى دلائل النبوة (٥/ ٤٧٦) من حديث أبى هريرة. وعند الحاكم فى مستدركه (٢/ ٦٠٤) وصححه من حديث جابر بن عبد الله بلفظ: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر» دون ذكر يوم القيامة.

(٢) نسب رسول الله ﷺ نفسه إلى جده عبد المطلب، لا إلى أبيه عبد الله، فقد كان عبد المطلب مشهوراً شهرة ظاهرة شائعة، وكان سيد أهل مكة، وكان مشتهراً عندهم أن عبد المطلب بُشِّر بالنبى ﷺ ، وأنه سيظهر، وسيكون شأنه عظيماً، فأراد النبى ﷺ تذكيرهم بذلك وتنبيههم بأنه ﷺ لا بد من ظهوره على الأعداء، وأن العاقبة له لتقوى نفوسهم . نقله النووى فى شرحه لصحيح مسلم (١٢/ ٣٦٠) .

(٣) وذلك أن رجلاً سأل البراء بن عازب: أفررتم عن رسول الله ﷺ يوم حنين؟ فقال البراء: ولكن رسول الله ﷺ لم يفر، وكانت هوازن يومئذ رماة، وإنَّا لما حملنا عليهم انكشفوا، فأكببنا على الغنائم فاستقبلونا بالسهام، ولقد رأيت رسول الله ﷺ على بغلته البيضاء، وإن أبا سفيان بن الحارث آخذ بلجامها، وهو يقول: «أنا النبى لا كذب أنا ابن عبد المطلب».

أخرجه مسلم فى صحيحه (١٧٧٦) كتاب الجهاد ، والبخارى فى صحيحه (٤٣١٧) من حديث البراء بن عازب.

والفخور إنسان غائب بحجاب الغفلة عن واهب المناقب التى يتفاخر بها ، ولو كان مستحضراً لجلال الواهب لتضاءل أمامه ، ولو اتجهت بصيرة المتكبر والفخور إلى الحق سبحانه وتعالى لتضاءل أمامه ، ولردَّ كل شىء إلى الواهب.

ومثال ذلك فى القرآن الكريم هو قول الحق سبحانه على لسان صاحب موسى عليهما السلام:

﴿ وَمَا فَعَلْتُهُ (١) عَنْ أَمْرِى .. (٨٢) ﴾ [الكهف]

وهذا سلوك العابد المتواضع .

أما حال الفخورين اللاهين عن الحق سبحانه وتعالى ، فقد صوره القرآن فى قول قارون:

﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ (٢) عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِى .. (٧٨) ﴾ [القصص]

وكان مصيره هو القول الحق:

﴿ فَخَسَفْنَا (٣) بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ .. (٨١) ﴾ [القصص]

ولذلك قلنا: إنك تحصِّن كل نعمة عندك بقولك عند رؤيتها: «بسم الله ما شاء الله» ؛ لتتذكر أن هذه النعمة لم تأت بجهدك فقط ، ولكنها جاءت لك أولاً بمشيئة الله سبحانه وتعالى ، وذلك لتبقى عين الواهب حارسة للنعمة التى عندك .

---

(١) المقصود ما فعله الخضر عليه السلام من: خرق السفينة، وقتل الغلام، وإقامة الجدار الذى كان سينهار.

(٢) أوتيته: أى: اكتسبته. يقصد المال الذى رزقه الله إياه، ولكن قارون ادَّعى أن علمه هو الذى جلب له المال، فكفر بنعمة الله عليه، فاستحق عقاب الله.

(٣) الخسف: خسف الله الأرض: جعلها تهبط وتغور يقول الحق: ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ .. (٨١) ﴾ [القصص] وخسف القمر: نقص نوره، وخسوف الشمس يقع فى أواخر الشهر العربى فى أيام المحاق، وسببه توسط القمر بين الأرض والشمس، فيحجب القمر الشمس، فإن كان الحجب كلياً كان خسوفاً، وإن كان جزئياً كان كسوفاً. وجاء فى اللسان الخسف: سؤوخ الأرض بما عليها أى: ابتلاعها ما فوقها. وخسف الله به الأرض أى: أغابه فيها. القاموس القويم باختصار.

أما حين تنسى الواهب فلن يحفظ تلك النعمة لك.

ونحن نلحظ أن الحق سبحانه وتعالى لم يمنع الفرح المنبعث عن انشراح الصدر والسرور بنعمة الله بل طلبه منا فى قوله سبحانه:

﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا ..(٥٨)﴾ [يونس]

ولكن الحق سبحانه يطلب من المؤمن أن لا يكون الفرح المنبعث لأتفه الأسباب، والملازم له، وإلا كان من الفرحين الذين ذمهم الله تعالى[1].

يقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك:

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾

وكلمة ﴿صَبَرُوا﴾[2] هنا موافقة للأمرين اللذين سبقا فى الآيتين السابقتين، فهناك نزع الرحمة، وكذلك هناك «نعماء» من بعد «ضرَّاء»، وكلا الموقفين يحتاج للصبر؛ لأن كلاّ منا مقدور للأحداث التى تمر به، وعليه أن يصبر لملحظية حكمة القادر سبحانه.

وبدأ الحق سبحانه وتعالى هذه الآية بالاستثناء، فقال جل وعلا:

﴿إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا .. (١١)﴾ [هود]

---

(١) فقال عن قوم موسى أنهم قالوا لقارون: ﴿.. لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦)﴾ [القصص] أى: الأشرين البطرين الذين لا يعترفون بنعمة الله عليهم. وقال تعالى: ﴿لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ .. (٢٣)﴾ [الحديد].

(٢) والذين صبروا ماضياً، وصابروا حالاً ومستقبلاً هم أهل الفلاح مصداقاً لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٢٠٠)﴾ [آل عمران]

ولولا هذا الاستثناء لكان الكل - كل البشر - ينطبق عليهم الحكم الصادر فى الآيتين السابقتين ، حكم باليأس والكفر ، أو الفرح والفخر دون تذكُّر واهب النعم سبحانه .

ولكن هذا الاستثناء قد جاء ليُطمئن الذين صبروا على ما قد يصيبهم فى أمر الدعوة ، أو ما يصيبهم فى ذواتهم ؛ لا من الكافرين ؛ لكن بتقدير العزيز العليم .

أو أنهم صبروا عن عمل إخوانهم المؤمنين .

إذن : فالصبر معناه حدُّ النفس بحيث ترضى عن أمر مكروه نزل بها [(١)] . والأمر المكروه له مصادر عدة ، منها :

* أمر لا غريم [(٢)] لك فيه كالمرض مثلاً .

* أو أن يكون لك غريم فى الأمر ؛ كأن يُسرق منك متاع ، أو يُعتدى عليك ، وفى هذه الحالة تنشغل برغبة الانتقام ، وتتأجج نفسك برغبة النيل من هذا الغريم ، أكثر مما تتأجج فى حالة عدم وجود الغريم ، فحين يمرض الإنسان فلا غريم له .

وفى حالة الرغبة فى الانتقام فالصبر يختلف عن الصبر فى حالة عدم وجود الغريم .

ولذلك عرض الحق سبحانه وتعالى لتأتِّى الصبر حسب هذه المراحل ، فسيدنا لقمان يقول لابنه :

---

(١) ويكون الصبر مطلوباً أيضاً عند امتناع النعمة امتحاناً لإيمان المؤمن فعن أبى سعيد الخدرى أن ناساً من الأنصار سألوا رسول الله ﷺ فأعطاهم ، ثم سألوه فأعطاهم ، حتى نفد ما عنده ، فقال لهم حين أنفق كل شىء بيده : «ما يكن عندى من خير فلن أدخره عنكم ، ومن يستعفف يعفه الله ، ومن يستغن يغنه الله ، ومن يتصبَّر يصبِّره الله ، وما أعْطى أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر» متفق عليه ، أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٤٧٠) ومسلم فى صحيحه (١٠٥٣) كتاب الزكاة .

(٢) الغريم : الدائن ، والمدين . والجمع : غرماء . والمراد بالغريم هنا : الخصم أو العدو . [اللسان ، والمعجم الوسيط] بتصرف .

﴿ .. وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ [1] (١٧) ﴾ [لقمان]

وفى موضع آخر يقول الحق سبحانه:

﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (٤٣) ﴾ [الشورى]

وفى هذه الآية «لام» التوكيد لتؤكد أن هذا الأمر يحتاج إلى عزم قوى ؛ لأن لى فيها غريماً يثير غضبى .

فساعة أرى من ضربنى أو أهاننى أو سرقنى أو أساء إلىَّ إساءة بالغة ، فالأمر هنا يحتاج صبراً وقوة وعزيمة.

أما فى الحالة الأولى - حالة عدم وجود غريم - فالحق سبحانه يكتفى فقط بالقول الكريم:

﴿ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ .. (١٧) ﴾ [لقمان]

ولكنه سبحانه أضاف فى الآية الأخرى «اللام» لتأكيد العزم ، وليضيف سبحانه فى حالة وجود غريم طلب الغفران ، فيقول سبحانه:

﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (٤٣) ﴾ [الشورى]

وهكذا نجد المستثنى ، وهم الصابرون على ألوانهم المختلفة.

وهنا يقول سبحانه :

﴿ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ .. (١١) ﴾ [هود]

وما دام هنا صبر ، فالصبر لا يكون إلا على إيذاء. ولكن إياك أن يكون الإيذاء من خصمك فى الإيمان ، أو من خصمك فى ما دون الإيمان ،

(١) والصبر : إما صبر على المأمورات أو صبر على المحذورات ، أو صبر على المقدرات ، فمن توافرت فيه هذه المقامات كان من أهل العزم. وعزم الأمور معزوماتها التى يعزم عليها لوجوبها. [تفسير الجلالين].

صارفاً لك عن نشاطك فى طاعة الله سبحانه ؛ لأن الصبر لا يعنى أن تكبت غضبك وتعذب نفسك بهذا الكبت بما يصرفك عن مهامك فى الحياة ، بل يسمح لك الحق سبحانه أن تتخلص من غلِّك وحقدك ، بمعايشة الإيمان الذى يُخفف من غَلْواء الغضب.

ولكسر حدة الغل أباح لك الحق سبحانه وتعالى أن تعتدى على من اعتدى عليك بمثل ما اعتدى ؛ لأنه سبحانه وتعالى لا يريد لك أن تظل فى حالة غليان بالغضب أو القهر بما يمنعك من العمل ، بل يريد الحق سبحانه أن تتوجه بطاقاتك إلى أداء عملك.

ولذلك لا يلزمك الحق سبحانه إلا بحكم العدل فيقول عز وجل:

﴿ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ .. (١٩٤) ﴾ [البقرة]

ولكن هناك القادر على التحكم فى نفسه ، ولذلك يقول الحق سبحانه:

﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ [1] .. (١٣٤) ﴾ [آل عمران]

ومعنى كظم الغيظ: أن الغيظ موجود ، لكن صاحبه لا يتحرك بنزوع انتقامى ، مثلما تقول: «كظمت القِرْبة» لأن حامل القربة لو لم يكظم الماء فيها ، لتفلَّت الماء منها ، أى: أنه يَحبس الماء فيها.

وكظم الغيظ درجة ومنزلة ، قد لا تكون إيجابية ؛ لأن الغيظ ما زال موجوداً ؛ ولذلك تأتى مرحلة أرقى ، وتتمثل فى قول الحق سبحانه:

﴿ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ .. (١٣٤) ﴾ [آل عمران]

---

(١) الكاظمين الغيظ: الحابسين غيظهم فى قلوبهم. [كلمات القرآن].
وعن معاذ بن أنس رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: «من كظم غيظاً، وهو قادر على أن ينفذه، دعاه الله سبحانه وتعالى على رءوس الخلائق يوم القيامة حتى يخيره من الحور العين ما شاء» أخرجه أحمد فى مسنده (٣/ ٤٤٠) وأبو داود فى سننه (٤٧٧٧) والترمذى فى سننه (٢٠٢١ ، ٢٤٩٣) وقال: حسن غريب.

أى : أن تُخرج الغيظ من قلبك وتتسامح .

إذن : فأنت هنا أمام مراحل ثلاث :

أن تردَّ الاعتداء عليك بمثله ، والمثليَّة فى رد الاعتداء أمر لا يمكن أن يتحقق ، فمن صفعك صفعة ، كيف تستطيع أن تضبط كمية الألم فى الصفعة التى تردها إليه ؟

إن المتحكم فى ردِّ الاعتداء هو الغضب ، والغضب لا يقيس الاعتداء بمثله ، فلا يتحقق العدل المطلوب ؛ لهذا يكون الصبر خيراً مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ .. وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ (١٢٦) ﴾ [النحل]

فإن أزدتَ من قوة صفعتك تكون معتدياً .

ولعلنا نذكر مسرحية «تاجر البندقية» لشكسبير ، وبطلها هذا التاجر اليهودى الذى أقرض رجلاً مالاً ، وكان صَكُّ القرض يفرض أن يقتطع اليهودى رطلاً [1] من لحم المقترض إن تأخر فى السداد .

وتأخَّر المقترض فى السداد ، وأراد المرابى اليهودى أن يقتطع رطلاً من لحم المقترض ، وعُرض الأمر على القاضى ، وكان القاضى رجلاً حكيماً ، وأراد أن يصدر حكَماً يتلمس فيه العدالة ، فقال القاضى : لا مانع أن تأخذ رطلاً من لحم الرجل ؛ هات السكين ، واقطع رطلاً واحداً بلا زيادة أو نقصان ؛ لأننا سنأخذ مقابل تلك الزيادة من لحمك أنت وبنفس السكين ، وكذلك إن قطعت من اللحم ما يقل عن الرطل ، فسنقطع الناقص لك من لحمك أنت عقاباً لك .

---

(١) الرطل : معيار يوزن به أو يكال ، يختلف باختلاف البلاد ، وهو فى مصر اثنتا عشرة أوقية ، والأوقية اثنا عشر درهماً . والجمع : أرطال . [المعجم الوسيط] .

وتردَّد المرابى اليهودى ؛ لأن الجزار - أىَّ جزار - لا يمكن أن يضبط يده ليقطع رطلاً مكتمل الوزن ، بل يقطع أحياناً ما يزيد عن الوزن المطلوب ، ويقطع أحياناً ما يقل عن الوزن المطلوب ، ثم يكمل أو ينقص الوزن حسب كل حالة.

وانسحب المرابى اليهودى وتنازل عن دعواه ، والذى دفعه إلى ذلك هو عدم قدرته على أخذ المثل ، فلو كان قد ارتقى قليلاً فى مشاعره لما وصل إلى هذا الحكم.

والحق سبحانه وتعالى يحضنا [1] على أن نرد العدوان بمثله ، وإن أردنا الارتقاء فلنكظم الغيظ ، وإن أردنا الارتقاء أكثر فلنخرج الغيظ من القلب ولنكن من العافين عن الناس [2] ؛ لننال محبة الله تعالى؛ لأنه سبحانه يقول:

﴿ ..وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤) ﴾ [آل عمران]

وفى هذا يرتقى المؤمن بمنهج الله سبحانه ، فيجعل المعتدَى عليه هو الذى يُحسن.

وحين تريد أن تفسر حب الله سبحانه للمحسنين فلسفيّاً أو منطقيّا أو اقتصاديّا ، ستجد القضية صحيحة ، والله سبحانه وتعالى يقول:

---

(١) الحض: الحث والتشجيع على فعل شىء. [اللسان] بتصرف، وقال تعالى: ﴿ إِنَّهُ كَانَ لا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ (٣٣) وَلا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ (٣٤) ﴾ [الحاقة].

(٢) عن أبى بن كعب أن رسول الله ﷺ قال: «من سره أن يشرف له البنيان، وتُرفع له الدرجات، فليعفُ عمن ظلمه ، ويعط من حرمه، ويصل من قطعه» أخرجه الحاكم فى مستدركه (٢/ ٢٩٥) عن أبى بن كعب وقال : « صحيح الإسناد ولم يخرجاه » قال الذهبى : « فيه أبو أمية ضعفه الدارقطنى وإسحاق لم يدرك عبادة ».

﴿ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا [(١)] أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ [(٢)] .. (٢٢) ﴾ [النور]

فإن أساء [(٣)] أخوك إليك سيئة ، فإما أن ترد بالمثل ، أو تكظم الغيظ أو ترقى إلى العفو ، وبذلك تكون من المحسنين ؛ لأنك إذا كنت قد ارتكبت سيئة ، وعلمت أن الله سبحانه وتعالى يغفرها لك ، ألا تشعر بالسرور ؟

إذن : فما دُمْت تريد أن يغفر الله تعالى لك السيئة عنده ، فلماذا لا تعفو عن سيئة أخيك فى حقك ؟

وقول الحق سبحانه :

﴿ أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ .. (٢٢) ﴾ [النور]

وقد جاء الحق سبحانه هنا من ناحية النفس ، فجعل عفو العبد عن سيئة العبد بحسنة ، فلعفو العبد ثمن عند الله تعالى ؛ لأن العبد سيأخذ مغفرة الله تعالى ، وفوق ذلك فأنت تترك عقاب المسىء والانتقام منه لربك ، وعند التسليم له راحة .

---

(١) صفح عن رجل : أعرض عنه أو عفا عنه ولم يؤاخذه بذنبه . قال تعالى : ﴿ .. وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٤) ﴾ [التغابن] . وقال تعالى : ﴿ .. وَإِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ (٨٥) ﴾ [الحجر] . [اللسان] بتصرف .

(٢) تمام الآية : ﴿ وَلا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٢) ﴾ [النور] .

وقد نزلت هذه الآية فى شأن أبى بكر الصديق الذى حلف أن لا يعطى ابن خالته مسطح بن أثاثة ما كان يعطيه من قبل من النفقة بسبب ما تكلم به فى حق عائشة مع من تكلم ، وهو ما يسمى بحادثة الإفك . فأنزل سبحانه الآية ، فقال أبو بكر : والله إنى أحب أن يغفر الله لى ، فرجع إلى مسطح النفقة التى كانت عليه وقال : لا أنزعها منه أبداً . راجع تفسير ابن كثير (٣/ ٢٧٥) وأسباب النزول للواحدى (ص١٨٥) ط . المكتبة الثقافية .

(٣) أساء إساءة : فعل السوء ضد أحسن ، وأساء العمل لم يحسنه ، والمسيىء اسم فاعل من أساء ، والسيىء القبيح ، والمنكر ، والسيئة : مؤنث السيىء بمعنى القبيح . والسَّوءة : ما يقبح إظهاره وينبغى ستره « القاموس القويم » باختصار .

ولو اقتصصتَ أنت ممن أساء إليك ، فقصاصك على قدر قوتك ، أما إن تركته إلى قدرة الله تعالى، فهذا أصعب وأشق؛ لأنك تركته إلى قوة القوى.

وهكذا ينال العافى عن المسىء مرتبة راقية ؛ لأنه جعل الله - سبحانه وتعالى - فى جانبه .

وهناك من يقول: كيف يأمر الدين الناس بأن يحسنوا لمن أساء إليهم ؟ ويعلل ذلك بأنه أمر ضد النفس.

ونقول : إن الإحسان إلى المسىء هو مرحلة ارتقاء ، وليست تكليفاً [1] أصيلاً ؛ لأن الحق سبحانه قد أباح أن نرد العدوان بمثله ، ثم حثَّ المؤمن على أن يكظم غيظه ، أو يرتقى إلى العفو وأن يصل إلى الإحسان ، وكل هذه ارتقاءات اليقين بالله سبحانه وتعالى .

وانظر إلى نفسك - ولله المثل الأعلى ومنزَّه سبحانه عن كل مَثل - إنْ أردت أن تطبق الأمر على ذاتك حين تجد ولداً من أولادك قد اعتدىً على أخيه ، فقلبك وعواطفك وتلطفاتك تكون مع المعتدَى عليه.

ومن يقول: كيف يكلّفنى الشرع بأن أحسن إلى من أساء إلىَّ ؟

نقول له: تذكَّرْ قول الحسن البصرى رضى الله عنه [2] : «أفلا أحْسِنُ لمن جعل الله فى جانبى » .

ولو طبَّق العالم هذه القاعدة بيقين وإخلاص لصارت الحياة على الأرض جنة معجَّلة ، التسامح ، قوامها القربً ، ومنهجها الحب .

---

(١) لأن التكليف إلزام ، والعفو من الفضل ، وفى التعامل بالفضل ارتقاء .

(٢) هو: الحسن بن يسار البصرى، أبو سعيد، تابعى، كان إمام أهل البصرة، وحبر الأمة فى زمنه، وهو أحد العلماء الفقهاء النساك. ولد بالمدينة ٢١ هـ ، وشبَّ فى كنف على بن أبى طالب، كان يدخل على الولاة يأمرهم وينهاهم ، سكن البصرة وتوفى بها عام ١١٠ هـ عن ٩٠ عاماً.

وهنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (١١) ﴾ [هود]

وإن تساءل أحد: ولماذا ينالون المغفرة ؟

نقول: لأنهم صبروا وغفروا ؛ لذلك يهديهم الله تعالى مغفرة من عنده ، لأنه صبر على الإساءة ، وغفر لمن أساء ، فلا بد أن يُثيبه الله تعالى ، لا بالمغفرة فقط ، ولكن بالأجر الكبير أيضاً.(١)

ويقول سبحانه بعد ذلك:

﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ (١٢) ﴾(٢)

وهنا نجد الحق سبحانه يأتى بصيغة الاستفهام فى قوله تعالى:

﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ .. (١٢) ﴾ [هود]

وهو استفهام فى معرض النهى.

ولله المثل الأعلى - أنت قد تقول لابنك لتحثَّه على الاجتهاد: «لعلَّك

---

(١) ومغفرة الله فى مقابل صبر العبد وغفرانه لإساءة المسىء محدودة بحدود طاقة البشر، أما غفران الله ففيه شمول الكريم وعفو الحكيم ؛ لأن عفوه مصحوب بالأجر، والأجر كبير من أكبر وهو الله سبحانه.

(٢) وكيل: قائم به حافظ له[كلمات القرآن]. والوكيل: الحافظ الأمين والناصر المعين. قال تعالى: ﴿ .. وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) ﴾ [آل عمران] . وقال تعالى: ﴿ .. قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ (٦٦) ﴾ [الأنعام] أى: حافظ.

سُررت من فشل فلان» وفَحْوَى [١] هذا الخطاب ، استفهام فى معرض النهى ، وهو استفهام يحمل الرجاء .

وهنا تجد أن الراجى هو ربك - سبحانه وتعالى- الذى أرسلك بالدعوة .

ولذلك يأتى قول الحق سبحانه مُبيِّناً : لا يضيق صدرك يا رسول الله من هؤلاء المتعنتين ، الذين يريدون أن يخرجوك عن مقامك الذى تلحُّ دائمًا فى التأكيد عليه ، فأنت تؤكد لهم دائماً أنك بشرٌ [٢] ، وكان المفروض فيهم أن تكون مطلوباتهم منك على مقدار ماأقررت على نفسك ، فأنت لم تَقُلْ أبداً عن نفسك إنك إله ، ليطلبوا منك آيات تُخالف النواميس [٣] ، بل أنت مُبلِّغ عن الله تعالى .

وإياك أن يضيق صدرك فلا تُبلغهم شيئاً مما أنزلَ إليك ؛ لأن البلاغَ هو الحُجَّة عليهم ، فلو ضاق صدرُك منهم ، وأنقَصتَ البلاغ الموكَّل إليك ؛ لأنهم كلما أبلغوا بآية كذَّبوها ، فاعلمْ أن الله سبحانه وتعالى سوف يزيد عقابهم بقدر ما كذَّبوا .

---

(١) فحوى القول : مضمونه ومرماه الذى يتجه إليه القائل . والجمع : فحاوٍ ، وفحاوى . [المعجم الوسيط] .

(٢) أكد رسول الله ﷺ على هذا المعنى فى أحاديث شريفة كثيرة جدًا :

- منها حديث رافع بن خديج قال : قدم نبى الله ﷺ بالمدينة ، وهم يأبرون النخل ، يقولون يلقحون النخل ، فقال : ما تصنعون ؟ قالوا : كنا نصنعه . قال : لعلكم لو لم تفعلوا كان خيراً فتركوه ، فنفضت . قال : فذكروا ذلك له ، فقال : «إنما أنا بشر ، إذا أمرتكم بشىء من دينكم فخذوا به ، وإذا أمرتكم بشىء من رأيى ، فإنما أنا بشر » . أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٣٦٢) كتاب الفضائل .

- وعن أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ قال : « إنما أنا بشر ، أرضى كما يرضى البشر ، وأغضب كما يغضب البشر ، فأيما أحد دعوت عليه من أمتى بدعوة ليس لها بأهل ، أن يجعلها له طهوراً وزكاة وقربة يقرِّبه بها منه يوم القيامة » . أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٦٠٣) .

(٣) النواميس : القوانين الإلهية التى يخضع لها الكون .

وكلمة «ضائق» [(١)] اسم فاعل ، ويعنى أن الموصوف به لن يظل محتفظاً بهذه الصفة لتكون لازمة له ، ولكنها تعبِّر عن مرحلة من المراحل ، مثلما نقول: «فلان نَاجِر» أى : أنه قادر على القيام بأعمال النجارة مرَّة واحدة - أو قليلاً - ولا يحترف هذا العمل .

وكذلك كلمة«ضائق» وهى تعبِّر فى مرحلة لا أكثر مِنْ فَرْط ما قابلوا الرسول ﷺ من إنكار ، وما طالبوا به من أشياء تخرج عن نطاق إنسانيته ، فقد طالبوا هنا أن ينزل عليه كَنْزٌ .

وقد جاء الحق سبحانه بذكر مسألة الكنز ؛ ليدلنا على مدى ماعندهم من قيم الحياة ، فقيمة القيم عندهم تركَّزتْ فى المال ؛ ولذلك تمنَّوا لو أن هذا القرآن قد نزل على واحد من الأثرياء ، مصداقاً لقول الحق سبحانه :

﴿ وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ [(٢)] (٣١) ﴾ [الزخرف]

إذن : فلم يكن اعتراضهم على القرآن ، بل على مَنْ نزل عليه القرآن . وفى الآية الكريمة التى نحن بصدد خواطرنا عنها ، طلبوا أن ينزل إليه كَنْزٌ ، وقد ظنوا أن الثراء سيلهيه هو ومَنْ معه عن الدعوة إلى الله تعالى

---

(١) الضيق (بالكسر والفتح للضاد وسكون الباء) ضد السَّعَة ، فى الماديات والمعنويات .
واسم الفاعل ضائق ، قال تعالى : ﴿ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ ..(١٢) ﴾ [هود] وقوله : ﴿ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا .. (٧٧) ﴾ [هود] . أى : وجد ضيقاً فى صدره ، ومنه : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ (٩٧) ﴾ [الحجر] ، وقوله : ﴿ ..وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ (١٢٧) ﴾ [النحل] وقرىء بفتح الضاد وبكسرها .
والمعنى : ولا يضيق صدرك بسبب مكرهم . (القاموس القويم باختصار) .

(٢) المراد بالقريتين : مكة والطائف . وقد اختلف العلماء فى تحديد اسم الرجل العظيم المقصود . فمن مكة : الوليد بن المغيرة أو عتبة بن ربيعة . ومن الطائف : عروة بن مسعود أو عمير بن عبد يا ليل . قال ابن كثير فى تفسيره (٤ / ١٢٧) : « الظاهر أن مرادهم رجل كبير من أى البلدتين كان » .

ونسوا أنهم قد عرضوا الثروة عليه من قبل [(١)] .

وهكذا وضح لمن عرض عليه هذا الأمر أن مسألة الكنز لا تشغله ﷺ .

والكَنْزُ [(٢)] - لغويّاً - هو الشيء المجتمع ، فإن كانت الماشية - مثلاً - مليئة باللحم يقال لها : « مُكْتَنِزَةٌ لحماً » ولكن كلمة « الكنز » أطلقت على الشيء الذى هو ثمن لأى شيءٍ ، وهو الذهب .

ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ .. (٣٤) ﴾ [التوبة]

---

(١) ذلك أن عتبة بن ربيعة ، وكان سيداً قال يوماً وهو جالس فى نادى قريش ، ورسول الله ﷺ جالس فى المسجد وحده : يا معشر قريش ، ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء ، ويكف عنا ؟ فقالوا : بلى يا أبا الوليد ، قُم إليه فكلمه ، فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله ﷺ، فقال : يا بن أخى ، إنك منا حيث قد علمت من السِّطة (الشرف) فى العشيرة والمكان فى النسب ، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرَّقت به جماعتهم ، وسفهت به أحلامهم ، وعبْتَ به آلهتهم ودينهم وكفَّرت به من مضى من آبائهم ، فاسمع منى أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلّكَ تقبل منها بعضها . فقال له رسول الله ﷺ : قل يا أبا الوليد أسمع . قال : يا بن أخى ، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً ، وإن كنت تريد به شرفاً سودناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك ، وإن كنت تريد به مُلْكاً ملكناك علينا . . . حتى إذا فرغ عتبة ، قال له ﷺ : « أقد فرغت يا أبا الوليد ؟ قال : نعم . قال : فاسمع منى . قال : أفعل ، فقال : ﴿ حمٓ (١) تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٢) كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣) ﴾ [فصلت] . ثم مضى ﷺ فيها يقرؤها عليه ، فلما سمعها منه عتبة أنصت لها ، وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما يسمع منه . فلما عاد إلى قومه قال لهم : خَلُّوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه ، فاعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذى سمعتُ منه نبأ عظيم ، فإن تُصبه العرب فقد كُفيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب فملكه مُلككم ، وعزّه عزكم ، وكنتم أسعد الناس به . [من سيرة النبى لابن هشام ١ / ٢٩٣ ، ٢٩٤ - بتصرف] .

(٢) كنز المال يكنزه كنْزًا : جمعه وادَّخره . قال تعالى : ﴿ .. هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ (٣٥) ﴾ [التوبة] وقال تعالى : ﴿ .. وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤) ﴾ [التوبة] والضمير راجع إلى الفضة لقربها فى الذكر ، ولأنها أقل قيمة ، فمَنْ يبخل بها يبخل بالذهب من باب أولى . [القاموس القويم] .

ونحن نعلم أن هناك فارقاً بين الرزق المباشر والرزق غير المباشر ، فالرزق الغير مباشر هو ما تنتفع به ، طعاماً أو شراباً ، وهناك شيء يأتى لك بالرزق الغير مباشر ؛ لكنه لا يُغنى عن الرزق المباشر المستمر [١] .

فلو أن إنساناً فى صحراء ومعه قناطير [٢] مقنطرة من الذهب ، ولا يجد طعاماً ولا شربة ماء ، ماذا يفعل له الذهب ؟ ولو عرض عليه إنسانٌ آخر رغيف خبز وشربة ماء مقابل كل ما يملك من ذهب لوافق على الفور . وهنا لا يكون التقييم أن قنطار الذهب مقابل الرغيف وشربة الماء ، ولكن قنطار الذهب هنا مقابل استمرار الحياة وضرورة الحاجة .

إذن : معنى كلمة "كنز" هو نقد من الذهب والفضة مجتمعاً ، ويقال عنه بالعامية عندنا فى مصر : «نقود تحت البلاطة» ، ولكن إذا أدَّى صاحب هذا النقد حقَّ الله تعالى فيما ادَّخره ، لا يُعتبر كَنْزاً ؛ لأن الشرط فى الكَنْز أن يكون مَخفياً ، والزكاة التى تُخرَج من المال المدَّخر توضح للمجتمع أن صاحب المال لا يُخفى ما عنده .

ولذلك لا يُسمَّى الكَنْزُ إلاَّ للشيء المجتمع وممنوع منه حق الله تعالى ، فإنْ أدِّى حقُّ الله سبحانه فقد رُفعَتْ عنه الكَنزية ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ .. وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤) ﴾ [التوبة]

---

(١) الرزق المباشر ما تقتضى به الحوائج بسيولة الاستمرار ، والغير مباشر تقتضى به الحوائج بصعوبة الحاجة والضرورة .

(٢) قناطير : جمع قنطار ، وهو معيار مختلف المقدار عند الناس ، وهو بمصر فى زماننا مائة رطل ، وهو ٤٤,٩٢٨ من الكيلو جرامات . وقد يقصد بالقنطار : المال الكثير . [المعجم الوسيط] .

ومن هذا القول الكريم نفهم أن مَنْ يملك مالاً ويؤدِّى حقَّ الله فيه ، لا يُعتبر كَنْزاً [١] ، وحين تُنقص الزكاةُ المالَ فى ظاهر الأمر ، فهى تدفع الإنسان إلى أن يُحْسن استثمار هذا المال ؛ حتى لا يفقده على مدار أربعين عاماً ، بحكم أن زكاة المال هى اثنان ونصف فى المائة ؛ ولذلك يحاول صاحب المال أن يُثمِّره ، وهو بذلك يُهيِّىء فرصة لغير واجدٍ وقادرٍ لأن يعمل ، وبذلك تقلُّ البطالة .

وقد تكون أنت صاحب المال ؛ لكنك لا تفهم أسرار التجارة والصناعة ، فتشارك مَنْ يفهم فى التجارة أو الصناعة ، وبذلك تفتح أبواب فرص عمل لمن لا عمل له وقادر على إدارة العمل .

هذه هى إرادة الحق سبحانه وتعالى فى أن يجعل من تكامل المواهب نماءً وزيادة ، تكامل مواهب الوَجْد - النقود - ومواهب الجَهْد ، وبين الوجد والجهد تنشأ الحركة ، ويتفق صاحب المال مع صاحب الجهد على نسب الربح حسب العرض والطلب ؛ لأن كل تبادل إنما يخضع لهذا الأمر - العرض والطلب - لأن مثل هذا التعاون بين الواجد والقادر ينتج سلعة ، والسلعة لا هَوًى لها ، ولكن من يملك السلعة ومن يشترى السلعة لهما هوى ، فمالكُ السلعة يرغب فى البيع بأعلى سعر ، ومن يرغب فى شراء السلعة يريدها بأقل سعر ، لكن السلعة نفسها لا هوى لها .

وما دام العرض والطلب هو الذى يتحكَّم فى السلع ، فهذا توازن

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٤ / ٣٠٥١) : « اختلف العلماء فى المال الذى أديت زكاته هل يُسمَّى كنزاً أم لا ، فقال قوم : نعم . ورواه أبو الضحى عن جعدة بن هبيرة عن على رضى الله عنه ، قال على : أربعة آلاف فما دونها نفقة ، وما كثر فهو كنز وإن أدِّيت زكاته ، ولا يصح .
وقال ابن عمر : ما أدِّى زكاته فليس بكنز ، وإن كان تحت سبع أرضين ، وكل ما لم تُؤدَّ زكاته فهو كنز وإن كان فوق الأرض . ومثله عن جابر ، وهو الصحيح » .

فى ميزان الاقتصاد .[1]

وعلى سبيل المثال : إن عُرضت اللحوم بسعر مرتفع ، فكبرياء الذات فى النفس البشرية تدفع غير القادر لأن يقول : إن تناول اللحم يرهقنى صحيّاً . ويتجه إلى الأطعمة الأخرى التى يقدر على ثمنها ؛ لأن السلعة هى التى تتحكم ، أما إذا تدخل أحدٌ فى تسعير السلع ، بأن اكتنز المال ، ولم يخرجه للسوق لاستثماره ، حينئذ تختفى قدرة الحركة لصاحب المال ، ولا يجد صاحب الموهبة مجالاً لإتقان صنعته .

وقول الحق سبحانه وتعالى فى هذه الآية :

﴿ لَوْلا[2] أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ .. (١٢) ﴾ [هود]

فكلمة «لولا» - كما نعلم - للتمنى ، وهم تمنوا الكنز أولاً ، ثم طلبوا مجىء مَلَك ، وكيف ينزل المَلَك ؟ أينزل على خِلقته أم على غير خِلْقته بأن يتجسد على هيئة رجل ؟

والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً .. (٩) ﴾ [الأنعام]

---

(١) قصد فى أمره يقصد كضرب قصداً : اعتدل فيه وسلك مسلكاً وسطاً ، مثل قوله تعالى : ﴿ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ .. (١٩) ﴾ [لقمان] أى : اعتدل وتوسط فيه وقال : ﴿ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ .. (٣٢) ﴾ [لقمان] أى : معتدل غير منحرف يقول الحق : ﴿ .. مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ (٦٦) ﴾ [المائدة] والاقتصاد الآن أصبح علماً له مناهجه ، وهو فن إدارة المال ، ولا يخرج التعريف الحديث عن ما ذهبت إليه اللغة ، وأشار إليه القرآن الكريم (القاموس القويم بزيادة اقتضاها المقام) .

(٢) لولا : حرف شرط لا يعمل ، ويدل على امتناع الجواب لوجود الشرط . وقد تستعمل كأداة عرض وتخصيص مثل (هلاَّ) فتختص بالدخول على الفعل المضارع فى مثل قوله تعالى : ﴿ .. لَوْلا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٤٦) ﴾ [النمل] وتدخل على الفعل الماضى الذى فى تأويل المضارع مثل قوله تعالى : ﴿ لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ .. (١٢) ﴾ [هود] أى : لولا ينزل عليه كنز . وقوله تعالى : ﴿ لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ .. (١٠) ﴾ [المنافقون] أى : لولا تؤخرنى . [القاموس القويم] بتصرف .

وإن نزل الـمَلَـك على هيئة رجل فكيف يتعرَّفون إلى أصله كـمَلَك ؟ وهذا غباء فى الطلب .

وأيضاً قال الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلاَّ أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَراً رَّسُولاً (٩٤) قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولاً (٩٥) ﴾ [الإسراء]

ولو أنزله الحق سبحانه مَلَكاً فسوف يكون من نفس طبيعتهم البشرية ، وسوف يلتقى بهم ويتكلم معهم ، ولن يستطيعوا تمييزه عن بقية الناس وسوف يُكذِّبونه أيضاً .

وهنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها يقول الحق سبحانه رَدًّا لهم عن هذا الطلب : ﴿ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ [(١)] .. (١٢) ﴾ [هود]

وهذا الكلام موجَّه من الله سبحانه للرسول ﷺ ليُلقِّنه الحجة التى يرد بها عليهم ، وقد قال لهم الرسول ﷺ عن نفسه إنه نذير وبشير ، وقد طلب غيركم الآيات ، وحين جاءت الآيات التى طلبوها لم يؤمنوا ، بل ظلُّوا على تكذيبهم ؛ فنكَّل الحق سبحانه بهم [(٢)] .

إذن : فالعناد بالكفر لا ينقلب إلى إيمان بمجرد نزول الآيات ، والحق سبحانه هو القائل :

﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ ..(٥٩) ﴾ [الإسراء]

---

(١) النذير : الرسول المُنذر بالعذاب . قال تعالى : ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ..(٦٣) ﴾ [الأعراف] .

(٢) وفى هذا يقول سبحانه : ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لا يُؤْمِنُونَ (١٠٩) وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١٠) ﴾ [الأنعام] .

أى : أن الآيات التى طلبها الكافرون لم يأت بها الله سبحانه ؛ لأن الأولين قد كذَّبوا بها ؛ ولذلك يبلغ الحق سبحانه رسوله ﷺ هنا بقوله :

﴿ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ .. (١٢) ﴾ [هود]

وهو ﷺ قد نزل عليه القرآن بالنذارة والبشارة [(١)] .

ويُنهى الحق سبحانه وتعالى الآية بقوله :

﴿ .. وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٢) ﴾ [هود]

وأنت حين توكِّل إنساناً فى البيع والشراء والهبَة والنَّقْل ، وله حرية التصرف فى كل ما يخصك ، وترقب سلوكه وتصرُّفه ، فإنْ أعجبك ظللتَ على تمسكك بتوكيله عنك ، وإن لم يعجبك تصرُّفه فأنت تُلْغى الوكالة ، هذا فى المجال البشرى ، أما وكالة الله سبحانه وتعالى على الخَلْق [(٢)] فهى باقية أبداً ، وإن أبى الكافرون منهم .

يقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ [(٣)] قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٣) ﴾

وفى قول الحق سبحانه وتعالى هنا بيان للَوْن آخر من مصادمة الكافرين لمنهج رسول الله ﷺ والإيمان به ، فقالوا : إن محمداً قد افترى القرآن .

---

(١) يقول رب العزة سبحانه لرسوله ﷺ : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا .. (١١٩) ﴾ [البقرة]

(٢) الوكيل : الحافظ الأمين والناصر والمعين . قال تعالى : ﴿ .. وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) ﴾ [آل عمران] ، فوكالة الله على خلقه أى : رعايتهم بالرزق والحفظ والنصرة .

(٣) الافتراء : اختلاق الكذب . ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ..(١٣) ﴾ [هود] أى : اخترع القرآن واختلقه من عند نفسه ، وقال تعالى : ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ .. (١٣) ﴾ [هود] أى : مكذوبات كما تدَّعون . [القاموس القويم] .

والافتراء : هو الكذب المتعمَّد ، ومعنى الكذب المتعمد أنه كلام يخالف واقعاً فى الكون .

فإذا كان الواقع نَفْياً وأنت قلت قضيةَ إثبات ؛ تكون قد خالفت الواقع ، كأن يُوجد فى الكون شرٌّ ما ثم تقول أنت : لا يوجد شرٌّ فى هذا المكان، وهكذا يكون الواقع إيجاباً والكلام نفْياً .

وكذلك أن يكون فى الواقع نَفْىٌ وفى الكلام إيجابٌ ، فهذا أيضاً كذبٌ ؛ لأن الصدق هو أن تتوافق القضية الكلامية مع الواقع الكونى ، فإن اختلفتْ مع الواقع الكونى صار الكلام كذباً .

والكذب نوعان : نوع متعمد ، ونوع غير متعمد . والكذب خرق واقع واختلاق غير موجود . ويقال : خرقت الشىء أى : أنك أتيت لواقع وبدَّلت فيه .

والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَخَرَقُوا (١) لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ .. (١٠٠) ﴾ [الأنعام]

ويقول أيضاً الحق سبحانه :

﴿ وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا (٢) .. (١٧) ﴾ [العنكبوت]

أى : تأتون بشىء من عدم ، وهو من عندكم فقط .

ويقول الله سبحانه تعالى :

---

(١) خرق الأمر أو الكلام : كذبه واخترعه . قال تعالى : ﴿ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ .. (١٠٠) ﴾ [الأنعام] أى : نسبوا له بنين وبنات كذباً واختراعاً بغير علم . [المعجم الوسيط] .

(٢) الإفك : الكذب والافتراء الباطل . وقال تعالى : ﴿ .. وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٨) ﴾ [الأحقاف] . وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنكُمْ .. (١١) ﴾ [النور] .

﴿ .. وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ (١) (١١٦) ﴾ [الأنعام]

وحين اتهموا محمداً ﷺ بهتاناً بأنه افترى القرآن جاء الرد من القرآن الكريم بمنتهى البساطة ، فأنتم - معشر العرب - أهل فصاحة وبلاغة ، وقد جاء القرآن الكريم من جنس ونوع نُبوغكم ، وما دمتم قد قُلْتم : إن محمداً قد افترى القرآن ، وأن آيات القرآن ليست من عند الله، فلماذا لا تفترون مثله ؟

وما دام الافتراء أمراً سهلاً بالنسبة لكم ، فلماذا لا تأتون بمثل القرآن ولو بعشْر سور منه ؟ وأنتم قد عشْتم مع محمد منذ صغَره ، ولم يكن له شعْر ، ولا نثر ، ولا خطابة ، ولا علاقة له برياضَاتكم اللغوية ، ولم يزاول الشعر أو الخطابة ، ولم يشترك فى أسواق البلاغة والشعر التى كانت تُعقد فى الجاهلية مثل سوق عكاظ .

وإذا كان مَنْ لا رياضة له على الكلام ولا على البلاغة ، قد جاء بهذا القرآن ؛ فَلْيكُنْ لديكم - وأنتم أهل قُدْرة ودُرْبة ورياضة على البلاغة أن تأتوا ببعض من مثله ، وإن كان قد افترى القرآن فلماذا لا تفترون مثله ؟

وأنتم تعرفون المعارضات التى تُقام فى أسواق البلاغة عندكم ، حين يقول شاعر قصيدة ، فيدخل معه شاعر آخر فى مباراة ليلقى قصيدة أفضل من قصيدة الشاعر الأول ، ثم تُعقد لجان تحكيم تُبَيِّن مظاهر الحُسْن ومظاهر السوء فى أى قصيدة .

ولو كان محمدٌ ﷺ قد افترى القرآن -كما تقولون- فأين أنتم؟ ألم تعرفوه منذ طفولته ؟ ولذلك يأمر الحق سبحانه رسول الله ﷺ أن يقول :

---

(١) يخرصون : يكذبون . ويستعمل الخرْص فى القرآن بمعنى الكذب أو الظن الخاطىء . قال تعالى : ﴿ .. وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ (١١٦) ﴾ [الأنعام] أى : يكذبون أو يُخمِّنون ويظنون ولا يعلمون حقيقة الأمر على سبيل اليقين . [القاموس القويم - ١/ ١٩١]

﴿ قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ [(١)] فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٦) ﴾ [يونس]

فهَل أثرَ عن محمد ﷺ أنه قال شعراً أو ألقى خطبة أو تَبارَى [(٢)] فى عكاظَ [(٣)] أو المربد أو ذى المجاز [(٤)] أو المَجَنَّة [(٥)] ، وتلك هى أسواق البلاغة ومهرجاناتها فى تلك الأيام ؟

هو لم يذهب إلى تلك الأماكن منافساً أو قائلاً .

إذن : أفليسَ الذين تنافسوا هناك أقدر منه على الافتراء ؟ ألم يكن امرؤ القيس شاعراً فَحْلاً ؟ لقد كان ، وكان له نظير يعارضه .

وكذلك كان عمرو بن كلثوم ، والحارث بن حِلِّزة اليشْكُرى ، كما جاء فى عصور تالية آخرون مثل : جرير والفرزدق .

إذن : فأنتم تعرفون مَنْ يقولون الشعر ومَنْ يعارضونهم من أمثالهم من الشعراء .

إذن : فهاتوا مَنْ يفترى مثل سور القرآن ، فإنْ لم تفتروا ، فمعنى ذلك أن القرآن ليس افتراء .

ولذلك يقول الحق سبحانه هنا :

---

(١) لبث : أقام واستقر . وقال تعالى عن يونس عليه السلام : ﴿ فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤٤) ﴾ [الصافات] . وقال سبحانه عن نوح عليه السلام : ﴿ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَامًا ..(١٤) ﴾ [العنكبوت] . وقال تعالى : ﴿ .. فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ (٤٠) ﴾ [طه] .

(٢) التبارى : التنافس والتسابق .

(٣) سوق عكاظ : سوق بقرب مكة ، كان العرب يجتمعون بها كل سنة ، فيقيمون شهراً يبتاعون ويتفاخرون ويتناشدون ، وسميت عكاظًا لهذا ، ويقال : تعاكظ القوم : تعاركوا وتفاخروا [انظر لسان العرب - مادة عكظ]

(٤) ذو المجاز : موضع بمنىً - وقيل عند عرفات - كان يُقَام فيه سوق فى الجاهلية . [اللسان مادة : جوز]

(٥) المجنة : موضع على بُعْد أميال من مكة ، كان بها سوق من أسواق العرب .

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ .. (١٣) ﴾ [هود]

فهل كانوا قادرين على قبول التحدى ، بأنْ يأتُوا بعشر سُوَر من مثل القرآن الكريم فى البيان الآسر [(١)] وقوة الفصاحة وأسرار المعانى ؟

لقد تحدَّاهم بأن يأتوا - أولاً - بمثل القرآن [(٢)] ، فلم يستطيعوا ، ثم تحدَّاهم بأن يأتوا بعشر سور ، فلم يستطيعوا ، وتحدَّاهم بأن يأتوا بسورة [(٣)] ، ثم تحدَّى أن يأتوا وَلو بحديث مثله ، فلم يستطيعوا .

وهنا جاء الحق سبحانه بالمرحلة الثانية من التحدى ، وهو أنْ يأتوا بعَشْر سُور ، ولم يكتف الحق سبحانه بذلك ، بل طالبهم أن يَدْعُوا مَجْمَعاً من البُلَغَاء ، فقال سبحانه :

﴿ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ .. (١٣) ﴾ [هود]

أى : هاتوا كلَّ شركائكم وكل البُلغاء ، من دون الله تعالى .

الحق سبحانه وتعالى هنا يقطع عليهم فرصة الادّعاء عليه سبحانه حتى لا يقولوا : سوف ندعو الله ؛ ولذلك طالبهم الحق سبحانه أن يُجنِّبوه

﴿ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٣) ﴾ [هود]

أى : إن كنتم صادقين فى أن محمداً ﷺ قد افترى القرآن [(٤)] ، وبما أنكم

---

(١) الآسر : الذى يأخذ بألباب الناس وعقولهم .

(٢) وذلك فى قول الله سبحانه : ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (٨٨) ﴾ [الإسراء] أى : مُعينًا .

(٣) يقول رب العزة سبحانه : ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ .. (٢٣) ﴾ [البقرة] . ويقول سبحانه : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣٨) ﴾ [يونس] .

(٤) القرآن : يطلق على كتاب الله المعجز ، المكتوب فى المصاحف ، الذى نزل على رسول الله ﷺ ، ويطلق مجازاً مرسلاً علاقته الجزئية على الصلاة ، كقوله تعالى : ﴿ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ .. (٧٨) ﴾ [الإسراء] أى : صلاة الفجر (القاموس القويم باختصار) .

أهل ريادة فى الفصاحة فَلْتفتروا عَشْر سُوَرٍ من مثل القرآن ، أنتم ومَنْ تستطيعون دعوتهم من الشركاء .

لذلك كان الرد الحكيم من الله فى قول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

والخطاب هنا موجَّه إلى الذين ادَّعوا أنَّ رسول الله ﷺ قد افترى القرآن ، أو أن الخطاب مُوجَّه لرسول الله ﷺ ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى قال فى الآية السابقة :

﴿ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ (١) وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ .. ﴿١٤﴾ ﴾ [هود]

أى : إن لم يردُّوا على التحدى ، فليعلموا وليتيقَّنوا أن هذا القرآن هو من عند الله تعالى ، بشهادة الخصوم منهم (٢) .

ولماذا عدَّل الحق سبحانه هنا الخطاب ، وقال :

﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ (٣) .. ﴿١٤﴾ ﴾ [هود]

---

(١) مفتريات : مختلقات مكذوبات كما تدَّعون .

(٢) وعن القرآن قال عتبة بن ربيعة لقومه بعد حوار طويل مع رسول الله ﷺ لإثنائه عن المضىّ فى دعوته : « خلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه ، فاعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذى سمعتُ منه نبأ عظيم » [سيرة ابن هشام ١/ ٢٩٤] .

(٣) قال تعالى : ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ .. ﴿١٤﴾ ﴾ [هود] ولم يَقُلْ : لك . قيل : هو على تحويل المخاطبة من الإفراد إلى الجمع تعظيماً وتفخيماً ، وقد يخاطب الرئيس بما يُخاطب به الجماعة .

وقيل : الضمير فى « لكم » وفى « فاعلموا » للجميع ، أى : فليعلم الجميع : ﴿ أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ .. ﴿١٤﴾ ﴾ [هود] قاله مجاهد . وقيل : الضمير فى « لكم » ، وفى « فاعلموا » للمشركين ، والمعنى : فإن لم يستجب لكم من تدعونه إلى المعاونة ، ولا تهيأت لكم المعارضة : ﴿ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ .. ﴿١٤﴾ ﴾ [هود] . [قاله القرطبى فى تفسيره : ٤ / ٣٣٣١] .

أى : من تدعونهم ، ثم قال سبحانه :

﴿ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ .. (١٤) ﴾ [هود]

وقد قال الحق سبحانه ذلك ؛ لأن الرسول ﷺ مُطالَبٌ بالبلاغ وما بلغه الرسول ﷺ للمؤمنين مطلوب منه أن يُبلغوه ، وإنْ لم يستجيبوا للرسول ﷺ أو للمؤمنين ، ولم يأتِ أحد مع مَنْ يتهم القرآن بأنه مُفترًى مِن محمدٍ .

وقد يكون هؤلاء الموهوبون خائفين من التحدى ؛ لأنهم عرفوا أن القرآن حق ، وإن جاءوا ليفتروا مثله فلن يستطيعوا ، ولذلك فاعلموا - يا مَنْ لا تؤمنون بالقرآن - أن القرآن : ﴿ أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ .. (١٤) ﴾ [هود]

إذن : فالخطاب يكون - مرَّة - موجَّهاً للنبى ﷺ ولأمته .

ولذلك عَدَلَ الحق سبحانه عن ضمير الإفراد إلى ضمير الجمع فى قوله تعالى :

﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ .. (١٤) ﴾ [هود]

أى : ازدادوا علماً أيها المؤمنون بأن القرآن أنما نزل من عند الله.

والعلْم - كما نعلم - مراحل ثلاث : علم يقين ، وعين يقين ، وحق يقين[(١)] .

أو أن الخطاب مُوجَّه للكافرين الذين طلب القرآن منهم أن يَدْعُوا من يستطيعون دعاءه ليعاونهم فى معارضة القرآن : ﴿ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ .. (١٤) ﴾ [هود]

وأعلى مراتب العلْم عند الحق سبحانه الذى يعلم كل العلم أزلاً ، وهو غير علمنا نحن ، الذى يتغير حسب ما يتيح لنا الله سبحانه أن نعلم ، فأنت قد تكون عالماً بشىء وتجهل أشياء ، أوعلمتَ شيئاً وغابتْ عنك أشياء .

---

(١) هذا التقسيم ذهب إليه أهل الحقيقة والمعارف من وحى التريض العلمى والروحى والمشهدى .

ولذلك تجد الأطباء ، وأصحاب الصناعات الدقيقة وغيرهم من الباحثين والعلماء يستدرك بعضهم البعض ، فحين يذهب مريض لطبيب مثلاً ويصف له دواءً لا يستجيب له ، فيذهب المريض إلى طبيب آخر ، فيستدرك على الطبيب الأول ، فيصف دواء ، وقد لا يستجيب له المريض مرة ثانية ، وهنا يجتمع الأطباء على هيئة «مجمع طبى» يُقرّر ما يصلح أو لا يصلح للمريض .

ويستدرك كلٌّ منهم على الآخر إلى أن يصلوا إلى قرار ، والذى يستدرك هو الأعلم ؛ لأن الطبيب الأول كتب الدواء الذى أرهق المريض أو لم يَستجبْ له ، وهو قد حكم بما عنده من عِلْم ، كذلك بقية الباحثين والعلماء .

وما دام فوق كل ذى علمٍ عليمٌ ؛ فالطبيب الثانى يستدرك على الطبيب الأول . . وهكذا .

ولكن أيوجد أحدٌ يستدرك على الله سبحانه وتعالى ؟ لا يوجد .

وما دام القرآن الكريم قد جاء بعلم الله تعالى ، فلا علم لبشر يمكن أن يأتى بمثل هذا القرآن :

﴿ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ . . (١٤) ﴾ [هود]

وجاء الحق سبحانه هنا بأنه لا إله إلا هو ؛ حتى لا يدَّعى أحدٌ أن هناك إلهاً آخر غير الله.

وذكر الله سبحانه هنا أن هذا القرآن قد نزل فى دائرة :

﴿ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ . . (١٤) ﴾ [هود]

وما دام الحق سبحانه قد حكم بذلك فلنثق بهذا الحكم .

مثال ذلك : هو حكم الحق سبحانه على أبى لهب[١] وعلى امرأته[٢] بأنهما سيدخلان النار[٣] فهل كان من الممكن أن يعلن أبو لهب إسلامه ، ولو نفاقاً ؟ طبعاً لا ؛ لأن الذى خلقَه علم كيف يتصرف أبو لهب .

لذلك نجد بعد سورة المسد[٤] التى قررت دخول أبى لهب النار ، قول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) ﴾ [الإخلاص]

أى : أن الحق سبحانه ما دام قد أصدر حكمه بأن أبا لهب سيدخل وزوجه النار ، فلن يقدر أحد على أن يُغيِّر من حكمه سبحانه ، فلا إله إلا هو .

ويُنهى الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله تعالى :

﴿ .. فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٤) ﴾ [هود]

وهذا استفهام ، أى : طلب للفهم ، ولكن ليس كل استفهام طلباً للفهم ، فهذا الاستفهام هنا صادر عن إرادة حقيقية قادرة على فرض الإسلام على من يستفهم منهم .

---

(١) أبو لهب هو أحد أعمام رسول الله ﷺ ، واسمه عبد العزى بن عبد المطلب ، وكنيته أبو عتبة سمى أبا لهب لشدة احمرار وجهه كأنه اللهب .

(٢) كانت امرأته من سادات نساء قريش ، وهى أم جميل ، واسمها أروى بنت حرب بن أمية ، وهى أخت أبى سفيان ، وكانت عوناً لزوجها على كفره وجحوده وعناده .

(٣) وذلك فى قول الله عز وجل عن أبى لهب وامرأته فى سورة المسد : ﴿ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (٣) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (٤) ﴾ [المسد] .

وسبب نزول هذه السورة كما أخرج البخارى فى صحيحه (٤٩٧١) : عن ابن عباس أن النبى ﷺ خرج إلى البطحاء ، فصعد الجبل ، فنادى " يا صباحاه " فاجتمعت إليه قريش ، فقال : أرأيتم إن حدثتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم أكنتم تصدقونى ؟ قالوا : نعم . قال : فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد ، فقال أبو لهب : ألهذا جمعتنا ؟ تباً لك . فأنزل الله : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) ﴾ [المسد] إلى آخرها .

(٤) مسد الحبل [كنصر] مسداً : أجاد فَتْله . والمسد الليف قال تعالى : ﴿ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ (٥) ﴾ [المسد] أى : من ليف خشن . « القاموس القويم » .

ولكنه سبحانه شاء أن يأتى هذا الاستفهام على لسان رسوله ليقابله جواب ، ولو لم يكن السائل واثقاً أنه لا يوجد إلا الإسلام لما قالها ، ولو لم يكن السائل واثقاً أنه لا جواب إلا أن يُسْلِم السامع ، ما جعل جواب السامع حجة على السامع .

وقائل هذا الكلام هو الخالق سبحانه ، ولله المثل الأعلى ، وهو سبحانه مُنزَّه عن كل مثل ، تجد إنساناً يحكى لك أمراً بتفاصيله ، ثم يسألك : هل أنا صادق فيما قلت لك؟ . . وهو يأتى بهذا الاستفهام ؛ لأنه واثق من أنك ستقول له : نعم ، أنت صادق .

وإذا نظرنا فى آية تحريم الخمر والميسر - على سبيل المثال - نجد الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ (١) أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ (٢) (٩١) ﴾

[المائدة]

---

(١) الشيطان كل عاد متمرد من الإنس أو من الجن ، والشيطان من الجن مخلوق خبيث خلق من الناس ، وهو عدو للإنسان يُغريه بالشر ، إلا من حفظه الله بالإيمان . يقول الحق : ﴿ وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ (١٧) ﴾ [الحجر] ، وكذلك كل من التجأ إلى الله ، فالله حافظه من كيد الشيطان . [القاموس القويم - بتصرف]

(٢) أخرج ابن جرير فى تفسيره عن أبى بريدة عن أبيه قال : بينا نحن قعود على شراب لنا ، ونحن على رملة ، ونحن على ثلاثة أو أربعة ، وعندنا باطية لنا ، ونحن نشرب الخمر حلاً ، إذ قمت حتى آتى رسول الله ﷺ فأسلِّم عليه ، إذ نزل تحريم الخمر : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٩٠) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ (٩١) ﴾[المائدة] فجئت إلى أصحابى فقرأت عليهم إلى قوله : (فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ) قال : وبعض القوم شَرْبَتُه فى يده ، قد ضرب بعضها ، وبقى بعض فى الإناء ، فقال بالإناء تحت شفته العليا كما يفعل الحجَّام ، ثم صَبُّوا ما فى باطيتهم فقالوا : انتهينا ربنا . ذكره ابن كثير فى تفسيره (٢ / ٩٥) .

وكأن هذا الاستفهام يحمل صيغة الأمر بأن: انتهوا من الخمر والميسر، واخجلوا مما تفعلون.

إذن: فقول الحق سبحانه فى آخر الآية الكريمة:

﴿.. فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٤)﴾ يعنى: أسلموا، واتركوا اللجاجة [(١)] بأن القرآن قد جاء من عند محمد، أو أنه افتراه، بل هو من عند الله سبحانه الذى لا إله إلا هو.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ [(٢)] (١٥)﴾

وكان الكافرون [(٣)] قد تكلموا بما أورده الحق سبحانه على ألسنتهم وقالوا:

﴿لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ .. (١٢)﴾ [هود]

---

(١) اللجاجة: اختلاط الأصوات وارتفاعها. والمقصود التشويش على القرآن بادعاءات باطلة.

(٢) بخسه حقه: نقصه حقه ولم يُوفِّه إياه، قال تعالى: ﴿وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ..(٨٥)﴾ [الأعراف]. والثمن البخس: القليل الناقص عن مثله، ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ .. (٢٠)﴾ [يوسف].

(٣) اختلف العلماء فى تأويل هذه الآية، فقيل: نزلت فى الكفار، قاله الضحاك، واختاره النحاس، بدليل الآية التى بعدها: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ ..(١٦)﴾ [هود]، أى: من أتى منهم بصلة رحم أو صدقة فكافئه بها فى الدنيا، بصحة الجسم، وكثرة الرزق. لكن لا حسنة له فى الآخرة.

وقيل: المراد بالآية المؤمنون، أى: من أراد بعمله ثواب الدنيا عُجِّل له الثواب ولم يُنقص شيئاً فى الدنيا، وله فى الآخرة العذاب لأنه جرَّد قصده للدنيا. وقيل: هو لأهل الرياء، وفى الخبر أنه يقال لأهل الرياء: «صمتم وصلّيتم وتصدقتم وجاهدتم وقرأتم ليقال ذلك فقد قيل ذلك» ثم قال: «إن هؤلاء أول من تُسعر بهم النار».

وقيل: الآية عامة فى كل من ينوى بعمله غير الله تعالى، كان معه أصل إيمان أو لم يكن. [تفسير القرطبى ٤ / ٣٣٣١]

فهم - إذن - مشغولون بنعيم الدنيا وزينتها.

والحياة تتطلب المقومات الطبيعية للوجود ، من ستر عورة ، وأكل لقمة وبيت يقى الإنسان ويؤويه . أما الزينة فأمرها مختلف ، فبدلاً من أن يرتدى الإنسان ما يستر العورة ، يطلب لنفسه الصوف الناعم شتاء ، والحرير الأملس صيفاً ، وبدلاً من أن يطلب حجرة متواضعة تقيه من البرد أو الحر ، يطلب لنفسه قصراً.

وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ [1] مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ [2] وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ [3] .. (١٤) ﴾ [آل عمران]

وكل هذه أشياء تدخل فى متاع الحياة الدنيا ، ويقول الحق سبحانه:

﴿ .. ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ [4] (١٤) ﴾ [آل عمران]

إذن: ما معنى كلمة «زينة» ؟

معنى كلمة «زينة» أنها حُسْنٌ أو تحسين طارىء على الذات ، وهناك فرق بين الحسن الذاتى والحسن الطارىء من الغير.

---

(١) القناطير : جمع قنطار وهو معيار مختلف المقدار عند الناس ، وهو بمصر فى زماننا : مائة رطل، وهو ٤٤,٩٢٨ من الكيلوجرامات ، وقد يقصد بها المال الكثير - كما فى الآية الكريمة . وقال تعالى : ﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ .. (٧٥) ﴾ [آل عمران] .

والقناطير المقنطرة : أى : المضاعفة ، أو المُحْكمة المحصَّنة .[كلمات القرآن للشيخ حسنين مخلوف . والمعجم الوسيط].

(٢) الخيل المسومة : أى : المرسَلَة للرعى ، أو المعلَّمة بعلامات .[القاموس القويم] .

(٣) الأنعام : الإبل والبقر والضأن والمَعْز .

والحرث : المزروعات . [كلمات القرآن] .

(٤) المآب : المرجع . وحسن المآب : أى : المرجع الحسن . [كلمات القرآن] .

والمرأة - على سبيل المثال - حين تتزين فهى تلبس الثياب الجميلة الملفتة ، وتتحلّى بالذهب البرَّاق ، فهو المعدن الذى يأخذ نفاسته [١] من كثرة تلألئه الذى يخطف الأبصار ، ولا تفعل ذلك بمغالاة إلا التى تشك فى جمالها .

أما المرأة الجميلة بطبيعتها ، فهى ترفض أن تتزين ؛ ولذلك يسمونها فى اللغة : «الغانية» [٢] ، أى : التى استغنت بجمالها الطبيعى عن الزينة ، ولا تحتاج إلى مداراة كبَر أذنيها بقُرْط [٣] ضخم ، ولا تحتاج إلى مداراة رقبتها بعقد ضخم ، ولَا تحاول أن تدارى معصمها الريان بسوار [٤] ، وترفض أن تُخفِى جمال أصابعها بالخواتم .

وحين تُبالغ المرأة فى ذلك التزيُّن فهى تعطى الانطباع المقابل .

وقد يكون المثل الذى أضربه الآن بعيداً عن هذا المجال ، لكنه يوضح كيف يعطى الشىء المبالَغ فيه المقابل له .

وفى ذلك يقول المتنبى [٥] :

الطِّيبُ أنت إذَا أصَابكَ طيبهُ ... والماءُ أنتَ إذا اغتسلتَ الغاسلُ

---

(١) نَفُسَ الشىء نفاسة : كان عظيم القيمة فهو نفيس . وقيل : منه التنافس ، كل يريد أن يكون أنفس من غيره ، أو يحرز ما هو أنفس وأعظم قيمة . قال تعالى : ﴿ .. وَفِى ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ (٢٦) ﴾ [المطففين] أى : فليتسابقوا لإحرازه لأنفسهم .

(٢) الغانية من النساء : التى غنيت بالزوج . وهى أيضاً التى غنيت بحُسْنها وجمالها عن الحَلْى . وقيل : هى التى تُطْلب ولا تَطْلُب . وقيل : الغانية الجارية الحسناء ، ذات زوج كانت أو غير ذات زوج . سميت غانية لأنها غنيت بحُسنها عن الزينة . [لسان العرب - مادة : غنى]

(٣) القُرْط : ما يُعلَّق فى شحمة الأذن من دُرٍّ أو ذهب أو فضة أو نحوها . والجمع : أقراط ، وقروط . . . [المعجم الوسيط] .

(٤) السِّوار : حلية من الذهب مستديرة كالحلقة تُلبس فى المعصم . والجمع : أسْوِرة ، وأساور . [المعجم الوسيط] .

(٥) هو : أحمد بن الحسين ، شاعر حكيم ، ولد بالكوفة فى محلة تسمى « كندة» عام ٣٠٣ هـ ، نشأ بالشام ، ادعى النبوة فى بادية السماوة (بين الكوفة والشام) . ولذلك سمى بالمتنبى ، ثم رجع عن دعواه بعد أسره ، توفى عام ٣٥٤ هـ عن ٥٢ عاماً .

وهو هنا يقول : إن الطيب إذا ما أصاب ذلك الإنسان الموصوف ، فالطيب هو الذى يتطيَّب ، كما أن الماء هو الذى يُغْسَل إذا ما لمس هذا الإنسان ، وكذلك تأبى المرأة الجميلة أن تُزيِّن نَحْرَها [(١)] بقلادة [(٢)] ؛ لأن نحرها بدون قلادة يكون أكثر جمالاً .

ويقال عن مثل هذه المرأة «غانية» ؛ لأنها استغنتْ بجمالها .

ويقال عن جمال نساء الحضر : إنه جمال مصنوع بمساحيق ، وكأن تلك المساحيق مثبتة على الوجه بمعجون كمعجون دهانات الحوائط ، وكأن كل واحدة تفعل ذلك قد جاءت بسكين من سكاكين المعجون لتملأ الشقوق المجعدة فى وجهها .

ولحظة أن يسيح هذا المعجون ترتبك ، ويختل مشهد وجهها بخليط الألوان ؛ ولذلك يقال :

حُسْنُ الحضَارةِ مَجْلُوبٌ بِتَطْرِيةٍ ... وفى البدَاوةِ حُسْنٌ غيرُ مَجْلوبِ

إذن : فالزينة هى تحسين الشىء بغيره ، والشىء الحسن يستغنى عن الزينة .

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ [(٣)] (١٥) ﴾ [هود]

أى : إن كفرتم بالله فهو سبحانه لا يضن عليكم فى أن يعطيكم مقومات

---

(١) النَّحْر : أعلى الصدر ، وهو موضع القلادة .

(٢) القلادة : كل ما يوضع حول الرقبة من عقود وحَلْى وذهب وغيره ، وسُمِّيت الأضاحى قلائد مجازاً مرسلاً علاقته الملازمة ؛ لأن الذبائح كانت تُعلَّم بقلادات فى أعناقها . قال تعالى : ﴿ وَلا الْهَدْيَ وَلا الْقَلائِدَ .. (٢) ﴾ [المائدة] . أى : الأضاحى ذوات القلائد .

(٣) البَخْسُ : الإنقاص . وبَخَسَه حقَّه بخسًا : نقصه حَقَّه ولم يُوفِّه . قال تعالى : ﴿ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ .. (٨٥) ﴾ [الأعراف] [القاموس القويم] .

الحياة وزينتها؛ لأنه رب ، وهو الذى خلقكم واستدعاكم إلى الوجود ، وقد ألزم الحق سبحانه نفسه أن يعطيكم ما تريدون من مقومات الحياة وزينتها ؛ لأنه سبحانه هو القادر على أن يوفِّى بما وعد.

وهو سبحانه يقول هنا:

﴿ نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ .. (١٥) ﴾ [هود]

أى: أنهم إن أخذوا بالأسباب فالحق سبحانه يُلزم نفسه بإعطاء الشىء كاملاً غير منقوص.

وهم فى هذه الدار الدنيا لا يُبْخَسون فى حقوقهم ، فمن يتقن عمله يأخذ ثمرة عمله.

وهذا القول الكريم يحُلُّ لنا إشكالاً كبيراً نعانى منه ، فهناك مَنْ يقول : إن هؤلاء المسلمين الذين يقولون : لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ، ويقيمون الصلاة ، ويبنون المساجد ، بينما هُمْ قومٌ متخلّفون ومتأخّرون عن ركْب الحضارة ، بينما نجد الكافرين وهم يَرْفُلُون [1] فى نعيم الحَضَارة .

ونقول : إن لله تعالى عطاءَ ربوبية للأسباب ، فمن أحسنَ الأسباب حتى لو كان كافرًا ، فالأسباب تعطيه ، ولكن ليس له فى الآخرة من نصيب ؛ لأن الحق سبحانه يقول :

﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا [2] (٢٣) ﴾ [الفرقان]

والحق سبحانه يجزى الكافر الذى يعطى خيرًا للناس بخير فى الدنيا ، ويجزى الصادق الذى لا يكذب من الكفار بصدق الآخرين معهً فى الدنيا ، ويجزى من يمدُّ يده بالمساعدة من الكفار بمساعدة له فى الدنيا .

---

(١) رفل : جَرَّ ذيل ثوبه وتبختر فى مَشْيه . ويرفلون فى النعيم : أى : يعيشون فى رفاهية فرحين بما لديهم من نعيم . [المعجم الوسيط] بتصرف .

(٢) الهباء المنثور : الغبار المتطاير فى الجو . وقوله تعالى : ﴿ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا .. (٢٣) ﴾ [الفرقان] أى : كل عمل عملوه كالهباء المنثور ، لا يُعتدُّ به ، ولا قيمة له . [القاموس القويم] .

وكلها أعمال مطلوبة فى الدِّين ، ولكنَّ الكافر قد يفعلها ، فيردُّ الله سبحانه وتعالى له ما فعل فى الدنيا ، وإنْ كان قد فعل ذلك ليُقَال : إن فلانًا عَملَ كذا ، أو فلانًا كان شَهْمًا فى كذا ، فيُقال له : «عملْتَ ليُقال وقد قِيل »[1] .

وإذا كان الكافرون يأخذون بالأسباب ؛ فالحق سبحانه يعطيهم ثمرة ما أخذوا به من الأسباب .

ويجب أن نقول لمن يتهم المسلمين بالتخلُّف :

لقد كان المسلمون فى أوائل عهدهم متقدمين ، وكانوا سادة حين طبَّقوا دينهم ، ظاهرًا وباطنًا ، شكلاً ومضموناً .

وعلى ذلك فالتخلُّف ليس لازمًا ولا ملازمًا للإسلام ، وإنما جاء التخلُّف لأننا تركنا روح الإسلام وتطبيقه .

وإنْ عقدنا مقارنة بين حال أوربا حينما كانت الكنيسة هى المسيطرة ، كنا نجد كل صاحب نشاط عقلى مُبْدِع ينال القتل عقوبة على الإبداع ، وكانت تسمى تلك الأيام فى أوربا « العصور المظلمة » .

وحينما جاءت الحروب الصليبية وعرفت أوربا قوة الإسلام

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن أول الناس يُقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد ، فأتى به فعرَّفه نعمه فعرفها . قال : فما عملتَ فيها ؟ قال : قاتلت فيك حتى استشهدت . قال : كذبتَ ، ولكنك قاتلت لأن يقال : جرىء ، فقد قيل ، ثم أمر به فسُحب على وجهه حتى ألقى فى النار . ورجل تعلم العلم وعلَّمه وقرأ القرآن ، فأتى به ، فعرَّفه نعمه فعرفها . قال : فما عملتَ فيها ؟ قال : تعلمت القرآن وعلَّمته ، وقرأت فيك القرآن . قال : كذبت . ولكنك تعلمت العلم ليقال : عالم ، وقرأت القرآن ليقال : هو قارىء ، فقد قيل ، ثم أمر به فسُحب على وجهه حتى ألقى فى النار .
ورجل وسَّع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله ، فأتى به فعرَّفه نعمه فعرفها . قال : فما عملت فيها ؟ قال : ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك . قال : كذبت ، ولكنك فعلت ليقال : هو جواد . فقد قيل ، ثم أمر به فسُحب على وجهه ثم ألقى فى النار . [أخرجه مسلم فى صحيحه (١٩٠٥) كتاب الإمارة] .

والمسلمين ، ودحرهم [١] المسلمون ، بدأوا فى محاولة الخروج على سلطان البابا والكنيسة ، وعندما فعلوا ذلك تَقَدَّموا .

هم - إذن - عندما تركوا سلطان البابا تقدموا ، ونحن حين تركنا العمل بتعاليم الإسلام تخلَّفنا .

إذن : فأىُّ الجَرْعَتَيْن خير ؟

إن واقع الحياة قد أثبت تقدُّم المسلمين حين أخذوا بتعاليم الإسلام ، وتخلفوا حين تركوها .

وهكذا . . فمعيار التقدُّم هو الأخْذ بالأسباب ، فمن أخذ بالأسباب وهو مؤمن نال حُسْن خير الدنيا وحُسْن ثواب الآخرة ، ومَنْ لم يؤمن وأخذ بالأسباب نال خير الدنيا ولم يَنَلْ ثواب الآخرة .

والحق سبحانه وتعالى هو القائل :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ [٢] بِقِيعَةٍ [٣] يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ . . (٣٩) ﴾ [النور]

---

(١) دَحَرَهُ يَدْحَرُهُ دَحْرًا ودُحورًا : دفعه وطرده وأبعده مُهانًا . ودحره فى الحرب : هزمه . قال تعالى : ﴿ . . وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ (٨) دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ (٩) ﴾ [الصافات] [القاموس القويم] .

(٢) السراب : ما تراه فى نصف النهار فى الأرض الفضاء كأنه ماء وليس بماء . ويقول الله تعالى : ﴿ وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا (٢٠) ﴾ [النبأ] أى : صارت لا حقيقة لها ، أى : تشبه السراب فى أنها لا حقيقة لها ، أو كالأرض المسطوحة التى يظهر فيها السراب . [القاموس القويم] .

(٣) القاع والقيعة : ما استوى من الأرض وانخفض عما يحيط به من الجبال والأكمات . قال تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (١٠٥) فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (١٠٦) لَا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا (١٠٧) ﴾ [طه]

قاعاً صفصفاً : مكاناً منخفضاً مستوياً معتدلاً ، لا ارتفاع فيه ولا اعوجاج . وقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ . . (٣٩) ﴾ [النور] أى : بمكان منخفض مُسْتوٍ مما يظهر فيه السراب عادة . [القاموس القويم] .

وهكذا يُفاجأ بالإله الذى كذَّب به .

والحق سبحانه يقول :

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ [1] لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ .. (١٨) ﴾ [إبراهيم]

إذنْ : فمن أراد الدنيا وزينتها ، فالحق الأعلى سبحانه يوفِّيه حسابه ولا يبخسه من حقه شيئًا ، فحاتم الطائى - على سبيل المثال - أخذ صفة الكرم ، وعنترة أخذ صفة الشجاعة ، وكل إنسان أحسن عملاً أخذ أجره ، ولكن عطاء الآخرة هو لمن عمل عمله لوجه الله تعالى ، وآمن به .

وحتى الذين دخلوا الإسلام نفاقًا وحاربوا مع المسلمين ، أخذوا نصيبهم من الغنائم ، ولكن ليس لهم فى الآخرة من نصيب .

إذن : فالوفاء يعنى وجود عَقْد ، وما دام هناك عقد بين العامل والعمل ، وأتقن العاملُ العملَ فلا بد أن يأخذ أجره دون بَخْس ؛ لأن البَخْسَ هو إنقاص الحق .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ [2] مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٦) ﴾

---

(١) عصفت الريح ، تعصف عَصْفًا وعُصوفاً : اشتد هبوبها ، والريح عاصف وعاصفة فهى تُذكَّر وتُؤنَّث ، والريح العاصفة أحياناً تدمِّر كل شىء تمر عليه . قال تعالى : ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً .. (٨١) ﴾ [الأنبياء] وقال تعالى : ﴿ جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ .. (٢٢) ﴾ [يونس] وقال تعالى : ﴿ فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا (٢) ﴾ [المرسلات] هى الرياح الشديدة . [القاموس القويم] .

(٢) حبط العمل : بطل ولم يحقق ثمرته . وقال تعالى : ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ .. (٥) ﴾ [المائدة] ، وأحبط الله عمله : أبطله وضيَّعه هباءً . قال تعالى : ﴿ .. فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (٩) ﴾ [محمد] [القاموس القويم] .

إذن : فالنار مثوى هؤلاء الذين عملوا من أجل الدنيا دون إيمان بالله ، فقد أخذوا حسابهم فى الدنيا ، أما عملهم فقد حبط فى الآخرة ، والحَبَط هو انتفاخ الماشية حين تأكل شيئًا أخضر لم ينضج بعد ، ويقال فى الريف عن ذلك : « انتفخت البهيمة » أى : أن هناك غازات فى بطنها ، وقد يظنها الجاهل سِمْنةً ، لكن هذا الانتفاخ يزول بزوال سببه .

وعمل الكافرين إنما يحبط فى الآخرة ؛ لأنه باطل .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

والبيِّنة [٢] هى بصيرة الفطرة السليمة التى تُلْفت الإنسان إلى وجود واجب الوجود ، وتوضِّح للإنسان أن هذا الكون الجميل البديع لا بُدَّ له من واجد .

وهكذا تكون الهداية بالبصيرة والفطرة .

---

(١) المرية : الجدل والشك وكذلك التمارى والامتراء والمراء والمماراة . قال تعالى : ﴿ فَلا تُمَارِ فِيهِمْ إِلاَّ مِرَاءً ظَاهِرًا .. (٢٢) ﴾ [الكهف] ، وقال تعالى : ﴿ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (١٤٧) ﴾ [البقرة] وقال تعالى : ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ (٥٥) ﴾ [النجم] [القاموس القويم] بتصرف .

(٢) بان الشىء يبين بياناً : ظهر واتضح ، فهو بَيِّنٌ وهى بيِّنةٌ أى : ظاهر ، وظاهرة . ويستعمل البيِّن والبيِّنة بمعنى المُظهر والمُظهرة ، والموضِّح والموضِّحة . قال تعالى : ﴿ كَمْ آتَيْنَاهُم مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ .. (٢١١) ﴾ [البقرة] أى : واضحة لا شك فيها ، أو هى مُبيِّنة للحق مُؤيِّدة له ، مُظْهِرة لأمره ، وكذلك قوله تعالى : ﴿ لَوْلا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ .. (١٥) ﴾ [الكهف] أى : ظاهر واضح أو مُوضح مُظهِر للحق [القاموس القويم] .

والعربى القديم حين سار فى الصحراء ووجد بَعْراً مُلْقًى فى الصحراء ، ورأى أثر قدم ، فقال : «البَعْرة [١] تدل على البعير ، والأثر يدل على المسير ، وسماء ذات أبراج [٢] وأرض ذات فجاج [٣] وبحار ذات أمواج ، أفلا يدل كُلٌّ ذلك على اللطيف الخبير ؟ » [٤] .

وهكذا اهتدى الرجل بالفطرة ، وهى بيِّنة من الله .

وقد أودع الله سبحانه فى كل إنسان فطرة ، وبهذه الفطرة [٥] شهدنا فى عالم الذَّرِّ .

وفى ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِى آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا .. (١٧٢) ﴾ [الأعراف]

إذن : فالبيِّنة هى إيمان الفطرة المركوز فى ذرات الأشياء .

وقد تُضبِّب [٦] الشهوات هذا الإيمان ، فلا يحمل نفسه على المنهج فيرسل الحق سبحانه رحمة منه رسلاً تذكِّرنا بالبينات الأولى ، وتدلنا على العلل

---

(١) البعرة : واحدة البعر ، وهو رجيع (روث) ذوات الخُفِّ والظلف من الحيوانات .

(٢) الأبراج : جمع بُرْج ، وهى منازل الأفلاك فى السماء أو هى الكواكب . وقيل : هى النجوم . [لسان العرب . مادة : برج] .

(٣) الفجاج : جمع فج . وهو الطريق الواسع بين جبلين . ومنه قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ بِسَاطًا (١٩) لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجًا (٢٠) ﴾ [نوح] . وقال : ﴿ وَجَعَلْنَا فِى الأَرْضِ رَوَاسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلاً لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣١) ﴾ [الأنبياء] .

(٤) هذه العبارات من خطبة خطبها قُسُّ بن ساعدة الإيادى فى الجاهلية . كان أولها : أيها الناس ، اسمعوا وعوا ، من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ماهو آت آت . انظر البيان والتبيين للجاحظ (١/ ٣٠٨) .

(٥) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » أخرجه أحمد فى مسنده (٢/ ٢٣٣) والطيالسى (٢٤٣٣) ، والترمذى (٢١٣٨) .

(٦) الضَّب والتضبيب : تغطية الشىء ودخول بعضه فى بعض . والضبابة : سحابة تُغشِّى الأرض كالدخان وقيل : الضباب والضبابة : ندىً كالغبار يُغشِّى الأرض بالغدوات [لسان العرب - مادة : ضبب] .

والأحكام حتى تنضمَّ البينة من الرسل على البينة من الفطرية فى الكائن .

وهكذا يبيِّن الحق سبحانه وتعالى مناط[١] الاقتناع بدين الله ، فقد يكون هذا الأمر مجهولاً للخلق ، فيريد سبحانه أن يبيِّن لنا أن هذا الجهل هو جهل غير طبيعى ؛ لأن الفطرة السليمة تهتدى قبل أن يجىء رسولٌ يُلْفتنا إلى القوة العليا التى تدبِّر حركة هذا الكون .

وقد ضربت من قبل مثلاً لذلك بمن سقطتْ به طائرة فى الصحراء ، لا ماء فيها ولا طعام ولا أنيس ولا مأوى ، ثم غلبه النوم فنام ، وحين استيقظ وجد مائدة منصوبة عليها أطايب الطعام وأطيب الشراب ، ووجد صواناً[٢] منصوباً ليأوى إليه ؛ فلا بد لهذا الإنسان أن يدور بفكره سؤالٌ : من صنع هذا ؟

وهو سيسأل نفسه هذا السؤال قبل أن يستمتع بشىء من هذا ، خصوصاً وأنه لم يجد أحداً يقول له : أنت فى ضيافتى .

إذنْ : فلا بد أن يفكر بعقله .

وكذلك الإنسان الذى طرأ على الوجود ، وما ادَّعى واحدٌ من خَلْق الله تعالى أنه خلق هذا الوجود ، وما ادَّعى أحدٌ أنه خلق السموات والأرض ، وما ادَّعى أحدٌ أنه سخَّر كلَّ ما فى الكون لخدمة الإنسان[٣] .

وكان من الواجب على الإنسان قبل أن ينعم بهذا ، أن يفكر : من الذى صنع له كل ذلك ؟ فإذا جاء رسول من جنس الإنسان ليقول له : أنا جئت لأحل لك اللغز المطلوب لك .

---

(١) مناط الشىء : كل ماتعلَّق به من أمور . ونيطَ به الشىء : وُصلَ به . [اللسان : مادة (ن و ط) بتصرف]

(٢) الصوان : الوعاء الذى تُصان فيه الثياب ، أو توضع فيه الأطعمة . انظر [اللسان – مادة صون] .

(٣) يقول تعالى فى سورة النحل : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٢) وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (١٣) وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٤) ﴾ [النحل] .

هنا كان على الإنسان أن يرهف سمعه لذلك الرسول ؛ لأنه قد جاء ليحلَّ للإنسان أمراً يشغل باله.

ومن لطف الله سبحانه بنا أنه لم يطلب منا مقدَّماً أن نفكر فى ذلك ، بل تركنا فترة طويلة بلا تكليف فى هذه الدنيا ، لينعم الإنسان بخير ربه ، وبعد ذلك إذا ما جاء اكتمال الرشد ونضج ، ولم يكن مكرهاً ؛ فالحق سبحانه وتعالى يكلفه بتكاليف الإيمان.

ولا بد للإنسان أن يتساءل: فكل شىء - مهما كان تافهاً - لا بد له من صانع ، والمصباح الذى يضىء دائرة قطرها ٢٠ متراً ، عرفنا صانعه ، ودرسنا المعامل التى أنجزته ، والإمكانات التى تم استخدامها ، والمواد التى صنع منها ، أفلا نعرف تاريخ هذه الشمس ، ومن جعلها لا تحتاج إلى صيانة ولا إلى وقود ولا إلى قطع غيار ، وتنير نصف الكرة الأرضية ؟

هذه مسألة كان يجب أن نبحثها ؛ لنرى آفاق تلك البينة ، بينة نور وقوة وفطرة ، يهبها الله للإنسان المفكر ؛ ليهتدى إلى أن وراء هذا الكون خالقاً مدبراً.

فإذا ما جاء إنسان مثله ليقول له: إن خالق الدنيا هو الله تعالى ، وهو سبحانه يطلب منك كذا وكذا ، كان أمراً منطقياً وطبيعياً أن نسمع لهذا الإنسان ونطابق ما يقول على إحساس الفطرة ورؤية البينات.

إذن: فنحن نصل إلى المجهول أولاً بالفطرة ، وقد نصل بالبديهة التى لا تشوبها[1] أدنى شبهة ، فأنت حين ترى دخاناً تعتقد بالبديهة أن هناك ناراً، وحين تسير فى الصحراء وترى خضرة ؛ ألا تعتقد أن هناك مياهاً ترويها ؟

---

(١) أى: لا تختلط به شبهة ، أى: الفكر البعيد عن الأهواء.

والشوب: ما اختلط بغيره من الأشياء ، وبخاصة السوائل ، قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ (٦٧)﴾ [الصافات]. ويقال: سقاه الذوب بالشوب: العسل بما يشاب به من ماء أو لبن. [المعجم الوسيط].

هذه - إذن - أمور تعرفها بالبديهة ، ولا تحتاج إلى بحث أو جهد.

وهناك أمور قد تتطلب منك جهداً عقلياً تبحث به عما بعد المقدمات ، مثل الجهد العقلى الذى استدل به العربى على أن هناك إلهاً خالقاً يُدير هذا الكون ، فاستدل من البعرة على وجود البعير [1] ، وأن أثر القدم يدل على المسير ، واستنتج من ذلك أن الكواكب ذات الأبراج ، والأرض ذات الفجاج ، والبحار ذات الأمواج ، كلها أمور تدل على وجود اللطيف الخبير.

كل هذه الأمور لم يقدر العقل إلا على الحكم عليها جملة ، وإن لم يعرف التفصيل.

لقد عرف العقل أن وراء هذا الكون خالقاً، صانعاً ، حكيماً، لكنه لم يعرف اسماً له ، وهذا أمر لا يعرفه الإنسان بالعقل ، ولا يعرف أيضاً ما هو المنهج المطلوب لهذا الخالق ، وبماذا يجزى المطيع له ، ولا بماذا يعاقب العاصى له.

إذن: لا بد من بلاغ عن الله تعالى يدل على القوة التى اقتنعت بها جملة.

والمفكرون بالعقل فى الكون يعلمون أن وراء هذا الكون خالقاً ، لكن لا يعرفون اسمه ، ولا مطلوبه.

إذن: فأنت لا تعرف اسم الله إلا منه ، عن طريق الوحى إلى رسوله ، ولا تعرف مطلوب الله إلا من الرسول الذى أنزل عليه البلاغ.

ومن رحمة الله بالإنسان أنه سبحانه قد أرسل رسولاً ، ومع هذا الرسول معجزة هى القرآن ؛ لأن العقل حتى حين يهتدى إلى قوة القادر الأعلى سبحانه ، فإنها ستظل بالنسبة له مبهمة ، وحين أنزل الحق سبحانه القرآن الكريم فقد أنزله رحمة بعباده وبينة لهم.

---

(١) البعرة: رجيع (روث) ذوات الخف وذوات الظلف من الحيوانات. والبعير: ما صلح للركوب والحمل من الإبل، وذلك إذا استكمل أربع سنوات. ويقال للجمل والناقة: بعير. والجمع: أباعر، وأباعير، وبعران. [المعجم الوسيط].

﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ (١) مِّنْهُ ..(١٧) ﴾ [هود]

فالقرآن حجة ونور ، وهو يهدى البصيرة الفطرية الموجودة فى الإنسان ﴿ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ ..(١٧) ﴾ وهو من أنزل عليه الوحى ، ويخبرنا عن الحق سبحانه وتعالى ما يوضح لنا أن الخالق الأعلى والقوة المطلقة هو الله سبحانه ، ويوضح لنا الشاهد مطلوب الله تعالى.

ونحن هنا أمام ثلاثة شهود:

الشاهد الأول: هو الحجة والبينة.

والشاهد الثانى: هو البرهان والبصيرة التى يهتدى إليها العقل ، والرسول هو من يبين لنا المنهج بعد الإجمال.

وهذا الرسول جاء من قبله كتاب موسى :

﴿ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً ..(١٧) ﴾ [هود]

وهذا هو **الشاهد الثالث**.

ومن لا يلتفت إلى المدلول بالأدلة الثلاثة مقصِّر ؛ فمن عنده تلك البينة ، ومن سمع الشاهد من الرسول ، والشاهد الذى قبله ،وهو كتاب موسى

---

(١) فى تأويل هذا الشاهد أقوال كثيرة ذكرها القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٣٣٤).

١- أنه محمد ﷺ.

٢- أنه جبريل عليه السلام.

٣- أنه على بن أبى طالب.

٤- القرآن فى نظمه وبلاغته، والمعانى الكثيرة منه فى اللفظ الواحد.

٥- الإنجيل. فهو يتلو القرآن فى التصديق وإن كان قبله.

٦- العقل الذى يتلو معرفة الله التى أشرقت لها القلوب.

قال ابن كثير فى تفسيره (٢/ ٤٤٠) بعد أن ذكر الأقوال الثلاثة الأولى: «الأول والثانى هو الحق، وكلاهما قريب فى المعنى؛ لأن كلاً من جبريل ومحمد صلوات الله عليهما بلغ رسالة الله تعالى، فجبريل إلى محمد ومحمد إلى الأمة، وقيل: هو على ، وهو ضعيف لا يثبت له قائل. المؤمن عنده من الفطرة ما يشهد للشريعة من حيث الجملة، والتفاصيل تؤخذ من الشريعة، والفطرة تصدقها وتؤمن بها».

عليه السلام وشاهد [(١)] بعده إلى نفس قوم موسى لا بد أن يقوده ذلك إلى الإيمان.

وقول الحق سبحانه:

﴿أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ .. (١٧)﴾ [هود]

إشارة إلى من التفتوا إلى الأدلة: بينة، وشاهداً، وشاهداً من قبله.

ثم يقول الحق سبحانه:

﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ [(٢)] فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ ..(١٧)﴾ [هود]

والكفر - كما علمنا - هو الستر، والكفر فى ذاته دليل على الإيمان، فلا يكفر أحد بغير موجود.

فوجود المكفور به سابق على الكفر، والكفر طارىء عليه.

إذن: فالكفر طارىء على الإيمان؛ لأن الإيمان هو أصل الفطرة.

﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ [(٣)] مَوْعِدُهُ ..(١٧)﴾ [هود]

وكلمة «أحزاب» جمع حزب. والحزب هو الجماعة الملتقية على مبدأ تتحمس لتنفيذه، مثل الأحزاب التى نراها فى الحياة السياسية، وهى

---

(١) المقصود به هنا الإنجيل الذى أرسل به عيسى عليه السلام إلى بنى إسرائيل.

(٢) الأحزاب: جمع حزب. وهو الجماعة من الناس اجتمعوا على أمر واحد سواء أكان خيراً أو شراً. يقول تعالى عن حزب الخير: ﴿.. أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٢٢)﴾ [المجادلة]. وقال تعالى عن حزب الشر: ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٩)﴾ [المجادلة].

والمقصود بالأحزاب هنا أهل الملل كلها من غير ملة الإسلام. قاله القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٣٣٥).

(٣) عن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «والذى نفس محمد بيده، لا يسمع بى أحد من هذه الأمة يهودى ولا نصرانى ثم يموت ولم يؤمن بالذى أرسلت به إلا كان من أصحاب النار». أخرجه مسلم فى صحيحه - كتاب الإيمان - حديث (٢٤٠).

أحزاب بشرية تتصارع فى المناهج والغايات ، وهم أحرار فى ذلك ؛ لأنهم يتصارعون بفكر البشر.

أما فى العقيدة الأولى ، فَمنَ المُخطِّط الأعلى ، وهو الحق سبحانه وتعالى ، فالمنهج يأتى منه ؛ لأن هذا المنهج يوصل إليه ؛ لذلك قال الله سبحانه عمَّن يتبعون منهجه :

﴿ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ ..(٢٢) ﴾ [المجادلة]

أى : أنهم يدخلون فى حزب يختلف عن أحزاب البشر التى تختلف أو تتفق فى فكر البشر.

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ ..(١٧) ﴾ [هود]

والمقصود بهم كفار قريش عبدة الأوثان ، والصابئة [1] واليهود والنصارى الذين لم يؤمنوا برسالة رسول الله ﷺ ، وكل منهم جماعة تمثل حزباً ، ويقول عنهم الحق سبحانه :

﴿ ..كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٥٣) ﴾ [المؤمنون]

ومن يكفر من هؤلاء برسالة رسول الله وبرسول الله فالجزاء هو النار ، وبذلك بيَّن لنا الحق سبحانه أن هناك حزبين : حزب الله ، والأحزاب الأخرى ، وهما فريقان كلّ منهما مواجه للآخر.

ويقول الحق سبحانه لرسوله ، والمراد أيضاً أمة محمد ﷺ :

---

(١) الصابئون : يزعمون أنهم على دين نوح عليه السلام. وقيل : هم عبَّاد الملائكة ، أو عبَّاد الكواكب والنجوم ، أو عبَّاد النار. قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ .. (٦٢) ﴾ [البقرة] فهم غير اليهود والنصارى [انظر : القاموس القويم ١/ ٣٦٥].

﴿ فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ (١) مِّنْهُ .. (١٧) ﴾ [هود]

أى: لا تكن يا رسول الله فى شك من ذلك ؛ لأن رسالتك وبعثتك تقوم على أدلة البينة والفطرة والهدى والنور المطلوب من الله تعالى ، والشاهد معك ، كما شهد لك من جاء من قبلك أنك جئت بالمنهج الحق :

﴿ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ .. (١٧) ﴾ [هود]

والحق - كما علمنا من قبل - هو الشىء الثابت الذى لا يعتريه تغيير ، وهذا الحق لا يمكن أن يأتى إلا من إله لا تتغير أفعاله.

ويُنهى الحق سبحانه الآية بقوله:

﴿ .. وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ (١٧) ﴾ [هود]

وهؤلاء لا يؤمنون عناداً ؛ لأن الأدلة منصوبة بأقوى الحجج ، ومَنْ يمتنع عليها هو مجرد معاند.

والحق سبحانه يقول فى مثل هؤلاء المعاندين:

﴿ وَجَحَدُوا (٢) بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا (٣) أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا .. (١٤) ﴾ [النمل]

أى: أنهم مع كفرهم يعلمون صدق الأدلة على رسالة رسول الله ﷺ ، وعلى صدق بعثته ، فيكون كفرهم حينئذ كفر عناد ؛ لأن الأدلة منصوبة بأقوى الحجج ، فيكون من يمتنع على الإيمان بهذه الأدلة إنساناً معانداً.

---

(١) مرية: الجدل والشك. وهناك قراءة بضم الميم. [القاموس القويم].

(٢) جحد الحق يجحده جحوداً: أنكره وهو يعلمه. وجحد النعمة: أنكرها ولم يشكرها. وجحد بالآية: كفر بها.
وقال تعالى: ﴿ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ .. (٥٩) ﴾ [هود] [القاموس القويم].

(٣) استيقن الأمر واستيقن به: مثل أيقنه وأيقن به، من اليقين وهو الشىء الثابت الواضح الذى لا شك فيه.
واستيقنتها أنفسهم: أى: علمتها نفوسهم علماً واضحاً. [القاموس القويم].

يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾﴾ (١) (٢)

هذه الآية تبدأ بخبر مؤكد فى صيغة استفهام ، حتى يأتى الإقرار من هؤلاء الذين افتروا على الله كذباً ، والإقرار سيد الأدلة.

والواحد من هؤلاء المفترين إذا سمع السؤال وأدار ذهنه فى الظالمين ، فلن يجد ظلماً أفدح ولا أسوأ من الذى يفترى على الله كذباً ،ويقر بذلك.

وهكذا شاء الحق سبحانه أن يأتى هذا الخبر فى صيغة استفهام ، ليأتى الإقرار اعترافاً بهذا الظلم الفظيع.

وهؤلاء المكذبون يُعرَضون على الله مصداقاً لقول الحق سبحانه:

﴿أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ..(١٨)﴾ [هود]

والعرض إظهار الشىء الخفى لنقف على حاله.

ومثال ذلك فى حياتنا :هو الاستعراض العسكرى حتى يبيِّن الجيش قوته أمام الخصوم ، وحتى تُبلغ الدولة غيرها من الدول بحجم قوتها.

---

(١) افترى القول: اختلقه واخترعه. وافترى عليه الكذب: اخترعه. ويقول تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ..(٣٨)﴾ [يونس] أى: اخترع القرآن واختلقه من عند نفسه.

(٢) الأشهاد: أى: الشهداء بالحق، وأشهاد: جمع شهيد، مثل أيتام جمع يتيم، والشهيد صفة مشبهة. [القاموس القويم] . وفى تعيين الأشهاد فى هذه الآية أقوال: الملائكة الحفظة - الأنبياء والرسل. وقال قتادة: الخلائق أجمع . قاله القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٣٣٦).

وكذلك نجد الضابط يستعرض فرقته ليقف على حال أفرادها ، ويقيس درجة انضباط كل فرد فيها وحسن هندامه ، وقدرة الجنود على طاعة الأوامر .

ومثال آخر من حياتنا : فنحن نجد مدير المدرسة يستعرض تلاميذها لحظة إعلان نتائج الامتحان ، ويرى المدير والتلاميذ خزى المقصر منهم أو الذى لم يؤد واجبه بالتمام .

فما بالنا بالعرض على الله تعالى ، حين يرى المكذبون حالهم من الخزى ؟

ذلك أنهم سيفاجأون بوجود الله الذى أنكروه افتراءً ؛ لأن الحق سبحانه يقول :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ (١) يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ .. (٣٩) ﴾ [النور]

فأىُّ خزى - إذن - سيشعرون به ؟ !

ويُظهر الحق سبحانه وتعالى ما كان مخفيّا منهم حين يعرض الكل على الله تعالى مصداقاً لقوله سبحانه :

﴿ وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا .. (٤٨) ﴾ [الكهف]

وكذلك يُعرضون على النار ؛ لأن الحق سبحانه هو القائل :

﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا (٢) .. (٤٦) ﴾ [غافر]

---

(١) السراب : ما يُرى فى نصف النهار على الأرض الفضاء كأنه ماء ، وليس بماء . وهو ظاهرة متعلقة بخداع البصر . والقيعة : الأرض المستوية المنخفضة عما يحيط بها من مرتفعات وكذلك «القاع» . يقول تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (١٠٥) فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (١٠٦) لَا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا (١٠٧) ﴾ [طه] [القاموس القويم] . والأرض الصفصف هى الأرض المستوية الملساء ، أى : إن الجبال تزول فلا يكون لها أثر ، ولا ترى فى مكانها ارتفاعاً ولا هبوطاً ولا عوجاً .

(٢) الغدو : الدخول فى أول النهار . والعشى : آخر النهار . وهذه الآية قيلت فى حق فرعون وآله . وتمامها : ﴿ .. وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ (٤٦) ﴾ [غافر] وهذه الآية أصل فى إثبات عذاب القبر عند أهل السنة . انظر : [تفسير ابن كثير ٤/ ٨١] .

وهكذا يظهر الخزى والخجل والمهانة على هؤلاء الذين افتروا على الله تعالى.

وهو سبحانه يعلم كل شىء أزلاً ، ولكنه سبحانه شاء بذلك أن يكشف الناس أمام بعضهم البعض ، وأمام أنفسهم ، حتى إذا ما رأى إنسان فى الجنة إنساناً فى النار ، فلا يستثير هذا المشهد شفقة المؤمن ؛ لأنه يعلم أن جزاء المفترى هو النار.

ويا ليت الأمر يقتصر على هذا الخزى ، بل هناك شهادة الأشهاد ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى يقول فى نفس الآية :

﴿ وَيَقُولُ الأَشْهَادُ هَؤُلاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ .. (١٨) ﴾ [هود]

والأشهاد جمع له مفرد ، هو مرة «شاهد» ، مثل «صاحب» و«أصحاب» ، ومرة يكون المفرد «شهيد» مثل «شريف» و«أشراف».

والأشهاد منهم الملائكة ؛ لأن الحق سبحانه يقول :

﴿ مَا يَلْفِظُ (١) مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (٢) (١٨) ﴾ [ق]

وكذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (٣) (١٠) كِرَامًا كَاتِبِينَ (١١) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ (١٢) ﴾ [الانفطار]

---

(١) اللفظ : إخراج الشىء من الفم. والمراد به : التكلم. واللفظ : الرمى والإلقاء عامة. ومنه حديث ابن عمر أنه سئل عما لفظ البحر فنهى عنه. أراد ما يلقيه البحر من السمك إلى جانبه من غير اصطياد. [اللسان : مادة لفظ].

(٢) الرقيب العتيد : الحاضر المستعد لإثبات ما يتكلم به الإنسان فى كتاب الحسنات والسيئات. [القاموس القويم].

(٣) الحافظون : أى : الملائكة الرقباء والمحافظون عليكم. يقول تعالى : ﴿ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ (٤) ﴾ [الطارق] أى : ملك حافظ لها رقيب عليها. ويقول تعالى : ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً .. (٦١) ﴾ [الأنعام] أى : ملائكة يحفظونكم ويراقبون أعمالكم. [القاموس القويم].

أو شهود من الأنبياء الذين بلغوهم منهج الله ؛ لأن الحق سبحانه يقول:

﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَـٰؤُلَاءِ شَهِيدًا (١) (٤١) ﴾ [النساء]

وأيضاً الشهيد على هؤلاء هو المؤمن من أمة محمد عليه الصلاة والسلام ، فيبلِّغها إلى غيره ، مصداقاً لقول الحق سبحانه:

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ .. (١٤٣) ﴾ [البقرة]

وكلمة «الشهادة» تعنى: تسجيل ما فعلوا ، وتسجل أيضاً أنهم بُلِّغوا المنهج وعاندوه وخرجوا عليه ، فارتكبوا الجريمة التى تقتضى العقاب ، لأن العقوبة لا تكون إلا بجريمة ، ولا تجريم إلا بنص ، ولا نص إلا بإعلام.

ولذلك نجد القوانين التى تصدر من الدولة تحمل دائماً عبارة «يُعمل بالقانون من تاريخ نشره فى الجريدة الرسمية».

إذن: فعمل الأشهاد أن يعلنوا أن الذين أنكروا الرسالة والرسول قد بُلِّغوا المنهج ، وبُلِّغوا أن إنكار هذا المنهج وإنكار هذا الرسول هو الجريمة الكبرى ، وأن عقوبة هذا الإنكار هى الخلود فى النار.

ولأن الحق سبحانه وتعالى هو العدل نفسه ؛ لذلك فلا عقاب إلا بالتأكد من وقوع الجريمة ، لذلك لا بد من شهادات متعددة ، ولذلك يأتى الشاهد

---

(١) عن عبد الله بن مسعود قال: قال لى رسول الله ﷺ: اقرأ علىَّ القرآن. قال: فقلت يا رسول الله أقرأ عليك وعليك أنزل. قال: إنى أشتهى أن أسمعه من غيرى، فقرأت النساء حتى إذا بلغت: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَـٰؤُلَاءِ شَهِيدًا (٤١) ﴾ [النساء]. رفعت رأسى أو غمزنى رجل إلى جنبى، فرفعت رأسى فرأيت دموعه تسيل. أخرجه مسلم فى صحيحه (٨٠٠) والبخارى فى صحيحه (٥٠٥٥).

من الملائكة ، وهو من جنس غير جنس المعروضين ، ويأتى الشاهد من الأنبياء وهو من جنس البشر إلا أنه معصوم.

وكذلك يأتى الشاهد من الإخوة المؤمنين الذين يشهدون أنهم قد بُلِّغوا منهج الإيمان ، ثم تأتى شهادة هى سيدة الشهادات كلها ، وهى شهادة الأبعاض على الكل.

يقول الحق سبحانه:

﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ [1] (١٩) حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٠) وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِى أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢١) ﴾ [فصلت]

فالجوارح تنطق لتقيم الحجة على أولئك المذنبين.

وسؤال المذنبين عن كيفية وقوع النطق لا لزوم له ؛ لذلك نجد السؤال هنا «لِمَ» ؛ لأن الجوارح كانت هى أدوات المذنبين فى ارتكاب الجرائم ؛ لأن اليَد هى التى امتدت لتسرق ، واللسان هو الذى نطق قول الزور ، والقلب هو الذى حقد ، والساق هى التى مشت إلى المعصية.

والإنسان - كما نعلم - مركَّب من جوارح ، وهذه الجوارح لها أجهزة تكوِّن الكل الإنسانى ، ومدير كل الجسم هو العقل ، فهو الذى يأمر اليد لتمتد وتسرق ، أو تمتد لتربت على اليتيم ؛ والعين تأخذ أوامرها من العقل ، فإما أن يأمرها بأن تنظر إلى جمال الكون ، وتعتبر بما تراه من أحداث ، أو يأمرها بأن تنظر إلى الحرام.

---

(١) يُوزعون: يُمنعون عن التفرق ويُجمعون فى مكان واحد. والوزع: الكف والمنع. يقال: وزعت الجيش إذا حبست أولهم على آخرهم، فيمتنع عليهم التفرق والانتشار. [انظر: لسان العرب - مادة: وزع].

إذن: الجوارح خادمة مطيعة مُسخَّرة لذلك الإنسان وإرادته، لكن الأمر يختلف فى الآخرة، حيث لا أمر لأحد إلا الله.

والحق سبحانه القائل:

﴿.. لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦)﴾ [غافر]

فالجوارح تقول يوم القيامة لأصحابها: كنا نفعل ما تأمروننا به من المعاصى رغمًا عنا؛ لأننا كنا مُسخَّرين لكم فى الدنيا، والآن انحلَّتْ إرادتكم عنا فقلنا ما أجبرتمونا على فعله.

وهكذا تعترف الأشهاد، مصداقاً لقول الحق سبحانه:

﴿.. وَيَقُولُ الأَشْهَادُ هَؤُلاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (١٨)﴾ [هود]

وما داموا قد كذبوا على ربهم، فالمكذوب عليه هو الله، ولا بد أن يطردهم من الرحمة، وهم قد ارتكبوا قمة الظلم وهو الشرك به والإلحاد[1] وإنكار الرسول ﷺ والرسالة.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا[2] وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ١٩﴾

---

(١) الملحد: العادل المائل عن الحق المدخل فيه ما ليس منه. يقال: قد ألحد فى الذين أى: حاد عنه. والإلحاد الظلم فى الحرم، وهو أيضاً الشك فى الله، والميل عن الإيمان به. [انظر: لسان العرب - مادة لحد].

(٢) عوج: مال وانحنى ولم يكن معتدلاً. وعاج عوجاً (بفتح العين والواو)، وعوجاً (بكسر العين وفتح الواو). قال تعالى: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ ..(٢٨)﴾ [الزمر] أى: قرآناً مستقيماً فى مبادئه وأحكامه. وقال تعالى: ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ..(١٩)﴾ [هود] أى: أن الظالمين الذين يصدون عن سبيل الله يريدون سبيل الله معوجة. [القاموس القويم].

وهنا يحدثنا القرآن عن هؤلاء الذين كفروا بالله وآياته ورسوله ﷺ ، ولم يكتفوا بكفرهم ، بل تمادوا وأرادوا أن يصدوا غيرهم عن الإيمان.

وبذلك تعدَّوا فى الجريمة ، فبعد أن أجرموا فى ذواتهم ؛ أرادوا لغيرهم أن يُجرم.

وسبق أن أنزل الحق سبحانه خطاباً خاصّاً بأهل الكتاب ، الذين سبق لهم الإيمان برسول سابق على رسول الله ﷺ ، ولكن أعماهم الطمع فى السلطة الزمنية فطمسوا الآيات المبشرة برسول الله فى كتبهم ، وهم بذلك إنما صدُّوا عن سبيل الله ، وأرادوا أن تسير الحياة معوجَّة.

يقول الحق سبحانه:

﴿ قُلْ يَـٰأَهْلَ الْكِتَـٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٩٩) ﴾ [آل عمران]

وقد أرسل الحق سبحانه رسوله ﷺ ليعدل المُعوجَّ من أمور المنهج. والعوج هو عدم الاستقامة والسوائية ، وقد يكون فى القيم ، وهى ما قد خفى فى المعنويات ، فتقول: أخلاق فلان فيها عوج ، وأمانة فلان فيها عوج.

ويقول الحق سبحانه:

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَـٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا [1] (١) ﴾ [الكهف]

وهنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها يقول الله سبحانه:

﴿ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا .. (١٩) ﴾ [هود]

---

(١) ﴿ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا ﴾ : أى: أنه قرآن مستقيم سليم فى أحكامه ومبادئه ولا اعوجاج فيه. [القاموس القويم] بتصرف.

أما فى الأمور المحسة فلا يقال: «عوَج» ، بل يقال: «عَوَج» ، فأنت إذا رأيت شيئاً معوجاً فى الأمور المحسة تقول: عَوَج [(١)] .

لكننا نقرأ فى القرآن قول الحق سبحانه:

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا (١٠٥) فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا [(٢)] (١٠٦) لا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلا أَمْتًا [(٣)] (١٠٧) ﴾ [طه]

وقد أوردها الحق سبحانه هنا بهذا الشكل لدقة الأداء القرآنى ؛ لأن هناك عوجاً حسياً يحسه الإنسان ، مثلما يسير الإنسان فى الصحراء ؛ فيجد الطريق منبسطاً ثم يرتفع إلى ربوة ثم ينبسط مرة أخرى ، ثم يقف فى الطريق جبل ، ثم ينزل إلى واد ، وأى إنسان يرى مثل هذا الطريق يجد فيه عوجاً.

أما إذا كنت ترى الأرض مبسوطة مسطوحة كالأرض الزراعية ، فقد تظن أنها أرض مستوية ، ولكنها ليست كذلك ؛ بدليل أن الفلاح حين يغمر الأرض بالمياه ، يجد بقعة من الأرض قد غرقت بالماء ، وقطعة أخرى من نفس الأرض لم تمسها المياه ، وبذلك نعرف أن الأرض فيها عوج لحظة أن جاء الماء ، والماء - كما نعلم - هو ميزان كل الأشياء المسطوحة.

---

(١) قال ابن منظور فى اللسان (مادة عوج) : «هو بفتح العين مختص بكل شخص مرئى كالأجسام، وبالكسر بما ليس بمرئى كالرأى والقول، وقيل: الكسر يقال فيهما معاً، والأول أكثر».

(٢) ﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا﴾ : القاع : الأرض المستوية المنخفضة عما حولها. والصفصف: الأرض الملساء المستوية. أى: أن الجبال تزول، فلا يكون لها أثر. [القاموس القويم].

وذكر ابن كثير فى تفسيره أن الله تعالى يُذهب الجبال عن أماكنها ويمحقها ويُسيرها تسييراً، فيجعلها - أى: الأرض - قاعاً صفصفاً، أى: بساطاً واحداً، والقاع هو المستوى من الأرض، والصفصف تأكيد لمعنى استواء الأرض يومئذ، وقيل: الذى لا نبات فيه والأول أولى وإن كان الآخر مراداً أيضاً باللازم ولهذا قال: ﴿لا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلا أَمْتًا﴾ أى: لا ترى فى الأرض يومئذ وادياً ولا رابية ولا مكاناً منخفضاً ولا مرتفعاً. قاله ابن عباس وعكرمة وآخرون. (ابن كثير ٣/ ١٦٥).

(٣) ﴿لا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلا أَمْتًا (١٠٧)﴾ [طه] أى: أنها ملساء مستوية، لا انحراف فيها يمنة ولا يسرة، فلا ميل فيها مطلقاً ولا انخفاض فيها ولا ارتفاع. [القاموس القويم].

ولذلك حين نريد أن نحكم استواء جدار أو أرض ، فنحن نأتى بميزان الماء ؛ لأنه يمنع حدوث أى عوج مهما بلغ هذا العوج من اللطف والدقة التى قد لا تراها العين المجردة.

وفى يوم القيامة يأتى أصحاب العوجُ فى العقيدة ، ويصورهم الحق سبحانه فى قوله :

﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لا عِوَجَ [1] لَهُ وَخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ [2] لِلرَّحْمَنِ فَلا تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْسًا (١٠٨) ﴾ [طه]

هم - إذن - يصطفُّون بلا اعوجاج ، كما يصطف المجرمون تبعاً لأوامر من يقودهم إلى السجن ، فى ذلة وصَغَار [3] ولا ينطقون إلا همساً.

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (١٩) ﴾ [هود]

والسبب فى صَدِّهم عن سبيل الله أنهم يريدون الحال مُعْوجاً ومائلاً ، وأن يُنفِّروا الناس من الإيمان ليضمنوا لأنفسهم السلطة الزمنية ويفسدون فى الأرض ؛ لأن مجىء الإصلاح بالإيمان أمر يزعجهم تماماً ، ويسلب منهم ما ينتفعون به بالفساد.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

---

(١) ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لا عِوَجَ لَهُ ﴾ أى : يوم القيامة الذى يرون فيه هذه الأحوال والأهوال فيستجيبون مسارعين إلى الداعى حيثما أمروا بادروا إليه ، ولو كان هذا فى الدنيا لكان أنفع لهم. وقال قتادة : لا عوج له أى : لا يميلون عنه وخشعت : سكنت. [تفسير ابن كثير : ٣/ ١٦٥].

(٢) خشعت الأصوات : خفتت وهدأت ، كناية عن شدة الرهبة والخوف يوم القيامة. [القاموس القويم - ١/ ١٩٤]

(٣) الصغار (بفتح الصاد المشددة) : الخضوع فى ذل ومهانة. [لسان العرب - مادة : صغر]

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ(١) فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾

والإعجاز هو الامتناع ، وأعجزت فلاناً ، أى : برهنت على أنه ممتنع عن الأمر وغير قادر عليه .

وقد تجلَّى الإعجاز - على سبيل المثال - فى عجز هؤلاء الذين أنكروا أن القرآن معجزة أن يأتى بآية من مثله .

والمعجز فى الأرض هو من لا تقدر عليه .

ويبيِّن لنا الحق سبحانه فى هذه الآية أن هؤلاء الكافرين لا يُعجزون الله فى الأرض ، بدليل أن هناك نماذج من أمم قد سبقت وكفرت ، فمنهم من أخذته الريح ، ومنهم من خسف الله بهم الأرض ، ومنهم من غرق ، وإذا انتقلوا إلى الآخرة فليس لهم ولى أو نصير من دون الله ؛ لأن الولى هو القريب منك ، ولا يقرب منك إلا من تحبه ، ومن ترجو خيره .

فإذا قَرُب منك إنسان له مواهب فوق مواهبك ، نضح عليك من مواهبه ، وإذا كان من يقرب منك قوياً وأنت ضعيف ، ففى قوته سياج لك ، وإن كان غنياً ، فغناه ينضح عليك ، وإن كان عالماً أفادك بعلمه ، وإن كان حليماً أفادك بحلمه لحظة غضبك ، وكل صاحب موهبة تعلو موهبتك وأنت قريب منه ، فسوف يفيدك من موهبته .

---

(١) أعجزه : جعله عاجزاً عن نيله وأفلت منه ، فلم يقدر عليه . قال تعالى : ﴿ .. إِنَّهُمْ لا يُعْجِزُونَ (٥٩) ﴾ [الأنفال] أى : لا يعجزون الله إدراكهم وتعذيبهم وأخذهم بذنوبهم ، فلن يفلتوا . وقال تعالى : ﴿ لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ .. (٥٧) ﴾ [النور] . [القاموس القويم - ٢/ ٧]

والولى هو النصير أيضاً ؛ لأنك أول ما تستصرخ سيأتى لك القريب منك .

وهؤلاء الذين يصدُّون عن سبيل الله لن يجدوا وليّاً ولا نصيراً فى الآخرة - وإن وجدوه فى الدنيا - لأن كل إنسان فى الآخرة سيكون مشغولاً بنفسه :

﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ (١) كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ (٢) ﴾ [الحج]

ويقول الحق سبحانه :

﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ (٢) عَن وَالِدِهِ شَيْئًا .. (٣٣) ﴾ [لقمان]

وكذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٣٧) ﴾ [عبس]

إذن : فهؤلاء الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله لا يُعجزون الله فى الأرض ، ولا يجدون الولى أو النصير فى الآخرة ، بل :

﴿ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ .. (٢٠) ﴾ [هود]

---

(١) تذهل : تغفل عما ترضعه ، كناية عن شدة الهول والفزع . والذهول عن الشيء : تركه عن عمد أو الغفلة عنه ونسيانه لشغل . [لسان العرب - مادة : ذهل] .

(٢) جاز : اسم فاعل من الفعل جزى . وجزى عنه : قضى الحق نيابة عنه أو كفى بدلاً منه فى أمر . وقال تعالىً : ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا .. (٤٨) ﴾ [البقرة] .
أى : لا تغنى ولا تقضى . والمراد بقوله تعالى : ﴿ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا .. (٣٣) ﴾ [لقمان] . أى : أن كلاً منهما غير دافع عن الآخر شيئاً من العذاب [القاموس القويم] بتصرف .

ونحن نفهم الضِّعْفَ على أنه الشىء يصير مرتين ، ونظن أن فى ذلك قوة ، ونقول : لا ؛ لأن الذى يأتى ليسند الشىء الأول ويشفع له ، كان الأول بالنسبة له ضعيف .

إذن : فالمُضَاعفة هى التى تظهر ضعف الشىء الذى يحتاج إلى ما يدعمه .

ومُضَاعفة العذاب أمر منطقى لهؤلاء الذين أرادوا الأمر عوجاً ، وصدوا عن سبيل الله تعالى ، وأرادوا بذلك إضلال غيرهم .

وقول الحق سبحانه :

﴿ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ .. (٢٠) ﴾ [هود]

لا يتناقض مع قوله الحق :

﴿ وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ [(١)] .. (١٦٤) ﴾ [الأنعام]

لأن هؤلاء الذين صدوا عن سبيل الله ليس لهم وزر واحد ، بل لهم وِزْران : وزر الضلال فى ذواتهم ، ووزر الإضلال لغيرهم .

وهناك آية تقول :

﴿ وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا [(٢)] (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ .. (٦٩) ﴾ [الفرقان]

أى : أن مَنْ يفعل ذلك يَلْقَ مضاعفة للعذاب .. لماذا ؟

---

(١) وزر الشىء يزره وزراً : حمله . ويأتى فى الأحمال الثقيلة ، ويستعار للذنوب . والمراد بقوله تعالى : ﴿ وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ .. (١٦٤) ﴾ [الأنعام] . أى : لا تحمل نفس ذنب نفس أخرى . [القاموس القويم] .

(٢) ومن يفعل ذلك يلق أثاماً : أى : أن من يفعل تلك الذنوب والآثام ينل جزاء إثمه ويعاقب عليه . والإثم : فِعْل ما نهى الله تعالى عنه . [القاموس القويم] .

لأنه كان أسوة لغيره فى أن يرتكب نفس الجرم.

والحق سبحانه وتعالى لا يريد للذنوب أن تنتشر ، ولذلك نجد الحق سبحانه وتعالى يحض على أن يرى المؤمنون من ارتكب الجُرْم لحظةَ العقاب ، مثلما يقول سبحانه فى الزنا:

﴿ .. وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ [1] مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢) ﴾ [النور]

وحين يرى المؤمنون وقوع العقوبة على جريمة ما ، ففى ذلك تحذير من ارتكاب الجُرْم ، وحدّ من وقوع الجرائم.

وهنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها يضاعف العذاب لأولئك الذين صَدُّوا عن سبيل الله ، وأرادوا إضلال غيرهم ، فارتكبوا جريمتين:

أولاهما: ضلالهم.

والثانية: إضلالهم لغيرهم.

ولذلك تجد بعضاً من الذين أضلُّوا يقولون يوم القيامة:

﴿ .. رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلاَّنَا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الأَسْفَلِينَ (٢٩) ﴾ [فصلت]

ويقولون أيضاً:

﴿ .. رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا [2] فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاَ (٦٧) رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا (٦٨) ﴾ [الأحزاب]

---

(١) طائفة: جماعة أو فرقة من الناس. ذهب الإمام مالك إلى أن الطائفة أربعة نفر فصاعداً لأنه لا يكفى شهادة فى الزنا إلا أربعة شهداء فصاعداً. وبه قال الشافعى وقال ربيعة: خمسة. وقال الحسن البصرى: عشرة. انظر [ابن كثير (٣/ ٢٦٢)].

(٢) السادات والكبراء: قال طاوس: السادات هم أشراف القوم وعظماؤهم. والكبراء: هم العلماء. قاله ابن كثير فى تفسيره (٣/ ٥١٩) وعزاه لابن أبى حاتم.

إذن: فالدعوة إلى الانحراف إضلال، وعمل الشيء بالانحراف إضلال؛ لأنه أسوة أمام الغير.

ومضاعفة العذاب لا تعنى الإحراق مرة واحدة فى النار؛ لأن الحق سبحانه لو تركنا للنار لتحرقنا مرة واحدة لانتهى الإيلام؛ ولذلك أراد الحق سبحانه أن يكون هناك عذاب بعد عذاب.

يقول الحق سبحانه:

﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ [1] جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ.. (٥٦) ﴾ [النساء]

فهو عذاب على الدوام.

أو أن العذاب الذى يضاعف له لون آخر، فهناك عذاب للكفر، وهناك عذاب للإفساد.

يقول الحق سبحانه:

﴿ .. زِدْنَاهُمْ عَذَاباً فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ (٨٨) ﴾ [النحل]

فالعذاب على الكفر لا يلغى العذاب على المعاصى التى يرتكبها الكافر [2].

فإذا كانت الشاة القرناء يُقتصُّ للشاة الجلحاء منها [3]، أى: أن الشاة التى لها قرون وتنطح الشاة التى لا قرون لها، فيوم القيامة يتم القصاص

(١) نضج اللحم: لينه وصلاحيته لأن يؤكل. والمراد: احترقت جلودهم.

(٢) لأنه لم يؤمن بالدين الذى يجب أن يؤمن به، لهذا لم ينجُ من العذاب، ويعذب أيضاً لمخالفته لمنهج الله إن كان مؤمناً برسول، أو لم يؤمن بالرسل ولكن كان مخالفاً للفطرة.

(٣) عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله - ﷺ - قال: «لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء» أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٥٨٢) كتاب البر والصلة. والجلحاء: هى الشاة ذهب شعر مقدم رأسها، وهى هنا بمنزلة الجماء التى لا قرن لها.

منها ، رغم أنه لا حساب للحيوانات ؛ لأنها لا تملك الاختيار ، ولكنها سوف تُستخدم كوسيلة إيضاح لميزان العدالة .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ .. يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ (١) وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ (٢٠) ﴾ [هود]

أى : ما كانوا يستطيعون الاستفادة من السمع رغم وجود آلة السمع ، فلم يستمعوا لبلاغ الرسول ﷺ ، ولا استطاعوا الاستفادة من أبصارهم ليروا آيات الله سبحانه وتعالى فى الكون ، فكأنهم صُمٌّ عُمْىٌ ، أو يضاعف لهم العذاب مدة استطاعتهم السمع والإبصار .

وفى آية أخرى يقول الحق سبحانه :

﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ (٢) .. (٣٨) ﴾ [مريم]

أى : أن سمعهم وأبصارهم ستكون سليمة وجيدة فى الآخرة .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢١) ﴾

---

(١) السمع : حس الأذن ، ويطلق على الأذن ، وعلى الآذان ، بلفظه لأنه مصدر . وقال تعالى : ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ .. (٧) ﴾ [البقرة] أى : ختم على آذانهم فلا تسمع ، والمراد : أنهم يسمعون ولا يفهمون . [القاموس القويم] .

(٢) أسمع بهم وأبصر : فعل تعجب من « سمع » ومن «بصر» أى : ما أدق سمعهم وبصرهم ، وما أعجب شأنهم يوم القيامة ، إذ يرى كل أعماله فى الدنيا ، ويسمع كل ما قاله فى لحظات ليشهد على نفسه . [القاموس القويم] .

إذن : فهم خسروا أنفسهم ؛ لأنهم بظلم النفس وإعطائها شهوة عاجلة زمنها قليل ، أخذوا عذاباً آجلاً زمنه خالد.

وفى هذا ظلم للنفس ، وهذه قمة الخيبة ، وهذا يدل على اختلال الموازين.

وأنت قد تظلم غيرك فتأخذ من عنده بعضاً من الخير لتستفيد به ، وبذلك تظلم الغير لصالح نفسك.

وظلم النفس يعنى أنك تعطيها متعة عاجلة وتغفل عنها عذاباً آجلاً ، والمتعة العاجلة لها مدة محدودة ، أما العذاب فلا مدة تحدده.

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ .. وَضَلَّ (١) عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢١) ﴾ [هود]

أى: لم يهتد إليهم ما كانوا يعبدونهم من دون الله ، ولو كان لهؤلاء الذين عبدوهم قوة يوم القيامة ؛ لهرعوا إليهم ليستنقذوهم من العذاب ، ولكنهم بلا حول ولا قوة ؛ لأن الحق سبحانه قد حكم على هؤلاء الكافرين ، وقال:

﴿ .. وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ (٧٤) ﴾ [التوبة]

وكذلك هؤلاء الآلهة المعبودة من دون الله تعالى ، أو شركاء مع الله ، لا يهتدون إليهم ، حتى بفرض قدرتهم على النصرة ، فتلك الآلهة أو الشركاء لا يهتدون إليهم ، ولا يعرفون لهم مكاناً.

وقول الحق سبحانه: ﴿ وَضَلَّ عَنْهُم ..(٢١) ﴾ [هود]

أى: غاب وتاه عنهم.

---

(١) ضل الكافر : غاب عن الحجة المقنعة ، وعدل عن الطريق المستقيم ولم يعرف الحق .
والضلال : النسيان والضياع ؛ وضل الشيء : خفى وغاب ، فهو فعل لازم .
وضل المسافر الطريق : لم يعرفه فهو مُتعدٍّ [القاموس القويم - بتصرف]

وقوله سبحانه: ﴿ .. مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢١) ﴾ [هود]

أى: ما كانوا يدَّعونه كذباً.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ (٢٢) ﴾ (١)

واختلف العلماء فى معنى كلمة ﴿لا جَرَمَ﴾ ، والمعنى العام حين تسمع كلمة ﴿لا جَرَمَ﴾ أى: حق وثابت ، أو لا بد من حصول شىء محدد.

وحين يقول الحق سبحانه:

﴿ لا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ ..(٦٢) ﴾ [النحل]

أى: حَقَّ وثبت أن لهم النار ؛ نتيجة ما فعلوا من أعمال ، وتلك الأعمال مقدمة بين يدى عذابهم ، فحين نسمع ﴿لا جَرَمَ﴾ ومعها العمل الذى ارتكبوه ، تثق فى أنه يحق على الله - سبحانه - أن يعذبهم.

وقال بعض العلماء (٢): إن معنى :﴿لا جَرَمَ﴾ حق وثبت.

وقال آخرون (٣): إن معنى﴿لا جَرَمَ﴾ هو لا بد ولا مفر.

---

(١) لا جرم: لا محالة ولا بد ، وتحولت إلى معنى القسم فصارت بمنزلة قولنا: حَقّا. وهى هنا بمعنى «حقّا». وقد وردت فى القرآن فى خمسة مواضع:

الأول: سورة هود - آية ٢٢ وهى التى بصدد تفسيرها هنا.

الثانى: ﴿ لا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ (٢٣) ﴾ [النحل].

الثالث: ﴿ ..لا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ (٦٢) ﴾ [النحل].

الرابع: ﴿ لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٠٩) ﴾ [النحل].

الخامس: ﴿ لا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلا فِي الآخِرَةِ .. (٤٣) ﴾ [غافر].

(٢) قاله الخليل بن أحمد الفراهيدى ، وسيبويه. فـ«لا» و«جرم» عندهما كلمة واحدة ، و«أن» عندهما فى موضع رفع. وهذا قول الفراء ومحمد بن يزيد. انظر تفسير القرطبى (٤/ ٣٣٣٨).

(٣) قال المهدوى: وعن الخليل أيضاً أن معناها لا بد ولا محالة. وهو قول الفراء أيضاً. ذكره الثعلبى. انظر تفسير القرطبى (٤/ ٣٣٣٨).

والمعنيان ملتقيان لأن انتفاء البُدِّية [١] يدل على أنها ثابتة .

وكان يجب على العلماء أن يبحثوا فى مادة الكلمة ، ومادة الكلمة هى «الجرم» ، والجرم : هو القطع [٢] ، ويقال : جرم يده ، أى : قطع يده .

وقول الحق سبحانه هنا :

﴿ لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ (٢٢) ﴾ [هود]

أى : لا قَطْع لقول الله فيهم بأن لهم النار ، ولا شىء يحول دون ذلك أبداً ، ولا بد أن ينالوا هذا الوعيد ؛ وهكذا التقى المعنى بـ «لا بد» .

إذن : فساعة تسمع كلمة «لا جرم» ، أى : ثبت ، أو لا بد من حدوث الوعيد .

وأيضاً تجد كلمة «الجريمة» مأخوذه من «الجرم» ، وهى قطع ناموس مستقيم ، فحين نقرر ألا يسرق أحد من أحد شيئاً ، فهذا ناموس مستقيم ، فإن سرق واحد من آخر ، فهو قد قطع الأمن والسلام للناس ، وأىُّ جريمة هى قَطْع للمألوف الذى يحيا عليه الناس .

وأيضاً يقال : جرم [٣] الشىء أى : اكتسب شرَّه ، ومنه الجريمة ، ولذلك يقال : من الناس من هو «جارم» وهى اسم فاعل من الفعل : «جرم» ، مثل كلمة «كاتب» من الفعل «كتب» و«مجروم عليه» وهى اسم مفعول ، مثلها مثل «مكتوب» .

فإن أخذت الجريمة من قطع الأمر السائد فى النظام ، فهؤلاء الذين افتروا على الله وظلموا وصدوا عن سبيل الله ، فلا جريمة فى أن يعذبهم الله بالنار .

---

(١) البد : النصيب من كل شىء . ولا بد منه : لا مفر . [المعجم الوسيط] .

(٢) الجرمة : ما قطع من البسر (التمر) . [المعجم الوسيط] .

(٣) جرم الشىء ، جرماً : قطعه وغلب على فعل الشر . يقال : جرم أذنب وجنى جناية ، وجرم المال : كسبه من أى وجه . وجرمه : حمله على فعل شر أو ذنب أو جرم . قال تعالى : ﴿ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا . . (٨) ﴾ [المائدة] أى : لا يحملنكم بغض قوم على عدم العدل .

ومثل هذه العقوبة ليست جريمة ؛ لأن العقوبة على الجريمة ليست جريمة ، بل هى مَنْع للجريمة [(١)] .

وهكذا تلتقى المعانى كلها ، فحين نقول: ﴿لا جَرَمَ﴾ فذلك يعنى أنه لا جريمة فى الجزاء ؛ لأن الجريمة هى الآثام العظيمة التى ارتكبوها.

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ..(٤٠)﴾ [الشورى]

وقد سمَّاها الحق سيئة ؛ لأنها تسىء إلى المجتمع ،أو تسىء إلى الفرد نفسه.

ولهذا يقول الحق سبحانه:

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ .. (١٢٦)﴾ [النحل]

وهكذا نجد أن هناك معانى متعددة لتأويل قول الحق سبحانه: ﴿لا جَرَمَ﴾ ، فهى تعنى: لا قطع لقول الله فى أن المشركين سيدخلون النار ، أو لا بد أن يدخلوا النار ، أو حق وثبت أن يدخلوا النار ، أو لا جريمة من الحق سبحانه عليهم أن يفعل بهم هكذا ؛ لأنهم هم الذين فعلوا ما يستحق عقابهم.

ويقول الحق سبحانه:

﴿لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ (٢٢)﴾ [هود]

وكلمة (الأخسرون) جمع «أخسر» [(٢)] وهى أفعل تفضيل لخاسر ، وخاسر اسم فاعل مأخوذ من الخسارة.

---

(١) ولذلك قال سبحانه: ﴿وَلَكُمْ فِى الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُوْلِى الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧٩)﴾ [البقرة] قال ابن كثير فى تفسيره (١/ ٢١١): « إذا علم القاتل أنه يُقتل انكف عن صنيعه ، فكان فى ذلك حياة للنفوس. قال أبو العالية: جعل الله القصاص حياة ، فكم من رجل يريد أن يقتل فتمنعه مخافة أن يُقْتَل».

(٢) أخسر: صيغة أفعل التفضيل ، وتفيد المبالغة فى المعنى ، أى: أكثر وأشد خسارة.[راجع: لسان العرب - مادة: خسر]

والخسارة فى أمور الدنيا أن تكون المبادلة إجحافاً [(١)] لواحد ، كأن يشترى شيئاً بخمسة قروش وكان يجب أن يبيعها بأكثر من خمسة قروش ، لكنه باعها بثلاثة قروش فقط ، فبعد أن كان يرغب فى الزيادة ، باع الشىء بما ينقص عن قيمته الأصلية .

ومن يفعل ذلك يسمى «خاسر» ، والخسارة فى الدنيا موقوتة بالدنيا ، ومن يخسر فى صفقة قد يربح فى صفقة أخرى .

ولنفترض أنه قد خسر فى كل صفقات الدنيا ، فما أقصر وقت الدنيا ! لأن كل ما ينتهى فهو قصير ، لكن خسارة الآخرة لا نهاية لها .

ويقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم [(٢)] بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً (١٠٣) الَّذِينَ [(٣)] ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤) ﴾ [الكهف]

وهكذا وصفهم الحق سبحانه مرة بأنهم الأخسرون ، ومرة يقول سبحانه واصفاً الحكم عليهم :

﴿ ..أَلا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (١٥) ﴾ [الزمر]

---

(١) الجحف والمجاحفة : أخذ الشىء واجترافه . والجحف : شدة الجرف . والإجحاف : الظلم الشديد . [انظر : لسان العرب : مادة جحف] .

(٢) أنبأه بالشىء ، ونبأه به : أخبره به وذكر له قصته . والنبأ : الخبر ، أو الخبر ذو الشأن والقصة ذات البال . والإنباء أيضاً : التحديث ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ (٥١) ﴾ [الحجر] . أى : حدِّثهم . [القاموس القويم ٢/ ٢٥٠]

(٣) الآية عامة فى كل من عبد الله على غير طريقة مرضية يحسب أنه مصيب فيها وأن عمله مقبول وهو مخطىء وعمله مردود ، فتجدهم يعتقدون أنهم على شىء وأنهم مقبولون محبوبون ، وهذا مثل قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩) ﴾ [النور] . [تفسير ابن كثير ٣/ ١٠٧] بتصرف .

وهو خسران محيط يستوعب كل الأمكنة.

وشاء الحق سبحانه بعد ذلك أن يأتى بالمقابل لهؤلاء ، وفى ذلك فيض من الإيناسات المعنوية ؛ لأن النفس حين ترى حكماً على شىء تأنس أن تأخذ الحكم المقابل على الشىء المقابل.

فحين يسمع الإنسان قول الحق سبحانه:

﴿إِنَّ الأَبْرَارَ (١) لَفِى نَعِيمٍ (١٣)﴾ [الانفطار]

فلا بد أن يأتى إلى الذهن تساؤل عن مصير الفُجَّار ، فيقول الحق سبحانه:

﴿وَإِنَّ الْفُجَّارَ (٢) لَفِى جَحِيمٍ (١٤)﴾ [الأنفطار]

وهذا التقابل يعطى بسطة النفس الأولى وقبضة النفس الثانية ، وبين البسطة والقبضة توجد الموعظة ، ويوجد الاعتبار.

ويأتى الحق سبحانه هنا بالمقابل للمشركين الذين صدوا عن سبيل الله ، فصاروا إلى النار ، والمقابل هم المؤمنون أصحاب العمل الصالح.

فيقول الحق سبحانه:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا (٣) إِلَى رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٣)﴾

---

(١) الأبرار: جمع بَرّ ، وهو الرجل الصادق الصالح صاحب الطاعة والإحسان. والبار: هو الذى يبر والديه فيحسن إليهما. [لسان العرب - مادة: برر] بتصرف.

(٢) الفجار: جمع فاجر ، وهو المنبعث فى المعاصى ، غير مكترث ولا مبالٍ ، وهو أيضاً من بالغ فى العصيان وجهر به. [القاموس القويم ٢/ ٧٣] بتصرف.

(٣) أخبتوا إلى ربهم: تواضعوا وخشعوا وساروا فى الطريق المستقيم المطمئن الواسع. وقال تعالى: ﴿.. وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ (٣٤)﴾ [الحج]. أى: الخاشعين. والخبت: المكان الواسع المطمئن من الأرض. [القاموس القويم].

الإيمان - كما نعلم - أمر عقدى [(١)]، يعلن فيه الإنسان إيمانه بإله واحد موجود، ويلتزم بالمنهج الذى أنزله الله سبحانه وتعالى على الرسول ﷺ، ومن آمن بالله تعالى ولم يعمل العمل الصالح يتلقَّ العقاب؛ لأن فائدة الإيمان إنما تتحقق بالعمل الصالح.

لذلك نجد الحق سبحانه وتعالى يقول لنا:

﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا [(٢)] وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا .. (١٤)﴾ [الحجرات]

أى: اتبعتم ظاهر الإسلام.

وهكذا نعرف أنه يوجد مُتيقِّن بصحة واعتقاد بأن الإله الواحد الأحد موجود، وأن الرسول ﷺ مُبلِّغ عن الله عز وجل؛ لكن العمل الذى يقوم به الإنسان هو الفيصل بين مرتبة المؤمن، ومرتبة المعلم.

فالذى يُحسن العمل هو مؤمن، أما من يؤدى العمل بتكاسل واتِّباع لظواهر الدين، فهو المسلم، وكلاهما يختلف عن المنافق الذى يدَّعى الحماس إلى أداء العبادات، لكنه يمكر ويبيِّت [(٣)] العداء للإسلام الذى لا يؤمن به.

وكان المنافقون على عهد رسول الله ﷺ أسبق الناس إلى صفوف الصلاة، وكانوا مع هذا يكتمون الكيد ويدبرون المؤامرات ضد النبى ﷺ.

---

(١) قال ابن منظور فى اللسان (مادة عقد): «اعتقد كذا بقلبه، وليس له معقود، أى: عقد رأى. وفى الحديث: أن رجلاً كان يبايع وفى عقدته ضعف، أى: فى رأيه ونظره فى مصالح نفسه». فالإيمان أمر يعتقده القلب.

(٢) الإيمان هو اعتقاد القلب الجازم الذى لا يداخله شك بالأمور الغيبية من إيمان بالله واليوم الآخر والكتب والرسل مما لا يراه الناس، أما الإسلام فهو الالتزام الظاهرى بأحكام الدين من صلاة وصيام وغيرهما وإن لم يكن فى القلب إيمان. فالإيمان وحسنه أمر يعلمه الله من قلب كل عبد.

(٣) بيَّت أمراً: دبَّره فى خفاء، كأنه دبَّره فى الليل ليخفيه. يقول تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً (٨١)﴾ [النساء]. [القاموس القويم - ١/ ٨٩]

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ .. (٢٣) ﴾ [هود]

هذا القول يبيِّن لنا أن معيار الإيمان إنما يعتمد على التوحيد ، وإتقان أداء ما يتطلبه منهج الله سبحانه ، وأن يكون كل ذلك بإخبات وخضوع ، ولذلك يقال: رُبَّ معصية أورثت ذلاً وانكساراً ، خير من عبادة أورثت عزّاً واستكباراً.

أى: أن المؤمن عليه ألا يأخذ العبادة وسيلة للاستكبار [(١)].

وكلمة ﴿أَخْبَتُوا﴾ أى: خضعوا خشية لله تعالى ، فهم لا يؤدون فروض الإيمان لمجرد رغبتهم فى ألاَّ يعاقبهم الله ، لا بل يؤدون فروض الإيمان والعمل الصالح خشية لله.

وأصل الكلمة من «الخبت» وهى الأرض السهلة المطمئنة المتواضعة ، وكذلك الخبت فى الإيمان.

ويصف الحق سبحانه أهل الإيمان المخبتين بأنهم :

﴿ .. أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٣) ﴾ [هود]

أى: الملازمون لها ، وخلودهم فى الجنة يعنى أنهم يقيمون فى النعيم أبداً ، ونعيم الجنة مقيم ودائم ، على عكس نعيم الدنيا الذى قد يفوته الإنسان بالموت ، أو يفوت النعيم الإنسان بالسلب [(٢)] ؛ لأن الإنسان فى الدنيا عرضة للأغيار ، أما فى الآخرة ، فأهل الإيمان أصحاب العمل الصالح المخبتون لربهم ، فهم أهل النعيم المقيم أبداً.

---

(١) الاستكبار: التعاظم والتجبر على الناس وظلمهم بغير الحق ، وصيغة استفعل تشعر بتكلف وادعاء الشىء ، فالمستكبر يدعى أو يظن فى نفسه أنه كبير.

(٢) السلب: هو سلب النعمة من الإنسان.

وهكذا عرض الحق سبحانه حال الفريقين: الفريق الذى ظلم نفسه بافتراء الكذب على الله، وصدوا عن سبيل الله، وابتغوا الأمر عوجاً، هؤلاء لن يُعجزوا[١] الله، وليس لهم أولياء يحمونهم من العذاب المضاعف.

وهم الذين خسروا أنفسهم، ولن يجدوا عوناً من الآلهة التى عبدوها من دون الله، ولا شىء بقادر على أن يفصل بينهم وبين العذاب، وهم الأخسرون.

أما الفريق الثانى فهم الذين آمنوا وعملوا الأعمال الصالحة بخشوع وخشية ومحبة لله سبحانه وتعالى، وهم أصحاب الجنة الخالدون فيها.

إذن: فلكل فريق مسلكه وغايته.

لذلك يقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾

والفريقان هما من تحدثنا عنهما من قبل.

وكلمة «الفريق» تعنى: جماعة يلتقون عند غاية وهدف واحد، مثلما نقول: فريق كرة القدم أو غيره من الفرق، فهى جماعات، وكل جماعة منها لها هدف يجمعها.

ونحن نجد الحق سبحانه وتعالى يقول:

﴿..فَرِيقٌ فِى الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى السَّعِيرِ[٢] ﴿٧﴾﴾ [الشورى]

---

(١) أعجزه: جعله عاجزاً عن نيله، وأفلت منه فلم يقدر عليه. قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنفال] أى: لا يعجزون الله إدراكهم وتعذيبهم وأخذهم بذنوبهم فلن يفلتوا.

(٢) السعير: النار المشتعلة المتقدة المتوهجة. يقول تعالى: ﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾﴾ [التكوير] أى: أوقدت بشدة. ويراد بالسعير: نار جهنم. ويقول تعالى: ﴿..مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾﴾ [الإسراء] أى: زدناهم ناراً هائجة موقدة مشتعلة.

وكلمة ﴿الْفَرِيقَيْنِ﴾ جاءت فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها ؛ لأن كل فرقة تضم جماعة مختلفة عن الجماعة الأخرى ، ولهؤلاء متعصبون ، وللآخرين متعصبون.

ويضرب الحق سبحانه وتعالى فى هذه الآية المثل بسَيِّدَى الحواس الإدراكية فى الإنسان ، وهما السمع والبصر ، فهما المصدران الأساسيان عند الإنسان لأخذ المعلومات ، إما مسموعة ، أو مرئية ، ثم تتكون لدى الإنسان قدرة الاستنباط [(١)] والتوليد مما سمعه بالأذن ورآه بالعين.

ولذلك قال لنا الحق سبحانه:

﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨)﴾ [النحل]

إذن: فما دام الحق سبحانه قد جعل السمع والأبصار والأفئدة مصادر تأتى منها ثمرة ، هى المعلومات وتمحيصها [(٢)] ، فالحق سبحانه يستحق الشكر [(٣)] عليها.

ونحن نعلم أن الطفرات [(٤)] الحضارية وارتقاءات العلم ، إنما تأتى بمن سمع ومن رأى ، ثم جاءت من الاستنباط أفكار تطبيقية تفيد البشرية.

---

(١) الاستنباط: استخراج الماء من باطن الأرض. ومن المجاز: استنبط الرأى الصحيح: استخرجه ببحثه وفكره كمن يستخرج ماء من البئر. يقول تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ ..(٨٣)﴾ [النساء].

(٢) تمحيص الشىء: اختباره وفحصه بدقة. [المعجم الوسيط] بتصرف.
وقال تعالى: ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ (١٤١)﴾ [آل عمران]. أى: يطهرهم ويخلصهم من العيوب ومن المنافقين ويقضى على الكافرين. وقال تعالى: ﴿وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ..(١٥٤)﴾ [آل عمران] أى: يطهر الإيمان الذى فى قلوبهم من الوساوس والشكوك. [القاموس القويم].

(٣) الشكر: مقابلة النعمة بالقول والفعل والنية ، فيثنى على المنعم بلسانه ، ويذيب نفسه فى طاعته ويعتقد أنه موليها.

(٤) طفرات: جمع طفرة ، وهى وثبة فى ارتفاع. وقد طفر يطفر: وثب فى ارتفاع. [انظر لسان العرب].

ومثال ذلك: هو من رأى إناء طعام وله غطاء ، وكان بالإناء ماء يغلى ، فارتفع الغطاء عن الإناء.

هذا الإنسان اكتشف طاقة البخار ، واستنبط أن البخار يحتاج حيِّزاً أكبر من حيز السائل الموجود فى الإناء ؛ لذلك ارتفع الغطاء عن الإناء ، وارتقى هذا الاكتشاف ليطور كثيراً من أوجه الحياة.

ولو أن كل إنسان وقف عند ما يسمعه أو يراه ولم يستنبط منه شيئاً لما تطورت الحياة بكل تلك الارتقاءات الحضارية.

وهنا يقول الحق سبحانه:

﴿ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَىٰ وَالأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً ..(٢٤) ﴾ [هود]

ولن يشك كل من الأعمى أو الأصم أن من يرى أو من يسمع هو خير منه ، ولا يمكن أن يستوى الأعمى بالبصير ، أو الأصم بمن يسمع.

وهكذا جاء الحق سبحانه وتعالى بالأشياء المتناقضة ، ليحكم الإنسان السامع أو القارىء لهذه الآية ، وليفصل بحكم يُذكِّره بالفارق بين الذى يرى ومن هو أعمى ، وكذلك بين من يسمع ومن هو أصم ، ومن الطبيعى ألا يستويان.

لذلك يُنهى الحق سبحانه الآية بقوله تعالى:

﴿أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾ أى: ألا تعتبرون بوجود هذه الأشياء.

ونحن نعلم أن الله سبحانه وتعالى قد قال لنا:

﴿ ..فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (٤٦) ﴾ [الحج]

أى : أن الإنسان قد يكون مبصراً ، أو له أذن تسمع ، لكنه لا يستخدم حاسة الإبصار أو حاسة السمع فيما خلقت من أجله فى التقاط مجاهيل الأشياء .

وبعد أن بيَّن الحق سبحانه وَصْفَ كل طرف وصراعه مع الآخر ، واختلاف كل منهما فى الغاية ، والصراع الذى بينهما تشرحه قصص الرسل عليهم السلام .

ويقول الحق سبحانه فى بعض من مواضع القرآن الكريم ، وفى كل موضع لقطات من قصة أى رسول ، واللقطة التى توجد فى سورة قد تختلف عن اللقطة التى فى سورة أخرى .

ومثال ذلك : أن الحق سبحانه قد تكلم فى سورة يونس عن نوح وموسى وهارون ويونس عليهم السلام ، وهنا - فى سورة هود - تأتى مرة أخرى قصة نوح عليه السلام ، فيقول سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (١) ﴿٢٥﴾ ﴾

والآية توضِّح مسألة إرسال نوح عليه السلام كرسول لقومه ، وعلى نوح الرسول أن يمارس مهمته وهى البلاغ ، فيقول :

﴿ . . إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ ﴾ [هود]

ونحن نلحظ أن همزة (إن) فى إحدى قراءَتَى الآية تكون مكسورة ، وفى قراءة أخرى تكون مفتوحة (٢) ، أما فى القَراءة بالكسر فتعنى أن نوحاً عليه

---

(١) نذير : الرسول المنذر بالعذاب . وأنذره : حذره ، وأنذره شيئاً : أعلمه إياه وعرفه به وبما يترتب عليه من ضرر فى مدة تكفى للتحفظ منه . أى : خوَّفه منه ليبتعد عنه . قال تعالى : ﴿ إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا . . ﴿٤٠﴾ ﴾ [النبأ] وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا . . ﴿٣٦﴾ ﴾ [القمر] . وقال تعالى : ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الحج] . [القاموس القويم ٢/ ٢٥٨] بتصرف .

(٢) قراءة الفتح قرأها ابن كثير وأبو عمرو والكسائى . قاله القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٣٤٠) أى : أرسلناه بأنى لكم نذير مبين .

السلام قد جاء بالرسالة فبلغ قومه وقال:

﴿ .. إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢٥) ﴾ [هود]

وأما فى القراءة الأخرى بالفتح فتعنى أن الرسالة هى:

﴿ ..أَنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢٥) ﴾ [هود]

فكأن القراءة الأولى تغنى الرواية عن قصة البلاغ ، والقراءة الثانية تحدد مضمون الرسالة : ﴿ .. أَنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢٥) ﴾ [هود]

والقراءة الأولى فيها حذف القول ، وحذف القول كثير فى القرآن ، مثل قوله تعالى:

﴿ وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم [1] مِّن كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ..(٢٤) ﴾ [الرعد]

وهذا يعنى أن الملائكة يدخلون على المؤمنين فى الجنة من كل باب [2] ، وساعة الدخول يقول الملائكة :

﴿ سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ..(٢٤) ﴾ [الرعد]

---

(١) الضمير فى (عليهم) عائد على أولى الألباب الذين وصفهم ربهم بصفات استحقوا بها دخول جنات عدن . قال تعالى : ﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الأَلْبَابِ (١٩) الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ (٢٠) وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ (٢١) وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (٢٢) ﴾ [الرعد].

(٢) للجنة أبواب ، عدَّها بعض العلماء ثمانية أبواب ، استدلالاً بحديث رسول الله ﷺ : « ما منكم من أحد يتوضأ فيبلغ - أو فيسبغ الوضوء - ثم يقول : أشهد ألا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء» أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٣٤) من حديث عقبة بن عامر .

وقول نوح عليه السلام : ﴿ .. إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢٥) ﴾ [هود]

نعلم منه أن النذير - كما قلنا من قبل - هو من يخبر بشرٍّ لم يأت وقته بعد ، حتى يستعد السامع لملاقاته ، وما دام أن نبى الله نوحاً قد جاء نذيراً ، فالسياق مستمر ؛ لأن الحق سبحانه قال فى الآية التى قبلها :

﴿ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ ..(٢٤) ﴾ [هود]

أى : أن هناك فريقاً عاصياً وكافراً وله نذير ، أما الفريق الآخر فله بشير ، يخبر بخير قادم ليستعد السامع أيضاً لاستقباله بنفس مطمئنة .

والفريق الكافر الذى يستحق الإنذار ، يأتى لهم الحق سبحانه بنص الإنذار فى قوله تعالى : (١)

﴿ أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ (٢٦) ﴾

ونحن نعلم أن نوحاً عليه السلام محسوب على قومه ، وهم محسوبون عليه ؛ ولذلك نجده خائفاً عليهم ؛ لأن الرباط الذى يربطه بهم رباط جامع قوى .

وكذلك نجد الحق سبحانه يُحنِّن قلوب المرسل إليهم لعلهم يحسنون استقبال الرسول .

ومثال ذلك : قول الحق سبحانه :

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ..(٦٥) ﴾ [الأعراف]

ولأن الرسول أخ لهم فلن يغشَّهم أو يخدعهم .

---

(١) وذلك أنهم كانوا يعبدون مع الله سبحانه أصناماً ، وهى التى ورد ذكرها فى سورة نوح - آية ٢٣ ﴿ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا (٢٣) ﴾ [نوح] وهم أسماء رجال صالحين ، لما ماتوا عمل الناس على هيئتهم أصناماً تذكرهم بأعمالهم ، ثم تقادم الزمن فأصبحوا يعبدونها من دون الله . [انظر : تفسير ابن كثير ٤/ ٤٢٦]

واستقبل الملأ من قوم نوح الأمر بما يقوله الحق سبحانه عنهم:

﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ[1] ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا[2] بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾

والملأ - كما نعلم - هم وجوه القوم ، وهم السادة الذين يملأون العيون مهابة ، ويتصدرون أى مجلس

وهناك مثل شعبى فى بلادنا يوضح ذلك المعنى حين نقول: «فلان يملأ العين» .

أى: أن العين حين تنظر إليه لا تكون فارغة ، فلا جزء فى العين يرى غيره.

ويقال أيضاً : «فلان قَيْد النواظر» أى: أنه إذا ظهر تقيَّدت به كل النواظر ، فلا تلتفت إلى سواه ، ولا يمكن أن يكون كذلك إلا إذا كانت فيه مزايا تجذب العيون إليه بحيث لا تتحول عنه.

والمراد بذلك هو الحاشية المقربة ، أو الدائرة الأولى التى حول المركز ، فَحَوْل كل مركز هناك دوائر ، والملأ هم الدائرة الأولى ، ثم تليهم دائرة ثانية ، ثم ثالثة وهكذا ، والارتباك إنما ينشأ حين يكون للدائرة أكثر من مركز ، فتتشتت الدوائر.

وردَّ الذين يكوِّنون الملأ على سيدنا نوح قائلين:

---

(١) الملأ: أشراف القوم أو جميعهم.

(٢) الذين هم أراذلنا: أى: أفقرنا وأحقر الناس فى نظرنا.

بادى الرأى: ظاهره الذى لا روية فيه ، أى: رأى سطحى غير متعمق.

وقرىء «بادىءَ الرأى» : أى: بدء الرأى وأوله من غير روية أيضاً [القاموس القويم].

﴿ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِّثْلَنَا ..(٢٧) ﴾ [هود]

أى: أنه لا توجد لك ميزة تجعلك متفوقاً علينا ، فما الذى سوَّدك [١] علينا لتكون أنت الرسول ؟

وقولهم هذا دليل غباء ؛ لأن الرسول ما دام قد جاء من البشر ، فسلوكه يكون أسوة ، وقوله يصلح للاتباع ، ولو كان الرسول من غير البشر لكان من حق القوم أن يعترضوا ؛ لأنهم لن يستطيعوا اتخاذ المَلاك [٢] أسوة لهم.

ولذلك بيَّن الحق سبحانه هذه المسألة فى قوله تعالى:

﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلاَّ أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولاً (٩٤) ﴾ [الإسراء]

وجاء الرد منه سبحانه بأن قُلْ لهم:

﴿ ..لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولاً (٩٥) ﴾ [الإسراء]

إذن: فالرسول إنما يجىء مُبلِّغ منهج وأسوة [٣] سلوك ، فإذا لم يكن من جنس البشر ، فالأسوة لن تصلح ، ولن يستطيع إلا البلاغ فقط.

---

(١) سودك علينا: جعل لك السيادة والرياسة علينا فتأمرنا وتنهانا.

(٢) إذ كيف يتخذون الملاك أسوة لهم ، وهو من جنس غير جنسهم. وله أحكام وقدرات تختلف عن قدراتهم ، فلا يصلح الاحتجاج بأفعال الملائكة على غيرهم من الأجناس. ولذلك عندما قال مشركو مكة: ﴿ ..لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ﴾ قيل لهم: ﴿ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الأَمْرُ ثُمَّ لا يُنظَرُونَ (٨) وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ (٩) ﴾ [الأنعام]. [بتصرف من تفسير ابن كثير ٢/ ١٢٤]

(٣) الأسوة: القدوة . والمراد بها هنا: القدوة الحسنة التى ينبغى على الجميع الاقتداء بها. قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ..(٢١) ﴾ [الأحزاب].

ومثال ذلك: أنت حين ترى الأسد فى أى حديقة من حدائق الحيوان، يصول ويجول، ويأكل اللحم النَّىء المقدم له من الحارس، أتحدثك نفسك أن تفعل مثله؟.. طبعاً لا، لكنك إن رأيت فارساً على جواد ومعه سيفه، فنفسك قد تحدثك أن تكون مثله.

وهكذا نجد أن الأسوة تتطلب اتحاد الجنس؛ ولذلك قلنا: إن الأسوة هى الدليل على إبطال من يدَّعى الألوهية لعزير [1] أو لعيسى عليهما السلام.

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى ما جاء على لسان الملأ الكافر من قوم نوح:

﴿ وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا .. (٢٧) ﴾ [هود]

والأراذل [2] جمع «أرذل»، مثل قولنا: «أفاضل قوم»، وهى جمع «أفضل».

والأرذل هو الخسيس الدنىء فى أعين الناس. ورذال المال أى: رديئه. ورذال كل شىء هو نفايته.

ونرى فى الريف أثناء مواسم جمع «القطن» عملية «فرز» القطن، يقوم بها صغار البنين والبنات، فيفصلون القطن النظيف، عن اللوز الذى لم يتفتح

---

(١) عزير: هو رجل صالح من بنى إسرائيل جعله اليهود ابناً لله وعبدوه لعلمه بالتوراة وحفظه لها كما فى الكتب حرفاً بحرف [القاموس القويم ٢/ ١٨]، و[تفسير ابن كثير ٢/ ٣٤٨]، وهو الذى ورد ذكره فى سورة البقرة فى قوله تعالى: ﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٥٩) ﴾ [البقرة].

(٢) رَذُلَ الشىء، رَذالة ورُذُلة: صار خسيساً رديئاً، فهو رَذْلٌ.

والأرذل: اسم تفضيل يفيد المبالغة فى الصفة. وقال تعالى فى سورة النحل: ﴿ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ .. (٧٠) ﴾ [النحل] أى: إلى الهرم والعجز. وقال تعالى: ﴿ قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ (١١١) ﴾ [الشعراء]، أى: أخسُّ الناس، فى نظرنا. وقال تعالى: ﴿ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا .. (٢٧) ﴾ [هود]. أى: أفقرنا وأحقر الناس فى نظرنا. [القاموس القويم].

بالشكل المناسب ؛ لأن اللوزة المصابة عادة ما تعانى من ضمور ، ولم تنضج النضج الصحيح .

وكذلك يفعل الفلاحون فى موسم جمع «البلح» ، فيفصلون البلح الجيد عن البلح المعيب .

إذن : فرذال كل شىء هو نفايته .

وقد قال الملأ من الكفار من قوم نوح :

﴿ وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا .. (٢٧) ﴾ [هود]

أى : أنهم وصفوا من آمنوا بنوح عليه السلام بأنهم نفاية المجتمع .

وجاء الحق على ألسنتهم بقولهم فى موضع آخر :

﴿ .. وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ (١١١) ﴾ [الشعراء]

ولم يَنْفِ نوح عليه السلام ذلك ؛ لأن الذين اتبعوه قد يكونون من الضعاف ، وهم ضحايا الإفساد ؛ لأن القوى فى المجتمع لا يقربه أحد ؛ ولذلك فإنه لا يعانى من ضغوط المفسدين ، أما الضعاف فهم الذين يعانون من المفسدين ؛ فما إن يظهر المُخلِّص لهم من المفسدين فلا بد أن يتمسكوا به .

ولكن ذلك لا يعنى أن الإيمان لا يلمس قلوب الأقوياء ، بدليل أن البعض من سادة وأغنياء مكة استجابوا للدعوة المحمدية مثل : أبى بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان ، وعبد الرحمن بن عوف ، رضى الله عنهم .

ولكن الغالب فى دعوات الإصلاح أنه يستجيب لها المطحونون بالفساد ، هؤلاء الذين يشعرون بالغليان فى مراجل [1] الألم بسبب الفساد ، وما إن

(١) المراجل : جمع مرجل ، وهو كل ما طبخ فيه من قدر وغيرها . وقيل : هو القدر المصنوع من النحاس خاصة . [انظر : اللسان ، مادة : رجل] .

يظهر داعية إلى الإصلاح ويريد أن يزحزح الفساد ، فيلتفُّون حوله ويتعاطفون معه ، وإن كانوا غير عبيد ، لكن محكومين بالغير ، فهم يؤمنون علناً برجل الإصلاح ، وإن كانوا عبيداً مملوكين للسادة ؛ فهم يؤمنون خفية ، ويتحمل القوى منهم الاضطهاد والتعذيب.

إذن: فكل رسول يأتى إنما يأتى فى زمن فساد ، وهذا الفساد ينتفع به بعض الناس ؛ وطغيان يعانى منه الكثيرون الواقع عليهم الفساد والطغيان.

ويأتى الرسول وكأنه ثورة على الطغيان والفساد ؛ لذلك يتمسك به الضعفاء ويفرحون به ، وتلتف قلوبهم حوله.

أما المنتفعون بالفساد فيقولون: إن أتباعك هم أراذلنا. وكأن هذا القول طَعْن فى الرسول ، لكنهم أغبياء ؛ لأن هذا القول دليل على ضرورة مجىء الرسول ؛ ليخلص هؤلاء الضعاف ، ويجىء الرسول ليقود غضبة على فساد الأرض ، ولينهى هذا الفساد.

وهى غضبة تختلف عن غضبة الثائر العادى من الناس ، فالثائر من الناس يرى من يصفق له من المطحونين بالفساد.

لكن آفة [1] الثائر من البشر شىء واحد ، هى أنه يريد أن يستمر ثائراً ، ولكن الثائر الحق هو الذى يثور ليهدم الفساد ، ثم يهدأ ليبنى الأمجاد ، فلا يسلط السيف على الكل ، ولا يفضِّل قوماً على قوم ، ولا يدلل مَنْ طُغِى عليهم ، ويظلم مَنْ طغوا.

بل عليه أن يحكم بين الناس بالعدل والرحمة ؛ لتستقيم الأمور ، وتذهب الأحقاد ، ويعلم الناس كلهم أن الثائر ما جاء ضد طائفة بعينها ، وإنما جاء ضد ظلم طائفة لغيرها ، فإذا أخذ من الظالم وأعطى المظلوم ؛ فليجعل الاثنين سواء أمام عينيه.

---

(١) آفة الشىء: الخطأ الذى فيه ، أو نقصه ، أو عيبه. [راجع : لسان العرب - مادة أوف]

ومن هنا يجىء الهدوء والاستقرار فى المجتمع.

إذن: فقد كان قول الكافرين من ملأ قوم نوح:

﴿ وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا ..(٢٧) ﴾ [هود]

هو قول يؤكد وجود الفساد فى هذا المجتمع، وأن الضعاف المطحونين من الفساد قد اتبعوا نوحاً عليه السلام.

ويقول الحق سبحانه:

﴿ بَادِيَ الرَّأْيِ ..(٢٧) ﴾ [هود]

والبادى هو الظاهر؛ ضد المستتر.

وهناك قراءة أخرى[1] هى ﴿ بَادِيءَ الرَّأْيِ .. ﴾.

أى: بعد بدء الرأى.

والآية هنا تقول:

﴿ بَادِيَ الرَّأْيِ ..(٢٧) ﴾ [هود]

أى: ظاهر الأمر، فساعة ما يُلْقى إلى الإنسان أىُّ شىء فهو ينظر له نظرة سطحية، ثم يفكر بإمعان فى هذا الشىء.

وساعة يسمع الإنسان دعوى أو قضية، فعليه ألا يحكم عليها بظاهر الأمر، بل لا بد أن يبحث القضية أو الدعوى بتروٍّ وهدوء.

وهم قد قالوا لنوح عليه السلام: أنت بشر مثلنا، وقد اتبعك أراذلنا؛ لأنهم نظروا إلى دعوتك نظرة ظاهرية، ولو تعقَّبوا دعوتك وتأمَّلوها ونظروا فى عواقبها بتدبُّر لما آمنوا بها.

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٣٤٢): «يجوز أن يكون «بادى الرأى» من بدأ يبدأ وحذف الهمزة. وحقق أبو عمرو الهمزة فقرأ «بادىء الرأى» أى أول الرأى، أى: اتبعوك حين ابتدءوا ينظرون، ولو أمعنوا النظر والفكر لم يتبعوك، ولا يختلف المعنى ها هنا بالهمز وترك الهمز».

ويكشف الحق سبحانه هذا الغباء فيهم ، فقول الملأ بأن الضعفاء كان يجب عليهم أن يتدبروا الأمر ويتمعنوا فى دعوة نوح قبل الإيمان به ، ينقضه إصرار الضعفاء على الإيمان ؛ لأنه يؤكد أن جوهر الحكم عندهم جوهر سليم ؛ لأن الواحد من هؤلاء الضعفاء لا يقيس الأمر بمقياس من يملك المال ، ،ولا بمقياس من يملك الجاه ، ولا بمقياس من له سيادة ، بل قاس الضعيف من هؤلاء الأمر بالقلب ، الذى تعقَّل وتبصَّر ، وباللسان الذى أعلن الإيمان ؛ لأن الإنسان بأصغريه : قلبه ولسانه [1] .

إذن : فهذا الملأ الكافر من قوم نوح - عليه السلام - قد حكم بأن الضعاف أراذل بالمقاييس الهابطة ، لا بالمقاييس الصحيحة .

ولو امتنع هؤلاء الذين يُقال عنهم «أراذل» عن خدمة من يقال لهم «سادة» لذاق السادة الأمرَّين ، فهم الذين يقدِّمون الخدمة ، ولو لم يصنع النجار أثاث البيت لما كانت هناك بيوت مؤثثة .

ولو امتنع العمال عن الحفر والبناء لما كانت هناك قصور مشيدة .

ولو امتنع الطاهى عن طهى الطعام لما كانت هناك موائد ممتدة ، وكل خدمات هؤلاء الضعاف تصب عند الغنى أو صاحب المال أو صاحب الجاه .

وهكذا نرى أن الكون يحتاج إلى من يملك الثروة - ولو عن طريق الميراث - ليصرف على من يحتاجه المجتمع أيضاً ، وهم الضعاف الذين يعطون الخير من كدِّهم وإنتاجهم .

إذن : فالضعفاء هم تتمة السيادة .

---

(١) هذا من أمثال العرب : المرء بأصغريه ، وأصغراه قلبه ولسانه . قال ابن منظور فى لسان العرب : «معناه : أن المرء يعلو الأمور ، ويضبطها بجنانه ولسانه» .

وحين نمعن النظر لوجدنا أن سيادة الثَّرىِّ أو صاحب الجاه إنما تأتى نتيجة لمجهودات من يقال عنهم: إنهم أراذل.

ولو أنهم تخلَّوا عن الثرى أو صاحب الجاه، لما استطاع أن يكون سيداً.

ويذكر لنا الحق سبحانه بقية ما قاله الملأ الكافر من قوم نوح:

﴿ ..وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ (٢٧) ﴾ [هود]

وهم - بهذا القول - قد أنكروا أن سيادتكم إنما نشأت بجهد من قالوا عنهم إنهم أراذل، وأنكروا فضل هؤلاء الناس.

ويُلفتنا الحق سبحانه وتعالى إلى الآفة التى تنتاب بعض المجتمعات حين يذكر لنا ما قاله الكافرون:

﴿ وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ [1] عَظِيمٍ (٣١) أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا [2] ..(٣٢) ﴾ [الزخرف]

إذن: فالحق سبحانه هو الذى قسم المعيشة، وآفة الحكم أن ننظر إلى المرفوع على أنه الغنى، لا، فليس المرفوع هو الغنى، بل هو كل ذى موهبة ليست فى سواه.

وما دام مرفوعاً فى مجال فهو سيخدم غيره فيه، وغيره سيخدمونه فيما رُفعوا فيه؛ لأن المسألة أساسها التكامل.

---

(١) المقصود بالقريتين: مكة والطائف. وقد اختلف العلماء فى المقصود بالرجلين، ذكر ابن كثير هذا الاختلاف، ثم قال: «الظاهر أن مرادهم رجل كبير من أى البلدتين كان» تفسير ابن كثير (٤/ ١٢٧).

(٢) سخرياً: أى: يُسخِّر بعضهم بعضاً فى الأعمال لاحتياج هذا إلى هذا وهذا إلى هذا. قاله السدى وغيره. (تفسير ابن كثير (٤/ ١٢٧) ونقل ابن منظور فى اللسان: «سخريّا: عبيداً وإماء وأجراء».

راجعه على الأصل وخرَّج أحاديثه صاحب الفضيلة الشيخ / محمد السراوى المستشار بالأزهر والأستاذ / عادل أبو المعاطى.

لذلك لا يُديم الله سبحانه غِنَى أحدٍ أبد الدهر، بل جعل الدنيا دُولاً [١] بين الناس.

إذن : فلو عرف هذا الملأ الكافر من قوم نوح - عليه السلام - معنى كلمة الفضل [٢] لما قالوها ؛ لأن الفضل هو الزائد عن المطلوب للكائن ، فى المحسوسات أو المعانى والفضل يقتضى وجود فاضل ومفضول.

ولينظر كل طاغية فى حياته ليرى ما الفاضل فيها ؟

إنه بعض من المال أو الجاه ، وكل مَنْ يخدم هذا الطاغية هم أصحاب الفضل ؛ لأن سيادة الطاغية مبنية على عطائهم.

فهم أصحاب الفضل ، ما دام الفضل هو الأمر الزائد عن الضرورى

إذن : فحقيقة ارتباط العالم بعضه ببعض ، هو ارتباط الحاجة لا ارتباط السيطرة ، ولذلك حين نرى مسيطراً يطغى ، فنحن نقول له تعقَّل الأمر ؛ لأنك ما سيطرت إلا بأناس من الأراذل ، فإظهار قوته تكون بمن يُجيدون تصويب السلاح ، أو بمن تدربوا على إيذاء البشر ، فهو يبنى سيادته ببعض الأراذل ، كوسائل لتحقيق سيطرته .

وقول الكافرين من ملأ نوح- عليه السلام - :

﴿ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ .. (٢٧) ﴾ [هود]

يكشف أنهم قد فهموا الفضل على أنه الغِنَى ، والجاه والمناصب ، وهم قد أخطأوا الفهم.

---

(١) الدُّولة : اسم للشىء الذى يتداول ، والدَّولة : الفعل والانتقال من حال إلى حال . [بتصرف من لسان العرب - مادة : دول]

(٢) فالفضل بمفهوم الكفرة يخالف الفضل فى مفهوم المؤمن : فالفضل عند الكافر هو المال والسلطان ، وفى مفهوم المؤمن هو الاصطفاء والعطاءات والهبات الإلهية التى يصطفى الله سبحانه بها الرسل والأنبياء والمخلصين من عباده .

ويُنهى الحق سبحانه الآية بقوله :

﴿ .. بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ (٢٧) ﴾ [هود]

والظن [(١)] هو الراجح، والمرجوح هو الوهم؛ وهذا يثبت أن فى الإنسان فطرة تستيقظ فى النفس كومضات، فالمتكبر يمضى فى كبره إلى أن تأتى له ومضة من فطرته ، فيعرف أن الحق حق، وأن الباطل باطل.

وحين جاءت هذه الومضة فى نفوس هذا الملأ الكافر ، قالوا :

﴿ .. بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ (٢٧) ﴾ [هود]

ولم يقولوا : «نعتقد أنكم كاذبون».

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ [(٢)] مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ (٢٨) ﴾

وقول نوح عليه السلام: ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ أى: أخبرونى إن كنت على بينة موهوبة من الله تعالى ونور وبصيرة وفطرة بالهداية ، وآتانى الحق سبحانه: ﴿رَحْمَةً﴾ أى : رسالة ، بينما خفيت هذه المسألة عنكم ، فهل أجبركم على

---

(١) الظن: ما يحصل فى النفس عن أمارة ، فهو شك راجح ، وفعله من أفعال الرجحان. والظن: مصدر ، والظن: اسم لهذا الخاطر الذى يحصل فى النفس. قال تعالى: ﴿ .. إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا (٢٨) ﴾ [النجم] وجمعه: ظنون. وقال تعالى: ﴿ .. وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (١٠) ﴾ [الأحزاب] الظنونا بألف فى الوصل ، وفى الوقف ، وبغير ألف قراءة. [القاموس القويم].

(٢) البينة: الحجة الواضحة الموضحة للحق. والبينة: الظاهرة الواضحة التى لا شك فيها ، أو هى مبينة للحق مؤيدة له ، مظهرة لأمره. قال تعالى: ﴿ كَمْ آتَيْنَاهُم مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ .. (٢١١) ﴾ [البقرة]. [القاموس القويم] بتصرف.

ذلك ؟ لا ؛ لأن الإيمان لا بد أن يأتى طواعية بعد إقناع ملموس ، وانفعال مأنوس ، واختيار بيقين [(١)] .

وحين ننظر فى قوله :

﴿ .. أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ (٢٨) ﴾ [هود]

نجد الهمزة الاستفهامية ثم الفعل «نلزم» ثم كاف المخاطبة ، وهنا نكون أمام استفهام ، وفعل ، وفاعل مطمور فى الفعل ، ومفعول أول هو كاف المخاطبة ، ومفعول ثان هو الرحمة.

إذن : فلا إلزام من الرسول لقومه بأن يؤمنوا ؛ لأن الإيمان يحتاج إلى قلوب [(٢)] ، لا قوالب ، وإكراه القوالب لا يزرع الإيمان فى القلوب.

والحق سبحانه يريد من خلقه قلوباً تخشع ، لا قوالب تخضع ، ولو شاء سبحانه لأرغمهم وأخضعهم [(٣)] كما أخضع الكون كله له، فهو سبحانه القائل :

﴿ أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ .. (٢٧) ﴾ [النازعات]

فالحق سبحانه وتعالى أخضع السماء والشمس والقمر [(٤)] ، وكلَّ الكون ، وهو سبحانه يقول لنا :

---

(١) يقول الحق سبحانه : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ .. (٥٣) ﴾ [فصلت]

(٢) القلوب لها حكومة خاصة ، يقول الحق : ﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (٢٤) ﴾ [محمد] ويقول : ﴿ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ .. (٢) ﴾ [الأنفال] فإيمان القلوب إيمان العابدين ، وإيمان القوالب إيمان المكرهين والمرائين والمنافقين ، وهناك فرق بين قبول اليقين ومنطق المكرهين .

(٣)ورب العزة سبحانه يقول: ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٩٩) ﴾ [يونس] ، ويقول أيضاً: ﴿ .. وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٣٥) ﴾ . [الأنعام]

(٤) يقول الحق : ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥) وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (٦) وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧) ﴾ [الرحمن] ويقول الحق : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (٤٤) ﴾ [الإسراء]

﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ .. (٥٧)﴾ [غافر]

والكون كله يخضع لمشيئة الله سبحانه وتعالى.

وقد خلق الحق سبحانه الملائكة وهم جنس أعلى من البشر ، وقال سبحانه عنهم :

﴿.. لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٦)﴾ [التحريم]

إذن : فالحق سبحانه وتعالى لو أراد قوالب لأخضع الخلق كلهم لعبادته، ولكنه سبحانه وتعالى يريد قلوباً تخشع ؛ ولذلك يقول تبارك وتعالى :

﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ (١) نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣) إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ (٤)﴾ [الشعراء]

وهكذا نعلم أن الحق سبحانه مُنَزَّهٌ عن رغبة إخضاع القوالب البشرية ، بل شاء سبحانه أن يجعل الإنسان مختاراً ؛ ولذلك لا يُكْرِهُ الله سبحانه أحداً على الإيمان.

والدِّين لا يكون بالإكراه ، بل بالطواعية والرضا.

والحق سبحانه وتعالى هو القائل :

﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ (٢) .. (٢٥٦)﴾ [البقرة]

وهكذا يطلب الحق سبحانه من الخلق أن يعرضوا أمر الإيمان على العقل ، فالعقل بالإدراك ينفعل متعجباً لإبداع المبدع ، وعند الإعجاب ينزع إلى اختياره بيقين المؤمن .

---

(١) بخع نفسه ، بخعاً وبخوعاً : قتلها هَمّاً وغيظاً وحزناً. وقال تعالى : ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا (٦)﴾ [الكهف].

(٢) الغى : الضلال والانهماك فى الجهل.

يقول الحق :

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ (١٩٠)﴾ [آل عمران]

والإكراه إنما يكون على أمر غير مُتَبَيَّن ، أما الدِّين فأمر يتبيَّن فيه الرشد ؛ لأن المنهج حين يطلب منك ألا تسرق غيرك ، فهو يضمن لك ألا يسرقك الغير ، وحين يأمرك ألا تنظر إلى محارم غيرك ، فهو يحمى محارمك ، وحين يأمرك ألا تغتاب أحداً ، وألا تحقد على أحد ، ففى هذا كله راحة للإنسان.

إذن : فما يطلبه المنهج هو كل أمر مريح للإنسان ، وأنت إن نظرت فى مطلوبات المنهج فلن تجدها مطلوبة منك وحدك ، ولكن مطلوبة من الناس لك أيضاً. وهو تبادل مراد من الله لإعمار الكون أخذاً وعطاء .

ولذلك لا يحتاج مثل هذا الرشد إلى إكراه عليه ، بل تجد فيه البينة واضحة فاصلة بينه وبين الغَىِّ.

والآفة أن بعضاً من الناس يستخدمون هذه الآية فى غير موضعها ، فحين تطلب من مسلم أن يصلِّى تجده يقول لك :

﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ..(٢٥٦)﴾ [البقرة]

ولك أن تقول له : لا إكراه فى الحَمْل على الدِّين والإيمان به ، لكنك إذا آمنت بالدِّين فإياك أن تكسره ، بتعطيل منهجه أو الإعراض عنه .

ولذلك يشدِّد الحق سبحانه عقوبة الخروج من الدين ؛ لأن الحق سبحانه لم يُكره أحداً على الدخول فى الدين ، بل للإنسان أن يفكر ويتدبر ؛ لأنه إن دخلَ فى الدين وارتكب ذنباً فسيلقى عقاب الذنب ؛ لأنه دخل برغبته واختاره بيقينه ، فالمخالفة لها عقابها .

إذن : فالدخول إلى الإيمان لا إكراه فيه ، ولكن الخروج من الدين يقتضى إقامة الحد على المرتدّ [(١)] ومعاقبة العاصى على عصيانه .

وعندما يعلم الجميع هذا الأمر فهم يعلمون أن الحق سبحانه وتعالى قد جعل الصعوبة فى الدخول إلى الدين عن طريق تصعيب آثار الخروج منه .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك على لسان نوح عليه السلام :

﴿ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ [(٢)] مَالًا ۖ إِنْ [(٣)] أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾

ومثل هذا القول بمعناه جاء مع كل رسول ، ففى مواضع أخرى يقول الحق سبحانه :

﴿ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا .. ﴿٩٠﴾ ﴾ [الأنعام]

لأن العوَض فى التبادل قد لا يكون مالاً ، بل قد يكون تمراً ، أو شعيراً أو قطناً أو غير ذلك ، والأجر - كما نعلم - هو أعم من أن يكون مالاً أو غير مال ؛ لذلك يقول الحق سبحانه هنا :

---

(١) حَدّ المرتد فى شريعة الإسلام هو القتل ، فقد روى البخارى فى صحيحه (١٢/ ٢٦٧ - فتح) عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : «من بدل دينه فاقتلوه» ، وعن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال : «لا يحل دم امرىء مسلم إلا بإحدى ثلاث : كفر بعد إيمان ، وزنا بعد إحصان ، وقتل نفس بغير نفس» أخرجه مسلم فى صحيحه (١٦٧٦) .

ولكن يجب أن ينتبه إلى أنه لا يحكم بارتداد أحد إلا بعد صدور ما يدل على كفره دلالة قطعية لا تحتمل التأويل ، حتى نُسب إلى الإمام مالك أنه قال : «من صدر عنه ما يحتمل الكفر من تسعة وتسعين وجهاً ويحتمل الإيمان مَن وجه ، حُمل أمره على الإيمان» .

ولا يطبق حد الردة إلا بعد الاستتابة لمدّة ثلاثة أيام .

(٢) أى : لا أسألكم على تبليغ الرسالة والدعاء إلى الله والإيمان به مالاً أو غيره .

(٣) إن - هنا - نافية ، بمعنى : «ما» أو «ليس» أى : ما أجرى إلا على الله .

﴿لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِىَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ ..(٢٩)﴾ [هود]

وهكذا نجد أن الحق سبحانه قد أغْلَى الأمر.

وقول الرسول :

﴿إِنْ أَجْرِىَ [1] إِلاَّ عَلَى اللَّهِ ..(٢٩)﴾ [هود]

هو قول يدل على أن الأمر الذى جاء به الرسول هو أمر نافع ؛ لأن الأجرة لا تستحق إلا مقابل المنفعة.

ونحن نعلم أن مبادلة الشىء بعينه أو ما يساويه ؛ تُسمَّى شراء ، أما أن يأخذ الإنسان المنفعة من العين ، وتظل العين ملكاً لصاحبها ، فمن يأخذ هذه المنفعة يدفع عنها إيجاراً ، فكأن نوحاً عليه السلام يقول: لقد كنت أستحق أجراً لأننى أقدِّم لكم منفعة ، لكننى لن آخذ منكم شيئاً ، لا زُهْداً فى الأجر ، ولكنى أطمع فى الأجر ممن هو أفضل منكم وأعظم وأكبر.

ولأن هذا الملأ الكافر قد وصف من اتبع نوحاً بأنهم أراذل [2] ؛ لذلك يأتى الرد من نوح عليه السلام :

﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا .. (٢٩)﴾ [هود]

ويوضح هذا الرد أن نوحاً عليه السلام لا يمكن أن يطرد إنساناً من حظيرة الإيمان لأنه فقير ، فاليقين الإيمانى لا علاقة له بالثروة أو الجاه أو الفقر والحاجة.

---

(١) آجره يؤجره إيجاراً : أجر من فلان الدار وغيرها : اكتراها منه ، وآجره يؤاجره مؤاجرة استأجره . اتخذه أجيراً والإجارة : الأجر على العمل : عقد تمليك نفع مقصود من العين بعوض ، والأجرة عوض العمل والانتفاع ، والأجر الذى يكفى العامل للعيش والأجر الحقيقى القوة الشرائية للنقد الذى يحصل عليه العامل والأجرة : الأجر . والأجير من يعمل بأجر وأعظم الأجر عطاء الله « المعجم الوجيز» بتصرف .

(٢) والأراذل جمع رذل ، وقيل : الواحد أرذل والجمع أراذل ، وقد غلبت عليه الاسمية وإن كان وصفاً (التبيان فى إعراب القرآن)

ولا يُخْلِى رسولٌ مكاناً من أتباعه الفقراء ليأتى الأغنياء ، بل الكلُّ سواسية أمامَ الله سبحانه وتعالى.

والحق سبحانه يقول :

﴿ وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ (١) يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ (٢) (٥٢) ﴾ [الأنعام]

وقد جعل الحق سبحانه هؤلاء الذين يطلق عليهم كلمة «أراذل» فتنة ، فمن تكبَّر بسبب فقر وضعف أتباع الرسل ، فليغرق فى كِبْره.

لذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا (٣) بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلاءِ مَنَّ (٤) اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ (٥٣) ﴾ [الأنعام]

وأيضا يأمر الحق سبحانه رسوله بأن يضع عينه على هؤلاء الضعاف ، وألا ينصرف عنهم أو عن أى واحد منهم، فيقول الحق سبحانه :

---

(١) أى : نهاراً وليلاً . والمراد أنهم دائمو الدعاء لله رب العالمين .

(٢) نزلت هذه الآية فى بضعة نفر من فقراء وضعفاء المسلمين منهم : ابن مسعود وصهيب وعمار والمقداد وبلال . فقد قالت قريش لرسول الله ﷺ : إنا لا نرضى أن نكون أتباعاً لهؤلاء فاطردهم ، فدخل قلب رسول الله ﷺ من ذلك ما شاء الله أن يدخل ، فأنزل الله تعالى الآية . أخرجه النيسابورى فى أسباب النزول (ص ١٢٤) .

(٣) فتنا : اختبرنا . والفتنة : الاختبار بالنار ، واستعيرت لكل اختبار شديد . وقال تعالى : ﴿ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ (١٦٢) ﴾ [الصافات] .

(٤) مَنَّ عليه : أنعم عليه وأحسن إليه . وقال تعالى : ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ .. (١٦٤) ﴾ [آل عمران] [القاموس القويم] .

﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ [1] عَيْنَاكَ عَنْهُمْ .. (٢٨) ﴾ [الكهف]

جاء هذا القول حتى لا ينشأ فساد أو عداء بين المؤمنين برسول الله ﷺ ، ولا يقال : «فلان مُقَرَّبٌ منه» ؛ ولذلك كان ﷺ إذا جلس ؛ يوزع نظره على كل جلسائه ، حتى يظن كل جالس أن نظره لا يتحول عنه.

وفى هذه الآية الكريمة التى نحن بصدد خواطرنا عنها يقول الحق سبحانه وتعالى على لسان سيدنا نوح - عليه السلام - وصفاً لهؤلاء الضعاف الذين آمنوا :

﴿ إِنَّهُم مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ ..(٢٩) ﴾ [هود]

وفى هذا بيانٌ أن نوحاً - عليه السلام - لن يطرد هؤلاء الضعاف المؤمنين ، فلو طردهم وهم الذين سيلقون الله تعالى ، أيسمح نوح عليه السلام أن يقال عنه أمام الحق - تبارك وتعالى - إنه قد طرد قوماً آمنوا برسالته ؟ طبعاً لا.

ونحن نعلم أن الحق سبحانه يحاسب رسله ، والمرسَل إليهم ، فهو سبحانه القائل :

﴿ فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ [2] (٦) ﴾ [الأعراف]

---

(١) عدت عينه عنه : تجاوزته وأهملت النظر إليه واستحسنت غيره ، كناية عن الإعراض وعدم الاهتمام. قال تعالى : ﴿ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ ..(٢٨) ﴾ [الكهف] أى : لا تتركهم ولا تهملهم. [القاموس القويم].

(٢) قوله تعالى : ﴿ فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ (٦) ﴾ [الأعراف] كقوله : ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ (٦٥) ﴾ [القصص] وكقوله : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١٠٩) ﴾ [المائدة] فيسأل الله عن الاستجابة للرسل ، ويسأل الرسل عن البلاغ . ومن النص القرآنى نأخذ حديث رسول الله ﷺ « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » [ابن كثير بتصرف صـ٢٠٦ ، جـ٢]

إذن : فنوح - عليه السلام - يعلم أنه مسئول أمام ربه ، ولكن هذا الملأ الكافر من قومه يجهلون ؛ ولذلك يقول الحق سبحانه فى نهاية هذه الآية الكريمة على لسان نوح عليه السلام :

﴿ .. وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٩) ﴾ [هود]

أى : أنهم لا يفهمون مهمة نوح عليه السلام ، وأنه مسئول أمام ربه.

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٣٠) ﴾

وهنا يوضِّح نوح عليه السلام أنه لا يقدر على مواجهة الله إن طرد هؤلاء الضعاف ؛ لأن أحداً لن ينصر نوحاً على الله - عز وجل - لحظة الحساب ، فهناك يوم لا ملك فيه لأحد إلا الله ، ولا أحد يشفع إلا بإذنه سبحانه ، ولا أحد بقادر على أن ينصر أحداً على الله تعالى ؛ لأنه القاهر فوق كل خلقه.

والنصر - كما نعلم - يكون بالغلبة ، أما الشفاعة فهى بالخضوع ، والحق سبحانه لا يأذن لأحد أن يشفع فى طرد مؤمن من حظيرة الإيمان.

وفى هذا القول تذكير من نوح عليه السلام لقومه ؛ ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿ .. أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٣٠) ﴾ [هود]

أى : يجب ألاَّ تأخذكم الغفلة ، وتُنسيكم ما يجب أن تتذكروه.

وكما جاء الحق سبحانه بالتذكُّر ، وهو الأمر الذى بدوامه يبعد الإنسان الغفلة ، جاء الحق سبحانه أيضاً بالتفكُّر ، وهو التأمل لاستنباط شىء جديد عن طريق إعمال العقل بالتفكر ، الذى يجعل الإنسان فى تأمل يقوده إلى تقديس وتنزيه الخالق ، وبهذا يصل الإنسان إلى الحقائق التى تكشف له معالم الطريق .

وجاء الحق - سبحانه - أيضاً بالتدبر ، أى : ألا يأخذ الإنسان الأمور بظواهرها ، أو أن ينخدع بتلك الظواهر [(١)] ، بل لا بد من البحث فى حقائق الأشياء .

لذلك يقول الحق جَلَّ وعَلاَ :

﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ [(٢)] الْقُرْآنَ .. (٨٢) ﴾ [النساء]

أى : أفلا يبحثون عن الكنوز الموجودة فى المعطيات الخلفية للقرآن .

والتدبر هو الذى يكشف المعانى الخفية خلف ظواهر الآيات ، والناس يتفاضلون فى تعرضهم لأسرار كتاب الله حين ينظرون خلف ظواهر المعانى .

ولذلك نجد عبد الله بن مسعود رضى الله عنه يقول : «ثَوِّروا القرآن» [(٣)] أى : قَلِّبوا معانى الآيات لتجدوا ما فيها من كنوز ، ولا تأخذوا الآيات بظواهرها ، فعجائب القرآن لا تنقضى .

ويقول الحق سبحانه وتعالى مواصلاً ما جاء على لسان سيدنا نوح :

---

(١) وقد قال عز وجل : ﴿ وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٦) يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ (٧) ﴾ [الروم] وقد كان هذا تعقيباً منه سبحانه لقصة الروم وأنهم سينتصرون على الفرس فى بضع سنين ، وقد استغرب الناس يومئذ ذلك ، بسبب اهتمامهم بظواهر الحياة الدنيا دون النظر إلى عواقب الأمور وسير الأمم من قبل وأقدار الله فى تصريف شئون خلقه .

(٢) تدبر : تأمل فى أدبار الأمور وعواقبها ونهاياتها ، أو تأمل ليعرف حقائق الأمور . وقال تعالى : ﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (٢٤) ﴾ [محمد] أى : هل عجزوا وعموا فلا يتأملون معانى القرآن ويبصرون ما فيه من حكم بالغة فيؤمنون به . وبين همزة الاستفهام وفاء العطف فعل محذوف دائماً والمعنى : أعجزوا فلا يتدبرون . [القاموس القويم] .

(٣) ذكره ابن منظور فى اللسان (مادة : ث و ر) ، قال : «وفى حديث عبد الله : أثيروا القرآن فإن فيه خبر الأولين والآخرين ، وفى رواية : علم الأولين والآخرين . قال شمر : تثوير القرآن قراءته ومفاتشة العلماء به فى تفسيره ومعانيه . وقيل : لينقر عنه ويفكر فى معانيه وتفسيره وقراءته» .

﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ[1] وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ[2] أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾

وهكذا يَسُدُّ نوح - عليه السلام - على هذا الملأ الكافر كل أسباب إعراضهم عن الإيمان ، فإن ظنوا أن الإيمان يتطلب ثراءً ، فنوح لا يملك خزائن الله ، وهو لا يملك أكثر من هذا الملأ ، وإن طلبوا أن يكشف لهم الغيب ، فالغيب علمه عند الله تعالى وحده.

ولم يَدَّعِ نوح أنه من جنس آخر غير البشر ، إنما هو بشر مثلهم ، لا يملك ما يجبرهم به على الطاعة ، ثراءً ، أو جاهاً ، أو علم غيب.

ولن يطرد نوح عليه السلام مَنْ آمن منَ الضِّعاف الذين تزدريهم وتحتقرهم وتتهكَّم عليهم عيون هذا الملأ الكَافر ؛ لأن نوحاً يخشى سؤال الله - عَزَّ وجَلَّ - له إن سَدَّ فى وجوه الضعاف أبواب الإيمان.

ولا بد من وقفة هنا عند قول الحق سبحانه :

﴿وَلا أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِى أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا .. ﴿٣١﴾﴾ [هود]

---

(١) غاب الشيء يغيب غيباً وغيبة وغياباً وغيوباً يعد فهو غائب ، والجمع غيب وغُياب . والغيب كل ما غاب عنك ، وجمعه غيوب وفى التنزيل ﴿.. عَلاَّمُ الْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾﴾ [المائدة] وقوله تعالى : ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنعام]

(٢) تزدرى : تحتقر . والازدراء : الاحتقار والانتقاص والعيب . [لسان العرب]

ونلحظ هنا أن الخطاب قد حُوِّل إلى الغَيبة [١]، فلم يخاطب نوح عليه السلام الضعاف ويقول لهم : إن الله سيمنع عنكم الخير ، ذلك لأن الله سبحانه وتعالى هو العليم بما فى نفوسهم ، ولو قال نوح لهم مثل هذا القول لكان من الظالمين .

واللام فى كلمة ﴿ لِلَّذِينَ ﴾ تعنى الحديث عن الضعاف ، لا حديثاً إلى الضعاف .

ومجىء «اللام» بمعنى «عن» له نظائر [٢]، مثل قول الحق سبحانه :

﴿ .. وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ (٤٣) ﴾ [سبأ]

وهم هنا لا يقولون للحق ، ولكنهم يقولون عن الحق ، وهكذا جاءت «اللام» بمعنى «عن» [٣].

وهكذا أوضح نوح - عليه السلام - أنه لو طرد من يقال عنهم «أراذل» ، لكان معنى ذلك أنه يعلم النوايا ، ونوح - عليه السلام - يعلم يقيناً أن الله هو الأعلم بما فى النفوس ؛ لذلك لا يضع نوح نفسه فى موضع الظلم لا لنفسه ولا لغيره .

---

(١) وهذا يعرف فى أساليب البلاغة بالالتفات ، وهو نقل الكلام من أسلوب إلى آخر ، أى : من المتكلم أو الخطاب أو الغيبة إلى آخر منها ، بعد التعبير بالأول . (انظر الإتقان فى علوم القرآن - للسيوطى) (٣/ ٢٥٣) .

(٢) من أمثلة اللام بمعنى «عن» أيضاً ، قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ .. (١١) ﴾ [الأحقاف] أى : عنهم وفى حقهم ، لا أنهم خاطبوا به المؤمنين ، وإلا لقيل : «ما سبقتمونا» .

(٣) اللام : حرف يجر الظاهر والمضمر ، ويؤدى عدة معان منها : انتهاء الغاية ، والملك ، وشبه الملك ، والدلالة على التمليك ، والدلالة على شبه التمليك ، والدلالة على النسب ، والتعدية المجردة ، والتعليل ، والتوكيد المحض ، والتقوية ، والدلالة على القسم والتعجب معاً ، والدلالة على التعجب بغير قسم ، والدلالة على العاقبة المنتظرة ، والدلالة على التبليغ ، والدلالة على التبيين ، وأن تكون بمعنى «بعد» ، وأن تكون بمعنى «قبل» ، وأن تكون بمعنى «مِنْ البيانية» ، وأن تكون للمجاوزة (بمعنى : عن) ، وأن تكون لتوكيد النفى ، وأن تكون بمعنى «مع» ، وأن تكون بمعنى «عند» . . . انظر تفصيل ذلك فى [النحو الوافى : (٢/ ٤٧٢ - ٤٨١)] .

يقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك :(١)

﴿ قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾

والجدال هو قول كلام يقابل كلاماً آخر ، والقصد عند كل طرف متكلم أن يزحزح الطرف الآخر عن مذهبه بحجة أو بشبهة ، بهدف إسقاط المذهب .

إذن : فالجدال هو مناقشة طرفين ، يتقاسمان الكلام بهدف أن يقنع أحدهما الآخر بأن ينصرف عن مذهبه هو إلى مذهب القائل .

وكلمة «الجدال» مأخوذة من «الجَدْل» أى : الفَتْل ، وفتل الحبل إنما يأتى من أخذ شعرات من الكتان أو الحرير أو أى مادة مثل هذا أو ذاك ، ثم ضَمٍّ شعرتين إلى بعضهما ، ثم القيام بِلَفٍّ كل شعرتين أخريين ، وهكذا حتى يتم اكتمال الحبل .

ويقال للرجل القوى : « مفتول العضلات » ، أى : أن عضلاته ليست رخوة أو ضعيفة ، بل مفتولة ، أى : متداخلة ومشدودة .

وحين تنظر إلى الجهاز العضلى فأنت تندهش لقدرة الحق سبحانه وتعالى الذى خلق كل عضلة بشكل وأسلوب معين ، يتيح لها أن تتآزر وتتعاون مع غيرها من العضلات لأداء الحركات المطلوبة منها .

فحين يرفع الإنسان رأسه فهو يحتاج لحركة أكثر من عضلة ، وحين تعمل اليد فهى تحرك أكثر من عضلة ، ولو تعطلت حركة عضلة واحدة ، لامتنعت الحركة المقابلة لها .

---

(١) جادل : خاصم بالحق والباطل . واستُعمل فى الباطل فى قوله تعالى : ﴿ هَا أَنتُمْ هَؤُلاء جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. ﴿١٠٩﴾ ﴾ [النساء] واستُعمل فى الحق فى قوله تعالى : ﴿ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ .. ﴿١٢٥﴾ ﴾ [النحل] ، وقد نهى الله سبحانه حُجَّاج بيته الحرام عن الجدال بكل أنواعه صيانة لعلاقة المحبة بينهم ، قال تعالى : ﴿ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ .. ﴿١٩٧﴾ ﴾ [البقرة] . [القاموس القويم] .

وهم قد قالوا لنوح عليه السلام :

﴿قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا .. (٣٢)﴾ [هود]

ونحن نعلم أن نوحاً عليه السلام عاش ألف عام إلا خمسين عاماً ، ومعنى ذلك أن جداله معهم أخذ وقتاً طويلاً .

والجدال يختلف عن المِراء [(١)] ، لأن الجدال إنما يكون لحقٍّ ، والمراء يكون بعد ظهور الحق .

الجدال - إذن - مطلوب ، والحق سبحانه هو القائل :

﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ..(١٢٥)﴾ [النحل]

وكذلك يقول سبحانه وتعالى :

﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي [(٢)] تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ ..(١)﴾ [المجادلة]

إذن : فالجدال مطلوب لنصل إلى الحق ، شرط أن يكون جدلاً حسناً ، لا احتكاك فيه ولا إيذاء [(٣)] .

---

(١) المراء : المماراة والجدال . وأصل المراء فى اللغة أن يستخرج الرجل من مناظره كلاماً ومعانى الخصومة وغيرها

من : مريت الشاة إذا حلبتها واستخرجت لبنها . [انظر اللسان] والمراء والمماراة يحمل معانى الشك والريبة فى الأمر مما يستدعى جدالاً أكثر وأعمق وأطول ، وهذا منهى عنه .

(٢) هى امرأة يقال لها خولة بنت ثعلبة ، اشتكت زوجها إلى رسول الله ﷺ قائلة : يا رسول الله ، أكل مالى ، وأفنى شبابى ونشرت له بطنى ، حتى إذا كبرت سنى وانقطع ولدى ظاهر منى ، اللهم إنى أشكو إليك . قالت عائشة رضى الله عنها : فما برحت حتى نزل جبريل بهذه الآية : ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ .. (١)﴾ [المجادلة] وزوجها هو : أوس بن الصامت . انظر تفسير ابن كثير (٤/ ٣١٨) وأسباب النزول للواحدى (ص ٢٣١) .

(٣) يقول تعالى : ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ .. (١٢٥)﴾ [النحل] أى : من احتاج منهم إلى مناظرة وجدال ، فليكن بالوجه الحسن برفق ولين وحسن خطاب ، كقوله تعالى : ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ .. (٤٦)﴾ [العنكبوت] انظر : ابن كثير (٢/ ٥٩١) .

وهناك فارق بين احتكاك الآراء ، وتحكُّك الآراء ، فالتحكك كالتلكُّك ، وهو الرغبة فى عدم الوصول إلى الحق ، لكن الاحتكاك هو الذى يوصل إلى الحق ، مثلما نحكُّ الزناد بقطعة من حديد فتولد الشرر لنرى الحق ، أما التحكُّك [1] فهو يوارى ويطمس الحقيقة .

والمِرَاء هو الجدَال بعد أن يظهر الحق ، وهو مأخوذ من مَرَى [2] الضَّرع ، فحين يقومون بإنزال اللبن من ضرع الناقة أو البقرة ، فالضرع يكون ملآن ، وينزل منه اللبن بشدة وقوة ، وبعد أن ينتهى حَلْبُ الضرع ، يظل مَنْ يحلبها مُمْسكاً بحَلَمات الناقة أو الجاموسة ، ويستحلب ما بقى من اللبن ، ويُقال لهذا الجزء الأخير « المريى » .

ولذلك أخذوا من هذه العملية كلمة «المراء»، وهو ما بعد ظهور الحق.

وهناك بجانب الجدال والمراء ، والاحتكاك ، والتحكُّك ، الحِجَاج ؛ والمراد بالحجاج هو إظهار حجة الخصم على الخصم.

وبعد أن مَلُّوا من جدال نوح - عليه السلام - طلبوا أن ينزل بهم العذاب الذى أنذرهم به ، وقد استبطأوا مجىء هذا العذاب ؛ لأن نوحاً عليه السلام عاش بينهم ألف سنة إلا خمسين ، وقالوا :

﴿ .. فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣٢) ﴾ [هود]

وكأنهم - بهذا القول - قد أخرجوا نوحاً مَخْرج من بيده أن يأتى بالعذاب ، أو يمنع العذاب ، وهذه مسألة لا يملكها نوح ، بل هى مِلْك لله سبحانه وتعالى.

---

(١) التحكك : التحرش والتعرض . وإنه ليتحكك بك ، أى : يتعرض لشرِّك . [اللسان - مادة : حكك].

(٢) المرىُ : مسح ضرع الناقة لتدر اللبن . والمرى : الناقة تدر على من يمسح ضروعها . وقيل : هى الناقة الكثيرة اللبن . [اللسان : مادة - مرى].

وجاء فى المصباح المنير : ماريته أماريه مماراة ومراء : جادلته . وتقدم القول إذا أريد بالجدال الحق أو الباطل . ويقال : ماريته إذا طعنت فى قوله تزييفاً للقول وتصغيراً للقائل ، ولا يكون (المراء) إلا اعتراضاً بخلاف الجدال فإنه يكون ابتداء واعتراضاً ، وامترى فى أمر : شكَّ فيه . بتصرف صـ ٥٧٠

ولذلك يُنبههم نوح عليه السلام :

﴿ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾

لأن الحق سبحانه هو الذى يقدِّر للعذاب أواناً ، ويقدِّر لكلٍّ تعذيب ميلاداً ، ولا يَعْجَلُ الله بعجلة العباد حتى تبلغ الأمور ما أراد.

وهم لن يعجزوا الله تعالى ولن يفلتوا منه ؛ لأنه لا توجد قوة فى الكون يمكن أن تمنع مشيئة الله تعالى ، أو أن تتأبَّى [1] عليه.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك على لسان نوح عليه السلام :

﴿ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ [2] إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ [3] هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾

والمعنى هنا : إن كان الله سبحانه يريد أن يغويكم فلن تنتفعوا بالنصيحة إن أردت أن أنصحكم ؛ لأن الآية بها تعدُّد الشرطين.

ومثال ذلك من حياتنا : حين يطرد ناظر المدرسة طالباً ، عقاباً له على خطأ معين ، فالطالب قد يستعطف الناظر ، فيقول الناظر : «إن جئتنى غداً أقبل اعتذارك إنْ كان معك والدك».

---

(١) تتأبى : تتمنع وترفض الانصياع والطاعة. ورب العزة سبحانه يقول : ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ إِلَّآ آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ ﴾ [مريم] .

(٢) نصح له ونصحه نصحاً ونصيحة : تحرَّى ما يصلح له وأراد له الخير والنفع ودلَّه عليه. ونصح له الود : أخلصه. ونصح لله : أطاعه وأخلص لدينه. ونصح للرسول : صدقه وأخلص له ولم يخالف أمره سراً ولا علناً. ومن النصح بمعنى الإرشاد والدلالة على الخير ، يقول تعالى : ﴿ .. وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [الأعراف] ، ويقول : ﴿ .. وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ ﴾ [الأعراف] . [القاموس القويم] .

(٣) أغواه : أضلَّه وأوقعه فى الغى والضلال. قال تعالى : ﴿ فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الصافات] .

وقول الناظر : «إن كان معك والدك» هو شرط متأخِّر ، ولكنه كان يجب أن يتقدَّم .

وفى الآية الكريمة - التى نحن بصددها - جاء الشرط الأول متأخِّراً ، ولكن هل يغوى الله سبحانه عِبادَه ؟

لا ، إنه سبحانه يهديهم ، والغواية هى الضلال [1] والبعد عن الطريق المستقيم .

والحق سبحانه يقول عن محمد ﷺ :

﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ [2] (٢) ﴾ [النجم]

وقال سبحانه عن آدم عليه السلام حين أكل من الشجرة :

﴿ .. وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ (١٢١) ﴾ [طه]

ونحن يجب ألاَّ نقع فى الآفة التى يخطىء البعض بها ، حين يستقبلون ألفاظ العقائد على أساس ما اشتهر به اللفظ من معنى ؛ فالألفاظ لها معانٍ متعددة .

لذلك لا بد أن نعرض كل معانى اللفظ لنأخذ اللفظ المناسب للسِّياق .

ومثال ذلك هو قول الحق سبحانه :

﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا [3] (٥٩) ﴾ [مريم]

---

(١) ضَلَّ : غابت عنه الحجة وعدل عن الحق . والضلال : النسيان والضياع . وضلَّ الشىء : خفى وغاب فهو يأتى لازماً كما فى المثال السابق .
ويأتى متعدياً مثل : ضل المسافرُ الطريق ، وقد نفى الله عن رسوله الضلال والغواية ، وأثبت له أنه هو الناطق منه وبه وله ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤) ﴾ [النجم] القاموس القويم مع تفسير البرهان باختصار .

(٢) غوى يغوى غيّاً ، وغوى يغوى غواية : انهمك فى الجهل ، وهو ضد الرشد . وغوى بمعنى خاب وضلَّ ؛ لأنه انهمك فى الجهل .

(٣) الغى : سمى به واد فى جهنم وفُسِّر بذلك قوله : ﴿ .. فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا (٥٩) ﴾ [مريم] أى : جزاء الغى ، أو يدخلون وادى الغى فى جهنم [القاموس القويم] .

وقوله سبحانه هنا : ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾

أى : سوف يلقون عذاباً ، لأن غَيَّهم كان سبباً فى تعذيبهم ، فسمَّى العذاب باسم مُسبِّبه .

ومثل قول الحق سبحانه :

﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ..(٤٠)﴾ [الشورى]

والحق سبحانه لا يُسىء لعباده ، ولكنهم هم الذين يُسيئون لأنفسهم ، فسمَّى ما يلقاهم من العذاب سيئةً [(١)] .

وكذلك «الغَىُّ» يرد بمعنى «الإغواء» ، ويرد بمعنى الأثر الذى يترتب عن الغى من العذاب .

وقد عرض الحق سبحانه وتعالى فى كتابه صوراً متعددة للإغواء ، فآدم عليه السلام حين تَنكَّبَ [(٢)] عن الطريق ، وأكل من الشجرة المحرَّمة رغم تحذير الحق سبحانه له ألاَّ يقربها ، قال الحق سبحانه وتعالى فى هذا الموقف :

﴿.. وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ (١٢١)﴾ [طه]

وقد فعل آدم عليه السلام ذلك بحكم طبيعته البشرية ، فأراد الله تعالى أن يعلمه أنه إذا خالف المنهج فى «افعل» و«لا تفعل» ستظهر عورته وتبدو له سوءاته [(٣)] .

---

(١) وهذا يعرف بالمشاكلة ، وهو ذكر الشىء بلفظ غيره لوقوعه فى صحبته ، ومثاله قوله تعالى : ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا .. (٤٠)﴾ [الشورى] ؛ لأن الجزاء حق لا يوصف بأنه سيئة . ومثله قوله تعالى : ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ .. (٥٤)﴾ [آل عمران] فإطلاق المكر فى جانب البارى تعالى إنما هو لمشاكلة ما معه . انظر : الإتقان فى علوم القرآن (٣/ ٢٨١) .

(٢) نكب عن الشىء وعن الطريق : عدل . وتنكَّب فلانٌ عنَّا : مَالَ عنَّا . وتنكَّبه : تجنَّبه . [انظر : لسان العرب] . ويقول تعالى : ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ (٧٤)﴾ [المؤمنون] . أى : مائلون منحرفون عنه .

(٣) السوءات : جمع سوءة : وهى كل ما يقبح إظهاره وينبغى ستره ، قال تعالى : ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَىٰ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ (٣١)﴾ [المائدة] .

وهكذا أخذ آدم عليه السلام التجربة ليكون مُستعِداً لاستقبال المنهج والوَحْى.

وقد ذكر لنا الحق سبحانه كلمات الشيطان بقوله :

﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩) ﴾ [الحجر]

ولكن هل أغوى الله - سبحانه - الشيطان ؟

إن الحق سبحانه لا يُغْوِى ، ولكنه يترك الخيار للمكلَّف إن شاء أطاع ، وإن شاء عَصَى.

ولو أنه سبحانه وتعالى جعلنا مؤمنين لما كان لنا اختيار [1] ، فإن أطاع الإنسان نال عطاء الله ، وإن ضَلَّ ، فقد جعل الله له الاختيار ، ووَجَّهه لغير المراد مع صلاحيته للمراد.

إذن : فالاختيار ليس مقصوراً على الإغواء بل فيه الهداية أيضاً ، والإنسان قادر على أن يهتدى ، وقادر على أن يضلَّ [2].

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

---

(١) يقول تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٩٩) ﴾ [يونس]. ويقول سبحانه : ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ .. (٢٥٦) ﴾ [البقرة]. فإن الإنسان مخير فى البدائل ، أما القضايا التى لا يستطيع تبديلها فهى خصوصية الخالق ، ويفهم من كلام فضيلة الشيخ أن إبليس من الجن لإثبات حق الاختيار له .

(٢) قال تعالى عن الإنسان : ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا (٣) ﴾ [الإنسان] ، فالله قد جعل الإنسان مُهيَّأً لأن يسلك أحد السبيلين : سبيل الهدى ، وسبيل الضلال ، ثم دلَّه سبحانه على الطريق الصواب المستقيم ، وترك له حرية الاختيار ، فإما شاكراً لنعمة الدلالة إلى الخير ، فيكون مؤمناً. وإما كافراً بها فيكون كافراً.

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾﴾ (١)

جاء هذا القول فى صُلْب قصة نوح - عليه السلام - وقد يكون مما أوحى به الله سبحانه لنوح عليه السلام ، أو يكون المراد به أنهم قالوا لرسول الله ﷺ مثل هذا الكلام.

والافتراء - كما نعلم - هو الكذب المتعمَّد الذى يناقض واقعاً.

وانظروا إلى كل ما جاء بالمنهج ليلتزم به الفرد ، ستجدون أنه مُلْزِمٌ للجميع ، وستكون الفائدة التى تعود عليك بالتزام الجميع - بما فيهم أنت - فائدة كبيرة ، فإن قال لك المنهج : لا تسرقْ ؛ فهذا أمانٌ لك من أن يسرقك الناس .

ولذلك فساعة تسمع للمنهج ، لا تنظرْ إلى المأخوذ منك ، بل التفتْ إلى المأخوذ لك.

وعلى ذلك لا يمكن أن يكون المنهج افتراء.

ونحن نعلم أن المنهج يؤسِّس فى المجتمعات مقاييس عادلة للاستقامة ، وحين يُشَرِّع الحق سبحانه تشريعاً ، قد يبدو لك أنه يُحدُّ من حريتك ، ولكنه فى الواقع يُحقِّق لك منافع متعدِّدة ، ويحميكَ من أن يعتدى الآخرون عليك.

---

(١) افترى القول : اختلقه واخترعه . وقوله تعالى : ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ .. ﴿٣٥﴾﴾ [هود] أى : يقولون : اخترع القرآن واختلقه من عند نفسه . وقال تعالى : ﴿قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ .. ﴿١٣﴾﴾ [هود] أى : مكذوبات - كما تدَّعون . [القاموس القويم].

وكان الردُّ على الاتهام بالافتراء يتمثَّل فى أمرين : إما أن يفتروا مثله ، أو أن يتحمَّل هو وِزْرُ إجرام الافتراء.

وإن لم يكن قد افتراه ، فعليهم يقع وِزْرُ إجرامهم [1] باتِّهامه أنه قد افترى.

وأسلوب الآية الكريمة يحذف عنهم البراءة فى الشطر الأول منها ، ولو جاء بالقول دون احتباك ، لقال سبحانه : قل إن افتريته فعلىَّ إجرامى وأنتم برءاء منه ، وإنْ لم أفْتَرِ فعليكم إجرامكم وأنا برىء.

وجاء الحذف من شِقٍّ المقابل من شِقٍّ آخر ، وهذا ما يسمَّى فى اللغة «الاحتباك» [2].

والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ..(٢٤٩) ﴾ [البقرة]

والفئة القليلة تكون قلَّتُها فى الأفراد والعَتَاد وكلِّ لوازم الحرب ، والفئة الكثيرة ، تظهر كثرتها فى العُدَّة والعَدَد وكلِّ لوازم الحرب ، والفئة القليلة إنما تَغْلِب بإذن الله تعالى.

وهكذا يوضِّح الحق سبحانه أن الأسباب تقضى بغلبة الفئة الكثيرة ، لكن مشيئته سبحانه تغلب الأسباب وتصل إلى ما شاءه الله تعالى.

---

(١) آثام الذنوب فيما افتروه .

(٢) الاحتباك : من أساليب البلاغة العربية ، وهو أن يحذف من الأول ما أثبت نظيره فى الثانى ، ومن الثانى أن يحذف نظيره فى الأول كقوله تعالى : ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ ..(١٢) ﴾ [النمل]. والتقدير : تدخل غير بيضاء ، وأخرجها تخرج بيضاء ، فحذف من الأول «غير بيضاء» ومن الثانى «وأخرجها» . وقال الزركشى : هو أن يجتمع فى الكلام متقابلان ، فيحذف من كل واحد منهما مقابله لدلالة الآخر عليه ، كقوله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ (٣٥) ﴾ [هود] . والتقدير : «إن افتريته فعلى إجرامى وأنتم برءاء منه ، وعليكم إجرامكم وأنا برىء مما تجرمون» [الإتقان فى علوم القرآن : ٣/ ١٨٢ ، ١٨٣].

ولذلك يقول الحق سبحانه فى آية أخرى :

﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ .. (١٣) ﴾ [آل عمران]

وحذف سبحانه صفة الإيمان عن الفئة الأولى ، كما حذف عن الفئة الثانية صفة أنها تقاتل فى سبيل الطاغوت [1] والشيطان ، وهذا يسمَّى «الاحتباك» .

وهنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها قال الحق سبحانه :

﴿ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ (٣٥) ﴾ [هود]

ولكن الحق سبحانه وتعالى شاء أن يبين لنا قول رسول الله محمد ﷺ حين خاطب قومه ، فقال سبحانه :

﴿ .. قُلْ لاَّ تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٢٥) ﴾ [سبأ]

فلم يَقُلْ : « عَمَّا تُجرمون» . فلم يقابل إيذاءهم القولىَّ والمادِّىَّ له بإيذاء قولىٍّ .

وكذلك ذكر الحق سبحانه ما جاء على لسان محمد ﷺ :

﴿ .. وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٢٤) ﴾ [سبأ]

وهذا ارتقاء فى الجدل يناسب رحمة رسول الله ﷺ التى أنزلها الله على العالم كله .

---

(١) الطاغوت : مصدر يدل على المبالغة ، ويسمى به الشيطان والصنم ، وكل ما عبد من دون الله ، وكل ما يغرى بالشر والداعى للضلال والفتنة .

وبعد ألف عام إلا خمسين من جدال نوح عليه السلام لقومه ، قال له الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ (١) فَلَا تَبْتَئِسْ (٢) بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

ومجيء «إلا» هنا ليس للاستثناء ، ولكنها اسم بمعنى «غير» أى : لن يؤمن من قومك غير الذى آمن .

ولهذا نظير فى قمة العقائد حين قال الحق سبحانه :

﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا .. ﴿٢٢﴾ ﴾ [الأنبياء]

و«إلا» هنا أيضاً بمعنى «غير» ، ولو كانت «إلا» بمعنى الاستثناء لعنى ذلك أن الله سبحانه - معاذ الله - سيكون ضمن آلهة آخرين ، لذلك لا يصلح هنا أن تكون «إلا» للاستثناء ، بل هى بمعنى «غير» ، وتفيد معنى الوحدانية لله عَزَّ وجَلَّ وتَفرُّده بالألوهية .

والآية التى نتناولها بخواطرنا تؤكد أنه لا يوجد غير من آمن بنوح - عليه السلام - من قومه ، سوف يؤمن ؛ فقد ختم الله المسألة .

وهذا يعطينا تبريراً لاجتراء نوح - عليه السلام - على الدعاء على الذين لم يؤمنوا من قومه بقوله :

---

(١) عن ابن عباس : كانوا ثمانين نفساً منهم نساؤهم . وعن كعب الأحبار : كانوا اثنين وسبعين نفساً . وقيل : كانوا عشرة ، وقيل : إنما كان نوح وبنوه الثلاثة سام وحام ويافث ، وكنائنه الأربع ، نساء هؤلاء الثلاثة وامرأة يام . انظر تفسير ابن كثير (٢/ ٤٤٥) .

(٢) ابتأس الرجل : اكتأب وحزن . ولا تبتئس : لا تحزن . يقال : ابتأس الرجل إذا بلغه شيء يكرهه . والابتئاس : الحزن فى استكانة . [لسان العرب - مادة : بأس]

﴿ .. رَّبِّ لا تَذَرْ (١) عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (٢) (٢٦) إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا (٢٧) ﴾ [نوح]

وكان تبرير ذلك أنه عليه السلام قد دعاهم إلى الإيمان زماناً طويلاً فلم يستجيبوا ، وأوحى له الله تعالى أنهم لن يؤمنوا ، وقال له سبحانه :

﴿ .. فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦) ﴾ [هود]

والابتئاس هو الحزن المحبط ، وهم قد كفروا وليس بعد الكفر ذنب .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ (٤) بِأَعْيُنِنَا (٣) وَوَحْيِنَا وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ (٣٧) ﴾

---

(١) يذره : يتركه ويدعه . وهذا الفعل لم يستعمل منه فى القرآن الكريم إلا المضارع والأمر ، فمن المضارع قوله تعالى : ﴿ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ .. (١٢٧) ﴾ [الأعراف] وقوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ .. (٢٣) ﴾ [نوح] أى : لا تتركن آلهتكم . ومن الأمر قوله تعالى : ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (١١) ﴾ [المدثر] أى : اتركنى أنتقم منه وأعاقبه على جرائمه ضد الدين والقرآن ، وهو أسلوب تهديد ووعيد . [القاموس القويم] .

(٢) الديَّار : من يسكن الدار ، أو من يتحرك فيها ويدور فيها بحرية ، ويقال : ما بالدار ديَّار ، أى : ما فيها أحد . وقوله تعالى على لسان نوح عليه السلام : ﴿ .. رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (٢٦) ﴾ [نوح] . أى : لا تترك أحداً منهم حيّاً . [القاموس القويم] بتصرف .

(٣) الصنع : معناه الإحداث والإنشاء ، ويكون بقصد وإرادة وتدبير ، ولذلك لا يقال : صنع الحيوان كذا . وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ .. (٦٩) ﴾ [طه] أى : أن الذى صنعوه وأحدثوه كيد وسحر . وقال تعالى فى قصة موسى عليه السلام : ﴿ .. وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي (٣٩) ﴾ [طه] أى : تُرَبَّى محروساً بعنايتى . وقوله تعالى : ﴿ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا .. (٣٧) ﴾ [هود] أى : تحت عنايتنا ورعايتنا . [القاموس القويم] بتصرف .

(٤) الفلك : السفينة للمذكر والمؤنث ، وللواحد والجمع . يقول الحق : ﴿ وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ .. (١٤) ﴾ [النحل] والفلك : المدار تسبح فيه النجوم السماوية ، يقول الحق : ﴿ .. كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٣٣) ﴾ [الأنبياء] (القاموس القويم - باختصار)

وهكذا علم نوح بمسألة الإغراق من خلال الوحى له بصنع السفينة. ومعنى «اصنع» أى : اعمل الصنعة ، وهناك فرق بين الصنعة والحرفة ، فالصنعة أنْ تُوجدَ معدوماً ، كصانع الأكواب ، أو صانع الأحذية ، أو صانع النَّجَفَ ، أو صانع الكراسى ، أما الذى يقوم على صيانة الصنعة فهو الحرفىُّ.

وهناك عملية أخرى للاستنباطات مثل مهنة الزارع الذى يحرث الأرض ويبذر فيها الحَبَّ ويرويها ليستنبط منها النباتات ، ويسمَّى صاحب هذه المهنة «زارع» أو «فلاَّح» ؛ لأن اقتيات الحياة المباشر يأتى من الزراعة.

أما الصانع فيأتى بشىء من متطلبات الحياة ، فى تطورها ويوجد آلةً أو يصنع جهازاً لم يكن موجوداً ، والحرفىُّ هو الذى يصون تلك الآلة ، أما التاجر فهو الذى يقوم بعملية تجمع كل ذلك ، ويكون هو الوسيلة بين منتج الشىء والمستهلك ، فالتاجر يكون لعرض الأشياء بغية البيع والشراء.

والحق سبحانه وتعالى يقول هنا لنوح عليه السلام :

﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ .. (٣٧)﴾ [هود]

أى : أوجد شيئاً من عدم ، إلا أن هذا الشىء سيصنع من شىء آخر موجود ، لأن نوحاً عليه السلام قد زرع من قبل شجرة وعاشت معه كل هذه المدة الطويلة ، وتضخَّمت فى الجذع والفروع.

وبدأ نوح عليه السلام فى عملية شقِّ الشجرة ليصنع منها السفينة التى بلغ طولها - كما قيل [1] - ثلاثمائة ذراع [2] وبلغ عرضها خمسين ذراعاً ، وبلغ

(١) ذكره قتادة. وفيها أقوال أخرى. واجتمع الرأى على أن ارتفاعها فى السماء كان ثلاثين ذراعاً ، ثلاث طبقات ، كل طبقة عشرة أذرع ، فالسفلى للدواب والوحوش ، والوسطى للإنس ، والعليا للطيور. وكان بابها فى عرضها ، ولها غطاء من فوقها مطبق عليها. انظر تفسير ابن كثير (٢/ ٤٤٤).

(٢) الذراع : مقياس للأطوال يقدر بـ ٧٥ سنتيمتراً أو أقل. والذراع من الإنسان : من المرفق إلى أطراف الأصابع.

ارتفاعها ثلاثين ذراعاً ومكوَّنة من ثلاثة أدوار لتسع المؤمنين ، وزوجين من كل نوع من حيوانات الأرض ودوابِّها وهوامها وسباعها ووحوشها .

ونحن قد علمنا أن الشجرة التى زرعها نوح عليه السلام قد تضخَّمت جدًا لطول المدَّة التى قضاها نوح فى دعوته لقومه ؛ ونعلم أيضاً أن جذع الشجرة ينمو دائريًا بمقدار دائرة كل عام. وحين نقطع جذع الشجرة نجد أن قطر الجذع مكوَّن من دوائر ، وكل دائرة تمثِّل عاماً من عمرها .

وهكذا بلغ حجم الشجرة ما يساعد نوحاً عليه السلام على أن يصنع السفينة .

وقد علَّمه الحق سبحانه بالوحى وإلهام الخواطر كيف يصنع السفينة ، ألمْ يُلهم الله سبحانه نبيَّه داود عليه السلام فى مسألة الحديد ؟ وقال لنا سبحانه أنه - جلَّ وعَلا - قد أمر الجبال أن تُؤَوِّب [1] معه ، وكذلك الطير ، فألان له الحديد [2] دون نار :

﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ (١٠) أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ ..(١١)﴾ [سبأ]

هكذا أخبرنا الحق سبحانه أن الحديد صار ليِّنًا دون نار - بإذنه سبحانه - ليصنع منه داود دروعاً كبيرة مستوفية للظهر والصدر ، لتحمى معاطب [3] الإنسان .

---

(١) تؤوب : تسبِّح معه وترجِّع التسبيح . قال ابن كثير فى تفسيره (٣/ ٥٢٧) : «التأويب فى اللغة هو الترجيع فأمرت الجبال والطير أن ترجِّع معه بأصواتها» .

(٢) قال الحسن البصرى وقتادة والأعمش وغيرهم : كان داود لا يحتاج أن يدخله ناراً ولا يضربه بمطرقة ، بل كان يفتله بيده مثل الخيوط . ذكره ابن كثير فى تفسيره (٣/ ٥٢٧) .

(٣) المعاطب : المهالك . واحدها معطب . والعطب : الهلاك يكون فى الناس وغيرهم . عطب (بكسر الطاء) عطباً وأعطبه : أهلكه . [اللسان : مادة (ع ط ب)] والمراد : الأماكن التى إذا طعن فيها المقاتل قد تؤدى إلى هلاكه .

وقد أوحى الحق سبحانه لداود عليه السلام أن يصنع تلك الدروع بطريقة عجيبة ، بأن يجعلها سابغات [١] .

والسابغة هى المسرودة ، مثل الحصير ، حيث يُوضع العُود بجانب العود ، ويربط الأعواد كلها بطريقة تسهل من فَرْد الحصير أو لَفِّه .

وفى نفس الآية يبيِّن لنا الحق سبحانه كيفية الوحى لداود عليه السلام بتلك الصناعة الدقيقة ، فيقول سبحانه :

﴿ وَقَدِّرْ فِى السَّرْدِ [٢] .. (١١) ﴾ [سبأ]

أى : أنك يا داود حين تنسج [٣] الحديد الليِّن - بإذن الله تعالى - لتجعله دروعاً عليك أن تصنع تلك الدروع بتقدير دقيق كى لا تكون الدِّرع ضيِّقة على صدر المقاتل فتضيق حركته ، وتقلِّل من قدرته على التنفس ، فيلهث بسرعة ، ولا يستطيع مواصلة القتال .

وكذلك يجب ألاَّ تكون الدِّرع واسعة على صدر المقاتل ؛ حتى لا تساعد سعة الدِّرع سيف الخصم ، فيضرب الدِّرع نفسه صدر المقاتل ، وتكون قوة الدِّرع مضافة إلى قوة سيف الخصم ، ولكن حين تكون الدِّرع قادرة على الإحاطة بالجسم دون أن يُكبِّل الحركة ، فهذه هى الدِّرع المناسبة للقتال .

---

(١) الدرع السابغة : الواسعة التى تطول إلى الأرض فتغطى الكعبين . [اللسان - مادة : سبغ] .

(٢) السَّرْد : نَسْج حلقات الدرع وإحكام صنعها . وسَرَدَ الأديم والجلد يسرده سرداً : خرزه وثقبه بالمخرز فى تتابع واتساق ؛ ولهذا سمى نسج الدروع سرداً ؛ لما فيه من دقة وتتابع واتساق . وقدِّر فى السرد : أى : أحكم العمل فى سرد الدروع ، أى : فى أثناء نسجها . أى : أحكم السرد ، وأتقن النسج . [القاموس القويم] .

(٣) النسج : ضم الشىء إلى الشىء . ونسج الشىء ينسجه نسجاً فانتسج ، ونسجت الريح التراب : سحبت بعضه إلى بعض . والريح تنسج الماء : إذا ضربت متنه فانتسجت له طرائق كالحُبُك . ونسجت الريح الورق الهشيم : جمعت بعضه إلى بعض . ومن معانى النسج : حياكة الثوب . وربما سمى الدرَّاع (صانع الدروع) نَسَّاجاً . [اللسان : مادة (ن س ج) بتصرف] .

وقد أتقن داود عليه السلام صناعة تلك الدُّروع بتلك الهندسة الدقيقة التى أوحى الحق سبحانه بها إليه ، فقد صنعها بأمر الحق الأعلى سبحانه حين قال له: ﴿وَقَدِّرْ ..(١١)﴾ وكلمة قدر تعطى معنى التقدير والإتقان .

فعلى الذين يصنعون الأشياء عليهم أن يعلموا أن القرآن الكريم لحظة يوجِّه إلى الإتقان فى الأداء والعمل ، فإنه يعلمنا طريقة التقدير والإتقان فى العمل والإبداع فيه ، لنتخذ من هذا التوجيه نبراساً [1] نسير عليه ؛ ليكون العمل صالحاً ، وأنت ترى من يتقن صنعته وهو يقول: «الله» ، وكأن هذا القول اعتراف الفطرة الأولى بقدرة الحق سبحانه على أن يَهَبَ الإنسانَ طاقة الإتقان والإبداع .

ويقول الحق سبحانه أيضاً فى تعليمه لداود عليه السلام:

﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ [2] .. (٨٠)﴾ [الأنبياء]

وهكذا يلقى الله تعالى الخاطر فى قلب الرسول أو النبى أن «افعل كذا» ؛ فيفعل .

وحين ننظر إلى حضارة مصر القديمة ، نجد كلَّ علومها وفنونها فى التحنيط والألوان والنَّحت ، كانت من اختصاص الكهنة الذين يُمثِّلون السلطة الدينية ، ولم يكتب هؤلاء الكهنة أسرار تلك العلوم ، فلم يستطع أحد من المعاصرين أن يتعرف عليها .

وهكذا نجد أن كل أمر فى أصوله ؛ مصدره السماء .

وفى قصة نوح عليه السلام نجد الحق سبحانه يقول:

---

(١) النبراس: المصباح، أو الشىء المنير. [المعجم الوسيط] بتصرف .

(٢) اللَّبوس: ما يُلبس . والمراد بها هنا: الدروع التى تلبس فى الحرب . [القاموس القويم] .

﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ[1] بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾﴾

ومعنى «بأعيننا» هو بحفظنا وبرعايتنا. وكلمة «بأعيننا» تفيد شمول الحفظ وكمال الرعاية.

ألم يقل الحق سبحانه فى مسألة تخصُّ رسول الله محمد ﷺ ؟

﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا[2] .. ﴿٤٨﴾﴾ [الطور]

وكذلك قال سبحانه فى قصة سيدنا موسى عليه السلام:

﴿.. وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴿٣٩﴾﴾ [طه]

وأنقذ الحق سبحانه موسى عليه السلام من الفرعون الذى كان يقتل أطفال بنى إسرائيل ، وألقى الله تعالى المحبة لموسى فى قلب زوجة الفرعون ، وقال سبحانه:

﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي .. ﴿٣٩﴾﴾ [طه]

لأن موسى عليه السلام حين كان طفلاً رضيعاً قد ألقىَ فى اليَمِّ[3] ،

---

(١) الفُلك: السفينة. ولفظة الفلك تقع للمذكر والمؤنث والمفرد والجمع. قال تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾﴾ [الشعراء] جعله مفرداً مذكراً. وقال تعالى: ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ .. ﴿١٤﴾﴾ النحل] جعل الفلك جمعاً ووصفه بقوله: «مواخر» أى: السفن.

(٢) أى: اصبرْ على أذاهم، ولا تبالهم، فإنك بمرأى منا وتحت كلاءتنا، والله يعصمك من الناس. تفسير ابن كثير (٤/ ٢٤٥).

(٣) اليم: مجتمع الماء الكثير، سواء أكان ماء عذباً أو مالحاً، وقد ورد هذان المعنيان فى القرآن:

- قال تعالى: ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ ﴿٣٨﴾ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ .. ﴿٣٩﴾﴾ [طه] فهو هنا الماء العذب. والمقصود نيل مصر.

- وقال تعالى: ﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ .. ﴿١٣٦﴾﴾ [الأعراف] فهو هنا الماء المالح والمقصود خليج السويس امتداد البحر الأحمر.

والتقطه رجال الفرعون ، لكن زوجة الفرعون قالت لزوجها طالبة لموسى الحياة :

﴿ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ [1] .. (٩) ﴾ [القصص]

ونحن نجد أن عَدُوَّ موسى وقومه ، يلتقط موسى ليعيش فى كنفه ورعايته ، وكأن الله سبحانه يقول لهم : سأجعلكم تُربُّون مَنْ يتولّى قهركم .

وقول الحق سبحانه :

﴿ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا .. (٣٧) ﴾ [هود]

أى : إنك إن توقَّفتَ لأية عقبة ، فسوف نُلهمك بما تُواجه به تلك العقبة .

وحين صنع نوح عليه السلام الفُلْك احتاج لألواح خشبية ، ولا بد أن تتماسك تلك الألواح ، ولم تكن المسامير قد اختُرعتْ بَعْدُ ، فأوحى له الله تعالى أن يربط الألواح بالحبال المجدولة ، وقد فعل هذا أحد مكتشفى أمريكا فى العصر الحديث ، حين صنع سفينة من نبات البَرْدِى وربطها بالحبال المجدولة القوية .

وقال الحق سبحانه فى طريقة صنع سفينة نوح عليه السلام :

﴿ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ [2] (١٣) ﴾ [القمر]

---

(١) قرة عين لى ولك : أى : مبعث سرور لى ولك . [القاموس القويم] .

(٢) دسر الدسار فى الشىء : دفعه فيه بقوة . والدسار : المسمار أو حبل من ليف تُشدُّ به ألواح السفينة وجمعه (دُسُر) .

قال تعالى : ﴿ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ (١٣) ﴾ [القمر] . كناية عن موصوف هو السفينة . وقال مجاهد : الدسر أضلاع السفينة . وقال عكرمة والحسن : هو صدرها الذى يضرب به الموج . وقال الضحاك : الدسر طرفاها وأصلها . ذكره ابن كثير فى التفسير (٤/ ٢٦٤) .

أى: أن نوحاً عليه السلام قد أحضر ألواحاً من الخشب وربطها بحبال مجدولة، وأحْكَمَ الرَّبط بقدر مقتدر بما لا يسمح بتسرب الماء إلى داخل السفينة.

مثلما تصنع البراميل الخشبية فى عصرنا، حيث يصنعها الصانع من قطع خشبية مستطيلة، ويرتّبها ثم يُحْكِم رَبْطَها بإطار قوىٍّ، وحين يوضع فيها أىُّ سائل، فالخشب يتشرَّب من هذا السائل ويتمدَّد ليسدَّ المسَام، فلا ينضح السائل من البرميل؛ لأن الخشب هو المادة الوحيدة التى تتمدّد بالبرودة على العكس من كل المواد التى تتمدّد بالحرارة.

ولذلك نجد النَّجَّار الحاذق [1] فى صنعته هو مَنْ يصنع الأثاث أو الأبواب أو الشبابيك فى الفصول الرتيبة [2]؛ لأنه إن صنعها فى الصيف، سنجد الخشب وهو منكمش، فإذا ما جاء الشتاء تمدَّد ذلك الخشب وسبَّب عدم إحكام إغلاق الأبواب والنوافذ، وكذلك إن صنعها فى الشتاء والخشب متمدِّد سيأتى الصيف وتنكمش الأبواب، وتكون لها متاعبها، فلا يسهل ضبط إغلاق الأبواب أو ضبط أى صندوق أو شبَّاك بإحكام.

ثم يقول الحق سبحانه:

﴿ ..وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ [3] (٣٧) ﴾ [هود]

أى: لا تحدِّثنى فى أمر المغفرة لمن ظلموا أنفسهم بالكفر، وهم مَن ارتكبوا الظلم العظيم، وهو الكفر فى القمة العقدية، وهى الإيمان بالله تعالى واحداً أحداً لا شريك له؛ لذلك استحقوا العقاب، وهو الإغراق.

---

(١) الحاذق: الماهر فى عمله. حذق الشىء: مهر فيه. [انظر اللسان].

(٢) الرتيبة: الثابتة التى لا توصف ببرد أو حرٍّ.

(٣) الغرق هو أن يغمر الماء الشخص حتى يموت، يقول الحق: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ .. (٩٠)﴾ [يونس] أن تمكن منه، وغرق كفرح فهو غرق وغارق وغريق. وجمع الأخير غرْقى، واسم المفعول منه مغرق، قال تعالى: ﴿.. فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (٤٣)﴾ [هود] (القاموس القويم صـ ٥١ جـ ٢)

وهكذا عَلِمَ نوح عليه السلام أنَّ صُنْع السفينة مرتبط بلون العقاب الذى سيقع على مَنْ كفروا برسالته ، فهو ومَنْ آمنوا معه سوف ينجون ، أما مَنْ كفر فلسوف يغرق.

ويبيِّن الحق سبحانه وتعالى ذلك حين يقول:

﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾

(١) (٢)

وكان السادة والكبراء من ملأ نوح يمرون عليه وهو يصنع السفينة يسخرون منه ، بما يعنى: ها هو بعد أن ادَّعى النبوة يتحوَّل إلى نجَّار ، ثم يتساءلون: كيف تصل هذه السفينة من «الموصل» إلى البحر ؟

ولم يكونوا قد علموا ما علمه نوح عليه السلام من أن الماء هو الذى سوف يأتى ليحمل السفينة.

ونحن نلحظ فى قول الحق سبحانه:

﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ ..(٣٨)﴾ [هود]

تنفيذ الأمر الذى صدر من الله سبحانه وتعالى إلى نوح عليه السلام حين قال سبحانه:

﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلا تُخَاطِبْنِى فِى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ (٣٧)﴾ [هود]

---

(١) مَلأٌ : جماعة منهم .

(٢) سخر منه وبه من باب فرح سَخَرا وسَخْرا وسُخْرا وسُخْرية وسُخْريّه : هزى به . قال تعالى : ﴿.. قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (٣٨)﴾ [هود] [القاموس القويم]

ثم يقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ[1] وَيَحِلُّ[2] عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾

ونلحظ فى قول الحق سبحانه: ﴿فَسَوْفَ﴾ ﴿تَعْلَمُونَ﴾ أن الفعل الذى يعلمه نوح عليه السلام وهو أمر الإغراق سيحدث مستقبلاً؛ لأن أى حدث - كما نعلم - له أكثر من صورة، فإن جاء الكلام عن الحدث بعد وقوعه؛ كان الفعل ماضياً، وإن جاء الكلام وقت وقوع الحدث كان الفعل مضارعاً.

وإن جاء الكلام عن حدث لم يأت زمنه فالأمر يقتضى أن نسبق الكلام عن الحدث بحرف «السين» كأن نقول: «سيعلمون» وهذا عن الاستقبال القريب، أما عن الاستقبال البعيد فتأتى كلمة «سوف».

ونحن نعلم أن نوحاً عليه السلام قضى العديد من السنين وهو يصنع السفينة[3]؛ ولذلك جاء بـ «سوف» لتدل على أوسع مَدًى زمنىٍّ.

وما الذى سوف يعلمونه؟ إنه العذاب، أيأتى لنوح ومن معه أم يأتى للذين كفروا من ملأ نوح؟

لذلك يقول الحق سبحانه على لسان نوح عليه السلام:

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ .. ﴿٣٩﴾﴾ [هود]

---

(١) خزى يخزى: هان وافتضح وخجل. وأخزاه فلان ويخزيه: أهانه وفضحه. قال تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ .. ﴿١٩٢﴾﴾ [آل عمران].

(٢) يحل: ينزل عليهم. وقال تعالى: ﴿.. وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾﴾ [طه] [القاموس القويم].

(٣) قال زيد بن أسلم: مكث نوح عليه السلام مائة سنة يغرس الشجر ويقطعها ويبسها، ومائة سنة يعملها. ذكره القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٣٤٩).

وفى هذا القول ما يؤكِّد أن نوحاً عليه السلام يعلم أن العذاب سوف يأتيهم ؛ لأنهم كفروا وسَخروا وقالوا :

﴿ .. فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣٢) ﴾ [هود]

وقول الحق سبحانه :

﴿ .. وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (٣٩) ﴾ [هود]

نجد فيه كلمة ﴿يَحِلُّ﴾ وهى ضدُّ الرحيل ، وتفيد النزول من أعلى إلى مكان الإقامة ، فَحَلَّ بالمكان ، أى : نزلَ ليقيم به ، والضِّدُّ هو الرحيل أو الترحال .

وقول الحق سبحانه : ﴿مُّقِيمٌ﴾ يعنى أن العذاب الذى سيحِلُّ بهم عذاب دائم[1] .

ويقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك :

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ[2] قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ[3] إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ (٤٠) ﴾

---

(١) جاء فى تفسير الآية عند القرطبى (٤/ ٣٣٥١) ما يفيد أن هنا نوعين من العذاب :
- الأول : ﴿ عَذَابٌ يُخْزِيهِ ﴾ وهو فى الدنيا .
- الثانى : ﴿ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ وهو عذاب الآخرة .

(٢) التنور : مكان تفجر الماء . والكانون الذى يخبز فيه . قال تعالى : ﴿ وَفَارَ التَّنُّورُ .. (٤٠) ﴾ [هود] أى : تفجرت الأرض بماء كثير ، أو تفجرت بماء يشبه فوران النار فى التنور . والتنور : مجتمع ماء الوادى . وكل ذلك يدل على كثرة الماء ، وعلى قوة اندفاعه . [القاموس القويم] .

(٣) أهَلَ من باب فرح وضرب ونصر أهلاً وأهولاً : تزوج ، وأهل المكان عَمر بأهله . والأهل الأقارب والعشيرة والزوجة ، وأهل الدار أصحابها ، وأهل النبى أتباعه ، وأهل الكتاب هم أصحاب الديانات السماوية ، قال تعالى : ﴿ .. يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ (٧٧) ﴾ [المائدة] [القاموس القويم باختصار] .

وكلمة ﴿حَتَّى﴾ تدل على الغاية وكلمة ﴿أَمْرُنَا﴾ تدل على الطوفان ، ثم الأمر من الحق سبحانه بأن يحمل فيها من كل زوجين اثنين ، ومَنْ آمن معه وكانوا قِلَّة قليلة .

إذن : ففى قصة نوح عليه السلام أكثر من مرحلة ، أمر من الله تعالى بقوله :

﴿ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ .. (٣٧) ﴾ [هود]

وعمل من نوح عليه السلام بأن يصنع ، وقد استغرق هذا الفعل وقتاً طويلاً من نوح عليه السلام إلى أن جاء أمر الطوفان الذى يدل عليه قول الحق سبحانه :

﴿ وَفَارَ التَّنُّورُ .. (٤٠) ﴾ [هود]

ومعنى كلمة ﴿فَارَ﴾ أى : أن الماء قد وصل إلى درجة الغليان .

فالماء يحتوى على هواء بدليل أن السمك يتنفس من الماء ، وحين نغلى الماء نرى فقاقيع الهواء وهى تخرج من الماء ، ثم يثقل الماء إلى أن تشتد سخونة الغليان ، فيفور الماء منثوراً خارج إناء الغليان .

و«التنور» هو المكان الذى تتم فيه عملية الخبز ، وخروج الماء من التنور هو علامة مميزة يعلمها نوح عليه السلام ليحمل من يريد نجاتهم ، من المؤمنين ، ومن متاع الدنيا كله .

وكانت العلامة هى خروج الماء من غير مَظَانِّه وهو التنور .

واختلف العلماء [1] فى تفسير كلمة «التنور» فمنهم من قال : إن التنور هو

(١) ذكر القرطبى فى تفسيره هذه الاختلافات على سبعة أقوال، فلتراجع هناك (١/ ٣٣٥١ ، ٣٣٥٢) ، ثم قال : «قال النحاس : هذه الأقوال ليست بمتناقضة ؛ وهى تجتمع فى أن ذلك كان علامة» أهـ بتصرف . أما ابن كثير فقد رجّح قول ابن عباس أن التنور هو وجه الأرض، أى : صارت الأرض عيوناً تفور حتى فار الماء من التنانير التى هى مكان النار، صارت تفور ماء . قال ابن كثير : «هذا قول جمهور السلف وعلماء الخلف» وذكر باقى الأقوال ولكنه وصفها بالغرابة . [تفسير ابن كثير ٢/ ٤٤٥] .

المكان الذى كان آدم عليه السلام يخبز فيه ، أو هو المكان الذى كانت تعمل فيه حواء ، أو هو بيت نوح ، أو هو بيت سيدة عجوز .

وكل تلك التفسيرات لا تفيد ولا تضرُّ ، المهم أن فوران التنور كان علامة بين نوح عليه السلام وربه ، وأنه إذا ما فار التنور فعَلَى نوح أن يحمل من كل زوجين اثنين .

وقول الحق سبحانه :

﴿ احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ .. (٤٠) ﴾ [هود]

تعنى : أن يحمل من كل الكائنات ، وتدل على ذلك كلمة ﴿كُلٍّ﴾ المنونة - وتفيد التعميم -أى : احمل فى السفينة من كل شىء ، تطلبه حياة الناجين من جميع أصناف النباتات والحيوانات ، حتى الخنزير كان ضمن ما حمله نوح عليه السلام .

والذين يقولون إن تحريم الخنزير جاء ؛ لأن نوحاً عليه السلام لم يحمله معه ، لم يفطنوا إلى أهمية الخنزير كحيوان يأكل القاذورات وينظف الأرض منها ؛ لأن كل كائن له مهمة ، وليست مهمة الكائنات فقط أن يأكلها الإنسان .

وكلمة :

﴿ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ .. (٤٠) ﴾ [هود]

تدل على أن كلمة «زَوْجٍ» [1] هى مفرد ؛ بدليل قول الحق سبحانه :

---

(١) الزوج : كل واحد مع آخر من جنسه مع اختلاف المهمة لأن فى اختلاف المهمة تكامل الغاية ، يطلق على الذكر والأنثى ؛ فالرجل زوج لامرأة ، والمرأة زوج لرجل . والزوج فى الحساب خلاف الفرد ، وهو كل ما ينقسم قسمين متساويين .

والزوج : الشكل أو الصنف يكون له نظير أو نقيض كالرطب واليابس والذكر والأنثى . قال تعالى : ﴿ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ .. (٤٠) ﴾ [هود] أى : احمل فى السفينة ذكراً وأنثى من كل نوع . وقال تعالى : ﴿ وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ (٥٨) ﴾ [ص] . أى : أصناف متزاوجة ذكورة وأنوثة ، أو متناقضة كل شىء وضده . [القاموس القويم] . بتصرف

﴿ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ..(١) ﴾ [النساء]

إذن : كلمة «زَوْجٍ» تعنى مفرد معه مثله ، كزوج من الأحذية مثلاً.

أقول ذلك حتى لا نأخذ كلمة «الزوج» على أنها اثنان ؛ ولذلك نجد الحق سبحانه يقول فى آية أخرى :

﴿ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ نَبِّئُونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٤٣) وَمِنَ الإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ ..(١٤٤) ﴾ [الأنعام]

وحين نجمع العدد سنجده ثمانية ، ولو كانت كلمة «زوج» تطلق على الاثنين لصار العدد فى تلك الآية الكريمة ستة عشر .

ويوضِّح القرآن الكريم أن كلمة «زوج» مفرد فى قول الحق سبحانه :

﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً (١) مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ (٢) (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً (٣) فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ (٤) (٣٨) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ (٣٩) ﴾ [القيامة]

إذن : فالذكر زوج ، والأنثى زوج أيضاً.

وواصل نوح عليه السلام تنفيذ أمر الحق سبحانه :

---

(١) نطف الماء : سال وقطر . والنطفة : الماء الصافى ، وتطلق فى القرآن على ماء الرجل أو المرأة ، الذى يُخلق منه الولد . وقال تعالى : ﴿ خَلَقَ الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ (٤) ﴾ [النحل].

(٢) منى يمنى : يُصبُّ فى الرحم . [كلمات القرآن للشيخ حسنين مخلوف].

(٣) علقة : الدم الجامد الغليظ الذى يَعْلَق بما يمسه . وجمعها : علق . قال تعالى : ﴿ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ..(٥) ﴾ [الحج] ، وقال تعالى : ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ﴾ [المؤمنون] وقال تعالى : ﴿ خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) ﴾ [العلق] . [القاموس القويم].

(٤) فسوَّى : فعدَّله وكمَّله ونفخ فيه الروح . [كلمات القرآن للشيخ حسنين مخلوف].

﴿ .. احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ (٤٠) ﴾ [هود]

وهكذا شاء الحق سبحانه أن يستبقى الحياة بنجاة كل ما تحتاجه الحياة بالسفينة ، ويقال: إنهم عاشوا فى تلك السفينة عامين [(١)].

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِيٰهَا [(٢)] وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (٤١) ﴾

هذه هى المرحلة الأخيرة فى قصة السفينة ، وبدأت القصة بأمر من الله سبحانه لنوح عليه السلام أن اصنع الفلك ، ثم تمهيد من نوح لقومه ، ثم ظل يصنع الفلك حتى جاءت إشارة البدء بعلامة:

﴿ وَفَارَ التَّنُّورُ .. (٤٠) ﴾ [هود]

وحَمَلَ نوح عليه السلام فى الفُلْك - بأمر من الله تعالى - من كل شىء زوجين اثنين ، وأهله ومَنْ آمن معه.

وقال نوح عليه السلام لمن آمن:

﴿ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا .. (٤١) ﴾ [هود]

---

(١) قال عكرمة: ركب نوح عليه السلام فى الفلك لعشر خلون من رجب، واستوت على الجودى لعشر خلون من المحرم. فذلك ستة أشهر. وذكر الطبرى عن ابن إسحاق ما يقتضى أنه أقام على الماء نحو السنة. قاله القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٣٥٤) وذكر ابن كثير فى تفسيره (٢/ ٤٤٧) عن ابن عباس أنهم مكثوا فى السفينة مائة وخمسين يوماً، أى: حوالى خمسة أشهر. فالله أعلم.

(٢) المجرى (بفتح الراء وتُمال نحو الكسرة): مصدر ميمى بمعنى الجرى. قال تعالى: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا .. (٤١) ﴾ [هود] أى: جَرْيُها وإرساؤها ببركة اسم الله وبعنايته ورعايته. [القاموس القويم].

وهذا القول منسوب لنوح عليه السلام ؛ لأنه أضاف :

﴿ .. إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (٤١) ﴾ [هود]

والركوب يقتضى أن يكون الراكب على المركوب ، ومستعلٍ عليه.

والاستعلاء يقتضى أن يكون الشيء المُستعلَى عليه فى خدمة المُستعلِى ، فكأن تسخير الله سبحانه للسفينة إنما جاء ليخدم المستعلِى.

ولكن الله تعالى يقول هنا:

﴿ ارْكَبُوا فِيهَا .. (٤١) ﴾ [هود]

ولم يقل : «اركبوا عليها».

قال الحق سبحانه وتعالى ذلك ؛ ليعطينا لقطة عن طريقة صنع السفينة ، فقد صنعها [1] نوح عليه السلام بوحى من الله تعالى على أفضل نظام فى البواخر ، ولم يصنعها بطريقة بدائية ، فهم - إذن - لم يركبوها على سطحها ، بل تم بناؤها بما يتيح لهم السكن فيها ، خصوصاً وأن تلك السفينة تحمل وحوشاً وهواماً وحيوانات بجانب البشر ، لذلك كان لا بد من بنائها على هيئة طبقات وأدوار.

وقول الحق سبحانه:

﴿ بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا .. (٤١) ﴾ [هود]

يُبيِّن لنا أنها قد صُنعت لتُنجى من الغرق ؛ لذلك لا بد أن تسير بالراكبين فيها إلى مكان لا يصله الماء ، ولا بد أن يكون هذا المكان عالياً ؛ ليتيح

---

(١) الصنع : معناه الإحداث والإنشاء ، ويكون بقصد وإرادة وتدبير ، ويطلق على الحرفة صناعة ، كقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ .. (٦٩) ﴾ [طه] وقال تعالى : ﴿ .. إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٨) ﴾ [فاطر] ، وتأتى عقب التربية والتعليم بحراستى وعنايتى كما فى قوله تعالى : ﴿ .. وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي (٣٩) ﴾ [طه] وتطلق على الأبنية العالية والقصور المتينة ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩) ﴾ [الشعراء] [القاموس القويم بتصرف] .

الرُّسُوَّ ، كما أتاح الفيضان عملية الجريان.

وهكذا كان جريانها باسم الله ، ورُسُوُّها بإذنه سبحانه.

وقول نوح عليه السلام:

﴿ بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا .. (٤١) ﴾ [هود]

يعلِّمنا أن جريانها إنما يتمُّ بمشيئة الله تعالى وأنهم يركبون فيها ، لا لمكانتهم الشخصية ، ولكن لإيمانهم بالله تعالى.

ومثال ذلك من حياتنا - ولله المثل الأعلى - : نجد القاضى يقول مفتتحاً الحكم: «باسم الدستور والقانون» أى: أنه لا يحكم بذاته كقاضٍ ، لكنه يحكم باسم الدستور والقانون.

ونوح عليه السلام يقول:

﴿ بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا .. (٤١) ﴾ [هود]

لأن السفينة لله أمر ، ولرسوله صناعة.

ولذلك يقال: «كل شىء لا يبدأ باسم الله فهو أبْتر»[1].

لأنك حين تُقبل على فعل شىء ، فالأفعال أو الأحداث تحتاج إلى طاقات متعددة ، فإن كان الفعل عضليّا ، فهو يحتاج لقوة ، وإن كان الفعل عقليّا فهو يحتاج لفكر ورويَّة وأناة ، وإن كان فعلاً فيه مواجهة لأهل الجاه فهو يحتاج إلى شجاعة ، وإن كان من أجل تصفية نفوس فهو يحتاج إلى الحِلْم.

إذن: فاحتياجات الأحداث كثيرة ومختلفة ، ومن أجل أن تحصل على القوة فقد تقول: «باسم القوى القادر» ولكى تحصل على علم ؛ تقول: «باسم العليم» ، وتريد الغنى ؛ فتقول: «باسم الغنىِّ» وحين تحتاج إلى الحلم تقول: «باسم الحليم» ، وعندما تحتاج إلى الشجاعة ؛ تقول: «باسم القهار».

---

(١) أبتر: أى مقطوع البركة ، لا خير فيه.

وقد يحتاج الفعل الواحد لأشياء كثيرة ، والذى يُغْنى عن كل ذلك أن تنادى ربك وتتبرَّك باسم واجد الوجود وهو الله سبحانه وتعالى ، ففيه تنطوى كل صفات الكمال والجلال .

وإياك أن تتهيَّب أو تستحى ، بل ادخل على كل أمر باسم الله ، حتى لو كنت عاصياً ؛ لأن الحق سبحانه رحمن رحيم .

وقول الحق سبحانه على لسان نوح عليه السلام :

﴿ .. إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (٤١) ﴾ [هود]

إنما يقصد أن هؤلاء المؤمنين برسالة نوح كانوا من البشر ، ولم يطبِّقوا - كغالبية البشر - كل التكاليف ؛ لأنهم ليسوا ملائكة .

لذلك قَدَّر الحق سبحانه وتعالى إيمانهم وعفا عن بعض الذنوب التى ارتكبوها ولم يؤاخذهم بها .

هذه هى الميزة فى قول : «بسم الله الرحمن الرحيم» .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك يَصفُ السفينة وركَّابها :

﴿ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَٰفِرِينَ (٤٢) ﴾ (١)

---

(١) الجرى : السير السريع . جرى الماء يجرى : سار . وجرت السفينة : سارت وأسرعت . قال تعالى : ﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ (٥٠) ﴾ [الرحمن] وقال تعالى : ﴿ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَالْجِبَالِ .. (٤٢) ﴾ [هود] وهى سفينة نوح عليه السلام . وقال تعالى : ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِى الْجَارِيَةِ (١١) ﴾ [الحاقة] أى : فى السفينة المعهودة . وجمع الجارية : الجوارى . وقال تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِى الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ (٣٢) ﴾ [الشورى] وحذفت الياء تخفيفاً من الجوارى فى رسم المصحف . وقوله تعالى : ﴿ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا (٣) ﴾ [الذاريات] قيل : هى السفن . وقيل : هى الرياح . وقيل : هى النجوم والكواكب . وقال تعالى : ﴿ وَالْفُلْكِ الَّتِى تَجْرِى فِى الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ .. (١٦٤) ﴾ [البقرة] [القاموس القويم] .

وجرت بهم السفينة ، لا بين موج هائج فحسب ، ولكن كان الموج كالجبال ، وهذا يدل على أنها مُسيَّرة بقوة عالية لا تؤثر فيها الأمواج ، ثم يجيء الحديث عن عاطفة الأبوة حين ينادى نوح ابنه :

﴿ .. وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ[1] يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ (٤٢) ﴾ [هود]

ورفض الابن مطلب أبيه معتمداً على أن الجبل يحميه

وفى هذا يقول الحق سبحانه مبيناً مُراد الابن فى مُخالفة مراد أبيه

﴿ قَالَ سَآوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي[2] مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ[3] بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ (٤٣) ﴾

هكذا ظن ابن نوح أنه سينجو إن آوى[4] إلى جبل ، لعل ارتفاع الجبل يعصمه من الغرق ، لكن نوحاً عليه السلام يعلم أن لا نجاة لكافر ، بل النجاة فقط هى لمن رحمه الله بالإيمان .

وهكذا فرَّق الموج بين نوح وابنه ؛ وغرق الابن .

---

(١) المعزل : اسم مكان . قال تعالى : ﴿ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ .. (٤٢) ﴾ [هود] أى : فى موضع عزل نفسه فيه جانباً ، ولم ينضم إلى ركاب السفينة مع أبيه نوح عليه السلام . [القاموس القويم] .

(٢) يعصمنى : يمنعنى ويحمينى من الماء فلا أغرق . والعصمة : المنع والحفظ .

(٣) حال بينهما يحول حولاً : حجز وفصل . قال تعالى : ﴿ .. وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (٤٣) ﴾ [هود] أى : حجز الموج وفصل بين نوح عليه السلام ، وابنه ؛ فكان من المغرقين . [القاموس القويم] بتصرف .

(٤) آوى : لجأ إلى جبل ولاذ به ؛ طلباً للحماية من الماء الغزير . وأوى إلى المكان ، وأوى إليه يأوى أويّا : نزله والتجأ إليه . قال تعالى : ﴿ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ .. (١٠) ﴾ [الكهف] أى : نزلوه والتجئوا إليه . [القاموس القويم] .

وأراد الحق سبحانه أن يُنهى الكلام عن نوح عليه السلام ، فجاء بلقطة استواء السفينة على الجودى .

ويقال : إن جبل الجودى يوجد فى الموصل ويقال : إنه ناحية الكوفة ، وإن كان هذا القول مجرد علم لا ينفع ، والجهل به لا يضر .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى(١) وَغِيضَ(٢) ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ(٣) عَلَى ٱلْجُودِىِّ وَقِيلَ بُعْدًا(٤) لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾

والبلع هو مرور الشىء من الحَلْق ليسقط فى الجوف ، وساعة أن يأتى فى القرآن أمر من الله تعالى مثل :

﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ ..(٤٤) ﴾ [هود]

فافهم أن القائل هو من تَنْصَاع له الأرض .

ولم يَقُل الله سبحانه : « قال الله يا أرض ابلعى ماءك » ؛ لأن هناك أصلاً متعيّناً وإنْ لم يقُله ، والحق سبحانه يريد أن ينمِّى فينا غريزة وفطنة الإيمان ؛ لأن أحداً غير الله تعالى ليس بقادر على أن يأمر الأرض بأن تبلع الماء .

---

(١) أقلعى : أمسكى (امتنعى) عن إنزال المطر . [كلمات القرآن] . والإقلاع عن الأمر : الكَفّ عنه .
وأقلع عن الشىء : كفّ عنه . وأقلعت السماء : كفَّت عن المطر . [القاموس القويم] .
(٢) غيض الماء : نقص وذهب فى الأرض [كلمات القرآن] .
وغاض الماء يغيض غيضاً : ذهب وابتلعته الأرض [القاموس القويم] .
(٣) استوت على الجودى : استقرت على جبل بقرب الموصل . [كلمات القرآن] .
وقيل : إن ذلك كان يوم عاشوراء ، فصامه نوح ومن كان معه من الوحش والخلق شكراً لله عز وجل . [مختصر تفسير الطبرى] .
(٤) بعداً : أى : هلاكاً وسحقاً . [كلمات القرآن] .

ويكون أمره سبحانه للسماء: ﴿وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي﴾ أى: أن توقف المطر.

وهكذا يُنهى الحق سبحانه الطوفان الذى أغرق الدنيا بأن أوقف المصبَّ، وأعطى الأمر للمصرف أن يسحب الماء.

ونحن نلاحظ عند سقوط المطر أن شبكة الصرف الصحىِّ تطفح إن كان هناك ما يسدُّ تصريف الماء؛ لأن أرض المدن حالياً صارت من الأسفلت الذى لا يمتص المياه؛ ولذلك نجد الجهات المختصة تجنِّد طاقاتها لإصلاح مواسير الصرف الصحى لتمتص مياه المطر حتى لا تتعطل حركة الحياة.

وأقول هنا: إن حُسن استخدام الماء من حُسن الإيمان؛ لأنى ألحظ أن الناس حين يتوضأون فهم يفتحون صنابير الماء بما يزيد كثيراً عن حاجتهم للوضوء الشرعى، فيجب ألا نرتكب إثم ترك الماء النقىِّ ليضيع دون جدوى[1].

وعلى الناس أن يدَّخروا الماء، ولا يُسيئوا استغلاله؛ لأن الماء حين يتوفَّر فهو يُحيى الموات، ونحن نحتاج الماء لاستزراع الصحارى، ونحتاج لتخفيف العبء على شبكات الصرف الصحىِّ.

باختصار؛ نحن نحتاج إلى حُسن استقبال نِعَمِ الله تعالى وحُسن التصرُّف فيها؛ لننعم بها، ونسعد بخيرها.

وقول الحق سبحانه:

﴿وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي .. (٤٤)﴾ [هود]

أى: اتركى المطر.. ومن ذلك أخذنا كلمة «قِلْع» الذى يوضع فوق السفن الشراعية الصغيرة، وهو الشِّراع.

---

(١) عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن النبى ﷺ مر بسعد وهو يتوضأ. فقال: ما هذا السرف؟ فقال: أفى الوضوء إسراف؟ قال: «نعم وإن كنت على نهر جار» أخرجه أحمد فى مسنده (٢/ ٢٢١) وابن ماجه فى سننه (٤٢٥) قال البوصيرى فى الزوائد: «إسنادُه ضعيف، لضعف حى بن عبد الله وابن لهيعة».

ويُقال: «أقلعت المركب» أى: تركت السكون الذى كانت عليه وهى واقفة على الشاطىء.

ويقول الحق سبحانه:

﴿وَغِيضَ الْمَاءُ .. (٤٤)﴾ [هود]

وبناها الحق سبحانه هنا للمجهول؛ لنعلم أن الله تعالى هو الذى أمر الماء بأن يغيض.

ومادة «غاض» تُستعمل لازمةً، وتُستعمل متعديةً[1].

ثم يقول سبحانه:

﴿وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ .. (٤٤)﴾ [هود]

أى: استقرت السفينة على جبل الجودى.

ويُنهى الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله:

﴿.. وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤٤)﴾ [هود]

وهو بعدٌ نهائىٌّ إلى يوم القيامة.

وتتحرك عاطفة الأبوة فى نوح عليه السلام، ويظهرها قول الحق سبحانه:

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ[2] (٤٥)﴾

---

(١) تستعمل «غاض» لازمة، وهى أن تكتفى بفاعلها فلا تحتاج لمفعول به، وذلك مثل: غاض الماء. أى: نقص. وقد تستعمل متعدية أى: تتعدى فاعلها إلى المفعول به. فتقول: أغاض الله ماءه (للبئر) أو: غاضه وغيَّضه.

(٢) أحكم: اسم تفضيل يفيد المبالغة فى الصفة. أى: أنه سبحانه وتعالى هو أفضل الحاكمين.
وأحكم الأمر: أتقنه. قال تعالى: ﴿ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ .. (٥٢)﴾ [الحج] أى: يبيِّنها ويجعلها مُتقَنة مُقنعة مُحكَمة. [القاموس القويم].

وعاطفة الأبوة عاطفة محمودة ، والحق سبحانه يشحن بها قلب الأب على قَدْر حاجة البنوة ، ولو لم تكن تلك العاطفة موجودة ، لما تحمَّل أىُّ أبٍ أو أىُّ أمٍّ متاعب تربية الأبناء .

وحتى نعلم أن الأنبياء لا بنوة لهم إلا بنوة الاتِّباع نجد المثل فى إبراهيم خليل الرحمن عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام ، حين قال فيه الحق سبحانه :

﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ (١) .. (١٢٤) ﴾ [البقرة]

أى : أن أداء إبراهيم عليه السلام للتكاليف كان على وجه التمام ، مثلما أراد أن يرفع القواعد من البيت ، فرفعها فوق قامته بالاحتيال ، فأحضر حجراً ووقف عليه ليُعلى جدار الكعبة .

وقال له الله تعالى :

﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا .. (١٢٤) ﴾ [البقرة]

لأنك مأمون على منهج الله وقادر على أن تنفِّذه بدقة ، فقال إبراهيم عليه السلام :

﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِي .. (١٢٤) ﴾ [البقرة]

فقال الحق سبحانه :

---

(١) ابتلى : اختبر وامتحن . بكلمات : بأوامر ونواهٍ . فأتمهنَّ : أدَّاهنَّ لله تعالى على الكمال . [كلمات القرآن] .

وقد اختلف فى تعيين الكلمات التى اختبر الله بها إبراهيم عليه السلام . قال ابن عباس : ابتلاه الله بالمناسك وعنه أيضاً : ابتلاه بالطهارة : خمس فى الرأس وخمس فى الجسد ، فى الرأس : قَصُّ الشارب ، والمضمضة ، والاستنشاق ، والسواك ، وفرق الرأس . وفى الجسد : تقليم الأظفار .

﴿ .. لا يَنَالُ عَهْدِي [1] الظَّالِمِينَ (١٢٤) ﴾ [البقرة]

من هذا نعلم أن النبوَّة ليس لها بنوَّة ، بل النبوَّة لها أتباع .

ويتضح ذلك أيضاً فى قول إبراهيم عليه السلام بعد أن استقرَّ فى ذهنه قول الحق سبحانه :

﴿ .. لا يَنَالُ عَهْدِى الظَّالِمِينَ (١٢٤) ﴾ [البقرة]

قال إبراهيم لربه سبحانه طلباً للرزق لمكة وأهلها :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ .. (١٢٦) ﴾ [البقرة]

هكذا طلب إبراهيم عليه السلام الرزق للمؤمنين ، لكن الحق سبحانه يبيِّن له أنه نقل المسألة إلى غير مكانها ؛ فالرزق عطاء ربوبية للمؤمن والكافر ، لكن تكليفات الألوهية هى للمؤمن فقط ؛ لذلك قال الحق سبحانه :

﴿ وَمَن كَفَرَ .. (١٢٦) ﴾ [البقرة]

أى : أن الرزق يشمل المؤمن والكافر ، عطاء من الربوبية .

ونريد أن نقول إنَّ عاطفة الأبوة والأمومة إنما تتناسب مع حاجة الابن تناسباً عكسيّاً ، فإن كان الابن قويّاً فعاطفة الأبوة والأمومة تقلُّ .

ومثال ذلك : أننا نجد شقيقين أحدهما غنى قائم بأمر الأبوين ويتكفَّل بهما ، بينما الابن الآخر فقير لا يقدر على رعاية الأبوين .

---

(١) العهد : الزمان والوصية والمَوْثِق والذِّمَّة والأمان . قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ .. (٢٧) ﴾ [البقرة] .

وعهد إليه بالأمر يعهد عهداً : أوصاه به وجعله فى ذمته وضمانه . قال تعالى : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ .. (٦٠) ﴾ [يس] . [القاموس القويم] .

وسنلحظ أن قلب الأب والأم يكون مع الفقير ، لا مع الغَنىِّ ، فعاطفة الأبوة والأمومة تكون مع الضعيف والمريض والغائب ، وكلما كان الابن فى حاجة ؛ كانت العاطفة معه .

وفى نداء نوح عليه السلام لربه سبحانه نلحظ أن نوحاً كان يملك المبرِّر طلباً لنجاة الابن ؛ لأن الحق سبحانه أمره بأن يحمل فى السفينة من كلٍّ زوجين اثنين وكذلك أهله ، فأراد نوح عليه السلام أن يطلب النجاة لابنه لأنه من أهله ، فقال :

﴿ .. رَبِّ إِنَّ ابْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (٤٥) ﴾ [هود]

إذن : فنوح عليه السلام يملك حق الدعاء ؛ لأنه يطلب تحقق وعد الله تعالى بأن يحمل أهله معه للنجاة .

وحين يقول نوح : ﴿وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ هو إقرار بأن الله سبحانه لا يخطىء ؛ لأن الابن قد غرق ، بل لا بد أن ذلك الغرق كان لحكمة .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّى أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٤٦) ﴾ (١)

---

(١) ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ .. (٤٦) ﴾ : أى : ليس من أهل ولايتك ودينك ، ولا ممن وعدتك أن تنجيه معك . ﴿ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ .. (٤٦) ﴾ : قيل : معناه ، أن سؤالك إياى ما تسأله فى ابنك المخالف لك عمل غير صالح . ﴿ .. إِنِّى أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٤٦) ﴾ : فى مسألتك إياى عن ذلك . [مختصر تفسير الطبرى] .

ووعظه يعظه وعظاً وعظة : نصحه بالطاعة وبالعمل الصالح ، وأرشده إلى الخير . والموعظة : ما يوعظ به من قول أو فعل . قال تعالى : ﴿ .. وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (٦٦) ﴾ [البقرة] . [القاموس القويم] .

ويريد الحق سبحانه هنا أن يُلفتَ نبيَّه نوحاً إلى أن أهليَّة الأنبياء ليست أهلية الدم واللحم ، ولكنها أهلية المنهج والاتِّباع ، وإذا قاس نوح - عليه السلام - ابنه على هذا القانون ، فلن يجده ابناً له .

ألم يقل نبينا ﷺ عن سلمان الفارسى : «سلمان منَّا آل البيت» [1] .

إذن : فالبنوة بالنسبة للأنبياء هى بنوة اتِّباع ، لا بنوة نَسَب .

وانظر إلى دقة الأداء فى قول الله تعالى :

﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ .. (٤٦) ﴾ [هود]

ثم يأتى سبحانه بالعلة والحيثية لذلك بقوله :

﴿ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ .. (٤٦) ﴾ [هود]

فكأن البنوة هنا عمل ، وليست ذاتاً ، فالذات منكورة هنا ، والمذكور هو العمل ، فعمل ابن نوح جعله غير صالح أن يكون ابناً لنوح .

وهكذا نجد أن المحكوم عليه فى البنوة للأنبياء ليس الدم ، وليس الشحم ، وليس اللحم ، إنما هو الاتِّباع بدليل أن الحق سبحانه وصف ابن نوح بقوله تعالى : ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ ولو كان عملاً صالحاً لكان ابنه .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ .. فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٤٦) ﴾ [هود]

---

(١) أخرجه الحاكم فى مستدركه (٣/ ٥٩٨) من حديث عمرو بن عوف المزنى . قال الذهبى والعجلونى : سنده ضعيف .

والحق سبحانه يطلب من نوح هنا أن يفكِّر جيِّداً قبل أن يسأل ، فلا غبار على الأنبياء حين يربِّيهم ربُّهم.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ[1] أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾﴾

وهنا يدعو نوح عليه السلام ربه سبحانه وتعالى أن يغفر له ما قاله ، وهو هنا يقرُّ بأنه لما أحبَّ أن يسأل نجاة ابنه لم يستطع أن يكتم سؤاله ، ولكن الحق سبحانه وتعالى وحده هو القادر على أن يمنع من قلبه مثل هذا السؤال ، وهذه قمة التسليم لله تعالى.

وقول نوح عليه السلام:

﴿إِنِّي أَعُوذُ بِكَ ..﴿٤٧﴾﴾ [هود]

يوضِّح لنا أن الإنسان لا يعوذ من شيء بشيء إلا إن كانت قوته لا تقدر على أن تمتنع عنه.

ولذلك يستعيذ نوح عليه السلام من أن يسأل ما ليس له به علم ، ويرجو مغفرة الله سبحانه وتعالى ورحمته حتى لا يكون من الخاسرين.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

---

(١) عاذ يعوذ عوذاً: لاذ ولجأ. وقال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾﴾ [الناس] ، أى: ألجأ إليه، وألوذ به، وأحتمى بحمايته [القاموس القويم].

﴿ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ ﴾ (١) (٢)

وقول الحق سبحانه:

﴿ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِّنَّا .. (٤٨) ﴾ [هود]

يدل على أن نوحاً عليه السلام قد تلقَّى الأمر بالنزول من السفينة ليباشر مهمته الإيمانية فى أرض فيها مقومات الحياة ، مما حمل فى تلك السفينة من كلٍّ زوجين اثنين ، ومن معه من المؤمنين الذين أنجاهم الله تعالى ، وأغرق مَنْ قالوا عليهم إنهم أراذل (٣).

وقول الحق سبحانه:

﴿ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ .. (٤٨) ﴾ [هود]

تضمَّن أهل (٤) نوح عليه السلام ومَنْ آمن به ، وكذلك أمم الوحوش والطيور والحيوانات والدواب.

---

(١) البركة: زيادة الخير والنماء والسعادة. قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٦) ﴾ [الأعراف] [القاموس القويم ١/ ٦٥].

(٢) يمسهم العذاب: يصيبهم ويؤذيهم. وقال تعالى: ﴿ .. وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا (٨٣) ﴾ [الإسراء] وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ .. (١١٣) ﴾ [هود]. [القاموس القويم].

(٣) الأراذل: جمع أرذل: وهو الدون من الناس، وقيل: هو الدون فى منظره وحالاته. وقيل: هو الردىء من كل شىء. وهم قد اعتبروهم أراذل لأنهم نسبوهم إلى مهنتهم كالحياكة والحجَامة. قاله الزجاج. [انظر: لسان العرب - مادة: رذل].

(٤) وقد استثنى الله عز وجل منهم امرأة نوح التى قال عنها رب العزة: ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ (١٠) ﴾ [التحريم] وخيانتها لنوح كانت فى الإيمان. قال ابن عباس: ما زنت امرأة نوح، إنما كانت خيانتها أنها كانت تخبر أنه مجنون، وكانت تطلع على سره فإذا آمن مع نوح أحد أخبرت الجبابرة من قوم نوح. [انظر: تفسير ابن كثير ٤/ ٣٩٣].

أى: أنها إشارة إلى الأمة الأساسية ، وهى أمة الإنسان وإلى الأم الخادمة للإنسان ، وهكذا توفرت مقومات الحياة للمؤمنين ، ويتفرَّغ نوح وقومه إلى المهمة الإيمانية فى الأرض.

وقول الحق سبحانه:

﴿ اهْبِطْ [1] بِسَلَامٍ مِّنَّا .. (٤٨) ﴾ [هود]

والمقصود بالسلام هو الأمن والاطمئنان ، فلم يَعُدْ هناك من الكافرين ما ينغِّص على نوح - عليه السلام - أمره ، ولن يجد من يكدِّر عليه بالقول:

﴿ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا .. (٣٢) ﴾ [هود]

ولن يجد مَنْ يتهمه بالافتراء.

ومَنْ بقى مع نوح هم كلهم من المؤمنين ، وهم قد شهدوا أن نجاتهم من الغرق قد تمت بفضل المنهج الذى بلَّغهم به نوح عن الله تعالى.

وقول الحق سبحانه :

﴿ وَبَرَكَاتٍ .. (٤٨) ﴾ [هود]

يعنى أن الحق سبحانه يبارك فى القليل ليجعله كثيراً.

ويقال: «إن هذا الشىء مبارك» كالطعام الذى يأتى به الإنسان ليكفى اثنين ، ولكنه فوجىء بخمسة من الضيوف ، فيكفى هذا الطعام الجميع.

إذن: فالشىء المبارك هو القليل الذى يؤدِّى ما يؤدِّيه الكثير ، مع مظنَّة أنه لا يفى.

---

(١) هَبَط يَهْبط هَبْطاً ، من باب ضرب : نزل من علو إلى سُفْل ، أو انحدر من عُلُو ، وفى لغة قليلة هبط يهبط من باب قعد هبوطاً ، قال تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ .. (٧٤) ﴾ [البقرة] كما دُكَّ الجبل حينما تجلى الله عليه (القاموس القويم بتصرف)

وكان يجب أن تأتى هنا كلمة ﴿وَبَرَكَاتٍ﴾ لأن ما يحمله نوح - عليه السلام - من كلٍّ زوجين اثنين إنما يحتاج إلى بركات الحق سبحانه وتعالى ليتكاثر ويكفى.

وقول الحق سبحانه:

﴿.. وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٨)﴾ [هود]

هذا القول يناسب الطبيعة الإنسانية، فقد كان المؤمنون مع نوح - عليه السلام - هم الصفوة، وبمضىِّ الزمن طرأت الغفلة على بعض منهم، ويأتى جيل من بعدهم فلا يجد الأسوة أو القدوة، ثم تحيط بالأجيال التالية مؤثرات تفصلهم تماماً عن المنهج.

وفى هذا يقول الرسول ﷺ: «ينام الرجل النومة فتُقبض الأمانة من قلبه، فيظل أثرها مثل أثر الوكْت [(١)]، ثم ينام النومة فتُقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها كأثر المَجْل [(٢)]، كجمر دحرجته على رجلك فنفط، فتراه مُنتبراً [(٣)]، وليس فيه شىء، ثم أخذ حصى فدحرجه على رجله، فيصبح الناس يتبايعون، لا يكاد أحد يؤدِّى الأمانة، حتى يقال: إن فى بنى فلان رجلاً أميناً، حتى يقال للرجل: ما أجلده! ما أظرفه! ما أعقله! وما فى قلبه

---

(١) الوكت: الأثر اليسير. قاله الهروى. وقال غيره: هو سواد يسير. وقيل: هو لون يحدث مخالف للَّون الذى كان قبله. [شرح النووى لصحيح مسلم - ٢/ ٥٢٨].

(٢) المجل: أن يكون بين الجلد واللحم ماء. والمجلة: قشرة رقيقة يجتمع فيها ماء من أثر العمل. مجلت اليد: نفطت من العمل فمرنت وصلبت وثَخُنَ جلدها وتعجَّر وظهر فيها ما يشبه البثر من العمل بالأشياء الصلبة الخشنة. [لسان العرب - مادة: مجل].

(٣) منتبراً: مرتفعاً. وكل ما رفعته فقد نبرته. وانتبر الجرح: ارتفع وورم. [لسان العرب - مادة: نبر] قال النووى فى شرحه لمسلم (٢/ ٥٢٨): «منه المنبر لارتفاعه وارتفاع الخطيب عليه».

مثقال حبة من خَرْدل [(١)] من إيمان» [(٢)].

وهكذا تطرأ الغفلة على أصحاب المنهج ، ويقول ﷺ : «تُعرض الفتَن على القلوب كالحصير عوداً عوداً ، فأيّما قلب أشْرِبَها [(٣)] نُكتت [(٤)] فيه نَكتة سوداء ، وأيما قلب أنكرها نكتت فيه نكتة بيضَاء ، حتى تصير على قلبين ، على أبيض مثل الصفا لا تضرُّه فتنة مادامت السموات والأرض ، والآخر أسود مُرْبادّا [(٥)] كالكوز مُجَخِّياً [(٦)] لا يعرف معروفاً ، ولا ينكر منكراً إلا ما أشْرِبَ مِنْ هَواه» [(٧)].

وأعوذ بالله تعالى من طروء فتنة الغفلة على القلوب.

والحق سبحانه يتحدث فى هذه الآية عن الذين بقوا مع نوح عليه السلام وهم صفوة من المؤمنين ، لكن منهم من ستطرأ عليه الغفلة ، وسيمتِّعهم الله سبحانه وتعالى أيضاً بمتاع الدنيا ، ولن يضنَّ عليهم ، ولكن سَيَلحقُهم العذاب.

---

(١) الخردل : نوع من أنواع الحبوب التوابل . يضرب مثلاً فى الصغر ، قال تعالى : ﴿ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (١٦) ﴾ [لقمان].

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه (٧٠٨٦) ومسلم فى صحيحه (١٤٣) من حديث حذيفة بن اليمان رضى الله عنه.

(٣) أى : خالط قلبه حُبُّ الفتن . وكأنه أُسقاها . ومنه قوله تعالى عن اليهود : ﴿ وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ .. (٩٣) ﴾ [البقرة] أى : خالط قلوبهم حب عبادة العجل من دون الله . [وراجع : لسان العرب - مادة : شرب].

(٤) النكت : أن تضرب فى الأرض بقضيب فيؤثر فيها . أى : أن الفتنة تترك أثراً فى القلب . [راجع : مختار القاموس - مادة : نكت].

(٥) مرباداً : أسود عليه غبرة . والمقصود من حيث المعنى لا الصورة . ذكره ابن منظور فى لسان العرب . والتربد : التلون . يقال : لما رآنى تَربَّد لونه . أى : تراه أحمر مرة ، ومرة أخضر ، ومرة أصفر . [اللسان].

(٦) الكوز المجخى : أى : المائل الذى يكبّ ويصبّ ما فيه . فالمجخى هنا هو : المائل عن الاستقامة والاعتدال ، فشبه القلب الذى لا يعى خيراً بالكوز المائل الذى لا يثبت فيه شىء . لأن الكوز إذا مال انصبَّ ما فيه . [اللسان - مادة : ج خ ى].

(٧) أخرجه أحمد فى مسنده (٥/ ٣٨٦ ، ٤٠٥) ، ومسلم فى صحيحه (١٤٤) من حديث حذيفة بن اليمان.

فإذا ما جاء جيل على الغافلين فهو يخضع لمؤثِّرين اثنين :

المؤثر الأول : غفلته هو .

المؤثر الثانى : أسوة الغافلين من السابقين عليه .

ونحن نعلم أن منْ ذرية نوح عليه السلام «قوم عاد» الذين أرسل الحق سبحانه إليهم هوداً عليه السلام ، وكذلك «قوم ثمود» الذينَ أرسل إليهم أخاهم صالحًا عليه السلام ، وقوم لوطٍ ، وهؤلاء جميعاً رَانَتِ [1] الغفلة على قلوبهم .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾

وكلمة «تلك» إشارة وخطاب ، والمخاطب هو رسول الله ﷺ ، و«التاء» إشارة إلى السفينة وما تبعها من أنباء الغيب ، ولم يكن رسول الله ﷺ معاصراً لها ولا يعلمها هو ، ولا يعلمها أحد من قومه .

وأنت يا رسول الله لم يُعلَم عنك أنك جلستَ إلى معلِّم [2] ، ولم يذكر عنك أنك قرأت فى كتاب ؛ ولذلك يأتى فى القرآن :

---

(١) ران الشيء ريناً : صدىء ، مأخوذ من الصدأ يعلو السيف فيذهب ببريقه ، ويُستعار للغشاوة تغطى على القلب بسبب الذنوب ، وران الصدأ عليه : غلب عليه وغطّاه كله . قال تعالى : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [المطففين] أى : غطت غشاوة الذنوب على قلوبهم . [القاموس القويم] .

(٢) حاول مشركو قريش أن يطعنوا فى أن القرآن وحى من عند الله ، فقال عنهم سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [النحل] فاتهموه بالتعلم من غلام نصرانى أعجمى ، وكان بياعاً يبيع عند الصفا . يقول ابن كثير فى تفسيره (٢/ ٥٨٦) : «ربما كان رسول الله ﷺ يجلس إليه ويكلمه بعض الشيء ، وذاك كان أعجمى اللسان لا يعرف العربية ، أو أنه كان يعرف الشيء اليسير بقدر ما يرد جواب الخطاب فيما لا بد منه» .

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ (١) ..(٤٤)﴾[القصص]

وجاء:

﴿.. وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ (٢) أَيُّهُمْ يَكْفُلُ (٣) مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٤٤)﴾ [آل عمران]

إذن: فما دمتَ يا محمد لم تقرأ ولم تتعلَّم عن معلِّم فمَن علَّمك ؟

إنما عَلَّمك الله سبحانه.

وكأن الله سبحانه وتعالى علَّم رسوله ﷺ قصة نوح عليه السلام وأراد بها إلقاء الأسوة وإلقاء العبرة لرسول الله ﷺ حتى يثق بأن كل رسول إنما يصنع حركته الإيمانية المنهجية بعين من الله ، وأنه سبحانه لن يسلِّمه إلى خصومه ولا أعدائه.

ولذلك يأتى القول الكريم: ﴿فَاصْبِرْ﴾ ؛ لأنك قد عرفت الآن نتيجة صبر نوح عليه السلام الذى استمر ألف سنة إلا خمسين ، ويأتى بعدها قوله سبحانه:

---

(١) ﴿وَمَا كُنتَ﴾ : خطاب من الله تعالى لنبيه محمد ﷺ ﴿بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ﴾ : أى: بجانب الجبل أو الوادى أو المكان الغربى من موسى حين المناجاة. ﴿إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ (٤٤)﴾ [القصص] : أى: أوحينا إلى موسى - عليه السلام - الأمر بالرسالة إلى فرعون وقومه. [تفسير الجلالين، ومختصر تفسير الطبرى] بتصرف.

(٢) الأقلام - هنا - جمع قلم بمعنى السهم أو خشبة تشبهه ، يكتب عليه رمز يدل على مقدار يعطى لمن يخرج باسمه، وكانوا يستعملونه فى القمار - وقد نهى الإسلام عن ذلك - وكانوا يستعملونه أيضاً فى القرعة. ومن استعماله فى القرعة قوله سبحانه: ﴿إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ .. (٤٤)﴾[آل عمران] فالأقلام هنا : سهام الاقتراع ، وقد أجريت القرعة ففاز سهم زكريا - عليه السلام - فكفل مريم. [القاموس القويم].

(٣) كفل يكفل كفلاً وكفالة: قام بالتربية والرعاية لمن يكفله. وقوله سبحانه: (يَكْفُلُ مَرْيَمَ): أى: يرعاها ويربيها. وقال تعالى: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ..(٣٧)﴾ [آل عمران] أى: جعله كافلاً لها. [القاموس القويم].

﴿ .. إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ (٤٩) ﴾ [هود]

* * *

تأتى بعد ذلك قصة قوم عاد بعد قصة نوح ، ونحن نعلم أن الحق سبحانه وتعالى لا يُرسل رسولاً إلا إذا عَمَّ الفساد.

إذن: فقد حصلت الغفلة من بعد نوح ، وانضمَّت لها أسوة الأبناء بالآباء فانطمس المنهج ، وعزَّ على الموجودين أن يقيموه.

والله سبحانه وتعالى لا يبعث برسل جُدد إلا إذا لم يوجد فى الأمة من يرفع كلمة الله ؛ لأننا نعلم أن المناعة الإيمانيةَ فى النفس الإنسانية قد تكون مناعة ذاتية ، بمعنى أن الإنسان قد تُحدِّثه نفسه بالانحراف عن منهج الله ، لكن النفس اللوَّامة تردعه وتردُّه إلى الإيمان.

أما إذا تصلَّبتْ ذاتُه ، ولم توجد لديه نفس لوَّامة ، فالمناعة الذاتية تختفى ، ولكن قد يقوم المجتمع المحيط بلَوْمه.

ولكن إذا اختفت المناعة الذاتية ، والمناعة من المجتمع فلا بد أن يبعث ربُّ العزة سبحانه برسول جديد ، وبيِّنة جديدة ، وبرهان جديد.

هكذا حدث من بعد نوح عليه السلام.

ولذلك يأتى قول الحق سبحانه:

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ[1] أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ[2] (٥٠) ﴾

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٢/ ٢٢٤) : «هؤلاء هم عاد الأولى الذين ذكرهم الله، وهم أولاد عاد بن إرم، كانت مساكنهم باليمن بالأحقاف، وهى جبال الرمل» وقد قال القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٣٦٩) : «قيل: هُمْ عادان: عاد الأولى، وعاد الأخرى، فهؤلاء هم الأولى، وأما الأخرى فهو شداد ولقمان المذكوران فى قوله تعالى: ﴿ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) ﴾ [الفجر] ».

(٢) ﴿ .. إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ (٥٠) ﴾ [هود] كلمة (إن) هنا نافية بمعنى (ما) النافية. أى: ما أنتم إلا مفترون.

يفتتح الحق سبحانه الآية بتحنينهم ومؤانستهم بالمرسَل إليهم ، فيُخبرهم أنه أخوهم ، ولا يمكن للأخ أن يريد لهم العَنَتَ ، بل هو ناصح ، مأمون عليهم ، وعلى ما يبلغهم به.

وحين يقول لهم:

﴿ يَا قَوْمِ .. (٥٠) ﴾ [هود]

فهذا للإيناس أيضاً.

ثم يدعوهم إلى عبادة الله تعالى وحده ؛ لأنهم اتخذوا غير الله إلهاً ، وهذا قمة الافتراء.

والله سبحانه لم يقل:

﴿ .. إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ مُفْتَرُونَ (٥٠) ﴾ [هود]

إلا لأن الفساد قد طَمَّ[1].

ويقول سبحانه بعد ذلك ما جاء على لسان هود:

﴿ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ[2] أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ[3] ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٥١) ﴾

---

(١) يقال للشيء الذى يكثر حتى يعلو : قد طَمَّ. ويقال : طَمَّ الماء إذا كثر. طَمَّ: غَمَر، ولذلك قيل ليوم القيامة : ﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَىٰ (٣٤) ﴾ [النازعات] . [راجع : لسان العرب، والقاموس القويم].

(٢) كلمة (إن) فى هذه الآية الكريمة، نافية بمعنى (ما) النافية؛ أى: ما أجرى إلا على الذى فطرنى ، أو ليس أجرى إلا على الذى فطرنى، وهو الله سبحانه وتعالى. أجر فلان فلاناً - من بابى ضَرَبَ ونصر - أجْرا : أثابه على عمل ، أو صار أجيراً له وبالوجهين فُسِّر قوله تعالى : ﴿ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ .. (٢٧) ﴾ [القصص] وسمى المهر أجراً مجازاً - قال تعالى : ﴿ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ .. (٦) ﴾ [الطلاق] أى مهورهن - وقوله تعالى : ﴿ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ .. (١١٢) ﴾ [البقرة] أى ثوابه (القاموس القويم بتصرف)

(٣) فطر الله الخلق : خلقهم وبدأهم؛ فهو فاطر. قال تعالى : ﴿ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ .. (١٤) ﴾ [الأنعام] أى: خالقهما. وقوله سبحانه : ﴿ فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ .. (٥١) ﴾ [الإسراء] أى: خلقكم أول مرة فى الدنيا. [القاموس القويم].

وكأن هوداً عليه السلام يقول لهم : ما الذى يشقُّ عليكم فيما آمركم به وأدعوكم إليه ، إننى أقدِّم لكم هذا البلاغ من الله تعالى ، ولا أسألكم عليه أجراً ، فليس من المعقول أن أنقلكم مما ألفتم ، ثم آخذ منكم مالاً مقابل ذلك ، ولا يمكن أن أجمع عليكم مشقة تَرْك ما تَعوَّدْتُم عليه وكذلك أجر تلك الدعوة.

وما دُمْتُ لن آخذ منكم أجراً ، إذن: فلا مشقة أكلِّفكم بها ، كما أننى فى غنًى عن ذلك الأجر ؛ لأن أجرى على من أرسلنى.

﴿ .. إِنْ أَجْرِىَ إِلاَّ عَلَى الَّذِى فَطَرَنِى[1] أَفَلا تَعْقِلُونَ (٥١) ﴾ [هود]

أى: أنَّ أجرى على مَنْ خَلَقنى مُعَدّاً لهذه الرسالة ؛ لأن الفطرة تعنى التكوين الأساسى للإنسان.

والحق سبحانه قد أعدَّ هوداً عليه السلام ليكون رسولاً ، ونحن نعلم - أيضاً أن الأجر يكون عادة مقابلاً للمنفعة.

وسبق أن ضربنا المثل بمن يشترى بيتاً ، فهو يدفع ثمن البيت لصاحبه ، وتُسمَّى هذه العملية بيعاً وشراءً.

أما إذا استأجر الإنسان بيتاً فهو يدفع إيجاراً مقابل انتفاعه بالسكن فيه.

وقول هود عليه السلام:

﴿ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً .. (٥١) ﴾ [هود]

يفيد أنه كان من الواجب أن يدفعوا أجراً كبيراً مقابل منفعتهم بما يدعوهم إليه ؛ لأن الأجر الذى تدفعونه فى المستأجرات العامة لكم إنما يكون مقابلاً لمنافع موقوتة ، لكن ما يقدمه لهم هود عليه السلام هو منفعة غير موقوتة !

---

(١) فطر الله الخلق ، كنصر : خلقهم وبدأهم ، فهو فاطر ، قال تعالى : ﴿ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ..(١٤) ﴾ [الأنعام] خالقها - وفطر الشىء شقه فَطْراً والجمع فطور ، والاسم الفطرة قال تعالى : ﴿ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا .. (٣٠) ﴾ [الروم] [القاموس القويم باختصار]

ولذلك ترك هود عليه السلام الأجر لمن يقدر عليه ، وهو الله سبحانه وتعالى. فهو القادر على كل شيء .

وقد أوضحنا من قبل أن كل مواكب الرسل جاءت بهذه العبارة [(١)] :

﴿ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا .. (٥١) ﴾ [هود]

إلا إبراهيم وموسى عليهما السلام ؛ فسيدنا إبراهيم لم يَقُلْها بسبب أبيه ، وسيدنا موسى لم يقلها [(٢)] ؛ لأن فرعون قال له :

﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا ..(١٨) ﴾ [الشعراء]

إذن : كان يجب على قوم هود أن يعقلوا الفائدة الجَمَّة ، وهى المنهج الرِّسالى الذى جاء به هود عليه السلام .

ثم يقول الحق سبحانه ما جاء على لسان هود عليه السلام مخاطباً قومه :

﴿ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا [(٣)] وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ (٥٢) ﴾

---

(١) قالها **نوح** عليه السلام : [سورة يونس ، آية ٧٢] ، [سورة هود ، آية ٢٩] ، [الشعراء ، آية ١٠٩] . وقالها **هود** عليه السلام : [هود : ٥١] ، [الشعراء : ١٢٧] . وقالها **صالح** عليه السلام لقومه ثمود : [الشعراء ١٤٥] وقالها **لوط** عليه السلام : [الشعراء : ١٦٤] . وقالها **شعيب** [الشعراء : ١٨٠] .

(٢) وذلك أن فرعون مَنَّ على موسى عليه السلام بهذا عند طلبه خروج بنى إسرائيل معه ، فقال فرعون : ﴿ .. ألم نربك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرك سنين (١٨) وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين (١٩) ﴾ [الشعراء] فلا يناسب لموسى بعد هذا أن يقول ما قاله إخوانه من الرسل .

(٣) مدراراً : صيغة مبالغة ، أى : كثير غزير متتابع . وقال الله سبحانه : ﴿ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا .. (٦) ﴾ [الأنعام] أى : تدر عليهم مطراً غزيراً . [القاموس القويم] . وقد وردت كلمة (مدراراً) فى القرآن الكريم ثلاث مرات : فى الآية السادسة من سورة الأنعام ، وفى الآية الثانية والخمسين من سورة هود ، وفى الآية الحادية عشرة من سورة نوح .

وهكذا نعلم أن الاستغفار هو إقرار بالتقصير وارتكاب الذنوب ، فنقول : يا رب اغفر لنا .

وساعة تطلب المغفرة من الله تعالى ، فهذا إعلان منك بالإيمان ، واعتراف بأن تكليف الحق لك هو تكليف حق .

وما دام الإنسان قد طلب من الله تعالى أن يغفر له الذى فات من ذنوب ، فعليه ألا يرتكب ذنوباً جديدة ، وبعد التوبة على العبد أن يحرص على تجنب المعاصى .

وعلى الإنسان أن يتذكّر أن ما به من نعمة فمن الله ، وأن الكائنات المسخرة هى مسخرة بأمر الله تعالى ؛ فلا تنسيك رتابة [1] الحياة عن مسببها الواهب لكل النعم .

والحق سبحانه وتعالى حين يرسل رسولاً ، فأول ما ينزل به الرسول إلى الأمة هو أن يصحِّح العقيدة فى قمتها ، ويدعوهم إلى الإيمان بإله واحد يتلقَّون عنه «افعل» و«لا تفعل» .

وهنا يكون الكلام من هود عليه السلام إلى قومه «قوم عاد» ، والدعوة إلى الإيمان بإله واحد وعبادته ، والأخذ بمنهجه لا يمكن أن يقتصر على الطقوس فقط من الشهادة بوحدانية الله تعالى ، والصلاة ، والصيام ، والزكاة ، والحج .

ولكن عبادة الله تعالى هى أن تؤدِّى الشعائر والعبادات ، وتتقن كل عمل فى ضوء منهج الله ، فلا تعزل الدين عن حركة الحياة .

والذين يخافون من دخول الإسلام فى حركة الحياة ، يريدون منَّا أن نقصر الدين على الطقوس ، ونقول لهم : إن الإسلام حينما دخل فى حركة الحياة غزا الدنيا كلها ، وحارب حضارتين عريقتين ؛ حضارة الفرس فى الشرق ، وحضارة الرومان فى الغرب .

---

(١) رتابة الحياة : أى : سيرها على نظام واحد ، لا يتخلف ، فيبدو لك أنه يسير بنفسه وبذاته وتنسى مُسيِّره ومُسبِّبه . قال فى اللسان (مادة : رتب) : «الراتب : الثابت الدائم . والرُّتُب : الشىء المقيم الثابت» .

وهؤلاء كانوا أمماً لها حضارات قديمة وقوية ، وثقافات وقوانين ، ومع ذلك جاء قوم من البدو الأمِّيين ؛ يقود عقيدتهم رجلٌ أمِّيٌّ [(١)] أرسله الله سبحانه وتعالى ؛ فيطيح بكل هؤلاء ؛ نظماً وثقافات وارتقاءات بمستوى الحياة إلى مستوى طموح العقول.

يريد هؤلاء - إذن - أن يقوقعوا الإسلام فى الأركان الخمسة فقط ؛ ليعزلوه عن حركة الحياة .

ونقول لهم: لا ، لا يمكنكم أن تقصروا العبادات على الأركان الخمسة فقط ؛ لأن العبادة معناها أن يوجد عابد لمعبود حقٍّ ، وأن يطيع العابد أوامر المعبود ؛ وتتمثَّل أوامر المعبود فى «افعل» و «لا تفعل» ؛ وما لم يَرِدْ فيه «افعل» و «لا تفعل» ؛ فهو مباح ؛ إن شئت فعلته وإن شئت لم تفعَله ؛ وبفعله أو عدم فعله لا يفسد الكون.

إذن: فالعبادة هى كل أمر صادر من الله تعالى ؛ فلا تعزلوها فى الطقوس ؛ لأن رسول الله ﷺ أبلغنا ؛ وأوضح لنا أن أركان الإسلام الخمس هى التى بنى عليها الإسلام ؛ وليست هى كل الإسلام [(٢)] .

إذن: فالإسلام بناء يقوم على أركان ؛ لذلك لا يمكن أن نحصر الإسلام فى أركانه فقط ؛ فالإسلام هو كل حركة فى الحياة ، ولا بد أن

---

(١) هو رسول الله محمد ﷺ ، وأمية رسول الله ﷺ أمر أكد عليه رب العزة فى القرآن، فقال: ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ ..(١٥٧) ﴾ [الأعراف].
الأمى نسبة إلى الأم ، كأنه باق على حالته التى وُلد عليها مفطوراً بفطرة الله بالتلقى عنه إلهاماً ووحياً ، فما نطق عن هوى ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤) ﴾ [النجم] وهذا الوصف من خصوصيات النبى ، وهى تشريف له ، لأنه إذا كان أمياً وأنزل الله عليه الكتاب المعجز ، فلا شك أنه من عند الله والأمية دليل على أن علمه من الله مباشرة ، وليس من البشر ، ولو لم يكن أمياً لقيل أنه قرأ ونقل عن غيره . « من أقوال الشيخ الشعراوى » م. س

(٢) عن ابن عمر رضى الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ : «بنى الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والحج، وصوم رمضان» أخرجه البخارى فى صحيحه (٨) ومسلم فى صحيحه (١٦).

تنتظم حركات البشر تبعاً لمنهج الله ، لتنتظم الحياة كما انتظم الكون من حولنا .

فالعبادة تستوعب كل حركة فى الحياة ، وقد فهم البعض خطأ أن العبادة تنحصر فى باب العبادات فى تقسيم الفقهاء ، وأغفلوا أن باب المعاملات هو من العبادة أيضاً ، واستقامة الناس فى المعاملات تؤدى إلى انتظام حياة الناس .

وفى الآية الكريمة التى نحن بصدد خواطرنا عنها يقول الحق سبحانه :

﴿ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ .. (٥٢) ﴾ [هود]

والاستغفار [1] لا يكون إلا عن ذنوب سبقت ؛ وإذا كان هذا هو أول ما قاله هود عليه السلام لقومه ؛ إذن : فالاستغفار هنا عن الذنوب التى ارتكبوها مخالفة لمنهج الرسول الذى جاء من قبله ، أو هى الذنوب التى ارتكبوها بالفطرة .

ثم يدعوهم بقوله : ﴿ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ .. (٥٢) ﴾ [هود]

والتوبة تقتضى العزم على ألا تُنشئوا ذنوباً جديدة .

ثم يقول الحق سبحانه فى نفس الآية :

﴿ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ .. (٥٢) ﴾ [هود]

ولقائل أن يقول : وما صلة الاستغفار بهذه المسألة الكونية ؟

ونقول : إن للكون مالكاً لكلِّ ما فيه ؛ جماده ونباته وحيوانه ؛ وهو سبحانه قادر ، ولا يقدر كائن أن يعصى له أمراً ؛ وهو القادر أن يخرج الأشياء عن طبيعتها ؛ فإذا جاءت غيمة وتحسب أنها ممطرة ؛ قد يأمرها الحق سبحانه فلا تمطر .

---

(١) غفر الذنب يغفره - كضرب - غفرا وغُفرانا ومغفرة . ستره وعفا عنه ولم يعاقب فاعله ، قال تعالى : ﴿ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ .. (٥٨) ﴾ [البقرة] والغافر : اسم فاعل وغفور وغفار : صيغتان للمبالغة وكلها من أسماء الله الحسنى ، وغفران مصدر ، والمغفرة مصدر ميمى ، واستغفر طلب الغفران لنفسه ، قال تعالى : ﴿ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ .. (٦٤) ﴾ [النساء] طلب من الله أن يغفر لهم . [القاموس القويم باختصار]

مثلما قال سبحانه فى موضع آخر من كتابه الكريم :

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ (١) عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ (٢) رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) ﴾ [الأحقاف]

إذن : فلا تأخذ الأسباب على أنها رتابة ؛ وإنما ربُّ الأسباب يملكها ؛ فإن شاء فعل ما يشاء .

وإذا ما عبدتَ الله تعالى العبادة التى تنتظم بها كل حركة فى الحياة ؛ فأنت تُقبل على عمارة الأرض ؛ وتوفِّر لنفسك القُوْتَ (٣) باستنباطه من الأسباب التى طمرها (٤) الله سبحانه وتعالى فى الأرض .

والقوت - كما نعلم - من جنس الأرض ؛ لذلك لا بد أن نزرع الأرض ؛ وتَمُدَّ البذور جذورها الضارعة المسبِّحة الساجدة لله تعالى ؛ فيُمطر الحقُّ سبحانه السماءَ ؛ فتأخذ البذور حاجتها من الماء المتسرِّب إليها عبر الأرض ؛ ونأخذ نحن أيضاً حاجتنا من هذا الماء .

---

(١) أى : لما رأوا العذاب مستقبلهم اعتقدوا أنه عارض مطر ففرحوا واستبشروا به ، وقد كانوا ممحلين محتاجين إلى المطر . (تفسير ابن كثير ٤/ ١٦٠) .

(٢) وذلك أنهم قالوا لرسولهم هود عليه السلام : ﴿ .. فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٢) ﴾ [الأحقاف] .

(٣) القوت : الطعام يحفظ على البدن حياته ، وجمعه «أقوات» . قال تعالى : ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ .. (١٠) ﴾ [فصلت] أى : أقوات جميع سكان الأرض من إنسان وحيوان وكل شىء حى إلى آخر الدهر . وأقات النبات أو الحيوان : أمدَّه بقُوته الذى يحفظ حياته . وأقات عليه : حفظه وحفظ بقاءه . قال تعالى : ﴿ .. وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا (٨٥) ﴾ [النساء] أى : غالباً مقتدراً ، أو حافظاً واقياً حياته . [القاموس القويم] بتصرف .

(٤) طمرها : دفنها وأودعها وخبأها فى باطن الأرض . والمطمورة : حفيرة تحت الأرض أو مكان تحت الأرض قد هُيىء خفيّا يطمر فيه الطعام والمال . أى : يخبأ . [لسان العرب - مادة : طمر] .

والسماء هى كل ما عَلاكَ فأظلَّكَ [(١)] ؛ أما السماء العليا فهذا موضوع آخر ، وكل الأشياء دونها.

وانظروا قول الحق سبحانه:

﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ (١٥)﴾ [الحج]

أى: من كان يظن أن الله تعالى لن ينصر رسوله فليأت بحبل أو أى شىء ويربطه فيما علاه ويعلِّق نفسه فيه ؛ ولسوف يموت، وغيظه لن يرحل عنه.

﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا .. (٥٢)﴾ [هود]

والمدرار: هو الذى يُدرُّ بتتابع لا ضرر فيه ؛ لأن المطر قد يهطل بطغيان ضارٍّ ، كما فتح الله سبحانَه أبواب السماء بماء منهمر.

إذن: المدرار هو المطر الذى يتوالى تواليًا مُصلحاً لا مُفسداً.

ولذلك كان ﷺ يقول حين ينزل المطر: «اللهم حوالينا ولا علينا» [(٢)].

ومتى أرسل المطر مدراراً متتابعاً مصلحاً ؛ فالأرض تخضرُّ ؛ وتعمر الدنيا ؛ ونزداد قوة إلى قوتنا.

---

(١) قال الزجاج: السماء فى اللغة: يقال لكل ما ارتفع وعلا: قد سما يسمو. وكل سقف فهو سماء. والسماء: كل ما علاك فأظلك، ومنه قيل لسقف البيت سماء. [اللسان: مادة سمو].

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه (٨٩٧)، والبخارى فى صحيحه (٩٣٣)، فعن أنس بن مالك قال: أصابت الناس سنة على عهد النبى ﷺ فبينا النبى ﷺ يخطب فى يوم جمعة قام أعرابى فقال: يا رسول الله هلك المال وجاع العيال، فادع الله لنا. فرفع يديه - وما نرى فى السماء قزعة - فو الذى نفسى بيده ما وضعها حتى ثار السحاب أمثال الجبال، ثم لم ينزل عن منبره حتى رأيت المطر يتحادر على لحيته ﷺ، فمطرنا يومنا ذلك، ومن الغد وبعد الغد، والذى يليه حتى الجمعة الأخرى، وقام ذلك الأعرابى فقال: يا رسول الله تهدَّم البناء، وغرق المال ؛ فادع الله لنا، فرفع يديه فقال: «اللهم حوالينا ولا علينا».

أما مَنْ يتولَّى [(١)] ؛ فهو يُجرم فى حقِّ نفسه ؛ لأن إجرام العبد إنما يعود على نفسه ؛ فلا تظنّ أن إجرام أىِّ عبدٍ بالمعصية يؤذى غيره [(٢)] .

والحق سبحانه يقول:

﴿ .. وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٤) ﴾ [يونس]

ويأتى الحق سبحانه من بعد ذلك بالردِّ الذى قاله قوم عاد:

﴿ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ [(٣)] وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (٥٣) ﴾

وهم هنا ينكرون أن هوداً قد أتاهم ببيِّنة أو مُعجزةٍ .

والبينِّة - كما نعلم - هى الأمارة الدالة على صدق الرسول.

وصحيح أن هوداً هنا لم يذكر معجزته ؛ وتناسوا أن جوهر أى معجزة هو التحدى ؛ فمعجزة نوح عليه السلام هى الطوفان ، ومعجزة إبراهيم عليه السلام أن النار صارت برداً [(٤)] وسلاماً عليه حين ألقوه فيها.

ونحن نلحظ أن المعجزة العامة لكل رسول يمثلها قول نوح عليه السلام:

---

(١) يتولى: يُعرض. والتولّى: الإعراض والإدبار. ومنه قوله تعالى: ﴿ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٨٢) ﴾ [آل عمران].

(٢) والحق سبحانه يقول: ﴿ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١١١) ﴾ [النساء] والإثم: الذنب، وعاقبته إنما تعود على نفسه.

(٣) بينة: أى: دليل وبرهان وحجة واضحة لا شك فيها. وقال تعالى: ﴿ كَمْ آتَيْنَاهُم مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ .. (٢١١) ﴾ [البقرة] وقال تعالى: ﴿ .. حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ (١) ﴾ [البينة]. [القاموس القويم] بتصرف.

(٤) البرد: ضد الحر. قال بعض العلماء: جعل الله فى النار برداً يرفع حرها، وحراً يرفع بردها، فصارت سلاماً عليه. قال أبو العالية: ولو لم يقل «برداً وسلاماً» لكان بردها أشد عليه من حرها، ولو لم يقل «على إبراهيم» لكان بردها باقياً على الأبد. انظر تفسير القرطبى (٦/ ٤٤٨٢).

﴿ .. يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي [١] وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً [٢] ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلا تُنظِرُونِ (٧١) ﴾ [يونس]

أى: إن كنتم أهلاً للتحدى ، فها أنا ذا أمامكم أحارب الفساد ، وأنتم أهل سيطرة وقوة وجبروت وطغيان.

وأحْكموا كيدكم ؛ لكنكم لن تستطيعوا قتل المنهج الربانى ؛ لأن أحداً لن يستطيعَ إطفاء نور الله فى يد رسول من رسله ؛ أو أن يخلِّصوا الدنيا منه بقتله.. ما حدث هذا أبداً.

إذن: فالبيِّنة [٣] التى جاء بها هود عليه السلام أنه وقف أمامهم ودعاهم إلى ترك الكفر ؛ وهو تحدى القادرين عليه ؛ لأنهم أهل طغيان ؛ وأهل بطش ؛ ومع ذلك لم يقدروا عليه ؛ مثلما لم يقدر كفار قريش على رسولنا ﷺ .

ونحن نعلم أن رسول الله ﷺ قد جاء ومعه المعجزة الجامعة الشاملة وهى القرآن الكريم ؛ وسيظل القرآن معجزة إلى أن تقوم الساعة.

ونعلم أن غالبية الرسل - عليهم جميعاً السلام - قد جاءوا بمعجزات حسية كونية ؛ انتهى أمدها بوقوعها ، ولولا أن القرآن يخبرنا بها ما صدَّقناها ، مثلها مثل عود الثقاب يشتعل مرة ثم ينطفىء.

---

(١) مقامى (بضم الميم) : أى : إقامتى بينكم. ومنه قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا .. (١٣) ﴾ [الأحزاب] أى: لا إقامة لكم. راجع تفسير ابن كثير.

(٢) الغمة: التباس الأمر وعدم وضوحه. وقال تعالى: ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ .. (٥٧) ﴾ [البقرة]. [القاموس القويم].

(٣) أبان الشىء يبين بياناً أى : ظهر واتضح ، فهو بين ، وهى بينة أى ظاهر وظاهرة ، ويستعمل البين والبينة بمعنى المظهر والمظهرة والموضح والموضحة ، وبالمعنيين يفسر قوله تعالى :﴿ كَمْ آتَيْنَاهُم مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ .. (٢١١) ﴾ [البقرة] أى واضحة لا شك فيها ، والبينة الحجة والبرهان يقول الحق : ﴿ .. حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ (١) رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ .. (٢) ﴾ [البينة] وتبين الأمر : وضح وظهر . (القاموس القويم)

فمثلاً شفى عيسى - عليه السلام - الأكمه [(١)] والأبرص [(٢)] - بإذن ربه - فمَنْ رآه آمن به ، ومَنْ لم يَرَهُ قد لا يؤمن ، وكذلك موسى - عليه السلام - ضرب البحر بالعصا فانفلق أمامه ؛ ومن رآه آمن به ، وانتهت تلك المعجزات ؛ لكن القرآن الكريم باقٍ إلى أن تقوم الساعة .

ويستطيع أى واحد من أمة محمد ﷺ قبل قيام الساعة أن يقول: محمد رسول الله ومعجزته القرآن ؛ لأن محمداً ﷺ جاء رسولاً عامّا ؛ ولا رسول من بعده ؛ لذلك كان لا بد أن تكون معجزته من الجنس الباقى ؛ ومع ذلك قالوا له:

﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا [(٣)] (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا [(٤)] أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا [(٥)] (٩٢) ﴾ [الإسراء]

وكل ما طلبوه مسائل حسية ؛ لذلك يأتى الرد :

﴿ أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ .. (٥١) ﴾ [العنكبوت]

---

(١) كمه يكمه كمهاً، فهو أكمه: وُلدَ أعمى، أو فقد بصره فهو أكمه . قال تعالى: ﴿ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ .. (٤٩) ﴾ [آل عمران] . [القاموس القويم].

(٢) الأبرص: هو من أصابه داء البرص، وهو مرض جلدى يُحدث بقعاً بيضاء فى الجلد تشوِّهه، وهو من أعراض مرض الجذام. قال تعالى: ﴿ وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي .. (١١٠) ﴾ [المائدة]. [القاموس القويم].

(٣) نبع الماء: خرج من العين. والينبوع: العين يخرج منها الماء غزيراً سهلاً. والجمع: ينابيع. قال تعالى: ﴿ فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ .. (٢١) ﴾ [الزمر] . [القاموس القويم].

(٤) كسفاً : قطعاً. والكسفة: القطعة . وقال تعالى: ﴿ وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا .. (٤٤) ﴾ [الطور] . وقال تعالى: ﴿ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ .. (٩) ﴾ [سبأ] [القاموس القويم] .

(٥) القبيل: الجماعة أو العشيرة أو الأعوان المناصرون. قال تعالى: ﴿ ..أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا (٩٢) ﴾ [الإسراء] معك ليؤيدوك. [القاموس القويم].

ومع ذلك كذَّبوا.

وأضاف قوم عاد :

﴿ ..وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (٥٣) ﴾ [هود]

هم - إذن - قد خدعوا أنفسهم بتسميتهم لتلك الأصنام «آلهة» ؛ لأن الإله هو مَنْ يُنزل منهجاً يحدِّد من خلاله كيف يُعْبَد ؛ ولم تَقُل الأصنام لهم شيئاً ؛ ولم تُبلغهم منهجاً.

إذن : فالقياس المنطقى يُلغى تَصوُّر تلك الأصنام كآلهة ؛ فلماذا عبدوها ؟

لقد عبدوها ؛ لأن الفطرة تنادى كل إنسان بأن تكون له قوة مألوه لها ؛ والقوة المألوه لها إن كان لها أوامر تحدُّ من شهوات النفس ، فهذه الأوامر قد تكون صعبة على النفس ، أما إن كانت تلك الآلهة بلا أوامر أو نواهى فهذه آلهة مريحة لمن يخدع نفسه بها ، ويعبدها مظنة أنها تنفع أو تضر.

وهذه هى حُجَّة كل ادِّعاء نبوة أو ادِّعاء مَهديَّة [١] فى هذا العصر ، فيدَّعى النبىُّ الكاذب النبوَّة ، ويدعو للاختلاط مع النساء ، وشرب الخمر ، وارتكاب الموبقات [٢] ، ويسمِّى ذلك ديناً.

وتجد مثل هذه الدَّعاوَى فى البهائية [٣] والقاديانية [٤] ؛ وغيرها من المعتقدات الزائفة.

---

(١) المقصود هؤلاء الذين يدَّعون أنهم المهدى المنتظر الذى جاء ذكره فى أحاديث رواها البخارى فى صحيحه ، أنه يأتى فى آخر الزمان ، ويكون معاصراً لنزول عيسى بن مريم.

(٢) الموبقات : المهلكات. أوبقه : أهلكه. وقال تعالى : ﴿ .. وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا (٥٢) ﴾ [الكهف] أى : جعلنا تواصلهم فى الدنيا موبقاً، أى : مهلكاً لهم فى الآخرة. [لسان العرب - مادة : وبق].

(٣) البهائية : طائفة ذات عقائد فاسدة ، تنسب لـ «الميرزا حسين على المازندرانى» تربَّى بطهران ، ولد عام ١٢٣٣ هـ ، أفكاره خليط من البوذية والمزدكية واليهودية والإسلام والمسيحية. انظر : حقيقة البابية والبهائية - د. محسن عبد الحميد ١٩٨٥ م.

(٤) القاديانية : تُنسب لمرزا غلام أحمد من قاديان بلاهور من إقليم البنجاب بين الباكستان والهند ، ولد ١٢٥٢ هـ ، وادَّعى النبوة . (القاديانية ، نشأتها وتطورها ، د. حسن عيسى - دار القلم / الكويت ١٩٨١ م).

وقولهم :

﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ .. (٥٣) ﴾ [هود]

يعنى: وما نحن بتاركى آلهتنا بسبب قولك.

وقولهم : ﴿ .. وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (٥٣) ﴾ [هود]

أى: وما نحن لك بمصدِّقين ، لأن (آمن) تأتى بمعانى متعددة [1].

فإنْ عدَّيتها بنفسها مثل قول الحق سبحانه:

﴿ .. وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ (٤) ﴾ [قريش]

وإنْ عدَّيتها بحرف «الباء» مثل قول الحق سبحانه :

﴿ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ .. (٦٢) ﴾ [البقرة]

فالمعنى يتعلّق باعتقاد الألوهية.

وإن عدَّيتها بحرف «اللام» ؛ مثل قول الحق سبحانه:

---

(١) أمن يأمن: اطمأن ولم يخف. وأمن منه: سلم. وأمن على كذا: اطمأن إليه ووثق به. كقوله تعالى: ﴿ قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ .. (٦٤) ﴾ [يوسف].

وآمن: اسم فاعل. قال تعالى: ﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا .. (٣٥) ﴾ [إبراهيم]. أى: يأمن من يحل به.

وآمنه من خوف: جعله آمناً غير خائف. ومعانى المادة كلها ترجع إلى الثقة والاطمئنان. قال تعالى: ﴿ .. وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ (٤) ﴾ [قريش] أى: جعلهم آمنين لا يخافون ؛ لأنهم جيران الحرم الآمن فى البلد الآمن.

والمؤمن: من أسماء الله الحسنى، أى: واهب الأمن وباعث الطمأنينة فى قلوب المؤمنين ؛ فلا خوف لمن يلجأ إليه سبحانه. قال تعالى: ﴿ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ .. (٢٣) ﴾ [الحشر].

وآمن له: أذعن وخضع عن ثقة وحب وتقدير. قال تعالى: ﴿ فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ .. (٢٦) ﴾ [العنكبوت].

وآمن به: صدَّق به ووثق به عن اقتناع. قال تعالى: ﴿ إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ (٢٥) ﴾ [يس].

والإيمان: الإذعان والتصديق. قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا .. (١٥٨) ﴾ [الأنعام]. [القاموس القويم] بتصرف.

﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ .. (٨٣)﴾ [يونس]

تكون بمعنى التصديق.

يقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ۗ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤)﴾

و«إن» التى تُفتتح بها الآية الكريمة أداة شرطية ، وأداة «إن» الشرطية يأتى بعدها جملة شرط ، وجواب شرط ، فإن لم تكن كذلك فهى تكون بمعنى النفى ؛ مثل قول الحق سبحانه:

﴿إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلاَّ اللاَّئِي وَلَدْنَهُمْ .. (٢)﴾ [المجادلة]

وهنا يقول الحق سبحانه:

﴿إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ[1] .. (٥٤)﴾ [هود]

أى: «ما نقول إلا اعتراك» .

وهكذا نعلم أن كلمة «إنْ» هنا جاءت بمعنى النفى.

و«إلا» هى أداة استثناء، وقبلها فعل هو «نقول»، وإذا وجدت أداة استثناء، ولم يذكر المستثنى منه صراحة، فاعلم أنه واحد من ثلاثة: إما أن يكون مصدر الفعل، وإما أن يكون ظرف الفعل، وإما أن يكون حال الفعل[2].

---

(١) عراه يعروه: ألمَّ به أو غشيه وأصابه. قال تعالى: ﴿إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ..(٥٤)﴾ [هود] أى: أصابك. قال الفراء: كانوا كذّبوه - يعنى: هوداً عليه السلام - ثم جعلوه مختلطاً، وادعوا أن آلهتهم هى التى خبلته لعيبه إياها، قال الفراء: معناه: ما نقول إلا مَسَّك بعض أصنامنا بجنون لسبِّك إياها. [لسان العرب، والقاموس القويم].

(٢) يسمى النحاة هذا النوع من أساليب الاستثناء «الاستثناء المفرَّغ» وهو ما حذف منه المستثنى منه، والكلام غير موجب (أى: منفى) مثل: ما تكلم إلا واحد. ويقول تعالى: ﴿إِن نَّظُنُّ إِلاَّ ظَنًّا ..(٣٢)﴾ [الجاثية] أى: ما نظن إلا ظنا عظيماً. انظر تفصيل ذلك فى النحو الوافى [٢/ ٣١٧ - ٣٣٧].

وعلى ذلك فمعنى الآية الكريمة:

وما نقول لك إلا أنَّ آلهتنا أصابتك بسوء ؛ لأنك سَفَّهتهم وأبْطَلتَ ألوهيّتهم ، وجئتَ بإله جديد من عندك ، فأصابتك الآلهة بسوء - يراد به الجنون - فأخذتَ تخلطَ فى الكلام الذى ليس له معنى.

ويردُّ عليهم هود عليه السلام بما جاء فى نفس الآية :

﴿ .. قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا [1] أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) ﴾ [هود]

وهو يُشهد الله الذى يثق أنه أرسله ، ويحمى ذاته ، ويحمى عقله ؛ لأن عقل الرسولَ هو الذى يدير كيفية أداء البلاغ عن الله.

والحق سبحانه وتعالى لا يمكن أن يرسل رسولاً ولا يحميه.

وقد قال الكافرون عن سيدنا رسول الله محمد ﷺ أنه مجنون ؛ فأنزل الحق سبحانه وتعالى قوله الكريم :

﴿ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (٢) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ [2] (٣) وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤) ﴾ [القلم]

ونحن نعلم أن المجنون لا خُلُق له ، وفى هذا بيان أن رسول الله ﷺ فى قمة العقل ؛ لأنه فى قمة الخُلُق الطيِّب.

وهنا يُشهد هود عليه السلام قومه ويطالبهم أن يرجعوا إلى الفطرة السليمة ، ويحكموا: أهو مجنون أم لا ، ويشهدهم أيضاً أنه برىء من تلك الآلهة التى يُشركون بعبادتها من دون الله تعالى.

ثم يقول الحق سبحانه ما جاء على لسان هود عليه السلام:

---

(١) طلبه للشهادة هنا ليس لأنهم أهل للشهادة، ولكن المعنى: وأشهدكم نهاية للتقرير، أى: لتعرفوا أننى برىء من عبادة الأصنام التى تعبدونها. انظر تفسير القرطبى (٤/ ٣٣٧٠).

(٢) غير ممنون: أى: غير مقطوع، بل هو دائم، ويحتمل أنه غير مكدَّر بالمنِّ والتقريع والفخر به. والمعنيان لا يتعارضان [القاموس القويم ٢/ ٢٤٠].

﴿مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾﴾ (١)

وقوله : ﴿من دونه﴾ أى: من دون الله ، فهم قد عبدوا أصناماً من دون الله سبحانه ، ومطلب هود عليه السلام منهم أن يكيدوا له جميعاً ، وهم كثرة طاغية ، وهو فرد واحد ؛ وإن كادت الكثرة المتجبِّرة لواحد ، فمن المتوقع أن يغلبوه ، وهو - عليه السلام - هنا يتحداهم ويطلب منهم أن يعملوا كل مكرهم وكيدهم، وأن يقتلوه لو استطاعوا ، وهذه قمة التحدى.

والتحدى هنا معجزة ؛ لأنه ساعة يتحداهم فهو يعلم أن الله سبحانه وتعالى ينصره ، وهو - عليه السلام - متأكد من قوله:

﴿أُشْهِدُ اللَّهَ ..﴿٥٤﴾﴾ [هود]

الذى قاله فى الآيـة السـابقة ، ولا يمكن أن يرمى مثل هذا التحدى جزافاً ؛ لأن الإنسان لا يجازف بحياته فى كلمة.

وهو لم يَقُلْ: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾﴾ إلا إذا كان قد آوى إلى ركن شديد ، وإنه ينطق بالكلمة عن إيمان بأن الحق سبحانه سيهبه قدرة على نفاذ الكلمة.

وهو قد أشهد الله تعالى ، والله سبحانه هو أول من شهد لنفسه ؛ يقول الحق سبحانه:

﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ..﴿١٨﴾﴾ [آل عمران]

---

(١) كان فلاناً مكيده كيداً : خدعه ومكر به واحتال لإلحاق الضرر به ، والكيد من الله تعالى هو إبطال كيد الكافرين ، ومعاقبتهم على ما دبروه من كيد ، قال تعـالى : ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾﴾ [الطارق] ، والكيد مصدر ويطلق على العمل أو الوسيلة التى يتذرع بها الكائد يقول الحق : ﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا ..﴿٦٤﴾﴾ [طه] (القاموس القويم بتصرف)

وكذلك شهدت الملائكة وأولو العلم [(١)]، والله سبحانه وتعالى حين شهد لنفسه فإنما يطمئننا أنه إذا ألقى أمراً علم أنه مُنفَّذ لا محالة.

وقد أشهد هود عليه السلام ربَّه سبحانه، وهو واثق من حمايته له وما كان الحق سبحانه ليرسل رسولاً ليُمكِّن منه قوماً يُزيحوه من حركة الرسالة.

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى ما جاء على لسان هود عليه السلام:

﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ [(٢)] إِلَّا هُوَ آخِذٌ [(٣)] بِنَاصِيَتِهَا [(٤)] إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ ﴾

---

(١) يقول رب العزة سبحانه وتعالى: ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ .. ﴿١٨﴾ ﴾ [آل عمران].

(٢) الدابة: اسم فاعل، وغلب على غير العاقل، ويستوى فيه المذكر والمؤنث وقد يشمل العاقل وغيره، كقوله تعالى: ﴿ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ ..﴿١٦٤﴾ ﴾ [البقرة] تشمل الإنسان وغيره. وقوله تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لاَّ تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ .. ﴿٦٠﴾ ﴾ [العنكبوت] الدابة هنا كل حيوان ما عدا الإنسان بدليل كلمة ﴿ وَإِيَّاكُمْ ﴾ فالعطف يقتضى المغايرة. وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الأنفال] تشمل الحيوان والإنسان الكافر.

وقوله تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [الشورى] والدابة هنا تشمل الكائنات الحية فى الأرض والسماء، وفيها دليل على أن فى السماء كائنات حية وعاقلة. [القاموس القويم] بتصرف.

(٣) الناصية: ما يبرز من الشعر فى مقدم الرأس فوق الجبهة، ويسمى مكانه أيضاً «ناصية». وأخذ بناصية فلان: قبض عليه وسيطر عليه متمكِّناً منه.

وقوله تعالى: ﴿ مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا .. ﴿٥٦﴾ ﴾ [هود] أى: مسيطر عليها مالك أمرها متصرف فيها. وقوله تعالى: ﴿ .. فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ ﴾ [الرحمن] أى: يُجَر المجرمون من نواصيهم وأقدامهم، فتربط ناصية المجرم مع قدميه، ويؤخذ فيلقى فى النار عاجزاً مهاناً. وقوله تعالى: ﴿ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ ﴾ [العلق] مجاز مرسل علاقته الجزئية، أى: صاحبها كاذب خاطىء. [القاموس القويم].

(٤) الصراط: لغة فى السراط، وبهما قرىء - بالصاد، والسين - وهو السبيل والطريق للخير والشر. فمن الخير قوله تعالى: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ ﴾ [الفاتحة] وقوله تعالى: ﴿ .. إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ ﴾ [هود]. ومن الشر والهلاك، قوله تعالى: ﴿ .. فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الصافات] والتعبير بقوله تعالى: ﴿فَاهْدُوهُمْ﴾ على سبيل التهكم والسخرية. [القاموس القويم].

يعلن لهم هود عليه السلام حقيقة أنه يتوكَّل على الله تعالى الذى لا يعلوهم فقط ، ولا يرزقهم وحدهم ، بل هو الآخذ بناصية كل دابَّة تدبُّ فى الأرض ولها حرية وحركة ، والناصية هى مقدّم الرأس ، وبها خصلة من الشعر .

وحين تريد إهانة واحد فأنت تمسكه من خصلة الشعر هذه وتشدُّه منها .

والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ [1] فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالأَقْدَامِ (٤١) ﴾ [الرحمن]

وفى آية أخرى يقول الله سبحانه :

﴿ كَلاَّ لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا [2] بِالنَّاصِيَةِ (١٥) ﴾ [العلق]

إذن : فكيف لم يجرؤ قوم عاد على أن يسلِّطوا مجموعة ثعابين ، وأعداداً من الكلاب المتوحشة - مثلاً - على سيدنا هود عليه السلام .

لم يستطيعوا ذلك ، وقد أعلن لهم سبب عجزهم عن الإضرار به حين قال لهم :

﴿ .. مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٦) ﴾ [هود]

ونحن نلحظ أنه عليه السلام قال فى صدر [3] الآية :

﴿ رَبِّي وَرَبِّكُم .. (٥٦) ﴾ ، وفى عَجُز [4] الآية قال : ﴿ .. إِنَّ رَبِّي (٥٦) ﴾ ، والسبب فى قوله : ﴿ رَبِّي وَرَبِّكُم .. (٥٦) ﴾ أنهم كانوا قادحين [5] فى مسألة ربوبية الحق سبحانه .

---

(١) السيماء والسيما والسيمة : العلامة ، وسوم الشىء : أعلمه يسومه أى : بعلامة . [القاموس القويم] .

(٢) سفع بناصيته : قبض عليها فاجتذبها . أى : لنجذبنه من ناصيته إذلالاً له ، وذلك كناية عن الإذلال والقهر والإهانة . [القاموس القويم ١/ ٣١٦] .

(٣) الصدر : مقدم كل شىء وأوله . والمراد : بداية الآية الكريمة .

(٤) عجز كل شىء : مؤخره . والمراد : نهاية الآية الكريمة .

(٥) القدح فى الشىء : العيب فيه وانتقاصه . [راجع اللسان - مادة : قدح] .

لذلك قال عليه السلام فى مجال السيطرة: ﴿رَبِّى وَرَبِّكُم﴾ أما فى عجز الآية فقال:

﴿.. إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٦)﴾ [هود]

أى: أن الإله الواحد سبحانه له مطلق العدالة، ولم يأت هنا بشىء يخصُّ أربابهم؛ لأنه هنا يتحدث عن مطلق عدالة الحق سبحانه.

والحق سبحانه وتعالى على صراط مستقيم فى منتهى قُدرته، وقَهْره وسيطرته، ولا شىء يُفلت منه، ومع كل قدرة الله تعالى اللامتناهية فهو لا يستعمل قهره فى الظلم.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿فَإِن تَوَلَّوْا[1] فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ[2] (٥٧)﴾

الفعل «تولَّوا» أصله: «تتولَّوا»، وفى اللغة: إذا ابتدأ فعل بتاءين يُقتصَر على تاء واحدة.

وهكذا يكون المعنى:

إن تتولَّوا فقد أبلغتكم المنهج الذى أرسلت به إليكم، ولا عُذر لكم عندى؛ لأن الحق سبحانه لا يعذِّب قوماً وهم غافلون؛ لذلك أرسلنى إليكم.

---

(١) ولى عن الشىء: انصرف عنه، أو أعرض عنه. وقال تعالى: ﴿.. وَلَّوْا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا (٤٦)﴾ [الإسراء] أى: أعرضوا. وقال تعالى: ﴿فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ .. (٢٠)﴾ [آل عمران]. [القاموس القويم].

(٢) حفيظ: من أسماء الله الحسنى. والحفيظ: الحافظ الأمين الذى يحفظ عباده ويحميهم. قال تعالى: ﴿.. وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (٢١)﴾ [سبأ] [القاموس القويم - بتصرف].

أو أن الخطاب من الله سبحانه لهود عليه السلام ليبيِّن له : فإن تولَّوا فقل لهم : ﴿ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ .. (٥٧) ﴾ [هود]

والاستخلاف أن يوجد قوم خلفاء [1] لقوم ، إما أن يكونوا عادلين ؛ فلا يقفوا من المناهج ولا من الرسالات مثلما وقف قوم عاد .

وإما أن يكونوا غير عادلين ، مثل من قال فيهم الحق سبحانه :

﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ ..(٥٩) ﴾[مريم]

والحق سبحانه قد وعد المؤمنين وعداً طيِّباً :

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ..(٥٥) ﴾ [النور]

إذن : فالاستخلاف إما أن يكون الخلف فيه صاحب عمل صالح ، أو أن يبدد المنهج فلا يتبعه ، بل يتبع الشهوات .

وفى آية أخرى يقول الحق سبحانه :

﴿ هَـأَنتُمْ هَؤُلاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ (٣٨) ﴾ [محمد]

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا .. (٥٧) ﴾ [هود]

---

(١) خلفه يخلفه من باب نصر : جاء بعده فصار مكانه . والخلف القرن من الناس أى الجيل بعد الجيل . والخلف الولد قال تعالى : ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ .. (٥٩) ﴾ [مريم] والخليفة من يخلف غيره وجمعها خلفاء وخلائف ، يقول الحق : ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ ..(٦٩) ﴾ [الأعراف] وقال : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ فِي الأَرْضِ ..(٣٩) ﴾[فاطر] [القاموس القويم صـ٢٠٣ ، ٢٠٤ جـ ١]

لأن المنهج الذى نزل على الخَلْق ، أنزله الحق سبحانه وتعالى لصلاح العباد ، وهو سبحانه خَلَق أولاً بكل صفات الكمال فيه ، ولن يزيده العباد وصفاً من الأوصاف ، ولن يسلبه أحد وصفاً من الأوصاف [(١)] .

ولذلك نقول للمتمردين على عبوديتهم لله كفراً ، وللمتمردين على المنهج بالمعصية :

أنتم ألفتم التمرد ؛ إما التمرد فى القمة وهو الكفر بالله ، وإما التمرد على أحكام الله بمخالفتها ، فلماذا لا يتمرد أحدكم على المرض ، ويقول : « لن أمرض »؟ ولماذا لا يتمرد أحدكم على الموت ويرفض أن يموت؟

إذن : فما دُمْتَ قد عرفت التمرد فيما لك فيه اختيار ، فهل تستطيع التمرد على أحكام الله القهرية فيك ؟

إنك لن تستطيع ؛ لأنك مأخوذ بناصيتك . والحق سبحانه إن شاء أن يوقف القلب ، فلن تستطيع أن تأمر قلبك بعدم بالتوقف .

لذلك قال هود عليه السلام :

﴿ .. وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (٥٧) ﴾ [هود]

فالله سبحانه رقيب ؛ لأنه قيوم قائم على كل أمور كونه .

وبعض الفلاسفة قالوا : إن الله قد خلق الكون ، وخلق النواميس [(٢)] والقوانين ، ثم تركها تقوم بعملها .

---

(١) يقول رب العزة فى الحديث القدسى : «يا عبادى إنكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى . ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى . يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك فى ملكى شيئاً . يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكى شيئاً» أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٥٧٧) ، وأحمد فى مسنده (٥/ ١٥٤) وابن ماجه فى سننه (٤٢٥٧) من حديث أبى ذر رضى الله عنه .

(٢) النواميس : القوانين الإلهية التى يخضع لها الكون .

ولهؤلاء نقول: لا؛ فأنتم أقررتم بصفات الخالق القادر، فأين صفات القيومية لله القائم على كل نفس بما كسبت، وهو سبحانه القائل لعبيده عن نفسه:

﴿لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ [1] وَلا نَوْمٌ .. (٢٥٥)﴾ [البقرة]

وهو سبحانه حين يقول هذا إنما يطمئن العباد؛ ليناموا ويرتاحوا؛ لأنه سبحانه مُنزَّه عن الغَفْلة أو النوم، بل هو سبحانه قيوم.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ [2] (٥٨)﴾

وساعة تسمع ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ فأنت تعرف أن هناك آمراً وأمراً مُطاعاً، وبمجرد صدور الأمر من الآمر سبحانه يكون التنفيذ؛ لأنه يأمر مَنْ له قدرة على التنفيذ.

ولذلك يقول الحق سبحانه:

﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ (١) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ [3] (٢)﴾ [الانشقاق]

إذن: فهى بمجرد السمع نَفَّذت أمر الحق سبحانه.

---

(١) السنة: النعاس وهو أول النوم. والنعاس ما كان من العين، فإذا صار فى القلب صار نوماً. وقد فرَّق المفضل الضبى بينهما فقال: السنة من الرأس، والنعاس فى العين، والنوم فى القلب. [راجع تفسير القرطبى ٢/ ١١٩٦].

(٢) عذاب غليظ: أى: كبير كثير شديد صعب. [القاموس القويم].

(٣) حق له (بالبناء للمجهول): أثبت له. قال تعالى: ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٢)﴾ [الانشقاق] أى: كان حقاً ثابتاً عليها أن تخضع لأمر الله. [القاموس القويم].

وحين شاء الحق سبحانه أن يُنجى موسى عليه السلام من الذبح الذى أمر به فرعون ؛ أوحى الله سبحانه لأمِّ موسى قائلاً :

﴿ .. فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ [1] وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧) ﴾ [القصص]

وكيف تفعل أمٌّ ذلك؟

إن كل أمٍّ إنما تحرص على ابنها ؛ والذبح لموسى أمر مظنون ، والإلقاء فى البحر موت محقَّق [2] ، لكن أم موسى استقبلت الوحى ؛ ولم تتردد ؛ مما يدل على أنها لم تُناقش الأمر بمقاييس البشر ، بل بتنفيذ إلهامٍ واردٍ إليها من الله سبحانه ؛ إلهام لا ينازعه شَكٌّ أو شيطان.

وبعد ذلك يأمر الله سبحانه البحر :

﴿ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ [3] .. (٣٩) ﴾ [طه]

وقد استقبل البحرُ الأمرَ الإلهى ؛ لأنه أمر من قادر على الإنفاذ ، كما قام بتنفيذ الضد .

فى قصة نوح عليه السلام قال الحق سبحانه :

---

(١) اليم : البحر أو النهر العذب . وقد ورد المعنيان فى القرآن ، فقال تعالى : ﴿ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ .. (١٣٦) ﴾ [الأعراف] ، وهو خليج السويس وماؤه ملح ، وهو امتداد البحر الأحمر .
وقال تعالى لموسى : ﴿ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ (٣٨) أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ .. (٣٩) ﴾ [طه] فاليم هنا هو نهر النيل العذب . [القاموس القويم] .

(٢) « أم موسى عاشت فى خوف مظنون مصحوب بقلق ، فقد يحدث وقد لا يحدث ، كما عاشت فى خوف محقق وهو إلقاء ابنها فى البحر ، فالبحر يعنى الغرق . . ولكن جانب الإلهام جعلها تستقبل الخوف المحقق بالإيمان التقى ، فالبحر استقبله ، والموج يداعبه ، والشاطىء يقبله ، والعدو يربيه ، وعين الله ترعاه .

(٣) الساحل : شاطىء النهر ؛ لأن الموج يأكل منه وينحته ويسحته . قال تعالى : ﴿ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ .. (٣٩) ﴾ [طه] أى : بشاطىء النهر . [القاموس القويم] .

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ ..(٤٠)﴾ [هود]

وحدث الطوفان ؛ ليغرق الكافرين.

وهنا يقول الحق سبحانه:

﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا ..(٥٨)﴾ [هود]

يعنى: مجىء الأمر بالعذاب للمخالفين لدعوة هود عليه السلام ، وقد تحقَّق هذا العذاب بطريقة خاصة ودقيقة ؛ تتناسب فى دقتها مع عظمة الآمر بها سبحانه وتعالى.

فحين تأتى ريحٌ صَرْصَرٌ [(١)] أو صَيحةٌ طاغيةٌ ، فهذا العذاب من خارجهم ، وما دام العذاب من الخارج ، وبقوة من قوى الطبيعة الصادرة بتوجيه الله ؛ فقد يَعُمُّ المكذِّبين لسيدنا هود ، ومعهم المصدِّقون به وبرسالته ، فكيف يتأتَّى أن تذهب الصيحة إلى آذان المكذِّبين فقط ، وتخرق تلك الآذان ؛ وتترك آذان المؤمنين ؟

إنها قدرة التقدير لا قوة التدمير .

إن مُوجِّه الصيحة قد حدَّد لها مَنْ تُصيب ومن تترك ، وهى صيحة موجَّهة ، مثلها مثل حجارة سجِّيل [(٢)] التى رمتها طير أبابيل [(٣)] على أبرهة الحبشى وجنوده ؛ مع نجاةَ جنود قريش بنفس الحجارة ؛ ولم تكن إصابة بالطاعون كما ادَّعى بعضٌ من المتفلسفين.

---

(١) الصرُّ: البرد الشديد. قال تعالى: ﴿كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ ..(١١٧)﴾ [آل عمران]. وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (٦)﴾ [الحاقة] [القاموس القويم].

(٢) السجِّيل: الطين المتحجِّر. قال تعالى: ﴿.. وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ (٨٢)﴾ [هود] وقال تعالى: ﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ (٤)﴾ [الفيل] [القاموس القويم].

(٣) أبابيل: جماعات متفرقة لا واحد لها من لفظها، وهى تفيد الكثرة. قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣)﴾ [الفيل] [القاموس القويم].

وهذه من أسرار عظمة الحق سبحانه فهو يأخذ بشىء واحد؛ ولكنه ينُجى المؤمن ؛ ويعذِّب الكافر ؛ فلا يوجد ناموس يحكم الكون بدون قدرة مسيطرة عليه.

يقول المتنبى [(١)] :

تُسَوِّدُ الشَّمْسُ مِنَّا بِيضَ أوجُهِنا ... وَمَا تُسوِّدُ بِيضَ العَينِ والَّلمَمِ
وكَانَ حَالُهُما فِى الحُكْمِ واحِدَةً ... لَو احتَكَمْنَا مِنَ الدُّنْيَا إلَى حَكَمِ [(٢)]

وهكذا يضرب المتنبى المثل بأن جلوس الواحد منا فى الشمس ؛ يجعل بشرة الأبيض تميل إلى السمرة ولا تسود بياض الشعر ، لكنك إن تركت شيئاً أسود فى الشمس فترة لوجدته يميل إلى الأبيض ؛ ويحدث ذلك رغم أن الفاعل واحد ؛ لكن القابل مختلف.

والحق سبحانه يقول هنا:

﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا .. (٥٨) ﴾ [هود]

فلا تقل كيف نجوا من العذاب الجامع والعذاب العام ؛ لأن هذه هى الرحمة.

والرحمة - كما نعلم - هى ألا يمس الداء الإنسان من أول الأمر ؛ أما الشفاء فهو يعالج الداء.

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ..(٨٢) ﴾ [الإسراء]

---

(١) هو: أبو الطيب أحمد بن الحسين، شاعر حكيم، ولد بالكوفة فى محلة تسمى «كندة» عام ٣٠٣ هـ ، نشأ بالشام، ادعى النبوة فى بادية السماوة (بين الكوفة والشام) ، ولذلك سمى بالمتنبى، ثم رجع عن دعواه بعد أسره، توفى عام ٣٥٤ هـ عن ٥٢ عاماً. (الأعلام لخير الدين الزركلى).

(٢) المتنبى رغم أنه أديب له قدرة على إدارة المعانى ، فقد تعرض لحقيقة علمية يؤخذ منها الأسرار الخفية ، التى تجعل العقل مختاراً بتوحيد لقدرة الله سبحانه .

ونحن نلحظ هنا أن الحق سبحانه يذكر فى نفس الآية الكريمة نجاتين:

النجاة الأولى : من العذاب الجامع ؛ الريح الصرصر ؛ من الصيحة ؛ من الطاغية ، يقول سبحانه:

﴿ .. نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٥٨) ﴾ [هود]

والنجاة الثانية : هى نجاة من عذاب الآخرة الغليظ ، فعذاب الدنيا رغم قسوته ، إلا أنه موقوت بعمر الدنيا.

أما عذاب الآخرة فهو عذاب بلا نهاية، ووصفه الحق سبحانه بالغلظة.

وغلظ الشىء يعطى له القوة والمتانة ، وهو عذاب غليظ على قدر ما يستوعب الحكم.

ولذلك حينما يُملِّك الحقُّ سبحانه رجلاً بُضْع [1] امرأة بعقد الزواج ، ويصف ذلك بالميثاق الغليظ ، والنفعية هنا متصلة بالعفة والعرْض ، ولم يُملِّك الرجل النفعية المطلقة من المرأة [2] التى يتزوجها ؛ فالزوجَ يُمكَّن من عورة زوجته بعقد الزواج.

يقول الحق سبحانه:

﴿ .. وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا [3] (٢١) ﴾ [النساء]

وكانت نجاة هود عليه السلام والمؤمنين معه من العذاب الأول مقدمة للنجاة من العذاب الغليظ.

---

(١) البضع: النكاح والجماع، والمباضعة: المجامعة ومباشرة الرجل للمرأة. [لسان العرب - مادة : بضع].

(٢) فللمرأة - مثلاً - ذمة مالية خاصة بها، ليس من حق زوجها الاستيلاء على مالها، أو التدخل فى كيفية استثماره إلا بعد موافقتها بإرادتها الحرة.

(٣) ميثاقاً غليظاً: أى: عظيماً كبير الشأن، هو ميثاق الزواج. [القاموس القويم].

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾﴾ (١) (٢) (٣)

و«تلك» إشارة إلى المكان الذى عاش فيه قوم عاد ؛ لأن الإشارة هنا لمؤنث ، ولنتذكر أن المتكلم هنا هو الله سبحانه وتعالى.

وهكذا فصل بين «عاد» المكان ، و«عاد» المكين ، وهم قوم عاد ؛ لذلك قال سبحانه: ﴿جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ .. ﴿٥٩﴾﴾ فهم قد ذهبوا وبقيت آثارهم.

و«عاد» إما أن تطلق على المكان والمحل ، وإما أن تطلق على الذوات التى عاشت فى المكان ، فإذا أشار سبحانه بـ ﴿تلك﴾ فهى إشارة إلى الديار ، والديار لم تجحد بآيات الله ؛ ولذلك جاء بعدها بقوله تعالى:

﴿جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ .. ﴿٥٩﴾﴾ [هود]

والجحود هو النكران مع قوة الحجة والبرهان.

والآيات - كما نعلم - جمع آية ، وهى الأمور العجيبة الملفتة للنظر التفاتاً يوحى بإيمان بما تنص عليه.

---

(١) جحد الحق يجحده جحوداً: أنكره، وهو يعلمه. وجحد النعمة: أنكرها ولم يشكرها . وجحد الآية: كفر بها. قال تعالى: ﴿.. وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنعام]. [القاموس القويم].

(٢) جاءت (رسله) هنا بصيغة الجمع، لا المفرد. قال القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٣٧٣) : «يعنى هوداً وحده، لأنه لم يرسل إليهم من الرسل سواه ، ونظيره قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ ..﴿٥١﴾﴾ [المؤمنون] . يعنى : النبى ﷺ، لأنه لم يكن فى عصره رسول سواه، وإنما جمع هذا لأن من كذب رسولاً واحداً فقد كفر بجميع الرسل. وقيل: عصوا هوداً والرسل قبله، وكانوا بحيث لو أرسل إليهم ألف رسول لجحدوا الكل».

(٣) الجبار: المتكبر. والعنيد: الطاغى الذى لا يقبل الحق ولا يذعن له. [تفسير القرطبى ٤/ ٣٣٧٣].

ومن الآيات ما يدل على قمة العقيدة ، وهو الإيمان بواجب الوجود ؛ بالله الرب الخالق الحكيم القادر سبحانه وتعالى ، مثل آيات الليل والنهار والشمس والقمر ، ورؤية الأرض خاشعة إلى آخر تلك الآيات التى فى القمة .

وكذلك هناك آيات أخرى تأتى مصدقة لمن يخبر أنه جاء رسولاً من عند الله تعالى ، وهى المعجزات .

وآيات أخرى فيها الأحكام التى يريدها الله سبحانه بمنهجه لضمان صحة حركة الحياة فى خلقه .

وقوم عاد جحدوا بكل هذه الآيات ؛ جحدوا الإيمان ، وجحدوا تصديق الرسول بالمعجزة ، وأهملوا وتركوا منهج الله جحوداً بإعراض [1] .

لذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَعَصَوْا رُسُلَهُ ..(٥٩) ﴾ [هود]

وهود عليه السلام هو الذى أرسله الحق سبحانه إلى قوم عاد ، فهل هو المعنىُّ بالعصيان هنا ؟

نقول : لا ؛ لأن الله عز وجل قال :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ [2] النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ ..(٨١) ﴾ [آل عمران]

إذن : فكل أمة من الأمم عندها بلاغ من رسولها بأن تصدق أخبار كل رسول يُرسَل .

ولذلك قال الحق سبحانه :

---

(١) الجحود لا يتأتى إلا عند إغلاق القلب وشرود الفكر وضعف النفس .

(٢) الميثاق والموثق : العهد المؤكد . قال تعالى : ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ ..(٧) ﴾ [المائدة] أى : عهده الذى عاهدكم عليه وألزمكم الوفاء به . [القاموس القويم ٢/ ٣١٩] .

﴿ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ .. (٢٨٥) ﴾ [البقرة]

فهم قد انقسموا إلى قسمين ؛ لأن الحق سبحانه يقول:

﴿ .. وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (١) (٥٩) ﴾ [هود]

أى: أن هناك مُتَّبِعاً ، ومُتَّبَعاً.

والمقصود بالجبار العنيد هم قمم المجتمع ، سادة الطغيان والصنف الثانى هم من اتبعوا الجبابرة.

ومن رحمته سبحانه أنه حين يتكلم عن الفرَق الضالة ، فهو يتكلم أيضاً عن الفرق المضلة ، فهناك ضالٌّ فى ذاته ، وهناك مُضِلٌّ لغيره.

والمضل لغيره عليه وزران (٢): وزر ضلاله فى ذاته، ووزر إضلال غيره (٣).

أما الذين اتَّبعوا فلهم بعض العذر ؛ لأنهم اتَّبعوا بالجبروت والقهر ، لا بالإقناع والبينة.

---

(١) العنيد : صيغة مبالغة ، قال تعالى : ﴿ وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (١٥) ﴾ [إبراهيم] القاموس القويم صـ ٣٩٠ جـ ٢

(٢) الوزر: الحمل الثقيل والذنب، وجزاء الذنب وعقوبته، والهم والكرب. قال تعالى: ﴿ .. فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا (١٠٠) ﴾ [طه] أى: حملاً ثقيلاً هو ذنبه أو جزاء ذنبه. وقوله تعالى: ﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ (٢) ﴾ [الشرح] أى: همك الذى أتعبك وهو هم البحث عن الدين الحق، فلما جاءته الرسالة زالت هموم نفسه وبدأ يعمل للإسلام فى نشاط وهمة لا يحمل إلا هم أمته، أو يكون الوزر هو الذنب الذى كنت تراه ذنباً لشدة حبك الله وخوفك إياه، وقد وضعه عنك وغفره لك. قال تعالى: ﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ .. (٢) ﴾ [الفتح] فالرسول ﷺ يرى الهفوات الصغيرة ذنوباً كبيرة فوضعها الله عنه بالمغفرة. [القاموس القويم ٢/ ٣٣٣].

(٣) قال تعالى عن الذين يضلون غيرهم: ﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلا سَاءَ مَا يَزِرُونَ (٢٥) ﴾ [النحل] ، وقال تعالى عن الكافرين: ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (١٣) ﴾ [العنكبوت] والأثقال هى الذنوب، ويحملون أثقال من أضلوهم فاتبعوهم فى ضلالهم. [راجع: القاموس القويم، مادة ثقل].

وانظر إلى القرآن الكريم حين يعالج هذه القضية ، فيتحدث عن الفئة التى ضلت فى ذاتها ويقول:

﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلا أَمَانِيَّ [1] وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ (٧٨) ﴾ [البقرة]

ويتحدث الحق سبحانه بعد ذلك عن الفئة المضلة فيقول:

﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً .. (٧٩) ﴾ [البقرة]

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً [2] وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ (٦٠) ﴾

والزمان بالنسبة للخلق ثلاثة أقسام: حياتهم زمن أول ، ومن لحظة الموت إلى أن تقوم الساعة زمن ثان وهو زمن البرزخ [3] ، وساعة يبعثون هى الزمن الثالث.

---

(١) الأمانى: جمع أمنية، وهى ما يرغب الإنسان فيه من الخير، فعلمهم من الكتاب ليس أمانى كاذبة فى دخول الجنة دون أن يصدقها عملهم، ولذلك قال تعالى: ﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ .. (١٢٣) ﴾[النساء] . [القاموس القويم ٢/ ٢٤١] بزيادة يقتضيها المقام.

(٢) اللعنة: اسم مرة ، وتستعمل بمعنى المصدر، قال تعالى: ﴿ .. أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (١٨) ﴾ [هود] أى: سخطه وغضبه وطرده مُنصَبٌّ على الظالمين. [القاموس القويم].

(٣) البرزخ: الحاجز بين الشيئين. قال تعالى: ﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (١٩) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَّ يَبْغِيَانِ (٢٠) ﴾ [الرحمن] أى: بين البحرين حاجز من الأرض يحجز كلا منهما فى مجراه؛ فلا يبغى ولا يطغى على الآخر. وقال تعالى: ﴿ .. وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٠٠) ﴾ [المؤمنون] أى: حاجز يحجزهم عن الرجوع إلى الدنيا حتى يوم القيامة وتسمى فترة القبور فترة البرزخ ، من مات فقد دخل البرزخ إلى يوم القيامة [القاموس القويم].

والحياة الأولى فيها العمل ، وحياة البرزخ فيها عرض الجزاء [(١)] ، مجرد العرض ، والحياة الثالثة هى الآخرة إما إلى الجنة وإما إلى النار.

يقول الحق سبحانه :

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٨) ﴾ [البقرة]

هذه هى الأزمنة الثلاثة- حياة، وبرزخ، وبعث-وكل وقت منها له ظرف.

ويعبر القرآن عن هذا ، فيقول عن عذاب آل فرعون منذ أن أغرقهم الله سبحانه فى البحر :

﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا [(٢)] وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ (٤٦) ﴾ [غافر]

وفى هذا دليل على عرض الجزاء فى البرزخ مصداقاً لقول رسول الله ﷺ «القبر إما روضة من رياض الجنة ، وإما حفرة من حفر النار» [(٣)]

إذن: فهنا زمنان: زمن عرضهم على النار غدواً وعشياً ، وزمن دخولهم النار.

---

(١) قال تعالى عن عذاب آل فرعون: ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ (٤٦) ﴾ [غافر] فهذا عرض للجزاء عليهم، وهو فى حد ذاته عذاب.

(٢) الغدو: الدخول فى الغداة ، أو السير أول النهار. قال تعالى: ﴿ غُدُوُّهَا شَهْرٌ ..(١٢) ﴾ [سبأ] أى: مدة سير الرياح فى وقت الغداة تقطعها القوافل فى شهر.
ويقابل الغدو بالعشى وبالآصال، قال تعالى: ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا .. (٤٦) ﴾ [غافر] وقال تعالى: ﴿ .. يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ (٣٦) ﴾ [النور]. [القاموس القويم].

(٣) أخرجه الترمذى والطبرانى فى الكبير عن أبى سعيد ، والطبرانى فى الكبير عن أبى هريرة وسندهما ضعيف . وانظر مجمع الزوائد (٣/ ٤٦) ومسند الفردوس للديلمى (٣/ ٢٣١) .

وهذا يثبت عذاب البرزخ ؛ لأن الإنسان الكافر يرى فيه موقعه من النار[١] ، ويرى نصيبه من العذاب ، ثم تقوم الساعة ليأخذ نصيبه من العذاب .

وبالنسبة لقوم عاد ، أذاقهم الله سبحانه العذاب فى الدنيا ، ثم يدخلهم النار يوم القيامة .

ويقول الحق سبحانه فى نفس الآية :

﴿ .. أَلا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ (٦٠) ﴾ [هود]

وكلمة «ألا»[٢] هى أداة تنبيه - كما قلنا من قبل - تنبه السامع إلى أهمية ما يلقيه المتكلم حتى لا يجابه السامع بالكلام وهو غافل ، ولأن المتكلم هو الذى يقود زمام الكلام ، فيجب ألا يستقبله السامع غافلاً ، فتأتى كلمة «ألا» كجرس ينبه إلى ما بعدها من كلام .

والكلام عن قوم عاد الذين نالوا عذاباً فى الدنيا بالريح العقيم[٣] ، ثم أتبعوا لعنة فى البرزخ ، وسوف يُستقبلون يوم القيامة باللعنات ؛ فهذه لعنات ثلاث .

وجاء الحق سبحانه وتعالى بحيثية هذه اللعنات مخافة أن يرق قلب السامع من كثرة ما يقع عليهم من لعن ، فبيَّن بكلمة «ألا» أى : تنبهوا إلى أن قوم عاد كفروا ربهم .

---

(١) عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : «إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشى إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة ، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار ، فيقال : هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة» أخرجه البخارى فى صحيحه (١٣٧٩) ومسلم فى صحيحه (٢٨٦٦) .

(٢) ألا : أداة استفتاح وهى مركبة من همزة الاستفهام ومن لا النافية ، وتكون للتنبيه فتدل على تحقق ما بعدها وتقريره كقوله : ﴿ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ .. (١٣) ﴾ [البقرة] وتكون للعرض والتحضيض والحث ، كقوله تعالى : ﴿ أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ .. (٢٢) ﴾ [النور] [القاموس القويم ١/ ٢٧] .

(٣) ذلك كان عذاب قوم عاد ، كما قال تعالى : ﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ (٤١) ﴾ [الذاريات] والريح العقيم هى التى لا خير فيها - بل هى تهلك وتدمر . وذلك وصف على المجاز بالاختصار [القاموس القويم صـ ٣١ جـ ٢] .

وللجريمة زمن ، وللعقوبة عليها زمن ، وكفرهم بربهم حدث فى الدنيا ، وهو كفر فى القمة ؛ لذلك نالوا عقاباً فى الدنيا.

والخطر كل الخطر أن يتأخر زمن العقوبة عن زمن الجريمة ، فلا تأخذكم بهم الرحمة الحمقاء ، لأن كفرهم هو الكفر بالقمة العقدية ؛ لذلك تواصل لعنهم فى البرزخ ، ثم تأتى لهم لعنة الآخرة .

وهم لم يكفروا بنعمة ربهم، بل كفروا بربهم.

والحق سبحانه لم يطلب من أحد عبادته قبل سن التكليف، وقدم لهم كما يقدم لكل الخلق نعمه التى لا تعد ولا تحصى ؛ ولذلك فهم يستحقون اللعنات وهى الجزاء العادل.

وقد أوضح لهم هود عليه السلام:

﴿ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا [1] إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٦) ﴾ [هود]

أى: أن الحق سبحانه عادل .

وأنت حين تسمع جريمتهم ؛ تنفعل وتطلب أقصى العقاب لهم ؛ ولذلك يأتى قول الحق سبحانه:

﴿ .. أَلا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ (٦٠) ﴾ [هود]

فأنت لا تكتفى بلعنتهم الأولى ، بل تلعنهم مرة أخرى.

ولسائل أن يقول: ولماذا يقول الحق سبحانه هنا:

﴿ .. أَلا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ (٦٠) ﴾ [هود]

---

(١) الناصية : ما يبرز من الشعر فى مقدم الرأس فوق الجبهة ، ويسمى مكانه أيضاً ناصية - وأخذ بناصية فلان : قبض عليه وسيطر عليه متمكناً منه ، قال تعالى : ﴿ مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ..(٥٦) ﴾ [هود] مسيطر عليها ومالك أمرها متصرف فيها . [القاموس القويم بتصرف صـ ٢٧٠ حـ ٢] .

ونقول: لقد قال الحق سبحانه وتعالى فى موضع آخر من القرآن:

﴿ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ ﴾ [النجم]

وهذا يوضح لنا أن «عاداً» كانت اثنتين: عاداً الأولى، وهم قوم عاشوا وضَلُّوا فأهلكهم الله، وهناك عاد الثانية[1].

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه:

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ[2] أَخَاهُمْ صَالِحًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ[3] وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا[4] فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ ﴾

---

(١) وهذا يتوافق مع ما قاله القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٣٦٩) أنهما عادان، عاد الأولى، وعاد الأخرى، فهؤلاء - أى: قوم هود - هم الأولى، وأما الأخرى فهى أقوام عاشت فى جزيرة العرب. وهم المذكورون فى قوله تعالى: ﴿ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ ﴾ [الفجر]، ويقول (٣/ ٢٧٥٢): «كان بين هود ونوح فيما ذكر المفسرون سبعة آباء. وكانت عاد فيما روى ثلاث عشرة قبيلة، ينزلون رمال عالج، وكانوا أهل بساتين وزروع وعمارة، وكانت فيما روى بنواحى حضر موت إلى اليمن، وكانوا يعبدون الأصنام، ولحق هود - حين أهلك قومه - بمن آمن معه بمكة، فلم يزالوا بها حتى ماتوا».

(٢) ثمود: قبيلة من العرب الأول. ويقال: إنهم من بقية عاد وهم قوم صالح. [راجع: لسان العرب - مادة ثمد].

(٣) أنشأ الشيء: أوجده وأحدثه وخلقه. وأنشأ الله السحاب: كوَّنه وأظهره فى السماء. قال تعالى: ﴿ .. وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴿١٢﴾ ﴾ [الرعد] أى: يكوِّن السحب الممتلئة بالماء. وأنشأكم من الأرض: خلقكم منها. [القاموس القويم] بتصرف.

(٤) عمر فلان الدار: بناها، وعمر القوم المكان: سكنوه، فهو معمور. وعمرت الدار بأهلها؛ فهى عامرة. قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ .. ﴿١٨﴾ ﴾ [التوبة] أى: يقيم فيها الصلاة ويجلس فيها للعلم ويمكث للاعتكاف، ويبنيها ويحافظ عليها؛ فكل ذلك من عمارتها.
وقوله تعالى: ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ .. ﴿١٩﴾ ﴾ [التوبة] أى: أن عمارة المسجد بغير إيمان لا وزن لها؛ فالإيمان هو أساس لقبول الأعمال. واستعمره فى المكان: جعله يعمره. قال تعالى: ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا .. ﴿٦١﴾ ﴾ [هود]. [القاموس القويم ٢/ ٣٥].

ونحن نلحظ أن الحق سبحانه يبيِّن لنا هنا أنه أرسل إلى ثمود واحداً منهم هو صالح عليه السلام.

وجاء الحق سبحانه بلفظ ﴿أَخَاهُمْ﴾ ليبين العلاقة التى بين صالح - عليه السلام - وقومه ، فهو قد نشأ بينهم ، وعرفوه وخبروه ، فإذا ما جاءهم بدعوة - وقد لمسوا صدقه- فلا بد أن يؤمنوا بما جاء به من منهج.

وناداهم صالح عليه السلام : ﴿يَا قَوْمِ﴾ ، وهى من القيام ، يعنى: يا من تقومون للأمور . والذى يقوم على الأمر عادة هم الرجال ؛ لأن أمر النساء مستور - دائماً - فى طى الرجال ، فليس كل حكم من أحكام الدين يأتى فيه ذكر المرأة ، بل نجد كثيراً من الأحكام تنزل للرجال ، والنساء مطويات على الستر فى ظل الرجال ، والرجل يشقى ويكدح ، والمرأة تدير حياة السُّكْنى وتربية الأولاد.

ونحن نجد من النساء ومن الرجال من يتراضون عند الزواج على ألا تخرج المرأة للعمل.

إن للمرأة حق العمل إن احتاجت ولم تجد من يعولها ، ولكن إن وجدت من يقوم عليها ، فلماذا لا تلتفت إلى عمل لا يقل أهمية عن عمل الرجل ، وهو رعاية الأسرة ؟

وكذلك نجد من يقوم باسم الحرية بالهجوم على الحجاب ، ونقول لمن يفعل ذلك: إذا كنت لم تنتقد التهتك فى الملابس ، ووَصَفْتَهُ بأنه «حرية» ، فلماذا تتدخل فى أمر الحجاب ، ولا تعتبره «حرية» أيضاً.

ونعود إلى الآية الكريمة التى نحن بصدد خواطرنا عنها ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ..(٦١)﴾ والعبادة تقتضى تلقى أوامر الإله المعبود بـ«افعل» و «لا تفعل» [1] فى كل حركة من حركات الحياة.

فكان أول شىء طلبه صالح من قومه ثمود ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ وأمر عبادة الله وحده مطلوب من كل أحد ، ولا يسع أحداً مخالفته.

﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ..(٦١)﴾ [هود]

تقرير واقع لا تستطيعون تغييره ، فليس لكم إله آخر غير الله ، مهما حاولتم ادعاء آلهة أخرى.

ويقول الحق سبحانه:

﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا .. (٦١)﴾ [هود]

والإنشاء هو الإيجاد ابتداء من غير واسطة شىء ، ويقال : أنشأ ، أى : أوجد وجوداً ابتداءً من غير الاستعانة بشىء آخر.

لذلك لا نقول لمن اخترع: إنه «أنشأ» لأنه استعان بأشياء كثيرة ليصل إلى اختراعه ؛ فقد يكون مستعيناً بمادة أخذها من الجبال ، وبخبرة تجارب صنعها من سبقوه ، ولكن الحق سبحانه وتعالى هو الذى ينشىء من عدم.

والوجود من العدم قسمان: قسم أوجدته باستعانة بموجود ، وقسم أوجدته من عدم محض ،وهذا الأخير هو الإنشاء ولا يقدر عليه إلا الله سبحانه وتعالى.

---

(١) إن مدار التكليف فى حياة الناس لا يخرج عن الأمر والنهى ، فمن الأمر نأخذ الفرض والسنة والمستحب والمندوب والتطوع والواجب والحلال ، وكل ما يرضى الله لسعادة البشرية . والنهى : يكون عن الحرام والمكروه . وحركة الحياة منوطة بافعل كأمر ، ولا تفعل كنهى ، وفى النهى عند الاستجابة سعادة ، وعند المخالفة شقاء .

والحق سبحانه جلَّت مشيئته فى الإنشاء ، فهو ينشىء الإنسان من التقاء الزوج والزوجة ، وإن أرجعت هذا الإنشاء إلى البداية الأولى فى آدم عليه السلام ، فستجد أن الحق سبحانه وتعالى قد خلقه من نفس مادة الأرض، والأرض مخلوق من مخلوقات الله .

فمنىُّ الزوج وبويضة الزوجة يتكونان من خلاصة الدم ، الذى هو خلاصة الأغذية وهى تأتى من الأرض ، فسواء رمزت لآدم بإنشائه من الأرض ، أو أبقيتها فى ذريته ، فكل شىء مَردُّه إلى الأرض .

وقول الحق سبحانه :

﴿أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ[1] فِيهَا .. (٦١)﴾ [هود]

نجد فيه كلمة ﴿اسْتَعْمَرَكُمْ﴾ وساعة ترى الألف والسين والتاء فاعلم أنها للطلب[2] ، وهكذا يكون معنى كلمة «استعمر» هو طلب التعمير .

ومن الخطأ الشائع تسمية البلاد التى تحتل بلاداً أخرى : «دول الاستعمار» .

أقول: إن ذلك خطأ ، لأنهم لو كانوا دول استعمار ، فهذا يعنى أنهم يرغبون فى عمارة الأرض ، ولكنهم فى حقيقة الأمر كانوا يخربون فى الأرض ؛ ولذلك كان يجب أن تسمى «دول الاستخراب» .

---

(١) استعمركم فيها: أذن لكم فى عمارتها واستخراج قومكم منها وجعلكم عمارها . [راجع اللسان: مادة عمر].

(٢) قال القاضى أبو بكر بن العربى : تأتى كلمة استفعل فى لسان العرب على معان :
- منها: استفعل، بمعنى طلب الفعل كقوله: استحملته أى: طلبت منه حملاناً .
- وبمعنى: اعتقد، كقولهم: استسهلت هذا الأمر ، أى : اعتقدته سهلاً، أو وجدته سهلاً . واستعظمته أى: اعتقدته عظيماً ووجدته .
- وبمعنى : أصبت ، كقولهم: استجدته أى : أصبته جيداً .
- ومنها بمعنى: فعل، كقوله: قر فى المكان واستقر . نقله القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٣٧٥) .

و﴿اسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ أى: طلب منكم عمارتها ، وهذا يتطلب أمرين اثنين: أن يبقى الناس الأمر الصالح على صلاحه ، أو يزيدوه صلاحاً.

وكما ضربت المثل من قبل بتحسين وسائل وصول المياه إلى المنازل بعد اكتشاف نظرية الأوانى المستطرقة [1] ، فقد كان الناس يشربون الماء من الترع ، ثم تم اختراع كيفية تكرير المياه ، ثم جاءت نظرية الأوانى المستطرقة ، فاستغلها الناس فى بناء خزانات عالية ، وتوصيل الماء بواسطة مواسير تدخل لكل بيت.

وهكذا تصل المياه النقية لكل منزل، وهكذا يزداد فى الأمر الصالح صلاحاً.

وأيضاً إن استصلحنا الأرض البور ، فنحن نزيد الأرض رقعة صالحة لإنتاج الغذاء لمقابلة الزيادة فى عدد السكان.

وما دام عدد السكان فى زيادة فلا بد من زيادة رقعة الأرض بالاستصلاح ؛ لأن الأزمة التى نعانى منها الآن ، هى نتيجة للغفلة التى مرت علينا ، فزاد التكاثر عن الاستصلاح ، وكان الواجب يقتضى أن نزيد من الاستصلاح بما يتناسب مع الزيادة فى السكان.

وهكذا نفهم معنى استعمار الأرض.

ومن عظمة الحق سبحانه وتعالى أنه تجلَّى على الخَلْق بصفات من صفاته ، فالقوىُّ يعين الضعيف ، والحق سبحانه له مطلق القوة ، ويَهَبُ الخلق من حكمته حكمة ، ومن قبضه قبضاً ، ومن بسطه بسطاً ، ومن غناه غنىً ؛ ولكن الصفات الحسنى كلها ذاتية فيه وموهوبة منه لنا.

---

(١) الأوانى المستطرقة: عدة أنابيب مختلفة الأحجام والأشكال، متصل بعضها ببعض بأنبوبة أفقية، فإذا وضع سائل فى إحدى هذه الأنابيب ارتفع سطح السائل إلى مستوى أفقى واحد. [المعجم الوسيط].

والدليل على ذلك أن القوى فينا يصير إلى ضعف ، والغنى منا قد يصيبه الفقر ؛ حتى لا نفهم أن هذه الصفات ذاتية فينا ، وأن الحق سبحانه وتعالى قد أعطانا من صفاته قدرة لنفعل.

ومن أعطاه الله تعالى قدرة ليفعل ؛ عليه أن يلاحظ أنه انتفع بفعل من سبقه ، فإن أكل اليوم تمراً - على سبيل المثال - فعليه أن يتذكر أن الذى زرع له النخلة [1] هو من سبقه ، فليزرع من يأكل البلح الآن نخلة لتفيده بعد سبع سنين - وهو الزمن اللازم لتطرح النخلة بلحاً-وليستفيد بها من يأتى من بعده.

ويقول الحق سبحانه وتعالى ما جاء على لسان صالح عليه السلام لقومه «ثمود» فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها:

﴿ .. فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ (٦١) ﴾ [هود]

فإن استغفر الإنسان ، فالحق سبحانه قريب من كل عبد يستغفر عن ذنوب لا تمثل حقوقاً للناس، والله سبحانه وتعالى يجيب لطالب المغفرة [2].

فماذا كان الرد من قوم ثمود ؟

يقول الحق عز وجل ما جاء على ألسنتهم:

---

(١) النخل شجر الرطب والتمر والبلح ، واحده نخلة . وجمع النخلة نخيل قال تعالى : ﴿ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا (٢٥) ﴾ [مريم] وقال تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ ..(٩٩) ﴾ [الأنعام] وقال تعالى : ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ ..(٢٦٦) ﴾ [البقرة].

(٢) عن أنس رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: قال الله: «يا بن آدم إنك ما دعوتنى ورجوتنى غفرت لك على ما كان منك ولا أبالى، يا بن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتنى غفرت لك ولا أبالى، يا بن آدم إنك لو أتيتنى بقراب الأرض خطايا ثم لقيتنى لا تشرك بى شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة». أخرجه الترمذى فى سننه (٣٥٤٠) وقال: «حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه» وقد أخرجه أحمد فى مسنده (٥/ ١٥٤) والدارمى فى سننه (٢/ ٣٢٢) من حديث أبى ذر الغفارى.

﴿ قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا[1] قَبْلَ هَٰذَا ۖ أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ[2] ﴿٦٢﴾ ﴾

كانوا ينظرون إلى صالح - عليه السلام - بتقدير ورجاء قبل أن يدعوهم لعبادة الله تعالى وحده ، ولا إله غيره.

والمرجوُّ هو الإنسان المؤمَّل فيه الخير ، ذكاءً ، وطموحاً ، وأمانة ، وأية خصلة من الخصال التى تبشر بأن له مستقبلاً حسناً.

ولكن ما إن دعاهم صالح - عليه السلام - إلى عبادة الله سبحانه وتعالى أعلنوا أنه - بتلك الدعوة - إنما يفسد رجاءهم فيه وما كانوا يأملونه فيه.

وقد أوضح لهم صالح - عليه السلام - ما أوضحه الرسل من قبله ومن بعده ، أن اتخاذ الأصنام أو الأشجار أو الشمس آلهة تُعْبد هو أمر خاطىء ؛ لأن العبادة تقتضى أوامر ونواهى ينزل بها منهج ؛ يتبعه من يعبدون ، وتلك الكائنات المعبودة لا منهج لها ، ولا عبادة دون منهج.

وأضاف قوم ثمود:

﴿ ..وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ ﴾ [هود]

---

(١) الرجاء: الأمل المتوقع قريباً. وقوله تعالى: ﴿قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا ..﴿٦٢﴾﴾ [هود] أى: كنا نرجو أن تكون فينا سيداً. [مختصر تفسير الطبرى] و[القاموس القويم].

قيل: كان صالح يصيب آلهتهم ويشنؤها، وكانوا يرجون رجوعه إلى دينهم، فلما دعاهم إلى الله قالوا انقطع رجاؤنا منك . انظر القرطبى (٤/ ٣٣٧٧).

(٢) أرابه: أوصله إلى الشك وأدخل الشك فى نفسه، واسم الفاعل: مريب. وقوله تعالى: ﴿.. وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾﴾ [هود] على سبيل التوكيد، أى: فى شك موصل إلى شك. وكذلك قوله تعالى على لسان قوم ثمود: ﴿.. وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾﴾ [هود]. وأراب الرجل فهو مريب: صار موضع ريبة وشك لا يطمئن إليه الناس. قال تعالى: ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾﴾ [ق]. [القاموس القويم].

والشك هو استواء الطرفين: النفى والإثبات.

إذن: فهم ليسوا على يقين أن عبادتهم لما عبد آباؤهم هى عبادة صادقة، ودعوة صالح عليه السلام لهم جعلتهم يترددون فى أمر تلك العبادة؛ وهذا يُظهر أن خصال الخير فى صالح عليه السلام جعلتهم يترددون فى أمر عبادتهم [(١)].

ويقول الحق سبحانه وتعالى ما جاء على لسان صالح عليه السلام لثمود:

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ [(٢)] إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ [(٣)] مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً [(٤)] فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ [(٥)] ﴿٦٣﴾﴾

---

(١) وأيضاً فإنهم فى شك من دعوة صالح عليه السلام إلى عبادة إله واحد، فخطابهم هنا موجه لصالح (مما تدعونا) أى: يا صالح. كانت ثمود بعد عاد، ومساكنهم مشهورة فيما بين الحجاز والشام، أرسل إليها أخوهم صالح يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، فسألوا صالحاً أن يأتيهم بآية واقترحوا عليه أن تخرج لهم من صخرة صماء عينوها بأنفسهم، وهى صخرة منفردة فى ناحية الحجر يقال لها الكاتبة فطلبوا منه أن تخرج لهم منها ناقة عشراء تمخض، فأخذ عليهم صالح العهود والمواثيق لئن أجابهم الله إلى سؤالهم ليؤمنن به وليتبعنه، فقام إلى صلاته ودعا الله عز وجل فتحركت الصخرة وانشقت عن ناقة يتحرك جنينها بين جنبيها وكانت الناقة تشرب من البئر يوماً وتتركه لهم يوماً وكانوا يشربون من حليبها ويملأون ما يشاءون من أوعيتهم، ولكن تسعة نفر اتفقوا على قتلها، فعقروها، فنزل بهم عقاب الله بعد ثلاثة أيام. [تفسير ابن كثير ٢/ ٢٢٧ - ٢٢٩] باختصار شديد.

(٢) أرأيتم: أى: أخبرونى. [كلمات القرآن].

(٣) بينة: يقين وبرهان وبصيرة. [كلمات القرآن للشيخ حسنين محمد مخلوف]. وهى الحجة الواضحة الموضحة للحق التى تجعل الحق ظاهراً للعيان.

(٤) رحمة: أى: نبوَّة. [تفسير الجلالين]. وقد سبق قول نوح عليه السلام: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَآتَانِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ .. ﴿٢٨﴾﴾ [هود] قال القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٣٤٣): «أى: نبوة ورسالة. عن ابن عباس، وهى رحمة على الخلق. وقيل: الهداية إلى الله بالبراهين. وقيل: الإيمان والإسلام».

(٥) خسّره: جعله يخسر، وخسره تخسيراً: أبعده عن الخير، وأهلكه. وقوله تعالى: ﴿.. فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾﴾ [هود] أى: غير إبعاد عن الخير، أو غير إهلاك بعذاب الله [القاموس القويم] وجاء فى تفسير الجلالين: (غير تخسير) أى: غير تضليل. وجاء فى مختصر تفسير الطبرى ﴿.. فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾﴾ يقول: ما تزدادون أنتم إلا خساراً، يخسركم حظوظكم من رحمة الله عز وجل.

وكأن صالحاً قد ارتضاهم حكماً فقال: أخبرونى إذا كنت أنا على بينة من ربى ويقين بأنه أرسلنى وأيَّدنى ، وأنا إن خدعت الناس جميعاً فلن أخدع نفسى ، فهل أترك ما أكرمنى به ربى وأنزل إلىَّ منهجاً أدعوكم إليه ؟ هل أترك ذلك وأستمع لكلامكم؟ هل أترك يقينى بأنه أرسلنى بهذه الرسالة ﴿ وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً ..(٦٣) ﴾ وهى النبوة ؟

﴿ فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ ..(٦٣) ﴾ [هود]

وساعة يستفهم إنسان عن شىء فى مثل هذا الموقف فهو لا يستفهم إلا عن شىء يثق أن الإجابة ستكون بما يرضيه.

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى على لسان صالح عليه السلام:

﴿ .. فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ (٦٣) ﴾ [هود]

ونحن نعلم أن الخسارة ضد المكسب ، ومعنى الخسارة أن يقل رأس المال. فهل التخسير واقع منه عليهم أم واقع منهم عليه ؟

إن ثراء الأسلوب القرآنى هنا يوضح لنا هذه المعانى كلها ، فإن أطاعهم صالح - عليه السلام - وعصى ربه ، فهو قد أزاد فى خسارته ، أو أنه ينسبهم إلى الخسران أكثر ، لأنهم غير مهديين ، ويريدون له أن يضل ويتبع ما يعبدون من دون الله تعالى.

إذن: فالتخسير إما أن يكون واقعاً عليهم من صالح - عليه السلام - وإما أن يكون واقعاً منهم على صالح.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك على لسان صالح عليه السلام:

﴿وَيَٰقَوۡمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗ[1] فَذَرُوهَا[2] تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ[3] فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٞ قَرِيبٞ[4] ٦٤﴾

وكان قوم صالح قد طلبوا آية ، فقالوا له : إن كنت نبيّاً فأخرج لنا ناقة من تلك الصخرة ، وأشاروا إلى صخرة[5] ما ، وهم قوم كانوا نابغين فى نحت بيوتهم فى الجبال. ومن يَزُرْ المنطقة الواقعة بين الشام والمدينة ، يمكنه أن يشاهد مدائن صالح ، وهى منحوتة فى الجبال.

وقد قال فيهم الحق سبحانه :

﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ[6] (١٤٩)﴾ [الشعراء]

---

(١) الناقة : أنثى الجمل ، ونسبت ناقة صالح لله ، لأنها ناقة فقراء الله تسقيهم لبنها ، أو لأنها منذورة لله وإن الله حاميها وراعيها ، أو لأنها ناقة رسول الله ، ونسبت لله تشريفاً لها . [القاموس القويم].

(٢) آية : معجزة دالة على صدق نبوة صالح عليه السلام . [كلمات القرآن].

(٣) ذروها : دعوها أو اتركوها . وهذا الفعل لم يستعمل منه إلا المضارع والأمر ؛ فمن المضارع قوله تعالى : ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ .. (١٢٧)﴾ [الأعراف] وقوله تعالى : ﴿وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ .. (٢٣)﴾ [نوح] أى : لا تتركن آلهتكم . ومن الأمر قوله تعالى : ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً (١١)﴾ [المدثر] أى : اتركنى أنتقم منه وأعاقبه على جرائمه ضد الدين والقرآن ، وهو أسلوب تهديد ووعيد . وقوله تعالى : ﴿.. ذَرْنَا نَكُن مَّعَ الْقَاعِدِينَ (٨٦)﴾ [التوبة] أى : اتركنا . [القاموس القويم] بتصرف .
وجاء فى مختصر تفسير الطبرى : ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ .. (٦٤)﴾ [هود] أى : اتركوها تأكل من أرض الله ، ليس عليكم رزقها ولا مؤونتها .

(٤) ﴿وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ .. (٦٤)﴾ أى : لا تقتلوها ولا تنالوها بعقر . [مختصر تفسير الطبرى].

(٥) قال القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٣٧٨) : «قيل : أخرجها من صخرة صماء منفردة فى ناحية الحجر يقال لها : الكاثبة».

(٦) فَرِهَ : أشر وبطر فهو فرهٌ ، وفره فراهة وفروهة : حذق ومهر ونشط وخف فهو فارهٌ . وقُرِىء بهما قوله تعالى : ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ (١٤٩)﴾ [الشعراء] أى : حاذقين نشطين ، وقرىء (فرهين) أى : بطرين أشرين . [القاموس القويم].

هم - إذن - قد حددوا الآية ، وهى خروج ناقة من صخرة أشاروا إليها ، فخرجت الناقة وهى حامل.

وبعد أن وُجدت الناقة على وفق ما طلبوها لم يطيقوا أن يعلنوا التصديق ، وقد قال لهم صالح عليه السلام:

﴿ وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ .. (٦٤) ﴾ [هود]

وساعة تسمع شيئاً مضافاً إلى الله تعالى ، فاعلم أن له عظمة بعظمة المضاف إليه.

مثلما نقول: «بيت الله» ، وهذا القول إن أُطلق فالمقصود به الكعبة المشرفة ، وإن حددنا موقعاً وقلنا عنه: «بيت الله» فنحن نبنى عليه مسجداً ، وتكون أرضه قد حُكرت لتكون مُصَلّى ، ولا يُزاوَل فيها أى عمل آخر.

هكذا تكون الكعبة هى بيت الله باختيار الله تعالى ، وتكون هناك مساجد أخرى هى بيوت لله باختيار خَلْق الله .

ولذلك فبيت الله - باختيار الله - هو قبلة لبيوت الله باختيار خلق الله .

إذن: فإن أضيف شىء لله تعالى ، فهو يأخذ عظمة الحق سبحانه وتعالى ، وقد قال لهم صالح :﴿ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ ..(٦٤) ﴾ وهى ليست ناقة زيد أو ناقة عمرو.

ولم يلتفت قوم صالح إلى ما قاله صالح عليه السلام ، ولم يلحظوا أن الشىء المنسوب لله تعالى له عظمة من المضاف إليه.

ومثال ذلك: ابن أبى لهب [1] ، وكان قد تزوج ابنة لرسول الله ﷺ وحين اشتد عناد أبى لهب للرسول ﷺ ، قال أبو لهب لابنه: طلق بنت

(١) قيل فى اسمه ثلاثة أقوال: لهب، عتبة، عتيبة. ذكرها البيهقى فى دلائل النبوة (٢/ ٣٣٨) وقال أيضاً: كانت أم كلثوم بنت رسول الله تحت عتيبة بن أبى لهب، وكانت رقية تحت أخيه عتبة بن أبى لهب.

محمد ، فطلقها ، وفعل فعلاً يدل على الازدراء [(١)] ، فدعا عليه رسول الله ﷺ وقال: «أما إنى أسأل الله أن يسلط عليه كلبه [(٢)]».

فقال أبو لهب: إنى لأتوجس شراً من دعوة محمد.

ثم سافر ابن أبى لهب مع بعض قومه فى رحلة ، وكانوا إذا ناموا طلب أبو لهب مكاناً فى وسط رحال الركب كله خوفاً على ابنه من دعوة رسول الله ﷺ ، وإذا بأسد يقفز من الرحال ويأكل الولد ، فهنا نسب رسول الله ﷺ الأمر إلى الله فقال: «أكلك كلب من كلاب الله» فكان كلب الله أسداً.

وهنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها يوضح لهم صالح عليه السلام: هذه الناقة هى الآية التى طلبتموها وقد جاءت من الصخر .

وكان يقدر أن يأتى لهم بالجنس الأرقى من الجماد ، وهو النبات ، ولكن الحق سبحانه استجاب للآية التى طلبوها وهى من جنس الحيوان.

ونحن نعلم أن الكائنات الأرضية إما أن تكون جماداً ، وإما أن يأخذ الجماد صفة النمو فيصير نباتاً ، وإما أن يأخذ صفة الحس والحركة فيصير حيواناً ، وإما أن يأخذ صفة الحس والحركة والفكر فيصير إنساناً.

---

(١) وذلك أنه لما أنزل الله عز وجل (تبت يدا أبى لهب) قال أبو لهب لابنيه عتيبة وعتبة: رأسى ورؤوسكما حرام إن لم تطلقا ابنتى محمد، وسأل النبى ﷺ عتبة طلاق رقية، وسألته رقية ذلك وقالت له أم كلثوم بنت حرب بن أمية - وهى حمالة الحطب: طلقها يا بنى فإنها قد صبت فطلقها. وطلق عتيبة أم كلثوم، وجاء النبى ﷺ حين فارق أم كلثوم فقال: كفرت بدينك، وفارقت ابنتك، لا تحبنى ولا أحبك، ثم تسلط على رسول الله ﷺ فشق قميصه، فقال ﷺ: «أما إنى أسأل الله أن يسلط عليه كلبه». دلائل النبوة للبيهقى (٢/ ٣٣٨، ٣٣٩) ، وأورده الهيثمى فى مجمع الزوائد (٦/ ١٩) وعزاه الطبرانى مرسلاً وقال: فيه زهير بن العلاء وهو ضعيف، وقد أخرجه الحاكم فى مستدركه (٢/ ٥٣٩) من حديث أبى عقرب وصححه. وحسنه ابن حجر فى الفتح (٤/ ٣٩).

(٢) الكلب: كل سبع عقور، ومنه الأسد . قال ابن سيده: غلب الكلب على هذا النوع النابح. وقد يكون التكليب واقعاً على الفهد وسباع الطير. وفى التنزيل العزيز: ﴿ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ ..(٤) ﴾ [المائدة] ، فقد دخل فى هذا: الفهد، والبازى، والصقر، والشاهين، وجميع أنواع الجوارح» [انظر: اللسان مادة: كلب] وانظر فتح البارى (٤/ ٣٩).

وكان من الممكن أن يأتى لهم صالح عليه السلام بشجرة من الصخر ، وهذا أمر فيه إعجاز أيضاً ، ولكن الحق سبحانه أرسل الآية كما طلبوها ؛ ناقة من جنس الحيوان ، وحامل فى الوقت نفسه.

وطالبهم صالح عليه السلام أن يحافظوا عليها ؛ لأنها معجزة ، عليهم ألا يتعرضوا لها. وقال لهم:

﴿ .. فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ (٦٤) ﴾ [هود]

وهكذا وعظهم ، وطلب منهم أن يتركوها تأكل فى أرض الله ، وإن مسّوها (١) بسوء ولم يأخذهم عذاب ، فمن آمن به لا بد أن يكفر.

إذن: فلا بد أن يأتى العذاب القريب إن هم مسّوها.

وهم قد مسّوها بالفعل ، وهو ما تبينه الآية الكريمة التالية:

﴿ فَعَقَرُوهَا (٢) فَقَالَ تَمَتَّعُوا (٣) فِي دَارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ (٤) (٦٥) ﴾

---

(١) المس : الجنون على تخيل أن الجن مسته كقوله تعالى : ﴿ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ .. (٢٧٥) ﴾ [البقرة] أى : المصروع الذى لا يعى مسه وماسَّه مماسة أو مساساً مسَّ كل منها الآخر مفاعلة من الجانبين وتماس الزوجان تلاقت بشراتهما ومن جلد كل منهما جلد الآخر ، ومسه من باب فرح مسّاً أجرى يده عليه من غير حائل ومسته النار أصابته ومسَّه المرض : أصابه على إعجاز ، وقوله تعالى: ﴿ لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ (٧٩) ﴾ [الواقعة] أى : لا يمسك بالمصحف إلا الطاهرون من الحدث الأكبر . [القاموس القويم بتصرف صـ ٢٢٦ حـ ٢] .

(٢) العقْر : أصل كل شىء، وعقرته : أصبت عقره، كقوله تعالى: ﴿ فَعَقَرُوهَا ..(٦٥) ﴾ [هود] أى: أصابوها إصابة قاتلة، أى: نحروها. [القاموس القويم].

(٣) تمتع واستمتع بمعنى واحد. ومتع بالشىء: انتفع به. والمتاع: مصدر يسمى به الشىء المنتفع به، والمتاع: كل ما ينتفع به من طعام وأثاث وأداة ومال. وقال تعالى: ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٣) ﴾ [الحجر] وقال تعالى: ﴿ .. وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ (١٢) ﴾ [محمد] . [القاموس القويم] بتصرف.

(٤) وعد غير مكذوب: أى: وعد صادق واقع لا محالة؛ وهو من قبيل تأكيد الشىء بنفى نقيضه.

وجلسوا فى منازلهم ثلاثة أيام [1] ثم جاءهم العذاب.

ولقائل أن يقول: ولمَ الإمهال بثلاثة أيام ؟

ونقول: إن العذاب إذا جاء فالألم الحسِّى ينقطع من المعذَّب ، ويشاء الله تعالى أن يعيشوا فى ذلك الألم طوال تلك المُدَّة حتى يتألموا حسِّيًا ، وكل يوم يمرُّ عليهم تزداد آلامهم من قرب الوعيد الذى قال فيه الله تعَالى:

﴿ .. وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ (٦٥) ﴾ [هود]

الحق سبحانه هو الذى يَعِدُ ، وهو القادر على إنفاذ الوعد ، ولا تقوم قوة أمامه ؛ لذلك فهو وعد صَادق غير مكذوب.

على عكس الإنسان منا حين يَعِدُ بشىء ، فمن الممكن أن يأتى وقت تنفيذ الوعد ولا يستطيع.

لذلك يقول لنا الحق سبحانه:

﴿ وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا (٢٣) إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ ..(٢٤) ﴾ [الكهف]

لأنك إن قلت: «أفعل ذلك غداً »، وتعد إنساناً بلقائه لكذا وكذا ؛ فقل: «إن شاء الله» ؛ لأن الله تعالى لا يمنع ترتيب أمور لزمن يأتى ، وإنما يجب أن يردف من يرتب الأمور «بمشيئة القوى القادر» حتى إذا لم ينجز ما وعد به ؛ يكون قد خرج عن الكذب ، لأن الله تعالى لم يشأ ، لأن الإنسان إذا وعد ، فهو لا يعتمد على إرادته ، ولكن مشيئة الله تعالى تعلو كل شىء.

---

(١) ذكر القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٣٧٩) أن عقرها كان يوم الأربعاء، فأقاموا يوم الخميس والجمعة والسبت. وأتاهم العذاب يوم الأحد. وإنما قاموا ثلاثة أيام، لأن الفصيل رغا ثلاثاً، فاصفرت ألوانهم فى اليوم الأول، ثم احمرت فى الثانى، ثم اسودت فى الثالث. وهلكوا فى الرابع. وانظر تفسير ابن كثير (٢/ ٢٢٩).

والفعل - كما نعلم - يقتضى فاعلاً ، ومفعولاً ، وزمناً ، وسبباً دافعاً ، وقدرة تمكِّن الإنسان من الفعل ، فهل يملك أحدٌ شيئاً من كل هذا ؟

إن الإنسان لا يملك نفسه أن يعيش إلى الغد ، ولا يملك من يعده أن يوجد غداً حتى يلقاه ، ولا يملك أن يظل السبب سبباً للِّقاء ؛ فربما انتهى السبب ، ولا يملك حين تجتمع الأسباب كلها أن توجد له قدرة وقوة على إنفاذ السبب.

إذن: فإذا قال: «أفعل ذلك غداً مع فلان» ؛ يكون قد جازف وتكلم فى شىء لا يملك عنصراً واحداً من عناصره ، فقل: « إن شاء الله» ، أى: أنك تستعين بمشيئة من يملك كل هذه العناصر.

ويعطى الحق سبحانه فى كل لقطة إيمانية من اللقطات ، قدرته على خلقه فهو سبحانه القائل:

﴿ فَعَقَرُوهَا (١) فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ (٦٥) ﴾ [هود]

وقوله: ﴿فِي دَارِكُمْ﴾ لأن من هؤلاء الذين كفروا قوماً فى مكان يختلف عن مكان آخر يوجد به أيضاً قوم كافرون ، ومنهم المسافر ، ومنهم العائد من سفر ، فتتبعهم العذاب حيثما كانوا ، فلم ينزل على مكان واحد ، إنما نزل على المكين منهم فى أى مكان.

---

(١) العقر : أصل كل شىء . وعقرته - من باب نصر : أصبتم عقره كقوله تعالى : ﴿ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ .. (٧٧) ﴾ [الأعراف] أصابوها إصابة قاتلة ، أى : نحروها . وعقرت المرأة : أصيبت بالعقم ، فهى لا تلد فهى عاقر . قال تعالى : ﴿ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا .. (٥) ﴾ [مريم] .

ولم يَنْجُ من هذه المسألة إلا واحد اسمه «أبو رغال»[(١)]، وكان يحج إلى بيت الله، فلم يتبعه عذابه فى بيت الله؛ لأن الله سبحانه طلب منا نحن عباده أن نؤمِّن من دخل بيته، فهو سبحانه وتعالى أوْلى بأن يؤمِّن من دخل البيت الحرام[(٢)]، وظل الحجر الذى سيُضرب به، أو الصيحة التى كان عليها أن تأخذه، ظلت إلى أن خرج من الحرم فوقعت عليه.. وعَمَّ العذابُ الكافرين من قوم صالح، وتتبع من فى الديار إلا هذا الرجل، وما إن خرج من البيت الحرام حتى وقع عليه العذاب[(٣)].

ولذلك كان قاتل الأب أو الإنسان الذى عليه دم نتيجة أنه ارتكب جريمة قتل، إذا ما دخل البيت الحرام فهو يُؤمَّن إلى أن يخرج، وكانوا يُضيِّقون عليه، فلا يطعمه أحد، ولا يسقيه أحد ليضطر إلى الخروج، فيتم القصاص منه بعد خروجه من البيت الحرام، ولتظل حرمة البيت الحرام مُصَانة.

ونحن نعلم أن الحق سبحانه أراد من تحريم القتال فى البيت الحرام، صيانة وتكريماً للكرامة الإنسانية.

---

(١) عن جابر بن عبد الله قال: لما مر رسول الله ﷺ بالحجر قال: «لا تسألوا الآيات فقد سألها قوم صالح فكانت - يعنى: الناقة - ترد من هذا الفج وتصدر من هذا الفج، فعتوا عن أمر ربهم فعقروها وكانت تشرب ماءهم يوماً ويشربون لبنها يوماً فعقروها فأخذتهم صيحة أهمد الله بها مَنْ تحت أديم السماء منهم إلا رجلاً واحداً كان فى حرم الله، فقالوا: من هو يا رسول الله؟ قال: أبو رغال. فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه» أخرجه أحمد فى مسنده (٣/ ٢٩٦) والحاكم فى مستدركه (٢/ ٣٢٠، ٥٦٧) وصحح إسناده. قال الهيثمى (٧/ ٥٠): رجال أحمد رجال الصحيح، قلت: هم أيضاً رجال الإسناد الأول.

(٢) يقول رب العزة سبحانه: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ (٩٦) فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا .. (٩٧)﴾ [آل عمران] أى: يكون آمناً مطمئناً لا يخاف على نفسه أو ماله، ولذلك قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ .. (٦٧)﴾ [العنكبوت].

(٣) ذكر ابن كثير فى تفسيره (٢/ ٢٢٩) «أن جارية كانت مقعدة واسمها كلبة ابنة السلق ويقال لها: الذريعة. وكانت كافرة شديدة العداوة لصالح عليه السلام، فلما رأت ما رأت من العذاب أطلعت رجلاها، فقامت تسعى كأسرع من شىء، فأتت حياً من الأحياء فأخبرتهم بما رأت وما حل بقومها ثم استسقتهم من الماء فلما شربت ماتت».

ونحن نعلم أيضاً أن كل حدث من الأحداث يقتضى زماناً ، ويقتضى مكاناً .

وكان العرب دائمى الغارات على بعضهم البعض ، فأراد الحق سبحانه أن يوجد مكان يحرم فيه القتال ؛ فخصَّ البيت الحرام بذلك ، وأراد سبحانه أن يوجد زمان يحرم فيه القتال ؛ فكانت الأشهر الحرم ؛ لأن الحرب قد تكون سجالاً [١] بين الناس وتوقظ فيهم الحمية والأنفة [٢] والعزة .

وكل واحد منهم يحب فى ذاته أن ينتهى من الحرب ، ولكنه لا يحب أن يجبن أمام الناس ، فأراد الحق سبحانه أن يجعل لهم شيئاً يتوارون فيه من الزمان ومن المكان ، فحرم القتال فى الأشهر الحرم .

وما إن تأتى الأشهر الحرم حتى يعلن المقاتل من هؤلاء : لولا الأشهر الحرم لكنت قد أنزلت بخصمى الهزيمة الساحقة ، وهو يقول ذلك ليدارى كبرياءه ؛ لأنه فى أعماقه يتمنى انتهاء الحرب .

وكذلك حين يدخل مقاتل إلى البيت الحرام ، هنا يقول مَنْ كان يحاربه : لو لم يدخل الحرم ؛ لأذقته عذاب الهزيمة .

وبمضىِّ الزمان وبالمكث فى المكان ينعم الناس بالأمن والسلام ، وربما عشقوه فانتهوا من الحرب .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ ﴾

---

(١) الحرب بينهم سجال : أى : نصرتها بينهم متداولة ، مرة لهم ، وأخرى عليهم . [المعجم الوسيط] بتصرف .

(٢) الأنفة : العزة والحمية والكرامة . [المعجم الوسيط] بتصرف .

فحين شاء الحق أن يُنزل العذاب بثمود ، بعد مُضىِّ المدة التى أنذروا بنزول العذاب بعدها ، نجَّى الحق صالحاً عليه السلام والذين آمنوا برسالته من الهلاك ، فحفظتهم رحمة الله ؛ لأنهم آمنوا بما نزل على صالح من منهج ، ولم يُعَانِ المؤمنون برسالة صالح ما عانى منه قوم ثمود من الذل والفضيحة .

هذا الذل وتلك الفضيحة التى حاقت [1] بثمود .

ويذيل الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله :

﴿ .. إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (٦٦) ﴾ [هود]

هذا خطاب لمحمد ﷺ تسلية وتسرية عنه وتقوية لعزمه ، فالحق سبحانه مقتدر يأخذ كل كافر ، ولا يغلبه أحد ولا يعجزه شىء ، وفى هذا إنذار لمن كفروا برسالة رسول الله ﷺ .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ (٦٧) ﴾ [2]

ويسمى الحق سبحانه هنا العذاب الذى نزل على ثمود «الصيحة» وسمّاه فى موضع آخر « الطاغية» :

﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ (٥) ﴾ [الحاقة]

وسمّاه فى موضع آخر «صاعقة» فقال سبحانه :

---

(١) حاق به الشىء أو العذاب يحيق حيقاً : نزل به وأصابه وأحاط به . قال تعالى : ﴿ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ .. (٤٣) ﴾ [فاطر] .

(٢) جثم جثوماً: لزم مكانه لاصقاً بالأرض . قال تعالى: ﴿ .. فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٦٧) ﴾[هود] كناية عن موتهم بحالتهم، فهم هامدون لاصقون بالأرض. [القاموس القويم].

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ (١٣) ﴾ [فصلت]

وفى سورة الأعراف سمّاه «الرجفة» ، وكل من الصاعقة والصيحة والرجفة [1] تؤدى معنى الحدث الذى يَدْهَمُ [2] ، ولا يمكن الفكاك منه.

ولقائل أن يقول: لماذا لم يقل الحق سبحانه هنا: «وأخذت الذين ظلموا الصيحة »؟ لماذا اختفت تاء التأنيث من الفعل ، وقال سبحانه:

﴿ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ .. (٦٧) ﴾؟ [هود]

ونقول: إن الذى يتكلم هنا هو رب العباد سبحانه ، ولا يصح أن نفهم الصيحة على أنها جاءت لتعبر عن صيحة واحدة ، فتاء التأنيث تعبر عن الصيحة لمرة واحدة ، أما إذا تكررت وصارت صياحاً كثيراً تأخذهم كل صيحة من الصياح.

وهنا نلمح أن الصيحة فيها ضعف الأنوثة ، أما الصياح ففيه عزيمة وقوة الرجولة ، فأراد الحق سبحانه أن يجمع الأمرين، فقال: «أخذ» ولم يقل: «أخذت».

ثم قال سبحانه:

﴿ .. فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٦٧) ﴾ [هود]

أى: مُلْقون على رُكَبهم وعلى جباههم بلا حركة.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

---

(١) رجف يرجف رجفاً ورجفاناً: تحرك واضطرب بشدة. قال تعالى: ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ ..(١٤) ﴾ [المزمل] والرجفة: اسم مرة من الرجف. قال تعالى: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ .. (٧٨) ﴾ [الأعراف] [القاموس القويم].

(٢) دَهَمه أمر دهماً: فجأه وغشيه. ودهمه القوم: جاءوه مجتمعين مرة واحدة. وأدهمه: ساءه وأرغمه. والدَّهْم: العدد الكثير. وجيش دَهْم: كثير. [المعجم الوسيط].

﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا[1] أَلَا إِنَّ ثَمُودَا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾ ﴾

ومادة «غَنِىَ»[2] .. «غنىً» ، أو «غَنَاءً» كلها متساوية ؛ لأن الغَنَاء هو الوجود ؛ وجود شيء يُغنى عن شيء ، فالغنَى هو وجود مال يغنيك عن غيرك ، والغناء هو ما نسمعه من المُغَنِّين، والأغنية التى يعجب الإنسان من كلماتها ولحنها ، فهو يقيم معها إقامة تطرد ما سواها مما سمع من الكلام على كثرة ما سمع أو قرأ ، والغَناء هو للإقامة.

والحق سبحانه يقول:

﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا[3] كَأَن لَّمْ تَغْنَ[4] بِالْأَمْسِ .. ﴿٢٤﴾ ﴾ [يونس]

أى: كأنها لم توجد من قبل.

وهنا يقول الحق سبحانه:

﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا .. ﴿٦٨﴾ ﴾ [هود]

---

(١) غنى القوم فى ديارهم: طال مقامهم فيها. قال تعالى: ﴿ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا .. ﴿٦٨﴾ ﴾ [هود]. [القاموس القويم].

(٢) غنى يغنى غناء وغنى: كثر ماله، فهو غان وغنى. والغنى: من أسماء الله الحسنى. قال تعالى: ﴿ وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ ..﴿١٣٣﴾ ﴾ [الأنعام] . [القاموس القويم].

(٣) حصد الزرع يحصده حصداً وحصاداً: قطعه عند نضجه. ويستعمل الحصد مجازاً بمعنى الإهلاك والإبادة. قال تعالى: ﴿ .. حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ ﴿١٥﴾ ﴾ [الأنبياء] أى: جعلناهم كالزرع المحصود، أى: أهلكناهم. وقال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [هود] . أى: منها باق، ومنها هالك. [القاموس القويم].

(٤) غنيت الدار بأهلها: عمرت بهم، قال تعالى: ﴿ فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ .. ﴿٢٤﴾ ﴾ [يونس] أى: كأنها لم تعمر. [القاموس القويم ٢/ ٦١].

أى: لم يقيموا فيها ، لأنها صارت حصيداً.

ثم يقول الحق سبحانه فى نفس الآية: ﴿ أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ ..(٦٨) ﴾ ، وهذه هى حيثية العذاب الذى نزل بهم.

وعادة ما تتعدى كلمة «كفر» بالباء ، ويقال: كفروا بربهم ، ولكن الحق سبحانه يقول هنا:

﴿ أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ .. (٦٨) ﴾ [هود]

والفارق كبير بين المعنيين ، فمعنى ﴿كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾ أى: ستروا وجوده ، فلا وجود له ، ولكن معنى «كفروا بربهم» هو اعتراف بالله الموجود ، لكنهم لم يؤمنوا به.

وقول الحق سبحانه: ﴿كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾ يرد على الملاحدة الذين لا يقرون بوجود الله ، لأن ذنب إنكار وجود الله ليس بعده ذنب ، ولا يوجد ما هو أكبر منه فى الذنوب.

لذلك يقول الحق سبحانه:

﴿ .. أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ (٦٨) ﴾ [هود]

أى: أنهم يستحقون ما وقع عليهم من إهلاك وطرد من رحمة الله ، ولن يعطف عليهم أحد لضخامة ذنبهم.

ويأتى الحق سبحانه فى الآية التالية بقصة جديدة من قصص الأنبياء ، وهى جزء من قصة أبى الأنبياء إبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ، يقول سبحانه:

﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ (١) قَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ فَمَا لَبِثَ (٢) أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (٣) ﴿٦٩﴾ ﴾

وكلمة «رسل» جمع «رسول» ، والرسول هو المرسَل من جهة إلى جهة ، وأى إنسان تبعثه إلى جهة ما ؛ اسمه رسول ، ولكن المعنى الشرعى للرسول : أن يكون مُرسَلاً من الله.

ويقول الحق سبحانه :

﴿ اللَّهُ يَصْطَفِى (٤) مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ .. ﴿٧٥﴾ ﴾ [الحج]

واصطفاء الملائكة كرسل لتيسير التلقِّى عن الخالق سبحانه ؛ لأن القوة التى تتلقى عن الخالق سبحانه وتعالى لا بد أن تكون قوة عالية ، والإنسان منا لا يقدر على أن يتلقى مباشرة عن الحق سبحانه.

لذلك يأتى لنا الله جَلَّ عُلاَه بالرسل ، فيصطفى من الملائكة المخصوصين القادرين على التلقى لينزلوا على المصطفى من البشر القادر على حمل الرسالة.

---

(١) البُشرى والبشارة : ما يُعطى للمبشر بالخبر السار. والبِشْر : مصدر بمعنى البشارة والبشرى، ويطلق كل منها على الخبر السار. وبشَّره : أخبره بما يسره. قال تعالى : ﴿ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾ [الحجر].

(٢) لبث : أقام واستقر. وما لبث أن فعل كذا : ما قعد وما توانى، أى : أسرع إلى فعله بغير أى توان. وقوله تعالى : ﴿ .. فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ ﴾ [هود] أى : أسرع فأتى به، وهو دليل العناية والحفاوة بالضيف. [القاموس القويم].

(٣) حنذ اللحم يحنذه حنذاً : شواه على الحجارة، فهو حنيذ أى : مشوى. قال تعالى : ﴿ .. فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ ﴾ [هود]، ولحمه يكون أطيب من المسلوق والمطبوخ فى الماء. [القاموس القويم].

(٤) اصطفاه : اختاره وآثره وفضَّله. قال تعالى : ﴿ .. يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [آل عمران] أى : اختارك وفضَّلك. وقال تعالى : ﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ .. ﴿٧٥﴾ ﴾ [الحج] أى : يختار الأفضل منهم لرسالاته. [القاموس القويم] بتصرف.

وهكذا نعلم أن الملائكة ليست كلها قادرة على التلقى من الله تعالى ، ولا كل البشر بقادرين على التلقى عن الله أو عن الملائكة.

وهذه الحلقات فى الإبلاغ أرادها الحق سبحانه ، لتؤهل للضعيف أن يأخذ من الأقوى ؛ والبشر يلجأون إلى ذلك فى حياتهم.

وسبق أن ضربت المثل ، بأننا أثناء الليل نطفىء نور المنزل ، لكننا نترك ضوءاً خافتاً يوضح لنا ملامح البيت ، فإن قمنا ليلاً من النوم ؛ لا نصطدم بمتاع البيت ، فيتحطم ما نصطدم به إن كان أضعف منا ، أو نُصَاب نحن إن اصطدمنا بما هو أقوى منا.

والنور الضعيف يتيح لنا أن نرى مكان مفتاح الضوء القوى .

وكذلك يفعل الله سبحانه وتعالى ، فيأتى بمصطفى من الملائكة ، يتلقى عن الحق سبحانه ويبلغ المَلَكُ من هؤلاء الرسولَ المصطفى من البشر.

والحق سبحانه هو القائل:

﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا (١) أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ (٢) أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً (٣) فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ .. (٥١) ﴾ [الشورى]

وهنا يقول الحق سبحانه:

---

(١) الوحى: يطلق على الأمر الموحى به من إطلاق المصدر على المفعول به.
قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ .. (٤٥) ﴾ [الأنبياء] أى: بالقرآن الذى أوحاه الله إلىَّ. ويطلق الوحى على الملك الذى أرسله الله إلى الرسول ليبلغه ما أمر الله به ، وقوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا .. (٥١) ﴾ [الشورى] أى: إلهاماً من الله ، وقذفاً وإلقاء فى قلب الرسول فى سرعة وخفاء. [القاموس القويم ٢/ ٣٢٥].

(٢) ﴿ أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ .. (٥١) ﴾ [الشورى] أى: فاصل بين الألوهية والبشرية ، وبطريقة لا يعلمها إلا الله تعالى. [القاموس القويم ٢/ ٣٢٥].

(٣) ﴿ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً .. (٥١) ﴾ [الشورى] مثل جبريل عليه السلام ، فيوحى إلى الرسول بإذن من الله ما أمر الله به [القاموس القويم ٢/ ٣٢٥].

﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ .. (٦٩) ﴾ [هود]

والبشرى هى الإخبار بشىء يسرُّ قبل أوان وقوعه ، وهى عكس الإنذار الذى يعنى الإخبار بشىء محزن قبل أوانه.

وقبل أن يوضح الرسل لإبراهيم - عليه السلام - البشارة التى جاءوا من أجلها، يعلمنا الحق سبحانه المقدمات اللازمة للدخول إلى الأماكن، فمن أدب الدخول إلى أى مكان أن نسلِّم على أهل هذا المكان ، والحق سبحانه القائل:

﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا (١) وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا .. (٢٧) ﴾ [النور]

ولذلك يأتى الحق سبحانه هنا بما قالته الملائكة من قبل إبلاغ البشرى :

﴿ قَالُوا سَلامًا .. (٦٩) ﴾ [هود]

وجاء سبحانه بردِّ إبراهيم عليه السلام:

﴿ قَالَ سَلامٌ .. (٦٩) ﴾ [هود]

ونحن نلحظ أن السلام جاء على ألسنتهم بالنصب ، والرد بالسلام جاء بالرفع ، وقولهم: ﴿سَلامًا﴾ دل على فعل يوضح التجدد ، والرد جاء بكلمة ﴿سَلامٌ﴾ بالرفع؛ ليدل على الثبات والإصرار.

والحق سبحانه هو القائل:

﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا .. (٨٦) ﴾ [النساء]

هكذا استقبل إبراهيم عليه السلام رسل الحق سبحانه.

ثم يقول الحق سبحانه:

---

(١) استأنس : ذهب توحشه ، واستأنس به وإليه ، والهمزة والسين والتاء للطلب فى الغالب. فقوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا .. (٢٧) ﴾ [النور] أى: حتى تطلبوا الأنس والألفة والرضا ، أو حتى تستشعروا الأنس وتعلموه [القاموس القويم ١/ ٣٧].

﴿ .. فَمَا لَبِثَ [١] أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (٦٩) ﴾ [هود]

والعجل هو ولد البقر.

وهناك آيات كثيرة فى القرآن تعرضت لقصة إبراهيم عليه السلام فى أكثر من موضع من مواضع القرآن ، لا بقصد التكرار ، ولكن لأن كل لقطة فى أى موضع هى لقطة مقصودة لها دلائلها وأسرارها ، فإذا جُمعَتْ اللقطات فسوف تكتمل لك قصة إبراهيم عليه السلام فى شمول متكاملَ .

وعلى سبيل المثال : يقول الحق سبحانه :

﴿ وَكَذَلِكَ نُرِى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ .. (٧٥) ﴾ [الأنعام]

وفى موضع آخر يتعرض الحق سبحانه للتربية اليقينية التى أرادها لإبراهيم ، فيقول سبحانه :

﴿ فَلَمَّا جَنَّ [٢] عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّى فَلَمَّا أَفَلَ [٣] قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا [٤] قَالَ هَذَا رَبِّى فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّى هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّى بَرِىءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ [٥] السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا [٦] وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٧٩) ﴾ [الأنعام]

---

(١) ما لبث أن جاء : أى : أسرع بإعداد الطعام وإحضاره لضيوفه ، وهذا فيه دلالة قوية على الجود والكرم الذى اتصف به إبراهيم عليه السلام . [القاموس القويم] بتصرف .

(٢) جَنَّ الشىء ، يجنُّه جنّاً : ستره ، ويتضمن الفعل معنى كلمة «أظلم» لأن الظلام يستر كل شىء . وجَنَّ الليل : أظلم . [القاموس القويم] .

(٣) أفل : غاب وغرب تحت الأفق [كلمات القرآن] .

(٤) بازغاً : طالعاً من الأفق منتشر الضوء . [كلمات القرآن] .

(٥) فطر الشىء : شقه . وفطر الله الخلق : خلقهم وبدأهم فهو فاطر أى ابتدأ خلق السموات والأرض . [القاموس القويم ٢/ ٨٤] .

(٦) حنيفاً : مائلاً عن الباطل ، مستقيماً على الحق . [لسان العرب] .

إن هذه الآيات تبين وظيفة الحواس إدراكاً ، ووظيفة الوجدان انفعالاً ، ووظيفة الاختيار توحيداً وإذعاناً بيقين .

ثم يقول الحق سبحانه فى موضع آخر على لسان إبراهيم عليه السلام فخاطب عمه باحترام لمكانته التى تساوى منزلة الأب .

يقول الحق سبحانه :

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا (٤١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا (٤٢) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (٤٣) يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (٤٤) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (٤٥) ﴾ [مريم]

فهذه الآية تبين رفق الداعى مع جمال العرض .

فأصرَّ العَمُّ على الشرك ، فقال إبراهيم عليه السلام :

﴿ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي .. (٤٧) ﴾ [مريم]

وبعد ذلك يتبرأ منه لإصراره على الكفر .

ثم هناك لقطة من يُحاجج إبراهيم فى ربه :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ [1] إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ .. (٢٥٨) ﴾ [البقرة]

وكانت تلك سفسطة [2] فى القول ناتجة عن عجز فى التعبير ، فليس

---

(١) حاجه : نازعه الحجة ، فهى مفاعلة من الجانبين ، أى : قدم كل منهما حجته ؛ ليغلب بها الآخر . قال تعالى : ﴿ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ .. (٨٠) ﴾ [الأنعام] [القاموس القويم ١/ ١٤٣] .

(٢) السفسطة : المغالطة والتضليل بغرض إفحام الخصم وإسكاته . [المعجم الوسيط] بتصرف .

إصدار حكم بالقتل على إنسان ، ثم العفو عنه ، هو إحياء وإماتة ، فأخذه إبراهيم عليه السلام إلى منطقة لا يجرؤ عليها أحد ، وقال:

﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ ..(٢٥٨) ﴾ [البقرة]

وهذه الآية تبين منطق الحق أمام زيف الباطل ، ثم يأتى فى موضع آخر من القرآن ليبين المقارنة بين فكرة الكفر ، وفكرة الإيمان ، فيقول سبحانه :

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (٧٠) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (٧١) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (٧٣) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٧٤) ﴾ [الشعراء]

وفى هذه الآية أمثلة تحمل جواب الإسكات .

ثم يقول الحق سبحانه ، على لسان إبراهيم عليه السلام:

﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (٨٢) ﴾ [الشعراء]

يقول رب العزة سبحانه فى سورة الأنبياء :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ (٥١) إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (٥٢) قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ (٥٣) قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٥٤) قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللاَّعِبِينَ (٥٥) قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ (٥٦) ﴾ [الأنبياء]

هذه هى التربية اليقينية [(١)] التى أرادها الحق سبحانه لإبراهيم عليه السلام ليعلمنا كيف يكون الإيمان ؟

وكان قوم إبراهيم يعبدون آلهة غير الله ، لكن إبراهيم عليه السلام توصَّل إلى عبادة مَنْ خَلَقه وخَلَق الكون ، وهو الصانع الذى يضع قانون صيانة ما يصنع سبحانه وتعالى.

ولذلك نلاحظ قوله :

﴿ الَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) ﴾ [الشعراء]

فلم يقل: «الذى خلقنى يهدينى» لأن هذه دعوى؛ ستُدَّعى ، وسيضع الناس قوانين لأنفسهم ، فبيَّن الحق سبحانه أن الذى خَلَق هو الذى يَهْدِى.

وجاء الحق سبحانه بكلمة «هو» لحصر الأمر حتى لا يشارك الخلق خالقهم فيه ، لكن الأمر الذى لم يُدَّعَ ، لم يأت فيه بكلمة «هو» كقوله:

﴿ وَالَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١) ﴾ [الشعراء]

فما لا شركة فيه عند الخَلْق يأتى به القرآن من غير تأكيد الضمير ، ولكن فى الأمر الآخر يأتى بتأكيد الضمير كقوله:

﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) ﴾ [الشعراء]

فقد يقال: «إن الطبيب هو الذى يشفينى» ، ولكن ذلك غير حقيقى؛ لأن الله سبحانه هو الذى يضع العلم ، وهو الذى خلق الداء وخلق الدواء [(٢)] .

---

(١) اليقين : العلم الثابت الواضح الذى لا شك فيه ، ويقال خير يقين لا شك فيه ، ويكفى به عن الموت ؛ لأنه لا شك فيه ، قال تعالى : ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ (٩٩) ﴾ [الحجر] أى : الموت وقال تعالى : ﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (٢٢) ﴾ [النمل] وأيقن الأمر وأيقن به : علمه علماً ثابتاً واضحاً لا شك فيه [القاموس القويم ٢/ ٣٧١ ، ٣٧٢].

(٢) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : «ما أنزل الله من داء إلا أنزل له شفاء» أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٦٧٨) وابن ماجه فى سننه (٣٤٣٩).

ثم بعد ذلك يقول الحق سبحانه فى قصة إبراهيم عليه السلام:

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ [1] مِنَ الْبَيْتِ .. (١٢٧) ﴾ [البقرة]

إذن: فكل مناسبة تأتى لتأكيد معنى من معانى الإيمان تأتى معها لقطة من لقطات قصة إبراهيم عليه السلام، وإذا جُمِعت اللقطات كلها تجد قصة إبراهيم كاملة.

وإذا كان الله سبحانه وتعالى يريد أن يقص على نبيه محمد ﷺ القصص، فذلك لتثبيت فؤاده ﷺ:

﴿ وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ .. (١٢٠) ﴾ [هود]

لأن النبى ﷺ يتعرض لكثير من الأحداث، فيذكِّره الله سبحانه بما حدث للرسل عليهم السلام ويأتى باللقطات الإيمانية ليثبت فؤاد الرسول ﷺ.

وهنا يقول الحق سبحانه:

﴿ .. قَالُوا سَلاَمًا قَالَ سَلاَمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (٦٩) ﴾ [هود]

وفى موضع آخر يقول الحق سبحانه:

﴿ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلاَمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ [2] (٥٢) ﴾ [الحجر]

وفى آية أخرى يقول الحق سبحانه عن هذا الموقف:

﴿ فَأَوْجَسَ [3] مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيمٍ (٢٨) ﴾ [الذاريات]

---

(١) القواعد: جمع قاعدة، وقاعدة البناء: أساسه الذى يقوم عليه. [القاموس القويم ٢/ ١٢٧].

(٢) وجل يوجل: فزع وخاف. قال تعالى: ﴿ قَالُوا لا تَوْجَلْ .. (٥٣) ﴾ [الحجر] أى: لا تفزع ولا تخف، وهو وجل، أى: خائف. وقال تعالى: ﴿ .. قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ (٥٢) ﴾ [الحجر]. وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ..(٢) ﴾ [الأنفال].

(٣) أوجس فى نفسه: أضمر الخوف فى نفسه. قال تعالى عن موسى عليه السلام: ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ (٦٧) ﴾ [طه] وقال عن إبراهيم عليه السلام: ﴿ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ..(٢٨) ﴾ [الذاريات] أى: أحس الفزع والخوف. [القاموس القويم].

أى: أحس فى نفسه الخوف ، وهذا من أمر المواجيد [(١)] ؛ لأن كل فعل من الأفعال له مقدمات تبدأ بالإدراك ، ثم النزوع ، ثم الفعل؛ فحين رآهم إبراهيم عليه السلام أوجس فى نفسه خيفة ، ثم نزع إلى فعل هو السلام.

والشرع لا يتدخل فى الإدراك أو المواجيد ، ولكنه يتدخل فى النزوع ، إلا فى أمر واحد من مدركات الإنسان ، وهو إدراك الجمال فى المرأة.

لذلك أمر الشرع بغض البصر [(٢)]؛ حتى لا يدرك الإنسان ذلك فينزع إلى سلوك ليس له حق فيه ، ولأن إدراك حُسْن المرأة قد يدفع الغرائز إلى السلوك الفورى؛ لأن الغرائز لا تفصل النزوع عن الوجدان والإدراك.

وهنا بيَّن الحق مواجيد إبراهيم عليه السلام حين قال:

﴿ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ .. (٧٠) ﴾ [هود]

وجاء بالمعنى النزوعى حين قال:

﴿ قَالُوا سَلامًا قَالَ سَلامٌ .. (٦٩) ﴾ [هود]

وهو حين التأكيد والتثبيت.

وقال الحق سبحانه:

﴿ .. فَمَا لَبِثَ أَن [(٣)] جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (٦٩) ﴾ [هود]

وهو: العجل السمين المشوى على الحجارة ؛ لأن الشواء - كما نعلم - قد يكون على اللهب أو على الفحم ، أو على الحجارة.

---

(١) المواجيد: جمع موجدة ، وهى ما يحس به القلب ويجده الإنسان فى نفسه من مشاعر الفرح والحزن والرضا والغضب وغيرها.

(٢) ودليل هذا قوله عز وجل: ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٣٠) ﴾ [النور].

(٣) أن: بمعنى حتى. قاله كبراء النحويين. حكاه القاضى ابن العربى. والمعنى: أى: ما أبطأ عن مجيئه بعجل. ذكره القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٣٨٢).

ومثل ذلك يحدث فى البلاد العربية حين يأتون بحجر رقيق جداً ، ويحمُّونه على النار ، ثم يشوون عليه اللحم ، وهذا ما يضمن عدم حدوث تفاعلات بين اللحم والحجر ؛ لأن هناك تفاعلات تحدث من الحديد أو من الفحم؛ ولذلك فهذه أنظف طريقة للشواء.

أو أن كلمة : ﴿ .. بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (٦٩) ﴾ [هود]

أى : ينزل منه الدهن بعد الشواء.

وقول الحق سبحانه :

﴿ .. فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (٦٩) ﴾ [هود]

لأن طبيعة سيدنا إبراهيم عليه السلام هى محبة الضيوف وإكرامهم.

ومن عادة الكرام أن يُعجِّلوا بإكرام الضيف [(١)] ، وتقديم الطعام له ، والكريم هو من يفعل ذلك ؛ لأنه لا يعلم ما قد مر على الضيف دون طعام ، فإن كان الضيف جائعاً؛ أكل ، وإن كان شبعان فهو يعلن ذلك.

ويقول الحق سبحانه ما حدث بعد أن جاء لهم إبراهيم عليه السلام بالعجل المشوى :

﴿ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ [(٢)] وَأَوْجَسَ [(٣)] مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ (٧٠) ﴾

---

(١) وقد حث رسول الله ﷺ على إكرام الضيف ، فعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليصل رحمه ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت» متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٠١٨) وكذا مسلم فى صحيحه (٤٧).

(٢) نكره : استوحش منه ونفر منه ولم يأنس به . [القاموس القويم] تقول : نكرتك وأنكرتك واستنكرتك إذا وجدته على غير ما عهدته . راجع القرطبى (٤/ ٣٣٨٤).

(٣) وجس وأوجس : فزع . وأوجس فى نفسه : أضمر الخوف فى نفسه . وقوله تعالى : ﴿ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً .. (٧٠) ﴾ [هود] أى : أحس الفزع والخوف . وقال تعالى : ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ (٦٧) ﴾ [طه]. أى : أضمر الخوف فى نفسه حين رأى أعمال السحرة . [القاموس القويم].

وحين رأى إبراهيم أن أيديهم لا تصل إلى الطعام توجس من ذلك شراً ونكرهم ، أى : استنكر أنهم لم يأكلوا من طعام قدَّمه لهم، فهل علم إبراهيم أنهم ملائكة ؟

لقد علم إبراهيم عليه السلام أنهم ملائكة من كلامهم .

وقد بيَّن ذلك قول الحق سبحانه فى موضع آخر من القرآن :

﴿ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ (٥٢) قَالُوا لا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ (٥٣) قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ (٥٤) قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ [1] (٥٥) قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونَ (٥٦) قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (٥٧) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ (٥٨) ﴾ [الحجر]

إذن : فهم لم يقولوا له مثلما قالوا للوط عليه السلام :

﴿ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ .. (٨١) ﴾ [هود]

وهنا حين قالوا لإبراهيم عليه السلام :

﴿ .. لا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ (٧٠) ﴾ [هود]

أى : أنهم فهموا أن إبراهيم عليه السلام يعلم أنهم ملائكة ؛ لأن الملَك قد يتشكل فى هيئة إنسان ، مثلما تشكَّل جبريل عليه السلام أمام سيدنا محمد ﷺ .

وكذلك الجن لهم قدرة على التشكل ، إلا أن هناك فارقاً بين تشكل الملك وتشكل الجن ، فالجن إن تشكل تحكمه الصورة ، فإن تشكل فى صورة رجل فيمكنك أن تمسك به وتؤذيه .

---

(١) القانطون : الذين انقطع أملهم فى الخير أو يئسوا منه . والقنوط : صيغة مبالغة ، أى : شديد اليأس معدوم الأمان . [القاموس القويم] .

ألم يَقُلْ رسول الله ﷺ :

« إن عفريتاً من الجن تفلَّت [١] البارحة ليقطع عليَّ صلاتى ، فأمكننى الله منه ، فأخذته ، فأردت أن أربطه على سارية من سوارى المسجد ، حتى تنظروا إليه كلكم ، فذكرت دعوة أخى سليمان :

﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لاَّ يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ (٣٥) ﴾ [ص]

فرددته خاسئاً » [٢] .

إذن : إذا تشكل الجن حكمته الصورة ، ويمكن أن نضربه مثلاً ، أما الملاك إذا تشكل فالصورة لا تحكمه .

وحُكْم الصورة عند تشكل الجنى هى التى تحمينا من مخاوفنا ، وهو أيضاً يخاف منا مثلما نخاف منه ، ولذلك لا يظهر الجنى متشكلاً فى صورة إلا لحظة قصيرة ليختفى على الفور ؛ لأنه يخاف أن تكون قد علمت أن الصورة التى تشكل عليها تحكمه وتستطيع أن تفتك به ؛ لذلك فالجن يخافون من البشر .

وشاء الحق سبحانه ذلك الأمر حتى لا يفزع الجنُّ الناسَ .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ .. (٧٠) ﴾ [هود]

---

(١) تفلت : أى : تعرض لى فلتة أى : بغتة .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٤٢٣) ومسلم فى صحيحه (٥٤١) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

وكلمة ﴿نَكِرَهُمْ﴾ تقتضى أن ننظر فى مادة «النون والكاف والراء» وكلمة «نكر» وكلمة «أنكر» كلتاهما مستعملة فى القرآن [١].

والشاعر يقول:

وَأَنْكَرَتْنِى وما كَانَ الَّذِى نكِرَتْ [٢] مِنَ الحَوادِث إلاّ الشَّيبَ والصَّلَعا

والاستعمال اللغوى يدل على أن المقابح من ألوان السلوك تسمى منكرات، أى: ينكرها الإنسان بفطرته.

وهنا حين رأى إبراهيم عليه السلام أن أيديهم لا تصل إلى العجل الحنيذ نكرهم، وأوجس فى نفسه خيفة، فلاحَظوا ذلك، وقالوا:

﴿.. لا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ (٧٠)﴾ [هود]

وهكذا عرف لمن جاءوا، واطمأن أن قومه لم يأتوا بفعل يستحقون عليه العذاب، وخصوصاً أن كتب التاريخ تقول: إن امرأة إبراهيم عليه السلام قالت له: ألا تضم ابن أخيك إلى كنفك [٣] هنا؛ لأن قومه يوشك أن يعمهم الله بالعذاب.

وحين سمعت أن الرسل إنما جاءت إلى قوم لوط سُرَّتْ من فراستها [٤]، وتبسَّمت لأنها تنبهت إلى هذه المسألة.

---

(١) كلمة «نكر» وردت فى قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ ..(٧٠)﴾ [هود]. وقال تعالى عن سليمان: ﴿قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا .. (٤١)﴾ [النمل]. أما أنكر، فقد قال تعالى: ﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ (٨١)﴾ [غافر] وقال تعالى: ﴿وَمِنَ الأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ .. (٣٦)﴾ [الرعد]، وقوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ (٨٣)﴾ [النحل].

(٢) جمع الشاعر بين اللغتين. ويقال: نكرت لما تراه بعينيك وأنكرت لما تراه بقلبك. قاله القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٣٨٤).

(٣) الكنف والكنفة: ناحية الشىء. وكنف الرجلُ الرجلَ جعله فى كنفه أى: فى حفظه وإعانته. وكنفت الرجل: حطته وصنته. [راجع لسان العرب].

(٤) الفراسة: الفطنة فى النظر والتثبت والتأمل للشىء والبصر به. والتفرس: أن تتوسم أمراً ما فى شخص ما فيكون كما توسمت، وهذا يكون بأحد أمرين:

١- ما يوقعه الله فى قلوب أوليائه بنوع من المكاشفات.

٢- ما يتعلم بالدلائل والتجارب فتعرف بها أحوال الناس.

[راجع لسان العرب] مع زيادة من عندنا.

وفى آية أخرى يقول الحق سبحانه:

﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ (٣٢) لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ (٣٣) مُسَوَّمَةً [1] عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ (٣٤)﴾ [الذاريات]

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿وَامْرَأَتُهُ [2] قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ (٧١)﴾

فعندما كانت امرأته قائمة على خدمة الضيوف [3]، وسمعت كلام الملائكة اطمأنت على أنه لا عذاب على قومهم، وتحققت فراستها فضحكت فأزادها الله سروراً، وبشَّرتها الملائكة بإسحق، ومن وراء إسحق يعقوب.

فبعد دفع العذاب، وبيان أمر العذاب لقوم آخرين مجرمين، تأتى البشارة بتحقيق ما كان إبراهيم عليه السلام وزوجه يصبوان [4] إليه، وإن كان أوانها قد فات؛ لأن زوجة إبراهيم كانت قد بلغت التسعين من

---

(١) ﴿مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ .. (٣٤)﴾ [الذاريات] أى: عليها خواتيم بأسماء المعذبين. وسوَّم على القوم: أغار عليهم فعاث فيهم بالإفساد والإهلاك. قال تعالى: ﴿.. يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ (١٢٥)﴾ [آل عمران] أى: معلمى أنفسهم وخيلهم بعلامات، أو مغيرين على الكفار. وقوله تعالى: ﴿وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ ..(١٤)﴾[آل عمران] أى: المرسلة للرعى، أو المعلمة بعلامات. وقوله تعالى: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم .. (٢٩)﴾ [الفتح] أى: علامة إيمانهم نور فى وجوههم. [القاموس القويم].

(٢) هى: سارة امرأة إبراهيم عليه السلام من قومه، وهى أم إسحاق عليه السلام جاءها الولد وهى فى سن كبيرة، بعد أن ولدت هاجر- لإبراهيم - إسماعيل عليه السلام.

(٣) عن سهل بن سعد أن أبا أسيد الساعدى أتى رسول الله ﷺ فدعاه فى عرسه فكانت امرأته خادمهم يومئذ وهى العروس. قال: تدرون ما سقت رسول الله ﷺ ؟ أنقعت تمرات من الليلة فى تور» أخرجه البخارى فى صحيحه (٥١٧٦)، وأحمد فى مسنده (٣/ ٤٩٨) وابن ماجه فى سننه (١٩١٢).

(٤) صبا يصبو صبواً وصبواً: مال وأحب. قال تعالى: ﴿.. وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ (٣٣)﴾ [يوسف]. أصبو: أميل. وصبا إلى الشىء: حَنَّ واشتاق إليه. [القاموس القويم].

عمرها ، وبلغ هو المائة والعشرين عاماً [(١)] . وفى هذا امتنان على إبراهيم بمجىء ابن الابن أيضاً ، وكذلك يمتن الله سبحانه على عباده حين يقول :

﴿ والله جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً [(٢)] .. (٧٢) ﴾ [النحل]

ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿ .. فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ (٧١) ﴾ [هود]

فالإنسان يحب أن يكون له ابن ، ويحب أكثر أن يرى ابن ابنه ، لأن هذا يمثل امتداداً له .

وهكذا توالت البشارات ، فقد أعلنت الملائكة أنها جاءت لتعذب قوم لوط ، هؤلاء الذين اختلف معهم إبراهيم عليه السلام ؛ لما جاءوا به من الفواحش ، وكذلك لأن إبراهيم عليه السلام وامرأته قد علما أنهما لم يأتيا بأى أمر يغضب الله تعالى .

والثالثة من البشارات هى الغلام ، وكان ذلك حُلْماً قديماً عند امرأة إبراهيم عليه السلام لأنها عاقر ، واستقبلت امرأة إبراهيم البشارة الأولى بالضحك ، واستقبلت البشارة بالابن بالدهشة [(٣)] .

---

(١) قال مجاهد : كانت سارة بنت تسع وتسعين سنة . وقال ابن إسحاق : كانت بنت تسعين . وقيل غير هذا . أما إبراهيم فقيل : كان ابن مائة وعشرين سنة . وقيل : ابن مائة سنة . ذكره القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٣٨٨) .

(٢) حفدة : أولاد الأولاد . والحافد : العون والخادم ، وولد الولد ، جمعه : حَفَدٌ ، وحُفَّدٌ ، وحَفدةٌ . وحفد فى عمله : خف ونشط وأسرع فيه فهو حافد ، وهو حفيد ، وسمى العون أو الخادم أو ولد الولد حافداً لنشاطه وخفته فى العون والخدمة . [القاموس القويم ١/ ١٦١] .

(٣) يقول رب العزة سبحانه عن ذلك فى سورة الذاريات : ﴿ .. وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (٢٨) فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ (٢٩) قَالُوا كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (٣٠) ﴾ [الذاريات] . صكُّ الوجه : اللطم تعجباً وهو كناية عن الدهشة والتعجب [القاموس القويم ١/ ٣٨٠] .

وهذا ما يقول فيه الحق سبحانه:

﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا[1] إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾﴾

والشىء العجيب هو الذى يخالف نواميس الكون المعتادة، ولكن هناك فرقاً بين النواميس[2] وخالق النواميس، الذى هو قادر على أن يخرق النواميس.

وها هو سيدنا إبراهيم يقول فى موضع آخر:

﴿أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ .. ﴿٥٤﴾﴾ [الحجر]

ولم يأت هنا بقول امرأة إبراهيم التى قالت:

﴿يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا .. ﴿٧٢﴾﴾ [هود]

وتسمية الزوج بعلاً فيها دقة شديدة؛ لأن البعل هو الذى يقوم بأمر المبعول ولا يحوجه لأحد.

كذلك الزوج يقوم بأمر زوجته فيما لا يستطيع أبوها ولا أخوها أن يقوما به، وهو الإحساس بالأنوثة والإخصاب، وهو أهم ما تطلبه المرأة.

وأيضاً سُمِّى النخل بالبعل، لأنه لا يطلب من زارعه أن يسقيه، وإنما يكتفى النخل بما يمتصه من الأرض، وما ينزل له من مطر السماء[3].

---

(١) البعل: الزوج والزوجة، فهو مصدر سمى به بلفظه فلا يؤنث، وجمع البعل: بعولة. قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا .. ﴿٧٢﴾﴾ [هود]. وقال تعالى: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ .. ﴿٢٢٨﴾﴾ [البقرة] أى: وأزواجهن أحق بردهن بعد الطلاق الرجعى، وبعد طلقة بائنة أو طلقتين بائنتين بعقد جديد. [القاموس القويم ١/ ٧٦].

سمى زوج المرأة بعلاً لأنه سيدها ومالكها. والمباعلة: المباشرة. والبعال: النكاح. تبعلت المرأة: أطاعت بعلها. وتبعلت له: تزينت. وامرأة حسنة التبعل إذا كانت مطاوعة لزوجها محبة له. [لسان العرب].

(٢) النواميس: القوانين الإلهية التى يخضع لها الكون.

(٣) ذكره ابن منظور فى لسان العرب (مادة: ب ع ل): استبعل الموضع والنخل: صار بعلاً راسخ العروق فى الماء مستغنياً عن السقى وعن إجراء الماء فى نهر أو عاثور إليه. (العاثور: هو البئر)

وكذلك سُمِّى نوع من الفول «بالفول البعلى»، وهو الذى لا يحتاج إلى إرواء.

إذن: فالبعل هو الزوج الذى يقوم على أمر زوجته فلا يُحوجها إلى غيره فى أى شىء من الأشياء.

وهنا تتعجب زوجة إبراهيم عليه السلام من أمر الإنجاب؛ لأن هذا شىء عجيب يقع على غير انتظار؛ ولذلك يرد الملائكة عليها.

ويقول الحق سبحانه عن ذلك:

﴿قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ ٧٣﴾

والعجب - إذن - إنما يكون من قانون بشرى، وإنما القادر الأعلى سبحانه له طلاقة القدرة فى أن يخرق الناموس.. ومن خرق النواميس جاءت المعجزات لتثبت صدق البلاغ عن الله تعالى، فالمعجزات أمر خارق للعادة الكونية.

والقصة التى حدثت لإبراهيم عليه السلام وامرأته تكررت فى قصة زكريا عليه السلام، والحق سبحانه هو الذى أعطى مريم عليها السلام بشارة التذكير لزكريا عليه السلام حين سألها:

﴿أَنَّىٰ[1] لَكِ هَٰذَا .. ٣٧﴾ [آل عمران]

فقالت مريم:

---

(١) أنى: اسم استفهام بمعنى: من أين. وتأتى بمعنى: كيف مثل قوله تعالى: ﴿فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ .. ٢٢٣﴾ [البقرة] أى: كيف شئتم بشرط اتباع الفطرة المستقيمة التى تشير إليها الآية فى قوله تعالى: ﴿فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ .. ٢٢٣﴾ [البقرة] وجاءت فى بعض الآيات صالحة للمعنيين مثل قوله تعالى: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ .. ٤٠﴾ [آل عمران]. [القاموس القويم صـ ٤١ حـ ١].

﴿ ..هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٧) ﴾

[آل عمران]

إذن: فالحساب يكون بين الخلق وبعضهم، لا بين الخالق - سبحانه - وخَلْقه.

ولذلك يأتى قول الحق عز وجل:

﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ..(٣٨) ﴾ [آل عمران]

وما دام زكريا عليه السلام قد تذكَّر بقول مريم:

﴿ .. إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٧) ﴾ [آل عمران]

فمن حقه أن يدعو:

﴿ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً ..(٣٨) ﴾ [آل عمران]

فأوحى له الله سبحانه وتعالى:

﴿ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا (٧) ﴾

[مريم]

أى: أن الحق سبحانه لم يرزقه الابن فقط، بل وسماه له أيضاً باسمٍ لم يسبقه إليه أحد.

وتسمية الله تعالى غير تسمية البشر، فإن كان بعض البشر قد سموا من بعد ذلك بعض أبنائهم باسم «يحيى» فقد فعلوا ذلك من باب الفأل [1] الحسن فى أن يعيش الابن.

---

(١) الفأل: ضد الطيرة، والجمع: فئول وأفؤل. ومنها: التفاؤل، وهو الاستبشار بالخير. [مختار القاموس] بتصرف.

لكن الحق سبحانه حين يسمى اسماً ، فقد سماه «يحيى» ليحيا بالفعل ، ويبلغ سن الرشد ، ثم لا يأتى الموت؛ لذلك قُتل [(١)] يحيى وصار شهيداً ، والشهيد حىٌّ عند ربه لا يأتى إليه موتٌ أبداً [(٢)] .

وهذا عكس تسمية البشر؛ لأن الإنسان قد يسمى ابنه «سعيد» ويعيش الابن حياته فى منتهى الشقاء.

والشاعر يقول عن الإنسان الذى سمى ابنه «يحيى»:

وَسَمَّيْتُهُ يَحْيَى لِيَحْيَا فَلَمْ يَكُنْ ... لِرَدِّ قَضَاءِ اللهِ فيهِ سَبِيلُ

وحين نرجع إلى أن مريم عليها السلام هى التى نبهت إلى قضية الرزق من الله ، نجد أن زكريا عليه السلام قد دعا ، وذكر أنه كبير السن [(٣)] وأن زوجه عاقر.

ولا بد أن زكريا عليه السلام يعرف أن الحق سبحانه وتعالى يعلم كل شىء أزلاً [(٤)] ، ولذلك شاء الله سبحانه أن يطمئن زكريا عليه السلام بأنه سيرزقه الولد ويسميه ، ويأتى قول الحق سبحانه وتعالى:

---

(١) قال ابن كثير فى قصص الأنبياء (ص ٣٩٠) : «ذكروا فى قتله أسباباً من أشهرها أن بعض ملوك ذلك الزمان بدمشق كان يريد أن يتزوج ببعض محارمه أو من لا يحل له تزويجها فنهاه يحيى عليه السلام عن ذلك فبقى فى نفسها منه ، فلما كان بينها وبين الملك ما يحب منها استوهبت منه دم يحيى. فوهبه لها فبعثت إليه من قتله وجاء برأسه ودمه فى طست إلى عندها ، فيقال إنها هلكت من فورها وساعتها».

(٢) وفى هذا يقول الحق سبحانه: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾ [آل عمران].

(٣) قال زكريا: ﴿ .. رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ ﴾ [مريم] وقال بعد تبشيره بيحيى: ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ ﴾ [مريم] قال مجاهد: عتياً يعنى : نحول العظم. قال ابن كثير فى تفسيره (٣/ ١١٢) : «لم يبق فيه لقاح ولا جماع».

(٤) الأزل: القدم. أصلها «لم يزل» ، قال أبو منصور: ومنه قولهم: هذا شىء أزلى، أى: قديم. [لسان العرب].

﴿ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ .. (٩) ﴾ [مريم]

وما دام الحق سبحانه وتعالى هو الذى قرَّر ، فلا رادَّ لما أراده ، ولذلك يقول سبحانه :

﴿ .. هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا (٩) ﴾ [مريم]

وهكذا توالت الأحداث بعد أن نبهت مريم زكريا عليه السلام إلى قضية خَرْق النواميس التى تعرضت هى لها بعد ذلك ، حينما تمثَّل لها الملَك بشراً ، وبشَّرها بغلام اسمه المسيح عيسى ابن مريم - عليه السلام .

وتساءلت مريم عن كيفية حدوث ذلك - وهى التى لم يمسسها بشر - فيذكِّرها الملك بأنها هى التى أجرى الله سبحانه وتعالى على لسانها قوله الحق فى أثناء كلامها مع زكريا عليه السلام :

﴿ .. إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٧) ﴾ [آل عمران]

وكان لا بد من طمأنتها ؛ لأن إنجابها للمسيح عيسى - عليه السلام - دون أب هى مسألة عرض ، ويجب أن تُقبل عليها وهى آمنة ، غير مرتابٍ فيها ولا متهمة .

والآية التى نحن بصددها هنا تتعرض لامرأة إبراهيم عليه السلام حين جاءتها البشارة بالطفل ، وكيف أوضحت لها الملائكة أنه لا عجب مما قدَّره الله تعالى وأراده ، خلافاً للناموس الغالب فى خلقه؛ لأن رحمة الله تبارك وتعالى بكل خير فيها قد وسعت أهل بيت النبوة ، ومن تلك الرحمة والبركات هبة الأبناء فى غير الأوان المعتاد [1] .

ولهذا قال الحق سبحانه هنا :

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٣٨٩) : «من تلك الهبات والبركات أن جميع الأنبياء والمرسلين كانوا فى ولد إبراهيم وسارة » . بتصرف

﴿رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ .. (٧٣)﴾ [هود]

وينهى الحق سبحانه الآية بقوله تعالى:

﴿.. إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ (٧٣)﴾ [هود]

أى: أنه سبحانه يستحق الحمد لذاته، وكل ما يصدر عنه يستوجب الحمد له من عباده، فلا حد لخيره وإحسانه، ولله تعالى مُطْلَقُ صفات المجد.

وكلمة «حميد» - فى اللغة - من «فَعيل» وتَرِدُ على معنيين: إما أن تكون بمعنى فاعل مثل قولنا: «الله رحيم» بمعنى أنه راحم خلقه. وإما أن تكون بمعنى مفعول؛ كقولنا: «قتيل» بمعنى «مقتول».

وكلمة «حميد» هنا تأتى بالمعنيين معاً: «حامدٌ» و«محمودٌ»، مثل قول الحق سبحانه عن نفسه أنه «الشكور»؛ لأنه سبحانه يشكر من يشكره على نعمه بطاعته. والله سبحانه «حميدٌ»؛ لأنه حامدٌ لمن يطيعه طاعة نابعة من الإيمان، والله سبحانه «محمودٌ» ممن أنعم عليهم نعمه السابغة.

والله سبحانه هو المجيد الذى يعطى قبل أن يُسأل.

ولذلك نجد عارفاً بالله تعالى قد جاءه سائل، فأخرج كيساً ووضعه فى يده، ثم رجع إلى أهله يبكى، فقالت له امرأته: وما يبكيك وقد أديت له حق سؤاله؟ قال: أنا أبكى لأنى تركته ليسأل، وكان المفروض ألا أجعله يقف موقف السائل.

والحق سبحانه وتعالى أعطانا، حتى قبل أن نعرف كيف نسأل، ومثال ذلك: هو عطاء الحق سبحانه وتعالى للجنين فى بطن أمه، والجنين لم يتعلم الكلام والسؤال.

والحق سبحانه وتعالى فى كل لقطة من لقطات القرآن يعطى فكرة اجتماعية مأخوذه من الدين ، فها هو ذا سيدنا إبراهيم عليه السلام يقدم العجل الحنيذ للضيوف ، ليعلمنا أنه إذا جاء لك ضيف ، وعرضت عليه الطعام ، ولم يأكل ، فلا ترفع الطعام من أمامه ، بل عليك أن تسأله أن يأكل ، فإن رد بعزيمة ، وقال: لقد أكلت قبل أن أحضر إليك ، فَلَكَ أن ترفع الطعام من أمامه بعد أن أكدت عليه فى تناول الطعام.

ويروى بعض العارفين [1] أن سيدنا إبراهيم عليه السلام حينما قال: ألا تأكلون ؟ قالت الملائكة: لا نأكل إلا إذا دفعنا ثمن الطعام. فقال إبراهيم ، بما آتاه الله من حكمة النبوة ووحى الإلهام: ثمنه أن تُسمُّوا الله أوله ، وتحمدوه آخره [2].

وأنت إذا أقبلت على طعام وقلت فى أوله : «بسم الله الرحمن الرحيم» وإذا انتهيت منه وقلت: «الحمد لله» ؛ تكون قد أديت حق الطعام مصداقاً لقول الحق سبحانه:

﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴿٨﴾﴾ [التكاثر]

وهكذا بيَّن لنا الحق سبحانه أن إبراهيم عليه السلام وزوجه قد اطمأنا على أن الملائكة قد جاءت لهما بالبشرى ، وأنها لا تريد بإبراهيم أو بقومه سوءاً ، بل هى مكلفة بتعذيب قوم لوط.

---

(١) هو عمرو بن دينار الجمحى بالولاء ، أبو محمد الأثرم ، فقيه ، كان مفتى أهل مكة ، فارسى الأصل ، مولده بصنعاء ٤٦ هـ ووفاته بمكة (١٢٦ هـ) عن ٨١ عاماً. قال شعبة: ما رأيت أثبت فى الحديث منه. الأعلام للزركلى (٥/ ٧٧).

(٢) ذكر هذا الأثر السيوطى فى الدر المنثور (٤/ ٤٥٠) وفى آخره أن الملائكة نظرت لبعضها البعض وقالوا: «لهذا اتخذك الله خليلاً». وعزاه لابن المنذر عن عمرو بن دينار.

وهنا يقول الحق سبحانه:

﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ[1] وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا[2] فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ ﴾

والجدل هو أن تأخذ حُجَّة من مقابل ؛ وتعطيه حُجَّة ؛ لتصل إلى حق. والجدل يختلف عن المراء[3] فالمراء يعنى أنك تعرف الحقيقة وتجادل بالباطل لأنك لا تريد أن تصل إلى الحق.

وقد نهانا الحق سبحانه عن المراء ، وأمرنا بأن نجادل بشرط أن يكون الجدال بالتى هى أحسن.

وهنا يبيِّن لنا الحق سبحانه أن إبراهيم بعد أن ذهب عنه الروع وجاءته البشرى بأن الله تعالى سيرزقه بغلام ، وعلم إبراهيم من الملائكة أنهم ذاهبون لتعذيب قوم لوط:

﴿ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً[4] عِندَ رَبِّكَ .. ﴿٣٤﴾ ﴾ [الذاريات]

---

(١) راعه الشيء يروعه ، روعاً: أصاب روعه ، أى: قلبه. والروع: القلب - بضم الراء. وقوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ .. ﴿٧٤﴾ ﴾ [هود] أى: ذهب عنه الخوف والفزع. [القاموس القويم].

(٢) الجدل: المنازعة فى الرأى وشدة الخصومة. قال تعالى: ﴿ .. وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً ﴿٥٤﴾ ﴾ [الكهف] أى: أكثر مبالغة فى الخصومة وتأييداً للباطل بغير حق. [القاموس القويم].

(٣) ماراه يماريه مماراة ومراء: ناظره وجادله. قال تعالى: ﴿ .. فَلا تُمَارِ فِيهِمْ إِلاَّ مِرَاءً ظَاهِراً وَلا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَداً ﴿٢٢﴾ ﴾ [الكهف] أى: فلا تجادل أهل الكتاب فى شأن أهل الكهف إلا جدالاً واضحاً يسيراً. وقال تعالى: ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ ﴾ [النجم] أى: تتشكك. [القاموس القويم].

(٤) مسومة: أى: عليها خواتيم بأسماء المعذبين. قال تعالى: ﴿ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ .. ﴿١٤﴾ ﴾ [آل عمران] أى: المعلمة بعلامات ، أو المرسلة للرعى. وقال تعالى: ﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [الفتح] ، أى: علامة إيمانهم نور فى وجوههم. [القاموس القويم].

ومجادلة سيدنا إبراهيم فى عقاب قوم لوط ، لم تكن رداً لأمر الله ، ولكن طلباً للإمهال لعلهم يؤمنون؛ ذلك أن قلب إبراهيم عليه السلام؛ قلب رحيم.

ولذلك يأتى الحق سبحانه بالعلة فى المجادلة فى قوله تعالى :

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ(١) مُّنِيبٌ(٢) ﴿٧٥﴾ ﴾

إذن: فالعلة فى الجدال أنه حليم لا يُعجِّل بالعقوبة ، وأوَّاه ؛ أى: يتأوه من القلب ، والتأوه رقة فى القلب ، وإن كان التأوه من الأعلى فهذا يعنى الخوف من ألا يكون قد أدى حق الله تعالى ، وإن كان التأوه للأقل فهو رحمة ورأفة.

ولذلك فقد طلب إبراهيم عليه السلام من الله تعالى تأجيل العذاب لقوم لوط لعلهم يؤمنون ، وتأوُّههُ هنا لله تعالى ، وعلى هؤلاء الجهلة بما ينتظرهم من عذاب أليم.

وقال الحق سبحانه فى صفات إبراهيم أنه «منيب» أى: يرجع إلى الحكم وإلى الحق فى قضاياه .

ألم يَقُلْ الحق سبحانه فى موضع آخر من كتابه العزيز:

---

(١) أواه: صيغة مبالغة ، أى: كثير التأوه ، وغلب على معنى التضرع إلى الله فى العبادة ، والندم على الذنوب. [القاموس القويم].

(٢) أناب العبد إلى ربه: رجع إليه ، وتاب ، وترك الذنوب . قال تعالى: ﴿ .. عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ ﴾ [هود] أى: إليه أتوب وأرجع ، ومنيب: اسم فاعل. وقال تعالى: ﴿ مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ﴾ [ق] أى: بقلب راجع إلى الله. وجاء جمع «منيب» فى قوله تعالى: ﴿ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ .. ﴿٣١﴾ ﴾ [الروم] أى: راجعين إلى الله تائبين إليه ، أى: كونوا تائبين وكونوا متقين. [القاموس القويم].

﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ [1] وَعَدَهَا إِيَّاهُ .. (١١٤)﴾ [التوبة]

وبعد أن بحث إبراهيم عليه السلام عن الحق ، وأناب إليه ، يبين لنا الله سبحانه وتعالى مظهرية الإنابة فى قوله تعالى :

﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ .. (١١٤)﴾ [التوبة]

وهنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها والتى أوضحت تأوه إبراهيم لله عز وجل وتأوهه رحمة بهؤلاء الذين لم يؤمنوا ، وهم قوم لوط ، وأيضاً كانت حجة إبراهيم - عليه السلام - فى الجدال ما قاله الحق سبحانه فى سورة العنكبوت :

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ (٣١) قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا .. (٣٢)﴾ [العنكبوت]

وكان سؤال إبراهيم للملائكة : كيف تُهلكون أهل هذه القرية وفيهم من هو يؤمن بالله وعلى رأسهم نبى من الله هو لوط عليه السلام ، وردت عليه الملائكة :

﴿.. نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ [2] (٣٢)﴾ [العنكبوت]

---

(١) وعده شيئاً يعده وعداً وعدة : أخبره أنه سيحققه له ، أو سيعطيه إياه ، وهو فعل يتعدى لمفعولين ، وقد يحذف أحد المفعولين للعلم به .
والموعدة : مصدر ميمى ، واسم زمان أو مكان . قال تعالى : ﴿إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ ..(١١٤)﴾ [التوبة] أى : عن وعد واحد فى مرة واحدة . [القاموس القويم ٢/ ٣٤٣] .

(٢) من الغابرين : أى : من الباقين المتخلفين فى القرية للهلاك . أو كانت من الماضين الذاهبين أى : من الهالكين . يقال : مضى وذهب بمعنى مات وهلك . [القاموس القويم] .

وكأن إبراهيم خليل الرحمن يعلم أن وجود مؤمنين مع الكافرين فى قرية واحدة ، يبيح له الجدال عن أهل القرية جميعاً.

ويتلقى إبراهيم الرد هنا فى سورة هود فى الآية التالية:

﴿ يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ[1] إِنَّهُۥ قَدۡ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَإِنَّهُمۡ ءَاتِيهِمۡ عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٖ ﴿٧٦﴾ ﴾

وقول الملائكة:

﴿ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا .. (٧٦) ﴾ [هود]

يعنى إبلاغ إبراهيم أن مسألة تعذيب من لم يؤمن من قوم لوط أمرٌ مُنته ومحسوم ، فهم قد جاءوا لينفذوا ، لا ليهدِّدوا ؛ وأبلغوا إبراهيم:

﴿ إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ .. (٧٦) ﴾ [هود]

وإذا ما كان الأمر قد جاء من الله ، فإبراهيم عليه السلام لأنه ﴿مُنِيبٌ﴾ يعلم أن أى أمر من الله تعالى لا بد أن يُنفَّذ ، فلا بد أن يَتقبَّل - أمرَ الحق سبحانه:

﴿ .. وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ (٧٦) ﴾ [هود]

أى: لا أحد بقادر على أن يرد عذاب الله . وكما أن هناك وعداً من الله تعالى غير مكذوب[2] ، فهناك أيضاً عذاب غير مردود[3] .

---

(١) أعرضْ: فعل أمر من الإعراض ، وهو الانصراف عن الشيء. وأعرض عن الشيء: ولَّى منصرفاً عنه غير راغب فيه. قال تعالى: ﴿ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ .. (٨٣) ﴾ [الإسراء]. [القاموس القويم ٢/ ١٦].

(٢) جاء هذا فى حق قوم ثمود مع نبيهم صالح ، وذلك أن الله توعدهم بالمكث والتمتع فى دارهم ثلاثة أيام بعدها يأتيهم عذاب الله بسبب عقرهم الناقة . يقول سبحانه: ﴿ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ (٦٥) ﴾ [هود].

(٣) غير مردود: أى: غير مصروف عنهم ولا مدفوع. [تفسير القرطبى ٤/ ٣٣٩٢].

ويُروى [(١)] أن إبراهيم عليه السلام فى جداله قال للملائكة: إذا كان فى قوم لوط خمسون قد آمنوا بالله تعالى، أتعذبونهم؟ قالوا: لا. قال: وإن كان فيهم عشرة يؤمنون بالله، أتعذبونهم؟ قالوا: لا. قال: وإن كان فيهم واحد هو لوط؟ فردَّت الملائكة:

﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ .. (٣٢)﴾ [العنكبوت]

وانتهى الجدال، وذهبت الملائكة إلى مهمتها التى هى إيقاع العذاب بقوم لوط.

ويقول الحق سبحانه:

﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا [(٢)] وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ [(٣)] (٧٧)﴾

أى: أن لوطاً شعر بالسوء، وضاق بهم ذرعاً، والذرع مأخوذ من الذراع التى فيها الكف والأصابع وندفع بها الأشياء، وأى شىء تستطيع أن تمد إليه ذراعك لتدفع به، وإن لم تَطُله ذراعك؛ قلت: «ضقت به ذرعاً» أى: أن يدى لم تطله، وهو أمر فوق قوتى وطاقتى، وفوق ما آتانى الله من الآلات ومن الحيل.

وما الذى يسىء لوطاً فى مجىء الملائكة؟

---

(١) أورده السيوطى فى الدر المنثور (٤/ ٤٦٠) وعزاه لعبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن حذيفة بن اليمان.

(٢) يقال: ضاق بالأمر ذرعاً، وذراعاً: أى: لم يُطقه ولم يَقْوَ على احتماله واشتد عليه بسبب الضيق. قال تعالى: ﴿.. وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا (٧٧)﴾ [هود] أى: اشتد عليه الضيق بسبب وجودهم خوفاً عليهم من قومه. [القاموس القويم]، وضاق بهم ذرعاً: ضعفت طاقته عن تدبير خلاصهم. [كلمات القرآن للشيخ حسنين مخلوف].

(٣) يوم عصيب: شديد شره وبلاؤه. [كلمات القرآن].

قيل: لأن الملائكة قد جاءوا على الشكل المعروف من الجمال، فحين يُقال: «فلان ملاك»، أى: أن شكله جميل [١].

ولوط - عليه السلام - يعلم أن آفة قومه هى إتيان الذكور، وامرأته تعلم هذه الآفة، لكن موقفها من ذلك غير موقف لوط، فهى ترحب بتلك الآفة.

ويُقال: إنها تنبهت لمجىء الرجال الحسان - ولم تعرف أنهم ملائكة العذاب - وصعدت إلى سطح المنزل، وصفقت لعل القوم ينتبهون لها، فلم يلتفت لها أحد، فأشعلت ناراً فانتبه لها القوم، وأشارت لهم بما يعبر عن مجىء ضيوف يتميزون بالجمال [٢].

وهنا قال لوط عليه السلام:

﴿.. هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ (٧٧)﴾ [هود]

أى: يوم شديد المتاعب.

ويقال: «يوم عصيب» و «يوم عصبصب» [٣]، ومنه «العُصْبَة» [٤] وهم جماعة يتكاتفون على شىء، ويقوى الفرد بمجموعهم، وقد صدق ظن لوط.

وفى هذا يقول الحق سبحانه عن ذلك:

---

(١) وهذا هو ما قالته صويحبات يوسف عليه السلام، عندما أدخلته امرأة العزيز عليهن: ﴿.. فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ (٣١)﴾ [يوسف].

(٢) وتلك كانت خيانتها لزوجها لوط عليه السلام، أنها كانت تدل قومها على أضياف لوط ليفعلوا معهم المنكر، وقد قال رب العزة عن امرأة نوح وامرأة لوط: ﴿كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا .. (١٠)﴾ [التحريم].

(٣) قال الفراء: يوم عصيب، وعصبصب: شديد، وقيل: هو الشديد الحر. وقال أبو العلاء: يوم عصبصب بارد ذو سحاب كثير، لا يظهر فيه من السماء شىء. [لسان العرب: مادة (ع ص ب)].

(٤) العصبة والعصابة: جماعة ما بين العشرة إلى الأربعين. قال تعالى: ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ .. (١٤)﴾ [يوسف] قال الأخفش: والعصبة والعصابة جماعة ليس لها واحد. [لسان العرب: مادة (ع ص ب)].

﴿ وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ[1] إِلَيۡهِ وَمِن قَبۡلُ كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ[2] ٧٨ ﴾

وقول الحق سبحانه: ﴿ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ .. (٧٨) ﴾

أى: يسرعون إليه فى تدافق، والإنسان إذا لم يكن قد مرن على الشر وله به دُربة، يكون متردداً خائفاً، أما من له دربة فهو يقبل على الشر بجرأة ونشاط.

وكلمة «يهرعون» هى من الألفاظ العجيبة فى اللغة العربية، وألفاظ اللغة تجد فيها فعلاً له فاعل، كقولنا: «يضربُ زيدٌ عَمْراً» أى: أن الضارب هو «زيد» والمضروب هو «عمرو»، ونقول: «يُضْرَبُ عمرو» أى: أننا بنينا الفعل للمجهول، وسُمِّى عمرو «نائب فاعل».

أما فى الفعل «يُهْرَعُ» فلا نجد أحداً يقول: «يُهرع» إلا ويكون بعدها فاعل وليس نائب فاعل، مثلها مثل الفعل «جُنَّ» فهل هناك من يأتى لنفسه بالجنون، أم أن الجنون هو الذى جاءه؟ لا أحد يعرف سبب الجنون؛ ولذلك بُنيت الكلمة للمجهول، ولكن ما يأتى بعدها يكون فاعلاً. وهذا من إعجاز البيان القرآنى.

---

(١) الهرع: المشى فى اضطراب وسرعة، وأقبل يهرع، وأهرع - مجهولاً - فهو مهرع: يرعد من ضعف، أو خوف. والمهروع: المجنون يصرع. [مختار القاموس].

(٢) الرشيد: من أسماء الله الحسنى، ولم يوصف الله به فى القرآن. ورشد يرشد رشداً ورشاداً: أصاب وجه الصواب والخير والحق. والرشد: ضد الغى والضلال. والرشد: ضد السفه وسوء التدبير، وبلغ رشده: بلغ كمال عقله وحسن تصريفه للأمور. قال تعالى: ﴿ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ .. (٢٥٦) ﴾ [البقرة]. وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ .. (٥١) ﴾ [الأنبياء] أى: هديناه إلى الحق والخير والصواب. وقال تعالى -ما جاء على لسان الكفار- : ﴿ .. إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ (٨٧) ﴾[هود] وقصدهم الاستهزاء بنبى الله شعيب - عليه السلام - بوصفه بأنه وحده من بينهم الحليم الرشيد، وهم يعتقدون عكس ذلك. [القاموس القويم ١/ ٢٦٦] بتصرف.

وكذلك نقول: «زُكِمَ فلان» فمن الذى أصابه بالزكام؟ لا نعرف سبباً ظاهراً للزكام.

إذن: فإذا جُهِلَ الفاعل فنحن نبنى الفعل للمجهول، ولكن ما يأتى بعده يكون فاعلاً.

وقوله تعالى:

﴿ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ .. (٧٨) ﴾ [هود]

يبيِّن أنهم أقبلوا باندفاع، كأنهم يعشقون ما يذهبون إليه؛ لأن كلاً منهم له دربة على ذلك الفعل المشين، أو أن كلاً منهم ذاهب إلى ما يحب دون تَهيُّب، باندفاع من نفسه ودَفْع من غيره، مثلما تقول: «سنوزع تموينا بالمجان»؛ هنا تجد الناس يتدافعون، كل منهم من تلقاء نفسه، وغيره يدفعه ليرتد إلى الوراء.

وقوم لوط كانوا على دُرْبة بتلك الفاحشة.

يقول الحق سبحانه عنهم:

﴿ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ .. (٧٨) ﴾ [هود]

أى: أن هذه المسألة عندهم كانت محبوبة، ولهم دربة عليها وخفيفة على قلوبهم، ولاحياء يمنعهم عنها.

فالحياء يعنى أن بعض الناس يعمل السيئة ويخشى الآخرون أن يفعلوها، لكن إذا ما كانوا كلهم يحبون تلك السيئة، فلن يخجل أحد من الآخر[1].

---

(١) وليس أدل على حبهم الشديد لهذه الفعلة وعدم حيائهم من إتيانهم إياها أنهم كانوا يأتون بها فى ناديهم وهو مجلسهم حيث يجتمعون للحديث والتشاور، قال الحق: ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ .. (٢٩) ﴾ [العنكبوت] ومما كانوا يأتونه أيضاً فى مجالسهم: الضراط، والصفير، ولعب الحمام، والسخرية من أبناء السبيل. [القاموس القويم]، والدر المنثور للسيوطى [٦/ ٤٦١].

وماذا يكون موقف لوط - عليه السلام - فى هذا اليوم العصيب؟ لقد أقبلوا عليه بسرعة ، وفى كوكبة واندفاع ، وهو يعلم نياتهم ويعلم سوابقهم ، وفكَّر لوط - عليه السلام - فى أن يصرفهم انصرافاً من جنس اندفاعهم .

يقول الحق سبحانه :

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ .. (٧٨) ﴾ [هود]

وقد قال ذلك لأن المرأة مخلوقة لذلك ، ومن الممكن أن يتزوجوا من بناته .

وكان العُرْف فى أيام لوط عليه السلام لا يمنع أن يزوِّج المؤمن ابنته لغير المؤمن؟ وقد زَوَّجَ رسولُ الله ﷺ إحدى بناته لعُتبة بن أبى لهب ، وأخرى لأبى العاص بن الربيع؟ قبل تحريم الحق سبحانه تزويج المؤمنة لغير المؤمن .

فهل كان المقصود : بناته من صُلبه أم بنات أمته ، أم بنات المؤمنين به ؟ وقد قيل: إنه لم يؤمن بالله إلا لوط وابنتاه ، فكيف يكون الزواج لابنتين من كل هذا العدد من الرجال المتدافعين؟

وقيل: إنه بحث عن السادة الأقوياء الذين بيدهم القرار ، وأراد أن يراضيهم بهذا الزواج؛ لعلهم يرجعون عن الفواحش والسيئات ، وفى هذا طهر لهم ، وبذلك يحفظون كرامته أمام ضيوفه .

يقول لوط عليه السلام:

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي .. (٧٨) ﴾ [هود]

وكلمة «ضيف» [1] - كما نعلم - جاءت هنا مفردة ، ولكنها تطلق

(١) ضافه يضيفه ضيفاً: نزل عنده فهو ضائف ، واسم المفعول: مضيف . والضيف: مصدر يوصف به بلفظه فلا يثنى ولا يجمع ولا يؤنث ، وقد يجمع على ضيوف ، وضيفان . قال تعالى: ﴿ قَالَ إِنَّ هَؤُلاءِ ضَيْفِي فَلا تَفْضَحُونِ (٦٨) ﴾[الحجر] أى: هؤلاء ضيفى فلا تفضحونى بالتعدى عليهم ، و«ضيف» هنا بلفظ المفرد وهو لعدد من الملائكة . [القاموس القويم] .

أيضاًعلى الجمع ، والمثنى ، وتصلح للدلالة على المذكر وعلى المؤنث أيضاً ، فإن جاء ضيف واحد تقول: «هذا ضيفى» ، وإن جاء اثنان تقول: «هذان ضيفى» ، وإن كانت امرأة تقول : « هذه ضيفى » ، وإن كانتا امرأتين تقول: «هاتان ضيفى» ، وإن جاءت جماعة تقول: «هؤلاء ضيفى» [1] .

والحق سبحانه يقول:

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (٢٤) ﴾ [الذاريات]

وهناك ألفاظ أخرى كذلك فى اللغة مثل :كلمة «طفل» [2] فهى مفرد؛ ولكنها قد تطلق على الجماعة ، إلا أن كلمة «طفل» وُجِد لها جمع هو «أطفال» .

والحق سبحانه يقول:

﴿ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ [3] أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ

---

(١) يقول رب العزة سبحانه وتعالى : ﴿ قَالَ إِنَّ هَؤُلاءِ ضَيْفِي فَلا تَفْضَحُونِ (٦٨) ﴾ [الحجر] .

(٢) الطفل (بكسر الطاء) : هو الصغير من كل شىء ، والطفل من الإنسان : الولد ما دام صغيراً . ويستوى فيه المفرد وغيره ، وجاء الجمع فى قوله تعالى : ﴿ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ .. (٣١) ﴾ [النور] أى : الأطفال ، وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ..(٥) ﴾ [الحج] أى : أطفالاً . وجمع الطفل : أطفال ، وجاء فى القرآن : ﴿ وَإِذَا بَلَغَ الأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا ..(٥٩) ﴾ [النور] [القاموس القويم١/ ٤٠٣] بتصرف .

(٣) بعولتهن : أزواجهن .

أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي الإِرْبَةِ [(١)] مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ ..(٣١) ﴾ [النور]

إذن: فكلمة «طفل» تطلق أيضاً، ويراد بها الجماعة.

وهنا يطلب لوط عليه السلام من قومه ألا يخزوه [(٢)] فى ضيفه، والخزى فضيحة أمام النفس وأمام الناس.

والإنسان قد تهون عليه نفسه ويُقبل على العمل السيىء ما لم يره أحد، أما أن يراه الناس، ففى هذا فضح له؛ فالفضيحة تكون بين جمهرة الناس، والهوان أن يكون العمل السيىء بينه وبين نفسه.

ويتساءل لوط عليه السلام:

﴿ .. أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ (٧٨) ﴾ [هود]

أى: ألا يوجد بينكم رجل له عقل ومروءة وكرامة [(٣)]، يمنع هذه المسألة.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

---

(١) الإرب: الحاجة التى تقتضى الاحتيال لها وكذلك الأربة والمأرب. قال تعالى: ﴿ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ .. (٣١) ﴾ [النور] أى: غير ذوى الحاجة إلى النساء، أى: الذين ليس لهم شهوة لكبرهم أو عجزهم أو صغرهم. وقوله: ﴿ .. وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ (١٨) ﴾[طه] أى: حاجات وأغراض كثيرة أخرى كاتقاء ضرر أو غير ذلك.

(٢) أخزاه فلان: أهانه وفضحه. قال تعالى: ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ .. (١٩٢) ﴾ [آل عمران] ومن دعاء القرآن: ﴿ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ (٨٧) ﴾ [الشعراء]، وقال تعالى: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي .. (٧٨) ﴾[هود] أى: لا تهينونى ولا تفضحونى بإهانة ضيفى، وحذفت ياء المتكلم من كلمة «تخزونى» رسماً ونطقاً وتخفيفاً. [القاموس القويم ١/ ١٩٢].

(٣) ومن معانى الرشد أيضاً أن يكون شديداً يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويكون صالحاً مصلحاً هادياً مستقيماً مرشداً حكيماً. انظر تفسير القرطبى [٤/ ٣٣٩٦].

﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾﴾ (١) (٢)

هذه الآية تحمل رد المتدافعين طلباً للفحشاء من قوم لوط؛ فقد قالوا له: أنت تعلم مقصدنا، وليس لنا فى بناتك أية حاجة نعتبرها غاية لمجيئنا.

وكان هذا يعنى الإعراض عن قبول نصحه لهم بالتزوج من بناته بدلاً من طلب فعل الفاحشة مع ضيوف لوط، وهم الملائكة الذين جاءوا فى هيئة رجال بلغوا مبلغ الكمال فى الجمال.

ويأتى الحق سبحانه برد لوط عليه السلام:

﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾﴾ (٣) (٤)

وساعة تقرأ كلمة «لو» فهذا هو التمنى، أى: رجاء أن يكون له قوة يستطيع أن يدفع بها هؤلاء، وكان لا بد من وجود شرط، مثل قولنا: «لو أن زيداً عندك لجئت»، لكن نجد هنا شرطاً ولا جواب، كأن يقال: «لو أن لى بكم قوة لفعلت كذا وكذا».

---

(١) اختلف العلماء فى المقصود بالبنات: هل هن بنات لوط فعلاً من صُلبه؟ أم أن المقصود بهن نساء قومه، فالنبى أب لأمته نساء ورجالاً. انظر تفسير ابن كثير (٢/ ٤٥٣) والقرطبى (٤/ ٣٣٩٥) والدر المنثور للسيوطى (٤/ ٤٥٧).

(٢) قال ابن كثير: «أى: إنك لتعلم أن نساءنا لا أرب لنا فيهن ولا نشتهيهنَّ». وقد ذكر القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٣٩٧): «أن قوم لوط خطبوا بناته فردهم، وكانت سنتهم أن من رُدَّ فى خطبة امرأة لم تحل له أبداً».

(٣) أوى المكان، وأوى إليه يأوى أوياً: نزله والتجأ إليه. قال تعالى: ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ .. ﴿١٠﴾﴾ [الكهف] أى: نزلوه والتجئوا إليه. [القاموس القويم].

(٤) ركن الشىء: جانبه الأقوى. وقوله تعالى: ﴿.. أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾﴾ [هود] أى: ألجأ إلى حصن قوى يحمينى، أو إلى رجل قوى يحمينى وينصرنى عليكم كأنه ركن ممتنع حصين. [القاموس القويم ١/ ٢٧٦].

ولذلك يقال إن الملائكة قالت له: إن ركنك لشديد[1] ؛ ولذلك قال:

﴿ .. أَوْ آوِى إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ ﴾ [هود]

والشيء الشديد هو المتجمِّع تجمُّعاً يصعب فَصْلُه ، أو المختلط اختلاطاً بمزج يصعب تحلُّله ؛ لأنك حين تجمع الأشياء؛ فإما أن تجمع أشياء أجناسها منفصلة ، ولكنك تربطها ربطاً قوياً ، مثل أن تربط المصلوب على شجرة برباط قوى ، لكن كليهما - المصلوب والشجرة - منفصل عن الآخر وله ذاته ، وهناك ما يُسمَّى خلطاً ، وهناك ما يُسمَّى مزجاً ، والخلط هو أن تخلط أشياء ، وكل شيء منها متميز عن غيره بحيث تستطيع أن تفصله ، أما المزج فلا يمكن فصل الأشياء الممتزجة ببعضها .

ومثال ذلك: أنك قد تخلط فول التدميس مثلاً مع حبات من الفول السودانى ، وتستطيع أن تفصل الاثنين بعضهما عن بعض؛ لأنك جمعتهما على استقلال. ولكن إن قُمْتَ بعصر ليمون على كوب من الماء المحلى بالسكر ؛ فهذا مزج يصعب حَلُّه.

وقد قال لوط عليه السلام ذلك لأنه لم يكن فى مَنعةٍ من قومه ، أهل «سدوم» ويقال : إنها خمس قرى قريبة من «حمص».

وقد تعجَّب رسول الله ﷺ من قول لوط ، فقال - فيما رواه البخارى-:

«رحم الله أخى لوطاً كان يأوى إلى ركن شديد»[2] .

فَلهوْل ما عانى لوط عليه السلام من كرب المفاجأة قال ذلك ، وهو يعلم أنه لاَ يوجد سند أو ركن أشد من الحق سبحانه وتعالى.

---

(١) أورده السيوطى فى الدر المنثور (٤/ ٤٥٩) وعزاه لابن جرير الطبرى عن وهب بن منبه. وركنه الشديد هنا هو الله سبحانه وتعالى .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٣٧٥ ، ٤٦٩٤) وأحمد فى مسنده (٢/ ٣٢٦ ، ٣٣٢ ، ٣٥٠) وابن ماجه فى سننه (٤٠٢٦) من حديث أبى هريرة .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك ما قالته الملائكة للوط عليه السلام:

﴿قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾﴾ (١)

وهكذا علم لوط - لأول مرة - أنهم رسل من الله تعالى ، رغم أنهم حين تكلموا مع إبراهيم لم يقولوا أنهم رسل من الله ؛ ليدلنا على أن إبراهيم عليه السلام كان يعلم أنهم رسل من الحق سبحانه ، لكنه لم يكن يعلم سبب مجيئهم.

وهم حين أخبروا لوطاً : ﴿ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ ..(٨١) ﴾ فمن باب أولى ألا يصلوا إليهم ، وتخبر الملائكة لوطاً أن يسرى بأهله ليلاً أى: اخرج بأهلك فى جزء من الليل ، وقد أوضحت الملائكة أن موعد النكال (٢) بقوم لوط هو الصبح :

﴿ .. إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ (٨١) ﴾ [هود]

---

(١) القطع والقطعة: الجزء المقطوع. قال تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ ..(٨١)﴾[هود] والقطع: جمع «قطعة». وقوله تعالى: ﴿كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا ..(٢٧)﴾ [يونس] قطعاً - بكسر القاف وفتح الطاء - ومظلماً: حال من الليل ، وقرىء «قطعاً» -بكسر القاف وسكون الطاء - أى: جزءاً ، ونعرب مظلماً - على هذه القراءة - نعتاً لقوله: «قطعاً» أو حالاً من الليل. [القاموس القويم ٢/ ١٢٥].

(٢) النكال: التنكيل والعقوبة الشديدة الزاجرة. قال تعالى: ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الآخِرَةِ وَالأُولَى (٢٥)﴾ [النازعات] أى: عذبه الله عذاباً شديداً يعد عبرة لغيره فى الدنيا والآخرة. وقوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (٦٦)﴾ [البقرة] أى: جعلها الله - بالعذاب الشديد - عبرة لأهل زمانها ، ولمن يأتى بعدها ، وللمتقين فى كل زمان. وقال تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللَّهِ .. (٣٨)﴾ [المائدة] أى: عقوبة زاجرة فرضها الله تعالى ليتعظ بها الناس. [القاموس القويم].

لذلك قالوا:

﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ ..(٨١) ﴾ [هود]

والمقصود أن يترك ربع الليل الأول ، وربعه الآخر ، وأن يسير فى نصف الليل الذى بعد ربع الليل الأول وينتهى عند ربع الليل الأخير ، وقيل: إن أليق ما يكون بالقطع هو النصف.

ثم يقول الحق سبحانه:

﴿ وَلَا يَلْتَفِتْ[1] مِنكُمْ أَحَدٌ ..(٨١) ﴾ [هود]

والالتفات: هو الانصراف عن الشىء الموجود قبالتك ، ويسمى الانصراف عن المقابل. فهل المقصود هو الالتفات الحسى أم الالتفات المعنوى ؟

نحن نعلم أن لوطاً سيصحب المؤمنين معه؛ من ديارهم وأموالهم ، وما ألفوه من مقام ومن حياة ؛ لذلك تنبههم الملائكة ألا تتجه قلوبهم إلى ما تركوه ، وعليهم أن ينقذوا أنفسهم ، وسيعوضهم الله سبحانه خيراً مما فاتهم.

هذا هو المقصود بعدم الالتفات المعنوى ، وأيضاً مقصود به عدم الالتفات الحسى.

وتوصى الملائكة لوطاً عليه السلام ألا يصحب امرأته معه؛ لأنها خانته بموالاتها للقوم المفسدين ، وإفشائها للأسرار ، وعليه أن يتركها مع الذين يصيبهم العذاب.

---

(١) التفت الرجل: أمال وجهه ونظر يمنة أو يسرة ، أو انحرف ورجع عن وجهته. قال تعالى: ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ .. (٨١) ﴾ [هود] أى: لا يلتفت يمنة ولا يسرة ، ولا إلى الخلف ، فيرجع وينصرف عن السير معك. [القاموس القويم ٢/ ١٩٦].

ولكنها لحظة الخروج ادعت أنها مخلصة للوط ، وقالت: سأخرج حيث تخرج ، ثم نظرت إلى القوم وقالت: وا قوماه ورجعت لتمكث معهم ، ولينالها العذاب الذى نالهم فى الموعد الذى حددته الملائكة وهو الصبح :

﴿ .. إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ [(١)] أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ (٨١) ﴾ [هود]

وقد تحدد الصبح لإهلاكهم ؛ لأنه وقت الدعة والهدوء فيكون العذاب أشد نكالاً .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ [(٢)] (٨٢) ﴾

والحق سبحانه يبين لنا هنا أن الأمر بالعذاب حين يصدر ، فالمأمور يستجيب قهراً ، ويقال إن قرى قوم لوط خمس: قرية «سدوم» وقرية «دادوما» وقرية «ضعوه» ، وقرية «عامورا» وقرية «قتم» .

وقوله تعالى :

﴿ جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا .. (٨٢) ﴾ [هود]

أى : انقلبت انقلاباً تامّاً [(٣)] .

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٤٠٠) : «يحتمل أن يكون جعل الصبح ميقاتاً لهلاكهم ، لأن النفوس فيه أودع ، والناس فيه أجمع» .

(٢) السجيل : الطين المتحجر . قال تعالى : ﴿ .. وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ (٨٢) ﴾ [هود] . [القاموس القويم ١/ ٣٠٤] .

(٣) ذكر القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٤٠٠) «أن جبريل عليه السلام أدخل جناحه تحت قرى قوم لوط ، فرفعها من تخوم الأرض حتى أدناها من السماء بما فيها ، حتى سمع أهل السماء نهيق حمرهم وصياح ديكتهم ، لم تنكفىء لهم جرة ، ولم ينكسر لهم إناء ، ثم نكسوا على رؤوسهم ، وأتبعهم الله بالحجارة» .

ويقول القرآن فى موضع آخر :

﴿ وَالْمُؤْتَفِكَةَ [1] أَهْوَىٰ (٥٣) ﴾ [النجم]

والمؤتفكة من الإفك وهو الكذب المتعمَّد ، أى : قول نسبة كلامية تخالف الواقع ، ولأن من يقول الإفك [2] إنما يقلب الحقيقة إلى غير الحقيقة زعماً ، ويقلب غير الحقيقة إلى ما يشبه الحقيقة .

كذلك المؤتفكة ، أى : القرى التى جعل عاليها سافلها فانقلبت فيها الأوضاع .

ونفذ أمر الله بأن أمطر عليهم حجارة من سجيل منضود ، وهو طين قد تحجَّر .

والحق سبحانه يقول فى آية أخرى [3] ﴿ .. حِجَارَةً مِّن طِينٍ (٣٣) ﴾ [الذاريات]

وكلمة «حجارة» تعطى الإحساس بالصلابة ، أما كلمة «طين» فتعطى إحساساً بالليونة ، ولكن الطين الذى نزل قد تحجر بأمر من الله تعالى ، وهو قد نزل منضوداً . . أى : يتتابع فى نظام ، وكأن كل حجر يعرف صاحبه ، لأن الحق سبحانه يقول بعد ذلك :

---

(١) المؤتفكة : القرى المنقلبة عند خسفها . قال تعالى : ﴿ وَأَصْحَابَ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ .. (٧٠) ﴾ [التوبة] هى المخسوفات ، وهى قرى قوم لوط ، جعل الله عاليها سافلها ، وهى المؤتفكة ﴿ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ (٥٣) ﴾ [النجم] أى : أسقطها وخسفها . [القاموس القويم] .

(٢) الإفك : الكذب ، وأفَّاك : صيغة مبالغة أى : كثير الكذب ، قال تعالى : ﴿ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٢٢٢) ﴾ [الشعراء] . وقال فى سحرة فرعون : ﴿ .. فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (١١٧) ﴾ [الأعراف] . أى : ما يكذبون ويدعون أنه حق ، وهذا يدل على أن السحر تخيُّل وإيهام ، وليس قلباً لحقائق الأشياء ، فالحبل حبل والثعبان ثعبان ، ولكن الساحر يوهم الناس أنه عمل شيئاً وهو لم يعمل شيئاً . [القاموس القويم] .

(٣) كان ذلك فى شأن قوم لوط أيضاً ، قال تعالى فيما قاله إبراهيم عليه السلام للملائكة المرسلين إليه : ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (٣١) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ (٣٢) لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ (٣٣) مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ (٣٤) ﴾ [الذاريات] .

﴿ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾ ﴾

وكلمة «مسوَّمة» أى: مُعلَّمة ، وكأن كل حجر قد تم توجيهه إلى صاحبه ، فهذا الحجر يذهب إلى فلان ، وذاك إلى فلان ، مثل الصواريخ الموجهة إلى البلاد ، ولكن الدقة فى هذه الحجارة أن كل حجر يعرف على من بالتحديد سوف ينزل بالعذاب ، وقد جعلها الحق سبحانه لتعذيب المكين ، أى: الإنسان ، ولا تدمر البلاد .

وهى مُرتَّبة ؛ لأن الحق سبحانه قال :

﴿ .. سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ (١) ﴿٨٢﴾ ﴾ [هود]

ووردت كلمة (سجيل) أيضاً فى قول الحق سبحانه :

﴿ .. طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ ﴾ [الفيل]

ويُنهى الحق سبحانه الآية بقوله:

﴿ .. وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾ ﴾ [هود]

والظالمون هنا مقصود بهم الكافرون برسالة الحق - سبحانه وتعالى - التى تتابعت فى الموكب الرسالى وخاتمها هو محمد ﷺ .

ونحن نعلم أن القصص القرآنى قد نزل تسلية وثباتاً بيقين لرسول الله ﷺ وتذكرة بالأسوة :

﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ .. ﴿١٢٠﴾ ﴾ [هود]

---

(١) نضد الشىء ينضده: جعل بعضه فوق بعض ، أو بجانب بعض فى نظام ، فهو منضود ونضيد ، أى: منظم . قال تعالى: ﴿ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ ﴾ [ق] أى: مرصوص بنظام. ومثله قوله تعالى: ﴿ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الواقعة] . أما قوله تعالى: ﴿ .. مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ ﴾ [هود] أى: متتابع منتظم السقوط عليهم. [القاموس القويم].

وتحكى القصص المعارك التى قامت بين كل رسول مُؤيَّد بمعجزة من الله ، وبين المنكرين له والكافرين به ، وقد انتهت كل هذه المعارك بنصرة الرسول على الكافرين ، إلا أن الرسل السابقين لم يُكلّفوا أن يقاتلوا من أجل الإيمان ، بل كان عليهم أن يعلنوا الحجة الإيمانية فقط ، وأن يبلغوا المنهج ، فإن عصى القوم ؛ فالسماء هى التى تتدخل لتأديب المخالفين .

والحق سبحانه يقول :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ [1] ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (٨) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ [2] (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ [3] (١٠) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ [4] (١٣) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ [5] (١٤) ﴾ [الفجر]

---

(١) إرم : اسم قبيلة منها «عاد» ، وقيل : هى مدينة كبيرة لهم ، وزعم الكندى فى كتابه «فضائل مصر» أنها مدينة الإسكندرية . وقوله تعالى : ﴿ .. ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) ﴾ [الفجر] يدل على أنها ذات حضارة ومبان عالية . [القاموس القويم ١/ ١٨] .

(٢) جابه يجوبه جوباً : قطعه . وقوله : ﴿ .. جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) ﴾ [الفجر] أى : قطعوه ونحتوه وصنعوا منه بيوتهم وأصنامهم ، وحذفت ياء «الوادى» فى رسم المصحف . [القاموس القويم ١/ ١٣٥] .

(٣) الأوتاد : جمع وتد . والوتد : قطعة مستطيلة من الخشب أو الحديد تثبت فى الأرض ثم يشد بها حبل يمسك الدابة أو سقف الخيمة ، وشبهت الجبال بالأوتاد ؛ لأنها تحفظ توازن الأرض وتثبتها . قال تعالى : ﴿ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا (٧) ﴾ [النبأ] وقال أيضاً : ﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (١٠) ﴾ [الفجر] قيل : هم الجنود الذين يثبتون ملكه . وقيل : إنها أوتاد حقيقية كان يشد إليها من يريد تعذيبهم من الناس ، ولعل المراد بها الأهرام التى بناها فرعون ، تشبه الجبال . [القاموس القويم ٢/ ٣١٨] .

(٤) السوط : الجلد الذى يضرب به ، وسُمِّى سوطاً لأنه يخلط الدم باللحم . وقوله تعالى : ﴿ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) ﴾ [الفجر] وعبر عن الضرب بالسوط بالفعل «صب» ليفيد دوام الألم وشموله ، كأنه صب ألم الضرب فوقهم صباً فأغرقهم فيه كما يصب الماء على الجسم فيعمه . أو السوط : الخلط ، فالعذاب مختلط متنوع ، فصبَّ عليهم من العذاب أخلاطاً متنوعة . [القاموس القويم] .

(٥) المرصد : اسم مكان الرصد ؛ كالمرصاد . قال تعالى : ﴿ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ .. (٥) ﴾ [التوبة] . وقال تعالى : ﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا (٢١) ﴾ [النبأ] وقال تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (١٤) ﴾ [الفجر] والمراد : أن الحق سبحانه رقيب عليهم ويحصى جميع ذنوبهم - مهما صغرت - ليعاقبهم عليها . [القاموس القويم ١/ ٢٦٦] بتصرف .

ولكن الأمر اختلف بمجيء محمد ﷺ ، لأن دين محمد ﷺ هو الدين الذى تقوم عليه الساعة ، وقومه مأمونون على البلاغ عن الله تعالى خلافة للرسول ﷺ .

وعلى كل واحد من أمة محمد ﷺ يعلم حكماً من أحكام الله تعالى أن يبلغه؛ لأنه قائم مقام الرسول ﷺ .

والحق سبحانه يقول:

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا (١) لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا .. (١٤٣) ﴾ [البقرة]

إذن: فكل واحد من أمته ﷺ هو امتداد لرسالة الإسلام ، وبدلاً من أن السماء كانت تتدخل لتأديب الكافرين ، جعل الله سبحانه لأمة محمد ﷺ أن يقفوا بالقوة أمام الكافرين ، لا لفرض الإيمان ؛ لأن الإيمان لا يُفرض، ولا يُكره عليه ؛ لأنك قد تُكره إنساناً فى الأمور الحسية ، لكنك لا تستطيع أن تملك قلبه ، والحق سبحانه يريد الإيمان الغيبى الذى يملك القلوب.

ولذلك يقول الحق سبحانه:

﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ (٢) نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣) إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ (٤) ﴾ [الشعراء]

إذن: فالحق سبحانه يريد قلوباً تخشع ، لا أعناقاً تخضع.

---

(١) الوسط: مصدر ، ويسمى به الشيء المتوسط ، ولأنه مصدر يوصف به المفرد وغيره ، بلفظه. قال تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا .. (١٤٣) ﴾ [البقرة] . أى: أمة فاضلة خيرة ، خير الأمم ، فالوسط خير الطرفين ، ويؤيده قوله تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ .. (١١٠) ﴾ [آل عمران].

(٢) بخع نفسه بخعاً وبخوعاً: قتلها هماً وغيظاً وحزناً. قال تعالى: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا (٦) ﴾ [الكهف] . [القاموس القويم].

وهكذا فُوِّضَتْ أمة محمد ﷺ تفويضين: فُوِّضَتْ فى نقل رسالة محمد ﷺ إلى الأجيال ، وكل جيل ينقلها إلى الجيل الذى يليه.

وها هو ﷺ يقول: «نَضَّر الله امرأ سمع مقالتى فوعاها وأداها إلى من لم يسمعها ، فرُبَّ مُبلغٍ أوعى من سامع»[(١)].

وفُوِّضَتْ أمة محمد ﷺ فى أن تقف من الكافرين موقف تأديب ، لا لتفرض الدين ولكن لتحمى حق اختيار الدين ، فلم يحدث أن رُفع سيفٌ فى الإسلام ليفرض ديناً ؛ بل رفع السيف ليحمى حرية اختيار الإنسان للدين.

يقول سبحانه :

﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ .. (٢٩)﴾ [الكهف]

فإذا آمن فعليه الالتزام بالإيمان ، فلا يكسر حكماً من أحكام الإيمان ، وهذا تصعيب للدخول فى الإسلام ، فمن أين يأتى ادعاء فرض الدين على المخالفين ؟!

إذن: فقد آمن المؤمن من أمة محمد ﷺ إيمانين: الإيمان الأول هو أن يؤمن بالإسلام ، والإيمان الثانى أن يبلغ الدعوة.

ولذلك قال رسول الله ﷺ : «علماء أمتى كأنبياء بنى إسرائيل»[(٢)].

فهل المقصود بالعلماء هم من يعلمون العلم فقط ؛ لا ، بل يقصد كل من يعرف قضية من قضايا الإيمان معرفة سليمة وصحيحة ، وينساح

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (١/ ٤٣٧) والترمذى فى سننه (٢٦٥٧ ، ٢٦٥٨) وابن ماجه فى سننه (٢٣٢) والحميدى (١/ ٤٧) من حديث عبد الله بن مسعود.

(٢) أورده السيوطى فى الدرر المنتثرة (٢٩٣) وقال: لا أصل له. قال الشوكانى فى الفوائد المجموعة (ص ٢٨٦) : قال ابن حجر والزركشى: لا أصل له. وانظر كشف الخفاء للعجلونى (٢/ ٨٣).
ويؤخذ من الحديث أن نوقر من العلماء الصدق والأمانة فى البلاغ والذكاء فى العرض .

بالدعوة فى الأرض ليعلِّم غير المؤمنين ويترك الناس أحراراً فى اختيار الدين.

وكذلك يقف المؤمنون برسالة رسول الله ﷺ لأية قوة تحارب حرية اختيار الدين.

وهكذا جاءت قصص القرآن لتثبيت فؤاده ﷺ.

ونحن نعلم أن الحق سبحانه قد بعث المصطفى ﷺ وهو فى مكة، فصرخ بالدعوة، لا فى آذان القبائل الواهية فى أطراف الجزيرة، ولكن فى آذان سادة الجزيرة، حتى لا يقال: إنه استضعف قوماً فناداهم إلى الإيمان به، ولم يجرؤ على السادة، وهم قريش، التى أخذت السيادة بحكم إقامتها فى مكان البيت العتيق، وكان كل العرب يحجون إلى البيت الحرام، فإذا ما تعرضت قبيلة لقريش بسوء، فقريش قادرة على أن تنال من أبناء تلك القبيلة حين يحجون إلى البيت الحرام.

وهكذا أخذت قريش هيبتها من وجودها حول البيت.

إذن: فالبيت هو الذى صنع السيادة لقريش، وهو الذى صنع السيادة للآلهة المدَّعاة من الأصنام حين يأتى كل قوم بإلههم من الحجر؛ ليضعوه فى البيت؛ ليكتسب الحجر قداسة من قداسة البيت.

إذن: فقد أخذت قريش السيادة من البيت الحرام، وجاء رسول الله ﷺ فأعلن الدعوة على أسماع السادة، وسَفَّه [1] أحلامهم، ولم يُبَالِ بجبروتهم وسيادتهم على الجزيرة.

---

(١) سفهت الرجل: أى: رميته بالسفه، ونسبته إلى الطيش والجهل، وسفه نفسه: حملها على الجهل والطيش فكأنه جعل نفسه سفيهًا. قال تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ..(١٣٠)﴾ [البقرة]. وسفه أحلامهم: اتهمهم بالسفه والجهل. والأحلام-هنا- هى العقول [القاموس القويم١/ ٣١٧].

لكن الحق سبحانه قد شاء ألا يكون انتصار الإسلام على يد السادة من قريش فى مكة ، بل جاء انطلاق الإسلام من المدينة ؛ لأن الله سبحانه أراد أن يُعلِّم الدنيا كلها أن العصبية لمحمد لم تخلق الإيمان بمحمد.

ولكن الله تعالى قد شاء أن يكون المستضعفون من أطراف الجزيرة هم الذين نصروا الدعوة ؛ فكأن الإيمان بمحمد ﷺ هو الذى خلق العصبية لمحمد للحق الممثَّل فى رسالة محمد ، ولم تخلق العصبية لمحمد إيماناً به وبرسالته.

وإذا كان الحق سبحانه قد نعتهم بالظالمين ، وبيَّن لهم أن المكان الذى قُلِبَ عاليه أسفله ، ليس ببعيد عنهم ، فهل لهم أن يتخذوا من ذلك عبرة ؟

والظلم - كما نعلم - هو مجاوزة الحق للغير ، أى: أن تأخذ حق الغير وتعطيه لغير ذى حق ، فإذا كان ظلماً فى الألوهية ، فهذا هو الشرك العظيم ، وإن كان ظلماً فى إعطاء حق من حقوق الدنيا للغير ، فهو ظلم للإنسانية ، والظلم درجات بحسب الجريمة .

وقد ظلمت قريش نفسها ظلماً عظيماً ؛ لأنها أشركت بالله ؛ وجعلت له شركاء فى الألوهية ؛ وهذا أقصى أنواع الظلم.

والله سبحانه يريد أن يذكِّر هؤلاء الظالمين بأن عذاب الله حين يجىء ، أو أمر الله حين يأتى ؛ لا يمكن أن يقوم أمامه قائم يمنعه ، فتنبهوا جيداً إلى أنكم عُرْضة أن يُنزل الله تعالى بكم العذاب كما أنزل بهذه القرى ؛ وهى غير بعيدة عنكم ، فالمسافة بين المدينة والشام قد تبدو مسافة طويلة إلا أن الله تعالى قد جعلهم يمرون عليها فى كل رحلة من رحلات الصيف إلى الشام [1] .

---

(١) وفى هذا يقول سبحانه : ﴿ وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٣) إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٣٤) إِلاَّ عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ (١٣٥) ثُمَّ دَمَّرْنَا الآخَرِينَ (١٣٦) وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٣٨) ﴾ [الصافات].

إذن: فهى قرى تقع على طريق مسلوكة ؛ ولذلك يقول الحق سبحانه عن موقعها:

﴿ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ (٧٦) ﴾ [الحجر]

أى: بطريق تمرون عليها ، لا يجرفها سيل ، ولا يغير معالمها ريح.

بل هى طريق ثابتة مقيمة تمرون عليها حينما تذهبون فى رحلة الصيف إلى الشام ، فكان من الواجب أن تأخذوا فى كل مرور لقطة وعبرة ؛ حتى لا تقعوا فى ظلم آخر.

وقد نبهكم الله سبحانه أيضاً بمروركم على ديار قوم صالح الذين خاطبهم الحق سبحانه بقوله:

﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ (١) آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ (٢) لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩) وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ (٣) جَبَّارِينَ (١٣٠) ﴾ [الشعراء]

هكذا ترون ديار ثمود وديار عاد وديار لوط وهى خاوية ، وكان من الواجب - معشر قريش - ألا تبالغوا فى الظلم ، وأن تنتبهوا بالعبرة إلى مصير كل من يشرك بالله تعالى.

---

(١) الريع - بكسر الراء - : الجبل، أو ما يشبهه من المبانى المرتفعة أو المكان المرتفع. قال تعالى: ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) ﴾ [الشعراء]. [القاموس القويم].

(٢) ﴿ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩) ﴾ [الشعراء] أى: أبنية عالية وقصوراً متينة تحسنون صنعها راجين أن تخلدوا فيها، ولستم بخالدين. [القاموس القويم].

(٣) بطش به بطشاً: أخذه بعنف وشدة. قال تعالى: ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (١٢) ﴾ [البروج]. والجبر: القهر. وجبره: قهره وأكرهه على أمر. والجبار: صيغة مبالغة. والجبار من الناس: العاتى المتمرد المتسلط. وقال تعالى: ﴿ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ .. (٢٢) ﴾ [المائدة]. وقال تعالى: ﴿ .. وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (١٥) ﴾ [إبراهيم]. [القاموس القويم ١/ ٧٢] بتصرف.

ويلفتهم الحق سبحانه إلى أنهم لم يكفروا بحق الألوهية فقط ، ولكنهم - أيضاً - كفروا بشكر النعمة ، وظلموا ؛ لأن الله سبحانه هو الذى أنعم عليهم برحلة الشتاء إلى اليمن ، وبرحلة الصيف إلى الشام ، والرحلتان للتجارة التى تأتى بالزيادة لقريش ؛ لأنهم يخرجون بالأموال ويعودون بالبضائع التى يبيعونها لأهل مكة ، ولزوار بيت الله الحرام.

وقد أخذت قريش مهابتها عند كل قوم يمرون عليهم أثناء الرحلتين ، من أنهم يعيشون حول البيت الحرام ، لذلك يمتن الله سبحانه على قريش فى قوله سبحانه:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ [1] ﴿٥﴾﴾ [الفيل]

فالقوم الذين جاءوا ليهدموا البيت الحرام - وهو رمز السيادة - لو هدم وتحوَّل الحجيج إلى صنعاء ، لسقطت مهابة قريش ، ولكن الله تعالى حمى البيت وأرسل عليهم طيراً أبابيل ، وجعل الذين قصدوه بسوء كعصف مأكول.

لماذا صنع الله تعالى ذلك ؟

تأتى الإجابة فى السورة التالية لسورة الفيل حيث يقول الحق سبحانه فى سورة قريش:

---

(١) كيدهم: سعيهم لتخريب الكعبة. تضليل: تضييع وإبطال وخسار. طيراً أبابيل: جماعات متفرقة متتابعة. سجيل: طين متحجر محرق (آجر). كعصف مأكول: كتبن أكلته الدواب فراثته. [كلمات القرآن - للشيخ حسنين مخلوف].

﴿ لِإِيلَافِ [1] قُرَيْشٍ (١) إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (٢) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ (٤) ﴾ [قريش]

إذن: كان من الواجب حين يمرون على هذه الديار أن يأخذوا منها عبرة، وأنهم - وإن كانوا يمرون على هذه الديار بقصد التجارة وهى سر معاشهم - إذا لم يأخذوا من هؤلاء العبرة فهم يقترفون ظلماً جديداً آخر.

لذلك يقول الحق سبحانه:

﴿ .. وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ (٨٣) ﴾ [هود]

أو: أن الله سبحانه وتعالى أراد أن ينبه قريشاً إلى أن الهلاك الذى نزل بهؤلاء القوم المشركين، ليس ببعيد أن يصيب قريشاً، وأن يرسل الله سبحانه على كل واحد من الكافرين به حجراً مسوَّماً يصيبه فى مكانه الذى يكون فيه.

والسطحيُّون - فى اللغة - يخطئون فيأخذون على القرآن مآخذ، لا تلتفت إليها الملكة الصحيحة فى اللغة، ويقولون: كيف يقول الله:

﴿ .. وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ (٨٣) ﴾ [هود]

وكلمة «ما هى» مؤنثة، وتقتضى أن يقول: «بعيدة» بدلاً من كلمة «بعيد»، أى: أن يكون القول: «وما هى من الظالمين ببعيدة» ونسوا أن المتكلم هو الله تعالى، وأنهم لم يدرسوا اللغة دراسة صحيحة؛ لأن «فعيل» إن جاءت بمعنى «مفعول»، فهنا يستوى المذكر والمؤنث.

---

(١) لإيلاف قريش: اعجبوا لإيلافهم الرحلتين وتركهم عبادة رب البيت [كلمات القرآن].

ومثال ذلك من القرآن الكريم أيضاً هو قول الحق سبحانه :

﴿ .. وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ (١) (٤) ﴾ [التحريم]

وقول الحق سبحانه :

﴿ .. إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ (٢) مِّنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦) ﴾ [الأعراف]

إذن : فعدم درايتهم باللغة هو الذى جعلهم يخطئون مثل هذا الخطأ .

ويأتى الحق سبحانه بعد ذلك بقصة أخرى من القصص التى جاء بها الله فى هذه السورة لموكب الرسل ، فيأتى بقصة شعيب عليه السلام ، ويقول سبحانه :

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ (٣) أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ (٤) وَالْمِيزَانَ ۚ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ (٥) (٨٤) ﴾

---

(١) الظهير : المعين المساعد كأنه يسند ظهر من يعاونه . قال تعالى : ﴿ .. وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ (٢٢) ﴾ [سبأ] وقال تعالى : ﴿ .. وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (٨٨) ﴾ [الإسراء] أى : معيناً مساعداً . وقال تعالى : ﴿ .. وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا (٥٥) ﴾ [الفرقان] أى : معاوناً أعداء الله ضد الله وضد كتبه وضد رسله - وتعالى الله عما يفعلون . [القاموس القويم ١/ ٤١٨] .

(٢) قرب الشىء من الشىء ، يقرب قرباً : دنا منه فهو قريب قرب مسافة ، فيستوى فيه المذكر والمؤنث ، قال تعالى : ﴿ .. إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦) ﴾ [الأعراف] أى : مكانها قريب منهم ، وأما قرابة النسب فتطابق الموصوف فتقول : هو قريب لى وهى قريبة لى فى النسب والرحم . [القاموس القويم٢/ ١٠٨] .

(٣) قال القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٤٠٤) : «فى تسميتهم بذلك قولان : أحدهما : أنهم بنو مدين بن إبراهيم ، فقيل : مدين ، والمراد بنو مدين . كما يقال مضر والمراد بنو مضر .
الثانى : أنه اسم مدينتهم ، فنسبوا إليها . قال النحاس : لا ينصرف مدين لأنه اسم مدينة» .

(٤) كال القمح يكيله كيلاً : قدره بمكيال ، وهو وعاء له سعة معلومة اتفق الناس على التقدير به . قال تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ .. (٣٥) ﴾ [الإسراء] والكيل : مصدر «كال» ، ويطلق على المكيال . والمكيال يستخدم لكيل الحبوب . وإذا نقص المكيال نقص ما يكال به ، فالله سبحانه وتعالى ينهى عن أن ينقص المؤمن شيئاً مما يبيعه للناس ، أو ما يكيله لهم . [القاموس القويم٢/ ١٨٢] بتصرف . وجمع مكيال : مكاييل . وجمع كيل : أكيال . والكيلة : وعاء يكال به الحبوب ومقداره الآن ثمانية أقداح ، والجمع : كيلات . [المعجم الوسيط] .

(٥) يوم محيط : مهلك . [كلمات القرآن] .

و«مدين» هو اسم ابن إبراهيم عليه السلام ، ولم يكن هذا الابن موجوداً وقت بعثة شعيب ، لكن القبيلة التى تناسلت منه سُمِّيت باسمه ، وكذلك القرية التى أقامت فيها القبيلة سميت باسمه ، فإن قلت إن شعيباً أرسل لقبيلة مدين ، فهذا قول سليم ، وإن قلت إنه أرسل لقرية مدين ، فهذا قول سليم أيضاً ؛ لأن القرية لا بد لها من سكان.

والحق سبحانه يقول على لسان إخوة يوسف عليه السلام:

﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا .. (٨٢) ﴾ [يوسف]

والمقصود « أسأل أهل القرية»[1].

إذن: فمرة يطلق الاسم على المكان ، ومرة يطلق المكان ويراد به المكين.

وقد بدأ شعيب رسالته مع قومه من حيث بدأ كل الرسل بالدعوة إلى قمة التدين ، وهو أن يعبدوا الله وحده لا شريك له ولا إله غيره ، وهذا هو القدر المشترك فى كل الرسالات.

والحق سبحانه يقول:

﴿ شَرَعَ [2]لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي [3]إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ (١٣) ﴾ [الشورى]

إذن : فقمة الدين هى قضية العقيدة الإيمانية ، وهى عبادة الله تعالى وحده ولا إله غيره ، لأن الحق سبحانه حين يوجه الأوامر التكليفية «افعل»

---

(١) الآية فيها مجاز بالحذف ، وهو أحد فنون البلاغة .

(٢) شرع الشيء: بينه وأوضحه. والشرعة والشريعة: ما شرعه الله وبيَّنه من العقائد والأحكام. [القاموس القويم] بتصرف.

(٣) الاجتباء: الاختيار والاستخلاص والاصطفاء. [القاموس القويم ١/ ١١٧].

و «لا تفعل» فالله سبحانه لا يوجهها إلا لمن آمن به إلهاً واحداً ، أما الذى لا يؤمن به ، فالله سبحانه لا يوجه إليه أى حكم.

ولذلك تجد حيثية كل حكم تكليفى فى القرآن مُصَدَّراً بقوله تعالى:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا .. (١٧٨) ﴾ [البقرة]

سواء أكان الأمر صياماً [١]، أم قصاصاً [٢]، ففى كل تكليف يُصدَّر بهذا القول ، لا بد أن يأتى المعنى: يا من آمنت بى إلهاً قادراً حكيماً ، اسمع منى التكليف.

ولذلك أقول دائماً:

إن علة كل تكليف هى الإيمان بالمكلِّف ، ولا داعى للبحث عن علة أخرى.

فمثلاً حين يُقَال: إن علة الوضوء النظافة ، نقول: وإن لم يوجد ماء ، فنحن نلمس التراب أو الحجر ثم نمسح وجوهنا فى التيمم [٣].

إذن: فالمقصد هو أن نتهيأ للصلاة بأى شكل يحقق مقصود العبادة وهو الطاعة للخالق سبحانه وتعالى.

وإياك أن تؤخر تنفيذ الحكم إلى أن تبرره ؛ لأن مبرره هو صدوره عن الله سبحانه وتعالى.

---

(١) يقول رب العزة سبحانه: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٨٣) ﴾ [البقرة].

(٢) يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنثَىٰ بِالأُنثَىٰ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٨) وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧٩) ﴾ [البقرة].

(٣) التيمم لغة: القصد. وشرعاً: هو طهارة ترابية تقوم مقام المائية عند فقدان الماء حقيقة أو حكماً ، ويصح إلى تسعة أشخاص: فاقد الماء الكافى ، وفاقد القدرة على استعماله ، والخائف حدوث مرض أو زيادته ، وتأخر برء ، وعطش محترم ، والخائف مع تلف حال ذى بال. الشرح الصغير للدردير جـ ١ يقول سبحانه: ﴿ .. وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا (٤٣) ﴾ [النساء].

وكذلك كل شيء يقوله رسول الله ﷺ فنحن نتبعه ، ولا نبحث عن علة له ، وإلا لو كنا نؤجل الأحكام إلى أن تثبت تبريراتها العلمية مثل فساد لحم الخنزير بما يحمله من أمراض ، ومثل قدرة الخمر على إهلاك المخ وتدمير خلاياه ، فضلاً عن تدمير خلايا الكبد ، فنحن لو كنا قد أجلنا تلك الأحكام ، فماذا كان الموقف ؟

لقد طبَّق المسلمون هذه الأحكام فور نزولها ؛ لإيمانهم بالمنهج وحبهم فى القرب من الله ، ثم أثبتت الأيام صدق الله تعالى فى تكليفه.

وهنا يقول الحق سبحانه:

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ .. (٨٤) ﴾ [هود]

وعرفنا أن العبادة ليست محصورة فى الصلاة أو الصوم أو الزكاة أو الحج ؛ لأن هذه هى الأركان الأساسية [(١)] التى يقوم عليها الإسلام ؛ ولكن الإسلام أيضاً هو عمارة الأرض بتنفيذ كل التكاليف [(٢)]، وكل ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

فإقبال الإنسان على مهنة ما يحتاجها المجتمع هو عبادة ، وإذا خلتْ صنعة من صانع فعلى ولى الأمر أن يكلف ويرغم بعض الناس على تعلمها ؛ وأيضاً إتقان الصنعة عبادة.

---

(١) عن ابن عمر رضى الله عنهما عن رسول الله ﷺ أنه قال: «بنى الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصيام رمضان وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً» متفق عليه. أخرجه البخارى فى صحيحه (٨) وكذا مسلم (١٦).

(٢) التكاليف تنحصر فى الأمر والنهى. والأمر نأخذ منه الفرض والواجب والسنة والمستحب ، سواء كان تعبدياً أو اجتماعياً ، والنهى نأخذ منه الحرام والمكروه ، وعلى اتباع الأمر واجتناب النهى يكون المجتمع الصالح بدليل قوله تعالى : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا .. (٧) ﴾ [الحشر] وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا .. (٣٠) ﴾ [فصلت].

وقول الحق سبحانه على لسان شعيب عليه السلام:

﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ .. (٨٤)﴾ [هود]

أى: إياك أن تأخذ حكماً تكليفياً من أحد آخر غير الله سبحانه وتعالى، لأنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له.

وإياك أن تستدرك[1] من البشر حكماً على الله سبحانه وتعالى، وتظلم نفسك وتقول: «لقد فات الله أن يقول لنا هذا الحكم، ولنأتى لأنفسنا بحكم جديد»[2].

إياك أن تستدرك حكماً على الله. افهم الحكم أولاً، فإن جاء حكماً محكماً فخذه، وإنْ كان غير محكم بأن جاء مجملاً، أو غير مبيَّن، فانظر باجتهادك إلى أية جهة تصل.

ولذلك نجد رسول الله ﷺ يسأل من أرسله مبعوثاً إلى اليمن فقال: «كيف تصنع إن عرض لك قضاء؟ قال: أقضى بما فى كتاب الله. قال: فإن لم يكن فى كتاب الله؟ قال: فبسنة رسول الله ﷺ. قال: فإن لم يكن فى سنة رسول الله ﷺ؟ قال: أجتهد رأيى ولا آلو، قال: فضرب رسول الله ﷺ صدرى ثم قال: الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله ﷺ لما يرضى رسول الله ﷺ»[3].

وبعد أن دعا شعيب - عليه السلام -آل مدين لعبادة الله سبحانه وحده، وهذا هو الأمر المشترك بين جميع الرسل -عليهم السلام- تأتى الأحكام الأخرى،

---

(١) استدرك ما فات: تداركه. واستدرك الشيء بالشيء: تداركه به. واستدرك عليه القول: أصلح خطأه، أو أكمل نقصه، أو أزال عنه لبساً. [المعجم الوسيط].

(٢) يقول الحق: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا .. (٣)﴾ [المائدة].

(٣) أخرجه أحمد فى مسنده (٥/ ٢٣٠، ٢٣٦، ٢٤٢) وأبو داود فى سننه (٣٥٩٢) كتاب الأقضية من حديث معاذ بن جبل.

فمن يعمل فاحشة له علاجه ، ومن ينقص فى الكيل والميزان ، فالرسول يعالج هذا الأمر.

لأن العالم القديم كان عالم انعزال، لا التحام فيه أو مواصلة ؛ فقد يوجد عيب وآفة فى مكان ،ولا يوجد هذا العيب أو تلك الآفة فى مكان آخر.

وكل رسول يأتى ليعالج عيباً محدداً فى المكان الذى أرسله الله إليه ، ولكن رسول الله محمداً ﷺ جاء - وهو الرحمة المهداة للجميع وخاتم الأنبياء والمرسلين - جاء ﷺ والدنيا على ميعاد بالالتقاء الإيمانى ، فلما تقاربت البلاد عن طريق سرعة الاتصالات ، وما يحدث فى عصرنا الآن بقارة أمريكا نجده عندنا فى نفس اليوم أو غداً ، فالعالم الآن عالم التقاء ، وتعددت الداءات فيه وتوحدت بسبب سرعة الالتقاء عن طريق عدم التمييز بين الخبيث والطيب.

ولذلك شاء الحق سبحانه أن يكون محمد ﷺ هو خاتم الرسل.

وكانت خيبة آل مدين هى عدم عبادة الله وحده ، وكذلك كانت فيهم خسيسة التطفيف [1] فى الكيل والميزان ، لذلك يقول الحق سبحانه على لسان شعيب عليه السلام:

﴿ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ .. (٨٤) ﴾ [هود]

وحين قرأ العلماء هذا القول الكريم لم يلتفتوا إلى أن المراد ليس نقص المكيل والموزون [2] ، لأنه لو شاء لقال: «ولا تنقصوا المكيل أو الموزون» هذا

---

(١) طفف الكيل: طول أعلاه وجعل له طفاً فوقه، وذلك حين يضع يده أو يديه بجانبه، فيمنع الحَبَّ الزائد من التساقط ثم يسرع بوضعه فى إنائه ليأخذ أكثر من حقه ويظلم من يبيع له السلعة. قال تعالى: ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ (١) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣) ﴾ [المطففين] فهم مطففون فى الحالتين لأنهم يأخذون أكثر من حقهم ويسلمون غيرهم حقه ناقصاً. [القاموس القويم ١/ ٤٠٣].

(٢) المكيل: اسم مفعول من (كال)، وهو كل شىء يكال بالمكيال سواء أكان قمحاً أو غيره. واسم الفاعل: «كائل». والموزون: اسم مفعول من (وزن) وهو كل شىء يوزن بالميزان. واسم الفاعل: «وازن».

إذا نظرنا إلى الأمر من وجهة ما يريد البائع ، ولكن القول هنا يقصد أن يأخذ كل ذى حق حقه ، أن يأخذ المشترى حقه من السلعة ، وأن يأخذ البائع حقه فى الربح.

إذن: فهذا القول الكريم يشمل البائع والمشترى معاً [1].

والكيل - كما نعرف - هو تعديل شىء بشىء ، فإن كان فى الخفة والثقل ؛ فالأمر يحتاج إلى ميزان ، وإن كان تعديل شىء بشىء فى الكم ، فهذا يحتاج إلى الكيل ، وهذا هو الأمر المشهور فى الكيل والميزان ، وأى تعديل شىء بشىء يحتاج إلى ما يناسبه؛ فالقماش مثلاً - يتم تعديله بالمتر ، والأرض يتم تعديلها بالمساحة ؛ أى: قياس الطول والعرض ، وبعض الأشياء تُباع بالحجم ، وهذا يعنى قياس الطول والعرض والارتفاع واستخراج الناتج بعملية ضرب كل منهم فى الآخر.

إذن: فالأمر المهم هو أن يأخذ كل إنسان حقه ، حتى وإن كان تأجير قوة عامل لينجز عملاً ، فأنت تعدل زمن وقوة العمل بالأجر الملائم ، والأمر المشهور هو الكيل والميزان ، لكن بقية التقييمات موجودة ؛ ليأخذ كل ذى حق حقه.

لأن الإنسان لو أخذ غير حقه لاستمرأ أن يأخذ حقوق الناس ، ولو أكل بعض الناس حقوق البعض الآخر ؛ لَزهدَ من أكلتْ حقوقهم فى العمل.

وأنت حين تعطى للإنسان أقل مما يستحق، أو تأخذ من جهده فوق ما تدفع له من أجر، تجده يبطىء فى العمل، ولا ينجز المطلوب منه على تمام الدقة ، ومن هنا يحدث الخلل.

ولذلك أقول: إن إعطاء كل ذى حق حقه يزيد من جودة الأداء فى العمل.

---

(١) كما يفهم من مراد الشيخ أن إعطاء الحقوق هو التوازن لميزان الحياة .

وعلينا أن نترك صاحب الطموح ليعمل ؛ بدلاً من أن يخزن ماله أو يكنزه ؛ لأن صاحب الطموح حين يقيم مشروعاً أو بناءً ؛ فهو يفيد الفقراء وينفعهم - حتى وإن كان لا يفكر فى ذلك - فالذى يبنى عمارة سكنية ينفع الصناع والعمال ومنتجى المواد اللازمة للبناء - دون أن يقصد - وسينتفع العامل الفقير - دون أن يقصد صاحب العمل - وربما انتفع كل الفقراء مما يصنعه صاحب العمل ، قبله فيما يفعل.

إذن: فمن المهم أن يأخذ كل إنسان حقه قبل أن يجف عرقه ؛ مصداقاً لقول رسول الله ﷺ : «أعطوا الأجير أجره قبل أن يجف عرقه» [(١)].

وهكذا نعلم أن الدين فى ظاهر الأمر يحض على الإيثار ، وفى واقع الأمر ، هو يحرص على تأكيد ثواب الإنسان عند ربه ؛ لأن الذى يؤثر [(٢)] غيره على نفسه - ولو كان به خصاصة [(٣)] - لو كان معه مال قليل وأعطاه لآخر عنده ضائقة ، وليس عند هذا الآخر مال ، هنا يكون صاحب المال القليل قد آثر الآخر على نفسه فى ظاهر الأمر ، ولكنه سيأخذ أضعاف هذا المال ثواباً من عند الله تعالى [(٤)].

---

(١) أخرجه ابن ماجه فى سننه (٢٤٤٣) من حديث ابن عمر ، قال البوصيرى فى زوائده : إسناده ضعيف ، فيه ضعيفان. وأخرجه بهذا اللفظ أيضاً الطبرانى فى معجمه الصغير (١/ ٢٠) من حديث جابر ، وأبو نعيم فى الحلية (٧/ ١٤٢) من حديث أبى هريرة. فهو بمجموع هذه الطرق والروايات يرقى إلى مرتبة الحسن، وله أصل فى صحيح البخارى عن أبى هريرة - كتاب البيوع.

(٢) آثره: اختاره وفضَّله. قال تعالى: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا .. ﴿٩١﴾﴾ [يوسف] وقال تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾﴾ [الأعلى] أى: تفضلونها على الآخرة. وقال تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ .. ﴿٩﴾﴾ [الحشر] أى: يفضلون غيرهم على أنفسهم كرماً ومروءة وتقوى. [القاموس القويم ١/ ٧].

(٣) الخصاصة: الفقر وسوء الحال والحاجة. وأصل ذلك من الفرجة أو الخلة لأن الشىء إذا انفرج وَهَى واختل [لسان العرب : مادة خصص].

(٤) يقول رب العزة سبحانه: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾ [البقرة].

وهكذا يعلمنا الدين النفعية الراقية ، وهى النفعية التى يعاملنا بها الله سبحانه ؛ وحين نترك قانون النفعية ليسيطر على حركة الناس ، فنحن نوفر سيولة الانتفاع فى المجتمع .

وهنا فى الآية الكريمة التى نحن بصدد خواطرنا عنها عرفنا أن شعيباً قال لأهل مدين :

﴿ وَلا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ .. (٨٤) ﴾ [هود]

أى : أنكم يا أهل مدين غير مضطرين لذلك ؛ لأن من يبيع منكم عنده سلع ، ومن يشترى إنما يملك نقوداً ، فاكتفوا بالخير الذى عندكم ، وليأخذ كل ذى حق حقه ، وهذه قضية يغفل عنها كثير من الناس ؛ فالذى يبيع قد يبيع صنفاً واحداً ، فإن غش فى الكيل أو الميزان ، فسوف يغشه ويخدعه غيره فى الأصناف الأخرى التى تلزمه لحياته .

وإن اشتغل واحد فى إنقاص الكيل والميزان ، فالآخرون سيفعلون مثل ذلك فى كل ما يخص حياته ؛ لأن المخادع الواحد ، سيلقى مخادعين كثيرين ، وهنا يقول شعيب عليه السلام : ما الذى يضطركم إلى ذلك وأنتم بخير؟

ثم يقول محذراً :

﴿ .. وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ[1] يَوْمٍ مُّحِيطٍ (٨٤) ﴾ [هود]

لأنك حين تنقص شيئاً وأنت تبيع أو تزيد شيئاً حين تشترى ، فأنت لا تخدع من تتعامل معه ، وإنما تخدع نفسك .

وكلنا يعلم أن الغفلة قد تطرأ على البائع ، وقد تطرأ على المشترى ، وقد يحاول بائع أن يستغل غفلة المشترى فيزيد من ثقل الميزان بإصبعه ، وقد

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٤٠٥) : «اختُلف فى ذلك العذاب فقيل : هو عذاب النار فى الآخرة . وقيل : عذاب الاستئصال فى الدنيا . وقيل : غلاء السعر» .

يحاول المشترى أن يستغل غفلة البائع بأن يرفع كفة الميزان بإصبعه من غير أن يراه البائع ، فيأخذ غير حقه ، وهذا نوع من خداع النفس ؛ لأن الحق سبحانه إنما يأمر بالاستقامة فى البيع والشراء ؛ لأن الانتفاع بأى شىء مهما كَثُر ، فهو موقوت بعمر الإنسان فى الدنيا ، وعمر الإنسان موقوت ، ولكن الذى يغش ويخدع إنما يُعرِّض نفسه لعذاب الله سبحانه فى الآخرة [(١)] ، وهو عذاب بلا أمد ولا نهاية .

وهكذا يسلِّم الإنسان نفسه لفائدة قليلة فى الدنيا الزائلة ، ثم يلقى عذاباً لا ينتهى فى آخرة غير زائلة .

والعذاب فى الآخرة عذاب محيط ، بمعنى أن المعذَّب لا يستطيع أن يفلت منه ، فأنت فى الدنيا بإمكانك أن تحتال فى النجاة من العذاب ، وقد تلجأ إلى من هو أقوى منك ليحميك ، ولكنك فى الآخرة تواجه يوماً لا بيع فيه ولا خُلَّة [(٢)] ولا شفاعة ، إن كنت من أهل النار .

يقول الحق سبحانه بعد ذلك ما جاء على لسان شعيب مواصلاً الحديث إلى أهل مدين :

﴿ وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ [(٣)] ﴿٨٥﴾ ﴾

---

(١) وهناك عذاب آخر فى الدنيا جاءت به أحاديث رسول الله ﷺ ، فقد أورد القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٤٠٥) عن رسول الله ﷺ : «ما أظهر قوم البخس فى المكيال والميزان إلا ابتلاهم الله بالقحط والغلاء» .

(٢) الخلة : الصداقة الخالصة المتينة التى تخللت القلب ، وجمعها : خلال . [القاموس القويم] . وقال تعالى : ﴿ .. مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾ ﴾ [إبراهيم] .

(٣) بالقسط : بالعدل ، بلا زيادة ولا نقصان .

لا تبخسوا : لا تنقصوا .

لا تعثوا : لا تفسدوا أشد الإفساد . [كلمات القرآن] . والعثو فى الأرض هو الإتلاف والإضلال .

وفى الآية الكريمة السابقة قال الحق سبحانه:

﴿ وَلا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ .. (٨٤) ﴾ [هود]

وهكذا نعلم أن عدم الإنقاص فى الكيل والميزان مطلوب ، وكذلك توفية المكيال والميزان مطلوبة ؛ لأنهما أمر واحد ، والحق سبحانه لا يتكلم عن المكيل ولا عن الموزون إلا بإطلاقهما ، وهو كل عمل فيه واسطة بين البائع والمشترى.

وفى موضع آخر من القرآن الكريم يقول الحق سبحانه:

﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ (١) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ [1] (٣) ﴾ [المطففين]

ذلك لأن البائع قد يقول لك: أنت مأمون فزنْ أنت لنفسك أو كلْ أنت لنفسك ، وقد تخدع البائع فتأخذ أكثر من حقكَ ؛ وقد يفعل البائعَ عكس ذلك ، وفى مثل هذا بؤس للاثنين.

وهنا يقول شعيب عليه السلام :

﴿ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ .. (٨٥) ﴾ [هود]

والحق سبحانه هنا تكلم عن النقص وعن الإيفاء.

ثم يقول سبحانه:

﴿ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ .. (٨٥) ﴾ [هود]

---

(١) ويل: عذاب أو هلاك أو واد فى جهنم. للمطففين: المنقصين فى الكيل أو الوزن.
اكتالوا: اشتروا بالكيل، ومثله الوزن. يستوفون: يأخذون حقهم كاملاً.
كالوهم: أعطوا غيرهم الوزن. وزنوهم: أعطوا غيرهم الوزن.
يخسرون: ينقصون الكيل والوزن. [كلمات القرآن] بتصرف.

وهذا كلام عام لا ينحصر فى مكيل أو موزون ، فقد يأتى مشترٍ ليبخس من قيمة سلعة ما ، أو أن يأخذ رشوة لقضاء مصلحة ، أو يخطفً ما ليس حقّاً له ، أو يغتصب ، أو يختلس ، وكلها أمور تعنى : أخذ غير حق بوسائل متعددة.

ونحن نعلم أن الخطف إنما يعنى أن يمد إنسان يده إلى ما يملكه آخر ويأخذه ويجرى ، أما الغصب ، فهو أن يمد إنسان يده ليأخذ شيئاً ، فيقاومه صاحب الشىء ، لكن المغتصب يأخذ الشىء عنوة ، أما المختلس فهو المأمون على شىء فاختلسه ، والمرتشى هو من أخذ مالاً أو شيئاً مقابل خدمة هى حق لمن يطلبها.

إذن: فقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ .. (٨٥) ﴾ [هود]

تضم أشياء متعددة.

والبخس هو أن تضر غيرك ضرراً ، بإنقاص حقه ، سواء أكان له حجم ، أو ميزان ، أو كَمٌّ ، أو كَيْفٌ.

وكلمة «أشياء» مفردها : «شىء» ، ويقولون عن الشىء: «جنس الأجناس» فالثمرة يقال لها: «شىء» ، وكل الثمر يقال له: «شىء».

والحق سبحانه وتعالى يوصينا ألا يغرنا أى شىء مهما كان قليلاً.

ونحن نلحظ هنا أن كلمة «الناس» جمع ، وكلمة «أشياءهم» جمع أيضاً ، وإذا قوبل جمع بجمع اقتضت القسمة آحاداً. أى: لا تبخس الفرد شيئاً ، وإنْ قَلَّ.

ونجد واحداً من العارفين بالله قد استأجر مطيَّة [١] من خان [٢] ليذهب بها من مكان إلى مكان آخر ، فلما ركب المطية وقع منه السوط الذى يحركها به ، فأوقف الدابة مكانها وعاد ماشياً على قدميه إلى موقع سقوط السوط ليأخذه ، ثم رجع ماشياً إلى مكان الدابة ليركبها . فقال له واحد من الناس : لماذا لم ترجع بالدابة إلى موقع السوط لتأخذه وتعود ؛ فأجاب العارف بالله : لقد استأجرتها لأصلَ بها إلى مكان فى اتجاه معين ، ولم يتضمن اتفاقى مع صاحبها أن أبحث بها عن السوط .

ونجد عارفاً آخر جلس يكتب كتاباً ، وكان الناس فى ذلك الزمان يجففون الحبر الزائد بوضع قليل من الرمال فوق الصفحات المكتوبة ، ولم يجد العارف بالله ما يجفف به المكتوب ، فأخذ حفنة من تراب بجانب جدار . ثم ذهب إلى صاحب الجدار وقال له : أنا أخذت تراباً من جانب جدارك فقوِّمه [٣] فقال صاحب الجدار : والله لِورَعِك [٤] لا أقوِّم ، أى : أنه قد تسامح فى هذا الأمر .

ويُنهى الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله :

﴿ .. وَلَا تَعْثَوْا فِى الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٨٥) ﴾ [هود]

---

(١) المطية من الدواب : ما يُمتطَى أى : يُركَب [تذكر وتؤنث] فالبعير مطية ، والناقة مطية . والجمع : مطايا ، ومطىٌّ . [المعجم الوسيط] .

(٢) الخان : المتجر ، أو الحانوت ، وقد تطلق على الفندق ، أو الأمير ، أو غيره . وهى كلمة معربة . [المعجم الوسيط] .

(٣) التقويم هنا معناه : تقدير ثمنه ليشتريه منه . والقيمة : ثمن الشىء بالتقويم . ويقال : كم قامت ناقتك؟ أى : كم بلغت؟ [انظر لسان العرب - مادة قوم] .

(٤) الورع : اتقاء الشبهات ، ولا يتم الورع إلا بحفظ اللسان واجتناب سوء الظن واجتناب السخرية وغض البصر عن المحارم وصدق اللسان والاعتراف بمنن الله وإنفاق المال فى الحق ، وترك الكثير والمحافظة على التكاليف والاستقامة . الغنية للجيلانى صـ ١٣٤ بتصرف .

وكلمة عثا [(١)]، يَعْثى ، ويعثو ، وعثى. يعثى ؛ كلها تعنى: زاول فساداً ، أى: أن يعمد الإنسان إلى الصالح فى ذاته فيفسده ، مثل طَمْر بئر ماء ، أو حفر طريق يسير فيه الناس ، وهو كل أمر يخرج الصالح - فى ذاته - عن صلاحه.

والمجتمع كله - بكل فرد فيه - مأمور بعدم مزاولة الفساد، ولو طبَّق كل واحد ذلك لصار المجتمع كله صالحاً ، ولكن الآفة أن بعض الناس يحب أن يكون غيرهً غير مفسد ، ولكنه هو نفسه يفسد ، ولا يريد من أحد أن يعترض عليه.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ بَقِيَّتُ [(٢)] ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ [(٣)] ﴿٨٦﴾ ﴾

أى: ما يبقى لكم من الأمر الحلال خير لكم ؛ لأن من يأخذ غير حقه يخطىء ؛ لأنه يزيل البركة عن الحلال بالحرام ؛ فمن يأخذ غير حقه يسلط الله عليه أبواباً تنهب منه الزائد عن حقه.

وأنت تسمع من يقول: «فلان هذا إنما يحيا فى بركة» ، أى: أن دخله قليل ، ولكن حالته طيبة ، ويربى أولاده بيسر ، على عكس إنسان آخر قد يكون غنيّاً من غير حلال ، لكنه يحيا فى ضنك [(٤)] العيش.

---

(١) عثا يعثو ويعثى، وعثى يعثى، عثواً وعثياً: أفسد أشد الإفساد. قال تعالى: ﴿ .. وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [هود] ومفسدين حال مؤكدة لمعنى تعثوا. [القاموس القويم ٢/ ٧].

(٢) البقية: ما بقى من الشىء أو ما استحق أن يبقى لما فيه من النفع والخير للناس. وتطلق البقية على الشىء الباقى. قال تعالى: ﴿ بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ .. ﴿٨٦﴾ ﴾ [هود] أى: ما أبقاه الله وادخره لكم من الثواب خير. [القاموس القويم ١/ ٧٩].

(٣) حفيظ: رقيب عليكم ويجازيكم بأعمالكم. [كلمات القرآن] بتصرف.

(٤) ضنك الشىء: ضاق. والضنك: الضيق من كل شىء وهو مصدر يوصف به؛ فيستوى فيه المذكر والمؤنث والمفرد وغيره. قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا .. ﴿١٢٤﴾ ﴾ [طه] أى: ضيقة غير متسعة. [القاموس القويم ١/ ٣٩٥].

وقد تجد هذا الإنسان قد انفتحت عليه مصارف الدنيا فلا يكفى ماله لصد همومه ، لأن الله سبحانه قد جَرَّأ عليه مصارف سوء متعددة.

وقد يستطيع الإنسان أن يخدع غيره من الناس ، ولكنه لن يستطيع أن يخدع ربه أبداً [(١)] .

وقول الحق سبحانه :

﴿ بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ .. (٨٦) ﴾ [هود]

أى : أن الله تعالى يُذهب - عمن يراعى حقوق غيره - مصارف السوء.

وسبق أن قلنا قديماً : فلننظر إلى رزق السلب لا إلى رزق الإيجاب ؛ لأن الناس فى غالبيتها تنظر إلى رزق الإيجاب ، بمعنى البحث عن المال الكثير ، وينسون أن الحق سبحانه وتعالى قد يسلط مصارف السوء على صاحب المال الكثير الذى جمعه من غير حق ، بينما يسلب عن الذى يرعى حقوق الناس تلك المصارف من السوء [(٢)] .

ومن يُربُّون أولادهم من سُحْت [(٣)] أو حرام ، لا يبارك الله فيهم ؛ لأن هناك فى تكوينهم شيئاً حراماً. فنجد - على سبيل المثال - ابن المرتشى يأخذ دروساً خصوصية ويرسب ، بينما ابن المنضبط والملتزم بتحصيل

---

(١) يقول رب العزة سبحانه : ﴿ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٩) ﴾ [البقرة] ، ويقول سبحانه : ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ .. (١٤٢) ﴾ [النساء]، ويقول عز وجل : ﴿ وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ .. (٦٢) ﴾ [الأنفال].

(٢) يقول الحق سبحانه : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى (١٢٦) ﴾ [طه] .

(٣) السحت : المال الذى يكتسب من وجه حرام كالرشوة وما أخذ بالغش والخداع. قال تعالى : ﴿ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ .. (٤٢) ﴾ [المائدة] ، وقال تعالى : ﴿ وَتَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ .. (٦٢) ﴾ [المائدة]. [القاموس القويم] بتصرف.

الكسب الحلال مقبل على العلم وناجح. أو قد يرزق الله تعالى صاحب المال الحرام زوجة لا يرضيها أى شىء ، بل تطمع فى المزيد دائماً ، بينما يعطى الله سبحانه من يرعى حقوق الناس زوجة تقدر كل ما يفعله.

يقول الحق سبحانه:

﴿ بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ .. (٨٦) ﴾ [هود]

أى: إن كنتم مؤمنين بأن الله تعالى رقيب ، وأنه سبحانه قيُّوم ؛ فلا تأخذ حقّاً غير حقك ؛ لأنك لن تستغل إلا نفسك ؛ لأن الله سبحانه وتعالى رقيب عليك.

ويُنهى الحق سبحانه الآية بقوله:

﴿ .. وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ (٨٦) ﴾ [هود]

أى: أن شعيباً عليه السلام قد أوضح لأهل مدين: أنا لن أقف على رأس كل مفسد لأمنعه من الإفساد ؛ لأن كل إنسان عليه أن يكون رقيباً على نفسه ما دام قد آمن بالله سبحانه ، وما دام قد عرف أن الحق سبحانه قد قال:

﴿ بَقِيَّتُ[1] اللَّهِ .. (٨٦) ﴾ [هود]

أى: أن ما يبقى إنما تشيع فيه البركة.

وهذه هى فائدة الإيمان: ما يأمر به وما ينهى عنه.

وهذا أمر يختلف عن القانون الوضعى ؛ لأن عين القانون الوضعى قاصرة عما يخفى من أمور الناس فكأنها تحميهم من الوقوع تحت طائلته .. أما القانون الإلهى فهو محيط بأحوال الناس المعلنة ، والخافية .

---

(١) جاءت التاء فى (بقيت) فى رسم القرآن مفتوحة التاء، قال الزركشى فى «البرهان ١/ ٤١٣» : «مدت تاؤه، لأنه بمعنى ما يبقى فى أموالهم من الربح المحسوس، لأن الخطاب إنما هو فيها من جهة الملك».

ومن يتأمل الآيات الثلاث :

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ (٨٤) وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٨٥) بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ (٨٦) ﴾ [هود]

من يتأمل هذه الآيات يجد عناصر الصيانة للحركة فى المجتمع كله ، والمجتمع إن لم تُصَنْ حركته يفسد ؛ لأن حركة المجتمع أرادها الحق سبحانه حركة تكاملية ، لا تكرار فيها ؛ ولو تكررت المواهب لما احتاج أحد إلى مواهب غيره.

والمصلحة العامة تقتضى أن يحتاج كل إنسان إلى موهبة الآخر ، فمن يدرس الدكتوراه فهو يحتاج إلى من يكنس الشارع ، ومن يعالج الناس ليشفيهم الله نجده يحتاج إلى من يقوم بإصلاح المجارى.

وماذا كان رد أهل مدين على قول شعيب ؟

يقول الحق سبحانه :

﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ (٨٧) ﴾ (١)

---

(١) الحليم : من أسماء الله الحسنى . قال تعالى : ﴿ .. وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (٢٣٥) ﴾ [البقرة] ووصف الله خليله إبراهيم عليه السلام بقوله : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ (٧٥) ﴾ [هود] وأما قوله تعالى : ﴿ .. إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ (٨٧) ﴾ [هود] فهو وصف بالحلم والرشد على سبيل التهكم من الكفار برسولهم شعيب عليه السلام . [القاموس القويم ١/ ١٧٠].

أى: أيأمرك إلهك ودينك أن نترك ما يعبد آباؤنا ؟

ولقائل أن يقول: ولماذا قالوا: «أصلاتك» ؟

نقول: لأن الإسلام بُنِىَ على خمس [(١)]: أولها شهادة ألاّ إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ؛ ويكفى أن يقولها الإنسان مرة واحدة فى حياته كلها ، ثم إقامة الصلاة ، وبعد ذلك إيتاء الزكاة ، ثم صوم رمضان ، ثم حج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً.

وأنت إن نظرت إلى هذه الأركان فقد تجد إنساناً لا يملك ما يزكِّى به أو ما يحج به ، وقد يكون مريضاً فلا صوم عليه ، وهو ينطق بالشهادة مرة واحدة فى حياته ، ولا يبقى فى أركان الدين إلا الصلاة ؛ ولذلك يقال عنها: «عماد الدين من أقامها فقد أقام الدين ، ومن تركها فقد هدم الدين» [(٢)] ؛ لأنها الركن الوحيد الذى يعلن العبد فيه الولاء لربه كل يوم خمس مرات ، دواماً فى الولاء لله.

ولا تسقط الصلاة أبداً عن أى إنسان مهما كانت ظروفه ، فإن عجز عن الحركة ؛ [(٣)] فله أن يصلى برموش عينيه ، وإن عجز عن تحريك رموش عينيه فَلْيُجْرِ الصلاة على قلبه ، حتى فى حالة الحرب والمسايفة [(٤)]

---

(١) عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «بنى الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً» متفق عليه. أخرجه البخارى فى صحيحه (٨) ومسلم فى صحيحه (١٦).

(٢) قال الحافظ العراقى فى تخريجه للإحياء (١/ ١٤٧): «رواه البيهقى فى الشعب بسند ضعفه من حديث عمر». وقال الملا على القارى فى «الأسرار المرفوعة (حديث ٥٧٨)»: «قال ابن الصلاح فى «مشكل الوسيط»: إنه غير معروف. وقال النووى فى التنقيح: إنه منكر باطل. لكن رواه الديلمى عن على كما ذكره السيوطى فى الدرر المنتثرة (ح ٢٧٩).

(٣) من حصل له عذر من مرض ونحوه لا يستطيع معه القيام فى الفرض يجوز له أن يصلى قاعداً، فإن لم يستطع القعود صلَّى على جنبه يومىء بالركوع والسجود. راجع فقه السنة (١/ ٢٣٤).

(٤) إذا اشتد الخوف والتحمت الصفوف صلَّى كل واحد حسب استطاعته راجلاً أو راكباً مستقبلاً القبلة أو غير مستقبلها يومىء بالركوع والسجود كيفما أمكن، ويجعل السجود أخفض من الركوع ويسقط عنه من الأركان ما عجز عنه. [فقه السنة - ١ / ٢١٠].

فالإنسان المسلم يصلى صلاة الخوف [(١)].

إذن: فالصلاة هى الركن الذى لا يسقط أبداً، ويُكرَّر فى اليوم خمس مرات، وقد أعطاها الحق سبحانه فى التشريع ما يناسبها من الأهمية.

وكل تكليفات الإسلام جاءت بوحى من الله سبحانه وتعالى، فجبريل عليه السلام يحمل الوحى إلى الرسول ﷺ؛ ويبلغنا الرسول ﷺ إياه، وتميزت الصلاة وحدها بأن الحق سبحانه قد كلَّف بها النبى ﷺ فى أثناء وجوده فى الملأ الأعلى؛ عند سدرة المنتهى [(٢)]، وذلك لفرط أهميتها.

ومثال ذلك من حياتنا - ولله المثل الأعلى - نجد الرئيس فى أى موقع من مواقع العمل؛ وهو يستقبل البريد اليومى المتعلق بالعمل، ويحول كل خطاب إلى الموظف المختص ليدرسه أو ليقترح بخصوصه اقتراحاً، وإذا وجد الرئيس أمراً مهمّاً قادماً من أعلى المستويات؛ فهو يستدعى الموظف المختص؛ ويرتب معه الإجراءات والترتيبات الواجب اتخاذها؛ وإذا كان هذا يحدث فى الأمور البشرية، فما بالنا بالتكليف من الله سبحانه وتعالى للرسول؟

وقد شاء الحق سبحانه أن يكون تكليف الصلاة - لأهميته - هو التكليف الوحيد الذى نال تلك المنزلة؛ لأنها الركن الذى يتكرر خمس مرات فى اليوم الواحد؛ ولا مناص [(٣)] منه.

---

(١) ثبتت صلاة الخوف بكتاب الله، فقال: ﴿ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً .. (١٠٢) ﴾ [النساء] قال الإمام أحمد: «ثبت فى صلاة الخوف ستة أحاديث أو سبعة أيها فعل المرء جاز». وذكر الشيخ السيد سابق ست كيفيات لصلاة الخوف فى فقه السنة (١/ ٢٠٨ - ٢١٠) وانظر أحكام القرآن للجصاص (٢/ ٣٢٢ - ٣٣٢).

(٢) فرضت الصلاة مباشرة ليلة الإسراء والمعراج لشرفها، ولأنها جماع العبادات، ففيها الشهادة والزكاة والصوم والحج، لذلك لم تسقط عن المكلف. من مفهوم خواطر الشيخ.

(٣) لا مناص: لا بد ولا مهرب. وناصَ، ينوص: فرَّ هارباً. ونَاصَ من المكروه: نجا منه وخلص.
قال تعالى: ﴿ .. وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ (٣) ﴾ [ص] أى: ليس الحين حين فرار وهروب من العذاب المحيط بهم، أو ليس الحين حين نجاة وخلوص من العذاب. [القاموس القويم] بتصرف.

فأنت قد لا تنطق الشهادة إلا مرة واحدة ؛ لكنك تقولها فى كل صلاة.

وفى الزكاة تضحِّى ببعض المال ؛ وأنت لم تولد ومعك المال ؛ إلا إن كنت قد ورثت وأنت فى بطن أمك ؛ ولابد أن تزكِّى من مالك ؛ والمال لا يأتى إلا من العمل ؛ والعمل فرع من الوقت ؛ وأنت فى الصلاة تضحِّى بالوقت نفسه ؛ والوقت أوسع من دائرة الزكاة.

وفى الصيام أنت تمتنع عن شهوتى البطن والفرج ؛ من الفجر إلى المغرب ؛ لكنك تمارس كل أنشطة الحياة ؛ أما فى الصلاة فأنت تصوم عن شهوتى الفرج والطعام ؛ وتصوم أكثر عن أشياء مباحة لك فى الصيام.

وفى الحج أنت تتوجه إلى بيت الله الحرام ؛ وأنت فى كل صلاة تتوجه إلى بيت الله الحرام.

وهكذا تجتمع كل أركان الإسلام فى الصلاة.

وأهل مدين هنا - فى الآية الكريمة التى نحن بصدد خواطرنا عنها - قد هزءوا برسولهم شعيب عليه السلام ، وصلاته ؛ مثلما فعل كفار قريش مع رسول الله ﷺ.

وقال أهل مدين لشعيب عليه السلام:

﴿أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ .. (٨٧)﴾ [هود]

وظنوا أنهم بهذا القول إنما يتهكمون عليه ؛ لأن شعيباً كان كثير الصلاة ؛ وهم - ككفار قريش - يجهلون أن الصلاة تأمر وتنهى.

والحق سبحانه يقول:

﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ [١] وَالْمُنكَرِ ..(٤٥)﴾ [العنكبوت]

إذن: فللصلاة [٢] أمر، وللصلاة نهى، وما دام قد ثبت لشىء حكم؛ يثبت له مقابله، وأنت تسمع من يقول لآخر: أنت تصلى لذلك فأنا أثق فى أمانتك وتسمع إنساناً آخر ينصح صديقاً بقوله: كيف تسمح لنفسك أن ترتكب هذا الإثم وأنت خارج من الصلاة؟ [٣]

وكثير من الناس يغفلون عن أن التقابل فى الجهات إنما يحل مشاكل متعددة؛ فيأخذون جهة ويتركون الأخرى.

ولذلك أقول: ما دام الحق سبحانه قد قال إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، فلا بد أنها تأمر بالبر والخير [٤].

ومثال آخر: نجده فى قول الحق سبحانه عن غرق قوم فرعون:

﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ ..(٢٩)﴾ [الدخان]

---

(١) الفحشاء: الفحش هو العمل القبيح المنكر. قال تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ..(٢٦٨)﴾ [البقرة] أى: يأمركم بالبخل أو فعل القبيح - عامة - ومنه البخل. والفاحشة: الفعلة القبيحة. والفواحش: الأمور القبيحة. وقد فَحَشَ وفَحُشَ فُحْشاً فهو فاحش: أى: جاوز الحد، وفَعل القبيح. [القاموس القويم ٢/ ٧٣].

(٢) لأن الصلاة فعلت استجابة لأمر الآمر، وهى تشتمل على آيات القرآن الكريم، والآيات إما آيات آمرة، وإما آيات ناهية، وما فيها من إحرام وركوع وسجود يدل على استقبالها بقلب منيب فى استجابة خاشعة، فكل ما فيها هو نافع لك أمراً أو نهياً؛ لذلك كانت الصلاة مدرسة تنهى عن الفحشاء والمنكر.

(٣) عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد بها من الله إلا بعداً» أخرجه الطبرانى فى معجمه الكبير (١١/ ٥٤) وعزاه ابن كثير لابن أبى حاتم فى تفسيره، وذكره الهيثمى فى المجمع (٢/ ٢٥٨) وقال: فيه ليث بن أبى سليم ثقة مدلس».

(٤) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال: إن فلاناً يصلى بالليل، فإذا أصبح سرق. قال: «إنه سينهاه ما تقول». أخرجه أحمد فى مسنده (٢/ ٤٤٧) والبزار (١/ ٣٤٦ - كشف الأستار) وابن حبان (ص ١٦٧ - موارد الظمآن). قال الهيثمى فى المجمع (٢/ ٢٥٨): «رجاله رجال الصحيح».

وما دام الحق سبحانه وتعالى قد نفى بكاء السموات والأرض على قوم فرعون ؛ ففى المقابل فلا بد أنها تبكى على قوم آخرين [(١)] ؛ لأن السموات والأرض من المسخّرات للتسبيح ، وقال الحق سبحانه عنهما :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ [(٢)] عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا .. (٧٢) ﴾ [الأحزاب]

وبهذا القول اختارت كل من السموات والأرض مكانة الكائنات المسبِّحة ، مصداقاً لقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِن [(٣)] مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ .. (٤٤) ﴾ [الإسراء]

فإذا رأت السموات والأرض إنساناً مُسبِّحاً ؛ فلا بد أن تحبه ، وإن رأت إنساناً كافراً ، معانداً ؛ فلا بد أن تكرهه .

وما دامت السموات والأرض لم تبكِ على قوم فرعون ؛ فذلك لأنهم ضالون ؛ لأنها لا تبكى إلا على المهديين .

وقد حلَّ لنا الإمام على بن أبى طالب - كرم الله وجهه - هذه المسألة ؛ فقال : « إذا مات المؤمن بكى عليه موضعان : موضع فى الأرض ، وموضع

---

(١) عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : « ما من عبد إلا وله فى السماء بابان : باب يخرج منه رزقه ، وباب يدخل منه عمله وكلامه فإذا مات فقداه وبكيا عليه وتلا هذه الآية ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ .. (٢٩) ﴾ [الدخان] - وذكر - أنهم لم يكونوا عملوا على الأرض عملاً صالحاً يبكى عليهم ولم يصعد لهم إلى السماء من كلامهم ولا من عملهم كلام طيب ولا عمل صالح فتفقدهم فتبكى عليهم » .

(٢) الأمانة : مصدر أمن فهو أمين ، وتطلق الأمانة على الوديعة نفسها . قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا .. (٥٨) ﴾ [النساء] أى : الودائع . وقال تعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ .. (٧٢) ﴾ [الأحزاب] فالأمانة هنا مستعارة للتكاليف الشرعية من أوامر ونواهٍ وأحكام وعقائد وعبادات وأخلاق . [القاموس القويم ١/ ٣٥] .

(٣) إن - هنا - نافية بمعنى «ما» أو «ليس» . أى : ما من شىء خلقه الله إلا يسبح بحمد الله تعالى .

فى السماء ، أما موضعه الذى فى الأرض ؛ فمصلاّه، وأما موضعه فى السماء فمصعد عمله »[(١)] .

لأن موضعه الذى كان يصلى فيه ؛ يُحرم من أن واحداً كان يصلى فيه، وأما موضعه الذى كان يصعد منه عمله ؛ فيفتقد رائحة عبور العمل الصالح .

فإن أردت بالصلاة الدين ؛ وهى رمز الدين ؛ فللصلاة أمر هو نفس أمر الدين، وهى الأمر بالإيمان الحق، لأن الإيمان المقلد لا نفع له .

إذن : فقد أراد أهل مدين التهكم على دعوة شعيب لهم ؛ وتساءلوا :

﴿ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا .. (٨٧) ﴾ [هود]

وهذا القول يحمل أيضاً ردهم على دعوته لهم ألاّ يعبدوا غير الله ؛ فلا إله غيره ؛ وردوا كذلك على دعوته لهم ألاّ ينقصوا الكيل والميزان ؛ وألاّ يبخسوا[(٢)] الناس أشياءهم ؛ وأن يتيقنوا أن ما يبقى عند الله هو الخير لهم، وألا يعثوا[(٣)] فى الأرض مفسدين .

وقالوا : أتنهانا أيضاً عن أن نفعل بأموالنا ما نشاء ؟ وكأنهم قد عميت بصيرتهم ؛ لأنهم إن أباحوا لأنفسهم أن يفعلوا بأموالهم ما يشاءون ؛

---

(١) أورده ابن كثير فى تفسيره (٤/ ١٤٢) وعزاه لابن أبى حاتم أن عباد بن عبد الله قال : سأل رجل علياً رضى الله عنه : هل تبكى السماء والأرض على أحد؟ فقال له : لقد سألتنى عن شىء ما سألنى عنه أحد قبلك، إنه ليس من عبد إلا له مُصلّى فى الأرض ومصعد عمله من السماء، وإن آل فرعون لم يكن لهم عمل صالح فى الأرض ولا عمل يصعد فى السماء، ثم قرأ على رضى الله عنه : ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ (٢٩) ﴾ [الدخان] .

(٢) بخسه حقه بخساً : نقصه حقه ولم يوفه . قال تعالى : ﴿ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ .. (٨٥) ﴾[هود] . [القاموس القويم ١/ ٥٦] .

(٣) عثا يعثو : أفسد أشد الإفساد . قال تعالى : ﴿ .. وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٦٠) ﴾ [البقرة] ، فكونهم لا يوفون المكيال ولا الميزان بل يخسرونه، ويبخسون الناس أشياءهم هذا هو قمة الإفساد فى الأرض .

فغيرهم سيبيحون لأنفسهم أن يفعلوا بأموالهم ما يشاءون ؛ وستصطدم المصالح ، ويخسر الجميع .

وقولهم : ﴿ .. إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ (٨٧) ﴾ [هود]

استمرار فى التهكم الذى بدءوه بقولهم :

﴿ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا .. (٨٧) ﴾ [هود]

مثلهم فى ذلك مثل منافقى المدينة الذين قالوا للأنصار :

﴿ لا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ (١) عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا (٢) .. (٧) ﴾ [المنافقون]

وكانوا يريدون أن يضربوا المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار ؛ وقد قالوا : ﴿ رَسُولِ اللَّهِ ﴾ تهكماً ؛ وهم يحرضون أثرياء المدينة على تجويع المهاجرين .

ومثلهم - أيضاً - مثل قوم لوط حين نهاهم عن فعل تلك الفاحشة ؛ فقالوا تهكماً منه وممن آمن معه :

﴿ .. أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٣) (٨٢) ﴾ [الأعراف]

فهل تطهرهم علة للإخراج من القرية ، ولكنهم قالوا هذا لأنهم لا يريدون أن يكون بينهم من يعكر ما هم فيه .

وهذا مثلما نسمع فى حياتنا من يقول : «لا تستعن بفلان لأنه حنبلى» .

---

(١) المقصود بهم : المهاجرون الذين كان رسول الله ﷺ قد آخَى بينهم وبين الأنصار بعد قدومه إلى المدينة ، وكان زعيم هذه المقالة هو عبد الله بن أبى بن سلول ، وكان من مُقتضَى هذه المؤاخاة أن يشارك المهاجر الأنصارىَّ فى ماله وداره ، بل إن بعض الأنصار وصل به الأمر أن عرض أن يطلق إحدى زوجاته ليتزوجها المهاجرى . انظر كتب السيرة وتفسير ابن كثير (٤/ ٣٧٠) .

(٢) أى : حتى ينفضّوا من حول رسول الله ﷺ وينصرفوا عنه . يقال : انفضَّ الناس : تفرقوا وانصرفوا . [راجع القاموس القويم ٢/ ٨٤] .

(٣) قال مجاهد : أى : إنهم يتطهرون من أدبار الرجال وأدبار النساء . قالوا هذا استهزاء بهم . وقال قتادة : عابوهم بغير عيب ، وذموهم بغير ذم . انظر : الدر المنثور للسيوطى (٣/ ٤٩٦) .

هم - إذن - قد قالوا:

﴿ .. إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ (٨٧) ﴾ [هود]

وهذا منطق السخرية منه ؛ لأنه لم يوافقهم على عبادة غير الله ؛ ولم يوافقهم على إنقاص الكيل والميزان ؛ ونهاهم عن بَخْس الناس أشياءهم.

وإذا قيل حُكْمٌ وهو حقٌّ ؛ ويقوله من لا يؤمن به ؛ فهو يقصد به الهُزْء والسخرية.

وهو لون من التهكم جاء فى القرآن الكريم فى مواضع متعددة ؛ فنجد الحق سبحانه يقول لمن تجبر وطغى فى الدنيا ؛ ويلقى عذاب السعير فى الآخرة:

﴿ ذُقْ [1] إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (٤٩) ﴾ [الدخان]

وكذلك يقول الحق سبحانه:

﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِى الْوُجُوهَ [2] .. (٢٩) ﴾ [الكهف]

---

(١) ذاق الشىء يذوقه ذوقاً وذواقاً : أدرك طعمه فى فمه وتستعمل مجازاً فى الإحساس العام ، كقوله تعالى : ﴿ لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ .. (٥٦) ﴾ [النساء] ، ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ .. (١٨٥) ﴾ [آل عمران] ، وقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ .. (٢٢) ﴾ [الأعراف] . القاموس القويم صـ ٢٤٧ جـ ١ .

(٢) استغاث : طلب الغوث والمساعدة ؛ واستغاث فلاناً واستغاث به : استنصره واستعان به . قال تعالى : ﴿ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِى مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِى مِنْ عَدُوِّهِ .. (١٥) ﴾ [القصص] أى : استنصره . وغاثه الله يغوثه غوثاً : نصره وأعانه . وأغاثه ، وغاثه : نصره وأعانه . والمهل (بضم الميم) : المعدن المذاب ، والقطران ، وعكر الزيت المغلى ، والقيح . قال تعالى : ﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِى الْوُجُوهَ .. (٢٩) ﴾ [الكهف] . [القاموس القويم ٢/ ٦٢] .

وفى كُلٍّ من القولين تهكم وسخرية، وكذلك قولهم فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها :

﴿ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ .. (٨٧) ﴾ [هود]

وهذا قول يحمل التهكم بصلاته .

وكذلك قولهم:

﴿ .. إِنَّكَ لأَنتَ الْحَلِيمُ (١) الرَّشِيدُ (٨٧) ﴾ [هود]

يعنى التساؤل: كيف يصح لك وأنت العاقل الحليم أن تتورط وتقول لنا:

﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ .. (٨٤) ﴾ [هود]

وقد قالوا ذلك لأنهم قد ألفوا عبادة الأصنام ، وكذلك تهكموا على دعوته لهم بعدم إنقاص الكيل والميزان.

وأيضاً لم يقبلوا منه قوله بأن يحسنوا التصرف فى المال، والعلة التى برروا بها كل هذا السَّفَه أن شعيباً حليم رشيد ؛ فكيف يدعوهم إلى ما يخالف أهواءهم ؟

ويأتى الحق سبحانه بما قاله شعيب - عليه السلام - فيقول جَلَّ شأنه:

---

(١) الحلم: الأناة وضبط النفس والعقل، فهو حليم أى: متأنٍّ عاقل ضابط لنفسه بعيد عن الجهل والحمق والطيش.

والحليم: من أسماء الله الحسنى، قال تعالى: ﴿ .. وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (٢٣٥) ﴾ [البقرة] ووصف الله خليله إبراهيم بقوله: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ (٧٥) ﴾ [هود] أما قوله تعالى: ﴿ .. إِنَّكَ لأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ (٨٧) ﴾ [هود] فهو وصف بالحلم والرشد على سبيل التهكم من الكفار برسولهم شعيب عليه السلام. [القاموس القويم ١/ ١٦٩ ، ١٧٠]

﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ[1] مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ[2] إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ[3] ﴿٨٨﴾ ﴾

وهنا يعلن لهم شعيب - عليه السلام - أنه على يقين من أن الله سبحانه وتعالى قد أعطاه حجة ومنهجاً ، وقد رزقه الرزق الحسن الذى لا يحتاج معه إلى أحد ؛ فأمور حياته ميسورة[4] .

وقد يكون المقصود بالرزق الحسن رحمة النبوة .

ثم يقول الحق سبحانه ما جاء على لسان شعيب عليه السلام :

﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ .. (٨٨) ﴾ [هود]

أى : أننى أطبق ما أدعوكم إليه على نفسى ؛ فلا أنقص كيلاً أو أخسر ميزاناً ، ولا أبخس أحداً أشياءه ؛ لأنى لا أعبد غير الله .

---

(١) بينة : حجة وبرهان . وبان الشيء يبين بياناً : ظهر واتضح فهو بيِّن ، وهى بينة ، أى : ظاهر وظاهرة ، ويستعمل البين والبينة بمعنى المظهر والمظهرة والموضح والموضحة ، وبالمعنيين يُفسَّر قوله تعالى : ﴿ كَمْ آتَيْنَاهُم مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ .. (٢١١) ﴾ [البقرة] أى : واضحة لا شك فيها . أو هى مبينة للحق مؤيدة له ، مظهرة لأمره . [القاموس القويم] .

(٢) إن - هنا - نافية ، بمعنى «ما» أو «لا» أى : ما أريد - أو لا أريد - إلا الإصلاح .

(٣) أناب العبد إلى ربه : رجع إليه وتاب وترك الذنوب . وقوله تعالى : ﴿ .. عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (٨٨) ﴾ [هود] أى : إليه أتوب وأرجع . [القاموس القويم] .

(٤) الرزق الحسن : الواسع الحلال ، وكان شعيب عليه السلام كثير المال ، قاله ابن عباس وغيره . وقيل : أراد به الهدى والتوفيق ، والعلم والمعرفة . قاله القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٤٠٨) .

وكلمة «أخالف»[1] تدل على اتجاهين متضادين ، فإن كان قولك بهدف صرف إنسان عن فعل لكى تفعله أنت ؛ تكون قد خالفته «إلى» كذا ، وإن كنت تريده أن يفعل فعلاً كيلا تفعله أنت ؛ تكون قد خالفته «عن» كذا.

فشعيب - عليه السلام - يوضح لهم أنه لا ينهاهم عن أفعال ؛ ليفعلها هو ؛ بل ينهاهم عن الذى لا يفعله ؛ لأن الحق سبحانه قد أمره بألا يفعل تلك الأفعال ، فالحق سبحانه هو الذى أوحى له بالمنهج ، وهو الذى أنزل عليه الرسالة.

وشعيب - عليه السلام - لا ينهاهم عن أفعال يفعلها هو ؛ لأنه لا يستأثر لنفسه بما يرونه خيراً ؛ فليس فى نقص الكيل والميزان ؛ أو الشرك بالله أدنى خير، فكل تلك الأفعال هى الشر نفسه.

ويوضح لهم شعيب - عليه السلام - مهمة النبوة ؛ فيقول:

﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ .. (٨٨) ﴾ [هود]

فالنبوات كلها لا يرسلها الله تعالى إلا حين يطم[2] الفساد ، ويأتى النبى المُرسَل بمنهج يدل الناس إلى ما يصلح أحوالهم ؛ من خلال «افعل» و «لا تفعل» ويكون النبى المُرسَل هو الأسوة لتطبيق المنهج ؛ فلا يأمر أمراً هو عنه بنَجْوة[3] ؛ ويطبق على نفسه أولاً كل ما يدعو إليه.

---

(١) قال أبو حيان فى قوله تعالى : ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ .. (٨٨) ﴾ [هود] المعنى : لست أريد أن أفعل الشىء الذى نهيتكم عنه ، من نقص الكيل والوزن واستأثر بالمال . قال ابن عطية وقتادة : لم أكن لأنهاكم عن أمر ثم أرتكبه ، فعلى هذا الظاهر أن قوله تعالى : ﴿ أَنْ أُخَالِفَكُمْ .. (٨٨) ﴾ [هود] فى موضع المفعول لأريد ، أى : ما أريد مخالفتكم ، أى أكون خلفاً منكم ، ويكون خالف بمعنى خلف نحو جاوز وجاز وتتعلق إلى ما خالفتكم ، وقال الزجاج : ما أقصد بخلافكم إلى ارتكاب ما أنهاكم عنه (تفسير البحر المحيط ٦/ ١٩٨ باختصار) .

(٢) طم الشىء : عظم وعلا . وطم الماء إذا كثر . وجاء السيل فطم كل شىء أى : علاه . والمقصود أن يكثر الفساد وينتشر ويصبح فساداً عاماً يعم البلاد والعباد . وانظر [لسان العرب - مادة : طمم].

(٣) النجوة : ما ارتفع من الأرض فلم يعله السيل . أى : أنه مكان مرتفع . والمقصود : أنك بعيد عما تأمر به . [وانظر اللسان مادة : نجو].

ولذلك قال شعيب - عليه السلام - :

﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ .. (٨٨) ﴾ [هود]

لأن الله سبحانه وتعالى لا يكلف نفساً إلا وسعها، وما يدخل فى طوعها.

ويقول شعيب - عليه السلام - بعد ذلك:

﴿ .. وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (٨٨) ﴾ [هود]

وهكذا نعلم أن هناك فرقاً بين العمل ؛ وبين التوفيق فى العمل ؛ لأن جوارحك قد تنشغل بالعمل ؛ ولكن النية قد تكون غير خالصة ؛ عندئذ لا يأتى التوفيق من الله.

أما إن أقبلت على العمل ؛ وفى نيتك أن يوفقك الله سبحانه لتؤدى هذا العمل بإخلاص ؛ فستجد الله تعالى وهو يصوِّب لك أىَّ خطأ تقع فيه ؛ وستنجز العمل بإتقان وتشعر بجمال الإتقان ، وفى الجمال جلال .

والحق سبحانه وتعالى يقول هنا ما جاء على لسان شعيب عليه السلام: ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ ؛ أى : أنه لا يتوكل إلا على الله ؛ ولا يصح أن تعطف على هذا القول شيئاً ؛ لأنك إن عطفت على هذا القول وقلت «على الله توكلت وعليك» ؛ فتوقع ألا يوفقك الله ، لأنك أشركت أحداً غير الله [1] .

ونجد فى القرآن الكريم قول الحق سبحانه على لسان هود عليه السلام:

﴿ تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ .. (٥٦) ﴾ [هود]

---

(١) عن حذيفة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: «لا تقولوا ما شاء الله وشاء فلان، قولوا: ما شاء الله ثم شاء فلان» أخرجه أحمد فى مسنده (٥/ ٣٨٤) وأبو داود فى سننه (٤٩٨٠) والحاكم فى مستدركه (٣/ ٤٦٢). قال النووى فى الأذكار (ص ٣١٨) : «هذا إرشاد إلى الأدب، وذلك أن الواو للجمع والتشريك، وثم للعطف والتراخى، فأرشدهم ﷺ إلى تقديم مشيئة الله تعالى على مشيئة من سواه».

ويجوز لك هنا أن تعطف.

ولك أن تتذكر قول أحد العارفين [(١)]: «اللهم إنى أستغفرك من كل عملٍ قصدتُ به وجهك فخالفنى فيه ما ليس لك».

فلا تترك شيئاً يزحف على توكلك على الله تعالى ؛ لأنك إليه تنيب ؛ وترجع ؛ كما قال شعيب عليه السلام : ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾.

ويقول الحق سبحانه وتعالى من بعد ذلك:

﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ [(٢)] شِقَاقِيٓ [(٣)] أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾﴾

يقول لهم شعيب عليه السلام: أرجو ألا تحملكم عداوتكم لى على أن تجُرموا جُرْماً ؛ يكون سبباً فى أن ينزل الحق سبحانه بكم عقاباً ، مثلما أصاب القوم

---

(١) هو: مطرف بن عبد الله بن الشخير، كان يلبس الصوف و يجلس مع المساكين. وقد أورد أبو نعيم هذا الأثر فى حلية الأولياء (٢/ ٢٠٧) وابن رجب الحنبلى فى جامع العلوم (ص٢٧). وقد أورداه تاماً والعطف فيه من تمام الدعاء، وليس عطفاً مغايراً.

(٢) جرم الشىء جرماً: قطعه؛ وغلب على فعل الشر. يقال: جَرَمَ: أذنب وجنى جناية. وجرم المال: كسبه من أى وجه. وجرمه: حمله على فعل شر أو ذنب أو جُرْم. قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا .. ﴿٨﴾﴾ [المائدة] أى: لا يحملنكم بغض قوم على عدم العدل، أى: التزموا العدل حتى مع من تكرهونهم. أى: اعدلوا دائماً، فالعدل أقرب للتقوى.
وأجرمه: دفعه وحمله على فعل الجرم والشر. وقرىء (ولا يُجْرِمَنَّكُم) - بضم الياء من الرباعى المزيد بالهمزة - أى: لا يحملنكم على فعل الجرم والظلم. [القاموس القويم].

(٣) شاقه مشاقة وشقاقاً: خالفه. ومنه قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ .. ﴿١٣﴾﴾ [الأنفال].
وقوله تعالى: ﴿وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ .. ﴿١٣٧﴾﴾ [البقرة] أى: فى خلاف ونزاع. [القاموس القويم ١/ ٣٥٣].

الذين سبقوكم ؛ من الذين خالفوا رسلهم ؛ فأنزل الله - عز وجل - عليهم العذاب كالغرق ، والرجفة ، والصيحة ، والصاعقة [(١)] ؛ فاحذروا ذلك .

وشعيب عليه السلام ينصحهم هنا حرصاً منه عليهم ، على الرغم من علمه أنهم يكنون له العداء ؛ لأنه دعاهم إلى ترك عبادة الأصنام التى عبدها آباؤهم ؛ ونهاهم عن إنقاص الكيل والميزان ، وألا يبخسوا الناس أشياءهم ؛ وسبق أن عذَّب الحق سبحانه المخالفين لشرع الله من الأمم السابقة ؛ ويذكرهم شعيب - عليه السلام - بأقرب من عُذِّبوا زماناً ومكاناً ؛ وهم قوم لوط .

يقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك :

﴿ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ ﴾ [(٢)]

وهذه الآية تبين لنا أن الحق سبحانه لا يغلق أمام العاصى - حتى المُصِرّ على شىء من المعصية - باب التوبة .

ويقول رسول الله ﷺ : «الله أفرح بتوبة عبده من أحدكم سقط [(٣)] على بعيره وقد أضله فى أرض فلاة [(٤)] » [(٥)] .

---

(١) يقول الحق سبحانه : ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [العنكبوت] .

(٢) الودود : من أسماء الله الحسنى ، وهو صيغة مبالغة أى : كثير الود . [القاموس القويم ٢/ ٣٢٦] والود : الحب ، قال تعالى : ﴿ .. سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ ﴾ [مريم] أى : محبة منه تعالى ومحبة فى قلوب الناس .

(٣) سقط على بعيره : أى : صادفه وعثر عليه من غير قصد فظفر به ، ومنه قولهم : على الخبير سقطت . قاله ابن حجر العسقلانى فى فتح البارى (١١/ ١٠٨) .

(٤) الفلاة : الصحراء ليس بها ماء ولا أنيس . وهى : القفر من الأرض لأنها فليت عن كل خير أو فطمت وعزلت . [لسان العرب] .

(٥) متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٣٠٨ ، ٦٣٠٩) ، وأخرجه مسلم فى صحيحه (٢٧٤٤) عن عبد الله بن مسعود . واللفظ للبخارى .

ولنا أن نتخيل بماذا يشعر من فقد بعيره ؛ وهذا البعير يحمل زاد صاحبه ورَحْله ؛ ثم يعثر الرجل على بعيره هذا.

لابد - إذن - أن يفرح صاحب البعير بالعثور عليه.

والحق سبحانه يقول هنا ما جاء على لسان شعيب - عليه السلام - لقومه:

﴿ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ .. (٩٠) ﴾ [هود]

وما دمتم ستستغفرونه عن الذنوب الماضية ؛ وتتوبون إليه ؛ بألا تعودوا إلى ارتكابها مرة أخرى ؛ فالحق سبحانه لا يرد مَنْ قصد بابه: ﴿ .. إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ (٩٠) ﴾ لأن مغفرته تستر العذاب، ورحمته تمنع العذاب.

وجاء الحق سبحانه هنا بأوسع المعانى: المغفرة، والرحمة، ومعهما صفته «الودود» ؛ وهى من الود ؛ والود هو الحب ؛ والحب يقتضى العطف على قدر حاجة المعطوف عليه.

ولله المثل الأعلى: نرى الأم ولها ولدان: أولهما قادر ثرى يأتى لها بما تريد ؛ وثانيهما ضعيف فقير ؛ فنجد قلب الأم - دائماً - مع هذا الضعيف الفقير ؛ وتحنِّن قلب القوىِّ القادر على الفقير الضعيف.

ونجد المرأة العربية القديمة تجيب على من سألها: أى أبنائك أحب إليك؟ فتقول: الصغير حتى يكبر ؛ والغائب حتى يعود ؛ والمريض حتى يشفى.

إذن: فالحب يقتضى العطف على قدر الحاجة.

ويقول الحق سبحانه فى الحديث القدسى:

«يا بن آدم ؛ لا تَخَافنَّ من ذى سلطان ؛ ما دام سلطانى باقياً ؛ وسلطانى لا ينفد[1] أبداً. يا بن آدم لا تَخْشَ من ضيق رزق ؛ وخزائنى ملآنة، وخزائنى

(١) لا ينفد: لا ينتهى. ونفد ينفد نفداً ونفاداً: فنى وانقطع ولم يَبْقَ منه شىء. قال تعالى: ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ .. (٩٦) ﴾ [النحل]. وقال تعالى: ﴿ إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ (٥٤) ﴾ [ص]. أى: أنه رزق دائم لا انقطاع له. [القاموس القويم].

لا تنفد أبداً . يا بن آدم خلقتك للعبادة ؛ فلا تلعب، وضمنت لك رزقك فلا تتعب، فَوَعزَّتى وجلالى إن رضيت بما قسمتُه لك أرحتُ قلبك وبدنك ؛ وكنتَ عندى محموداً ؛ وإن أنت لم ترض بما قسمتُه لك ؛ فوعزتى وجلالى لأسلِّطنَّ عليك الدنيا، تركض فيها ركض [(١)] الوحوش فى البرية [(٢)] ؛ ثم لا يكون لك منها إلا ما قسمته لك . يا بن آدم خلقت السموات والأرض ولم أعْيَ [(٣)] بخلقهنَّ ؛ أيعيينى رغيف عيش أسوقه لك؟ يا بن آدم لا تسألنى رزق غد كما أطلب منك عمل غدٍ . يا بن آدم أنا لك مُحبٌّ ؛ فبحقى عليك كنْ لى مُحبّاً» .

وهذا الحديث الكريم يبيِّن مدى مودة الله سبحانه لخلقه ؛ تلك المودة التى لا تستوعبها القلوب المشركة .

ويأتى الحق - سبحانه وتعالى - بعد ذلك بقول أهل مدين رَدّاً على شعيب - عليه السلام - :

﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ [(٤)] كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ [(٥)] لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ ﴾

---

(١) الركض: الجرى والعَدْو. قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الأنبياء] أى: يجرون ويفرون كناية عن الفزع والخوف الشديد. والركض: الضرب بالرجل، قال تعالى: ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ .. ﴿٤٢﴾﴾ [ص] أى: اضرب بها. [القاموس القويم].

(٢) البرية: الصحراء. والجمع: البرارى. والبر: ضد البحر. [راجع: مختار الصحاح - مادة: برر].

(٣) لم أعى بخلقهن: لم أعجز عنه ولم أطق إحكامه. والإعياء: الكلال والتعب. [من لسان العرب].

(٤) الفقه: الفهم. وفقه يفقه فهو فقيه: صار عالماً فاهماً. والفقه فى الاصطلاح: علم أحكام العبادات والمعاملات، وهو فرع من فروع المعارف الدينية. قال تعالى: ﴿لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. ﴿٤٤﴾﴾ [الإسراء] أى: لا تفهمونه. وقال تعالى: ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ .. ﴿١٢٢﴾﴾ [التوبة] أى: ليدرسوا أحكام الدين وليتعلموها. [القاموس القويم ٢/ ٨٦].

(٥) الرهط: جماعة دون العشر من الرجال، ورهط الرجل عشيرته وقبيلته، لا واحد له من لفظه. قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ .. ﴿٩١﴾﴾ [هود] أى: ولولا عشيرتك من الرجال لرجمناك. وقوله تعالى: ﴿تِسْعَةُ رَهْطٍ .. ﴿٤٨﴾﴾[النمل] من إضافة الشىء إلى ما يبينه. [القاموس القويم١/ ٢٧٨].

وهذا يُضاهى قول مشركى قريش لرسول الله ﷺ ، فقد قالوا:

﴿ قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ .. (٥) ﴾ [فصلت]

والإيمان يتطلب قلباً غير ممتلىء بالباطل ؛ ليُحسن استقباله ؛ أما القلوب الممتلئة بالباطل، فهى غير قادرة على استقبال الإيمان ؛ إلا إذا أخلت العقولُ تلك القلوبَ من الباطل، وناقشت العقول كُلاً من الحق والباطل ، ثم تأذن لما اقتنعت به أن يدخل القلوب.

ولذلك نجد الحق سبحانه وتعالى يطبع ويختم على القلوب الممتلئة بالكفر ؛ فلا يخرج منها الكفر ولا يدخل فيها الإيمان.

ولم يكتف أهل مدين بإعلان الكفر ؛ بل هددوا شعيباً وقالوا:

﴿ .. وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ (٩١) ﴾ [هود]

وهذا التهديد يحمل تحدِّياً، وكأنهم ظنوا أن بقدرتهم الفتك به ؛ لأنهم يبغضون حياته ؛ وأعلنوا حجة واهية ؛ وهى أن رهطه - أى: قومه وأهله ؛ لأن الرهط هم الجماعة التى يتراوح عدد أفرادها بين ثلاثة وعشرة أفراد - ما زالوا على عبادة الأصنام ؛ وأن هذا الرهط سيغضب لأى ضرر يصيب شعيباً ؛ وتناسوا أن الذى أرسل شعيباً - عليه السلام - لا بد أن يحميه ، وهم - بتناسيهم هذا - حققوا مشيئة الله - عز وجل - بأن يُسخِّر الكفر لخدمة الإيمان.

ومثال ذلك: هو بقاء عم النبى ﷺ أبى طالب على دين قومه ؛ وقد ساهم هذا الأمر فى حماية محمد ﷺ فى ظاهر الأسباب.

ثم يأتى الحق سبحانه من بعد ذلك بردِّ شعيب عليه السلام على قومه ؛ فيقول:

﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِيٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا(١) إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ(٢) ﴿٩٢﴾ ﴾

وهنا يتساءل شعيب عليه السلام باستنكار: أوضعتم رهطى فى كفة ؛ ومعزَّة الله تعالى فى كفة ؟ وغلَّبتم خوفكم من رهطى على خوفكم من الله ؟! ولم يأبه شعيب عليه السلام باعتزازهم برهطه أمام اعتزازه بربه ؛ لأنه أعلن - من قبل - توكله على الله ؛ ولأنه يعلم أن العزة لله تعالى أولاً وأخيراً.

ولم يكتفوا بذلك الاعتزاز بالرهط عن الاعتزاز بالله ؛ بل طرحوا التفكير فى الإيمان بالله وراء ظهورهم ؛ لأن شعيباً عليه السلام يقول لهم:

﴿ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا .. ﴿٩٢﴾ ﴾ [هود]

أى: لم يجعلوا الله - سبحانه - أمامهم ، فلم يأبهوا بعزة الله ؛ ولا بحماية الله ؛ وجعلوا لبعض خلقه معزَّة فوق معزَّة الله.

ولم يقل: (ظِهْرِيًّا) نسبة إلى (الظهر) ، فعندما ننسب تحدث تغييرات ، فعندما ننسب إلى اليمن نقول: يمنىّ . ونقول: يمانىّ ، فالنسب هنا إلى الظهرى ، وهى المنسى والمتروك ، فأنت ساعة تقول : أنت طرحت فلاناً وراء ظهرك ، يعنى جعلته بعيداً عن الصورة بالنسبة للأحداث ، ولم تحسب له حساباً . إذن: فهناك تغييرات تحدث فى باب النسب(٣) .

---

(١) الظهرىّ : المنسى المتروك وراء الظهر ، يقال: جعله ظهريّاً، أى: جعله نسياً منسيّاً. قال تعالى: ﴿ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا .. ﴿٩٢﴾ ﴾[هود] أى: نسيتم الله وحقوقه عليكم. [القاموس القويم١/ ٤١٩].

(٢) المحيط: من أسماء الله الحسنى، أى: المسيطر على كل شىء. وقال تعالى: ﴿ .. وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ [البقرة]. أى: مسيطر عليهم لا يملكون منه هرباً ولا فراراً. [القاموس القويم١/ ١٧٨].

(٣) النسب باب من أبواب علم الصرف .

ويذكِّرهم شعيب عليه السلام بقوله:

﴿ .. إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (٩٢) ﴾ [هود]

أى: أن كل ما تقولونه أو تفعلونه محسوب عليكم ؛ لأن الحق سبحانه لا تخفَى عليه خافية ، وقد سبق أن عرفنا أن القول يدخل فى نطاق العمل ؛ فكلُّ حدث يقال له : «عمل» ؛ وعمل اللسان هو القول ؛ وعمل بقية الجوارح هو الأفعال.

وقد شرَّف الحق سبحانه القول لأنه وسيلة الإعلام الأولى عنه سبحانه.

يقول الحق سبحانه من بعد ذلك ما جاء على لسان شعيب عليه السلام:

﴿ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ[1] إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ (٩٣) ﴾

إذن: فشعيب عليه السلام عنده القضية المخالفة ؛ لأن الله تعالى عنده أعزُّ من رهطه ؛ وباعتزازه بربه قد آوى إلى ركن شديد ، وبهذا الإيمان يعلن لهم: افعلوا ما فى وُسْعكم ، وما فى مُكْنتكم هو ما فى مُكْنة البشر ، وسأعمل ما فى مُكْنتى ، ولست وحدى ، بل معى الله سبحانه وتعالى ؛ ولن تتسامى قوتكم الحادثة على قدرة الله المطلقة.

ومهما فعلتم لمعارضة هذا الإصلاح الذى أدعوكم إليه ؛ فلن يخذلنى الذى أرسلنى ؛ وما دمتم تريدون الوقوف فى نفس موقف الأمم السابقة التى

---

(١) المكانة : رفعة الشأن والرزانة والتؤدة، قال تعالى: ﴿ قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ .. (١٣٥) ﴾ [الأنعام] أى: برزانة وتؤدة وتبصُّر . وقرىء: «على مكاناتكم» بالجمع. [القاموس القويم ٢/ ٢٣٢].

تصدت لموجات الإصلاح السماوية ؛ فهزمهم الله سبحانه بالصيحة ، وبالرجفة ، وبالريح الصرصر [(١)] ، وبالقذف بأى شىء من هذه الأشياء ، وقال لهم : اعملوا على مكانتكم ، وإياكم أن تتوهموا أنى أتودد إليكم ؛ فأنا على بينة من ربى ، ولكنى أحب الخير لكم ، وأريد لكم الإصلاح .

ولم يَقُلْ شعيب عليه السلام هذا القول عن ضعف ، ولكن قاله ردّاً على قولهم :

﴿ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلا رَهْطُكَ [(٢)] لَرَجَمْنَاكَ .. (٩١) ﴾ [هود]

وأبرز لهم مكانته المستمدة من قوة مَنْ أرسله سبحانه وتعالى ، وقال :

﴿ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ .. (٩٣) ﴾ [هود]

وهكذا أوضح لهم : أنا لن أقف مكتوف الأيدى ، لأنى سأعمل على مكانتى ، و﴿ .. سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ (٩٣) ﴾ [هود]

أى : أن المستقبل سوف يبيِّن مَنْ منَّا على الحق ومَنْ منَّا على الضلال ، ولمن سيكون النصر والغلبة ، ومن الذى يأتيه الخزى ؛ أى : أن يشعر باحتقار نفسه وهوانها ؛ ويعانى من الفضيحة أمام الخلق ؛ ومَنْ منَّا الكاذب ، ومَنْ على الحق .

وكان لا بد أن تأتى الآية التالية :

---

(١) الريح الصر والصرصر : شديدة البرد . وقيل : شديدة الصوت . قال الزجاج : الصر والصرة شدة البرد . [قاله ابن منظور فى اللسان] .

(٢) الرهط : الجماعة دون العشر من الرجال ، ورهط الرجل عشيرته وقبيلته ، لا واحد له من لفظه . قال تعالى : ﴿ وَلَوْلا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ .. (٩١) ﴾ [هود] أى : ولولا عشيرتك من الرجال لرجمناك . وقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ .. (٤٨) ﴾ [النمل] من إضافة الشىء إلى ما يبينه . [القاموس القويم ١/ ٢٧٨] .

﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ[1] فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ[2] ﴿٩٤﴾ ﴾

ونلحظ أن الحق سبحانه قد أورد فى هذه السورة : أسلوبين منطوقين أحدهما بالواو ، والآخر بالفاء .

الأول : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا .. ﴿٩٤﴾ ﴾ ، فى قصة اثنين آخرين من الرسل .

الثانى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا .. ﴿٦٦﴾ ﴾ [هود]

فى قصة اثنين من الرسل[3] .

وقصة شعيب هى إحدى القصتين اللتين جاء فيهما ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا ﴾ ولم يأت بـ «الفاء» لأنها - كما نعلم - تقتضى التعقيب بسرعة ، وبدون مسافة زمنية ؛ وتسمى فى اللغة «فاء التعقيب» ، مثل قول الحق سبحانه :

﴿ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ[4] ﴿٢١﴾ ﴾ [عبس]

---

(١) الصيحة : اسم مرة من الصياح ، وهو الصوت الشديد . والصيحة : العذاب الذى يصحبه صوت شديد . قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ ﴾ [ق] . [القاموس القويم] .

(٢) جثم جثوماً : لزم مكانه لاصقاً بالأرض ، قال تعالى : ﴿ .. فَأَصْبَحُوا فِى دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾ [هود] كناية عن موتهم بحالتهم فهم هامدون لاصقون بالأرض . [القاموس القويم] .

(٣) هما نبى الله صالح ، ونبى الله لوط عليهما السلام . قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ .. ﴿٦٦﴾ ﴾ [هود] . وقال تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ ﴾ [هود] .

أما (ولما جاء أمرنا) فقد جاءت فى نبى الله هود فى قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ .. ﴿٥٨﴾ ﴾ [هود] ، وكذلك نبى الله شعيب فى قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ .. ﴿٩٤﴾ ﴾ [هود] .

(٤) قبره وأقبره : دفنه فى قبر . وهذا الفعل يتعدى بنفسه ، ويتعدى بالهمزة . قال تعالى : ﴿ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴿٢١﴾ ﴾ [عبس] وجمع القبر : قبور . وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾ ﴾ [الانفطار] . [القاموس القويم ٢/ ٩٥] بتصرف .

أما «ثم» فتأتى لتعقيب مختلف ؛ وهو التعقيب بعد مسافة زمنية ؛ مثل قول الحق سبحانه :

﴿ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ [1] (٢٢) ﴾ [عبس]

وقد جاءت «الفاء» مرة فى قصة قوم لوط ؛ لأن الحق سبحانه قد حدد الموعد الذى ينزل فيه العذاب ، وقال :

﴿ .. إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ (٨١) ﴾ [هود]

فكان لا بد أن تسبق «الفاء» هذا الحديث عن عذابهم ، فقال :

﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ [2] مَّنضُودٍ (٨٢) ﴾ [هود]

أما هنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها ، فقد قال الحق سبحانه :

﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ .. (٩٤) ﴾ [هود]

ولم يذكر وعداً ولم يحدد موعد العذاب .

والحق سبحانه يقول :

﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا .. (٩٤) ﴾ [هود]

وكل أمر يقتضى آمراً ؛ ويقتضى مأموراً ؛ ويقتضى مأموراً به .

---

(١) أنشره : أحياه وأوجده . وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ (٢٢) ﴾ [عبس] أى : بعثه من قبره . وقال تعالى : ﴿ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا .. (١١) ﴾ [الزخرف] أى : أحييناها بماء المطر ؛ لأنها كانت ميتة من قبل . [القاموس القويم] .

(٢) السجيل : الطين المتحجر . والمنضود : المتتابع المنتظم السقوط عليهم . ويقول تعالى : ﴿ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ (١٠) ﴾ [ق] أى : مرصوص بنظام . [القاموس القويم ١/ ٣٠٤] .

والآمر هنا هو الله سبحانه ؛ وهو القادر على إنفاذ ما يأمر به ، ولا يجرؤ مأمور ما على مخالفة ما يأمر به الحق سبحانه ؛ فالكون كله يأتمر بأمر خالقه.

إذن: فحين يخبرنا الحق سبحانه وتعالى أن العذاب قد جاء لقوم ؛ فمعنى ذلك أن الأمر قد صدر ؛ ولم يتخلف العذاب عن المجىء ؛ لأن التخلف إنما ينشأ من مجازفة أمر لمأمور قد لا يطيعه ، ولا يجرؤ العذاب على المخالفة لأنه مُسخَّر ، لا اختيار له.

والقائل هنا هو الله سبحانه صاحب الأمر الكونى والأمر التشريعى ؛ فإذا قال الحق سبحانه حكماً من الأحكام وسجله فى القرآن ؛ فتيقن من أنه حادث لا محالة ؛ لأن القضية الكونية هى من الحق سبحانه وتعالى ، ولا تتخلف أو تختلف مع مشيئته سبحانه ، والحكم التشريعى يسعد به مَنْ يُطبِّقه ؛ ويشقى من يخالفه .

والحق سبحانه يعطينا مثالاً لهذا فى قصة أم موسى . . يقول جَلَّ شأنه:

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى الْيَمِّ (١) .. (٧) ﴾ [القصص]

فمنطق البشر يقول: كيف نقول لامرأة: إذا خفْت على ابنك ألقيه فى البحر ؟ كيف ننجيه من موت مظنون إلى موت محقَق؟

هذا وإن كان مخالفاً لسنن العادة إلا أن أم موسى سارعت لتنفيذ أمر الله سبحانه ؛ لأن أوامر الله بالإلهام للمقربين ، لا يأتى لها معارض فى الذهن.

والحق سبحانه كما أمرها بإلقاء وليدها فى اليم ، فقال:

---

(١) اليم : البحر أو النهر العذب ، قال تعالى : ﴿ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِى الْيَمِّ .. (١٣٦) ﴾ [الأعراف] وقوله: ﴿ فَاقْذِفِيهِ فِى الْيَمِّ .. (٣٩) ﴾ [طه] النهر العذب [القاموس القويم صـ ٣٧٢ حـ ٢] .

﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ (٣٨) أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ .. (٣٩)﴾ [طه]

كذلك أمر الحق- سبحانه وتعالى- اليمَّ بإلقاء التابوت - وفى داخله موسى - للساحل ، ولذلك فيقين أم موسى فى أن أوامر الله لا تتخلف، جعلها تسارع فى تنفيذ ما أمرها الله به.

والحق سبحانه يريد أن يُربِّبَ الإيمان ، أى : يزيده فى قلوب عباده ، فَهَبْ أن الله قضى بقضية أو أمر بأمر ، ثم لم يأت الكون على وفق ما أمر الله ، فماذا يكون موقف الناس؟

فما دام رب العزة سبحانه قد قال فلا بد أن يحدث ما أمر به ، فعندما يقول الحق سبحانه : ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣)﴾ [الصافات]

فلا بد أن تكون الغلبة لجنود الله ، فإذا ما غُلبوا فافهموا أن شرط الجندية لله قد تخلَّف ، وأن عنصراً من عناصر الجندية قد تخلف وهو الطاعة.

ومثال هذا : الذين خالفوا أمر رسول الله ﷺ فى البقاء على الجبل يوم أحد ، إنهم خالفوا أمر الرسول ﷺ ، فماذا يحدث لو أنهم انتصروا مع هذه المخالفة ؟

إذن: فقد انهزم المسلمون الذين اختلت فيهم صفة من صفات جنديتهم لله.

ولا بد أن تلتقى القضيتان: القرآنية والكونية ؛ لأن قائل القرآن هو صاحب سنن الكون سبحانه وتعالى .

ولأن أهل مدين هنا قد أعلنوا الكفر ؛ فلا بد أن يأتيهم العذاب.

وسمَّى الحق سبحانه هنا العذاب بالصيحة ؛ وقال:

﴿ ..وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩٤)﴾ [هود]

وسمَّى الحق سبحانه فى سورة الأعراف العذاب الذى لحق بهم : «الرجفة» ؛ فقال :

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩١) ﴾ [الأعراف]

وسماه فى قصة قوم عاد :

﴿ .. بِرِيحٍ صَرْصَرٍ [1] عَاتِيَةٍ (٦) ﴾ [الحاقة]

وسمَّاه بالخسف فى عذاب قارون .

ومن عظمة التوجيه الإلهى أن العذاب كان ينتقى القوم الكافرين فقط ؛ ولا يصيب الذين آمنوا ، بدليل قول الحق سبحانه :

﴿ نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ .. (٩٤) ﴾ [هود]

ولا يقدر على ذلك إلا إله قادر مقتدر ؛ يُصرِّف الأمور كما يشاء سبحانه .

وكلمة «نجينا» : من النجاة ؛ أى : أن يوجد بنجوة ؛ وهى المكان العالى ، والعرب قد عرفوا مبكراً طغيان الماء ؛ فقد كانوا يقيمون فى اليمن ثم بعثرهم السيل مصداقاً لقول الحق سبحانه :

﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ [2] فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ (١٥) فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ

---

(١) الصر ، والصرصر : البرد الشديد . قال تعالى : ﴿ كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ .. (١١٧) ﴾ [آل عمران] . والريح : الهواء المتحرك فى الجو ، وأصلها «روح» قلبت الواو ياءً لكسر ما قبلها . والجمع : رياح ، وتجمع أيضاً على «أرواح» - على الأصل - وقال تعالى : ﴿ .. بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (٦) ﴾ [الحاقة] أى : شديدة مدمرة - على سبيل الاستعارة - كأنها إنسان جبار طاغٍ عات . [القاموس القويم] .

(٢) سبأ : اسم رجل يجمع عدة قبائل نشأت فى اليمن ، وسميت باسمه مدينة كبيرة باليمن ، كانت عاصمة ملك اليمن . قال تعالى : ﴿ ..وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (٢٢) ﴾ [النمل] . [القاموس القويم ١/ ٢٩٩] .

الْعَرِمِ [(١)] وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ [(٢)] وَأَثْلٍ [(٣)] وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ [(٤)] قَلِيلٍ (١٦) ﴾ [سبأ]

هكذا تفرق العرب من اليمن ؛ وانتشروا فى الجزيرة العربية ، وكانوا يخافون من الماء - رغم أنه سر الحياة ؛ وفضَّلوا التعب فى البحث عن الماء للشرب لهم ولأنعامهم ؛ بدلاً من الوجود بجانب الماء ، ومن عداوة الماء جاءت كلمة «نجا» أى: صعد إلى مكان مرتفع.

واستخدمت كلمة «نجا» فى كل موقف ينجو فيه الإنسان من الخطر الداهم [(٥)] ، فيقال: «نجا من النار» ؛ «ونجا من العدو» ؛ «ونجا من الحيوان المفترس» ؛ وكلها مأخوذة من النجوة ، أى: المكان المرتفع. ويقال فى الفعل (نجا) : نجا فلان ، إذا كانت قوته تسعفه ليخلص نفسه من العذاب.

أما إذا كانت قوته غير قادرة على تخليصه من العذاب ، فهو يحتاج إلى مَنْ يُنجيه ، ويُقال: «أنجاه» ، إذا كانت المسألة تحتاج إلى جهد ومعالجة صعبة ليتحقق الفوز.

---

(١) السيل: الماء الكثير يجرى ويسيل على الأرض. وسيل العرم: أى: سيلان العرم، وهى سدود اليمن، أو سيل المطر الشديد. [القاموس القويم ١/ ٣٤٠].

(٢) الخمط: كل نبات فيه مرارة وحموضة تعافه النفس. قال تعالى: ﴿ .. ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ (١٦) ﴾ [سبأ] لما غضب الله على سبأ جعل طعامهم هذه الأشياء، وذلك كناية عن شدة الفقر. [القاموس القويم ١/ ٢١١].

(٣) الأثل: شجر طويل مستقيم الخشب كثير الأغصان، أوراقه دقيقة، وثمره حَبٌّ أحمر مُرٌّ لا يؤكل. قال تعالى: ﴿ .. ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ (١٦) ﴾ [سبأ] كناية عن ضيق العيش وشدة الفقر. [القاموس القويم ١/ ٧].

(٤) السدر: شجر النبق، وهو شجر شائك له ثمر، فيه حلاوة قليلة، واحدته سدرة، وهو كناية عن ضيق العيش، فقد ضيَّق الله عليهم الرزق لعدم شكرهم. [القاموس القويم ١/ ٣٠٧].

(٥) كل ما غشيك فقد دهمك. ويقال: يدهمهم أى: يفجؤهم. راجع لسان العرب.

ونسب الفعل فيها إلى الله ؛ فقال «نجينا» .

ويأتى الحق سبحانه فى مثل هذا الأمر بضمير الجمع ، كقوله تعالى :

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ [1] (١) ﴾ [القدر]

فكل شىء فيه فعل من الحق سبحانه وتعالى يأتى الله فيه بضمير الجمع : إنَّا .

أما إذا كان الشىء متعلقاً بصفة من صفات الذات الإلهية ، فإن الحق سبحانه يأتى بضمير الإفراد (أنا) مثل قوله تعالى :

﴿ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ .. (١٤) ﴾ [طه]

وقد أنجى الحق سبحانه شعيباً والذين آمنوا معه ؛ لأن شعيباً عليه السلام قال لقومه :

﴿ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ .. (٩٣) ﴾ [هود]

وكان عمل شعيب عليه السلام فيه صحة وعزيمة التوكل ؛ لذلك أنجاه الله تعالى والذين آمنوا معه ، فهو سبحانه لا يريد من عباده إلا التوجه بالنية الخالصة الصادقة إليه ، فإذا توجَّه العبد بالنية الصادقة إلى الله ، فالحق سبحانه يريح العبد ، ويُعينه بالاطمئنان على أداء أى عمل .

ومجرد الإيمان بالله تعالى والاتجاه إليه بصدق وإخلاص ؛ يفتح أمام العبد آفاقاً من النجاح والرفعة .. والمفتاح فى يد العبد ؛ لأن الحق سبحانه قد قال فى الحديث القدسى :

«من ذكرنى فى نفسه ذكرته فى ملأ خير منه»[2] .

---

(١) أنزلناه : ابتدأنا إنزال القرآن العظيم . ليلة القدر : ليلة الشرف والعظمة . [كلمات القرآن للشيخ حسنين مخلوف] .

(٢) تمام الحديث : « أنا عند ظن عبدى بى وأنا معه حين يذكرنى ، فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، وإن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منه ، وإن اقترب إلىَّ شبراً تقربت إليه ذراعاً ، وإن اقترب إلىَّ ذراعاً اقتربت إليه باعاً ، وإن أتانى يمشى أتيته هرولة » من حديث أبى هريرة .

إذن: فالمفتاح فى يد العبد.

والحق سبحانه هو القائل:

«ومن تقرَّب إلىَّ شبراً تقرَّبتُ إليه ذراعاً».

وهكذا يترك الحق سبحانه أمر التقرب إليه للعبد، وعندما يتقرب العبد من الله تعالى، فإنه سبحانه يتقرَّب إلى العبد أكثر وأكثر.

ثم يقول الحق سبحانه فى حديثه القدسى:

«ومن جاءنى يمشى أتيته هرولة»[1] لأن المشى قد يُتعب العبد، لكن لا شىء يُتعب الحق سبحانه أبداً؛ لأنه مُنزَّهٌ عن ذلك.

إذن: فالحق سبحانه يريد منا أن نُخلص النية فى الالتحام بمعية الله تعالى، ليضفى علينا ربنا سبحانه من صفات جلاله وصفات جماله[2].

وانظروا إلى سيدنا رسول الله ﷺ ومعه أبو بكر الصديق رضي الله عنه فى الغار.. يقول الحق سبحانه:

﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا .. (٤٠)﴾ [التوبة]

أى: أن رسول الله ﷺ ينهى صاحبه عن الحزن بعلة معية الله سبحانه وتعالى، ولا بد أن أبا بكر الصديق قد قال كلاماً يفيد الحزن؛ لأن الحزن لم يأت له من تلقاء نفسه، بل من قانون كونى، حين قال لرسول الله ﷺ: «لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا» لكنَّ رسول الله ﷺ لا يتكلم عن القانون

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٧٤٠٥) والإمام أحمد فى مسنده (٢/ ٣١٥) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

(٢) صفات الجمال هى الصفات المعبرة عن الرحمة والمغفرة والأمن والسلام مثل: الرحيم، الغفور، السلام، المؤمن. أما صفات الجلال فهى الصفات المعبرة عن القهر والجبروت والضر مثل: القهار، الجبار، الضار، المميت.

الكونى ، لكنه يتكلم عن طلاقة قدرة المكوِّن سبحانه ، فقال: «ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟»[(١)] .

فمعية الله أضفت عليهما شيئاً من جلاله وجماله ، والله سبحانه لا تدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار[(٢)] .

وقد أنجى الحق سبحانه شعيباً والذين آمنوا معه برحمة منه سبحانه ، والرحمة ألا يصيبك شىء.

ومثال ذلك: إن الإنسان يعالج فيشفى ، ومرة أخرى يحميه الله من الداء.

ولذلك انتبهوا إلى حقيقة أن القرآن قد جاء بأمرين: شفاء ، ورحمة ، فإذا كان هناك داء وترجعه إلى منهج الله ؛ فالحق سبحانه يشفيه ، والرحمة ألا يصيبك الداء من البداية.

وأما الذين ظلموا فقد أخذتهم الصيحة ، وفى آية أخرى يقول سبحانه:

﴿ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ .. (٦٧) ﴾ [هود]

وفى هذه الآية يقول الحق سبحانه:

﴿ وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ .. (٩٤) ﴾ [هود]

لأن القرآن على جمهرته جاء على لغة قريش ، لا ليُعْلى قريشاً ؛ ولكن لأن لغة قريش كانت مُصفَّاة من جميع القبائل العربية ، فهى تملك صفوة لغة كل القبائل ، ولكن لم يكن ذلك يعنى أن نطمس بقية القبائل.

---

(١) متفق عليه. أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٦٦٣) ومسلم فى صحيحه (٢٣٨١) من حديث أبى بكر الصديق رضى الله عنه.

(٢) يقول رب العزة سبحانه: ﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٠٢) لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٠٣) ﴾ [الأنعام].

ولذلك جاء فى القرآن بعض من لغات القبائل الأخرى ، حتى لا يعطى لقريش سيادة فى الإسلام كما كان لها سيادة فى الجاهلية ، لذلك يأتى بلغات القبائل الأخرى ، فمرة يأتى بتاء التأنيث ومرة لا يأتى بها.

والتأنيث إما أن يكون حقيقياً [١] أو مجازياً [٢] . والتأنيث الحقيقى هو المقابل للمذكر ، مثل: المرأة. والتأنيث المجازى مثل : «الصيحة» و«الحجرة » . وكانت القبائل العربية تتجاوز فى المؤنث المجازى ؛ فمرة تأتى «التاء» ومرة لا تأتى [٣] .

وإن كان هناك فَصْل بين الفعل والفاعل ، فالفاصل قائم مقام التأنيث فيقول سبحانه :

﴿ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ .. (٦٧) ﴾ [هود]

---

(١) المؤنث الحقيقى هو الذى يلد ، ويتناسل ، ولو كان تناسله من طريق البيض والتفريخ. ولابُدَّ فى لفظ المؤنث الحقيقى من علامة تأنيث ظاهرة أو مقدرة مثل: فاطمة ، ليلى ، هند ، عصفورة ، بقرة. . . إلخ. قال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي .. (٣٥) ﴾ [آل عمران] . وقوله تعالى: ﴿ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَـٰأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ .. (١٨) ﴾ [النمل : ١٨].

(٢) المؤنث المجازى هو الذى لا يلد ولا يتناسل ، سواء أكان لفظه مختوماً بعلامة تأنيث ظاهرة؛ مثل: ورقة ، وسفينة. . . ، أم مقدرة ، مثل: دار ، وشمس. ولا سبيل لمعرفة المؤنث المجازى إلا من طريق السماع الوارد عن العرب.

(٣) يجوز التأنيث وتركه إذا كان الفاعل حقيقى التأنيث ولم يتصل بالعامل - أى: فصل فاصل بين الفعل والفاعل المؤنث - مثل قوله تعالى: ﴿ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ .. (٢٥) ﴾ [القصص] وقوله تعالى: ﴿ إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ .. (١٠) ﴾ [الممتحنة] وإذا كان الفاعل مؤنثاً مجازياً ، كقوله تعالى: ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا .. (١٨) ﴾ [محمد] ، وأن يكون الفاعل جمع تكسير ، كقوله تعالى: ﴿ قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا .. (١٤) ﴾ [الحجرات] وقوله تعالى: ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ .. (٣٠) ﴾ [يوسف]. وهناك تفصيلات كثيرة أخرى انظرها فى [« النحو الوافى» لعباس حسن (٤/ ٥٨٦ ، ٥٨٧) ، و«النحو المصفى» للدكتور محمد عيد (ص ٤٠٢ - ٤٠٦)].

فكأن الصيحة لها مقدرة على أن تأخذ بما أودعه فيها مُرسِل الصيحة من قوة الأخذ ، وأخذه أليم شديد.

ويُنهى الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله تعالى:

﴿ .. فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩٤) ﴾ [هود]

ونلحظ أن كل عذاب إنما يحدد له الحق سبحانه موعداً هو الصبح ، مثل قوله تعالى:

﴿ .. إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ (٨١) ﴾ [هود]

ومثل قوله الحق:

﴿ .. فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ (١٧٧) ﴾ [الصافات]

والصبح هو وقت الهجمة على الغافل الذى لم يغادره النوم بعد [(١)]، مثل زُوَّار الفجر الذين يقبضون على الناس قبيل النهار.

ويقول الحق سبحانه:

﴿ .. فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩٤) ﴾ [هود]

ولم يقل سبحانه: «فأصبحوا فى دارهم جاثمين»؛ لأن بعضهم قد لا يكون فى بيته ، بل فى مكان آخر لزيارة أو تجارة.

ومثال ذلك: قصة أبى رغال ، وكان فى مكة ، لكن الحجر الذى قتله بإرادة الله سبحانه نزل عليه فى البقاع ولم ينزل عليه الحجر فى مكة ؛ لأن

---

(١) وقد قال سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ (٣٨) ﴾ [القمر] والبكرة أول النهار. ويستعا للإسراع إلى الأمر فى أى وقت. [القاموس القويم].

الله سبحانه قد شاء ألا ينزل عليه الحجر فى البيت الحرام ، الآمن ، وكأن الحجر قد تتَّبعه ، مثلما تتبعت الصيحة الكفار من أهل مدين [(١)] .

ونلحظ فى الكلمة الأخيرة من هذه الآية الكريمة وهى «جاثمين» أن حرفى «الجيم» و«الثاء» حين يجتمعان معاً -بصرف النظر عن الحرف الثالث - ففيهما شىء من الهلاك ، وشىء من الغنائية. ومعنى «جاثمين» أى: مُلقَون على بطونهم بلا حراك.

والحق سبحانه يقول:

﴿ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً [(٢)] .. ﴿٢٨﴾ ﴾ [الجاثية]

أى: يركع كل مَنْ فيها على ركبتيه. ويقال عن الميت : «الجثة».

وانظروا إلى عظمة الحق سبحانه حين يجعل الناس تنطق لفظ «الجثة» تعبيراً عن أى «ميت» عظيماً كان أم وضيعاً [(٣)] ، ثم توضع جثته فى القبر ، لتحتضنه أمه الأولى؛ الأرض.

---

(١) عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال: «لما مر رسول الله ﷺ بالحجر قال: لا تسألوا الآيات فقد سألها قوم صالح فكانت - يعنى الناقة - ترد من هذا الفج وتصدر من هذا الفج ، فعتوا عن أمر ربهم فعقروها وكانت تشرب ماءهم يوماً ويشربون لبنها يوماً فعقروها فأخذتهم صيحة أخمد الله من تحت أديم السماء منهم إلا رجلاً واحداً كان فى حرم الله. فقالوا: من هو يا رسول الله؟ قال: أبو رغال ، فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه» أخرجه أحمد فى مسنده (٣/ ٢٩٦) والحاكم فى مستدركه (٢/ ٣٢٠ ، ٥٦٧) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(٢) جثا يجثو جثواً ، وجثى يجثى جثياً: جلس على ركبتيه فهو جاث وهى جاثية. قال تعالى: ﴿ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً .. ﴿٢٨﴾ ﴾ [الجاثية] كناية عن العجز والتخوف والترقّب كالسجين ينتظر المحاكمة. وقال تعالى: ﴿ .. ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ﴾ [مريم] تصويراً لحالهم فى ذل ومهانة ينتظرون العذاب الشديد. [القاموس القويم : مادة (جثى)].

(٣) الوضيع: الدنىء من الناس ، وهو ضد الشريف. والضِّعة: الذل والهوان والدناءة. [لسان العرب - مادة : وضع].

ومن يرغب فى تهدئة إنسان ملتاع [(١)] وغاضب لموت عزيز عليه ، فَلْيقُلْ له : هل تتحمل جثمانه أسبوعاً ؟ وسوف يجيب : «لا» .

إذن : فبمجرد أن ينزع الله سبحانه السر الذى به كان الإنسان إنساناً ، وهو الروح ، يصبح الإنسان جثة ثم يتخشب ، ثم يَرِمُّ [(٢)] .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك وصفاً لمن أخذتهم الصيحة من أهل «مدين» :

﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا [(٣)] أَلَا بُعْدًا [(٤)] لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾ ﴾

أى : أن من يمر على أهل «مدين» بعد ذلك كأنهم لم يكن لهم وجود .

والحق سبحانه يقول :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا .. ﴿٢٤﴾ ﴾ [يونس]

فالإنسان الذى ارتقى حتى وصل إلى الحضارات المتعددة ، إلى حد أنه قد يطلب القهوة بالضغط على زر آلة ، فإذا شاء الله سبحانه أزال كل ذلك فى لمح البصر .

---

(١) اللوعة : وجع القلب من المرض والحب والحزن ، وقيل : هى حرقة الحزن والهوى والوجد ، وهى أيضاً ما يجده الإنسان لولده وحميمه من الحرقة وشدة الحب . [انظر اللسان - مادة : لوع] .

(٢) الرميم : البالى من كل شىء . رم الميت : بلى جسمه ، قال تعالى : ﴿ .. مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ ﴾ [يس] والرمة : العظم البالى . [لسان العرب ، القاموس القويم مادة : رم] .

(٣) غنى القوم فى ديارهم : طال مقامهم فيها . قال تعالى : ﴿ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا .. ﴿٩٥﴾ ﴾ [هود] [القاموس القويم مادة (غنى)] .

(٤) بعد بَعداً وبُعداً : هلك . قال تعالى : ﴿ .. أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾ ﴾ [هود] أى : هلاكاً لمدين كما هلكت ثمود . [القاموس القويم : مادة (بعد)] .

هذه الحياة المرفهة يستمتع فيها الإنسان كمخدوم ، وهى غير الجنة التى ينال فيها الإنسان ما يشتهى بمجرد أن يخطر الأمر بباله .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا .. (٩٥) ﴾ [هود]

ومادة «الغنى» منها : الغناء -بكسر الغين - وهو ما يغنيه المطربون ، ومنها الغناء - بفتح الغين - وهو يؤدى إلى الشىء الذى يغنيك عن شىء آخر ، فالغنى بالمال يكتفى عما فى أيدى الناس .

وهكذا الغناء ؛ لأن الأذن تسمع كثيراً ، والعين تقرأ كثيراً ، لكن الإنسان لا يردد إلا الكلام الذى يعجبه ، والملحَّن بطريقة تعجبه ؛ فالغناء هو اللحن المستطاب الذى يغنيك عن غيره .

والغَناء ، أى : الإقامة فى مكان إقامةً تغنيك عن الذهاب إلى مكان آخر ، وتتوطن فى هذا المكان الذى يغنيك عن بقية الأماكن .

إذن : فقول الحق سبحانه :

﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا [1] فِيهَا .. (٩٥) ﴾ [هود]

أى : كأنهم لم يقيموا هنا ، ويستغنوا بهذا المكان عن أى مكان سواه .

ويقول الحق سبحانه فى موضع آخر من القرآن الكريم :

﴿ .. مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ [2] (١٠٠) ﴾ [هود]

---

(١) غنى القوم فى ديارهم : طال مقامهم فيها . قال تعالى : ﴿ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩٤) كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا .. (٩٥) ﴾ [هود] وقد غنيت الدار بأهلها : عَمُرَتْ بهم . قال تعالى : ﴿ فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ .. (٢٤) ﴾ [يونس] أى : كأنها لم تعمر . [القاموس القويم : مادة (غنى)] .

(٢) قائم : اسم فاعل من قام . قال تعالى : ﴿ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ .. (٣٩) ﴾ [آل عمران] وقوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ (١٠٠) ﴾ [هود] أى : منها ما هو إلى الآن قائم عامر بأهله كالزرع ، ومنها ما هلك فصار كالزرع الحصيد . [القاموس القويم : مادة (قوم)] .

أى: أن الأطلال [١] قائمة بما تحتويه من أحجار ورسوم [٢]، مثل معابد قدماء المصريين، وأنت حين تزورها لا تجد المعابد كلها سليمة، بل تجد عموداً منتصباً، وآخر مُلْقىً على الأرض، وباباً غير سليم، ولو كانت كلها حصيداً؛ لاختفت تماماً، ولكنها بقايا قائمة، ومنها ما اندثر [٣].

وهذا يثبت لنا صدق الأداء القرآنى بأنه كانت هناك حضارات، لأنها لو ذهبت كلها؛ لما عرفنا أن هناك حضارات قد سبقت.

ثم يقول الحق سبحانه:

﴿.. أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ (٩٥)﴾ [هود]

وكلمة «ألا» - كما عرفنا من قبل - هى «أداة استفتاح» ليلتفت السامع وينصت، فلا تأخذه غفلة عن الأمر المهم الذى يتكلم به المتكلم، وليستقبل السامع الكلام كله استقبال المستفيد.

وكلمة «بُعْداً» ليست دعاءً على أهل مدين بالبعد؛ لأنها هلكت بالفعل، ومادة كلمة «بُعْداً» هى: «الباء» و«العين» و«الدال» وتستعمل استعمالين: مرة تريد منها الفراق؛ والفراق بينونة إلى لقاء مظنون، أما إذا كانت إلى بينونة متيقنة ألا تكون، ولذلك جاء بعدها:

﴿.. كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ (٩٥)﴾ [هود]

وهى تدل على أنه بعدٌ لا لقاء بعده إلا حين يجمع الحق سبحانه الناس يوم القيامة.

---

(١) الأطلال: جمع طلل، وهو ما شخص من آثار الديار القديمة. وقيل: طلل كل شىء شخصه. [انظر: لسان العرب].

(٢) الرسوم: جمع الرسم. وهو بقية الأثر. وقيل: هو ما لصق بالأرض منها. ورسم الدار: ما كان من آثارها لاصقاً بالأرض.

(٣) الدثور: الدروس وامِّحاء الذكر، وكل شىء امحى وذهب أثره فقد دثر. [اللسان بتصرف].

والشاعر [(١)] يقول:

يَقُولُون لا تبعدْ وهُمْ يَدفِنُونَنى ... وأينَ مَكَانُ البُعدِ إلا مَكانِيَا

فهذا هو البعد الذى يذهب إليه الإنسان ولا يعود [(٢)].

ولماذا خَصَّ الحق سبحانه ثمود بالذكر هنا، وقد سبق أن قال سبحانه عن أقوام آخرين: «ألا بعداً»؟

لأن الصيحة قد جاءت لثمود [(٣)]، وبذلك اتفقوا فى طريقة العذاب.

وتنتهى هنا قصة شعيب عليه السلام مع مدين، ونلحظ أن لها مساساً برسلٍ مثل موسى عليه السلام، مثلما كان لقوم لوط مساس بإبراهيم عليه السلام.

وهكذا نعلم أن هناك رسلاً قد تعاصرت، أى: أن كل واحد منهم أرسل إلى بيئة معينة ومكان معين. ولأن المرسل إليهم هم عبيد الله كلهم؛ لذلك أرسل لكل بيئة رسولاً يناسب منهجه عيوب هذه البيئة.

وإبراهيم عليه السلام هو عم لوط عليه السلام، وموسى عليه السلام هو صهر شعيب عليه السلام. وقد ذهب موسى إلى أهل مدين قبل أن يرسله الله إلى فرعون.

---

(١) الشاعر هو: مالك بن الريب المازنى، شاعر من الظرفاء الأدباء الفُتّاك، اشتهر فى أوائل العصر الأموى، شهد فتح سمرقند وتنسك ومرض فى مرو وأحس بالموت فقال قصيدته التى منها هذا البيت وعدتها ٥٨ بيتاً أوردها أبو على القالى كاملة فى أماليه (٣/ ١٥١ - ١٥٤) توفى عام ٦٠ هجرية. انظر الأعلام للزركلى (٥/ ٢٦١).

(٢) البعد: الهلاك. بعد: هلك. فقوله تعالى: ﴿.. أَلا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ (٩٥)﴾ [هود] أى: هلاكاً لمدين كما هلكت ثمود. والبعد: خلاف القرب، قال تعالى: ﴿يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ .. (٣٨)﴾ [الزخرف] أى: مقدار بعد أحدهما من الآخر. [القاموس القويم].

(٣) قال رب العزة سبحانه: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ (٥)﴾ [الحاقة] أى: أهلكوا بالصيحة التى تجاوزت الحد فى قوتها. والطغيان: تجاوز الحد، قال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ (١١)﴾ [الحاقة] أى: زاد وتجاوز الحد فأغرق البلاد. [القاموس القويم ١/ ٤٠٢].

ونحن نعلم أن الأماكن فى الأزمنة القديمة كانت منعزلة ، ويصعب بينها الاتصال ، وكل جماعة تعيش فى موقع قد لا يدرون عن بقية المواقع شيئاً ، وكل جماعة قد يختلف داؤها عن الأخرى.

لكن حين أراد الحق سبحانه بعثة محمد ﷺ كرسول خاتم ، فقد علم الحق سبحانه أزلاً أن رسول الله ﷺ على ميعاد مع ارتقاء البشرية ، وقد توحدت الداءات.

فما يحدث الآن فى أى مكان فى العالم ، ينتقل إلينا عبر الأقمار الصناعية فى ثوانٍ معدودة ، لذلك كان لا بد من الرسول الخاتم ﷺ .

أما تعدد الرسل وتعدد اللقطات لكل رسول بالقرآن ، فليست تكراراً كما يظن السطحيون؛ لأن الأصل فى القصص القرآنى أن الحق سبحانه قد أنزله لتثبيت الرسول ﷺ ، فقد كانت الآيات تنزل من السماء الدنيا بالوحى لتناسب الموقف الذى يحتاج فيه الرسول ﷺ إلى تثبيت للفؤاد [(١)] .

ويبيِّن الحق سبحانه لرسوله ﷺ أن يتذكر إخوانه من الرسل وما حدث لهم مع أقوامهم وانتصار الله لهم فى النهاية ، وحين أراد الحق سبحانه أن يقص قصة محبوكة جاء بسورة يوسف.

وهكذا فليس فى القرآن تكرار ، بل كل لقطة إنما جاءت لتناسب موقعها فى تثبيت الرسول ﷺ .

ولنا أن نلحظ أن قصة شعيب عليه السلام مع قومه ، ما كان يجب أن تنتهى إلا بأن تأتى فيها لقطة من قصة موسى عليه السلام ، وهو صهر شعيب عليه السلام.

---

(١) يقول الحق سبحانه : ﴿ وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ (١٢٠) ﴾ [هود] . ثبت الأمر : رسخ واستقر ضد تزلزل واضطرب . ويقول تعالى : ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ .. (٢٧) ﴾ [إبراهيم] أى : يقوى إيمانهم بالقول الصحيح الثابت وهو شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وذلك ثبات معنوى . [راجع : القاموس القويم ١/ ١٠٥] .

والملاحظ أن الحق سبحانه قد ذكر هنا من قصة موسى عليه السلام لقطتين:

اللقطة الأولى: هى الإرسال بالآيات إلى فرعون .

واللقطة الثانية: هى خاتمة فرعون لا مع موسى عليه السلام ، ولكن مع الحق سبحانه يوم القيامة ، يقول تعالى:

﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ (٩٨) وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ (٩٩) ﴾ [هود]

وكان لشعيب عليه السلام مهمة تثبيت قلب موسى عليه السلام من الهلع ، حين أعلن له أنه خائف من أن يقتله قوم فرعون لأنه قتل رجلاً منهم ، فقال له شعيب عليه السلام ما ذكره الحق سبحانه فى قوله:

﴿ .. نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢٥) ﴾ [القصص]

وهكذا ثبَّته وهيَّأ له حياة يعيش فيها آمناً لمدة ثمانى حجج أو أن يتمها عشر حجج [(١)] ، مصداقاً لقول الحق سبحانه:

﴿ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي [(٢)] ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٢٧) قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (٢٨) ﴾ [القصص]

---

(١) الحجة - بكسر الحاء - : السنة الكاملة اثنا عشر شهراً ، وجمعها: حجج. قال تعالى: ﴿ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ .. (٢٧) ﴾ [القصص] أى: ثمانى سنوات كاملة. [القاموس القويم].

(٢) أجر فلان فلاناً أجراً: أثابه على عمل أو صار أجيراً له ، وبالوجهين فُسِّر قوله تعالى: ﴿ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ .. (٢٧) ﴾ [القصص] وسُمِّى المهر أجراً مجازاً. وقال تعالى: ﴿ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ .. (٢٤) ﴾ [النساء] أى: مهورهن. وقال تعالى: ﴿ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ .. (١١٢) ﴾ [البقرة] أى: ثواب عمله. [القاموس القويم ١/ ٨].

وهكذا باشر شعيب عليه السلام مهمة فى قصة موسى عليه السلام.

ومن هذا ومن ذاك يعطينا الحق سبحانه الدرس بأن الفطرة السليمة لها تقنينات قد تلتقى مع قانون السماء ؛ لأن الحق سبحانه لا يمنع عقول البشر أن تصل إلى الحقيقة ، لكن العقول قد تصل إلى الحقيقة بعد مرارة من التجربة . مثلما قنَّن الحق سبحانه الطلاق فى الإسلام ، ثم أخذت به بلاد أخرى غير مسلمة بعد أن عانت مُرَّ المعاناة.

ومثلما حرَّم الحق سبحانه الخمر ، ثم أثبت العلم مضارها على الصحة ، فهل كنا مطالبين بأن نؤجل حكم الله تعالى إلى أن يهتدى العقل إلى تلك النتائج؟

لا ؛ لأن الحق سبحانه قد أنزل فى القرآن قانون السماء الذى يقى الإنسان شر التجربة ؛ لأن الذى أنزل القرآن سبحانه هو الذى خلقنا وهو مأمون علينا ، وقد أثبتت الأيام صدق حكم الله تعالى فى كل ما قال بدليل أن غير المؤمنين بالقرآن يذهبون إلى ما نزل به القرآن ليطبقوه.

وفى قصة موسى عليه السلام مثل واضح على مشيئة الحق سبحانه ، فها هو فرعون الكافر قد قام بتربية موسى بعد أن التقطه لعله يكون قرة عين له [(١)] ، رغم أن فرعون كان يُقتِّل أطفال تلك الطائفة [(٢)].

ثم تلحظ أخت موسى أخاها ، ويرد الحق سبحانه موسى عليه السلام إلى أمه [(٣)].

---

(١) يقول رب العزة سبحانه : ﴿ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [القصص].

(٢) قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ ﴾ [القصص].

(٣) قال تعالى : ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ [القصص].

وقد صوَّر الشاعر هذا الموقف بقوله:

إذا لَمْ تُصادِفْ فى بَنِيكَ عِنَايةً
مِنَ الله فقدْ كَذبَ الرَّاجِى وخَابَ المأملُ

فَمُوسَى[1] الذى رَبَّاهُ جِبريلُ كافرٌ
ومُوسَى الذى ربَّاه فِرْعونُ مُرسَلُ

وقد جاءت قصة موسى عليه السلام هنا موجزة، فى البداية وفى النهاية؛ ليبيِّن لنا الحق سبحانه أن لشعيب دوراً مع واحد من أولى العزم من الرسل، وهو موسى عليه السلام.

وكان مقصد موسى عليه السلام قبل أن يبعث -هو ماء مدين، فحدث ما يمكن أن نجد فيه حلاً لمشاكل الجنسين - الرجل والمرأة - وهى رأس الحربة التى تُوجَّه إلى المجتمعات الإسلامية؛ لأن البعض يريد أن تتبذل المرأة فى مفاتنها، لإغواء الشباب فى أعز أوقات شراسة المراهقة.

لكن القرآن حَلَّ هذه المسألة فى رحلة بسيطة، ولنقرأ قول الحق سبحانه عن موسى:

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ[2] .. (٢٣)﴾ [القصص]

أى: تمنعان الماشية من الاقتراب من المياه، وكان هذا المشهد مُلْفتاً لموسى عليه السلام، وكان من الطبيعى أن يتساءل: ألم تأتيا إلى هنا لتسقيا الماشية؟! وقال القرآن السؤال الطبيعى:

---

(١) موسى السامرى الذى رباه جبريل خالف أمر ربه بفتنة، فعزل اجتماعياً وكتب عليه العذاب، بخلاف موسى الرسول عليه السلام.

(٢) ورد يرد ورداً وورودا: حضر أو أشرف على المكان - دخله أم لم يدخله. وورد الماء: قصده وبلغه ووصل إليه. واسم الفاعل منه: وارد. واسم المفعول: مورود. [القاموس القويم].
أمة من الناس: جماعة كثيرة منهم. [كلمات القرآن للشيخ حسنين مخلوف].
تذودان: تمنعان أغنامهما عن الماء. [كلمات القرآن].

﴿مَا خَطْبُكُمَا [١] .. (٢٣)﴾ [القصص]

فتأتيه الإجابة من المرأتين:

﴿قَالَتَا لا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ [٢] وَأَبُونَا شَيْخٌ [٣] كَبِيرٌ (٢٣)﴾ [القصص]

وهكذا نعلم أن خروج المرأة له علة أن الأب شيخ كبير ، وأن خروج المرأتين لم يكن بغرض المزاحمة على الماء ، ولكن بسبب الضرورة ، وانتظرتا إلى أن يسقى الرعاة ، بل ظلّتا محتجبتين بعيداً ؛ لذلك تقدم موسى عليه السلام ليمارس مهمة الرجل:

﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا .. (٢٤)﴾ [القصص]

وهذه خصوصية المجتمع الإيمانى العام ، لا خصوصية قوم ، ولا خصوصية قربى ، ولا خصوصية أهل ، بل خصوصية المجتمع الإيمانى العام.

فساعة يرى الإنسان امرأة قد خرجت إلى العمل ، فيعرف أن هناك ضرورة ألجأتها إلى ذلك ، فيقضى الرجل المسلم لها حاجتها.

وأذكر حين ذهبت إلى مكة فى عام ١٩٥٠م أن نزل صديقى من سيارته أمام باب منزل ، وكان يوجد أمام الباب لوح من الخشب عليه أرغفة من العجين التى لَم تخبز بعد ، وذهب به إلى المخبز ، ثم عاد به بعد خبزه إلى

(١) ما خطبكما: ما شأنكما ؟ أو ما مطلوبكما ؟. [كلمات القرآن].

(٢) يصدر الرعاء: يصرف الرعاة مواشيهم عن الماء. [كلمات القرآن].

والصدور: الرجوع والانصراف. يقال: ورد إلى البئر ثم صدر عنها أى: رجع. وصدر دوابه: أرجعها بعد ورودها. [القاموس القويم].

(٣) شاخ الإنسان يشيخ: أسن أو ظهرت فيه آثار كبر السن ، ويطلق الشيخ على من جاوز الخمسين من عمره. وله جموع كثيرة منها: أشياخ ، وشيوخ ، ومشايخ ورد منها فى القرآن جمع واحد هو: شيوخ. قال تعالى: ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا ..(٦٧)﴾ [غافر]. [القاموس القويم١/ ٣٦٣].

نفس الباب. وقال لى: إن هذه هى عادة أهل مكة ، إن وجد إنسان لوحاً من العجين غير المخبوز؛ فعليه أن يفعل ذلك؛ لأن وجود هذا اللوح أمام الباب إنما يعنى أن الرجل رب البيت غائب.

وهذا كله مأخوذ من كلمة :

﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ..(٢٤)﴾ [القصص]

وعمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يأمر الجنود أن تدق الأبواب لتسأل أهل البيوت عن حاجاتهم.

والأمر الثالث والمهم هو أن المرأة التى تخرج إلى مهمة عليها ألا تستمرىء[1] ذلك ، بل تأخذها على قدر الضرورة ، فإذا وجدت منفذاً لهذه الضرورة ، فعليها أن تسارع إلى هذا المنفذ ، ولذلك قالت الفتاة لأبيها شعيب :

﴿ ..يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ (٢٦)﴾ [القصص]

ويُنهى شعيب عليه السلام هذا الموقف إنهاءً إيمانياً حكيماً حازماً ، فيقول لموسى:

﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ .. (٢٧)﴾ [القصص]

وهكذا يعلم موسى - عليه السلام - أن شعيباً لا يُلقى بابنته هكذا دون مهر[2] ،

---

(١) استمرأ الطعام: وجده مريئاً أى: جيداً مستساغاً. واستمرأ الشىء: أحبه واستزاد منه. [المعجم الوسيط] بتصرف.

(٢) المهر: الصداق، والجمع: مهور. وهو الصدقة جمعها صدقات. قال تعالى: ﴿وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً .. (٤)﴾ [النساء] . قال فى فقه السنة (٢/ ٢١٨): «لم تجعل الشريعة حداً لقلته، ولا لكثرته، إن الناس يختلفون فى الغنى والفقر، ويتفاوتون فى السعة والضيق، ولكل جهة عاداتها وتقاليدها، وكل النصوص جاءت تشير إلى أن المهر لا يشترط فيه إلا أن يكون شيئاً له قيمة ،بقطع النظر عن القلة والكثرة ، ويجوز تعجيل المهر وتأجيله، أو تعجيل البعض وتأجيل البعض الآخر حسب عادات الناس وعرفهم».

لا . . بل لا بد أن يكون لها مهر ، وأيضاً تصبح أختها محرمة عليه [(١)] .

وهذه القصة وضعت لنا مبادىء تحل كل المشكلات التى يتشدق بها خصوم الإسلام.

وها نحن نجد فى الغرب صيحات معاصرة تطالب بأن تقوم المرأة بالبقاء فى المنزل لرعاية الأسرة والأولاد ؛ ليس لأن المرأة ناقصة ، ولكن لأن كمال المرأة فى أداء أسمى مهمة توكل إليها ، وهى تربية الأبناء.

ونحن نعلم أن طفولة الإنسان هى أطول أعمار الطفولة فى كل الكائنات، والأبناء الذين ينشأون برعاية أم متفرغة يكونون أفضل من غيرهم.

وهكذا نتعلم من قصة شعيب عليه السلام مع موسى عليه السلام.

وهنا يقول الحق سبحانه:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾﴾ [(٢)]

ونحن نعلم أن الآيات إذا وردت فى القرآن إنما تنصرف إلى ثلاثة أشياء:

آيات كونية تعاصر كل الناس ويراها كل واحد ، مثل آيات الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم والأرض الخاشعة إذا ما نزل عليها الماء اهتزت

---

(١) الجمع بين الأختين من المحرمات تحريماً مؤقتاً ، يزول التحريم بزوال أسبابه ، وذلك بطلاق الأخت طلاقاً بائناً وبعد انقضاء عدتها ، والحالة الثانية هى وفاتها ، ودليل هذا التحريم قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ .. ﴿٢٣﴾﴾ إلى قوله: ﴿.. وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾﴾ [النساء] . وانظر فقه السنة (٢/ ١٦٩).

(٢) سلطان مبين: برهان بيِّن على صدق رسالته. [كلمات القرآن].

والسلطان: الملك والقوة والقهر والحجة والبرهان. يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ .. ﴿١٠٠﴾﴾ [النحل] أى: قهر الشيطان وغلبته وتسلطه على الذين يتولونه ويتبعونه ، وقال تعالى: ﴿هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ ﴿٢٩﴾﴾ [الحاقة] أى: قوتى زالت وغلبتى وقهرى فلا أستطيع الدفاع عن نفسى. [القاموس القويم].

وربت [(١)]، وكلها آيات كونية تلفت العقل إلى النظر فى أن وراء هذا الكون الدقيق تكويناً هندسياً أقامه إله قادر.

وهناك آيات تأتى لبيان صدق الرسول فى البلاغ عن الله، وهى المعجزات مثل: ناقة ثمود المبصرة [(٢)]، وشفاء عيسى عليه السلام للأكمه والأبرص [(٣)] بإذن الله.

ثم آيات الأحكام التى تبيِّن مطلوبات المنهج بـ «افعل» و«لا تفعل».

وهنا قال الحق سبحانه:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٩٦) ﴾ [هود]

فهناك آيات تدل على صدقه، وفوق ذلك سلطان ظاهر، إما أن يكون سلطاناً يقهر الغالب، أو سلطان حجة تقنع العقل.

وسلطان القوة قد يقهر الغالب، لكنه لا يقهر القلب، والله سبحانه يريد قلوباً، لا قوالب؛ لذلك قال سبحانه لرسوله ﷺ:

﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ [(٤)] نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣) إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ (٤) ﴾ [الشعراء]

---

(١) يقول تعالى: ﴿ ..وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٥) ﴾ [الحج]. «أى: فإذا أنزل الله عليها المطر اهتزت أى تحركت بالنبات وحييت بعد موتها، وربت أى: ارتفعت، ثم أنبتت ما فيها من الألوان والفنون من ثمار وزروع» قاله ابن كثير فى تفسيره (٣/ ٢٠٨).

(٢) قال تعالى: ﴿ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا .. (٥٩) ﴾ [الإسراء].

(٣) قال تعالى - حكاية عن عيسى عليه السلام: ﴿ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ .. (٤٩) ﴾ [آل عمران]. والكمه: أن يولد أعمى، أو يفقد بصره، والأبرص: من أصابه مرض جلدى يحدث بقعاً بيضاء فى الجلد تشوهه [القاموس القويم].

(٤) بخع نفسه بخعاً وبخوعاً: قتلها هماً وغيظاً وحزناً. قال تعالى: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا (٦) ﴾ [الكهف]. وقال تعالى: ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣) ﴾ [الشعراء] [القاموس القويم ١/ ٥٦] بتصرف.

إذن: فالحق سبحانه يطلب القلوب لا القوالب ، قلوب تأتى إلى الله تعالى طواعية بدون إكراه.

لذلك فالسلطان الأهم هو سلطان الحجة ؛ لأنه يقنع الإنسان أن يفعل.. ولم يكن لموسى عليه السلام سلطانٌ من القوة ليظهر ، بل كان له سلطان الحجة ، وهو قول الحق سبحانه:

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٤) حَقِيقٌ[1] عَلَىٰ أَن لَّا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٠٥)﴾ [الأعراف]

فيرد عليه فرعون:

﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٠٦) فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ[2] (١٠٧) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ[3] لِلنَّاظِرِينَ (١٠٨)﴾ [الأعراف]

وبياض اليد مسألة ذاتية فى موسى عليه السلام ، وطارئة أيضاً ، فلم تكن مرضاً كالبهاق مثلاً ، بدليل الاحتياط فى قوله تعالى:

﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ[4].. (٢٢)﴾ [طه]

أما العصا فهى الحجة التى دفعت فرعون إلى أن يأتى بالسحرة، ليغلبهم موسى أمام الفرعون والملأ ، فيتبع السحرة موسى ويؤمنوا برب موسى وهارون[5].

---

(١) حقيق على أن: حريص على أن ، أو خليق بأن.. [كلمات القرآن].

(٢) مبين: أى: ظاهر أمره لا يشك فيه. [كلمات القرآن].

(٣) ونزع يده: أخرجها من طوق قميصه. بيضاء: غلب شعاعها شعاع الشمس. [كلمات القرآن].

(٤) إلى جناحك: إلى جنبك تحت العضد الأيسر. [كلمات القرآن].

(٥) قال تعالى: ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ (٧٠)﴾ [طه].

ونحن نعلم أن الحق سبحانه قد أرسل موسى عليه السلام بتسع آيات هى: العصا التى تصير ثعباناً يلقف ما صنع السحرة ، واليد البيضاء من غير سوء ، ثم أخذ آل فرعون بالسنين ، ونقص فى الأنفس والثمرات ، لأن الجدب يمنع الزرع ، ونقص الأموال يحقق المجاعة ، وكذلك أرسل الحق سبحانه على قوم فرعون الطوفان والجراد والقُمَّل والضفادع ، هذه هى الآيات التسع [(١)] التى أرسلها الحق سبحانه على آل فرعون ، بسبب عدم إيمانهم برسالة موسى عليه السلام.

وهناك آيات أخرى أرسلها الحق سبحانه لقوم موسى بواسطة موسى عليه السلام ؛ هى نتق الجبل [(٢)] ، وضرب البحر بالعصا [(٣)] ، ثم ضرب الحجر بالعصا لتتفجر اثنتا عشرة [(٤)] عيناً ، وكذلك نزول التوراة فى ألواح [(٥)].

---

(١) قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ .. (١٠١) ﴾ [الإسراء]. وقال تعالى: ﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (١٠٧) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (١٠٨) ﴾ [الأعراف]. وقال تعالى: ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ .. (١٢) ﴾ [النمل]. وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (١٣٠) فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣١) وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (١٣٢) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ (١٣٣) وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٣٤) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ (١٣٥) فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٣٦) ﴾ [الأعراف].

(٢) قال تعالى: ﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ .. (١٧١) ﴾ [الأعراف]. ونتقه: رفعه من مكانه وحركه وجذبه. [القاموس القويم].

(٣) قال تعالى: ﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٣) ﴾ [الشعراء]. والطود: الجبل الثابت العالى [القاموس القويم ١/ ٤٠٨].

(٤) قال تعالى: ﴿ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا .. (٦٠) ﴾ [البقرة].

(٥) قال تعالى: ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً .. (١٤٥) ﴾ [الأعراف]. والألواح: جمع لوح، وهو الصفحة العريضة من خشب أو غيره يكتب عليه. [القاموس القويم ٢/ ٢٠٦].

إذن: فالكلام فى الآيات التسع المقصود بها الآيات التى أرسل بها موسى إلى فرعون ، أما هذه الآيات فقد كانت بعد الخروج من مصر أو مصاحبة له كضرب البحر بالعصا.

والدليل على أن قصة موسى مع فرعون خاصة ، أن موسى كانت له رسالتان : الرسالة الأولى مع فرعون ، والرسالة الثانية مع بنى إسرائيل.

ولذلك نلحظ أن الحق سبحانه وتعالى يخبرنا فى آخر السورة بالخلاف بين موسى عليه السلام وبنى إسرائيل:

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ .. (١١٠) ﴾ [هود]

إذن: فقصته مع بنى إسرائيل تأتى بعد إيتائه الكتاب ، أى : التوراة.

وهنا يتكلم الحق سبحانه عن آيات موسى عليه السلام مع فرعون فيقول:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٩٦) ﴾ [هود]

أى: سلطان محيط لا يدع للخصم مكاناً أو فكاكاً [1].

ثم يقول الحق سبحانه:

﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ (٩٧) ﴾ [2]

والملأ: هم القوم الذين يملأون العيون ، ويتصدرون المجالس. ويقال: «فلان ملء العين» أى: لا تقتحمه العيون ؛ لأنه واضح ظاهر.

---

(١) الفكاك: فكاك الرهن والأسير: ما فُكَّ به. والمراد به هنا: الهروب [المعجم الوسيط] بتصرف.

(٢) الرشد: ضد الغى والضلال ، وضد السفه وسوء التدبير. ورشد فلان: أصاب وجه الصواب والخير والحق. ونفى الرشد نفى للحق والخير والصواب. [القاموس القويم ١/ ٢٦٥] بتصرف.

فالملأ - إذن - هم أشراف القوم ، وهم - عادة - الذين يزينون للطاغية الاستخفاف بالرعية.

والحق سبحانه يقول:

﴿ فَاسْتَخَفَّ (١) قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٥٤) ﴾ [الزخرف]

وحين يتكلم الحق سبحانه عن فرعون والملأ والقوم ، نجده يبيِّن ويفصل بين الملأ من جهة ، وفرعون من جهة أخرى ، وكذلك يفصل بين الفرعون والملأ من جهة ، والقوم من جهة أخرى . . فلكل طرف من تلك الأطراف الثلاثة أسلوب يعامله الحق سبحانه به.

وهنا يبيِّن لنا الله سبحانه أن الملأ قد اتبعوا أمر فرعون ، هذا الأمر الذى يصفه الحق سبحانه بقوله:

﴿ . . وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ (٩٧) ﴾ [هود]

والرشد يقابله الغيُّ ، وهذا القول يدلنا على أن الملأ من قوم فرعون لم يتدارسوا أمر فرعون بتأنٍّ ، ولم تستقبله عقولهم بالبحث ، وهم لو فعلوا ذلك لما اتبعوا أمر فرعون.

ويبيِّن الحق سبحانه لنا عدم رشد أمر فرعون ، فهو يذكر لنا ما يحدث له يوم القيامة هو وقومه ، فيقول تعالى:

﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ (٩٨) ﴾ (٢)

---

(١) خف الحمل: قل ولم يكن ثقيلاً. ومن المجاز: خف عقله: طاش وحمق. ومنه: استخفه: أى: استضعف عقله وسخره وسيَّره على هواه وحمله على الطيش والحمق. قال تعالى: ﴿ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ .. (٥٤) ﴾ [الزخرف] [القاموس القويم ١/ ٢٠٠].

(٢) يقدم قومه: يتقدمهم كما يتقدم الوارد. فأوردهم النار: أدخلهم فيها بكفره وكفرهم. الورد المورود: المدخل المدخول فيه ، وهو النار. [كلمات القرآن].

وكلمة «يقدم» هى من مادة «القاف» و«الدال» و«الميم». وعند استخدام هذه المادة فى التعبير قولاً أو كتابة ، فهى تدل على الإقبال بالمواجهة؛ فيقال: «قدم فلان» دليل إقباله عليك مواجهة. وإذا قيل: «أقبل فلان» فهذا يعنى الإقبال بشىء من العزم. و«قدم القوم يقدمهم» أى: أنهم يتقدمون فى اتجاه واحد ، ومن يقودهم يتقدمهم.

ويُفهم من هذا أن فرعون اتبعه الملأ ، والقوم اتبعوا الملأ وفرعون ، وما داموا قد اتَّبعوه فى الأولى ؛ فلا بد أن يتبعوه فى الآخرة.

ويأتى القرآن بآيات ويُبيِّنها ، مثل قول الحق سبحانه:

﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا (١) (٦٨) ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا (٦٩) ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا (٧٠) ﴾ [مريم]

فالحق سبحانه ينزع من كل جماعة الأشد فتوة وسطوة ، ويلقيه فى النار ، لأنه أعلم بمن يجب أن يَصْلَى السعير.

ويقول الحق سبحانه:

﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا (٢) كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا (٣) (٧١) ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا (٧٢) ﴾ [مريم]

---

(١) جثياً: باركين على ركبهم لشدة الهول. عتياً: عصياناً ، أو جراءة أو فجوراً. صلياً: دخولاً أو مقاساة لحرها. [كلمات القرآن].

(٢) واردها: أى: بالغُ النار ، وواصل إليها ، فمنهم من يردها ليدخلها ، ومنهم من لا يدخلها ويكون وصوله إليها ورؤيتها ليدرك مقدار نعمة الله سبحانه عليه بالنجاة منها. [القاموس القويم ٢/ ٣٣٠] ، وورد فى [كلمات القرآن] : واردها ، أى: بالمرور على الصراط الممدود عليها.

(٣) حتم الله الأمر حتماً: أوجبه ، وهذا أمر حتم: أى : لازم لا بد منه ولا فكاك عنه. والحتم: القضاء النافذ. قال تعالى: ﴿ .. كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا (٧١) ﴾ [مريم] أى: أن ورود المخاطبين من الكفار النار ليعذبوا فيها هو قضاء نافذ لازم. وقيل: يردها المؤمنون أيضاً ليدركوا مقدار نعمة الله عليهم بالنجاة منها. مقضياً: أى: محكوماً به مفروغاً منه ، لا راد له ، ولا معقب عليه. [القاموس القويم ١/ ١٤١].

ولم يقل الحق سبحانه: « وإنْ منهم إلاّ واردُها » .

وإنما قال: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا .. (٧١) ﴾ [مريم]

وبذلك عمَّم الخطاب للكل ، أو أنه يستحضر الكفار ويترك المؤمنين بمعزل.

وهنا يقول الحق سبحانه عن قوم فرعون:

﴿ .. فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ [1] (٩٨) ﴾ [هود]

وحين تكلم كتاب الله الكريم عن «الورود» ، وهو الكتاب الذى نزل بلسان عربى مبين ، نجد أن الورود يأتى بمعنى الذهاب إلى الماء دون شرب من الماء ، قلت: «ورد يَردُ وروداً» ، وإن أردت التعبير عن شرب الماء مع الورود ، فقل: «وردَ يردُ وِرْداً» بدليل أن الحق سبحانه يقول هنا:

﴿ .. وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ (٩٨) ﴾ [هود]

أى: أنهم يشعرون بالبؤس لحظة أن يروا ماء جهنم ويشربون منه.

إذن: فكلمة «الوِرْد» تطلق على عملية الشرب من الماء ، وقد تطلق على ذات الواردين مثل قوله:

﴿ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا [2] (٨٦) ﴾ [مريم]

---

(١) بئس الورد المورود: أى: بئس الموضع الذى يرده الإنسان فيلاقى فيه العذاب الأليم. [القاموس القويم ٢/ ٣٣٠].

(٢) الورد: الماء أو موضعه ، أو الإبل الواردة على سبيل المجاز. قال تعالى: ﴿ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا (٨٦) ﴾ [مريم] أى: جماعة يردونها ويدخلونها كما ترد الإبل الماء. [القاموس القويم ٢/ ٣٣٠].

وقد قال الشاعر الجاهلى زهير بن أبى سلمى [(١)] فى معلقته :

فَلمَّا وَرَدْنَ الماءَ زُرقاً جِمَامُهُ وَضَعْنَ عِصِىَّ الحاضِرِ الْمُتَخيِّمِ [(٢)]

والشاعر هنا يصف الرَّكْب ساعة يرى المياه الزرقاء الخالية من أى شىء يعكرها أو يُكدِّرها ، فوضع القوم عصا الترحال .

وكان الغالب قديماً أن يحمل كل من يسير عصاً فى يده ، مثل موسى عليه السلام حين قال :

﴿هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ [(٣)] (١٨)﴾ [طه]

ويقول الشاعر [(٤)] :

فألقتْ عصَاها واستقرَّ بها النَّوَى [(٥)] كمَا قَرَّ عيناً بالإياب [(٦)] المُسَافرُ

---

(١) حكيم الشعراء فى الجاهلية ، من قبيلة مضر ، ولد فى بلاد «مزينة» بنواحى المدينة ، كان أبوه وخاله وابناه كعب وبجير شعراء ، وكذلك أختاه سلمى والخنساء . توفى عام (١٣ق هـ) . [انظر : الأعلام لخير الدين الزركلى] .

(٢) الجمام : ما اجتمع منه فى البئر والحوض وغيرها . ووضع العصى : كناية عن الإقامة ، لأن المسافرين إذا أقاموا وضعوا عصيهم . والتخيم : ابتناء الخيمة . [راجع : شرح المعلقات السبع للزوزنى - ص ٨٢] . والمعلقة من بحر الطويل .

(٣) هش الشجر يهشه هشاً : ضربه بعصاً ليسقط ورقه لتأكله الماشية . قال تعالى : ﴿وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى .. (١٨)﴾ [طه] أى : أسقط بعصاى أوراق الأشجار على غنمى لتأكلها .
ومآرب أخرى : أى : حاجات وأغراض كثيرة أخرى كاتقاء ضرر أو غير ذلك . [القاموس القويم ١/ ١٧] بتصرف .

(٤) هو : معقِّر بن حمار . [قاله ابن منظور فى لسان العرب - مادة : نوى] .

(٥) النية والنوى : الوجه الذى ينويه المسافر من قرب أو بعد . والنية والنوى جميعاً : البعد . والنوى : الدار . والنوى : التحول من مكان إلى مكان آخر أو من دار إلى دار غيرها . وقد أورد ابن منظور هذا البيت فى اللسان مادة : نوى .

(٦) الإياب : الرجوع والعودة . آب يؤوب : يرجع . ومنه قوله تعالى : ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (٢٥)﴾ [الغاشية] أى : رجوعهم . والمآب : المرجع ، اسم زمان واسم مكان . [القاموس القويم ١/ ٤٢] .

فساعة رأى الركب المياه زرقاء ، فهذا يعنى أنها مياه غير مكدَّرة.

ونحن نعلم أن المياه لا لون لها ، ولكنها توصف بالزُّرْقة إن كانت خالية من الشوائب ، شديدة الصفاء ، فتنعكس عليها صورة السماء الزرقاء.

والشاعر يصف قومه ساعة أن وصلوا إلى الماء الصافى وتوقفوا وأقاموا فى المكان.

وهكذا نجد أن الورود يعنى الذهاب إلى الماء دون الشرب منه. والورد للماء يُفرح النفس أولاً ، ثم يورده ويرويه ما يشربه منها ، ومن يرد الماء لا شك أنه يعانى من ظمأ يريد أن يرويه ، وحرارة كبد يريد أن يبردها.

وهنا يقول الحق سبحانه:

﴿ .. وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ (٩٨) ﴾ [هود]

وفى هذا تهكم شديد ، لأنهم - قوم فرعون - ساعة يرون الماء يشعرون بقرب رى الظمأ وإبراد الحرارة ، ولكنهم يشربون من ماء جهنم ، فبئس ما يشربون ، فهو يُطمعهم أولاً ، ثم يؤيسهم بعد ذلك.

كما فى قوله سبحانه:

﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِى الْوُجُوهَ [1] .. (٢٩) ﴾ [الكهف]

فهم ساعة يسمعون كلمة «يغاثوا» يفهمون أن هناك فرجاً قادماً لهم ، فإذا ما علموا أنه ماء كالمهل يشوى الوجوه ، عانوا من مرارة التهكم.

ولله المثل الأعلى: فأنت قد تجد من يدعوك لأطايب الطعام ، وبعد ذلك تغسل يديك ، فيلح عليك من دعاك إلى تناول الحلوى ، فتستشرف نفسك

(١) كالمهل: مثل دردى الزيت أو كالمذاب من المعادن. [كلمات القرآن]. والمهل: المعدن المذاب والقطران وعكر الزيت المغلى ، والقيح. [القاموس القويم ٢/ ٢٤٢].

إلى تناول الحلوى ، بينما يكون من دعاك قد أوصى الطباخ أن يخلط الحلوى بنبات «الشطة» فيلتهب جوفك؛ أليس فى هذا تهكم شديد ؟!

والحق سبحانه يبيِّن لهم أن الورد إنما جاء لترطيب الكبد ، لكن أكبادكم ستشتعل بما تشربونه من هذا الماء ، وكذلك الطعام الذى يأكله أهل النار.

والحق سبحانه يقول:

﴿ وَلا طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ غِسْلِينٍ [1] (٣٦) ﴾ [الحاقة]

وهكذا تصير النكبة نكبتين.

وبعض الناس قد فهم قول الحق سبحانه:

﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا .. (٧١) ﴾ [مريم]

بمعنى أنهم جميعاً سوف يَرِدون جهنم.

ولكن الحق سبحانه يقول أيضاً:

﴿ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا (٧٠) ﴾ [مريم]

إذن: فالحق سبحانه يعطى لكل الناس صورة للنار ، فإذا رأى المؤمنون النار وتسعُّرها [2] ، ولم يدخلوها ، عرفوا كيف نجَّتهم كلمة الإيمان منها فيحمدون الله سبحانه وتعالى على النجاة.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

---

(١) الغسلين: غسالة أبدان أهل النار ، أو ما يسيل من جلود أهل النار من القيح وغيره مما تعافه النفس وتكرهه. قال تعالى: ﴿ وَلا طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ غِسْلِينٍ (٣٦) ﴾ [الحاقة] . [القاموس القويم ٢/ ٥٤].

(٢) سعرت النار: اشتعلت ، وأسعرها: أوقدها وهيجها. وسعرها - بالتشديد - : هيجها. قال تعالى: ﴿ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ (١٢) ﴾ [التكوير] أى: أوقدت بشدة. [القاموس القويم ١/ ٣١٣].

﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ (٩٩)﴾ (١)

أى: أن اللعنة قد بقيت لهم ، وما زلنا نحن المسلمين نلعنهم إلى الآن ، ثم يصيرون إلى اللعنة الكبرى ، وهى لعنة يوم القيامة : ﴿بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ (٩٩)﴾ والرفد: هو العطاء ، فهل تعد اللعنة فى الآخرة عطاءً ؟

إن هذا تهكم منهم أيضاً ، مثلها مثل قول الحق سبحانه:

﴿.. وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ (٩٨)﴾ [هود]

ثم يقول الحق سبحانه:

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ (١٠٠)﴾ (٢)

وقد أهلك الحق سبحانه تلك القرى بالعذاب ؛ لأنها كذَّبت أنبياءها. والخطاب موجَّه لرسول الله ﷺ لتثبيت فؤاده ، والحق سبحانه إنما يبيِّن له أن الكافرين لن يكونوا بمنجًى من العذاب ؛ كما أخذ الله سبحانه الأمم السابقة الكافرة بالعذاب.

وقول الحق سبحانه:

---

(١) رفده يرفده رفداً: أعطاه وأعانه. والرفد: العطاء والمعونة. قال تعالى: ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ (٩٩)﴾ [هود] أى: العطاء المعطى لهم ، وهو اللعنة التى أتبعوها فى الدنيا والآخرة ، وسمَّى اللعنة رفداً تهكماً وسخرية. [القاموس القويم ١/ ٢٧٠].

(٢) قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ (١٠٠)﴾ [هود] أى: منها باق ، ومنها هالك. وقال تعالى: ﴿.. حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ (١٥)﴾ [الأنبياء] أى: جعلناهم كالزرع المحصود ، أى: أهلكناهم. [القاموس القويم ١/ ١٥٦].

﴿ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ .. (١٠٠) ﴾ [هود]

يتطلب أن نفرِّق بين المعنى الشائع عن القصة ، والمعنى الحقيقى لها ، فبعض الناس يقول: إن القرآن فيه قصص ، والقصص عادة تمتلىء بالتوسع ، وتوضع فيها أحداث خيالية من أجل الحبكة.

ولهؤلاء نقول: أنتم لم تفهموا معنى كلمة «القصة» [1] فى اللغة العربية ، لأنها تعنى - فى لغتنا - الالتزام الحرفى بما كان فيها من أحداث ، فهى مأخوذة من كلمة: «قصّ [2] الأثر» ، ومن يقص الأثر إنما يتتبع مواقع الأقدام إلى أن يصل إلى الشىء المراد.

إذن: فقصص [3] القرآن يتقصى الحقائق ولا يقول غيرها ، أما ما اصطُلح عليه فى عرف العامة أنه قصص ، بما فى تلك القصص من خيالات وعناصر مشوقة ، فهذا ما يُسمَّى - لغوياً - بالروايات ، ولا يُعتبر قصصاً.

وقصص الإهلاك للأمم التى كفرت إنما هو عبرة لمن لا يعتبر ، والناس تعلم أن ما رواه القرآن من قصص هو واقع تدل عليه آثار الحضارات التى اندثرت ، وبقيت منها بقايا أحجار ونقوش على المقابر.

---

(١) قص الكلام أو الأخبار ، يقصها قصاً وقصصاً: تتبعها ورواها وحكاها. قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لا تَخَفْ .. (٢٥) ﴾ [القصص] أى: قص عليه أخباره وحدَّثه بها. وقال تعالى: ﴿ وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ .. (١٦٤) ﴾ [النساء] أى: ورسلاً ذكرنا لك أخبارهم ، ورسلاً لم نذكر لك أخبارهم. [القاموس القويم ٢/ ١٢٠].

(٢) قص الأثر قصصاً: تتبعه. ومنه قوله: ﴿ .. فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا (٦٤) ﴾ [الكهف] أى: يتتبعان آثارهما تتبعاً. [القاموس القويم ٢/ ١٢٠].

(٣) القصص: مصدر يطلق على ما يروى من الأخبار. قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِى الأَلْبَابِ .. (١١١) ﴾ [يوسف] ، وقال تعالى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ .. (٣) ﴾ [يوسف]. وقال تعالى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ .. (١٣) ﴾ [الكهف]. [القاموس القويم ٢/ ١٢٠].

ونحن نجد فى آثار الحضارات السابقة ما هو قائم من بقايا أعمدة ونقوش ، ومنها ما هو مُحطَّم.

ولذلك يقول الحق سبحانه فى موضع آخر من القرآن:

﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٣٨)﴾ [الصافات]

أى: أنكم تشاهدون من الآثار ما هو قائم وما هو حطيم.

ويقول الحق سبحانه عن تلك القرى:

﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ (١٠١)﴾ (١)

ويبيِّن الحق سبحانه هنا أنه حين أخذ تلك الأقوام بالعذاب لم يظلمهم ؛ لأن معنى الظلم أن يكون لإنسانٍ الحق ، فتسلبه هذا الحق.

وفى واقع الأمر أن تلك الأمم التى كفرت وأخذها الله بالعذاب ، هى التى ظلمت نفسها بالشرك ، وكذَّبت تلك الأقوام الرسل الذين جاءوا وفى يد كل منهم دليل الصدق وأمارات الرسالة.

وهكذا ظلم هؤلاء الكفار أنفسهم ؛ لذلك لا بد أن نعلم أن الحق سبحانه مُنزَّه عن أن يظلم أحداً.

---

(١) التتبيب: الإهلاك والتخسير. والتباب: الهلاك. قال تعالى: ﴿.. وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلاَّ فِي تَبَابٍ (٣٧)﴾ [غافر]. وتبَّبه تتبيباً: أهلكه. قال تعالى: ﴿.. وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ (١٠١)﴾ [هود]. [القاموس القويم ١/٩٦].

وهم حين أشركوا بالله - تعالى - آلهة أخرى ، لماذا لم تتحرك تلك الآلهة المزعومة وتتدخل لتحمى مَنْ آمنوا بها ؟!

ويخبرنا الحق سبحانه أن الحجارة التى عبدوها تلعنهم ، وهم فى النار ، وهذه الأحجار تكون وقوداً للنار.

والحق سبحانه يقول عن النار:

﴿ فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ [1] .. (٢٤) ﴾ [البقرة]

وهؤلاء الذين عبدوا واحداً من الناس أو بعضاً من الأصنام ، إنما تجنَّوا ، بالجهل على هذا الإنسان الذى عبدوه أو تلك الأحجار التى صلَّوا لها أو قدَّسوها.

والشاعر المسلم تأمل غار حراء وغار ثور - وكلاهما من الأحجار - فوجد أن غار حراء قد شهد نزول الوحى على الرسول ﷺ ، وغار ثور حمى رسول الله ﷺ حين اختفى فيه ومعه الصديق أبو بكر فى أثناء الهجرة من مكة إلى المدينة ، فتخيل الشاعر أن غار ثور قد حسد غار حراء وقال:

كَمْ حَسَدْنَا حِراءً حينَ يَرى الرُّوحَ ... أمينـاً يَغْـزُوكَ بالأنْـوَارِ
فَحِـراءٌ وثَـوْرٌ صَـارَا سَـواءً ... بِهما تَشفَّعْ لأمَّةِ الأحْجَارِ

فغار حراء شهد جبريل عليه السلام وهو يهبط بالنور على محمد ﷺ ، لكن غار ثور نال أيضاً الشرف لحمايته الرسول فى الهجرة.

---

(١) الوقود: ما تشتعل به النار من حطب وغيره. قال تعالى: ﴿ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ (٥) ﴾ [البروج] أى: ذات الحطب الذى يلقى فيها ليزيدها اشتعالاً؛ وذلك يدل على حرص الكفار القاعدين حولها على زيادة اشتعالها ليعذبوا بها المؤمنين أشد العذاب - كما حدث فى قصة أصحاب الأخدود - ولكن النار فى الآخرة يكون وقودها الناس والحجارة ، والمراد بالناس هنا: الكفار والعصاة الذين يكون مصيرهم إلى النار. قال تعالى: ﴿ .. وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ (١٠) ﴾ [آل عمران] . [القاموس القويم ٢/ ٣٤٨] بتصرف.

ويقول الشاعر على لسان الأحجار:

عَبَدُونا ونَحْنُ أعْبَدُ لله ... مِنَ القائمينَ بالأسْحَارِ [(١)]

قَدْ تَجنَّوا جَهْلاً كمَا قَدْ تجَنَّوا ... علَى ابنِ مَرْيَمَ والحَوَارِى [(٢)]

لِلمُغَالِى جَزَاؤهُ والمُغَالَى فيه ... تُنْجِيه رَحْمَةُ الغَفَّارِ

وهكذا لا تُغنى عنهم آلهتهم المعبودة شيئاً سواء أكانت بشراً أم حجارة، لم تُغْنِ عنهم شيئاً ولم ترفع عنهم العذاب الذى تلقوه عقاباً فى الدنيا وسعيراً فى الآخرة، وإذا كانوا قد دعوهم من دون الله فى الدنيا، فحين جاء العذاب لم تتقدم تلك الآلهة لتحميهم من العذاب.

ويُنهى الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله:

﴿.. وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ (١٠١)﴾ [هود]

أى: أن تخلّى تلك الآلهة التى أشركوها مع الله تعالى أو عبدوها من دون الله .. هذا التخلى يزيدهم ألماً وإهلاكاً نفسياً وتخسيراً، لأن التتبيب هو القطع والهلاك.

والحق سبحانه يقول:

﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ [(٣)] (١)﴾ [المسد]

---

(١) الأسحار: جمع السحر. بفتح السين والحاء. وهو الجزء الأخير من الليل إلى مطلع الفجر. قال تعالى: ﴿.. وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ (١٧)﴾ [آل عمران]، وقال: ﴿وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨)﴾ [الذاريات]. [القاموس القويم ١/ ٣٠٥].

(٢) الحوارى: هم الحواريون، وهم الخلصاء والأصفياء للأنبياء. قال تعالى: ﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ .. (٥٢)﴾ [آل عمران] والحوارى: الخالص النقى من كل شىء. [القاموس القويم ١/ ١٧٧].

(٣) تب يتب تباً وتباباً: خسر وهلك. قال تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ (١)﴾ [المسد] وهو دعاء عليه بالخسران والهلاك. ودعا عليه أولاً بأن تهلك يداه لأنهما آلة البطش والإيذاء. [القاموس القويم ١/ ٩٦].

كذلك الأخذ الذى أخذ الله به القرى التى كذَّبت أنبياءها.

لذلك يقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (١) ﴿١٠٢﴾﴾

أى: أن الأخذ الذى أخذ به الله القرى الكافرة، إنما هو مثل حى لكل من يكفر.

والحق سبحانه يقول:

﴿وَالْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴿٤﴾ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ (٢) ﴿٥﴾﴾ [الفجر]

أى: أن الحق سبحانه يقسم لعل كل صاحب عقل يستوعب ضرورة الإيمان، ويضرب الأمثلة بالقوم الذين جاءهم الأخذ بالعذاب، فيقول سبحانه:

---

(١) الأليم: المؤلم شديد الإيلام والوجع. قال تعالى: ﴿.. وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾﴾ [البقرة]. والألم: الوجع الشديد. [القاموس القويم ١/ ٢٦] بتصرف.

(٢) والفجر: قسم من الله تعالى بالوقت المعروف (وقت الفجر).

وليال عشر: العشر الأول من ذى الحجة.

والشفع والوتر: يوم النحر، ويوم عرفة.

والليل إذا يسر: إذا يمضى ويذهب أو يُسار فيه.

هل فى ذلك: أى: فى المذكور الذى أقسمنا به.

قسم لذى حجر؟: مقسم به حقيق بالتعظيم لدى العقلاء - نعم - (وجواب القسم) لنعذبن الكافرين.

[كلمات القرآن] للشيخ حسنين محمد مخلوف.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (٨) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (١٠) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ [1] (١٤)﴾ [الفجر]

فهو سبحانه قد أخذ كل هؤلاء أخذ العزيز المقتدر.

وقوله سبحانه هنا:

﴿وَكَذَلِكَ .. (١٠٢)﴾ [هود]

أى: مثل الأخذ الذى أخذَتْ به القرى التى كذَّبت رسلها، فظلمت نفسها.

والأخذ هنا عقاب على العمل، بدليل أنه أنجى شعيباً عليه السلام وأخذ قومه بسبب ظلمهم، فالذات الإنسانية بريئة، ولكن الفعل هو الذى يستحق العقاب.

ومثال ذلك: نجده فى قصة نوح عليه السلام حين قال له الحق سبحانه:

﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ .. (٤٦)﴾ [هود]

فالذى وضع ابن نوح فى هذا الموضع هو أن عمله غير صالح؛ لذلك فلا يقولن نوح: إنه ابنى.

---

(١) بعاد: قوم هود، سُموا باسم أبيهم.
إرم: هو اسم جدهم وبه سميت القبيلة.
ذات العماد: الشدة، أو الأبنية الرفيعة المحكمة بالعَمَد.
جابوا الصخر: قطعوه ونحتوا فيه بيوتهم.
ذى الأوتاد: الجيوش الكثيرة التى تشد ملكه.
سوط عذاب: عذاباً شديداً مؤلماً دائماً.
إن ربك لبالمرصاد: يرقب أعمالهم ويجازيهم عليها. [كلمات القرآن].

فليس الإهلاك بعلَّة الذات والدم والقرابة ، بل الإهلاك بعلة العمل ، فأنت لا تكره شخصاً يشرب الخمر لذاته ، وإنما تكرهه لعمله ، ونحن نعلم أن البنوة للأنبياء ليست بنوة الذوات ، وإنما بنوة الأعمال.

وكذلك نجد الحق سبحانه ينبه إبراهيم عليه السلام ألا يدعو لكل ذريته ، فحين كرَّم الحق سبحانه إبراهيم عليه السلام وقال:

﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا [1] .. (١٢٤) ﴾ [البقرة]

جاء الطلب والدعاء من إبراهيم عليه السلام لله تعالى:

﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِي [2] .. (١٢٤) ﴾ [البقرة]

لأن إبراهيم عليه السلام أراد أن تمتد الإمامة إلى ذريته أيضاً ، فجاء الرد من الله سبحانه:

﴿ .. لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (١٢٤) ﴾ [البقرة]

وظلت هذه القضية فى بؤرة شعور إبراهيم عليه السلام ، وعلم تماماً أن البنوَّة للأنبياء ليست بنوة ذوات ، بل هى بنوة أعمال.

---

(١) قوله تعالى: ﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا .. (١٢٤) ﴾ [البقرة] أى: قدوة يقتدى بك الناس. ويقول تعالى: ﴿ يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ .. (٧١) ﴾ [الإسراء] أى: برسولهم فيقال: يا أتباع إبراهيم ، وأمة موسى ، ويا أمة محمد - أو بكتابهم ، فيقال: يا أمة التوراة ، ويا أمة الإنجيل ، ويا أمة القرآن. [القاموس القويم ١/ ٣٣].

(٢) الذرية: للمفرد والمثنى والجمع والمذكر والمؤنث من نسل الإنسان. قال تعالى: ﴿ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ .. (٢٦٦) ﴾ [البقرة] وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ .. (٢٦) ﴾ [الحديد] وقال تعالى: ﴿ .. وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٣٦) ﴾ [آل عمران] وقال تعالى: ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ .. (١٢٨) ﴾ [البقرة] وقال تعالى: ﴿ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ .. (٧٤) ﴾ [الفرقان] بالجمع ، وقال تعالى: ﴿ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ .. (٨٧) ﴾ [الأنعام] بالجمع ، ورسمت بغير ألف فى المصحف. وقال تعالى: ﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (١٢٤) ﴾ [البقرة]. [القاموس القويم ١/ ٢٤٢] بتصرف.

ولذلك نجد دعاء إبراهيم عليه السلام حين نزل بأهله فى وادٍ غير ذى زرع ، وقال :

﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ .. (١٢٦) ﴾ [البقرة]

وهنا انتبه إبراهيم عليه السلام وأضاف :

﴿ مَنْ آمَنَ مِنْهُم .. (١٢٦) ﴾ [البقرة]

فجاء الرد من الحق سبحانه موضحاً خطأ القياس؛ لأن الرزق عطاء ربوبية يستوى فيه المؤمن والكافر ، والطائع والعاصى؛ فلا تخلط بين عطاء الربوبية [1] وعطاء الألوهية ؛ لأن عطاء الألوهية تكليف ، وعطاء الربوبية رزق ، لذلك قال الحق سبحانه :

﴿ ..وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٢٦) ﴾ [البقرة]

فأنت يا إبراهيم دعوتَ برزق الأهل بالثمرات لمن آمن ، لأن بؤرة شعورك تعى الدرس ، لكن هناك فرقاً بين عطاء الألوهية فى التكليف ، وعطاء الربوبية فى الرزق ، فمن كفر سيرزقه ربه ، ويمتعه قليلاً ثم يكون له حساب آخر.

إذن: فأخْذُ الحق سبحانه للظالمين بكفرهم هو عنف التناول لمخالف ، وتختلف قوة الأخذ بقوة الآخذ ، فإذا كان الآخذ هو الله سبحانه ، فهو أخْذ عزيز مقتدر.

وهو أخذ لمن ظلموا أنفسهم بقمة الظلم وهو الكفر ، وإن كان الظلم لحقوق الآخرين فهو فسق ، وأيضاً ظلم النفس فسق؛ لأن الحق سبحانه حين يُحرِّم عليك أن تظلم غيرك فهو قد حرَّم عليك أيضاً ظلم نفسك.

---

(١) عطاء الربوبية عام ، وعطاء الألوهية خاص ، فالعطاء العام لكل مخلوق ، والعطاء الخاص لأهل التكليف عن الإيمان السخى واليقين النقى . من حكم الشيخ .

ويصف الحق سبحانه أخذه للظالمين بقوله:

﴿ .. إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (١٠٢) ﴾ [هود]

أى: أن أخذه موجع على قدر طلاقة قدرته سبحانه.

وهَبْ أن إنساناً أساء إلى إنسان، فالحق سبحانه أعطى هذا الإنسان أن يرد السيئة بسيئة، حتى لا تتراكم الانفعالات وتزداد.

لذلك يقول الحق سبحانه:

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم (١) بِهِ .. (١٢٦) ﴾ [النحل]

حتى لا تبيت انفعالاتك عندك قهراً، ولكن من كان لديه قوة ضبط النزوع فعليه أن ينظر فى قول الحق سبحانه:

﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ (٢) .. (١٣٤) ﴾ [آل عمران]

إذن: فإما أن ترد السيئة بعقاب مماثل لها، وإما أن تكظم غيظك، أى: لا تُترجم غيظك إلى عمل نزوعى، وإما أن ترتقى إلى الدرجة الأعلى وهى أن تعفو؛ لأن الله تعالى يحب من يحسن بالعفو (٣).

---

(١) عاقبه عقاباً: جازاه سوءاً بما فعل. قال تعالى: ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ .. (١٢٦) ﴾ [النحل].
والعقاب والمعاقبة: إيقاع الجزاء على المذنب. قال تعالى: ﴿ .. إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ (٤٣) ﴾ [فصلت]. [القاموس القويم ٢/ ٢٩].

(٢) الكاظمين الغيظ: الحابسين غيظهم فى قلوبهم. [كلمات القرآن]. وكظم الغيظ: إمساكه وحبسه فى النفس والصبر عليه. [القاموس القويم ٢/ ١٦٣].

(٣) يقول الله سبحانه: ﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣) الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤) ﴾ [آل عمران].
ويقول الحق سبحانه أيضاً: ﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) ﴾ [فصلت].

ولذلك حين سألوا الحسن البصرى : كيف يُحسِن الإنسان إلى من أساء إليه ؟

أجاب: إذا أساء إليك عبد ، ألاَ يُغضب ذلك ربه منه ؟ قالوا: نعم. قال: وحين يغضب الله من الذى أساء إليك ؛ ألا يقف إلى جانبك ؟ أفلا تحُسِن إلى من جعل الله يقف إلى جانبك ؟

ولهذا السبب يُروى عن أحد الصالحين [(١)] أنه سمع أن شخصاً اغتابه ؛ فأهدى إليه - مع خادمه - طبقاً من بواكير [(٢)] الرطب ، وتعجب الخادم متسائلاً: لماذا تهديه الرطب وقد اغتابك ؟

قال العارف بالله: بلِّغْهُ شكرى وامتنانى لأنه تصدَّق علىَّ بحسناته عندما اغتابنى ، وحسناته - بلا شك - أنفَسُ من هذا الرطب.

ولذلك يقال: إن الذى يعفو أذكى فهماً ممن عاقب ، لأن الذى يعاقب إنما يعاقب بقوته ؛ والذى يعفو فهو الذى يترك العقاب لقوة الله تعالى، وهى قوة لا متناهية.

وهكذا نفهم قول الحق سبحانه:

﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ [(٣)] وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (١٠٢) ﴾ [هود]

---

(١) هو الحسن البصرى ، روى أن رجلاً قال له : إن فلاناً قد اغتابك فبعث إليه رطباً على طبق وقال : قد بلغنى أنك هديت إلىَّ من حسناتك فأردت أن أكافئك عليها فاعذرنى فإنى لا أقدر أن أكافئك على التمام . أورده الغزالى فى الإحياء (٣/ ١٥٤) .

(٢)البواكير : جمع باكور أو باكورة، وهى أول ما يُدرك من الثمر. وهى أيضاً المعجَّل من كل شىء. [المعجم الوسيط : مادة (ب ك ر)] بتصرف.

(٣) القرى: جمع قرية وهى البلدة الكبيرة وتكون أقل من المدينة، أو هى كل مكان اتصلت به الأبنية. قال تعالى:﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا .. (٨٢) ﴾ [يوسف] أى: أهل القرية، مجاز مرسل علاقته المحلية. وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلا نَاصِرَ لَهُمْ (١٣) ﴾ [محمد] والمراد: أهلها أشد من أهل مكة الذين أخرجوك. وقوله تعالى: ﴿ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ .. (١٠٢) ﴾ [هود] أى: أخذ أهلها وهم ظالمون. [القاموس القويم : مادة (ق ر ى)].

أى: أخذٌ موجعٌ على قدر قوة الله سبحانه ؛ وهو أخذ شديد ؛ لأن الشدة تعنى: جمع الشىء إلى الشىء بحيث يصعب انفكاكه ؛ أو أن تجمع شيئين معاً وتقبضهما بحيث يصعب تحلل أى منهما عن الآخر.

وهذه أقوى غاية القوة .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾﴾

من يخاف عذاب الآخرة ، فإن هذه الآيات التى تخبر عن الذى حدث للأمم السابقة ، إنما تلفته إلى ضرورة الإيمان بأن الله سبحانه يحاسب كل إنسان على الإيمان وعلى العمل.

ومن يسمع لقصص الأقوام السابقة ؛ ويعتبر بما جاء فيها ؛ وينتفع بالخبرة التى جاءت منها ؛ فهو صاحب بصيرة نافذة ؛ فكل ما حدث للأقوام السابقة آيات ملفتة.

ولذلك يقال: «إن لكل آية مواليد ؛ هى العبر بالآيات» ومن لا يؤمن فهو لن يعتبر ؛ مصداقاً لقول الحق سبحانه:

---

(١) مجموع: اسم مفعول من جمع. والأمر الجامع: الأمر العظيم الذى يجتمع الناس له. والجامع: اسم فاعل من جمع، وهو من أسماء الله الحسنى. قال تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ .. ﴿٩﴾﴾ [آل عمران] وقال تعالى:﴿وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ .. ﴿٦٢﴾﴾ [النور] [القاموس القويم: مادة (ج م ع)].

(٢) مشهود : اسم مفعول، قال تعالى : ﴿ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [هود] أى: حضره الناس، وشاهدوا هوله أو حضرته ملائكة العذاب، وقوله:﴿ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾﴾ [الإسراء] أى: إن قرآن الفجر تشهده الملائكة وتسجل ثوابه. ومشهد: اسم مكان، واسم زمان ومصدر ميمى، كما فى قوله تعالى:﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾ [مريم] [القاموس القويم : بتصرف ص ٣٥٩ جـ١]

﴿ وَكَأَيِّن (١) مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (٢) (١٠٥) ﴾ [يوسف]

إذن: فقد شاء الحق سبحانه أن يلفتنا بالآيات لنعتبر بها ونكون من أولى الألباب(٣) ؛ فلا ندخل فى دائرة من لا يخافون العذاب ؛ أولئك الذين يتلقّون العذاب خزياً فى الدنيا وجحيماً فى الآخرة ؛ وعذاب الآخرة لا نهاية له ؛ والفضيحة فيه أمام كل الخلق.

لذلك قال الحق سبحانه:

﴿ .. ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ (١٠٣) ﴾ [هود]

أى: أن الفضيحة فى هذا اليوم تكون مشهودة من كل البشر ؛ من لدن آدم إلى آخر البشر ؛ لذلك تكون فضيحة مدوية أمام من يعرفهم الإنسان ؛ وأمام من لا يعرفهم.

وقول الحق سبحانه:

﴿ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ .. (١٠٣) ﴾ [هود]

وكلمة «مجموع» تقتضى وجود «جامع» ؛ و«المجموع» يتناسب مع قدرة «الجامع» ؛ فما بالنا والجامع هو الحق الخالق لكل الخلق سبحانه وتعالى.

ولا يجتمع الخلق يومها عن غفلة ؛ بل يجتمعون وكلهم انتباه ؛ فالحق سبحانه يقول:

---

(١) ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ .. (١٠٥) ﴾ [يوسف]: أى: كم من آية. أو كثير من الآيات. [كلمات القرآن للشيخ حسنين مخلوف].

(٢) معرضون: اسم فاعل من «أعرض»، وأعرض عن الشىء: ولّى منصرفاً عنه غير راغب فيه. قال تعالى: ﴿ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ .. (٨٣) ﴾ [الإسراء]. [القاموس القويم: مادة: (ع ر ض)].

(٣) الألباب: جمع لب. وهو العقل. وقد وردت فى القرآن ١٦ مرة. يقول تعالى: ﴿ .. إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الأَلْبَابِ (١٩) ﴾ [الرعد].

﴿ .. إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ (٤٢) ﴾ [إبراهيم]

ويقول الحق سبحانه أيضاً:

﴿ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا .. (٩٧) ﴾ [الأنبياء]

وهنا يقول سبحانه :

﴿ .. وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ (١٠٣) ﴾ [هود]

أى: أن كل الخلق سيشهدون هذا الفضح المخزى لمن لم يعتبر بالآيات.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك فى ميعاد هذا اليوم:

﴿ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ (١٠٤) ﴾ (١)

وهكذا نعلم أن تأخر مجىء يوم القيامة ؛ لا يعنى أنه لن يأتى ؛ بل سوف يأتى - لا محالة- ولكن لكل حدث ميعاد ميلاد ، ولكم فى تتابع مواليدكم ما يجعلكم تثقون بأن مواليد الأحداث إنما يحددها الله.

وقول الحق سبحانه:

﴿ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلاَّ لأَجَلٍ .. (١٠٤) ﴾ [هود]

يتطلب أن نعرف أن كلمة «الأجل» تطلق مرة على مدة عمر الكائن من لحظة ميلاده إلى لحظة نهايته.

---

(١) معدود: اسم مفعول من الفعل (عدَّ). قال تعالى: ﴿ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ..(٨٠) ﴾ [البقرة] أى: محسوبة قليلة، هى أيام شهر رمضان. وقال تعالى: ﴿ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلاَّ لأَجَلٍ مَّعْدُودٍ (١٠٤) ﴾ [هود] وقال تعالى: ﴿ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (٩٤) ﴾ [مريم]. والأجل: مدة الشىء وغاية الوقت ووقت الحياة أو وقت الدَّين أو وقت الموت. والمراد به هنا يوم القيامة. [القاموس القويم: (مادة ع د د) ، و(مادة أ ج ل)] بتصرف.

والحق سبحانه يقول:

﴿ .. لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ (١) (٣٨) ﴾ [الرعد]

وتطلق كلمة «الأجل» مرة أخرى على لحظة النهاية وحدها ، مصداقاً لقول الحق سبحانه:

﴿ ..فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ (٢) (٣٤) ﴾[الأعراف]

ولنعرف جميعاً أن كل أجل - وإن طال - فهو معدود ، وكل معدود قليل مهما بدا كثيراً ؛لذلك فَلْنقُلْ أن كل معدود قليل، ما دُمْنَا قادرين على إحصائه.

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك:

﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ (١٠٥) ﴾ (٣)

---

(١) الكتاب: له عدة معان، منها: القرآن، والتوراة، والإنجيل، والرسالة، ومصدر كتب، ويسمى به ما كتب وسجل فى صحف، ومصدر كاتب. قال تعالى: ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ .. (٢) ﴾ [البقرة] وقال تعالى: ﴿ اذْهَب بِّكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ .. (٢٨) ﴾ [النمل] . وقال تعالى: ﴿ وَأُولُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ .. (٦) ﴾ [الأحزاب] أى: فى حكمه وتقديره أو فى القرآن الكريم فى آيات المواريث. وقال تعالى: ﴿ لَوْلا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ .. (٦٨) ﴾ [الأنفال] أى: ولولا قضاء من الله من قبل سجّله سبحانه عنده؛ فلا تغيير له، وهو إباحة الفداء. وقال تعالى: ﴿ .. لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ (٣٨) ﴾ [الرعد] أى: موعد مكتوب مسجل عند الله. وقال تعالى: ﴿ .. إِنَّ الصَّلاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا (١٠٣) ﴾ [النساء] أى: فرضاً مسجلاً عنده سبحانه، كل صلاة فى وقت وفى ميعاد محدد معين. [القاموس القويم: مادة (ك ت ب)] بتصرف.

(٢) تأخر واستأخر: ضد تقدم. قال تعالى: ﴿ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلا تَسْتَقْدِمُونَ (٣٠) ﴾ [سبأ] أى: لا تتأخرون ولا تطلبون التأخير ولا التأجيل، ولا تتقدمون لأنه محدد بوقت معلوم يستحيل تقديمه أو تأخيره. [القاموس القويم : مادة (أ خ ر)].

(٣) شقى شقاً وشقاءً وشقاوة: ساءت حالته المادية أو المعنوية، فهو شقىٌّ. واسم التفضيل: أشقى. قال تعالى: ﴿ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا .. (١٠٦) ﴾ [المؤمنون] أى: حالة الشقاء والضلال وفساد النفوس. والشقى: المحروم من الخير. قال تعالى:﴿ .. وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا (٤) ﴾ [مريم] ، أى: لم يسبق لى أن كنت محروماً من الخير حين أدعوك. [القاموس القويم: مادة (ش ق ى)].

وهنا جمع الحق سبحانه جماعة فى حكم واحد ، فقوله تعالى :

﴿ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ .. (١٠٥) ﴾ [هود]

يعنى: لا تتكلم أى نفس[1] إلا بإذن الله ، وقد كانوا يتكلمون فى الحياة الدنيا بطلاقة القدرة التى منحهم إياها الله سبحانه حين أخضع لهم جوارحهم.

وجعل الحق سبحانه الجوارح مؤتمرة بأمر الإنسان ؛ وشاء سبحانه أن يجعل بعضاً من خلقه نماذج لقدرته على سلب بعض تلك الجوارح؛ فتجد الأخرس الذى لا يستطيع الكلام ؛ وتجد المشلول الذى لا يستطيع الحركة ؛ وتجد الأعمى الذى لا يبصر ، وغير ذلك..

وبتلك النماذج يتعرف البشر على حقيقة واضحة هى أن ما يتمتعون به من سيطرة على جوارحهم هو أمر موهوب لهم من الله تعالى ؛ وليست مسألة ذاتية فيهم.

وقول الحق سبحانه:

﴿ يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ .. (١٠٥) ﴾ [هود]

يبيِّن لنا سبحانه حقيقة تسخير الجوارح لطاعتنا فى الدنيا ، فهى ترضخ لإرادتنا ؛ لأنه سبحانه شاء أن يسخرها لأوامرنا ولانفعالاتنا ، ولا أحد فينا يتكلم إلا فى إطار الإذن العام للإرادة أن تنفعل لها الجوارح.

وقد يسلب الله سبحانه هذا الإذن فلا تنفعل الجوارح للإرادة ، فتجد الحق سبحانه يقول فى آية أخرى:

﴿ لاَّ يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا (٣٨) ﴾ [النبأ]

---

(١) النفس: الروح وذات الشىء وحقيقته مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ.. (١٨٩) ﴾ [الأعراف] هى نفس آدم عليه السلام، وقوله : ﴿ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي .. (١١٦) ﴾ [المائدة] أى: ما أستره فى ضميرى، وقوله : ﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي.. (٥٣) ﴾ [يوسف] أى: ذاتى وقوله : ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا.. (٧٢) ﴾ [البقرة] أى: إنساناً والنفس لها حالات، فتكون أمّارة، وتكون لوّامة، وتكون مطمئنة وراضية، وترتفع درجتها لتكون مرضية قد رضى الله عنها وأرضاها، وقوله تعالى: ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ.. (٢٨) ﴾ [آل عمران] أى: غضبه [القاموس القويم ص ٢٧٨ جـ ٢]

ويقول الحق عز وجل فى آية أخرى:

﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٧) ﴾ [الصافات]

وهناك آية أخرى يقول فيها الحق سبحانه:

﴿ هَذَا يَوْمُ لا يَنطِقُونَ(٣٥)وَلا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ (٣٦) ﴾ [المرسلات]

ويقول الحق سبحانه أيضاً:

﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ [1] عَن نَّفْسِهَا .. (١١١) ﴾ [النحل]

وفى موضع آخر يقول سبحانه:

﴿ وَقِفُوهُمْ [2] إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ (٢٤) ﴾ [الصافات]

وهكذا قد يُخيَّل للبعض أن هناك آيات تناقض بعضها ؛ فهناك آيات تسمح بالكلام ، وهناك آيات تنفى القدرة على الكلام.

وأقول: يجب أن نفهم أن الكلام الذى سيعجز الأشقياء عن نطقه يوم القيامة هو الكلام المجدى النافع [3] ، وسيتكلم البعض كلام السفسطة الذى لا يفيد ، مثل لومهم بعضهم البعض ؛ وذكره لنا القرآن فى قوله سبحانه:

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلاَّنَا [4] مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا .. (٢٩) ﴾ [فصلت]

---

(١) جادل: خاصم بالحق، وبالباطل، واستعمل فى الباطل فى قوله تعالى: ﴿ هَا أَنتُمْ هَؤُلاء جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. (١٠٩) ﴾ [النساء] ، واستعمل فى الحق فى قوله تعالى: ﴿ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ .. (١٢٥) ﴾ [النحل] ، وقد نهى الله حجاج بيته عن الجدال بكل أنواعه صيانة لعلاقة المحبة بينهم. قال تعالى: ﴿ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ .. (١٩٧) ﴾ [البقرة] [القاموس القويم: مادة (ج د ل)].

(٢) قفوهم: احبسوهم فى موقف الحساب. [كلمات القرآن للشيخ حسنين مخلوف].

(٣) أى: أنهم لا ينطقون بحجة تجب لهم، وإنما يتكلمون بالإقرار بذنوبهم، ولوم بعضهم بعضاً، وطرح بعضهم الذنوب على بعض، فأما التكلم والنطق بحجة لهم فلا، وهذا كما تقول للذى يخاطبك كثيراً، وخطابه فارغ عن الحجة: ما تكلمت بشىء، وما نطقت بشىء، فسمى من يتكلم بلا حجة فيه له غير متكلم. قاله القرطبى فى تفسيره (٤/٣٤١٧).

(٤) أضل فلان غيره: أوقعه فى الضلال. والضلال: النسيان والضياع. قال تعالى: ﴿ .. وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٣٠) ﴾ [يونس] أى: غاب عنهم ما عبدوه.وقال تعالى: ﴿ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. (١٠٤) ﴾ [الكهف] أى: ضاع عملهم ولم يحقق الرجاء منه، أو لم يجدوا ثواباً يوم القيامة. [القاموس القويم: مادة (ض ل ل)] بتصرف.

وهذا كلام لا يشفع لصاحبه ولا يجدى.

إذن: فالممنوع هو الكلام المجدى المفيد ، أو أن مقامات القيامة متفاوتة؛ فوقت يتكلمون فيه ؛ ووقت يؤخذون فيه ، فينبهرون ولا يتكلمون، ويأمر الحق سبحانه الجوارح المنفعلة أن تتكلم وتشهد عليهم[(١)].

ويقسِّم الحق سبحانه أحوال الناس قسمين، كما فى قوله تعالى فى آخر الآية:

﴿ .. فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ[(٢)] وَسَعِيدٌ (١٠٥) ﴾ [هود]

وجاء بالاسم المحدد لكل من القسمين: «شقى» و«سعيد» ؛ لأن الاسم يدل على الثبوت ، فالشقاء ثابت لمن نُعت بالشقى ؛ والسعادة ثابتة لمن نُعت بالسعيد[(٣)].

ثم يبيِّن لنا الحق سبحانه منازل مَنْ شَقُوا ، ومنازل مَنْ سُعِدوا ؛ ولذلك يعدل عن استخدام الاسم إلى استخدام الفعل ، فيقول سبحانه:

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ[(٤)] (١٠٦) ﴾

---

(١) يقول الحق سبحانه: ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) ﴾ [النور] وقد أورد السيوطى فى الدر المنثور (٦/١٦٥) عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله ﷺ قال: «إذا كان يوم القيامة عُرِّف الكافر بعمله فجحد وخاصم. فيقال: هؤلاء جيرانك يشهدون عليك . فيقول: كذبوا. فيقال: أهلك وعشيرتك . فيقول: كذبوا. فيقال: احلفوا . فيحلفون، ثم يصمتهم الله وتشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم، ثم يدخلهم النار» عزاه لأبى يعلى وابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه.

(٢) شقى – من باب فرح – شَقَاً وشقاءًا وشقاوة: ساءت حاله المادية أو المعنوية فهو شقى، واسم التفضيل: أشقى.. وسَعِدَ: كفرح وسَعُدَ [ككرم] يسعَد ويسعُد سَعْداً وسُعُوداً وسعادة نال الخير: ﴿ ..فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ (١٠٥) ﴾ [هود] [القاموس القويم:(١/٣٥٣)، (١/٣١٣) بتصرف مختصر.

(٣) عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية :﴿ .. فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ (١٠٥) ﴾ [هود] سألت رسول الله ﷺ فقلت: يا نبى الله فعلام نعمل ؟ على شىء قد فرغ منه، أو على شىء لم يفرغ منه؟ فقال: «بل على شىء قد فرغ وجرت به الأقلام يا عمر، ولكن كل مُيسَّر لما خُلق له» أخرجه الترمذى فى سننه (٣١١١) وابن أبى عاصم فى السنة (١/٧٤) وأحمد فى مسنده (١/٦) قال الترمذى: «هذا حديث حسن غريب».

(٤) زفير: إخراج شديد للنفس من الصدر. وشهيق: رد النفس إلى الصدر. [كلمات القرآن للشيخ حسنين مخلوف].

والذين حكموا على أنفسهم بالشقاء لخروجهم عن منهج الله ؛ يجمعهم الشقاء ؛ لكنهم يدخلون النار أفراداً وزُمَراً.

والحق سبحانه يقول:

﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا (١) .. (٧١) ﴾ [الزمر]

وفى آية أخرى يقول سبحانه:

﴿ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ (٢) أُخْتَهَا .. (٣٨) ﴾ [الأعراف]

وهكذا نفهم أن الكافرين - فى الوصف الثابت - أشقياء ، لكنهم لحظة دخول النار إنما يدخلونها أفراداً ؛ بل ويدخل معهم بعض من المسلمين العصاة، ويتلقى كل واحد منهم عقابه المناسب لما ارتكب من الذنوب والمعاصى ؛ ويعانى كل منهم من شقاء يتناسب مع آثامه ؛ وبذلك يجتمعون فى الشقاء ويختلفون فى نوع وكمية العذاب ؛ كلٌّ حسب ذنوبه، ولا يظلم ربك أحداً.

وجاء الحق سبحانه هنا بالفعل «شقوا» ليبيِّن لنا أنهم هم الذين اختاروا الشقاء ؛ وأتوا به لأنفسهم ؛ لأن الحق سبحانه خلق عباده وترك لكل منهم حق الاختيار ؛ وأنزل لهم المنهج ؛ ليصونوا أنفسهم ؛ وأعان - من اختار الإيمان - على الطاعة.

ثم يذكر الحق سبحانه فى نفس الآية موقف مَنْ أدخلوا على أنفسهم الشقاء ، فيقول عنهم:

---

(١) الزمر: جمع زمرة، وهى الفوج والجماعة. قال تعالى: ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ..(٧١) ﴾ [الزمر]، وقال تعالى: ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا ..(٧٣) ﴾ [الزمر]. [القاموس القويم: مادة (ز م ر)] بتصرف.

(٢) اللعنة: السخط والإبعاد عن الرحمة. فاللعن: السب والدعاء بالطرد من رحمة الله. [القاموس القويم. مادة : لعن].

﴿ .. فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ (١٠٦) ﴾ [هود]

ونحن نعلم أن الذى يتنفس فى النار سيخرج الهواء من صدره ساخناً مثلما يأخذ الشهيق ساخناً .

ويواصل الحق سبحانه وتعالى وَصْفَ ما يتلقاه أهل الشقاء فى النار ، فيقول سبحانه:

﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ (١٠٧) ﴾ (١)

وكلمة «الخلود» تفيد المكث طويلاً ؛ مكوثاً له ابتداء ولا نهاية له ؛ وإذا أبِّد فهو تأكيد للخلود.

والذين شقوا إنما يدخلون النار ؛ بدءاً من لحظة:

﴿ يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ .. (١٠٥) ﴾ [هود]

وهو عذاب لا نهاية له بالنسبة للكافرين.

وأما عذاب المسلم العاصى على ما ارتكب من آثام ؛ فبدايته من لحظة انتهاء الحساب إلى أن تنتهى فترة عذابه المناسبة لمعاصيه ؛ ويدخل الجنة من بعد ذلك (٢).

---

(١) فعل يفعل فهو فاعل. وفاعل: اسم فاعل من فعل. وفعَّال: صيغة مبالغة من فعل، قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (٤) ﴾ [المؤمنون]، وقال تعالى: ﴿ .. إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ (١٠٧) ﴾ [هود]. [القاموس القويم : مادة (ف ع ل)] بتصرف.

(٢) عن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول الله ﷺ : «أما أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون، ولكن ناساً أصابتهم النار بذنوبهم أو قال بخطاياهم فأماتهم الله إماتة حتى إذا كانوا فحماً أذن لهم فى الشفاعة فيجىء بهم ضبائر ضبائر فبثوا على أنهار الجنة ثم قيل: يا أهل الجنة أفيضوا عليهم، فينبتون نبات الحبة تكون فى حميل السيل». أخرجه مسلم فى صحيحه حديث (١٨٥) ، وأحمد فى مسنده (٣/ ٥ ، ١١).

ولهذا قال الحق سبحانه:

﴿ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ .. (١٠٧) ﴾ [هود]

وهكذا ينقص الحق سبحانه الخلود في النار بالنسبة لأنصاف المؤمنين، فالحق سبحانه ﴿ .. فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ (١٠٧) ﴾ ولا يحكمه أى شىء.

وإياكم أن تظنوا أن قدر الله يحكمه ؛ فالقدر فعْلُه ، ولا أحد يسأل الله سبحانه عمَّا يفعل ، لأن ذات الله هى الفاعلة ؛ فإن شاء سبحانه أن ينقص خلود مسلم عاص فى النار ؛ فالنقص يكون فى النهاية ؛ وبذلك يتحقق أيضاً نقص خلوده فى الجنة ، لأنه لا يدخلها إلا بعد أن يستوفى عقابه.

وبهذا التصور ينتهى الإشكال الذى اختلف حوله مائة وخمسون عالماً ؛ فقد ظن بعضهم أن الحق سبحانه يغلق أبواب النار على من أدخلهم إياها ، ويستمر ذلك إلى ما لا نهاية ، وكذلك من دخل الجنة من البداية سيظل فيها أبداً ، ولن يُلحق الله أصحاب الكبائر بالجنة ، ومن قال بذلك الرأى إنما يُسوِّى بين من ارتكب الكبيرة وبين الكافر بالله ، وهذا أمر غير متصور ، وهو بعيد عن رحمة الله .

وإذا كان هذا البعض من العلماء قد استدل على رأيه بالآية الكريمة التى جاءت فى سورة الجن ، والتى يقول فيها الحق سبحانه:

﴿ إِلاَّ بَلاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالاتِهِ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا (٢٣) ﴾ [الجن]

فنحن نقول: إن الحق سبحانه يربِّب لطفه للكافر حتى يؤمن ، وللعاصى حتى يتوب ، وهذا من رحمة الله سبحانه ، فتأبيد الخلود فى العذاب لم

يرد إلا فى آيتين [١]، وهذا دليل على عظيم رحمة الله وسعة عفوه سبحانه.

ولذلك قيل عن رسول الله ﷺ إنه رحمة الله للعالمين ؛ وكلمة «العالمين» جمع «عالَم» والعالَم هو ما سوى الله تعالى.

ولذلك هناك رحمة للكافر ؛ هى عطاء الله له فى الدنيا.

وهكذا نعلم أن الله سبحانه هو الذى يملك نواميس الكون ، ولم يتركها تفعل وحدها ، بل يزاول سبحانه سلطانه عليها ، وما دام القدر هو فعله سبحانه ؛ فهو يغيِّر فيه كما يشاء.

فهو سبحانه رب الزمان والمكان والحركة، ومادام هو رب كل شىء فإنه فعال لما يريد، وهنا تخضع أبدية الزمان لمراده ومشيئته.

وقول الحق سبحانه:

﴿ مَا دَامَتِ السَّمَـٰوَاتُ وَالأَرْضُ .. (١٠٧) ﴾ [هود]

نفهم منه أن الجنة أو النار لا بد أن يوجد لهما ما يعلوهما ويظللهما ، ولا بد أن يوجدا فوق أرض ما.

وإذا قال قائل: إن الحق سبحانه قد ذكر فى القرآن أن السماء سوف تمور [٢] وتنفطر [٣].

---

(١) وذلك فى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيراً (٦٤) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً لاَّ يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيراً (٦٥) ﴾ [الأحزاب] وكذلك فى سورة الجن: ﴿ .. وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً .. (٢٣) ﴾ [الجن] .

(٢) مار الشىء يمور موراً: تحرك وذهب وجاء فى سرعة. قال تعالى: ﴿ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْراً (٩) ﴾ [الطور] [القاموس القويم : مادة (مور)].

(٣) يتفطر الشىء وينفطر: يتشقق. قال تعالى: ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ (١) ﴾ [الانفطار] أى: انشقت يوم القيامة. وقوله تعالى: ﴿ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ .. (٩٠) ﴾ [مريم] أى: يتشققن من هول كفرهم وادعائهم أن لله ولداً – كما يفهم من قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً (٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (٨٩) تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (٩٠) ﴾ [مريم] .[القاموس القويم: مادة (فطر)] بتصرف.

نقول رداً عليه: لا تأخذ آية فى القرآن إلا بضميمة [١] مثيلاتها.

ولذلك قال الحق سبحانه:

﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَـوَاتُ [٢] .. (٤٨) ﴾ [إبراهيم]

والحق سبحانه يورث أرض الجنة لمن يشاء ؛ لأنه سبحانه هو القائل على لسان المؤمنين يوم القيامة:

﴿ وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ نَتَبَوَّأُ [٣] مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ .. (٧٤) ﴾ [الزمر]

أو لأن الإنسان له أغيار ، وما حوله له أغيار.

ومن العجيب أن الإنسان المخدوم بالمادة الجامدة ؛ وبالنبات النامى؛ وبالحيوان الذى يحس ويتحرك ؛ هذا الإنسان قد يكون أطول عمراً من بعض المخلوقات المسخَّرة لخدمته ؛ لكنه أقل عمراً من الشمس ومن القمر.

---

(١) الضميم: المضموم، أو المضموم إلى غيره. [المعجم الوسيط: مادة (ضمم)]. والمراد ضم الآيات المتماثلة وفهمها فهماً شاملاً.

(٢) بدَّل الشىء: غيَّره. وبدل الكلام : غيره أو حرَّفه بحيث يؤدى معنى غير المراد منه. قال تعالى: ﴿ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِى قِيلَ لَهُمْ .. (٥٩) ﴾ [البقرة] أى: غيروه بكلام آخر، أو حرفوه ليؤدى معنى آخر غير المراد منه. وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ .. (١١) ﴾ [النمل] أى: عمل الخير والحسن بعد عمل السوء. وقال تعالى: ﴿ .. وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلاً (٢٨) ﴾ [الإنسان] أى: جعلناهم بدلاً منهم، كقوله تعالى: ﴿ .. إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٩) ﴾ [إبراهيم] [القاموس القويم : مادة (بدل)].

(٣) بوَّأه: أسكنه. وبوأه فى الأرض: مكَّن له فيها. قال تعالى: ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ .. (٢٦) ﴾ [الحج] أى: هيأناه له ومكناه منه. وقال تعالى فى قصة يوسف عليه السلام: ﴿ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ .. (٥٦) ﴾ [يوسف] أى: ينزل فى أى مكان يريده من أرض مصر، وهذا كناية عن اتساع جاهه. [القاموس القويم: مادة (ب و أ)] بتصرف.

لكن الحق سبحانه هنا يصور عمر الإنسان فى الآخرة ؛ فكأنه سبحانه يعطى الأمد على أطول ما عرفنا من الأعمار ؛ ولذلك قال سبحانه:

﴿ مَا دَامَتِ السَّمَـٰوَاتُ وَالأَرْضُ .. (١٠٧) ﴾ [هود]

وإذا علَّق الله سبحانه شيئاً على شىء ، فلا بد أن يوجد هذا التعليق.

والحق سبحانه يتكلم عن أهل النار من الكفار ، فيقول تعالى:

﴿ وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ [1] .. (٤٠) ﴾[الأعراف]

فهل سيلج الجمل فى سَمِّ الخِياط ؟ إن ذلك محال.

ولذلك أقول : فلنأخذ التعليقات فى نطاق أنه سبحانه:

﴿ .. فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ (١٠٧) ﴾ [هود]

وقد جاء فى الكتاب قول سيدنا عيسى عليه السلام:

﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨) ﴾ [المائدة]

فكان مقتضى السياق أن يقول سبحانه:وإن تغفر لهم فإنك أنت الغفور الرحيم.

وهذه نظرة سطحية لمدلولات القرآن ، بعقول البشر ، أما ببلاغة

---

(١) السَّم – مثلثة السين – : الثقب الضيق، قال تعالى:﴿ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ .. (٤٠) ﴾ [الأعراف] أى: ثقب الإبرة. [القاموس القويم : مادة (س م م)].

الحق سبحانه فيكون الأمر مخالفاً ، فأمر التعذيب أو الغفران موكول لله سبحانه بيده وحده ، وليس لأحد أن يسأله لِمَ فعل هذا ؟ ولِمَ ترك هذا ؟

لذلك كان هذا هو معنى العزة ؛ ولذلك كان سبحانه عزيزاً ، وهو سبحانه أيضاً حكيم فى أى أمر يحكم فيه سواء أكان بالتعذيب أو المغفرة.

لذلك جاء سبحانه بالخاتمة التى تثبت للحق سبحانه التعذيب أو المغفرة.

ففى تعذيب الكافرين قال سبحانه:﴿ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ (١٠٧) ﴾ .

وفى الكلام عن الطائعين الذين أدخلوا الجنة قال سبحانه:

﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ (١٠٨) ﴾ (١)

فالحق سبحانه يعطى المؤمنين ما شاء ، ويؤكد خلودهم فى الجنة ، وعطاؤه لهم لا مقطوع ولا ممنوع.

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه:

﴿ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُم مِّن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ (١٠٩) ﴾ (٢) (٣)

---

(١) جذ الشىء، يجذه جذاً: قطعه أو كسره ، أو فتته. والجذاذ: القطع المكسرة المفتتة والحطام. قال تعالى: ﴿ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ .. (٥٨) ﴾ [الأنبياء] والمجذوذ: المقطوع. قال تعالى: ﴿ .. عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ (١٠٨) ﴾ [هود] أى: أنه عطاء دائم غير مقطوع. [القاموس القويم: مادة (جذذ)].

(٢) المرية – بكسر الميم، وبضمها – : الجدل والشك. قال تعالى: ﴿ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ .. (١٧) ﴾ [هود] وقرىء مرية – بضم الميم. [القاموس القويم : مادة (م ر ى)].

(٣) النقص: مصدر نقصَ. قال تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ .. (١٥٥) ﴾ [البقرة]. ومنقوص: اسم مفعول منه. قال تعالى: ﴿ .. وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ (١٠٩) ﴾ [هود] أى: كاملاً ، لا ننقص منه شيئاً. [القاموس القويم: مادة (نقص)].

فهل كان الرسول ﷺ فى مرية ؟

هل كان الرسول ﷺ فى شك؟

لا ، ولكنه قول الآمر الأعلى سبحانه للأدنى ، ورسول الله ﷺ فى صدد هذا الأمر ؛ وبذلك ينصرف أمر الحق سبحانه إلى الدوام.

مثلما قال الحق سبحانه للنبى ﷺ :

﴿ أَقِمِ الصَّلاةَ ..(٧٨) ﴾ [الإسراء]

وكان الرسول ﷺ يقيم الصلاة قبلها ، ولكن قول الحق سبحانه هنا إنما يمثل بداية التشريع.

ومثل هذا أيضاً قول الحق سبحانه فى خطاب النبى ﷺ:

﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ .. (١) ﴾ [الأحزاب]

فهل كان رسول الله ﷺ لا يتقى الله ؟

نقول: لا ، إنما هو لإدامة التقوى ، فإنه إذا أمر الأعلى الأدنى بأمر هو بصدد فعله ، انصرف هذا الأمر إلى الدوام، واتباع أمته للتقوى والإعراض عن النفاق والكفر، وهو خطاب للرسول وأمته، فللرسول الدوام والترقى والحصانة، ولأمته الاتباع لمنهج الله.

ومثل هذا قوله تعالى:

﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ..(١٥٣) ﴾ [البقرة]

وهو سبحانه يناديهم بالإيمان ؛ لأنهم اعتقدوا اعتقاد الألوهية الواحدة ، ومن يسمع منهم هذا الخطاب عليه أن يداوم على الإيمان.

وما دام قد آمن بالإله الواحد قبل الخطاب ، فقد استحق أن ينال التكريم من الحق سبحانه بأن يخاطبه ويصفه بأنه من المؤمنين، فإذا نُودِى عليهم بهذه الصفة فهى علامة السمو المقبول.

وإذا طُلبت الصفة ممن توجد الصفة فيه ، فاعلم أنه سبحانه يطلب دوام الصفة فيه واستمرارها، وفى الاستمرارية ارتقاء.

وقول الحق سبحانه هنا:

﴿ مِّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلاءِ .. (١٠٩) ﴾ [هود]

نجد أن التحقيق لا يثبت لهم عبادة[1] ؛ لأن معنى العبادة ائتمار عابدٍ بأمر معبود. وهؤلاء إنما يعبدون الأصنام ، وليس للأصنام منهج يسيرٌ عليه من آمنوا بها.

ولكن الحق سبحانه أثبت لهم هنا أنهم عبدوا الأصنام ، وهم قد قالوا من قبل:

﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ[2] .. (٣) ﴾ [الزمر]

---

(١) عَبدَ الله يعبده، عبادة وعُبودة: أطاعه فهو عابد اسم فاعل. وعبَّده بالتضعيف: سخَّره وأذلَّه، يقول الحق سبحانه: ﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ (٢٢) ﴾ [الشعراء] والعبد بالنسبة للناس الرقيق المملوك، ويجمع على جموع منها: عباد، وعبيد وعَبَد ـ وعُبُد، والعبد بالنسبة لله: الإنسان الحر أو الرقيق، فكلاهما مملوك لله خاضع لحكمه وإرادته، وعُباد الأصنام هم عباد لأفكار هى تخريف وتحريف عن الفطرة التى فطر الله الناس عليها، وكل عابد لفكرة منحرفة، فهو منحرف عن الحقيقة [القاموس القويم ١/ ٣ ، ٤ ـ بتصرف].

(٢) الزلفى: القرب ، والمنزلة، والدرجة. قال تعالى: ﴿ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ .. (٣٧) ﴾ [سبأ] أى: قرباً، مفعول مطلق مرادف، أو تقربكم درجة ومنزلة قريبة منا. [القاموس القويم: مادة (ز ل ف)].

وهو إيمان فقد حجية التعقل الإيمانى ، أى: أن تستقبل أنت بذاتك القضية الإيمانية وتناقشها لتدخل عليها باقتناع ذاتك .

وهم قد دخلوا إلى الإيمان بعبادة الأصنام باقتناع الغير ، وهم الآباء ، فإيمانهم إيمان تقليد ، وفى التقليد جفاف الفطرة السليمة وهو لا ينفع.

ونحن نعلم أن الحق سبحانه وتعالى قد جعل النِّسَب فى الكون إما ليثبت نسبة إيجابية ، أو نسبة سلبية [(١)].

﴿ مَا يَعْبُدُونَ .. (١٠٩) ﴾ [هود]

أى: على ما قالوا إنه عبادة ، ولكنه ليس عبادة ، لأن العبادة تقتضى أمراً ونهياً ، وليس للأصنام أوامر أو نواهٍ ، وعبادتهم هى عبادة تقليدية للآباء ؛ ولذلك قالوا:

﴿ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا [(٢)] عَلَيْهِ آبَاءَنَا .. (١٧٠) ﴾ [البقرة]

ولذلك يقرر الحق سبحانه هنا جزاءهم ، فيقول تعالى:

﴿ .. وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ [(٣)] نَصِيبَهُمْ [(٤)] غَيْرَ مَنقُوصٍ (١٠٩) ﴾ [هود]

---

(١) فالكون فيه ألفاظ مفردة نعرف معانيها مثل: السماء، والأرض. ونفهم تصور الشىء. أما عندما نذكر لهذا الشىء صفة فهذا معناه النسبة، مثل قولنا: الأرض كروية. [مستنبط من كلام فضيلة الشيخ].

(٢) ألفى الشىء: وجده. قال تعالى:﴿ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ (٦٩) ﴾ [الصافات]. وقال تعالى: ﴿ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ .. (٢٥) ﴾ [يوسف] أى: وجداه. [القاموس القويم: مادة (ل ف ى)].

(٣) وفّى إليه حقَّه: أوصله إليه كاملاً. ويتعدى لمفعولين فيقال: وفّاه حقَّه. واسم الفاعل مُوَفٍّ: اسم منقوص. [القاموس القويم: ٢/٣٤٧].

(٤) قال القرطبى فى تفسيره (٤/٣٤٢٣):

«فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: نصيبهم من الرزق. قاله أبو العالية.

الثانى: نصيبهم من العذاب. قاله ابن زيد.

الثالث: ما وُعدوا به من خير أو شر. قاله ابن عباس».

أى: سنعطيهم جزاءهم كاملاً ؛ لأنهم يفسدون فى الكون ، رغم أن الحق سبحانه قد جعل لكل منهم حق الاختيار فى أن يفعل الشىء أو لا يفعله ، وإن لم تنضبط حركة الاختيار ، فالتوازن الاجتماعى يصير إلى اختلال.

وما دام للإنسان حق الاختيار ؛ فقد أنزل الحق سبحانه له المنهج الذى يضم التكاليف الإيمانية.

وهم حين قلدوا الآباء قد ساروا فى طريق إفساد الكون ؛ لذلك يُوفِّيهم الحق سبحانه نصيبهم من العذاب .

والمفهوم من كلمة «النصيب [1]» أنها للرزق ، ويذكرها الحق سبحانه هنا لتقرير نصيب من العذاب ، وفى هذا تهكم عليهم ، وسخرية منهم.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾﴾

---

(١) النصيب: القسم والحصة من الشىء. قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا .. ﴿٢٠٢﴾﴾ [البقرة] أى: لهم حظ وقسم وحصة هى حق لهم من كسبهم. [القاموس القويم: مادة (ن ص ب)].

(٢) سبق، يسبق سبقاً: تقدم، فهو لازم. وسبقه: تقدمه، فهو متعد. واسم الفاعل: سابق. واسم المفعول: مسبوق. قال تعالى:﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ .. ﴿٦٨﴾﴾ [الأنفال] أى: تقدم وثبت فيه الحكم من قبل، وهو اللوح المحفوظ. [القاموس القويم ١/٣٠١]. والكلمة: قضاء الله وحكمه السابق فى اللوح المحفوظ. قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ .. ﴿١١٠﴾﴾ [هود] أى: قضاؤه بتأجيل الحكم بين الناس إلى يوم القيامة. [القاموس القويم: مادة (س ب ق)، (ك ل م)] بتصرف.

(٣) الريب: الشك. قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ .. ﴿٢﴾﴾ [البقرة] ورابه الأمر، يريبه ريباً وريبة: شك فيه. والريب: حادث الدهر المفاجىء. وريب المنون: الموت. قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ﴿٣٠﴾﴾ [الطور] أى: حادث الموت. وقال تعالى: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِى بَنَوْا رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ .. ﴿١١٠﴾﴾ [التوبة] أى: مصدر شك ونفاق. وأرابه: أوصله إلى الشك وأدخل الشك فى نفسه. واسم الفاعل: مريب. قال تعالى: ﴿.. وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾﴾ [هود] على سبيل التوكيد أى: فى شك موصل إلى شك. وأراب الرجل، فهو مريب: صار موضع ريبة وشك لا يطمئن إليه الناس. قال تعالى: ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾﴾ [ق] [القاموس القويم : مادة (ر ى ب)].

وسورة هود هى السورة الوحيدة فى القرآن التى جاء فيها ذكر رسول واحد مرتين ، فقد ذكر الحق سبحانه أنه أمر موسى عليه السلام بأن يذهب إلى فرعون ، وأن يريه الآيات ، ولم يزد [1]، ثم انتقل من ذلك الإبلاغ فقال سبحانه:

﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .. (٩٨) ﴾ [هود]

أى: أنه أعقب أولية البلاغ بالختام الذى انتهى إليه فرعون يوم القيامة ، فيُورِد قومه النار.

ثم يأتى الحق سبحانه هنا إلى موسى عليه السلام بعد ابتداء رسالته ؛ ولذلك يقول تعالى:

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ .. (١١٠) ﴾ [هود]

ونحن نعلم أن ذِكْر موسى عليه السلام فى البداية كان بمناسبة ذِكْر ما له علاقة بشعيب عليه السلام حين ورد موسى ماء مدين ، ولكن العجيب أنه عند ذِكْر شعيب لم يذكر قصة موسى معه ، وإنما ذكر قصة موسى مع فرعون.

وقد علمنا أن موسى عليه السلام لم يكن آتياً إلى فرعون إلا لمهمة واحدة ، هى أن يرسل معه بنى إسرائيل [2] ولا يعذبهم.

وأما ما يتأتى بعد ذلك من الإيمان بالله فقد جاء كأمر تبعىٍّ ، لأن

---

(١) وذلك فى قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٩٦) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ (٩٧) ﴾ [هود].

(٢) وذلك قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٤) حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَّا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٠٥) ﴾ [الأعراف].

رسالة موسى عليه السلام لم تكن إلا لبنى إسرائيل ؛ ولذلك جاء هنا بالكتاب ليبلغه إلى بنى إسرائيل منهجاً ، أما فى الموضع الأول فقد ذكر سبحانه الآيات التى أرسل بها موسى إلى فرعون.

ونحن نعلم أن سورة هود عرضت لمواكب الرسل: نوح ، وهود ، وصالح ، وشعيب ، وإبراهيم - عليهم جميعاً السلام - وجاء الحديث فيها عن موسى عليه السلام مرتين: مرة فى علاقته بفرعون ، ومرة فى علاقته ببنى إسرائيل.

وفى كل لقطة من اللقطات مهمة أساسية من مهمات المنهج الإلهى للناس عموماً ، من أول آدم عليه السلام إلى أن تقوم الساعة ؛ إلا أنه عند ذكر كل رسول يأتى باللقطة التى تعالج داءً موقوتاً عند القوم.

فالقَدْر المشترك فى دعوات كل الرسل هو قوله سبحانه:

﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم [1] مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ .. (٥٩)﴾ [الأعراف]

ثم يختلف الأمر بعد ذلك من رسول لآخر ، فمنهم من يأمر قومه ألا يعبدوا الأصنام ؛ ومنهم من يأمر قومه ألا ينقصوا الكيل والميزان.

وهكذا نجد فى كل لقطة مع كل رسول علاج داء من داءات [2] تلك

---

(١) ما - هنا - نافية بمعنى: ليس. أى: ليس لكم إله غيره.

(٢) الداء: المرض ظاهراً أو باطناً، والعيب ظاهراً أو باطناً. ويقال: فلان ميت الداء: لا يحقد على من يسىء إليه. وداء الأسد: الحمى. وداء الظبى: الصحة والنشاط. وداء الملوك: النقرس. وداء الكرم: الدين والفقر. وداء الضرائر: الشر الدائم. وداء البطن: الفتنة العمياء. وداء الذئب: الجوع. والجمع: أدواء. [المعجم الوسيط مادة (د و أ)] ويجوز التأنيث فيقال: داءة وجمعها: داءات، وهى الأمراض سواء أكانت مادية أم معنوية.

الأمة ، أما الإسلام فقد جاء ليعالج داءات البشرية كلها؛ لذلك جمعت كل القيم الفاضلة فى القرآن كمنهج للبشرية[١].

لذلك فالحق سبحانه لا يقص علينا القصص القرآنى للتسلية ، أو لقتل الوقت ، أو لتعلم التاريخ ؛ ولكن لنلتقط العبرة من رسالة كل رسول إلى أمته التى بعث إليها ليعالج داءها.

وبما أن أمة محمد ﷺ ستكون آخر عهد لالتقاء البشر بالبشر [٢]، وستكون فيها كل أجواء وداءات الدنيا ، لذلك فعليهم التقاط تلك العبر ؛ لأن رسالتهم تستوعب الزمان كله ، والمكان كله.

والحق سبحانه هنا يقول:

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ .. (١١٠) ﴾ [هود]

ونحن نعلم أنه إذا تقدم أمران على ضمير الغيبة ؛ فيصح أن يعود الضمير إلى كل أمر منهما.

وقوله سبحانه: ﴿ فَاخْتُلِفَ فِيهِ .. (١١٠) ﴾ يصح أن يكون الاختلاف فى أمر موسى ، ويصح أن يكون الاختلاف فى أمر الكتاب ، والخلاف فى واحد منهما يؤدى إلى الخلاف فى الآخر ؛ لأنه لا انفصال بين موسى عليه السلام ، والكتاب الذى أنزله الله عليه.

وهكذا فالأمران يلتقيان: أمر الرسالة فى الكتاب ، وأمر الرسول فى الاصطفاء ؛ ولذلك لم يجعلهما الحق سبحانه أمرين ، بل هما أمر

---

(١) يقول الحق : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ .. (١٣) ﴾ [الشورى] إذن : جُمعت قيم الأديان فى الكتاب الخاتم المنزل على الرسول الخاتم لتوحيد الإنسانية على الحق والخير والسلام.

(٢) مقصود فضيلة الشيخ أن أمة محمد ﷺ هى آخر الأمم منذ بعثة محمد ﷺ إلى أن تقوم الساعة، ورسولها محمد ﷺ هو خاتم الأنبياء والرسل.

واحد ؛ لأن الرسول لا ينفصل عن منهجه.

وقوله الحق: ﴿ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ ..(١١٠) ﴾ أمر يتعلق بفعل الحق سبحانه ، ولله[1] ذات ، ولله صفات ، ولله أفعال.

وهو سبحانه مُنزَّه فى ذاته عن أى تشبيه ، ولله صفات ، وهى ليست ككل الصفات ، فالحق سبحانه موجود ، وأنت موجود ، لكن وجوده قديم أزلىٌّ لا ينعدم ، وأنت موجود طارىء ينعدم.

ونحن نأخذ كل ما يتعلق بالله سبحانه فى إطار:

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ..(١١) ﴾ [الشورى]

فإذا تكلم الحق سبحانه عن الفعل فخذ كل فعلٍ صدر عنه بقوته سبحانه غير النهائية.

وقوله سبحانه هنا:

﴿ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ ..(١١٠) ﴾ [هود]

نفهم منه أن هذا الفعل قد استلزم صفات متكاملة ، علماً وحكماً ، وقدرةً ، وعفواً ، وجبروتاً ، وقهراً ، فهناك أشياء كثيرة تتكاتف لتحقيق هذا الإتيان.

وقد يسأل سائل: وما دام موسى عليه السلام قد أوتى الكتاب ، واختُلف فيه ، فلماذا لم يأخذ الحق سبحانه قوم موسى كما أخذ قوم نوح، أو قوم عاد ، أو قوم ثمود ، أو بقية الأقوام الذين أخذهم الله بالعذاب ؟

---

(١)توحيد الذات هى لغة القلب بالوحدانية والتفريد والتجريد لله، يقول الحق: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣) ﴾ [الأنعام] وللذات عطاءات كلما ذكرته مُوحداً فأنت فى رقى دائم وتستحق من الله عطاء الصفات – فتستحق الرحمة من الرحيم، والرزق من الرزاق، والجبر من الجبار، فمن أحب الذات وهبتْ له عطاءات الصفات، وفى أسمائه الحسنى الزاد المطلوب – [من مفهوم الخواطر].

ونقول: ما نجوا من عذاب الله بقدرتهم ؛ بل لأن الحق سبحانه قد جعل عذابهم آجلاً [(١)]، وهو يوم الحساب.

ولذلك قال سبحانه فى الآية نفسها:

﴿ وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ .. (١١٠) ﴾ [هود]

وبذلك حكم الحق حكماً فاصلاً ، كما حكم على الأمم السابقة التى كانت مهمة رسلهم هى البلاغ ، ولم تكن مهمة رسلهم أن يحاربوا من أجل إرساء دعوة أو تثبيت حق ؛ ولذلك كانت السماء هى التى تتدخل بالأمر النهائى.

لكن اختلف الأمر فى رسالة موسى عليه السلام ، فقد سبق فيه قول الله تعالى بالتأجيل للحساب إلى يوم القيامة.

ثم يقول الحق سبحانه هنا:

﴿ .. وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ (١١٠) ﴾ [هود]

كأنهم فى شك من يوم القيامة ، وفى شك من الحساب ، مثل قوله سبحانه فى أول الآية عن الاختلاف فى الكتاب وموسى عليه السلام.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ ۚ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١١١) ﴾ [(٢)]

---

(١) وهذه هى الكلمة التى ذكرها الله سبحانه هنا: ﴿ وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ..(١١٠) ﴾ [هود] قال القرطبى فى تفسيره (٤/٣٤٢٣) : «الكلمة: أن الله عز وجل حكم أن يؤخرهم إلى يوم القيامة لما علم فى ذلك من الصلاح، ولولا ذلك لقضى بينهم أجلهم بأن يثيب المؤمن ويعاقب الكافر».

(٢) الخبير: من أسماء الله الحسنى. قال تعالى: ﴿ .. وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (١٨) ﴾ [الأنعام]. والخبير: العالم ببواطن الأمور. قال تعالى: ﴿ .. فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا (٥٩) ﴾ [الفرقان] [القاموس القويم : مادة (خ ب ر)].

إذن: فالحق سبحانه قد أخذ قوم الرسل السابقين على موسى بالعذاب ، أما فى بدء رسالة موسى عليه السلام فقد تم تأجيل العذاب ليوم القيامة.

ويبيِّن الحق سبحانه: لا تعتقدوا أن تأجيل العذاب ليوم القيامة يعنى الإفلات من العذاب ، بل كل واحد سيوفَّى جزاء عمله ؛ بالثواب لمن أطاع ، وبالعقاب لمن عصا ، فأمر الله سبحانه آت - لا محالة [(١)] - وتوفية الجزاء إنما تكون على قدر الأعمال ، كفراً أو إيماناً ، صلاحاً أو فساداً ، وميعاد ذلك هو يوم القيامة.

وهنا وقفة فى أسلوب النص القرآنى، حتى يستوعب الذين لا يفهمون اللغة العربية كملَكة [(٢)]، كما فهمها العرب الأقدمون.

ونحن نعلم أن العربى القديم لم يجلس إلى معلم، لكنه فهم اللغة ونطق بها صحيحة ؛ لأنه من أمة مفطورة [(٣)] على الأداء البيانى الدقيق ، الرقيق ، الرائع.

فاللغة - كما نعلم - ليست جنساً ، وليست دماً ، بل هى ظاهرة اجتماعية ، فالمجتمع الذى ينشأ فيه الطفل هو الذى يحدد لغته ، فالطفل الذى ينشأ فى مجتمع يتحدث العربية ، سوف ينطق بالعربية ،

---

(١) المحال: ما اقتضى الفساد من كل جهة كاجتماع الحركة والسكون فى جسم واحد. والمحال من الأشياء: ما لا يمكن وجوده. والمحال من الكلام: ما عدل به عن وجهه. والمَحَالة: الحيلة. والجمع: مَحال، ومَحاول - بفتح الميم فيهما - ويقال: لا محالة من ذلك، أى: لا بد منه. [المعجم الوسيط : مادة (ح و ل)] بتصرف.

(٢) الملكة - بفتح الميم واللام والكاف - : صفة راسخة فى النفس أو استعداد عقلى خاص لتناول أعمال معينة بحذق ومهارة ، مثل الملكة العددية، والملكة اللغوية. [المعجم الوسيط:مادة (ملك)].

(٣) فطر الشىء، فطراً: شقَّه. والجمع: فطور. والاسم: الفطرة. قال تعالى: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا .. ﴿٣٠﴾﴾ [الروم] أى: خلقته التى خلق الناس عليها. وقوله تعالى: ﴿.. هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾﴾ [الملك] أى: من صدوع، أى: هل ترى من خلل أو فساد فى الخلق ، والاستفهام هنا للنفى، أى: لا ترى أى خلل. [القاموس القويم : مادة (فطر)].

والطفل الذى يوجد فى مجتمع يتحدث اللغة الإنجليزية ، سينطق بالإنجليزية ؛ لأن اللغة هى ما ينطق به اللسان حسبما تسمع الأذن.

وكانت غالبية البيئة العربية فى الزمن القديم بيئة منعزلة ، وكان من ينشأ فيها إنما يتكلم اللغة السليمة.

أما العربى الذى عاش فى حاضرة مثل مكة ، ومكة - بما لها من مكانة - كانت تستقبل أغراباً كثيرين ؛ ولذلك كان أهل مكة يأخذون الوليد فيها لينقلوه إلى البادية ؛ حتى لا يسمع إلا اللغة العربية الفصيحة ، وحتى لا يحتاج إلى من يضبط لسانه على لغة العرب الصافية.

ولنقرِّبْ هذا الأمر ، ولننظر إلى أن هناك فى حياتنا الآن لغتين: لغة نتعلمها فى المنازل والشوارع ونتخاطب بها، وتسمى «اللغة العامية»، ولغة أخرى نتعلمها فى المدارس، وهى اللغة المصقولة [١] المميزة بالفصاحة والضبط.

وكان أهل مكة يرسلون أبناءهم إلى البادية لتلتقط الأذن الفصاحة[٢]، وكانت اللغة الفصيحة هى «العامية» فى البادية ، ولم يكن الطفل فى

---

(١) المصقول: اسم مفعول من الفعل «صقل». وصقل الشىء صقلاً وصقالاً: جلاه . يقال: صقل السيف والمرآة ونحوهما. ويقال: صقل كلامه: هذبه ونمقه. وصقل الدابة: تعهدها بالتربية. وتستخدم هذه الكلمة أيضاً للتعبير عن إجادة شىء مثل اللغة ، والموهبة ، فيقال: صقل لغته ، أى: تدرب عليها حتى أجادها. وصقل موهبته بالدراسة ، أى: تدرب على استخدامها حتى أجادها. [المعجم الوسيط : مادة (صقل)] بتصرف.

(٢) ومما يبين أن اللغة العربية فى الجزيرة العربية مصاحبة للفطرة السليمة والملكة الراسخة ما حُكِى، أن سقَّاء أمر ابنه أن يمسك بفم قِرْبة الماء، فقال الغلام لأبيه :«يا أبَتِ إن القربة غلبنى فُوها أدرك فاها لا طاقة لى بفيها» وفى هذا المنطق قواعد لإعراب الأسماء الخمس أو الست فهى تُعربُ بالواو رفعاً، وبالألف نصباً، وبالياء جراً، والأمثلة لا حصر لها وفى المراجع مزيد لكل من أراد.

البادية يحتاج إلى معلم ليتعلمها ؛ لأن أذنه لا تسمع إلا الفصاحة.

وكانت هذه هى اللغة التى يتفوق فيها إنسان ذلك الزمان كملكة ، وهى تختلف عن اللغة التى نكتسبها الآن ، ونصقلها فى مدارسنا ، وهى لغة تكاد تكون مصنوعة ، فما بالنا بالذين لم يتعلموا العربية من قبل من المستشرقين، ويتعلمون اللغة على كِبَر .

وهؤلاء لم يمتلكوا صفاء اللغة ، لذلك حاولوا أن يطعنوا فى القرآن ، وادعى بعض من أغبيائهم أن فى القرآن لحناً [١]، قالوا ذلك وهم الذين تعلموا اللغة المصنوعة ، رغم أن من استقبلوا القرآن من رسول الله ﷺ وهم أهل الفصاحة، لم يجدوا فى القرآن لحناً ، ولو أنهم أخذوا لحناً على القرآن فى زمن نزوله ؛ لأعلنوا هذا اللحن ؛ لأن القرآن نزل باللغة الفصيحة على أمة فصيحة ، بليغة ، صناعتها الكلام.

ولأمرٍ ما أبقى الله سبحانه صناديد[٢] قريش وصناديد العرب على كفرهم لفترة ، ولو أن أحداً منهم اكتشف لحناً فى القرآن لأعلنه.

وذلك حتى لا يقولن أحد أنهم قد آمنوا فستروا على القرآن عيوباً

---

(١) لحن لفلان يلحن لحناً: كلّمه كلاماً يفهمه دون غيره لما فيه من تورية، أو تعريض، أو إشارة خفية. قال تعالى: ﴿ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ..(٣٠) ﴾ [محمد] أى: إنك ستعرف المنافقين فى أسلوبهم فى القول بإخفائه وتحريفه، أى: ستعرفهم فى خطأ القول وزلات اللسان. ولحن فى كلامه: أخطأ. وفى « المعجم الوسيط » : لحنُ القول: فحواه، وما يفهمه السامع المتأمل فيه من وراء لفظه، ويمكن أن يفسر بذلك أيضاً. والمراد باللحن فى اللغة: الخطأ فيها والخروج عن قواعدها. [القاموس القويم : مادة (لحن) بتصرف].

(٢) الصنديد: الشديد. والجمع: صناديد. ويقال: يوم حامى الصناديد: شديد الحر. ويقال: برد صنديد، وريح صنديد، ومطر صنديد، أى: شديد. وصناديد القدر: دواهيه. [المعجم الوسيط : مادة (صندد)] بتصرف.

فيه. ولو كان عند أحدهم مَهْمَزٌ لما منعه كفره أن يبين ذلك ، فهل يمكن لهؤلاء المستشرقين الذين عاشوا فى القرن العشرين أن يجدوا لحناً فى القرآن ، وهم لم يمتلكوا ناصية اللغة ملكة ، بل تعلموها صناعة، والصنعة عديمة الإحساس الذوقى.

ومثال ذلك: عدم فهم هؤلاء لأسرار اللغة فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها ، فالحق سبحانه يقول:

﴿وَإِنَّ كُلاًّ لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ(١) رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١١١)﴾

[هود]

أى: أن كل واحد من الذين صدَّقوا أو من الذين كذَّبوا ، له توفية فى الجزاء ، للطائع الثواب ؛ وللعاصى العقوبة.

وكلمة «إنَّ» - كما نعلم - هى فى اللغة «حرف توكيد» فى مقابلة مَنْ ينكر ما يجىء بعدها.

والإنكار - كما نعلم - مراحل ، فإذا أردت أن تخبر واحداً بخبر لا يعلمه ، فأنت تقول له مثلاً: «زارنى فلان بالأمس».

وهكذا يصادف الخبر ذهن المستمع الخالى، فإن قال لك: «لكن فلاناً كان بالأمس فى مكان آخر»، فأنت تقول له: «إن فلاناً زارنى بالأمس».

---

(١) وفَى الشىء يفى وَفْياً: تم ولم يذهب منه شىء. ووفَّى الرجل بالعهد وفاء: قام به ونفذه، فهو واف. واسم التفضيل: أوفى. قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ ..(١١١)﴾ [التوبة] أى: أن الله أعظم وفاءً ممن سواه. وقال تعالى: ﴿ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الأَوْفَىٰ (٤١)﴾ [النجم] أى: الجزاء الأتم الأكمل. ووفّى إليه حقه: أوصله إليه كاملاً. ويتعدى هذا الفعل لمفعولين فيقال: وفَّاه حقه. واسم الفاعل: موف «اسم منقوص». قال تعالى: ﴿.. وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ (١٠٩)﴾ [هود] [القاموس القويم : مادة (وفى)].

وحين يرد عليك السامع: «لكننى قابلت فلاناً الذى تتحدث عنه أمس فى المكان الفلانى».

وهنا قد تؤكد قولك: «والله لقد زارنى فلان بالأمس».

إذن: فأنت تأتى بالتوكيد على حَسْب درجة الإنكار[1].

وحين يؤجل الحق سبحانه العذاب لبعض الناس فى الدنيا ،قد يقول غافل: لعل الله لم يعد يعذِّب أحداً.

ولذلك بيَّن الحق سبحانه مؤكداً أن الحساب قادم ، لكل من الطائع المصدِّق ، والعاصى المكذِّب ، فقال سبحانه:

﴿ وَإِنَّ كُلاًّ لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ .. (١١١) ﴾ [هود]

والذين لم تستقم لهم اللغة كملكة ، كالمستشرقين ، وأخذوها صناعة ، توقفوا عند هذه الآية وقالوا: لماذا جاء بالتنوين فى كلمة «كلاً» ؟

وهم لم يعرفوا أن التنوين[2] يغنى عن جملة ، فساعة تسمع أو تقرأ التنوين ، فاعلم أنه عِوَضٌ عن جملة ، مثل قول الحق سبحانه:

---

(١) إن التوكيد للمنكر من فنون البلاغة، يقول الإمام السيوطى فى الإتقان (١٩٣/٣): «ويتفاوت التأكيد بحسب قوة الإنكار وضعفه. كقوله تعالى حكاية عن رسل عيسى إذ كذبوا فى المرة الأولى ﴿إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ (١٤)﴾ [يس] ، فأكد بإن وإسمية الجملة . وفى المرة الثانية : ﴿قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ (١٦)﴾ [يس] ، فأكّد بالقسم وإن واللام وإسمية الجملة، لمبالغة المخاطبين فى الإنكار حيث قالوا: ﴿ مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ(١٥)﴾ [يس]».

(٢) التنوين فى اللغة : هو نون ساكنة تتبع آخر الاسم لفظاً وتفارقه خطاً، وهو أنواع منها تنوين التمكين والتنكير والعرض والترنم . [راجع : شرح الأشمونى على الألفية (١ / ١٨)].

﴿فَلَوْلا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ (١) (٨٣) وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ (٨٤)﴾ [الواقعة]

و«كلاً» فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها توجز أن كلاً من الطائع المؤمن ، والعاصى الكافر ، سوف يلقى جزاءه ثواباً أو عقاباً.

أما قوله سبحانه: ﴿لَّمَّا﴾ فى نفس الآية، فنحن نعلم أن «لما» تستعمل فى اللغة بمعنى «الحين» و«الزمان» مثل قول الحق سبحانه:

﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا (٢) وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ .. (١٤٣)﴾ [الأعراف]

ومثل قوله سبحانه:

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ (٣) الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ (٤) يُوسُفَ .. (٩٤)﴾ [يوسف]

أى: حين فصلت العير وخرجت من مصر قال أبوهم: ﴿إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ .. (٩٤)﴾ .

---

(١) الحلقوم: الحلق . والحلقوم علمياً الآن: هو تجويف خلف تجويف الفم، وفيه ست فتحات: فتحة الفم، وفتحتا المنخرين، وفتحتا الأذنين، وفتحة الحنجرة؛ ويمر الطعام والشراب من الحلقوم إلى المرىء، أما النفس فهو يمر من الحلقوم إلى الحنجرة. قال تعالى: ﴿فَلَوْلا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ (٨٣)﴾ [الواقعة] كناية عن الاحتضار للموت، أى: بلغت الروح الحلقوم وهى خارجة من الجسد. [القاموس القويم: مادة (ح ل ق)].

(٢) الميقات: الوقت المحدد لعمل من الأعمال. قال تعالى: ﴿فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً .. (١٤٢)﴾ [الأعراف] أى: تم الزمن المحدد لمناجاة ربه. وقال تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤٠)﴾ [الدخان]. أى: وقتهم المحدد لبعثهم وحسابهم. والجمع: مواقيت. [القاموس القويم : مادة (وقت)].

(٣) فصل عن المكان: جاوزه. قال تعالى: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ .. (٩٤)﴾ [يوسف] أى: خرجت وجاوزت المدينة. [القاموس القويم : مادة (فصل)].

(٤) قوله : ﴿إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ .. (٩٤)﴾ [يوسف] أى: ريحاً تحمل رائحته، أو الريح بمعنى الرائحة، أى : رائحته. [القاموس القويم ١/ ٢٨٠].

و«لما» تأتى أيضاً للنفى مثل قوله سبحانه:

﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ .. (١٤)﴾ [الحجرات]

أى: أن الإيمان لم يدخل قلوبهم بعد، وتحمل كلمة «لما» الإذن بأن الإيمان سوف يدخل قلوبهم بعد ذلك.

وحين تستخدم كلمة «لما» فى النفى تكون «حرفاً» مثلها مثل كلمة «لم» ، ولكنها تختلف عن «لم» لأن «لم» تجزم الفعل المضارع ، ولا يتصل نفيها بساعة الكلام ، بل بما مضى ، وقد يتغير الموقف. أما «لما» فيتصل نفيها إلى وقت الكلام ، وفيها إيذان بأن يحدث ما تنفيه.

وهكذا نفهم أن قول الحق سبحانه:

﴿وَإِنَّ كُلاًّ لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ[1] (١١١)﴾ [هود]

أى: أن كلاً من الطائع والعاصى سيوفَّى حسابه وجزاءه ثواباً أو عقاباً ، حين يأتى أجل التوفية ، وهو يوم القيامة.

وقد جاءت «لما» لتخدم فكرة العقوبة التى كانت تأتى فى الدنيا ، وشاء الله سبحانه أن يؤجل العقوبة للكافرين إلى الآخرة ، وأنسب حرف للتعبير عن ذلك هو «لما».

وحين تقرأ ﴿لَيُوَفِّيَنَّهُمْ﴾ تجد اللام ، وهى لام القسم بأن الحق سبحانه سيوفيهم حسابهم إن ثواباً أو عقاباً.

---

(١) الخبير : من أسماء الله الحسنى. قال تعالى: ﴿.. وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (١٨)﴾ [الأنعام]. وخبر الأمر، وخبر بالأمر، كعلمه، وعلم به – وزناً ومعنًى – فهو به خبير. والخبير: العالم ببواطن الأمور. قال تعالى: ﴿.. فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً (٥٩)﴾ [الفرقان] . [القاموس القويم : مادة (خبر)].

والله سبحانه بما يفعل العباد خبير ، وهو سبحانه يعلم أفعال العبد قبل أن تقع ، ولكنها حين تقع لا يمكن أن تُنسَى أو تذهب أدراج الرياح ؛ لأن من يعلمها هو «الخبير» صاحب العلم الدقيق ، والخبير يختلف عن العالِم الذى قد يعلم الإجماليات ، لكن الخبير هو المدرَّب على التخصص.

ولذلك غالباً ما تأتى كلمتا «اللطيف والخبير» معاً ؛ لأن الخبير هو من يعلم مواقع الأشياء ، واللطيف هو من يعرف الوصول إلى مواقع تلك الأشياء.

ومثال هذا: أنك قد تعرف مكان اختباء رجل فى جبل مثلاً ، هذه المعرفة وهذه الخبرة لا تكفيان للوصول والنفاذ إلى مكانه، بل إن هذا يحتاج إلى ما هو أكثر ، وهو الدقة واللطف.

والحق سبحانه جاء بهذا الحديث عن موسى عليه السلام ليسلِّى رسوله ﷺ، لأن بعضاً من الكافرين برسالة محمد عليه الصلاة والسلام قالوا: ما دام الله يأتى بالعذاب ليبيد من يكفرون برسله ، فلماذا لا يأتى لنا العذاب[1]؟

ولهذا جاء ما يخبر هؤلاء بأن الحق سبحانه سيوقع العقوبة على الكافرين، لا محالة ، فإياك أن يخادعوك - يا رسول الله - فى شىء،

---

(١) إن وعد الله له توقيته المراد له مصداقاً لقوله تعالى : ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾﴾ [إبراهيم] وقوله :﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾﴾ [القلم]

أو يساوموك على شيء ، مثلما قالوا : نعبد إلهك سنة ، وتعبد آلهتنا سنة [١].

وقد سبق أن قطع الحق سبحانه هذا الأمر بأن أنزل:

﴿قُلْ يَـٰأَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ (٤)﴾ [الكافرون]

وهذا هو قطع العلاقات التام فى تلك المسألة التى لا تقبل المساومة، وهى العبادة.

ونحن نعلم أن العبادة أمر قلبى، لا يمكن المساومة فيه، وقطع العلاقات فى مثل هذا الأمر أمر واجب؛ لأنه لا يمكن التفاوض حوله؛ فهى ليست علاقات ظرف سياسى، ولكنه أمر ربَّانى ، يحكمه الحق سبحانه وحده.

وقول الحق سبحانه:

﴿لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ (٤)﴾ [الكافرون]

هذا القول الكريم يشعر من يسمعه ويقرؤه أنهم سيظلون على

---

(١) ذكر الواحدى فى أسباب النزول (ص ٢٦١) «أن رهطاً من قريش قالوا: يا محمد هلم اتبع ديننا ونتبع دينك، تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة، فإن كان الذى جئت به خيراً مما بأيدينا قد شركناك فيه وأخذنا بحظنا منه، وإن كان الذى بأيدينا خيراً مما فى يدك قد شركت فى أمرنا وأخذت بحظك، فقال: معاذ الله أن أشرك به غيره، فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ يَـٰأَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١)﴾ [الكافرون] إلى آخر السورة، فغدا رسول الله ﷺ إلى المسجد الحرام وفيه الملأ من قريش، فقرأها عليهم حتى فرغ من السورة ، فأيسوا منه عند ذلك».

عبادة غير الله ، وأن محمداً سيظل على عبادة الله ، وأن كلمة «الله» ستعلو ؛ لأن الحق سبحانه يأتى بعد سورة «الكافرون» بقوله تعالى:

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا (١) ۝٣﴾ [النصر]

وهنا يقول الحق سبحانه:

﴿فَاسْتَقِمْ (٢) كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا (٣) إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝١١٢﴾

والاستقامة معناها: عدم الميل أو الانحراف - ولو قيد شعرة - وهذا أمر يصعب تحقيقه ؛ لأن الفاصل بين الضدين ، أو بين المتقابلين هو أدق من الشعرة فى بعض الأحيان.

ومثال ذلك: حين ترى الظل والضوء ، فأحياناً يصعد الظل على الضوء ، وأحياناً يصعد الضوء على الظل ، وسنجد صعوبة فى تحديد الفاصل بين الظل والنور ، مهما دقت المقاييس.

---

(١) يقول الله تعالى لنبيه محمد ﷺ : إذا جاءك نصر الله - يا محمد - على قومك من قريش، والفتح: فتح مكة. ورأيت الناس: من صنوف العرب وقبائلها يدخلون فى دين الله أفواجاً: أى: فى دين الله الذى ابتعثك به. أفواجاً : يعنى: زمراً (جماعات) ، فوجاً فوجاً . فسبح بحمد ربك: أى : فسبح ربك وعظمه بحمده وشكره، واستغفره : وسله أن يغفر ذنوبك. إنه كان تواباً : أى: ذا رجوع لعبده المطيع إلى ما يحب. [مختصر تفسير الطبرى - بتصرف].

(٢) استقام الشىء : خلا من العوج. واستقام المؤمن : سلك الطريق القويم. قال تعالى:﴿فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ .. ۝٧﴾ [التوبة] أى: حافظوا على الوفاء لهم بعهدكم ما داموا هم يحافظون على عهودكم، ولم ينكثوا العهد معكم. [القاموس القويم : مادة (قوم)].

(٣) طغا يطغو طغواناً وطغوى: فعل واوى، بمعنى: تجاوز الحد فى الجور والتعدى. وطغى يطغى وطغى طغياناً : فعل يائى، بمعنى: تجاوز الحد. قال تعالى: ﴿الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ۝١١﴾ [الفجر]. أى: ظلموا وتجاوزوا الحد فى العصيان. [القاموس القويم : مادة (طغى)].

وهكذا يصبح فصل الشيء عن نقيضه صعباً ، ولذلك فالاستقامة أمر شاق للغاية.

وساعة أن نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ : «شيبتنى هود وأخواتها» [(١)].

ولولا أن قال الحق سبحانه فى كتابه الكريم:

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ [(٢)] .. (١٦) ﴾ [التغابن]

فلولا نزول هذه الآية لتعب المسلمون تماماً ، وقد أنزل الحق سبحانه هذا القول بعد أن قال:

﴿ اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ [(٣)] .. (١٠٢) ﴾ [آل عمران]

وعزَّ ذلك على صحابة رسول الله ﷺ ، فأنزل الحق سبحانه ما يخفف به عن أمة محمد ﷺ بأن قال سبحانه:

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ .. (١٦) ﴾ [التغابن]

إذن: فالأمر بالاستقامة هو أمر بدقة الأداء المطلوب لله أمراً ونهياً ، بحيث لا نميل إلى جهة دون جهة.

---

(١) عن أبى جحيفة قال: قالوا يا رسول الله نراك وقد شبت؟ قال: «شيبتنى هود وأخواتها» أخرجه أبو نعيم فى الحلية (٤ / ٣٥٠) وأورده الهيثمى فى المجمع (٣٧/٧) من حديث عقبة بن عامر وعزاه للطبرانى وقال: رجاله رجال الصحيح» وأخوات سورة هود التى شيبت رسول الله هى سورة الواقعة والمرسلات والنبأ والتكوير. انظر الترمذى فى سننه (٣٢٩٧).

(٢) اتقى: أصله (أوتقى) على وزن (افتعل) ، قلبت واو الفعل تاء، وأدغمت فى تاء الافتعال. واتقى الله: تجنب ما يغضبه، وما يسبب عذابه، وذلك بطاعة الله، وبالبعد عن معصيته. قال تعالى: ﴿ .. لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١) ﴾ [البقرة] أى: تحفظون أنفسكم من عذاب الله بطاعته وترك معصيته. [القاموس القويم: مادة (و ق ى)].

(٣) التقاة: الاتقاء والتقوى، وأصلها: وقية، قلبت الواو تاء، والياء ألفاً. وجمعها: تقى. قال تعالى: ﴿ إِلاَّ أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً .. (٢٨) ﴾ [آل عمران] . أى: إلا أن تخافوا منهم شراً، وتحذروا منهم مكروهاً، لا تريدونه لأنفسكم. [القاموس القويم : مادة (وقى)].

وهكذا تطلب الاستقامة كامل اليقظة وعدم الغفلة.

ويقول الحق سبحانه:

﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ .. (١١٢) ﴾ [هود]

وهذا إيذان بألاَّ ييأس رسول الله ﷺ من وقوف صناديد قريش أمام دعوته ﷺ ؛ لأنهم سيتساقطون يوماً بعد يوم.

وقول الحق سبحانه:

﴿ .. وَلا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١٢) ﴾ [هود]

يعنى ألا نتجاوز الحد ، فالطغيان هو مجاوزة الحد.

وهكذا نعلم أن الإيمان قد جعل لكل شىء حداً ، إلا أن حدود الأوامر غير حدود النواهى ؛ فالحق سبحانه إن أمرك بشىء ، فهو يطلب منك أن تلتزمه ولا تتعده.

وقال الحق سبحانه:

﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا [1] .. (٢٢٩) ﴾ [البقرة]

وهذا القول فى الأوامر ، أما فى النواهى فقد قال سبحانه:

﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوهَا [2] .. (١٨٧) ﴾ [البقرة]

---

(١) اعتدى: ظلم وجار. قال تعالى: ﴿ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ .. (١٩٤) ﴾ [البقرة] أى: فعاقبوه على اعتدائه. وسُمِّى عقاب المعتدى اعتداءً؛ للمشاكلة. وعدا يعدو، عدواً : جرى. وعدا عليه عدواً وعدواناً : ظلمه وصال عليه، مثل: اعتدى عليه. والمراد بعدم الاعتداء هنا: عدم تجاوز حدود الله التى نهى سبحانه عن اقترافها. [القاموس القويم : مادة (عدا) بتصرف].

(٢) قربت الأمر، أقربه قرباناً وقرباً: فعلته أو دانيته. ومنه قول الله تعالى:﴿ وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ .. (٣٢) ﴾ [الإسراء] وقوله تعالى : ﴿ وَلا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ .. (٣٥) ﴾ [البقرة] أى: لا تأتياها ولا تلمساها ولا تأكلا منها والنهى من باب أولى عن الشىء. وكذلك: ﴿ وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ .. (٣٢) ﴾[الإسراء] فإنه نهى عن القرب منه، وهو نهى عن المس وعن القبلة ونحوها مما يقرب الإنسان من الوقوع فيه. [القاموس القويم : مادة (ق ر ب)].

أى: أن تبتعد عنها تماماً.

ويقول رسول الله ﷺ : «من وقع فى الشبهات وقع فى الحرام كالراعى يرعى حول الحمى [١] يوشك أن يرتع [٢] فيه ، ألا وإن لكل ملك حمى، ألا وإن حمى الله محارمه» [٣].

وحين ينهانا الحق سبحانه عن الاقتراب من شىء فهذه هى استقامة الاحتياط ، وهى قد تسمح لك بأن تدخل فى التحريم ما ليس داخلاً فيه ، فمثلاً عند تحريم الخمر ، جاء الأمر باجتنابها أى: الابتعاد عن كل ما يتعلق بالخمر حتى لا يجتمع المسلم هو والخمر فى مكان.

وجعل الحق سبحانه أيضاً الاستقامة فى مسائل الطاعة ، وهو سبحانه يقول:

﴿ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلا تُسْرِفُوا [٤] .. (١٤١) ﴾ [الأنعام]

---

(١) قال النووى فى شرحه: «معناه أن الملوك من العرب وغيرهم يكون لكل ملك منهم حمى يحميه عن الناس ويمنعهم دخوله، فمن دخله أوقع به العقوبة، ومن احتاط لنفسه لا يقارب ذلك الحمى، خوفاً من الوقوع فيه» (٣/ ١٢٢٠) ط. فؤاد عبد الباقى.

(٢) الرتع: الأكل بشره. والرتع فى الخصب هو الرعى فيه. وأرتع القوم: وقعوا فى خصب ورعوا. [اللسان : مادة رتع].

(٣) متفق عليه. أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٠٥١) ومسلم فى صحيحه (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير.

(٤) أسرف : جاوز القصد والاعتدال، فهو سرف، ويكون فى المال وفى غيره. قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا (٦٧) ﴾ [الفرقان] أى: معتدلاً فى إنفاق المال. وقال تعالى: ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ .. (٥٣) ﴾ [الزمر] أى: جاوزوا القصد والاعتدال فى أمور كثيرة، فأكثروا الذنوب على أنفسهم. وقال تعالى: ﴿ فَلا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ .. (٣٣) ﴾ [الإسراء] أى : لا يقتل أكثر من القاتل، كما كانوا يفعلون فى الجاهلية، فيقتلون بالشريف عدداً من قبيلة القاتل. وقال تعالى: ﴿ وَلا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (١٥١) ﴾ [الشعراء] والإسراف يكون فى أمور كثيرة، لا فى إنفاق المال وحده، ومن حكم الصالحين : لا إسراف فى الخير، ولا خير فى الإسراف. [القاموس القويم : مادة (سرف)].

والنهى عن الإسراف هنا ؛ ليعصمنا الحق سبحانه من لحظة نتذكر فيها كثرة ما حصدنا ، ولكننا لا نجد ما نقيم به الأود [١] فقد يسرف الإنسان لحظة الحصاد لكثرة ما عنده ، ثم تأتى له ظروف صعبة فيقول: «يا ليتنى لم أُعْطِ». وهكذا يعصمنا الحق سبحانه من هذا الموقف.

ويقول رسول الله ﷺ : «سدِّدوا [٢] وقاربوا واعلموا أنه لن يدخل أحدكم عمله الجنة ، وأن أحب الأعمال أدومها إلى الله وإن قل» [٣] ؛ لأن الدين قوى متين [٤]، و« لن يشاد الدين أحد إلا غلبه »[٥].

وهكذا نجد الحق سبحانه ونجد رسوله ﷺ أعلم بنا ، والله لا يريد منا عدم الطغيان من ناحية المحرمات فقط ، بل من ناحية الحلِّ أيضاً، فيوصينا سبحانه بالرفق واللين والهوادة ، وأن يجعل الإنسان لنفسه مُكْنة الاختيار.

ومثال ذلك: أن يلزم الإنسان نفسه بعشرين ركعة كل ليلة ، وهو يلزم نفسه بذلك نذراً لله تعالى فى ساعة صفاء ، لكنه حين يبدأ فى مزاولة ذلك القدر يكتشف صعوبته ، فتكرهه نفسه.

---

(١) الأود : أى ما يكون قوتاً ضرورياً له، فتقوم به حياته.

(٢) سد الشىء سداداً وسدوداً : استقام. يقال: سد السهم. وسد فلان: أصاب قوله وفعله. وسد قوله وفعله: استقام وأصاب، فهو سديد. والسداد: الاستقامة والقصد، والصواب من القول والفعل. [المعجم الوسيط : مادة (سدد) بتصرف].

(٣) متفق عليه. أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٤٦٣) ومسلم فى صحيحه (٢٨١٦) عن أبى هريرة .

(٤) عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «إن هذا الدين متين فأوغلوا فيه برفق» أخرجه أحمد فى مسنده (٣/١٩٩).

(٥) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «إن هذا الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا وأبشروا ويسروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشىء من الدلجة» أخرجه النسائى فى سننه (٨/١٢٢).

ولذلك يأمرنا الحق سبحانه بالاستقامة وعدم الطغيان ؛ استقامة فى تحديد المأمور به والمنهى عنه ؛ ولذلك كان الاحتياط فى أمر العبادات أوسع لمن يطلب الاستقامة.

ويقول رسول الله ﷺ : «الحلال بيِّن[١]، والحرام بين ، وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ[٢] لدينه وعرضه»[٣].

ولذلك يطلب الشارع الحكيم سبحانه منا فى الاحتياط أن نحتاط مرة بالزيادة ، وأن نحتاط مرة بالنقص ، فحين تصلى خارج المسجد الحرام، يكفيك أن تكون جهتك الكعبة ، أما حين تصلى فى المسجد الحرام ، فأنت تعلم أن الكعبة قسمان: قسم بنايته عالية ، وقسم اسمه «الحطيم»[٤] وهو جزء من الكعبة ، لكن نفقتهم أيام رسول الله ﷺ قد قصرت ؛ فلم يبنوه[٥].

لذلك فأنت تتجه ببصرك إلى البناء العالى المقطوع بكعبيته ، وهذا هو الاحتياط بالنقص.

---

(١) بيِّن: صيغة مبالغة من البيان: أى: شديد الوضوح.

(٢) استبرأ من الدَّين والذنب: طلب البراءة منه. واستبرأ الشىء: تقصى بحثه ليقطع الشبهة عنه. [المعجم الوسيط : مادة (برأ)].

(٣) متفق عليه. أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٠٥١) ، ومسلم فى صحيحه (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير.

(٤) الحطيم: الجدار، وهو هنا جدار الكعبة. قال الأزهرى: الذى فيه المرزاب، وإنما سمى حطيماً لأن البيت رفع وترك ذلك محطوماً. [اللسان ، مادة : حطم].

(٥) عن عائشة رضى الله عنها قالت: سألت رسول الله ﷺ عن الجدر (هو حجر الكعبة) أمن البيت هو؟ قال: نعم. قلت: فلم لم يدخلوه فى البيت؟ قال: إن قومك قصرت بهم النفقة. قلت: فما شأن بابه مرتفعاً؟ قال: فعل ذلك قومك ليدخلوا من شاؤوا ويمنعوا من شاؤوا، ولولا أن تنكر قلوبهم لنظرت أن أدخل الجدر فى البيت وأن ألزق بابه بالأرض» متفق عليه. أخرجه البخارى فى صحيحه (١٥٨٤) ومسلم فى صحيحه (١٣٣٣ - رواية رقم ١٠).

أما الاحتياط بالزيادة ، فمثال ذلك: هو الطواف ، وقد يزدحم البشر حول الكعبة ، ولا تسمح ظروفك إلا بالطواف حول المسجد.

وهكذا يطول عليك الطواف ، لكنه طواف بالزيادة، فعند الصلاة يكون الاحتياط بالنقص، أما عند الطواف فيكون الاحتياط بالزيادة.

وهكذا نجد الاحتياط هو الذى يحدد معنى الاستقامة.

ويُنهى الحق سبحانه الآية بقوله تعالى:

﴿ .. إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١٢) ﴾ [هود]

وفى الآية السابقة قال سبحانه : ﴿ .. إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١١١) ﴾ [هود]

وعلمنا معنى الخبير ، أما المقصود بالبصير هنا فهو أنه سبحانه يعلم حركة العبادة؛ لأن حركة العبادة مرئية.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ (١١٣) ﴾ (١)

---

(١) ركن يركن ركناً وركوناً: مال إليه وسكن. وركن الشيء: جانبه الأقوى. قال تعالى: ﴿ .. أَوْ آوِى إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ (٨٠) ﴾ [هود] أى: ألجأ إلى حصن قوى يحمينى، أو إلى رجل قوى يحمينى وينصرنى عليكم، كأنه ركن ممتنع حصين. وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ .. (١١٣) ﴾ [هود] أى: لا تميلوا إليهم وتعتمدوا عليهم. وقال تعالى: ﴿ وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا (٧٤) ﴾ [الإسراء] أى: تميل إليهم. [القاموس القويم : مادة (ركن)].

والكافرون - كما نعلم - قد عرضوا على رسول الله ﷺ أن يعبد آلهتهم سنة ، وأن يعبدوا هم الله سنة ، ولكن الحق سبحانه قطع وفصل فى هذا الأمر.

ويأتى هنا توكيد هذا الأمر ؛ فيقول سبحانه:

﴿ وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا[1] .. (١١٣) ﴾ [هود]

والركون هو الميل والسكون والمودة والرحمة. وأنت إذا ركنت للظالم ؛ أدخلت فى نفسه أن لقوته شأناً فى دعوتك.

والركون أيضاً يعنى: المجاملة ، وإعانة هذا الظالم على ظلمه ، وأن تزيِّن للناس ما فعله هذا الظالم.

وآفة الدنيا هى الركون للظالمين ؛ لأن الركون إليهم إنما يشجعهم على التمادى فى الظلم ، والاستشراء فيه. وأدنى مراتب الركون إلى الظالم ألا تمنعه من ظلم غيره. وأعلى مراتب الركون إلى الظالم أن تزين له هذا الظلم ؛ وأن تزين للناس هذا الظلم.

وأنت إذا استقرأت وضع الظلم فى العالم كله لوجدت آن آفات المجتمعات الإنسانية إنما تنشأ من الركون إلى الظالم ؛ لكنك حين تبتعد عن الظالم ، وتقاطعه أنت ومن معك ؛ فلسوف يظن أنك لم تُعرْض عنه إلا لأنك واثق بركن شديد آخر ؛ فيتزلزل فى نفسه ؛ حاسباً حساب القوة التى تركن إليها ؛ وفى هذا إضعاف لنفوذه ؛ وفى هذا عزلة له وردع ؛ لعله يرتدع عن ظلمه.

---

(١) الظلم : مجاوزة الحد ومفارقة الحق أو هضمه وانتقاصه، وهو ضد العدل، قال تعالى: ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٨) ﴾ [النحل] والظالم اسم فاعل يقول الحق: ﴿ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ .. (٣٥) ﴾ [الكهف]، والظلام صيغة مبالغة يقول الحق: ﴿ إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤) ﴾ [إبراهيم] وظلام صيغة مبالغة يقول الحق : ﴿ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (٢٩) ﴾ [ق] ، ومظلوم اسم مفعول يقول الحق : ﴿ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا .. (٣٣) ﴾[الإسراء] [القاموس القويم ١/٤١٦ ، ٤١٧].

والركون للظالم إنما يجعل الإنسان عرضة لأن تمسه النار بقدر آثار هذا الركون ؛ لأن الحق سبحانه يقول:

﴿ وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ (١) النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ (١١٣) ﴾ [هود]

فأنتم حين تركنون إلى ظالم إنما تقعون فى عداء مع منهج الله ؛ فيتخلى الله عنكم ولا ينصركم أحد ؛ لأنه لا ولىَّ ولا ناصر إلا الله تعالى.

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك:

﴿ وَأَقِمِ الصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا (٢) مِّنَ اللَّيْلِ ۚ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ (١١٤) ﴾

وهذا أمر بالخير ؛ يوجهه الله سبحانه إلى رسوله ﷺ .

ونحن نلحظ فى هذه الآيات من سورة هود أنها تحمل أوامر ونواهى ؛ الأوامر بالخير دائماً ؛ والنواهى عن الشر دائماً.

ونلحظ أن الحق سبحانه قال:

﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ .. (١١٢) ﴾ [هود]

---

(١) مسّه يمسّه مساً : أجرى يده عليه من غير حائل.
ومسته النار: أصابته، وباشرت جلده؛ فآذته.
ومسه المرض – على المجاز – : أصابه. قال تعالى: ﴿ .. وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا (٨٣) ﴾ [الإسراء].
[القاموس القويم : مادة (مس)].

(٢) زلف إليه يزلف زلفة وزلفى: قَرُبَ ودنا. قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً .. (٢٧) ﴾ [الملك] أى : قرباً .
وهو وصف بالمصدر بلفظه، ويعرب حالاً، أى: ذا قرب، أى: قريباً قرباً شديداً.
والزلفى: القرب والمنزلة والدرجة. قال تعالى: ﴿ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ .. (٣٧) ﴾ [سبأ] أى: قرباً، مفعول مطلق مرادف ، أو تقربكم درجة ومنزلة قريبة منا. والزلفة: الطائفة من الليل. وجمعها: زلف. قال تعالى: ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ .. (١١٤) ﴾ [هود] أى: أوقاتاً وساعات من الليل. قيل: فى أوله. وقيل: فى أى وقت فيه. [القاموس القويم : مادة (زلف)].

ثم وَجَّه النهى للأمة كلها: ﴿ وَلَا تَطْغَوْا .. (١١٢) ﴾ [هود] ولم يقل: «فاستقم ولا تطغى» لأن الأمر بالخير يأتى للنبى ﷺ وأمته معه ؛ وفى النهى عن الشر يكون الخطاب موجهاً إلى الأمة ، وفى هذا تأكيد لرفعة مكانة النبى ﷺ .

ونرى نفس الأمر حين يوجه الحق سبحانه الحديث إلى أمة محمد ﷺ فيقول سبحانه وتعالى:

﴿ وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا .. (١١٣) ﴾ [هود]

ولم يقل: «ولا تركن إلى الذين ظلموا».

وهنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها يقول الحق سبحانه لرسوله ﷺ ولأمته:

﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ .. (١١٤) ﴾ [هود]

والإقامة تعنى: أداء المطلوب على الوجه الأكمل ، مثل إقامة البنيان ؛ وأن تجعله مؤدياً للغرض المطلوب منه.

ويقال: «أقام الشىء» أى: جعله قائماً على الأمر الذى يؤدى به مهمته.

وقول الحق سبحانه:

﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ (١) النَّهَارِ .. (١١٤) ﴾ [هود]

أى: نهايته من ناحية ، ونهايته من الناحية الأخرى ؛ لأن طرف الشىء هو نهايته.

---

(١) الطرف – بفتح الراء – : الجانب، ومنتهى الشىء. قال تعالى: ﴿ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا .. (١٢٧) ﴾ [آل عمران] أى: يهلك جانباً منهم، أى: طائفة منهم. وقال تعالى: ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ .. (١١٤) ﴾ [هود] أى: صباحاً ومساءً، والمراد: جميع الأوقات. ويؤيده قوله تعالى: ﴿ .. وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ (١٣٠) ﴾ [طه] أى: جميع الأوقات [القاموس القويم، مادة: طرف].

وتتحدد نهاية الطرفين من منطقة وسط الشيء ، فالوسط هو الفاصل بين الطرفين ؛ فما على يمين الوسط يعد طرفاً ؛ وما على يسار الوسط يعد طرفاً آخر ؛ وكل جزء بعد الوسط طرف.

وعادةً ما يعد الوسط هو نقطة المنتصف تماماً ، وما على يمينها يقسم إلى عشرة أجزاء ، وما على يسارها يقسم إلى عشرة أجزاء أخرى ، وكل قسم بين تلك الأجزاء التى على اليمين والتى على اليسار يعد طرفاً.

وقول الحق سبحانه:

﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ .. (١١٤) ﴾ [هود]

يقتضى أن تعرف أن النهار عندنا إنما نتعرف عليه من بواكير الفجر الصادق ، وهذا هو أول طرف نقيم فيه صلاة الفجر ، ثم يأتى الظهر؛ فإن وقع الظهر قبل الزوال [(١)] حسبناه من منطقة ما قبل الوسط ، وإن كان بعد الزوال حسبناه من منطقة ما بعد الوسط.

وبعد الظهر هناك العصر ، وهو طرف آخر [(٢)].

وقول الحق سبحانه:

﴿ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ .. (١١٤) ﴾ [هود]

يقتضى منا أن نفهم أن كلمة ﴿زُلَفًا﴾ هى جمع: زلفة، وهى مأخوذة من: أزلفه ، إذا قرَّبه.

والجمع أقله ثلاثة ؛ ونحن نعلم أن لنا فى الليل صلاة المغرب ، وصلاة

---

(١) الزوال: الوقت الذى تكون فيه الشمس فى كبد السماء. [المعجم الوسيط : مادة (زول)].

(٢) قال مجاهد: الطرف الأول صلاة الصبح، والطرف الثانى صلاة الظهر والعصر، واختاره ابن عطية. وقيل: الطرفان الصبح والمغرب. قاله ابن عباس والحسن. وعن الحسن أيضاً: الطرف الثانى العصر وحده، وقاله قتادة والضحاك. نقله القرطبى فى تفسيره (٤/٣٤٢٨).

العشـاء ، ولذلك نجد الإمام أبا حنيفـة يعتبر الوتر واجـباً [(١)]، فقال: إن صلاة العشاء فرض ، وصلاة الوتر واجب ؛ وهناك فرق بين الفرض والواجب [(٢)].

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك مباشرة:

﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ [(٣)] .. (١١٤) ﴾ [هود]

وهذا التعقيب يضع الصلاة فى قـمة الحسنات ، وقد أوضح رسول الله ﷺ هذا بأن قال: « الصلوات الخمس ، والجمعـة إلى الجمعة كفارة لما بينهن ما لم تُغْشَ الكبائر » [(٤)].

---

(١) قـال الشوكـانى فى نيل الأوطار (٣/ ٣٠) : «ذهب الجـمـهور إلى أن الوتر غـيـر واجب بل سنة، وخالفـهم أبو حنيفـة فقال: إنه واجـب، وروى عنه أنه فرض. قال ابن المنـذر: ولا أعلم أحداً وافق أبا حنيفة فى هذا. ومن الأدلة الدالة على عدم وجوب الوتر ما اتفق عليه الشيخان من حديث طلحة ابن عبـيد الله قال: جاء رجل إلى رسـول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : «خـمس صلوات فى اليوم والليلة. قال: هل علىَّ غيرها؟ قال: لا إلا أن تطوع».

(٢) الفرض: ما ثبت بدليل قـطعى لا شبهة فيه ويـكفر جاحده ويُعذب تاركـه، وهو على نوعين: فرض عين وفرض كـفاية، ففرض العين ما يلزم كل واحـد إقامته، ولا يسقط عن البعض بإقـامة البعض كالإيمـان ونحوه، وفرض الكفـاية ما يلزم جمـيع المسلمـين إقامتـه، ويسقط بإقامـة البعض عن الباقين كالجهاد وصلاة الجنازة. أما الواجب: فهو اسم لما لزم علينا بدليل فيه شبهة كخبر الواحد والقياس والعـام المخصوص والآية المـؤولة كصدقة الفطر والأضحـية. [التعريفـات للجرجانى ـ صفحات ١٤٤ ، ٢٢٢].

(٣) ذكر القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٤٣٠) أن سـبب نزول هذه الآية أن رجلاً من الأنصار خلا بامرأة فقـبلها وتلذذ بهـا فيـما دون الفرج، روى التـرمذى عن عـبد الله بن مسـعود قـال: جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال: «إنى عالجت امرأة فى أقصى المدينة، وإنى أصبت منها ما دون أن أمسها وأنا هذا فاقْضِ فى مـا شئت. فـقال له عمـر: لقد ستـرك الله لو ستـرت على نفسك. فلم يرد عليـه رسول الله ﷺ شيئاً، فانطلق الرجل فأتبعه رسول الله ﷺ رجلاً فدعاه، فتلا عليه: ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ (١١٤) ﴾ [هود] فقال رجل من القوم: هذا له خاصة؟ قال: «لا بل للناس كافة» قال الترمذى: «حديث حسن صحيح».

(٤) أخرجه مـسلم فى صحيحـه (٢٣٣) وأحمد فى مسنده (٢/ ٤٨٤) وابن مـاجه فى سننه (١٠٨٦) من حديث أبى هريرة.

واختلف العلماء فى معنى السيئات والحسنات ، وقال بعضهم: الحسنة هى ما جعل الله سبحانه على عملها ثواباً ، والسيئة هى ما جعل الله على عملها عقاباً.

وأول الحسنات فى الإيمان أن تشهد أن لا إله إلا الله ، وهذه حسنة أذهبت الكفر ؛ لأن الحسنات يذهبن السيئات.

ولذلك قال بعض العلماء: إن المسلم الذى ارتكب معصية أو كبيرة من الكبائر ، لا يخلد فى النار ؛ لأنه إذا كانت حسنة الإيمان قد أذهبت سيئة الكفر ، أفلا تذهب ما دون الكفر ؟.

وهكذا يخفّف العقاب على المسلم فينال عقابه من النار ، ولكنه لا يخلد فيها ؛ لأننا لا يمكن أن نساوى بين من آمن بالله ومن لم يؤمن بالله.

والإيمان بالله هو أكبر حسنة ، وهذه الحسنة تذهب الكفر ، ومن باب أولى أن تذهب ما دون الكفر.

وتساءل بعض العلماء: هل الفرائض هى الحسنات التى تذهب السيئات؟

وأجاب بعضهم: هناك أحاديث صحيحة قد وردت عن رسول الله ﷺ عن حسنات فى غير الفرائض ، ألم يقل رسول الله ﷺ أن صوم يوم عرفة إلى صوم يوم عرفة يذهب السيئات [(١)].

ألم يقل رسول الله ﷺ أن الإنسان الذى يستقبل نعمة الله بقوله: الحمد لله الذى رزقنيه من غير حولٍ [(٢)] منى ولا قوة ، والحمد لله الذى

---

(١) عن قتادة بن النعمان قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من صام يوم عرفة غفر له سنة أمامه وسنة بعده».

(٢) الحول: الحذق ، وجودة النظر ، والقدرة على دقة التصرف فى الأمور. [المعجم الوسيط : مادة (حول)].

كسانى من غير حولٍ منى ولا قوة [١]. وهذا القول يكفّر السيئات.

ألم يقل ﷺ إنك إذا قلت: سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلىّ العظيم [٢] ؛ فهذا القول كفارة [٣]؟

إذن: فالحسنات مطلقة سواء أكانت فرضاً أم غير فرض ، وهى تذهب السيئات . والسيئة هى عمل توعد الله - سبحانه - من يفعلهُ بالعقوبة.

وتساءل أيضاً بعض العلماء: إن السيئة عمل ، والعمل إذا وقع يُرفع ويُسجَّل ، فكيف تُذهبها الحسنة ؟

وأجابوا: إن ذهاب السيئة يكون إما عن طريق مَنْ يحفظ العمل ، ويكتبه عليك ، فيمحوه الله من كتاب سيئاتك ، أو أن يعفو الله سبحانه وتعالى عنك ؛ فلا يعاقبك عليه ، أو يكون ذهاب العمل فى ذاته فلا يتأتى ، وما وقع لا يرتفع ؛ أو يحفظها الله إن وقعت ؛ لأنه هو سبحانه القائل:

---

(١) عن معاذ بن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «من أكل طعاماً ثم قال: الحمد لله الذى أطعمنى هذا الطعام ورزقنيه من غير حول منى ولا قوة غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ومن لبس ثوباً فقال: الحمد لله الذى كسانى هذا الثوب ورزقنيه من غير حول منى ولا قوة غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر» أخرجه أبو داود فى سننه (٤٠٢٣) وكذا ابن ماجه (٣٢٨٥).

(٢) عن أبى الدرداء قال قال رسول الله ﷺ : «قل: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله، فإنهن الباقيات الصالحات، وهن يحططن الخطايا كما تحط الشجرة ورقها وهى من كنوز الجنة».

قال المنذرى فى الترغيب (٢/٢٤٨) : «رواه الطبرانى بإسنادين أصلحهما فيه عمر بن راشد، وبقية رواته محتج بهم فى الصحيح ولا بأس بهذا الإسناد فى المتابعات ورواه ابن ماجه من طريق عمر أيضاً باختصار».

(٣) الكفارة: ما شرعه الله من القربات لمحو الذنوب وغفرانها، مثل كفارة اليمين، قال تعالى: ﴿ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ .. ﴿٨٩﴾ ﴾ [المائدة] [القاموس القويم : مادة (كفر)]. وقال ابن منظور فى اللسان (مادة : كفر): «تكرر ذكر الكفارة فى الحديث، وهى عبارة عن الفعلة والخصلة التى من شأنها أن تكفر الخطيئة أى : تمحوها وتسترها».

﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (١) (١٨)﴾ [ق]

ويقول سبحانه:

﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (١٠) كِرَامًا كَاتِبِينَ (١١)﴾ [الانفطار]

وهكذا يكون إذهاب السيئة ، إما محوها من الكتاب ، وإما أن تظل فى الكتاب ، ويذهب الله سبحانه عقوبتها بالمغفرة.

والحق سبحانه يقول:

﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ (٢) إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ .. (٣٢)﴾ [النجم]

واجتناب الكبائر لا يمنع من وقوع الصغائر.

والحق سبحانه يقول:

﴿إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ (٣) .. (٤٥)﴾ [العنكبوت]

---

(١) لفظ النواة يلفظها لفظاً : رماها. ولفظ الكلمة: قالها. قال تعالى:﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (١٨)﴾ [ق] أى: كل كلمة يتكلمها الإنسان تسجل عليه بواسطة ملك عتيد، وعتيد: أى: حاضر مستعد لإثبات هذا القول فى كتاب الحسنات والسيئات. [القاموس القويم : مادة (لفظ ، عتد)].

(٢) اللمم: صغائر الذنوب. قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ .. (٣٢)﴾ [النجم]. [القاموس القويم : مادة (لمم)].

قال العوفى عن ابن عباس فى قوله : ﴿إِلاَّ اللَّمَمَ .. (٣٢)﴾ [النجم] : «كل شىء بين الحدين: حد الدنيا وحد الآخرة تكفره الصلوات فهو اللمم، وهو دون كل موجب، فأما حد الدنيا فكل حد فرض الله عقوبته فى الدنيا، وأما حد الآخرة فكل شىء ختمه الله بالنار وأخَّر عقوبته إلى الآخرة» ذكره ابن كثير فى تفسيره (٤/٢٥٦).

(٣) الفحشاء : الفحش، وهو العمل القبيح المنكر . قال تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ .. (٢٦٨)﴾ [البقرة] أى: يأمركم بالبخل أو فعل القبيح عامة، ومنه البخل. والفواحش هى الأمور القبيحة المنكرة. [القاموس القويم : مادة (فحش)].

والمنكر : ما يستقبحه الشرع الشريف، وما تستنكره العقول السليمة. قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ .. (١٠٤)﴾ [آل عمران] [القاموس القويم : مادة (نكر)].

وحين ننظر إلى مواقيت الصلاة ، نجدها خمسة مواقيت ، فمن تعلَّق قلبه بالصلاة ، إنما ينشغل قلبه طوال وقت حركته بإقامة الصلاة ، ثم يأتى وقت الليل لينام ، وكل من يرتكب معصية سينشغل فكره بها لمدة ، ولو لم يأت له وقت صلاة لأحسَّ بالضياع ، أما إذا ما جاء وقت الصلاة ، فقلبه يتجه لله سبحانه طالباً المغفرة.

وإن وقعت منه المعصية مرة ، فقد لا تقع مرة أخرى ، أو أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر فى وقت الاستعداد لها ، فمن جلس لينمَّ على غيره ، أو يظلم الناس ، إذا ما سمع أذان الصلاة وقام وتوضأ ؛ فقد رحم الناس فى وقت وضوئه ووقت صلاته ووقت ختمه للصلاة.

وهناك أعمال كثيرة من الفروض والحسنات وهى تمحو السيئات ، وعلى المسلم أن ينشغل بزيادة الحسنات ، وألا ينشغل بمحو السيئات؛ لأن الحسنة الواحدة بعشرة أمثالها وقد يضاعفها الله سبحانه ، أما السيئة فإنما تكتب واحدة [1].

ويُنهى الحق سبحانه هذه الآية الكريمة بقوله:

﴿ .. ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ (١١٤) ﴾ [هود]

أى: أن إقامة الصلاة طرفى النهار ، وزلفاً من الليل هى حسنات تذهب السيئات ؛ وفى ذلك ذكرى وتنبيه للنفس إلى شىء غُفل عنه ، أى: أن هذا الشىء كان موجوداً من قبل ، ولكن جاءت الغفلة لتنسيه ، والإخبار الأول أزال الجهل بهذا الشىء ، والإخبار الثانى يذكِّرك

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : «من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة، ومن هم بحسنة فعملها كتبت له عشراً إلى سبعمائة ضعف، ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب وإن عملها كتبت» أخرجه مسلم فى صحيحه (١٣٠) كتاب الإيمان.

بالحكم ؛ لأن آفة الإنسان أن الأمور التى تمر به من المرائى والمدركات ، تتوالى وتصير الأشياء التى فى بؤرة [١] الشعور إلى حاشية الشعور ، فيغفل الإنسان عما صار فى حاشية الشعور ، ولا بد من مجىء معنى جديد ليذكِّر بما غاب فى حاشية الشعور.

ومثال ذلك: إنك إذا ألقيت حجراً فى بحر ، فهذا الحجر يستقر فى بؤرة تصنع حولها دوائر من المياه ، وتذهب هذه الدوائر إلى أن تختفى من رؤية الإنسان ، ودليل ذلك أنك قد تتذكر أحداثاً مرت عليك من عشرين عاماً أو أكثر ، هذه الأحداث كانت موجودة فى حاشية الشعور ، ثم جاء لك ما ينبهك إليها.

والمخ كآلة التصوير الفوتوغرافية يلتقط أحياناً من مرة واحدة ، وأحياناً من مرتين ، أو أكثر ، والالتقاط من أول مرة إنما يتم لأن المخ فى تلك اللحظة كان خالياً من الخواطر.

ونحن نجد أن من فقدوا أبصارهم إنما ينعم الله سبحانه عليهم بنعمة أخرى ، هى قدرتهم الكبيرة على حفظ العلم ؛ لأنه حين يسمع الكفيف العلم لا تشغله الخواطر المرئية التى تسرق انتباه بؤرة الشعور ، أما المبصر ، فقد تسرق بؤرة شعوره ما يمر أمامه ، فيسمع العلم لأكثر من مرة إلى أن يصادف العلم بؤرة الشعور خالية فيستقر فيها.

وهكذا تفعل الذكرى ؛ لأنها تستدعى ما فى حاشية الشعور إلى بؤرة الشعور ، فإذا انشغلت عن طاعة وذهبت إلى معصية ، فالذكرى توضح لك آفاق المسئولية التى تتبع المعصية ، وهى العقاب.

---

(١) بؤرة الشىء: مركزه، أو وسطه. وبؤرة الشعور: مركزه، أى: داخل مركز الإحساس والشعور (الإدراك) فى المخ. والبؤرة فى اللغة: الحفرة، وهى مأخوذة من البئر. أما البؤرة فى «علم الطبيعة» فهى نقطة تتلاقى أو تتفرق عندها الأشعة الضوئية أو الحرارية أو الصوتية، إذا لم يعترض دونها شىء. [المعجم الوسيط : مادة (بأر) بتصرف وإضافة].

ولذلك يقال: «لا خير فى خيرٍ بعده النار ، ولا شر فى شر بعده الجنة».

والحق سبحانه يقول هنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها:

﴿ وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ .. (١١٤) ﴾ [هود]

وأنت حين تنظر إلى أركان الإسلام ، ستجد أنك تشهد ألا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله مرة واحدة فى العمر ، والركن الثانى ، وهو الصلاة، وهو ركن لا يسقط أبداً ، فهى كل يوم خمس مرات ، فيها تنطق بالشهادة ، وتزكِّى ببعض الوقت ليبارك لك الله - سبحانه وتعالى - فيما بقى لك من وقتٍ ، وفيها تصوم عن الطعام والشراب وكل ما يفسد الصيام ، وأنت تتجه لحظة قيام الصلاة إلى البيت الحرام.

ففى الصلاة تتضح العبادات الأخرى ، ففيها من أركان الإسلام الخمس.

ولذلك لا تسقط الصلاة أبداً ؛ لأنك إن لم تستطع الصلاة واقفاً ؛ فلَكَ أن تصلى قاعداً ، وإن لم تكن تستطيع الحركة فلَكَ أن تحرك رموش عينيك ، وأنت تصلى[1].

وهكذا تجد فى الصلاة كل أركان الدين ، ولأهميتها نجد أنها تبقى مع الإنسان إلى آخر رمقٍ فى حياته ، وهى قد أخذت أهميتها فى التشريع على قدر أهميتها فى التكليف ، وكل تكاليف الإسلام قد جاءت بواسطة الوحى إلا الصلاة ، فقد جاءت مباشرة من الله تعالى ، فقد استدعى الله

---

(١) عن عمران بن حصين قال: كانت بى بواسير، فسألت النبى ﷺ فقال: «صلِّ قائماً، فإن لم تستطع فقاعداً، فإن لم تستطع فعلى جنب» أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٤/٤٢٦) والبخارى فى صحيحه (٢/٥٨٤ ، ٥٨٦ - الفتح). قال الشيخ سيد سابق فى فقه السنة (١/١٠١) ، «من عجز عن القيام فى الفرض صلى على حسب قدرته، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها، وله أجره كاملاً غير منقوص».

سبحانه رسوله ﷺ إليه ليفرض عليه الصلاة [١] وهى تحية لأمة محمد ﷺ؛ نظراً لأنها شرعت فى قرب محمد ﷺ من ربه سبحانه وتعالى.

لذلك جعل الحق سبحانه الصلاة المفروضة فى القرب وسيلة لقرب أمة رسوله ﷺ جميعاً ؛ ولذلك فهى الباقية.

ويُحكَى أن الإمام علياً - كرم الله وجهه ورضى عنه - أقبل على قوم وقال لهم: أى آيةٍ فى كتاب الله أَرْجَى عندكم ؟

أى: ما هى الآية التى تعطى الرجاء والطمأنينة والبشرى بأن الحق سبحانه يقبلنا ويغفر لنا ويرحمنا ، فقال بعضهم: هى قول الحق سبحانه:

﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ .. (١١٦) ﴾ [النساء]

فقال الإمام على: حسنة ، وليست إياها. أى: أنها آية تحقق ما طلبه، لكنها ليست الآية التى يعنيها .

فقال بعض القوم: إنها قول الحق سبحانه:

﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُوراً رَّحِيما (١١٠) ﴾ [النساء]

فكرر الإمام على: حسنة ، وليست إياها.

فقال بعض القوم: هى قول الحق سبحانه:

---

(١) وذلك فى ليلة الإسراء والمعراج عند سدرة المنتهى، ذكره البخارى فى أول كتاب الصلاة (١/٤٥٨) فيه: قال النبى ﷺ : «ثم عرج بى حتى ظهرت لمستوى أسمع فيه صريف الأقلام، ففرض الله على أمتى خمسين صلاة، فرجعت بذلك حتى مررت على موسى، فقال: ما فرض الله لك على أمتك؟ قلت: فرض خمسين صلاة. قال: فارجع إلى ربك، فإن أمتك لا تطيق ذلك. فراجعنى فوضع شطرها. فرجعت إلى موسى قلت: وضع شطرها. فقال: راجع ربك، فإن أمتك لا تطيق ذلك. فراجعته فقال: هى خمس وهى خمسون، لا يبدل القول لدى. فرجعت إلى موسى فقال: راجع ربك. فقلت: استحييت من ربى «حديث ٣٤٩».

﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا (١) عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا (٢) مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا .. (٥٣)﴾ [الزمر]

فقال الإمام على: حسنة ، وليست إياها.

فقال بعضهم: هى قوله سبحانه:

﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً (٣) أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ ..(١٣٥)﴾ [آل عمران]

فقال الإمام على: حسنة ، وليست إياها.

وصمت القوم وأحجموا ، فقال الإمام على كرَّم الله وجهه: ما بالكم يا معشر المسلمين؟ وكأنه يسألهم: لماذا سكتم ؟.. فقالوا: لا شىء.

---

(١) أسرف: جاوز القصد والاعتدال، ويكون الإسراف فى المال وفى غيره. قال تعالى:﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ .. (٥٣)﴾ [الزمر] أى: جاوزوا القصد والاعتدال فى أمور كثيرة، فأكثروا الذنوب على أنفسهم. وقال تعالى: ﴿وَلا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (١٥١)﴾ [الشعراء] والإسراف يكون فى أمور كثيرة، لا فى إنفاق المال وحده. ومن حكم الصالحين: «لا إسراف فى الخير، ولا خير فى الإسراف». [القاموس القويم : مادة (سرف)] بتصرف.

(٢) قنط يقنط قنوطاً: انقطع أمله فى الخير، أو يئس منه، فهو قانط. وقرأ حفص بفتح النون فى الماضى فى قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا .. (٢٨)﴾ [الشورى] وفى قوله تعالى: ﴿..فَلا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ (٥٥)﴾ [الحجر] ، وقرىء: «من القنطين» - بكسر النون - كما قرىء بالحركات الثلاث فى النون فى قوله تعالى: ﴿.. وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونَ (٥٦)﴾ [الحجر].
وقنوط : صيغة مبالغة. قال تعالى: ﴿.. وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ (٤٩)﴾ [فصلت] أى: شديد اليأس معدوم الأمان. [القاموس القويم : مادة (قنط)] بتصرف.

(٣) فَحَشَ، وفَحُشَ، فحشاً، فهو فاحش: أى: جاوز الحد، وفعل القبيح. والفاحشة: الفعلة القبيحة. قال تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً .. (٢٨)﴾ [الأعراف] وقال تعالى:﴿وَاللاَّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ .. (١٥)﴾ [النساء] أى: الزنا. وقال تعالى: ﴿وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ .. (١٥١)﴾ [الأنعام] أى: لا تقربوا الأمور القبيحة المنكرة. [القاموس القويم : مادة (فحش)].

وهكذا جعل الإمام على التشويق أساساً يبنى عليه ما سوف يقول لهم: واشرأبت [١] أعناقهم ، وأرهفوا السمع ، فقال لهم الإمام على: سمعت حبيبى رسول الله ﷺ يقول: أَرْجَى آية فى كتاب الله هى قول الحق سبحانه:

﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ (١١٤) ﴾ [هود]

يا على إن أحدكم ليقوم من وضوئه فتتساقط عن جوارحه ذنوبه ، فإذا أقبل على الله بوجهه وقلبه لا ينفتل [٢]- أى: لا يلتفت - إلا وقد غفر الله له كل ذنوبه كيوم ولدته أمه ، فإذا أحدث شيئاً بين الصلاتين فله ذلك ، ثم عدَّ الصلوات الخمس واحدة واحدة ، فقال: بين الصبح والظهر ، وبين الظهر والعصر ، وبين العصر والمغرب ، وبين المغرب والعشاء ، وبين العشاء والفجر ، ثم قال ﷺ : «يا على إنما الصلوات الخمس لأمتى كنهر جار بباب أحدكم ، أو لو كان على جسد واحد منكم درن [٣] ثم اغتسلَ فى البحر ، أيبقى على جسده شىء من الدرن؟ قال: فذلكم والله الصلوات لأمتى » .

ولذلك لو نظرنا إلى الأعمال لوجدنا كل عمل له مجاله فى عمره إلا مجال الصلاة ، فمجالها كل عمر الإنسان.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١١٥) ﴾

---

(١) اشرأب إليه، أو اشرأب له ، اشرئباباً، وشرئبيبة: مد عنقه، أو ارتفع لينظر. [المعجم الوسيط : مادة (شرأ)].

(٢) انفتل: التوى، وانصرف. ويقال: انفتل عن رأيه، وعن حاجته وانفتل وجهه عنهم. [المعجم الوسيط : مادة (فتل)].

(٣) درن الشىء درناً : وسخ وتلطخ. يقال: درن الثوب. ودرنت يداه بكذا. فهو درن، وأدرن، وهى درناء. وأم درن: الدنيا. [المعجم الوسيط : مادة (درن)].

وجاءت كلمة «اصبر» لتخدم كل عمليات الاستقامة.

وكذلك يقول الحق سبحانه:

﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ [١] عَلَيْهَا ..(١٣٢)﴾ [طه]

والصبر نوعان: صبر «على» ، وصبر «عن» وفى الطاعات يكون الصبر على مشقة الطاعة ، مثل صبرك على أن تقوم من النوم لتصلى الفجر ، وفى اتقاء المعاصى يكون الصبر عن الشهوات.

وهكذا نعلم أن الصبر على إطلاقه مطلوب فى الأمرين: فى الإيجاب للطاعة ، وفى السلب عن المعصية.

ونحن نعلم أن الجنة حُفَّتْ [٢] بالمكاره ؛ فاصبر على المكاره ، وحُفَّتِ النار بالشهوات ؛ فاصبر عنها [٣].

وافرض أن واحداً يرغب فى أكل اللحم ، ولكنه لا يملك ثمنها ، فهو يصبر عنها ؛ ولا يستدين.

---

(١) اصطبر: على وزن افتعل، ويفيد زيادة الصبر والتحمل. قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا .. (١٣٢)﴾ [طه] وقال تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ .. (٦٥)﴾ [مريم]، وقال تعالى:﴿إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ (٢٧)﴾ [القمر]. [القاموس القويم : مادة (صبر)] بتصرف.

(٢) حف القوم بالبيت، أو من حوله: أطافوا به وأحدقوا حوله. قال تعالى:﴿وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ ..(٣٢)﴾ [الكهف] أى: جعلنا النخل يحيط بالجنتين. [القاموس القويم: مادة (حفف)].

وحف الشىء حفاً وحفافاً: استدار حوله وأحدق به. ويقال: حف الشىء بالشىء، وحوله، ومن حوله. [المعجم الوسيط : مادة (حفف)].

(٣) عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : «حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات» أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٨٢٢) قال النووى فى شرحه: «أما المكاره فيدخل فيها الاجتهاد فى العبادات والمواظبة عليها والصبر على مشاقها وكظم الغيظ والعفو والحلم والصدقة والإحسان إلى المسىء والصبر عن الشهوات. وأما الشهوات التى النار محفوفة بها فالظاهر أنها الشهوات المحرمة كالخمر والزنا والنظر إلى الأجنبية والغيبة واستعمال الملاهى ونحو ذلك. وأما الشهوات المباحة فلا تدخل فى هذه، لكن يكره الإكثار منها مخافة أن يجر إلى الشهوات المحرمة أو يقسى القلب أو يشغل عن الطاعات أو يحوج إلى الاعتناء بتحصيل الدنيا للصرف فيها».

ولذلك يقول الزهاد: ليس هناك شىء اسمه غلاء ، ولكن هناك شىء اسمه رخص النفس.

ولذلك نجد من يقول: إذا غلا شىء علىّ تركته، وسيكون أرخص ما يكون إذا غلا.

والحق سبحانه يقول:

﴿ وَاصْبِرْ[1] عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ .. (١٧) ﴾ [لقمان]

وهنا يقول الحق سبحانه:

﴿ وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١١٥) ﴾ [هود]

وهم الذين أدخلوا أنفسهم فى مقام الإحسان ، وهو أن يلزم الواحد منهم نفسه بجنس ما فرض الله فوق ما فرض الله ، من صلاة أو صيام ، أو زكاة ، أو حج لبيت الله ؛ لأن العبادة ليست اقتراحاً من عابدٍ لمعبود ، بل المعبود هو الذى يحدد ما يقربك إليه.

وحاول ألاّ تدخل فى مقام الإحسان نَذْراً [2]؛ لأنه قد يشق عليك أن تقوم بما نذرته ، واجعل زمان الاختيار والتطوع فى يدك ؛ حتى لا تدخل مع الله فى ودٍّ إحسانى ثم تفتر عنه ، وكأنك - والعياذ بالله -

---

(١) والصبر إما أن يكون على المأمورات، وهى الطاعة. وإما صبر على المحذورات، وهى النواهى. وإما صبر على المقدورات، وهذا الصبر على القضاء والقدر فإذا تحققت الثلاثة كنت من أهل الفلاح، مصداقاً لقول الحق : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٢٠٠) ﴾ [آل عمران]

(٢) عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا تنذروا فإن النذر لا يغنى من القدر شيئاً، وإنما يستخرج به من البخيل». أخرجه مسلم فى صحيحه (١٦٤٠). والترمذى فى سننه (١٥٣٨) وكذا النسائى (١٧/٧). قال النووى فى شرحه: «معناه أنه لا يأتى بهذه القربة تطوعاً محضاً مبتدأ وإنما يأتى بها فى مقابلة شفاء المريض وغيره مما تعلق النذر عليه».

قد جرَّبت مودة الله تعالى ، فلم تجده أهلاً لها ، وفى هذا طغيان منك.

وإذا رأيت إشراقات فيوضات على مَنْ دخل مقام الإحسان فلا تنكرها عليه ، وإلا لسويت بين من وقف عند ما فُرِضَ عليه ، وبين من تجاوز ما فُرِضَ عليه من جنس ما فَرَضَ الله.

وجرب ذلك فى نفسك ، والتزم أمر الله باحترام مواقيت الصلاة ، وقم لتصلى الفجر فى المسجد ، ثم احرص على أن تتقن عملك ، وحين يجئ الظهر قم إلى الصلاة فى المسجد ، وحاول أن تزيد من ركعات السنة ، وستجد أن كثافة الظلمانية قد رَقَّتْ فى أعماقك ، وامتلأتَ بإشراقات نورانية تفوق إدراكات الحواس ، ولذلك لا تستكثر على مَنْ يرتاض [1] هذه الرياضة الروحية، حين تجد الحق سبحانه قد أنار بصيرته بتجليات من وسائل إدراك وشفافية.

ولذلك لا نجد واحداً من أهل النور والإشراق يدَّعى ما ليس له ، والواحد منهم قد يعلم أشياء عن إنسان آخر غير ملتزم ، ولا يعلنها له؛ لأن الله سبحانه وتعالى قد خَصَّه بأشياء وصفات لا يجب أن يضعها موضع التباهى والمراءاة.

وحين عرض الحق سبحانه هذه القضية أراد أن يضع حدوداً للمرتاض ولغير المرتاض ، فى قصة موسى عليه السلام حينما وجد موسى وفتاه عبداً صالحاً ، ووصف الحق سبحانه العبد الصالح بقوله تعالى:

---

(١) راضه روضاً ورياضاً ورياضة: ذلَّله. يقال: راض المهر، وراض نفسه بالتقوى، وراض القوافى الصعبة. وارتاض: صار مروضاً. يقال: ارتاض المهر: ذل. وارتاضت القوافى: ذللت. والرياضة – عند الصوفية – : تهذيب الأخلاق النفسية بملازمة العبادات، والتخلى عن الشهوات. [المعجم الوسيط : مادة (روض)] بتصرف.

﴿ .. عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا [(١)] عِلْمًا (٦٥) ﴾ [الكهف]

وقال العبد الصالح لموسى عليه السلام:

﴿ .. إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٦٧) ﴾ [الكهف]

وبيَّن العبد الصالح لموسى- بمنتهى الأدب - عذره فى عدم الصبر، وقال له:

﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا [(٢)] (٦٨) ﴾ [الكهف]

وردَّ موسى عليه السلام:

﴿ .. سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا (٦٩) ﴾ [الكهف]

فقال العبد الصالح:

﴿ .. فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا [(٣)] (٧٠) ﴾ [الكهف]

---

(١) لدن: ظرف مكان، أو ظرف زمان، بمعنى (عند) مبنى على السكون، وإذا أضيف إلى ياء المتكلم فصلت بينهما نون الوقائية وأدغمت فى نونها مثل قوله تعالى:﴿ .. قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا (٧٦) ﴾ [الكهف] ، وجاءت مضافة إلى ضمير المخاطب فى قوله تعالى:﴿ وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً .. (٨) ﴾ [آل عمران] ، وإلى ضمير المتكلمين (نا) فى قوله تعالى:﴿ .. وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا (٦٥) ﴾ [الكهف] ، وتضاف إلى ضمير الغائب كقوله تعالى: ﴿ لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ .. (٢) ﴾ [الكهف] [القاموس القويم : مادة (لدن)].

(٢) خبر الأمر، وخبر بالأمر، مثل: علمه، وعلم به - وزناً ومعنى - فهو به خبير. قال تعالى: ﴿ .. فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا (٥٩) ﴾ [الفرقان] . وقال تعالى: ﴿ سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ .. (٧) ﴾ [النمل] أى: بنبأ. وقال تعالى: ﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا (٦٨) ﴾ [الكهف] أى : علماً. [القاموس القويم : مادة (خبر)].

(٣) الذكر : القرآن، والكتب المنزلة كلها، قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩) ﴾ [الحجر] هو القرآن الكريم. وقال تعالى: ﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا (٢) ﴾ [مريم] أى: قصة رحمة الله لعبده زكريا. وقال تعالى: ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (٤) ﴾ [الشرح] أى: شرفك وحديث الناس عنك بالخير. [القاموس القويم : مادة (ذكر)].

وجاء فى [مختصر تفسير الطبرى : ص ٣٣٧] فى تفسير هذه الآية : ﴿ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ..(٧٠) ﴾ [الكهف]: يقول: «حتى أذكر أنا لك ما ترى من الأفعال التى أفعلها وتستنكرها أنت، وأبين لك شأنها، وأبتدئك الخبر عنها».

ولكن الأحداث توالت ؛ فلم يصبر موسى ؛ فقال له العبد الصالح:

﴿هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ..(٧٨)﴾ [الكهف]

وهذا حكم أزلى بأن المرتاض للرياضة الروحية ، ودخل مقام الإحسان لا يمكن أن يلتقى مع غير المرتاض على ذلك، وليلزم غير المرتاض الأدب مثلما يلتزم المرتاض الأدب، ويقدم العذر فى أن ينكر عليه غير المرتاض معرفة ما لا يعرفه.

ولو أن المرتاض قد عذر غير المرتاض ، ولو أن غير المرتاض تأدب مع المرتاض لاستقرَّ ميزان الكون.

والحق سبحانه يبيِّن لنا مقام الإحسان وأجر المحسنين، فى قوله تعالى:

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦)﴾ [الذاريات]

ويبيِّن الحق سبحانه لنا مدارج الإحسان ، وأنها من جنس ما فرض الله تعالى ، فى قوله سبحانه:

﴿كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ [1] (١٧)﴾ [الذاريات]

والحق سبحانه لم يكلف فى الإسلام ألا يهجع المسلم إلا قليلاً من الليل ، وللمسلم أن يصلى العشاء ، وينام إلى الفجر.

وتستمر مدارج الإحسان، فيقول الحق سبحانه:

---

(١) هجع يهجع هجوعاً : نام ليلاً. قال تعالى: ﴿كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧)﴾ [الذاريات] . [القاموس القويم : مادة (هجع)].

﴿وَبِالأَسْحَارِ (١) هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨)﴾ [الذاريات]

والحق سبحانه لم يكلِّف المسلم بذلك ، ولكن الذى يرغب فى الارتقاء إلى مقام الإحسان يفعل ذلك.

ويقول الحق سبحانه أيضاً:

﴿وَفِى أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (٢) (١٩)﴾ [الذاريات]

ولم يحدد الحق سبحانه هنا هذا الحق بأنه حق معلوم ، بل جعله حقاً غير معلوم أو محدد ، والله سبحانه لم يفرض على المسلم إلا الزكاة ، ولكن من يرغب فى مقام الإحسان فهو يبذل من ماله للسائل والمحروم.

وهكذا يدخل المؤمن إلى مقام الإحسان ، ليودَّ الحق سبحانه.

ولله المثل الأعلى: نحن نجد الإنسان حين يوده غيره ؛ فهو يعطيه من خصوصياته ، ويفيض عليه من مواهبه الفائضة ، علماً ، أو مالاً ، فما بالنا بمن يدخل فى ودٍّ مع الله سبحانه وتعالى .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

---

(١) السَّحر – بفتح السين والحاء – : الجزء الأخير من الليل إلى مطلع الفجر. وجمعه: أسحار. قال تعالى: ﴿ .. وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ (١٧)﴾ [آل عمران] ، وقال تعالى: ﴿وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨)﴾ [الذاريات] [القاموس القويم : مادة (سحر)].

(٢) السائل: الفقير، أو من يسأل عن شىء. قال تعالى:﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ (١٠)﴾ [الضحى] يحتمل المعنيين : السائل الذى يطلب الصدقة، والسائل المستفهم عن شىء، وقوله تعالى:﴿فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ (٦)﴾ [الأعراف] أى: لنحاسبن الناس والرسل يوم القيامة. [القاموس القويم : مادة (سأل)].

والمحروم: الممنوع من الخير. قال تعالى: ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٦٧)﴾ [الواقعة] أى: حُرمنا ثمر الحديقة وحُرمنا الخير كله. والحرمان: المنع. والمحروم أيضاً : اسم مفعول ويطلق على الفقير. وقال تعالى: ﴿وَفِى أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩)﴾ [الذاريات] [القاموس القويم : مادة (حرم)].

﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ(١) يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ(٢) فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾﴾

وكلمة «لولا» هنا تحضيضية ، والتحضيض إنما يكون حثاً لفعل لم يأت زمنه ، فإن كان الزمن قد انتهى ولا يمكن استدراك الفعل فيه، تكون «لولا» للتحسر والتأسف.

وفى سورة يونس يقول الحق سبحانه:

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ .. ﴿٩٨﴾﴾ [يونس]

وذكَّرهم بالآيات. ونحن قد علمنا أن «لولا» لها استعمالان فى اللغة ، فهى إن دخلت على جملة اسمية ، فهى تدل على امتناع لوجود ، كقول إنسان لآخر: «لولا أن أباك فلاناً لضربتك على ما أذنبت» وتسمى «لولا» فى هذه الحالة «حرف امتناع لوجود».

وإذا دخلت «لولا» على جملة فعلية ، فهى أداة تحضيض ، وتحميس، وحث المخاطب على أن يفعل شيئاً، مثلما تشجِّع طالباً على المذاكرة ، فتقول له: «لولا ذاكرت بجد واجتهاد فى العام الماضى لما نجحت ووصلت إلى هذه السنة الدراسية».

---

(١) أولو البقية : أصحاب التمييز والعقل والنظر فى العواقب وأصحاب الفضل الباقى والخير الثابت. قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِى الأَرْضِ.. ﴿١١٦﴾﴾ [هود] . والبقية : الباقية والشىء الباقى. [القاموس القويم : مادة (بقى)].

(٢) ترف ترفاً : تنعمَّ . وأترفه الله : نعَّمه وأعطاه ما يشتهى . قال تعالى: ﴿وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ..﴿٣٣﴾﴾ [المؤمنون] ، وقال تعالى: ﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ .. ﴿١١٦﴾﴾ [هود] أى: جروا وراء شهواتهم وتمادوا فى الترف فأبطرهم وأطغاهم. [القاموس القويم : مادة (ترف)].

وفى هذا تحميس له على بذل مزيد من الجهد ، أما إذا قلت لراسب: «لولا ذاكرت لما رسبت» فهذا توبيخ وتأسيف له على ما فات ، وشحن طاقته لما هو آت ؛ لأن الزمن قد فات وانتهى وقت المذاكرة ؛ لذلك تكون «لولا» - هنا - للتقريع والتوبيخ (١).

والحق سبحانه وتعالى يرشدنا إلى أن بقية الأشياء هى التى ثبتت أمام أحداث الزمن ، فأحداث الزمن تأتى لتطوح بالشىء التافه أولاً ، ثم بما دونه ثم بما دونه ، ويبقى الشىء القوى ؛ لأنه ثابت على أحداث الزمن ؛ وبقية الأشياء دائماً خيرها.

والحق سبحانه قد بيَّن لنا أنه قد أهلك الأمم التى سبقت ؛ لأنه لم توجد فئة منهم تنهى عن الفساد فى الأرض ، وجاء الإهلاك لامتناع من يقاوم الفساد بالأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر.

---

(١) لولا : حرف شرط لا يعمل، ويدل على امتناع الجواب لوجود الشرط، وجملة الشرط (اسمية) ويحذف الخبر وجوباً إذا كان كوناً عاماً، وإذا وليها مضمر يكون ضمير رفع منفصل مثل :﴿ .. لَوْلا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [سبأ] ، وجملة الجواب (فعلية) وتقترن باللام إذا كانت مثبتة فى الغالب، وتتجرد منها إذا كانت منفية، قال تعالى:﴿ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا .. ﴿٢١﴾ ﴾ [النور] تجرد الجواب من اللام لأنه منفى بالحرف (ما) ، وقد يحذف جواب الشرط بعد «لولا» إذا دل عليه دليل كقوله تعالى: ﴿ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ ﴾ [النور] ، وتقدير الجواب : «لمسَّكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم» ، كما وضحته الآية التى بعدها فى نفس السورة.

وتستعمل «لولا» أداة عرض وتحضيض مثل (هلاَّ) فتختص بالدخول على المضارع كقوله تعالى: ﴿ لَوْلا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ .. ﴿٤٦﴾ ﴾ [النمل] ، وتدخل على ماضٍ فى تأويل المضارع كقوله تعالى:﴿ لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ .. ﴿١٠﴾ ﴾ [المنافقون] أى: لولا تؤخرنى - وتستعمل «لولا» للتوبيخ والتنديم فتختص بالماضى، كقوله تعالى: ﴿ لَوْلا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ .. ﴿١٣﴾ ﴾ [النور] وقوله تعالى: ﴿ وَلَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا .. ﴿١٦﴾ ﴾ [النور] وقوله تعالى:﴿ فَلَوْلا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا .. ﴿٤٣﴾ ﴾ [الأنعام] ولولا هنا بمعنى (هلاَّ) للتوبيخ، ويؤيده قراءة : «هلاَّ إذ جاءهم بأسنا». [القاموس القويم : مادة (لولا)].

وضرب الحق سبحانه لنا المثل بالبقية فى كل شىء ، وأنها هى التى تبقى أمام الأحداث ، ففى قصة شعيب عليه السلام يقول الحق سبحانه:

﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ (٨٤) وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٨٥) بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ .. (٨٦) ﴾ [هود]

ومعنى ذلك أن نقص المكيال أو الميزان قد يزيد التاجر ما عنده ، ولكنه لا يلتفت إلى ما هو مدخور.

ولذلك قال شعيب عليه السلام:

﴿ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ (١) وَلا تَبْخَسُوا (٢) النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ .. (٨٥) ﴾ [هود]

فأنت إن نظرت إلى شىء قد ذهب ، فامتلك القدرة على أن تحقق فيه بالفهم ، لتجده مدخراً لك باقياً.

ولنا المثل فى موقفه رسول الله ﷺ مع أم المؤمنين عائشة - رضى الله عنها - حينما سألها عن شاة أُهديت له ، وكانت تعرف أن

---

(١) أقسط : عدل، وأزال الظلم أو الجور. قال تعالى: ﴿ .. وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٩) ﴾ [الحجرات] واستعمل القرآن الكريم كلمة (القسط) - بكسر القاف وسكون السين - بمعنى العدل كما فى قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ ..(٢٩) ﴾ [الأعراف] أى: بالعدل.
وقال تعالى : ﴿ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ .. (٩) ﴾ [الرحمن] أى: بالعدل.
وقال تعالى: ﴿ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ .. (٨٥) ﴾ [هود] أى: بالعدل. [القاموس القويم : مادة (قسط)].

(٢) بخسه حقه بخساً : نقصه حقه ولم يوفه. قال تعالى:﴿ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ .. (٨٥) ﴾ [الأعراف]. [القاموس القويم : مادة (بخس)].

رسول الله ﷺ يحب من الشاة كتفها [١]، فتصدقت بكل الشاة إلا جزءاً من كتفها ، فلمَّا سألها: ما فعلت بالشاة ؟ قالت: ذهبت كلها إلا كتفها.

هكذا نظرت عائشة - رضى الله عنها - هذا المنظور الواقعى ؛ بأن الباقى من الشاة هو كتفها فقط ، وأنها تصدقت بباقى الشاة ، ويلفتها رسول الله ﷺ لفتة إيمان ويقين ، ويقول لها: «بقى كلها إلا كتفها» [٢].

هكذا نظر رسول الله ﷺ إلى ما بقى من الشاة من خير.

ويؤيد ذلك حديث قالهﷺ: «وهل لك يابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأمضيت » [٣].

ويلفتنا القرآن الكريم إلى المنظور ، وإلى المدخور ، فيقول الحق سبحانه:

﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ [٤] الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا .. (٤٦) ﴾ [الكهف]

ويصف الحق سبحانه هذا المدخور بقوله:

---

(١) أخرج أبو الشيخ فى «أخلاق النبى» (ﷺ) (ص٢٠١) عن ابن عباس «كان أحب اللحم إلى رسول الله ﷺ الكتف». وأخرج البخارى فى صحيحه (٤٧١٢) عن أبى هريرة قال: «أتى رسول الله ﷺ بلحم ، فرفع إليه الذراع وكانت تعجبه».

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٦/ ٥٠) والترمذى فى سننه (٢٤٧٠) من حديث عائشة . قال الترمذى : « حديث صحيح» .

(٣) أخرجه أحمد فى مسنده (٤/ ٢٤ ، ٢٦) ومسلم فى صحيحه (٢٩٥٨) والترمذى فى سننه (٢٣٤٢) وصححه.

(٤) بقى بقاء: ضد فنى. وباق: اسم فاعل، مؤنثه: باقية. قال تعالى:﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٢٧) ﴾ [الرحمن] وقال تعالى:﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ ..(٩٦) ﴾ [النحل].

والبقية: الباقية، والشىء الباقى. وجمع بقية: بقيات. وجمع باقية: باقيات، قال تعالى:﴿ .. وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا (٤٦) ﴾ [الكهف] أى: الأعمال النافعة الباقية التى يبقى خيرها فى الناس هى خير ثواباً عند الله. [القاموس القويم : مادة (بقى)].

﴿ .. ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً (١) (٤٦) ﴾ [الكهف]

وفى آية أخرى يقول سبحانه:

﴿ .. وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا (٢) (٧٦) ﴾[مريم]

إذن: لا بد أن تنظر إلى الباقيات فى الأشياء ؛ لأنها هى التى يُعوَّل عليها.

ويلفتنا الحق سبحانه إلى ذلك فى أكثر من موضع من القرآن الكريم ، فيقول تعالى:

﴿ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ (١٧) ﴾ [الأعلى]

ويقول سبحانه:

﴿ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ .. (٦٠) ﴾ [القصص]

إذن: فإياك أن تنظر إلى الذاهب ، ولكن انظر إلى الباقى.

وإذا عضَّت الإنسان الأحداث فى أى شىء ، نجد أن سطحى الإيمان يفزع مما ذهب ، ونجد راسخ الإيمان شاكراً لله تعالى على ما بقى.

وها هو ذا سيدنا عبد الله بن جعفر - رضى الله عنه - حينما

---

(١) أمل يأمل أمْلاً وإملاً وأمَلاً : رجا يرجو. والأمل: الرجاء. قال تعالى: ﴿ ..وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً (٤٦) ﴾ [الكهف] لأنه رجاء عند الله متحقق، لا شك فيه. [القاموس القويم : مادة (أمل)].

(٢) مردٌّ: اسم مكان أو زمان، أو مصدر ميمى. قال تعالى: ﴿ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ ..(٤٣) ﴾ [غافر] أى: رجوعنا إليه - على المصدرية - أو مرجعنا إليه - على أنه اسم مكان أو زمان. وقال تعالى:﴿ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلا مَرَدَّ لَهُ .. (١١) ﴾ [الرعد] أى: لا صرف له ولا إرجاع له - على المصدرية - فهو واقع بهم حتماً. [القاموس القويم : مادة (ردد)]. وجاء فى [كلمات القرآن للشيخ محمد حسنين مخلوف] أن كلمة (خير مرداً)، أى: مرجعاً وعاقبة.

جُرحت ساقه جرحاً شديداً، وهو فى الطريق إلى الشام ، ولحظة أن وصل إلى قصر الخلافة قال الأطباء: لابد من التخدير لنقطع الساق المريضة ، فقال: والله ما أحب أن أغفل عن ربى طرفة عين.

وكان هذا القول يعنى أن تجرى له جراحة بتر الساق دون مخدر ، فلمَّا قُطعت الساق ، وأرادوا أن يأخذوها ليدفنوها ؛ لتسبقه إلى الجنة إن شاء الله ؛ قال: ابعثوا بها ، فجاءوا بها إليه ، فأمسكها بيده وقال: اللهم إن كنت قد ابتليت فى عضو ؛ فقد عافيت[1] فى أعضاء .

هكذا نظر المؤمن إلى ما بقى.

وحين يتكلم القرآن الكريم عن مراتب ومراقى الإيمان يقول مرة :

﴿ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ ..(٤٠) ﴾ [غافر]

ويقول عن أناس آخرين :

﴿ أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ ..(١٥٧) ﴾ [البقرة]

والجنة باقية بإبقاء الله لها ، ولكن رحمة الله باقية ببقاء الله. وهكذا تكون درجة الرحمة أرقى من درجة الجنة.

وهكذا تجد فى كل أمر ما يسمى بالباقيات.

وهنا يقول الحق سبحانه:

---

(١) عفا النبت: كثر وطال، وعفا القوم كثروا، يقول الحق : ﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا..(٩٥) ﴾ [الأعراف] أى: كثروا وعزوا واغتنوا، والعفو فى المال مازاد عن النفقة، يقول الحق: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ .. (٢١٩) ﴾ [البقرة] وعفا عن الذنب عفواً: تجاوز عنه، وعَفُوٌّ: صيغة مبالغة أى: كثير العفو. يقول الحق: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (٦٠) ﴾ [الحج]، ويقول الحق: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ .. (١٩٩) ﴾ [الأعراف] أى: خذ ما عفا عنه الناس وسمحوا به عن طيب خاطر، ومن دعاء القرآن الكريم: ﴿ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٨٦) ﴾ [البقرة] القاموس القويم (١/ ٢٧، ٢٨).

﴿ فَلَوْلا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ (١) مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ (٢) فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ .. (١١٦) ﴾ [هود]

أى: لولا أن كان فى الناس بقية من الخير وبقية من الإيمان ،وبقية من اليقين، وكانوا ينهون عن الفساد فى الأرض ، لولا هم لخسف الله الأرض بمن عليها.

والبقايا فى كل الأشياء هى نتيجة الاختيار ، والاختبار ؛ مصداقاً لقول الحق سبحانه:

﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ (٣) فَيَذْهَبُ جُفَاءً (٤) وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ (٥) فِي الأَرْضِ.. (١٧) ﴾ [الرعد]

---

(١) القرن من الناس: أهل زمان واحد. قال تعالى: ﴿ .. فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ (٦) ﴾ [الأنعام]، وجمعه: قرون. قال تعالى:﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا .. (١٣) ﴾ [يونس]. [القاموس القويم : مادة (قرن)].

(٢) فسد فساداً، والفساد: ضد الصلاح. وأفسده غيره: جعله فاسداً. قال تعالى:﴿ .. وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٦٤) ﴾ [المائدة]. وقال تعالى:﴿ .. وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٦٠) ﴾ [البقرة] ، وكلمة مفسدين حال مؤكدة لمعنى الفعل «تعثوا» أى: لا تفسدوا فى الأرض فساداً. [القاموس القويم : مادة (فسد)].

(٣) زبد الماء: ما يعلوه – عند جيشانه واضطرابه – من الرغوة وحطام الأشياء. وزبد المعادن: خبثها ونفايتها. قال تعالى: ﴿ فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا .. (١٧) ﴾ [الرعد] وقال تعالى: ﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً .. (١٧) ﴾ [الرعد] شبه الله – سبحانه – الباطل بالزبد الذى يلقى ويرمى؛ لأنه لا ينفع الناس. [القاموس القويم : مادة (زبد)].

(٤) جفأت القدر: رمت زبدها عند الغليان. وجفأ السيل غثاءه: رماه وقذفه. ومن عادة الطهاة أن يلقوا ما جفأت القدر بعيداً ليبقى الطعام خالصاً من الشوائب. قال تعالى:﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ .. (١٧) ﴾ [الرعد] أى: لا ينتفع به، ويلقى بعيداً، أو يذهب ضياعاً كالجفاء. [القاموس القويم : مادة (جفأ)].

(٥) مكث مَكْثًا ومُكْثًا : أقام فى مكانه، وتفيد التأنى وعدم العجلة. قال تعالى:﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ .. (٢٢) ﴾ [النمل] أى: استمر الهدهد فى غيبته مدة لكنها غير طويلة. وقال تعالى: ﴿ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ .. (١٧) ﴾ [الرعد] أى: يبقى مدة طويلة فيها؛ فيزيدها خصباً. وقال تعالى: ﴿ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا .. (١٠) ﴾ [طه] أى: أقيموا فى مكانكم منتظرين. وقال تعالى:﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ .. (١٠٦) ﴾ [الإسراء] أى: على مهل وتأن بغير عجلة فى أزمنة متطاولة. [القاموس القويم : مادة (مكث)].

وفى العصر الحديث نقول: «البقاء للأصلح».

إذن: فالحق سبحانه إنما يحفظ الحياة بهؤلاء الذين ينهون عن الفساد فى الأرض ؛ لأنهم يعملون على ضوء منهج الله ، وهذا المنهج لا يزيد ملكاً لله ، ولا يزيد صفة من صفات الكمال لله ، لأنه سبحانه خلق الكون بكل صفات الكمال فيه ، ومنهجه سبحانه إنما يُصلح حركة الحياة ، وحركة الأحياء.

وهكذا يعود منهج السماء بالخير على مخلوقات الله ، لا على الله الذى كوَّن الكون بكماله.

واقرأ إن شئت قول الحق سبحانه:

﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧) أَلاَّ تَطْغَوْا [1] فِي الْمِيزَانِ (٨) ﴾ [الرحمن]

فكما رفع الحق سبحانه السماء بلا عمد ، وجعل الأمور مستقرة متوازنة ؛ فلكم أن تعدلوا فى الكون فى الأمورالاختيارية بميزان دقيق؛ لأن اعوجاج الميزان إنما يفسد حركة الحياة.

ومن اعوجاج الميزان أن يأخذ العاطل خير الكادح ، ويرى الناس العاطل ، وهو يحيا فى ترف من سرقة خير الكادح ، فيفعلون مثله ، فيصير الأمر إلى انتشار الفساد.

---

(١) طغى يطغو طغواناً وطغوى: بمعنى تجاوز الحد فى الجور والتعدى وطغى يطغى طغياناً: تجاوز الحد . و«طغوى» من الواوى، و«طغيان» من اليائى. قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلاَدِ (١١) ﴾ [الفجر] أى: ظلموا وتجاوزوا الحد فى العصيان. وقال تعالى:﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ (٥) ﴾ [الحاقة] أى: بالصيحة التى تجاوزت الحد فى قوتها. [القاموس القويم : مادة (طغى)]. وجاء فى [كلمات القرآن للشيخ محمد حسنين مخلوف]: ﴿ .. وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧) ﴾ [الرحمن]: شرع العدل وأمر به الخلق. و﴿ أَلاَّ تَطْغَوْا .. (٨) ﴾ [الرحمن]: لئلا تتجاوزوا العدل والحق.

وينزوى أصحاب المواهب ، فلا يعمل الواحد منهم أكثر من قدر حاجته ؛ لأن ثمرة عمله إن زادت فهى غير مصونة بالعدالة.

وهكذا تفسد حركة الحياة ، وتختل الموازين، وتتخلف المجتمعات عن ركب الحياة.

والحق سبحانه وتعالى يقول:

﴿ فَلَوْلا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِى الأَرْضِ .. (١١٦) ﴾ [هود]

وشاء الحق سبحانه أن يجعل أمة محمد ﷺ خير الأمم بشرط أن يأمروا بالمعروف ، وينهوا عن المنكر.

قال الله تعالى:

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ (١) وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ (٢) .. (١١٠) ﴾ [آل عمران]

وجعلها الحق سبحانه الأمة الخاتمة ، لأنه لا رسالة بعد رسالة محمد ﷺ ، وقد كانت الرسالات قبلها تأتى بعد أن يتقلص الخير فى المجتمعات ، وفى النفوس.

فقد وضع الحق سبحانه المنهج لأول الخلق فى النفس الإنسانية ، وكانت المناعة ذاتية فى الإنسان ، إن ارتكب ذنباً فهو يتوب ويرجع

---

(١) المعروف: ضد المنكر. وهو الذى تعارف الناس عليه وعرفوا أنه حسن. قال تعالى:﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى .. (٢٦٣) ﴾ [البقرة]، وقال تعالى: ﴿ .. وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (١٩٩) ﴾ [الأعراف]. [القاموس القويم: مادة (عرف)] بتصرف.

(٢) المنكر: ما يستقبحه الشرع الشريف، وما تستنكره العقول السليمة. قال تعالى:﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ .. (١٠٤) ﴾ [آل عمران]. [القاموس القويم : مادة (نكر)].

بعد أن يلوم نفسه ، ولكن قد يستقر أمره على المعصية ، وتختفى منه «النفس اللوَّامة» ، ويستسلم للنفس الأمَّارة بالسوء ، فيجد من المجتمع من يقوِّمه ، فإذا ما فسد المجتمع ، فالسماء تتدخل بإرسال الرسل ، إلا أمة محمد ﷺ فقد أمَّنها الحق سبحانه أنه سيظل فيها إلى أن تقوم الساعة من يدعو إلى الخير ، ومن يأمر بالمعروف، ومن ينهي عن المنكر [(١)]؛ ولذلك لن يوجد أنبياء بعد رسول الله ﷺ .

ولذلك يقول رسول الله ﷺ تأكيداً لهذا المعنى: «علماء أمتى كأنبياء بنى إسرائيل» [(٢)].

والعَالِم: هو كل من يعلم حكماً من أحكام الله سبحانه ، وعليه أن يبلغه إلى الناس.

ورسول الله ﷺ يقول: «نضَّر الله وجه امرىء سمع مقالتى فوعاها ، وأدَّاها إلى من لم يسمعها ، فرُبَّ مُبلَّغ أوعى من سامع» [(٣)].

ويقول الحق سبحانه:

﴿ .. أُوْلُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ (١١٦) ﴾ [هود]

وقد أنجى الحق سبحانه بعضاً ممن نهوا عن الفساد فى الأرض.

---

(١) عن معاوية بن أبى سفيان قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا تزال طائفة من أمتى قائمة بأمر الله، لا يضرهم من خذلهم أو خالفهم حتى يأتى أمر الله وهم ظاهرون على الناس » أخرجه مسلم فى صحيحه (١٠٧٣).

(٢) ذكره العجلونى فى كشف الخفاء (١٧٤٤) وقال : «قال السيوطى فى الدرر: لا أصل له.» وكذا قال ابن حجر والدميرى والزركشى.

(٣) أخرجه أحمد فى مسنده (١/٤٣٧) وابن ماجه فى سننه (٢٣٢) من حديث ابن مسعود.

ونرى أمثلة على ذلك فى القرية التى كانت حاضرة البحر ، وكانت تأتيهم حيتانهم شُرعاً [١] يوم السبت الذى حرموا فيه الصيد على أنفسهم ، ويوم لا يسبتون لا تأتيهم.

ويقول الحق سبحانه:

﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ [٢] قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً [٣] إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٦٤) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ [٤] بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ [٥] (١٦٥) ﴾ [الأعراف]

---

(١) شرع: ظهر وأشرف فهو شارع أى: بارز ظاهر، وجمعه شُرَّعٌ: ﴿ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا .. (١٦٣) ﴾ [الأعراف] بارزة واضحة فى الماء. [القاموس القويم: ١/٣٤٦].

(٢) وعظه يعظه وعظاً وعظة: نصحه بالطاعة وبالعمل الصالح، وأرشده إلى الخير. قال تعالى مصوراً عناد الكافرين: ﴿ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ (١٣٦) ﴾ [الشعراء] فهم لشدة عنادهم وكفرهم يستوى عندهم الأمران: الوعظ، وعدم الوعظ.

والموعظة: ما يوعظ به من قول أو فعل. قال تعالى: ﴿ .. وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (٦٦) ﴾ [البقرة] وقال تعالى: ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ..(١٢٥) ﴾ [النحل]. [القاموس القويم: مادة (وعظ)].

(٣) المعذرة: مصدر ميمى، واسم للعذر، وللحجة. وعذره: قبل عذره وسامحه. قال تعالى: ﴿ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ .. (١٦٤) ﴾ [الأعراف] أى: اعتذاراً له ببذل الجهد فى السعى لهداية الناس. وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ (١٥) ﴾ [القيامة] . [القاموس القويم : مادة عذر].

(٤) بؤس يبؤس بأساً: شجع واشتد، فهو بئيس، أى: شديد. ويقال: فارس بئيس، أى: قوى شجاع. قال تعالى: ﴿ .. وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٥) ﴾ [الأعراف] أى: عذاب شديد. [القاموس القويم : مادة (بؤس)].

(٥) فسقت الرطبة فسوقاً وفسقاً: خرجت من قشرتها. ومن هذا المعنى المادى أخذ المعنى المعنوى، فقيل: فسق الرجل: خرج من طاعة الله خروجاً فاحشاً. والفسق أعم من الكفر، فقد يكون فاسقاً ولا يكون كافراً؛ كالمسلم العاصى. قال تعالى : ﴿ .. إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا .. (٦) ﴾ [الحجرات]. وقال تعالى: ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا .. (١٨) ﴾ [السجدة] أى: كافراً غير مؤمن، فالفسوق هنا – فى الآية الأخيرة – بمعنى: الكفر. [القاموس القويم : مادة (فسق)] بتصرف.

هكذا أنجى الله سبحانه الذين نهوا عن السوء فى تلك القرية ، وقد نرى فى بعض المجتمعات عنصرين:

الأول: أنه لا توجد طائفة تنهى عن الفساد.

والعنصر الثانى: أن ينفتح على المجتمع باب الترف على مصراعيه، وفى انفتاح باب الترف على مصراعيه مذلَّة للبشر ؛ لأنك قد تجد إنساناً لا تترفه إمكاناته ؛ فيزيد هذه الإمكانات بالرشوة والسرقة والغصب.

وكل ذلك إنما ينشأ لأن الإنسان يرى مترفين يتنعمون بنعيم لا تؤهله إمكاناته أن يتنعم به.

ويقول الحق سبحانه وتعالى عن إهلاك مثل هذه المجتمعات :

﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا [1] .. (١٦) ﴾[الإسراء]

وبعض الناس يفهمون هذه الآية الكريمة على غير وجهها ؛ فهم يفهمون الفسق على أنه نتيجة لأمر من الله - سبحانه وتعالى - والحقيقة أنهم إنما قد خالفوا أمر الله ؛ لأن الحق سبحانه يقول:

﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ [2] لَهُ الدِّينَ .. (٥) ﴾ [البينة]

أى: أن الحق سبحانه أمر المترفين أن يتبعوا منهج الله ، لكنهم خالفوا المنهج الإلهى مختارين ؛ ففسقوا عن أمر ربهم.

---

(١) أمرنا مترفيها: أمرنا متنعميها بطاعة الله. ففسقوا: فتمردوا، وعصوا. [كلمات القرآن للشيخ محمد حسنين مخلوف].

(٢) أخلص دينه لله: طهَّره وصفَّاه من شوائب الشرك والرياء. قال تعالى: ﴿ .. فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ (٢) ﴾ [الزمر] ، وقال تعالى: ﴿ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ (٤٦) ﴾ [سورة ص] أى: إنا اخترناهم وخصصناهم بفضيلة خالصة خاصة هى ذكرى الدار الآخرة، فذكراها والتذكير بها من شأن الأنبياء والرسل، وهى فضيلة عظيمة خاصة بهم. [القاموس القويم:مادة (خلص)].

وفى الآية الكريمة التى نحن بصدد خواطرنا عنها:

﴿ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ .. (١١٦) ﴾ [هود]

وقوله سبحانه: (ظلموا) تبين أن مادة الترف التى عاشوا فيها جاءت من الظلم ، وأخذ حقوق الناس وامتصاص دماء الكادحين.

ومادة (ترف) تعنى النعمة يتنعم بها الإنسان. ومنها: أترف ، وأُترف ، وكلمة «أترف» أى: أطغته النعمة ، وأنسته المنعم سبحانه. وأترف ، أى: مد الله له فى النعمة ليأخذه أخذ عزيز مقتدر.

والحق سبحانه يقول:

﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ (١) كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً (٢) .. (٤٤) ﴾ [الأنعام]

فمن يمسك عدوه ليرفعه ؛ فلا يظنن ظان أنه يدلِّله ، ولكنه يرفعه ليلقيه من علٍ ، فيزداد ويعظم ألمه . وكأن الله سبحانه قد أعطى أمثال هؤلاء نعمة ؛ ليطغوا.

ولنا أن ننتبه إلى كلمة «الفتح» التى تجعل النفس منشرحة ، وعلينا أن ننتبه إلى المتعلق بها ، أهو فتح عليك ، أم فتح لك ؟

---

(١) الباب: مدخل المكان، وجمعه: أبواب، ويستعمل مجازاً فيما يوصل إلى غيره ، قال تعالى: ﴿ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا .. (٥٨) ﴾ [البقرة] هو باب حقيقى للبلد.
وقال تعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ .. (٧٧) ﴾ [المؤمنون] أى: أصبناهم بعذاب شديد، كأنه خلف باب مغلق ففتح وتدفق العذاب عليهم. وقال تعالى: ﴿ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ .. (٤٤) ﴾ [الأنعام] أى: منحناهم أصناف النعم من صحة ومال وجاه، وغير ذلك، كأنها كانت خلف أبواب مغلقة ففتحت. [القاموس القويم مادة ب و ب].

(٢) بغته بغتاً وبغتة: فاجأه على غرَّة وغفلة. قال تعالى: ﴿ .. فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (٩٥) ﴾ [الأعراف] . [القاموس القويم: مادة (بغت)].

إن فُتح عليك ؛ فافهم أن النعمة جاءت لتطغيك ، ولكن إن فُتح لك ، فهذا تيسير منه سبحانه ، فهو القائل:

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا (١) لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا (١) ﴾ [الفتح]

وهؤلاء الذين يحدثنا الحق سبحانه عنهم فى هذه الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها ؛ قد فتح الله سبحانه عليهم أبواب الضر ؛ لأنهم غفلوا عنه.

ويُنهى الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله:

﴿ .. وَكَانُوا مُجْرِمِينَ (١١٦) ﴾ [هود]

أى: كانوا يقطعون ما كان يجب أن يوصل ؛ وهو اتباع منهج السماء ؛ لأن كلمة (مجرمين) مأخوذة من مادة «جرم» (٢) وتعنى: «قطع» ، وقطع اتباع منهج السماء ؛ والغفلة عن الإيمان بالخالق سبحانه ، والاستغراق فى الترف الذى حققوه لأنفسهم بظلم الغير ، وأخذ نتيجة عرق وجهد الغير.

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك:

---

(١) فتح يفتح فتحاً: ضد أغلق. ويسمى النصر على العدو فتحاً لأنه يفتح بلاده للمنتصر. قال تعالى: ﴿ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ .. (٨٩) ﴾ [الأعراف] أى: انصرنا عليهم، ويجوز أن يكون المعنى: ربنا افتح بيننا وبين قومنا باب التفاهم والمحبة بالحق حتى يؤمنوا ويتركوا عنادهم. وقال تعالى: ﴿ لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ ..(٤٠) ﴾ [الأعراف] أى: لا يرضى عنهم الله، ولا ينالون رحمته كأن السماء مغلقة أمامهم كما تغلق أبواب الملوك فى وجه الذين لا يرغبون فى لقائهم. [القاموس القويم : مادة (فتح)].

(٢) جرم الشىء جرماً: قطعه، وغلب هذا الفعل على عمل الشر. يقال: جرم: أذنب، وجنى جناية. وجرم المال: كسبه من أى وجه. وجرمه: حمله على فعل شر أو ذنب وجرم. قال تعالى: ﴿ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا .. (٨) ﴾ [المائدة] أى: لا يحملنكم بغض قوم على عدم العدل، أى: التزموا العدل حتى مع من تكرهونهم. أى: اعدلوا دائماً فالعدل أقرب للتقوى. [القاموس القويم – مادة : جرم].

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ[1] ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾

وساعة تقرأ أو تسمع (ما كان) يتطرق إلى ذهنك: ما كان ينبغى[2].

ومثال ذلك: هو قولنا: «ما كان يصح لفلان أن يفعل كذا» . وقولنا هذا يعنى أن فلاناً قد فعل أمراً لا ينبغى أن يصدر منه.

وهناك فرق بين نفى الوجود ؛ ونفى انبغاء الوجود.

والحق سبحانه يقول:

﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ .. ﴿٦٩﴾﴾ [يس]

وهذا لا يعنى أن طبيعة الرسول ﷺ جامدة ، ولا يستطيع - معاذ الله - أن يتذوق المعانى الجميلة ؛ لأنه ﷺ جُبل[3] على الرحمة ؛ وقد قال فيه الحق سبحانه:

---

(١) هلك، يهلك هلكاً وهلوكاً وهلاكاً، ومهلكاً - بفتح اللام وبكسرها - وتهلكة : مات وفنى، فهو هالك. قال تعالى: ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ .. ﴿٨٨﴾﴾ [القصص] وقال تعالى: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ .. ﴿٤٢﴾﴾ [الأنفال] وقال تعالى: ﴿مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ .. ﴿٤٩﴾﴾ [النمل]. وقوله تعالى:﴿هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ ﴿٢٩﴾﴾ [الحاقة] أى: ذهب وضاع ولم يبق لى عز ولا سلطان، وقوله تعالى: ﴿إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ .. ﴿١٧٦﴾﴾ [النساء] أى: مات وليس له ولد يرثه، وأهلكه: أماته وأفسده، أو كان سبباً فى هلاكه. قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الأُولَىٰ ﴿٥٠﴾﴾ [النجم] أى: أفناهم وأبادهم. [القاموس القويم : مادة هلك] بتصرف.

(٢) قال الإمام أبو يحيى زكريا الأنصارى فى «فتح الرحمن» (ص ١٩٥) : «نفى الله الظلم عن نفسه بأبلغ لفظ يستعمل فى النفى، لأن اللام فيه لام الجحود، والمضارع يفيد الاستمرار، فمعناه: ما فعلت الظلم فيما مضى، ولا أفعله فى الحال، ولا فى المستقبل فكان غاية فى النفى».

(٣) جبل الله الخلق جبلاً : خلقهم. ويقال: جبله على كذا: طبعه. وفى الأثر: «جُبلت القلوب على حب من أحسن إليها». وجبل الشىء: شده وأوثقه. وجبل فلاناً على الشىء والأمر: جبره. [المعجم الوسيط: مادة (جبل)].

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ .. (١٥٩)﴾ [آل عمران]

ولهذا نفهم قوله الحق:

﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ .. (٦٩)﴾ [يس]

أى : أن الحق سبحانه لم يشأ له أن يكون شاعراً.

وهكذا نفهم أن هناك فرقاً بين «نفى الوجود» وبين «نفى انبغاء الوجود».

والحق سبحانه يقول هنا:

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ .. (١١٧)﴾ [هود]

أى: لا يتأتى ، ويستحيل أن يهلك الله القرى بظلم ؛ لأن مراد الظالم أن يأخذ حق الغير لينتفع به ؛ ولا يوجد عند الناس ما يزيد الله شيئاً؛ لأنه سبحانه واهب كل شىء ؛ لذلك فالظلم غير وارد على الإطلاق فى العلاقة بين الخالق سبحانه وبين البشر.

وحين يورد الحق سبحانه كلمة «القرى» - وهى أماكن السكن - فلنعلم أن المراد هو «المكين» ، مثل قول الحق سبحانه:

﴿وَاسْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ (١) الْبَحْرِ ..(١٦٣)﴾ [الأعراف]

وقوله الحق أيضاً:

﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ (٢) الَّتِي كُنَّا فِيهَا ..(٨٢)﴾ [يوسف]

---

(١) حاضرة البحر، أى: مشرفة عليه، مجاورة له غير بعيدة عنه. [القاموس القويم ١/١٥٩] بتصرف.

(٢) القرية: البلدة الكبيرة، تكون أقل من المدينة، أو هى كل مكان اتصلت به الأبنية. قال تعالى: ﴿ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ .. (٥٨)﴾ [البقرة] ، ثم قال: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا .. (٨٢)﴾ [يوسف] أى: أهل القرية، مجاز مرسل علاقته المحلية. وكذلك قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلا نَاصِرَ لَهُمْ (١٣)﴾ [محمد] والمراد: أهلها أشد من أهل مكة الذين أخرجوك. [القاموس القويم ٢/١١٥].

والحق سبحانه فى مثل هاتين الآيتين ؛ وكذلك الآية التى نتناولها الآن بهذه الخواطر إنما يسأل عن المكين.

والله سبحانه يقول هنا:

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ .. (١١٧) ﴾ [هود]

أى: أنه مُنزَّه عن أن يهلكهم بمجاوزة حَدٍّ ، لكن له أن يهلكهم بعدل؛ لأن العدل ميزان، فإن كان الوزن ناقصاً كان الخسران، ومن العدل العقاب، وإن كان الوزن مستوفياً كان الثواب.

وفى مجالنا البشرى ؛ لحظة أن نأخذ الظالم بالعقوبة ؛ فنحن نتعبه فعلاً ؛ لكننا نريح كل المظلومين ؛ وهذه هى العدالة فعلاً.

ومن خطأ التقنينات الوضعية البشرية هو ذلك التراخى فى إنفاذ الحقوق فى التقاضى ؛ فقد تحدث الجريمة اليوم ؛ ولا يصدر الحكم بعقاب المجرم إلا بعد عشر سنوات ، واتساع المسافة بين ارتكاب الجريمة وبين توقيع العقوبة ؛ إنما هو واحد من أخطاء التقنينات الوضعية ؛ ففى هذا تراخٍ فى إنفاذ حقوق التقاضى ؛ لأن اتساع المسافة بين ارتكاب الجريمة وبين توقيع العقوبة ؛ إنما يضعف الإحساس ببشاعة الجريمة.

ولذلك حرص المشرع الإسلامى على ألا تطول المسافة الزمنية بين وقوع الجريمة وبين إنزال العقوبة ، فعقاب المجرم فى حُمُوَّة [1] وجود الأثر النفسى عند المجتمع ؛ يجعل المجتمع راضياً بعقاب

(١) حموة الألم: سورته، وشدته، سواء أكان الألم مادياً أم معنوياً. [المعجم الوسيط : مادة: (حمو)] بتصرف.

المجرم، ويذكِّر الجميع ببشاعة ما ارتكب ؛ ويوازن بين الجريمة وبين عقوبتها.

ويقول الحق سبحانه هنا:

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ (١) (١١٧) ﴾ [هود]

وفى آية أخرى يقول الحق سبحانه:

﴿ .. لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ (٢) (١٣١) ﴾ [الأنعام]

إذن: لا بد من إزاحة الغفلة أولاً ، وقد أزاح الله سبحانه الغفلة عنا

---

(١) أصلح الأمر إصلاحاً: أزال إفساده. قال تعالى:﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا .. (٥٦) ﴾ [الأعراف]. وأصلح بين الرجلين: أزال ما بينهما من خلاف وخصام. قال تعالى:﴿ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ .. (١٠) ﴾ [الحجرات] . ومصلحون: جمع مصلح. والمصلح: اسم فاعل، من الفعل «أصلح». قال تعالى: ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ .. (٢٢٠) ﴾ [البقرة] . وقال تعالى:﴿ .. قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) ﴾ [البقرة] ، وقال تعالى:﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ (١١٧) ﴾ [هود] ، وقال تعالى: ﴿ .. إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ (١٧٠) ﴾ [الأعراف]. [القاموس القويم : مادة (صلح)] بتصرف.

(٢) غفل عن الأمر، يغفل غفولاً: تركه عمداً، أو عن غير عمد. وأغفله – متعد بالهمزة –: تركه عن عمد. وأغفل غيره عن الأمر: جعله يغفل عنه، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا .. (٢٨) ﴾ [الكهف] أى: جعلناه غافلاً عن ذكرنا. والغفلة: سهو يعترى الإنسان من قلة التحفظ وعدم اليقظة. قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا .. (٢٢) ﴾ [ق] أى: غافلاً عن إدراك القيامة، وغافلاً عن أحداث ما بعد الموت. وقال تعالى: ﴿ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ .. (١٠٢) ﴾ [النساء] أى: تسهون عنها وتتركون حراستها فينقضون عليكم. وقال تعالى: ﴿ .. وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٧٤) ﴾ [البقرة] أى: أن الله عالم، يعلم بكل ما تعملون، لا يسهو عن شىء منه. وقال تعالى: ﴿ .. أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٧٩) ﴾ [الأعراف] أى: الذين لا يدركون الحق ولا يهتدون إليه فيعرضون عنه. [القاموس القويم : مادة (غفل)] بتصرف.

بإرسال الرسل وبالبيان وبالنذر ؛ حتى لا تكون هناك عقوبة إلا على جريمة سبق التشريع لها [١].

وهكذا أعطانا الله سبحانه وتعالى البيان اللازم لإدارة الحياة ، ثم جاء من بعد ذلك الأمر بضرورة الإصلاح:

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ (١١٧) ﴾ [هود]

والإصلاح فى الكون هو استقبال ما خلق الله سبحانه لنا فى الكون من ضروريات لننتفع بها ، وقد كفانا الله ضروريات الحياة ؛ وأمرنا أن نأخذ بالأسباب لنطور بالابتكارات وسائل الترف فى الحياة.

وضروريات الحياة من طعام وماء وهواء موجودة فى الكون ، والتزاوج متاح بوجود الذكر والأنثى فى الكائنات المخلوقة ، أما ما نصنعه نحن من تجويد لأساليب الحياة ورفاهيتها فهذا هو الإصلاح المطلوب منا.

وسبق أن قلنا: إن المصلح هو الذى يترك الصالح على صلاحه ، أو يزيده صلاحاً يؤدى إلى ترفه وإلى راحته ، وإلى الوصول إلى الغاية بأقل مجهود فى أقل وقت.

والقرى التى يصلح أهلها ؛ لا يهلكها الله ؛ لأن الإصلاح إما أن يكون قد جاء نتيجة اتباع منهج نزل من الله تعالى ؛ فتوازنت به حركة الإنسان مع حركة الكون ، ولم تتعاند الحركات ؛ بل تتساند وتتعاضد، ويتواجد المجتمع المنشود.

---

(١) يقول الحق سبحانه: ﴿ .. وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً (١٥) ﴾ [الإسراء].

وإما أن هؤلاء الناس لم يؤمنوا بمنهج سماوى ، ولكنهم اهتدوا إلى أسلوب عمل يريحهم، مثل الأمم الملحدة التى اهتدت إلى شىء ينظم حياتهم ؛ لأن الله سبحانه وتعالى لم يمنع العقل البشرى أن يصل إلى وضع قانون يريح الناس.

لكن هذا العقل لا يصل إلى هذا القانون إلا بعد أن يرهق البشر من المتاعب والمصاعب ، أما المنهج السماوى فقد شاء به الله سبحانه أن يقى الناس أنفسهم من التعب ، فلا تعضهم الأحداث.

وهكذا نجد القوانين الوضعية وهى تعالج بعض الداءات التى يعانى منها البشر ، لا تعطى عائد الكمال الاجتماعى، أما قوانين السماء فهى تقى البشر من البداية فلا يقعون فيما يؤلمهم.

وهكذا نفهم قول الحق سبحانه:

﴿ .. وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ (١١٧) ﴾ [هود]

لأنهم إما أن يكونوا متبعين لمنهج سماوى، وإما أن يكونوا غير متبعين لمنهج سماوى ، لكنهم يصلحون أنفسهم.

إذن: فالحق سبحانه وتعالى لا يهلك القرى لأنها كافرة ؛ بل يبقيها كافرة ما دامت تضع القوانين التى تنظم حقوق وواجبات أفرادها ؛ وإن دفعت ثمن ذلك من تعاسة وآلام.

ولكن على المؤمن أن يعلن لهم منهج الله ؛ فإن أقبلوا عليه ففى ذلك سعادتهم ، وإن لم يقبلوا ؛ فعلى المؤمنين أن يكتفوا من هؤلاء الكافرين بعدم معارضة المنهج الإيمانى.

ولذلك نجد ـ فى البلاد التى فتحها الإسلام ـ أناساً بَقَوْا على دينهم ؛ لأن الإسلام لم يدخل أى بلد لحمل الناس على أن يكونوا مسلمين ، بل جاء الإسلام بالدليل المقنع مع القوة التى تحمى حق الإنسان فى اختيار عقيدته.

يقول الله جَلَّ علاه :

﴿ لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨) ﴾ [الممتحنة]

فإذا كانت بعض المجتمعات غير مؤمنة بالله ، ومُصْلحة ؛ فالحق سبحانه لا يهلكها بل يعطيهم ما يستحقونه فى الحياة الدنيا ؛ لأنه سبحانه القائل:

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ (١) الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ (٢٠) ﴾ [الشورى]

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك:

﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) ﴾

---

(١) حرث الأرض، يحرثها حرثا: أثارها وهيأها للزرع، أو ألقى فيها الحب للزرع. وحرث الأرض: زرعها. قال تعالى: ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (٦٤) ﴾ [الواقعة] ، ويطلق الحرث على الزرع. قال تعالى: ﴿ وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ .. (٢٠٥) ﴾ [البقرة] أى: يهلك المزروعات، والنسل من الإنسان والحيوان. وقال تعالى: ﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ .. (٢٢٣) ﴾ [البقرة] على التشبيه بالأرض المهيأة للزرع فهن يلدن لكم الذرية. ومن المجاز قوله تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ .. (٢٠) ﴾ [الشورى] أى: فى ثواب الآخرة. وقوله تعالى: ﴿ أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ .. (٢٢) ﴾ [القلم] أى: على زرعكم أو حديقتكم المزروعة. [القاموس القويم : مادة (حرث)].

ونحن نعلم أن الإنسان قد طرأ على هذا الكون بعد أن خلق الله - سبحانه - فى هذا الكون كل مقومات الحياة ؛ المسخرة بأمر الله لهذا الإنسان ؛ ليمارس مهمة الخلافة فى الأرض ؛ ولم تتأبَّ [١] تلك الكائنات على خدمة الإنسان ، سواء أكان مؤمناً أم كافراً ؛ لأن الحق - سبحانه - هو الذى استدعى الإنسان إلى الوجود ، وما دام قد استدعاه؛ فهو - سبحانه - لن يضن عليه بمقومات هذا الوجود ؛ من بقاء حياة ، وبقاء نوع.

وهذا هو عطاء الربوبية الذى كفله الله - سبحانه - لكل البشر: مؤمنهم وكافرهم ، وهو عطاء يختلف عن عطاء الألوهية المتمثل فى المنهج الإيمانى: «افعل» و «لا تفعل».

ومن يأخذ عطاء الألوهية مع عطاء الربوبية فهو من سعداء الدنيا والآخرة[٢].

إذن: فقدرة الله - سبحانه - قد أرغمت الكون - دون الإنسان - أن يؤدى مهمته ، وكان من الممكن أن يجعل البشر أمة واحدة مهتدية لا تخرج عن نظام أراده الله - سبحانه وتعالى[٣] - كما لم تخرج الشمس أو القمر أو الهواء أو أى من الكائنات الأخرى المسخَّرة عن إرادته.

---

(١) أبَى إباءً وإباءة، وتأبَّى عليه: استعصى. وأبَى الشىء: كرهه ولم يَرْضه. وفى التنزيل العزيز: ﴿ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ .. ﴿٣٢﴾ ﴾ [التوبة] . وفى المثل: «رضى الخصمان وأبى القاضى» يضرب لمن يطالب بحق نزل أصحابه عنه. [المعجم الوسيط : مادة (أبى)] بتصرف.

(٢) يقول الحق سبحانه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ [فصلت] .

(٣) يقول تعالى: ﴿ .. وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾ ﴾ [النحل]. ويقول: ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً .. ﴿٤٨﴾ ﴾ [المائدة]. ويقول أيضاً: ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ .. ﴿٨﴾ ﴾ [الشورى].

لأن الحق - تبارك وتعالى - أثبت لنفسه طلاقة القدرة فى تسخير أجناس لمراده ؛ بحيث لا تخرج عنه ، وذلك يثبت لله - سبحانه - القدرة ولا يثبت له المحبوبية.

أما الذى يثبت له المحبوبية فهو أن يخلق خَلْقاً ؛ ويعطيهم فى تكوينهم اختياراً.

ويجعل هذا الاختيار كلَّ واحد فيهم صالحاً أن يطيع ، وصالحاً أن يعصى ، فلا يذهب إلى الإيمان والطاعة إلا لمحبوبية الله - تعالى.

وهكذا نعلم أن الكون المسخَّر المقهور قد كشف لنا سيَّال [١] القدرة، والجنس الذى وهبه الله الاختيار إن أطاع فهو يكشف لنا سيال المحبوبية.

والحق - سبحانه - هو القائل:

﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ..(٢٩)﴾ [الكهف]

ولكن أيُترك الإنسان حتى يأتى له الغرور فى أنه يملك الاختيار دائماً؟

لا .. فمع كونك مختاراً إياك أن تغتر بهذا الاختيار ؛ لأن فى طيِّك قهراً[٢] ، وما دام فى طيك قهر فعليك أن تتأدب ؛ ولا تتوهَّم أنك مختار فى أن تؤمن بالله أو لا تؤمن ؛ ولا تتوهم أنك مُنفلت من قبضة الله - تعالى - فهو يملك زمامك[٣] فى القهريات التى تحفظ لك

---

(١) سال يسيل سيلاً، وسيلاناً، ومسيلاً، ومسالاً، فهو سائل، وسيَّال: جرى وطغى. ويقال: سالت الأرض ونحوها، وسالت بما فيها. وسالت عليه الخيل وغيرها: جرت من كل وجه وتدفقت. وسال بهم السيل، وجاش بنا البحر: وقعوا فى أمر شديد، ووقعنا نحن فى أشد منه. وسالت الغرَّة: استطالت وعرضت فى الجبهة وقصبة الأنف.
وسيَّال القدرة الإلهية: ظهور آثارها فى جميع المخلوقات، وانتشارها وشمولها لكل شىء فى الكون، ما علمنا منه وما لم نعلم. [المعجم الوسيط : مادة (سيل)] بتصرف.

(٢) لأن الإنسان مختار فيما يستطيع البديل فيه ، مقهور فيما لا يستطيع إبداله ، إذن : للاختيار حدود مقرونة بالاستطاعة ، والطاقة البشرية.

(٣) الزمام: الخيط الذى يشد فى البُرَة أو فى الخشاش ثم يشد إلى طرف المقود. ويقال: «هو زمام قومه» : قائدهم ومقدمهم وصاحب أمرهم. وهو زمام الأمر: ملاكه. وألقى فى يده زمام أمره: فوَّضه إليه. ويملك الله زمامك: أى: يملك أمورك كلها. [المعجم الوسيط : مادة (زمم)] بتصرف.

حياتك مثل: الحيوان والنبات والجماد ، ولكنه - سبحانه- ميَّزك بالعقل.

وخطأ الإنسان دائماً أنه قد يعطى الأسماء معانى ضد مسمياتها ، فكلمة «العقل» مأخوذة من «عقل»[1] وتعنى : «ربط» ؛ فلا تجمح[2] بعقلك فى غير المطلوب منه ؛ لأن مهمة العقل أن يكبح جماحك. وتذكر دائماً: فى قبضة من أنت ؛ وفى زمام من أنت ؛ وفى أى الأمور أنت مقهور؟

وما دُمْتَ مقهوراً فى أشياء فاختر أن تكون مقهوراً لمنهج الله سبحانه واحفظ أدبك مع الله ، واعلم أنه قد وهبك كل وجودك سواء ما أنت مختار فيه أو مقهور عليه.

وانظر إلى من سلبهم الحق - سبحانه - بعض ما كانوا يظنون أنها أمور ذاتية فيهم ، فتجد من كان يحرك قدمه غير قادر على تحريكها ، أو يحاول أن يرفع يده فلا يستطيع.

ولو كانت مثل هذه الأمور ذاتية فى الإنسان لما عَصَتْه ، وهذا دليل على أنها أمور موهوبة من الله ، وإنْ شاء أخذها، فهو - سبحانه - يأخذها ليؤدِّب صاحبها.

ومادام الإنسان بهذا الشكل، فليقُل لنفسه: إياك أن تَغترَّ بأن الله

---

(١) عَقَل يعقلُ عقلاً: أدرك الأشياء على حقيقتها. وعقلَ البعير: ضمَّ رُسْغ يده إلى عَضُده وربطهما معاً بالعقال؛ ليبقى باركاً. والعقل: ما يكون به التفكير وتصوُّر الأشياء على حقيقتها، كقوله تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ .. ﴿٧٥﴾﴾ [البقرة] أى: أدركوه على حقيقته وعلموه علماً ثابتاً. قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾﴾ [الملك] أى: لو كنا ندرك الأمر على حقيقته. وقد نعى القرآن كثيراً على من لا يستعملون عقولهم، وحث على استعمال العقل، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [البقرة] .[القاموس القويم : مادة (عقل)] بتصرف.

(٢) جمح: أسرع. والجموح: الرجل يركب هواه فلا يمكن ردُّه. [مختار القاموس - مادة جمح].

جعل فيك زاوية اختيار، وتذكّر أنك على أساس من هذه الزاوية تتلقَّى التكليف من الله بـ «افعل»[١]، و«لا تفعل»؛ لأن معنى «افعل كذا»: أنك صالحٌ ألاّ تفعل؛ ومعنى «لا تفعل كذا»: أنك صالحٌ أنْ تفعل؛ لأن لديك منطقة اختيار؛ ولكن لديك فى زواياك الأخرى منطقة قَهْر وتسخير، فتأدَّبْ فى منطقة الاختيار، كما تأدبت فى منطقة الاضطرار والقهر.

وقد وصف الحق - سبحانه - الإنسان بأنه كنود، قال تعالى:

﴿إِنَّ الإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ[٢] (٦)﴾ [العاديات]

لأن الإنسان لا يتذكر أحياناً أن مهمة عقله الأولى هى أن يعقل حدوده، وأن يقول لنفسه: مادامت الحيوانية فىَّ مقهورة، ومادامت الجمادية فيَّ مقهورة؛ فَلأكُنْ مؤدباً مع ربى، وأجعل منطقة الاختيار على مراد منهج الله.

وأنت إنْ أردتَ أن تضع إحصائية لـ «افعل» ولا «تفعل» لوجدت ما لم يَرِدْ فيه تكليف بـ «افعل» و«لا تفعل» لا يقل عن خمسة وتسعين فى المائة من حركة الحياة، وهو المباح.

وأنزل الله - سبحانه - التكليف لتنضبط به حركة حياتك كلها - إنْ جعلت التكليف هو مرادك - وهو لن يأخذ أكثر من خمسة فى المائة من حركة الحياة ، ويعود خير ذلك عليك.

---

(١) وكلمة افعل ولاتفعل تدور حول مطلوبات المنهج أمراً ونهياً، فالفرض والواجب والسنة والمستحب مأمور بهم. والحرام والمكروه منهيٌّ عنهما، وللأمر عطاؤه مصداقاً لقوله تعالى: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (٣١)﴾ [فصلت] وللنهى عقابه أو المغفرة من الله.

(٢) كند النعمة يكندها : جحدها ولم يشكرها، فهو كاند، وصيغة المبالغة «كنود». قال تعالى: ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ (٦)﴾ [العاديات] أى : كَفُور شديد الجحود . [القاموس القويم: مادة (كند)].

فساعة يقول لك التكليف: عليك أن تزكِّى عن مالك، فلابد لك من أن تقدِّر المقابل، لأنك إن افتقرتَ واحتجْتَ ؛ سيأتيك من زكاة الآخرين ما يلبِّى احتياجاتك، فمن «افعل» التى تلتزم بها ويلتزم بها غيرك تأتى الثمرة التى تسدُّ عجز أى ضعف فى المجتمع الإيمانى بالتراحم المتبادل النابع عن اليقين بالمنهج.

وحين يقول لك التكليف: لا تعتدِ على حُرمات الغير، فهو يقيِّد حريتك فى ظاهر الأمر ، لكنه يحمىَ حُرماتك من أن يعتدى عليها الغير ، وحين تتعقل أوامر التكليف كلها ستجدها لصالحك؛ سواء أكان الأمر بـ «افعل» أو «لا تفعل».

وهنا يقول الحق - سبحانه : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً..(١١٨)﴾ [هود]

و «لو » تفيد الامتناع[1] . أى : أن الله - تعالى - لم يجعل الناس أمة واحدة، بل جعلهم مختلفين.

---

(١) لو : حرف شرط غير جازم، ومعناه: امتناع الشرط لامتناع الجواب. قال تعالى : ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا .. (٦٥)﴾ [الواقعة]. ويقترن جوابها باللام للتوكيد ، وقد لا يقترن باللام ، كقوله تعالى : ﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلا تَشْكُرُونَ (٧٠)﴾ [الواقعة] ويقل اقتران جوابها باللام إذا كان منفياً كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلامٌ .. (٢٧)﴾ [لقمان] ثم قال: ﴿ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ .. (٢٧)﴾ [لقمان] ، وقد يُحذف جواب لو كقوله تعالى : ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ ..(٣١)﴾ [الرعد] الجواب محذوف تقديره : لكان هذا القرآن العظيم يفعل ذلك ، ولكن الله لم يجعل قرآناً بهذه الصفة. [القاموس القويم ٢/٢٠٦].

وقد تستعمل «لو» حرفاً مصدرياً مثل «أن» ويكثر ذلك بعد كلمة «وَدَّ»، وكلمة «أحبَّ»، وما يشبههما، كقوله تعالى : ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ .. (٩٦)﴾ [البقرة] أى : يود التعمير ألف سنة، والمصدر المؤول مفعول به للفعل «يودّ».

وقد تستعمل «لو» للتمنى، مثل قوله تعالى : ﴿لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا .. (١٦٧)﴾ [البقرة] وهى على لسان بعض أهل النار يوم القيامة الذين يتمنون الرجوع إلى الدنيا؛ ليتبرءوا من الكبراء الذين كانوا يتبعونهم فى الدنيا ثم تنكّروا لهم فى الآخرة . [القاموس القويم: مادة (لو)].

وقد حاول بعض من الذين يريدون أن يدخلوا على الإسلام بنقد ما ، فقالوا: ألاَ تتعارض هذه الآية مع قول الله : ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ ..(٢١٣)﴾ [البقرة]

وظن أصحاب هذا القول أن البشر لم يلتفتوا إلى خالقهم من البداية ؛ ثم بعث الله الأنبياء ليلفتهم إلى المنهج.

ونقول لهؤلاء : لا ، فقد ضمن الحق - سبحانه - للناس قُوتَهم وقوام حياتهم، وكذلك ضمن لهم المنهج الإيمانى منذ أن أمر آدم وزوجه بالهبوط إلى الأرض لممارسة مهمة الخلافة فيها، وقال الله - سبحانه: ﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ(١) فَلا يَضِلُّ(٢) وَلا يَشْقَىٰ(٣) .. (١٢٣)﴾ [طه]

ولو استقصى هؤلاء الآيات التى تعالج هذا الأمر، وهى ثلاث آيات؛ فهنا يقول الحق - سبحانه: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً..(١١٨)﴾ [هود]

---

(١) هداه الطريق يهديه هدياً وهداية وهُدَى: أعلمه إيَّاه، وعَرَّفه له، وأرشده إليه، فهو هادٍ. ومن المجاز المعنوى: هداه الحقَّ، أو هداه إلى الحق: دلَّهُ عليه وأرشده إليه.

والهُدَى : مصدر الفعل «هَدَى»، ويأتى بمعنى الرشاد، ويوصف به للمبالغة، كقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (٢)﴾ [البقرة] أى : هادٍ للمتقين، وذلك إذا وقفنا على قوله تعالى : ﴿لا رَيْبَ فِيهِ .. (٢)﴾ [البقرة] فالكتاب هُدًى للمتقين، أى : هادٍ لهم. وأما إذا وقفنا على قوله تعالى : ﴿لا رَيْبَ .. (٢)﴾ [البقرة] فيكون هُدًى مصدراً بمعنى هداية، أى: فى الكتاب هداية للمتقين لا ريب فى ذلك. [القاموس القويم: مادة (هدى)] بتصرف.

(٢) ضلَّ الكافر: غاب عن الحجة المقنعة وعدل عن الطريق المستقيم، ولم يعرف الحق. والضلال: النسيان والضياع. قال تعالى: ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي ..(٥٠)﴾ [سبأ] . [القاموس القويم : مادة (ضلل)].

(٣) شقى شقاً شقاءً وشقاوة : ساءتْ حاله المادية أو المعنوية، فهو شقيٌّ. قال تعالى : ﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا ..(١٠٦)﴾ [المؤمنون] أى : حالة الشقاء والضلال وفساد النفوس. وقال تعالى: ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ (٢)﴾ [طه] أى : لتحزن وتتألم أسفاً على عصيانهم. [القاموس القويم: مادة (شقى)] بتصرف.

وفى الآية التى ظنوا أنها تتعارض مع الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها يقول - سبحانه :

﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٢١٣)﴾ [البقرة]

وهكذا نعرف أن الحق سبحانه وتعالى أنزل المنهج مع آدم - عليه السلام - ثم طرأتْ الغفلة[1] ؛ فاختلف الناس ، فبعث الله الأنبياء ليحكموا فيما اختلف فيه الناس.

إذن : فقول الله - تعالى:

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً .. (١١٨)﴾ [هود]

يعنى أنه - سبحانه - لو شاء لجعل الناس كلهم على هداية؛ لأنه بعد أن خلقهم؛ وأنزلهم إلى الأرض؛ وأنزل لهم المنهج ؛ كانوا على هداية، ولكن بحكم خاصية الاختيار التى منحها الله لهم، اختلفوا.

ثم يقول الحق - سبحانه: ﴿وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ .. (١١٨)﴾ [هود]

أى : أنهم سيظلون على الخلاف.

ويأتى الحق - سبحانه وتعالى - فى الآية التالية بالاستثناء فيقول:

---

(١) الغفلة: سهو يعترى الإنسان من قلة التحفظ وعدم اليقظة ، يقول الحق: ﴿لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَـٰذَا .. (٢٢)﴾ [ق] وتأتى بمعنى عدم الإدراك للحق ، وعدم الاهتداء إليه يقول الحق: ﴿أُولَـٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٧٩)﴾ [الأعراف].

وغفل عن الأمر غُفولاً تركه عمداً أو عن غير عمد، وأغفله متعدٍّ بالهمزة: تركه عن عمد . وأغفل غيره عن الأمر : جعله يغفل عنه ، يقول الحق: ﴿ وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا ..(٢٨)﴾ [الكهف] أى : جعلناه غافلاً عن ذكرنا. [القاموس القويم بتصرف وترتيب ص ٥٧ جـ ٢].

﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾

أى : أن الحق - سبحانه - قد خَلَقَ الخَلْق للرحمة والاختلاف.

وساعة نرى «اسم إشارة» أو «ضميراً» عائداً على كلام متقدِّم، فنحن ننظر ماذا تقدم. والمتقدم هنا : ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ.. ﴿١١٩﴾ ﴾ [هود]

والحق - سبحانه وتعالى - حين تكلم عن خلق الإنسان قال : ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات]

ومعنى العبادة[1] هو طاعة الله - سبحانه - فى «افعل» و «لا تفعل» وهذا هو المراد الشرعى من العبادة ؛ ولكن المرادات الاجتماعية تحكَّمتْ فيها خاصية الاختيار، فحدث الاختلاف، ونشأ هذا الاختلاف عن تعدُّد الأهواء.

فلو أن هَوَانَا كان واحداً ؛ لما اختلفنا ، ولكنّا نختلف نتيجة لاختلاف الأهواء ، فهذا هواه يمينى ؛ وذاك هواه يسارى ؛ وثالث هواه شيوعىٌّ؛ ورابع هواه رأسماليّ؛ وخامس هواه وجودىّ، وكل واحد له هوى[2].

---

(١) عبدالله يعبده عبادة وعُبودة: أطاعه، فهو عابد. قال تعالى: ﴿مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [القصص] وقال تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ .. ﴿٥﴾﴾ [الفاتحة]. [القاموس القويم: مادة (عبد)] بتصرف.

(٢) يقول تعالى : ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ [الكهف] .

ولذلك قال الحق - سبحانه: ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ[١] لَفَسَدَتِ السَّمَـٰوَاتُ وَالأَرْضُ .. (٧١)﴾ [المؤمنون]

ولم يكن العالم ليستقيم؛ لو اتبع الله - سبحانه - أهواء البشر المختلفة، ولكن أحوال هذا العالم يمكن أن تستقيم؛ إذا صدرتْ حركته الاختيارية عن هوًى واحد؛ ولذلك قال النبى ﷺ :

«لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئتُ به»[٢] .

وفى حياتنا اليومية نلاحظ أن الأعمال التى تسير بها حركة الحياة وبدون أن ينزل تكليف فيها ؛ نجد فيها اختلافاً لا محالة ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى لو شاء لخلقنا كلنا عباقرة فى كل مناحى الحياة ؛ أو يخلقنا كلنا شعراء أو أطباء أو فلاسفة.

ولو شاء - سبحانه - ذلك فمن سيقوم بالأعمال الأخرى ؟ فلو أننا كنا كلنا أطباء فمن يقوم بأعمال الزراعة وغيرها ؟ ولو كنا جميعاً مهندسين ؛ فمن يقوم بأعمال التجارة وغيرها؟

وقد شاء الحق - سبحانه - أن يجعل مواهبنا مختلفة ليرتبط العالم ببعضه ارتباط تكاملٍ وضرورة ؛ لا ارتباط تفضُّل.

---

(١) هَوِيَهُ يهواه هَوًى : أحبَّه. وأكثر ما يستعمل فى الباطل وفى الشهوات الضارة. قال تعالى : ﴿فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ .. (١٣٥)﴾ [النساء] أى : ما تهواه أنفسكم وما تشتهيه فيضلكم ذلك عن الحق. وقال تعالى : ﴿وَلا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيراً وَضَلُّوا .. (٧٧)﴾ [المائدة].[القاموس القويم: ٢/ ٣١٠ ، ٣١١].

(٢) أخرجه ابن أبى عاصم فى: كتاب «السنة» (١/١٢) من حديث عبدالله بن عمرو، وأورده ابن رجب الحنبلى فى «جامع العلوم» (ص ٤٦٠) وضعَّفه.

ولذلك يقول الحق - سبحانه:

﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ (١) لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا (٢) .. (٣٢)﴾ [الزخرف]

وهكذا نعرف أن رفع الدرجات لا يعنى تلك النظرة الحمقاء الرعناء(٣)، والتى تدعى أن فى ذلك التقسيم رفعة للغنى وتقليلاً لشأن الفقير ؛ لأن الواقع يؤكد أن كل إنسان هو مرفوع فى جهة بسبب ما يُحسنه فيها ؛ ومرفوع عليه فى جهة أخرى بسبب ما لا يُحسنه ويُحسنه غيره ، وغيره مكمل له.

وهكذا يتبادل البشر ما يحققه اختلاف مواهبهم(٤)، واختلاف المواهب هى مقومات التلاحم.

ولذلك قلنا: إن مجموع سمات ومواهب كل إنسان إنما يتساوى مع مجموع سمات ومواهب كل إنسان آخر ، ولا تفاضل إلا بالتقوى ؛ وقيمة كل امرىء ما يُحسنه.

---

(١) الدرجة : المرقاة يرقى عليها الصاعد إلى أعلى، ويهبط عليها النازل من أعلى، وهى واحدة درجات السُّلَم، تستعار للمنزلة والمكانة المعنوية فى الفضل والجاه، وفى الأجر والثواب عند الله. قال تعالى: ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللَّهِ .. (١٦٣)﴾ [آل عمران] أى: أنهم منازل مختلفة فى الفضل وفى الثواب كُلٌّ بحسب عمله. قال تعالى: ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ ..(١٥)﴾ [غافر] أى: أن الله عنده المنازل العالية ينزل فيها من يشاء من عباده المقربين، والله عالٍ متعالٍ فوق أعلى الدرجات عليُّ القَدْر، جَلَّ شأنه. [القاموس القويم: ١/٢٢٥].

(٢) سَخَرَهُ يَسْخَره : أذلَّه وقهره وأخضعه. قال تعالى : ﴿ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ..(٣٢)﴾ [الزخرف] وسخَّره بالتشديد: أخضعه وقهره لينفذ ما يُريد منه بدون إرادة ولا اختيار من المسخَّر، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ..(١٦٤)﴾ [البقرة] [القاموس القويم: ١/٣٠٦]

(٣) الرعونة : الحمق. والأرعن: الأهوج فى منطقه. [لسان العرب. مادة : رعن].

(٤) إن اختلاف المواهب هو للتكامل الإنسانى نحو تيسير حركة الحياة، بخلاف اختلاف الأهواء ففيها فساد لحركة الحياة.

وقد ترى صاحب السيارة الفارهة وهو يرجو عامل إصلاح السيارات الذى يرتدى ملابس رثة[١] ومتسخة ؛ ليصلح له سيارته؛ فيقول له العامل: لا وقت عندى لإصلاح سيارتك ؛ فيلحّ صاحب السيارة الفارهة بالرجاء ؛ فيرضى العامل ويرق قلبه لحال هذا الرجل صاحب السيارة الفارهة ويذهب لإصلاحها.

لذلك أقول : إذا نظرتَ لمن هو دونك فى أى مظهر من مظاهر الحياة؛ فلا تغترَّ بما تفوقتَ وتميزتَ به عليه ؛ ولكن قُلْ لنفسك : لابد أن هذا الإنسان متفوق فى مجال ما.

ونحن نعلم أن الله - سبحانه وتعالى - ليس له أبناء ليميز واحداً بكامل المواهب ، ويترك آخر دون موهبة.

ولذلك يقول الحق - سبحانه - هنا: ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ .. (١١٩) ﴾ [هود]

وإن كان الاختلاف[٢] فى المقدرات والمنهج ؛ فهذا ما يولِّد الكفر أو الإيمان ، ولنا أن نعرف أن الكفر له رسالة ؛ بل هو لازم ليستشعر المؤمن حلاوة الإيمان . ولو لم يكن للكفر وظيفة لما خلقه الله.

وقد قلت قديماً : إن الكفر يعاون الإيمان ؛ مثلما يعاون الألم العافية ، فلولا الألم لما جئنا بالطبيب ليشخِّص الداء ، ويصفَ الدواء الشافى بإذن الله.

ولذلك نقول : الألم رسول العافية.

والحق سبحانه يقول هنا : ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ .. (١١٩) ﴾ [هود]

وأنت إن دقَّقت النظر فى الاختلاف لوجدته عين الوفاق.

---

(١) الرَّث: القديم البالى من كل شىء. وأرث الثوب: أخلق. [اللسان: مادة رثث].

(٢) إذا كان الاختلاف فى المقدرات والمنهج، ينتج ذلك الشىء وضده.

ومثال ذلك: اختلاف أبنائك فيما يحبونه من ألوان الطعام، فتجد ابناً يفضِّل صدر الدجاجة، وآخر يفضل الجزء الأسفل منها «الوَرِك»، وتضحك أنت لهذا الاختلاف، لأنه اختلاف فى ظاهر الأمر، ولكن باطنه وِفَاق ، لو اتفقنا جميعاً فى الأمزجة لوجدنا التعاند والتعارض ؛ وهذا ما ينتشر بين أبناء المهنة الواحدة.

ولمن يسأل : هل الخلق للاختلاف أم الخلق للرحمة؟

نقول : إن الخلق للاختلاف والرحمة معاً، لأن الجهة مُنفكَّة.

ثم يقول - سبحانه - فى نفس الآية : ﴿.. وَتَمَّتْ[1] كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ[2] وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١١٩) ﴾ [هود]

والحق سبحانه قد علم أزلاً بمن يختار الإيمان ومن يختار الكفر، وهذا من صفات العلم الأزلىّ لله - سبحانه وتعالى - ولذلك قال- سبحانه : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ ﴾ أى : علم - سبحانه - مَنْ مِنْ عباده سيختار أن يعمل فى الدنيا عملَ أهل النار، ومن سيختار أن يعمل عملَ أهل الجنة ؛ لسبْق علمه الأزلىّ بمرادات عباده واختياراتهم.

وسبق أن ضربنا مثلاً - ولله المثل الأعلى - بعميد الكلية الذى

---

(١) تَمَّ الأمر يتمُّ تمّاً وتماماً: كَمُلَ وتحقق وهو تامٌّ وتميم، ويكون حسيّاً ومعنويّاً. قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً ..(١١٥)﴾ [الأنعام]أي: كَمُلَتْ وتحققت. وتمَّ الشىء: كَمُلَتْ أجزاؤه. قال تعالى :﴿ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً .. (١٤٢)﴾ [الأعراف] أى: كَمُل العدد المحدد لمناجاة موسى عليه السلام. وأتمَّ الشىء: أكمله على أحسن وجه، قال تعالى: ﴿ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي .. (٣)﴾ [المائدة] أى :على أكمل وجه، ليس فيها نقص. [القاموس القويم: ١/١٠١ ، ١٠٢] بتصرف.

(٢) الجِنَّة ـ بكسر الجيم ـ : الجنّ . قال تعالى : ﴿الَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ النَّاسِ (٥) مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ (٦)﴾ [الناس]. [القاموس القويم: ١/١٣٢].

يعلن للأساتذة ضرورة ترشيح المتفوقين فى كل قسم ؛ لأن هناك جوائز فى انتظارهم، فيرشح كل أستاذ أسماء المتفوقين الذين لمسَ فيهم النبوغ والإخلاص للعلم ، ويطلب العميد من أساتذة من خارج جامعته أن يضعوا امتحانات مفاجئة لمجموع الطلاب ؛ ويُفاجأ العميد بتفوق الطلبة الذين لمس فيهم أساتذتهم النبوغ والإخلاص للعلم ؛ وهنا يتحقق العميد من صدق تنبؤ الأساتذة الذين يعملون تحت قيادته.

ولكن قد تحدث مفاجأة : أن يتخلف واحد من هؤلاء الطلبة لمرض أصابه أو طارىء يطرأ عليه من تعب أعصاب أو إرهاق أو غير ذلك ؛ وبهذا يختلّ تقدير أستاذه ؛ لكن تقدير الحق - سبحانه - مُنزَّه عن الخطأ، وما علِمه أزلاً فهو مُحقَّق لا محالة؛ لذلك بيَّن لنا أنه علْم أزلىّ، ويتحدى الكافر به أن يغيره.

وكلنا يعرف أن الحق - سبحانه - أنزل قوله الكريم :

﴿تَبَّتْ[1] يَدَا أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١﴾ [المسد]

وسمعها أبو لهب ولم يتحدها بإعلان الإيمان ـ ولو نفاقاً.

وقول الحق : ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ تبيِّن لنا أن الحق - سبحانه -

---

(١) تَبَّ يَتُبُّ تبّاً وتباباً : خَسِرَ وهلك. قال تعالى : ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١﴾ [المسد] دعاء عليه بالخسران أو بالهلاك - ودعا عليه أولاً بأن تهلك يداه؛ لأنهما آلة البطش والإيذاء.
والتباب : الهلاك . قال تعالى : ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلاَّ فِى تَبَابٍ ۝٣٧﴾ [غافر] وتبَّبَهُ تتبيباً: أهلكه. قال تعالى : ﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ۝١٠١﴾ [هود] أى: إهلاك وتخسير. [القاموس القويم: ١/٩٦]

إنْ قال شيئاً فهو قد تَمَّ بالفعل ؛ فلا رادَّ لمشيئته ، أما نحن فعلينا أن نسبق كل وعد بعمل سنقوم به بقول: ﴿ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ .. (٢٤) ﴾ [الكهف]

لأن الحق يقول لنا : ﴿وَلا تَقُولَنَّ[1] لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَداً (٢٣) إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ .. (٢٤) ﴾ [الكهف]

وفى هذا احترامٌ لوضعنا البشرى، وإيمانٌ بغلبة القهر، ومعرفة لحقيقة أننا من الأغيار ؛ لأن كل حدث من الأحداث يتطلب فاعلاً ؛ ومفعولاً يقع عليه الفعل ؛ ومكاناً ؛ وزماناً ؛ وسبباً ؛ ولا أحدَ منَّا يملك أىَّ واحد من تلك العناصر.

فإن قُلْتَ: ﴿ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ تكون قد عصمتَ نفسك من أن تكون كاذباً، أو أن تَعِدَ بما لا تستطيع، لكن إذا كان مَنْ يقول هو مالك كل شىء، ولا قوة تخرجه عمَّا قال، فهو وحده القادر على أن ينفِّذ ما يقول.

ولذلك قلنا : إن كل فعل يُنسب إلى الله - تعالى - يتجرد عن

---

(١) ذكر ابن كثير فى تفسيره (٣/٧١) عن ابن عباس فى سبب نزول هذه الآية أن جماعة من قريش سألوا رسول الله ﷺ عن ثلاثة أمور وذلك بعد مشورة اليهود: سلوه عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول ، ما كان من أمرهم فإنهم قد كان لهم حديث عجيب ، وسلوه عن رجل طوَّاف بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه وسلوه عن الروح ما هو ؟ فقال رسول الله ﷺ : «أخبركم غداً عما سألتم عنه» ولم يقل : «إن شاء الله» ، ومكث رسول الله ﷺ خمس عشرة ليلة لا يُحدث الله له فى ذلك وَحياً ، ولا يأتيه جبريل حتى أرجف أهل مكة ، وقالوا: وعدنا محمد غدا واليوم خمس عشرة قد أصبحنا فيها لا يخبرنا بشىء عما سألناه عنه، فنزلت هذه الآية وهذه السورة (الكهف) فيها خبر ما سألوا عنه.

الزمن؛ فلا نقول: «فعل ماضٍ» أو «فعل سيحدث فى المستقبل» أو «فعل مضارع»؛ لأن تلك الأمور إنما تُقَاسُ بها أفعال البشر، لكن أفعال الله - سبحانه - لا تقاس بنفس المقياس، فسبحانه حين يقرر أمراً فنحن نأخذه على أساس أنه قد وقع بالفعل.

والحق - سبحانه - يقول:

﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ (١) فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ(٢) ..(١)﴾ [النحل]

وقوله سبحانه : ﴿ أَتَىٰ ﴾ بمعنى : تَقَرَّر الأمر ولم يُنفَّذ - بعد - فلا تتعجَّلوه؛ وهذا هو تحدِّى القيومية القاهرة، ولا توجد قوة قادرة على أن تمنع وقوع أمر شاءه الله - سبحانه وتعالى - فهو يحكم فيما يملك، ولا مُنَازِع له سبحانه.

وقوله الحق : ﴿ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ.. (١١٩) ﴾ [هود]

فسببه أن الإنس والجن هما الثقلان(٣) المكلَّفان .

ويقول الحق - سبحانه - بعد ذلك:

---

(١) أمر الله : عقابه لمن أقام على الشرك وتكذيب رسوله. [قاله القرطبى ٥/٣٧٨٩] وقال ابن كثير فى تفسيره (٢/٥٦١): «يخبر تعالى عن اقتراب الساعة ودنوها معبراً بصيغة الماضى الدال على التحقق والوقوع لا محالة».

(٢) استعجل الأمر: طلبه عاجلاً سريعاً. قال تعالى : ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ .. (١١)﴾ [يونس] . [القاموس القويم: ٢/٩].

(٣) الثقلان: الإنس والجن لأنهما كالحِمْلين الثقيلين على ظهر الأرض. قال تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلانِ (٣١)﴾ [الرحمن]، وهو خبر المقصود منه التهديد والوعيد. [القاموس القويم١/١٠٨].

﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾

وساعة ترى التنوين فى قوله الحق ﴿ وكلا ﴾ فاعلمْ أن المقصود هو قصة كل رسول جاء بها الحق - سبحانه - فى القرآن الكريم.

وحين يتكلم الحق - سبحانه وتعالى - عن فعل قد أحدثه ؛ فلنا أنْ ننظر: هل هذا الفعل مأخوذ من صفة له - سبحانه - أم مأخوذ من اسم موجود ؟ فيحقّ لنا أن نأخذ الاسم ونأخذ الفعل مثل قوله- تعالى: ﴿ خَلَقَكُمْ[٣] .. (٧٠) ﴾ [النحل]

نعلم منه أنه - سبحانه - خالق ، ولكن إنْ جاء فعل ليس له أصل فى أسماء الله الحسنى، فإياك أنْ تشتقَّ من الفعل اسماً لله.

ومثال ذلك قوله - سبحانه : ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ[٤] .. (١٢٠) ﴾ [هود]

والذى يقصُّ هنا هو الله - سبحانه - لكن لا أحد فى إمكانه أن

---

(١) ثَبَّتَهُ : جعله ثابتاً مُتمكِّناً . قال تعالى : ﴿ وَلَوْلا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً (٧٤) ﴾ [الإسراء] أى : جعلناك ثابتاً ودفعنا عنك أسباب الضعف. [القاموس القويم: ١/١٠٥].

(٢) قوله تعالى : ﴿ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ .. (١٢٠) ﴾ [هود] : «أى هذه السورة. قاله ابن عباس ومجاهد وجماعة من السلف، وعن الحسن فى رواية عنه وقتادة: فى هذه الدنيا . والصحيح : فى هذه السورة المشتملة على قصص الأنبياء ، وكيف أنجاهم الله والمؤمنين بهم وأهلك الكافرين ، جاءك فيها قصص حق، ونبأ صدق وموعظة يرتدع بها الكافرون وذكرى يتذكر بها المؤمنون» قاله ابن كثير فى تفسيره (٢/٤٦٥).

(٣) يقول رب العزة سبحانه: ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ .. (٧٠) ﴾ [النحل]

(٤) قَصَّ الكلام أو الأخبار : يقصها قصاً وقصصاً تتبعها ورواها وحكاها ، قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لا تَخَفْ ..(٢٥) ﴾ [القصص]. وقصَّ الأمر قصاً تتبعه ، ومنه قوله تعالى: ﴿ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا .. (٦٤) ﴾ [الكهف] . والقصص مصدر يُطلق على ما يُروى من الأخبار، ومنه قوله تعالى : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ .. (٣) ﴾ [يوسف]. [القاموس القويم بتصرف جـ٢ ص ١٢٠].

يقول: إن الله قصَّاص ، مثلما لا يحق لأحد أن يقول: إن الله ماكر ، رغم أن الله - سبحانه - قد قال: ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (١) (٣٠) ﴾ [الأنفال]

وكذلك لا يصح لأحد أن يقول : الله المخادع ، رغم أن الحق - سبحانه - قد قال: ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ (٢) .. (١٤٢) ﴾ [النساء]

وهكذا نتعلم أدب الحديث عن الله المتصف بكل صفات الكمال والجلال ؛ وأن نكتفى بقول: إن مثل هذا الفعل جاء للمشاكلة(٣) ما دام ليس له وجود ضمن أسماء الله الحسنى.

---

(١) مَكَرَ يمكر مكراً: دَبَّر الشر لغيره فى خفية واحتيال. قال تعالى : ﴿ إِنَّ هَـٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ .. (١٢٣) ﴾ [الأعراف]، وقال تعالى : ﴿ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا .. (٢١) ﴾ [يونس] أى: تدبير سيِّىء بقصد صرفها عن وجهها وصدِّ الناس عنها. وإذا أسند المكر إلى الله سبحانه فمعناه إبطال مكر الماكرين وإيقاع العقوبة بهم من حيث لا يشعرون، كقوله تعالى: ﴿ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٥٤) ﴾ [آل عمران] ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (٥٠) ﴾ [النمل]. [القاموس القويم: ٢/ ٢٣١ ، ٢٣٢].

(٢) خدعه يخدعه خدعاً وخديعة: أظهر له خلاف ما يُخْفيه ليوقعه فى مكروه من حيث لا يعلم. قال تعالى: ﴿ وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ .. (٦٢) ﴾ [الأنفال] وخَادَعَه: خدعه أو حاول ذلك. قال تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ .. (١٤٢) ﴾ [النساء] أى : يُظهرون الإيمان نفاقاً ليخدعوا الله ورسوله والمؤمنين، والله مبطلٌ خداعهم، وكاشف أمرهم، ومعاقبهم على خداعهم. [القاموس القويم: ١/ ١٨٨].

(٣) «المشاكلة: ذكر الشىء بلفظ غيره، لوقوعه فى صحبته تحقيقاً أو تقديراً . فالأول : كقوله تعالى : ﴿ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ .. (١١٦) ﴾ [المائدة] ، وقوله : ﴿ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ .. (٥٤) ﴾ [آل عمران]، فإن إطلاق النفس والمكر فى جانب البارىء تعالى إنما هو لمشاكلة ما معه. ومثال التقديرى قوله تعالى : ﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ .. (١٣٨) ﴾ [البقرة] أى : تطهير الله ؛ لأن الإيمان يطهر النفوس، فعبر عن الإيمان بـ « صبغة الله » للمشاكلة بهذه القرينة» الإتقان للسيوطى (٣/ ٢٨٢).

وهنا يقول الحق - سبحانه :

﴿ وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ .. (١٢٠) ﴾ [هود]

و « أنباء » جمع «نبأ» ، وهو الخبر العظيم الذى له أهمية ، والذى يختلف به الحال عند العلم به، وأخبار الرسل - عليهم السلام - تتناثر لقَطات مختلفة عَبْرَ سور القرآن الكريم ، موضحةً ما جاء به كل رسول معًالجاً الداء الذى عانى منه قومه ، وكذلك ما عاناه كل رسول من عَنَت القوم المبعوث لهم ، وجاء ذكر تلك الأنباء فى القرآن لتثبيت فؤاد الرسول ﷺ ؛ لأن الرسول سيصادف فى الدعوة المتاعب والصعاب.

وقد ذكر القرآن بعضاً من تلك المواقف، يقول الحق - سبحانه:

﴿ وَزُلْزِلُوا[1] حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ[2] وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ .. (٢١٤) ﴾ [البقرة]

ويقول الحق - سبحانه - مصوِّراً حال المؤمنين[3] :

---

(١) زلزل الشىء: حرَّكه حركة عنيفة مكررة. قال تعالى: ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا (١) ﴾ [الزلزلة] أى: أصابها الزلزال عند قيام الساعة. وقوله تعالى: ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١) ﴾ [الحج]. وقوله تعالى : ﴿ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً (١١) ﴾ [الأحزاب] أى: أُزعجوا وخافوا وقلقوا واضطربوا اضطراباً شديداً - على التشبيه بالشىء المادى. [القاموس القويم: ١/٢٨٨].

(٢) قال القرطبى فى تفسيره (١/٩٤٩): «الرسول هنا شَعْياً فى قول مقاتل ، وهو اليسع. وقال الكلبى: هذا فى كل رسول بُعث إلى أمته وأجهد فى ذلك حتى قال: متى نصر الله؟ وروى عن الضحاك قال: يعنى محمداً ﷺ وعليه يدل نزول الآية. والله أعلم».

(٣) وذلك فى غزوة الأحزاب، فى شوال سنة خمس من الهجرة على الصحيح المشهور. وفيها تحالفت قريش ومن تابعها مع يهود بنى النضير وبنى قريظة، فكان مجموعهم عشرة آلاف، أما المسلمون فكانوا ثلاثة آلاف، وظل المسلمون مُحاصرين داخل المدينة قريباً من شهر. [باختصار من تفسير ابن كثير (٣/٤٧٠)].

﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ(١) الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ(٢) وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا(٣) (١٠)﴾ [الأحزاب]

ومثل هذه المواقف تقتضى تثبيت الفؤاد ؛ بمعنى تسكينه على منطق اليقين الإيمانى بربٍّ أرسله رسولاً ليبلِّغ منهجاً ، وما كان الله سبحانه ليرسل رسولاً ليبلِّغ منهجاً ثم يُسلمه لأعدائه.

فإذا ما ذكر له أخبار الرسل والصعاب التى تعرضوا لها تهون عليه المصاعب التى يتعرض لها ، ويثبت فؤاده.

و«الفؤاد» هو ما نقول عنه: «القلب»، وهو وعاء العقائد، بمعنى أن المخ يستقبل من الحواس - وسائل الإدراكات من عين ترى، ومن أذن تسمع، ومن أنف يشُم، ومن فَمٍ يستطعم، ومن كفٍّ تلمس -

---

(١) زاغ يزيغ زيغاً وزيغاناً : مال عن القصد . وزاغ البصر : اضطرب ولم يحقق ما يرى ، أو انحرف عن القصد فلم ير شيئاً. قال تعالى : ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ (١٧)﴾ [النجم] أى: ما انحرف بصر الرسول ﷺ عن رؤية الملك ، ولا طغى فرأى أكثر مما أمامه ، بل رأى الملك رؤية صادقة . وقوله تعالى فى وصف فزع بعض الناس فى المدينة حين أحاطت بهم الأعداء فى غزوة الأحزاب : ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ .. (١٠)﴾ [الأحزاب] أى : اضطربت لشدة الفزع. [القاموس القويم: ١/ ٢٩٤] بتصرف.

(٢) الحنجرة - فى اللغة - : الحلقوم والحلق . وهى علمياً تسمى القصبة الهوائية ، ويمر منها النفس زفيراً وشهيقاً . قال تعالى : ﴿ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ ..(١٠)﴾ [الأحزاب] كناية عن شدة الكرب والضيق.

(٣) الظنون : ما يحصل فى النفس عن أمارة فهو شك راجح، وفعله من أفعال الرجحان - من باب نصر - والظن : مصدر . والظن : اسم لهذا الخاطر الذى يحصل فى النفس . قال تعالى : ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا (٢٨)﴾ [النجم] وجمعه : ظنون، وقرىء : ﴿وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (١٠)﴾ [الأحزاب] الظنونا - بألف فى الوصل، وفى الوقف - وبغير ألف قراءةً . [القاموس القويم : ١/ ٤١٧].

فتتولد المعلومات التى يصنفها المخ ، ويرتبها كقضايا عقلية.

ويناقش المخ تلك القضايا العقلية إلى أن تصح القضية العقلية صحة لا يأتى بعدها ما ينقضها ، فيسقطها المخ فى الفؤاد لتصير عقيدة ؛ لا تطفو بعدها إلى العقل لتُناقش من جديد ؛ ولذلك يسمونها «عقيدة» – من العقدة – فلا تتذبذب بعد ذلك.

إذن : فالفؤاد هو الوعاء القابل للقضايا التى انتهى المخ من تمحيصها[1] تمحيصاً وصل فيه إلى الحق ، وأسقطها على القلب ليدير حركة الحياة على مُقْتضاها.

وعلى سبيل المثال : نجد الشاب الذى يفكر فى مستقبله ، فيدرس مزايا وعيوب المهن المختلفة ليختار منها التخصص الذى يتناسب مع مواهبه ؛ وأحلامه ، ثم يدرس المحسَّات التى استقبلها بحواسه ليُمحِّصها بعقله ؛ وما ينتهى إليه عقله يسقطه فى قلبه ؛ ليصير عقيدة يدير بها حركة حياته.

مثال هذا : أنه قد استقر فى وجدان الناس وعقولهم أن النار مُحْرقة، ولكن من أين جاء هذا اليقين فى أن النار محرقة ؟ نقول : جاء من أمر حسى بأن شاهد الناس أن مَنْ مسَّته النار أحرقته.

لابد – إذن – أن يكون القلب ثابتاً ؛ غير مذبذب.

---

(١) مَحَصَ الشىءَ ومحَّصه : خلَّصه من عيوبه . يقال : محص المعدن بالنار : خلَّصه مما يشوبه . ومحص السيف : جلاه . ومحَّص الله التائب من الذنوب : طهَّره منها . ومحَّص فلاناً : ابتلاه واختبره . [المعجم الوسيط].

ولذلك يقول الحق - سبحانه :

﴿ وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ .. (١٢٠) ﴾ [هود]

لأن الفؤاد هو الوعاء الذى من مهمته أن يكون مستعداً لاستقبال كلمة الحق؛ وليقبل تنبيه الذكرى ، وجلال الموعظة ، وكمال الوارد من الحق - سبحانه - وما يأتى من الحق - سبحانه - هو الحق أيضاً ، والحق هو الشىء الثابت الذى لا يطرأ عليه تغيير.

وحق الحق ينبوع العقيدة الذى ستصدر عنه طاعة التكليف ، ولابد أن يكون الإنسان على ثقة من حكمة المكلِّف قبل أن يُقبِلَ على التكليف ؛ لذلك لزم أن يأتى الدليل على وجود الحق - سبحانه - وهو قمة الوجود الأعلى - قبل أن تأتى الموعظة[1]، ويكون الإيمان بالوجود الأعلى الذى لا يتغير ولا تطرأ عليه الأغيار هو السابق لمجىء تلك الموعظة.

لأن الموعظة قد تتطلب من الإنسان شيئاً يكره أن يلتزم به ، وهى هنا صادرة من الحق - سبحانه - الذى خلق ، ولا يمكن أن يغش أو يخدع مخلوقاته ، ويحملها لك رسول منه - سبحانه.

وقد تكره الموعظة إن صدرت عن إنسان مثلك ؛ لأنه لن يَعظك إلا بكمال يتميز به ليعدد نقصاً فيك ، وإن لم يكن الواعظ يتمتع بالكمال الذى يعظ به ؛ فالموعوظ سيردُّ على الواعظ قائلاً : فَلْتعظْ نفسك أولاً.

---

(١) الموعظة : ما يُوعظ به من قول أو فعل ، قال تعالى : ﴿ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (٦٦) ﴾ [البقرة] وقوله تعالى : ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ .. (١٢٥) ﴾ [النحل] . ووعظه يعظه وعظاً وعظة : نصحه بالطاعة وأرشده إلى فعل الخير [القاموس القويم بتصرف ٢/٣٤٥].

ولذلك نجد قول الحق - سبحانه:

﴿كَبُرَ مَقْتًا[1] عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾﴾ [الصف]

لأن الواعظ الذى يَعِظُ بما لا يطبقه على نفسه يعطى الحجة للموعوظ ليرفض الموعظة ؛ وليقول لنفسه : « لو كان فى هذا الأمر خير لطبَّقه على نفسه ».

وهكذا بيَّنت الآية الكريمة موقف الرسول ﷺ كمُثَبِّتٍ ، وأيضاً موقف المؤمنين برسالته كمذكَّرين من الرسول بأنهم سيتعرضون للمتاعب؛ متاعب مشقة التكليف التى سيعانى منها مَنْ لايأخذ التكليف بعمق الفهم.

فقد يرى بعض المكلَّفين - مثلاً - أن الأمر بغَضِّ الطَّرْف[2]

---

(١) مَقَتَهُ يمقته مقتاً : أبغضه بغضاً شديداً؛ لأمر قبيح فعله.

ومَقْتُ الله : غضبه وانتقامه وعذابه، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ..﴿١٠﴾﴾ [غافر] أى : أن غضب الله عليكم أكبر من بغض بعضكم بعضاً، وانتقام بعضكم من بعض. وقوله تعالى: ﴿ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلاً ﴿٢٢﴾﴾ [النساء] أى: أن زواج من سبق أن تزوجها الأب يعتبر فعلة فاحشة شديدة القبح، وتكون سبباً فى مقت الناس وبغضهم الشديد لمرتكبها، وسبباً فى مقت الله وغضبه وانتقامه من فاعلها؛ لأنها عقوق بالآباء وخَلْط للأنساب.[القاموس القويم: ٢/٢٣١].

(٢) الطرف : جانب العين، ويطلق على العين وعلى البصر. قال تعالى : ﴿ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ..﴿٤٥﴾﴾ [الشورى] أى: من جانب العين فى خفاء. وقوله تعالى : ﴿وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾﴾ [الصافات] أى: غاضات البصر من العفة، وقوله تعالى: ﴿ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ..﴿٤٠﴾﴾ [النمل] أى: بصرك، أى مقدار غمضة العين وفتحها. [القاموس القويم، مادة: طرف].

حرمانٌ من شهوة طارئة ولا يَسْبر غورَ[1] الفهم بأن فى غَضِّ الطَّرْف أمراً لكافة المؤمنين أن يغضوا الطرف عن محارمه ، وقد يرى فى الزكاة أنها أَخْذٌ من ماله ، ولا يَسْبر غور الفهم بأن فى الزكاة تأميناً له إنْ مرَّت عليه الأغيار وصار فقيراً ؛ عندئذ سيقدم له المجتمع الإيمانى التأمين الاجتماعى الذى يحميه وعياله من مَغبَّة السؤال.

وعمق الفهم أمر مطلوب؛ لأن الحق - سبحانه - هو القائل:

﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ[2] الْقُرْآنَ .. (٨٢)﴾ [النساء]

لأنك حين تتدبر المعانى ستعلم أن التكليف هو تشريف لك ؛ وستقول لنفسك : « ما كلفنى الله إلا لخير نفسى ؛ وإن ظهر أنه لخير الناس » .

---

(١) سَبَرَهُ سَبْراً : حَزَرَهُ ، أو خَبَرهُ . يقال: سَبَرَ الجرح: قاس غَوْرَهُ بالمسبار. وسَبَرَ فلاناً: خَبَره ليعرف ما عنده. والغَوْر: كل منخفض من الأرض، والغور من كل شىء: قعره وعمقه. يقال: سَبَرَ غوره: تبيَّن حقيقته وسرَّه. ويقال: فلان بعيد الغوْر: داهية. وماء غَوْر: غائر. وفى التنزيل العزيز: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ (٣٠)﴾ [الملك]. [المعجم الوسيط: مادة (سبر)، (غور)].

(٢) دَبَّر الأمر: نظر فى عواقبه وأدباره ليقع على ما يرى فيه الخير له، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ ..(٣)﴾ [يونس] أى: يقضيه ويقدِّره وينفذه على حسب حكمته وإرادته. وقوله تعالى : ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا (٥)﴾ [النازعات] هم الملائكة يدبرون أمور الخلق بإذن الله وبمقتضى حكمته وإرادته.

وتدبَّر : تأمل فى أدبار الأمور وعواقبها، أو تأمل ليعرف حقائق الأمور. قال تعالى : ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (٢٤)﴾ [محمد] أى: هل عجزوا وعَمُوا فلا يتأملون معانى القرآن، ويبصرون ما فيه من حكم بالغة فيؤمنون به - وبين همزة الاستفهام وفاء العطف فعل محذوف دائماً فسَّرناه هنا بقولنا: أعَجَزوا فلا يتدبرون - وقوله تعالى : ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ .. (٦٨)﴾ [المؤمنون] أى : أعجزوا فلم يدبروا، والأصل: يتدبروا، قُلبت التاء دالاً، وأدغمت فى الدال. [القاموس القويم: ١/٢٢١].

ومن المتاعب أيضاً ما يلقاه المؤمنون من عنت المستفيدين من الفساد ؛ هؤلاء الذين يعيشون على الانتفاع من المفاسد ، ويواجهون كل من يريد أن يقضى على الفساد ؛ لأن الفساد فى الأرض لا يعيش إلا إذا وُجِد منتفعٌ بهذا الفساد ؛ والمنتفع بالفساد يكره ويعلن الخصومة لكلِّ مقاوِمٍ له.

إذن : فموقف خصوم النبى ﷺ موقف طبيعى لصالحهم، ولكنهم - لحمقهم - حددوا الصالح بمصالحهم الآنية[1] فى الحياة الدنيا ؛ ولم ينظروا إلى عاقبة ما يؤول إليه أمرهم فى الآخرة نعيماً أو عذاباً[2].

ولو أنهم امتلكوا البصيرة ؛ لعرفوا أن من مصلحتهم أن يوجد مَنْ يُقوِّمهم حتى لا يقدموا لأنفسهم شراً يوجد لهم فى الآخرة.

ولو أنهم فَطِنوا ؛ لعلموا أن الرسول كما جاء لصالح المستضعفين المستغلين بالفساد ؛ جاء أيضاً لصالحهم ، ولو أنهم كانوا على شىء من التعقل ؛ لكانوا من أنصار رسول الله ﷺ ؛ ولكان

---

(١) المصالح الآنية : العاجلة . نسبة إلى (الآن) وهو الأمر العاجل الحال، وهو ظرف للوقت الحاضر معرف بأل دائماً، ومبنى على الفتح. قال تعالى : ﴿ قَالُوا الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ .. (٧١) ﴾ [البقرة] [القاموس القويم ١/٤٥].

(٢) ولذلك قال عنهم رب العزة : ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ (٧)﴾ [الروم] ثم يلفت الحق نظرهم إلى الكون وما فيه وإلى عاقبة المكذبين فيقول: ﴿أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ (٨) أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٩) ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا السُّوأَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ (١٠)﴾ [الروم]

من الواجب عليهم كلما حدثتهم أنفسهم بالسعى إلى الفساد ؛ وسمعوا من الرسول ﷺ ما ينتظرهم نتيجة لهذا الفساد ؛ أن يتبعوه وأن يشكروه ؛ لأنه خلَّصهم من طاقة الشر الموجودة فيهم.

وهنا يوضح الحق - سبحانه - لرسوله : أنت لست بدعاً من الرسل[1]، وكل رسول تعرَّض للمتاعب مثلما تتعرض أنت لمثلها[2]، وأنت الرسول الخاتم ، ولأن الدين الذى جئتَ به لن يأتى بعده دين آخر ؛ لذلك لابد أن تتركز المتاعب كلها معك ؛ فكُنْ على ثقة تماماً أنك مُصادِفٌ للمتاعب .

ولذلك نثبِّت فؤادك بما نقصُّه عليك من أنباء الرسل ؛ لأن هذا الفؤاد هو الذى سيستقبل الحقائق الإيمانية من قمة «لا إله إلا الله» إلى أن يكون ذكرى تذكّرك والمؤمنين معك.

وهكذا بيَّنتْ الآية موقف الرسول ﷺ كمثبِّت ؛ وموقف المؤمنين كمذكَّرين من الرسول ؛ لأنهم سيتعرضون للمتاعب أيضاً.

ونحن نعرف جميعاً ما قاله رسول الله ﷺ للأنصار حين بايعوه فى العقبة على نصرته ، وقالوا : إنْ نحن وفينا بما عاهدناك عليه ؛

---

(١) يقول رب العزة سبحانه لرسوله ﷺ : ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ..(٩)﴾ [الأحقاف] أى: ما كنت مبتدعاً من تلقاء نفسى ما أدعو إليه، إن أتبع إلا ما يُوحى إلىّ.

(٢) يقول الحق سبحانه مخاطباً نبيه: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٣٣) وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ (٣٤)﴾ [الأنعام]

فماذا يكون لنا ؟ ولم يَقُلْ لهم ﷺ : « ستملكون الدنيا ، وستصبحون سادة الفُرْس والروم » ، بل قال لهم : « لكم الجنة »[(١)].

لأنه ﷺ يعلم أن منهم مَنْ سيموت قبل أن تتحقق تلك الانتصارات ؛ لذلك وعدهم بالقَدْر المشترك الذى يتساوى فيه مَنْ يموت بعد إعلانه للإيمان ، وبين مَنْ سيعيش ليشهد تلك الانتصارات.

وهكذا تبينا كيف تضمَّنت الآية الكريمة تثبيت فؤاد الرسول ﷺ ؛ وكيفية إعداد هذا الفؤاد لاستقبال الحق والموعظة وذكرى المؤمنين معه.

هذا هو الطرف الأول ، فماذا عن الطرف الثانى ؛ الطرف المكذِّب للرسول؟

كان ولابد أن يتكلم الحق - سبحانه - هنا عن المكذِّبين للرسول؛ لأن استدعاء المعانى يجعل النفس قابلة للسماع عن الطرف الآخر.

وما دام الحق - سبحانه - قد تكلم عن تثبيت وعاء الاستقبال،

---

(١) كان ذلك فى بيعة العقبة الثانية وهى الكبرى، وذلك أن القوم لما اجتمعوا لبيعة رسول الله ﷺ قال العباس بن عبادة الأنصارى: يا معشر الخزرج، هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل؟ قالوا: نعم. قال: إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس، فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبة وأشرافكم قتل أسلمتموه فمن الآن، فهو والله إن فعلتم خِزْى الدنيا والآخرة، وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه على نَهْكَة الأموال وقتل الأشراف فخذوه، فهو والله خير الدنيا والآخرة، قالوا: فإنا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف، فمالنا بذلك يارسول الله إن نحن وفينا؟ قال: «الجنة». قالوا: ابسط يدك، فبسط يده فبايعوه. [سيرة النبى لابن هشام ٢/٥٥].

والموعظة ، وتذكير المؤمنين ؛ لحظة أن تخور[1] منهم العزائم ، فلا بُدَّ - إذن - أن يتكلم - سبحانه - عن القسم الآخر ؛ وهو القسم المكذِّب ، فيوضح - سبحانه - لرسوله أن له أن يتحداهم ولا يتهيَّب.

يقول الحق - سبحانه:

﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ[2] إِنَّا عَامِلُونَ ﴿١٢١﴾﴾

أى : اصنعوا ما شئتم ، ومعنى ذلك أنه ﷺ مستندٌ إلى رصيد قويّ من الإيمان بإله لا يهوله أن يستعد له الخصم ؛ فهو ﷺ والذين معه لا يواجهون الخصم بذواتهم ؛ ولا بعدَدهم وعُددهم ؛ وإنما يواجهونه بالركن الركين الذى يستندون إليه ، وهو الحق سبحانه وتعالى.

ونحن نرى فى حياتنا اليومية أن أى قائد فى معركة إنما يشعر بالثقة حين يصل إلى علمه أن مدداً سوف يصله من الوطن الذى

---

(١) الخَوَر : الضعف. خار الرجل: ضعف وانكسر. والخوَّار: الضعيف الذى لا بقاء له على الشدة. [لسان العرب ـ مادة : خور].

(٢) المكانة: رفعة الشأن والرزانة والتؤدة. قال تعالى :﴿قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ .. ﴿١٣٥﴾﴾ [الأنعام] أى: برزانة وتؤدة وتبصُّر، وقُرىء: «على مكاناتكم» بالجمع. [القاموس القويم ٢/٢٣٢].

والمكانة: الحالة التى يكون عليها المرء من قدرة أو عجز أو إيمان أو كفر ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ .. ﴿٩٣﴾﴾ [هود] أى: على الحالة التى أنتم عليها، وقوله تعالى: ﴿لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ .. ﴿٦٧﴾﴾ [يس] أى : على الحالة التى هم عليها حين عنادهم وكفرهم. [القاموس القويم: ٢/١٧٩ ، ١٨٠].

يحارب من أجله؛ لأنه سيعزز من قوته، فما بالنا بالمدد الذى يأتى ممن لا ينفد ما عنده[1]؛ وممن لا يُجير عليه أحدٌ ؛ فهو يُجير ولا يُجَار عليه.

ولذلك نلاحظ أن الأنبياء استظلوا بتلك المظلة، فموسى - عليه السلام - حين كاد الفرعون أن يلحق به؛ ورأى قومه أنْ لا نجاة لهم؛ فالبحر أمامهم والعدو وراءهم؛ صرخوا:

﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ[2] .. (٦١) ﴾ [الشعراء]

لكن موسى - عليه السلام - يطمئنهم :

﴿ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢) ﴾ [الشعراء]

فموسى -عليه السلام - يعلم أنه مُستند بقوة الله لا بقوة قومه، وأمدَّه الله - سبحانه - بمعجزة جديدة:

﴿ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ ..(٦٣) ﴾ [الشعراء]

فينفلق البحر ؛ ليفسح بين مياهه طريقاً يابسة ؛ وسار موسى عليه السلام وقومه ، وفكر موسى فى قطع السبيل على عدوه حتى

---

(١) يقول الحق سبحانه : ﴿هُوَ الَّذِى أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (٤)﴾ [الفتح] ، ويقول تعالى فى شأن غزوة حنين : ﴿ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا .. (٢٦)﴾ [التوبة]

(٢) أدركه : لحقه. قال تعالى : ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ ..(٩٠)﴾ [يونس] على المجاز، كأن الغرق عدو مطارد لحق فرعون فأهلكه.

والدرك - بفتح الراء ، وبسكونها - : اسم مصدر بمعنى الإدراك واللحاق. قال تعالى : ﴿لاَّ تَخَافُ دَرَكًا وَلاَ تَخْشَىٰ (٧٧)﴾ [طه] أى : لا تخاف أن يدركك فرعون وجنوده. [القاموس القويم : ١/٢٢٦].

لا يسير فى نفس الطريق المشقوق بأمر الله عبر معجزة ضرب البحر بالعصا، وأراد موسى - عليه السلام - أن يضرب البحر ضربة ثانية ليعود البحر إلى حالة السيولة مرة أخرى، فيقول له الله - سبحانه: ﴿وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا[1] إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ (٢٤)﴾ [الدخان]

أى : اتركه على ما هو عليه ؛ لينخدع فرعون ويسير فى الطريق اليابسة، ثم يعيد الحق - سبحانه - البحر كما كان ، وبذلك أنْجَى الحق - سبحانه - وأهْلَكَ بالشىء الواحد[2]؛ وهذه لا يقدر عليها غير الله - سبحانه وتعالى وحده.

وهكذا يَهَبُ الحق - سبحانه - المؤمنين به القدرة على تحدى الكافرين. والإيمان كله معركة من التحدى ؛ تحدٍّ فى صدق الرسول كمبلِّغ عن الله ، ومعه معجزة تدل على رسالته، وتحدٍّ فى نصرة الرسول ومَنْ معه من قلة مؤمنة ؛ فيغلبون الكثرة الكافرة.

والحق - سبحانه يقول: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩)﴾ [البقرة]

وهكذا يشيع التحدى فى معارك الإيمان.

وقد تميَّز كل رسول بمعجزة يتحدى بها أولاً ؛ ثم ينتهى دورها؛ لينزل له بعدها منهج من السماء ؛ ليبشِّر به قومه، لكن رسول الله ﷺ

---

(١) رها البحر يرهو رهواً : سكن فهو راه. ورَهْوٌ : مصدر يوصف به بلفظه ، قال تعالى : ﴿وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا ..(٢٤)﴾ [الدخان] ساكن الأمواج؛ ليغتروا، فينزلوا فيه ، أو ساكن النفس، فهى حال من المفعول به وهو البحر، أو من الفاعل وهو الضمير المستتر «أنت» وهو موسى عليه السلام. أى: يكون هادئاً مطمئناً إلى النجاة. [القاموس القويم: ١/٢٧٩].

(٢) فالله سبحانه وتعالى أنجى موسى ومَنْ معه ، وأهلك فرعون وجنوده بالشىء الواحد ، وهذا دليل على طلاقة القدرة.

تميَّز بمعجزة لا تنتهى ، وهى عَيْنُ منهجه ؛ لأنه رسول إلى كل الأزمان وإلى كل الأمكنة[١] ؛ فكان لابد من معجزة تصاحب المنهج إلى يوم القيامة.

ولذلك نجد كل مؤمن بالرسالة المحمدية يقول : محمد رسول الله والقرآن معجزته إلى أن تقوم الساعة.

والحق - سبحانه - يقول هنا: ﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ ..(١٢١) ﴾ [هود]

ونحن نعلم أن كل كائن منَّا له مكان ، أى : له حَيِّز وجِرْم[٢] . ويقال : فلان له مكانة فى القوم ، أى : له مركز مرموق ؛ إذا خلا منه لا يستطيع غيره أنْ يشغله ، وهو مكان يدلُّ على الشرف والعظمة والسيادة والوجاهة ونباهة الشأن.

فقول الحق : ﴿ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ ..(١٢١) ﴾ [هود]

أى : اعملوا[٣] على قَدْر طاقتكم من عُدة ومن عَدد، فإن لمحمد ﷺ ربًا سيهديه وينصره، وفى هذا تهديد لهم؛ وليس أمراً لهم؛ لأنهم ككفار لن يمتثلوا لأمر مِنْ عَدوِّهم.

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «فضلت على الأنبياء بست: أعطيت جوامع الكلم، ونصرت بالرعب، وأحلت لى الغنائم، وجعلت لى الأرض طهوراً ومسجداً، وأرسلت إلى الخلق كافة، وختم بى النبيون» أخرجه مسلم فى صحيحه (٥٢٣) كتاب المساجد.

(٢) الجِرْم : الجسد أو الجسم. وهو مُجَسَّم فيأخذ مكاناً وحيزاً فى الوسط الذى هو فيه.

(٣) الأمر هنا للتهديد ، وهو لون من ألوان علوم البلاغة.

ولو أنهم امتثلوا لأمر محمد وربِّ محمد لَمَا كانوا كافرين؛ بل لأصبحوا من الطائعين.

وحين يقول لهم -سبحانه - فى آخر الآية :

﴿ إِنَّا عَامِلُونَ (١٢١) ﴾ [هود]

فمعنى ذلك أن كل ما فى قدراتكم هو محدود لأنكم من الأغيار الأحداث[١]؛ أما فعل الله - تعالى - فهو غير محدود ؛ لأنه - سبحانه- قديمٌ أزلىٌّ لا تحده حدود ، ولن يناقض عمل المُحدَث الحادث عمل القديم الأزلى ، فقوة الحادث المُحدَث موهوبة له من غيره ، أما قوة الحق - سبحانه - فهى ذاتية فيه.

ونحن نعلم أن أىَّ عمل إنما يُقَاس بقوة فاعله ، وخطأ المستقبلين لمنهج الله أنهم إذا جاء عمل ؛ نَسَوا مَنِ الذى عَمِلَ العمل ، ولو كان العمل من فعل البشر لَحقَّ للإنسان أن يتكلم، لكن إذا ما كان العمل من الله - تعالى - فليلزمِ الإنسان حدوده.

ومثال ذلك: هؤلاء الذين جادلوا فى مسألة الإسراء التى قال فيها الحق - تبارك وتعالى: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ[٢] بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ

---

(١) الأحداث : الأشياء الحادثة، أى لم يكن لها وجود ثم وجدت، وتأتى عليها عوامل الفناء والتغيُّر.

(٢) أسرى به : جعله يسرى، أو حمله معه على السَّيْر ليلاً. قال تعالى : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ .. (١) ﴾ [الإسراء] وهذا يُشعر أن الله تعالى كان رفيقاً للرسول ﷺ ومُعيناً له فى إسرائه. وقوله تعالى : ﴿ فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلاً إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ (٢٣) ﴾ [الدخان] أمر الله سبحانه موسى عليه السلام أن يحمل قومه على الإسراء ويكون لهم دليلاً ومعيناً وهادياً. [القاموس القويم: ٣١٢/١] بتصرف.

الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُ[١] .. ﴿١﴾ [الإسراء]

وقالوا : إننا نضرب إليها أكباد الإبل شهراً، فكيف يقول إنه أتاها فى ليلة؟

وكان الرد عليهم: إن محمداً لم يَقُلْ إنه سَرَى من البيت الحرام إلى المسجد الأقصى بقوته هو، بل أُسْرِيَ به، والذى عمل ذلك هو الله - سبحانه - وليس محمداً، فقيسوا هذا العمل بقوة الله تعالى وليس بقوة محمد.

ويقول الحق - سبحانه - بعد ذلك:

﴿وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾[٢]

فى هذه الآية نلمس الوعيد والتهديد ؛ فالكافرون ينتظرون وعد الشيطان لهم ، والمؤمنون ينتظرون وعد الرحمن لهم[٣].

ولذلك سيقول المؤمنون للكافرين يوم القيامة :﴿ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا

---

(١) البركة: زيادة الخير والنماء والسعادة . قال تعالى :﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ .. ﴿٩٦﴾﴾ [الأعراف] . وبارك الله الشىء، وبارك فيه وعليه وحوله . قال تعالى : ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا ..﴿٨﴾﴾ [النمل] ، وقوله تعالى : ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ ..﴿٣٥﴾﴾ [النور] أى : عظيمة الخير، كبيرة النفع. [القاموس القويم: ١/٦٥].

(٢) انتظره : ترقَّبه وتوقَّعه . وقال تعالى : ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [السجدة] أى: ترقَّب ما سيحل بهم، إنهم مترقبون. [القاموس القويم : ٢/٢٧٣].

(٣) يقول الحق سبحانه : ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ .. ﴿٢٢﴾﴾ [إبراهيم]

وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ..(٤٤)﴾ [الأعراف]

وفى انتظار الكفار تهديد لهم ، وفى انتظار المؤمنين تثبيت لقلوبهم، ولو لم تَأْتِ الأحداث المستقبلة كما قالها القرآن لتشكك المؤمنون ، ولكن المؤمنين لم يتشككوا ، وهكذا نتأكد أن القول بالانتظار لم يكن ليصدر إلا مِنْ واثقٍ بأن ما فى هذا القول سوف يتحقق.

وقد جاء الواقع بما يؤيد بعض الأحداث التى جاءت فى القرآن.

ألم ينزل قول الحق - سبحانه :

﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ [1] (٤٥)﴾ [القمر]

وكان وقت نزول هذا القول الحكيم إبان ضعف البداية[2]، حتى قال عمر - رضى الله عنه - [3] : أىُّ جَمْعٍ يهزم ؟ لأن عمر حينئذ كان يلمس ضعف حال المؤمنين، وعدم قدرة بعض المؤمنين على

---

(١) ولّى المحارب دبره : كناية عن فراره . قال تعالى : ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥)﴾ [القمر] أى : ويفرون ، وجمع الدبر : أدبار . قال تعالى : ﴿وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يُنصَرُونَ (١١١)﴾ [آل عمران] أى : يفرون منكم منهزمين. وقوله تعالى : ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥)﴾ [القمر] أى : سيُهزم الجيش الذى جمعوه، أو ستُهزم جماعتهم. [القاموس القويم: ١/١٢٧] بتصرف.

(٢) قال ابن عباس: كان بين نزول هذه الآية وبين بدر سبع سنين . نقله القرطبى فى تفسيره (٩/٦٥٤٦).

(٣) أورده ابن كثير فى تفسيره معزواً إلى ابن أبى حاتم، قال عمر: أى جمع يهزم ؟ أى جمع يُغلب؟ قال عمر: فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ يثب فى الدرع ، وهو يقول : ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥)﴾ [القمر] فعرفت تأويلها يومئذ.

حماية نفسه، ثم تأتى غزوة بدر ؛ ليرى المؤمنون صدق ما تنبأ به رسول الله ﷺ .

ومن العجيب أنه ﷺ خطط على الأرض مواقع مصرع بعض كبار الكافرين[1]، بل وأماكن إصاباتهم، وجاء ذلك قرآناً يُتلى على مر العصور، مثل قوله الحق: ﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ[2] (١٦)﴾ [القلم]

وهكذا شاء الحق - سبحانه - أن يأتى الواقع بما يؤيد صدق الرسول ﷺ ، كما شاء - سبحانه - أن يُنزل على الرسول لقطات من قصص الرسل الذين سبقوه لشد أزْره ، وليثبِّت فؤاده ، ويذكِّر المؤمنين فيزدادوا إيماناً.

ثم يختتم الحق - سبحانه - سورة هود بقوله الكريم :

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ[3] السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٢٣)﴾

---

(١) أخرج مسلم فى صحيحه (٢٨٧٣) عن أنس بن مالك قال: كنا مع عمر بين مكة والمدينة، وأنشأ يحدثنا عن أهل بدر، فقال: إن رسول الله ﷺ كان يُرينا مصارع أهل بدر بالأمس، يقول : «هذا مصرع فلان غداً إن شاء الله» قال عمر: فوالذى بعثه بالحق ما أخطأوا الحدود التى حدَّ رسول الله ﷺ» وكذا أخرجه أحمد فى مسنده (٣/ ٢١٩، ٢٥٨) وفيه أن رسول الله ﷺ كان «يضع يده على الأرض ههنا وههنا، فما أماط أحدهم عن موضع يد رسول الله».

(٢) الخرطوم : الأنف أو مقدم الأنف، والأنف رمز العزة عند العرب. ويقال : شُمُّ الأنوف أى : أعزاء . والوسم على الأنف : إذلال وإهانة. قال تعالى : ﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ (١٦)﴾ [القلم] أى : سنذله نهاية الإذلال . قيل : إن هذه الآيات نزلت فى الوليد بن المغيرة ، وقد ضُرب على أنفه بالسيف يوم بدر ، قبل مقتله ، فصدقت عليه الآية، وأخبرت بما سيحدث له قبل حدوثه، وقد أسلم من أبنائه اثنان، أحدهما سيدنا خالد بن الوليد سيف الله وفاتح العراق وقاهر الروم. [القاموس القويم: ١/ ١١٩].

(٣) غاب الشىء يغيب غيباً : استتر عن العين أو عن علم الإنسان في المعنوى. والغيب : مصدر، ويسمى به ما غاب واستتر . قال تعالى : ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ .. (٣)﴾ [البقرة] والغيب : هو ما غاب عن العيون كالجنة والنار والملائكة والجن، وجمعه: غيوب. قال تعالى:﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١٠٩)﴾ [المائدة] . [القاموس القويم : ٢/ ٦٤].

أى : أن ما جاء من ذكر حكيم هو أمر غائب عنكم، يخبركم به الله ـ سبحانه ـ من خلال ما يُنزله على رسوله ﷺ .

وقد شاء الحق ـ سبحانه ـ أن يحفظ هذا الذِّكْر الحكيم ، ثقةً منه ـ سبحانه ـ أنه إذا أخبرنا فى القرآن بخبر لم يجىء أوانه ، فلْنفهم أنه قد أخبر بما له من أزلية علم بالكون وما يجرى فيه ، وبما له من قدرة مطلقة تتحكم فيما يؤول إليه أمر المُختار من الكائنات – مؤمنهم وكافرهم – فإذا حدثنا القرآن بشىء مما يغيب عن الإنسان ، فلنعلم أنه إخبار بصدق مطلق.

وهناك الكثير مما يغيب عن الإنسان ، وهناك حجاب بين وسائل إدراك الإنسان وبين بعض المُدْركات ، ومرة يكون الحجاب حجابَ زمنٍ ، فإذا أخبر الله ـ تعالى ـ عن أمر لم نشهده من قديم قد أَوْغَلَ[1] فى الزمن، ولم يقرأه النبى ﷺ فى كتاب ولم يسمعه من معلِّم[2] ؛ فهذا كَشْف لحجاب الماضى.

ولذلك فبعض سور القرآن الكريم يسميها العلماء «ماكُنات القرآن»

---

(١) وَغَلَ فى الشىء وغولاً : دخل فيه. ووَغَلَ: ذهب وأبعد، وتوغَّل فى الأرض: ذهب فأبعد فيها. وكذلك أوغل فى العلم. [لسان العرب ـ مادة : وغل].

(٢) وفى ذلك يقول الله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [العنكبوت] قال مجاهد: كان أهل الكتاب يجدون فى كتبهم أن محمداً ﷺ لا يخط ولا يقرأ فنزلت هذه الآية. قال النحاس: دليلاً على نبوته لقريش؛ لأنه لا يقرأ ولا يكتب ولا يخالط أهل الكتاب، ولم يكن بمكة أهل الكتاب، فجاءهم بأخبار الأنبياء والأمم، وزالت الريبة والشك. [انظر: تفسير القرطبى ـ ٧/٥٢٤١].

مثل قوله الحق: ﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ[1] أَيُّهُمْ يَكْفُلُ[2] مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٤٤) ﴾ [آل عمران]

وغير ذلك من الآيات[3] التى تبدأ بقوله الحق : ﴿ مَا كُنتَ ﴾.

وقد كان هناك أناس فى ذلك الماضى يدركون ما صار غيباً عن الرسول ومَنْ معه؛ لكن الحق ـ سبحانه ـ أظهر هذا الغيب للرسول

---

(١) الأقلام : جمع قلم، وهو السهم أو خشبة تشبهه يكتب عليه رمز يدل على مقدار يُعطى لمن يخرج باسمه، وكانوا يستعملونه فى القرعة، ومن استعماله فى القرعة قوله: ﴿ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ .. (٤٤) ﴾ [آل عمران] ، فالأقلام هنا سهام الاقتراع، وقد أجريت القرعة ففاز سهم زكريا فكفل مريم. [القاموس القويم: ٢/١٣٢].

(٢) كفله يكفله كفْلاً وكفالة: آواه ورعاه وربَّاه. وأكفله اليتيم، وكفَّله اليتيم: أسند إليه كفالته ورعايته، كقوله: ﴿ وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ..(٣٧) ﴾ [آل عمران] جعله كافلاً لها. وقال تعالى : ﴿ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ (٢٣) ﴾ [ص] أي: قال: اجعلنى كافلاً لها راعياً شئونها، مالكاً لها. [القاموس القويم: ٢/١٦٧].

(٣) هى تسع آيات فى القرآن الكريم ، منها آية آل عمران التى ذكرها الشيخ هنا، ومنها:

- ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا .. (٤٩) ﴾ [هود]
- ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ (١٠٢) ﴾ [يوسف]
- ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٤٤) ﴾ [القصص]
- ﴿ وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (٤٥) ﴾ [القصص]
- ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٤٦) ﴾ [القصص]
- ﴿ وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلاَّ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ (٨٦) ﴾ [القصص]
- ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ (٤٨) ﴾ [العنكبوت]
- ﴿ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ..(٥٢) ﴾ [الشورى]

الذى لم يجلس إلى مُعلِّم بشهادة أعدائه ، وكذلك كشف الحق ـ سبحانه ـ لرسوله حجاب الزمان وحجاب المكان.

ومَنْ ينكشف له حجاب الزمان وحجابْ المكان؛ إنما ينكشف له حجاب المستقبل أيضاً ، والذى كشف هذا هو الحق ـ سبحانه ـ الذى قدَّر مجىء هذا العالم، وما سوف يحدث فيه إلى أن تقوم الساعة.

وقد طمر[1] الحق ـ سبحانه ـ فى القرآن أموراً لو كُشف عنها فى زمن بَعْثة الرسول ؛ لكان الحديث عنها فوق مستوى العقول والإدراك ؛ وتحدث ـ سبحانه ـ عن وقائع مستقبلية بالنسبة للمعاصرين لرسول الله ﷺ ؛ لم يكن أحد يتوقعها.

وكانت هناك معركة بين أرقى حضارتين معاصرتين للإسلام ؛ حضارة فارس وحضارة الروم ، وكانت الحضارتان تتنازعان السيطرة وتوسيع مناطق النفوذ . وهَزَمَتْ فارس ـ التى لا تؤمن بإله – امبراطورية الروم التى تعتنق المسيحية ، ولا تؤمن برسالة محمد الخاتمة.

لذلك حزن رسول[2] الله ﷺ لهزيمة الذين يؤمنون بإله فى السماء؛ فَيُسرِّى[3] الله ـ سبحانه ـ الأمر على رسوله، ويُنزِل الحق ـ سبحانه ـ

---

(١) طمر الشىء: خَبَأه. والمطمورة حَفيرة تحت الأرض أو مكان تحت الأرض قد هُيِّئ خفياً يُطْمر فيها الطعام والمال، أى: يُخبأ. [لسان العرب ـ مادة : طمر].

(٢) إن فى حزن رسول الله ﷺ على هزيمة الروم ، وهم أهل كتاب لدليلاً على أن الإسلام هو جماع الأديان السماوية ، وأن الأديان جميعاً كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى إليه سائر الجسد بالسهر والحمى ـ الحديث إن إحساس رسول الله ﷺ بالهزيمة وحزنه عليها لدليل على رحابة الإسلام وعالميته مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ .. (١٣) ﴾ [الشورى]

(٣) يسرو : يكشف عن فؤاده الألم ويزيله. وسُرِّى عنه: أى: كُشفَ عنه الخوف، وقد تكرر ذكر هذه اللفظة فى الحديث، وخاصة فى ذكر نزول الوحى عليه، وكلها بمعنى الكشف والإزالة [لسان العرب ـ مادة: سرو].

قرآناً يُتلَى على مَرِّ العصور وكل الأزمان؛ يحمل نبوءة انتصار الروم بعد هزيمتهم من الفرس.

ويقول سبحانه : ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ الرُّومُ ۝٢ فِي أَدْنَى[1] الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِي بِضْعِ سِنِينَ[2] لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝٥﴾ [الروم]

هكذا تأتى النبوءة فى القرآن تحمل التحديد لميعاد نصر الروم فى بضع سنين ؛ و «البِضْع» يقصد به من ثلاث لتسع سنوات.

---

(١) أدنى الأرض: أقربها. قال ابن عطية: إن كانت الوقعة بأذرعات - بين بلاد العرب والشام - فهى من أدنى الأرض بالقياس إلى مكة. وإن كانت الوقعة بالجزيرة - موضع بين العراق والشام - فهى أدنى الأرض بالقياس إلى أرض كسرى.

وإن كانت بالأردن فهى أدنى إلى أرض الروم، [نقله القرطبى فى تفسيره (٧/ ٥٢٦٠)].

(٢) البضع : هو ما بين الثلاث إلى التسع. أخرج الترمذى فى سننه (٣١٩٤) عن نيار بن مُكرَّم الأسلمى قال: لما نزلت : ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ الرُّومُ ۝٢ فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِي بِضْعِ سِنِينَ .. ۝٤﴾ [الروم] فكانت فارس يوم نزلت هذه الآية قاهرين للروم، وكان المسلمون يحبون ظهور الروم عليهم؛ لأنهم وإياهم أهل كتاب، وفى ذلك قول الله تعالى: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝٥﴾ [الروم] فكانت قريش تحب ظهور فارس لأنهم وإياهم ليسوا بأهل كتاب ولا إيمان ببعث، فلما أنزل الله تعالى هذه الآية خرج أبو بكر الصديق رضى الله عنه يصيح فى نواحى مكة : ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ الرُّومُ ۝٢ فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِي بِضْعِ سِنِينَ .. ۝٤﴾ [الروم] قال ناس من قريش لأبى بكر: فذلك بيننا وبينكم زعم صاحبكم أن الروم ستغلب فارساً فى بضع سنين، أفلا نراهنك على ذلك؟ قال: بلى. وذلك قبل تحريم الرهان، فارتهن أبو بكر والمشركون وتواضعوا الرهان، وقالوا لأبى بكر: كم تجعل؟ البضع ثلاث سنين إلى تسع سنين، فسَمِّ بيننا وبينك وسطاً تنتهى إليه. قال: فسموا بينهم ست سنين. قال: فمضت الست سنين قبل أن يظهروا فأخذ المشركون رَهْن أبى بكر، فلما دخلت السنة السابعة ظهرت الروم على فارس فعاب المسلمون على أبى بكر تسمية ست سنين؛ لأن الله تعالى قال: فى بضع سنين، قال: وأسلم عند ذلك ناس كثير. قال الترمذى: هذا حديث صحيح حسن غريب.

وإنْ قيل : تلك نبوءة محمد ، نقول : ما علْم محمد بأخبار المعسكرين ولا بأسرار السياسة الداخلية لهما؟

وقد جاء نصر الروم كما حدد القرآن ، وكان هذا هَتْكاً للحجب ، حجاب الزمان ، وحجاب المكان ، وحجاب الناس ، وأوحى به الحق سبحانه عالم الغيب المطلق لرسوله ﷺ .

والغيب المطلق هو الذى لا يعرفه إلا الحق ـ تبارك وتعالى ـ وليس له مقدمات، ويكشفه الله لمن يرتضيه، مصداقاً لقوله ـ سبحانه: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ .. (٢٧)﴾ [الجن]

وهذا الغيب[1] المطلق يختلف عن الغيب المقيّد الذى له مقدمات ؛ ما إن يأخذ بها الإنسان ويرتبها حتى يصل إلى اكتشاف سرٍّ من أسرار الكون.

والحق ـ سبحانه ـ هو القائل:

﴿ مَن ذَا الَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ .. (٢٥٥)﴾ [البقرة]

وهكذا نعلم أن كل المكتشفات كانت موجودة فى الكون ومطمورة فيه ؛ وجعل الله ـ تعالى ـ لكل مستور منها ميلاداً ، فالبخار واستخدامه فى الحركات كان له ميلاد ؛ والكهرباء كان لها ميلاد ؛ واكتشاف الذرة كقوة ومصدر للطاقة كان له ميلاد، وكل مُكْتَشف ومُخْتَرع له ميلاد ، وتتوالى مواليد الغيب مستقبلاً ، وفى ميلادها

---

(١) الغيب : مصدر ويُسمَّى به ما غاب واستتر ، قال الحق : ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ .. (٣)﴾ [البقرة].
والغيب : هو ما غاب عن العيون كالجنة والنار والملائكة والجن ، وجمعه غيوب. قال تعالى : ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ (١٠٩)﴾ [المائدة]. [القاموس القويم جـ ٢ / ٦٤].

إيمان اليقين بمن أخفاه وأظهره ، وهو الله الحكيم.

وقد يأتى هذا الميلاد بكشف وبحث ؛ وقد يُظهره الله بدون بَحْث ؛ أو يُظهره صدفة؛ مثلما أظهر قانون الطفو النابع من قاعدة «أرشميدس» ومثلما أظهر الحق ـ سبحانه ـ قانون الجاذبية صدفة ؛ أى : أنه سبب من الأسباب جعل عبداً من عباده يبحث فى شىء، فيظهر له شىء لم يكن يبحث عنه ؛ ولذلك نسب الحق ـ سبحانه ـ الإحاطة له ـ سبحانه.

وهنا يقول الحق ـ سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ .. (١٢٣)﴾ [هود]

ولم يقل : « إليه يَرْجع الأمر كله » ، لأنه سبحانه ضبط كل مخلوق على قدر.

ولله المثل الأعلى : كما تضبط أنت المنبه على ميقات معين ، وكما يضبط المقاتل القنبلة لتنفجر فى توقيت معين ، والكون كله مُرتَّب على هذا الترتيب.

والله ـ سبحانه ـ القائل :

﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٨٢)﴾ [يس]

فكل شىء إنما يرجع إلى الله فى التوقيت الذى شاءه الله.

أو : أن الأمر هو كل ما يتعلق بكائن حى ؛ لأن الحق ـ سبحانه ـ قد خلق فى الكون أشياء وترك ملكيتها له ـ سبحانه ـ والحق ـ سبحانه ـ لا ينتفع بها ، أما الإنسان فينتفع بها ، وإن كان لا يقربها ولا يملكها، مثل: الشمس التى ترسل أشعتها، ويستفيد الإنسان بضوئها[1] وحرارتها ، وهى لا تدخل فى ملكية الإنسان ؛ لأنها من

---

(١) وصف الله تعالى الشمس فى قرآنه، فقال: ﴿هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً .. (٥)﴾ [يونس]، وقال عنها: ﴿.. وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا (١٦)﴾ [نوح] والسراج: المصباح يعطى ضوءًا ويبعث حرارة.

أساسيات الحياة ؛ لذلك لم يجعل للإنسان الذى خَصَّه الله بخاصية الاختيار حق ملكيتها أو الاقتراب منها ؛ حتى لا يعبث بها.

وكذلك كل أساسيات الحياة جعلها الحق ـ سبحانه ـ فى سلطته وحده ، ولم يَأْمَنْ أحداً من خلقه عليها ، مثل الأرض بعناصرها ، وكذلك الماء والهواء حتى لا يعبث أحد بأنفاس الهواء لأحد آخر.

شاء الحق سبحانه أن يجعل الأساسيات فى يده دون أن يُملِّكها لأحد ؛ رحمةً منه بنا ، ذلك أنه ـ سبحانه ـ عَلِمَ أن الإنسان بما تعتريه من أغيار قد يسىء استخدام تلك الأساسيات.

وسَخَّر الله هذه الأساسيات لخدمة كل المخلوقات[1]، وسخَّر بعض المخلوقات ليسُوسها الإنسان ، وبعض المخلوقات الآخر لم يستطع الإنسان تسخيره ، وحتى قوة الإنسان نفسه؛ شاء الحق ـ سبحانه ـ أن يجعلها أغياراً ؛ فالقوى يسير إلى الضَّعْف[2] ؛ والفقير قد يصبح غنياً.

---

(١) يقول تعالى : ﴿اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِى الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٣﴾﴾ [إبراهيم] وقد جمعت هاتان الآيتان أساسيات الكون التى تحدث عنها فضيلة الشيخ الشعراوى: السماوات ـ الأرض ـ الماء ـ الثمرات ـ الفلك ـ البحر ـ الأنهار ـ الشمس ـ القمر ـ الليل ـ النهار.

(٢) وفى ذلك يقول الحق سبحانه: ﴿اللَّهُ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾﴾ [الروم].

وهكذا يَثْبت لنا أن كل ما نملك موهوب[١] لنا من الله ـ تعالى ـ وليس هناك ما هو ذاتىٌّ فينا ، وما نملكه اليوم لا يخرج عن الملكية الموقوتة ، فإذا جاء يوم القيامة؛ رجع كل ما نملك لله ـ سبحانه وتعالى.

ولذلك يقول الحق ـ سبحانه :

﴿ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦) ﴾ [غافر]

ولذلك أيضاً تشهد الجوارح على الإنسان؛ لأنها تخرج عن التسخير الذى كانت عليه فى الدنيا[٢].

وإذا كان الحق ـ سبحانه ـ يقول هنا:

﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. (١٢٣) ﴾ [هود]

فهو ـ سبحانه ـ يقول فى آية أخرى: ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ[٣] الثَّرَىٰ (٦) ﴾ [طه]

وكأن الحق ـ سبحانه ـ ينبه البشر منذ نزول القرآن إلى أهمية ما تحت الثرى من كنوز يمتنُّ الله ـ تعالى ـ بها على عباده أنه يملكها.

---

(١) يقول الله تعالى : ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (٧١) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (٧٢) وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلا يَشْكُرُونَ (٧٣) ﴾ [يس] .

(٢) وذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٩) حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٠) وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢١) وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلا أَبْصَارُكُمْ وَلا جُلُودُكُمْ وَلَـٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ (٢٢) ﴾ [فصلت] .

(٣) الثرى : التراب الندىّ أو التراب مطلقاً، قال تعالى : ﴿ وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ (٦) ﴾ [طه] أى: ما تحت جميع طبقات الأرض. [القاموس القويم ـ ١/١٠٧].

ونحن نعيش الآن باستخراج المكنوز الذى تحت الثرى.

وحين يقول الحق - سبحانه هنا - فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها - : ﴿ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ .. (١٢٣) ﴾ [هود]

ففى ذلك تنبيه لكل إنسان ، ليعمل مُسْتهدفاً النجاة حين لا يكون لنفسه على نفسه سبيل يوم القيامة.

وليعلم كل إنسان أن كل ما يستمتع به هو من فيوضات الحق الأعلى الذى أعطى الإنسان قدرة من باطن قوته - سبحانه - وأعطاه غِنًى من باطن غِنَاه - سبحانه - وأعطاه حكمة من باطن حكمته - سبحانه - وأعطاه قبضاً[1] وبسطاً من باطن قدرته - سبحانه - وكذلك أعطى لعبيده من كل صفة بعضاً من فَيْضها ، ثم تظل الفيوضات للحق - سبحانه وتعالى.

وحين يشاء فهو يسلب كل الفيوضات ويعود الأمر إليه ، لأن الأمر كله له سبحانه.

فإنْ حُدِّثتَ فى القرآن بأمر تغيب عنك مقدماتُه، فاعلمْ أن الذى أنزل هذا الكتاب لا يعزب[2] عن علمه مثقال ذرة فى السماوات ولا فى الأرض.

---

(١) يستعمل القبض كناية عن ضيق العيش، والبسط كناية عن سعته . كقوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٤٥) ﴾ [البقرة] أى: يضيق الرزق ويوسّعه على من يشاء. [القاموس القويم : ٢/٩٦] بتصرف. وبسط اليد: يُكنى به عن الكرم والسخاء أو عن الإسراف وكثرة إنفاق المال، ويقول تعالى عن نفسه: ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ .. (٦٤) ﴾ [المائدة] كناية عن الكرم والسخاء [القاموس القويم ١/٦٦].

(٢) عزب الأمر يعزب: بَعُد وغاب وصَعُب مطلبه، قال تعالى : ﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٦١) ﴾ [يونس] ، أى: لا يغيب ولا يبعد عنه أى شىء، فهو يعلم الصغير والكبير من الأمور والأشياء. [القاموس القويم: ٢/١٨].

ولذلك كان الرسول ﷺ على ثقة أن الحق ـ سبحانه ـ حين أمره أن يتوعد أعداء الدين فهو يُطمئنه أن المرجع فى كل الأمور إليه ـ سبحانه.

واطمأن الرسول ﷺ والذين معه أن أعداء الدين إنْ لم يُجازَوْا فى الدنيا، فغداً ترجع الأمور كلها إلى الله ، وإن كان الحق قد ملَّكهم أشياء؛ فسيسلُبهم هذه الملكية فى الآخرة ، وإنْ كان قد أعطاهم الخِيَار[1] فى الدنيا ؛ خِيَار أنْ يؤمنوا ويطيعوا ، أو أنْ يكفروا ويعصوا[2] ؛ فهذا الاختيار سيزول عنهم فى الآخرة ، وكل مالك لمُلْك يصير مُلْكه بعده إلى الله.

ومادام الأمرُ كذلك فلنعبد الله وحده ـ سبحانه ـ لأنه صاحبُ الأمر فيما مضى ؛ وله الأمر الآن ؛ وله الأمر فيما يأتى.

وهو ـ سبحانه ـ الذى شاء، فجعل للإنسان ثلاثةَ أزمان: زمان سَبَقَ وجود آدم ؛ وزمان من بعد آدم إلى وجود أىٍّ منا ؛ ثم زمان مستقبل إلى ما لا نهاية ، وبذلك يكون لكل منا زمان ماضٍ ؛ وزمان حاضر وزمان مستقبل ، وكل منا يدور فى فلك الأحداث[3].

---

(١) الخيار : اسم من الاختيار. وخيَّرته بين الشيئين أى : فوَّضْتُ إليه الخيار، وتخيَّر الشىء: اختاره. والاختيار: الاصطفاء وكذلك التخيُّر. [لسان العرب ـ مادة : خير] بتصرف.

(٢) وقد جاء هذا فى آيات كثيرة، منها:
- ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ.. (٢٩)﴾ [الكهف]
- ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا (٣)﴾ [الإنسان]
ومبدأ الإسلام العام أنه: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ .. (٢٥٦)﴾ [البقرة]

(٣) الحدث من أحداث الدهر: النازلة. وحَدَثان الدهر وحوادثه؛ نُوَبُه ومصائبه. [اللسان ـ مادة : حدث].

ومن المنطقى بعد أن تستمتع بوجودك فى الحياة ؛ وتنضج عقلياً أن تتساءل عن ماضيك ، وتاريخ الجنس البشرى.

وأنت – فى هذه الحالة – تكون رَهْناً بثقة المحدِّث : هل يقول الصدق أم يقول الكذب ؟ خُصوصاً إذا كان الحديث عن تاريخ ما قبل آدم ، ولابد أنْ تقول لنفسك : لا يمكن أن يُحدِّثنى عن ذلك إلا مَنْ خلقنى[1].

وساعة يُبلِّغُكَ رسول الله ﷺ عن بداية الخلق قائلاً : «كان الله ، ولم يكُنْ شىء غيره»[2].

ومعنى ذلك أن الصادق الوحيد الذى يمكن أن نقبل منه كلاماً عمَّا فاتَ قبل آدم هو الله ـ سبحانه وتعالى.

وإنْ سألتَ : لماذا وُجِدتُ فى زمنى هذا ، ولم أوجد فى زمن آخر؟ هنا ستقول لنفسك إنْ كنت مؤمناً : « إن مشيئة وإرادة مَنْ أوجدنى هى التى رجَّحتْ وجودى فى هذا الزمن عن أى زمن آخر ».

ولابد أن تسأل نفسك : وما المطلوب منى ؟

---

(١) وفى هذا يقول الحق سبحانه: ﴿مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ .. ﴿٥١﴾﴾ [الكهف] ، وقال تعالى عن خلق الملائكة: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَـٰنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الزخرف]

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٤/٤٣١)، والبخارى فى صحيحه (٣١٩١) من حديث عمران بن حصين، وتمامه: «كان الله ولم يكن شىء غيره، وكان عرشه على الماء، وكتب فى الذكر كل شىء، وخلق السماوات والأرض».

وستجد أن المطلوب منك هو حركة الحياة ؛ لأن تلك الحركة هى الفاصل بين الحياة والموت ، والحق يقول: ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ[1] فِيهَا .. (٦١) ﴾ [هود]

فقد أعطاك الحق ـ سبحانه ـ العقل لتفكر ، وأعطاك الطاقة لتفعل، وسخَّر لك الكون بالمطمور فيه من الرزق ؛ لتستخرجه وتتعيش منه.

وهكذا يتضح لك أن كل شىء يحتاج منك أن تتحرك ، وأنت فى حركتك تحتاج لطاقة تأخذها من الأعلى منك وتعطى للأدنى منك ؛ لذلك أنت تأخذ طاقة من الأعلى منك ، وتُعطى للأدنى منك.

وأنت تعلم أن قمة المطلوب منك أن تُصلى بين يدى الله خمس مرات كل يوم؛ لتشحن طاقتك وتخرج للحياة بعد أن تُجدِّد ولاءك لمن خلقك وخلق الأكوان كلها ، وإنْ أحسنتَ الوقوف بين يدى الله سيأتى مستقبلك مبنياً على هذا الإحسان.

والحق ـ سبحانه ـ يعطينا مثلاً لهاتين الحركتين ، فيقول:

﴿ يَـأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ .. (٩) ﴾ [الجمعة]

هذه حركة يأخذ فيها الإنسان طاقة من الأعلى، فالسعى إلى ذكر

---

(١) استعمره فى المكان : جعله يعمُره. قال ابن منظور فى [اللسان ـ مادة : عمر]: «استعمركم فيها، أى: أذن لكم فى عمارتها واستخراج قومكم منها، وجعلكم عُمَّارها».

الله وترك البيع من أجل ذلك يعطى الإنسان طاقة إيمانية ، يظهر أثرها فى الحركة الثانية من حركات الإنسان.

ولذلك يقول الحق ـ سبحانه ـ بعد هذا:

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا[1] فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠) ﴾ [الجمعة]

ولذلك يقول الحق ـ سبحانه ـ فى هذه الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها:

﴿ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٢٣) ﴾ [هود]

أى : أطِع الله فى أمره ؛ لأنه ـ سبحانه ـ الأعلى منك ، بأن تؤدى المطلوب العبادى من : صلاة ، وزكاة ؛ وصيام ، وحج إنِ استطعتَ لذلك سبيلاً ، لتأخذ من المدد الأعلى ما يعينك فى حركتك الثانية التى تتحركها فى الكون.

ومن العجيب أن حركتك فى الكون الأدنى تُعينك على حركتك لاستمداد الطاقة من مُكوِّن الكون ـ سبحانه.

فأنت حين تصلى تحتاج لِسَتْر عورتك بثوب ، وحتى تأتى بالثوب لا بد لك من أن تعتمد على حركة الفلاح فى الزراعة ، وحركة

---

(١) انتشر الناس: تفرّقوا وتصرّفوا فى معايشهم. قال الله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ (٢٠) ﴾ [الروم] أى : تتصرفون فى معايشكم وتسعَوْن فى الأرض، وقال : ﴿ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا .. (٥٣) ﴾ [الأحزاب] انصرفوا كل إلى حال سبيله. [القاموس القويم: ٢/٢٦٦].

العامل فى النَسْج ، وحركة التاجر فى البيع ، وحركتك فى عملك الذى يتيح لك أجراً تشترى منه الثوب.

وبذلك تكون قد أخذتَ كل علوم الحياة ؛ لكى تذهب للصلاة لتأخذ المدد من المدد الأعلى.

وهكذا تجد أنك فى حركة دائرة ؛ تأخذ المدد من الأعلى لتعطى الكون الأدنى ، وتأخذ من الأدنى ما يتيح لك الوقوف بين يدى صاحب المدد الأعلى.

وبهذا يثبت لك أن الحركة فى الحياة الحاضرة لكل إنسان بالنسبة لعمره فى الحياة، هى استقبال[1] من المدد الأعلى ، وانفعال مع المدد الأدنى ، وكل منهما يعين على الآخر ؛ لذلك فعليك أن تعبد الله بأن تنظِّم حركة حياتك على ضوء منهجه ـ سبحانه.

واعلم أنه ستصادفك المصاعب فإن صادفتك فتوكل على الله ، وتلك فائدة من فوائد استمرار ولائك لله الذى تأخذ منه المدد.

ولذلك «كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر قام إلى الصلاة»[2].

---

(١) فعن طريق عبادتك يكون العون من المدد الأعلى يقول الحق: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ﴾ [الفاتحة] فعلينا العبادة الخالصة لنفوز بعون المدد الأعلى، وقد كان دعاء إبراهيم عليه السلام عندما أودع هاجر وإسماعيل عند البيت الحرام : قال فى دعائه: ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ .. ۝٣٧ ﴾ [إبراهيم] « من مفهوم مأثورات الإمام».

(٢) عن حذيفة رضى الله عنه قال : «كان النبى ﷺ إذا حزبه أمر صلى» أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٥/٣٨٨) وأبو داود فى سننه (١٣١٩).

ومعنى «حزبه»[١] أى خرج عن أسبابه ، لذلك فهو يذهب إلى المسبب الأعلى ، فإنْ عبدتَ الله وتوكلتَ عليه ؛ فهو يعينك ؛ لأنه - سبحانه لا يغفل عما نعمل.

وهذه الآية تدلُّك على السعادة فى الحاضر والمستقبل ؛ لأنك إن كنت ترعى الله فسبحانه يكتب لك الحسنة بعشر أمثالها ، وقد يضاعف عن ذلك[٢]، وتُكتب السيئة بمثلها.

وبذلك تكون هذه الآية قد استوعبت وانتظمت حال الإنسان : قبل حياته ، وحاضر حياته ، ومستقبل حياته إلى أن تقوم الساعة.

يقول الحق - سبحانه :

﴿يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ .. (٢٤)﴾ [الأنفال]

فدعوة الله بالطاعة ، ودعوة الرسول بالسلوك السَّوىّ يعطى للمؤمن حياة الحياة ، وهى حياة تعيش فى معية الله.

---

(١) حزبه أمر: أصابه، إذا نزل به مُهِمٌّ أو أصابه غَمٌّ. وأمر حازب وحزيب: شديد. وحوازب الخطوب - وهو جمع حازب - وهو الأمر الشديد. [لسان العرب: مادة: حزب].

(٢) يقول الحق سبحانه : ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَىٰ إِلاَّ مِثْلَهَا وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (١٦٠)﴾ [الأنعام] ويقول أيضاً: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦١)﴾ [البقرة].

سُورَةُ يُوسُفَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝١﴾

قد تعرضنا من قبل لفواتح السور[1] ؛ من أول سورة البقرة، وسورة آل عمران، وقلنا: إن فواتح بعض من سور القرآن تبدأ بحروف مُقطَّعة ؛

● سورة يوسف سورة مكية، نزلت بمكة المكرمة. قال السيوطى فى «الإتقان فى علوم القرآن» (١/٤٠): «استثنى منها ثلاث آيات من أولها، حكاه أبو حيان، وهو واه جداً لا يلتفت إليه». عدد آياتها ١١١ آية. وهى سورة جامعة «لأن فيها ذكر الأنبياء والصالحين، والملائكة والشياطين، والجن والإنس، والأنعام والطير، وسِيَر الملوك والممالك، والتجار والعلماء والجهَّال، والرجال والنساء، وحِيَلهنَّ ومَكْرهنَّ، وفيها ذكر التوحيد والفقه، والسِّير وتعبير الرؤيا، والسياسة والمعاشرة وتدبير المعاش، وجمل الفوائد التى تصلح للدين والدنيا» ذكره القرطبى فى تفسيره (٤/٣٤٤١).

(١) قال الإمام السيوطى : «اعلم أن الله افتتح سور القرآن بعشرة أنواع من الكلام:

الأول : الثناء عليه تعالى، والثناء قسمان. الأول: التحميد فى خمس سور، وتبارك فى سورتين، والثانى: التسبيح فى سبع سور.

الثانى : حروف التهجِّى فى تسع وعشرين سورة.

الثالث : النداء فى عشر سور: خمس بنداء الرسول ﷺ، وخمس بنداء الأمة.

الرابع : الجمل الخبرية، نحو: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ .. ۝١﴾ [الأنفال]، وذلك فى ثلاث وعشرين سورة.

الخامس: القسم ، فى خمس عشرة سورة.

السادس : الشرط ، فى سبع سور مثل : ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۝١﴾ [الواقعة].

السابع : الأمر، فى ست سور، نحو : ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص]

الثامن : الاستفهام، فى ست سور، نحو: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ۝١﴾ [النبأ]

التاسع : الدعاء، فى ثلاث سور: الهمزة، المطففين، المسد.

العاشر : التعليل ، فى سورة قريش . انتهى باختصار [الإتقان فى علوم القرآن ٣/٣١٦].

ننطقها ونحن نقرؤها بأسماء الحروف ، لا بمسميات الحروف.

فإن لكل حرف اسماً ومُسمًّى ، واسم الحرف يعرفه الخاصة الذين يعرفون القراءة والكتابة ، أما العامة الذين لا يعرفون القراءة أو الكتابة ؛ فهم يتكلمون بمسميات الحروف ، ولا يعرفون أسماءها.

فإن الأمى إذا سُئل أن يتهجى أىَّ كلمة ينطقها ، وأن يفصل حروفها نطقاً ؛ لما عرف ، وسبب ذلك أنه لم يتعلم القراءة والكتابة ، أما المتعلم فهو يعرف أسماء الحروف ومُسمَّياتها.

ونحن نعلم أن القرآن قد نزل مسموعاً ، ولذلك أقول: إياك أن تقرأ كتاب الله إلا أن تكون قد سمعته أولاً ؛ فإنك إذا قرأته قبل أن تسمعه فسيستوى عندك حين تقرأ فى أول سورة البقرة : ﴿الٓمٓ ۝١﴾ [البقرة]

مثلما تقرأ فى أول سورة الشرح : ﴿أَلَمْ .. ۝١﴾ [الشرح]

أما حين تسمع القرآن فأنت تقرأ أول سورة البقرة كما سمعها رسول الله ﷺ من جبريل[1] - عليه السلام - « ألف لام ميم » ، وتقرأ أول سورة الشرح « ألم ».

وأقول ذلك لأن القرآن ـ كما نعلم ـ ليس كأى كتاب تُقبِل عليه لتقرأه من غير سماع ، لا. بل هو كتاب تقرؤه بعد أن تسمعه وتصحح

---

(١) إن السماع قبل القراءة ضرورة من ضرورات سلامة النطق ، وطهارة الكلمة ؛ لذلك يقول الحق : ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ۝١٥١﴾ [البقرة] فالتلاوة ابتداء ، والتزكية ارتقاء ، والتعليم صفاء ، ووضع الشىء فى مكانه ووضع للمقال فى مقامه ، وفى الغيب علم يتوالى ، وفى التوالى إعجاب ، والإعجاب توحيد بنزاهة ، وتفريد بطهارة ، وتجريد بإخلاص.

قراءتك على قارىء ؛ لتعرف كيف تنطق كل قَوْل كريم ، ثم من بعد ذلك لك أن تقرأ بعد أن تعرفتَ على كيفية القراءة ؛ لأن كل حرف فى الكتاب الكريم موضوع بميزان[١] وبقدر.

ونحن نعلم أيضاً أن آيات القرآن منها آياتٌ مُحْكمات وأُخَر مُتَشابهات[٢] . والآيات المُحْكماتُ تضم الأحكام التى عليك أن تفعلها لتُثاب عليها ، وإنْ لم تفعلها تُعاقب ، وكل ما فى الآيات المُحْكمات واضح.

أما الآيات المُتَشابهات إنما جاءت متشابهة[٣] لاختلاف الإدراك من إنسان لآخر ، ومن مرحلة عُمرية لأخرى ، ومن مجتمع لآخر ، والإدراكات لها وسائل يتشابه فيها الناس ، مثل : العين ، والأذن ، والأنف ، واللسان ، واليد.

ووسائل الإدراك هذه ؛ لها قوانين تحكمها:

---

(١) قال ابن الجزرى فى كتابه «النشر فى القراءات العشر» (١/٢١٠) : «لاشك أن هذه الأمة كما هم متعبدون بفهم معانى القرآن وإقامة حدوده متعبدون بتصحيح ألفاظه وإقامة حروفه على الصفة المتلقاة من أئمة القراءة المتصلة بالحضرة النبوية الأفصحية العربية التى لا تجوز مخالفتها ولا العدول عنها إلى غيرها».

(٢) يقول تعالى : ﴿هُوَ الَّذِى أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِى الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ (٧)﴾ [آل عمران]

(٣) معنى المتشابه هنا أى: ما استأثر الله بعلمه، وخفى معناه على الناس، أو هو ما احتمل أوْجُهاً من حيث المعنى والتأويل. وهذا هو معنى الآية السابعة من سورة آل عمران، أما قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا .. (٢٣)﴾ [الزمر] فمعناه: أنه يشبه بعضه بعضاً فى الصحة، وعدم التناقض وتأييد بعضه لبعض. انظر «فتح الرحمن بكشف مايلتبس فى القرآن» لأبى يحيى الأنصارى (ص٦٠).

فَعَيْنُك يحكمها قانون إبصارك ، الذى يمتد إلى أن تلتقى خطوط الأشعة عند بؤرة تمتنع رؤيتُك عندها ؛ ولذلك تصغُر الأشياء تدريجياً كلما ابتعدت عنها إلى أن تتلاشى من حدود رؤيتك.

وصوتُك له قانون ؛ تحكمه ذبذبات الهواء التى تصل إلى أدوات السمع داخل أذنك.

وكذلك الشَّمُّ له حدود ؛ لأنك لا تستطيع شَمَّ وردة موجودة فى بلد بعيدة.

وكذلك العقل البشرى له حدود يُدرك بها ، وقد علم الله كيف يدرك الإنسان الأمور ، فلم يمنع تأمل وردة جميلة ، لكنه أمر بغضِّ البصر[1] عند رؤية أى امرأة.

وهكذا يُحدِّد لكَ الحق الحلال الذى تراه ، ويُحدِّد لك الحرام الذى يجب أن تمتنع عن رؤيته . وكذلك فى العقل ؛ قد يفهم أمراً وقد لا يفهم أمراً آخر ، وعدم فَهْمك لذلك الأمر هو لَوْن من الفهم أيضاً ، وإنْ تساءلتَ كيف ؟

انظر إلى موقف تلميذ فى الإعدادية ؛ وجاء له أستاذه بتمرين

---

(١) غض بصره وغض من بصره، يغض غضاً: خفضه ولم يرفعه ولم يحدِّقه فيما أمامه، أو كفَّ بَصره ولم ينظره. وفى غضِّ البصر قال: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ ..(٣٠)﴾ [النور]، وقال : ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ .. (٣١)﴾ [النور] . ومنه غضَّ صوته: خفضه، قال تعالى: ﴿ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ .. (١٩)﴾ [لقمان][القاموس القويم : ٢/٥٦].

هندسى[١] مما يدرسه طلبة الجامعة ؛ هنا سيقول التلميذ الذكى لأستاذه : نحن لم نأخذ الأسس اللازمة لحلِّ مثل هذا التمرين الهندسى ، هذا القول يعنى أن التلميذ قد فهم حدوده.

وهكذا يُعلِّمنا الله الأدب فى استخدام وسائل الإدراك ؛ فهناك أمر لك أن تفهمه ؛ وهناك أمر تسمعه من ربك وتطيعه ، وليس لك أن تفهمه قبل تنفيذه ؛ لأنه فوق مستوى إدراكك.

ودائماً أقول هذا المثل - ولله المثل الأعلى - إنك حين تنزل فى فندق كبير، تجد أن لكل غرفة مفتاحاً خاصاً بها ، لا يفتح أى غرفة أخرى ، وفى كل دَوْر من أدوار الفندق يوجد مفتاح يصلح لفتْح كل الأدوار ، ولا يفهم هذا الأمر إلا المتخصص فى تصميم مثل تلك المفاتيح.

فما بالنا بكتاب الله تعالى ، وهو الكتاب الجامع فى تصميم مثل تلك المفاتيح.

فما بالنا بكتاب الله - تعالى - وهو الكتاب الجامع الذى يقول فيه الحق - تبارك وتعالى:

﴿ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ[٢] هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ[٣] وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي

---

(١) أصل هذه الكلمة الهنداز، وهى كلمة فارسية أصلها أنداز فصيرت الزاى سيناً، لأنه ليس فى شىء من كلام العرب زاى بعد الدال، والاسم الهندسة. والمهنْدز: هو الذى يُقدِّر مجارى القُنىِّ والأبنية. [انظر: لسان العرب ـ مادتى : هندز ، هندس].

(٢) أحكم الأمر: أتقنه، قال تعالى : ﴿ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ .. ﴿٥٢﴾ ﴾ [الحج] أى: يبينها ويجعلها متقنة مقنعة محكمة. وآيات محكمة: متقنة مقنعة واضحة. وقيل: محكمة غير منسوخة أو محكمة غير متشابهة فلا تحتاج إلى تأويل. وقال تعالى: ﴿ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ ..﴿٢٠﴾ ﴾ [محمد] أى: متقنة. [القاموس القويم: ١/١٦٦].

(٣) أم الكتاب: أصله، يُرَدُّ إليها كل ماعداها مما يحتمل أوجهاً كثيرة. قال فى التهذيب: أمُّ الكتاب كل آية محكمة من آيات الشرائع والأحكام والفرائض. [نقله ابن منظور فى اللسان ـ مادة: أمم] وأم الكتاب: فاتحته؛ لأنه يبتدأ بها فى كل صلاة. [اللسان].

قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ (١) فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ(٢) الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ (٧)﴾ [آل عمران]

إذن : فهذا المتشابه يعتبره أهل الزيغ فرصة لتحقيق مَأْربهم(٣)، وهو إبطال الدين بأىِّ وسيلة وبأى طريقة ، ويحاولون ممارسة التكبر على كتاب الله.

ولهؤلاء نقول: لقد أراد الله أن يكون بعضٌ من سور الكتاب الكريم مُبْتدئةً بحروف تُنطق بأسمائها لا بمُسمَّياتها.

وقد أرادها الحق ـ سبحانه ـ كذلك ليختبر العقول ؛ فكما أطلق ـ سبحانه ـ للعقل البشرى التفكير فى أمور كثيرة ؛ فهناك بعض من الأمور يخيب فيها التفكير ، فلا يستطيع العقل إدراك الأشياء التى تفوق حدود عقله.

---

(١) زاغ يزيغ زيْغاً وزيغاناً: مال عن القصد. وأزاغه: أماله وصرفه عن القصد : ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ .. (٥)﴾ [الصف] أى: فلما انحرفوا عن الحق واختاروا طريق الباطل، صرف الله قلوبهم وتركهم وما اختاروه فلم يجبرهم على الإيمان. [القاموس القويم: ١/٢٩٣، ٢٩٤].

(٢) بغى الشىء: طلبه، وابتغاه: طلبه، قال تعالى : ﴿يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ ..(٤٧)﴾ [التوبة] ، أى: يطلبونها لكم. وقال تعالى: ﴿ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا .. (٢٩)﴾ [الفتح] أى: يطلبون فضلاً. وقوله: ﴿لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ .. (٤٨)﴾ [التوبة] أى: طلبوها وسَعَوْا فى بَثِّها ونَشْرها. [القاموس القويم: ١/٧٦].

(٣) المآرب والأَرَب والإرْب : الحاجة والغرض. يقول تعالى عن عصا موسى أن موسى عليه السلام قال عنها: ﴿ وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ (١٨)﴾ [طه] أى: حاجات وأغراض كثيرة أخرى كاتقاء ضرر أو غير ذلك. [القاموس القويم : ١/١٧] بتصرف.

والحق ـ سبحانه وتعالى ـ يصنع للإنسان ابتلاءات فى وسائل إدراكه؛ وجعل لكل وسيلة إدراك حدوداً ، وشاء أن يأتى بالمتشابه ليختبر الإنسان ، ويرى : ماذا يفعل المؤمن ؟

وقوله الحق ـ سبحانه:

﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ[1] إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ[2] فِي الْعِلْمِ..(٧)﴾ [آل عمران]

قد يُفْهم منه أنه عطف ؛ بمعنى أن الراسخين فى العلم يعلمون تأويله ؛ وبالتالى سيُعلِّمون الناس ما ينتهون إليه من علم بالتأويل. ولكن تأويل الراسخين فى العلم هو قولهم:

﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا .. (٧)﴾ [آل عمران]

إذن : فنهاية تأويلهم : هو من عند ربنا ، وقد آمنا به.

وجاء لنا قوله ﷺ ليَحُل لنا إشكال المُتَشابَه:

«ما تشابه منه فَآمِنوا به»[3].

---

(١) تأويل الكلام: تفسيره وتبيين المراد منه. قال ابن منظور فى [لسان العرب ـ مادة: أول]: «التأويل والمعنى والتفسير واحد. قال أبو عبيد فى قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ .. (٧)﴾ [آل عمران] : التأويل المرجع والمصير مأخوذ من آل يؤول إلى كذا، أى: صار إليه قال الجوهرى: التأويل تفسير ما يؤول إليه الشىء.

(٢) رسخ يَرْسَخ رُسُوخاً : ثبت فهو راسخ أى : ثابت. الراسخون فى العلم: المتمكِّنون فيه. [القاموس القويم: ١/ ٢٦٤].

(٣) تمام هذا الحديث : « إن القرآن لم ينزل ليكذب بعضه بعضاً، فما عرفتم منه فاعملوا به، وما تشابه منه فآمنوا به » عزاه ابن كثير فى تفسيره (١/ ٣٤٦) لابن مردويه من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص.

لأن المتشابه من ابتلاءات الإيمان.

والمثل الذى أضربه هنا هو أمره ﷺ لنا أن نستلم[١] الحجر الأسود وأن نُقبِّله[٢]، وأن نَرْجُم الحجر[٣] الذى يمثل إبليس ، وكلاهما حجر، لكننا نمتثل بالإيمان لما أمرنا به ﷺ[٤] .

وأنت لو أقبلتَ على كل أمر بحُكْم عقلك ، وأردتَ أن تعرف الحكمة وراء كل أمر ، لَعبدْتَ عقلك ، والحق ـ سبحانه ـ يريد أن تُقبِل على الأمور بِحُكْمِه هو ـ سبحانه.

وأنت إن قلتَ لواحد: إن الخمر تهرى الكبد . ووضعت على كبده جهاز الموجات فوق الصوتية الذى يكشف صورة الكبد ، ثم ناولتَ الرجل كأس خمر ؛ فرأى ما يفعله كأس الخمر فى الكبد ، وراعَه[٥] ذلك ؛ فقال : والله لن أشربها أبداً.

---

(١) قال الليث : استلام الحجر تناوله باليد وبالقُبْلة ومَسْحه بالكفِّ. وقال الجوهرى: استلم الحجر لمسه إما بالقُبْلة أو باليد. [نقله ابن منظور فى لسان العرب ـ مادة: سلم].

(٢) عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: استقبل رسول الله ﷺ الحجر فاستلمه، ثم وضع شفتيه عليه يبكى طويلاً، فالتفت فإذا هو بعمر يبكى، فقال: « ياعمر، ههنا تُسْكب العبرات». أخرجه ابن ماجه فى سننه (٢٩٤٥) والحاكم فى مستدركه (١/٤٥٤) كلاهما من طريق محمد بن عون الخراسانى قال البوصيرى فى الزوائد: ضعفه ابن معين وأبو حاتم وغيرهما، قلت: قد صححه الحاكم وأقره الذهبى على تصحيحه.

(٣) وهو ما يُعرف برمى الجمرات فى منًى فى أيام الحج، وهى ثلاث جمرات: الصغرى وهى القريبة من مسجد الخيف، ثم الجمرة الوسطى وبينهما ١٥٥متراً، ثم الجمرة الكبرى. كل جمرة تُرْمى بـ ٢١ حصاة على ثلاثة أيام: ١١، ١٢، ١٣ من ذى الحجة. انظر: كتابى «فتاوى وأحكام حول مناسك الحج والعمرة».

(٤) لذلك كان عمر رضى الله عنه يقول: «والله إنى لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أنى رأيت رسول الله ﷺ يُقبِّلك ما قبَّلتك» أخرجه البخارى فى صحيحه (١٦١٠) من حديث ابن عمر رضى الله عنهما.

(٥) راعه ذلك: أفزعه. وارتاع منه وله وروَّعه فتروَّع، أى: تفزع . والرَّوْع والرُّواع: الفزع. [لسان العرب ـ مادة: روع].

هل هو يفعل ذلك لأنه مؤمن ؟ أم أنه ربط سلوكه بالتجربة ؟

لقد ربط سلوكه بالتجربة ، وهو يختلف عن المؤمن الذى نفَّذ تعاليم السماء، فامتنع عن الخمر لأن الله أمر بذلك ، فلا يمكن أن نؤجل تعاليم السماء إلى أن تظهر لنا الحكمة منها.

إذن: فعلَّة المُتَشابه ؛ الإيمان به. وقد يكون للمُتَشابه حكمة ؛ لكنَّا لن نُؤجِّل الإيمان حتى نعرف الحكمة.

وأقول دائماً : يجب أن يعامل الإنسانُ إيمانَه بربه معاملته لطبيبه ، فالمريض يذهب إلى طبيبه ليعرض عليه شكواه من مرض يؤلمه ؛ ليصفَ الطبيب له الدواء ، كذلك عمل عقلك؛ عليه أن ينتهى عند عتبة إيمانك بالله.

ونجد من أقوال أهل المعرفة بالله مَنْ يقول: إن العقل كالمطيَّة[1]، يُوصِّلك إلى باب السلطان، لكنه لايدخل معك.

إذن: فالذى يناقش فى عِلَل الأشياء هو مَنْ يرغب فى الحديث مع مُسَاوٍ له فى الحكمة، وهل يوجد مُسَاوٍ لله؟

طبعاً لا ، لذلك خُذْ افتتاحيات السور التى جاءت بالحروف المقطعة كما جاءت ، واختلافنا على معانيها يؤكد على أنها كَنْز لا ينفد من

---

(١) المطية: الدابة تُمتطى أى: يُركب ظهرها. والجمع: مَطايَا والمطا : الظهر لامتداده. وأصل المطو المد. وتمطى الرجل: تمدَّد. وكل شىء مددته فقد مطوْته. وتمطى النهار: امتد وطال. [لسان العرب ـ مادة: مطا ـ بتصرف].

العطاء، إلى أن تُحل إنْ ـ شاء الله ـ من الله[١].

ومن العجيب أن آيات القرآن كلها مبنيةٌ على الوَصْل، ففى آخر سورة هود نجد قول الحق ـ سبحانه:

﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٢٣)﴾ [هود]

وكان من المفترض أن نقف عليها فننطق كلمة «تعملون» ساكنة النون ، لكنها موصولة بـ « بسم الله الرحمن الرحيم » ؛ لذلك جاءت النون مفتوحة.

وأيضاً ما دامت الآياتُ مبنية على الوصل، كان من المفروض أن ننطق بدء سورة يوسف «ألفٌ لامٌ رَاءٌ» لكن الرسول ﷺ علَّمنَا أن نقرأها «ألفْ لامْ راءْ» وننطقها ساكنة.

وهذا دليل على أنها كلمة مبنية على الوقف ، ودليل على أن لله ـ سبحانه ـ حكمة فى هذا وفى ذاك.

ونحن نعلم أن الرسول ﷺ كان يراجع القرآن مرة كل رمضان مع جبريل ـ عليه السلام ـ وراجعه مرتين فى رمضان الذى سبق وفاته ﷺ[٢].

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (١/٣٧): «مجموع الحروف المذكورة فى أوائل السور بحذف المكرر منها أربعة عشر حرفاً، وهى - ا ل م ص ر ك هـ ى ع ط س ح ق ن - يجمعها قول : «نص حكيم قاطع له سر».

(٢) عن فاطمة بنت رسول الله ﷺ قالت: «أسرَّ إلىَّ النبى ﷺ أن جبريل كان يُعارضنى بالقرآن كل سنة مرة، وإنه عارضنى العام مرتين، ولا أراه إلا حضر أجلى» أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٦٢٤) وأحمد فى مسنده (٦/٢٨٢).

وهكذا وصلنا القرآن كما أنزله الحق - سبحانه - على رسوله الكريم ﷺ.

وهنا يقول الحق : ﴿الٓر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝١﴾ [يوسف]

و «تلك» إشارة لما بَعْدَ (الٓر) ، وهى آيات الكتاب.

أى: خذوا منها أن آيات القرآن مُكوَّنة من مثل هذه الحروف ، وهذا فَهْم البعض لمعنى : ﴿الٓر .. ۝١﴾ [يوسف]

لكنه ليس كل الفهم.

مثل : صانع الثياب الذى يضع فى واجهة المحل بعضاً من الخيوط التى تم نَسْج القماش منها ؛ ليدلنا على دِقَّة الصنعة.

فكأنَّ الله - سبحانه - يُبيِّن لنا أن ﴿الٓر .. ۝١﴾ [يوسف]

أسماء لحروف هى من أسماء الحروف التى نتكلم بها ، والقرآن تكوَّنت ألفاظه من مثل تلك الحروف ، ولكن آيات القرآن معجزة ، لا يستطيع البشر - ولو عاونهم الجن - أن يأتوا بمثله[1].

إذن : فالسُّمو ليس من ناحية الخامة التى تُكوِّن الكلام ، ولكن المعجزة أن المتكلم هو الحق - سبحانه - فلابد أن يكون كلامه مُعجزاً ؛ وإن كان مُكوَّناً من نفس الحروف التى نستخدمها نحن البشر.

---

(١) وفى هذا يقول الحق سبحانه: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَـٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ۝٨٨﴾ [الإسراء].

وهناك معنى آخر : فهذا رسول الله ﷺ ينطق أسماء الحروف «ألفْ لام رَاء» ، وهو ﷺ الأمى[١] بشهادة المعاصرين له بما فيهم خصومه ، رغم أن القادر على نُطْق أسماء الحروف لا بُدَّ أن يكون مُتعلِّماً ، ذلك أن الأمى ينطق مُسمَّيات الحروف ولا يعرف أسماءها[٢]، وفى هذا النطق شهادة بأن مَنْ علَّمه ذلك هو ربه الأعلى.

ويقول الحق ـ سبحانه :﴿الٓر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿١﴾﴾ [يوسف]

كلمة «الكتاب» عندما تُطلق فمعناها ينصرف إلى القرآن الكريم[٣].

ونجد كلمة «المبين» ، أى : الذى يُبيِّن كل شىء تحتاجه حركة الإنسانِ الخليفةِ فى الأرض ، فإن بانَ لك شىء وظننتَ أن القرآن لم

---

(١) «قال أبو إسحاق: معنى الأمى: المنسوب إلى ما عليه جبلته أمه، مكتسبة، فكأنه نُسبَ إلى ما يُولد عليه، أى: على ما ولدته أمه عليه» نقله ابن منظور فى [لسان العرب ـ مادة : أمم] وقال: «بعثه الله رسولاً وهو لا يكتب ولا يقرأ من كتاب، وكانت هذه الخُلَّة إحدى آياته المعجزة لأنه ﷺ تلا عليهم كتاب الله منظوماً، تارة بعد أخرى. بالنظم الذى أنزل عليه فلم يُغيِّره ولم يُبدِّل ألفاظه» إذن : الأمى هو ما كان على الفطرة الربانية ، وتلقيه للإمدادات هو من العطاءات النورانية ، أما الكتابة فهى اكتساب ، وعلم الأمى من الخصوصيات الاصطفائية.

(٢) الفرق بين الاسم والمسمَّى بالنسبة للحروف أن حروفاً مثل: (ك)، (ت)، (ب)، ينطقها الأمى فى كلامه (كتب) كمسميات للحروف، ولكنه لا يستطيع أن يقول لك : إن هذا الحرف اسمه (ك) أو هذا اسمه (تاء) أو هذا اسمه (باء)، فهو لا يستطيع أن يتهجى الكلمة، ولكنه يستطيع أن ينطقها للدلالة على فعل الكتابة، وقد أخذها من أفواه الناس هكذا. (من مفهوم الخواطر).

(٣) وردت لفظة «الكتاب» فى القرآن (٢٣٠) مرة، ويقصد بها معانى كثيرة: القرآن، التوراة، الإنجيل، اللوح المحفوظ. ومن معانى الكتاب أيضاً «الرسالة» مثل رسالة سليمان عليه السلام التى أرسلها مع الهدهد إلى ملكة اليمن فقال: ﴿اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [النمل]. ومن المعانى أيضاً صحيفة الإنسان التى تعرض عليه يوم القيامة: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾ [الإسراء].

يتعـرَّض له ، فلابد أن تبحث عن مـادة أو آية تلفتك إلى مـا يبين لك ما غابَ عنك.

ويُروى عن الإمام محـمد عبده[١] أنه قابل أحد المسـتشرقين[٢] فى باريس ؛ ووجَّه المستشرق سؤالاً إلى الإمام فقال:

مـادامتْ هناك آية فى القرآن تقـول : ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِى الْكِتَابِ[٣] مِن شَيْءٍ .. (٣٨) ﴾ [الأنعام]

فَدعْنِى أسـألك: كم رغيفاً ينتجه أردبُّ القمح؟

فقال الإمام للمستشرق : انتظر. واستدعى الإمام خبازاً، وسأله: كم رغيفاً يمكن أن نصنعه من أردب القمح؟ فأجاب الخباز على السؤال.

هنا قال المستشرق: لقد طلبتُ منك إجابة من القرآن ، لا من الخباز.

---

(١) هو : محـمد عبـده بن حسن خيـر الله، من آل التركمـانى، مفتى الديار المـصرية. ولد فى شنرا (من قـرى الغربيـة بمصـر) عام ١٨٤٩م ونشـأ فى مـحلة نصر (بالبـحيـرة)، تعلم بالجامع الأحمدى بطنطا، ثم بالأزهر، أجاد الفرنسية بعد الأربعين، أصدر فى باريس جريدة «العـروة الوثقى» مع جـمـال الدين الأفـغانـى. توفى عام ١٩٠٥م بـالإسكندرية، ودفن فى القاهرة. [الأعلام للزركلى ٦/٢٥٢].

(٢) المستشرقون: جمع مستشـرق ، وهم علماء الغرب المهتمون بعلوم الشرق وآدابه ودياناته وفلسفـاته، فهم يتـخصصـون فى هذا دراسة وبحثـاً وتنقيبـاً، ومنهم المنصفـون للإسلام، ومنهم المعادون له الذين يسخِّرون دراساتهم للطعن فى الإسلام.

(٣) قال القرطبى فى تفسيره (٣/٢٥٠٥) «أى: فى اللوح المـحفوظ، فإنه أثبت فيه ما يقع من الحوادث. وقـيل: أى : فى القرآن أى: ما تركنا شيـئاً من أمر الدين إلا وقـد دللت عليه فى القـرآن، إما دلالة مـبينة مـشـروحة، وإمـا مجـملة يتلقى بيـانها من الرسـول ﷺ ، أو من الإجماع، أو من القياس الذى ثبت بنصِّ الكتاب».

فردَّ الإمامُ : إذا كان القرآن قد قال:

﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ..(٣٨) ﴾ [الأنعام]

فالقرآن قال أيضاً:

﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٤٣) ﴾ [النحل]

لقد فَطِن الإمام[1] محمد عبده إلى أن العقل البشرى أضيق من أن يسع كل المعلومات التى تتطلبها الحياة ؛ لذلك شاء الحق ـ سبحانه ـ أن يوزِّع المواهب بين البشر ؛ ليصبح كل متفوق فى مجال ما ، هو من أهل الذكر فى مجاله.

ونحن – على سبيل المثال – عندما نتعرض لمسألة ميراث؛ فنحن نلجأ إلى مَنْ تخصص فى المواريث ، ليدلنا على دقة توزيع أنصبة هذا الميراث.

وحين يؤدى المسلم من العامة فريضة الحج، فيكفيه أن يعلم أن الحج فريضة؛ ويبحث عند بَدْء الحج عمَّنْ يُعلِّمه خُطوات الحج كما أدَّاها ﷺ.

---

(١)الإمام محمد عبده من الأئمة الأعلام ، وهو مجدد لعصره ، له آثاره الفكرية ، وله مدرسته الإصلاحية ، عاصر جمال الدين الأفغانى ، وكان للإمام محمد عبده اتجاهاته فى تربية الأفراد والشعوب ، بحيث تبدأ التربية بالفرد أولاً ، ثم بالجماعة ثانياً ، وهذا التدرج التربوى انفرد به الإمام عن جمال الدين الأفغانى ، وإن كان بينهما عموم وخصوص.

وهذا سؤال لأهل الذكر ، مثلما نستدعى مهندساً ليصمم لنا بيتاً حين نشرع فى بناء بيت ، بعد أن نمتلك الإمكانات اللازمة لذلك.

وهكذا نرى أن علوم الحياة وحركتها أوسع من أن يتسع لها رأس ؛ ولذلك وزَّع الله أسباب فضله على عباده ، ليتكاملوا تكاملَ الاحتياج، لا تكامل التفضُّل ، ويصير كل منهم مُلْتحماً بالآخرين غَصْباً عنه.

وبعد ذلك يقول الحق ـ سبحانه:

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ ﴾

وبالنسبة للقرآن نجد الحق ـ سبحانه ـ يقول : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ[1] الأَمِينُ (١٩٣) ﴾ [الشعراء]

فنسب النزول مرة لجبريل كحامل للقرآن ليبلغ به رسول الله ﷺ.

ومرة يقول : ﴿ نُزِّلَ .. (٢) ﴾ [محمد]

والنزول فى هذه الحالة منسوب لله وجبريل والملائكة.

أما قول الحق ـ سبحانه : ﴿ أُنزِلَ..(٩١) ﴾ [البقرة]

فهو القول الذى يعنى أن القرآن قد تعدى كونه مَكْنوناً فى اللوح المحفوظ ليباشر مهمته فى الوجود ببعث رسول الله ﷺ .

---

(١) «الروح الأمين: هو جبريل عليه السلام. قاله غير واحد من السلف: ابن عباس ومحمد بن كعب وقتادة وعطية العوفى والسدى والضحاك والزهرى وابن جريج، وهذا مما لا نزاع فيه» قاله ابن كثير فى تفسيره (٣/٣٤٧).

هذا هو معنى الإنزال للقرآن جملةً واحدة من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا[١]، ثم نزل من بعد ذلك نجوماً[٢] متفرقة ؛ ليعالج كل المسائل التى تعرَّض لها المسلمون.

وهكذا يؤول الأمر إلى أن القرآن نزل أو نزل به الروح الأمين.

والحق ـ سبحانه ـ يقول :

﴿ وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ .. (١٠٥) ﴾ [الإسراء]

أى: أن الحق ـ سبحانه ـ أنزله من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا، ثم أنزله مفرقاً ليعالج الأحداث ويباشر مهمته فى الوجود الواقعى[٣].

---

(١) ذكر أبو شامة فى المرشد الوجيز أن «السر فى إنزاله جملة إلى السماء، تفخيم أمره وأمر من نزل عليه، وذلك بإعلام سكان السماوات السبع أن هذا آخر الكتب المنزلة على خاتم الرسل لأشرف الأمم، قد قرّبناه إليهم لننزله عليهم، ولولا أن الحكمة الإلهية اقتضت وصوله إليهم مُنجماً بحسب الوقائع لهبط به إلى الأرض جملة، كسائر الكتب المنزلة قبله، ولكن الله باين بينه وبينها. فجعل له الأمرين: إنزاله جملة، ثم إنزاله مُفرّقاً، تشريفاً للمُنزل عليه. نقله السيوطى فى [الإتقان فى علوم القرآن ١/١١٩)].

(٢) نجوماً: مُنجَّماً، أى: أن القرآن أُنزل مفرقاً نجماً بعد نجم، آية بعد آية ، على حسب الأحداث والأحوال، ولذلك كان علم «أسباب النزول» وذلك أدعى إلى قبوله، بخلاف ما لو نزل جملة واحدة، فإنه كان ينفر من قبوله كثير من الناس، لكثرة ما فيه من الفرائض والمناهى. انظر [لسان العرب مادة: نجم]، [الإتقان للسيوطى ١/١٢٣].

(٣) من أمثلة هذا قوله تعالى : ﴿ يَـأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلا مُسْتَئْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَالِكُمْ كَانَ يُؤْذِى النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِى مِنكُمْ وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِى مِنَ الْحَقِّ .. (٥٣) ﴾ [الأحزاب]

قال الواحدى عن أسباب نزول هذه الآية: « لما بنى رسول الله ﷺ بزينب بنت جحش أولم عليها بتمر وسويق وذبح شاة. قال أنس: وبعثت إليه أمى أم سليم بحيس فى تور من حجارة، فأمرنى النبى ﷺ أن أدعو أصحابه إلى الطعام، فجعل القوم يجيئون فيأكلون فيخرجون ، ثم يجىء القوم ويأكلون ويخرجون. فقلت: يا نبى الله قد دعوت حتى ما أجد أحداً أدعوه. فقال: ارفعوا طعامكم، فرفعوا وخرج القوم وبقى ثلاثة أنفار يتحدثون فى البيت، فأطالوا المكث، فتأذى منهم رسول الله ﷺ وكان شديد الحياء، فنزلت هذه الآية» [أسباب النزول: ص٢٠٥].

وفى هذه الآية يقول ـ سبحانه :

﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا .. (٢)﴾ [يوسف]

وفى الآية السابقة قال: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ ..(١)﴾ [يوسف]

فمرَّة يَصِفه بأنه قرآن بمعنى المقروء ، ومرّة يَصِفه بأنه كتاب ؛ لأنه مسطور ، وهذه من معجزات التسمية.

ونحن نعلم أن القرآن حين جُمِع[1] ليكتب ؛ كان كاتب القرآن لا يكتب إلا ما يجده مكتوباً ، ويشهد عليه اثنان من الحافظين.

ونحن نعلم أن الصدور قد تختلف بالأهواء ، أما السطور فمُثْبتة لا لَبْسَ فيها.

وهو قرآن عربى؛ لأن الرسول ﷺ سيجاهر بالدعوة فى أمة عربية، وكان لابد من وجود معجزة تدل على صدق بلاغه عن الله، وأن تكون

---

(١) قال الحاكم فى المستدرك : جمع القرآن ثلاث مرات:

إحداها : بحضرة النبى ﷺ .

الثانية : بحضرة أبى بكر رضى الله عنه.

الثالثة : فى زمن عثمان رضى الله عنه.

والمقصود هنا هو الجمع الثانى للقرآن والذى قام به زيد بن ثابت بأمر من أبى بكر رضى الله عنه: إنك شاب عاقل، لا نتهمك، وقد كنت تكتب الوحى لرسول الله ﷺ، فتتبع القرآن فاجمعه . قال زيد : فتتبعت القرآن أجمعه من العُسُب واللخاف وصدور الرجال. وكان زيد لا يقبل من أحد شيئاً حتى يشهد شهيدان. قال السيوطى: «وهذا يدل على أن زيداً كان لا يكتفى بمجرد وجدانه مكتوباً حتى يشهد به مَنْ تلقَّاه سماعاً، مع كون زيد كان يحفظ، فكان يفعل ذلك مبالغة فى الاحتياط. [انظر: الإتقان فى علوم القرآن ١/ ١٦٤ ـ ١٦٧] باختصار.

مِمَّا نبغ[١] فيه العرب ؛ لأن المعجزة مشروطة بالتحدى ، ولا يمكن أن يتحداهم فى أمر لا ريادة لهم فيه ولا لهم به صلة ؛ حتى لا يقولن أحد: نحن لم نتعلم هذا ؛ ولو تعلمناه لجئنا بأفضل منه.

وكان العرب أهل بيان وأدب ونبوغ فى الفصاحة والشعر ، وكانوا يجتمعون فى الأسواق[٢] ، وتتفاخر كل قبيلة بشعرائها وخطبائها المُفوَّهين[٣] ، وكانت المباريات الأدائية تُقَام ، وكانت التحديات تجرى فى هذا المجال ، ويُنصَب لها الحكام.

أى : أن الدُّرْبَة على اللغة كانت صناعة متواترة ومتواردة ، محكوم عليها من الناس فى الأسواق ، فَهُم أمة بيان[٤] وبلاغة وفصاحة.

لذلك شاء الحق ـ سبحانه ـ أن يكون القرآن معجزة من جنس ما نبغ فيه العرب ، وهم أول قوم نزل فيهم القرآن ، وحين يؤمن

---

(١) نبغ الشىء : ظهر. نبغ منهم شاعر: خرج. والنابغة: الشاعر المعروف، سُمِّى بذلك لظهوره. [لسان العرب ـ مادة: نبغ].

(٢) كانت للعرب أسواق يجتمعون فيها، مثل: عكاظ، وذى المجاز، فكانت قبائل العرب تجتمع بها كل سنة ويتفاخرون بها، يحضرها الشعراء فيتناشدون ما أحدثوا من الشعر.

(٣) المفوَّه : حسن الكلام بليغ المنطق، فهو قادر على الكلام الجيد فى بساطة وسلاسة. راجع بعض هذا فى [لسان العرب ـ مادة: فوه].

(٤) البيان: إظهار المقصود بأبلغ لفظ، وهو من الفهم وذكاء القلب مع اللَّسَن، وأصله الكشف والظهور. [اللسان ـ مادة: بين]. والبيان: الكشف والإيضاح والكلام البليغ. قال تعالى: ﴿هَـٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ ..﴿١٣٨﴾﴾ [آل عمران] أي: كشف وإيضاح أو هذا كلام بليغ. وقوله: ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴿٤﴾﴾ [الرحمن] أى: النطق المعبِّر عمَّا فى النفس من معانٍ وأفكار. [القاموس القويم ـ مادة: بين].

هؤلاء لن يكون التحدى بفصاحة الألفاظ ونسق الكلام ، بل بالمبادىء التى تطغى على مبادىء الفرس والروم.

وهى مبادىء قد نزلت فى أمة مبتدِّية[١]، ليس لها قانون يجمعها، ولا وطن يضمهم يكون الولاء له ، بل كل قبيلة لها قانون ، وكلهم بَدْو يرحلون من مكان إلى مكان.

وحين نزل فيهم القرآن علَم أهل فارس والروم أن تلك الأمة المُتبدِّية قد امتلكتْ ما يبنى حضارة ليس لها مثيل من قَبْل ، رغم أن النبى أمِيٌّ وأن الأمة التى نزل فيها القرآن كانت أمية.

وفارس والروم يعلمون أن الرسول الذى نزل فى تلك الأمة تحدَّاهم بما نبغُوا فيه، وما استطاع واحد منهم أن يقوم أمام التحدى ، ومن هنا شعروا أنهم أمام تحد حضارى من نوع آخر لم يعرفوه.

ويشاء الحق ـ سبحانه ـ أن ينزل القرآن عربياً ؛ لأن الحق لم يكن ليرسل رسولاً إلا بلسان قومه ، فهو القائل:

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ [٢]قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ .. ﴿٤﴾ ﴾ [إبراهيم]

---

(١) متبدية: نسبة إلى البادية. يقال: تبدّى الرجل: أقام بالبادية. والبادية: خلاف الحضَر. وسُمِّيت بادية لبروزها وظهورها عن أماكن تجمع الناس فى الحضر حول الماء وغيره. بتصرف من [لسان العرب ـ مادة: بدو].

(٢) اللسان: إحدى حواس الذوق والنطق، قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ ﴾ [البلد] فالله يمتنُّ على الإنسان بنعمة البصر والنطق. واللسان: اللغة والكلام، قال تعالى : ﴿وَأَخِي هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا .. ﴿٣٤﴾ ﴾ [القصص] أى: أقدر منى على الكلام الفصيح. وقال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ..﴿٢٢﴾ ﴾ [الروم] ألسنتكم، أى: لغاتكم ولهجاتكم [القاموس القويم ـ مادة لسن].

وأُرسِلَ محمد ﷺ بالقرآن ، الذى تميَّز عن سائر كتب الرسل الذين سبقوه ؛ بأنه كتاب ومعجزة فى آنٍ واحد ، بينما كانت معجزات الرسل السابقين عليه ﷺ مُنْفصلةً عن كُتب الأحكام التى أُنزِلتْ إليهم.

ويظلُّ القرآن معجزة تحمل منهجاً إلى أنْ تقومَ الساعة ، ومادام قد آمنَ به الأوائل وانساحوا[1] فى العالم، فتحقق بذلك ما وعد به الله أن يكون هذا الكتابُ شاملاً ، يجذب كل مَنْ لم يؤمن به إلى الانبهار بما فيه من أحكام.

ولذلك حين يبحثون عن أسباب انتشار الإسلام فى تلك المدة الوجيزة، يجدون أن الإسلام قد انتشر لا بقوة مَنْ آمنوا به ؛ بل بقوة مَنْ انجذبوا إليه مَشْدُوهِين[2] بما فيه من نُظُمٍ تُخلِّصهم من متاعبهم.

ففى القرآن قوانين تُسعِد الإنسانَ حقاً ، وفيه من الاستنباءات بما سوف يحدث فى الكون ؛ ما يجعل المؤمنين به يذكرون بالخشوع أن الكتاب الذى أنزله الله على رسولهم لم يفرط فى شىء.

وإذا قال قائل من المستشرقين: كيف تقولون : إن القرآن قد نزل

---

(١) السياحة: الذهاب فى الأرض لأغراض مختلفة منها العبادة والدعوة والتجارة. وأصله من سَيْح الماء الجارى على وجه الأرض. [لسان العرب ـ مادة: سيح] بتصرف.

(٢) شُدِه الرجل شَدَهاً: تحيَّر. والدَّهْش أيضاً: التحيُّر. دهش: تحيَّر، أو ذهب عقله من ذَهَل أو وَلَه فهو مدهوش، وأدهشه غيره. [اللسان ـ مادتا؛ شده، دهش].

بلسان عربى مبين ؛ رغم وجود ألفاظ أجنبية مثل كلمة « آمين » التى تُؤمِّنون[١] بها على دعاء الإمام ؛ كما توجد ألفاظ رومية[٢]، وأخرى فارسية[٣]؟

وهؤلاء المستشرقون لم يلتفتوا إلى أن العربى استقبل ألفاظاً مختلفة من أمم متعددة نتيجة اختلاطه بتلك الأمم ، ثم دارتْ هذه الألفاظ على لسانه ، وصارت تلك الألفاظ عربية ، ونحن فى عصورنا الحديثة نقوم بتعريب الألفاظ ، وندخل فى لغتنا أىَّ لفظ نستعمله

---

(١) التأمين: قول آمين. وآمين : كلمة تُقال فى إثر الدعاء، قال الفارسى: هى جملة مركبة من فعل واسم، معناه: اللهم استجب لى. [لسان العرب ـ مادة: أمن]. وعن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «إذا أمَّن الإمام فأمِّنوا، فإنه من وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه» أخرجه الإمام مالك فى موطئه (٨٧/١) وأحمد فى مسنده (٢٣٨/٢ ، ٣٢١) والبخارى فى صحيحه (٧٨٠) وكذا مسلم (٤١٠).

(٢) من أمثلة الألفاظ الرومية الموجودة فى القرآن الكريم :

- (الرقيم) فى قوله تعالى : ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ۝٩﴾ [الكهف]. قال السيوطى فى الإتقان (١١٢/٢) أنه قد قيل فيها ثلاثة أقوال: اللوح، الكتاب، الدواة.
- (الصراط) : حكى النقاش وابن الجوزى أنه الطريق بلغة الروم.
- (طفقا) فى قوله تعالى : ﴿ وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ .. ۝٢٢﴾ [الأعراف] معناه: قصدا بالرومية.

(٣) من أمثلة الألفاظ الفارسية فى القرآن الكريم :

- (أباريق) : حكى الثعالبى فى فقه اللغة أنها فارسية. وقال الجواليقى: الإبريق فارسىّ مُعرّب، ومعناه: طريق الماء، أو صب الماء على هينة.
- (دينار) : فى قوله تعالى : ﴿وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا .. ۝٧٥﴾ [آل عمران] . ذكر الجواليقى وغيره أنه فارسى.
- (سجيل): عن مجاهد قال: سجيل بالفارسية، أولها حجارة، وآخرها طين.

ويدور على ألسنتنا ، ما دُمْنا نفهم المقصود به[١].

ويُذيِّل الحق ـ سبحانه ـ الآية الكريمة بقوله :

﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢﴾ [يوسف]

ليستنهض همة العقل ، ليفكر فى الأمر ، والمُنْصف بالحق يُهِمه أن يستقبل الناس ما يعرضه عليهم بالعقل ، عكس المدلس[٢] الذى يهمه أن يستر العقل جانباً ؛ لينفُذَ من وراء العقل.

وفى حياتنا اليومية حين ينبهك التاجر لسلعة ما ، ويستعرض معك مَتَانتها ومحاسنها ؛ فهو يفعل ذلك كدليل على أنه واثق من جودة بضاعته.

أما لو كانت الصَّنْعة غير جيدة ، فهو لن يدعوك للتفكير بعقلك ؛ لأنك حين تتدبر بعقلكَ الأمر تكتشف المُدلس وغير المُدلس ؛ لذلك فهو يدلس عليك، ويُعمِّى عليك، ولا يدع لك فرصة للتفكير.

---

(١) ذكر السيوطى فى كتابه الإتقان (٢/١٠٥ ـ ١٠٨) اختلاف العلماء فى عربية هذه الألفاظ وفى أعجميتها وذكر أدلة كل من الفريقين.ثم قال: «وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: «الصواب عندى مذهب فيه تصديق القولين جميعاً، وذلك أن هذه الأحرف أصولها أعجمية كما قال الفقهاء، لكنها وقعت للعرب، فعرّبتها بألسنتها وحوّلتها عن ألفاظ العجم إلى ألفاظها، فصارت عربية، ثم نزل القرآن وقد اختلطت هذه الحروف بكلام العرب، فمن قال إنها عربية فهو صادق، ومن قال أعجمية فصادق» ومال إلى هذا القول الجواليقى وابن الجوزى وآخرون».

(٢) التدليس: إخفاء العيب. والمدالسة: المخادعة. والتدليس فى البيع: كتمان عيب السلعة عن المشترى. واندلس الشىء: إذا خفى [لسان العرب ـ مادة: دلس].

ويقول الحق ـ سبحانه ـ من بعد ذلك:

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ (١) بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ (٣) ﴾

حين يتحدث الحق ـ سبحانه ـ عن فعل من أفعاله ؛ ويأتى بضمير الجمع ؛ فسبب ذلك أن كل فعل من أفعاله يتطلب وجودَ صفات متعددة ؛ يتطلب : علماً ؛ حكمة ؛ قدرة ؛ إمكانات.

ومَنْ غيره ـ سبحانه ـ له كل الصفات التى تفعل ما تشاء وقْتَ أن تشاء؟

لا أحد سواه قادر على ذلك ؛ لأنه ـ سبحانه ـ وحده صاحب الصفات التى تقوم بكل مطلوب فى الحياة ومُقدَّر.

لكن حين يتكلم ـ سبحانه ـ عن الذات ؛ فهو يؤكد التوحيد فلا تأتى بصيغة الجمع ، يقول تعالى : ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي

---

(١) قصَّ الكلام أو الأخبار: يقصُّها قصاً وقصصاً: تتبعها ورواها وحكاها، قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لا تَخَفْ .. (٢٥) ﴾ [القصص] أى: قص عليه أخباره وحدَّثه بها. والقصص: مصدر يُطلق على ما يُروى من الأخبار، قال تعالى : ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَابِ .. (١١١) ﴾ [يوسف] . [القاموس القويم (٢/١٢٠)] .

وَأَقِمِ[1] الصَّلاةَ لِذِكْرِي[2] ﴿١٤﴾ [طه]

وهنا يتكلم ـ سبحانه ـ بأسلوب يعبر عن أفعال لا يَقْدر عليها غيره؛ بالدقة التى شاءها هو ـ سبحانه ـ فيقول:

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ .. ﴿٣﴾﴾ [يوسف]

وحدد ـ سبحانه ـ أنه هو الذى يقصُّ، وإذا وُجِد فعل لله ؛ فنحن نأخذ الفعل بذاته وخصوصه ؛ ولا نحاول أن نشتق منه اسماً نطلقه على الله ؛ إلا إذا كان الفعل له صفة من صفاته التى عَلِمْناها فى أسمائه الحسنى ؛ لأنه الذات الأقدس.

وفى كل ما يتعلق به ذاتاً وصفاتٍ وأفعالاً إنما نلتزم الأدب ؛ لأننا لا نعرف شيئاً عن ذات الله إلا ما أخبرنا الله عن نفسه ، لذلك لا يصح أن نقول عن الله أنه قصَّاص ، بل نأخذ الفعل كما أخبرنا به ، ولا نشتق منه اسماً لله ؛ لأنه لم يصف نفسه فى أسمائه الحسنى بذلك.

---

(١) أقام الصلاة: أداها كاملة. وقوله تعالى : ﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ..﴿٢٩﴾﴾ [الأعراف] أى: أخلصوا قلوبكم لله، وعَدِّلوا وجوهكم واجعلوها تتجه لله فى المساجد فى الصلاة بإخلاص. وقوله تعالى : ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا .. ﴿٣٠﴾﴾ [الروم] أى: ارفعه وعَدِّله، والمراد كن مستقيماً مخلصاً للدين. وإقام: اسم مصدر من أقام بمعنى إقامة. ومنه: ﴿ وَإِقَامِ الصَّلاةِ .. ﴿٣٧﴾﴾ [النور] أى: إقامة الصلاة كاملة بصفة دائمة. [القاموس القويم ٢/١٤٠، ١٤١، ١٤٣] بتصرف واختصار شديدين.

(٢) الذكر: الاستحضار بالقلب مع التأمل، والذكر الحديث والقصة. والذكر: القرآن والكتب المنزلة كلها. قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر] هو القرآن الكريم. وقوله تعالى : ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾﴾ [الشرح] أى: شرفك وحديث الناس عنك بالخير.

والواجب أن ما أطلقه ـ سبحانه ـ اسماً نأخذه اسماً، وما أطلقه فعلاً نأخذه فعلاً.

وهنا يقول ـ سبحانه:

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ .. (٣)﴾ [يوسف]

ونعلم أن كلمة «قص» تعنى الإتباع ، وقال بعض العلماء : إن القصة تُسمَّى كذلك لأن كل كلمة تتبع كلمة ، ومأخوذة من قَصِّ الأثر ، وهو تتبع أثر السائر على الأرض ، حتى يعرف الإنسان مصير مَنْ يتتبعه ولا ينحرف بعيداً عن الاتجاه الذى سار فيه مَنْ يبحث عنه.

واقرأ قول الحق ـ سبحانه ـ: ﴿وَقَالَتْ لأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ[1] بِهِ عَن جُنُبٍ[2] وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (١١)﴾ [القصص]

و ﴿قُصِّيهِ .. (١١)﴾ [القصص]

أى: تتبعى أثره.

إذن : فالقَصُّ ليس هو الكلمة التى تتبع كلمة، إنما القَصُّ هو تتبُّع ما حدث بالفعل.

---

(١) بصُر به: رآه ببصره فهو بصير. وبصُر بالأمر: علِمَه كأنه رآه ببصره.. وقوله: ﴿فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ .. (١١)﴾ [القصص] أى: رأته من أحد جوانب البيت وهى متخفية. وقوله تعالى عن السامرى: ﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ .. (٩٦)﴾ [طه] أى: علمت بما لم يعلموا، وهو رؤية أثر الرسول أو سرِّه. [القاموس القويم ١/٦٩].

(٢) الجنب: قد يراد به البُعْد البعيد كما يراد به الجانب. قال تعالى : ﴿فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ .. (١١)﴾ [القصص] أى : عن بُعْد ، أو رأته من جانب من جوانب القصر أو من بعيد. [القاموس القويم ١/١٣٠].

ويعطينا الحق سبحانه مثلاً من قصة موسى عليه السلام مع فتاه:

﴿قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ[1] وَمَا أَنسَانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا[2] (٦٣) قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ[3] فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا (٦٤)﴾ [الكهف]

أى : تَابَعا الخطوات.

وهكذا نعلم أن القص هو تتبُّع ما حدث بالفعل، فتكون كل كلمة مُصوِّرة لواقع ، لا لَبْسَ[4] فيه أو خيال ؛ ولا تزيُّد ، وليس كما يحدث

---

(١) الحوت: السمكة. كبرت أو صغرت، والجمع حيتان. قال تعالى عن موسى قوله: ﴿ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ .. (٦٤) ﴾ [الكهف] أى : السمكة، وقال: ﴿ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا .. (١٦٣) ﴾ [الأعراف] كانت تظهر لهم الحيتان فى الماء يوم السبت، فيصيدونها مخالفين أمر ربهم. [القاموس القويم ١/١٧٦] قال ابن منظور فى [لسان العرب ـ مادة: حوت]: «المحاوتة: المراوغة. وهو يُحاوتنى أى يُراوغنى. وحاتَ الطائر على الشىء يحوت أى : حام حوله».

(٢) العجب: روعة ودهشة تأخذ الإنسان عند استحسان شىء خَفِى سرُّه أو استعظامه. وأعجبه الأمر: سرَّه أو حمله على العجب منه. وأمر عجيب وعُجاب وعُجَّاب بتشديد الجيم للمبالغة. قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَـٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ.. (٥) ﴾ [ص]. [القاموس القويم ٢/٧].

(٣) بغى الشىء: طلبه. وابتغاه: طلبه. قال تعالى: ﴿ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ .. (٤٧) ﴾ [التوبة] أى: يطلبونها لكم. وقال تعالى: ﴿ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ ..(٢٩) ﴾ [الفتح] وقوله: ﴿لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ .. (٤٨) ﴾ [التوبة] أى: طلبوها وسعوا فى بثها ونشرها. والابتغاء: الطلب. قال تعالى : ﴿وَلا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ .. (١٠٤) ﴾ [النساء] فى طلبهم لقتالهم، وقال: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ .. (٢٢) ﴾ [الرعد] أى: طلباً لرضاه تعالى عنهم. [القاموس القويم ١/٧٦، ٧٧].

(٤) اللَّبْس واللبَس : اختلاط الأمر. لبس عليه الأمر يلبسه لبساً فالتبس إذا خلطه عليه حتى لا يعرف جهته. والتبس عليه الأمر أى: اختلط واشتبه. وتلبس بى الأمر: اختلط وتعلق. [لسان العرب ـ مادة: لبس].

فى القصص الفنىِّ الحديث ؛ حيث يضيف القصَّاص لقطاتٍ خيالية من أجل الحَبْكة[١] الفنية والإثارة وجَذْب الانتباه.

أما قَصَص القرآن فوضْعُه مختلف تماماً ، فكلُّ قَصص القرآن إنما يتتبع ما حدث فعلاً؛ لنأخذ منها العبرة[٢]؛ لأن القصة نوع من التاريخ.

والقصة فى القرآن مرةً تكون للحدث، ومرَّة تكون لتثبيت فؤاد الرسول ﷺ ، فلم تَأْتِ قصة رسول فى القرآن كاملة، إلا قصة يوسف - عليه السلام.

أما بقية الرسل فقَصَصهم جاءت لقطاتٍ فى مناسبات لتثبيت فؤاد[٣] الرسول محمد ﷺ ، فتأتى لقطة من حياة رسول، ولقطة من حياة رسول آخر، وهكذا.

ولا يقولن أحد : إن القرآن لم يستطع أن يأتى بقصة كاملة

---

(١) الحبْك : الشدُّ .والحُبْكة: الحبل يُشدُّ به على الوسط. والتحبيك: التوثيق. وجاد ما حبكه إذا أجاد نَسْجه. وحبك الثوب يحبكه حبكاً: أجاد نسجه وحسَّن أثر الصنعة فيه. [لسان العرب - مادة: حبك] ويستعار اللفظ ليستخدم فى الحبكة القصصية كأنها ثوب يُجَاد نسجه وصنعه فلا يكون مُهلهَلاً.

(٢) وذلك فى قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِى الأَلْبَابِ ..(١١١)﴾ [يوسف]. والعبرة: اسم للشىء الذى يتعظ به الإنسان. والعبرة: العظة. قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَعِبْرَةً ..(٤٤)﴾ [النور]. وقال: ﴿ فَاعْتَبِرُوا يَا أُوْلِى الأَبْصَارِ (٢)﴾ [الحشر] أى: اتعظوا. [القاموس القويم ٢/٤].

(٣) يقول الحق سبحانه : ﴿وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِى هَـذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ (١٢٠)﴾ [هود] أى: نثبت به فؤادك على أداء الرسالة والصبر على ما ينالك فيها من الأذى. [تفسير القرطبى ٤/٣٤٣٥].

مستوفية؛ فقد شاء الحق ـ سبحانه ـ أن يأتى بقصة يوسف من أولها إلى آخرها، مُسْتوفية، ففيها الحدث الذى دارتْ حوله أشخاصٌ، وفيها شخصٌ دارتْ حوله الأحداث.

فقصة يوسف ـ عليه السلام ـ فى القرآن لا تتميز بالحَبْكة فقط؛ بل جمعتْ نَوعَىْ القصة، بالحدث الذى تدور حوله الشخصيات، وبالشخص الذى تدور حوله الأحداث.

جاءتْ قصة يوسف بيوسف، وما مَرَّ عليه من أحداث ؛ بَدْءً من الرُّؤيا، ومروراً بحقد الإخوة وكيدهم، ثم محاولة الغواية[1] له من امرأة العزيز، ثم السجن، ثم القدرة على تأويل الأحلام، ثم تولِّى السلطة، ولقاء الإخوة والإحسان إليهم، وأخيراً لقاء الأب من جديد.

إذن : فقول الحق ـ سبحانه:

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ .. (٣)﴾ [يوسف]

يبيّن لنا أن الحُسْن أتى لها من أن الكتب السابقة تحدثت عن قصة يوسف، لكن أحبار[2] اليهود حين قرأوا القصة كما جاءتْ بالقرآن ترك

---

(١) الغواية : الضلال والانهماك فى الغَيّ والفساد. غَوَى يَغْوى: انهمك فى الجهل وهو ضد الرشد، قال تعالى : ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ..(٢٥٦)﴾ [البقرة]. [القاموس القويم ٢/٦٤].

(٢) الأحبار: جمع حَبْر، وهو العالم، قال تعالى : ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ .. (٣١)﴾ [التوبة] وأصل الكلمة الحِبْر: الذى يُكتب به، وهو المداد. وكل ما حَسُن من خط أو كلام أو شعر أو غير ذلك، فقد حُبِر حَبْراً وحُبِّر. [لسان العرب ـ مادة: حبر].

بعضهم كتابه ، واعتمد على القرآن فى روايتها ، فالقصة أحداثها واحدة ، إلا صياغة الأداء ؛ وتلمُّسات المواجيد النفسية ؛ وإبراز المواقف المطْويَّة فى النفس البشرية ؛ وتحقيق الرُّؤى الغيبية كُلُّ ذلك جاء فى حَبْكة ذات أداء بيانى مُعْجز جعلها أحسنَ القَصَص .

أو : هى أحسن القصص بما اشتملتْ عليه من عِبَر متعددة ، عِبَر فى الطفولة فى مواجهة الشيخوخة ، والحقد الحاسد بين الإخوة ، والتمرد ، وإلقائه فى الجبِّ والكيد له ، ووضعه سجيناً بظلم ، وموقف يوسف عليه السلام من الافتراء الكاذب ، والاعتزاز بالحق حتى تمَّ له النصر والتمكين .

وكيف ألقى الله على يوسف ـ عليه السلام ـ محبةً منه ؛ ليجعل كل مَنْ يلتقى به يحب خدمته .

وكيف صانَ يوسف إرثَ النبوة ، بما فيها من سماحة وقدرة على العفو عند المقدرة ؛ فعفَا عن إخوته بما روتْه السورة: ﴿قَالَ لا تَثْرِيبَ[1] عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٩٢)﴾ [يوسف]

وقالها سيد البشر محمد ﷺ لأهله يوم فتح مكة : « اذهبوا فأنتم الطُّلَقاء»[2] .

---

(١) ثَربه : لامه وعتب عليه . وثرَّبه بالتضعيف : أكثر لَوْمَه ، وعَيَّره بذنبه ، وأنّبه على سوء فعله. قال تعالى : ﴿ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ ..(٩٢)﴾ [يوسف] أى: لا لوم ولا تأنيب. [القاموس القويم ١/١٠٦].

(٢) قال ابن إسحاق: حدثنى بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ قام فى خطابه على باب الكعبة فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، إلى أن قال : ما تَرَوْن أنى فاعل فيكم ؟ قالوا : خيراً ، أخ كريم ، وابن أخ كريم . قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء» [راجع : السيرة النبوية لابن هشام ٤/٤١٢].

هكذا تمتلئ سورة يوسف بِعِبَر متناهية ، يتجلَّى بعضٌ منها فى قضية دخوله السجنَ مظلوماً ، ثم يأتيه العفو والحكم ؛ لذلك فهى أحسنُ القَصص ؛ إما لأنها جمعتْ حادثة ومَنْ دار حولها من أشخاص ، أو جاء بالشخص وما دار حوله من أحداث.

أو : أنها أحسنُ القصص فى أنها أدّتْ المُتَّحد والمتفق عليه فى كل الكتب السابقة ، وجاء على لسان محمد الأمى ، الذى لا خبرة له بتلك الكتب ؛ لكن جاء عَرْضُ الموضوع بأسلوب جذَّاب مُسْتمِيل مُقْنع مُمْتع.

أو : أنها أحسن القصص ؛ لأن سورة يوسف هى السورة التى شملت لقطاتٍ متعددةٍ تساير : العمر الزمنى ؛ والعمر العقلى ؛ والعمر العاطفى للإنسان فى كل أطواره ؛ ضعيفاً ؛ مغلوباً على أمره ؛ وقوياً مسيطراً ، مُمكَّناً من كل شىء .

بينما نجد أنباء الرسل السابقين جاءت كلقطات مُوزَّعة كآيات ضمن سُور أخرى ؛ وكل آية جاءت فى موقعها المناسب لها.

إذن : فالحُسْن البالغ قد جاء من أسلوب القرآن المعجز الذى لا يستطيع واحد من البشر أن يأتى بمثله.

يقول الحق سبحانه : ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَـٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٣﴾﴾ [يوسف]

والمقصود بالغفلة هنا أنه ﷺ كان أُمِّياً، ولم يعرف عنه أحدٌ قبل

نزول القرآن أنه خطيب أو شاعر ، وكل ما عُرِف عنه فقط هو الصفات الخُلقية العالية من صدق وأمانة ؛ وهى صفات مطلوبة فى المُبلِّغ عن الله ؛ فما دام لم يكذب من قبل على بشر فكيف يكذب وهو يُبلِّغ عن السماء رسالتها لأهل الأرض ؟

إن الكذب أمر مُسْتبعد تماماً فى رسول الله ﷺ قبل البعثة وبعدها.

والمثال على تصديق الغير لرسول الله هو تصديق أبى بكر رضى الله عنه له حين أبلغه رسول الله ﷺ أن الوحى قد نزل عليه ، لم يَقُلْ له أكثر من أنه رسول من عند الله ، فقال أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ: صدقْتَ.

وحين حدثتْ رحلة الإسراء ؛ وكذَّبها البعض متسائلين : كيف نضرب إليها أكباد الإبل شهراً ويقول محمد إنه قطعها فى ليلة ؟ فسألهم أبو بكر : أقال ذلك ؟ قالوا : نعم . فقال أبو بكر : ما دام قد قال فقد صدق[1].

---

(١) ذكر ابن هشام فى السيرة النبوية (١/٣٩٨) باختصار «أن رسول الله ﷺ لما أصبح بعد عودته من بيت المقدس غدا على قريش فأخبرهم الخبر. فأنكروا عليه ذلك ، وقصدوا أبا بكر وعرضوا عليه هذا الأمر فى إنكار ، فقال لهم أبو بكر : إنكم تكذبون عليه . فقالوا : بلى ، هاهو ذاك فى المسجد يحدّث به الناس.

فقال أبو بكر: والله لئن كان قاله لقد صدق ، فما يُعجبكم من ذلك . فوالله إنه ليُخبرنى أن الخبر ليأتيه من الله من السماء إلى الأرض فى ساعة من ليل أو نهار فأصدقه ، فهذا أبعد مما تعجبون منه ».

وهكذا نجد أن حيثية الصِّدْق قبل الرسالة هى التى دلَّتْ على صدقه حين أبلغ بما نزل عليه من وحى.

مثال ذلك : تصديق خديجة رضى الله عنها وأرضاها له ؛ حين أبلغها بنزول الوحى ، فقالت له : « والله لا يخزيك الله أبداً ، إنك لتَصِلُ الرَّحِم، وتحمل الكَلَّ[١] ، وتُكسِب المَعْدُوم[٢]، وتَقْرى[٣] الضَّيف ، وتعين على نوائب[٤] الحق »[٥].

وكان فى صدق بصيرتها ، وعميق حساسية فطرتها أسبابٌ تؤيد تصديقها له ﷺ فى نبوته[٦].

وحين وقعت بعض الأمور التى لا تتفق مع منطق المقدمات والنتائج ، والأسباب والمسببات ؛ كانت بعض العقول المعاصرة

---

(١) الكَلُّ : هو مَنْ لا يستقل بأمره . قال تعالى: ﴿وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ ..(٧٦)﴾ [النحل] . والكل هو: العاجز الثقيل لا خير فيه [القاموس القويم ٢/١٦٩] باختصار .

(٢) المعدوم: كالميت الذى لا تصرُّف له . والمعنى : أنك تعطى الناس ما لا يجدونه عند غيرك. [فتح البارى ١/٢٤].

(٣) قَرَى الضيف : أضافه . والقِرى : طعام الأضياف . [لسان العرب ـ مادة : قرى].

(٤) النوائب : جمع نائبة ، وهى ما ينوب الإنسان أى : ينزل به من الملمات والحوادث . والنائبة : المصيبة من مصائب الدهر تنزل بالإنسان . [لسان العرب ـ مادة : نوب] بتصرف.

(٥) حديث بدء الوحى أخرجه البخارى فى صحيحه (٣) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٦٠) من حديث عائشة رضى الله عنها.

(٦) قال رسول الله ﷺ : « آمنت بى إذ كفر الناس ، وصدَّقتنى إذ كذَّبنى الناس ، وواستنى بمالها إذ حرمنى الناس ، ورزقنى منها الله الولد دون غيرها من النساء » . أخرجه أحمد فى مسنده (٦/١١٨) من حديث عائشة.

لرسول الله تقف متسائلة : كيف ؟ فيوضح لهم أبو بكر : « انتبهوا إنه رسول الله ».

مثال هذا : ما حدث فى صلح الحديبية ، حين يقول عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ متسائلاً ـ ويكاد أن يكون رافضاً لشروط هذا الصلح ـ : ألسْنا على الحق ؟ عَلام نعطى الدَّنية[1] فى ديننا ؟

ويرد عليه أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ : استمسك بِغَرْزِه[2] يا عمر ، إنه رسول الله[3].

أى : انتبه واعلم أنك تتكلم مع رسولْ الله ﷺ ، وليس فى ذلك انصياعٌ أعمى ؛ بل هى طاعة عن بصيرة مؤمنة.

والحق سبحانه يقول هنا:

﴿ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٣﴾ ﴾ [يوسف]

والغافل : هو الذى لا يعلم ـ لا عن جهل ، أو قصور عقل ـ ولكن لأن ما غفل عنه هو أمر لا يشغل باله.

---

(١) الدنية: الخصلة المذمومة. ورجل دَنِيٌّ من قوم أدنياء هو الضعيف الخسيس [لسان العرب ـ مادة: دنا] باختصار .

(٢) الغرز: رِكَاب الرحْل ، وكل ما كان مساكاً للرِّجْلَيْن فى المركب غَرْز . والغرز للناقة مثل الحزام للفرس ، ومثل الركاب للبغل . ومنه حديث أبى بكر أنه قال لعمر : « استمسك بغرزه » أى : اعتلق به وأمسكه واتبع قوله وفعله ولا تخالفه ، فاستعار له الغرز كالذى يمسك بركاب الراكب ويسير بسيره. [لسان العرب ـ مادة : غرز].

(٣) أخرجه أحمد فى مسنده (٣٢٣/٤ ـ ٣٢٥) من حديث المسور بن مخرمة الزهرى ومروان ابن الحكم وتمامه « أن عمر بن الخطاب أتى أبا بكر فقال: يا أبا بكر أو ليس برسول الله؟ أو لسنا بالمسلمين؟ أو ليسوا بالمشركين؟ قال: بلى، قال: فعلام نعطى الذلة فى ديننا؟ فقال أبو بكر: يا عمر الزم غرزه حيث كان» الحديث.

أو : أن يكون المقصود بقوله:

﴿ لَمِنَ الْغَافِلِينَ (٣) ﴾ [يوسف]

أى : أنك يا محمد لم تكن ممَّنْ يعرفون قصة يوسف ؛ لأنك لم تتعلم القراءة فتقرأها من كتاب ، ولم تجلس إلى مُعلِّم يروى لك تلك القصة ، ولم تجمع بعضاً من أطراف القصة من هنا أو هناك.

بل أنت لم تَتَلَقَّ الوحى بها إلا بعد أن قال بعض من أهل الكتاب لبعض من أهل مكة : اسألوه عن أبناء يعقوب وإخوة يوسف ؛ لماذا خرجوا من الشام وذهبوا إلى مصر[1] ؟

وكان ضَرْباً[2] من الإعجاز أن ينزل إليك يا رسول الله هذا البيان العالى بكل تفاصيل القصة ، كدليل عملىٍّ على أن مُعلِّم محمدٍ ﷺ هو الله ، وأنه سبحانه هو مَنْ أوحى بها إليه .

والوَحْى ـ كما نعلم ـ هو الإعلام بخفاء ، وسبحانه يوحى للملائكة فيقول :

﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا.. (١٢) ﴾ [الأنفال]

---

(١) ذكره القرطبى فى تفسيره من قول النحاس (٤/٣٤٤٠) : « يُروى أن اليهود قالوا : سلوه لم انتقل آل يعقوب من الشام إلى مصر ؟ وعن خبر يوسف ، فأنزل الله عز وجل هذا بمكة موافقاً لما فى التوراة ، وفيه زيادة ليست عندهم » .

(٢) الضرب : الصنف من الأشياء . ويقال : هذا من ضرب ذلك أى من نحوه وصِنْفه ، والجمع : ضُروب . وضرب الله مثلاً أى وصف وبيَّن . وقولهم : ضرب له المثل بكذا ، إنما معناه بيَّن له ضَرْباً من الأمثال أى صنفاً منها . [لسان العرب ـ مادة : ضرب] .

وسبحانه يوحى إلى مَنْ يصطفى من البشر إلى صفوتهم ؛ مصداقاً لقوله سبحانه :

﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ[١] أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ (١١١) ﴾ [المائدة]

ويقذف الحق سبحانه بالإلهام وحياً لا يستطيع الإنسان دَفْعاً له ، مثل الوحى لأم موسى بأن تلقى طفلها الرضيع موسى فى اليَمِّ[٢] :

﴿ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ (٣٨) أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ[٣] فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ[٤] يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي (٣٩) ﴾ [طه]

ويوحى سبحانه إلى الأرض وهى الجماد ، مثل قوله الحق :

﴿ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا (٥) ﴾ [الزلزلة]

---

(١) الحواريون : جمع حوارى . وهو : الخالص النقىُّ من كل شىء ، وشاع استعماله فى الخلصاء والأصفياء للأنبياء ، قال تعالى : ﴿ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ .. (٥٢) ﴾ [آل عمران] . [القاموس القويم : ١/١٧٧] .

(٢) اليم : البحر أو النهر العذب ، قال تعالى : ﴿ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ .. (١٣٦) ﴾ [الأعراف] ، وهو خليج السويس وماؤه ملح ، وهو امتداد البحر الأحمر . وقوله تعالى : ﴿ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ .. (٣٩) ﴾ [طه] هو نهر النيل العذب . [القاموس القويم : ٢/٣٧٢] .

(٣) التابوت : الصندوق . قال تعالى : ﴿ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ .. (٢٤٨) ﴾ [البقرة] والتابوت أيضاً : الأضلاع وما تحويه كالقلب والكبد وغيرهما ، تشبيهاً بالصندوق الذى يُحْرز فيه المتاع . [القاموس القويم : ١/٩٦] ، [لسان العرب ـ مادة : تبت] .

(٤) سحله : قشره ونحته . والرياح تسحل الأرض : تكشط ما عليها من تراب . والساحل : شاطىء النهر ؛ لأن الموج يأكل منها وينحته ويسحته ، قال تعالى : ﴿ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي (٣٩) ﴾ [طه] أى : بشاطىء النهر . [القاموس القويم : ١/٣٠٦] .

وأوحى سبحانه إلى النحل ، فقال الحق :

﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ(١) (٦٨) ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا(٢) .. (٦٩) ﴾ [النحل]

والحق سبحانه يوحى لمن شاء بما شاء ، فالكل ؛ جماد ونبات وحيوان وإنسان ؛ من خَلْقه ، وهو سبحانه يخاطبهم بِسرِّ خَلْقه لهم ، واختلاف وسائل استيعابهم لذلك.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ(٣) لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا(٤) وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ (٤) ﴾

---

(١) عرش البيت : سقفه . قال تعالى : ﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا .. (٤٥) ﴾ [الحج] . [لسان العرب ـ مادة : عرش] .

(٢) ذل : لان وانقاد من غير قهر بعد تصعُّب ، فهو ذلول وجمعه ذلل ، وهذه مطايا ذلل أو طرق ذلل : سهلة ممهدة ، قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ (١٥) ﴾ [الملك] ، وقوله : ﴿ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا .. (٦٩) ﴾ [النحل] أى : ممهدة للنحل ليجمع العسل منها . [القاموس القويم : ١/ ٢٤٥ باختصار] .

(٣) قال القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٤٤١) : « سئل أبو الحسن الأقطع ـ وكان حكيماً ـ عن « يوسف » فقال : الأسف فى اللغة الحزن ، والأسيف العبد ، وقد اجتمعا فى يوسف ؛ فلذلك سُمِّى يوسف » .

(٤) الكوكب : فى تعبير القرآن يشمل الكوكب البارد التابع المستمد نوره من غيره ، ويشمل النجم الملتهب كأنه كرة كبيرة من النيران ، قال تعالى : ﴿ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ .. (٣٥) ﴾ [النور] أى : نجم ساطع الضياء ، [القاموس القويم : ٢/ ١٧٧ باختصار] .

وهكذا تبدأ قصة يوسف ، حين يقول لأبيه يعقوب عليهما السلام « يا أبت » ، وأصل الكلمة « يا أبى » ، ونجد فى اللغة العربية كلمات « أبى » و « أَبتِ » و « أبتاَهُ » و « أَبَة » وكلها تؤدى معنى الأبوة ، وإن كان لكل منها مَلْحظ لغوى .

ويستمر يوسف فى قوله :

﴿ يَا أَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَاجِدِينَ ﴿٤﴾ ﴾ [يوسف]

وكلنا رأينا الشمس والقمر ؛ كُلٌّ فى وقت ظهوره ؛ لكن حُلم يوسف يُبيِّن أنه رآهما معاً ، وكلنا رأينا الكواكب متناثرة فى السماء آلافاً لا حَصْرَ لها ، فكيف يرى يوسف أحد عشر كوكباً فقط ؟

لا بُدَّ أنهم اتصفوا بصفات خاصة ميَّزتهم عن غيرهم من الكواكب الأخرى ؛ وأنه قام بعدِّهم .

ورؤيا يوسف عليه السلام تبيِّن أنه رآهم شمساً وقمراً وأحد عشر كوكباً ؛ ثم رآهم بعد ذلك ساجدين .

وهذا يعنى أنه رآهم أولاً بصفاتهم التى نرى بها الشمس والقمر والنجوم بدون سجود ؛ ثم رآهم وهم ساجدون له ؛ بملامح الخضوع لأمر من الله ، ولذلك تكررت كلمة « رأيت » وهو ليس تكراراً ، بل لإيضاح الأمر .

ونجد أن كلمة ﴿ سَاجِدِينَ ﴿٤﴾ ﴾ [يوسف]

وهى جمع مذكر سالم ؛ ولا يُجمع جَمْع المذكر السالم إلا إذا كان

المفرد عاقلاً ، والعقل يتميز بقدرة الاختيار بين البدائل ؛ والعاقل المؤمن هو مَنْ يجعل اختياراته فى الدنيا فى إطار منهج الدين ، وأسْمَى ما فى الخضوع للدين هو السجود لله .

ومَنْ سجدوا ليوسف إنما سجدوا بأمر من الله ، فَهُم إذن يعقلون أمر الحق سبحانه وتعالى[1] .

مثلُهم فى ذلك مَثَلُ ما جاء فى قول الحق سبحانه :

﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ۝١ وَأَذِنَتْ[2] لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٢﴾ [الانشقاق]

هذه السماء تعقل أمر ربِّها الذى بَنَاها .

وقال عنها أنها بلا فُرُوجٍ[3] :

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٣٤٤٣/٤) : « القول عند الخليل وسيبويه أنه لما أخبر عن هذه الأشياء بالطاعة والسجود وهما من أفعال من يعقل أخبر عنهما كما يخبر عمَّنْ يعقل ».

ويؤخذ من مفهوم خواطر الإمام أن الآية بيَّنت منزلة يوسف بين الأسرة ، ومنزلته عند ربه وأنه فى نهاية المطاف سيعترفون بفضله وعظمته ، وهذا دليل الانتصار بعد الحصار .

ولنعلم أن الرؤيا المنامية لها قوانين تختلف عن الرؤية البصرية ، وأن رمزيات الرؤيا المنامية فيها من الأسرار ما يعطى المطلوب ؛ لأنها تحمل إشارات توضيحية للمراد منها مثل رؤيا يوسف فى حالة سجودهم له ، وأنه رأى الجميع فى وقت واحد مع حذف الزمن المنوط بهما .

(٢) أذن لكلام فلان ، وأذن إلى صوته : استمع إليه بأذنه وأنصت معجباً به مُحباً له ، وفُسِّر بهذا المعنى قوله تعالى : ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٢﴾ [الانشقاق] أى : استمعت لأمر ربها واستجابت وأطاعت وخضعت راضية . [القاموس القويم : ١٦/١ باختصار].

(٣) الفروج : جمع فرج ، وهو الخلل بين الشيئين . والفرج : الشق ، قال تعالى فى وصف السماء : ﴿ وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦﴾ [ق] أى : شقوق فهى متماسكة لا خلل فيها ولكنها يوم القيامة تتشقق . قال تعالى : ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ۝٩﴾ [المرسلات] . [القاموس القويم : ٧٤/٢] .

﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾﴾ [ق]

وهى أيضاً تسمع أمر ربها ، مصداقاً لقوله سبحانه :

﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾﴾ [الانشقاق]

أى : أنها امتلكتْ حاسة السمع ؛ لأن «أذنت » من الأذن ؛ وكأنها بمجرد سماعها لأمر الله ؛ تنفعل وتنشق[١] .

وهكذا نجد أن كل عَالَم من عوالم الكون أُمَم مثل أمة البشر[٢] ، ويتفاهم الإنسان مع غيره من البشر ممَّن يشتركون معه فى اللغة ، وقد يتفاهم مع البشر أمثاله ممن لا يعرف لغتهم بالإشارة ، أو من خلال مُترجم ، أو من خلال تعلُّم اللغة نفسها .

ولكن الإنسان لا يفهم لغة الجماد ، أو لغة النبات ، أو لغة الحيوان ؛ إلا إذا أنعم الله على عبد بأن يفهم عن الجماد ، أو أن يفهم الجماد عنه .

والمثل : هو تسبيح الجبال مع داود ، ويُشكِّل تسبيحه مع تسبيحها «جُوقة »[٣] من الانسجام مُكَوَّن من إنسان مُسبِّح ؛ هو أعلى الكائنات ، والمُردِّد للتسبيح هى الجبال ، وهى من الجماد أدنى الكائنات .

---

(١) ومثال هذا قوله تعالى : ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾﴾ [فصلت]

(٢) قال تعالى : ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ..﴿٣٨﴾﴾ [الأنعام] .

(٣) الجَوْق فى اللغة : كل خليط من الرعاء أمرهم واحد . وقال الليث : الجوق كل قطيع من الرعاة أمرهم واحد . والجوق أيضاً : الجماعة من الناس . [لسان العرب ـ مادة : جوق].

ونحن نعلم أن كل الكائنات تُسبِّح ، لكننا لا نفقه تسبيحها[١] ، ولكن الحق سبحانه يختار من عباده مَنْ يُعلِّمه مَنْطِق الكائنات الأخرى ، مثلما قال سبحانه عن سليمان :

﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ .. (١٦) ﴾ [النمل]

وهكذا علَمْنا أن للطير منطقاً . وعلَّم الحقُّ سبحانه سليمان لغة النمل ؛ لأننا نقرأ قول الحق :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَـٰأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ[٢] سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (١٨) فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي[٣] أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ (١٩) ﴾ [النمل]

إذن : فلكُلِّ أُمَّة من الكائنات لغة ، وهى تفهم عن خالقها ، أو مَنْ أراد له الله سبحانه وتعالى أن يفهم عنها ، وبهذا نعلم أن الشمس والقمر والنجوم حين سجدتْ بأمر ربها ليوسف فى رؤياه ؛ إنما فهمتْ عن أمر ربها .

---

(١) قال تعالى : ﴿ .. وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (٤٤) ﴾ [الإسراء] .

(٢) حطمه يحطمه : كسره بعنف ، وأصل الحطم : كسر الشيء الجاف ، ويُطلق على أى كسر ، قال تعالى : ﴿ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ .. (١٨) ﴾ [النمل] . والحطام : ما تكسَّر من اليابس ، قال تعالى : ﴿ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا .. (٦٥) ﴾ [الواقعة] .

(٣) أوزعه أن يفعل كذا : دفعه وحثَّه وأغراه ، أو ألهمه وأرشده ، قال تعالى : ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ .. (١٩) ﴾ [النمل] أى : ألهمنى شكرك وادفعنى إليه وحبِّبه إلىَّ [القاموس القويم ٢/ ٣٣٤] .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ ﴾[1]

وحين يُورِد القرآن خطاب أب لابن نجد قوله ﴿ يَا بُنَيَّ ﴾ وهو خطابُ تحنينٍ ، ويدل على القرب من القلب[2] ، و « بُنى » تصغير « ابن » .

أما حين يأتى القرآن بحديث أب عن ابنه فهو يقول « ابنى » مثل قول الحق سبحانه عن نوح يتحدث عن ابنه الذى اختار الكفر على الإيمان :

﴿ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي .. ﴿٤٥﴾ ﴾ [هود]

وكلمة « يا بنى » بما فيها من حنان وعطف ؛ ستفيدنا كثيراً فيما سوف يأتى من مواقف يوسف ؛ ومواقف أبيه منه .

وقول يعقوب ليوسف « يا بنى » يُفْهم منه أن يوسف عليه السلام ما زال صغيراً ، فيعقوب هو الأصل ، ويوسف هو الفرع ، والأصل دائماً يمتلىء بالحنان على الفرع ، وفى نفس الوقت نجد أىَّ أب يقول : مَنْ يأكل لقمتى عليه أن يسمع كلمتى .

---

(١) كاد فلاناً يكيده كيْداً : خدعه ومكر به واحتال لإلحاق الضرر به . والكيد مصدر ويطلق على العمل أو الوسيلة التى يتذرع بها الكائد ليتغلب على خصمه . [القاموس القويم : ٢/١٨٠] .

(٢) ورد هذا الخطاب فى القرآن ٦ مرات فى سورة هود ويوسف ولقمان فى ثلاث آيات والصافات .

ولنعلم أن الكون وما فيه ومَنْ فيه وظيفته أمام الله الطواعية والسجود استجابة لمراد الله فهو من الواردات .

وقول الأب : يا بنى ، يفهم منه أن الابن ما زال صغيراً ، ليست له ذاتية منفصلة عن الأب ليقرر بها ما هو المناسب ، وما هو غير المناسب .

وحين يفزع يوسف مما يُزعجه أو يُسىء إليه ؛ أو أى أمر مُعْضَل[1] ؛ فهو يلجأ إلى مَنْ يحبه ؛ وهو الأب ؛ لأن الأب هو – الأقدر فى نظر الابن – على مواجهة الأمور الصعبة .

وحين روى يوسف عليه السلام الرؤيا لأبيه ؛ قال الأب يعقوب عليه السلام :

﴿ قَالَ يَا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ .. (٥) ﴾ [يوسف]

ونفهم من كلمة « رؤيا » أنها رؤيا منامية ؛ لأن الشمس والقمر والنجوم لا يسجدون لأحد ، وهذا ما يوضح لنا دقة اللغة العربية ، فكلمة واحدة هى « رأى » قد يختلف المعنى لها باختلاف ما رُؤى ؛ فرؤيتك وأنت يقظانُ يُقال عنها « رؤية » ؛ ورؤيتك وأنت نائم يُقال عنها « رؤيا » .

والرؤية مصدر مُتفق عليه من الجميع ؛ فأنت ترى ما يراه غيرك ؛ وأما « الرؤيا » فهى تأتى للنائم .

وهكذا نجد الالتقاء فى « رأى » والاختلاف فى الحالة ؛ هل هى حالة النوم أو حالة اليقظة . وفى الإعراب كلاهما مؤنث ؛ لأن علامة التأنيث إما :

---

(١) الأمر المعضل : الصعب الشديد الضيق . عضَّل عليه فى أمره تعضيلاً : ضيَّق من ذلك وحال بينه وبين ما يريد ظلماً . وعضّل بهم المكان : ضاق . وعضَّلت الأرض بأهلها إذا ضاقت بهم لكثرتهم . [لسان العرب ـ مادة : عضل] .

« تاء » ، أو « ألف ممدودة » ، أو « ألف مقصورة »[١] .

وأخذت الرؤية الحقيقية التى تحدث فى اليقظة « التاء » وهى عمدة التأنيث ؛ أما الرؤيا المنامية فقد أخذت ألف التأنيث .

ولا يقدح[٢] فى كلمة « رؤيا » أنها منامية إلا آية واحدة فى القرآن ، حين تحدث الحق سبحانه عن لحظة أن عُرِجَ[٣] به ﷺ ؛ فقال :

﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِى أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً[٤] لِّلنَّاسِ.. (٦٠) ﴾ [الإسراء]

ولكن مَنْ يقولون : « إنها رؤيا منامية » لم يفقهوا المعنى وراء هذا القول ؛ فالمعنى هو : إن ما حدث شىء عجيب لا يحدث إلا فى الأحلام ، ولكنه حدث فى الواقع ؛ بدليل أنه قال عنها : أنها «فتنة للناس » .

---

(١) علامات التأنيث اللفظية ثلاث هى :

– تاء التأنيث : تدخل على الفعل والاسم ، مثل جالسة وفاطمة ولأنها تدخل للتفرقة بين المذكر والمؤنث فإنها لا تدخل فى الأوصاف الخاصة بالمؤنث مثل : حائض ، مرضع ، ثيب.

– ألف التأنيث المقصورة : وهى ألف لازمة مفتوح ما قبلها تلحق آخر الكلمة المؤنثة .

– ألف التأنيث الممدودة : وهى مقطع مكون من همزة تسبقها ألف مد مفتوح ما قبلها ، وهى تلحق الأسماء ، دون الأفعال مثل : حسناء ، صحراء ، كبرياء ، عاشوراء . راجع : القواعد الصرفية ـ الدكتور على أبو المكارم ـ طبعة ١٩٧٩ ص : ٦٢ ـ ٦٥ .

(٢) قدح : أثَّر . يقال : قدح الشىء فى صدرى : أثَّر . وفى حديث على كرم الله وجهه : يقدح الشك فى قلبه بأول عارضة من شبهة . [لسان العرب ـ مادة : قدح] .

(٣) عرج يعرج عروجاً : صعد وعلا وارتفع . والمعراج : كل ما ساعدك على الصعود . والجمع معارج ، قال تعالى : ﴿وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (٣٣)﴾ [الزخرف] أى : يركبونها ويصعدون فيها إلى أعلى . [القاموس القويم باختصار : ١٣/٢] .

(٤) قال الأزهرى وغيره : جماع معنى الفتنة الابتلاء والامتحان والاختبار . [انظر : لسان العرب ـ مادة : فتن] .

فالرسول ﷺ لو كان قد قال إنها رؤيا منامية لما كذَّبه أحد فيما قال ؛ لكنه أعلن أنها رؤيا حقيقية ؛ لذلك عبّر عنها القرآن بأنها فتنة للناس .

وهنا يقول يعقوب عليه السلام :

﴿ قَالَ يَا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ .. ﴿٥﴾ ﴾ [يوسف]

لأن يعقوب عليه السلام كأب مأمونٌ على ابنه يوسف ؛ أما إخوة يوسف فهم غير مأمونين عليه ، وحين يقصُّ يوسف رؤياه على أبيه ، فهو سينظر إلى الصالح ليوسف ويدلُّه عليه[1] .

أما إن قصَّ الرؤيا على إخوته ؛ فقد تجعلهم الأغيار البشرية يحسدون أخاهم ، وقد كان .

وإن تساءل أحد : ولماذا يحسدونه على رؤيا منامية ، رأى فيها الشمس والقمر وأحدَ عشرَ كوكباً يسجدون له ؟

نقول : لا بُدَّ أن يعقوب عليه السلام قد علِم تأويل الرُّؤيا ؛ وأنها نبوءة لأحداث سوف تقع ؛ ولا بُدَّ أن يعقوب عليه السلام قد علم أيضاً قدرة إخوة يوسف على تأويل تلك الرؤيا ، ولو قالها يوسف لهم لَفهِموا المقصود منها ، ولا بد حينئذ أن يكيدوا له كيداً يُصيبه بمكروه .

فهم قد أصابهم الضيق من يوسف وهو ما زال طفلاً ، فما باله بضيقهم إنْ علِموا مثل هذه الرؤيا التى يسجد له فيها الأب والأم مع الإخوة .

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٣٤٤٧/٤) : « هذه الآية أصل فى ألا تقص الرؤيا على غير شفيق ولا ناصح ، ولا على من لا يحسن التأويل فيها » .

ولا يعنى ذلك أن نعتبر إخوة يوسف من الأشرار ؛ فهم الأسباط[١] ؛ وما يصيبهم من ضيق بسبب عُلُو عاطفة الأب تجاه يوسف هو من الأغيار التى تصيب البشر ، فهم ليسوا أشراراً بالسَّليقة[٢] ؛ لأن الشرير بالسَّليقة تتصاعد لديه حوادثُ السوء ، أما الخيِّر فتتنزَّل عنده حوادث السوء .

والمثل على ذلك : أنك قد تجد الشرير يرغب فى أن يصفع إنساناً آخر صفعة على الخَدِّ ؛ لكنه بعد قليل يفكر فى تصعيد العدوان على ذلك الإنسان ، فيفكر أن يصفعه صفعتين بدلاً من صفعة واحدة ؛ ثم يرى أن الصفعتين لا تكفيان ؛ فيرغب أن يُزيد العدوان بأن يصوِّب عليه مسدساً ؛ وهكذا يُصعِّد الشرير تفكيره الإجرامى.

أما الخَيِّر فهو قد يفكر فى ضرب إنسان أساء إليه « علقة » ؛ لكنه يُقلِّل من التفكير فى رَدِّ الاعتداء بأن يكتفى بالتفكير فى ضربه صفعتين بدلاً من «العلقة » ، ثم يهدأ قليلاً ويعفو عَمَّنْ أساء إليه .

وإخوة يوسف – وهم الأسباط[٣] – بدءوا فى التفكير بانتقام كبير من يوسف ، فقالوا لبعضهم :

---

(١) الأسباط : جمع سبط ، والسبط : الشجرة ذات أصل واحد ، ولها أغصان كثيرة ، ونقل ذلك مجازاً إلى شجرة النسب . فالسبط : القبيلة المتفرعة من أصل واحد . والأسباط : هم القبائل من أولاد يعقوب عليه السلام ، وهما اثنتا عشرة قبيلة تنسب إلى أبناء يعقوب الاثنى عشر : ﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا .. (١٦٠)﴾ [الأعراف] [القاموس القويم : ١/٣٠٠].

(٢) السليقة : الطبيعة والسجية ، وفلان يقرأ بالسليقة أى بطبيعته لا بتعلُّم . وقيل : بالسليقية ، أى : بطبعه الذى نشأ عليه . قال أبو زيد : إنه لكريم الطبيعة والسليقة [لسان العرب – مادة : سلق] .

(٣) ذكرت كلمة الأسباط فى القرآن ٥ مرات منها ٤ مرات يُعنَى بها أسباط كانوا أنبياء ، والموضع الخامس الأسباط بمعنى أصول قبائل بنى إسرائيل ، وكان كل ابن من أبناء يعقوب هو أول السبط أو ذاك.

﴿ اقْتُلُوا يُوسُفَ .. (٩) ﴾ [يوسف]

ثم هبطوا عن هذه الدرجة المؤلمة من تعبيرهم عن الغيرة من زيادة محبة أبيهم ليوسف ، فقالوا :

﴿ أَوِ اطْرَحُوهُ (١) أَرْضًا يَخْلُ (٢) لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ .. (٩) ﴾ [يوسف]

وحينما أرادوا أن يطرحوه أرضاً ترددوا ؛ واستبدلوا ذلك بإلقائه فى الجُبِّ (٣) لعل أن يلتقطه بعض السَّيارة (٤) . فقالوا :

﴿ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ (٥) الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ .. (١٠) ﴾ [يوسف]

وهذا يدل على أنهم تنزَّلوا عن الانتقام الشديد بسبب الغيرة ؛ بل إنهم فكروا فى نجاته .

وفى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها يقول الحق سبحانه :

---

(١) طرح الشىء يطرحه طرحاً : نبذه وألقاه ، قال تعالى : ﴿ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا .. (٩) ﴾ [يوسف] أى : ألقوه فى أرض بعيدة . [القاموس القويم ١/٣٩٩] .

(٢) خلا فلان إلى فلان : فرغ له ولم يشتغل عنه بغيره . قال تعالى على لسان إخوة يوسف : ﴿ يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ .. (٩) ﴾ [يوسف] أى : يفرغ لكم والدكم ، ويتجه إليكم بكل عنايته ، ولا يشتغل عنكم بأحد غيركم . [القاموس القويم ١/٢٠٩] .

(٣) الجب : البئر التى لم تُبْن بالحجارة . قال الليث : الجب : البئر غير البعيدة . وقال الفراء : بئر مُجبَّبة الجوف إذا كان وسطها أوسع شىء منها مُقبَّبة . وهو أيضاً : البئر الكثيرة الماء البعيدة القعر . [لسان العرب ـ مادة : جبب] .

(٤) سيَّار : كثير السير ، صيغة مبالغة . وسيارة : صيغة مبالغة للمؤنث . والسيارة : الجماعة السائرة المسافرة . قال تعالى : ﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ .. (١٩) ﴾ [يوسف] أى : جماعة مسافرة ، وقوله : ﴿ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ .. (٩٦) ﴾ [المائدة] للمسافرين [القاموس القويم ١/٣٤٠] .

(٥) غاب الشىء يغيب غيباً : استتر عن العين أو عن علم الإنسان فى المعنوى . والغيب : مصدر ويسمى به ما غاب واستتر ، قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ (٣) ﴾ [البقرة]. [القاموس القويم ٢/٦٤ ، ٦٥ باختصار] .

﴿ لا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا.. (٥) ﴾ [يوسف]

والكيد : احتيال مستور لمَنْ لا تقوى على مُجَابهته، ولا يكيد إلا الضعيف ؛ لأن القوى يقدر على المواجهة .

ولذلك يُقَال : إن كيد النساء عظيم ؛ لأن ضعفهن أعظم .

ويُذيِّل الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله :

﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٥) ﴾ [يوسف]

وهذه العداوة معروفة لنا تماماً ؛ لأنه خرج من الجنة ملعوناً مطروداً ؛ عكس آدم الذى قَبِل الله توبته ؛ وقد أقسم الشيطان بعزة الله لَيُغْوِينَّ الكُلَّ ، واستثنى عبادَ اللَّه المخلصين[1] .

ولذلك يقول ﷺ : « لقد أعاننى الله على شيطانى فأسلم »[2] .

ويصف الحق سبحانه عداوة الشيطان للإنسان أنها عداوةٌ مُبينة[3] . أى : محيطة . وحين نقرأ القرآن نجد إحاطة الشيطان للإنسان فيها يقظة :

﴿ لآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ .. (١٧) ﴾ [الأعراف]

---

(١) حكى رب العزة هذا عن إبليس اللعين أنه قال : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣) ﴾ [ص] .

(٢) عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة . قالوا : وإياك يا رسول الله ؟ قال : وإياى ولكن الله أعاننى عليه فلا يأمرنى إلا بحق » . أخرجه أحمد فى مسنده (١/٣٨٥) .

(٣) بان الشىء يبين بياناً : ظهر واتضح فهو بيِّن وهى بيِّنة أى : ظاهر وظاهرة ، ويستعمل البيِّن والبينة بمعنى المظهر والمظهرة والموضح والموضحة ، وبالمعنيين يُفسَّر . وبين الشىء وأبان وبيَّن واستبان : لم يَعُدْ خافياً . وقوله : ﴿ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (١٦٨) ﴾ [البقرة] . [القاموس القويم ١/٩١ ، ٩٢ بتصرف] .

ولم يَأْتِ ذِكْر للمجىء من الفوقية أو من التحتية ؛ لأن مَنْ يحيا فى عبودية تحتية ؛ وعبادية فوقية ؛ لا يأتيه الشيطان أبداً .

ونلحظ أن الحق سبحانه جاء بقول يعقوب عليه السلام مخاطباً يوسف عليه السلام فى هذه الآية :

﴿فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا .. (٥)﴾ [يوسف]

ولم يقل : فيكيدوك ، وهذا من نَضْح[1] نبوة يعقوب عليه السلام على لسانه ؛ لأن هناك فارقاً بين العبارتين ، فقول : « يكيدوك » يعنى أن الشرَّ المستور الذى يدبرونه ضدك سوف يصيبك بأذى.

أما ﴿فَيَكِيدُوا[2] لَكَ .. (٥)﴾ [يوسف]

فتعنى أن كيدهم الذى أرادوا به إلحاق الشر بك سيكون لحسابك ، ويأتى بالخير لك .

ولذلك نجد قوله الحق فى موقع آخر بنفس السورة :

﴿ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ .. (٧٦)﴾ [يوسف]

أى : كِدْنا لصالحه .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

---

(١) أصل النضح : الرشح . يقال : نضح الرجل بالعرق نضحاً : فضَّ به . ونضحت العين : فارت بالدمع وعيناه تنضحان ونضحت الخابية والجَرَّة تنضح : إذا كانت رقيقة فخرج الماء من الخزف ورشحت . [لسان العرب ـ مادة : نضح بتصرف] .

(٢) كاد فلاناً يكيده كيْداً : خدعه ومكر به واحتال لإلحاق الضرر به ، والكيد مصدر ويُطلق على العمل أو الوسيلة التى يتذرع بها الكائد ليتغلب على خصمه . [القاموس القويم ٢/١٨٠] .

﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ(١) وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ(٢) وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾﴾

أى : كما آنسك الله بهذه الرؤيا المُفْرحة المُنْبِئة بأنه سيكون لك شأن كبير بالنسبة لإخوتك وبالنسبة لأبيك ، فلسوف يجتبيك ربك ؛ لا بأن يحفظك فقط ؛ ولكن بأن يجعل كيدهم سبباً لصالحك ، ويُعلِّمك من تأويل الأحاديث ما يجعل أصحابَ الجاهِ والنفوذ يلتفتون إليك .

ومعنى تأويل الشىء أى معرفة ما يؤول إليه الشىء ، ونعلم أن الرُّؤى تأتى كطلاسم ، ولها شَفْرة رمزية لا يقوم بِحلِّها إلا مَنْ وهبه الله قدرة على ذلك ؛ فهى ليست عِلْماً له قواعد وأصول ؛ لأنها إلهامات من الله سبحانه وتعالى .

---

(١) اجتبى فلاناً : اختاره واستخلصه واصطفاه ، قال تعالى : ﴿ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾ [الشورى] أى : يصطفى ويختار من يشاء من خلقه . [القاموس القويم ١/١١٧] .

(٢) الحديث : الكلام وجمعه أحاديث ، والأحاديث جمع أُحْدوثة ، وهى الحديث العجيب . والحديث قد يُطلق على الرُّؤى والأحلام ، قال تعالى : ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ..﴿٦﴾﴾ [يوسف] وأما قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ..﴿٤٤﴾﴾ [المؤمنون] فهو كناية عن الموت والهلاك ، أى : بعد أن كانوا أحياء صاروا أمواتاً يتحدَّث الناس عنهم . [القاموس القويم ١/١٤٥] .

وبعد ذلك تصير يا يوسف على خزائن الأرض ؛ حين يُوجد الجَدْبُ[١] ، ويعُمُّ المنطقة كلها ، وتصبح عزيز مصر .

ويتابع الحق سبحانه :

﴿ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ .. ﴿٦﴾ ﴾ [يوسف]

فكلُّ ما تَمَتَّع به يوسف هو من نعم الدنيا ، وتاج نعمة الدنيا أن الله اجتباه رسولاً .

أو أن : ﴿ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ .. ﴿٦﴾ ﴾ [يوسف]

بمعنى ألا تسلب منك النعمة أبداً ؛ ففى حياة يوسف منصبٌ مهم ، هو منصب عزيز مصر ، والمناصب من الأغيار التى يمكن أن تنزع .

أو أن : ﴿ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ .. ﴿٦﴾ ﴾ [يوسف]

بأن يصل نعيم دنياك بنعيم أُخْراك[٢] .

ويتابع الحق سبحانه :

﴿ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾ ﴾ [يوسف]

يُذكِّر الحق سبحانه يوسف عليه السلام بأن كيد إخوته له لا يجب أن يُحوِّله إلى عداوة ؛ لأن النِّعم ستتم أيضاً على هؤلاء الإخوة فهم آلُ يعقوب ؛ هم وأبناؤهم حَفَدة يعقوب ، وسينالهم بعضٌ من عِزِّ

---

(١) الجدب : القحط وهو نقيض الخصب . والأرض الجدبة : التى ليس بها قليل ولا كثير ولا مَرْتَع ولا كلأ ، والأرض المجداب : التى لا تكاد تُخْصب . [لسان العرب ـ مادة : جدب] .

(٢) قال القرطبى فى تفسيره (٤/٣٤٥٠) « ﴿ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ .. ﴿٦﴾ ﴾ [يوسف] أى : بالنبوة . وقيل : بإخراج إخوتك إليك . وقيل : بإنجائك من كل مكروه » .

يوسف وجاهه وماله ، كما أتمَّها من قبل على إبراهيم الجد الأول ليوسف باتخاذه خليلا[١] لله ، وأتمَّ سبحانه نعمته على إسحق بالنبوة .

وهو سبحانه أعلمُ بمَنْ يستحق حمْل الرسالة ، وهو الحكيم الذى لا يترك شيئاً للعبث ؛ فهو المُقدِّر لكل أمر بحيث يكون مُوافقاً للصواب .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ ۝٧﴾

أى : أن يوسف صار ظَرْفاً للأحداث ، لأن « فى » تدل على الظرفية[٢] ، ومعنى الظرفية أن هناك شيئاً يُظْرف فيه شىء آخر ، فكأن يوسف صار ظَرْفاً ستدور حوله الأحداث بالأشخاص المشاركين فيها .

و « يوسف » اسم أعجمى ؛ لذلك فهو « ممنوع من الصرف » أى : ممنوع من التنوين فلا نقول : فى يوسفٍ .

و ﴿ يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ ۝٧ ﴾ [يوسف]

وهذا يعنى أن ما حدث إنما يُلفت لقدرة الله سبحانه ؛ فقد أُلقِى فى الجُبِّ وأُنقذ ليتربى فى أرقى بيوت مصر .

---

(١) قال تعالى : ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً ۝١٢٥﴾ [النساء] ، وسُمِّى إبراهيم عليه السلام خليل الله لشدة محبته لربه عز وجل لما قام له به من الطاعة التى يحبها ويرضاها . [ابن كثير ١/٥٦٠] .

(٢) قال ابن هشام الأنصارى فى مغنى اللبيب (١/١٤٤) : « فى : حرف جر له عشرة معان منها : الظرفية وهى إما مكانية أو زمانية ، وقد اجتمعتا فى قوله تعالى : ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ الرُّومُ ۝٢ فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِي بِضْعِ سِنِينَ .. ۝٤﴾ [الروم] » .

ونعلم أن كلمة آيـة تطلق على الأمر العجـيب الملفت للنظر ، وهى تَرِد بالقرآن بثلاثة معانٍ :

آية كـونية : مـثل الشـمس والقمـر والليل والنهـار ، وتلك الآيات الكونيـة رصيد للنـظر فى الإيمان بواجب الوجـود وهو الله سبـحانه ؛ فسـاعة ترى الكون مـنتظماً بتلك الدقـة المتناهيـة ؛ لا بُدَّ أن تفكر فى ضرورة وجود خالق لهذا الكون .

والآيات العجيبة الثانية هى المعجزات الخارقة للنواميس التى يأتى بها الرسل ؛ لتدل على صدق بلاغـهم عن الله ، مثل النار التى صارت بَرْداً[1] وسلاماً على إبراهيم ، ومثل الـماء الذى انفلق وصار كالطود[2] العظيم أمام عصا موسى .

وهنـاك المـعنى الثـالث لكلـمة آية ، والمـقـصـود به آيات القـرآن الكريم .

وفى قول الحق سبحانه :

﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ (٧)﴾ [يوسف]

---

(١) وذلك فى قولـه تعالى : ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ (٦٨) قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (٦٩)﴾ [الأنبياء] والبرد : ضد الحر . والبرودة : نقيض الحرارة . قال على ابن أبى طالب : أى لا تضر بـه . قال ابن عبـاس وأبو العالية : لولا أن الله عـز وجل قال : ﴿وَسَلَامًا(٦٩)﴾ [الأنبـياء] لآذى إبراهيم بردها . وقـال جويبـر عن الضحـاك : ﴿ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (٦٩)﴾ [الأنبياء] قالوا : ضعوا له حظيرة من حطب جزل وأشعلوا فيه النار من كل جانب ، فأصـبح ولم يصبه منها شىء حتى أخـمدها الله » [انظر تفسير ابن كـثير ٣/ ١٨٤] .

(٢) الطود : الجـبل الثـابت العالـى . قال تعـالى : ﴿ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٣)﴾ [الشعراء] .

نستشف العبرة من كل ما حدث ليوسف الذى كَادَ له إخوته ليتخلصوا منه ؛ لكن كَيْدهم انقلب لصالح يوسف .

وفى كل ذلك سلْوى[١] لرسول الله ﷺ ؛ لتثبيت فؤاده ؛ فلا يُعير بالاً لاضطهاد قومه له ، وتآمرهم عليه ، ورغبتهم فى نَفْيه إلى الشام ، ومحاولتهم قَتْله ، ومحاولتهم مُقاطعته ، وقد صاروا من بعد ذلك يعيشون فى ظلال كَنفه .

إذن : فلا تيأس يا محمد ؛ لأن الله ناصرك بإذنه وقدرته ، ولا تستبطىء نصر الله ، أنت ومَنْ معك ، كما جاء فى القرآن .

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ[٢] وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ (٢١٤) ﴾ [البقرة]

ويبين لنا الحق سبحانه ما حدث ليوسف بعد القهر الذى أصابه من إخوته ، ويمر الوقت إلى أن تتحقق رؤيا الخير التى رآها يوسف عليه السلام .

ويُقال : إن رؤيا يوسف تحققت فى فترة زمنية تتراوح بين

---

(١) سلاَّنى من همِّى تسلية وأسلانى أى كشفه عنى . وانسلى عنى الهمُّ وتسلى بمعنًى أى : انكشف . [لسان العرب ـ مادة : سلا] .

(٢) البأساء : الفقر والشدة ، قال تعالى : ﴿ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ ..(١٧٧) ﴾ [البقرة] فى وقت الفقر والحاجة . والضراء : طول المرض أو أى شدة أو نقص الأموال والأنفس ، وذلك مؤلم محزن وهو ضد السراء . [القاموس القويم ١/٥٣ ، ٣٩٢] .

أربعين سنة وثمانين عاماً[١] .

ولذلك نجد رُؤْيَا الخير يطول أَمَدُ تصديقها ؛ ورُؤْيَا الشر تكون سريعة ؛ لأن من رحمة الله أن يجعل رؤيا الشر يقع واقعاً وينتهى ، لأنها لو ظلَّتْ دون وقوع لأمد طويل ؛ لوقع الإنسان فريسةَ تخيُّل الشر بكُلِّ صوره.

والشر لا يأتى إلا على صورة واحدة ، ولكن الخير له صور متعددة ؛ فيجعلك الله مُتخيِّلاً لما سوف يأتيك من الخير بألوان وتآويل شتى .

والمثل لدعوة الشر هو دعوة موسى على آل فرعون ؛ حين قال :

﴿ رَبَّنَا اطْمِسْ[٢] عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ[٣] عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ (٨٨) ﴾ [يونس]

---

(١) « قال أبو عثمان النهدى عن سليمان : كان بين رؤيا يوسف وتأويلها أربعون سنة . وقال الحسن : كان منذ فارق يوسف يعقوب إلى أن التقيا ثمانون سنة لم يفارق الحزن قلبه ودموعه تجرى على خديه » . وهذا يوافق ما قاله ابن كثير فى تفسيره (٢/٤٩١) .

(٢) طمس الشىء : تغيرت صورته أو انمحى أثره . وطمسه غيره : شوَّهه أو مَحَاهُ وأزاله ، وطمس عينه : أعماها . وطمس على عينه : أعماها مضمِّنة معنى غطَّى وغشى عليها . قال تعالى : ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ .. (٦٦) ﴾[يس] .[القاموس القويم ١/٤٠٦ باختصار].

(٣) شدَّه : قوَّاه . وشد الحبل : ربطه ربطاً مُحكماً . وشد أسره : قوَّى قيده وأحكم وثاقه فلا يفلت منه أبداً ، أى : أحكم السيطرة عليه . ﴿ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ .. (٢٨) ﴾ [الإنسان] أى : أحكمنا وثاقهم وسيطرنا عليهم . وقوله : ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ.. (٢٠) ﴾ [ص] أى : قويناه . [القاموس القويم ١/٣٤٣ ، ٣٤٤ بتصرف] .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ (٧) ﴾ [يوسف]

فكل يوم من أيام تلك القصة هناك آية وتُجمع آيات .

وهناك قراءة أخرى : « لقد كان فى يوسف وإخوته آية للسائلين » أى : أن كل القصة بكل تفاصيلها وأحداثها آية عجيبة .

والحق سبحانه أعطانا فى القرآن مثلاً على جَمْع الأكثر من آية فى آية واحدة ، مثلما قال : ﴿ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً[1] .. (٥٠) ﴾ [المؤمنون]

مع أن كلاً منهما آية منفردة .

ولك أن تنظر إلى قصة يوسف كلها على أنها آية عجيبة تشمل كل اللقطات ، أو تنظر إلى كل لقطة على أنها آية بمفردها .

ويقول الحق سبحانه فى آخر هذه الآية أن القصة : ﴿ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ (٧) ﴾ [يوسف]

والسائلون هنا إما من المشركين الذين حرَّضهم اليهود[2] على أنْ

---

(١) أى : أنه سبحانه جعلهما آية للناس ، أى حجة قاطعة على قدرته على ما يشاء ، فإنه خلق آدم من غير أب ولا أم ، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى ، وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر ، وخلق بقية الناس من ذكر وأنثى . قاله ابن كثير فى تفسيره لهذه الآية (٣/٢٤٦) .

(٢) قال القرطبى فى تفسيره (٤/٣٤٥٠) : « أى : لقد كان للذين سألوا عن خبر يوسف آية فيما خبَّروا به ، لأنهم سألوا النبى ﷺ وهو بمكة فقالوا : أخبره عن رجل من الأنبياء كان بالشام أُخرج ابنه إلى مصر ، فبكى عليه حتى عمى ؟ - ولم يكن بمكة أحد من أهل الكتاب ، ولا من يعرف خبر الأنبياء ، وإنما وَجَّه اليهودُ من المدينة يسألون عن هذا - فأنزل الله عز وجل سورة « يوسف » جملة واحدة ، فيها كل ما فى التوراة من خبر وزيادة ، فكان ذلك آية للنبى ﷺ بمنزلة إحياء عيسى بن مريم عليه السلام الميت » .

يسألوا رسول الله ﷺ عن مسألة يوسف ، وإما من المسلمين الذين يطلبون العبَر من الأمم السابقة ، وجاء الوَحْىُ لينزل على الرسول الأمىِّ بتلك السورة بالأداء الرفيع المُعْجِز الذى لا يَقْوَى عليه بشر .

وأنت حين تقرأ السورة ؛ قد تأخذ من الوقت عشرين دقيقة ، هاتْ أنت أىَّ إنسان ليتكلم ثُلث ساعة ، ويظل حافظاً لما قاله ؛ لن تجد أحداً يفعل ذلك ؛ لكن الحق سبحانه قال لرسوله ﷺ :

﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنسَىٰ (٦) ﴾ [الأعلى]

ولذلك نجد الرسول ﷺ يحفظ ما أُنزل إليه من ربه ، ويُمليه على صحابته ويصلى بهم ؛ ويقرأ فى الصلاة ما أُنزل عليه ، ورغم أن فى القرآن آياتٍ متشابهات ؛ إلا أنه ﷺ لم يخطىء مرة أثناء قراءته للقرآن .

والأمثلة كثيرة منها قوله الحق :

﴿ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ (١٧) ﴾ [لقمان]

ومرة أخرى يقول :

﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ(١) الأُمُورِ (٤٣) ﴾ [الشورى]

وكذلك قول الحق سبحانه :

---

(١) عزم الأمر : من المجاز أى نفذ بعزيمة قوية من صاحبه . قال تعالى : ﴿ فَإِذَا عَزَمَ الأَمْرُ .. (٢١) ﴾ [محمد] فعل لازم أى : نفذ وتقرر وثبت بعزيمة قوية منكم . وقال تعالى : ﴿ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلاقَ (٢٢٧) ﴾ [البقرة] أى : عقدوا النية على إتمامه . وقال تعالى : ﴿ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ (١٨٦) ﴾ [آل عمران] أى : من الأمور الجادة الرشيدة التى لا يجوز التردد فيها أو من الأمور العظيمة التى يفعلها أصحاب العزم القوى . [القاموس القويم ٢/٢٠].

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٤٥)﴾ [الحجر]

وفى موقع آخر يقول الحق :

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ (١٧)﴾ [الطور]

فكيف يتأتَّى لبشر أُميٍّ أن يتذكر كل ذلك ، لولا أن الذى أنزل عليه الوحى قد شاء له ذلك .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ[1] إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ[2] مُّبِينٍ (٨)﴾

ولا بُدَّ لنا هنا أن ننظر إلى الأخوة بنوعياتها ؛ فقد تكون الأخوة من ناحية الأبوين معاً ؛ وقد تكون من ناحية الأب دون الأم، أو من ناحية الأم دون الأب ، وكان عدد أبناء يعقوب عليه السلام اثنا[3]

---

(١) العصبة : الجماعة المترابطة ، قال تعالى عن إخوة يوسف قولهم : ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ..(٨)﴾ [يوسف] . عصبه : ربطه ربطاً شديداً . وقوله : ﴿هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ (٧٧)﴾ [هود] أى : شديد العَصْب يعصب الناس ويُضيّق عليهم أو شديد الحر ، شديد الهول . [القاموس القويم ٢/٢٢] .

(٢) الضلال : النسيان والضياع . وقد يطلق الضلال على عمل خلاف الأَوْلى كقوله فى قصة يوسف : ﴿إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ (٩٥)﴾ [يوسف] أى : شدة تعلقك بيوسف وحزنك عليه فهو فى نظرهم ضلال . [القاموس القويم : ١/٣٩٥] .

(٣) قال القرطبى فى تفسيره (٤/٣٤٥١) : « أسماؤهم : روبيل وهو أكبرهم ، وشمعون ولاوى ويهوذا وزيالون ويساخر ، وأمهم ليا بنت ليان ، وهى بنت خال يعقوب ، وولد له من سريتين أربعة نفر : دان ونفتالى وجاد وآشر ، ثم توفيت ليا فتزوَّج يعقوب أختها راحيل ، فولدت له يوسف وبنيامين ، فكان بنو يعقوب اثنى عشر رجلاً . قال السهيلى : أم يعقوب اسمها رفقا ، وراحيل ماتت فى نفاس بنيامين . وقيل : فى اسم الأمتين ليا وتلتا ، كانت إحداهما لراحيل والأخرى لأختها ليا » .

عشر : سبعة من واحدة ؛ وأربعة من اثنتين : زلفى وبلهه ؛ واثنين من راحيل هما : يوسف ، وأخوه بنيامين .

وتبدأ الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها :

﴿إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا.. ﴿٨﴾﴾ [يوسف]

وحرف اللام الذى سبق اسم يوسف جاء للتوكيد ، وكأنهم قالوا : والله إن أبانا يحب يوسف وأخاه أكثر من حُبِّه لنا . والتوكيد لا يأتى إلا بصدد إنكار .

وهذا يدل على أنهم مختلفون فى أمر يوسف عليه السلام ؛ فأحدهم يريد أن ينتقم من يوسف ، وآخر يقترح تخفيف المسألة بإلقائه فى الجب[1] ؛ ثم انتهوا إلى أن يوسف أحبُّ إلى أبيهم منهم .

وفى قولهم لَمْحة من إنصاف ؛ فقد أثبتوا حب أبيهم لهم ؛ ولكن قولهم به بعضٌ من غفلة البشر ؛ لأنهم كان يجب أن يلتمسوا سبب زيادة حُبِّ أبيهم ليوسف وأخيه .

فيوسف وأخوه كانوا صِغَاراً وماتت أمهما[2] ؛ ولم يَعُدْ لهم إلا الأب الذى أحسَّ بضرورة أن يجتمع فيه تجاههما حنانُ الأب وحنانُ الأم ؛ ولأنهما صغارٌ نجد الأب يحنُو عليهما بما أودعه الله فى قلبه من قدرة على الرعاية .

وهذا أمر لا دَخْل ليعقوب فيه ؛ بل هى مسألة إلهية أودعها الله

---

(١) الجب : البئر التى لم تُبْن بالحجارة . قال الليث : هى البئر غير البعيدة . وقال الفراء : بئر مُجبَّبة الجوف إذا كان وسطها أوسع شىء منها مُقبَّبة . [لسان العرب ـ مادة : جبب] .

(٢) ماتت أمهما راحيل فى نفاس بنيامين . ذكره القرطبى فى تفسيره .

فى القلوب بدون اختيار ؛ ويُودعها سبحانه حتى فى قلوب الحيوانات.

وقد شاء سبحانه أن يجعل الحنان على قدر الحاجة ؛ فالقطة - على سبيل المثال - إن اقتربَ أحد من صغارها المولودين حديثاً ؛ تهجم على هذا الذى اقترب من صغارها .

ولذلك نجد العربى القديم قد أجاب على مَنْ سأله « أى أبنائك أحب إليك ؟ » فقال : « الصغير حتى يكبر ؛ والغائب حتى يعود ، والمريض حتى يشفى » .

وهذه مسألة نراها فى حياتنا اليومية ، فنجد امرأة لها ولدان ، واحد أكرمه الله بسعة الرزق ويقوم بكل أمورها واحتياجاتها ؛ والآخر يعيش على الكفاف[1] أو على مساعدة أخيه له ؛ ونجد قلبها دائماً مع الضعيف .

ولذلك نقول : إن الحب مسألة عاطفية لا تخضع إلى التقنين ؛ ولا تكليف بها ؛ وحينما يتعرض القرآن لها فالحق سبحانه يوضح : أن الحب والبغض انفعالات طبيعية[2] ؛ فأحبِبْ مَنْ شئتَ وأبغضْ مَنْ شئتَ ؛ ولكن إياك أن تظلم الناس لمن أحببت ؛ أو تظلم مَنْ أبغضت .

---

(١) الكفاف : أى ليس فى نفقته فضل إنما عنده ما يكفه عن الناس . قال الجوهرى : كفاف الشىء بالفتح مثله وقَيْسُه ، والكفاف أيضاً من الرزق : القوت وهو ما كفَّ عن الناس أى أغنى فهو لا يفضل عن الشىء ويكون بقدر الحاجة إليه . [لسان العرب - مادة : كفف].

(٢) الطبع والطبيعة : الخليقة والسجية التى جُبِل عليها الإنسان . والطباع : كالطبيعة ، مؤنثة [لسان العرب - مادة : طبع] .

اقرأ قول الحق سبحانه :

﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ[١] شَنَآنُ[٢] قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿٨﴾ ﴾ [المائدة]

فأحبب مَنْ شئتَ ، وأبغض مَنْ شئتَ ، ولكن لا تظلم بسبب الحب أو البغض .

وقد يقول قائل : ولكن الرسول ﷺ قال : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه » .

نقول : اقرأ ما جاء فى نفس رواية الحديث ؛ فقد قال عمر رضى الله عنه ـ بوضوحه وصراحته وجراءته ؛ دون نفاق ـ : أحبك يا رسول الله عن مالى وعن ولدى أما عن نفسى ؛ فلا . فكرر النبى ﷺ قوله :

« لا يؤمن أحدكم حتىٰ أكون أحب إليه من نفسه »[٣] .

---

(١) جرم الشىء ، جرماً : قطعه وغلب على فعل الشر . يقال : جرم : أذنب وجنى جناية . وجرم المال : كسبه من أى وجه . وجرمه : حمله على فعل شر أو ذنب وجُرْم . قال تعالى : ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا .. ﴿٨﴾ ﴾ [المائدة] أى : لا يحملنكم بغض قوم على عدم العدل ، أى : التزموا العدل حتى مع من تكرهونهم . أى : اعدلوا دائماً فالعدل أقرب للتقوى . [القاموس القويم ١/١٢١] .

(٢) شنأه وشنئه شنئاً وشنأة وشنآناً : أبغضه وكرهه قال تعالى : ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿٨﴾ ﴾ [المائدة] وشانيء : اسم فاعل . قال تعالى : ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴿٣﴾ ﴾ [الكوثر] أى : مبغضك وكارهك . [القاموس القويم ١/٣٥٧] .

(٣) عن جد زهرة بن معبد قال : كنا مع النبى ﷺ وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه فقال : والله يا رسول الله ، لأنت أحب إلىَّ من كل شىء إلا نفسى فقال النبى ﷺ : « والذى نفسى بيده ، لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه » قال : فأنت الآن والله أحب إلىَّ من نفسى . فقال رسول الله ﷺ : « الآن يا عمر » أخرجه أحمد فى مسنده (٤/٣٣٦) .

ففطنَ عمر رضى الله عنه إلى أن الأمر هو التزام عقدىٌّ وتكليفى ؛ وفَهِم أنَ المطلوب هو حُبُّ العقل ؛ لا حب العاطفة .

وحب العقل ـ كما نعلم ـ هو أن تُبصر الأمر النافع وتفعله ؛ مثلما تأخذ الدواء المُرَّ ؛ وأنت تفعل ذلك بحبٍّ عقلى ؛ رغبةً منك فى أن يأذن الحق بالشفاء .

والمسلم يحب رسول الله ﷺ بعقله ؛ لأنه يعلم أنه لولا مجىء رسول الله لما عرف حلاوة الإيمان ، وقد يتسامى[1] المسلم فى حُبِّ رسول الله ﷺ إلى أن يصير حب الرسول فى قلبه حباً عاطفياً .

وهكذا نرى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قد أوضح لنا الخطوط الفاصلة بين مبادىء الحب العقلى والحب العاطفى .

والمثال الآخر من سيرة عمر رضى الله عنه فى نفس المسألة ؛ حب العقل وحب العاطفة ؛ حين مَرَّ عليه قاتل أخيه ؛ فقال واحد ممَّنْ يجلسون معه : هذا قاتل أخيك . فقال عمر : وماذا أفعل به وقد هداه الله للإسلام ؟

وصرف عمر وجهه بعيداً عن قاتل أخيه ؛ فجاء القاتل إليه قائلاً : لماذا تزوى وجهك عنى ؟ قال عمر : لأنِّى لا أُحبك ، فأنت قاتلُ أخى . فقال الرجل : أو يمنعنى عدم حبك لى من أىِّ حق من حقوقى ؟ قال عمر : لا . فقال الرجل : « لك أن تحب مَنْ تريد ، وتكره مَنْ تريد ، ولا يبكى على الحب إلا النساء » .

وكان على إخوة يوسف أن ينتبهوا إلى أن حب والدهم ليوسف

---

(١) السمو : الارتفاع والعلو . سما الشىء يسمو سمواً : ارتفع . وتساموا : تباروا . وتساميها : تباريها وتفاخرها . والتسامى : الرِّفْعة والارتقاء . [لسان العرب ـ مادة : سما] بتصرف .

وأخيه هو انفعال طبيعى لا يُؤاخَذُ به الأب ؛ لأن ظروف الولدين حتمت عليه أن يحبهم مثل هذا الحب .

وتستمر القصة بما فيها من تصعيد للخير وتصعيد للشر ؛ ولسائل أن يسأل : ولماذا انصبَّ غضبهم على يوسف وحده ؟

ويُقال : إنهم لم يرغبوا أنْ يَفْجعوا[1] أباهم فى الاثنين - يوسف وأخيه - أو أن شيئاً من رؤيا يوسف تسرب إليهم .

ومن العجيب أن يقولوا بعد ذلك : ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ.. ﴿٨﴾﴾ [يوسف]

والعصبة من عدد عشرة فما فوق ؛ والعصبة أيضاً هم المُتكاتفون المُتعصِّبون لبعضهم البعض ؛ وهم الذين يقومون بالمصالح ويقضون الحاجات ؛ وقد تقاعد أبوهم ؛ وترك لهم إدارة أعمال العائلة .

وقالوا : « ما دُمْنَا نقوم بمصالح العائلة ، فكان من الواجب أن يَخُصَّنا أبونا بالحب » ولم يلتفتوا إلى أنهم عُصْبة ، وهذا ما جعل الأب يحبهم ، لكنه أعطى مَنْ ليسوا عصبة مزيداً من الرعاية ، ولكنهم سدروا[2] فى غَيِّهم[3] ، ووصلوا إلى نتيجة غير منطقية وهى قولهم :

---

(١) الفجيعة : الرزية الموجعة . فجعته المصيبة : أوجعته . والفواجع : المصائب المؤلمة التى تفجع الإنسان بمـا يعز عليه من مال أو حميم ، الواحدة فاجعة . [لسان العرب - مادة : فجع] .

(٢) السادر : المتحير ، وهو أيضاً الذى لا يهتم لشيء ولا يُبالى ما صنع . [لسان العرب - مادة : سدر] .

(٣) الغىُّ : الضلال والخيبة . غَوى : ضلَّ . والغواية : الانهماك فى الغَىِّ . والغوى : شديد الضلالة والغواية ، وأغواه : أضلَّه وأوقعه فى الغىِّ والضلال . [القاموس القويم ٢/٦٤].

﴿ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٨) ﴾ [يوسف]

وهذا القول هو نتيجة لا تنسجم مع المقدمات ، فيوسف وأخوه طفلان ماتت أمهما ، ولا بُدَّ أن يعطف عليهم الأب ؛ وحبُّه لهما لم يمنع حبه للأبناء الكبار القادرين على الاعتماد على أنفسهم .

وحين يقولون :

﴿ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٨) ﴾ [يوسف]

قد يفهم بعض الناس كلمة « ضلال » هنا بالمعنى الواسع لها .

نقول : لا ؛ لأن هناك ضلالاً مقصوداً ، وهو أن يعرف طريق الحق ويذهب إلى الباطل ، وهذا ضلال مذموم .

وهناك ضلال غير مقصود ، مثل : ضلال رجل يمشى فيسلك طُرقاً لا يعرفها فيضل عن مقصده ؛ ومثل مَنْ ينسى شيئاً من الحق .

وسبحانه القائل :

﴿ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَىٰ .. (٢٨٢) ﴾ [البقرة]

وسبحانه القائل أيضاً :

﴿ وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَىٰ (٧) ﴾ [الضحى]

إذن : فالضلال المذموم هو أن تعرف طريق الحق ، وتذهب إلى الضلال .

وهكذا أخطأ إخوة يوسف فى تقدير أمر حُبِّ أبيهم ليوسف

وأخيه ؛ ووصلوا إلى نتيجة ضارَّة ؛ لأن المقدمات التى أقاموا عليها تلك النتيجة كانت باطلة ؛ ولو أنهم مَحَّصُوا المقدمات تمحيصاً دقيقاً لَمَا وصلوا إلى النتيجة الخاطئة التى قالوها :

﴿ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٨) ﴾ [يوسف]

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك ما جاء على ألسنة إخوة يوسف :

﴿ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا(١) يَخْلُ(٢) لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ (٩) ﴾

والقتل هو قمة ما فكّروا فيه من شرّ ؛ ولأنهم من الأسباط هبط الشر إلى مرتبة أقل ؛ فقالوا : ﴿ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا .. (٩) ﴾ [يوسف]

فكأنهم خافوا من إثم القتل ؛ وظنُّوا بذلك أنهم سينفردون بحبِّ أبيهم ؛ لأنهم قالوا : ﴿ يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ .. (٩) ﴾ [يوسف]

والوجه هو الذى تتم به المواجهة والابتسام والحنان ، وهو ما تظهر عليه الانفعالات .

والمقصود بـ : ﴿ يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ .. (٩) ﴾ [يوسف]

---

(١) طرح الشىء وطرح به : رماه . والطَّرَح بالتحريك : البُعْد والمكان البعيد . قال تعالى : ﴿ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا .. (٩) ﴾ [يوسف] أى : ألقوه فى أرض بعيدة . [القاموس القويم ١/٣٩٩] .

(٢) خلا فلان إلى فلان : فرغ له ولم يشتغل عنه بغيره . قال تعالى على لسان إخوة يوسف : ﴿ يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ .. (٩) ﴾ [يوسف] أى : يفرغ لكم والدكم ويتجه إليكم بكل عنايته ولا يُشْتغل عنكم بأحد غيركم . [القاموس القويم ١/٢٠٩] .

هو ألا يوجد عائق بينكم وبين أبيهم .

وقولهم : ﴿ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ (٩) ﴾ [يوسف]

أى : أنهم يُقدِّرون الصلاح ؛ ويعرفون أن الذى فكَّروا فيه غيرُ مقبول بموازين الصلاح ؛ لذلك قالوا : إنهم سيتوبون من بعد ذلك .

ولكن : ما الذى أدراهم أنهم سوف يعيشون إلى أن يتوبوا ؟ وهم بقولهم هذا نَسُوا أن أمر المَوْت قد أُبهم حتى لا يرتكب أحدٌ المعاصىَ والكبائرَ .

أو : أن يكون المقصود بـ : ﴿ قَوْمًا صَالِحِينَ (٩) ﴾ [يوسف]

هو أن يكونوا صالحين لحركة الحياة ، ولعدم تنغيص[1] علاقتهم بأبيهم ؛ فحين يخلُو لهم وجهه ؛ سيرتاحون إلى أن أباهم سيعدل بينهم ، ويهبُهم كل حبه فيرتاحون .

أو أن يكون المقصود بـ : ﴿ قَوْمًا صَالِحِينَ (٩) ﴾ [يوسف]

أن تلك المسألة التى تشغل بالهم وتأخذ جزءًا من تفكيرهم إذا ما وجدوا لها حلاً ؛ فسيرتاح بالهم فينصلح حالهم لإدارة شئون دنياهم .

وهكذا نفهم أن سعيهم إلى الصلاح : منوط بمراداتهم فى الحياة ، بحسب مفهومهم للصلاح والحياة .

---

(١) النغَص : كَدَرُ العيش .. وقد نغص عليه عيشه تنغيصاً أى : كدَّره ، ونغَّص علينا أى : قطع علينا ما كنا نحب الاستكثار منه ، وكل من قطع شيئاً مما يحب الازدياد منه فهو مُنغِّص . [لسان العرب ـ مادة : نغص] .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ[1] يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ[2] إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾

وهكذا نرى التخفيف فى الشر حين يرفض واحد منهم مبدأ القتل ، واستبدله بالإخفاء بإلقائه فى الجُبِّ .

ولم يحدد الحق سبحانه لنا اسم القائل حتى يعصمهم جميعاً من سوء الظن بهم .

والجُبُّ هو البئر غير المطوى[3] ؛ ونحن نعلم أن الناس حين تحفر بئراً ، فمياه البئر تتدفق طوال الوقت ؛ وقد يأتى الردم فيسُدُّ البئر ؛ ولذلك يبنون حول فُوَّهة البئر بعضاً من الطوب لحمايته من الرَّدْم ؛ ويسمون مثل هذا البئر « بئر مطوى » ، وهكذا تظل المياه فى البئر فى حالة استطراق .

---

(١) غيابة الجب : ما غاب من جوانبه عن النظر ويستر ما اختبأ فيه . قال تعالى : ﴿ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ .. ﴿١٠﴾ ﴾ [يوسف] وقرىء غيابات بالجمع . [القاموس القويم ٢/٦٥] وغيابة كل شىء : قعره ، ووقعوا فى غيابة من الأرض ، أى : فى منهبط منها . [لسان العرب ـ مادة : غيب] .

(٢) السيار : الكثير السير . والسيارة : الجماعة السائرة المسافرة . قال تعالى : ﴿ وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ..﴿١٩﴾ ﴾ [يوسف] ، وقوله : ﴿ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ .. ﴿٩٦﴾ ﴾ [المائدة] أى : للمسافرين . [القاموس القويم ١/٣٤٠] .

(٣) الطوى : البئر المطوية بالحجارة . يقال : طوى الركية طيًا : عرشها بالحجارة والآجُرِّ . [لسان العرب ـ مادة : طوى] .

وكلمة : ﴿ غَيَابَةِ الْجُبِّ (١٠) ﴾ [يوسف]

أى : المنطقة المَخْفية فى البئر ؛ وعادة ما تكون فوق الماء ؛ وما فيها يكون غائباً عن العيون .

ولسائل أن يقول : وكيف يتأتَّى إلقاؤه فى مكان مَخْفىٍّ مع قول أحد الإخوة : ﴿ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ (١٠) ﴾ [يوسف]

ونقول : إن فى مثل هذا القول تنزيلاً لدرجة الشر التى كانت مُتوقِّدة فى اقتراح بعضهم بقتل يوسف ؛ وفى هذا الاقتراح تخفيض لمسألة القتل أو الطَّرْح أرضاً .

وبعد ذلك عاد القائل[1] لحالته العادية ، وصَحَتْ فيه عاطفة الأخوة ؛ وقال :

﴿ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ (١٠) ﴾ [يوسف]

أى : أنه توقع عدم رفضهم لاقتراحه .

وهكذا يشرح لنا الحق سبحانه كيف تمَّتْ تصفية هذه المسألة ؛ فلم يقف صاحب هذا الرأى بالعنف ضد اقتراح إخوته بقتل يوسف أو طَرْحه فى الأرض ؛ بل أخذ يستدرجهم ليستلَّ منهم ثورة الغضب ؛ فلم يَقُلْ لهم « لا تقتلوه » ، ولكنه قال : «لا تقتلوا يوسف » .

وفى نُطْقِه للاسم تحنين لهم .

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٤/٣٤٥٢) : « القائل هو يهوذا ، وهو أكبر ولد يعقوب. قاله ابن عباس . وقيل : روبيل ، وهو ابن خالته . وقيل : شمعون » .

ويضيف :

﴿ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ[1] بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ (١٠) ﴾ [يوسف]

وكأنه يأمل في أن يتراجعوا عن مخططهم .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ (١١) ﴾

وبعد أن وافقوا أخاهم الذى خفَّف من مسألة القتل ، ووصل بها إلى مسألة الإلقاء فى الجب ؛ بدأوا التنفيذ ، فقال واحد منهم مُوجِّهاً الكلام لأبيه ، وفى حضور كل الإخوة :

﴿ يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ .. (١١) ﴾ [يوسف]

وساعة تسمع قول جماعة ؛ فاعلم أن واحداً منهم هو الذى قال ، وأمَّنَ الباقون على كلامه ؛ إما سُكوتاً أو بالإشارة .

ولكى يتضح ذلك اقرأ قول الحق سبحانه عن دعاء موسى عليه السلام على فرعون وكان معه هارون .

---

(١) التقط الشىء ولقطه : أخذه ليصونه أو لغرض آخر ، ولا يلتقط الإنسان إلا ما يراه نافعاً، قال تعالى : ﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ .. (٨) ﴾ [القصص] فأخذوه ظناً منهم أنه مفيد نافع لهم . وكذلك قوله ﴿ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ .. (١٠) ﴾ [يوسف] يأخذه بعض المسافرين لينتفعوا به وليصونوه . [القاموس القويم ٢/١٩٨] .

قال موسى عليه السلام :

﴿ رَبَّنَا اطْمِسْ[1] عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ[2] عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ (٨٨) ﴾ [يونس]

ورَدَّ الحق سبحانه على دعاء موسى :

﴿ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا .. (٨٩) ﴾ [يونس]

والذى دعا هو موسى ، والذى أمَّنَ على الدعوة هو هارون عليه السلام .

وهكذا نفهم أن الذى قال :

﴿ يَا أَبَانَا مَا لَكَ لا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ (١١) ﴾ [يوسف]

تلك الكلمات التى وردتْ فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها ، هو واحد من إخوة يوسف ، وأمَّن بقية الإخوة على كلامه .

وقولهم : ﴿ مَا لَكَ لا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ (١١) ﴾[يوسف]

يدل أنه كانت هناك محاولات سابقة منهم فى ذلك ، ولم يوافقهم الأب .

---

(١) طمس الشىء : تغيرت صورته أو انمحى أثره . وطمسه غيره : شوهه أو محاه وأزاله . وطمس عينه : أعماها . وقوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ .. (٨٨) ﴾ [يونس] أى : أنزل عليها ما يمحوها ويهلكها . [القاموس القويم ١/٤٠٦] .

(٢) شد الحبل : ربطه ربطاً محكماً وشد أسره : قوَّى قيده وأحكم وثاقه فلا يفلت منه أبداً ، أى أحكم السيطرة عليه . ﴿ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ .. (٢٨) ﴾ [الإنسان] . أى : أحكمنا وثاقهم وسيطرنا عليهم . وقوله : ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ .. (٢٠) ﴾ [ص] أى : قوَّيْناه . وقوله : ﴿ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ .. (٨٨) ﴾ [يونس] أى : أحكم الغطاء واربطه بقوة على قلوبهم وهو دعاء عليهم . [القاموس القويم ١/٣٤٤] .

وقولهم : ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [يوسف]

يعنى أنهم سوف ينتبهون له ، ولن يحدث له ضرر أو شرّ ؛ وسيعطونه كل اهتمام فلا داعى أن يخاف عليه الأب .

ويستمر عَرْض ما جاء على لسان إخوة يوسف :

﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ (١)

ولأنهم كانوا يخرجون للرعى والعمل ؛ لذلك كان يجب أن يأتوا بعلَّة ليأذن لهم أبوهم بخروج يوسف معهم ، ويوسف فى أوان الطفولة ؛ واللعب بالنسبة له أمر مُحبَّب ومسموح به ؛ لأنه ما زال تحت سن التكليف ، واللعب هو الشغل المباح لقصد انشراح النفس .

ويُفضِّل الشرع أن يكون اللعب فى مجال قد يطلبه الجدُّ مستقبلاً ؛ كأن يتعلمَ الطفلُ السباحةَ ، أو المصارعة ، أو إصابة الهدف ؛ وهى الرماية(٢) وهكذا نفهم معنى اللعب : إنه شُغُل لا يُلهِى عن واجب ، أما اللهو(٣) فهو شُغُل يُلهِى عن واجب .

---

(١) رتع يرتع : أكل وشرب كما يشاء فى خصب وسعة . وأصله : أكل البهائم ويستعار للإنسان إذا أطلق لشهوات بطنه العنان . [القاموس القويم ١/ ٢٥٤] .

(٢) عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « مر النبى ﷺ بنفر يرمون ، فقال : رمياً بنى إسماعيل فإن أباكم كان رامياً » أخرجه أحمد فى مسلم (١/ ٣٦٤) وأخرجه البخارى فى صحيحه (٢٨٩٩) عن سلمة بن الأكوع رضى الله عنه بنحوه .

(٣) لها يلهو لهْوا : تسلَّى وشغل نفسه بما فيه لذتها وسرورها . أو تسلى بما لا يفيده . قال تعالى : ﴿ قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ .. ﴿١١﴾ ﴾ [الجمعة] واللهو هنا : الغناء والطبل والزمر الذى كان يصاحب عودة التجار وقت الصلاة . [القاموس القويم ٢/ ٢٠٥].

وهناك بعضٌ من الألعاب يمارسها الناس ؛ ويجلسون معاً ؛ ثم يُؤذِّن المؤذن ؛ ويأخذهم الحديث ؛ ولا يلتفتون إلى إقامة الصلاة فى ميعادها ؛ وهكذا يأخذهم اللهو عن الضرورة ؛ أما لو التفتوا إلى إقامة الصلاة ؛ لَصَار الأمر مجرد تسلية لا ضرر منها .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ ﴾

وكلام الأب هنا لا بُدَّ أن يغيظهم فهو دليل المحبة الفائقة إلى الدرجة التى يخاف فيها من فراق يوسف لقلَّة صبره عنه ، وشدة رعايته له ؛ ثم جاء لهم بالحكاية الأخرى ، وهى :

﴿ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ (١٣) ﴾ [يوسف]

وقال بعض الناس[1] : لقد علَّمهم يعقوب الكذبة ؛ ولولا ذلك ما عرفوا أن يكذبوها .

ونلحظ أن يعقوب جعل للأخوة لَحْظاً ؛ فلم يقل : « أخاف أن يأكله الذئب وأنتم قاعدون » بل قال :

﴿ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ (١٣) ﴾ [يوسف]

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٢/ ٤٧٠) : « أخذوا من فمه هذه الكلمة وجعلوها عذرهم فيما فعلوه » . وقد أورد السيوطى فى « الدر المنثور » (٤/ ٥١٠) آثاراً فى هذا الشأن ، فقال : أخرج أبو الشيخ وابن مردويه والسلفى فى الطيوريات عن ابن عمر رضى الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ : « لا تلقنوا الناس فيكذبوا ، فإن بنى يعقوب لم يعلموا أن الذئب يأكل الناس ، فلما لقنهم أبوهم كذبوا فقالوا أكله الذئب » .

وهذا ليُربِّى فيهم مواجيد الأخوة التى تفترض ألاَّ يتصرفوا مع أخيهم بشرّ ؛ ولا أن يتصرف غيرهم معه بشرّ إلا إذا غفلوا عن أخيهم .

ونلحظ فى ردِّهم عجزَهم عن أنْ يردوا على قوله :

﴿ إِنِّى لَيَحْزُنُنِى أَن تَذْهَبُوا بِهِ .. (١٣) ﴾ [يوسف]

فهذا الحب من يعقوب ليوسف هو الذى دفعهم إلى الحقد على يوسف ، وردّوا فقط على خوفه من أنْ يأكله الذئب ، وجاء القرآن بما قالوه :

﴿ قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ (١٤) ﴾

وهنا يكشف لنا الحق سبحانه محاولاتهم لطمأنة أبيهم ؛ كى يأذن فى خروج يوسف معهم ؛ ولهذا استنكروا أن يأكله الذئب وهم مُحِيطون به كعُصْبة ، وأعلنوا أنه إنْ حدث ذلك فهم سيخسرون كرامتهم أمام أنفسهم وأمام قومهم ، وهم لا يقبلون على أنفسهم هذا الهوان[1] .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٣٤٦٢/٤) : « قوله ﴿ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ (١٤) ﴾ [يوسف] أى : إنا لخاسرون فى حفظ أغنامنا ، أى : إذا كنا لا نقدر على دفع الذئب عن أخينا فنحن أعجز أن ندفعه عن أغنامنا » .

﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾﴾ (١)

وقوله الحق :

﴿ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ .. ﴿١٥﴾ ﴾ [يوسف]

يدلنا على أن تلك المسألة أخذتْ منهم مناقشة ، فيها أَخْذٌ ورَدٌّ ، إلى أن استقروا عليها(٢) .

وألهم الحق سبحانه يوسف عليه السلام بما سوف يفعلونه ، والوحى كما نعلم هو إعلام بخفاء .

وسوف يأتى فى القصة أن يوسف عليه السلام بعد أن تولى الوزارة فى مصر ودخلوا عليه أمسك بقدح ونقر عليه بأصابعه ، وقال لهم : اسمعوا ما يقوله القدح ؛ إنه يقول : إن لكم أخاً وقد فعلتم به كذا وكذا(٣) .

---

(١) جمع أمره : عزم عليه أو أحكمه . قال تعالى : ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾﴾ [طه] أى : عزم عليه وأحكمه . وأجمع القوم على أمر : اتفقوا عليه . وأجمع الأمر : عزم عليه وأحكمه ، قال تعالى : ﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا .. ﴿٦٤﴾﴾ [طه] وقال تعالى : ﴿وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ .. ﴿١٥﴾﴾ [يوسف] أى : اتفقوا . [القاموس القويم ١ / ١٢٧] .

(٢) ذكر القرطبى فى هذا أن يعقوب عليه السلام لما أرسله معهم أخذ عليهم ميثاقاً غليظاً ليحفظنه، وسلّمه إلى روبيل وقال : يا روبيل إنه صغير وتعلم يا بنى شفقتى عليه ، فإن جاع فأطعمه ، وإن عطش فاسقه ، وإن أعيا فاحمله ، ثم عَجِّل بردّه إليَّ . قال : فأخذوه يحملونه على أكتافهم ، لا يضعه واحد إلا رفعه آخر [انظر : تفسير القرطبى ٣٤٦٢/٤] .

(٣) أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « لما دخل إخوة يوسف على يوسف فعرفهم وهم له منكرون . جيء بالصواع فوضعه على يده ، ثم نقره فَطَنَّ فقال : إنى ليخبرنى هذا الجام أنه كان لكم أخ من أبيكم يُقال له يوسف ، يدين دينكم وأنكم انطلقتم به فألقيتموه فى غيابة الجب ، فأتيتم أباكم فقلتم : إن الذئب أكله وجئتم على قميصه بدم كذب . فقال بعضهم لبعض : إن هذا الجام ليخبره خبركم » (أورده السيوطى فى الدر المنثور ٥١١/٤)

وبعض المفسرين قال : إن الحق سبحانه أوحى له ، ولم يَلْحَظْ إخوته هذا الوحى .

ونقول : إن الوَحْى إعلام بخفاء ، ولا يمكن أن يشعر به غير المُوحَى إليه ، وعلى ذلك نرى أنهم لم يعلموا هذا الأمر إلا بعد أن تولى يوسف مقاليد الوزارة فى مصر ؛ بل إنهم لم يعرفوا أن يوسف أخوهم ؛ لأنهم قالوا له لحظتها :

﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ[1] أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ .. (٧٧)﴾ [يوسف]

والمقصود بالوحى فى هذه الآية ـ التى نحن بصدد خواطرنا عنها ـ هو إيناس الوَحْشة ؛ وهو وارد إلهى لا يرده وارد الشيطان ؛ والإلهام وارد بالنسبة لمَنْ هم غير أنبياء ؛ مثلما أوضحنا الأمر الذى حدث مع أم موسى حين أوحى لها الله أن تلقيه فى اليم[2] .

---

(١) يقصدون يوسف عليه السلام. قال سعيد بن جبير عن قتادة : كان يوسف عليه السلام قد سرق صنماً لجده أبى أمه فكسره . وقال محمد بن إسحاق عن عبدالله بن أبى نجيح عن مجاهد قال : كان أول ما دخل على يوسف من البلاء ـ فيما بلغنى ـ أن عمته ابنة إسحاق وكانت أكبر ولد إسحاق وكانت عندها منطقة إسحاق وكانوا يتوارثونها بالكبر وكان من اختبأها ممن وليها كان له سلماً لا ينازع فيه يصنع فيه ما يشاء وكان يعقوب حين ولد له يوسف قد حضنته عمته وكان لها به وَلَهٌ فلم تحب أحداً حبها إياه حتى إذا ترعرع وبلغ سنوات تاقت إليه نفس يعقوب فأتاها فقال : يا أخية سلمى إليّ يوسف فو الله ما أقدر على أن يغيب عنى ساعة قالت : فو الله ما أنا بتاركته ثم قالت : فدعه عندى أياماً أنظر إليه وأسكن عنه لعل ذلك يسلينى عنه أو كما قالت فلما خرج من عندها يعقوب عمدت إلى منطقة إسحاق فحزمتها على يوسف من تحت ثيابه ثم قالت : فقدت منطقة إسحاق عليه السلام فانظروا من أخذها ومن أصابها ؟ فالتمست ثم قالت : اكشفوا أهل البيت فكشفوهم فوجدوها مع يوسف فقالت : والله إنه لى لسلم أصنع فيه ما شئت ، فأتاها يعقوب فأخبرته الخبر فقال لها : أنت وذاك إن كان فعل ذلك فهو سلم لك ، ما أستطيع غير ذلك . فأمسكته فما قدر عليه يعقوب حتى ماتت » راجع تفسير ابن كثير ٢/٤٨٦ .

(٢) يقول تعالى : ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ (٣٨) أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ .. (٣٩)﴾ [طه] .

والوارد الإلهى لا يجد له معارضة فى النفس البشرية ، وقد أوحى الله ليوسف ما يُؤنِسُ وحشته[١] حين ألقاه إخوته فى الجُبِّ الذى ابتعد فيه عن حنان أبيه وأنسه بأخيه ، ومفارقته لبلده التى درج[٢] فيها وأُنْسه بالبيئة التى اعتاد عليها .

فكان لا بُدَّ أن تعطيه السماء دليلاً على أن ما حدث له ليس جَفْوة لك يا يوسف ؛ لكنه إعداد لك لتقابل أمراً أهمّ من الذى كنت فيه ؛ وأن غُرَماءك ـ وهم إخوتك ـ سوف يُضطَّرون لدقِّ بابك ذات يوم يطلبون عَوْنك ، ويطلبون منك أقواتهم ، وستعرفهم أنت دون أن يعرفوك .

هذا من جهة يوسف ؛ وجهة الجُبِّ الذى ألقوْه فيه ، وبقى أن تعالج القصة أمر الإخوة مع الأب ، فيقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

وهنا تتجلى لنا قدرة أداء القرآن أداء دقيقاً معبراً عن الانفعالات التى توجد فى النفس الإنسانية ، فها هم إخوة خدعوا أباهم ومكروا

---

(١) ومما ورد فى هذا ما نقله القرطبى فى تفسيره (٤/٣٤٦٥) : « قال الضحاك : نزل جبريل عليه السلام على يوسف وهو فى الجب فقال له : ألا أعلمك كلمات إذا أنت قلتهن عجل الله لك خروجك من هذا الجب ؟ فقال : نعم . فقال له : قل يا صانع كل مصنوع ، ويا جابر كل كسير ، ويا شاهد كل نجوى ، ويا حاضر كل ملأ ، ويا مفرج كل كربة ، ويا صاحب كل غريب ، ويا مؤنس كل وحيد ، ايتنى بالفرج والرجاء ، واقذف رجاءك فى قلبى حتى لا أرجو أحداً سواك .

فرددها يوسف فى ليلته مراراً ، فأخرجه الله فى صبيحة يومه ذلك من الجبّ » .

(٢) يقال للصبى إذا دَبّ وأخذ فى الحركة : درج . ودرج الشيخ والصبى يدرج فهو دارج : مشيا مَشْياً ضعيفاً ودَبًّا . [لسان العرب ـ مادة : درج] .

بأخيهم ، وأخذوه وألقوْه فى الجُبِّ مع أنهم يعلمون أن أباه يحبه ، وكان ضنيناً[١] أن يأتمنهم عليه ، فكيف يواجهون هذا الأب ؟

هذا هو الانفعال النفسى الذى لا تستطيع فطرة أن تثبته ؛ فقالوا : نؤخر اللقاء لأبينا إلى العشاء : والعشاء مَحَلُّ الظلمة ، وهو ستر للانفعالات التى توجد على الوجوه من الاضطراب ؛ ومن مناقضة كذب ألسنتهم ؛ لأنهم لن يخبروا الأب بالواقع الذى حدث ؛ بل بحديث مُخْتَلق[٢] .

وقد تخدعهم حركاتهم ، ويفضحهم تلجلجهم ، وتنكشف سيماهم الكاذبة أمام أبيهم ؛ فقالوا : الليل أخْفَى للوجه من النهار ، وأستَر للفضائح ؛ وحين ندخل على أبينا عِشَاءً ؛ فلن تكشفنا انفعالاتنا .

وبذلك اختاروا الظرف الزمنى الذى يتوارون فيه من أحداثهم :

﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ (١٦)﴾ [يوسف]

والبكاء انفعال طبيعى غريزى فطرىّ ؛ ليس للإنسان فيه مجال اختيار ؛ ومَنْ يريد أن يفتعله فهو يتباكى ، بأن يَفْرُك عينيه ، أو يأتى ببعض ريقه ويُقرِّبه من عينيه ، ولا يستر ذلك إلا أن يكون الضوء

---

(١) ضننت بالشىء أضن : بخلت به ، وهو ضنين به . ورجل ضنين : بخيل . والضّنة والضّن : الإمساك والبخل . وقال تعالى : ﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ (٢٤)﴾ [التكوير] فهو لا يكتم غيباً عن رسول الله ، بل يبلغه كل ما أوحاه الله إليه من خبر السماء . [راجع لسان العرب ، والقاموس القويم] .

(٢) خلق الكذب والإفك يخلقه وتخلَّقه واختلقه وافتراه : ابتدعه. الاختلاق : الكذب ، وهو افتعال من الخلق والإبداع كأن الكاذب تخلَّق قوله . [لسان العرب ـ مادة : خلق]

خافتاً ؛ لذلك جاءوا أباهم عشاء يُمثِّلون البكاء[١] .

والحق سبحانه حينما تكلم عن الخصائص التى أعطاها لذاته ، ولم يُعْطِها لأحد من خلقه ؛ أعلمنا أنه سبحانه هو الذى يميت ويحى ، وهو الذى يُضحك ويُبْكى .

والحق سبحانه هو القائل :

﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ (٤٣) وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا (٤٤) ﴾ [النجم]

ولا يوجد فَرْق بين ضحك أو بكاء إنسان إنجليزى وآخر عربى ؛ ولا يوجد فرق بين موت أو ميلاد إنسان صينى وآخر عربى أو فرنسى ؛ فهذه خصائص مشتركة بين كل البشر .

وإذا ما افتعل الإنسان الضحك ؛ فهو يتضاحك ؛ وإذا ما افتعل الإنسان البكاء فهو يتباكى ؛ أى : يفتعل الضحك أو البكاء . والذى يفضح كل ذلك هو النهار .

والتاريخ يحمل لنا الكثير من الحكايات عن اتخاذ الليل كستار للمواقف ؛ والمثل فى سيدنا الحسين رضى الله عنه وأرضاه ؛ حين جاءت موقعة كربلاء ، ورأى العدو وقد أحاط به ؛ ورأى الناس وقد انفضوا عنه بعد أن دَعَوْهُ ليبايعوه ، ولم يَبْقَ معه إلا قلة ؛ وعَزَّتْ عليه

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٣٤٦٦/٤) : « قال علماؤنا : هذه الآية دليل على أن بكاء المرء لا يدل على صدق مقاله ، لاحتمال أن يكون تصنعاً ، فمن الخلق من يقدر على ذلك ، ومنهم من لا يقدر . وقد قيل : إن الدمع المصنوع لا يخفى ، كما قال حكيم :

إذَا اشتبكتْ دُمُوعٌ فى خُدودٍ تبيَّن مَنْ بكَى مِمَّنْ تباكَى ».

نفسه ؛ وعَزَّ عليه أن يقتل هؤلاء فى معركة غير متكافئة صمم هو على دخولها .

فلما أقبل الليل دعا أصحابه وقال لهم :

« إن كنتم قد استحييتم أن تفروا عنى نهاراً ، فالليل جاء وقد ستركم ، فمَنْ شاء فليذهب واتركونى »[(١)] .

يقص الحق سبحانه ما بدر منهم فَوْرَ أنْ دخلوا على أبيهم :

﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ[(٢)] وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ (١٧) ﴾

كلمة : ﴿ نَسْتَبِقُ .. (١٧) ﴾ [يوسف]

تعبر عن بيان تفوُّق ذات على ذات فى حركة ما ؛ لنرى من

---

(١) ذكر ابن كثير فى كتابه (البداية والنهاية ١٧٨/٨) أن الحسين بن على رضى الله عنه قال لأصحابه : « من أحب أن ينصرف إلى أهله فى ليلته هذه فقد أذنت له فإن القوم إنما يريدوننى ، هذا الليل قد غشيكم فاتخذوه جملاً ، ليأخذ كل منكم بيد رجل من أهل بيتى ثم اذهبوا فى بسيط الأرض فى سواد هذا الليل إلى بلادكم ومدائنكم فإن القوم إنما يريدوننى ، فلو قد أصابونى لهوْا عن طلب غيرى ، فاذهبوا حتى يفرج الله عز وجل » .

(٢) استبقا : تباريا ليسبق كل منهما الآخر . واستبقا الشيء : تباريا فى الجرى نحوه للوصول إليه ، ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ .. (١٧) ﴾ [يوسف] أى : نتبارى فى الجرى والسبق . ﴿ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ .. (٢٥) ﴾ [يوسف] حاول كل منهما أن يصل إليه قبل الآخر . ويقول تعالى : ﴿ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ .. (١٤٨) ﴾ [البقرة] تباروا فى الوصول إليها أو فعلها قبل غيركم . [القاموس القويم ٣٠٢/١] .

سيسبق الآخر ؛ فحين يتسابق اثنان فى الجرى نرى مَنْ فيهما سبق الآخر ؛ وهذا هو الاستباق .

وقد يكون الاستباق فى حركة بآلة ؛ كأن يمسك إنسان ببندقية ويُصوِّبها إلى الهدف ؛ ويأتى آخر ويمسك ببندقية أخرى ويحاول أن يصيب الهدف ؛ ومَنْ يسبق منهما فى إصابة الهدف يكون هو المتفوق فى هذا المجال .

وقد يكون الاستباق فى الرمى بالسهام ؛ ونحن نعرف شكل السهم ؛ فهو عبارة عن غُصْن مَرِن ، يلتوى دون أن ينكسر ؛ ومُثبَّت عليه وتر ، ويوضع السهم فى منتصف الوتر ، ليشده الرامى فينطلق السهم إلى الهدف .

وتُقَاسُ دقة إصابة الهدف حسب شدة السهم وقوة الرمى ، ويسمى ذلك «تحديد الهدف » .

أما إذا كان التسابق من ناحية طول المسافة التى يقطعها السهم ؛ فهذا لقياس قوة الرامى .

وهكذا نجد الاستباق له مجالات متعددة ؛ وكل ذلك حلال ؛ فهم أسباط وأولاد يعقوب ، ولا مانع أن يلعب الإنسان لُعْبة لا تُلهيه عن واجبه ؛ وقد تنفعه فيما يَجِدُّ من أمور ؛ فإذا التقى بعدو نفعه التدريب على استخدام السهم أو الرمح أو أداة قتال ؛ واللعب[1] الذى لا يَنْهى عن طاعة ، وينفع وقت الجد هو لَعِب حلال .

---

(١) اللعب قد يكون محموداً إذا لم يتعارض مع القيم الفاضلة ، أما إذا كان اللعب قد يلهى الإنسان عن الواجبات فهو مذموم ، واللهو لا يكون إلا مذموماً .

وهناك ألعاب قد لا يدرك الناس لها غاية مثل كرة القدم .

وأقول : قد يوجد عَدوَّانِ ؛ وبينهما قنبلة موقوتة ؛ ويحاول كل طرف أن يبعدها عن موقعه ، والقوة والحكمة تظهر فى محاولة كل فريق فى إبعاد الكرة عن مرماه .

ولكن لا بد ألا يُلْهى لعب الكرة عن واجب ؛ فمثلاً حين يؤذن المؤذن للصلاة ، الواجب علينا ألا نهمل الصلاة ونواصل اللعب ، وعلى اللاعبين أن يُراعُوا عدم ارتداء ملابس تكشف عن عوراتهم .

وأبناء يعقوب قالوا :

﴿ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا[1] .. (١٧) ﴾ [يوسف]

وفى هذا إخلال بشروط التعاقد مع الأب الذى أذِنَ بخروج يوسف بعد أن قالوا :

﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ .. (١٢) ﴾ [يوسف]

وقالوا :

﴿ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ (١١) ﴾ [يوسف]

وقالوا :

﴿ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (١٢) ﴾ [يوسف]

فهل أخذتموه معكم ليرتع ويلعب ، ويأكل من ثمار الأشجار والفاكهة ؛ وتحفظونه ، أم ليحفظ لكم متاعكم وأنتم تستبقون .

---

(١) المتاع : يطلق على الكثير والقليل باعتباره مصدراً ويجمع على أمتعة باعتبار ما ينتفع به وما يتمتع به . قال تعالى : ﴿ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ .. (١٧) ﴾ [الرعد] أى : وصنع أشياء ينتفع بها ، وقال تعالى : ﴿ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ .. (١٠٢) ﴾ [النساء] جمع متاع بمعنى أشياء ينتفع بها من طعام وأدوات للحرب ومال ونحو ذلك . [القاموس القويم ٢/٢١٥] .

وهذا أول الكذب الذى كذبوه ؛ وهـذه أول مخالفـة لشرط إذن والده له بالخروج معكم ؛ ولأن «المريب يكاد يقول خذونى » نجدهم قد قالوا :

﴿ فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ (١٧) ﴾ [يوسف]

أو : أنهم قالوا ذلك لأنـهم يعلمون أن والدهم لن يُصـدِّقهم مهـما قالوا . ونعلم أن « آمن » إما أن تتعدى إلى المفعول بنفسها مثل «آمنه الله من الجوع » ، أو قوله الحق :

﴿ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ (٤) ﴾ [قريش]

أو : تجىء بالباء ، ويُقال « آمن به » أى : صدَّق واعتقد .

أو : يُقَال « آمن له » أى : صدَّقه فيما يقول .

وهم هنا يتهمون أباهم أنه مُتحَدٍّ لهم ، حتى ولو كانوا صادقين ، وهم يعلمون أنهم غير صادقين ؛ ولكن جاءوا بكلمة الصدق ليداروا كذبهم .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَجَاءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ (١٨) ﴾

---

(١) القـميص : مـا يحيط بالبـدن وقد يُـسمَّى شـعارًا ومـا فوقـه دثار ، وقد يُسـمَّى كل ثوب قميصاً . والجمع أقمصة وقُمص وقُمْصان . [القاموس القويم ١٣٣/٢] .

(٢) « قال مجاهد : كـان دم سخلة أو جدى ذبحوه . وقال قتادة : كـان دم ظبية ، أى : جاءوا على قميصه بدم مكذوب فـيه . وقرأ الحسن وعائشة : « بدم كدب » بالدال غيـر المعجمة ، أى : بدم طرى . وحكى أنه المتغير ، قاله الشعبى » (تفسير القرطبى ٣٤٧١/٤) .

(٣) سولت نفسه له أمـراً : زينته له ليفعله . وسول له الشيطان : أغواه . والتـسويل : تحسين الشىء وتزيينه وتحبيبه إلى الإنسان ليفعله أو يقوله . [لسان العرب ـ مادة : سول] .

كأن قميص يوسف كان معهم . ويُقال : إن يعقوب علَّق على مجيء القميص وعليه الدم الكذب بأن الذئب كان رحيماً ، فأكل لحم يوسف ولم يُمزِّق قميصه ؛ وكأنه قد عرف أن هناك مؤامرة سيكشفها الله له[١] .

ويصف بعض العلماء قصة يوسف بقصة القميص :

فهنا جاء إخوته بقميصه وعليه دم كذب .

وفى أواسط السورة[٢] تأتى مسألة قميص يوسف إن كان قد شُقَّ من دُبُرٍ لحظة أنْ جذبتْه امرأة العزيز لتراوده[٣] عن نفسه .

وفى آخر السورة[٤] يرسل إخوته بقميصه إلى والده فيرتد بصره .

ولهذا أخذ العلماء والأدباء كلمة القميص كرمز لبعض الأشياء ؛ والمثل هو قول الناس عن الحرب بين على رضى الله عنه ومعاوية

---

(١) نقل القرطبى فى تفسيره (٤/٣٤٧١) « أن يعقوب عليه السلام لما تأمل القميص فلم يجد فيه خَرقاً ولا أثرًا استدل بذلك على كذبهم ، وقال لهم : متى كان هذا الذئب حكيماً يأكل يوسف ولا يخرق القميص . قاله ابن عباس وغيره » .

(٢) وذلك فى قوله تعالى : ﴿قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٦) وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٧)﴾ [يوسف].

(٣) راوده على الشىء : مراودة : طلبه منه بجهد وحيلة ومساومة ، وقوله تعالى : ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ .. (٢٣)﴾ [يوسف] أى : طلبت منه نفسه فى محاولة ومخادعة ، [القاموس القويم ١/٢٨١ بتصرف] .

(٤) وذلك فى قوله تعالى عن يوسف عليه السلام أنه قال لإخوته : ﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَـٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا .. (٩٣)﴾ [يوسف] .

رضى الله عنه أن معاوية أمسك بقميص عثمان بن عفان طلباً للثأر من على ، فقيل «قميص عثمان » رمزاً لإخفاء الهدف عن العيون ، وكان هدف معاوية أن يحكم بدلاً من على بن أبى طالب رضى الله عنهم أجمعين .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ [1] .. (١٨)﴾ [يوسف]

وكأن القميص كان معهم ، ووضعوا عليه دماً مكذوباً ، لأن الدم لا يكذب ، إنما كذب مَنْ جاء بدم الشاة ووضعه على القميص .

وشاء الحق سبحانه هنا أن يُعطى الوصف المصدرى للمبالغة ؛ وكأن الدم نفسه هو الذى كذب ؛ مثلما تقول « فلان عادل » ويمكنك أن تصف إنساناً بقولك « فلان عَدْل » أى : كأن العدل تجسَّد فيه ، أو قد تقول « فلان ذو شرّ » ، فيرد عليك آخر « بل هو الشر بعينه » ، وهذه مبالغة فى الحدث .

وهل كان يمكن أن يُوصَف الدم بأنه دم صادق ؟

نقول : نعم ، لو كان الذئب قد أكل يوسف بالفعل ؛ وتلوَّث قميص يوسف بدم يوسف وتمزق . ولكن ذلك لم يحدث ، بل إن الكذب يكاد يصرخ فى تلك الواقعة ويقول « أنا كذب » .

فلو كان قد أكله الذئب فعلاً ؛ كان الدم قد نشع من داخل القميص لخارجه ؛ ولكنهم جاءوا بدم الشاة ولطخوا به القميص من الخارج .

---

(١) هذا أسلوب الإعجاز البلاغى ، وفيه إشارة إلى قضية ملفقة .

وبالله ، لو أن الذئب قد أكله فعلاً ، ألم تكُنْ أنيابه قد مزَّقَتْ القميص ؟

وحين انكشف أمرهم أمام أبيهم ؛ أشار أحدهم خُفْية للباقين وقال لهم همساً : قولوا لأبيكم : إن اللصوص قد خرجوا عليه وقتلوه ؛ فسمع يعقوب الهمس فقال : اللصوص أحوَجُ لقميصه من دمه[1] ؛ وهذا ما تقوله كتب السير.

وهذا ما يؤكد فراسة يعقوب ، هذه الفراسة[2] التى يتحلى بها أىُّ محقق فى قضية قتل ؛ حين يُقلِّب أسئلته للمتهم وللشهود ؛ لأن المحقق يعلم أن الكاذب لن يستوحى أقواله من واقع ؛ بل يستوحى أقواله من خيال مضطرب .

ولذلك يقال : « إن كنت كذوباً فكُنْ ذَكُوراً »[3] .

ويأتى هنا الحق سبحانه بما جاء على لسان يعقوب :

﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ (١٨)﴾ [يوسف]

« والسَّوَل » : هو الاسترخاء ؛ لأن الإنسان حين تكون أعصابه

---

(١) ذكر القرطبى فى تفسيره (٣٤٧٢/٤) محاولات أبناء يعقوب تبرير ما حدث وانكشاف أمرهم أمام أبيهم لفراسته فقال : « روى أنهم قالوا له : بل اللصوص قتلوه ، فاختلف قولهم ، فاتهمهم ، فقال لهم يعقوب : تزعمون أن الذئب أكله ، ولو أكله لشقّ قميصه قبل أن يفضى إلى جلده ، وما أرى بالقميص من شق ، وتزعمون أن اللصوص قتلوه ، ولو قتلوه لأخذوا قميصه ، هل يريدون إلا ثيابه ؟! » .

(٢) الفراسة : فى النظر والتثبت والتأمل للشىء والبصر به ولهما معنيان قالهما ابن الأثير :

أحدهما : ما يُوقعه الله تعالى فى قلوب أوليائه فيعلمون أحوال بعض الناس بنوع من الكرامات وإصابة الظن والحدس .

الثانى : نوع يُتعلَّم بالدلائل والتجارب والخَلْق والأخلاق ، فتُعرف به أحوال الناس » . نقله ابن منظور فى [لسان العرب ـ مادة : فرس] .

(٣) الذكر : الحفظ للشىء تذكره . ورجل ذَكيرٌ : جيد الذكر والحفظ . والذكر والذكرى : نقيض النسيان . والتذكر : تذكر ما أنسيته . [لسان العرب ـ مادة : ذكر] .

مشدودة ؛ ثم يحب أن يسترخى ، فيستريح قليلاً ، وبعد ذلك يجد فى نفسه شيئاً من اليُسْر فى بدنه ونبضه .

ونأخذ ﴿ سَوَّلَتْ .. (١٨) ﴾ [يوسف]

هنا بمعنى يَسَّرت وسهَّلتْ ، وما دامت قد سوَّلتْ لكم أنفسكم هذا الأمر فسوف أستقبله بما يليق بهذا الوضع ، وهو الصبر .

﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ .. (١٨) ﴾ [يوسف]

والذين يحاولون اصطياد خطأ فى القرآن يقولون « وهل يمكن أن يكون الصبر جميلاً ؟ » .

نقول : هم لا يعرفون أن الصبر يُقال فيه « اصبر عن كذا » إذا كان الأمر عن شهوة قد تُورِث إيلاماً ؛ كأن يُقال « اصبر عن الخمر » أو « اصبر عن الميسر » أو « اصبر عن الربا » .

ويُقال « اصبر على كذا » إذا كان الصبر فيه إيلام لك . والصبر يكون جميلاً حينما لا تكون فيه شكوى أو جزع .

والحق سبحانه يقول لرسوله ﷺ :

﴿ وَاهْجُرْهُمْ (١) هَجْرًا جَمِيلاً (١٠) ﴾ [المزمل]

وهؤلاء الذين يبحثون عن تناقض أو تضارب فى القرآن إنما هم قوم لا يعرفون كيفية استقباله وفهمه ؛ وقد بيَّن لنا يعقوب عليه السلام أن الصبر الجميل هو الصبر الذى لا شكوى فيه ، وهو القائل :

﴿ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ ..(٨٦) ﴾ [يوسف]

---

(١) هجره يهجره هجراً وهجراناً : تركه مع سخط ونفور . قال تعالى : ﴿ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (٥) ﴾ [المدثر] أى : اترك الرجز كله نافراً منه كارهاً له ، وهذا الأمر بالنسبة للرسول ﷺ معناه : اثبت على هجره لأنه لم يفعل رجزاً . وقوله تعالى : ﴿ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلاً (١٠) ﴾ [المزمل] أى : اتركهم وابتعد عنهم فى سماحة بغير إيذاء . [القاموس القويم ٢/٢٩٨] .

وهكذا نعلم أن هناك فارقاً بين الشكوى للربِّ ؛ وشكوى من قدر الربِّ .

ولذلك يقول يعقوب عليه السلام هنا :

﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ[1] .. ﴿١٨﴾ ﴾ [يوسف]

ويتبعها :

﴿ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [يوسف]

كأن الصبر الجميل أمر شاقٌّ على النفس البشرية ، ولم يكُنْ يعقوب قادراً على أن يُصدِّق ما قاله أبناؤه له ؛ فكيف يُصدِّق الكذب ؟ وكيف يمكن أن يواجه أبناءه بما حدث منهم ؟ وهم أيضاً أبناؤه ؛ لكنه كان غير قادر على أن يكشف لهم كذبهم .

والمثل لذلك ما جاء فى التراث العربى حين قِيلَ لرجل : إن ابنك قد قتل أخاك ، فقال :

أَقولُ لنفسى تأساء وتعزيةً ... إحدى يدىَّ أصَابتْنى ولم تُرِدِ
كِلاهُمَا خلف عَنْ فَقْدِ صاحبِه ... هذا أخى حين أدعُوه وذَا ولدِى

ومثل هذه المواقف تكون صعبة وتتطلب الشفقة ؛ لأن مَنْ يمر بها يحتار بين أمر يتطلب القسوة وموقف يتطلب الرحمة ؛ وكيف يجمع إنسان بين الأمرين ؟

إنها مسألة تعزُّ عل خَلْق الله ؛ ولا بد أن يفزع فيها الإنسان إلى الله ؛ ولذلك علَّمنا ﷺ أنه إذا حزبه أمر قام إلى الصلاة[2] ؛ وحزبه أمر

---

(١) الصبر الجميل هو الصبر مع الرضى ، والتفويض لمن بيده الأمر : من مفهوم خواطر الإمام.

(٢) عن حذيفة قال : « كان النبى ﷺ إذا حزبه أمر صلى » أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٣٨٨/٥) وأبو داود فى سننه (١٣١٩) .

ما يعنى : أن مواجهة هذا الأمر تفوق أسباب الإنسان ؛ فيلجأ إلى المُسبِّب الأعلى ؛ ولذلك قال يعقوب عليه السلام :

﴿ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ (١٨) ﴾ [يوسف]

وقوله : « تصفون » يعنى : أنكم لا تقولون الحقيقة ، بل تصفون شيئاً لا يصادف الواقع ، مثل قوله تعالى :

﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ(١) أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَـٰذَا حَلَالٌ وَهَـٰذَا حَرَامٌ .. (١١٦) ﴾ [النحل]

أى : أن ألسنتكم نفسها تَصِفُ الكلام أنه كذب .

والحق سبحانه يقول :

﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٠) ﴾ [الصافات]

وتعنى أن هؤلاء الذين قالوا ما قيل عنه أنه وصف قد كذبوا فيما قالوا ؛ وكان مصير كذبهم مفضوحاً .

﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ(٢) وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ (١٨) ﴾ [يوسف]

وهكذا عبّر يعقوب عليه السلام عن نفسه ؛ فالجوارح قد تكون ساكنة ؛ لكن القلب قد يزدحم بالهموم ويفتقد السكون ؛ لذلك لا بد من الاستعانة بالله .

---

(١) وصف الأمر : ذكره وعرَّفه وتحدَّث به . قال تعالى : ﴿ تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ .. (١١٦) ﴾ [النحل] أى : تذكره وتقوله . وقال تعالى : ﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ (١٠٠) ﴾ [الأنعام] أى : من الوصف الذى يصفونه به مما لا يليق بكماله كوجود شريك له أو ابن أو غير ذلك ، وقال تعالى : ﴿ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ .. (١٣٩) ﴾ [الأنعام] . أى : جزاء وصفهم وعقابه . [القاموس القويم ٢/٣٣٩] .

(٢) الجمال : البهاء والحسن يوصف به الحسىّ والمعنوى ، قال تعالى : ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ..(١٨) ﴾ [يوسف] وهو جمال معنوى ، وقوله : ﴿ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ (٨٥) ﴾ [الحجر] الذى لا لوم معه ولا عتاب . والسراح الجميل : الطلاق المصحوب بالإحسان إلى المطلقة ومنحها حقوقها كاملة وبغير إيذاء ، وقوله : ﴿ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا (١٠) ﴾ [المزمل] لا إيذاء فيه بقول أو عمل. [القاموس القويم ١/١٢٨] .

وقد علَّمنا الحق سبحانه أن نقول فى فاتحة الكتاب :

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ﴾ [الفاتحة]

فأنت تقف لعبادة الله وبين يديه ؛ لكن الدنيا قد تشغلك عن العبادة أثناء أداء العبادة نفسها ؛ لذلك تستعين بخالقك لتُخلص فى عبادتك .

وبعد أن عرض الحق سبحانه لموقف الأب مع أولاده ، نأتى لموقف يوسف عليه السلام فى الجُبِّ .

يقول سبحانه :

﴿ وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ(١) فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ(٢) فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ(٣) قَالَ يَٰبُشْرَىٰ(٤) هَٰذَا غُلَٰمٌ وَأَسَرُّوهُ(٥) بِضَٰعَةً وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ۝١٩ ﴾

---

(١) السيارة : الجماعة السائرة المسافرة . قال تعالى : ﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ ۝١٩ ﴾ [يوسف] أى : جماعة مسافرة . وقوله تعالى : ﴿ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۝٩٦ ﴾ [المائدة] للمسافرين . [القاموس القويم ١/ ٣٤٠] .

(٢) وردت الماء إذا حضرته لتشرب . والورْد : الماء الذى ترد عليه . والواردة : وُرَّاد الماء . والورد : الوراد وهم الذين يردُون الماءَ . [لسان العرب ـ مادة : ورد] . ورد الماء : قصده وبلغه ووصل إليه .

(٣) الدلو : الوعاء الذى يخرج الماء من البئر ونحوه . قال تعالى : ﴿ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ ..۝١٩ ﴾ [يوسف] أى : أنزله فى البئر ليخرج منه ماء . [القاموس القويم ١/ ٢٣١] .

(٤) قال القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٤٧٥) : « فى معناه قولان :
أحدهما : اسم الغلام .
الثانى : يا أيتها البشرى هذا حينك وأوانك . قال قتادة : بشَّر أصحابه بأنه وجد عبداً . قال السدى : نادى رجلاً اسمه بشرى . قال النحاس : قول قتادة أولى ، لأنه لم يأت فى القرآن تسمية أحد إلا يسيراً . قال القرطبى : وهذا أصح لأنه لو كان اسماً علماً لم يكن مضافاً إلى ضمير المتكلم » .

(٥) أسررت الأمر والحديث : أخفيته . وأسر إليه الحديث : ألقاه إليه سراً ولم يُطلع عليه أحداً معه . وقوله : ﴿ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ .. ۝٥٤ ﴾ [يونس] أخفوها فى صدورهم وفى سرائرهم . وقوله فى قصة يوسف : ﴿ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً .. ۝١٩ ﴾ [يوسف] أخفوه . وقوله : ﴿ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ ..۝١ ﴾ [الممتحنة] أى : يسرون إليهم أنباء المسلمين وأحوالهم بسبب المودة بينكم ، وهو تبكيت وتوبيخ لمن يفعل ذلك ، أو تخفون المودة لهم ، أى : تجعلون مودتكم لهم سرًا ، وتخفونها عن المسلمين نفاقاً وخداعاً . [القاموس القويم ١/ ٣١٠] .

ولم يَقُلِ الحق سبحانه من أين جاء السيارة ؟ أو إلى أين كانوا ذاهبين ؟

والمقصود بالسيارة هم القوم المحترفون للسير ، مثل مَنْ كانوا يرحلون فى رحلة الشتاء والصيف ؛ بهدف التجارة وجَلْب البضائع .

وكانت السيارة لا تنتقل بكامل أفرادها إلى البئر ، بل يذهب واحد منهم إلى البئر ؛ ليأتى لهم بالمياه ويُسمَّى الوارد ، وذهب هذا الوارد إلى البئر ليُحضِر لبقية السيارة الماء وألقى دَلْوه فى البئر ؛ ويسمى حبل الدلو الرشاء .

وحين نزل الدلو إلى مستوى يوسف عليه السلام تعلق يوسف فى الحبل ؛ فأحسَّ الوارد بثقل ما حمله الرشاء ؛ ونظر إلى أسفل ؛ فوجد غلاماً يتعلق بالدلو فنادى :

﴿ يَا بُشْرَىٰ هَـٰذَا غُلَامٌ .. (١٩) ﴾ [يوسف]

أى : أنه يقول يا بشرى هذا أوانك ؛ وكأنه يبشر قومه بشىء طيب ؛ فلم يحمل الدلو ماء فقط ، بل حمل غلاماً أيضاً .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً .. (١٩) ﴾ [يوسف]

أى : أنهم أخفوْه وعاملوه كأنه بضاعة ، ولم يتركوه يمشى بجانبهم؛

خشية أن يكون عبداً آبقاً[1] ويبحث عنه سيده ؛ وهم يريدون بيعه .

ويذيل الحق سبحانه الآية بقوله :

﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ .. ﴿١٩﴾ ﴾ [يوسف]

وهذا قول يعود على مَنْ أسرُّوه بضاعة ؛ وهم الذين عرضوه للبيع .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ[2] دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾

ونعلم أنهم لم يشتروه بل عثروا عليه ؛ ونعلم أن كلمة شراء تدل على البيع أيضاً ، أى : أنهم باعوه بثمن بخس ؛ أى : بثمن زهيد ، وكانت العبيد أيامها مُقوَّمة بالنقود .

والبخس أى : النقص ، وهو إما فى الكَمِّ أو فى الكَيْف ؛ فهو يساوى مثلاً مائة درهم وهم باعوه بعشرين درهماً فقط ؛ وكان العبد فى عُمر يوسف يُقوَّم بالنقد ؛ وهم باعوه بالبخْس ، وبثمن أقل قيمة إما كَمًّا وإما كَيْفا .

---

(١) أبق يأبق : هرب من مالكه ، قال تعالى : ﴿ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ ﴾ [الصافات] جعل ترك يونس عليه السلام قومه إباقاً لأنه مملوك لله وللرسالة التى كلفه الله أن يقوم بها . [القاموس القويم : ١/ ٤] .

(٢) بخسه حقه بخساً : نقصه حقه ولم يُوفِّه ، قال تعالى : ﴿ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ﴿٨٥﴾ ﴾ [الأعراف] . والثمن البخس : القليل الناقص عن مثله : ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ .. ﴿٢٠﴾ ﴾ [يوسف] وقوله : ﴿ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ ﴾ [الجن] أى : لا يخاف نقصاً ولا ظلماً . [القاموس القويم ١/ ٥٦] .

ثم أراد الحق سبحانه أن يوضح الأمر أكثر فقال :

﴿ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [يوسف]

والزهد هنا هو حيثية الثمن البَخْس ؛ فهُم قد خافوا أن يبحث عنه أبوه أو صاحبه ؛ وكأنهم قالوا لأنفسهم : أى شىء يأتى من ورائه فهو فائدة لنا[1] .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٤/٣٤٧٩) : « قوله تعالى : ﴿ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [يوسف] قيل : المراد إخوته . وقيل : السيارة وقيل : الواردة . وعلى أى تقدير فلم يكن عندهم غبيطاً أى : أن يوسف لم يكن مصدر سرور لأحد منهم ، لا عند الإخوة ، لأن المقصد زواله عن أبيه لا ماله ، ولا عند السيارة لقول الإخوة إنه عبد أبق منا ـ والزهد قلة الرغبة ـ ولا عند الواردة لأنهم خافوا اشتراك أصحابهم معهم ، ورأوا أن القليل من ثمنه فى الانفراد أولى » .

(٢) ثوى المكان ، وثوى به يثوى : حله وأقام فيه واستقر به ، فهو متعد ولازم واستعمل القرآن اللازم ، فقال : ﴿ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِى أَهْلِ مَدْيَنَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [القصص] أى : مقيماً عندهم . والمثوى : اسم مكان أو مصدر ميمى . قال تعالى : ﴿ أَكْرِمِى مَثْوَاهُ ﴿٢١﴾ ﴾ [يوسف] أى : إقامته . أى : أكرمى يوسف وعبَّر باسم المكان عن الحالّ فيه مجازاً مرسلاً علاقته المحلية. [القاموس القويم ١/١١٣] .

وكان للشراء علَّة ؛ فهو قد اشتراه لامرأته ليقوم بخدمتها ، وكانت لا تنجب وتكثر فى الإلحاح عليه فى طلب العلاج ، وتقول أغلب السير : إن مَن اشتراه كان ضعيفاً من ناحية رغبته فى النساء .

وهذه اللقطة تبين لنا الفساد الذى ينشأ فى البيوت التى تتبنى طفلاً ، لكنهم لا يحسبون حساب المسألة حين يبلغ هذا الطفل مبلغ الرجال ، وقد تعوَّد أن تحمله ربة البيت وتُقبِّله ، وتغدق عليه من التدليل ما يصعب عليها أن تمتنع عنه ؛ ولأن الطفل يكبر انسيابياً ؛ فقد يقع المحظور وندخل فى متاهة الخطيئة .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ وَقَالَ الَّذِى اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لامْرَأَتِهِ أَكْرِمِى مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا .. (٢١) ﴾ [يوسف]

وهذا يعنى أن تعتنى بالمكان الذى سيقيم فيه ، وبطبيعة الحال فهذا القول يقتضى أن تعتنى بالولد نفسه ؛ على رجاء أن ينتفع به الرجل وزوجته .

ولسائل أن يقول : كيف ينتفع به الرجل ؛ وهو عزيز مصر ، والكُلُّ فى خدمته ؟

ونقول : إن النفع المقصود هنا هو النفْع الموصول بعاطفة مَنْ ينفع ؛ وهو غير نفع الموظفين العاملين تحت قيادة وإمرة عزيز مصر، فعندما ينشأ يوسف كابن للرجل وزَوْجه ؛ وكإنسان تربَّى فى بيت الرجل ؛ هنا ستختلف المسألة ، ويكون النفع مُحمَّلاً بالعاطفة التى قال عنها الرجل :

﴿ أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا .. (٢١) ﴾ [يوسف]

وقد علِمنا من السِّيَر أنهما لم يُرزَقا بأولاد[1] .

ويقول الحق سبحانه فى نفس الآية :

﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢١) ﴾ [يوسف]

وقد بدأ التمكين فى الأرض من لحظة دخوله إلى بيت عزيز مصر ليحيا حياة طيبة ؛ وليعلمه الله تأويل الحديث ؛ بأن يهبه القدرة على تفسير الرُّؤى والأحلام ؛ وليغلب الله على أمره .

ولو نظر إخوته إلى ما آل إليه يوسف عليه السلام فسيعرفون أن مرادهم قد خاب ؛ وأن مراد الله قد غلب ؛ بإكرام يوسف ؛ وهم لو علموا ذلك لَضَنُّوا عليه بالإلقاء فى الجُبِّ ، وهذا شأن الظالمين جميعاً .

ولذلك نقول : إن الظالم لو علِم ما أعدَّه الله للمظلوم لَضَنَّ عليه بالظلم .

وساعة يقول الحق سبحانه :

﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ ..(٢١) ﴾ [يوسف]

فهذا قول نافذ ؛ لأنه وحده القادر على أن يقول للشىء كُنْ فيكون ؛ ولا يوجد إله غيره ليرد على مراده .

---

(١) « قال ابن عباس : كان حصوراً لا يُولد له ، وكذا قال ابن إسحاق : كان قطفير لا يأتى النساء ولا يولد له ، فإن قيل : كيف قال (أو نتخذه ولداً) وهو ملكه ، والولدية مع العبدية تتناقض ؟ قيل له : يعتقه ثم يتخذه ولداً بالتبنى ، وكان التبنى فى الأمم معلوماً عندهم ، وكذلك كان فى أول الإسلام » ذكره القرطبى فى تفسيره (٣٤٨٢/٤) .

ولذلك قلنا قديماً : إن الله سبحانه وتعالى قد شهد لنفسه أنه لا إله إلا هو[١] ؛ وهو يملك الرصيد المطلق المؤكد بأنه لا إله غيره ؛ فهو وحده الذى له المُلْك ، وهو وحده القادر على كل شىء .

ولكن خيبة بعض من الخلق الذين يتوهمون أنهم قادرون على أن يُخطِّطوا ويمكروا ؛ متناسين أو ناسين أن فوقهم قَيُّوم[٢] ؛ لا تأخذه سنة[٣] ولا نوم ، ولو انتبه هؤلاء لَعلِمُوا أن الله يُملِّك بحق مَنْ يُظلم فوق الذى ظَلَمه .

ورأينا فى حياتنا وتاريخنا ظالمين اجتمعوا على ظُلْم الناس ؛ وكان مصيرهم أسوأ من الخيال ؛ وأشد هَوْلاً من مصيرهم لو تحكم فيهم مَنْ ظلموهم .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ[٤] ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾

---

(١) وذلك قوله تعالى : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾ [آل عمران] .

(٢) القيوم والقيام فى صفة الله تعالى وأسمائه الحسنى القائم بتدبير أمر خلقه فى إنشائهم ورزقهم وعلمه بأمكنتهم . وقال قتادة : القيوم القائم على خلقه بآجالهم وأعمالهم وأرزاقهم . [لسان العرب ـ مادة : قوم] .

(٣) وسِنَ يَوْسَن سنة : نام نومة خفيفة ، السِّنة : الفعلة . قال تعالى : ﴿ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ ﴿٢٥٥﴾ ﴾ [البقرة] أى : لا تأخذه نومة خفيفة ولا أى نوم ، أو لا تأخذه غفلة عن أى شىء ولا نوم من أى نوع ثَقُل أو خَفَّ كثُر أو قَلَّ . [القاموس القويم ٢/٣٣٨] .

(٤) قال القرطبى فى تفسيره (٤/٣٤٨٤) : « معناه استكمال القوة ثم يكون النقصان بعد . وقال مجاهد وقتادة : الأشد ثلاث وثلاثون سنة . قال ربيعة وزيد بن أسلم ومالك بن أنس : الأشد بلوغ الحلم » .

والبلوغ هو الوصول إلى الغاية ، وقوله تعالى :

﴿ بَلَغَ أَشُدَّهُ .. (٢٢) ﴾ [يوسف]

أى : وصل إلى غايته فى النُّضْج والاستواء ؛ ومن كلمة « بلغ » أُخِذ مصطلح البلوغ ؛ فتكليف الإنسان يبدأ فَوْرَ أن يبلغ أشده ؛ ويصير فى قدرة أن ينجب إنساناً مثله .

وحين يبلغ إنسانٌ مثل يوسف أشده ، وهو قد عاش فى بيت ممتلىء بالخيرات ؛ فهذا البلوغ إنْ لم يكُنْ محروساً بالحكمة والعلم ؛ ستتولد فيه رعونة[1] ؛ ولهذا فقد حرسه الحق بالحكمة والعلم .

والحُكْم هو الفيصل بين قضيتين متعاندتين متعارضتين ؛ حق وباطل ؛ وما دام قد أعطاه الله الحُكْم ، فهو قادر على أن يفصل بين الصواب والخطأ .

وقد أعطاه الله العلم الذى يستطيع أن ينقله إلى الغير ، والذى سيكون منه تأويل الرُّؤى[2] ، وغير ذلك من العلم الذى سوف يظهر حين يُولَّى على خزانة مصر .

إذن : فهنا بلغ يوسف أَشُدّه وحرسه الحق بالحكمة والعلم .

ويُذيِّل الحق سبحانه هذه الآية بقوله :

﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ (٢٢) ﴾ [يوسف]

وكل إنسان يُحسن الإقامة لِمَا هو فيه ؛ يعطيه الله ثمرة هذا

---

(١) الرعونة : الحمق والاسترخاء . والأرعن : الأهوج فى منطقه . [لسان العرب ـ مادة : رعن] .

(٢) الرؤى : جمع رؤيا : وهى ما تراه فى منامك . ورأى : بمعنى اعتقد وبمعنى عرف . ورأى فى منامه رؤيا : حلَم . والرؤيا : الحلم فى المنام . [القاموس القويم ١/ ٢٥٠] .

الحُسْن ، والمثل : حين لا يتأبى فقير على قَدَر الله أن جعله فقيراً ، ويحاول أن يُحسن ويُتقن ما يعمل ، فيوضح الله بحُسْن الجزاء : أنت قبلت قدرى ، وأحسنتَ عملك ؛ فخُذْ الجزاء الطيب . وهذا حال عظماء الدنيا كلهم .

وهكذا نجد قول الحق سبحانه :

﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ (٢٢) ﴾ [يوسف]

لا ينطبق على يوسف وحده ؛ بل على كل مَنْ يحسن استقبال قَدَر الله ؛ لأنه سبحانه ساعة يأتى بحُكْم من الأحكام ؛ وبعد ذلك يعمِّم الحكم ؛ فهذا يعنى أن هذا الحكم ليس خاصاً بل هو عام.

وإذا كان الحق سبحانه يورد هذا فى مناسبة بعينها ، فإنه يقرر بعدها أن كل مُحْسِن يعطيه الله الحُكْم والعلم .

وقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ .. (٢٢) ﴾ [يوسف]

يوحى لنا أن يوسف عليه السلام كان قد بلغ مرحلة الفتوة[1] ، وهنا بدأت متاعبه فى القَصْر ، ففى طفولته نظرتْ إليه امرأة العزيز كطفل جميل ؛ فلم يكُنْ يملك ملامح الرجولة التى تهيج أنوثتها .

أما بعد البلوغ فنجد حالها قد تغيَّر ، فقد بدأت تدرك مفاتنه ؛ وأخذ خيالها يسرح فيما هو أكثر من الإدراك ، وهو التهاب الوجدان

---

(١) الفتاء : الشباب . والفتى والفتية : الشاب والشابة . قال القتيبى : ليس الفتى بمعنى الشاب والحدث إنما هو بمعنى الكامل الجَزْل من الرجال . قال الشاعر :

إنَّ الفَتَى حَمَّالُ كَلِّ مُلِمَّة ... ليسَ الفتى بمُنعَّمِ الشُّبانِ

[لسان العرب ـ مادة : فتا] .

بالعاطفة المشبوبة[١] ، وما بعد الإدراك والوجدان يأتى النزوع .

ولو كانت محجوبة عنه ؛ لما حدثت الغواية بالإدراك والوجدان .

وهذا يعطينا علَّة غَضِّ البصر عن المثيرات الجنسية ؛ لأنك إنْ لم تغضّ البصر أدركتَ ، وإن أدركتَ وجدتَ ، وإن وجدتَ نزعتَ إلى الزواج أو التعفف بالكبْت فى النفس ، وتعيش اضطراب القلق والتوتر ، وإنْ لم تتعفف عربدتَ[٢] فى أعراض الناس .

وكذلك أمرنا الحق سبحانه ألا تُبدِى النساء زينتهن إلا لأناس حددهم الحق سبحانه فى قوله تعالى :

﴿ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ[٣] أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الإِرْبَةِ[٤] مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ .. (٣١) ﴾ [النور]

---

(١) شب النار والحرب : أوقدها . وشبَّة النار : اشتعالها . قال أبو حنيفة : حكى عن أبى عمرو ابن العلاء ، أنه قال : شُبَّت النار وشبَّت هى نفسها ، قال ولا يقال : شابَّةٌ ، ولكن مشبوبة. [لسان العرب ـ مادة : شبب] .

(٢) رجل عِرْبد وعربيد ومعربد : شرِّير مُشَارٌّ ، ويقال للمعربد : عربيد كأنه شبه بالحية . [لسان العرب ـ مادة : عربد] .

(٣) البعل : الزوج والزوجة فهو مصدر سُمِّى به بلفظه فلا يؤنث ، وجمع البعل : بعول : قال تعالى فى قرآنه : ﴿وَهَـٰذَا بَعْلِي شَيْخًا .. (٧٢)﴾ [هود] وقال : ﴿ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ ..(٢٢٨)﴾ [البقرة] أى : وأزواجهن أحق بردهن بعد الطلاق الرجعى ـ وبعد طلقة بائنة أو طلقتين بائنتين بعقد جديد . [القاموس القويم ١/٧٦] .

(٤) الأرب : الحاجة التى تقتضى الاحتيال لها ، وكذلك الأربة والمأرب . قال تعالى : ﴿ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ ..(٣١)﴾ [النور] أى : غير ذوى الحاجة إلى النساء ، أى : الذين ليس لهم شهوة لكبرهم أو عجزهم أو صغرهم . [القاموس القويم ١/١٧] .

أى : الذى بلغ من العمر والشيخوخة حداً لا يجعله يفكر فى الرغبة فى النساء .

وكانت نظرة امرأة العزيز إلى يوسف عليه السلام وهو فى فتوته ، بعد أن بلغ أشُدَّه نظرةً مختلفة ، يوضحها الله تعالى فى قوله :

﴿ وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ (١) ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ (٢) قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾

وساعة تسمع «راود » فافهم أن الأمر فيه منازعة مثل : « فَاعَلَ » أو « تَفاعل » ومثل : « شارك محمد علياً » أى : أن علياً شارك محمداً ؛ ومحمد شارك علياً ؛ فكل منهم مفعول مرة ، وفاعل مرة أخرى .

والمُراودة مطالبةٌ برفق ولين بستر ما تريده ممَّنْ تريده ؛ فإنْ كان الأمر مُسهَّلاً ، فالمُراودة تنتهى إلى شىء ما ، وإنْ تأبَّى الطرف

---

(١) غلق الباب يغلقه غَلْقاً : أوصده مثل أغلقه . وغلَّقه بالتضعيف للمبالغة فى إغلاق الأبواب وإحكامها ، كقوله تعالى : ﴿وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ ..(٢٣)﴾ [يوسف] أى : أحكمت إغلاقها لتأمن على نفسها من الداخلين . [القاموس القويم ٢/٥٩] .

(٢) هَيَّأ الشىء : أعده وجهَّزه ويسَّره ، قال تعالى : ﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا (١٠)﴾ [الكهف] أى : يسِّر لنا من أمرنا طريق الرشاد والحق . وهئت للأمر : أعددت نفسى له ، وقرئ فى سورة يوسف عليه السلام (وهئتْ لك) أى : أعددت نفسى لك . و (هيت) : اسم فعل أمر بمعنى أقبل وتعال ، قال تعالى : ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ .. (٢٣)﴾ [يوسف] والمعنى : أقبل . واللام للتعدية ، أى : أدعوك لتقبل أو الدعاء لك . [القاموس القويم ٢/٣١١ ، ٣١٢] .

الثانى بعد أن عرفَ المراد ؛ فلن تنتهى المراودة إلى الشىء الذى كنت تصبو[١] إليه .

وهكذا راودتْ امرأة العزيز يوسف عليه السلام ، أى : طالبته برفق ولين فى أسلوب يخدعه ليُخرِجه عمَّا هو فيه إلى ما تطلبه .

ومن قبْل كان يوسف يخدمها ، وكانت تنظر إليه كطفل ، أما بعد أن بلغ أشُده فقد اختلف الأمر ، ولنفرض أنها طالبته أن يُحضِر لها شيئاً ؛ وحين يقدمه لها تقول له « لماذا تقف بعيداً ؟ » وتدعوه ليجلس إلى جوارها ، وهو لن يستطيع الفكاك ؛ لأنه فى بيتها ؛ وهى مُتمكِّنة منه ؛ فهى سيدة القصر .

وهكذا نجد أن المسألة مجموعة عليه من عدة جهات ؛ فهو قد تربَّى فى بيتها ؛ وهى التى تتلطف وترقُّ معه ، وفَهِم هو مرادها .

وهكذا شرح الحق سبحانه المسألة من أولها إلى آخرها بأدب رَاقٍ غير مكشوف ، فقال تعالى :

﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ .. (٢٣) ﴾[يوسف]

وكلمة : ﴿ غَلَّقَتِ الأَبْوَابَ .. (٢٣) ﴾ [يوسف]

توضح المبالغة فى الحدث ؛ أو لتكرار الحَدث ، فهى قد أغلقت أكثرَ من باب . ونحن حين نحرك المزلاج[٢] لنؤكد غَلْق باب ، ونحرك المفتاح ، ونديره لتأكيد غَلْق الباب .

---

(١) صبا يصبو : مال وأحب . قال يوسف عليه السلام : ﴿ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ (٣٣) ﴾ [يوسف] أى : أملْ إليهن وأفعل ما يُغرينني به ، وصبا إلى اللهو : حَنَّ واشتاق إليه وصحبه . [القاموس القويم ١/٣٦٨] .

(٢) الزِّلاج والمزلاج : مغلاق الباب ، سُمِّى بذلك لسرعة انزلاجه . وقد أزلجت الباب أى أغلقته . والمزلاج : المغلاق إلا أنه ينفتح باليد ، والمغلاق لا يفتح إلا بالمفتاح . [لسان العرب ـ مادة : زلج] .

فهذه عملية أكبر من غَلْق الباب ؛ وإذا أضفنا مِزْلاجاً جديداً نكون قد أكثرنا الإغلاق لباب واحد ؛ وهكذا يمكن أن نَصِفَ ما فعلنا أننا غلّقنا الباب .

وامرأة العزيز قامت بأكثر من إغلاق لأكثر من باب ، فَقُصور العظماء بها أكثر من باب ، وأنت لا تدخل على العظيم من هؤلاء فى بيته لتجده فى استقبالك بعد أول باب ، بل يجتاز الإنسان أكثر من باب لِيَلقى العظيم الذى جاء ليقابله .

ويحمل لنا التاريخ قصة ذلك الرجل الذى رفض أن يبايع معاوية فى المدينة ، فأمر معاوية باستدعائه إلى قصر الحكم فى دمشق .

هذا القصر الذى سبق أن زاره عمر بن الخطاب ؛ ووجد فيه أبهة زائدة بررها له معاوية بحيلة الأريب[1] أنها أُبهة[2] ضرورية لإبراز مكانة العرب أمام الدولة الرومانية المجاورة ، فسكتَ عنها عمر[3] .

وحين استدعى معاوية الرجل ، دخل بصحبة الحرس من باب ، وظن أنه سوف يلقى معاوية فَوْر الدخول ؛ لكن الحرس اصطحبه عبر أكثر من باب ؛ فلم ينخلع قلب الرجل ، بل دخل بثبات على معاوية وضَنّ عليه بمناداته كأمير للمؤمنين ، وقال بصوت عال :

---

(١) الأريب : العاقل ، والإرب والأرب : الدهاء والبصر بالأمور ، وهو من العقل . وأصل الإرب : الدهاء والمكر . [لسان العرب ـ مادة : أرب] .

(٢) الأبهة : العظمة والبهاء . والأبهة : العظمة والكبر . ورجل ذو أبهة أى ذو كبر وعظمة . [لسان العرب ـ مادة : أبه] .

(٣) ذكر أبو على القالى فى أماليه (١٣٦/٢) : « قال المغيرة بن شعبة : كان عمر إذا نظر إلى معاوية يقول : هذا كسرى العرب » .

« السلام على رسول الله ﷺ » .

ففطن معاوية إلى أن الرجل يرفض مبايعته .

ونعود إلى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها ؛ فنجد أن امرأة العزيز قد غلَّقتْ الأبواب ؛ لأن مَنْ يفعل الأمر القبيح يعلم قُبْح ما يفعل ، ويحاول أن يستر فِعْله ، وهى قد حاولتْ ذلك بعيداً عن مَنْ يعملون أو يعيشون فى القصر ، وحدثتْ المراودة وأخذتْ وقتاً ، لكنه فيما يبدو لم يَستجِبْ لها .

﴿ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ .. (٢٣) ﴾ [يوسف]

أى : أنها انتقلتْ من مرحلة المُراودة إلى مرحلة الوضوح فى طلب الفعل ؛ بأن قالت : تهيأتُ لك ؛ وكان ردُّه :

﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ .. (٢٣) ﴾ [يوسف]

والمَعَاذ هو مَنْ تستعيذ به ، وأنت لا تستعيذ إلا إذا خارتْ أسبابك أمام الحدث الذى تمرُّ به علَّك تجد مَنْ ينجدك ؛ فكأن المسألة قد عَزَّتْ عليه ؛ فلم يجد مَعَاذًا إلا الله .

ولا أحد قادر على أن يتصرف هكذا إلا مَنْ حرسه الله بما أعطاه له من الحكمة والعلم ؛ وجعله قادراً على التمييز بين الحلال والحرام .

ولبيان خطورة وقوة الاستعاذة نذكر ما ترويه كتب السيرة من أن

النبى ﷺ عقد على ابنة ملك[١] ؛ كانت شديدة الجاذبية ، وشعرت بعض من نساء النبى بالغيرة منها ، وقالت واحدة منهن لعلها عائشة رضى الله عنها : إنْ تزوجها ودخل بها قد يفضلها عنَّا . وقالت للعروس : إن النبى يحب كلمة ما ، ويحب مَنْ يقولها[٢] . فسألت الفتاة عن الكلمة ، فقالت لها عائشة : إن اقترب منك قولى « أعوذ بالله منك » .

فغادرها رسول الله ﷺ وقال : « قد عُذْتِ بمعاذ »[٣] وسرَّحها السراح[٤] الجميل .

وهناك فى قضية السيدة مريم عليها السلام ، نجدها قد قالت لحظة أن تمثَّل لها الملاك بشراً سوياً[٥] :

﴿ إِنِّى أَعُوذُ بِالرَّحْمَـٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ ﴾ [مريم]

فهى استعاذت بمَنْ يقدر على إنقاذها .

---

(١) جاء فى الطبرى أنها ملكة بنت داود الليثية (١٢٣/٣) أو فاطمة بنت الضحاك الكلابية (١٣٩/٣).

(٢) قال ابن حجر فى الفتح (٣٥٩/٩) : « وقع عند ابن سعد (فى الطبقات) أن عائشة وحفصة دخلت عليها أول ما قدمت فمشطتاها وخضبتاها وقالت لها إحداهما : إن النبى ﷺ يعجبه من المرأة إذا دخل عليها أن تقول أعوذ بالله منك » .

(٣) أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٢٥٥) كتاب الطلاق من حديث أبى أسيد رضى الله عنه .

(٤) السراح : مصدر أو اسم مصدر بمعنى الطلاق : ﴿ فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [الأحزاب] أى : طلاقاً حسناً ليس فيه كيد ولا إيذاء . [القاموس القويم ٣٠٩/١].

(٥) السوى من الرجال : من ليس فى خلقه عيب وليس فى بدنه مرض ولا آفة ، فقوله : ﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ ﴾ [مريم] أى : حالة كونك كامل الخَلْق لا خرس بك ولا بكم ولا أى عجز ، وقوله : ﴿ فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ ﴾ [مريم] مستوى الخَلْق فى صورة إنسان كامل جميل وضىء . [القاموس القويم ٣٣٩/١] .

وهنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها :

﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّى أَحْسَنَ مَثْوَايَ[1] إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢٣)﴾ [يوسف]

وأعطانا هذا القول معنيين اثنين :

الأول : أنه لم يوافق على طلبها بعد أن أوضحتْ ما تريد .

والمعنى الثانى : أنه طلب المعونة من الله ، وهو سبحانه مَنْ أنجاه من كيد إخوته ؛ ونجَّاه من الجُبِّ ؛ وهيَّأ له أفضل مكان فى مصر ، ليحيا فيه ومنحه العلم والحكمة مع بلوغه لأشُدِّه .

وبعد كل هذا أيستقبل كل هذا الكرم بالمعصية ؟ طبعاً لا .

أو : أنه قال : ﴿ أَحْسَنَ مَثْوَايَ.. (٢٣)﴾ [يوسف]

ليُذكِّر امرأة العزيز بأن لها زوجاً ، وأن هذا الزوج قد أحسن ليوسف حين قال لها :

﴿أَكْرِمِى مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ..(٢١)﴾ [يوسف]

فالصعوبة لا تأتى فقط من أنها تدعوه لنفسها ؛ بل الصعوبة تزداد سوء لأن لها زوجاً فليست خالية ، وهذا الزوج قد طلب منها أن تُكرم يوسف ، وتختار له مكانَ إقامةٍ يليق بابن ، ولا يمكن أن يُستَقبل ذلك بالجحود والخيانة .

وهكذا يصبح قول يوسف : ﴿ إِنَّهُ رَبِّى .. (٢٣)﴾ [يوسف]

قد يعود على الله سبحانه ؛ وقد يعود على عزيز مصر .

---

(١) المثوى : اسم مكان أو مصدر ميمى ، قال تعالى : ﴿وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ (١٥١)﴾ [آل عمران] اسم مكان قُصِد به النار ، وقال تعالى : ﴿ أَكْرِمِى مَثْوَاهُ .. (٢١)﴾ [يوسف] أى : إقامته . أى : أكرمى يوسف وعبَّر باسم المكان عن الحالِّ فيه مجازاً مرسلاً علاقته المجازية . [القاموس القويم ١/١١٣] .

وتلك مَيْـزة أسلوب القرآن ؛ فهـو يأتى بعبارة تتـسع لكل مناطات الفهم ، فما دام الله هو الذى يُجـازى على الإحسان ، وهو مَنْ قال فى نفس الموقف :

﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ (٢٢) ﴾ [يوسف]

فـمـعنى ذلك أن مَنْ يسىء يـأتى الله بالضـد ؛ فـلا يُفلح ؛ لأن القضيتين متقابلتان :

﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ (٢٢) ﴾ [يوسف]

و ﴿ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢٣) ﴾ [يوسف]

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ(١) وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ(٢) رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ(٣) (٢٤) ﴾

---

(١) هم بالفعل يهم به هماً : قصده واتجه إليـه بنيته ولم يفعله ، قـال تعالى : ﴿ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ .. (١١) ﴾ [المائدة] أى : عـزموا واتجـهت نيتهـم إلى حربكم والتعـدِّى عليكم وإيذائكم فكفهـم الله ، وقال تعالى فى قـصة يوسف عليـه السلام : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا .. (٢٤) ﴾ [يوسف] همت به : هم عَزْم وتصميم . وهَمَّ بها هَمَّ ترْك وإعراض ومقاومة . أى : هَمَّ بمقاومتها والله أعلم . [القاموس القويم : ٢/٣٠٧ بتصرف] .

(٢) البـرهان : الحجـة البينة الفـاصلة ، قال تعـالى : ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١١١) ﴾ [البقرة] وقوله : ﴿ لَوْلَا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ ..(٢٤) ﴾ [يوسف] أى : لولا أن رأى حجة ربه التى ثبتـته على الحق وصرفـته عما هم به ـ أو لولا أن رأى بـرهان ربه ، أى الدليل على قدوم سيـده وحضوره ، وقـدَّر الله مجىء سيده إلى الـبيت فى هذا الوقت ليصـرف عنه السوء . [القاموس القويم ١/٦٥] .

(٣) أخلصه الله : جعله صافياً نقياً طاهراً . واسم المفعول «مخلَص » بفتح اللام . قال تعالى : ﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ (٢٤) ﴾ [يوسف] أى : الأصفياء الأتقياء المطهرين . [القاموس القويم ١/٢٠٢] .

والهَمُّ هو حديث النفس بالشىء ؛ إما أن يأتيه الإنسان أو لا يأتيه. ومن رحمة ربنا بخلْقه أن مَنْ هَمَّ بسيئة وحدَّثتْه نفسه أن يفعلها ؛ ولم يفعلها كُتِبتْ له حسنة[1] .

وقد جاءت العبارة هنا فى أمر المراودة التى كانت منها ، والامتناع الذى كان منه ، واقتضى ذلك الأمر مُفَاعلة بين اثنين يصطرعان فى شىء .

فأحد الاثنين امرأة العزيز يقول الله فى حقها :

﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ..(٢٤) ﴾ [يوسف]

وسبق أن أعلن لنا الحق سبحانه فى الآية السابقة موقفها حين قالت : « هيت لك » وكذلك بيَّن موقف يوسف عليه السلام حين قال يوسف «معاذ الله » .

وهنا يبين لنا أن نفسه قد حدثته أيضاً ؛ وتساوى فى حديث النفس ؛ لكن يوسف حدث له أن رأى برهان ربه .

ويكون فَهْمُنا للعبارة : ولولا أن رأى برهان ربه لَهَمَّ بها ؛ لأننا نعلم أن « لولا» حرف امتناع لوجود ؛ مثلما نقول : لولا زيد عندك لأتيتك .

ولقائل أن يقول : كيف غابت قضية الشرط فى الإيجاد والامتناع عن الذين يقولون : إن الهم قد وُجِد منه ؟

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة ، ومن هم بحسنة فعملها كتبت له عشراً إلى سبعمائة ضعف ، ومن هَمَّ بسيئة فلم يعملها لم تكتب ، وإن عملها كتبت » . أخرجه مسلم فى صحيحه (١٣٠) كتاب الإيمان (حديث ٢٠٦) .

ولماذا لم يَقُل الحق : لقد همَّتْ به ولم يهم بـها ؛ حتى نخرج من تلك القضية الصعبة ؟

ونقول : لو قال الحق ذلك لمـا أعطانا هذا القولُ اللقطةَ المطلوبة ؛ لأن امرأة العزيز هَمَّتْ به لأن عندها نوازع العمل ؛ وإنْ لم يَقُلْ لنا أنه قد هَمَّ بهـا لظننا أنه عِنِّين[1] أو خَصَـاه موقف أنـها سـيدته فـخارتْ قواه .

إذن : لو قال الحـق سبحـانه : إنه لم يَهِمّ بها ؛ لكان الـمانع من الهَمِّ إما أمر طبيعى فيه ، أو أمر طارىء لأنها سيدته فقد يمنعه الحياء عن الهَمِّ بها .

ولكن الحق سبـحانه يريد أن يوضح لنا أن يوسف كان طبيـعياً ، وهو قد بلغ أَشُدّه ونُضْجه ؛ ولولا أن رأى برهان ربه لَهَمَّ بها .

وهكذا لم يَقُمْ يوسف عليه السلام بما يتطلبه ذلك لنقص فيه ؛ ولا لأن الموقف كان مفاجأة ضَيَّعَتْ رجولته بغتة[2] ؛ مثل ما يحدث لبعض الشبـاب فى ليلة الزفاف ، حين لا يسـتطيع أن يَقربَ عروسـه ؛ وتمر أيام إلى أن يستعيد توازنه . ويقرب عروسه .

إذن : لو أن القـرآن يريد عـدم الهَـمِّ على الإطلاق ؛ ومن غـيـر شىء ، لَقَال : ولقد هَمَّتْ به ولم يَهِم بها .

---

(١) العنين : الذى لا يأتى النسـاء ولا يريدهن بيِّن العنانة . وعُـنِّن عن امرأته إذا حكم القـاضى عليـه بذلك أو مُنِع عنهـا بالسحـر . وامرأة عنينة كـذلك : لا تريد الرجـال ولا تشتـهيـهم . وسُمِّى عنيناً لأنه يعن ذكره لقبل المرأة من عن يمينه وشـماله فلا يقصده . [لسان العرب ـ مادة : عنن] .

(٢) بغتـه بغتاً وبغـتة : فاجـأه على غرة وغفلة ، قـال تعالى : ﴿ فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾ [الأعراف] والمبـاغتة : المفـاجأة والبَغْت والبغـتة : الفجأة ، وهو أن يفـجأك الشىء . [لسان العرب ـ مادة : بغت] .

ولكن مثل هذا القول هو نَفْيٌ للحدث بما لا يستلزم العفة والعصمة ، لجواز أن يكون عدم الهَمِّ راجعاً إلى نقص ما ؛ وحتى لا يتطرق إلينا تشبيهه ببعض الخدم ؛ حيث يستحى الخادم أن ينظر إلى البنات الجميلات للأسرة التى يعمل عندها ؛ ويتجه نظره إلى الخادمة التى تعمل فى المنزل المجاور ، لأن للعواطف التقاءات .

ومن لُطْفِ الله بالخلق أنه يُوجِد الالتقاءات التفاعلية فى المتساويات ، فلا تأتى عاطفة الخادم فى بعض الأحيان ناحية بنات البيت الذى يعمل عنده ؛ وقد يطلب من أهل البيت أن يخرج لشراء أى شىء من خارج المنزل ، لعله يحظى بلقاء عابر من خادمة الجيران .

ويجوز أن الخادم قد فكر فى أنه لو هَمَّ بواحدة من بنات الأسرة التى يعمل لديها ؛ فقد تطرده الأسرة من العمل ؛ بينما هو يحيا سعيداً مع تلك الأسرة .

وهكذا يشاء الحق سبحانه أن يوزع تلك المسائل بنظام وتكافؤات فى كثير من الأحيان .

وهنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها قال الحق سبحانه :

﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ .. (٢٤)﴾

[يوسف]

إذن : فبرهان ربه سابق على الهَمِّ ، فواحد هَمّ ولم يرتكب ما يتطلبه الهمّ ؛ لأن برهان ربه فى قلبه ، وقد عرف يوسف برهان ربه من البداية .

وبذلك تنتهى المسألة ، ولذلك فلا داعى أن يدخل الناس فى متاهات أنه هَمّ وجلس بين شعبتيها[١] ، ولم يرتعد إلا عندما تمثَّل له وجه والده يعقوب ونهاه عن هذا الفعل[٢] ؛ فأفسقُ الفُسّاق ولو تمثَّل له أبوه وهو فى مثل هذا الموقف لأصيب بالإغماء .

وحين تناقش مَنْ رأى هذا الرأى ؛ يردّ بأن هدفه أن يثبت فحولة[٣] يوسف ؛ لأن الهمّ وجد وأنه قد نازع الهمّ .

ونقول لصاحب هذا الرأى : أتتكلم عن الله ، أم عن الشيطان ؟

أنت لو نظرتَ إلى أبطال القصة تجدهم ؛ امرأة العزيز ؛ ويوسف والعزيز نفسه ؛ والشاهد على أن يوسف قد حاول الفكَاك من ذلك الموقف ، ثم النسوة اللاتى دَعتْهُنَّ امرأة العزيز ليشاهدوا جماله ؛ والله قد كتب له العصمة .

فكُلُّ هؤلاء تضافروا[٤] على أن يوسف لم يحدث منه شىء .

---

(١) فى الحديث : « إذا قعد الرجل من المرأة ما بين شعبها الأربع وجب عليه الغسل » شعبها الأربع : يداها ورجلاها . وقيل : رجلاها وشُفْرا فرجها ، كنى بذلك عن تغييبه الحَشَفَة فى فرجها . [لسان العرب ـ مادة : شعب] .

(٢) قال قتادة ومجاهد والحسن والضحاك وسعيد بن جبير : رأى صورة يعقوب على الجدران عاضاً على أنملته يتوعده فسكن ، وخرجت شهوته من أنامله . [ذكره القرطبى فى تفسيره ٣٤٩٢/٤] .

(٣) رجل فحيل : فحل ، وإنه لبيّن الفُحولة . غير خصىّ بل هو مُنجب . [لسان العرب ـ مادة : فحل] .

(٤) تضافر القوم على فلان وتظافروا عليه وتظاهروا بمعنى واحد كله إذا تعاونوا وتجمعوا عليه ، وتألبوا وتصابروا مثله . قال ابن سيده : تضافر القوم على الأمر تظاهروا وتعاونوا عليه . [لسان العرب ـ مادة : ضفر] .

وقال يوسف نفسه :

﴿ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي .. (٢٦) ﴾ [يوسف]

وامرأة العزيز نفسها قالت مُصدِّقة لِمَا قال :

﴿ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ[1] .. (٣٢) ﴾ [يوسف]

وقالت : ﴿ الآنَ حَصْحَصَ[2] الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٥١) ذَلِكَ لِيَعْلَمَ[3] أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ ..(٥٢) ﴾ [يوسف]

وعن النسوة قال يوسف : ﴿ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ (٥٠) ﴾ [يوسف]

وقال يوسف لحظتها :

﴿ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ (٣٣) ﴾ [يوسف]

والصَّبْوة هى حديث النفس بالشىء ؛ وهو ما يثبت قدرة يوسف عليه السلام على الفعل ، وحماه الله من الصبوة ؛ لأن الحق سبحانه قد قال :

---

(١) استعصم : طلب لنفسه العصمة وتمسَّك بها ، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ (٣٢) ﴾ [يوسف] أى : فامتنع متمسِّكاً بعصمته وعفة نفسه وبحفظها من السوء . [القاموس القويم ٢/٢٤] .

(٢) حصحص الحق : وضح وتبيّن بعد خفائه ، قال تعالى : ﴿ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ ..(٥١) ﴾ [يوسف] . قال ابن منظور فى لسان العرب : « الحصحصة : بيان الحق بعد كتمانه » . [مادة حصص] .

(٣) فى قائل هذه العبارة أقوال كثيرة ذكرها المفسرون منها : أنه يوسف ، ومنها أنها : امرأة العزيز. قال ابن كثير فى تفسيره (٢/٤٨١) : « هذا القول هو الأشهر والأليق والأنسب بسياق القصة ومعانى الكلام ، وقد حكاه الماوردى فى تفسيره وانتدب لنصره الإمام أبو العباس ابن تيمية رحمه الله فأفرده بتصنيف على حدة ».

﴿ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ .. (٣٤) ﴾ [يوسف]

وانظر إلى لقطة النسوة اللاتى تهامسْنَ بالنميمة عن امرأة العزيز وحكايتها مع يوسف ، ألم يَقُلْنَ :

﴿ مَا هَـٰذَا بَشَرًا إِنْ هَـٰذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ ..(٣١) ﴾ [يوسف]

فحين دخل عليهن اتجهت العيون له ، وللعيون لغات ؛ وللانفعال لغات ؛ وإلا لماذا قال يوسف :

﴿ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ .. (٣٣) ﴾ [يوسف]

وهكذا نعلم أنه قد حدثت مُقدِّمات تدل على أن النسوة نَوِيْنَ له مثل ما نَوَتْه امرأة العزيز ؛ وظَنَنَّ أن امرأة العزيز سوف تطرده ؛ فيتلقفنه هُنَّ ؛ وهذا دأب[1] البيوت الفاسدة .

وهل هناك أفسد من بيت العزيز نفسه ، بعد أن حكم الشاهد أنها هى التى راودتْ يوسف عن نفسه ؛ فيدمدم العزيز على الحكاية ، ويقول :

﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَـٰذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ(٢٩) ﴾ [يوسف]

وكان هدف العزيز أن يحفظ مكانته من القيل والقال .

وحين سأل الشاهد النسوة ، بماذا أجبْنَ ؟

يقول الحق سبحانه أن النسوة قُلْنَ :

---

(١) دأب على الأمر : اعتاده . والدَّأب والدَّأب : العادة والشأن . قال تعالى : ﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ .. (٣١)﴾ [غافر] أى : عادتهم وشأنهم . وقال تعالى : ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا .. (٤٧)﴾ [يوسف] أى : مداومين مجتهدين ذوى دأب . وقال تعالى : ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ.. (٣٣)﴾ [إبراهيم] أى : مستمرين فى الحركة دائبين فيها بلا انقطاع تشبيهاً لهما بالإنسان المجدّ . [القاموس القويم ٢١٩/١] .

﴿ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ.. (٥١) ﴾ [يوسف]

وقد صرف الله عنه الشيطان الذى يتكفل دائماً بالغواية ، وهو لا يدخل أبداً فى معركة مع الله ؛ ولكنه يدخل مع خَلْق الله ؛ لأن الحق سبحانه يورد على لسانه :

﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ(١) أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣) ﴾ [ص]

فالشيطان نفسه يُقرُّ أن مَنْ يستخلصه الله لنفسه من العباد إنما يعجز ـ هو كشيطان ـ عن غوايته ، ولا يجرؤ على الاقتراب منه .

والشاهد الذى من أهل امرأة العزيز ، واستدعاه العزيز ليتعرف على الحقيقة قال :

﴿ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ(٢) مِن دُبُرٍ(٣) فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٧) ﴾ [يوسف]

---

(١) أغواه : أضله وأوقعه فى الغىّ والضلال . قال تعالى : ﴿أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ..(٦٣)﴾ [القصص] أى : أضللناهم كما ضللنا . وغوى يَغْوى غياً غواية : انهمك فى الجهل وهو ضد الرشد . قال تعالى : ﴿لا إِكْرَاهَ فِى الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ..(٢٥٦)﴾ [البقرة] وغوي : بمعنى خاب وضل لأنه انهمك فى الجهل . والغاوى : اسم فاعل ، قال تعالى : ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ (٩١)﴾ [الشعراء] أى : الضالين المنهمكين فى أعمال الجهل . [القاموس القويم ٢/٦٤].

(٢) قد الثوب : شقّه . قال تعالى : ﴿وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ ..(٢٥)﴾ [يوسف] . والقدَّة : القطعة المقدودة من الثوب ، والجماعة المختلفة فى الرأى مع مجموع الأمة كأنها قُدَّتْ وقُطعت منها. قال تعالى : ﴿ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَداً (١١)﴾ [الجن] أى : جماعات مختلفة الرأى جمع قِدَّة . [القاموس القويم ٢/١٠٢] .

(٣) الدبر : مؤخَّر كل شىء وعقبه وظهره ضد القبل ، قال تعالى : ﴿ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ ..(٢٥)﴾ [يوسف] أى : من خلف . وولَّى المحارب دبره : كناية عن فراره ، قال تعالى : ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥)﴾ [القمر] أى : ويفرون . وجمع الدبر أدبار . قال تعالى : ﴿ وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يُنصَرُونَ (١١١)﴾ [آل عمران] أى : يفرون منكم منهزمين ، وقوله تعالى : ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ (٤٠)﴾ [ق] أى : عقب كل سجود أو عقب كل صلاة . [القاموس القويم ١/٢٢٠] .

وبعد كل هذه الأدلة فليس من حَقٍّ أحد أن يتساءل : هل هَمَّ يوسف بامرأة العزيز ، أم لم يَهِمّ ؟

وفى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها ، يقول الحق سبحانه :

﴿ لَوْلا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ ..(٢٤) ﴾ [يوسف]

والبرهان هو الحجة على الحكم . والحق سبحانه هو القائل :

﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً (١٥) ﴾ [الإسراء]

وفى آية أخرى يقول الحق سبحانه :

﴿ رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ.. (١٦٥) ﴾ [النساء]

أى : لا بُدَّ أن يبعث الحقُّ رسولاً للناس مُؤيداً بمعجزة تجعلهم يُصدِّقون المنهج الذى يسيرون عليه ؛ كى يعيشوا حياتهم بانسجام إيمانى ، ولا يعذبهم الله فى الآخرة .

ويُذيِّل الحق سبحانه الآية بقوله :

﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ[1] عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ(٢٤) ﴾ [يوسف]

والفحشاء هى الزنا والإتيان ؛ والسوء هى فكرة الهَمِّ ، وبعض المعتدلين قالوا : إنها بعد أن راودتْه عن نفسه ؛ وخرجت بالفعل إلى

---

(١) الصرف : رد الشىء من حال إلى حال. وصرف النقود : تغييرها أو إنفاقها . وصرف السجين : أخلى سبيله . وصرف القلوب يصرفها : حَوَّلها من الهدى إلى الضلال . قال تعالى : ﴿ صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم (١٢٧) ﴾ [التوبة] . [القاموس القويم ١/ ٣٧٤] .

مرحلة السُّعَار[١] لحظة أن سبقها إلى الباب ؛ فكَّرتْ فى أن تقتله ؛ وحاول هو أن يدافع عن نفسه وأن يقتلها ، ولو قتلها فلسوف يُجازى كقاتل[٢] .

فصرف الحق عنه فكرة القتل ؛ وعنى بها هنا قوله الحق « السوء » ؛ ولكنى أطمئن إلى أن السوء هو فكرة الهَمِّ ، وهى مُقدِّمات الفعل.

ويقرر الحق سبحانه أن يوسف عليه السلام من عباده المُخْلصين ، وفى هذا رد على الشيطان ؛ لأن الشيطان قال :

﴿ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣) ﴾ [ص]

وقوله الحق هنا :

﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ (٢٤) ﴾ [يوسف]

يؤكد إقرار الشيطان أنه لن يَقْرب عباد الله المخلصين . وهناك «مُخْلصين » . و « مُخْلَصين » والمخلص هو مَنْ جاهد فكسب طاعة الله ، والمُخْلَص هو مَنْ كسب فجاهد وأخلصه الله لنفسه[٣] .

وهناك أُناس يَصلُون بطاعة الله إلى كرامة الله ، وهناك أُناس

---

(١) السُّعار : شدة الجوع . يقال : سُعر الرجل ، فهو مسعور ، إذا اشتد جوعه وعطشه . والسعْر : شهوة مع جوع . والسُّعُر : الجنون . وسعار العطش : التهابه . والسعير والساعورة : النار . وقيل : لهبها . والسُّعار والسُّعْر : حرها . [لسان العرب ـ مادة : سعر] .

(٢) ذكر القرطبى فى تفسيره أن من بين تأويلات هم يوسف عليه السلام بامرأة العزيز أنه هَمَّ بضربها ودفعها عن نفسه ، والبرهان كَفَّه عن الضرب ، إذ لو ضربها لأوهم أنه قصدها بالحرام فامتنعت فضربها . [راجع تفسير القرطبى ٤/٣٤٨٨] .

(٣) أخلصه الله : جعله صافياً نقياً مُطهَّراً ، واسم المفعول « مُخْلَص » بفتح اللام . قال تعالى : ﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ (٢٤) ﴾ [يوسف] أى : الأصفياء الأتقياء المطهرين . وأخلص دينه لله : طهّره وصفّاه من شوائب الشرك والرياء . قال تعالى : ﴿ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ (٢) ﴾ [الزمر] . [القاموس القويم ١/٢٠٢] .

يكرمهم الله فيطيعون الله - ولله المثل الأعلى - مُنزَّه عن كل تشبيه ، أنت قد يطرق بابك واحد يسألك من فضل الله عليك ؛ فتستضيفه وتُكرمه ، ومرة أخرى قد تمشى فى الشارع وتدعو واحداً لتعطيه من فضل الله عليك ، أى : أن هناك مَنْ يطلب فتأذن له ، وهناك مَنْ تطلبه أنت لتعطيه .

وبعد الحديث عن المراودة بما فيها من لين وأخْذ ورَد ؛ ينتقل بنا الحق سبحانه إلى ما حدث من حركة ، فيقول تعالى :

﴿ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا(١) لَدَا ٱلْبَابِ(٢) ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ ﴾

وعرفنا أن كلاهما حاول الوصول إلى الباب قبل الآخر ؛ وتسابقا فى هذا الاستباق ، ونلحظ أن الحق سبحانه يذكر هنا باباً واحداً ؛ وكانت امرأة العزيز قد غلَّقَتْ من قبل أكثر من باب .

لكن قول الحق سبحانه :

﴿ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ .. (٢٥) ﴾ [يوسف]

---

(١) ألفى الشىء : وجده ، قال تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ (٦٩) ﴾ [الصافات] ، وقال : ﴿ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ .. (٢٥) ﴾ [يوسف] أى : وجداه . [القاموس القويم ١٩٧/٢] .

(٢) ساد قومه يسودهم سيادة : شَرُفَ عليهم ورأسهم ، فهو سائد وسيد وجمعه سادة : ﴿ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ .. (٢٥) ﴾ [يوسف] سيدها : زوجها ، وقال تعالى : ﴿ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا .. (٣٩) ﴾ [آل عمران] سيداً أى : شريفاً ورئيساً فى الدين والعلم . وقال : ﴿ إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا .. (٦٧) ﴾ [الأحزاب] أى : رؤساءنا من الملوك والأمراء . [القاموس القويم ٣٣٤/١] .

يدلنا على أنها لحقتْ بيوسف عند الباب الأخير ؛ وهى قد استبقتْ مع يوسف إلى الأبواب كلها حتى الباب الأخير ؛ لأنها تريد أن تغلق الباب لتسد أمامه المنفذ الأخير ، وهذا الاستباق يختلف باختلاف الفاعل فهى تريده عن نفسه ، وهو يريد الفرار من الموقف ، ثم قدَّتْ قميصه من دُبر .

هذا دليل على أنه قد سبقها إلى الباب ؛ فشدَّته من قميصه من الخلف ، وتمزَّق القميص فى يدها ، وقد محَّص الشاهد - الذى هو من أهلها[1] - تلك المسألة ليستنبط من الأحداث حقيقة ما حدث .

وقوله تعالى :

﴿ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ .. (٢٥) ﴾ [يوسف]

أى : حدثت لهما المفاجأة ، وهى ظهور عزيز مصر أمامهما ؛ وصار المشهد ثلاثياً : امرأة العزيز ؛ ويوسف ؛ وزوجها .

وهنا ألقت المرأة الاتهام على يوسف عليه السلام فى شكل سؤال تبريرى للهروب من تبعية الطلب ، وإلقاء التهم على يوسف :

﴿ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا .. (٢٥) ﴾ [يوسف]

ثم حددت العقاب :

﴿ إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٥) ﴾ [يوسف]

ويأتى الحق سبحانه بقول يوسف عليه السلام :

---

(١) وذلك هو قوله تعالى : ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٦) وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٧) ﴾ [يوسف] .

﴿ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي وَشَهِدَ[١] شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا[٢] إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ[٣] مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٦) ﴾ [يوسف]

وهنا وجد عزيز مصر نفسه بين قولين مختلفين ؛ قولها هى باتهام يوسف ؛ وقوله هو باتهامها ، ولا بُدَّ أن يأتى بمَن يفصل بين القولين ، وأن يكون له دِقَّة استقبال وفَهْم الأحداث .

ويتابع الحق سبحانه :

﴿ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٦) ﴾

وتأتى كلمة « شاهد » فى القرآن بمعانٍ متعددة .

---

(١) شهد : دَلَّ بقول أو فعل ، وقال تعالى : ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا .. (٢٦) ﴾ [يوسف] . [القاموس القويم ١/٣٥٨] . وقال القرطبى فى تفسيره (٤/٣٤٩٤) : « شهد شاهد من أهلها ، أى : حكم حاكم من أهلها ، لأنه حكم منه وليس بشهادة » .

(٢) قال القرطبى فى تفسيره (٤/٣٤٩٤ ، ٣٤٩٥) :

« اختلف فى هذا الشاهد على أقوال :

منها : أنه طفل فى المهد تكلم ، قال السهيلى : وهو الصحيح للحديث الوارد فيه عن النبى ﷺ ، وهو قوله : لم يتكلم فى المهد إلا ثلاثة » وذكر فيهم شاهد يوسف . ومنها : أنه رجل حكيم ذو عقل كان الوزير يستشيره فى أموره ، وكان من جملة أهل المرأة » بتصرف .

(٣) قد الثوب : شقه ، قال تعالى : ﴿ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ .. (٢٥) ﴾ [يوسف] والقدة : القطعة المقدودة من الثوب ، والجماعة المختلفة فى الرأى مع مجموع الأمة كأنها قُدَّتْ وقُطعت منها ، قال تعالى : ﴿ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا (١١) ﴾ [الجن] أى : جماعات مختلفة الآراء جمع قدة . [القاموس القويم ٢/١٠٢] .

فهى مرّة تكون بمعنى « حضر » ، مثل قول الحق سبحانه :

﴿ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا[1] طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢) ﴾ [النور]

وتأتى مرّة بمعنى « علم » ، مثل قوله سبحانه :

﴿ وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا .. (٨١) ﴾ [يوسف]

وتأتى « شهد » بمعنى « حكم وقضى » أى : رجَّح كلاماً على كلام لاستنباط حق فى أحد الاتجاهين . والشاهد فى هذه الحالة وَثّق القرآنُ أن قرابته من ناحية المحكوم عليه ، وهو امرأة العزيز ، فلو كان من طرف المحكوم له لَرُدَّتْ شهادته .

وهكذا صار الموقف رباعياً : امرأة العزيز ، ويوسف ، وعزيز مصر ، والشاهد ، وحملت الآية نصف قول الشاهد :

﴿ إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٦) ﴾ [يوسف]

لأن معنى هذا – والواقع لم يكن كذلك – أن يوسف عليه السلام وهو مَنْ أقبل عليها ؛ تدلَّى منه ثوبه على الأرض ، فتعثر فيه ، فتمزَّق القميص.

ويتابع الله قول الشاهد :

﴿ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ[2] فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٧) ﴾

---

(١) أى : عذاب الزانية والزانى وإيقاع العقوبة بهما ، وذلك قوله تعالى : ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢) ﴾ [النور] .

(٢) القميص : ما يحيط بالبدن ، وقد يسمى شعاراً وما فوقه دثار ، وقد يسمى كل ثوب قميصاً ، قال تعالى : ﴿ وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ .. (١٨) ﴾ [يوسف] . [القاموس القويم ١٣٣/٢] .

أى : أن قميص يوسف عليه السلام إن كان قُدَّ من الخلف ؛ فيوسف صادق ، وامرأة العزيز كاذبة .

ونلحظ أن الشاهد هنا قال هذا الرأى قبل أن يشاهد القميص ؛ بل وضع فى كلماته الأساس الذى سينظر به إلى الأمر ، وهو إطار دليل الإثبات .

وهذا ما تشرحه الآية التالية ، فيقول سبحانه :

﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ (١)

وقول الحق سبحانه عن الشاهد القاضى :

﴿فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ .. ﴿٢٨﴾﴾ [يوسف]

يدلُّ على أنه رتّب الحكم قبل أن يرى القميص ، وقرر المبدأ أولاً فى غيبة رؤية القميص ، ثم رآه بعدها ، وهكذا جعل الحيثية الغائبة هى الحكم فى القضية الشاغلة .

لذلك تابع قوله بما يدين امرأة العزيز :

﴿قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [يوسف]

والكيد كما نعلم هو الاحتيال على إيقاع السوء بخفاء ، ويقوم به

---

(١) الكيد : مصدر ويطلق على العمل أو الوسيلة التى يتذرع بها الكائد ليتغلب على خصمه ، ومن ذلك قوله : ﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا ﴿٦٤﴾﴾ [طه] أى : اجمعوا الوسائل التى تكيدون بها . [القاموس القويم ٢/١٨٠] .

مَنْ لا يملك القدرة على المواجهة ، وكَيْد المرأة عظيم ؛ لأن ضعفها أعظم .

وتعود آيات السورة بعد ذلك إلى موقف عزيز مصر ، فيقول الحق سبحانه ما جاء على لسان الزوج :

﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا (١) وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ (٢) (٢٩) ﴾

وبهذا القول من الزوج أنهى الحقُّ سبحانه هذا الموقف الرُّباعى عند هذا الحد ، الذى جعل عزيز مصر يُقِرُّ أن امرأته قد أخطأت ، ويطلب من يوسف أن يعرض عن هذا الأمر ليكتمه .

وهذا يبين لنا سياسة بعضٍ من أهل الجاه مع بيوتهم ، وهو أمر نشاهده فى عصرنا أيضاً ؛ فنجدَ الرجل ذا الجاه وهو يتأبَّى أن يرى أهله فى خطيئة ، ويتأبى أكثر من ذلك فيرفض أن يرى الغيرُ أهله فى مثل هذه القضية ، ويحاول كتمان الأمر فى نفسه ؛ فيكفيه ما حدث له من مهانة الموقف ، ولا يريد أن يشمتَ به خصومه أو أعداؤه .

وهنا مَلْحظ يجب أن نتوقف عنده ، وهو قضية الإيمان ، وهى

---

(١) أعرض عن الشىء : ولى منصرفاً عنه غير راغب فيه ، قال تعالى : ﴿ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ .. (٨٣) ﴾ [الإسراء] . [القاموس القويم ١٦/٢] . قال القرطبى : « أى : لا تذكره لأحد واكتمه » . [تفسير القرطبى ٣٤٩٧/٤] .

(٢) الخطأ والخَطَاء : ضد الصواب . وقد خطيء يخطأ خطأ : أذنب مطلقاً أو تعمَّد الذنب . قال تعالى : ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ (٩٧) ﴾ [يوسف] أى : مذنبين .

لا تزال متغلغلة حتى فى المنحرفين والمتسترين على المنحرفين ، فعزيز مصر يقول ليوسف :

﴿ أَعْرِضْ عَنْ هَـٰذَا .. (٢٩) ﴾ [يوسف]

ويقول لزوجته :

﴿ وَاسْتَغْفِرِى لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ (٢٩) ﴾ [يوسف]

وهو فى قوله هذا يُقِرُّ بأن ذنباً قد وقع ؛ وهو لن يُقِرَّ بذلك إلا إذا كان قد عرف عن الله منهجاً سماوياً ، وهو فى موقف لا يسعه فيه إلا أن يطلب منها أن تستغفر الله .

وبعد أن كان المشهد رباعياً : فيه يوسف ، وامرأة العزيز ، والعزيز نفسه ، ثم الشاهد الذى فحص القضية وحكم فيها ، ينتقل بنا الحق سبحانه إلى موقف أوسع ؛ وهو دائرة المجتمع الذى وقعتْ فيه القضية .

وهذا يدل على أن القصور لا أسرار لها ؛ لأن لأسرار القصور عيوناً تتعسس[1] عليها ، وألسنة تتكلم بها ؛ حتى لا يظن ظان أنه يستطيع أن يحمى نفسه من الجريمة ؛ لأن هناك مَنْ سوف يكشفها مهما بلغتْ قدرة صاحبها على التستُّر والكتمان .

وقد تلصص البعض من خدم القصر ؛ إلى أن صارت الحكاية على ألسنة النسوة .

---

(١) أصل العَسُّ : الطواف ليلاً . ومنه حديث عمر رضى الله عنه أنه كان يعس بالمدينة . أى : يطوف بالليل يحرس الناس ويكشف أهل الريبة . والعسس : اسم منه كالطلب ، وقد يكون جمعاً لعاسٍّ كحارس وحرس . [راجع لسان العرب ـ مادة : عسس] .

ويحكى القرآن الموقف قائلاً :

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ[1] فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا[2] إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾﴾

وكلمة « النسوة » ، وكلمة « نساء » تدلُّ على الجماعة ، لكن مفردَ كلٍّ منهما ساقط فى اللغة ، فمفرد « نسوة » امرأة ؛ ومفرد « نساء » أيضاً هو « امرأة » .

ومن العجيب أن المفرد ، وهو كلمة « امرأة » له مثنى هو « امرأتان » ، لكن فى صيغة الجمع لا توجد « امراءات » ، وتوجد كلمة نسوة اسم لجماعة الإناث ، واحدتها امرأة ، وجمعها نساء .

وقد قالت النسوة :

﴿امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ .. ﴿٣٠﴾﴾ [يوسف]

وما قُلْنَه هو الحق ؛ لكنهن لم يَقُلْنَ ذلك تعصباً للحق ، أو تعصباً للفضيلة .

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٤/٣٤٩٨) : « قيل : امرأة ساقى العزيز ، وامرأة خبازه ، وامرأة صاحب دوابه ، وامرأة صاحب سجنه . وقيل : امرأة الحاجب . عن ابن عباس وغيره » .

(٢) شغفه : أصاب شغاف قلبه أى غلافه ، أو أصاب باطنه وصميم قلبه . قال تعالى : ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ..﴿٣٠﴾﴾ [يوسف] أى : أصاب شغاف قلبها بحب قوى نافذ كالسهم . [القاموس القويم ١/٣٥٠] .

وشاء سبحانه أن يدفع هذه المقالة عنهن ، ففضح الهدف المختفى وراء هذا القول فى الآية التالية حين قال :

﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (٣١) قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ.. (٣٢) ﴾ [يوسف]

والمكر هو سَتْر شىء خلف شىء ، وكأن الحق يُنبِّهنا إلى أن قول النسوة لم يكن غضبةً للحق ؛ ولا تعصباً للفضيلة ، ولكنه الرغبة للنِّكاية[1] بامرأة العزيز ، وفَضْحاً للضلال الذى أقامت فيه امرأة العزيز .

وأردْن - أيضاً - شيئاً آخر ؛ أن يُنزِلْنَ امرأة العزيز عن كبريائها ، وينشرن فضيحتها ، فَأتيْنَ بنقيضين ؛ لا يمكن أن يتعدى الموقف فيهما إلا خسيس المنهج .

فهى امرأة العزيز[2] ، أى : أرفع شخصية نسائية فى المجتمع ، قد نزلت عن كبريائها كزوجة لرجل يُوصَفُ بأنه الغالب الذى لا يُغلب ؛ لأن كلمة « العزيز » مأخوذة من المعانى الحسية .

---

(١) نكى العدو نكاية : أصاب منه . وقد نكيت فى العدو أنكى نكاية أى هزمته وغلبته ، فنكى ينكى نكىً . [لسان العرب ـ مادة : نكى] .

(٢) تدور معانى العزيز حول من بيده السلطان والقوة وبيده مقاليد الحكم لا يراجعه أحد شيئاً ، بل هو يملك سلطة الأمر والنهى . [راجع : لسان العرب ـ مادة : عزز] .

فيُقـال : « الأرض العَزَاز »[١] أى : الأرض الصخـرية التى يصعب المشى عليها ، ولا يقدر أحـد أنْ يطأها ؛ ومن هذا المعنى جاءت كلمة « العزيز » .

فكيف بامـرأة العزيز حـين تصـير مُـضْغـة[٢] فى الأفواه ؛ لأنـها راودتْ فتاها وخادمها عن نفسه ؛ وهو بالنسبة لها فى أدنى منزلة ، وتلك فضيحة مزرية[٣] مشينة[٤] .

وقالت النسوة أيضاً :

﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا..(٣٠)﴾ [يوسف]

والحب منازل ؛ وأول هذه المنازل « الـهوى » مـثل : شقـشقـة[٥] النبات ، ويُقال : « رأى شيئاً فهواه » .

---

(١) قـال ابن منظور فى [لسـان العـرب ـ مادة : عـزز] : « العَـزَر والعـزاز : المكان الصلب السريع السـيل . وقال ابن شـميل : العزاز مـا غلظ من الأرض . وإنما يكون فى أطرافـها ، وفى الحديث أنه ﷺ نهى عن البول فى العزاز لئلا يترشش عليه » .

(٢) مضغ يـمضغ : لاك . ومضـغ الطعام يمـضغه مـضغـاً . والمضـغة : القطعـة من اللحم . وأمضغ التـمرُ : حان أن يُـمضغ . وتمر ذو مَـضْغَة : صلب مـتين يُمـضغ كثيـراً . ومُضَغ الأمور : صغـارها [لسان العرب : مادة ـ مـضغ] والمقصود تشـبيهها بقطعة اللحم التى يلوكها الناس فى أفواههم .

(٣) الإزراء : التهاون بالشىء . وازدريته أى حقرته ، والازدراء : الاحـتقار والانتقاص والعيب ، وهو افتعال من زريت عليه زراية إذا عبته . [لسان العرب ـ مادة : زرى] .

(٤) الشـين : العيب . وهـو خلاف الزين . قـال الفـراء : العين والشَّـيْن والشَّنار أى : العيب ، والمشاين : المعايب والمقابح . [لسان العرب ـ مادة : شين] .

(٥) شق النبات يـشق شقوقـاً ، وذلك فى أول ما تنفطر عنه الأرض . وشقّ نابُ الـصبى يشق شقوقاً : فى أول ما يظهر . [لسان العرب ـ مادة : شقق] .

وقد ينتهى هذا الهَوَى بلحظة الرؤية ، فإذا تعلَّق الإنسان بما رأى ؛ انتقل من الهوى إلى العَلاقة[١] .

وبعد ذلك يأتى الكلف[٢] ؛ أى : تكلَّف أن يصل إلى ما يطلبه من هذه العَلاقة . ثم ينتقل بعد ذلك إلى مرتبة فيها التقاء وهى العشق[٣] ، ويحدث فيها تبادل للمشاعر ، ويعلن كل طرف كَلَفه ؛ ولذلك يسمونه « عاشق ومعشوق » .

ثم ينتقل إلى مرحلة اسمها « التدليه »[٤] ؛ أى : يكاد أن يفقد عقله . ثم يصير الجسم إلى هُزَال ويقال « تبلت[٥] الفؤاد » أى : تاه الإنسان فى الأمر .

ثم تأتى بعد ذلك مرحلة الهُيَام[٦] ، أى : يهيم الإنسان على

---

(١) عَلِق الشىء علقاً وعَلِق به علاقة وعُلوقاً : لزمه . والعلاقة : الهوى والحب اللازم للقلب ، وقد عَلِقها علقاً وعلاقة وعلق بها عُلوقاً وتعلَّق بها : أحبها . وقال اللحيانى : العَلَق الهوى يكون للرجل فى المرأة . [لسان العرب ـ مادة : علق] .

(٢) الكلف : الولوع بالشىء مع شغل قلب ومشقة . وكلف بالشىء كَلَفاً وكُلْفة : لهج به . وكلف بها أشد الكَلَف : أحبها . ورجل مكلاف : محب للنساء . [لسان العرب ـ مادة : كلف] .

(٣) العشق : شدة الحب . وسمى العاشق عاشقاً لأنه يذبل من شدة الهوى كما تذبل العشقة إذا قطعت . والعشقة : شجرة تخضر ثم تدِقّ وتصفر . عن الزجاج . [لسان العرب ـ مادة : عشق] .

(٤) قال ابن القيم فى روضة المحبين (ص ٥٩) : « وأما التدليه ففى الصحاح : التدليه ذهاب العقل من الهوى ، يقال : دلهه الحب ، أى : حيَّره وأدهشه » .

(٥) قال فى روضة المحبين (ص ٤٩) : « أما التبالة فهى فعالة من تَبَله إذا أفناه . قال الجوهرى : تبلهم الدهر وأتبلهم إذا أفناهم . وتبله الحب وأتبله ، أى أسقمه وأفسده » .

(٦) الهيام : كالجنون . وقد هيَّمه الحب . والاسم الهيام . ورجل هَيْمان : محب شديد الوجد . قال ابن السكيت : الهَيْم : مصدر هام يهيم هَيْماً وهيماناً إذا أحب المرأة . والهُيَّام : العُشَّاق . والهيوم : أن يذهب على وجهه . [لسان العرب ـ مادة : هيم] .

وجهه ؛ فلا يعرف له هدفاً ، فإن تبع ذلك جرم صار اسمه « جوى »[١] .

تلك هى مراحل الحب التى تمر بالقلب[٢] ، والقلب - كما نعلم - هو الجهاز الصنوبرى ، ويُسمُّونه مَقَرّ العقائد المنتهية ، والتى بحثها الإنسان واعتقدها بالفعل .

فالإنسان منا يدرك الأشياء بحواسه الظاهرة ، يرى ويشُمُّ ويسمع ويذوق ويلمس ، فإذا أدرك بعضاً من الأمور ؛ فهو يعرضها على العقل ليوازن بينها ؛ ويختار الأكثر قبولاً منه ، وبعد ذلك تذهب تلك الأمور المقبولة إلى القلب ؛ لتستقر عقيدة فيه لا يحيد عنها .

أما المسائل العقلية ؛ فقد تأتى مسائل أخرى تزحزحها ؛ ولذلك يُقال للأمور التى استقرت فى القلب « عقائد » ، أى : شىء معقود لا ينحل أبداً .

وما يصل إلى هذه المرتبة يظهر أثره فى إخضاع سلوك حركة الحياة عليه ، وإذا ما استقر المبدأ فى نفس الإنسان ؛ فهو يجعل كل حركته فى ظل هذا المبدأ الذى اعتقده .

وهكذا نعرف : كيف تمرُّ العقيدة بعدَّة مراحل قبل أن تستقر فى النفس ، فالإدراك[٣] يحدث أولاً ؛ ثم التعقُّل ثانياً ؛ وبعد ذلك يعتقد

---

(١) الجوى : الحرقة وشدة الوجد من عشق أو حزن . [لسان العرب - مادة : جوى] .

(٢) ذكر ابن القيم فى روضة المحبين (ص ٢٥) نحواً من ستين اسماً للمحبة ، لكل اسم مقام أو درجة فى الحب .

(٣) ويتفق مراد الإمام مع ما ذهب إليه علماء النفس عند اختيار الأشياء ، فلا بد من الإدراك ، ثم الانفعال ، ثم النزوع ، أى : الاختيار .

الإنسان الأمر، ويصبح كل سلوك من بعد ذلك وِفْقاً لما اعتقده الإنسان .

وكلمة : ﴿ شَغَفَهَا حُبًّا .. (٣٠) ﴾ [يوسف]

تعنى أن المشاعر انتقلتْ من إدراكها إلى عقلها إلى قلبها ، والشِّغاف هو الغشَاء الرقيق الذى يستر القلب ؛ أى : أن الحب تمكَّن تماماً من قلبها .

وقولهن :

﴿ إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٣٠) ﴾ [يوسف]

هو قول حَقٍّ أُريد به باطل .

ولذلك يقول الحق سبحانه بعد ذلك ما يفضح مَقْصدهن :

﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً(١) وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ(٢) وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ(٣) لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (٣١) ﴾

---

(١) تكىء يتكىء : جلس متمكناً ، أصله اوتكأ . قال تعالى : ﴿ وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ (٣٤) ﴾ [الزخرف] وقال أيضاً : ﴿ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ .. (٣١) ﴾ [الكهف] . والمتكأ : اسم مكان . قال تعالى : ﴿ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً .. (٣١) ﴾ [يوسف] أى : مكاناً مريحاً يجلسن فيه متمكنات متكئات . والمتكأ : ما يتكىء عليه الإنسان من مخدة أو أريكة . [القاموس القويم ٢/٣٥٣].

(٢) أكبر الشىء : عدَّه كبيراً ، أو عظم تأثره به فرآه كبيراً ، قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ .. (٣١) ﴾ [يوسف] [القاموس القويم ٢/١٥٠] .

(٣) حاش لله ، أى : براءة لله ومعاذاً لله ، قال ابن الأنبارى : معنى حاشى فى كلام العرب أعزل فلاناً من وصف القوم بالحشى وأعزله بناحية ، ولا أدخله فى جملتهم . [لسان العرب ـ مادة : حشا] .

ولسائل أن يقول : وكيف انتقل لَهُنَّ الكلام عن الذى حدث بينها وبين يوسف ؟

لا بُدَّ أن هناك مرحلة بين ما حدث فى القصر ؛ وكان أبطاله أربعة هم : العزيز ، وامرأته ، ويوسف ، والشاهد ، ولا بد أن يكون مَنْ نقل الكلام إلى خارج القصر ؛ إنسان له علاقتان ؛ علاقة بالقصر فسمع ورأى وأدرك ؛ ونقل ما علم إلى مَنْ له به علاقة خارج القصر.

وبحث العلماء عن علاقة النسوة اللاتى ثرثرن بالأمر ، وقال العلماء[1] : هُنَّ خمسة نساء : امرأة الساقى ، وامرأة الخباز ، وامرأة الحاجب ، وامرأة صاحب الدواب (أى : سائس الخيل) ، وامرأة السجان .

وهؤلاء النسوة يَعِشْنَ داخل بيوتهن ؛ فمَنِ الذى نقل لَهُنَّ أسرار القصر ؟

لا بُدَّ أن أحداً من أزواجهن قد أراد أن يُسلِّى أهله ، فنقل خبر امرأة العزيز مع يوسف عليه السلام ؛ ثم نقلتْ زوجته الخبر إلى غيرها من النسوة .

وحين وصل إلى امرأة العزيز الخبر ؛ وكيف يمكرن بها ؛ أرسلت إليهن :

﴿ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا .. (٣١) ﴾ [يوسف]

والمتكأ هو الشىء الذى يستند إليه الإنسان حتى لا يطول به مَلَلٌ

---

(١) انظر : تفسير القرطبى (٣٤٩٨/٤) ، ذكره عن ابن عباس وغيره .

من كيفية جلْسته ، والمقصود بالقول هو أن الجلسة سيطول وقتها ، وقد خططتْ لتكشف وَقْعَ رؤية يوسف عليهن ، فقدَّمتْ لكل منهن سكيناً ؛ وهو ما يوحى بأن هناك طعاماً سوف يؤكل .

ويتابع الحق سبحانه :

﴿ وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ .. (٣١) ﴾ [يوسف]

ويُقال : أكبرْتَ الشىء ، كأنك قد تخيَّلته قبل أن تراه على حقيقته ؛ وقد يكون خيالك قد رسم له صورة جميلة ، إلا أنك حين ترى الشىء واقعاً ؛ تكبر المرائى عن التخيُّل .

والمثل أن إنساناً قد يُحدِّثك بخير عن آخر ؛ ولكنك حين ترى هذا الآخر تُفاجأ بأنه أفضل مما سمعتَ عنه .

والشاعر يقول :

كَادَتْ مُسَاءلةُ الرُّكْبانِ تُخبِرنى ... عن جَعْفرِ بنِ حبيبٍ أصدقَ القيم

حتَّى التقيْنَا فَلا واللَّهِ مَا سَمِعتْ ... أُذنى بأطيبَ مِمَّا قَدْ رأى بَصَرِى

ويقولون فى المقابل : سماعك بالمعيدى خير من أن تراه[1] . أى : يا ليتك قد ظللتَ تسمع عنه دون أن تراه ؛ لأن رؤيتك له ستُنقِص من قدر ما سمعت .

---

(١) هذا مثل يُضرب لمن خبره خير من مرآته ، يُضرب للرجل الذى له صيت وذكر ، فإذا رأيته ازدريت مَرآته . ومَعَدٌّ : حَىٌّ أو اسم للقبيلة . فأما قولهم فى المثل : تسمع بالمعيدى لا أن تراه ، فمخفف عن القياس اللازم فى هذا الضرب . [لسان العرب ـ مادة : معد] .

وهُنَّ حين آذيْنَ امرأة العزيز بتداول خبر مُراودتها له عن نفسه ، تخيَّلْنَ له صورةً ما من الحُسْن ، لكنهُنَّ حين رَأيْنَهُ فاقتْ حقيقته المرئية كل صورة تخيَّلْنَها عنه ؛ فحدث لهُنَّ انبهار .

وأول مراحل الانبهار هى الذهول الذى يجعل الشىء الذى طرأ عليك يذهلك عما تكون بصدده ؛ فإن كان فى يدك شىء قد يقع منك.

وقد قطعتْ كلٌّ منهن يدها بالسكين التى أعطتها لها امرأة العزيز لتقطيع الفاكهة ، أو الطعام المُقدَّم لَهُنَّ .

وقال الحق سبحانه فى ذلك :

﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ[1] أَيْدِيَهُنَّ .. (٣١) ﴾ [يوسف]

وهل هناك تصوير يوضح ما حدث لَهُنَّ من ذهول أدقّ من هذا القول[2] ؟

ويتابع سبحانه :

﴿ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَـٰذَا بَشَرًا إِنْ هَـٰذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ (٣١) ﴾[يوسف]

---

(١) ذكر القرطبى فى تفسيره (٣٥٠٣/٤) : « قال مجاهد : قطعنها حتى ألقينها . وقيل : خدشنها . وروى ابن أبى نجيح قال : حزّاً بالسكين . قال النحاس : يريد مجاهد أنه ليس قطعاً تبين منه اليد ، إنما هو خدش وحزّ ، وذلك معروف فى اللغة أن يقال إذا خدش الإنسان يد صاحبه قطع يده » .

(٢) قال ابن كثير فى تفسيره (٤٧٦/٢) : « ذكر غير واحد أنها قالت لهن ـ بعد أن آتت كل واحدة منهن سكيناً ـ : هل لكُنَّ فى النظر إلى يوسف ؟ قُلْنَ : نعم . فبعثت إليه تأمره أن اخرج إليهن ، فلما رأينه جعلن يقطعن أيديهن ، ثم أمرته أن يرجع ، فرجع وهُنَّ يحززن فى أيديهن ، فلما أحسسن بالألم جعلن يولولن . فقالت : أنتن من نظرة واحدة فعلتُن هذا ، فكيف ألأم أنا ؟ » .

وكلمة : ﴿ حَاشَ .. (٣١) ﴾ [يوسف]

هى تنزيه لله سبحانه عن العجز عن خَلْق هذا الجمال المثالى ، أو : أنهُنَّ قد نَزَّهْنَ صاحب تلك الصورة عن حدوث منكر أو فاحشة بينه وبين امرأة العزيز ، أو : أن يوسف عليه السلام لا بد أن يكون قد خرج عن صورة أرقى من صورة الإنس التى يعرفنها[1] ؛ فقُلْنَ : لا بدّ أنه مَلَكٌ كريم .

وصورة الملك كما نعلم هى صورة مُتخيَّلة ، والإنسان يحكم على الأشياء المُتَخيَّلة بما يناسب صورتها فى خياله ، مثلما نتخيل الشيطان كأبشع ما تكون الصورة .

والبشاعة نفسها تختلف من واحد إلى آخر ؛ فما تراه بَشِعاً قد لا يراه غيرك كذلك ؛ لأن مقاييس القبح أو الجمال تختلف من أمة إلى أخرى .

فالمرأة الجميلة فى أواسط إفريقيا فى نظر الرجل هى ذات الشفاه الغليظة جداً ؛ أو صاحبة الشعر المُجعَّد والمُتموج .

وأكدت الحضارة الحديثة أن هذا لونٌ من الجمال ينجذب إليه الرجل فى بعض الحالات ؛ بدليل أن بعضاً من السيدات ذوات الشعر الناعم للغاية يذهبْن إلى مُصفِّفة الشعر ، ويطلبْنَ منها تجعيد شعورهن .

---

(١) قال القشيرى أبو نصر : وذكرت النسوة أن صورة يوسف أحسن من صورة البشر ، بل هو فى صورة ملك ، وقال الله تعالى : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِى أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (٤) ﴾ [التين] والجمع بين الآيتين أن قولهن (حاش لله) تبرئة ليوسف عمّا رمتْه به امرأة العزيز من المراودة . ذكره القرطبى فى تفسيره (٤/٣٥٠٥) .

إذن : فالجمال يُقاس بالأذواق ؛ هذا يرى جمالاً قد يراه غيره غير هذا ؛ وذاك يرى جمالاً لا يراه غيره كذلك .

والحق سبحانه يقذف معايير الجمال فى النفس الإنسانية على قَدْر مُقوِّمات الالتقاء فى الانسجام .

ولذلك يُقال فى الريف المصرى هذا المثل «كل فُولة ولها كَيَّال» .

ونجد شاباً يتقدم لفتاة يرغب فى الزواج منها ؛ وما أنْ يراها حتى ينفر منها ، ويتقدم لها شاب آخر فيقع فى هَواها ، ويتعجَّل الزواج منها ، وهذا يعنى أن مقاييس الأول تختلف عن مقاييس الثانى.

وحين يشاء الحق سبحانه أن يجمع بين اثنين فلا أحَدَ بقادر على أن يمنع القبول من كل طرف للطرف الآخر ؛ وهذه مسألة لها من الأسرار ما لا نعرفه نحن ؛ لأنه سبحانه الذى يكتب القبول ؛ ويُظهِر فى المرأة جمالاً قد يجذب رجلاً ولا يجذب رجلاً آخر ، ونفس المسألة تحدث فى نفسية المرأة .

إذن : فحين رأت النسوة يوسف عليه السلام ؛ قُلْنَ :

﴿ مَا هَـٰذَا بَشَرًا إِنْ هَـٰذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ (٣١) ﴾ [يوسف]

وهذا يعنى أن يوسف هو الصورة العليا فى الجمال التى لا يوجد لها مثيل فى البشر[1] .

---

(١) عن أنس رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « أعطى يوسف وأمه شطر الحسن » أخرجه أحمد فى مسنده (٣/٢٨٦) والحاكم فى مستدركه (٢/٥٧٠) .

وأورد السيوطى فى كتابه (الدر المنثور) (٤/٥٣٢) عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : كان وجه يوسف مثل البرق ، وكانت المرأة إذا أتت لحاجة ستر وجهه مخافة أن تفتتن به . وعزاه للحكيم الترمذى فى نوادر الأصول وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبى الشيخ والطبرانى .

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه ما جاء على لسان امرأة العزيز رداً عليهن :

﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾

وكأنها وجدت الفرصة لتثبت لنفسها العذر فى مراودتها له ، فيوسف باعترافهن قد بلغ من الجمال ما لا يوجد مثله فى البشر .

وقولها : ﴿ فَذَٰلِكُنَّ .. ﴿٣٢﴾﴾ [يوسف]

مُكوَّن من « ذا » إشارة ليوسف ، و « ذَٰلِكُنَّ » خطاب للنسوة ، والإشارة تختلف عن الخطاب .

---

(١) لامه يلومه لَوْماً : عذله على عمل لا ينبغى ولا يليق فهو لائم . وتلاوم الرجلان : لام كل منهما الآخر : ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [القلم] ، وألام : جرَّ على نفسه اللوم بفعل ما لا ينبغى فهو مليم : مستحق للوم . قال تعالى : ﴿فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾﴾ [الصافات] أى : مذنب مستحق للوم . [القاموس القويم ٢/٢٠٨] بتصرف .

(٢) عصمه يعصمه : منعه ووقاه ، قال تعالى : ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴿٦٧﴾﴾ [المائدة] يحفظك ويقيك ، وقوله : ﴿ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ﴿٤٣﴾﴾ [هود] يحفظنى . واعتصم : تمسَّك بقوة . قال تعالى : ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا .. ﴿١٠٣﴾﴾ [آل عمران] أى : تمسكوا بدينه . واستعصم : طلب لنفسه العصمة وتمسَّك بها ، قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ﴿٣٢﴾﴾ [يوسف] أى : فامتنع مُتمسِّكاً بعصمته وعفة نفسه وبحفظها من السوء . [القاموس القويم ٢/٢٣ ، ٢٤] .

(٣) الصِّغَر يكون مادياً فى الحجم ، ويكون معنوياً فى القدر والمنزلة وهو ضد الكبَر . وصغير : فى حجمه أو فى قدره ومنزلته ، فمن المادى قوله : ﴿وَلَا تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا ﴿٢٨٢﴾﴾ [البقرة] ، ومن المعنوى قوله : ﴿إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٣﴾﴾ [الأعراف] [القاموس القويم ١/٣٧٧] .

وهنا موقف أسلوبى ؛ لأن الكلام حين يُنطق به ، أو حين يُكتب ليُقْرأ ؛ له ألوان متعددة ، فمرة يكون نثراً لا يجمعه وزن أو قافية[١] ؛ وقد يكون نثراً مسجوعاً[٢] أو مُرْسَلاً ، ومرة يكون الكلام شعراً محكوماً بوزن وقافية .

والمثل على النثر المسجوع هو قول الحق سبحانه :

﴿وَالطُّورِ[٣] (١) وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ (٢) فِي رَقٍّ[٤] مَّنْشُورٍ (٣) وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ (٤)﴾ [الطور]

وهذا نثر مسجوع بلا تكلُّف ، وأنت إذا سمعتَ أو قرأت كلاماً ؛ فأذنك تأخذ منه على قدر سُمُوِّ أسلوبه ، لكنك إن انتقلت من أسلوب إلى أسلوب ، فأذنك تلتقط الفارق بين الأسلوبين .

والمثل نجده فى الرسالة التى كتبها ابن زيدون[٥] مُسْتعطفاً ابن جهور:

---

(١) القافية من الشعر : سميت قافية لأنها تقفو البيت . وقال الأخفش : القافية آخر كلمة فى البيت.

(٢) السجع : الكلام المقفَّى . وسجع يسجع سَجْعاً تسجيعاً : تكلم بكلام له فواصل كفواصل الشعر من غير وزن ، وصاحبه سجَّاعة وهو من الاستواء والاستقامة والاشتباه كأن كل كلمة تشبه صاحبتها . قال ابن جنى : سمى سجعاً لاشتباه أواخره وتناسب فواصله . [لسان العرب ـ مادة : سجع] .

(٣) الطور : جبل بسيناء نزل عنده موسى عليه السلام بعد خروجه مع قومه من مصر ، قال تعالى : ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ (١٥٤)﴾ [النساء] ، ويُسمَّى أيضاً : ﴿طُورِ سَيْنَاءَ ..(٢٠)﴾ [المؤمنون] و ﴿وَطُورِ سِينِينَ (٢)﴾ [التين] . [القاموس القويم ١/٤٠٨] .

(٤) الرَّق : الجلد الرقيق يُكتب عليه ، وأُطلق على الصحيفة البيضاء يكتب عليها . [القاموس القويم ١/٢٧٢] .

(٥) هو : أحمد بن عبد الله بن زيدون المخزومى الأندلسى ، أبو الوليد ، وزير كاتب شاعر ، من أهل قرطبة ، ولد ٣٩٤ هـ ، انقطع إلى ابن جهور (من ملوك الطوائف بالأندلس) فكان السفير بينه وبين الأندلس ، توفى بإشبيلية عام (٤٦٣هـ) فى أيام المعتمد على الله ابن المعتضد . [الأعلام للزركلى ١/١٥٨]. بتصرف .

« هذا العَتْب محمودٌ عواقبه ، وهذه الغَمْرة نَبْوة ثم تنجلى ، ولن يريبنى من سيدى إنْ أبطأ سببه أو تأخر ، غير ضنين ضناه ، فأبطأُ الدِّلاء قَبْضاً أملؤها ، وأثقلُ السحابِ مشياً أعقلها ، ومع اليوم غد . ولكل أجل كتاب ، له الحمد على اهتباله ، ولا عَتْب عليه فى اغتفاله .

فإنْ يكُن الفعلُ الذى سَاء واحداً فَأفْعالُه اللاتى سَرَرْنَ أُلوفُ

وهكذا تشعر انتقال ابن زيدون من النثر إلى الشعر ، ولكنك وأنت تقرأ القرآن ، تنتقل من النثر المُرْسل إلى النثر المسجوع إلى النظم الشعرى على وزن بحور الشعر ، فلا تكاد تفرق فى الأسلوب بين شعر أو نثر .

والمثل نجده فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها :

﴿ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ.. (٣٢) ﴾ [يوسف]

فهى موزونة من بحر البسيط ، ولكنك لا تشعر أنك انتقلت من نثر إلى شعر .

وكذلك قوله الحق :

﴿ وَاللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ[1] مُّسْتَقِيمٍ (٤٦) ﴾ [النور]

وأيضاً قوله الحق :

﴿ نَبِّئْ عِبَادِى أَنِّى أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٤٩) ﴾ [الحجر]

---

(١) قال الأزهرى : قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر وعاصم والكسائى : اهدنا الصراط المستقيم ، بالصاد ، وقرأ يعقوب بالسين ، قال : وأصل صاده سين قلبت مع الطاء صاداً لقرب مخارجها . قال الجوهرى : الصراط والسراط : الطريق . [لسان العرب ـ مادة : صرط] .

وتأتى تلك الآيات فى مواقع قد يكون ما قبلها نثراً ، مما يدلُّ على أن النغم الذى قاله الله نَظْماً أو شعراً أو نثراً لا نشاز[1] فيه ، ويكاد أن يكون سَيْلاً واحداً .

وهذا لا يتأتَّى إلا من كلام الحق تبارك وتعالى ، وأنت لن تشعر بهذا الأمر لو لم يُنبِّهْك أحد لِمَا فى بعض الآيات من وزن شعرى .

أما كلام البشر ؛ فأنت إنْ قرأتَ الموزون ؛ ثم انتقلت إلى المنثور ؛ أحسَّتْ أذنك بهذا الانتقال ؛ ونفس المسألة تشعر بها حين تقرأ المنثور ، ثم تنتقل إلى الموزون ؛ وستشعر أذنك بهذا الانتقال .

﴿ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ .. (٣٢) ﴾ [يوسف]

قالت ذلك بجراءةِ مَنْ رأت تأثير رؤيتهن ليوسف ، وأعلنت أنه « استعصم » ، وهذا يعنى أنه قد تكلَّف المشقة فى حجز نفسه عن الفعل ، وهو قول يثبت أن رجولة يوسف غير ناقصة ، فقد جاهد نفسه لِيكبتَها عن الفعل .

ويتابع الحق سبحانه ما جاء على لسان امرأة العزيز :

﴿ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ (٣٢) ﴾ [يوسف]

قالت ذلك وكأنها هى التى تُصدِر الأحكام ، والسامعات لها هُنَّ من أكبرْنَ يوسف لحظة رؤيته ؛ تعلن لهُنَّ أنه إنْ لم يُطِعْها فيما

---

(١) نشز الشىء ينشز نشوزاً : ارتفع . وتل ناشز : مرتفع . ونشز فى مجلسه ينشز : ارتفع قليلاً . وأنشز الشىء : رفعه عن مكانه . [لسان العرب ـ مادة : نشز] .

تريد ؛ فلسوف تسجنه وتُصغِّر من شأنه لإذلاله وإهانته .

أما النِّسْوة اللاتى سَمِعْنَها ؛ فقد طمعتْ كل منهن أن تطرد امرأة العزيز يوسف من القصر ؛ حتى تنفرد أى منهن به .

ولذلك يُورِد لنا الحق سبحانه قول يوسف عليه السلام :

﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ[1] عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ[2] إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ[3] ﴿٣٣﴾﴾

ولسائل أن يقول : ولماذا جاء قول يوسف بالجمع ، وقال :

﴿ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ .. (٣٣) ﴾ [يوسف]

على الرغم من أن امرأة العزيز هى التى قالت :

﴿ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ .. (٣٢) ﴾ [يوسف]

---

(١) الصرف : ردُّ الشىء من حال إلى حال . وصرف السجين : أخلى سبيله ، وصرف القلوب يصرفها : حوَّلها من الهدى إلى الضلال : ﴿صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم .. (١٢٧)﴾ [التوبة] أى : حوَّلها . [القاموس القويم ١/٣٧٤] .

(٢) صبا يصبو : مال وأحب ، قال تعالى : ﴿وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ (٣٣)﴾ [يوسف] أى : أملْ إليهن وأفعل ما يغرينني به . وصبا إلى اللهو : حَنَّ واشتاق إليه. [القاموس القويم ١/٣٦٨] .

(٣) الجهل : الطيش والسفه والتعدى بغير حق ، والجهل : ضد العلم وهو الخلو من المعرفة . واسم الفاعل « جاهل » ، وصيغة المبالغة « جهول » ، ويتحدد معنى الجهل بما يناسب المقام ، قال تعالى : ﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ (١١١)﴾ [الأنعام] . [القاموس القويم ١/١٣٥] . بتصرف .

ونقول : لا بُدَّ أن يوسف عليه السلام قد رأى منهن إشارات أو غمزات تُوحى له بألاّ يُعرض نفسه لتلك الورطة التى ستؤدى به إلى السجن ؛ لذلك أدخل يوسف عليه السلام فى قوله المفرد - امرأة العزيز - فى جمع النسوة اللاتى جمعتهُنَّ امرأة العزيز ، وهُنَّ اللاتى طلبْنَ منه غَمْزاً أو إشارة أن يُخرج نفسه من هذا الموقف .

ولعل أكثر من واحدة منهن قد نظرت إليه فى محاولة لاستمالته[1]، وللعيون والانفعالات وقَسَمات الوجه تعبير أبلغ من تعبير العبارات ، وقد تكون إشارات عُيونهن قد دلَّتْ يوسف على المراد الذى تطلبه كل واحدة منهن ، وفى مثل هذه الاجتماعات تلعب لغة العيون دوراً هاماً .

وها هو ذا أبو دلامة الشاعر وقد جلس فى مجلس الخليفة ، وكان أبو دلامة مشهوراً بقدرة كبيرة على الهجاء[2] . وأراد الخليفة أن يداعبه فقال له : عزمتُ عليك إلا هجوتَ واحداً منا .

ودارت عيون فى المجلس ، وأشار له كل مَنْ حضر المجلس خُفيةً بأنه سيُجزل[3] له العطاء إن ابتعد أبو دلامة عن هجائه ؛ ولأن أبا دلامة معروفٌ بالطمع ، وخشى أن يضيع منه أىُّ شىء من العطايا ؛ لذلك قام بهجاء نفسه ؛ وقال :

---

(١) ذكر القرطبى فى تفسيره (٣٥٠٧/٤) « أن كل واحدة طلبت أن تخلو به للنصيحة فى امرأة العزيز ، والقصد بذلك أن تعذله (تلومه) فى حقها ، وتأمره بمساعدتها . فلعله يجيب ، فصارت كل واحدة تخلو به على حدة فتقول له : يا يوسف اقض لى حاجتى فأنا خير لك من سيدتك ، تدعوه كل واحدة لنفسها وتراوده ، فقال : يا رب كانت واحدة فَصرْنَ جماعة».

(٢) هجاه يهجوه هجاء : شتمه بالشعر . وهو خلاف المدح . قال الليث : هو الوقيعة فى الأشعار . [لسان العرب ـ مادة : هجو] .

(٣) الجزيل : العظيم . وأجزلت له من العطاء أى أكثرت . وعطاء جزْل وجزيل إذا كان كثيراً . وقد أجزل له العطاء إذا عظم . [لسان العرب ـ مادة : جزل] .

ألا أبلـــغْ لدَيْـك أباَ دلامة فليسَ منَ الـكرامِ ولاَ كرامه
إذَا لَبِسَ العِمَامةَ كان قِرداً وخِنْزِيراً إذا خلَـع العِمَامـه

وهكذا خرج من قسم الأمير ؛ وكسب العطايا التى وعده بها مَنْ حضروا المجلس .

وهنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها نجد يوسف عليه السلام قد جمع امرأة العزيز مع النسوة ؛ فقال :

﴿ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ .. (٣٣) ﴾ [يوسف]

أى : أن السجن أفضل لديه من أن يوافق امرأة العزيز على فعل الفحشاء ، أو يوافق النسوة على دعوتهن له أن يُحرِّر نفسه من السجن بأن يستجيب لها ، ثم يخرج إليهن من القصر من بعد ذلك .

ولكن يوسف عليه السلام دعا ربه ، فقال :

﴿ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ (٣٣) ﴾ [يوسف]

ولسائل أن يقول : ولماذا لم يَقُلْ يوسف « يا إلهى » وهو يعلم أن مناط التكليف فى الألوهية بـ « افعل » و « لا تفعل » ؟

نقول : أراد يوسف أن يدعو ربه باسم الربوبية اعترافاً بفضله سبحانه ؛ لأنه هو جَلَّ وعلا مَنْ ربَّاه وتعهّده ؛ وهو هنا يدعوه باسم الربوبية ألاَّ يتخلى عنه فى هذا الموقف .

فيوسف عليه السلام يعرف أنه من البشر ؛ وإنْ لم يصرف الله عنه كيدهُنَّ ؛ لاستجاب لغوايتهن ، ولأصبح من الجاهلين الذين لا يلتفتون إلى عواقب الأمور .

وعلى الرغم من أن السجن أمر كريه ؛ إلا أنه قد فضَّله على معصية خالقه ، ولأنه لجأ إلى المُربِّى الأول . لتأتى الاستجابة منه سبحانه .

يقول الحق :

﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ﴾

وهكذا تفضَّل عليه الله الذى خلقه وتولَّى تربيته وحمايته ، فصرف عنه كيدهُنَّ ؛ الذى تمثل فى دَعْوتهنَّ له أن يستسلم لِمَا دَعتْه إليه امرأة العزيز ، ثم غُوايتهن له بالتلميح دون التصريح .

تلك الغواية التى تمثلت فى قول الملك من بعد ذلك :

﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ[1] إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ .. ﴿٥١﴾ ﴾ [يوسف]

وهكذا أنجاه الله من مكْر النسوة ؛ وهو جَلَّ وعَلا له مُطْلق السمع ومُطْلق العلم ، ولا يخفى عليه شىء ، ويستجيب لأهل الصدق فى الدعاء.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ[2] لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾ ﴾

---

(١) الخَطْب : الشأن الذى تقع فيه المخاطبة والمساءلة . قال تعالى : ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [الحجر] أى : ما شأنكم الهام . [القاموس القويم ١/١٩٨] وقال فى اللسان : « الخطب : الشأن أو الأمر ، صَغُر أو عظُم . ومنه قولهم : جَلَّ الخطب أى : عظم الأمر والشأن » .

(٢) قال ابن عباس : « القميص من الآيات ، وشهادة الشاهد من الآيات ، وقطع الأيدى من الآيات . وإعظام النساء إياه من الآيات » . ذكره القرطبى فى تفسيره (٤/٣٥٠٨) .

وبعد أن ظهرتْ العلامات الشاهدة على براءة يوسف عليه السلام أمام العزيز وأهل مشورته ، وانكشف لهم انحرافُ امرأة العزيز وإصرارها على أن تُوقِع بيوسف فى الفعل الفاضح معها ، دون خجل أو خوف من الفضيحة .

لذلك رأى العزيز وأهل مشورته أن يُوضَع يوسف عليه السلام فى السجن ؛ ليكون فى ذلك فَصْلٌ بينه وبينها ؛ حتى تهدأ ضجة الفضيحة ؛ وليظهر للناس أنه مسئول عن كل هذا السوء الذى ظهر فى بيت العزيز .

كما أن كلمة : ﴿ لَيَسْجُنُنَّهُ.. (٣٥) ﴾ [يوسف]

فيها نوع من استبقاء الحب الذى يُكنُّه العزيز ليوسف ، فهو لم يأمر بقتله أو نَفْيه بعيداً ؛ بل احتفظ به بعيداً عن الزوجة المُصِرَّة على الخيانة ، وعن المجتمع الذى يَلُوكُ تلك الوقائع .

والسجن ـ كما نعلم ـ هو حَبْس المسجون لتقييد حركته فى الوجود ؛ وهو إجراء يتخذه القاضى أو الحاكم كعقوبة يُراد بها إذلال المسجون ، أو وقاية المجتمع من شَرِّه .

ونعلم أن الإنسان لا يجترىء على الأحكام إلا حين يظن أو يعلم أن له قدرة ؛ وله غلبة ؛ فيعلن له القاضى أو الحاكم نهاية تلك الغلبة والقدرة ، ويأمر بدخوله إلى السجن ويحرس تقييد حريته سَجَّان ؛ وقد يتعرض للضرب أو الإهانة .

هذا هو السجن المتعارف عليه فى العصور القديمة والحديثة ، حين تعزل المسجون عن المجتمع ، وقد يعطف عليه بعض من أبناء

المجتمع ، ويزوره بعضٌ من أقاربه ؛ ومعهم المأكولات ؛ والمطلوبات .

ولكن هناك سجن دينى أسسه رسول الله ﷺ ؛ حين عزل المجتمع الإيمانى عن السجين ، وقد أمر رسول الله ﷺ ألاّ يُكلِّم أحد الثلاثة[1] الذين تخلفوا عن الخروج معه للقتال بحجج واهية ؛ بل وتسامى هذا العزل إلى أن صار عَزْلاً عن الأهل ، إلى أن أمر ﷺ بإنهاء هذا العزل بعد أن تحقق الغرض منه .

وماذا عن حال يوسف فى السجن ؟

يقول الحق سبحانه :

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ[2] قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا[3] وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ[4] إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾

---

(١) هؤلاء الثلاثة هم : كعب بن مالك ، ومرارة بن الربيعة العامرى ، وهلال بن أمية الواقفى ، أخرج مسلم فى صحيحه (٢٧٦٩) حديث كعب وفيه قصتهم كاملة فى التخلف عن الغزو مع رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك .

(٢) قال القرطبى فى تفسيره (٤/٣٥١١) : « قال « فتيان » لأنهما كانا عبدين ، والعبد يُسمى فتى ، صغيراً كان أو كبيراً ، ذكره الماوردى . وقال القشيرى : ولعل الفتى كان اسماً للعبد فى عرفهم ، ولهذا قال : ﴿ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ ﴿٣٠﴾ ﴾ [يوسف] » .

(٣) الخمر : الشراب المسكر الذى يغطى العقل ويذهب به ، وهى إما مأخوذة من خمرْتُ الشىء ، سترته لأنها تستر العقل ، أو من خمرت العجين : وضعت فيه الخمير فتفاعل معه فاختمر ، والخمر فى صنعها يوضع الخمير على العصير ويُترك حتى يخمر فتؤخذ منه الخمر ، قال تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ ..﴿٢١٩﴾ ﴾ [البقرة] وقوله تعالى : ﴿ إِنِّى أَرَانِى أَعْصِرُ خَمْرًا ..﴿٣٦﴾ ﴾ [يوسف] أى : أعصر عنباً ليصير خمراً فهو مجاز مرسل علاقته ما سيئول إليه . [القاموس القويم ١/٢٠٩] بتصرف .

(٤) قال القرطبى فى تفسيره (٤/٣٥١٢) : « إحسانه ما كان يعود المرضى ويداويهم ، ويُعزِّى الحزانى . قال الضحاك : كان إذا مرض الرجل من أهل السجن قام به ، وإذا ضاق وسّع عليه ، وإذا احتاج جمع له ، وسأل له » .

المعية التى دخل فيها اثنان من الفتية معه السجن هى معية ذات ، وقيلَ : إنهما الخبَّاز والساقى ، وقيل : إن سبب دخولهما هو رغبة بِطَانة عزيز مصر فى التشويش على ما حدث من فضيحة كبرى ؛ هى فضيحة مراودة امرأة العزيز ليوسف ؛ ورفض يوسف لذلك .

وكان التشويش هو إذاعة خبر مؤامرة على العزيز ؛ وأن الساقى والخباز قد تم ضبطهما بمحاولة وضع السُّمِّ للعزيز[1] .

وبعد فترة من حياة الاثنين مع يوسف داخل السجن ، وبعد معايشة يومية له تكشَّف لهما سلوك يوسف كواحد من المحسنين .

وحدث أن رأى كل منهما حُلْماً ، فقررا أن يطلبا منه تأويل هذين الحُلْمين ، والسجين غالباً ما يكون كثير الوساوس ، غير آمن على غَده ؛ ولذلك اتجها إليه فى الأمر الذى يُهمهم :

﴿ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٣٦) ﴾[يوسف]

ومن سياق الكلام نعرف أننا أمام حُلْمين ؛ فواحد منهما رأى فى منامه أنه يعصر خمراً ، ورأى الثانى أنه يحمل خُبْزاً فوق رأسه تأكل منه الطير ، واتجه كلاهما ـ أو كُلٌّ منهما على حدَة ـ يطلبان ـ تأويل الرؤيين المناميتيْن ، أو أنهما قد طلبا نبأ تأويل هذا الأمر الذى رأياه .

---

(١) مما ذُكر فى هذا ما قيل من أن الملك غضب على خبَّازه وصاحب شرابه ، وذلك أن الملك عُمِّر فيهم فملّوه فدسُّوا إلى خبازه وصاحب شرابه أن يسُمّاه جميعاً ، فأجاب الخباز وأبى صاحب الشراب ، فانطلق صاحب الشراب فأخبر الملك بذلك ، فأمر الملك بحبسهما ، فاستأنسا بيوسف . [تفسير القرطبى ٤/٣٥١١] باختصار .

وحيثية لجوئهما إليه هو قولهما :

﴿ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٣٦) ﴾ [يوسف]

وهذا يدل على أن الإحسان أمر معلوم لكل البشر ، حتى أصحاب النفوس المنحرفة ، فلا أحد يمكن أن يحكم على آخر أنه محسن إلا إذا وافق عملُه مقاييسَ الإحسان فى ذهن مَنْ يصدر هذا الحكم .

فكل نفس تعرف السوء ، وكل نفس تعرف الإحسان ، ولكن الناس ينظرون إلى الإحسان وإلى السوء بذاتية أنفسهم ، ولكنهم لو نظروا إلى مجموع حركة المتحركين فى الكون ، ونظروا إلى أىِّ أمر يتعلق بالغير كما يتعلق بهم ؛ لَعرفوا أن الإحسان قَدْر مشترك بين الجميع .

ونجد اللص ـ على سبيل المثال ـ لا يسيئه أن يسرق أحداً ، لكن يسيئه لو أن أحداً قام بسرقته ، وهكذا نرى الإحسان وقد انتفض فى أعماقه حين يتوجه السوء إليه ، ويعرف حينئذ مقام الإحسان ، ولكنه حين يمارس السرقة ؛ ويكون السوء متوجهاً منه إلى الغير ؛ فهو يغفل عن مقام الإحسان .

إذن : إنْ أردتَ أن تعرف مقام الإحسان فى مقاييس الفضائل والأخلاق ؛ فافهم الأمر بالنسبة لك إيجاباً وسَلْباً .

والمثال الذى أضربه دائماً هو : قبل أن تَمُدَّ عينيك إلى محارم غيرك ، وتعتبر أن هذا ليس سوءً ، هنا عليك أن تعرف مقياسه من الحُسْن إنْ نقلتَ الأمر إلى الصورة العكسية ؛ حين تتجه عيون الغير إلى محارمك .

هنا ستجد الميزان ـ ميزانك للأمور ـ وقد اعتدل . وإذا أردتَ اعتدال الميزان فى كل فعل ؛ فانظر إلى الفعل يقع منك على غيرك ؛ وانظر إلى الفعل يقع من الغير عليك ؛ وانظر إلى الراجح فى نفسك من الأمرين ستجد قب الميزان منضبطاً .

وأقول دائماً : إن الحق سبحانه حين حرَّم عليك أن تسرق غيرك ، لم يُضيِّق حريتك ؛ بل ضيَّق حرية الملايين كى لا يسرقوك ، وهذا مكسب لك .

إذن : فالذى يعرف مقام الإحسان ؛ لا ينسب الفعل الصادر منه على الغير ؛ والفعل الصادر من الغير عليه ؛ بل ينظر إليهما معاً ؛ فما استقبحه من الغير عليه ؛ فليستقبحه منه على الغير .

وقد حكم السجينان على يوسف أنه من المحسنين ، وعلِم يوسف عليه السلام من حكمهما عليه أن مقاييس الإحسان موجودة عندهما ؛ ولذلك نظر إلى الأمر الذى جاءاه من أجله ، واستغل هذه المسألة ؛ لا لقضاء حاجتهما منه ؛ ولكن لقضاء حاجته منهما .

فقد رأى فيهما شبهة الإيمان بالإحسان ؛ والإيمان بالمحسنين ، فلماذا لا ينتهز الفرصة فيأخذ حاجته منهما ؛ قبل أن يعطيهما حاجتهما منه ؟

وكأنه قال لهما : ماذا رأيتُما من إحسانى ؟ هل رأيتم حُسْن معاملتى لكم ؟ أم أن كلاً منكما قد رأى دقة اختيارى للحَسَن من القول ؟ وأنتما قد لا تعرفان أن عندى ـ بفضل الله ـ ما هو أكثر ، وهو ما يقوله الحق سبحانه بعد ذلك فى الآية التالية :

﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ (١)

وبذلك أوضح لهما أنهما لا يريان منه إلا الظاهر من السلوك ، ولكن هناك أمور مَخْفية ، وكأنه يُنمى فيهما شعورهما بمنزلته وبإحسانه وبقدرته على أن يخبرهما بأوصاف ونوع أىِّ طعام يُرزَقانه قبل أن يأتى هذا الطعام(٢) .

وهذه ليست خصوصية فى يوسف أو من عنْدياته ، ولكنها من علم تلقَّاه عن الله ، وهو أمر يُعلِّمه الله لعباده المحَسنين ؛ فيكشف الله لهم بعضاً من الأسرار .

وهما ـ السجينان ـ يستطيعان أن يكونا مثله إنْ أحسناَ الإيمان بالله.

ولذلك يتابع الحق سبحانه :

﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّى إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [يوسف]

---

(١) الملة : الدين ، حقاً كان أو باطلاً ، فمن الحق قوله تعالى : ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ .. ﴿١٣٠﴾﴾ [البقرة] ، وهى الدين الحق . ومن الباطل قوله : ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ .. ﴿٢٠﴾﴾ [الكهف] ، وهى ملة باطلة . [القاموس القويم ٢/٢٣٦] .

(٢) ذكر القرطبى فى تفسيره (٤/٣٥١٢) : قوله : ﴿لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ .. ﴿٣٧﴾﴾ [يوسف] يعنى : لا يجيئكما غداً طعام من منزلكما : ﴿إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ.. ﴿٣٧﴾﴾ [يوسف] لتعلما أنى أعلم تأويل رؤياكم . وكان هذا من علم الغيب خُصَّ به يوسف ، وبيّن أن الله خصَّه بهذا العلم ؛ لأنه ترك ملة قوم لا يؤمنون بالله . يعنى : دين الملك » .

وكأنه بذلك يهديهما إلى الطريق الذى يجعلهما من المحسنين الذين يعطيهم الله بعضاً من هِبَات الخير ، فيعلمون أشياء تَخْفى على غيرهم .

وهذا يدلُّنا على أن المؤمن إذا رأى فى إنسانٍ ما مَخيلَة[1] خير فلْينمى هذه المخيلة فيه ليصل إلى خير أكبر ؛ وبذلك لا يحتجز الخصوصية لنفسه حتى لا يقطع الأسوة الحسنة ؛ ولكى يُطمِع العباد فى تجليات الله عليهم وإشراقاته .

ولذلك أوضح يوسف عليه السلام للسجينين أنه ترك ملَّة قوم لا يؤمنون بالله بما يليق الإيمان به سبحانه ، ولا يؤمنون بالبعث والحساب ثواباً بالجنة ، أو عقاباً فى النار .

ويتابع الحق سبحانه ما جاء على لسان يوسف عليه السلام :

﴿ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ[2] إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾

---

(١) إنه لمخيل للخير أى : خليق له ، وأخال فيه خالاً من الخير وتخيَّل عليه تخيُّلاً ، كلاهما : اختاره وتفرَّس فيه الخير . وتخولت فيه خالاً من الخير وأخلت فيه خالاً من الخير أى : رأيت مخيلته . وتخيل الشىء له : تشبَّه . وتخيَّل له أنه كذا أى تشبَّه وتخايل ، يقال : تخيلته فتخيَّل لى ، كما تقول تصورته فتصور . وتبينته فتبين ، وتحققته فتحقق . [لسان العرب ـ مادة : خيل] .

(٢) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ، يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام » أخرجه الترمذى فى سننه (٣١١٦) ، وأحمد فى مسنده (٢/٣٣٢ ، ٤١٦) ، والحاكم فى مستدركه (٢/٣٤٦) .

وبذلك أوضح يوسف عليه السلام أنه ترك ملَّة القوم الذين لا يعبدون الله حَقَّ عبادته ، ولا يؤمنون بالآخرة ، واتبع ملة آبائه إبراهيم ثم إسحق ثم يعقوب ، وهم مَنْ أرسلهم الله لهداية الخلق إلى التوحيد ، وإلى الإيمان بالآخرة ثواباً بالجنة وعذاباً بالنار .

وذلك من فضل الله بإنزاله المنهج الهادى ، وفضله سبحانه قد شمل آباء يوسف بشرف التبليغ عنه سبحانه ؛ ولذلك ما كان لِمَنْ يعرف ذلك أنْ يشرك بالله ، فالشرك بالله يعنى اللجوء إلى آلهة متعددة .

يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَـٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (٩١) ﴾ [المؤمنون]

فلو أن هناك آلهةً غير الله سبحانه لصنع كلُّ إله شيئاً لا يقدر على صُنْعه الإله الآخر ؛ ولأصبح الأمر صراعاً بين آلهة متنافرة .

ومن فضل الله ـ هكذا أوضح يوسف عليه السلام ـ أن أنزل منهجه على الأنبياء ؛ ومنهم آباؤه إبراهيم وإسحق ويعقوب ؛ ليبلُغوا منهجه إلى خَلْقه ، وهم لم يحبسوا هذا الفضل القادم من الله ، بل أبلغوه للناس .

﴿ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ (٣٨) ﴾ [يوسف]

وساعة تقرأ أو تسمع كلمة : ﴿ لا يَشْكُرُونَ (٣٨) ﴾ [يوسف]

اعلم أن الأمر الذى أنت بصدده هو فى مقاييس العقل والفطرة

السليمة يستحق الشكر ، ولا شُكْر إلا على النعمة .

ولو فَطِنَ الناس لَشكروا الأنبياء والرسل على المنهج الذى بلَّغوه عن الله ؛ لأنه يهديهم إلى حُسْن إدارة الدنيا ، وفوق ذلك يهديهم إلى الجنة .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك ما واصله يوسف من حديثه للسجينين :

﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ[1] خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ[2] ﴿٣٩﴾ ﴾

وكلمة « صاحب » معناها ملازم[3] ؛ والجامع بين يوسف والسجينين هو السجن ، ونحن نقول « فلان صاحب الدراسة » أو « صاحب حج » ، الشىء الذى يربط بين اثنين أو أكثر ، إما أن تنسبه للمكان ، أو تنسبه إلى الظرف الذى جمع بين تلك المجموعة من الصحبة .

---

(١) الرب : هو الله عز وجل ، وهو رب كل شىء أى مالكه ، وله الربوبية على جميع الخلق ، لا شريك له ، وهو رَبُّ الأرباب . ورب كل شىء : مالكه ومستحقه . والرب يطلق فى اللغة على المالك والسيد والمدبِّر والمربِّى والصاحب والقيِّم والمنعم . [لسان العرب ـ مادة : ربب] بتصرف .

(٢) قهره يقهره قهراً : غلبه وأذلَّه ، قال تعالى : ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ ﴿٩﴾﴾ [الضحى] ، والقاهر : اسم فاعل ، قال تعالى : ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ﴿١٨﴾﴾ [الأنعام] أى : المسيطر عليهم . [القاموس القويم ١٣٦/٢] بتصرف .

(٣) الصاحب : يُقال لمن كثُرت ملازمته . صحبه يصحبه وصاحبه : عاشره . والصاحب : المعاشر . [لسان العرب ـ مادة : صحب] .

وطرح يوسف السؤال :

﴿ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٣٩) ﴾ [يوسف]

وحين تطرح سؤالاً عبر مقابل لك ، فأنت تعلم مُقدَّماً أنه يفهم أن أرباباً متفرقون ليسوا خيراً من إله واحد ، وكأن يوسف قد وَثِق من أن إجابتهما لن تكون إلا بقولهم « بل عبادة إله واحد خير » .

وهو لم يكُنْ ليسأل إلاَّ إذا عرف أنهما سيُديرانِ كل الأجوبة ؛ فلا يجدان جواباً إلا الجواب الذى أراده .

فهما قد عبدا آلهة متعددة ؛ وكان المفروض فى مقاييس الأشياء أن تُغنيكم تلك الآلهة عن اللجوء لمن يعبد الإله الواحد .

إذن : فى قُوَى البشر نجد التعدد يُثْرِى ويُضخِّم العمل ، لكن فى الألوهية نجد الشرك يُضعِف العمل .

ولذلك نجد الصوفى يقول : اعمل لوجه واحد يكفيك كل الأوجه .

ولذلك قال يوسف عليه السلام لصاحبى السجن :

﴿ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ .. (٣٩) ﴾ [يوسف]

ولو كان تفرُّقهم تفرُّقَ ذوات لكانوا بلا كمال يستحقون من أجله العبادة ، ولو كان تفرُّقهم تفرُّقَ تكرار لما كان لهذا التكرار لزوم ، ولو كان تفرُّقهم تفرُّق اختصاصات ، فهذا يعنى أن لكل منهم نقطةَ قوة ونقاطَ ضعف ؛ وتفرُّقهم هذا دليلُ نقص .

ولذلك رحمنا الحق نحن المؤمنين به لنعبد إلهاً واحداً ، فقال :

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ(١) وَرَجُلاً سَلَمًا(٢) لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٢٩)﴾ [الزمر]

وقد حاول يوسف عليه السلام أن يهديهم إلى عبادة الإله الواحد ، وقال لهم من بعد ذلك ما جاء به الحق سبحانه :

﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ(٣) وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٤٠)﴾

ونلحظ أن يوسف ـ عليه السلام ـ لم يتكلم حتى الآن مع السجينين عن مطلوبهما منه ، وهو تأويل الرُّؤْيَيَيْنِ ، وهو لو تكلم فى المطلوب منه أولاً ؛ لانصرف ذِهْن وانتباه كُلٍّ من السجينين إلى قضاء

---

(١) شكس: ساء خلقه وغلب عليه حب النزاع . وتشاكس القوم : تنازعوا واشتد اختلافهم . قال تعالى : ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ ..(٢٩)﴾ [الزمر] ذلك مثل العبد المشرك له آلهة متعددة يتنازعون فيه. [القاموس القويم ١/ ٣٥٤] .

(٢) السِّلْم والسَّلْم : الأمان وعدم الحرب : ﴿ ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً (٢٠٨)﴾ [البقرة] فى الصلح والمهادنة والاستسلام : ﴿وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ ..(٩٠)﴾[النساء] سالموكم وخضعوا لكم واستسلموا لكم ، وقوله تعالى: ﴿وَرَجُلاً سَلَمًا لِّرَجُلٍ .. (٢٩)﴾ [الزمر] أى : ملكاً خاصاً له لا ينازعه فيه أحد. [القاموس القويم ١/ ٣٢٤] .

(٣) القيِّم: الثابت المستقيم الذى لا عوج فيه ، أو المقوِّم المعدِّل للأمور أو المهيمن المشرف عليها . ومن ذلك قوله : ﴿دِينًا قِيَمًا.. (١٦١)﴾ [الأنعام] أى : مستقيماً أو مقوِّماً لغيره من الأديان السابقة . [القاموس القويم ٢/ ١٤٣] .

حاجتهما منه ؛ ولن يلتفتا بعد ذلك إلى ما يدعو إليه ؛ ولأن الذى يدعو إليه هو الأمر الأبْقى ، وهو الأمر العام الذى يتعلق بكل حركة من حركات الحياة .

وبذلك كان يوسف عليه السلام يؤثر السجينين ؛ فقد أراد أن يلفتهما إلى الأمر الجوهرى قبل أن يتحدث عن الجزئية الصغيرة التى يسألانِ فيها ؛ وأراد أن يُصحِّح نظرة الاثنين إلى المنهج العام الذى يدير به الإنسان كل تفاصيل الحياة وجزئياتها ؛ وفى هذا إيثار لا أثرة[1] .

وهنا قال الحق سبحانه على لسان يوسف عليه السلام :

﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم .. (٤٠) ﴾ [يوسف]

أى : أن ما تعبدونه من آلهة مُتعدِّدة هو مُجرَّد عبادة لأسماء بلا معنى ولا وجود ؛ أسماء ورثتموها عن آبائكم أو أنشأتموها أنتم ، فكفرتُمْ بإنشاء أسماء لآلهة غير موجودة ، كما كفر آباؤكم كُفْر نسيان التكليف أو إنكار التكليف .

وتُوضع الأسماء عادةً للدلالة على المُسمَّى ؛ فإذا نطقنا الاسم تجىء صورة المسمى إلى الذِّهْن ؛ ولذلك نسمى المولود بعد ولادته باسم يُميِّزه عن بقية إخوته ؛ بحيث إذا أُطلِق الاسم انصرف إلى الذات المشخصة .

---

(١) آثره عليه : فضَّله . وآثرت فلاناً على نفسى : من الإيثار . ويقال : قد أخذه بلا أثَرة وبلا إثرة وبلا استئثار ، أى : لم يستأثر على غيره ولم يأخذ الأجود . [لسان العرب ـ مادة : أثر] .

وإذا أُطلق اسم واحد على متعددين ؛ فلا بد أن يوضح واضع الاسم ما يميز كل ذات عن الأخرى .

والمَثل من الريف المصرى ؛ حين يتفاءل أب باسم « محمد » ؛ فيسمِّى كل أولاده بهذا الاسم ، ولكنه يُميِّز بينهم بأن يقول : « محمد الكبير » و « محمد الأوسط » و « محمد الصغير » .

أما إذا وُضِع اسم لِمُسمًّى غير موجود ؛ فهذا أمر غير مقبول أو معقول ، وهم قد وضعوا أسماء لآلهة غير موجودة ؛ فصارت هناك أسماء على غير مُسمًّى .

ويأتى هؤلاء يوم القيامة ؛ لِيُسألوا لحظة الحساب :

﴿ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ (٧٣) مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُو مِن قَبْلُ شَيْئًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ (٧٤) ﴾ [غافر]

وهكذا يعترف هؤلاء بأنه لم تَكُنْ هناك آلهة ؛ بل كان هنا أسماء بلا مُسمَّيات .

ولذلك يقول الحق سبحانه هنا :

﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم .. (٤٠) ﴾ [يوسف]

وكأن يوسف يتساءل : ءإذا كانت لكم حاجة تطلبونها من السماء ، هل ستسألون الاسم الذى لا مُسمًّى له ؟

وهل يسعفكم الاسم بدون مُسمًّى ؟

ويوسف عليه السلام يعلم أن المعبود لا يمكن أن يكون اسماً بلا

مُسمًّى ، وهو يعلم أن المعبود الحق له اسم يبلغه لرسله ، ويُنزِل معهم المنهج الذى يوجز فى « افعل » و « لا تفعل » .

وهم قد سموا أسماء لا مُسمًّى لها ، ولا يستطيع غير الموجود أن يُنزِل منهجاً ، أو يُجيب مضطراً .

ولذلك يتابع القرآن ما جاء على لسان يوسف عليه السلام فى وَصْف تلك الأسماء التى بلا مُسمَّيات ، فيقول :

﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ .. (٤٠) ﴾ [يوسف]

أى : ما أنزل الله بها من حجة .

وتتابع الآية الكريمة ما جاء على لسان يوسف :

﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ .. (٤٠) ﴾ [يوسف]

أى : إننى ـ والكلام ليوسف ـ إن قلتُ شيئاً فلأنِّى ناقلٌ للحكم عن الله ، لا عن ذاتى ؛ ولا من عندى ؛ ولا عن هواى ؛ لأنه هو سبحانه الذى أمر ألا تعبدوا إلا إياه ، أى : لا تطيعوا أمراً أو نهياً إلا ما أنزله الله فى منهجه الهادى للحق والخير .

ويُذيِّل الحق سبحانه الآية الكريمة :

﴿ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٤٠) ﴾ [يوسف]

أى : أن هذا هو الدين المستقيم دون سواه ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، بمعنى : أن الرسل قد بلَّغتهم بالمنهج ،

ولـكنهم لم يُوظِّفوا هذا العلم فى أعمالهم .

ثم بدأ يوسف عليه السلام فى تأويل المطلوب لهما .

يقول الحق سبحانه :

﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ (١) ﴿٤١﴾ ﴾

وهكذا رجع يوسف عليه السلام إلى مطلب السجينين ، وفسَّر رؤيا مَنْ يسقى الخمر بأنه سيخرج من السجن ويعود ليسقى سيده ، وأما الآخر فلسوف يُصلَبُ وتأكل الطير من رأسه ، لأن رمزية الرؤيا تقول : إن الطير سيأكل من رأسه ؛ وهذا يعنى أن رأسه ستكون طعاماً للطير .

وتأويل الرؤيا علم يقذفه الله فى قلوب مَنْ علَّمهم تأويل الأحاديث ، وهى قدرة على فَكِّ شَفْرة الحُلْم ، ويعطيها الله لمَنْ يشاء من عباده .

وقد قال يوسف لمَنْ قال :

﴿ إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا .. (٣٦) ﴾ [يوسف]

أنه سوف ينال العفو حَسْب ما أظهرته الرؤيا التى قالها ، وأما

---

(١) استفتاه : طلب منه الفتوى وسأله رأيه فى مسألة فأفتاه ، فأجابه . قال تعالى : ﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ (١٤٩) ﴾ [الصافات] . وقال : ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ (١٢٧) ﴾ [النساء] .

الآخر فسيأكل من رأسه الطير . أى : سيُصلب كما أوحتْ بذلك رموز الرُّؤيا .

ونلحظ أن يوسف عليه السلام قد انشغل بالحكم الذى أوضحته الرؤييان عن الاثنين صاحبى الرؤيين .

وهذا دليل على أن القاضى يجب أن يكون ذهنه مُنصبًّا على الحكم ؛ لا على المحكوم عليه ، فقد سمع يوسف منهما ؛ وهو لا يعرف مَنْ سينال البراءة ، ومَنْ الذى سوف يُعاقب .

فنزع يوسف ذاته من الأمر ، ولم يسمح لنفسه بدخول الهوى إلى قلبه ؛ لأن الهوى يُلوِّن الحكم ، ولا أحد بقادر على أن يسيطر على عاطفته ، ولا بد للقاضى لحظة أن يصدر حكماً أن يتجرد تماماً من الهوى والذاتيات .

ويُعلِّمنا الحق سبحانه ذلك حين أنزل لنا فى قرآنه قصة سيدنا داود عليه السلام :

﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا[1] الْمِحْرَابَ (٢١) إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلا تُشْطِطْ[2] وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ (٢٢) إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا[3] وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ (٢٣) قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي

---

(١) تسور السور : تسلقه وعلاه . قال تعالى : ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ (٢١)﴾[ص] [القاموس القويم ١/٣٣٥]

(٢) الشطط : الجور وتجاوز الحد فى كل شىء . قال تعالى : ﴿ لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا (١٤)﴾ [الكهف] أى : قولاً جائراً مجاوزاً للحد . [القاموس القويم ١/٣٤٩] .

(٣) أكفلنيها : أى اجعلنى كافلاً لها راعياً شئونها مالكاً لها . عزنى فى الخطاب : غلبنى وقهرنى . [القاموس القويم ٢/١٨، ١٦٧] .

بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ[1] رَاكِعًا وَأَنَابَ (٢٤) ﴾ [ص]

وكان من ذكر عدد نعَاج أخيه أنه إنما أراد أن يستميل داود عليه السلام لصفِّه ؛ وكان يريد أن يُصوِّر الظلم الذى وقع عليه ، وحكم داود بأنَ مَنْ أخذ النعجة ليضمها لنعاجه هو الذى ظلم ؛ وشعر داود أنه لم يُوفَّق فى الحكم ؛ لأنه ذكر فى حيثية الحكم نعاج الذى أراد أن يأخذ نعجة أخيه .

فالأخذ وحده كان هو المبرر عند داود لإدانة الذى أراد الاستيلاء على ما ليس من حقه ؛ ولذلك اعتبر أن هذا الأمر كله فتنة لم يُوفَّق فيها ، واستغفر الله بالركوع والتوبة .

وقد كان يوسف عليه السلام حكيماً حين قال تأويل الرُّؤيا متجرداً من الذاتية ، وأنهى التأويل بالقول :

﴿ قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ (٤١) ﴾ [يوسف]

أى : أنه لا مجال للرجوع أو العدول عن حدوث ذلك الذى وصل إليه من تأويل ؛ فقد جاء التأويل وفقاً لما علَّمه الله له .

وهناك الكثير من الروايات عما تحمَّله يوسف من صعاب قبل الجُبِّ وقبل السجن ، وقيل : إن عمته ابنة إسحق ، وهى أكبر أولاده ؛ قد استقبلته بعد أن ماتت أمه لترعاه فتعلقت به ؛ ولم تحب أحداً قَدْر محبتها له .

---

(١) خر راكعاً : أسرع إلى الركوع والخضوع لله كأنه سقط من علو . [القاموس القويم ١/ ١٩٠].

وتاقت نفس يعقوب إلى ولده ؛ فذهب إليها وقال لها : سلِّمى إلىَّ يوسف . لكنها قالت : والله ما أقدر أن يغيب عنى ساعة ، ولن أتركه .

فلما خرج يعقوب عليه السلام من عندها ، عمدتْ إلى شىء[1] من ميراث إبراهيم عليه السلام يتوارثه أكبر الأبناء ، ووضعته تحت ملابس يوسف .

وكان العُرفُ الجارى أنه إذا سرق أحدٌ شيئاً وتَمَّ ضبطه ؛ تحول من حرّ إلى عبد ، وحين كاد يعقوب أن يخرج مع ابنه يوسف عائداً إلى بيته ؛ أعلنت العمة فقدان الشىء الذى أعطاه لها والدها إسحق ؛ وفتشوا يوسف فوجدوا الشىء المفقود .

فقالت عمته : والله إنه لَسَلْم - أى عبد - وكان العرف أن مَنْ يسرق شيئاً يتحول إلى عبد عند صاحب الشىء .

وهكذا بقى يوسف مع عمته محروماً من أبيه لفترة ، ولم يستطع الأب استرداده إلا بعد أن ماتت العمَّة .

ثم جاءت حادثة الجُبِّ ، ومن بعدها محاولة امرأة العزيز لغُوايته ، ورغم تيقُّن العزيز من براءته إلا أنه أُودِع السجن ؛ ويقول الرواة :

« إن يوسف عليه السلام قد عُرف فى السجن بالجود ، والأمانة ، وصدق الحديث ، وحُسْن السمت[2] ، وكثرة العبادة ، ومعرفة التعبير - أى تأويل الرُّؤيا - والإحسان إلى أهل السجن .

---

(١) هذا الشىء هو مِنْطقَة إسحاق فيما ذكره ابن كثير فى تفسيره [٤٨٦/٢] والمنطقة : هى كل ما شد به الإنسان على وسطه . وقد انتطق : أى شد النطاق على وسطه . [لسان العرب - مادة : نطق] .

(٢) السمت : حسن القصد والمذهب فى أمور الدين والدنيا . قال خالد بن جَنْبة : السمت اتباع الحق والهدى وحسن الجوار وقلة الأذيَّة . [لسان العرب - مادة : سمت] .

ولما دخل هذان الفَتيانِ معه السجن ؛ تآلفا به وأحبَّاه حُبّاً شديداً وقالا له : والله لقد أحببناك حباً زائداً . قال : بارك الله فيكما ؛ إنه ما من أحد أحبَّنى إلا دخل علىَّ من محبته ضررٌ ، أحبتنى عمَّتى فدخل الضرر بسببها ، وأحبَّنى أبى فأوذيتُ بسببه ، وأحبَّتنى امرأة العزيز فكذلك .

أى : أنه دخل السجن وصار معهما دون ذنب جَنَاه .

قال السجينان : إنا لا نستطيع غير ذلك »[1] .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك ما قاله يوسف لمن ظَنَّ أنه سينجو من السجن :

﴿ وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ[2] فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾

والمقصود هنا هو السجين الذى رأى حُلْماً يعصر فيه العنب ، فهو الذى فسر له يوسف رؤياه بأنه سينجو ؛ ويواصل مهمته فى صناعة الخمر لسيده .

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره [٤/٣٥١١] أن صاحب السجن أحب يوسف ، فوسع عليه فيه ، ثم قال : يا يوسف لقد أحببتك حباً لم أحب شيئاً حبك . فقال : أعوذ بالله من حبك . قال : ولم ذلك ؟ فقال : أحبنى أبى ففعل بى إخوتى ما فعلوه ، وأحبتنى سيدتى فنزل بى ما ترى» .

(٢) الرب : يُطلق على المالك وعلى السيد وعلى الصاحب وعلى راعى الأسرة ورئيسها . [القاموس القويم ١/٢٥١] بتصرف

وقوله سبحانه :

﴿ وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ .. (٤٢) ﴾ [يوسف]

يعنى أن الأمر بالنجاة لم يتيقن بعد ، ولم يصبح علماً .

وقد أوصاه يوسف عليه السلام :

﴿ اذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ .. (٤٢) ﴾ [يوسف]

والذكر هو حضور شىء بالبال ؛ وكان له بالبال صلَة استقبال ، مثل أى قضية عرفتَها من قبل ثم تركتَها ، ونسيتَها لفترة ، ثم تذكرتَها من جديد .

وهكذا نعلم أن للإنسان استقبالات للإدراكات ، وهى لا تظل فى بُؤْرة الشعور كل الوقت ؛ لأن الذهن لا يستطيع أن يكون مشغولاً إلا بشىء واحد ، فإن جاء شىء آخر فهو يزحزح الأمر الأول إلى حافة الشعور ، ليستقر الأمر الجديد فى بؤرة الشعور .

والمثل الذى أضربه دائماً هو إلقاء حجر فى الماء ، فيصنع الحجر دوائر تكبر ويتتابع اتساع أقطارها ، وهكذا بؤرة الشعور ، حين تستقبل أمراً أو خاطراً جديداً .

فالخاطر الجديد يُبعد كل الخواطر الأخرى من المركز إلى الحاشية ، ثم يأتى ما يُذكِّرك بما فى حاشية الشعور ؛ ليعود لك الخاطر أو الأمر الذى كنت قد نسيتَه وتتذكره بكل تفاصيله ؛ لأن ذاكرة الإنسان تعمل على مُسْتويين ؛ فهى تحفظ المعلومات ؛ وتسترجع المعلومات أيضاً .

وقد قال يوسف لمن ظن أنه نَاجٍ :

﴿ اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ .. (٤٢) ﴾ [يوسف]

أى : اذكر ما وجدته عندى من خير أمام سيدك .

وقال بعض المفسرين : إن يوسف عليه السلام حين نطق هذا القول ؛ شاء له الله أن يمكث فى السجن بضع سنين ؛ فما كان ينبغى له كرسول أن يُوسِّط الغير فى مسألة ذِكْره بالخير عند سيد ذلك السجين .

فيوسف كرسول إنما يتلقى عن الله بواسطة الوحى ؛ وهو قد قال لذلك السجين وزميله :

﴿ لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَالِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي .. (٣٧) ﴾ [يوسف]

وهذا يعنى أنه يستقبل عن الله مباشرة ، وكان عليه أن يظل موصولاً بالمصدر الذى يفيض عليه .

ويتابع الحق سبحانه :

﴿ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ (٤٢) ﴾ [يوسف]

ونسيان ذكر الله فيه نوع من العقوبة ، أو يحمل شيئاً من التأديب ليوسف ، وهكذا نرى أن الشيطان نفسه إنما يُعين الحق على مُرَاداته من خَلْقه .

وهذا ما يشرح لنا بقاء يوسف فى السجن بضع سنين ؛ ونعرف أن البِضْع من السنين يعنى من ثلاث سنوات إلى عَشْر سنوات ، وبعض العلماء حدَّده بسبع سنين .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ (١) وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ (٢) يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾

والأرض التى وقعتْ عليها ، وجَرَتْ فوقها تلك القصة هى مصر ، وسبق أن عرفنا ذلك حين قال الحق سبحانه :

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ .. ﴿٢١﴾ ﴾ [يوسف]

وهكذا نعرف أن هناك « ملك » ، وهناك « عزيز » .

ونحن نعلم أن حكام مصر القديمة كانوا يُسمَّوْنَ الفراعنة ، وبعد أن اكتُشِفَ « حجر رشيد » ، وتم فَكُّ ألغاز اللغة الهيروغليفية ؛ عرفنا

---

(١) عجف: هزل فهو أعجف وهى عجفاء . وقوله تعالى : ﴿ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ .. ﴿٤٣﴾ ﴾ [يوسف] هى الهَزْلى التى لا لحم عليها ولا شحم ضُربت مثلاً لسبع سنين لا قطر فيها ولا خِصْب [لسان العرب ـ مادة : عجف] .

(٢) المقصود بالملأ هنا هم أهل العلم والبصر بالكهانة والنجامة والعرافة والسحر وأشراف قومه. [راجع : تفسير القرطبى ٤/٣٥٢٠] .

أن حكم الفراعنة قد اختفى لفترة ؛ حين استعمر مصرَ ملوكُ الرُّعاة ، وهم الذين يُسمَّوْنَ الهكسوس .

وكانت هذه هى الفترة التى ظهر فيها يوسف ، وعمل يوسف وأخوه معهم ، فلما استرجع الفراعنة حكم مصر طردوا الهكسوس ، وقتلوا مَنْ كانوا يُوالونهم .

وحديث القرآن عن وجود مَلِك فى مصر أثناء قصة يوسف عليه السلام هو من إعجاز التنبؤ فى القرآن .

وساعة تقرأ :

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ .. (٤٣) ﴾ [يوسف]

ثم يطلب تأويل رؤياه ؛ فهذا يعنى أنها رُؤيا منامية .

وكلمة : ﴿ سِمَانٍ (٤٣) ﴾ [يوسف]

أى : مُمْتلئة اللحم والعافية . وكلمة (عجاف) أى : الهزيلة ؛ كما يُقال عند العامة « جلدها على عضمها » ؛ فكيف تأكل العجاف السمان ؛ مع أن العكس قد يكون مقبولاً ؟

وأضاف الملك :

﴿ وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ .. (٤٣) ﴾ [يوسف]

ولم يَصِف الملك أىَّ فعل يصدر عن السنابل ، ثم سأل مَنْ حوله من أعيان القوم الذين يتصدرون صُدور المجالس ، ويملأون العيون :

﴿ أَفْتُونِي فِي رُءْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [يوسف]

وكلمة (تعبرون) مأخوذة من « عبر النهر » أى : انتقل من شاطىء إلى شاطىء ، وكأنه يطلب منهم المراد المَطْوى فى الرُّؤيا .

ومن هذا المعنى أخذنا كلمة « العِبْرة » ، وهى التجربة التى نستفيد منها ، ومنه أيضاً « العبارة » وهو أن يكون هناك شىء مكتوم فى النفس ، ونُؤدِّيه ، ونُظهِره بالعبارة .

ومنه « العَبْرة » ، وهو الدَّمْعة التى تسقط من العين تعبيراً عن مشاعر ما ؛ سواء كانت مشاعر حُزْن أو فرح ، والمادة كلها تدور حول تعريف مجهول بمعلوم .

وهكذا يفعل مُفسِّر الرُّؤيا حين يَعبُر - من خلال رموزها - من الخيال إلى الحقيقة .

ولم يعرف الملأ الذين حول المَلِك تفسيراً للرُّؤيا التى رآها فى منامه .

ويقول الحق سبحانه ما جاء على ألسنتهم :

﴿ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ(١) وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾

وهكذا أعلن الملأ أن رؤيا الملك ليست سوى أخلاط أحلام بلا معنى .

---

(١) الضغث : قبضة من قضبان مختلفة من النبات . وقوله تعالى : ﴿ أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ .. ﴿٤٤﴾ ﴾ [يوسف] أى : أحلام مختلفة مختلطة ملتبسة غير مميَّزَة على سبيل الاستعارة ، كالأشياء المختلطة . [القاموس القويم ١/٣٩٤] .

و « الضِّغْث » هو حِزْمة من الحشائش مختلفة الأجناس ؛ فكأن رُؤْيا الملك لا تأويلَ لها عندهم ؛ لأنهم ليسوا من أهل التمييز فى التأويل .

وهذا سِدْق من البطانة فى ألاَّ يخبر أحدهم بشىء ، إلا إذا كان على علم به ؛ ولا يضير أحدهم أن يعلن جهله بأمر ما لا يعلمه .

والذى يعلن جهله بأمر لسائله ـ ويكون قد علمه ـ يجعله يسأل غيره ، أما إن أجاب بجواب ؛ فربما جعله يَثْبُتُ على هذا الجواب .

ولذلك قال العلماء ليفسحوا مجال الصِّدْق فى الفُتْيا : « مَنْ قال لا أدرى فقد أفتى » ؛ لأنه حين يقول « لا أدرى » ؛ سيضطرك إلى أن تسأل غيره .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ[1] بَعْدَ أُمَّةٍ[2] أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾﴾

وكان الذى نجا من السجينين يسمع مقالة الملك وردّ الملأ ؛ فاسترجع بذاكرته ما مَرَّ عليه فى السجن ، وكيف رأى الرُّؤيا ، وكيف قام يوسف بتأويلها .

---

(١) ادكر : أصلها اذتكر على وزن افتعل ، قلبت تاء الافتعال دالاً وذال الفعل دالاً وأدغمت الدالان : ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾ [القمر] [القاموس القويم ١/ ٢٤٤] .

(٢) الأمة : المدة والحين والوقت . وفُسِّر به قوله تعالى : ﴿وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ .. ﴿٤٥﴾﴾ [يوسف] . وقرأ ابن عباس « وادكر بعد أُمَه » بالهاء . والأمهُ : النسيان والغفلة أى تذكر بعد نسيان . [القاموس القويم ١/ ٣٤].

وقوله : ﴿ وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ .. (٤٥) ﴾ [يوسف]

يعنى : أنه أجهد عقله وذهْنه ؛ وافتعل التذكُّر لأن فترة لا بأس بها من الزمن قد مَرَّتْ ، وكلمة « أمة » تعنى فترة من الزمن ؛ كما فى قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (٨) ﴾ [هود]

و « الأمة » قد يُراد بها الجماعة من الناس ، ويُراد بها أيضاً الرجل الجامع لكل صفات الخير ، كما قال الحق سبحانه فى وصف إبراهيم عليه السلام :

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا[1] لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠) ﴾ [النحل]

أى : أن كل خصال الخير مجموعة فى إبراهيم عليه وعلى نبينا السلام ، وبعد أن افتعل ساقى الملك واجتهد ليتذكر ما حدث له منذ فترة هى بضع سنين ؛ أيام أنْ كان سجيناً ورأى رُؤيا منامية أوَّلَها له يوسف ، قال الساقى للملأ وللملك عن تلك الرؤيا :

﴿ أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ (٤٥) ﴾ [يوسف]

وبذلك استأذن ليذهب إلى مَنْ يُؤوِّل له رُؤيا الملك .

وقوله : ﴿ فَأَرْسِلُونِ (٤٥) ﴾ [يوسف]

---

(١) القنوت : الطاعة والدعاء . وقنت المؤمن بالله : أطاعه وأقرَّ له بالعبودية . وقنت فى صلاته : خشع واطمأن . وقنت : دعا وأطال الدعاء . [القاموس القويم ٢/١٣٤].

يعنى أن التأويل ليس من عنده ؛ بل هو يعرف مَنْ يستطيع تأويل الرُّؤى .

ونلحظ أن القرآن لم يحمل على لسان هذا الرجل : إلى من سوف يذهب ؛ لأن ذلك معلوم بالنسبة له ولنا ، نحن الذين نقرأ السورة .

وانتقل القرآن من طلب الإرسال إلى لقاء يوسف عليه السلام ؛ فيقول الحق سبحانه ما جاء على لسان ساقى الملك :

﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ[1] أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾

وقوله : ﴿ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ .. ﴿٤٦﴾ ﴾ [يوسف]

يدل على أنه قد جرَّبه فى مسائل متعددة ، وثبت صدقه .

و « صِدِّيق » لا يقتصر معناها على أنه صادق فى كل أقواله ؛ وصادق فى كل أفعاله ، وصادق فى كل أحواله ، ولكن معناها يتسع ليدُلَّنا على أن الصدق ملازم له دائماً فى القول وفى الفعل .

---

(١) الصِّدِّيق : بكسر الصاد وتشديد الدال: صيغة مبالغة من الصدق . ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ ..﴿١٩﴾ ﴾[الحديد] ، وهى صدِّيقة : ﴿ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ .. ﴿٧٥﴾ ﴾ [المائدة] هى مريم عليها السلام . [القاموس القويم ١/٣٧٢] .

أما فى الأقوال فصدقه واضح ؛ لأنه يقول القضية الكلامية ولها واقع من الخارج يدلُّ عليها .

وأما صدق الأفعال فهو ألاَّ تُجرِّب عليه كلاماً ، ثم يأتى فعله مخالفاً لهذا الكلام ؛ وهذا هو مَنْ نطلق عليه « صِدِّيق » .

ونحن نعلم أن حركات الإنسان فى الحياة تنقسم قسمين ؛ إما قول وإما فعل ؛ والقول أداته اللسان ، والفعل أداته كل الجوارح .

إذن : فهناك قول ، وهناك فعل ؛ وكلاهما عمل ؛ فالقول عمل ؛ والرؤية بالعين عمل ؛ والسمع بالأذن عمل ، والمسُّ باليد عمل .

لكن القول اختصَّ باللسان ، وأخذتْ بقية الجوارح الفعل ؛ لأن الفعل هو الوسيلة الإعلامية بين متكلم وبين مخاطب ، وأخذ شق الفعل .

وهكذا نعلم أن الفعل قسمان : إما قول ؛ وإما فعل .

والصِّدِّيق هو الذى يصدُق فى قوله ، بأن تطابق النسبة الكلامية الواقع ، وصادق فى فعله بألاَّ يقول ما لا يفعل .

ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿ كَبُرَ مَقْتًا[1] عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ (٣) ﴾ [الصف]

ونعلم أن ساقى الملك كانت له مع يوسف تجربتان :

---

(١) المقت : أشد الإبغاض . مقته يمقته : أبغضه . ويقول تعالى: ﴿ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ..(١٠) ﴾ [غافر] قال : يقول : لمقت الله إياكم حين دعيتم إلى الإيمان فلم تؤمنوا أكبر من مقتكم أنفسكم حين رأيتم العذاب . [لسان العرب ـ مادة : مقت] .

التجربة الأولى : تجربة مُعَايشته فى السجن هو وزميله الخباز ، وقولهما له :

﴿ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٣٦) ﴾ [يوسف]

وكان قولهما هذا هو حيثية سؤالهم له أن يُؤوِّل لهما الرؤيين :

﴿ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٣٦) ﴾[يوسف]

والتجربة الثانية : هى مجيء واقع حركة الحياة بعد ذلك مطابقاً لتأويله للرؤيين . ولذلك يقول له هنا :

﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ (٤٦) ﴾ [يوسف]

أى : أفتنَا فى رُؤيا سبع بقرات سمَان ؛ يأكلهن سبعُ بقرات شديدة الهُزَال ، وسبع سُنْبلات خُضْر ، وسبع أُخر يابسات ، لَعلِّى أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون .

وقوله : ﴿ أَفْتِنَا .. (٤٦) ﴾ [يوسف]

يوضح أنه لا يسأل عن رؤيا تخصُّه ؛ بل هي تخص رائياً لم يُحدده ، وإنْ كنا قد عرفنا أنها رُؤيا الملك .

وقوله : ﴿ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ .. (٤٦) ﴾ [يوسف]

هو تحرُّز واحتياط فى قضية لا يجزم بها ؛ وهو احتياط فى واقع

قدر الله مع الإنسان ، والسائل قد أخذ أسلوب الاحتياط ؛ ليخرجه من أن يكون كاذباً ، فهو يعلم أن أمر عودته ليس فى يده ؛ ولذلك يُعلمنا الله :

﴿ وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا (٢٣) إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لأَقْرَبَ مِنْ هَـٰذَا رَشَدًا (٢٤) ﴾ [الكهف]

وساعة تقول : « إن شاء الله » تكون قد أخرجتَ نفسك من دائرة الكذب ؛ وما دُمْتَ قد ذكرتَ الله فهو سبحانه قادر على أن يَهديك إلى الاختيار المناسب فى كل أمر تواجه فيه الاختيار .

فكأن الله يُعلِّم عباده أن يحافظوا على أنفسهم ، بأن يكونوا صادقين فى أقوالهم وأفعالهم ؛ لأنك مهما خططتَ فأنت تخطط بعقل موهوب لك من الله ؛ وحين تُقدم على أىِّ فعل ؛ فأيُّ فعل مهما صَغُر يحتاج إلى عوامل متعددة وكثيرة ، لا تملك منها شيئاً ؛ لذلك فعليك أنْ تردَّ كلَّ شىء إلى مَنْ يملكه .

وهنا قال الساقى :

﴿ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ .. (٤٦) ﴾ [يوسف]

وبذلك يُعلِّمنا الحق سبحانه الاحتياط .

وأضاف الحق سبحانه على لسان الرجل :

﴿ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ (٤٦) ﴾ [يوسف]

وكأن الرجل قد عرف أنه حين يأخذ التأويل من يوسف عليه

السلام ؛ ويعود به إلى الناس ؛ فهو لا يعلم كيف يستقبلون هذا التأويل ؟

أيستقبلونه بالقبول ، أم بالمُحاجَّة[1] فيه ؟ أو يستقبلون التأويل بتصديق ، ويعلمون قَدْرك ومنزلتك يا يوسف ؛ فيُخلِّصوك مما أنت فيه من بلاء السجن .

وقوله تعالى : ﴿ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ .. ﴿٤٦﴾ ﴾ [يوسف]

قد يدفع سائلاً إلى أن يقول : مَنِ الذى كلَّف الساقى بالذَّهاب إلى يوسف ؛ أهو الملك أم الحاشية ؟

ونقول : لقد نسبها الساقى إلى الكل ؛ للاحتياط الأدائى .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا[2] فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾

وهذه بداية تأويل رُؤْيا الملك .

والدَّأب معناه : المُواظبة ؛ فكأن يوسف عليه السلام قد طلب أن يزرع أهل مصر بدأبٍ وبدون كسل .

---

(١) تحاجًا : تخاصما وتنازعا الحجة ، كل منهما يحاول أن يثبت أنه المحق ، قال تعالى : ﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ .. ﴿٤٧﴾ ﴾ [غافر] أى : يتخاصمون . [القاموس القويم ١/١٤٣].

(٢) دأب على الأمر: اعتاده . والدَّأب والدَّأب : العادة والشأن . قال تعالى : ﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ ..﴿٣١﴾ ﴾ [غافر] أى : عادتهم وشأنهم . وقال تعالى : ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا .. ﴿٤٧﴾ ﴾ [يوسف] [القاموس القويم ١/٢١٩] .

ويتابع : ﴿ فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنْبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ (٤٧) ﴾ [يوسف]

أى : ما تحصدونه نتيجة الزرع بجِدٍّ واجتهاد ؛ فلكم أنْ تأكلوا القليل منه ، وتتركوا بقيته محفوظاً فى سنابله .

والحفظ فى السنابل يُعلِّمنا قَدْر القرآن ، وقدرة مَنْ أنزل القرآن سبحانه ، وما آتاه الله جل علاه ليوسف عليه السلام من علم فى كل نواحى الحياة ، من اقتصاد ومقومات التخزين ، وغير ذلك من عطاءات الله ، فقد أثبت العلم الحديث أن القمح إذا خُزِّن فى سنابله ؛ فتلك حماية ووقاية له من السوس .

وبعض العلماء قال فى تفسير هذه الآية : إن المقصود هو تخزين القمح فى سنابله وعيدانه .

وأقول : إن المقصود هو تَرْك القمح فى سنابله فقط ؛ لأن العيدان هى طعام الحيوانات .

ونحن نعلم أن حبة القمح لها وعاءان : وعاء يحميها ؛ وهو ينفصل عن القمحة أثناء عملية « الدَّرْس » ؛ ثم يطير أثناء عملية « التذرية » مُنفصِلاً عن حبوب القمح .

ولحبة القمح وعاء ملازم لها ، وهو القشرة التى تنفصل عن الحبة حين نطحن القمح ، ونسميها « الردة » وهى نوعان : « ردة خشنة » و « ردة ناعمة » .

ومن عادة البعض أن يَفصِلوا الدقيق النقى عن « الردة » ،

وهؤلاء يتجاهلون ـ أو لا يعرفون ـ الحقيقة العلمية التى أكدت أن تناول الخبز المصنوع من الدقيق الأبيض الخالى من « الردة » يصيب المعدة بالتلبُّك .

فهذه القشرة الملازمة لحبة القمح ليست لحماية الحبة فقط ؛ بل تحتوى على قيمة غذائية كبيرة .

وكان أغنياء الريف فى مصر يقومون بتنقية الدقيق المطحون من « الردة » ويسمُّونه « الدقيق العلامة » ؛ الذى إنْ وضعت ملعقة منه فى فمك ؛ تشعر بالتلَبُّك ؛ أما إذا وضعت ملعقة من الدقيق الطبيعى الممتزج بما تحتويه الحبة من « ردة » ؛ فلن تشعر بهذا التلبُّك .

ويمتنُّ الله على عباده بذلك فى قوله الحق :

﴿ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ[1] وَالرَّيْحَانُ (١٢) ﴾ [الرحمن]

وقد اهتدى علماء هذا العصر إلى القيمة الفاعلة فى طَحْن القمح، مع الحفاظ على ما فيه من قشر القمح ، وثبت لهم أن مَنْ يتناول الخبز المصنوع من الدقيق النقى للغاية ؛ يعانى من ارتباك غذائى يُلجئه إلى تناول خبز مصنوعٍ من قِشْر القمح فقط ، وهو ما يسمى « الخبز السِّن » ؛ ليعوض فى غذائه ما فقده من قيمة غذائية .

وهنا يقول الحق سبحانه :

---

(١) الحب ذو العصف : أى ذو التبن أو ذو الورق الذى يغلفه . والعَصْف والعصيفة : ورق السنبل . قال ابن كثير فى تفسير هذه الآية (٤/٢٧١) : «معنى هذا والله أعلم أن الحب كالقمح والشعير ونحوهما له فى حال نباته عصف وهو ما على السنبلة ، وريحان وهو الورق الملتف على ساقها » .

﴿ فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ (٤٧) ﴾ [يوسف]

وهكذا أخبر يوسف الساقى الذى جاء يطلب منه تأويل رُؤْيا الملك ؛ بما يجب أن يفعلوه تحسُّباً للسنوات السبع العجاف التى تلى السبع سنوات المزدهرة بالخُضْرة والعطاء ، فلا يأكلوا مِلْء البطون ؛ بل يتناولوا من القمح على قَدْر الكفاف :

﴿ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ (٤٧) ﴾ [يوسف]

ويتابع الحق سبحانه ما جاء على لسان يوسف عليه السلام من بقية التأويل لحُلْم الملك :

﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ (٤٨) ﴾ (١)

وهكذا أوضح يوسف عليه السلام ما سوف يحدث فى مصر من جَدْب يستمر سبع سنوات عجاف بعد سبع سنوات من الزرع الذى يتطلب هِمَّة لا تفتر .

وقوله سبحانه فى وصف السبع « سنوات » بأنها :

﴿ شِدَادٌ (٤٨) ﴾ [يوسف]

يعنى : أن الجَدْب فيها سوف يُجهِد الناس ؛ فإنْ لم تكُنْ هناك

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٣٥٢٦/٤) : « أى : مما تحبسون لتزرعوا ، لأن فى استبقاء البذر تحصين الأقوات. قال أبو عبيدة : تحرزون . وقال قتادة : تحصنون : تدَّخرون ، والمعنى واحد » .

حصيلة تَمَّ تخزينها من محصول السبع السنوات السابقة ، فقد تحدُث المجاعة ، وليعصم الناسُ بطونهم فى السنوات السبع الأولى ، وليأكلوا على قَدْر الضرورة ؛ ليضمنوا مواجهة سنوات الجَدْب .

ونحن نعلم أن الإنسان يستبقى حياته بالتنفس والطعام والشراب؛ والطعام إنما يَمْرى على الإنسان ، ويعطيه قوة يواجه بها الحياة .

ولكن أغلب طعامنا لا نهدف منه القوة فقط ؛ بل نبغى منه المتعة أيضاً ، ولو كان الإنسان يبغى سَدَّ غائلة[1] الجوع فقط ، لاكتفى بالطعام المسلوق ، أو بالخبز والإدام فقط ، لكننا نأكل للاستمتاع .

ويتكلم الحق سبحانه عن ذلك فيقول :

﴿ فَكُلُوهُ هَنِيئًا[2] مَّرِيئًا[3] ﴿٤﴾ ﴾ [النساء]

أى : بدون أن يضرك ، ودون أن يُلجِئك هذا الطعام إلى المُهْضِمات من العقاقير .

وهذا هو المقصود من قول الحق سبحانه :﴿ هَنِيئًا .. ﴿٤﴾ ﴾ [النساء]

أما المقصود بقوله : ﴿ مَّرِيئًا ﴿٤﴾ ﴾ [النساء]

---

(١) الغوائل : المهالك . والغَوْل : المشقة . [لسان العرب ـ مادة : غول] .

(٢) هَنُؤَ يَهْنُؤ هناءة : تيسر بلا مشقة ، وسَهُل أمره ، وسعد به صاحبه وهو طعام هنىء : أى سائغ نافع يسعد به آكله . قال تعالى : ﴿ فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا ﴿٤﴾ ﴾ [النساء] أى : حلالاً طيباً لا حرمة فيه ولا حرج عليكم فى أكله . [القاموس القويم ٢/٣٠٩] .

(٣) مَرُءَ الطعام : سَهُلَ فى الحلق وحُمِدت عاقبته وخلا من التنغيص . [القاموس القويم ٢/٢٢٠] .

فهو الطعام الذى يفيد ويمدُّ الجسم بالطاقة فقط ؛ وقد لا يُستساغ طعمه .

وهنا قال الحق سبحانه :

﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَالِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ (٤٨) ﴾ [يوسف]

وبطبيعة الحال نفهم أن السنوات ليست هى التى تأكل ؛ بل البشر الذين يعيشون فى تلك السنوات هم الذين يأكلون .

ونحن نفهم ذلك ؛ لأننا نعلم أن أى حدث يحتاج لزمان ولمكان ؛ ومرة يُنسب الحَدث للزمان ؛ ومرة يُنسب الحَدث للمكان .

والمثل على نسبة الحَدث للمكان هو قول الحق سبحانه :

﴿ وَاسْأَلِ[1] الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ[2] .. (٨٢) ﴾ [يوسف]

وطبعاً نفهم أن المقصود هو سؤال أهل القرية التى كانوا فيها ، وأصحاب القوافل التى كانت معهم .

وهنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها ؛ نجد الحدث منسوباً للزمان ؛ وهم سيأكلون مما أحصنوا إلا قليلاً ؛ لأنهم بعد أن يأكلوا لا بد لهم من الاحتفاظ بكمية من الحبوب والبُذُور لاستخدامها كتقاوى فى العام التالى لسبع سنوات موصوفة بالجدب .

---

(١) وهذا الأسلوب يسمى فى البلاغة المجاز بالحذف ـ دلائل الإعجاز للجرجانى .

(٢) العير : القافلة . والعير : القوم معهم دوابُّهم وأحمالهم من الطعام . قال تعالى : ﴿ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ (٧٠) ﴾ [يوسف] أى : أيها القوم الراحلون . [القاموس القويم ٢/٤٤] .

وقوله تعالى :

﴿ مِّمَّا تُحْصِنُونَ (٤٨) ﴾ [يوسف]

نجده من مادة « حصن » وتفيد الامتناع ؛ ويقال : « أقاموا فى داخل الحصن » أى : أنهم إنْ هاجمهم الأعداء ؛ يمتنعون عليهم ؛ ولا يستطيعون الوصول إليهم .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ .. (٢٤) ﴾ [النساء]

أى : المُمْتنعات عن عملية الفجور ؛ وهُنَّ الحرائر .

وأيضاً يقول الحق سبحانه :

﴿ وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا .. (٩١) ﴾ [الأنبياء]

أى : التى أحكمتْ صيانة عِفَّتها ، وهى السيدة مريم البتول[1] عليها السلام ، وهكذا نجد مادة « حصن » تفيد الامتناع .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ[2] (٤٩) ﴾

---

(١) البتول من النساء: العذراء المنقطعة عن الأزواج . ويُقال : هى المنقطعة إلى الله عز وجل عن الدنيا . [لسان العرب ـ مادة : بتل] .

(٢) قال ابن عباس : يعصرون الأعناب والدُّهْن . وقال ابن جريج : يعصرون العنب خمراً ، والسمسم دُهناً ، والزيتون زيتاً . وقيل : أراد حلب الألبان لكثرتها ، ويدلّ ذلك على كثرة النبات . [تفسير القرطبى ٤/٣٥٢٧] .

ونلحظ أن هذا الأمر الذى تحدث عنه يوسف عليه السلام خارج عن تأويل الرُّؤيا ؛ لأن ما احتوته رُؤيا الملك هو سبع بقرات عجاف[١] يأكلن سبع بقرات سِمَانٍ ؛ وسبع سُنبلات خُضْر وأُخَر يابسات .

وأنهى يوسف عليه السلام تأويل الرُّؤيا ، وبعد ذلك جاء بحكم العقل على الأمور ؛ حيث يعود الخِصْب العادى ليعطيهم مثلما كان يعطيهم من قبل ذلك .

وهذا يمكن أن يطلق عليه « غَوْث » ؛ لأننا نقول « أَغِثْ فلاناً » أى : أَعِنْ فلاناً ؛ لأنه فى حاجة للعون ، والغيث[٢] ينزل من السماء لِيُنهِى الجَدْب .

وقوله : ﴿ يُغَاثُ النَّاسُ .. (٤٩) ﴾ [يوسف]

أى : يُعانون بما يأتيهم من فضل الله بالضرورى من قوت يمسك عليهم الحياة .

ويُذيِّل الحق سبحانه الآية بقوله : ﴿ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ (٤٩) ﴾ [يوسف]

أى : ما يمكن عَصْره من حبوب أو ثمار ؛ مثل : السمسم ، والزيتون ، والعنب ، والقصب ، أو البلح ، وأنت لن تعصر تلك الحبوب أو الثمار إلا إذا كان عندك ما يفيض عن قوت ذاتك وقوت من تعول .

---

(١) عجف : هزل فهو أعجف ، وهى عجفاء . أى : هزيلة . والتعجيف : سوء الغذاء والهزال . وقوله تعالى : ﴿ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ ..(٤٣) ﴾ [يوسف] هى : الهَزْلَى التى لا لحم عليها ولا شحم ، ضربت مثلاً لسبع سنين لا قطْر فيها ولا خِصْب . [لسان العرب ـ مادة : عجف].

(٢) الغيث : المطر . والغيث : الكلأ ينبت من ماء السماء . والأصل المطر ، ثم سُمِّى ما ينبت به غيثاً . [لسان العرب ـ مادة : غيث] .

وهكذا أوضح لنا الحق سبحانه أنهم سوف يُرزَقُونَ بخير يفيض عن الإغاثة ؛ ولهم أن يدخروه ، وما سبق فى آيات الرؤيا وتأويلها هو حوار بين يوسف الصديق ـ عليه السلام ـ وبين ساقى الملك .

ولاحظنا كيف انتقل القرآن من لقطة عجز الحاشية عن الإفتاء فى أمر الرؤيا ، وتقديم الساقى طلباً لأنْ يرسلوه كى يُحضِر لهم تأويل الرؤيا ، ثم جاء مباشرة بالحوار بين يوسف والساقى .

هنا ينتقل القرآن إلى ما حدث ، بعد أن علِم الملك بتأويل الرُّؤيا ، فيقول سبحانه :

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ ﴾

ومعنى ذلك أن الساقى ذهب إلى مجلس الملك مباشرة ، ونقل له تأويل الرُّؤيا ، وأصرَّ الملك أنْ يأتوا له بهذا الرجل ؛ فقد اقتنع بأنه يجب الاستفادة منه ؛ وعاد الساقى ليُخرِج يوسف من السجن الذى هو فيه .

لكنه فُوجِىء برفض يوسف للخروج من السجن ، وقوله لمن جاء يصحبه إلى مجلس الملك :

﴿ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ ﴾ [يوسف]

وهكذا حرص يوسف على ألاَّ يستجيب لمَنْ جاء يُخلِّصه من عذاب السجن الذى هو فيه ؛ إلا إذا برئتْ ساحته براءةً يعرفها الملك ؛ فقد

يكون من المحتمل أنهم ستروها عن أذن الملك .

وأراد يوسف عليه السلام بذلك أن يُحقق المَلِك فى ذلك الأمر مع هؤلاء النسوة اللاتى قَطَّعْنَ أيديهن ؛ ودَعَوْنَهُ إلى الفحشاء .

واكتفى يوسف بالإشارة إلى ذلك بقوله :

﴿إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾﴾ [يوسف]

ويُخفى هذا القول فى طيَّاته ما قالته النسوة من قبل ليوسف بضرورة طاعة امرأة العزيز فى طلبها للفحشاء .

وهكذا نجد القصص القرآنى وهو يعطينا العِبْرة التى تخدمنا فى واقع الحياة ؛ فليست تلك القصص للتسلية ، بل هى للعبرة التى تخدمنا فى قضايا الحياة .

وبراءة ساحة أى إنسان هو أمر مُهِمٌّ ؛ كى تزول أىُّ ريبة من الإنسان قبل أن يُسند إليه أى عمل .

وهكذا طلب يوسف عليه السلام إبراء ساحته ، حتى لا يَقُولَنَّ قائل فى وشاية أو إشاعة « همزاً أو لَمْزاً »[1] : أليس هذا يوسف صاحب الحكاية مع امرأة العزيز ، وهو مَنْ راودته عن نفسه ؟

وها هو رسولنا ﷺ يقول :

«عجبت لصبر أخى يوسف وكرمه ـ والله يغفر له ـ حيث أُرْسِل إليه ليُستفتى فى الرؤيا ، وإن كنت أنا لم أفعل حتى أخرج ، وعجبت من

---

(١) اللمز : العيب فى الوجه ، وأصله الإشارة بالعين والرأس والشفة مع كلام خفى . والهمز : الغيبة والوقيعة فى الناس وذكر عيوبهم . [لسان العرب ـ مادتى : لمز ، همز] .

صبره وكرمه ـ والله يغفر له ـ أُتِى ليخرج فلم يخرج حتى أخبرهم بعذره ، ولو كنت أنا لبادرت الباب ، ولكنه أحب أن يكون له العذر»[(١)].

وشاء نبينا ﷺ أن يُوضِّح لنا مكانة يوسف من الصبر وعزة النفس والنزاهة والكرامة فقال ﷺ :

« إن الكريمَ ، ابن الكريم ، ابن الكريم ، ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم . قال ـ لو لبثتُ فى السجن ما لبثَ ، ثم جاءنى الرسول أجبتُ ثم قرأ ﷺ ـ:

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ..(٥٠) ﴾»[(٢)] [يوسف]

وهكذا بيَّنَ لنا الرسول ﷺ مكانة يوسف من الصبر والنزاهة ، وخشيته أن يخرج من السجن فَيُشَار إليه : هذا مَنْ راود امرأة سيده .

وفى قول الرسول ﷺ إشارة إلى مبالغة يوسف فى ذلك الأمر ، وكان من الأحوط أن يخرج من السجن، ثم يعمل على كَشْف براءته .

ومعنى ذلك أن الكريم لا يستغل المواقف استغلالاً أحمق ، بل يأخذ كل موقف بقدْره ويُرتِّب له ؛ وكان يوسف واثقاً من براءته ، ولكنه أراد ألاَّ يكون الملك آخر مَنْ يعلم .

---

(١) أخرجه الطبرانى فى المعجم الكبير (١١٦٤٠) ، قال الهيثمى فى مجمع الزوائد (٧/ ٤٠): «فيه إبراهيم بن يزيد القرشى المكى وهو متروك» ، وقد أورده السيوطى فى الدر المنثور (٤/ ٥٤٨) وعزاه لابن جرير وابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه من طرق عن ابن عباس .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٢/ ٣٣٢) ، والترمذى فى سننه (٣١١٦) وقال : « حديث حسن»، وكذا أخرجه الحاكم فى مستدركه (٢/ ٣٤٦) كلهم من حديث أبى هريرة . قال الحاكم : « هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه بهذه السياقة » وسكت عنه الذهبى .

وصدق رسولنا ﷺ حين قال : « دَعْ ما يَرِيبُك إلى ما لا يَرِيبك ، فإن الصدقَ طُمأنينة ، وإن الكذبَ ريبة »[١] .

وكان ﷺ يرى أن الإيمان بالله يقتضى ألاَّ يقف المؤمن موقفَ الرِّيبة ؛ لأن بعض الناس حين يَرَوْنَ نَابِهاً ، قد تثير الغيرةُ من نباهته البعضَ ؛ فيتقوَّلون عليه .

لذلك فعليك أن تحتاطَ لنفسك ؛ بألاَّ تقف موقف الرِّيبة ، والأمر الذى تأتيك منه الرِّيبة ؛ عليك أن تبتعد عنه .

ولنَا فى رسول الله ﷺ أسْوة حسنة ، فقد جاءته زَوْجه صفية بن حُيي تزوره وهو معتكف فى العشر الأواخر من رمضان ، فتحدثت عنده ساعة من العشاء ، ثم قامتْ تنقلب - أى : تعود إلى حجرتها - فقام معها رسول الله ﷺ ، حتى إذا بلغت باب المسجد الذى عند مسكن أم سلمة زوج رسول الله ﷺ ، مرّ بهما رجلان من الأنصار فسلَّما على رسول الله ﷺ ثم نفذا[٢] ، فقال لهما رسول الله ﷺ : « على رِسْلكما ، إنما هى صفية بنت حُيي . قالا : سبحان الله يا رسول الله ، وكبر عليهما ما قال . قال : إن الشيطان يجرى من ابن آدم مبلغ الدم ، وإنى خشيت أن يقذف فى قلوبكما »[٣] .

---

(١) أخرجه أبو داود الطيالسى فى مسنده (١١٧٨) ، وكذا الإمام أحمد فى مسنده (١/ ٢٠٠)، والترمذى فى سننه (٢٥١٨) وقال : « حديث حسن صحيح » من حديث الحسن بن على .

(٢) النفاذ : الجواز . وفى المحكم : جواز الشىء والخلوص منه . تقول : نفذت أى جُزْت . [لسان العرب - مادة : نفذ] . أى : مَرًّا وجاوزاهما .

(٣) متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٢١٩) ، ومسلم فى صحيحه (٢١٧٥) من حديث صفية بنت حُيي .

وهنا فى الموقف الذى نتناوله بالخواطر ، نجد الملك وهو يستدعى النسوة اللاتى قطَّعن أيديهن ، وراودْنَ يوسف عن نفسه ، وهو ما يذكره الحق سبحانه :

﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ ۚ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ ۚ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ[1] أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٥١) ﴾

ونعلم أن المُراودة الأولى ليوسف كانت من امرأة العزيز ؛ واستعصم يوسف ، ثم دَعَتْ هى النسوة إلى مجلسها ؛ وقطَّعْنَ أيديهن حين فُوجِئْنَ بجمال يوسف عليه السلام ، وصدرت منهن إشارات ، ودعوات إثارة وانفعال .

قال عنها يوسف ما أورده الحق سبحانه :

﴿ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ[2] إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ (٣٣) ﴾ [يوسف]

واستدعاهن الملك ، وسألهن : ﴿ مَا خَطْبُكُنَّ .. (٥١) ﴾ [يوسف]

والخَطْب : هو الحَدَثُ الجلَل ، فهو حدث غير عادى يتكلم به الناس ؛ فهو ليس حديثاً بينهم وبين أنفسهم ؛ بل يتكلمون عنه بحديث

---

(١) حصحص الحق : وضح وتبيَّن بعد خفائه . والحصحصة : بيان الحق بعد كتمانه أى : ظهر وبرز . [لسان العرب ـ مادة : حصص] .

(٢) صبا يصبو : مال وأحبَّ ﴿ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ .. (٣٣) ﴾ [يوسف] أى : أملْ إليهن وأفعل ما يغرينني به . وصبا إلى اللهو : حنَّ واشتاق إليه . [القاموس القويم ١/٣٦٨] .

يصل إلى درجة تهتز لها المدينة ؛ لأن مثل هذا الحادث قد وقع .

ولذلك نجد إبراهيم عليه السلام ، وقد قال لجماعة من الملائكة :

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (٣١) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ (٣٢) ﴾ [الذاريات]

أى : أن الملائكة طمأنتْ إبراهيم عليه السلام ؛ فهى فى مهمة لعقاب قوم مجرمين .

وموسى عليه السلام حين عاد إلى قومه ، ووجد السامرى قد صنع لهم عِجْلاً من الذهب الذى أخذوه من قوم فرعون نجده يقول للسامرى :

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ (٩٥) ﴾ [طه]

وقَوْل الملك هنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها :

﴿ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ.. (٥١) ﴾ [يوسف]

يدلُّ على أنه قد سمع الحكاية بتفاصيلها فاهتزَّ لها ؛ واعتبرها خَطْباً ؛ مما يوضح لنا أن القيم هى القيم فى كل زمان أو مكان .

وبدأ النسوة الكلام ، فقُلْنَ :

﴿ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ.. (٥١) ﴾ [يوسف]

ولم يذكُرْنَ مسألة مُراودتهنَّ له ، وكان الأمر المهم هو إبراء ساحة يوسف عند الملك .

وقولهن : ﴿ حَاشَ لِلَّهِ .. (٥١) ﴾ [يوسف]

أى : نُنزِّه يوسف عن هذا ، وتنزيهُنَا ليوسف أمْرٌ من الله .

وهنا تدخلتْ امرأة العزيز :

﴿ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ ..(٥١) ﴾ [يوسف]

أى : أنها أقرَّتْ بأنه لم يَعُدْ هناك مجال للستر ، ووضح الحقُّ بعد خفاء ، وظهرتْ حِصَّة الحق من حِصَّة الباطل ، ولا بُدّ من الاعتراف بما حدث :

﴿ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٥١) ﴾ [يوسف]

وواصلت امرأة العزيز الاعتراف فى الآية التالية :

﴿ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ (٥٢) ﴾

قالت ذلك حتى تُعلنَ براءة يوسف عليه السلام ، وأنها لم تنتهز فرصة غيابه فى السجن وتنتقم منه ؛ لأنه لم يستجبْ لمُراودتها له ، ولم تنسج له أثناء غيابه المؤامرات ، والدسائس ، والمكائد .

وهذا يدلُّنا على أن شرَّةَ الإنسان قد تتوهج لغرض خاص ، وحين يهدأ الغرض ويذهب ، يعود الإنسان إلى توازنه الكمالى فى نفسه ، وقد يجعل من الزَّلة الأولى فى خاطره وسيلة إلى الإحسان فيما ليس له فيه ضعف ، كى تستر الحسنةُ السيئة ، مصداقاً لقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ (١١٤) ﴾ [هود]

ولو أن إنساناً عمل سيئة وفضحه آخر عليها ؛ فالفاضح لتلك

السيئة إنما يحرم المجتمع من حسنات صاحب السيئة .

ولذلك أقول : استروا سيئات المسىء ؛ لأنها قد تلهمه أن يقدم من الخير ما يمحو به سيئاته .

ولذلك قالوا : إذا استقرأتَ تاريخ الناس ، أصحاب الأنفس القوية فى الأخلاق والقيم ؛ قد تجد لهم من الضعف هنات وسَقَطات ؛ ويحاولون أن يعملوا الحسنات كى تُذهب عنهم السيئات ؛ لأن بالَ الواحد منهم مشغولٌ بضعفه الذى يُلهبه ؛ فيندفع لفعل الخيرات .

وبعد أن اعترفتْ امرأة العزيز بما فعلت ؛ قالت :

﴿ وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِى كَيْدَ الْخَائِنِينَ (٥٢) ﴾ [يوسف]

أى : أنها أقرَّتْ بأنه سبحانه وتعالى لا يُنفِذ كيد الخائنين ، ولا يُوصِّله إلى غايته .

وتواصل امرأة العزيز فتقول :

﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥٣) ﴾

هذا القول من تمام كلام امرأة العزيز ؛ وكأنها توضح سبب حضورها لهذا المجلس ؛ فهى لم تحضر لتبرىء نفسها :

﴿ إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ .. (٥٣) ﴾ [يوسف]

ومجىء قول الحق سبحانه المؤكِّد أن النفس على إطلاقها أمَّارة بالسوء ؛ يجعلنا نقول : إن يوسف أيضاً نفس بشرية .

وقد قال بعض العلماء[١] : إن هذا القول من كلام يوسف ، كردٌّ عليها حين قالت :

﴿ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٥١) ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ (٥٢) ﴾ [يوسف]

وكان من المناسب أن يرد يوسف عليه السلام بالقول :

﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي . . (٥٣) ﴾ [يوسف]

ويمكن أن يُنسب هذا القول إلى يوسف كَلَوْنٍ من الحرص على ألاَّ يلمسه غرور الإيمان ، فهو كرسول من الله يعلم أن الله سبحانه هو الذى صرف كيدهُنَّ عنه .

وهذا لَوْن من رحمة الله به ؛ فهو كبشر مُجرّد عن العصمة والمنهج من الممكن أن تحدث له الغواية ؛ لكن الحق سبحانه عصمه من الزَّلَل .

ومن لُطْف الله أن قال عن النفس : إنها أمَّارة بالسوء ؛ وفى هذا توضيح كافٍ لطبيعة عمل النفس ؛ فهى ليستْ آمرةً بالسوء ، بمعنى أنها تأمر الإنسان لتقع منه المعصية مرة واحدة وينتهى الأمر .

لا ، بل انتبه أيها الإنسان إلى حقيقة عمل النفس ، فهى دائماً أمَّارة بالسوء ، وأنت تعلم أن التكليفات الإلهية كلها إمَّا أوامر أو نَوَاهٍ ،

---

(١) قاله ابن جرير الطبرى وابن أبى حاتم . والقول الأشهر والأليق بسياق القصة ومعانى الكلام أنه من قول امرأة العزيز ، لأن سياق الكلام كله من كلامها بحضرة الملك ، ولم يكن يوسف عليه السلام عندهم ، بل بعد ذلك أحضره الملك . [انظر : تفسير ابن كثير ٢/٤٨١ بتصرف] .

وقد تستقبل الأوامر كتكليف يشقُّ على نفسك ، وأنت تعلم أن النواهى تمنعك من أفعال قد تكون مرغوبة لك ، لأنها فى ظاهرها ممتعة ، وتلبى نداء غرائز الإنسان .

ولذلك يقول المصطفى ﷺ :

« حُفَّتْ الجنة بالمكاره ، وحُفَّتْ النار بالشهوات »[(١)] .

أى : أن المعاصى قد تُغريك ، ولكن العاقل هو من يملك زمام نفسه ، ويُقدِّر العواقب البعيدة ، ولا ينظر إلى اللذة العارضة الوقتية ؛ إلا إذا نظر معها إلى الغاية التى تُوصِّله إليها تلك اللذة ؛ لأن شيئاً قد تستلذُّ به لحظة قد تَشْقى به زمناً طويلاً .

ولذلك قلنا : إن الذى يُسرف على نفسه غافل عن ثواب الطاعة وعن عذاب العقوبة ، ولو استحضر الثواب على الطاعة ، والعذاب على المعصية ؛ لامتنع عن الإسراف على نفسه .

ولذلك يقول النبى ﷺ :

« لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن »[(٢)] .

إذن : فلحظة ارتكاب المعصية نجد الإنسان وهو يستر إيمانه ؛ ولا يضع فى باله أنه قد يموت قبل أن يتوبَ عن معصيته ، أو قبل أن يُكفِّر عنها .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٣/١٥٣ ، ٢٥٤) ، ومسلم فى صحيحه (٢٨٢٢) ، والترمذى فى سننه (٢٥٥٩) من حديث أنس رضى الله عنه .

(٢) متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٤٧٥) ، ومسلم فى صحيحه (٥٧) كتاب الإيمان من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

ويخطىء الإنسان فى حساب عمره ؛ لأن أحداً لا يعلم ميعاد أجله؛ أو الوقت الذى يفصل بينه وبين حساب المولَى - عَزَّ وجَلَّ - له على المعاصى .

وكل مِنَّا مُطَالب بأن يضع فى حُسْبانه حديث الرسول ﷺ :

« الموت القيامة ، فمَنْ مات فقد قامت قيامته »[1] .

ولنا أسوة طيبة فى عثمان بن عفان - رضى الله عنه - وهو الخليفة الثالث لرسول الله ﷺ ، الذى كان إذا وقف على قبر بكى حتى تبتلَّ لحيته ، فسُئِل عن ذلك ؛ وقيل له : تذكر الجنة والنار فلا تبكى ، وتبكى إذا وقفتَ على قبر ؟ فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« إن القبر أول منازل الآخرة ، فإنْ نجا منه صاحبه فما بعده أيسر منه ، وإن لم يَنْجُ منه ، فما بعده أشد »[2] .

لذلك فلا يستبعد أحد ميعاد لقائه بالموت .

وتستمر الآية : ﴿ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّى إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ [يوسف]

ونعلم أن هناك ما يشفى من الداء ، وهناك ما يُحصِّن الإنسان ، ويعطيه مناعة أن يصيبه الداء ، والحق سبحانه غفور ، بمعنى أنه يغفر الذنوب ، ويمحوها ، والحق سبحانه رحيم ، بمعنى أنه يمنح الإنسان مناعة ، فلا يصيبه الداء ، فلا يقع فى زلة أخرى .

---

(١) ذكره العجلونى فى كشف الخفاء (حديث رقم ٢٦١٨) عن أنس بن مالك رضى الله عنه ، وتمامه : « أكثروا ذكر الموت ، فإنكم إن ذكرتموه فى غِنًى كدّره عليكم ، وإن ذكرتموه فى ضيق وسّعه عليكم » الحديث .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٦٣/١) ، وابن ماجه فى سننه (٤٢٦٧) ، والترمذى فى سننه (٢٣٠٨) وقال : « حديث حسن غريب » من حديث عثمان بن عفان رضى الله عنه .

والحق سبحانه هو القائل :

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ.. (٨٢) ﴾ [الإسراء]

فساعةَ تسمع القرآن فهو يشفيك من الداء الذى تعانى منه نفسياً ويُقوِّى قدرتك على مقاومة الداء ؛ ويُفجِّر طاقات الشفاء الكامنة فى أعماقك.

وهو رحمة لك حين تتخذه منهجاً ، وتُطبِّقه فى حياتك ؛ فيمنحك مناعة تحميك من المرض ، فهو طبٌّ علاجىٌّ وطبٌّ وقائىٌّ فى آنٍ واحد .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ (٥٤) ﴾ (١)

ونلحظ أن الملك قد قال : ﴿ ائْتُونِي بِهِ (٥٤) ﴾ [يوسف]

مرتين(٢) ، مرة : بعد أن سمع تأويل الرؤيا ؛ لكن يوسف رفض الخروج من السجن إلا بعد أن تثبت براءته ؛ أو : أنه خرج وحضر المواجهة مع النسوة بما فيهنّ امرأة العزيز .

ورأى الملك فى يوسف أخلاقاً رفيعة ؛ وسِعَة عِلْم .

وانتهى اللقاء الأول ليتدبر الملك ، ويُفكر فى صفات هذا الرجل ؛

---

(١) مكُنَ مكانة فهو مكين : ثبت واستقر فهو ثابت مستقر . قال تعالى : ﴿ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ (٥٤) ﴾ [يوسف] أى : عظيم عندنا ثابت المنزلة . [القاموس القويم ٢/٢٣٢] .

(٢) المرة الأولى فى قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ (٥٠) ﴾ [يوسف] والمرة الثانية فى قوله تعالى هنا : ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ (٥٤) ﴾ [يوسف].

والراحة النفسية التى ملأتْ نفس الملك ؛ وكيف دخل هذا الرجل قلبه .

والمرة الثانية عندما أراد الملك أن يستخلصه لنفسه ويجعله مستشاراً له .

ويورد الحق سبحانه هذا المعنى فى قوله :

﴿ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ (٥٤) ﴾ [يوسف]

وهذا الاستخلاص قد جاء بعد أن تكلم الملك مع يوسف ، وبعد أن استشفَّ خفَّة يوسف على نفسه ؛ وتيقَّن الملك من بعد الحوار مع يوسف أنه رجل قد حفظ نفسه من أعنف الغرائز ؛ غريزة الجنس .

وتيقن من أن يوسف تقبّل السجن ، وعاش فيه لفترة طالتْ ؛ وهو صاحب علْم ، وقد ثبت ذلك بتأويل الرُّؤيا ؛ وقد فعل ذلك وهو سجين، ولَم يقبل الخروج من السجن إلا لإثبات براءته ، أو بعد إثبات البراءة .

ولكلِّ ذلك صار من أهل الثقة عند الملك ، الذى أعلن الأمر بقوله :

﴿ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ (٥٤) ﴾ [يوسف]

وذلك ليسُدَّ باب الوشَاية به ، أو التآمر عليه . ومكانة « المكين » هى المكانة التى لا ينالَ منها أىُّ أحد .

ولذلك نجد الحق ـ سبحانه وتعالى ـ حينما تكلَّم عن الوحى من جبريل عليه السلام قال :

﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (١٩) ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (٢٠) ﴾ [التكوير]

فالمعنى : أن يوسف عليه السلام أهْلٌ للثقة عند الحاكم ؛ وهو الذى سينُفذ الأمور ، وله صلَة بالمحكومين ، وإذا كان هو المُمَكَّن من عند الحاكم ؛ فهو أيضاً أمين مع المحكومين .

والمشكلة فى مجتمعاتنا المعاصرة إنما تحدث عندما يُرجِّح الحاكمُ مَنْ يراهم أهلَ الثقة على أهل الخبرة والأمانة ، فتختل موازين العدل .

وعلى الحاكم الذكىّ أن يختار الذين يتمتعون بالأمرين معاً : أمانة على المحكوم ؛ وثقة عند الحاكم . وبهذا تعتدل الحياة على منهج الله .

وحين سمع يوسف عليه السلام هذا الكلام من الحاكم :

﴿ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ (٥٤) ﴾ [يوسف]

قرر أن يطلب منه شيئاً يتعلق بتعبيره لرُؤْياه ، التى سبق أن أوَّلها يوسف :

﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا[1] فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ (٤٧) ثُمَّ يَأْتِى مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ (٤٨) ثُمَّ يَأْتِى مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ (٤٩) ﴾ [يوسف]

وهذه عملية اقتصادية تحتاج إلى تخطيط وتطبيق ومتابعة وحُسْن تدبير وحزم وعِلْم .

لذلك كان مطلب يوسف عليه السلام فيه تأكيد على أن الواقع القادم سيأتى وفقاً لتأويله للرؤيا ، فتقول الآيات :

﴿ قَالَ اجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَائِنِ[2] الْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ (٥٥) ﴾

---

(١) دأب فى عمله دأبا ودأبا : جَدّ فيه ولازمه من غير فتور . أى : مداومين مجتهدين ذوى دأب. [القاموس القويم ١/٢١٩] بتصرف .

(٢) الخزائن : جمع خزانة ، وهى المكان الذى تحفظ فيه الأشياء النافعة . قال ابن كثير فى تفسيره (٢/٤٨٢) : « هى الأهرام التى يجمع فيها الغلات لما يستقبلونه من السنين التى أخبرهم بشأنها فيتصرف لهم على الوجه الأحوط والأصلح والأرشد » .

وهذا القول تأكيد لثقة يوسف أن القادم فى هذا البلد يحتاج لحكمة إدارة ، لا تبعثر ما سوف يأتى فى سنين الخصب ؛ لتضمن الاطمئنان فى سنين الشدة ، وتلك مهمة تتطلب الحفظ والعلم .

وقد تقدم ما يثبت أن هاتين الصفتين يتحلَّى بهما يوسف عليه السلام.

وقد يقول قائل : أليس فى قول يوسف شبهة طلب الولاية ؟ والقاعدة[1] تقول : إن طالب الولاية لا يولَّى .

فيوسف عليه السلام لم يطلب ولاية ، وإنما طلب الإصلاح ليتخذ من إصلاحه سبيلاً لدعوته وتحقيقاً لرسالته ، حيث أنه كان آمراً فيستجاب ، ولم يكن مأموراً للإيجاب حيث أنه كان واثقاً بالإيمان ومؤمناً بوثوق .

وقد تأتى ظروف لا تحتمل التجربة مع الناس ، فمَنْ يثق بنفسه أنه قادر على القيام بالمهمة فله أن يعرض نفسه .

ومثال ذلك : لنفترض أن قوماً قد ركبوا سفينة ؛ ثم هاجتْ الرياح وهبَّتْ العاصفة ؛ وتعقَّدت الأمور ؛ وارتبك القبطان ، وجاءه مَنْ يخبره أنه قادر على أن يحل له هذا الأمر ، ويُحسن إدارة قيادة المركب ، وسبق للقبطان أن علم عنه ذلك .

هنا يجب على القبطان أن يسمح لهذا الخبير بقيادة السفينة ؛ وبعد أن ينتهى الموقف الصعب ؛ على القبطان أن يُوجِّه الشكر لهذا الخبير ؛ ويعود لقيادة سفينته .

إذن : فمن حقِّ الإنسان أن يطلب الولاية إذا تعيَّن عليه ذلك ، بأن يرى أمراً يتعرض له غير ذى خبرة يُفسد هذا الأمر ، وهو يعلم وَجْه الصلاح فيه . وهنا يكون التدخل فرض عين من أجل إنقاذ المجتمع .

---

(١) دليل هذه القاعدة ما أخرجه مسلم فى صحيحه (١٧٣٣) عن أبى موسى الأشعرى أن رسول الله ﷺ قال : « إنا والله لا نولى على هذا العمل أحداً سأله . ولا أحداً حرص عليه » .

وفى مثل هذه الحالة نجد مَنْ طلب الولاية وهو يملك شجاعتين :

الشجاعة الأولى : أنه طلب الولاية لنفسه ؛ لثقته فى إنجاح المهمة.

والشجاعة الثانية : أنه حجب من ليس له خبرة أن يتولى منصباً لا يعلم إدارته ، وبهذا يصير الباطل متصرفاً .

وبذلك يُظهر وَجْه الحق ؛ ويُزيل سيطرة الباطل .

ولذلك نجد يوسف عليه السلام يقول للملك :

﴿ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ (٥٥) ﴾ [يوسف]

والخزائن يوجد فيها ما يُمكّن المسيطر عليها من قيادة الاقتصاد.

وقالوا : إن يوسف طلب من الملك أن يجعله على خزائن الأرض ، لوضع سياسة اقتصادية يواجهون بها سبع سنين من الجَدْب ، وتلك مسألة تتطلب حكمة وحفْظاً وعلْماً .

وكان يوسف عليه السلام يأخذ من كل راغب فى المَيْرة الأثمان من ذهب وفضة ، ومَنْ لا يملك ذهباً وفضة كان يُحضر الجواهر من الأحجار الكريمة ؛ أو يأتى بالدواب ليأخذ مقابلها طعاماً .

ومَنْ لا يملك كان يُحضر بعضاً من أبنائه للاسترقاق ، أى : يقول رَبُّ الأسرة الفقير : خُذْ هذا الولد ليكون عبداً لقاء أن آخذ طعاماً لبقية أفراد الأسرة .

وكان يوسف عليه السلام يُحسن إدارة الأمر فى سنوات الجَدْب ليشُد كل إنسان الحزام على البطن ، فلا يأكل الواحد فى سبعة أمعاء بل يأكل فى معًى واحد ، كما يقول رسولنا ﷺ فى الحديث الشريف : « المؤمن يأكلَ فى معًى واحد ، والكافر يأكل فى سبعة أمعاء »[(١)] .

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٠٦٠) (١٨٤) كتاب الأشربة ، من حديث جابر وابن عمر رضى الله عنهما .

وكان التموين فى سنوات الجَدْب يقتضى دِقَّة التخطيط ، ولا يحتمل أىَّ إسراف .

وما دام لكل شىء ثمن يجب أن يُدفع ، فكل إنسان سيأخذ على قَدْر ما معه ، وبعد أن انتهت سنوات الجَدْب ، وجاءت سنوات الرخاء ؛ أعاد يوسف لكل إنسان ما أخذه منه .

وحين سُئِل : ولماذا أخذتَ منهم ما دُمْتَ قد قررت أن تردَّ لهم ما أخذته ؟

أجاب : كى يأخذ كل إنسان فى أقلِّ الحدود التى تكفيه فى سنوات الجدب .

ومثل هذا يحدث عندنا حين نجد البعض ، وهو يشترى الخبز المُدعّم ليُطعِم به الماشية ، وحين يرتفع ثمن الخبز نجد كل إنسان يشترى فى حدود ما معه من نقود ، ويحرص على ألاَّ يُلقِى مما اشترى شيئاً .

وكانت قدرة الدولة أيام الجفاف محدودة ؛ لذلك وجب على كل فرد أن يعمل لنفسه .

ونحن نرى ذلك الأمر ، وهو يتكرر فى حياتنا ؛ فحين لا يجد أحد ثمن اللحم فقد لا تهفو نفسه إلى اللحم ، وقد يعلن فى كبرياء : « إن معدتى لم تَعُدْ تتحمل اللحم ».

وقد يعلن الفقير حُبَّه للسمك الصغير ؛ لأن لحمه طيّب ، عكس السمك الكبير الذى يكون لحمه « متِفِّلاً » ، أو يعلن إعجابه بالفجل الطازج ، لأنه لذيذ الطعم .

وقديماً فى بدايات العمر كنا حين ندخل إلى المنزل ، ونحن نعيش بعيداً عن بيوت الأهل فى سنوات الدراسة ، ولا نجد إلا قرصاً واحداً من « الطعمية » ، كنا نقسم هذا القرص ليكفى آخر لقمة فى الرغيف ،

أما إذا دخلنا ووجدنا خمسة أقراص من الطعمية ، فكان الواحد منا يأكل نصف قرص من الطعمية مع لقمة واحدة .

وهكذا يتحمل كل واحد على قَدْر حركته وقدرته .

والشاعر يقول :

والنفسُ راغبةٌ إذَا رغَّبتَها ... وإذَا تُرَدُّ إلى قَليلٍ تَقْنَعُ

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ (١)

وهكذا كان تمكين الله ليوسف عليه السلام فى الأرض ، بحيث أدار شئون مصر بصورة حازمة ؛ عادلة ؛ فلما جاء الجدب ؛ لم يَأتِهَا وحدها ؛ بل عَمَّ البلاد التى حولها .

بدليل أن هناك أُنَاساً من بلاد أخرى لجئوا يطلبون رزقهم منها ؛ والمثل : إخوة يوسف الذين جاءوا من الشام يطلبون طعاماً لهم ولمن ينتظرهم فى بلادهم ، فهذا دليل على أن رُقْعة الشدة كانت شاسعة .

وقول الحق سبحانه :

﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ .. ﴿٥٦﴾ ﴾ [يوسف]

---

(١) يتبوأ منها حيث يشاء : أى ينزل فى أى مكان يريده من أرض مصر ، وهذا كناية عن اتساع جاهه . [القاموس القويم ١/٨٨] .

نفهم منه أنه جعل لنفسه بيتاً فى أكثر من مكان ؛ ولا يَظُنَّنَّ ظَانٌّ أن هذا لَوْنٌ من اتساع أماكن التَّرَف .

لكن : لماذا لا ننظر إليها بعيون تكشف حقيقة رجال الإدارة فى بعض البلاد ؛ فما أنْ يعلموا بوجود بيت للحاكم فى منطقة ما ؛ وقد يزوره ؛ فهم يعتنون بكل المنطقة التى يقع فيها هذا البيت .

وهذا ما نراه فى حياتنا المعاصرة ، فحين يزور الحاكم منطقة ما فَهُمْ يُعيدون رَصْف الشوارع ؛ ويصلحون المرافق ؛ وقد يُحضِرون أُصَص الزرع ليُجمِّلوا المكان .

فما بَالُك إنْ علموا بوجود بيت للحاكم فى مكان ما ؟ لا بُدَّ أنهم سَيُوالون العناية بكلِّ التفاصيل المتعلقة بالمرافق فى هذا الموقع .

إذن : فقول الحق سبحانه هنا عن يوسف عليه السلام :

﴿ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ .. (٥٦) ﴾ [يوسف]

يعنى : شُيوع العناية بالخدمات لكل الذين يسكنون فى هذا البلد ؛ فلا تأخذ الأمر على أنه تَرَف وشَرَف ، بل خُذْ هذا القول على أنه تكليف سينتفع به المُحيطون ، سواء كانوا مقصودين به أو غير مقصودين .

وتلك لقطة توضح أن التبُّوء حيث يشاء ليس رحمةً به فقط ؛ ولكنه رحمةٌ بالناس أيضاً .

ولذلك يقول الحق سبحانه فى نفس الآية :

﴿ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ .. (٥٦) ﴾ [يوسف]

فَمَنْ كان يحيا بلا مياه صالحة للشرب ستصله المياه النقية ؛ ومَنْ كان يشقى من أجل أن يعيش فى مكان مُريح ستتحول المنطقة التى

يسكن فيها إلى مكان مُريح به كل مُستلزمات العصر الذى يحيا فيه .

فيوسف المُمكّن فى الأرض له مسكن مجاور له ؛ وسيجد العناية من قبَل الجهاز الإدارى حيثما ذهب ، وتغمر العناية الجميع ، رحمة من الله له ، وللناس من حوله .

ويُنهى الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله :

﴿ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦) ﴾ [يوسف]

والمُحْسِن هو الذى يصنع شيئاً فوق ما طُلب منه .

وهنا سنجد الإحسان يُنسب ليوسف ؛ لأنه حين أقام لنفسه بيتاً فى أكثر من مكان ؛ فقد أحسن إلى أهل الأمكنة التى له فيها بيوت ؛ بارتفاع مستوى الخدمة فى المرافق وغيرها .

وسبحانه يجازى المحسنين بكمال وتمام الأجر ، وقد كافأ يوسف عليه السلام بالتمكين مع محبة من تولَّى أمرهم .

ويتابع الحق سبحانه :

﴿ وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٥٧) ﴾

ويوضح ـ هنا ـ سبحانه أنه لا يجزى المحسنين فى الدنيا فقط ؛ ولكن يجازيهم بخير أبقى فى الآخرة . وكلمة « خير » تستعمل استعمالين :

الأول : هو أن شيئاً خير من شىء آخر ؛ أى : أنهما شركاء فى الخير ، وهو المعنى المقصود هنا ، والمثال : هو قول الرسول ﷺ :

« المؤمن القوىُّ خير وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفى كُلٍّ خير . احرص على ما ينفعك ، واستعنْ بالله ولا تعجز ، وإنْ أصابك شىء فلا تَقُلْ : لو أنِّى فعلتُ كذا وكَذا ، ولكن قُلْ : قدَّر الله وما شاء فعل ؛ فإن لو تفتح عمل الشيطان »(١) .

والاستعمال **الثانى** لكلمة « خير » : هو خير مقابله شرّ ، والمثال : هو قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ(٢) ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨ ﴾ [الزلزلة]

والحق سبحانه يريد أن يعتدل ميزان حركة الحياة ، لن يعتدل ميزان حركة الحياة بأن نقول للإنسان على إطلاقه : سوف تأخذ أجر عملك الطيب فى الآخرة ؛ لأن المؤمن وحده هو الذى سيصدق ذلك .

أما الكافر فقد يظلم ويسفك الدماء ، ويسرق ويستشرى الفساد فى الأرض .

ولذلك شاء الحق سبحانه أن يجعل الجزاءَ نوعين : جزاء فى الدنيا لِمَنْ يُحسن ، سواء أكان مؤمناً أو كافراً ؛ وجزاءً فى الآخرة يختصُّ به الحقُّ سبحانه المؤمنين به .

والحق سبحانه يقول هنا :

﴿ وَلَأَجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ۝٥٧ ﴾ [يوسف]

أى : أنه أكثر خيراً من جزاء الدنيا ؛ لأن جزاء الآخرة يدوم أبداً ،

---

(١) أخرجه أحمد بن حنبل فى مسنده (٢ / ٣٦٦ ، ٣٧٠) ، ومسلم فى صحيحه (٢٦٦٤) وابن ماجه فى سننه (٧٩) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

(٢) المثقال : وزن معلوم قَدْره . ويقول تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ .. ۝٤٠ ﴾ [النساء] . أى : مقدار وزن ذرة لا يظلم شيئاً صغر أو كبر . [القاموس القويم ١/١٠٩] .

على عكس خير الدنيا الذى قد تفوتُه أو يفوتُك ، بحُكْم أن الدنيا موقوتة بالنسبة لك بعمرك فيها ؛ ولكن الآخرة لها الدَّيْمومة التى شاءها الله سبحانه .

يقول الحق سبحانه بعد ذلك عن إخوة يوسف :

﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾﴾

وقد عرفهم يوسف ؛ لكنهم لم يعرفوه ، فقد أَلقَوْهُ فى الجُبِّ صغيراً؛ ومرَّتْ رحلته فى الحياة بعد أن عثر عليه بعض السَّيارة ؛ وباعوه لعزيز مصر ، لتمر به الأحداث المتتابعة بما فيها من نُضْج جسدى وحُسْن فائق ، ومُراودة من امرأة العزيز ، ثم سنوات السجن السبع .

ولكل حدث من تلك الأحداث أثر على ملامح الإنسان ؛ فضلاً عن أنهم جاءوه وهو فى منصبه العالى ، بما يفرضه عليه من وجاهة فى الهيئة والملبس .

أما هو فقد عرفهم ؛ لأنه قد تركهم وهم كبار ، قد تحددت ملامحهم ، ونعلم أن الإنسان حين يمرُّ عليه عقْد من الزمان ؛ فهذا الزمن قد يزيد من تحديد ملامحه ، إذا ما كانَ كبيراً ناضجاً ، لكنه لا يغيرها مثلما يُغيِّر الزمنُ ملامحَ الطفل حين يكبر ويصل إلى النضج .

والذى دفعهم إلى المجىء هو القحط الذى لم يُؤثِّر على مصر وحدها ؛ بل أثَّر أيضاً على المناطق المجاورة لها .

وذاع أمر يوسف عليه السلام الذى اختزن الأقوات تحسُّباً لذلك القحط ؛ وقد أرسلهم أبوهم ليطلبوا منه المَيْرة[1] والطعام ، ولم يتخيَّلوا

---

(١) الميرة : الطعام يمتاره الإنسان أى يجلبه . مار أهله : جلب إليهم الطعام . قال تعالى : ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا.. ﴿٦٥﴾﴾ [يوسف] . [القاموس القويم : ٢/٢٤٦] .

بأىِّ حال أن يكون مَنْ أمامهم هو أخوهم الذى ألقوْه فى الجُبِّ .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ[1] قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ ﴾

ولا بُدَّ أنه قد تكلم معهم عن أحوالهم ، وتركهم يَحْكُونَ له عن أبيهم وأخيهم ، وأنهم قد طلبوا المَيْرة ؛ وأمر بتجهيزها لهم[2] .

وكلمة « الجهاز » تُطلق هنا على ما تسبَّب فى انتقالهم من موطنهم إلى لقاء يوسف طلباً للميرة .

وطلب منهم ـ من بعد ذلك ـ أن يأتوا بأخيهم « بنيامين » معهم ، وقال لهم :

﴿ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ[3] ﴿٥٩﴾ ﴾ [يوسف]

---

(١) جهاز العروس والمسافر والجيش : هو ما يحتاجون إليه وما يلزمهم فى قصدهم. والمعنى هنا أنه أوفى لهم الكيل وأعطاهم الطعام الذى جاءوا من أجله . [راجع تفسير ابن كثير ٢/٤٨٣ ، والقاموس القويم ١/١٣٤] .

(٢) «ذكر السدى وغيره أن يوسف عليه السلام شرع يخاطبهم فقال لهم كالمنكر عليهم : ما أقدمكم بلادى ؟ فقالوا : أيها العزيز إنَّا قدمنا للميرة . قال : فلعلكم عيون ؟ قالوا : معاذ الله. قال : فمن أين أنتم ؟ قالوا : من بلاد كنعان وأبونا يعقوب نبى الله . قال : وله أولاد غيركم ؟ قالوا : نعم كنا اثنى عشر فذهب أصغرنا هلك فى البرية ، وكان أحبنا إلى أبينا، وبقى شقيقه ، فاحتبسه أبوه ليتسلى به عنه، فأمر بإنزالهم وإكرامهم » [تفسير ابن كثير ٢/٤٨٣] .

(٣) النزول : الحلول بالمكان. والنُّزُل والنُّزْل : ما هُيئ للضيف إذا نزل عليه . [لسان العرب ـ مادة : نزل] .

وفى هذا تذكير لهم بأنه يُوفى الكيل تماماً ، وفيما يبدو أنهم طلبوا منه زيادة فى المَيْرة ؛ بدعوى أن لهم أخاً تركوه مع أبيهم الشيخ العجوز ، فطلب منهم يوسف أن يُحضروا أخاهم كى يزيد لهم كيلاً إضافياً ؛ لأنه لا يحب أن يعطى أحداً دون دليل واضح ؛ التزاماً منه بالعدل .

وكان كل منهم قد أتى على بعير ، عليه بضائع يدفعونها كأثمان لمَا يأخذونه ، وحين يحضرون ومعهم أخوهم سيأخذون كَيْل بعير فَوق ما أخذوه هذه المرَّة .

وهم قد قالوا لأبيهم هذا القول ، حينما سألوه عن إرسال أخيهم معهم لمصاحبتهم فى الرحلة حسب طلب يوسف عليه السلام ؛ لذلك تقول الآية :

﴿ وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ .. (٦٥) ﴾ [يوسف]

وقوله :

﴿ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ (٥٩) ﴾ [يوسف]

يعنى : أنه يرحب بالضيوف ؛ وقد لمسوا ذلك بحُسْن المكان الذى نزلوا فيه . بما فيه من راحة وطيب الاستقبال ، ووجود كل ما يحتاجه الضيف فى إقامته .

وكلمة « مُنْزل » فى ظاهر الأمر أنها ضدّ مُعْلى ، وحقيقة المعنى هو : مُنزِل مِنَ الذى ينزل بالمكان الموجود به كل مطلوبات حياته .

والحق سبحانه يقول عن الجنة :

﴿ نُزُلاً[1] مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ (٣٢) ﴾ [فصلت]

---

(١) النزل : المنزل ، وما يُعدُّ لينزل فيه الضيف . قال تعالى : ﴿ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلاً مِّنْ عِندِ اللَّهِ .. (١٩٨) ﴾ [آل عمران] [القاموس القويم ٢/٢٦٠] .

أى : أنه سبحانه قد أعدَّ الجنة بما يفوق خيال البشر ؛ وبمُطْلق صفات المغفرة والرحمة ، وإذا كان المَوْلى عَزَّ وجَلَّ هو الذى يعدّ ؛ فلا بُدَّ أن يكون ما أعدَّه فوق خيال البشر .

وقلت لإخوانى الذين بُهروا بفندق رَاق فى سان فرانسيسكو : إن الإنسان حين يرى أمراً طيباً ، أو شيئاً رَاقياً ، أو جميلاً عند إنسان آخر سيستقبلها بواحد من استقبالين ؛ تظهر نَفسه فيه ؛ فإن كان حَقُوداً فسينظر للأشياء بكراهية وبحقد ، وإنْ كان مؤمناً يفرح ويقول :

هذه النعمة التى أراها تزيد من عشْقى فى الجنة ؛ لأن تلك النعمة التى أراها قد صنعها بشر لبشر ؛ فَماذا عن صُنْع الله للجنة ؟ وهو مَنْ خلق الكون كله بما فيه من بشر ؟

ودائماً أقول : ما رأيتُ نعيماً عند أحد إلا ازداد إيمانى ، بأن الذى أراه من نعمة قد أعدَّه البشر للبشر ؛ فما بالنا بما أعدَّه خالق البشر للمؤمنين من البشر ؟

أما مَنْ ينظر نظرةَ حقْد إلى النعمة عند الغير ؛ فهو يحرم نفسه من صَبَابة[1] النعمة عند الغير ؛ لأن النعمة لها صَبَابة عند صاحبها ، وتتعلق به ، وإن فرحتَ بالنعمة عند إنسان ؛ فثقْ أن النعمة ستطرق بابك ، وإن كرهتها عند غيرك ؛ كرهتْ النعمة أن تَأتى إليك .

فإنْ أردتَ الخير الذى عند غيرك ؛ عليك أن تحب النعمة التى عند هذا الغير ؛ لتسعى النعمة إليك ؛ دون أن تتكلف عبء إدارة هذه النعمة أو صيانتها ؛ لأنها ستأتى إليك بقدرة الحق سبحانه .

وقَوْل يوسف عليه السلام فى هذه الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها :

---

(١) الصبابة : الشوق . صببتُ إلى الشىء صبابة ، فأنا صَبٌّ ، أى : عاشق مشتاق . [لسان العرب ـ مادة : صبب] .

﴿ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ (٥٩) ﴾ [يوسف]

هو إخبار منه يؤكد ما استقبلهم به من عدل ، وتوفية للكيل ، وحُسْن الضيافة ، ولا شك أنهم حين يُحضِرون أخاهم سيجدون نفس الاستقبال .

ويواصل الحق سبحانه ما جاء على لسان يوسف :

﴿ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ (٦٠) ﴾

ويوسف يعلم مُقدَّماً صعوبة أن يأمنهم أبوهم على أخيهم ؛ لذلك وجَّه إليهم هذا الإنذار :

﴿ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي .. (٦٠) ﴾ [يوسف]

قال لهم ذلك ، وهو يعلم أن المَعَاد مَعَادٌ[1] قَحْط وجَدْب ومجاعة .

وأضاف يوسف :

﴿ وَلا تَقْرَبُونِ (٦٠) ﴾ [يوسف]

أى : لا تأتوا ناحية هذا البلد الذى أحكمه ؛ ولذلك سنجدهم يقولون لأبيهم من بعد ذلك :

﴿ يَـأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٦٣) ﴾ [يوسف]

وتلقَّوْا الإنذار من يوسف ، وقالوا ما أورده القرآن هنا :

---

(١) المعاد : المرجع والمصير. أى : أن مرجعهم إلى بلاد ذات جدب وقحط وهى الموطن الذى جاءوا منه . والمعاد والمعادة : المأتم يُعاد إليه . [لسان العرب ـ مادة : عود] .

﴿قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ (٦١)﴾

وقولهم : ﴿ سَنُرَاوِدُ[1] عَنْهُ أَبَاهُ.. (٦١) ﴾ [يوسف]

يعنى : أن الأمر ليس سهلاً ؛ وهم يعرفون ماذا فعلوا من قبل مع يوسف ، والمُـراودة تعنى أَخْذ وردّ ، وتـحتـاج إلى احتـيال ؛ وسـبق المعنى فى قول الحق سبحانه :

﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ (٢٣) ﴾ [يوسف]

وأكّدوا قولهم :

﴿ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ (٦١) ﴾ [يوسف]

أى : أنهم سيبذلون كُلَّ جهودهم ؛ كى يقبل والدهم إرسالَ أخيهم معهم ، وهم يعلمون أن هذا مطلبٌ صَعْب المَنال ، عسير التحقيق .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ[2] لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُوا[3] إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٦٢)﴾

---

(١) أى : سنحرص على مـجيئه إليك بكل ممكن ولا نـبقى مجـهوداً لتعلم صـدقنا فيـما قلنا . [ذكره ابن كثير فى تفسيره ٢/٤٨٣] .

(٢) الرحال : جـمع رَحْل . وهو ما يُوضع عـلى البعيـر للركوب عليـه ، ويطلق على ما يـحمله المسافر من أمتعة . [القاموس القويم ١/٢٥٩] .

(٣) انقلب : رجع وتحوَّل إلى وضـعه الأول ، أو إلى وضع آخر . قـال تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ (١٢٥)﴾ [الأعراف] . أى : راجعون إليه . [القاموس القويم ٢/١٢٩] . بتصرف .

أى : أن يوسف عليه السلام أمر مساعديه أنْ يُعيدوا البضائع التى أحضرها هؤلاء معهم ليقايضوا[١] بها ما أخذوه من قمح وطعام ، وكان على مساعدى يوسف عليه السلام أن يُنفِّذوا أمره بوضع هذه البضائع بشكل مُسْتتر فى الرِّحال التى أتَوْا عليها ، وفى هذا تشجيع لهم كى يعودوا مرة أخرى[٢] .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾

وكان قولهم هذا هو أول خبر قالوه لأبيهم ، فور عودتهم ومعهم المَيْرة ، وكأنهم أرادوا أن يُوضِّحوا للأب أنهم مُنِعوا مستقبلاً من أنْ يذهبوا إلى مصر ، ما لم يكن معهم أخوهم .

وحكَوْا لأبيهم قصتهم مع عزيز مصر ، وإن وافق الأب على إرسال أخيهم « بنيامين » معهم ؛ فلسوف يكتالون ، ولسوف يحفظون أخاهم الصغير .

---

(١) قايضه مقايضة : إذا أعطاه سلعة وأخذ عوضها سلعة . والقَيْض : العِوَض . [لسان العرب ـ مادة : قيض] .

(٢)ذكر ابن كثير فى هذا أقوالاً منها : أن يوسف خشى أن لا يكون عندهم بضاعة أخرى يرجعون للميرة بها. وقيل : تذمَّم أن يأخذ من أبيه وإخوته عوضاً عن الطعام. [راجع تفسير ابن كثير ٢/٤٨٣] .

وهم فى قولهم هذا يحاولون أن يُبعِدوا رِيبةَ الأب عَمَّا حدث ليوسف من قبل .

وهنا يأتى الحق سبحانه بما قاله أبوهم يعقوب عليه السلام :

﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُم عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾﴾

وهنا يُذكِّرهم أبوهم بأنهم لم يُقدِّموا من قبل ما يُطمئِنه على ذلك ؛ فقد أضاعوا أخاهم يوسف وقالوا : إن الذئب قد أكله .

وأضاف : ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [يوسف]

وهو قَوْل نتنسَّم فيه أنه قد وافق على ذهاب بنيامين معهم ، وأنه يدعو الحق ليحفظ ابنه .

وبدأ أبناء يعقوب فى فتح متاعهم بعد الرحلة ، وبعد الحوار مع أبيهم .

ويقول الحق سبحانه :

﴿وَلَمَّا فَتَحُوا۟ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى[1] هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾﴾

---

(١) بغى : كذب وظلم . وبغى الشىء : طلبه . قال القرطبى فى تفسيره (٥/٣٥٥٩) : «المعنى : أى شىء نطلب وراء هذا ؟ وُفِّى لنا الكيل ، ورُدّ علينا الثمن ، أرادوا بذلك أن يطيبوا نفس أبيهم ».

وهكذا اكتشفوا أن بضائعهم التى حملوها معهم فى رحلتهم إلى مصر ليقايضوا بها ويدفعوها ثمناً لِمَا أرادوا الحصول عليه من طعام ومَيْرة قد رُدَّتْ إليهم ؛ وأعلنوا لأبيهم أنهم لا يرغبون أكثر من ذلك ؛ فهم قد حصلوا على المَيْرة التى يتغذَّوْنَ بها هم وأهاليهم .

ولا بد أن يصحبوا أخاهم فى المرة القادمة ، ولسوف يحفظونه ، ولسوف يعودون ومعهم كيْل زائد فوق بعير ، وهذا أمر هَيِّن على عزيز مصر .

ولكن والدهم يعقوب عليه السلام قال ما أورده الحق سبحانه هنا :

﴿ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا[1] مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ[2] فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ ﴾

ونلحظ هنا رِقَّة قلب يعقوب وقُرْب موافقته على إرسال ابنه « بنيامين » معهم إلى مصر ، هذه الرِّقَّة التى بَدَتْ من قبل فى قوله :

﴿ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [يوسف]

وطلب منهم أن يحلفوا بيمين مُوثقة أن يعودوا من رحلتهم إلى

---

(١) الميثاق والموثق : العهد المؤكّد . قال تعالى : ﴿ وَمِيثَاقَهُ ٱلَّذِي وَاثَقَكُم بِهِۦٓ .. ﴿٧﴾ ﴾ [المائدة] . أى : عهده الذى عاهدكم عليه ، وألزمكم الوفاء به . [القاموس القويم ٣١٩/٢] .

(٢) الإحاطة بالشىء : الإحداق به من جميع جوانبه . وقوله : ﴿ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ .. ﴿٦٦﴾ ﴾ [يوسف] . أى : إلا أن تُحصروا أو تمنعوا سبيل النجاة . [القاموس القويم ١٧٨/١] .

مصر ، ومعهم أخوهم « بنيامين » إذا ما ذهب معهم ؛ ما لم يُحطْ بهم أمر خارج عن الإرادة البشرية ، كأن يحاصرهم أعداء يُضيِّعونهم ويُضيِّعون بنيامين معهم ؛ وهذا من احتياط النبوة ؛ لذلك قال :

﴿ إِلاَّ أَن يُحَاطَ بِكُمْ .. (٦٦) ﴾ [يوسف]

وأقسم أبناء يعقوب على ذلك ، وأعطَوْا أباهم اليمين والعهد على رَدِّ بنيامين ، وليكون الله شهيداً عليهم .

قال يعقوب :

﴿ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (٦٦) ﴾ [يوسف]

أى : أنه سبحانه مُطلع ورقيب ، فإن خُنْتم فسبحانه المنتقم .

ويُوصِى يعقوب أولاده الأسباط :

﴿ وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ (٦٧) ﴾

وقد قال يعقوب عليه السلام ذلك الكلام فى المرة الثانية لذهابهم إلى مصر ، بعد أن عَلِم بحُسْن استقبال يوسف لهم ، وأن بضاعتهم رُدَّتْ إليهم ، وعلم بذلك أنهم صاروا أصحاب حَظْوة عند عزيز مصر .

وساعةَ ترى إنساناً له شأن ؛ فترقب أن يُعادى ، لذلك توجَّس يعقوب خِيفة أن يُدبِّر لهم أحد مكيدة ؛ لأنهم أغراب .

ومن هنا أمرهم أن يدخلوا مصر من أبواب متفرقة ، وكانت المدن قديماً لها أبواب ؛ تُفتح وتقفل فى مواعيد محددة ، وحين يدخلون فُرادى فلن ينتبه أحد أنهم جماعة .

وقد خاف يعقوب على أبنائه من الحسد ، ونعلم أن الحسد موجود .

وقد علَّمنا سبحانه أن نستعيذ به سبحانه من الحسد ؛ لأنه سبحانه قد علِم أزلاً أن الحسد أمر فوق طاقة دَفْع البشر له ، وهو القائل :

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (١) مِن شَرِّ مَا خَلَقَ (٢) وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ (٣) وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ (٤) وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ (٥) ﴾ [الفلق]

وفى أمر الحسد أنت لا تستطيع أن تستعيذ بواحد مُساوٍ لك ؛ لأن الحسد يأتى من مجهول غير مُدْرَك ، فالشعاع الخارج من العين قد يتأجج بالحقد على كل ذى نعمة ، وإذا كان عصرنا ، وهو عصر الارتقاءات المادية قد توسَّل إلى استخدام الإشعاع فى تفتيت الأشياء .

إذن : فمن الممكن أن يكون الحسدُ مثل تلك الإشعاعات ؛ والتى

قد يجعلها الله فى عيون بعض خلقه ، وتكون النظرة مثل السهم النافذ ، أو الرصاصة الفتاكة.

والحق سبحانه هو القائل :

﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ .. (٣١) ﴾ [المدثر]

وإنْ قال قائل : ولماذا يُعطى الحق سبحانه بعضاً من خلقه تلك الخواص ؟

أقول : إنه سبحانه يعطى من الإمكانات لبعض من خلقه ، فيستخدمونها فى غير موضعها ، وكلُّ إنسان بشكل ما عنده إمكانية النظرة ، ولكن الحقد هو الذى يولد الشرارة المُؤْذية ، ويمكنك أن تنظر دون حسد إنْ قُلْتَ : ما شاء الله لا حول ولا قوة إلا بالله ، اللهم بارك[1] .

بذلك لا تتحقق الإثارة اللازمة لتأجُّج الشرارة المؤذية ، ويمكنك أن تستعيذ بالله خالق البشر وخالق الأسرار ، وتقرأ قول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (١) مِن شَرِّ مَا خَلَقَ (٢) وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ (٣) وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ (٤) وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ (٥) ﴾ [الفلق]

وأن تقول كلمات رسول الله ﷺ حين كان يُعوِّذ الحسن والحسين رضى الله عنهما ، ويقول :

---

(١) يقول تعالى :﴿ وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ .. (٣٩) ﴾ [الكهف]

« أعيذكما بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامَّة[١] ، ومن كل عين لامَّة[٢] »[٣] .

وقال ﷺ : « كان أبوكما - إبراهيم - يُعوِّذ بها إسماعيل وإسحق عليهم السلام » .

كما أنه ﷺ : « كان إذا حَزَبَهُ أمر قام وصلى »[٤] ، لأن معنى حَزْب أمر للرسول ﷺ ، أو لواحد من أتباع الرسول ﷺ أن هذا الأمر يخرج عن قدرة البشر .

وهنا على الإنسان أن يأوى إلى المُسبِّب ، فهو الركن الشديد ، بعد أن أخذتَ أنت بالأسباب الممدودة لك من يد الله ، وبذلك يكون ذهابك إلى الحق هو ذهاب المُضطر ؛ لا ذهاب الكسول عن الأخذ بالأسباب .

والحق سبحانه يقول :

﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ .. (٦٢) ﴾ [النمل]

والمضطر هو من استنفد كل أسبابه ، ولم يَدْعُ ربه إلا بعد أن

---

(١) الهامّة : مفرد هوام . وهى الحيات والعقارب ، وكل ذى سم يقتل سمُّه ، وأمّا ما لا يقتل ويسمُّ فهو السَّوام . [لسان العرب - مادة : هوم] .

(٢) اللامة : ما تخافه من مسٍّ أو فزع . واللامة : العين التى تصيب الإنسان . [لسان العرب - مادة لمم] .

(٣) أخرجه أحمد فى مسنده (١/ ٢٧٠)، والترمذى فى سننه (٢٠٦٠)، وأبو داود فى سننه (٤٧٣٧) عن ابن عباس رضى الله عنهما . قال الترمذى « حديث حسن صحيح » .

(٤) أخرجه أحمد فى مسنده (٥/ ٣٨٨) ، وأبو داود فى سننه (١٣١٩) من حديث حذيفة ابن اليمان .

أخذ بكل الأسباب الممدودة ، فلا تطلب من ذات الله قبل أن تأخذ ما قدمه لك بيده سبحانه من أسباب .

وهنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها ؛ نجد يعقوب عليه السلام وقد أوصى أبناءه ألاَّ يدخلوا مصر من باب واحد ؛ بل من أبواب متفرقة خشية الحسد ، وتنبهت قضية الإيمان بما يقتضيه من تسليم لمشيئة الله ، فقال :

﴿ وَمَا أُغْنِى عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ .. (٦٧) ﴾ [يوسف]

أى : لست أُغْنى عنكم بحذرى هذا من قدر الله ، فهو مجرد حرص ، أما النفع من ذلك الحرص والتدبير فهو من أمر الله ، ولذلك قال :

﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (٦٧) ﴾ [يوسف]

فكل الخَلْق أمرهم راجع إلى الله ، وعليه يعتمد يعقوب ، وعليه يعتمد كل مؤمن .

ونفَّذَ أبناءُ يعقوب ما أمرهم به أبوهم ، يقول سبحانه :

﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٦٨) ﴾

أى : ما كان دخولهم من حيث أمرهم أبوهم يردُّ عنهم أمراً أراده سبحانه ، فلا شىء يردُّ قضاء الله ، ولعل أباهم قد أراد أنْ يردَّ عنهم حسد الحاسدين ، أو : أن يُدسَّ لهم أو يتشككوا فيهم ، ولكن أى شىء لن يمنع قضاء الله .

ولذلك قال سبحانه :

﴿ إِلاَّ حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا[1] .. (٦٨) ﴾ [يوسف]

ويعقوب يعلم أن أىَّ شيء لن يردَّ قدر الله ، وسبحانه لم يُعْطِ الاحتياطات الولائية ليمنع الناس بها قدرَ الله .

ويقول سبحانه هنا عن يعقوب :

﴿ وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ .. (٦٨) ﴾ [يوسف]

أى : أنه يعرف موقع المُسبِّب وموقع الأسباب ، ويعلم أن الأخذ بالأسباب لا ينافى التوكل على الله ؛ لأنه سبحانه قد خلق الأسباب رحمةً بعباده :

﴿ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٦٨) ﴾ [يوسف]

أى : يعزلون الأسباب عن المُسبِّب ، وهذا ما يُتعِب الدنيا .

ويقول سبحانه بعد ذلك :

---

(١) قضى حاجته : أدركها ونالها . قال تعالى : ﴿ إِلاَّ حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا .. (٦٨) ﴾ [يوسف] . أى : أدركها وحصَّلها . [القاموس القويم : ١٢٢/٢] .

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ[1] إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّيٓ أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ[2] بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾﴾

أى : أنهم حين دخلوا على يوسف أحسن استقبالهم ؛ وأكرم وفادتهم[3] ؛ بعد أن وَفَّوْا بوعدهم معه ، وأحضروا أخاهم وشقيقه بنيامين معهم ، وكان يوسف عليه السلام مُشْتاقاً لشقيقه بنيامين .

وقد عرفنا من قبل أنه الشقيق الوحيد ليوسف ؛ فهما من أم واحدة ؛ أما بقية الإخوة فهم من أمهات أخريات .

وقول الحق سبحانه عن يوسف :

﴿ آوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ .. (٦٩) ﴾ [يوسف]

يدلُّ على أن يوسف كان مُتشوِّقاً لرؤية شقيقه .

وقوله :

﴿ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٦٩) ﴾ [يوسف]

يوضح لنا أن إخوة يوسف قد استفردوا[4] لفترة ببنيامين ، ولم

---

(١) آواه : ضمه إليه وأسكنه عنده أو أنزله فى بيت . والمأوى : اسم مكان . قال تعالى : ﴿فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ (٤١)﴾ [النازعات] . هى : المنزل والملجأ . [القاموس القويم ١/ ٤٥] .

(٢) ابتأس الرجل : اكتأب وحزن . [القاموس القويم ١/ ٥٣] .

(٣) الوفد : : الرُّكبان المكرَّمون . قال الأصمعى : وفد فلان يفد وفادة إذا خرج إلى ملك أو أمير . [لسان العرب ـ مادة وفد] .

(٤) استفرد فلاناً : انفرد به . واستفرد الشىء : أخرجه من بين أصحابه . وأفرده : جعله فرداً . [لسان العرب ـ مادة : فرد] .

يُحْسِنوا معاملته ، وحاول يوسف أن يُسرِّى عن أخيه ، وأن يُزيل عنه الكَدَر بسبب ما كان إخوته يفعلونه .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ[1] فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴿٧٠﴾﴾

أى : أن يوسف عليه السلام قد قام بصرف المَيْرة لهم ، كما سبق أن وعدهم ، وكما سبق أن جَهَّزهم فى المرَّة السابقة ؛ وأراد أن يُبقِى أخاه معه فى مصر ؛ ولكن كيف يأخذه من إخوته لِيُبقِيه معه ؛ وقد أخذ أبوهم ميثاقاً عليهم ألاَّ يضيعوه ، وألا يُفرِّطوا فيه ، كما فعلوا مع أخيه من قبل ؟

إذن : لا بُدَّ من حيلة يستطيع بها أن يستبقى بها أخاه معه ، وقد جَنَّد الله له فيها إخوته الذين كانوا يُعَادونه ، وكانوا يحقدون عليه وعلى أخيه .

وجاءت هنا حكاية صُوَاع الملك ، التى يشرب فيها الملك ، وتُستخدم كمكيال ، وجعلها فى رَحْل أخيه .

---

(١) تطلق السقاية على الوعاء الذى يُستقى به . وقد كان إناء من الفضة كانوا يكيلون به الطعام. [لسان العرب ـ مادة : سقى] .

وكلمة « السقاية » تُطلق إطلاقات متعددة من مادة « سقى » أى : « السين » و « القاف » و « الياء » ، فتُطلق على إسقاء الناس والحجيج الماء .

والقرآن الكريم يقول :

﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ .. (١٩) ﴾ [التوبة]

فكأن معنى السقاية أيضاً هو المكان الذى يُوضَع فيه الماء ليشرب منه الناس .

أو : تُطلق « السقاية » على الآلة التى يُخرج بها الماء للشاربين .

وهنا تُطلق كلمة « السقاية » على الإناء الذى كان يشرب به الملك ، ويُستخدم كمكيال ، وهذا دليلٌ على نَفَاسة المكِيل .

وتُطلق أيضاً كلمة « صواع » على مثل هذه الأداة التى يُشرب منها ، أو يُرفع بها الماء من المكان إلى فَمِ الشارب ؛ وأيضاً يُكَال بها ؛ ومفردها « صاع » .

ويقول الحق سبحانه هنا عن حيلة يوسف لاستبقاء أخيه معه :

﴿ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ .. (٧٠) ﴾ [يوسف]

أى : أمر بعضاً من أعوانه أن يَضَعوا « السقاية » فى رَحْل

أخيه ، و « الرَّحْل » : هو ما يوضع على البعير ، وفيه متاع المسافر كله .

وبعد أن ركب إخوة يوسف جمالهم استعداداً للعودة إلى الشام ؛ وقعت المفاجأة لهم ؛ والتى يقول عنها الحق سبحانه :

﴿ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ[1] أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ (٧٠) ﴾ [يوسف]

أى : يا أصحاب تلك العير أنتم سارقون . والسرقة فعل قبيح حينما يترتَّبُ عليها جزاء يُوقَّع على السارق ، والمسروق هو شىء ثمين .

وفيما يبدو أن هذه الحيلة تمَّتْ بموافقة من « بنيامين » ليمكث مع أخيه يوسف حتى يحضر أبواه[2] إلى مصر .

ولسائل أن يقول : وكيف رَضِى بنيامين بذلك ، وهو أمر يُزِيد من حُزْن يعقوب ؟ وكيف يتهم يوسف إخوته بسرقة لم يرتكبوها ؟

أقول : انظروا إلى دقَّة القرآن ، ولنُحْسِنَ الفهم عنه ؛ لنرى أن حزن يعقوب على فَقْد يوسف قد غلبه ؛ فلن يُؤثِّر فيه كثيراً فَقْد بنيامين .

ودليل ذلك أن يعقوب عليه السلام حين عاد أبناؤه وأخبروه

---

(١) أذن تأذيناً وأذاناً : أعلم بالشىء. والتضعيف يدل على الكثرة والتكرار . قال تعالى : ﴿ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ (٧٠) ﴾ [يوسف] . أى : نادى وأعلم وأكثر النداء والإعلام . [القاموس القويم ١/١٦] .

(٢) المقصود بأبويه : أبوه يعقوب ، وخالته زوجة أبيه . لأن « راحيل » أم يوسف وبنيامين ماتت فى نفاس بنيامين . [انظر : تفسير القرطبى ٥/٣٥٩٨] .

بحكاية السرقة ؛ واستبقاء بنيامين فى مصر قال :

﴿يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ .. (٨٤)﴾ [يوسف]

ولم يذكر يعقوب بنيامين .

وأما عن اتهامهم بالسرقة ؛ فالآية هنا لا تُحدِّد ماذا سرقوا بالضبط ، وهم فى نظر يوسف قد سَرَقوه من أبيه ، وألقوْه فى الجُبِّ .

وهنا يأتى الحق سبحانه بموقف إخوة يوسف عليه السلام :

﴿قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ (٧١)﴾

أى : أن إخوة يوسف أقبلوا على مَنْ يتهمونهم بالسرقة مُتسائِلين : ماذا فقدتم ؟ ولماذا تتهموننا ؟

وهنا يقول الحق سبحانه ما قاله من اتهموهم :

﴿قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ (٧٢)﴾ (١)

أى : أن الذين أعلنوهم بالسرقة قالوا لهم : لقد ضاعت سقاية

---

(١) الزعيم : الكفيل والضمين والرئيس . زعم بالأمر : تكفل به فهو زعيم أى كفيل . [القاموس القويم ١/٢٨٦] .

الملك ؛ ويُقَال لها « صواع » ، ومَنْ سيُخرجها من المكان المختفية به سوف ينال مكافأة قدرها وَزْن حِمْل بعير ؛ فلعل صُواع الملك قد خُبئت فى حِمْل أحدكم دون قصد .

وأكد رئيس المنادين أنه الضامن لمن يُخرج صواع الملك ، ويحضرها دون تفتيش أن ينال جائزته ، وهى حِمْل بعير من المَيْرة والغذاء .

وهنا قال إخوة يوسف عليه السلام :

﴿ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾

وقولهم ﴿ تالله ﴾ هو قَسَم ، وعادةً تدخل « التاء » على لفظ الجلالة عند القَسَم المقصود به التعجُّب ، أى : أن إخوة يوسف أقسموا مُندهشين لاتهامهم بأنهم لم يسرقوا ؛ وأن الكُلَّ قد علم عدم أنهم لم يأتوا بغرض الإفساد بسرقة أو غير ذلك ، لم يسبق أن اتهمهم أحد بمثل هذا الاتهام .

وهنا يأتى الحق سبحانه بما جاء على ألسنة مَنْ أعلنوا عن وجود سرقة ، وأن المسروق هو صُوَاع الملك .

ويقول الحق سبحانه ما جاء على ألسنتهم :

﴿ قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾

وهذا سؤال من مُسَاعدى يوسف لإخوة يوسف عن العقوبة المقررة فى شريعتهم لمن يسرق ؟ وماذا نفعل بمن نجد فى رَحْله صُواع الملك ؛ وثبت كذبكم بأنكم لم تسرقوه ؟

وكان المعروف أن مَنْ يُضبط بسرقة فى شريعة آل يعقوب أن يُسترقَّ أو يظل فى خدمة مَنْ سرقهم ، كما فعلت عمة يوسف التى أحبته وعاش معها بعد وفاة أمه ؛ وحين أراد والده أن يسترده أخفَتْ فى ثياب يوسف شيئاً[1] عزيزاً ورثته عن أبيها إسحاق ، وبذلك استبقتْ يوسف معها ، ولم يأخذه أبوه إلا بعد أن ماتت عمَّته .

وكان هدف يوسف عليه السلام إذن أن يستبقى أخاه معه ؛ وهو قد علم من قبل هذا الحكم ، وهكذا تركهم يوسف عليه السلام يحكمون بأنفسهم الحكم الذى يَصْبُو إليه ، وهو بقاء أخيه معه .

ويُورِد الحق سبحانه قولهم :

﴿ قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾

وهكذا نطقوا بالحُكْم هم أنفسهم ، وأكَّدُوه بقولهم :

﴿ كَذَٰلِكَ نَجْزِى الظَّالِمِينَ (٧٥) ﴾ [يوسف]

---

(١) هو مِنْطقة إسحاق كان ينتطق بها ، أى : يشدها على وسطه . وكانت عمته هى أكبر ولد إسحاق ، فعمدت إلى منطقة إسحاق فحزمتها على يوسف من تحت ثيابه ، لتستبقيه عندها ولا تسلمه لأبيه يعقوب ، وقد كان هذا حتى ماتت . [راجع : تفسير ابن كثير ٢/٤٨٦] .

وهكذا أعانوا هم يوسف لتحقيق مأربه ببقاء شقيقه معه ، وأمر يوسفُ بتفتيش العير .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ (٧٦) ﴾

وكان الهدف من البَدْء بتفتيش أوعيتهم ؛ وهم عشرة ؛ قبل وعاء شقيقه ، كى ينفى احتمال ظنِّهم بأنه طلب منهم أن يأتوا بأخيهم معهم ليدبر هو هذا الأمر ، وفتش وعاء شقيقه من بعد ذلك ؛ ليستخرج منه صُوَاع الملك ؛ وليُطبِّق عليه قانون شريعة آل يعقوب ؛ فيستبقى شقيقه معه . وهذا دليل على الذكاء الحكيم .

وهكذا جعل الحق سبحانه الكيد مُحْكماً لصالح يوسف ، وهو الحق القائل :

﴿ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ .. (٧٦) ﴾ [يوسف]

أى : كان الكيد لصالحه .

ويتابع سبحانه :

﴿ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ .. (٧٦) ﴾ [يوسف]

أى : ما كان يوسف ليأخذ أخاه فى دين الملك الذى يحكم مصر ؛ لولا فتوى الإخوة بأن شريعتهم تحكم بذلك .

ويتابع سبحانه :

﴿ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ (٧٦) ﴾ [يوسف]

وهكذا رفع الله من شأن يوسف ، وكَادَ له ، وحقَّق له أمله ، وهو يستحق كل ذلك ؛ ورفعه سبحانه درجاتٍ عالية من العلم والحكمة .

ولم يكُنْ الكيد بسبب أن يُنزل بشقيقه عذاباً أو ضياعاً ، بل نريد ليوسف ولأخيه الرِّفْعة ، فكأن كثيراً من المصائب تحدث للناس ، وهم لا يَدْرون ما فى المحنة من المِنَح .

وعلى المؤمن أن يعلم أن أىَّ أمر صعب يقع عليه من غير رأى منه ؛ لا بُدَّ وأن يشعر أن فيه من الله نفعاً للإنسان .

وإخوة يوسف سبق أنْ كَادوا له ، فماذا كانت نتيجة كَيْدهم ؟

لقد شاء الحق سبحانه أن يجعل الكيد كله لصالح يوسف ، وجعله سبحانه ذَا علم ، فقال :

﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ (٧٦) ﴾ [يوسف]

و (ذى علم) أى : صاحب علم . وكلاهما مُنْفصل ، أى : هناك « صاحب » ، وهناك « علم » ، والصاحب يوجد أولاً ؛ وبعد ذلك يطرأ عليه العلم ؛ فيصير صاحبَ عِلْم ، ولكن فوقه :

﴿ عَلِيمٌ (٧٦) ﴾ [يوسف]

أى : أن العلم ذاتىّ فيه ، وهو الحق سبحانه وتعالى .

فماذا كان موقف إخوة يوسف ؟

بطبيعة الحال لا بد أنهم قد بُهِتوا ، أول تصرف منهم كان لا بد أن ينصرف إلى الأخ الذى وُجدت السقاية فى رَحْله ؛ وأخذوا يُوبِّخونه ؛ لأنه أحرجهم وفضحهم ، وبحثوا عن أسباب عندهم للحفيظة عليه ؛ لا للرفق به .

وموقفهم المُسْبق منه معروف فى قولهم :

﴿ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ[1] .. ﴿٨﴾ ﴾ [يوسف]

وهم يعلمون أن يوسف وأخاه من امرأة أخرى هى « راحيل » ، ولو كان شقيقاً لهم لَتلطَّفوا به[2] . وأوضح لهم : إن مَنْ جعل البضاعة فى رِحَالى هو مَنْ جعل البضاعة فى رِحَالكم .

وهنا قال أحد الإخوة : تالله ، يا أبناء راحيل ، ما أكثر ما نزل علينا من البلاء منكم . فَرَدَّ بنيامين : بنو راحيل نزل عليهم من البلاء منكم فوق ما نزل عليكم من البلاء منهم .

ويُورد الحق سبحانه هنا قولهم :

---

(١) العصبة : الجماعة المترابطة . والعصبة والعصابة : جماعة ما بين العشرة إلى الأربعين [لسان العرب : مادة : عصب] .

(٢) ذكر القرطبى فى تفسيره (٣٥٦٩/٥) أن إخوته « لما رأوا ذلك نكسوا رءوسهم، وأقبلوا عليه قائلين : ويلك يا بنيامين . ما رأينا كاليوم قط ، ولدت أمك « راحيل » أخوين لصين . قال لهم أخوهم : والله ما سرقته ، ولا علم لى بمن وضعه فى متاعى » .

﴿ قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ٧٧ ﴾

وهكذا ادَّعَوْا أن داء السرقة فى بنيامين قد سبقه إليه شقيق له من قبل ، وقالوا ذلك فى مجال تبرئة أنفسهم ، وهكذا وَضُحَتْ ملامح العداوة منهم تجاه يوسف وأخيه .

وقولهم :

﴿ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ .. (٧٧) ﴾ [يوسف]

يُسمَّى فى اللغة قضية شرطية . ومعنى القضية الشرطية ؛ أن حدثاً يقع بسبب حَدَث وقع قبله ، فهناك حَدَث يحدث وحده ، وهناك حَدَث يحدث بشرط أن يحدث قبله حدث آخر .

مثال هذا هو قولك لتلميذ : إنْ تذاكر دروسك تنجحْ ، وهنا حَدَثان ، المذاكرة والنجاح ، فكأن حدوثَ النجاح الشرط فيه حدوث المذاكرة ، ولا بُدَّ أن يحدث الشرط أولاً ؛ ثم يحدث الحدث الثانى ، وهو هنا قولهم :

﴿ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ .. (٧٧) ﴾ [يوسف]

كتعليل لسرقة بنيامين .

والمثل من القرآن أيضاً :

﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ .. (١٨٤) ﴾ [آل عمران]

فكأن الله يوضح للرسول ﷺ : إنْ كذَّبوك الآن فيما تنقل لهم من أخبار السماء ؛ فلا تحزن ولا تبتئس ؛ فهذا التكذيب ظاهرة عَانَى منها كل الرسل السابقين لك ؛ لأنهم يجيئون بما يُنكره المرسل إليهم أولاً ، فلا بد أن يكذبوا ، وهكذا يستقيم الشرط ، لأن الحق سبحانه هنا قد عدل بالشىء عن سببه ، فكان جواب الشرط بعد الزمان الذى حدث فيه الشرط .

وهنا قال الحق سبحانه :

﴿ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ .. (٧٧) ﴾ [يوسف]

أى : لا تعجب يا عزيز مصر ؛ لأن هذه خصلة فى أولاد راحيل ، قالوا ذلك وهم يجهلون أنهم يتحدثون إلى يوسف ابن راحيل !!

وكل حدث يحدث للملَكات المستقيمة ؛ لا بُدَّ أن يُخرج تلك الملَكات عن وضعها ، ونرى ذلك لحظة أن يتفوَّه واحد بكلمة تُخرج إنساناً مستقيماً عن حاله وتُنغِّصه ، ويدرك بها الإنسان المستقيم ما يؤلمه ؛ وينفعل انفعالاً يجعله ينزع للردِّ .

ولذلك يوصينا ﷺ : « إذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس ؛ فإن ذهب عنه الغضب ؛ وإلا فليضطجع »[1] .

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٥/١٥٢) ، وأبو داود فى سننه (٤٧٨٢) ، وابن حبان (١٩٧٣ ـ موارد الظمآن) من حديث أبى ذر رضى الله عنه . قال الهيثمى فى المجمع (٨/٧١) : « رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح » .

كى يساعد نفسه على كَظْم ضيقه وغضبه ، ولِيُسرِّب جزءً من الطاقة التى تشحنه بالانفعال .

ولكن يوسف عليه السلام لم ينزع إلى الرد ، لذلك قال الحق سبحانه :

﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ .. (٧٧)﴾ [يوسف]

وكان يستطيع أن يقول لهم ما حدث له من عمَّته التى اتهمته بالباطل أنه سرق ؛ لتحتفظ به فى حضانتها من فَرْط حُبِّها له ، لكن يوسف عليه السلام أراد أن يظل مجهولاً بالنسبة لهم ، لتأخذ الأمور مجراها :

﴿ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ .. (٧٧)﴾ [يوسف]

حدث ذلك رغم أن قولهم قد أثَّر فيه ، ولكنه قال رأيه فيهم لنفسه :

﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ (٧٧)﴾ [يوسف]

لأنكم أنتم مَنْ أخذتمونى طفلاً لألعب ؛ ثم ألقيتمونى فى الجُبِّ ؛ وتركتم أبى بلا موانسة .. وأنا لم أسرق بل سُرِقت ، وهكذا سرقتم ابناً من أبيه .

وهو إنْ قال هذا فى نفسه فلا بُدَّ أن انفعاله بهذا القول قد ظهر على ملامحه ، وقد يظهر المعنى على الملامح ، ليصلَ إليهم المعنى ، والقول ليس إلا ألفاظاً يصل به مدلول الكلام إلى مُسْتَمِع .

وقد وصل المعنى من خلال انفعال يوسف .

وقوله : ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ (٧٧) ﴾ [يوسف]

أى : أنه سبحانه أعلم بما تنعتون ، وتظهرون العلامات والسِّمات ، وغلبت كلمة « تصفون » على الكلام .

ومثال هذا هو قول الحق سبحانه :

﴿ وَلا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَـٰذَا حَلالٌ وَهَـٰذَا حَرَامٌ .. (١١٦) ﴾ [النحل]

أى : أن ما تقولونه يُوحى من تلقاء نفسه أنه كَذِب ، وهكذا نعرف أن كلمة « تَصِف » وكلمة « تصفون » غلب فى استعمالهما للكلام الذى يحمل معه دليلَ كَذِبه .

ويأتى الحق سبحانه بما جاء على ألسنتهم بعد ذلك :

﴿ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٧٨) ﴾

وهكذا دخلوا مع يوسف فى نقاش ، وبدأوا فى الاستعطاف ؛ بقولهم :

﴿ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا .. (٧٨) ﴾ [يوسف]

ونلحظ أن كلمة « كبير » تُطلق إطلاقات متعددة ، إنْ أردتَ الكِبَر فى السنِّ تكون من «كَبِرَ يَكْبَر » ، وإنْ أردتَ الكِبَرَ فى المقام تقول : « كَبُرَ يكبُر ».

والحق سبحانه يقول :

﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا (٥) ﴾ [الكهف]

والكِبَر واحد من معانى العظمة ، أما الكِبَرُ فى السِّنِّ فهو مختلف ؛ وهنا قالوا :

﴿ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا .. (٧٨) ﴾ [يوسف]

قد تكون ترقيقاً بالعزة ، أو ترقيقاً بالضعف .

أى : إن له أباً شيخاً كبيراً عظيماً فى قومه ؛ وحين يُبلغه أن ابنه قد احتُجِز من أجل سرقة ، فهذا أمر مؤلم ؛ ولك أن تُقدِّر ذلك وأنت عزيز مصر ؛ ونرجو أن تحفظ للأب شرفه ومَجْده وعظمته ، واستُرْ ذلك الأمر من أجل خاطر ومكانة والده .

أو : أن يكون قولهم مقصوداً به ، أن الأب شيخ مُهدَّم ، لا يحتمل الصدمة ، وخصوصاً أن له ابناً قد فُقِد .

ثم يعرضون عَرْضاً آخر ، فيقولون :

﴿ فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٧٨) ﴾ [يوسف]

أى : أنهم سألوه أن يُتمِّمَ إحسانه عليهم ، فقد أحسن استقبالهم ؛ وسبق أن أنزلهم منزلاً كريماً ، وأعطاهم المَيْرة ، ولم يأخذ بضائعهم ثمناً لها .

ومَنْ يفعل ذلك ؛ لا يضِنُّ عليهم بأن يستجيب لرجائهم ، بأن يأخذ واحداً منهم بدلاً من أخيهم الصغير .

كل هذه ترقيقات منهم لقلبه ، ولكن القاعدة هى ألاَّ يُؤاخذ بالذنب إلا صاحبه ؛ ولذلك لم يَفُتْ هذا الأمر على يوسف ، فجاء الحق سبحانه بما يوضح ذلك :

﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾﴾

ويستعيذ يوسف عليه السلام بالله أن يأخذ أحداً بدلاً ممَّنْ وُجِد فى متاعه صُوَاع الملك ، فما ذنبه فى هذا الأمر ؟ ولا أحد يمكن أن ينال عقاباً على ذنبٍ ارتكبه غيره .

وساعةَ تقرأ « إذاً » مُنوَّنة ؛ فاعرف أن هناك جملةً محذوفةً ، أى : أن يوسف قال : إنْ أخذنا غير مَنْ وجدنا متاعنا عنده نكون من الظالمين .

وجاء « التنوين » بدلاً من الجملة المحذوفة التى ذكرناها .

ومثال آخر من القرآن هو قول الحق سبحانه :

﴿وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [الواقعة]

ويحدث ذلك حين تبلغ الرُّوح الحلقوم ، وجاء « التنوين » عِوَضاً عن الجملة كلها .

وهكذا أراد يوسف أن يُذكِّرهم أنه لا يحِقُّ له أن يأخذ أخاً منهم بدلاً من بنيامين ؛ لأنه هو مَنْ وُجِد فى متاعه صُوَاع الملك ؛

ولا يصح له أن يظلم أحداً ، أو يأخذ أحداً بجريرة[١] أحد آخر .

وهنا علم أبناء يعقوب أن المسألة لا يُبَتُّ فيها بسهولة ؛ لأنها تتعلق بأمر خطير .

ويصور الحق سبحانه حالتهم هذه فيقول :

﴿ فَلَمَّا اسْتَيْئَسُوا مِنْهُ[٢] خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا[٣] مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ[٤] حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾

ويقال : « يئس » أى : قطع الأمل من الشىء ، وهم لم يقطعوا الأمل فقط ، بل استيأسوا ، وهو أمر فوق اليأس .

فهم قد أخذوا يُرقِّقون كل ألوان المُرقِّقات ؛ ولا فائدة ؛ وكلما أوردوا مُرقِّقاً ؛ يجدون الباب أمامهم مُوصَداً .

وكأنهم بذلك يُلِحُّون على اليأس أن يأتيهم ؛ لأن الظروف المحيطة والجو المحيط لا يحمل أى بارقة أملٍ ، وكلما تبدو بارقةُ أملٍ

---

(١) الجريرة : الجناية والذنب يجنيه الرجل . [لسان العرب ـ مادة : جرر] .

(٢) استيأس : يئس منه بعد جهد ومشقة . [القاموس القويم ٢/٣٦٦] .

(٣) الميثاق والموثق : العهد المؤكَّد . قال تعالى : ﴿ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ .. ﴿٧﴾ ﴾ [المائدة]. أى : عهده الذى عاهدكم عليه ، وألزمكم الوفاء به . [القاموس القويم ٢/٣١٩] .

(٤) برح الأرض : زال عنها وفارقها . وقول كبير إخوة يوسف هنا ، أى : لن أفارق أرض مصر . [القاموس القويم ١/٦١] بتصرف .

ويطلبونها يجدون الطريق مُوصَداً ؛ فكأنهم يطلبون اليأس من أن يأذن يوسف بسفر أخيهم بنيامين معهم فى رحلة العودة إلى أبيهم .

وهنا : ﴿ خَلَصُوا نَجِيًّا[1] ..(٨٠) ﴾ [يوسف]

أى : أنهم انفردوا عنه ، وعن أعين الحاضرين ؛ العزيز يوسف ، ومَنْ حوله من المُعَاونِين له ، وأخيهم موضع الخلاف ، وانفردوا بأنفسهم .

والانفراد هو المناجاة ؛ والمناجاة مَسرَّة ؛ والمَسرَّة لا تكون إلا فى أمر لا تحب لغيرك أن يطلع عليه .

ونلحظ أن ﴿ خَلَصُوا ..(٨٠) ﴾ [يوسف] هى جمع ، و ﴿ نَجِيًّا ..(٨٠) ﴾ [يوسف] مفرد ، وهذا من ضمن المواقع التى يتساءل فيها مَنْ لا يملكون مَلَكَةً عربية : كيف يأتى القرآن بمفرد بعد الجمع ؟

ونقول دائماً : لو أنهم امتلكوا اللغة كمَلَكة لَعرفوا أن ذلك جائز جداً . ومثال هذا هو قول الحق سبحانه :

﴿ وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذَالِكَ ظَهِير[2] (٤) ﴾ [التحريم]

وهم لا يفهمون أن اللغة فيها ألفاظ يستوى فيها المفرد والجمع ، كأن الملائكة يجمعون قوة كل واحد منهم لتكون قوة واحدة .

ومثال آخر : هو قول إبراهيم خليل الرحمن :

---

(١) نجاه ينجوه نَجْواً : كلَّمه سراً وخصَّه بالحديث. فخلصوا نجياً أى : متناجين . تناجى الرجلان : أفضى كل منهما إلى الآخر بحديثه سراً . [القاموس القويم ٢/٢٥٥] بتصرف.

(٢) الظهير : المعين المساعد كأنه يسند ظهر من يعاونه . [القاموس القويم ١/٤١٨] بتصرف .

﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٧٧)﴾ [الشعراء]

أى : أن إبراهيم عليه السلام جمع الآلهة المتعددة التى يعبدونها وجعلها عدواً واحداً له .

وكذلك يمكن أن نفعل مع كلمة « صديق » ، وكذلك كلمة « عَدْل » فحين ينظر القضاء فى أمر قضية ما ؛ فالقاضى لا يُصدر الحكم وحده ؛ بل يُصدره بعد التشاور مع المُستَشارين ؛ ويصدر الحكم من الثلاثة : رئيس المحكمة ، وعضو اليمين ، وعضو اليسار وكلاهما بدرجة مستشار .

ويُقَال : « حكم القضاة عَدْلاً » . ولا يقال : إن كل مستشار أو قاض له عدل .

وكذلك : ﴿نَجِيًّا ..(٨٠)﴾ [يوسف]

فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها ، فهم حين استيأسوا من يوسف انفردوا بأنفسهم ليتناجوا .

وعادة يكون الرأى الأول للأخ الأكبر ، الذى عادة ما يكون له من الخبرة والحكمة ما يتيح له أن يُبدِى الرأى الصواب .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (٨٠)﴾ [يوسف]

وقد يكون كبيرهم هو أكبرهم عمراً ؛ أو هو رئيس الرحلة ، وحين رآهم قد قَبِلوا فكرة العودة دون أخيهم الذى احتجزه عزيز مصر ؛ قال لهم رأيه الذى حذرهم فيه أنْ يغفلوا عن أن أباهم قد أخذ منهم موثقاً من الله إلا أنْ يُحَاط بهم ؛ كما يجب ألا ينسوا أن لهم سابقةً حين أخذوا يوسف وضيَّعوه .

وبناءً على ذلك استقر قراره ألاّ يبرحَ المكان ، ولن يعود إلى أبيه إلا إنْ أذِنَ له بذلك ؛ أو أن يحكمَ الله له بأن يُسلِّمه عزيزُ مصر أخاه ، أو أن يموت هنا فى نفس البلد .

وهذا القول فى ظاهره دفاع عن النفس ؛ وخجل من أن يعود إلى أبيه بدون بنيامين ؛ ولذلك ترك إخوته يتحمَّلون تلك المواجهة مع الأب .

وتبدو هذه المسألة أكثر قسوة على الأب ؛ لأنه فقد فى الرحلة الأولى يوسف ، وفى الرحلة الثانية يفقد ابنه بنيامين ، وكذلك الابن الكبير الذى يرأس الرحلة .

وفى هذا تصعيد للقسوة على الأب ، وكان المفروض أن تدور مُداولة بين الإخوة فى تلك المُنَاجاة ، ولكن الأخ الكبير أو رئيس الرحلة حسم الأمر .

وحين سألوه : ماذا نفعل يا كبيرنا ؟ جاء قوله الذى أوردته الآية التالية :

﴿ ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ ﴾

وهكذا أمر الأخ الأكبر أو رئيس الرحلة إخوته أن يرجعوا إلى أبيهم ، ويقولوا له ما حدث بالضبط ، فقد اتُّهم ابنه بالسرقة ، ونحن لا نقول هذا الكلام إلا بعد أن وجد فتيان العزيز صُوَاع الملك فى رَحْلِه ، ولا نعلم هل دَسَّها أحد له ؟ وهل هى حِيلة[1] ومكيدة ؟

ونحن لا نقول لك يا أبانا إلا ما وصل إلينا من معلومات ، وقد أخذه العزيز طبقاً لشريعتنا ، ونحن بخبرتنا بأخينا لا نشهد عليه بالسرقة ، إلا أن ثبوتَ وجود صُواع الملك فى رَحْله هو السبب فى كل ذلك .

ويعلم الأخ الأكبر أن يعقوب عليه السلام قد يُكذِّب أولاده ؛ لأن هناك سوابقَ لهم ؛ لذلك أوصاهم الأخ الأكبر أو رئيس الرحلة أن يقولوا لأبيهم - إنْ كَذَّبهم - ما جاء به الحق على ألسنتهم :

﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾[2]

---

(١) الحيلة : الحذق فى تدبير الأمور وهو تقليب الفكر حتى يهتدى إلى المقصود وأصلها الواو واحتال : طلب الحيلة (المصباح المنير ص ٨٥ ، ٨٦) .

(٢) قال القرطبى فى تفسيره (٥/ ٣٥٨٠) : « يريدون بالقرية مصر . وقيل : قرية من قراها نزلوا بها وامتاروا منها »، وهنا مجاز بالحذف وتقديره : واسأل أهل القرية .

أى : أنك يا أبانا إنْ كنتَ تشك فى أقوالنا ؛ يمكنك أن تطلب أدلة أخرى من المكان الذى كنا فيه ؛ لأن هذا الموضوع قد أحدث ضجَّة ، وحدث أمام جمع كبير من الناس ، والقوافل التى كانت معنا شهدتْ الواقعة ؛ فقد أذَّن مُؤذِّن بالحادث ، وتَمَّ تفتيش العِير علناً .

فإذا أردتَ أن تتأكد من صدق أقوالنا ، فاسأل العِير التى كانت تسير معنا فى الطريق ، وهم يعرفون هذه القضية كما نعرفها ، أو اسأل أهل القرية التى جئنا منها .

ونلحظ هنا أن الحق سبحانه أورد كلام إخوة يوسف لأبيهم يعقوب :

﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا (٨٢)﴾ [يوسف]

ونحن نعلم أن كل حَدَث من الأحداث لا بُدَّ له من فاعل ، ومن مفعول يقع عليه ، ومن مكانٍ يقع فيه ، ومن زمان يقع فيه ؛ ومن سبب يُوجِبه ، ومن قوة تنهض به .

وفى بعض الحالات نجد أن المكان هو الأمر الظاهر والقوى فى الحدث ، فننسبه إليه ، فيُقال :

﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ .. (٨٢)﴾ [يوسف]

والمراد بطبيعة الحال أن يَسأل أهل القرية ، أو : أن المسألة كانت واضحة تماماً لدرجة أن الجماد يعرف تفاصيلها ، أو : أنك نبىٌّ ويوحى لك الله فَسَلْهُ أن يجعل الأرض تخبرك بما وقع عليها .

وكذلك قولهم :

﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ .. (٨٢)﴾ [يوسف]

ونعلم أن العِير هى المَطايا ؛ سواء أكانت نِياقاً أو كانت من الجمال أو الحمير أو البِغَال التى تحمل البضائع .

وحين يُقَال :

﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ .. (٨٢)﴾ [يوسف]

أى : أن العير كان لها فى الأمر شىء فوق المُلاَبسات كلها .

ومثال هذا ما كان فى موقعة بدر ؛ فقد خرج رسول الله ﷺ ليلقَى العير القادمة من الشام وهى مُحمَّلة بالبضائع ؛ ليصادرها إيفاء ما استولى عليه الكافرون من أموال المهاجرين التى كانت بمكة ، ولم يكن مع هذه العِير إلا قليل من الحرس والرعاة .

ولكن حين تكلم عن المقاتلين الذين قَدِموا من مكة ؛ وصفهم بالنفير ، أى : الجماعة الذين نفروا لمواجهة معسكر الإيمان .

إذن : فكل حَدَث يأخذ الأمر البارز فيه .

وهنا يورد الحق سبحانه ما جاء على ألسنة إخوة يوسف حينما عادوا لِيلقَوْا أباهم ، وليس معهم أخوهم بنيامين ؛ وكذلك تَخَلُّف أخيهم الكبير أو رئيس الرحلة .

يقول الحق سبحانه :

﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا .. (٨٢)﴾ [يوسف]

ويجوز أن تفتيشهم قد تَمَّ فى مكان بعيد قليلاً عن العُمْران ؛

وفحص جنود أو مساعدو يوسف أمتعتهم التى عثروا فيها على صواع الملك .

وسُمى المكان « قرية » ، مثلما نفعل نحن حالياً حين نخصص مكاناً للجمارك ؛ نفحص فيه البضائع الخارجة أو الداخلة إلى البلد ، فقولهم :

﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِى كُنَّا فِيهَا .. (٨٢) ﴾ [يوسف]

أى : اسأل أهل الموقع الذى حدث فيه التفتيش . وكذلك قولهم :

﴿ وَالْعِيرَ الَّتِى أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٨٢) ﴾ [يوسف]

أى : اسأل مَنْ كانوا معنا ، وجِئْنا بصحبتهم من أصحاب القوافل الأخرى .

وكرروا قولهم :

﴿ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٨٢) ﴾ [يوسف]

لأنهم علموا سابق كذبهم من قبل ذلك ؛ لذلك أرادوا هنا أن يُثبتوا صدقهم ؛ وحين يسأل أبوهم يعقوب ؛ سيجد أنهم صادقون فعلاً ، وهم لم يطلبوا شهادة الغير إلا لأنهم واثقون من صدقهم هذه المرة .

وجاء الحق سبحانه بهذه الجملة الإسمية :

﴿ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٨٢) ﴾ [يوسف]

لأنهم قد فهموا أن والدهم قد شكَّ فيهم من قبل ، حين جاءوا بدم كذبٍ ، وادَّعوا أنه قميص يوسف ، وأن الذئب قد أكله .

ويأتى الحق سبحانه بما جاء على لسان يعقوب :

﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ[(١)] عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٨٣) ﴾

الأمور التى تخالف الضمير ؛ ويُستحى منها ؛ ويُخشى مَغبَّتها[(٢)] ؛ هى أمور تستعصى على النفس ؛ وتحتاج النفس إلى علاج حتى تبرزها ، وتحتاج إلى مَنْ يُيسّر لها ، ما أن تُقدِم على فعل الأمر المستهجن ، وهذا ما يُقال له : « سوَّل » .

وقول الحق سبحانه على لسان يعقوب :

﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا .. (٨٣) ﴾ [يوسف]

أى : يسَّرتْ لكم أنفسكم أمراً يصعب أن تقبله النفوس المستقيمة ، وسبق أن قال يعقوب لحظةَ أنْ جاءوا له بقميص يوسف وعليه الدم الكاذب :

﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ (١٨) ﴾ [يوسف]

---

(١) الجمال : البهاء والحُسْن يوصف به الحسىّ والمعنوى . قال تعالى : ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ .. (١٨) ﴾ [يوسف] ، وهو جمال معنوى . وقوله : ﴿ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ (٨٥) ﴾ [الحجر] الذى لا لوم معه ولا عتاب . [القاموس القويم ١/١٢٨] . والمراد هنا بالصبر الجميل هو الصبر المؤمن الذى يعطى أملاً .

(٢) المغبة : العاقبة . غب الأمر ومغبته : عاقبته وآخره . [لسان العرب ـ مادة : غبب] .

وهنا طلب يعقوب عليه السلام العون مما يدل على أن ما قالوه ، وكذلك أحداث القصة لن تقف عند هذا الحدِّ ، بل ستأتى من بعد ما قالوه أحداث تتطلب تجنيد قوى الصبر فى النفس ، وتتطلب معونة الله .

ويختلف الأمر هنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها ما جاء بعد الحديث عن تسويل النفس ، واستلهام الصبر من الله ، فَهِبَات الفرج قد اقتربتْ ، فقال :

﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٨٣)﴾ [يوسف]

فى هذه الآية طلب الأمل الذى يوحى بالفرج ، وقد كان .

وبعض من الذين تأخذهم الغفلة يتساءلون :

لماذا قال يعقوب :

﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا .. (٨٣)﴾ [يوسف]

والغائب عنه هما يوسف وأخوه ؟

ونقول : ولماذا تنسوْنَ كبير الإخوة الذى رفض أن يبرحَ مصر ، إلا بعد أن يأذن له يعقوب ، أو يفرج عنه الله ؟

لقد غاب عن يعقوب ثلاثة من أولاده : يوسف وبنيامين وشمعون ؛ لذلك قال :

﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا .. (٨٣)﴾ [يوسف]

ولم يَقُلْ : يأتينى بهما .

ويُذيِّل الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله :

﴿ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٨٣) ﴾ [يوسف]

فالله سبحانه يعلم أين هم ؛ لأنه العليم بكل شيء ، وهو سبحانه حكيم فيما يُجريه علينا من تصرّفات .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ (٨٤) ﴾ (١)

وأعرض يعقوب عليه السلام عنهم ؛ فما جاءوا به هو خبر أحزنه ، وخَلاَ بنفسه ؛ لأنه ببشريته تحسَّر على يوسف ، فقد كانت قاعدة المصائب هى افتقاده يوسفَ .

وساعةَ تسمع نداءً لشيء محزن ، مثل : « وا حُزْناه » أو « وا أسفاه » أو « وا مُصيبتاه » ؛ فهذا يعنى أن النفس تضيق بالأحداث وتقول « يا همّ ، هذا أوانك ، فاحضر » . أو أنه قال :

﴿ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ .. (٨٤) ﴾ [يوسف]

لأن أخاه بنيامين كان أشبهَ الناس به ؛ فكان حُزْنه على يوسف

---

(١) كظيم : أى سكت وصبر على ما فى نفسه من الغيظ ، ويجوز أن يكون كظيم بمعنى مكظوم من كظمه الغيظ أى : كربه وأحزنه وأسكته وشقَّ عليه . [القاموس القويم ١٦٣/٢] .

طاقة من الهَمِّ نزلتْ به ، وتبعتها طاقة هَمٍّ أخرى ، هى افتقاد بنيامين .

وقول الحق سبحانه :

﴿ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ .. (٨٤) ﴾ [يوسف]

أى : أن دموع يعقوب كثُرتْ حتى بَدا الجزء الأسود فى العين وكأنه أبيض . أو : ابيضتْ عيناه من فَرْط حُزنه ، الذى لا يبثُّه لأحد ويكظمه .

وهو قد يكظم غيظه من كل ما حدث ، أما الانفعالات فلا أحد بقادر على أن يتحكم فيها .

ونجد رسولنا ﷺ يبكى ؛ وتذرف[١] عيناه حُزْناً على موت ابنه إبراهيم ، فقال له عبد الرحمن بن عوف ـ رضى الله عنه ـ : أتبكى ؟ أو لم تكن نهيْتَ عن البكاء ؟ قال : « لا ، ولكن نهيتُ عن صوتين أحْمقيْن فاجرين : صوت عند مصيبة ، خمش[٢] وجوه ، وشق جيوب[٣] ، ورنة[٤] شيطان»[٥] .

وقد قال رسول الله ﷺ :

---

(١) الذرف : صَبُّ الدمع. ذرفت العين الدمع : أسالته . [لسان العرب ـ مادة : ذرف] .

(٢) الخموش : الخدوش . وقد خمش وجهه : خدشه . [مختار الصحاح].

(٣) الجيوب : جمع جيب . والجيب : إنما يكون فى الثوب موضع الصدر . [تفسير القرطبى : ٦/٤٧٦٧] .

(٤) الرنة : الصيحة الحزينة . والرنين : الصياح عند البكاء . قال ابن سيده : هى الصيحة الشديدة والصوت الحزين عند الغناء أو البكاء . [لسان العرب ـ مادة : رنن] بتصرف .

(٥) أخرجه الترمذى فى سننه (١٠٠٥) عن جابر بن عبدالله ، قال الترمذى : « هذا حديث حسن » . هكذا ورد الحديث فى الترمذى ، ولكن فى فتح البارى (١٠/١٧٤) زيادة : « صوت عند نغمة ، لهو ولعب ، ومزامير الشيطان » .

« إن العين تدمع ، والقلب يحزن ، ولا نقول إلا ما يُرضى ربنا ، وإنَّا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون »[١] .

وهكذا نعلم أن الحق سبحانه لا يريد من الإنسان أن يكون جلموداً[٢] أو يكون صخراً لا ينفعل للأحداث ، بل يريده مُنفعلاً للأحداث ؛ لأن هذا لَوْنٌ يجب أن يكون فى إنسانيته ، وهذه عاطفة يريد الله أن يُبقيها ، وعلى المؤمن أن يُعلِيها .

فسبحانه هو الذى خلق العاطفة ، والغريزة فى الإنسان ، ولو أراد الله الإنسانَ بلا عاطفة أو غريزة لَفعلَ ما شاء ، لكنه أراد العاطفة والغريزة فى الإنسان لمهمة .

ولحظة أن تخرج العاطفة أو الغريزة عن مُهمتها ، يقول لك المنهج : لا . لأن مهمة المنهج أن يُهذِّب لك الانفعال .

والمثل الذى أضربه هنا هو حُبُّ الإنسان للاستمتاع بالطعام ، يقول له المنهج : كُلْ ما يفيدك ولا تكُنْ شَرِهاً[٣] .

والمثل الآخر : غريزة حب الاستطلاع ، يقول لك المنهج : اعرف ما يفيدك ؛ ولا تستخدم هذه الغريزة فى التجسُّس على الناس .

---

(١) متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (١٣٠٣) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٣١٥) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه .

(٢) الجلمد والجلمود : الصخر ، وهى الصخرة التى تكون فى الماء القليل . [لسان العرب ـ مادة : جلمد] .

(٣) الشَّره : أسوأ الحرص . وهو غلبة الحرص . والشَّرِه : السريع الطعام الشديد الحرص عليه . [لسان العرب ـ مادة : شره] .

وغريزة الجنس أرادها الله لإبقاء النوع ، ولتأتى بالأولاد والذرية ، لكن لا تستعملها كانطلاقات وحشية . وهكذا يحرس المنهجُ الغرائزَ والعواطفَ لتبقى فى إطار مهمتها .

والعاطفة ـ على سبيل المثال ـ هى التى تجعل الأب يَحنُو على ابنه الصغير ويرعاه ، وعلى ذلك فالمؤمن عليه أن يُعْلِى غرائزه وعواطفه .

وقول الحق سبحانه عن يعقوب :

﴿ فَهُوَ كَظِيمٌ (٨٤) ﴾ [يوسف]

أى : أنه أخذ النزوع على قَدْره . وكلمة « كظيم » مأخوذة من « كظمت القربة » أى : أحكمنا غَلْق فوهة القِرْبة ، بما يمنع تسرُّب الماء منها .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَؤُا تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ (٨٥) ﴾ (١) (٢)

ولقائل أنْ يسأل : ومَنِ الذين قالوا ليعقوب ذلك ، وقد ذكرت الآية السابقة أنه تولَّى عنهم ؟

---

(١) فتأ وفَتِىء : زال وتحول . والمضارع تفتؤا . أى : مازلت . وإنما قالوا له ذلك ، لأنهم علموا باليقين أنه يداوم على ذلك. [تفسير القرطبى ٥/٣٥٨٤] .

(٢) الحرض : الذى أذابه الحزن أو العشق ، الذى لا يقدر على النهوض . والحرض أيضاً : الذى أشرف على الهلاك . [لسان العرب ـ مادة : حرض] بتصرف كثير . قال القرطبى فى تفسيره (٥/٣٥٨٥) : « أصل الحرض الفساد فى الجسم أو العقل من الحزن أو العشق أو الهَرَم » .

نقول : لقد عاش يعقوب مع أبنائه وأحفاده ، ويُقَال فى الأثر : إن يعقوب دخل عليه بعض الناس ، فقالوا له « تالله انهشمت يا يعقوب ، ولم تبلغ سِنَّ أبيك إسحاق » .

والمعنى : أنك صِرْت عجوزاً عاجزاً ، مهشماً . قال : إنما هشَّمنى يوسف . فعتب عليه الله فى هذه القَوْلة ، وأوضح له : أتشكو ربك لخلقه ؟ فرفع يده وقال : خطيئة أخطأتها يا رب فاغفرها لى . قال : غفرتُها لك[1] .

وقد نبَّهه بعض أبنائه أو أحفاده فقالوا :

﴿ تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ (٨٥) ﴾ [يوسف]

أى : لا تزال تذكر يوسف وما حدث له ، حتى تُشرف على الهلاك . و « الحَرَض » كما نعلم هو المُشْرِف على الهلاك ، أو يهلك بالفعل .

وجاء الرد من يعقوب عليه السلام ، وأورده الحق سبحانه :

---

(١) أورده السيوطى فى الدر المنثور (٤ / ٥٧١) من قول طلحة بن مصرف الأيامى وعزاه لابن جرير الطبرى . قال طلحة : أنبئت أن يعقوب دخل عليه جار له فقال : يا يعقوب ، ما لى أراك قد انهشمت وفنيت ، ولم تبلغ من السن ما بلغ أبوك ؟ قال : هشمنى وأفنانى ما ابتلانى الله به من هَمِّ يوسف ، وذكره ، فأوحى الله إليه : يا يعقوب ، أتشكونى إلى خلقى ؟ فقال : يا رب ، خطيئة أخطأتها فاغفرها لى . قال : فإنى قد غفرت لك. فكان بعد ذلك إذا سُئِل قال : ﴿ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ .. (٨٦) ﴾ [يوسف] .

﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي(١) وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾

وشكاية الأمر إلى الله لَوْن من العبادة لله ، والبَثُّ : هى المصيبة التى لا قُدرة لأحد على كتمانها ؛ فينشرها ، وإذا أصاب الأعلى الأدنى بما يراه الأدنى سوءً ، يتفرع الأدنى إلى نوعين : نوعٍ يتودد إلى الأقوى ، و يتعطفه ويلين له ، ويستغفره ويستميحه ، ونوع آخر يتأبى على المُبْتلَى . ويتمرد ، ولسان حاله يقول : « فليفعل ما يريد ».

والحق تبارك وتعالى يقول فى كتابه :

﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا (٤٣)﴾ [الأنعام]

فساعةَ يأتى البأْسُ ونتضرع إلى الله ؛ يكون البأس قد غسلنا من الذنوب ونسيان الذِّكْر ؛ وأعادنا إلى الله الذى لن يزيل البأس إلا هو .

أما الذى يتمرد ويستعلى على الأحداث ، فويل له من ذلك التمرد . والحق سبحانه حين يصيب إنساناً بمصيبة ، فهو يلطف بمَنْ يدعوه.

وتساءَل بعضهم : ولماذا لم يَقُلْ يعقوب ما علَّمنا إياه رسولنا ﷺ:

﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦)﴾[البقرة]

---

(١) حقيقة البث فى اللغة ما يرد على الإنسان من الأشياء المهلكة التى لا يتهيأ له أن يخفيها. قال الحسن : بثى : حاجتى . وقيل : أشد الحزن . [راجع : تفسير القرطبى ٣٥٨٦/٥] .

ونقول : إن هذا من النعم التى اختصَّ بها الحق سبحانه أمةَ محمد ﷺ ؛ وحين دخل بعضهم على علىّ بن أبى طالب ـ كَرَّم الله وجهه وأرضاه ـ وكان يعانى من وَعْكة ، وكان يتأوَّه ، فقالوا له : يا أبا الحسن أتتوجَّع ؟ قال : أنا لا أشجع على الله .

وهنا فى الآية ـ التى نحن بصدد خواطرنا عنها ـ يعلن يعقوب عليه السلام أنه لا يشكو حُزْنه وهَمَّه إلا إلى الله ، فهو القادر على كشف الضُّرِّ ؛ لأن يعقوب عليه السلام يعلم من الله ما لا يعلم أبناؤه أو أحفاده .

فقد كان يشعر بوجدانه ، وبما كان لديه من شكوك لحظة إبلاغهم له بحكاية الذئب المكذوبة أن يوسف ما زال حَياً ، وأن الرُّؤيا التى حكى يوسف عنها لأبيه ، سوف يأذن الحق بتحقيقها .

ويذكر الحق سبحانه ما جاء على لسان يعقوب فيقول :

﴿ يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ[1] وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾

ونلحظ أن الذين غابوا هم ثلاثة : يوسف ، وبنيامين ، والأخ

---

(١) تحسس الشىء وتحسس منه : طلب معرفته بالبحث الدقيق عنه . قال تعالى : ﴿ يَٰبَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ .. ﴿٨٧﴾ ﴾ [يوسف] . أى : تتبعوا أخبارهما وابحثوا عنهما بعناية شديدة . [القاموس القويم ١/١٥٤] .

الأكبر الذى أصرَّ على ألاَّ يبرح مصر إلا بعد أن يأذنَ أبوه ، أو يأتى فرج من الله .

وهنا فى هذه الآية جاء ذكْر يوسف وأخيه ، ولم يَأْتِ ذكْر الأخ الكبير أو رئيس الرحلة . ونقول : إن يوسف وأخاه هما المعسكر الضعيف الذى عانى من مناهضة بقية الإخوة ، وهما قد فارقا الأب صغاراً ، أما الأخ الأكبر فيستطيع أن يحتال ، وأن يعود فى الوقت الذى يريد .

وقول يعقوب :

﴿ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ .. (٨٧) ﴾ [يوسف]

نجد فيه كلمة ﴿ تحسسوا ﴾ ، وهى من الحسِّ ، والحسُّ يُجمع على « حواس » ، والحواس هى منافذ إدراك المعلومات للنفس البشرية ، فالمعلومات تنشأ عندنا من الأمور المُحسَّة ، وتدركها حواسنا لتصير قضايا عقلية .

وهكذا نعلم أن الحواس هى قنواتُ المعرفة ، وهى غير مقصورة على الحواس الخمس الظاهرة ؛ بل اكتشف العلماء أن هناك حواسَّ أخرى غير ظاهرة ، وسبق أن تعرضنا لهذا الأمر فى مرَّاتٍ كثيرة سابقة .

وقوله :

﴿ فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ .. (٨٧) ﴾ [يوسف]

يعنى أعملوا حواسكم ، بكل ما فيها من طاقة ، كى تصلوا إلى الحقيقة .

ونعلم أن كلمة « الجاسوس » قد أُطلقَتْ على مَنْ يتنصَّتْ ويرى ويشُمُّ رائحة الأخبار والتحرُّكات عند معسكر الأعداء ؛ ويقال له « عين » أيضاً .

وفى عُرْفنا العام نقول لمن يحترف التقاط الأخبار « شَمْ شِمْ لنا على حكاية الأمر الفلانى » .

وتابع يعقوب القول :

﴿لَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ[1] اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [يوسف]

أى : إياكم أن تقولوا أننا ذهبنا وتعبنا وتحايلنا ؛ ولم نجد حلاً ، لأن الله موجود ، ولا يزال لله رحمة .

والأثر يقول : « لا كَرْبَ وأنت رَبٌّ» .

وما يَعِزُّ عليك بقانونك الجأ فيه إلى الله .

وقد علَّمنا رسول الله ﷺ « أنه كلما حَزَبه أمر قام وصلى »[2] .

وبهذا لجأ إلى ربِّ الأسباب ، وسبحانه فوق كل الأسباب ، وجَرِّبوا ذلك فى أىِّ أمر يُعضلكم ، ولن ينتهى الواحد منكم إلى نهاية الصلاة إلا ويجد حَلاً لِمَا أعضَلَه .

---

(١) الرَّوْح : الرحمة. سماها روحاً لأن الرَّوح والراحة بها. وقوله : ﴿ لا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ .. ﴿٨٧﴾﴾ [يوسف] أى : لا تقنطوا من فرج الله . قاله ابن زيد . يريد أن المؤمن يرجو فرج الله . [راجع : القرطبى فى تفسيره ٣٥٨٧/٥] و [لسان العرب ـ مادة : روح] .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٣٨٨/٥) ، وأبو داود فى سننه (١٣١٩) من حديث حذيفة ابن اليمان .

وكلمة « رَوْح » نجدها تُنطَق على طريقتين « رَوْح » و « رُوح »، و « الرَّوْح » هى الرائحة التى تهبُّ على الإنسان فيستروح بها ، مثلما يجلس إنسان فى يوم قَيْظ[1] ؛ ثم تهبُّ نسمة رقيقة ينتعش بها.

والحق سبحانه يقول :

﴿ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ (٨٩) ﴾ [الواقعة]

ونأخذ لهذه الروح مثلاً من المُحسَّات حين يشتد القيظ ، ونجلس فى بستان ، وتهبُّ نسمة هواء ؛ فيتعطر الجو بما فى البستان من زهور .

والرُّوح[2] هى التى ينفخها الحقُّ سبحانه فى الجماد فيتحرك .

ويأتى هنا يعقوب عليه السلام بالقضية والمبدأ الذى يسير عليه كل مؤمن ، فيقول :

﴿ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ (٨٧) ﴾ [يوسف]

لأن الذى ليس له رَبٌّ هو مَنْ ييأس ، ولذلك نجد نسبة المنتحرين بين الملاحدة كبيرة ، لكن المؤمن لا يفعل ذلك ؛ لأنه يعلم أن له رباً يساعد عباده .

وما دام المؤمن قد أخذ بالأسباب ؛ فسبحانه يَهبُه ممَّا فوق الأسباب .

---

(١) القيظ : صميم الصيف . واليوم القائظ : شديد الحر . [لسان العرب ـ مادة : قيظ] .

(٢) الروح بالضم : ما به حياة النفس ، قال تعالى : ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ (٩)﴾ [السجدة] . أى : من سر الحياة التى لا يخلقها إلا الله ، أى : بروح من الله لا من غيره ، بروح لا يملك نفخها فى الإنسان إلا الله . [القاموس القويم ١/ ٢٨٠] .

وسبحانه يقول :

﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا (٣) ﴾ [الطلاق]

وهذه مسألة تحدث لمن يتقى الله . أتحدى أن يوجد مؤمن ليس فى حياته مثل هذه الأمور ، ما دام يأخذ بالأسباب ويتقى الله ، وسوف يجد فى لحظة من لحظات الكرب أن الفرج قد جاء من حيث لا يحتسب ؛ لأن الله هو الرصيد النهائى للمؤمن .

وهَبْ أنك سائر فى الطريق ، وفى جيبك جنيه واحد ، وليس عندك غيره وضاع منك ؛ هل تحزن ؟ نعم سوف تحزن ، ولكن إنْ كان فى بيتك عشرة جنيهات فحزنك يكون خفيفاً لضياع الجنيه ، ولو كان رصيدك فى البنك ألف من الجنيهات ، فلن تحزن على الجنيه الذى ضاع .

ومَنْ له رَبٌّ ، يبذل الجَهْد فى الأخذ بالأسباب ؛ سيجد الحل والفرج من أىِّ كرب مِمَّا هو فوق الأسباب .

ولماذا ييأس الإنسان ؟

إن المُلحِد هو الذى ييأس ؛ لأنه لا يؤمن بإله ، ولو كان يؤمن بإله ، وهذا الإله لا يعلم بما فيه هذا الكافر من كَرْب ، أو هو إله يعلم ولا يساعد مَنْ يعبده ؛ إما عجزاً أو بُخْلاً ، فهو فى كل هذه الحالات ليس إلهاً ، ولا يستحق أن يُؤمَن به .

أما المؤمن الحق فهو يعلم أنه يعبد إلهاً قادراً ، يعطى بالأسباب ، وبما فوق الأسباب ؛ وهو حين يمنع ؛ فهذا المَنْع هو عَيْنُ العطاء ؛ لأنه قد يأخذ ما يضره ولا ينفعه .

وينقلنا الحق سبحانه إلى نَقْلة أخرى ؛ وهى لحظة أنْ دخلوا على يوسف عليه السلام فى مقرِّه بمصر ؛ ونقرأ قوله الحق :

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ[1] فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾

ولم يذكر الحق سبحانه اسم مَنْ دخلوا عليه ، لأنه بطل القصة ، والضمير فى « عليه » لا بُدَّ أنْ يعود إلى معلوم ، ونادوه بالتفخيم قائلين :

﴿ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ .. ﴿٨٨﴾ ﴾ [يوسف]

أى : أن الجوع صَيَّرنا إلى هُزَال ، وبدأوا بترقيق قلب مَنْ يسمعهم ؛ بعد تفخيمهم له ؛ فهو الأعلى وهُم الأدنى .

ويستمر قولهم :

---

(١) أى : ومعنا ثمن الطعام الذى نمتاره وهو ثمن قليل . قاله مجاهد والحسن وغير واحد . [ابن كثير ٢/٤٨٨] . وقال القرطبى (٥/٣٥٨٨) : « الإزجاء : السَّوْق بدفع والمعنى : أنها بضاعة تُدفع ، ولا يقبلها كل أحد » .

﴿ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ (٨٨) ﴾ [يوسف]

ونعلم أنهم قد جاءوا ليتحسسوا أمر يوسف وأخيه ، وقد اختاروا مَدْخل الترقيق والتفخيم كلَوْن من المكْر ، فالتفخيم بندائه بلقب العزيز ؛ أى : المالك المُتمكِّن ؛ ويعنى هذا النداء أن ما سوف يطلبونه منه هو أمر فى متناول سلطته .

والترقيق بشكوى الحال من جوع صار بهم إلى هُزال ، وأعلنوا قدومهم ومعهم بضائع مُزجاة ، أى : بضاعة تُستخدم كأثمان لِمَا سوف يأخذونه من سِلَع .

وكلمة : ﴿ مُّزْجَاةٍ .. (٨٨) ﴾ [يوسف]

أى : مدفوعة من الذى يشترى أو يبيع .

والحق سبحانه يقول :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا[1] .. (٤٣) ﴾ [النور]

وكلمة « يزجى » بمعنى : يدفع .

إذن : فما معنى قول الحق سبحانه :

﴿ بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ .. (٨٨) ﴾ [يوسف]

---

(١) الرَّكْم : جمعك شيئاً فوق شىء حتى تجعله رُكاماً مركوماً كركام الرمل والسحاب ونحو ذلك من الشىء المرتكم على بعضه . وارتكم الشىء وتراكم إذا اجتمع . [لسان العرب - مادة : ركم] .

ولكى تعرف المعنى بإحساسك ؛ جَرِّب هذا الأمر فى نفسك ، وراقب كيف تدفع ثمن أىِّ شىء تشتريه ؛ فإنْ كان معك نقود قديمة ونقود جديدة ؛ ستجد أنك تدفع قيمة ما تشتريه من النقود القديمة ؛ وسوف تجد نفسك مرتاحاً لاحتفاظك بالنقود الجديدة لنفسك .

وقد يقول لك مَنْ تشترى منه : « خذ هذه الورقة النقدية القديمة التى تدفعها لى ، واستبدلها لى بورقة جديدة » .

فما دامت النقود سوف تُدفع ؛ فأنت تريد أن تتخلص من النقود القديمة ؛ وتفعل ذلك وأنت مُرتاح ، وبذلك يمكننا أن نفهم معنى :

﴿ بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ .. (٨٨) ﴾ [يوسف]

على أنها بِضَاعة رديئة .

فكأن الضُّرَّ الذى أصابهم جعلهم عاجزين عن دفع الأثمان للمَيْرة التى سوف يأخذونها ، مثل الأثمان السابقة التى تميزت بالجودة .

ويتابع الحق سبحانه ما جاء على ألسنتهم :

﴿ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِى الْمُتَصَدِّقِينَ (٨٨) ﴾ [يوسف]

أى : أنهم يرجونه أن يُوفِّى لهم الكيل ولا ينقصه ؛ إنْ كان ما جاءوا به من أثمان لا يُوفى ما تساويه المَيْرة ، وطالبوه أن يعتبر تلك التَّوْفية فى الكَيْل صدقة .

وبذلك رَدُّوه إلى ثمن أعلى مما حملوه من أثمان ، وفوق قدرة البشر على الدَّفْع ؛ لأن الصدقة إنما يُثيب عليها الحق سبحانه وتعالى.

ولقائل أن يسأل : أليسوا أبناء نبوة ، ولا تجوز عليهم الصدقة ؟

نقول : إن عدم جواز الصدقة هو أمر اختصَّ به الحق سبحانه آل محمد ﷺ ، وهو أمر خاص بأمة محمد ﷺ ، فقد قال ﷺ : « إن الصدقة لا تنبغى لآل محمد ، إنما هى أوساخ الناس »[1] .

وانظر إلى ما فعلته الترقيقات التى قالوها ؛ نظر إليهم يوسف عليه السلام وتبسم ، ولما تبسَّم ظهرت ثناياه[2] ، وهى ثنايا مميزة عن ثنايا جميع مَنْ رأوه .

وجاء الحق سبحانه بما قاله :

﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾

ومجىء هذا القول فى صيغة السؤال ؛ يدفعهم إلى التأمل والتدقيق ؛ لمعرفة شخصية المُتحدِّث .

ثم يأتى التلطُّف الجميل منه حين يضيف :

﴿ مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [يوسف]

وفى هذا القول ما يلتمس لهم به العُذْر بالجهل ، ولم يتحدث

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٤/١٦٦) ، ومسلم فى صحيحه (١٠٧٢) كتاب الزكاة من حديث عبدالمطلب بن ربيعة بلفظ : « ألا إن الصدقة لا تنبغى لمحمد ولا لآل محمد ، إنما هى أوساخ الناس » .

(٢) ثنايا الإنسان فى فمه هى : الأسنان الأربع التى فى مُقدَّم فمه : ثنتان من فوق ، وثنتان من أسفل . [لسان العرب ـ مادة : ثنى] .

إليهم بعزَّة الكبرياء ، وغرور المكانة التى وصل إليها ، وهدفه أن يخفف عنهم صَدْمة المفاجأة ، فذكر لهم أنهم فعلوا ذلك أيام جهلهم.

وهذا مثلما يكون أحدهم قد أخطأ فى حقِّك قديماً بسلوك غير مقبول ، ولكن الأيام أزالتْ مرارتك من سلوكه ، فتُذكِّره بما فعله قديماً وأنت تقول له : إن فعلك هذا قد صدر منك أيام طَيْشك ، لكنك الآن قد وصلتَ إلى درجة التعقُّل وفَهْم الأمور .

وقول يوسف عليه السلام لهم هذا الأمر بهذه الصيغة من التلطُّف ، إنما يعبر أيضاً عن تأثُّره بشكواهم ، ثم تبسُّمه لهم ، وظهور ثناياه دفعهم إلى تذكُّره[1] ، ودار بينهم وبينه الحوار الذى جاء فى الآية التالية :

﴿ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ[2] ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾

وهكذا انتبهوا إلى شخصية يوسف وتعرَّفوا عليه ، وقالوا :

﴿ أَئِنَّكَ لأَنتَ يُوسُفُ .. ﴿٩٠﴾ ﴾ [يوسف]

---

(١) كان يوسف عليه السلام إذا تبسَّم كأن ثناياه اللؤلؤ المنظوم ، قال ابن عباس : تبسَّم يوسف ، فشبَّهوه بيوسف فقالوا له على جهة الاستفهام : ﴿ أَئِنَّكَ لأَنتَ يُوسُفُ .. ﴿٩٠﴾ ﴾ [يوسف] . وفى هذا روايات أخرى ذكرها القرطبى فى تفسيره (٥/٣٥٩١) .

(٢) مَنَّ عليه : أنعم عليه وأحسن إليه . قال القرطبى فى تفسيره (٥/٣٥٩١) : « أى : قد مَنَّ الله علينا بالنجاة والملك » بتصرف .

وجاء قولهم بأسلوب الاستفهام التقريرىّ الذى أكّدوه بـ « إنْ » و « اللام » ، وقد قالوا ذلك بلهجة مُمتلئة بالفرح والتعجُّب بنجاحهم فى التحسُّس الذى أوصاهم به أبوهم .

فَردَّ عليهم :

﴿ أَنَا يُوسُفُ وَهَـٰذَا أَخِي .. (٩٠) ﴾ [يوسف]

وبطبيعة الحال هم يعرفون أخَ يوسف « بنيامين » ، وجاء ذكْر يوسف له هنا دليلاً على أن بنيامين قد دخل معه فى النعمة ، وأن الحق سبحانه قد أعزَّ الاثنين .

ويجىء شُكْر يوسف لله على نعمته فى قوله :

﴿ قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٩٠) ﴾ [يوسف]

وجاء يوسف بهذا القول الذى يعرض القضية العامة التى تنفعهم كإخوة له ، وتنفع أىَّ سامع لها وكل مَنْ يتلوها ، وقد قالها يوسف عليه السلام بعد بيِّنة من واقع أحداث مرَّتْ به بَدْءً من الرُّؤيا إلى هذا الموقف .

فهو كلام عليه دليل من واقع مُعَاش ، فقد مَنَّ الله على يوسف وأخيه مما ابْتُلِيا به واجتمعا من بعد الفُرْقة ، وعلَّل يوسف ذلك بالقول :

﴿ إِنَّهُ مَن يَتَّقِ .. (٩٠) ﴾ [يوسف]

أى : مَنْ يجعل بينه وبين معصية الله وقاية ، ويخشى صفات

الجلال ، ويتبع منهجه سبحانه ، ويصبر على ما أصابه ، ولا تفتُر همَّته عن عبادة الله طاعة ، ويتجنب كل المعاصى مهما زُيِّنَتْ له .

فسبحانه وتعالى لا يُضيع أجر المحسنين الذين يتقونه ، وصاروا بتقواهم مُستحقِّين لرحمته ، وإحسانه فى الدنيا والآخرة .

ويأتى قول الحق سبحانه بعد ذلك ليحمل لنا ما قاله إخوة يوسف فى هذا الموقف :

﴿ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴿٩١﴾ ﴾

و « تاللَّه » قَسَم بالله .

و ﴿ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا .. ﴿٩١﴾ ﴾ [يوسف]

أى : خصَّك بشىء فوق ما خَصَّ به الآخرين ، وهو لم يُؤثِرْك بظلم لغيرك ، ولكنك كنت تستحق ما آثرك به من المُلْك وعلو الشأن والمكانة .

وهكذا صدَّق إخوة يوسف على ما قاله يوسف ، واعترفوا بخطيئتهم ، حين حاولوا أن يكونوا مُقرَّبين مثله عند أبيهم ، ولكنك يا يوسف وصلت إلى أن تصير مُقرباً مُقدَّماً عند ربِّ أبينا وربِّ العالمين.

والشأن والحال التى كنا فيها تؤكد أننا كنا خاطئين ، ولا بُدَّ أن ننتبه إلى الفَرْق بين « خاطئين » و « مخطئين » .

والعزيز قد قال لزوجته :

﴿ وَاسْتَغْفِرِى لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ (٢٩) ﴾ [يوسف]

ولم يَقُلْ لها « كنت من المخطئين » فالمادة واحدة هى : «الخاء » و « الطاء » و «الهمزة » ، ولكن المعنى يختلف ، فالخاطئ هو مَنْ يعلم منطقة الصواب ويتعدَّاها ، أما المُخْطئ فهو مَنْ لم يذهب إلى الصواب ؛ لأنه لا يعرف مكانه أو طريقه إليه .

ويقول الحق سبحانه ما جاء على لسان يوسف عليه السلام لإخوته بعد أن أقرُّوا بالخطأ :

﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ (٩٢) ﴾

والتثريب هو اللوم العنيف ، وهو مأخوذ من التَّرْب ؛ فحين يذبحون ذبيحة ، ويُخرِجون أمعاءها يجدون حول الأمعاء دُهْناً كثيفاً ؛ هذا الدُّهْن يُسمَّى تَرْب .

أما إن كانت هزيلة ، ولم تتغذَّ جيداً ، فأمعاؤها تخرج وقد ذاب من عليه هذا التَّرْب .

والتثريب يعنى : أن اللوم العنيف قد أذابَ الشحم من لحمه ، وجعل دمه ينزّ ، ويكاد أن يصل بالإنسان إلى أن ينزل به ويسلّه .

وفى الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال :

« إذا زنت أَمَةُ أحدكم فتبيَّن[1] زناها فليجلدها الحدّ ، ولا يُثرِّب عليها ، ثم إن زنت فليجلدها الحد ، ولا يُثرِّب عليها ، ثم إنْ زنت الثالثة فتبيّن زِناها فَليبِعْها ، ولو بحبل من شعر »[2] .

أى : لا يقولن لها : يا مَنْ فعلت كذا وكذا ، بل فليعاقبها بالعقاب الذى أنزله الله لمثل هذه الجريمة ؛ فإن لم ترتدع عن الفعل فَلْيبِعْها ، وهكذا نفهم أن التثريب أو اللوم العنيف قد يُولِّد العناد .

وقال يوسف عليه السلام :

﴿ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٩٢) ﴾ [يوسف]

ولقائل أن يتساءل : ولماذا قال يوسف ذلك ؛ وقد يكونون قد استغفروا الله من قبل ؟

ونقول : إن دعوة يوسف بالمغفرة لهم جاءت فى حدود معرفته، ولتصفية النفوس مما شابها بهذا اللقاء .

وقوله :

﴿ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٩٢) ﴾ [يوسف]

هو فَهْمٌ لحقيقة أن أىَّ رحمة فى العالم ، أو من أى أحد إنما هى مُستمدّة من رحمته سبحانه .

---

(١) قال النووى فى شرحه لمسلم (٢٢٣/١١) : « معنى تبيُّن زناها تحققه ، إما بالبينة ، وإما برؤية ، أو علم عند من يُجوِّز القضاء بالعلم فى الحدود » .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٧٠٣) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

وقد قال يوسف ذلك وهو واثق من إجابة دعوته ، لأنه قد غفر لهم خطأهم القديم وعفَا عنهم ؛ والله أَوْلَى منه بالعفو عنهم .

ثم يعود الحديث بينه وبينهم إلى والدهم ، فيقول الحق سبحانه ما جاء على لسان يوسف لإخوته ، وهو الذى علِم ما حدث لأبيه بعد فراقه له :

﴿ اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾

وكان يوسف عليه السلام ، قد علِم أن أباه يربط عينيه من الحزن ، وكاد أن يفقد بصره ، فأمر إخوته أن يذهبوا بقميصه الذى كان يلبسه إلى أبيه .

وتقول كتب السِّير أن أخاه الأكبر الذى رفض أن يبرح مصر ، وقال :

﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [يوسف]

قد قال ليوسف :

« يـأيها العزيز إننى أنا الذى حملتُ القميص بدم كذب إلى أبى ، فدعْنى أحمل هذا القميص لأبى ، كى تمحو هذه تلك »[1] .

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٥ / ٣٥٩٣) : « حكى السدى أن الذى حمل قميصه يهوذا . قال ليوسف : أنا الذى حملت إليه قميصك بدم كذب فأحزنته ، وأنا الذى أحمله الآن لأسرّه ، وليعود إليه بصره ، فحمله » .

وقال يوسف عن فعل القميص مع الأب :

﴿ فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا .. (٩٣) ﴾ [يوسف]

و نلحظ أنه لم يَقُلْ : « وجه أبيكم » .

وفى قوله :

﴿ وَجْهِ أَبِي .. (٩٣) ﴾ [يوسف]

إشارة إلى الحنان الأبوى الذى فقدوه منذ أن غاب يوسف ، فغرق والده فى الحزن .

و .

﴿ يَأْتِ بَصِيرًا .. (٩٣) ﴾ [يوسف]

أى : يرتدّ إليه بصره ، أو يراه أمامه سليماً .

ويضيف يوسف :

﴿ وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ (٩٣) ﴾ [يوسف]

هذا تعبير قُرآنى دقيق ، أن يُحضروا معهم كل مَنْ يَمُتُّ بصلة قرابة لهم أو يعمل معهم [1] ، ولم يَقُلْ يوسف « بآلكم » حتى لا يأتوا بالأعيان فقط .

ونلحظ أنه لم يذكر والده فى أمر يوسف لإخوته أن يأتوه بكل مَنْ يمُتُّ لهم بصلة قُرْبى ؛ لأن فى مثل هذا الأمر ـ من موقع عزيز مصر ـ إجباراً للأب على المجىء ، وهو يُجِلُّ أباه عن ذلك .

---

(١) قال مسروق : كانوا ثلاثة وتسعين ، ما بين رجل وامرأة . القرطبى فى تفسيره (٣٥٩٣/٥) .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ[1] لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ[2] ﴿٩٤﴾﴾

و « فصلت » تدل على شيء كان مُلْتصقاً بشيء آخر وانفصل عنه ، وفَصلت العيرُ . أى : خرجتْ منْ المدينة وتجاوزتْها ؛ لتسير فى رحلتها ، والمقصود خروج القافلة من حدود مصر قاصدةً مكان يعقوب عليه السلام .

وهنا قال يعقوب لمن كانوا حاضرين معه من الأحفاد وأبناء الأبناء :

﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ .. ﴿٩٤﴾﴾ [يوسف]

والمعروف أن القميص الذى أرسله مع أخيه الأكبر يحمل رائحة يوسف ، لكن الذين حول يعقوب من أقربائه لم يُصدِّقوا قوله ، فأضاف :

﴿ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾﴾ [يوسف]

أى : لولا اتهامكم لى بالخَرَف ، لأن التفنيد هو الخرف[3] .

---

(١) ريح يوسف : أى ريحاً تحمل رائحته ، أو الريح بمعنى الرائحة أى رائحته . [القاموس القويم ١/ ٢٨٠] .

(٢) فَنَد : ضعف رأيه من الهرم ، أو كذب عامداً ، وأتى بالباطل . وفنَّد رأيه : أضعفه وأبطله ، أو بيَّن ما فيه من الخطأ . [القاموس القويم ٢/ ٨٩] .

(٣) الخرف : فساد العقل من الكِبَر . [لسان العرب ـ مادة : خرف] .

ومن العجيب أننا فى أيامنا هذه نجد العلم وقد أثبت أن صُورَ المرائى والأصوات ، توجد لها آثار فى الجو ، رغم ما يُخيَّل للإنسان أنها تلاشتْ .

ويحاول العلم بوسائل من الأشعة أن يكشف صورة أىِّ جماعة كانت تجلس فى مكان ما ، ثم رحلتْ عنه منذ ساعة أو ساعتين ، ممَّا يدلُّ على أن الصور لها نضح من شعاع وظلال يظل بالمكان لفترة قبل أن يضيع .

وكذلك الأصوات ؛ فالعلماء يحاولون استرداد أصوات مَنْ رحلوا ؛ ويقولون : لا شىءَ يضيع فى الكون ، بل كل ما وُجِد فيه محفوظ بشكل أو بآخر .

والرائحة أيضاً لا تضيع ، بدليل أن الكلب يشُمُّ الريح من على مسافات بعيدة ، ويميز الآن المخدرات من رائحتها ؛ ولذلك تنتشر الكلاب المدرَّبة فى المطارات وعلى الحدود ؛ لتكشف أىَّ محاولة لتهريب المخدرات .

وإذا كان الحيوان المخلوق بقدرة الله قادراً على التقاط الرائحة من بين آلاف الروائح ، وإذا كان العلم الموهوب من الله للبشر ؛ يبحث الآن فى كيفية استحضار الصورة واسترداد الصوت من الفضاء المحيط بالإنسان ؛ فعلينا أن ندرك أن العيرَ عندما خرجتْ من أسوار المدينة ؛ وأخذتْ طريقها إلى الموقع الذى يعيش فيه يعقوب عليه السلام ؛ استطاع يعقوبُ بقدرة الله أن يَشُمَّ رائحة يوسف ؛ تلك التى يحملها قميصه القادم مع القافلة .

ولسائل أن يقول : ولماذا ارتبط تنسُّم يعقوب لرائحة يوسف بخروج العِير من مصر ، وتواجدها على الطريق إلى موطن يعقوب ؟

نقول : لأن العِيرَ لحظة تواجدها فى المدينة تكون رائحة قميص يوسف مُخْتلطة بغيرها من الروائح ؛ فهناك الكثير من الروائح الأخرى داخل أى مدينة ، ويصعب نفاذ رائحة بعينها لتغلب على كل الروائح ؛ ويختلف الأمر فى الخلاء ؛ حيث يمكن أن تمشى هَبَّة الرائحة دون أن يعترضها شىء .

وبذلك نؤمن أن كل شىء فى الكون محفوظ ولا يضيع ؛ مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (١٠) كِرَامًا كَاتِبِينَ (١١) ﴾ [الانفطار]

وكل ما يصدر منك مُسجَّل عليك ؛ ولذلك يأتيك كتابك يوم القيامة لتقرأه ، وتكون على نفسك حسيباً .

ويردُّ مَنْ بقى من أهل يعقوب معه على قوله بأنه يجد ريحَ يوسف :

﴿ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ (٩٥) ﴾

وكأنهم قد ملُّوا حديثه عن يوسف ؛ وأعرضوا عن كلامه قائلين له : إلى متى ستظل على ضلالك ، وهم لا يعنُون الضلال[1] بمعنى الخروج عن المنهج ، ولكنهم يعنُونَ الضلال بمعنى الجزئيات التى لا علاقة لها بالتديُّن من محبة شديدة ليوسف ، وتعلُّق به ، والتمنِّى لعودته ، وكثرة الحديث عنه ، وتوقُّع لقائه ، وهم الذين ظَنُّوا أن يوسف قد مات .

---

(١) الضلال هنا يعني شدة الانشغال بالمحبوب وكثرة السؤال عنه والبحث المتلاحق مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ (٧) ﴾ [الضحى].

ويأتى البشير ليعقوب ، يقول الحق سبحانه :

﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾﴾

وحين حضر البشير[1] ، وهو كما تقول الروايات كبير الإخوة ؛ ويُقال أيضاً : إنه يهوذا ؛ وهو مَنْ رفض أن يغادر مصر إلا بعد أن يأذن له والده ، أو يأتى حلٌّ من السماء لمشكلة بقاء بنيامين فى مصر ، بعد اتهام أعوان العزيز له بالسرقة ، طبقاً لما أراده يوسف ليستبقى شقيقه معه .

ولما جاء هذا البشير ومعه قميص يوسف ؛ فألقاه على وجه الأب تنفيذاً لأمر يوسف عليه السلام .

وبذلك زال سبب بكاء يعقوب ، وفَرِح يعقوب فرحاً شديداً ؛ لأنه فى أيام حزنه على يوسف ، وابيضاض عينيه من كثرة البكاء حدَّثه قلبه بالإلهام من الله أن يوسف ما زال حياً ؛ وكان البكاء عليه من بعد ذلك هو بكاء من فَرْط الشوق لرؤية ابنه .

---

(١) البشير : الذي يُبشِّر القوم بالخبر السارّ . قيل : هو شمعون . وقيل : يهوذا . قال : أنا أذهب بالقميص اليوم كما ذهبتُ به مُلطّخاً بالدم . قاله ابن عباس . وعن السدى أنه قال لإخوته : قد علمتم أني ذهبت إليه بقميص التَّرْحة (الحزن) فدعونى أذهب إليه بقميص الفرحة . [تفسير القرطبى ٥/٣٥٩٦] .

وكذلك قد يكون يوسف قد علم بالوحى من الله أن إلقاء القميص على وجه أبيه يردُّ إليه بصره ، بإذن من الحق سبحانه وتعالى ، فضلاً عن أن الفرح له آثار نفسية تنعكس على الحالة الصحية ، وهكذا تجلَّتْ انتصارات الحقِّ والنبوة .

وقال يعقوب عليه السلام :

﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (٩٦)﴾ [يوسف]

ولم يَقُلْ ذلك إذلالاً لهم ، بل ليعطى الثقة والتوثيق لأخبار كل نبى ، وأن الواقع قد أيَّد الكلام الذى قاله لهم :

﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا[1] مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ (٨٧)﴾ [يوسف]

فإذا جاءكم خبر من معصوم ؛ إياكم أن تقفوا بعقولكم فيه ؛ لأن العقول تأخذ مُدْركات الأشياء على قَدْرها ، وهناك أشياء فوق مُدْركات العقول .

وحين يُحدِّثكم معصوم عن ما فوق مُدْركات عقولكم إياكم أن تُكذِّبوه ؛ سواء فهمتم ما حدَّثكم عنه ، أو لم تستوعبوا حديثه عَمَّا فوق مُدْركات العقول .

---

(١) تحسس الشىء وتحسس منه : طلب معرفته بالبحث الدقيق عنه . قال تعالى : ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ (٨٧)﴾ [يوسف] . أي : تتبعوا أخبارهما و ابحثوا عنهما بعناية شديدة . [القاموس القويم ١/ ١٥٤] .

راجعه على الأصل وخرج أحاديثه فضيلة الشيخ محمد السنراوى المستشار بالأزهر والأستاذ عادل أبو المعاطى .

وهنا يُقِر إخوة يوسف بذنوبهم ، فيقول الحق سبحانه :

﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿٩٧﴾﴾

وهم هنا يُقِرُّون بالذنب ، ويُحدِّثون والدهم بنداء الأبوة كى يستغفر لهم ما ارتكبوه من ذنوب كثيرة ، فقد آذَوْا أباهم وجعلوه حزيناً ، ولا يسقط مثل هذا الذنب إلا بأن يُقِرَّ به مَنْ فعله ، ونلحظ أنهم قالوا :

﴿إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿٩٧﴾﴾ [يوسف]

أى : أنهم كانوا يعلمون الصواب ، ولم يفعلوه .

ويأتى الحق سبحانه بما قاله يعقوب :

﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾﴾

ونلحظ أن يوسف قد قال لهم من قبل :

﴿لا تَثْرِيبَ[1] عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩٢﴾﴾ [يوسف]

لكن والدهم هنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها يقول :

---

(١) ثربه : لامه وعتب عليه . وثرَّبه بالتضعيف : أكثر لومه وعيَّره بذنبه وأنَّبه على سوء فعله . [القاموس القويم ١/١٠٦] .

﴿ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي . . (٩٨) ﴾ [يوسف]

ولم يَقُلْ : « سأستغفر لكم ربى » ، وهذا يدل على أن الكبار يحتاجون لوقت أكبر من وقت الشباب ؛ لذلك أجَّل يعقوب الاستغفار لما بعد .

والشيخ الألوسى فى تفسيره يقول :

« إنما كان ذلك لأن مطلوبات البر من الأخ لإخوته غير مطلوبات البر من ابن لأبيه ؛ لأن الأخ ليس له نفس حق الأب ؛ لذلك يكون غضب الأب أشدَّ من غضب الأخ » .

ثم إن ذنوبهم هنا هى من الذنوب الكبيرة التى مرّ عليها وعلى تأثيرها على الأب زمن طويل . ويقال : إن يعقوب عليه السلام قد أخَّر الاستغفار لهم إلى السَّحَر ، لأن الدعاء فيه مُستجَاب .

وينقلنا الحق سبحانه من بعد ذلك إلى لحظة اللقاء بين يوسف عليه السلام وأهله كلهم ، بعد أن انتقلوا إلى حيث يعيش يوسف ، فيقول سبحانه :

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ (٩٩) ﴾ [1]

ونعلم أن الجَدَّ إسحق لم يكُنْ موجوداً ، وكانوا يُغلِّبون جهة الأُبوة على جهة الأمومة ، ودخلت معهم الخالة ؛ لأن الأم كانت غير موجودة[2] .

---

(١) آوى : ضمَّه إليه وأسكنه عنده أو أنزله فى بيت . [القاموس القويم ١/٤٥] .

(٢) أم يوسف وبنيامين هى « راحيل » ، وقد ماتت فى نفاس بنيامين . راجع تفسير القرطبى جـ ٥ ص ٣٥٩٨ .

ويبدو أن يوسف قد استقبلهم عند دخولهم إلى مصر استقبال العظماء ، فاستقبلهم خارج البلد مرة ليريحهم من عناء السفر ويستقبلهم وجهاء البلد وأعيانهم ؛ وهذا هو الدخول الأول الذى آوى فيه أبويْه .

ثم دخل بهم الدخول الثانى إلى البلد بدليل أنه قال :

﴿ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ (٩٩)﴾ [يوسف]

ففى الآية دخولان .

وقول الحق سبحانه :

﴿آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ .. (٩٩)﴾ [يوسف]

يدل على حرارة اللقاء لمغتربين يجمعهم حنان ، فالأب كان يشتاق لرؤية ابنه ، ولا بُدَّ أنه قد سمع من إخوته عن مكانته ومنزلته ، والابن كان مُتشوِّقاً للقاء أبيه .

وانفعالات اللقاء عادة تُترك لعواطف البشر ، ولا تقنينَ لها ، فهى انفعالات خاصة تكون مزيجاً من الود ، ومن المحبة ، ومن الاحترام ، ومن غير ذلك .

فهناك مَنْ تلقاه وتكتفى بأن تُسلّم عليه مُصَافحة ، وآخر تلتقى به ويغلبُك شوقُك فتحتضنه ، وتقول ما شئتَ من ألفاظ الترحيب .

كل تلك الانفعالات بلا تقنين عباديّ ، بدليل أن يوسف عليه السلام آوى إليه أبويه ، وأخذهما فى حضنه .

والمثل من حياة رسولنا ﷺ فى سياق غزوة بدر حيث كان يستعرض المقاتلين ، وكان فى يده ﷺ قدح يعدل به الصفوف ، فمرَّ بسواد بن غزية من بنى عدى بن النجار[١] ، وهو مستنصل[٢] عن الصف - أى خارج عنه ، مما جعل الصف على غير استواء - فطعن رسول الله ﷺ فى بطنه بالقدح وقال له : « استَوِ يا سواد » .

فقال سواد : أوجعتنى ، وقد بعثك الله بالحق والعدل فأقِدْنى[٣] .

فكشف رسول الله ﷺ عن بطنه وقال ﷺ : « استقد » . فاعتنقه سَواد وقَبَّل بطنه .

فقال ﷺ : « ما حملك على هذا يا سواد ؟ » .

قال : يا رسولَ الله ، قد حضر ما ترى - يقصد الحرب - فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمسَّ جِلْدى جلدك . فدعا له رسول الله ﷺ بالخير[٤] .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

---

(١) انظر ترجمة سواد بن غزية فى « الإصابة فى تمييز الصحابة » (٣/١٤٨) .

(٢) تنصَّلت الشىء واستنصلته إذا استخرجته . [لسان العرب - مادة : نصل] .

(٣) القَوَد : القصاص . وإذا أتى إنسان إلى آخر أمراً فانتقم منه بمثلها قيل : استقادها منه . [لسان العرب - مادة : قود] .

(٤) أورده ابن هشام فى السيرة النبوية (٢/٦٢٦) طبعة المكتبة العلمية - بيروت ، وكذا ابن كثير فى كتابه « البداية والنهاية ٣/٢٧١ » .

﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾

وقد رفع يوسف أبويه على العرش لأنه لم يحب التميُّز عنهم ؛ وهذا سلوك يدل على المحبة والتقدير والإكرام .

والعرش هو سرير الملك الذى يدير منه الحاكم أمور الحكم . وهم قد خَرُّوا سُجَّداً لله من أجل جمع شمل العائلة ، ولم يخروا سُجَّداً ليوسف ، بل خَرُّوا سُجَّداً لمن يُخَرّ سجوداً إليه ، وهو الله .

وللذين حاولوا نقاش أمر سجود آل يعقوب ليوسف أقول : هل أنتم أكثر غَيْرةً على الله منه سبحانه ؟

---

(١) أبويه : المقصود بهما هنا أبوه يعقوب عليه السلام ، وخالته زوجة أبيه ، لأن أمه راحيل كانت قد ماتت فى نفاس بنيامين . [راجع تفسير القرطبى ٥ / ٣٥٩٩] .

(٢) قال الحسن البصرى : لم يكن سجوداً ، ولكنه سنة كانت فيهم، يومئون برءوسهم إيماءً ، كذلك كانت تحيتهم . وقال الثورى والضحاك وغيرهما : كان سجوداً كالسجود المعهود عندنا ، وهو كان تحيتهم ، قال القرطبى فى تفسيره (٥ / ٣٦٠٠) : « أجمع المفسرون أن ذلك السجود على أى وجه كان فإنما كان تحية لا عبادة » .

إنه هو سبحانه الذى قال ذلك ، وهو سبحانه الذى أمر الملائكة من قَبْل بالسجود لآدم[١] فلماذا تأخذوا هذا القول على أنه سجود لآدم؟

والمؤمن الحق يأخذ مسألة سجود الملائكة لآدم ؛ على أنه تنفيذ لأمر الحق سبحانه للهَمِّ بالسجود لآدم ، فآدم خلقه الله من طين ، ونفخ فيه من روحه ؛ وأمر الملائكة أن تسجد لآدم شكراً لله الذى خلق هذا الخَلْق .

وكذلك سجود آل يعقوب ليوسف هو شكر لله الذى جمع شملهم ، وهو سبحانه الذى قال هذا القول ، ولم يُجرِّم سبحانه هذا الفعل منهم[٢] ، بدليل أنهم قَدَّموا تحية ليوسف هو قادر أن يردَّها بمثلها .

ولم يكن سجودهم له بغرض العبادة ؛ لأن العبادة هى الأمور التى تُفعل من الأدنى تقرُّباً للأعلى ، ولا يقابلها المعبود بمثلها ؛ فإنْ كانت عبادة لغير الله فالله سبحانه يُعاقب عليها ؛ وتلك هى الأمور المُحرَّمة .

أما العبادة لله فهى اتباع أوامره وتجنُّب نواهيه ؛ إذن : فالسجود هنا استجابة لنداء الشكر من الكل أمام الإفراج بعد الهم والحزن وسبحانه يُثيب عليها . أما التحية يُقدِّمها العبد ، ويستطيع العبد الآخر أن يردَّ بمثلها أو خَيْرٍ منها ، فهذا أمر لا يحرمه الله ، ولا دَخْل للعبادة به[٣] .

---

(١) ذلك قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا .. ﴿٣٤﴾﴾ [البقرة] .

(٢) نسخ الله ذلك كله فى شرعنا ، وجعل الكلام بدلاً عن الانحناء . قال قتادة : هذه كانت تحية الملوك عندهم ، وأعطى الله هذه الأمة السلام تحية أهل الجنة . [راجع : تفسير القرطبى ٥/٣٦٠٠] .

(٣) عن أنس رضى الله عنه قال : « قلنا يا رسول الله ، أينحنى بعضنا إلى بعض إذا التقينا ؟ قال : لا . قلنا : أفيعتنق بعضنا بعضاً ؟ قال : لا . قلنا : أفيصافح بعضنا بعضاً ؟ قال : نعم » أورده القرطبى فى تفسيره (٥ / ٣٦٠٠) وعزاه لابن عبدالبر فى التمهيد .

لذلك يجب أن نفطن إلى أن هذه المسألة يجب أن تُحرَّر تحريراً منطقياً يتفق مع معطيات اللغة ومقتضى الحال ، ولو نظرنا إلى وضع يعقوب عليه السلام ، وما كان فيه من أحزان وموقف إخوته بين عذاب الضمير على ما فعلوا وما لاقوه من متاعب لأيقنا أن السجود المراد به شكر من بيده مقاليد الأمور بدلاً من خلق فجوات بلا مبرر وَهُمْ حين سجدوا ليوسف ؛ هل فعلوا ذلك بدون علم الله ؟ طبعاً لا .

ومن بعد ذلك نجد قول يوسف لأبيه :

﴿ وَقَالَ يَـٰأَبَتِ هَـٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا .. (١٠٠) ﴾ [يوسف]

وقد كانت الرُّؤيا هى أول لَقْطة فى قصة يوسف عليه السلام حيث قال الحق ما جاء على لسان يوسف لأبيه :

﴿ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَاجِدِينَ (٤) ﴾ [يوسف]

وقوله فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها :

﴿ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا .. (١٠٠) ﴾ [يوسف]

أى : أمراً واقعاً ، وقد رآه والد يوسف وإخوته لحظة أنْ سجدوا ليوسف سجودَ الشكر والتحية لا سجود عبادة ، وقد سجد الإخوة الأحد عشر والأب والخالة التى تقوم مقام الأم ، ورؤيا الأنبياء كما نعلم لا بُدَّ أن تصير واقعاً .

ولقائل أن يقول : وماذا عن رُؤْيا إبراهيم عليه السلام التى أمره

فيها الحق سبحانه أن يذبح ابنه ؛ فقام إلى تنفيذها ؛ واستسلم إسماعيل لأمر الرُّؤْيا .

نقول : إن الأنبياء وحدهم هم الملتزمون شرعاً بتنفيذ رؤاهم ؛ لأن الشيطان لا يُخايلهم ؛ فهم معصومون من مخايلة الشيطان .

أما إنْ جاء إنسان وقال : لقد جاءتنى رؤيا تقول لى نَفِّذ كذا . نقول له : أنت غير مُلْزم بتنفيذ ما تراه فى منامك من رُؤَى ؛ فليس عليك حكم شرعى يلزمك بذلك ؛ فضلاً عن أن الشيطان يستطيع أن يُخايلك .

أما تنفيذ إبراهيم عليه السلام لما رآه فى المنام بأن عليه أن يذبح ابنه ، وقيام إبراهيم بمحاولة تنفيذ ذلك ؛ فسببه أنه يعلم بالتزامه الشرعى بتنفيذ الرُّؤيا .

وقد جاء لنا الحق سبحانه بهذا الذى حدث ليبين لنا عِظَم الابتلاءات التى مرَّتْ على إبراهيم ، وكيف حاول أن يتم كل ما توجهه له السماء من أوامر ، وأن ينفذ ذلك بدقّة .

وقال الحق سبحانه مُصوِّراً ذلك :

﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ(١) إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا .. (١٢٤) ﴾ [البقرة]

---

(١) ابتلاه : اختبره ليعرف أمره وحاله. وبلوت الشىء : امتحنته واختبرته . قال تعالى : ﴿ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (٣٥) ﴾ [الأنبياء] أى : نختبركم بالشر والنعم ، أو بالخير والنعم ، لنعلم مدى صبركم أو شكركم ومدى إيمانكم أو كفركم . [القاموس القويم ١/ ٨٤] .

وكانت قمة الابتلاءات هى أن يُنفِّذ بيديه عملية ذبح الابن ؛ ولذلك أؤكد دائماً على أن الأنبياء وحدهم هم المُلْزمون بتنفيذ رُؤاهم ، أما أى إنسان آخر إنْ جاءته رُؤْيا تخالف المنهج ؛ فعليه أن يعتبرها من نزغ الشيطان .

ويتابع الحق سبحانه ما جاء على لسان يوسف :

﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بِى إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ السِّجْنِ .. (١٠٠) ﴾ [يوسف]

ولقائل أنْ يسأل : ولماذا لم يذكر يوسف الأحداثَ الجِسَام التى مرَّتْ به فى تَسلسُلها ؛ مثل إلقاء إخوته له فى الجُبِّ ؟

نقول : لم يُرِدْ يوسف أن يذكر ما يُكدِّر صَفْو اللقاء بين العائلة من بعد طول فراق . ولكنه جاء بما مرّ به من بعد ذلك ، من أنه صار عبدًا ، وكيف دخل السجن ؛ لأنه لم يستسلم لِغُواية امرأة العزيز ، وكيف مَنَّ الله عليه بإخراجه من السجن ، وما أن خرج من السجن حتى ظهرت النعمة ، ويكفى أنه صار حاكماً .

وقد يقول قائل : إن القصة هنا غير مُنْسجمة مع بعضها ، لأن بعضاً من المواقف تُذكر ؛ وبعضها لا يُذْكر .

نقول : إن القصة مُنْسجمة تماماً ، وهناك فارق بين قصص التاريخ كتاريخ ؛ وبين قَصص يوضح المواقف الهامة فى التاريخ .

والمناسبة فى هذه الآية هى اجتماع الإخوة والأب والخالة ، ولا داعى لذكر ما يُنغِّص هذا اللقاء ؛ خصوصاً ؛ وأن يوسف قد قال من قبل :

﴿قَالَ لا تَثْرِيبَ[1] عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٩٢)﴾ [يوسف]

وسبق أن قال لهم بلطف من يلتمس لهم العذر بالجهل :

﴿هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ (٨٩)﴾ [يوسف]

وهو هنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها يذكر إحسان الحق سبحانه له فيقول :

﴿هَـٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا .. (١٠٠)﴾ [يوسف]

ويُثنى على الله شاكراً إحسانه فيقول :

﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ .. (١٠٠)﴾ [يوسف]

وهو إحسان له فى ذاته ، ثم يذكر إحسان الله إلى بقية أهله :

﴿وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ .. (١٠٠)﴾ [يوسف]

وكلمة « أحسن » - كما نعلم - مرة تتعدى بـ إلى ، فتقول : « أحسن إليه » ، ومرة تتعدى بالباء ، فنقول : « أحسن به » ، وهو هنا فى مجال « أحسن بى » .

أى : أن الإحسان بسببه قد تعلَّق بكل ما اتصل به ؛ فجعله حاكماً ، وجاء بأهله من البدو[2] ؛ أما الإحسان إليه فيكون محصوراً فى ذاته لا يتعداه .

---

(١) ثرَّب عليه : لامه وعيَّره بذنبه ، وذكَّره به . والمثرِّب : المُعيِّر . قال ثعلب : معنى الآية : أى لا تُذْكَر ذنوبكم . [لسان العرب ـ مادة : ثرب] .

(٢) قال القرطبى فى تفسيره (٥ / ٣٦٠٢) : «يُروى أن مسكن يعقوب كان بأرض كنعان ، وكانوا أهل مواشٍ وبرية . وقيل : كان يعقوب تحوّل إلى بادية وسكنها » .

وجعل الحق سبحانه الإحسان هنا قسمين : قسم لذاته ؛ وقسم للغير ، واعتبر مجىء الأهل من البدو إحساناً إليه ، لأن البَدْو قوم يعيشون على الفطرة والانعزالات الأسرية ، ولا تَوطُّن لهم فى مكان ، ولا يضمُّهم مجتمع ، وليس لهم بيوتٌ مبنية يستقرُّون فيها ، ولكنهم يتبعون أرزاقهم من منابت الكلأ ومساقط المياه ، ويحملون رِحَالهم إلى ظهر الجمال متنقلين من مكان لآخر .

وتخلو حياتهم من نِعَم الحضارة . ففى الحضر يحضر إليك كل ما تطلب ، ولكن الحياة فى البدو تُحتِّم أن يذهب الإنسان إلى حيث يجد الخير ؛ ولذلك تستقر الحياة فى الحضر عنها فى البادية .

ويعطينا الشاعر أحمد[1] شوقى - رحمة الله عليه - صورة تبين الفارق بين البدو والحضر ، حين صنع مناظرة بين واحدة تتعصب للبدو ، وأخرى تتعصب للحضر . فقال :

فَأنا مِنَ البِيدِ[2] يا ابن جُرَيج ... ومِنْ هذه العِيشَة الجَافِيه
ومن حَالبِ الشاةِ فى موضعٍ ... ومن مُوقدِ النارِ فى نَاحِيه
مُغَنِّيكُمو معبدٌ والغَريق ... وقَيْنتنا الضبع العَاوِيه
هُمْ يأكلونَ فُنونَ الطهاةِ ... ونحن نأكل ما طَهَتِ المَاشِيه

فابن جريج يشكو السَّأم من حياة البادية ، حيث لا يرى إلا المناظر المُعَادة من حَلْبِ لشاة ، أو إشعال نار ، ولا يسمع كأهل

---

(١) أحمد شوقى من شعراء الإبداع ، وهو أمير الشعراء فى العصر الحديث ، وما زالت إمارة الشعر عنده .

(٢) البيد : جمع بيداء . وهى الصحراء المستوية ، قليلة الشجر جرداء ، سُميت بذلك لأنها تبيد سالكها . والإبادة : الإهلاك . [لسان العرب - مادة : بيد] .

الحضر صوت المُغنِّين المشهورين فى ذلك الزمن ؛ بل يسمع صوت الضِّبَاع العاوية ، ولا يأكل مثل أهل الحضر ما قام بِطَهْيِه الطُّهاة ؛ بل يأكل اللبن وهو ما تقدمه لهم الماشية .

وتردُّ ليلى المتعصِّبة للبادية :

قد اعتسفتْ هِنْدُ يا ابنَ جريج ... وكانت على مَهْدِها قَاسِيه
فَمَا البِيد إلاّ دِيَارُ الكِرَام ... ومنزلةُ الذِّمَمِ الوَاقِيه
لها قِبْلةُ الشمسِ عند البُزُوغِ ... وللحضَرِ القِبلةُ الثَّانيه
ونحنُ الرَّياحين مِلْء الفضاء ... وهُنَّ الرَّياحينُ فى آنيه
ويَقْتُلنا العِشْقُ والحَاضِراتُ ... يَقُمْنَ من العِشق فى غَامِيه

وقولها « اعتسفت » يعنى « ظلمت » ، أى : أن هنداً ظلمت البيد يا ابن جريج ، ثم جاءت بميزات البدو ؛ فأوضحت أن بنات البادية كالرياحين المزروعة فى الفضاء الواسع ، عكس بنات الحَضَر التى تشبه الواحدة منهن الريحانة المزروعة فى أُصص الزرع ، أو أى آنية أخرى .

ثم تأتى إلى القيم ؛ فتفخر أن بنت البادية يقتلها العِشْق ، ولا تنال ممَّنْ تعشق شيئاً ؛ فتنسلّ وتموت ، أما بنت الحضر ؛ فصحتها تأتى على الحب .

وهنا فى الآية ـ التى نحن بصدد خواطرنا عنها ـ يشكر يوسف ما مَنَّ به الله عليه ، وعلى أهله الذين جاء بهم سبحانه من البادية ، ليعيشوا فى مصر ذات الحضارة الواسعة ؛ وبذلك يكون قد ضخَّم

الفرق بين ما كانوا يعيشون فيه من شَظَف[1] العيش إلى حياة اللين والدَّعة[2] .

ثم يلمس ما كان من إخوته تجاهه فيقول :

﴿ مِنْ بَعْدِ أَن نَّزَغَ[3] الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي .. (١٠٠) ﴾ [يوسف]

وهذا مَسٌّ لطيف لما حدث ، وقد نسبه يوسف للشيطان ؛ وصَوَّره على أنه « نَزْغ » .

أى : أنه لم يكن أمراً مستقراً على درجة واحدة من السوء . أى : أن ما فعله الشيطان هو مجرد وَخْزة تُنبِّه إلى الشىء الضار فيندفع له الإنسان ، وهى مأخوذة من المِهْماز الذى يُروِّض به مدرب الخيل أىَّ حصان ، فهو ينغزه بالمِهْماز نزغة خفيفة ، فيستمع وينفذ ما أمره به ، فالنَّغْز تنبيه لمهمة ، ويختلف عن الطَّعْن .

والحق سبحانه ينبهنا إلى ما يفعله الشيطان ؛ فيقول لنا :

﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ .. (٢٠٠) ﴾ [الأعراف]

وكُلٌّ منَّا يعلم أن الشيطان عدوٌّ له عداوة مُسبقة ، وحين تستعيذ بالله من الشيطان ، فأنت تكتسب حَصَانة من الشيطان .

وسبحانه القائل :

---

(١) الشظف : يُبْس العيش وشدته [لسان العرب ـ مادة : شظف] .

(٢) الدعة : الراحة والترف فى العيش . [لسان العرب ـ مادة : ودع] بتصرف .

(٣) نزغه الشيطان : وسوس له بالشر . ونزغ بين الرجلين : أفسد ما بينهما . قال تعالى : ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ .. (٢٠٠) ﴾ [الأعراف] . [القاموس القويم ـ مادة : نزغ] بتصرف .

﴿ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ[1] مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ (٢٠١) ﴾ [الأعراف]

أى : أن الإنسان حين يتذكر العداوة بينه وبين الشيطان ؛ فعليه أن يشحن نفسه بالمناعة الإيمانية ضد هذا النَّزْغ .

ويُذيِّل الحق سبحانه الآية الكريمة بقول يوسف :

﴿ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (١٠٠) ﴾ [يوسف]

فسبحانه هو المدبر الذى لا تَخْفى عليه خافية أبداً ، وكلمة « لُطْف » ضد كلمة « كثافة » فاللطيف هو الذى له جِرْم دقيق ، والشىء كلما لَطُف عَنُفَ ؛ لأنه لا توجد عوائق تمنعه .

ولا شىء يعوق الله أبداً ، وهو العليم بموقع وموضع كل شىء ، فهو يجمع بين اللُّطْف والخبرة ، فلُطْفه لا يقف أمامه أىُّ شىء ، ولا يوجد ما هو مستور عنه ، ولا يقوم أمام مراده شىء ، وسبحانه خبير بمواضع الأشياء ، وعلْمه سبحانه مُطْلق ، وهو حكيم يُجرى كل حَدَث بمراد دقيق ، ولا يضيف إليه أحد أىَّ شىء ، فهو صاحب الكمال المطلق .

ويذكر الحق سبحانه بعد ذلك مناجاة يوسف لله سبحانه :

﴿ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ[2] السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (١٠١) ﴾

---

(١) الطائف من الشيطان : مسُّه للإنسان بالوسوسة فهو يأتيه من كل جهة ليضله ولا ينجيه منه إلا ذكر الله . [القاموس القويم ١ / ٤١٠] .

(٢) فطر الله الخلق : خلقهم وبدأهم فهو فاطر . قال تعالى : ﴿ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ.. (١٠١) ﴾ [يوسف]خالقهما . وفى اللفظ معنى الشق فإنهما كانت رتقاً ففتقهما . وقوله : ﴿ فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ.. (٥١) ﴾ [الإسراء] أى : خلقكم أول مرة فى الدنيا . [القاموس القويم ٢/ ٨٥] .

ونعلم أن الربوبية تعنى الخَلْق من عدم ، والإمداد من عدم ؛ والإقاتة لاستبقاء الحياة ، والتزاوج لاستباق النسل ، وتسير كل هذه العمليات فى تناسق كبير .

فالحق سبحانه أوجد من عدم ، واستبقى الحياة الذاتية بالقوت ، واستبقى الحياة النوعية بما أباح من تزاوج وتكاثر .

وكل مخلوق له حَظٌّ فى عطاء الربوبية ، مؤمناً كان أم كافراً ، وكل مخلوقات الكون مُسخَّرة لكل الخلق ، فسبحانه هو الذى استدعى الخَلْق إلى الوجود ؛ ولذلك تكفل بما يحقق لهم الحياة .

ويختص الحق سبحانه عباده المؤمنين بعطاء آخر بالإضافة لعطاء الربوبية ؛ وهو عطاء الألوهية المتمثل فى المنهج .

يقول يوسف عليه السلام مناجياً ربه :

﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ .. (١٠١) ﴾ [يوسف]

أى : أنه سبحانه هو الذى أعطاه تلك السيادة ، وهذا النفوذ والسلطان ؛ فلا أحد يملك قَهْراً عن الله ؛ وحتى الظالم لا يملك قهراً عن الله ؛ ولذلك يقول الحق سبحانه فى آية أخرى من القرآن :

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦) ﴾ [آل عمران]

وإتيان المُلْك لا توجد فيه مقاومة ممَّنْ يملك ؛ ولكن نَزْع المُلْك هو الذى يقاومه المنزوع منه .

والحق سبحانه هو أيضاً الذى يُعِز مَنْ يشاء ، وهو الذى يُذل مَنْ يشاء .

وحين تتغلغل هذه الآية فى نفس المؤمن ؛ فهو يُوقِن أنه لا مفرَّ من القدر ، وأن إيتاء المُلْك خير ، وأن نزع الملك خير ، وأن الإعزاز خير والإذلال خير ؛ كى لا يطغى الإنسان ، ولا يتكبر ، ولا يُعدِّل فى إيمان غيره .

وكان بعض الناس يقولون : لا بد أن تُقدر محذوفاً فى الآية .

وهم قد قالوا ذلك بدعوى الظن أن هناك خيرين فى الآية وشَرَّيْن محذوفين.

وأقول : لا ، إن ما تظنه أيها الإنسان أنه شر إنما هو خير يريده الله ؛ فكل ما يُجريه الله خير .

وقول يوسف عليه السلام هنا :

﴿آتَيْتَنِى مِنَ الْمُلْكِ .. (١٠١)﴾ [يوسف]

يقتضى أن نفهم معنى « المُلْك » ؛ ومعنى « الملِك » ، ولنا أن نعرف أن كل إنسان له شىء يملكه ؛ مثل ملابسه أو قلمه أو أثاث بيته ، ومثل ذلك من أشياء ، وهذا ما يُسمَّى : « الملِك » . أما « المُلْك » فهو أن تملك مَنْ يملك .

وقد ملَّك الله بعضاً من خَلْقه لخلقه ، ملَّكهم أولاً ما فى حوزتهم ، وملَّكهم غيرهم ، وسبحانه ينزع المُلْك من واحد ويهبه لآخر ، كى لا تصبح المسألة رَتَابة ذات .

ومثال هذا : هو ما حدث لشاه إيران ، وكان له المُلْك ، وعنده كل أسباب الحضارة ، وفى طَوْعه جيش قوى ، ثم شاء الحق سبحانه أن ينزع منه المُلْك ، فقام غيره بتفكيك المسامير غير المرئية التى كان الشاه يُثبِّت بها عرشه ؛ فزال عنه المُلْك .

وأنت فى هذه الدنيا تملك السيطرة على جوارحك ؛ تقول لليد « إضربى فلان » فتضرب يدُك فلاناً ، إلى أن يأتى اليوم الآخر فلا يملك الإنسان السيطرة على جوارحه ؛ لأن المُلْك يومها يكون لله وحده ، فسبحانه القائل :

﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦)﴾ [غافر]

ففى اليوم الآخر تنتفى كل الولايات ، وتكون الولاية لله وحده . وبجانب « المُلْك » و « المِلْك » ؛ هناك الملكوت ، وهو ما لا تراه بأجهزة الحواس .

وسبحانه يقول :

﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ..(٧٥)﴾ [الأنعام]

أى : أن الحق سبحانه قد كشف لإبراهيم أسرار العالم الخفية من المخلوقات ، وأنت ترى العلماء وهم يتتبعون أسرار ممالك النباتات والحيوانات ؛ فتتعجب من دِقَّة خَلْق الله .

ومَنْ وهبه الله دِقَّة العلم وبصيرة العلماء ، يرى بإشعاعات البصر والعلم عالم الملكوت ، ويستخرج الأسرار ، ويستنبط الحقائق .

ويضيف يوسف عليه السلام فى مناجاته لربه :

﴿وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ .. (١٠١)﴾ [يوسف]

وهو يعترف بفضل الله عليه حين اختصّه بالقدرة على تأويل الأحاديث ؛ تلك التى أوَّل بها رُؤْيا الفتيَيْنِ اللذين كانا معه فى السجن ؛ وأوَّل رؤيا الملك ؛ هذا التأويل الذى قاده إلى الحكم ، وليس هذا غريباً أو عجيباً بالنسبة لقدرة الله سبحانه .

ويقول يوسف شاكراً لله :

﴿فَاطِرَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ ..(١٠١)﴾ [يوسف]

وما دام سبحانه هو خالق كل شىء ؛ فليس غريباً أن يُعلِّمه سبحانه ما شاء ، وكأن إيمان يوسف قد وصل به إلى أن يعلم ما قاله الحق سبحانه :

﴿أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤)﴾ [الملك]

ونحن فى حياتنا نجد الذى صنع جهازاً يستفيد منه غيره ؛ يوضح مواصفات استعمال الجهاز أو الأداة ، حتى ولو كانت نورجاً[1] أو محْراثاً ؛ وذلك ليضمن للجهاز الحركة السَّوِيَّة التى يؤدى بها الجهاز عمله .

والواحد منا إن تعطلت منه السيارة يستدعى الميكانيكى الذى ينظر ما فيها ؛ فإن كان أميناً ، فهو يُشخِّص بدقَّة ما تحتاجه السيارة ، ويُصلحها ، وإن كان غير أمين ستجده يُفسد الصالح ، ويزيد من الأعمال التى لا تحتاجها السيارة .

---

(١) النورج : آلة لدراس الحبوب يجره الحيوان والمحراث آلة الحرث .

وهكذا نرى أن كل صانع فى مجاله يعلم أسرار صنعته ، فما بالنا بالخالق الأعظم سبحانه وتعالى ؟

إنه خبير عليم بكل شىء .

ولماذا قال يوسف عن الحق سبحانه :

﴿ فَاطِرَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. (١٠١) ﴾ [يوسف]

لأنه يعلم أن الحق سبحانه قد خلق الإنسان ؛ والإنسان له بداية ونهاية ، لا يعلمها أحد غير الله سبحانه ، فقد يموت الإنسان وعمره يوم ، أو يموت فى بطن أمه ، أو بعد مائة سنة ، وتمر على الإنسان الأغيار .

أما السماوات والأرض فهى مخلوقات ثابتة ، فالشمس لا تحتاج إلى قطعة غيار ، ولم تقع ، وتعطى الدفء للأرض ، وهى مرفوعة عن الأرض ؛ لا تقع عليها بمشيئة الله .

والحق سبحانه هو القائل :

﴿ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٦٥) ﴾ [الحج]

واسمع قوله الحق :

﴿ لَخَلْقُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٥٧) ﴾ [غافر]

فالإنسان يتغير ويموت ؛ أما السماوات والأرض فثابتة إلى ما شاء الله .

ويقول يوسف عليه السلام مواصلاً المناجاة لله :

﴿أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ..(١٠١)﴾ [يوسف]

وصحيح أن الحق سبحانه وليّ ليوسف فى الدنيا ، وقد نصره وقرَّبه وأعانه ؛ بدليل كل ما مَرَّ به من عقبات ، ويرجو يوسف ويدعو ألاّ يقتصر عطاء الله له فى الدنيا الفانية ، وأن يثيبه أيضاً فى الباقية ، الآخرة .

وما دام سبحانه وليَّه فى الدنيا والآخرة ؛ فيوسف يدعوه :

﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (١٠١)﴾ [يوسف]

وقوله : ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا (١٠١)﴾ [يوسف]

إنما بسبب أن يكون أهلاً لعطاء الله له فى الآخرة ؛ فقد أخذ يوسف عطاء الدنيا واستمتع به ، ومَتّع به ، ومشى فيه بما يُرضِى الله .

وعند تمنِّى يوسف للوفاة وقف العلماء ، وقالوا : ما تمناها أحد إلا يوسف .

فالإنسان إن كان مُوفّقاً فى الدنيا ، تجده دائم الطموح ، وتوَّاقاً إلى المزيد من الخير .

وتحمل لنا ذاكرة التاريخ عن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز[1] أنه قَبِل الإمارة ، حينما كانوا يجيئون له بثوب ناعم ؛ كان يطلب

---

(١) هو : أبو حفص الخليفة الصالح ، من ملوك الدولة المروانية الأموية بالشام ، ولد ٦١ هـ ونشأ بالمدينة ، وولى إمارتها للوليد. ثم استوزره سليمان بن عبد الملك بالشام ، وولى الخلافة سنة ٩٩ هـ . ولم تطل مدته فقد مات عام ١٠١ هـ عن ٤١ عاماً . (الأعلام للزركلى ٥ / ٥٠) .

الأكثر منه نُعومة ، وإذا جِيءَ له بطعام ليِّن ؛ كان يطلب الأكثر لُيونة .

وحين صار خليفة ؛ كانوا يأتونه بالثوب ؛ فيطلب الأكثر خشونة ، وظن مَنْ حوله أنه لم يَعُدْ منطقياً مع نفسه ، ولم يفهموا أن له نفساً توَّاقة إلى الأفضل ؛ تستشرف الأعلى دائماً ، فحينما تَاقَ إلى الإمارة جاءتْه ؛ وحين تاق إلى الخلافة جاءتْه ، ولم يَبْقَ بعدها إلا الجنة[1] .

ونجد ميمون بن مهران وكان ملازماً له ؛ رضى الله عنهما ؛ دخل عليه مرة فوجده يسأل ربَّه الموت . فقال : يا أمير المؤمنين ، أتسأل ربك الموت وقد صنع الله على يديك خيراً كثيراً ؛ فأحيَيْتَ سُنناً ، وأَمَتَّ بِدعاً ؛ وبقاؤك خير للمسلمين ؟

فقال عمر بن عبد العزيز : ألا أكون كالعبد الصالح حينما أتمَّ الله عليه نعمته قال :

﴿ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِالصَّالِحِينَ (١٠١) ﴾ [يوسف]

وقوله :

﴿ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا .. (١٠١) ﴾ [يوسف]

مكونة من شِقَّين :

الشق الأول : طلب الموت .

والشق الثانى : أن يموت مسلماً .

وكُلُّنا يُتوفَّى دون أن يطلب ، وعلى ذلك يكون الشق الأول غير

---

(١) قال عمر بن عبدالعزيز : إن نفسى هذه تواقة ، لم تعط من الدنيا شيئاً إلا تاقت إلى ما هو أفضل منه ، فلما أعطيت الخلافة التى لا شىء أفضل منها تاقت إلى ما هو أفضل منها . قال سعيد بن عامر : الجنة أفضل من الخلافة . [حلية الأولياء ٥/٣٣١] .

مطلوب فى ذاته ؛ لأنه واقع لا محالة ، ويصبح المطلوب - إذن - هو الشق الثانى ، وهو أن يتوفاه الله مسلماً ؛ ولذلك حين نأتى إلى القبور نقول : السلام عليكم ديار قوم مؤمنين ، أنتم السابقون ، وإنَّا إنْ شاء الله بكم لاحقون[1] .

وإنْ قال سائل : ولماذا نقول إن شاء الله بكم لاحقون ، رغم أننا سنموت حَتْماً ؟

نقول : إن قولنا « إن شاء الله » سببه هو رغبتنا أن نلحق بهم كمؤمنين .

وأيضاً قد يسأل سائل : لماذا يقول نبى لربه :

﴿ وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (١٠١) ﴾ [يوسف]

وهل هناك صالح يأتى إلى هذا العالم دون أن يهتدى بمنهج نبى مرسل ؟

نقول : إن كلمة « الصالحين » تضم الأنبياء وغيرهم من الذين آمنوا برسالة السماء .

وهكذا انتهت قصة يوسف عليه السلام[2] ؛ ولذلك يتجه الحق

---

(١) عن بريدة الأسلمى قال : كان رسول الله ﷺ يعلمهم إذا خرجوا إلى المقابر ، فكان قائلهم يقول : « السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين ، إنا إن شاء الله بكم لاحقون ، أنتم فرطنا ونحن لكم تبع ، ونسأل الله لنا ولكم العافية » أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٥/٣٥٣ ، ٣٥٩) ، ومسلم فى صحيحه (٩٧٥) .

(٢) تُوفِّى يوسف عليه السلام بمصر ، وكان عمره ١٠٧ عاماً ، يذكر القرطبى فى تفسيره (٥/٣٦٠٥) أنه دفن فى النيل فى صندوق من رخام ، وذلك أنه لما مات تشاحَّ الناس عليه ، كل يحب أن يُدفن فى محلتهم ، لما يرجون من بركته ، واجتمعوا على ذلك حتى هَمُّوا بالقتال ، فرأوا أن يدفنوه فى النيل من حيث مفرق الماء بمصر ، فيمر عليه الماء ، ثم يتفرق فى جميع مصر ، فلما خرج موسى ببنى إسرائيل أخرجه من النيل ونقل تابوته بعد أربعمائة سنة إلى بيت المقدس ، فدفنوه مع آبائه » .

سبحانه من بعد تلك النهاية إلى المُرَاد من القصة التى جاءتْ مكتملة فى سورة كاملة ، غير بقية قَصَص القرآن التى تتناثر أىٌّ منها فى لقطات متفرقة بمواقع مختلفة من القرآن الكريم .

وذلك باستثناء قصة نوح التى جاءت مكتملة أيضاً ، لدرجة أن بعض السطحيين قالوا « إن هذا تكرار للقصة فى لقطات مختلفة » ودائماً أقول رداً على ذلك : إنه تأسيس للقطات ؛ إن اجتمعت جاءت القصة كاملة .

وشاء الحق سبحانه أن تأتى اللقطات متفرقة ؛ لأن كل لَقْطة إنما جاءت لمناسبة ما ، وكل القَصَص القرآنى قد جاء لتثبيت فؤاد رسول الله ﷺ ؛ لأنه خلال عمره الرِّسالى الذى استمر ثلاثة وعشرين عاماً تعرَّض لأحداث جِسَام . وكل لحظة كانت تحتاج لتثبيت ، فيُنزِل الحق سبحانه ما يُثبِّت به فؤاد[1] رسوله ﷺ فيوضح له فى موقع ما : لا تحزن ؛ لأن مَنْ سبقك من الرسل حدث معهم كذا[2] .

بل قد تجد فى الواقعة الواحدة لقطتيْن ، مثلما جاء فى العداوة بين موسى وفرعون .

قال الحق سبحانه :

﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا[3] .. (٨) ﴾ [القصص]

وهنا تكون العداوة من طرف موسى .

---

(١) يقول تعالى فى كتابه : ﴿ وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَـٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ (١٢٠) ﴾ [هود] .

(٢) يقول تعالى : ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٤) ﴾ [فاطر] .

(٣) الحُزْن والحَزَن : الهَمّ والغَمّ . [القاموس القويم ١/١٥٢] .

ويقول فى نفس المسألة أيضاً :

﴿ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ .. (٣٩) ﴾ [طه]

وهنا تكون العداوة من جهتين ؛ لأن العداوة تتفاعل حين تكون من جهتين ، فلا يمكن أن يستمر عداءٌ من طرف واحد ، وتقوم من أجل هذا العداء معركة ، لكن حين تكون العداوة من جهتين فهذا يُطيل أمَد المعركة .

والمثل الثانى هو قول الحق سبحانه فى نفس قصة موسى ؛ وهى لقطة متقدمة حدثتْ فى الأيام الأولى من حياة موسى ، وقبل أن تُلقيه أمه فى اليَمِّ ؛ فقد مهَّد الله لها الأمر .

يقول الحق سبحانه عن ذلك :

﴿ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي .. (٧) ﴾ [القصص]

وهذا شَحْذٌ لهمَّتها قبل الحادث ، وتنبيه لها من قبل أن يقع ، ولحظةَ أن جاء الحادث نفسه أوحى لها الحق سبحانه :

﴿ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ .. (٣٩) ﴾ [طه]

والذين قالوا : إن قَصص القرآن جاء مُبعثراً ، قد نسوا أن قصة نوح جاءت فى موقع واحد ، وجاءت سورة يوسف مَحْبوكة من أول الرؤيا إلى تولِّى المُلْك ، وجمع شَمْل العائلة .

ونزلت القصة فى سورة واحدة بعد أن سألوا عنها ؛ وهم يعلمون

أن محمداً ﷺ لم يجلس إلى مُعلِّم ، ولم يقرأ فى كتاب ، وتاريخه معروف بالنسبة لهم ، وحين يأتى لهم مُوضِّحاً أن الحق سبحانه قد أنزل عليه ، فكذَّبوه ؛ وادَّعَوْا أنه يسمع لقطة من هنا ؛ ولقطة من هناك . حين سألوه أن يأتى بقصة يوسف جاء بها كاملة ؛ من أولها إلى آخرها .

ويقول الحق سبحانه فى نهاية القصة :

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ (١)

و « ذلك » إشارة إلى هذه القصة ، والخطاب مُوجَّه إلى محمد ﷺ أى : أنك يا محمد لم تكُنْ معهم حين قالوا :

﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا .. ﴿٨﴾﴾ [يوسف]

فالحق سبحانه أخبرك بأنباء لم تكن حاضراً لأحداثها ، والغيب – كما علمنا من قبل – هو ما غاب عنك ، ولم يَغِبْ عن غيرك ، وهو غيب نسبىّ ؛ وهناك الغيب المُطْلق ، وهو الذى يغيب عنك وعن أمثالك من البشر .

والغيب كما نعلم له ثلاثة حواجز :

الأول : هو حاجز الزمن الماضى الذى لم تشهده ؛ أو حاجز الزمن المستقبل الذى لم يَأْتِ بَعْد .

---

(١) أجمع القوم على أمر : اتفقوا عليه . وأجمع الأمر : عزم عليه وأحكمه . قال تعالى : ﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا .. ﴿٦٤﴾﴾ [طه] . [القاموس القويم ١/١٢٧] .

والثانى : هو حاجز المكان .

والثالث : هو حاجز الحاضر ، بمعنى أن هناك أشياء تحدثُ فى مكان أنت لا توجد فيه ، فلا تعرف من أحداثه شيئاً .

و ﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ .. (١٠٢)﴾ [يوسف]

أى نُعلمك به بطَرْف خَفىّ ، حين اجتمعوا ليتفقوا ، إما أن يقتلوا يوسف ، أو يُلْقوه فى غيابة[1] الجب .

وكشف لك الحق سبحانه حجاب الماضى فى أمر لم يُعلمه لرسول الله ؛ ولم يشهد ﷺ ما دار بين الإخوة مباشرة ، أو سماعاً من مُعلِّم ، ولم يقرأ عنه ؛ لأنه ﷺ أُمىّ لم يتعلم القراءة أو الكتابة .

وسبحانه يقول عن رسوله ﷺ :

﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ[2] بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ (٤٨)﴾ [العنكبوت]

وهم بشهادتهم يعلمون كل حركة لرسول الله ﷺ قبل أن يُبعث ؛ إقامة وترْحالاً والتقاءً بأىِّ أحد .

فلو علموا أنه قرأ كتاباً لكانت لهم حُجَّة ، وحتى الأمر الذى غابتْ عنهم فطْنتهم فيه ؛ وقالوا :

---

(١) غيابة الجب : ما غاب من جوانبه عن النظر ويستر ما اختبأ فيه (القاموس القويم ٢/٦٤) والجب : هى البئر التى لم تُبْن بالحجارة .

(٢) الخط : السطر والكتابة . خط الكتابة يخطه خطاً : كتبه . قال تعالى : ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ .. (٤٨)﴾ [العنكبوت] أى : قبل القرآن ما كنت قارئاً ولا كاتباً . [القاموس القويم ١/١٩٨] .

﴿ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ .. (١٠٣) ﴾ [النحل]

فَرَدَّ عليهم الحق سبحانه :

﴿ لِّسَانُ الَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ (١٠٣) ﴾ [النحل]

وأبطل الحق سبحانه هذه الحجة ، وقد قَصَّ الحق سبحانه على رسوله الكثير من أنباء الغيب ، وسبق أن قلنا الكثير عن : « ما كُنَّات القرآن » ، مثل قوله تعالى :

﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ[1] أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٤٤) ﴾ [آل عمران]

وقوله الحق :

﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ[2] إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٤٤) ﴾ [القصص]

فكأن مصدر علم الرسول بكل ذلك هو من إخبار الله له .

وقد استقبل أهل الكفر ما طلبوا أن يعرفوه من قصة يوسف

---

(١) القلم : السهم أو خشبة تشبهه يكتب عليه رمز يدل على مقدار يعطى لمن يخرج باسمه ، وكانوا يستعملونه فى القمار أو فى القرعة ومن استعماله فى القرعة ، قوله : ﴿ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ .. (٤٤) ﴾ [آل عمران] فالأقلام هنا سهام الاقتراع ، وقد أجريت القرعة ففاز سهم زكريا فكفل مريم . [القاموس القويم ١٣٢/٢] .

(٢) هو : الجبل الغربى الذى كلم الله موسى من الشجرة التى هى شرقية على شاطىء الوادى . [ابن كثير ٣٩١/٣] .

باللدد[١] والجحود ـ وهم قد طلبوا مطلبهم هذا بتأسيس من اليهود ـ وهو ﷺ جاء لهم بقصة يوسف فى مكان واحد ، ودفعة واحدة ، وفى سورة واحدة ، لا فى لقطات متعددة منثورة كأغلب قصص القرآن .

وقد جاء لهم بها كاملة ؛ لأنهم لم يطلبوا جزئية منها ؛ وإنما سألوه عن القصة بتمامها ، وتوقعوا أن يعزف عن ذلك ، لكنه لم يعزف ، بل جاء لهم بما طلبوه .

وكان يجب أن يلتفتوا إلى أن الله هو الذى أرسله ، وهو الذى علَّمه ؛ وهو الذى أنبأه ، لكنهم لم يؤمنوا ، وعَزَّ ذلك على رسول الله ﷺ ، فأوضح له سبحانه : لا تبتئس ولا تيأس :

﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ[٢] نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣) ﴾ [الشعراء]

ويقول له سبحانه :

﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَـٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا (٦) ﴾ [الكهف]

فأنت يا رسول الله عليك البلاغ فقط ، ويذكر الحق ذلك ليُسلِّى رسوله ﷺ حين رأى لدد الكافرين ؛ بعد أن جاء لهم بما طلبوه ، ثم جحدوه :

﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا .. (١٤) ﴾ [النمل]

---

(١) لدَّ يلدُّ : اشتد فى الجدل والخصومة . والألدُّ : اسم تفضيل أى الأشد خصومة وجدلاً . قال تعالى : ﴿ وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ (٢٠٤) ﴾ [البقرة] [القاموس القويم ١٩١/٢] .

(٢) بخع نفسه : قتلها هماً وغيظاً وحزناً . [لسان العرب ـ مادة : بخع] .

وهم قد جحدوا ما جاء به رسول الله ﷺ ؛ لأنهم حرصوا على السلطة الزمنية فقط ، وكان من الواجب أن يؤمنوا بما جاءهم به ، لكن العناد هو الذى وقف بينهم وبين حقيقة اليقين وحقيقة الإيمان .

وأنت لا تستطيع أن تواجه المُعَاند بحجة أو بمنطق ، فهم يريدون أن يظل الضعفاء عبيداً ، وأن يكونوا مسيطرين على الخَلْق بجبروتهم ، والدين سيُسوِّى بين الناس جميعاً ، وهم يكرهون تلك المسألة .

ويأتى الحق سبحانه بعد ذلك بقضية كونية ، فيقول :

﴿ وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ ﴾

فأنت يا محمد لن تجعل كل الناس مؤمنين ؛ ولو حرصت على ذلك ، وكان ﷺ شديد الحرص على أن يؤمن قومه ، فهو منهم .

ويقول فيه الحق سبحانه :

﴿ لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ (١) حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [التوبة]

لكنهم جحدوا ما جاءهم به ؛ وقد أحزنه ذلك الأمر . وفى الحرص نجد آية خاصة باليهود ؛ هؤلاء الذين دفعوا أهل مكة أن يسألوا الرسول ﷺ عن قصة يوسف ؛ يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمۡ أَحۡرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٖ .. ﴿٩٦﴾ ﴾ [البقرة]

---

(١) العنت : المشقة . وأعنته : أوقعه فى العنت وشق عليه . قال تعالى : ﴿ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعۡنَتَكُمۡ .. ﴿٢٢٠﴾ ﴾ [البقرة] أى : كلفكم الأمور الشاقة التى توقعكم فى العنت [القاموس القويم ٢/٣٩] .

وكان على أهل مكة أن يؤمنوا ما دام قد ثبت لهم بالبينات أنه رسول من الله .

وجاء قوله الحق :

﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ (١٠٣)﴾ [يوسف]

جاء ذلك القولُ تسليةً من الحق سبحانه لرسوله ، وليؤكد له أن ذلك ليس حال أهل مكة فقط ، ولكن هذه هى طبيعة معظم الناس . لماذا ؟

لأن أغلبهم لا يُحسن قياس ما يعطيه له منهج الله فى الدنيا والآخرة ، والإنسان حين يُقبل على منهج الله ، يقيس الإقبال على هذا المنهج بما يُعطيه له فى الآخرة ؛ فلسوف يعلم أنه مهما أعطى لنفسه من مُتَع الدنيا فعُمْره فيها مَوْقُوت بالقَدْر الذى قدَّره له الله ، والحياة يمكن أن تنتهى عند أية لحظة .

والحق سبحانه حين خبأ عن الناس أعمارهم فى الدنيا ، لم يكُنْ هذا الإخفاء إبهاماً كما يظن البعض ، وهذا الإبهام هو فى حقيقته عَيْن البيان ، فإشاعة حدوث الموت فى أى زمن يجعل الإنسان فى حالة ترقُّب .

ولذلك فميتات الفُجَاءة لها حكمة أن يعرف كل إنسان أن الموت لا سببَ له ، بل هو سبب فى حَدِّ ذاته ؛ سواء كان الموت فى حادثة أو بسبب مرض أو فجأة ، فالإنسان يتمتع فى الدنيا على حسب عمره المحدد الموقوت عند الله سبحانه ، أما فى الآخرة فإنه يتمتع على قدر إمدادات الخالق سبحانه .

والإنسان المؤمن يقيس استمتاعه فى الآخرة بقدرة الله على العطاء ، وبإمكانات الحق لا إمكانات الخَلْق .

وهَبْ أن إنساناً معزولاً عن أمر الآخرة ، أى : أنه كافر بالآخرة وأخذها على أساس الدنيا فقط ، نقول له : انظر إلى ما يُطلب منك نهياً ؛ وما يُطلب منك أمراً ، ولا تجعله لذاتك فقط ، بل اجعله للمقابل لك من الملايين غيرك .

سوف تجد أن نواهى المنهج إن منعتْك عن شر تفعله بغيرك ؛ فقد منعتْ الغير أن يفعل بك الشر ، فى هذا مصلحة لك بالمقاييس المادية التى لا دَخْل للدين بها .

ويجب أن نأخذ هذه المسألة فى إطار قضية هى « دَرْء المفسدة مُقدّم على جلْب المصلحة » .

وهَبْ أن إنساناً مُحباً لك أمسك بتفاحة وأراد أن يقذفها لك ، بينما يوجد آخر كاره لك ، ويحاول أن يقذفك فى نفس اللحظة بحجر ، وأطلق الاثنان ما فى أيديهما تجاهك ، هنا يجب أن تردَّ الحجر قبل أن تلتقط التفاحة ، وهكذا يكون دَرْء المفسدة مُقدّماً على جلْب المصلحة .

وعلى الإنسان أن يقيس ذلك فى كل أمر من الأمور ؛ لأن كثيراً من أدوات الحضارات أو ابتكارات المدنية أو المخترعات العلمية قد تعطينا بعضاً من النفع ، ولكن يثبت أن لها ـ من بعد ذلك ـ الكثير من الضرر .

مثال هذا : هو اختراع مادة «د. د. ت» التى قتلت بعض الحشرات ، وقتلت معها الكثير من الطيور المفيدة .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَا تَقْفُ[1] مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ .. (٣٦) ﴾ [الإسراء]

وعليك أن تدرس أيَّ مُخْتَرع قبل استعماله ؛ لترى نفعه وضرره قبل أن تستعمله .

وقد رأينا مَنْ يُدخلون الكهرباء إلى بيوتهم ، يحاولون أن يرفعوا موقع « فِيَش » الكهرباء عن مستوى تناول الأطفال ؛ كى لا يضع طفل أصابعه فى تلك الفتحات فتصعقهم الكهرباء ، ووجدنا بعضاً من المهندسين قد صَمَّموا أجهزة تفصل الكهرباء آلياً إنْ لمستْها يَدُ بشر .

وهذا هو دَرْء المفسدة المُقدَّم على جَلْب المنفعة ، وعلينا أن نحتاط لمثل هذه الأمور .

وفى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها نجد الحق سبحانه يقول:

﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ (١٠٣) ﴾ [يوسف]

وهل قوله :

﴿ أَكْثَرُ النَّاسِ .. (١٠٣) ﴾ [يوسف]

نسبةً للذين لا يؤمنون ، يعنى أن المؤمنين قلة ؟

---

(١) قفاه : يقفوه قفْواً : مشى خلفه أو تبعه . وأصله من القفا . وقوله : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ .. (٣٦) ﴾ [الإسراء] أى : لا تتبع من العقائد ما ليس لك به علم ، ولا من الآراء ، ولا من الأحداث ما لا تعرف له دليلاً ، ولا تسترسل فى الحديث عما ليس لك به علم . [القاموس القويم ١٢٨/٢] .

نقول : لا ؛ لأن « أكثر » قد يقابله « أقل » ، وقد يقابله « الكثير » .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ .. (١٨) ﴾ [الحج]

وهكذا نجد أن كلمة « كثير » قد يقابلها أيضاً كلمة « كثير » .

وقد أوضح الحق سبحانه لرسوله ﷺ أنه لو حرص ما استطاع أن يجعل أكثر الناس مؤمنين ، والحِرْص هو تعلُّق النفس وتعبئة مجهود للاحتفاظ بشيء نرى أنه يجلب لنا نفعاً أو يذهب بضُرٍّ ، وهو استمساك يتطلب جهداً .

ولذلك يوضح له الحق سبحانه : أنت لن تهدى مَنْ تحرص على هدايته .

ويقول سبحانه :

﴿ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَن يُضِلُّ .. (٣٧) ﴾ [النحل]

ومن هذه الآية نستفيد أن كل رسول عليه أن يُوطِّن نفسه على أن الناس سيعقدون مقارنات بين البدائل النفعية ؛ وسيقعون فى أخطاء اختيار غير الملائم لفائدتهم على المدى الطويل ؛ فوطِّنْ نفسك يا محمد على ذلك .

وإذا كنتَ يا رسول الله قد حملتَ الرسالة وتسألهم الإيمان

لفائدتهم ، فأنت تفعل ذلك دون أجر ؛ رغم أنهم لو فَطِنوا إلى الأمر لكان يجب أن يقدروا أجراً لمن يهديهم سواء[١] السبيل ، لأن الأجر يُعْطَى لمن يقدم لك منفعة .

والإنسان حريص على أن يدفع الأجر لمن يُعينه على منفعة ؛ والمنفعة إما أن تكون موقوتة بزمن دنيوى ينتهى ، وإما أن تكون منفعة ممتدة إلى ما لا نهاية ؛ راحة فى الدنيا وسعادة فى الآخرة .

ويأتى القرآن بقول الرسل[٢] :

﴿ لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا .. (٩٠) ﴾ [الأنعام]

ولم يَقُلْ ذلك اثنان هما : إبراهيم عليه السلام ، وموسى عليه السلام .

وكان العقل يقول : كان يجب على الناس لو أنها تُقدِّر التقدير السليم ؛ أن تدفع أجراً للرسول الذى يُفسِّر لهم أحوال الكون ، ويُطمئنهم على مصيرهم بعد الموت ، ويشرح لهم منهج الحق ، ويكون لهم أُسْوة حسنة .

---

(١) سواء : تدل على معنى التوسط والتعادل . فسواء السبيل : وسطه . قال تعالى : ﴿ قَالَ عَسَىٰ رَبِّى أَن يَهْدِيَنِى سَوَاءَ السَّبِيلِ (٢٢) ﴾ [القصص] أى : وسط الطريق الموصِّل للخير . [القاموس القويم ١/٣٣٨] .

(٢) قالها نوح عليه السلام : [يونس : ٧٢] ، [هود : ٢٩] ، [الشعراء : ١٠٩] .
وقالها هود عليه السلام : [هود : ٥١] ، [الشعراء : ١٢٧] .
وقالها صالح عليه السلام : [الشعراء : ١٤٥] .
وقالها لوط عليه السلام : [الشعراء : ١٦٤] .
وقالها شعيب عليه السلام : [الشعراء : ١٨٠] .
وقالها محمد ﷺ رسول الله : [سبأ : ٤٧] .

ونحن نجد فى عالمنا المعاصر أن الأسرة تدفع الكثير للمدرس الخصوصى الذى يُلقِّن الابن مبادىء القراءة والكتابة ، فما بالنا بمَنْ يضىء البصر والبصيرة بالهداية ؟

ومقتضى الأمر أن الرسول ﷺ يقدم نفعاً أبدياً لمن يتبعه ، لكنه لم يطلب أجراً .

ويقول الحق سبحانه :

﴿وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾﴾

وفى هذا القول الكريم ما يوضح أن النبى ﷺ لا يسأل قومه أجراً على هدايته لهم ؛ لأن أجره على الله وحده .

والحق سبحانه هو القائل :

﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [الطور]

والحق سبحانه يقول على لسان رسوله فى موقع آخر :

﴿مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ .. ﴿٤٧﴾﴾ [سبأ]

وهو هنا يُعلِى الأجر ، فبدلاً من أن يأخذ الأجر من محدود القدرة على الدَّفْع ، فهو يطلبها من الذى لا تُحَدّ قدرته فى إعطاء الأجر ؛ فكأن العمل الذى يقوم به لا يمكن أن يُجَازى عليه إلا من الله ؛ لأن العمل الذى يؤديه بمنهج الله ومن الله ، فلا يمكن إلا أن يكون الأجر عليه من أحد غير الله .

ولذلك يقول سبحانه :

﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ (١٠٤)﴾ [يوسف]

والذكر يُطْلَق إطلاقات متعددة ، ومادة « ذال » و « كاف » و « راء » مأخوذة من الذاكرة . وعرفنا من قبل أن الإنسان له آلات استقبال هى الحواس الإنسانية ، وتنتقل المعلومات أو الخبرات منها إلى العمليات العقلية ، وتمرُّ تلك المعلومات ببؤرة الشعور ، لتُحفظ لفترة فى هذه البؤرة ، ثم تنتقل إلى حاشية الشعور ، إلى أن تستدعيها الأحداث ، فتعود مرة أخرى إلى بُؤْرة الشعور .

ولذلك أنت تقول حين تتذكر معلومة قديمة « لقد تذكرتها » ؛ كأن المعلومة كانت موجودة فى مكان ما فى نفسك ؛ لكنها لم تَكُنْ فى بؤرة الشعور . وحين جاءت عملية الاستدعاء ، فهى تنتقل من حاشية الشعور إلى بُؤْرة الشعور .

والتذكُّر هو : استدعاء المعلومة من حاشية الشعور إلى بؤرة الشعور .

والحق سبحانه يقول :

﴿ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ ..(٥)﴾ [إبراهيم]

أى : ذكِّرهم بما مَرَّ عليهم من أحداث أجراها الله ؛ وهى غير موجودة الآن فى بُؤْرة شعورهم . وسُمِّى القرآن ذكراً ؛ لأنه يُذكِّر كل مؤمن به بالله الذى تفضَّل علينا بالمنهج الذى تسير به حياتنا إلى خير الدنيا والآخرة .

فالذكر - إذن - يكون للعاقل معونة له ، وهو من ضمن رحمة الله بالخَلْق ، فلم يترك الخلقَ منشغلين بالنعمة عن مَنْ أنعمها عليهم ، فهذا الكون منظم بِدقَّة بديعة ، وفيه كل مُقوِّمات حياة البشر .

ومن فضل الله عليهم أنه أرسل الرسل مُذكِّرين لهم بهذا العطاء الربانى .

وكلمة « ذكر » تدل على أن الفطرة فى الإنسان كان يجب أن تظل واعية ذاكرة لله ، وقد قَدَّر الله غفلة الأحداث ، فجعل لهم الذكر كله فى القرآن الكريم .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾

وإذا سمعتَ « كأين » افهم أن معناها كثير كثير ؛ بما يفوق الحَصْر ، ومثل « كأين » كلمة « كم » ، والعَدُّ هو مظنة الحصر ، والشىء الذى فوق الحصر ؛ تنصرف عن عَدِّه ، ولا أحد يحصر رمال الصحراء مثلاً ، لكن كلاً منا يعُدُّ النقود التى يردُّها لنا البائع ، بعد أن يأخذ ثمن ما اشتريناه .

إذن : فالانصراف عن العَدِّ معناه أن الأمر الذى نريد أن نتوجه لعدِّه فوق الحصر ، ولا أحد يعُدُّ النجوم أو يحصيها .

ولذلك نجد الحق سبحانه يُنبِّهنا إلى هذه القضية ، لإسباغ نعمه على خلقه ، ويقول :

﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا ..(٣٤) ﴾ [إبراهيم]

و « إنْ » هى للأمر المشكوك فيه ، وأنتم لن تعدُّوا نعمة الله ؛ لأنها فوق الحصر ، والمعدود دائماً يكون مُكَرراً ، وذَكَر الحق هنا نعمة واحدة ، ولم يحددها ؛ لأن أىَّ نعمة تستقبلها من الله لو استقصيتها لوجدتَ فيها نِعَماً لا تُحصَر ولا تُعَدُّ .

إذن : فكلمة « كأين » تعنى « كم » ، وأنت تقول للولد الذى لم يستذكر دروسه : كم نصحتك ؟ وأنت لا تقولها إلا بعد أن يفيض بك الكيل .

وتأتى « كم » ويُراد بها تضخيم العدد ، لا منك أنت المتكلم ، ولكن ممَّنْ تُوجِّه إليه الكلام ، وكأنك تستأمنه على أنه لن ينطق إلا صِدْقاً ، أو كأنك استحضرتَ النصائح ، فوجدتها كثيرة جداً .

والسؤال عن الكمية إما أنْ يُلْقَى من المتكلم ، وإما أن يُطلب من المخاطب ؛ وطلبُه من المخاطب دليل على أنه سَيُقِرّ على نفسه ، والإقرار سيد الأدلة .

وحين يقول الحق سبحانه :

﴿ وَكَأَيِّن (١٠٥) ﴾ [يوسف]

فمعناها أن ما يأتى بعدها كثير ..

وسبحانه القائل :

﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ[١] كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا[٢] لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا[٣] وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (١٤٦) ﴾

[آل عمران]

وهكذا نفهم أن (كأين) تعنى الكثير جداً ؛ الذى بلغ من الكثرة مبلغاً يُبرر لنا العذر أمام الغير إنْ لم نُحْصِه .

والآيات هى جمع « آية » ؛ وهى الشىء العجيب ، المُلْفِت للنظر ، ويُقال : فلان آية فى الذكاء . أى : أن ذكاءه مَضْرب المثل ، كأمر عجيب يفوق ذكاء الآخرين .

ويُقال : فلان آية فى الشجاعة ؛ وهكذا .

ومعنى الشىء العجيب أنه هو الخارج عن المألوف ، ولا يُنسَى .

وقد نثر الحق سبحانه فى الكون آيات عجيبة ، ولكل منثور فى الكون حكمة . وتنقسم معنى الآيات إلى ثلاث :

الأول : هو الآيات الكونية التى تحدثنا عنها ، وهى عجائب ؛ وهى حُجَّة للمتأمل أن يؤمن بالله الذى أوجدها ؛ وهى تلفتُك إلى أن مَنْ خلقها لا بُدَّ أن تكون له منتهى الحكمة ومنتهى الدِّقة ، وهذه الآيات تلفتنا إلى صدق توحيد الله والعقيدة فيه .

---

(١) الرِّبىُّ : العالم التقى الصابر . قال تعالى : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ .. (١٤٦) ﴾ [آل عمران] والربى : مَنْ ربَّيته ، وهم هنا من ربّاهم النبى فقاتلوا معه وناصروه . [القاموس القويم ١/٢٥١] .

(٢) الوهن : الضعف فى العمل والأمر . ورجل واهن فى الأمر والعمل ، وموهون فى العظم والبدن . [لسان العرب ـ مادة : وهن] .

(٣) استكان : خضع وذل . [لسان العرب ـ مادة : سكن] .

وقد نثر الحق سبحانه هذه الآيات فى الكون . وحينما أعلن الله بواسطة رسله أنه سبحانه الذى خلقها ، ولم يَقُلْ أحد غيره : « أنا الذى خلقت » فهذه المسألة ـ مسألة الخلق ـ تثبُت له سبحانه ، فهو الخالق وما سواه مخلوق، وهذه الآيات قد خُلقت من أجل هدف وغاية .

وفى سورة الروم نجد آيات تجمع أغلب آيات الكون ؛ فيقول الحق سبحانه :

﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ (١٧) وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ[1] (١٨) يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ (١٩) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ (٢٠) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ (٢٢) وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٢٣) وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٤) وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ (٢٥) ﴾ [الروم]

كل هذه آيات تنبه الإنسان الموجود فى الكون أنه يتمتع فيه

---

(١) أظهر : دخل فى وقت الظهيرة . والظهيرة : وقت الظهر ، ويتسع إلى العصر ، قال تعالى : ﴿ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ .. (٥٨) ﴾ [النور] أى : حين تستريحون فى منازلكم بعد صلاة الظهر عادة إلى العصر [القاموس القويم ١/٤١٨] .

طبقاً لنواميس عليا ؛ فيها سِرٌّ بقاء حياته ؛ فيجب أن ينتبه إلى مَنْ أوجدها .

وبعد أن يتنبه إلى وجود واحد أعلى ؛ كان عليه أن يسأل : ماذا يريد منه هذا الخالق الأعلى ؟

هذه الآيات تفرض علينا عقلياً أن يوجد مَنْ يبلغنا مطلوبَ الواجد الأعلى ، وحينما يأتى رسول يقول لنا : إن مَنْ تبحثون عنه اسمه الله ؛ وهو قد بعثنى لأبلغكم بمطلوبه منكم أن تعبدوه ؛ فتتبعوا أوامره وتتجنبوا نواهيه .

والنوع الثانى من الآيات هى آيات إعجازية ، والمراد منها تثبيت دعوة الرسل ، فكان ولا بُدَّ أن يأتى كل رسول ومعه آية ؛ لتثبت صِدْق بلاغه عن الله ؛ لأن كل رسول هو من البشر ، ولا بد له من آيةَ تخرق النواميس ، وهى المعجزات التى جاءت مع الرسل .

وهناك آيات حُكْمية ، وهى **النوع الثالث** ، وهى الفواصل التى تحمل جُملاً ، فيها أحكام القرآن الكريم ؛ وهو المنهج الخاتم .

وهى آياتٌ عجيبة أيضاً ؛ لأنك لا تجد حُكْماً من أحكام الدين إلا ويمسُّ منطقياً حاجةً من حاجات النفس الإنسانية ، والبشر وإنْ كفروا سيُضطرون إلى كثير من القضايا التى كانوا ينكرونها ، ولكن لا حَلَّ للمشكلات التى يواجهونها ، ولا تُحَلّ إلا بها .

والمثل الواضح هو الطلاق ، وهم قد عَابُوا مجىء الإسلام به ؛ وقالوا : إن مثل هذا الحل للعلاقة بين الرجل والمرأة قد يحمل الكثير

من القسوة على الأسرة ، لكنهم لجأوا إليه بعد أن عضَّتهم أحداث الحياة ، وهكذا اهتدى العقل البشرى إلى حكم كان يناقضه .

وكذلك أمر الربا الذى يحاولون الآن وَضْع نظام ليتحللوا من الربا كله ، ويقولون : لا شىء يمنع العقل البشرى من التوصُّل إلى ما يفيد .

وهكذا نجد الآيات الكونية هى عجائب بكل المقاييس ، والآيات المصاحبة للرسل هى معجزات خَرَقتْ النواميس ، وآياتُ القرآن بما فيها من أحكام تَقِى الإنسان من الداء قبل أن يقع ، وتُجبرهم معضلات الحياة أن يعودوا إلى أحكام القرآن ليأخذوا بها .

وهم يُعرضون عن كل الآيات ، يُعرضون عن آيات الكون التى إنْ دَقَّقوا فيها لَثبتَ لهم وجود إله خالق ؛ ولأخذوا عطاءً من عطاءات الله ليسرى تربية وتنمية ، وكل الاكتشافات الحديثة إنما جاءت نتيجةً لملاحظاتِ ظاهرةٍ ما فى الكون .

وسبق أن ضربتُ المثل بالرجل الذى جلس ليطهو فى قِدْر ؛ ثم رأى غطاء القِدْر يعلو ؛ ففكَّر وتساءل : لماذا يعلو غطاء القدر ؟ ولم يُعرِض الرجلَ عن تأمُّل ذلك ، واستنباط حقيقة تحوُّل الماء إلى بخار ؛ واستطاع عن طريق ذلك أن يكتشف أن الماء حين يتبخر يتمدد ؛ ويحتاج إلى حَيِّزٍ أكبر من الحَيِّز الذى كان فيه قبل التمدد .

وكان هذا التأمُّل وراء اكتشاف طاقة البخار التى عملتْ بها البواخر والقطارات ، وبدأ عصر سُمِّى « عصر البخار » . وهذا الذى رأى طَفْوَ طبقٍ على سطح الماء وتأمّل تلك الظاهرة ، ووضع قاعدة باسمه ، وهى « قاعدة أرشميدس » .

وهكذا نجد أن أى إنسان يتأمل الكون بدِقَّة سيجد فى ظواهره ما يفيده فى الدنيا ؛ كما استفاد العالم من تأملات أرشميدس وغيره ؛ ممَّنْ قدَّموا تأملاتهم كملاحظات ، تتبعها العلماء ليصلوا إلى اختراعات تفيد البشرية .

وهكذا نرى أن الحق سبحانه لا يضِنُّ على الكافر بما يفيد العالم ما دام يتأمل ظواهر الكون ، ويستنبط منها ما يفيد البشرية .

إذن : فقوله تعالى :

﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا . . (١٠٥) ﴾[يوسف]

إنْ أردتها وسيلة للإيمان بإله ؛ فهى تقودك إلى الإيمان ؛ وإنْ أردتها لفائدة الدنيا فالحقُّ لم يبخل على كافر بأن يُعطِيه نتيجة ما يبذل من جهد .

فكل المطلوب ألاّ تمُرَّ على آيات الله وأنت مُعرِض عنها ؛ بل على الإنسان أن يُقبِل إقبال الدارس ، إما لتنتهى إلى قضية إيمانية تُثرِى حياتك ؛ وتعطيك حياة لا نهايةَ لها ، وهى حياة الآخرة ، أو تُسعِد حياتك وحياة غيرك ، بأن تبتكر أشياء تفيدك ، وتفيد البشرية .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ (١٠٦) ﴾

وهكذا نرى المصافى التى يمر بها البشر ليصلوا إلى الإيمان .

المصفى الأول : قوله تعالى :

﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ (١٠٣)﴾ [يوسف]

أى : أن الكثير من الناس لن يَصِلوا إلى الإيمان ، حتى ولو حرص الرسول ﷺ أن يكونوا مؤمنين .

وقلنا : إن مقابل « كثير » قد يكون « قليل » ، وقد يكون « كثير » ، وبعض المؤمنين قد يشوب إيمانهم شبهةٌ من الشرك ، صحيح أنهم مؤمنون بالإله الواحد ، ولكن إيمانهم ليس يقينياً ، بل إيمان متذبذب ، ويُشرِكون به غيره .

والمصفى الثانى : قوله تعالى :

﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ (١٠٦)﴾ [يوسف]

ومثال هذا : كفار قريش الذين قال فيهم الحق سبحانه :

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ .. (٨٧)﴾ [الزخرف]

ويقول فيهم أيضاً :

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ.. (٢٥)﴾ [لقمان]

ورغم قولهم هذا إلا أنهم جعلوا شفعاء لهم عند الله ، وقالوا : إن الملائكة بنات الله ، وهكذا جعلوا لله شركاء . ومعهم كل مَنْ ادعى أن لله ابناً من أهل الكتاب .

وأيضاً مع هؤلاء يوجد بعض من المسلمين الذين يخصُّون قوماً أقوياء بالخضوع لهم خضوعاً لا يمكن أن يُسمَّى فى العرف مودة ؛ لأنه تَقرُّب ممتلىء بالذلة ؛ لأنهم يعتقدون أن لهم تأثيراً فى النفع والضر ؛ وفى هذا لون من الشرك .

ويأتى الواحد من هؤلاء ليقول لِمَنْ يتقرب منه : أرجو أن تقضى لى الأمر الفلانى . ويرد صاحب النفوذ : اعتمد على الله ، وإن شاء الله سيقضى الله لك حاجتك .

لكن صاحب الطلب يتمادى فى الذِّلة ، ليقول : وأنا أعتمد عليك أيضاً ، لتقضى لى هذه الحاجة .

أو يرد صاحب النفوذ ويقول : أنا سوف أفعل لك الشىء الفلانى ؛ والباقى على الله .

وحين أسمع ذلك فأنا أتساءل : وماذا عن الذى ليس باقياً ، أليس على الله أيضاً ؟

وينثر الله حكَماً فى أشياء تمنَّاها أصحابها ؛ فَقُضيتْ ؛ ثم تبين أن فيها شراً ، وهناك أشياء تمناها أصحابها ؛ فلم تُقْضَ ؛ ثم تبين أن عدم قضائها كان فيه الخير كل الخير .

نجد الأثر يقول :

وَاطلبُوا الأشياءَ بِعزَّةِ الأنفُسِ فَإِنَّ الأُمورَ تَجْرِى بِمقَادِير

وربما منعك هذا فكرهته ، وكان المنع لك خيراً من قضائه لك ، فإن المنع عَيْن العطاء ، ولذلك فعلى الإنسان أن يعرف دائماً أن الله هو الفاعل ، وهو المسبب ، وأن السبب شىء آخر .

ودائماً أذكِّر بأننا حين نحجُّ أو نعتمر نسعى بين الصفا[1] والمروة

---

(١) الصفا والمروة : جبلان بين بطحاء مكة والمسجد . وأصل الصفا العريض من الحجارة الأملس. [لسان العرب ـ مادة : صفا] . والمروة : الحجر الأبيض الهشُّ البراق . ومروة المسعى التى تُذكر مع الصفا ، وهى أحد رأسيْه اللذين ينتهى السعى إليهما سميت بذلك . [لسان العرب ـ مادة : صفا] .

لنتذكر ما فعلتْه سيدتنا هاجر التى سَعَتْ بين الصفا والمروة ؛ لتطلب الماء لوليدها بعد استنفدت أسبابها ؛ ثم وجدت الماء تحت رِجْل وليدها إسماعيل .

فقد أخذتْ هى بالأسباب ، فجاء لها رَبُّ الأسباب بما سألتْ عنه . ولم يَأْتِ لها الحقُّ سبحانه بالماء فى جهة الصفا أو المروة ؛ ليثبت لها القضية الأولى التى سألت عنها إبراهيم عليه السلام حين أنزلها فى هذا المكان .

فقد قالت له : ءأنزلتنا هنا برأيك ؟ أم أن الله أمرك بهذا ؟ قال : نعم أمرنى رَبِّى . قالت : إذن لا يضيعنا[1] .

وقد سَعَتْ هى بحثاً عن الماء أخذاً بالأسباب ، وعثرتْ على الماء بقدرة المسبِّب الأعلى .

وقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ (١٠٦) ﴾ [يوسف]

يتطلب منا أن نعرف كيف يتسرَّب الشرك إلى الإيمان ، ولنا أن نتساءل : ما دام يوجد الإيمان ؛ فمن أين تأتى لحظة الشرك ؟

ويشرح الحق سبحانه لنا ذلك حين يقول :

﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِى الْفُلْكِ[2] دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى

---

(١) ذكره القرطبى فى تفسيره (٣٧٠٧/٥) ، وحينئذ استقبل إبراهيم عليه السلام القبلة ، ثم دعا فقال : ﴿ رَبَّنَا إِنِّى أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِى إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (٣٧) ﴾ [إبراهيم] .

(٢) الفلك : السفينة . للمذكر وللمؤنث ، وللواحد وللجمع . [القاموس القويم ٨٩/٢] .

الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ (٦٥) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٦٦)﴾ [العنكبوت]

هم إذن قد آمنوا وهم فى الفُلْك ، وأخذوا يدعُون الله حين واجهتهم أزمة فى البحر[1] ؛ لكنهم ما أن وصلوا إلى الشاطىء حتى ظهر بينهم الشرك .

حين يسألهم السائل : ماذا حدث ؟

فيجيبون : أنهم كانوا قد أخذوا حذرهم ، واستعدوا بقوارب النجاة . ونَسَوْا أن الله هو الذى أنقذهم فانطبق عليهم قول الحق سبحانه :

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ (٣٠)﴾ [إبراهيم]

وفى حياتنا اليومية قد تذهب لتقضى حاجة لإنسان ؛ وبعد أن يُسَهِّل لك الله قضاء تلك الحاجة ؛ تلتفت فلا تجده ، ولا يفكر فى أن يُوجِّه لك كلمة الشكر .

وحين تلقاه يقول لك : كل ما طلبته منك وجدته مقضياً ، لقد كلَّمْتُ فلاناً فقضاها .

---

(١) يقول الحق سبحانه فى آية أخرى : ﴿هُوَ الَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِى الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٢٢) فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ .. (٢٣)﴾ [يونس] .

وهو يقول لك ذلك ليُبعد عنك ما أسبغه الله عليك من فضل قضائك لحاجته ؛ وذلك لأنه لحظة أن طلب منك مساعدته فى قضاء تلك الحاجة تذلَّل وخضع ، وبعد أن تنقضى يتصرف كفرعون ويتناسى .

ولا ينزعه من فرعنته إلا رؤياك ؛ لأنه يعلم أنك صاحب جميل عليه ، بل قد يريد بك الشر ؛ رغم أنك أنت مَنْ أحسنتَ إليه ، لماذا ؟ لأن هذه هى طبيعة الإنسان .

يقول تعالى :

﴿ كَلَّا إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝٦ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ۝٧ ﴾ [العلق]

ولذلك يُقال فى المثل : « اتَّقِ شرَّ من أحسنت إليه » .

وأنت تتقى شره ، بأن تحذر أن تمُنَّ عليه بالإحسان ؛ كى لا تنمى فيه غريزة الكره لك .

والناصح يحتسب أىَّ مساعدة منه لغيره عند الله ؛ فيأخذ جزاءه من خالقه لحظة أداء فعل الخير ، ولا ينتظر شيئاً ممَّنْ فعل الخير له ؛ لأنك لا تعلم ماذا فكَّر لحظة أن أدَّيْتَ له الخدمة ، فحين يجد ترحيبَ الناس بك فى الجهة التى تُؤدِّى له الخدمة فيها ؛ قد يتساءل : لماذا يحترمونك أكثر منه ؟

وهو يسأل هذا السؤال لنفسه على الرغم من أنك مُتواجِد معه فى هذا المكان لتخدمه .

ولذلك يقول العامة هذا المثل : « اعمل الخير وارْمه فى البحر » ؛

لأن الله هو الذى يجازيك وليس البشر ؛ فاجعل كل عملك مُوجَّهاً لله ، وانْسَ أنك فعلْتَ معروفاً لأحد .

والمعروف المنكُور هو أجْدى أنواع المعروف عليك ؛ لأن الذى يُجازِى عليه هو الله ؛ وهو سبحانه مَنْ سيناولك أجره وثوابه بيده ؛ ولذلك عليك أن تنسى مَنْ أحسنتَ إليه ؛ كى يُعوِّضك الله بالخير على ما فعلت .

ويُقال فى الأثر : إن موسى عليه السلام قال : يا ربِّ ، إنى أسألك ألاّ يُقال فيّ ما ليس فىّ . فأوضح له الله : يا موسى لم أصنعها لنفسى ؛ فكيف أصنعها لك .

ويعرض الحق سبحانه هذه المسألة فى القرآن بشكل آخر ، فيقول سبحانه :

﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا[1] إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ[2] نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ (٨) ﴾ [الزمر]

والإنسان لحظةَ أن يمسَّه الضُّر ؛ فهو يدعو الربوبية المتكفِّلة بمصالحه : يا ربِّ أنت الذى خلقتنى ، وأنت المتكفِّل بتربيتى ؛ وأنا

---

(١) أناب العبد إلى ربه : رجع إليه وتاب وترك الذنوب . قال تعالى : ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (١٠)﴾ [الشورى] أى : إليه أتوب وأرجع . ومنيب اسم فاعل . وجاء جمع منيب فى قوله : ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ .. (٣١)﴾ [الروم] أى : راجعين إلى الله تائبين إليه. أى : كونوا تائبين وكونوا متقين . [القاموس القويم ٢/ ٢٩٠] .

(٢) خوله : ملَّكه إياه متفضلاً عليه بغير عوض . [القاموس القويم ١/ ٢١٤] .

أتوكل عليك فى مصالحى ، فأنقذنى ممَّا أنا فيه .

ومثل هذا الإنسان كمثل الرُّبان الذى ينقذه الله بأعجوبة من العاصفة ؛ لكنه بعد النجاة يحاول أن ينسب نجاة السفينة من الغرق لنفسه .

ولذلك أقول دائماً : احذروا أيها المؤمنون أن تنسَوْا المُنعِم المُسبِّب فى كل شىء ، وإياكم أن تُفْتنوا بالأسباب ؛ فتغفلوا عن المُسبِّب ؛ وهو سبحانه مُعْطى الأسباب .

وأقول ذلك حتى لا تقعوا فى ظلم أنفسكم بالشرك بالله ؛ فسبحانه القائل :

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا[1] إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـٰئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ (٨٢) ﴾ [الأنعام]

والظلم - كما نعلم - هو أن تُعطِى الحق لغير صاحبه ؛ فكيف يَجْرؤ أحد على أن يتجاهل فَضْل الله عليه ؟ فيقع فى الشرك الخفى ، والظلم الأكبر هو الشرك .

وسبحانه القائل :

﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣) ﴾ [لقمان]

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

---

(١) لم يلبسوا إيمانهم بظلم ، أى : لم يخلطوا إيمانهم بشرك ، وهو الظلم العظيم ، ولا بأى نوع من الظلم . [القاموس القويم ٢/١٨٨] .

﴿أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ[1] مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً[2] وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾﴾

ألم يحسب هؤلاء حساب انتقام الله منهم بعذاب الدنيا الذى يَعُمُّ ؛ لأن الغاشية هى العقاب الذى يَعُمُّ ويُغطِّى الجميع ؛ أم أنهم استبطئوا الموت ، واستبطئوا القيامة وعذابها ؛ رغم أن الموت مُعلَّق على رقاب الجميع ، ولا أحد يعلم ميعاد موته .

فالرسول ﷺ يقول : « من مات قامت قيامته »[3] .

فما الذى يُبطئهم عن الإيمان بالله والإخلاص التوحيدى لله ، بدون أنْ يمسَّهم شرك ؛ قبل أن تقوم قيامتهم بغتةً ؛ أى : بدون جرس تمهيدى .

ونعلم أن مَنْ سبقونا إلى الموت لا يطول عليهم الإحساس بالزمن إلى أن تقومَ قيامة كُلِّ الخَلْق ؛ لأن الزمن لا يطول إلا على مُتتبع أحداثه .

والنائم مثلاً لا يعرف كَمْ ساعةً قد نام ؛ لأن وَعْيَه مفقود فلا

---

(١) قال مجاهد : عذاب يغشاهم. وقال قتادة : وقيعة تقع لهم . وقال الضحاك : يعنى الصواعق والقوارع . [تفسير القرطبى ٥ / ٣٦٠٨] .

(٢) بغته ـ بغتاً وبغتة : فاجأه على غرة وغفلة . قال تعالى : ﴿فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾﴾ [الأعراف] .

(٣) ذكره العجلونى فى كشف الخفاء (حديث رقم ٢٦١٨) عن أنس بن مالك رضى الله عنه ، وتمامه : «أكثروا ذكر الموت ، فإنكم إن ذكرتموه فى غِنًى كدَّره عليكم ، وإن ذكرتموه فى ضيق وسّعه عليكم ، الموت القيامة » .

يعرف الزمن ، والذى يوضح لنا أن الذين سبقونا لا يشعرون بمرور الزمن هو قوله الحق :

﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا (٤٦) ﴾ [النازعات]

ويأتى قول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ (١٠٨) ﴾ (١)

أى : قُلْ يا محمد هذا هو منهجى . والسبيل كما نعلم هو الطريق ، وقوله الحق :

﴿ هَـٰذِهِ سَبِيلِى .. (١٠٨) ﴾ [يوسف]

يدلُّ على أن كلمة السبيل تأتى مرة مُؤنَّثة ، كما فى هذه الآية ، وتأتى مرة مُذكَّرة ؛ كما فى قوله الحق :

﴿ وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ (٢) يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً .. (١٤٦) ﴾ [الأعراف]

وأَعْلِنْ يا محمد أن هذه الدعوة التى جِئْتَ بها هى للإيمان بالله الواحد ؛ وسبحانه لا ينتفع بالمنهج الذى نزل عليك لِيُطبِّقه العباد ، بل

---

(١) البصيرة : نور القلب الذى يرى به حقائق الأمور ، وهى أيضاً ما يبصره القلب من الحق الواضح . والبصيرة : البيان الواضح والحجة المقنعة والطريقة البينة التى لا لَبْس فيها ولا غموض . [القاموس القويم ١ / ٧٠] بتصرف .

(٢) الغَىُّ : الفساد والضلال والخيبة . والغواية : الانهماك فى الغَىِّ . [لسان العرب ـ مادة : غوى] .

فيه صلاح حياتهم ، وسبحانه هو الله ؛ فهو الأول قبل كل شىء بلا بداية ، والباقى بعد كل موجود بلا نهاية ؛ ومع خَلْق الخَلْق الذين آمنوا هو الله ؛ وإن كفروا جميعاً هو الله ، والمسألة التكليفية بالمنهج عائدة إليكم أنتم ، فمَنْ شاء فَلْيؤمن ، ومَنْ شاء فَلْيكفر .

ولنقرأ قوله الحق:

﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ (١) وَأَذِنَتْ[1] لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ[2] (٢)﴾ [الانشقاق]

فهى تنشقُّ فَوْرَ سماعها لأمر الله ، وتأتى لحظة الحساب .

وقوله الحق :

﴿قُلْ هَـٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ .. (١٠٨)﴾ [يوسف]

أى : أدعو بالطريق المُوصِّل إلى الله إيماناً به وتَقَبُّلاً لمنهجه ، وطلباً لما عنده من جزاء الآخرة ؛ وأنا على بصيرة مما أدعو إليه .

والبصر ـ كما نعلم ـ للمُحسَّات ، والبصيرة للمعنويات .

والبصر الحسىُّ لا يُؤدِّى نفس عمل البصيرة ؛ لأن البصيرة هى يقينٌ مصحوبٌ بنور يُقنِع النفس البشرية ، وإنْ لم تكُنْ الأمور الظاهرة مُلجئة إلى الإقناع .

ومثال هذا : أم موسى حين أوحى الله لها أن تقذف ابنها فى

---

(١) أذنت : استمعت لأمر ربها واستجابت وأطاعت وخضعت راضية . [القاموس القويم ١٦/١] .

(٢) حق الأمر يحق : ثبت ووجب . وحقَّ له : ثبت له . وحُقَّ له بالبناء للمجهول أثبت له . قال تعالى : ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٢)﴾ [الانشقاق] أى : كان حقاً ثابتاً عليها أن تخضع لأمر الله . [القاموس القويم ١٦٤/١] .

اليَمِّ ، ولو قاستْ هى هذا الأمر بعقلها لما قَبِلَتْه ، لكنها بالبصيرة قَبِلَتْه ؛ لأنه وارد من الله لا مُعاندَ له من النفس البشرية .

فالبصيرة إذن : هى يقين ونور مبنى على برهان من القلب ؛ فيطيعه العبد طاعة بتفويض ، ويُقال : إن الإيمان طاعة بصيرة .

ويمكن أن نقرأ قوله الحق :

﴿قُلْ هَـٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ .. (١٠٨)﴾ [يوسف]

وهنا جملة كاملة ؛ ونقرأ بعدها :

﴿أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ..(١٠٨)﴾ [يوسف]

أو نقرأها كاملة :

﴿قُلْ هَـٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٨)﴾ [يوسف]

وقول الحق :

﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ .. (١٠٨)﴾ [يوسف]

أى : أنه سبحانه مُنزَّه تنزيهاً مطلقاً فى الذات ، فلا ذاتَ تُشبهه ؛ فذاته ليست محصورة فى القالب المادى مثلك ، والمنفوخة فيه الروح ، وسبحانه مُنزَّه تنزيهاً مُطْلقاً فى الأفعال ، فلا فعلَ يشبه فعله ؛ وكذلك صفاته ليست كصفات البشر ، فحين تعلم أن الله يسمع ويرى ، فخُذْ ذلك فى نطاق :

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ .. (١١)﴾ [الشورى]

وكذلك وجوده سبحانه ليس كوجودك ؛ لأن وجوده وجود واجد أزلىّ ، وأنت حَدَثٌ طارىء على الكون الذى خلقه سبحانه .

ولذلك قاس بعض الناس رحلة الإسراء[١] والمعراج[٢] على قدرة رسول الله ﷺ ؛ ولم ينتبهوا إلى أن رسول الله ﷺ قال : « لقد أُسرِى بى»[٣] .

ونزل قول الحق سبحانه :

﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١) ﴾[الإسراء]

وهكذا تعلم أن الفعل لم يكن بقوة محمد ﷺ ؛ ولكن بقوة مَنْ خلقَ الكون كله ، القادر على كل شىء ، والذى لا يُمكِن لمؤمن حقٍّ أن يشرك به ، أمام هذا البرهان .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٠٩) ﴾

---

(١) سرى يسرى : سار ليلاً . وأسرى به : جعله يسرى ، أو حمله معه على السير ليلاً ، وهذا يُشعر أن الله تعالى كان رفيقاً للرسول ومعيناً له فى إسرائه [القاموس القويم ٣١٢/١] .

(٢) عرج يعرج عروجاً : صعد وعلا وارتفع ، والمعراج : كل ما ساعدك على الصعود ، والجمع : معارج . [القاموس القويم ١٣/٢] .

(٣) متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٧١٠) ، ومسلم فىّ صحيحه (١٧٠) من حديث جابر بن عبد الله رضى الله عنه .

وينتقل الحق سبحانه هنا إلى الرسل الذين سبقوا محمداً ﷺ ؛ فالحق سبحانه يقول :

﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلاَّ أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَراً رَّسُولاً (٩٤) ﴾ [الإسراء]

أى : أنهم كانوا يطلبون رسولاً من غير البشر ، وتلك مسألة لم تحدث من قبل ، ولو كانت قد حدثتْ من قَبْل ؛ لقالوا : « ولماذا فعلها الله مع غيرنا ؟ » .

ولذلك أراد سبحانه أن يَرُدَّ لهم عقولهم ؛ فقال تعالى :

﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولاً (٩٥) ﴾ [الإسراء]

والملائكة بطبيعتها لا تستطيع أن تحيا على الأرض ، كما أنها لا تصلح لأنْ تكون قُدْوة أو أُسْوة سلوكية للبشر .

فالحق سبحانه يقول عن الملائكة :

﴿ لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٦) ﴾ [التحريم]

والملاك لا يصلح أن يكون أُسْوة للإنسان ؛ لأن الملَك مخلوق غيبىّ غير مُحَسٍّ من البشر ؛ ولو أراده الله رسولاً لَجسَّده بشراً ؛ ولو جعله بشراً لبقيتْ الشبهةُ قائمةً كما هى .

أو : أن الآية جاءت لِتسُدَّ على الناس ذرائع[1] انفتحت بعد ذلك

---

(١) الذريعة : الوسيلة . وقد تذرع فلان بذريعة ، أى : توسل . والجمع : الذرائع . والذريعة : السبب إلى الشىء . يقال : فلان ذريعتى إليك. أى : سببى ووُصْلتى الذى أتسبب به إليك . [لسان العرب ـ مادة : ذرع] .

على الناس فى حروب الرِّدة حين ادَّعَتْ سجاح أنها نبية مُرْسَلَة .

لذلك جاء الحق سبحانه من البداية بالقول :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ .. (١٠٩) ﴾ [يوسف]

ليوضح لنا أن المرأة لا تكون رسولاً منه سبحانه ؛ لأن مهمة الرسول أن يلتحم بالعالم التحامَ بلاغٍ ، والمرأة مطلوب منها أن تكون سَكناً .

كما أن الرسول يُفترض فيه ألاّ يسقط عنه تكليف تعبدىّ فى أى وقت من الأوقات ؛ والمرأة يسقط عنها التكليف التعبدى أثناء الطمث [1] ، ومهمة الرسول تقتضى أن يكون مُسْتوفى الأداء التكليفى فى أىِّ وقتٍ .

ثم كيف يطلبون ذلك ولَمْ تَأْتِ فى مهام الرسل من قبل ذلك إلا رجالاً ، ولم يسأل الحق أياً منهم ، ولم يستأذن من أىٍّ واحد من الرسل السابقين ليتولى مهمته ؛ بل تلقَّى التكليف من الله دون اختيار منه ، ويتلقى ما يُؤمر أن يُبلِّغه للناس ،ويكون الأمر بواسطة الوحى .

والوحى كما نعلم إعلام بخفاء ، ولا ينصرف على إطلاقه إلا للبلاغ عن الله . ولم يوجد رسول مُفوَّض ليبلغ ما يحب أو يُشرِّع ؛ لكن كل رسول مُكلَّف بأن ينقل ما يُبلِّغ به ، إلا محمد ﷺ ، فقد فوَّضه الحق سبحانه فى أن يُشرِّع ، ونزل فى القرآن:

﴿ مَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا .. (٧) ﴾ [الحشر]

---

(١) طمثت المرأة تطمث : حاضت . والطمث : الدم والنكاح . [لسان العرب ـ مادة : طمث] .

ويقول الحق سبحانه عن هؤلاء الرسل السابقين أنهم :

﴿ مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ .. (١٠٩) ﴾ [يوسف]

والقرية كانت تأخذ نفس مكانة المدينة فى عالمنا المعاصر . وأنت حين تزور أهل المدينة تجد عندهم الخير عكس أهل البادية ، فالبدوىّ من هؤلاء قد لا يجد ما يُقدِّمه لك ، فقد يكون ضرع الماشية قد جَفَّ ؛ أو لا يجد ما يذبحه لك من الأغنام .

والفارق بين أهل القرية وأهل البادية أن أهل القرية لهم توطُّن ؛ ويملكون قدرة التعايش مع الغير ، وترتبط مصالحهم ببعضهم البعض ، وترِقُّ حاشية[1] كل منهم للآخر ، وتتسع مداركهم بمعارف متعددة ، وليس فيهم غِلْظة أهل البادية .

فالبدوىُّ من هؤلاء لا يملك إلا الرَّحْل على ظهر جَمله ؛ ويطلب مساقط المياه ، وأماكن الكلأ[2] لما يرعاه من أغنام .

وهكذا تكون فى أهل القرى رِقَّة وعِلْم وأدبُ تناول وتعامل ؛ ولذلك لم يَأْتِ رسول من البدو كى لا تكون معلوماته قاصرةً ، ويكون جافاً ، به غِلْظة قوْلٍ وسلوك .

والرسول يُفترض فيه أن يستقبل كل مَنْ يلتقى به بالرِّفق واللِّين وحُسْن المعاشرة ؛ لذلك يكون من أهل القرى غالباً ؛ لأنهم ليسوا قُسَاة ؛ وليسوا على جهل بأمور التعايش الاجتماعى .

---

(١) الحاشية : الجانب والناحية . أى : أنه يكون مهذباً دمث الطباع ، حسن السمت ، لين الجانب ، سليم الطوية .

(٢) الكلأ : العُشْب والبَقْل . وقيل : هو العشب رَطْبه ويابسُه . [لسان العرب ـ مادة : كلأ] .

ويتابع الحق سبحانه :

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ .. (١٠٩) ﴾ [يوسف]

أى : أنهم إنْ كانوا غير مؤمنين بآخرة يعودون إليها ؛ ولا يعلمون متى يعودون ؛ فليأخذوا الدنيا مقْياساً ؛ ولْينظروا فى رُقْعة الأرض ؛ وينظروا ماذا حدث للمُكذِّبين بالرسل ، إنهم سيجدون أن الهلاك والعذاب قد حاقا[1] بكل مُكذِّب .

ولو أنهم ساروا فى الأرض ونظروا نظرة اعتبار ، لرأوا قُرَى مَنْ نحتوا بيوتهم فى الجبال[2] وقد عصف بها الحق سبحانه ، ولَرأوْا أن الحق قد صَبَّ سَوْط العذاب على قوم عاد وآل فرعون ، فإن لم تَخَفْ من الآخرة ؛ فعليك بالخوف من عذاب الدنيا .

وقول الحق سبحانه :

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ .. (١٠٩) ﴾ [يوسف]

وهذا القول هو من لَفتات الكَونيّات فى القرآن ، فقديماً كنا لا نعرف أن هناك غلافاً جوياً يحيط بالأرض ، ولم نَكُنْ نعرف أن هذا الغلاف الجوى به الأكسوجين الذى نحتاجه للتنفس .

ولم نَكُنْ نعرف أن هذا الغلاف الجوى من ضمن تمام الأرض ،

---

(١) حاق به الشىء يحيق : نزل به وأحاط به . وأحاقه الله به : أنزله . وقيل : حاق بهم العذاب أى أحاط بهم ونزل كأنه وجب عليهم . [لسان العرب ـ مادة : حيق] .

(٢) هؤلاء هم أصحاب الحجر ، قال عنهم رب العزة : ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ (٨٠) وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٨١) وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ (٨٢) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ (٨٣) فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٤) ﴾ [الحجر] .

وأنك حين تسير على اليابسة ، فالغلاف الجوى يكون فوقك ؛ وبذلك فأنت تسير فى الأرض ؛ لأن ما فوقك من غلاف جوى هو من مُلْحقات الأرض .

والسَّيْر فى الأرض هو للسياحة فيها ، والسياحة فى الأرض نوعان : سياحة اعتبار ، وسياحة استثمار .

ويُعبِّر الحق سبحانه عن سياحة الاعتبار بقوله :

﴿أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ .. (٩)﴾ [الروم]

ويُعبِّر سبحانه عن سياحة الاستثمار بقوله :

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ .. (٢٠)﴾ [العنكبوت]

إذن : فسياحة الاعتبار هى التى تَلْفتك لقدرة الله سبحانه ، وسياحة الاستثمار هى من عمارة الأرض ، يقول الحق سبحانه :

﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً .. (١٠٠)﴾ [النساء]

وأنت مُكلَّف بهذه المهمة ، بل إن ضاق عليك مكان فى الأرض فابحث عن مكان آخر ، بحسب قول الحق سبحانه :

﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا .. (٩٧)﴾ [النساء]

ولك أن تستثمر كما تريد ، شرطَ ألاَّ يُلهيك الاستثمار عن الاعتبار .

ويتابع الحق سبحانه :

﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ .. (١٠٩)﴾ [يوسف]

ويا لَيْتَ الأمر قد اقتصر على النكال[١] الذى حدث لهم فى الدنيا ؛ بل هناك نَكَالٌ أشدُّ وَطْأة فى انتظارهم فى الآخرة .

يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٠٩) ﴾ [يوسف]

وحديث الحق سبحانه عن مصير الذين كَذَّبوا ؛ يَظهر لنا كمقابل لما ينتظر المؤمنين ، ولم تذكر الآية مصير هؤلاء المُكذِّبين بالتعبير المباشر ، ويُسمُّون ذلك فى اللغة بالاحتباك[٢] .

مثل ذلك قوله الحق :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا .. (٤١) ﴾ [الرعد]

وكل يوم تنقص أرض الكفر ، وتزيد رقعة الإيمان .

وهكذا يأتى العقاب من جانب الله ، ونأخذ المقابل له فى الدنيا ؛ ومرة يأتى بالثواب المقيم للمؤمنين ، ونأخذ المقابل فى الآخرة .

ولقائل أن يقول : ولماذا لم يَقُلِ الحق سبحانه أنه سوف يأتى لهم بما هو أشدّ شراً من عذاب الدنيا فى اليوم الآخر ؟

---

(١) النكال : التنكيل والعقوبة الشديدة الزاجرة. قال تعالى : ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللَّهِ .. (٣٨) ﴾ [المائدة] أى : عقوبة زاجرة فرضها الله ليتعظ بها الناس. [القاموس القويم ٢ / ٢٨٨] .

(٢) هو نوع من أنواع الحذف ، قال السيوطى : « هو من ألطف الأنواع وأبدعها ، وقلَّ من تنبه له أو نبّه عليه من أهل فن البلاغة ، وهو أن يحذف من الأول ما أثبت نظيره فى الثانى ، ومن الثانى ما أثبت نظيره فى الأول ، ومثاله قوله تعالى : ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ.. (١٧١) ﴾ [البقرة]. التقدير : ومثل الأنبياء والكفار كمثل الذى ينعق ، والذى يُنعَق به ، فحذف من الأول الأنبياء لدلالة « الذى ينعق » عليه ، ومن الثانى الذى يُنعق به لدلالة « الذين كفروا » عليه » [الإتقان فى علوم القرآن ١٨٢/٣] .

وأقول : إن السياق العقلى السطحى الذى ليس من الله ؛ هو الذى يمكن أن يُذكِّرهم بأن عذاب الآخرة هو أشدُّ شراً من عذاب الدنيا .

ولكن الحق سبحانه لا يقول ذلك ؛ بل عَدل عن هذا إلى المقابل فى المؤمنين ؛ فقال :

﴿ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٠٩) ﴾ [يوسف]

فإذا جاء فى الدنيا بالعذاب للكافرين ؛ ثم جاء فى الآخرة بالثواب للمُتقين ؛ أخذ من هذا المقابل أن غير المؤمنين سيكون لهم حسابٌ عسير ، وقد حذف من هنا ما يدل عليه هناك ؛ كى نعرف كيف يُحْبَك النظم القرآنى .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ (١١٠) ﴾

وكلمة :

﴿ حَتَّىٰٓ (١١٠) ﴾ [يوسف]

تدل على أن هناك غاية ، وما دامتْ هناك غاية فلا بُدَّ أن بداية ما قد سبقتْها ، ونقول : « أكلتُ السمكة حتى رأسها » . أى : أن البداية كانت أكْل السمكة ، والنهاية هى رأسها .

والبداية التى تسبق :

﴿ اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ .. (١١٠) ﴾ [يوسف]

هى قوله الحق :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم .. (١٠٩) ﴾ [يوسف]

وما دام الحقُّ سبحانه قد أرسلهم ؛ فهم قد ضَمِنوا النصر ، ولكن النصر أبطأ ؛ فاستيأس الرسل ، وكان هذا الإبطاء مقصوداً من الحق سبحانه ؛ لأنه يريد أن يُحمِّل المؤمنين مهمة هداية حركة الحياة فى الأرض إلى أن تقوم الساعة ، فيجب ألا يضطلع بها إلا المُخْتَبر اختباراً دقيقاً .

ولا بُدّ أن يمر الرسول ـ الأُسْوة لمَنْ معه ـ ومَنْ يتبعه من بعده بمحن كثيرة ، ومَنْ صبر على المِحَن وخرج منها ناجحاً ؛ فهو أَهْلٌ لأن يحمل المهمة[1] .

وهو الحق سبحانه القائل :

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ[2] مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ .. (٢١٤) ﴾ [البقرة]

إذن : لا بُدَّ من اختبار يُمحِّص . ونحن فى حركة حياتنا نُؤهِّل التلميذ دراسياً ؛ ليتقدم إلى شهادة إتمام الدراسة الابتدائية ، ثم نُؤهِّله

---

(١) مثال هذا : قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ .. (٢٤٩) ﴾ [البقرة] .

(٢) خلا الأمر ، يخلو : مضى وسبق . قال تعالى : ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ (٢٤) ﴾ [فاطر] أى : مضى وسبق . [القاموس القويم ١/٢٠٨] .

لنَيْل شهادة إتمام الدراسة الإعدادية ؛ ثم نؤهله لنيل شهادة إتمام الدراسة الثانوية ، ثم يلتحق بالجامعة ، ويتم اختباره سنوياً إلى أن يتخرج من الجامعة .

وإنْ أراد استكمال دراسته لنيل الماجستير والدكتوراه ، فهو يبذل المزيد من الجَهْد .

وكل تلك الرحلة من أجل أن يذهب لتولىّ مسئولية العمل الذى يُسند إليه وهو جدير بها ، فما بَالُنا بعملية بَعْث رسول إلى قوم ما ؟

لا بُدَّ إذن من تمحيصه هو ومَنْ يتبعونه ، وكى لا يبقى على العهد إلا المُوقِن تمام اليقين بأن ما يفوته من خير الدنيا ؛ سيجد خيراً أفضل منه عند الله فى الآخرة .

ولقائل أن يقول : وهل من المعقول أن يستيئس الرسل ؟

نقول : فلَنفهم أولاً معنى « استيأس » ؛ وهناك فرق بين « يأس » و «استيأس » ، فـ « يأس » تعنى قطع الأمل من شىء . و « استيأس » تعنى : أنه يُلِحّ على قَطع الأمل .

أى : أن الأمل لم ينقطع بعد . ومَنْ قطع الأمل هو مَنْ ليس له منفذ إلى الرجاء ، ولا ينقطع أمل إنسان إلا إنْ كان مؤمناً بأسبابه المعزولة عن مُسبِّبه الأعلى .

لكن إذا كان الله قد أعطى له الأسباب ، ثم انتهت الأسباب ، ولم تَصِلْ به إلى نتيجة ، فالمؤمن بالله هو مَنْ يقول : أنا لا تُهمّنى الأسباب ؛ لأن معى المُسبِّب .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ (٨٧) ﴾ [يوسف]

ولذلك نجد أن أعلى نسبة انتحار إنما تُوجَد بين الملاحدة الكافرين ؛ لأنهم لا يملكون رصيداً إيمانياً ، يجعلهم يؤمنون أن لهم رباً فوق كل الأسباب ؛ وقادر على أن يَخْرِق النواميس .

أما المؤمن فهو يأوى إلى رُكْن شديد ، هو قدرة الحق سبحانه ، مُسبِّب كل الأسباب ، والقادر على أن يَخْرِق الأسباب .

ولماذا يستيئس الرسل ؟

لأن حرصهم على تعجُّل النصر دفع البعض منهم أن يسأل مثلما سأل المؤمنون :

﴿ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ .. (٢١٤) ﴾ [البقرة]

فضلاً عن ظَنِّهم أنهم كُذِّبوا ، والحق سبحانه يقول هنا :

﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا .. (١١٠) ﴾ [يوسف]

ومادة « الكاف » ، و « الذال » و « الباء » منها « كَذَبَ » ، و« كُذِبَ عليه » و « كُذِّب » . والكذب هو القول المخالف للواقع والعاقل هو من يُورِد كلامه على ذِهْنه قبل أن ينطق به .

أما فاقد الرشد الذى لا يمتلك القدرة على التدبُّر ؛ فينطق الكلام

على عَـواهنه[١] ؛ ولا يمـرر الكلام عـلى ذهنه ؛ ولذلـك يقـال عنه « مخرف » .

وقـد سـبق لنا أن شـرحنا الصـدق ، وقلنا : إنه تطابق النسـبـة الكلامـيـة مع الواقع ، والكذب هـو ألاَّ تتطابق النسـبـة الكلامـيـة مع الواقع .

ومَنْ يقول كلاماً يعلم أنه لا يطابق الواقع ؛ يقال عنه : إنه مُتعمِّد الكذب ، ومَنْ يقول كلاماً بغالبية الظن أنه لا يطابق الواقع ، ونقله عن غـيره ؛ فـهـو يكذب دون أن يُحـسب كَـذبه افتـراءً . والإنسـان الذى يتوخَّى الدِّقة ينقل الـكلام منسوباً إلى مَنْ قاله له ؛ فيقـول « أخبرنى فلان » فلا يُعَدُّ كاذباً .

ولذلك أقـول دائماً : يجب أن يُفـرِّق العلمـاء بين كذب المُـفْتـين ، وكذب الخبـر ؛ وكذب المُخْبر . فـالخبر الكاذب مسئـول عنه مَنْ تعمَّد الكذب ، أمـا الناقل للخبـر ما دام قـد نسبـه إلى مَنْ قاله ، فـموقـفه مختلف .

وفى الآية التى نحن بصـدد خـواطرنا عنهـا نجد لـها قـراءتين ؛ قـراءة هى : «وظنوا أنهم قـد كُـذبوا » أى : حـدَّثهم غـيـرهم كَـذباً ؛ وقراءة ثانية [٢] هى : « وظنوا أنهم قد كُذِّبوا » وهى تعنى : أنهم قد

(١) ألقى الكلام على عواهنه : لم يتدبره . وقيل : هو إذا لم يُبلْ أصاب أم أخطأ . وعهن الشىء إذا حـضـر ، أى : أرسل الكلام على مـا حـضـر منه وعـجل من خطأ وصـواب . [لسـان العرب ـ مادة : عهن] .

(٢) هناك قراءة ثالثة ذكـرها القرطبى فى تفسيـره (٥/٣٦١١) قال : « قرأ مجاهد وحـميد : « قـد كَذَبوا » بفـتح الكاف والذال مُـخفّـفـاً ، على معنى : وظـن قوم الرسل أن الرسل قـد كَذَبوا ، لما رأوا من تفضُّل الله عز وجل فى تأخير العذاب » .

ظنُّوا أن ما قيل لهم من كلام عن النصر هو كذب .

ولقائل أن يسأل : كيف يظن الرسل[1] ذلك ؟

وأقول : إن الرسول حين يطلب من قومه الإيمان ؛ يعلم أن ما يُؤكِّد صِدْق رسالته هو مجيء النصر ؛ وتمرُّ عليه بعض من الخواطر خوفاً أن يقول المقاتلون الذين معه : « لقد كذب علينا » ؛ لأن الظن إخبار بالراجح .

ولا يخطر على بال الرسل أن الله سبحانه وتعالى ـ معاذ الله ـ قد كَذَبهم وعده ، ولكنهم ظَنُّوا أن النصر سيأتيهم بسرعة ؛ وأخذوا بطء مجيء النصر دليلاً على أن النصر لن يأتى .

أو : أنهم خافوا أن يُكذِّبهم الغير .

ولذلك نجد الحق سبحانه يُعْلِم رسله أن النصر سيأتى فى الموعد الذى يحدده سبحانه ، ولا يعرفه أحد ، فسبحانه لا يَعْجَلُ بعجلة العباد حتى تبلغ الأمور ما أراد .

ويقول سبحانه :

﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا .. (١١٠) ﴾ [يوسف]

---

(١) سأل عروةُ بن هشام عائشةَ رضى الله عنها عن قول الله عز وجل : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ .. (١١٠) ﴾ [يوسف] فقال : أكُذبوا أم كُذِّبوا ؟ قالت عائشة : كُذِّبوا . قلت : فقد استيقنوا أن قومهم كذبوهم ، فما هو بالظن ؟ قالت : أجل لعمرى لقد استيقنوا بذلك . فقلت لها : ﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا .. (١١٠) ﴾ [يوسف] قالت : معاذ الله ، لم تكن الرسل تظن ذلك بربها . قلت ، فما هذه الآية ؟ قالت : هم أتباع الرسل الذين آمنوا بربهم وصدّقوهم ، فطال عليهم البلاء ، واستأخر عنهم النصر حتى إذا استيأس الرسل ممن كذبهم من قومهم ، وظنت الرسل أن أتباعهم كَذّبوهم جاءهم نصرنا عند ذلك. أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٦٩٥) وأورده القرطبى فى تفسيره (٥/٣٦١١) .

وهكذا يأتى النصر بعد الزلزلة الشديدة ؛ فيكون وَقْعه كوَقْع الماء على ذى الغُلَّة[1] الصَّادى ، ولنا أن نتخيل شَوْق العطشان لكوب الماء.

وأيضاً فإن إبطاء النصر يعطى غروراً للكافرين يجعلهم يتمادون فى الغرور ، وحين يأتى النصر تتضاعف فرحة المؤمنين بالرسول ، وأيضاً يتضاعف غَمُّ الكافرين به .

ومجىء النصر للمؤمنين يقتضى وقوع هزيمة للكافرين ؛ لأن تلك هى مشيئة الله الذى يقع بَأْسه وعذابه على الكافرين به .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾

ونلحظ أن هذه الآية جاءت فى سورة يوسف ؛ أى : إنْ أردتَ قصة يوسف وإخوته ؛ ففى السورة كل القصة بمَراميها وأهدافها وعِظَتها ، أو المهم فى كل قصص الأنبياء .

يقول الحق سبحانه :

﴿وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ .. ﴿١٢٠﴾﴾[هود]

ونعلم أن معنى القَصَص مأخوذ من قَصِّ الأثر ؛ وتتبُّعه بلا زيادة أو نقصان .

---

(١) الغلة : شدة العطش وحرارته . وبعير غَالٌّ وغَلاَّن : عطشان شديد العطش . [لسان العرب ـ مادة : غلل] والصَّدَى : شدة العطش .

ويقول الحق سبحانه هنا :

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَابِ .. (١١١) ﴾ [يوسف]

وفى أول السورة قال الحق :

﴿ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ (٤٣) ﴾ [يوسف]

ونعرف أن مادة « العين » و « الباء » و « الراء » تفيد التعدية من جَلىّ إلى خَفىّ .

والعِبْرة فى هذه القصة ـ قصة يوسف ـ وكذلك قصص القرآن كلها ؛ نأخذ منها عِبْرة من الجَلىِّ فيها إلى الخَفىِّ الذى نواجهه ؛ فلا نفعل الأمور السيئة ؛ ونُقدِم على الأمور الطيبة .

وحين نُقبل على العمل الطيّب الذى جاء فى أىّ قصة قرآنية ؛ وحين نبتعد عن العمل السىء الذى جاء خَبَرُه فى القصة القرآنية ؛ بذلك نكون قد أحسنَّا الفهم عن تلك القصص .

وعلى سبيل المثال : نحن نجد الظالم فى القَصَص القرآنى ؛ وفى قصة يوسف تحديداً ؛ وهو ينتكس ، فيأخذ الواحد منَّا العبرة ، ويبنى حياته على ألاّ يظلم أحداً . وحين يرى الإنسان منا المظلومَ وهو ينتصر ؛ فهو لا يحزن إنْ تعرَّض لظلم ؛ لأنه أخذ العبرة لما ينتظره من نصر بإذن الله .

ونحن نقول : « عبر النهر » أى : انتقل من شاطىء إلى شاطىء .

وكذلك قولنا « تعبر الرُّؤْيا » أى : تؤوّلها ؛ لأن الرُّؤْيا تأتى رمزية ؛ وتعبرها أى : تشرحها وتنقلها من خفىّ إلى جلىّ ؛ وإيضاح المطلوب منها .

ونَصِفُ الدَّمْعة بأنها « عَبْرة » ؛ والحزن المدفون فى النفس البشرية تدل عليه الدَّمْعة .

وهنا قال الحق سبحانه :

﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِى الأَلْبَابِ .. (١١١) ﴾ [يوسف]

والعِبْرة قد تمرُّ ، ولكن لا يلتفت إليها إلا العاقل الذى يُمحِّص الأشياء ، أما الذى يمرُّ عليها مُرور الكرام ؛ فهو لا يستفيد منها .

و« أولو الألباب » هم أصحاب العقول الراجحة ، و « الألباب » جمع « لُبّ » . واللب : هو جوهر الشىء المطلوب ؛ والقِشْر موجود لصيانة اللُّبِّ ، وسُمِّى العقلُ « لُبّاً » لأنه ينثرُ القشور بعيداً ، ويعطينا جوهر الأشياء وخيرها .

ويتابع الحق سبحانه :

﴿ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَـٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ .. (١١١) ﴾ [يوسف]

أى : أن ما جاء على لسانك يا محمد وأنزله الحق وَحْياً عليك ليس حديث كَذِبٍ مُتعمَّد ؛ بل هو الحق الذى يطابق الكتب التى سبقتْه.

ويُقال : « بين يديك » أى : سبقك ؛ فإذا كنت تسير فى طابور ؛ فَمَنْ أمامك يُقال له « بين يديك» ، ومَنْ وراءك يُقال له « مَنْ خلفك » .

والقرآن قد جاء ليصدق الكتب التى سبقتْه ؛ وليست هى التى تُصدِّق عليه ؛ لأنه الكتاب المهيمن ، والحق سبحانه هو القائل :

﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ .. (٤٨) ﴾ [المائدة]

ويضيف الحق سبحانه فى نفس الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها :

﴿ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ .. (١١١) ﴾ [يوسف]

فالقرآن يُصدِّق الكتب السابقة ، ويُفصِّل كل شىء ؛ أى : يعطى كل جزئية من الأمر حُكْمها فى جزئية مناسبة لها . فهو ليس كلاماً مُجْملاً ، بل يجرى تفصيل كل حُكْم بما يناسب أىَّ أمر من أمور البشر .

وفى أعرافنا اليومية نقول : « فلان قام بشراء بذلة تفصيل » . أى : أن مقاساتها مناسبة له تماماً ؛ ومُحْكمة عليه حين يرتديها .

وفى الأمور العقدية نجد ـ والعياذ بالله ـ مَنْ يقول : إنه لا يوجد إله على الإطلاق ، ويقابله مَنْ يقول : إن الآلهة مُتعددة ؛ لأن كل الكائنات الموجودة فى الكون من الصعب أن يخلقها إله واحد ؛ فهناك إله للسماء ، وإله للأرض ؛ وإله للنبات ؛ وإله للحيوان .

ونقول لهم : كيف يوجد إله يقدر على شىء ، ويعجز عن شىء آخر ؟

وإنْ قال هؤلاء : « إن تلك الآلهة تتكاتف مع بعضها » .

نردُّ عليهم : ليست تلك هى الألوهية أبداً ، ولذلك نجد الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ[1] وَرَجُلاً سَلَمًا[2] لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٢٩)﴾ [الزمر]

وحين يكون الشركاء مختلفين ؛ فحالُ هذا العبد المملوك لهم يعيش فى ضَنْك وعذاب ؛ أما الرجل المملوك لرجل واحد فحاله يختلف ؛ لأنه يأتمر بأمر واحد ؛ لذلك يحيا مرتاحاً .

ونجد الحق سبحانه يقول عن الآلهة المتعددة :

﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَـهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (٩١)﴾ [المؤمنون]

أما مَنْ يقول بأنه لا يوجد إله فى الكون ، فنقول له : وهل يُعقل أن كل هذا الكون الدقيق والمُحْكم بلا صانع .

ولذلك شاء الحق سبحانه أن يُفَصّلَ هذا الأمر ليؤكد أنه لا يوجد سوى إله واحد فى الكون ، ونجد القرآن يُفصِّل لنا الأحكام ؛ ويُنزل لكل مسألة حُكْماً مناسباً لها ؛ فلا ينتقل حُكْم من مجال إلى آخر .

وكذلك تفصيل الآيات ، فهناك المُحْكم والمُتَشابه ؛ والمَثَل هو قول الحق سبحانه .

﴿وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ .. (١١٤)﴾ [آل عمران]

ويقول فى موقع آخر :

---

(١) تشاكس القوم : تنازعوا واشتد اختلافهم . قال تعالى : ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ .. (٢٩)﴾ [الزمر] ذلك مثل العبد المشرك له آلهة متعددة يتنازعون فيه . [القاموس القويم ١/ ٣٥٤] .

(٢) سلماً : أى مِلْكاً خالصاً له لا ينازعه فيه أحد . [القاموس القويم ١/ ٣٢٤] .

﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ .. (١٣٣) ﴾ [آل عمران]

جاء مرة بقول « إلى » ، ومرة بقول « فى » ؛ لأن كلاً منها مناسبة ومُفصَّلة حَسْب موقعها .

فالمُسَارعة إلى المغفرة تعنى أن مَنْ يسارع إليها موجود خارجها ، وهى الغاية التى سيصل إليها ، أما مَنْ يسارع فى الخيرات ؛ فهو يحيا فى الخير الآن ، ونطلب منه أن يزيد فى الخير .

وأيضاً نجد قوله الحق :

﴿ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٧) ﴾ [لقمان]

ونجد قوله الحق :

﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (٤٣) ﴾ [الشورى]

وواحدة منهما وردتْ فى المصائب التى لها غَرِيم ، والأخرى قد وردتْ فى المصائب التى لا غريم فيها ؛ مثل المرض حيث لا غَرِيم ، ولا خُصومة .

أما إذا ضربنى أحد ؛ أو اعتدى على أحد أبنائى ؛ فهو غريمى وتوجد خصومة ؛ فوجوده أمامى يَهيج الشر فى نفسى ؛ وأحتاج لضبط النفس بعزيمة قوية ، وهذا هو تفصيل الكتاب .

والحق سبحانه يقول :

﴿ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ .. (٣) ﴾ [فصلت]

أى : أن كل جزئية فيه مناسبة للأمر الذى نزلتْ فى مناسبته .

ومثال هذا هو قوله سبحانه :

﴿ وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ[1] نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ .. (٣١) ﴾ [الإسراء]

وقوله الحق :

﴿ وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ .. (١٥١) ﴾ [الأنعام]

وكل آية تناسب موقعها ، ومعناها مُتَّسق فى داخلها ، وتَمَّ تفصيلها بما يناسب ما جاءت له ، فقوله :

﴿ وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ .. (١٥١) ﴾ [الأنعام]

يعنى أن الفقر موجود ، والإنسان مُنْشغل برزقه عن رزق ابنه .

أما قوله :

﴿ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ .. (٣١) ﴾ [الإسراء]

أى : أن الفقر غير موجود ، وهناك خَوْف أن يأتى إلى الإنسان ؛ وهو خوف من أمر لم يَطْرأ بعد .

وهكذا نجد فى القرآن تفصيل كل شىء تحتاجونه فى أمر دنياكم وآخرتكم ، وهو تفصيل لكل شىء ليس عندك ؛ وقد قال الهدهد عن ملكة سبأ بلقيس :

﴿ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ .. (٢٣) ﴾ [النمل]

---

(١) أملق : افتقر بعد غنى ، والإملاق : الفقر . [القاموس القويم ٢/٢٣٤] .

وليس معنى هذا أنهـا أوتيت من كل شـىء فى هذه الدنيا ، بل هى قد أُوتيَتْ من كل شـىء تملكه ، أو يُمكِن أن تملكه فى الدنيا .

وقول الحق سبحانه :

﴿ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ .. (١١١) ﴾ [يوسف]

لا يعنى أن نسأل مثلاً : « كم رغيفاً فى كيلة القمح ؟ » .

وقد حدث أن سـأل واحد الإمام محـمد عبده هذا السـؤال ؛ فجاء بخباز ، وسأله هذا السؤال ؛ فأجـاب الخباز ؛ فقال السائل : ولكنك لم تَأْتِ بالإجابة من القرآن ؟ فقال الإمام محمد عبده : لماذا لا تذكر قوله الحق :

﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٤٣) ﴾ [النحل]

وهكذا نعلم أنه سبحانه لم يُفرِّط فى الكتاب من شـىء.

ويُذيِّل الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله :

﴿ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١١١) ﴾ [يوسف]

ونعلم أن الهُـدى هو الطـريق المُـؤدى إلى الخـيـر ، وهذا الطريق المؤدى إلى الخير ينقسم إلى قسمين :

القسم الأول : الوقاية من الشر لمن لم يقع فيه .

والقسم الثانى : علاج لمَنْ وقع فى المعصية .

وإليك المثال : هَبْ أن أُناساً يعملون الشر ؛ فنردهم عنه ونشفيهم منه ؛ لأنه مرض ، وهو رحمة بمعنى ألاَّ يقعوا فى المرض بداية .

إذن : فهناك ملاحظتان يشيران إلى القسمين :

الملاحظة الأولى : أن المنهج القرآنى قد نزل وقايةً لمَنْ لم يقع فى المعصية .

والملاحظة الثانية : أن المنهج يتضمن العلاج لِمَنْ وقع فى المعصية .

ويُحدِّد الحق سبحانه مَنْ يستفيدون من المنهج القرآنى وقاية وعلاجاً ، فيقول :

﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١١١)﴾ [يوسف]

أى : هؤلاء الذين يؤمنون بإله واحد خلقهم وخلق الكون ، ووضع للبشر قوانين صيانة حياتهم ، ومن المنطقىِّ أن يسمع المؤمن كلامه ويُنفذه ؛ لأنه وضع المنهج الذى يمكنك أن تعود إليه فى كل ما يصون حياتك ، فإنْ كنت مؤمناً بالله ؛ فُخُذ الهدى ، وخُذ الرحمة .

ونسأل الله أن نُعطَى هذا كله .

○ ○ ○

سُورَةُ الرَّعْدِ

سورة الرعد[1]

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الٓمٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ① ﴾

وقد سبق لنا أن تكلمنا طويلاً فى خواطرنا عن الحروف التى تبدأ بها بعض من سور القرآن الكريم ، مثل قوله الحق :

﴿ الٓمٓ ① ﴾ [البقرة]

وقوله :

﴿ الٓمٓرۚ .. ① ﴾ [الرعد]

ومثل قوله :

﴿ الٓمٓصٓ ① ﴾ [الأعراف]

---

(١) سورة الرعد هى السورة الثالثة عشرة فى ترتيب المصحف . قال القرطبى فى تفسيره (٥ / ٣٦١٣) : « مكية فى قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر . ومدنية فى قول الكلبىّ ومقاتل . وقال ابن عباس وقتادة : مدنية إلا آيتين منها نزلتا بمكة ، وهما قوله عز وجل : ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى .. ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ .. ﴿٣٢﴾ ﴾ [الرعد] وانظر الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى (١ / ٣١) عدد آياتها ٤٣ آية ، وسميت بسورة الرعد لورود ذكره فى السورة فى قوله تعالى : ﴿ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ .. ﴿١٣﴾ ﴾ [الرعد] .

وغيـر ذلك من الحروف التوقـيفيـة التى جاءتْ فى أول بعض من فَواتِح السُّور .

ولكن الذى أُحب أن أؤكد عليه هنا هو أن آيات القـرآن كلها مَبْنية على الوَصْل ؛ لا عَلى الوَقْف ؛ ولذلك تجدها مَشْكُـولة ؛ لأنها مَوْصُولة بما بعدها .

وكان من المـفروض ـ لو طبَّقْنَـا هذه القاعدة ـ أن نقـرأ « المر » فننطـقـهـا : « ألفٌ » « لامٌ » « مـيمٌ » « راءٌ » ، ولكن شـاء الحق سبـحانه هنا أن تأتى هذه الحـروف فى أول سورة الرعد مَـبْنية على الوقف ، فنقول : « ألفْ » « لامْ » « ميمْ » « راءْ » .

وهكذا قـرأها جبـريل عليـه السلام على مـحمـد بن عبـدالله ﷺ ؛ وهكذا نقرأها نحن .

ويتابع سبحانه :

﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ .. (١) ﴾ [الرعد]

أى : أن السـورة القـادمـة إليك هى من آيات الـكتـاب الـكريم ـ القرآن ـ وهى إضافة إلى ما سـبق وأُنْزل إليك ، فالكتاب كله يشمل من أول ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ (١) ﴾ [الفاتحة]

فى أول القرآن ، إلى نهاية سورة الناس.

ونعلم أن الإضـافة تأتى على ثلاث مَـعَانٍ ؛ فـمرَّة تأتى الإضـافة بمـعنى « من » مـثل قـولنا « أردب قـمح » والمقـصـود : أردب من القمح .

ومرة تأتى الإضافة بمعنى « فى » مثل قولنا : « مذاكرة المنزل » والمقصود : مذاكرة فى المنزل .

ومرة ثالثة تأتى الإضافة بمعنى « اللام » وهى تتخذ شكْلَيْنِ .

إمَّا أن تكون تعبيراً عن ملكية ، كقولنا « مالُ زيدٍ لزيد » .

والشكل الثانى أن تكون اللام للاختصاص كقولنا « لجام الفرس » أى : أن اللجام يخص الفرس ؛ فليس معقولاً أن يملك الفرس لِجَاماً .

إذن : فقول الحق سبحانه هنا :

﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ .. (١) ﴾ [الرعد]

يعنى تلك آياتٌ من القرآن ؛ لأن كلمة « الكتاب » إذا أُطلِقتْ ؛ فهى تنصرف إلى القرآن الكريم .

والمثل هو القول « فلانٌ الرجل » أى : أنه رجل حقاً ؛ وكأن سُلوكه هو معْيار الرجولة ، وكأن خصَال الرجولة فى غيره ليست مُكْتملة كاكتمالها فيه ، أو كقولك « فلان الشاعر » أى : أنه شاعر مُتميِّز للغاية .

وهكذا نعلم أن كلمة « الكتاب » إذا أُطْلقتْ ينصرف فى العقائد إلى القرآن الكريم ، وكلمة الكتاب إذا أُطلِقت فى النحو انصرفتْ إلى كتاب سيبويه الذى يضم قواعد النحو .

ويتابع سبحانه فى وصف القرآن الكريم :

﴿ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ (١) ﴾ [الرعد]

ونعلم أن مراد الذى يخالف الحق هو أن يكسب شيئاً من وراء تلك المخالفة .

وقد قال سبحانه فى أواخر سورة يوسف :

﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ (١٠٣) ﴾ [يوسف]

ثم وصف القرآن الكريم ، فقال تعالى :

﴿ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ[1] وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١١١) ﴾ [يوسف]

وهكذا نرى أن الحق سبحانه لا يريد الكَسْب منكم ، لكنه شاء أن يُنزِل هذا الكتاب لتكسبوا أنتم :

﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ (١) ﴾ [الرعد]

أى : أن أكثر مَنْ دعوتَهُم إلى الإيمان بهذا الكتاب الحق لا يؤمنون بأنه نزل إليك من ربك ؛ لأنهم لم يُحسنوا تأمُّل ما جاء فيه ؛ واستسلموا للهوَى ، وأرادوا السلطة الزمنية ، ولم يلتفتوا إلى أن ما جاء بهذا الكتاب هو الذى يعطيهم خير الدنيا والآخرة .

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (٢) ﴾

---

(١) افترى القول : اختلقه واخترعه . وافترى عليه الكذب : اخترعه . قال تعالى :﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ .. (٣٨) ﴾ [يونس] أى : اخترع القرآن واختلقه من عند نفسه . [القاموس القويم ٢ / ٨٠] .

وكلمة « الله » عَلَمٌ على واجب الوجود ؛ مَطْمورة فيه كُلُّ صفات الكمال ؛ ولحظةَ أنْ تقول « الله » كأنك قُلْتَ « القادر » « الضار » « النافع » « السميع » « البصير » « المُعْطى » إلى آخر أسماء الله الحسنى .

ولذلك قال ﷺ : « كُلُّ عمل لا يبدأ باسم الله هو أبتر[1] »[2] .

لأن كل عمل لا يبدأ باسمه سبحانه ؛ لا تستحضر فيه أنه سبحانه قد سَخَّر لك كُلَّ الأشياء ، ولم تُسخِّرْ أنت الأشياء بقدرتك .

ولذلك ، فالمؤمن هو مَنْ يدخل على أىِّ عمل بحيثية « بسم الله الرحمن الرحيم » ؛ لأنه سبحانه هو الذى ذلَّلَ للإنسان كل شىء ، ولو لم يُذلِّلها لَمَا استجابتْ لك أيها الإنسان .

وقد أوضح الحق سبحانه ذلك فى أمثلة بسيطة ؛ فنجد الطفل الصغير يُمسك بحبل ويربطه فى عنق الجمل ، ويأمره بأن « ينخّ » ويركع على أربع ؛ فيمتثل الجمل لذلك .

ونجد البرغوث الصغير ؛ يجعل الإنسان ساهراً الليل كُلَّه عندما يتسلل إلى ملابسه ؛ ويبذل هذا الإنسان الجَهْدَ الجَهِيد لِيُمْسِك به ؛ وقد يستطيع ذلك ؛ وقد لا يستطيع .

وهكذا نعرف أن أحداً لم يُسخِّر أىَّ شيئ بإرادته أو مشيئته ،

---

(١) البتر : استئصال الشىء قطعاً . وكل أمر انقطع من الخير أثره ، فهو أبتر . والبتر : أصله القطع الحسى والقطع المعنوى من الخير . [لسان العرب ـ مادة : بتر ، القاموس القويم ١/٥٤] .

(٢) أخرج أحمد فى مسنده (٢/٣٥٩) عن أبى هريرة رضى الله عنه : « كل كلام أو أمر ذى بال لا يفتح بذكر الله عز وجل فهو أبتر ، أو قال : أقطع » .

ولكن الحق سبحانه هو الذى يذلِّل كُلَّ الكائنات لخدمة الإنسان .

والحق سبحانه هو القائل :

﴿ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (٧٢) ﴾ [يس]

وأنت حين تُقبِل على أىِّ عمل يحتاج إلى قدرة فتقول : « باسم القادر الذى أعطانى بعض القدرة » .

وإنْ أقبلتَ على عمل يحتاج مالاً ؛ تقول : « باسم الغنى الذى وَهَبَنِى بعضاً من مال أقضى به حاجاتى » .

وفى كل عمل من الأعمال التى تُقبِل عليها تحتاج إلى قدرة ؛ وحكمة ؛ وغنىً ، وبَسْط ؛ وغير ذلك من صفات الحق التى يُسخِّر بها سبحانه لك كُلَّ شىء ؛ فشاءتْ رحمتُه سبحانه أنْ سَهَّل لنا أن نفتتح أىَّ عمل باسمه الجامع لكل صفات الجمال والكمال « بسم الله الرحمن الرحيم » .

ولذلك يُسَمُّونه « عَلَمٌ على واجب الوجود » .

وبقية الأسماء الحسنى صفات لا توجد بكمالها المُطْلق إلاَّ فيه ؛ فصارتْ كالاسم .

فالعزيز على إطلاقه هو الله . ولكنَّا نقول عن إنسان ما « عزيزُ قومه » ، ونقول « الغَنىّ » على إطلاقه هو الله ، ولكنْ نقول «فلان غنىٌّ » و « فلان فقير » .

وهكذا نرى أنها صفاتٌ أخذتْ مرتبة الأسماء ؛ وهى إذا أُطلِقَتْ إنما تشير إليه سبحانه .

وعرفنا من قَبْل أن أسماء الله ؛ إما أن تكون أسماءَ ذات ؛ وإما أن تكون أسماءَ صفات ؛ فإنْ كان الاسم لا مقابل له فهو اسمُ ذاتٍ ؛ مثل : « العزيز » .

أما إنْ كان الاسم صفةَ الصفة والفعل ، مثل « المُعِز » فلا بُدَّ أن له مقابلاً ، وهو هنا « المُذِلّ » .

ولو كان يقدر أنْ يُعِزَّ فقط ؛ ولا يقدر أن يُذِلَّ لما صار إلهاً ، ولو كان يضر فقط ، ولا ينفع أحداً لَمَا استطاع أن يكون إلهاً ، ولو كان يقدر أنْ يَبسُطَ ، ولا يقدر أن يقبض[1] لما استطاع أنْ يكون إلهاً .

وكل هذه صفات لها مُقَابِلها ؛ ويظهر فعلُها فى لغير ؛ فسبحانه ـ على سبيل المثال ـ عزيزٌ فى ذاته ؛ ومُعِزٌّ لغيره ، ومُذِلٌّ لغيره .

وكلمة « الله » هى الاسم الجامع لكل صفات الكمال ، وهناك أسماء أخرى علَّمها الله لبعض من خلقه ، وهناك أسماء ثالثة سنعرفها إنْ شاء الله حين نلقاه :

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ[2] (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣) ﴾ [القيامة]

ونلحظُ أن الحق سبحانه بدأ هذه الآية بالحديث عن العالم العُلْوى أولاً ؛ ولم يتحدث عن الأرض ؛ فقال :

---

(١) قال الحليمى فى معنى الباسط : أنه الناشر فضله على عباده يرزق من يشاء ويوسع ويجود ويُفضل ويمكِّن ويُخوّل ويعطى أكثر مما يُحتاج إليه . وقال فى معنى القابض : يطوى بره ومعروفه عمَّنْ يريد ويُضيق ويُقتِّر أو يحرم فيفقر . ذكره القرطبى فى كتابه « الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى » (١/ ٣٦٠) .

(٢) نضر الوجه : حَسُن وكان له رونق وبهجة . ويقول تعالى : ﴿ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا (١١) ﴾ [الإنسان] . أى : وأكسب الله وجوههم نضرة ، أى : حُسْناً وبهجة وجمالاً . [القاموس القويم ٢/ ٢٧١] .

﴿ اللَّهُ الَّذِى رَفَعَ السَّمَـٰوَاتِ .. (٢) ﴾ [الرعد]

وكلمة « رفع » إذا استعملتَها استعمالاً بشرياً ؛ تدلُّ أن شيئاً كان فى وَضْع ثم رفعتَه عن موضعه إلى أعلى ؛ مثل قول الحق سبحانه :

﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ .. (١٠٠) ﴾ [يوسف]

فقد كان أبَوا يوسف فى موضع أقلّ ؛ ثم رفعهما يوسف إلى موضع أعلى مما كَانَا فيه ، فهل كانت السماء موضوعة فى موضع أقلّ ؛ ثم رفعها الله ؟ لا ، بل خلقها الله مرفوعة .

ورَحِم الله شيخنا عبد الجليل عيسى الذى قال : « لو قلت : سبحان الله الذى كبَّر الفيل ؛ فهل كان الفيل صغيراً ثم كبَّره الله ؛ أم خلقه كبيراً ؟ لقد خلقه الله كبيراً . وإنْ قلت : سبحان الله الذى صغَّر البعوضة ؛ فهل كانت كبيرة ثم صَغَّرها الله ؟ لا بل خلقها الله صغيرة » .

وحين يقول سبحانه :

﴿ اللَّهُ الَّذِى رَفَعَ السَّمَـٰوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ .. (٢) ﴾ [الرعد]

فهذا يعنى أنه خلقها مرفوعة ، وفى العُرْف البشرى نعرف أن مُقْتضى رَفْع أىِّ شىء أنْ تُوجَد من تحته أعمدة ترفعه .

ولكن خلقَ الله يختلف ؛ فنحن نرى السماء مرفوعة على امتداد الأفق[1] ؛ ويظهر لَنا أن السماء تنطبق على الأرض ؛ ولكنها لا تنطبق بالفعل .

---

(١) الأفق : الناحية ـ وخط التقاء السماء بالأرض فى رأى العين . وجمعه آفاق . قال تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِى الآفَاقِ وَفِى أَنفُسِهِمْ .. (٥٣) ﴾ [فصلت] . وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ (٢٣) ﴾ [التكوير] . أى : ما بين السماء والأرض . [القاموس القويم ١/٢٢] .

ولم نجد إنساناً يسير فى أىِّ اتجاه ويصطدم بأعمدة أو بعمود واحد يُظَنُّ أنه من أعمدة رَفْع السماء ؛ وهى مَرْئية هكذا ؛ فهل هناك أعمدة غير مَرْئية ؛ أم لا توجد أعمدة أصلاً ؟ .

وقد يكون وراء هذا الرَّفْع أمر آخر ؛ فقد قلنا : إن الشىء إذا رُفع ؛ فذلك بسبب وجود ما يُمسكه أو ما يَحْمله ؛ وسبحانه يقول فى أمر رفع السماء :

﴿ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٦٥) ﴾ [الحج]

فإذا كانت مَمْسُوكة من أعلى ؛ فهى لا تحتاج إلى عَمَد ، وقوله الحق : (يمسك) يعنى أنه سبحانه قد وضع لها قوانينها الخاصة التى لم نعرفها بَعْدُ .

وقد قام العلماء المعاصرون بمَسْح الأرض والفضاء بواسطة الأقمار الصناعية وغيرها ، ولم يجدوا عَمَداً ترفع السماوات أو تُمْسِكها .

والمهندسون يتبارَوْنَ فى عصرنا ليرفعوا الأسْقُفَ بغير عَمَدٍ ؛ لكنهم حتى الآن ؛ ما زالوا يعتمدون على الحوائط الحاملة .

وهكذا نعلم أنه سبحانه إمَّا أنه حمل السماء على أعمدة أدقّ وألطفَ من أنْ تراها أعيننا ؛ ولذلك نراها بغير أعمدة ، أو أنها مرفوعة بلا أعمدة على الإطلاق .

و « عَمَد » اسم جمع ـ لا جمع ـ ومفردها «عمود» أو «عِمَاد».
وقد جاءتْ هذه الآية بمثابة التفسير لِمَا أُجمِل فى قول الحق سبحانه فى سورة يوسف :

﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِى السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥) ﴾ [يوسف]

وجاء سبحانه هنا بالتفصيل ؛ فأوضح لنا أنه :

﴿ رَفَعَ السَّمَـٰوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا .. (٢) ﴾ [الرعد]

أى : لا ترونها أنتم بِحُكْم قانون إبصاركم . ولا تعجب من أنْ يوجد مخلوق لا تراه ؛ لأن العينَ وسيلة من وسائل الإدراك ، ولها قانون خاص ؛ فهى ترى أشياء ولا ترى أشياء أخرى .

هذا بدليل أنك إذا نظرتَ إلى إنسان طوله مِتْران يتحرك مُبْتعداً عنك ؛ تجده يَصْغُر تدريجياً إلى أن يتلاشى من مجال رؤيتك ؛ لكنه لا يتلاشى بالفعل .

وهذا معناه أن قانون إبصارك مَحْكوم بقانون ؛ له مدىً مُحدّد .

وهناك قوانين أخرى مثل : قانون السمع ؛ وقانون الجاذبية ؛ وقانون الكهرباء ؛ وكلها ظواهر نستفيد بآثارها ، ولكنّا لا نراها ، فلا تعجب من أن يوجد شىء لا تدركه ؛ لأن قُوَى إدراكك لها قوانين خاصة .

ويشاء الحق سبحانه أن يُدلِّل على صدق ذلك بأن يجعل ما يكتشفه العلماء فى الكون من أشياء وقُوىً لم تكُنْ معروفة من قبلِ ؛ ولكننا كنا نستفيد منها دون أن ندرى ؛ مما يدلُّ على أن إدراك

الإنسان غَيْرُ قادر على إدراك كل شىء .

وذلك يوضح لنا أن رؤيتنا للسماء مرفوعة بغير عَمَد نراها ؛ قد يعنى وجود أعمدة مصنوعة بطريقة غير معروفة لنا ؛ أو هى مرفوعة بغير عَمَدٍ على الإطلاق .

وقول الحق سبحانه :

﴿ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا .. (٢) ﴾ [الرعد]

هو كلام خبرى ، والمثل من حياتنا حين تقول لابنك : « أنا خارج إلى العمل ؛ وذاكر أنت دروسك » ، وبذلك تكون قد أوضحتَ له : « ذاكر دروسك » وهذا كلام خبرىّ ؛ لكن المراد به إنشائىّ .

وإبراز الكلام الإنشائى فى مَقَام الكلام الخبرى له مَلْحظ ، مثلما تقول : « فلان مات رحمه الله » وقولك « رحمه الله » كلام خبرىّ ؛ فأنت تخبر أن الله قد رحمه .

على الرغْم من أنك لا تدرى : هل رحمه الله أم لا ؛ ولكنك قلت ذلك تفاؤلاً أن تكون الرحمةُ واقعةً به ، وكان من الممكن أن تقول : « مات فلان يا ربِّى ارحمه » ، وأنت بذلك تطلب له الرحمة .

كذلك قول الحق سبحانه :

﴿ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا .. (٢) ﴾ [الرعد]

أى : دَقِّقوا وأمعنُوا النظر إليها ، وابحثوا فيما يعينكم على ذلك إن استطعتم ، وإذا لفتَكَ المتكلم إلى شىء لِيُحرِّك فيك حواسَّ إدراكك ؛ فمعنى ذلك أنه واثقٌ من صَنْعته .

والمثل من حياتنا ـ ولله المثل الأعلى ، وسبحانه مُنزَّه عن أن يكون له مثل ـ حين تدخل لتشترى صُوفاً ؛ فيقدم لك البائع قماشاً ؛ فتسأله : « هل هذا صوف مائة فى المائة ؟ » فيقول لك البائع : « نعم إنه صوف مائة فى المائة ، وهاتِ كبريتاً لنشعل فتلة منه لترى بنفسك » .

ويوضِّح الحق سبحانه هنا : أن السماوات مرفوعة بغير عَمَد ؛ وانظروا أنتم ؛ بمَدِّ البصر ، ولن تجدوا أعمدة على هذا الامتداد ، وضمان عدم وجود أعمدة مُتحقِّق لك ولغيرك على مدى أُفُق أىٍّ منكم .

ولكُلِّ إنسان أُفُقه الخاص على حسب قدرة بصره ، فهناك مَنْ تنطبق السماء على الأرض أمام عيونه ؛ فنقول له : أنت تحتاج إلى نظارة طبية تعالج هذا الأمر .

فالآفاق تختلف من إنسان إلى آخر ، وفى التعبير اليومى الشائع يقال : « فلان ضَيِّق الأفق لا يرى إلا ما تحت قدميْه » .

ولقائل أن يقول : إن هذا يحدث معى ومع مَنْ يعيشون الآن ؛ ولا أحد يرى أعمدة ترفع السماوات ؛ فهل سيحدث ذلك مع مَنْ سيأتون من بعدنا ؟

ونقول : لقد مسحتْ الأقمار الصناعية من الفضاء الخارجى كل مساحات الأرض ؛ ولم يجد أحدٌ أية أعمدة ترفع السماء عن الأرض .

وهذا دليل صدق القضية التى قالها الحق سبحانه فى هذه الآية :

﴿ اللَّهُ الَّذِى رَفَعَ السَّمَـٰوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا .. (٢) ﴾ [الرعد]

والسماوات جمع « سماء » وهى كل ما عَلاَك فأظلَّك ، والحق سبحانه يقول :

﴿ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً .. (٢٢) ﴾ [البقرة]

ونعلم أن المطر إنما نزل من السُّحُب التى تعلو الإنسان ، وتبدو مُعلَّقة فى السماء ، وإذا أُطلِقتْ السماء انصرفت إلى السماء العليا التى تُظلِّل كل ما تحتها .

وحين أراد الناس معرفة كُنْه السماء ، وهل لها جِرْم[1] أم ليس لها جِرْم ؛ وهل هى امتداد أجواء وهواء ؟ لم يتفق العلماء على إجابة.

وقد نَثَر الحقُّ سبحانه أدلة وجوده ، وأدلة قدرته ، وأدلة حكمته ، وأدلة صَنْعته فى الكون ؛ ثم أعطاك أيها الإنسان الأدلة فى نفسك أيضاً ؛ وهو القائل سبحانه :

﴿ وَفِى أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ (٢١) ﴾ [الذاريات]

وانظر إلى نفسك تجد العلماء وهم يكتشفون فى كل يوم شيئاً جديداً وسِراً عجيباً ، سواء فى التشريح أو علم وظائف الأعضاء .

وسوف تعجب من أمر نفسك ، وأنت ترى تلك الاكتشافات التى كانت العقول السابقة تعجز عن إدراكها ، وقد يُدرَك بعضها الآن ، ويُدرَك بعضها لاحقاً.

---

(١) الجرم : الجسم والبدن . [لسان العرب ـ مادة : جرم] . والمقصود هل السماء لها أبعاد محددة تأخذ حيزاً كالأجسام ، أم هى مجرد فضاء وهواء ؟

وإدراكُ البعض للمجهول فى الماضى يُؤذِن بأنك سوف تدرك فى المستقبل أشياء جديدة .

وإن نظرت خارج نفسك ستجد قول الحق سبحانه :

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِى الآفَاقِ[1] وَفِى أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ..(٥٣) ﴾ [فصلت]

ومعنى ﴿ سَنُرِيهِمْ ..(٥٣) ﴾ [فصلت]

أن الرؤية لا تنتهى ؛ لأن « السين » تعنى الاستقبال ، ومَنْ نزل فيهم القرآن قرءوها هكذا ، ونحن نقرؤها هكذا ، وستظل هناك آيات جديدة وعطاءٌ جديد من الله سبحانه إلى أن تقوم الساعة .

وسبحانه القائل :

﴿ لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٥٧) ﴾ [غافر]

وأنت حين تفكر فى خَلْق السماوات والأرض ستجده مسألة غايةً فى الضخامة ؛ ويكفيك أن تتحيّر فى مسألة خَلْقك وتكوينك ؛ وأنت مجرد فرد محدود بحيّز ، ولك عمر محدود ببداية ونهاية ، فما بَالُك بخَلْق السماوات والأرض التى وُجِدَتْ من قَبْلك ، وستستمر من بعدك إلى أن تنشقَّ بأمر الله ، وتتكسر لحظتها النجوم .

ولا بُدَّ أن خَلْق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس ،

---

(١) الأفق : الناحية ـ وخط التقاء السماء بالأرض فى رأى العين . وجمعه آفاق . [القاموس القويم ١/٢٢] . بتصرف . والأفْق والأفُق : ما ظهر من نواحى الفَلَك وأطراف الأرض ، وكذلك آفاق السماء نواحيها . [لسان العرب ـ مادة : أفق] .

فالسماوات والأرض تشمل الكون كله .

وحين تُحدَّث عنها إياك أن تخلط فيها بوهمك ؛ أو بتخمينك ؛ لأن هذه مسألة لا تُدرك فى المعامل ، ولا تستطيع أن تُجرِى تحليلات لمعرفة كيفية خَلْق السماوات والأرض .

ولذلك عليك أنْ تكتفى بمعرفة ما يطلبه منك مَنْ خلقها ؛ وماذا قال عنها ، وتذكر قول الحق سبحانه :

﴿ وَلا تَقْفُ[1] مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ .. (٣٦) ﴾ [الإسراء]

وقد حجز الحق سبحانه عن العقول المتطفلة أمرين ؛ فلا داعى أن تُرهِق نفسك فيهما :

الأمر الأول : هو كيفية خَلْق الإنسان ؛ وهل كان قرداً فى البداية ثم تطوَّر ؟ تلك مسألة لا تخصُّك ، فلا تتدخل فيها بافتراضات تُؤدى بك إلى الضلال .

والأمر الثانى : هو مسألة خَلْق السماوات والأرض فتقول : إن الأرض كانت جزءاً من الشمس ، ومثل هذا الكلام لا يستند إلى وقائع .

وتذكر قول الحق سبحانه :

﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ .. (٥١) ﴾ [الكهف]

---

(١) قفا الشىء يقفوه : مشى خلفه أو تبعه. وقوله تعالى : ﴿ وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ .. (٣٦) ﴾ [الإسراء] . أى : لا تتبع من العقائد ما ليس لك به علم ، ولا من الآراء ، ولا من الأحداث ما لا تعرف له دليلاً ، ولا تسترسل فى الحديث عما ليس لك به علم . [القاموس القويم ١٢٨/٢] .

ولو كان الحق سبحانه قد أراد أن تعلم شيئاً عن تفاصيل هذين الأمرين لأشهد خلقهما لبعض من البشر ، لكنه سبحانه نفى هذا الإشهاد ؛ لذلك ستظل هذه المسألة لُغْزاً للأبد ؛ ولن تَحُلَّ أنت هذا اللُّغْز أبداً ؛ بل يحلُّه لك البلاغ عن الحقِّ الذى خلق .

وقد أوضح لك أنه قد خلقك من طين ، ونفخَ فيك من روحه ، فاسمع منه كيفية خَلْقك وخَلْق الكون كله .

ويدل الإعجاز البيانى فى القرآن على أن بعضاً ممَّنْ يملكون الطموح العقلى أرادوا أن يأخذوا من القرآن أدلة على صحَّة تلك النظريات التى افترضها بعض من العلماء عن خَلْق الإنسان وخَلْق الأرض ، فيبلغنا الحق سبحانه مقدَّماً ألاّ نصدقهم .

ويقول لنا :

﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً[1] (٥١) ﴾ [الكهف]

والمُضِلّ هو مَنْ يُضلُّك فى المعلومات ، هكذا أثبت لنا الحق سبحانه أن هناك مُضلِّين سيأتون ليقولوا كلاماً افتراضياً لا أساسَ له من الصِّحة .

وأوضح لنا سبحانه أن أحداً لم يتلصَّصْ عليه ، ليعرف كيفية خَلْق الشمس أو الأرض ، ومَنْ يدعى معرفة ذلك فهو من المُضلِّين ؛ لأنهم قَفَوْا ما ليس لهم به علم .

---

(١) العضد : المعاون المساعد . وهو فى الأصل : ما بين المرفق إلى الكتف ، ويستعمل مجازاً للمعين المساعد . قال تعالى : ﴿ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ .. (٣٥) ﴾ [القصص] .أى : سنقويك به على سبيل المجاز المرسل ، فتقوية العضد تقوية للإنسان كله . [القاموس القويم ٢/٢٤] .

وما دام الحق سبحانه قد قال ذلك ، فنحن نُصدِّق ما قال .

وقد أثبتت التحليلات صِدْق ما قاله سبحانه عن خَلْق الإنسان ، فسبحانه قد خلق الكون أولاً ، ثم خلق السيد لهذا الكون وهو الإنسان ، وكل الكون مُسخَّر للإنسان ويخدم هذا الخليفة فى الأرض ، وكل ما فى الكون يسير بنظام وانتظام .

والمُتمرِّد الوحيد فى الكون هو الإنسان ، فيأتى الحقُّ سبحانه إلى هذا المتمرِّد ؛ ليجعل الآية فيه ؛ وليثبت صِدْق الغيب فى الأرض .

وأوضح سبحانه أنه خلق آدم من الطين ؛ والإنسان من نسل آدم الذى سَوَّاه الله ، ونفخ فيه من روحه ، وبعد ذلك أمر الملائكة ؛ من المُدبِّرات أمراً ومن الحَفَظة ؛ أنْ تسجدَ للإنسان.

وهذا السجود هو إعلان الطاعة لأمر الله بخدمة الإنسان . هذا الذى بدأت حكاية خَلْقه من تراب ، ثم خُلط التراب بالماء ؛ ليصير طيناً ؛ ثم تُركَ قليلاً ليصير حَمَأً مَسْنوناً[1] ؛ ثم يجفّ الحَمأ المسنون ليصير صَلْصالاً كالفخَّار ؛ ثم ينفخ فيه الحق بالروح .

فإذا ما انتهى الأجل ؛ فأول ما يُنقض هو خروج الروح ؛ ثم يتصلَّب الجثمان ، وبعد أن يُوارَى التراب يصير الجثمان رِمّة[2] ؛ ثم

---

(١) الحمأ والحمْأة : الطين الأسود . والمسنون : المصبوب فى قالب إنسانى أو مصوّر بصورة إنسان أو طين كالفخار صالح للتصوير والصقْل . [القاموس القويم ١/٣٣١] .

(٢) رَمَّ الميت : بَلِى جسمه . قال تعالى : ﴿قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾﴾ [يس] . والرميم : الخلق البالى من كل شىء. [لسان العرب ـ مادة : رمم] .

يتسرَّب الماء الموجود فى الجثة إلى الأرض ، وتبقى العظام إلى أن تتحول هى الأخرى إلى تراب .

وهكذا يتحقق نَقْضُ كل بناء ؛ فما يُبنى فى نهاية أىِّ بناء هو ما يُنقض أولاً ، وهكذا يتأكد لنا صدق الحق سبحانه حين نرى صدق المقابل فيما أخبرنا به سبحانه عن كيفية الخلق .

وعندما يُخبرنا الحق سبحانه أن كيفية خَلْق السماوات والأرض ليست فى مُتَناولنا ؛ فقد أعطانا من قبل الدليل على صِدْق ما جاء به ، فيما أخبرنا به عن أنفسنا .

وفى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها يقول سبحانه :

﴿ اللَّهُ الَّذِى رَفَعَ السَّمَـٰوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ .. (٢) ﴾ [الرعد]

وكلمة « السماوات» فى اللغة جمع ، وفى آية أخرى ، يقول سبحانه :

﴿ فَقَضَاهُنَّ[1] سَبْعَ سَمَـٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا .. (١٢) ﴾ [فصلت]

وقديماً كانوا يقولون : إن المقصود بالسبع سماوات هو الكواكب السبعة : الشمس ، والقمر ، وعطارد ، والزهرة ، والمريخ ، والمُشْتَرى .

---

(١) قضاهن : خلقهن وأوجدهن وأنفذ إرادته بخلقهن. [القاموس القويم ١٢٢/٢] . وللقضاء معان كثيرة ذكرها السيوطى فى (الإتقان ١٢٨/٢) منها : الفراغ ، فى قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ .. (٢٠٠) ﴾ [البقرة] . ومنها : الفصل . فى قوله تعالى : ﴿ لَقُضِىَ الأَمْرُ ثُمَّ لا يُنظَرُونَ (٨) ﴾ [الأنعام] . ومنها العهد : ﴿ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الأَمْرَ .. (٤٤) ﴾ [القصص] .

وشاء سبحانه أن يُكذِّب هذا القول وأصحابُه أحياء ؛ فرأى علماء الفلك كواكبَ أخرى مثل : نبتون وبلوتو ؛ وكان فى ذلك لَفْتة سماوية لِمَنْ قالوا : إن المقصود بالسماوات السبع هو الكواكب السبعة .

وقد قالوا هذا القول بحُسْن نية وبرغبة فى رَبْط القرآن بالعلم ؛ لكنهم نَسُوا أن يُدقِّقوا الفهم لِمَا فى كتاب الله ، فسبحانه قد أوضح أن الشمس والقمر والكواكب كلها زينة السماء الدنيا[1] ، فما بالُنَا بطبيعة وزينة بقية السماوات ؟

ويتابع سبحانه :

﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ .. (٢) ﴾ [الرعد]

وهذه قضية هى أهمُّ قضية كلامية ناقشها علماء الكلام ؛ قضية الاستواء والعرش ، وحتى نفهم أىَّ قضية لا بُدَّ أن نُحلِّل ألفاظها لنتفقَ على معانيها ، ثم نبحثها جملة واحدة ، لكن أن نجلس لنتجادل ونحن غير مُتواردين ومتفقين على فَهْم واحد ؛ فهذا أمرٌ لا يليق .

ولننظر الآن معنى « الاستواء » ومعنى « العرش » ، ونحن حين نستقرىء كلمة « استوى » فى القرآن نجدها قد وردتْ فى آيات متعددة .

وجاءت مرّة واحدة بمعنى الاستواء . أى : النضج ، فى قول الحق سبحانه :

---

(١) يقول تعالى : ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ (٦) ﴾ [الصافات] . ويقول أيضاً : ﴿ وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (١٢) ﴾ [فصلت] .

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ[1] وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا .. (١٤) ﴾ [القصص]

أى : أنه قد بلغ نُضْجه الكمالىّ ، ويستطيع أن يكون رجلاً صالحاً لممارسة ما يُبقِى نوعه ، وإنْ تزوج فلسوف يُنجِب مثله ؛ وهذا استواء لمخلوق هو الإنسان .

ومرة أخرى يقول القرآن :

﴿ ذُو مِرَّةٍ[2] فَاسْتَوَىٰ (٦) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ (٧) ﴾ [النجم]

والمعنى هنا هو : صعد ؛ والمقصود هو صعود محمد و جبريل عليهما السلام إلى الأفق الأعلى .

وهناك قوله الحق :

﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ .. (٢٩) ﴾ [البقرة]

أى : أنه سبحانه قد استوى إلى السماء ؛ وإياك أن تظن أن استواءه سبحانه إلى السماء مُساوٍ لاستواء البشر ؛ لأننا قُلْنا من قبل : إن كل شىء بالنسبة لله إنما نأخذه فى إطار :

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ .. (١١) ﴾ [الشورى]

---

(١) الأشد : مبلغ الرجل الحنكة والمعرفة . قال الأزهرى : الأشد فى كتاب الله تعالى فى ثلاثة معان يقرب اختلافها . فقوله فى قصة يوسف : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ .. (٢٢) ﴾ [يوسف] فمعناه الإدراك والبلوغ . وأما قوله فى قصة موسى : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ .. (١٤) ﴾ [القصص] أى : أن يجتمع أمره وقوته ويكتهل وينتهى شبابه . وأما قوله : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً ..(١٥) ﴾ [الأحقاف] فهو أقصى نهاية بلوغ الأشد ، وقد اجتمعت حنكته وتمام عقله . [لسان العرب ـ مادة : شدد] . بتصرف .

(٢) المرة : القوة والشدة وحصافة الرأى وقوة الخلق ، مأخوذ من إمرار الحبل وإحكام فتْله . قال تعالى : ﴿ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ (٥) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ (٦) ﴾ [النجم] ، وهو وصف لجبريل عليه السلام بأنه ذو قوة . [القاموس القويم ٢/٢٢٣] .

وبذلك يكون استواؤه سبحانه إلى السماء هو استواء يليق بذاته، والاستواء المطلق شيء مختلف عن الاستواء على العرش .

وهكذا نجد استواءً لغير الله من إنسان ؛ وهناك استواء لغير الله من إنسان ومن ملك ؛ وهناك استواء من الله إلى غير العرش . وبجانب ذلك هناك استواء على العرش .

وقد وردَ الاستواء على العرش فى سبعة مواقع بالقرآن ؛ فى : سورة الأعراف ؛ وسورة يونس ؛ والرعد ، وطه ، والفرقان ، والسجدة ، والحديد .

وورد ذكر العرش فى القرآن بالنسبة لله واحداً وعشرين مرَّة، وورد بالنسبة لبلقيس أربع مرات ؛ فهو القائل سبحانه :

﴿ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) ﴾ [النمل]

وقال :

﴿ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا .. (٣٨) ﴾ [النمل]

ثم قال :

﴿ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا .. (٤١) ﴾ [النمل]

وقال :

﴿ أَهَـٰكَذَا عَرْشُكِ .. (٤٢) ﴾ [النمل]

وبالنسبة ليوسف قال سبحانه :

﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ .. (١٠٠) ﴾ [يوسف]

وإيَّاك أن تأخذ الاستواء بالنسبة لله على أن معناه « النُّضْج » ؛

لأن النُّضْجَ إشعارٌ بكمالٍ سَبقه نَقْصٌ .

ولذلك نجد العلماء المُدقِّقين قد علِمُوا أن ذِكْر استواء الله على العرش قد ورد فى سبعة مواضع بالقرآن الكريم وقالوا :

وَذِكْرُ اسْتواءِ اللَّهِ فِى كَلِمَاته علَى ... العَرْشِ فى سَبْعِ مَوَاضِع فَاعْدُدِ
فَفِى سُورَةِ الأعْرَافِ ثُمَّةَ يُونُسَ ... وَفِى الرَّعْدِ مع طَه فَلِلْعَدِّ أَكِّدِ
وَفِى سُورَةِ الفُرْقَانِ ثُمَّةَ سَجْدة ... كَذَا فِى الحديدِ افْهمْهُ فَهْم مُؤَيَّدِ

وقالوا فى المعنى :

فَلَهُمْ مَقالاتٌ علَيْهَا أَرْبعة ... قَدْ حُصِّلَتْ لِلْفارسِ الطَّعَّانِ
وَهى اسْتقرَّ وقَدْ عَلاَ ... وَكذلكَ ارتفَع مَا فيه مِنْ نُكْرانِ
وَكَذاكَ قَدْ صعَدَ الذى هُوَ رَابِعٌ ... بِتمَامِ أمْرٍ مِنْ حِمَى الرَّحمَانِ

والصعود إلى العرش هو حركة انتقال من وضع إلى وضع لم يَكُنْ فيه .

وهكذا نجد أن المعانى التى تتمشَّى مع الاستواء فى عُرْفنا البشرى لا تتناسب مع كمال الله .

واختلف العلماء : قال واحد منهم : « سآخذ اللفظ كما قاله الله ».

ونردُّ على هذا بسؤال : وهل يمكنك أن تُغَيِّبَ :

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ .. (١١) ﴾ [الشورى]

طبعاً ، لا أحدَ يستطيع ذلك ، وعليك أن تأخذ كل فَهْمٍ لشىء يخصُّ الذات العلية فى إطار :

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ .. (١١) ﴾ [الشورى]

ولذلك نجد أهل الدِّقة[1] يقولون : « الاستواء معلوم ، والكَيْف مجهول ، والسؤال عنه بدعة » .

فنحن نعلم معنى الاستواء ؛ ولكن كيفية استواء الله مجهولةٌ بالنسبة لنا ، والسؤال عن الكيفية بدعة ؛ لأن المعاصرين لرسول الله ﷺ لم يسألوا عن تلك الكيفية ، رغم أنهم سألوا عن كثير من الأمور .

وهناك آيات متعددة[2] تبدأ بقول الحق سبحانه :

﴿ يَسْأَلُونَكَ .. (١٨٩) ﴾ [البقرة]

وكان السؤال وارداً بالنسبة لهم ؛ لكنهم بملكتهم العربية الفطرية قد فَهِموا الاستواء كشىء يناسب الله ، فلَمْ يسألوا عنه .

وجاء السؤال من المتأخرين الذين تمحَّكوا ، فقال واحد : سآخذ الألفاظ بمعناها ؛ فإن قال : إن له صعوداً ؛ فهو يصعد ، وإنْ قال : إن له استواء فهو يستوى .

ولِمَنْ قال ذلك نردُّ عليه : إن ما تقوله صالحٌ للأغيار ، ولا يليق أن تقول ذلك عن الذى يُغيِّر ولا يتغيَّر . وإذا سألتَ عن معنى كلمة « استواء » فهو « استتب له الأمر » . وهل كان الأمر غير مستتب له سبحانه ؟

---

(١) رُوِى هذا عن الإمام مالك بن أنس .

(٢) ورد هذا فى ١٥ موضعاً فى القرآن : [البقرة : ١٨٩ ، ٢١٥ ، ٢١٧ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢٢] ، [المائدة : ٤] ، [الأعراف : ١٨٧] ، [الأنفال : ١] [الإسراء : ٨٥] ، [الكهف : ٨٣] ، [طه : ١٠٥] ، [النازعات : ٤٢] .

ونقول : نحن نعلم أن لله سبحانه وتعالى صفات متعددة ، وهذه الصفات كانت موجودة قبل أن يخلق الله الخَلْق والكَون ؛ فسبحانه موصوفٌ أنه خالق قبل أنْ يخلق الخَلْق ، ومُعزٌّ قبل أن يخلق مَنْ يُعزّه ، ومُذِلّ قبل أنْ يخلق مَنْ يُذِلّه ، وله سبحانه صفاتُ الكمال المُطْلَق .

وبهذه الصفات خلق الخلق ، يقول الحق :

﴿ رَبُّنَا الَّذِى أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ (٥٠) ﴾ [طه]

وكذا نؤمن بأن صفة الخَلْق كانت فى ذاته قبل أن يخلق خَلْقه، وحين خلق سبحانه السماوات والأرض أبرز الصفة التى كانت موجودة فيه وليس لها مُتعلِّق ؛ فأوجد هو سبحانه المُتعلِّق ، وهكذا استتبَّ له الأمر سبحانه .

إذن : إذا ذُكِر استواءُ الله ، فهذا يعنى تمامَ المُرَاد له ، فصار للصفات التى كانت فيه ، وليس لها مُتعلِّق أو مَقْدُور ؛ مُتعلِّق ومَقْدور .

وإذا وُجِدَتْ هذه الصفة فى البشر مثل بلقيس التى وصفها سبحانه :

﴿ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) ﴾ [النمل]

فهى تختلف عن صفَة الله ؛ لأنها لم تجلس على العرش إلا بعد أن خلقها الله ، ولا يستتب الأمر لملك أو ملكة إلا بمتاعب ومعارك ، وقد ينشغل هذا الشخص فى معارك وحروب ، ثم يستتبّ له الأمر .

وهكذا يختلف استواءُ الله عن استواءِ خَلْق الله ، وإذا ذُكر استواء

الله على العرش ؛ فنحن نُنزِّه الله عن كل استواء يناسب البشر ، ونقول :

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ .. (١١) ﴾ [الشورى]

واستواؤه هو تمام الأمر له ، لأن أمره صادر ، وعند تحقيق أمره فى توقيته المراد له يكون تمام الأمر ، وتمام الأمر استواؤه ، أما كلمة « العرش » فنحن نجدها فى القرآن بالنسبة لله .

إما مُضَافاً لاسم ظاهر :

﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ .. (١٧) ﴾ [الحاقة]

وإما مُضَافة للضمير المخاطب أو الغائب :

﴿ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ .. (٧) ﴾ [هود]

وإما مُضَافاً للتنسيب :

﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٢٢) ﴾ [الأنبياء]

ويقول الحق سبحانه فى نفس الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها :

﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ .. (٢) ﴾ [الرعد]

والتسخير هو طلب المُسخِّر من المُسخَّر أن يكون كما أراده تسخيراً ، بحيث لا تكون له رغبة ، ولا رأى ، ولا هَوَى ، والتسخير ضِدُّه الاختيار .

والكائن المُسخَّر لا اختيارَ له ، أما الكائن الذى له اختيار فهو إنْ شاء فعل ، وإنْ شاء لم يفعل .

وقُلْنا قديماً : إن الحق سبحانه قد خَيَّرَ الإنسان :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ[1] مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً (٧٢) ﴾ [الأحزاب]

وبذلك قَبِل الإنسان أداء الأمانة وَقْتَ أدائها ؛ لا وَقْتَ تحمُّلها ، ووقت الأداء غَيْر وقت التحمُّل ، وضربتُ المَثَل بمَنْ يقول لصديقه : « عندى ألف جنيه ؛ وأخاف أنْ يضيعوا منِّى ؛ فاحفظهم لى معك ؛ وحين أحتاجهم اعْطِهمْ لى » .

ويقول الصديق : « هَاتِ النقود وسأُعطيها لك وقت أنْ تطلبها » .

والصديق صادقٌ وقت تحمُّل الأمانة ؛ لكن ظروفاً تمرُّ عليه ، فيتصرَّف فى هذه الأمانة ؛ وحين يطلبها صاحبها ؛ قد يعجز حامل الأمانة عن رَدِّها ، وهو بذلك ضَمِنَ نفسه وقت التحمُّل ؛ لكنه لم يضمن نفسه وقت الأداء .

وكان من الواجب عليه أن يقول لصديقه لحظةَ أنْ طلب منه ذلك : « أرجوك ، ابتعد عنِّى لأنِّى لا أضمن نفسى وَقْت الأداء » .

وقد أَبَتِ السماء والأرض والجبال تحمُّل الأمانة وَقْت عَرْضِها ؛ وقَبِلتْ كل منهم التسخير ؛ فلا الجبال ولا السماوات ولا الأرض لها قدرة الاختيار ، ولا هَوى لأىٍّ منها فى هذه القدرة ؛ مثلها فى ذلك مثل كل أجناس الكون ما عدا الإنسان ؛ ولم نجد فساداً فى الأرض

---

(١) أشفق من الشىء : خشى أن يناله منه مكروه . وقوله تعالى : ﴿ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا .. (٧٢) ﴾ [الأحزاب] . أى : ضقن من حمل الأمانة ، ومن نتائج عدم الوفاء بحقوقها . [القاموس القويم ١/٣٥١] .

قد نشأ من ناحية المُسخَّرات .

أما الإنسان فقد قَبِل تحمُّل الأمانة ؛ لأن له عقلاً يُفكِّر ويختار ؛ ومن الاختيار ونتيجة للهوى جاء الفساد فى الكون ، ولو أقبل الإنسان على العمل وكأنه مُسخَّر خاضع لمنهج الله ؛ لاستقام عمل الإنسان مِثْلما يستقيم عَمَلُ كل الكائنات المُسخَّرة بأمر الله .

فإنْ أردتم أن تستقيمَ أموركم فيما لكم فيه اختيار ، فطبِّقوا قول الحق سبحانه :

﴿ أَلاَّ تَطْغَوْا[1] فِي الْمِيزَانِ (٨) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ[2] وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (٩) ﴾ [الرحمن]

وانظروا ماذا يطلب الحق منكم فى منهجه ، فإنْ نفَّذتم المنهج تَسْتقِمْ أموركم ، كما استقامتْ الكائنات المُسخَّرة .

ولا يأتى الخَلَل إلا من أننا نحن البشر نقوم ببعض الأعمال باختيارنا ، وتكون مخالفة لمنهج المُشرِّع ، أما إذا كنا نؤدى أعمالنا ونضع نُصْب أعيننا قول الحق سبحانه :

﴿ أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (٨) ﴾ [الرحمن]

فلسوف تكون أعمالنا مُطابِقة لمنهج الله ، وسنجد فى أعمالنا ما يَسرُّنا مثل سرورنا حين نجد الأفلاك منتظمة بدقة وحساب .

إذن : فالفساد لا يأتى إلا من الاختيار غير المُرْتجى لمنهج مَنْ

---

(١) طغى يطغى : تجاوز الحدَّ . [القاموس القويم ٤٠٢/١] .

(٢) القسط : العدل. وقسط يقسط : عدل . وأقسط : عدل وأزال الظلم والجور [القاموس القويم ١١٦/٢] .

خلق فينا الاختيار ، وإن كنت تريد أن تكون مختاراً ؛ فعليك أن تلتزم بمنهج مَنْ خيَّرك .

ولذلك نجد الصالحين من خَلْق الله قد ساروا على منهج ربهم ؛ والتزموا باختيار مراد ربهم فيما لهم فيه اختيار ؛ فصاروا وكأنهم مُسخَّرون لمُرَادات الله .

وهؤلاء يسمُّونهم «العباد » لا « العبيد » ؛ فكل مملوك لله من العبيد ؛ آمن به أو كفر ؛ أطاع أو عصى ؛ أما العباد فَهُمْ مَنْ جعلوا مرادات الله هى اختيارهم ، يقول تعالى :

﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا[1] وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا (٦٣) ﴾ [الفرقان]

هؤلاء هم مَنِ اتجهوا بالاختيار إلى ما يختاره لهم الله .

ونجد الحق سبحانه يقول فى الملائكة :

﴿ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ (٢٦) لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (٢٧) ﴾

[الأنبياء]

وإذا ما التزم العبد بمنهج ربه فى حال الاختيار ؛ فهو لا يتساوى مع الملائكة فقط ، بل قد يسمو عنهم ؛ لأنهم مَقْهورون بالتسخير ؛ بينما تتمتع أنت بالاختيار ؛ وآثرْتَ منهج ربك .

ويقول الحق سبحانه هنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها :

---

(١) الهَوْن والهُوَيْنا : التؤدة والرفق والسكينة والوقار . [لسان العرب ـ مادة : هون] .

﴿ وَسَخَّرَ[1] الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى .. (٢٩) ﴾ [لقمان]

ولحظةَ تجد التنوين مثل « كلٌّ » فهذه يعنى كُلاً من السابق . أى : الشمس والقمر . أما الجَرْى إلى أجَل مُسمّى ؛ فيقتضى منَّا أن نفهم معنى الجَرْى ؛ وهو تقليل الزمن عن المسافة .

فحين تريد الوصول إلى مكان مُعيَّن فقد تمشى الهُوَيْنا ؛ لتصلَ فى ساعة زمن ، وقد تجرى لتقطع نفس المسافة فى نصف ساعة ؛ والجَرْى بطبيعة الحال ملحوظ ممَّن يراك .

لكن : هل يرى أحدنا الشمس وهى تجرى ؟

لا ، لأنها تجرى فى ذاتها ؛ ويُسمَّى هذا النوع من الجرى « جرى انسيابى » . أى : لا تدركه بالعين المجردة ، وهناك ما يُسمّى « انتقال قفزى » ، وهناك ما يُسمّى « انتقال انسيابى » .

وانظر إلى عقارب الساعة ؛ ستجد عقربَ الثَّوانى أسرعَ من عقرب الدقائق الذى يبدو ساكناً رغم أنه يتحرك ؛ وأنت ترى حركة عقرب الثوانى ؛ لأنها تتم قَفْزاً ؛ بينما لا ترى حركة عقرب الدقائق ؛ لأنه يتحرك تبَعاً لدورة هادئة من التروس داخل الساعة ؛ وكل جزئية فى حركة التُّرْس الخاص بعقرب الدقائق تتأثر بحركة تُرْس عقرب الثَّوانى ؛ والحركة القفزية لعقرب الثوانى تتحول إلى حركة انسيابية فى عقرب الدقائق .

---

(١) سخَّره : أخضعه وقهره لينفذ ما يريد منه بدون إرادة ولا اختيار من المسخَّر . ومنه قوله تعالى : ﴿ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ .. (٥٤) ﴾ [الأعراف] . أى : مسيرات خاضعات مقهورات بأمر الله وبإرادته هو ، لا بإرادتها ولا باختيارها . [القاموس القويم ١/٣٠٦] .

وحركة كل من العقربين تتحول إلى حركة أكثر انسيابية فى عقرب الساعات ، وهذا يعني أن كل جزئية من الزمن فيها جزئية من الحركة .

وحتى فى النمو بالنسبة للإنسان أو الحيوان أو النبات ، تجد عملية النمو غير ظاهرة لك ؛ لأن الكائن الذي ينمو إنما ينمو بقدر بسيط غير ملحوظ ، وهذا القدر البسيط شائع فى اليوم كله .

وإن أردتَ أن تعرف هذه المسألة أكثر ، انظر إلى الظل ، وأنت ترى الظل واضحاً ساعةَ سطوع الشمس ، ثم ينحسر الظل بانحسار الشمس .

واقرأ قول الحق سبحانه :

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا (٤٥)﴾ [الفرقان]

أى : أن الظل متحرك وغير ثابت ، وكل جزئية من الزمن تؤثر فى حركة الشمس ، فيتأثر بها الظل .

وهكذا يجب أن نُفرِّق بين الحركة القفزية والحركة الانسيابية ، وحين تقدمنا فى العلم نجدهم يقولون : « سنزيد من الحركة الانسيابية عن الحركات القفزية » .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لأَجَلٍ مُّسَمًّى ..(٢)﴾ [الرعد]

والأجل هو المدة المحدودة للشىء ؛ وهى محدودة زمناً إنْ أردنا ظرف الزمان ؛ أو محدودة بالمسافة إن أردنا المكان .

والمقصود هنا بالأجل ؛ إما الأجل النهائى لوجود الشمس والقمر ؛ ثم إذا انشقتْ السماء كُوِّرت[١] الشمس ، وانكدرت[٢] النجوم .

أو : أن المقصود هنا بالأجل هو للتعبير عن عملها اليومى .

وقد عرفنا أن هناك مطالع متعددة للشمس ، وعلى الرغم من أن المشرق له جهة عامة واحدة ؛ لكن المطالع مختلفة ، بدليل أن قدماء المصريين أقاموا فى بعض المعابد طاقاتٍ وفتحاتٍ فى البناء .

فتطلع الشمس كُلَّ يوم من أحد هذه الطاقات ؛ فكل يوم توجد لها منزلة مختلفة عن اليوم السابق ، وتظل تقطعها ، ثم تعود مرة أخرى ، وتفعل ذلك إلى أجل مُسمّى أى يومياً .

ونُسمِّى نحن تلك المنازل « البروج » كبرج الحَمَل ؛ والجَدى ؛ والثور ؛ والأسد ؛ والسنبلة ؛ والقوس ؛ والحوت ؛ ونحن نرصد هذه الأبراج كوسيلة لمعرفة أحوال الطقس من حرارة ، وبرودة ، ومطر ، وغير ذلك ، ذلك أن كُلَّ برج له زمن ، ويمكن تعريف أحوال الجو خلال هذا الزمن بدقة .

ولكن بعضاً من تصرفات الإنسان تفسد عملية التحديد الدقيق فى الكون ، مثلما يشعل البعض الحرائق فى الغابات ؛ فتحرق النار

---

(١) كوّر الشىء : لَفَّه على شىء مستدير ، فيقال « كوَّر عمامته » : لفَّها على رأسه . وقوله : ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ .. ۝٥﴾ [الزمر] . أى : يزيد الليل فيلتف على جزء من النهار وبالعكس . [القاموس القويم ٢/١٧٧] .

(٢) قال تعالى : ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ۝٢﴾ [التكوير] . أى : تغيَّر لونها ولم يعد صافياً لامعاً ، أو تناثرت وتساقطت بسرعة كالصقور المنقضة على فرائسها عند قيام الساعة . [القاموس القويم ٢/١٥٥] .

الأكسوجين الذى يحتاجه البشر والحيوانات للتنفس ، ويحاول الغلاف الجوى أن يتوازن ، فيشُدّ كميات من الهواء من منطقة أخرى ، فيختلّ ميزان الطقس لأيام .

وكذلك يفسد الجو من التجارب الذرية التى تُجريها الدول أعضاء النادى الذرى ؛ تلك التجارب التى تقوم بتفريغ الهواء ، فتجعل الطقس غَيْرَ مُسْتقر وغير منضبط ؛ وهذا ما يفسد استخدامنا للأبراج كوسيلة لمعرفة تقلُّبات الطقس .

وقد أوجز الشاعر تلك الأبراج فى قوله :

حَملَ الثورُ جَوْزةَ السَّرطَانِ ورَعَى الليْثُ سُنْبلَ الميزَان
عَقْرب القَوْس جَدْى دَلْو وحُوت مَا عَرفْنَا مِنْ أُمةِ السُّرْيَانِ

ويتابع الحق سبحانه فى نفس الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها :

﴿ يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (٢) ﴾ [الرعد]

وسبحانه قد أوضح من أول الآية مسألة رَفْع السماوات بغير عَمَد ، واستوائه على العرش ، وتسخير الشمس والقمر ، وكيف يجرى كُلٌّ شىء لأجل مُسمّى .

وكُلُّ ذلك يتطلب تدبيراً للأمر بعد أن أبرز القدرة ؛ ثم يصون ذلك كله ، فكما قَدَّر فخلق ، فهو يُدبِّر بقيوميته ، فهو القائم على كل شىء ، وسبحانه كل يوم هو فى شَأْن[1] .

---

(١) عن عبدالله بن منيب الأزدى قال : تلا رسول الله ﷺ هذه الآية : ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ (٢٩) ﴾ [الرحمن] فقلنا : يا رسول الله ، وما ذاك الشأن ؟ قال : «أن يغفر ذنباً ، ويفرج كرباً ، ويرفع قوماً ، ويضع آخرين » أورده ابن كثير فى تفسيره (٤/٢٧٣) .

وأقول هذا المثل لأوضح - لا لأُشبِّه فسبحانه مُنَزَّه عن التشبيه - ونحن نقول : فلان فكَّر أولاً ثم دبَّر ، والتفكير هو العملية التى تبحث فيها عن الشىء لإخراج المطلوب منه ؛ كأن تأتى بقليل من حبوب القمح لتفركه بيدك لتخرج القمحة من قشرته .

هذا هو التفكير الذى يطلب منك أن تبحث وتُنقِّب إلى أن تصل إلى لُبِّ الأشياء . والتدبُّر يقتضى ألاَّ تقتنع بما هداك إليه فكرك فى نفس اللحظة ، ولكن أن تُمحِّص الأمر لترى ماذا سينتج عن تنفيذ ما وصل إليه فكرك ؟

فربما ما فكرتَ فيه يُسعِفك ويُعينك فى لحظتكَ الحالية ؛ لكنه سيأتى لك بعَطَبٍ بعد قليل .

والمَثَلُ الذى أضربه على مثل هذه الحالة دائماً هو اختراع المُبيدات الحشرية ؛ ولم يَفْطنوا إلى أن هذه المبيدات لا تقتل الحشرات الضارة وحدها ، بل تُسمِّم الطيور التى كانت تفيد الفلاح .

ووصل الأمر إلى حَدِّ تحريم استخدام هذه المبيدات ؛ وجاء هذا التحريم ممن تفاخروا من قَبْل على كل شعوب الأرض باختراعهم لتلك المبيدات ، فقد فَطِنوا إلى أنَّ ما جاءهم من خَير عن طريق تلك المبيدات هو أقلُّ بكثيرٍ من الضُّرِّ الذى وقع بسببها .

وهذا يعنى أنهم لم يتدبروا اختراعهم لتلك المبيدات ؛ فقاموا بتصنيعها لفائدة عاجلة ، دون أن يلتفتوا إلى الخطورة الآجلة ، وكان لا بُدَّ لهم أن يتدبروا الأمر ؛ لأن التدبُّر معناه النظر فى دُبُر الأشياء .

والحق سبحانه هو القائل :

﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾﴾ [محمد]

أى : لا تنظر إلى واجهة الآية فقط ، بل انظر فى أعماقها ، ولذلك يقول لنا سيدنا عبدالله بن مسعود رضى الله عنه : « ثَوِّروا[1] القرآن » .

أى : استخرجوا منه الكنوز بالتدبُّر ؛ لأن التدبر يحمى من حماقة التفكر ، والمثل البسيط المتكرر فى بيوتنا هو أننا نغسل أفواهنا بعد تناول الطعام ونتمضمض مِمَّا بَقِى فى الفم من بقايا .

ونجد من بين هذه البقايا بعضاً من « الفتافيت الصلبة بعض الشىء » ، ثم نغسل حوض المياه بتيار متدفق من ماء الصنبور ، ونُفَاجأ بعد فترة من الزمن بانسداد ماسورة الصرف الخاصة بالحوض ؛ وحين يفتح السباك ماسورة الصرف هذه يجدها مليئة برواسب من بقايا الأطعمة .

وأنت حين تمضمضتَ لم تلتفت إلا لنظافة الفَمِ من البقايا ، ولم تتدبر أمر تلك البقايا ، ولو أنك تدبرتَ ذلك لَقُمْتَ بتركيب ماسورة صرف للحوض أكبر من الماسورة التقليدية الضيقة ؛ ولَجعلْتَ صندوق الطرد الخاص بالحوض أكبر من الحجم المعتاد والمُجهَّز لصرف المياه فقط .

---

(١) أورد ابن منظور فى لسان العرب حديث ابن مسعود : « أثيروا القرآن ، فإن فيه خبر الأولين والآخرين » قال شمر : تثوير القرآن قراءته ومفاتشة العلماء به فى تفسيره ومعانيه » [مادة : ثور] .

وهكذا نرى أن الفكر يحثُّك على أن تبحث عن مطلوب لك ؛ ولكن عليك أن تنظر وتُدقِّق : هل يحقق لك ما يقترحه عليك فكرك ؛ ما يفيدك أم ما يضرك ؟

هذا هو التدبُّر ، وهو ما نُسمِّيه صيانة الأشياء .

ويتابع الحق سبحانه فى نفس الآية :

﴿ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (٢) ﴾ [الرعد]

وتفصيل الآيات يعنى أنه جعل لكل أمر حُكْماً مناسباً له . ودائماً أقول لمن يسألنى عن فتوى ؛ ويُلِحّ أن تتوافق الفتوى مع مراده : « نحن لا نُفصِّل الفتوى من أجل هواك ؛ لأن ما عندى هى فتاوى جاهزة ؛ وعليك أن تضبط مقاسك أنت على الفتوى ، لا أن نُفصِّل لك الفتوى على هواك » .

أقول ذلك ؛ لأن المسألة ليست حياة تنتهى إلى العَدَم ، ولكن هناك حياة أخرى تُحاسب فيها على كل تصرُّف ، فالحق سبحانه هو القائل :

﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً[1] مَّنثُوراً (٢٣) ﴾

[الفرقان]

وهو القائل سبحانه أيضاً جَلَّ وعلا :

---

(١) الهباء : الغبار المتطاير فى الجو . قال تعالى : ﴿ فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنبَثًّا (٦) ﴾[الواقعة] . أى : تراباً متطايراً هنا وهناك . ومثله قوله : ﴿ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُوراً (٢٣) ﴾ [الفرقان] . أى : كل عمل عملوه كالهباء المنثور لا يُعتدُّ به ولا قيمة له . [القاموس القويم ٢/٢٩٧] .

﴿ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ[١] لاَّ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ .. (١٨) ﴾ [إبراهيم]

ولذلك فعليك أن تُقبل على كل عمل وأنت مُوقن بأن هذا العمل لا ينتهى بتركك للحياة الدنيا ، ولكن لكل عمل آثاره فى حياة باقية ، وإذا كانت الدنيا تحمل لك راحة موقوتة أو تعباً موقوتاً ، فالراحة فى الآخرة باقية أبداً ؛ والتعب فيها غير مَوْقوت .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ[٢] وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي[٣] الَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٣) ﴾

ويتابع الحق سبحانه سَرْد آياته الكونية فى هذه الآية :

﴿ مَدَّ الأَرْضَ .. (٣) ﴾ [الرعد]

يعنى أنها موجودة أمامك ومُمْتدة ، وبعض الناس يفهمون المَدَّ بمعنى البسط ، ونقول : إن البَسْطَ تابع للمَدِّ .

---

(١) عصفت الريح : اشتد هبوبها . والريح العاصفة أحياناً تدمر كل شىء تمر عليه . [القاموس القويم ٢/٢٣] .

(٢) الرواسى : الجبال ، لأنها تثبت الأرض فتستقر ولا تميل . [لسان العرب ـ مادة : رسا].

(٣) غشَّيت الشىء تغشية إذا غطيته . [لسان العرب ـ مادة : غشى] قال ابن كثير فى تفسيره (٢/٥٠٠) : « أى : جعل كلاً منهما يطلب الآخر طلباً حثيثاً ، فإذا ذهب هذا غشيه هذا ، وإذا انقضى هذا جاء الآخر » .

ولذلك وقف بعض العلماء وقالوا : ومن قال إن الأرض كُرَويّة ؟

إن الحق سبحانه قال : إنها مبسوطة ، وهو سبحانه الذى قال : إنه قد مَدَّ الأرض .

وقلتُ لهؤلاء العلماء : فَلْنفهم كلمة المَدِّ أولاً ، وَلنْفهَمْ أيضاً كلمة « الأرض » وهى التى تقف عليها أنت وغيرك ، وتعيش عليها الكائنات ، وتمتد شمالاً إلى القُطْب الشمالى ، وجنوباً إلى القُطْب الجنوبى ، أياً ما كُنْت فى أىِّ موقع فهى مَمْدودة شرقاً وغرباً .

ومعنى :

﴿ مَدَّ الأَرْضَ .. (٣) ﴾ [الرعد]

تعنى أنك إنْ وقفتَ فى مكان وتقدمتَ منه ؛ تجد الأرض ممدودة أمامك ؛ ولا توجد حَافّة تنتهى لها ، ولو أنها كانت مبسوطة لَكانَ لها نهاية ، ولكانت على شكل مُثلّث أو مُربّع أو مُسْتطيل ؛ ولكانَ لها حافة ؛ ولوجدنا مَنْ يسير إلى تلك الحافة ، وهو يقول : « لقد وصلتُ لحافة الأرض ؛ وأمامى الفراغ » ولم يحدث أنْ قال ذلك واحد من البشر .

وإذا ما سار إنسان على خط الاستواء مثلاً ؛ فسيظل ماشياً على اليابسة أو راكباً لمركب تقطع به البحر أو المحيط ليصل إلى نفس النقطة التى بدأ منها سَيْره .

وهكذا نجد الأرض ممدودة غير محدودة ، لا يكون ذلك إلا إذا كانت الأرض مُكوَّرة ، بحيث إذا مشيت مُتتبِّعاً أىَّ خط من خطوط العرض أو خطوط الطول لانتهتْ إلى النقطة التى بدأت منها سَيْركَ .

وكان هذا هو الدليل الذى يقدمه العلماء على كروية الأرض ؛ قبل أن يخترعوا فكرة التصوير من خارج الغلاف الجوى .

ونأخذ من قول الحق سبحانه :

﴿ وَهُوَ الَّذِى مَدَّ الأَرْضَ .. (٣) ﴾ [الرعد]

معنًى آخر هو ضرورة أن ينظر الإنسانُ فى هذا الامتداد ؛ ومَنْ تضيق به الحياة فى مكان يُمكنه أن يرحلَ إلى مكان آخر ، فأرضُ الله واسعة ، والحق سبحانه هو القائل :

﴿ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا .. (٩٧) ﴾ [النساء]

ونعلم أن فساد العالم فى زمننا إنما ينشأ من فساد السياسات ، وزيادة الاضطرابات ، وذلك واحد من نتائج تعويق مَدِّ الأرض ، فساعة يحاول إنسان أن يترك حدود موطنه ؛ يجد الحراسات والعوائق عند حدود البلاد المجاورة ، وتناسَى الجميع قَوْل الحق سبحانه :

﴿ وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ (١٠) ﴾ [الرحمن]

فسبحانه قد سَخَّر الأرض وأخضعها للأنام كل الأنام[1] ، وإذا لم يتحقق هذا المبدأ القرآنى ؛ سيظل العالم فى صراع ؛ وستظلُّ بعض من البلاد فى حاجة للبشر ، وبعض من البلاد فى ضيق من الرزق ؛ لزيادة السكان عن إمكانات الأرض التى يعيشون عليها .

وستظل هناك أرض بلا رجال ؛ ورجال بلا أرض ، نتيجة للحواجز المصطنعة بين البلاد .

---

(١) الأنام : ما ظهر على الأرض من جميع الخلْق . وقال المفسرون : هم الجان والإنس . [لسان العرب ـ مادة : أنم] قال ابن كثير فى تفسيره (٤/ ٢٧٠) : « أى : كما رفع السماء وضع الأرض ومهدها وأرساها بالجبال الراسيات الشامخات لتستقر لما على وجهها من الأنام وهم الخلائق المختلفة أنواعهم وأشكالهم وألوانهم وألسنتهم فى سائر أقطارها وأرجائها » .

وحتى تُحل هذه القضية ـ كما قلنا فى الأمم المتحدة ـ لابد من تطبيق المبدأ القرآنى :

﴿ وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ (١٠) ﴾ [الرحمن]

ومَنْ تضيق به الأرض التى نشأ فيها فليسمح له بالهجرة .

ويتابع سبحانه فى نفس الآية :

﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا .. (٣) ﴾ [الرعد]

والرواسى هى جمع « رَاسٍ » وهو الشىء الثابت

وسبحانه يقول :

﴿ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا (٣٢) ﴾ [النازعات]

وهكذا جاء الحق بالحكم الذى شاء أن تكون عليه الجبال ، وفى آية أخرى يأتينا الله بعلة كونها رواسى ؛ فيقول :

﴿ وَجَعَلْنَا فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ .. (٣١) ﴾ [الأنبياء]

أى : لا تضطرب بكم الأرض ، ولو كانت الأرض مخلوقة على هيئة الثبات ؛ لما احتجْنَا إلى الجبال الرواسى كى تُثبِّتها ، ولكن الأرض مخلوقة متحركة ، وهى عُرْضة للاضطراب ، ولولا الجبال الرواسى لَمَادتْ الأرض .

ولسائل أن يقول : ولكننا نقطع الآن الجبال ، ونأخذ الجرانيت من جبل لِنُزيِّن به أرضية بعض المناطق ؛ ونقطع الرخام من جبل آخر لنصنع منه حمامات وأحواضاً ودرجات السلالم ، ونقتطع بعض أحجار أنواع معينة من الجبال ؛ لنستخلص اليورانيوم منها ؟

ونقول : انظر إلى حكمة الحق تبارك وتعالى حين خلق ؛ وحكمته حين دَبَّر ، فهذه الأرض لها محيط ؛ ولها مركز ؛ ولها أقطار ، وكلما اقتربتْ من مركز الأرض فالقطر يَقِلّ .

ومثال هذا هو البطيخة ؛ فأنت إن استخلصتَ القشرة الخارجية لها يكون لديْكَ كرة من القشرة الخضراء ؛ وكرة أخرى من مُكوِّنات البطيخة التى نأكلها ، ولو استخلصتَ كرة أخرى من مكونات الألياف الحمراء التى تتكون منها البطيخة ، لصار عندك كرة أخرى ، ولصار قُطْر الكرة الجديدة أصغر بطبيعة الحال من الكرة الخضراء .

وكلما استخلصتَ كُريّات أخرى من مُكوِّنات البطيخة ؛ صَغُرَتْ الأقطار ؛ لأنك تقترب من مركز الدائرة ، والمحيط الأخضر الذى يحيط بالبطيخة وهو القشرة ؛ يشبه المحيط الذى يوجد على الكرة الأرضية ؛ وهذه القشرة التى توجد حول الكرة الأرضية صُلْبة ؛ أما ما بداخل الأرض وجَوْفها ؛ فهو مُكوَّن من أشياء ومواد متعددة ، منها ما هو سائل ومنها ما هو صلْب .

وكلما اقتربنا من مركز الأرض ؛ وجدنا ارتفاعاً فى درجة الحرارة ؛ وتدلُّنا على ذلك كُتَل الحُمَم التى تخرج فوَّارة من فُوَّهات البراكين ؛ وهى حُمَم ذات حرارة مرتفعة للغاية ؛ وهى حُمَم مُحْرِقة .

وقد شاء الحق سبحانه أن يجعل بطن الأرض سائلاً ، رحمةً بنا ؛ ذلك أننا حين نبنى بيوتاً ؛ أو نقتطع أحجاراً من الجبال ؛ أو نستخدم مُكوِّنات الجبال فى أى غرض ؛ إنما ننقل بعضاً من مُكوِّنات الأرض من موقع إلى آخر .

وحين ينتقل ثقل من مكان على سطح الأرض إلى مكان آخر ؛

فالسائل الذى فى باطن الأرض ينتقل من المنطقة التى زاد عليها الثقل إلى المنطقة التى خَفَّ من فوقها الثقل ليتحقق التوازن ، ولو لم يحدث ذلك لَتساَقطتْ العمارات الشاهقة التى نراها أثناء دوران الأرض .

والمَثَلُ الذى يُوضِّح ذلك أنك لو وضعتَ قطعة من العجين على سطح بطيخة أو كرة ، وجعلت البطيخة أو الكرة فى حالة دوران لَطردتْ الكرة أو البطيخة قطعة العجين من على سطحها .

وقد شرح العلماء فى « علم الحركة » ذلك فقالوا : إن كل شىء مستدير يتحرك ؛ إنما تنشأ عن حركته عملية اسمها الطرد الذاتى ؛ لأن قطعة العجين أو أىَّ شىء نضعه على شىء مستدير يتحرك ؛ تكون له كثافة وثقل على المنطقة التى يوجد فيها ، ويصل هذا الثقل إلى المركز ، ولكى تستمر الحركة الدائرية متوازنة لا بد أن يطرد الشىء المستدير ما فوقه من ثُقْل زائد .

ولذلك شاء الحق سبحانه أن يجعل نِصْفى الكرة الأرضية من أى موقع تتخيله ، متساوياً فى الوزن مع النصف الآخر ، ومهما أخذتَ من مواد ونقلتَها من موقع إلى آخر ، فالوزن يتعادل نتيجة لحركة السوائل التى فى بطن الأرض .

وهذا يدلُّ على عظمة الخالق الذى خلق بتدبير دقيق ، ويكفى أن ننظر إلى عظمة الحق الذى لم يجعل الجبال رواسىَ ليمنع الأرض من أنْ تميدَ بنا ، بل جعل فى الجبال والصحارى ما استنجدنا به حين ضاقت الأرض بنا ؛ فذهبنا إلى الجبال ؛ لنستخرج منها المواد الخام ؛ ونُصدِّرها ؛ ثم نشترى بثمنها القمح .

ونرى من حولنا الصحارى حيث كان المقيمون فيها يلهثون قديماً من العطش ، ولا يجدون شجرة يستظلون بها ؛ فيُفجِّر فيها الحق آبار البترول .

وهكذا نرى أن كل قطاع من الأرض فيه خير مُسَاوٍ لأى قطاع آخر من الأرض ، وجعل الله لكل أمر زمناً يمكن للبشر أن يستفيدوا من هذا الأمر فى ذلك الزمن .

ولذلك نجد الحق سبحانه يقول فى الجبال :

﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً[1] ذَالِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا[2] فِى أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ (١٠) ﴾ [فصلت]

أى : أنه سبحانه بارك فى الجبال ، وهى جزء من الأرض ، وشاء أن يُقدِّر الأقواتَ فى الجبال والأرض ؛ ويكفى أن نعلم أن المطر حين يتساقط من السماء على الجبال ؛ فيحمل المطر بعضاً من الطَّمْى من على أسطُح تلك الجبال ، فتتجدد خُصوبة الأرض .

ولو كانت الجبال هَشَّة لذابتْ الجبال من عدد قليل من مرات سقوط المطر ، ولَذابتْ القشرة الخِصْبة التى تُغذِّى النبات حين نزرعه فى الأرض .

---

(١) الند : المثل والنظير ، وجمعه أنداد . قال تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَاداً .. (٣٠) ﴾ [إبراهيم] . أى : أمثالاً شركاء . [القاموس القويم ٢/٢٥٧] .

(٢) القوت : الطعام يحفظ على البدن حياته ، وجمعه « أقوات » . قال تعالى : ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِى أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ .. (١٠) ﴾ [فصلت] . أى أقوات جميع سكان الأرض من إنسان وحيوان وكل شىء حى إلى آخر الدهر . [القاموس القويم ٢/١٣٦] .

ولكنه سبحانه شاء أنْ تمُرَّ الظروف الجوية باختلافها وتنوُّعها فى تتابع يُوفِّر من الحرارة والرطوبة ما يجعل الأرض تتشقق ؛ فيصير سطح الجبال الصّلْبة هَشَّاً لينزل مع المطر ؛ ولِيُغذِّى الأرض بالخُصوبة من أجل أن يستمر استبقاء الحياة بإنتاج ما نحتاجه من نباتات مزروعة .

ونلحظ قوله سبحانه فى نفس الآية :

﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا .. ﴿٣﴾ ﴾ [الرعد]

وهنا يجمع الحق بين الرواسى وهى الثوابت ، وبين الأنهار وهى التى تحمل الماء السائل ، وهذا جَمْعٌ بين الأضداد .

والنهر يُطلق على ما يحمل المياه العَذْبة ؛ أما البحر فهو المُكوَّن من الماء المالح ، وأنت إذا استعرضتَ أنهار الدنيا كلها ؛ ستجد أن مجاريها تصبُّ فى البحار ، وهذا دليل على أن منسوب النهر أعلى دائماً من منسوب البحر ، ولو كان الأمر بالعكس ؛ لَطَغى ماء البحر على مياه النهر ، ولَمَا استطعنا أن نشرب أو نزرع .

ولذلك شاء الحق سبحانه أن يجعل الماء العَذْب هو الأعلى ؛ لأن له مهمة يُؤدِّيها قبل أن يصُبَّ فى البحر . أقول ذلك حتى نعلم الحكمة فى قول الحق سبحانه :

﴿ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ[1] لاَّ يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الرحمن]

---

(١) البرزخ : الحاجز بين الشيئين ، فالله تعالى جعل بين البحرين حاجزاً من الأرض يحجز كلاً منهما فى مجراه فلا يبغى ولا يطغى على الآخر ، فهو يمزجهما حين يلتقيان فلا يبقى العذب عذباً لكن بينهما من الأرض برزخ قبل التقائهما يحفظ كلاً منهما فى مجراه . [القاموس القويم ١/٦٣] .

ومن العجيب أن البرزخ الذى يفصل بين النهر والبحر يكون انسيابياً ، يتدرج نزول مياه النهر فى مياه البحر بما يُحقِّق سهولة فى هذا الانتقال ، ومن العجيب أيضاً أنك إنْ حفرتَ عند شاطىء البحر قد تعثر على الماء العذب .

ولذلك حين نزور العريش نجد شاطئاً باسم شاطىء النخيل ؛ ونحن نعلم أن النخيل يحتاج إلى الماء العَذْب ، وكأن الحق سبحانه قد جعل فى هذا النخيل خاصية استخلاص الماء العَذْب من هذا المكان الذى يوجد على البحر ؛ وقد تكون له جداول عذبة .

فسبحانه القائل :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ[1] فِي الأَرْضِ .. (٢١) ﴾ [الزمر]

ونحن فى الريف نجد من يحفر بئراً ويكون ماؤه عَذْباً ؛ وآخر يحفر بئراً ويكون ماؤه مالحاً . وهذا دليل على أن الماء فى بطن الأرض غير مختلط ، بل لكل ماء مسارب[2] تختلف باختلاف نوعية المياه .

ويُرتِّب الحق سبحانه فى نفس الآية مجىء الثمرات كنتيجة على وجود الثابت ـ الجبال ـ كمصدر للغرْيَن[3] وخصوبة الأرض ، وعلى وجود الأنهار التى تحمل الماء اللازم للرى ، وهكذا يكون مجىء الثمرات أمراً طبيعياً .

---

(١) ينابيع : جمع ينبوع . وهو من نبع الماء إذا جرى من العين ، أى : تفجّر . والينبوع : الجدول الكثير الماء . [لسان العرب ـ مادة : نبع] .

(٢) السرب : الطريق والمسلك . [لسان العرب ـ مادة : سرب] .

(٣) الغرين : ما بقى فى أسفل الحوض والغدير من الماء أو الطين . قال الأصمعى : الغرين أن يجىء السيل فيثبت على الأرض ، فإذا جف رأيت الطين رقيقاً على وجه الأرض قد تشقق . [لسان العرب ـ مادة : غرن] .

والثمرة كما نعلم هى الغاية من أى زرع .

وفى نفس الآية يواصل الحق ذكر عطائه ، فيقول سبحانه :

﴿ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ .. (٣) ﴾ [الرعد]

ويستعمل البعض كلمة « زوج » ويراد به شيئان كقولنا « زوج أحذية » مع أن التعبير الدقيق يقتضى أن نقول « زوجان من الأحذية » كتوصيف لفردة حذاء يُمْنى وفردة حذاء يُسْرى ؛ لأن كلمة « زوج » مفرد ، وتستخدم فى الشىء الذى له مثْل ؛ ولذلك نجد العدد الفردى والعدد الزوجى ؛ والعدد الزوجى مُفْرد له مثيل ؛ وفى الإنسان هو الذكر والأنثى .

وسبحانه القائل :

﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ .. (٤٩) ﴾ [الذاريات]

ويخطىء الناس أيضاً فى فهم كلمة التوأم ، ويظنون أنها تعنى الاثنين اللذين يولدان معاً ، ولكن المعنى الدقيق للتوأم وهو الفرد الذى يُولَد مع آخر ، ويقال لاثنين معاً «التوأمان » .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَهُوَ الَّذِى مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَاراً وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ .. (٣) ﴾ [الرعد]

ولم يخلق الحق سبحانه أىَّ شىء إلا وشاء له أن يتكاثر ، مصداقاً لقول الحق سبحانه :

﴿ سُبْحَانَ الَّذِى خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ (٣٦) ﴾ [يس]

وكُلٌّ تكاثر إنما يحتاج إلى زوجين ، وكنا نعتقد قديماً أن التكاثر يحدث فقط فى النبات ؛ مثلما نُلقِّح النخلة بالذَّكَر ، وفى الحيوان يخصب الفَحْل الأنثى ، ثم كشف لنا العلم بعد ذلك أن الكهرباء ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ تتكون من سالب وموجب وغير ذلك كثير ، وكل ما قدمه العلم من كشوف يؤيد صِدْقه سبحانه :

﴿ سبْحَانَ الَّذِى خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا .. (٣٦) ﴾ [يس]

ويتابع سبحانه فى نفس الآية :

﴿ يُغْشِى[1] اللَّيْلَ النَّهَارَ .. (٣) ﴾ [الرعد]

أى : أن تأتى الظُّلْمة على النهار فتُغطيه ؛ وهو القائل فى موقع آخر من القرآن :

﴿ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً .. (١٢) ﴾ [الإسراء]

وذلك تحقيقاً لمشيئته التى قالها :

﴿ وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً[2] .. (٦٢) ﴾ [الفرقان]

وإنْ سأل سائل : هل الليل هو الذى خُلِقَ أولاً أم النهار ؟

أقول : نحن نرى الآن الليل والنهار ، كُلٌّ منهما يُؤدِّى مُهِمَّته فى نصف ما فى الكرة الأرضية ، وكل منهما يخلف الآخر ، ولا بد أن الأمر كذلك من أول الخلق .

---

(١) أى : يجعل الليل يَغْشَى النهار ويغطيه بظلامه . [القاموس القويم ٢/٥٥] .

(٢) الخلفة : اسم مصدر بمعنى الاختلاف ، أو مصدر خلف : جاء بعده ليحل محله . أى : أن الليل والنهار يختلف كل منهما عن الآخر طولاً وقصراً ، أو يخلف كل منهما الآخر ويأتى بعده . [القاموس القويم ١/٢٠٦] .

فإنْ كان سبحانه قد أوجد الأرض مبسوطة وفى مواجهتها الشمس ، لَكان النهار هو الأسبق فى الخَلْق ، وإنْ كان قد خلق الشمس غير مواجهة للأرض ؛ يكون الليل هو الذى سبق النهار فى الخَلْق .

ويوضح الحق سبحانه هذا الأمر قليلاً فى سورة يس حين يقول :

﴿ لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٤٠) ﴾ [يس]

وكان العرب قديماً يظنُّون أن الليل هو الذى سبق النهار فى الخَلْق ؛ لأنهم كانوا يُؤرِّخون الشهور بالقمر ؛ فيدخل الشهر بليله لا بنهاره ، ونحن نعلم أن رمضان يأتينا بأول ليلة فيه .

وقد أوضح الحق سبحانه لهم على قَدْر معارفهم ، ثم ثبت لنا أن الليل والنهار قد وُجِدا فى وقت واحد بعد أن وضحتْ لنا أن صورة الأرض كروية ، وأنه سبحانه قد خلقها كذلك ، فما واجه الشمس كان نهاراً ؛ وما غابتْ عنه الشمس كان ليلاً ، ويخلف كل منهما الآخر .

وهكذا وضَّح لنا أنهما موجودان فى آنٍ واحد .

ويُذيِّل الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله :

﴿ إِنَّ فِي ذَالِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٣) ﴾ [الرعد]

أى : أن على الإنسان مسئولية التفكُّر فيما يراه من حوله ليصل إلى لُبِّ الحقائق .

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾ (١)

هذه الآية جاءت بشىء من التفصيل لقول الحق سبحانه فى أواخر سورة يوسف :

﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِى السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥) ﴾ [يوسف]

وتلك آية تنضم إلى قوله تعالى :

﴿ رَفَعَ السَّمَـٰوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا .. (٢) ﴾ [الرعد]

وتنضم إلى :

﴿ يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ .. (٢) ﴾ [الرعد]

وتنضم إلى قوله سبحانه :

﴿ وَهُوَ الَّذِى مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِى اللَّيْلَ النَّهَارَ .. (٣) ﴾ [الرعد]

وحين نتأمل قول الحق سبحانه :

---

(١) الصِّنو (بكسر الصاد وضمها) : المثْل ، إذا طلعت اثنتان أو أكثر من النخل أو الشجر من أصل واحد ، قيل لكل واحد منهما صنو . والجمع صِنوان (بضم الصاد وكسرها) . [القاموس القويم ١/ ٣٨٤] .

﴿وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ .. ﴿٤﴾﴾ [الرعد]

نجد أننا لا نستطيع أن نعرفها بأنها التى يعيش عليها أمثالنا ؛ تلك هى الأرض ، ولو أردنا تعريفها لأبهمناها ، فهى أوضح من أن تُعَرّف .

وكلمة « قِطَع » تدلُّ أول ما تدلُّ على « كل » ينقسم إلى أجزاء ، وهذا الكُلُّ هو جنس جامع للكلية ؛ وفيه خصوصية تمييز قطع عن قطع .

وأنت تسمع كلام العلماء عن وجود مناطق من الأرض تُسمّى حزام القمح ، ومناطق أخرى تُسمَّى حزام الموز ؛ ومناطق حارة ؛ وأخرى باردة .

وقول الحق سبحانه :

﴿قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ .. ﴿٤﴾﴾ [الرعد]

هو قول يدل على الإعجاز ؛ فعلى الرغم من أنها متجاورات إلا أن كلاً منها تناسب الطقس الذى توجد فيه ؛ فزراعة الذرة تحتاج مناخاً مُعيناً ؛ وكذلك زراعة الموز .

وهكذا تجد كل منطقة مناسبة لما تنتجه ، فالأرض ليست عجينة واحدة استطراقية ، لا بل هى تربة مناسبة للجو الذى توجد به .

ومن العجيب أن فيها الأسرار التى يحتاجها الإنسان ؛ هذا السيد الذى تخدمه كل الكائنات ، فليست الأرض سائلة فى التماثل ؛ بل تختلف بما يناسب الظروف ، فهناك قطعة سبخة لا تنبت ؛ وأخرى خصبة تنبت .

بل وتختلف الخصوبة من موقع إلى آخر ؛ ومن قطعة إلى أخرى ؛ فثمرة الجوافة من شجرة معينة فى منطقة معينة تختلف عن ثمرة الجوافة من شجرة فى منطقة أخرى ؛ والقمح فى منطقة معينة يختلف عن القمح فى منطقة أخرى ؛ ويقال لك « إنه قمح فلان » .

ويحدث ذلك رغم أن الأرض تُسْقَى بماء واحد .

ويقول العلماء البعيدون عن منطق السماء : « إن السبب فى الاختلاف هو عملية الاختيار والانتخاب » . وكأنهم لا يعرفون أن الاختيار يتطلب مُخْتاراً ، وأن يكون له عقل يُفكِّر به ليختار ، وكذلك الانتخاب فهل البُذَيْرات تملك عقلاً تُفكِّر به وتختار ؟ طبعاً لا .

ويقولون : إن النبات يتغذَّى بالخاصية الشعرية ، ونعلم أن الأنابيب الشعرية التى نراها فى المعامل تكون من الزجاج الرفيع ؛ وإذا وضعناها فى حوض ماء ، فالماء يرتفع فيها على مستوى الإناء .

وإنْ صدَّقْنا العلماء فى ذلك ، فكيف نُصدِّقهم فى أن شجرة ما تأخذ ماءً مثل الشجرة الأخرى ؛ وتنتج كل منهما نفس الثمار ؛ لكن ثمار شجرة تختلف عن الأخرى فى الطَّعْم ؟

ونقول : إن كل شجرة تأخذ من الأرض ما ينفعها ؛ ولذلك تختلف النباتات ، ويحدث كل ذلك بقدرة الذى قَدَّر فهدى .

وهكذا نرى الأرض قطعاً متجاورات ؛ منها ما يصلح لزراعة تختلف عن زراعة الأرض الأخرى .

وقد يقول بعض من الملاحدة : إن هذا الاختلاف بسبب الطبيعة والبيئة .

وهؤلاء يتجاهلون أن الطبيعة فى مجموعها هى الشمس التى تعطى الضوء والحرارة والإشعاع ، والقمر أيضاً يعكس بعضاً من الضوء ، والنجوم تهدى مَنْ يسير فى الفَلاَة[1] ، وتيارات الهواء تتناوب ولها مسارات ومواعيد .

ورغم كل ذلك فهناك أرض خِصْبة تنتج ، وأرض سبخة لا تنتج ، وأرض حمراء ؛ وأخرى سوداء ، وثالثة رملية ، وكلها متجاورة .

لا بد إذن من وجود فاعل مختار يأمر هذه أمراً مختلفاً عن تلك .

ويتابع الحق سبحانه فى نفس الآية :

﴿وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ .. (٤)﴾ [الرعد]

وجاء الحق سبحانه هنا بالمُرفِّهات أولاً ؛ فتحدث عن الفاكهة ؛ ثم تحدث عن الزرع الذى منه القُوت الأساسى ، ونحن فى حياتنا نفعل ذلك ؛ فحين تدخل على مائدة أحد الكبار ؛ تجد الفاكهة مُعدَّة على أطباق بجانب المائدة الرئيسية التى يُقدَّم عليها الطعام .

ويأتى الحق سبحانه بعد الأعناب والزَّرْع الذى منه القُوت الضرورى بالنخيل ، وهو الذى ينتج غذاء ، وقد يكون التمر الذى ينتجه تَرَفاً يتناوله الإنسان بعد تناول الطعام الضرورى .

وقول الحق سبحانه :

﴿صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ .. (٤)﴾ [الرعد]

---

(١) الفلاة : القفر من الأرض التى لا ماء بها ولا أنيس . والفلاة : المفازة . وقيل : هى الصحراء الواسعة . [لسان العرب ـ مادة : فلا] .

يتطلب منَّا أن نعرف ما الصنوان ؟ ونجد الرسول ﷺ يقول : « العم صِنْو أبيك»[١] أى : أن الصِّنْو هو المِثْل .

وبهذا يكون معنى الصِّنْوان هو المِثْلان . ونرى ذلك واضحاً فى النخيل ؛ فنرى أحياناً أصلاً واحداً تخرج منه نخلتان ؛ أو ثلاث نخلات ؛ وأحياناً يخرج من الأصل الواحد أربع أو خمس نخلات .

ويُطلق لقب « الصنوان » على الأصل الواحد الذى يتفرع إلى نخلتين أو أكثر ؛ فكلمة « صنوان » تصلح للمثنى وللجمع ، ولكنها فى حالة المثنى تُعامل فى الإعراب كالمثنى ؛ فيقال « أثمرتْ صنوان » و « رأيت صنوين » أما فى حالة الجمع فيقال « رأيت صنواناً » و « مررْتُ بصنوان » . والمفرد طبعاً هو « صِنْو » .

ويقول سبحانه هنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها :

﴿ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ .. (٤) ﴾ [الرعد]

ومن العجيب أن كل شجرة تأخذ عَبْر جذورها كمية من الماء والغذاء اللازم لإنتاج ثمارٍ ذات شكل وطَعْم مختلف .

وهذا ما جعلنا نقول من قَبْل : إن افتراضات العلماء المتخصصين فى علوم النبات عن أن النباتات تتغذَّى بخاصية الأنابيب الشعرية هو افتراض غير دقيق .

فلو كان الأمر كذلك لأخذت الأنابيب الشعرية الخاصة بنبات

---

(١) أخرج مسلم فى صحيحه (٩٨٣) من حديث أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال لعمر رضى الله عنه « يا عمر أما شعرت أن عم الرجل صنو أبيه » وكذا أخرجه أحمد فى مسنده (٣٢٢/٢) .

المواد التى أخذتها الأنابيب الشعرية الخاصة بنبات آخر . والأمر ليس كذلك ، فكل نبات يأخذ من الأرض ما يخصه فقط ، ويترك ما عدا ذلك .

ذلك أن الثمار لكل نبات تختلف ولا تتشابه ؛ بل إن الشجرة الواحدة تختلف ثمارها من واحدة إلى أخرى .

مثال هذا : هو شجرة المانجو أو النخلة المثمرة ، ويمكنك أن تلاحظ نفسك ، وسترى أنك تنتقى من ثمار المانجو القادمة من شجرة واحدة ما يعجبك ، وترفض غيرها من الثمار ، وسترى أنك تنتقى من ثمار البلح القادم من نخلة واحدة ما يروقُ لك ؛ وترفض بعضاً من ثمار نفس النخلة .

وحين تذهب لشراء الفاكهة ؛ فأنت تشترى حسب موقفك من الادخار ؛ فإنْ كنتَ تحب الادخار فسوف تشترى الفاكهة التى من الدرجة الثانية ؛ وإذا كنت تحب أن تستمتع بالطيب من تلك الفاكهة فسوف تشترى من الفاكهة المتميزة .

وأتحدى أنْ يقف واحد أمام قفص للفاكهة ، وينتقى الثمار غير الجميلة الشكل والرَّوْنق[1] ، بل يحاول كل إنسان أن يأخذ الجميل والطيب من تلك الفاكهة ، وحين يدفع ثمن ما اشترى سنجده يدفع النقود الورقية القديمة التى تُوجد فى جيبه ، وسيحتفظ لنفسه بالنقود الجديدة .

وهذا الموقف يغلب على مواقف أى إنسان ، فهو مُقبِل دائماً على رَفْض أخذ السىء ؛ وخائف دائماً على التفريط فى الحَسَن .

---

(١) الرونق : الصفاء والحسن . [لسان العرب ـ مادة : رنق] .

والحق سبحانه يقول :

﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنفَاقِ .. (١٠٠) ﴾ [الإسراء]

وأنت لا تجد فى الثمار تشابهاً ، بل اختلافاً فى الطَّعْم من نوع إلى نوع ؛ كذلك تجد اختلافاً فى طريقة تناولها ؛ فلا أحد منَّا يأكل البلحة بكاملها ، بل نأكل ثمرة البلحة بعد أن نُخرج منها النواة ؛ ونأكل ثمرة التين بأكملها ، ونخرج ما فى قلب حَبَّة المشمش من بذرة جامدة ، ثم نأكل المِشْمشة من بعد ذلك .

فكل ثمرة لها نظام خاص ؛ وليست مسألة ميكانيكية فى عطاء الله لثمار متشابهة ؛ بل هناك اختلاف ، ويمتد هذا الاختلاف إلى أدقِّ التفاصيل ؛ لدرجة أنك حين تتناول قِطْفاً من العنب تجد اختلافاً لبعض من حبَّات العنب عن غيرها .

ونحن لا نُفضِّل بعضاً من الفاكهة على البعض الآخر فى الأُكُل فقط ، بل نُفضِّل فى الصنف الواحد بعضاً من ثماره عن البعض الآخر .

وحين تقرأ :

﴿ نُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الأُكُلِ .. (٤) ﴾ [الرعد]

فاعلم أنه لا يوجد شىء أو أمر مُفضّل على إطلاقه ، وأمر آخر مفضول على إطلاقه ، فما دُمْنَا نُفضِّل بعضه على البعض الآخر ؛ فهذا يعنى أن كلاً منهما مُفضَّل فى ناحية ، ومفضول عليه فى ناحية أخرى .

والمثل الواضح أمامنا جميعاً أننا حين نجلس إلى مائدة عليها ديك رومى قد تجد يدك تتجه إلى طبق « المخلل » قبل أن تمتدّ يدك إلى الديك الرومى ؛ لأن « نفسك » قد طلبتْه أولاً ، فلا تَقُلْ : إن هناك

شيئاً مفضولاً عليه طوال الوقت ، أو شيئاً مفضلاً كل الوقت .

وكذلك الناس ؛ إياك أن تظن أن هناك إنساناً فاضلاً على إطلاقه ؛ وآخر مفضولاً على إطلاقه ؛ بل هناك إنسان فاضل فى ناحية ، ومفضول عليه فى ناحية أخرى .

والمَثَل : هو صاحب السيارة الفارهة ؛ ثم ينفجر إطار سيارته ؛ فيتمنى أن يرزقه الله بمَنْ يمرُّ عليه ليقوم بتغيير إطار السيارة ؛ فيمرُّ عليه هذا الإنسان صاحب الملابس غير النظيفة بما عليها من شحوم ؛ فيكون هذا الإنسان أفضل منه فى قدرته على فَكِّ الإطار المنفجر بالإطار السليم الاحتياطى .

وهكذا نشر الله الفضل على الناس ليحتاج بعضهم لبعض ؛ ولذلك أقول : حين تجد نفسك فاضلاً فى ناحية إياك أنْ تقعَ فى الغرور ؛ واسأل نفسك : ما الذى يَفْضُل عليك فيه غيرك ؟

وتذكَّر قول الحق سبحانه :

﴿ لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ .. (١١) ﴾ [الحجرات]

وهكذا شاء الحق سبحانه أن يُوزِّع الفضل بين الناس ، ليحتاج كل منهم الآخر ، وليتكامل المجتمع . وكذلك وَزَّع سبحانه الفضل فى الأطعمة والفواكه والثمار ، وانظر إلى نفسك لحظة أنْ تُقدَّم لك أصناف متعددة من الفاكهة ؛ فقد تأخذ ثمرة من الجميز قبل أن تأخذ ثمرة من التفاح ؛ فساعة طلبتْ نفسك ثمرة الجميز صارت فى تقدير الموازين والتبادل هى الأفضل ، وكل إنسان يمكن أن يجد ذلك فيما يَخصُّه أو يُحبه .

والحق سبحانه هو القائل :

﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ (٨) ﴾ [الرعد]

ولذلك نجد الإنسان وهو يُلوِّن ويتفنَّن فى صناعة الطعام ، ويختلف إقبال الأفراد على الأطعمة المُنوَّعة ، وقد تجد اثنين يُقبلان على لحم الدجاج ؛ لكن أحدهما يُفضِّل لحم الصدر ؛ والآخر يُفضِّل لحم « الوَرِك » ، وتجد ثالثاً يُفضِّل لحم الحمام ؛ وتجد رابعاً يفضل تناول السمك .

بل إنك تجد اختلافاً فى طريقة تناول مَنْ يحبون السمك ؛ فمنهم مَنْ يحب أكل رأس السمكة ، ومنهم مَنْ يحب لحم السمكة نفسها ، ولا أحد يملك معرفة السبب فى اختلاف الأمزجة فى الانجذاب إلى الألوان المختلفة من الأطعمة .

وحين تتأمل تلك المسائل قد يأتى إلى خاطرك قول الحق سبحانه :

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ .. (٢٨) ﴾ [البقرة]

والسؤال هنا من الله للتعجُّب ؛ والتعجُّب عادة يكون من شىء خَفِى سببه ، فهل يَخْفَى سبب على الله ليتعجب ؟

طبعاً لا ، فسبحانه مُنزَّه عن ذلك ، وسبحانه يعلم سبب كفر الكافرين ؛ لكنه ينكر عليهم أسباب الكفر .

والمثَلُ من حياتنا ـ ولله المَثَلُ الأعلى ـ فأنت تجد نفسك وأنت تنطق بكلمة « كيف تسُبّ أباك ؟ » لإنسان يوجه كلمات جارحة لوالده ؛ فتتعجب لِتُنكِر ما فعله هذا الإنسان .

وكذلك القول : كيف تكفرون بالله ؟ لأن الكفر شىء لا يتأتى من عاقل . وكان لنا شيخ هو فضيلة العالم أحمد الطويل ؛ وكان يحدثنا عن شيخ له حين كان يقرأ قول الحق سبحانه :

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ .. (٢٨) ﴾ [البقرة]

كان يقول : إن الخطاب هنا عام لكل إنسان ؛ لأن الحق بعدها يأتى بالقضية العامة :

﴿ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ .. (٢٨) ﴾ [البقرة]

وهذا القول للعموم . وكان شيخنا يحكى عن شيخه أنه حدَّثهم أن إنساناً كان مُسرفاً على نفسه ؛ ثم انصبَّتْ عليه الهداية مرة واحدة ؛ ورآه كل مَنْ حوله وهو مُقْبِل على الله ؛ فسألوه عن سبب الهداية ، فقال :

كنت أجلس فى بستان ، ثم رَاقَ لى عنقود من العنب ؛ فقطفتُ العنقود ، وأخذتُ أتأمل فيه ؛ فوجدت غشاءً رقيقاً شفافاً ـ وهو قشرة حبة العنب ـ يشفُّ عما تحته من لحم العنبة الممتلىء بالعصير .

وحين وضعتُ حبة العنب فى فمى ؛ صارت ماء رطباً ؛ وأخذنى العجب من احتفاظ حبة العنب ببرودتها ورطوبتها رغم حرارة جَوِّ شهر بؤونة ؛ ثم وجدت بذرة الحبة ولها طَعْم المسْك ؛ فلما غمرنى السرور من طَعْم وجمال العنب سمعت هاتفاً يهتف بى : « كيف تكفر بالله وهو خالق العنب ؟ » فهتفت : آن يا رب أن أُومن بك .

وكل منَّا له أن ينظر إلى شىء يعجبه ؛ وسيجد الشىء كأنه يقول له : كيف تكفر بالله وهو خالقى ؟ وهكذا سنجد كل إنسان وهو

مُخاطب بهذه العبارة ، لأنه ما من كائن إلا وله شيء يعجبه في الكون .

وهكذا نفهم معنى قول الحق سبحانه :

﴿ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الأُكُلِ .. (٤) ﴾ [الرعد]

ونجد أي شيء هو فاضل في وقت الحاجة إليه وطلبه ؛ وكل شيء مَفْضُول عليه في وقت ما ؛ وإنْ كان فاضلاً عند مَنْ يحتاجه . ونجد أن التفضيل هنا عند الأَكْل .

والأُكل هو ما يُؤكَل ؛ لا الآن فقط إنما ما يؤكل الآن أو بعد ذلك، وسبحانه القائل :

﴿ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ[1] فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ[2] .. (٢٦٥) ﴾ [البقرة]

وسبحانه يقول أيضاً :

﴿ أُكُلُهَا دَائِمٌ .. (٣٥) ﴾ [الرعد]

وكذلك قال :

﴿ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا .. (٢٥) ﴾ [إبراهيم]

وهكذا نجد أن الأُكل مقصود به ما يُؤكل الآن ، وما بعد الأكل أيضاً .

---

(١) الوابل : المطر الغزير . وبل المطر : كثر وعَظُم قَطْره . [القاموس القويم ٣١٨/٢] .

(٢) الطَّل (بفتح الطاء) : المطر الخفيف يكون له أثر قليل ، لكنه يقى النبات شر الظمأ . قال تعالى : ﴿ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ .. (٢٦٥) ﴾ [البقرة] . فإن لم يصب الربوة أو الحديقة وابل يسقيها ويرويها فإنه يصيبها طل ، فهى محفوظة من الظمأ دائماً . [القاموس القويم ٤٠٦/١] .

ويُذيل الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله :

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾ [الرعد]

وبعض الناس يظنون أن العقل يعنى أنْ يمرحَ الإنسان فى الأشياء ، وأنه يعطى الإنسان الحرية المطلقة ، ومثل هذا الظن خاطىء ؛ لأن العقل جاء ليُبصِّر الإنسانَ بعواقب كُلِّ فعل ونتائجه ، فيقول للإنسان : « إياك أنْ يستهويك الأمر الفلانى لأن عاقبته وخيمة » . ومن مادة العين والقاف واللام عقل . ويقال : عقلْتُ البعير.

ومن مهام العقل أنْ يُفرِز الأشياء ، وأنْ يفكر فيها ليستخرج المطلوب ، وأنْ يتدبر كل أمر ، فعمليات العقل هى الاستقبال الإدراكى والبحث فيه لاستخلاص الحقائق والنتائج ، وأن يتدبر الإنسان كل أمر كى يتجنب ما فيه من ضرر .

والمثل : هو ما توصَّل إليه بعضٌ من العلماء من اكتشاف لأدوية يستخدمونها لفترة ما ، ثم يعلنون عن الاستغناء عنها ؛ لأن آثارها الجانبية ضارة جداً ؛ وهذا يعنى أنهم لم يتدبروا الأمر جيداً ؛ وخَطَوْا خطوات إلى ما ليس لهم به كامل العلم .

وقول الحق سبحانه :

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾ [الرعد]

نلحظ فيه توجيهاً بالتعاون بين العقول ، لتبحث فى آيات رَبِّ العقول ؛ فلا يأخذ أحد قراراً بعقله فقط ؛ بل يسمع أىّ منّا لرأى عقل ثانٍ وعقل ثالث ورابع ؛ ليستطيع الإنسان تدبُّر ما يمكن أنْ يقع ؛ ولتتكاتف العقول فى استنباط الحقائق النافعة التى لا يتأتَّى منها

ضرر فيما بعد ؛ لأن من استبد برأيه هلك ، ومن شاور الرجال شاركهم فى عقولهم .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ وَأُوْلَـٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَـٰلُ فِىٓ أَعْنَـٰقِهِمْ وَأُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٥﴾ ﴾

والعجب هو أن تُبدى دهشة من شىء لا تعرف سببه ، وهذا التعجب لا يتأتَّى من الله ؛ لأنه سبحانه يعلم كل شىء ، فإذا صدر عجب من الله مثل قوله الحق :

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ .. (٢٨) ﴾ [البقرة]

فمعنى هذا أنه سبحانه يُنكِر أن يكفر الإنسان مع قيام الأدلة على الإيمان ؛ لكن بعضاً من الناس ـ رغم ذلك ـ يكفر بالله .

وقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِن تَعْجَبْ .. (٥) ﴾ [الرعد]

هو خطاب مُوجَّه لرسول الله ﷺ ، وكان رسول الله ﷺ يتعجّب من أنهم كانوا يُسمُّونه قبل أن يبعثه الله رسولاً بالصادق الأمين ؛ وبعد ما جاءت الرسالة قالوا : إنه ساحر كذاب .

فكيف يكون صادقاً أميناً ببشريته وذاتيته ؛ ثم إذا أمدّه الحق سبحانه بالمَدَد الرِّسَالى تتهمونه بالكذب ؟ ألم يَكُنْ من الأجدر أنْ

تقولوا إنه صار أكثر صدْقاً ؟ وهل من المُمْكن أن يكون صادقاً عندكم ، ثم يكذب على الله ؟

والتعجُّب أيضاً من أنهم أنكروا البعث من بعد الموت ، رغم أنه سبحانه أوضح الأدلة على ذلك ؛ ولكن المؤمنين وحدهم هم الذين استقبلوا أمر البَحْث بالتصديق ؛ بمجرد أن أبلغهم به رسول الله مُبلِّغاً عن ربِّه .

ونجد الحقَّ سبحانه وتعالى قد احترم فُضُول العقل البشرى ، فأوضح سبحانه ذلك ونَصَبَ الأدلة عليه ؛ وأبلغنا أنه لم يعجز عن الخَلْق الأول ؛ لذلك لن يعجز عن البعث .

فقد جاء بنا سبحانه من عدم ، وفى البعث سيأتى بنا من موجود ، ومن الغباء إذنْ أن يتشكَّك أحد فى البعث ، والمُسْرِف على نفسه إنما يُنكِر البعث ؛ لأنه لا يقدر على ضبْط النفس ؛ ويظن أنه بإنكار البعث لن يَلْقَى المصير الأسود الذى سيلقاه فى الآخرة .

ولذلك تجد المسرفين على أنفسهم يحاولون التشكيك فى البعث ، ويأتى الحق سبحانه بتشكيكهم هذا فى قَوْل الحق سبحانه :

﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ .. (٢٤) ﴾ [الجاثية]

ولو أن الواحد منهم وضع مسألة البَعْث فى يقينه لانصرف عن شهواته ، بينما هو يريد أن ينطلق بالشهوات ؛ ولذلك نجدهم يقولون :

﴿ أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ .. (١٠) ﴾ [السجدة]

وهم يقصدون بذلك أنهم بعد الموت سيصيرون تراباً ، ويعودون

إلى الأرض كعناصر وتراب تَذْروه[١] الرياح ، فكيف سيأتى بهم الله للبعث ، ويُنشئهم من جديد ؟

ويقول سبحانه :

﴿ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ[٢] رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩) ﴾ [يس]

ومن الكافرين مَنْ قال : سنصير تراباً ، ثم نختلط بالتربة ، ويتم زراعة هذه التربة ، فتمتزج عناصرنا بما تنبته الأرض من فواكه وخُضر وأشجار ؛ ثم يأكل طفل من الثمرة التى تغذَّتْ بعناصرنا ؛ فيصير بعضٌ منَّا فى مكونات هذا الطفل ؛ والقياس يُوضِّح أننا سوف نتناثر ؛ فكيف يأتى بنا الله ؟

كل ذلك بطبيعة الحال من وسوسة الشيطان ووحيه :

﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ .. (١٢١) ﴾ [الأنعام]

وأقول : لنفترض أن إنساناً قد مرض ؛ وأصابه هُزَال ، وفقد ثلاثين كيلوجراماً من وزنه ، وما نزل من هذا الوزن لا بُدَّ أنه قد ذهب إلى الأرض كعناصر اختلطتْ بها ، ثم جاء طبيب قام بتشخيص الداء وكتب الدواء ، وشاء الله لهذا المريض الشفاء واستردَّ وزنه، وعاد مرة أخرى لحالته الطبيعية ؛ فهل الثلاثين كيلو جراماً التى استردَّها هى هى نفس الكمية بنوعيتها وخصوصيتها التى سبق أنْ فقدها ؟ طبعاً لا .

---

(١) ذرت الريح التراب تذروه : أطارته وسفَتْه وأذهبته . وقيل : حملته فأثارته . [لسان العرب ـ مادة : ذرا] .

(٢) رم الميت : بَلِىَ جسمه . والرميم : الخلق البالى من كل شىء . [لسان العرب ـ مادة : رمم] .

وهكذا نفهم أن التكوين هو تكوين نسبىّ للعناصر ، كذا من الحديد ؛ كذا من الصوديوم ؛ كذا من المغنسيوم ؛ وهكذا .

إذن : فالجزاء فى اليوم الآخر عملية عقلية لازمة ، يقول الحق :

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٨) ﴾ [البقرة]

ما دام هناك أمر ؛ وهناك نهى ؛ وهناك منهج واضح يُبيِّن كل شىء . وإنْ كنت تعجبُ يا محمد من الكفار وما يثيرونه من أقضية ، فلَكَ أنْ تعجب لأنها أمور تستحق العجب .

والحق سبحانه حين يخاطب الخَلْق فهو يخاطبهم إمَّا فى أمر يشكُّون فيه ، أو فى أمر لا يشكُّ فيه أحد .

والمَثَل من حياتنا ـ ولله المَثَلُ الأعلى ـ حين تخاطب أنت واحداً فى أمر يَشُكُّ هو فيه ؛ فأنت تحاول أن تؤكد هذا الأمر بكل الطرق ، وهكذا وجدنا بعضاً من الناس ينكرون البعث والحساب ؛ ووجدنا الحق سبحانه وتعالى يُذكِّرهم به عبر رسوله ويؤكده لهم .

وأيضاً خاطبهم الحق سبحانه فيما لم يَشكُّوا فيه ؛ وهو الموت ؛ وقال :

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ .. (١٨٥) ﴾ [آل عمران]

ويقول الرسول ﷺ :

« ما رأيت يقيناً أشبه بالشكِّ من يقين الناس بالموت » .

فالموت يقين ، ولكن لا أحد يحاول التفكير فى أنه قادم ، وسبحانه يقول :

﴿ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [المؤمنون]

وهذا تأكيد لأمر يُجمع الناس على أنه واقع ، لكنهم لغفلتهم عنه بَدَوْا كالمنكرين له ، لذلك خاطبهم خطابَ المنكرين ، ثم قال بعد ذلك:

﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [المؤمنون]

ولم يَقُلْ : « ولتبعثون » لأن البعث مسألة لا تحتاج إلى تأكيد ، وعدم التأكيد هنا آكد من التأكيد ، لأن أمر الموت واضح جداً رغم الغفلة عنه ، أما البعث فهو واقع لا محالة بحيث لا يحتاج إلى تأكيد .

والمثل من حياتنا ـ ولله المثل الأعلى ـ يذهب الإنسان إلى الطبيب ؛ فيقول له الطبيب بعد الكشف عليه « اذهب فلن أكتب لك دواء » . وهذا القول يعنى أن هذا الإنسان فى تمام الصحة ؛ وكأن كتابة الدواء يحمل شبهة أن هناك مرضاً .

وكذلك الحق سبحانه يخاطب الخَلْق فى الشىء الذى ينكرونه وعليه دليل واضح ؛ فيأتى خطابه لهم بلا تأكيد ؛ وهو يوضح بتلك الطريقة أنهم على غير حق فى الإنكار ، أما الشىء الذى يتأكدون منه وهم غافلون عنه ؛ فهو يؤكده لهم ؛ كى لا يغفلوا عنه .

وكذلك فى القَسَم ؛ فنجده سبحانه قد أقسم بالتين والزيتون ؛ وأقسم بالقرآن الحكيم ؛ وأقسم بغير ذلك ، ونجده فى مواقع أخرى يقول :

﴿لا أُقْسِمُ بِهَـٰذَا الْبَلَدِ[١] (١) وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَـٰذَا الْبَلَدِ (٢) وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ (٣)﴾ [البلد]

والعجيب أنه يأتى بجواب القسم ، فيقول :

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِى كَبَدٍ[٢] (٤)﴾ [البلد]

وقد يقول قائل : كيف يقول :

﴿لا أُقْسِمُ .. (١)﴾ [البلد]

ثم يأتى بجواب القسم ؟

وأقول : لقد جاء هنا بقوله :

﴿لا أُقْسِمُ .. (١)﴾ [البلد]

وكأنه يُوضِّح ألاَّ حقَّ لكم فى الإنكار ؛ ولذلك ما كان يصحّ أنْ أقسم لكم ، ولو كنت مُقْسِماً ؛ لأقسمتُ بكذا وكذا وكذا .

وسبحانه يقول فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها :

﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ..(٥)﴾ [الرعد]

وهو جَلَّ وعلا يُذكِّرهم بما كان يجب ألاَّ ينسوه ؛ فقد خلقهم من تراب ؛ وخلق التراب من عدم ، وهو القائل :

﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ[٣] مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ (١٥)﴾ [ق]

---

(١) البلد : المكان المحدود يستوطنه جماعات من الناس ، وقد يسمي بها المكان الواسع من الأرض ينتفع به أهل البلد . قال تعالى : ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ.. (٥٨)﴾ [الأعراف] . وقوله تعالى : ﴿لا أُقْسِمُ بِهَـٰذَا الْبَلَدِ (١)﴾ [البلد] . أى : مكة . [القاموس القويم ٨٢/١] بتصرف .

(٢) الكبد : المشقة والعناء . فالإنسان فى مشقة وعناء ، طول حياته من المهد إلى اللحد . [القاموس القويم ١٤٩/٢] .

(٣) لبس الشىء : خلطه وعمّاه وأبهمه وجعله مُشْكلاً مُحيراً . وقوله تعالى : ﴿بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ (١٥)﴾ [ق] . أى : شك . [القاموس القويم ١٨٨/٢] بتصرف .

إذن : فسبحانه يتعجب من أمر هؤلاء ؛ ويزيد من العجب، أنهم كذَّبوا محمداً ﷺ بعد أن جرَّبوا فيه الصدق ، ولمسوا منه الأمانة ؛ وقالوا عنه ذلك من قبل أن يُبعث ؛ وفوق ذلك أنكروا البعث مع قيام الدليل عليه .

ويصفهم الحق سبحانه :

﴿ أُوْلَـٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ .. ﴿٥﴾ ﴾ [الرعد]

أى : أن هؤلاء المُكذِّبين لك يا محمد والمُنْكرين للبعث لم يكفروا فقط بالله الذى أوجب التكليف العبادى ؛ بل هم يكفرون بالربوبية التى تعطى المؤمن والكافر ؛ والطائع والعاصى ، وتأتمر بأمرها الأسباب لتستجيب لأىِّ مجتهد يتبع قوانين الاجتهاد ، فيأخذ من عطاءات الربوبية ؛ وهى عطاءات التشريف التى تضمن الرزق ، بينما عطاءات الألوهية ؛ هى تكليفاتٌ بالطاعة للأوامر التعبدية ؛ الممثلة فى « افعل » و« لا تفعل » .

وسبحانه لا يكلف الإنسان إلا بعد أنْ يبلغ الإنسان درجة النضج التى تؤهله ؛ لأنْ ينجب مثيلاً له ؛ وقد ترك الحق سبحانه كل إنسان يرتع فى خير النعم التى أسبغها سبحانه على البشر ، وكان على الإنسان أن يسعى إلى الإيمان فَوْر أن تصله الدعوة من الرسول المُبلِّغ عن الله ؛ هذا الرسول المشهود له بالصدق والأمانة .

ولذلك نجد الحق سبحانه وهو يَصِف المُنكرين للإيمان :

﴿ أُوْلَـٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ .. ﴿٥﴾ ﴾ [الرعد]

ويضيف :

﴿ وَأُوْلَـٰٓئِكَ الأَغْلالُ فِى أَعْنَاقِهِمْ وَأُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝٥ ﴾ [الرعد]

والغُلّ : هو طَوْق الحديد الذى له طرف فى كل يد لِيُقيدها ؛ وطرف مُعلَّق فى الرقبة لِيُقلل من مساحة حركة اليدين ، ولمزيد من الإذلال .

وهم أصحاب النار ؛ وكلمة « صاحب » تُطلق على مَنْ تعرفه معرفةً تروق كيانك وذاتك ؛ فهناك مَنْ تصاحبه ؛ وهناك مَنْ تصادقه ؛ وهناك مَنْ تُؤاخيه ؛ وهناك مَنْ تعرفه معرفة سطحية ، ولا تقيم علاقة عميقة معه .

إن المعرفة مراتب ، والصحبة تآلف وتجاذب بين اثنين ؛ ومَنْ يصاحب النار فهو مَنْ تعشقه النار ، ويعشق هو النار ، ويحب كل منهما ملازمة الآخر ؛ ألاَ تقول النار لربها يوم القيامة :

﴿ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ۝٣٠ ﴾ [ق]

أى : أن العذاب نفسه يكون مَشُوقاً أنْ يصلَ إلى العاصى .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ (١) وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ۝٦ ﴾

---

(١) المثلة : العقوبة الفاضحة التى يتمثل بها لشدتها وشهرتها وتتخذ عبرة وعظة . قال تعالى : ﴿ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلاتُ .. ۝٦ ﴾ [الرعد] . أى : مضت العقوبات الزاجرة فى الأمم العاصية مما يُعدُّ عبرة لهم ولغيرهم . [القاموس القويم ٢/٢١٦] .

والاستعجال أن تطلب الشيء قبل زمنه ، وتقصير الزمن عن الغاية ، فأنت حين تريد غايةً ما ؛ فأنت تحتاج لزمن يختلف من غاية لأخرى ، وحين تتعجل غايةً ، فأنت تريد أنْ تصل إليها قبل زمنها .

وكل اختيار للتعجُّل أو الاستبطاء له مميزاته وعيوبه ، فهل الاستعجال هنا لمصلحة أمر مطلوب ؟

إنهم هنا يستعجلون بالسيئة قبل الحسنة ، وهذا دليل على اختلال وخُلْف موازين تفكيرهم ، وقد سبق لهم أنْ قالوا :

﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا[1] .. (٩٢) ﴾ [الإسراء]

وهكذا نجد هؤلاء الكافرين وهم يستعجلون بالسيئة قبل الحسنة ، كما استعجلوا أنْ تنزل عليهم الحجارة ، وهم لا يعرفون أن كل عذاب له مدة ، وله ميعاد موقوت . و لم يفكروا فى أنْ يقولوا : « اللهم إنْ كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه » .

بل إنهم قالوا :

﴿ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢) ﴾ [الأنفال]

وهكذا أوضح لنا الحق سبحانه ما وصلوا إليه من خَلَل فى نفوسهم وفسادها ؛ ذلك أن مقاييسهم انتهت إلى الكفر ، وليس أدلّ على فساد المقاييس إلا استعجالهم للسيئة قبل الحسنة ؛ لأن العاقل

---

(١) الكسفة : القطعة ، وجمعها : كسف وكِسَف . [لسان العرب ـ مادة : كسف] .

حين يُخيَّر بين أمرين ؛ فهو يستعجل الحسنة ؛ لأنها تنفع ، ويستبعد السيئة .

وما دامت نفوس هؤلاء الكافرين فاسدة ؛ وما دامت مقاييسهم مُخْتلة ، فلا بد أن السبب فى ذلك هو الكفر .

إذن : فاستعجال السيئة قبل الحسنة بالنسبة للشخص أو للجماعة ؛ دليلُ حُمْق الاختيار فى البدائل ؛ فلو أنهم أرادوا الاستعجال الحقيقى للنافع لهم ؛ لاستعجلوا الحسنة ولم يستعجلوا السيئة .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلاتُ .. (٦) ﴾ [الرعد]

فلماذا يستعجلون العذاب ؟ ألم ينظروا ما الذى حاق بالذين كذَّبوا الرسل من قبلهم ؟

وحين يقول الرسول : احذروا أن يصيبكم عذاب ، أو احذروا أنْ كذا وكذا ؛ فهل فى ذلك كذب ؟ ولماذا لم ينظروا للعِبَر التى حدثتْ عَبْر التاريخ للأقوام التى كذبتْ الرسل من قبلهم ؟

و« المَثُلات » جمع « مُثْلة » ؛ و فى قول آخر « مَثُلَة » . والحق سبحانه يقول لنا :

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ .. (١٢٦) ﴾ [النحل]

ويقول أيضاً :

﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا .. (٤٠) ﴾ [الشورى]

وهكذا تكون « مَثُلات » من المثل ؛ أى : أن تكون العقوبة مُمَاثلة للفعل .

وقَوْل الحق سبحانه :

﴿وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلاتُ..(٦)﴾ [الرعد]

يعنى : أنه سبحانه سبق وأنزل العذاب بالمثيل لهم من الأمم السابقة التى كذبتْ الرسل ؛ إما بالإبادة إن كان ميئوساً من إيمانهم، وإما بالقهر والنصر عليهم .

ويتابع سبحانه فى نفس الآية :

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ .. (٦)﴾ [الرعد]

أى : أنه سبحانه لا يُعجِّل العذاب لِمَنْ يكفرون ؛ لعل رجلاً صالحاً يوجد فيهم ، وقد صبر سبحانه على أبى جهل ؛ فخرج منه عكرمة بن أبى جهل ؛ وهو الصحابى الصالح ؛ وصبر على خالد بن الوليد فصار سيفَ الله المسلول ، بعد أن كان أحد المقاتلين الأشداء فى معسكر الكفر .

وتحمل لنا أخبار الصحابة كيف قاتل عكرمة بن أبى جهل ؛ إلى أن أصيب إصابة بالغة ، فينظر إلى خالد بن الوليد قائلاً : أهذه ميتة تُرضِى عنى رسول الله ؟

وتحمل لنا أخبار الصحابة كيف حزن واحد من المقاتلين المسلمين لحظة أنْ أفلتَ منه خالد بن الوليد أيام أنْ كان على الكفر ؛ وهو لا يعلم أن الحق سبحانه قد ادخر خالداً ليكون سيف الله المسلول من بعد إسلامه .

وهكذا شاء الحق أن يُفلت بعض من صناديد قريش من القتل أيام أنْ كانوا على الكفر ، كى يكونوا من خيرة أهل الإسلام بعد ذلك .

ويتابع سبحانه :

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ .. ﴿٦﴾ ﴾ [الرعد]

فمع أن الناس ظالمون ؛ فسبحانه يغفر لهم ؛ لأنه سبحانه أفرح بعبده التائب المؤمن من أحدكم ، وقد وقع على بعيره ، وقد أضلَّه فى فَلاة[1] .

ولذلك أرى أن مَنْ يُعيِّر عبداً بذنب استغفر منه الله ؛ هو إنسان آثم ؛ ذلك أن العبد قد استغفر الله ؛ فلا يجب أنْ يحشر أحد أنفه فى هذا الأمر .

ونلحظ هنا قول الحق سبحانه :

﴿ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ .. ﴿٦﴾ ﴾ [الرعد]

وفى هذا القول يجد بعض العلماء أن الله قد استعمل حرفاً بدلاً من حرف آخر ؛ فجاءت « على » بدلاً من « مع » .

ونلحظ أن « على » هى ثلاثة حروف ؛ و « مع » مكونة من حرفين ؛ فلماذا حذف الحق سبحانه الأخفَّ وأتى بـ « على » ؟ لا بد أن وراء ذلك غاية .

أقول : جاء الحق سبحانه بـ « على » فى قوله :

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ .. ﴿٦﴾ ﴾ [الرعد]

---

(١) أخرج مسلم فى صحيحه (٢٧٤٧) من حديث أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : « لله أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة ، فانفلتت منه ، وعليها طعامه وشرابه فأيس منها فأتى شجرة فاضطجع فى ظلها قد أيس من راحلته ، فبينما هو كذلك إذ هو بها قائمة عنده فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح : اللهم أنت عبدى وأنا ربك أخطأ من شدة الفرح » .

ليؤكد لنا أن ظلم الناس كان يقتضى العقوبة ؛ ولكن رحمته سبحانه تسيطر على العقوبة .

وهكذا أدت كلمة « على » معنى « مع » ، وأضافت لنا أن الحق سبحانه هو المسيطر على العقوبة ؛ وأن رحمة الله تَطْغَى على ظلم العباد .

ومثْل ذلك قوله سبحانه :

﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ .. (٨) ﴾ [الإنسان]

أى : أنهم يُحبون الطعام حَبًّا جَمًّا ؛ لكن إرادة الحفاوة والكرم تَطْغى على حُبِّ الطعام.

ولكن لا يجب أن يظن الناس أن رحمة الله تطغى على عقابه دائماً ؛ فلو ظن البعض من المجترئين هذا الظن ؛ وتوهموا أنها قضية عامة ؛ لَفسد الكون ؛ ولذلك يُنهِى الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله :

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ (٦) ﴾ [الرعد]

أى : أنه سبحانه قادر على العقاب العظيم ، وهكذا جمعت الآية بين الرجاء والتخويف .

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ (٧) ﴾

ونحن نعلم أن « لولا » إنْ دخلت على جملة إسمية تكون حرف امتناع لوجود ؛ مثل قولك « لولا زيد عندك لَزُرْتك » ، أى : أن الذى يمنعك من زيارة فلان هو وجود زيد .

ولو دخلتْ « لولا » على جملة فعلية ؛ فالناطق بها يحب أنْ يحدث ما بعدها ؛ مثل قولك « لولا عطفتَ على فلان » أو « لولا صفحتَ عن ولدك » ، أى : أن فى ذلك حَضاً على أنْ يحدث ما بعدها .

وظاهر كلام الكفار فى هذه الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها أنهم يطلبون آية لتأييد صدق الرسول ﷺ فى البيان الذى يحمله من الحق لهم ، وكأنهم بهذا القول يُنكرون المعجزة التى جاء بها ﷺ وهى القرآن الكريم ، رغم أنهم أمةٌ بلاغة وأدب وبيان ، وأداء لُغوى رائع ؛ وأقاموا أسواقاً للأدب ، وخَصَّصوا الجوائز للنبوغ الأدبى ؛ وعلَّقوا القصائد على جدران الكعبة ، وتفاخرت القبائل بمَنْ أنجبتهم من الشعراء ورجال الخطابة .

فلما نزل القرآن من جنس نبوغكم ؛ وتفوَّق على بلاغتكم ؛ ولم تستطيعوا أن تأتوا بآية مثل آياته ؛ كيف لم تعتبروه معجزة ؛ وتطالبون بمعجزة أخرى كمعجزة موسى عليه السلام ؛ أو كمعجزة عيسى عليه السلام ؟

لقد كان عليكم أن تفخروا بالمعجزة الكاملة التى تحمل المنهج إلى قيام الساعة .

ولكن الحُمْق جعلهم يطلبون معجزة غير القرآن ، ولم يلتفتوا إلى المعجزات الأخرى التى صاحبتْ رسول الله ﷺ ، لم يلتفتوا إلى أن

الماء قد نبع من أصابعه ﷺ ؛ والطعام القليل أشبع القوم وفاض منه ، والغمامة قد ظللته ، وجذع النخلة قد أَنَّ بصوت مسموع عندما نقل رسول الله منبره ؛ بعد أنْ كان ﷺ يخطب من فوق الجذع[1] .

وقد يكونون أصحاب عُذْر فى ذلك ؛ لأنهم لم يَرَوْا تلك المعجزات الحِسِّية ؛ بحكم أنهم كافرون ؛ واقتصرت رُؤْياها على مَنْ آمنوا برسالته ﷺ .

وهكذا نعلم أن الرسول ﷺ لم يُحرم من المعجزات الكونية ؛ تلك التى تحدث مرة واحدة وتنتهى ؛ وهى حُجَّة على مَنْ يراها ؛ وقد جاءتْ لتثبيت إيمان القلَّة المضطهدة ؛ فحين يروْنَ الماء مُتفجراً بين أصابعه ، وَهُمْ مَزَلْزلون بالاضطهاد ؛ هنا يزداد تمسُّكهم بالرسول ﷺ .

ولكن الكافرين لم يَرَوْا تلك المعجزات . وكان عليهم الاكتفاء بالمعجزة التى قال عنها رسول الله ﷺ : « القرآن كافينى[2] » .

والقرآن معجزة من جنس ما نبغتُم فيه أيها العرب ، ومحمد رسول من أنفسكم ، لم يَأْتِ من قبيلة غير قبيلتكم ، ولسانه من

---

(١) أخرج البخارى فى صحيحه (٦٠١/٦ فتح البارى) ، والترمذى فى سننه ـ صلاة الجمعة ـ باب ما جاء فى الخطبة على المنبر ، والبيهقى فى دلائل النبوة (٥٥٧/٢) من حديث ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ كان يخطب إلى جذع ، فلما اتخذ المنبر تحول إليه ، فَحنَّ الجذع ، فأتاه النبى ﷺ فمسحه فسكن » .

(٢) أورد العجلونى فى كشف الخفاء (١٨٦٨) : « القرآن غنى لا فقر بعده ، ولا غنى بعده » وعزاه لأبى يعلى والدارقطنى عن أنس مرفوعاً . وقال الدارقطنى : رواه أبو معاوية عن الحسن مرسلاً . قال فى المقاصد : « وهو أشبه بالصواب » .

لسانكم ، وتعلمون أنه لم يجلس إلى مُعلِّم ؛ ولا عُلِم عنه أنه خطب فيكم من قبل ، ولم يَقْرِض[1] الشعر ، ولم يُعرف عنه أنه خطيب من خطباء العرب .

ولذلك جاء الحق سبحانه بالقول على لسانه :

﴿ قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا[2] مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٦) ﴾ [يونس]

أى : أننى عِشْتُ بينكم ولم أتكلَّم بالبلاغة ؛ ولم أنافس فى أسواق الشِّعْرِ ؛ وكان يجب أن تؤمنوا أنه قول من لَدُنْ حكيم عليم .

ولكن منهم مَنْ قال : « لقد كان يكتم موهبته وقام بتأجيلها» .

وهؤلاء نقول لهم : هل يمكن أن يعيش طفل يتيم الأب وهو فى بطن أمه ؛ ثم يتيم الأم وهو صغير ، ويموت جَدّه وهو أيضاً صغير ، ورأى تساقط الكبار من حوله بلا نظام فى التساقط ؛ فقد ماتوا دون مرض أو سبب ظاهر ؛ أكان مثل هذا الإنسان يأمنُ على نفسه أن يعيش إلى عمر الأربعين ليعلن عن موهبته ؟

ثم من قال : إن العبقرية تنتظر إلى الأربعين لتظهر ؟ وكلنا يعلم أن العبقريات تظهر فى أواخر العقد الثانى وأوائل العقد الثالث .

---

(١) القريض : الشعر . والقرْض : قَرْض الشعر . وقرض فى سيره يقرض قرضاً : عدل يَمْنة ويَسرة . وقال الجوهرى : القرض قَوْل الشعر خاصة . يُقال : قرضتُ الشعر أقرضه إذا قلته . [لسان العرب ـ مادة : قرض] .

(٢) قال ابن كثير فى تفسيره (٢/٤١٠) : « قال جعفر بن أبى طالب للنجاشى ملك الحبشة : بعث الله فينا رسولاً نعرف صدقه ونسبه وأمانته ، وقد كانت مدة مقامه عليه السلام بين أظهرنا قبل النبوة أربعين سنة » .

ورغم عدم اعترافكم بمعجزة القرآن ؛ هاهو الحق سبحانه يُجرى على ألسنتكم ما أخفيتموه فى قلوبكم ؛ ويُظهره للناس فى مُحكم كتابه :

﴿ وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ[1] عَظِيمٍ (٣١) ﴾ [الزخرف]

وهكذا اعترفتُم بعظمة القرآن ؛ وحاولتُم أن تغالطوا فى قيمة المُنزَّل عليه القرآن .

ويقول سبحانه هنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها :

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ.. (٧) ﴾ [الرعد]

فلماذا إذنْ قُلْتم واعترفتم أنَّ له رباً ؟ أمَا كان يجب أن تعترفوا برسالته وتُعلنون إيمانكم به وبالرسالة ، وقد سبق أنْ قالوا : إن ربَّ محمد قد قَلاَه[2] .

وهذا القول يعنى أنهم اعترفوا بأن له رباً ؛ فلماذا اعترفوا به فى الهَجْر وأنكروه فى الوَصْل .

وإذا كانوا يطلبون منك معجزة غير القرآن فاعلم يا محمد أن ربك هو الذى يرسل المعجزات ؛ وهو الذى يُحدِّد المعجزة لكل رسول

---

(١) القريتان : مكة والطائف . ذكر غير واحد منهم قتادة أنهم أرادوا بذلك الوليد بن المغيرة وعروة بن مسعود الثقفى . قال ابن كثير فى تفسيره (١٢٧/٤) : « الظاهر أن مرادهم رجل كبير من أى البلدتين كان » .

(٢) القلَى : البغض . قال ابن سيده : قليته : أبغضته وكرهته غاية الكراهة فتركته . وقال تعالى : ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣) ﴾ [الضحى] . [لسان العرب ـ مادة : قلى] .

حسب ما نبغ فيه القوم المُـرْسَل إليهم الرسول ، وأنت يا محمد مُنْذر فقط ؛ أى مُحذِّر :

﴿ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ (٧) ﴾ [الرعد]

فكل قـوم لهم هَاد ، يهـديهم بالآيـات التى تناسب القـوم ؛ فـبنو إسرائيل كانوا مُـتفوِّقين فى السـحر ؛ لذلك جاءت معـجزة موسى من لَوْنِ ما نبغوا فيه ؛ وقوم عيسى كانوا مُتفوِّقين فى الطب ؛ لذلك كانت معجزة عيسى من نوع ما نبغوا فيه .

وهكذا نرى أن لكل قـوم هادياً ، ومعـه مـعجـزة تناسب قومـه ؛ ولذلك رَدَّ الله عليهم الرد المُفْحم[1] حين قالوا :

﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا[2] أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ[3] أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ .. (٩٣) ﴾ [الإسراء]

فيقول الحق سبحانه :

---

(١) أفحمه : أسكته . والمُفْحَم : العَـيِـيُّ . وكلّمه فَفحم : لم يُطق جواباً . [لسان العرب ـ مادة : فحم] .

(٢) الكسفـة : القطعة . وكِـسْف السحاب وكِـسَفـة : قِطَعه . وكل شىء قطعتـه فقـد كسفـته . [لسان العرب مادة : كسف] .

(٣) الزخرف : الذهب . ثـم استعـمل فى الزينة وفى أثاث البيت الجـميل . وقـوله تعالى : ﴿ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ .. (٩٣) ﴾ [الإسـراء] . أى من ذهـب أو كله زينة وأثاث جـمـيل . [القاموس القويم ١/ ٢٨٥] .

﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَراً رَّسُولاً (٩٣) وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلاَّ أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَراً رَّسُولاً (٩٤) قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولاً (٩٥)﴾ [الإسراء]

ويأتى الرد من الحق سبحانه :

﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ ..(٥٩)﴾ [الإسراء]

أى : أن قوماً قبلكم طلبوا ما أرادوا من الآيات ؛ وأرسلها لهم الله ؛ ومع ذلك كفروا ؛ لأن الكفر يخلع ثوب العِنَاد على الكافر ؛ لأن الكافر مُصَمِّم على الكفر.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ[1] وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ (٨)﴾

وما المناسبة التى يقول فيها الحق ذلك ؟

لقد شاء الحق سبحانه أن يؤكد مسألة أن لكل قوم هادياً ، وأن رسوله ﷺ هو منذر ، وأن طلبهم للآيات المعجزة هو ابنٌ لرغبتهم فى تعجيز الرسول ﷺ .

---

(١) قال العوفى عن ابن عباس : ﴿وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ ..(٨)﴾ [الرعد] يعنى : السقط . ﴿وَمَا تَزْدَادُ ..(٨)﴾ [الرعد] يقول : مازادت الرحم فى الحمل على ما غاضت حتى ولدته تماماً . وذلك أن من النساء من تحمل عشرة أشهر ، ومن تحمل تسعة أشهر ، ومنهم من تزيد فى الحمل ومنهن من تنقص ، فذلك الغيض والزيادة التى ذكر الله تعالى وكل ذلك بعلمه تعالى . [تفسير ابن كثير ٢/٥٠٢] .

ولو جاء لهم الرسول بآية مما طلبوها لأصرُّوا على الكفر ، فهو سبحانه العَالِم بما سوف يفعلون ، لأنه يعلم ما هو أخفى من ذلك ؛ يعلم - على سبيل المثال - ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد .

ونحن نعلم أن كُلَّ أنثى حين يشاء الله لها أن تحبل ؛ فهى تحمل الجنين فى رحمها ؛ لأن الرحم هو مُسْتقرُّ الجنين فى بطن الأم .

وقوله تعالى :

﴿ وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ.. (٨) ﴾ [الرعد]

أى : ما تُنقص وما تُذهب من السَّقْط فى أى إجهاض ، أو ما ينقص من المواليد بالموت ؛ فغاضت الأرحام ، أى : نزلتْ المواليد قبل أن تكتمل خِلْقتها ؛ كأن ينقص المولود عيناً أو إصبعاً ؛ أو تحمل الخِلْقة زيادة تختلف عما نألفه من الخَلْق الطبيعى ؛ كأن يزيد إصبع ، أو أن يكون برأسين .

أو أن تكون الزيادة فى العدد ؛ أى : أن تلد المرأة تَوْأماً أو أكثر ، أو أن تكون الزيادة متعلقة بزمن الحَمْل .

وهكذا نعلم أنه سبحانه يعلم ما تغيض الأرحام . أى : ما تنقصه فى التكوين العادى أو تزيده ، أو يكون النظر إلى الزمن ؛ كأن يحدث إجهاض للجنين وعمره يوم أو شهر أو شهران ، ثم إلى ستة أشهر ؛ وعند ذلك لا يقال إجهاض ؛ بل يقال ولادة .

وهناك مَنْ يولد بعد ستة شهور من الحمل أو بعد سبعة شهور

أو ثمانية شهور ؛ وقد يمتد الميلاد لسنتين عند أبى حنيفة ؛ وإلى أربع سنوات عند الشافعى ؛ أو لخمس سنين عند الإمام مالك ، ذلك أن مدة الحمل قد تنقص أو تزيد .

ويُقَال : إن الضحاك وُلد لسنتين فى بطن أمه[1] ، وهرم بن حيان[2] وُلد لأربع سنين ؛ وظل أهل أمه يلاحظون كِبَر بطنها ؛ واختفاء الطَّمْث الشهرى طوال تلك المدة ؛ ثم ولدتْ صاحبنا ؛ ولذلك سموه « هرم » أى : شاب وهو فى بطنها .

وهكذا نفهم معنى « تغيض » نَقْصاً أو زيادة ؛ سواء فى الخِلْقة أو للمدة الزمنية .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ (٨) ﴾ [الرعد]

والمقدار هو الكمية أو الكيف ؛ زماناً أو مكاناً ، أو مواهب ومؤهلات .

وقد عَدَّد الحق سبحانه مفاتيح الغيب الخمس حين قال :

﴿ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ .. (٣٤) ﴾ [لقمان]

---

(١) ذكره ابن كثير فى تفسيره (٥٠٢/٢) ، أن الضحاك قال : وضعتنى أمى وقد حملتنى فى بطنها سنتين ، وولدتنى وقد نبتت ثنيتى .

(٢) هرم بن حيان العبدى ، كان عاملاً لعمر بن الخطاب ، مات فى يوم شديد الحر ، فلما نفضوا أيديهم عن قبره جاءت سحابة فأمطرت ونبت العشب من يومه . (حلية الأولياء ١١٩/٢) .

وقد حاول البعض أن يقيموا إشكالاً هنا ، ونسبوه إلى الحضارة والتقدم العلمى ، وهذا التقدم يتطرق إليه الاحتمال ، وكل شىء يتطرق إليه الاحتمال يبطل به الاستدلال ، وذلك بمعرفة نوعية الجنين قبل الميلاد ، أهو ذكر أم أنثى ؟ وتناسَوْا أن العلم لم يعرف أهو طويل أم قصير ؟ ذكى أم غبى ؟ شقى أم سعيد ؟ وهذا ما أعجز الأطباء والباحثين إلى اليوم وما بعد اليوم .

ثم إنْ سألتَ كيف عرف الطبيب ذلك ؟

إنه يعرف هذا الأمر من بعد أن يحدث الحَمْل ؛ ويأخذ عينة من السائل المحيط بالجنين ، ثم يقوم بتحليلها ، لكن الله يعلم دون أخذ عينة ، وهو سبحانه الذى قال لواحد من عباده :

﴿ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ .. (٧) ﴾ [مريم]

وهكذا نعلم أن علْم الله لا ينتظر عيِّنة أو تجربة ، فعلْمه سبحانه أزلىّ ؛ مُنزَّه عن القصور ، وهو يعلم ما فى الأرحام على أى شكل هو أو لون أو جنس أو ذكاء أو سعادة أو شقاء أو عدد .

وشاء سبحانه أن يجلى طلاقة قدرته فى أنْ تحمل امرأة زكريا عليه السلام فى يحيى عليه السلام ، وهو الذى خلق آدم بلا أب أو أم ؛ ثم خلق حواء من أب دون أم ؛ وخلق عيسى من أم دون أب ، وخلقنا كلنا من أب وأم ، وحين تشاء طلاقة القدرة ؛ يقول سبحانه :

﴿ كُن فَيَكُونُ (٨٢) ﴾ [يس]

والمثل ـ كما قلت ـ هو فى دخول زكريا المحرابَ على مريم عليها السلام ؛ فوجد عندها رزقاً ؛ فسألها :

﴿ أَنَّىٰ لَكِ هَـٰذَا .. (٣٧) ﴾ [آل عمران]

قالت :

﴿ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٧) ﴾ [آل عمران]

وكان زكريا يعلم أن الله يرزق مَنْ يشاء بغير حساب ؛ ولكن هذا العلم كان فى حاشية شعوره ؛ واستدعاه قول مريم إلى بُؤْرة الشعور ، فزكريا يعلم عِلْم اليقين أن الله هو وحده مَنْ يرزق بغير حساب .

وما أنْ يأتى هذا القول مُحرِّكاً لتلك الحقيقة الإيمانية من حافة الشعور إلى بُؤْرة الشعور ؛ حتى يدعو زكريا ربه فى نفس المكان ليرزقه بالولد ؛ فيبشره الحق بالولد .

وحين يتذكر زكريا أنه قد بلغ من الكبر عتياً[1] ، وأن امرأته عاقر ؛ فيُذكِّره الحق سبحانه بأن عطاء الولد أمر هَيِّن عليه سبحانه :

﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا (٩) ﴾ [مريم]

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ (٩) ﴾

ومَنْ كُلُّ شىء عنده بمقدار ؛ لا يغيب عنه شىء أبداً ، وما يحدث لأىِّ إنسان فى المستقبل بعد أن يُولَد هو غَيْب ؛ لكن المُطَّلع عليه وحده هو الله .

---

(١) عتا يعتو عُتواً : أسنَّ وكبر وذهبت نضارته وغضارته . [القاموس القويم ٢/٦] .

وكأن هناك « نموذجاً » مُصَغَّراً يعلمه الله أولاً ؛ وإن اطلع عليه الإنسان فى أواخر العمر ؛ لوجده مطابقاً لمَا أراده وعلمه الله أولاً ؛ فلا شىء يتأبَّى عليه سبحانه ؛ فكُلُّ شىء عنده بمقدار .

وهو عالم الغيب والشهادة ؛ يعلمُ ما خَفِى من حجاب الماضى أو المستقبل ، وكُلّ ما غاب عن الإنسان ، ويعلم - من باب أَوْلَى - المشهودَ من الإنسان ، فلم يقتصر علمه على الغيب ، وترك المشهود بغير علم منه ؛ لا بل هو يعلم الغيب ويعلم المشهود :

﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ (٩) ﴾ [الرعد]

والكبير اسم من أسماء الله الحسنى ؛ وهناك مَنْ تساءل : ولماذا لا يوجد « الأكبر » ضمن أسماء الله الحسنى ؛ ويوجد فقط قولنا « الله أكبر » فى شعائر الصلاة ؟

وأقول : لأن مقابل الكبير الصغير ، وكل شىء بالنسبة لمُوجِده هو صغير. ونحن نقول فى أذان الصلاة « الله أكبر » ؛ لأنه يُخرِجك من عملك الذى أوكله إليك ، وهو عمارة الكون ؛ لتستعين به خلال عبادتك له وتطبيق منهجه ، فيمدُّك بالقوة التى تمارس بها إنتاج ما تحتاجه فى حياتك من مأكل ، ومَلْبس ، وسَتْر عورة .

إذن : فكلُّ الأعمال مطلوبة حتى لإقامة العبادة ، فإياك أن تقول : إن الله كبير والباقى صغير ، لأن الباقى فيه من الأمور ما هو كبير من منظور أنها نعَم من المُنعم الأكبر ؛ ولكن الله أكبرُ منَّا ؛ ونقولها حين يُطلَبُ منَّا أن نخرج عن أعمالنا لنستعين بعبادته سبحانه .

ونعلم أن العمل مطلوب لعمارة الكون ، ومطلوب حتى لإقامة العبادة ، ولن توجد لك قوة لتعبد ربك لو لم يُقوِّك ربُّك على عبادته ؛

فهو الذى يستبقى لك قُوتَك بالطعام والشراب ، ولن تطعم أو تشرب ؛ لو لم تحرُثْ وتبذر وتصنع ، وكل ذلك يتيح لك قوة لِتُصلى وتُزكِّى وتحُج ؛ وكل ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب .

وسبق أنْ قُلت: إن الحق سبحانه حينما نادانا لصلاة الجمعة قال:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٩) ﴾ [الجمعة]

وهكذا يُخرجنا الحق سبحانه من أعمالنا إلى الصلاة الموقوتة ؛ ثم يأتى قول الحق سبحانه :

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِى الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠) ﴾ [الجمعة]

وهكذا أخرجنا سبحانه من العمل ، وهو أمر كبير إلى ما هو أكبر ؛ وهو أداء الصلاة .

وقول الحق سبحانه فى وصف نفسه (المتعال) يعنى أنه المُنزَّه ذاتاً وصفاتاً وأفعالاً ؛ فلا ذات كذاته ؛ ولا صفة كصفاته ، ولا فعل كفعله ، وكل ما له سبحانه يليق به وحده ، ولا يتشابه أبداً مع غيره .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ[1] بِٱلنَّهَارِ (١٠) ﴾

---

(١) قال ابن عباس : « مستخف » مستتر . و « سارب » ظاهر . وقال أبو رجاء : السارب الذاهب على وجهه فى الأرض . وقال القتبى : « سارب بالنهار » أى : منصرف فى حوائجه بسرعة . قاله القرطبى فى تفسيره (٥/٣٦٢٦) .

وساعة تسمع كلمة « سواء » فالمقصود بها عدد لا يقل عن اثنين ، فنقول « سواء زيد وعمرو » أو « سواء زيد وعمر وبكر وخالد » .

والمقصود هنا أنه ما دام الحق سبحانه عالم الغيب والشهادة ؛ فأىُّ سرٍّ يوجد لا بد أن يعلمه سبحانه ، وهو سبحانه القائل :

﴿ الرَّحْمَـٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ (٥) لَهُ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ (٦) وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى (٧) ﴾ [طه]

وهل السر هو ما ائتمنتَ عليه غيرك ؟ إذا كان السر هو ذلك ؛ فالأخْفَى هو ما بَقِى عندك ، وإنْ كان السر بمعنى ما يوجد عندك ولم تَقُلْه لأحد ؛ فسبحانه يعلمه قبل أن يكون سراً .

ويتابع سبحانه :

﴿ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ (١٠) ﴾ [الرعد]

وهكذا جمع الحق سبحانه هنا كل أنواع العمل ؛ فالعمل كما نعلم هو شغل الجوارح بمتعلقاتها ؛ فعمل اللسان أن يقول وأن يذوق ، وعمل الأيدى أن تفعل ، وعمل الأذن أن تسمع ، وعمل القلب هو النية ، والعمل كما نعلم يكون مرَّة قَوْلاً ، ومرَّة يكون فِعْلاً .

وهكذا نجد « القول » وقد أخذ مساحة نصف « العمل » ، لأن البلاغ عن الله قَوْل ، وعمل الجوارح خاضع لِمَقُول القول من الحق سبحانه وتعالى .

ولذلك أوضح لنا الحق سبحانه أن العمل هو كُلُّ فعل متعلق بالجوارح ؛ وأخذ القول شقاً بمفرده ؛ وأخذتْ أفعال الجوارح الشِّقَّ الآخر ؛ لأن عمل بقية الجوارح يدخل فى إطار ما سمع من منهج الله .

ولذلك تجمع الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها كل العمل من قَوْل وفعل :

﴿ سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ (١٠) ﴾ [الرعد]

ومَنْ يستخفى بالليل لابد أنه يُدبِّر أمراً ؛ كأن يريد أن يتسمَّع ما وراء كل حركة ؛ أو ينظر ما يمكن أنْ يشاهده ، وكذلك مَنْ يبرز ويظهر فى النهار فالله عالم به .

وكان على الكفار أن ينتبهوا لأمر عجيب كانوا يُسِرُّونه فى أنفسهم ؛ لحظة أنْ حكى الله ؛ فقال :

﴿ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ .. (٨) ﴾ [المجادلة]

فكيف علِمَ الله ذلك لولا أنه يعلم السِّرَّ وأخْفَى ؟

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ(١) مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ (١١) ﴾

---

(١) التعقب : العود بعد البَدْء . وقال أبو الهيثم : سميت الملائكة « مُعقِّبات » لأنهن عادت مرة بعد مرة . [تفسير القرطبى ٥/٣٦٢٦] .

وكلمة (له) تفيد النفعية ، فإذا قلت « لك كذا » فهى عكس أن نقول « عليك كذا » . وحين يقول سبحانه :

﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ .. (١١) ﴾ [الرعد]

فكأنَّ المُعقِّبات لصالح الإنسان . و « مُعقِّبات » جمع مؤنث ، والمفرد « مُعقِّبة » ، أى : أن للحق سبحانه وتعالى ملائكة يتناوبون على حراسة الإنسان وحِفْظه ليلاً ونهاراً من الأشياء التى لا يمكن الاحتراز منها .

والمَثَلُ هو تلك الإحصاءات التى خرجت عن البشر الذين تلدغهم الثعابين ، فقد ثبت أنها لا تلدغهم وهم نائمون ؛ بل فى أثناء صَحْوتهم ؛ أى : ساعةَ يكونون فى سِتْر النوم فهناك ما يحفظهم ؛ أما فى اليقظة فقد يتصرَّف الإنسان بطَيْشٍ وغَفْلة فتلدغه الأفعى .

ونحن نقول فى أمثالنا الشعبية : « العين عليها حارس » ؛ ونلحظ كثيراً من الأحداث التى تبدو لنا غريبة كأنْ يسقط طفل من نافذة دور عُلوى ؛ فلا يُصَاب بسوء ؛ لأن الحق سبحانه شاء أن تحفظه الملائكة المُعقِّبات من السُّوء ؛ لأن مهمة الحَفَظة أنْ يحفظوا الإنسان من كُلِّ سوء .

وهكذا نرى أن الحق سبحانه قد أعدَّ للإنسان الكونَ قبل أن يخلقه ليستخلفه فيه ؛ أعدَّ السماوات وأعدَّ الأرض ؛ وسَخَّر الشمس والقمر ؛ وأخرج الثمرات ؛ وجعل الليل يَغْشَى النهارَ .

كُلُّ ذلك أعدَّه سبحانه للخليفة قبل أن يوجد الخليفة ؛ وهو سبحانه قَيُّوم على هذا الخليفة ؛ فيصونه أيضاً بعد الخَلْق ، ولا يَدَعُه لمات نفسه ليدافع عنها فيما لا يستطيع الدفاع عنها ، ويُكلِّف الله الملائكة المُعقِّبات بذلك .

وقد ينصرف معنى المُعقِّبات إلى الملائكة الذين يتعقَّبون أفعال الإنسان وكتابة حسناته وكتابة سيئاته ، ويمكن أن يقوما بالعملين معاً ؛ حِفْظه وكتابة أعماله ، فإن كتبوا له الحسنات فهذا لصالحه .

ولقائل أن يقول : ولكنهم سيكتبون السيئات ؛ وهذه على الإنسان وليست له .

وأقول : لا ؛ ويَحْسُن أن نفهم جيداً عن المُشرِّع الأعلى ؛ ونعلم أن الإنسان إذا ما عرف أن السيئة ستُحْسب عليه وتُحْصى ؛ وتُكتب ؛ يمسك كتابه ليقرأه ؛ فلسوف يبتعد عن فعل السيئات .

وهكذا يكون الأمر فى مصلحته ، مَثَلُه مَثَلُ الطالب الذى يرى المراقب فى لجنة الامتحان ، فلا يكرهه ؛ لأنه يحمى حَقَّه فى الحصول على التقدير الصحيح ؛ بدلاً من أن يغُشَّ غيره ، فيأخذ فرصة أكبر منه فى التقدير والنجاح ؛ فضلاً عن أن كل الطلبة يعلمون أن وجود المراقب اليَقِظ هو دافعٌ لهم لِلمُذَاكرة .

ولذلك أقول دائماً : إياك أنْ تكره أن يكون لك أعداء ؛ لأن الذى يَغُرُّ الإنسانَ فى سلوكه هو نفاقُ أصحابه له ، أما عدوك فهو يفتح عينيه عليك طوال الوقت ؛ ولذلك فأنت تحذر أن تقع فى الخطأ .

وفى هذا المعنى يقول الشاعر :

عِدَاى لَهُمْ فَضْل علىَّ ومَيْزَةٌ ... فَتعدَّى لَهُم شُكْر عَلى نَفْعِهم لِياَ

فَهم كَالدَّواءِ والشِّفَاءِ لِمُزْمِنٍ ... فَلا أبعدَ الرحْمَانُ عنِّى الأعَادِيَا

هُمْ بَحثُوا عَنْ زَلَّتى فاجْتنبْتُهَا ... فَأصْبَحتُ مِمَّا ذله العربُ خَالِيَا

إذن : فكتابة الحسنات والسيئات هى مسألةٌ لصالح الإنسان ؛ وحين يتَعاقبُونَ على الإنسان ؛ فكأنهم يصنعون دَوْرِيَّاتٍ لحماية الفرد ؛ ولذلك نجد رسول الله ﷺ يقول :

« يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ، ويجتمعون فى صلاة الصبح وصلاة العصر[(١)] ؛ فيصعد إليه الذين باتوا فيكم ، فيسألهم ـ وهو أعلم بكم ـ : كيف تركتُم عبادى ؟ فيقولون : أتيناهم وهُمْ يصلون ، وتركناهم وهُمْ يُصلُّون »[(٢)] .

وكأن الملائكة دوريات .

ويقول الحق سبحانه :

﴿إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً (٧٨)﴾ [الإسراء]

أى : أن ملائكة الليل يشهدون ؛ ومعهم ملائكة النهار[(٣)] .

وحديث رسول الله ﷺ ملحوظ فيه الوقت الزمنى للحركة الإنسانية ؛ فَكُلُّ حركات الإنسان وعمله يكون من الصبح إلى

---

(١) قال النووى فى شرحه على صحيح مسلم (المجلد ٣ / ص ١٣٩) طبعة دار القلم ـ بيروت ١٩٨٧ : « أما اجتماعهم فى الفجر والعصر فهو من لطف الله تعالى بعباده المؤمنين وتكرمة لهم أن جعل اجتماع الملائكة عندهم ومفارقتهم لهم فى أوقات عباداتهم واجتماعهم على طاعة ربهم ، فتكون شهادتهم لهم بما شاهدوه من الخير » .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه (٦٣٢) . والبخارى فى صحيحه (٥٥٥) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

(٣) أخرج أحمد فى مسنده (٤٧٤/٢) ، والترمذى فى سننه (٣١٣٥) ، وابن ماجه فى سننه (٦٧٠) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال فى هذه الآية : ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً (٧٨)﴾ [الإسراء] « تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار » .

العصر ، ثم يرتاح الإنسان غالباً من بعد ذلك ؛ ثم ينام .

والمُعقِّبات يَكُنَّ من بين يدى الإنسان ومن خلفه ؛ و (من بين يديه) من أجل الرصد ، ولذلك وجدنا أبا بكر الصديق - رضى الله عنه - أثناء الهجرة النبوية كان يسير بعض الوقت أمام النبى ﷺ ؛ وكان يسير البعض الآخر خلف النبى ﷺ .

كان أبو بكر - رضى الله عنه - يتقدم ليرقب : هل هناك مَنْ يرصد الرسول أم لا ؟ ثم يتراجع إلى الخلف ليمسح كل المكان بنظره ليرقب : أهناك مَنْ يتتبعهما ؟ وهكذا حرص أبو بكر على أنْ يحمى الرسول ﷺ من الرَّصد أو التربُّص[1] .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ .. (١١) ﴾ [الرعد]

والسطحىّ يقول : إن تلك الملائكة يحفظون الإنسان من الأمر المراد به من الله .

ونقول : إن الله لم يُنزِل الملائكة ليعارضوا قَدَره ؛ وهذا الحفظ لا يكون من ذات الإنسان لنفسه ، أو من الملائكة ضد قَدَر الله ؛ والمعنى هنا ينصرف إلى أن الملائكة إنما يحفظون الإنسان بأمر الله .

---

(١) أخرج البيهقى فى سننه (٢/٤٧٦) أن عمر بن الخطاب قال : « والله لليلة من أبى بكر خير من آل عمر ، وليوم من أبى بكر خير من آل عمر ، لقد خرج رسول الله ﷺ ليلة انطلق إلى الغار ومعه أبو بكر رضى الله عنه ، فجعل يمشى ساعة بين يديه وساعة خلفه ، حتى فطن له رسول الله ﷺ ، فقال : « يا أبا بكر ما لك تمشى ساعة بين يدى وساعة خلفى ؟ فقال : يا رسول الله أذكر الطلب ، فأمشى خلفك ، ثم أذكر الرصد فأمشى بين يديك » .

ولذلك نجد فى القرآن قول الحق سبحانه :

﴿ مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا .. (٢٥) ﴾ [نوح]

أى : بسبب خطيئتهم أغرقوا ، فإياك أنْ تظن أنَّ الملائكة يحفظون الإنسان من قَدَر الله ؛ لأننا نعلم أن الحق سبحانه إذا أراد أمراً فلا رَادَّ له .

ويتابع سبحانه :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ..(١١) ﴾ [الرعد]

وهو سبحانه الذى خلق الكون الواسع بكل أجناسه ؛ جماداً ونباتاً وحيواناً وأفلاكاً وأملاكاً ؛ وجعل كل ذلك مُسخَّراً للإنسان ؛ ثم يحفظ الحق سبحانه الإنسان ويصونه بقيوميته .

وقد يقول قائل : ولماذا إذن تحدث الابتلاءات لبعض من الناس ؛ رغم أنه سبحانه قد قال إنه يحفظهم ؟

ونقول : إن تلك الابتلاءات إنما تجرى إذا ما غَيَّر البشر من منهج الله ؛ لأن الصيانة تُقوِّم ما قام بالمنهج .

واقرءوا قَوْل الحق سبحانه :

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً[1] مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ(١١٢) ﴾ [النحل]

---

(١) رَغُد العيش : اتسع وطاب . وقوله تعالى : ﴿ وَكُلا مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا .. (٣٥) ﴾ [البقرة] أى : أكلاً طيباً مُوسَّعاً عليكم فيه . [القاموس القويم ١/٢٦٩] .

وهكذا نعلم أن الصيانة للإنسان والحفظ له والإمداد له من قبل أن يُولَد ؛ كُلُّ ذلك لن يرجع عنه الله ما دام الإنسان يمشى على صراط مستقيم ؛ لكن إذا ما حَادَ الإنسان عن الصراط المستقيم ؛ فيلفته الله ببعض من العِبَر والعظات ليعود إلى الصراط المستقيم .

والتغيير الذى يُجرِيه الله على البشر حتى يُغيِّروا ما بأنفسهم ؛ يشمل الإمدادات الفرعية ؛ أما الإمدادات الأصلية فلا يمنعها عنهم ؛ مثل الشمس والقمر والنجوم والهواء ؛ ولم يمنع الأرض أن تُخرِج لهم المياه .

ويصيبهم فى الأشياء التى من الممكن أن يسير الكون فى انتظامه رغم حدوثها ؛ كالمصيبة فى المال أو المصيبة فى النفس ؛ ويظل الكون على مسيرته المنتظمة .

ولهذا نجد أحد الفلاسفة وقد قال : « إن الله لا يتغير من أجلكم ؛ ولكن يجب أن تتغيروا أنتم من أجل الله » .

وسبق أن قال الحق سبحانه :

﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَاىَ فَلا يَضِلُّ ولا يَشْقَىٰ (١٢٣) ﴾ [طه]

وهو القائل سبحانه :

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا[1] .. (١٢٤) ﴾ [طه]

---

(١) الضنك : الضيق من كل شىء . والضنك : ضيق العيش . وقال الليث فى تفسيره : أكل ما لم يكن من حلال فهو ضنك وإن كان مُوسَّعاً عليه ، وقد ضنك عيشه . [لسان العرب ـ مادة : ضنك] .

وأنت ترى فى عالمنا المعاصر مجتمعات مُتْرَفة ؛ نستورد منهم أدوات الحضارة المعاصرة ؛ لكنهم يعيشون فى الضَّنْك النفسى البالغ ؛ وهذا ما يُثبت أن الثراءَ المادى بالنقود أو أدوات الحضارة ؛ لا يُحقِّق للإنسان التوازن النفسى أو السعادة ؛ وينطبق عليهم ما قاله أمير الشعراء أحمد شوقى[1] رحمه الله :

ليسَ الحمْلُ مَا أَطَاقَ الظَّهْرُ مَا الحمْلُ إلاَّ مَا وَعَاهُ الصَّدْر

فقد يكون الثراء المادى فى ظَنِّ البعض هو الحُلْم ؛ فيجنح الإنسان إلى الطريق غير السَّوى بما فيه من عُمولات ؛ وعدم أمانة ؛ ورغم النقود التى قد يكتنزها هذا الإنسان ، إلا أن الأمراض النفسية أو الأمراض العضوية تفتكُ به .

وهكذا نجد الحق سبحانه وهو يُغيِّر ولا يتغيَّر ؛ فهو المُغيِّر لا المُتغيِّر .

وقول الحق سبحانه :

﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴿١١﴾﴾ [الرعد]

يُوضِّح لنا أن أعمال الجوارح ناشئةٌ من نَبْعِ نفس تُحرِّك الجوارح ؛ وحين تصلح النفس ؛ تصبح الجوارح مستقيمة ؛ وحين تفسد النفس تصير الجوارح غير مستقيمة .

---

(١) أحمد شوقى ، أشهر شعراء العصر ، يلقب بأمير الشعراء ، ولد بالقاهرة عام ١٨٦٨ م ، وتوفى بها عام ١٩٣٢ م عن ٦٤ عاماً . نشأ فى ظل البيت المالك ، درس الحقوق فى فرنسا واطلع على الأدب الفرنسى . تنوع إنتاجه بين نظم الشعر والقصص الشعرية . [الأعلام للزركلى ١/١٣٦] .

فالحق سبحانه وتعالى أخضع كل الجوارح لِمُرادَاتِ النفس ، فلو كانت النفسُ مخالفةً لمنهج الله ؛ فاللسان خاضع لها ؛ ولا ينطق رغم إرادته بالتوحيد ؛ لأن النفسَ التى تديره مخالفةٌ للإيمان .

والمَثَل : هم هؤلاء الذين نسبوا الرسل الذين اختارهم الله ؛ فادَّعَوْا أنهم أبناءُ الله ؛ وسبحانه مُنزَّهٌ عن ذلك ؛ أما إذا كانت النفس مؤمنةً فهى تأمرُ اللسان أن يقول كلمة التوحيد ؛ ويسعد هو بذلك ؛ لكنه فى الحالتين لا يعصى النفس التى سَخَّره لها الله .

وهكذا تكون الجوارح مُنفعلَة لإرادة صاحبها ، ولا تنحلُّ الإرادة البشرية عن الجوارح إلا حين يشاء الله ذلك فى اليوم الآخر ، وفى الموقف الحق .

ولحظتَها لن يستطيع أحد أنْ يسيطر على جوارحه ؛ لأن المُلْك يومئذ للواحد القهار ؛ وسقطتْ ولاية الفَرْد على جوارحه ؛ وتشهد هذه الجوارح على صاحبها بما فعلتْه وَقْتَ أنْ كانت مقهورة لإرادته .

وهكذا نعلم أن التغيير كله فى النفس التى تدير الجوارح .

وقَوْل الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ ..(١١) ﴾ [الرعد]

يَدلُّنا أنه سبحانه لا يتدخَّل إلا إذا عَنَّت[1] الأمور ؛ وفسد كل المجتمع ؛ واختفتْ النفس اللوَّامة من هذا المجتمع ؛ واختفى مَنْ

(١) عَنَّ الشىء يعن : ظهر أمامك . [لسان العرب ـ مادة : عنن] والمقصود أن تظهر الفواحش والمعاصى فى المجتمع وتفشو .

يَقْدِرون على الرَّدْع ـ ولو بالكلمة ـ من هذا المجتمع ؛ هنا يتدخل الحق سبحانه .

وحين يُغيِّر الناس ما بأنفسهم ، ويُصحِّحون إطلاق الإرادة على الجوارح ؛ فتنصلح أعمالهم ؛ وإياكم أنْ تظنوا أنَّ هناك شيئاً يتأبَّى على الله .

ولذلك يتابع سبحانه فى نفس الآية :

﴿ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلا مَرَدَّ لَهُ .. (١١) ﴾ [الرعد]

وعليكم أن تأخذوا الأمرين معاً :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ .. (١١) ﴾ [الرعد]

و ﴿ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلا مَرَدَّ لَهُ .. (١١) ﴾ [الرعد]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ (١١) ﴾ [الرعد]

إياك أن تفهم أن هناك سلطة تحُول دون أن يُغيِّر الله ما يريد تغييره ؛ ولن يجدوا صَدْراً حَنُوناً آخر يُربِّت عليهم إذا ما أراد الله بهم السُّوء ، فليس هناك وَالٍ آخر يأخذهم من الله ويتولَّى شئونهم وأمورهم من جَلْبِ الخير ودَفْعِ الشر .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ (١١) ﴾ [الرعد]

وبعد ذلك يتكلم الحق سبحانه عن ظاهرة فى الكون لها وجهان وتُسْتقبل استقبالين ؛ أحدهما : سَارّ ، والآخر : مُزْعِج ؛ سواء فى النفس الواحدة أو فى الجماعة الواحدة .

فيقول الحق سبحانه :

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾﴾

وكُلُّنا يعرف البَرْق ، ونحن نستقبله بالخوف مما يُزعِج وبالطمع فيما يُحَبّ ويُرْغَب ، فساعةَ يأتى البرق فنحن نخاف من الصواعق ؛ لأن الصواعقَ عادةً تأتى بعد البَرْق ؛ أو تأتى السحابات المُمْطِرة .

وهكذا يأتى الخَوْف والطَّمَع من الظاهرة الواحدة . أو : أنْ يكون الخوف لقوم ؛ والرجاء والطمع لقوم آخرين .

والمثل الذى أضربه لذلك دائماً هو قول أحد المقاتلين العرب وصف سيفه بأنه « فَتْح لأحبابه ، وحَتْفٌ[1] لأعدائه » .

والمثل الآخر الذى أضربه ما رواه لنا أمير بلدة اسمها « الشريعة » وهى تقع بين الطائف ومكة ؛ وقد حدثنا أمير الشريعة عام ١٩٥٣ عن امرأة صالحة تحفظ القرآن ؛ اسمها « آمنة » .

هذه المرأة كان لها بنتان ؛ تزوَّجتا ؛ وأخذ كُلُّ زَوْجٍ زوجته إلى

(١) الحتف : الموت . وجمعه : حُتُوف . والحتف : الهلاك . [لسان العرب ـ مادة : حتف] .

مَحَلِّ إقامته ؛ وكان أحدُ زَوْجَى البنتين يعمل فى الزراعة ؛ والآخر يعمل بصناعة « الشُّرُك[1] » . وقالت آمنة لزوجها : ألاَ تذهب لمعرفة أحوال البنتين ؟ فذهب الرجل لمعرفة أحوال البنتين ، فكان أول مَنْ لقى فى رحلته هى ابنته المتزوجة ممَّنْ يحرث ويبذر ، فقال لها : كيف حالك وحال زوجك وحال الدنيا معك أنت وزوجك ؟

قالت : يا أبت ، أنا معه على خير ، وهو معى على خير ، وأما حال الدنيا ؛ فَادْعُ لنا الله أنْ يُنزِل المطر ؛ لأننا حرثنا الأرض وبذرْنَا البذور ؛ وفى انتظار رَىِّ السماء .

فرفع الأب يديه إلى السماء وقال : اللهم إنِّى أسألك الغَيْث لها .

وذهب إلى الأخرى ؛ وقال لها : ما حالك ؟ وما حال زوجك ؟ فقالت : خير ، وأرجوك يا أبى أن تدعوَ لنا الله أنْ يمنع المطر ؛ لأننا قد صنعنا الشِّرَاك من الطين ؛ ولو أمطرتْ لَفسدتِ الشُّرُك ، فَدَعا لها .

وعاد إلى امرأته التى سألته عن حال البنتين ؛ فبدا عليه الضيق وقال : هى سَنة سيئة على واحدة منهما ، وروى لها حال البنتين ؛ وأضاف : ستكون سنة مُرْهِقة لواحدة منهما .

فقالت له آمنة : لو صبرتَ ؛ لَقُلْتُ لك : إن ما تقوله قد لا يتحقق ؛ وسبحانه قادر على ذلك .

قال لها : ونعم بالله ، قولى لى كيف ؟ فقالت آمنة : ألم تقرأ قول الله :

---

(١) الشُّرُك : جمع شَرَك ، وهو حبائل الصائد ، وكذلك ما ينصب للطير . [لسان العرب ـ مادة : شرك] .

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي(١) سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا(٢) فَتَرَى الْوَدْقَ(٣) يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ(٤) فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ .. (٤٣)﴾ [النور]

فسجد الرجل لله شكراً أنْ رزقه بزوج تُعينه على أمر دينه ، ودعا : اللهم اصْرِف عن صاحب الشِّراكِ المطر ؛ وأفِضْ بالمطر على صاحب الحَرْث . وقد كان .

وهذا المثل يوضح جيداً معنى الخوف والطمع عند رؤية الرعد :

﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا .. (١٢)﴾ [الرعد]

إما من النفس الواحدة بأن يخافَ الإنسانُ من الصواعق ، ويطمع فى نزول المطر ، أو من متقابلين ؛ واحد ينفعه هذا ؛ وواحد يضره هذا .

ويضيف الحق سبحانه :

﴿وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ (١٢)﴾ [الرعد]

---

(١) أزجاه : ساقه برفق . وقال تعالى عن السفن : ﴿رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ .. (٦٦)﴾ [الإسراء] أى : يدفعها ويُسيِّرها برفق فوق الماء . [القاموس القويم ١/ ٢٨٤] .

(٢) الركام : السحاب المتراكم بعضه فوق بعض . [لسان العرب ـ مادة : ركم] .

(٣) الودق : المطر شديده وهيِّنه . وقوله تعالى : ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ.. (٤٣)﴾ [النور] أى : المطر يخرج من خلال السحاب المتراكم فى السماء . [القاموس القويم ٢/ ٣٢٧] .

(٤) البرد : حبات صغار من الثلج تسقط مع المطر أحياناً . [القاموس القويم ١/ ٦٢] .

ونحن نعلم أن السحاب هو الغَيْم المُتَراكم ؛ ويكون ثقيلاً حين يكون مُعَبئاً ؛ وهو عكس السحاب الخفيف الذى يبدو كَنُتَفِ[1] القطن .

ويُقال عند العرب : « لا تستبطىء الخَيْل ؛ لأن أبطأ الدِّلاء فَيْضاً أملؤها ، وأثقلَ السحابِ مَشْياً أَحْفَلُهَا »[2] .

فحين تنزل الدَّلْو فى البئر ؛ وترفعه ؛ فالدَّلْو المَلآن هو الذى يُرهقك حين تشدُّه من البئر ؛ أما الدلو الفارغ فهو خفيفٌ لحظة جَذْبه خارج البئر ؛ وكذلك السحاب الثِّقَال تكون بطيئة لِمَا تحمله من ماء .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ[3] ﴿١٣﴾ ﴾

وسبق أن جاء الحق سبحانه بذكر البرق وهو ضوئىّ ؛ وهنا يأتى بالرعد وهو صوتىّ ، ونحن نعرف أن سرعة الضوء أسرع من سرعة الصوت ؛ ولذلك جاء بالبرق أولاً ، ثم جاء بالرعد من بعد ذلك .

وحين يسمع أحدُ العامةِ واحداً لا يعجبه كلامه ؛ يقول له

---

(١) النتف : جمع نُتْفة ، وهو ما نتفْته بأصابعك من نَبْت أو غيره . [لسان العرب ـ مادة : نتف] .

(٢) الحَفْل : اجتماع الماء فى مَحْفله . مَحْفِل الماء : مُجْتمعه . وحفلت السماء : اشتد مطرها . [لسان العرب ـ مادة : حفل] .

(٣) المحال من الله : العقاب على الكيد والتدبير المحكم المتين ، فهم يجادلون ويكيدون لإبطال الدين والله شديد العقاب لهم على هذه المجادلة الباطلة ، وهو قوى يُحكم التدبير لإبطال كيدهم وإفساد تدبيرهم . [القاموس القويم ٢/٢١٨] .

« سمعت الرعد » ؛ أى : يطلب له أنْ يسمع الصوت المزعج الذى يُتعب مَنْ يسمعه . ولنا أن ننتبه أن المُزْعجات فى الكون إذا ما ذكرت مُسَبِّحة لربها فلا تنزعج منها أبداً ، ولا تظن أنها نغمة نَشَازٌ فى الكون ، بل هى نغمة تمتزج ببقية أنغام الكون .

ونحن نفهم أن التسبيح للعاقل القادر على الكلام ، ولكن هذا عند الإنسان ؛ لأن الذى خلق الكائنات كلها علَّمها كيف تتفاهم ، مثلما علَّم الإنسان كيف يتفاهم مع بنى جنسه ؛ وكذلك علَّم كل جنس لغته .

وكلنا نقرأ فى القرآن ماذا قالت النملة حين رأتْ جنودَ سليمان :

﴿ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (١٨) ﴾ [النمل]

وقد سمعها سليمان عليه السلام ؛ لأن الله علَّمه مَنْطق تلك اللغات ، ونحن نعلم أن الحق سبحانه علَّم سليمان منطق الطير ، قال تعالى :

﴿ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ .. (١٦) ﴾ [النمل]

ألم يتخاطب سليمان عليه السلام مع الهدهد وتكلَّم معه ؟ بعد أن فَكَّ سليمان بتعليم الله له شَفْرة حديث الهدهد ؛ وقال الهدهد لسليمان :

﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَأٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ (٢٢) إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) ﴾ [النمل]

إذن : فكُلُّ شىء له لغة يتفاهم بها لقضاء مصالحه ، ومَنْ يفيض الله عليه من أسرار خَلْقه يُسْمعه هذه اللغات ، وقد فاض الحقُّ سبحانه على سليمان بذلك ، ففهم لغةَ الطير وتكلَّم بها مع الهدهد ؛ وقال له :

﴿اذْهَب بِّكِتَابِى هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ (٢٨)﴾ [النمل]

وهكذا عرفنا بقصة سليمان وبلقيس ؛ وكيف فَهم سليمان مَنْطق الطير وتكلَّم بها مع الهدهد ؟ وهكذا علَمنا كيف يتعلَّم الإنسان لغات متعددةً ؛ فحين يذهب إنسان إلى مجتمع آخر ويبقى به مُدَّة ؛ فهو يتعلم لغة ذلك المجتمع ، ويمكن للإنسان أن يتعلم أكثر من لغة .

وقد عرض الحق سبحانه مسألة وجود لغات للكائنات فى قصة النملة وقصة الهدهد مع سليمان ؛ وهما من المرتَّبة التالية للبشر ، ويعرض الحق سبحانه أيضاً قضية وجود لغة لكل كائن من مخلوقاته فى قوله :

﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ (٧٩)﴾ [الأنبياء]

وكأن الجبال تفهم تسبيح داود وتُردِّده من خَلْفه .

أيضاً يقول الحق سبحانه :

﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ (١٨) وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ(١) (١٩)﴾ [ص]

وكذلك يخاطب الله الأرض والسماء ، فيقول :

﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ..(١١)﴾ [فصلت]

فيمتثلان لأمره :

﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١)﴾ [فصلت]

---

(١) الأوّاب : المسبح . أوبى معه : سبِّحى معه ورجِّعى التسبيح . والأوّاب : صيغة مبالغة أى كثير الرجوع إلى الله تعالى . [لسان العرب ـ مادة : أوب ، والقاموس القويم ١/٤٢] .

وهكذا نعلم أن لكل جنس لغةً يتفاهم بها ، ونحن نلحظ أن لكل نوع من الحيوانات صَوْتاً يختلف من نوع إلى آخر ، ويدرس العلماء الآن لُغةَ الأسماك ، ويحاولون أنْ يضعوا لها مُعْجماً .

إذن : فساعة تسمع :

﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَـٰوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ .. (٤٤) ﴾ [الإسراء]

فافهم أن ما من كائن إلا وله لغة ، وهو يُسبِّح بها الخالق الأكرم[١] .

ثم يقول تعالى :

﴿ وَلَـٰكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. (٤٤) ﴾ [الإسراء]

مثلما لا يفقه جاهل بالإنجليزية لغة الإنجليز .

وقال البعض : إن المُرَاد هنا هو تسبيح الدلالة[٢] على الخالق ؛ وقد حكم سبحانه بأننا لا نستطيع فَهْم تسبيح الدلالة .

ولكنى أقول : إن العلم المعاصر قد توصَّل إلى دراسة لغات الكائنات وأثبتها ؛ وعلى ذلك يكون التسبيح من الكائنات بالنُّطْق والتفاهم بين مُتكلِّم وسامع ، بل ولتلك الكائنات عواطف أيضاً .

---

(١) عن أنس رضى الله عنه قال : « دخل رسول الله ﷺ على قوم وهم وقوف على دواب لهم ورواحل فقال لهم : « اركبوها سالمة ، ودعوها سالمة ، ولا تتخذوها كراسى لأحاديثكم فى الطرق والأسواق فرُبَّ مركوبة خير من راكبها وأكثر ذكراً لله منه » أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٣/٤٣٩ ، ٤٤٠) وابن حبان (٢٠٠٢ ـ موارد الظمآن) .

(٢) وكما تطلق الدلالة على تسبيح الخالق ، فأنت عندما ترى نعمة إبداعية تسبح الله فى حين أن كل مخلوق يسبح بلغته الخاصة التى لا نستطيع فقهها ، فيجتمع تسبيحان الرائى لإبداع الخالق وتسبيح المرئى بلغته [لسان اللسان مادة دل ص ٤١٧ جـ ١] .

ونحن نرى العلماء فى عصرنا يدرسون عواطف الشجر تجاه مَنْ يسقيه من البشر ، وهناك تجربة تتحدث عن قياس العلماء لذبذبة النبات أثناء رَيِّه بواسطة مُزارِع مسئول عنه ؛ ثم مات الرجل ؛ فقاسوا ذبذبة تلك النباتات ؛ فوجدوها ذبذبة مضطربة ؛ وكأن تلك النباتات قد حزنتْ على مَنْ كان يعتنى بها ؛ وهكذا توصَّل العلماء إلى معرفة أن النباتات لها عواطف .

وقد بيَّن لنا الحق سبحانه أن الجمادات لها أيضاً عواطف ؛ بدليل قوله عن قوم فرعون :

﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ ..(٢٩) ﴾ [الدخان]

فالسماء والأرض قد استراحتا لذهاب هؤلاء الأشرار عن الأرض ، فالسماوات والأرض ملتزمتان مع الكون التزاماً لا تخرج به عن مُرادات الله ، وحين يأتى كافر ليصنع بكفره نشازاً مع الكون ؛ فهى تفرح عند اختفائه ولا تحزن عليه .

وما دامت السماء والأرض لا تبكيان على الكافر عند رحيله ؛ فلابد أنهما تفرحان عند هذا الرحيل ؛ ولا بُدَّ أنهما تبكيان عند رحيل المؤمن[1] .

ولذلك نجد قَوْل الإمام على كرم الله وجهه : إذا مات ابن آدم بكى عليه موضعان ؛ موضع فى السماء ، وموضع فى الأرض ؛ وأما

---

(١) أورد ابن كثير فى تفسيره (١٤٢/٤) قول مجاهد فى تفسير آية الدخان ٢٩ : « ما مات مؤمن إلا بكت عليه السماء والأرض أربعين صباحاً . قال : فقلت له : أتبكى الأرض ؟ فقال : أتعجب ؟ وما للأرض لا تبكى على عبد كان يعمرها بالركوع والسجود ؟ وما للسماء لا تبكى على عبد كان لتكبيره وتسبيحه فيها دوىّ كدوىّ النحل » .

موضعه فى الأرض فَموضِع مُصَلاَّه ؛ وأما موضعه فى السماء فَمصَعدُ عمله »[١] .

وهكذا نجد أن معنى قول الحق سبحانه :

﴿ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ ..(١٣) ﴾ [الرعد]

أى : يُنزِّه الرعد ويُمجِّد اسم الحق ـ تبارك وتعالى ـ تسبيحاً مصحوباً بالحمد .

ونحن حين نُنزِّه ذات الله عن أن تكون مثل بقية الذوات ، وحين ننزه فعْل الله عن أن يكون كأفعال غيره سبحانه ، وحين ننزه صفات الله عن أنَ تكون كالصفات ، فلا بد أن يكون ذلك مصحوباً بالحمد له سبحانه ؛ لأنه مُنزَّه عن كل تلك الأغيار ، وعلينا أنْ نُسَرَّ من أنه مُنزَّه.

ويقول تعالى :

﴿ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ ..(١٣) ﴾ [الرعد]

ولقائل أنْ يتساءل : كيف تخاف الملائكة من الله ؟ وهم الذين قال فيهم الحق سبحانه :

﴿ لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٦) ﴾ [التحريم]

وأقول : إن الملائكة يخافون الله خيفة المَهابة ، وخيفة الجلال . ونحن نرى فى حياتنا مَنْ يحب رئيسه أَو قائده ؛ فيكون خوفه مَهَابة ؛ فما بالنا بالحق سبحانه وتعالى الذى تُحبه ملائكته وتَهاب جلاله وكماله ، صحيح أن الملائكة مقهورون ، لكنهم يخافون ربَّهم من فوقهم.

وساعة تسمع الملائكةُ الرعدَ فهم لا يخافون على أنفسهم ؛

---

(١) أورده ابن كثير فى تفسيره (١٤٢/٤) وعزاه لعلى بن أبى طالب رضى الله عنه ، وأورد أيضاً نحوه عن ابن عباس .

ولكنهم يخافون على الناس ؛ لأنهم حفظة عليهم ؛ فالملائكة تعى مهمتها كحفظة على البشر ؛ وتخشى أن يربكهم أىُّ أمر ؛ وهم يستغفرون لِمَنْ فى الأرض[1] .

إذن : فقوله :

﴿ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ .. (١٣) ﴾ [الرعد]

يُبيِّن لنا أن الملائكة تخاف على البشر من الرعد ؛ فَهُمْ مُكلَّفون بحمايتهم ، مع خوفهم من الله مهابة وإجلالاً .

ويقول رسول الله ﷺ فى الحديث الشريف :

« ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملَكان ينزلان فيقول أحدهما : اللهم أعْطِ مُنْفِقاً خَلَفاً . ويقول الآخر : اللهم أَعْطِ مُمْسِكاً تَلَفاً »[2] .

وقد يظُنُّ ظَانٌّ أن هذه دعوة ضد المُمْسك ؛ ولكنى أقول : لماذا لا تأخذها على أنها دعوة خَيْر ؟ فالمُنفق قد أخذ ثواباً على ما أدَّى من حسنات ؛ أما المُمْسك فحين يبتليه الله بتلفِ بعضٍ من ماله ؛ ويصبر على ذلك ؛ فهو يأخذ جزاء الصبر .

ويتابع سبحانه فى نفس الآية :

﴿ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِى اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ (١٣) ﴾ [الرعد]

---

(١) يقول تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (٧) ﴾ [غافر] .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٠١٠) ، وقال النووى فى شرحه : « قال العلماء : هذا فى الإنفاق فى الطاعات ومكارم الأخلاق وعلى العيال والضيفان والصدقات ونحو ذلك ، بحيث لا يُذَم ولا يسمى سرفاً . والإمساك المذموم هو الإمساك عن هذا » .

ولا بُدَّ من وجود حَدَث أليم فى الكون لينتبه هؤلاء الناس من غفلتهم ؛ وها هو ذا رسول الله ﷺ ؛ وقد جاءه اثنان من المعاندين الكبار أربد بن ربيعة ؛ أخو لبيد بن ربيعة ، وعامر بن الطُّفَيْل ؛ ليُجادلاه بهدف التلكُّؤ والبحث عن هَفْوة فيما يقوله أو عَجْزٍ فى معرفته ، والمثل ما قاله مجادلون مثلهم ، وأورده القرآن الكريم :

﴿ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٨٢) ﴾ [المؤمنون]

وكذلك استعجال بعض من المجادلين للعذاب[1] .

وجاء هذان الاثنان وقالا لرسول الله ﷺ : هل ربنا مصنوع من الحديد أم من النحاس ؟ وهما قد قالا ذلك لأنهما من عَبَدة الأصنام المصنوعة من الحجارة ، والأقوى من الحجارة هو الحديد أو النحاس ؛ فدعا رسول الله ﷺ ؛ فنزلت صاعقة ؛ فأحرقتهما[2] .

وإرسال الصواعق هنا آية قرآنية ، ولابد وأن تأتى آية كونية تصدقها ؛ وقد حدثتْ تلك الآية الكونية .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ .. (١٣) ﴾ [الرعد]

والجدال فى الله أنواع متعددة ؛ جدال فى ذاته ؛ وجدال فى

---

(١) قال تعالى :﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ (١٦) ﴾ [ص] . وقال أيضاً : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (٥٣) ﴾ [العنكبوت] .

(٢) أورد هذه القصة القرطبى فى تفسيره (٥/٣٦٣١ ، ٣٦٣٢) وعزاها لابن عباس ، وكذا ابن كثير فى تفسيره (٢/٥٠٦) ، وأوردها الواحدى فى أسباب النزول (ص ١٥٦) .

صفاته ، أو جدال فى الحسنة والسيئة ، وقد جادلوا أيضاً فى إنزال آية مادية[١] عليه ؛ لأنهم لم يكتفوا بالقرآن كآية ؛ على الرغم من أن القرآن آية معجزة ومن جنس ما برعوا فيه ، وهو اللغة .

وقد جادلوا أيضاً فى الرعد ؛ وقالوا : إن الرعد ليس له عَقْل ليُسبح ؛ والملائكة لا تكليفَ لها ؛ فكيف تُسبِّح ؟

ولكن الحق سبحانه قال : إنه قادر على أن يُرسل الصواعق ويصيب بها مَنْ يشاء ؛ فيأتى بالخير لمَنْ يشاء ؛ ويصيبَ بالضر مَنْ يشاء . فهل هُمْ يملكون كل الوقت لهذا الجدل ؛ بعد أن خلق الحق كل هذا الكون ؟

هل لديكم الوقت لكل تلك المُمَاراة بقصد الجَدَل والعناد المذموم ؟

فالجدل فى حَدِّ ذاته قد يَحْسُن استخدامه وقد يُسَاء استخدامه ؛ والحق سبحانه قال لنا :

﴿ وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ .. (٤٦) ﴾ [العنكبوت]

وقال أيضاً :

﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِى تُجَادِلُكَ فِى زَوْجِهَا[٢] وَتَشْتَكِى إِلَى اللَّهِ .. (١) ﴾ [المجادلة]

---

(١) قال تعالى عنهم : ﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ .. (٩٣) ﴾ [الإسراء] .

(٢) نزلت هذه السورة سورة المجادلة فى شأن خولة بنت ثعلبة وكانت تشتكى زوجها أوس ابن الصامت أنها قالت لرسول الله ﷺ : « يا رسول الله ، أبلى شبابى ونثرت له بطنى ، حتى إذا كبر سنى وانقطع ولدى ظاهر منى » أى قال لها : أنت حرام علىَّ كظهر أمى . [انظر : أسباب النزول للواحدى ص ٢٣١ ، ٢٣٢] .

وهذا جَدَلٌ المراد منه الوصول إلى الحق .

ويُذيِّل الله آية سورة الرعد بقوله :

﴿ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ (١٣) ﴾ [الرعد]

ويقال : « محل فلان بفلان » أى : كَادَ له كيداً خفياً ومكر به ، والمحَال هو الكَيْد والتدبير الخفىّ ، ومَنْ يلجأون إليه من البشر هُم الضُّعاف الذين يعجزون عن مواجهة الخَصْم علانية ، فيُبيِّتون له بإخفاء وسائل الإيلام .

وهذا يحدث بين البشر وبعضهم البعض ؛ لأن البشر لا يعلمون الغيب ؛ لكن حين يكيد الله ؛ فلا أحدَ بقادر على كَيْده ، وهو القائل سبحانه :

﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (١٥) وَأَكِيدُ كَيْدًا (١٦) فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا (١٧) ﴾ [الطارق]

لأن كيد الله لا غالب له ؛ وهو كَيْد غير مفضوح لأحد ، ولذلك قال تعالى :

﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٣٠) ﴾ [الأنفال]

هُمْ أرادوا أن يُبيِّتوا لرسوله ﷺ ؛ وأرادوا قَتْله ؛ وجاءوا بشاب من كل قبيلة ليمسك سيفاً كى يتوزع دَمُه بين القبائل ، وترصدوا له المرصاد ؛ ولكن رسول الله ﷺ كانت تصاحبه العناية فخرج عليهم ملهماً قوله تعالى :

﴿ فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ (٩) ﴾ [يس]

وبذلك أوضح لهم أنهم لن يستطيعوا دَفْع دعوة الإسلام ؛

لا مُجَابهة ومُجَاهرة ؛ ولا كَيْداً وتبييتاً ؛ حتى ولو استعنتُم بالجنِّ ؛ فالإنسان قد يمكر ويواجه ، وحين يفشل قد يحاول الاستعانة بقوة من جنس آخر له سلطان كسلطان الجن ، وحتى ذلك لم يفلح معه ﷺ ؛ فقد حاولوا بالسحر ؛ فكشف الله له بالرؤيا موقع وَضْع السحر[1] .

وذهب بعض من صحابته ليستخرجوا السِّحر من الموقع الذى حدده رسول الله لهم .

وهكذا أوضح لهم الحق سبحانه أن كل ما يفعلونه لن يَحِيق برسوله ﷺ ؛ فسبحانه :

﴿ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ .. (٢١) ﴾ [يوسف]

وهكذا كان الحق سبحانه وما زال وسيظل إلى أنْ يرِث الأرضَ ومَنْ عليها ، وهو شديد المحال .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ (١٤) ﴾

وسبحانه قد دعانا إلى أنْ نؤمن بإله واحد وهى دعوة حق ،

---

(١) عن عائشة رضى الله عنها قالت : « سُحر النبى ﷺ حتى كان يخيل إليه أنه يفعل الشىء وما يفعله ، حتى كان ذات يوم دعا ودعا ثم قال : أشعرت أن الله أفتانى فيما فيه شفائى ؟ أتانى رجلان فقعد أحدهما عند رأسى والآخر عند رجلىّ ، فقال أحدهما للآخر : ما وجع الرجل ؟ فقال : مطبوب (أى : مسحور) قال : ومن طبَّه ؟ قال : لبيد بن الأعصم . قال : فيما ذا ؟ قال : فى مشط ومشاقة وجُفِّ طَلْعة ذكر . قال : فأين هو ؟ قال : فى بئر ذروان » أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٢٦٨) .

والذين من دونه يدعون لإله غير حق . والضمير هنا قد يعود إلى الله ؛ فكأن الله قد دعا خَلْقه إلى كلمة الحق وهى « لا إله إلا الله » ، وهو سبحانه قد شهد بأنه لا إله إلا هو ؛ وشهدتْ الملائكة شهادةَ المشْهد ، وشَهِد بها أولو العلم شهادة الاستدلال[1] ؛ تلك هى دعوة الحق .

أو « له » أى : للإنسان الذى يدعو إلى الحق ، وحين يدعو الإنسان فهذا يدلُّ على أن أمراً قد خرج عن نطاق أسبابه ؛ لذلك يدعو مَنْ يعينه على هذا الأمر .

والدعاء لَوْنٌ من الطلب ، إلا أن الطلب يختلف باختلاف الطالب والمطلوب منه ؛ فإنْ كان الطالبُ أدنى من المطلوب منه لا يُقال له فعل أمر ؛ كقولك « اغفر لى يا رب» وهذا لا يقال له فعل أمر ؛ بل يقال له دعاء.

وهكذا نرى أنه إن كان فعل الأمر من الأدنى للأعلى ؛ لا نسميه فعْل أمر بل نسميه دعاءً ، والطالب الذكىّ هو مَنْ يلحظ أثناء الإعراب إنْ كان المطلوب هو من الأدْنى إلى الأعلى ؛ فهو لا يقول « فعْل أمر » بل يقول « فعل دعاء » مثل قول العبد لله : يا رب اغفر لى ، وإنْ كان المطلوب من مُساوٍ ؛ فهو يقول « التماس » . وإنْ كان المطلوب قد صدر من الأعلى للأدنى فهو « فعل أمر » .

وحين يدعو الإنسان ربه ؛ فهذا يعنى أن أسبابَ العبد قد نفدتْ ؛ وهو يلجأ إلى مَنْ يعلو الكون ويملك كل الأسباب ، ولذلك فكُلٌّ منّا يدعو الله ؛ لأنه سبحانه القادر على إنفاذ مطلوب العباد ؛ ولا يُعْجِزه شىء .

ولكنْ إنْ دعوتَ مَنْ لا يستطيع ؛ فهذه دعوةٌ لا تنفع العبد ، وهم

---

(١) قال تعالى : ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾ [آل عمران] .

كانوا يدعُونَ الأصنام ؛ والأصنام لا تضرُّ ولا تنفع ؛ فالصنم مِنْ هؤلاء لا يقدر على نفسه أو لنفسه ؛ فقد كان من الحجر .

وبطبيعة الحال فالدعاء لمثل تلك الأصنام لا تحقق شيئاً ؛ لأنها لا تقدر على أيِّ شيء .

وهكذا يتأكد لنا أن دعوة الحقِّ هى أنْ تدعوَ القادر ؛ أما الذين يدعون المعبودات الباطلة فإنها تخيب من يدعوها فى مقصده ، ولذلك يقول الحق سبحانه هنا :

﴿ لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ .. (١٤) ﴾ [الرعد]

لأنهم لا يملكون شيئاً فالصنم من هؤلاء لا يسمع فكيف يستجيب؟

ثم يضرب الحق سبحانه المَثَل بشيء مُحَسٍّ ؛ نفعله كلنا ؛ فيقول :

﴿ لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلاَّ كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ .. (١٤) ﴾ [الرعد]

فالعطشان ما أنْ يرى ماءً حتى يَمُدَّ يده إليه ليغترف منه ؛ لكن يده لا تصل إلى الماء ؛ هذا هو حال مَنْ يدعو غير الله ؛ فقد سأل غير القادر على إنفاذ مطلبه ، وهكذا يكون دعاء غير الله ؛ وهو دعاء فى ضلال وفى غير متاهة .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ (١) (١٥) ﴾

---

(١) الأصيل : الوقت حين تصفرُّ الشمس بعد العصر إلى المغرب ، وقد يراد به العشى . والجمع : أصُل . وجمع الجمع : آصال . قال تعالى : ﴿ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (٤٢) ﴾ [الأحزاب] . وقال تعالى : ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ (٣٦) ﴾ [النور] [القاموس القويم ٢١/١] .

والسجود كما نعرفه حركة من حركات الصلاة ، والصلاة هى وَقْفة العبد بين يدى ربه بعد ندائه له ، والصلاة أقوال وأفعال مُبْتدأة بالتكبير ومُخْتتمة بالسلام[1] ؛ بفرائض وسنن ومستحبات مخصوصة .

والسجود هو الحركة التى تُبرز كاملَ الخضوع لله ؛ فالسجود وَضْع لأعلى ما فى الإنسان فى مُسْتوى الأدنى وهو قَدَم الإنسان ؛ ونجد العامة وهُمْ يقولون : « لا ترفع رأسك علىَّ » أى : لا تتعالى علىّ ، لأن رَفْع الرأس معناه التعالى ، وتخفيضها بالركوع أو السجود هو إظهارٌ للخضوع ، فإذا قال الله :

﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. (١٥) ﴾ [الرعد]

عليك أن تفهم أن هذا ما يحدث فعلاً ؛ وإنْ لم يتسع ذهْنك إلى فَهْم السجود كما يحدث منك ؛ فليتسع ظنُّك على أنه مُنْتهى الخضوع والذِّلة لله الآمر .

وأنت تعلم أن الكون كله مُسخَّر بأمر الله ولأمر الله ، والكون خاضع له سبحانه ؛ فإن استجاب الإنسان لأمر الله بالإيمان به فهذا خير . وإنْ لم يستجب الإنسان ـ مثلما يفعل الكافر ـ فعليه سُوء عمله .

ولو استقصيتَ المسألة بدقَّة الفَهْم ؛ لوجدتَ أن الكافر إنما يتمرد بإرادته المُسَيطرة على جوارحه ؛ لكن بقية أبعاضه مُسخّرة ؛ وكلها تؤدى عملها بتسخير الله لها ، وكلها تُنفِّذ الأوامر الصادرة من الله لها ؛ وهكذا يكون الكافر مُتمرداً ببعضه ومُسخَّراً ببعضه الآخر ، فحين يُمرِضه الله ؛ أيستطيع أنْ يعصى ؟

---

(١) عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « مفتاح الصلاة الطهور ، وتحريمها التكبير ، وتحليلها التسليم » أخرجه أحمد فى مسنده (١/١٢٣ ، ١٢٩)، والدارمى فى سننه (١/١٧٥) والترمذى فى سننه (١/٨) وقال : « هذا الحديث أصح شىء فى هذا وأحسن » .

طبعاً لا . وحين يشاء الله أن يُوقِف قلبه أيقدر أن يجعل قلبه يخالف مشيئة الله ؟ طبعاً لا .

إذن : فالذى يتعوّد على التمرد على الله فى العبادة ؛ وله دُرْبة على هذا التمرد ؛ عليه أن يُجرِّب التمرد على مرادات الله فيما لا اختيار له فيه ؛ وسيقابل العجز عن ذلك .

وعليه أنْ يعرف أنه لم يتمرد بالكفر إلا بما أوسع الله له من اختيار ؛ بدليل أن تسعة وتسعين بالمائة من قُدراته محكوم بالقهر ؛ وواحد بالمائة من قدراته متروك للاختيار ، وهكذا يتأكد التسخير .

وخضوع الكافر فى أغلب الأحيان ؛ وتمرّده فى البعض الآخر ؛ هو مُنْتهى العظمة لله ؛ فهو لا يجرؤ على التمرد بما أراده الله مُسخَّراً منه .

ولقائل أن يقول : ولماذا قال الله هنا :

﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ ..(١٥) ﴾ [الرعد]

ولم يقُلْ : « ما فى السماوات وما فى الأرض » ؟

وأقول : ما دام فى الأمر هنا سجود ؛ فهو دليل على قمّة العقل ؛ وسبحانه قد جعل السجود هنا دليلاً على أنّ كافة الكائنات تعقل حقيقة الألوهية ؛ وتعبد الحق سبحانه .

وهو هنا يقول :

﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ..(١٥) ﴾[الرعد]

وهنا يُعلمنا الحق سبحانه أن كل الكائنات ترضخ لله سجوداً ؛ سواء المُسخَّر ؛ أو حتى أبعاض الكافر التى يستخدمها بإرادته فى الكفر بالله ؛ هذه الأبعاض تسجد لله .

ويتابع الحق سبحانه :

﴿ وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ (١٥) ﴾ [الرعد]

ونحن فى حياتنا اليومية نسمع مَنْ يقول : « فلان يَتْبع فلاناً كَظله » ؛ أى : لا يتأبّى عليه أبداً مطلقاً ، ويلازمه كأنه الظل ؛ ونعلم أن ظلَّ الإنسان تابعٌ لحركته .

وهكذا نعلم أن الظِّلال نفسها خاضعة لله ؛ لأن أصحابها خاضعون لله ؛ فالظل يتبع حركتك ؛ وإياك أنْ تظنَّ أنه خاضع لك ؛ بل هو خاضع لله سبحانه .

وسبحانه هنا يُحدِّد تلك المسألة بالغُدوِّ والآصال ؛ و « الغدو » جمع « غداة » وهو أول النهار ، والآصال هو المسافة الزمنية بين العصر والمغرب .

وأنت حين تقيس ظلَّك فى الصباح ستجد الظِّل طويلاً ، وكلما اقتربت من الشمس طال الظل ، وكلما اقترب الزوال يقصُر الظلُّ إلى أنْ يتلاشى ؛ وأبرز ما يتمايل الظل بتمايل صاحبه هو فى الصبح وبعد العصر .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ ۚ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿١٦﴾ ﴾

و « قل » هى أمْر للرسول أنْ يقول للكافرين ، وهناك فى آيات أخرى يقول سبحانه :

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ[1] ﴿٨٧﴾ ﴾ [الزخرف]

---

(١) أفك يأفك : كذب وافترى باطلاً . والإفك : الكذب . وأفَّاك : كثير الكذب صيغة مبالغة [القاموس القويم ١/ ٢٢] .

ولقائل أن يسأل : لماذا جاء الحق سبحانه هنا بالإجابة ؛ ولم يتركْها لتأتى منهم ؟

ونقول : إن مجىء الإجابة من الحق هنا عن الذى خلق السماوات والأرض أقوى مِمَّا لو جاءت الإجابة منهم .

والمثل من حياتنا ؛ ولله المَثَل الأعلى ؛ قد تقول لابنك الصغير المُتَشاحِن مع أخيه الكبير : مَن الذى جاء لك بالحُلَّة الجديدة ؟ فيرتبك خجلاً ؛ لأنه يعلم أن مَنْ جاء له بالحُلَّة الجديدة هو أخوه الأكبر الذى تشاحن معه ؛ فتقول أنت : جاء لك بها أخوك الأكبر الذى تشاحنتَ معه .

وهنا لحظة أن يقول رسول الله ﷺ لهم ما أمره الله أن يقول :

﴿ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ ..(١٦) ﴾ [الرعد]

فسوف يرتبكون ؛ فيؤكد لهم بعد ذلك ما أمره الله أن يقول :

﴿ قُلِ اللَّهُ ..(١٦) ﴾ [الرعد]

ويتتابع أمر الله لرسوله ﷺ ، فيقول له الحق سبحانه :

﴿ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لا يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلا ضَرًّا..(١٦) ﴾ [الرعد]

وهكذا يكشف لهم الرسول ببلاغ الحق سبحانه مدى جهلهم ؛ وهم مَنْ سبق لهم الاعتراف بأن الله هو خالق السماوات والأرض ؛ ولم يجرؤ واحد منهم على أن ينسب خَلْق السماوات والأرض للأصنام .

وهنا يوضح لهم الرسول ﷺ ما أمر الحقُّ سبحانه بإيضاحه : لقد خلق الله السماوات والأرض أفبعد ذلك تتخذون من

دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعاً ؛ ولا ضراً ؟ بدليل أن الصنم من هؤلاء لا يقدر لهم على شيء .

ويتابع الحق سبحانه :

﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ (١٦) ﴾ [الرعد]

وبطبيعة الحال لا يمكن أن يستوى الأعمى بالمبصر .

وساعةَ ترى « أَمْ » اعلم أنها ضَرْب انتقالى ، وهكذا يستنكر الحق ما فعلوه بالاستفهام عنه ؛ لأنه شيء مُنْكر فعلاً :

﴿ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ..(١٦) ﴾ [الرعد]

أى : لو كان هؤلاء الشركاء قد خلقوا شيئاً مثل خَلْق الله ؛ لكَان لهم أنْ يعقدوا مقارنة بين خَلْق الله وخَلْق هؤلاء الشركاء ؛ ولكن هؤلاء الشركاء الذين جعلوهم مشاركين لله فى الألوهية لا يَقْدرون على خَلْق شيء ؛ فكيف يختارونهم شركاء لله ؟

ويأتى الأمر من الحق سبحانه :

﴿ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (١٦) ﴾ [الرعد]

وفى آية أخرى يُقدِّم الحق سبحانه تفسيراً لتلك الآية :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ .. (٧٣) ﴾ [الحج]

فهؤلاء الشركاء لم يخلقوا شيئاً ، ولن يستطيع أحدٌ الادعاء بأن هؤلاء الشركاء عندهم نية الخَلْق ، ولكن مجيء « لن » هنا يُؤكد أنهم حتى بتنبيههم لتلك المسألة ؛ فلَسوف يعجزون عنها ؛

لأن نَفْى المستقبل يستدعى التحدِّى ؛ رغم أنهم آلهة متعددة ؛ ولو اجتمعوا فلن يخلقوا شيئاً .

يستمر التحدى فى قوله سبحانه :

﴿ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣) ﴾ [الحج]

أى : لو أخذ الذباب بساقه الرفيعة شيئاً ممَّا يملكون لَمَا استطاعوا أن يستخلصوه منه .

وهكذا يتضح أن الحق سبحانه وحده هو الخالق لكُلِّ شىء ؛ وتلزم عبادته وحده لا شريكَ له ؛ وهو جلَّ وعَلا المتفرِّد بالربوبية والألوهية ؛ وهو القهار المتكبر ؛ والغالب على أمره أبداً ، فكيف يكون مَنْ دونه مساوياً له ؟ لذلك لا شريك له أبداً .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا (١) وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً (٢) وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ (١٧) ﴾

---

(١) زبد الماء : ما يعلوه عند جَيَشانه واضطرابه من الرغوة وحطام الأشياء . [القاموس القويم ١/٢٨٣] .

(٢) الجفاء : الزَّبَد . مثل الزبد الذى ترمى به القِدْر عند الغليان . وجفأ الوادى غثاءه : رمى بالزبد والقذى . [لسان العرب ـ مادة : جفأ] .

وهو سبحانه يُنزل الماء من جهة العُلو وهو السماء ، ونعلم أن الماء يتبخَّر من البحار والأنهار والأرض التى تتفجّر فيها العيون ليتجمع كسحاب ؛ ثم يتراكم السحاب بعضُه على بعض ؛ ويمرُّ بمنطقة باردة فيتساقط المطر .

يقول الحق سبحانه :

﴿ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا .. (١٧) ﴾ [الرعد]

والوادى هو المُنْخفض بين الجبلين ؛ وساعةَ ينزل المطر على الجبال فهو يسيل على الأودية ؛ وكل وَادٍ يستوعب من المياه على اتساعه .

ولنا أن نلحظ أن حكمة الله شاءتْ ذلك كَيْلا يتحول الماء إلى طوفان ، فلو زاد الماء فى تلك الأودية لَغرقتْ نتيجة ذلك القرى ، ولَخربت الزراعات ، وتهدمتْ البيوت .

والمَثَل على ذلك هو فيضان النيل حين كان يأتى مناسباً فى الكمية لحجم المَجْرى ؛ وكان مثل هذا القَدْر من الفيضان هو الذى يُسعد أهل مصر ؛ أما إذا زاد فهو يُمثِّل خطراً يَدْهَم القرى ويخربها .

وهكذا نجد أن من رحمة الحق سبحانه أن الماء يسيل من السماء مطراً على قَدْر اتساع الأودية ؛ اللهم إلا إذا شاء غير ذلك .

والحق سبحانه هنا يريد أنْ يضرب مثلاً على ما ينفع الناس ؛ لذلك جاء بجزئية نزول الماء على قَدْر اتساع الأودية .

ومَنْ رأى مشهد نزول المطر على هذا القَدْر يمكنه أنْ يلحظ أن نزول السَّيْل إنما يكنس كل القَشِّ والقاذورات ؛ فتصنع تلك الزوائد

رَغْـوةً على سطح المـاء الذى يجرى فى النهـر ، ثم يندفع المـاء إلى المَجْرى ؛ لِيُزيح تلك الرَّغاوى جانباً ؛ ليسير الماء من بعد ذلك صَافياً رَقْراقاً .

﴿ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا[1] .. (١٧) ﴾ [الرعد]

وهذا المَثَل يدركـه أهل البادية ؛ لأنهـا صحراء وجـبال ووديان ؛ فماذا عن مَثَلٍ يناسب أهل الحضر ؟

ويأتى الحق سبحانه بهذا المثل المناسب لهم ؛ فيقول :

﴿ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ .. (١٧) ﴾ [الرعد]

وأنت حـين تذهب إلى مـوقع عـمل الـحداد أو صـائغ الذهب والفضة ؛ تجده يُوقد النار ليتحول المعدن إلى سائل مَصْهور ؛ ويطفو فوق هذا السـائل الزَّبَد وهو الأشياء التى دخلت إلى المعـدن ، وليست منه فى الأصل ؛ ويبقى المعدن صافياً من بعد ذلك .

والصَّائغ يضع الذهب فى النار لِيُخلِّصه من الشوائب ؛ ثم يضيف إليه من المواد ما يُقوِّى صـلابته ؛ أو ينقله من حالة النقاء إلى درجة أقل نقاءً ، وحـالة النقاء فى الذهب هى ما نطلق عليـه « عيار ٢٤ » ، والأقل درجة هو الذهب من « عيار ٢١ » ، والأقل من ذلك هو الذهب من « عيار ١٨ » .

---

(١) ربا الشىء يربو : زاد ونما . قال تعالى : ﴿ وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ .. (٣٩) ﴾ [الروم] .

والذهب الخالص النقاء يكون ليِّناً ؛ لذلك يُضيفون إليه ما يزيد من صلابته ، ويصنع الصائغ من هذا الذهب الحُلى .

وهذا هو المَثَلُ المناسب لأهل الحضر ؛ حين يصنعون الحلى ، وهم أيضاً يصنعون أدوات أخرى يستعملونها ويستعملها مثلهم أهل البادية كالسيوف مثلاً ، وهى لا بُدَّ وأن تكون من الحديد الصُّلْب ؛ ذلك أن كل أداة تصنع منه لها ما يناسبها من الصَّلابة ؛ فإنْ أراد الحدَّاد أن يصنع سيفاً فلا بد أنْ يختار له من الحديد نوعيةً تتناسب مع وظائف السيف .

والزَّبَد فى الماء النازل من السماء إنما يأتى إليه نتيجة مرور المطر أثناء نزوله على سطح الجبال ؛ فضلاً عن غسيل مَجْرى النهر الذى ينزل فيه ؛ وعادة ما يتراكم هذا الزَّبَد على الحَوافّ ؛ ليبقى الماء صافياً من بعد ذلك .

وحين تنظر إلى النيل ـ مثلاً ـ فأنت تجد الشوائب ، وقد ترسبتْ على جانبى النهر وحَوافّه ، وكذلك حين تنظر إلى مياه البحر ؛ فأنت تجد ما تلقيه المركب ، وهو طافٍ فوق الأمواج ؛ لِتُلقيه الأمواج على الشاطىء .

وهكذا ضرب الله المَثَل لأهل البدو ولأهل الحضر بما يفيدهم فى حياتهم ؛ سواء حلية يلبسونها ، أو أداة يقاتلون بها ، أو أداة أخرى يستخدمونها فى أَوْجُه أعمالهم الحياتية ؛ وهم فى كل ذلك يلجئون إلى تصفية المعادن التى يصنعون منها تلك الحلى أو الأدوات الحياتية ليستخلصوا المعادن من الخَبَث أو الزَّبَد .

وكذلك يفعل الحق سبحانه :

﴿ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ .. (١٧) ﴾ [الرعد]

وحين يضرب الله الحقَّ والباطل ؛ فهو يستخلص ما يفيد الناس ؛ ويُذهب ما يضرُّهم ، وقوله :

﴿ فَيَذْهَبُ جُفَاءً .. (١٧) ﴾ [الرعد]

أى : يبعده ؛ فـ « جُفَاء » يعنى « مَطْروداً » ؛ من الجَفْوة ؛ ويُقال : « فلان جفَا فلاناً » أى : أبعده عنه .

ويُذيِّل الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله :

﴿ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ (١٧) ﴾ [الرعد]

وشاء سبحانه أن يُبيِّن لنا بالأمور الحسِّية ؛ ما يساوى الأمور المعنوية ؛ كى يعلمَ الإنسانُ أن الظُّلْمَ حين يستشرى ويَعْلو ويَطْمِس الحق ، فهو إلى زَوَال ؛ مثله مثل الزَّبَد .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ ۚ أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٨) ﴾

---

(١) افتدى : قدَّم الفدية عن نفسه ليخلصها من الأسْر . وافتدى الأسير : فداه وأنقذه . قال تعالى : ﴿ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ .. (١٨) ﴾ [الرعد] . [القاموس القويم ٢/٧٤] .

(٢) المهاد : الفراش ، وأصل المهد التوثير . يقال : مهدت لنفسى ومهدت أى جعلت لها مكاناً وطيئاً سهلاً . [لسان العرب ـ مادة : مهد] .

والذين يستجيبون للرب الذى خلق من عَدَم ، وأوجد لهم مُقوِّمات الحياة واستبقاء النوع بالزواج والتكاثر ؛ فإذا دعاهم لشىء فليعلموا أن ما يطلبه منهم مُتمِّم لصالحهم ؛ الذى بدأه بإيجاد كل شىء لهم من البداية .

وهؤلاء الذين يستجيبون لهم الحُسْنى ؛ فسبحانه جعل الدنيا مزرعة للآخرة ، وأنت فى الدنيا مَوْكُول لقدرتك على الأَخْذ بالأسباب ؛ ولكنك فى الآخرة مَوْكُول إلى المُسبِّب .

ففى الدنيا أنت تبذُر وتحرُث وتروى وتحصد ، وقد تختلف حياتك شَظفاً[1] وتَرفاً بقدرتك على الأسباب .

فإذا استجبْتَ لله واتبعتَ منهجه ؛ فأنت تنتقل إلى حياة أخرى ؛ تحيا فيها مع المسبب ؛ لا الأسباب ؛ فإذا خطر ببالك الشىء تَجِدْهُ أمامك ؛ لأنك فى الحياة الأخرى لا يكلك الله إلى الأسباب ، بل أنت مَوْكُول لذات الله ، والموكول إلى الذَّاتِ بَاقٍ ببقاء الذات .

ولذلك نجد الحق سبحانه يقول :

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ .. (١٧٥) ﴾ [النساء]

وبعض المُفسِّرين يقولون « إنها الجنة » وأقول : هذا تفسير مقبول ؛ لأن الجنة من رحمة الله ؛ ولكن الجنة باقية بإبقاء الله لها ؛ ولكن رحمة الله باقية ببقاء الله .

وهنا يقول الحق سبحانه :

---

(١) الشظف : يُبس العيش وشدته وضيقه . [لسان العرب ـ مادة : شظف] .

﴿ لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ .. (١٨) ﴾ [الرعد]

ويقول تعالى فى آية أخرى :

﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ .. (٢٦) ﴾ [يونس]

والحسنى هى الأمر الأحسن ؛ وسبحانه خلق لك فى الدنيا الأسباب التى تكدح فيها ؛ ولكنك فى الآخرة تحيا بكل ما تتمنى دون كَدْح ، وهذا هو الحسن .

وهَبْ أن الدنيا ارتقتْ ؛ والذين يسافرون إلى الدول المُتقدمة ؛ وينزلون فى الفنادق الفاخرة ؛ يُقال لهم اضغط على هذا الزر تنزل لك القهوة ؛ والزِّر الآخر ينزل لك الشاى .

وكل شىء يمكن أن تحصل عليه فَوْر أن تطلبه من المطعم حيث يُعدُّه لك آخرون ؛ ولكن مهما ارتقتْ الدنيا فلن تصل إلى أنْ يأتى لك ما يمرُّ على خاطرك فَوْر أنْ تتمناه ؛ وهذا لن يحدث إلا فى الآخرة .

وكلمة « الحسنى » مُؤنَّثة وأفعل تفضيل ؛ ويُقَال « حسنة وحُسْنى » ؛ وفى المذكر يُقَال « حسن وأحسن » . والمقابل لمن لم يستجيبوا معروف .

والحق سبحانه يقول هنا :

﴿ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ .. (١٨) ﴾ [الرعد]

أى : يقول خذوا ما أملك كله واعتقونى ، لكن لا يُستجاب له .

ويقول الحق سبحانه :

﴿أُولَـٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٨)﴾ [الرعد]

لأن الحساب يترتب عليه مرة خَيْر ؛ ويترتب عليه مرة أخرى شَرٌّ ؛ وجاء الحق سبحانه بكلمة :

﴿وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٨)﴾ [الرعد]

هنا ؛ لأن الواحد من هؤلاء والعياذ بالله لن يستطيع أن يتصرف لحظة وَضْعه فى النار ، كما لا يستطيع الطفل الوليد أن يتصرف فى مِهَاده ؛ ومن المؤكد أن النار بِئْس المهاد .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ (١٩)﴾ (١)

والمؤمن هو مَنْ يعلم أن القرآن الحامل للمنهج هو الذى أنزله سبحانه على رسوله ؛ ولا يمكن مقارنته بالكافر وهو الموصوف هنا من الحق سبحانه :

﴿كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ (١٩)﴾ [الرعد]

وجاء هنا بـ « علم » و « عمى » ؛ لأن الآيات الدالة على القدرة من المرئيات .

ويقول الحق سبحانه :

---

(١) اللبُّ : العقل وجمعه ألباب . [القاموس القويم ٢/١٨٧] ولُبُّ كل شىء : خالصه وخياره . وهو أيضاً : نفسه وحقيقته . [لسان العرب ـ مادة : لبب] .

﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الأَلْبَابِ (١٩) ﴾ [الرعد]

أى : أصحاب العقول القادرة على التدبُّر والتفكُّر والتمييز .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك عن أولى الألباب :

﴿ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ (٢٠) ﴾

والواحد من أولى الألباب ساعةَ آمن بالله ؛ فهو يعلم أنه قد تعاهد مع الله عهداً بألاَّ يعبد غيره ؛ وألاَّ يخضع لغيره ؛ وألاَّ يتقرَّب لغيره ؛ وألاَّ ينظر أو ينتظر من غيره ؛ وهذا هو العهد الأول الإيمانى .

ويتفرّع من هذا العهد العقدى الأول كُلُّ عهد يُقطع سواء بالنسبة لله ، أو بالنسبة لخَلْق الله ؛ لأن الناشىء من عهد الله مثله مثل عهد الله ؛ فإذا كنتَ قد آمنتَ بالله ؛ فأنت تؤمن بالمنهج الذى أنزله على رسوله ؛ وإذا أوفيتَ بالمنهج ؛ تكون قد أوفيتَ بالعهد الأول .

ولذلك نجد كل التكليفات المهمة البارزة القوية فى حياة المؤمنين نجد الحق سبحانه يأتى بها فى صيغة البناء ؛ فيما يسمى « البناء للمجهول » ؛ مثل قوله :

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ .. (١٨٣) ﴾ [البقرة]

وقوله :

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ[1] فِى الْقَتْلَى .. (١٧٨) ﴾ [البقرة]

---

(١) القصاص : معاقبة الجانى بمثل جنايته . [القاموس القويم ٢/١٢٠] . والقصاص : القَود وهو القتل بالقتل ، أو الجرح بالجرح . وقال الليث : القصاص والتَّقاص : شىء بشىء . [لسان العرب ـ مادة : قصص] .

وقوله :

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ.. (٢١٦) ﴾ [البقرة]

وكُلُّ التكليفات تأتى مَسْبوقة بكلمة « كُتب » والذى كتب هو الله ؛ وسبحانه لم يُكلِّف إلا مَنْ آمن به ؛ فساعةَ إعلان إيمانك بالله ؛ هى ساعة تعاقدك مع الله على أن تُنفِّذ ما يُكلِّفك به .

وأنت حُرٌّ فى أنْ تؤمن أو لا تؤمن ؛ لكنك لحظةَ إيمانك بالله تدخل إلى الالتزام بما يُكلِّفك به ، وتكون قد دخلت فى كتابة التعاقد الإيمانى بينك وبين الله .

ولذلك قال الحق سبحانه « كُتب » ولم يَقُلْ : « كتبْتُ » ؛ لأن العهد بينك وبين الله يقتضى أن تدخل أنت شريكاً فيه ، وهو سبحانه لم يُكلِّف إلا مَنْ آمن به .

وسبحانه هنا يقول :

﴿ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلا يَنقُضُونَ[1] الْمِيثَاقَ (٢٠) ﴾ [الرعد]

أى : أن العهد الإيمانى مُوثَّق بما أخذْتَه على نفسك من التزام .

ويواصل سبحانه وَصْفَ هؤلاء بقوله :

﴿ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ (٢١) ﴾

وأوَّل ما أمر به الله أنْ يُوصَل هو صلة الرَّحم ؛ أى : أن تَصل ما يربطك بهم نَسَبٌ . والمؤمن الحقُّ إذا سَلْسَل الأنساب ؛ فسيدخل

---

(١) النقض : إفساد ما أبرمت من عقد أو بناء . وفى الصحاح : النقض نقض البناء والحبل والعهد [لسان العرب ـ مادة : نقض] .

كُلُّ المؤمنين فى صِلَة الرَّحم ؛ لأن كل المؤمنين رَحِم مُتداخل ؛ فإذا كان لك عَشْرة من المؤمنين تَصلهم بحكم الرَّحم ؛ وكل مؤمن يَصل عشرة مثلك ، انظر إلى تداخل الدوائر وانتظامها ؛ ستجد أن كل المؤمنين يدخلون فيها .

ولذلك نجد الحق سبحانه يقول فى الحديث القدسى :

« أنا الرحمن ؛ خلقت الرَّحم ، واشتققتُ لها اسماً من اسمى ؛ فمَنْ وصلها وَصلْته ؛ ومَنْ قطعها قطعتُه »[1] .

وقد رَوَيْتُ من قَبْل قصةً عن معاوية رضى الله عنه ؛ فقد جاء حاجبه ليعلن له أن رجلاً بالباب يقول : إنه أخوك يا أمير المؤمنين .

ولا بد أن حاجبَ معاوية كان يعلم أن معاوية بن أبى سفيان لا إخوةَ له ، لكنه لم يَشأْ أنْ يتدخَّل فيما يقوله الرجل ؛ وقال معاوية لحاجبه : ألاَ تعرف إخوتى ؟ فقال الحاجب : هكذا يقول الرجل . فأذنَ معاويةُ للرجل بالدخول ؛ وسأله : أى إخوتى أنت ؟ أجاب الرجلَ : أخوك من آدم . قال معاوية : رَحِم مقطوعة ؛ والله لأكون أوَّلَ من يَصلها .

والتقى الفضيل بن عياض[2] بجماعة لهم عنده حاجة ؛ وقال لهم : من أين أنتم ؟ قالوا : من خُراسان . قال : اتقوا الله ، وكونوا من حيث شِئْتم .

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (١/١٩١ ـ ١٩٤) والترمذى فى سننه (١٩٠٧) وقال : حديث صحيح . وكذا أخرجه أبو داود فى سننه (١٦٩٤) كلهم من حديث عبدالرحمن بن عوف .

(٢) هو : الفضيل بن عياض التميمى ، أبو على ، شيخ الحرم المكى ، من أكابر العُبَّاد والصُّلحاء ، ثقة فى الحديث ، ولد بسمرقند (١٠٥ هـ) ، وسكن مكة وتوفى بها (١٨٧هـ) عن ٨٢ عاماً . الأعلام (٥/١٥٣) .

وقد أمرنا سبحانه أن نَصلَ الأهل أولاً ؛ ثم الأقارب ؛ ثم الدوائر الأبعد فالأبعد ؛ ثم الجار ، وكُلُّ ذلك لأنه سبحانه يريد الالتحام بين الخلق ؛ ليستطرق النافع لغير النافع ، والقادر لغير القادر ، فهناك جارك وقريبك الفقير إنْ وصلْتَه وصلَك الله .

ولذلك يأمر الحق سبحانه رسوله ﷺ ومِنْ خلاله يأمر كل مؤمن برسالته :

﴿ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ .. (٢٣) ﴾ [الشورى]

وقال بعض مَنْ سمعوا هذه الآية : قُرْباك أنت فى قُرْباك[1] . وقال البعض الآخر : لا ، القربى تكون فى الرسول ﷺ ؛ لأن القرآن قال فى محمد ﷺ :

﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ (٦) ﴾ [الأحزاب]

وهكذا تكون قرابة الرسول أَوْلَى لكل مؤمن من قرابته الخاصة .

يستمر قول الحق سبحانه فى وصف أُولِى الألباب :

﴿ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ (٢١) ﴾ [الرعد]

والخشية تكون من الذى يمكن أن يُصيبَ بمكروه ؛ ولذلك جعل الحق هنا الخشية منه سبحانه ؛ أى : أنهم يخافون الله مالكهم وخالقهم ومُربِّيهم ؛ خوف إجلال وتعظيم .

---

(١) أخرج الإمام أحمد فى مسنده (١/٢٦٨) عن ابن عباس أن النبى ﷺ قال : « لا أسألكم على ماآتيتكم من البينات والهدى أجراً إلا أن تُوادُّوا الله تعالى وأنْ تَقرَّبوا إليه بطاعته » قال ابن كثير فى تفسيره (٤/١١٢) : « أى : إلا أن تعملوا بالطاعة التى تقربكم عند الله زلفى».

وجعل سبحانه المخاف من سوء العذاب ؛ وأنت تقول : خفْتُ زيداً ، وتقول : خِفْتُ المرض ، ففيه شيء تخافه ؛ وشيء يُوقِع عليك ما تخافه .

وأولو الألباب يخافون سُوء حساب الحق سبحانه لهم ؛ فيدفعهم هذا الخوف على أنْ يَصلوا ما أمر به سبحانه أنْ يُوصَل ، وأنْ يبتعدوا عن أى شيء يَغضبه .

ونحن نعلم أن سوء الحساب يكون بالمناقشة واستيفاء العبد لكل حقوقه ؛ فسبحانه مُنزَّه عن ظلم أحد ، ولكن مَنْ يُناقش الحسابَ فهو مَنْ يَلْقى العذاب[1] ؛ ونعوذ بالله من ذلك ، فلا أحد بقادر على أن يتحمل عذابَ الحق له .

ويواصل الحق سبحانه وَصْف أُولى الألباب فيقول :

﴿ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ ﴾

ونجد هذه الآية معطوفة على ما سبقها من صفات أولى الألباب الذين يتذكَّرون ويعرفون مَواطن الحق بعقولهم اهتداءً بالدليل ؛ الذين يُوفون بالعهد الإيمانى بمجرد إيمانهم بالله فى كُلِّيات العقيدة

---

(١) عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ حُوسب يوم القيامة عُذِّب . فقال عبدالله بن أبى مليكة : أليس قد قال الله عز وجل : ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾﴾ [الانشقاق] فقال : ليس ذاك الحساب ، إنما ذاك العرض ، مَنْ نُوقش الحساب يوم القيامة عُذِّب » أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٨٧٦) قال النووى فى شرحه : « معناه أن التقصير غالب فى العباد فمن استقصى عليه ولم يُسامح هلك ودخل النار ولكن الله تعالى يعفو ويغفر ما دون الشرك لمن يشاء » .

الوحدانية ، ومُقْتضيات التشريع الذى تأتى به تلك العقيدة .

ولذلك جعلها سبحانه صفقة أوضحها فى قوله تعالى :

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا.. (١١١)﴾ [التوبة]

وهى صفقة إيجاب وقَبُول ، والعهد إيجاب وقبول ؛ وهو ميثاق مُؤكَّد بالأدلة الفِطْرِية أولاً ، والأدلة العقلية ثانياً .

وهُمْ فى هذه الآية مَنْ صبروا ابتغاءَ وجه ربهم ، والصبر هو تحمُّل متاعب تطرأ على النفس الإنسانية لتخرجها عن وقار استقامتها ونعيمها وسعادتها ، وكل ما يُخرِج النفس الإنسانية عن صياغة الانسجام فى النفس يحتاج صبراً .

والصبر يحتاج صابراً هو الإنسان المؤمن ، ويحتاج مَصْبوراً عليه ؛ والمَصْبور عليه فى الأحداث قد يكون فى ذات النفس ؛ كأنْ يصبر الإنسان على مشقَّة التكليف الذى يقول « افعل » و « لا تفعل » .

فالتكليف يأمرك بترْك ما تحب ، وأنْ تنفذ بعض ما يصعب عليك ، وأن تمتثل بالابتعاد عما ينهاك عنه ، وكُلُّ هذا يقتضى مُجَاهدة من النفس ، والصبر الذاتى على مشَاقِّ التكليف .

ولذلك يقول الحق سبحانه عن الصلاة مثلاً :

﴿ وَإِنَّهَا[1] لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ (٤٥)﴾ [البقرة]

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (١/٨٧) : « الضمير فى قوله : ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ ..(٤٥)﴾ [البقرة] عائد إلى الصلاة نصَّ عليه مجاهد ، واختاره ابن جرير . ويحتمل أن يكون عائداً على ما يدل عليه الكلام وهو الوصية بذلك » .

وهذا صَبْـر الذَّات على الذَّات . ولكن هناك صَبْر آخر ؛ صـبر منك على شـىء يقع من غيرك ؛ ويُخرِجك هذا الشـىء عن استقامة نفسك وسعادتها .

وهو ينقسم إلى قـسمين : قسم تجـد فيه غريمـاً لك ؛ وقسم لا تجد فيه غريماً لك .

فالمـرض الذى يُخرِج الإنسـان عن حَيِّز الاسـتقامـة الصِّحـية ويُسـبِّب لك الألم ؛ ليسَ لك فيـه غريم ؛ لكنك تجـد الغريم حـين يعتدى عليك إنسانٌ بالضرب مـثلاً ؛ ويكون هذا الذى يعتدى عليك هو الغريم لك .

وكل صبـر له طاقة إيمانيـة تحتمله ؛ فـالذى يَقْدر على شـىء ليس له فـيه غـريم ؛ يكون صَـبْره مـعقـولاً بعض الشـىء ؛ لأنه لا يوجد له غريم يهيج مشاعره .

أما صـبر الإنسـان على ألم أوقعه به مَنْ يـراه أمامه ؛ فـهذا يحتـاج إلى قوة ضَـبْط كبيـرة ؛ كى لا يهيج الإنسـان ويُفكِّر فى الانتقام .

ولذلك تجـد الـحق يفـصل بين الأمـرين ؛ يفـصل بين شـىء أصـابك ولا تجد لك غـريماً فـيـه ، وشـىء أصابك ولك من مـثلك غريمٌ فيه .

ويقول سبحانه عن الصبر الذى ليس لك غريم فيه :

﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٧﴾﴾ [لقمان]

ويقـول عن الصبـر الذى لك فيـه غـريم ، ويحتـاج إلى كَظْم الغيظ ، وضبط الغضب :

﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (٤٣) ﴾ [الشورى]

وحينما يريد الحق سبحانه منك أن تصبر ؛ فهو لا يطلب ذلك منك وحدك ؛ ولكن يطلب من المقابلين لك جميعاً أنْ يصبروا على إيذائك لهم ؛ فكأنه طلب منك أنْ تصبر على الإيذاء الواقع من الغير عليك ؛ وأنت فَرْد واحد .

وطلب من الغير أيضاً أنْ يصبر على إيذائك ، وهذا هو قمة التأمين الاجتماعى لحياة النفس الإنسانية ، فإذا كان سبحانه قد طلب منك أن تصبر على مَنْ آذاك ؛ فقد طلب من الناس جميعاً أن يصبروا على آذاك لهم .

فإذا بدرتْ منك بادرة من الأغيار ؛ وتخطىء فى حق إنسان آخر وتؤلمه ؛ فإن لك رصيداً من صبر الآخرين عليك ؛ لأن الحق سبحانه طلب من المقابل لك أنْ يصبر عليك وأن يعفو .

وإذا كان لك غريم ؛ فالصبر يحتاج منك إلى ثلاث مراحل : أنْ تصبر صبراً أولياً بأن تكظم فى نفسك ؛ ولكن الغيظ يبقى ، وإن منعت الحركة النُّزوعية من التعبير عن هذا الغيظ ؛ فلم تضرب ولم تَسُبّ ؛ ويسمى ذلك :

﴿ الْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ .. (١٣٤) ﴾ [آل عمران]

والكَظْم مأخوذ من عملية رَبْط القِرْبة التى نحمل فيها الماء ؛ فإنْ لم نُحْكِم ربطها انسكب منها الماء ؛ ويُقال « كظم القربة » أى : أحكم ربطها .

ثم يأتى الحق سبحانه بالمرحلة الثانية بعد كظم الغيظ فيقول :

﴿ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ .. (١٣٤) ﴾ [آل عمران]

وهنا تظهر المسألة الأَرْقى ، وهى إخراج الغيظ من الصدر ؛ ثم التسامى فى مرتبة الصِّديقين ؛ فلا ينظر إلى مَنْ كظم غيظه عنه أولاً ؛ بل يعفو عنه ، ولا ينظر له بعداء ، بل بنظرة إيمانية .

والنظرة الإيمانية هى أن مَنْ آذاك إنما يعتدى على حَقِّ الله فيك ؛ وبذلك جعل الله فى صَفِّك وجانبك ؛ وهكذا تجد أن مَنْ ظلمك وأساء إليك قد جعلك فى معية الله وحمايته ؛ وعليك أن تُحسن له.

والصبر له دوافع ؛ فهناك مَنْ يصبر كى يُقال عنه : إنه يملك الجَلَد والصبر ؛ وليبين أنه فوق الأحداث ؛ وهذا صبر ليس ابتغاء لوجه الله ؛ بل صبر كيلا يَشْمت فيه أعداؤه .

وصبر لأنه قد توصل بعقله أن جزعه لن ينفعه ، ولو كان حصيفاً[1] لَصبر لوجه الله ، لأن الصبر لوجه الله يخفف من قَدَر الله .

ومَنْ يصبر لوجه الله إنما يعلم أن لله حكمة أعلى من الموضوع الذى صبر عليه ؛ ولو خُيِّر بين ما كان يجب أن يقع وبين ما وقع ؛ لاختار الذى وقع .

والذى يصبر لوجه الله إنما ينظر الحكمة فى مَوْرد القضاء الذى وقع عليه ، ويقول : أحمدُكَ ربى على كل قضائك وجميل قَدَرك ؛ حَمْدَ الرضى بحكمك لليقين بحكمتك .

فمَنْ يصبر على الفاقة[2] ؛ ويقول لنفسه : « اصبرى إلى أن

---

(١) الحصيف : جيد الرأى مُحْكم العقل . وإحصاف الأمر : إحكامه . [لسان العرب ـ مادة : حصف] .

(٢) الفاقة : الفقر والحاجة . وافتاق الرجل أى افتقر . [لسان العرب ـ مادة : فوق] .

يفرجها الله » ولا يسأل أحداً ؛ سيجد الفرج قد أتى له من الله .

انظر إلى الشاعر وهو يقول :

إذَا رُمْتَ أنْ تستخرِجَ المالَ مُنْفقاً
عَلى شَهَواتِ النفْسِ فى زَمَنِ العُسْرِ
فَسَلْ نفسكَ الإنفاقَ مِنْ كَنزِ صَبْرِها
عليْكَ وإنذاراً إلى سَاعةِ اليُسْرِ
فَإنْ فعلْتَ كنتَ الغنىَّ وإنْ أبيْتَ
فَكلٌّ مُنوَّع بعدَها وَاسِعُ العُذْرِ

أى : إنْ راودتْك نفسك لتقترض مالاً لتنفقه على شهوات النفس ، ورفضتَ تلك المُرَاودة ، وطلبت من نفسك أنْ تعطيك من كَنْز الصبر الذى تملكه ؛ وإنْ فعلتَ ذلك كنت الغنىَّ ، لأنك قدرتَ على نفسك .

والذى يلتفت إلى الحَدَث وحده يتعب ؛ والذى يلتفت إلى الحدث مقروناً بواقعه من ربه ؛ ويقول : « لا بد أن هناك حكمة من الله وراء ذلك » فهو الذي يصبر ابتغاء وجه الله . ويريد الله أنْ يخُصَّ مَنْ يصبر ابتغاء وجهه بمنزلة عالية ؛ لأنه يعلم أن الله له حكمة فيما يُجريه من أقدار .

ويتابع سبحانه وَصْف أُولى الألباب :

﴿ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً .. (٢٢) ﴾ [الرعد]

وسبق أن قلنا فى الصلاة أقوالاً كثيرة ؛ وأن مَنْ يؤديها على

مطلوبها ؛ فهو مَنْ يعلم أنها جلْوة[١] بين العبد وربه ، ويكون العبد فى ضيافة ربه .

وحين تُعْرَض الصَّنْعة على صانعها خمس مرات فى اليوم ؛ فلا بد أنْ تنال الصَّنْعة رعاية وعناية مَنْ صمَّمها وخلقها ، وكما أن الله غَيْبٌ عنك ؛ فكذلك أسباب شفائك من الكروب يكون غيباً عنك .

وقد علَّمنا رسول الله ﷺ ذلك « فكان إذا حزبه[٢] أمر قام إلى الصلاة »[٣] .

ومن عظمة الإيمان أن الله هو الذى يدعوك إلى الصلاة ؛ وهو سبحانه لا يمنع عنك القُرْب فى أىِّ وقت تشاء ؛ وأنت الذى تُحدِّد متى تقف بين يديه فى أى وقت بعد أن تُلبِّى دعوته بالفروض ؛ لتؤدى ما تحب من النوافل ؛ ولا يُنهى سبحانه المقابلة معك كما يفعل عظماء الدنيا ؛ بل تُنهى أنت اللقاء وقتَ أنْ تريد .

ولقد تأدَّب رسول الله ﷺ بأدب ربه ؛ وتخلَّق بالخُلق السامى ؛ فكان إذا وضع أحد يده فى يد الرسول ﷺ ؛ فهو لا ينزع يده من يد مَنْ يُسلِّم عليه ؛ إلا أنْ يكون هو النازع[٤] .

وقَوْل الحق سبحانه :

﴿ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ .. (٢٢) ﴾ [الرعد]

---

(١) اجتلى الشىء : نظر إليه . وجلَّى الشىء : كشفه . فالجلوة : الانكشاف والظهور وكأنه ينظر إليه . [لسان العرب ـ مادة : جلا] .

(٢) حزبه أمر : أصابه . أى نزل به مهمّ أو أصابه غَم واشتد عليه . وأمر حازب وحزيب : شديد . [لسان العرب ـ مادة : حزب] .

(٣) عن حذيفة رضى الله عنه قال : « كان النبى ﷺ إذا حزبه أمر صلى » أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٥/٣٨٨) ، وأبو داود فى سننه (١٣١٩) .

(٤) عن أنس بن مالك قال : « إن كانت الأَمَة من أهل المدينة لتأخذ بيد رسول الله ﷺ ، فما ينزع يده من يدها حتى تذهب به حيث شاءت من المدينة ، فى حاجتها » . أخرجه ابن ماجة فى سننه (١٣٩٨) ، وأحمد فى مسنده (٣/١٧٤ ، ٢١٦) .

يعنى : أنك لا يجب أن تنظر إلى ما يؤخذ منك ، ولكن انظر إلى أنك إنْ وصلتَ إلى أن تحتاج من الغير سيؤخذ لك ، وهذا هو التأمين الفعال ، ومَنْ يخاف أن يترك عيالاً دون قدرة ، ولو كان هذا الإنسان يحيا فى مجتمع إيمانى ، لوجد قول الحق مُطبَّقاً :

﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا[1] (٩) ﴾ [النساء]

وبذلك لا يشعر اليتيم باليُتْم ؛ ولا يخاف أحد على عياله ، ولا يسخط أحد على قَدَر الله فيه . وسبحانه يضع الميزان الاقتصادى حين يطلب منا الإنفاق ، والإنفاق يكون من مال زائد ؛ أو مال بلغ النصاب[2] ، ولذلك فعليك أنْ تتحرك حركة نافعة للحياة ، ويستفيد منها الغير ، كى يكون لك مال تُنفِق منه ، وعلى حركتك أن تَسعَكَ وتسَعَ غيرك .

وهناك مَنْ ينفق ممَّا رزقه الله بأن يأخذ لنفسه ما يكفيها ، وينفق الباقى لوجه الله ؛ لأنه يضمن أن له إلهاً قادراً على أن يرزقه ، والمضمون عند الله أكثر ممَّا فى يده .

وها هو رسول الله ﷺ يسأل أبا بكر فيما ناله من غنائم ويقول له : ماذا صنعتَ بها يا أبا بكر ؟ فيقول أبو بكر الصديق رضى الله

---

(١) السداد : الصواب وموافقة الحق والعدل . قال تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا (٧٠) ﴾ [الأحزاب] أى : موافقاً للعدل والحق والشرع لا خطأ فيه . [القاموس القويم : ١/٣٠٧] .

(٢) النصاب من المال : القَدْر الذى تجب فيه الزكاة إذا بلَغه . [لسان العرب ـ مادة : نصب] . ويُقدَّر هذا النصاب بما يساوى قيمة ٨٥ جراماً من الذهب بسعر اليوم الذى تُخرج فيه الزكاة ، إذا مَرَّ عليه عام.

عنه وأرضاه : تصدَّقْتُ بها كلها . فيقول الرسول : وماذا أبقيت ؟ يقول أبو بكر : أبقيت الله ورسوله[١] .

وسأل رسول الله عمر بن الخطاب رضى الله عنه : وماذا فعلتَ يا عمر ؟ فيقول ابن الخطاب : تصدقْتُ بنصفها ولله عندى نصفها . وكأنه يقول للرسول : « إن كان هناك مصرف تريدنى أن أصرف فيه النصف الباقى لله عندى ؛ فلسوف أفعل » .

وهكذا رأينا مَنْ يصرف مِمَّا رزقه الله ؛ بكل ما رزقه سبحانه ، وهو أبو بكر الصديق ؛ ونجد مَنْ ينفق مِمَّا رزقه الله ومستعد لأن ينفق الباقى إنْ رأى رسولُ الله مصرفاً يتطلب الإنفاق .

ونجد من توجيهات الإسلام أن مَنْ يرعى يتيماً ؛ فليستعفف فلا يأخذ شيئاً من مال اليتيم إنْ كان الولىُّ على اليتيم له مال ؛ وإن كان الولى فقيراً فليأكل بالمعروف[٢] .

ولقائل أنْ يسأل : ولماذا نأتى بالفقير لتكون له ولاية على مال اليتيم؟

وأقول : كى لا يحرم المجتمع من خبرة قادرة على الرعاية ؛ فيأتى بالفقير صاحب الخبرة ؛ وليأْكل بالمعروف .

---

(١) ذكر القصة الكاندهلوى فى حياة الصحابة (٢/١٣٧) وعزاها لأبى داود والترمذى والدارمى والحاكم أن عمر رضى الله عنه قال : « أمرنا رسول الله ﷺ يوماً أن نتصدق ووافق ذلك مالاً عندى فقلت : اليوم أسبق أبا بكر إنْ سبقته يوماً ، فجئت بنصف مالى فقال ﷺ : ما أبقيت لأهلك ؟ قلت : مثله . وأتى أبو بكر بكل ما عنده . فقال : يا أبا بكر ، ما أبقيت لأهلك ؟ قال : أبقيت لهم الله ورسوله . قلت : لا أسبقه إلى شىء أبداً » .

(٢) يقول تعالى : ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾﴾ [النساء] .

ونلحظ أن الحق سبحانه قال :

﴿ وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا .. (٥) ﴾ [النساء]

ولم يَقُلْ « وارزقوهم منها » أى : خُذوا الرزق من المَطْمور فيما يملكون بالحركة فى هذا المال .

وهكذا نفهم كيف يُنفق لإنسان المؤمن ممَّا رزقه الله ؛ فهناك مَنْ ينفق كل ما عنده ؛ لأنه واثق من رصيده عند ربه ، وهناك مَنْ ينفق البعض مما رزقه الله ؛ وقد تأخذه الأريحية والكرم فيعطى كل مَنْ يسأله ، وقد ينفق كل ما عنده ؛ مثل مَنْ يجلس فى جُرْن القمح ويريد أن يُزكِّى يوم الحصاد ؛ فيعطى كل مَنْ يسأله ؛ إلى أن يفرغ ما عنده .

ولذلك نجد الحق سبحانه يقول :

﴿ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (١٤١) ﴾

[الأنعام]

وهنا نجد الحق سبحانه يصف هؤلاء المُنْفقين فى سبيله :

﴿ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً .. (٢٢) ﴾ [الرعد]

والسر هو الصَّدقة المندوبة ، أما الإنفاق فى العلانية ؛ فهى الصَّدقة الواضحة ؛ لأن الناس قد تراك غنياً أو يُشَاع عنك ذلك ، ولا يرونك وأنت تُخرِج الزكاة ، فتنالك ألسنتهم بالسوء ؛ وحين يَرَوْنكَ وأنت تنفق وتتصدَّق ؛ فهم يعرفون أنك تؤدى حقَّ الله ، وتشجعهم أنت بأن يُنفِقوا مما رزقهم الله .

وصدقة السِّر وصدقة العلَن أمرها متروك لتقدير الإنسان ؛ فهناك مَنْ يعطى الصدقة للدولة لتتصرف فيها هى ؛ ويعطى من بعد ذلك للفقراء سراً ؛ وهذا إنفاق فى العلَن وفى السر ؛ وجاء الحق بالسر والعلانية ؛ لأنه لا يريد أنْ يحجب الخير عن أىٍّ أحد بأى سبب .

وقد يقول قائل : إن فلاناً يُخرِج الصدقة رياءً .

وأقول لِمَنْ يتفوَّه بمثل هذا القول : أَلَمْ يَسْتفِد الفقير من الصدقة ؟ إنه يستفيد ، ولا أحدَ يدخل فى النوايا .

ويتابع سبحانه :

﴿ وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ .. (٢٢) ﴾ [الرعد]

والدّرْء : هو الدَّفْع بشدة ؛ أى : يدفعون بالحسنة السيئة بشدة . وأول حسنة إيمانية هى أنْ تؤمن بالله ؛ وبذلك تدفع سيئة الشرك ، أو دفعتَ السيئة . أى : دفعتَ الذنب الذى ارتكبته وذلك بالتوبة عنه ؛ لأن التوبة حسنة ، وحين ترى مُنْكراً ، وهو سيئة ، فأنت تدفعه بحسنة النُّصْح .

أو : أن يكون معنى :

﴿ وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ .. (٢٢) ﴾ [الرعد]

هو إنْ فعلتَ سيئة فأنت تتبعها بحسنة ، والكمال المطلق لله وحده ولرسوله ؛ لنفترض أن واحداً لديه سيئة مُلِحّة فى ناحية من النواحى ؛ فالحقُّ سبحانه يأمره أن يدفع السيئة بأن يفعل بجانبها حسنة .

يقول سبحانه :

﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ .. (١١٤)﴾ [هود]

وها هو رسول الله ﷺ يقول لمعاذ[١] رضى الله عنه :

« اتق الله أينما تكون ، وأتبع السيئة حسنة تَمْحُها ، وخالق الناس بخلق حسن »[٢] .

ولذلك ، فأنت تجد أغلب أعمال الخير فى المجتمع لا تصدر من أىِّ رجل رقيق لا يرتكب السيئات ؛ فلا سيئةَ تطارده كى يفعل الحسنة التى يرجو أنْ تمحو السيئة .

فالسيئة ساعةَ تُلهِب ضمير مَن ارتكبها ؛ ولا يستطيع أن يدفعها ؛ لأنه ارتكبها ؛ فهو يقول لنفسه « فَلأبنِ مدرسة » أو « أبنى مسجداً » أو « أقيم مستشفى » أو « أتصدق على الفقراء » .

وهكذا نجد أن أغلب حركات الإحسان قد تكون من أصحاب السيئات ، فلا أحدَ بقادر على أنْ يأخذ شيئاً من وراء الله ؛ فمَنْ يرتكب سيئة لابُدَّ أنْ تُلِحّ عليه بأحاسيس الذَّنْب ؛ لتجده مدفوعاً من بعد ذلك إلى فعل الحسنات ؛ لعلَّ الحسنات تُعوِّض السيئات .

ومن دَرْء الحسنة بالسيئة أيضاً ؛ أنه إذا أساء إليك إنسان فأنت

---

(١) هو : معاذ بن جبل الأنصارى الإمام المقدم فى علم الحلال والحرام ، كان من أجمل الرجال وشهد المشاهد كلها ، أرسله رسول الله ﷺ إلى أهل اليمن معلماً ومُفقِّهاً ، توفى فى طاعون الشام عام ١٧ هـ وكان عمره ٣٤ عاماً . [الإصابة ٦/١٠٦] .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٥/٢٢٨ ، ٢٣٦) وأبو نعيم فى حلية الأولياء (٤/٣٧٦) من حديث معاذ بن جبل رضى الله عنه .

تكْظِم غيظك وتعفو ؛ وبذلك فأنت تحسن إليه .

وتجد الحق سبحانه يقول :

﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤)﴾ [فصلت]

وإذا أنت جرَّبْتَها فى حياتك ؛ وأخلصْتَ المودة لمن دخل فى العداوة معك ؛ ستجد أنه يستجيب لتلك المودة ويصبح صديقاً حميماً لك .

ولكن هناك مَنْ يقول : جرَّبْتُ ذلك ولم تنفع تلك المسألة .

وأقول لمن يقول ذلك : لقد ظننتَ أنك قد دفعتَ بالتى هى أحسن ، لكنك فى واقع الحال كنت تتربص بما يحدث منك تجاه مَنْ دخلتَ معه فى عداوة ، ولم تُخلص فى الدفع بالتى هى أحسن ، وأخذت تُجرِّب اختبار قول الله ؛ فذهبتْ منك طاقة الإخلاص فيما تفعل ؛ وظل الآخر العدو على عداوته .

لكنك لو دفعتَ بالتى هى أحسن ستجد أن الآية القرآنية فيها كل الصِّدْق ؛ لأن الله لا يقول قضية قرآنية ثم تأتى ظاهرة كونية تُكذِّب القرآن .

ولذلك يقول الشاعر :

يَا مَنْ تُضايِقه الفِعَالُ مِنَ التى ومِنَ الذى
دفع فِدْيتك بالتى حتَّى نَرى فإذَا الذِى

أى : يا مَنْ تضايقه أفعال الذى بينك وبينه عداوة ؛ عليك أن

تُحسِن الدَّفْع بالتى هى أحسن ، حتى ترى أن العداوة التى كانت بينك وبين ما ذكره الحق سبحانه فى قوله :

﴿ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) ﴾ [فصلت]

ويتابع الحق سبحانه :

﴿ أُوْلَـٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (٢٢) ﴾ [الرعد]

أى : أن المتقدمين أولى الألباب الذين اجتمعت لهم تلك الصفات التسعة ؛ بدايةً من أنهم يُوفُون بعهد الله ؛ ولا ينقضون الميثاق ؛ ويَصِلون ما أمر الله أنْ يُوصَل ويخشوْن ربهم ؛ ويخافون سُوء الحساب ؛ وصبروا ابتغاء وجه ربهم ؛ وأقاموا الصلاة ؛ وأنفقوا مما رزقهم الله سراً وعلانية ؛ ويَدْرءون بالحسنة السيئةَ ، هؤلاء هم الذين لهم عُقْبى الدار .

وعُقْبى مأخوذة من العقب ؛ فالقدم له مقدم وله عَقِب ، وعقب هو ما يعقب الشىء ، ونقول فى أفراحنا « والعاقبة عندكم فى المسرات » أى : أننا نتمنى أن تتحقق لكم مَسرَّة مثل التى عندنا ، وتكون عقب المَسرَّة التى فرحنا نحن بها .

وهكذا تكون العُقْبى هى الشىء الذى يَعْقُب غيره ، والذى يعقب الدار الدنيا هى الدار الآخرة .

ولذلك يقول الحق سبحانه فى الآية التالية مُوضِّحاً العاقبة لهؤلاء :

﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّـٰتِهِمْ وَالْمَلَـٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ (٢٣) ﴾

إذن : فالدار الآخرة التى تعقب الدنيا بالنسبة لأُولِى الألباب هى جنات عَدْن . و « العَدْن » هو الإقامة الدائمة ؛ وجنات عدن هى جنات الإقامة الدائمة ، لأن الدنيا ليست دار إقامة .

وكل نعيم فى الدنيا إما أن تفوته بالموت أو يفوتك بأغيار الحياة . أما جنات عَدْن فهى دار إقامة دائمة ؛ بما أن « عدن » تعنى مرافقة دائمة للجنات .

والجنات معناها كما نفهم هى البساتين التى فيها أشجار وفيها ثمار ؛ وكل ما تشتهى الأنفس ، مع ملاحظة أن هذه الجنَّات ليست هى المساكن ؛ بل فى تلك الجنات مسكن بدليل قول الحق سبحانه :

﴿وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ..(٧٢)﴾ [التوبة]

فالجنات هى الحدائق ؛ وفيها مساكن ، ونحن فى حياتنا الدنيا نجد الفيلات فى وسط الحدائق ، فما بالنا بما يَعِد به الله من طيب المساكن وسط الجنات ؟

لا بد أن ينطبق عليه وصف الرسول ﷺ للجنة فى الحديث القدسى عن رب العزة سبحانه :

« أعددت لعبادى الصالحين ما لا عَيْن رأتْ ، ولا أُذن سمعتْ ، ولا خَطر على قلب بشر »[1] .

وهكذا بيَّن الله سبحانه عقبى الدار ؛ فهى :

﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٨٢٤) وأحمد فى مسنده (٤٦٦/٢) وأبو نعيم فى الحلية (٢٦٢/٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

وَذُرِّيَّاتِهِمْ .. (٢٣) ﴾ [الرعد]

وآباء جمع « أب » أى : يدخلها مع أولى الألباب مَنْ كان صالحاً من الآباء مُتبعاً لمنهج الله .

وإنْ سأل سائل : وأين الأمهات ؟

أقول : نحن ساعة نثنى المتماثلين نُغلِّب الذَّكر دائماً ، ولذلك فآباؤهم تعنى الأب والأم ، ألَمْ يقُلِ الحق سبحانه فى سورة يوسف :

﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ .. (١٠٠) ﴾ [يوسف]

وهؤلاء هم الذين يدخلون الجنة من أُولِى الأَلْباب الذين استوفَوْا الشروط التسعة التي تحدَّثنا عنها ؛ فهل استوفى الآباء والأزواج والأبناء الشروط التسعة ؟

ونقول : إن الحقَّ سبحانه وتعالى يعامل خَلْقه فى الدنيا بمقتضى العواطف الموجودة فى الذُّرية ؛ فالواحد منّا يُحب أولاده وأزواجه وآباءه ؛ وما دام يحبهم وقد صلحوا كُلٌّ حَسْبَ طاقته ؛ فالحق سبحانه يُلحقهم به .

ولذلك تأتى آية أخرى يقول فيها الحق سبحانه :

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم[1] مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ[2] (٢١) ﴾ [الطور]

---

(١) لاته يليته حقَّه لَيْتاً : نقصه ولم يُؤدِّه كاملاً . قال تعالى : ﴿ لا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا .. (١٤) ﴾ [الحجرات] أى : لا ينقصكم شيئاً من ثوابها . [القاموس القويم ٢/٢٠٩] .

(٢) أى : مرهون عند الله حتى يُحاسَب على ما كسبه . [القاموس القويم ١/٢٧٨] .

وهنا يمسك القرآن القضية العقلية فى الإلحاق بمعنى أنْ تُلحق ناقصاً بكامل ، فلو كان مُساوياً له فى العمل ما سُمِّى إلحاقاً ، فكل إنسان يأخذ حقَّه ؛ وقد اشترط الحق سبحانه شرطاً واحداً فى إلحاق الذرية بالآباء ، أو إلحاق الآباء بالذرية فى الجنة ، وهو الإيمان فقط .

وأوضح لنا هنا أن الآباء قد تميَّزوا بعمل إيمانى بدليل قوله تعالى:

﴿وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ ..(٢١)﴾ [الطور]

فلم يأخذ سبحانه عمل الأب الذى عمل ؛ والابن الذى لم يعمل ، ومزج الاثنين ، ليأخذ المتوسط ، لا ، وذلك كى لا يظلم مَنْ عمل من الآباء أو الأبناء .

ثم إن ذلك لو حدث ؛ لما اعتُبِر تواجدُ الآباء مع الأبناء فى الجنة إلحاقاً ؛ لأن الإلحاق يقتضى أن يبقى حَقُّ كل مَنْ عمل ؛ ثم يتكرم سبحانه من بعد ذلك بعملية الإلحاق ؛ بشرط واحد هو أن يكون الشخص المُلْحق مؤمناً .

وهكذا نفهم قول الحق سبحانه :

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ ..(٢١)﴾ [الطور]

أى : أن الذرية مؤمنة ؛ والأزواج مؤمنون ؛ والأهل مؤمنون ؛ والأبوين مؤمنان ، ولكن الذى يلحق به هو مَنْ يُكرمه الله بهذا الإلحاق ؛ كى يُدخِل الفرح على قَلْب المؤمن حين يرى أولاده معه فى الجنة ما داموا مؤمنين ؛ وهذه قمة فى العدالة ، لماذا ؟

والمَثل الذى أضربه على ذلك : هَبْ أن أباً قد حرص على أنْ يطعَم أهلُه من حلال ؛ فقد يعيش أولاده فى ضيق وشَظَف ؛ بينما

نجد أبناء المنحرف يعيشون فى بُحْبُوحَة[١] من العيش ؛ وهكذا يتنعَّم أبناء المنحرف الذى يأكل ويطعم أولاده من حرام ؛ بينما يعانى أبناء الأمين الذى قد يعتبره البعض مُتزمتاً ؛ لأنه يَرْعى حق الله ، ويرفض أكل الحرام .

وما دام أولاده الذين يأكلون من حلال قد يُعانون معه من عدم التنعُّم ؛ فالحق سبحانه يلحقهم فى الجنة بنعيم يعيشه الأب ؛ لا يفوتهم فيه شىء ؛ ولا يفوته شىء .

وبذلك تسعد الذرية ؛ لأنها جاءت من صُلْب رجل مؤمن قضى حياته على جَادة الصواب ؛ رغم أن بعض الناس قد اتهمتْه فى الدنيا بأنه مُتزمِّت[٢] .

ولقائل أنْ يقول : ألاَ يوجد تناقض بين هذا الإلحاق وبين قول الحق سبحانه :

﴿ لاَّ يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا .. (٣٣) ﴾

[لقمان]

وأقول : لا يوجد تناقض ؛ لأننا نصلى على الميت صلاة شرَّعها المُشرِّع ؛ وفائدتها أنْ تصل الرحمة للميت المؤمن ؛ والإيمان من عمله .

ولذلك يضيف له الحقُّ سبحانه فوق رصيد الإيمان ما يشاؤه هو سبحانه من الرحمة بصلاة الجنازة التى أقامها المسلمون عليه :

---

(١) بحبوحة كل شىء : وسطه وخياره . وقال الفراء : البحبحىُّ الواسع فى النفقة ، الواسع فى المنزل . وتبحبح فى المجد أى أنه فى مجد واسع . [لسان العرب ـ مادة : بحح] .

(٢) الزِّميت والزِّمِّيت : الحليم الساكن القليل الكلام . [لسان العرب ـ مادة : زمت] .

﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ (٢٣) ﴾ [الرعد]

وكلمة « زوج » تعنى المرأة التى يتزوجها الرجل ؛ وتعنى الرجل الذى تتزوجه المرأة ، ونحن نخطىء خطأ شائعاً حين نقول « زوجة » ؛ بل الصحيح أن نقول « زوج » عن المرأة المنسوبة لرجل بعلاقة الزواج[1] .

وسبحانه يقول :

﴿ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ .. (٦) ﴾ [الأحزاب]

وهكذا نعلم أن جنات عَدْنٍ هى مكان ينتظم كل شىء ؛ ولهذا المكان أبواب متعددة ؛ هى أبواب الطاعات التى أدَّتْ إلى خير الجَزَاءات ؛ فباب الصلاة يدخله أُناس ؛ وباب الزكاة يدخله أُناس ؛ وباب الصبر يدخله أُناس ؛ وهكذا تتعدد الأبواب ؛ وهى إمَّا أبواب الطاعات أو أبواب الجزاءات التى تدخل منها الطيبات :

﴿ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَـٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ .. (٢٥) ﴾ [البقرة]

فالبابُ يكون مفتوحاً ؛ تأتى منه الفاكهة والثَّمَرات والخيرات على اختلاف ألوانها ؛ فمرَّةً تأتى ثمار المانجو من باب ؛ وبعد ذلك تأتى ثمار التفاح .

---

(١) كلمة « زوج » للذكر والأنثى هى لغة الحجازيين . أما « زوجة » فهى لغة بنى تميم ، فيقولون : هى زوجته . وأبَى الأصمعى فقال : زوج لا غير . واحتج بقول الله تعالى : ﴿ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ (٣٥) ﴾ [البقرة] فقيل له : نعم ، كذلك قال الله ، فهل قال الله : لا يُقال زوجة ؟ وكانت من الأصمعى فى هذا شدة وعُسْر . [لسان العرب ـ مادة : زوج] .

وتلك الأبواب كما قلت هى إمّا للجزاءات ؛ أو هى أبواب الطاعات التى أدَّت إلى الجزاءات ، وتدخل عليهم الملائكة من كُلِّ باب ؛ فماذا تقول الملائكة ؟

يقول الملائكة لأهل الجنة :

﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ (١)

والسلام يعنى الاطمئنان والرضا الذى لا تأتى بعده الأغيار ؛ لأن السلام فى الدنيا قد تُعكِّر أَمْنه أغيارُ الحياة ؛ فأنتم أيها المؤمنون الذين دخلتم الجنة بريئون من الأغيار .

وقال ﷺ عن لحظات ما بعد الحساب :

« الجنة أبداً ، أو النار أبداً »(٢) .

ولذلك يقول سبحانه عن خيرات الجنة :

﴿لا مَقْطُوعَةٍ وَلا مَمْنُوعَةٍ (٣٣)﴾ [الواقعة]

والملائكة كما نعلم نوعان :

الملائكة المهيمون الذين يشغلهم ذكر الله تعالى عن أىِّ شىء ولا يدرون بِنَا ؛ ولا يعلمون قصة الخَلْق ؛ وليس لهم شَأنٌ بكُلِّ ما يجرى ؛ فليس فى بالهم إلا الله وهم الملائكة العَالُون ؛ الذين جاء ذكرهم فى قصة السجود لآدم حين سأل الحق سبحانه الشيطان :

---

(١) العاقبة والعُقْبى : آخر كل شىء وخاتمته . قال تعالى : ﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا (٤٤)﴾ [الكهف] . [القاموس القويم ٢/٢٨] .

(٢) أخرج الطبرانى فى الكبير والأوسط والحاكم (١/٨٣) وصححه عن معاذ بن جبل أن رسول الله ﷺ بعثه إلى اليمن فلما قدم عليهم قال : « أيها الناس إن رسول الله ﷺ إليكم يخبركم أن المرد إلى الله وإلى جنة أو نار ، خلود بلا موت ، وإقامة بلا ظعن ، فى أجساد لا تموت » .

﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥)﴾ [ص]

أى : أن العالين هنا هم مَنْ لم يشملهم أَمْرُ السجود ، وليس لهم علاقة بالخلق ، وكُلُّ مهمتهم ذكر الله فقط .

أما النوع الثانى فهم الملائكة المُدبِّرات أمراً ، ونعلم أن الحق سبحانه وتعالى قد استدعى آدم إلى الوجود هو وذريته ، وأعدَّ له كل شىء فى الوجود قبل أن يجىء ؛ الأرض مخلوقة والسماء مرفوعة ؛ والجبال الرَّواسى بما فيها من قُوتٍ ؛ والشمس والقمر والنجوم والمياه والسحاب .

والملائكة المُدبِّرات هم مَنْ لهم علاقة بالإنسان الخليفة ، وهم مَنْ قال لهم[1] الحق سبحانه :

﴿اسْجُدُوا لآدَمَ..(٣٤)﴾ [البقرة]

وهم الذين يتولَّوْن أمر الإنسان تنفيذاً لأوامر الحق سبحانه لهم ، ومنهم الحفظة الذين قال فيهم الحق سبحانه :

﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ..(١١)﴾

[الرعد]

أى : أن الأمر صادر من الله سبحانه ، وهم بَعْد أنْ يفرغوا من

---

(١) ذهب ابن كثير فى تفسيره (١/٧٥) إلى أن الملائكة المأمورين بالسجود هنا هم هؤلاء الذين أرسلهم مع إبليس لمحاربة من أفسد فى الأرض وسفك الدماء قبل خلق آدم ، فألحقوهم بجزائر البحور وأطراف الجبال ، فاغتر إبليس فى نفسه ، فاطلع الله على ذلك من قلبه ولم تطلع عليه الملائكة الذين كانوا معه ، واستدل ابن كثير بحديث طويل لابن عباس أخرجه ابن جرير الطبرى فى تفسيره .

مـهمـتـهم كـحفظة من رقـيب وعـتـيد على كل إنسـان ، ولن يوجـد مـا يكتبـونه من بعـد الحسـاب وتقـرير الجـزاء ؛ هنا سيـدخل هؤلاء الملائكة على أهل الجـنة ليحملوا ألطاف الله والهـدايا ؛ فهم مَنُوط بهم الإنسان الخليفة .

وسبحانه حـين يُورِد كلمة فى القرآن بموقعهـا البيانى الإعرابى ؛ فهى تُؤدِّى المعـنى الذى أراده سبحانه . والمَثَل هـو كلمة «سلام » ؛ فضيف إبراهيم من الملائكة :

﴿ قَالُوا سَلامًا قَالَ سَلامٌ..(٦٩) ﴾ [هـود]

وكان القـياس يقتـضى أن يقول هو « سلامـاً » ، ولكنها قضـية إيمانية ، لذلك قال :

﴿ سَلامٌ..(٦٩) ﴾ [هـود]

فـالسلام هنا لم يَأْتِ منصـوباً ؛ بل جـاء مرفـوعاً ؛ لأن السـلام للملائكة أمرٌ ثـابت لهم ؛ وبذلك حَيَّاهم إبراهيم بتحـية هى أحسن من التحية التى حَيَّوه بها .

فنحن نُسلِّم سـلاماً ؛ وهو يعنى أن نتـمنى حدوث الفـعل ، ولكن إبراهيم عليه السلام فَطِنَ إلى أن السلام أمرٌ ثابت لهم .

وهكذا الحال هنا حين تدخل الملائكة على العباد المكرمين بدخول الجنة ، فَهُمْ يقولون :

﴿ سَلامٌ ..(٢٤) ﴾ [الرعد]

وهى مرفوعـة إعرابياً ؛ لأن السلام أمر ثابت مُسـتقِر فى الجنة ،

وهم قالوا ذلك ؛ لأنهم يعلمون أن السلام أمر ثابت هناك ؛ لا يتغير بتغيُّر الأغيار ؛ كما فى أمر الدنيا .

والسلام فى الجنة لهؤلاء بسبب صبرهم ، كما قال الحق سبحانه على ألسنة الملائكة :

﴿ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ..(٢٤) ﴾ [الرعد]

وجاء الصبر فى صيغة الماضى ، وهى صيغة صادقة ؛ فهم قد صبروا فى الدنيا ؛ وانتهى زمن الصبر بانتهاء التكليف .

وهم هنا فى دار جزاء ؛ ولذلك يأتى التعبير بالماضى فى موقعه ؛ لأنهم قد صبروا فى دار التكليف على مشقَّات التكليف ؛ صبروا على الإيذاء ؛ وعلى الأقدار التى أجراها الحقُّ سبحانه عليهم .

وهكذا يكون قول الحق سبحانه :

﴿ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ..(٢٤) ﴾ [الرعد]

في موقعه تماماً .

وكذلك قوله الحق عمَّنْ توفَّرت فيهم التسع صفات ، وهم في الدنيا :

﴿ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ ..(٢٢) ﴾ [الرعد]

وجاء بالصبر هنا فى الزمن الماضى ؛ رغم أنهم ما زالوا فى دار التكليف ؛ والذى جعل هذا المعنى مُتَّسِعاً هو مَجِىء كل ما أمر به الله بصيغة المضارع ؛ مثل قوله تعالى :

﴿ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ ..(٢٠) ﴾ [الرعد]

وهذه مسألة تحتاج إلى تجديد دائم ؛ وقوله :

﴿ وَلا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ (٢٠) ﴾ [الرعد]

وقوله :

﴿ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ ..(٢١) ﴾ [الرعد]

و ﴿ وَيَخْشَوْنَ ﴾ ، ﴿ وَيَخَافُونَ ﴾ [الرعد]

هكذا نرى كل تلك الأفعال تأتى فى صيغة المضارع ، ثم تختلف الصيغة إلى الماضى فى قوله :

﴿ وَالَّذِينَ صَبَرُوا .. (٢٢) ﴾ [الرعد]

والمتأمل لكل ذلك يعلم أن كل تلك الأمور تقتضى الصبر ؛ وكأن الصبر يسبق كل هذه الأشياء ، وهو القاسم المشترك فى كل عهد من العهود السابقة .

وقد عبَّر الحق سبحانه ـ لأجل هذه اللفْتة ـ بالماضى حين جاء حديث الملائكة لهم وهم فى الجنة .

وهكذا تقع كلمة الصبر فى موقعها ؛ لأن الملائكة تخاطبهم بهذا القول وهم فى دار البقاء ؛ ولأن المتكلم هو الله ؛ فهو يُوضِّح لنا جمال ما يعيش فيه هؤلاء المؤمنون فى الدار الآخرة .

ويُذيِّل الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله :

﴿ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (٢٤) ﴾ [الرعد]

وعلمنا أن « عُـقْبى » تعنى الأمـر الذى يجىء فى العَقِب ، وحـين يعرض سبـحانه للقضية الإيمانيـة وصفات المؤمنين المعـايشين للقيم الإيمانيـة ؛ فذلك بهدف أن تستـشرفَ النفس أن تكون منهم ، ولا بُدّ أن تنفرَ النفس من الجانب المقابل لهم .

والمَثَل هو قول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) ﴾ [الانفطار]

ويأتى بمقابلها بعدها :

﴿ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (١٤) ﴾ [الانفطار]

وساعة تقارن بأنهـم لو لم يكونوا أبراراً ؛ لكَانوا فى جحيم ؛ هنا نعرف قَدْر نعمة توجيه الحق لهم ، ليكونوا من أهل الإيمان .

وهكذا نجـد أنفسنا أمـام أمرين : سلب مَـضرَّة ؛ وجلْب منفـعة ، ولذلك يقول الحق سبحانه أيضاً عن النار :

﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا[1] كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا (٧١) ﴾ [مريم]

أى : كلنا سنرى النار .

ويقول سبحانه :

﴿ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ (٧) ﴾ [التكاثر]

وذلك لكى يعرف كل مسلم ماذا صنعتْ به نعمة الإيمان ؛ قبل أن

---

(١) ورد يرد : حضر أو أشرف على المكان دخله أو لم يدخله . [القاموس القويم ٢/٣٣٠] .
قال عبـدالرحمن بن زيد بن أسلم : « ورود المسلمـين المرور على الجسر بين ظهـرانيها ، وورود المشركين أن يدخلوها » [ذكره ابن كثير فى تفسيره ٣/١٣٣] .

يدخل الجنة ، وبذلك يعلم أن الله سلب منه مَضرَّة ؛ وأنعم عليه بمنفعة ، سلب منه ما يُشقِى ؛ وأعطاه ما يُفيد .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ .. (١٨٥) ﴾ [آل عمران]

وإذا كان الحق سبحانه قد وصف أُولى الألباب بالأوصاف المذكورة من قبل ؛ فهو يُبيِّن لنا أيضاً خيبة المقابلين لهم ؛ فيقول سبحانه :

﴿ وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ (١) وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (٢٥) ﴾

ولقائل أنْ يسأل : وهل آمن هؤلاء وكان بينهم وبين الله عهد ونَقَضوه ؟

ونقول : يصح أنهم قد آمنوا ثم كفروا ، أو : أن الكلام هنا ينصرف إلى عهد الله الأزلى.

يقول سبحانه :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ .. (١٧٢) ﴾ [الأعراف]

وهنا يوضح سبحانه أن مَنْ ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه وتأكيده بالآيات الكونية التى تدل على وجود الخالق الواحد :

---

(١) اللعنة : سخطه وغضبه وطرده من رحمته . [القاموس القويم ٢/١٩٥] .

﴿يَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ ..(٢٥)﴾ [الرعد]

والمقابل لهم هم أُولو الألباب الذين كانوا يَصِلون ما أمر سبحانه أن يُوصل ـ وهؤلاء الكفرة نقضة العهد :

﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ .. (٢٥)﴾ [الرعد]

ولم يَأْتِ الحق سبحانه بالمقابل لكُلِّ عمل أدَّاه أولو الألباب ؛ فلم يَقُل : « ولا يخشون ربهم » ؛ لأنهم لا يؤمنون بإله ؛ ولم يَقُلْ : « لا يخافون سوء الحساب » لأنهم لا يؤمنون بالبعث .

وهكذا يتضح لنا أن كل شيء فى القرآن جاء بِقَدرٍ ، وفى تمام موقعه .

ونحن نعلم أن الإفساد فى الأرض هو إخراجُ الصَّالح عن صلاحه ، فأنت قد أقبلتَ على الكون ، وهو مُعَدٌّ لاستقبالك بكل مُقوِّمات الحياة من مأكل ومَشْرب وتنفس ؛ وغير ذلك من الرزق ، واستبقاء النوع بأن أحلَّ لنا سبحانه أن نتزاوج ذكراً وأنثى .

والفساد فى الكون أن تأتى إلى صالح فى ذاته فتفسده ؛ ونقول دائماً : إن كنت لا تعرف كيف تزيد الصالح صلاحاً ؛ فاتركه على حاله ؛ واسمع قول الحق سبحانه :

﴿وَلا تَقْفُ[1] مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ..(٣٦)﴾ [الإسراء]

فلا تنظر فى أىِّ أمر إلى الخير العاجل منه ؛ بل انظر إلى ما يؤول إليه الأمر من بعد ذلك ؛ أيضرُّ أم ينفع ؟

---

(١) قفاه قفواً : تبعه ، وهو أن يتبع الشيء ، والمعنى : لا تتبع ما لا تعلم . [لسان العرب ـ مادة : قفا] .

لأن الضُّرَّ الآجل قد يتلصص ويتسلل ببطء وأنَاة ؛ فلا تستطيع له دَفْعاً من بعد ذلك .

ويقول الحق سبحانه فى آخر الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها :

﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الرعد]

ونلحظ أن التعبير هنا جاء باللام مِمَّا يدل على أن اللعنة عشقتهم عِشْق المالك للملوك :

﴿ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الرعد]

أى : عذابها ، وهى النار والعياذ بالله .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ (١) وَفَرِحُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا مَتَـٰعٌ ﴿٢٦﴾ ﴾

والبَسْط هو مَدُّ الشىء .

وقد أقام العلماء معركة عند تحديد ما هو الرزق ، فهل الرزق هو ما أحلَّه الله فقط ؟ أم أن الرزق هو كل ما ينتفع به الإنسان سواء أكان حلالاً أم حراماً ؟

---

(١) قدر الله الرزق : جعله ضيقاً على قدر الحاجة لا يزيد ومنه قوله : ﴿ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ ..﴿١٦﴾ ﴾ [الفجر] أى : ضيَّقه وجعله على قدر الحاجات الضرورية لا يزيد عليها . [القاموس القويم ١٠٢/٢] .

فمن العلماء مَنْ قال : إن الرزق هو الحلال فقط ؛ ومنهم من قال : إن الرزق هو كل ما يُنتفع به سواء أكان حلالاً أم حراماً ؛ لأنك إنْ قُلْتَ إن الرزق محصور فى الحلال فقط ؛ إذن : فَمَنْ كفر بالله من أين يأكل ؟

ألم يخاطب الحق سبحانه المكابرين قائلاً :

﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ..(٣١) ﴾ [يونس]

وقال سبحانه :

﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (٥٨) ﴾ [الذاريات]

ويقول تعالى :

﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (٢٢) فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ (٢٣) ﴾ [الذاريات]

إذن : فالرزق هو من الله ؛ ومن بعد ذلك يأمر « افعل كذا » و « لا تفعل كذا » .

وقَوْل الحق سبحانه :

﴿ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ..(٢٦) ﴾ [الرعد]

أى : أنه سبحانه يمُد الرزق لِمَن يشاء :

﴿ وَيَقْدِرُ ..(٢٦) ﴾ [الرعد]

من القَدْر . أى : فى حالة إقداره على المُقَدَّر عليه ؛ وهو مَنْ يعطيه سبحانه على قَدْر احتياجه ؛ لأن القَدْر هو قَطْع شىء على

مساحة شيء ، كأنْ يعطى الفقير ويبسط له الرزق على قَدْر احتياجه.

والحق سبحانه أمرنا أنْ نُعطِي الزكاة للفقير ؛ ويظل الفقير عائشاً على فقره ؛ لأنه يعيش على الكفاف .

أو : يقدر بمعنى يُضيِّق ؛ وساعة يحدث ذلك إياك أنْ تظن أنَّ التضييق على الفقير ليس لصالحه ، فقد يكون رزقه بالمال الوفير دافعاً للمعصية ؛ ومن العِفَّة ألا يجد .

أو : يقدر بمعنى يُضيِّق على إطلاقها ، يقول سبحانه :

﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ[1] وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا (٧) ﴾ [الطلاق]

ولأن الله قد آتاه فهذا يعنى أنه بَسَط له بقدره .

ويتابع سبحانه :

﴿ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. (٢٦) ﴾ [الرعد]

وطبعاً سيفرح بها مَنْ كان رزقه واسعاً ؛ والمؤمن هو مَنْ ينظر إلى الرزق ويقول : هو زينة الحياة الدنيا ؛ ولكن ما عند الله خَيْر وأبقى .

أما أهل الكفر فقد قالوا :

﴿ لَوْلا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ[2] عَظِيمٍ (٣١) ﴾[الزخرف]

---

(١) السعة فى المال : الغنى والثراء والرخاء واتساع الأرزاق . [القاموس القويم ٢/٣٣٧] .

(٢) المقصود بالقريتين : مكة والطائف . قاله ابن عباس وعكرمة ومحمد بن كعب القرظى وقتادة والسدى وابن زيد . واختلفوا فى المقصود بهذين الرجلين . قال ابن كثير فى تفسيره (٤/١٢٧) : « والظاهر أن مرادهم رجل كبير من أى البلدتين كان » .

ويردُّ الحق سبحانه عليهم :

﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ .. (٣٢)﴾ [الزخرف]

وساعةَ تبحث فى تحديد هذا البعض المبسوط له الرزق ؛ والبعض المُقدَّر عليه فى الرزق ؛ لن تجد ثباتاً فى هذا الأمر ؛ لأن الأغيار قد تأخذ من الغنىّ فتجعله فقيراً ؛ وقد تنتقل الثروة من الغنىّ إلى الفقير .

وسبحانه قد ضمن أسباباً عُلْيا فى الرزق ؛ لكل من المؤمن والكافر ؛ والطائع والعاصى ؛ وكلنا قد دخل الحياة ليأخذ بيده من عطاء الربوبية ؛ فإنْ قصَّر واحد ؛ فليس لهذا المَرْء من سبب سوى أنه لم يأخذ بأسباب الربوبية وينتفع بها .

وقد يأخذ بها الكافر وينتفع بها .

والحق سبحانه هو القائل :

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ (٢٠)﴾ [الشورى]

إذن : فليس هناك تضييق إلا فى الحدود التى يشاؤها الله ، مثل أن يزرع الإنسان الأرضَ ، ويتعب فى الرىِّ والحَرْث ؛ ثم تأتى صاعقة أو برد مصحوب بصقيع فيأكل الزرع ويُميته .

وفى هذا لَفْتٌ للإنسان ؛ بأنه سبحانه قد أخذ هذا الإنسان من

رزقه ؛ وهو العطاء منه ؛ كى لا يُفْتَنَ الإنسان بالأسباب ، وقد يأتى رزقه من بعد ذلك من منطقة أخرى ، وبسبب آخر .

﴿ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا ..(٢٦) ﴾ [الرعد]

والفرح فى حَدِّ ذاته ليس ممنوعاً ولا مُحرّماً ، ولكن الممنوع هو فرح البطر كفرح قارون :

﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ[1] عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ[2] بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ..(٧٦) ﴾ [القصص]

والحق سبحانه قد قال :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦) ﴾ [القصص]

وهذا هو فرح البطر الذى لا يحبه الله ؛ لأنه سبحانه قال فى موقع آخر :

﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٥٨) ﴾ [يونس]

---

(١) البغى : الظلم والكبر ومجاوزة الحد . والباغى : المتجاوز الحد . [القاموس القويم ١/٧٧] .

(٢) ناء الرجل بالحمل ينوء : نهض به متثاقلاً فى جهد ومشقة أى : تثقل عليهم مفاتيح كنوز قارون وتجهدهم . [القاموس القويم ٢/٢٩٠] .

وهنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها يأتى بفرحهم ؛ وبسبب هذا الفرح وهو الحياة الدنيا ؛ أى : أنه سبب تافه للفرح ، لأنها قد تُؤخذ منهم وقد يُؤخَذون منها ، ولكن الفرح بالآخرة مختلف ، وهو الفرح الحق .

لذلك يقول فيه الحق سبحانه :

﴿ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [يونس]

ويقيس الحق سبحانه أمامنا فرح الحياة الدنيا بالآخرة ، فيقول :

﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ ﴿٢٦﴾ ﴾ [الرعد]

ومتاع الرجل هو ما يعده إعداداً يُنفقه فى سفر قصير ، كالحقيبة الصغيرة التى تضع فيها بعضاً من الملابس والأدوات التى تخصُّك لسفر قصير .

والعاقل هو مَنْ ينظر إلى أقصى ما يمكن أن يفعله الإنسان فى الحياة ؛ فقد يتعلم إلى أنْ يصل إلى أرْقى درجات العلم ؛ ويسعى فى الأرض ما وَسِعه السَّعْى ؛ ثم أخيراً يموت .

والمؤمن هو مَن يَصل عمل دُنْياه بالآخرة ؛ ليصلَ إلى النعيم الحقيقى ، والمؤمن هو مَنْ يبذل الجهد ليصلَ نفسه برحمة الله ؛ لأنها باقية ببقاء الله ، ولأن المؤمن الحق يعلم أن كل غاية لها بَعْد ؛ لا تعتبر غاية .

ولذلك فالدنيا فى حَدِّ ذاتها لا تصلح غايةً للمؤمن ، ولكن الغاية الحَقَّة هى : إمَّا الجنة أبداً ، أو النار أبداً .

يقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ ﴾ (١) (٢)

ونعلم أن « لولا » إذا دخلت على جملة اسمية فلها وَضْع يختلف عنه وَضْعها إذا دخلتْ على جملة فعلية ، فحين نقول : « لولا زيد عندك لَزُرْتُكَ » يعنى امتناع حدوث شىء لوجود شىء آخر . وحين نقول : لولا تُذاكِر دروسك . فهذا يعنى حضاً على الفعل .

والحق سبحانه يقول :

﴿ لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَـٰئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ [النور]

والجملة التى دخلت عليها « لولا » فى هذه الآية هى جملة فعلية ، وكأن الحق سبحانه يحضُّنا هنا على أن نلتفتَ إلى الآية الكبرى التى نزلت عليه ﷺ ، وهى القرآن .

وقد تساءل الكافرون ـ كَذِباً ـ عن مجىء آية ؛ وكان تساؤلهم بعد مجىء القرآن ، وهذا كذب واقع ؛ يناقضون به أنفسهم ؛ فقد قالوا :

---

(١) الآية : العلامة الواضحة والمعجزة لأنها علامة على صدق الرسول . وتجمع آية على « آىْ » و « آيات » قال تعالى : ﴿ قَدْ بَيَّنَّا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾ [البقرة] أى : المعجزات والعلامات الدالة المرشدة إلى الحق . [القاموس القويم : ١/٤٧] .

(٢) أناب العبد إلى ربه : رجع إليه وتاب وترك الذنوب . قال تعالى : ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ ﴾ [هود] إليه أتوب وأرجع . [القاموس القويم ٢/٢٩٠] .

﴿ وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) ﴾ [الزخرف]

وهم بذلك قد اعترفوا أن القرآن بلغ حَدَّ الإعجاز وتمنَّوْا لو أنه نزل على واحد من عظماء القريتين ـ مكة أو الطائف .

وهم مَنْ قالوا أيضاً :

﴿ وَقَالُوا يَـٰأَيُّهَا الَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ[1] إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ (٦) ﴾ [الحجر]

ثم يعودون هنا لينكروا الاعتراف بالقرآن كمعجزة ، على الرغم من أنه قد جاء من جنس ما نبغوا فيه ، فهم يتذوقون الأدب ، ويتذوقون البيان ، ويتذوقون الفصاحة ؛ ويقيمون الأسواق ليعرضوا إنتاجهم فى البلاغة والقصائد ، فهم أمة تطرَبُ فيها الأذن لما ينطقه اللسان .

ولكنهم هنا يطلبون آية كونية كالتى نزلت على الرسل السابقين عليهم السلام ، ونَسُوا أن الآية الكونية عمرها مَقْصور على وقت حدوثها ؛ ومَنْ رآها هو مَنْ يصدقها ، أو يصدقها مَنْ يُخبره بها مصدر موثوق به .

ولكن رسول الله ﷺ هو المبعوث لتنظيم حركة الحياة فى دنيا الناس إلى أنْ تقوم الساعة ؛ ولو أنه قد جاء بآية كونية ؛ لأخذتْ زمانها فقط .

ولذلك شاء الحق سبحانه أنْ يأتى بآية معجزة باقية إلى أنْ تقومَ الساعةُ ، فضلاً عن أنه ﷺ قد جاءتْ له معجزات حسِّية ؛ كتفجُّر

(١) الذِّكْر : الكتاب الذى فيه تفصيل الدين ، وكل كتاب من كتب الأنبياء عليهم السلام ذِكْر . [لسان العرب ـ مادة : ذكر] .

الماء من بين أصابعه[١] ؛ وحفنة الطعام التى أشبعتْ جيشاً ؛ وأظلَّتْه السحابة ؛ وحَنَّ[٢] جذْع الشجرة حنيناً إليه ليقف من فوقه خطيباً ؛ وجاءه الضَّبُّ مسلماً[٣] .

كل تلك آيات كونية هى حُجَّة على مَنْ رآها ، وكذلك معجزات الرُّسل السابقين ، ولولا أنْ رواها لنا القرآن لَمَا آمنَّا بها ، وكانت الآيات الكونية التى جاءت مع الرسل هى مجرد إثبات لِمَنْ عاشوا فى أزمان الرسل السابقين على أن هؤلاء الرسل مُبلِّغون عن الله .

وقد شرح الحق سبحانه هذا الأمر بالنسبة لرسول الله ﷺ حين قال :

﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ (٥٩) ﴾ [الإسراء]

---

(١) أخرجه البيهقى فى « دلائل النبوة » (٤/١١٦) من حديث جابر بن عبدالله رضى الله عنه ، أن هذا كان يوم الحديبية ، أن الناس قالوا لرسول الله ﷺ : «ليس عندنا ماء نشرب ، ولا ماء نتوضأ ، إلا ما بين يديك . فوضع رسول الله ﷺ يده فى الركوة ، فجعل الماء يثور بين أصابعه مثل العيون » .

(٢) حَنَّ الجذع إليه : نزع واشتاق . وأصل الحنين ترجيع الناقة صوتها إثر ولدها . [لسان العرب ـ مادة : حنن] .

(٣) أخرج البيهقى فى « دلائل النبوة » (٦/٣٦) من حديث عمر بن الخطاب أن أعرابياً قال لرسول الله ﷺ : «واللات والعزى لا آمنت بك أو يؤمن بك هذا الضب ، وأخرج ضباً من كمه وطرحه بين يدى رسول الله ﷺ ، فقال ﷺ : « يا ضب ، فأجابه الضب بلسان عربى مبين يسمعه القوم جميعاً : لبيك وسعديك يا زين من وافى القيامة. قال : من تعبد يا ضب ؟ قال : الذى فى السماء عرشه ، وفى الأرض سلطانه ، وفى البحر سبيله ، وفى الجنة رحمته ، وفى النار عقابه . قال : فمن أنا يا ضب ؟ قال : رسول رب العالمين ، وخاتم النبيين ، وقد أفلح من صدقك ، وقد خاب من كذبك » .

أى : أن الرسل السابقين الذين نزلوا فى أقوامهم وصحبتْهم الآياتُ الكونية قابلوا أيضاً المُكذِّبين بتلك الآيات ، وقوم رسول الله ﷺ قالوا أيضاً :

﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا[1] أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا (٩٢) ﴾ [الإسراء]

ويقول الحق سبحانه فى موقع آخر :

﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا[2] مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا (١١١) ﴾ [الأنعام]

وهكذا يُبيِّن لنا الحق سبحانه أنهم غارقون فى العِنَاد ولن يؤمنوا ، وأن أقوالهم تلك هى مجرد حُجَج يتلكئون بها .

وهم هنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها يقولون :

﴿ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ .. (٢٧) ﴾ [الرعد]

وهكذا نجد أنهم يعترفون أن له رباً ؛ على الرغم من أنهم قد اتهموه من قبل أنه ساحر ، وأنه ـ والعياذ بالله ـ كاذب ، وحين فَتَر[3]

---

(١) الكسفة : القطعة . وجمعها : كسْف وكِسَف . وكسف الثوب : قطعه قطعاً . [القاموس القويم ١٦١/٢] .

(٢) القبل : المعاينة والمقابلة والمواجهة . وقيل : جمع قبيل ، أى : أصنافاً وأنواعاً . [القاموس القويم ٩٨/٢] .

(٣) فَتَر الشىءُ : سكن بعد حدّة ، ولان بعد شدة . والفترة : الانكسار والضعف . والفترة : ما بين كل نبيين من الزمان الذى انقطعت فيه الرسالة . [لسان العرب ـ مادة : فتر] .

عنه الوحى قالوا : « إن ربَّ محمد قد قَلاَه »[١] .

وأنزل الحق سبحانه الوحى :

﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴿٥﴾ ﴾ [الضحى]

أى : أن الوَحْى سوف يستمر ، وهكذا فضح الله كَذِبهم على مَرِّ سنوات الرسالة المحمدية .

وهم هنا يتعنتون فى طَلَبِ الآية الحِسِّيـة الكونية ؛ وكلمة آية كما عرفنا من قبل هى : إما آية كونية تُلفت إلى وجود الخالق .

أو : آية من القرآن فيهـا تفصيلٌ للأحكام ؛ وليستْ تلك هى الآية التى كانوا يطلبونها .

أو : آية معجزة تدلُّ على صِدْق الرسالة .

وكأنَّ طلبَ الآيات إنمـا جاء لأنهم لم يقتنعـوا بآية القرآن ؛ وهذا دليل غبائهم فى استقبال أدلَّة اليقين بصدق الرسول ﷺ ؛ لأن القرآن جاء معجزةً ، وجاء منهجاً .

والمـعجـزة ـ كمـا أوضحنا ـ إنمـا تأتى من جنس مـا نبغ فيـه القوم ، ولا يأتى سـبحانه بمـعجزة لقـوم لم يُحْسِنوا شـيئاً مـثلها ، ولم ينبغُوا فيه .

---

(١) أورد ابن كـثيـر فى تفسـيره (٤/٥٢٢) أن جندباً بن عـبد الله قـال : « أبطأ جبـريل على رسول الله ﷺ فقال المشركـون : ودع محمداً ربه ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ ﴾ [الضحى] » .

فالـذين كانوا يمـارسون السِّـحْر[١] جاءتْ المـعجـزة مع الرسول المرْسَل إليهم من نفس النوع ، والذين كانوا يعرفون الطبَّ ، جاء لهم رسول[٢] ، ومعه معجزة ممَّا نبغُوا فيه .

وقد جاءت معجزة رسول الله ﷺ من جنس ما نبغُوا فيه ؛ فضلاً عن أن القرآن معـجزة ومنهج فى آنٍ واحد ، بخلاف معجـزة التوقيت والتقيد فى زمن .

ومع ذلك ، فإن كـفار مكة تعنتُـوا ، ولم يكتفُوا بـالقرآن معـجزةً وآيات تدلُّهم إلى سواء السبيل ؛ بل اقترحوا هم الآية حسب أهوائهم ؛ ولذلكً نجدهم قد ضلُّوا .

ونجد الحق سبحانه يقول بعد ذلك :

﴿ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِى إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ (٢٧) ﴾ [الرعد]

وهنا نقف وَقْـفـة ؛ لأن البـعض يحـاول أن يُسـقط عن الإنسـان مـسـئـوليـة التكليف ؛ ويـدَّعى أن الله هو الذى يمنـع هداية هؤلاء الكافرين . ونقول : إننا إن استقـرأنا آياتِ القرآن ؛ سنجد قَوْل الحق سبحانه :

﴿ وَاللَّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٢٦٤) ﴾ [البقرة]

---

(١) المقصـود بهم سحرة فرعـون ، وقد قصَّ علينا الحق سبـحانه قصة موسى علـيه السلام ومواجهته لسحرة فرعون ، إذ : ﴿ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ (٤٣) فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ (٤٤) فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (٤٥) فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (٤٦) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٧) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ (٤٨) ﴾ [الشعراء] .

(٢) هو عيسى بن مريم عليه السلام قال تعالى له : ﴿ وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذنى فتنفخ فيها فتكون طيرا بإذنى وتبرئ الأكمه والأبرص بإذنى وإذ تخرج الموتى بإذنى ... (١١٠) ﴾ [المائدة] .

ونجد قول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥١) ﴾ [المائدة]

ويقول سبحانه أيضاً :

﴿ وَاللَّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (١٠٨) ﴾ [المائدة]

ومن كل ذلك نفهم أن العمل السابق منهم هو الذى يجعله سبحانه لا يهديهم ، لأن الإنسان ما دام قد جاء له حُكْم أعلى ، ويؤمن بمصدر الحكم ؛ فمن أنزل هذا الحكم يُعطى للإنسان معونة ، لكن مَنْ يُكذِّب بمصدر الحُكْم الأعلى فسبحانه يتركه بلا معونة .

أما مَنْ يرجع إلى الله ؛ فسبحانه يهديه ويدلُّه ويعينه بكل المَدَد .

ويواصل الحق ما يمنحه سبحانه من اطمئنان لمن يُنيب إليه ، فيقول :

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ (٢٨) ﴾

ومعنى الاطمئنان سكونُ القلب واستقراره وأُنْسُه إلى عقيدة لا تطفو إلى العقل ليناقشها من جديد .

ونعلم أن الإنسانَ له حواسٌّ إدراكية يستقبل بها المُحسَّات ؛ وله عقل يأخذ هذه الأشياء ويهضمها ؛ بعد إدراكها ؛ ويفحصها جيداً ، ويتلمس مدى صِدْقها أو كَذِبها ؛ ويستخرج من كل ذلك قضية

واضحة يُبقِيها فى قلبه لتصبح عقيدة ، لأنها وصلت إلى مرحلة الوجدان المحب لاختيار المحبوب .

وهكذا تمرُّ العقيدة بعدة مراحلَ ؛ فهى أولاً إدراك حِسِّى ؛ ثم مرحلة التفكّر العقلى ؛ ثم مرحلة الاستجلاء للحقيقة ؛ ثم الاستقرار فى القلب لتصبح عقيدة .

ولذلك يقول سبحانه :

﴿ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم .. (٢٨) ﴾ [الرعد]

فاطمئنان القلب هو النتيجة للإيمان بالعقيدة ؛ وقد يمرُّ على القلب بعضٌ من الأغيار التى تزلزل الإيمان ، ونقول لمن تمرُّ به تلك الهواجس من الأغيار : أنت لم تُعْطِ الربوبية حقَّها ؛ لأنك أنت الملُوم فى أىِّ شىء يَنَالُكَ .

فلو أحسنتَ استقبال القدر فيما يمرُّ بك من أحداث ، لَعلمْتَ تقصيرك فيما لك فيه دَخْل بأىِّ حادث وقع عليك نتيجة لعملك ، أما مَا وقع عليك ولا دَخْل لك فيه ؛ فهذا من أمر القَدَر الذى أراده الحقُّ لك لحكمة قد لا تعلمها ، وهى خَيْرٌ لك .

إذن : استقبال القدر إن كان من خارج النفس فهو لك ، وإن كان من داخل النفس فهو عليك .

ولو قُمْتَ بإحصاء ما ينفعك من وقوع القدر عليك لَوجدتَّه أكثرَ بكثير مما سلَبه منك . والمَثَل هو الشاب الذى استذكر دروسه واستعدَّ للامتحان ؛ لكن مرضاً داهمه قبل الامتحان ومنعه من أدائه .

هذا الشاب فعلَ ما عليه ؛ وشاءَ الله أن ينزل عليه هذا القدر لحكمة ما ؛ كأنْ يمنع عنه حسَد جيرانه ؛ أو حسدَ مَنْ يكرهون أُمه أو أباه ، أو يحميه من الغرور والفتنة فى أنه مُعتمد على الأسباب لا على المُسبِّب . أو تأخير مرادك أمام مطلوب الله يكون خيراً .

وهكذا فعلى الإنسان المؤمن أن يكون موصولاً بالمُسبِّب الأعلى ، وأنْ يتوكل عليه سبحانه وحده ، وأنْ يعلم أن التوكل على الله يعنى أن تعمل الجوارح ، وأنْ تتوكَّل القلوب ؛ لأن التوكل عملٌ قلبى ، وليس عملَ القوالب .

ولينتبه كُلٌّ منّا إلى أن الله قد يُغيب الأسباب كى لا نغتر بها ، وبذلك يعتدل إيمانك به ؛ ويعتدل إيمان غيرك .

وقد ترى شاباً ذكياً قادراً على الاستيعاب ، لكنه لا ينال المجموع المناسب للكلية التى كان يرغبها ؛ فيسجد لله شكراً ؛ مُتقبِّلاً قضاء الله وقَدَره ؛ فيُوفِّقه الله إلى كلية أخرى وينبغ فيها ؛ ليكون أحدَ البارزين فى المجال الجديد .

لهذا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٢١٦) ﴾ [البقرة]

وهكذا نجد أن مَنْ يقبل قَدر الله فيه ، ويذكر أن له رباً فوق كل الأسباب ؛ فالاطمئنان يغمرُ قلبه أمام أىِّ حدَثٍ مهْمَا كان .

وهكذا يطمئن القلب بذكر الله ؛ وتهون كُلّ الأسباب ؛ لأن الأسباب إنْ عجزتْ ؛ فلن يعجز المُسبِّب .

وقد جاء الحق سبحانه بهذه الآية فى مَعْرِض حديثه عن التشكيك

الذى يُثيره الكافرون ، وحين يسمع المسلمون هذا التشكيك ؛ فقد توجد بعض الخواطر والتساؤلات : لماذا لم يأْتِ لنا رسول الله ﷺ بمعجزة حسِّية مثل الرُّسُل السابقين لتنفضّ هذه المشكلة ، وينتهى هذا العناد ؟

ولكن تلك الخواطر لا تنزع من المؤمنين إيمانهم ؛ ولذلك يُنزِل الحق سبحانه قوله الذى يُطمئن :

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ .. (٢٨) ﴾ [الرعد]

والذِّكْر فى اللغة جاء لِمَعَانٍ شتّى ؛ فمرّةً يُطلق الذِّكر ، ويُرَاد به الكتاب أى : القرآن :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩) ﴾ [الحجر]

ويأتى الذكر مرّة ، ويُرَاد به الصِّيت والشهرة والنباهة ، يقول تعالى :

﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ (٤٤) ﴾ [الزخرف]

أى : أنه شَرَفٌ عظيم لك فى التاريخ ، وكذلك لقومك أنْ تأتى المعجزة القرآنية من جنس لغتهم التى يتكلمون بها .

وقد يُطلَق الذكر على الاعتبار ؛ والحق سبحانه يقول :

﴿ وَلَـٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا[1] (١٨) ﴾ [الفرقان]

---

(١) البوار : الهلاك . والبائر : الهالك . قال الجوهرى : البور الرجل الفاسد الهالك الذى لا خير فيه . ودار البوار : دار الهلاك . [لسان العرب ـ مادة : بور] .

أى : نسوا العبَر التى وقعتْ للأمم التى عاشتْ من قبلهم ؛ فنصرَ الله الدينَ رغم عناد هؤلاء .

وقد يُطلق الذِّكْر على كُلِّ ما يبعثه الحق سبحانه على لسان أىِّ رسول :

﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٤٣) ﴾ [النحل]

وقد يُطلَق الذِّكْر على العطاء الخيِّر من الله .

ويُطْلق الذِّكْر على تذكُّر الله دائماً ؛ وهو سبحانه القائل :

﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ .. (١٥٢) ﴾ [البقرة]

أى : اذكرونى بالطاعة أذكرْكُم بالخير والتجليّات ، فإذا كان الذِّكْر بهذه المعانى ؛ فنحن نجد الاطمئنان فى أىٍّ منها ، فالذكر بمعنى القرآن يُورثِ الاطمئنان .

يقول الحق سبحانه :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (٤١) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (٤٢) هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا (٤٣) ﴾ [الأحزاب]

فكُلُّ آية تأتى من القرآن كانت تُطمئنُ الرسول ﷺ أنه صادقُ البلاغِ عن الله ؛ فقد كان المسلمون قلة مُضطهدة ، ولا يقدرون على حماية أنفسهم ، ولا على حماية ذَويهم .

ويقول الحق سبحانه فى هذا الظرف :

﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) ﴾ [القمر]

ويتساءل عمر[١] رضى الله عنه : أىُّ جمع هذا ، ونحن لا نستطيع الدفاع عن أنفسنا ؛ وقد هاجر بعضنا إلى الحبشة خوفاً من الاضطهاد ؟

ولكن رسول الله ﷺ يسير إلى بدر ، ويُحدِّد أماكن مصارع كبار رموز الكفر من صناديد قريش ؛ ويقول : « هذا مصرع فلان ، وهذا مصرع فلان »[٢] ؛ بل ويأتى بالكيفية التى يقع بها القتل على صناديد قريش ؛ ويتلو قول الحق سبحانه :

﴿ سَنَسِمُهُ[٣] عَلَى الْخُرْطُومِ (١٦) ﴾ [القلم]

وبعد ذلك يأتون برأس الرجل الذى قال عنه رسول الله ذلك؛ فيجدون الضربة قد جاءت على أنفه[٤] .

فمنْ ذَا الذى يتحكم فى مواقع الموت ؟

---

(١) أورد ابن كثير فى تفسيره وعزاه لابن أبى حاتم (٢٦٦/٤) عن عكرمة قال : « لما نزلت : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) ﴾ [القمر] . قال عمر : أىّ جمع يهزم ؟ أى أىّ جمع يغلب ؟ قال عمر : فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ يثب فى الدرع وهو يقول : « سيهزم الجمع ويولون الدبر» فعرفت تأويلها يومئذ » .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٧٧٩) ، وأحمد فى مسنده (٢١٩/٣ ، ٢٥٨) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه .

(٣) وسمه يسمه وَسْماً : جعل له علامة يُعْرف بها بالكىّ أو بقطع جزء من الجسم . قال تعالى : ﴿ سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ (١٦) ﴾ [القلم] . أى : سنجعل له علامة فوق أنفه بالكى أو بالجدع أو بالقطع ، وهذه العبارة كناية عن الإذلال أى سنذله . [القاموس القويم ٣٣٨/٢] .

(٤) قال ابن عباس فى تفسير الآية من تفسيره (٤٠٥/٤) : « يقاتل يوم بدر فيخطم بالسيف فى القتال » . وأخرج مسلم فى صحيحه (١٧٦٣) من حديث عمر بن الخطاب أنه بينما رجل من المسلمين يومئذ يشتد فى أثر رجل من المشركين أمامه إذ سمع ضربة بالسوط فوقه . فنظر إليه فإذا هو قد خُطِم أنفه ، وشُقَّ وجهه كضربة السوط» .

إن ذلك لا يتأتى إلاَّ من إله هو الله ؛ وهو الذى أخبر محمداً ﷺ بهذا الخبر :

﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) ﴾ [القمر]

وقد طمأنَ هذا القولُ القومَ الذين اتبعوا رسول الله ﷺ الذى لا يعلم الغيب ، ولا يعلم الكيفية التى يموت عليها أىُّ كافر وأىُّ جبار ؛ وهو ﷺ يخبرهم بها وهُمْ فى منتهى الضَّعْف .

وهذا الإخبار دليل على أن رصيده قوىّ عند علاَّم الغيوب .

إذن : فقول الحق سبحانه :

﴿ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨) ﴾ [الرعد]

يعنى : أن القلوب تطمئن بالقرآن وما فيه من أخبار صادقة تمام الصدق ، لتؤكد أن محمداً ﷺ مُبلِّغ عن ربِّه ؛ وأن القرآن ليس من عند محمد ﷺ بل هو من عند الله .

وهكذا استقبل المؤمنون محمداً ﷺ وصدَّقوا ما جاء به ؛ فهاهى خديجة ـ رضى الله عنها وأرضاها ـ لم تكُنْ قد سمعت القرآن ؛ وما أنْ أخبرها رسول الله ﷺ بمخاوفه من أنَّ ما يأتيه قد يكون جنّاً ، فقالت :

« إنك لتَصلُ الرَّحم ، وتحمل الكَلَّ ، وتكسب المعدوم ، وتَقْرى الضَّيْف ، وتُعينَ على نَوائب الحق ، والله ما يخزيك الله أبداً »[1] .

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٣) وستة مواضع أخرى من صحيحه ، وأخرجه أيضاً مسلم فى صحيحه (١٦٠) من حديث عائشة رضى الله عنها .

ومعنى « تحمل الكل » أى : تعين المثقل ومنه الإنفاق على الضعيف واليتيم والعيال .

و « تكسب المعدوم » أى : تستفيد المال المعدوم وقد كان النبى ﷺ محظوظاً فى تجارته .

« تقرى الضيف » أى : تطعمه طعام الأضياف . و « نوائب الحق » حادثات الأيام . انظر : شرح النووى على مسلم (٢/ ٥٦١) ، وفتح البارى للعسقلانى (١/ ٢٤) .

وها هو أبو بكر ـ رضى الله عنه وأرضاه ـ يصدق أن محمداً رسول من الله ، فَوْرَ أن يخبره بذلك .

وهكذا نجده ﷺ قد امتلك سمَاتاً ؛ وقد صاغ الله لرسوله أخلاقاً ، تجعل مَنْ حوله يُصدِّقون كُلَّ ما يقول فَوْر أنْ ينطق .

ونلحظ أن الذين آمنوا برسالته ﷺ ؛ لم يؤمنوا لأن القرآن أخذهم ؛ ولكنهم آمنوا لأن محمداً ﷺ لا يمكن أن يكْذبهم القول ، وسيرته قبل البعثة معجزة فى حَدِّ ذاتها ، وهى التى أدَّتْ إلى تصديق الأوَّلين لرسول الله ﷺ .

أما الكفار فقد أخذهم القرآن ؛ واستمال قلوبهم[1] ، وتمنَّوْا لو نزل على واحد آخر غير محمد ﷺ .

وحين يرى المؤمنون أن القرآن يُخبرهم بالمواقف التى يعيشونها ، ولا يعرفون لها تفسيراً ؛ ويخبرهم أيضاً بالأحداث التى سوف تقع ، ثم يجدون المستقبل وقد جاء بها وفْقاً لما جاء بالقرآن ، هنا يتأكد لهم أن القرآنَ ليس من عند محمد ، بل هو من عند رَبِّ محمد ﷺ .

---

(١) أورد ابن هشام فى السيرة النبوية (٢/٣١٥) « أن أبا سفيان بن حرب ، وأبا جهل بن هشام ، والأخنس بن شريق خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله ﷺ ، وهو يصلى من الليل فى بيته ، فأخذ كل رجل منهم مجلساً يستمع فيه ، وكل لا يعلم بمكان صاحبه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق فتلاوموا . وقال بعضهم لبعض : لا تعودوا فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم فى نفسه شيئاً ، ثم انصرفوا ، حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرّقوا ، فجمعهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة ، ثم انصرفوا .. » وحدث هذا الليلة الثالثة .

ولذلك فحين يُثير الكفار خزعبلاتهم للتشكيك فى محمد ﷺ يأتى القرآن مُطَمْئِناً للمؤمنين ؛ فلا تؤثر فيهم خزعبلات الكفار .

والمؤمن يذكر الله بالخيرات ؛ ويعتبر من كل ما يمرُّ به ، وبكل ما جاء بكتاب الله ؛ وحين يقرأ القرآن فقلبه يطمئِنُّ بذكر الله ؛ لأنه قد آمن إيمانَ صِدْقٍ .

وقد لمس المؤمنون أن أخبار النبى التى يقولها لهم قد تعدَّتْ محيطهم البيئىّ المحدود إلى العالم الواسع بجناحَيْه الشرقى فى فارس ، والغربى فى الروم .

وقد أعلن لهم رسول الله ﷺ ـ على سبيل المثال ـ خبر انتصار الروم على الفرس ، حين أنزل الحق سبحانه قوله :

﴿ الٓمٓ (١) غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِى أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِى بِضْعِ سِنِينَ .. (٤) ﴾ [الروم]

فأرونى أىّ عبقرية فى العالم تستطيع أن تتحكم فى نتيجة معركة بين قوتين تصطرعان وتقتتلان ؛ وبعد ذلك يحدد مَنِ الذى سينتصر ، ومنِ الذى سيُهزم بعد فترة من الزمن تتراوح من خَمْس إلى تِسْع سنوات ؟

وأيضاً تأتى الأحداث العالمية التى لا يعلم عنها رسول الله ﷺ شيئاً ، وتوافق ما جاء بالقرآن .

وكُلُّ ذلك يجعل المؤمنين بالقرآن فى حالة اطمئنان إلى أن هذا القرآن صادق ، وأنه من عند الله ، ويُصدّق هذا قول الحق سبحانه :

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨) ﴾ [الرعد]

ونعلم أن الكون قد استقبل الإنسان الأول - وهو آدم عليه السلام - استقبالاً ، وقد هُيِّىء له فيه كُلُّ شىء من مُقوِّمات الحياة ؛ وصار الإنسانُ يعيش فى أسباب الله ، تلك الأسباب المَمْدودة من يَدِ الله ؛ فنأخذ بها وتترقَّى حياتنا بِقَدْر ما نبذل من جَهْد .

وما أنْ نموتَ حتى نصلَ إلى أرْقى حياة ؛ إنْ كان عملُنا صالحاً وحَسُنَ إيماننا بالله ؛ فبعد أنْ كُنّا نعيش فى الدنيا بأسباب الله الممدودة ؛ فنحن نعيش فى الآخرة بالمُسبِّب فى جنته التى أعدَّها للمتقين .

وقول الحق سبحانه :

﴿ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨) ﴾ [الرعد]

يعنى : أن الاطمئنان مُسْتوعِب لكل القلوب ؛ فكل إنسان له زاوية يضطرب فيها قلبه ؛ وما أنْ يذكر الله حتى يجِدَ الاطمئنان ويتثبتَ قلبه .

وقد حاول المستشرقون أن يقيموا ضَجَّة حول قوله تعالى :

﴿ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨) ﴾ [الرعد]

وتساءلوا : كيف يقول القرآن هنا أن الذِّكْر يُطمئِن القلب ؛ ويقول فى آية أخرى :

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ[1] قُلُوبُهُمْ .. (٢) ﴾ [الأنفال]

فأىُّ المعنيَيْنِ هو المراد ؟

ولو أن المستشرقين قد استقبلوا القرآن بالملَكة العربية الصحيحة لَعلموا الفارق بين :

﴿ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨) ﴾ [الرعد]

وبين قول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ .. (٢) ﴾ [الأنفال]

فكأنه إذا ذُكر الله أمام الناس ؛ وكان الإنسان فى غَفْلة عن الله ؛ هنا ينتبه الإنسانَ بوجَلٍ .

أو : أن الحق سبحانه يخاطب الخَلْق جميعاً بما فيهم من غرائز وعواطف ومواجيد ؛ فلا يوجد إنسان كامل ؛ ولكُلِّ إنسان هفوة إلا مَنْ عصم الله .

وحين يتذكر الإنسانُ إسرافه من جهة سيئة ؛ فهو يَوْجَل ؛ وحين يتذكر عَفْو الله وتوبته ومغفرته يطمئن .

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى[2] لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ (٢٩) ﴾

---

(١) وجل يوجل : فزع وخاف . قال تعالى :﴿ قَالُوا لا تَوْجَلْ .. (٥٣) ﴾ [الحجر] . أى : لا تفزع ولا تخف . وهو وجل أى خائف . قال تعالى : ﴿ قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ (٥٢) ﴾ [الحجر] . [القاموس القويم ٢/٣٢١] .

(٢) طوبى : اسم تفضيل أى لهم أطيب عاقبة . وقيل : طوبى مصدر مثل بُشْرى : أى : لهم لذة وطيب وسعادة وخير . وقيل : علَم على الجنة أو على شجرة طيبة فيها . [القاموس القويم ١/٤١٢] .

وطُوبَى من الشىء الطيِّب ؛ أى : سيُلاقُونَ شيئاً طيباً فى كُلِّ مظاهره : شكلاً ولَوْناً وطَعْماً ومزاجاً وشهوة ، فكُلُّ ما يشتهيه الواحد منهم سيجده طيباً ؛ وكأن الأمر الطيب موجود لهم .

وقول الحق سبحانه :

﴿ وَحُسْنُ مَئَابٍ (٢٩) ﴾ [الرعد]

أى : حَسُنَ مرجعهم إلى مَنْ خلقهم أولاً ، وأعاشهم بالأسباب ؛ ثم أخذهم ليعيشوا بالمُسبِّب الأعلى ؛ وبإمكانية « كُنْ فيكون » .

● ● ●

ويريد الحق سبحانه من بعد ذلك أنْ يُوضِّح لرسوله ﷺ أنه رسول من الرُّسُل ؛ وكان كل رسول إلى أىِّ أمة يصحب معه معجزة من صِنْف ما نبغ فيه قومه .

وقد أرسل الحق سبحانه محمداً ﷺ ومعه المعجزة التى تناسب قومه ؛ فَهُمْ قد نبغوا فى البلاغة والبيان وصناعة الكلام ، وقَوْل القصائد الطويلة وأشهرها المُعلَّقات السبع ؛ ولهم أسواقٌ أدبية مثل : سوق عكاظ ، وسوق ذى المجاز .

ولذلك جاءت معجزته ﷺ من جنس ما نبغُوا فيه ؛ كى تأتيهم الحُجَّة والتعجيز .

ولو كانت المعجزة فى مجال لم ينبغوا فيه ؛ لقالوا : « لم نعالج أمراً مثل هذا من قبل ؛ ولو كُنَّا قد عالجناه لَنبغْنَا فيه » .

وهكذا يتضح لنا أن إرسالَ الرسولِ بمعجزة فى مجال نبغَ فيه

قومه هو نَوْعٌ من إثبات التحدِّى وإظهار تفوُّق المعجزة التى جاء بها الرسول .

وهكذا نرى أن إرسال محمد ﷺ بالقرآن - وإنْ لم يُقنِع الكفار - إنما كان مُطَابقاً لمنطق الوحى من السماء للرسالات كلها .

ولذلك يقول الحق سبحانه هنا :

﴿ كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَاْ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾ ﴾

فكما أرسلك الله إلى أمتك ؛ فقد سبق أنْ أرسل سبحانه رُسُلاً إلى الأمم التى سبقتْ ؛ ولم يُرسل مع أىٍّ منهم معجزة تناقض ما نبغَ فيه قومُه ؛ كَىْ لا يقولَ واحدٌ أن المعجزة التى جاءتْ مع الرسول تتناولُ ضَرْباً لم يَأْلفوه ؛ ولو كانوا قد أَلِفوه لَمَا تفوَّق عليهم الرسول .

وقول الحق : ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ [الرعد]

يعنى : كهذا الإرسال السابق للرسل جاء بَعْثُكَ إلى أمتك ، كتلك الأمم السابقة .

ويأتى الحق سبحانه هنا بالاسم الذى كان يجب أن يَقْدروه حَقَّ قَدْره وهو « الرحمن » فلم يَقُلْ : وهم يكفرون بالله بل قال :

﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ .. ﴿٣٠﴾ ﴾ [الرعد]

فهم يعيشون - رغم كُفْرهم - فى رزقٍ من الله الرحمان ، وكُل ما حولهم وما يُقيتهم وما يَسْتمتعون به من نِعَم هى عطاءاتٌ من الله .

وهم لا يقومون بأداء أىٍّ من تكاليف الله ؛ فكان من اللياقة أن يذكروا فَضْل الله عليهم ؛ وأنْ يؤمنوا به ؛ لأن مطلوب الألوهية هو القيام بالعبادة .

وهو سبحانه هنا يأتى باسمه « الرحمٰن » ؛ والذى يفيد التطوع بالخير ؛ وكان من الواجب أنْ يقدرُوا هذا الخيْر الذى قدَّمه لهم سبحانه ، دون أن يكون لهم حَوْلٌ أو قوة .

وكان يجب أن يعتبروا ويعلنوا أنهم يتجهون إليه سبحانه بالعبادة ؛ وأنْ يُنفّذوا التكليف العبادىّ .

وفى صُلْح الحديبية دارتْ المفاوضات بين المسلمين وكفار قريش الذين منعوا رسول الله ﷺ من دخول مكة ، ولكنهم قَبِلوا التعاهد معه ، فكان ذلك اعترافاً منهم بمحمد ﷺ وصَحْبه الذين صاروا قوة تُعاهِدُ ؛ تأخذ وتعطى .

ولذلك نجد سيدنا أبا بكر - رضى الله عنه - يقول : « ما كان فى الإسلام نصرٌ أعظم من نَصْر الحديبية » .

فقد بدأتْ قريش فى الحديبية الاعترافَ برسول الله وأمة الإسلام ؛ وأخذوا هُدْنة طويلة تمكَّن خلالها محمد ﷺ وصحابته من أنْ يغزُوا القبائل التى تعيش حول قريش ؛ حيث كانت تذهب سَرِية ومعها مُبشِّر بدين الله ؛ فتُسلِم القبائل قبيلة من بَعْد قبيلة .

وهكذا كانت الحديبية هى أعظم نصْر فى الإسلام ؛ فقد سكنتْ قريش ؛ وتفرَّغ رسول الله ﷺ ومَنْ معه لدعوة القبائل المحيطة بها للإسلام .

ولكن الناس لم يتسع ظنُّهم لمَا بين محمد وربِّه . والعباد دائماً يَعْجلون ، والله لا يَعْجل بعَجلةِ العَباد حتَّى تبلغَ الأمورُ ما أراد[١] .

وحين جاءت لحظة التعاقد بين رسول الله ﷺ وبين قريش فى الحُديْبية ، وبدأ علىٌّ بن أبى طالب فى كتابة صيغة المعاهدة ، كتب « هذا ما صَالح عليه محمد رسول الله » فاعترض سهيل بن عمرو وقال : لو شهدتُ أنك رسول الله لم أقاتلك ، ولكن اكتب : « هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله وسهيل بن عمرو » .

وأصَرَّ صحابة رسول الله ﷺ على أن تُكتب صفة محمد كرسول ، لكن النبى ﷺ قال : « والله إنى لرسول الله وإن كذبتمونى . اكتب محمد بن عبد الله »[٢] .

ولكن علياً ـ كرَّم الله وجهه ـ يُصرُّ على أن يكتب صفة محمد كرسول من الله ؛ فيُنطق الحق سبحانه رسوله ﷺ ليقول لعلىّ : «سَتُسَام[٣] مثلها فتقبل » .

---

(١) وفى هذا يورد السيوطى فى الدر المنثور (٥٠٩/٧) آثاراً ، منها الأثر الذى عزاه للبيهقى عن عروة رضى الله عنه أن بعض الصحابة قالوا : والله ما هذا بفتح ، لقد صددنا عن البيت وصُدَّ هدينا .. فقال ﷺ : « بئس الكلام، هذا أعظم الفتح ، لقد رضى المشركون أن يدفعوكم بالراح عن بلادهم ويسألوكم القضية ويرغبون إليكم فى الإياب ، وقد أظفركم الله عليهم ، وردكم سالمين غانمين مأجورين ، فهذا أعظم الفتح » .

(٢) أورده ابن هشام فى السيرة النبوية (٣١٧/٣) .

(٣) سامه الأمر يسومه : كلَّفه إياه . وأكثر ما يستعمل فى العذاب والشر والظلم . والسَّوْم : التكليف . [لسان العرب ـ مادة : سوم] .

ولما تولَّى علىٌّ - كرَّم الله وجهه - بعد أبى بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم أجمعين ، وقامت المعركة بين على ومعاوية ؛ ثم اتفق الطرفان على عَقْد معاهدة ؛ وكتب الكاتب « هذا ما قاضى عليه أمير المؤمنين على بن أبى طالب » فقال عمرو بن العاص مندوب معاوية : « اكتب اسمه واسم أبيه ، هو أميركم وليس أميرنا » .

وهنا تذكَّر على - كرم الله وجهه - ما قاله سيدنا رسول الله ﷺ : « سَتُسَام مثلها فتقبَّل » وقَبِلها فقال : « امْحُ أمير المؤمنين ، واكتب هذا ما قاضى عليه على بن أبى طالب »[(١)] وتحققت مقولة الرسول ﷺ .

ومن الوقائع التى تُثبِّتُ الإيمانَ ؛ نجد قصة عمار بن ياسر ، وكان ضمن صُفوف على - كرَّم الله وجهه وأرضاه - فى المواجهة مع معاوية ؛ وقتله جُنود معاوية ؛ فصرخ المسلمون وقالوا : « وَيْحَ[(٢)] عمار ، تقتله الفئة الباغية »[(٣)] . وهكذا كان رسول الله ﷺ قد قال .

وبذلك فَهِم المسلمون أن الفئة الباغية هى فئة معاوية ، وانتقل كثير من المسلمين الذين كانوا فى صَفِّ معاوية إلى صَفِّ على بن أبى طالب ؛ فذهب عمرو بن العاص إلى معاوية وقال : تفشَّت فى

---

(١) أورده ابن كثير فى البداية والنهاية (٢٨٧/٧) طبعة دار الريان للتراث . الطبعة الأولى ١٩٨٨م . حوادث عام ٣٧ هجرية .

(٢) ويح : كلمة ترحُّم وتوجُّع . تُقال لمن تنزل به بليّة . [لسان العرب - مادة : ويح] .

(٣) أخرجه أحمد فى مسنده (٩١/٣) ، والبخارى فى صحيحه (٥٤١/١) ، والبيهقى فى دلائل النبوة (٥٤٦/٢) من حديث أبى سعيد الخدرى .

الجيش فَاشِيـة ، إن استمرتْ لن يبقى معنا أحد ؛ فقـد قتلنا عمار بن ياسر ؛ وذكر صحابة رسول الله ﷺ قوله : « وَيْحَ عمار ، تقتله الفئَة البَاغِية » ، وقد فَهِم المقاتلون معنا أن الفئة الباغية هى فئتنا .

وكان مـعاوية من الدهاء بمنزلة ؛ فقـال : اسْعَ فى الجيش وقُلْ : « إنمـا قتله مَنْ أخـرجه » ويعنى عليّـاً . ولما وصل هذا القـول لعلىٍّ قـال : ومَنْ قـتل حـمـزة بن عـبـد المطلب ، وقـد أخـرجـه للقـتـال محمد ﷺ ؟!

وهنا فى قول الحق سبحانه :

﴿ كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ .. ﴿٣٠﴾ ﴾ [الرعد]

إنما يعنى أن الحق قـد أرسلك يا محمـد بمعجـزة تُناسب ما نبغَ فيه قـومك ، وطَلَبُ غير ذلك هو جَهْل بواقع الرسـالات وتعنُّتٌ يُقصَد منه مزيدٌ من ابتعادهم عن الإيمان .

وقول الحق سبحانه :

﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ قُلْ هُوَ رَبِّي .. ﴿٣٠﴾ ﴾ [الرعد]

أى : أنهم حين يُعـلنون الكفر فأنت تصـادمهم بإعـلان الإيمان ، وتقول :

﴿ هُوَ رَبِّي لا إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ .. ﴿٣٠﴾ ﴾ [الرعد]

وكلمة « ربى » تنسـجم مع كلمة « الرحمـٰن » الذى يُنعِم بالنعم كلهـا ؛ وهو المُتـولِّى تربيتى ؛ ولو لم يـفعل سِـوَى خَلْقى وتربيـتى ومَدّى بالحياة ومُقوِّمـاتها ؛ لَـكانَ يكفى ذلك لأعبـده وحده ولا أشرك به أحداً .

ولو أن الإنسان قد أشرك بالله ؛ لالتفتَ مرة لذلك الإله ؛ ومرة أخرى للإله الآخر ؛ ومرة ثالثة للإله الثالث وهكذا ، وشاء الله سبحانه أن يريح الإنسان من هذا التشتت بعقيدة التوحيد .

ويأتى القرآن ليُطمئن القلوب أيضاً وليذكر :

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ[1] وَرَجُلاً سَلَمًا[2] لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٢٩) ﴾ [الزمر]

وهكذا يعرض لنا القرآن صورتين :

الصورة الأولى : لرجل يملكه أكثر من سيد ، يعارضون بعضهم البعض .

والصورة الثانية : لرجل آخر ، يملكه سيد واحد .

ولا بُدَّ للعقل أن يعلمَ أن السيد الواحد أفضل من الأسياد المتعددين ؛ لأن تعدُّد الأسياد فساد وإفساد ، يقول الحق سبحانه :

﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٢٢) ﴾ [الأنبياء]

والعاقل هو مَنْ لا يُسلِّم نفسه إلا لسيّد واحد يثق أنه أمين عليه ، ونحن فى حياتنا نقول : ما يحكم به فلان أنا أرضى به ؛ وقد

---

(١) تشاكس القوم : تنازعوا واشتد اختلافهم . قال تعالى :﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ .. (٢٩)﴾ [الزمر] . ذلك مثل العبد المشرك له آلهة متعددة يتنازعون فيه . [القاموس القويم ١/٣٥٤] .

(٢) المعنى : أن مَنْ وَحَّد الله مَثَلُه مَثَلُ السالم لرجل لا يشركه فيه غيره . [لسان العرب - مادة : سلم] .

وكَلْته فى كذا . ولا أحد منّا يُسلِّم نفسه إلا لمَنْ يرى أنه أمين على هذا الإسلام ، ولا بُدَّ أن يكون أميناً وقوياً ، ويقدر على تنفيذ مطلوبه .

والرسول ﷺ فى المعركة العنيفة مع صناديد قريش قال : إنِّى متوكل على الله ، وهذه شهادة منه على أنه توكل على القوى الأمين الحكيم ؛ والرسول لم يَقُلْ توكلت عليه ؛ ولكنه قال :

﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ..(٣٠) ﴾ [الرعد]

والفارق بين القَوْلَيْنِ كبير ، فحين تقول « عليه توكلت » فأنت تَقْصر التوكُّل عليه وحده ؛ ولكن إنْ قُلت : « توكلت عليه » . فأنت تستطيع أن تضيف وتعطف عدداً آخر مِمَّنْ يمكنك التوكل عليهم .

ولذلك نقول :

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ..(٥) ﴾ [الفاتحة]

ونحصر العبادة فيه وله وحده سبحانه ؛ فلا تتعداه إلى غيره ؛ ولو أنها أُخِرَّتْ لَجازَ أن يعطف عليه . ويُقَال فى ذلك « اسم قصر » أى : أن العبادة مَقْصورة عليه ؛ وكذلك التوكُّل .

﴿ قُلْ هُوَ رَبِّى لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ..(٣٠) ﴾ [الرعد]

أى : أننى لا آخذ أوامرى من أحد غيره ومَرْجعى إليه .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَايْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ[1] أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾﴾

و (لو) حَرْف شَرْط يلزم لها جوابُ شَرْط ، وقد ترك الحق سبحانه جواب الشَّرْط هنا اعتماداً على يقظة المُسْتَمع . وإنْ كان مثل هذا القول ناقصاً حين ننطق نحن به ، فهو ليس كذلك حين يأتى من قَوْل الله سبحانه ؛ فهو كامل فيمن تكلَّم ، وقد تركها ليقظة المُسْتمِع للقرآن الذى يبتدر المعانى ، ويتذكَّر مع هذه الآية قوله الحق :

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ[2] فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَـٰذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾﴾ [الأنعام]

وكذلك قول الحق سبحانه :

﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ

---

(١) القارعة : الداهية تفجؤهم بكفرهم وعتوّهم . ويقال : قرعه أمر إذا أصابه . قال ابن عباس : القارعة : النكبة . وقال أيضاً : القارعة : الطلائع والسرايا التى كان يُنفذها رسول الله ﷺ لهم . [تفسير القرطبى ٣٦٥٧/٥] .

(٢) القرطاس : الصحيفة يكتب فيه من ورق أو نحوه . [القاموس القويم ١١٣/٢] . جمعها قراطيس ورد به قوله تعالى : ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِى جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا .. ﴿٩١﴾﴾ [الأنعام] .

شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ (١١١) ﴾

[الأنعام]

إذن : من كل نظائر تلك الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها نأخذ جواب الشرط المناسب لها من تلك الآيات ؛ فيكون المعنى : لو أن قُرْآناً سُيِّرتْ به الجبال ، أو قُطِّعَتْ به الأرض ، أو كُلِّمَ به المَوْتى لَمَا آمنوا .

ويُرْوَى أن بعضاً من مُشْرِكى قريش مثل : أبى جهل وعبد الله ابن أبى أمية جلَسَا خلف الكعبة وأرسلا إلى رسول الله ﷺ ؛ وقال له عبد الله : إن سَرَّك أن نتبعك فَسَيِّر لنا جبال مكة بالقرآن ، فأذهبها عَنَّا حتى تنفسح ، فإنها أرض ضيِّقة ، واجعل لنا فيها عيوناً وأنهاراً ، حتى نغرس ونزرع ، فلستَ ـ كما زعمْتَ ـ بأهْونَ على ربِّك من داود حين سخَّر له الجبال تسير معه ، وسَخِّر لنا الرِّيح فنركبها إلى الشام نقضى عليها مَيْرتنا وحوائجنا ، ثم نرجع من يومنا ، فقد سخِّرَتْ الريحُ لسليمانَ بن داود ، ولستَ بأهونَ على ربِّك من سليمان ، وأحْيِى لنا قَصَبَ[1] جَدِّك ، أو مَنْ شئتَ أنت من موتانا نسأله ، أحقٌّ ما تقول أنت أم باطل ؟ فإن عيسى كان يُحيى المَوْتَى ، ولستَ بأهونَ على الله منه ، فأنزل الحق سبحانه هذه الآية وما قبلها للرد عليهم[2] .

---

(١) القصب من العظام : كل عظم أجوف مستدير له مُخّ . [لسان العرب ـ مادة : قصب] .

(٢) أورده القرطبى فى تفسيره (٥/٣٦٥٥) وقال : قال معناه الزبير بن العوام ومجاهد وقتادة والضحاك . وانظر : أسباب النزول (ص ١٥٧ ، ١٥٨) .

وكانت تلك كلها مسائل يتلكَّكُونَ بها ليبتعدوا عن الإيمان ؛ فالرسول ﷺ قد جاء بمعجزة من جِنْس ما نَبغُوا فيه ؛ وجاء القرآن يَحْمِل منهج السماء إلى أنْ تقومَ الساعة .

وقد طلبوا أنْ تبتعد جبال مكة ليكونَ الوادى فسيحاً ؛ ليزرعوا ويحصدوا ؛ وطلبوا تقطيع الأرض ، أى : فَصْل بقعة عن بقعة ؛ وكان هذا يحدث بِحَفْر جداول من المياه ، وقد قال الكافرون :

﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ﴿٩٠﴾﴾ [الإسراء]

والمراد من تقطيع الأرض - حسب مطلوبهم - أن تقصُرَ المسافةُ بين مكان وآخر ، بحيث يستطيع السائر أنْ يستريح كل فَتْرة ؛ فالمسافر يترك فى كل خطوة من خطواته أرضاً ؛ ويصل إلى أرض أخرى ، وكُلٌّ يقطع الأرض على حَسْب قدرته ووسيلة المواصلات التى يستخدمها .

فالمُتْرَف يريد أن تكون المسافة كبيرة بين قطعة الأرض والأخرى ؛ لأنه يملك الجِيَاد التى يمكن أن يقطع بها المسافة بسهولة ، أما مَنْ ليس لديه مطية ؛ فهو يحب أن تكون المسافات قريبة ليستطيع أنْ يستريح .

ونلحظ نحن ذلك فى زماننا المعاصر ، فحين زادَ الترف صارتْ السيارات تقطَع المسافة من القاهرة إلى الإسكندرية دون توقُّف ؛ عكْس ما كان يحدث قديماً حين كانت السيارات تحتاج إلى راحة ومعها المسافرون بها ، فيتوقفون فى مُنتصَفِ الطريق .

ومثل ذلك قد حدث فى مملكة سبأ ، يقول الحق سبحانه :

﴿ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ .. (١٩) ﴾ [سبأ]

أى : اجعل المسافة بين مكان وآخر بعيدة ، كى يتمتع المُسافِر القادرُ بالمناظر الطيبة[1] .

ولاحظنا أيضاً تمادى المشركين من قريش فى طلب المعجزات الخارقة ؛ بأنْ طلبوا إحياء المَوْتى فى قول الحق سبحانه :

﴿ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ .. (٣١) ﴾ [الرعد]

وبعضهم طلب إحياء قصى بن كلاب الجد الأكبر لرسول الله ولقريش ؛ ليسألوه : أَحَقٌّ ما جاء به محمد ؟ ولكن القرآن لم يَأْتِ لِمثْل تلك الأمور ؛ وحتى لو كان قد جاء بها لَمَا آمنوا .

ومهمة القرآن تتركز فى أنه منهج خَاتَمٌ صالح لكل عصر ؛ وتلك معجزته .

ويقول سبحانه :

﴿ بَل لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا .. (٣١) ﴾ [الرعد]

وكلمة « أمر » تدلُّ على أنه شىء واحد ، وكلمة « جميعاً » تدل على مُتعدِّد ، وهكذا نجد أن تعدُّد الرسالات والمُعْجِزات إنما يدلُّ على

---

(١) وذلك أن الله تعالى أنعم عليهم بأن جعل القرى ظاهرة والمسافات قريبة ، فقال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ (١٨) ﴾ [سبأ] . ولكنهم طلبوا من الله المباعدة بين أسفارهم فقالوا : ﴿ رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (١٩) ﴾ [سبأ] .

أن كُلَّ أمر من أمر تلك الرسالات إنما صدرَ عن الحق سبحانه ؛ وهو الذى اختارَ كلَّ مُعْجزة لتناسب القومَ الذين ينزل فيهم الرسول .

ويتابع سبحانه :

﴿ أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا ..(٣١) ﴾ [الرعد]

وكلمة « ييأس » يُقَال إنها هنا بمعنى « يعلم » ؛ فهى لغة بلهجة قريش[1] ، أى : أَلَمْ يعلم الذين آمنوا أن هؤلاء الكفار لم يهتدوا ؛ لأن الله لم يَشَأ هدايتهم .

وكان المؤمنون يودُّون أن يؤمنَ صناديدُ قريش كى يَخِفَّ الجهد عن الفئة المسلمة ؛ فلا يضطهدونهم ، ولا يضايقونهم فى أرزاقهم ولا فى عيالهم .

ويوضح الحق سبحانه هنا أن تلك المسألةَ ليست مُرتبطة برغبة المؤمن من هؤلاء ؛ بل الإيمان مسألة تتطلب أنْ يُخرِج الإنسان ما فى قلبه من عقيدة ، وينظر إلى القضايا بتجرُّد ، وما يقتنع به يُدخِله فى قلبه .

وبذلك يمتلىء الوعَاء العقدىّ بما يُفيد ؛ كى لا تدخل فى قلبك عقيدة ، وتأتى عقيدة أخرى تطردُ العقيدة ، أو تُزيغ قلبك عَمَّا تعتقد ، يقول تعالى :

﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ..(٤) ﴾ [الأحزاب]

فالوعاء القلبى كالوعاء المادىّ تماماً ؛ لا يقبل أنْ يتداخل فيه

---

(١) قيل : هو لغة هوازن . أى : أفلم يعلموا . وحكاه القشيرى عن ابن عباس . ذكره القرطبى فى تفسيره (٥/٣٦٥٦) .

جِرْمَان أبداً ، فإنْ دخل جِرْم على جِرْم ؛ إنْ كان أقوى فهو يطرد من القلب الأَدْنى منه .

والمثَلُ على ذلك : لنفترض أن عندنا إناءً ممتلئاً عن آخره ؛ ويحاول واحدٌ منا أنْ يضعَ فيه كُرةً صغيرة من الحديد ؛ هنا سيجد أن الماءَ يفيضُ من حَوافِّ الإناء بما يُوازِى حجم كرة الحديد ، وهذا ما يحدث فى الإناء المادىّ ، وكذلك الحال فى الإناء العَقَدىّ .

ولذلك يقول الحق سبحانه فى الحديث القدسى :

« لا يجتمع حُبِّى وحبُّ الدنيا فى قلب »[1] .

وهكذا نرى أن هناك حَيِّزاً للمعانى أيضاً مثلما يوجد حَيِّز للمادة ، فإذا كنتَ تريد - حقيقةً - أن تُدخِل المعانى العَقَدية الصحيحة فى قلبك ؛ فلا بُدَّ لك من أنْ تطردَ أولاً المعانى المناقضة من حَيِّز القلب ، ثم ابحَثْ بالأدلة عن مدى صلاحية أىٍّ من المعنيين ؛ وما تجده قوىَّ الدليل ؛ صحيحَ المنطق ؛ موفورَ القوة والحُجَّة ؛ فَأدخِلْه فى قلبك .

ولم يفعل الكفار هكذا ؛ بل تمادَوْا فى الغَىِّ إصراراً على ما يعتقدون من عقيدة فاسدة ؛ أما مَنْ أسلم منهم فقد أخرج من قلبه العقيدة القديمة ؛ ولم يُصِر على المُعْتَنق القديم ؛ بل درسَ وقارنَ ؛ فأسرع إلى الإسلام .

---

(١) أورد أبو حامد الغزالى فى الإحياء (٢٠٨/٣) آثاراً توضح عدم اجتماع حب الدنيا وحب الآخرة فى قلب عبد ، قال : « قال مالك بن دينار : بقدر ما تحزن للدنيا يخرج هم الآخرة من قلبك ، وبقدر ما تحزن للآخرة يخرج هم الدنيا من قلبك » .

أما مَنْ كان قلبه مشغولاً بالعقيدة السابقة ؛ ويريد أنْ يُدخل العقيدة الإسلامية فى قلبه ؛ فهو لم ينجح فى ذلك ؛ لأن قلبه مشغولٌ بالعقيدة القديمة .

وإذا كنت يا رسول الله ﷺ تريد من هؤلاء أن يؤمنوا ؛ فلا بد أن يعتمد ذلك على إرادتهم ، وأنْ يُخرِجوا من قلوبهم العقيدة الفاسدة ؛ وأنْ يبحثوا عن الأصحِّ والأفضل بين العقيدتين .

ولذلك يعلمنا الحق سبحانه كيف نصل إلى الحقائق بسهولة ، فيقول لرسوله ﷺ :

﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ[1] .. (٤٦)﴾ [سبأ]

أى : قُلْ يا محمد لِمَنْ كفر بك : إنِّى أعظكم عِظَة ، وأنت لا تَعِظ إلا مَنْ تحب أن يكون على الحق ؛ وهذا يُفسر قول الحق سبحانه :

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ[2] حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٢٨)﴾ [التوبة]

ولهذا يريد ﷺ أن تكونوا مؤمنين ؛ لذلك يدعوكم أن تقوموا لله ؛ لا لِجَاهِ أحد غيره ؛ لأن جاه أىِّ كائن سيزول مَهْمَا كان هذا الواحد ، ولا تقولن لنفسك : إن العبيد سيتساوون معك .

بل قُمْ لله إما مثنى أى أن تكون قائماً ومعك آخر ؛ أو يقوم غيرك

---

(١) الجنة : الجنون .

(٢) العنت : المشقة . وأعنته : أوقعه فى العنت وشقَّ عليه . [القاموس القويم ٢/٣٩] .

اثنين اثنين ليتناقش كل منكم مع مَنْ يجلس معه ؛ ولا يتحيز أحد منكم لِفكْر مُسْبق بل يُوجِّه فكره كله متجرداً لله .

وليتساءل كل واحد : محمد هذا ، صفته كذا وكذا ، وقد فعل كذا ، والقرآن الذى جاء به يقول كذا ، وسيجد الواحد منكم نفسه وقد اهتدى للحق بينه وبين نفسه ، وبينه وبين مَنْ جلس معه ليناقشه فيستعرضان معه تاريخ محمد ﷺ وما جاء به .

وحين يتناقش اثنان لن يخاف أىٌّ منهما أن يهزمه الآخر ، لكن لو انضمَّ إليهما ثالثٌ ؛ فكل واحد يريد أن يعتز برأيه ؛ ويرفض أن يقبل رأى إنسان غيره ، ويخشى أن يُعتبر مهزوماً فى المناقشة ؛ ويرفض لنفسه احتمال أنْ يستصغره أحد .

ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ..(٤٦) ﴾ [سبأ]

و « الجِنَّة » هى اختلال العقل ؛ أى : أن مَنْ به جِنَّة إنما يتصرف ويسلُك بأعمال لا يرتضيها العقل .

ويقرن الحق سبحانه بين العقل وبين الخُلُق ، فيقول :

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤) ﴾ [القلم]

ويُقَال : فلان على خُلُق . أى : يملك من الصفات ما يجعله على الجَادَّة من الفضائل ؛ مثل الصِّدْق والأمانة ؛ وهذه صفاتٌ يَنْظمها فى مواقفها الفكْر العقلىّ ؛ وهو الذى يُميِّز لنا أىَّ المواقف تحتاج إلى شِدّة ؛ أو لِينٍ ؛ أو حكمة ، وكلُّ هذه أمور يُرتِّبها العقل .

والخُلُق الرفيع لا يصدر عن مجنون ؛ لأنه لا يعرف كيف يختار بين البدائل ؛ لذلك لا نحاسبه نحن ؛ ولا يحاسبه الله أيضاً .

وحين يأمرهم الحق سبحانه أن يبحثوا : هل محمد يعانى من جِنَّة ؟ فالحق سبحانه يعلم مُقدَّماً أن رسول الله ﷺ بشهادتهم يتمتَّع بكمال الخُلق ؛ بدليل أن أهمَّ ما كانوا يملكونه كانوا يستأمنون عليه رسول الله ﷺ .

وبدليل أنه ﷺ حينما دخل عليهم وكانوا مختلفين فى أمر بناء الكعبة ؛ ارتضوه حَكَماً[1] .

ولذلك يقول سبحانه :

﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (١) مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (٢)﴾ [القلم]

وهكذا رأينا أن هؤلاء الكفار ما كانوا ليؤمنوا ؛ ولم يكُنِ اللهُ ليهديَهم ؛ لأنهم كانوا لا يملكون أدْنى استعداد للهداية ؛ وكأنهم أدمنُوا الكفر والعياذ بالله ؛ وقد طبع الله على قلوبهم فزادهم كفراً ؛

---

(١) كان عُمر رسول الله ﷺ حينئذ خمساً وثلاثين سنة ، أى : قبل البعثة بخمس سنين . وذلك أن قبائل قريش اختصمت فيما بينها من يضع الحجر الذى فى موضع الركن ، حتى أنهم أعدوا للقتال ، ثم إنهم اجتمعوا فى البيت الحرام وتشاوروا ، فأشار أبو أمية بن المغيرة عليهم بأنْ يُحكِّموا أول داخل عليهم من باب بنى شيبة ، فكان أول من دخل عليهم رسول الله ﷺ ، فلما رأوه قالوا : « هذا الأمين ، رضينا ، هذا محمد » فقال ﷺ : « هلم إلىَّ ثوباً » فأتى به ، فأخذ الركن فوضعه فيه بيده . ثم قال : لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ، ثم ارفعوه جميعاً . ففعلوا ، حتى إذا بلغوا به موضعه ، وضعه هو بيده ، ثم بنى عليه . انظر : السيرة النبوية لابن هشام (١/١٩٦ ، ١٩٧) .

فمـا فى تلك القلوب من كفر لا يخـرج منها ؛ وما بخارجـها لا يدخل فيها .

وقد ظَنَّ بعض من المـسلمين أن كُـفْر هؤلاء قد يُشـقِى المؤمنين بزيادة العَنت من الكافـرين ضدهم ؛ لذلك يوضح الحق سبـحانه لأهل الإيمان أن نَصْره قريب ، فيقول سبحانه :

﴿ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ (٣١) ﴾ [الرعد]

أى : اطمـئنوا يـا أهل الإيمـان ؛ فلن يظلَّ حـال أهل الـكفـر على ما هو عليه ؛ بل ستصيـبهم الكوارث وهم فى أماكنهم ، وسيشاهدون بأعينهـم كيف ينتشـر الإيمان فى المـواقع التى يسودونهـا ؛ وتتسع رقعةُ أرض الإيمـان ، وتضيق رقعة أهل الكفـر ؛ ثم يأتى نَصْر الله ؛ وقـد جـاء نَصْـر الله ولم يَبْقَ فى الجـزيرة العـربيـة إلا مَنْ يقـول : « لا إله إلا الله ، محمد رسول الله » .

وهكذا تنبأتْ الآية بمـجىء الأمل بعد اليـأس ، كى لا يظلَّ اليأس مُـسَيْطراً على حـركة الـمسلمـين وعلى نفـوسهم ، واسـتجـاب الحق سبـحانه لدعوته ﷺ حـين دعاه قـائلاً : « اللهمَّ اجعلها علـيهم سنين كسنين يوسف »[1] .

وقُتِل صناديدُهم واحداً وراء الآخر ؛ ولكـن عنادهم استمر ؛ وبلغ

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ كـان إذا رفع رأسه من الركـعة الآخـرة يقول : «اللهم اشـدد وطأتك على مـضر ، اللهـم اجعلهـا سنين كـسنى يوسف » الحـديث أخرجـه البخارى فى صحيحه (١٠٠٦) ، وأحمد فى مسنده (٢/ ٤٧٠ ، ٥٠٢ ، ٥٢١) .

العناد حَدَّ أن ابنتَىْ رسول الله ﷺ كانتا مُتزوِّجتيْنِ من ابنىْ أبى لَهَبٍ ؛ فلما أعلن النبى ﷺ رسالته ؛ قال أبو لهب وزوجته : لا بد أن يُطلِّقَ أبناؤنا بنات محمد ؛ فلما طلَّق أوَّلهما بنت رسول الله ﷺ دعا رسول الله ﷺ قائلاً : « أما إنى أسأل الله أن يسلِّط عليه كَلْبه»[(١)].

وها هو أبو لهب الكافر يقول : « لا تزال دعوة محمد على ابنى تشغل بَالى وتُقلقنى ، وأخاف أن أبعث بولدى إلى رحلة الشام كى لا تستجيب السماءُ لدعوة محمد » .

وكان من المناسب ألاَّ يخاف ، وجاء ميعاد السفر لقافلة الشام . وسافر أبو لَهَبٍ مع ولديْه ، وحين جاء ميعاد النوم أمر أبو لهب الرجال أن يقيموا سياجاً حول ولده ـ وكأن الرجال حوله كخط بارليف الذى بنتْه إسرائيل على قناة السويس ليمنع عنها صَيْحة النصر التى حملت صرخة الله أكبر ـ ثم أصبح الصبح فوجدوا أن وحشاً قد نهش ابن أبى لَهَب .

وقال الناس : كان أبو لَهَب يخشى دعوة محمد ؛ ورغم ذلك فقد تحققت . فقال واحد : ولكن محمداً دعا أن ينهشَه كَلْب وقال له « أكلك كلب من كلاب الله » ولم يَقُلْ فلينهشْكَ سبع[(٢)] ، فرد عليه مَنْ

---

(١) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٣٣٨/٢) ، وأورده الهيثمى فى مجمع الزوائد (١٩/٦) وعزاه للطبرانى مرسلاً وقال : فيه زهير بن العلاء ، وقد أخرجه الحاكم فى مستدركه (٥٣٩/٢) من حديث أبى عقرب وصححه . وحسَّنه ابن حجر فى الفتح (٣٩/٤) .

(٢) الكلب : كل سبع عقور ، ومنه الأسد . قال ابن سيده : غلب الكلب على هذا النوع النابح . وقد يكون التكليب واقعاً على الفهد وسباع الطير . [لسان العرب ـ مادة : كلب] . وانظر فتح البارى (٣٩/٤) .

سمعه : وهل إذا نُسب كلب الله أيكون كلباً ؟ لا بد أن يكون الكائن المنسوب لله كبيراً .

وهكذا دَقَّتْ القارعة بيت الرجل الذى أصرَّ على الكفر ، وتحقق قول الله :

﴿ وَلا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ .. (٣١) ﴾ [الرعد]

نعم ، فهم قد أسرفوا فى الكُفْر والعِناد ؛ فجاءتْهم القارعة ؛ والقارعة هى الشىء الذى يطرق بعنف على هادىء ساكن ، ومنها نأخذ قَرْع الباب ، وهناك فَرْق بين « نَقْر البابِ » و « قَرْع الباب » .

وقَوْل الحق سبحانه :

﴿ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ .. (٣١) ﴾ [الرعد]

يُوضِّحه أَمْر صُلْح الحديبية الذى جاء بشارةً للمسلمين ؛ فقد صار كفار قريش يفاوضون رسول الله ﷺ ، وكان النبى ﷺ يبعث بالسرايا إلى المناطق المحيطة بمكة ؛ فتأتى القبائل أفواجاً وهى تعلن إسلامها ؛ ويبلغ ذلك قريشاً بأن الإسلام يواصل زَحْفه ؛ ثم تأتيهم القارعة بأن يدخل الرسول ﷺ مكة ؛ ويتحقق وعد الله بأن يدخلوا هم أيضاً إلى حظيرة الإسلام .

أو : أن يكون المقصود بـ :

﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ ..(٣١)﴾ [الرعد]

هو مجىء يوم القيامة الذى يحمل وَعْد الله بأن يحُلَّ عليهم ما يستحقونه من عذاب .

وفى هذا القول تطمين لِمَنْ قال لهم الحق سبحانه فى أول هذه الآية :

﴿ أَفَلَمْ يَيْأَسِ ..(٣١)﴾ [الرعد]

ذلك أن الله لا يُخلِف وعده ، وهو القائل فى تذييل هذه الآية :

﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ (٣١)﴾ [الرعد]

ونعلم أن كلمة « وَعْد » عادةً تأتى فى الخير ، أما كلمة « وعيد » فيه فتأتى غالباً فى الشر .

والشاعر يقول :

وَإِنِّى إِذَا أَوْعدْتُه أَوْ وَعَدتُه لَمُنجِزٌ مِيعَادِى ومُخلِفٌ مَوْعِدى

فالإيعاد دائماً يكون بِشَرٍّ ؛ والوَعْد يعنى الخير ، إلا أن بعض العرب يستعمل الاثنين . أو نستطيع أن نقول : إن المسألة بتعبير المؤمنين ؛ أن الله سينصر المؤمنين بالقارعة التى تصيب أهل الكفر ؛ أو تأتى حَوْل ديارهم ، وفى ذلك وَعْد يُصبِّر به سبحانه المؤمنين ؛ وهو فى نفس الوقت وعيدٌ بالنسبة للكافرين .

وقوله سبحانه :

﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ (٣١)﴾ [الرعد]

هو قضية قرآنية ستتحقق حَتْماً ؛ فى كل عصر وأوان ، إذا ما أخذ المسلمون بأسباب الإيمان ؛ وهى كقضية تختلف عن وَعْد أو وَعيد البشر ؛ لأن الإنسان قد يَعِد أو يتوعَّد ؛ لكن أغيار الحياة تُصيبه ؛ فتُعطل قدرته على إنفاذ الوَعْد أو الوعيد .

أما حين يَعِدُ الله فالأمر يختلف ؛ لأن وَعْده هو وَعْد مُطْلَق ؛ وهذا هو معنى :

﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ (٣١)﴾ [الرعد]

يقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (٣٢)﴾ (١)

ويقال « هَزَأ بفلان » أى : سخر منه ، أما « استُهزِىء بفلان » أى : طُلِب من الغير أنْ يهزأ بشخص معين ، وهذا عليه إثمه وإثم مَنْ أوعز له بالسخرية من هذا الشخص .

---

(١) أملى له : أطال له ووسَّع له فيما هو فيه من خير أو شر . [القاموس القويم ٢/٢٣٦] وأملى الله له : أمهله وطوَّل له . والإملاء : الإمهال والتأخير وإطالة العمر . [لسان العرب ـ مادة : ملا] .

وقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ (٣٢) ﴾ [الرعد]

أى : لستَ بدعاً يا محمد فى أن يقف بعض الكافرين منك هذا الموقف . والمثَلُ هو الحَكَم بن أبى العاص أبو مروان[١] الذى كان يُقلِّد مشية النبى ﷺ ؛ وكان رسول الله يمشى كأنما يتحدَّر من صبب[٢] ؛ وكان بصره دائماً فى الأرض .

ولم يكن الناس مُعْتادين على تلك المِشْية الخاشعة ؛ فقد كانوا يسيرون بغرور مستعرضين مناكبهم .

وحين قلَّد الحكَمُ رسول الله رآه ﷺ بنور البصيرة ، فقال له ﷺ : « كُنْ على هذا »[٣] ، فصارت مِشْيته عاهة ، بينما كانت مِشْية رسول الله تطامناً إلى ربه ، وتواضعاً منه ﷺ .

ونفَى رسول الله ﷺ الحَكَم إلى الطائف ؛ وراح يَرْعى الغنم

---

(١) أسلم يوم فتح مكة ، وسكن المدينة، ثم نفاه النبى ﷺ إلى الطائف ، ثم أعيد إلى المدينة فى خلافة عثمان ومات بها عام ٣٢ هـ . [الإصابة فى تمييز الصحابة ٢٨/٢ ، ٢٩] .

(٢) عن على رضى الله عنه قال : « كان رسول الله ﷺ إذا مشى تكفأ تكفؤاً كأنما ينحط عن صبب لم أر قبله ولا بعده مثله ﷺ » أخرجه أحمد فى مسنده (٩٦/١ ، ١١٦) والترمذى فى سننه (٣٦٣٧) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » .

(٣) راجع الإصابة فى تمييز الصحابة (٢٨/٢ ، ٢٩) فقد أورد العسقلانى من حديث عبد الرحمن بن أبى بكر قال : كان الحكم بن أبى العاص يجلس عند النبى ﷺ ، فإذا تكلم اختلج فبصر به النبى ﷺ فقال : « كن كذلك » فما زال يختلج حتى مات . قال العسقلانى : « فى إسناده نظر » .

هناك ، ولم يَعْفُ النبى ﷺ عنه ؛ وكذلك أبو بكر فى خلافته[١] ؛ ولا عمر بن الخطاب ؛ ولكن الذى عفا عنه هو عثمان بن عفان ، وكان قريباً له[٢] .

وشهد عثمان بن عفان وقال : « والله لقد استأذنتُ رسول الله فيه فقال لى : إن استطعت أن تعفوَ عنه فَاعْفُ ، وحين وَلِيتُ أمرَ المسلمين عَفَوْتُ عنه » .

وحدث من بعد ذلك أن تولَّى عبد الملك بن مروان أمر المسلمين ؛ وكان لابنه الوليد خَيْل تتنافس مع خَيْل أولاد يزيد بن معاوية ؛ واحتال أولاد يزيد بالغش ، ووضعوا ما يُعرقِل خَيْل الوليد .

وحدث خلاف بين الفريقين فشتم الوليدُ أبناء يزيد ؛ فذهب أولاد يزيد إلى عبد الملك يشكُون له ولده ؛ وكان الذى يشكو لا يتقن نُطْق العربية دون أخطاء ؛ فقال له عبد الملك : مَا لَكَ لا تقيم لسانك من اللحْن[٣] ؟ فردَّ الذى يشكو ساخراً : « والله لقد أعجبتْنِى فصاحةُ الوليد » . ويعنى : أن حال لسان ابن عبد الملك لا يختلف عن حال

---

(١) روى الطبرانى من حديث حذيفة قال : لما ولى أبو بكر كُلِّم فى الحكم أن يرده إلى المدينة فقال : ما كنت لأحل عقدة عقدها رسول الله ﷺ . أورده ابن حجر العسقلانى فى الإصابة (٢٨/٢) .

(٢) ذكر ابن حجر فى الإصابة (٢٨/٢) أنه عَمُّ عثمان بن عفان رضى الله عنه .

(٣) اللحن : الميل عن جهة الاستقامة . يقال : لحن فلان فى كلامه إذا مال عن صحيح المنطق . وقال ابن برى وغيره : للحن ستة معانٍ : الخطأ فى الإعراب واللغة والغناء والفطنة والتعريض والمعنى . [لسان العرب ـ مادة : لحن] .

لسان مَنْ يشكو ؛ فكلاهما لا ينطق بِسَلاسَة ، ويكثر اللحْنَ فى النُّطْق بالعربية .

فقال عبد الملك : أتُعيِّرنى بعبد الله ابنى الذى لا يُتقن العربية دون لَحْن ؟ إن أخاه خالداً لا يلحن . وتبع ذلك بقوله : اسكُتْ يا هذا ، فلستَ فى العِير ولا فى النَّفِير .

وهذا مَثَلٌ نقوله حالياً ، وقد جاء إلينا عَبْر قريش ؛ حيث كانت السلطةُ فيها ذات مَصْدرين ؛ مصدر العِير ؛ أى : التجارة التى تأتى من القوافل عَبْر الشام وقائدها أبو سفيان ؛ والنَّفِير ؛ وهم القَوْم الذين نَفَرُوا لِنجْدة أبى سفيان فى موقعة بدر ؛ وكان يقودهم عتبة . فقال ابن يزيد : ومَنْ أَوْلَى بالعِير والنَّفِير منِّى ؟ ويعنى أنه حفيدُ أبى سفيان من ناحية الأب ؛ وحفيدُ عُتْبة من ناحية الأم .

وأضاف : لكن لو قُلْت شُوَيْهات وغُنَيْمات وذكرت الطائف لكنتَ على حق ؛ ورَحِم الله عثمان الذى عفَا عن جَدِّك ، وأرجعه من المَنْفى .

ونعلم أن الحق سبحانه وتعالى قال لرسوله ﷺ :

﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ (٩٥) ﴾ [الحجر]

وكان أىّ إنسان يسخر من رسول الله ﷺ يَلْقَى عقاباً إلهياً .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (٣٢) ﴾ [الرعد]

فأنت يا رسول الله لستَ بِدْعاً فى الرسالة ، ولك أسوة فى الرسالة ، والحق سبحانه يَعِدُكَ هنا فى مُحْكَم كتابه :

﴿ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا .. (٣٢) ﴾ [الرعد]

أى : أمهلتُ الذين كفروا ، والإملاء بمعنى الإمهال ليس معناه تَرْك العقوبة على الذَّنْب ، وإنما تأخير العقوبة لذنب قادم ، والمَثَل هو أن تترك مخطئاً ارتكبَ هَفْوة ؛ إلى أنْ يرتكب هَفْوة ثانية ؛ ثم ثالثة ، ثم تُنْزِل به العقاب من حيثُ لا يتوقع .

وإذا كان هذا ما يحدث فى عالم البشر ؛ فما بَالُنا بقوة الحق سبحانه اللامتناهية ، وهو القائل :

﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ (١٨٢) ﴾ [الأعراف]

ويقول تعالى :

﴿ وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (١٧٨) ﴾ [آل عمران]

تماماً مِثْلما نجد مَنْ يصنع فَخّاً لعدوه .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (٣٢) ﴾ [الرعد]

وكلمة : ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (٣٢) ﴾ [الرعد]

توضح أنه كان عقاباً صارماً ؛ ولذلك يقول الحق سبحانه فى موقع آخر :

﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٣٠) وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ[1] (٣١) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَـٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ (٣٢) وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ (٣٣) فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٣٤) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ (٣٥) هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦)﴾ [المطففين]

إذن : فلسوْفَ يَلْقَى الذين استهزءوا بالرسل العقاب الشديد .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ۚ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَـٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ (٣٣)﴾

ولقائل أنْ يتساءل : أَلَمْ يكُنْ من الواجب ما دام قد قال :

﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ (٣٣)﴾ [الرعد]

أن يأتى بالمقابل ، ويقول : كمَنْ ليس قائماً على كل نفس بما كسبت ؟

ولمثل هذا السائل نقول : إنها عظمة القرآن الذى يترك للعقل

---

(١) الفكه : كثير المزاح والاستهزاء بالآخرين . وقوله تعالى : ﴿وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ (٣١)﴾ [المطففين] . يسخرون من المؤمنين ويتندَّرون بهم . [القاموس القويم ٢/٨٨] .

ما يمكن أن يستنبطه ؛ فيأتى بأشياء تتطلَّب التفكير والاستنباط ، كى يتنبَّه الإنسان أنه يستقبل كلام رَبٍّ حكيم ؛ وعليه أن يبحث فيه .

ولذلك يقول سيدنا عبد الله بن مسعود : « ثَوِّروا[1] القرآن » أى : أثيروه ، كى تكتشفوا ما فيه من كنوز .

ونحن نعلم أن كلمة « قائم على الأمر » تعنى أنه هو الذى يُدِيره ويُدبِّره ، ولا تَخْفَى عليه خافية . وجاء الحق سبحانه هنا بصيغة القيام ؛ كى نعلم أن الحق سبحانه لا يدير الأمر من حالة قعود ؛ بل يديره وهو قائم عليه ، فكل أمر هو واضح عنده غير خَفىّ .

وهو سبحانه قائم على كل نفس بما كسبتْ إن خيراً فخيْر ؛ وإنْ شراً فشرّ ، ولكنكم أيها الكافرون المشركون لا تملكون لأنفسكم ضراً ولا نَفْعاً ؛ فهل يمكن لعاقل أنْ يساوى بين الذى يقوم على أمر كل نفس ، بغيره مِمَّنْ ليس كذلك ؟

ولكن هناك مَنْ قال فيهم الحق سبحانه فى نفس الآية :

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ ..(٣٣)﴾ [الرعد]

أى : جعلوا للقائم على أمر كُلِّ نفس شركاء لا يقدر الواحد فيهم على أمر نَفْسه ؛ وبالتالى لا يقدر على أمر غيره ؛ بل قد يُصَابُ الصَّنم من هؤلاء بشَرْخ ؛ فيأتى مَنْ يعبدونه ليقوموا على أمره صارخين بأن إلههم قدْ انشرخَ ؛ ويحتاج إلى مسمارين لتثبيته ،

---

(١) تثوير القرآن : قراءته ومُفَاتشة العلماء به فى تفسيره ومعانيه . وقيل : ليُنقِّر عنه ويُفكر فى معانيه وتفسيره وقراءته . [لسان العرب ـ مادة : ثور] .

فكيف يُسوُّونَ ذلك الصنم بالله الذى لا يحدُّه شىء ولا يحُدُّ قدرته شىء ؟

وقَوْل الحق سبحانه :

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ ..(٣٣)﴾ [الرعد]

دليل على النص المحذوف : « كمن هو غير قائم على كل نفس » ، فسبحانه ليس كهذه الأصنام العاجزة ؛ لأنه سبحانه قائم على كل نفس ؛ نفسك ونفس غيرك ونفس كل إنسان عاش أو سيعيش .

ولذلك يقول سبحانه بعدها :

﴿قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي الأَرْضِ أَم بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ .. (٣٣)﴾ [الرعد]

وهنا يأمر الحق سبحانه رسوله أن يقول للكافرين بالله : قُولوا أسماء مَنْ تعبدونهم من غير الله ؛ وهى أحجار ، والأحجار لا أسماءَ لها ؛ وهم قد سَمَّوْا الأصنام بأسماء كاللاّت والعُزَّى وهُبَل ؛ وهى أسماء لم تُضفْ لتلك الأصنام شيئاً ، فهى لا تقدر على شىء ؛ ولو سَمَّوْهَا لَنُسبت لعمرو بن لُحَىّ ، الذى أوجدهم[1] ؛ وهُمْ سَمَّوْها ساعة أنْ نحتُّوها .

---

(١) قال ابن هشام فى السيرة النبوية (١/٧٧) : « حدثنى بعض أهل العلم أن عمرو بن لُحىّ خرج من مكة إلى الشام فى بعض أموره ، فرأى العماليق يعبدون الأصنام ، فقال لهم : ما هذه الأصنام التى أراكم تعبدون ؟ قالوا له : هذه أصنام نعبدها ، فنستمطرها فتمطرنا ، ونستنصرها فتنصرنا ، فقال لهم : أفلا تعطوننى منها صنماً ، فأسير به إلى أرض العرب فيعبدوه ؟ فأعطوه صنماً يقال له هُبَل ، فقدم به مكة ، فنصبه وأمر الناس بعبادته وتعظيمه » .

والإله الحق لا يسميه أحد ، بل يُسمِّى هو نفسه ، ولكن بما أن المسألة كَذِب فى كَذِب ، لذلك يسألهم رسول الله ﷺ عن أسماء تلك الآلهة . ويقول لهم : هل تنبئون أنتم الله خالق كل الكون بما لا يعلم فى كونه الذى أوجده من عدم ؟

سبحانه يعلم كل ما خلق ؛ وأنتم لا تعبدون إلا أصناماً ينطبق عليها أنها من ظاهر القول ؛ أى : قول لا معنى له ؛ لأنهم أطلقوا أسماء على أشياء لا باطنَ لها ولا قدرة تستطيعها ، وهم اكتفَوْا بالظاهر والمُسمَّى غير موجود .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ ..(٣٣) ﴾ [الرعد]

أى : أنهم ظنوا أنهم يمكرون على الله ، ويقولون إن تلك الأصنام آلهة ، وهى ليست كذلك .

ثم يقول سبحانه :

﴿ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٣) ﴾ [الرعد]

أى : أن العذاب الذى يَلْقوْنَه فى الحياة الدنيا هو لصيانة حركة المجتمع من الفساد ، ولا بد أنْ يقعَ لهم عذابٌ فى الحياة الدنيا ؛ ولأن مَنْ يؤجِّل عذابه للآخرة ؛ لا بد أن يرى فى نفسه آية العذاب قبل أن يَلْقى عذابه فى الآخرة .

إذن : فعذاب الدنيا هو لحماية حركة الحياة ؛ ولذلك نجد القوانين وهى تُسَنُّ لِتُطبق على المنحرف ؛ ومَنْ يرتكب الجُرْم يخاف أن تقع

عليه العين ؛ وإنْ رآه أحد فهو يبلغ عنه ليلقى عقابه ؛ وبذلك تستقيم حركة الحياة .

ولذلك نجد الحق سبحانه يقول فى سورة الكهف :

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِى الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا (٨٣) إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِى الأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ (١) سَبَبًا (٨٤) فَأَتْبَعَ سَبَبًا (٨٥) حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ (٢) وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَـٰذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا (٨٦) قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا (٨٧) ﴾ [الكهف]

أى : أنه قد أخذ تفويضاً بأن يقيم الأمر فى هؤلاء الناس ، فأقامه على أساس من الثواب والعقاب ؛ فمَنْ أحسنَ فلَهُ الجزاء الحسن ؛ ومَنْ أساء يَلْقى العقاب ، وهكذا نجد عذاب الدنيا ضرورياً لسلامة حركة الحياة من بَطْش مَنْ لا يؤمنون بالله .

ولذلك نجد الحق سبحانه يقول بعد ذلك :

﴿ لَّهُمْ عَذَابٌ فِى الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ (٣٤) ﴾

ولهؤلاء المشركين الذين لا يؤمنون بالآخرة عذابٌ فى الدنيا بالقتل والأَسْر والمصائب والكوارث التى لا يقدرون عليها ، وفَوْق

---

(١) السبب : الوسيلة وكل ما يُتوصَّل به إلى شىء . [القاموس القويم ١/٢٩٩] .

(٢) قال ابن كثير فى تفسيره (٣/١٠٢) : « أى : رأى الشمس فى منظره تغرب فى البحر المحيط ، وهذا شأن كل من انتهى إلى ساحله يراها كأنها تغرب فيه » .

ذلك لهم عذاب فى الآخرة أكثر شدةً من عذابِ الدنيا ؛ فليس لهم مَنْ يحميهم ، أو يُقيم بينهم وبين عذاب الله وقاية أو عِصْمة .

وفى المقابل يقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾ ﴾

والمصدر الأساسى الذى وعدَ المتقين بالجنة هنا هو الله ، وقد بلَّغ عنه الرسل ـ عليهم السلام ـ هذا الوعد ، وتَلاهُمُ العلماء المُبلِّغون عن الرسل .

وأنت حين تنظر إلى فعل يشيع بين عدد من المصادر ، تستطيع أن تبحث عن المصدر الأساسى ، والمَثَل هو قول الحق سبحانه :

﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى[1] الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا .. ﴿٤٢﴾ ﴾ [الزمر]

ويقول فى موقع آخر من القرآن :

﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ .. ﴿١١﴾ ﴾ [السجدة]

وهكذا تكون التَّوْفية قد آلتْ إلى الله ؛ وآلتْ إلى ملَكِ الموت ، وقد أخذ ملَكَ الموْت مسئولية التَّوفية من إسناد الحق له تلك المهمة ؛ ويكون نسبتها لملَكِ الموت هو نوع من إيضاح الطرف الذى يُوكِّل له الحق سبحانه تنفيذ المهمة .

---

(١) توفى الله فلاناً ، أو توفى الملك فلاناً : أماته وقبض روحه . [القاموس القويم ٢/٣٤٧] .

ومرة يأتى الحق سبحانه بالمصدر الأصلى الذى يُصدِر الأمر لِملَكِ الموْت بمباشرة مهمته .

وهنا فى الآية الكريمة نجد قول الحق سبحانه :

﴿ وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ..(٣٥) ﴾ [الرعد]

وهى مَبْنية لِمَا لم يُسَمّ فاعله ؛ فالوعد منه سبحانه . ونعلم أن الرسول ﷺ يَعِد أيضاً ، فها نحن قد جاء إلينا خبر بيعة العقبة ؛ حين أخذ البيعة من الأنصار ، وقالوا له : خُذْ لنفسك ، فأخذ لنفسه ما أراد ، ثم قالوا له : وماذا نأخذ نحن إنْ أدَّيْنَا هذا ؟ فقال لهم : « لكم الجنة »[(١)] .

وقد قال ﷺ ذلك ؛ لأن العمل الذى فعلوه ؛ لا يكفيه أجراً إلا الجنة ، ومن المعقول أن أىَّ واحد من الذين حضروا العقبة قد يتعرض للموت من بعد معاهدة رسول الله ﷺ ، فلو أنه وعدهم بِمَا فى الدنيا من متاع قد يأخذه البعض فيما بعد ؛ فالذى يموت قبل هذا لا بُدَّ أن يدرك شيئاً ممّا وعد الرسول مَنْ عاهدوه ؛ ولذلك أعطاهم ما لا ينفد ، وهو الوَعْد بالجنة .

والحق سبحانه هنا ـ فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها ـ يقول :

﴿ مَّثَلُ الْجَنَّةِ ..(٣٥) ﴾ [الرعد]

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٤/١١٩ ، ١٢٠) من حديث أبى مسعود البدرى الأنصارى . وأورده الهيثمى فى مجمع الزوائد (٦/٤٨) . وانظر السيرة النبوية لابن هشام (٢/٤٣٣) .

أى : أنه يضرب لنا المَثَل فقط ؛ لأن الألفاظ التى نتخاطَبُ بها نحن قد وُضِعتْ لمَعانٍ نعرفها ؛ وإذا كانت فى الجنة أشياء لم تَرَهَا عَيْنٌ ، ولم تسمعها أُذنٌ ، ولم تخطر على بال بشر ؛ فمنَ المُمْكِن أن نقول : إنه لا توجد ألفاظ عندنا تؤدى معنى ما هناك ، فيضرب الله الأمثال لنا بما نراه من الملذَّات ؛ ولكن يأخذ منها المُكدِّرات والمُعكِّرات[1].

وهكذا نعرف أن هناك فارقاً بين « مثل الجنة » وبين « الجنة » ، فالمَثَل يعطينى صورة أسمعها عن واقع لا أعلمه ؛ لأن معنى التمثيل أن تُلحِق مجهولاً بمعلوم لِتأخذَ منه الحكم .

مثلما تقول لصديق : أتعرف فلاناً ؛ فيقول لك : « لا » . فتقول له : « إنه يشبه فلاناً الذى تعرفه » .

وأنت تفعل ذلك كى تشبه مجهولاً بمعلوم ؛ لتأتى الصورة فى ذِهْن سامعك .

ويقول الرسول ﷺ شرحاً لما أجْمله القرآن :

﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ..(٧١)﴾ [الزخرف]

ويضيف ﷺ : « فيها مَا لاَ عَيْن رأتْ ، ولا أُذن سمعتْ ، ولا خَطر على قَلْب بشرٍ »[2].

---

(١) قال تعالى : ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى .. (١٥)﴾ [محمد] وقال فى آية أخرى : ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ (٤٥) بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ (٤٦) لا فِيهَا غَوْلٌ وَلا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ (٤٧)﴾ [الصافات] .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٥/٣٣٤) ومسلم فى صحيحه (٢٨٢٥) من حديث سهل بن سعد الساعدى رضى الله عنه .

وحين تُدقِّق فى هذا القول النبوىّ الكريم تجد الترقِّى كاملاً ؛ فقوله : « ما لا أُذن سمعتْ » جاء لأنه يعلم أن مُدْركَات العيْن محدودة بالنسبة لمَا تعلمُ الأذن ؛ لأن الأذن تسمع ما لا تدركه العين ؛ فهى تسمع ما يراه غيرُك بالإضافة إلى ما تراه أنت.

فالأذن تسمع القريب وتسمع البعيد وتنقل صوته وتستحضره ثم تميزه ، بخلاف العين فهى محدودة المسافة حسب قوة الإبصار ، ومع كل فنعيم الجنة فوق كل هذا الفوق .

ثم يأتى الترقِّى الأكبر فى قوله : « ولا خطر على قلب بشر » . والخواطر أوسَعُ من قدرة الأذن وقُدْرة العين ؛ فالخواطر تتخيَّل أشياء قد تكون غيرَ موجودة .

وهكذا نرى عَجْز اللغة عن أنْ تُوجد بها ألفاظ تعبر عن معنى ما هو موجود بالجنة ، ولا أحدَ فينا يعلم ما هى الأشياء الموجودة بالجنة ، وما دام أحد منا لم يَرَ الجنة ؛ وما دام الرسول ﷺ قال : « فيها ما لا عَيْن رأتْ ، ولا أُذن سمعتْ ، ولا خطر على قلب بشر ».

فلا بُدَّ أن نعلم قَدْر عَجْز اللغة عن التعبير عَمَّا فى الجنة ، فإذا أراد الله أنْ يُعبِّر عَمَّا فيها ؛ فهو يُوضِّح لنا بالمثَل ؛ لا بالوصف ، لأنه يعلم أن لغتنا تضع الألفاظ لمَا هو موجود فى حياتنا ؛ ولا توجد ألفاظ فى لغتنا تُؤدِّى معانى ما فى الجنة .

ولذلك قال لنا الحق سبحانه :

﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى .. (١٥) ﴾ [محمد]

ومع أن الحق سبحانه يضرب مثلاً ، إلا أنه خلَّص المَثَل من شوائبه التى نعرفها فى الدنيا ، فالمياه عندما تجرى ؛ تكون حُلْوة ورائقة وصَافية ؛ وإنْ ركدتْ فهى تأسَنُ[1] وتكون عَطِنة .

ولذلك يُوضِّح لنا الحق سبحانه أن المياه فى الجنة غير آسنة ؛ وأنها تكون أنهاراً منزوعاً من مياهها ما يُكدِّرها .

وكذلك المثل بأنهار من لبن لم يتغير طَعْمه . واللبن كما نعرف هو غذاء البدو ؛ فَهُمْ يحلبون الماشية ، ويحتفظون بألبانها فى قِرَبٍ لِمُدد طويلة ؛ فيتغير طَعْم اللبن ؛ ولذلك يضرب لهم المثَل بوجود أنهارٍ من لبن لم يتغير طَعْمه .

وأيضاً يضرب المثل بوجود أنهار من عَسَل مُصفًّى ، والعسل ـ كما نعرف ـ كان فى الأصل يأتى من النحْل الذى كان يسكن الجبال قبل استئناسه ؛ ووَضْعه فى مناحل فى الحدائق .

والحق ـ سبحانه وتعالى ـ هو القائل :

﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِى مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (٦٨) ﴾ [النحل]

وحين بحث علماء الحشرات عن تاريخ النحل ، وجدوا أن أقدمَ عسلٍ فى العالم هو الذى كان موجوداً فى الكهوف الجبليّة ؛ ثم يليه فى العمر العسل الذى جاء من خلايا النحل ؛ تلك الخلايا التى أقامها

---

(١) أسن الماء : تغيَّرت رائحته . والماء الآسن : هو الذى لا يشربه أحد من نَتْنه . [لسان العرب ـ مادة : أسن] .

النحل بعد استئناسه ؛ ومن بعد ذلك يأتى العسل الذى أقمْنَا نحن له المنَاحل .

وقد ميَّزوا العسل القديم عن المتوسط عن الجديد ، بأن أحرقوا بعضاً من كل نوع من أنواع العسل ، فنتج من الاحتراق عنصر الكربون ؛ ومن هذا العنصر اكتشفوا عمر كل نوع من الثلاثة .

ويوضح الحق سبحانه أن بالجنة أنهاراً من عَسَل مُصفًّى ، وبذلك يُقدِّم لنا خَيْر ما كنا نُحبه من عسل الدنيا ، ولكن بدون ما يُكدِّره .

ويوضِّح سبحانه أيضاً أن فى الجنة أنهاراً من خمر ، ولكنها خَمْر تختلف عن خمر الدنيا ؛ فهى لا تؤثر على التكوين العُضْوى للعقل ، كما أن خمر الدنيا ليس فيها لذةٌ للشاربين ؛ لأنها من كحول يَكْوى الفم ويَلْسعه ؛ ولذلك تجد مَنْ يشربها وهو يسْكبها فى فمه لتمُرَّ بسرعة فلا يشعر بلسعها فى فمه ، فتذهب إلى معدته مباشرة فتلهبها .

ويختلف الحال لو كان المشروب هو شراب عصير المانجو أو البرتقال أو القصب ؛ حيث تستطيب النفس مذاقَ تلك الفواكه ؛ فنجد مَنْ يشربها يتمهَّل ليستبقى أثرها فى فمه .

ويقول الحق سبحانه عن خمر أنهار الجنة :

﴿ لا فِيهَا غَوْلٌ[1] .. (٤٧) ﴾ [الصافات]

---

(١) الغَوْل : الصداع . وقيل : السُّكْر . والغَوْل : أن تغتال عقولهم . [لسان العرب ـ مادة : غول] .

أى : أنه سبحانه ينفى عن خَمْر أنهار الجنة كُلَّ المُكدِّرات التى توجد فى خمر الدنيا .

إذن : فساعةَ تسمع مثلاً عن الجنة ؛ فاعلم أنه مَثَلٌ تقريبىّ ؛ لأنه لا يمكن أن تأتى الحقيقة ، حيث لا يوجد لفظ يُعبِّر عنها ؛ وهى لم توجد عندنا ؛ وسبحانه لا يخاطبنا إلا بما نعلم من اللغة ؛ لذلك يأتى لنا بالمثَلِ المضروب لنأخذ منه صورة تقريبية .

وهنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها ، يقول الحق سبحانه :

﴿ مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ..(٣٥) ﴾ [الرعد]

ونعلم أن عَصَب حياة العرب أيام نزول القرآن كان هو الماء ؛ ألم يطلبوا من الرسول أن يُفجِّر لهم الأنهار تفجيراً[1] ؟

نجد الحق سبحانه قد جاء بالتعبير القرآنى عن أنهار الجنة بصورتين مختلفتين :

أولهما : ﴿ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ..(٣٥) ﴾ [الرعد]

مثلما قال فى الآية التى نحن بصَدد خواطرنا عنها .

ومرَّة يقول سبحانه :

﴿ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ..(١٠٠) ﴾ [التوبة]

والفارق بين العبارتين هو استيعاب الكمالية فى النص ، بمعنى أن :

---

(١) قال تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا (٩١) ﴾ [الإسراء] .

﴿ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ .. (٣٥) ﴾ [الرعد]

تُوضِّح أن منابع تلك الأنهار تأتى من تحت تلك الجنة مباشرة ؛ فلا يَقِلّ الماء فى تلك الأنهار أبداً .

ويُقال : إن الفارق بين أنهار الدنيا وأنهار الجنة أن أنهار الدنيا عبارة عن شقوق فى الأرض لها شواطىء تحتضنها ؛ أما أنهار الآخرة فهى تسير على الأرض دون شواطىء تحجزها[1] .

وتجد أنهار الخمر تسير أيضاً فى الأرض ، ولا تتداخل مع أنهار الماء ، وكذلك أنهار اللبن ، وكُلُّ ذلك من صَنْعة رَبٍّ حكيم قادر .

أما قوله :

﴿ تَجْرِى تَحْتَهَا الأَنْهَارُ ..(١٠٠) ﴾ [التوبة]

أى : أن منابعها ليست من تحتها مباشرة ؛ ولكنها تأتى دون نَقْصٍ من جهة أنت لا تعلمها ؛ وهو سبحانه قادر على كل شىء .

ويتابع سبحانه ، فيقول عن تلك الجنة :

﴿ أُكُلُهَا دَائِمٌ ..(٣٥) ﴾ [الرعد]

والأُكل هو ما يُؤكَل ، وسبحانه القائل :

﴿ تُؤْتِى أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ..(٢٥) ﴾ [إبراهيم]

---

(١) أورد السيوطى فى هذا آثاراً فى كتابه « الدر المنثور فى التفسير بالمأثور » (١/٩٥) منها :

– أخرج ابن مردويه وأبو نعيم والضياء المقدسى كلاهما فى صفة الجنة عن أنس قال قال رسول الله ﷺ : « لعلكم تظنون أن أنهار الجنة أخدود فى الأرض ، لا والله إنها لسائحة على وجه الأرض ، حافتاها خيام اللؤلؤ ، وطينها المسك الأذفر . قلت : يا رسول الله ما الأذفر ؟ قال : الذى لا خلط معه » .

وقوله : ﴿أُكُلُهَا دَائِمٌ ..(٣٥)﴾ [الرعد]

أى : لا ينقطع ، ونعلم أن الإنسان حين يأكل ؛ فهو يفعل ذلك بهدف إشباع جُوعه ؛ وبعد أن يُشبِع جُوعَه ؛ قد يطلب أن يُرفعَ الطعام من أمامه ، إلى أنْ يجوع ، فيطلب الطعام من جديد .

ومنْ يحبون الطعام فى حياتنا الدنيا نرى الواحد منهم وهو يقول : « أشعر ببعض الضيق لأنِّى شبعتُ » ، فهو فى عراك بين نفس تشتهى وبين بطن لا تشبع ، وكأنه كان يريد أنْ يستمر فى تناول الطعام طوال الوقت .

وقول الحق سبحانه :

﴿أُكُلُهَا دَائِمٌ ..(٣٥)﴾ [الرعد]

شغل هذا القول الرومان الذين كانوا أصحاب امبراطورية عُظْمى زَلْزلها الإسلام بحضارته الوليدة ، وأرسل امبراطورهم مَنْ يطلب من أحد الخلفاء إرسال رجل قادر على شرح قول الحق :

﴿أُكُلُهَا دَائِمٌ ..(٣٥)﴾ [الرعد]

فأرسل لهم أحدَ العلماء ؛ وسألوه : يقول قرآنكم إن أُكُل الجنة دائم ؛ ونحن وأنتم تعلمون أن كل شىء يُؤخذ منه لا بُدَّ له أن ينقص ؛ فكيف يكون أُكُل الجنةِ دائماً ؟

قال العالم لهم : هاتوا مصباحاً . فأحضروا له المصباح ، وأشعله أمامهم . وقال لكل منهم : فَليأْتِ كل منكم بمصباحه . فأحضر كل منهم مصباحه . وقال لهم : فَلْيُشعِل كل منكم مِصْباحه .

وهنا سألهم : ما الذى أنقصه إشعال مصابيحكم من هذا المصباح ؟ قالوا : لا شىء . فقال لهم : هكذا ضرب الله لنا المثَل بأُكُل الجنة .

وبطبيعة الحال كان يجب أن يلتفتوا إلى أن المصباح يعتمد فى اشتعاله على الزيت المخزون فيه ، ويأتيه منه المَدَد ، أما الجنة فمدَدُهَا من الله .

وهناك مَنْ قال : هل نتغوَّط فى الجنة ؟ فَردَّ عليه واحد من العارفين : لا . فتساءل : وأين تذهب بقايا ما نأكل من طعام الجنة ؟

فقال العارف بالله : مثلما تذهب بقايا ما يتغذى عليه الطفل فى بطن أمه ؛ حيث يحترق هذا الفائض فى مَشيمة[1] الطفل ؛ والطفل فى بطن أمه إنما ينمو بشكل مستمر ، مُعتمِداً على غذاء يأتيه من أمه عَبْر الحَبْل السُّرىّ .

وكل تلك الأمور تقريبية تجعلنا نعبر الفجوة بين ما نشهده فى حياتنا اليومية ، وبين ما أعدَّه الله للمتقين ، وهو القيُّوم على كُلِّ أمْرٍ .

وقد قال الحق سبحانه :

﴿أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا..(٣٥)﴾ [الرعد]

يعنى : أن الطعام موجود ولا ينتهى وكذلك الظل . والظل حَجْب المضىء عن مكان ؛ أو حَجْب مكان عن المضىء ، ولا أحد يعلم أنه ستوجد هناك شمس أم لا ؛ والعقل البشرى قاصر عن تخيُّل ذلك ؛

---

(١) المشيمة للمرأة هى التى يكون فيها الولد . قال ابن الأعرابى : يُقال لما يكون فيه الولد المشيمة والكيس والحَوْران والقميص . [لسان العرب ـ مادة : شيم] .

فهو من فعل الله ، وهو سبحانه قادر على كل شىء .

وهو القائل سبحانه :

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلاًّ ظَلِيلاً (٥٧) ﴾ [النساء]

وهو القائل سبحانه :

﴿ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ (٣٠) ﴾ [الواقعة]

ويتابع سبحانه :

﴿ تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ (٣٥) ﴾ [الرعد]

أى : يا متقى الله ؛ ووضعتَ بينك وبين صفات جلاله وقاية ، ولم تقربْ محارمه واتبعتَ منهجه ؛ ستجد أنه سبحانه يُجازِيك بصفات كَماله وجَماله ؛ فيُنزِلك الجنة التى وعدكَ بها .

لذلك إنْ وجدتَ مشقَّة فى التكليف فعليك أن تعلمَ أن جزاء تلك المشقَّة هو الجزاء الجميل ؛ لأنك صدَّقْتَ رسولك ﷺ حين قال : « حُفَّتْ الجنة بالمكَاره ؛ وحُفَّتْ النار بالشهوات »[1] .

والعاقل ساعةَ يرى تكليفاً يحُدُّ من حريته ؛ فهو يستحضر الجزاء على تلك المشقَّة ، وهو أيضاً حين يرى أمراً يبدو فى ظاهره شهوة

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٣/١٥٣ ، ٢٥٤) ، ومسلم فى صحيحه (٢٨٢٢) ، والترمذى فى سننه (٢٥٥٩) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه . قال الترمذى : « حديث حسن غريب من هذا الوجه صحيح » .

عاجلة ؛ فهو يستحضر العقاب على تلك الشهوة العاجلة فيستبعدها .

وأى من الجزاء الطيب أو العقاب قد يأتى فجأة ؛ لأن الموتَ لا ميعادَ له ؛ ونحن نُصدِّق قول رسولنا ﷺ :

« الموت القيامة ، فمن مات فقد قامت قيامته »[1] .

وهكذا يُضخِّم الحق سبحانه من جزاء المؤمن المُتقِّى فيعشق العمل ، ويتحمل مشاقّ التكليف ليكون مَوْصُولاً بالجزاء الطيب ، فهذا الجزاء هو عُقْبى العمل الحسن فى الدنيا ، فالغاية الحقيقية من كل مراحل الوجود هى ألاَّ يوجد بَعْد للغاية ؛ لأنها غاية الخلود لا تعرف البعدية .

وما دامت الجنة تضمن الخلود أبداً ، فهى تستحق أن تكون غايةَ المؤمن وعاقبةَ عمله ، والتزامِه بالتكاليف الإيمانية .

تماماً كما تكون النار هى عاقبة الكافرين المُكذِّبين ؛ حيث يروْنَ الخير مصير المؤمنين ؛ ويروْنَ الشرَّ مصيرهم ؛ فيُجمع عليهم التنغيصُ ؛ مرة بوجود الخير عند أهل الإيمان ؛ ومرة بأن يَرَوْا ما أُعِدَّ لهم من شَرٍّ .

لذلك قال سبحانه :

﴿ وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ (٣٥) ﴾ [الرعد]

---

(١) ذكره العجلونى فى كشف الخفاء (حديث رقم ٢٦١٨) عن أنس بن مالك رضى الله عنه ، وتمامه : « أكثروا ذكر الموت ، فإنكم إن ذكرتموه فى غنى كدّره عليكم ، وإن ذكرتموه فى ضيق وسّعه عليكم » الحديث .

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ[1] مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ ۚ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ ﴿٣٦﴾﴾

ونعلم أن الإسلام قد سُبِق بدينين ؛ دين النصارى قَوْم عيسى عليه السلام ؛ ومن قبله دين اليهود قوم موسى عليه السلام ؛ وكلاَ الدينين له كتاب ؛ الإنجيل كتاب المسيحية ؛ والتوراة كتاب اليهودية ؛ والقرآن هو كتاب الله المهيمن[2] الخاتم ؛ كتاب الإسلام ، وهناك كتب سماوية أخرى مثل : صحف إبراهيم ؛ وزبور[3] داود ، وغير ذلك .

وكان على مَنْ نزل عليهم التوراة والإنجيل أن يواصلوا الإيمان بمَدَد السماء ، والخير القادم منها إلى الأرض ، وقد سبق أن أخذ الله من أنبيائهم الميثاق على ذلك ، قال تعالى :

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٣٦٦٢/٥) : « يعنى مشركى مكة ، ومن لم يؤمن من اليهود والنصارى والمجوس . وقيل : هم العرب المتحزِّبون على النبى ﷺ » . وأطلقت « الأحزاب » فى القرآن على كل قوم تحزَّبوا ضد رسولهم . وقد وردت فى القرآن ١١ مرة .

(٢) هيمن عليه هيمنة : كان رقيباً عليه ، حافظاً له ، مسيطراً عليه . [القاموس القويم ٣٠٨/٢] قال ابن كثير فى تفسيره (٦٥/٢) جمعاً بين عبارات المفسرين : « هذه الأقوال كلها متقاربة المعنى ، فإن اسم المهيمن يتضمن هذا كله ، فهو أمين وشاهد وحاكم على كل كتاب قبله » .

(٣) الزبور : الكتاب المكتوب قال تعالى : ﴿وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾﴾ [النساء] . أى : كتاباً . وجمعه زُبُر . قال تعالى : ﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾﴾ [الشعراء] . أى : كتبهم . [القاموس القويم ٢٨٣/١] .

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي[1] قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ (٨١) ﴾[آل عمران]

وهكذا نعلم أن الحق سبحانه قد شاء أن يستقبل كُلُّ دين سابق الدينَ الذى يَليه بالإيمان به ؛ وفى كل دين سابق لآخر كانت النصوص تؤكد ضرورة الإيمان بالرسول القادم ، كى لا يحدث اقتراع بين الأديان الناسخة والأديان المنسوخة .

فمنْ صميم مواد أىِّ دين سابق أن ينتظر الدين الذى يليه ، وإذا ما جاء الدين الجديد فهو يستقبله فَرْعاً وتكملة ، ولا يستقبله كدين يُضَادِّ الدين السابق .

وإذا كان الإسلام هو الدين الذى تُختم به مواكب الرُّسُل ؛ فلا بُدَّ أن الأديان السابقة عليه قد بَشَّرَتْ به ، وكل مؤمن بالأديان السابقة مُوصى بضرورة الإيمان به .

يقول الحق سبحانه :

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ .. (١٣) ﴾ [الشورى]

ويقول الحق سبحانه :

﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ .. (٣٦) ﴾ [الرعد]

---

(١) الإصر : العهد الثقيل ، وما كان عن يمين وعهد فهو إصر . [لسان العرب ـ مادة : أصر] .

أى : أن أهل التوراة والإنجيل يفرحون بما جاءك يا محمد من القرآن ، والإنسان لا يفرح بشىء إلا إذا حقَّق له غايةً تُسْعِده ، ولا بُدَّ أن تكون هذه الغاية منشورة ومعروفة .

وهم قد فرحوا بما نزل إلى رسول الله ﷺ ؛ لأنه حقق لهم ما جاء فى كتبهم من نبوءة به .

ومعنى ذلك أن كتبهم قد صدقتْ ، ومَنْ جاء بالرسالة الخاتم صادق ، وكان عليهم أن يكونوا أول المُبَادرين إلى الإيمان به .

ذلك أن الفرحة هى العملية التعبيرية أو النُّزوعية من مواجيد الحب ، والإنسان إنما يفرح بتحقيق أمر طيِّب كان ينتظره .

ولذلك كان يجب أن يُهرولوا للإيمان بالدين الجديد ، وأنْ يعلنوا الإيمان به مثلما فعل كعب الأحبار[1] ، وعبد الله بن سلام ، وسلمان الفارسى الذى جاب أغلب البلاد باحثاً عن الدين الحق .

وهؤلاء هم مجرد أمثلة لِمَنْ أرادوا أنْ يُعبِّروا بالفرحة واستقبال مَدَدِ السماء عَبْر مجىء النبى الخاتم محمد بن عبد الله ﷺ ، وأعلنوا البيعة للرسول الجديد كما بشَّرَتْ به الكتب السماوية السابقة على بعثته ، ثم وقفوا موقف العداء من الذين لم يفرحوا بِمقْدمِ الرسول ، ثم غيَّروا ما جاء فى كتبهم السماوية طمعاً فى السلطة الزمنية .

---

(١) هو : كعب بن ماتع الحميرى أبو إسحاق ، تابعى ، كان فى الجاهلية من كبار علماء اليهود فى اليمن ، أسلم فى زمن أبى بكر ، وقدم المدينة فى دولة عمر ، أخذ عنه الصحابة وغيرهم كثيراً من أخبار الأمم الماضية ، سكن حمص وتوفى بها عام ٣٢ هـ عن ١٠٤ عاماً . (الأعلام للزركلى ٥/٢٢٨) .

وعرف مَنْ آمنوا برسالة رسول الله ﷺ أن الذين أنكروا نبوة محمد بن عبد الله قد دلَّسوا[1] على أنفسهم وعلى غيرهم ، وأتوْا بأشياء لم تكن موجودة فى كتبهم المُنزَّلة على رسلهم كادعائهم أن لله أبناء ، وسبحانه مُنزَّه عن ذلك .

ولذلك جاء قول الحق سبحانه :

﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَئَابِ (٣٦) ﴾ [الرعد]

تلك عدالة من القرآن ؛ لأن القرآن لم ينكر الكتب السماوية السابقة بأصولها ، ولكنه أنكر التحريف فى العقائد ، وأنكر مواقف مَنْ حرَّفوا وادَّعوْا كذباً أن هناك بنوة لله .

هذا التحريف لم يَنَلْ من القرآن إنكاراً لكل ما جاء بالكتب السابقة على القرآن ؛ ولكنه أنكر التَحريف فقط .

وقد أثبتَ القرآن ما لله وما للرسول ، وأنكر التحريف الذى أرادوا به السلطة الزمنية ؛ وادعاء القداسة ، والتجارة بصكوك الغفران ، وبيع الجنة ، وتلقِّى الاعترافات ، وغير ذلك مما لم يَنْزل به كتاب سماوى .

وحين جاء الإسلام لِيُحرِّم ذلك دافعوا عن سلطتهم التى يتاجرون بها فى أمور الدين ، وهى ليست من الدين .

---

(١) المدالسة : المخادعة . وقد دالس ودلَّس فى البيع وفى كل شىء إذا لم يبين عيبه . والتدليس فى البيع : كتمان عيب السلعة عن المشترى . [لسان العرب ـ مادة : دلس] .

وانظر إلى قول الحق سبحانه :

﴿قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلا أُشْرِكَ بِهِ .. (٣٦)﴾ [الرعد]

وهذا القول دليلٌ على أن هؤلاء المُغيّرين فى الكتب السماوية أو الذين أنكروا وحدانية الله ؛ هؤلاء جاء لهم بالقول الفَصْل :

﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ .. (٣٦)﴾ [الرعد]

أى : أنه يُقِرّ بأن هناك ديناً قد اُختير له من قبَل مُرَبٍّ ؛ ولم يَختَرْ محمد شيئاً أعجبه ليعبده ، ولكنه كرسول من الله يَشْرُف بالانتماء لما جاءه الأمر به من السماء ، وهو لا يشرك به أحداً .

ونجد الرسول ﷺ يتعصَّب لِمَا يتعلق بربه ؛ وقد يتهاون بما يتعلق بشخصه .

ولذلك وجدنا بعضَ الملاحدة وقد قالوا له : نحن نؤمن بالله وبالسماء والوحى وبكل شىء ، لكنّا لا نؤمن بك أنت ، ولم يغضب رسول الله عليه الصلاة والسلام ، ولو كان يُدخِل ذاته أو أنانيته فى الأمر لَغضِب ، ولكنه لم يغضب .

والدليل على هذا هو أن مواجيده ﷺ كانت مع الروم المؤمنين بكتاب سماوى ضد المشركين الذين لا يؤمنون بدين سماوى وهم الفُرْس ؛ وحزن ﷺ حين غُلبت الروم ، فنزل إليه القول الحق بنبأ النصر القادم فى بِضْع سنين ؛ تسليةً له ﷺ :

﴿الَمٓ (١) غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٥)﴾ [الروم]

وهؤلاء فى قلب رسول الله كانوا أقربَ من غيرهم ؛ لأنهم يتبعون ديناً سماوياً ؛ وساعة يرى رائحة صاحب خير يرجحه على صاحب الشر ؛ فهو يطلب لهم النصر ويُبشِّره الله بخبر نصرهم فى بِضْع سنين ، وهم يحملون رائحة الخير ، رغم أنهم لم يؤمنوا برسول الله ﷺ .

ومعنى :

﴿ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلا أُشْرِكَ بِهِ .. (٣٦) ﴾ [الرعد]

أى : أننى سأعبد الله وحده ، ولن أعطف على عبادته شيئاً ؛ ويدعو لعبادته وحده ؛ لأنه يعلم أنه سيؤوب إليه ، كما سيؤوب إليه كُلُّ إنسان ؛ فلا أحدَ ينفلتُ من ربه وخالقه ، ولا بُدَّ لكل إنسان أن يُعِد عُدَّته لهذا المآب .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ(١) وَلَا وَاقٍ (٣٧) ﴾

والمقصود بـ « كذلك » إشارة إلى إرسال الرسل المُتقدِّمين بمعجزات شاءها الحق سبحانه ، ولم يقترحها أحد .

وقوله : ﴿ أَنزَلْنَاهُ .. (٣٧) ﴾ [الرعد]

ساعةَ نسمعه نرى أن هناك مكانة علِيّة يُنزِل منها شيئاً لمكانة

---

(١) الولى : النصير والناصر . والموالاة : ضد المعاداة . والوليّ : ضد العدو . [لسان العرب ـ مادة : ولى] .

أدْنَى ، ومثل ذلك أمر معروف فى الحِسِّيات ، وهو معروف أيضاً فى المعنويات .

بل وقد يكون هذا الشىء لم يَصل إلى السماء ؛ ولكنه فى الأرض ، ومع ذلك يقول فيه الحق سبحانه :

﴿ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ[1] شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ .. (٢٥) ﴾ [الحديد]

وهو إنزالٌ ، لأنه أمر من تدبير السماء ، حتى وإنْ كان فى الأرض :

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا .. (٣٧) ﴾ [الرعد]

والحكم هو المَعْنى ، والمقصود بالإنزال هنا هو القرآن ، وهو كتاب ؛ والكتاب مَبْنى ومَعْنى ، وشاء الحق سبحانه هنا أن يأتى بوصف المبالغة ليأتى الوصف وكأنه الذات ، أى : أنه أنزل القرآن حُكْماً ؛ وهذا يعنى أن القرآن فى حَدِّ ذاته حُكْم .

وأنت حين تصف قاضياً يحكم تمام العدل ؛ لا تقول « قَاضٍ عادلٌ » بل تقول «قَاضٍ عَدْل » أى : كأن العدل قد تجسَّم فىَ القاضى ؛ وكأن كُلَّ تكوينهَ عَدْل .

والحق سبحانه هنا يوضح أن القرآن هو الحُكْم العدل ، ويصفه بأنه :

﴿ حُكْمًا عَرَبِيًّا .. (٣٧) ﴾ [الرعد]

لأن اللسان الذى يخاطب به الرسول القوم الذين يستقبلون بآذانهم ما يقوله لهم لابُدَّ أن يكون عربياً .

---

(١) البأس : الشدة والقوة والصلابة . [القاموس القويم ١/٥٢] .

ولذلك يقول فى آية أخرى :

﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ[1] لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الزخرف]

أى : أنه شرفٌ كبير لك ولقومك ، أن نزل القرآن بلغة العرب .

وقد حفظ القرآن لنا اللغة العربية سليمة صافيةً ؛ بينما نجد كل لغات العالم قد تشعَّبتْ إلى لهجات أولاً ، ثم استقلتْ كل لهجة فصارتْ لغة ، مثل اللغة اللاتينية التى خرجتْ منها أغلب لغات أوربا المعاصرة من : إنجليزية وفرنسية وإيطالية ، ووجدنا تلك اللغات تتفرَّق إلى لغات استقلالية ، وصار لكل منها قواعد مختلفة .

بل إن اللغة الإنجليزية على سبيل المثال صارت « إنجليزية - إنجليزية » يتكلم بها أهل بريطانيا ؛ و « إنجليزية - أمريكية » يتكلم بها أهل الولايات المتحدة .

ولو تركنا - نحن - لغة التخاطب بيننا كمسلمين وعرب إلى لغة التخاطب الدارجة فى مختلف بلادنا ؛ فلن يفهم بعضنا البعض ، ومرجع تفاهمنا مع بعضنا البعض - حين نتكلم - هو اللغة الفصحى.

ودليلنا ما رأينا فى مغربنا العربى ، فنجد إنساناً تربَّى على اللغة الفرنسية ، أو تكون لغة جَمْعاً بين لهجات متعددة من البربرية والفرنسية وبقايا لغة عربية ، فإذا حدثته باللغة العامية لا يفهم منك شيئاً ، وإن تحدثت معه باللغة العربية استجاب وأجاب ؛ لأن فطرته تستقبل الفصحى فهماً وإدراكاً .

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (١٢٨/٤) : « معناه أنه شرف لهم من حيث إنه أنزل بلغتهم ، فهم أفهم الناس له فينبغى أن يكونوا أقوم الناس به وأعملهم بمقتضاه . وقيل معناه : أى التذكير لك ولقومك وتخصيصهم بالذكر لا ينفى من سواهم » .

وهكذا رأينا كيف صان القرآن الكريم اللغة العربية واللسان العربى .

ومن ضمن معانى قول الحق سبحانه :

﴿ حُكْمًا عَرَبِيًّا .. (٣٧) ﴾ [الرعد]

أى : أن الذى يصُون ويعصِم هذا اللسان العربى هو القرآن الكريم.

ويتابع سبحانه بقوله :

﴿ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم(١) بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا وَاقٍ (٣٧) ﴾ [الرعد]

وهذا خطاب مُوجَّه منه سبحانه لرسوله ﷺ يكشف فيه الحق سبحانه أمام رسوله ﷺ مَضارّ وخطورة اتباع الهوى ؛ وهو خطاب يدل على أن الدين الذى نزل على موسى ثم عيسى ، وهما السابقان لرسول الله ؛ لم يَعُدْ كما كان على عهد الرسولين السابقين ؛ بل تدخَّل فيه الهوى ؛ ولم يَعُدْ الدين متماسكاً كما نزل من السماء .

ولذلك يقول سبحانه فى آية أخرى :

﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَـٰوَاتُ وَالأَرْضُ.. (٧١) ﴾

[المؤمنون]

ذلك أنه سبحانه لو اتبع أهواءهم لَضَاع نظام الكون ؛ ألم يقولوا لرسول الله ﷺ :

---

(١) الهوى : محبة الإنسان الشىء وغلبته على قلبه . جمعه أهواء . [لسان العرب ـ مادة : هوا] .

﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا[١] .. (٩٢)﴾ [الإسراء]

ولو استجاب الحق مثلاً لهذه الدعوة ، ألم تكن السماء لتفسد ؟

إذن : فبعد أن نزل القرآن من السماء حكماً وعلماً ومنهجاً يسهل عليهم فهمه ، لأنه بلُغتهم ، وهو يحمل كامل المنهج إلى أن تقوم الساعة ، وفيه دليل السعادة فى الدنيا والآخرة .

لذلك فليس لأحد أنْ يتبع هواه ؛ فالهوى ـ كما نعلم ـ يختلف من إنسان لآخر ، والخطاب المُوجَّه لرسول الله ﷺ يتضمن فى طيّاته الخطاب لأمته ﷺ .

ومَنْ يفعل ذلك فليس له من دون الله ولىّ يؤازره أو ينصره ، أو يقيه عذاب الحق : شقاءً فى الدنيا ، وإلقاءً فى الجحيم فى الآخرة .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ (٣٨)﴾

وأنت يا محمد لست بِدْعاً من الرسل فى مسألة الزواج والإنجاب[٢] . وهى تحمل الرد على مَنْ قالوا :

---

(١) كِسَفاً : قطعاً . وهو جمع كسفة . وقال الجوهرى : الكسفة القطعة من الشىء . [تفسير القرطبى ٥/٤٠٥٩] .

(٢) ذكر النيسابورى فى « أسباب النزول » (ص ١٥٨) أن الكلبى قال : «عيرت اليهود رسول الله ﷺ وقالت : ما نرى لهذا الرجل ـ يقصدون محمدًا ﷺ ـ همة إلا النساء والنكاح ، ولو كان نبياً كما زعم لشغله أمر النبوة عن النساء ، فأنزل الله تعالى هذه الآية » .

﴿ مَا لِهَـٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ[1] .. (٧) ﴾[الفرقان]

ومنهم مَنْ قال : ما لهذا الرسول يتزوج النساء ؟ ألم يكن من اللائق أن يتفرغ لدعوته ؟

وهؤلاء الذين قالوا ذلك لم يستقرئوا الموكب الرسالى ، لأنهم لو فعلوا لوجدوا أن أغلب الرسل قد تزوَّجوا وأنجبوا .

وحين تكون حياة الرسول قريبةً ـ كمثال واضح ـ من حياة الناس الذين أُرسِل إليهم ؛ ليكون أُسْوة لهم ؛ فالأُسْوَة تتأتَّى بالجنس القابل للمقارنة ؛ وحين تكون حياة الرسول كحياة غيره من البشر فى إطارها العام ؛ كأبٍ وزوجٍ ، فالأسوة تكون واضحة للناس .

ونعلم أن هناك مَنْ جاء إلى رسول الله ؛ ليطلب الإذن بالتفرُّغ التامّ للعبادة من : صوم وصلاة وزُهْد عن النساء ، فنهى الرسول ﷺ عن ذلك وقال فى حديث شريف :

« إنى لأخشاكم لله ، وأتقاكم له ، لكنى أصوم وأفطر ، وأصلى وأرقد ، وأتزوج النساء ، فمن رَغِبَ عن سُنَّتى فليس منِّى »[2] .

---

(١) وقد ردَّ عليهم رب العزة فقال : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ.. (٢٠) ﴾ [الفرقان] ويقول فى آية أخرى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٧) وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لاَّ يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ (٨) ﴾ [الأنبياء] .

(٢) عن أنس بن مالك قال : جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبى ﷺ يسألون عن عبادة النبى ﷺ ، فلما أخبروا كأنهم تقالُّوها فقالوا : وأين نحن من النبى ﷺ قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر . فقال أحدهم : أما أنا فإنى أصلى الليل أبداً . وقال الآخر : إنى أصوم الدهر فلا أفطر . وقال الآخر : أنا أعتزل النساء فلا أتزوج ، فجاء رسول الله ﷺ فقال : « أنتم الذين قلتم كذا وكذا ، أما والله إنى لأخشاكم لله... » الحديث أخرجه البخارى فى صحيحه (٤/١٥١ ـ فتح البارى) .

ويتابع الحق سبحانه :

﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ (٣٨)﴾

[الرعد]

أى : ما كان لأحد أن يقترح على الله الآية التى تأتى مع أىّ رسول من الرسل ، ولم يكُنْ لأىٍّ رسول حق فى اختيار الآية المصاحبة له .

وبهذا القول حسم الحق سبحانه قضية طلب المشركين لآيات من الرسول ﷺ ؛ لأن كل رسول جاء لزمنه ولقومه ؛ وكل معجزة كانت من اختيار الله ، وكل رسول يؤدى ما يُكلِّفه به الله ؛ وليس للرسول أن يقترح على الله آيةً ما ؛ لأن الخالق الأعلى هو الأعلم بما يصلح فى هذه البيئة على لسان هذا الرسول .

ونأخذ من قوله الحق :

﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ (٣٨)﴾ [الرعد]

أن لكل رسالة رسولها ، ولكل رسالة مكانها ، ولكل رسالة معجزتها ، فإذا كان الأمر كذلك فدعوا محمداً ﷺ وما اختاره الله له ؛ فى المكان الذى شاءه سبحانه ، وفى الزمان ؛ وفى المعجزة المصاحبة له ﷺ .

ولكن ، أهناك تغيير بعد أن يقول الحق سبحانه :

﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ (٣٨)﴾ [الرعد]

نعم هناك تغيير ، وانظروا إلى قول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾﴾

والمَحْو كما نعلم هو الإزالة ، والتثبيت أى : أن يُبقِى الحق ما يراه ثابتاً .

وقد ـهم بعض الناس ـ خطأ ـ أن كل حُكْم فى القرآن قد جاء ليثبُتَ وسيظلّ هكذا أبدَ الدهر ؛ ولكن عند التطبيق ظهر أن بعض الأحكام يقتضى تغييرها يغيرها الله لحكمة فيها خير البشرية .

ونقول : لا ، لم يحدث ذلك ، ولكن كانت هناك أحكام مَرْحلية ؛ ولها مُدَّة مُحدَّدة ؛ ولذلك جاء قول الحق سبحانه :

﴿وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٣٩﴾﴾ [الرعد]

أى : عنده اللوح المحفوظ الذى تحدَّدتْ فيه الأحكام التى لها مُدَّة مُحدّدة ؛ وما أن تنتهى إلا وينزل حُكْم آخر مكانها ، وعلى هذا المعنى يمكن أن نقول : إنه لم يوجد نَسْخٌ للأحكام ، لأن معنى النَّسْخ أن يُزحزحَ حُكْماً عن زمانه ، وهنا لم نجد حُكْماً يتزحزحُ عن زمانه ؛ لأن كل حُكْم موقوتٌ بوقت محدود ؛ وما أن ينتهى الوقت حتى يبدأ حُكْم جديد .

أقول ذلك كى أنبِّه العلماء إلى ضرورة أنْ يجلسوا معاً لدراسة ذلك ، حتى لا يختلف العلماء : أهناك نَسْخ أم لا ، وأقول : فَلْنُحدد النَّسْخ أولاً ، لأن البعض يظن أن هناك حكماً كان يجب أن ينسحب على كل الأزمنة ، ثم جاء حُكْم آخر ليحل محله لحكمة تقتضيها مصلحة البشرية والمراد لله منها .

ولا يوجد حُكْم أنهى حُكْماً وطرأ عليه ساعة الإنهاء ؛ بل كل

الأحكام كانت مُقدَّرة أزلاً ؛ وعلى ذلك فلا يوجد نَسْخ لأىِّ حُكْم ، ولكن هناك أحكام ينتهى وقتها الذى قدّره الله لها ؛ ويأتى حُكْم سبق تقديره أزلاً ليواصل الناسُ الأخذ به ؛ وما دام الأمر كذلك فلا يوجد نسخ .

ولنَنْظُر إلى قول الحق سبحانه :

﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا[1] نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا .. (١٠٦) ﴾[البقرة]

ويتضح من منطوق الآية ومفهومها أن عند نسخ حكم يأتى الله بمثله أو خير منه . إذن : ليس هناك نسخ وإنما هناك أحكام تؤدى مهمتها فى زمن ثم يأتى زمن يحتاج إلى حكم خير منه أو مثله فى الحكم ، ولكنه يوافق المصالح المرسلة مع مراد الله .

ولقائل أنْ يقول : ما دام سيأتى بخير من الآية المنسوخة أو المُنْسَأة فذلك أفضل ، ولكن لماذا يأتى بالمِثْل ؟

وأقول : لأنك إنْ جاءك ما هو خَيْر منها قد تَسْتسيغه ، ولكن حين ننتقل إلى مِثْل ما جاءتْ به الآية ؛ فهذا مَحَكُّ الإيمان .

والمثَل هو التوجُّه فى الصلاة إلى بيت المقدس فى أول الدعوة ؛ ثم مَجِىء الأمر بتحويل القبلة إلى الكعبة ؛ فلا مشقَّة فى ذلك .

ولكن هنا يتم اختبار الالتزام الإيمانى بالتكليف ، وهنا الانصياعُ للحكم الذى يُنزِله الله ، وهو حُكْم مُقدَّر أزَلاً ؛ وفى هذا اختبار لليقين

---

(١) نسأ الشىء ينسؤه : أخَّره عن موعده . قال الجصاص فى « أحكام القرآن » (١/ ٧١) : « أما : (أو ننسها) قيل : إنه من النسيان . وننسأها من التأخير ، يقال : نسأتُ الشىء أخَّرته بأن يؤخرها فلا ينزلها وينزل بدلاً منها ما يقوم مقامها فى المصلحة أو يكون أصلح للعباد منها » .

الإيمانىّ فى إدارة توجيه المُدبِّر لهذا السير .

وكذلك فى الحج يأتى الرسول ﷺ ليُقبِّل الحجر الأسود ؛ ثم يرجم الحجر الذى يرمز لإبليس ، ونحن نفعل ذلك أُسْوة برسول الله ﷺ ، وكلاهما حجر ، ولكنَّنا نمتثل لأمره ﷺ . فتقبيل الحجر الأسود ورجم الحجر الذى يشير إلى رمزية إبليس ، كل هذا استجابة لأمر لآمر .

وحين يقول الحق سبحانه :

﴿ يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ (٣٩) ﴾ [الرعد]

فهو يعنى أنه سبحانه يُنهِى زمن الحكم السابق الذى ينتهى زمنه فى أُمِّ الكتاب أى اللوح المحفوظ ؛ ثم يأتى الحكم الجديد .

والمثال : هو حكم الخمر ؛ وقد عالجها الحق سبحانه أولاً بما يتفق مع قدرة المجتمع ؛ وكان المطلب الأول هو تثبيت العقيدة ؛ ثم تجىء الأحكام من بعد ذلك .

وهناك فرق بين العقيدة ـ وهى الأصل ـ وبين الأحكام ، وهى تحمل أسلوب الالتزام العقدىّ ، وكان الحكم فى أمر العقيدة مُلزِماً ومستمراً .

أما الأحكام مثل حكم الخمر فقد تدرج فى تحريمها بما يتناسب مع إلْف الناس ؛ واعتيادهم ؛ فقلَّل الحق سبحانه زمن صُحْبة الخمر ؛ ثم جاء التحريم والأمر بالاجتناب ، وعدم القُرْب منها .

والمثل فى حياتنا ؛ حيث نجد مَنْ يريد أن يمتنع عن التدخين

وهو يُوسِّع من الفجوة الزمنية بين سيجارة وأخرى ، إلى أن يقلع عنها بلطف ، وينفيها من حياته تماماً .

ونجد القرآن يقول فى الخمر :

﴿ وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا[1] وَرِزْقًا حَسَنًا .. (٦٧) ﴾ [النحل]

وهنا يمتنُّ الله عليهم بما رزقهم به ؛ ولكن أهل الذَّوْق يلتفتون إلى أنه لم يَصف الخمر بأنها من الرزق الحسن ؛ ووصف البلح والعنب بأنه رزق حسن ؛ لأن الإنسان يتناوله دون أن يفسده .

وهكذا يلتفت أهل الذوق إلى أن الخمر قد يأتى لها حكم من بعد ذلك ، ثم يُنزل الحق سبحانه عظة تقول :

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا .. (٢١٩) ﴾ [البقرة]

وهكذا أوضح الحق سبحانه ميْل الخمر والميسر إلى الإثم أكثر من مَيْلهما إلى النفع ، ثم جاء من بعد ذلك قوله بحكم مبدئى :

﴿ لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ .. (٤٣) ﴾ [النساء]

ومعنى ذلك أن تتباعد الفترات بين تناول الخمر ، فلا يحتسى أحدٌ الخمر طوال النهار وجزء من الليل ، وفى ذلك تدريب على الابتعاد عن الخمر .

---

(١) السَّكَر : بالفتح ، كل ما يسكر أى الخمر ، أو نقيع التمر وعصير العنب الذى لم تمسه النار ، وهو غير مسكر . والسكر هنا يحتمل أنه الخمر المسكر ، ويحتمل أنه عصير حلو غير مسكر ، أو الخل ، وإذا فُسِّر بأنه ما يُسكر يكون نزول الآية للامتنان بهذه النعمة قبل تحريم الخمر [القاموس القويم ١/ ٣٢٠] .

ثم يأتى التحريم الكامل للخمر فى قوله تعالى :

﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٩٠)﴾ [المائدة]

وهكذا أخذ الحكم بتحريم الخمر تدرّجه المناسب لعادات الناس ، وتمَّ تحريم الخمر بهوادة وعلى مراحل .

وهكذا نفهم النَّسْخ على أنه انتهاء الحكم السابق زمناً وبداية الحكم الجديد ، وهذا يعنى أن الحكم الأول لم يكن مُنْسحباً على كل الزمن ثم أزلناه وجئنا بحكم آخر ؛ ولكن توقيت الحكم الأول - أزلاً - قد انتهى ؛ وبدأ الحكم الجديد .

وهكذا لا يوجد مجال للاختلاف على معنى النسخ ، ذلك أن الحق سبحانه أرجع المَحْو والإثبات إلى أم الكتاب ؛ ففيها يتحدد ميعاد كل حكم وتوقيته ؛ وميعاد مجىء الحكم التالى له .

وما دام كل أمر مرسوم أزلاً ؛ فعلى مَنْ يقولون أن البَدَاء محرم على الله أن ينتبهوا إلى أن هذا المحو والإثبات ليس بَداءً ؛ لأن البداء يعنى أن تفعل شيئاً ، ثم يبدو لك فسادُه فتُغيِّره .

والحق سبحانه لم يظهر له فساد ما أنزل من أحكام أو آيات ؛ بل هو قدَّر كل شىء أزلاً فى أم الكتاب ، وجعل لكل حكم ميقاتاً وميلاداً ونهاية .

ويصح أن يتسع معنى قول الحق سبحانه :

﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ (٣٩)﴾ [الرعد]

ليشمل نسخ رسالة برسالة أخرى ؛ فيكون قد محا شيئاً وأثبت

شيئاً آخر ، وكل شيء فيه تغيير إلى الخير يصحّ فيه المَحْو والإثبات ، وهو من عند الرقيب العتيد :

﴿ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (١٨) ﴾ [ق]

أى : أنه القادر على أن يأمر الرقيب والعتيد بأن يُثبتا الواجبات والمحرمات ، وأنْ يتركا الأمور المباحة ، وهو القادر على أنْ يمحوَ ما يشاء من الذنوب ، ويُثبت ما يشاء من التوبة .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ (٤٠) ﴾ (١)

هذه الآية تُحدِّد مهمة الرسول ﷺ فى أن يُبلِّغ منهج الله ، فمَنْ شاء فليؤمن ومَنْ شاء فليكفر ، إلا أن قول الحق سبحانه فى رسوله ﷺ :

﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٢٨) ﴾ [التوبة]

جعله هذا القول متعلقاً بهداية قومه جميعاً ، وكان يرجو أن يكون الكل مهتدياً ؛ ولذلك يقول الحق سبحانه لرسوله فى موقع آخر :

---

(١) أى : نريهم بعض الذى نعدهم من العذاب ، مثل قوله تعالى : ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. (٣٤) ﴾ [الرعد] . وقوله تعالى : ﴿ وَلا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ .. (٣١) ﴾ [الرعد] .

﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ[١] نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا[٢] (٦) ﴾ [الكهف]

أى : أنك لستَ مسئولاً عن إيمانهم ، وعليك ألاَّ تحزن إنْ لم ينضمُّوا إلى الموكب الإيمانى ، وكُلُّ ما عليك أن تدعوهم وتُبلِّغهم ضرورة الإيمان ؛ والحق سبحانه هو الذى سوف يحاسبهم إما فى الدنيا بالمحو والإذهاب ، أو فى الآخرة بأن يَلْقَوْا عذاب النار .

وحين يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ (٤٠) ﴾ [الرعد]

فنحن نعلم أن كل دعوة من دعوات الخير تكبُر يوماً بعد يوم ؛ ودعوات الشر تبهت يوماً بعد يوم . ومَنْ يدعو إلى الخير يُحب ويتشوق أنْ يرى ثمار دعوته وقد أينعت[٣] ، ولكن الأمر فى بعض دعوات الخير قد يحتاج وَقْتاً يفوق عمر الداعى .

ولذلك يقول الحق سبحانه لرسوله ﷺ :

﴿ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ .. (٤٠) ﴾ [الرعد]

أى : اغرس الدعوة ، ودَعْ مَنْ يقطف الثمرة إلى ما بعد ذلك ، وأنت حين تتفرَّغ للغَرْس فقط ؛ ستجد الخير والثمار تأتى حين يشاء الله ؛ سواء شاء ذلك إبَّان حياتك أو من بعد موتك .

وأنت إذا نظرتَ إلى الدعوات التى تستقبلها الحياة ستجد أن لكل

---

(١) بخع نفسه : قتلها هماً وغيظاً وحزناً . [القاموس القويم ١/٥٦] .

(٢) الأسف : هوّ الحزن مع الغضب . والأسيف والأسوف : السريع الحزن الرقيق . والأسِف : الغضبان المتلهف على الشىء . [لسان العرب ـ مادة : أسف] .

(٣) أينع الثمر : أدرك ونضج وحان قطافه . [القاموس القويم ٢/٣٧٣] .

دعوة أنصاراً أو مؤيدين ، وأن القائمين على تلك الدعوات قد تعجَّلوا الثمرة ؛ مع أنهم لو تمهَّلوا ليقطفها مَنْ يأتى بعدهم لنَجحتْ تلك الدعوات .

ونحن فى الريف نرى الفلاح يغرس ؛ ومن خلال غَرْسه نعرف مراداته ، هل يعمل لنفسه ، أو يعمل من أجل من يأتى بعده ؟

فَمنْ يغرس قمحاً يحصد بسرعة تفوق سرعة مَنْ يغرس نخلة أو شجرة من المانجو ، حيث لا تثمر النخلة أو شجرة المانجو إلا بعد سنين طويلة ، تبلغ سبع سنوات فى بعض الأحيان ، وهذا يزرع ليؤدى لِمَنْ يجىء ما أداه له مَنْ ذهبَ .

ونحن نأكل منْ تَمْر زَرَعه لنا غيرنا ممَّنْ ذهبوا ، ولكنهم فكّروا فيمَنْ سيأتى من بعدهمْ ، ومَنْ يفعل ذلك لابُدَّ وأن يكون عنده سعَة فى الأرض التى يزرعها ؛ لأن مَنْ لا يملك سعَة من الأرض فهو يفكر فقط فيمَنْ يعول وفى نفسه فقط ؛ لذلك يزرَع على قَدْر ما يمكن أن تعطيه الأرض الآن .

أما مَنْ يملك سعَة من الأرض وسعَة فى النفس ؛ فهو مَنْ وضع فى قلبه مسئولية الاَهتمام بمَنْ سيأتوَن بعده . وأنْ يردّ الجميل الذى أسداه له مَنْ سبقوه ، بأن يزرع لغيره ممَّنْ سيأتون من بعده .

ودعوة محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ شهدتْ له بأنه لم يبحثْ لنفسه عن ثمرة عاجلة ؛ بل نجد الدعوة وهىَ تُقابل الصِّعاب تلْو الصعاب ، ويلْقى ﷺ ما تلقَّى من العنت والإرهاق والجهد ؛ بعد أنْ جهر بالدعوة فى عشيرته الأقربين .

ثم ظلَّتْ الدعوة تتسع فى بعض العشائر والبطون إلى أن دالت[1]

---

(١) الإدالة : الغلبة . وأدالنا الله من عدونا : من الدولة . ويقال : أُديل لنا على أعدائنا أى نُصِرْنا عليهم . [لسان العرب ـ مادة : دول] .

عاصمة الكفر ؛ وصارت مكة بيت الله الحرام كما شاء الله ، وأسلمتْ الجزيرة كلها لمنهج الله . وأرسل ﷺ الكتب إلى الملوك والقياصرة ، وكلها تتضمن قوله ﷺ « أسلم تسلم » .

ودلَّتْ هذه الكتب على أن الدعوة الإسلامية هى دعوة مُمتدَّة لكل الناس ؛ تطبيقاً لِمَا قاله الحق لرسوله ﷺ أنه : « رسول للناس كَافَّة » .

قال تعالى :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً .. (٢٨) ﴾ [سبأ]

وفَهم الناس الفَارق بين رسالته ﷺ وبين كَافّة الرسالات السابقة ، فإلى قوم عادَ أرسل هوداً عليه السلام .

يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً .. (٦٥) ﴾ [الأعراف]

وقال عن أهل مَدْين :

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً .. (٨٥) ﴾ [الأعراف]

وقال عن بَعْثة موسى :

﴿ وَرَسُولاً إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ .. (٤٩) ﴾ [آل عمران]

وهكذا حدَّد الحق سبحانه زمان ومكان القوم فى أىِّ رسالة سبقتْ رسالة محمد بن عبد الله ﷺ .

لكن الأمر يختلف حين أرسل سبحانه محمداً ﷺ رسولاً وجعله للناس كافَّة ، فقد علم سبحانه أزلاً أن هذا هو الدين الخاتم ؛ لذلك أرسل رسول الله إلى حُكَّام العالم ـ المعاصرين له ـ دعوةً لدخول الدين الخاتم .

وقد ترك الرسول ﷺ تلك المهمة لمَنْ يخلفونه ، ودعا ﷺ الجزيرة العربية تحت لواء « لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله » بعد أن كانت قبائل متعددة .

كل قبيلة كانت لا تُلزم نفسها بعبادة إله القبيلة الأخرى ؛ وكل قبيلة لا تلزم نفسها بتقنينَ القبيلة الأخرى ، ولم يجمعهم أبداً شَمْل ، ولا استيطانَ لهم إلا فى بعض القُرَى ، ذلك أن أغلبهم من البَدْو الرُّحَّل ؛ كل واحد منهم يحمل بيته ـ الخيمة ـ على ظهر بعيره ، ويمشى بحثاً عن الكلأ والماء لأغنامه وماشيته .

فلم يكن عندهم انتماء وطنى ؛ فضلاً عن القبائل التى كانت تتقاتل فيما بينها فى تارات عنيفة ، وامتدت الحرب فيما بين بعض القبائل إلى أربعين عاماً فى بعض الأحيان .

استطاع ﷺ أن يُوظِّف ما كانوا عليه من تدريب وعَتَاد وعُدَّة لنُصْرة دين الله ؛ فحين إعداده للغزوات أو اختياره للسرايا[1] كان يجد المقاتلين فى كامل لياقتهم .

وحين استدعاهم إلى الحرب لم يُجْر لهم تدريبات ؛ فقد كان الكل مُدرَّباً على القتال .

وهكذا صارتْ القبائل أمة واحدة بعد أن جمعهم محمد رسول الله ﷺ فى وحدة التكامل العقدى تحت راية الإسلام ، وهذه الأمة الأمية ، قال فيها الحق سبحانه :

﴿ هُوَ الَّذِى بَعَثَ فِى الأُمِّيِّينَ[2] رَسُولاً مِّنْهُمْ .. (٢) ﴾ [الجمعة]

---

(١) السرايا : جمع سرية ، وهى القطعة من الجيش ، ما بين خمسة أنفس إلى ثلثمائة . سُميت سرية لأنها تسْرى ليلاً فى خفية . [لسان العرب ـ مادة : سرا] .

(٢) الأميون : هم العرب . قال ابن منظور فى اللسان (مادة : أمم) : « قيل للعرب الأميون ، لأن الكتابة كانت فيهم عزيزة أو عديمة ، فهم على أصل ولادة أمهم لم يتعلموا الكتابة والحساب ، فهم على جبلتهم الأولى » .

وكانت هذه الأمية شرفاً لهم كَيْلا يُقَال : إنهم أصحاب قَفْزة حضارية من أمة مُتمدينة . وكانت هذه الأمية مُلْفتة ، لأن ما جاء فى تلك الأمة من تشريعات وقفتْ أمامه الأُمم الأخرى إلى زماننا هذا باندهاش وتقدير .

وشاء الحق سبحانه لهذه الأمة أن تحملَ رسالة السماء لكل الأرض ، وبعد أن نزل قول الحق سبحانه :

﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا .. ﴿٣﴾ ﴾ [المائدة]

فَهِم بعض الناس أن الرسول ﷺ ينعِى نفسه لأمته[1] .

ومن بعد رحيله ﷺ إلى الرفيق الأعلى انساح صحابته بالدين الخاتم فى الدنيا كلها ، وخلال نصف قرن من الزمان صار للإسلام جناحان ؛ جناح فى الشرق ، وجناح فى الغرب . وهزم أكبر امبراطوريتين متعاصرتين له ؛ هما امبراطورية فارس بحضارتها وامبراطورية الروم .

وكانت البلاد تتخطَّف الإسلامَ كمنهج حياة ، حدث ذلك بعد أن حارب الإسلامُ الامبراطوريتين فى آنٍ واحد ، وأقبل الناس على الإسلام ليتحقَّقوا من معجزته التى لَمَسُوها فى خُلُق مَنْ سمعوا القرآن وحَملوا رسالته ؛ ثم فى اكتشافهم لعدالة القرآن فى إدارة حركة الحياة .

---

(١) أخرج ابن جرير عن السدى فى قوله : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ .. ﴿٣﴾ ﴾ [المائدة] . قال : « هذا نزل يوم عرفة ، فلم ينزل بعدها حرام ولا حلال ، ورجع رسول الله ﷺ فمات » . أورده السيوطى فى الدر المنثور (٣/١٩) .

وهكذا اكتشفوا أن معجزة الإسلام عقلية ؛ وأن رسوله ﷺ هو الرسول الخاتم الذى لم يأْتِ لهم بمعجزة حسِّية ، وإذا كان القرآن معجزة فى اللغة للقوم الذينَ نزل فيهم رسولَ الله ﷺ ؛ فالقرآن لِمَنْ لم يعرفوا لغة القرآن كان معجزة فى العدالة والقيم النابعة منه .

وكان الناس يندفعون إلى الإسلام بقوة دَفْع من المؤمنين به ، وبقوة جَذْب من غير المؤمنين ؛ حين يروْنَ ألاَّ فَرْق بين الأمير وأصغر فَرْد تحت رايته ، وحين يلمسون عدالته ومساواته بين البشر .

ولم يكن الإسلام معجزة لقومه فقط ؛ بل لكل الدنيا ، ويتحقق دائماً قول الحق سبحانه :

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ[1] وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۗ ﴿٥٣﴾ ﴾ [فصلت]

ونجد مُفكّراً كبيراً من الغرب المعاصر يعلن إسلامه ، رغم أنه لم يقرأ القرآن ؛ بل نظر فقط فى المبادىء التى قنَّنها الإسلام ، وكيف تحمل حلولاً لِمَا عجزتْ عنه الحضارات المتعاقبة وأهل القوانين فى كل بلاد الأرض .

ويعرف أن تلك القوانين قد جاءتْ لرسول ينتمى لأمة لم تبرعْ إلا فى البلاغة والأدب ، وتضع تلك القوانين حلولاً لمشاكل تعانى منها الدنيا كلها .

ورأينا كيف بحثَ رجل عن أعظم مائة فى تاريخ البشرية ، وكيف جعل محمداً ﷺ أوَّلهم ، وهذا الباحث لم يقرأ القرآن ؛ ولكنه درسَ

---

(١) الآفاق : جمع أفق ، وهو الناحية ، وخط التقاء السماء بالأرض فى رأى العين . [القاموس القويم ١/٢٢] .

آثار تطبيق القرآن ، وبعد أنْ يُعجبَ بالمنهج القرآنى نجده يُعجب بالنص القرآنى .

والمثل : هو دراسة الألمان لعملية إدراكات الحسِّ ؛ وكيف يشعر الإنسان بالألم ؟ وكيف يلمس الإنسان بِبَشْرته بمَلْمسٍ ناعم فيُسَرّ منه ، ثم يلمس شيئاً خشناً فيتأذى منه .

واستمر الألمان يدرسون ذلك لسنوات ؛ كى يعرفوا مناطَ الإحساس وموقعه فى الإنسان ، هل هو فى المُخِّ أم أين ؛ إلى أن انتهوْا إلى أن مناطَ الإحساس فى كُلِّ إنسان هو فى الجِلْد ، وأنها خلايا مُنبسطة تحت الجِلْد مباشرة ؛ بدليل أن الإبرة حين نغرزها فى جسم الإنسان ؛ فهو يتألم فقط فى منطقة دخولها ؛ وليس أكثر .

ولفتَ ذلك نظر أحد العلماء ؛ فقال : لقد تحدث القرآن عن ذلك حين قال :

﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ[1] جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا (٥٦) ﴾ [النساء]

ولو أن تلك الجلود قد احترقتْ ؛ فالعذاب سينتهى ؛ لذلك يُبدِّل الله جلودهم ليستمر العذاب ، وهذا مَثَلٌ واحد من أمثلة ما كشف عنه القرآن .

ومن الأمثلة المعاصرة فى العلوم الجنائية قصة شاب مسلم من سوهاج سافر إلى ألمانيا ليُعد رسالة الدكتوراه فى القانون ، ووجدهم

---

(١) قال ابن عمر فى تفسير الآية : « إذا احترقت جلودهم بدلناهم جلوداً بيضاء أمثال القراطيس » أورده السيوطى فى الدر المنثور (٢/٥٦٨) .

يقفون عند قضية التعسُّف[١] فى استعمال الحق ، ويعتبرونها من أهم الإنجازات القانونية فى القرن العشرين .

فأوضح لهم هذا الشاب أن الإسلام قد سبقهم فى تقدير هذه المسألة ووضع الحكم المناسب فيها من أربعة عشر قرناً من الزمان .

وروى لهم أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ قائلاً : إن لفلان عندى فى ساحة بيتى نخلة ، وهو يدخل بيتى كل ساعة بحجة رعاية تلك النخلة ؛ مرة بدعوى تأبيرها[٢] ؛ وأخرى بدعوى جَنْى ثمارها ، وثالثة بدعوى الاطمئنان عليها حتى جعل النخلة شُغله الشاغل .

وشكا الرجل للرسول ﷺ أنه يتأذى هو وأهل بيته من اقتحام الرجل للحياة الخاصة له ، فأرسل ﷺ إلى صاحب النخلة وقال له : « أنت بالخيار بين ثلاثة مواقف : إما أن تهبه النخلة ـ وتلك منتهى الأريحية ـ ، وإما أنْ تبيعها له ، وإما قطعناها »[٣] .

وهكذا وضع ﷺ قواعد للتعامل فيما يسمى « التعسُّف فى استعمال الحق » .

وفى انجلترا وجدوا أن القانون التجارى ملىء بالثغرات ، ومثال هذا أن التعامل فى السوق قد يتطلب بعضاً من المرونة بين التجار ؛ فهذا يرسل لذاك طالباً من الآخر ألفاً من الجنيهات ؛ وفلان يردُّ ما أخذه أو يقايضه .

---

(١) التعسف : إساءة استعمال الحق مع ظلم وعدم رويّة أو دراية .

(٢) أبر النخلة والزرع : أصلحه . وتأبير النخل : تلقيحه . [لسان العرب ـ مادة : أبر] .

(٣) عن بعض أصحاب النبى ﷺ قال : جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله ، إن لفلان نخلة فى حائطى فمره فليبعنيها أو ليهبها لى قال : فأبى الرجل فقال رسول الله ﷺ « افعل ولك بها نخلة فى الجنة فأبى فقال النبى ﷺ : « هذا أبخل الناس » .

واصطدم الواقع بأن بعض التجار لا يعترفون ببعض الديون التجارية التى عليهم ، وقديماً كان إذا أراد تاجر أن يقترض من زميل له ؛ فهو يكتب الدَّيْن فى كمبيالة أو إيصال أمانة ؛ وذلك لتوثيق الدَّيْن .

ولكن الأمر اليومى فى السوق قد يختلف ؛ فهذا يحتاج نقوداً لأمر عاجل ، وزميله يثق فى قدرته على الردِّ والتسديد ؛ لأنه قد يحتاج هو الآخر لنقود عاجلة ، ويثق أن مَنْ يقرضه الآن ، سيقرضه فيما بعد ؛ ولذلك أنشأوا ما يُسمَّى بالدَّيْن التجارى ، فيفتحون « دفتراً » يُسجِّلون فيه الديون التجارية ؛ لتحكم الدفاتر فيما يعجز عن تذكّره الأشخاص .

وذهب شاب مسلم لبعثة دراسية هناك ؛ وأوضح لهم أن قضية الدّين أخذت اهتمام الإسلام ؛ لدرجة أن أطول آية فى القرآن هى الآية التى تحدد التعامل مع الديون ؛ وأخذ يترجم لهم قول الحق سبحانه :

﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِى عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلا يَبْخَسْ[1] مِنْهُ شَيْئًا فَإِن كَانَ الَّذِى عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا[2] أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن

---

(١) البخس : النقص . يقول تعالى : ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ .. ﴿٢٠﴾﴾ [يوسف] أى : ناقص دون ثمنه . [لسان العرب ـ مادة : بخس] .

(٢) السفيه : الناقص العقل السىء التصرف . [القاموس القويم : ١/٣١٧] . وقال ابن كثير فى تفسيره (١/٣٣٥) : « أى محجوراً عليه بتبذير ونحوه » .

تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ[١] إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَىٰ وَلا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلا تَسْأَمُوا[٢] أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيراً أَوْ كَبِيراً إِلَىٰ أَجَلِهِ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلاَّ تَرْتَابُوا إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ[٣] أَلاَّ تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلا شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٨٢) ﴾ [البقرة]

وظاهر الأمر أنه يحمى الدائن ، ولكن الحقيقة أنه يحمى المدين أيضاً ؛ لأن المدين إنْ علم أنَّ الدَّيْن مُوثَّق ؛ فهو سيسعى جاهداً أن يؤديه فى موعده ، وأيضاً كى لا يأخذ النصَّابون فرصة للهرب من السداد ، وبذلك حمى القرآنُ الدائن والمدين معاً كى لا تقف حركة التعامل بين الناس .

ومع هذا فإنه لم يمنع الأريحية الإيمانية والمروءة أن تسلك طريقها فى عالم الود والإخاء المؤمن ؛ فإنْ كان لك قريب أو إنسان لك به صلَة ، وأنت تأمنه على ما اقترض منك ؛ يقول لك الحق سبحانه :

﴿ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِى اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ .. (٢٨٣) ﴾ [البقرة]

---

(١) الضلال : النسيان . [لسان العرب ـ مادة : ضلل] .

(٢) سئم الشىء : ملَّه وضجر منه وأحسَّ بفتور نحوه . قال تعالى : ﴿ وَلا تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيراً أَوْ كَبِيراً إِلَىٰ أَجَلِهِ .. (٢٨٢) ﴾ [البقرة] .

(٣) الجناح : الإثم والذنب . قال تعالى : ﴿ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا .. (١٥٨) ﴾ [البقرة] أى : لا إثم ولا حرج عليه بل له الثواب والأجر العظيم . [القاموس القويم ١/١٣١] .

وبهذا القول يشعر مَنْ يحمل أمانة من الغير بالخجل ؛ فيعمل على رَدِّها . ثم يضيف الحق سبحانه :

﴿ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلاَّ تَكْتُبُوهَا .. (٢٨٢) ﴾ [البقرة]

وهكذا جاء الإسلام بقوانين لا يمكن أن تخرج من أمة أُميِّة ؛ لأنها قوانين تسبق العصور ، وهى قوانين تنبع من دين سماوى خاتم . ولذلك عندما سألونى عن موقف الإسلام من التقدمية والرجعية ، قلت لهم :

إن القياس خاطىء ؛ لأنك لن تستطيع أن تقيس فكْر بشر بما أنزله رَبُّ كل البشر ، وإذا كان العالم بشَرْقه وغَرْبه يهتدى إلى أىِّ خير تنتظم به حياته ؛ ويجد جذوراً لذلك الخير فى الإسلام ؛ فهذا دليل على أن العالم يتجه إلى الوسطية .

وكان المثل فى الشيوعية التى قامت ثورتها الدموية فى عام ١٩١٧ ؛ وقالوا : إنها مُقدّمة للشيوعية ؛ وسقطتْ الشيوعية من بعد أن أصيب المجتمع الروسى بالتيبُّس والجمود ، والخوف من أسلوب حُكْم الحزب الشيوعى .

ونجد الرأسمالية الشرسة ، وهى تُهذِّب من شراستها ؛ وتعطى العامل حقَّه وتُؤمِّن عليه ، وهكذا يتجه العالم إلى الوسطية التى دعا لها الإسلام .

وقد نزل الإسلام من قِبَل عالمٍ عليمٍ بكل الأهواء وبكل المراحل .

ولذلك نجد الحق سبحانه وهو يُطمئنُ رسوله ﷺ إنْ آذاه أحدٌ فى المنهج الذى جاء به ؛ لأنه ﷺ لم يكن ليأبه بمَنْ يحاول أن يُؤذيَه فى شخصه ، وكان ﷺ لا يغضب لنفسه ؛ ولكن إنْ تعرَّض أحد للمنهج فغضبه ﷺ يظهر جلياً .

ومَنْ وقفوا ضد الدين قابلهم الرسول ﷺ بالدعوة ؛ فمَنْ آمن منهم نال حلاوة الإيمان ؛ ومَنْ لم يؤمن فقد توالتْ عليه المصائب من كل جانب ، منهم مَنْ رأى النبى ﷺ مصارعه .

ولذلك نجد الحق سبحانه يقول لرسوله ﷺ :

﴿ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ (٤١) أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِى وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ (٤٢) ﴾ [الزخرف]

أى : أنه جلَّ وعلاَ إما أن يُلحق رسوله بالرفيق الأعلى ، وينتقم من الذين وقفوا ضده ؛ أو يُريه عذابهم رأى العين[1] .

وكأن هذا القول هو الذى يشرح قوله سبحانه هنا :

﴿ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ (٤٠) ﴾ [الرعد]

وعذاب الدنيا ـ كما نؤمن ـ مَهْما بلغ فلن يصلَ إلى مرتبة عذاب الآخرة .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (١٢٨/٤) : « لم يقبض الله تعالى رسوله ﷺ حتى أقر عينه من أعدائه ، وحكّمه فى نواصيهم ، وملكه ما تضمنته صياصيهم (حصونهم) . هذا معنى قول السدى واختاره ابن جرير » .

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤١﴾﴾

و « يَرَوْا » هنا بمعنى « يعلموا » ، ولم يَقُلْ ذلك ؛ لأن العلم قد يكون عِلْماً بغيب ، ولكن « يروا » تعنى أنهم قد علموا ما جاء بالآية عِلْم مشهد ورؤية واضحة ، وليس مع العين أيْن .

وإذا جاء قول الحق سبحانه ليخبرنا بأمر حدث فى الماضى أو سيحدث فى المستقبل ؛ ووجدنا فيه فعل الرؤية ؛ فهذا يعنى أننا يجب أن نؤمن به إيمان مَشْهدٍ ، لأن قوله سبحانه أوثق من الرؤية ، وعلمه أوثق من عينيك .

وسبق[1] أنْ قال الحق سبحانه لرسوله :

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾﴾ [الفيل]

ونعلم أن النبى ﷺ قد وُلِد فى عام الفيل ، ولا يمكن أن يكون قد رأى ما حدث لأصحاب الفيل ، ولكنه صَدَّق ما جاء به القول الحق وكأنه رؤيا مَشْهدية .

وقال الحق سبحانه :

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا .. ﴿٤٥﴾﴾

[الفرقان]

---

(١) قول فضيلة الشيخ هنا « سبق » هو باعتبار زمان ومكان نزول سورتى الفيل والرعد ، وليس باعتبار ترتيبهما فى المصحف ، فسورة الفيل مكية ، أما سورة الرعد فهى مدنية . (ع) .

وحين يُعبِّر القرآن عن أمر غيبى يأتى بفعل « يرى » مثل قوله الحق :

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا[1] رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ .. (١٢) ﴾ [السجدة]

وحين يتكلم القرآن عن أمر معاصر يقول :

﴿ أَفَلا يَرَوْنَ .. (٤٤) ﴾ [الأنبياء]

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا .. (٤١) ﴾ [الرعد]

وهذا قول للحاضر المعاصر لهم .

وتعريف الأرض هنا يجعلها مجهولة ، لأننا حين نرغب فى أن نُعرِّف الأرض ؛ قد يتجه الفكر إلى الأرض التى نقف عليها ؛ وبالمعنى الأوسع يتجه الفكر إلى الكرة الأرضية التى يعيش عليها كل البشر .

وقد تُنسَبُ الأرض إلى بقعة خاصة وقع فيها حَدَثٌ ما ؛ مثل قول الحق سبحانه عن قارون :

﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ .. (٨١) ﴾ [القصص]

ويقول الحق سبحانه عن الأرض كلها :

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ .. (٥٥) ﴾ [النور]

---

(١) نكَّس رأسه : طأطأه ذلاً وانكساراً . [القاموس القويم : ٢/٢٨٦] .

وبطبيعة الحال هم لن يأخذوا كل الأرض ، ولكن ستكون لهم السيطرة عليها .

وسبحانه يقول أيضاً :

﴿ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ .. (٧٣) ﴾ [الأعراف]

وهكذا نفهم أن كلمة « الأرض » تطلق على بُقعة لها حَدث خاص ، أما إذا أُطلقتْ ؛ فهى تعنى كل الأرض ، مثل قول الحق سبحانه :

﴿ وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ[1] (١٠) ﴾ [الرحمن]

ومثل قوله تعالى لبنى إسرائيل :

﴿ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ[2] لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الأَرْضَ .. (١٠٤) ﴾ [الإسراء]

مع أنه قد قال لهم فى آية أخرى :

﴿ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ .. (٢١) ﴾ [المائدة]

فبعد أنْ حَدَّد لهم الأرض بموقع معين عاد فأطلق الكلمة ، ليدل على أنه قد شاء ألاَّ يكون لهم وَطَن ، وأنْ يظلُّوا مُبعْثرين ، ذلك أنهم رفضوا دخول الموقع الذى سبق وأنْ حَدَّده لهم وقالوا :

﴿ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا .. (٢٤) ﴾ [المائدة]

---

(١) الأنام : ما ظهر على وجه الأرض من جميع الخلق . وقال المفسرون : هم الجن والإنس . [لسان العرب ـ مادة : أنم] .

(٢) أى : من بعد إغراق فرعون . المقصود بالأرض هنا أرض الشام ومصر . ذكره القرطبى فى تفسيره (٥/٤٠٦٧) .

ولذلك قال الحق سبحانه فى موقع آخر :

﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ[1] فِي الأَرْضِ أُمَمًا .. (١٦٨)﴾ [الأعراف]

أى : جعلنا كل قطعة بما تحويه من تماسك متفرقة عن القطعة الأخرى ، وهذا هو حال اليهود فى العالم ؛ حيث يُوجَدُونَ فى أحياء خاصة بكل بلد من بلاد العالم ؛ فلم يذوبوا فى مجتمع ما .

وقوله الحق هنا :

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا[2] مِنْ أَطْرَافِهَا .. (٤١)﴾ [الرعد]

مُوجَّه إلى قريش ، فقد كانت لهم السيادة ومركزها مكة ، ثم من بعد ذلك وجدوا أن الموقف يتغيَّر فى كُلِّ يوم عن اليوم الآخَرِ ؛ ففى كل يوم تذهب قبيلة إلى رسول الله ﷺ فى المدينة لِتعلِنَ إسلامها وتبايعه .

وهكذا تنقص أمام عيونهم دائرة الكفر ، إلى أن أعلنوا هم أنفسهم دخولهم فى الإسلام .

وهكذا شاء الحق سبحانه أن نقصتْ أرضُ الكفر ، وازدادتْ أرض الإيمان ، ورأَوْا ذلك بأنفسهم ولم يأخذوا عِبْرةً بما رأَوْه أمام أعينهم

---

(١) قطعناهم : فرقناهم فى الأرض أمماً أى طوائف وفرقاً . [لسان العرب ـ مادة : قطع] .

(٢) اختُلِفَ فى النقصان هنا على أقوال :

- قال ابن عباس : أو لم يروا أنا نفتح لمحمد ﷺ الأرض بعد الأرض .
- وقال مجاهد وعكرمة : خرابها ونقصان الأنفس والثمرات .
- وقال ابن عباس ومجاهد فى رواية : موت علمائها وفقهائها وأهل الخير منها .

قاله ابن كثير فى تفسيره (٢/٥٢٠) ثم قال : « والقول الأول أولى وهو ظهور الإسلام على الشرك قرية بعد قرية . وهذا اختيار ابن جرير » .

من أن الدعوة مُمْتدة ، ولن تتراجع أبداً ، حيث لا تزداد أرض إلا بمكين فيها .

والمكين حين ينقص بموقعه من معسكر الكفر فهو يُزيد رُقْعة الإيمان ؛ إلى أنْ جاء ما قال فيه الحق سبحانه :

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا (٣)﴾ [النصر]

وهناك أناس مُخْلصون لدين الله ، ويحاولون إثبات أن دين الله فيه أشياء تدلُّ على المعانى التى لم تُكتشَفْ بعد ، فقالوا على سبيل المثال فَوْر صعود الإنسان إلى القمر : لقد أوضح الحق ذلك حين قال :

﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا لا تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ.. (٣٣)﴾ [الرحمن]

وقالوا : إنه سلطان العلم .

ولكن ماذا يقولون فى قوله بعدها :

﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ[1] مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلا تَنتَصِرَانِ (٣٥)﴾ [الرحمن]

فهل يعنى ذلك أنه أباح الصعود بسلطان العلم كما تقولون ؟

ولهؤلاء نقول : نحن نشكر لكم محاولة رَبْطكم للظواهر العلمية بما جاء بالقرآن ، ولكن أين القمر بالنسبة لأقطار السماوات

---

(١) الشواظ ـ بضم الشين وكسرها ـ : القطعة من اللهب ليس فيها دخان . [القاموس القويم: ٣٦١/١] .

والأرض ؟ إنه يبدو كمكان صغير للغاية بالنسبة لهذا الكون المُتَّسع ، فأين هو من النجم المسمَّى بالشِّعْرى[1] ، أو بسلسلة الأجرام المُسَمَّاة بالمرأة المُسلْسلَة ؟ بل أين هو من المَجَرَّات التى تملأ الفضاء ؟

وحين تنظر أنت إلى النجوم التى تعلوك تجد أن بينك وبينها مائة سنة ضوئية ، ولو كنت تقصد أن تربط بين سلطان العلم وبين القرآن ، فعليك أنْ تأخذ الاحتياط ، لأنك لو كنت تنفذُ بسلطان العلم لما قال الحق سبحانه بعدها :

﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ .. (٣٥)﴾ [الرحمن]

وإنْ سألتَ : وما فائدة الآية التى تحكى عن هذا السلطان ؛ فهى قد جاءتْ لأن الرسول قد أخبر القوم أنه صعدَ إلى السماء وعُرِج به ، أى : أنه صُعِد وعُرِج به بسلطان الله .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا .. (٤١)﴾ [الرعد]

وكلمة « أطراف » تدلنا على أن لكل شىء طُولاً وعَرْضاً تتحدد به مساحته ؛ وكذلك له ارتفاع ليتحدد حجمه . ونحن نعرف أن أىَّ طول له طرفان ، وإنْ كان الشىء على شكل مساحى تكون أطرافه بعدد الأضلاع .

وما دام الحق سبحانه يقول هنا :

---

(١) الشعرى : نجم ثابت فى السماء عُبد قديماً عند بعض قبائل العرب ، قال تعالى : ﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَىٰ (٤٩)﴾ [النجم] . [القاموس القويم : ١/ ٣٥٠] . وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة وابن زيد وغيرهم : هو هذا النجم الوقاد الذى يقال له « مرزم الجوزاء » [تفسير ابن كثير ٤/ ٢٥٩] .

﴿مِنْ أَطْرَافِهَا .. (٤١)﴾ [الرعد]

أى : من كل نقطة فى دائرة المحيط تعتبر طرفاً . ومعنى ذلك أنه سبحانه قد شاء أنْ تضيق أرض الكفار ، وأنْ يُوسِّع أرض المؤمنين من كل جهة تحيط بمعسكر الكفر ، وهذا القول يدل على أنه عملية مُحْدَثة.، ولم تكن كذلك من قبل .

ويتابع سبحانه من بعد ذلك :

﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ .. (٤١)﴾ [الرعد]

أى : أن الموضوع قد بُتَّ فيه وانتهى أمره .. ونحن فى حياتنا اليومية نقول : « هذا الموضوع قد انتهى ؛ لأن الرئيس الكبير قد عقَّب على الحكم فيه » .

ونحن فى القضاء نجد الحكم يصدر من محكمة الدرجة الابتدائية ، ثم يأتى الاستئناف ليؤيد الحكم أو يرفضه ، ولا يقال : إن الاستئناف قد عقَّب على الحكم الابتدائى ؛ بل يُقال : إنه حكم بكذا إما تأييداً أو رَفْضاً ؛ فما بالنا بحكم مَنْ لا يغفل ولا تخفى عنه خافية ، ولا يمكن أن يُعقِّب أحد عليه ؟

والمَثَلُ فى ذلك ما يقوله الحق سبحانه عن سليمان وداود عليهما السلام :

﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ[1] إِذْ نَفَشَتْ[2] فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ

(١) الحرث الذى نفشت فيه الغنم إنما كان كرماً (عنباً) فلم تدع فيه ورقة ولا عنقوداً من عنب إلا أكلته . [تفسير ابن كثير : ٣/١٨٦] .

(٢) نفشت الغنم : إذا تفرقت فرعَتْ بالليل من غير علم راعيها ، ولا يكون النفش إلا بالليل . [لسان العرب ـ مادة : نفش] .

وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ (٧٨) فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا .. (٧٩) ﴾ [الأنبياء]

وأصْل الحكاية أن خلافاً قد حدث بسبب أغنام يملكها إنسان ؛ واقتحمتْ الأغنامُ زراعةَ إنسانٍ آخر ؛ فتحاكموا إلى داود عليه السلام ؛ فقال داود : إن على صاحب الأغنام أن يتنازل عنها لصاحب الأرض .

وكان سيدنا سليمان ـ عليه السلام ـ جالساً يسمع أطراف الحديث فقال : لا ، بل على صاحب الأغنام أن يتنازل عن أغنامه لصاحب الأرض لفترة من الزمن يأخذ من لبنها ويستثمرها ، وينتفع بها إلى أن يزرع له صاحب الغنم مثلَ ما أكلتْ الأغنام من أرضه[1] .

وقال الحق سبحانه :

﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ .. (٧٩) ﴾ [الأنبياء]

وهذا هو الاستئناف ، ولا يعنى الاستئناف طَعْنَ قاضٍ فى القاضى الأول ؛ لكنه بَحْثٌ عن جوهر العدل ؛ ولعل القضية إنْ أُعيدَتْ لنفس القاضى الأول لَحكَم نفس الحكم الذى حكم به الاستئناف بعد أن يستكشف كل الظروف التى أحاطتْ بها .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَاللَّهُ يَحْكُمُ .. (٤١) ﴾ [الرعد]

---

(١) انظر فى هذا تفسير ابن كثير (١٨٦/٣) ، والدر المنثور للسيوطى (٦٤٥/٥) .

ولحظة أن يُصدِر الله حُكْماً ؛ فلن يأتى له استئناف ، وهذا معنى قوله الحق :

﴿لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ .. (٤١)﴾ [الرعد]

وكأن هذا القول الحكيم يحمل التنبؤ بما أشار به القضاء بإنشاء الاستئناف ؛ ولا أحد يُعقِّب على حُكْم الله ؛ لأن المُعقِّب يفترض فيه أن يكون أيقظَ من المُعقَّب عليه ؛ وعنده قدرةُ التفات إلى ما لم يلتفت إليه القاضى الأول ، ولا يوجد قَيُّوم إلا الله ، ولا أحَدَ بقادر على أن يعلم كل شىء إلا هو سبحانه .

وآفة كل حُكْم هو تنفيذه ؛ ففى واقعنا اليومى نجد مَن استصدر حُكْماً يُعانى من المتاعب كى يُنفِّذه ؛ لأن الذى يُصدِر الحكم يختلف عَمَّنْ ينفذه ، فهذا يتبع جهة ، وذاك يتبع جهة أخرى .

ولكن الحُكْم الصادر من الله ؛ إنما يُنفَّذ بقوته سبحانه ، ولا يوجد قوىٌّ على الإطلاق سِوَاه ، ولذلك يأتى قوله الحق :

﴿وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٤١)﴾ [الرعد]

فكأن الله ينبِّهنا بهذا القول إلى أن الحكم بالعدل يحتاج إلى سرعة تنفيذ .

ونحن نرى فى حياتنا اليومية : كيف يُرْهق مَنْ له حكم بحقٍّ عادل ؛ ولو أننا نُسرِع بتنفيذ الأحكام لَسادَتْ الطمأنينةُ قلوبَ أفراد المجتمع .

ونحن نجد استشراء العصبيات فى الأخذ بالثأر إنما يحدث بسبب

الإبطاء فى نظر القضايا ؛ حيث يستغرق نظر القضية والحكم فيها سنوات ؛ مما يجعل الحقدَ يزداد . لكن لو تَمَّ تنفيذ الحكم فَوْرَ معرفة القاتل ، وفى ظل الانفعال بشراسة الجريمة ؛ لَمَا ازدادتْ عمليات الثأر ولَهدأت النفوس .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ (١) ﴿٤٢﴾﴾

وهنا يخبر الحق سبحانه رسوله ، وأىُّ سامع لهذا البلاغ يستقرىء موكب الرسالات السابقة ؛ وسيجد أن كُلَّ أمة أُرسل لها رسول مكرتْ به وكادتْ له كى تبطل دعواه ، ولم ينفع أى أمة أىّ مكر مكرتْه أو أىّ كَيْدٍ كَادَتْهُ ، فكُلُّ الرسالات قد انتصرتْ .

فسبحانه القائل :

﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي .. (٢١)﴾ [المجادلة]

وهو القائل :

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣)﴾ [الصافات]

---

(١) عقبى الدار : أى عاقبة دار الدنيا ثواباً وعقاباً ، أو لمن الثواب والعقاب فى الدار الآخرة ، وهذا تهديد ووعيد . [ذكره القرطبى فى تفسيره ٣٦٧٢/٥] .

والحق سبحانه حين يُورد حُكْماً فبالقرآن ؛ وهو الذى حفظ هذا القرآن ؛ فلن تأتى أىُّ قضية كَونية لتنسخ الحكم القرآنى .

وأنت إذا استقرأتَ مواكب الرسل كلها تجد هذه القضية واضحة تماماً ؛ كما أثبتها الحق سبحانه فى القرآن المحفوظ ؛ وما حفظه سبحانه إلا لوثوقه بأن الكونيات لا يمكن أن تتجاوزه .

وبالفعل فقد مكرتْ كُلُّ أمة برسولها ؛ ولكن الحق سبحانه له المكر جميعاً ؛ ومكْر الله خَيْرٌ للبشرية من مكْر كل تلك الأمم ؛ ومكْره سبحانه هو الغالب ، وإذا كان ذلك قد حدث مع الرسل السابقين عليك يا رسول الله ؛ فالأمر معك لابُدَّ أنْ يختلفَ لأنك مُرْسَلٌ إلى الناس جميعاً ، ولا تعقيبَ يأتى من بعدك .

وكُلُّ تلك الأمور كانت تطمئنه ﷺ ؛ فلا بُدَّ من انتصاره وانتصار دعوته ؛ فسبحانه محيط بأىِّ مَكْر يمكره أىُّ كائن ؛ وهو جَلَّ وعلاَ قادر على أنْ يُحبِط كل ذلك .

ويتابع سبحانه فى نفس الآية :

﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ (٤٢)﴾ ،

[الرعد]

والحق سبحانه يعلم ما يخفى عن الأعين فى أعماق الكائنات ؛ خَيْر هو أو شَرٌّ ، ويحمى مَنْ شاءَ من عباده من مكْر الماكرين ، ويُنزِل العقاب على أصحاب المكْر السىء بالرسل والمؤمنين .

ولَسوفَ يعلم الكافرون أن مصيرهم جهنم ، وبئس الدار التى يدخلونها فى اليوم الآخر ؛ فَضْلاً عن نُصْرة رسوله ﷺ فى الدنيا وخِزْيهم فيها .

وهكذا يكونون قد أخذوا الخزْى كجزاء لهم فى الدنيا ؛ ويزدادون علْماً بواقع العذاب الذى سَيلقَوْنَهُ فى الدار الآخرة .

ويُنهى الحق سبحانه سورة الرعد بهذه الآية :

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾

ونفهم من كلمة :

﴿لَسْتَ مُرْسَلاً ..(٤٣)﴾ [الرعد]

أن الكافرين يتوقفون عند رَفْض الرسول ﷺ ؛ وكأن كُلَّ أمانيهم أن يَنْفُوا عنه أنه رسولٌ اصطفاه الحق سبحانه بالرسالة الخاتمة ؛ بدليل أنهم قالوا :

﴿لَوْلا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١)﴾ [الزخرف]

ومن بعد ذلك قالوا :

﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢)﴾ [الأنفال]

أى : أن فكرة الإرسال لرسول مقبولة عندهم ، وغير المقبول عندهم هو شخص الرسول ﷺ .

ولذلك يأمر الحق سبحانه رسوله ﷺ :

﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ (٤٣)﴾

[الرعد]

والشهيد كما نعلم هو الذى يرجح حُكْم الحق ، فإذا ما ظهر أمر من الأمور فى حياتنا الدنيا التى نحتاج إلى حُكْم فيها ؛ فنحن نرفع الأمر الذى فيه خلاف إلى القاضى ، فيقول : « هاتوا الشهود » .

ويستجوب القاضى الشهود ليحكمَ على ضَوْء الشهادة ؛ فَما بالُنَا والشاهد هنا هو الحقُّ سبحانه ؟

ولكن ، هل الله سيشهد ، ولِمَنْ سيقول شهادته ؛ وهم غَيْرُ مُصدِّقين لكلام الله الذى نزل على رسوله ﷺ ؟

ونقول : لقد أرسله الحق سبحانه بالمعجزة الدَّالة على صِدْق رسالته فى البلاغ عن الله ، والمعجزة خَرْقٌ لنواميس الكون .

وقد جعلها الحق سبحانه رسالةً بين يدى رسوله وعلى لسانه ؛ فهذا يعنى أنه سبحانه قد شهد له بأنه صادق .

والمعجزة أَمْر خارق للعادة يُظهِرها الله على مَنْ بلغ أنه مُرْسَل منه سبحانه ، وتقوم مقام القول « صدق عبدى فيما بلغ عنِّى » .

وإرادة المعجزة ليست فى المعنى الجزئى ؛ بل فى المعنى الكُلِّىّ لها . والمثل فى المعجزات البارزة واضح ؛ فها هى النار التى أَلْقَوْا فيها إبراهيم عليه السلام ، ولو كان القَصْد هو نجاته من النار ؛ لكانت هناك ألفُ طريقة ووسيلة لذلك ؛ كأنْ تُمطِر الدنيا ؛ أو لا يستطيعون إلقاء القبض عليه .

ولكن الحق سبحانه يوضح لهم من بعد أن أمسكوا به ، ومن بعد أن كبَّلوه بالقيود ، ومن بعد أن ألقوْه فى النار ؛ ويأتى أمره بأن تكون النار برداً وسلاماً عليه فلا تحرقه :

﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) ﴾ [الأنبياء]

وهكذا غيّر الحق سبحانه الناموس وخَرَقه ؛ وذلك كى يتضح لهم صِدْق إبراهيم فيما يبلغ عن الله ؛ فقد خرقَ له الحق سبحانه النواميس دليلَ صحة بلاغه.

وإذا كان الحق سبحانه قد قال هنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها :

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا[1] بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ.. (٤٣) ﴾ [الرعد]

وشهادة الحق سبحانه لرسوله بصدق البلاغ عنه ؛ تتمثل فى أنه ﷺ قد نشأ بينهم ، وأمضى أربعين عاماً قبل أن ينطق حرفاً يحمل بلاغة أو خطبة أو قصيدة ، ولا يمكن أن تتأخرَ عبقرياتُ النبوغ إلى الأربعين .

وشاء الحق سبحانه أن يجرى القرآن على لسان رسوله فى هذا العمر ليبلغ محمد ﷺ الناسَ جميعاً به ، وهذا فى حَدِّ ذاته شهادة من الله .

---

(١) أى : حسبى الله ، هو الشاهد علىّ وعليكم ، شاهد علىّ فيما بلغت عنه من الرسالة ، وشاهد عليكم أيها المكذبون فيما تفترونه من البهتان . قاله ابن كثير فى تفسيره (٢/٥٢١) .

ويضيف سبحانه هنا :

﴿ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ (٤٣) ﴾ [الرعد]

والمقصود بالكتاب هنا القرآن ؛ ومَنْ يقرأ القرآن بإمعان يستطيع أن يرى الإ جاز فيه ؛ ومَنْ بتدبر ما فيه من مَعَانٍ ويتفحَّص أسلوبه ؛ يجده شهادة لرسول الله ﷺ

أو يكون المقصود بقوله الحق :

﴿ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ (٤٣) ﴾ [الرعد]

أى : هؤلاء الذين يعلمون خبر مَقْدِم رسول الله ﷺ من التوراة والإنجيل ؛ لأن نعت رسول الله ﷺ وصفته مذكورة فى تلك الكتب السابقة على القرآن ؛ لدرجة أن عبد الله بن سلام[1] ، وقد كان من أحبار اليهود قال : « لقد عرفتُ محمداً حين رأيته كمعرفتى لابنى ، ومعرفتى لِمُحمد أشد »[2] .

ولذلك ذهب إلى رسول الله ﷺ وقال له : يا رسول الله إن نفسى مالتْ إلى الإسلام ، ولكن اليهود قوم بُهْتٌ[3] ، فإذا أعلنتُ إسلامى ؛ سيسبُّوننى ؛ ويلعنونى ، ويلصقون بى أوصافاً ليست فىّ . وأريد أنْ

---

(١) هو : عبدالله بن سلام بن الحارث الإسرائيلى ، أبو يوسف : صحابى أسلم عند قدوم النبى ﷺ المدينة ، وكان اسمه «الحصين » فسماه رسول الله ﷺ عبدالله . وشهد مع عمر فتح بيت المقدس . أقام بالمدينة إلى أن توفى عام ٤٣ هـ . (الأعلام للزركلى ٤/٩٠).

(٢) يقول تعالى : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ .. (١٤٦) ﴾ [البقرة] .

(٣) البُهْت : الكذب . وباهته : استقبله بأمر يقذفه به ، وهو منه برىء لا يعلمه . [لسان العرب ـ مادة : بهت] .

تسألهم عنِّى أولاً . فأرسل لهم رسول الله يدعو صناديدهم وكبار القوم فيهم ؛ وتوهموا أن محمداً قد يلين ويعدل عن دعوته ؛ فجاءوا ، وقال لهم ﷺ : « ما تقولون فى ابن سلام ؟ »[1] فأخذوا يكيلون له المديح ؛ وقالوا فيه أحسن الكلام .

وهنا قال ابن سلام : « الآن أقول أمامكم ، أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله » ، فأخذوا يسبُّون ابن سلام ؛ فقال ابن سلام لرسول الله ﷺ : ألم أَقُلْ إن يهود قوم بهت ؟

ونعلم أن الذين كانوا يفرحون من أهل الكتاب بما ينزله الحق سبحانه على رسول الله ﷺ من وحى هم أربعون شخصاً من نصارى نجران ؛ واثنان وثلاثون من الحبشة ؛ وثمانية من اليمن .

ونعلم أن الذين أنكروا دعوة رسول الله ﷺ كانوا ينهوْنَ بعضهم البعض عن سماع القرآن ؛ وينقل القرآن عنهم ذلك حين قالوا :

﴿ لا تَسْمَعُوا لِهَـٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا[2] فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (٢٦) ﴾ [فصلت]

وهذا يعنى أنهم كانوا متأكدين من أن سماع القرآن يُؤثِّر فى النفس بيقظة الفطرة التى تهفو إلى الإيمان به .

أما مَنْ عندهم علْم بالكتب السابقة على رسول الله ﷺ فهم يعلمون خبر بعثته وأوصافه من كتبهم .

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٩٣٨) ، وأحمد فى مسنده (٣/١٠٨ ، ٢٧١، ٢٧٢) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه .

(٢) الغوا فيه : أى شوِّشوا على قارئه باللغو من القول ، أو اطعنوا فيه واختلقوا له العيوب لتصرفوا الناس عنه . [القاموس القويم : ٢/١٩٦] .

يقول الحق سبحانه :

﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ .. (١٤٦) ﴾

[البقرة]

ويقول أيضاً :

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٨٩) ﴾

[البقرة]

سُورَةُ إِبْرَاهِيمَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ (١)

﴿ الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾ ﴾

هكذا يستهل الحق سبحانه هذه السورة بالحروف المقطعة « ألف » « لام » « راء » ، وسبق أن قلنا : إنها حروف توقيفية بلَّغها رسول الله لنا كما سمعها من جبريل عليه السلام .

إلا أن المُلاحَظ أن هذه الحروف التوقيفية المُقطَّعة لم تَأْتِ وحدها فى هذه السورة كآية منفصلة ؛ مثل قوله فى أول سورة ق :

﴿ قٓ ﴿١﴾ ﴾ [ق]

وهى آية بمفردها ، وكما جاء فى غير ذلك من السور بحروف مقطعة وأثبتها كآيات . وهنا تأتى الحروف التوقيفية المقطعة كجزء من الآية .

ويقول الحق سبحانه :

---

(١) سورة إبراهيم هى السورة الرابعة عشرة فى ترتيب المصحف ، عدد آياتها ٥٢ آية ، وهى سورة مكية فى قول الحسن وعكرمة وجابر . وقال ابن عباس وقتادة : إلا آيتين منها مدنيتين . وقيل : ثلاث نزلت فى الذين حاربوا الله ورسوله ، وهى قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴿٣٠﴾﴾ [إبراهيم] . [تفسير القرطبى ٥/ ٣٦٧٥].

﴿الٓر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ .. ﴿١﴾﴾ [إبراهيم]

كلمة « كتاب » إذا أطلقت انصرف معناها إلى القرآن ؛ فهو يُسمَّى كتاباً ؛ ويُسمَّى قرآناً ، ويُسمَّى تنزيلاً ، وله أسماء كثيرة .

وكلمة «كتاب » تدل على أنه مكتوب ، وكلمة «قرآن » تدل على أنه مقروء ، وهذان الاسمان هما العُمْدة فى أسماء القرآن ؛ لأنه كتاب مكتوب ومقروء .

فكان الصحابى[1] الذى يجمع القرآن لا يكتب آية إلا إذا وجدها مكتوبة ، ووجدها مَقْروءة عن اثنين من الصحابة ؛ فالقرآن كتاب يملك الدليل على كتابته من عهد رسول الله ﷺ ؛ وهو مَقْروء كما تدلُّ كلمة « قرآن » .

وقوله الحق :

﴿أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ .. ﴿١﴾﴾ [إبراهيم]

يدلُّ على أنه جاء من عُلُوٍّ .

ويقول الحق سبحانه فى موقع آخر عن القرآن :

﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [النحل]

ويقول فى موقع آخر :

---

(١) هو : زيد بن ثابت الأنصارى ، صحابى ، كان كاتب الوحى ، ولد فى المدينة ١١ ق هـ ، ونشأ بمكة . كان أحد الذين جمعوا القرآن فى عهد النبى ﷺ من الأنصار ، وعرضه عليه ، وهو الذى كتبه فى المصحف لأبى بكر ، ثم لعثمان حين جهز المصاحف إلى الأمصار . (الأعلام للزركلى ٣/٥٧) .

﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ .. (١٠٥)﴾ [الإسراء]

ومرة يسند النزول إلى مَنْ جاء به ؛ ومرة ينسب النزول إلى الكائن الذى أرسله الحق بالقرآن إلى محمد ﷺ ، وهو جبريل عليه السلام .

فقوله : ﴿أَنزَلْنَاهُ.. (١)﴾ [إبراهيم] للتعدى من منطقة اللوح المحفوظ ليباشر مهمته فى الوجود ، وعِلِّيّة إنزال القرآن إليك يا محمد هى :

﴿لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ .. (١)﴾ [إبراهيم]

ونلحظ هنا أن القرآن نزل للناس كافَّة ، ولم يَقُلِ الحقُّ سبحانه ما قاله للرسُل السابقين على رسول الله ؛ حيث كانت رسالة أىٍّ منهم مُحدَّدة بقوم مُعيَّنين ، مثل قوله تعالى :

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا .. (٦٥)﴾ [الأعراف]

وقوله الحق :

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا .. (٨٥)﴾ [الأعراف]

وكذلك قوله سبحانه لموسى :

﴿وَرَسُولاً إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ .. (٤٩)﴾ [آل عمران]

وهكذا كان كُلُّ رسول إنما يبعثه الله إلى بُقْعة خاصة ، وإلى أُنَاسٍ بعينهم ، وفى زمن خاصٍّ ، إلا محمداً ﷺ ؛ فقد بعثه الله إلى الناس كَافَّة .

والمثل أمامنا حين حكم ﷺ بالحق بين مسلم ويهودى ؛ وأنصف اليهودى ؛ لأن الحق كان معه[1] ؛ والحق عند رسول الله ﷺ أعزُّ عليه ممَّنْ ينتسب إلى الإسلام .

وهكذا نرى أن قوله الحق :

﴿لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ .. (١)﴾ [إبراهيم]

دليل على عمومية الرسالة ، ويُعزِّزها قوله :

﴿إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا .. (١٥٨)﴾ [الأعراف]

وبذلك تبطل حُجَّة مَنْ قالوا إنه مُرْسَلٌ للعرب فقط .

ونجد هنا اصطفاءين لرسول الله ﷺ .

الاصْطفاء الأول : أن الحق سبحانه قد اختاره رسولاً ؛ فمجرد الاختيار لتلك المهمة ؛ فهذه منزلة عالية .

والاصْطفاء الثانى : أنه رسولٌ للناس كَافَّة ؛ وهذه منزلة عالية

---

(١) أخرج ابن عساكر (٣٥٤/٧ تهذيب تاريخ دمشق) عن عبدالله بن أبى حدرد الأسلمى أنه كان ليهودى عليه أربعة دراهم فاستعدى عليه . فقال : يا محمد إن على هذا أربعة دراهم وقد غلبنى عليها ، قال : أعطه حقه . قال : والذى بعثك بالحق ما أقدر عليها ، قال : أعطه حقه . قال : والذى نفسى بيده ما أقدر عليها ، قد أخبرته أنك تبعثنا إلى خيبر فأرجو أن تغنمنا شيئاً فأرجع فأقضيه . قال : أعطه حقه ، وكان رسول الله ﷺ إذا قال ثلاثاً لم يُراجع ، فخرج ابن أبى حدرد إلى السوق وعلى رأسه عصابة وهو متزر ببردة ، فنزع العمامة عن رأسه فاتزر بها ونزع البردة فقال : اشتر منى هذه البردة . فباعها منه بأربعة دراهم . فمرَّت عجوز فقالت : ما لك يا صاحب رسول الله ﷺ ؟ فأخبرها . فقالت : هادونك هذا البُرْد ـ لبرد عليها طرحته عليه . وكذا أخرجه أحمد فى مسنده (٤٢٣/٣) وأورده الكاندهلوى فى حياة الصحابة (٨١/٢) .

أخرى ؛ لأنها تستوعب المكان والزمان ، والألسنة والأقوام .

ثم يأتى الإعجاز فى قوله :

﴿لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ .. ﴿١﴾﴾ [إبراهيم]

ولم يَقُلْ من الظلمات إلى الأنوار ، وشاء أنْ يأتى بالظلمات كجمْع ؛ وأنْ يأتى بالنور كمفرد ، لأن النور واحد لا يتعدد ؛ أما الظلمات فمتعددة بتعدُّد الأهواء ؛ ظُلْمة هنا وظُلْمة هناك .

وحين يُخرجنا الحقُّ سبحانه من الظلمات المتعددة حَسْب أهواء البشر ؛ فهذا فَضْلٌ منه ونعمة ؛ لأننا نخرج إلى النور الواحد .

وهكذا يشاء الحق سبحانه أن يُجلى المعانى بالمُحسَّات التى يدركها الجميع ، فلا شك أن الظُّلْمة تستر الأشياء التى قد يصطدم بها الإنسان فيمتنع عن السير مطمئناً ؛ لأنه إن اصطدم بشىء فقد يُحطِّم الشىء أو يُحطِّمه هذا الشىء ؛ وهكذا تمنع الظُّلْمة الإنسان من أن يهتدى إلى ما يريد .

أما النور فهو يوضح الأشياء ، ويستطيع الإنسان أن يُميِّز بين الطرق ويتجنب الضار ويتجه إلى النافع ؛ ويكون على بصيرة من الهداية ؛ ذلك هو الأمر الحِسىّ ؛ وكُلٌّ من النور والظلمة أمرٌ حِسى .

وهكذا يُجلِّى الله لنا المعانى ، والحياة لا تحتاج فقط إلى ما يُجلى المظاهر المادية بالنور ؛ بل تحتاج أيضاً إلى نور يُجلى المظاهر المعنوية ؛ من حقد وحسد ، وخوف وأمن ، واطمئنان ، وأمانة ووفاء ؛ وغير ذلك .

فالحياة كلها فيها الشيء وما يقابله ؛ لذلك لا بُدَّ أن تُجْلَى المعانى أيضاً . والنور الذى جاء به رسول الله ﷺ يُجلى الحسّ والمعنى فى آنٍ واحد ؛ لنتجنب الأشياء التى تطمسها الظُّلْمة ؛ ولنسير على بينة من المعانى ، فلا نصطدم بالعقبات .

ولذلك يُفسِّر لنا الحق سبحانه الأمر المعنوى ، فيقول :

﴿إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿١﴾﴾ [إبراهيم]

وهذا هو الصراط المستقيم الذى يُخرجنا إليه محمد ﷺ من الظلمات إلى نوره .

ويريد الحق سبحانه أنْ يُجلى لنا الطريق إلى هذا الصراط ، لأنه قد يكون مُتعباً للبعض ؛ فيريد سبحانه أن يجمع لنا بين أمرين ؛ طريق متضح واضح يَصِل فيه الإنسان إلى الغاية بِيُسْر ؛ وطريق آخر غير واضح لا تتجلى فيه الأشياء .

وجاء بالظلمات والنور ليوضح لنا هذا المعنى ؛ حيث يكون الطريق المستقيم هو أقصر وسيلة للغاية المَرْجُوّة من الحياة الدنيا والآخرة ؛ ويكون طريق الظلمات هو الطريق غير الآمن .

وينسب الحق سبحانه الطريق الذى يُخرِجنا إليه الرسول ﷺ :

﴿إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿١﴾﴾ [إبراهيم]

والعزيز هو الذى يغْلِب ولا يُغْلَب . والحميد هو مَنْ ثبتت له صفة الحمد من الغير ، وإنْ لم يصدر حَمْدٌ من الغير ؛ فهو حميد فى ذاته ، ويجب أن يُحمد رغم أنك إن حمدتَه أو لم تحمده فهو حميد .

ولله المَثَلُ الأعلى ، وسبحانه مُنَزَّه عن كل مثيل أو شبيه ؛ نجد فى حياتنا الدنيا مَنْ يُقال عنه إنه حميد الخصال ؛ وإنْ لم يوجد مَنْ يمدحه ؛ لكنه فى كُلِّ ما يصدر عنه يراعى أن يكون محموداً .

ولكن البشر يكون المحمود منهم حَدَثاً ؛ أما المحمود من الحق فهو مُطْلَق ، ولا تكون الذاتُ محمودة أو حميدة إلا إذا كان لها من الصفات ما يجعلها أهلاً للإنعام الذى يجب على الإنسان أن يحمده .

والفطرة السليمة فى الإنسان تستقبل هذا الكون المُعَدّ من قَبْل أنْ يوجد لاستقباله ، وتحب أن تحمد مَنْ صنع هذا الكون ، رغم أن حَمْد الإنسان أو عدم حَمْده لا يضيف شيئاً لِمَنْ أعدَّ هذا الكون وخلقه ؛ فهو محمود فى ذاته .

وإن حمدته فهذا لمصلحتك ؛ وفى هذا هداية إلى صراط العزيز الذى لا يُغْلَب ، والحميد الذى يستحق الحمد ؛ وإنْ لم يوجد حامد له ؛ لأن صفاته سبحانه أزلية .

فالله خالق قبل أن يخلق الخلق ؛ وهو الرازق قبل أن يُخْلَق المرزوق ، وهو مُعِز قبل أن يوجد مَنْ يُعِزه ؛ محمود قبل أنْ يوجد مَنْ يحمده ؛ توَّاب قبل أن يوجد مَنْ يتوب عليه .

فهو سبحانه بالصفة يفعل ؛ أما الإنسان فلا يفعل إلا إذا فعل الصفة ، فأنت لا تعرف أن فلاناً كريم ؛ إلا لأنك تراه يعطى عن جُودٍ وسَخاء ، أما الله فهو الكريم من قبل أن يوجد مَنْ يُكرمه .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ ﴾ (١)

وأنت إنْ قرأتَ هذه الآية موصولةً بما قبلها ؛ فستقرؤها :

﴿ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿١﴾ اللَّهِ الَّذِى لَهُ مَا فِى السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ ﴿٢﴾ ﴾ [إبراهيم]

وإن كنتَ ستقرؤها مَفْصُولة عمَّا قبلها ؛ فستقول :

﴿ اللَّهِ الَّذِى لَهُ مَا فِى السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ ﴾ [إبراهيم]

وستنطق كلمة « الله » غير مُرقَّقة عكسَ إنْ قرأتَها موصولة ، حيث يجب أن تنطقها مُرقَّقة .

وتقتضى الأصول فى الكتاب أن يوجد الاسم العلَم على الذات أولاً ، ثم تأتى الصفة من بعده ، فتقول : « لقيت فلاناً الشاعر أو الكاتب أو العالم » ، لكن الأمر هنا جاء على غير هذا النَّسَق :

﴿ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿١﴾ ﴾ [إبراهيم]

أى : قدَّم « العزيز الحميد » ثم جاء بلفظ الجلالة ، وهو العلَم على واجب الوجود « الله » ، وقد حدث ذلك لأن العلَم يدل على مُسمَّاه بصرف النظر عن الصفات ؛ ثم توجد الصفات له .

وهناك من العلماء مَنْ قال : إنه مُشْتَق بمعنى أن « الله » تعنى

---

(١) الويل : كلمة عذاب ودعاء بالشر وإنذار به . [القاموس القويم : ٣٦٢/٢] والويل : الهلاك يُدعَى به لمن وقع فى عذاب أو هلكة يستحقها . [لسان العرب ـ مادة : ويل] .

المعبود بحقٍّ ؛ وصفة العزيز الحميد حيثية لأنْ يُعبدَ سبحانه بحقٍّ.

ومن العلماء من قال : إن كلمة « الله » هى علَم ، وليست اسماً مُشْتقاً ؛ فلَهُ الملكية المطلقة :

﴿الَّذِى لَهُ مَا فِى السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ ..(٢)﴾ [إبراهيم]

لا يقع فى هذا المُلْك إلا ما شاء هو ، فَمنْ آمن به أنصف نفسه وحياته وآخرته ، أما مَنْ لم يؤمن به فلَه المقابل ، وهو قوله الحق :

﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (٢)﴾ [إبراهيم]

وهذا الوَيْل ليس فى الآخرة فقط ، بل فى الدنيا أيضاً ؛ لأن الإنسان حين تعترضه الصِّعَاب والعقبات والمصائب التى ليس له أسباب يدفعها بها ؛ هنا يستطيع المؤمن أن يذكر أن له رباً فوق الأسباب ؛ ويرتاح إلى معونة الحق سبحانه له ، وهكذا يشعر أن له رصيداً فى الدنيا يعتمد عليه فى مواجهة الأحداث الجِسَام .

أما غير المؤمن فليس أمامه سوى اليأس ؛ ولذلك نجد انتشار الانتحار بين غير المؤمنين ؛ لأن هناك أحداثاً فوق أسبابهم ، ولا يستطيعون دفعها ، وليس لهم إيمان بربٍّ يرجعون إليه .

ولذلك حين أقرأ للمفسرين مَنْ يشرح كلمة « الويل » بأنها عذابُ الآخرة ؛ فأجد نفسى قائلاً : بل والوَيْل يكون فى الدنيا أيضاً ؛ لأن الكثير من أحداث الحياة يكون فوق أسباب الإنسان ؛ فلو لم يؤمن الإنسان بالله لَفزِع من فَرْط اليأس .

ولذلك نجد بعضهم حين لا يجدون مَفَرّاً إلا أنْ يقولوا يارب ، وهم بذلك يعلنون صرخة الفطرة الأولى التى قاوموها بالإلحاد وعدم الإيمان ؛ وهذا الويل له امتداد بلون أشد فى الآخرة.

ويصف الحق سبحانه هؤلاء الذين لا يؤمنون ، فيقول :

﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا[1] أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٣﴾ ﴾

وهنا نجد مادة الحاء والباء ؛ حب ؛ ومن عجائبها أن الفعل يكون رباعياً ؛ فنقول « أحبَّ فلان » ونقول لِمَنْ يحبه « محبوب » وهذا يعنى أن هناك تلاقياً بين الاثنين ؛ أما فى حالة عدم التلاقى فيقال « حَبَّ يُحِب فهو حَابٌّ ومُحِبٌّ » .

والفرق بين أحبَّ واستحبَّ ؛ ملحوظٌ فى مَجىء السين والتاء ، وهما علامة على الطلب . وعلى هذا فاستحبَّ تعنى أنَ مَنْ يحب لم يكتَفِ بالأمر الطبيعى ، بل تكلَّف الحب وأوغلَ فيه .

والمثل على ذلك نجده فى الحياة اليومية ؛ فنرى مَنْ ينجرف إلى شىء من الانحراف ؛ ولكنه لا يُحِب أن يكون مُحِباً لهذا الانحراف فى نفس الوقت ؛ ويفعل الانحراف وهو كَارِهٌ له ، وقد يضرب نفسه ويلومها لأنها تنجرف إلى هذا الانحراف .

ونجد آخر ينحرف ؛ لأنه يحب هذا الانحراف وينغمس فيه ؛ وهو مُحِبٌّ لهذا الانغماس ويتحدث بهذا الانحراف ؛ ويُحب فى نفسه أنه

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٥/٣٦٧٧) : « أى : يطلبون لها زيغاً وميلاً لموافقة أهوائهم ، وقضاء حاجاتهم وأغراضهم » .

أحب تلك المعصية ؛ لأنها تُحقِّق له شهوة عاجلة ؛ هذا هو مَنِ « استحبَّ » لأنه أزاد الحب عن حَدِّه الطبيعى .

وحين تُدقِّق فى الآية الكريمة تجد أنها لا تمنعك من حُبِّ الدنيا ؛ لكنها تتحدث أنْ تستحِبَّها على الآخرة ، فهذا هو الأمر المذموم ؛ أما إذا أحببتَ الدنيا لأنها تُعينك على تكاليف دينك وجعلْتَها مزرعة للآخرة ؛ فهذا أمر مطلوب ؛ لأنك تفعل فيها ما يجعلك تسعد فى آخرتك ؛ فهذا طَلَب للدنيا من أجل الآخرة .

ولذلك تجد قوله الحق فى سورة « المؤمنون » :

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [المؤمنون]

فهو لا يؤدى الزكاة فقط ؛ بل يعمل لِيأتىَ لنفسه ولعياله بالقُوتِ ؛ ويبذل الجهد ليكون لديه فائضٌ يؤدى منه الزكاة ؛ ولذلك فهو لا يعمل قَدْر حاجته فقط بل على قَدْر طاقته ليحقق ما يمكن أنْ يُعطِيه لِمَنْ لا يقدر على العمل .

ولذلك لم يَقُل الحق سبحانه :

« والذين هم للزكاة مؤدون » بل قال :

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [المؤمنون]

وهنا لا نجد هؤلاء الذين يستحِبّون الحياة من أجل أنْ يجعلوها مزرعة للآخرة ؛ بل هم يستحِبّون الحياة :

﴿ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ .. ﴿٣﴾ ﴾ [إبراهيم]

أى : أنهم لم يكتفوا بحُبِّ الدنيا على الآخرة فقط ، ولم يكتفُوا بالسَّيْر فى طريق الشهوات والملذَّات وتخريب ذواتهم ، بل تمادَوْا فى الغى[1] وصَدُّوا غيرهم عن سبيل الله .

ونجد الحق سبحانه يقول فى موقع آخر :

﴿ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا .. (٩٩) ﴾ [آل عمران]

كأنهم ضلُّوا فى ذواتهم ؛ ولم يكتفوا بذلك ، بل يحاولون إضلال غيرهم ويصدونهم عن الهداية .

ثم تأتى مرحلة جديدة :

﴿ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا .. (٣) ﴾ [إبراهيم]

أى : يبغون شريعة الله مُعْوجة لتحقق لهم نزواتهم . وهكذا نجد ثلاث مراتب للضلال ، استحباب الحياة الدنيا على الآخرة ؛ والصَّد عن سبيل الله ؛ وتشويه المنهج كى يُكرِّهوا الناس فيه .

ويصف الحق سبحانه هؤلاء :

﴿ أُوْلَـٰئِكَ فِى ضَلَالٍ بَعِيدٍ (٣) ﴾ [إبراهيم]

أى : أن أصحاب المرتبة الأولى فى الضلال هم مَن استحبُّوا الحياة الدنيا على الآخرة ، والذين توغَّلوا فى الضلال أكثر فهم الذين يصدون عن سبيل الله ؛ أما الذين توغَّلوا أكثر فأكثر فَهُم الذين يُشوِّهون فى منهج الله لتنفير الناس منه ، أو ليحقق لهم نزواتهم ، وهكذا ساروا إلى أبعد منطقة فى الضلال.

---

(١) الغى : الضلال والخيبة والفساد . [لسان العرب ـ مادة : غوى] . وغوى : بمعنى خاب وضل لأنه انهمك فى الجهل . [القاموس القويم ٢/٦٤] .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾﴾

ونعلم أن الرسول ﷺ مُبلِّغ عن الله منهجه ؛ ومُؤيَّد بمعجزة تثبت صدقه فيما بلغ لمَنْ أُرسل إليهم. وقد حدَّث الحق سبحانه من قبل عمَّا حدث للأمم السابقةَ على أمة محمد ﷺ ؛ فقد كان كل رسول يتكلم بلغة قومه .

وهناك فرق بين قوم الدعوة وهم أمة رسول الله ﷺ ؛ وقوم الاستقبال ؛ وهم الأمم السابقة على أمة محمد ﷺ .

فالأمم السابقة لم تكن مُطَالبةً بأن تُبلِّغ دعوة الرُّسل الذين نزلوا فيهم ، أما أمة محمد ﷺ فمُطَالبة بذلك ، لأن الحق سبحانه أرسل رسوله ﷺ ، وأبلغنا فى القرآن أن من آياته سبحانه أن جعل الناس على ألسنة مختلفة[1] .

ولم يُكنْ من المعقول أن يرسل رسولاً يتكلم كل اللغات ، فنزل ﷺ فى أمة العرب ؛ وحين استقبلوه وأُشرِبَتْ[2] قلوبهم حُبَّ الإيمان ؛ صار عليهم أن ينساحوا بالدعوة ؛ لينقلوا معنى القرآن حجة بعد أن استقبلوه معجزة .

---

(١) يقول تعالى : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ..﴿٢٢﴾﴾ [الروم] .

(٢) أشرب قلبه محبة هذا ، أى : حَلَّ محلَّ الشراب ، ومنه قوله تعالى : ﴿وَأُشْرِبُوا فِى قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ .. ﴿٩٣﴾﴾ [البقرة] . أى : حب العجل . وقد أشرب فى قلبه حبه أى : خالطه . [لسان العرب ـ مادة : شرب] .

والقرآن حُجَّة لأنه يسوسُ حركة الحياة ؛ وحركاتُ الحياة لا تختلف فى الناس أجمعين ، كما أن كُلَّ حضارة تأخذ من الأخرى مُنجزاتِها العلمية ، وتُترجمها إلى لسانها الذى تنطق به .

وترجمة المعانى من لسان إلى آخر مسألة معروفة فى كُلِّ حضارات العالم ؛ لأن المسألة فى جوهرها مسألة معانٍ ؛ والمعانى لا تختلف من أمة إلى أخرى .

والقرآن معانٍ ومنهج يصلح لكل البشر ؛ ونزل بالعربية ؛ لأن موهبة الأمة العربية هى النبوغ فى اللغة والكلام ؛ وهكذا صار على تلك الأمة مهمة الاستقبال لمنهج الله كمعجزة بلاغية ؛ وإرساله إلى بقية المجتمعات .

ولذلك تستطيع أن تَعقد مقارنة بين البلاد التى فُتحت بالسيف والقتال ؛ والبلاد التى فُتحت بالسِّلْم ورؤية القدوة المسلمة الصالحة ؛ ستجد أن الذين نشروا الإسلام فى كثير من أصقاع الأرض قد اعتمدوا على القدوة الصالحة .

ستجد أنهم نقُلوا الدين بالخِصَال الحميدة ، وبتطبيق منهج الدين فى تعاملهم مع غيرهم ، ولذلك أقبل الناس على دين الله .

وهكذا نجد أن منهج الإسلام قد حمل معجزة من المعانى ، بجانب كونه معجزةً فى اللغة التى نزل بها ، وهى لغة العرب .

ونحن نجد أقواماً لا تستطيع أن تقرأ حرفاً عربياً إلا فى المصحف ، ذلك أنهم تعلَّموا القراءة فى المصحف ، واعتمدوا على

فَهْم المعانى الموجودة فيه عَبْر الترجمات التى قام بها مُسلِمون أحبُّوا القرآن ، ونقلُوه إلى اللغات الأخرى .

ولذلك نجد قول الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (١٧) ﴾ [القمر]

وهكذا نعلم أن الحق سبحانه قد يسَّر أُمَّ القرآن بلسان العرب أولاً ، ثم يسَّره بأن جعل من تلك الأمة التى نزل عليها القرآن أمة نَشْر البلاغ عنه سبحانه ، ذلك أن الرسالات تُريد تبليغاً ؛ والتبليغ وسيلتُه الأولى هى الكلام ؛ ووسيلته الثانية الاستقبالية هى الأذن ، فلابُدَّ من الكلام أولاً ، ثم لابُدَّ من أُذن تعرف مدلولاتِ الألفاظ لتسمعَ هذا الكلام ، ولِتُطبِّقه سلوكاً .

كما أننا نعلم أن مَنْ يسمع المتكلم لا بُدَّ وأن يكون واعياً وعارفاً بمعانى الألفاظ ؛ فما تسمعه الأُذن يحكيه اللسان .

وعرفْنَا أن اللغة بِنْت السماع ، وكُلُّ فرد إنما يتكلم باللغة التى سمعها فى بيئته ؛ وإذا تتبعتَ سلسلة تعلُّم كل الكلام ستجد نفسك أمام الجِذْر الأصلى الذى تعلَّم منه البشر الكلام ؛ وهو آدم عليه السلام .

وقد قال سبحانه :

﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا[1] .. (٣١) ﴾ [البقرة]

---

(١) أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا .. (٣١) ﴾ [البقرة] . هى هذه الأسماء التى يتعارف بها الناس . إنسان ، ودابة ، وأرض ، وبحر ، وسهل وجبل ، وحمار ، وأشباه ذلك من الأمم وغيرها . [ذكره السيوطى فى الدر المنثور ١/١٢١] .

ونعلم أن اللغة بدأت توقيفية حين علَّمها الله لآدم ، ثم تكلَّمها آدم فسمعتْها بيئته ؛ فصارتْ وضعية من بعد ذلك ، واختلفت اللغة من مجتمع إلى آخر .

وهنا قال الحق سبحانه :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ .. (٤) ﴾ [إبراهيم]

وجاء بعد ذلك مباشرة بالتعليل :

﴿ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ .. (٤) ﴾ [إبراهيم]

وهكذا أوضح جَلَّ وعلاَ السبب فى إرسال كل رسول بلسان قومه ، وهناك آية يقول فيها سبحانه :

﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الأَعْجَمِينَ (١٩٨) فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ (١٩٩) ﴾ [الشعراء]

وقال أيضاً :

﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ[1] وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى .. (٤٤) ﴾ [فصلت]

فهناك مَنْ يستقبل القرآن كدليل هداية ويُنقِّى نفسه من الكَدَر ، وهناك مَنْ يستقبل القرآن فيكون عليه عمى وعلى سمعه غِشَاوة وخوف وعدم ارتياح ، ذلك أنه كافر .

---

(١) الوقر : ثقل فى السمع أو صمم . [القاموس القويم : ٢/٣٥] .

والسبب ـ كما نعلم ـ أن حدوث الحادث مِن آمرٍ به يحتاج إلى فاعل وإلى قابل للفعل .

وسبق أن ضربتُ مثلاً بمَنْ يشرب الشاى ؛ فينفخ فيه ليُبرده قليلاً ؛ ونفس هذا الإنسان حين يخرج فى صباح شتوى فهو ينفخ فى يديه ليُدفئهما ، وهكذا ينفخ مرة ليبرد شيئاً ؛ وينفخ أخرى مُستدعياً الدفء .

والمسألة ليستْ فى أمر النفخ ؛ ولكن فى استقبال الشاى للهواء الخارج من فَمك ، الشاى أكثر حرارة من حرارة الجسم فيبرد بالنفخ ، بينما اليد فى الشتاء تكون أكثر برودة من الجسم ؛ فتستقبل النفخ لها برفع درجة حرارتها لتتساوى مع حرارة الجسم .

وهكذا تجد أن القرآن واحدٌ ؛ لكن المؤمن يسمعه فيفرح به ، والكافر يسمعه فيتعب ويرهق منه .

وسبحانه يقول :

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا .. (١٦) ﴾ [محمد]

وهكذا نجد مَنْ يستقبل القرآن ، ولا ينصاع إلى معانيه ؛ ونجد مَن يستمع إلى القرآن فيخشع قلبه وينفعل بالاستجابة لِمَا يوُصِى به الحق سبحانه .

إذن : عرفنا الآن أن اللغةَ بدأتْ توقيفية وانتهتْ اصطلاحية ؛ فقد أخذنا من الله ما علَّمه لآدم من أسماء ؛ وتغيَّرت الألسن من جماعة

إلى أخرى ، وهكذا اختلفتْ ألسنة الرُّسُل حَسْب القوم المرسلين إليهم .

وكل رسول يُبيِّن للقوم منهجَ الله ؛ فإذا بيَّن هذا المنهج ، استقبله البعض بالإيمان بما جاء به والهداية ، واستقبله البعضُ الآخر بالكُفْر والضَّلال .

فالذى هداه الله استشرف قلبُه إلى هذا المنهج ؛ وأخرج من قلبه أىّ عقيدة أخرى ، وبحثَ فيما جاء به الرسول ، وملأ قلبه بالمنهج الذى ارتاح له فهماً وطمأنينة .

وهو عكس مَنْ تسكن قلبه قضية مخالفة ، ويُصرُّ عليها ، لا عن قناعة ، ولكن عن عدم قدرة على التمحيص والدراسة والاستشراف . وكان عليه أنْ يُخرِج القضية المُضلة من قلبه ، وأن يبحث ويقارن ويستشف ويُحسِن التدبر ؛ ثم يُدخل إلى قلبه القضية الأكثر قبولاً ، ولكنه لا يفعل ، عكس مَنْ هداه الله .

ولا يقولن أحد « ما دام قد أضلنا الله فلم يعذبنا ؟» ولكن ليعلم كل إنسان أن المشيئة لقابلية الإيمان موجودة ، ولكنه لم يَسْتدعها إلى قلبه .

والحق سبحانه يقول :

﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ.. (١٧) ﴾ [محمد]

ويقول :

﴿ وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ (٢٦) ﴾ [البقرة]

أى : أن الفسق قد صدر منهم ، لأنهم ملأوا أفئدتهم بقضايا باطلة ؛ فجاءت قضايا الحق فلم تجد مدخلاً .

وهنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها يقول سبحانه :

﴿ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤﴾ ﴾

[إبراهيم]

فمَنْ يُقبِل على الضلال يزيده الله ضلالاً ؛ فلن يزيد إيمانُه مُلْكَ الله شيئاً ، ومَنْ يؤمن فهو يضمن لنفسه سلامة الحياة وما بعد الموت ؛ وهو فى الحياة عنصر خَيْرٍ ؛ وهو من بعد الموت يجد الحياة مع نِعَم المُنعِم سبحانه العزيز الذى لا يُغلَب ؛ والحكيم الذى قَدَّر لكلٍّ أمر ما يشاء .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾ ﴾

والآيات التى أرسلها الله مع ـ موسى عليه السلام ـ والمعجزات التى حدثت معه وبيَّنها وأظهرها لقومه كثيرة ، ورسولنا ﷺ نزل ومعه معجزة واحدة وهى القرآن ، أما بقية المعجزات الحسية التى حدثتْ مع رسول الله ؛ فهى قد جاءت لتثبيت فؤاد المؤمنين برسالته ،

ولم يَبْقَ لها أثر من بعد ذلك إلا الذكرى النافعة التى يأتنس بها الصالحون من عباد الله .

وكثرة المعجزات التى جاءت مع موسى ـ عليه السلام ـ تبين أن القوم الذين أُرسل لهم قوم لَجِج[1] وجدل ، وحين عَدَّد العلماء المعجزات التي جاءت مع موسى وجدها بعضٌ من العلماء تسع آيات ؛ ووجدها غيرهم ثلاث عشرة معجزة ؛ ووجدها بعضٌ ثالث أربع عشرة .

وفى التحقيق لمعرفة تلك الآيات علينا أن نُفرِّق بين الآيات التى صدرتْ بالنسبة لفرعون ؛ والآيات التى جاءتْ لبنى إسرائيل . فالعصا التى انقلبت حيَّة تسعى ، واليد التى تُضىء هى لفرعون ، وعدَّد القرآن الآيات التى جاءت مع موسى لفرعون بتسع آيات ، يقول الحق سبحانه :

﴿فِى تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ[2] .. (١٢)﴾ [النمل]

ولم يكن موسى يطلب من فرعون أن يؤمن ؛ فهو لم يُرْسَل لهدايته ؛ ولكنه جاء ليُفحمه وليأخذ بنى إسرائيل المُرْسَلُ إليهم ، والآيات هى : العصا ووَضْع اليد فى الجيب لتخرج بيضاء ، ونَقْص الأنفس والثمرات ؛ والطوفان والجراد والقُمَّل والضفادع والدم ، هذه هى الآيات التسع الخاصة بفرعون .

أما بقية الآيات التى جاء بها موسى ـ عليه السلام ـ لبنى إسرائيل فهى كثيرة مثل :

---

(١) اللَّجة واللجلجة : اختلاط الأصوات . واللجة : الجلبة . وألجّ القوم إذا صاحوا . [لسان العرب ـ مادة : لجج] .

(٢) المقصود بالقوم هنا هم قوم فرعون .

﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا[1] الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ .. (١٧١) ﴾ [الأعراف]

وأيضاً :

﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ .. (٥٧) ﴾ [البقرة]

وكذلك قوله الحق :

﴿ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ[2] وَالسَّلْوَىٰ[3] .. (٥٧) ﴾ [البقرة]

ولذلك أجمل الحق سبحانه الآيات التى جاءت مع موسى لقومه :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ[4] اللَّهِ .. (٥) ﴾ [إبراهيم]

أى : أعِدْ إلى بُؤْرة شعورهم ما كان فى الحاشية ؛ وأنْ يستدعوا من الذاكرة أيام الله ، والمراد ما حدث فى تلك الأيام ، مثلما نقول نحن « يوم بدر » أو « يوم ذى قار » أو « السادس من أكتوبر » أو « العاشر من رمضان » .

---

(١) نتقه : رفعه من مكانه وحرّكه وجذبه . [القاموس القويم : ٢/٢٥٢] .

(٢) المن : ندى يشبه العسل كان الله ينزله على الأشجار غذاء طيباً لبنى إسرائيل فجحدوا فضل الله عليهم فى ذلك . [القاموس القويم ٢/٢٤٠] .

(٣) السلوى : السمانى ، وهو طائر صغير من رتبة الدجاج وجسمه ممتلىء وهو من الطيور المهاجرة من أوربا فى الشتاء إلى البلاد الدافئة كمصر والسودان ويعود ما سلم منه فى أوائل الصيف إلى مواطنه فى أوروبا . [القاموس القويم ١/٣٢٦] .

(٤) أيام الله : نعم الله . وأيام الله : وقائع الله فى الأمم السابقة . وقال الطبرى : وعظهم بما سلف فى الأيام الماضية لهم ، أى : بما كان فى أيام الله من النعمة والمحنة ، وقد كانوا عبيداً مستذلين ، واكتفى بذكر الأيام عنه لأنها كانت معلومة عندهم . [تفسير القرطبى ٥/٣٦٧٨] .

وهنا فى القول الكريم إما أن يكون التذكير بتلك الأيام الخاصة بالوقائع التى حدثتْ للأقوام السابقين عليهم كقوم نوح وعاد وثمود ، ذلك أن الحق سبحانه قد أعلمهم بقصص الأقوام السابقة عليهم ؛ وما حدث من كل قوم تجاه الرسول المُرْسل إليه من الله .

أو أن يكون التذكير بالأيام التى أنعم الله فيها على بنى إسرائيل بنعمه ، أو ابتلاهم فيها بما يُؤلمهم ؛ ذلك أن الحق سبحانه قال :

﴿ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾ ﴾

[إبراهيم]

والصبَّار هو مَنْ يُكثر الصبر على الأحداث ؛ وهى كلمة تُوحِى بأن هناك أحداثاً مؤلمة وقعتْ ، وتحتاج إلى الصبر عليها ، كما تُوحِى كلمة « شكور » بحوادث منعمة تستحق الشكر .

وهكذا نجد أن المؤمن يحتاج إلى أمرين ؛ صَبْر على ما يُؤلِم ، وشُكْر على ما يُرضى ، وحين تجتمع هاتان الصفتان فى مؤمن ؛ يكون مُكتمِلَ الإيمان[1] .

وقد قال الحق سبحانه : إن تلك الآيات هى أدلة تُوضِّح الطريق أمام المؤمن ، وتُعطى له العِبْرة ، لأنه حين يعلم تاريخ الأقوام السابقة ؛ ويجد أن مَنْ آمنَ منهم قد عانى من بعض الأحداث المؤلمة ؛ لكنه نال رضا الله ونعمه ؛ ومَنْ كفر منهم قد تمتع قليلاً ، ثم تلقَّى نقمة الله وغضبه .

---

(١) عن صهيب الرومى قال قال رسول الله ﷺ : « عجباً لأمر المؤمن ، إن أمره كله خير ، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن ، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له » أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٩٩٩) .

هنا يُقبِل المؤمن على تحمُّل مَشَاقِّ الإيمان ؛ لأنه يثق فى أن الحق سبحانه لا يُضيع أجْر مؤمنٍ ؛ ولا بُدَّ لموكب الإيمان أنْ ينتصر ؛ ولذلك فالمؤمن يصبر على المحن ، ويشكر على النِّعَم .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ (١) وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ (٢) وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ ﴾

وهكذا نجد الحق سبحانه وقد جاء بنموذج من أيام معاناتهم من جبروت فرعون ، وكيف خلَّصهم سبحانه من هذا الجبروت ، وكان فرعون يُسلِّط عليهم أقسى ألوان العذاب ، ف «سام » الشىء أى : طلبه ؛ و « سام سوء العذاب » أى : طلب العذاب السىء .

وقد ذَبَّح فرعون أبناءهم الذكور ، ولم يُذبِّح الإناث لتصبح النساء بلا عائل ويستبيحهُنَّ ، وفى هذا نِكَاية شديدة .

---

(١) سامه الأمر يسومه سوماً : كلّفه إياه على غير إرادته . قال الزجاج : أكثر ما يستعمل فى العذاب والشر والظلم . [لسان العرب ـ مادة : سوم] .

(٢) استحياه : استبقاه حياً ولم يقتله . قال تعالى : ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ .. ﴿٤٩﴾﴾ [البقرة] . أى : أنهم يقتلون الذكور فقط، ويتركون البنات والنساء على قيد الحياة . [القاموس القويم ١/١٨٣] .

ووقف بعض المستشرقين عند هذه الآية ، وقالوا : لقد تعرض القرآن من قبل لهذه الآية فى سورة البقرة ؛ حين قال :

﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ (٤٩) ﴾ [البقرة]

فهل هذه الآية فى سورة إبراهيم هى البليغة ، أم الآية التى فى سورة البقرة ؛ خصوصاً وأن الفرق بينهما هو مجىء « الواو » كحرف عطف على ذبح الأبناء باستباحة النساء ؟

وأضاف هذا المستشرق : ولسوف أتنازل عن النظر إلى ما جاء فى سورة الأعراف حين قال القرآن :

﴿ وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ (١٤١) ﴾ [الأعراف]

وبطبيعة الحال ، فهذا المستشرق لم يأخذ فَهْم القرآن عن ملَكة عربية ، ذلك أنه لو كان قد امتلك هذه القدرة على الفَهْم ؛ لَعرفَ أنَ الكلام لم يصدر فى الآيات عن مصدر واحد ، بل صدر عن مصدرين .

ففى آية سورة البقرة كان المصدر المتكلم هو الله سبحانه ، ولذلك قال :

﴿ نَجَّيْنَاكُم .. (٤٩) ﴾ [البقرة]

ولكن المصدر المتكلم فى سورة إبراهيم هو موسى عليه السلام ؛ لم يَقُلْ أنه هو الذى أنجاهم بل يُعدِّد النعم التى مَنَّ الله بها

عليهم ؛ ويمتنّ بها عليهم . وعلَّة ذلك أن العظيم حين يمتنُّ على غيره لا يمتنُّ إلا بالعظائم ، أما دون العظيم فقد يمتنُّ بما دون ذلك[١] .

وأسوق هذا المَثل لمزيد من الإيضاح لا للتشبيه ؛ فسبحانه مُنزَّه عن التشبيه ، وأقول : هَبْ أن إنساناً غنياً له أخ رقيق الحال ، وقد يُمد الغنىُّ أخاه الفقير بأشياء كثيرة ، وقد يعتنى بأولاده ؛ ويقوم برعايته ورعاية أولاده رعاية كاملة . ويأتى ابن الفقير ليقول لابن الغنى : لماذا لا تسألون عنا ؟ فيقول ابن الغنى : ألم يَأْتِ أبى لك بهذا القلم وتلك البذلة ، بالإضافة إلى الشقة التى تسكنون فيها ؟

ولكن العَمَّ الغنىّ يكتفى بأنْ يقول : أنا أسأل عنكم ، بدليل أنِّى أحضرت لكم الشقة التى تسكنون فيها . إذن : فالكبير حقاً هو الذى يذكر الأمور الكبيرة ، أما الأقل فهو من يُعدِّد الأشياء .

وهنا يَصِفُ الحق سبحانه سوْم العذاب وذَبْح الأبناء بالبلاء العظيم فى قوله تعالى :

﴿وَذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ۝٦﴾ [إبراهيم]

وهكذا نرى مظهرية الخير التى مَنَّ الله بها عليهم ، وهى الإنجاء من ذبح الأبناء واستباحة النساء ؛ وكان ذلك نوعاً من مظهرية الشر . وهذا ابتلاء صعب .

---

(١) قال أبو يحيى زكريا الأنصارى فى كتابه « فتح الرحمن بكشف ما يلتبس فى القرآن » ص ٢٧ : « فإن قلت : ما الحكمة فى ترك العاطف هنا ، وذكره فى سورة إبراهيم ؟ قلت: لأن ما هنا من كلام الله تعالى ، فوقع تفسيراً لما قبله ، وما هناك من كلام موسى وكان مأموراً بتعداد المحن فى قوله : ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ .. ۝٥﴾ [إبراهيم] . فعدَّد المحن عليهم ، فناسب ذكر العاطف » .

وسبق أنْ أوضحنا أنَّ البلاء يكون بالخير أو بالشر ، فقد قال سبحانه :

﴿ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (٣٥) ﴾ [الأنبياء]

فلا الخيرَ دليلُ تكريم ، ولا الشرَّ دليلُ إهانة ؛ فهو القائل :

﴿ فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦) ﴾ [الفجر]

فالابتلاء فى الأصل هو الامتحان ؛ إما أنْ تنجحَ فيه أو ترسبَ ؛ ولذلك فهو غَيْر مذموم إلا بالنتيجة التى يَؤُول إليها .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ (٧) ﴾ (١)

ونلحظ أن الآية تبدأ بكلمة « تأذَّن » وكل المادة الألف والذال والنون مأخوذة من الأذن . والأذن آلة السماع ، والأذان إعلام ، وآذنهم أى أعلمهم .

وتأذن أى : اعلم بتوكيد . وهكذا يكون معنى الآية : أنى أُعلمكم بتوكيد من ربكم أنكم إنْ شكرتم ليزيدنكم من نعمه وعطائه ؛ لأن

---

(١) الكفر هنا بمعنى جحود النعمة ، وهو ضد الشكر ورجل كافر : جاحد لأنعم الله . وتقول : كفر نعمة الله وبنعمة الله كفراً وكفراناً وكفوراً . [لسان العرب ـ مادة : كفر] .

الشكر دليلُ ارتباطٍ بالواهب ؛ وأنكم سلختم أنفسكم من الاعتزاز بما أوتيتم ، وعلمتم أنه هو وحده الوهاب .

والحق سبحانه هو مَنْ قال :

﴿ كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ (٧) ﴾ [العلق]

ولو كان الإنسان مربوطاً بالحق سبحانه ؛ لما فصل الحقَّ عن نعمه ؛ ولظل ذاكراً للحق الذى وهبه النِّعمَ .

ولذلك أقول دائماً : إياك أن تشغلك النعمة عن المُنعِم ؛ لأن النعمة موهوبة لك ؛ وليستْ ذاتية فيك .

وتأتى المقابلة من بعد ذلك مباشرة ؛ فيقول :

﴿ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ (٧) ﴾ [إبراهيم]

وهنا يثور سؤال : هل الذى لا يشكر نعم الله يكون كافراً ؟

وهنا علينا أن نعلم أن هناك فارقاً بين الكفر والكفران ، ولكن لفظ الكفر جاء هنا ليغلظ من معنى عدم الشكر ، ولم يأت بكلمة كُفْران وجاء بقوله :

﴿ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ (٧) ﴾ [إبراهيم]

والمثل فى ذلك هو قول الحق سبحانه :

﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (٩٧) ﴾ [آل عمران]

ومَنْ لم يحج فهو عَاصٍ ؛ وكأن الله يريد أن يُصعِّب عدم القيام

بالحج . أو : أن الآية تريد حُكْمين : الحكم الأول : الإيمان بفرضية الحج ؛ والثانى : القيام بالحج فعلاً .

ذلك أن الحق سبحانه قد قال :

﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً .. (٩٧) ﴾[آل عمران]

فَمنْ يؤمن بأن هذا حُكْم صحيح واجب ويؤمن به ولكنه لا يُنفِّذه ؛ قد يدخل فى المعدية ؛ لأنه يستطيع أن يحُجَّ ولم يفعل . أما مَنْ يكفر بالحج نفسه وينكر القضية كلها ؛ فهو كافر والعياذ بالله.

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ (٧) ﴾ [إبراهيم]

وهكذا جاء الكفر مقابل الشكر ، ولابُدَّ من عذابٍ للكفر ؛ وعذابُ الله لابُدَّ أن يكون شديداً ؛ لأن العذاب يتناسب بقدرة المعذب ، ولا أقدرَ من الله ، ونعوذ به سبحانه من عذابه ، فهو أمر لا يُطاَق .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ (٨) ﴾

وقد قال موسى ذلك كى لا يظنّ ظَانٌّ من قومه أن الله فى حاجة إلى شكرهم ؛ وأنه سيعاقبهم بالعذاب إنْ كفروا بشكره ؛ فأراد أنْ ينسخَ هذا الظنَّ من أذهان مَنْ يسمعونه .

وأوضح لهم أن الحق سبحانه لن يزيده إيمانكم شيئاً ؛ ولن يضيف هذا الإيمانُ منهم ومعهم أهل الأرض كلهم لِمُلْكه شيئاً ؛ لأن مُلْك الله إنما أبرزه سبحانه بصفات الكمال فيه ، وهو ناشىء عن كمال موجود.

ولذلك يأتى قوله الحق :

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ ﴾

وهذه الآية الكريمة أعطتْنا تفسيراً لقوله سبحانه :

﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا[1] فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ [فاطر]

وكذلك قوله سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ .. ﴿٧٨﴾ ﴾ [غافر]

ونعلم أن الحق سبحانه قد أوحى لموسى ـ عليه السلام ـ أن

---

(١) خلا : مضى وسبق . والقرون الخالية : هم المواضى . [لسان العرب ـ مادة : خلا] .

يُبلغ قومه بقصص بعض من الأنبياء السابقين عليه . وهذا واضح فى قوله الحق :

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ .. (٩) ﴾ [إبراهيم]

ويقول سبحانه عن القوم الذين جاءوا من بعد ذلك :

﴿ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ .. (٩) ﴾ [إبراهيم]

أى : أن الرسل قد حملوا منهج الله ، وكذلك المعجزات الدالة على صدقهم لِمَنْ جاءوا من بعد ذلك . والبينات إما أن تكون المعجزات الدالة على صدقهم ؛ أو : هى الآيات المُشْتملة على الأحكام الواضحة التى تُنظِّم حركة حياتهم لِتُسْعدهم .

ولكن هل قَبِلَتْ تلك الأقوامُ تلك البيناتِ ؟

لا ، لأن الحق سبحانه يقول عنهم :

﴿ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ .. (٩) ﴾ [إبراهيم]

وهكذا نرى أن الكافرين هم مَنْ وضعوا أيديهم على أفواههم ، وإما أنهم عَضُّوا على الأيدى بالنواجذ لأنهم لم يُطِيقوا تطبيق منهج الله ؛ ولم يستطيعوا التحكُّم فى أنفسهم .

أو : أنهم رَدُّوا أيديهم إلى أفواههم بمعنى أن قالوا للرسل : « هس » ، أصمتوا ولا تتكلموا بما جِئْتم به من بلاغ . أو : أن بعضهم قال للرسل « لا فائدة من كلامكم فى هؤلاء » .

والثراء فى القرآن يتحمّل كل هذه المعانى ؛ والآية تتسق فيها كل تلك المعانى ؛ فالعبارة الواحدة فى القرآن تكون شاملة لخيرات تناسب كمالات الله ، وستظل كمالات القرآن موجودة يظهر بعضها لنا ؛ وقد لا ندرك البعض الآخر إلى أن يُعلِمنا بها الله يوم القيامة .

ويأتى قولهم :

﴿إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ .. ﴿٩﴾﴾ [إبراهيم]

ليكشف لنا غباءهم ، فَهُمْ يعترفون بأن هؤلاء رسل من السماء ، وفى نفس الوقت يُنكِرون المنهج ، ويُعلنون هذا الإنكار ، يكشف لنا ذلك قوله تعالى :

﴿وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾﴾ [إبراهيم]

أى : أنهم أعلنوا رأيهم فى المنهج ، وقالوا : إنهم مُحيِّرون ويشكُّون فى هذا المنهج .

ويأتى القرآن بردِّ الرسل فى قول الحق سبحانه :

﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ (١) يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾﴾

---

(١) أصل الفَطْر : الشق . وفطر الله الخلق يفطرهم : خلقهم وبدأهم . قال ابن عباس : ما كنت أدرى ما فاطر السماوات والأرض حتى أتانى أعرابيان يختصمان فى بئر فقال أحدهما : أنا فطرتها أى أنا ابتدأت حفرها . [لسان العرب ـ مادة : فطر] .

وقوله : ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ.. ﴿١٠﴾﴾ [إبراهيم] هو لوْن من الخطاب الذى لا يترك لمَنْ توجه إليه الكلام أنْ يُجيب إلا كما تريد أنت . وأنت لا تفعل ذلك إلا إذا كُنْتَ واثقاً من أن مَنْ تُوجِّه إليه الكلام سيجيب ـ إنِ استحضرَ الحق فى ذهنه ـ كما تريد أنت .

ولذلك لم يَأْتِ الخطاب هنا بقوله « لا شك فى الله » وبذلك يكون الكلام خبرياً ، وقد يقول واحد : إن هذا كلام كاذب ، ولكن على الرغم من أن المستمعين من الكفار ، إلاّ أنه يأتى بالقضية فى شكل تساؤل يستأمنهم على أنهم سوف يُديرون الكلام فى رؤوسهم ، وسيعثرون على الإجابة التى لا يمكن أنْ ينكرونها ؛ وهى « ليس فى الله شك » .

وهكذا نجد أن القائل قد سكتَ عن إعلانهم الكفرَ أولاً ؛ وجاء لهم بالتساؤل الذى سيجيبون عليه « ليس فى الله شك » ، ويأتى لهم بالدليل الذى لا يحتمل أىَّ شكٍّ ، وهو قوله الحق :

﴿فَاطِرِ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ.. ﴿١٠﴾﴾ [إبراهيم]

والفاطر هو الذى خلق خَلْقاً على غير مثال سابق ، مثلها مثل قوله الحق :

﴿بَدِيعُ[1] السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ ..﴿١١٧﴾﴾ [البقرة]

فلا أحدَ قادرٌ على أن يخلقَ مثل السماوات والأرض ؛ وهى مخلوقة على غير مثال سابق . وسبحانه هو مَنْ شاء أن يكون

---

(١) بدعه يبدعه : أنشأه على غير مثال سابق . وبديع السماوات والأرض . أى : مبدعهما ومنشئهما على غير مثال سابق . [القاموس القويم ١/٥٧].

الإنسان سيداً لكل الكائنات المخلوقة ، وأن تكون تلك الكائنات مُسخَّرة لخدمته .

وقد يتخيّل الإنسان أن خَلْقه أكبر من خَلْق السماوات والأرض ؛ لذلك يُنبِّهه الحق سبحانه :

﴿ لَخَلْقُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ .. (٥٧) ﴾ [غافر]

ولو نظرتَ إلى الشمس وسألتَ نفسك : كم من الأجيال قد استمتعوا بدفْئها واستفادوا منها ؟ فمن المؤكَّد أنك لن تعرف عدد الأجيال ؛ لأن الشمس مخلوقة من قَبْل خَلْق البشر ، وكل إنسان يستمتع بالشمس ويستفيد منها عددَ سنوات حياته ، ثم يذهب إلى الموت .

ونجد المفسر الجليل الفخر الرازى[1] يضرب المَثل الذى لا يمكن أنْ يُنكره أحد ، ويدلُّ على الفطرة فى الإيمان ، ويُوضِّح أن الحق سبحانه لم يُمهل الإنسان إلى أنْ ينضجَ عقله ليشعر بضرورة الإيمان ، ويضرب المثل بطفل صغير تسلَّل ، وضرب شقيقه ؛ هنا لابُدَّ أن يلتفتَ الشقيق ليكتشف مَن الذى ضربه ؛ لأن الإنسان من البداية يعلم أنْ لا شىءَ يحدث إلا وله فاعل .

وهَبْ أن طفلاً جاء ليجد شقيقه جالساً على كرسى ، وهو يريد

---

(١) هو : محمد بن عمر بن الحسن أبو عبدالله ، الإمام المفسر ، أوحد زمانه فى المعقول والمنقول وعلوم الأوائل ، وهو قرشى النسب ، أصله من طبرستان . يقال له « ابن خطيب الرى » رحل إلى خوارزم وما وراء النهر وخراسان . وتوفى فى هراة عام ٦٠٦ هـ . (الأعلام للزركلى ٦/٣١٣) .

أن يجلس على نفس الكرسى ؛ هنا سيقوم الطفل بشدٍّ وجَذْب أخيه من على الكرسى ليجلس هو ، وكأنه اكتشف بالفطرة أن اثنين لا يمكن أن يستوعبهما حيِّز واحد .

وهكذا يتوصل الإنسان بالفطرة إلى معرفة أن هناك خالقاً أوحد . وهكذا نجد قوله الحق :

﴿ فَاطِرِ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ.. (١٠) ﴾ [إبراهيم]

هو الآية الكونية الواسعة .

ويأتى من بعد ذلك بالقول :

﴿ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ.. (١٠) ﴾ [إبراهيم]

وهذا القول يدل على الرحمة والحكمة والقدرة والحنان ؛ وهو هنا يقول :

﴿ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ (١٠) ﴾ [إبراهيم]

ولم يَقُلْ : يغفر لكم ذنوبكم ؛ ذلك أنه يخاطب الكفار ؛ بينما يقول سبحانه حين يخاطب المؤمنين :

﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ.. (١٢) ﴾ [الصف]

وهكذا لا يساوى الحقُّ سبحانه فى خطابه بين المؤمنين والكافرين .

أو : أن المقصود من قوله :

﴿لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ.. (١٠)﴾ [إبراهيم]

هو غفران الكبائر ؛ ذلك أن صغائر الذنوب إنما يغفرها أداء الفرائض والعبادات ؛ فنحن نعلم أن الرسول ﷺ قال : « الصلوات الخمس ، والجمعة إلى الجمعة كفارة لما بينهن ما لم تُغْشَ الكبائر »[1] .

ويتابع سبحانه :

﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى.. (١٠)﴾ [إبراهيم]

وكلنا نعرف أن الأجلَ هو الزمن المضروب والمُقرر للحدثِ . وإن شاء الحق سبحانه الإبادة فنجد ما يدل عليه قوله الحق :

﴿فَخَسَفْنَا[2] بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ .. (٨١)﴾ [القصص]

كما فعل مع قارون .

أو : أن قوله : ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى.. (١٠)﴾ [إبراهيم] مقصود به يوم القيامة .

ولكن الكفار أهل لَدَد[3] وعناد ، لذلك نجد قولهم :

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٣٣) ، وأحمد فى مسنده (٢/٤٨٤) وابن ماجة فى سننه (١٠٨٦) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

(٢) خسف الله الأرض : جعلها تهبط وتَغُور . [القاموس القويم : ١/١٩٤] .

(٣) اللدد : الخصومة الشديدة . الألد : الشديد الخصومة الجدِل. [لسان العرب ـ مادة : لدد].

﴿ قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (١٠) ﴾ [إبراهيم]

وهكذا يعلن أهل الكفر لرسلهم أنهم يُفضِّلون أن يكونوا أهل تقليد للآباء ، ولو أنهم فكَّروا لَعلموا أن التقليد لو شاع فى المجتمعات لَما ارتقى أحدٌ عن آبائه وأجداده ، فالعالم يتطور من تمرُّد جيل على جيل سابق ، فلماذا يُصِرّ هؤلاء الكافرون على أن يحتفظوا بتقليد الآباء والأجداد ؟

وإذا كان الأبناء يتطورون فى كل شىء ، فلماذا يحتفظ هؤلاء الكفار بتقليد الآباء فى العقائد ؟

ولا يكتفى أهل الكُفْر بذلك ، بل يطلبون أن يأتىَ لهم الرسل بسلطان مبين ، والسلطان يُطلق مرَّة على القهر على الفعل ، ويكون الفاعل المقهور كارهاً للفعل .

ومرّة يُطلق على الحجة التى تُقنع بالفعل ، ويكون الفاعل مُحِباً لما يَقْدُم عليه ، والدين لا يمكن أن ينتشر قهراً ؛ بل لابُدَّ أن يُقبل الإنسان على الدين بقلبه ، وذلك لا يأتى قهراً .

لذلك نجد القول الحق :

﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ .. (٢٥٦) ﴾ [البقرة]

وما دام الرُّشْد قد ظهر فالإكراه لا مجالَ له ؛ لأن الذى يُكْره على شىء لا يمكن له أن يعتنق ما يُكره عليه .

وإذا ما دخل الإنسان الدين فعليه أن يلتزمَ بما يُكلِّف به الدين ؛

ولذلك فالإنسان لا يمكن أن يدخل إلى الدين مُكْرهاً ، بل ، لا بُدَّ أن يدخله على بصيرة .

ويأتى الحق سبحانه بعد ذلك بما قاله الرسل رداً على قَوْل أهل الكفر :

﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١١) ﴾

وهكذا أوضح الرسل لأقوامهم : نحن بشر مثلكم ، والسلطان الذى نملكه هو المعجزة التى اختصَّ بها الحق سبحانه كُلَّ رسول ، والحق سبحانه هو الذى يتفضَّل على عباده ؛ فيختار منهم الرسول المناسب لكل قوم ؛ ويرسل معه المعجزة الدالة على تلك الرسالة ؛ ويقوم الرسول بتبليغ كل ما يأمر به الله .

وكل رسول إنما يفعل ذلك ويُقبِل عليه بكل الثقة فى أن الحق سبحانه لن يخذله وسينصره ؛ فسبحانه هو القائل :

﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) ﴾ [الصافات]

ويخبرنا سبحانه بطمأنة الرسول ومَنْ معه لحظةَ أن تزلزلهم

---

(١) يمن : ينعم ويحسن . وفى أسماء الله تعالى : الحنان المنان ، أى : الذى ينعم غير فاخر بالإنعام . وقال ابن الأثير : هو المنعم المعطى من المنِّ فى كلامهم بمعنى الإحسان إلى من لا يستثيبه ولا يطلب الجزاء عليه . [لسان العرب ـ مادة : منن] .

جِسَام الأحداث ؛ وتبلغ قلوبهم الحناجر ، ويتساءلون :

﴿مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ .. (٢١٤)﴾ [البقرة]

فتأتى أخبار نَصْر الحق سبحانه لرسله السابقين لطمأنة المؤمنين ، ونجد الحق سبحانه هنا يقول :

﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١١)﴾ [إبراهيم]

هكذا أعلن كل رسول لِمَنْ آمن به من قومه ، فعلَى الله وحده يتوكَّل المؤمنون ، ويُفوِّضون كل أمورهم إليه وحده ؛ صَبْراً على معاندة الكافرين ، وثقةً فى أنه سبحانه ينصر مَنْ أبلغوا رسالته ومنهجه ، وينصر معهم مَنْ آمنوا بالمنهج والرسالة .

وينقل لنا الحق سبحانه بقية ما قاله الرسل لأقوامهم :

﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (١٢)﴾

ونلحظ أن الحق سبحانه قد وصف المُتوكِّلين فى نهاية الآية السابقة بأنهم المؤمنون ؛ وهنا يَصِفُهم فى نهاية هذه الآية بأنهم المتوكِّلون ؛ لأن صفة الإيمان تدخل فى صفة التوكل ضِمْناً .

ونعلم أن هناك فارقاً بين التوكل والتواكل ؛ فالتوكل يعنى أن تستنفد أسباب الله المَمْدودة ؛ لأن التوكل عمل القلوب ؛ بعد أن تُؤدِّى الجوارحُ ما عليها من عمل وأَخْذ بالأسباب ؛ فالجوارح تعمل والقلوب هى التى تتوكل .

ويأتى لنا الحق سبحانه ببقية الحوار بين الذين كفروا من أهل الأقوام السابقة وبين رسلهم ، فيقول :

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا(١) فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ ﴾

وهكذا نرى أن فاشية الخير حين فَشَتْ فى الناس ؛ يغضب منها المستفيدون من الفساد والذين يعيشون عليه ؛ ويتجه تفكير المفسدين إلى ضرورة إخراج خمائر الخير من الأرض التى يعيش المفسدون على الاستفادة من أهلها .

وإنْ عَزَّتْ الأرض على خمائر الخير ، فعليهم أن يعلنوا عودتهم إلى ديانة الكافرين . ولا يقال : عُدْت إلى الشىء إلا إذا كنتُ فى الشىء ثم خرجتُ عنه وعُدْتُ إليه .

وهل كان الرسل الذين يُهدِّدهم أهل الكفر بالإخراج من البلاد ؛ يقبلون العودة إلى ديانة الكفر ؟

طبعاً لا ؛ ولذلك نفهم من قوله تعالى :

﴿ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا .. ﴿١٣﴾ ﴾ [إبراهيم]

بمعنى « أو لتصيرن فى ملتنا » .

ولم يقبل الرسل تلك المُساومة ؛ ذلك أن الحق سبحانه وتعالى يُنزِل جنود التثبيت والطمأنينة والسكينة على قلوب رُسُله والمؤمنين ؛

---

(١) الملة : الشريعة والدين . والملة : الدين حقاً كان أو باطلاً . [القاموس القويم : ٢/٢٣٦].

فلا يتأثر الرسل ومَنْ معهم بمثل هذا الكلام .

وهذا ما يُعبِّر عنه قَوْل الحق سبحانه فى آخر الآية :

﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ [إبراهيم]

وهكذا يأتى القانون السماوى بالعدل وهو إهلاك الظالمين ، وتلك قضية إيمانية باقية ودائمة أبداً .

ويكمل الحق سبحانه وعده لرسله ومَنْ معهم من المؤمنين :

﴿ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ ﴾

وهنا يؤكد الحق سبحانه أن مَنْ يثبت على الإيمان ، ويخاف مَقَام الحق سبحانه ، ويخشى يوم العَرْض على الحق ويوم الحساب ؛ ولم ينكص[1] عن منهج دعوة الحق ؛ سيُورثه الحق سبحانه أرض مَنْ كفر بالله ؛ فتلك سنة الله ؛ لأنه سبحانه قال :

﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا .. ﴿٢٧﴾ ﴾

[الأحزاب]

ونعلم أن مَنْ يخاف الله ويخشاه ويؤمن أنه قائم على كُلِّ نفس ؛ فسبحانه يجزى مَنْ يعيش حياته فى ضَوْء الإيمان بأن يُورِثه أرضَ مَنْ كفر ، وقد قال الحق سبحانه لرسوله :

---

(١) النكوص : الإحجام . ونكص على عقبيه : رجع عما كان عليه من الخير . والنكوص : الرجوع إلى وراء . [لسان العرب ـ مادة : نكص] .

﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا .. (١٣٧) ﴾ [الأعراف]

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَاسْتَفْتَحُوا(١) وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ(٢) عَنِيدٍ (١٥) ﴾

و« استفتح » تعنى طلب الفتح ، وهناك فتح ، واستفتح . وكلمة « فتح » تدل على أن شيئاً مُغْلقاً ينفتح ، ومرّة يكون المقصود بالكلمة أمراً حسياً ؛ وأحياناً يكون الأمر معنوياً ، ومرة ثالثة يكون الفتح بمعنى الفَصْل والحُكْم .

والمثل على الأمر الحسىّ قول الحق سبحانه :

﴿ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ .. (٦٥) ﴾ [يوسف]

ومرَّة يكون الفَتْح معنوياً ؛ وبمعنى سابقة الخير والعلم ، كقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِذَا خَلا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ .. (٧٦) ﴾ [البقرة]

---

(١) استفتحوا : استنصروا . أى : أذن للرسل فى الاستفتاح على قومهم ، والدعاء بهلاكهم . [تفسير القرطبى ٣٦٨٦/٥] .

(٢) قال القرطبى فى تفسيره (٣٦٨٧/٥) : «الجبار والعنيد فى الآية بمعنى واحد ، وإن كان اللفظ مختلفاً ، وكل متباعد عن الحق جبار وعنيد أى متكبر » .

وكذلك قول الحق سبحانه :

﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ .. (٢) ﴾ [فاطر]

أما المَثل على الفَتْح بمعنى الفَصْل فى الأمر ، فالمثل هو قول الحق سبحانه :

﴿ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ (٨٩) ﴾ [الأعراف]

وهكذا نجد للفتْح معانى متعددة ، وكلها تدور حول المغاليق وهى تُفَضّ ، ويُطلَق الفتح آخر الأمر على النصر ، والمثل هو قول الحق سبحانه :

﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) ﴾ [النصر]

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (١٥) ﴾ [إبراهيم]

وهم طلبوا الفتح بمعنى طلبوا النصر ، وكانت تلك خيبةً من الكفار ؛ فَهُمْ طلبوا الفتح أى النصر ؛ وهم قد فعلوا ذلك مظنّة أن عندهم ما ينصرهم .

وكيف ينصرهم الله وهم كافرون ؟

لذلك يُخيِّب الله ظنهم ويحكم عليهم بمصير كل مَنْ عاش جباراً فى الأرض ، متكبراً عن عبادة ربه .

ويقول سبحانه :

﴿ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (١٥) ﴾ [إبراهيم]

والجبار هو مَنْ يقهر الناس على ما يريده ؛ والمقصود هنا هم المُتكبِّرون عن عبادة الحق سبحانه وتعالى ، ويعاندون فى مسألة الإيمان به سبحانه .

وماذا ينتظرهم من بعد ذلك ؟

يقول الحق سبحانه :

﴿ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ (١٦) ﴾

أى : من خلف الجبار المُتعنِّت بالكفر جهنمُ ، وما فيها من عذاب . وفى العامية نسمع مَنْ يتوعد آخر ويقول له « وراك .. وراك » ويعنى بذلك أنه سيُوقع به أذىً لم يَأْتِ أوانه بَعْد .

وكلمة « وراء » فى اللغة لها استخدامات متعددة ؛ فمرَّة تأتى بمعنى « بَعْد » والمثل فى قوله تعالى عن امرأة إبراهيم عليه السلام :

﴿ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ[1] فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ (٧١) ﴾ [هود]

---

(١) أى : تعجبت من الضيوف الذين جاءوا بالبشرى . وقيل : كانت لا تحيض فحاضت . وفى اللغة : ضحكت المرأة أى حاضت . والراغب فى المفردات أنكر هذا التفسير وأرجع أن قوله تعالى : « ضحكت » معناه سُرَّتْ كثيراً . [القاموس القويم : ١/ ٣٩٠] .

أى : جاء يعقوب من بعد إسحق .

ومرّة تُطلق « وراء » بمعنى « غير » مثل قول الحق سبحانه :

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥) إِلاَّ عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٧) ﴾ [المؤمنون]

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ.. (١٦) ﴾ [إبراهيم]

ونعلم أن جهنم ستأتى مستقبلاً ، أى : أنها أمامه، ولكنها تنتظره ؛ وتلاحقه .

ويتابع الحق سبحانه :

﴿ وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ (١٦) ﴾ [إبراهيم]

والصديد هو الماء الرقيق الذى يخرج من الجُرْح ، وهو القَيْح الذى يسيل من أجساد أهل النار حين تُشْوى جلودهم .

ولنا أن نتصورَ حجم الألم حين يحتاج أحدهم أن يشرب ؛ فيُقدَّم له الصديد الناتج من حَرْق جلده وجُلُود أمثاله . والصديد أمر يُتأفَّفُ من رؤيته ؛ فما بَالُنَا وهو يشربه ، والعياذ بالله .

ويقول الحق سبحانه متابعاً لِمَا ينتظر الواحد من هؤلاء حين يشرب الصديد :

﴿ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾ ﴾

ويتجرعه أى : يأخذه جَرْعة جَرْعة ، ومن فرط مرارته لا تكون له سيولة تُستساغ ؛ فيكاد يقف فى الحلْق ؛ والإنسان لا يأخذ الشىء جَرْعة جَرْعة إلا إذا كان لا يقدر على استمرار الجرعة ؛ ولكن هذا المشروب من الصديد لا يكاد يستسيغه مَنْ يتجرعه . ويقال : استساغ الشىء . أى : ابتلعه بسهولة .

وقوله سبحانه :

﴿ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ .. ﴿١٧﴾ ﴾ [إبراهيم]

أى : لا يكاد يبلعه بسهولة فطعْمُه وشكله غير مقبولين .

ويتابع سبحانه :

﴿ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ .. ﴿١٧﴾ ﴾ [إبراهيم]

أى : ينظر حوله فيجد الموت يحيط به من كل اتجاه ، لكنه لا يموت ، ويُفَاجأ بأن العذاب يحيط به من كل اتجاه مُصدِّقاً لقول الحق سبحانه :

---

(١) تجرعه : بلعه فى تكلف وتكرُّه [القاموس القويم : ١/١٢٠] . وقال القرطبى فى تفسيره (٥/٣٦٨٩) : « أى : يتحساه جُرعاً لا مرة واحدة لمرارته وحرارته » .

(٢) ساغ الشراب فى الحلق إذا كان سلساً سهلاً . [لسان العرب ـ مادة : سوغ] .

﴿وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾﴾ [إبراهيم]

هكذا يتعذب الجبار المتعنت فى أمر الإيمان . وإذا قسْنَا العذاب الغليظ بأهونِ عذاب يلقَاهُ إنسان من النار لوجدنا أنه عذابٌ فوق الاحتمال ؛ فها هو ﷺ يقول : « إن أهون أهل النار عذاباً يوم القيامة لَرجلٌ يُوضَع فى أَخْمَص[1] قدميه جمرتان يغلى منهما دماغه »[2] .

فمَا بالُنَا بالعذاب الغليظ ، وقانا الله وإياكم شرَّه ؟

ويقول سبحانه من بعد ذلك قضية كونية :

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَـٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَـٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾﴾

وقد يأتى فى أذهان البعض ما يُشوِّه عقائد الإيمان ، فيقول : كيف يدخل فلانٌ النار وهو مَنْ أهدى البشريةَ تلك المخترعات الهائلة التى غيَّرت مسارات الحضارة ، وأسعدتْ الناس ؟ كيف يُعَذِّب الله هؤلاء الذين بذلوا الجهد ليطوروا من العلوم والفنون ، أيعذبهم لمجرد أنهم كفار ؟

---

(١) الأخمص : باطن القدم وما رقَّ من أسفلها وتجافى عن الأرض . [لسان العرب ـ مادة : خمص] .

(٢) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٥٦١) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢١٣) من حديث النعمان بن بشير رضى الله عنه .

وأقول : نعم ، يعذبهم الله على الرغم من أنه سبحانه لا يضيع عنده أَجْرُ مَنْ أحسنَ عملاً ؛ وهو قادر على أنْ يَجزيهم فى الدنيا بما ينالونه من مجد وشهرة وثروة ؛ وهم قد عملوا من أجل ذلك . وانطبق عليه قوله : « عملتَ ليُقال وقد قيل »[1] وأخذوا أجورهم مما عَملوا لهم ؛ ذلك أنهم عملوا ولم يكُنْ فى بالهم الله .

وهكذا يصور القرآن مسألة الجزاء ، فالواحد من هؤلاء الكفار إذا كان يَلْقى العذاب الغليظ على الكفر ؛ فالحق لا يغمطه[2] أجر ما فعل من خير ؛ فينال ذلك فى الدنيا ويستمتع بإطلاق اسمه على اختراعه أو اكتشافه .

ونعلم جميعاً قوله ﷺ : « مَنْ كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه »[3] أما فى الآخرة فالعذاب جزاؤه ؛ لأنه عاش كافراً بالله .

وهذه الأعمال التى صنعوها فى الدنيا ، وظنُّوا أنها أعمالٌ إنسانية وأعمالُ برٍّ تأتى يوم القيامة وهى رماد تهبُّ عليه الريح الشديدة فى يوم عاصف لتذره بعيداً :

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ (١٨) ﴾ [إبراهيم]

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٩٠٥) ، وأحمد فى مسنده (٣٢٢/٢) والنسائى فى سننه (٢٣/٦ ، ٢٤) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، وقد شرحه فضيلة الشيخ الشعراوى فى كتاب « الأحاديث القدسية » (١٣٥/١ ـ ١٥١) بتحقيقى .

(٢) غمط الحق : جحده . والغمط : كفران النعمة وسترها . [لسان العرب ـ مادة : غمط] .

(٣) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (١) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٩٠٧) من حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وأوله : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء ما نوى » .

ولن تكون لديهم عندئذ فرصة لاستئناف الحياة ليستفيدوا من التجربة ؛ بل أمامهم وحولهم العذاب ؛ لسان حال كل منهم يقول :

﴿رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا .. (١٠٠)﴾ [المؤمنون]

لكنه لو رُدَّ إلى الحياة لَعَاد إلى ما نُهِى عنه ، مِصْداقاً لقول الحق سبحانه :

﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا (٣٦)﴾ [الكهف]

وهذا الكفر هو الضلال البعيد الذى جعل كل أعمالهم التى ظنُّوا أنها صالحة ؛ مجردَ أعمال مُحْبطة ؛ فضلُّوا بالكفر عن الطريق المُوصِّل إلى خير الآخرة .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٩)﴾

وسبحانه يُعلمنا هنا أنه خلق السماوات والأرض بميزان الحقِّ ؛ فلا تأتى السماء وتنطبق على الأرض ، فسبحانه القائل :

﴿يُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ .. (٦٥)﴾ [الحج]

وأنت كلما سِرْتَ وجدتَ الشمس من فوقك ، وهى مرفوعة بنظام هندسىّ دقيق .

وهكذا أراد الحق سبحانه أن يُؤكِّد قضية كونية مُحسَّة مشهودة ؛ وبدأ بقوله :

﴿ أَلَمْ تَرَ .. (١٩) ﴾ [إبراهيم]

رغم أنه لا يوجد مع العَيْن أيْن ؛ ذلك أن الشمس واضحةٌ أمام كُلِّ البشر ، وهكذا نجد أن معنى « ألم تَرَ » هنا تكون بمعنى « ألم تعلم » .

وجاء سبحانه بـ ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ هنا ليدلّنا على أن ما يُعلمنا الله به من حَقٍّ أصدق مما تُعلمنا به العين ؛ فإذا قال سبحانه : ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ فهى تعنى : ألم تعلم عِلْماً مُؤكَّداً ؛ لأن عينيك ربما تَخُونك فى الرؤيا ، أو تخدعك بالإبصار ، ولكن إذا قال لك الله ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ فاعلم أنه علم موثوق به .

وحين يلفتنا الحق سبحانه هنا إلى رؤية السماوات والأرض ؛ فكان لابُدَّ لنا أن نعلم أنها لم تَكُنْ لتُوجَد إلا بخَلْق الله لها ؛ وهو الذى أخبرنا أنها من خَلْقه ؛ ولم يدّعها أحدٌ لنفسه ؛ وبذلك تثبت له قضية خَلْقها إلى أنْ يقولَ آخر أنه خلقها ؛ ولم يَقُلْ لنا أحدٌ ذلك أبداً .

وسبق أن قال سبحانه :

﴿ لَخَلْقُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ .. (٥٧) ﴾ [غافر]

والبشر كما نعلم لا يعيش فرد منهم مثْلما تعيش السماء ؛ فالفرد يموت ويُولَد غيره ؛ وكُلُّ البشر يأتون ويذهبون ، والشمس باقية ، وكذلك الأرض .

ومن عجيب الخَلْق الرحمانى أن الله خلق كُلّ ذلك تسخيراً لأمر الإنسان ؛ فلا يشذّ كائن من تلك المُسخرات عن أمر الإنسان . وما طُلب منك أيُّها الإنسان تكليفاً أنت مُخيَّر فيه إنْ شئتَ آمنتَ ، وإنْ شئْتَ كَفرتَ ؛ وإنْ شئتَ أطعتَ ، وإن شئتَ عصيتَ .

ولكن المخلوق المُسخَّر لخدمتك ليست له هذه المشيئة . وهو سبحانه الحق القائل :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ[1] مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً (٧٢) ﴾

[الأحزاب]

وقد أعلمنا هذا القولُ الكريم بأن الرحمانية سبقتْ لنا نحن البشر من قبل خَلْقنا ، وأقدمتنا رحمانية الله على وجود مُهيَّأ لنا .

ومن العجيب أن الكونَ المخلوق لنا استبقاءً لحياتنا واستبقاءً لنوعنا يتركز فى أشياء لا دَخْل لنا فيها ، ولا تتغير أبداً ؛ وهى الأشياء العليا كالشمس والقمر والأرض .

وهناك أشياء أخرى يكون التغيير فيها على نوعين : قسم يتغير ويأتى بدلاً منه شىء جديد ، كالنبات الذى يذهب ويصير حصيداً ، وكذلك الحيوانات التى نأكلها أو التى تموت .

وهناك خَلْق يتغير مع إبقاء عناصره ، وإنْ تغيّرتْ مادته ، كالجمادات التى نراها ـ الجبال والأرض وعناصرها ـ ونكتشف منها كُلَّ يوم جديداً .

---

(١) أشفقن منها : ضقن من حمل الأمانة ، ومن نتائج عدم الوفاء بحقوقها . [القاموس القويم ٣٥١/١] .

إذن : فالمخلوقات التى استقبلتْ الوجود الإنسانى نوعان : نوع لا دَخْل للأغيار فيها ؛ ونوع آخر فيه دَخْل للأغيار مع بقاء مادتها وهى الجمادات ؛ ونوع تتغير أنواعه وأجناسه .

كُلُّ هذه الأشياء تدلُّنا على أن الحقَّ سبحانه وتعالى له صِفَتان :

صفة القدرة والقهر ؛ وهو سبحانه يقهر ما يشاء على ما يشاء ؛ ولا يتغير .

وصفة الاختيار التى أوجدها فى الإنسان .

وأثبتت صفة القدرة التى سخَّر بها سبحانه لأشياء لخدمة الإنسان مُطْلق سلطانه سبحانه على كُلِّ ما خلق ؛ فلا شىءَ يخرج عن مراده أبداً .

وأراد سبحانه بصفة الاختيار التى وهبها للإنسان أنْ يأتيه عبده الإنسان محباً متبعاً لتكاليفه الإيمانية ، فالذى يطيع الله وهو قادر على أنْ يعصيه إنما يدلُّ بذلك على أنه مُحِبٌّ لله ؛ ويُثبِت له صفة المحبوبية .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ .. (١٩) ﴾ [إبراهيم]

ولنا أن نلحظ أن كلمة « بالحق » وردتْ فى مواقع كثيرة من القرآن الكريم .

وعلى سبيل المثال ، نجد فى القرآن الكريم قوله تعالى :

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ .. (٨٥) ﴾ [الحجر]

وقوله تعالى :

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ[1] (٣٨)﴾ [الدخان]

وهذا يدلُّ على أن السماوات والأرض مخلوقة على هيئة ثابتة ، وقد جعل ذلك مدارسَ الفلسفة تستقبل تلك القضية استقبالين ؛ استقبالَ مَنْ يريد أنْ يؤمن ؛ واستقبال مَنْ يريد أنْ يكفرَ . وانقسم مَنْ أرادوا الكفر إلى فريقين .

الفريق الأول : أخذ من ثبات قوانين الشمس والقمر والأرض دليلاً على أنه لا يوجد خالق لهذا الكون ، وقالوا : لو أن هناك خالقاً له لغيّر من هيئة السماوات والأرض ، ولكن كُل من تلك الكواكب تدير نفسها بآلية ذاتية مُحْكمة .

والفريق الثانى ممَّنْ أرادوا الكفر قال : إن الشذوذ فى الكون ووجود خَلَلٍ وعيوب خَلقية فى بعض من المخلوقات والأنواع ؛ دليلٌ على أنه لا يوجد إله . فكيف يخلق إلهٌ مخلوقاً أعمى ؛ وآخر أعرجَ ؛ وثالثاً بعين واحدة ؟

وهكذا أخذ هذا الفريق من أهل الكفر وجود الشذوذ فى الكون كدليل على عدم وجود إله .

ومن العجيب أن الفريق الذى أراد التغيير فى هيئة السماوات والأرض ؛ أراد ذلك كدليلٍ على وجود خالق ، والفريق الذى رأى أن هناك شذوذاً فى بعض المخلوقات أخذ ثبات الخَلْق على هيئة واحدة كدليل على وجود إله .

---

(١) لعب : عمل عملاً لا يُجدى عليه نفعاً . لاعبون : عابثون غير جادين . [القاموس القويم : ١٩٤/٢] .

كل ذلك يدلُّنا على أن الفريقين قد أخذَا من قضيتين متعارضتين دليلاً على الكفر ، ولم يتفق الفريقان على قضية واحدة ، وهذا يوضح التناقض بينهما .

ولو أمعن كل من الفريقين النظر لَعلم كلٌّ منهما أن الإيمان ضرورة أساسية لفهْم هذا الكون على ثبات ما فيه ؛ وعلى وجود بعضٍ من الشذوذ فيه .

فأنت يا مَنْ تنتظر ثباتاً فى الأكوان خُذْ ثبات آلية الحركة فى السماوات والأرض والشمس والقمر دليلاً على الإيمان بوجود خالق إله قادر .

وأنت يا مَنْ تأخذ التغيُّر فى الخلق دليلاً على وجود خالق ؛ فها أنت ترى اختلاف بعض المخلوقات ما يجعلك تعثر على عدم التماثل فى المخلوقات دليلاً على وجود إله خالق له طلاقة القدرة .

وأوضح الحق سبحانه لنا أنه لم يخلق السماوات والأرض لعبة ؛ بل خلقهما بالحق ، وهناك فارق بين اللعبة والحق ، فاللعبة قد يتوصل إليها مَنْ يعبث بشىء ؛ فتخرج له صُدْفة يستخدمها هو أو غيره كلُعبة .

يقول الحق :

﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [النحل]

أما الخلق بالحق ؛ فهذا يعنى أن مَنْ يخلقها إنما يفعل ذلك بموازين دقيقة مُحْكمة ؛ ويصنعها على نظام ثابت له قضية تحكمه من الحكمة والحق .

وما دام الكون الأعلى ثابتاً ؛ فإن الحق سبحانه هو الذى خلق

السماوات والأرض ، وما دُمْتَ تريد ثباتاً فى حركتك الاختيارية ؛ فخُذ المنهج الذى أنزله الله بالحق ؛ فتثبت قضاياك كما ثبتت القضايا العليا ؛ وأنت حين تخرج عن منهج الحق تجد فساداً .

وإذا أردتَ ألاَّ يوجد فساد فى المجتمع من أىّ لَوْنٍ فابحث عن حكم الله الذى ضَيّعه الإنسان فى مخالفة منهجه تجد أنَّ ضياعه هو السبب فى وجود الفساد ؛ واقرأ قوله الحق فى سورة الرحمن :

﴿ الرَّحْمَـٰنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الإِنسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ[1] (٤) الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥) وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (٦) وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧) أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (٨) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ[2] وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (٩) ﴾ [الرحمن]

وهكذا أنت ترى الشمس - على سبيل المثال - منضبطةً فى شروقها وغروبها وكُسُوفها ؛ وكذلك القمر فى سُطوعه أو مَحاقه[3] أو خسوفه .

وكما رفع الحق سبحانه السماء ووضع الميزان ؛ فعليكم أنْ تَزِنوا كُلَّ أمر بالميزان الصحيح لتنصلح أموركم ، فإن اعتدال الموازين المادية والمعنوية والقيمية هى استقرار لحركة الحياة .

أما إنْ ظللتُم على العِوَج فاعلموا أنه سبحانه قادر على أنْ يُذهِبكم وأن يأتى بخَلْق جديد :

---

(١) البيان : النطق المعبّر عما فى النفس من معان وأفكار . [القاموس القويم : ١/٩٢] .

(٢) القسط : العدل . وأقسط : عدل وأزال الظلم والجور . والقسطاس : الميزان والعدل . [القاموس القويم ٢/١١٦] .

(٣) المحاق : آخر الشهر إذا امّحق الهلال فلم يُرَ . وقال ابن الأعرابى : سُمِّى المحاق محاقاً لأنه طلع مع الشمس فمحقته فلم يرهُ أحد . [لسان العرب - مادة : محق] .

﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٩)﴾ [إبراهيم]

إن منطوق الآن ومفهومها ليس مراده سبحانه ؛ لأن الله خلقَ الخَلْق ، ووهبهم الاختيار ليُقبِل الخلق على الله ، رغم أنه سبحانه قد ملّكهم ألاَّ يُقبلوا عليه .

وفى موقع آخر يقول سبحانه :

﴿هَـأَنتُمْ هَـؤُلاء تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ (٣٨)﴾ [محمد]

ويقول فى قضية إنكار اليهود لطريقة ميلاد المسيح عيسى بن مريم :

﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ (٥٧) وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ (٥٨) إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ (٥٩) وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلائِكَةً فِي الأَرْضِ يَخْلُفُونَ (٦٠)﴾ [الزخرف]

إذن : فطلاقة قدرة الله التى خلقته بلا أب ، يمكن أن تفعل تلك القدرةُ المطلقة ما تشاء ، فلا شىء يتأبَّى على مراداتِ الحق ولا على قدراته .

ويقول فى موقع آخر :

﴿فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ (٤٠) عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ خَيْراً مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٤١)﴾ [المعارج]

فلا أحد يسبق إرادة الله أو مشيئته .

ويقول الحق سبحانه مؤكداً أن قدرته على المجىء بخلق جديد ليست مسألة مستحيلة :

﴿ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾ ﴾

والشىء العزيز هو الشىء المُمْتنِع . والله سبحانه لا يُغْلَب . وقد بيَّن لنا فى جزئيات الحياة أنه يذهب بنبات ويأتى بنبات آخر ، ويذهب بحيوان ويأتى بحيوان آخر ؛ وكذلك يذهب بالجماعة من البشر ويأتى بغيرهم .

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾ ﴾

(١) (٢)

والبروز أن يظهر شىء كان خفياً . ويُقال « رجل بارز » أى : مرموق وقَيْد الأبصار ، ولا تُفتَح الدنيا إلا عليه ، ويُقال « امرأة بارزة » أى : امرأة تختلط بالرجال وغير مُستترة .

---

(١) الجزع : نقيض الصبر ، وهو ضعف النفس عن احتمال المكروه . [القاموس القويم ١٢٢/١] .

(٢) المحيص : المهرب والمفرّ . والمحايصة ، مفاعلة ، من الحيص العدول والهرب من الشىء [لسان العرب ـ مادة : حيص] .

ويقول سبحانه :

﴿ وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً .. (٤٧) ﴾ [الكهف]

أى : سيرى كُلٌّ منا كُلّ الأرض فى اليوم الآخر وهى مكتملة ؛ لا جزء منها فقط كما يحدث فى حياتنا الدنيوية ؛ ذلك أن الحق سبحانه قد قال لنا :

﴿ فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (٢٢) ﴾ [ق]

ويُقال أيضاً « فرس بارز » وهو ما يطلق على الحصان الذى يفوز عند التسابق مع غيره ؛ ولا يستطيع فرس آخر أنْ يسبقه ؛ لذلك فهو فرس تراه العين أثناء السباق بوضوح .

ونعلم أن الخيْلَ فى لحظات السباق تثير أثناء تسابقها غباراً - أى : تراباً يُضبِّب المرئيات - فلا يرى أحد تفاصيل الموقع الذى تجرى فيه الخيول ؛ أما إذا ظهر فرس يسبق الجميعَ فلا خيول أخرى قريبة منه تثير غباراً يمنع رؤيته بارزاً واضحاً .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا .. (٢١) ﴾ [إبراهيم]

ولقائل أن يسأل : وهل كانت هناك أشياء خافية عنه سبحانه ثم برزت ؟

ونقول : إنه سبحانه مُنزَّه أن تَخْفى عنه خافية فى الأرض أو السماء أو الكون كله ، ولكن المقصود هنا أنهم يبرزون عند أنفسهم ، ويرون وجودهم واضحاً أمام الحق سبحانه .

وهم مِنْ قَبْل كانوا :

﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا (١٠٨) ﴾ [النساء]

وكانوا قد ظَنُّوا أنهم قادرون على أن يخفوا عن ربهم ما كانوا يفعلون ؛ ويُبيِّتون ويمكرون ؛ ونجدهم يوم القيامة مفضوحين أمام خالقهم ؛ حُكْمهم فى ذلك حُكْم كل الخَلْق .

أو : برز كل واحد منهم أمام نفسه ، ورأى نفسه أمام الله .

ونعلم أنه سبحانه قد خلق الخَلْق على لونين ؛ لونٍ مقهورٍ فيه الإنسان ، ولا إرادةَ له ؛ ولَوْنٍ مُخيَّر فيه الإنسان ، ونسبة ما منح فيه الإنسان الاختيار قليل ، إذا ما قيس بما ليس له فيه اختيار .

وقد شاء الحق سبحانه ذلك ؛ لأنه علم أزلاً أن الإنسان الذى تعوّد على أنْ يتمرّد على الله ؛ فهو يُوضِّح له : أنت قد أَلِفْتَ التمرد وقَوْل « لا » ، وقد تُجاهِر بالكفر ، وتحارب من أجله ، وتريد أن تخرج عن مرادات الحق ؛ فإنْ كنت صادقاً فى أن هذا الخروج ذاتىّ فيك ؛ فتمرّد على القهريات التى تنتابك .

ويعلم الإنسان بالتجربة أنه غَيْرُ قادر على ذلك ؛ فلا الفقيرَ يستطيع أن يثرَى دون مشيئة الله ؛ والمريض لا يستطيع أن يشفى دون مشيئة الله ؛ والضعيف لا يستطيع أن يقوى ضد إرادة الله .

وكل هذا يدل على أن ملكية الله لك لا تزال بالقهر فيك ؛ وسيأتى يوم يسلب منك الاختيار .

﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦)﴾ [غافر]

وأنت تبرز بكُلِّ تكوينك لحظتها أمام نفسك ، وتجد الحق سبحانه أمامك . وأنت إما أن تكون بارزاً بكل تكويناتك أمام نفسك لحظة وقوفك أمام خالقك ، أو يكون المقصود بقوله الحق وقوف كل الخَلْق أمامه بارزين ، سواء أكانوا تابعين أو متبوعين .

ولحظتها سنجد قوله الحق مُطبقاً :

﴿فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا..(٢١)﴾ [إبراهيم]

وهكذا نرى أن هناك حواراً بين اثنين من البشر ؛ نوع مستكبر ، وهم القادة السادة الذين يُلْقون أوامرهم ؛ ليُنفِّذها الضِّعاف ، ثم يُفاجأ الضعاف التابعون أن رؤوسهم تساوتْ فى اليوم الآخر مع هؤلاء الأقوياء الجبابرة ؛ ويروْنَ ما ينتظرهم جميعاً من عذاب ؛ فيسأل الضعاف أهلَ الجبروت :

﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ (٢١)﴾ [إبراهيم]

وهؤلاء المستكبرون سبق لهم أن استكبروا على هؤلاء الضِّعاف بما لهم من قوة وسيادة ، أو استكبروا على الرسل إيماناً كما أوضح الحق سبحانه فى موقع آخر من القرآن :

﴿لَوْلا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١)﴾ [الزخرف]

وفى هذا القوْل استكبارٌ على الإيمان ، وكأنهم يُعدِّلون على الله - والعياذ بالله - مشيئته وواسع علمه الذى يختار به الرسل .

أو : أنهم قد استكبروا على أنفسهم فلم يؤمنوا ؛ أو : أنهم قد استكبروا على الأتباع بما لهم من جاه ونفوذ فلم يقدر الأتباع على مخالفتهم ؛ لذلك يقول لهم الأتباع لحظة تساوى الرؤوس :

﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ (٢١) ﴾ [إبراهيم]

وهذا تقريع وخِزْى وفضيحة للتابع .

ونعلم أن الحق سبحانه قال فى موقع آخر من القرآن على لسان التابعين :

﴿ رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاْ (٦٧) رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيراً (٦٨) ﴾ [الأحزاب]

وقد عرض الحق سبحانه هذه المسألة علينا لنتعلم من البداية كيف يكون ميزان التبعية ؟ وإياك أن تتبع فى أمر إلا إذا اقتنعتَ أنه يأتى لك بخير ، وأنه يدفع عنك الشر ، ولينتبه كل منا جيداً ولا يعطى زمام قيادة حركة الحياة إلا عن بينة .

وليتذكر كل منا قوله الحق :

﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (١٦) ﴾ [الحشر]

فحين يأتيك أمر مخالف لمنهج الله ؛ عليك أن تُعْلِى منهج الله فوق كل أمر . وقد أوضح لنا الحق سبحانه ذلك كى ننتبه جيداً فلا نُلْقى زمام أمورنا لمن نتبع إلا برويّة وبحكمة ؛ أيدلُّنا على خير أم يدلُّنا على شر ؛ وهل يستطيع أن يدرأ عنا الشر ، وأن يُنجينا من الإصابة بمكروه ؟

فليكُنْ كُلٌّ منَّا على بينة من أمره ، وقد قال الحق سبحانه فى سورة الرحمن :

﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٦) ﴾ [الرحمن]

والآلاء هى النعم ؛ ومن أرْقى النعم هى تلك القيم التى أوضحها لنا الحق سبحانه لنسير على هُدَاها فى الحياة الدنيا كى لا نُقبِل على الحياة بجهالة ؛ بل بتوضيح وتبيان لكل شىء .

وهكذا يجب أن يتصرف التابع مع المتبوع كى لا يقف فى موقف الخزى المشترك بين الاثنين فى يوم الحساب ؛ حيث يقول التابعون للمتبوعين :

﴿ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ..(٢١) ﴾ [إبراهيم]

وهذا القَوْل القرآنى يتكلم به ربُّ العالمين ؛ وكُلُّ حرف فيه لهدف ومعنى .

وقوله :

﴿ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ..(٢١) ﴾ [إبراهيم]

يعنى أنهم لن يقدروا أنْ يُخفِّفوا ولو جزءً بسيطاً من عذاب الله ، وكأنهم يُسهِّلونها عليهم ، فيطلبون منهم أن يتحمّلوا ؛ أو أنْ يُخففوا عنهم ولو جزءً بسيطاً من العذاب .

والمثَلُ على ذلك حين يطلب إنسان من آخر جنيهاً ؛ فيقول له :

ليس معى غيره ، فيـردُّ الطالب : إذنْ اعطنى بعضاً منه ، وكأنه يطلب ولو رُبْعه أو عشرة قروش منه .

هكذا قال الذين اتبعوا لمن اتبـعوهم ؛ فماذا يكون الرد من هؤلاء الذين تأبَّوْا على الله إيـماناً بـه ؟ ها هم يردُّون على مَنْ سـألوهم أنْ يُخفِّفوا ولو جزء قليلاً من العذاب :

﴿ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ (٢١) ﴾ [إبراهيم]

وهكذا يتكشّف كذبهم ؛ فهم يدَّعُون أن معنى الهداية هو أنْ يهبَهُم اللهُ الإيمـان ؛ مُـتنَاسـين أن مـعنى الهـداية هـو الدلالة المُـوصِّلة إلى الغاية .

ولنَا فى قول الحق سبحانه ما يُوضِّح المعنى :

﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى ..(١٧) ﴾ [محمد]

فمَنْ يُقبل على الإيمان بصدر مُنشرح يجد كُلّ سُبل الخير أمامه ؛ أما مَنْ كـفر فكيف يهديه الله ، وهو قـد استحبّ العـمى على الهُدى ؟ لن يجد بطبيعة الحال أيَّة هداية .

ويقول الكـافرون ذلك لمَن اتبعـوهم فى يوم الحشـر ؛ ذلك أنهم يروْنَ رأى العـين أن الجنة حَقٌّ ؛ والنار حَقٌّ ، والحسـاب حَقٌّ ؛ لذلك يعترفون أمام مَن اتبعوهم فى الدنيا بأن الحقَّ سبحانه لو أخذ بيدهم فى الحيـاة الدنيا إلى الإيمان لَقُـدناكم إلى هذا الإيمان ؛ وهم فى ذلك أصحاب رأى مغلوط .

وذلك قولهم :

﴿لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ..(٢١)﴾ [إبراهيم]

ونعلم أن الإنسان إذا ما وقع فى مأزق أقوى من قدراته ؛ ولا فَجْوة فيه للنجاة ؛ فهو يستقبل هذا المأزق بأحد استقبالين ؛ الاستقبال الأول : أن يجزعَ ويتضرعَ ؛ والاستقبال الثانى : أنْ يصمدَ ويصبرَ .

وهنا نجد الكافرين يقولون :

﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ (٢١)﴾ [إبراهيم]

أى : أنهم سواء جَزِعوا وتضرَّعوا ، أو صبروا وصمدوا فلن يُنجيهم الله مِمَّا هم فيه ؛ فلا مَهْرب ولا مَنْجى .

و « حاص » فى المكان أى : ذهب إلى هنا أو هناك ، ولا يجد راحة ؛ ونجد فى تعبيرنا العامىّ ما يُصوّر ذلك وهو قولنا « فلان حايص » أى : لا يجد مكاناً يرتاح فيه .

ولذلك يقال « نَبَتْ بهم الأرض » ؛ أى : أن كُلَّ مكان فى الأرض يرفضهم ؛ ويشرح الحق سبحانه هذه القضية فيقول :

﴿حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ..(١١٨)﴾ [التوبة]

وهكذا نرى مَن نَبت بهم الأرض ؛ إنما لا تسعهم أنفسهم أيضاً بل تضيق عليهم ؛ ونسمع مِمَّنْ يُنكّل بهم الحق فى الحياة الدنيا مَنْ يقول : « أنا لا أطيق نفسى » .

وهذا ما يحدث بالفعل لبعض من الناس فى لحظات الضيق ؛ فتضيق ذات أىٍّ منهم عن حَمْل ذاته ، وكأن الواحدَ منهم له ذاتان ؛ وكأن الواحد منهم له صورتان ؛ الصورة التى تُزَيِّن الشهوة ؛ وحين تزيد عن الحَدِّ يعود إلى صورة كَارِه الشهوة ؛ وهو لا يسعَدُ فى الحالتين ؛ عشق الشهوة وكراهيتها .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ[1] وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾

وهنا نجد تصعيداً للحوار ؛ فبعد أنْ كان من المتبوعين والتابعين ؛ نجد هذا الارتقاء فى الحوار ليكون بين الشيطان وبين البشر . ونلحظ أن الحق سبحانه هنا بالحال الذى يدور فيه الحوار وهو انقضاء الأمر[2] ؛ حيث تقرَّر الوَضْع النهائى لكل شىء ؛

---

(١) المصرخ : المغيث المنقذ من يستصرخه . والمصرخ : الذى يزيل سبب الصَّريخ وسبب الصُّراخ. [القاموس القويم ١/٣٧٣] .

(٢) قال القرطبى فى تفسيره (٥/٣٦٩٣) : « معنى ﴿لَمَّا قُضِىَ الأَمْرُ .. ﴿٢٢﴾﴾ [إبراهيم] أى : حُصِّل أهل الجنة فى الجنة ، وأهل النار فى النار » .

ولا نقاشَ فى أىِّ أمر ، ولا فرصةَ للتراجع عما حدثَ .

وقضاءُ الأمـر يعنى أن يذهب كل إنسان إلى مصيـره ، فمَنْ كان من أهل الجنة دخلهـا ؛ ومَنْ كان من أهل النار دخلـها ؛ فقـد وصلتْ الأمور إلى حَدِّها النهائى الذى لا تتغير من بعده .

ويفضح الشيطان نفسه فيقول :

﴿ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ .. (٢٢) ﴾ [إبراهيم]

ووَعْـد الله حَقٌّ ، لأنه وَعْد مـمَّنْ يملك ؛ أمـا وَعْد الشـيطان فقـد اخـتلف ؛ لأنه وَعْـد بمـا لا يملك ؛ لذلك هو وَعْـد كـاذب ؛ لأن الحق سبحانه هو الأمر الثابت الذى لا يتغير .

وحين تَعِد أنت ـ الإنسان ـ إنساناً آخـر بخير قادم ؛ فهل تضمن أنْ تُواتيك ظروفك على أن تُحقِّق له هذا الأمر ؟

ولذلك يوصينا الحق سـبحانه أن نقـول « إن شاء الله »[1] وبذلك نردّ الوَعْد لله ؛ فهو وحده الذى يمكنه أنْ يَعِدَ ويُنفِّذ ما يعِد به .

وعلى الواحـد منا أنْ يحـميَ نفسـه من الكذب ، وأن يقـول « إن شاء الله » فـإنْ لم تسـتطع أنْ تحققَ مـا وعدت به تكون قـد حمـيتَ نفسك من أنْ تُلقِى اتهاماً بالكذب .

ونجد الشيطان وهو يقول فى الآخرة :

﴿ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ .. (٢٢) ﴾ [إبراهيم]

---

(١) وذلك فى قولـه تعالى : ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا (٢٣) إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ .. (٢٤) ﴾ [الكهف] .

ذلك أن وَعْده باطل ؛ والباطل لَجْلج[1] ، وحين تحكم به الآن تُثبت لك الوقائع عكسه ، وتجعلك لا تصدق ما حكمتَ به .

ولذلك نجد الحق سبحانه يوضح لنا المسافة بين الحق والباطل فيقول :

﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً[2] وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ (١٧) ﴾ [الرعد]

وهكذا يحاول الشيطان أن يُبرِّىء نفسه رغم عِلْمه أنه قد وعد ، وهو لا يملك إنفاذ ما وعد به ؛ ولذلك يحاول أن يلصق التهمة بِمَنْ اتبعوه مثله مثل أولئك الذين قالوا :

﴿ لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ .. (٢١) ﴾ [إبراهيم]

فيقول الشيطان من بعد ذلك :

﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي (٢٢) ﴾ [إبراهيم]

والسلطان ـ كما نعلم ـ إما سلطانَ قَهْر أو سلطانَ إقناع . وسلطان القَهْر يعنى أن يملك أحدٌ من القوة ما يقهر به غيره على أنْ يفعلَ ما يكره ، بينما يكون كارهاً للفعل .

---

(١) اللجلجة : أن يتكلم الرجل بلسان غير بيّن . واللجلجة والتلجلج : التردد فى الكلام . واللجلج : المختلط الذى ليس بمستقيم . والحق أبلج ، أى : مضىء مستقيم . [لسان العرب ـ مادة : لجج] .

(٢) جفأ الوادى غثاءه : رمى بالزَّبَد والقذى . واسم الزبد : الجفاء . والجفاء : الباطل . [لسان العرب ـ مادة : جفأ] .

أما سلطان الحجة فهو أن يملك منطقاً يجعلك تعمل وفق ما يطلبه منك وتحب ما تفعل ، وهكذا يعترف الشيطان للبشر يوم الحشر الأعظم ؛ ويقول : أريد أنْ أناقشكم ؛ هل كان لى سلطان قَهْرىّ أقهركم به ؟ هل كان لى سلطان إقناع أقنعكم به على اتباع طريقى ؟

لم يكن لى فى دنياكم هذه ولا تلك ، فلا تتهمونى ولا تجعلونى « شماعة » تُعلِّقون علىّ أخطاءكم ؛ فقد غويتُ من قبلكم وخالفتُ أمر ربى ؛ ولم يكن لى عليكم سلطان سوى أن دعوتُكم فاستجبتم لى .

وكل ما كان لى عندكم أنِّى حرَّكْتُ فيكم نوازع أنفسكم ، وتحرَّكت نوازع أنفسكم من بعد ذلك لِتُقبِلوا على المعصية .

إذن : فالشيطان إما أنْ يُحرِّك نوازع النفس ؛ أو يترك النفس تتحرك بنوازعها إلى المعصية ؛ وهى كافية لذلك .

وسبق أنْ أوضحتُ كيف تُعْرف المعصية ، إن كانت من الشيطان تسويلاً استقلالياً أو تسويلاً تبعياً ؛ فإنْ وقفتْ النفس عند معصية بعينها ؛ وكلما أبعدها الإنسان تُلِح عليه ؛ فهذا هو ما تريده النفس من الإنسان حيث تطلب معصية بعينها .

أما نَزْغ[1] الشيطان فهو أن ينتقل الشيطان من معصية إلى أخرى محاولاً غواية الإنسان ؛ إنْ وجده رافضاً لمعصية ما ؛ انتقل بالغواية إلى غيرها ؛ لأن الشيطان يريد الإنسان عاصياً على أىِّ لَوْن ؛ فالمهم أنْ يعصى فقط ؛ لذلك يحاول أن يدخل إلى الإنسان من نقطة

---

(١) نزغه الشيطان : وسوس له بالشر . ونزغ ما بين الرجلين : أفسد ما بينهما . [القاموس القويم ٢/ ٢٦٠] .

ضعفه ؛ فإنْ وجده قوياً فى ناحية اتجه إلى أخرى .

ويعلن الشيطان أنه ليس الملُوم على ذلك :

﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم..(٢٢)﴾ [إبراهيم]

فالملُوم هنا هو مَنْ أقبل على المعصية ؛ لا مَنْ أغوى بها .

ويستمر الحق سبحانه فى فَضْح ما يقوله الشيطان لمَنْ أغواهم فى اليوم الآخر :

﴿مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ..(٢٢)﴾ [إبراهيم]

هذا هو قَوْل الشيطان الذى سبق وأنْ تعالى على آدم لحظة أنْ طلب منه الحق سبحانه أن يسجدَ له مع الملائكة ؛ ولكن الموقف هنا هو التساوى بين الذين أغواهم وبينه ؛ فهو يعلن أنه لن ينفعهم وهم لن ينفعونه .

والمُصْرِخ من مادة الصُّراخ من صرخ ، وهو رَفْع الصوت بغرض أن يسمعه غيره ؛ ولا يطلب مَنْ يصرخ شيئاً آخر غير المعونة فلو أن أحداً عثر على كنز تحت قدميه فلن يصرخ ؛ بل يتلفَّت حوله ليرى : هل هناك مَنْ رآه أم لا ؟

أما إنْ هاجمه أسد فلا بُدَّ أن يصرخ طالباً النجاة ، وهكذا يكون الصراخ له مَأْرب طَلَبِ المعونة ؛ وهذا لا يتأتَّى إلا ممَّنْ يخاف من مُفزِع .

و « مُصرِخ » يدل على الفعل « أصرخ » ، وهو فعل دخلت عليه ما يُسمّى فى اللغة « همزة الإزالة » . والمثل هو كلمة « معجم » أى : الذى يدلُّك على معنى للفظ ليُزيلَ إبهامه ؛ فيقال « أعجم الكتاب » أى : أزال إبهامه ، وهذه الهمزة التى دخلتْ تُوضِّح إزالة العُجْمة عن الكلمة .

والمثل أيضاً على هذه الهمزة ؛ هو كلمة « عتب » أى : لامه ، وحين تدخل عليها الهمزة تصبح « أعتب » أى : أزال ما به عَتَب .

ونجد فى دعائه ﷺ قوله الشريف : « لك العُتْبى حتى ترضى»[1] .

أى : إذا كُنتَ يا ربّ تعتب علىَّ فى أىِّ شىء ؛ فأنا أدعوك أن تُزيل هذا العتب .

وهكذا نجد أن الإزالة تأتى مرة بإضافة الهمزة ؛ ومرة تأتى بالتضعيف ؛ مثل قولنا « مرَّض الطبيب مريضه » أى : أزال عنه - بإذن من الله - مرضه .

إذن : « مُصْرخ » هو مَنْ يُزيل صراخ آخر ؛ فكأن هناك مَن استغاث ؛ فجاءه مَنْ يُغيثه . وهكذا يعلن الشيطان فى اليوم الآخر أنه ومَنْ أغواهم فى مأزق ؛ وأنه غَيْر قادر على إزالة سبب هذا المأزق ؛ ولا هُمْ بقادرين على إزالة سبب مأزقه ؛ ولن يُغيث أحدهما الآخر .

---

(١) دعاء دعا به رسول الله ﷺ بعد إيذاء أهل الطائف له ، فقال : « اللهم إليك أشكو ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربى إلى من تكلنى ؟ إلى بعيد يتجهمنى أم إلى عدو ملكته أمرى ؟ إن لم يكن بك غضب علىَّ فلا أبالى .. لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بالله » أورده البيهقى فى دلائل النبوة (٢/٤١٥) ، وابن هشام فى السيرة النبوية (٢/٤١٩ ، ٤٢٠) .

ويضيف :

﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِن قَبْلُ..(٢٢)﴾ [إبراهيم]

فأنتم أشركتمونى مع الله فى الطاعة ؛ حين استسلمتُم لغوايتى ؛ ولم تكونوا من عباد الله المُخْلصين الذين أقسمتُ أنا بعزة الله ألاَّ أُغويهم[1] ؛ وكل منكم نفذ ما أغويته به ؛ فناديتكم واستجبتُم ؛ وناداكم الله فعصيتُم أو كفرتم . وصِرْتم مِثْلى ، فقد سبق لى أن أمرنى الله وعصيتُ .

ويقول الحق سبحانه ما يجىء على لسان الشيطان لمَنْ كفر وعصى :

﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٢)﴾ [إبراهيم]

وهذه قضية عامة ، قضية الكفر فى القمة ، فكمَا أطعتُم الشيطان وجعلتموه شريكاً لله ؛ فها هو الشيطان يُخبركم بتقدير هذا الموقف ؛ بأنه شِرْك بالله ؛ وهو يعلن الكفر بهذا ؛ لأن يوم الحشر قد جاء ؛ وتحقق فيه قول الله له :

﴿فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ[2] (٣٧) إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٣٨)﴾ [الحجر]

وكان الشيطان من قبل اليوم المعلوم ـ وهو اليوم الآخر ـ يندسُّ

---

(١) وذلك قوله تعالى : ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣)﴾ [ص] .

(٢) أنظره : أخَّره وأمهله وتأنى عليه . وقوله تعالى : ﴿قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤)﴾ [الأعراف] أى : أمهلنى وأخر حسابى وعقابى إلى يوم القيامة [القاموس القويم ٢/٢٧٣] .

ويُوسوس وينزغ ؛ أما فى ذلك اليوم فقد برز كل شىء من إنس وجن وكل الكائنات أمام الواحد القهار ، ولم يَعُدْ هناك ما يَخْفى عن العين .

وهذا ما خدعوا به أنفسهم ، وظنُّوا أنهم قادرون على أن يُخفوا ما فعلوه عن أَعْيُن الله ؛ ولذلك نجد الحديث القدسى يقول :

« يا بنى آدم ، إنْ كنتم تعتقدون أنِّى لا أراكم ، فالخَلل فى إيمانكم ، وإن كنتم تعتقدون أنِّى أراكم فلِم جَعَلْتمونى أهونَ الناظرين إليكم » .

وأنت فى حياتك اليومية لا تجد مَنْ يسرق من آخر وجهاً لوجه ؛ ولا أحد يحرق بيت أحدٍ أمام عينيه ؛ فإنْ كنتم يا معشر البشر لا تفعلون ذلك مع بعضكم البعض ؛ فكيف تفعلون ذلك مع خالقكم ؛ فتعصونه .

وإنْ شككتُم أنه لا يراكم فالخلل فى إيمانكم ؛ وإنْ كنتم تعتقدون أنه يراكم فلا تجعلوه أهونَ الناظرين إليكم ، لأنه لو نظر إليك إنسان فأنت لا تجرؤ على أن تصنع له ما يكرهه .

ولذلك يقول الشيطان معترفاً ومُقِراً بأن الظالمين لهم عذاب أليم ، والظلم فى القمة هو الشرك بالله :

﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣) ﴾ [لقمان]

وحين نقرأ ذلك إما أنْ نأخذه على أنه إقرار من الشيطان ؛ أو نفهمه على أن الشيطان قد قال :

﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِن قَبْلُ..(٢٢)﴾ [إبراهيم]

ويقول الحق سبحانه بعدها تلك القضية العامة :

﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٢)﴾ [إبراهيم]

فبعد أن تكلم سبحانه عن بروز الخَلْق والكائنات ؛ ثم الحوار بين الضعفاء والسادة ؛ ثم الحوار بين الشيطان وبين أهل الكفر والمعصية ؛ يأتى بالقضية النهائية فى الحكم :

﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٢)﴾ [إبراهيم]

والمناسبات توحى بمقابلاتها ؛ لتكون النفس مُتشوِّقة ومُتقبِّلة لهذا المقابل ؛ مثل قول الحق سبحانه :

﴿إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣)﴾ [الانفطار]

ويأتى بعدها بالمقابل لها :

﴿وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (١٤)﴾ [الانفطار]

فكما جاء بمقابل الأشقياء ؛ لا بُدّ أن يفتح القلوب لتنعم بسعادة مصير وجزاء الذين سُعِدوا بالإيمان .

لذلك يقول الحق سبحانه :

﴿وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ (٢٣)﴾

وهنا جاء الفعل ، ويمكن نسبته إلى ثلاث جهات . ولكل جهة ملْحظ ؛ فمرّة يُسنَد الفعل لله سبحانه ، ومرّة يُنسب الفعل للملائكة الذين يتلقوْن الأمر من الله بإدخال المؤمنين الجنة ؛ ومرّة للمؤمنين الذين يدخلون الجنة بإذن الله .

فالله أدخلهم إذْناً ؛ والملائكة المُوكَّلون فتحوا أبواب الجنة لهم ؛ والمؤمنون دخلوا بالفعل .

وهكذا يكون لكُلٍّ ملْحظ .

وهناك قراءة أخرى للآية توضح ذلك :

« وأُدْخِلُ[1] الذين آمنوا وعملوا الصالحات الجنة » والمتكلم هنا هو الله . ونلحظ أن الله قال هنا :

﴿ وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ.. (٢٣) ﴾ [إبراهيم]

لكى تضم كلمة « أدخل » أنه سبحانه أذن بدخولهم ؛ لأنه قال فى نفس الآية :

﴿ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ (٢٣) ﴾ [إبراهيم]

وأن الملائكة المُكلّفين بذلك فتحوا لهم أبوابها . والمؤمنون دخلوها كل ذلك بإذن الله .

ونلحظ أن كُلَّ الكلام هنا عن الجنات ؛ فما هى الجنات ؟

---

(١) هذه قراءة الحسن « وأُدخِلُ » على الاستقبال والاستئناف . قاله القرطبى فى تفسيره (٥/٣٩٩٦) .

ونقول : إن الجنة فى أصل اللغة هى السّتْر ، ومنها الجنون أى : سَتْر العقل ، والمادة هى : الجيم والنون ، والجنة تستر مَنْ فيها بما فيها من أشجار كثيرة بحيث مَنْ يمشى فيها لا يظهر ؛ لأن أشجارها تستره .

أو : أن مَنْ يدخلها يجلس فيها ولا يراه أحد ؛ لأن كل خير فيها لا يُلجئه أن يخرج منها .

وتُطلق الجنات على ما فى الدنيا أيضاً ، والحق سبحانه هو القائل :

﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ..(٢٦٦)﴾ [البقرة]

ولنا أن نعرف أن الجنةَ غَيْر المساكن التى فى الجنة ؛ لأن الحق سبحانه يقول :

﴿وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ..(٧٢)﴾ [التوبة]

والجنة - ولله المثَل الأعلى - هى الحديقة الواسعة ؛ وهذا الاتساع مُوزّع على كل مَرْأى عَيْن . والإنسان - بعجائب تكوينه - يُحب أن يتخصص فى مكان مرة ؛ ويحب أن ينتشر فى مكان مرة أخرى ؛ فيستأجر شقة أو يبنى لنفسه بيتاً مستقلاً « فيللا » . وفى البيت أو الفيللا يحب الإنسان أن تكون له حجرة خاصة لا يدخلها غيره .

والإنسان يُقيّم الأشياء على هذا الأساس ؛ فينظر مَنْ يرغب فى شراء قطعة أرض ليبنى عليها بيتاً : أهى تُطلّ على حارة أم على شارع ؟ وهل سيستطيع أنْ يعلوَ بالبناء إلى عدة أدوار أم لا ؟ وهل

سيخصص قطعة من الأرض كحديقة أم لا ؟

فإنْ كانت الأرض تُطل على الفضاء ، فحساب المتر ليس بالثمن المدفوع فيه ؛ ولكن بقيمة ما يتيحه من اتساع أُفق وفضاء من مزارع أو على البحر مثلاً ، حيث لن يتطفلَ عليك أحدٌ فى هذا المكان .

والجنات بهذا الشكل التقريبى ؛ هى أماكن مُتسعة ، وكل مَنْ يدخلها له فيها مساكن طيبة ، تلك الجنات تجرى من تحتها الأنهار . ومَنْ يدخلونها :

﴿ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ .. (٢٣) ﴾ [إبراهيم]

ذلك أن الإنسان يحب التنعُّم ؛ ولكن كل تنعُّم فى الدنيا هناك ما يُنغِّصه ، وهل يدوم أم لا يدوم ؟ وكل منّا رأى أُناساً عاشت فى نعيم ؛ ثم نُزِع منها بحكم الأغيار ؛ أو تركوه بحكم الموت .

أما جنة الله ونعيمها فالأمر مختلف ؛ ذلك أن النعيم هناك لا يفوتُك ولا تفوته ؛ لأنه على قَدْر إمكانات ربِّك .

ونلحظ أن قول الحق سبحانه :

﴿ خَالِدِينَ فِيهَا .. (٢٣) ﴾ [إبراهيم]

يُوضِّح أن الخلودَ فى الجنة دائمٌ بإذن من الله .

ويتابع سبحانه :

﴿ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ (٢٣) ﴾ [إبراهيم]

والتحية هو ما يواجه به الإنسان أخاه إثباتاً لسروره بلقائه ؛

ولذلك تأتى التحية على مقدار السرور ؛ فمرّة تكون التحية بمجرد رَفْع اليد دون مُصَافحة ؛ وقد لا تكتفى بذلك فى حالة ازدياد المعزَّة التى لصاحبك عندك ؛ فتصافحه ؛ وقد تأخذه فى أحضانك ، وهكذا ترتقى فى التحية ، وهى إعلانُ السرورِ باللقاء .

وتحيةُ الجنة هى السلام ؛ لأن السلام أمنُ كل إنسان ؛ سلامٌ مع نفسك ؛ فلا تُكدِّرها بحديث النفس الذى يندم على ما فات ؛ أو الحُلْم بعمل قادم ، فالسلام فى الجنة لن تجد فيه مُنغِّصات من الماضى أو الحاضر أو المستقبل ؛ وتنسجم مع كل ما حولك فى الكون ؛ الجماد ؛ النبات ؛ البشر ؛ الملائكة .

ولذلك قال الحق سبحانه تذييلاً لهذه الآية :

﴿ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ (٢٣) ﴾ [إبراهيم]

وهذه أفضلُ نعمة ، وهى الحياة فى سلامٍ وأَمْن ، وبعد ذلك تدخُل الملائكة عليهم مصداقاً لقول الحق سبحانه :

﴿ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم(١) مِّن كُلِّ بَابٍ(٢) (٢٣) سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (٢٤) ﴾ [الرعد]

ثم يُلقَّون السلام الأعلى من الله ؛ وهو القائل :

﴿ سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ (٥٨) ﴾ [يس]

---

(١) قال سعيد بن جبير : يدخلون عليهم على مقدار كل يوم من أيام الدنيا ثلاث مرات ، معهم التحف من الله ما ليس لهم فى جنات عدن . [الدر المنثور ٤/٦٣٩] .

(٢) عن عقبة بن عامر رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « ما منكم من أحد يتوضأ فيبلغ أو فيسبغ الوضوء ثم يقول : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبد الله ورسوله إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء » أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٣٤) .

وبعد أن شرح الحق سبحانه أحوال أهل القُرْب والسعادة ، وأهل البُعْد والشقاء ، أراد عز وجل أن يضرب لنا مثلاً يوضح فيه الفارق بين منهج السعداء الذين عاشوا بمنهج الله ، ومنهج الأشقياء الذين اتبعوا مناهج شتى غير منهج الله ، فقال سبحانه :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ(١) وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا(٢) كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

والمَثَل هو الشيء الذى يوضح بالجلى الخفى . وأنت تقول لصديق لك : هل رأيتَ فلاناً ؟ فيقول لك : لا لم أرَه ؛ فتقول له : إنه يُشبه صديقنا علان . وهكذا توضح أنت مَنْ خَفِى عن مُخَيلة صديقك بمَنْ هو واضح الصورة فى مُخَيلته .

والحق ـ سبحانه وتعالى ـ يضرب لنا الأمثال بالأمور المُحسَّة ، كى ينقل المعانى إلى أذهاننا ؛ لأن الإنسان له إلْفٌ بالمُحسِّ ؛ وإدراكات حواسه تعطيه أموراً حسية أولاً ، ثم تحقق له المعانى بعد ذلك .

---

(١) أصل الشيء : أساسه وقاعدته التى يقوم عليها ويكون فى أسفله . [القاموس القويم ٢١/١] .

(٢) الأكل : ثمر النخل والشجر ، وكل ما يؤكل فهو أُكل . [لسان العرب ـ مادة : أكل] .

ويقول الحق سبحانه :

﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا..(٢٦)﴾

[البقرة]

وقد قال الكافرون : أيضرب الحق مثلاً ببعوضة ؟ ذلك أنهم لم يعرفوا أن البعوضة لها حياة ، وفيها حركة كأىٍّ كائن ؛ وتركيبها التشريحى يتشابه مع التركيب التشريحى لكل الأحياء فى التفاصيل ؛ ويؤدى كل الوظائف الحيوية المطلوبة منه .

ولا أحدَ غير الدارسين لعلم الحشرات يمكن أن يعرف كيف تتنفس ، أو كيف تهضم طعامها ؛ ولا كيفية وجود جهاز دمويّ فيها ؛ أو مكان الغُدد الخاصة بها ؛ وهى حشرة دقيقة الصنع .

وهو سبحانه ضرب الأمثال الكثيرة ليُوضِّح الأمر الخفىّ بأمر جلىّ . ومن بعد ذلك ينتشر المثَل بين الناس . ونقول : إن كلمة « ضرب » مثلها مثل « ضرب العملة » ، وكان الناس قديماً يأتون بقطع من الفضة أو الذهب ويُشكِّلونها بقدْر وشكْل مُحدّد لتدُل على قيمة ما ، وتصير بذلك عُمْلة متداولة ، ويُقَال ـ أيضاً ـ « ضَرَب فى مصر » أى : اعتمد وصار أمراً واقعاً . وكذلك المثَل حين ينتشر ويصبح أمراً واقعاً .

والمثل الذى يضربه الحق سبحانه هنا هو الكلمة الطيبة ؛ ولها أربع خصائص :

﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ ..(٢٤)﴾ [إبراهيم]

أى : تعطيك طيباً تستريح له نفسُك ؛ إما منظراً أو رائحة أو ثماراً ؛ أو كُل ذلك مجتمعاً ؛ فقوله :

﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ ..(٢٤)﴾ [إبراهيم]

يُوحى بأن كُلّ الحواس تجد فيها ما يُريحها ؛ وكلمة « طيبة » مأخوذة من الطِّيب فى جميع وسائل الإحساس .

فالخاصية الأولى ، أنها شجرة طيبة ، أما الخاصية الثانية فهى أن أصلها ثابت ، كإيمان المؤمن المحب ، والثالثة أن فروعها فى السماء ، وهذا دليل أيضاً على ثبات الأصل وطيب منبتها .

أما الخاصية الرابعة فهى أن تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ، أى : فيها عطاء المدد الذى لا يعرف الحد ولا العدد ، وهى تدل على صفات المؤمنين المحبين .

وبما أنها شجرة طيبة ؛ فهى كائن نباتىّ لا بُدّ لها من أن تتغذَّى لتحفظ مُقوِّمات حياتها . ومُقوِّمات حياة النبات توجد فى الأرض ، فإنْ كانت الشجرة مُخَلْخَلة وغير ثابتة فهى لن تستطيع أن تأخذ غذاءها .

ولذلك يقول الحق سبحانه عن تلك الشجرة :

﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ..(٢٤)﴾ [إبراهيم]

وكلنا نظن أن الشجرة تأخذ غذاءها من الجذور فقط ؛ ولكن الحقيقة العلمية تؤكد أن الشجرة تأخذ خمسة بالمائة من غذائها عَبْر

الجذور ؛ والباقى تأخذه من الهواء ، وكلما كان الهواء نظيفاً فالشجرة تنمو بأقصى ما فيها من طاقة حتى تكاد أن تبلغ فروعها السماء .

أما إنْ كانت البيئة غيرَ نظيفة ومُلوّثة ؛ فالهواء يكون غيرَ نظيف بما لا يسمح للشجرة أن تنمو النمو المناسب ؛ فتمُرُّ الأغيار غير المناسبة على الشجرة ، فلا تستخلص منها الغذاء المناسب ، ولا تنمو النمو المناسب .

اللهم إلا إذا نزل عليها المطر فيغسل أوراقها .

إذن : فقول الحق سبحانه :

﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ..(٢٤)﴾ [إبراهيم]

يعنى : أنها تأخذ من الأرض .

وقوله :

﴿وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ..(٢٤)﴾ [إبراهيم]

يُبيِّن أنها تأخذ من أعلى .

ويتابع سبحانه :

﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ..(٢٥)﴾ [إبراهيم]

والأُكُل هو ما يُؤْكل ويُتمتَّع به ، ولكنّا لا نأخذ المعنى هنا على ما يُؤْكَل بالفم فقط ؛ ذلك أن هناك أشجاراً ونباتات طيبة ؛ لأن مزاجَ الكون العام يتطلبها ؛ فالظل مثلاً يُستفاد منه ؛ وكذلك هناك أشجار يتفاعل وجودها مع الأثير ؛ ويأخذ منها رائحة طيبة .

والمثل فى ذلك : الطفل البدوىّ الذى شاهد نخيل جيرانه مثمراً بالبلح ، ولكن النخلة التى يملكونها غير مثمرة ، وتساءل : لماذا ؟ وذهب ليقطعها ، فلحقه والده ومنعه من ذلك ، وقال له : إن نخلتنا هى الذكر الذى يُنتج اللقاح اللازم لبقية النخيل كى تثمر .

ولذلك فأنا لا أوافق المفسرين الذين ذهبوا إلى تفسير قوله الحق :

﴿ كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ .. (٢٤) ﴾ [إبراهيم]

بأنها مثل شجرة التفاح وغيرها من الأشجار المثمرة ؛ ذلك أن كل شجرة حتى ولو كانت شجرة حَنْظل فهى طيبة بفائدتها التى أودعها الحق إياها ؛ فشجرة الحنظل نأخذ منها دواءً - قد يكون مرير الطَّعْم - لكنه يشفى بعضاً من الأمراض بإذن الله .

ذلك أن كل ما هو موصوف بشجرة له مهمة طيِّبة فى هذا الكون . وقَوْل الحق سبحانه :

﴿ تُؤْتِى أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ .. (٢٥) ﴾ [إبراهيم]

يدلُّنا على أن هناك قدراً مشتركاً بين الشجر كله ؛ مثمراً بما نراه من فاكهة أو غير ذلك .

وقد نبّهنا العلْم الحديث إلى أن كل خُضْرة إنما تُنَقِّى الجو بما تأخذ منه من ثانىَ أوكسيد الكربون ، وبما تضيف لنا من أوكسجين ؛ وتستمر الخضرة فى ذلك نهاراً ؛ وتقلب مهمتها بإرسال ثانى أوكسيد الكربون ليلاً وامتصاص الأوكسجين ، وكأنها مُبَرْمجة على فَهْم أن النهار يقتضى الحركة .

ويحتاج الكائن الحى فيه إلى المزيد من وقود الحركة وهو الأوكسجين ؛ والإنسان أثناء الحركة يستهلك كمية كبيرة من

الأوكسجين ؛ ونجد مَنْ يصعد سلّماً ينهج لأن رئتيه تحاولان امتصاص أكبر قَدْرٍ من الأوكسجين ليؤكسد الدم ، وينتج الطاقة اللازمة للصعود . وهكذا نجد كل خُضْرة إنما تقوم بوظائف محددة لها سلفاً من قِبَل الخالق الأعلى .

ولذلك اختلف العلماء عند تفسير :

﴿ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ .. (٢٥) ﴾ [إبراهيم]

فمنهم مَنْ قال : إن « الحين » يُطْلق على اللحظة ؛ مثل قول الحق سبحانه :

﴿ فَلَوْلا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ[1] (٨٣) وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ (٨٤) ﴾ [الواقعة]

وقال مُفسِّر[2] آخر : إن « الحين » يُقصد به الصباح والمساء ، والحق سبحانه هو القائل :

﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ .. (١٧) ﴾ [الروم]

وأقول : فلننتبه إلى أن « الحين » هو الوقت الذى يحين فيه المقدور ؛ فإذا كان الحين هو لحظةَ بلوغ الرُّوح إلى الحُلْقوم ؛ فهذه اللحظة هى المراد بـ « الحين » هنا ، وإذا كان المقصود بها زمناً

---

(١) الحلقوم : الحلق . وهو علمياً الآن : هو تجويف خلف تجويف الفم وفيه ست فتحات : فتحة الفم ، وفتحتا المنخرين ، وفتحتا الأذنين ، وفتحة الحنجرة ويمر الطعام والشراب من الحلقوم إلى المرىء ، أما النفَس فهو يمر من الحلقوم إلى الحنجرة . [القاموس القويم ١٦٧/١] .

(٢) ذكر القرطبى فى تفسيره (٣٦٩٨/٥) أقوالاً : « قال الربيع : « كل حين » غدوة وعشية . وقاله ابن عباس . وقال الضحاك : كل ساعة من ليل أو نهار شتاء وصيفاً يؤكل فى جميع الأوقات » . ثم قال : « وهذه الأقوال متقاربة غير متناقضة ، لأن الحين عند جميع أهل اللغة إلا من شذ منهم بمعنى الوقت يقع لقليل الزمان وكثيره » .

أطول من ذلك ؛ صباحاً أو مساء ؛ فهذا الزمن ينسحب عليه معنى الحين .

والحق سبحانه هو القائل :

﴿ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ .. (١٧٧) ﴾ [البقرة]

والبأس يعنى الحرب ؛ ومُدة الحرب قد تطول . وكذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (٢٤) ﴾ [الأعراف]

وهكذا يكون معنى « الحين » هنا هو الأجل غير المُسمّى الذى يمتد إلى أن تتبدّل الأرضُ غيرَ الأرض والسماء غير السماء . إذن : فلا يوجد توقيت مُحدد المدة يمكن أن نُحدد به معنى « حين » .

ويذيل الحق سبحانه الآية الكريمة التى نحن بصدد خواطرنا عنها بقوله :

﴿ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٥) ﴾ [إبراهيم]

وضَرْب المثل معناه إيقاع شىء صغير ليدل على شىء كبير ؛ أو بشىء جلىّ ليدل على شىء خفىّ ؛ ليُقرِّب المعنويات إلى وسائل الإدراكات الأولى ، وهى مُدْركات الحِسِّ من سمع وبصر وبقية وسائل الإدراك .

وحين تأتى المعانى التى تناسب الطموح العقلى ؛ فالإنسان يتجاوز مرحلة الحِسِّ إلى المعلومات المعنوية ؛ فيقربها الحق سبحانه بأن يضرب لنا الأمثال التى توصل لنا المعنى المطلوب إيصاله .

والحق سبحانه لا يستحى ـ كما قال ـ أنْ يضربَ مثلاً بالبعوضة وما فوقها[١] . والبعض من المستشرقين يقول : ولماذا لم يَقُلْ « وما تحتها » ؟ .

ونقول لِمَنْ يقول ذلك : أنت لم تفهم اللغة العربية ؛ لذلك لم تستقبل القرآن بالملَكة العربية ؛ ذلك أن المَثل يُضرَب بالشىء الدقيق ؛ وما فوق الدقيق هو الأدقُّ .

والحق سبحانه يضرب لنا المَثل للحياة الدنيا ، وهى الحياة التى من لَدُن خَلْق الله للإنسان ؛ ذلك أنه كانت هناك أجناسٌ أخرى قبل الإنسان ، وهو سبحانه هنا يُوضِّح لنا بالمثَل ما يخص الحياة من لحظة خَلْق آدم إلى أنْ تقومَ الساعة ، وهو يطويها ـ تلك الحياة الطويلة العريضة التى تستغرق أعمار أجيالٍ ـ ويعطيها لنا فى صورة مَثَلٍ موجز ، فيقول لنا :

﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا[٢] تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا (٤٥) ﴾ [الكهف]

---

(١) يقول تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ..(٢٦) ﴾ [البقرة] قال ابن كثير فى تفسيره (١/٦٤) : « معنى الآية أنه تعالى لا يستنكف أن يضرب مثلاً ما أى مثل كان بأى شىء كان صغيراً أو كبيراً ، وما ههنا للتقليل . وقال الربيع بن أنس : هذا مثل ضربه الله للدنيا ، أن البعوضة تحيا ما جاعت ، فإذا سمنت ماتت ، وكذلك مثل هؤلاء القوم الذين ضرب لهم هذا المثل فى القرآن إذا امتلأوا من الدنيا رياً أخذهم الله عند ذلك ».

(٢) الهشيم : النبت اليابس المتكسر . وهو ما يبس من الورق وتكسر وتحطم ، فبلغ الغاية فى اليبس حتى بلغ أن يُجمع . [لسان العرب ـ مادة : هشم] .

وهكذا يطوى الحق سبحانه الحياة كلها فى هذا المثل من ماء ينزل ونبات ينمو لينضج ثم تذروه[1] الرياح .

وأيضاً يقول الحق سبحانه :

﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ[2] أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ[3] فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا .. (٢٠)﴾ [الحديد]

وهكذا يطوى الحق سبحانه الحياة الدنيا بطُولها وعَرْضها فى هذا المَثل البسيط لنرى ما يُوضِّح لنا المعانى الخفية فى صورة مُحسَّة بحيث يستطيع العقل الفطرى أن يُدرِك ما يريده الله منها .

ونعلم أن المُحسَّات تدرك أولاً بعض الأشياء ؛ ثم ترتقى إلى مرتبة التخيُّل ؛ ثم يأتى التوهُّم ؛ فمراحل الإدراك للأشياء الخفية هى الحِس أولاً ؛ ثم التخيل ثانياً ؛ ثم التوهم ثالثاً .

والتخيُّل هو أن تجمع صورة كلية ليس لها وجود فى الخارج ؛ وإنْ كانت مُكوَّنة من مادة وأشياء موجودة فى هذا الخارج . والمَثل على ذلك هو قول الشاعر الذى أراد أنْ يصف الوَشْم على يد حبيبته ، فقال :

---

(١) ذرا الهواء الشىء يذروه ذرواً : أطاره وبدده . [القاموس القويم ١/٢٤٣] .
(٢) الغيث : المطر . قال تعالى : ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ .. (٢٠)﴾ [الحديد] يحتمل أنه كمثل مطر أعجب الكفار ما خرج بسببه من نبات ، ويحتمل أنه كزرع أعجب الكفار نموه ونباته . [القاموس القويم ٢/٦٥] .
(٣) أهاجت الريح النبت : أيبسته . أى جعلته جافاً قد ذهبت رطوبته . [لسان العرب ـ مادة : هيج] .

خـــوض كـأنَّ بَنـانَهـــا فى نَقْشـه الوَشْم المُـزرد[١]
سَـمكٌ مـن البِلَّـور فى شَـبَكٍ تكوَّن من زَبرجَـدِ[٢]

وحـين تبحث فى الصـورة الكليـة لتلك الأبيـات من الشعـر ؛ لن تجـدها مـوجـودة فى الواقع ؛ ولكـن الشـاعـر أوجـدها من مُكوِّنات ومُفْـردات موجودة فى الواقع ؛ فالسـمك موجود ومـعروف ؛ والبلَّور موجود ومعروف ؛ وكذلك الشَّبك والزبرجد ، وقام الشاعر بنسج تلك الصورة غير المـوجودة من أشياء موجودة بالفـعل ، وهذا هو الخيال الذى يُقرِّب المعنى .

والتوهُّم يختلف عـن الخيال ؛ فإذا كان التـخيُّل هو تكوين صورة غير موجودة فى الواقع من مفردات موجودة فى هذا الواقع ؛ فالتوهُّم هو صـورة غـيـر موجـودة فى الواقع ، ومُـكوَّن من مـفردات غـيـر موجودة فى الواقع .

والحق سبحانه يقول لنا عن الجنة :

﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ .. (٧١)﴾ [الزخرف]

ويشرح الرسول ﷺ ذلك بمذكرة تفسيرية ، فيقول : « فيها مَا لا عَيْنٌ رأتْ ، ولا أذن سمعتْ ، ولا خَطَر على قَلْب بشر »[٣] .

---

(١) الخوضـة : اللؤلؤة . والبنان : أطراف الأصابـع . والزَّرْد : هو تداخل حلق الدرع بعضـها فى بعض كالشبكة .

(٢) الزبرجد : الزمرد . [لسان العرب ـ مادة : زبرجد] .

(٣) أخرج مـسلم فى صحـيحه (٢٨٢٤) من حـديث أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : قـال الله عز وجل : وأعددت لعـبادى الصالحـين ما لا عين رأت ، ولا أذن سـمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، مصداق ذلك فى كتاب الله : ﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٧)﴾ [السجدة] » .

والعَيْن وسيلة إدراك وحسٍّ ؛ وكذلك الأذن ، أما ما لا يخطر على القلب فهو ليشرحه الخيال أوَ الوَهْم .

وهكذا نعلم لماذا يضرب الله لنا الأمثال ؛ لِيُوجِز لنا ما يشرح ويُوضِّح بأشياء قريبة من الفهم البشرى .

وأنت حين تريد أن تكتب لصديق ؛ فقد تُمسك الورقة والقلم وتُدبِّج رسالة طويلة ؛ ولكن إنْ كنتَ تملك وقتك فستحاول أنْ تُركِّز كل المعانى فى كلمات قليلة .

وكلنا يذكر ما كتبه سعد زغلول[1] زعيم ثورة ١٩١٩ المصرية لواحد من أصدقائه بعد أن سطَّر له رسالة فى خمس صفحات ؛ وأنهاها : « إنى أعتذر عن الإطالة فى الخطاب ، فلم يكُنْ عندى وقت للإيجاز » وذلك لأن مَنْ يُوجِز إنما يضع معانى كثيرة فى كلمات قليلة .

وحين طلب أحد القادة المسلمين النُّصْرة من خالد بن الوليد ؛ وكان القائد الذى يطلب المساعدة مُحَاصَراً ؛ وأرسل لخالد بن الوليد كلمتين اثنتين « إياك أريد » ، وهكذا اختصر القائد المحاصر ما يرغب إيصاله إلى مَنْ ينجده ، بإيجاز شديد .

والشاعر يقول :

إِذَا أرادَ الله نَشْرَ فَضِيلَة ... طُوِيَتْ أتاحَ لَهَا لِسَانَ حَسُودِ
لَوْلاَ اشتِعالُ النَّارِ فِيمَا جَاوَرَتْ ... مَا كَانَ يُعْرَف طِيبُ عَرْفِ[2] العُودِ

---

(١) هو : سعد إبراهيم زغلول ، ولد فى « إبيانة » من قرى « الغربية » عام ١٨٥٧م تعلم فى كتّاب القرية ، ودخل الأزهر ، واتصل بالسيد جمال الدين الأفغانى ، تولى وزارة المعارف ووزارة الحقانية (العدل) ، أصبح رمزاً للثورة بعد نفيه إلى مالطة . توفى بالقاهرة عام (١٩٢٧م) . [الأعلام للزركلى ٣/٨٣] عن ٧٠ عاماً .

(٢) العرف : الريح : طيبة كانت أو خبيثة . وقال ابن سيده : العرف ، الرائحة الطيبة والمنتنة . [لسان العرب ـ مادة : عرف] .

أى : أنه إذا كانت هناك فضيلة مكتومة نسيها الناس ؛ فالحقُّ سبحانه يتيح لها لسانَ حاسد حاقد ليثُرثر وينبش ويُنقِّب ؛ لتظهر وتنجلى ؛ مثلما يُوضَعُ خشب العود - وهو من أرْقَى ألوان البخور - فى النار ، فينتشر عِطْره بين الناس .

وهكذا ضرب الشاعر المَثَل لِيُوضِّح أمراً ما للقارىء أو السامع .

ويقول الشاعر ضارباً المَثل أيضاً :

وإذَا امْرؤٌ مدحَ امْرءًا لِنَواله[1] وأطَالَ فِيه فقدْ أطَالَ هِجَاءَهُ

لَوْ لَمْ يُقدِّر فيه بُعْد المُسْتقَى عند الوُرودِ لَمَا أطالَ رِشَاءَهُ[2]

والمقاييس العادية تقول : إن المرء حين يمدح أحداً لفترة طويلة ، فهذا يعنى الرِّفْعة والمجد للممدوح . ولكن حين يقرأ أحدٌ قول هذا الشاعر قد يتعجَّب ويندهش ، ولكنه يتوقف عند قول الشاعر أن الماء لو كان قريباً فى البئر ؛ لأخرجه العطشان بدلو مربوط بحبل قصير ؛ ولكن إنْ كان الماء على بُعْد مسافة فى البئر فهذا يقتضى حبلاً طويلاً لينزل الدلو إلى الماء .

وهذا يعنى أن طول المدح إنما يُعبِّر عن فظاظة الممدوح الذى لا يستجيب إلا بالثناء الطويل ؛ ولو كان الممدوح كريماً حقاً لاكتفى بكلمة أو كلمتين فى مدحه .

---

(١) النوال : العطاء . وأناله معروفه ونوَّله : أعطاه معروفه . [لسان العرب - مادة : نول] .

(٢) الورود : الحضور والوصول للماء لتشرب . والرشاء : الحبل . يُوصل به إلى الماء فى البئر كما يوصل بالرشوة إلى ما يطلب من الأشياء . [لسان العرب - مادة : رشو] .

وهكذا يكون ضَرْبُ المثل توضيحاً وتقريباً للذهن .

وهنا قال الحق سبحانه :

﴿ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٥) ﴾ [إبراهيم]

والتذكر معناه أن شيئاً كان معلوماً بالفطرة ؛ ولكن الغفلة طرأتْ ؛ فيأتى المَثَلُ ليُذكِّر بالأمر الفطرىّ .

وبعد أن ضرب الحق سبحانه المثل بالكلمة الطيبة بياناً لحال أهل القُرْب من الله والود معه واتباع منهجه ، أراد أنْ يذكُرَ لنا المقابل ، وهو حال الأشقياء الذين أعرضوا عن الله ، وعن منهجه ، فيقول سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ[1] مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ (٢٦) ﴾

وحين نقارن الكلمة الخبيثة بالكلمة الطيبة سنكتشف الفارق الشاسع ؛ فالكلمة الخبيثة مُجْتَثَّة من فوق الأرض ؛ والجُثَّة كما نعلم هى الجسد الذى خرجتْ منه الروح ، ومن بعد أن يصبح جُثة يصير رِمَّة ؛ ثم يتحلَّل إلى عناصره الأولى .

إذن : فالاجتثاث هو استئصالُ الشىء من أصله وقَلْعه من جذوره ، أما المقابل فى الشجرة الطيبة فأصلها ثابت لا تُخلخله ظروف أو أحداث ، والكلمة الخبيثة بلا جذور لأنها مُجْتَثَّة ؛ وليس لها قَرار تستقر فيه .

---

(١) جثَّ الشىء : قطعه أو قلعه من جذوره . واجتثه : استأصله أو اقتلعه . [القاموس القويم ١١٧/١] .

وحين تكلَّم المُفسِّرون عن الشجرة الطيبة منهم مَنْ قال إنها النخلة لأن كُلَّ ما فيها خير ؛ فورقها لا يسقط ، ويبقى دائماً كَظِلٍّ وكل ما فيها يُنتفَع به .

فنحن - على سبيل المثال - نأخذ جذع النخلة ونصنع منه أعمدة فى بيوت الرِّيف ، وجريد النخل نصنع منه الكراسى ؛ والليف الموجود بين الأفرع نأخذه لنصنع منه الحبال ؛ والخوص نصنع منه القُفف .

والذين حاولوا أن يُفسِّروا « الشجرة الخبيثة » بأنها شجرة الحَنْظل ، أو شجرة التين ، أو شجرة الكُرَّات ؛ لكل هؤلاء أقول : لقد خلقها الحق سبحانه لتكون شجرة طيبة فى ظروف احتياجنا لها ؛ لأنك حين تنظر إلى الكون ستجد أن مِزَاجه مُتنوِّع ؛ ومُقوِّمات الحياة ليستْ هى الأكل والشرب فقط ؛ بل هناك توازن بيئىّ قد صمّمه الحق تعالى ، وهو الأعلم مِنّا جميعاً بما خلق ؛ ولم يخلق إلا طَيِّباً .

وكل شىء فى الكون له عطاء مستمر يُشِع فى الجو ، والمَثَل هو تساقط أوراق الشجر التى تُعيد الخِصْب مرة أخرى إلى الأرض . وكلها أمور يُبديها الحق سبحانه ولا يبتديها ، أى : يُظهرها بعد أنْ كانت موجودة أزلاً ومَخْفية عَنَّا .

وهو جَلَّ وعلاَ يرفع قوماً ويَخفِض قوماً ؛ وهو القائل عن ذاته :

﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ (٢٩) ﴾ [الرحمن]

وكلُّنا نعلم أن اليوم عند منطقة ما يبدأ فى توقيت مُعيّن ، وينتهى فى توقيت مُعين ؛ وتختلف المناطق الجغرافية وتختلف معها

بدايات أيٍّ يوم من منطقة إلى أخرى ؛ فبعد لحظة من بداية يومك يبدأ يوم آخر فى منطقة أخرى ؛ وهكذا تتعدد الأيام وبدايات النهار والليل عند مختلف البشر والمجتمعات .

ولذلك فحين نسمع قول الرسول ﷺ : « إن الله عز وجل يبسط يده بالليل ليتوب مُسىء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسىء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها »[1] .

فمعنى ذلك أن يَد الله مبسوطة دائماً ، ذلك أن الليلَ يبدأ فى كل لحظة عند قَوْم ، ويبدأ النهار عند قوم فى نفس اللحظة ؛ ويتتابع ميلاد الليل والنهار حَسْب دوران الشمس حول الأرض .

وهكذا لا يجب أن نظلم شجرة الثوم ، أو شجرة الحَنْظل ، أو أى شجرة من مخلوقات الله ونَصِفَها بأنها شجرة خبيثة . فلا شىءَ خبيثٌ من مخلوقات الله .

ونحن حين نجد شاباً يقوم بثَنْى قطعة من الحديد قد يحسبه الجاهل أنه يُسىء استخدام الحديد ، ولكن العاقل يعلم أنه يقوم بِثَنْيها ليصنع منها مَا يفيده ؛ كخُطَّاف يشدُّ به شيئاً يلزمه .

وعمدة الكلمة الطيبة هى شهادة « لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله » ومن هذه الشهادة يتفرَّع كل الخير . ومن هنا نعلم أن عُمْدة الكلمة الخبيثة هى الكفر بتلك الشهادة ، وما يتبع الكفر من عناد لرسول الله ﷺ وصَدٍّ عن سبيل الله ؛ ومن تكذيبٍ لمعجزات الرسل ؛ وإنكارٍ لمنهج الله .

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٧٥٩) من حديث أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه .

ولقائل أنْ يقول : ما دام الحق سبحانه قد قال إن هناك شجرةً خبيثة ؛ فلابُدَّ أن تُوجَد تلك الشجرة ، وأقول : إن كُلَّ ما يضرُّ الإنسان فى وقت ما هو خبيث ؛ فالسكر مثلاً يكون خبيثاً بالنسبة لمريض بالسكر ؛ وكل كائن فيه حسناتٌ مفيدة ؛ وله جانب ضَارّ فى حالات معينة ؛ وعلى الإنسان المختار أن يُميِّز ما يضرُّه وما ينفعه .

ونلحظ هنا فى وَصْف الكلمة الخبيثة بأنها كالشجرة الخبيثة ؛ أن الحق سبحانه لم يَقُلْ إن تلك الشجرة الخبيثة لها فَرْع فى السماء ؛ ذلك أنها مُجْتثة من الأرض ؛ مُخْلخلة الجذور ؛ فلا سَند لها من الأرض ؛ ولا مددَ لها من السماء .

ولذلك يَصِفها الحق سبحانه :

﴿مَا لَهَا مِن قَرَارٍ (٢٦)﴾ [إبراهيم]

أى : ما لها من ثبات أو قيام ، وكذلك الكُفْر بالله ؛ ومَنْ يكفر لا يصعد له عمل طيّب ، فلا أساسَ يصعد به العمل أو القول الطيب . ولهذا وصفت الشجرة الخبيثة بصفات ثلاث ، أولها : أنها شجرة خبيثة وثانيها : أنها عديمة الأصل بغير ثبات ، وثالثها : ما لها من قرار لعدم ثبات الأصل .

ثم يبين الله جل علاه متحدثاً عن حصاد الحالتين ، فالأولى : أمن وأمان فى الدنيا والآخرة . والحالة الثانية : ظلم بضلال ، وقلق بضنك ، وفى الآخرة لهم عذاب أليم .

ويقول سبحانه وتعالى :

﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ[1] فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾ ﴾

وتأتى هنا كلمة « التثبيت » طبيعية بعد قوله :

﴿ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ (٢٦) ﴾ [إبراهيم]

لأن الذى يُجتثُّ لا ثبوتَ له ولا استقرارَ ؛ فجاء بالمقابل بقوله :

﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا .. (٢٧) ﴾ [إبراهيم]

وتُوحِى كلمة التثبيت أيضاً بأن الإنسان ابنٌ للأغيار ، وتطرأ عليه الأحداث التى هى نتيجة لاختيار المُكلَّفين فى نفاذ حُكْم أو إبطاله ، فالمُكلَّف حين يأمره الله بحكم ؛ قد يُنفِّذه ، وقد لا ينفذه .

وكذلك قد يتعرض المكلّف لمخالف لمنهج الله ، فلا يُنفِّذ هذا المخالفُ تعاليمَ المنهج ؛ ويؤذى مَنْ يتبع التعاليم ، وهنا يثق المؤمن أن له إلهاً لن يخذله فى مواجهة تلك الظروف ، وسينصره إنْ قريبٌ أو بعيد على ذلك .

وهكذا لا تنال الأحداث من المؤمن ، ويصدق قوله الحق :

﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا .. (٢٧) ﴾ [إبراهيم]

فهم قد آمنوا بوجوده وبقدرته ، وبأن له طلاقة مشيئة يُثبِّتهم بها

---

(١) قال ابن عباس : هو لا إله إلا الله . وروى النسائى عن البراء بن عازب أنه قال : نزلت فى عذاب القبر [تفسير القرطبى ٣٧٠١/٥] .

مهما كانت جسامة الأحداث ؛ ذلك أن المؤمن يعلم عن يقين أن الحق سبحانه قد قال وصدق :

﴿ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨) ﴾ [الرعد]

وما دام المؤمن قد ثبت قلبه بالإيمان وبالقول الثابت ؛ فهو لا يتعرّض لزيغ[1] القلب ؛ ولا يتزعزع عن الحق .

والتثبيت يختلف فى أعراف الناس باختلاف المُثبّت ؛ فحين يُخلْخَل عمود فى جدار البيت ؛ فصاحب البيت يأتى بالمهندس الذى يقوم بعمل دعائمَ لتثبيت هذا العمود ؛ ويتبادل الناسُ الإعجابَ بقدرات هذا المهندس ، ويتحاكى الناس بقدرات هذا المهندس على التثبيت للأعمدة التى كادتْ أنْ تنهار ، وهذا ما يحدث فى عُرْف البشر ؛ فما بَالُنا بما يمكن أنْ يفعله خالق البشر ؟

وقوله الحق :

﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا .. (٢٧) ﴾ [إبراهيم]

يردُّك إلى المُثبِّت الذى لَنْ يطرأ على تثبيته أدنى خَلَل . وكلمة « التثبيت » دلَّتْنَا على أن الإنسان ابنُ أغيارٍ ؛ وقد تحدثُ له أشياء غَيْر مطابقة لما يريده فى الحياة ؛ لذلك فالمؤمن يجب ألاّ يَخُور ؛ لأن له رباً لا تدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار .

وسبحانه يُثبِّت الذين آمنوا :

﴿ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. (٢٧) ﴾ [إبراهيم]

---

(١) الزيغ : الميل . زيغ القلب : الميل عن الهدى والقصد . [لسان العرب ـ مادة : زيغ] .

والقول ثابت ؛ لأنه من الحَقِّ الذى لا يتغيَّر ؛ وهذا القَوْل مُوجَّه للمؤمنين الذين يواجههم قَوْم أشرار اختاروا أنْ يكونوا علَى غير منهج الله .

وهذا القول يوضح للمؤمنين ضرورة أن يهدأوا ؛ وأنْ يجعلوا أنفسهم فى معيّة الله دائماً ، وأنْ يعلموا أنّ الظالمَ لو علَم ما أعدَّه الله للمظلوم من ثواب وحُسْن جزاء لَضَنَّ الظالم بظُلْمه على المظلوم ولَقَال : ولماذا أجعل الله فى جانبه ؟

والذين اضْطهدوا فى دينهم ؛ وقام الكفار بتعذيبهم ؛ لم يُفْتَنوا فى الدين ؛ فكلما قَسَا عليهم الكفار ضَرْباً وتعذيباً كلما تذكروا حنانَ الحقِّ فتحمّلوا ما يذيقهم الكافرون من عذاب .

وحُسْن الجزاء قد يكون فى الدنيا التى يُثبِّت فيها المؤمن بمشيئة الله ؛ وهى بنت الأغيار وبنت الأسباب ، فأنت فى الدنيا تحوز على أىِّ شىء بأن تتعبَ من أجل أنْ تحصلَ عليه ، وتكدّ لتتعلم ؛ وتعثر على وظيفة أو مهنة ؛ ثم تتزوج لتُكوِّن أُسْرة ؛ وتَخدُم غيرك ؛ ويخدُمك غيرك ، وتزاول كل أسبابك بغيرك ؛ فأنت تأكل مما تطبخ زوجتك ، أو أمك أو مَنْ تستخدمه ليؤدى لك هذا العمل .

باختصار كلما ارتقيتَ ؛ فأنت ترتقى بأثر مجهود ما . وكُلّ متعة تحصل عليها إنما هى نتيجة لمجهود جَادٍّ منك ؛ وأنت تحاول دائماً أن تُقلِّل المجهود والأسباب لتزيد من متعتك .

فَما بالُكَ بالآخرة التى لا تكليفَ ولا أسبابَ فيها ؛ وكل ما فيها قد جهَّزه الحق تعالى مقدّماً للإنسان ؛ ثواباً إنْ آمنَ ، وعذاباً إنْ كفر وعصى ، وإنْ كنتَ مؤمناً فالحق سبحانه يُجازيك بجنة عَرْضها السماوات والأرض ؛ فيها كُلُّ ما تشتهى الأنفس .

وإذا كان الحق سبحانه يُثبِّت الذين آمنوا فى الدنيا بالقول الثابت الحق فتثبيتُه لهم فى الآخرة هو حياةٌ بدون أسباب .

ونجده سبحانه لم يَقُلْ هنا : الحياة الآخرة ، بل قال :

﴿فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِى الآخِرَةِ ..(٢٧)﴾ [إبراهيم]

ذلك أن الارتقاءات الطُّموحية فى الحياة تكون مناسبة للمجهود المبذول فيها ، ولكن الأمرَ فى الآخرة يختلف تماماً ؛ لأن الحق سبحانه هو الذى يُجازى على قَدْر طلاقة مشيئته ، وهو يُثبِّتهم بدايةً من سؤال القبر ونهايةً إلى أنْ يَلْقوا الثواب على حُسْن ما فعلوا من خير فى سبيل الله .

وما دام الحق سبحانه قد ذكر هنا التثبيتَ فى الحياة الدنيا والآخرة ؛ فلا بُدَّ أن يأتىَ بالمقابل ، ويقول :

﴿وَيُضِلُّ[1] اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ (٢٧)﴾ [إبراهيم]

وسبحانه يُضلّ الظالم لأنه اختار أنْ يظلم ؛ وهو سبحانه قد جعل للإنسان حَقَّ الاختيار ، فَمَنَ اختار أن يظلمَ ؛ لا بُدّ له من عقاب . وإذا كان سبحانه قد خلق الخَلْقَ وجعل الكون مُسخراً لهم ؛ وأعطى المؤمن والكافر من عطاء الربوبية ؛ فإن اختار الكافرُ كفره ؛ فهو لن يُنفِّذ تكاليف الألوهية التى أنزلها الله منهجاً لهداية الناس .

---

(١) أى : يضلهم عن حجتهم فى قبورهم . كما ضلُّوا فى الدنيا بكفرهم فلا يلقنهم كلمة الحق ، فإذا سئلوا فى قبورهم قالوا : لا ندرى . فيقول : لا دريت ولا تليت . وعند ذلك يُضرب بالمقامع على ما ثبت فى الأخبار . [تفسير القرطبى ٣٧٠٢/٥] .

والكافر إنما يظلم نفسه ؛ ذلك أنه ما دام قد أنسَ إلى الكفر فالحق سبحانه يختم على قلبه ؛ فلا يخرج من القلب الكفر ، ولا يدخل إليه الإيمان ؛ وهو رَبُّ العالمين يفعل ما يشاء .

وإذا كان الحق سبحانه يعطى كل إنسان ما يريد ؛ وما دام الكافر يطلب أن يكون كافراً ؛ فسبحانه يمدُّ له فى أسباب الكفر ليأخذه من بعد ذلك بها ، كما يمدُّ الله للمؤمنين كُلَّ أسباب الإيمان مِصْداقاً لقوله الحق :

﴿كُلاًّ نُّمِدُّ هَـٰؤُلَاءِ وَهَـٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا[1] ﴿٢٠﴾﴾ [الإسراء]

وهكذا تكون طلاقة قدرة الحق سبحانه وهو يفعل ما يشاء ، ذلك أنه لا يوجد إله غيره .

والحق سبحانه قد أكرمنا بالعبودية له وحده ، ذلك أننا رأينا جميعاً وشاهدنا أثر عبودية الإنسان للإنسان ؛ حين يأخذ السيد خَيْر العبد ؛ وقد ذاقتْ البشرية الكثيرَ من وَيْلاتها ، ولكن العبودية لله تختلف تماماً حيث يأخذ العبد خَيْر السيد ؛ ويُغدِق السيد إحسانه على عباده.

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ[2] ﴿٢٨﴾﴾

---

(١) الحظر : المنع . والمحظور : الممنوع . ومعنى قوله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾﴾ [الإسراء] أى : لا يمنع عطاء الله أحد . [القاموس القويم ١/١٦١] .

(٢) البوار : الهلاك . ودار البوار : دار الهلاك [لسان العرب ـ مادة : بور] . والمقصود بها جهنم . قاله ابن زيد . [ذكره القرطبى فى تفسيره : ٥/٣٧٠٣] . ويدل عليه قوله تعالى بعده : ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٢٩﴾﴾ [إبراهيم] .

وحين يقول الحق سبحانه :

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى .. (٢٨)﴾ [إبراهيم]

فهذا يعنى أن المُخبِر وهو الحق إذا ما أخبرنا بشىء فهو أصدق مِنْ أنْ تراه أعيننا .

وتشير الآية إلى عملية مُبَادلة بين اعتراف بالنعمة ؛ ثم إنكارها . كأن هناك شيئاً قد استبعدناه ، وأتيْنا ببديل له . والحق سبحانه هو القائل :

﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِى هُوَ خَيْرٌ .. (٦١)﴾ [البقرة]

والحق سبحانه وتعالى قد أعطاك النعمة ولم يطلب منك أن تقومَ بأىِّ تكليف إيمانىٍّ قبل البلوغ . وهكذا نجد أن النعمة هى الأصل ، والتكليف إنما يأتى من بعد ذلك ، وكان من الواجب ألاَّ يعصى العبد مَنْ أنعم عليه بكل النعم ، وأن يتجه إلى التكليف بمحبة ؛ كى لا يقلب نعمة الله كفراً .

أو : أن المقصود هم قوم قريش الذين أفاء[1] الله عليهم الخير ، وجعل لهم الحرم آمناً :

﴿أَوَ لَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ[2] إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٥٧)﴾ [القصص]

---

(١) أفاء الله عليه فيئاً : منحه غنيمة فى الحرب بالنصر أو بغير الحرب . [القاموس القويم ٩٢/٢] .

(٢) جبى الخراج والماء : جمعه . وقوله تعالى : ﴿يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَىْءٍ .. (٥٧)﴾ [القصص] تجمع إلى الحرم المكى وتُساق إليه ثمرات وخيرات كثيرة . [القاموس القويم ١١٧/١] .

وكذلك أنعم عليهم بأن يكون نبى الإسلام - الدين الخاتم - منهم ، وهو النبى الذى ستدين له الدنيا والعالم فى كل زمان ومكان ؛ فلماذا يُبدِّلون تلك النعمة كفراً ؟

أمَا كانت تلك النعمة وحدها كافية لمقابلتها بعميق الشكر وحُسْن العبادة ؟ فهذا النبى الذى قال الحق سبحانه عن رسالته :

﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الزخرف]

وهو سبحانه القائل عن نعمه عليهم :

﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَـٰذَا الْبَيْتِ ﴿٣﴾ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴿٤﴾ ﴾ [قريش]

فكيف يُبدِّلون نعمة الله كفراً ؟ وكيف يُسيئون معاملة الرسول ﷺ وصَحْبه حتى قال ﷺ : « اللهم اجعل سنينهم كسنين يوسف »[1] .

وخرج لقتالهم فى بدر ؛ وهم الذين صنعوا بأنفسهم ذلك نتيجة تبديلهم لنعمة الله كفراً ، ولماذا قَبِلوا عطاء الحق من خير ونعم ورفضوا منهجه ؟

ولو كانوا قوم صِدْق مع النفس ، وصدق مع ما يعتقدونه لَطلبوا من الأصنام أن تعطيهم ؛ أو لَرفضوا أن يأخذوا خَيْر المنعم ما داموا قد رفضوا منهجه ، وهو سبحانه قد أنعم عليهم بمُقوِّمات المادة ؛ وأضاف لذلك منهجه مُقوم الروح .

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ كان إذا رفع رأسه من الركعة الأخيرة يقول : « اللهم اشدد وطأتك على مضر ، اللهم اجعلها سنين كسنى يوسف .. » الحديث أخرجه البخارى فى صحيحه (١٠٠٦) وأحمد فى مسنده (٢/٤٧٠ ، ٥٠٢ ، ٥٢١) .

وحين نقرأ قول الحق سبحانه :

﴿ وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (٢٨) ﴾ [إبراهيم]

نفهم أن الإحلال هو إيجاد حالٍّ فى مَحَلٍّ . ونعلم أن الظَّرف ينقسم إلى قسمين : ظرف مكان ، وظرف زمان ؛ فإذا أحللْتَ حدثاً محلَّ حَدث ؛ فهذا يخصُّ ظرف الزمان ، وحين تحل شيئاً مكان شىء آخر ، فهذا أمر يخصُّ ظرف المكان .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (٢٨) ﴾ [إبراهيم]

وهذا يعنى ظرف مكان . ولقائل أن يقول : وكيف يأخذون أهلهم وقومهم ليحلوهم إلى دار بَوَار ؟

ونقول : لقد حدث ذلك نتيجة أنهم قد غَشّوهم وخدعوهم ، ولم يستعمل هؤلاء الأهل عقولهم ؛ ولم يلتفتوا إلى أنّ قادتهم وأُولى الأمر منهم يسلكون السلوك السىء وعليهم ألاَّ يقلدوهم ؛ فَجرُّوا عليهم الفتن واحدة تِلْو أخرى ، وترين[1] الفتن على القلوب .

ولهذا أراد الحق سبحانه لأمة محمد ﷺ أن تكون بها مناعات من الفتن ؛ فتحثّ النفس اللوامة المؤمن ؛ فيكثر الحسنات ليبطل السيئات ، وإذا ما تحولت النفس اللوّامة إلى نفس أمَّارة بالسوء وجدتْ فى المجتمع المسلم مَنْ يزجرها .

---

(١) الرين : الصدأ يعلو السيف فيذهب ببريقه ويستعار للغشاوة تغطى على القلب بسبب الذنوب . وران الصدأ عليه : غلب عليه وغطاه كله . [القاموس القويم ١/٢٨٢] .

وبهذا تصبح أمة محمد ﷺ محصَّنة ضد الفتن التى تُذهِب الإيمان .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ.. (١١٠) ﴾ [آل عمران]

ويُذكِّرنا الحق سبحانه بأن الرسولَ سيكون شهيداً علينا ، ونحن سنكون شهداء على الناس ، وهكذا ضمن الحق سبحانه أن يعلم كُلُّ واحد من أمة محمد جزئية من العلم ليكون امتداداً لرسالة رسول الله ﷺ .

ومثْلما شهد الرسول أنه قد بلَّغ الرسالة ؛ سيكون على كل واحد من أمة محمد ﷺ أنْ يشهدَ بأنه قد بلَّغ ما علم من رسالة محمد ﷺ .

وكُلٌّ منا يعلم كيف حدثتْ الغفلة الأولى ؛ حيث حدثتْ الغفلة من الأُسْوة ؛ فزاحمتهم الشهواتُ وارتكبوا السيئات ، فحين غفلتْ النفس ارتكبتْ المعصية ؛ وحين رأى الناسُ مَنْ يرتكب المعصية قلَّدوه .

وهكذا حمل مَنْ وقع فى الغفلة وزْره ووزْر مَن اتبعه بالأُسْوة السيئة ؛ فصار ضَالاً فى ذاته ؛ ثم تحمَّل وِزْرَ مَنْ أضله أيضاً .

وهكذا صار مَنْ فعل ذلك هو مَنْ أحلَّ قومه دار البوار .

والبوار يعنى الهلاك ؛ ذلك أن الكبار من هؤلاء القوم حين تصرَّفوا وسلكُوا بما يخالف المنهج أورثوا مَنِ اتبعوهم الهلاك .

ونحن فى الريف نَصفُ الأرض التى لا تصلح للزراعة بأنها الأرض البُور[١] ؛ وكذلك يُقال « قُمْنا بتبوير الأرض » أى : أهلكنا ما فيها من زرع .

وحين نقرأ قول الحق :

﴿ وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ ﴾ [إبراهيم]

نجد فى كلمة « قومهم » ما يُوحى بالخسَّة لِمَنْ يرتكبون هذا الفعل الشائن ؛ فمَنْ يُهلك قومه لابُد أن يكون خسيساً ؛ ولابُد أن يكون محترف غشٍّ وخديعة ؛ فالقوم هم مَنْ يقومون معهم ؛ وكان من اللائق أن تضرب على يد مَنْ يصيبهم بشرٍّ أو يغشّهم أو يخدعهم .

ويشرح الحق سبحانه دار البوار هذه ، فيقول :

﴿ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا[٢] وَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ ﴾

وإذا قِسْنا جهنم بالمقرات ؛ فلن نجد مَنْ يرغب فى أن تكون جهنم هى مقرَّه ؛ لأن الإنسان يحب أن يستقر فى المكان الذى يجد فيه راحة ، ولو لم يجد فى هذا المكان راحة ؛ فهو يتركه .

وجهنم التى يَصْلَوْنها لن تكون المقرَّ الذى يجدون فيه أدنى

---

(١) بور الأرض : ما بار منها ولم يُعمر بالزرع . وقال الزجاج : البائر فى اللغة الفاسد الذى لا خير فيه . قال : وكذلك أرض بائرة متروكة من أن يزرع فيها . [لسان العرب ـ مادة : بور] .

(٢) أصلاه النار : أدخله إياها وأثواه فيها . وصليت النار أى : قاسيت حرّها . وصلَى اللحم : شواه . والصِّلاء : الشواء ، لأنه يُصْلى بالنار . [لسان العرب ـ مادة : صلى] .

راحة ؛ لأن العذاب مُقيم بها ؛ ولذلك يصفها الحق سبحانه بأنها :

﴿ بِئْسَ الْقَرَارُ (٢٩) ﴾ [إبراهيم]

فكأنهم ممسوكون بكلاليب[1] فلا يستطعيون منها فكاكاً . وهى تقول :

﴿ هَلْ مِن مَّزِيدٍ (٣٠) ﴾ [ق]

وكأنهم قد عَشقوا النار فعشقتهم النار ، ولو كانت لديهم قدرة على أنْ يفرُّوا منها لَفعلوا ، لكنهم مربوطون بها وهى مربوطة بهم ؛ وهى بئس القرار ؛ لأن أحداً لن يخرج منها إلا أنْ يشاء الله .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ (٣٠) ﴾

والنّد هو : المِثْل والمُشَابه . وهم قد اتخذوا لله شركاء ؛ وأىّ شريك اتخذوه لم يَقُلْ لهم عن النعم التى أسبغها عليهم ولم يُنزِل لهم منهجاً . وهؤلاء الشركاء كانوا أصناماً ، أو أشجاراً ، أو الشمس ، أو القمر ، أو النجوم ، ولم يَقُلْ كائن من هؤلاء : ماذا أعطى من نعم ليعبدوه ؟

ونعلم أن العبادة تقتضى أمراً وتقتضى نهياً ، ولم يُنزِل أىٌّ من هؤلاء الشركاء منهجاً كى يتبعه مَنْ يعبدونهم ؛ ولا ثوابَ على العبادة ؛ ولا عقَاب على عدم العبادة .

---

(١) الكلاليب : جمع كُلَّاب ، حديدة معوجة الرأس ، كالخطاف . [لسان العرب ـ مادة : كلب] .

ولذلك نجد أن مِثْل هؤلاء إنما اتجهوا إلى عبادة هؤلاء الشركاء ؛ لأنهم لم يأتوا بمنهج يلتزمون به .

ولذلك نجد الدجالين الذين يدَّعُون أنهم رأوا النبى ﷺ ؛ ويتصرفون مع مَنْ يُصدِّقونهم من الأتباع ، وكأنهم كائنات أرقى من النبى ﷺ - والعياذ بالله منهم - .

ومن العجيب أننا نجد بعضاً من المثقفين وهم يتبعون هؤلاء الدجالين . وقد يبتعد عنه بسطاء الناس ؛ ذلك أن النفس الفطرية تحب أن تعيش على فطرة الإيمان ؛ أما مَنْ يأتى ليُخفِّف من أحكام الدين ؛ فيهواه بعض مِمَّنْ يتلمسون الفِكَاك من المنهج .

وبذلك يجعل هؤلاء الأتباع مَنْ يخفف عنهم المنهج نداً لله - والعياذ بالله - ويضلون بذلك عن الإيمان .

والحق سبحانه يقول هنا :

﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِ .. (٣٠) ﴾ [إبراهيم]

أى : لِيُضِلوا غيرهم عن سبيل الله .

وهناك قراءة أخرى[1] لنفس الآية « لِيَضلوا عن سبيل الله » ، وأنت ساعةَ تسمع حدثاً يوجد ليجىء حدث كنتيجة له ، فأنت تأتى بـ « لام التعليل » كقولك « ذاكر الطالب لينجح » هنا أنت لم تَأْتِ بفعل ونقيضه . وهل كانوا يضلون أنفسهم ؟

---

(١)هى قراءة ابن كثير وأبى عمرو . قاله القرطبى فى تفسيره (٣٧٠٣/٥) ثم قال : « أما من فتح (أى الياء) فعلى معنى أنهم هم يضلون عن سبيل الله على اللزوم . أى : عاقبتهم إلى الإضلال والضلال ، فهذه لام العاقبة » .

لا ، بل كانوا يتصوَّرون أنهم على هُدىً واستقامة ، وهذه تُسمَّى « لام العاقبة » وهى تعنى أنه قد يحدث بعد الفعل فِعْل آخر كان وارداً . وهذه تُسمَّى « لام تعليلية » .

ولكن قد يأتى فِعْل بعد الفعل ولم يكن صاحبُ الفعل يريده ؛ كما فعل فرعون حين التقط موسى عليه السلام من الماء ليكون ابناً له ؛ ولكن شاء الحق سبحانه أن يجعله عدواً .

وساعة التقاط فرعون لموسى لم يكن فرعون يريد أن يكبر موسى ليصبح عدواً له ؛ ولكنها مشيئة الله التى أرادتْ ذلك لتخطئة مَنْ ظنَّ نفسه قادراً على التحكُّم فى الأحداث ، بداية من ادعاء الألوهية ، ومروراً بذبح الأطفال الذكور ، ثم يأتى التقاطه لموسى ليكون قُرَّة عينٍ له ؛ فينشأ موسى ويكبر ليكون عدواً له !!

ويتابع الحق سبحانه :

﴿قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ (٣٠)﴾ [إبراهيم]

وهذا أمر من الله لمحمد أن يقول لهم : تمتعوا . وهذا أمر من الله . والعبادة أمر من الله ، فهل إن تمتعوا يكونون قد أطاعوا الله ؟

وهنا نقول : إن هذا أمر تهكمىّ ، ذلك أن الحق سبحانه قال من بعد ذلك :

﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ (٣٠)﴾ [إبراهيم]

وعلى هذا نجد أن الأمر إما أنْ يُراد به إنفاذ طلب ، وإما أنْ يُراد به الصَّد عن الطلب بأسلوب تهكمىّ .

ونجد فى قول الإمام على ـ كرم الله وجهه ـ قولاً يشرح لنا هذا : « لا شرَّ فى شر بعده الجنة ، ولا خير فى خير بعده النار » .

فَمَنْ يقول : إن التكاليف صعبة ؛ عليه أن يتذكَّر أن بعدها الجنة ، ومَنْ يرى المعاصى والكفر أمراً هيناً ، عليه أن يعرف أن بعد ذلك مصيره إلى النار ؛ فلا تعزل المقدمات عن الأسباب ، ولا تعزل السبب عن المُسبِّب أو المقدمة عن النتائج .

فالأب الذى يجد ابنه يُلاحِق المذاكرة فى الليل والنهار ليبنى مستقبله قد يشفق عليه ، ويسحب الكتاب من يده ، ويأمره أن يستريح كى لا يقع فى المرض ؛ فيصبح كالمُنْبَتّ[1] ؛ لا أرضاً قطع ، ولا ظهْراً[2] أبقى ، ولكن الولد يرغب فى مواصلة الجهد ليصلَ إلى مكانة مُشرِّفة .

وهنا نجد أن كلاً من الأب والابن قد نظرا إلى الخير من زوايا مختلفة ؛ ولذلك قد يكون اختلاف النظر إلى الأحداث وسيلةً لالتقاءات الخير فى الأحداث .

وهم حين يسمعون قول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴿٣٠﴾ ﴾ [إبراهيم]

قد يستبطئون الأحداث ؛ ويقول الواحد منهم إلى أن يأتى هذا المصير : قد نجد حلاً له .

ونقول : فليتذكر كُلّ إنسان أن الأمر المُعلَّق على غير ميعاد

---

(١) الانبتات : الانقطاع . ورجل مُنْبت أى مُنْقطع به . [لسان العرب ـ مادة : بتت] .

(٢) الظهر : الإبل التى يُحمل عليها ويُركب . [لسان العرب ـ مادة : ظهر] .

مُحدّد ؛ قد يأتى فجـأة ؛ فَمَنْ يعيش فى معصية إلى عـمر التسعين ؛ هل يظن أنه سيفرّ من النار ؟

إنه وَاهِمٌ يخدع نفسه ، ذلك أن إبهـام الله لميعاد الموت هو أعنفُ بيانٍ عنه . وما دام المصير إلى النار فلا مُتْعة فى تلك الحياة .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ (١) ﴿٣١﴾ ﴾

و « قُلْ » من الله لرسـول الله ﷺ . وهل مـعـنى هذا أن العـبـاد الذين سـيسمـعون هذا الأمـر سيـقومـون إلى الصلاة ؟ لقـد سمـعه بعضهم ولم يَقُم إلى الصلاة .

إذن : مَنْ يُطِع الأمر هو مَنْ حقَّق شَرْط الإيمان ، وعلينا أن ننظر إلى مُكْتنفـات كلمـة « عبـادى » فـعبـاد الله هم الذين آمنوا ، وحـين يؤمنون فهم سـيُعبِّـرون عن هذا الإيمان بالطاعة . وهكذا نفـهم معنى الألفاظ لتستقيمَ معانيها فى أساليبها .

وكل خَلْق الله عـبـيد له ؛ ذلك أن هنـاك أموراً قـد أرادها الله فى طريقة خَلْقهم ، لا قدرةَ لهم على مـخالفتها ؛ فهو سبـحانه قد قهرهم فى أشياء ؛ وخيَّرهم فى أشياء .

---

(١) خلال : إمـا جمع خُـلّة أو مصـدر خالّه . والمـعنى : إن يوم القيـامة لا ينجى من عـذابه شىء ، فلا يبـاع فيه شىء بمال يفـتدى الكافر نفسـه به ، ولا صداقة تفيـده ، فلا صديق يُغني عن صديق . [القاموس القويم ١/٢٠٨] .

ولذلك أقول دائماً للمُتمرِّدين على الإيمان بالله ؛ لقد ألِفْتم التمرّد على الله ؛ ولم يَأْبَ طَبْع واحد منكم على رفض التمرّد ، فإنْ كنتم صادقين مع أنفسكم عليكم أنْ تتمردوا على التنفس ؛ فهو أمر لا إرادى ، أو تمردوا - إن استطعتُم - على المرض وميعاد الموت ، ولن تستطيعوا ذلك أبداً .

ولكنهم ألِفُوا التمرّد على ما يمكنهم الاختيار فيه . ونسُوا أن الله يريد منهم أن يلتزموا بمنهجه ؛ فإن اختار المؤمن أن يتبع منهجَ الله صار من « عباد الله » ، وإنْ لم يخضع للمنهج فيما له فيه اختيار فهو من العبيد المقهورين على اتباع أوامر الله القهرية فقط .

وأنت حين تستقرىء كلمة « عباد» وكلمة « عبيد » فى القرآن ستجد قول الحق سبحانه :

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَـٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا[1] وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ[2] قَالُوا سَلامًا (٦٣)﴾ [الفرقان]

وتتعدد هنا صفات العباد الذين اختاروا اتباع منهج الله ، وستجد كلمة العبيد وهى مُلْتصقة بمَنْ يتمردون على منهج الله ؛ ولن تجد وَصْفاً لهم بأنهم « عباد » إلا فى آية واحدة ؛ حين يخاطب الحَقُّ جَلَّ وعلا الذين أضلوا الناس ؛ فيقول لهم :

---

(١) الهوْن : الرفق واللين والتثبت . والهوْن : السكينة والوقار والسهولة . [لسان العرب - مادة : هون] .

(٢) جهل فلان على غيره : تعدَّى عليه وتسافه وقسا . والجهل : الطيش والسفه والتعدى بغير حق . والجهل أيضاً : ضد العلم وهو الخلو من المعرفة . [القاموس القويم ١/ ١٣٤] .

﴿أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَـٰؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴿١٧﴾﴾ [الفرقان]

ونلحظ أن زمن هذا الخطاب هو فى اليوم الآخر ؛ حيث لا يوجد لأحد مُرْتاد مع الله ؛ وحيث يسلب الحق سبحانه كل حق الاختيار من كل الكائنات المختارة .

وهكذا لا يمكن لأحد أن يطعنَ فى أن كلمة « عباد » إنما تستخدم فى وَصْف الذين اختاروا عبادة الله والالتزام بمنهجه فى الحياة الدنيا ؛ ذلك أنهم قد سَلَّموا زِمَام اختيارهم لله ، وأطاعوه فى أوامره ونواهيه .

ونلحظ أن قول الحق سبحانه :

﴿قُل لِّعِبَادِىَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً .. ﴿٣١﴾﴾ [إبراهيم]

هو أمر صادر من الحق سبحانه لرسوله ﷺ ، وأن المؤمنين فى انتظار هذا الأمر ليُنفّذوه فوراً ، ذلك أن المؤمن يحب أن يُنفِّذ كل أمر يأتيه من الله .

وما دُمْتَ قد أبلغتهم يا محمد هذا الأمر فسيُنفّذونه على الفور ؛ وقد جاء قوله (يقيموا) محذوفاً منه لام الأمر ، تأكيداً على أنهم سيصدعون[1] لتنفيذ الأمر فوْر سماعه .

وعادة نجد أن إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة فى جَمْهرة آيات القرآن[2] تأتيان متتابعتين مع بعضهما ؛ لأن إقامةَ الصلاة تتطلب

---

(١) صدعت إلى الشىء : مِلْتُ إليه . [لسان العرب ـ مادة : صدع] .

(٢) جاء هذا فى أكثر من ٢٧ آية من القرآن . [المعجم المفهرس لألفاظ القرآن] .

حركة ، تتطلب طاقة وتأخذ وقوداً ؛ والوقود يتطلب حركة ويأخذ زمناً ، والزكاة تعنى أن تُخرِج بعضاً من ثمرة الزمن ، وبعضاً من أثر الحركة فى الوقت .

ونجد الكسالى عن الصلاة يقولون : « إن العمل يأخذ كل الوقت والواحد منّا يحاول أن يجمع الصلوات إلى آخر النهار ، ويُؤدّيها جميعها قضاءً » . وهم لا يلتفتون إلى أن كُلَّ فرض حين يُؤدَّى فى ميعاده لن يأخذ الوقت الذى يتصورون أنه وقت كبير .

وظاهر الأمر أن الصلاة تُقلّل من ثمرة العمل ، لكن الحقيقة أنها تُعطى شحنة وطاقة تحفز النفس على المزيد من إتقان العمل ؛ وكيف يُقبِل المصلى على العملَ بنفس راضية ؛ ذلك أنه بالصلاة قد وقف فى حضرة مَنْ خلقه ، ومَنْ رزقه ، ومَنْ كفله .

ولذلك يخرج منها هادئاً مُطمئناً مُنتبهاً راضياً ؛ ولذلك كان رسول الله ﷺ يقول : « أرحنا بها يا بلال »[1] .

والصلاة فى كل فرض ؛ لن تأخذ أكثر من ربع الساعة بالوضوء ، وإذا نسبت وقت الصلوات كلها إلى وقت العمل ستجد أنها تأخذ نسبة بسيطة وتعطى بأكثر ممّا أخذت .

وكذلك الزكاة قد تأخذ منك بعضاً من ثمرة الوقت لتعطيه إلى غير القادر ، ولكنها تمنحك أماناً اجتماعياً فوق ما تتخيّل .

ولذلك تجد الصلاة مُرتبطة بالزكاة فى آيات القرآن ببعضهما ، وإقامة الصلاة هى جِمَاع القيم كلها ؛ وإيتاء الزكاة جِمَاع قيام الحركات العضلية كلها .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٥/٣٦٤) ، وأبو داود فى سننه (٤٩٨٥) عن رجل من الصحابة .

وتعالج الصلاة شيئاً ، وتعالج الزكاة شيئاً آخر ؛ وكلاهما تُصلِح مكونات ماهية الإنسان ؛ الروح ومقوماتها ، والجسد ومقوماته .

ولذلك قال ﷺ : « وجُعِلَتْ قُرة عينى فى الصلاة »[1] .

وحين تنظر إلى الصلاة والزكاة تجد مصالح الحياة مجتمعة وتتفرع منهما ؛ ذلك أن مصالح الحياة قد جمعها ﷺ فى الأركان الخمس للدين ، وهى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحجّ البيت لِمَنِ استطاع إليه سبيلاً[2] .

وعرفنا من قَبْل كيف أخذت الصلاة كُل هذه الأركان مجتمعة ؛ ففيها شهادة أن لا إله إلا الله ، وفيها تضحية وتزكية ببعض الوقت ؛ وفيها صَوْم عن كل ما تلتزم به وأنت صائم ؛ وأنت تتوجه خلالها إلى قبلة بيت الله الحرام .

وهكذا نرى كيف ترتبط حركة الحياة والقيم المُصْلِحة لها بالصلاة والزكاة .

ويأمرنا الحق سبحانه فى هذه الآية الكريمة بأن ننفق سراً وعلانية ، وهكذا يشيع الحق الإنفاق فى أمرين متقابلين ؛ فالإنفاق

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (١٢٨/٣ ، ١٩٩ ، ٢٨٥) ، والنسائى فى سننه (٦١/٧) والحاكم فى مستدركه (١٦٠/٢) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه ، قال الحاكم : صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبى ، وتمامه : « حبِّب إلىّ من الدنيا : النساء ، والطيب ، وجعلت قرة عينى فى الصلاة » .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٦) كتاب الإيمان ، والبخارى فى صحيحه (٨) من حديث ابن عمر رضى الله عنهما .

سِراً كى لا يقع الإنسان فريسةَ المُبَاهاة ؛ والإنفاق علَناً كى يعطى غيره من القادرين أُسْوة حسنة ، ولكى تمنع الآخرين من أنْ يتحدثوا عنك بلهجة فيها الحسد والغَيْرة مما أفاء الله عليك من خير .

ولذلك أقول : اجعل الصدقة التطوعية سراً ، واجعلها كما قال النبى ﷺ : « لا تعلم شمالك ما أعطتْ يمينك »[(١)] .

واجعل الزكاة علانية حتى يعلمَ الناس أنك تُؤدى ما عليك من حقوق الله وتكون بالنسبة لهم أُسْوة فعلية ، وعظَة عملية ، واجعلوا من أركان الإسلام عظَة سلُوكية ، فنحن نرى بعضاً من القرى والمدن لا يحجّ منها أحد ، لأن القادرين فيها قد أدَّوْا فريضة الحج .

ونجد أن القادر الذى يبنى مسجداً ؛ يعطى القادر غيره أُسْوة ليبنى مسجداً آخر ، وما أنْ يأتىَ رمضان حتى يصومَ القادرون عليه ؛ ويعطوا أُسْوة لصغارهم ، وتمنع الاستخذاء أمام الغير ، وهكذا نعلن كل تكاليف الإسلام بوضوح أمام المجتمعات كلها .

ويقول الحق سبحانه :

﴿قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلا خِلالٌ (٣١)﴾ [إبراهيم]

ومن هنا نعلم أن هناك أعمالاً يمكن أن تؤجلها ، إلا الغايات التى

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٠٣١) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، ضمن حديث « سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله ، الإمام العادل ، وشاب نشأ فى عبادة الله ، ورجل قلبه معلق فى المساجد ، ورجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال : إنى أخاف الله ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم يمينه ما تنفق شماله ، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه » .

لا توجد فيها أعواض ؛ فعليك أن تنتهز الفرصة وتُنفّذها على الفور ؛ ذلك أن اليوم الآخر لن يكون فيه بَيْع أو شراء ، ولن يستطيع أحد فيه أن يُزكّى أو يُصلّى ؛ فليست هناك صداقة أو شفاعة تُغنيك عمّا كان يجب أن تقوم به فى الحياة الدنيا .

والشفاعة فقط هى ما أذن له الرحمن بها[1] ، ولذلك يأتى الأمر هنا بسرعة القيام بالصلاة وإيتاء الزكاة والإنفاق سِراً وعلانية من قبل أن يأتىَ اليوم الذى لا بَيْع فيه ولا خِلاَل .

والبيع ـ كما نعلم ـ هو مُعَاوضة متقابلة ؛ فهناك مَنْ يدفع الثمن ؛ وهناك مَنْ يأخذ السلعة . والخِلاَل هو المُخَالّة ؛ أى : الصديق الوفىّ الذى تلزمه ويلزمك .

والشعر يُبيّن معنى كلمة « خليل » حين يقول :

لَمّا التقيْنَا قرَّب الشَّوْقُ جَهْده ... خليلين ذَابَا لَوْعةً وعِتَابَا

كأنّ خليلاً فى خِلاَل خَلِيله ... تَسرَّبَ أثناءَ العِنَاقِ وغَابَا

وهذا يوضح أن المُخالة تعنى أن يتخلل كُلٌّ منهما الآخر .

وفى الآخرة لن تستطيع أن تشترى جنة أو تفتدى نفسك من النار ؛ ولا مُخالَّة هناك بحيث يفيض عليك صديق من حسناته . والحق سبحانه هو القائل :

---

(١) يقول تعالى : ﴿يَوْمَئِذٍ لاَّ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَـنُ وَرَضِىَ لَهُ قَوْلاً ﴿١٠٩﴾﴾ [طه] ويقول أيضاً : ﴿وَلا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ .. ﴿٢٣﴾﴾ [سبأ] . فالشفاعة ثابتة بنص القرآن بشرط إذن الله للشافع أن يشفع ، وللمشفوع فيه بعلم الله فيه ، أما الكافرون والمشركون والمنافقون فالشفاعة منفية عنهم .

﴿الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ (٦٧)﴾ [الزخرف]

وبعض السطحيين يريدون أنْ يأخذوا علي القرآن أنه أثبت الخُلَّة ونفاها ؛ فهو القائل :

﴿لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلا خِلالٌ (٣١)﴾ [إبراهيم]

وهو القائل :

﴿وَلا خُلَّةٌ .. (٢٥٤)﴾ [البقرة]

ثم أثبت الخُلَّة للمتقين ؛ الذين لا يُزيِّن أحدهما للآخر معصية .

وهؤلاء السطحيون لا يُحسنون تدبُّر القرآن ؛ ذلك أن الخُلَّة المَنْفية - أو الخِلاَل المنفية - فى الآيات هى الخِلال التى تحضُّ على المعاصى ؛ وهذه هى الخِلاَل السيئة .

ونعلم أن البيع فى الحياة الدنيا يكون مقابلةَ سلعة بثمن ؛ أما المُخالّة ففيها تكرُّم ممَّنْ يقدمها ؛ وهو أمرٌ ظاهرىّ ؛ لأن فى باطنه مُقايضة ؛ فإذا قدّم لك أحدٌ جميلاً فهذا يقتضى أنْ تردّ له الجميل ؛ أما التكرُّم المجرّد فهو الذى يكون بغير سابق أو لاحق .

وبعد أن بيَّن لنا الحق سبحانه السعداء وبيَّنَ الأشقياء ، وضرب المَثل بالكلمة الطيبة ، وضرب المثَل بالكلمة الخبيثة ، يأتى من بعد ذلك بما يهيج فى المؤمن فرحةً فى نفسه ؛ لأنه آمن بالله الذى صنع كل تلك النعم ، ويذكر نعماً لا يشترك فيها مع الله أحد أبداً ، فيقول :

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ (١) لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ ﴾

والسماء والأرض ـ كما نعلم ـ هما ظَرْفَا الحياة لنا كلنا ، وقد قال الحق سبحانه :

﴿ لَخَلْقُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ .. ﴿٥٧﴾ ﴾ [غافر]

فإذا كان الله هو الذى خلق السماوات والأرض ؛ فهذا لَفْتٌ لنا على الإجمال ؛ لأنه لم يَقُلْ لنا ما قاله فى مواضع أخرى من القرآن الكريم بأنها من غير عَمَد(٢) ؛ وليس فيها فُطور ، ولم يذكر هنا أنه خلق فى الأرض رواسى كى لا تميد(٣) بنا الأرض ، ولم يذكر كيف قَدَّر فى الأرض أقواتها(٤) ، واكتفى هنا بلمحة عن خَلق السماوات والأرض .

---

(١) الفُلْك : السفينة ، للمذكر والمؤنث والواحد والجمع . [القاموس القويم ٢/٨٩] .

(٢) عَمَد : جمع عمود . وقال الفراء : فيه قولان :

– أحدهما : أنه خلقها مرفوعة بلا عمد ، ولا يحتاجون مع الرؤية إلى خبر .

– والقول الثانى : أنه خلقها بعمد لا ترون تلك العمد . [لسان العرب ـ مادة : عمد] .

(٣) ماد يميد : تحرّك واهتزّ . ومادت الأرض : اضطربت وزلزلت . قال تعالى : ﴿ وَأَلْقَىٰ فِى الأَرْضِ رَوَاسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ .. ﴿١٠﴾ ﴾ [لقمان] . لئلا تميل وتضطرب ، فالجبال العالية توازن البحار العميقة . [القاموس القويم ٢/٢٤٦] .

(٤) القوت : الطعام يحفظ على البدن حياته . وجمعه أقوات . قال تعالى : ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِى أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ .. ﴿١٠﴾ ﴾ [فصلت] أى : أقوات جميع سكان الأرض من إنسان وحيوان وكل شىء حى إلى آخر الدهر . [القاموس القويم ٢/١٣٦] .

وحين يتكلم سبحانه هنا عن خَلْق السماوات والأرض يأتى بشىء لم يدَّعه أحد على كثرة المُدَّعين من الملاحدة ؛ وذلك لتكون ألزم فى الحجة للخَصْم ، وبذلك كشف لهم حقيقة عدم إيمانهم ؛ وجعلهم يرونَ أنهم كفروا نتيجة لَددٍ[1] غير خاضع لمنطق ؛ وهو كفر بلا أسباب .

وحين يحكم الله حُكْماً لا يوجد له معارض ولا منازع ؛ فهذا يعنى أن الحكم قد سلَم له سبحانه . ولم يجترىء أحد من الكافرين على ما قاله الله ؛ وكأن الكافر منهم قد أدار الأمر فى رأسه ، وعلم أن أحداً لم يَدَّعِ لنفسه خَلْق السماوات والأرض ؛ ولا يجد مفراً من التسليم بأن الله هو الذى خلق السماوات والأرض .

وقول الحق سبحانه هنا :

﴿ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ .. (٣٢) ﴾ [إبراهيم]

يُوضِّح لنا أن كلمة « الله » هنا ؛ لأنها مَنَاطُ الصعوبة فى التكليف ؛ فالتكليف يقف أمام الشهوات ؛ وقد تغضبون من التكليف ؛ ولكنه يحميكم من بعضكم البعض ، ويكفل لكم الأمان والحياة الطيبة.

ولم يَأْتِ الحق سبحانه بكلمة « رب » هنا لأنها مناطُ العطاء الذى شاءه للبشر ، مؤمنهم وكافرهم .

وكلمة « الله » تعنى المعبود الذى يُنزل الأوامر والنواهى ؛ وتعنى أن هناك مشقات ؛ ولذلك ذكر لهم أنه خلق السماوات والأرض ، وأنزل من السماء ماء .

---

(١) اللدد : الخصومة الشديدة . وألده يلده : خصمه . [لسان العرب ـ مادة : لدد] .

ونحن حين نسمع كلمة « السماء » نفهم أنها السماء المقابلة للأرض ؛ ولكن التحقيق يؤكد أن السماء هى كُلُّ ما علاك فأظلَّك .

والمطر كما نعلم إنما ينزل من الغَيْم والسحاب . والحق سبحانه هو القائل :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي(١) سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا(٢) فَتَرَى الْوَدْقَ(٣) يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ .. (٤٣) ﴾ [النور]

وقد عرفنا بالعلم التجريبى أن الطائرة ـ على سبيل المثال ـ تطير من فوق السحاب ، وعلى ذلك فالمطر لا ينزل من السماء ؛ بل ينزل مِمَّا يعلونا من غَيْم وسحاب .

أو : أنك حين تنسب النزول من السماء ؛ فهذا يوضح لنا أن كل أمورنا تأتى من أعلى ؛ ولذلك نجد الحديد الذى تحتضنه الجبال وينضج فى داخلها ؛ يقول فيه الحق سبحانه :

﴿ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ(٤) شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ .. (٢٥) ﴾ [الحديد]

---

(١) زجه يزجه : دفعه بسرعة . وزجا الشىء يزجوه : ساقه برفق . [القاموس القويم ١/٢٨٤] .

(٢) قوله : ﴿ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا .. (٤٣) ﴾ [النور] .أى : متجمعاً فيه مطر كثير غزير . [القاموس القويم ١/٢٧٦] .

(٣) الودق : المطر كله شديده وهيّنه . [لسان العرب ـ مادة : ودق] .

(٤) قال ابن كثير فى تفسيره : ﴿ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ .. (٢٥) ﴾ [الحديد] يعنى : السلاح كالسيوف والحراب والسنان والنصال والدروع ونحوها ، و : ﴿ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ .. (٢٥) ﴾ [الحديد] أى : فى معايشهم كالسكة والفأس والقدوم والمنشار والأزميل والآلات التى يستعان بها فى الحراثة والحياكة .. وما لا قوام للناس بدونه وغير ذلك . [تفسير ابن كثير ٤/٣١٥] .

وهكذا نجد أنه إما أن يكون قد نزل كعناصر مع المطر ؛ أو لأن الأمر بتكوينه قد نزل من السماء .

وهنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها يتحدث الحق سبحانه عن خَلْق السماوات والأرض ؛ وكيف أنزل الماء من السماء :

﴿ فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ .. (٣٢) ﴾ [إبراهيم]

والثمرات هى نتاج ما تعطيه الأرض من نباتات قد تأكل بعضاً منها ؛ وقد لا تأكل البعض الآخر ؛ فنحن نأكل العنب مثلاً ، ولكنا لا نأكل فروع شجرة العنب ، وكذلك نأكل البرتقال ؛ ولكنا لا نأكل أوراق وفروع شجرة البرتقال .

ويتابع سبحانه :

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ .. (٣٢) ﴾ [إبراهيم]

والتسخير معناه قَهْر الشىء ليكون فى خدمة شىء آخر . وتسخير الفُلْك قد يثير فى الذهن سؤالاً : كيف يُسخِّر الله الفلك ، والإنسان هو الذى يصنعها ؟

ولكن لماذا لا يسأل صاحب السؤال نفسه : ومن أين نأتى بالأخشاب التى نصنع منها الألواح التى نصنع منها الفُلْك ؟ ثم مَنِ الذى جعل الماء سائلاً ؛ لتطفو فوقه السفينة ؟ ومَنِ الذى سيَّر الرياح لتدفع السفينة ؟

كل ذلك من بديع صُنْع الله سبحانه .

وكلمة « الفلك » تأتى مرة ويُرَاد بهـا الشىء الواحد ؛ وتأتى مرة ويُراد بها أشياء ؛ فهى تصلح أن تكون مفرداً أو جمعاً .

والمثل هو قول الحق سبحانه :

﴿ وَالْفُلْكِ الَّتِى تَجْرِى فِى الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ .. (١٦٤) ﴾ [البقرة]

وكذلك قال فى قصة نوح عليه السلام :

﴿ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا .. (٣٧) ﴾ [هود]

وبعض العلمـاء يقولون : إذا عـاد ضمـيـر التأنيث عليـه ؛ تكون جَمْعاً ؛ وإذا عاد عليها بالتذكير تكون مفرداً .

ولكنِّى أقول : إن هذا الـقول غَيْـر غالب ؛ فسـبحانه قـد قال عن سفينة نوح وهى مفرد :

﴿ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا .. (١٤) ﴾ [القمر]

ولم يَقُل : « يجرى بأعيننا » ، وهكـذا لا يكون التأنيث دليلاً على الجمع .

ويتابع سبحانه :

﴿ وسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ .. (٣٢) ﴾ [إبراهيم]

ونفهم بطبـيعة الحال أن النهـر عَذْب الماء ؛ والبحـر ماؤه مالح . وسبحـانه قد سخَّـر لنا كل شىء بأمره ، فهو الذى خلقَ النـهر عَذْب الماء ، وجعل له عُمْقاً يسمح فى بعض الأحيان بمسير الفلك ؛ وأحياناً أخرى لا يسمح العمق بذلك .

وجعل البحر عميقَ القاع لِتمرُق فيه السفن ، وكل ذلك مُسخَّر بأمره ، وهو القائل سبحانه :

﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ .. (٣٣)﴾ [الشورى]

أى : أنه سبحانه قد يشاء أن تقف الرياحُ ساكنة ؛ فتركد السفن فى البحار والأنهار .

ومن عجائب إنباءات القرآن أن الحق سبحانه حينما تكلم عن الريح التى تُسيِّر الفلك والسفن ؛ قال الشكليون والسطحيون « لم نعد نُسيِّر السفن بالرياح بل نُسيِّرها بالطاقة » .

ونقول : فلنقرأ قوله الحق :

﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ .. (٤٦)﴾ [الأنفال]

و « ريحكم » تعنى : قوتكم وطاقتكم ؛ فالمراد بالريح القوة المطلقة ؛ سواء جاءت من هواء ، أو من بخار ، أو من ماء .

وهذه الآية ـ التى نحن بصدد خواطرنا عنها ـ نزلت بعد أن أعلمنا الحق سبحانه بقصة السعداء من المؤمنين ؛ والأشقياء الكافرين ؛ فكانت تلك الآية بمثابة التكريم للمؤمنين الذين قدروا نعمة الله هذه ، فلمَّا علموا بها آمنوا به سبحانه .

وكرمتهم هذه الآية لصفاء فطرتهم التى لم تُضبَّب ، وتكريم للعقل الذى فكّر فى الكون ، ونظر فيه نظرةَ اعتبار وتدبُّر ليستنتج من ظواهر الكون أن هناك إلهاً خالقاً حكيماً .

وفى الآية تقريع للكافر الذى استقبل هذه النعم ، ولم يسمع من

أحد أنه خلقها له ؛ ولم يخلقها لنفسه ، ومع ذلك يكابر ويعاند ويكفر بربِّ هذه النعم .

وأول تلك النعم خَلْق السماوات والأرض ؛ ثم إذا نظرتَ لبقية النعم فستجدها قد جاءتْ بعد خَلْق السماوات والأرض ؛ وشىء من تلك النعم مُتَّصل بالسماء ؛ مثل السحاب ، وشىء متصل بالأرض مثل الثمرات التى تخرجها .

إذن : فالاستقامة الأسلوبية موجودة بين النعمة الأولى وبين النعمة الثانية .

ثم قال بعد ذلك :

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ .. (٣٢)﴾ [إبراهيم]

فما هى المناسبة التى جعلتْ هذا الأمر يأتى بعد هذين الأمرين ؟ لأن الفُلْك طريقها هو البحار ومسارها فى الماء .

وقد قال الحق سبحانه أنه خلق السماوات والأرض . ومدلول الأرض ينصرف على اليابسة كما ينصرف على المائية ، ومن العجيب أن المائية على سطح الكرة الأرضية تساوى ثلاثة أمثال اليابسة ؛ ورُقْعة الماء بذلك تكون أوسعَ من رقعة التراب فى الأرض .

وما دام الحق سبحانه قد قال إنه أخرج من الأرض ثمراً هى رِزْق لنا ، فلا بُدَّ من وجود علاقة ما بين ذلك وتلك ، فإذا كانت البحار تأخذ ثلاثة أرباع المساحة من الأرض ؛ فلا بُدَّ أن يكون فيها للإنسان شىء .

وقد شرح الحق سبحانه ذلك فى آيات أخرى ؛ وأوضح أنه سخَّر البحر لنأكل منه لحماً طرياً[١] ؛ وتلك مُقوِّمات حياة ، ونستخرج منه حلية نلبسها ؛ وذلك من تَرفِ الحياة .

ونرى الفلك مواخر[٢] فيه لنبتغى من فضله سبحانه .

وبذلك تكون هناك خيرات أخرى غير السمك والحلى ؛ ولكنها جاءت بالإجمال لا بالتفصيل ؛ فربما لم يكُنِ الناس قادرين فى عصر نزول القرآن على أنْ يفهموا ويعرفوا كل ما فى البحار من خيرات ؛ ولا تزال الأبحاثُ العلمية تكشف لنا المزيدَ من خيرات البحار .

وحين نتأمل الآن خيرات البحار نتعجب من جمال المخلوقات التى فيه .

إذن : فقوله :

﴿لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ .. (٦٦)﴾ [الإسراء]

هو قَوْل إجمالى يُلخِّص وجود أشياء أخرى غير الأسماك وغير الزينة من اللؤلؤ والمرجان وغيرها ، ونحن حين نرى مخلوقات أعماق البحار نتعجَّب من ذلك الخَلْق أكثر مما نتعجَّب من الخَلْق الذى على اليابسة ، ومن خَلْق ما فى السماء .

---

(١) وذلك قوله تعالى : ﴿وَمَا يَسْتَوِى الْبَحْرَانِ هَـٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَـٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢)﴾ [فاطر] .

(٢) مَخرت السفينة مَخْراً ومُخوراً : شقت الماء بصدرها وسُمع لها صوت . [القاموس القويم ٢/٢١٨] .

وهكذا يكون قوله الحق :

﴿لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ .. (٦٦)﴾ [الإسراء]

من آيات الإجمال التى تُفصِّلها آيات الكون ؛ فبعضٌ من الآيات القرآنية تُفسرها الآيات الكونية ، ذلك أن الحق سبحانه لو أوضح كل التفاصيل لَمَا صدَّق الناس ـ على عهد نزول القرآن ـ ذلك .

وعلى سبيل المثال حين تكلَّم سبحانه عن وسائل المواصلات ؛ قال :

﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ (٨)﴾

[النحل]

وقوله تعالى :

﴿وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ (٨)﴾ [النحل]

أدخل كُلّ ما اخترعنا نحن البشر من وسائل المواصلات ؛ حتى النقل بالأزرار كالفاكس وغير ذلك .

وحينما يتكلم سبحانه عن البحار ؛ إنما يُوضِّح لنا ما يُكمِل الكلام عن الأرض :

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ .. (٣٢)﴾ [إبراهيم]

ولو فَطِن الناس لقالوا عن السفن « جمال البحار » ؛ ما داموا قد قالوا عن الجمل إنه « سفينة الصحراء » ؛ ولكنهم أخذوا بالمجهول لهم بالمعلوم لديهم .

وإياك أن تقول : أنا الذى صنعتُ الشراع ؛ وأنا الذى صنعتُ المركب من الألواح ، ذلك أنك صنعتَ كل ذلك بقواك المخلوقة لك من الله ، وبالفكر الموهوب لك من الله ؛ ومن المادة الموهوبة لك من الله ، فكلُّها أشياء جاءتْ بأمر من الله .

وهنا يقول سبحانه :

﴿وسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ (٣٢)﴾ [إبراهيم]

والنهر ماؤه عادة يكون عَذْباً ليروى الأشجار التى تُنتِج الثمار . والأشجار عادة تحتاج ماء عَذْباً .

وهكذا شاء الله أن يكون ماء البحار والمحيطات مخزناً ضخماً للمياه ؛ يحتل ثلاثة أرباع مساحة الكرة الأرضية ، وهى مساحة شاسعة تتيح فُرْصة لعمليات البَخْر ؛ التى تُحوِّل الماء بواسطة الحرارة إلى بخار يصعد إلى أعلى ويصير سحاباً ؛ فيُسقط السحابُ الماءَ بعد أن تخلص أثناء البَخْر من الأملاح وصار ماء عَذْباً ؛ تروى منه الأشجار التى تحتاجه ، وتنتج لنا الثمار التى نحتاجها ، وكأن الأملاح التى توجد فى مياه البحار تكون لِحفْظها وصيانتها من العطب .

ونعلم أن معظم مياه الأنهار تكون من الأمطار ، وهكذا تكون دورة الماء فى الكون ؛ مياه فى البحر تسطع عليها الشمس لتُبخِّرها ؛ لتصير سحاباً ؛ ومن بعد ذلك تسقط مطراً يُغذى الأنهار ؛ ويصب الزائد مرة أخرى فى البحار .

ويتابع سبحانه :

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ[1] وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾﴾

والشمس آية نهارية ؛ والقمر آية ليلية ، والماء الذى نشربه له علاقة بالشمس والتى تُبخِّره من مياه البحار ؛ ونروى به أيضاً الأرض التى تنتج لنا الثمار ؛ أما البحار فحساب كُلٍّ ما يجرى فيها يتم حسب التقويم القمرى .

وهل كان رسول الله ﷺ يعلم كل ذلك وهو النبى الأمى ؟

طبعاً لم يكن ليعلم ، بل أنزل الحق سبحانه عليه القرآن ؛ يضمُّ حقائق الكون كلها .

وقول الحق سبحانه عن الشمس والقمر « دائبين » من الدَّأب ، والدُّؤوب هو مرور الشىء فى عمل رتيب ، ونقول « فلان دَءُوب على المذاكرة » أى : أنه يبذل جَهْداً مُنظّماً رتيباً لتحصيل مواده الدراسية ، ولا يُبدد وقته .

وكذلك الشمس والقمر اللذان أقام الحق سبحانه لهما نظاماً دقيقاً .

---

(١) دأب على الأمر : اعتاده . ودائبين : أى مستمرين فى الحركة دائبين فيها بلا انقطاع تشبيهاً لهما بالإنسان المجدّ . وقال تعالى : ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا .. ﴿٤٧﴾﴾ [يوسف] . أى : مداومين مجتهدين ذوى دأب . [القاموس القويم ١/٢١٩] .

وعلى سبيل المثال نحن نحسب اليوم بأوله من الليل ثم النهار ؛ ونقسم اليوم إلى أربع وعشرين ساعة ؛ ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥ ﴾ [الرحمن]

وقال أيضاً :

﴿ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا .. ۝٩٦ ﴾ [الأنعام]

أى : أنك أيها الإنسان ستجعل من ظهور واختفاء أىٍّ منهما حساباً .

وقد جعلهما الحق سبحانه على دقة فى الحركة تُيسِّر علينا أن نحسبَ بهما الزمن ، فلا اصطدامَ بينهما ، ولكلٍّ منهما فلَك[1] خاص وحركة محسوبة بدقة فلا يصطدمان . ولا يُشْبِهان بطبيعة الحال الساعاتِ التى نستخدمها وتحتاج إلى ضبط .

وكلما ارتقينا فى صناعة نجد اختراعاتنا فيها تُقرِّبنا من عُمْق الإيمان بالخالق الأعلى .

وفى نفس الآية يقول الحق سبحانه :

﴿ وَسَخَّرَ[2] لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ۝٣٣ ﴾ [إبراهيم]

---

(١) الفلك : المدار يسبح فيه الجرم السماوى . قال تعالى : ﴿ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ۝٣٣ ﴾ [الأنبياء] أى : فى مدار تدور فيه . [القاموس القويم ٢/٨٩] .

(٢) سخَّره : أخضعه وقهره لينفذ ما يريد منه بدون إرادة ولا اختيار من المسخَّر . ومنه قوله تعالى : ﴿ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ .. ۝٥٤ ﴾ [الأعراف] أى : مسيرات خاضعات مقهورات بأمر الله وبإرادته هو ، لا بإرادتها ولا باختيارها . [القاموس القويم ١/٣٠٦].

وبما أن الشمس آية نهارية ؛ والقمر آية ليلية ، والنهار يسبق الليل فى الوجود بالنسبة لنا . كان مُقْتضى الكلام أن يقول : سخر لكم النهار والليل .

ولكن الحق سبحانه أراد أن يُعلمنا أن القمر وهو الآية الليلية ؛ ويسطع فى الليل ؛ والليل مخلوق للسكون ؛ لكن هذا السكون ليس سبباً لوجود الإنسان على الأرض ؛ بل السبب هو أن يتحرك الإنسان ويستعمر الأرض ويكِدّ ويكدح فيها .

لذلك جعل استهلال الشمس أولاً والقمر يستمد ضَوْءَه منها ؛ ثم جاء بخبر الليل وخبر النهار ، فكأن الله قد اكتنفَ هذه الآية بنورَيْن .

النور الأول : من الشمس . والنور الثانى : من القمر ، كى يعلَم الإنسانُ أن حياته مُغلفة تغليفاً يتيح له الحركة على الأرض ، فلا تظننّ أيها الإنسانُ أن الأصل هو النوم ! ذلك أنه سبحانه قد خلق النوم لترتاح ؛ ثم تصحو لتكدح .

ونلحظ أن كلمة « التسخير » تأتى للأشياء الجوهرية ، وتأتى للمُسخَّرات أيضاً ، فالحيوان مُسخَّر لنا ، وكذلك النبات والسماء مُسخَّرة بما فيها لنا ، أما الليل والنهار فهما نتيجتان لجواهر ؛ هما الشمس والقمر ؛ والليل والنهار مُسبَّبان عن شيئين مُباشرين هما : الشمس والقمر .

والتسخير ـ كما نعلم ـ هو منع الاختيار . وإذا ما سَخَّر الحق سبحانه شيئاً فلنعلم أنه مُنضبط ولا يتأتّى فيه اختلال ، ولكن الكائن غير المُسخّر هو الذى يتأتى فيه الاختلال ؛ ذلك أنه قد يسير على جَادَّة الصواب ، أو قد يُخطىء .

وفى مسألة التسخير والاختيار تَعِب الفلاسفة فى دراستها ؛ وذهبت المذاهب الفلسفية - وخصوصاً فى ألمانيا - إلى مذهبين اثنين ظاهرهما التعارض ؛ ولكنهما يسيرانِ إلى غايةٍ واحدة وهى تبريرُ الإلحاد .

وكان من المقبول أن يكونَ مذهبٌ منهما يُبرر الإلحاد ، وأنْ يبررَ الآخرُ الإيمانَ ، ولكن شاء فلاسفة المذهبين أنْ يُبرروا الإلحاد .

وقال فلاسفة أحد المذهبين : أنتم تقولون إن الكون تُديره قوة قادرة حكيمة ؛ وأن كُلّ ما فيه منضبط بتّصرفات محسوبة ودقيقة .

ولكن الواقع يقول : إن هناك بعضاً من المخالفات التى نراها فى الكائنات ، والمثل هو تلك الشذوذات التى فى الإنسان - على سبيل المثال - فهناك القصير أكثر من اللازم ؛ وهناك الطويل أكثر من اللازم ؛ وهناك مَنْ يولد بعين واحدة ؛ وهناك مَنْ يولد بذراع عاجز ؛ ولو أن القوة التى تدير الكون حكيمة لَمَا ظهرتْ أمثال تلك الشذوذات .

ونرد على صاحب تلك النظرية قائلين : وإذا لم يكُنْ هناك إله ، أتستطيع أن تقول لنا الحكمة من وراء وجود تلك الشذوذات ؟ فأنت تدفع الحكمة عن الخالق الذى نؤمن به ؛ فهل تستطيع أنت إثباتَ الحكمة لغيره ؟ طبعاً لن يستطيع أنْ يردَّ عليك ؛ لأن كلامه مردود .

ثم نأتى للمدرسة المقابلة التى تقول : إن النظام الموجود بالكون يدل على أنه لا يوجد له خالق ؛ فهو نظام ثابت آلىّ ؛ ولا يوجد إله قادر على أن يقلب آلية هذا الكون .

وهكذا كانت هاتان المدرستان مختلفتين ؛ ومتعارضتين ؛ ولكنهما يؤديان إلى الإلحاد .

ونرد على المدرستين قائلين : يا من تأخذ ثبات النظام دليلاً على وجود إله ؛ فهذا الثبات موجود فى الكون الأعلى . ويا من تأخذ الشذوذ دليلاً على وجود خالق ؛ فهو موجود فى الكائنات الأدنى ؛ ولو حدث الشذوذ فى الكائنات الأعلى لَفسدتِ السماوات والأرض .

وقد شاء الحق سبحانه أن يوجد الشذوذ لوجه فى الأفراد ؛ فواحد يكون شاذاً ، والباقى الغالب يكون سليماً .

وهكذا يكون الشذوذ فى الأفراد غيرَ مانع لقضية وجود خالق أعلى ، وإذا أردت ثبات النظام فانظر إلى الكون الأعلى ؛ كى تعلم أنه لا يوجد للإنسان مَدْخل فى هذا الأمر .

وهكذا نجد أن الحق سبحانه قد سخّر لنا الليل والنهار ؛ وهما من الأعراض الناتجة عن تسخير الشمس والقمر ؛ وكلاً من الشمس والقمر دائبين ، يمشى كل منهما فى حركته مشياً لا تنقطع فيه رتابة العادة . ونضبط أوقاتنا على هذا النظام الرتيب الدقيق ، فنحدد ـ على سبيل المثال ـ أوائل الفصول ومواسم الزراعة ؛ ومواقيت الصلاة .

وإذا نظرتَ إلى أىٍّ اختلال قد ينشأ من بعض الظواهر ؛ فاعلم أن ذلك قد نشأ من تدخُّل الإنسان المُخْتار المُسْتخلَف فى الأرض ؛ والمثال هو مشكلة ثُقْب طبقة الأوزون الموجودة فى الغلاف الجوى ، والتى قد نشأت من تجاربنا التى نلهث فيها من أجل تحسين حياتنا على الأرض .

ولكننا ننظر إلى التجربة بأفْق محدود ، ونفصل النظرة الجزئية عن النظرة الكلية المطلوب منا أنْ ننظرَ بها لكُل ما يحيط بنا فى الكون ؛ فنتسبب بهذا اللهْث فى التجارب فى إفساد الكثير من أسرار حياتنا على الأرض ؛ حتى بِتْنَا نشكو من اضطراب الجو بَرْداً وصقيعاً ؛ وحراً فوق الاحتمال .

وذلك بتدخّل الإنسان المختار فيما لا يجب أنْ يتدخلَ فيه إلا بعد أن يدرسَ كل جوانبه . واقرأ إن شئت قول الحق سبحانه :

﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ .. (٤١) ﴾[الروم]

ولذلك لابُدَّ من دراسة المُقدّمات والنتائج جيداً قبل أن نُضخِّم من تجاربنا التى قد تضر البشر ؛ ولذلك أيضاً أقول : إن علينا أن ندرس الآثار الجانبية لكل اختراع علمى كى نحميَ البشر من سيئات تلك الآثار الجانبية .

ولنتذكر قول الحق سبحانه :

﴿ وَلا تَقْفُ[1] مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ .. (٣٦) ﴾ [الإسراء]

ولعل ما نعيش فيه من مُشْكلات تتعلق بالجو والصحة هو نتيجة تدخُّلنا بغير علم مكتمل ؛ وهذا يؤكد لنا حكمة الخالق الأعلى ؛ ذلك

---

(١) قفاه يقفوه : مشى خلفه أو تبعه . وقوله تعالى : ﴿ وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ .. (٣٦) ﴾ [الإسراء] . أى : لا تتبع من العقائد ما ليس لك به علم ولا من الآراء ولا من الأحداث ما لا تعرف له دليلاً ، ولا تسترسل فى الحديث عمّا ليس لك به علم . [القاموس القويم ١٢٨/٢] .

أننا لمّا خرجنا بالمُخْترعات العلمية وانبهرنا بفائدتها السطحية ؛ ظننا أن فى ذلك مكسباً كبيراً ؛ ولكنه كان وبالاً فى بعض الأحيان نتيجة الآثار الجانبية .

ولذلك لم يَقُلِ الحق سبحانه : « بما اكتسبت أيدى الناس » بل قال :

﴿ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى النَّاسِ .. (٤١) ﴾ [الروم]

وفى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها يقول الحق سبحانه :

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٣٣) ﴾

[إبراهيم]

وهكذا نعلم أن تعاقب ظهور الشمس والقمر ؛ يُسبِّب تعاقبَ مجىء الليل والنهار .

ولا يعنى ظهور الشمس وسطوعها أن القمر غير موجود ؛ فهو موجود ، ولكن ضوء الشمس المُبهِر يمنعك من أنْ تراه ، ولكن هناك أوقات يمكنك أن ترى فيها الشمس والقمر معاً .

أما الليل والنهار فهما يتتابعان كل منهما خَلْف الآخر . والحق سبحانه هو القائل :

﴿ وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً .. (٦٢) ﴾ [الفرقان]

أى : أنهما لا يأتيان معاً أبداً ؛ فالليل فى بلد ما يقابله نهار فى بلد آخر .

وهكذا أثبتَ لنا الدأبَ فى الحركة ؛ فكُلٌّ منهما يأتى عَقِب الآخر ؛ وقد جعل الحق سبحانه ذلك من أول لحظة فى الخَلْق ؛ وكانا لحظة الوجود خِلفْةً ، كل منهما يأتى من بعد الآخر ؛ فكأن الكون حين خلقه الله ؛ وجعل الشمس فى مواجهة الأرض ، صار الجزء المواجه للشمس نهاراً ؛ والجزء غير المواجه لها صار ليلاً .

ثم دارت الأرض ؛ ليأتى الجزء الذى كان غير مُواجِه للشمس ؛ فى مواجهتها ؛ فصار ليلاً ، وذهب الجزء الذى كان فى مواجهتها ، ليكون مكان الجزء الآخر فصار ليلاً ، وهكذا شاء سبحانه أن يكون كل منهما خَلْف الآخر .

وهكذا تكلم الحق سبحانه عن حَصْر بعضٍ من نعمه الكلية علينا نحن العباد ، سماء ، وأرض ، وماء ينزل ، وثمرات تنبت من الأرض ، وكذلك سخَّر لنا الشمس والقمر ، والليل والنهار ، وهذا ما يُسمَّى تعديد لبعض النعم .

ونجد واحداً من الصالحين يقول عن نعم الله « أعد منها ولا أعددها » . فكأن الله ينبهنا إلى أصول النظام الكونى الأعلى ، ثم فتح المجال لِنعَمٍ أخرى لن يستطيع أحد أنْ يُحصِيها .

لذلك يقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ ﴾

نعم ، أعطانا الحق سبحانه مما نسأل وقبل أن نسأل ، وأعدَّ الكون لنَا من قبل أنْ نوجد . إذن : فسبحانه قد أعطانا من قبل أنْ نسألَ ؛ وسبقت النعمة وجود آدم عليه السلام ، واستقبل الكونُ آدم ، وهو مُعَدٌّ لاستقباله .

وإذا نظرتَ للفرد منّا ستجد أن نِعَم الله عليه قد سبقتْ من قبل أن نعرف كيف نسأله ، والمثل هو الجنين فى بطن أمه .

وهنا قال الحق سبحانه :

﴿ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ .. ﴿٣٤﴾ ﴾ [إبراهيم]

يعنى : أنه قد أعطاك ما تسأله وما لم تسأله ، نطقت به أو لم تنطق ، ولو بحديث النفس أو خواطر خافية ، وأنك قد تقترح وتطلب شيئاً فهو يعطيه لك .

وقد يسأل البعض من باب الرغبة فى التحدى - ولله المثل الأعلى - نجد بعض البشر ممَّنْ أفاء الله عليهم بجزيل نعمه ؛ ويقول الواحد منهم : قُلْ لى ماذا تطلب ؟

وقد حدث معى ذلك ونحن فى ضيافة واحد ممَّنْ أكرمهم الله بكريم عطائه ، وكنا فى رحلة صحراوية بالمملكة العربية السعودية ،

وقال لى : أطلب أى شىء وستجده بإذن الله حاضراً . وفكرتُ فى أن أطلب ما لا يمكن أن يوجدَ معه ، وقلت : أريد خيطاً وإبرة ، فما كان ردّه إلا « وهل تريدها فتلة بيضاء أم حمراء ؟ » .

وإذا كان هذا يحدث من البشر ؛ فما بالُنَا بقدرة الله على العطاء ؟

ومن حكمة الله سبحانه أنه قال :

﴿ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ .. (٣٤) ﴾ [إبراهيم]

ذلك أن وراء كل عطاء حكمةً ، ووراء كل مَنْعٍ حكمة أيضاً ، فالمنع من الله عين العطاء ، فالحقّ سبحانه مُنزَّه عن أن يكون مُوظّفاً عندك ، كما أن الحق سبحانه قد قال :

﴿ وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ .. (١١) ﴾ [الإسراء]

ولذلك قال :

﴿ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ .. (٣٤) ﴾ [إبراهيم]

أى : بعض مِمّا سألتموه ، ذلك أن هناك أسئلةً حمقاء لا يُجيبكم الله عليها ؛ مثل قول أى امرأة يعاندها ابنها « يسقينى نارك » هذه السيدة ؛ لو أذاقها الله نارَ افتقاد ابنها ؛ ماذا سوف تفعل ؟

إذن : فمِنْ عظمته سبحانه أنْ أعطانا ما هو مُطابِق للحكمة ؛ ومنَع عنّا غَيْرَ المطابق لحكمته سبحانه ، فالعطاء نعمة ، والمَنْع نعمة أيضاً ، ولو نظر كُلٌّ منا لعطاء السَّلْب ؛ لَوجد فيه نعماً كثيرة .

ويقول سبحانه :

﴿ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلا تَسْتَعْجِلُونِ (٣٧) ﴾ [الأنبياء]

لذلك فلا يقولن أحدٌ : « قد دعوتُ ربى ولم يَستجِب لى » وعلى الإنسان أن يتذكَّر قَوْل الحق سبحانه :

﴿ وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً (١١) ﴾

[الإسراء]

فهو سبحانه مَنْ يملك حكمة العطاء وحكمة المنع . ولا أحدَ منّا يستطيع أنْ يعُدّ نعَم الله . والعَدُّ ـ كما نعلم ـ هو حَصْرٌ لمفردات جَمْع أو جزئيات كُلٍّ . ويعلم أهل العلم بالمنطق ـ ونسميهم المَنَاطقة ـ أن هناك « كُلىّ » يقابله « جُزئىّ » ، وهناك «كُل » يقابله « جزء » .

والمَثل على « الكُلىّ » الإنسان ؛ حيث إننا جميعاً مُكوّنين من عناصر متشابهة ؛ ومفرد البشر يختلف باختلاف الأسماء ؛ أما ما يُسمَّى « كل » فالمثَل عليه هو الكُرسى ، وهو مُكوّن من مواد مختلفة كالخشب والمسامير والغرَاء ، ولا يمكن أن نطلق على الخشب فقط كلمة كرسى ؛ وكذلك لا نستطيع أن نُسمِّى « المسامير » بأنها كراسى .

وعلى هذا نكون قد عرفنا أن حقيقة الكُلىّ أن مفرداته متطابقة ، وإن اختلفت أسماؤها ، لكن حقيقة الكُلِّ أن مفرداته غير متشابهة ، وتختلف فى حقيقتها .

وإذا أردتَ أنْ تُحصِى الكُلىّ فأنت تنطق أسماء الأفراد كأن تقول : محمد وأحمد وعلى ؛ وهذا ما يُسمّى عداً ، وهكذا نفهم أن العَدَّ هو إحصاءُ جزئيات الكلى ، أو إحصاء أجزاء الكُلِّ .

ونعلم أنهم قد سَمَّوْا العَدَّ إحصاءً ؛ لأنهم كانوا يعدُّون الأشياء قديماً بالحصَى ؛ وأُطلقت كلمة الإحصاء على مُطْلَق العَدِّ حساباً للأصل ، وعرف عدد أجزاء الكلى أو الكل .

وكان الإنسان فى العصور القديمة يَعُد ـ على سبيل المثال ـ إلى رقم « مائة » ، ثم يحسب كل مائة بحصاة واحدة ؛ فإذا تجمّع لديه عَشْر حصوات عرف أن العدد قد صار ألفاً ، ومن هنا جاءت كلمة الإحصاء ، وفى كثير من أمور عصرنا المتقدم ؛ ما زلْنا نُسمّى بعض الأشياء بمُسمّيات قديمة ؛ فنحسب قوة السيارة بقوة الحصان .

وأنت إذا نظرتَ إلى قول الحق سبحانه :

﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا .. (٣٤) ﴾ [إبراهيم]

ستجد الكثير من المعانى ، ولكن مَنْ يحاولون التصيُّد للقرآن يقولون : إن هذا أمر غَيْر دقيق ؛ فما دام قد حدث العَدّ ؛ فكيف لا يتم الإحصاء ؟ وهؤلاء ينسوْنَ أن المقصود هنا ليس العدّ فى ذاته ؛ ولكن المقصود هو إرادة العدِّ .

ولو وُجِدت الإرادة فليس هناك قدرة على استيعاب نعم الله ، ومن هنا لا نرى تعارضاً فى آيات الله ، وإنما هو نسق متكامل ، فأنت لا تُقبل على عَدِّ أمر إلا إذا كان غالبُ الظن أنك قادرٌ على العَدِّ ، وذلك إذا كان فى إمكان البشر ، ولكن نعم الله فوق طاقة مقدور البشر .

والمثَل أيضاً على مسألة إرادة الفعل يمكن أن نجده فى قوله الحق :

﴿ يَـأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ .. (٦) ﴾

[المائدة]

ونحن لا نغسل وجوهنا لحظة أن نقومَ بالصلاة ؛ ولكننا نغسلها ونستكمل خطوات الوضوء حين يُؤذّن المؤذن ونمتلك إرادة الصلاة ، فكأن القول هنا يعنى : إذا أردتمُ القيام إلى الصلاة فافعلوا كذا وكذا .

ونعلم أن ذِكْر الشىء بسببه كأنه هو ؛ ولذلك يُقال : إذا كان الآذان قد أذّن فى المسجد ؛ وأنت خارج من منزلك بقصد الصلاة ؛ فلا تجرى لتلحق بالإمام وتُدرك الصلاة[1] ؛ لأنك فى صلاة من لحظة أنْ توضأْتَ وخرجتَ من بيتك للصلاة ؛ وإياك أنْ تفعلَ حركة تتناقض مع الصلاة ، وادخل المسجد بسكينة ووقار لتؤدى الصلاة مع الإمام[2] .

وحين نتأمل قول الحق سبحانه :

﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا .. (٣٤) ﴾ [إبراهيم]

ستجد أن العادة فى اللغة هى استعمال « إن » فى حالة الأمر المشكوك فيه ، أما الأمر المُتيقّن فنحن نستخدم « إذا » مثل قوله الحق :

---

(١) ويرشد إلى هذا حديث أبى بكرة رضى الله عنه أنه جاء ورسول الله ﷺ راكع ، فركع دون الصف ثم مشى إلى الصف ، فلما قضى النبى ﷺ صلاته قال : « أيكم الذى ركع دون الصف ثم مشى إلى الصف ؟ فقال أبو بكرة : أنا . فقال النبى ﷺ : زادك الله حرصاً ولا تعد » أخرجه أبو داود فى سننه (٦٧٩ ، ٦٨٠) ، والبخارى فى صحيحه (٢/١١٩ ، ٢٦٧ ـ فتح البارى) وأحمد فى مسنده (٥/٣٩ ، ٤٢) .

(٢) وهذا المعنى مأخوذ من الحديث الذى أخرجه مسلم فى صحيحه (٦٠٣ ـ المساجد) عن أبى قتادة قال : بينما نحن نصلى مع رسول الله ﷺ ، فسمع جلبة فقال : ما شأنكم ؟ قالوا : استعجلنا إلى الصلاة . قال : « فلا تفعلوا ، إذا أتيتم الصلاة ، فعليكم السكينة ، فما أدركتم فصلوا وما سبقكم فأتموا » .

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١)﴾ [النصر]

وقد جاء الحق سبحانه هنا بأسلوب الشك حين قال :

﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا .. (٣٤)﴾ [إبراهيم]

ذلك أن العاقل يعلم مُقدّماً أنه سيعجز عن إحصاء نِعَم الله . وكلنا يعلم أن هناك علماً اسمه « الإحصاء » وله أقسام جامعية متخصصة .

وعلى الرغم من التقدم وصناعة الحاسب الآلى « الكمبيوتر » لم يستطع أحدٌ ولم يُقبِل أحدٌ على إحصاء نعَم الله فى الكون ، ذلك أن العدَّ والإحصاء يقتضى كُلياً له أفراد ، أو كُلاً له أجزاء .

وأنت إنْ نظرتَ إلى أىّ نعمة من نعم الله ؛ قد تظنها نعمة واحدة ؛ ولكنك إنْ فصَّلْتَ فيها ستجدها نِعَماً مُتعدِّدة وشتّى ، وهكذا لا يوجد تناقض فى قوله الحق :

﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا .. (٣٤)﴾ [إبراهيم]

وأنت إنْ أخذتَ نعمة المياه ستجدها نِعَماً متعددة ؛ فهى مُكوّنة من عناصر ، كل عنصر فيها نعمة ؛ وإن أخذتَ نعمة الأرض ستجد فيها نِعَماً كثيرة مطمورة ، وهكذا تكون كل نعمة من الله مطمور فيها نِعَم متعددة ، ولا تُحْصَى .

وحين تنظر فى قول الحق سبحانه :

﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا .. (٣٤)﴾ [إبراهيم]

تجد ثلاثة عناصر ؛ هى المُنعِم ؛ والنعمة التى حكَم الحق سبحانه أنك لن تحصيها ، وأن خَلْقه لم يضعوا أنوفهم فى أنْ يعدّوا تلك النعمة ؛ فهى لا تحصى لأنها ليست مظنّة الإحصاء ؛ ولا يقبل عاقلٌ أن يحصيها .

والعنصر الثالث هو المُنْعَم عليه ، وهو الإنسان الذى قد يعجز عن إحصاء نعم رئيسه من البشر عليه ـ فما بالك بنعم الله التى لا تحصى ، وكمالاته التى لا تُحدّ ، وعطائه الذى لا ينفد ؟ ولله المثل الأعلى ، فهو المنزّه عن المثل .

ثم يأتى قول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤) ﴾ [إبراهيم]

وهنا فى سورة إبراهيم نجد قوله الحق مبيناً ظلم الإنسان لنفسه وكفره بالنعمة ، وفى كفره للنعمة كفر بالمنعم يقول سبحانه وتعالى:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (٢٨) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا[1] وَبِئْسَ الْقَرَارُ (٢٩) ﴾ [إبراهيم]

وهؤلاء هم مَن ارتكبوا مظالم بالنسبة لعقيدة الوحدانية والإيمان بالله ، والإنسان هو المُنْعَم عليه ؛ وما كان يصحّ أن يرى كل تلك النعم ثم يكفر بها ، وكان من العدل أن يعطى الحق لصاحبه ، ولكن بعضاً من البشر بدَّلوا نعمة الله كفراً ؛ وهكذا صاروا ممَّنْ يُطلَق على كل منهم أنه ظلوم فى الحكم ؛ وأنه كفّار ؛ لجحوده بالنعمة ونكرانه عطاء الخالق للمخلوق .

---

(١) صلى اللحم وغيره يصليه صَلْياً : شواه ، والصلاء : الشواء والإحراق . وصلَى بالنار : قاسى حرَّها واحترق . [لسان العرب ـ مادة : صلا] .

والظلم كما نعرف هو أن تنقل الحق من صاحبه إلى غير صاحبه ؛ وإنْ لم تؤمن بالله تكون قد أخذتَ حق الإله فى الوجود ، وإنْ كنتَ تؤمن بشركاء ؛ فأنت تنقل بذلك حقاً من الله إلى غيره ، وهذا ظلم القمة .

وانظر إلى قول الحق سبحانه فى سورة النحل :

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٢) وَمَا ذَرَأَ[1] لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (١٣) وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ[2] فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٤) وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ[3] بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥) وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (١٦) أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (١٧) وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٨) ﴾ [النحل]

فهل هناك إرادة أو قدرة تستطيع أن تحصى عطاءات الله التى فوق العَدِّ والحدِّ ؟ ففى الآيات السابقة وغيرها إعجاز وعجز ، وما دام هناك عجز فالكمال عنده لا يتناهى .

---

(١) ذرأ الله الخلق : خلقهم وبثّهم وكثّرهم . [القاموس القويم ١/٢٤٢] .

(٢) مخرت السفينة تمخر : جرت تشق الماء مع صوت ، تدفع الماء بصدرها . [لسان العرب ـ مادة : مخر] .

(٣) مادت الأرض : اضطربت وزلزلت . ماد : تحرك واهتز . قال تعالى : ﴿ وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ .. (١٠) ﴾ [لقمان] لئلا تميل وتضطرب فالجبال العالية توازن البحار العميقة . [القاموس القويم ٢/٢٤٦] .

إن بعضاً مِمَّنْ يستدركون على القرآن يقولون : كيف يقول القرآن مرة :

﴿إِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤)﴾ [إبراهيم]

ثم يقول فى آية أخرى :

﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٨)﴾ [النحل]

ونردُّ على هؤلاء : أنتم لم تنظروا إلى السياق الذى جاء فى كل آية ، وعَمِيَتْ بصيرتكم عن معرفة أن سياقَ الآية ـ التى نحن بصدد خواطرنا عنها ـ قد جاء فيها ذِكْر النِّعم وذكر الجحود والكفران بالنعم ؛ وهذا ناشىء عن ظُلْم الإنسان لنفسه بالظُّلْم العظيم .

وفى آية سورة النحل جاء بِذكْر النعم ، ورغم ظُلْمنا إلا أن رحمته سبحانه وَسِعَتْنا ، ولم يمنع عنَّا ما أسبغه[1] علينا من نِعَم ، وكأنه سبحانه يُوضِّح لنا : إياكم أنْ تستحُوا أنْ تسألونى شيئاً ؛ وإنْ كنتم قد ظلمتُم وكفرتُم فى أشياء ، فظُلْمكم يقابله غفران منِّى ، وكافريتكم يقابلها منى رحمة ، وهكذا لا يوجد تعارضٌ بين الآيتين ؛ بل كُل تذييل لكل آية مناسبٌ لها ، ففى الآية الأولى يعاملنا الله بعدله ، وفى الآية الثانية يعاملنا الله بفضله .

ونلحظ أن الحق سبحانه قد قال هنا :

﴿إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤)﴾ [إبراهيم]

---

(١) أسبغ الله النعمة : أكملها وأتمها ووسَّعها . وسبغت النعمة : اتسعت . والشىء السابغ : الكامل الوافى . [لسان العرب ـ مادة : سبغ] .

ونعلم أن هناك أناساً قد آمنوا بالله وبنعمه ، ويشكرون الله عليها ، فكيف يَصِف الحق سبحانه الإنسان بأنه ظَلوم كفَّار ؟

ونقول : إن كلمة « إنسان » إذا أُطلقتْ من غير استثناء فهى تنصرف إلى الخُسْران والحياة بلا منهج ؛ ودون التفات للتفكير فى الكون .

والحق سبحانه حين أراد أن يُوضِّح لنا ذلك قال :

﴿ وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) ﴾ [العصر]

ولذلك جاء سبحانه بالاستثناء بعدها ، فقال :

﴿ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣) ﴾ [العصر]

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا (١) وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ (٣٥) ﴾

وحين يقول سبحانه (إذ) أى « اذكر » ويقول من بعد ذلك على لسان إبراهيم (رَبّ) ولم يَقُلْ « يا الله » ذلك أن إبراهيم كان يرفع دعاءه للخالق المربِّى ، لذلك قال « ربّى » ولم يَقُل « يا الله » لأن عطاءَ الله تكليفٌ ، وأمام التكليف هناك تخيير فى أن تفعل ولا تفعل ، مثل قوله سبحانه :

﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ .. (٤٣) ﴾ [البقرة]

---

(١) المقصود بالبلد هنا : مكة . [تفسير القرطبى ٣٧٠٦/٥] .

أما عطاء الربوبية فهو ما يقيم حياة المُصلِّين وغير المُصلِّين .

ولم تَأْتِ مسألة إبراهيم هنا قَفْزاً ؛ ولكنّا نعلم أن القرآن قد نزل ، وأول مَنْ سيسمعه هُم السادة من قريش ؛ الذين تمتَّعوا بالمهابَة والسيادة على الجزيرة العربية ؛ ولا يجرؤ أحد على التعرُّض لقوافلها فى رِحْلَتَىْ الشتاء والصيف ؛ لليمن والشام ؛ وهم قد أخذوا المهابة من البيت الحرام .

ولذلك تكلَّم الحق سبحانه عن النعمة العامة لكل كائن موجود تنتظر أُذنه نداء الإسلام ؛ وبعد ذلك يتكلم الحق سبحانه عن النعم التى تخصُّهم ؛ لذلك قال :

﴿رَبِّ اجْعَلْ هَـٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا .. (٣٥)﴾ [إبراهيم]

وقد وردتْ هذه الجملة فى سورة البقرة بأسلوب آخر ، وهو قول الحق سبحانه :

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا آمِنًا .. (١٢٦)﴾ [البقرة]

والفرق بين « البلد » و « بلداً » يحتاج منّا أن نشرحه ، فـ « بلداً » تعنى أن المكان كان قَفْراً[1] ؛ ودعا إبراهيم أن يصبحَ هذا المكانُ بلداً آمناً أى : أن يجد مَن يقيمون فيه ، يُجدّدون حاجاتهم ومُتطلباتهم ؛ وتكون وسائل الرزق فيه مُيسَّرة ، ودعاؤه أيضاً شمل طلب الأمن ، أى : ألاّ يوجد به ما يُهدّد طمأنينة الناس على يومهم العادىّ ووسائل رزقهم .

---

(١) القفر والقفرة : الخلاء من الأرض . وقد أقفرت الأرض : خلت من الكلأ والناس . [لسان العرب ـ مادة : قفر] .

وأجاب الحق سبحانه دعاء إبراهيم فصار المكان بلداً ؛ وجعله سبحانه آمناً أماناً عاماً ؛ لأن الإنسان فى أىّ بُقْعة من بقاع الأرض لا يتخذ مكاناً يجلس فيه ويقيم ويتوطّن إلا إذا ضمن لنفسه أسباب الأمن من مُقوّمات حياة ومن عدم تفزيعه تفزيعاً قوياً ، وهذا الأمن مطلوب لكل إنسان فى أىّ أرض .

وقد دعا إبراهيم عليه السلام هذا الدعاء وقت أنْ نزلَ هذا المكان ، وكان وادياً غير ذى زرع ؛ ولا مُقوّمات للحياة فيه ؛ فكان دعاؤه هذا الذى جاء ذِكْره فى سورة البقرة .

أما هنا فقد صار المكان بلداً ؛ وكان الدعاء بالأمن لثانى مرة ؛ هى دعوة لأمن خاص ؛ ففى غير هذا المكان يمكن أن تُقطع شجرة ؛ أو يصْطاد صَيْد ؛ ولكن فى هذا المكان هناك أَمْنٌ خاصّ جداً ؛ أمنٌ للنبات ولكُلّ شىء يوجد فيه ؛ فحتى الحيوان لا يُصَاد فيه ؛ وحتى فاعل الجريمة لا يُمَسّ[1] .

وهكذا اختلف الدعاء الأول بالأمن عن الدعاء الثانى ؛ فالدعاء الأول : هو دعاء بالأمن العام ؛ والدعاء الثانى : هو دعاء بالأمن الخاص ؛ ذلك أن كل بلد يوجد قد يتحقّق فيه الأمن العام ؛ ولكن بلد البيت الحرام يتمتع بأمنٍ يشمل كل الكائنات .

---

(١) عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة : « إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السماوات والأرض فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة ، وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلى ولم يحل لى إلا ساعة من نهار ، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة ، لا يُعضد شوكه ولا ينفر صيده ولا يلتقط لقطته إلا من عرّفها ولا يُختلى خلاها » فقال العباس : يا رسول الله إلا الإذخر فإنه لقينهم ولبيوتهم فقال : « إلا الإذخر » . أخرجه مسلم فى صحيحه (١٣٥٣) .

ويقول بعض من السطحيين : ما دام الحق قد جعل البيت حَرَماً آمناً ؛ فلماذا حدث ما حدث من سنوات من اعتداء على الناس فى الحرم ؟

ونقول : وهل كان أَمْن الحرم أمراً « كونياً » ، أم تكليفاً شرعياً ؟ إنه تكليف شرعىّ عُرْضة أنْ يُطاع ، وعُرضة أنْ يُعصى .

وقوله سبحانه :

﴿ ومَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا .. (٩٧) ﴾ [آل عمران]

يعنى أن عليكم أيُّها المُتبِّعون لدين الله أنْ تُؤمِّنوا مَنْ يدخل الحرم أنهم فى أمن وأمان ، وهناك فارق بين الأمر التكليفىّ والأمر الكونىّ .

ويقول سبحانه على لسان إبراهيم :

﴿ وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ (٣٥) ﴾ [إبراهيم]

وهو قَوْل يحمل التنبؤ بما حدث فى البيت الحرام على يد عمرو ابن لُحَىٍّ الذى أدخل عبادة الأصنام إلى الكعبة ، وهو قَوْل يحمل تنبؤاً من إبراهيم عليه السلام .

ولقائل أنْ يسألَ : وكيف يدعو إبراهيم بذلك ، وهو النبى المعصوم ؟ كيف يطلب من الحق أن يُجنِّبه عبادة الأصنام ؟

وأقول : وهل العصمة تمنع الإنسان أنْ يدعوَ ربه بدوام ما هو عليه ؟ إننا نتلقى على سبيل المثال الأمر التكليفى منه سبحانه :

﴿ يَـأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ..(١٣٦) ﴾ [النساء]

وهو أمْر بالمداومة .

والحق سبحانه قد قال على لسان رسوله شعيب ـ عليه السلام ـ :

﴿ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا .. (٨٩) ﴾ [الأعراف]

وفى هذا القَوْل ضراعة إلى المُنعِم علينا بنعمة الإيمان ؛ وفى هذا القول الكريم أيضاً إيضاحٌ لطلاقة قدرة الحق سبحانه .

ونلحظ أن الحق سبحانه قد قال هنا :

﴿ وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ (٣٥) ﴾ [إبراهيم]

والصنم غير الوثن[1] ، فالمُشكَّل بشكل إنسان هو الصنم ؛ أما قطعة الحَجَرِ فقط والتى خَصَّها بعضٌ من أهل الجاهلية بالعبادة فهو الوثن .

وهناك مَنْ أراد أنْ يخرج بِنَا من هذا المأزق ؛ فقال : إن الكفر نوعان . شرك جَلى ؛ وشرك خفىّ . والشرك الجلىّ أن يعبدَ الإنسانُ أىّ كائن غير الله ؛ والشرك الخفىّ أن يُقدّس الإنسانُ الوسائطَ بينه وبين الله ، ويعطيها فوق ما تستحق ، وينسب لها بعضاً من قدرات الله .

---

(١) قال ابن الأثير : الفرق بين الوثن والصنم أن الوثن كل ما له جثة معمولة من جواهر الأرض أو من الخشب والحجارة كصورة الآدمى تُعمل وتُنصب فتعبد ، والصنم الصورة بلا جثة . ومنهم من لم يفرق بينهما وأطلقهما على المعنيين [لسان العرب ـ مادة : وثن] .

ودعاء إبراهيم عليه السلام أن يُجنِّبه وبنيه أنْ يعبدوا الأصنامَ يقتضى منّا أن نفهم معنى كلمة أبناء ؛ ذلك أن إبراهيم قصد بالدعاء بنيه الذين يَصِلُون إلى مرتبة الرسالة والنبوة مثله ؛ ذلك أننا نعلم أن بعضاً من بنيه قد عبدوا الأصنام والأوثان .

ومعنى كلمة « أبناء » أوضحه سبحانه فى مواطن أخرى . ونبدأ من قوله :

﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ[1] فَأَتَمَّهُنَّ .. (١٢٤) ﴾ [البقرة]

أى : بعد أن أخبر الله إبراهيم ، وكلّفه بالمهام التى كلفه الله سبحانه وتعالى بها على وجه التمام ؛ أمّنه الحق على أن يكون إماماً ؛ فقال سبحانه :

﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا .. (١٢٤) ﴾ [البقرة]

أى : أن حيثية الإمامة هى أداء إبراهيم عليه السلام لكل مهمة بتمامها وبدقّة وأمانة ، وإذا كان هذا هو دستورَ الله فى الخَلْق ؛ فلابُدّ لنا من أن نتخلَّقَ بأخلاق الله . وعلينا ألاّ نختار أىَّ إنسان لأية مهمة ليكون إمامها ، إلا إنْ كان كُفْءً لها ويُحسِن القيام بها .

ولنتذكر قوله ﷺ :

« إذا ضُيِّعَتِ الأمانةُ فانتظرِ الساعة » . قال السائل له عن موعد

---

(١) الكلمات : جمع كلمة ، وهى هنا أحكام الدين وتكاليفه . [القاموس القويم ٢/١٧٣] وقال ابن كثير فى تفسيره (١/١٦٥) : « الكلمات : الشرائع والأوامر والنواهى » .

قيام الساعة : وكيف إضاعتها ؟ قال : « إذا وُسِّد[١] الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة »[٢] .

ذلك أن إسناد أىّ أمر لغير أهله إنما هو إفساد فى الوجود ، لأن الأصل فى إسناد أىّ أمر لأى إنسان أن يكون بهدف أن يقومَ بالأمر كما يجب ، فإذا كان الاختيار سيئاً ؛ فسيكون هذا الإنسان أُسْوة فى السوء ؛ وتنتقل منه عدوى عدم الإتقان إلى غيره ؛ ويتفشَّى السوء فى المجتمع ، أما إذا تولى الأمر مَنْ هو أَهْلٌ له فالموقف يختلف تماماً ، فوضع الإنسان فى مكانه اللائق ، تعتدل به موازين العدل ، وفى اعتدال الميزان استقرار للزمان والمكان والإنسان .

والمَثَلُ على ذلك : أن الأولاد الذين تربَّوْا فى السعودية ؛ ورأَوْا أن يد السارق تُقطع ؛ لم نجد منهم مَنْ يسرق ؛ لأنهم تربَّوْا على أن السارق تُقطع يده ، وفهموا أن الحق سبحانه لحظة أنْ يضعَ عقوبةً قاسيةً ؛ فليس هذا إذْنٌ بأن تقعَ الجريمة ؛ بل ألاَّ تقعَ الجريمة .

وحين يتساءل مَنْ يدَّعُون التحضُّر : كيف يقول القرآن :

﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ .. (٢٥٦) ﴾ [البقرة]

وحين تجدون مَنْ يخرج عن الدين تقبضون عليه ، وينادى البعض بإعدامه ؟

---

(١) وُسِّد : أُسند ، وأصله من الوسادة . قال ابن منظور فى اللسان (مادة : وسد) : « يعنى إذا سُوِّد وشُرِّف غير المستحق للسيادة والشرف » .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٩ ، ٦٤٩٦) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

ولهؤلاء أقول : وهل هذا الأمر يُحسب على الإسلام أم لصالح الإسلام ؟

إنه لصالح الإسلام ، ذلك أن مثْل هذا الحرص على كرامة الدين يُهيِّب الناس أنْ يدخلوا الدين إلا بعد الإقناع المؤدى لليقين ، واليقين هو الوصول إلى الدين الحقّ مصحوباً بدليل .

يقول الحق سبحانه :

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ .. (٥٣) ﴾ [فصلت]

بهذا نعلم أن دخول الإسلام سيُكلّفه حياته لو أراد أنْ يخرجَ منه ، لأنه خرج من اليقين الذى دخله بالدليل .

وحين دعا إبراهيم ـ عليه السلام ـ ربه :

﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَـٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ (٣٥) ﴾ [إبراهيم]

كان قد نجح فى اختبار الله له ، ونجح فى أداء ما أُسند إليه تماماً ؛ وشاء له الحق سبحانه أن يكون إماماً ، واستشرف إبراهيم عليه السلام أن تكون الإمامة فى ذريته ؛ فقال :

﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِي .. (١٢٤) ﴾ [البقرة]

فجاءه الجواب من الحق سبحانه :

﴿ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (١٢٤) ﴾ [البقرة]

وهكذا أوضح الحق سبحانه أن بُنوة الأنبياء ليست بنوة لَحْم

ودمٍ ؛ بل بُنُوة اتباع واقتداء ، وكلنا نعلم أن الحق سبحانه قد قال لنوح عن ابنه[١] :

﴿ فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ .. (٤٦) ﴾ [هود]

ونعلم أن رسول الله ﷺ قد قال عن سلمان الذى كان فارسياً : « سلمان منا آل البيت »[٢] .

وفى هذا تأكيد على أن بنُوّة الأنبياء هى بنُوّة اتباعٍ واقتداء .

ويستكمل الحق سبحانه دعاء إبراهيم عليه السلام ؛ فنجد وَعْى خليل الرحمن بما تفعله عبادة الأصنام :

﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣٦) ﴾

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٤٤٦/٢) : « هذا هو الابن الرابع ، واسمه يام وكان كافراً » قال تعالى : ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ (٤٢) قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (٤٣) ﴾ [هود] ثم سأل نوح ربه سؤال استعلام وكشف عن حال ولده الذى غرق فقال : ﴿ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (٤٥) قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٤٦) ﴾ [هود].

(٢) عن عمرو بن عوف المزنى قال : خط رسول الله ﷺ الخندق عام الأحزاب من أجم السَّمُر طرف بنى حارثة حين بلغ المداد ، ثم قطع أربعين ذراعاً بين كل عشرة ، فاختلف المهاجرون والأنصار فى سلمان الفارسى ، وكان رجلاً قوياً ، فقالت الأنصار : سلمان منا . وقالت المهاجرون : سلمان منا . فقال رسول الله ﷺ : « سلمان منا أهل البيت » أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٤١٨/٣) والحاكم فى مستدركه (٥٩٨/٣) وضعّف الذهبى إسناده من أجل كثير بن عبد الله .

ونعلم أن الأصنام بذاتها لا تُضل أحداً[1] ؛ ذلك أنها لا تتكلم ولا تتحدث إلى أحد ؛ ولكن القائمين عليها بدعْوى أن لتلك الأصنام ألوهية ؛ ولا تكليفَ يصدر منها ، هم الذين يضلون الناس ويتركونهم كما يقول المثل العامى « على حَلِّ شعورهم » .

ويرحب بهذا الضلال كل مَنْ يكره أن يتبع تعاليم الخالق الواحد الأحد .

ويتابع سبحانه ما جاء على لسان إبراهيم عليه السلام من بعد الدعاء :

﴿ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣٦) ﴾ [إبراهيم]

وهذه تعقيباتٌ فى مسألة الغُفران والرحمة بعد العصيان ؛ فمرّة يعقُبها الحق سبحانه :

﴿ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨) ﴾ [المائدة]

ومرّة يعقبها :

﴿ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣) ﴾ [الزمر]

ذلك أن الجرائم تختلف درجاتها ، فهناك جريمة الخيانة العُظْمى أو جريمة القِمّة ؛ مثل مَنْ يدّعى أنه إلهٌ ؛ أو مَنْ يقول عنه أتباعه أنه إله دون أنْ يقولَ لهم هو ذلك .

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٣٧٠٦/٥) : « لما كانت ـ الأصنام ـ سبباً للإضلال أضاف الفعل إليهن مجازاً ، فإن الأصنام جمادات لا تفعل » .

وقد قال عيسى ـ عليه السلام ـ بسؤال الحق له :

﴿ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ .. (١١٦) ﴾ [المائدة]

فيأتى قَوْل عيسى عليه السلام :

﴿ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١١٦) ﴾ [المائدة]

ويتابع عيسى عليه السلام القَوْل :

﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨) ﴾ [المائدة]

وهكذا تأتى العِزّة والمغفرة بعد ذكْر العذاب ؛ فهناك مواقف تُناسبها العزّة والحكمة ؛ ومواقف تناسبها المغفرة والرحمة ، ولا أحدَ بقادرٍ على أنْ يردّ لله أمْرَ مغفرةٍ أو رحمةٍ ؛ لأنه عزيزٌ وحكيمٌ .

وقوله الحق :

﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ .. (٣٦) ﴾ [إبراهيم]

يعكس صفات مناسبة للمُقدِّمات الصدرية فى الآية ، وتؤكد لنا أن القرآن من حكيم خبير ، وأن الله هو الذى أوحى إلى عبده القرآن :

﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنسَىٰ (٦) ﴾ [الأعلى]

فما الذى يجعله يقول فى آية :

﴿ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣) ﴾ [الزمر]

وفى آية أخرى :

﴿ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨) ﴾ [المائدة]

مع أن السياق المعنوىّ قد يُوحى من الظاهر بعكس ذلك ؟

وما الذى يجعله سبحانه يقول فى آية بعد أن يُذكّرنا أن نِعَم الله لا تُعَدّ ولا تُحْصَى :

﴿ إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤) ﴾ [إبراهيم]

ويقول فى آية أخرى بعد أنْ يُذكِّرنا بنِعَمِ الله بنفس اللفظ :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٨) ﴾ [النحل]

وكذلك قوله :

﴿ كَلاَّ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (١١) فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ (١٢) ﴾ [عبس]

ثم قوله فى آية أخرى :

﴿ إِنَّ هَـٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً (٢٩) ﴾ [الإنسان]

كل ذلك يعطينا حكمة التنزيل ، فإن كل آية لها حكمة ، وتنزيلها يحمل أسرار المراد .

وكُلُّ ذلك يأتى تصديقاً لقوله الحق :

﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنسَىٰ (٦) ﴾ [الأعلى]

لأن الحق سبحانه وتعالى شاء أنْ يُنزل القرآن على رسوله ، ويضمن أنه سيحفظه ؛ ولن ينسى موقع أو مكان آيةٍ من الآيات أبداً ، ذلك أن الذى قال :

﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنسَىٰ (٦) ﴾ [الأعلى]

هو الحق الخالق القادر .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك ما قاله إبراهيم عليه السلام :

﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ(١) رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾

ونفهم من التعبير فى هذه الآية أن المكانَ لا يصلح للزرع ؛ ذلك أنه أرض صَخْرية ؛ وليست أرضاً يمكن استصلاحها ؛ وقَوْل إبراهيم - عليه السلام - :

﴿ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ .. (٣٧) ﴾ [إبراهيم]

أى : لا أملَ فى زراعتها بمجهود إنسانى ، وليس أمام تواجد الرزق فى هذا المكان إلا العطاء الربانى . ولم يكُنْ اختيار المكان نتيجة بَحْث من إبراهيم عليه السلام ؛ ولكن بتكليف إلهىّ ، فسبحانه هو الذى أمر بإقامة القواعد من البيت المحرم ، وهو مكان من اختيار الله ، وليس من اختيار إبراهيم عليه السلام.

وحين يقول إبراهيم عليه السلام :

﴿ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ .. (٣٧) ﴾ [إبراهيم]

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٥/٣٧٠٩) : « قوله تعالى : ﴿ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ .. (٣٧) ﴾ [إبراهيم] يدل على أن البيت كان قديماً على ما روى قبل الطوفان ، وأضاف البيت إليه لأنه لا يملكه غيره ، ووصفه بأنه محرم أى : يحرم فيه ما يستباح فى غيره من جماع واستحلال ، وقيل : محرم على الجبابرة ، وأن تُنتهك حرمته ، ويستخفّ بحقه » .

فهذا يعنى حيثية الرِّضا بالتكليف ، ومادام هذا أمراً تكليفياً يجب أنْ يُنفّذ بعشق ؛ فهو يأخذ ثوابين اثنين ؛ ثواب حُبّ التكليف ؛ وثواب القيام بالتكليف .

ولنا المثل فى حكاية الرجل الذى قابله الأصمعى[1] عند البيت الحرام ، وكان يقول : « اللهم ، إنِّى قد عصيتُك ، ولكنى أحب مَنْ يطيعك ، فاجعلها قُرْبة لى » . فقال الأصمعى ما يعنى أن الله لا بُدَّ أن يغفر لهذا الرجل لِحُسْن مسألته ، ذلك أنه رجل قد فرح بحب التكليف ولو لم يَقُمْ به هو ؛ بل يقوم به غيره وهذا يُسعده .

فالتكليف عندما يقوم به أىُّ إنسان ؛ فذلك أمر فى صالح كل البشر ، وكلنا نقول حين نُصلى ونقرأ الفاتحة :

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ﴾ [الفاتحة]

أى : أن كُلاً منّا يحشر نفسه فى زمرة العابدين ؛ لعل الله يتقبّل من واحد فندخل كلنا فى الصفقة ؛ ولذلك أقول لِمَنْ يرتكب معصية : عليك ألاّ تغضب ، لأن هناك مَنْ يطيع الله ؛ بل افرح به ؛ لأن فرحَك بالمطيع لله ؛ دليلٌ على أنك تحبُّ التكليف ، رغم أنك لا تقدر على نفسك ، وفى هذا الحُبِّ كرامة لك .

وقد قال إبراهيم ـ عليه السلام ـ عن الوادى الذى أمره الحق سبحانه أن يقيم فيه القواعد للبيت الحرام أنه وادٍ غير ذى زَرْع ، وقد

---

(١) هو : عبدالملك بن قريب الباهلى ، أبو سعيد ، ولد بالبصرة (١٢٢ هـ) ، راوية العرب ، وأحد أئمة العلم باللغة والشعر والبلدان ، كان كثير التطواف فى البوادى . توفى بالبصرة (٢١٦ هـ) عن ٩٤ عاماً . [الأعلام للزركلى ١٦٢/٤] .

جاء هو إلى هذا المكان لِيُنفّذ تكليف الحق سبحانه له ؛ لدرجة أن زوجته هاجر عندما علمت أن الاستقرار فى هذا المكان هو بتكليف من الله قالت : « إذنْ لن يضيعنا »[(١)] .

ويُقدِّم إبراهيم عليه السلام حيثيات الإقامة فى هذا المكان ، وأسباب إقامته للقواعد كما أراد الله ، فيقول :

﴿ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِى إِلَيْهِمْ .. (٣٧) ﴾ [إبراهيم]

أى : أن مجىء الناس إلى هذا المكان لن يكون شهوةَ سياحة ؛ ولكن إقامة عبادة ؛ فما دام المكان قد أُقيم فيه بيت لله باختيار الله ؛ فلابُدَّ أن يُعبدَ فيه سبحانه .

وهكذا تتضح تماماً حيثيات أَخْذ الأمر بالوجود فى مكان ليس فيه من أسباب الحياة ولا مُقوِّماتها شىء ؛ ولكن الحق سبحانه قد أمر بذلك ؛ فلابُدَّ للمقيم للصلاة من إقامة حياة ؛ والمُقوِّم الأول للحياة هو المَأْكل والمَشْرب .

ولذلك دعا إبراهيم عليه السلام :

﴿ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِى إِلَيْهِمْ .. (٣٧) ﴾ [إبراهيم]

والأفئدة جمع « فؤاد » ، وتُطلَق على الطائفة ؛ وعلاقة الفؤاد

---

(١) وذلك أن إبراهيم عليه السلام أتى بهاجر وابنه الرضيع إسماعيل إلى مكة . التى لم يكن فيها أحد وليس بها ماء ، فوضعهما هنالك ، ووضع عندهما جراباً فيه تمر ، وسقاء فيه ماء ، ثم تركهما وذهب ، فقالت هاجر : يا إبراهيم ، أين تذهب وتتركنا بهذا الوادى الذى ليس فيه إنس ولا شىء ، قالت له ذلك مراراً وجعل لا يلتفت إليها . فقالت له : آلله أمرك بهذا ؟ قال : نعم . قالت : إذاً لا يُضيِّعنا . ذكره القرطبى فى تفسيره (٥/٣٧٠٧) .

بالحجيج علاقةٌ قوية ؛ لأن الهوى فى الحجيج هوى قلوب ؛ لا جيوب . وأنت تجد الإنسان يجمع النقود الخاصة بالحج ، وقد يحرم نفسه من أشياء كثيرة من أجل أن يحظَى بأداء تلك الفريضة[1] .

وكلمة « هوى » مُكوّنة من مادة « الهاء » و « الواو » و « الياء » ولها معَانٍ متعددة ، فلك أنْ تقولَ « هَوَى » أو تقول « هَوِى » ، فإنْ قلت « هَوَى يهوي » من السقوط من مكان عالٍ ؛ دون إرادة منه فى السقوط ؛ وكأنه مقهورٌ عليه ، وإنْ قُلْت : « هَوِى يهوىَ » فهذا يعنى أحبّ ، وهو نتيجة لِميْل القلوب ، لا مَيْل القوالب .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِى إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (٣٧) ﴾ [إبراهيم]

فهم فى مكان لا يمكن زراعته . وقد تقبَّل الحق سبحانه دعاءَ إبراهيم عليه السلام ؛ ووجدنا التطبيق العملى فى قوله الحق :

﴿ أَوَ لَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ[2] إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا .. (٥٧) ﴾ [القصص]

---

(١) قال ابن عباس ومجاهد : لو قال : « أفئدة الناس » لازدحمت عليه فارس والروم والترك والهند واليهود والنصارى والمجوس ، ولكن قال : « من الناس » فهم المسلمون . ذكره القرطبى فى تفسيره (٥/٣٧١١) ، والسيوطى فى « الدر المنثور » (٥/٤٨) .

(٢) جبا يجبى المال والخراج جباية : جمعه . قال تعالى : ﴿ يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ .. (٥٧) ﴾ [القصص] تجمع إلى الحرم المكى وتُساق إليه ثمرات وخيرات كثيرة . [القاموس القويم ١/١١٧] .

وذلك قبل أن يوجد بترول أو غير ذلك من الثروات. وكلمة « يُجْبى » تدل على أن الأمرَ فى هذا الرزق القادم من الله كأنه جِبَاية ؛ وأمْر مفروض ، فتكون فى الطائف مثلاً وفيها من الرمان والعنب وتحاول أنْ تشتريه ؛ فتجد مَنْ يقول لك : إن هذا يخصُّ مكة المكرمة ؛ إنْ أردتَ منه فاذهب إلى هناك .

وتجد فى كلمة :

﴿ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ .. (٥٧) ﴾ [القصص]

ما يثير العجب والدهشة ؛ فأنت فى مكة تجد بالفعل ثمرات كل شىء من زراعة أو صناعة ؛ ففيها ثمرات الفصول الأربعة قادمةً من كل البلاد ؛ نتيجة أن كل البيئات تُصدِّر بعضاً من إنتاجها إلى مكة .

وفى عصرنا الحالى نجد ثمرات النموِّ الحضارى والعقول المُفكِّرة وهى معروضة فى سوق مكة أو جدة ؛ بل تجد ثمرات التخطيط والإمكانات وقد تمَّتْ ترجمتُها إلى واقع ملموس فى كل أَوْجُه الحياة هناك .

وقديماً عندما كُنّا نؤدى فريضة الحج ؛ كُنّا نأخذ معنا إبرة الخيط ؛ وملْح الطعام ؛ ومن بعد أن توحَّدتْ غالبية أرض الجزيرة تحت حكم آل سعود واكتشاف البترول ؛ صِرْنا نذهب إلى هناك ، ونأتى بكماليات الحياة .

ولنلحظ قَوْل الحق سبحانه :

﴿ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِى إِلَيْهِمْ .. (٣٧) ﴾ [إبراهيم]

فكلمة « من » تُوضِّح أن مَنْ تهوي قلوبهم إلى المكان هم قطعةٌ من أفئدة الناس ، وقال بعضٌ من العارفين بالله[1] : لو أن النصَّ قد جاء « فاجعل أفئدة الناس تهوى إليهم » لوجدنا أبناء الديانات الأخرى قد دخلت أيضاً فى الحجيج ، ومن رحمة الله سبحانه أن جاء النص :

﴿ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِى إِلَيْهِمْ .. (٣٧) ﴾ [إبراهيم]

فاقتصر الحجيج على المسلمين .

ويقول سبحانه من بعد ذلك مُسْتكملاً ما جاء على لسان إبراهيم عليه السلام :

﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ (٣٨) ﴾

وبعد أن اطمأن إبراهيم ـ عليه السلام ـ أن لهذا البلد أمناً عاماً وأمناً خاصاً ، واطمأن على مُقوِّمات الحياة ؛ وأن كل شىء من عند الله ، بعد كل ذلك عاودته المسألة التى كانت تشغله ، وهى مسألة تَرْكه لهاجر وإسماعيل فى هذا المكان .

وبعض المُفسِّرين قالوا : إن الضمير بالجمع فى قوله تعالى :

﴿ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ .. (٣٨) ﴾ [إبراهيم]

---

(١) نقل السيوطى فى الدر المنثور (٤٨/٥) عن السدى معزواً لابن أبى حاتم أنه قال فى تفسير هذه الآية : « خذ بقلوب الناس إليهم ، فإنه حيث يهوى القلب يذهب الجسد ، فلذلك ليس من مؤمن إلا وقلبه مُعلّق بحب الكعبة » .

مقصود به ما يُكنّه من الحُبِّ لهاجر وإسماعيل ، وما يُعلنه من الجفاء الذى يُظهره لهما أمام سارة ، وكأن المعانى النفسية عاودتْه لحظةَ أنْ بدأ فى سلام الوداع لهاجر وابنه إسماعيل .

ونقول : لقد كانت هاجر هى الأخرى تعيش موقفاً صَعْباً ؛ ذلك أنها قد وُجِدت فى مكان ليس فيه زَرْع ولا ماء ، وكأنها كتمتْ نوازعها البشرية طوال تلك الفترة وصبرتْ .

ولحظة أنْ جاء إبراهيم ليُودّعها ؛ قالت له : أين تتركنا ؟ وهل تتركنا منْ رأيك أم من أمر ربك ؟ فقال لها إبراهيم عليه السلام : بل هو من أمر الله . فقالت : إذن لن يضيعنا .

وتأكدت هاجر من أن ما قالتْه قد تحقَّق ؛ ولم يُضيّعهما الله ، وحين يعطش وحيدها تجرى بين الصفا والمروة بَحْثاً عن مياه ؛ ولكنها ترى تفجُّر الماء تحت قَدَمَىْ ابنها فى المكان الذى تركته فيه ؛ ويبدأ بئر زمزم[1] فى عطاء البشر منذ ذلك التاريخ مياهه التى لا تنضب[2] .

وهكذا يتحقق قول إبراهيم ـ عليه السلام ـ فى أن الله يعلم ما نُسرّ وما نُعلن ؛ ذلك أن كل مُعْلَن لا يكون إلا بعد أن كان مَخْفياً ، وعلى الرغم من أن الله غَيْبٌ إلا أن صلَته لا تقتصر على الغيب ؛ بل تشمل العالم الظاهر والباطن ؛ وكل مظروف فى السماء أو الأرض معلومٌ لله ؛ لأن ما تعتبره أنت غيباً فى ذهنك هو معلوم لله من قبل أن يتحركَ ذهنك إليه .

---

(١) يُقال : ماءٌ زمزمٌ : كثير بين الملح والعَذْب . [لسان العرب ـ مادة : زمزم] .

(٢) نضب الماء : ذهب فى الأرض وبَعُد . ونضب البئر : نزح ماؤه ونشف . [لسان العرب ـ مادة : نضب] .

ولذلك يقول سبحانه فى موقع آخر :

﴿ وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى (٧) ﴾ [طه]

فإذا كان السِّر هو ما أسررْتَ به لغيرك ؛ وخرج منك لأنك استأمنتَ الغير على ألاّ يقوله ، أو كان السر ما أخفيتَه أنت فى نفسك ؛ فالله هو العَالِم به فى الحالتين .

ويقول القرآن :

﴿ وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا .. (٣) ﴾ [التحريم]

أى : أن السِّرَّ كان عند رسول الله ﷺ وانتقل إلى بعضٍ من أزواجه . والأَخْفى هو ما قبل أنْ تبوحَ بالسرِّ ؛ وكتمته ولم تَبُحْ به .

وسبحانه يعلم هذا السر وما تخفيه . أى : السر الذى لم تَقُلْه لأحد ، بل ويعلمه قبل أنْ يكونَ سِراً .

ويقول سبحانه ما قاله إبراهيم ـ عليه السلام ـ ضراعةً وحَمْداً له سبحانه :

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ (٣٩) ﴾ (١)

والوَهْب هو عطاء من مُعْطٍ بلا مقابل منك . وكل الذرية هِبَة ،

---

(١) قال ابن عباس : كان إبراهيم ابن تسع وتسعين سنة عندما ولد له إسماعيل ، وجاءه إسحاق وهو ابن مائة واثنتى عشرة سنة . [تفسير القرطبى ٥/٣٧١٣] .

لو لم تكُنْ هبة لكانت رتيبة بين الزوجين ؛ وأينما يوجد زوجان توجد . ولذلك قال الله :

﴿يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٥٠)﴾ [الشورى]

والدليل على أن الذرية هِبَة هو ما شاءه سبحانه مع زكريا عليه السلام ؛ وقد طلب من الله سبحانه أن يرزقه بغلام يرثه ، على الرغم من أنه قد بلغَ من الكِبَر عتياً[1] وزوجه عاقر ؛ وقد تعجَّب زكريا من ذلك ؛ لأنه أنجب بقوة ، وفى هذا المعنى يقول الحق سبحانه :

﴿كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا (٩)﴾ [مريم]

وهذا يعنى ألاَّ يدخل زكريا فى الأسباب والمُسبِّبات والقوانين .

وقد سمَّى الحق سبحانه الذرية هِبةً ؛ لذلك يجب أن نشكرَ الله على هِبَته ؛ فلا تُرد هِبَته ، إنْ وهبَ لك إناثاً فعلى العين والرأس ؛ لأن الذى يقبل هبة الله فى إنجاب الإناث برضاً يرزقه الله بشباب يتزوجون البنات ؛ ويصبحون أطوعَ له من أبنائه ، رغم أنه لم يَشْقَ فى تربيتهم .

وكل منّا يرى ذلك فى مُحيطه ، فمَنْ أنجب الأولاد الذكور يظل يرقب : هل يتزوج ابنه بمَنْ تخطفه وتجعله أطوعَ لغيره منه .

وإنْ وهب لك الذكور فعلى العين والرأس أيضاً ، وعليك أنْ تطلبَ

---

(١) عتا عتواً وعتياً : أسنَّ وكبر وذهبت نضارته وغضارته . قال تعالى عن زكريا : ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا (٨)﴾ [مريم] . [القاموس القويم ٢/٦] .

من الله أن يكون ابنك من الذرية الصالحة ، وإنْ وهبكَ ذُكْراناً وإناثاً فلكَ أن تشكره ، وتطلب من الله أن يُعينك على تربيتهم .

وعلى مَنْ جعله الحق سبحانه عقيماً أن يشكرَ ربه ؛ لأن العُقْم أيضاً هبةٌ منه سبحانه ؛ فقد رأينا الابن الذى يقتل أباه وأمه ، ورأينا البنت التى تجحد أباها وأمها .

وإنْ قَبِل العاقر هبةَ الله فى ذلك ؛ وأعلن لنفسه ولمَنْ حوله هذا القبول ؛ فالحق سبحانه وتعالى يجعل نظرة الناس كلهم له نظرة أبناء لأب ، ويجعل كل مَنْ يراه من شباب يقول له : « أتريد شيئاً يا عم فلان ؟ » ويخدمه الجميع بمحبة صافية .

وإبراهيم ـ عليه السلام ـ قد قال للحق سبحانه :

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ ..(٣٩) ﴾ [إبراهيم]

والشكر على الهبة ـ كما عرفنا ـ يُشكِّل عطاءَ الذرية فى الشباب ، أو فى الشيخوخة .

وأهل التفسير يقولون فى :

﴿ عَلَى الْكِبَرِ..(٣٩) ﴾ [إبراهيم]

أنه يشكر الحق سبحانه على وَهْبه إسماعيل وإسحق مع أنه كبير . ولماذا يستعمل الحق سبحانه (على) وهى من ثلاثة حروف ؛ بدلاً من « مع » ولم يَقُل : « الحمد لله الذى وهب لى مع الكِبَر إسماعيل وإسحاق » .

وأقول : إن (على) تفيد الاستعلاء ، فالكِبَر ضَعْف ، ولكن إرادة

الله أقوى من الضعف ؛ ولو قال « مع الكبر » فالمعيّة هنا لا تقتضى قوة ، أما قوله :

﴿ وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ .. (٣٩) ﴾ [إبراهيم]

فيجعل قدرة الله فى العطاء فوق الشيخوخة .

وحين يقول إبراهيم عليه السلام ذلك ؛ فهو يشكر الله على استجابته لما قاله من قبل :

﴿ إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ .. (٣٧) ﴾ [إبراهيم]

أى : أنه دعا أن تكونَ له ذرية .

ويُذيِّل الحق سبحانه الآية بقول إبراهيم :

﴿ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٩) ﴾ [إبراهيم]

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ (٤٠) ﴾

وكأن إبراهيم عليه السلام حين دعا بأمر إقامة الصلاة فهذه قضية تخصُّ منهج الله ، وهو يسأل الله أنْ يقبلَ ، ذلك أن الطلبات الأخرى قد طلبها ببشريته ؛ وقد يكون ما طلبه شراً أو خيراً ؛ ولكن الطلب بأن يجعله مُقيماً للصلاة هو وذريته هو طَلَبٌ بالخير .

ويتتابع الدعاء فى قول الحق سبحانه على لسان إبراهيم عليه السلام :

﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾

ونعلم أن طلب الغُفْران من المعصوم إيذانٌ بطلاقة قدرة الله فى الكون ، ذلك أن اختيار الحق سبحانه للرسول - أىّ رسول - لا يُعفى الرسول المختار من الحذَر وطلب المغفرة ، وها هو سيدنا رسول الله ﷺ يقول : « إنى أستغفر الله فى اليوم والليلة مائة مرة »(١) .

وطلب المغفرة من الله إن لم يكُنْ لذنب - كما فى حال الرُّسل المعصومين - فهو من الأدب مع الله ؛ لأن الخالق - سبحانه وتعالى - يستحق منّا فوق ما كلَّفنا به ، فإذا لم نقدر على المندوبات وعلى التطوّعات ؛ فَلْندعُ الحق سبحانه أنْ يغفرَ لنا .

ومنّا مَنْ لا يقدر على الفرائض ؛ فليْدعُ الله أنْ يغفرَ له ؛ ولذلك يُقال : « حسنات الأبرار سيئات المقربين»(٢) .

---

(١) أخرجه الدارمى فى سننه (٢/٣٠٢) ، والحاكم فى مستدركه (٢/٤٥٧) وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وأحمد فى مسنده (٥/٣٩٤) من حديث حذيفة رضى الله عنه أنه قال : كان فى لسانى ذرب على أهلى ولم يكن يعدوهم إلى غيرهم فسألت النبى ﷺ فقال : « أين أنت من الاستغفار ، إنى لأستغفر الله كل يوم مائة مرة » .

(٢) الأبرار والمقربون كلاهما من أهل الجنة ، ولكن الأبرار أقل منزلة من المقربين ، وقد تحدث الله عن الصنفين فقال عن المقربين : ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَـٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِى جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ الآخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾﴾ [الواقعة] الآيات . أما الأبرار فقد قال عنهم : ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الواقعة] الآيات . فلعظم منزلة المقربين قيل : إن الحسنات التى يعملها الأبرار والتى استحقوا بها النعيم فى الجنة هى سيئات فى جانب ما يعمله المقربون .

والحق سبحانه يقول لرسوله ﷺ :

﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا (٢) ﴾ [الفتح]

ولذلك أقول دائماً : إن الحق - جَلَّ جلالُ ذاته - يستحق أن يُعبَد بفوق ما كلّف به ؛ فإذا اقتصرنا على أداء ما كلَّف به سبحانه ؛ فكأننا لم نُؤدِّ كامل الشُّكْر ؛ وما بالنا إذا كان مثل هذا الحال هو سلوك الرُّسل ، خصوصاً وأن الحق سبحانه قد زادهم عن خَلْقه اصطفاءً ؛ أفلا يزيدنه شُكْراً وطلباً للمغفرة ؟

ونلحظ أن طلب المغفرة هنا قد شمل الوالدين والمؤمنين :

﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ[1] وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ (٤١) ﴾[إبراهيم]

والإنسان كما نعلم له وجود أصليّ من آدم عليه السلام ؛ وله وجود مباشر من أبويْه ، وما دام الإنسان قد جاء إلى الدنيا بسبب من والديْه ، وصار مؤمناً فهو يدعو لهما بالمغفرة ، أو : أن الأُسْوة كانت منهما ؛ لذلك يدعو لهما بالمغفرة .

والإنسان يدعو للمؤمنين بالمغفرة ؛ لأنهم كانوا صُحْبة له وقُدْوة ، وتواصى معهم وتواصوا معه بالحق والصبر ، وكأن إبراهيم - عليه السلام - صاحب الدعاء يدعو للمؤمنين من ذريته ؛ وتلك دعوة وشفاعة منه لمَنْ آمن ؛ ويرجو الحقَّ سبحانه أنْ يتقبلها .

---

(١) ذكر القرطبى فى تفسيره (٥/٣٧١٤) قراءتين أخريين لهذه الكلمة :

- (لِوالِدى) يعنى أباه . وهى قراءة سعيد بن جبير . وذلك قبل أن يثبت عنده أنه عدو لله .

- (لِوَلَدَيَّ) يعنى ابنيه . وهى قراءة إبراهيم النخعى ، ويحيى بن يعمر . ولذلك قيل : إنه أراد ولديه : إسماعيل وإسحاق .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ (١) ﴿٤٢﴾ ﴾

وبعد أن ذكر الحق سبحانه وأوضح النِّعم العامة على الكون ، والنعم الخاصة التى أنعم بها سبحانه على مَنْ توطَّنوا مكة ، ومن نسلهم مَنْ وقف ضد رسول الله ﷺ موقف العَنَت ، بعد ذلك جاء الحق سبحانه بهذه الآية تعزيةً وتسرية عن رسول الله ﷺ :

﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ .. ﴿٤٢﴾ ﴾ [إبراهيم]

وأرضية التصوير التى سبقتْها تشتمل بدايةَ التكوين لهذا المكان الذى وُجدوا به ، وكيفية مَجىء النعم إلى مَنْ توطنوا هذا المكان ؛ حيث تجىء إليهم الثمرات ، ونعمة المَهَابة لهم حيث يعصف سبحانه بمَنْ يُعاديهم كأبرهة ومَنْ معه .

﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ (٢) مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾ ﴾ [الفيل]

حيث يقول سبحانه من بعد هذه الآية مباشرة :

﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِيلَافِهِمْ (٣) رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ

---

(١) شخص بصره : انفتحت عيناه فلا تطرف من الخوف والفزع والحيرة . [القاموس القويم ١/٣٤٣] .

(٢) العصف المأكول : التبن أو ورق الشجر الذى أصابه مرض الأكال فتآكلت منه أجزاء . [القاموس القويم ٢/٢٣] .

(٣) الإيلاف : الاعتياد والأنس بالشىء ومحبته . والإيلاف أيضاً : العهد يؤخذ لتأمين خروج التجارة من أرض إلى أرض . قال ابن الأعرابى : أصحاب الإيلاف أربعة إخوة بنى عبد مناف : هاشم أخذ عهداً من ملك الروم ، ونوفل أخذ عهداً من كسرى ، وعبد شمس أخذ عهداً من النجاشى ، والمطلب أخذ عهداً من ملوك حمْير باليمن . فكان تجار قريش يترددون على هذه الأمصار بعهود هؤلاء الإخوة فلا يتعرض لَهم أحد .[لسان العرب ـ مادة : ألف] .

هَـٰذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِى أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ (٤) ﴾ [قريش]

ورغم ذلك وقفوا من دعوة رسول الله ﷺ موقف الإنكار والتعنُّت والتصدِّى والجُحُود ، وحاولوا الاستعانة بكل خُصوم الإسلام ؛ ليحاربوا هذا الدين ؛ ولذلك يوضح الحق سبحانه هنا تسريةً عن الرسول الكريم :

﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ .. (٤٢) ﴾ [إبراهيم]

لماذا ؟ وتأتى الإجابة فى النصف الثانى من الآية :

﴿ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ (٤٢) ﴾ [إبراهيم]

وقوله الحق :

﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ .. (٤٢) ﴾ [إبراهيم]

أى : لا تظننّ ؛ فَحَسِب هنا ليست من الحساب والعدّ ، ولكنها من « حسب » « يحسب » ؛ وقوله الحق الذى يوضح هذه المسألة :

﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ[1] (٢) ﴾

[العنكبوت]

أى : أَظَنَّ الناس . فحسِب يحسَب ليستْ ـ إذن ـ من العَدِّ ؛ ولكن من الظنِّ . والحُسْبان نسبة كلامية غير مَجْزوم بها ؛ ولكنها راجحة .

---

(١) الفتنة : الاختبار والابتلاء بالشدائد والمصائب ونقص الأموال والأولاد والثمرات ليُعرف مدى صدق المؤمنين . [القاموس القويم ٢/٧١] .

والغفلة التى ينفيها سبحانه عنه ؛ هى السَّهْو عن أمر لعدم اليقظة أو الانتباه ، وطبعاً وبداهةً فهذا أَمْرٌ لا يكون منه سبحانه ، فهو القيُّوم الذى لا تأخذه سِنَة ولا نوم .

وهنا يخاطب الحق سبحانه رسوله والمؤمنين معه تبعاً ؛ فحين يخاطب الحق سبحانه رسوله ﷺ فهو يخاطب فى نفس الوقت كلَّ مَنْ آمن به .

ولكن ، أكانَ الرسول يظنُّ الله غافلاً ؟

لا ، ولنلحظْ أن الله حين يُوجِّه بشىء فقد يحمل التوجيه أمراً يُنفّذه الإنسانُ فعلاً ؛ ويطلب الله منه الاستدامة على هذا الفعل .

والمَثَلُ : حين تقول لواحد لا يشرب الخمر « لا تشرب الخمر » وهو لا يشرب الخمر ؛ فأنت تطالبه بقولك هذا أنْ يستمرَّ فى عدم شُرْب الخمر ، أى : استمِرّ على ما أنت عليه ، فعلاً فى الأَمْر ، أو امتناعاً فى النهى .

وهل يمكن أن تأتى الغفلة لله ؟

وأقول : حين ترى صفةً توجد فى البشر ؛ ولا توجد فى الحق سبحانه فعليك أنْ تُفسِّر الأمر بالكمالات التى لله .

والذى يفعل ظلماً سيتلقى عقاباً عليه ، وحين يتأخر العقاب يتساءل الذين رَأَوْا فعْل الظُّلم فهم يتهامسون : تُرَى هل تَمَّ نسيان الظلم الذى ارتكبه فلاَن ؟ هل هناك غفلة فى الأمر ؟

وهم فى تساؤلاتهم هذه يريدون أن يعلنوا موقفهم من مرتكب الذنب ؛ وضرورة عقابه ، وعلى ذلك نفهم كلمة :

﴿ غَافِلاً (٤٢) ﴾ [إبراهيم]

فى هذه الآية بمعنى « مُؤجِّل العقوبة » .

ولمن يتساءلون عليهم أنْ يتذكَّروا قول الحق سبحانه :

﴿ وَأُمْلِى[1] لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ (١٨٣) ﴾ [الأعراف]

وعلى ذلك فليست هناك غفلة ؛ ولكن هناك تأجيل للعقوبة لهؤلاء الظالمين ؛ ذلك أن الظلم يعنى أخْذ حقٍّ من صاحبه وإعطاءه للغير ؛ أو أخْذه للنفس .

وإذا كان الظلم فى أمر عقدىّ فهو **الشرك** ؛ وهو الجريمة العظمى ، وإنْ ظلمتَ فى أمر كبيرة من الكبائر فهذا هو **الفِسْق** ، وإنْ ظلمتَ فى صغيرة فهو **الظلم** .

ولذلك نجد الحق - سبحانه وتعالى - يُورِد كل حكم يناسب الثلاثة مواقف ؛ فيقول عن الذى تغاضى عن تجريم الشرك :

﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَـٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ (٤٤) ﴾ [المائدة]

ويقول عن تجريم كبيرة من الكبائر :

﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَـٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٤٧) ﴾ [المائدة]

ويقول عمَّنْ يتغاضى عن تجريم صغيرة بما يناسبها من أحكام الدين :

﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَـٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٤٥) ﴾ [المائدة]

وإذا وُجِد محكوم عليه ، وهو واحد - بأحكام متعددة فالحكم مُتوقِّف على ما حكم به .

---

(١) الإملاء : الإمهال والتأخير وإطالة العمر . وأملى الله له : أمهله وطوّل له . [لسان العرب - مادة : ملا] .

وحين ننظر فى مسألة الظلم هذه نجد أن الظالم يقتضى مظلوماً ، فإنْ كان الظُّلْم ـ والعياذ بالله ـ هو ظُلم القمة وهو الشرك بالله ، فهذا الظلم ينقسم ـ عند العلماء ـ إلى ثلاثة أنواع :

النوع الأول : وهو إنكار وجود الله وألوهيته دون أن ينسبها لأحد آخر ؛ وهذا هو الإلحاد ، وهو ظُلْم فى واجب وجوديته سبحانه .

والنوع الثانى : هو الاعتراف بألوهية الله ، وإشراك آخرين معه فى الألوهية ، وهذا الشرك ظُلْم للحق فى ذاتية وواحدية تفرُّده .

والنوع الثالث : هو القول بأن الله مُكوَّن من أجزاء ؛ وهذا ظُلْم لله فى أحدية ذاته .

ويقول بعض العارفين : إن أول حقٍّ فى الوجود هو وجوده سبحانه .

ومنهم الشاعر الذى قال :

وأوَّل حَقٍّ فى الوُجُودِ وُجُوده ... وكُلُّ حُقُوقِ الكوْنِ منه استمدَّت
فَلا هُو جَمْعٌ كمَا قال مُشْرِكٌ ... ولاَ هُوَ فى الأَجْزاءِ يَا حُسْن مِلَّتى[1]

والظلم الذى ورد فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها ، هو ظلم القمة ؛ ظُلْم فى العقيدة الإلهية ، ومعه ظلم آخر هو ظلم الرسول ﷺ . ويُلخِّص الشاعر ظُلْمهم للرسول ﷺ فيقول :

---

(١) أى : يا حُسْن ملة الإسلام التى جاءت من عند الله مثبتة وجوده دون شريك له فى الملك ودون أن يكون مكوناً من أجزاء ، فأثبتت له سبحانه وجوبية وجوده ، وواحدية تفرده ، وأحدية ذاته سبحانه . (ع)

لَقَّبتمُوه أمِيناً فى صِغَرٍ وَمَا الأمينُ علَى قَوْلٍ بِمُتَّهمِ

وهم قد سَمَّوا الرسول من قبل الرسالة بالأمين ؛ وبعد الرسالة نزعوا منه هذا الوصف ، وكانوا يَصِفونه قبل الرسالة بالصادق ، ولم يقولوا عنه مرة قبل الرسالة إنه ساحر ، ولم يتهموه من قبل الرسالة بالجنون .

فكيف كانت له أوصاف الصِّدق والنطق بالحق ؛ والتحدث عن رجاحة قدرته فى الحكم ؟

كيف كانت له تلك الصفات قبل الرسالة ؛ وتنزعونها منه من بعد الرسالة ؟

إن هذا هو ظلم سلْب الكمال ، فقد كان للرسول ﷺ كمال قبل أن يُرسلَ ؛ فظلمتموه بعد الرسالة وأنكرتم عليه هذا الكمال ؛ وهو ظُلْم مُزْدَوج .

فقد سبق أن اعترفتم له من قبل الرسالة بالأمانة ؛ ولكن من بعد الرسالة أنكرتُم أمانته ، وكان صادقاً من قبل الرسالة ؛ وقلتم إنه غَيْر صادق بعدها .

ولم تكن له صفة نَقْص قبل الرسالة ؛ فجئتم أنتم له بصفة نقص ؛ كقولكم : ساحر ؛ كاهن ؛ مجنون ، وفى هذا ظُلْم للرسول ﷺ .

وهذا أيضاً ظُلْم للمجتمع الذى تعيشون فيه ، لأن مَنْ يريد استمرار الاستبداد بكلمة الكفر ، ويريد أن يستمرَّ فى السيادة

والاستغلال والتحكُّم فى الغير ؛ فكُلُّ ذلك ظُلْم للمجتمع ؛ وفوق ذلك ظُلْم للنفس ؛ لأن مَنْ يفعل ذلك قد يأخذ متعة بسيطة ؛ ويحرِم نفسه من متعة كبيرة ؛ هى متعة الحياة فى ظِلِّ منهج الله ، وينطبق عليه قول الحق الرحمن :

﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٨)﴾ [النحل]

وفوق ظُلْم النفس وظُلْم المجتمع هناك ظُلْم يمارسه هذا النوع من البشر ضد الكون كُلِّه فيما دون الإنسان ؛ من جماد وحيوان ونبات ؛ ذلك أن الإنسانَ حين لا يكون على منهج خالقه ؛ والكون كله مُسخَّر لمنهج الخالق ؛ فلن يرعى الإنسانُ ذلك فى تعامله مع الكون ، وسبحانه القائل :

﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ .. (٤٤)﴾ [الإسراء]

حين يُسبِّح كل ما فى الكون يشذّ عن ذلك إنسانٌ لا يتبع منهج الله ؛ فالكون كله يكرهه ، وبذلك يظلم الإنسان نفسه ويظلم الكون أيضاً .

وهكذا عرفنا ظُلْم القمة فى إنكار الألوهية ، أو الشرك به سبحانه ، أو توهُّم أنه من أجزاء ، وظُلْم نزع الكمال عن الرسول ؛ وهو الواسطة التى جاءت بخبر الإيمان ؛ وظُلْم الكون كله ؛ لأن الكون بكل أجناسه مُسبّح لله .

وقول الحق سبحانه :

﴿وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ .. (٤٢)﴾ [إبراهيم]

نجد فيه كلمة « يعمل » . ونعلم أن هناك فَرْقاً بين « عمل » و « فعل » ، والفعل هو أحداث كل الجوارح ، ما عدا اللسان الذى يقال عن حدثه « القول » .

فكل الجوارح يأخذ الحادث منها اسماً ؛ وحدث اللسان يأخذ اسماً بمفرده ، ذلك أن الذى يكب[1] الناس على مناخرهم فى النار إنما هو حصائد ألسنتهم[2] ، والفعل والقول يجمعهما كلمة « عمل » .

وهنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها يقول الحق سبحانه « يعمل » ، ذلك أن المشركين الذين استقبلوا القرآن كانوا يُرْجِفون[3] بالإسلام وبالرسول ﷺ بالكلام ؛ وكل الأفعال التى قاموا بها نشأتْ عن طريق تحريض بالكلام .

وتأتى هذه الآية الكريمة التى يُؤكّد فيها سبحانه أنه يُمكّن لهم الذنوب ليُمكِّن لهم العقوبة أيضاً ؛ ويأتى قوله :

﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ (٤٢)﴾ [إبراهيم]

ونعلم أنه قد حدثتْ لهم بعضٌ من الظواهر التى تؤكد قُرْب انتصار رسول الله ﷺ ؛ فَقُتل صناديدهم وبعض من سادتهم فى

---

(١) كب الشىء يكبه : قلبه . وكبّه لوجه فانكب أى : صرعه .[لسان العرب ـ مادة : كبب] .

(٢) عن معاذ بن جبل أنه قال : يا نبى الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به ؟ فقال : « ثكلتك أمك يا معاذ ، وهل يكب الناس فى النار على وجوههم أو على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم » أخرجه أحمد فى مسنده (٥/٢٣١ ، ٢٣٦) والترمذى فى سننه (٢٦١٦) وقال : « حسن صحيح » .

(٣) أرجف القوم إذا خاضوا فى الأخبار السيئة وذكر الفتن . قال تعالى : ﴿وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ .. (٦٠)﴾ [الأحزاب] هم الذين يُولِّدون الأخبار الكاذبة التى يكون معها اضطراب فى الناس . [لسان العرب ـ مادة : رجف] .

بدر ؛ وأُسر كبراؤهم ، وهكذا شاء سبحانه أنْ يأتىَ بالوعد أو الوعيد ؛ جاء بالأمر الذى يدخل فيه كُلُّ السامعين ، وهو عذابُ الآخرة ؛ إنْ ظَلُّوا على الشرك ومقاومة الرسالة .

و : ﴿تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ (٤٢)﴾ [إبراهيم]

يعنى : تفتح بصورة لا يتقلَّب بها يَمْنة أو يَسْرة من هَوْل ما يرى ؛ وقد يكون عدم تقلُّب البصر من فَرْط جمال ما يرى ، والذى يُفرِّق بينهما سِيَال خاص بخَلْق الله فقط ؛ وهو سبحانه الذى يخلقه .

فحين ترى إنساناً مذعوراً من فَرْط الخوف ؛ فسحْنته تتشكَّل بشكل هذا الخوف ، أما مَنْ نظر إلى شىء جميل وشخصتْ عيناه له ، يصبح لملامحه انسجامُ ارتواء النظر إلى الجمال ؛ ولذلك يقول الشاعر :

جَمَالُ الذى أهْواهُ قَيْد نَاظِرىّ فَلَيْتَ لِشَىءٍ غيرِه يتحوَّلِ

ويمكننا أن نفرق بين الخائف وبين المستمتع بملامح الوجه المنبسطة أو المذعورة .

ونعلم أن البصر ابن للمرائى ؛ فساعة تتعدّد المرائى ؛ فالبصر يتنقّل بينها ؛ ولذلك فالشخص المُبصِر مُشتَّت المرائى دائماً ؛ ويتنقل ذِهْنه من هنا إلى هناك .

أما مَنْ أنعم الله عليهم بنعمة حَجْز أبصارهم ـ المكفوفين ـ فلا تشغله المرائى ؛ ولذلك نجدهم أحرصَ الناس على العِلْم ؛ فأذهانهم غير مشغولة بأىِّ شىء آخر ، وبُؤْرة شعور كل منهم تستقبل عن طريق الأذن ما يثبت فيها .

ولذلك يقال عنهم « صناديق العلم » إنْ أرادوا أنْ يعلموا ؛ فلا أحدَ من الذين يتعلمون منهم يكون فارغاً أبداً ، مثَله مِثل الصندوق الذى لا يفرغ .

ولا أحد يتحكم فى العاطفة الناشئة عن الغرائز إلا الله ؛ فأنت لا تقول لنفسك « اغضب » أو « اضحك » ؛ لأنه هو سبحانه الذى يملك ذلك ، وهو القائل :

﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ (٤٣) ﴾ [النجم]

والضحك والبكاء مسائل قَسْرية لا دخلَ لأحد بها .

ونجد الحق سبحانه يقول فى موقع آخر من القرآن :

﴿ وَإِذْ زَاغَتِ[1] الأَبْصَارُ .. (١٠) ﴾ [الأحزاب]

فمرّة تشخص الأبصار ، ويستولى الرعب على أصحابها فلا يتحولون عن المشهد المُرْعِب ، ومرَّة تزوغ الأبصار لعله يبحث لنفسه عن مَنْفذ أو مَهْربٍ فلا يجد .

ويكمل الحق سبحانه صورة هؤلاء الذين تزوغ أبصارهم ، فيقول :

﴿ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي[2] رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ (٤٣) ﴾

---

(١) زاغ البصر : اضطرب ولم يحقق ما يرى ، أو انحرف عن القصد فلم يَرَ شيئاً . وزيغ الأبصار : اضطرابها لشدة الفزع . [القاموس القويم ١/ ٢٩٤] .

(٢) المقنع : الذى يرفع رأسه ينظر فى ذل . والإقناع : رفع الرأس والنظر فى ذل وخشوع . [لسان العرب ـ مادة : قنع] .

والمُهْطِع هو مَنْ يظهر من فَرْط تسرُّعه وكأن رقبته قد طالتْ ، لأن المُهْطِع هو مَنْ فيه طُول ، وكأن الجزاء بالعذاب يجذب المَجْزِىّ ليقربه ، فَيُدفَع فى شدة وجفوة إلى العذاب ، يقول الحق سبحانه :

﴿ يُدَعُّونَ[1] إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا (١٣) ﴾ [الطور]

وكأن هناك مَنْ يدفعهم دَفْعاً إلى مصيرهم المُؤْلم . وهم :

﴿ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ .. (٤٣) ﴾ [إبراهيم]

أى : رافعين رءوسهم من فَرْط الدهشة لِهوْل العذاب الذى ينتظرهم .

وفى موقع آخر يُصوِّرهم الحق سبحانه :

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلالاً فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ[2] فَهُم مُّقْمَحُونَ (٨) ﴾ [يس]

وهكذا تكون صورتهم مُفْزِعة من فَرْط المهانة ؛ فبصَرُ الواحد منهم شَاخِص إلى العذاب مُنجذب إليه بسرعة لا يتحكَّم فيها ؛ ورأسه مرفوعة من فَرْط الهَوْل ؛ ومُقْمَح[3] بالأغلال .

---

(١) دعه يدعه : دفعه فى جفوة . والدَّعُّ : الطرد والدفع فى انتهار وزجر . [لسان العرب - مادة : دعع] .

(٢) الذقن : مجتمع اللحيين أسفل الوجه ، ويُطلق على ما ينبت عليه من الشعر مجازاً ، وقد يُطلق على الوجه كله . [القاموس القويم ١/٢٤٣] .

(٣) المقمح : الخاضع الذليل لا يكاد يرفع بصره . قال الأزهرى : أراد عز وجل أن أيديهم لما غُلَّتْ عند أعناقهم رفعت الأغلال أذقانهم ورؤوسهم صعداً كالإبل الرافعة رؤوسها . [لسان العرب - مادة : قمح] .

ولا يستطيع الواحد منهم أن تجفل جفونه ، وكأنها مفتوحةٌ رَغْماً عنه ؛ وفؤاده هواء بمعنى : أنْ لا شيءَ قادرٌ على أن يدخله .

ونحن نلحظُ ذلك حين نضع زجاجة فارغة فى قلب الماء ؛ فتخرج فقاقيع الهواء مقابلَ دخولِ الماء من فُوهتها .

ونعلم أن قَلْب المؤمن يكون ممتلئاً بالإيمان ؛ أما الكافر المُلْحد فهو فى مثل تلك اللحظة يستعرض تاريخه مع الله ومع الدين ؛ فلا يجد فيها شيئاً يُطمئِن ، وهكذا يكتشف أن فؤاده خَالٍ فارغ ؛ لا يطمئن به إلى ما يُواجه به لحظة الحساب .

ونجد بعضاً مِمَّنْ شاهدوا لحظات احتضار[1] غيرهم يقولون عن احتضار المؤمن « كان مُشرِق الوجه متلألىء الملامح » . أما ما يقولونه عن لحظة احتضار الكافر ؛ فهم يحكُونَ عن بشاعة ملامحه فى تلك اللحظة .

والسبب فى هذا أن الإنسان فى مثل هذه اللحظات يستعرض تاريخه مع الله ، ويرى شريط عمله كله ؛ فمَنْ قضى حياته وهو يُرضِى الله ؛ لابُدَّ أن يشعر بالراحة ، ومَنْ قضى حياته وهو كافر مُلْحد فلابُدّ أن يشعرَ بالمصير المُرْعب الذى ينتظره .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

---

(١) حُضِر المريض واحتُضِر : إذا نزل به الموت ودنا منه أجله . [لسان العرب ـ مادة : حضر] .

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ[1] (٢٤) تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ[2] (٢٥) ﴾ [القيامة]

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ (٤٤) ﴾

وهذا خطاب من الحق سبحانه لرسوله ﷺ أن يُنذِرهم بضرورة الاستعداد ليوم القيامة ، وأنه قادمٌ لا محالةَ .

وكلمة « يوم » هى ظَرْف زمان ، وظرف الزمان لا بُدَّ له من حَدث يقع فيه ، ويوم القيامة ليس محلَّ إنذار أو تبشير ؛ لأن الإنذار أو البشارة لا بُدّ أنْ يكونا فى وقت التكليف فى الحياة الدنيا .

وهكذا يكون المُنْذر به هو تخويفهم ممّا يحدث لهم فى هذا اليوم ، فما سوف يحدث لهم هو العذاب ؛ وكأنه قنبلة موقوتة ما إنْ يأتى يوم القيامة حتى تنفجر فى وجوههم .

وهنا يقول أهل ظُلْم القمة فى العقيدة ، وظُلْم الرسالة بمقاومتها ؛ وظلم الكون المُسبِّح لله :

﴿ رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ .. (٤٤) ﴾

[إبراهيم]

---

(١) باسرة : كالحة عابسة كناية عن الهم والغم والخوف الشديد . [القاموس القويم ١/٦٦].

(٢) الفاقرة : الداهية تكسر فقار الظهر . [القاموس القويم ٢/٨٦] .

وهم يطلبون تأجيل العذاب لِمُهْلة بسيطة ، يُثبتون فيها أنهم سيُجيبون الدعوة ويطيعون الرسول ، وهم يطلبون بذلك تأجيل قيامتهم .

فيكون الجواب من الحق سبحانه :

﴿أَوَ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ (٤٤)﴾ [إبراهيم]

فأنتم قد سبق وأنْ أقسمتُم بأن الله لا يبعث مَنْ يموت ؛ وقد قال الحق سبحانه ما قلتم :

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ .. (٣٨)﴾

[النحل]

وساعة ترى كلمة « بلى » بعد نَدْب ، فهذا يعنى تكذيب ما جاء قبلها ، وهم فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها ظَنُّوا أنهم لن يُبعثُوا ، وظنُّوا أنهم بعد الموت سيصيرون تراباً ؛ وهم الذين قالوا :

﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٣٧)﴾

[المؤمنون]

وهكذا أكَّدوا لأنفسهم أنه لا بَعْث من بَعْد الحياة ، ومن بعد البعث سنسمع من كل فرد فيهم :

﴿يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا (٤٠)﴾ [النبأ]

أو : أنهم ظَنُّوا أن الذين أنعَم الله عليهم فى الدنيا ؛ لن يحرمهم فى الآخرة ، كما أورد الحق سبحانه هذا المَثَل ، فى قوله تعالى :

﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ[1] مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا (٣٢) كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَرًا (٣٣) وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا (٣٤) وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَـٰذِهِ أَبَدًا (٣٥) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا (٣٦) ﴾ [الكهف]

والذى يقول ذلك فَهِم أنه سوف يموت ؛ لكنه توهّم أن جنته تلك ستظل على ما هى عليه ، وأنكر قيام الساعة ، وقال : « حتى لو قامت الساعة ، ورُددتُ إلى الله فسأجد أفضل من جنتى تلك » .

وهو يدعى ذلك وهو لم يُقدّم إيماناً بالله ليجده فى الآخرة ، فهو إذن ممَّنْ أنكروا الزوال أى البعث من جديد ، ووقع فى دائرة مَنْ لم يُصدّقوا البعث ، وسبق أنْ قال الحق سبحانه ما أورده على ألسنتهم :

﴿ أَئِذَا ضَلَلْنَا[2] فِي الأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ (١٠) ﴾ [السجدة]

والذين أنكروا البعث يُورِد الحق سبحانه لنا حواراً بينه وبينهم ، فيقول سبحانه وتعالى :

﴿ قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ (١١) ﴾ [غافر]

---

(١) الجنة : حديقة ذات شجر كثير ملتف يستر الأرض . [القاموس القويم ١/١٣٣] .

(٢) ضل فى الأرض : مات وصار تراباً فَضَلَّ فلم يتبين شىء من خلقه . [لسان العرب - مادة : ضلل] .

فيرد الحق سبحانه عليهم :

﴿ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ (١٢) ﴾ [غافر]

وفى موقع آخر من القرآن نجد حواراً واستجداءً منهم لله ؛ يقولون :

﴿ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا .. (١٢) ﴾ [السجدة]

ويأتى رَدُّ الحق سبحانه عليهم :

﴿ فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ ..(١٤) ﴾ [السجدة]

وفى موقع ثالث يقول الواحد منهم عند الموت :

﴿ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ .. (١٠٠) ﴾

[المؤمنون]

فيأتى ردّ الحق سبحانه :

﴿ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا ..(١٠٠) ﴾ [المؤمنون]

وبعد دخولهم النار يقولون :

﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ (١٠٧) ﴾ [المؤمنون]

فيقول الحق سبحانه :

﴿ قَالَ اخْسَئُوا[1] فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ (١٠٨) ﴾ [المؤمنون]

---

(١) اخسأوا : انزجروا وابعدوا عنى فى النار ولا تكلمونى . [القاموس القويم ١/١٩٢] والخاسىء : الصاغر الذليل . [المعجم الوجيز ـ مادة : خسأ] .

وفى موضع آخر يقولون عند اصطراخهم[1] فى النار :

﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ .. (٣٧) ﴾ [فاطر]

فيأتى الرد من الحق سبحانه :

﴿ أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ (٣٧) ﴾ [فاطر]

ونلحظ أنهم فى كل آيات التوسُّل لله كى يعودوا إلى الحياة الدنيا يقولون (ربنا) ، وتناسَوْا أنهم مأخوذون إلى العذاب بمخالفات الألوهية ؛ ذلك أن الربوبية عطاؤها كان لكم فى الدنيا ، ولم ينقصكم الحق سبحانه شيئاً على الرغم من كفركم .

هكذا يكون حال هؤلاء الذين أقسموا أن الحق سبحانه لن يبعثهم ، وأنكروا يوم القيامة ، وأنه لا زوال لهم . أى : لا بَعْث ولا نشور .

ويتابع الحق سبحانه القول الكريم :

﴿ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ[2] وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ (٤٥) ﴾

والسكون هو الاطمئنان إلى الشىء من عدم الإزعاج ، ونعلم أن

---

(١) اصطرخ القوم وتصارخوا : استغاثوا . والاصطراخ : التصارخ . [لسان العرب ـ مادة : صرخ] .

(٢) قال قتادة : سكن الناس فى مساكن قوم نوح وعاد وثمود . وقرون بين ذلك كثيرة ممن هلك من الأمم . [الدر المنثور ٥/٥٢] .

المرأة فى الزواج تعتبر سكناً ، والبيت سكن ، وهنا يتكلم الحق سبحانه عن مساكن الذين ظلموا أنفسهم ، أى : أنكم لم تتعظُوا بالسوابق التى ما كان يجب أن تغيبَ عنكم ، فأنتم تمرون فى رحلات الصيف والشتاء على مدائن صالح ، وترون آثار الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والشرك ، وتمرون على الأحقاف[1] ؛ وترون ماذا حاقَ بقوم عاد .

وكُلٌّ أولئك نالوا العقاب من الله ، سواء بالريح الصرصر[2] العاتية ، أو : أنه سبحانه قد أرسل عليهم حاصباً[3] من السماء ، أو : أنزل عليهم الصيحة ؛ أو : أغرقهم كآل فرعون ، وأخذ كل قوم من هؤلاء بذنبه .

وصدق الله وَعْده فى عذاب الدنيا ؛ فلماذا لم تأخذوا عبْرة من ذلك ؛ وأنه سبحانه وتعالى صادق حين تحدَّث عن عذاب الآخرة ؟

وهنا قال الحق سبحانه :

﴿ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ .. (٤٥) ﴾ [إبراهيم]

وفى آية أخرى يقول سبحانه :

﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٣٨) ﴾

[الصافات]

---

(١) الأحقاف : منازل قوم عاد بظاهر بلاد اليمن . والحقف من الرمل : المتعرج أو المستطيل أو المستدير من الرمل . [القاموس القويم ١/١٦٣] بزيادة .

(٢) الريح الصرصر : الشديدة البرد . وقيل : الشديدة الصوت . [لسان العرب ـ مادة : صرر] .

(٣) حصبه : قذفه بالحصى . والحاصب : إعصار شديد يقذفكم بالحصى فيهلككم . [القاموس القويم ١/١٥٦] .

أى : أنكم تمرُّون على تلك الأماكن التى أقامها بعضٌ مِمَّنْ سبقُوكم وظلمُوا أنفسهم بالكفر ؛ وأنزل الحق سبحانه عليهم العقاب ؛ ولذلك يقول فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها :

﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ (٤٥)﴾ [إبراهيم]

نعم ؛ فحين تمشى فى أرض قوم عاد ، وترى حضارتهم التى قال عنها الحق سبحانه :

﴿إِرَمَ[1] ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ (٨)﴾ [الفجر]

وهى حضارة لم نكتشف آثارها بعد ؛ وما زالت فى المطمورات ، وكل مطمور فى الأرض بفعل من غضب السماء ؛ تضع السماءُ ميعادَ كشف له ليتعظَ أهلُ الأرض ؛ ويحدث هذا الكشف كلما زاد الإلحاد واستشرى .

قد حدث أن اكتشفنا حضارة ثمود ، وكذلك حضارة الفراعنة ؛ وهى الحضارة التى سبقتْ كل الحضارات فى العلوم والتكنولوجيا ، ورغم ذلك لم يعرف أصحاب تلك الحضارة أن يصونوها من الاندثار الذى شاءه الله .

وما زال الناس يتساءلون : لماذا لم يترك المصريون القدماء خبرتهم الحضارية مكتوبة ومُسجّلة فى خطوات يمكن أن تفهمها البشرية من بعد ذلك ؟

---

(١) إرم : اسم قبيلة منها عاد ـ وقيل هى مدينة كبيرة لهم ـ وزعم الكندى فى كتابه فضائل مصر : أنها مدينة الإسكندرية . وقوله : (ذات العماد) يدل على أنها ذات حضارة ومبان عالية . [القاموس القويم ١/١٨] .

﴿ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ (٤٥) ﴾ [إبراهيم]

أى : أن الحق سبحانه يوضح هنا أن مشيئته فى إنزال العقاب قد وَضُحَتْ أمام الذين عاصروا رسالة محمد ﷺ فى مساكن الأقوام التى سبقتهم ؛ وكفروا برسالات الرسل ، وسبق أن ضرب لهم الحق سبحانه الأمثال بهؤلاء القوم وبما حدث لهم . والمَثَلُ إنما يضربه الله لِيُقرِّب بالشىء الحسى ما يُقرِّب إلى الأذهانِ الشىءَ المعنوى .

ويستمر قوله الحق من بعد ذلك :

﴿ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ (٤٦) ﴾

والمكْر ـ كما نعلم ـ هو تبييت الكَيْد فى خفاء مستور ، ومأخوذ من الشجرة المكمورة ؛ أى : الشجرة التى تُدارِى نفسها . ونحن نرى فى البساتين الكبيرة شجرةً فى حجم الإصْبَع ؛ وهى مجدولةٌ على شجرة أخرى كبيرة . ولا تستطيع أن تتعرف على ورقة منها ، أو أن تنسب تلك الورقة إلى مكان خروجها ، ومن أىّ فرع فى الشجرة المُلْتفة إلا إذا نزعتها من حول الشجرة التى تلتفّ من حولها .

ومَنْ يُبيِّت إنما يشهد على نفسه بالجُبْن والضعف وعدم القدرة على المواجهة ، قد يصلح أن تُبيِّت ضد مُسَاوٍ لك ؛ أما أنْ تُبيّت على الحى القيوم الذى لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء ؛ فتلك هى الخيبة بعينها .

ولذلك يقول الحق سبحانه فى مواجهة ذلك :

﴿ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٥٤) ﴾ [آل عمران]

وقال عن مكْر هؤلاء :

﴿ وَلا يَحِيقُ[1] الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ (٤٣) ﴾ [فاطر]

ونعلم أننا حين ننسب صِفةً لله فنحن نأخذها فى إطار :

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ .. (١١) ﴾ [الشورى]

وعادة ما ننسب كل فعل من الله للخير ، كقوله سبحانه :

﴿ وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ (٨٩) ﴾ [الأنبياء]

﴿ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٥٤) ﴾ [آل عمران]

وقوله هنا :

﴿ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ .. (٤٦) ﴾ [إبراهيم]

أى : قاموا بالتبييت المناسب لحيلتهم ولتفكيرهم ولقوتهم ؛ فإذا ما قابل الحق سبحانه ذلك ؛ فلسوف يقابله بما يناسب قوته وقدرته المطلقة ، وهو سبحانه قد علم أزلاً بما سوف يمكرونه ، وتركهم فى مكْرهم .

فانتصارات الرسالات مرهونٌ بقوة المُرْسَل وأتباعه ، وهم

---

(١) حاق به الشىء : أصابه وأحاط به . وحاق به الأمر : لزمه ووجب عليه . والحيق : ما يصيب الإنسان من مكروه فعله . [المعجم الوجيز ـ مادة : حيق] .

يقابلون خصوماً هُم حيثية وجود الرسالة ؛ ذلك أنهم قد ملأوا الأرض بالفساد ، ويريدون الحفاظ على الفساد الذى يحفظ لهم السلطة ؛ والدين الجديد سيدُكُّ سيادتهم ويُزلزلها ؛ لذلك لا بُدَّ ألاّ يدخروا وُسْعاً فى محاولة الكَيْد والإيقاع بالرسول للقضاء على الرسالة .

وقد حاولوا ذلك بالمواجهة وقت أنْ كان الإسلام فى بدايته ؛ فأخذوا الضعاف الذين أسلموا ، وبدءوا فى تعذيبهم ؛ ولم يرجع واحد من هؤلاء عن الدين .

وحاولوا بالحرب ؛ فنصر الله الذين آمنوا ، ولم يَبْق لهم إلا المكْر ، وسبحانه القائل :

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ[1] أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٣٠) ﴾ [الأنفال]

وحاولوا أن يفسدوا خليّة الإيمان الأولى ، وهى محمد بن عبد الله ﷺ ، وظنُّوا أنهم إنْ نجحوا فى ذلك ؛ فسوف تنفضُّ الرسالة . فحاولوا أن يشتروه بالمال ؛ فلم يُفلحوا .

وحاولوا أن يشتروه بالسيادة والمُلْك فلم ينجحوا ، وقال قولته المشهورة : « والله لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يُظهره الله ، أو أهلك فيه ، ما تركته »[2] .

---

(١) ليثبتوك . أى : يجرحوك جراحة لا تقوم معها . وأثبت فلان ، أى : اشتدت به علته ، أو أثبتته جراحة فلم يتحرك . [لسان العرب ـ مادة : ثبت] .

(٢) أورده ابن هشام فى السيرة النبوية (١/٢٦٦) معزواً لابن إسحاق .

ثم قرروا أن يقتلوه وأن يُوزِّعوا دمه بين القبائل ، وأخذوا من كل قبيلة شاباً ليضربوا محمداً ﷺ بالسيوف ضَرْبة رجلٍ واحد ، ولكنه ﷺ يهاجر فى تلك الليلة ، وهكذا لم ينجح تبييتهم :

﴿ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ ..(٤٦) ﴾ [إبراهيم]

أى : أنه سبحانه يعلم مكرهم .

ويتابع سبحانه قائلاً :

﴿ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ (٤٦) ﴾ [إبراهيم]

أى : اطمئن يا محمد ، فلو كان مكرهم يُزيل الجبال فلنْ ينالوك ، والجبال كانت أشد الكائنات بالنسبة للعرب ، فلو كان مكرهم شديداً تزول به الجبال ، فلن يُفلِحوا معك يا رسول الله ، ولن يُزَحزِحوك عن هدفك ومهمتك .

والحق سبحانه يقول :

﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَـٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا[1] مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) ﴾ [الحشر]

وإذا كان مكرهم يبلغ من الشدة ما تزول به الجبال ؛ فاعلم أن الله أشدُّ بَأْساً .

ويُقدِّم سبحانه من بعد ذلك حَيْثية عدم فاعلية مَكْرهم ، فيقول :

---

(١) التصديع : التفريق والتشقُّق . والصَّدْع : الشق فى الشىء الصُّلب . والتصدع : تكسُّر الصخور بقوة . [لسان العرب ، المعجم الوجيز ـ مادة : صدع] .

﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ[1] ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ[2] ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ ﴾

ولو كان لمكرهم مفعولٌ أو فائدة لَمَا قال الحق سبحانه أن وعده لرسله لن يُخْلفَ ، ولكن مكرَهم فاسدٌ من أوله وبلا مفعول ، وسبحانه هو القائل :

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) ﴾ [الصافات]

إذن : فوَعْد الله لرُسله لا يمكن أن يُخْلفَ .

والوعود فى القرآن كثيرة ؛ فهناك وَعْد الشيطان لأوليائه ، مصداقاً لقول الحق سبحانه :

﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ[3] وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً .. (٢٦٨) ﴾ [البقرة]

وهناك وَعْد من الله للمؤمنين :

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ .. (٥٥) ﴾ [النور]

---

(١) حسب الشىء حِسْباناً : ظنه . فلا تحسبن : أى : لا تظنن . [المعجم الوجيز ـ مادة : حسب] .

(٢) العزيز : من صفات الله عز وجل وأسمائه الحسنى . قال الزجاج : هو الممتنع فلا يغلبه شىء . وقال غيره : هو القوى الغالب كل شىء . [لسان العرب ـ مادة : عزز] .

(٣) قال ابن كثير فى تفسيره (١/٣٢١) : « أى : يخوفكم الفقر لتمسكوا ما بأيديكم فلا تنفقوه فى مرضاة الله ، وهو مع نهيه إياكم عن الإنفاق خشية الإملاق ، يأمركم بالمعاصى والمآثم والمحارم ومخالفة الخلاق » .

فإذا كان الحق سبحانه لا يُخلِف وَعْده لأتباع الرسول ؛ أَيُخلِف وَعْده للرسول ؟

طبعاً لا ؛ لأن الوعد على إطلاقه من الله ؛ مُوفىً ؛ فكيف إذا كان للرسل وللمؤمنين ؟ يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ (٥١) ﴾ [غافر]

والنصر يقتضى هزيمة المقابل ، ويحتاج النصر لصفة تناسبه ؛ والصفة المناسبة هى صدوره من عزيز لا يُغلب ؛ والهزيمة لمن كفروا تحتاج إلى صفة ؛ والصفة المناسبة هى تحقُّق الهزيمة بأمر مُنتقِم جبّار .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (٤٨) ﴾ (١)

ويُخوّفهم الحق سبحانه هنا من يوم القيامة بعد أن صوّر لهم ما سوف يدّعونه ، بأن يُؤخّر الحق حسابهم ، وأنْ يُعيدهم إلى الدنيا لعلّهم يعملون عملاً صالحاً ، ويجيبوا دعوة الرسل .

ويوضح سبحانه هنا أن الكون الذى خلقه الله سبحانه ، وطرأ

---

(١) برزوا لله : خرجت الخلائق جميعها من قبورهم لله . [تفسير ابن كثير ٢/٥٤٤] والبروز : الظهور والخروج . وقوله تعالى : ﴿ وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً .. (٤٧) ﴾ [الكهف] أى : ظاهرة بلا جبل ولا تل ولا رمل . [لسان العرب ـ مادة : برز] .

عليه آدم وخلفتْه من بعده ذريته ؛ قد أعدّه سبحانه وسخَّره فى خدمة آدم وذريته من بعده ؛ وهم يعيشون فى الكون بأسباب الله المَمْدودة فى أنفسهم ، والمنثورة فى هذا الكون لكل مخلوق لله ، مؤمنهم وكافرهم ؛ فمَنْ يأخذ بتلك الأسباب هو مَنْ يغلب .

وسبحانه القائل :

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ[1] الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ (٢٠)﴾ [الشورى]

وهكذا شاء الله أنْ يهبَ عباده الارتقاء فى الدنيا بالأسباب ؛ أما حياة الآخرة فنحن نحياها بالمُسبِّب ؛ وبمجرد أنْ تخطرَ على بال المؤمن رغبةٌ فى شىء يجده قد تحقق .

وهذا أمر لا يحتاج إلى أرض قَدَّر فيها الحق أقواتها ، وجعل فيها رواسى ؛ وأنزل عليها من السماء ماء ، إذن : فهى أرض غير الأرض ؛ وسماء غير السماء ؛ لأن الأرض التى نعرفها هى أرض أسباب ؛ والسماء التى نعرفها هى سماء أسباب .

وفى جنة الآخرة لا أسبابَ هناك ؛ لذلك لابُدّ أن تتبدَّل الأرض ، وكذلك السماء .

وقوله الحق :

﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (٤٨)﴾ [إبراهيم]

فهو يعنى ألا يكون هناك أحد معهم سِوى ربهم ؛ لأن البروز هو الخروج والمواجهة .

---

(١) الحرث : الثواب والنصيب . وحرث الدنيا : كسْبها . [لسان العرب ـ مادة : حرث] .

والمؤمن وجد ربه إيماناً بالغيب فى دُنْياه ؛ وهو مؤمن به وبكل ما جاء عنه ؛ كقيام الساعة ، ووجود الجنة والنار .

وكلنا يذكر حديث رسول الله ﷺ مع أحد الصحابة[1] حين سأله الرسول ﷺ : كيف أصبحتَ ؟ فقال الصحابى : أصبحتُ مؤمناً بالله حقاً . فقال له الرسول ﷺ : لكل حق حقيقة ؛ فما حقيقة إيمانك ؟ قال الصحابى : عزفتْ نفسى عن الدنيا ، فاستوى عندى ذهبها ومدرها ـ أى : تساوى الذهب بالتراب ـ وكأنى أنظر إلى أهل الجنة فى الجنة يُنعَّمون ، وإلى أهل النار فى النار يُعذَّبون . فقال له الرسول الكريم ﷺ : « عرفت فالزم »[2] .

هذا هو حال المؤمن ، أما الكافر فحاله مختلف . فهو يبرز ليجد الله الذى أنكره ، وهى مواجهة لم يَكُنْ ينتظرها ، ولذلك قال الحق سبحانه فى وَصْف ذاته هنا :

﴿ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (٤٨) ﴾ [إبراهيم]

وليس هناك إله آخر سيقول له « اتركهم من أجل خاطرى » .

وفى آية أخرى يقول عن هؤلاء :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ[3] بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ .. (٣٩) ﴾ [النور]

---

(١) هو : الحارث بن مالك الأنصارى . ذكره ابن حجر العسقلانى فى « الإصابة فى تمييز الصحابة » (٣٤٣/١) وعزا الحديث لابن المبارك فى الزهد .

(٢) أورده الهيثمى فى مجمع الزوائد (٥٧/١) وعزاه للطبرانى فى الكبير من حديث الحارث ابن مالك الأنصارى .

(٣) السراب : ما تراه فى نصف النهار فى الأرض الفضاء كأنه ماء ، وليس بماء . [القاموس القويم ٣٠٨/١] والقيعة جمع قاع ، وهى الأرض المستوية المتسعة المنبسطة وفيه يكون السراب . [تفسير ابن كثير ٢٩٦/٣] .

أى : أنه يُفَاجأ بمثل هذا الموقف الذى لم يستعِد له .

وقوله :

﴿ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (٤٨) ﴾ [إبراهيم]

أى : القادر على قَهْر المخلوق على غير مُرَاده .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ(١) فِي الْأَصْفَادِ (٤٩) ﴾

والمجرم هو مَن ارتكب ذنباً ، وهو هنا مَنِ ارتكب ذنب القِمّة ، وهو الكفر بالله ، ومن بعده مَنِ ارتكب الذنوب التى دون الكفر ، وتراهم جميعاً مجموعين بعضهم مع بعض فى « قَرنٍ » وهو الحبل ، أو القَيْد الذى يُقيَّدون به .

والأصفاد جمع صَفَد ، وهو القيد الذى يوضع فى الرِّجْل ؛ وهو مِثْل الخُلْخال ؛ وهناك مَنْ يُقيّدون فى الأصفاد أى : من أرجلهم ، وهناك مَنْ يقيد بالأغلال . أى : أنْ توضع أيديهم فى سلاسل ، وتُعلَّق تلك السلاسل فى رقابهم أيضاً .

وكلُّ أصحاب جريمة مُعيّنة يجمعهم رباط واحد ، ذلك أن أهل كل جريمة تجمعهم أثناء الحياة الدنيا ـ فى الغالب ـ مودَّة وتعاطف ، أما هنا فسنجدهم متنافرين ، وعلى عداء ، ويلعن كل منهم الآخر ؛ وكل

---

(١) مقرنين : مشدودين مقيدين بعضهم مع بعض . والأصفاد : القيود . [القاموس القويم ٣٧٨/١] .

منهم يناكف[1] الآخر ويضايقه ، ويعلن ضيقه منه ، مصداقاً لقول الحق سبحانه :

﴿ الأَخِلاَّءُ[2] يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ (٦٧) ﴾ [الزخرف]

وكأن كلاً منهم يُعذّب الآخر من قبل أنْ يذوقوا جميعاً العذاب الكبير .

ولذلك نجدهم يقولون :

﴿ رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلاَّنَا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الأَسْفَلِينَ (٢٩) ﴾ [فصلت]

ويقولون :

﴿ رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاْ (٦٧) رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا (٦٨) ﴾ [الأحزاب]

ويستكمل الحق سبحانه صورة هؤلاء المُذْنبين ؛ فيقول :

﴿ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ[3] وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ ﴿٥٠﴾ ﴾

---

(١) قال ابن منظور فى لسان العرب ـ مادة : نكف : « فى نوادر الأعراب : تناكف الرجلان الكلام إذا تعاوراه » أى : رد هذا على هذا وتبادلا التقاذف بالكلام .

(٢) الأخلاء : جمع خليل ، وهو الصديق المخلص . [القاموس القويم ١/٢٠٨] .

(٣) القطران : مادة سوداء سائلة لزجة ، تستخرج من الخشب والفحم ونحوهما بالتقطير الجاف ، وتستعمل لحفظ الخشب من التسوس ، والحديد من الصدأ . [المعجم الوجيز ـ مادة : قطر] .

و « السرابيل » جمع « سِرْبال » وهو ما يلى الجسد ، وهو ما نسميه فى عصرنا « قميص » . وإذا كان السِّرْبال من قطران ؛ فهو أسود لاذع نتن الرائحة سريع الاشتعال ؛ وتلك صفات القطران ، وهو شىء يسيل من بعض أشجار البادية وتلك صفاته ، وهم يستخدمونه لعلاج الجمال من الجرب .

وعادة يضرب الحق سبحانه المثل من الصورة القريبة إلى الذِّهن من التى يراها العربى فى بيئته .

ويقول عنهم الحق سبحانه أيضاً :

﴿ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ (٥٠) ﴾ [إبراهيم]

والإنسان إذا ما تعرّض لأمر يصيبه بالعطب ، فأوَّل ما يحاول الحفاظ عليه هو وجهه ، ذلك أن الوجه هو أشرف شىء فى الإنسان ، فما بالنا حين تغشى وجوه الكفرةِ النارُ ؟ إن مجرد تخيُّل ذلك أمر مؤلم .

وسبحانه يقول فى آية أخرى :

﴿ أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .. (٢٤) ﴾ [الزمر]

وكأن الواحد منهم من فَرْط شدة العذاب يحاول أن يدفَع هذا العذاب بوجهه ، وهكذا نجد أحاسيسَ شتَّى لهذا العذاب ؛ وهو مُؤلِم أشدّ الألم .

ويقول سبحانه فى موقع آخر :

﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ .. (٤٨) ﴾ [القمر]

وهكذا نجد أن الوجه قد جاء فى أكثر من صورة ؛ من صور هذا العذاب .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ ﴾

والجزاء أمر طبيعى فى الوجود ، وحتى الذين لا يؤمنون بإله ، ويديرون حركة حياتهم بتقنينات من عندهم قد وضعوا لأنفسهم قوانين جزاء تحدد كل جريمة والعقاب المناسب لها .

وبطبيعة الحال لا يكون أمراً غريباً أن يضع خالق الكون نظاماً للجزاء ثواباً وعقاباً ، ولو لم يَضَعْ الحق سبحانه نظاماً للجزاء بالثواب والعقاب ؛ لَنالَ كل مُفسِد بُغْيته من فساده ؛ ولأحسّ أهل القيم أنهم قد خُدِعُوا فى هذه الحياة .

وما دام الجزاء أمراً طبيعياً ؛ فلا ظُلْم فيه إذن ؛ لأنه صادر عَمَّنْ قال :

﴿ لا ظُلْمَ الْيَوْمَ .. ﴿١٧﴾ ﴾ [غافر]

ولا يجازى الحق سبحانه الجزاء العنيف إلا على الجريمة العنيفة .

وقوله سبحانه :

﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ .. (٥١)﴾ [إبراهيم]

يعنى أن المؤمن أو الكافر سَيلْقى جزاء ما فعل ؛ إنْ ثواباً أو عقاباً .

والكسب ـ كما نعلم ـ هو أن تأخذ زائداً عن الأصل ، فأنت حين تحرم نفسك من شىء فى الدنيا ؛ ستأخذ جزاء هو الثواب وما يزيد عن الأصل .

ومَنْ كسب سيئة سيأخذ عقاباً عليها ، ويُقَال « كسب السيئة » ولا يقال « اكتسبها » ذلك أن ارتكابه للسيئة صار دُرْبة سلوكية ؛ ويفرح بارتكابها ، ولابُدَّ إذن من الجزاء ؛ والجزاء يحتاج حساباً ، والحساب يحتاج ميزاناً .

وقد يقول المؤمن : إنِّى أُصدِّق ربى ، ولن يظلم ربِّى أحداً . ونقول : إن المقصود بالميزان هو إقامة الحجة ؛ ولذلك نجده سبحانه يقول :

﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ (٦) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ (٧)﴾ [القارعة]

ويقول أيضاً :

﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ (٨) فَأُمُّهُ[1] هَاوِيَةٌ (٩)﴾ [القارعة]

ونجد القسمة العقلية فى الميزان واضحة فهى مرة « ثَقُلَت »

---

(١) أى : أنه ساقط هاو بأم رأسه فى نار جهنم ، وعبر عنه بأمه يعنى دماغه . وقال قتادة : يهوى فى النار على رأسه . [تفسير ابن كثير ٥٤٣/٤] .

ومرة « خَفّت » . أما مَنْ تساوت كِفَّتا ميزانه ؛ فَفَسرت حالته سورة الأعراف التى قال فيها الحق سبحانه :

﴿ وَعَلَى الأَعْرَافِ[1] رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمَاهُمْ[2] .. (٤٦) ﴾ [الأعراف]

وما دام الحق سبحانه سيحاسب كل نَفْس بما كسبتْ ؛ فقد يظنُّ البعض أن ذلك سيستغرق وقتاً ؛ ولذلك يتابع سبحانه :

﴿ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٥١) ﴾ [إبراهيم]

ليبين لنا أنه سبحانه سيُحاسِب كل الخَلْق من لَدُن آدم إلى أنْ تقومَ الساعة بسرعة تناسب قدرته المطلقة .

وحين سأل الناسُ الإمام ـ علياً ـ كرَّم الله وجهه ـ : كيف سيحاسب الله الخلق كلهم دفعة واحدة ؟ أجاب الإجابة الدَّالة الشافية ، وقال : « كما يرزقهم جميعاً » .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ (٥٢) ﴾

---

(١) أصحاب الأعراف : هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم فقعدت بهم سيئاتهم عن الجنة ، وخلفت بهم حسناتهم عن النار ، فوقفوا هنالك على السور حتى يقضى الله فيهم . [ذكره ابن كثير فى تفسيره ٢/٢١٦] .

(٢) السُّومة : بالضم العلامة . قال ابن عباس : يعرفون أهل الجنة ببياض الوجوه ، وأهل النار بسواد الوجوه . [تفسير ابن كثير ٢/٢١٨] .

وهذه الآية هى مِسْك الختام لسورة إبراهيم ، ذلك أنها ركَّزَتْ الدعوة ؛ بلاغاً صدر عن الله ليبلغه لرسوله الذى أُيِّد بالمعجزة ؛ لِيحملَ منهج الحياة للإنسان الخليفة فى الأرض .

وإذا ما صدرتْ قوانينُ حركة الحياة للإنسان الخليفة فى الأرض المخلوق لله ، وجب ألاَّ يتزيَّد عليها أحدٌ بإكمال ولا بإتمام ؛ لأن الذى خلق هو الذى شرَّع ، وهذه مسألة يجب أن تكون على ذِكْر من بَالِ كل إنسان مُكلَّف .

وحين تقرأ هذا القَوْل الحكيم :

﴿ هَـٰذَا بَلاغٌ لِّلنَّاسِ ..(٥٢) ﴾ [إبراهيم]

تجد أنه يحمل إشارة إلى القرآن كله ؛ ذلك أن حدود البلاغ هو كل شىء نزل من عند الله .

وقول الحق سبحانه :

﴿ هَـٰذَا بَلاغٌ لِّلنَّاسِ ..(٥٢) ﴾ [إبراهيم]

قد أعطانا ما يعطيه النص القانونى الحديث ، ذلك أن النصَّ القانونى الحديث يوضح أنه لا عقوبةَ إلا بنصٍّ يُجرِّم الفعل ، ولابُدَّ من إعلان النصِّ لكافَّة الناس ؛ ولذلك تُنشَر القوانين فى الجريدة الرسمية للدولة ؛ كى لا يقولَ أحد : أنا أجهل صدور القانون .

وكلنا يعلم أن الحق سبحانه قد قال :

﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً (١٥) ﴾ [الإسراء]

فمهمة الرسول - إذنْ - هى البلاغ عن الله لمنهج الحياة الذى يصون حركة الحياة .

ويقول سبحانه عن مهمة الرسول :

﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ (٤٠) ﴾ [الرعد]

ويقول سبحانه :

﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلاَّ اللَّهَ .. (٣٩) ﴾ [الأحزاب]

ويقول الحق سبحانه على لسان الرسول(١) :

﴿ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّى .. (٩٣) ﴾ [الأعراف]

ويقول أيضاً :

﴿ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ .. (٥٧) ﴾ [هود]

وهكذا لا توجد حُجّة لقائل : إنى أُخِذْتُ بذنب لم أعرف أنه ذنبٌ وقْتَ التكليف . لا حُجّة لقائل مثل هذا القول ؛ لأن الحق سبحانه يقول فى نفس الآية :

﴿ وَلِيُنذَرُوا بِهِ .. (٥٢) ﴾ [إبراهيم]

والإنذار : تخويف بشرٍّ سوف يقع من قبل زمنه ، ليوضح لك

---

(١) الرسول هنا هو شعيب عليه السلام ، فقد قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ (٩٢) فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ (٩٣) ﴾ [الأعراف] .

بشاعة المخالفة ، وكذلك التبشير هو تنبيه لخير قادم لم يَأتِ أوانه كى تستعدّ لاستقباله.

وقَوْل الحق سبحانه :

﴿ هَـٰذَا بَلاغٌ لِّلنَّاسِ ..(٥٢) ﴾ [إبراهيم]

يتضمن البشارة أيضاً ؛ ولكنه يركز ويؤكد من بعد ذلك فى قوله :

﴿ وَلِيُنذَرُوا بِهِ .. (٥٢) ﴾ [إبراهيم]

لأن الخيبة ستقع على مرتكب الذنوب .

وأقول : إن الإنذار هنا هو نعمة ؛ لأنه يُذكِّر الإنسان فلا يُقدم على ارتكاب الذنب أو المعصية ، فساعةَ تُقدم للإنسان مغبة[1] العمل السىء ؛ فكأنك تُقدم إليه نعمة ، وتُسدى إليه جميلاً ومعروفاً .

ويتابع سبحانه :

﴿ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ.. (٥٢) ﴾ [إبراهيم]

وهذه هى القضية العقدية الأولى ، والتى تأتى فى قِمّة كل القضايا ؛ فهو إله واحد نصدر جميعاً عن أمره ؛ لأن الأمر الهام فى هذه الحياة أن تتضافر حركة الأحياء وتتساند ؛ لا أن تتعاند . ولا يرتقى بنيان ، ما إذا كنتَ أنت تبنى يوماً ليأتى غيرك فيهدم ما بنيتَ .

---

(١) الغِبّ من كل شىء : عاقبته وآخرته . وكذلك المغبة . [المعجم الوجيز ـ مادة : غبب] .

ومهمة حركة الحياة أن نُؤدِّى مهمتنا كخلفاء لله فى الأرض ؛ بأن تتعاضدَ مواهبنا ، لا أن تتعارضَ ، فيتحرك المجتمع الإنسانى كله فى اتجاه واحد ؛ لأنه من إله واحد وأمر واحد .

وحين يقول الحق سبحانه :

﴿ وَهَـٰذَا بَلاغٌ لِّلنَّاسِ ..(٥٢) ﴾ [إبراهيم]

فهو يحدد لنا قِوَام الدين بعد تلقّيه من رسول الله ﷺ أنْ يُبلّغه مَنْ سمعه لمن لم يسمعه .

ولذلك قال ﷺ : « نضَّر[1] الله امْرءاً سمع مقالتى فوعاها ، وأداها إلى مَنْ لم يسمعها »[2] .

وذلك لتبقى سلسلة البلاغ متصلة ، وإنْ لم يُبلغ قوم فالوِزْر على مَنْ لم يُبلّغ ، وبذلك يحرم نفسه من شرف التبعية لرسول الله ﷺ، فَمنْ يعلم حكماً من أحكام الدين ؛ فالمطلوب منه هو تبليغه للغير ؛ مثلما طلب الحق سبحانه من رسوله أن يُبلِّغ أحكامه .

والحق سبحانه هو القائل :

---

(١) نضر الله وجهه : نعَّمه . والنضرة : النَّعْمة والحُسْن والرونق . وقال الحسن المؤدّب : ليس هذا من الحسن فى الوجه ، إنما معناه : حسَّن الله وجهه فى خُلُقه . أى : جاهه وقدره . [لسان العرب ـ مادة : نضر] .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (١/٤٣٧) ، والترمذى فى سننه (٢٦٥٧ ، ٢٦٥٨) ، وابن ماجه فى سننه (٢٣٢) والحميدى فى مسنده (١/٤٧) من حديث عبدالله بن مسعود رضى الله عنه .

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا[1] لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا .. (١٤٣) ﴾ [البقرة]

وهكذا شهد الرسول ﷺ أنه بلَّغكم وبَقِى على كل مسلم يعلم حُكْماً من أحكام الدين أن يُبلِّغه لِمَنْ لا يعرفه ؛ فقد ينتفع به أكثر منه ؛ وبعد أن سمع الحكم قد يعمل به ، بينما مَنْ أبلغه الحكم لا يعمل به .

ولذلك قال ﷺ : « رُبَّ مُبلَّغٍ أوْعَى من سامع »[2] .

ولذلك أقول دائماً : إياك أن تخلط بين المعلومة التى تُقال لك ؛ وبين سلوك مَنْ قالها لك ، ولنسمع الشاعر الذى قال :

خُذْ عِلْمى ولاَ تركَنْ إلى عَملِى وَاجْنِ الثمارَ وخَلِّ العُودَ للحطَبِ

وهكذا يتحمل المسلم مسئولية الإبلاغِ بما يعرف من أحكام الدين لمن لا عِلْمَ لهم بها ؛ لتظل الرسالة موصولة ، وكلنا نعلم أن الحق سبحانه قد قال :

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ .. (١١٠) ﴾ [آل عمران]

أى : أنكم يا أمة محمد ، قد أخذتم مهمة الأنبياء .

---

(١) أمة وسطاً : أى : أمة فاضلة خيِّرة ، فالوسط خير الطرفين . [القاموس القويم ٢/٣٣٦] .

(٢) تمام الحديث : « نضر الله امرءاً سمع مقالتى فوعاها ، وأداها إلى من لم يسمعها .. » الحديث ، وقد سبق تخريجه صفحة (٧٦٢٣) .

ولأن البلاغ قد جاء من الله على الرسول ﷺ ، والرسول أمين فى تبليغه ؛ لذلك لا يمكن أنْ يصدرَ عن الواحد الحكيم أوامر متضاربة ، ولكن التضارب إنما ينشأ من اختلاف الآمر ؛ أو من عدم حكمة الآمر ، ولْنُدقِّق جيداً فى قول الحق سبحانه :

﴿وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ .. (٥٢)﴾ [إبراهيم]

فكلمة « واحد » جاءت لتمنع مجرد تصوُّر الشراكة ؛ فلا أحدَ مثله ، وهو أحدٌ غير مُركَّب من أجزاء ؛ فليس له أجهزة تشبه أجهزة البشر مثلاً ؛ فلو كان له أجهزة لكانَ فى ذاته يحتاجُ لأبعاضه ، وهذا لا يصِحُّ ولا يمكن تخيُّله مع الله سبحانه وتعالى .

وتلك هى القضية الأساسية التى يعيها أولو الألباب الذين يستقبلون هذا البلاغ . وأولو الألباب هى جمع ، ومفرد « ألباب » هو « لُبّ » ، ولُبّ الشىء هو حقيقة جوهره ؛ لأن القشرةَ توجد لتحفظَ هذا اللُّب ، والمحفوظ دائماً هو أنفَسُ من الشىء الذى يُغلِّفه لِيحفظه .

وهكذا يكون أولو الألباب هم البشر الذين يستقبلون القضية الإيمانية بعقولهم ؛ ويُحرِّكون عقولهم ليتذكروها دائماً ؛ ذلك أن مشاغل الحياة ومُتعتها وشهواتها قد تَصْرِف الإنسان عن المنهج ؛ ولذلك قال الحق سبحانه هنا :

﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا الأَلْبَابِ (٥٢)﴾ [إبراهيم]

أى : يتذكر أصحاب العقول أن الله واحدٌ أحد ؛ فلا إلهَ إلا هو ؛ ولذلك شهد سبحانه لنفسه قبل أنْ يشهَد له أىٌّ كائن آخر ، وقال :

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ .. (١٨) ﴾ [آل عمران]

وهذه شهادةُ الذات للذاتِ ، ويُضيف سبحانه :

﴿ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ .. (١٨) ﴾ [آل عمران]

وشهادة الملائكة هى شهادة المُواجهة التى عايشوها ، وشهادة أُولى الألبابِ هى شهادة الاستدلال .

وشهد الحق سحبانه أيضاً لرسوله محمد ﷺ أنه رسول ؛ وكذلك شهد الرسول لنفسه ، فهو يقول مثلنا جميعاً : « أشهد ألا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله » .

وهكذا فعلى أُولى الألباب مهمة . أنْ يتذكَّروا ويُذكِّروا بأنه إله واحد أحدٌ .

سُورَةُ الحِجْرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

السورة التى نبدأ خواطرنا عنها هى سورة الحجر[١] تبدأ بالكلام عن جامع البلاغ ، ومنهج لحياة الحياة وهو القرآن الكريم الذى قد جاء بالخبر اليقين فى قضية الألوهية الواحدة ، والتى ذكرنا فى آخر السورة السابقة بأن أُولِى الألباب يستقبلونها بعقولهم .

ويقول الحق سبحانه فى مُسْتهل السورة :

الٓرۚ[٢] تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾

---

(١) هذه السورة هى السورة الخامسة عشر من القرآن بترتيب المصحف ، وهى سورة مكية ، عدد آياتها ٩٩ آية ، بدايتها هى بداية الجزء ١٤ من القرآن . وقد سميت سورة الحجر بهذا الاسم نسبة إلى أصحاب الحجر المذكورين فى الآية (٨٠) من السورة ، وهم قوم ثمود أرسل لهم الله صالحاً رسولاً فكذبوه . والحجر : ديار ثمود ناحية الشام عند وادى القرى . والحجر أيضاً فى معناه اللغوى : العقل . وقد أنزلت هذه السورة بعد سورة يوسف وقبل سورة الأنعام . على ما أورده السيوطى فى علوم القرآن (٢٧/١) .

(٢) قال السيوطى فى الإتقان (٢١/٣) : « خاض فى معناها علماء ، فأخرج ابن أبى حاتم وغيره من طريق أبى الضحى عن ابن عباس فى قوله (الر) : أنا الله أرى . وأخرج أبو الشيخ عن محمد بن كعب القرظى ، قال : (الر) من الرحمن . وقيل : (الر) معناه : أنا الله أعلم وأرفع . حكاه الكرمانى فى غرائبه » . ثم قال : « والمختار فيها أنها من الأسرار التى لا يعلمها إلا الله تعالى . وقال الشعبى : إن لكل كتاب سراً ، وإن سر هذا القرآن فواتح السور » .

والسورة كما نرى قد افْتُتِحَتْ بالحروف التوقيفية ؛ والتى قلنا : إن جبريل عليه السلام نزل وقرأها هكذا ؛ وحفظها رسول الله ﷺ وأبلغها لنا ﷺ هكذا ؛ وهى قد نزلتْ أوَّل ما نزلت على قوم برعوا فى اللغة ؛ وهم أهل فصاحة وبيان ، ولم نجد منهم مَنْ يستنكرها .

وهى حروف مُقطّعة تُنطَق بأسماء الحروف لا مُسمَّياتها ، ونعلم أن لكل حرف اسماً ، وله مسمى ؛ فحين نقول أو نكتب كلمة « كتب » ؛ فنحن نضع حروفاً هى الكاف والباء والتاء بجانب بعضها البعض ، لِتكوّن الكلمة كما ننطقها أو نقرؤها .

ويقال عن ذلك إنها مُسمَّيات الحروف ، أما أسماء الحروف ؛ فهى « كاف » و « باء » و « تاء » . ولا يعرف أسماء الحروف إلا المُتعلِّم ؛ ولذلك حين تريد أن تختبر واحداً فى القراءة والكتابة تقول له : تَهَجَّ حروف الكلمة التى تكتبها ، فإن نطق أسماءَ الحروف ؛ عرفنا أنه يُجيد القراءة والكتابة .

وهذا القرآن ـ كما نعلم ـ نزل مُعجِزاً للعرب الذين نبغوا فى اللغة ، وكانوا يقيمون لها أسواقاً ؛ مثل المعارض التى نقيمها نحن لصناعاتنا المتقدمة .

ولذلك شاء الحق سبحانه أن تأتى معجزة الرسول الخاتم من جنس ما نبغوا فيه ؛ فلو كانت المعجزة من جنسٍ غير ما نبغوا فيه ولم يَألفوه لَقَالوا : لو تعلمنا هذا الأمر لَصنعْنَا ما يفوقه .

وجاءتهم معجزة القرآن من نفس الجنس الذى نبغُوا فيه ،

وباللغة العربية وبنفس المُفْردات المُكوّنة من الحروف التى تُكوِّنون منها كلماتكم ، والذى جعل القرآن مُعْجِزاً أن المُتكلّم به خالق وليس مخلوقاً . وفى « الر » نفس الخامات التى تصنعون منها لُغَتكم .

وهذا بعض ما أمكن أن يلتقطه العلماء من فواتح السور . علينا أن نعلم أن لله فى كلماته أسراراً ؛ فهو القائل سبحانه :

﴿ هُوَ الَّذِى أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ(١) فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِى الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا .. (٧) ﴾ [آل عمران]

أى : أن القرآن به آيات مُحْكمات ، هى آيات الأحكام التى يترتب عليها الثواب والعقاب ، أما الآيات المتشابهات فهى مثل تلك الآيات التى تبدأ بها فواتح بعض من السور ؛ ومَنْ فى قلوبهم زَيْغ يتساءلون : ما معناها ؟

وهم يقولون ذلك لا بَحْثاً عن معنى ؛ ولكن رغبةً للفتنة .

ولهؤلاء نقول : أتريدون أنْ تفهموا كل شىء بعقولكم ؟ إن العقل ليس إلا وسيلةَ إدراك ؛ مِثْله مِثْل العين ، ومِثْل الأذن .

فهل ترى عيناك كل ما يمكن أن يُرَى ؟ طبعاً لا ؛ لأن للرؤية

---

(١) الزيغ : الميل . يقال : زاغ عن الطريق إذا عدل عنه . [لسان العرب ـ مادة : زيغ] .

بالعين قوانينَ وحدوداً ، فإنْ كنتَ بعيداً بمسافة كبيرة عن الشىء فلن تراه ؛ ذلك أن العين لا ترى أبعد من حدود الأفق .

وكل إنسان يختلف أُفْقه حَسْب قوة بصره ؛ فهناك مَنْ أنعم الله عليه ببصر قوى وحادٌ ؛ وهناك مَنْ هو ضعيفُ البصرِ ؛ ويحتاج إلى نظارة طبية تساعده على دِقّة الإبصار .

فإذا كانت للعين - وهى وسيلة إدراك المرائى - حدود ، وإذا كانت للأذن ، وهى وسيلة إدراك الأصوات بحد المسافة الموجية للصوت ؛ فلابُدَّ أن تكون هناك حدود للعقل ، فهناك ما يمكن أن تفهمه ؛ وهناك مَا لا يمكن أن تفهمه .

والرسول ﷺ قال عن آيات القرآن : « ما عرفتم منه فاعملوا به ، وما تشابه منه فآمنوا به »[1] .

وذلك حفاظاً على مواقيت ومواعيد ميلاد أىِّ سِرٍّ من الأسرار المكنونة فى القرآن الكريم ، فلو أن القرآن قد أعطى كل أسراره فى أول قَرْن نزل فيه ؛ فكيف يستقبل القرونَ الأخرى بدون سِرٍّ جديد ؟

إذن : فكلَّما ارتقى العقل البشرى ؛ كلما أَذِن الله بكشف سِرٍّ من أسرار القرآن . ولا أحد بقادر على أن يجادل فى آيات الأحكام .

---

(١) تمام هذا الحديث : « إن القرآن لم ينزل ليكذب بعضه بعضاً ، فما عرفتم منه فاعملوا به ، وما تشابه منه فآمنوا به » عزاه ابن كثير فى تفسيره (٣٤٦/١) لابن مردويه من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص ، وأورده السيوطى فى الدر المنثور (١٥٤/٢) وعزاه لنصر المقدسى فى الحجة .

ويقول الحق سبحانه عن الآيات المتشابهة :

﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ ـ وَالرَّاسِخُونَ[١] فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا .. (٧) ﴾ [آل عمران]

وهناك مَنْ يقرأ هذه الآية كالآتى : « وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم ـ » وتناسى مَنْ يقرأ تلك القراءة[٢] أن مُنْتهى الرسوخ فى العلم أن تؤمن بتلك الآيات كما هى[٣] .

والحق سبحانه هنا يقول :

﴿ الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ (١) ﴾ [الحجر]

و (تلك) إشارة لما سبق ولِمَا هو قادم من الكتاب ، و (آيات) جمع « آية » . وهى : الشىء العجيب الذى يُلْتفت إليه . والآيات إما أنْ تكونَ كونية كالليل والنهار والشمس والقمر لتثبت الوجود الأعلى ، وإما أنْ تكونَ الآيات المُعْجزة الدالة على صِدْق البلاغ عن الله وهى معجزات الرسل ، وإما أن تكونَ آيات القرآن التى تحمل المنهج للناس كافّة .

---

(١) الراسخون فى العلم : المتمكنون فيه . وأورد السيوطى فى الدر المنثور (٢/١٥١) أن رسول الله ﷺ قال : « من برت يمينه ، وصدق لسانه ، واستقام قلبه ، وعف بطنه وفرجه ، فذلك من الراسخين فى العلم » عزاه لابن جرير الطبرى وابن أبى حاتم والطبرانى عن أنس وأبى أمامة وأبى الدرداء .

(٢) مقتضى هذه القراءة الوقف اللازم على كلمة العلم ، ويكون معنى الآية أن الراسخين فى العلم يعلمون تأويل الآيات المتشابهة . أما القراءة الأولى ، فالوقف على لفظ الجلالة (الله) معناه أن الله وحده هو عالم تأويل الآيات المتشابهة . (انظر : تفسير ابن كثير ١/٣٤٧) .

(٣) قالت عائشة رضى الله عنها : كان رسوخهم فى العلم أن آمنوا بمحكمه ومتشابهه ولم يعلموا تأويله . أورده السيوطى فى الدر المنثور (٢/١٥١) وعزاه لابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم .

ويضيف الحق سبحانه :

﴿ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ (١) ﴾ [الحجر]

فهل الكتاب هو شىء غير القرآن ؟ ونقول : إن الكتاب إذا أُطلق ؛ فهو ينصرف إلى كل ما نزل من الله على الرسل ؛ كصحف إبراهيم ، وزبور داود ، وتوراة موسى ، وإنجيل عيسى ؛ وكل تلك كتب ، ولذلك يسمونهم « أهل كتاب » .

أما إذا جاءت كلمة « الكتاب » مُعرَّفة بالألف واللام ؛ فلا ينصرف إلا للقرآن ، لأنه نزل كتاباً خاتماً ، ومُهيْمناً على الكتب الأخرى .

وبعد ذلك جاء بالوصف الخاص وهو (قرآن) ، وبذلك يكون قد عطف خاصاً على عَامٍّ ، فالكتاب هو القرآن ، ودلّ بهذا على أنه سيكتب كتاباً ، وكان مكتوباً من قبل فى اللوح المحفوظ .

وإن قيل : إن الكتب السابقة قد كُتِبت أيضاً ؛ فالردّ هو أن تلك الكتب قد كُتِبت بعد أن نزلتْ بفترة طويلة ، ولم تُكتب مثْل القرآن ساعة التلقِّى من جبريل عليه السلام ، فالقرآن يتميز بأنه قد كُتِب فى نفس زمن نُزوله ، ولم يُترك لقرون كبقية الكتب ثم بُدِىء فى كتابته .

والقرآن يُوصَف بأنه مُبِين فى ذاته ومُبِين لغيره ؛ وهو أيضاً مُحيط بكل شىء .

وسبحانه القائل :

﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِى الْكِتَابِ مِن شَىْءٍ .. (٣٨) ﴾ [الأنعام]

وأىُّ أمر يحتاج لحكم ؛ فإما أن تجده مُفصَّلاً فى القرآن ، أو نسأل فيه أهل الذكر ، مصداقاً لقول الحق سبحانه :

﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ[1] إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٧)﴾ [الأنبياء]

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿رُّبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ (٢)﴾

و « رُبَّ » حرف يستعمل للتقليل ، ويُستعمل أيضاً للتكثير على حَسْب ما يأتى من بعده ، وهو حَرْفٌ الأصل فيه أن يدخلَ على المفرد . ونحن نقول « رُبَّ أخٍ لك لم تَلِدْه أمك » وذلك للتقليل ، مثلما نقول « ربما ينجح الكسول » .

ولكن لو قُلْنا « ربما ينجح الذكى » فهذا للتكثير ، وفى هذا استعمال للشىء فى نقيضه ، إيقاظاً للعقل كى ينتبه .

وهنا جاء الحق سبحانه :

بـ « رُب » ومعها حرف « مَا » ومن بعدهما فعل[2] . ومن العيب أن تقول : إن « ما » هنا زائدة ؛ ذلك أن المتكلم هو رَبُّ كل العباد .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿رُّبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ (٢)﴾ [الحجر]

---

(١) الذكر : القرآن والكتب المنزلة كلها . أى : اسألوا أهل العلم من الأمم كاليهود والنصارى وسائر الطوائف : هل كل الرسل الذين أتوهم بشراً أو ملائكة ؟ [تفسير ابن كثير ١/١٧٤].

(٢) قال القرطبى فى تفسيره (٥/٣٧٢٥) : « رُبَّ لا تدخل على الفعل ، فإذا لحقتها « ما » هيأتها للدخول على الفعل » وقال ابن هشام فى « مغنى اللبيب » (١/١٢٠) : « إذا زيدت « ما » بعد « رب » ، فالغالب أن تكفها عن العمل ، وأن تهيئها للدخول على الجمل الفعلية ، وأن يكون الفعل ماضياً لفظاً ومعنى » .

فهل سيأتى وقت يتمنى فيه أهل الكفر أنْ يُسلموا ؟ إن « يودّ » تعنى « يحب » و « يميل » و « يتمنى » ، وكل شىء تميل إليه وتتمناه يسمى « طلب » .

ويقال فى اللغة : إن طلبت أمراً يمكن أن يتحقق ، ويمكن ألاّ يتحقق ؛ فإنْ قُلْتَ : « يا ليت الشبابَ يعود يوماً » فهذا طَلَبٌ لا يمكن أن يتحققَ ؛ لذلك يُقال إنه « تمنى » . وإنْ قلت « لعلِّى أزور فلاناً » فهذا يُسمّى رجاء ؛ لأنه من الممكن أن تزور فلاناً . وقد تقول : « كم عندك ؟ » بهدف أن تعرف الصورة الذهنية لمَنْ يجلس إليه مَنْ تسأله هذا السؤال ، وهذا يُسمّى استفهاماً .

وهكذا إنْ كنت قد طلبتَ عزيزاً لا يُنال فهو تمنٍّ ؛ وإن كنت قد طلبتَ ما يمكن أن يُنَال فهو الترجىّ ، وإنْ كنتَ قد طلبتَ صورته لا حقيقته فهو استفهام ، ولكن إنْ طلبت حقيقة الشىء ؛ فأنت تطلبه كى لا تفعل الفعل .

والطلب هنا فى هذه الآية ؛ يقول :

﴿رُّبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ (٢)﴾ [الحجر]

فهل يتأتّى هذا الطلب ؟

وَلْنَر متى يودُّون ذلك . إن ذلك التمنِّى سوف يحدث إنْ وقعتْ لهم أحداثٌ تنزع منهم العناد ؛ فيأخذون المسائل بالمقاييس الحقيقية .

والحق سبحانه هو القائل :

﴿وَجَحَدُوا[1] بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا .. (١٤)﴾ [النمل]

---

(١) جحد الحق : أنكره وهو يعلمه . [القاموس القويم ١/١١٧] .

وقد حدث لهم حين وقعت غزوة بدر ، ونال منهم المسلمون الغنائم أنْ قالوا : يا ليتنا كنا مسلمين ، وأخذنا تلك الغنائم[١] .

أى : أن هذا التمنِّى قد حدث فى الدنيا ، ولسوف يحدث هذا عند موت أحدهم .

يقول الحق سبحانه :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ .. (١٠٠) ﴾ [المؤمنون]

ويعلق الحق سبحانه على هذا القول :

﴿ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا .. (١٠٠) ﴾ [المؤمنون]

وسيتمنون أيضاً أن يكونوا مسلمين ، مصداقاً لقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ (١٢) ﴾ [السجدة]

إذن : فسيأتى وقت يتمنّى فيه الكفار أن يكونوا مسلمين ، إذَا مَا عاينوا شيئاً ينزع منهم جحودهم وعنادهم ، ويقول لهم : إن الحياة التى كنتم تتمسَّكون بها فانية ؛ ولكنكم تطلبون أن تكونوا مسلمين وقتَ أنْ زالَ التكليف ، وقد فات الأوان .

ويكفى المسلمين فَخْراً أنْ كانوا على دين الله ، واستمسكوا بالتكليف ، ويكفيكم عاراً أنْ خَسِرْتم هذا الخسران المبين ، وتتحسروا على أنكم لم تكونوا مسلمين .

---

(١) أورد السيوطى فى الدر المنثور (٥/٦١) عن ابن مسعود وناس من الصحابة قالوا : « ود المشركون يوم بدر حين ضربت أعناقهم حين عرضوا على النار أنهم كانوا مؤمنين بمحمد ﷺ » .

وفى اليوم الآخر يُعذِّب الحق سبحانه العصاة من المسلمين الذين لم يتوبوا من ذنوبهم ، ولم يستغفروا الحق سبحانه ، أو ممَّنْ لم يغفر لهم سبحانه وتعالى ذنوبهم ؛ لعدم إخلاص النية وحُسْن الطوية عند الاستغفار ، ويدخل فى ذلك أهل النفاق مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ.. (٨٠) ﴾ [التوبة]

فيدخلون النار ليأخذوا قدراً من العذاب على قدر ما عَصَوْا ، وينظر لهم الكفار قائلين :

ما أغنتْ عنكم لا إله إلا الله شيئاً ، فأنتم معنا فى النار .

ويطلع الحق سبحانه على ذلك فيغار على كل مَنْ قال لا إله إلا الله ؛ فيقول : أخرجوهم وطهِّروهم وعُودوا بهم إلى الجنة ، وحينئذ يقول الكافرون : يا ليتنا كنا مسلمين ، لنخرج من النار ، ونلحق بأهل الجنة[1] .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٣) ﴾

و (ذرهم) أمْر بأن يدعَهم ويتركهم . وسبحانه قال مرة (ذرهم) ، ومرة قال :

﴿ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ[2] .. (١١) ﴾ [المزمل]

---

(١) أورده السيوطى فى الدر المنثور (٥/٦٢) من حديث أبى موسى الأشعرى ، وعزاه لابن أبى عاصم فى السنة ، وابن جرير ، وابن أبى حاتم ، والطبرانى ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى البعث والنشور .

(٢) النعْمة : التنعيم ، والمسرة والفرح والترفُّه . [لسان العرب ـ مادة : نعم] .

أى : اتركهم لى ، فأنا الذى أعاقبهم ، وأنا الذى أعلم أجلَ الإمهال ، وأجلَ العقوبة .

ويستعمل من « ذَرْهم » فعل مضارع هو « يَذَر » ، وقد قال الحق سبحانه :

﴿ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ .. (١٢٧) ﴾ [الأعراف]

ولم يستعمل منها فى اللغة فعْل ماضٍ ، إلا فيما رُوِى من حديث رسول الله ﷺ « ذروا اليمن ما ذروكم » ، أى : اتركوهم ما تركوكم .

ويشارك فى هذا الفعل فعل آخر هو « دَعْ » بمعنى « اترك » . وقيل : أهملت العرب ماضى « يدع » و « يذر » إلا فى قراءةٍ[1] فى قول الحق سبحانه :

﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣) ﴾ [الضحى]

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا .. (٣) ﴾ [الحجر]

ونحن أيضاً نأكل ، وهناك فرْق بين الأكل كوقود للحركة وبين الأكل كلذّة وتمتُّع ، والحيوانات تأكل لتأخذ الطاقة بدليل أنها حين تشبع ؛ لا يستطيع أحد أنْ يُجبرها على أكل عود برسيم زائد .

أما الإنسان فبعد أن يأكل ويغسل يديه ؛ ثم يرى صِنْفاً جديداً

---

(١) هى قراءة عروة بن الزبير . والمعنى فيهما واحد (ودَّعك ، ودَعك) . أى : ما تركك ربك . [لسان العرب ـ مادة : ودع] .

من الطعـام فهـو يمدُّ يده ليـأكلَ منه ؛ ذلك أن الإنسـان يأكل شهـوةً ومتعةً ، بجانب أنه يأكل كوقود للحركة .

والفرق بيننا وبينـهم أننا نأكل لتتكوَّن عندنا الطاقة ؛ فـإنْ جاءت اللذة مع الطعام فأهلاً بها ؛ ذلك أننا فى بعض الأحيان نأكل ونتلذذ ، لكن الطعام لا يمرى[1] علينا ؛ بل يُتعِبنا ؛ فنطلب المُهْـضِمات من مياه غازية وأدوية .

ولذلك نجد رسول الله ﷺ يقول : « بحسْب ابن آدم لُقيْمات يُقِمْنَ صُلْبه »[2] .

أى : أنه ﷺ ينهانا عن أن نأكل بالشهوة واللذة فقط .

ولنلحظ الفارق بين طعام الدنيـا وطعام الجنة فى الآخرة ؛ فهناك سوف نأكل الطعـام الذى نستلذّ به ويَمْرى علينا ؛ بـينما نحن نُضطر فى الدنيا ـ فى بعض الأحيان ـ أن نأكـلَ الطعام بدون مِلْح ومسلوقاً كى يحـفظ لنا الصحـة ؛ ولا يُتعـبنا ؛ وهو أكل مَـرِىء وليس طعامـاً هنيئاً ، ولكن طعام الآخرة هَنِىءٌ ومَرِىءٌ .

وعلى ذلك نفهم قول الحق سبحانه :

﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا .. (٣) ﴾ [الحجر]

أى : أن يأكلوا أكْلاً مقصوداً لذات اللذَّة فقط .

---

(١) طعام مـرىء هنىء : حميـد المغبـة بيِّن المراءة . ومرُء الـطعام : سهل فى الحلق وحُـمدت عاقبته وخلا من التنغيص . [القاموس القويم ٢/٢٢٠] .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٤/١٣٢) وابن مـاجة فى سننه (٣٣٤٩) من حديث المقدام بن معـد يكرب ، وتمامـه : « ما مـلأ آدمى وعاء شـراً من بطن ، حسب الآدمى لقـيمات يـقمن صلبه ، فإن غلبت الآدمى نفسه : فثلث للطعام ، وثلث للشراب ، وثلث للنفس » .

ويقول الحق سبحانه متابعاً :

﴿ وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ (٣) ﴾ [الحجر]

أى : أن يَنصبوا لأنفسهم غايات سعيدة ؛ تُلهيهم عن وسيلة ينتفعون بها ؛ ولذلك يقول المثل العربى : « الأمل بدون عمل تلصُّص » فما دُمْت تأمل أملاً ؛ فلا بُدَّ أن تخدمه بالعمل لتحققه .

ولكن المثل على الأمل الخادع هو ما جاء به الحق سبحانه على لسان مَنْ غَرَّتْه النعمة ، فقال :

﴿ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَـٰذِهِ أَبَدًا (٣٥) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً .. (٣٦) ﴾ [الكهف]

ولكن الساعة ستقوم رَغْماً عن أَنْف الآمال الكاذبة ، والسراب المخادع .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٣) ﴾ [الحجر]

وكلمة (سوف) تدل على أن الزمن مُتراخٍ قليلاً ؛ فالأفعال مثل « يعلم » تعنى أن الإنسان قد يعلم الآن ؛ ويعلم من بَعْد الآن بوقت قصير ، أما حين نقول « سوف يعلم » فتشمل كل الأزمنة .

فالنصر يتحقق للمؤمنين بإذن من الله دائماً ؛ أما غير المؤمنين فلسوف يتمنَّوْنَ الإيمان ؛ كما قُلْنا وأوضحنا من قبل .

وهكذا نرى أن قَوْله :

﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٣) ﴾ [الحجر]

يشمل كُلّ الأزمنة . وقد صنع الحق سبحانه فى الدنيا أشياء تُؤذِن بصِدْق وَعْده ، والذين يظنُّون أنهم يسيطرون على كُلِّ الحياة يُفاجِئهم زلزال ؛ فيهدم كل شىء ، على الرغم من التقدُّم فيما يُسمّى « الاستشعار عن بُعْد » وغير ذلك من فروع العلم التطبيقى .

وفى نفس الوقت نرى الحمير التى نتهمها بأنها لا تفهم شيئاً تهُبُّ - هى والماشية - من قبل الزلزال لتخرج إلى الخلاء بعيداً عن الحظائر التى قد تتهدم عليها ، وفى مثل هذا التصرُّف الغريزى عند الحيوانات تحطيمٌ وأدَب للغرور الإنسانى ، فمهما قاده الغرور ، وادعى أنه مالك لناصية العلم ، فهو ما زال جاهلاً وجهولاً .

وكذلك نجد مَنْ يقول عن البلاد المُمطرة : إنها بلاد لا ينقطع ماؤها ، لذلك لا تنقطع خُضْرتها . ثم يصيب تلك البلادَ جفافٌ لا تعرف له سبباً ، وفى كل ذلك تنبيهٌ للبشر كى لا يقعوا أسْرى للغرور .

ويقول سبحانه من بعد ذلك ضارباً لهم المثل :

﴿ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤﴾ ﴾

أى : أنه سبحانه لا يأمر بهلاك أىّ قرية إلا فى الأجل المكتوب لها . ويجعلها من المُثل التى يراها مَنْ يأتى بعدها لعله يتعظ ويتعرَّف على حقيقة الإيمان .

وقد قال الحق سبحانه :

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا[١] مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ[٢] بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١١٢)﴾ [النحل]

والمثَل القريب من الذاكرة « لبنان » التى عاشت إلى ما قبل الخمسينيات كبلد لا تجد فيه فندقاً لائقاً ، ثم ازدهرتْ وانتعشتْ فى الستينيات والسبعينيات ؛ واستشرى فيها الفساد ؛ فقال أهل المعرفة بالله : « لا بُدّ أن يصيبها ما يصيب القرى الكافرة بأنعُم الله » .

وقد حدث ذلك وقامت فيها الحرب الأهلية ، وانطبق عليها قول الحق سبحانه :

﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ .. (٦٥)﴾ [الأنعام]

وهذا ما يحدث فى الدنيا ، وهى مُقدّمات تُؤكّد صِدْق ما سوف يحدث فى الآخرة .

وسبحانه القائل :

﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلاَّ نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا (٥٨)﴾ [الإسراء]

وبطبيعة الحال ؛ فهذا ما يحدث لأىِّ قرية ظالم أهلُها ؛ لأن الحق سبحانه لا يظلم مِثْقال ذرّة .

وأذكر أن تفسير النسفى[٣] قد صُودِر فى عصر سابق ؛ لأن

---

(١) رغد العيش : اتسع وطاب . والرغْد : الكثير الواسع الذى لا يُعييك من مال أو ماء أو عيش أو كلأ . [لسان العرب ـ مادة : رغد] .

(٢) كُفْر النعمة : جحودها . كفر النعمة : جحدها ولم يشكرها ولم يشكر من قدمها له ، أو كان سبباً فيها بل أنكر فضله . [القاموس القويم ٢/١٦٤] .

(٣) هو : أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفى ، فقيه حنفى ، مفسر من أهل إيذج ووفاته فيها . نسبته إلى « نسف » ببلاد السند ، بين جيحون وسمرقند . توفى عام (٧١٠ هـ) (الأعلام للزركلى ٤/٦٧) .

صاحب التفسير قال عند تفسيره لهذه الآية : « حدثنى فلان عن فلان أن البلد الفلانى سيحصل فيه كذا ؛ والبلد الآخر سوف يحدث فيه كذا إلى أن جاء إلى مصر وقال بالنص : ويدخل مصر رجل من جهينة ، فويْل لأهلها ، ووَيْل لأهل سوريا ، ووَيْل لأهل الرَّمْلة ، ووَيْل لأهل فلسطين ، ولا يدخل بيت المقدس » .

وما دام الحق سبحانه قد قال :

﴿ كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا (٥٨) ﴾ [الإسراء]

فهو يُعلّم بعضاً من خلقه بعضاً من أسراره ، فلا مانعَ من أن نرى بعضاً من تلك الأسرار على ألسنتهم . وحين ذاعت تلك الحكاية ، وقالوها للرئيس الذى كان موجوداً ، وقالوا له : أنت من جهينة وهم يقصدونك . صُودِر تفسير النسفى .

إذن : فقد ترك الحق سبحانه لنا فى الدنيا مثلاً يؤكد صدْقه فيما يحكيه عن الوعيد لبعض القرى حتى نُصدّق ما يمكن أن يكون بعد يوم القيامة . وحين يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ (٤) ﴾ [الحجر]

فليس لأحد أن يقول : « إن ذلك لم يحدث للبلد الفلانى » لأن كُلَّ أمْر له أجَل .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ (٥) ﴾

أى : أنه سبحانه قد جعل لكل أمـة أجلاً ، وغاية ، فإذا ما انتهى الأجل المعلوم جـاءتْ نهايتها ؛ فـلا كائنَ يتقـدّم على أجله ، ولا أحدَ يتأخر عن موعد نهايته .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ ﴾

وهم هنا يسـخـرون من الرسـول ومن القـرآن ؛ ذلك أنهم لو كـانوا يؤمنون بالقرآن وبالرسول ؛ لَمَا وصفوه ﷺ بالجنون . والذين قالوا ذلك هم أربعة من كبـار الكفار : عبد الله بن أبى أميـة ، والنضْر بن الحارث ، ونوفل بن خـويلد ، والوليد بن الـمغـيرة . وقـيل عن ابن عبـاس : إنهم الوليـد بن المغيـرة المخـزومى ؛ وحبـيب بن عمـرو الثقفى . وقـيل عن مجاهد : إنهم عتبة بن ربيعة ، وكنانة بن عبد ياليل .

والظاهر من قولهم هو التناقض الواضـح ؛ فَهُمْ - شاؤا أم أَبَوْا - يعترفون بالقرآن بأنه « ذِكْر » ، والذِّكْر فى اللغة له عدة مَعَانٍ ، منها الشرف ، وقد أُطلق على القرآن ، كما قال الحق سبحانه :

﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الزخرف]

وسبق لهم أن تلمَّسُـوا فى هذا القرآن هنات ؛ فلم يجدوا ، فكيف يَصفون مَنْ نُزِّل عليه هذا القـرآن بالجنون ؛ وهم الذين شـهدوا له من قَبْل بالصدق والأمانة .

وقد شاء الحق سبحانه أن يُنصِف رسوله ﷺ فقال :

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ [القلم]

وهم فى اتهامهم للرسول ﷺ لم يلتفتوا إلى أنهم قد خاطبوه بقولهم : (يأيها) ، وهو خطاب يتطابق مع نفس الخطاب الذى يخاطبه به الله ؛ وهكذا أجرى الحق سبحانه على ألسنتهم توقيراً واحتراماً للرسول ﷺ دون أنْ يشعروا ، وذلك من مشيئته سبحانه حين يُنطِق أهلَ العناد بالحق دون أن يشعروا .

فقد قال الحق سبحانه عن المنافقين أنهم قالوا :

﴿ لا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا .. (٧) ﴾ [المنافقون]

أى : لا تنفقوا على مَنْ عند النبى ﷺ ، حتى يجوعوا ، فينفضوا من حوله . هم يقولون عنه « رسول الله » ، فهل آمنوا بذلك ؟ أم أن هذا من غلبة الحق ؟

ويتابع سبحانه ما جاء على ألسنتهم :

﴿ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧) ﴾

ونعلم أن فى اللغة ألفاظاً تدُل على الحَثِّ وعلى رغبة المُتكلِّم فى أن يُوجِد السامع ما بعدها ، ومن هذه الألفاظ « لولا » و « لوما » . و « لولا » تجىء للتمنِّى ورغبة ما يكون بعدها ، وإن كان ما بعدها نفياً فهو رغبة منك ألا يكون ، مثل قولك « لو جاء زيد لأكرمته » لكن لمجىء لم يحدث ، وكذلك الإكرام .

وقد قال الكفار هنا ما أورده الحق سبحانه على ألسنتهم :

﴿ لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلائِكَةِ .. (٧) ﴾ [الحجر]

وسبق لهم أنْ قالوا :

﴿لَوْلا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا (٧)﴾ [الفرقان]

وكأنهم يطلبون نزول ملَك مع الرسول ليُؤنسه وليُصدّقوا أنه رسول من عند الله ، فهل كان تصديقهم المُعلَّق على هذا الشرط ؛ تصديقاً للرسول ، أم تصديقاً للملَك ؟

وسبق أن تناول القرآنُ هذا الأمرَ فى قول الحق سبحانه :

﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلاَّ أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولاً (٩٤)﴾ [الإسراء]

وكأنهم علَّقوا الإيمان بالرسول على شَرْط أنه ليس ملكاً ؛ بل من صنف البشر ، وجاء الردّ عليهم :

﴿لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولاً (٩٥)﴾ [الإسراء]

إذن : فلو نزل رسول من السماء ملَكاً ؛ لَمَا استطاع أن يمشى فى الأرض مطمئناً ؛ فضلاً عن أنه لا يمكن أن يكون أُسْوة وقدوة للبشر ؛ لأنه من جنس آخر غير البشر .

ولو نزل عليهم ملك كما زعموا ، وقال لهم : افعل ولا تفعل ، واستقيموا واستغفروا ، وسبِّحوه بُكْرة وأصيلاً ، لَردُّوا عليه قائلين : أنت ملَك ينطبق عليك قول الحق :

﴿لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٦)﴾ [التحريم]

وأنت لا تصلح أُسْوة لنا . ثم كيف يتكلمون مع ملَك وهو من طبيعة مختلفة ، ولن يستطيع البشر أن يرتفعوا إلى مُسْتواه ليأخذوا

منه ، وهو لن يستطيع أن ينزلَ إلى مستوى البشرية ليأخذوا منه ؛ ولذلك شاء الحق سبحانه أن يرسل الرسول من جنس البشر .

وهكذا أبطل الحق سبحانه حُجّتهم فى عدم الإيمان بالرسول ؛ لأنه لم يأْتِ من جنس الملائكة ؛ وأبطل حُجّتهم فى طلبهم أن ينزل مع الرسول ملائكة ؛ ليُؤيّدوه فى صِدْق بلاغه عن الله .

ولذلك يقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾ ﴾ (١)

وهكذا يُعلِّمنا الحق سبحانه أنه لا يُنزّل الملائكة إلا بمشيئة حكمته سبحانه ، ولو نزل الملَك ـ كما طلبوا ـ لمساعدة رسول الله ﷺ فى البلاغ عن الله ؛ فالملَك إما أن يكون على هيئة البشر ؛ فلن يستطيعوا تمييز الملَك من البشر ، وإما أن يكون على هيئة الملك ، فلا يستطيع البشر أنْ يروْه ؛ وإلاَّ هلكوا .

ذلك أن البشر لا تستطيع تحمُّل التواصل مع القوة التى أودعها الله فى الملائكة .

والحق سبحانه هو القائل :

﴿ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الأَمْرُ ثُمَّ لا يُنظَرُونَ (٢) ﴿٨﴾ ﴾ [الأنعام]

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٣٧٢٨/٥) : « معنى : ﴿ إلاَّ بالْحَقِّ .. ﴿٨﴾ ﴾ [الحجر] : إلا بالقرآن . وقيل : بالرسالة ، عن مجاهد . وقال الحسن : إلا بالعذاب إن لم يؤمنوا » .

(٢) أنظره : أخره وأمهله وتأنّى عليه . [القاموس القويم ٢٧٣/٢] .

ولو جعله الحق سبحانه فى هيئة البشر وتواصلوا معه لالتبس عليهم الأمر ، ولَظنّوا أن الملَك بشرٌ مثلهم .

وفى هذا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ (٩) ﴾ [الأنعام]

لم يُنزِل الحق سبحانه الملائكة ؛ لأنه لم يَشَأْ أن يُهلِكهم ورسولُ الله فيهم ، فالحق سبحانه قد قال :

﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣) ﴾ [الأنفال]

وقد آمن معظمهم ودخلوا فى دين الله من بعد ذلك واستغفروا لذنوبهم ، وكان الله غفوراً رحيماً ؛ لأن الإسلام يجُبُّ[1] ما قبله .

وحين ننظر إلى صَدْر الآية نجد أنه سبحانه قال :

﴿ مَا نُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ إِلاَّ بِالْحَقِّ.. (٨) ﴾ [الحجر]

فلو نزلت الملائكة لكان عذاباً لهم ، فالحق سبحانه إذا أعطى قوماً آية طلبوها ، فإما أن يؤمنوا ، وإما أن يهلكهم ، ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ (٥٩) ﴾ [الإسراء]

---

(١) أى : يقطع ويمحو ما كان قبله من الكفر والمعاصى والذنوب . [قاله ابن منظور فى لسان العرب ـ مادة : جبب] .

فالحق سبحانه لم يُجبهم إلى الآيات والمعجزات التى طلبوها ؛ لأن السابقين لهم ، كذَّبوا بها قبل ذلك ، وهم يريدون أن يُكذّبوا أيضاً ، فحتى لو نزلت الآية فسيكذبونها ، وحين يكذبون فى آية مقترحة من عندهم ، فلا بُدّ أن نهلكهم . أما لو كذبوا فى آية مُنزّلة من عند الله فإن الله يمهلهم .

إذن : فلو نزلنا الملائكة كما يريدون فسننزلهم بالحق ، والحق هو أن نهلكهم إذا كذَّبوا .

ويُذيّل الحق سبحانه الآية بقوله :

﴿ وَمَا كَانُوا إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾ ﴾ [الحجر]

أى : ما كان أَجَلُ المشركين قد حانَ ليُنزل الله لهم الملائكة لإهلاكهم ، كما سبق وأهلك الأمم السابقة التى طلبتْ الآيات ، فنزلت لهم كما طلبوها ، ولَمَّا لم يُصدِّقوا ويؤمنوا أهلكهم الله .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾

والقرآن قد جاء بعد كُتب متعددة ، وكان كل كتاب منها يحمل منهج الله ؛ إلا أن أىَّ كتاب منها لم يكُنْ معجزة ؛ بل كانت المُعْجزة تنزل مع أىِّ رسول سبق سيدنا رسول الله ﷺ ، وعادة ما تكون المعجزة من صِنْف ما نبغ فيه القوم الذين نزل فيهم .

وما دام المنهج مفصولاً عن المعجزة ؛ فقد طلب الحق سبحانه من الحاملين لكتب المنهج تلك أنْ يحافظوا عليها ، وكان هذا تكليفاً

من الحق سبحانه لهم . والتكليف ـ كما نعلم ـ عُرْضةَ أنْ يُطَاع ، وعُرْضة أنْ يُعصَى ، ولم يلتزم أحد من الأقوام السابقة بحفظ الكُتب المنزّلة إليهم .

ونجد الحق ـ سبحانه وتعالى ـ يقول :

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا[1] وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ[2] بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ.. (٤٤) ﴾ [المائدة]

أى : أن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ قد كلّفهم وطلب منهم أنْ يحفظوا كتبهم التى تحمل منهجه ؛ وهذا التكليف عُرْضة أنْ يُطاع ، وعُرْضة أنْ يُعصى ؛ وهم قد عَصَوا أمر الحق سبحانه وتكليفه بالحفظ ؛ ذلك أنهم حرّفوا وبدّلوا وحذفوا من تلك الكتب الكثير .

وقال الحق سبحانه عنهم :

﴿ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤٦) ﴾ [البقرة]

بل وأضافوا من عندهم كلاماً وقالوا : هو من عند الله ؛ لذلك قال فيهم الحق سبحانه :

﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ (٧٩) ﴾ [البقرة]

---

(١) الهَوْد : التوبة . وهاد يهود : تاب ورجع إلى الحق . هادوا : دخلوا فى اليهودية . [لسان العرب ـ مادة : هود] .

(٢) الحبر (بفتح الحاء وكسرها) : العالم . وجمعه : أحبار . [القاموس القويم ١/١٤٠] . وقال ابن منظور فى [اللسان مادة : حبر] : « معناه العالم بتحبير الكلام والعلم وتحسينه » .

وهكذا ارتكبوا ذنوب الكذب وعدم الأمانة ، ولم يحفظوا الكتب الحاملة لمنهج الله كما أنزلها الله على أنبيائه ورُسله السابقين على رسول الله ﷺ .

ولذلك لم يَشَأ الحق سبحانه أن يترك مهمة حفظ القرآن كتكليف منه للبشر ؛ لأن التكليف عُرْضة أنْ يُطاع وعُرْضة أنْ يُعصى ؛ فضلاً عن أن القرآن يتميز عن الكتب السابقة فى أنه يحمل المنهج ، وهو المعجزة الدالة على صِدْق بلاغ رسول الله ﷺ فى نفس الوقت .

ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩) ﴾ [الحجر]

والذِّكْر إذا أُطلق انصرف المعنى إلى القرآن ؛ وهو الكتاب الذى يحمل المنهج ؛ وسبحانه قد شاء حِفْظه ؛ لأنه المعجزة الدائمة الدَّالة على صِدْق بلاغ رسوله ﷺ .

وكان الصحابة يكتبون القرآن فَوْرَ أن ينزل على رسول الله ﷺ ، ووجدنا فى عصرنا من هم غير مؤمنين بالقرآن ؛ ولكنهم يتفنّنون فى وسائل حِفْظه ؛ فهناك مَنْ طبع المصحف فى صفحة واحدة ؛ وسخَّر لذلك مواهبَ أُناسٍ غير مؤمنين بالقرآن .

وحدث مثل ذلك حين تَمّ تسجيل المصحف بوسائل التسجيل المعاصرة . وفى ألمانيا ـ على سبيل المثال ـ توجد مكتبة يتم حِفْظ كل ما يتعلق بكل آية من القرآن فى مكان مُعيّن مُحدّد .

وفى بلادنا المسلمة نجد مَنْ ينقطع لحفظ القرآن منذ الطفولة ، ويُنهى حِفْظه وعمره سبع سنوات ؛ وإنْ سألته عن معنى كلمة يقرؤها فقد لا يعرف هذا المعنى .

ومن أسرار عظمة القرآن أن البعض ممَّنْ يحفظونه لا يملكون أية ثقافة ، ولو وقف الواحد من هؤلاء عند كلمة ؛ فهو لا يستطيع أنْ يستكملها بكلمةٍ ذات معنى مُقَارب لها ؛ إلى أنْ يردّه حافظٌ آخر للقرآن .

ولكى نعرف دقّة حفْظ الحق سبحانه لكتابه الكريم ؛ نجد أن البعض قد حاول أنَ يُدخِل على القرآن ما ليس فيه ، وحاول تحريفه من مدخل ، يروْنَ أنه قريب من قلب كل مسلم ، وهو توقير الرسول ﷺ ؛ وجاءوا إلى قول الحق سبحانه :

﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ.. (٢٩) ﴾ [الفتح]

وأدخلوا فى هذه الآية كلمة ليست فيها ، وطبعوا مصحفاً غيَّروا فيه تلك الآية بكتابتها « محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم » وأرادوا بذلك أن يسرقوا عواطف المسلمين ، ولكن العلماء عندما أمسكوا بهذا المصحف أمروا بإعدامه وقالوا : « إن به شيئاً زائداً » ، فردَّ مَنْ طبع المصحف « ولكنها زيادة تحبونها وتُوقّرونها » ، فردَّ العلماء : « إن القرآن توقيفىّ ؛ نقرؤه ونطبعه كما نزل » .

وقامت ضَجَّة ؛ وحسمها العلماء بأن أىّ زيادة - حتى ولو كانت فى توقير رسول الله ﷺ ومحبته - لا تجوز فى القرآن ، لأن علينا أن نحفظ القرآن كما لقَّنه جبريل لمحمد ﷺ .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ[1] الْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾

وهنا يُسلِّى الحق سبحانه رسوله الكريم ، ويوضح له أن ما حدث له من إنكار ليس بِدعاً ، بل حدث مثله مع غيره من الرسل سواء من إنكار أو تجاهل أو سخرية .

وإذا كنت أنت سيد الرسل وخاتم الأنبياء ؛ فلا بُدَّ أن تكون مشقتك على قَدْر مهمتك ، ولا بُدَّ أن يكون تعبُك على قَدْر جسامة الرسالة الخاتمة .

و ﴿ شِيَعِ ﴿١٠﴾ ﴾ [الحجر]

تعنى الجماعة الذين اجتمعوا على مذهب واحد ؛ سواء كان ضلالاً أم حقاً . والمثَل على مَن اجتمعوا على باطل هو قوله الحق :

﴿ أَوْ يَلْبِسَكُمْ[2] شِيَعًا .. ﴿٦٥﴾ ﴾ [الأنعام]

والمثَل على مَنْ اجتمعوا على الحق قوله سبحانه :

﴿ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ[3] لَإِبْرَاهِيمَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [الصافات]

وهكذا تكون كلمة (شِيع) تعنى الجماعة التى اجتمعت على الحق أو الباطل .

---

(١) الشيع : جمع شيعة ، وهى الفرقة من الناس يتابع بعضهم بعضاً . وشيعة الرجل : أتباعه وأنصاره ، ومن على مذهبه ورأيه . [القاموس القويم ١/٣٦٣] .

(٢) يلبسكم شيعاً : أى : يُعمى الأمور عليكم فتصيرون فرقاً مختلفة . [القاموس القويم ٢/١٨٨] .

(٣) الضمير هنا عائد على نوح عليه السلام . قال ابن عباس : أى من أهل ذريته . وقال مجاهد : من شيعة نوح إبراهيم ، على منهاجه وسننه . وقال قتادة : على دينه . ذكر هذه الآثار السيوطى فى الدر المنثور (٧/١٠٠) .

وقول الحق سبحانه :

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾﴾ [الحجر]

يعنى أنك لن تكون أقلّ من الرُّسل السابقين عليك ، بل قد تكون رحلتك فى الرسالة شاقّة بما يناسب مهمتك ، ويناسب إمامتك للرسل وختامك للأنبياء .

ويُكمل سبحانه ما حدث للرسل السابقين على رسالة رسول الله ﷺ ، فيقول :

﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾﴾

ونجد كلمة :

﴿يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾﴾ [الحجر]

ونجد أن الحق سبحانه قد أوضح هذا الاستهزاء حين قالوا :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾﴾ [الحجر]

وكأن الحق سبحانه يُوضّح له أن الاستهزاء قد يزيد ، وذلك دليلٌ على أنك قد بلغتَ منهم مَبْلغ الكَيْد ، ولو كان كيدُك قليلاً لخفّفوا كَيْدهم ؛ ولكنك جئتَ بأمر قَاسٍ عليهم ، وهدمْتَ لهم مذاهبهم ، وهدمْتَ حتى سيادتهم وكذلك سَطْوتهم ، ولم يجدوا غير الاستهزاء ليقاوموك به .

ومعنى ذلك أنهم عجزوا عن مقاومة منهجك ؛ ويحاولون بالاستهزاء أن يُحققوا لك الخَور[1] لتضعف ؛ معتمدين فى ذلك على

---

(١) الخَوَر : الضعف والانكسار . وقال الليث : الخوّار : الضعيف الذى لا بقاء له على الشدة . [لسان العرب ـ مادة : خور] .

أن كل إنسان يحب أن يكون كريماً فى قومه ومُعززاً مُكرّماً .

وهنا يريد الحق سبحانه من رسوله أن يُوطِّن نفسه على أنه سيُستهزأ به وسيُحارب ؛ وسيُؤْذَى ؛ لأن المهمة صعبة وشاقَّة ، وكلما اشتدت معاندتك وإيذاؤك ، فاعلم أن هذه من حيثيات ضرورة مهمتك .

ولذلك نجد الرسول ﷺ قبل أن يتأكد من مهمته ؛ أخذته زوْجه خديجة بنت خويلد ـ رضى الله عنها ـ عند ورقة بن نوفل ؛ وعرف ورقة أنه سَيُؤْذَى ، وقال ورقة لرسول الله ﷺ : ليتنى أكون حياً حين يُخرجك قومك . فتساءل الرسول ﷺ : أمُخرجِىّ هُم ؟ قال ورقة : نعم ، لم يأت رجل بمثل ما جئتَ به إلا عُودِىَ ، وإن يدركنى يومك أنصرك نصراً مؤزراً[1] .

وهكذا شاء الحق سبحانه أن يصحب نزول الرسالة أن يُحصِّنه ضد ما سيحصل له ، ليكون عنده المناعة التى تقابل الأحداث ؛ فما دام سيصير رسولاً ، فليعلم أن الطريق مَحْفوف بالإيذاء ، وبذلك لا يُفاجأ بوجود مَنْ يؤذيه .

ونحن نعلم أن المناعة تكون موجودة عند مَنْ وبها يستعد لمواجهة الحياة فى مكان به وباء يحتاج إلى مَصْل[2] مضاد من هذا الوباء ؛ لِيقىَ نفسه منه ، وهذا ما يحدث فى الماديات ، وكذلك الحال فى المعنويات .

---

(١) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٢/١٣٩ ، ١٤٠) من حديث محمد بن النعمان بن بشير الأنصارى . وانظر دلائل النبوة لأبى نعيم (١٦٨) .

(٢) المصل : ما يتخذ من دم حيوان محصَّن من الإصابة بمرض كالجدرى والدفتريا ثم يحقن به جسم آخر ليكسبه مناعة تقيه الإصابة بذلك المرض . [المعجم الوجيز ـ مادة : مصل] .

ولهذا يُوضِّح سبحانه هذا الأمر لرسوله ﷺ ، ولتزداد ثقته فى الحقِّ الذى بعثه به ربُّه ، ويشتدّ فى المحافظة على تنفيذ منهجه .

والاستهزاء ـ كما نعلم ـ لَوْنٌ من الحرب السلبية ؛ فهم لم يستطيعوا مواجهة ما جاء به رسول الله ﷺ بالجد ، ولا أنْ يردّوا منهجه الراقى ؛ لذلك لجئوا إلى السُّخْرية من رسول الله ﷺ ، ولم تنفعهم سخريتهم فى النَّيْل من الرسول ، أو النَّيْل من الإسلام ، وفى هذا المعنى ، يقول لنا الحق سبحانه عن مصير الذين يسخرون من الرسول ﷺ :

﴿ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ ﴾ (١)

و « سلك الشىء » أى : أدخله ، كما نُدخِل الخيط فى ثقب الإبرة . والحق سبحانه يقول :

﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ (٢) ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [المدثر]

أى : ما أدخلكم فى النار ؛ فتأتى إجابتهم :

﴿ لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [المدثر]

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُ فِى قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ ﴾ [الحجر]

---

(١) أى : كذلك نسلك الضلال والكفر والاستهزاء والشرك فى قلوبهم . والسَّلْك : إدخال الشىء فى الشىء كإدخال الخيط فى المخيط . [تفسير القرطبى ٥/٣٧٣١] .

(٢) سقر : اسم من أسماء جهنم . [القاموس القويم ١/٣١٧] . قال السيوطى فى الإتقان (٢/١١٣) : « ذكر الجواليقى أنها أعجمية » وقال ابن منظور فى اللسان (مادة : سقر) : « وقيل : سميت النار سقر لأنها تذيب الأجسام والأرواح ، والاسم عربى من قولهم : سقرته الشمس . أى : أذابته » .

أى : كما سلكنا الكفر والتكذيب والاستهزاء فى قلوب شيع الأولين ، كذلك نُدخِله فى قلوب المجرمين .

يعنى : مشركى مكّة ، لأنهم أدخلوا أنفسهم فى دائرة الشرك التى دعتهم إلى هذا الفعل ، فنالوا جزاءَ ما فعلوا مثل ما سبق من أقوام مثلهم ؛ وقد يجد من تلك القلوب تصديقاً يكذبونه بألسنتهم ، مثلما قال الحق سبحانه :

﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ .. (١٤) ﴾ [النمل]

فهم أمة بلاغة ولغة وبيان ؛ وقد أثّر فيهم القرآن بحلاوته وطلاوته[١] ؛ ولكنه العناد ، وها هو واحد[٢] منهم يقول :

« إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لَمُثمِر ، وإن أسفله لمغدق »[٣] .

لقد قال ذلك كافر بالرسول والرسالة .

ونعلم أن الذين استمعوا إلى القرآن نوعان ؛ والحق سبحانه هو القائل عن أحدهما :

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (١٦) ﴾ [محمد]

أى : أن قوله لا يعجبهم وما يتلوه عليهم لا يستحق السماع ، فقال الحق سبحانه رداً عليهم :

---

(١) الطلاوة : الحُسْن والقبول والرّونق . [لسان العرب ـ مادة : طلى] .

(٢) هو الوليد بن المغيرة ، أبو عبد شمس ، وقد كان ذا سِنٍّ فيهم ، وكبيراً من كبرائهم .

(٣) ذكره ابن هشام فى السيرة النبوية (١/ ٢٧٠) .

﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ[1] وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى..(٤٤)﴾ [فصلت]

وهى مسألة ـ كما أقول دائماً ـ تتعلق بالقابل الذى يستقبل الحدث ؛ إما أنْ يُصفِّى قلبه ليستقبل القرآن ؛ وإما أنْ يكون قلبه ـ والعياذ بالله ـ مُمْتلئاً بالكفر ، فلا يستقبل شيئاً من كتاب الحق .

وقد حدث أن أدخل الحق سبحانه كتبه السماوية فى قلوب الأقوام السابقة على رسول الله ، ولكنهم لفساد ضمائرهم وظُلْمة عقولهم ؛ سَخِروا من تلك الكتب ، ولم يؤمنوا بها .

ويَصِف الحق سبحانه هؤلاء المجرمين بقوله :

﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ[2] سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ (١٣)﴾

وهكذا يوضح الحق سبحانه أن قلوب الكَفرة لا تلين بالإيمان ؛ ولا تُحسن استقبال القرآن ، ذلك أن قلوبهم مُمْتلئة بالكفر ، تماماً كما حدث منَ الأقوام السابقة ، فتلك سُنة مَنْ سبقوهم إلى الكفر .

والسُّنة هى الطريقة التى تأتى عليها قضايا النتائج للمُقدِّمات ، وهى أولاً وأخيراً قضايا واحدة .

ومرة نجد الحق سبحانه يقول :

﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً (٦٢)﴾ [الأحزاب]

---

(١) الوقر : ثقَل فى السمع أو صمم . [القاموس القويم ٢/٣٥٠] .
(٢) خلا الأمَر يخلو : مضى وسبق . والقرون الخالية : هم المواضى . [لسان العرب ـ مادة : خلا] .

ونعلم أن الإضافة تختلف حَسْب ما يقتضيه التعبير . فـ (سنة الأولين) تعنى الأمور الكونية التى قدَّرها الله لعباده . و (سنة الله) تعنى سُنّة منسوبة لله ، ومن سُنَن الحق سبحانه أن يُهلك المُكذِّبين للرسل إنْ طلبوا آية فجاءتهم ، ثم واصلوا الكفر .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ (١) ﴿١٤﴾
لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ (٢) أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾ ﴾

وهم قد طلبوا أن ينزل إليهم مَلَكٌ من السماء ؛ لذلك نجد الحق سبحانه هنا يأتيهم بدليل أقوى ممَّا طلبوا ، ذلك أن نزول مَلَك من السماء هو أسهل بكثير من أن يُنزلَ من السماء سُلَّماً يصعدون عليه ، وفى هذا ارتقاء فى الدليل ؛ لكنهم يرتقون أيضاً فى الكفر ، وقالوا : إن حدث ذلك فلَسوفَ يكون من فعل السحر .

ولو كان محمد ﷺ ساحراً لَسحرهم ، وجعلهم جميعاً مؤمنين ، وعلى الرغم من أن مثْل هذا الأمر كان يجب أن يكون بدهياً بالنسبة لهم ، لكنهم يتمادوْنَ فى الكفر ، ويقولون : إنه لو نزَّل سُلَّماً من السماء وصعدوا عليه ؛ لَكانَ ذلك بفعل السحر ؛ ولكانَ رسول الله هو الذى سحرهم ؛ وأعمى أبصارهم ، ولَجعلهم يتوهمون ذلك .

---

(١) عرج يعرج : صعد وعلا وارتفع . [القاموس القويم ١٣/٢] . والمعارج : المصاعد والدرَج . والمعراج : السُّلَّم . [لسان العرب ـ مادة : عرج] .

(٢) سُكِّرت أبصارنا . أى : حبست عن النظر وحُيِّرت . وقال أبو عمرو بن العلاء : معناها غُطيت وغُشّيت . أى : سُدّت بالسحر فيتخايل بأبصارنا غير ما نرى . [لسان العرب ـ مادة : سكر] .

وكأن معنى هذا القول الكريم : لو ارتقينا فى مطلبهم ، وأنزلنا لهم سُلَّماً يصعدون به إلى أعلى ؛ ليقولوا : إن الحق هو الذى بعث محمداً بالرسالة ، بدلاً من أن ينزل إليهم ملك حسب مطلبهم ؛ لَمَا آمنوا بل لقالوا : إن هذا من فعل سحر قام به محمد ضدهم . وهكذا يرتقون فى العناد والجحود .

ولا بُدَّ أن نلحظ أن الحق سبحانه قد جاء هنا بكلمة :

﴿ فَظَلُّوا (١٤) ﴾ [الحجر]

ولم يقل « وكانوا » ، ذلك أن « كان » تُستخدم لمُطْلق الزمن ، و « ظل » للعمل نهاراً ، و « أمسى » للعمل ليلاً ، أى : أن كل كلمة لها وَقْت مكتوب ، والمقصود من « ظَلُّوا » هنا أن الحق سبحانه لن ينزل لهم السُّلَّم الذى يعرجُون عليه إلا فى منتصف النهار ، ولكنهم أصرُّوا على الكفر .

لذلك قال سبحانه :

﴿ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ (١٤) ﴾ [الحجر]

أى : لن نأخذهم بالليل ، حتى لا يقولوا إن الدنيا كانت مظلمة ولم نر شيئاً ، ولكنه سيكون فى وضح النهار . أى : أن الله حتى لو فتح باباً فى السماء يصعدون منه إلى الملأ الأعلى فى وضح النهار لكذَّبوا .

وبعد ذلك ينقلنا الحق سبحانه إلى الكون لِيُرينَا عجيبَ آياته ، فيقول :

﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ (١٦) ﴾

والبروج تعنى المبانى العالية ، والحق سبحانه هو القائل :

﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ[1] (٧٨) ﴾

[النساء]

وهو سبحانه القائل : ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ (١) ﴾ [البروج]

والمعنى الجامع لكل هذا هو الزينة المُلْفتة بجِرْمها العالى ؛ وقد تكون مُلْفِتة بجمالها الأخَّاذ .

والبروج هى جمع بُرْج ؛ وهى منازل الشمس والقمر ؛ فكلما تحركت الشمس فى السماء تنتقل من برج إلى آخر ؛ وكذلك القمر ، مصداقاً لقول الحق سبحانه :

﴿ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٣٣) ﴾ [الأنبياء]

وهو سبحانه القائل :

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ (٥) ﴾ [يونس]

أى : لنضبط كل التوقيتات على ضَوْء تلك الحركة لكل من الشمس والقمر ، ونحن حين نفتح أىَّ جريدة نقرأ ما يُسمَّى بأبواب الطالع ، وفيه أسماء الأبراج : برج الحَمَل ، وبرج الجدى ، وبرج العذراء ؛ وغيرها ، وهى أسماء سريانية للمنازل التى تنزلها أبراج النجوم . ويقول الشاعر :

---

(١) شيد البناء : رفعه وأحكمه وطلاه . [القاموس القويم : ١/٣٦٣] .

حَمَلَ الثورُ جَوْزَةَ السرطَانِ ورعَى الليْثُ[1] سُنبل المِيزَانِ
عقربَ القوس جَدى دَلْوَ وحُوت ما عرفنَا من أُمة السّريَانِ

وهم اثنا عشر برجاً ، ولكل برج مقاييس فى الجو والطقس . وحين نقرأ القرآن نجد قول الحق سبحانه :

﴿ وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (١٦) ﴾ [النحل]

والبعض يحاول أن يجد تأثيراً لكل برج على المواليد الذين يُولدون أثناء ظهور هذا البرج ، ولعل مَنْ يقول ذلك يصل إلى فَهْم لبعض من أسرار الله فى كونه ؛ ذلك أنه سبحانه قد أقسم بمواقع النجوم ، وقال :

﴿ فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (٧٦) ﴾ [الواقعة]

وهناك مَنْ يقول : إن لكل إنسان نجماً يُولَد معه ويموت معه ؛ لذلك يُقَال « هوى نجم فلان » ، ونحن لا نجزم بصحة أو عدم صحّة مثل هذه الأمور ؛ لأنه لم تثبُت علمياً ، والحق سبحانه أعلم بأسراره ، وقد يُعلمها لبعضٍ من خَلْقه .

وهنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها نجد قول الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى السَّمَاءِ بُرُوجًا .. (١٦) ﴾ [الحجر]

أى : أن هناك تأكيداً لوجود تلك البروج فى السماء ، وليس هذا

---

(١) الليث : الأسد ، والجمع ليوث . وهو مأخوذ من المعنى اللغوى ، فالليث : الشدة والقوة . [لسان العرب ـ مادة : ليث] .

الجَعْل لتـأثيرها فى الجو ، أو لأنها عـلامات نهتدى بهـا ، فضلاً عن تأثيرها على الحرارة والرطوبة والنباتات ، ولكنها فوق كل ذلك تؤدى مُهمة جمالية كبيرة ، وهى أن تكون زينة لكل مَنْ ينظر إليها .

لذلك قال الحق سبحانه :

﴿ وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ (١٦) ﴾ [الحجر]

ذلك أن الشىء قد يكون نافعاً ؛ لكن ليس له قيمة جمالية ؛ وشاء الحق سـبحـانه أن يجعل للنـجوم قـيمـة جمـالية ، ذلك أنه قـد خلق الإنسـان ، ويعلم أن لنفسه مَلَكاتٍ مُتعددة ، وكُلّ مَلَكةٍ لها غذاء .

فغـذاءُ العين المنظر الجـميل ؛ والأذن غـذاؤها الصوت الجـميل ، والأنف غذاؤه الرائحة الطيـبة ؛ واللسان يعجبـه المذاق الطيب ، واليد يعـجبهـا المَلْمَس الناعم ؛ وهذا مـا نعرفـه من غذاء المَلَكات للـحواس الخمس التى نعرفها .

وهناك مَلَكات أخـرى فى النفس الإنسانيـة ؛ تحتاج كل مـنها إلى غذاء مـعين ، وقد يُسـبّب أَخْذ مَلَكة من مَلَكات النفس لأكـثر المطلوب لها من غـذاء أن تَفْسد تلك المَلَكة ؛ وكـذلك قد يُسبِّب الحـرمان لِمَلَكة ما فساداً تكوينياً فى النفس البشرية .

والإنسـان المـتوازن هو مَنْ يُغذّى مَلَكاته بشكل مُتـوازن ، ويظهر المـرض النفسى فى بعض الأحـيان نتـيجـةً لنقص غذاء مَلَكة مـا من المَلَكات النفـسـية ، ويتطلـب علاجُ هذا المـرض رحلةً من البـحث عن المَلَكة الجائعة فى النفس البشرية .

وهكذا نجـد فى النفس الإنسـانيـة مَلَكة لرؤية الزيـنة ، وكـيف

تستميل الزينة النفس البشرية ؟ ونجد المثل الواضح على ذلك هو وجود مهندسى ديكور يقومون بتوزيع الإضاءة فى البيوت بأشكال فنية مختلفة .

ولذلك يقول الحق سبحانه عن أبراج النجوم :

﴿ وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ (١٦) ﴾ [الحجر]

ونجده سبحانه يقول عن بعض نِعَمه التى أنعم بها علينا :

﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً.. (٨) ﴾ [النحل]

وهكذا يمتنُّ علينا الحق سبحانه بجمال ما خلق وسخَّره لنا ، ولا يتوقف الأمر عند ذلك ، بل هى فى خدمة الإنسان فى أمور أخرى :

﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ[1] إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٧) ﴾ [النحل]

وهو سبحانه وتعالى الذى جعل تلك الدواب لها منظر جميل ؛ فهو سبحانه القائل :

﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ[2] (٦) ﴾ [النحل]

وهو سبحانه لم يخلق النعم لنستخدمها فقط فى أغراضها المُتَاحة ؛ ولكن بعضاً منها يروى أحاسيس الجمال التى خلقها فينا سبحانه . وكلما تأثرنا بالجمال وجدنا الجميل ، وفى توحيده تفريد لجلاله .

---

(١) الأثقال : الأحمال الثقيلة . والثقل : الحمل الثقيل . [القاموس القويم ١/١٠٨] .

(٢) سرحت الماشية . أى : أخرجتها بالغداة إلى المرعى . [لسان العرب ـ مادة : سرح] .

ويقول سبحانه عن السماء والبروج :

﴿وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾﴾

ونعلم أن الشياطين كانوا يسترقون[1] السمع لبعض من منهج الله الذى نزل على الرسل السابقين لرسول الله ﷺ ؛ وكانوا يحاولون أن يُضيفوا لها من عندهم ما يُفسد معناها ، وما أنْ جاء رسول الله ﷺ حتى منع كل هذا بأمر من الحق سبحانه ، يقول جل عُلاَه :

﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ.. ﴿١٢١﴾﴾ [الأنعام]

ولذلك نجد الشياطين تقول ما ذكره الحق سبحانه على ألسنتهم فى كتابه العزيز :

﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا[2] رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾ [الجن]

وهكذا علمنا أنهم كانوا يسترقون السمع ؛ ويأخذون بِضْعاً من كلمات المنهج ويزيدون عليها ؛ فتبدو بها حقيقة واحدة وألف

---

(١) استرق السمع : إذا سمعه مستخفياً كأنه يسرق الكلام المسموع كما يسرق المال ، وقوله : ﴿إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ .. ﴿١٨﴾﴾ [الحجر] أى : استمع فى خُفية . [القاموس القويم ٣١٢/١] .

(٢) الشهاب : الشعلة الساطعة من النار . وهو النجم المضىء اللامع . وهو جِرْم سماوى يسبح فى الفضاء ، فإذا دخل فى جو الأرض اشتعل ، وصار رماداً . [المعجم الوجيز : مادة : شهب] .

كـذبة[١]. وشاء الحق سبحانه أن يُكذِّب ذلك ؛ فقال :

﴿وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ[٢] (١٧)﴾ [الحجر]

والشيطان كما نعلم هو عاصى الجن .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ (١٨)﴾

وكلمة : ﴿اسْتَرَقَ (١٨)﴾ [الحجر]

تُحدِّد المعنى بدقّة ، فهناك مَنْ سرق ؛ وهناك مَنْ استرق ؛ فالذى سرق هو مَنْ دخل بيتاً على سبيل المثال ، وأخذ يُعبّىء ما فيه فى حقائب ، ونزل من المنزل على راحته لينقلها حيث يريد .

لكن إنْ كان هناك أحد فى المنزل ؛ فاللص يتحرك فى استخفاء ؛ خوفاً من أن يضبطه مَنْ يوجد فى المنزل ليحفظه ؛ وهكذا يكون معنى « استرقَ » الحصول على السرقة مقرونة بالخوف .

وقد كان العاصون من الجنِّ قبل رسول الله ﷺ يسترقون السمع

---

(١) أخرج البخارى فى صحيحه (٥٧٦٢) ، وأحمد فى مسنده (٦/٨٧) ، ومسلم فى صحيحه (٢٢٢٨) من حديث عائشة رضى الله عنها قالت : « سأل ناس النبى ﷺ عن الكهان ، فقال : إنهم ليسوا بشيء . فقالوا : يا رسول الله إنهم يحدثون بالشيء يكون حقاً . فقال ﷺ : تلك الكلمة من الحق يخطفها الجنى فيقرقرها فى أذن وليه كقرقرة الدجاجة فيخلطون معها أكثر من مائة كذبة » .

(٢) الرجم : الرمى بالحجارة . والرجم : اللعن والإبعاد والطرد . ويكون الرجيم بمعنى المشتوم المسبوب من قوله تعالى : ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ .. (٤٦)﴾ [مريم] أى : لأسبنك .[لسان العرب ـ مادة : رجم] .

للمنهج المُنزّل على الرُّسُل السابقين لرسول الله ﷺ ؛ واختلف الأمر بعد رسالته الكريمة ؛ حيث شاء الحق سبحانه أنْ يحرسَ السماء ؛ وما أنْ يقترب منها شيطان حتى يتبعه شهاب ثاقب[١] .

والشهاب هو النار المرتفعة ؛ وهو عبارة عن جَذْوة تشبه قطعة الفحم المشتعلة ؛ ويخرج منه اللهب . وهو ما يُسمّى بالشهاب .

أما إذا كان اللهب بلا ذؤابة[٢] من دخان ؛ فهذا اسمه « السَّمُوم ». وإنْ كان الدخان مُلْتوياً ، ويخرج منه اللهب ، ويموج فى الجو فيُسمى « مارج » حيث قال الحق سبحانه :

﴿ مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ ﴾ [الرحمن]

وهكذا نجد السماء محروسة بالشهب والسَّمُوم ومارج من نار .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ ﴾

وحين نسمع كلمة الأرض فنحن نتعرف على المقصود منها ، ذلك أنه ليس مع العين أيْن . والمَدُّ هو الامتداد الطبيعى لِمَا نسير عليه من أىِّ مكان فى الأرض .

وهذه هى اللفتة التى يلفتنا لها الحق سبحانه ؛ فلو كانت الأرض

---

(١) شهاب ثاقب : أى : مشتعل مضيء خارق لظلام الليل ، أو خارق ماحق لكل شيطان يخطف خطفة من السماء ، وسبب اشتعال الشهاب هو دخوله فى نطاق جاذبية الأرض واحتكاكه بالهواء . [القاموس القويم ١/١٠٧] .

(٢) ذؤابة كل شيء : أعلاه . ذؤابة الفرس : شعر فى الرأس . فى أعلى الناصية . وذؤابة القوم : أشرافهم وأعلاهم . [لسان العرب ـ مادة : ذأب] .

مُربعة ؛ أو مستطيلة ؛ أو مُثلثة ؛ لوجدنا لها نهاية وحَافّة ، لكنّا حين نسير فى الأرض نجدها مُمْتدة ، ولذلك فهى لا بُد وأن تكون مُدَوَّرة .

وهم يستدلون فى العلم التجريبى على أن الأرض كُروية بأن الإنسان إذا ما سار فى خط مستقيم ؛ فلسوف يعود إلى النقطة التى بدأ منها ، ذلك أن مُنْحنى الأرض مصنوعٌ بدقة شديدة قد لا تدرك العين مقدارَ الانحناء فيه ويبدو مستقيماً .

وحين يقول الحق سبحانه :

﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ .. (١٩)﴾ [الحجر]

يعنى أشياء تثبتها . ولقائل أنْ يتساءل : ما دامت الأرض مخلوقةً على هيئة الثبات فهل كانت تحتاج إلى مثبتات ؟

ونقول : لا بد أن الحق سبحانه قد خلقها مُتحركة وعُرْضة لأنْ تضطربَ ؛ فخلق لها المُثقّلات ، وهكذا نكون قد أخذنا من هذه الآية حقيقتين ؛ التكوير والدوران .

وهناك آية أخرى يقول فيها الحق سبحانه :

﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ (٨٨)﴾ [النمل]

ونفهم من هذا القول الكريم أن حركة الجبال ليست ذاتيةً بل تابعة لحركة الأرض ؛ كما يتحرك السحاب تبعاً لحركة الرياح .

وشاء سبحانه أن يجعل الجبال رواسى مُثبِّتات للأرض كى لا تميدَ بنا ؛ فلا تميل يَمْنة أو يَسْرة أثناء حركتها .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَنبَتْنَا[1] فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ ﴾ [الحجر]

وأنبت سبحانه من الأرض كُلَّ شىء موزون بدقّة تناسب الجو والبيئة ، ويضم العناصر اللازمة لاستمرار الحياة .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ[2] وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾

فى هذا القول يمتنُّ علينا سبحانه بأنه جعل لنا فى الأرض وسائل للعيش ؛ ولم يكتَفِ بذلك ، بل جعل فيها رزقَ ما نطعمه نحن من الكائنات التى تخدمنا ؛ من نبات وحيوان ، ووقود ، وما يلهمنا إياه لنطور حياتنا من أساليب الزراعة والصناعة ؛ وفوق ذلك أعطانا الذرية التى تَقَرُّ بها العين ، وكل ذلك خاضع لمشيئته وتصرُّفه .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ ﴾

وقوله الحق :

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ .. ﴿٢١﴾ ﴾ [الحجر]

أى : أنه لا يوجد جنس من الأجناس إلا وله خزائنُ عند الله

---

(١) المقصود من الإنبات: الإنشاء والإيجاد . قاله القرطبى فى تفسيره (٥/٣٧٣٦) . ومنه قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ﴾ [نوح] .

(٢) المعايش : جمع معيشة ، وهو ما يقتات به ويعيش عليه الإنسان .

سبحانه ، فالشىء الذى قد تعتبره تافهاً له خزائن ؛ وكذلك الشىء النفيس ، وهو سبحانه يُنزِل كل شىء بقدَرٍ ؛ حتى الاكتشافات العلمية يُنزِلها بقدَرٍ .

وحين نحتاج إلى أىٍّ شىء مخزون فى أسرار الكون ؛ فنحن نُعمِل عقولنا الممنوحة لنا من الله لنكتشف هذا الشىء . والمثل هو الوقود . وكُنا قديماً نستخدم خشب الأشجار والحطب .

وسبحانه هو القائل :

﴿ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِى تُورُونَ[1] (٧١) أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ (٧٢) ﴾ [الواقعة]

واتسعت احتياجات البشر فاكتشفوا الفحم الذى كان أصله نباتاً مطموراً أو حيواناً مطموراً فى الأرض ؛ ثم اكتُشِف البترول ، وهكذا .

أى : أنه سبحانه لن يُنشِىء فيها جديداً ، بل أعدَّ سبحانه كل شىء فى الأرض ، وقدَّر فيها الأقوات من قبل أنْ ينزِل آدم عليه السلام إلى الأرض من جنة التدريب ليعمُرَ الأرض ، ويكون خليفة لله فيها ، هو وذريته كلها إلى أن تقومَ الساعة .

فإذا شكوْنَا من شىء فهذا مَرْجعه إلى التكاسل وعدم حُسْن استثمار ما خلقه الله لنا وقدَّره من أرزاقنا فى الأرض . ونرى التعاسة فى كوكب الأرض رغم التقدُّم العلمى والتِّقنى ؛ ذلك أننا نستخدم ما كنزه الحق سبحانه ليكون مجال سعادة لنا فى الحروب والتنافر .

---

(١) أوْرى : أخرج النار من الشيء . ورى الزند : خرجت ناره ، وأوراه غيره إذا استخرج ناره ، والزند الوارى : الذى تظهر ناره سريعاً . [لسان العرب ـ مادة : ورى] .

ولو أن ما يُصرف على الحروب ؛ تم توجيهه إلى تنمية المجتمعات المختلفة لَعاشَ الجميع فى وفرة حقيقية . ولكن سوء التنظيم وسوء التوزيع الذى نقوم به نحن البشر هو المُسبِّب الأول لتعاسة الإنسان فى الأرض ؛ ذلك أنه سبحانه قد جعل الأرض كلها للأنام ، فمن يجد ضِيقاً فى موقع ما من الأرض فليتجه إلى موقع آخر .

ولكن العوامل السياسية وغير ذلك من الخلافات بين الناس تجعل فى أماكن فى الأرض ؛ رجالاً بلا عمل ؛ وتجعل فى أماكن أخرى ثروة بلا استثمار ؛ ونتجاهل قوله سبحانه :

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ.. (٢١) ﴾ [الحجر]

فلكل شىء فى الأرض خزائن ؛ والخزينة هى المكان الذى تُدَّخر فيه الأشياء النفيسة ، والكون كله مخلوق على هيئة أن الحق سبحانه قدَّر فى الأرض أَقْواتاً لكل الكائنات من لَدُن آدم إلى أن تقومَ الساعة .

فإنْ حدث تضييق فى الرزق فاعلموا أن حقاً من حقوق الله قد ضُيِّع ، إما لأنكم أهملتم استصلاحَ الأرض وإحياء مواتها[1] بقدر ما يزيد تعداد السكان فى الأرض ، وإما أنكم قد كنزتُم ما أخذتُم من الأرض ، وضننتُم بِمَا اكتنزتموه على سواكم .

فإنْ رأيتَ فقيراً مُضيَّعاً فاعلم أن هناك غنياً قد ضَنَّ عليه بما

---

(١) إحياء الموات هو إعداد الأرض الميتة التى لم يسبق تعميرها وتهيئتها وجعلها صالحة للانتفاع بها فى السكنى والزرع ونحوها . ويشترط لاعتبار الأرض مواتاً أن تكون بعيدة عن العمران ، ويسقط حق محتجر الأرض للإحياء فيها إذا مرت ثلاث سنوات دون إعمارها . [فقه السنة ٣/٢٠١] بتصرف .

أفـاض الله على الغنى من رزق ، وإنْ رأيت عاجـزاً عن إدراك أسبـاب حيـاته فاعلم أن واحداً آخـر قد ضَنَّ عليه بقُـوته . وإنْ رأيت جاهلاً ؛ فـاعلم أن عالمـاً قـد ضَنَّ عليه بـعلمه . وإنْ رأيت أَخْـرقَ[1] فاعلم أن حكيمـاً قد ضَنَّ عليه بحكمتـه ؛ فكُلّ شـىء مخزون فى الحيـاة ؛ حتى تسلم حـركة الحيـاة ؛ سلامـةً تؤدى إلى التسـانُد والتعـاضُد ؛ لا إلى التعانُد والتضارب .

ونعلم أنه سبحـانه قد أعدَّ لنا الكون بكُل ما فـيه قبل أنْ يخلقنا ؛ ولم يُكلِّفنا قـبل البلوغ ؛ ذلك أنه عَلِم أزلاً أن التكـليف يُحدّد اخـتيـار الإنسـان لكثـيـر من الأشيـاء التى تـتعلق بـكل ملَكات النفس ؛ قُـوتاً ومَشْرباً ومَلْبـساً ومسكناً وضَبْطاً للأهواء ، كـى لا ننساقَ فى إرضاء الغرائز على حساب القِيمَ .

وشـاء سبـحانه ألاَّ يكون التكليـف إلا بعد البلوغ ؛ حـتى تستـوفى ملكاتُ النفس القوةَ والاقتدارَ ، ويكون قادراً على إنجاب مثيل له ، ولكى يكون هذا التكليف حُجَّـة على الإنسان ، هذا الذى طَمَر له الحق سـبحانه كل شـىء إمَّا فى الأرض ؛ أو كان طمراً فى النوع ، أو فى الجنس .

وكُلُّ شـىء فى الكون موزون ، إما أن يكون جِنْساً ، أو نَوْعاً ، أو أفراداً ؛ والميزان الذى توجـد به كل تلك العطاءات ؛ إنما شاء به الحق سبـحانه أن يهبَ الرب للكل ؛ وليـوافق الكثرة ؛ وليعـيش الإنسان فى حـضْن الإيمـان . وهكـذا يكون عطاء الله لنـا عطاءَ ربوبيـةٍ ، وعطاءَ ألوهيةٍ ، والذكىّ حقاً هو مَنْ يأخذ العطاءين معاً لتستقيم حياته .

---

(١) الأخرق : الأحمق الجاهل الذى لا يُحسن عمله . [لسان العرب ـ مادة : خرق] .

والحق سبحانه هو القائل :

﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنفَاقِ وَكَانَ الْإِنسَانُ قَتُورًا[1] (١٠٠)﴾ [الإسراء]

وذلك ليوضح لنا الحق سبحانه أن الإنسان يظنُّ أن ذاتيته هى الأصل ، وأن نفعيته هى الأصل ، وحتى فى قضايا الدين ؛ قد يتبع العبد قوله الحق :

﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ[2] (٩) ﴾ [الحشر]

ومَنْ يفعل ذلك إنما يفعله فى ظاهر الأمر أنه يُؤْثِر الغيرَ على نفسه ؛ ولكن الواقع الحقيقى أنه يطمع فيما أعدَّه الله له من حُسْن جزاء فى الدنيا وفى الآخرة .

إذن : فأصْل العملية الدينية أيضاً هو الذات ؛ ولذلك نجد مَنْ يقول : أنا أُحب الإيمان ؛ لأن فيه الخيرية ، يقول الحق سبحانه :

﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ (٨) ﴾ [العاديات]

وفيه أنانية ذكية تتيح لصاحبها أَخْذ الثواب على كل عمل يقوم به لغيره ، وهذا لون من الأنانية الذكية النافعة ؛ لأنها أنانية باقية ، ولها عائد إيمانى .

---

(١) قتر الرجل على عياله : ضيق عليهم فى النفقة . والقتر : ضيق العيش . والإقتار : التضييق على الإنسان فى الرزق . [لسان العرب ـ مادة : قتر] .

(٢) خصّ يخص خصاصة : افتقر واحتاج . والخصاصة : الفقر والاحتياج . [القاموس القويم ١/١٩٥] .

ونعلم أن الحق سبحانه لو شاء لجعل الناس كلهم أثرياء ؛ ولم يجعل يداً عليا ويداً سفلى ، لكنه سبحانه لم يشأ ذلك ؛ ليجعل الإنسان ابْنَ أغيار ؛ ويعدل فيه بميزان الإيمان ، وليدُكّ غرور الذات على الذات ، وليتعلم الإنسان أن غروره على ربِّه لن ينال من الله شيئاً ، ولن يأتى للإنسان بأى شىء .

وكل مظاهر القوة فى الإنسان ليست من عند الإنسان ، وليست ذاتية فيه ، بل هى موهوبة له من الله ؛ وهكذا شاء الحق سبحانه أنْ يُهذِّب الناس لِيُحسِنوا التعامل مع بعضهم البعض .

ولذلك أوضح سبحانه أن عنده خزائنَ كل شىء ، ولو شاء لألقى ما فيها عليهم مرة واحدة ؛ ولكنه لم يُرد ذلك ليؤكد للإنسان أنه ابْنُ أغيارٍ ؛ ولِيلفتَهم إلى مُعْطى كل النعم .

كما أن رتابة النعمة قد تُنسِى الإنسانَ حلاوةَ الاستمتاع بها ، وعلى سبيل المثال أنت لا تجد إنساناً يتذكّر عَيْنه إلا إذا آلمتْه ؛ وبذلك يتذكر نعمة البصر ، بل وقد يكون فَقْد النعمة هو المُلفِت للنعمة ، وذلك لكى لا ينسى أحد أنه سبحانه هو المُنعِم .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ[1] فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾

---

(١) لواقح : حوامل . لأنها تحمل الماء والتراب والسحاب والخير والنفع . قال الأزهرى : وجعل الريح لاقحاً لأنها تحمل السحاب ، أى : تُقله وتصرفه ثم تمر به فتستدره ، أى تنزله . [تفسير القرطبى ٥/٣٧٣٩] .

والإرسال هو الدَّفْع للشىء من حَيِّز إلى حَـيِّز آخر ، وحين يقول سـبحـانه إنه أرسل الرياح ؛ نجد أنـها مُـرْسلَة من كُلّ مكان إلى كُلّ مكان ؛ فهى مُرْسلَة من هنا إلى هناك ، ومن هناك إلى هنا .

وهكذا يكون كل مكان ؛ هو موقع لإرسال الرياح ؛ وكل مكان هو موقع لاستقبالها ؛ ولذلك نجد الرياح وهى تسير فى دَوْرة مستمرة ؛ ولو سكنتْ لمَـا تحـرَّك الهـواء ، ولأُصـيـبتْ البـشـرية بالكثـيـر من الأمـراض ؛ ذلك أن الرياح تُجدّد الهـواء ، وتُنظِّف الأمكنة من الرُّكـود الذى يُمكِن أن تصيرَ إليه .

ونعلم أن القرآن حين يتكلم عن الرياح بصيغـة الجمع فهو حديث عن خير ، والمثل هو قول الحق سبحانه :

﴿ وَهُوَ الَّذِى يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ.. (٥٧) ﴾ [الأعراف]

أما إذا أُفرد وجاء بكلمة « ريح » فهى للعذاب ، مثل قوله :

﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ[1] عَاتِيَةٍ (٦) ﴾ [الحاقة]

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ (٢٢) ﴾ [الحجر]

ولواقح جمـع لاقحة ، وتُطلَق فى اللـغة مرَّة على الناقـة التى فى بطنها جـنين ؛ ومرة تُطلَق على اللاقح الذى يلقح الغـير ليـصير فـيه جنين ؛ لأن الحق سبـحانه شاء أن يتكاثر كل مـا فى الكون ؛ وجعل

---

(١) ريح صرّ وصـرصر : شـديدة البرد . وقـيل : شديدة الصـوت . [لسان العـرب ـ مادة : صرر] .

من كُلٍّ زوجين اثنين ؛ إما يتكاثر أو تتولد منه الطاقة ؛ كالسالب والموجب فى الكهرباء .

وهو القائل سبحانه :

﴿ سبْحَانَ الَّذِى خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا .. (٣٦) ﴾ [يس]

ثم عَدَّد لنا فقال :

﴿ مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ (٣٦) ﴾ [يس]

وهناك أشياء لا يُدركها الإنسان مثل شجرة الجُمَّيز ؛ التى لا يعلم الشخص الذى لم يدرس علم النبات كيف تتكاثر لتنبت وتُثمر ، ويعلم العالِم أن هناك شجرةَ جُميز تلعب دور الأنثى ، وشجرةً أخرى تلعب دورَ الذَّكَر .

وكذلك شجرة التوت ؛ وهناك شجر لا تُعرَف فيه الأنثى من الذَّكر ؛ لأنه مكمور توجد به الأُنثى والذَّكَر ، وقد لا تعرف أنت ذلك ؛ لأن الحق سبحانه جعل اللُّقاحةَ خفيفةً للغاية ؛ لتحملَها الريحُ من مكان إلى مكان .

ونحن لم نَرَ كيف يتم لقاح شجرة الزيتون ؛ أو شجرة المانجو ، أو شجرة الجوافة ، وذلك لنأخذ من ذلك عبرةً على دِقّة صَنْعته سبحانه .

والمثَل الذى أضربه دائماً هو المياه التى تسقط على جبلٍ ما ؛ وبعد أيام قليلة تجد الجبل وقد امتلأ بالحشائش الخضراء ؛ ومعنى هذا أن الجبل كانت توجد به بذور تلك الحشائش التى انتظرتْ الماء لِتُنبت .

وتعرّف العلماء على أن الذكورة بعد أن تنضج فى النبات فهى تنكشف وتنتظر الرياح والجو المناسب والبيئة المناسبة لتنقلها من مكان إلى مكان .

ولهذا نجد بعضاً من الجبال وهى خضراء بعد هبوب الرياح وسقوط المطر ؛ ذلك أن حبوب اللقاح انتقلت بالرياح ، وجاء المطر لتجد النباتات فرصةً للنمو .

وقد تجد جبلاً من الجبال نصفه أخضر ونصفه جَدْب ؛ لأن الرياحَ نقلتْ للنصف الأخضر حبوبَ اللقاح ، ولم تنقل الحبوب للنصف الثانى من الجبل ؛ ولذلك نجد الحق سبحانه قد جعل للرياح دورةً تنتقل بها من مكان لمكان ، وتدور فيها بكل الأماكن .

ويتابع سبحانه فى نفس الآية :

﴿ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً..(٢٢) ﴾ [الحجر]

وقد تبيّن لنا أن المياه نفسها تنشأ من عملية تلقيح ؛ وبه ذكورة وأنوثة .

وفى هذا المعنى يقول الحق سبحانه :

﴿ فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ[1] (٢٢) ﴾ [الحجر]

أى : أنكم لن تخزنوا المياه لأنكم غير مأمونين عليه ، وإذا كان الله قد هدانا إلى أن نخزنَ المياه ، فذلك من عطاء الله ؛ فلا يقولنّ أحد : لقد بنينا السدود ؛ بل قُلْ : هدانا الله لنبنيَها ؛ بعد أن يسقطَ المطر ؛ ذلك أن المطر لو لم يسقط لَمَا استطعنا تخزينَ المياه .

---

(١) أى : ليست خزائنه عندكم ، فنحن الخازنون لهذا الماء ، ننزله إذا شئنا ، ونمسكه إذا شئنا . [تفسير القرطبى ٣٧٤٢/٥] .

وعلى هذا يكون سبحانه هو الذى خزنَ المياه حين أنزله من السماء بعد أنْ هدانا لنبنىَ السدود .

وأنت حين تريد كوباً من الماء المُقطّر ؛ تذهب إلى الصيدلى ليُسخِّن الماء فى جهاز مُعيّن ؛ ويُحوّله إلى بخار ، ثم يُكثّف هذا البخار لِيصيرَ ماء مُقطّراً ، وكل ذلك يتمّ فى الكون ، وأنت لا تدرى به .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾

وفى ظاهر الأمر كان من المُمْكن أن يقول الحق : « إنّا نُميت ونُحيى » ؛ لأنه سبحانه يخاطبنا ونحن أحياء ، ولكن الحق سبحانه أراد بهذا القول أن يلفتنا أن ننظر إلى الموت الأول ، وهو العدم المَحْض الذى أنشأنا منه ، وهو سبحانه القائل :

﴿ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [البقرة]

والكلام فى تفصيل الموت يجب أن نُفرّق فيه بين العدم المَحْض والعدم بعد وجود ؛ فالعدم المَحْض هو ما كان قبل أن نُخلَق ؛ ثم أوجدنا الله لنكون أحياء ؛ ثم يُميتنا من بعد ذلك ، ثم يبعثنا من بعد ذلك للحساب .

وهنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها يكون الكلام عن الموت الذى يحدث بعد أن يهبَنا اللهُ الحياةَ ، ثم نقضى ما كتبه لنا من أجَل .

ثم يُذيِّل الحق سبحانه الآية بقوله :

﴿وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ (٢٣)﴾ [الحجر]

وهذا القول يعنى أن هناك تركة كبيرة ؛ وهى هذا الكون الذى خلقه سبحانه ليستخلفنا فيه . ونحن لم نُضفْ شيئاً لهذا الكون الذى خلقه الله ؛ لأنك إنْ نظرتَ إلى كمية المياه أَو الغذاء التى فى الكون ، وكُل مقومات الحياة لَمَا وجدتَ شيئاً يزيد أو ينقص ؛ فالماء تشربه ليرويكَ ، ثم يخرج عرقاً وبولاً ؛ ومن بعد الموت يتحلّل الجسم لَيتبخرَ منه الماء ، وهذا يجرى على كل الكائنات .

وحين يتناول الحق سبحانه فى هذه الآية أَمْر الموت والحياة وعودة الكون فى النهاية إلى مُنْشئه سبحانه ؛ فهو يُحدّثنا عن أمرين يعتوران[1] حياة كل موجود ؛ هما الحياة والموت ، وكلاهما يجرى على كُلِّ الكائنات ؛ فكُلّ شىء له مدة يَحْياها ، وأَجلٌ يقضيه .

وكل شىء يبدأ مهمة فى الحياة فهو يُولَد ؛ وكل شىء يُنهى مهمته فى الحياة ـ بحسب ما قدره الله له ـ فهو يموت ؛ وإنْ كَنا نحن البشر بحدود إدراكنا لا نعى ذلك .

وهو سبحانه القائل :

﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ[2] (٨٨)﴾ [القصص]

---

(١) التعاور والاعتوار أن يكون هذا مكان هذا ، وهذا مكان هذا . يقال : اعتوراه وابتدّاه هذا مرة وهذا مرة . قاله ابن الأعرابى فيما نقله عنه ابن منظور فى لسان العرب [مادة : عور] .

(٢) قال ابن كثير فى تفسيره (٣/٤٠٣) : « هذا إخبار بأنه الدائم الباقى الحى القيوم الذى تموت الخلائق ولا يموت ، كما قال تعالى : ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ (٢٧)﴾ [الرحمن] فعبر بالوجه عن الذات ، وهكذا قوله هنا : ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ .. (٨٨)﴾ [القصص] أى : إلا إياه .

– وقال مجاهد والثورى : أى إلا ما أريد به وجهه . وحكاه البخارى فى صحيحه كالمقرر له . وهذا القول لا ينافى القول الأول ، فإن هذا إخبار عن كل الأعمال بأنها باطلة إلا ما أريد به وجه الله تعالى من الأعمال الصالحة المطابقة للشريعة ، والقول الأول مقتضاه أن كل الذوات فانية وزائلة إلا ذاته تعالى وتقدس فإنه الأول الآخر الذى هو قبل كل شىء وبعد كل شىء » .

إذن : فكُلّ شىء يُطلَق عليه « شىء » مصيره إلى هلاك ؛ ومعنى ذلك أنه كان حياً ؛ ودليلنا على أنه كان حياً هو قول الحق :

﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ .. (٤٢) ﴾ [الأنفال]

وهكذا نعلم أن كل ما له مهمة فى الحياة له حياة تناسبه ؛ وفَوْر أن تنتهى المهمة فهو يهلك ويموت ، والحق سبحانه وتعالى يرث كل شىء بعد أن يهلك كل مَنْ له حياة ، وهو سبحانه القائل :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٤٠) ﴾ [مريم]

وهو بذلك يرث التارك والمتروك ؛ وهو الخالق لكل شىء . ويختلف ميراث الحق سبحانه عن ميراث الخَلْق ؛ بأن المخلوق حين يرث آخر ؛ فهو يُودِعه التراب أولاً ، ثم يرث ما ترك ؛ أما الحق سبحانه فهو يرث الاثنين معاً ، المخلوق وما ترك .

ولذلك نحن نرى مَنْ يعز عليهم ميت ؛ قد يُمسكون بالخشبة التى تحمل الجثة ، ويرفضون من فَرْط المحبة أن تخرج من منزله ؛ ولو تركناه لهم لمدة أسبوع ورمّت الجثة ؛ سيتوسّلون لِمَنْ يحمل الجثث أن يحملَه لِيُوارِيه التراب ، ثم يبدأون فى مناقشة ما يرثونه من الفقيد .

وهم بذلك يَرِثون المتروك بعد أن أودعوا التارك للتراب ، وإذا كان التارك من الذين أحسنوا الإيمان والعمل فيدخل حياة جديدة هى أرغد بالتأكيد من حياته الدنيا ؛ ولَسوفَ يأكل ويشرب دون أن يتعبَ ، وكل ما تمر على ذهنه رغبة فهى تتحقّق له ، فهو فى ضيافة المُنعِم الأعلى .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ (١) وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾

والمُستقدم هو مَنْ تقدّم بالحياة والموت ؛ وهم مَنْ قبلنا من بشر وأُمَم . والمُسْتأخر هو مَنْ سيأتى من بعدنا . وسبحانه يعلَمُنَا بحكم أنه علم من قَبْل كلّ مستأخر ؛ أى : أنه علَم بنا من قبل أنْ نُوجد ؛ ويعلم بنا من بَعْد أن نرحلَ ؛ فعلْمه كاملَ وأزلىّ ؛ وفائدة هذا العلم أنه سيترتب عليه الجزاء ؛ فنحن حين أخذنا الحياة والرزق لم نُفلت بهما بعيداً ؛ بل نجد الله قد علَم أزلاً بما فعل كل منّا .

وهناك مَنْ يقول إن هناك معنًى آخر ؛ بأن الحق سبحانه يكتب مَنْ يسرع إلى الصلاة ويتقدم إليها فَوْر أن يسمع النداء لها ، ويعلم

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٣٧٤٢/٥) : « فيه ثمان تأويلات :

١ – المستقدمين : فى الخلق إلى اليوم . والمستأخرين : الذين لم يخلقوا بعد . قاله قتادة وعكرمة وغيرهما .

٢ – المستقدمين : الأموات . والمستأخرين : الأحياء . قاله ابن عباس و الضحاك .

٣ – المستقدمين : من تقدم أمة محمد . والمستأخرين : أمة محمد . قاله مجاهد .

٤ – المستقدمين : فى الطاعة والخير . والمستأخرين : فى المعصية والشر . قاله الحسن وقتادة أيضاً .

٥ – المستقدمين : فى صفوف الحرب . والمستأخرين : فيها . قاله سعيد بن المسيب .

٦ – المستقدمين : من قتل فى الجهاد . والمستأخرين : من لم يقتل . قاله القرظى .

٧ – المستقدمين : أول الخلق . والمستأخرين : آخر الخلق قاله الشعبى .

٨ – المستقدمين : فى صفوف الصلاة . والمستأخرين : فيها بسبب النساء . ذكرها القرطبى فى تفسيره (٣٧٤٢/٥) .

مَنْ يتأخر عن القيام بأداء الصلاة ، ذلك أن تأثير كلمة « الله أكبر » فيها من اليقظة والانتباه ما يُذكّرنا بأن الله أكبر من كُلِّ ما يشغلك .

ونعلم أن من إعجازات الأذان أنه جعل النداء باسم « الله أكبر » ؛ ولم يَقُلْ : الله كبير ؛ وذلك احتراماً لما يشغلنا فى الدنيا من موضوعات قد نراها كبيرة ؛ ذلك أن الدنيا لا يجب أن تُهَان ؛ لأنها المَعْبر إلى الجزاء القادم فى الآخرة .

ولذلك أقول دائماً : إن الدنيا أهم من أنْ تُنسَى ؛ وفى نفس الوقت هى أتفه من أنْ تكون غاية ، فأنت فى الدنيا تضرب فى الأرض وتسعى لِقُوتِك وقُوتِ مَنْ تعول ؛ وليُعينك هذا القوتُ على العبادة .

لذلك فلا يحتقر أحد الدنيا ؛ بل ليشكر الله ويدعوه أنْ يُوفّقه فيها ، وأن يبذلَ كل جَهْد فى سبيل نجاحه فى عمله ؛ فالعمل الطيب ينال عليه العبدُ حُسْن الجزاء ؛ وفَوْر أن يسمعَ المؤمن « الله أكبر » ؛ فعليه أن يتجهَ إلى مَنْ هو أكبر فعلاً ، وهو الحق سبحانه ، وأن يؤدى الصلاة . هذا هو المعنى المُسْتقى من المُسْتقدِم للصلاة والمُسْتأخِر عنها .

وهناك من العلماء مَنْ رأى ملاحظَ شتَّى فى الآية الكريمة . فمعناها قد يكون عاماً يشمل الزمن كله ؛ وقد تكون بمعنًى خاص ؛ كمعنى المُستقدِم للصلاة والمستأخِر عنها .

وقد يكون المعنى أشدَّ خصوصية من ذلك ؛ فنحن حين نُصلّى نقف صفوفاً ، ويقف الرجال أولاً ؛ ثم الأطفال ؛ ثم النساء ؛ ومن

الرجال مَنْ يتقدّم الصفوف كَيْلا تقع عيونه على امرأة ؛ ومنهم مَنْ قد يتحايل ويقف فى الصفوف الأخيرة ليرى النساء ؛ فأوضح الحق سبحانه أن مثل هذه الأمور لا تفوت عليه[1] ، فهو العالم بالأسرار وأخفى منها .

أو : أن يكون المعنى هو المُستقدمين إلى الجهاد فى سبيل الله أو المتأخرين عن الجهاد فى سبيله . ومَنْ يموت حَتْف أنفه ـ أى : على فراشه لا دَخْلَ له بهذه المسألة .

أما إنْ دعا داعى الجهاد ، ويُقدِّم نفسه للحرب ويُقاتل وينال الشهادة ، فالحق ـ سبحانه وتعالى ـ يعلم مَنْ تقدّم إلى لقائه محبةً وجهاداً لِرفْعة شأن الدين .

وقد يكون فى ظاهر الأمر وفى عيون غيره ممَّنْ يكرهون الحياة ؛ ولكنه فى حقيقة الأمر مُحِبّ للحياة بأكثر ممَّنْ يدّعون حُبّها ؛ لأنه امتلك اليقين الإيمانى بأن خالقَ الدنيا يستحق أنْ ينالَ الجهاد فى سبيل القِيم التى أرادها منهاجاً ينعدل به ميزان الكون ؛ وإن استشهد فقد وعده سبحانه الخُلْد فى الجنة ونعيمها .

ونجد أبا بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ وهو يقول لرسول

---

(١) ورد فى هذا حديث قال عنه ابن كثير (تفسير ابن كثير ٢/٥٥١) « حديث غريب جداً . فيه نكارة شديدة » . وقد ذكره الواحدى فى أسباب نزول هذه الآية (أسباب النزول ص ١٥٨) عن ابن عباس قال : « كانت تصلى خلف النبى ﷺ امرأة حسناء . قال ابن عباس : لا والله ما رأيت مثلها قط ، وكان بعض المسلمين إذا صلوا استقدموا يعنى لئلا يروها ، وبعض يستأخرون ، فإذا سجدوا نظروا إليها من تحت أيديهم » . والحديث مروى فى مسند أحمد وسنن النسائى والترمذى .

الله ﷺ : ادْعُ لى يا رسول الله أن أستشهد ؛ فيردّ عليه النبى الكريم : « متِّعنا بنفسك يا أبا بكر »[(١)] .

وعلى ذلك لا يكون المستأخر هنا محلَّ لَوْم ؛ لأن الإيمان يحتاج لمَنْ يصونه ويُثبّته ؛ كما يحتاج إلى مَنْ يؤكد أن الإيمان بالله أعزُّ من الحياة نفسها ؛ وهو المُتقدّم للقتال ، وينال الشهادةَ فى سبيل الله .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ ۚ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ ﴾

أى : أن المُتولّى تربيتك يا محمد لن يترك مَنْ خاصموك وعاندوك ، وأهانوك وآذوْكَ دون عقاب .

وكلمة : ﴿ يَحْشُرُهُمْ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الحجر]

تكفى كدليل على أن الله يقفُ لهم بالمرصاد ، فهم قد أنكروا البعث ؛ ولم يجرؤ أحدهم أن يُنكِر الموت ، وإذا كان الحق سبحانه قد سبق وعبَّر عن البعث بقوله الحق :

﴿ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

[المؤمنون]

---

(١) أخرجه الحاكم فى مستدركه (٣/ ٤٧٤) أن عبدالرحمن بن أبى بكر الصديق لم يزل على دين قومه فى الشرك حتى شهد بدراً مع المشركين ودعا إلى البراز (المبارزة) فقام إليه أبوه أبو بكر ليبارزه ، فذكر أن رسول الله ﷺ قال لأبى بكر : « متعنا بنفسك » .

فهم كانوا قد غفلوا عن الإعداد لمَا بعد الموت ، وكأنهم يشكُّون فى أنه قادم ، وجاء لهم بخبر الموت كأمر حتمىّ ، وسبقتْه (هو) لتؤكد أنه سوف يحدث ، فالحشر منسوب لله سبحانه ، وهو قادر عليه ، كما قدر على الإحياء من عدم ، فلا وَجْهَ للشك أو الإنكار .

ثم جاء لهم بخبر البعث الذى يشكُّون فيه ؛ وهو أمر سبق وأنْ ساق عليه سبحانه الأدلة الواضحة .

ولذلك جاء بالخبر المصحوب بضمير الفصل :

﴿ يَحْشُرُهُمْ (٢٥) ﴾ [الحجر]

وسبحانه يُجرِى الأمور كلها بحكمة واقتدار ، فهو العليم بما تتطلبه الحكمة عِلْماً يحيط بكل الزوايا والجهات .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٢٦) ﴾ (١) (٢)

وسبحانه يتكلّم هنا عن خَلْق الإنسان من بعد أن تكلَّم عن خَلْق الكون وما أعدَّه له فيه ، وليستقبل الكون الخليفةَ لله ؛ فيوضح أنه قد خلقه من الصَّلصال ، وهو الطين اليابس .

وجاء سبحانه بخبر الخَلْق فى هذه السورة التى تضمنت خبر

---

(١) الحمأ والحَمْأة : الطين الأسود . والمسنون : المصبوب فى قالب إنسانى ، أو مصوّر بصورة إنسان أو طين كالفخار صالح للتصوير والصقل [القاموس القويم ١/٣٣١] .

(٢) نار السموم : النار الحارة التى تقتل . وقال ابن مسعود : نار السموم التى خلق الله منها الجان جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم . [ذكره القرطبى فى تفسيره ٥/٣٧٤٦] .

مَدِّ الأرض ؛ ومَجِيء الرياح ، وكيفيـة إنزال الماء من السماء ؛ وكيف قَدَّر فى الأرض الرزق ، وجعل فى الأرض رواسى ، وجعل كُلّ شىء موزوناً .

وهو سبحانه قد استهلَّ السورة بقوله :

﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ ① ﴾ [الحجر]

أى : أنه افـتـتح الـسـورة بالكلام عن حـارس القِـيـم للحـركـة الإنسانية ؛ ثم تكلّم عن المادة التى منها الحياة ؛ وبذلك شمل الحديثُ الكلامَ عن المُـقوِّم الأسـاسى للقـيم وهو القـرآن ، والكلام عن مُقـوِّم المـادة ؛ وكان ذلك أمـراً طبيـعيـاً ؛ ودَلَّلْتُ عليه سـابقاً بحـديثى عن مُصمِّم أىّ جهاز من الأجهزة الحديثة ؛ حيث يحدد أولاً الغرض منه ؛ ثم يضع جدولاً وبرنامجاً لصيانة كل جهاز من تلك الأجهزة .

وهكذا كـان خَلْق الله للإنسـان الذى شـاء له سبـحـانه أن يكون خليفتـه فى الأرض ، ووضـع له مُقوِّمات مادة ومُقـوّمات قِيم ؛ وجاء بالحديث عن مُـقوِّمات القِـيَم أولاً ؛ لأنها ستـمدّ حيـاة الإنسان لتكون حياة لا تنتهى ، وهى الحياة فى الدنيا والآخرة .

وهذا القول يُوضِّح لنا أن آدم ليس هو أول من استعمر الأرض ؛ بل كـان هناك خَلْق من قَـبْل آدم ، فـإذا حـدَّثنا علمـاء الجـيولوجـيـا والحـفـريات عن أن هناك مـا يـدل على وجـود بعض من الـكائنات المطمـورة تثـبت أنه كانت هـناك حيـاة منذ خـمسـين ألف قـرن من الزمان .

فنحن نقول له : إن قولك صحيح .

وحين يسمع البعض قَوْل هؤلاء العلماء يقولون : لا بُدَّ أن تلك الحيوانات كانت موجودة فى زمن آدم عليه السلام ، وهؤلاء يتجاهلون أن الحق سبحانه لم يَقُلْ لنا أن آدم هو أول مَنْ عَمَر الأرض ، بل شاء سبحانه أن يخلقنا ويعطينا مهمة الاستخلاف فى الأرض .

والحق سبحانه هو القائل :

﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٦) وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (١٧) ﴾ [فاطر]

أى : أن خَلْق غيرنا أمر وارد ، وكذلك الخَلْق من قبلنا أمرٌ وارد .

ونعلم أن خَلْق آدم قد أخذ لقطات متعددة فى القرآن الكريم ؛ تُؤدّى فى مجموعها إلى القصة بكل أحداثها وأركانها ، ولم يكُنْ ذلك تكراراً فى القرآن الكريم ، ولكن جاء القرآن بكل لَقْطة فى الموقع المناسب لها ؛ ذلك أنه ليس كتاب تاريخ للبشر ؛ بل كتاب قِيَم ومنهج ، ويريد أن يُؤسّس فى البشر القيم التى تحميهم وتصونهم من أىّ انحراف ، ويريد أن يُربِّىَ فيهم المهابة .

وقد تناول الحق سبحانه كيفية خَلْق الإنسان فى الكثير من سُور القرآن : البقرة ؛ الأعراف ؛ الحجر ؛ الإسراء ؛ الكهف ؛ وسورة ص .

قال سبحانه ـ على سبيل المثال ـ فى سورة البقرة :

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ (٣٠) ﴾ [البقرة]

وجاء هذا القول من الله للملائكة ساعةَ خَلْق الله لآدم ، من قبل أن تبدأ مسألة نزول آدم للأرض .

وقد أخذتْ مسألة خَلْق الإنسان جدلاً طويلاً من الذين يريدون أن يستدركوا على القرآن متسائلين : كيف يقول مرة : إن الإنسان مخلوق من ماء ؛ ومرة من طين ؛ ومرة من صلصال كالفخار ؟

ونقول : إن ذلك كله حديث عن مراحل الخَلْق ، وهو سبحانه أعلم بمَنْ خلق ، كما خلق السماوات والأرض ، ولم يُشهِد الحق أحداً من الخلق كيف خلق المخلوقات :

﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا[1] (٥١) ﴾ [الكهف]

ومن رحمته سبحانه أنه ترك فى مُحسَّات الحياة وماديتها ما يُثبِت صِدْقه فى غيبيّاته ؛ فإذا قال مرّة : إنه خلق كل شىء من الماء ؛ فهو صادق فيما قال ؛ لأن الماء يُكوِّن أغلبَ الجسد البشرى على سبيل المثال .

وإذا أوضح أنه خلق الإنسان من طين ، فالتراب إذا اختلط بالماء صار طيناً ، وإذا مرّ على الطين وقتٌ صار صلصالاً ، وإذا قال :

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ[2] وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٢٩) ﴾ [الحجر]

---

(١) عضداً : أعواناً مساعدين . [القاموس القويم ٢/٢٤] .

(٢) سوّى الشىء تسوية : عدَّله وجعله لا عوج فيه . [القاموس القويم ١/٣٣٧] .

وكُلُّ هذا من الأمور الغيبية ؛ التى يشرحها لنا نقضُها فى الواقع المادى الملموس ، فحين يحدث الموت ـ وهو نَقْض الحياة ـ نجد الروح هى أول ما يخرج من الجسم ؛ وكانت هى آخر ما دخل الجسم أثناء الخَلْق .

ومن بعد ذلك تبدأ الحيوية فى الرحيل عن الجثمان ؛ فيتحول الجثمان إلى ما يشبه الصَّلْصال ؛ ثم يتبخّر الماء من الجثمان ؛ ليصير من بعد ذلك تراباً .

وهكذا نشهد فى الموت ـ نقض الحياة ـ كيفية بَدْء مراحل الخَلْق وهى معكوسة ؛ فالماء أولاً ثم التراب ؛ ثم الطين ؛ ثم الصلصال الذى يشبه الحمأ المسنون ؛ ثم نَفْخ الروح .

وقد صدق الحق سبحانه حين أوضح لنا فى النقيض المادى ، ما أبلغنا عنه فى عالم الغيب .

وعلى ذلك ـ أيضاً ـ نجد أن الذين يضعون التكهنات بأن الشمس خُلِقَتْ قبل الأرض ؛ وكانت الأرض جزءاً من الشمس ثم انفصلت عنها ؛ على هؤلاء أن يعلموا أن ما يقولونه هو أمر لم يشاهدوه ، وهى أمور لا يمكن أن يدرسها أحد فى معمل تجريبى ؛ وقد قال القرآن عن أهل هذا اللغو :

﴿مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾﴾ [الكهف]

وهم قد أعانوا على تأكيد إعجازية القرآن الذى أسماهُم المُضلِّين ؛ لأنهم يغوون الناس عن الحق إلى الباطل .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ ﴾

ونعلم أن كلمة (السَّمُوم) هى اللهب الذى لا دُخانَ له ، ويُسمّونه « السَّموم » لأنه يتلصَّص فى الدخول إلى مسامِّ الإنسان .

وهكذا نرى أن للعنصر تأثيراً فى مُقوِّمات حياة الكائنات ، فالمخلوق من طين له صفات الطينية ، والمخلوق من نار له صفات النارية ؛ ولذلك كان قانون الجن أخفَّ وأشدَّ من قانون الإنس .

والحق سبحانه يقول :

﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ[1] مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ .. ﴿٢٧﴾ ﴾ [الأعراف]

وهكذا نعلم أن قانون خَلْق الجن من عنصر النار التى لا لهبَ لها يوضح لنا أن له قدرات تختلف عن قدرات الإنسان .

ذلك أن مهمته فى الحياة تختلف عن مهمة الإنسان ، ولا تصنع له خيريةً أو أفضلية ، لأن المهام حين تتعدد فى الأشياء ؛ تمنع المقارنة بين الكائنات .

والمَثلُ على ذلك هو غلبة مَنْ عنده علْم بالكتاب على عفريت الجن ؛ حين سأل سليمان عليه السلام عمَّن يأتيه بعرش بلقيس :

﴿ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا[2] قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [النمل]

---

(١) القبيل : الجماعة أو العشيرة أو الكفلاء أو الأعوان المناصرون . [القاموس القويم ٢/٩٨].

(٢) العرش : سرير الملك . ذكر ابن كثير فى تفسيره (٣/٣٦٣) : « كان من ذهب مفصص بالياقوت والزبرجد واللؤلؤ ، وقوائمه لؤلؤ وجوهر ، وكان مُستراً بالديباج والحرير » .

وقال عفريت من الجن : إنه قادر على أن يأتى بالعرش قبل أن يقومَ سليمان من مُقَامه ، ولكن مَنْ عنده علْم بالكتاب قال : إنه قادر أنْ يأتيَ بعرش بلقيس قبل أن يرتدَّ طَرْف سليمان ؛ وهكذا غلب مَنْ عنده علم بالكتاب قدرة عفريت الجن[1] .

وقد قصَّ علينا الحق سبحانه هذا فى كتابه الكريم ، فقال :

﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (٣٩) قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَـٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي .. (٤٠) ﴾[النمل]

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٢٨) ﴾

وعرفنا فى مواقع متفرقة من خواطرنا كيف نفم هذه الآية . ونعلم أن البشر فى زماننا حين يريدون صُنْع تمثال ما ، فَهُم يَخْلطون التراب بالماء ليصير طيناً ؛ ثم يتركونه إلى أنْ يختمرَ ، ويصيرَ كالصَّلْصَال ، ومن بعد ذلك يُشكل المَثَّالُ ملامح مَنْ يُريد أن يصنع له تمثالاً .

والتماثيل تكون على هيئة واحدة ، ولا قدرةَ لها ، عكْس الإنسان المخلوق بيد الله ، والذى يملك بفعل النفْخ فيه من روح الله ماَ لاَ

---

(١) عفريت الجن : أقوى الجن . والعفريت : النافذ فى الأمور مع دهاء . [المعجم الوجيز - مادة : عفرت] .

يملكه أىُّ كائن صنعتْـه مهارة الإنسان ؛ ذلك أن إعجـازَ وطلاقةَ قدرةِ الخالق لا يمكن أن تستوى مع قدرة المخلوق المحدودة .

وهناك حـديث يقـول فـيـه ﷺ : « خـلق الله عـز وجل آدم على صورته ، ستون ذراعاً »[(١)] .

واختلف العلمـاء فى مرجع الضمير فى هذا الـحديث ؛ أيعود إلى صورة آدم ؟ أم يعود إلى آدم ؟

فمن العلمـاء من قال : إن الضمير يعـود إلى آدم ؛ بمعنى أن الله لم يخلقه طفـلاً ، ثم كبر ؛ بل خلـقه على الصورة الناضـجة ؛ وتلفَّت آدم فوجـد نفسه على تلك الصـورة الناضجة ؛ وأنه لم يكُنْ مـوجوداً من قبل ذلك بساعة ؛ لذلك تلفَّت إلى المُوجِد له .

والذين قالوا : إن الحق سبحانه خلق الإنسان على صورته ، وأن الضمير يعود إلى الله ؛ فذلك لأن الحق قد جعل الإنسان خليفةً له فى الأرض ؛ وأعطاه من قـدرته قـدرةً ؛ ومن عِلْمـه علماً ؛ ومن حـكمتـه حكمة ، ومن قاهريته قهراً .

ولذلك يقول ﷺ : « تخلَّقوا بأخلاق الله » .

فخلق آدم داخلٌ فى كينونته . يقول الحق :

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحـه (٢٨٤١) قال النووى فى شرحه لهذا الحديث : « هذه الرواية ظاهرة فى أن الضمـير فى صورته عائد إلى آدم ، وأن المـراد أنه خُلِق فى أول نشأته على صورته التى كان عليها فى الأرض وتوفى عليها وهى طوله ستون ذراعاً ، ولم ينتقل أطواراً كذريته وكانت صورته فى الجنة هى صورته فى الأرض لم تتغير » .

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٥٩)﴾ [آل عمران]

وأمام الكينونة ينتفى التعليل ، ولم يبق إلا الإيمان بالخالق .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٢٩)﴾ (١)

والتسوية تعنى جَعْل الشيء صالحاً للمهمة التى تُرَاد له . وشاء سبحانه أن يُسوِّىَ الإنسان فى صورة تسمح لنفخ الروح فيه . والنفخ من روح الله لا يعنى أن النفخ قد تَمَّ بدفع الحياة عن طريق الهواء فى فَمِ آدم ، ولكن الأمر تمثيلٌ لانتشار الروح فى جميع أجزاء الجسد .

وقد اختلف العلماء فى تعريف الروح ، وأرى أنه من الأسلم عدم الخوض فى ذلك الأمر ؛ لأن الحق سبحانه هو القائل :

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً (٨٥)﴾ [الإسراء]

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

---

(١) « النفخ : إجراء الريح فى الشيء . والروح جسم لطيف ، أجرى الله العادة بأن يخلق الحياة فى البدن ، من ذلك الجسم ، وحقيقته إضافة خلق إلى خالق ، فالروح خلق من خَلْقه أضافه إلى نفسه تشريفاً وتكريماً » . قاله القرطبى فى تفسيره (٥ /٣٧٤٧) .

﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

وقد سجدوا جميعاً فى حركة واحدة ؛ ذلك أنه لا اختيارَ لهم فى تنفيذ ما يُؤمرون به ، فمن بَعْد أن خلق اللهُ آدمَ جاء تكريم الحق سبحانه له بقوله للملائكة : ﴿ اسْجُدُوا لآدَمَ .. (١١٦) ﴾ [طه]

وسجدت الملائكة التى كلَّفها الله برعاية وتدبير هذا المخلوق الجديد ، وهم المُدبِّرات أمراً والحَفظة ، ومَنْ لهم علاقة بهذا المخلوق الجديد .

وقوله الحق : ﴿ فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٢٩) ﴾ [الحجر]

يعنى أن عملية السجود قد حدثت بصورة مباشرة وحاسمة وسريعة ، وكان سجودهم هو طاعة للآمر الأعلى ؛ لا طاعة لآدم .

وقول الحق سبحانه :

﴿ فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٣٠) ﴾ [الحجر]

يعنى الملائكة الأعلى من البشر ، ذلك أن هناك ملائكةً أعلى منهم ؛ وهم الملائكة المُهيمون المتفرِّغون للتسبيح فقط .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ ﴾

وهكذا جاء الحديث هنا عن إبليس ؛ بالاستثناء وبالعقاب الذى

نزل عليه ؛ فكأن الأمرَ قد شَمله ، وقد أخذتْ هذه المسألة جدلاً طويلاً بين العلماء .

وكان من الواجب أن يحكمَ هذا الجدلَ أمران :

الأمر الأول : أن النصَّ سيد الأحكام .

والأمر الثانى : أن شيئاً لا نصَّ فيه ؛ فنحن نأخذه بالقياس والالتزام . وإذا تعارض نصٌّ مع التزام ؛ فنحن نُؤول الالتزام إلى ما يُؤول النص .

وإذا كان إبليس قد عُوقِب ؛ فذلك لأنه استثنى من السجود امتناعاً وإباءً واستكباراً ؛ فهل هذا يعنى أن إبليس من الملائكة ؟

لا . ذلك أن هناك نصاً صريحاً يقول فيه الحق سبحانه :

﴿ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ .. (٥٠) ﴾[الكهف]

وهكذا حسم الحق سبحانه الأمر بأن إبليس ليس من الملائكة[1] ؛ بل هو من الجنّ ؛ والجن جنس مختار كالإنس ؛ يمكن أن يُطيع ، ويمكن أن يَعصِى .

وكونه سَمِع الأمر بالسجود ؛ فمعنى ذلك أنه كان فى نفس الحَضْرة للملائكة ؛ ومعنى هذا أنه كان من قبل ذلك قد التزم التزاماً

---

(١) قال الحسن البصرى : ما كان إبليس من الملائكة طرفة عين قط ، وإنه لأصل الجن كما أن آدم عليه السلام أصل البشر ، رواه ابن جرير الطبرى بإسناد صحيح عنه . (ذكره ابن كثير فى تفسيره (٣/٨٨) .

يرفعه إلى مستوى الحضور مع الملائكة[١] ؛ ذلك أنه مُخْتار يستطيع أن يطيع ، ويملك أن يعصى ، ولكن التزامه الذى اختاره جعله فى صفوف الملائكة .

وقالت كتب الأثر : إنهم كانوا يُسمُّونه طاووس الملائكة مختالاً بطاعته ، وهو الذى وهبه الله الاختيار ، لأنه قدر على نفسه وحمل نفسه على طاعة ربه ، لذلك كان مجلسه مع الملائكة تكريماً له ؛ لأنه يجلس مع الأطهار ، لكنه ليس مَلاكاً .

وبعض العلماء صَنَّفوه بمُسْتوًى أعلى من الملائكة[٢] ؛ والبعض الآخر صَنَّفه بأنه أقلُّ من الملائكة ؛ لأنه من الجنِّ ؛ ولكن الأمر المُتفق عليه أنه لم يكُنْ ملاكاً بنصِّ القرآن ، وسواء أكان أعلى أم أدْنى ، فقد كان عليه الالتزام بما يصدر من الحق سبحانه .

ونجد الحق سبحانه وهو يعرض هذه المسألة ، يقول مرة (أبىَ) ، ومرة (استكبر) ، ومرة يجمع بين الإباء والاستكبار[٣]

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٨٨/٣) : « ذلك أنه كان قد توسم بأفعال الملائكة ، وتشبه بهم ، وتعبد وتنسك ، فلهذا دخل فى خطابهم وعصى بالمخالفة ، فعند الحاجة نضح كل وعاء بما فيه ، وخانه طبعه » . بتصرف فى العبارة بالتقديم والتأخير .

(٢) أورد ابن كثير عدة آثار فى تفسيره (٧٧/١) فى هذا ، فعن ابن عباس قال : « كان إبليس اسمه عزازيل ، وكان من أشراف الملائكة ، من ذوى الأجنحة الأربعة ، ثم أبلس بعد . وقال أيضاً : كان من أشراف الملائكة وأكرمهم قبيلة ، وكان خازناً على الجنان ، وكان له سلطان سماء الدنيا ، وكان له سلطان على الأرض » .

(٣) قوله (أبى) وحده جاء فى قوله تعالى : ﴿إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الحجر] أما قوله (استكبر) وحده ، فجاء فى قوله تعالى : ﴿إِلاَّ إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [ص] . أما الجمع بينهما فجاء فى قوله تعالى :﴿فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [البقرة] .

والإباء يعنى أنه يرفض أن ينفذ الأمر بدون تعال . والاستكبار هو التأبِّى بالكيفية ، وهنا كانت العقوبة تعليلاً لعملية الإباء والاستكبار ، وكيف ردّ أمر الحق الذى أورده سبحانه مرة بقول إبليس :

﴿ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٣٣) ﴾[الحجر]

وقوله :

﴿ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ (٧٦) ﴾ [ص]

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ (٣٢) ﴾

وتقول « ما لك ؟» فى الشيء العجيب الذى تريد أن تعرف كيف وقع ، وكأن هذا تساؤلٌ عن أمر مخالف لمَا اختاره إبليس ؛ الذى وهبه الله خاصية الاختيار ، وقد اختار أن يكون على الطاعة .

ولنلحظ أن المتكلم هنا هو الله ؛ وهو الذى يعلم أنه خلق إبليس بخاصية الاختيار ؛ فله أن يطيعَ ، وله أنْ يعصيَ . وهو سبحانه هنا يُوضِّح ما علمه أزلاً عن إبليس ؛ وشاء سبحانه إبراز هذا ليكون حجة على إبليس يوم القيامة .

ويتابع سبحانه :

﴿ قَالَ لَمۡ أَكُن لِّأَسۡجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقۡتَهُۥ مِن صَلۡصَٰلٍ مِّنۡ حَمَإٍ مَّسۡنُونٍ (٣٣) ﴾

وهكذا أفصح إبليس عما يُكنّه من فَهْم خاطىء لطبيعة العناصر ؛ فقد توهَّم أن الطينَ والصلصال أقلُّ مرتبة من النار التى خلقه منها الله . وامتناع إبليس عن السجود - إذن - امتناع مُعلَّل ؛ وكأن إبليس قد فَهِم أن عنصر المخلوقية هو الذى يعطى التمايز ؛ وتجاهل أن الأمر هو إرادة المُعنصِر الذى يُرتِّب المراتب بحكمته ، وليس على هَوى أحدٍ من المخلوقات .

ثم من قال : إن النارَ أفضلُ من الطين ؟ ونحن نعلم أنه لا يُقال فى شيء إنه أفضل من الآخر إلا إذا استوتْ المصلحة فيهما ؛ والنار لها جهة استخدام ، والطين له استخدام مختلف ؛ وأىٌّ منهما له مهمة تختلف عن مهمة الآخر .

ومن توجيه الله فى فضائل الخَلْق أن مَنْ يطلى الأشياء بالذهب لا يختلف عنده سبحانه عن الذى يعجن الطين ليصنعَ منه الفخار ، فلا يفضُل أحدهما الآخرَ إلا بإتقان مهمته .

وهكذا أفصح إبليس أن الذى زَيَّن له عدم الامتثال لأمر السجود هو قناعته بأن هناك عنصراً أفضل من عنصر .

ويأتى الأمر بالعقاب من الحق سبحانه ؛ فيقول تعالى :

﴿ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾

وهكذا صدر الأمر بطرْدِ إبليس من حضرة الله بالملأ الأعلى ؛ وصدر العقاب بأنه مطرود من كل خَيْر ، وأَصْل المسألة أنها الرَّجْم بالحجارة .

وقد حدث ذلك لردِّه أمر الله سبحانه ، واستكباره ، ولقناعته أن النار التى خُلِق منها أفضلُ من الطين الذى خُلِق منه آدم ، ولم يلتفت إلى أن لكل مَخلوق مُهمة ، وكل كائن يؤدى مُهِمته هو مُساوٍ للآخر .

وقد شاء الحق سبحانه ذلك ليزاول كل كائن الأسباب التى وُجِد من أجلها ؛ فآدم قد خلقه الله ليجعله خليفة فى الأرض ؛ ذلك أنه سبحانه يباشر الأمر فى السَّببيات بواسطة ما خلق .

فالنار ـ على سبيل المثال ـ تتسبَّب فى إنضاج الطعام ؛ لأنه سبحانه هو الذى شاء ذلك ، وجعلها سبباً فى إنضاج الطعام . ومزاولة الحق سبحانه لأشياء كثيرة فى المُسبِّبات معناه أن المخلوقات تُؤدِّى المهامَّ التى أرادها سبحانه لها فى الوجود .

والمؤمن الحق هو مَنْ يرى فى الأسباب التى فى الكون ؛ أنها عطاء من الله ، وأن يده مَمْدودة له بتلك الأسباب .

وبعد أن طرد الحق سبحانه إبليس من حضرته[1] سيُقرر سبحانه الحكم الذى أصدره عليه فى قوله :

﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ[2] إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ ﴾

وفى هذا القول ما يؤكد أن الجن أيضاً يموتون ؛ ولهم آجال مثلنا ، وفى هذا الحكم بالطرد تأكيدٌ على أنه سبحانه لن يُوفِّقه إلى توبة ، ولا يعفو عنه فى النهاية .

---

(١) قوله تعالى : ﴿فَاخْرُجْ مِنْهَا .. ﴿٣٤﴾﴾ [الحجر] قال ابن كثير فى تفسيره (٢/٥٥١) : « أى : من المنزلة التى كان فيها من الملأ الأعلى » . وقال القرطبى فى تفسيره (٥/٣٧٥٠) : « أى : من السماوات ، أو من جنة عدن ، أو من جملة الملائكة » .

(٢) اللعن : الإبعاد والطرد من الخير . واللعين : الشيطان ، صفة غالبة لأنه طرد من السماء ، وقيل : لأنه أبعد من رحمة الله . [لسان العرب ـ مادة : لعن] .

ولكن إبليس يحاول الالتفاف ؛ فيأتى ما جاء على لسانه :

﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ (١)

وكأن إبليس بهذا القول أراد أن يُفْلِتَ من الموت ، ولكن مثل هذا المكْر لا يجوز على الله أو معه ، فإذا كان إبليس قد أراد أنْ يظلَّ فى الدنيا إلى يوم بَعْث البشر ؛ فذلك دليلٌ على أمنيته بالهروب من الموت .

ويقول الحق سبحانه رداً على دعاء إبليس :

﴿ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾

ولحظةَ أنْ يسمعَ إبليسُ ذلك يظن أنه قد أفلتَ من الموت ؛ إذ لا موْتَ بعد البعث ، ويتوهم أن دعوته قد أُجيبت ، وكأنه قد أفلتَ بغروره الذى ظَنَّ به أن يتسع له الوقت ليأخذ الثأر من بنى آدم ؛ فعدم سجوده لآدم هو الذى وضعه فى هذا الموقف العصيب .

ولو كان إبليس يملك ذرة من وَعْى لَعلم أن الاستكبار والتوهم بأن عنصر النار أفضل من الطين هما السبب وراء ما حاق به من الطرد .

ولكن تأتى من بعد ذلك مباشرة الآية التى تتضمن عدم إفلاته من الموت ؛ فيقول سبحانه :

---

(١) أنظرنى : أمهلنى وأخرنى . وقال القرطبى فى تفسيره (٥/ ٣٧٥٠) : « أراد بسؤاله الإنظار إلى يوم يُبعثون : ألا يموت ، لأن يوم البعث لا موت فيه ولا بعده » .

﴿إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٣٨)﴾ (١)

أى : أن إبليس سيذوق الموت أيضاً ؛ لأن كل المخلوقات ستذوق الموت من قبل أن تقوم القيامة ، مصداقاً لقوله الحق :

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ .. (٦٨)﴾ [الزمر]

وكذلك قوله : ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦)﴾ [الرحمن]

وهكذا لم يُفلتْ إبليس من الموت .

ولقائل أنْ يسألَ : وكيف كلَّمه الله ؟

ونقول : لم يُكلِّمه الله تشريفاً أو تكريماً ؛ بل غلَّظ له العقاب ، كما أن للحق سبحانه ملائكة يمكنهم أن يُبلِّغوا ما شاء لمَنْ شاء .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩)﴾

---

(١) قال ابن عباس : أراد بهذا اليوم ـ النفخة الأولى ، أى : حين تموت الخلائق . وقيل : الوقت المعلوم الذى استأثر الله بعلمه ، ويجهله إبليس ، فيموت إبليس ثم يبعث . [تفسير القرطبى ٥/ ٣٧٥٠] .

وقول الشيطان : ﴿ رَبِّ .. (٣٩) ﴾ [الحجر]

هو إقرار بالربوبية ؛ ولكن هذا الإقرار متبوع بعد الاعتراف بأنه قد سبّب لنفسه الطَّرد واللعنة ؛ فقد قال :

﴿ بِمَا أَغْوَيْتَنِي .. (٣٩) ﴾ [الحجر]

والحق سبحانه لم يُغوه ؛ بل أعطاه الاختيار الذى كان له به أن يؤمن ويطيع ، أو يعصى ويُعاقب ، فسبحانه قد مكّن إبليس من الاختيار بين الفعل وعدم الفعل ؛ فخالف إبليسُ أمرَ الله وعصاه .

ويتابع إبليس : ﴿ لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ .. (٣٩) ﴾ [الحجر]

وفى هذا إيضاح أن كُلّ وسوسة للشيطان تقتصر فقط على الحياة المترفة . وفى الأشياء التى تُدمّر العافية ، كمَنْ يشرب الخمر ، أو يتناول المخدرات ، أو يتجه إلى كل ما يُغضب الله بالانحراف .

ولذلك نجد أن مَنْ يحيا بدخْلٍ يكفيه الضرورات ؛ فهو يَأْمن على نفسه من الانحراف . ونقول أيضاً لمَنْ يحاولون أن يضبطوا موازينهم المالية : إن الاستقامة لا تُكلّف ؛ ولن تتجه بك إلى الانحراف .

وتزيين الشيطان لن يكون فى الأمور الحلال ؛ لأن كل الضرورات لم يُحرِّمها الحق سبحانه ؛ بل يكون التزيين دائماً فى غير الضرورات ، ولذلك فالاستقامة عملية اقتصادية ، تُوفّر على الإنسان مشقة التكلفة العالية لبعض من ألوان الانحرافات .

ولذلك نجد المسرفين على أنفسهم يحسدون مَنْ هم على

الاستقامة ، ويحاولون أخْذهم إلى طريق الانحراف ؛ لأن كل منحرف إنما يلوم نفسه متسائلاً : لماذا أخيب وحدى ؛ ولا يخيب معى مثل هذا المستقيم ؟ وتمتلىء نفسه بالاحتقار لنفسه .

وكذلك كان إبليس فى حُمْق ردِّه على الله ، ولكنه ينتبه إلى مكانته ومكانة ربه ؛ أيدخل فى معركة مع الله ، أم مع أبناء آدم الذى خلقه سبحانه كخليفة ليعمر الأرض ؟

لقد حدّد إبليس موقعه من الصراع ، فقال :

﴿ فَأَنظِرْنِى إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ .. (٣٦) ﴾ [الحجر]

وهذا يعنى أن مجالَ معركته مع الخَلْق لا مع الخالق ؛ لذلك قال :

﴿ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ[1] أَجْمَعِينَ (٣٩) ﴾ [الحجر]

وكلمة (أجمعين) تفيد الإحاطةَ لكل الأفراد ، وهذا فوق قدرته بعد أنْ عرف مُقَامه من نفسه ومن ربه ، فقال ما جاء به الحق سبحانه فى الآية التالية :

﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٤٠) ﴾

فهؤلاء العباد الذين خلَّصتهم لنفسك يا ربّ ؛ فلن أقدر عليهم ؛ لأنك أخذتهم من طريق الغواية ؛ لأنهم أحسنوا الإيمان ، وقد وصلوا

---

(١) عن أبى سعيد الخدرى ـ رضى الله عنه ـ قال قال رسول الله ﷺ : « إن إبليس قال : يا رب وعزتك وجلالك لا أزال أغوى بنى آدم ما دامت أرواحهم فى أجسامهم . فقال الرب : وعزتى وجلالى لا أزال أغفر لهم ما استغفرونى » . أخرجه أحمد فى مسنده (٣/٢٩ ، ٤١) وفى إسناده ابن لهيعة . وانظر مجمع الزوائد (١٠/٢٠٧) .

إلى مرتبة من الإخلاص التعبُّدى درجةً يصعب بها على الشيطان غوايتهم .

ويقول أهل المعرفة والإشراق : « أنت تصل بطاعة الله إلى كرامة الله » .

ولو شاء الله أن يكون جميع خَلْقه مهديين ما استطاع أحد أنْ يُضلّهم ، ولكن عِزَّة الله[1] عن خَلْقه هى التى أفسحت المجالَ للإغواء ، ولذلك نجد إبليس يُقِرّ بعجزه عن غواية مَنْ أخلصوا لله العبادة .

ونجد رد الحق سبحانه على إبليس واضحاً لا لَبْس فيه ، ولا قبول لِمَا قد يظنُّه إبليس مجاملةً منه لله ، فيقول سبحانه فى الآية التالية :

﴿ قَالَ هَٰذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ ﴾

وهكذا أوضح الحق سبحانه أن صراطه المستقيم هو الذى يقود العباد إلى الطاعة ؛ فليس فى الأمر تفضُّل من إبليس الذى سبق له أنْ حدَّد المواقع والاتجاهات التى سيأتى منها لغواية البشر ، حيث قال الحق سبحانه ما جاء على لسان إبليس :

﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ[2] وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الأعراف]

---

(١) عزة الله عن خلقه : أى استغناؤه سبحانه عنهم .

(٢) قال قتادة : « أتاهم من بين أيديهم فأخبرهم أنه لا بعث ولا جنة ولا نار . ومن خلفهم من أمر الدنيا ، فزيَّنها لهم ودعاهم إليها . وعن أيمانهم من قبل حسناتهم بطأهم عنها . وعن شمائلهم زين لهم السيئات والمعاصى ودعاهم إليها وأمرهم بها . أتاك يا بن آدم من كل وجه ، غير أنه لم يأتك من فوقك ، لم يستطع أن يحول بينك وبين رحمة الله » . ذكره ابن كثير فى تفسيره (٢/٢٠٤) .

فى ذلك القول حدَّد إبليس جهات الغواية التى يأتى منها وترك « الفَوْق » و « التَّحْت » ، لذلك نقول: إن العبد إذا استحضر دائماً عُلُوَّ عِزّة الربوبية ، وذُلّ العبودية ؛ فالشيطان لا يدخل له أبداً .

ويواصل الحق سبحانه قوله المُبلَّغ عنه لنا :

﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾

وهكذا أصدر الحق سبحانه حُكْمه بألاَّ يكون لإبليس سلطان على مَنْ أخلص لله عبادة ، وأمر إبليس ألاَّ يتعرض لهم ؛ فسبحانه هو الذى يَصُونهم منه ؛ إلا مَنْ ضَلَّ عن هدى الله سبحانه ، وهم مَنْ يستطيع إبليس غوايتهم .

وهكذا نجد أن « الغاوين » هى ضد « عبادى » ، وهم الذين اصطفاهم الله من الوقوع تحت سلطان الشيطان ؛ لأنهم أخلصوا وخلَّصوا نفوسهم لله ، وسنجد إبليس وهو ينطق يوم القيامة أمام الغاوين :

﴿ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ[1] إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ[2] وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِن قَبْلُ .. ﴿٢٢﴾ ﴾ [إبراهيم]

---

(١) السلطان : الملك والقوة والقهر والحجة ، والبرهان . [القاموس القويم ١/٣٢٣] .

(٢) المصرخ : المغيث الذى يُغيث غيره . والاستصراخ : الاستغاثة والإغاثة . والمستصرخ : المستغيث . [لسان العرب ـ مادة : صرخ] .

ومن نعَم الله علينا أن أخبرنا الحق سبحانه بكلّ ذلك فى الدنيا ، ولسوف يُقِر الشيطان بهذا كله فى اليوم الآخر ؛ ذلك أنه لم يملك سلطاناً يقهرنا به فى الدنيا ، بل مجرد إشارة ونَزْغ ؛ ولا يملك سلطانَ إقناع ليجعلنا نفعل ما ينزغ به إلينا .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك ما يُؤكّد أن جزاء الغاوين قَاسٍ أليم :

﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾

ولأن المصير لهؤلاء هو جهنم ؛ فعلى العبد الذكيّ أن يستحضرَ هذا الجزاء وقتَ الاختيار للفعل ؛ كى لا يرتكب حماقةَ الفعل الذى يُزيّنه له الشيطان ، أو تُلِح عليه به نفسه . ولو أن المُسرِف على نفسه استحضر العقوبة لحظةَ ارتكاب المعصية لَمَا أقدم عليها ، ولكن المُسْرِف على نفسه لا يقرِن المعصية بالعقوبة ؛ لأنه يغفل النتائج عن المقدمات .

ولذلك أقول دائماً : هَبْ أن إنساناً قد استولتْ عليه شراسة الغريزة الجنسية ، وعرفَ عنه الناس ذلك ، وأعدّوا له مَا يشاء من رغبات ، وأحضروا له أجملَ النساء ؛ وسهّلوا له المكان المناسب للمعصية بما فيه من طعام وشراب .

وقالوا : هذا كله لك ، شَرْط أن تعرف أيضاً ماذا ينتظرك . وأضاءوا له من بعد ذلك قَبْواً فى المنزل ؛ به فرن مشتعل . ويقولون له : بعد أنْ تَفْرُغ من لَذّتِك ستدخل فى هذا الفرن المشتعل . ماذا سيصنع هذا الإنسان ؟

لا بُدّ أنه سيرفض الإقدام على المعصية التى تقودهم إلى الجحيم .

وهكذا نعلم أن مَنْ يرتكب المعاصى إنما يستبطِىء العقوبة ، والذكىّ حقاً هو مَنْ يُصدِّق حديث النبى ﷺ الذى يقول فيه « الموت القيامة ، فَمَنْ ماتَ فقد قامتْ قِيَامتُه »[(١)] . ولا أحدَ يعلم متى يموت .

ويُبيِّن الحق سبحانه من بعد ذلك مراتبَ الجحيم ، فيقول :

﴿ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ[(٢)] لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾ ﴾

وفى جهنمَ يكون مَوْعِد هؤلاء الغَاوين ، ومعهم إبليس الذى أَبَى واستكبر ، وصَمَّم على غواية البشر ، وألوان العذاب ستختلف ، ولكل جماعة لهم جريمة يُقْرنون[(٣)] بها معاً . فمَنْ يشربون الخمر سيكونون معاً ؛ ومَنْ يلعبون الميسر يكونون معاً .

ولكُلّ باب من أبواب جهنم جماعة تدخل منه ربطَتْ بينهم فى الدنيا معصيةٌ ما ؛ وجمعهم فى الدنيا وَلاءٌ ما ، وتكوّنتْ من بينهم

---

(١) ذكره العجلونى فى كشف الخفاء (حديث رقم ٢٦١٨) عن أنس بن مالك رضى الله عنه وتمامه : « أكثروا ذكر الموت فإنكم إن ذكرتموه فى غنى كدره عليكم ، وإن ذكرتموه فى ضيق وسعه عليكم » .

(٢) قال على بن أبى طالب رضى الله عنه : هل تدرون كيف أبواب جهنم ؟ قيل : هى مثل أبوابنا . قال : لا ، هى هكذا بعضها فوق بعض . زاد الثعلبى ، ووضع إحدى يديه على الأخرى . ذكره القرطبى فى تفسيره (٣٧٥٣/٥) .

(٣) وهو قوله تعالى : ﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾﴾ [إبراهيم] أى : مُسَلْسَلين فى القيود والأغلال . كل واحد مع قرينه وشبيهه .

صداقاتٌ فى الدنيا ، واشتركوا بالمخالطة ؛ ولذلك فعليهم الاشتراك فى العقوبة والنكال .

وهكذا يتحقق قول الحق سبحانه :

﴿ الأَخِلاَّءُ[1] يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ (٦٧) ﴾ [الزخرف]

وفى الجحيم أماكن تَأويهم ؛ فقِسْم يذهب إلى اللظى ؛ وآخر إلى الحُطَمة ؛ وثالث إلى سَقَر ، ورابع إلى السَّعير ، وخامس إلى الهاوية .

وكل جُزْء له قِسْم مُعيَّن به ؛ وفى كل قسم دَركَات ، لأن الجنة درجات ، والنار دركات تنزل إلى أسفل .

ويأتى الحق سبحانه بالمقابل ؛ لأن ذِكْر المقابل كما نعلم يُعطى الكافر حَسْرة ؛ ويعطى المؤمن بشارةً بأنه لم يكُنْ من العاصين ، ويقول :

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ (٤٥) ﴾

والمُتقى هو الذى يحولُ بين ما يُحبّ وما يكره ؛ ويحاول ألاَّ يصيب مَنْ يحب ما يكره . وتتعدى التقوى إلى متقابلات ، فنجد الحق سبحانه يقول : ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ (٢٨٢) ﴾ [البقرة]

ويقول أيضاً :

---

(١) الخليل : الصديق المخلص ، وجمعه أخلاء . وخالَّه مُخالّة : صادقه مصادقة قوية . [القاموس القويم ١/٢٠٨]

﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ .. (٢٤)﴾ [البقرة]

وقلنا من قَبْل : إن الحقَّ سبحانه له صفاتُ جلال ، وصفات كمال وجمال . يَهَبُ بصفات الكمال والجمال العطايا ، ويهَبُ بصفات الجلال البَلايا ؛ فهو غفّار ، وهو قهار ، وهو عَفُو ، وهو مُنْتقِم .

وعلينا أن نجعلَ بيننا وبين صفات الجلال وقاية ؛ وأن نجعل بيننا وبين صفات الجمال قُرْبى ؛ والطريق أن نتبعَ منهجه ؛ فلا ندخل النار التى هى جُنْد من جنود الله .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٤٥)﴾ [الحجر]

وهم الذين لم يرتكبوا المعاصى بعد أن آمنوا بالله ورسوله واتبعوا منهجه . وإنْ كانت المعصية قد غلبتْ بعضهم ، وتابوا عنها واستغفروا الله ؛ فقد يغفر الله لهم ، وقد يُبدّل سيئاتِهم حسناتٍ .

ومَنْ يدخل الجنة سيجد فيها العيون والمقصود بها الأنهار ؛ والحق سبحانه هو القائل : ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ[1] وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ.. (١٥)﴾ [محمد]

ولعل هناك عيوناً ومنابعَ لا يعلمها إلا الحق سبحانه .

ويقول الحق سبحانه :

---

(١) أسن الماء : تغيرت رائحته . وهو الذى لا يشربه أحد من نتنه . [لسان العرب ـ مادة : أسن] .

﴿ ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾

وهنا يدعوهم الحق سبحانه بالدخول إلى الجنة فى سلام الأمن والاطمئنان . ونحن نعلم أن سلامَ الدنيا والاطمئنان فيها مُختلف عن سلام الجنة ؛ فسلامُ الدنيا يعكره خوف افتقاد النعمة ، أو أنَ يفوت الإنسانُ تلك النعمة بالموت . ونعلم أن كل نعيم فى الدنيا إلى زوال . أما نعيم الآخرة فهو نعيم مقيم .

ويتابع سبحانه ما ينتظر أهل الجنة :

﴿ وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ إِخۡوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ (١)

وهكذا يُخرِج الحق سبحانه من صدورهم أىَّ حقد وعداوة . ويرون أخلاء الدنيا فى المعاصى وهم مُمْتلئون بالغلّ ، بينما هم قد طهَّرهم الحق سبحانه من كل ما كان يكرهه فى الآخرة ، ويحيا كل منهم مع أزواج مُطهَّرة . ويجمعهم الحق بلا تنافس ، ولا يشعر أىٌّ منهم بحسد لغيره .

والغِلُّ كما نعلم هو الحقد الذى يسكُن النفوس ، ونعلم أن البعض من المسلمين قد تختلف وُجهات نظرهم فى الحياة ، ولكنهم على إيمان بالله ورسوله ﷺ .

والمثل أن علياً كرم الله وجهه وأرضاه دخل موقعة الجمل ، وكان

---

(١) الغِل : الغش والعداوة والضغن والحقد والحسد . قال الزجاج فى تفسير الآية : « حقيقته والله أعلم أنه لا يحسد بعض أهل الجنة بعضاً فى علو المرتبة لأن الحسد غل ، وهو أيضاً كدر ، والجنة مُبرأة من ذلك » ذكره ابن منظور فى اللسان « مادة : غلل » .

فى المعسكر المقابل طلحةُ[١] والزبير رضى الله عنهما ؛ وكلاهما مُبشَّر بالجنة ، وكان لكل جانب دليل يُغلّبه .

ولحظةَ أنْ قامت المعركة جاء وَجْه على - كرَّم الله وجهه - فى وَجْه الزبير ؛ فيقول على رضى الله عنه : تذكر قول رسول الله ﷺ وأنتما تمرّان علىَّ ، سلَّم النبى وقلْتَ أنت : لا يفارق ابنَ أبى طالب زَهْوُه ، فنظر إليك رسول الله ﷺ وقال لك : « إنك تقاتل علياً وأنتَ ظَالِم له » . فرمى الزبير[٢] بالسلاح ، وانتهى من الحرب .

ودخل طلحة بن عبيد الله على علىٍّ - كرم الله وجهه - ؛ فقال عليٌّ رضوان الله عليه : يجعل لى الله ولأبيك فى هذه الآية نصيباً . فقال أحد الجالسين : إن الله أعدل من أنْ يجمعَ بينك وبين طلحة فى الجنة . فقال علىٌّ : وفيما نزل إذنْ قوله الحق :

﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ .. (٤٧) ﴾ [الحجر]

وكلمة « نزعنا » تدل على أن تغلغل العمليات الحقْدية فى النفوس يكون عميقاً ، وأن خَلْعها فى اليوم الآخر يكون خَلْعاً من الجذور ، وينظر المؤمن إلى المؤمن مثله ؛ والذى عاداه فى الدنيا نظرتُه إلى مُحسِن له ؛ لأنه بالعداوة والمنافسة جعله يخاف أن يقع عَيْب منه .

---

(١) هو : طلحة بن عبيد الله القرشى ، أحد الثمانية الذين سبقوا إلى الإسلام ، وأحد الخمسة الذين أسلموا على يد أبى بكر ، وأحد الستة أصحاب الشورى . مات عام ٣٦ هجرية بيد مروان بن الحكم فى موقعة الجمل . [الإصابة فى تمييز الصحابة ٣/٢٩١] .

(٢) هو : الزبير بن العوام ، ابن عمة النبى ﷺ ، أحد العشرة المبشرين بالجنة ، وأحد الستة أصحاب الشورى ، زوج أسماء بنت أبى بكر الصديق . قتل فى موقعة الجمل عام ٣٦ هجرية على يد عمرو بن جرموز . [الإصابة ٣/٥ - ٧] وقد أورد ابن حجر هذا الحديث فى الإصابة وعزاه لأبى يعلى من طريق أبى جرو المازنى .

ذلك أن المؤمن فى الآخرة يذكر مُعْطيات الأشياء ، ويجعلهم الحق سبحانه إخواناً ؛ فَرُبَّ أخٍ لك لم تَلِدْه أمُّك ، والحق سبحانه هو القائل فى موقع آخر :

﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا[1] حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا .. (١٠٣) ﴾

[آل عمران]

وقد يكون لك أخ لا تكرهه ولا تحقد عليه ؛ ولكنك لا تُجالسه ولا تُسامره ؛ لأن الأخوة أنواع[2] . وقد تكون أخوة طيبة ممتلئة بالاحترام لكن أياً منكما لا يسعى إلى الآخر ، ويجمعكم الحق سبحانه فى الآخرة على سُرُر متقابلين .

وسأل سائل : وماذا لو كانت منزلة أحدهما فى الجنة أعلى من منزلة الآخر ؟ ونقول : إن فَضل الحق المطلق يرفع منزلة الأَدْنى إلى منزلة الأعلى ، وهما يتزاوران .

وهكذا يختلف حال الآخرة عن حال الدنيا ، فالإنسان فى الدنيا يعيش ما قال عنه الحق سبحانه :

﴿ يَـٰأَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ[3] إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ (٦) ﴾ [الانشقاق]

---

(١) شفا الشىء : حَرْفه وطَرْفه . شفا كل شىء : حَرْفه . وأشفى على الشىء : أشرف عليه . [لسان العرب ـ مادة : شفى] .

(٢) يفهم من خواطر الإمام أن الأخوة إما أخوة نسبية ، وإما أخوة إيمانية ، وأخوة الإيمان أقوى من أخوة النسب حيث يقول الحق : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ .. (١٠) ﴾ [الحجرات] فكل مؤمن أخ ، وليس كل أخ مؤمناً .

(٣) الكَدْح : هو السعى والحرص والدؤوب فى العمل . كدح الرجل : جَدَّ وكدَّ فى العمل وبذل فيه جهداً كبيراً . [القاموس القويم ٢/١٥٥]

ولكن الحال فى الآخرة يختلف ، وينطبق عليه قول الحق سبحانه فى الآية التالية :

﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ[1] وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾﴾

وحياتُكَ فى الآخرة - إنْ أصلحتَ عملك وكنتَ من المؤمنين - تختلف عن حياتك فى الدنيا ؛ فأنت تعلم أنك فى الدنيا تَحْيا مع أسباب الله المَمْدودة لك ؛ وتضرب فى الأرض من أجل الرزق ، وتجتهد وتتعب من أجل أنْ يهبكَ اللهُ ما فى الأسباب من عطاء .

وحينئذ تصبح من المُفْلِحين الذين يهديهم الله جنته . يقول الحق جل عُلاَه :

﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُولَـٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾﴾

[البقرة]

وشاء الحق سبحانه أن يأتى بلفظ المُفْلِح كصفة للمؤمن فى الجنة ، لأن المؤمن قد حرثَ الدنيا بالعمل الصالح وبذل جهده ليقيمَ منهج الله فى الأرض ، ونصَبَ قامته ، ونعلم أن نَصْب القَامَة يدلُّ على أن مَنْ يعمل قد أصابه التعب ، وذلك فى الحياة الدنيا .

أما فى الجنة ، فيقول الحق :

﴿لا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [الحجر]

---

(١) النصب : الإعياء والتعب والمشقة والأذى . ذكره ابن كثير فى تفسيره (٢/٥٥٣) .

أى : لا يصيبهم فيها تعب ، ولا يُخْرَجون من الجنة ، ذلك أنهم قد نَالُوا فيها الخلود .

وهكذا تكلَّم سبحانه عن الغَاوين ، وقد كانوا أخلاَّء فى الدنيا يمرحُون فيها بالمعاصى ؛ وهم مَنْ ينتظرهم عقابُ الجحيم . وتكلَّم عن العباد المُخلصين الذين سيدخلون الجنة ؛ ومنهم مَنِ اختلفتْ رُؤَاه فى الدنيا ، ولم يربط بينهم تآلفٌ أو محبّة ؛ لكنهم يدخلون الجنة ، وتتصافَى قلوبهم من أىِّ خلاف قد سبق فى الدنيا .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ ﴾

والخطاب هنا لرسول الله ﷺ . والإنباء هو الإخبار بأمر له خطورته وعظمته ؛ ولا يقال (نبىء) فى خبر بسيط . وسبق أن قال الحق سبحانه عن هذا النبأ :

﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ النَّبَأِ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾ ﴾ [النبأ]

وقال سبحانه أيضاً عن هذا النبأ :

﴿ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [ص]

ونفهم من القول الكريم أنه الإخبار بنبأ الآخرة وما سوف يحدثُ فيها ، وهنا يأتى سبحانه بخبر غُفْرانه ورحمته الذى يختصُّ به عباده المخلصين المُتقين الذين يدخلون الجنة ، ويتمتَّعون بخيْراتها خالدين فيها .

ولقائل أنْ يسأل : أليستْ المغفرة تقتضى ذَنْباً ؟

ونقول : إن الحق سبحانه خلقنا ويعلم أن للنفس هواجسَ ؛ ولا يمكن أنْ تسلمَ النفس من بعض الأخطاء والذنوب والوسوسة ؛ بدليل أنه سبحانه قد حَرَّم الكثير من الأفعال على المسلم ؛ حماية للفرد وحماية للمجتمع أيضاً ، ليعيش المجتمع فى الاستقرار الآمن .

فقد حَرَّم الحق سبحانه على المسلم السرقة والزِّنَا وشُرْب الخمر ، وغيرها من المُوبِقات[1] والخطايا ، والهواجس التى تقوده إلى الإفساد فى الأرض ، وما دام قد حرَّم كل ذلك فهذا يعنى أنها سوف تقع ، ونزل منهجه سبحانه مُحرِّماً ومُجَرِّماً لمن يفعل ذلك ، كما يُلزم كل المؤمنين به بضرورة تجنُّب هذه الخطايا .

وهنا يُوضِّح سبحانه أن مَنْ يغفل من المؤمنين ويرتكب معصية ثم يتوب عنها ، عليه ألاَّ يُؤرِّق نفسه بتلك الغفلات ؛ فسبحانه رءوفٌ رحيم .

ونحن حين نقرأ العربية التى قد شرَّف اللهُ أهلَها بنزول القرآن بها ، نجد أقسامَ الكلام إما شِعْراً أو نَثْراً ، والشعر له وَزْن وقافية ، وله نَغَم وموسيقى ، أما النثر فليس له تلك الصِّفات ، بل قد يكون مَسْجوعاً أو غَيْرَ مسجوع .

وإنْ تكلمتَ بكلام نثرىٍّ وجِئْتَ فى وسطه ببيت من الشعر ، فالذى يسمعك يُمكنه أن يلحظ هذا الفارقَ بين الشعر والنثر . ولكن القرآن كلامُ ربٍّ قادر ؛ لذلك أنت تجد هذه الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها وتقرؤها وكأنها بَيْتٌ من الشعر فهى موزونة مُقفَّاة :

---

(١) الموبقات : الذنوب المهلكات . وأوبقه : أهلكه . [لسان العرب ـ مادة : وبق] .

« نَبِّىء عِبَادِى أنِّى أنَا الغفورُ الرَّحِيمُ »

ووزنها من بَحْر المُجْتث[١] . ولكنها تأتى وَسْط آيات من قبلها ومن بعدها فلا تشعر بالفارق ، ولا تشعر أنك انتقلتَ من نثرٍ إلى شعر ، ومن شعر إلى نثر ؛ لأن تضامن المعانى مع جمال الأسلوب يعطينا جلال التأثير المعجز ، وتلك من أسرار عظمة القرآن .

ثم يقول الحق سبحانه فيما يخص الكافرين أهل الغواية :

﴿ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ ﴾

وهكذا يكتمل النبأ بالمغفرة لِمَن آمنوا ؛ والعذاب لِمَنْ كفروا ، وكانوا من أهل الغواية . ونلحظ أنه سبحانه لم يُشدِّد فى تأكيد العذاب ، ذلك أن رحمته سبقتْ غضبه ، مصداقاً لقوله ﷺ :

« إن الله تعالى خلق الرحمة يوم خلقها مائةَ رحمة ، فأمسك عنده تسعاً وتسعين رحمةً ، وأرسل فى خَلْقه كلِّهم رحمةً واحدةً ، فلو يعلم الكافر بكل الذى عند الله من الرحمة لم ييئس من الجنة ؛ ولو يعلم المسلم بكل الذى عند الله من العذاب ؛ لم يأمن من النار »[٢] .

ونلحظ أن الآيتين السابقتين يشرحهما قَوْل الحق سبحانه :

---

(١) سمى هذا البحر بالمجتث ؛ لأنه مجتث أى مقتطع من بحر الخفيف بتقديم (مستفعلن) على (فاعلاتن) ، ولم يستعمل إلا مجزوءاً ، وله عروض واحدة صحيحة تقطيعه : مستفع لن فاعلاتن مستفع لن فاعلاتن انظر كتاب (فى علمى العروض والقافية) ـ د. أمين على السيد ـ طبعة دار المعارف ١٩٨٢م .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٤٦٩) ، وأخرج مسلم بعضه فى صحيحه (٢٧٥٥) كتاب التوبة ، من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ (٦) ﴾ [الرعد]

ولذلك نرى أن الآيتين قد نبَّهتا إلى مَقَامى الرجاء والخوف ، وعلى المؤمن أنْ يجمعَ بينهما ، وألاَّ يُؤجِّل العمل الصالح وتكاليف الإيمان ، وأن يستغفر من المعاصى ؛ لأن الله سبحانه وتعالى يعامل الناس بالفضل لمن أخلص النية وأحسن الطوية . لذلك يقول الحديث :

« لمَّا قضى الله الخَلْق كتب فى كتابه فهو عنده فوق العرش : إن رحمتى سبقت غضبى »[1] .

ثم ينقلنا الحق سبحانه من بعد الحديث عن الصفات الجلالية والجمالية فى الغفران والرحمة والانتقام إلى مسألة حسِّية واقعية تُوضِّح كل تلك الصفات ، فيتكلم عن إبراهيم ـ عليه السلام ـ ويعطيه البُشْرى ، ثم ينتقل لابن أخيه لوط فيعطيه النجاة ، ويُنزِل بأهله العقاب .

يقول الحق سبحانه :

﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ (٥١) ﴾

وكلمة (ضيف) تدلُّ على المائل لغيره لقِرًى[2] أو استئناس ، ويُسمونه « المُنْضوى » لأنه ينضوى إلى غيره لطلب القِرَى ، ولطلب

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٧٥١) ، والبخارى فى صحيحه (٣١٩٤) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، وفى لفظ : « غلبت » .

(٢) قرى الضيف قِرىً وقراء : أضاف . واستقرانى : طلب منى القِرى . والقِرى : طعام الأضياف . [لسان العرب ـ مادة : قرى] .

الأمن . ومن معانى المُنْضوى أنه مالَ ناحية الضَّوْء .

وكان الكرماء من العرب من أهل السماحة ؛ لا تقتصر سماحتهم على مَنْ يطرقون بابهم ، ولكنهم يُعلِنون عن أنفسهم بالنار ليراها مَنْ يسير فى الطريق ليهتدى إليهم .

وكلنا قرأنا ما قاله حاتم الطائى للعبد الذى يخدمه :

أوْقِد النارَ فإنَّ الليْلَ لَيْل قُرّ[1]
والريحُ يَا غُلامُ ريحُ صرّ[2]
إنْ جلبت لنَا ضَيْفاً فأنت حُر

وهكذا نعرف أصلَ كلمة انضوى . أى : تَبِع الضوء .

وكلمة (ضيف) لفظ مُفْرد يُطلَق على المفرد والمُثنّى والجمع ، إناثاً أو ذكوراً ، فيُقال : جاءنى ضيف فأكرمته ، ويقال : جاءنى ضيف فأكرمتها ، ويقال : جاءنى ضيف فأكرمتهما ، وجاءنى ضيف فأكرمتهم ، وجاءنى ضيف فأكرمتهُنَّ .

وكلُّ ذلك لأن كلمة « ضيف » قامت مقام المصدر . ولكن هناك من أهل العربية مَنْ يجمعون « ضيف » على « أضياف » ؛ ويجمعون « ضيف » على « ضيوف » ، أو يجمعون « ضيف » على « ضِيفان » .

ولننتبه إلى أن الضيفَ إذا أُطلِق على جَمْع ؛ فمعناه أن فرداً قد

---

(١) القر : البرد . والقَرُّ : اليوم البارد . وكل بارد : قَر . [لسان العرب ـ مادة : قرر] .

(٢) الريح الصر والصرصر : الشديدة البرد ، والشديدة الصوت العاصفة . [لسان العرب ـ مادة : صرر] .

جاء ومعه غيره ، وإذا جاءت جماعة ، ثم تبعتْهَا جماعة أخرى نقول : وجاءت ضيف أخرى .

وهنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها نعلم أنهم ليسوا ضيفاً من الآية التى تليها ؛ التى قال فيها الحق سبحانه :

﴿إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾﴾

ونلحظ أن كلمة (سلاماً) جاءت هنا بالنَّصْب ، ومعناها نُسلّم سلاماً ، وتعنى سلاماً متجدداً . ولكنه فى آية أخرى يقول :

﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلامًا قَالَ سَلامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الذاريات]

ونعلم أن القرآن يأتى بالقصة عَبْر لقطات مُوزّعة بين الآيات ؛ فإذا جمعتَها رسمَتْ لك ملامح القصة كاملة .

ولذلك نجد الحق سبحانه هنا لا يذكر أن إبراهيم قد رَدَّ سلامهم ؛ وأيضاً لم يذكر تقديمه للعجل المَشْوىّ لهم ؛ لأنه ذكر ذلك فى موقع آخر من القرآن[1] .

إذن : فمنْ تلك الآية نعلم أن إبراهيم عليه السلام قد ردَّ السلام ، وجاء هذا السلام مرفوعاً ، فلماذا جاء السلام فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها منصوباً ؟

أى : قالوا هم : ﴿سَلامًا ﴿٥٢﴾﴾ [الحجر]

وكان لا بُدَّ من رَدٍّ ، وهو ما جاءتْ به الآية الثانية :

---

(١) وذلك فى قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلامًا قَالَ سَلامٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾﴾ [هود] .

﴿قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ (٢٥)﴾ [الذاريات]

والسلام الذى صدر من الملائكة لإبراهيم هو سلام مُتجدّد ؛ بينما السلام الذى صدر منه جاء فى صيغة جملة اسمية مُثْبتة ؛ ويدلُّ على الثبوت .

إذا كان رَدّ إبراهيم عليه السلام أقوى من سلام الملائكة ؛ لأنه يُوضح أن أخلاق المنهج أنْ يردَّ المؤمنُ التحيةَ بأحسنَ منها ؛ لا أنْ يردّها فقط ، فجاء رَدُّه يحمل سلاماً استمرارياً ، بينما سلامُهم كان سلاماً تجددياً ، والفرق بين سلام إبراهيم - عليه السلام - وسلام الملائكة : أن سلام الملائكة يتحدد بمقتضى الحال ، أما سلام إبراهيم فهو منهج لدعوته ودعوة الرسل .

ويأتى من بعد ذلك كلام إبراهيم عليه السلام :

﴿قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ (٥٢)﴾ [الحجر]

وجاء فى آية أخرى أنه :

﴿وَأَوْجَسَ[1] مِنْهُمْ خِيفَةً ..(٧٠)﴾ [هود]

وفى موقع آخر من القرآن يقول :

﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ (٢٥)﴾ [الذاريات]

فلماذا أوجسَ منهم خِيفةً ؟ ولماذا قال لهم : إنهم قوْم مُنْكَرون ؟ ولماذا قال :

---

(١) أوجس فى نفسه : أضمر الخوف فى نفسه . وأحس بالفزع . [القاموس القويم ٢/٣٢١] .

﴿إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ (٥٢)﴾ [الحجر]

لقد جاءوا له دون أن يتعرّف عليهم ، وقدَّم لهم الطعام فرأى أيديهم لا تصل إليه ولا تقربه كما قال الحق سبحانه :

﴿فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ[1] وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ (٧٠)﴾ [هود]

ذلك أن إبراهيم عليه السلام يعلم أنه إذا قَدِم ضَيْفاً وقُدِّم إليه الطعام ، ورفض أن يأكل فعلَى المرء ألاّ يتوقع منه الخير ؛ وأن ينتظر المكاره .

وحين علِم أنهم قد أرسلوا إلى قوم لوط ؛ وطمأنوه بالخبر الطيب الذى أرسلهم به الله اطمأنتْ نفسه ؛ وفى ذلك تأتى الآية القادمة :

﴿قَالُوا لَا تَوْجَلْ[2] إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (٥٣)﴾

هكذا طمأنت الملائكة إبراهيم عليه السلام ، وهدَّأتْ من رَوْعه ، وأزالتْ مخاوفه ، وقد حملوا له البشارة بأن الحق سبحانه سيرزقه بغلام[3] سيصير إلى مرتبة أن يكون كثير العِلْم .

---

(١) نكر الشىء نكْراً ونُكْراً : جهله . نكره : جهله واستوحش منه ونفر منه ولم يأنس به . قال تعالى : ﴿فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً .. (٧٠)﴾ [هود] أى : استوحش منهم لأنه لم يعرف حقيقتهم . [القاموس القويم ٢/٢٨٥] .

(٢) الوجَل : الفزع والخوف . [لسان العرب ـ مادة : وجل] .

(٣) المقصود بالغلام هنا هو إسحاق عليه السلام ، قال تعالى : ﴿قَالُوا لا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ (٧٠) وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ (٧١)﴾ [هود] قال ابن كثير فى تفسيره (٢/٤٥٢) : « من ههنا استدل من استدل بهذه الآية على أن الذبيح إنما هو إسماعيل ، وأنه يمتنع أن يكون هو إسحاق ؛ لأنه وقعت البشارة به ، وأنه سيولد له يعقوب فكيف يؤمر إبراهيم بذبحه وهو طفل صغير ولم يُولَد له بعد يعقوب الموعود بوجوده » .

ويستقبل إبراهيم عليه السلام الخبر بطريقة تحمل من الاندهاش الكثيرَ ، فيقول ما ذكره الحق سبحانه :

﴿ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾

ونعلم أن الحق - سبحانه وتعالى - يخلق الخَلْق على أنحاء مُتعدّدة ؛ حتى يعلمَ المخلوق أن خَلْقه لا ضرورة أن يكونَ بطريقةٍ محددة ؛ بل طلاقة القدرة أن يأتى المخلوق كما يشاء الله .

والشائع أن يُولَد الولد من أبٍ وأم ؛ ذكرٍ وأنثى . أو بدون الأمرين معاً مثل آدم عليه السلام ، ثُمَّ خلق حواء من ذكر فقط ، وكما خلق عيسى من أم فقط ، وخلق محمداً ﷺ من ذكر وأنثى .

وفى الآية التى نحن بصددها نجد إبراهيم عليه السلام يتعجب كيف يُبشِّرونه بغلام ، وهو على هذه الدرجة من الكِبَر ، فى قوله تعالى :

﴿ عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ .. ﴿٥٤﴾ ﴾ [الحجر]

يعنى أن « على » هنا جاءت بمعنى « مع » أى : أنه يعيش مع الكِبَر ؛ ويرى أنه من الصعب أنْ يجتمعَ الكِبَر مع القدرة على الإنجاب .

وأقول دائماً : إن كلمة (على) لها عطاءاتٌ واسعة فى القرآن الكريم ، فهى تترك مرة ويأتى الحق سبحانه بغيرها لتؤدى معنًى مُعيناً ؛ مثل قوله تعالى :

﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ ﴿٧١﴾ ﴾ [طه]

والصَّلْب إنما يكون على جذوع النخل ؛ ولكن الحق سبحانه جاء بـ (فى) بدلاً من (على) ليدلَّ على أن الصَّلْبَ سيكون عنيفاً ، بحيث تتداخل الأيدى والأرجُل المَصْلوبة فى جذوع النخل .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ..(٥٤)﴾ [الحجر]

أى : أتُبشِّروننى بالغلام العليم مع أنِّى كبير فى العمر ؛ والمفهوم أن الكِبَر والتقدُّم فى العمر لا يتأتَّى معه القدرة على الإنجاب .

وهكذا تأتى « على » بمعنى « مع » . أى : كيف تُبشِّروننى بالغلام مع أنِّى كبير فى العمر ، وقد قال قولته هذه مُؤمناً بقدرة الله ؛ فإبراهيم أيضاً هو الذى أورد الحق سبحانه قَوْلاً له :

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٩)﴾ [إبراهيم]

وكأن الكِبَر لا يتناسب مع الإنجاب ، ويأتى رَدُّ الملائكة على إبراهيم خليل الرحمن :

﴿قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ (٥٥)﴾

وكأن الملائكة تقول له : لسنا نحن الذين صنعنا ذلك ، ولكنَّا نُبلغك ببشارة شاءها الله لك ؛ فلا تكُنْ من اليائسين .

ونفس القصة تكررتْ من بعد إبراهيم مع زكريا ـ عليه السلام ـ فى إنجابه ليحيى ، حين دعا زكريا ربَّه أن يهبَه غلاماً :

﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا (٦)﴾ [مريم]

وجاءته البشارة بيحيى ، وقد قال زكريا لربه :

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا (٨)﴾ [مريم]

وإن شئت أن تعرفَ سرَّ عطاءات الأسلوب القرآنى فاقرأ قَوْل الحق سبحانه رداً على زكريا :

﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا[1] لَهُ زَوْجَهُ..(٩٠)﴾ [الأنبياء]

ولم يَقُل الحق سبحانه أصلحناكم أنتم الاثنين ؛ وفى ذلك إشارة إلى أن العطبَ كان فى الزوجة ؛ وقد أثبت العلم من بعد ذلك أن قدرة الرجل على الإخصاب لا يُحدِّدها عمر ، ولكن قدرةَ المرأة على أن تحملَ مُحدّدة بعمر مُعين .

ثم إذا تأملنا قوله الحق : ﴿وَوَهَبْنَا..(٩٠)﴾ [الأنبياء]

نجد أنها تُثبت طلاقةَ قدرة الله سبحانه فيما وَهَب ؛ وفى إصلاح مَا فسد ؛ فسبحانه لا يُعْوزه شىء ؛ قادر جَلَّ شأنه على الوَهْب ؛ وقادر على أن يُهيىءَ الأسباب ليتحققَ ما يَهبه .

وهنا تقول الملائكة لإبراهيم :

---

(١) قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير : كانت عاقراً لا تلد ، فولدت . [تفسير ابن كثير ١٩٣/٣] وأصلح الأمر إصلاحاً : أزال فساده . [القاموس القويم ٣٨١/١] .

﴿بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ..(٥٥)﴾ [الحجر]

أى : أنهم ليسوا المسئولين عن البشارة ، بل عن صدق البشارة ؛ ولذلك قالوا له من بعد ذلك :

﴿فَلا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ (٥٥)﴾ [الحجر]

ويأتى الحق سبحانه بما رَدَّ به إبراهيم عليه السلام :

﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ[1] مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ (٥٦)﴾

وهنا يعلن إبراهيم ـ عليه السلام ـ أنه لم يقنط من رحمة ربه ؛ ولكنه التعجب من طلاقة القدرة التى توحى بالوحدانية القادرة ، لا لذات وقوع الحَدث ؛ ولكن لكيفية الوقوع ، ففى كيفية الوقوع إعجاب فيه تأمل ، ذلك أن إبراهيم ـ عليه السلام ـ يعلم عِلْم اليقين طلاقة قدرة الله ؛ فقد سبق أن قال له :

﴿أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ (٢٦٠)﴾ [البقرة]

ولنلحظ أنه لم يسأله « أتحيى الموتى » ، بل كان سؤاله عن الكيفية التى يُحْيى بها الله المَوْتى ؛ ولذلك يسأله الحق سبحانه :

﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن..(٢٦٠)﴾ [البقرة]

وكان رَدّ إبراهيم ـ عليه السلام ـ :

﴿بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي..(٢٦٠)﴾ [البقرة]

---

(١) القنوط : اليأس . وفى التهذيب : اليأس من الخير . [لسان العرب ـ مادة : قنط] .

وحدثتْ تجربة عندما أُمر إبراهيم بأن يأخذ[١] أربعة من الطير ثم يقطعهن ويلقى على كل جبل جزءاً ، ثم يدعوهن فيأتينه سعياً ، لذلك فلم يكُنْ إبراهيم قانطاً من رحمة ربه ، بل كان متسائلاً عن الكيفية التى يُجرى الله بها رحمته .

ولم تكن تلك المحادثة بين إبراهيم والملائكة فقط ، بل اشتركت فيه زَوْجه سارة ؛ إذ إن الحق سبحانه قد قال فى سورة هود :

﴿يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي[٢] شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (٧٢) قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ (٧٣)﴾ [هود]

وهكذا نجد أن القرآن يُكمل بعضُه بعضاً ؛ وكل لَقْطة تأتى فى موقعها ؛ وحين نجمع اللقطات تكتمل لنا القصة .

وهنا فى سورة الحجر نجد سؤالاً من إبراهيم - عليه السلام - للملائكة التى حملتْ له بُشْرى الإنجاب عن المُهمّة الأساسية لمجيئهم ، الذى تسبَّب فى أن يتوجَّس منهم خيفةً ؛ فقد نظر إليهم ، وشعر أنهم قد جاءوا بأمر آخر غير البشارة بالغلام ؛ لأن البشارةَ يكفى فيها مَلَكٌ واحد .

---

(١) قال تعالى : ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٦٠)﴾ [البقرة] فعمد إبراهيم إلى أربعة من الطير ، فذبحهن ثم قطعهن ونتف ريشهن ومزقهن وخلط بعضهن ببعض ثم جزأهن أجزاء وجعل على كل جبل منهن جزءاً ، وأخذ رءوسهن بيده ثم أمره الله عز وجل أن يدعوهن فدعاهنّ ، كما أمره الله عز وجل فجعل ينظر إلى الريش يطير إلى الريش والدم إلى الدم واللحم إلى اللحم حتى قام كل طائر على حدته وأتينه يمشين سعياً . [ذكره ابن كثير فى تفسيره ١/ ٣١٥] .

(٢) البعل : الزوج والزوجة . قال الأزهرى : سمى زوج المرأة بعلاً لأنه سيدها ومالكها . باعل القوم قوماً آخرين مباعلة : تزوّج بعضهم إلى بعض . [لسان العرب - مادة : بعل] .

أما هؤلاء فهم كثيرون على تلك المُهِمة ، فيقول سبحانه هذا السؤال الذى سأله إبراهيم ـ عليه السلام ـ :

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾

أى : ما هو الأمر العظيم الذى جئْتم من أجله ؛ لأن الخَطْب هو الحَدث الجَلل الذى ينتاب الإنسان ؟ وسُمِّى خَطْباً لأنه يشغل بال الناس جميعاً فيتخاطبون به ، وكلما التقتْ جماعة من البشر بجماعة أخرى فَهُمْ يتحدثون فى هذا الأمر .

ولذلك سُمِّيتْ رغبة الزواج بين رجل وامرأة وَتَقدّمه لأهلها طَلَباً ليَدها « خطْبة » ؛ لأنه أمر جلَل وهَامّ ؛ ذلك أن أحداً لو نظر إلى المرأة ؛ ورآه واحدٌ من أهلها لَثَار من الغَيْرة ؛ ولكن ما أن يدقَّ البابَ طالباً يدَها ، فالأمر يختلف ؛ لأن أهلها يستقبلون مَنْ يتقدّم للزواج الاستقبالَ الحسن ؛ ويقال : « جدعَ[1] الحلالُ أنْفَ الغَيْرة » .

وهنا قال إبراهيم ـ عليه السلام ـ للملائكة : ما خَطْبكم أيها المُرْسلون ؟ أى : لأىّ أمر جلَلٍ أتيتُم ؟

ويأتى الجواب من الملائكة فى قول الحق سبحانه :

﴿ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾

ونعلم أن كلمة « القوم » مأخوذةٌ من القيام ، وهُم القوم الذين يقومون للأحداث ؛ ويُقصد بهم الرجال ، دون النساء لأن النساء لا يَقُمْنَ للأحداث ؛ والحق سبحانه هو الذى يُفصِّل هذا الأمر فى قوله :

---

(١) الجدع : القطع . وقيل : هو القطع البائن فى الأنف والأذن والشفة واليد ونحوها . [لسان العرب ـ مادة : جدع] .

﴿لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ..(١١)﴾ [الحجرات]

فلو أن كلمة « القوم » تُطلَق على النساء ؛ لَوصفَ بها الحق سبحانه النساء أيضاً ؛ وذلك كى نعلم أن الرجال فقط هم الذين يقومون للأحداث ؛ ولنعلم أن للمرأة منزلتها فى رعاية أسرتها ؛ فلا تقوم إلا بما يخصُّ هذا البيت .

وهنا أخبرتْ الملائكة إبراهيم ـ عليه السلام ـ أنهم مُرْسَلون إلى قوم مُجرمين[1] ؛ وهم قوم لوط الذين أرهقوا لوطاً بالتكذيب وبالمعاصى التى أدمنوها .

ولكن الحق سبحانه يستثنى آل لوط من جريمة قوم لوط ، فقد كانت أغلبية قوم لوط من الفاسدين ، فيقول سبحانه :

﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٩)﴾

وهذا استثناءٌ لآل لُوطٍ من المجرمين[2] . والمُجرِم هو المُنقطِع عن الحق ، والجريمة هى الانقطاع عن الحق لانتصار الباطل ، وغلب اسم

---

(١) جرم الشىء جرماً : قطعه وغلب على فعل الشر . وأجرم الرجل : أذنب وعصى وكفر وعاند فهو مجرم . [القاموس القويم ١/١٢١] .

(٢) يقول الفخر الرازى متسائلاً : هل هذا استثناء متصل أو منقطع ؟ يقول صاحب الكشاف : إذا كان هذا الاستثناء من قوم كان منقطعاً ؛ لأن القوم موصوفون بالإجرام وآل لوط ليسوا مجرمين ، فاختلف الجنسان ، وهنا يكون الاستثناء منقطعاً ، وإن كان الاستثناء من الضمير فى مجرمين كان متصلاً كأنه قيل : إلى قوم قد أجرموا كلهم إلا آل لوط وحدهم (راجع الفخر الرازى فى تفسير الآية) .

القوم على الجماعة المُجْرمين ، وهكذا كان الاستثناء من هؤلاء المجرمين . الذين أجرموا فى حق منهج الله ، والقيم التى نادى بها لوط عليه السلام .

وهكذا كان الإرسال للإنجاء لمن آمن والإهلاك لمن أعرض ونأى بجانبه فى مهمة واحدة .

ثم يأتى استثناء جديد ؛ حيث يقرر الحق سبحانه أن امرأة لوط سيشملها الإهلاك ، فيقول سبحانه :

﴿ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ (١) ﴿٦٠﴾ ﴾

ونعلم فى اللغة أنه إذا توالتْ استثناءات على مُستثنى منه ؛ نأخذ المُسْتثنى الأول من المُسْتثنى منه ، والمستثنى الثانى نأخذه من المستثنى الأول ، والمستثنى الثالث نأخذه من المستثنى الثانى .

والمثل أن يقول لك من تدينه « لك عشرة جنيهات إلا أربعة » أى : أنه أقرَّ بأن لك ستة جنيهات ؛ ولكنك تنظر إليه لعلَّه يتذكر كم سدَّد إليك ؟ فيقول : « لك إلا درهماً » وهكذا يكون قد أقرَّ بسبعة دراهم كَدَيْن ؛ بعد أنْ كان قد أقرَّ بستة ؛ ذلك أنه قال : « لك عشرة جنيهات إلا أربعة » ، ثم أضاف : « إلا درهماً » .

وهكذا يكون قد استثنى من الأربعة الجنيهات التى قال إنه سَدَّدها لك جنيهاً آخر ؛ وبذلك يكون ما سدده من دين ثلاثة جنيهات ، وبقى عنده سبعة جنيهات .

والحق سبحانه هنا يستثنى امرأة لوط من الذين استثناهم من

---

(١) الغابرون : الباقون المتخلفون فى القرية للهلاك ، أو كانت من الماضين الذاهبين أى من الهالكين . [القاموس القويم ٢/٤٧] .

قبل للنجاة[١] ، وهم آل لوط ، والملائكة التى تقول ذلك لم تُقدِّر الأمر بإهلاك امرأة لوط ؛ بل هى تُنفّذ التقدير الأعلى ؛ فسبحانه هو مَنْ قدَّر وأمر :

﴿ إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ (٦٠) ﴾ [الحجر]

والغابر هنا بمعنى داخل ؛ أو هو من أسماء الأضداد ؛ وهى لن تنجو ؛ لأن مَنْ تقررتْ نجاتهم سيتركون القرية ؛ وسيهلك مَنْ يبقى فيها ، وامرأة لُوط من الباقين فى العذاب والاستثناء من النفى إثبات ؛ ومن الإثبات نفى ، فاستثناء امرأة لُوط من الناجين يلحقها بالهالكين .

وتنتقل السورة من إبراهيم إلى لوط ـ عليه السلام ـ فيقول الحق سبحانه :

﴿ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ (٦١) قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ (٦٢) ﴾

وهكذا قال لوط ـ عليه السلام ـ للملائكة عندما وصلوا إليه ، فقد كان مشهدهم غايةً فى الجمال ؛ ويعلم أن قومه يُعَانُون من الغلمانية[٢] ، ويحترفون الفاحشة الشاذة ؛ لذلك نجد الحق سبحانه يقول عن معاملته للملائكة فى موقع آخر من القرآن :

﴿ سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا .. (٧٧) ﴾ [هود]

---

(١) قال صاحب الكشاف : هذا استثناء من الضمير المجرور فى قوله (لمنجوهم) وليس ذلك من باب الاستثناء من الاستثناء (راجع الفخر الرازى) .

(٢) الغلمانية : حب إتيان الغلمان والذكران من العالمين . والغُلْمة : شدة الشهوة .

ذلك أن لوطاً علِم أن قومه سيطمعون فى هؤلاء المُرْد[١] ، لذلك ما أنْ جاءوه حتى أعلن لهم أنه غَيْر مرغوب فيهم ؛ ولم يرحب بهم ، ذلك أنهم قد دخلوا عليه فى صورة شبان تضىء ملامحهم بالحُسْن الشديد ؛ مما قد يُسبِّب غواية لقومه .

كما أنهم قد دخلوا عليه ، وليس على ملامحهم أىّ أثر للسفر ؛ كما أنهم ليسوا من أهل المنطقة التى يعيش فيها ؛ لذلك أنكرهم .

ويقول سبحانه ما جاء على لسان الملائكة لحظةَ أنْ طمأنوا لوطاً كشفوا له عن مهمتهم :

﴿ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ[٢] ﴿٦٣﴾ ﴾

وهكذا أعلنوا للوط سبب قدومهم إليه ؛ كى يُنزِلوا العقابَ بالقوم الذين أرهقوه ، وكانوا يشكُّون فى قدرة الحق سبحانه أنْ يأخذهم أَخْذَ عزيز مُقْتدر ، وفى هذا تَسْرية عنه .

ثم يُؤكِّدون ذلك بما أورده الحق سبحانه على ألسنتهم :

﴿ وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾

أى : جِئْنا لك بأمر عذابهم الصادر من الحقِّ سبحانه ؛ فلا مجالَ للشكِّ أو الامتراء ، ونحن صادقون فيما نُبلِّغك به .

---

(١) غلام أمرد . والمرْد : التمليس . وقال ابن الأعرابى : المرَد : نقاء الخدَّيْن من الشعر ونقاء الغصن من الورق . والأمرد : الشاب الذى بلغ خروج لحيته وطَرّ شاربه ولم تبد لحيته . [لسان العرب ـ مادة : مرد] .

(٢) امترى فى الشىء : شكّ فيه ولم يستيقن . وتمارى فى الشىء : تشكك فيه . والمرية : الجدل والشك . [القاموس القويم ٢/٢٢٤] .

ويقولون له من بعد ذلك :

﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَـٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾

أى : سِرْ أنت وأهلك فى جزء من الليل . ومرة يُقَال « سرى » ، ومرة يُقال « أسرى » ؛ ويلتقيان فى المعنى . ولكن « أسرى » تأتى فى موقع آخر من القرآن ، وتكون مُتعدِّية مثل قول الحق :

﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً .. ﴿١﴾ ﴾ [الإسراء]

وقولهم هنا (أسر بأهلك[1]) هو تعبير مُهذّب عن صُحْبَة النساء والأبناء . ونجد فى ريفنا المصرى مَنْ لا يتكلم أبداً فى حديثه عن المرأة أو البنات ؛ فيقول الواحد منهم « قال الأولاد كذا » ، فكأن اسم المرأة مبنىٌّ على السَّتْر دائماً ، وكذلك نجد كثيراً من الأحكام تكون المرأة مَطْمورة فى حكم الرجل إلا فى الأمر المُتعلِّق بها .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ .. ﴿٦٥﴾ ﴾ [الحجر]

وكلمة « قِطع » هى اسم جمع[2] ، والمقصود هو أن يخرج لوطٌ

---

(١) الأهل هم الذين اتبعوا لوطاً فى منهج الله ، ويخرج من الأهلية امرأته لعصيانها كما نُفيت الأهلية عن ابن نوح بعصيانه . قال الله تعالى : ﴿ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴿٤٦﴾ ﴾ [هود]

(٢) اسم الجمع هو اسم يدل على الجمع ، ولكنه ليس جمعاً سالماً سلمت فيه بنية المفرد من التغيير ، وليس جمع تكسير ، تغيرت فيه بنية المفرد ، ويفرق بينه وبين مفرده بالتاء ، مثل (تمر) فهذا اسم جمع مفرده (تمرة) ، و (عنب) مفرده (عنبة) ، كذلك قطع هنا اسم يدل على الجمع مفرده (قطعة) ، وليس من أنواع الجموع المعروفة .

بأهله فى جُزْء من الليل ، أو من آخر الليل ، فهذا هو منهج الإنجاء الذى أخبر به الملائكة لوطاً ، ليتبعه هو وأهله والمؤمنون به ، وأوصوْه أن يتبعَ أدبار قومه بقولهم :

﴿ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ .. (٦٥) ﴾ [الحجر]

أى : أن يكون فى المُؤخّرة ، وفى ذلك حَثٌّ لهم على السُّرعة .

وكان من طبيعة العرب أنهم إذا كانوا فى مكان ويرحلون منه ؛ فكل منهم يحمل رَحْلَه على ناقته ؛ وأهله فيها - فوق الناقة - ويبتدئون السير ، ويتخلف رئيس القوم ، واسمه « مُعقِّب » كى يرقُب إنْ كان أحد من القوم قد تخلَّف أو تعثَّر أو ترك شيئاً من متاعه ، ويُسمُّون هذا الشخص « مُعقِّب » .

وهنا تأمر الملائكة لوطاً أن يكون مُعقّباً لأهله والمؤمنين به ؛ لِيحثَّهم على السير بسرعة ؛ ثم لِينفذ أمراً آخرَ يأمره به الحق سبحانه :

﴿ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ .. (٦٥) ﴾ [الحجر]

وتنفيذ الأمر بعدم الالتفات يقتضى أن يكون لوط فى مُؤخّرة القوم ؛ ذلك أن الالتفاتَ يأخذ وَقْتاً ، ويُقلّل من سرعة مَنْ يلتفت ؛ كما أن الالتفاتَ إلى موقع انتمائهم من الأرض قد يُثير الحنين إلى مواقع التَّذكار وأرض المَنْشأ ، وكل ذلك قد يُعطّل حركة القوم جميعهم ؛ لذلك جاء الأمر الإلهى :

﴿ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ (٦٥) ﴾ [الحجر]

أو : أن الحق سبحانه يريد ألاَّ يلتفت أحدٌ خَلْفه حتى لا يشهدَ العذاب ، أو مقدمة العذاب الذى يقع على القوم ، فتأخذه بهم شفقة .

ونحن نعلم قول الحق سبحانه فى إقامة أىِّ حدٍّ من الحدود التى أنزلها :

﴿ وَلا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ .. (٢) ﴾ [النور]

فلو أن أحداً قد التفتَ إلى العذاب ، أو مُقدِّمة العذاب ؛ فقد يحنّ إليهم ، أو يعطف عليهم رغم أن عذابهم بسبب ذنبٍ كبير ، فقد ارتكبوا جريمة كبيرة ؛ ونعلم أن بشاعة الجريمة تبهت ؛ وقد يبقى فى النفس عِظَم ألَمِ العقوبة لحظةَ توقيعِها على المُجرم .

أو : أن الحق سبحانه يريد أن يعجل بالقوم الناجين قبل أنْ يوجد ، ولو التفزيع الذى هو مقدمة تعذيب القوم الذين كفروا من هَوْل هذا العذاب القادم .

وهكذا كان الأمر بالإسراء بالقوم الذين قرر الحق سبحانه نجاتهم ، والكيفية هى أن يكون الخروجُ فى جزء من الليل ، وأنْ يتبعَ لوطٌ أدبارهم ، وألاَّ يلتفتَ أحد من الناجين خَلْفه ؛ ليمضى هؤلاء الناجون حيث يأمرهم الحق سبحانه . وقيل : إن الجهة هى الشام .

ومن بعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَٰلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ (٦٦) ﴾ (١)

---

(١) دابر الشىء : آخره . وقطع الله دابرهم أى آخر من بقى منهم . [لسان العرب ـ مادة : دبر] والتعبير كناية عن استئصالهم وإهلاكهم عن آخرهم ، فالدابر التابع ، وقطع التابع قَطْع لهم جميعاً . [القاموس القويم ١/ ٢٢٠] .

وقوله الحق : ﴿وَقَضَيْنَا..(٦٦)﴾ [الحجر]

أى : أوحينا . وسبحانه تكلَّم من قَبْل عن الإنجاء للمؤمنين من آل لوط ؛ ثم تكلَّم عن عذاب الكافرين المنحرفين ؛ والأمر الذى قضى به الحق سبحانه أنْ يُبيدَ هؤلاء المنحرفين . وقَطْع الدَّابر هو الخَلْع من الجذور .

ولذلك يقول القرآن :

﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا..(٤٥)﴾ [الأنعام]

وهكذا نفهم أن قَطْع الدابر هو أنْ يأخذَهم الحق سبحانه أَخْذ عزيز مقتدر فلا يُبقِى منهم أحداً . وموعد ذلك هو الصباح ، فبعد أنْ خرج لوط ومَنْ معه بجزء من الليل وتمَّتْ نجاتهم يأتى الأمر بإهلاك المنحرفين فى الصباح .

والأَخْذ بالصُّبح هو مبدأ من مبادىء الحروب ؛ ويُقال : إن أغلب الحروب تبدأ عند أول خيط من خيوط الشمس .

والحق سبحانه يقول :

﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ[1] فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ (١٧٧)﴾ [الصافات]

وهكذا شاء الحق سبحانه أنْ يأخذَهم وهُمْ فى استرخاء ؛ ولا يملكون قُدْرة على المقاومة .

وقَوْل الحق سبحانه هنا :

---

(١) الساحة : الناحية والفضاء بين الدُّور . جمعها : سَاحٍ وسُوح وساحات . [القاموس القويم ١/ ٣٣٤] .

﴿أَنَّ دَابِرَ هَـٰؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ (٦٦)﴾ [الحجر]

لا يتناقض مع قوله عنهم فى موقع آخر :

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ[1] (٧٣)﴾ [الحجر]

فكأن بَدْء الصيحة كان صُبْحاً ، ونهايتهم كانت فى الشروق . وهكذا رسم الحق سبحانه الصورة واضحة أمام لُوطٍ من قبل أنْ يبدأ التنفيذ ؛ فهكذا أخبرتْ الملائكة لوطاً بما سوف يجرى .

ويعود الحق سبحانه بعد ذلك إلى قوم لوط الذين لا يعرفون ما سوف يحدث لهم ، فيقول سبحانه :

﴿وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ (٦٧)﴾

وعندما علم أهل المدينة من قوم لُوطٍ بوصول وَفْد من الشبان الحِسَان المُرْد عند لوط جاءوا مُستبشرين فَرِحين . وكان حُسْنهم مضربَ الأمثال ؛ وكأن كُلاً منهم ينطبق عليه قَوْله الحق عن يوسف عليه السلام :

﴿مَا هَـٰذَا بَشَرًا إِنْ هَـٰذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ (٣١)﴾ [يوسف]

وقوله سبحانه :

﴿وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ (٦٧)﴾ [الحجر]

---

(١) مشرقين : وقت شروق الشمس . يقال : أشرقت الشمس : أى : أضاءت . وأشرق القوم : أى دخلوا فى وقت شروق الشمس . [تفسير القرطبى ٥/٣٧٦٥] .

يجمع لقطاتٍ مُركّبة عن الأمر الفاحش الشائع فيما بينهم ، وكانوا يستبشرون بفعله ويَفْرحون به ؛ فهم مَنْ ينطبق عليهم قوله الحق :

﴿ كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ[1] عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٧٩) ﴾ [المائدة]

وكان لوط يعلم هذا الأمر فيهم ، ويعلم ما سوف يَحيق بهم ؛ وأراد أنْ يجعلَ بينهم وبين فِعْل الفاحشة مع الملائكة سَدّاً ؛ فهم فى ضيافته وفى جواره ، والتقاليد تقضى أنْ يأخذَ الضيف كرامة المُضيف ، وأىّ إهانة تلحق بالضيف هى إهانة للمُضيف ، فيقول الحق سبحانه ما جاء على لسان لوط :

﴿ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ (٦٨) ﴾

والفضيحة هى هَتْك المساتير التى يستحيى منها الإنسان ، فالإنسان قد يفعل أشياءَ يستحى أنْ يعلمها عنه غيره . والحق ـ سبحانه وتعالى ـ حين يطلب منا أن نتخلَّق بخُلُقه ؛ جعل من كُلِّ صفات الجمال والجلال نصيباً يعطيه لخَلْقه .

ولكن هناك بعضاً من صفاته يذكرها ولا يأتى بمقابل لها ؛ فهو قد قال مثلاً « الضَّارّ » ومقابلها « النافع » . وقال « الباسط » ومقابلها « القابض » وقال « المُعِزّ » ومقابلها « المُذِلّ » . ومن

---

(١) تناهوا عن الأمر وعن المنكر : نهى بعضهم بعضاً . فكان بنو إسرائيل لا ينهى بعضهم بعضاً عن منكر فعلوه ، فاستحقوا اللعنة . [القاموس القويم ٢/ ٢٩٠] .

أسمائه « الستار »[1] ولم يَأْتِ بالمقابل وهو « الفاضح » ؛ لماذا لم يَأْتِ بهذا المقابل ؟

لأنه سبحانه شاء أنْ يحميَ الكون ؛ لكى يستمتع كُلّ فَرْد بحسنات المُسِىء ؛ لأنك لو علمتَ سيئاته قد تبصُق عليه ؛ لذلك شاء الحق سبحانه أن يستر المُسىء ، ويُظهِر حسناته فقط .

وقد قال لوط لقومه بعد أن نهاهم عن الاقتراب الشائن من ضيوفه :

﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ ﴾

أى : ضَعُوا بينكم وبين عقاب الحق لكم وقاية ؛ ولا تكونوا سبباً فى إحساسى بالخِزى والعار أمام ضيوفى بسبب مَا ترغبُون فيه من الفاحشة .

والاتقاء من الوقاية ، والوقاية هى الاحتراس والبعد من الشر ، لذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ﴿٦﴾ ﴾ [التحريم]

أى : اجعلوا بينكم وبين النار وقاية ، واحترسوا من أن تقعوا فيها ، بالابتعاد عن المحظورات ، فإن فِعْل المحذور طريق إلى النار ،

---

(١) قال القرطبى فى « الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى » (١/١٦٧) : « من أسماء الله الستار والساتر ، هذان الاسمان لم أر من ذكرهما ، ولا من جعلهما فى عداد الأسماء ، إلا أن الفعل منهما وارد فى غير ما حديث ، منها حديث أبى هريرة عن النبى ﷺ : « من ستر مسلماً ستره الله فى الدنيا والآخرة » خرجه مسلم » .

والابتعاد عنه وقاية منها ، ومن عجيب أمر هذه التقوى أنك تجد الحق سبحانه وتعالى يقول فى القرآن الكريم ـ والقرآن كله كلام الله .

يقول : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ..(١٩٤) ﴾ [البقرة]

ويقول : ﴿ وَاتَّقُوا النَّارَ..(١٣١) ﴾ [آل عمران]

كيف نأخذ سلوكاً واحداً تجاه الحق سبحانه وتعالى وتجاه النار التى سيعذب فيها الكافرون ؟

والمعنى : لا تفعلوا ما يغضب الله حتى لا تُعذَّبوا فى النار ، فكأنك قد جعلت بينك وبين النار وقاية بأن تركت المعاصى ، وإن فعلتَ المأمورات ، ورضيتَ بالمقدورات ، وابتعدت عن المحذورات ، فقد اتقيت الله .

ولكنهم لم يستجيبوا له ، بدليل أنهم تَمادَوْا فى غِيِّهم وقالوا ما أورده الحق سبحانه :

﴿ قَالُوٓاْ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ (٧٠) ﴾

أى : أَلَمْ نُحذِّرك من قَبْل من ضيافة الشبان الذين يتميَّزون بالحُسْن ، ولأنك قُمْتَ باستضافة هؤلاء الشباب ؛ فلا بُد لنا من أنْ نفعلَ معهم ما نحب من الفاحشة ، وكانوا يتعرَّضون لكل غريب بالسوء .

وحاول لوط أن ينهاهم قَدْر استطاعته ؛ ولكنهم رفضوا أنْ يُجِير ضيوفه من عدوانهم الفاحش ، وطلبوا منه أن يتركهم وشأنهم ، ليفسدوا فى الكون كما يشاءون ، فلا تتكلم ولا تعترض على شىء مما نفعل ، وهذه لغة أهل الضلال والفساد .

وحاول لوط عليه السلام أنْ يُثنيهم عن ذلك بأن قال لهم ، ما جاء به الحق سبحانه :

﴿ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ ﴾

أى : أنكم إنْ كُنتم مُصرِّين على ارتكاب الفاحشة ؛ فلماذا لا تتزوجون من بناتى ؟ ولقد حاول البعضُ أن يقولوا : إنه عرض بناته عليهم ليرتكبوا معهنَّ الفاحشة ؛ وحاشا لله أن يصدر مثل هذا الفعل عن رسول ، بل هو قد عرض عليهم أن يتزوجوا النساء .

ثم إن لوطاً كانت له ابنتان اثنتان ، وهو قد قال :

﴿ هَـٰؤُلاءِ بَنَاتِى .. (٧١) ﴾ [الحجر]

أى : أنه تحدث عن جمع كثير ؛ ذلك أن ابنتيه لا تصلحان إلا للزواج من اثنين من هذا الجمع الكثيف من رجال تلك المدينة ، ونعلم أن بنات كل القوم الذين يوجد فيهم رسول يُعتبرْنَ من بناته[1] .

ولذلك يقول الحق سبحانه ما يُوضّح ذلك فى آية أخرى :

﴿ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (١٦٥) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ (١٦٦) ﴾ [الشعراء]

أى : أن لوطاً أراد أنْ يردَّ هؤلاء الشواذ إلى دائرة الصواب ، والفعل الطيب . وذيَّل كلامه :

---

(١) أخرج أبو الشيخ عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله : ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ هَـٰؤُلاءِ بَنَاتِى .. (٧٨) ﴾ [هود] قال : ما عرض لوط عليه السلام بناته على قومه لا سفاحاً ولا نكاحاً إنما قال : هؤلاء بناتى نساؤكم ، لأن النبى إذا كان بين ظهرى قوم فهو أبوهم . [أورده السيوطى فى الدر المنثور ٤/٤٥٧] .

﴿إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ (٧١)﴾ [الحجر]

ليوحى لهم بالشكِّ فى أنهم سيُهينون ضيوفه بهذا الأسلوب المَمْجوج والمرفوض .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٢)﴾ (١)

والخطاب هنا لرسول الله ﷺ . و « عَمْرُك » معناها السنُّ المُحدّد للإنسان لاستقامة الحياة ، ومرة تنطق « عُمْرك » ومرة تنطق « عَمْرك » ، ولكنهم فى القَسَم يختارون كلمة « عَمْرك » ، وهذا يماثل قولنا فى الحياة اليومية « وحياتك » .

ومن هذا القول الكريم الذى يُحدِّث به الحق سبحانه رسوله استدلَّ أهل الإشراق والمعرفة أن الحق سبحانه قد كرَّم سيدنا رسول الله ﷺ ؛ بأنه حين ناداه لم يُنَاده باسمه العلنىّ « يا محمد » أو « يا أحمد » كما نادى كل رُسُله ، ولكنه لم يُنَادِ الرسول ﷺ إلا بقوله :

﴿يَـٰأَيُّهَا الرَّسُولُ ..(٦٧)﴾ [المائدة]

أو : ﴿يَـٰأَيُّهَا النَّبِيُّ ..(١٢)﴾ [الممتحنة]

وفى هذا تكريمٌ عظيم ، وهنا فى هذه الآية نجد تكريماً آخر ، فسبحانه يُقسِم بحياة رسوله ﷺ . ونعلم أن الحق سبحانه يُقسِم

---

(١) السكرة : الغشية . أى كانوا فى غشية شهواتهم على عقولهم وغفلتهم واغترارهم بالدنيا اغتراراً يُضلهم فيعمون عن الحق . [القاموس القويم ١/٣٢٠] والعمه : التحيُّر والتردد ، أى : يتردد متحيراً لا يهتدى لطريقه ومذهبه . [لسان العرب ـ مادة : عمه] .

بما شاء على ما شاء ، أقسم بالشمس وبمواقع النجوم وبالنجم إذا هَوَى .

فهو الخالق العليم بكل ما خلق ؛ ولا يعرف عظمة المخلوق إلا خالقه ، وهو العالم بمُهمة كل كائن خلقه ، لكنه أمرنا ألاَّ نُقسِم إلاَّ به ؛ لأننا نجهل حقائق الأشياء مُكْتملةً .

وقد أقسم سبحانه بكل شىء فى الوجود ، إلا أنه لم يُقسِم أبداً بأىٍّ إنسان إلا بمحمد ﷺ ؛ فقال هنا :

﴿لَعَمْرُكَ (٧٢)﴾ [الحجر]

بحياتك يا محمد إنهم فى سَكْرة يعمهون .

والسَّكْرة هى التخديرة العقلية التى تحدث لمن يختلّ إدراكهم بفعل عقيدة فاسدة ، أو عادة شاذة ، أو بتناول مادة تثير الاضطراب فى الوعى .

و ﴿يَعْمَهُونَ (٧٢)﴾ [الحجر]

أى : يضطربون باختيارهم .

ويأتى العقاب ؛ فيقول الحق سبحانه :

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ[1] مُشْرِقِينَ (٧٣)﴾

وسبق أنْ أخبرنا سبحانه أنه سيقطع دابرهم وهم مصبحون ،

---

(١) الصيحة : العذاب ، وأصله من الصياح ، والصيحة : الغارة إذا فوجىء الحىّ بها . [لسان العرب ـ مادة : صيح] . قال فى القاموس القويم (١/٣٨٦) : « الصيحة : العذاب الذى يصحبه صوت شديد » .

وهنا يخبرنا أن الصيحةَ أخذتهم وهم مُشْرقون ، ونحن نرى هذه الأيام بعضاً من الألعاب كلعبة « الكاراتيه » تصدر صيحة من اللاعب فى مواجهة خَصْمه ليُزيد من رُعْبه .

كما نرى فى تدريبات الصاعقة العسكرية ؛ نوعاً من الصرخات ، هدفها أنْ يُدخِل المقاتل الرُّعْب فى قلب عدوه .

وكل ما يتطلب إرهاب الخَصْم يبدأ بصيحة تُفقِده توازنه الفكرى ؛ ولذلك قال الحق سبحانه فى موقع آخر :

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ[1] الْمُحْتَظِرِ (٣١) ﴾ [القمر]

ومرّة يُسمّيها الحق سبحانه بالطاغية ؛ فيقول :

﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ[2] (٥) ﴾ [الحاقة]

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ[3] (٧٤) ﴾

---

(١) الهشيم المحتظر : أى كالحطب والخشب المحطّم فى يد المحتظر صانع الحظيرة أو حامل الحطب فيها . [القاموس القويم ٢/٣٠٣] .

(٢) الطاغية : طغيانهم . أى : أُهلكوا بطغيانهم . [لسان العرب ـ مادة : طغا] . قال قتادة : هى الصيحة التى أسكتتهم والزلزلة التى أسكنتهم . وقال السدى : فأهلكوا بالطاغية يعنى عاقر الناقة . [تفسير ابن كثير ٤/٤١٢] .

(٣) السجيل : الطين المتحجر . قال ابن كثير فى تفسيره (٢/٤٥٤) : « هى بالفارسية حجارة من طين . قاله ابن عباس وغيره . وقال بعضهم : أى : من سنك وهو الحجر وكل وهو الطين » .

وما دام عاليـها قد صار أسـفلها ، فهذا لَوْنٌ من الانتـقام المُنظّم المُوجّه ؛ ولو لم يكن انتقاماً مُنظّماً ؛ لانقلب بعضُ ما فى تلك المدينة على الجانب الأيمن أو الأيسر .

ولكن شاء الحق سـبحانه أن يأتـى لنا بصورة ما حـدث ، لِيدلّنا على قدرته على أنْ يفعلَ ما شاء كمـا يشاء . وأمطرهم الحق سبحانه بحجارة من سـجيل ؛ كتلك التى أمطر بها مَنْ هاجموا الكـعبة فى عام ميلاد رسول الله ﷺ .

وهى حجـارة صُنعَتْ من طين لا يعلم كُنْهَـه إلا الحق سبـحانه ، والطين إذا تحجَّر سُمّى « سجيلاً » .

والحق سـبـحـانه هو القـائل عـن نفس هذا المـوقف فى سـورة الذاريات :

﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ (٣٣)﴾ [الذاريات]

وقد أرسل الحق سبحانه تلك الحجارة عـليهم لِيُبيدهم ، فلا يُبقِى منهم أحداً .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ (٧٥)﴾

وهكذا كـان العـذاب الذى أنزله الحق سـبـحـانـه بقـوم لوط آية واضحـة للمُتـوسِّمـين . والمُتـوسّم هو الذى يُدرك حقـائق المَسْـتور بمكْشُوف الـمظهور . ويُقال « توسَّـمْتُ فى فلان كـذا » أى : أخذ من الظاهر حقيقة الباطن .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ .. (٢٩) ﴾ [الفتح]

أى : ساعةَ تراهم ترى أن الملامح تُوَضِّح ما فى الأعماق من إيمان .

ويقول سبحانه أيضاً :

﴿ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا[1] .. (٢٧٣) ﴾ [البقرة]

وهكذا نعرف أن المُتوسِّم[2] هو صاحب الفَراسة التى تكشف مكنون الأعماق . وها هو ﷺ يقول : « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله »[3] .

وتحمل الذاكرة العربية حكاية الأعرابى الذى فقد جمله ، فذهب إلى قَيِّم الناحية ـ أى : عمدة المكان ـ وقال له : « ضاع جملى ، وأخشى أن يكون قد سرقه أحد » . وبينما هو يُحدِّث القيِّم جاء واحد ، وقال له : أجملك أعور ؟ أجاب صاحب الجمل : نعم ، وقال له : أجملك أبتَر ؟ أى : لا ذَيْل له ، أجاب صاحب الجمل : نعم .

---

(١) ألحف السائل فى سؤاله : ألحَّ وأكثر الإلحاح . أى : لا يلحون فى طلب الصدقات . [القاموس القويم ٢/١٩٠] .

(٢) قال ثعلب : « الواسم الناظر إليك من فرقك إلى قدمك . وأصل التوسم : التثبت والتفكر ، وذلك يكون بجودة القريحة وحدة الخاطر وصفاء الفكر . زاد غيره : وتفريغ القلب من حشو الدنيا ، وتطهيره من أدناس المعاصى ، وكدورة الأخلاق ، وفضول الدنيا » نقله القرطبى فى تفسيره (٥/٣٧٦٦) .

(٣) أخرجه الترمذى فى سننه (٣١٢٧) وقال : حديث غريب ، وفيه مصعب بن سلام . قال المناوى فى « فيض القدير » (١/١٤٢) : « أورده الذهبى فى الضعفاء . وقال ابن حبان : كثير الغلط فلا يحتج به » . والحديث عن أبى سعيد الخدرى .

فسأل الرجل سؤالاً ثالثاً : أجملك أشول ؟ أى : يعرج قليلاً عندما يسير ؛ فأجاب الرجل : نعم ، والله هو جَمَلِى .

وأراد قيِّم الحى أن يعلم كيف عرف الرجل الذى حضر كل هذه العلامات التى فى الجمل ، فسأله : وما أدراك بكل تلك العلامات ؟

قال الرجل : لقد رأيتُه فى الطريق ، وعرفتُ أنه أعورُ ، ذلك أنه كان يأكل العُشْب الجاف من جهة ، ولا يلتفت إلى العُشْب الأخضر فى الجهة الأخرى ، ولو كان يرى بعينيه الاثنتين لرأى العُشْب الأخضر .

وعرفت أنه أبتر مقطوع الذَّيْل نتيجة أن بَعْره لم يتبعثر مثل غيره من الجمال التى لها ذَيْل غير مقطوع .

وعرفت أنه أشول ؛ لأن أثر ساقه اليمنى أكثر عُمْقاً فى الأرض من أثر ساقه اليسرى . وهكذا شرحت الذاكرة العربية معنى كلمة « المتوسم » .

ثم يُبيِّن الحق سبحانه مكان مدينة قوم لوط ، فيقول من بعد ذلك :

﴿ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ (٧٦) ﴾

أى : أنها على طريق ثابت تمرُّون عليه إنْ ذهبتُم ناحية هذا المكان ، وفى آية أخرى يقول سبحانه :

﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧) ﴾ [الصافات]

فهذه المدينة إذنْ فى طريق ثابت ؛ لن تُضيّعه عوامل التَّعْرية أو الأغيار ، ولن تُضيِّعه تلك العوامل إلا إذا شاء الحق سبحانه له أن

يكون مُحْكَمَ التكوين ومُحكمَ التثبيت . وهو ما يُسمَّى « سدوم » .

ومن بعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾

وقد قال من قبل :

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [الحجر]

فكأن من مسئوليات المؤمن أنْ يتفحَّص فى أدبار الأشياء ، وأنْ يتعرّف على الأشياء بسيماها ، وأن يمتلكَ فراسة الإيمان التى قال عنها ﷺ : « اتقوا فراسةَ المؤمن ، فإنه ينظر بنور الله » .

وهكذا يُنهِى الحق سبحانه هنا قصة قوم لوط ؛ وما وقع عليهم من عذاب يجب أنْ يتعظَ به المؤمنون ؛ فقد نالوا جزاءَ ما فعلوا من فاحشة .

وينقلنا الحق سبحانه من بعد ذلك نَقْلة أخرى ؛ إلى أهل مَدْين ، وهم قوم شُعَيب . وهم أصحاب الأيكة ، يقول سبحانه :

﴿ وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾

و «الأَيْك » هو الشجر المُلْتف الكثير الأغصان . ونعلم أن شعيباً ـ عليه السلام ـ قد بُعث لأهل مدين وأصحاب الأيكة ، وهى مكان قريب من مدين ، وكان أهل مدين[1] قد ظلموا أنفسهم بالشرك .

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٢/٢٣١) : « مدين تطلق على القبيلة وعلى المدينة وهى التى بقرب معان من طريق الحجاز » وقال أيضاً (٢/٤٥٥) : « هم قبيلة من العرب كانوا يسكنون بين الحجاز والشام قريباً من معان » .

وقد قال الحق سبحانه :

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا .. (٨٥) ﴾ [الأعراف]

وقال عن أصحاب الأيكة :

﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ (١٧٦) إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٧٧) ﴾ [الشعراء]

وهكذا نعلم أن شعيباً قد بُعث لأُمتين مُتجاورتين[1] .

ويقول سبحانه عن هاتين الأُمتين :

﴿ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ (٧٩) ﴾

ويُقال : إن ما كان يفصل بين مدين وأصحاب الأيكة هو هذا الشجر المُلْتف الكثيف القريب من البحر . ولذلك نجد هنا الدليل على أن شعيباً عليه السلام قد بُعث إلى أُمتين هو قوله الحق :

﴿ وَإِنَّهُمَا .. (٧٩) ﴾ [الحجر]

وقد انتقم الله من الأُمتين الظالمتين ؛ مَدْين وأصحاب الأيكة .

ويقول الحق سبحانه :

---

(١) مضمون كلام الشيخ ـ رحمه الله ـ أن مدين وأصحاب الأيكة هما أمتان مختلفتان بُعث إليهما شعيب عليه السلام ، ويدل لهذا حديث مرفوع إلى رسول الله ﷺ أورده السيوطى فى الدر المنثور (٥/٩١) من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص قال قال رسول الله ﷺ : « إن مدين وأصحاب الأيكة أمتان ، بعث الله إليهما شعيباً » وعزاه لابن مردويه وابن عساكر . ولذلك فقد أرجع الشيخ الضمير فى قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ (٧٩) ﴾ [الحجر] إلى هاتين الأمتين ، أما القرطبى وابن كثير فقد عادا بالضمير إلى قوم لوط ، وقوم مدين على اعتبار أن أهل مدين هم أنفسهم أصحاب الأيكة . راجع القرطبى (٥/٣٧٦٨) وابن كثير (٢/٥٥٦) .

﴿ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ (٧٩) ﴾ [الحجر]

والإمام هو ما يُؤتَم به فى الرأى والفتيا ؛ أو فى الحركات والسَّكنات ؛ أو : فى الطريق المُوصِّل إلى الغايات ، ويُسمّى « إمام » لأنه يدلُّ على الأماكن أو الغايات التى نريد أن نصل إليها ، ذلك أنه يعلم كل جزئية من هذا الطريق .

وفيما يبدو أن أصحاب الأَيْكة قد تَمادَوْا فى الظُّلْم والكفر[1] ، وإذا كان سبحانه قد أخذ أهل مَدْين بالصيحة والرجفة ؛ فقد أخذ أصحاب الأيكة بأن سلط عليهم الحَرَّ سبعة أيام لا يُظِلهم منه ظِلٌّ ؛ ثم أرسل سحابة وتمنَّوْا أن تُمطر ، وأمطرتْ ناراً فأكلتهم ، كما قالت كتب الأثر[2] .

وهذا هو العذاب الذى قال فيه الحق سبحانه :

﴿ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٨٩) ﴾ [الشعراء]

وهكذا تكون تلك العِبَر بمثابة الإمام الذى يقود إلى التبصُّر بعواقب الظلم والشرك .

وينقلنا الحق سبحانه إلى خبر قوم آخرين ، فيقول تعالى :

﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ (٨٠) ﴾

وأصحاب الحِجْر هم قوم صالح ، وكانت المنطقة التى يقيمون فيها

---

(١) كان ظلم قوم شعيب بشركهم بالله وقطعهم الطريق ونقصهم المكيال والميزان . [تفسير ابن كثير ٢/٥٥٦] .

(٢) أورده السيوطى فى الدر المنثور (٥/٩٢) من قول قتادة ، وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم .

كلها من الحجارة ؛ ولا يزال مُقَامهم معروفاً فى المسافة بين خيبر وتبوك . وقال فيهم الحق سبحانه :

﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ(١) آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ(٢) لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩) ﴾ [الشعراء]

وهم قد كذّبوا نبيهم « صالح » وكان تكذيبهم له يتضمن تكذيب كل الرسل ؛ ذلك أن الرسل يتواردون على وحدانية الله ، ويتفقون فى الأحكام العامة الشاملة ، ولا يختلف الأنبياء إلا فى الجزئيات المناسبة لكل بيئة من البيئات التى يعيشون فيها .

فبيئة ؛ تعبد الأصنام ، فيُثبِت لهم نبيُّهم أن الأصنام لا تستحق أن تُعبد .

وبيئة أخرى : تُطفِّف الكيْل والميزان ؛ فيأتى رسولهم بما ينهاهم عن ذلك .

وبيئة ثالثة : ترتكب الفواحش فيُحذّرهم نبيهم من تلك الفواحش .

وهكذا اختلف الرسل فى الجزئيات المناسبة لكل بيئة ؛ لكنهم لم يختلفوا فى المنهج الكُلىّ الخاص بالتوحيد والمنهج ، وقد قال الحق سبحانه عن قوم صالح أنهم كذَّبوا المُرْسلين ؛ بمعنى أنهم كذّبوا صالحاً فيما جاء به من دعوة التوحيد التى جاء بها كل الرسل .

---

(١) الريع : الجبل أو ما يشبهه من المبانى المرتفعة أو المكان المرتفع . [القاموس القويم ١/ ٢٨٢] .

(٢) المصانع : أبنية عالية وقصور متينة تحسنون صنعها راجين أن تخلدوا فيها ولستم بخالدين . [القاموس القويم ١/ ٣٨٤] .

ويقول الحق سبحانه عنهم من بعد ذلك :

﴿ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ ﴾

وهنا يُوجِز الحق ـ سبحانه وتعالى ـ ما أرسل به نبيهم صالح من آيات تدعوهم إلى التوحيد بالله ، وصدْق بلاغ صالح عليه السلام الذى تمثّل فى الناقة ، التى حذَّرهم صالحَ أنْ يقربوها بسوء كَيْلا يأخذهم العذاب الأليم[1] .

لكنهم كذَّبوا وأعرضوا عنه ، ولم يلتفتوا إلى الآيات التى خلقها الحق سبحانه فى الكون من ليل ونهار ، وشمس وقمر ، واختلاف الألْسُنِ والألوان بين البشر .

ونعلم أن الآيات تأتى دائماً بمعنى المُعْجزات الدَّالة على صدْق الرسول ، أو : آيات الكون ، أو : آيات المنهج المُبلّغ عن الله ، تكونَ آية الرسول من هؤلاء من نوع ما نبَغ فيه القوم المُرْسَل إليهم ؛ لكنهم لا يستطيعون أن يأتوا بمثلها .

وعادةً ما تثير هذه الآية خاصيّة التحدّى الموجودة فى الإنسان ، ولكن أحداً من قوم الرسل ـ أىّ رسول ـ لا يُفلِح فى أن يأتى بمثل آية الرسول المرسل إليهم .

ويقول الحق سبحانه عن قوم صالح :

﴿ وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٨١) ﴾ [الحجر]

---

(١) قال تعالى : ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣)﴾ [الأعراف] .

أى : تكبَّروا وأعرضوا عن المنهج الذى جاءهم به صَالِح ، والإعراض هو أنْ تُعطِى الشىء عَرْضك بأن تبتعدَ عنه ولا تُقبِل عليه ، ولو أنك أقبلتَ عليه لوجدتَ فيه الخير لك .

وأنت حين تُقبِل على آيات الله ستجد أنها تدعوك للتفكُّر ، فتؤمن أن لها خالقاً فتلتزم بتعاليم المنهج الذى جاء به الرسول .

وأنت حين تُفكِّر فى الحكمة من الطاعة ستجد أنها تُريحك من قلق الاعتماد على أحد غير خالقك ، لكن لو أخذتَ المسائل بسطحية ؛ فلن تنتهى إلى الإيمان .

ولذلك نجده سبحانه يقول فى موقع آخر من القرآن الكريم :

﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥) ﴾ [يوسف]

وفى هذا تكليفٌ للمؤمن - كُل مؤمن - أن يُمعِنَ النظر فى آيات الكون لعلَّه يستنبط منها ما يفيد غيره .

وأنت لو نظرتَ إلى كل المُخْترعات التى فى الكون لوجدتَّها نتيجةً للإقبال عليها من قِبَل عالم أراد أنْ يكتشفَ فيها ما يُريح غيره به .

والمثل فى اكتشاف قُوّة البخار التى بدأ بها عَصْر من الطاقة واختراع المُعدات التى تعمل بتلك الطاقة ، وحرّك بها القطار والسفينة ؛ مثلما سبقها إنسان آخر واخترع العجلة لِيُسهّل على البشر حَمْل الأثقال .

وإذا كان هذا فى أمر الكَوْنيّات ؛ فأنت أيضاً إذا تأملتَ آيات

الأحكام فى « افعل » و « لا تفعل » ستجدها تفيدُك فى حياتك ، ومستقبلك ، والمثَل على ذلك هو الزكاة ؛ فأنت تدفع جزءً يسيراً من عائد عملك لغيرك مِمَّنْ لا يَقْوَى على العمل ، وستجد أن غيرك يعطيك إنْ حدث لك احتياج ؛ ذلك أنك من الأغيار .

ويتابع الحق سبحانه قوله عن قوم صالح :

﴿ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾

وهنا يمتنُّ عليهم بأن منحهم حضارةً ، ووهبهم مهارة البناء والتقدُّم فى العمارة ؛ وأخذوا فى بناء بيوتهم فى الأحجار ، ومن الأحجار التى كانت توجد بالوادى الذى يقيمون فيه ، وقطعوا تلك الأحجار بطريقة تُتيح لهم بناء البيوت والقُصور الآمنة من أغيار التقلُّبات الجوية وغيرها .

ونعلم أن مَنْ يعيش فى خَيْمة يعانى من قلَّة الأمن ؛ أما مَنْ يبنى بيته من الطوب اللَّبن ؛ فهو أكثر أَمْناً مِمَّنْ فى الخيمة ، وإنْ كان أقلّ أماناً من الذى يبنى بيته من الأسمنت المُسلَّح ، وهكذا يكون أَمْن النفس البشرية فى سكنها واستقرارها من قوة الشىء الذى يحيطه .

وإذا كان قوم صالح قد أقاموا بيوتهم من الحجارة فهى بالتأكيد أكثر أَمْناً من غيرهم ، ونجد نبيهم صالحاً ، وقد قال لهم ما أورده الحق سبحانه فى كتابه الكريم :

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ[١] فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتاً فَاذْكُرُوا آلاءَ[٢] اللَّهِ وَلا تَعْثَوْا[٣] فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٧٤)﴾ [الأعراف]

ولكنهم طَغَوْا وبَغَوْا وأنكروا ما جاء به صالح ـ عليه السلام ـ فما كان من الحق سبحانه إلا أنْ أرسلَ عليهم صيحةً تأخذهم .

وقال الحق سبحانه :

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ (٨٣)﴾

وهم إذا كانوا قد اتخذوا من جبليّة الموقع أمْناً لهم ؛ فقد جاءت الصيحة من الحق سبحانه لتدكَّ فوق رؤوسهم ما صنعوا ، وقد قال الحق سبحانه عنهم من قبل فى سورة هود :

﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٦٧)﴾ [هود]

وقال سبحانه عنهم أيضاً :

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ[٤] (٧٨)﴾ [الأعراف]

والرَّجْفة هى الزلزلة ، والصَّيْحة هى بعض من توابع الزلزلة ،

---

(١) بوأه فى الأرض : مكَّن له فيها . وأباءه منزلاً وبوَّأه إياه : هيأه له وأنزله ومكّن له فيه . [لسان العرب ـ مادة : بوأ] .

(٢) الآلاء : النعم . مفردها : إلىّ ، أو ألى بكسر الهمزة وبفتحها . [القاموس القويم ١/٢٧] .

(٣) عثا عُثواً : أفسد أشد الإفساد . [لسان العرب ـ مادة : عثا] .

(٤) جثم : لزم مكانه لاصقاً بالأرض ، قال تعالى : ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٦٧)﴾ [هود] .

ذلك أن الزلزلة تُحدث تموجاً فى الهواء يؤدى إلى حدوث أصوات قوية تعصف بمَنْ يسمعها .

وهم حسب قَوْل الحق سبحانه قد تمتَّعوا ثلاثة أيام قبل أنْ تأخذهم الصَّيْحة كَوَعْد نبيهم صالح ـ عليه السلام ـ لهم :

﴿فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ (٦٥)﴾ [هود]

ويقول الحق سبحانه عن حالهم بعد أنْ أخذتهم الصَّيْحة :

﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ (٨٤)﴾

وهكذا لم تنفعهم الحصون فى حمايتهم من قَدَر الله ، ونعلم أن قدر الله أو عقابه لا يمكن أنْ يمنعه مانعٌ مهما كان ؛ فهو القائل :

﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ[1] .. (٧٨)﴾ [النساء]

وهكذا لا يمكن أن يحمىَ الإنسانُ نفسَه مما قَدَّره الله له ، أو ممّا يشاء الحق أن يُنزِله على الإنسان كعقاب .

وسبحانه القائل :

﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ .. (١٥٤)﴾ [آل عمران]

وهكذا خَرُّوا جميعاً فى قاع الهلاك ، ولم تَحْمِهم حصونهم من العذاب الذى قدَّره سبحانه .

---

(١) شيد البناء : رفعه وأحكمه وطلاه . [القاموس القويم ١/٣٦٣] .

وبعد ذلك ينقلنا الحق سبحانه إلى الآيات الكونية ؛ فيقول :

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ ﴾

والحقُّ هو الشىء الثابت الذى لا تَعْتوره الأغيار ، والمثَل هو نظام المجرَّات وحركة الشمس والقمر ؛ تجدها مُنْضبطة ؛ ذلك أن الإنسان لا يتدخَّل فيها ، وليس للإنسان ـ صاحب الأغيار ـ معه أىُّ اختيار .

ولذلك نجد أن الفسادَ لا ينشأ فى الكون من النواميس العُلْيا ، ولكن من الأمور التى يتدخَّل فيها الإنسان ، وليس معنى ذلك أنْ يتوقفَ الإنسانُ عن الحركة فى الأرض ؛ ولكن عليه أنْ يرعى منهج الله ، ويمتنع عَمَّا نهى عنه وأنْ يطيعَ ما أمره به .

وأنت لو طبَّقْتَ أوامر الحق سبحانه فى « افعل » و « لا تفعل » لاستقامتْ الدنيا فى الأمور التى لكَ دَخْل فيها كانتظام الأمور التى ليس لك دَخْل فيها .

واقرأ إنْ شئْتَ قَوْله الحق :

﴿ الرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الإِنسَانَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ[1] الْبَيَانَ ﴿٤﴾

---

(١) البيان : النطق . قاله الحسن . وقال الضحاك وقتادة وغيرهما : يعنى الخير والشر ، قال ابن كثير فى تفسيره (٤/ ٢٧٠) : « قول الحسن ههنا أحسن وأقوى ، لأن السياق فى تعليمه تعالى القرآن وهو أداء تلاوته ، وإنما يكون ذلك بتيسير النطق على الخلق وتسهيل خروج الحروف من مواضعها من الحلق واللسان والشفتين على اختلاف مخارجها وأنواعها » .

الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥) وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (٦) وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧) أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (٨)﴾ [الرحمن]

فإن كنتم تريدون أن تنتظمَ أموركم فى الحياة الدنيا ؛ فلا تطغَوْا فى ميزان أىٍّ شىء .

وهنا يُذكِّرنا الحق سبحانه ألاّ نقعَ فى خطأ الوهم بأننا سنأخذ نعَم الدنيا دون ضابط أو رابط ؛ فالحساب قادم لا محالةَ ، ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ (٤١) أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ (٤٢)﴾ [الزخرف]

أى : مَا قدّره الله سيقع دون أنْ يَصُدّه شىء مهما كان ، وإمَّا ترى ذلك فى حياتك ، أو تراه لحظة البَعْث .

والدليل هو ما حاق بمَنْ كفروا وظلموا وكذَّبوا الرسل ، وعاثوا فى الأرض مُفْسدين . وأهلكهم الحق سبحانه بعذابه تطهيراً للأرض منْ فسادهم ، هذا جزاؤهم فى الدنيا ، وهناك جزاء آخر فى اليوم الآخر .

وفى هذا القول تَسْلية لرسول الله ﷺ ، فهو حين يُعْلمه الله ما حاقَ بالأمم السابقة التى كذَّبت الرسل ؛ هانتْ عليه المتاعب والمشاقّ التى عاناها من قومه ، وليسهُلَ عليه من بعد ذلك أن يتذرَّع[1] بالصبر الجميل ، حتى يأتى وَعْدُه سبحانه ، وليس عليك يا محمد أنْ تُحمّل نفسك ما لاَ تطيق .

---

(١) الذريعة : الوسيلة والسبب إلى الشىء . وقد تذرع فلان بذريعة أى : توسل . [لسان العرب ـ مادة : ذرع] .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ ﴾

وقد جاء سبحانه هنا بالاسم الذى خلق به من عَدَم ، وأمدَّ من عُدْم . وقيُّومية الربوبية هى التى تمدُّ كل الكون برزقه وترعاه ؛ فسبحانه هو الذى استدعى الإنسان إلى الكون ، وهو الذى يرعاه .

وكلمة : ﴿ رَبَّكَ ﴿٨٦﴾ ﴾ [الحجر]

تُوحِى بأنه إنْ أصابك شىءٌ بسبب دعوتك ، وبسبب كنود[1] قومك أمامك وعدائهم لك ، فربُّكَ يا محمد لن يتركهم .

والربُّ ـ كما نعلم ـ هو مَنْ يتولَّى تربية الشىء إلى ما يعطيه مناط الكمال ، ولا يقتصر ذلك على الدنيا فقط ، ولكنه ينطبق على الدنيا والآخرة .

وقوله : ﴿ الْخَلَّاقُ ﴿٨٦﴾ ﴾ [الحجر]

مبالغة فى الخَلْق ، وهى امتداد صفة الخَلْق فى كل ما يمكن أنْ يخلق ، لأنه سبحانه هو الذى أعدَّ كل مادة يكون منها أىّ خَلْق ، وأعدّ العقل الذى يُفكِّر فى أىِّ خلق ، وأعدَّ الطاقة التى تفعل ، وأعدَّ التفاعل بين الطاقة والمادة والعقل المُخطِّط لذلك .

وما يفعله الإنسان المخلوق هو التوليف بين ما خلقه الله من

---

(١) الكنود : الجحود . كند النعمة : جحدها ولم يشكرها . قال تعالى : ﴿ إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ ﴾ [العاديات] أى : كفور شديد الجحود . [القاموس القويم ٢/١٧٥] .

مواد ، وإنْ وُجِد خلاق من البشر ؛ فهو وحده سبحانه الذى يهب إنساناً ما أفكاراً لينفذها ، ثم يأتى مَنْ هو أذكى منه ليُطوّرها .

ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ (٧٦)﴾ [يوسف]

وهكذا رأينا كل المخترعات البشرية تتطوّر ؛ والمثَل على ذلك هو آلة الحياكة التى صارت تعمل الآن آلياً بعد أن كانت المرأة تجلس عليها لتكدَّ فى ضَبْطها ، وكذلك غسّالة الملابس ، وغسالة الأطباق والسيارات والطائرات .

ونلحظ أن كل ما خلقه الله يمكن أن يُستفاد من عادمه مثل رَوَث البهائم ؛ الذى يُستخدم كسماد ، أما عادم السيارات مثلاً فهو يُلوّث الجو . وشاشة التلفزيون تُصدِر من الإشعاعات مَا يضر العين ، وتَمَّ بحْثُ ذلك لتلافى الآثار الجانبية فى مثل تلك الأدوات التى يسهل الإنسان بها حياته .

أما ما يخلقه الله فلا توجد له آثار جانبية ؛ فسبحانه ليس صاحب عِلْم مُكْتسب أو ممنوح ؛ بل العلم صفة ذاتية فيه .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى[1] وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ (٨٧)﴾

---

(١) المثانى من القرآن : ما ثُنِّى مرة بعد مرة . قال أبو عبيد : سُمى القرآن مثانى لأن الأنباء والقصص ثنيت فيه ، ويسمى جميع القرآن مثانى أيضاً لاقتران آية الرحمة بآية العذاب . [لسان العرب ـ مادة : ثنى] .

وهنا يمتنُّ الحق سبحانه على رسوله ﷺ بأنه يكفيه أنْ أنزلَ عليه القرآن الكتاب المعجزة ، والمنهج الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خَلْفه . فالقرآن يضمُّ كمالات الحق التى لا تنتهى ؛ فإذا كان سبحانه قد أعطاك ذلك ، فهو أيضاً يتحمَّل عنك كُلَّ ما يُؤلِمك .

والحق سبحانه هو القائل :

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ[1] (٩٧) ﴾ [الحجر]

ويقول له الحق أيضاً :

﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِى يَقُولُونَ .. (٣٣) ﴾ [الأنعام]

وأزاح الحق سبحانه عنه هموم اتهامهم له بأنه ساحر أو مجنون ؛ وقال له سبحانه :

﴿ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَـٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٣٣) ﴾ [الأنعام]

ويكشف له سبحانه : إنهم يؤمنون أنك يا محمد صادق ، ولكنهم يتظاهرون بتكذيبك .

ويتمثَّل امتنانُ الحق سبحانه على رسوله أنه أنزل عليه السَّبْع المثانى ، واتفق العلماء على أن كلمة « المثانى » تعنى فاتحة الكتاب ، فلا يُثنَّى فى الصلاة إلا فاتحة الكتاب .

---

(١) أى : بما تسمعه من تكذيبك وردّ قولك ، وتناله ويناله أصحابك من أعدائك . [تفسير القرطبى ٥/٣٧٨٦] .

ونجده سبحانه يَصف القرآنَ بالعظيم ؛ وهو سبحانه يحكم بعظمة القرآن على ضَوْء مقاييسه المُطْلَقة ؛ وهى مقاييس العظمة عنده سبحانه .

والمثَل الآخر على ذلك وَصْفه سبحانه لرسوله ﷺ :

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤)﴾ [القلم]

وهذا حُكْم بالمقاييس العُلْيا للعظمة ، وهكذا يصبح كُلّ متاع الدنيا أقلَّ ممّا وهبه الحق سبحانه لرسوله ﷺ ، فلا ينظرَنَّ أحدٌ إلى ما أُعطِى غيره ؛ فقد وهبه سبحانه لرسوله ﷺ .

ونلحظ أن الحق سبحانه قد عطف القرآن على السَّبْع المثانى ، وهو عَطْف عام على خَاصٍّ ؛ كما قال الحق سبحانه :

﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطَىٰ[1] .. (٢٣٨)﴾ [البقرة]

ونفهم من هذا القول أن الصلاة تضمُّ الصلاة الوُسْطى أيضاً ، وكذلك مثل قول الحق ما جاء على لسان رسوله ﷺ :

﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ .. (٢٨)﴾ [نوح]

---

(١) اختلف العلماء فى تحديد الصلاة الوسطى على ثلاثة أقوال :
القول الأول : الصبح ، حكاه مالك فى الموطأ بلاغاً عن على وابن عباس .
القول الثانى : الظهر ، قاله زيد بن ثابت وابن عمر وعائشة .
القول الثالث : العصر ، قال الترمذى والبغوى : هو قول أكثر علماء الصحابة . [انظر تفسير ابن كثير ١/ ٢٩٠ ـ ٢٩٢] قال الشيخ سيد سابق فى فقه السنة (١/ ٧٧) : « قد جاءت الأحاديث الصحيحة مصرحة بأن صلاة العصر هى الصلاة الوسطى » . وقيل : إن كل صلاة من الصلوات الخمس تعتبر وسطى ، وذلك لدوام المحافظة على الصلوات الخمس ، وفى الكل خير .

وهكذا نرى عَطْف عام على خاص ، وعَطْف خاص على عام .

أو : أنْ نقولَ : إن كلمة « قرآن » تُطلَق على الكتاب الكريم المُنزَّل على رسول الله ﷺ من أول آية فى القرآن إلى آخر آية فيهُ ، ويُطلق أيضاً على الآية الواحدة من القرآن ؛ فقول الحق سبحانه :

﴿ مُدْهَامَّتَانِ[1] (٦٤) ﴾ [الرحمن]

هى آية من القرآن ؛ وتُسمَّى أيضاً قرآناً .

ونجده سبحانه يقول :

﴿ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا[2] (٧٨) ﴾ [الإسراء]

ونحن فى الفجر لا نقرأ كل القرآن ، بل بعضاً منه ، ولكن ما نقرؤه يُسمَّى قرآناً ، وكذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابًا[3] مَّسْتُورًا (٤٥) ﴾ [الإسراء]

وهو لا يقرأ كُلّ القرآن بل بعضه ، إذن : فكلُّ آية من القرآن قرآن .

---

(١) مدهامتان : سوداوان من شدة الخضرة وكثرة الظلال ، وهذا كناية عن النعيم التام . والدُّهْمة : السواد . [القاموس القويم ١/٢٣٥] .

(٢) أخرج أحمد فى مسنده (٢/٤٧٤) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ فى قوله : ﴿ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا (٧٨) ﴾ [الإسراء] قال : « تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار » .

(٣) الحجاب المستور : طبع الله على قلوبهم حتى لا يفقهوه ولا يدركوا ما فيه من الحكمة . وقيل : نزلت فى قوم كانوا يؤذون رسول الله ﷺ إذا قرأ القرآن ، وهم أبو جهل وأبو سفيان والنضر بن الحارث وأم جميل امرأة أبى لهب وحويطب ، فحجب الله سبحانه رسوله ﷺ عن أبصارهم عند قراءة القرآن . [تفسير القرطبى ٥/٣٩٩٨] .

وقد أعطى الحق سبحانه رسوله ﷺ السَّبْع المثانى والقرآن العظيم ، وتلك هى قِمَّة العطايا ؛ فلله عطاءاتٌ متعددة ؛ عطاءات تشمل الكافر والمؤمن ، وتشمل الطائع والعاصى ، وعطاءات خاصة بمَنْ آمن به ؛ وتلك عطاءات الألوهية لمَنْ سمع كلام ربِّه فى « افعل » و « لا تفعل » .

وسبحانه يمتد عطاؤه من الخَلْق إلى شَرْبة الماء ، إلى وجبة الطعام ، وإلى الملابس ، وإلى المَسْكن ، وكل عطاء له عُمْر ، ويسمو العطاء عند الإنسان بسُمو عمر العطاء ، فكل عطاء يمتدُّ عمره يكون هو العطاء السعيد .

فإذا كان عطاء الربوبية يتعلَّق بمُعْطيات المادة وقوام الحياة ؛ فإن عطاءات القرآن تشمل الدنيا والآخرة ؛ وإذا كان ما يُنغِّص أىَّ عطاء فى الدنيا أن الإنسانَ يُفارقه بالموت ، أو أن يذوى هذا العطاء فى ذاته ؛ فعطاء القرآن لا ينفد فى الدنيا والآخرة .

ونعلم أن الآخرة لا نهايةَ لها على عكس الدنيا التى لا يطول عمرك فيها بعمرها ، بل بالأجل المُحدَّد لك فيها .

وإذا كانت عطاءاتُ القرآن تحرس القيم التى تهبُك عطاءات الحياة التى لا تفنَى وهى الحياة الآخرة ؛ فهذا هو أسْمى عطاء ، وإياك أن تتطلعَ إلى نعمة موقوتة عند أحد منهم من نعَم الدنيا الفانية ؛ لأن مَنْ أُعطِى القرآن وظنَّ أن غيره قد أُعْطِى خيراً منه ؛ فقد حقر ما عَظَّم الله .

وما دام الحق سبحانه قد أعطاك هذا العطاء العظيم ، فيترتب عليه قوله :

﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ[1] جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾

والمَدُّ : هو مَطُّ الشيء وزيادته . وللعيْن مسافات تُرَى فيها المرائى ؛ كُل عَيْن حَسْب قدرتها ، فهناك مَنْ يتمتع ببصر قوى وحادّ ، وهناك مَنْ ليس كذلك .

ويتراوح الناس فى قدرة إبصارهم حسب توصيف وضعه الأطباء ؛ ليعالجوا ذلك على قَدْر استطاعتهم العلمية . وفى المثَل اليومى نسمع مَنْ يقول « فلان عنده بُعْد نظر » أى : يملك قدرة على أن يقيسَ رُدود الأفعال ، ويتوقّع ما سوف يحدث ، وما يترتَّب على نتائج أىِّ فعل .

والمراد بمَدِّ العين ليس إخراج حبة العين ومدّها ؛ ولكن المراد إدامة النظر والإمعان ، ولكن الحق سبحانه عبّر فى القرآن هذا التعبير ، وكأن الإنسان سيخرج حبَّة عينه ليجرى بها ، وليُمعِن النظر ، وهذا ما يفهم من منطوق الآية ، والمنطوق يشير إلى المفهوم المراد ، وهذا عين الإعجاز .

وكلمة « متاع » تفيد أن شيئاً يُتمتَّع به وينتهى ، ولذلك يُوصَف متاع الدنيا فى القرآن بأنه متَاعُ الغرور ، أى : أنه متاع موقوت بلحظة .

---

(١) خفضه : هبط به ، قال تعالى : ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الحجر] كناية عن الرحمة والتواضع لهم ولين الجانب معهم [القاموس القويم ١/١٩٩] .

وقول الحق سبحانه :

﴿أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ..(٨٨)﴾ [الحجر]

هى جَمْع زَوْج ، وسبق أنْ أوضحنا أن كلمة « زوج » هى مفرد ، والذكَر والأنثى حين يتلاقيان يصبح اسمهما زوجين ، والحق سبحانه هو القائل :

﴿سبْحَانَ الَّذِى خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا..(٣٦)﴾ [يس]

والأزواج كلُّها تعنى الفرد ، ومعه الفرد من كل صنف من الأصناف . والمراد بكلمة أزواج هنا أن المخالفين لرسول الله ﷺ كانوا شِلَلاً شِلالاً ؛ ضال ومضل ؛ وضال آخر معه مُضِل .

ولحظة الحساب سيقول كل منهم :

﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ[1] (٥١)﴾ [الصافات]

وهكذا كانت كلمة « أزواج » تدل على أصناف متعددة من الذين يقفون معاندين لرسول الله ﷺ ومُنكِرين لمنهجه .

وفى موقع آخر من القرآن يكشف سبحانه عَمَّنْ أغوتْهم الشياطين ، ويحشرهم الحق سبحانه مع الشياطين فى نار جهنم :

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم[2] مِّنَ الإِنسِ..(١٢٨)﴾ [الأنعام]

---

(١) قارن الشىءُ الشىءَ : اقترن به وصاحبه . والقرين : المصاحب . والقرين يكون فى الخير والشر . [لسان العرب ـ مادة : قرن] .

(٢) استكثرتم : أغويتم كثيرين منهم وسيطرتم عليهم . [القاموس القويم ٢/١٥٥] .

أى : يا معشرَ الجنِّ قد استطعتُم أنْ تُوحوا لكثير من الإنس بالغواية والمعصية ، ليكونوا أولياءكم ، وهكذا نجد أن كل جماعة تتفق على شىء نُسمِّيهم أزواجاً .

وهنا يُوضّح الحق سبحانه : إياك أنْ تَمُدَّ عينيك إلى ما متَّعنا به أزواجاً منهم ، لأننا أعطيناك أعلى عطاءٍ ، وهو معجزة القرآن حارس القيم ، والذى يضمُّ النَّهْج القويم .

ويتابع سبحانه :

﴿ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ .. (٨٨) ﴾ [الحجر]

ويُقال : حزنت منه ، وحَزِنت عليه ، وحَزِنت له ؛ فمَنْ ناله ما يُحزن ، ولم يَصْدُر عنك هذا السبب فى حزنه ؛ فأنت تقول له « حَزِنت لك » .

وآخر ارتكب فِعْلاً يُسىء إلى نفسه ؛ فأنت تحزن عليه . ورسول الله ﷺ حَزِن عليهم ؛ فقد كان يُحِبّ أنْ يؤمنوا ، وأنْ يتمتعوا بالنعمة التى يتمتع هو بها .

ولذلك نجد الحق سبحانه يقول عن رسوله ﷺ :

﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ[1] حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٢٨) ﴾ [التوبة]

فمنْ رأفته ﷺ صَعُبَ على نفسه أنْ ينَال قومه مشقةٌ ؛ فالرحمة

---

(١) العنت : دخول المشقة على الإنسان ولقاء الشدة . قال ابن الأثير : العنت : المشقة والفساد والهلاك والإثم والغلط والخطأ . [لسان العرب ـ مادة : عنت] .

والرأفة مصدرها ما وهبه الله إياه من فَهْم لقيمة نعمة الإيمان .

وفى آية أخرى يقول سبحانه لرسوله ﷺ :

﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ[١] نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَـٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا (٦) ﴾ [الكهف]

أى : أنه لن ينقصَ منك شىء فى حالة عدم إيمانهم ، ولن يزيدك إيمانهم أجراً ؛ ذلك أن عليك البلاغَ فقط ؛ فلماذا تحزن على عدم إيمانهم ؟

وقَوْل الحق سبحانه هنا :

﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ .. (٨٨) ﴾ [الحجر]

دليل على أن رسول الله ﷺ كان حريصاً على أنْ يُؤمن قومه ، محبةً فيهم ، وليتعرَّفوا على حلاوة الإيمان بالله . وكان ﷺ يتألم ، ويحز فى نفسه عدم إيمانهم ، لدرجة أن الحق سبحانه قال له فى آية أخرى :

﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣) إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً[٢] فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ (٤) ﴾ [الشعراء]

وهنا يُوضّح الحق سبحانه لرسوله ﷺ أن إيمانهم ليس أمراً

---

(١) بخع نفسه : قتلها غيظاً أو غماً . باخع : أى مهلك نفسك بحزنك عليهم . أى : لا تأسف عليهم بل أبلغهم رسالة الله فمن اهتدى فلنفسه ، ومن ضل فإنما يضل عليها . [تفسير ابن كثير ٣/٧٢] .

(٢) الآية : العلامة الواضحة والمعجزة لأنها علامة على صدق الرسول . [القاموس القويم ١/٤٧] .

صعباً عليه سبحانه ؛ ذلك أنه قادر أنْ ينزّل آية من السماء تجعلهم خاضعين ؛ مؤمنين ؛ لكنه سبحانه يحب أن يأتيه خَلْقُه محبةً ، وأنْ يُحسِنوا استخدام ما وهبهم من خاصية الاختيار .

فسبحانه لا يقهر أحداً على الإيمان به ؛ فالإيمان عَمَل قلوبٍ ، وسبحانه لا يريد قوالب ، وإنما يريد قلوباً خاشعة ، ولو شاء سبحانه من خَلْقه أنْ يأتوه طواعية ؛ فالقهر من القاهر يُثبِت له القدرة ، ولكن أنْ يأتىَ الخَلْق إلى خالقهم طواعية ؛ فهذا يُثبت له المحبوبية .

والحق سبحانه يريد أن يكون الإيمان نابعاً من محبوبية العابد للمعبود ؛ ولذلك يقول الحق سبحانه لرسوله ﷺ :

﴿ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ .. (٨٨) ﴾ [الحجر]

ثم يُوجِّه له الأمر بأنْ يُوجّه طاقة الحنان والمودّة التى فى قلبه إلى مَنْ يستحقها ، وهم المؤمنون برسالته ﷺ ؛ وعليه أنْ يخفضَ جناحه للمؤمنين .

فكُلُّ حركة من الإنسان هى نزوع يتحرّك من بعد وُجْدان ، والوُجْدان يُولِّد طاقة داخلية تُهيىء للنزوع وتدفع إليه ، فإن حزن الرسول ﷺ لعدم إيمان صناديد قريش برسالته ؛ فهذا الحُزْن إنما يخصم ويأخذ من طاقته ؛ فيأتيه الأمر من الحق سبحانه أن يُوفّر طاقته ، وأنْ يُوجِّهها لمَنْ آمن به ؛ وأن يخفِضَ جناحه لهم .

وخَفْض الجناح هو التواضُع ؛ ذلك أن الجناحَ هو الجانب ، فحين

يأتيك إنسانٌ تريد أنْ تتكبَّر عليه ؛ فهو يقول « فلان لَوَى عنِّى جانبه » .

وهكذا يأمر الحق سبحانه رسوله أن يتواضع مع المؤمنين ؛ وأنْ يتوجه إليهم لا باستقامة قالبه ، بل أن ينزل هذا القالب قليلاً .

وكلمة : ﴿ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ .. (٨٨) ﴾ [الحجر]

مأخوذة من خَفْض جناح الطائر ، فالطائر يرفع جناحه عند الطيران ، ولكن ما أنْ يلمسَ هذا الطائر فَرْخَه الصغير حتى يَخفِض جناحه له ليضمه إليه .

إذن : فالطاقة التى كنتَ تُوجِّهها يا رسول الله إلى مَنْ لا يستحق ؛ عليك أنْ تُوجِّهها لِمَنْ يستحقها ، فيكفيك أن تُبلِّغ الناس جميعاً برسالتك ؛ ومَنْ يؤمن منهم هو مَنْ يستحق طاقةَ حنانك ورحمتك .

وخَفْض الجناح لِمَنْ آمن برسالتك لا يورثه كِبْراً عليك ؛ بل يزيده أدباً معك .

وقد جاء فى الأثر : « إذا عَزَّ أخوك فَهُنْه » أى : أنك إذا رأيتَ أخاك فى وضع يعِزّ عليك ، فَهُنْ له أنت .

ومن قبل الإسلام قال الشاعر العربى[1] :

---

(١) هو : الفند الزمانى ، واسمه شَهْل بن شيبان . شاعر جاهلى ، من أهل اليمامة ، سُمى الفند لعظم خلقته ، تشبيهاً بفند الجبل ، وهو القطعة منه . توفى نحو ٧٠ قبل الهجرة . [الأعلام للزركلى ٣/١٧٩] .

صَفَحْنَا عَنْ بَنِى ذُهْلٍ ... وقُلْنَا القَوْمُ إخْوانُ
عَسَى الأيامُ أنْ يَرْجِعْـ ... ـنَ قَوْماً كَالذى كَانُوا
فَلَمّا صَرَّحَ الشَّرُّ ... فَأمسَى وَهْوَ عُرْيَانُ
مَشيْنَا مِشْيَةَ اللَّيْثِ ... غَدا واللَّيْثُ غَضْبَانُ
بِضَرْبٍ فيه تَوْهِينٌ ... وتَخْضِيعٌ[1] وإقْرانُ
وطَعْنٍ كَفَمِ الزِّقِّ ... غَدَا والزِّقُّ[2] مَلآنُ
وفِى الشَّرِّ نجاة حِيـ ... ـنَ لاَ يُنجِيك إحسَانُ
وبعضُ الحلمِ عنْدَ الجهـ ... ـلِ لِلْذلةِ إذْعَانُ[3]

ونجد القرآن حينما يطبع خلق المؤمن بالله وبالمنهج ؛ لا يطبعه بطابع واحد يتعامل به مع كل الناس ، بل يجعل طَبْعه الخُلقى مطابقاً لموقف الناس منه ، فيقول :

﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ..(٥٤)﴾ [المائدة]

ويقول أيضاً فى وصف المؤمنين :

﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ..(٢٩)﴾ [الفتح]

وهكذا لم يطبع المؤمن على الشدة والعزة ، بل جعله يتفاعل مع المواقف ؛ فالموقف الذى يحتاج إلى الشدة فهو يشتد فيه ؛

---

(١) التخضيع : تقطيع اللحم . والإقران : قوة الرجل على الرجل .
(٢) الزق : السقاء ، وهو كل وعاء اتخذ لشراب ونحوه . وتزقيقه سلخه من قبل رأسه . [لسان العرب ـ مادة : زقق] . والسلخ : الكشط .
(٣) أورد الأبيات أبو على القالى فى أماليه (١/٣٠٩ ، ٣١٠) .

والموقف الذى يحتاج إلى لِينٍ فهو يلين فيه[١] .

والحكمة الشاعرة تقول :

وَوَضْعُ النَّدى فى مَوْضِعِ السَّيف بالعلى مضر
كَوضْعِ السَّيْفِ فى مَوْضِعِ النَّدَى

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَقُلْ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ ﴾

ونعلم أن الرسل مُبشِّرين ومُنذرين ؛ ولسائل أنْ يقولَ : ولماذا تأتى صيغة الإنذار دائماً ؟ وأقول : إن مَنْ يؤمن هو مَنْ يتلقَّى البشارة ؛ أما مَنْ عليه أنْ يتوقَّع النِّذارة فهو الكافر المُنكِر .

وفى الإنذار تخويفٌ بشىء ينالُ منك فى المستقبل ؛ وعليك أنْ تَعُد العُدّة لتبتعد بنفسك أن تكون فيه ، والتبشير يكون بأمر تتمناه النَّفْس . وبالإنذار والتبشير يتضح الموقف بجلاء ، ويُحَاط الإنسان بكل قضايا الحياة ؛ ويتضح مسَار كُل أمرٍ من الأُمورِ .

بذلك يكون الحق سبحانه فى الآيتين السابقتين قد امتنَّ على رسوله ﷺ بأنه قد آتاه السبع المثانى والقرآن العظيم ؛ ولذلك يوصيه ألاَّ تطمح نفسه إلى ما أوتى بعضٌ من الكفار من جاه ومال ، فالقرآن عزُّ الدنيا والآخرة .

ويوصيه كذلك بألا يحزنَ عليهم نتيجة انصرافهم عن دعوته ، فليس عليه إلا البلاغ ، وأن يتواضعَ ﷺ للمؤمنين ليزداد ارتباطهم به ،

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٢/٧٠) : « هذه صفات المؤمنين الكمل أن يكون أحدهم متواضعاً لأخيه ووليه ، مُتعزّزاً على خَصْمه وعدوه » .

فهم خير من كل الكافرين برسالته ﷺ .

ثم يُوصيه الحق سبحانه أن يُبلغ الجميع أنه نذير وبشير ، يوضح ما جاء فى القرآن من خير يعُمّ على المؤمنين ، وعقاب ينزل على الكافرين .

وقد قال ﷺ : « إنما مثَلى ومثَل ما بعثنى اللهُ به كمثَلِ رجلٍ أتى قوماً فقال : يا قوم ، إنى رأيتُ الجيشَ بعينىَّ ، وإنى أنا النذير العُرْيان[1] ، فالنجاء النجاء ، فأطاعه طائفة من قومه فَأدْلجوا[2] فانطلقوا على مهلهم فَنجَوْا ، وكذَّبت طائفة منهم ، فأصبحوا مكانهم فصبَّحهم الجيش ، فأهلكهم واجتاحهم ، فذلك مثَل مَنْ أطاعنى فاتَّبع ما جِئْتُ به ، ومثَل مَنْ عصانى وكذَّب بما جئتُ به من الحقِّ »[3] .

ويقول سبحانه من بعْد ذلك :

﴿ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾

ونعلم أنه سبحانه قد أنزل كتابه على رسوله ﷺ ، واستقبله الناس استقبالَيْنِ : فمنهم مَنِ استمع إلى القرآن فتبصَّر قول الحق وآمن ، وفى هؤلاء قال الحق سبحانه :

---

(١) خص العريان لأنه أبين للعين وأغرب وأشنع عند المبصر ، وذلك أن ربيئة القوم وعينهم يكون على مكان عالٍ ، فإذا رأى العدو وقد أقبل نزع ثوبه وألاح به لينذر قومه ويبقى عُرياناً . [لسان العرب ـ مادة : عرا] .

(٢) أدلجوا : ساروا من آخر الليل . والدُّلْجة : سير الليل . [لسان العرب ـ مادة : دلج] .

(٣) أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٤٨٢ ، ٧٢٨٣) ، ومسلم فى صحيحه (٢٢٨٣) من حديث أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه .

﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٨٣) ﴾ [المائدة]

والصنف الآخر استمع إلى القرآن ، فكانت قلوبهم كالحجارة ، وفيهم قال الحق سبحانه :

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا[1] أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (١٦) ﴾ [محمد]

ذلك أن قلوبهم مُمْتلئة بالكفر ؛ وقد دخلوا ومعهم حكم مُسْبق ، فلم يقيموا ميزانَ العدل ليقيسوا به فائدة ما يسمعون .

ولذلك أوضح الحق سبحانه لرسوله ﷺ ألاّ يحزن ، فالمسألة لها سوابق مع غيرك من الرسل ؛ فقد نزل كل رسول بكتاب يحمل المنهج ، ولكن الناس استقبلوا تلك الكتب كاستقبال قومك لمَا نزل إليك بين كافر ومؤمن ، واختلفوا فى أمور الكُتب المنزَّلة إلى رسلهم .

وكان انقسامهم كانقسام قومك حول الكتاب المُنزّل إليك ، فلا تحزنْ إنِ اتهموك بأنك ساحرٌ ، أو أن ما نزل إليك كتابُ شعر ؛ أو أنك تمارس الكهانة ؛ أو فقدوا القدرة على الحكم عليك واتهموك بالجنون .

وهكذا قَسَّموا القرآن المُنزَّل من الله سبحانه إلى أقسام هى : السِّحْر ، والكهانة ، والشعر ، والجنون ، كما فعل من قبلهم أقوام أخرى :

---

(١) أى : سابقاً فى الوقت القريب . [القاموس القويم ١/٣٨] .

فمنهم[١] مَنْ قال ، وأثبته القرآن عليهم :

﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (٢٧)﴾ [الشعراء]

وهكذا تعلم يا رسول الله أنك لست بِدْعاً من الرسل[٢] ، ذلك أن الرسل لا يأتون أقوامهم إلا وقد طَمَّ الفساد والبلاء ، ولا يوجد فساد إلا بانتفاع واحد بالفساد بينما يضرُّ بالآخرين .

وإذا ما جاء رسول ليصلح هذا الفساد يهُبُّ أهل الاستفادة من الفساد ليقاوموه ويضعوا أمامه العراقيل ؛ مثلما حدث معك يا رسول الله حين قال بعضهم :

﴿لا تَسْمَعُوا لِهَـٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ ..(٢٦)﴾ [فصلت]

ومثل هذا القول إنما يدلُّ على أنهم لو صَفُّوا نفوسهم ، واستمعوا للقرآن لاهتدوا ؛ لذلك يقول لهم سادتهم :

﴿وَالْغَوْا[٣] فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (٢٦)﴾ [فصلت]

أى : شَوِّشوا[٤] عليه .

---

(١) هم قوم فرعون ، والقول لفرعون عندما واجهه موسى عليه السلام بأنه ليس إلهاً ولا رباً ، وذلك فى محاورة ذكرها القرآن فى قوله : ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٣) قَالَ رَبُّ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ (٢٤) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلا تَسْتَمِعُونَ (٢٥) قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ (٢٦) قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (٢٧)﴾ [الشعراء] .

(٢) قال تعالى لرسوله ﷺ : ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَىَّ وَمَا أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٩)﴾ [الأحقاف] أى : ما كنت غريباً ولا عجيباً ولا كنت على غير مثال سابق ، فأنا مثل الرسل السابقين . [القاموس القويم ١/٥٧] .

(٣) اللغو : اللغط . أى : شوشوا على قارئه باللغو من القول ، أو : اطعنوا فيه واختلقوا له العيوب لتصرفوا الناس عنه . [القاموس القويم ٢/١٩٦] .

(٤) التشويش : التخليط ، وقد تشوش عليه الأمر . قاله الجوهرى فى مادة شيش . وقال أبو منصور : لا أصل له فى العربية ، وإنه من كلام المولدين ، وأصله التهويش وهو التخليط . [لسان العرب ـ مادة : شوش] .

وهكذا فالاقتسام الذى استقبل به الكفار القرآن سبق وأنْ حدث مع الرسل الذين سبقوك[١] .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ ﴾

وكلمة (عضين) تعنى القطع ؛ فيُقال للجزار حين يذبح الشاة أو العجل أنه قد جعله عِضين . أى : فصَل كُلَّ ذراع عن الآخر ، وكذلك قطع الفخذ ؛ أى : أنه جعل الذبيحة قِطَعاً قِطَعاً بعد أنْ كانت أعضاء مُتصلة .

وكذلك كان القرآن حينما نزل كياناً واحداً ؛ فأراد بعض من الكفار أن يُقطِّعوه إلى أجزاء . والمقصود هنا هم جماعة من اليهود

---

(١) اختلف فى المقتسمين على سبعة أقوال :

الأول : هم ستة عشر رجلاً بعثهم الوليد بن المغيرة أيام الموسم ، فاقتسموا الطرق المؤدية إلى مكة يقولون لمن سلكها : لا تغتروا بهذا الخارج فينا يدعى النبوة ، فإنه مجنون . قاله مقاتل والفراء .

الثانى : قوم من كفار قريش اقتسموا كتاب الله ، فجعلوا بعضه شعراً ، وبعضه سحراً ، وبعضه كهانة ، وبعضه أساطير الأولين . قاله قتادة .

الثالث : هم أهل الكتاب آمنوا ببعضه وكفروا ببعضه . قاله ابن عباس .

الرابع : أهل الكتاب ـ أيضاً ـ سموا مقتسمين لأنهم كانوا مستهزئين ، فيقول بعضهم : هذه السورة لى وهذه السورة لك . قاله عكرمة .

الخامس : أهل الكتاب ـ أيضاً ـ قسموا كتابهم ففرقوه وبددوه وحرفوه . قاله قتادة .

السادس : المراد قوم صالح ، تقاسموا على قتله فسموا مقتسمين . قاله زيد بن أسلم .

السابع : هم قوم اقتسموا أيماناً تحالفوا عليه . قاله الأخفش .

[ذكر هذه الأقوال القرطبى فى التفسير ٥/٣٧٨٢] .

وجماعة من النصارى الذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ وأرادوا أنْ يُقطِّعوا القرآن كما فعلوا مع الكتابين اللذين نزلا على موسى ، وهما التوراة ؛ والإنجيل الذى جاء به عيسى .

وقد قال الحق سبحانه فيهما :

﴿ وَنَسُوا حَظًّا[1] مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ .. (١٣) ﴾ [المائدة]

أى : أن بعضاً من اليهود قد نَسُوا بعضاً من التوراة ، وكذلك نسى البعض من أتباع عيسى بعضاً من الإنجيل الذى نزل عليه .

وإنْ وجدنا لهم العذر فى النسيان ؛ فماذا عن الذى كتموه من تلك الكتب ؟ وماذا عن الذى بدَّلوه وحرَّفوه من كلمات تلك الكتب ؟ وماذا عن الذى أضافوه عليه ، ولم ينزل من عند الله ؟ وقد فضح سبحانه كل ذلك فى القرآن[2] .

أو : أن اليهود استقبلوا القرآن استقبالَ مَنْ يُصدّق بعضه مِمّا

---

(١) الحظ : النصيب ، والمقدار المخصص من الخير . [القاموس القويم ١/١٦١] .

(٢) تعامل أهل الكتاب مع القرآن بطرق مختلفة :

١ - الكتمان : يقول تعالى : ﴿ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤٦) ﴾ [البقرة] .

٢ - التبديل والتحريف : يقول تعالى : ﴿ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ (٥٩) ﴾[البقرة] . وقال تعالى : ﴿ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥) ﴾ [البقرة] .

٣ - لَىّ اللسان : يقول تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٨) ﴾ [آل عمران] .

٤ - الإضافة : يقول تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ .. (٧٩) ﴾ [البقرة] .

لا يتعبهم ، وكذَّبوه فى البعض الذى يتعبهم ، فقد كذَّبوا مثلاً أن كتابهم قد بشَّرهم بمحمد عليه الصلاة والسلام .

وهكذا نرى كيف حاولوا أن يجعلوا القرآن عِضين ، أى : قطعاً مفصولة عن بعضها البعض ، وقد حاولوا ذلك بعد أن تبيّن لهم أن القرآن مُؤثِّر وفاعل .

وشاء الحق سبحانه للقرآن أن يحمل النذارة والبشارة ؛ فالرسول نذير بالقرآن المبين الواضح لِمَن اقتسموا الأمر بالنسبة لمحمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ فقسْم منهم تفرَّغ للاستهزاء بمحمد ومَنْ آمنوا معه ؛ وجماعة أخرى قسَّمتْ أعضاءها ليجلسوا على أبواب مكة أثناء موسم الحج ، ويستقبلون القادمين للحج من البلاد المختلفة ليحذروهم من الاستماع لمحمد عليه الصلاة والسلام .

ومن هؤلاء مَنْ وصف الرسولَ ﷺ بالجنون ؛ ومنهم مَنْ وصف القرآن بأنه شِعْر ؛ ومنهم مَنْ وصفَ الرسول بأنه ساحر .

ثم يقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ ﴾

وهنا يُقسِم الحق سبحانه بصفة الربوبية التى تعهدتْ رسوله بالتربية والرعاية ليكون أهلاً للرسالة أنه لن يُسلِمه لأحد ، وهو سبحانه مَنْ قال :

﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِى ﴿٣٩﴾ ﴾ [طه]

أى : أن كل رسول هو مصنوع ومَحْميّ بإرادته سبحانه ؛ وتلك

عناية الحماية للمنهجية الخاصة ، وعناية المصطفين الذين يحملونَ رسالته إلى الخَلْق ؛ فقد رزق سبحانه خَلْقه جميعاً ؛ والرسل إنما يأتون لمهمة تبليغ المنهج الذى يُدير حركة الحياة ؛ لذلك لا بد أن يُوفّر لهم الحق سبحانه عناية من نوع خاص .

وقَوْل الحق سبحانه هنا :

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢)﴾ [الحجر]

يُبيّن لنا أنه سيسألهم سبحانه عن أدقِّ التفاصيل ؛ ومجرد توجيه السؤال إليهم فيه لَوْن من العذاب .

ويحاول البعض ممَّنْ يريدون أنْ يعثروا على تعارض فى القرآن أن يقولوا : كيف يقول الله مرة :

﴿فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُسْأَلُ عَن ذَنْبِهِ إِنسٌ وَلا جَانٌّ (٣٩)﴾ [الرحمن]

ويقول فى أكثر من موقع بالقرآن أنه سيسأل هؤلاء المُكذِّبين ؛ فكيف يُثبِت السؤالَ مرة ، وينفيه مرة أخرى ؟

ونقول لهؤلاء : أنتم تستقبلون القرآن بسطحية شديدة ، فهذا الذى تقولون إنه تعارض إنما هو مجرد ظاهر من الأمر ، وليس تعارضاً فى حقيقة الأمر .

ونحن نعلم أن السؤال ـ أىّ سؤال ـ له مُهمتان ، **المُهِمة الأولى** : أن تعلم ما تجهل . **والمهمة الثانية** : لتقرَّ بما تعلم .

والحق سبحانه حين ينفى سؤالاً فهو ينفى أن أحداً سيُخبره بما لا يعلم سبحانه ؛ وحين يثبت السؤال ؛ فهذا يعنى أنه سيسألهم سؤالَ الإقرار .

وهكذا نعلم أن القرآن إذا أثبت حدثاً مرة ونفاهُ مرة أخرى ، فاعلم أن الجهة مُنفكّة ، أى : أن جهة النفى غَيْر جهة الإثبات ، وكُلٌّ منهما لها معنًى مختلف .

وقوله هنا :

﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) ﴾ [الحجر]

يعنى أن الضَّال والمُضلّ ، والتابع والمتبوع سَيُسألون عَمَّا عملوا . ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٣) ﴾

والعمل كما نعلم هو اتجاه جارحة إلى مُتعلّقها ؛ فجارحةُ العين مُتعلِّقها أنْ ترى ؛ وجارحةُ اللسان مُتعلِّقها أن تتكلم ، وجارحةُ اليد إما أنْ تُربّت ، وإما أنْ تبطشَ .

وهكذا فكُلُّ ما تصنعه ملكَاتُ الإدراك فى النفس البشرية نُسمِّيه عملاً . وسبق أن علمنا أن العمل ينقسم إلى قول وفعل .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٧٤) ﴾ [البقرة]

أى : تذكَّروا أن الله سبحانه وتعالى لا يغيب عنه شىء ، وأن كل ما تعملونه يعلمه ، وأنكم ملاقونه يوم القيامة ومحتاجون إلى رحمته ومغفرته .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (٩٤) ﴾ (١)

---

(١) صدع بالأمر : جهر به فى قوة كأنه يشق جدار الصمت والسكون . والصدع : الشق فى الشىء الصلب أو فى غيره كالأرض مثلاً . [القاموس القويم ١/ ٣٧٠] .

أى : افرغ لِمُهمتك ؛ فالصّدع تصنع شقاً فى متماسك ، كما نشق زجاجاً بالمشرط الخاص بذلك ، أو ونحن نصنع شقاً فى حائط . والرسول ﷺ قد جاء ليشقَّ الكفر ويهدم الفساد القوى المتماسك الذى يَقْوى بقوة صناديد قريش .

وقد شاع ذلك المصطلح « الصدع » فى الزجاج ؛ لأن أىَّ شقٍّ فى أىِّ شىء من الممكن أنْ يلتئمَ إلا فى الزجاج ؛ لأنه يصعب أن يجمع الإنسان الفتافيت والقطع الصغيرة التى تنتج من صدعه ، وقد جاء الإيمان ليصدع بنيان الكفر والفساد المتماسك .

وقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (٩٤) ﴾ [الحجر]

أى : أَعْطِهم عرض كتفيك ، ولا تسأل عنهم ؛ فَهُم لن يُسلموا لك ، ذلك أنهم مستفيدون من الفساد الذى جِئْتَ أنت لتهدمه ، ولكنهم سيأتون لك تباعاً بعد أن تتثبت دعوتُك ، وتصل قلوبهم إلى تيقُّن أن ما جئتَ به هو الحق .

والمثَل هو إسلام خالد بن الوليد وعمرو بن العاص ؛ فقد قالا : « لقد استقر الأمر لمحمد ، ولم تَعُدْ معارضتنا له تفيد أحداً »[1] ، ودخلاَ الإسلام .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

---

(١) أورد الكاندهلوى معنى هذا فى كتابه « حياة الصحابة » (١/١٤٠) فى قصة إسلام خالد بن الوليد أنه قال : « إنما نحن كأضراس وقد ظهر محمد على العرب والعجم ، فلو قدمنا على محمد واتبعناه ، فإن شرف محمد لنا شرف » .

﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾

فبعد أنْ قال له :

﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾ [الحجر]

وبعد أن ثبت لكل مَنْ عاش تلك الفترة أن كل مُسْتهزىء بمحمد ﷺ قد ناله عقاب من السماء . فها هو ذا الوليد بن المغيرة الذى يتبختَّر فى ثيابه ؛ فيسير على قطعة من الحديد ، فيأنَفُ أنْ ينحنىَ ليُخلِّص ثوبه الذى اشتبك بقطعة الحديد ؛ فتُجرح قدمه وتُصاب بالغرغرينا ويقطعونها له ، ثم تنتشر الغرغرينا فى كُلِّ جسده إلى أنْ يموتَ .

وها هو الثانى الأسود بن عبد يغوث يُصاب بمرض فى عينيه ؛ ويُصاب بالعمَى ، وكذلك الحارث بن الطلاطلة ، والعاص بن وائل[1] .

وكل مُسْتهزىء برسول الله ﷺ قد ناله عقابٌ ما ، ومَنْ لم تُصبْه عاهة أو آفة صرعتْه سيوف المسلمين فى بدر ، لدرجة أن رسول الله ﷺ قد حدد المواقع التى سيلْقَى فيها كل واحد من صناديد قريش حَتْفه ؛ فقال : هنا مصرع فلان ، وهناك مصرع فلان[2] .

وقد أوضح ﷺ تلك المواقع من قبل أن تبدأ المعركة ، ونعلم أن الحرب تتطلب كَرّاً وفَرّاً ، ولكن ما تنبأ به رسول الله ﷺ قد حدث بالضبط .

---

(١) ذكر القرطبى فى تفسيره (٥/٣٧٨٥) بعض هذه الوقائع عن عاقبة هؤلاء المستهزئين برسول الله ﷺ .

(٢) عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : إن رسول الله ﷺ كان يرينا مصارع أهل بدر بالأمس يقول : « هذا مصرع فلان غداً إن شاء الله » قال عمر : فو الذى بعثه بالحق ما أخطأوا الحدود التى حَدَّ رسول الله ﷺ » أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٨٧٣) ؛ وأحمد فى مسنده (٣/٢١٩) .

ويُحدِّد الحق سبحانه نوعية هؤلاء المستهزئين بقوله :

﴿ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾

أى : أن هؤلاء المشركين الذين يَهْزءون بك لهم عذابهم ؛ ذلك أنهم أشركوا بالله سبحانه ، وحين يقول الحق سبحانه :

﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [الحجر]

ففى هذا القول استيعاب لكل الأزمنة ، أى : سيعلمون الآن ومن بعد الآن ، فكلمة « سوف » تتسع لكل المراحل ، فالحق سبحانه لم يأخذهم جميعاً فى مرحلة واحدة ، بل أخذهم على فترات .

فحين يأخذ المُتطرِّف فى الإيذاء ؛ قد يرتدع مَنْ يُؤذى ، ويتراجع عن الاستمرار فى الإيذاء ، وقد يتحوّل بعضهم إلى الإيمان ؛ فمَنْ كانت شدّته على رسول الله ﷺ تصبح تلك الشدة فى جانب الرسول ﷺ .

وها هو المثَلُ واضح فى عكرمة بن أبى جهل[1] ؛ يُصَاب فى موقعة اليرموك ؛ فيضع رأسه على فَخذ خالد بن الوليد ويسأله : يا خالد ، أهذه ميتة تُرضى عنى رسول الله ﷺ ؟ فيرد خالد : « نعم » . فيُسلِم الروح مُطْمئناً .

---

(١) قال ابن حجر فى الإصابة (٤/٢٥٨) : « كان كأبيه من أشد الناس على رسول الله ﷺ ثم أسلم عكرمة عام الفتح وخرج إلى المدينة ثم إلى قتال أهل الردة ووجهه أبو بكر الصديق إلى جيش نعمان فظهر عليهم ثم رجع فخرج إلى الجهاد عام وفاته فاستشهد يوم اليرموك » .

وهؤلاء المستهزئون ؛ قد أشركوا بالله ؛ فلم تنفعهم الآلهة التى أشركوها مع الله شيئاً ، وحين يتأكد لهم ذلك ؛ فَهُمْ يتأكدون من صدق رسول الله ﷺ فيما أبلغ عن الحق سبحانه .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾

وفى هذا القول الكريم يتجلَّى تقدير الحق سبحانه لمشاعر النبوة ، فالحق يُكلِّفه أنْ يفعلَ كذا وكذا ، وسبحانه يعلم أيضاً ما يعانيه ﷺ فى تنفيذ أوامر الحق سبحانه .

وقد ورد هذا المعنى أيضاً فى قوله سبحانه :

﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٣٣) ﴾ [الأنعام]

فأنت يا رسولَ الله أكرم من أنْ تكذبَ ، فقد شهدوا لك بحُسْن الصدق عبر معايشتهم لك من قبل الرسالة .

وهنا يقول سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ (٩٧) ﴾ [الحجر]

ومعنى ضيق الصدر أنْ يقلّ الهواء الداخل عَبْر عملية التنفُّس إلى الرئتين ؛ فمن هذا الهواء تستخلص الرئتان الأوكسجين ؛ وتطرد ثانى أوكسيد الكربون ؛ ويعمل الأكسجين على أنْ يُؤكسدَ الغذاء لِينتجَ الطاقة ؛ فإنْ ضاق الصَّدْر صارت الطاقة قليلة .

والمثَل يتضح لِمَنْ يصعدون السُّلَّم العالى لأىّ منزل أو أىّ مكان ؛ ويجدون أنفسهم ينهجون[١] ؛ والسبب فى هذا النهَج هو أن الرئة تريد أنْ تُسرع بالتقاط كمية من الهواء أكبر من تلك التى تصل إليها ، فيعما القلب بشدة أكثر كى يُتيح للرئةِ أن تسحبَ كميةً أكبر من الهوا

ما مَنْ يكون صدره واسعاً فهو يسحب ما شاء من الهواء الذى يتيح للرئة أن تأخذَ الكمية التى تحتاجها من الهواء ، فلا ينهج صاحب الصدر الواسع .

فكأن رسول الله ﷺ حين كان يُكذّبه أحد ، أو يستهزىء به أحد كان يضيق صَدْره فتضيق كمية الهواء اللازمة للحركة ؛ ولذلك يُطمئنه الحق سبحانه أن مَدَده له لا ينتهى .

وأنت تلحظ عملية ضيق الصدر فى نفسك حين يُضايقك أحد فتثور عليه ؛ فيقول لك : لماذا يضيق صدرك ؟ وَسِّع صدرك قليلاً .

والحق سبحانه يقول فى موقع آخر :

﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ ..(١٢٥)﴾ [الأنعام]

أى : يُوسّع صدره ، وتزداد قدرته على فَهْم المعانى التى جاء بها الدين الحنيف .

ويقول أيضاً :

---

(١) نهج الرجل نهجاً فى النفس : هو تواتر النفس من شدة الحركة . [لسان العرب ـ مادة : نهج] .

﴿ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا[١] كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ[٢] فِي السَّمَاءِ .. (١٢٥) ﴾ [الأنعام]

وهنا نجد أن الحق سبحانه يشرح عملية الصعود وكأن فيها مجاهدةً ومكابدةً ، وهذا يخالف المسألة المعروفة بأنك إذا صعدتَ إلى أعلى وجدتَ الهواء أكثرَ نقاءً .

وقد ثبت أن الإنسان كلما صعد إلى أعلى فى الفضاء فلن يجد هواء .

ويدلُّ الحق سبحانه رسوله ﷺ على علاج لمسألة ضيق الصدر حين يُحزنه أو يؤلمه مُكذّب ، أو مُسْتهزىء ؛ فيقول سبحانه :

﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ (٩٨) ﴾

وهكذا يمكن أن تُذْهب عنك أىَّ ضيق ، أن تسبح الله . وإذا ما جافاكَ البِشْر أو ضايقك الخَلْق ؛ فاعلم أنك قادر على الأُنْس بالله عن طريق التسبيح ؛ ولن تجد أرحم منه سبحانه ، وأنت حين تُسبِّح ربك فأنت تُنزِّهه عن كُلّ شىء وتحمده ، لتعيش فى كَنَف رحمته .

ولذلك نجده سبحانه يقول فى موقع آخر :

﴿ فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤٤) ﴾ [الصافات]

ولذلك إذا ضاق صدرك فى الأسباب فاذهب إلى المُسبِّب .

---

(١) الحرج : الضيق . وحرج صدره : ضاق فلم ينشرح لخير . [لسان العرب ـ مادة : حرج] .

(٢) يصعد : أى يتصعد يرتفع فى السماء . والصَّعَد : المشقة . ويقال : تصعّده الأمر إذا شق عليه وصعب . [لسان العرب ـ مادة : صعد] .

ونحن دائماً نقرن التسبيح بالحمد ، فالتنزيه يكون عن النقائص فى الذات أو فى الصفات أو فى الأفعال ، وسبحانه كاملٌ فى ذاته وصفاته وأفعاله ، فذاتُه لا تُشْبِه أىَّ ذات ، وصفاته أزلية مُطْلَقة ، أما صفات الخَلْق فهى موهبة منه وحادثة .

وأفعال الحق لا حاكمَ لها إلا مشيئته سبحانه ، ولذلك نجده جَلَّ وعَلا يقول فى مسألة التسبيح :

﴿ سُبْحَانَ الَّذِى خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا .. (٣٦) ﴾ [يس]

وهو القائل :

﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ (١٧) ﴾ [الروم]

وكُلٌّ من المساء والصباح آية منه سبحانه ؛ فحين تغيب الشمس ، فهذا إذْنٌ بالراحة ، وحين تصبح الشمس فهذا إذْنٌ بالانطلاق إلى العمل ، وتسبيح المخلوق للخالق هو الأمر الذى لا يشارك اللهَ فيه أحدٌ من خَلْقه أبداً .

فكأن سَلْوى المؤمن حين تضيق به أسباب الحياة أنْ يفزعَ إلى ربه من قسوة الخَلْق ؛ ليجد الراحة النفسية ؛ لأنه يَأْوى إلى رُكْن شديد .

ونجد بعضاً من العارفين بالله وهم يشرحون هذه القضية ليوجدوا عند النفس الإيمانية عزاءً عن جَفْوة الخَلْق لهم ؛ فيقولون : إذا أوحشك من خَلْقه فاعلم أنه يريد أن يُؤنسك به » .

وأنت حين تُسبّح الله فأنت تُقِرّ بأن ذاته ليستْ كذاتِك ، وصفاته

ليست كصفاتك ، وأفعاله ليست كأفعالك ؛ وكل ذلك لصالحك أنت ؛ فقدرتك وقدرة غيرك من البشر هى قدرة عَجْز وأغيار ؛ أما قدرته سبحانه فهى ذاتية فيه ومُطْلقة وأزلية ، وهو الذى يأتيك بكُل النِّعم .

ولهذا فعليك أنْ تصحبَ التنزيه بالحمد ، فأنت تحمد ربك لأنه مُنزَّه عن أنْ يكونَ مثلك ، والحمد لله واجب فى كل وقت ؛ فسبحانه الذى خلق المواهب كلها لتخدُمَك ، وحين ترى صاحب موهبة وتغبطه عليها ، وتحمد الله أنه سبحانه قد وهبه تلك الموهبة ؛ فخيْرُ تلك النعمة يصل إليك .

وحين تُسبِّح بحمد الله ؛ فسبحانه لا يُخلف وَعْده لك بكل الخير ؛ فكُلُّنا قد نُخلف الوعد رغماً عنَّا ، لأننا أغيار ؛ أما سبحانه فلا يُخلف وعده أبداً ؛ ولذلك تغمرك النعمة كلما سبَّحْتَ الله وحمدته .

وزِدْ خضوعاً للمُنْعِم ، فاسجُدْ امتثالاً لأمره تعالى :

﴿وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ (٩٨)﴾ [الحجر]

فالسجود هو المَظْهر الواسع للخضوع ، ووجه الإنسان ـ كما نعلم ـ هو ما تظهر به الوجاهة ؛ وبه تَلْقَى الناس ؛ وهو أول ما تدفع عنه أىَّ شىء يُلوِّثه أو ينال من رضاك عنه .

ومَنْ يسجد بأرقى ما فيه[1] ؛ فهذا خضوع يُعطى عزّة ، ومَنْ يخضع لله شكراً له على نعمه فسبحانه يعطيه من العزة ما يكفيه كل

---

(١) عن ابن عباس عن النبى ﷺ قال : « لا صلاة لمن لم يضع أنفه على الأرض » أخرجه الدارقطنى فى سننه (١/٣٤٨) والحاكم فى مستدركه (١/٢٧٠) وقال : « صحيح على شرط البخارى ولم يخرجاه » . وأخرجه الطبرانى فى المعجم الكبير (١١/٣٣٣) من طريق آخر بلفظ : « من لم يلزق أنفه مع جبهته بالأرض إذا سجد لم تجز صلاته » .

أَوْجُه السجود ، وكُلُّنا نذكر قَوْل الشاعر :

وَالسُّجود الذِى تَجْتوِيه[1] فِيهِ مِـــنْ أُلـوفِ السُّجودِ نَجَاةٌ

والسجود هو قـمة الخضوع للحق سبـحانه . والإنسان يكره لفظ العبودية ؛ لأن تاريخ الـبشرية حمل كثـيراً من المظالم نتيجـة عبودية البشر للبشر . وهذا النوع من العبودية يعطى ـ كما نعلم ـ خَيْر العبد للسيد ؛ ولكن العبوديةَ لله تعطى خَيْره سـبحانه للعباد ، وفى ذلك قِمّة التكريم للإنسان .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾

ونعـرف أن العبادة هـى إطاعة العـابد لأوامر المـعبود إيجـاباً أو سَلْباً ، وتطبيق « افعل » و « لا تفعل » ، وكثيرٌ من الناس يظنون أن العبادة هى الأمور الظاهرية فى الأركان الخـمسة من شهادة أن لا إله إلا الله ، وإقامة الصلاة ؛ وإيتاء الزكاة ؛ وصوم رمضان ، وحِجّ البيت لِمَن استطاع إليه سبيلاً .

ونقول : لا ، فـهذه هى الأُسس التى تقـوم عليها العـبادة . أى : أنها البِنْية التى تقـوم عليها بقية العبادة ، وهكـذا تصبح العبادة هى ، كُل ما لا يقوم الواجب إلا به فهو واجب ، أى : أن حـركة الحياة كلها ـ حـتى كَنْس الشوارع ، وإمـاطة[2] الأذى عن الطريق ـ هى عـبادة ،

---

(١) يُقال : اجتويت المكان : إذا كرهت المقام فيه وإن كنت فى نعمة . [لسان العرب ـ مادة : جوا] .

(٢) إماطة الأذى : إبعاده وتنحيته جانباً . [المعجم الوجيز ـ مادة : ميط] .

وكل ما يُقصد به نَفْع الناس عبادة ، كى لا يصبح المسلمون عالةً على غيرهم .

وفى إقامة الأركان إظهارٌ لقوة المسلمين ، حين يُظهرون كامل الولاء لله بإقامة الصلاة خمس مرات فى اليوم الواحد ، فيترك المسلم عمله فَوْر أنْ يسمعَ النداء بـ « الله أكبر » فيخرج المسلم من صراعات الحياة ، ويعلن الولاء للخالق المنعم .

وحين يصوم المسلم شهراً فى السنة ؛ فهو يُعلن الولاء للخالق الأكرم ، ويصوم عن أشياء كثيرة كانت مُبَاحة ؛ وأوَّل ما يأتى موعد الإمساك من قَبْل صلاة الفجر بقليل ؛ فهو يمتنع فوراً .

وهذا الامتثال لأوامر الحق سبحانه يُذكّرك بنعمه عليك ؛ فأنت فى يومك العادى لا تقرب المُحرَّمات التى أخذتْ وقتاً أثناء بدايات الدين إلى أن امتنع عنها المسلمون ، فلا أحدَ من المسلمين يُفكّر فى شُرْب الخمر ؛ ولا أحدَ منهم يُفكِّر فى لعب المَيْسِر ، وانطبعتْ تلك الأمور ؛ وصارتْ عادة سلوكية فى إلْف ورتَابة عند غالبية المسلمين مِمَّنْ يُنفّذون شريعة الله ، ويُطبّقون « افعل » و « لا تفعل » .

وعندما يأتى الصوم فأنت تمتنع عن أشياء هى حلال لك طوال العام ، وتقضى أى نهار فى رمضان ونفسُك تستشرف سماع أذان المغرب لِتُفطر .

وهكذا تمتثل للأمر بالامتناع والإمساك والأمر بالإفطار ، وذلك لِيعُوّدك على الكثير من الطاعات التى تصير عند المؤمنين عادةً ؛ وسبحانه يريد أنْ يُديم عليك لذَّة التكليف العبادى .

وبعْضٌ من الناس يذهبون مذاهب الخطأ عندما يفسرون بأهوائهم قوله الحق :

﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ (٩٩) ﴾ [الحجر]

ويقول الواحد من هؤلاء مخادعاً الغير « لقد وصلت إلى مرتبة اليقين » ، ويمتنع عن أداء الفروض من صلاة وصوم وزكاة وحجٍّ إلى بيت الله الحرام رغم استطاعته ، ويدَّعِى أن التكليف قد سقط عنه ؛ لأن اليقين قد وصله .

ونقول لمن يدعى ذلك : أتُخادع الله ورسوله ؟ وكُلُّنا يعلم أن رسول الله ﷺ ظَلَّ يُؤدّى الفرائض حتى آخر يوم فى حياته . وكُلُّنا يعلم أن اليقين المُتفق عليه والمُتيقن من كل البشر ، ولا خلافَ عليه أبداً هو الموت .

أما اليقين بالغيبيات فهو من خُصوصيات المؤمن ؛ فما أنْ بلغه أمرها من القرآن فقد صدَّقها ، ولم يسأل كيف يتأتَّى أمرُها . والمثَلُ الواضح هو أبو بكر الصديق حينما كانوا يُحدّثونه بالأمر الغريب من رسول الله ﷺ ، فكان يقول « ما دام قد قال فقد صدق » .

أما الكافر ـ والعياذ بالله ـ فهو يشكُّ فى كل شىء غيبىّ أو حتى مادىّ ما لم يكن محسوساً لديه ، ولكن ما أنْ يأتيه الموت حتى يعلمَ أنه اليقين الوحيد .

ولذلك نجد عمر بن عبد العزيز يقول : « ما رأيت يقيناً أشبه بالشكِّ من يقين الناس بالموت »[1] .

---

(١) أورده القرطبى فى تفسيره (٥/٣٧٨٧) وتمام الأثر : « ثم لا يستعدون له » .

وكلنا نتيقن أننا سوف نموت ؛ لكنّا نُزحزح مسألة اليقين هذه بعيداً عنّا رَغْم أنها واقعةٌ لا محالةَ . فإذا ما جاء الموت ، نقول : ها هى اللحظة التى لا ينفع فيها شىء إلا عمل الإنسان إنْ كان مؤمناً مُؤدّياً لحقوق الله .

ولذلك أقول دائماً : إن اليقين هو تصديق الأمر تصديقاً مؤكداً ، بحيث لا يطفو إلى الذهن ليُناقش من جديد ، بعد أن تكون قد علمته من مصادر تثق بصدق ما تبلغك به .

أما عَيْن اليقين ؛ فهى التى ترى الحدث فتتيقّنه ، أو هو أمر حقيقىّ يدخل إلى قلبك فتُصدقه ، وهكذا يكون لليقين مراحل : أمر تُصدِّقه تصديقاً جازماً فلا يطفو إلى الذِّهْن ليُناقَش من جديد ، وله مصادر علْم ممَّنْ تثق بصدقه ، أو : إجماع من أناس لا يجتمعون على الكذبَ أبداً ؛ وهذا هو « علم اليقين » ؛ فإنْ رأيتَ الأمر بعينيك فهذا هو حق اليقين .

والمؤمن يُرتِّب تصديقه وتيقّنه على ما بلغه من رسول الله ﷺ .

وها هو الإمام علىّ ـ كَرَّم الله وجهه وأرضاه ـ يقول : « ولو أن الحجاب قد انكشف عن الأمور التى حدَّثنا بها رسول الله غيباً ما ازددتُ يقيناً » .

وها هو سيدنا حارثة ـ رضى الله عنه ـ يقول : « كأنِّى أنظر إلى أهل الجنة فى الجنة يُنعَّمون ، وإلى أهل النار فى النار يُعذَّبون ، فيقول له رسول الله ﷺ : « عرفت فالزم »[1] .

وذلك هو اليقين كما آمنَ به صحابة رسول الله ﷺ .

---

(١) أورده ابن حبان فى المجروحين (١/١٥٠) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، فى ترجمة أحمد بن الحسن بن أبان المصرى . قال ابن حبان : لا يجوز الاحتجاج به .

سُورَةُ النَّحْلِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾ ﴾

هكذا تبدأ السورة[1] الجليلة ؛ مُوضِّحةً أن قضاءَ الله وحُكْمه بنصر الرسول والمؤمنين لا شكَّ فيه ولا محَالة ؛ وأن هزيمة أهل الكفر قادمة ، ولا مَفرَّ منها إنْ هُم استمرُّوا على الكفر .

---

(١) سورة النحل هى السورة السادسة عشرة فى ترتيب المصحف ، وهى سورة مكية فى قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر . وقال ابن عباس : هى مكية إلا ثلاث آيات منها نزلت بالمدينة بعد قتل حمزة ، وهى قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ (١٢٦) وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ (١٢٧) إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ (١٢٨) ﴾ [النحل] قال القرطبى فى تفسيره (٥/٣٧٨٩) : « وتسمى سورة النعم بسبب ما عدد الله فيها من نعمه على عباده » . جاء فى تفسير أبى السعود بتصرف فى قوله تعالى : ﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ .. (١) ﴾ [النحل] قال : إنها الساعة وما يعمها وغيرها من العذاب الموعود للكفرة ، فقد عبر عن ذلك بأمر الله للتفخيم والتهويل ولابد أن يحققه فى نفسه وإثباته منوط بحكمه النافذ وقضائه الغالب وإتيانه عبارة تدل عن دنُوه واقترابه بدليل قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ .. (١) ﴾ [النحل] وفيه بلاغة . كلمة ﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ .. (١) ﴾ [النحل] فعل ماض يدل على زمن مضى ولكن قوله : ﴿ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ .. (١) ﴾ [النحل] يشير إلى أن أمر الله سابق وواقع لا محالة وله وقته المحدد ، والتعبير بالماضى عن المضارع والعكس ضرب من بلاغة القول فى الاستعارة التبعية فى الأفعال « المنهاج الواضح فى البلاغة » .

وقد سبق أنْ أنذرهم الرسول ﷺ بما نَزل عليه من آيات الكتاب ؛ أنذرهم فى السورة السابقة ببعض العذاب الدنيوى ، كنصر الإيمان على الكفر ، وأنذرهم مِنْ قَبْل أيضاً ببعض العذاب فى الآخرة ، كقوْل الحق سبحانه :

﴿ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ[1] فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٧٧) ﴾ [غافر]

وكذلك قوله الحق :

﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) ﴾ [القمر]

وهكذا وعد الحق سبحانه رسوله ﷺ أنْ يهزِم معسكر الكفر ، وأنْ ينصرَ معسكر الإيمان ؛ وإما أنْ يرى ذلك بعينيه أو إنْ قبض الحق أجلَه فسيراها فى الآخرة .

وعن حال الرسول ﷺ قال سبحانه :

﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ (٩٥) ﴾ [الحجر]

وأنذر الحق سبحانه أهل الشرك بأنهم فى جهنم فى اليوم الآخر ، وهنا يقول سبحانه :

﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ .. (١) ﴾ [النحل]

وهذا إيضاحٌ بمرحلة من مراحل الإخبار بما يُنذِرون به ، كما قال مرة :

---

(١) توفى الله فلاناً : أماته وقبض روحه . ويسند التوفى لله عز وجل ، أو يسند للملَك : ﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ .. (١١) ﴾ [السجدة] وقد يُسند التوفّى إلى الموت نفسه ، قال تعالى : ﴿ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ .. (١٥) ﴾ [النساء] . [القاموس القويم ٢/٣٤٧] .

﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ[1] الْقَمَرُ ۝١﴾ [القمر]

أى : اقتربتْ ساعة القيامة التى يكون من بعدها حسابُ الآخرة والعذاب لِمَنْ كفر ، والجنة لِمَنْ آمنَ وعمل صالحاً ، فاقترابُ الساعة غَيْر مُخيف فى ذاته ، بل مُخيف لِمَا فيه من الحساب والعقاب .

وقيل : إن أهلَ الكُفْر لحظة أنْ سَمِعوا قَوْل الحق سبحانه :

﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ .. ۝١﴾ [القمر]

قالوا : « فلننتظر قليلاً ؛ فقد يكون ما يُبلِّغ به محمد صحيحاً » وبعد أن انتظروا بعضاً من الوقت ، ولم تَأْتِ الساعة كما بَشَّر الرسول الكريم ﷺ قالوا : انتظرنا ولم تَأْتِ الساعة ، فنزل قول الحق سبحانه :

﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ .. ۝١﴾ [الأنبياء]

وهذا حديث عن الأمر الذى سيحدث فوْرَ قيام الساعة ، فَهَادنُوا وانتظروا قليلاً ، ثم قالوا : أيْنَ الحساب إذن ؟ فنزل قوله تعالى :

﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ .. ۝١﴾ [النحل]

وساعة سَمِع الكُلُّ ذلك فَزِعوا ؛ بمن فيهم من المسلمين ؛ وجاء الإسعاف فى قوله من بعد ذلك :

﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ .. ۝١﴾ [النحل]

---

(١) عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية فأراهم القمر شقين حتى رأوا حراء بينهما . أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٦٢٧) وكذا مسلم فى صحيحه (٢٨٠٢) كتاب المنافقين .

أى : أن الأمر الذى يُعلنه محمد ﷺ لا يعلم ميعادَه إلا اللهُ سبحانه ؛ واطمأنّ المسلمون[١] .

وكُلُّ حدث من الأحداث ـ كما نعلم ـ يحتاج كُلٌّ منها لظرفيْن ؛ ظرف زمانٍ ؛ وظرْف مكان . والأفعال التى تدلُّ على هذه الظروف إما فعْل مَاضٍ ؛ فظرْفُه كان قبل أن نتكلَم ، وفعلٌ مضارع . أى : أنه حَلَّ ، إلا إنْ كان مقروناً بـ « س » أو بـ « سوف » .

أى : أن الفعل سيقع فى مستقبل قريب إنْ كان مقروناً بـ « س » أو في المستقبل غير المحدد والبعيد إن كان مسبوقاً بـ « سوف » ، وهكذا تكون الأفعال ماضياً ، وحاضراً ، ومستقبلاً .

وكلمة (أتى) تدلُّ على أن الذى يُخبرك به ـ وهو الله سبحانه ـ إنما يُخبِرك بشىء قد حدث قبل الكلام ، وهو يُخبِر به ، والبشر قد يتكلَّمون عن أشياءَ وقعتْ ؛ ويُخبِرون بها بعضَهم البعض .

ولكن المتكلِّم هنا هو الحقُّ سبحانه ؛ وهو حين يتكلَّم بالقرآن فهو سبحانه لا ينقص علْمه أبداً ، وهو علم أزَلىٌّ ، وهو قادر على أنْ يأتىَ المستقبل وَفْق ما قال ، وقد أعدَّ توقيت ومكان كُل شىء من قبل أنْ يخلقَ ؛ وهو سبحانه خالق من قبل أن يخلق أى شىء ؛ فالخَلْق صفة ذاتية فيه ؛ وهو مُنزَّه فى كل شىء ؛ ولذلك قال :

﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ .. ﴿١﴾﴾ [النحل]

أى : أنه العليمُ بزمن وقوع كُلِّ حدَث ، وقد ثبت التسبيح له ذاتاً من قَبْل أنْ يوجد الخَلْق ؛ فهو القائل :

---

(١) أورده الواحدى فى أسباب النزول (ص ١٥٩) ، والقرطبى فى تفسيره (٥/ ٣٧٩٠) وعزواه لابن عباس رضى الله عنهما .

﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ[1] (٢٠)﴾ [الأنبياء]

ثم خلق السماوات وخلق الأرض وغيرهما .

أى : أنه مُسبَّح به من قَبْل خَلْق السماوات والأرض ، وهو القائل سبحانه :

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ .. (١)﴾ [الحشر]

ولكن هل انتهى التسبيح ؟ لا ، بل التسبيح مُستمِرّ أبداً ، فهو القائل :

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ .. (١)﴾ [الجمعة]

إذن : فقد ثبتتْ له « السُّبْحانية » فى ذاته ، ثم وجد الملائكة يُسبِّحون الليلَ والنهارَ ولا يفترُون ، ثم خلق السماء والأرض ، فسبَّح ما فيهما وما بينهما ؛ وجاء خَلْقه يُسبِّحون أيضاً ـ فيا مَنْ آمنتَ بالله إلهاً سبِّح كما سبَّح كُلُّ الكون .

ولقائل أنْ يسألَ : وما علاقة « سبحانه وتعالى » بما يُشركون ؟ ونعلم أنهم أشركوا بالله آلهةً لا تُكلّفهم بتكليف تعبُّدى ، ولم تُنزل منهجاً ؛ بل تُحلّل لهم كُلَّ مُحرَّم ، وتنهاهم عن بعض من الحلال ، وتخلوْا بذلك عن اتباع ما جاء به الرُّسل مُبلِّغين عن الله من تكليف يحمل مشقَّة الإيمان .

وهؤلاء هم مَنْ سيلقَوْنَ الله ، وتسألهم الملائكة : أين هم الشركاء الذين عبدتموهم مع الله ؟ ولن يدفَع عنهم أحدٌ هَوْلَ ما يلاقونه من العذاب .

---

(١) لا يفترون : لا ينقطعون عن التسبيح . والفترة : الانكسار والضعف . وفتر الشيء : سكن بعد حدة ولان بعد شدة . [لسان العرب ـ مادة : فتر] .

وهكذا تعرَّفْنا على أن تنزيه الله سبحانه وتعالى ذاتاً وصفاتاً وأفعالاً هو أمر ثابتٌ له قَبْل أنْ يُوجَد شيء ، وأمرٌ قد ثبتَ له بعد الملائكة ، وثبتَ له بعد وجود السماوات والأرض . وهو أمر طلب الله من العبد المُخيَّر أن يفعله ؛ وانقسم العبادُ قسمين ، قسْم آمن وسبَّح ، وقِسْم لم يُسبّح فتعالى عنهم الحق سبحانه لأنهم مُشْركون .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ (١) مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾ ﴾

وساعة نقرأ قوله ﴿ يُنَزِّلُ ﴾ فالكلمة تُوحى وتوُضِّح أن هناك عُلواً يمكن أن ينزلَ منه شيء على أسفل . والمَثلُ الذى أُحِبّ أنْ أضربه هنا لأوضحَ هذا الأمر هو قَوْل الحق سبحانه :

﴿ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ .. (١٥١) ﴾ [الأنعام]

أى : أقبلوا لتسمعوا منِّى التكليفَ الذى نزل لكم مِمَّنْ هو أعلى منكم ، ولا تظلُّوا فى حضيض الأرض وتشريعاتها ، بل تَساموا وخُذوا الأمر ممَّنْ لا هَوىَ له فى أموركم ، وهو الحق الأعلى .

أما مَنْ ينزلون فَهُم الملائكة ، ونعلم أن الملائكة خَلْق غيبىّ آمنَّا به ؛ لأن الله سبحانه قد أخبرنا بوجودهم . وكُلّ ما غاب عن الذِّهْن

---

(١) بالروح . أى : بالوحى وهو النبوة . وقيل : أرواح الخلق . قاله مجاهد ، لا ينزل ملك وإلا ومعه روح . وقيل : بالرحمة . قاله الحسن وقتادة وقيل : بالهداية ، لأنها تحيا بها القلوب كما تحيا بالأرواح والأبدان . وقال أبو عبيدة : الروح هنا جبريل . [تفسير القرطبى ٣٧٩١/٥] .

ودليله السماع ممَّنْ تثق بصدقه ، وقد أبلغنا ﷺ ما نزلَ به القرآن وأنبأنا بوجود الملائكة ، وأن الحق سبحانه قد خلقهم ؛ ورغم أننا لا نراهم إلا أننا نُصدّق ما جاء به البلاغ عن الحق من الصادق الصَّدُوق محمد ﷺ .

وحين يقول الحق سبحانه :

﴿يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ .. (٢)﴾

[النحل]

فنحن نعلم أنه لا يمكن أنْ ينزلَ شيءٌ من أعلى إلى الأدْنى إلا بواسطة المُقربات .

وقد اختار الحق سبحانه ملكاً[1] من الملائكة ليُبلّغ رُسُله بالوحى من الله ، والملائكة كما أخبرنا الحق سبحانه :

﴿عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ (٢٦) لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (٢٧)﴾

[الأنبياء]

ويقول فى آية أخرى :

﴿لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٦)﴾ [التحريم]

وهم من نور ، ولا تصيبهم الأغيار ، ولا شهوةَ لهم فلا يتناكحون ولا يتناسلون ؛ وهم أقربُ إلى الصَّفَاء . وهم مَنْ يُمكِنهم التلقِّى من الأعلى ويبلغون الأَدْنى .

---

(١) المقصود هنا جبريل عليه السلام . قال تعالى : ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣)﴾ [الشعراء] قال ابن كثير فى تفسيره (٣٤٧/٢) : « هو جبريل عليه السلام ، قاله غير واحد من السلف ، وهذا مما لا نزاع فيه » .

ولذلك نجد الحق سبحانه يقول عن القرآن :

﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣)﴾ [الشعراء]

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ .. (٢)﴾ [النحل]

والآية الإجمالية التى تشرح ذلك هو قَوْلُ الحق سبحانه :

﴿اللَّهُ يَصْطَفِى[1] مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٧٥)﴾ [الحج]

أى : أنه سبحانه يختار ملائكة قادرين على التلقّى منه ليُعْطوا المصطفين من الناس ؛ ليُبلّغ هؤلاء المُصْطفين عن الله لبقية الناس .

ذلك أن العُلْويات العالية لا يملك الكائن الأَدْنى طاقة ليتحمّل ما تتنزّل به الأمور العُلْوية مباشرة من الحق سبحانه .

وسبق أنْ شبَّهْت ذلك بالمُحّول الذى نستخدمه فى الكهرباء لينقل من الطاقة العالية إلى الأَدْنى من المصابيح ، وكُلّنا يعلم ما حدث للرسول ﷺ حين تلقّى الوحى عبر جبريل عليه السلام « فَضمَّنى حتى بلغ منّى الجهد » وتفصد[2] جبينه الطاهر عرقاً ، وعاد إلى بيته ليقول « زملونى زملونى » و « دثرونى دثرونى »[3] .

---

(١) اصطفاه : اختاره وآثره وفضّله . قال تعالى : ﴿يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ (٤٢)﴾ [آل عمران] . [القاموس القويم ١/ ٣٨٠] .

(٢) تفصد عرقاً : سال عرقاً . [لسان العرب ـ مادة : فصد] .

(٣) زمله بالثوب : لفّه به فتزمل به وتلفّف به . ومنه قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١)﴾ [المزمل] نداء يذكر الرسول بقوله « زملونى » عند بدء الوحى ، ذكره الله تعالى للإيناس والملاطفة ، وفيه توجيه إلى ترك النوم وترك الراحة والقيام بواجبات الرسالة . [القاموس القويم ١/ ٢٩٠] . وحديث بدء الوحى أخرجه البخارى فى كتاب « بدء الوحى » من صحيحه « حديث رقم ٤٣» من حديث عائشة رضى الله عنها .

ذلك أن طاقـةً عُلْوية نزلت على طاقة بشـرية ، على الرغم من أن طاقة رسول الله هى طاقة مُصْطفاة . ثم يألف الرسول الوحى وتخفّ عنه مِثْل تلك الأعباء ، وينزل عليه قوله الحق :

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (١) وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ[1] (٢) الَّذِى أَنقَضَ ظَهْرَكَ (٣) وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (٤) فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٥) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٦)﴾ [الشرح]

ثم يفتر[2] الوحى لبعـض من الوقت لدرجة أن النبى ﷺ يشـتاق إليه ، فلماذا اشتاق للوحى وهو مَنْ قال « دثّرونى دثّرونى » ؟

لقد كـان فُتـور الوحى بسبب أنْ يتـعوّد محـمد ﷺ على مـتاعب نُزول المَلَك ؛ فتزولُ متاعب الالتقاء وتبقى حلاوة ما يبلغ به .

وقال بعض من الأغبياء : « إن ربَّ محمد قد قلاه[3] » .

فينزل قوله سبحانه :

﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣) وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأُولَىٰ (٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ (٥)﴾ [الضحى]

---

(١) الوزر : همّك الذى أتعبك ، وهو هَمّ البحث عن الدين الحق . أو : يكون الوزر هو الذنب الذى كنت تراه ذنباً لشدة حبك لله . [القاموس القويم ٢/٣٣٣] .

(٢) الفترة : الانكسار والضعف . فتر الشىء : سكن بعد حدّة ولان بعد شدة . والفتر : الضعف . والفترة : ما بين كل نبيين ، وفى الصحاح : ما بين كل رسولين من رسل الله عز وجل من الزمان الذى انقطعت فيه الرسالة . [لسان العرب ـ مادة : فتر] .

(٣) قلى فلاناً يقليه : أبغضه وجفاه . قال تعالى : ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣)﴾ [الضحى] ما أبغضك ولا جفاك . [القاموس القويم ٢/١٣٢] . وعن جندب بن عبدالله البجلى أنه قال : أبطأ جبريل على رسول الله ﷺ فقال المشركون : ودع محمداً ربه . أورده ابن كثير فى تفسيره (٤/٥٢٢) .

وكلمة الروح وردتْ فى القرآن بمعَانٍ متعددة ، فهى مرّة الروح التى بها الحياة فى المادة ليحدث بها الحسّ والحركة :

﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٢٩)﴾ [الحجر]

وهذا النفْخ فى المادة يحدثُ للمؤمن والكافر ، وهناك رُوح أُخْرى تعطى حياةً أعلى من الحياة الموقوتة :

﴿وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٦٤)﴾ [العنكبوت]

إذن : فالملائكة تنزل بالبلاغ عن الله بما فيه حياة أرْقى من الحياة التى نعيش بها ونتحرَّك على الأرض . وهكذا تكون هناك رُوحان لا روحٌ واحدة ؛ رُوح للحسِّ والحركة ؛ وروح تُعطى القيم التى تقودنا إلى حياة أخرى أرْقى من الحياة التى نحياها ؛ حياةٌ لا فناءَ فيها .

ولذلك يُسمِّى الحق سبحانه القرآن روحاً ؛ فيقول :

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ .. (٥٢)﴾ [الشورى]

ويُسمِّى الحق سبحانه الملَك الذى نزل بالقرآن روحاً ، فيقول :

﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (١٩٤)﴾

[الشعراء]

ويشرح الحق سبحانه أن القرآن روحٌ تعطينا حياةً أرْقى ، فيقول :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ .. (٢٤)﴾ [الأنفال]

أى : يدخل بكم إلى الحياة الأبدية التى لا موْتَ فيها ولا خَوْف أنْ تفقد النعمة أو تذهب عنك النعمةُ .

وهنا يُبلِّغنا سبحانه أن القرآن نزل مع الملائكة :

﴿يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ .. (٢)﴾ [النحل]

أى : تنزيلاً صادراً بأمره سبحانه ، ويقول الحق سبحانه فى موقع آخر :

﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ(١) مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ..(١١)﴾

[الرعد]

والسَّطْحيون لا يلتفتون إلى أنَّ معنى :

﴿مِنْ أَمْرِ اللَّهِ .. (١١)﴾ [الرعد]

هنا تعنى أنهم يحفظُونه بأمر من الله .

والأمر هنا فى الآية ـ التى نحن بصدد خواطرنا عنها ـ هو ما جاء فى الآية الأولى منها :

﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ .. (١)﴾ [النحل]

وهذا الأمر هو نتيجة لِمَا يشاؤه الله من حياة للناس على الأرض ، ونعلم أن الحق سبحانه له أوامر مُتعدّدة يجمعها إبراز المعدوم إلى الوجود ؛ فهو سبحانه القائل :

﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٤٠)﴾ [النحل]

---

(١) أى : ملائكة حفظة يتتبعونه يحفظونه ويصون أعمالهم . أو : المعنى : تتعاقب الملائكة ليلاً ونهاراً . [القاموس القويم ٢/٢٩] .

فإذا شاء أمراً جزئياً فهو يقول له : كُنْ فيكون ، وإذا أراد منهجاً ؛ فهو يُنزله ، وإذا أراد حساباً وعقاباً وساعةً ؛ فهو القائل ﴿ أَتَى أَمْرُ اللهِ ﴾ .

وهكذا نفهم أن معنى ﴿ أَمْر اللهِ ﴾ هو ﴿ كُنْ فيكون ﴾ أى : إخراج المعدوم إلى حَيِّز الوجود ؛ سواء أكان معدوماً جزئياً ، أو معدوماً كلياً ، أو معدوماً أزلياً .

وكُلّ ذلك اسمه أمر ، ولحظةَ أنْ يأمرَ الله ؛ فنحن نَثِقُ أن مأمور الله يبرز ؛ ولذلك قال سبحانه :

﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ (١) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ[1] (٢) ﴾ [الانشقاق]

أى : أنها لم تسمع الأمر فقط ؛ بل نفّذتْه فَوْر صدوره ؛ دون أدْنى ذرة من تخلُّف ، فأمْر الله يُنفّذ فَوْر صدوره من الحق سبحانه ، أما أمْر البشر فهو عُرْضَة لأنْ يُطَاع ، وعُرْضَة لأنْ يُعصَى .

وسبحانه يُنزّل الملائكة بالرُّوح على مَنْ يشاء لِيُنذروا ؛ ولم يَأْتِ الحق سبحانه بالبشارة هنا ؛ لأن الحديث مُوجّه للكفار فى قوله :

﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ .. (١) ﴾ [النحل]

ونزّه ذاته قائلاً :

﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١) ﴾ [النحل]

أى : أن الحق يُنبّه رسوله ، إنْ دخلتَ عليهم فَفسِّر لهم مُبْهَم ما لا يعرفون ، وهم لا يعرفون كيفية الاصطفاء . وهو الحق الأعلم حيث يصطفى .

---

(١) حقاً ثابتاً عليها أن تخضع لأمر الله . [القاموس القويم

ومشيئة الاصطفاء والاجتباء والاختيار إنما تتمّ بمواصفات الحق سبحانه ؛ فهو القائل :

﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ .. (١٢٤) ﴾ [الأنعام]

وعُلِم أن الكافرين قد قالوا :

﴿ لَوْلا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ[1] عَظِيمٍ (٣١) ﴾ [الزخرف]

وقال الحق سبحانه فى رَدِّه عليهم :

﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ .. (٣٢) ﴾ [الزخرف]

فإذا كان الحق سبحانه قد قَسَّم بين الخَلْق أرزاقهم فى معيشتهم المادية ؛ وإذا كان سبحانه قد رفع بعضهم فوق بَعْض درجات ؛ وهو مَنْ يجعل المرفوعَ مخفوضاً ؛ ويجعل المخفوضَ مرفوعاً ، فكيف يأتى هؤلاء فى الأمور القِيَميّة المُتعلّقة بالروح وبالمنهج ، ويحاولون التعديل على الله ؛ ويقولون « نريد فلاناً ولا نريد فلاناً » ؟

أو : أن الحق سبحانه يوضّح لرسوله : بعد أنْ شرحتَ لهؤلاء أمر الوحى ، فعليك أنْ تُبلّغهم كلمة الله :

﴿ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ أَنَا فَاتَّقُونِ (٢) ﴾ [النحل]

وما دام لا يوجد إلهٌ آخر فعلى الرسول أن يُسْدِى لهم النصيحة ؛ بأن يقصروا على أنفسهم حَيْرة البحث عن إله ، ويُوضّح لهم أنْ لا إله إلا هو ؛ وعليهم أنْ يتقوه .

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (١٢٦/٤) : « يعنون مكة والطائف . قاله ابن عباس رضى الله عنهما وعكرمة ومحمد بن كعب القرظى وقتادة والسدى وابن زيد . (واختلفوا فى المقصود بهذين الرجلين) . والظاهر أن مرادهم رجل كبير من أى البلدتين كان » .

وفى هذا حنان من الحق على الخَلْق ، وهو الحق الذى منع الكائنات التى تعجبتْ ورفضتْ كُفْر بَعْضٍ من البشر بالله ؛ وطلبتْ أن تنتقمَ من الإنسان ، وقال لهم : « لو خلقتموهم لرحمتموهم ، دَعُونى وخَلْقى ؛ إنْ تابوا إلىَّ فأنا حبيبُهم ؛ وإنْ لم يتوبوا فأنا طبيبهم » .

وقَوْل الحق سبحانه :

﴿أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ أَنَا فَاتَّقُونِ (٢)﴾ [النحل]

هو جماعُ عقائد السماء للأرض ؛ وجماعُ التعبُّدات التى طلبها الله من خَلْقه لِيُنظّم لهم حركة الحياة مُتساندةً لا مُتعاندةً .

فكأن :

﴿أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ أَنَا فَاتَّقُونِ (٢)﴾ [النحل]

هى تفسيرٌ لِمَا أنزله الله على الملائكة من الرُّوح التى قُلْنا من قبل : إنها الروح الثانية التى يَجىء بها الوَحْى ؛ وتحملُ منهجَ الله ليضمن للْمُعتنق حياة لا يزول نعيمها ولا المُتنعّم بها ؛ وهى غَيْر الروح الأولى التى إذا نفخها الحق فى الإنسان ، فالحياة تدبّ فيه حركةً وحِساً ولكنها إلى الفناء .

وكأن الحق سبحانه من رحمته بخَلْقه أنْ أنزلَ لهم المنهج الذى يهديهم الحياة الباقية بدلاً من أنْ يظلُّوا أسْرى الحياة الفانية وحدها .

ومن رحمته أيضاً أن حذرهم من المصير السيىء الذى ينتظر مَنْ يكفر به ؛ ومثل هذا التحذير لا يصدر إلا مِنْ مُحبٍّ ؛ فسبحانه يُحب خَلْقه ، ويُحب منهم أنْ يكونوا إليه مخلصين مؤمنين ، ويحب لهم أنْ ينعموا فى آخرة لا أسبابَ فيها ؛ لأنهم سيعيشون فيها بكلمة « كُنْ » من المُسبّب .

فإذا قال لهم ﴿أَنَّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ أَنَا .. (٢)﴾ [النحل] فهو يُوضّح أنه لا إله غيره ، فلا تشركوا بى شيئاً ، ولا تكذبوا الرسل وعليكم بتطبيق منهجى الذى يُنظّم حياتكم وأُجازِى عليه فى الآخرة .

وإياكم أنْ تغترُّوا بأنِّى خلقتُ الأسباب مُسخرة لكم ؛ فأنا أستطيع أن أقبض هذه الأسباب ؛ فقد أردتُ الدنيا بلاءً واختباراً ؛ وفى الآخرة لا سُلْطان للأسباب أبداً :

﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦)﴾ [غافر]

وظاهر الأمر أن المُلْك لله فى الآخرة ، والحقيقة أن المُلْك لله دائماً فى الدنيا وفى الآخرة ؛ ولكنه شاء أنْ يجعلَ الأسباب ـ المخلوقة بمشيئته ـ تستجيب للإنسان ؛ فإياك أنْ تظنَّ أنك أصبحتَ قادراً ؛ فأنت فى الحياة تملك أشياء ، ويملكك مَلِك أو حاكم مثلك ؛ فسُنّة الكون أنْ يوجدَ نظامٌ يحكم الجميع .

ولكن الآخرة يختلف الأمر فيها ؛ فلا مُلْكَ لأحد غير الله ، بل إن الأعضاء نفسها لا تسير بإرادة أصحابها بل بإرادة الحق ، تلك الأعضاء التى كانت تخضع لمشيئتك فى الدنيا ؛ لا حُكْمَ لك عليها فى الآخرة ، بل ستكون شاهدة عليك .

فإن كان الله قد أعطاك القدرة على تحريك الأعضاء فى الدنيا ، فإنْ وجَّهتها إلى مأمور الله ؛ فأنت من عباده[1] ، وإنْ لم تُوجهها إلى مطلوب الله ، فأنت من عبيده .

وبعد ذلك يُقدّم لك سبحانه الحيثية التى تُعزّز أمره بعبادته

---

(١) العباد : هم عباد الرحمن ، والعبيد كل الناس ، فكل عابد عَبْد وليس كل عبد عابداً ، وقد يَرْقى العبيد إلى مقامات العباد بالعمل الصالح .

وحده ، وأنْ لا إله غيره ؛ فإنه لم يطلب أن نعبده إلا بعد أنْ خلق لنا السماوات والأرض ؛ وكل الكون المُعَد لاستقبال الإنسان بالحق ؛ أى بالشىء الثابت ؛ والقانون الذى ليس فى اختيار أحد سواه سبحانه ، ويقول سبحانه :

﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ (١) تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ ﴾

أى : تنزَّه سبحانه عمَّا يشركون معه من آلهة ، فلا أحدَ قد ساعده فى خَلْق الكون وإعداده ؛ فكيف تجعلون أنتم معه آلهة غيره ؟ وسبحانه مُنزّه عن أنْ يكون معه آلهة أخرى ، وسبحانه قد خلق لنَا من قبل أن يخلقنا ؛ خلق السماوات والأرض وقدَّر الأرزاق ، ولو نظرتَ إلى خَلْقك أنت لوجدت العَالَم الكبير قد انطوى فيك ؛ وهو القائل :

﴿ وَفِى أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٢١) ﴾ [الذاريات]

وأنت مخلوق من ماذا ؟

ها هو الحق سبحانه يقول :

﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ (٢) ﴿٤﴾ ﴾

---

(١) بالحق : أى للدلالة على قدرته سبحانه : وأن له أن يتعبد العباد بالطاعة ، وأن يُحى الخلق بعد الموت . [تفسير القرطبى ٥/٣٧٩٢] .

(٢) الخصيم : أى شديد الخصام . أى : مخاصم لله ولرسوله مبالغ فى إظهار خصومته وعداوته . [القاموس القويم ١/١٩٦] .

والنطفة التى نجىء منها ، وهى الحيوان المَنَوىّ الذى يتزاوج مع البويضة الموجودة فى رَحم المرأة فتنتج العلقة ، وسبحانه القائل :

﴿أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى[1] (٣٦) أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ (٣٨) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ (٣٩)﴾ [القيامة]

بل إن القَذْفة الواحدة من الرجل قد يوجد فيها من الأنسال ما يكفى خَلْقَ الملايين ؛ ولا يمكن للعين المُجرَّدة أنْ ترى الحيوان المنوىّ الواحد نظراً لدقَّته المتناهية .

وهذه الدقّة المُتناهية لا يمكن أنْ تُرى إلا بالمجاهر المُكبّرة ، ومطمور فى هذا الحيوان المنوىّ كُل الخصائص التى تتحد مع الخصائص المَطْمورة فى بُويْضة المرأة ليتكوّن الإنسان .

وقد صدق العقاد ـ يرحمه الله ـ حين قال : « إن نصف كستبان الخياطة لو مُلِىء بالحيوانات المنوية لَوُلِد منه أنسال تتساوى مع تعداد البشر كلهم » .

وقد شاء الحق سبحانه ألا ينفُذَ إلى البويضة إلا الحيوانُ المنوىّ القوى ؛ ليُؤكّد لنا أنْ لا بقاءَ إلا للأصلح ، فإنْ كان الحيوان المنوىّ يحمل الصفات الوراثية لميلاد أنثى جاء المولود أنثى ؛ وإنْ كان يحمل الصفات الوراثية لميلاد الذَّكَر جاء المولود ذكراً .

وأنت ترى مثْل ذلك فى النبات ؛ فأوَّل حبّة قمح كانت مثل آدم كأول إنسان بالطريقة التى نعرفها ؛ وفى تلك الحبّة الأولى أوجد

---

(١) أى : أيحسب الإنسان أن يترك مهملاً غير مأمور وغير منهىّ . [لسان العرب ـ مادة سدا] .

الحق سبحانه مضمون كل حبوب القمح من بعد ذلك ، وإلى أنْ تقومَ الساعة ، وتلك عظمةُ الحق سبحانه فى الخَلْق .

وقد أوضح لنا الحق سبحانه فى أكثر من موضع بالقرآن الكريم مراحل خَلْق الإنسان ؛ فهو :

﴿مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ (٨)﴾ [السجدة]

وهو من نطفة ، ومن علقة ، ثم مضغة مُخلَّقة وغير مُخلَّقة[1] .

والحيوان المنوىّ المُسمّى « نُطْفة » هو الذى يحمل خصائص الأنوثة أو الذكورة كما أثبت العلم الحديث ، وليس للمرأة شأْنٌ بهذا التحديد ، وكأن فى ذلك إشارةً إلى مهمة المرأة كسكَنٍ ؛ لأن البُويْضة تتلقّى الحيوان المنوىّ وتحتضنه ؛ ليكتمل النمو إلى أنْ يصيرَ كائناً بشرياً :

﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤)﴾ [المؤمنون]

وهو الحق سبحانه القائل :

﴿أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى (٣٦) أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً .. (٣٨)﴾ [القيامة]

والعلقة جاء اسمها من مهمتها ، حيث تتعلق بجدار الرَّحِم كما أثبت العِلْم المعاصر ، ويقول سبحانه :

﴿فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً .. (١٤)﴾ [المؤمنون]

---

(١) يقول تعالى : ﴿يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ .. (٥)﴾ [الحج] .

والمُضْغة هى الشىء المَمْضُوغ ؛ ثم يَصِف سبحانه المضغة بأنها :

﴿ مُّخَلَّقَةٍ[١] وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ .. (٥) ﴾ [الحج]

ولقائل أن يتساءل : نحن نفهم أن المُضْغة المُخلّقة فيها ما يمكن أن يصير عيناً أو ذراعاً ؛ ولكن ماذا عن غير المُخلّقة ؟

ونقول : إنها رصيد احتياطىّ لصيانة الجسم ، فإذا كنتَ أيها المخلوق حين تقوم ببناء بَيْت فأنت تشترى بعضاً من الأشياء الزائدة من الأدوات الصحية - على سبيل المثال - تحسُّباً لما قد يطرأ من أحداث تحتاج فيها إلى قطع غيار ؛ فما بالنا بالحق الذى خلق الإنسان ؟

لقد جعل الله تلك المُضْغة غير المُخلّقة[٢] رصيداً لصيانة ، أو تجديداً لما قد يطرأ على الإنسان من ظروف ؛ وتكون زائدة فى الجسم وكأنها مخزنٌ لقطع الغيار .

والمثل هو الجروح التى تصيب الإنسان ، ثم يتركها ليعالجها الجسمُ بنفسه ، نجدها تلتئم دون أنْ تتركَ نَدْبة[٣] أو علامة ، ذلك أنه قد تَمَّ علاجها من الصيدلية الداخلية التى أودعها الحق سبحانه فى الجسم نفسه .

---

(١) مخلقة : أى مُشكَّلة ومُصوّرة على هيئة طفل . وغير مخلقة أى : غير مشكّلة ، أى غير تامة التصوير . [القاموس القويم ١/٢٠٧] .

(٢) قال ابن كثير فى تفسيره (٣/٢٠٦) : « إذا استقرت النطفة فى رحم المرأة مكثت أربعين يوماً كذلك ، يضاف إليه ما يجتمع إليها ، ثم تنقلب علقة حمراء بإذن الله فتمكث كذلك أربعين يوماً ، ثم تستحيل فتصير مضغة قطعة من لحم لا شكل فيها ولا تخطيط ، ثم يشرع فى التشكيل والتخطيط ، وتارة تلقيها وقد صارت ذات شكل وتخطيط » .

(٣) الندبة : أثر الجرح إذا لم يرتفع عن الجلد . [لسان العرب - مادة : ندب] .

والمفاجأة هى أن هذا الإنسانَ المخلوق لله :

﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ (٤)﴾ [النحل]

ويتمرَّد على خالقه ، بل وينكر بعضٌ من الخَلْق أن هناك إلهاً ؛ متجاهلين أنهم بقوة الله فيهم يجادلونه . والخصيم هو الذى يُجادل ويُنكِر الحقائق ؛ فإذا حُدِّث بشىء غيبى ، يحاول أنْ يدحضَ معقوليته .

ويقول سبحانه فى سورة يس :

﴿أَوَ لَمْ يَرَ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ (٧٧)﴾ [يس]

وقد يكون من المقبول أن تكون خَصْماً لمساويك ؛ ولكن من غير المقبول أن تكون خصيماً لِمَنْ خلقك فسوَّاك فعَدلك ، وفى أىِّ صورة ما شاء ركَّبك .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٥)﴾

والدِّفْءُ هو الحرارة للمبرود ، تماماً مثلما نعطى المحرور برودة، وهذا ما يفعله تكييف الهواء فى المنازل الحديثة . ونجد الحق سبحانه هنا قد تكلَّم عن الدفء ولم يتكلم عن البرد ، ذلك أن المقابل معلوم ، وهو فى آية أخرى يقول :

﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ[1] تَقِيكُمُ الْحَرَّ .. (٨١)﴾ [النحل]

---

(١) السرابيل : جمع سربال ، وهو ما يُلبس من قميص أو درع . [القاموس القويم ١/٣٠٨].

وهذا ما يحدث عندما نسير فى الشمس الحارة ؛ فنضع مظلة فوق رؤوسنا لتقينا حرارة الشمس الزاعقة الشديدة . ونحن فى الشتاء نلبس قلنسوة أى : نلفّ شيئاً حول رؤوسنا ، وهكذا نعلم أن اللباس يفعل الشىء ومقابله ، بشرط أن يختار الإنسانُ اللباسَ المناسب للجوِّ المناسب .

وفى الأنعام منافع كثيرة ؛ فنحن نشرب لبنها ، ونصنع منه الجُبْن والسمن ؛ ونجزّ الصوف لنغزل وننسج منه ملابس صوفية ، وتحمل الأثقال ، ونستفيد من ذريتها ؛ وكذلك نأكل لحومها.

و نحن نعلم أن الأنعام قد جاء تفصيلها فى موقع آخر حين قال الحق سبحانه :

﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ .. (١٤٣)﴾ [الأنعام]

وهى الضَّأن والمَعْز والإبل والبقر .

ونعلم أن الدِّفْءَ يأتى من الصُّوف والوَبَر والشَّعْر ، ومَنْ يلاحظ شعر المَعْز يجد كل شَعْرة بمفردها ؛ لكن الوبر الذى نجزه من الجمل يكون مُلبداً ؛ وهذا دليل على دِقّة فَتْلته ، أما الصوف فكل شعرة منه أنبوبة أسطوانية قَلْبُها فارغ .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ(١) حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ (٦)﴾

---

(١) الجمال : الحُسْن ، وما يُتجمّل به ويتزين . قال القرطبى فى تفسيره (٥/٣٧٩٥) : « جمال الأنعام والدواب من جمال الخلقة ، وهو مرئى بالأبصار موافق للبصائر . ومن جمالها كثرتها » .

وهنا نجد أن الحق سبحانه قد أعطانا الترف أيضاً بجانب الضروريات ، فالدِّفْء والمنافع والأكل ضروريات للحياة ، أما الجَمال فهو من تَرَف الحياة ، والجمال هو ما تراه العين ، فيتحقق السرور فى النفس . والدِّفْء والمنافع والأكل هى أمور خاصة لمَنْ يملك الأنعام ؛ أما الجمال فمشاع عَامٌّ للناس ، فحين ترى حصاناً جميلاً ؛ أو البقرة المَزْهُوة بالصحة ؛ فأنت ترى نعمة الله التى خلقها لِتسُرّ الناظر إليها .

ونلحظ هذا الجمال فى لحظات سروح البهائم ولحظات رواحها . ونقول فى الريف « سرحت البهائم » أى : خرجتْ من الحظائر لترعى وتأكل . ونلحظ أن الحق سبحانه قد قدَّم الرَّواح أى العودة إلى الحظائر عن السُّروح ؛ لأن البهائم حين تعود إلى حظائرها بعد أنْ ترعى تكون بطونُها ممتلئةً وضُروعها رابِية[1] حافلة باللبن ؛ فيسعد مَنْ يراها حتى قبل أنْ يطعمَ من ألبانها .

ومَنْ يخرج ببهائمه فى الصباح من بيته ، ويصحبها من زرائبها إلى الحقل ، يجد جمالاً مع هيبة ومنعة مع أصوات تحقق للرجل المالك الهيبة ، ومَنْ لا يملك يمكن أنْ يشاهدَ جمال تلك الأنعام .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ[2] إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ ﴾

---

(١) ربا الشىء يربو : زاد ونما . وأربيته : نميته . [لسان العرب ـ مادة : ربا] .

(٢) الثقل : الحمل الثقيل ، والجمع أثقال مثل حِمْل وأحمال . [لسان العرب ـ مادة : ثقل] . فالأثقال : الأحمال الثقيلة .

ونعلم أن الإنسانَ فى حياته بين أمرين ؛ إما ظَاعِن أى : مسافر . وإما مقيم . وفى حالة المقيم ، فالأنعام تُحقّق له الدِّفْء والطعام والمَلْبس . وعادةً ما يكتفى متوسطُ الحال بأنْ يستقرّ فى مكان إقامته وكذلك الفقير .

أما المقتدر الغنىّ ؛ فأنت تجده يوماً فى القاهرة ، وآخر فى الإسكندرية ، أو طنطا ، وقد يسافر إلى الخارج ، وكلُّ ذلك ميسور فى زمن المواصلات الحديثة . وقديماً كانت وسائل المواصلات شاقة ، ولا يقدر على السفر إلا مَنْ كانت لديه إبل صحيحة أو خيول قوية ، أما مَنْ لم يكن يملك إلا حماراً أعجف[1] فهو لا يفكر إلا فى المسافات القصيرة .

ولذلك نجد القرآن حين تكلم عن أهل سبأ يقول :

﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ[2] .. (١٩)﴾ [سبأ]

وهم قد قالوا ذلك اعتزازاً بما يملكونه من خَيْل ووسائل سفر من دوابّ سليمة وقوية ، تُهيِّىء السفر المريح الذى ينمُّ عن العزّ والقوة والثراء .

وقوله الحق :

﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ .. (٧)﴾ [النحل]

يعنى وضع ما يَثْقل على ما يُثَقّل ؛ ولذلك فنحن لا نجد إنساناً

---

(١) الأعجف : الهزيل من سوء التغذية . والعجف : غلَظ العظام وعراؤها من اللحم . [لسان العرب ـ مادة : عجف] .

(٢) وذلك أن الله تعالى قال : ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ (١٨)﴾ [سبأ] .

يحمل دابتـه ؛ بل نجد مَنْ يحمل أثقـاله على الدابة ليُخفّف عن نفـسه حَمْل أوزانٍ لا يقدر عليها .

ونعلم أن الوزن يتـبع الكثافة ؛ كـما أن الحجمَ يـتبع المسـاحة ؛ فحـين تنظر إلى كيلوجرام من الـحديد وكيلوجـرام من القطن ، فأنت تجد أن حجم كيلوجرام القطن أكـبرُ من حجم كيلوجرام الحديد ؛ لأن كثافة الحديد مطمورة فيه ، أما نفاشات القطن فهى التى تجعله يحتاج حيزاً أكبر من المساحة .

ويتابع الحق سبحانه قوله فى الآية الكريمة :

﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ ..(٧)﴾

[النحل]

ومَنْ يفتش فى أساليب القـرآن من المستشرقـين قد يقول : « إن عَجُزَ الآية غَيْر متفق مع صَدْرها » .

ونقول لمثل صاحب هـذا القول : أنت لم تفطن إلى المنّة التى يمتنُّ بها الله على خَلْقه ، فهم لم يكونوا بالغين لهذا البلد دون أثقالَ إلا بمشقّة ؛ فما بالنا بثِقَل المشقة حين تكون معهم أثقال من بضائع ومتاع ؟

إنها نـعمة كـبيـرة أنْ يجدوا ما يـحملون عليـه أثقالهم وأنفـسهم ليصلوا إلى حيث يريدون .

وكلمـة ﴿ بِشِقِّ ﴾ [النحل] مـصـدرها شَق وهو الصِّـدْع بين شيئين ؛ ويعنى عَزْل متصلين ؛ وسبحانه هو القائل :

﴿فَاصْدَعْ[1] بِمَا تُؤْمَرُ .. (٩٤)﴾ [الحجر]

---

(١) صدع بالأمـر : جهـر به فى قوة كـأنه يشق جدار الصـمت والسكون . [القامـوس القويم ١/ ٣٧١] .

وهناك « شَق » وهو الجهد ، و« شقَّة » . والإنسان كما نعلم هو بين ثلاث حالات : إمّا نائم ؛ لذلك لا يحتاج إلى طاقة كبيرة تحفظ له حياته ؛ وأيضاً وهو مُتيقّظ فأجهزته لا تحتاج إلى طاقة كبيرة ؛ بل تحتاج إلى طاقة مُتوسِّطة لتعملَ ؛ أما إنْ كان يحمل أشياءَ ثقيلةً فالإنسان يحتاج إلى طاقة أكبر لتعمل أجهزته .

وكذلك نجد الحق سبحانه يقول :

﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا(١) قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا(٢) لَأَتَّبَعُوكَ وَلَـٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ .. (٤٢)﴾ [التوبة]

والمعنىّ هنا بالشُّقة هى المسافة التى يشقُّ قطعُها ، ويُنهى الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله :

﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٧)﴾ [النحل]

والصفتان هنا هما الرأفة والرحمة ، وكل منهما مناسب لمَا جاء بالآية ؛ فالربُّ هو المُتولِّى التربية والمَدَد ، وأىُّ رحلة لها مَقْصِد ، وأىُّ رحلة هى للاستثمار ، أو الاعتبار ، أو للاثنين معاً .

فإن كانت رحلةَ استثمار فدابّتُك يجب أن تكون قويةً لتحمل ما معك من أثقال ، وتحمل عليها ما سوف تعود به من بضائع .

وإنْ كانت الرحلةُ للاعتبار فأنت تزيل بهذا السفر ألم عدم المعرفة

---

(١) عرض الدنيا : ما كان من مال ، قل أو كثر . والعرض : متاع الدنيا وحطامها . [لسان العرب ـ مادة : عرض] .

(٢) السفر القاصد : السهل الواضح المعروف هدفه ، قال تعالى : ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَأَتَّبَعُوكَ .. (٤٢)﴾ [التوبة] لكن السفر إلى تبوك كان عسيراً فى وقت العسرة ، وكان شاقاً وغير معروف الهدف ، ولهذا تخلف المنافقون . [القاموس القويم ٢/١١٨] .

والرغبة فى الوصول إلى المكان الذى قصدته .

وهكذا تجد الرأفةَ مناسبةً لقضاء النفع وتحقيق الحاجة وإزالة الألم . وكلمة رحيم مناسبة لمنع الألم بتحقيق الوصول إلى الغاية .

وتوقَّفَ بعضٌ من العلماء عند مَقْصد الرحلة ؛ كأن تكون مسافراً للاتجار أو أن تكونَ مسافراً للاعتبار . ولكن هذا سفرٌ بالاختيار ؛ وهناك سفر اضطرارى ؛ كالسفر الضرورى إلى الحج مرة فى العمر .

والحق سبحانه يزيل ألم الحَمْل الثقيل ، وبذلك تتحقق رأفته ؛ وهو رحيم لأنه حقَّق لكم أُمنية السفر .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً[1] وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ ﴾

وبعد أن ذكر لنا الحق سبحانه الأنعام التى نأخذ منها المأكولات ، يذكر لنا فى هذه الآية الأنعام التى نستخدمها للتنقّل أو للزينة ؛ ولا نأكل لحومها[2] وهى الخَيْل والبِغَال والحمير ؛ ويُذكِّرنا بأنها للركوب والمنفعة مع الزينة ؛ ذلك أن الناس تتزيَّن بما تَرْكب ؛

---

(١) البغال : جمع بغْل . وهو ابن الفرس من الحمار وهو لا يلد ، فالشأن في البغل العقم . وذكرها القرآن بين الخيل والحمير إشارة إلى تولُّدها منهما . [القاموس القويم ١/٧٦] .

(٢) قال القرطبى فى تفسيره (٥/٣٨٠٠) : « سئل ابن عباس عن لحوم الخيل فكرهها ، وتلا هذه الآية وقال : هذه للركوب ، وقرأ الآية التى قبلها : ﴿ وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ .. ﴿٥﴾ ﴾ [النحل] ثم قال : هذه للأكل . وبه قال مالك وأبو حنيفة وأصحابهما . وقال الجمهور من الفقهاء والمحدثين : هى مباحة . قلت : الصحيح الذى يدل عليه النظر والخبر جواز أكل لحوم الخيل » .

تماماً كما يفخر أبناءُ عصرنا بالتزيُّن بالسيارات الفارهة .

ونَسَقُ الآية يدلُّ على تفاوت الناس فى المراتب ؛ فكلُّ مرتبة من الناس لها ما يناسبها لتركبه ؛ فالخَيْل للسادة والفرْسان والأغنياء ؛ ومَنْ هم أقلُّ يركبون البَغال ، ومَنْ لا يملك ما يكفى لشراء الحصان أو البَغْل ؛ فيمكنه أنْ يشترىَ لنفسه حماراً .

وقد يملك إنسانٌ الثلاثةَ ركائب ، وقد يملك آخرُ اثنتين منها ؛ وقد يملك ثالثٌ رُكوبة واحدة ، وهناك مَنْ لا يملك من المال ما يُمكنه أنْ يستأجرَ ولو رُكوبة من أىّ نوع .

وشاء الحق سبحانه أن يقسم للناس أرزاق كل واحد منهم قلّةً أو كثرةً ، وإلا لو تساوى الناس فى الرزق ، فَمن الذى يقوم بالأعمال التى نُسمِّيها نحن - بالخطأ - أعمالاً دُونية ، مَنْ يكنس الشوارع ، ومَنْ يحمل الطُّوب للبناء ، ومَنْ يقف بالشَّحْم وسط ورش إصلاح السيارات ؟

وكما نرى فكلُّ تلك الأعمال ضرورية ، ولولا رغبةُ الناس فى الرزق لَمَا حلَتْ مثل تلك الأعمال ، وراقتْ فى عُيون مَنْ يُمارِسونها ، ذلك أنها تَقيهم شَرَّ السُّؤال .

ولَوْلا أن مَنْ يعمل فى تلك الأعمال له بطنٌ تريد أنْ تمتلىءَ بالطعام ، وأولاد يريدون أنْ يأكلوا ؛ لَمَا ذهب إلى مشقَّات تلك الأعمال . ولو نظرتَ إلى أفقر إنسان فى الكون لوجدتَ فى حياته فترة حقَّق فيها بعضاً من أحلامه .

وقد نجد إنساناً يكدُّ عَشْر سنين ؛ ويرتاح بقية عمره ؛ ونجد مَنْ يكدّ عشرين عاماً فيُريح نفسه وأولاده من بعده ، وهناك مَنْ يتعب ثلاثين عاماً ، فيُريح أولاده وأحفاده من بعده . والمهم هو قيمة

ما يُتقِنه ، وأن يرضَى بقدر الله فيه ، فيعطيه الله ما دام قد قَبِل قدره فيه .

وأنت إنْ نظرتَ إلى مَنْ فاء الله عليهم بالغِنَى والتَّرف ستجدهم فى بداية حياتهم قد كَدُّوا وتَعِبوا ورَضُوا بقدر الله فيهم ، ولم يحقدوا على أحد ، نجده سبحانه يهديهم طمأنينةً وراحةَ بالٍ .

وشاء سبحانَهُ أنْ يُنوِّع فى مُسْتويات حياة البشر كَيْلا يستنكفَ أحدٌ من خدمة أحد ما دام يحتاج خدماته .

ونجد النصّ التعبيرى فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها هو خَيْل وبِغَال وحمير ؛ وقد جعل الحق سبحانه البغال فى الوسط ؛ لأنها ليست جنساً بل تأتى من جنسين مختلفين .

ويُنبِّهنا الحق سبحانه فى آخر الآية إلى أن ذلك ليس نهاية المَطَاف ؛ بل هناك ما هو أكثر ، فقال :

﴿وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾ [النحل]

وجعل الحق سبحانه البُراق خادماً لسيدنا رسول الله ﷺ ، وجعل بساط الريح خادماً لسليمان عليه السلام ، وإذا كانت مثل تلك المُعْجزات قد حدثتْ لأنبياء ؛ فقد هدى البشر إلى أنْ يبتكروا من وسائل المواصلات الكثير من عربات تجرُّها الجِيَاد إلى سيارات وقطارات وطائرات .

وما زال العلم يُطوّر من تلك الوسائل ، ورغم ذلك فهناك مَنْ يقتنى الخيْل ويُربّيها ويُروِّضها ويجريّها لجمال منظرها .

وإذا كانت تلك الوسائلُ من المواصلات التى كانت تحمل عَنّا

الأثقال ؛ وتلك المُخْترعات التى هدانا الله إياها ؛ فما بالُنَا بالمواصلات فى الآخرة ؟ لابد أن هناك وسائلَ تناسب فى رفاهيتها ما فى الآخرة من متاعٍ غير موجود فى الدنيا ؛ ولذلك يقول فى الآية التالية :

﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ (١) وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾ ﴾

والسبيل هو الطريق ؛ والقَصْد هو الغاية ، وهو مصدر يأخذون منه القول (طريق قاصد) أى : طريق لا دورانَ فيه ولا التفاف . والحق سبحانه يريد لنا أنْ نصلَ إلى الغاية بأقلِّ مجهود .

ونحن فى لغتنا العاميّة نسأل جندى المرور « هل هذا الطريق ماشى ؟» رغم أن الطريق لا يمشى ، بل أنت الذى تسير فيه ، ولكنك تقصد أن يكون الطريق مُوصّلاً إلى الغاية . وأنت حين تُعجِزك الأسباب تقول « خلِّيها على الله » أى : أنك ترجع بما تعجزك أسبابه إلى المُسبِّب الأعلى .

وهكذا يريد المؤمن الوصول إلى قَصْده ، وهو عبادة الله وُصولاً إلى الغاية ، وهى الجنة ، جزاءً على الإيمان وحُسْن العمل فى الدنيا .

وأنت حين تقارن مَجْرى نهر النيل تجد فيه التفافات وتعرُّجات ؛ لأن الماء هو الذى حفر طريقه ؛ بينما تنظر إلى الريَّاح التوفيقى مثلاً فتجده مستقيماً ؛ ذلك أن البشر هم الذين حفروه إلى مَقْصد معين .

---

(١) الجائر : المائل عن الحق المنحرف عنه ، فلا يصل سالكه إلى ما يريد . [القاموس القويم ١/١٣٧] .

وحين يكون قَصْد السبيل على الله ؛ فالله لا هَوى له ولا صاحبَ ، ولا ولدَ له ، ولا يحابى أحداً ، وكلُّ الخَلْق بالنسبة له سواء ؛ ولذلك فهو حين يضع طريقاً فهو يضعُه مستقيماً لا عِوجَ فيه ؛ وهو الحق سبحانه القائل :

﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦)﴾ [الفاتحة]

أى : الطريق الذى لا التواءَ فيه لأىِّ غَرَض ، بل الغرض منه هو الغاية بأيسَرِ طريق .

وقول الحق سبحانه هنا :

﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ ..(٩)﴾ [النحل]

يجعلنا نعود بالذاكرة إلى ما قاله الشيطان فى حواره مع الله قال :

﴿فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ[1] أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ(٨٣)﴾[ص]

وردَّ الحق سبحانه :

﴿قَالَ هَـٰذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ (٤١)﴾ [الحجر]

والحق أيضاً هو القائل :

﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ (١٢)﴾ [الليل]

أى : أنه حين خلق الإنسان أوضح له طريق الهداية ، وكذلك يقول سبحانه :

﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ[2] (١٠)﴾ [البلد]

---

(١) أغواه : أضلّه وأوقعه فى الغى والضلال . وغوى : بمعنى خاب وضل لأنه انهمك فى الجهل . [القاموس القويم ٢/٦٤] .

(٢) النجدان : طريق الخير وطريق الشر . والنجد : المرتفع من الأرض ، فالمعنى : ألم نعرفه طريق الخير والشر بينين كبيان الطريقين العاليين ، وقيل : النجدان : الثديان .[لسان العرب ـ مادة : نجد] .

أى : أن الحق سبحانه أوضح للإنسان طُرق الحق من الباطل ، وهكذا يكون قوله هنا :

﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ ..(٩)﴾ [النحل]

يدلُّ على أن الطريق المرسوم غايتُه موضوعة من الله سبحانه ، والطريق إلى تلك الغاية موزونٌ من الحق الذى لا هَوى له ، والخَلْق كلهم سواء أمامه .

وهكذا .. فعلى المُفكِّرين ألاَّ يُرهقوا أنفسهم بمحاولة وَضْع تقنين من عندهم لحركة الحياة ، لأن واجدَ الحياة قد وضع لها قانون صيانتها ، وليس أدلّ على عَجْز المفكرين عن وضع قوانين تنظم حياة البشر إلا أنهم يُغيِّرون من القوانين كل فَتْرة ؛ أما قانون الله فخالد باقٍ أبداً ، ولا استدراكَ عليه .

ولذلك فمنَ المُريح للبشر أنْ يسيروا على منهج الله والذى قال فيه الحق سبحانه حكماً عليهم أنْ يُطبّقوه ؛ وما تركه الله لنا نجتهد فيه نحن .

وقوله الحق :

﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ ..(٩)﴾ [النحل]

أى : أنه هو الذى جعل سبيلَ الإيمان قاصداً للغاية التى وضعها سبحانه ، ذلك أن من السُّبل ما هو جائر ؛ ولذلك قال :

﴿وَمِنْهَا جَائِرٌ .. (٩)﴾ [النحل]

ولكى يمنع الجَوْر جعل سبيلَ الإيمان قاصداً ، فهو القائل :

﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَـٰوَاتُ وَالأَرْضُ . . (٧١) ﴾[المؤمنون]

بينما السبيل العادلة المستقيمة هى السبيل المُتكفّل بها سبحانه ، وهى سبيل الإيمان ، ذلك أن من السُّبل ما هو جائر أى : يُطيل المسافة عليك ، أو يُعرِّضك للمخاطر ، أو توجد بها مُنْحنيات تُضل الإنسانَ ، فلا يسيرُ إلى الطريق المستقيم .

ونعلم أن السبيل تُوصّل بين طرفين (من وإلى) وكل نقطة تصل إليها لها أيضاً (من وإلى) وقد شاء الحق سبحانه ألاّ يقهرَ الإنسانَ على سبيل واحد ، بل أراد له أنْ يختار ، ذلك أن التسخير قد أراده الله لغير الإنسان مِمَّا يخدم الإنسان .

أما الإنسان فقد خلق له قدرة الاختيار ، ليعلم مَنْ يأتيه طائعاً ومَنْ يعصى أوامره ، وكل البشر مَجْموعون إلى حساب ، ومَن اختار طريق الطاعة فهو مَنْ يذهب إلى الله مُحِباً ، ويُثبت له المحبوبية التى هى مراد الحق من خَلْق الاختيار ، لكن لو شاء أنْ يُثبتَ لنفسه طلاقة القَهْر لخَلَقَ البشر مقهورين على الطاعة كما سخَّر الكائنات الأخرى .

والحق سبحانه يريد قلوباً لا قوالب ؛ ولذلك يقول فى آخر الآية :

﴿ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (٩) ﴾ [النحل]

وكل أجناس الوجود كما نعلم تسجد لله :

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَـٰكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ . . (٤٤) ﴾ [الإسراء]

وفى آية أخرى يقول :

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ[1] كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ .. (٤١)﴾ [النور]

إذن : لو شاء الحق سبحانه لهدى الثقلين أى : الإنس والجن ، كما هدى كُلَّ الكائنات الأخرى ، ولكنه يريد قلوباً لا قوالبَ .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ[2] (١٠)﴾

وقوله :

﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً .. (١٠)﴾ [النحل]

يبدو قولاً بسيطاً ؛ ولكن إنْ نظرنا إلى المعامل التى تُقطّر المياه وتُخلّصها من الشوائب لَعلِمْنَا قَدْر العمل المبذول لنزول الماء الصافى من المطر .

والسماء ـ كما نعلم ـ هى كل ما يعلونا ، ونحن نرى السحاب الذى يجىء نتيجة تبخير الشمس للمياه من المحيطات والبحار ، فيتكوّن البخار الذى يتصاعد ، ثم يتكثّف ليصيرَ مطراً من بعد ذلك ؛ وينزل المطر على الأرض .

---

(١) الطير صافات : أى باسطات أجنحتها . وصفَّت الطير فى السماء تصف : أى صفَّت أجنحتها ولم تحركها . [لسان العرب ـ مادة : صفف] .

(٢) تسيمون : ترعون إبلكم . أسام الدواب : أرسلها للرعى . [القاموس القويم ١/٣٣٧] .

ونعلم أن الكرة الأرضية مُكوّنة من محيطات وبحار تُغطّى ثلاثة أرباع مساحتها ، بينما تبلغ مساحة اليابسة رُبُّع الكرة الأرضية ؛ فكأنه جعل ثلاثة أرباع مساحة الكرة الأرضية لخدمة رُبْع الكرة الأرضية .

ومن العجيب أن المطر يسقط فى مواقع قد لا تنتفع به ، مثل هضاب الحبشة التى تسقط عليها الأمطار وتصحب من تلك الهضاب مادة الطمى لِتُكوِّن نهر النيل لنستفيد نحن منه .

ونجد الحق سبحانه يقول :

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي(١) سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ(٢) يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ(٣) فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ .. (٤٣)﴾ [النور]

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (١٠)﴾ [النحل]

ولولا عملية البَخْر وإعادة تكثيف البخار بعد أن يصير سحاباً ؛ لَمَا استطاع الإنسانُ أنْ يشربَ الماء المالح الموجود فى البحار ، ومن حكمة الحق سبحانه أنْ جعل مياه البحار والمحيطات مالحةً ؛ فالملْح يحفظ المياه من الفساد .

---

(١) أزجى الشىء : ساقه برفق . قال تعالى : ﴿رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ .. (٦٦)﴾ [الإسراء] . أى : يدفعها ويُسيرها برفق فوق الماء . [القاموس القويم ١/ ٢٨٤] .

(٢) الودق : المطر شديده وهيّنه . ودقت السماء : أمطرت . [القاموس القويم ٢/ ٣٢٧] .

(٣) البَرَد : حبّات صغار من الثلج تسقط مع المطر أحياناً .

وبعد أن تُبخِّر الشمسُ المياه لتصير سحاباً ، ويسقط المطر يشرب الإنسانُ هذا الماء الذى يُغذِّى الأنهار والآبار ، وكذلك ينبت الماء الزرع الذى نأكل منه .

وكلمة ﴿ شجر ﴾ تدلُّ على النبات الذى يلتفُّ مع بعضه . ومنها كلمة « مشاجرة » والتى تعنى التداخل من الذين يتشاجرون معاً .

والشجر أنواع ؛ فيه مغروس بمالك وهو مِلْك لِمَنْ يغرسه ويُشرف على إنباته ، وفيه ما يخرج من الأرض دون أنْ يزرعه أحد وهو مِلْكية مشاعة ، وعادة ما نترك فيه الدَّواب لترعى ، فتأكل منه دون أنْ يردَّها أحد .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ فِيهِ تُسِيمُونَ (١٠) ﴾ [النحل]

من سَام الدابة التى تَرْعى فى المِلْك العام ، وساعة ترعى الدابة فى المِلْك العام فهى تترك آثارها من مَسَارب[1] وعلامات . ويُسَمُّون الأرض التى يوجد بها نبات ولا يقربها حيوان بأنها « روضة أنُف»[2] بمعنى أن أحداً لم يَأتِ إليها أو يَقربها ؛ كأنها أنفت أنْ يقطف منها شىء .

---

(١) المسارب : مواضع الآثار . ومنها مسارب الحيات : مواضع آثارها إذا انسابت فى الأرض على بطونها . [لسان العرب ـ مادة : سرب] .

(٢) يقال : روضة أنف وكأس أنف : لم يُشرب بها قبل ذلك ، كأنه استؤنف شربها مثل روضة أنف . والأنف : الكلأ الذى لم يُرْع ولم تطأه الماشية . [لسان العرب ـ مادة : أنف] .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ ﴾

وهكذا يُعلمنا الله أن النبات لا ينبت وحده ، بل يحتاج إلى مَنْ يُنبته ، وهنا يخصُّ الحق سبحانه ألواناً من الزراعة التى لها أثَر فى الحياة ، ويذكر الزيتون والنخيل والأعناب وغيرها من كل الثمرات .

والزيتون - كما نعلم - يحتوى على مواد دُهْنية ؛ والعنب يحتوى على مواد سكرية ، وكذلك النخيل الذى يعطى البلح وهو يحتوى على مواد سُكرية ، وغذاء الإنسان يأتى من النشويات والبروتينات .

وما ذكره الحق سبحانه أولاً عن الأنعام ، وما ذكره عن النباتات يُوضِّح أنه قد أعطى الإنسان مُكوّنات الغذاء ؛ فهو القائل :

﴿ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَٰذَا الْبَلَدِ[1] الأَمِينِ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ [التين]

أى : أنه جعل للإنسان فى قُوته البروتينات والدُّهنيات والنشويات والفيتامينات التى تصون حياته .

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٤/٥٢٦) : « قال بعض الأئمة : هذه محال ثلاثة ، بعث الله فى كل واحد منها نبياً مرسلاً من أولى العزم أصحاب الشرائع الكبار . فالأول : محلة التين والزيتون وهى بيت المقدس التى بعث الله فيها عيسى ابن مريم عليه السلام . والثانى : طور سينين ، وهو طور سيناء الذى كلم الله عليه موسى بن عمران . والثالث : مكة وهو البلد الأمين وهو الذى أرسل فيه محمداً ﷺ » .

وحين يرغب الأطباء فى تغذية إنسان أثناء المرض ؛ فهم يُذيبون العناصر التى يحتاجها للغذاء فى السوائل التى يُقطّرونها فى أوردته بالحَقْن ، ولكنهم يخافون من طول التغذية بهذه الطريقة ؛ لأن الأمعاء قد تنكمش .

ومَنْ يقومون بتغذية البهائم يعلمون أن التغذية تتكوَّن من نوعين ؛ غذاء يملأ البطن ؛ وغذاء يمدُّ بالعناصر اللازمة ، فالتبن مثلاً يملأ البطن ، ويمدُّها بالألياف التى تساعد على حركة الأمعاء ، ولكن الكُسْب يُغذِّى ويضمن السِّمنة والوَفْرة فى اللحم .

وحين يقول الحق سبحانه :

﴿يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ..(١١)﴾ [النحل]

فعليك أنْ تستقبلَ هذا القول فى ضَوْء قَوْل الحق سبحانه :

﴿أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ[1] أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (٦٤)﴾ [الواقعة]

ذلك أنك تحرثُ الأرض فقط ، أما الذى يزرع فهو الحق سبحانه ؛ وأنت قد حرثتَ بالحديد الذى أودعه الله فى الأرض فاستخرجْتَه أنت ؛ وبالخشب الذى أنبته الله ؛ وصنعتَ أنت منهما المحراث الذى تحرث به فى الأرض المخلوقة لله ، والطاقة التى حرثتَ بها ممنوحة لك من الله .

---

(١) الزرع : الإنبات . يقال : زرعه الله . أى : أنبته ونماه حتى يبلغ غايته .. [لسان العرب - مادة : زرع] .

ثم يُذكِّرك الله بأن كُلَّ الثمرات هى من عطائه ، فيعطف العام على الخاص ؛ ويقول :

﴿ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ .. (١١) ﴾ [النحل]

أى : أن ما تأخذه هو جزء من كل الثمرات ؛ ذلك أن الثمرات كثيرة ، وهى أكثر من أن تُعَد .

ويُذيِّل الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله :

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١١) ﴾ [النحل]

أى : على الإنسان أنْ يُعملَ فكره فى مُعْطيات الكون ، ثم يبحث عن موقفه من تلك المُعْطيات ، ويُحدّد وَضْعه ليجد نفسه غير فاعل ؛ وهو قابل لأنْ يفعَل .

وشاء الحق سبحانه أن يُذكّرنا أن التفكُّر ليس مهمةَ إنسان واحد بل مهمة الجميع ، وكأن الحق سبحانه يريد لنا أنْ تتسانَد أفكارنا ؛ فَمَنْ عنده لَقْطة فكرية تؤدى إلى الله لابُدَّ أنْ يقولها لغيره .

ونجد فى القرآن آيات تنتهى بالتذكُّر[١] والتفكُّر[٢] وبالتدبُّر[٣] وبالتفقُّه[٤] ، وكُلٌّ منها تؤدى إلى العلم اليقينى ؛ فحين يقول « يتذكرون » فالمعنى أنه سبق الإلمام بها ؛ ولكن النسيان محاها ؛ فكأن مِنْ مهمتك أنْ تتذكّر .

---

(١) ذكر الشىء ذكراً وذُكْراً ، وذكرى ، وتذكاراً : حفظه . وتذكره : استحضره ، وتذكّره . وتذكر : جرى على لسانه بعد نسيانه . [المعجم الوجيز ص ٢٤٥] .

(٢) تفكر فى الأمر : افتكر . التفكير : إعمال العقل فى مشكلة للتوصل إلى حلها . [المعجم الوجيز ص ٤٧٨] .

(٣) تدبر الأمر : نظر فيه وفكّر . [المعجم الوجيز ص ٢٢٠] .

(٤) تفقه : صار فقيهاً . وتفقه الأمر : تفهّمه وتفطّنه . [المعجم الوجيز ص ٤٧٨] .

أما كلمة « يتفكرون » فهى أُمّ كل تلك المعانى ؛ لأنك حين تشغل فكرك تحتاج إلى أمرين ، أنْ تنظرَ إلى مُعْطيات ظواهرها ومُعْطيات أدبارها .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ .. (٨٢)﴾ [النساء]

وهذا يعنى ألاَّ تأخذ الواجهة فقط ، بل عليك أنْ تنظرَ إلى المعطيات الخلفية كى تفهم ، وحين تفهم تكون قد عرفتَ ، فالمهمة مُكوَّنة من أربع مراحل ؛ تفكُّر ، فتدبُّر ؛ فتفقُّه ؛ فمعرفة وعِلْم .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ[1] الَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٢)﴾

ونعلم أن الليل والنهار آيتان واضحتان ؛ والليل يناسبه القمر ، والنهار تناسبه الشمس ، وهم جميعاً متعلقون بفعل واحد ، وهم نَسَق واحد ، والتسخير يعنى قَهْر مخلوق لمخلوق ؛ ليُؤدّى كُلٌّ مهمته . وتسخير الليل والنهار والشمس والقمر ؛ كُلٌّ له مهمة ، فالليل مُهمته الراحة .

---

(١) سخَّره : أخضعه وقهره لينفذ ما يريد منه بدون إرادة ولا اختيار من المسخَّر . وقوله (مُسخَّرات) أى : مُسيَّرات خاضعات مقهورات بأمر الله وبإرادته هو لا بإرادتها ولا باختيارها . [القاموس القويم ١/٣٠٦] .

قال الحق سبحانه :

﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٣) ﴾ [القصص]

والنهار له مهمة أنْ تكدحَ فى الأرض لتبتغى رزْقاً من الله وفَضْلاً ، والشمس جعلها مصدراً للطاقة والدِّفْء ، وهى تعطيك دون أنْ تسألَ ، ولا تستطيع هى أيضاً أن تمتنعَ عن عطاء قَدَّره الله .

وهى ليست ملْكاً لأحد غير الله ؛ بل هى من نظام الكون الذى لم يجعل الحق سبحانه لأحد قدرةً عليه ، حتى لا يتحكّم أحدٌ فى أحدٍ ، وكذلك القمر جعل له الحق مهمة أخرى .

وإياك أنْ تتوهَم أن هناك مهمة تعارض مهمة أخرى ، بل هى مهام متكاملة . والحق سبحانه هو القائل :

﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ[1] (١) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ (٢) وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ (٣) إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ (٤) ﴾ [الليل]

أى : أن الليل والنهار وإنْ تقابلا فليسَا متعارضين ؛ كما أن الذكر والأنثى يتقابلان لا لتتعارض مهمة كل منهما بل لتتكامل .

ويضرب الحق سبحانه المثل ليُوضّح لنا هذا التكامل فيقول :

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا[2] إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٧٢) ﴾ [القصص]

---

(١) الغشاء : الغطاء . غشّيت الشىء تغشية إذا غطيته . [لسان العرب ـ مادة : غشى] . فالليل يغشى الناس بظلمته ويغطى على ضوء النهار .

(٢) السرمد : دوام الزمان من ليل أو نهار . وليل سرمد : طويل . والسرمد : الدائم الذى لا ينقطع. [لسان العرب ـ مادة : سرمد] .

وأىُّ إنسان إنْ سهر يومين متتابعين لا يستطيع أنْ يقاومَ النوم ؛ وإن أدَّى مهمة فى هذين اليومين ؛ فقد يحتاج لراحة من بعد ذلك تمتدُّ أسبوعاً ؛ ولذلك قال الله :

﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا[1] (١٠) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا (١١)﴾ [النبأ]

والإنسان إذا ما صلَّى العشاء وذهب إلى فراشه سيستيقظ حَتْماً من قبل الفجر وهو فى قِمّة النشاط ؛ بعد أنْ قضى ليلاً مريحاً فى سُبَاتٍ عميق ؛ لا قلقَ فيه .

ولكن الإنسان فى بلادنا استورد من الغرب حثالة الحضارة من أجهزة تجعله يقضى الليل ساهراً ، ليتابع التليفزيون أو أفلام الفيديو أو القنوات الفضائية ، فيقوم فى الصباح مُنْهكاً ، رغم أن أهل تلك البلاد التى قدَّمتْ تلك المخترعات ؛ نجدهم وهم يستخدمون تلك المخترعات يضعونها فى موضعها الصحيح ، وفى وقتها المناسب ؛ لذلك نجدهم ينامون مُبكِّرين ، ليستيقظوا فى الفجر بهمّة ونشاط .

ويبدأ الحق سبحانه جملة جديدة تقول :

﴿وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ .. (١٢)﴾ [النحل]

نلحظ أنه لم يَأتِ بالنجوم معطوفةً على ما قبلها ، بل خَصَّها الحق سبحانه بجملة جديدة على الرغم من أنها أقلُّ الأجرام ، وقد لا نتبيّنها لكثرتها وتعدُّد مواقعها ولكنّا نجد الحق يُقسِم بها فهو القائل :

---

(١) يُشبّه الليل باللباس لأنه ساتر . [القاموس القويم ١٨٨/٢] . قال ابن كثير فى تفسيره (٤٦٢/٤) : « أى يغشى الناس ظلامه وسواده . وقال قتادة : (لباساً) أى : سكناً . وقوله تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا (١١)﴾ [النبأ] أى : جعلناه مشرقاً نيراً مضيئاً ليتمكن الناس من التصرف فيه والذهاب والمجىء للمعاش والتكسب والتجارات » .

﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (٧٦)﴾

[الواقعة]

فكلُّ نجم من تلك النجوم البعيدة له مُهمة ، وإذا كنتَ أنت فى حياتك اليومية حين ينطفىء النور تذهب لترى : ماذا حدث فى صندوق الأكباس الذى فى منزلك ؛ ولكنك لا تعرف كيف تأتيك الكهرباء إلى منزلك ، وكيف تقدَّم العلم ليصنعَ لك المصباح الكهربائى . وكيف مدَّتْ الدولة الكهرباء من مواقع توليدها إلى بيتك .

وإذا كنتَ تجهل ما خَلْف الأثر الواحد الذى يصلك فى منزلك ، فما بالك بقول الحق سبحانه :

﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (٧٥)﴾ [الواقعة]

وهو القائل :

﴿وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (١٦)﴾ [النحل]

وقد خصَّها الحق سبحانه هنا بجملة جديدة مستقلة أعاد فيها خبر التسخير ، ذلك أن لكلٍّ منها منازلَ ، وهى كثيرة على العَدِّ والإحصاء ، وبعضها بعيد لا يصلنا ضوؤه إلا بعد ملايين السنين .

وقد خصَّها الحق سبحانه بهذا الخبر من التسخير حتى نتبينَ أن لله سراً فى كل ما خلق بين السماء والأرض .

ويريد لنا أن نلتفتَ إلى أن تركيبات الأشياء التى تنفعنا مواجهةً وراءها أشياء أخرى تخدمها .

ونجد الحق سبحانه وهو يُذيِّل الآية الكريمة بقوله :

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [النحل]

ونعلم أن الآيات هى الأمورُ العجيبة التى يجب ألاَّ يمرَّ عليها الإنسان مراً مُعرِضاً ؛ بل عليه أنْ يتأملَها ، ففى هذا التأمل فائدة له ؛ ويمكنه أنْ يستنبطَ منها المجاهيل التى تُنعِّم البشر وتُسعِدهم .

وكلمة ﴿ يَعْقِلُونَ ﴾ تعنى إعمالَ العقل ، ونعلم أن للعقل تركيبةً خاصة ؛ وهو يستنبط من المُحسّات الأمورَ المعنوية ، وبهذا يأخذ من المعلوم نتيجةً كانت مجهولةً بالنسبة له ؛ فيَسعد بها ويُسعد بها مَنْ حوله ، ثم يجعل من هذا المجهول مقدمةً يصل بها إلى نتيجة جديدة .

وهكذا يستنبط الإنسان من أسرار الكون ما شاء له الله أنْ يستنبطَ ويكتشف من أسرار الكون .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾ (١)

وكلمة ﴿ ذَرَأَ ﴾ تعنى أنه خلق خَلْقاً يتكاثر بذاته ؛ إما بالحَمْل للأنثى من الذَّكَر ؛ فى الإنسان أو الحيوان والنبات ؛ وإما بواسطة تفريخ البيض كما فى الطيور .

وهكذا نفهم الذَّرْءَ بمعنى أنه ليس مطلقَ خَلْق ؛ بل خلق بذاته فى

---

(١) ذرأ الله الخلق يذرؤهم : خلقهم وبثَّهم وكثَّرهم . [القاموس القويم ١/٢٤٢] .

التكاثر بذاته ، والحق سبحانه قد خلق آدم أولاً ، ثم أخرج منه النسل ليتكاثر النسلُ بذاته حين يجتمع زوجان ونتجا مثيلاً لهما ؛ ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿فَتَبَارَكَ[1] اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤)﴾ [المؤمنون]

وهكذا شاء الحق سبحانه أن يفيض على عباده بأن يُعطيهم صفة أنهم يخلقون ، ولكنهم لا يخلقون كخَلْقه ؛ فهو قد خلق آدم ثم أوجدهم من نسله . والبشر قد يخلقون بعضاً من مُعدات وأدوات حياتهم ، لكنهم لا يخلقون كخَلْق الله ؛ فهم لا يخلقون من معدوم ؛ بل من موجود ، والحق سبحانه يخلق من المعدوم مَنْ لا وجودَ له ؛ وهو بذلك أحسَنُ الخالقين .

والمَثل الذى أضربه دائماً هو الحبة التى تُنبت سبْعَ سنابل وفى كل سُنْبلة مائة حَبّة ؛ وقد أوردها الحق سبحانه ليشوِّق للإنسان عملية الإنفاق فى سبيل الله[2] ، وهذا هو الخَلْق المادىّ الملموس ؛ فمن حَبَّة واحدة أنبت سبحانه كل ذلك .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ .. (١٣)﴾ [النحل]

أى : ما خلق لنا من خَلْق متكاثر بذاته تختلف ألوانه . واختلاف الألوان وتعدُّدها دليل على طلاقة قدرة الله فى أن الكائنات لا تخلق على نَمَطٍ واحد .

---

(١) تبارك الله : تقدّس وتنزّه عن كل نقص ، أو كَثُر خيره على عباده . [القاموس القويم ١/٦٥] .

(٢) قال تعالى : ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦١)﴾ [البقرة] .

ويعطينا الحق سبحانه الصورة على هذا الأمر فى قوله سبحانه :

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ(١) بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ(٢) سُودٌ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ (٢٨)﴾ [فاطر]

وأنت تمشى بين الجبال ؛ فتجدها من ألوان مختلفة ؛ وعلى الجبل الواحد تجد خطوطاً تفصل بين طبقات مُتعدّدة ، وهكذا تختلف الألوان بين الجمادات وبعضها ، وبين النباتات وبعضها البعض ، وبين البشر أيضاً .

وإذا ما قال الحق سبحانه :

﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ .. (٢٨)﴾ [فاطر]

فلَنا أن نعرفَ أن العلماء هنا مقصودٌ بهم كُلّ عالم يقف على قضية كونية مَرْكوزة فى الكون أو نزلتْ من المُكوِّن مباشرة .

ولم يقصد الحق سبحانه بهذا القول علماء الدين فقط ، فالمقصود هو كل عالم يبحث بحثاً ليستنبط به معلوماً من مجهول ، ويُجلّى أسرار الله فى خلقه . وقد أراد ﷺ أن يفرق فَرْقاً واضحاً فى هذا الأمر ، كى لا يتدخَّل علماء الدين فى البحث العلمىّ التجريبىّ الذى

---

(١) الجدد : الطرائق تكون فى الجبال جمع جدة . وهى الطريقة فى السماء والجبل . وقوله عز وجل : ﴿جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ ... (٢٧)﴾ [فاطر] أى طرائق تخالف لون الجبل . [لسان العرب - مادة : جدد] .

(٢) غربيب : شديد السواد وجمعه غرابيب . [القاموس القويم ٢/٥٠] .

يُفيد الناس ، ووجد ﷺ الناس تُؤبّر[١] النخيل ؛ بمعنى أنهم يأتون بطَلْع الذُّكورة ؛ ويُلقِّحون النخيل التى تتصف بالأنوثة ، وقال : لو لم تفعلوا لأثمرتْ . ولما لم تثمر النخيل ، قَبِل رسول الله ﷺ الأمر ؛ وأمر بإصلاحه وقال القولة الفصل « أنتم أعلَمُ بشئون دنياكم »[٢] .

أى : أنتم أعلم بالأمور التجريبية المعملية ، ونلحظ أن الذى حجز الحضارة والتطوُّر عن أوربا لقرون طويلة ؛ هو محاولة رجال الدين أنْ يحجُروا على البحث العلمى ؛ ويتهموا كُلّ عالم تجريبىّ بالكفر .

ويتميز الإسلام بأنه الدين الذى لم يَحُلْ دون بَحْث أى آية من آيات الله فى الكون ، ومن حنان الله أنْ يُوضِّح لخَلْقه أهمية البحث فى أسرار الكون ، فهو القائل :

﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِى السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥) ﴾ [يوسف]

أى : عليك أيُّها المؤمن ألاَّ تُعرض عن أىِّ آية من آيات الله التى فى الكون ؛ بل على المؤمن أنْ يُعملَ عقله وفِكْره بالتأمُّل ليستفيد منها فى اعتقاده وحياته . يقول الحق :

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِى الآفَاقِ وَفِى أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ . . (٥٣) ﴾ [فصلت]

---

(١) أبر النخل والزرع يأبره : أصلحه . وتأبير النخل : تلقيحه . [لسان العرب ـ مادة : أبر] .

(٢) أخرج مسلم فى صحيحه (٢٣٦٣) من حديث أنس بن مالك « أن النبى ﷺ مر بقوم يلقحون . فقال : لو لم تفعلوا لصلح . قال : فخرج شيصاً (التمر الردىء) فمرَّ بهم فقال : ما لنخلكم ؟ قالوا : قلت كذا وكذا . قال : أنتم أعلم بأمر دنياكم » .

أما الأمـور التى يتعلَّق بها حسـاب الآخرة ؛ فهى من اختـصاص العلماء الفقهاء .

ويذيل الحق سبحانه الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها :

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾ [النحل]

أى : يتذكَّرون شيئاً مجهولاً بشىء معلوم .

وبعد ذلك يعود الحق سبحانه إلى التسخير ، فيقول :

﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا[1] وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ[2] فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾﴾

والتسخيـر كما علمنا من قَبْل هو إيجاد الكائن لمـهمة لا يستطيع الكائن أنْ يتخلَّف عنهـا ، ولا اختيارَ له فى أنْ يؤدّيهـا أو لا يُؤدّيها . ونعلم أن الكون كله مُسـخَّر لـلإنسان قـبل أنْ يُوجـدَ ؛ ثم خلق الله الإنسان مُخْتاراً .

وقد يظن البـعض أن الكائنات المُسخّـرة ليس لها اختـيار ، وهذا خطأ ؛ لأن تلك الكائنات لها اختيار حَسمتْه فى بداية وجودها ، ولنقرأْ قوله الحق :

---

(١) الحلية : يعنى بها اللؤلؤ والمرجان . قاله القرطبى فى تفسيره (٥/٣٨١١) .

(٢) مخرت السفينة : شقّت الماء بصدرها وسُمِع لها صوت . [القاموس القويم ٢/٢١٨] .

﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ[1] مِنْهَا ..(٧٢)﴾ [الأحزاب]

وهكذا نفهم أن الحق سبحانه خيَّر خلقه بين التسخير وبين الاختيار ، إلا أن الكائنات التى هى ما دون الإنسان أخذتْ اختيارها مرَّة واحدة ؛ لذلك لا يجب أنْ يُقال : إن الحق سبحانه هو الذى قهرها ، بل هى التى اختارتْ من أول الأمر ؛ لأنها قدرتْ وقت الأداء ، ولم تقدر فقط وقت التحمل كما فعل الإنسان ، وكأنها قالت لنفسها : فلأخرج من باب الجَمال ؛ قبل أن ينفتحَ أمامى باب ظلم النفس .

ونجد الحق سبحانه يصف الإنسان :

﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً (٧٢)﴾ [الأحزاب]

فقد ظلم الإنسانُ نفسَه حين اختار أنْ يحملَ الأمانة ؛ لأنه قدر وقت التحمُّل ولم يقدر وقت الأداء ، وهو جَهُول لأنه لم يعرف كيف يُفرِّق بين الأداء والتحمُّل ، بينما منعت الكائنات الأخرى نفسها من أن تتحمَّل مسئولية الأمانة ، فلم تظلم نفسها بذلك .

وهكذا نصل إلى تأكيد معنى التسخير وتوضيحه بشكل دقيق ، ونعرف أنه إيجاد الكائن لمهمة لا يملك أنْ يتخلَّف عنها ؛ أما الاختيار فهو إيجاد الكائن لِمُهمة له أنْ يُؤدِّيها أو يتخلَّف عنها .

وأوضحنا أن المُسخَّرات كان لها أنْ تختارَ من البداية ، فاختارتْ أن تُسخَّر وألاَّ تتحملَ الأمانة ، بينما أخذ الإنسانُ المهمةَ ، واعتمد على عقله وفِكْره ، وقَبِل أن يُرتِّب أمور حياته على ضوء ذلك .

---

(١) الشَّفق : الخوف . والشفقة : رقة من نصح أو حب يؤدى إلى خوف . [لسان العرب ـ مادة : شفق] .

ومع ذلك أعطاه الله بعضاً من التسخير كى يجعل الكون كله فيه بعض من التسخير وبعض من الاختيار ؛ ولذلك نجد بعضاً من الأحداث تجرى على الإنسان ولا اختيارَ له فيها ؛ كأن يمرضَ أو تقع له حادثة أو يُفلس .

ولذلك أقول : إن الكافر مُغفّل لاختياره ؛ لأنه ينكر وجود الله ويتمرَّد على الإيمان ، رغم أنه لا يقدر أن يصُدَّ عن نفسه المرض أو الموت .

وفى الآية التى نحن بصددها الآن يقول الحق سبحانه :

﴿وَهُوَ الَّذِى سَخَّرَ الْبَحْرَ .. (١٤)﴾ [النحل]

فهذا يعنى أنه هو الذى خلق البحر ، لأنه هو الذى خلق السماوات والأرض ؛ وجعل اليابسة ربع مساحة الأرض ؛ بينما البحار والمحيطات تحتل ثلاثة أرباع مساحة الأرض .

أى : أنه يُحدِّثنا هنا عن ثلاثة أرباع الأرض ، وأوجد البحار والمحيطات على هيئة نستطيع أن نأخذَ منها بعضاً من الطعام فيقول :

﴿لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا .. (١٤)﴾

[النحل]

ومن بعض عطاءات الحق سبحانه أن يأتى المَدُّ أحياناً ثم يَعْقبه الجَزْر ؛ فيبقى بعض من السمك على الشاطىء ، أو قد تحمل موجة عفيّة بعضاً من السمك وتلقيه على الشاطىء .

وهكذا يكون العطاء بلا جَهْد من الإنسان ، بل إن وجودَ بعض من الأسماك على الشاطىء هو الذى نبَّه الإنسان إلى أهمية أنْ يحتالَ

ويصنع السِّنارة ؛ ويغزل الشبكة ؛ ثم ينتقل من تلك الوسائل البدائية إلى التقنيّات الحديثة فى صيد الأسماك .

لكن الحلية التى يتم استخراجها من البحر فهى اللؤلؤ ، وهى تقتضى أن يغوصَ الإنسان فى القاع ليلتقطها . ويلفتنا الحق سبحانه إلى أسرار كنوزه فيقول :

﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ[1] (٦)﴾ [طه]

وكل كنوز الأمم توجد تحت الثَّرى . ونحن إنْ قسمنا الكرة الأرضية كما نقسم البطيخة إلى قِطَع كالتى نُسمّيها « شقة البطيخ » سنجد أن كنوز كل قطعة تتساوى مع كنوز القطعة الأخرى فى القيمة النفعية ؛ ولكن كُلّ عطاء يوجد بجزء من الأرض له ميعاد ميلاد يحدده الحق سبحانه .

فهناك مكان فى الأرض جعل الله العطاء فيه من الزراعة ؛ وهناك مكان آخر صحراوى يخاله الناس بلا أىِّ نفع ؛ ثم تتفجَّر فيه آبار البترول ، وهكذا .

وتسخير الحق سبحانه للبحر ليس بإيجاده فقط على الهيئة التى هو عليها ؛ بل قد تجد له أشياء ومهام أخرى مثل انشقاق البحر بعصا موسى عليه السلام ؛ وصار كل فِرْق كالطَّوْد[2] العظيم.

---

(١) الثرى : التراب الندى أو التراب مطلقاً . قال تعالى : ﴿وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ (٦)﴾ [طه] . أى : ما تحت جميع طبقات الأرض : [القاموس القويم ١/١٠٧] .

(٢) يقول تعالى : ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٣)﴾ [الشعراء] . والطود العظيم : الجبل الكبير . قال عطاء الخراسانى : هو الفج بين الجبلين . [تفسير ابن كثير ٣/٣٣٦] .

ومن قبل ذلك حين حمل اليَمّ[١] موسى عليه السلام بعد أن ألقتْه أمه فيه بإلهام من الله :

﴿ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ .. (٣٩) ﴾ [طه]

وهكذا نجد أن أمراً من الله قد صدر للبحر بأن يحملَ موسى إلى الشاطىء فَوْر أنْ تُلقيَه أمه فيه .

وهكذا يتضح لنا معنى التسخير للبحر فى مهام أخرى ، غير أنه يوجد به السمك ونستخرج منه الحُلىّ . ونعلم أن ماءَ البحر مالح ؛ عكس ماء النهر وماء المطر ؛ فالمائيّة تنقسم إلى قِسْمين ؛ مائية عَذْبة ، ومائية مِلْحية .

وقوله الحق عن ذلك :

﴿ وَمَا يَسْتَوِى الْبَحْرَانِ هَـٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ[٢] سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَـٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ[٣] وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا .. (١٢) ﴾

[فاطر]

ويسمُّونهم الاثنين على التغليب فى قوله الحق :

﴿ مَرَجَ[٤] الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (١٩) ﴾ [الرحمن]

والمقصود هنا الماء العَذْب والماء المالح ، وكيف يختلطان ، ولكن

---

(١) اليم : البحر أو النهر العذب . قال تعالى : ﴿ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِى الْيَمِّ .. (١٣٦) ﴾ [الأعراف] وهو خليج السويس وماؤه ملح وهو امتداد البحر الأحمر . وقوله تعالى : ﴿ فَاقْذِفِيهِ فِى الْيَمِّ .. (٣٩) ﴾ [طه] هو نهر النيل العذب . [القاموس القويم ٢/٣٧٢] .

(٢) الفرات : أشد الماء عذوبة . وقد فَرُتَ الماء : عَذُب . [لسان العرب ـ مادة : فرت] . وشراب سائغ : عَذْب يسهل مدخله فى الحلق . [لسان العرب ـ مادة : سوغ] .

(٣) الماء الأجاج : الشديد الملوحة والمرارة . [لسان العرب ـ مادة : أجج] .

(٤) مرج الشىء : خلطه . أى خلطهما حالة كونهما يلتقيان . [القاموس القويم ٢/٢٢١] .

الماء العَذْب يتسرَّب إلى بطن الأرض ، وأنت لو حفرتَ في قاع البحر لوجدتَ ماء عَذْباً ، فالحق سبحانه هو الذى شاء ذلك وبيَّنه فى قوله :

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ.. (٢١)﴾

[الزمر]

وهنا يقول سبحانه :

﴿وَهُوَ الَّذِى سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا .. (١٤)﴾ [النحل]

واللحم إذا أُطلق يكون المقصود به اللحم المأخوذ من الأنعام ، أما إذا قُيِّد بـ « لحم طرى » فالمقصود هو السمك ، وهذه مسألة من إعجازية التعبير القرآنى ؛ لأن السمك الصالح للأكل يكون طَرِّياً دائماً .

ونجد مَنْ يشترى السمك وهو يَثْنى السمكة ، فإنْ كانت طريّة فتلك علامةٌ على أنها صالحةٌ للأكل ، وإنْ كانت لا تنثنى فهذا يعنى أنها فاسدة ، وأنت إنْ أخرجتَ سمكة من البحر تجد لحمها طَرِّياً ؛ فإنْ ألقيتَها فى الماء فهى تعود إلى السباحة والحركة تحت الماء ؛ أما إنْ كانت ميتة فهى تنتفخ وتطفو .

لذلك نهى النبى ﷺ عن أكْل السمك الطَّافى لأنه المَيْتة ، وتقييد اللحم هنا بأنه طرىّ كى يخرجَ عن اللحم العادى وهو لَحْم الأنعام ؛ ولذلك نجد العلماء يقولون : مَنْ حلفَ ألاّ يأكل لَحْماً ؛ ثم أكل سمكاً فهو لا يحنث ؛ لأن العُرْف جرى على أن اللحم هو لَحْم الأنعام .

ويقول الحق سبحانه فى نفس الآية عن تسخير البحر :

﴿وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا .. (١٤)﴾ [النحل]

وهكذا نجد أن هذه المسألة تأخذ جهداً ؛ لأنها رفاهية ؛ أما السمك فقال عنه مباشرة :

﴿لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا .. (١٤)﴾ [النحل]

والأكْل أمر ضرورى لذلك تكفّله الله وأعطى التسهيلات فى صَيْده ، أما الزينة فلكَ أنْ تتعبَ لتستخرجه ، فهو تَرَفٌ . وضروريات الحياة مَجْزولة ؛ أما تَرَف الحياة فيقتضى منك أنْ تغطسَ فى الماء وتتعبَ من أجله .

وفى هذا إشارة إلى أن مَنْ يريد أنْ يرتقىَ فى معيشته ؛ فَلْيُكثِر من دخله ببذل عرقه ؛ لا أنْ يُترِف معيشته من عرق غيره .

ويقول سبحانه :

﴿تَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا .. (١٤)﴾ [النحل]

والحِلْية كما نعلم تلبسها المرأة . والمَلْحظ الأدنى هنا أن زينةَ المرأة هى من أجْل الرجل ؛ فكأن الرجلَ هو الذى يستمتع بتلك الزينة ، وكأنه هو الذى يتزيّن . أو : أن هذه المُسْتخرجات من البحر ليست مُحرّمة على الرجال مِثْل الذهب والحرير ؛ فالذهب والحرير نَقْد ؛ أما اللؤلؤ فليس نَقْداً .

واللبس هو الغالب الشائع ، وقد يصِحّ أنْ تُصنعَ من تلك الحلية عَصاً أو أى شىء مما تستخدمه .

ويتابع سبحانه فى نفس الآية :

﴿وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ .. (١٤)﴾ [النحل]

ولم تكُن هناك بواخر كبيرة كالتى فى عصرنا هذا بل فُلْك صغيرة . ونعلم أن نوحاً عليه السلام هو أول مَنْ صنع الفُلْك ، وسَخِر منه قومه ؛ ولو كان ما يصنعه أمراً عادياً لَمَا سَخِروا منه .

وبطبيعة الحال لم يكُنْ هناك مسامير لذلك ربطها بالحبال ؛ ولذلك قال الحق سبحانه عنه :

﴿ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ[1] (١٣) ﴾ [القمر]

وكان جَرْى مركب نوح بإرادة الله ، ولم يكُنْ العلْم قد تقدَّم ليصنع البشر المراكب الضخمة التى تنبّأ بها القرآن فى قوله الحق :

﴿ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ[2] (٢٤) ﴾ [الرحمن]

ونحن حين نقرؤها الآن نتعجَّب من قدرة القرآن على التنبؤ بما اخترعه البشر ؛ فالقرآن عالم بما يَجِدّ ؛ لا بقهريات الاقتدار فقط ؛ بل باختيارات البشر أيضاً .

وقوله الحق :

﴿ وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ .. (١٤) ﴾ [النحل]

والمَاخِر هو الذى يشق حلزومه الماء ، والحُلْزوم هو الصدر . ونجد مَنْ يصنعون المراكب يجعلون المقدمة حادةً لتكون رأس الحربة التى تشق المياه بخرير .

---

(١) الدسار : المسمار أو حبل من ليف تشد به ألواح السفينة ، وجمعه دسر . [القاموس القويم ١/٢٢٧] .

(٢) الأعلام جمع علم وهو الجبل . فهو يصف السفن بالجبال فى كبرها . قال ابن كثير فى تفسيره (٤/٢٧٢) : « أى : كالجبال فى كبرها وما فيها من المتاجر والمكاسب المنقولة من قطر إلى قطر وإقليم إلى إقليم مما فيه صلاح للناس فى جلب ما يحتاجون إليه من سائر أنواع البضائع » .

وفى هذه الآية امتنَّ الحق سبحانه على عباده بثلاثة أمور : صيد السمك ، واستخراج الحُلىّ ، وسَيْر الفلْك فى البحر ؛ ثم يعطف عليهم ما يمكن أن يستجدّ ؛ فيقول :

﴿ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ .. (١٤) ﴾ [النحل]

وكل البواخر وهى تشقّ الماء ويرى الإنسان الماءَ اللين ، وهو يدخل الجسم الصَّلْب للباخرة فيجد فيه متعة ، فضلاً عن أن هذه البواخر تحمل الإنسانَ من مكان إلى مكان .

ويُذيّل الحق سبحانه الآية بقوله :

﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٤) ﴾ [النحل]

ولا يُقال ذلك إلا فى سَرْد نعمة آثارُها واضحة ملحوظة تستحقّ الشكر من العقل العادى والفطرة العادية ، وشاء سبحانه أنْ يتركَ الشُّكر للبشر على تلك النعم ، ولم يُسخرهم شاكرين .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ (١) وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥) ﴾

وهكذا يدلُّنا الحق سبحانه على أن الأرض قد خُلِقت على مراحل ، ويشرح ذلك قوله سبحانه :

---

(١) ماد يميد : تحرك واهتز . ومادت الأرض : اضطربت وزلزلت . قال تعالى : ﴿ وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ..(١٠) ﴾ [لقمان] لئلا تميل وتضطرب فالجبال العالية توازن البحار العميقة . [القاموس القويم ٢/٢٤٦] .

﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا[١] ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا[٢] فِى أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ (١٠)﴾ [فصلت]

وهكذا علمنا أن جِرْم الأرض العام قد خُلق أولاً ؛ وهو مخلوق على هيئة الحركة ؛ ولأن الحركة هى التى تأتى بالمَيدان - التأرجُح يميناً وشمالاً - وعدم استقرار الجِرْم على وَضْع ، لذلك شاء سبحانه أن يخلق فى الأرض الرواسى لتجعلها تبدو ثابتة غير مُقلقة ، والرَّاسى هو الذى يَثبت .

ولو كانت الأرض مخلوقة على هيئة الاستقرار لما خلق الله الجبال ، ولكنه خلقَ الأرض على هيئة الحركة ، ومنع أنْ تميدَ بخَلْق الجبال ليجعلَ الجبال رواسىَ للأرض .

وفى آية أخرى يقول سبحانه :

﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ..(٨٨)﴾ [النمل]

وكلمة ﴿ أَلْقَى ﴾ تدلُّ على أن الجبال شىء متماسك وُضِع ليستقر .

ثم يعطف سبحانه على الجبال :

﴿وَأَنْهَارًا وَسُبُلاً .. (١٥)﴾ [النحل]

---

(١) الأنداد : جمع نِدّ . وهو الضد والشبيه . ويريد بها ما كانوا يتخذونه آلهة من دون الله . [لسان العرب - مادة : ندد] .

(٢) الأقوات جمع قوت ، وهو الرزق . قال ابن كثير فى تفسيره (٤/٩٣) : « هو ما يحتاج إليه من الأرزاق والأماكن التى تزرع وتغرس » .

ولم يَأْتِ الحق سبحانه بفعل يناسب الأنهار ، ومن العجيب أن الأسلوب يجمع جماداً فى الجبال ، وسيولة فى الأنهار ، وسبلاً أى طرقاً ، وكُلُّ ذلك :

﴿لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥)﴾ [النحل]

أى : أن الجَعْل كلَّه لعلنا نهتدى .

ونعلم أن العرب كانوا يهتدون بالجبال ، ويجعلون منها علامات ، والمثَل هو جبل « هرشا » الذى يقول فيه الشاعر :

خُذُوا بَطْنَ هرشا أو قَفَاهَا فإنَّهُ كِلاَ جَانِبى هرشا لَهُنَّ طَرِيقُ

وأيضاً جبل التوباد كان يُعتبر علامة .

وكذلك قَوْل الحق سبحانه :

﴿وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ ..(٥٢)﴾ [مريم]

وهكذا نجد من ضمن فوائد الجبال أنها علاماتٌ نهتدى بها إلى الطرق وإلى الأماكن ، وتلك من المهام الجانبية للجبال .

أو :

﴿لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥)﴾ [النحل]

باتعاظكم بالأشياء المخلوقة لكم ، كى تهتدوا لِمَنْ أوجدها لكم .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (١٦)﴾

أى : أن ما تقدم من خَلْق الله هو علامات تدلُّ على ضرورة أنْ تروا المنافع التى أودعها الله فيما خلق لكم ؛ وتهتدوا إلى الإيمان بإله موُجِد لهذه الأشياء لصالحكم .

وما سبق من علامات مَقرُّه الأرض ، سواء الجبال أو الأنهار أو السُّبل ؛ وأضاف الحق سبحانه لها فى هذه الآية علامةً توجد فى السماء ، وهى النجوم .

ونعلم أن كلَّ مَنْ يسير فى البحر إنما يهتدى بالنجم . وتكلم عنها الحق سبحانه هنا كتسخير مُخْتص ؛ ولم يُدخِلها فى التسخيرات المتعددة ؛ ولأن نجماً يقود لنجم آخر ، وهناك نجوم لم يصلنا ضوؤها بعد ، وننتفع بآثارها من خلال غيرها[1] .

ونعلم أن قريشاً كانت لها رحلتان فى العام : رحلة الشتاء ، ورحلة الصيف . وكانت تسلك سبلاً متعددة ، فتهتدى بالنجوم فى طريقها ، ولذلك لابد أن يكون عندها خبرة بمواقع النجوم .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (١٦) ﴾ [النحل]

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٣٨١٦/٥) : « قال ابن العربى : أما جميع النجوم فلا يهتدى بها إلا العارف بمطالعها ومغاربها ، والفرق بين الجنوبى والشمالى منها ، وذلك قليل فى الآخرين . وأما الثريا فلا يهتدى بها إلا من يهتدى بجميع النجوم . وإنما الهدى لكل أحد بالجَدْى والفرقدين ، لأنهما من النجوم المنحصرة المطالع الظاهرة السمت الثابتة فى المكان ، فإنها تدور على القطب الثابت دوراناً محصلاً ، فهى أبداً هَدْىُ الخلق فى البر إذا عميت الطرق ، وفى البحر عند مجرى السفن ، وفى القبلة إذا جُهل السَّمْت ، وذلك على الجملة بأن تجعل القطب على ظهر منكبك الأيسر فما استقبلت فهو سَمْت الجهة » .

قد فضَّل الحق هذا الأسلوب من بين ثلاثة أساليب يمكن أنْ تُؤدى المعنى ؛ هى : « يهتدون بالنجم » و « بالنجم يهتدون » والثالث : هو الذى استخدمه الحق فقال :

﴿ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (١٦) ﴾ [النحل]

وذلك تأكيد على خبرة قريش بمواقع النجوم ؛ لأنها تسافر كل عام رحلتين ، ولم يكن هناك آخرون يملكون تلك الخبرة .

والضمير « هم » جاء ليعطى خصوصيتين ؛ الأولى : أنهم يهتدون بالنجم لا بغيره ؛ والثانية : أن قريشاً تهتدى بالنجم ، بينما غيرُها من القبائل لا تستطيع أن تهتدى به .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (١٧) ﴾

ونعلم أن الكلام الذى يلقيه المتكلم للسامع يأخذ صوراً متعددة ؛ فمرَّة يأخذ صورة الخبر ، كأن يقول : مَنْ لا يخلق ليس كَمْن يخلق . وهذا كلام خبرىّ ، يصح أنْ تُصدّقه ، ويصحّ ألاّ تُصدّقه .

أما إذا أراد المتكلم أن يأتى منك أنت التصديق ، ويجعلك تنطق به ؛ فهو يأتى لك بصيغة سؤال ، لا تستطيع إلا أنْ تجيبَ عليه بالتأكيد لِمَا يرغبه المتكلِّم .

ونعلم أن قريشاً كانت تعبد الأصنام ؛ وجعلوها آلهة ؛ وهى لم تكلمهم ، ولم تُنزِل منهجاً ، وقالوا ما أورده الحق سبحانه على ألسنتهم :

﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ[١] .. ﴿٣﴾﴾ [الزمر]

فلماذا إذن لا يعبدون الله مباشرة دون وساطة ؟ ولماذا لا يرفعون عن أنفسهم مشقة العبادة ، ويتجهون إلى الله بمباشرة ؟

ثم لنسأل : ما هى العبادة ؟

نعلم أن العبادة تعنى الطاعة فى « افعل » و « لا تفعل » التى تصدر من المعبود . وبطبيعة الحال لا توجد أوامر أو تكاليف من الأصنام لِمَنْ يعبدونها ، فهى معبودات بلا منهج ، وبلا جزاء لِمَن خالف ، وبلا ثواب لِمَنْ أطاع ، وبالتالى لا تصلح تلك الأصنام للعبادة .

ولنناقش المسألة من زاوية أخرى ، لقد أوضح الحق سبحانه أنه هو الذى خلق السماوات والأرض ، والليل والنهار ، والشمس والقمر ، وسخر كل الكائنات لخدمة الإنسان الذى أوكل إليه مهمة خلافته فى الأرض[٢] .

وكلُّ تلك الأمور لا يدعيها أحد غير الله ، بل إنك إنْ سألتَ الكفار والمشركين عمَّن خلقهم ليقولن الله .

قال الحق سبحانه :

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ .. ﴿٨٧﴾﴾ [الزخرف]

---

(١) الزلفى : القرب والمنزلة والدرجة . زلف إليه : قرب ودنا . [القاموس القويم ١/٢٨٨] . والمعنى كما قاله قتادة والسدى : أى ليشفعوا لنا ويقربونا عنده منزلة ولهذا كانوا يقولون فى تلبيتهم إذا حجوا فى جاهليتهم : لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك . نقله ابن كثير فى تفسيره (٤/٤٥) ..

(٢) قال تعالى فى قرآنه : ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً .. ﴿٣٠﴾﴾ [البقرة] .

ذلك أن عملية الإيجاد والخَلْق لا يجرؤ أحدٌ أنْ يدَّعيَها إنْ لم يكُنْ هو الذى أبدعها ، وحين تسألهم : مَنْ خلق السماوات والأرض لقالوا : إنه الله[1] .

وقد أبلغهم محمد ﷺ أن الله هو الذى خلق السماوات والأرض ، وأن منهجه لإدارة الكون يبدأ من عبادته سبحانه .

وما دام قد ادَّعى الحق سبحانه ذلك ، ولم يوجد مَنْ ينازعه ؛ فالدعوة تثبُت له إلى أنْ يوجد معارض ، ولم يوجد هذا المُعَارض أبداً .

وهنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها ؛ لم يَقُل الحق سبحانه « أتجعلون مَنْ لا يخلق مثْل من يخلق » . بل قال :

﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (١٧)﴾ [النحل]

ووراء ذلك حكمة ؛ فهؤلاء الذين نزل إليهم الحديث تعاملوا مع الأصنام وكأنها الله ؛ وتوهَّموا أن الله مخلوق مثل تلك الأصنام ؛ ولذلك جاء القول الذى يناسب هذا التصوُّر .

والحق سبحانه يريد أنْ يبطل هذا التصوُّر من الأساس ؛ فأوضح أن مَنْ تعبدونهم هم أصنام من الحجارة وهى مادة ولها صورة ، وأنتم صنعتموها على حَسْب تصوُّركم وقدراتكم .

وفى هذه الحالة يكون المعبود أقلَّ درجةً من العابد وأدنى منه ؛ فضلاً عن أن تلك الأصنام لا تملك لِمَنْ يعبدها ضراً ولا نفعاً .

---

(١) قال تعالى : ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ .. (٦١)﴾ [العنكبوت]

ثم : لماذا تدعون الله إنْ مسَّكُم ضُرٌّ ؟

إن الإنسان يدعو الله فى موقف الضر ؛ لأنه لحظتها لا يجرؤ على خداع نفسه ، أما الآلهة التى صنعوها وعبدوها فهى لا تسمع الدعاء :

﴿ إِن تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ (١٤) ﴾ [فاطر]

فكيف إذن تساوون بين مَنْ لا يخلق ، ومن يخلق ؟ إن عليكم أنْ تتذكّروا ، وأنْ تتفكَّروا ، وأن تُعْمِلوا عقولكم فيما ينفعكم .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا (١) إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٨) ﴾

وهذه الآية سبقتْ فى سورة إبراهيم ؛ فقال الحق سبحانه هناك :

﴿ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤) ﴾ [إبراهيم]

وكان الحديث فى مجال مَنْ لم يعطوا الألوهية الخالقة ، والربوبية الموجدة ، والمُمِدّة حقَّها ، وجحدوا كل ذلك . ونفس الموقف هنا حديث عن نفس القوم ، فيُوضِّح الحق سبحانه :

---

(١) لا تحصوها : لا تطيقوا عدّها ، ولا تقوموا بحصرها لكثرتها ، كالسمع والبصر وتقويم الصور إلى غير ذلك من العافية والرزق . [قاله القرطبى فى تفسيره ٥/٣٧٠٥] .

أنتم لو استعرضتم نِعَم الله فلن تحصوها ، ذلك أن المعدود دائماً يكون مكرر الأفراد ؛ ولكن النعمة الواحدة فى نظرك تشتمل على نِعَم لا تُحصَى ولا تُعَد ؛ فما بالك بالنِّعم مجتمعة ؟

أو : أن الحق سبحانه لا يمتنُّ إلا بشىء واحد ، هو أنه قد جاء لكم بنعمة ، وتلك النعمة أفرادها كثير جداً .

ويُنهِى الحق سبحانه الآية بقوله :

﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٨)﴾ [النحل]

أى : أنكم رغم كُفْركم سيزيدكم من النعم ، ويعطيكم من مناط الرحمة ، فمنكم الظلم ، ومن الله الغفران ، ومنكم الكفر ومن الله الرحمة .

وكأنَّ تذييل الآية هنا يرتبط بتذييل الآية التى فى سورة إبراهيم حيث قال هناك :

﴿إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤)﴾ [إبراهيم]

فهو سبحانه غفور لجحدكم ونُكْرانكم لجميل الله ، وهو رحيم ، فيوالى عليكم النِّعَم رغم أنكم ظالمون وكافرون .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (١٩)﴾

والسِّر ـ كما نعلم ـ هو ما حبْسته فى نفسك ، أو ما أسررْتَ به لغيرك ، وطلبتَ منه ألاَّ يُعلمه لأحد . والحق سبحانه يعلم السِّر ، بل يعلم ما هو أخْفى فهو القائل :

﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧﴾ [طه]

أى : أنه يعلم ما نُسِره فى أنفسنا ، ويعلم أيضاً ما يمكن أن يكون سِراً قبل أن نُسِرَّه فى أنفسنا ، وهو سبحانه لا يعلم السِّر فقط ؛ بل يعلم العلَن أيضاً .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۝٢٠﴾

أى : أنهم لا يستطيعون أنْ يخلقوا شيئاً ؛ بل هم يُخْلقون ، والأصنام كما قُلْنا من قبل هى أدنى ممَّنْ يخلقونها ، فكيف يستوى أنْ يكونَ المعبود أدْنى من العابد ؟ وذلك تسفيهٌ لعبادتهم .

ولذلك يقول الحق سبحانه على لسان سيدنا إبراهيم عليه السلام لحظةَ أنْ حطَّم الأصنام ، وسأله أهله : مَنْ فعل ذلك بآلهتنا ؟ وأجاب :

﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا .. ۝٦٣﴾ [الأنبياء]

فقالوا له : إن الكبير مجرَّد صنم ، وأنت تعلم أنه لا يقدر على شىء .

ونجد القرآن يقول لأمثال هؤلاء :

﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ[1] (٩٥)﴾ [الصافات]

فهذه الآلهة - إذن - لا تخلق بل تُخلق ، لكن الله هو خالق كل شىء ، وسبحانه القائل :

﴿يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣)﴾ [الحج]

ويذكر الحق سبحانه من بعد ذلك أوصاف تلك الأصنام :

﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (٢١)﴾

وهم بالفعل أموات ؛ لأنهم بلا حِسٍّ ولا حركة ، وقوله :

﴿غَيْرُ أَحْيَاءٍ .. (٢١)﴾ [النحل]

تفيد أنه لم تكُنْ لهم حياة من قَبْل ، ولم تثبت لهم الحياة فى دورة من دورات الماضى أو الحاضر أو المستقبل .

وهكذا تكتمل أوصاف تلك الأصنام ، فهم لا يخلقون شيئاً ، بل هم مخلوقون بواسطة مَنْ نحتُوهم ، وتلك الأصنام والأوثان لن تكون لها حياة فى الآخرة ، بل ستكون وَقُوداً للنار .

---

(١) نحته : براه واقتطع منه أجزاء ، ويكون ذلك فى الأشياء الصلبة كالحجر والخشب . [القاموس القويم ٢/٢٥٥] .

والحق سبحانه هو القائل :

﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ[1] وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢)﴾ [الصافات]

وبطبيعة الحال لن تشعرَ تلك الحجارةُ ببعْث مَنْ عبدوها .

ويُصفِّي الحق سبحانه من بعد ذلك المسألة العقدية ، فيقول :

﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ[2] وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ (٢٢)﴾

وقَوْله الحق :

﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ .. (٢٢)﴾ [النحل]

تمنع أنْ يكونَ هناك أفراد غيره مثله ، وقد يتصوَّر البعض أنها تُساوى كلمة « أحد » . وأقول : إن كلمة « أحد » هى منع أن يكونَ له أجزاء ؛ فهو مُنزَّه عن التَّكْرار أو التجزىء .

وفى هذا القول طَمْأنةٌ للمؤمنين بأنهم قد وصلوا إلى قِمَّة الفهم والاعتقاد بأن الله واحد .

أو : هو يُوضِّح للكافرين أن الله واحدٌ رغم أنوفكم ، وستعودون

---

(١) أزواجهم : نظراءهم وأضرابهم وقرناءهم . [لسان العرب ـ مادة : زوج] . « قال عمر ابن الخطاب : أزواجهم : أشباههم يجىء أصحاب الزنا مع أصحاب الزنا ، وأصحاب الربا مع أصحاب الربا ، وأصحاب الخمر مع أصحاب الخمر » . نقله ابن كثير فى تفسيره (٤/٤) .

(٢) قال القرطبى فى تفسيره (٣٨١٩/٥) : « أى : لا تقبل الوعظ ، ولا ينجع فيها الذكر » .

إليه غَصْباً ، وبهذا القول يكشف الحق سبحانه عن الفطرة الموجودة فى النفس البشرية التى شهدتْ فى عالم الذَّرِّ أن الله واحد لا شريك له ، وأن القيامة والبعث حَقٌّ .

ولكن الذين لا يؤمنون بالله وبالآخرة هم مَنْ ستروا عن أنفسهم فطرتهم ، فكلمة الكفر كما سبق أنْ قلنا هى ستر يقتضى مستوراً ، والكفر يستر إيمانَ الفطرة الأولى .

والذين يُنكرون الآخرة إنما يَحْرِمون أنفسهم من تصوُّر ما سوف يحدث حَتْماً ؛ وهو الحساب الذى سيجازى بالثواب والحسنات على الأفعال الطيبة ، ولعل سيئاتهم تكون قليلة ؛ فيجبُرها الحق سبحانه لهم وينالون الجنة .

والمُسْرِفون على أنفسهم ؛ يأملون أن تكون قضيةُ الدين كاذبة ، لأنهم يريدون أن يبتعدوا عن تصوُّر الحساب ، ويتمنَّوْنَ ألاَّ يوجدَ حساب .

ويَصِفُهم الحق سبحانه :

﴿قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ (٢٢)﴾ [النحل]

أى : أنهم لا يكتفُون بإنكار الآخرة فقط ؛ بل يتعاظمون بدون وجه للعظمة .

و « استكبر » أى : نصَّب من نفسه كبيراً دون أنْ يملكَ مُقوّمات الكبر ، ذلك أن « الكبير » يجب أن يستندَ لِمُقوِّمات الكِبَر ؛ ويضمن لنفسه أنْ تظلَّ تلك المُقوِّمات ذاتيةً فيه .

ولكنّا نحن البشر أبناءُ أغيارٍ ؛ لذلك لا يصِحُّ لنا أنْ نتكبَّر ؛

فالواحد منّا قد يمرض ، أو تزول عنه أعراض الثروة أو الجاه ، فصفات وكمالات الكبر ليست ذاتية فى أىٍّ منَّا ؛ وقد تُسلب ممَّنْ فاء الله عليه بها ؛ ولذلك يصبح من اللائق أن يتواضعَ كُلٌّ منَّا ، وأنْ يستحضرَ ربَّه ، وأنْ يتضاءلَ أمام خالقه .

فالحق سبحانه وحده هو صاحب الحق فى التكبُّر ؛ وهو سبحانه الذى تبلغ صفاته ومُقوّماته منتهى الكمال ، وهى لا تزول عنه أبداً .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾

وساعة نرى ﴿ لا جرم[1] ﴾ فمعناها أنَّ ما يأتى بعدها هو حَقٌّ ثابت ، فـ « لا » نافية ، و « جرم » مأخوذة من « الجريمة » ، وهى كَسْر شىء مُؤْمَن به لسلامة المجموع . وحين نقول « لا جرم » أى : أن ما بعدها حَقٌّ ثابت .

وما بعد ﴿ لا جرم ﴾ هنا هو : أن الله يعلم ما يُسِرون وما يُعلِنون .

وكُلُّ آيات القرآن التى ورد فيها قوله الحق ﴿ لا جرم ﴾ تُؤدّى هذا المعنى ، مثل قوله الحق :

﴿ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ[2] ﴿٦٢﴾ ﴾ [النحل]

---

(١) لا جرم : قال الفراء : هي في الأصل بمعنى لابُد ولا محالة ، ثم كثرت فحولت إلى معنى القسم وصارت بمعنى حقاً [المصباح المنير ص٥٤] .

(٢) مُفْرطُون : متروكون منسيون فى النار قاله مجاهد . وقال مجاهد : مبعدون . وقال قتادة والحسن : معجلون إلى النار مقدمون إليها . [تفسير القرطبى ٣٨٤٦/٥] .

وكذلك قوله الحق :

﴿لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٠٩)﴾ [النحل]

وقد قال بعض العلماء : إن قوله الحق ﴿ لاَ جَرَمَ ﴾ يحمل معنى « لا بُدَّ » ، وهذا يعنى أن قوله الحق :

﴿لا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ .. (٢٣)﴾ [النحل]

لا بُدَّ أن يعلم الله ما يُسِرون وما يُعلِنون ، ولا مناصَ من أن الذين كفروا هم الخاسرون . وقد حلَّلَ العلماء اللفظ لِيصِلوا إلى أدقِّ أسراره .

وعِلْم الله لا ينطبق على الجَهْر فقط ، بل على السِّر أيضاً ؛ ذلك أنه سيحاسبهم على كُلِّ الأعمال . ويُنهِى الحق سبحانه الآية بقوله :

﴿إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ (٢٣)﴾ [النحل]

وإذا سألنا : وما علاقةُ عِلْم الله بالعقوبة ؟ ونقول : ألم يقولوا فى أنفسهم :

﴿لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ .. (٨)﴾ [المجادلة]

وإذا ما نزل قول الحق سبحانه ليُخبرهم بما قالوه فى أنفسهم ؛ فهذا دليل على أن مَنْ يُبلِغهم صادقٌ فى البلاغ عن الله ، ورغم ذلك فقد استكبروا ؛ وتأبَّوْا وعاندوا ، وأخذتهم العزة بالإثم ، وأرادوا بالاستكبار الهرب من الالتزام بالمنهج الذى جاءهم به الرسول ﷺ .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١) ﴿٢٤﴾ ﴾

وقوله الحق :

﴿ مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ .. ﴿٢٤﴾ ﴾ [النحل]

يُوضِّح الاستدراك الذى أجراه الله على لسان المُتكلِّم ؛ ليعرفوا أن لهم رباً . ولو لم يكونوا مؤمنين بربٍّ ، لأعلنوا ذلك ، ولكنهم من غفلتهم اعترضوا على الإنزال ، ولم يعترضوا على أن لهم رباً .

وهذا دليل على إيمانهم بربٍّ خالق ؛ ولكنهم يعترضون على محمد ﷺ وما أُنزِل إليه من الله .

و :

﴿ قَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [النحل]

والأساطير : هى الأكاذيب ، ولو كانوا صادقين مع أنفسهم لَمَا أقرُّوا بالألوهية ، ورفضوا أيضاً القول المُنْزل إليهم .

ومنهم من قال :

﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴿٥﴾ ﴾

[الفرقان]

---

(١) الأساطير : جمع أسطورة وهى الأحاديث التى لا أصل لها . أو هى جمع أسطار أو جمع سطر : أى كتابات وغلبت على الباطل منها . [القاموس القويم ١/٣١٣] .

ولكن هناك جانب آخر كان له موقف مختلف سيأتى تبيانه من بعد ذلك ، وهم الجانب المُضَادّ لهؤلاء ؛ حيث يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ .. (٣٠) ﴾ [النحل]

ووراء ذلك قصة تُوضّح جوانب الخلاف بين فريق مؤمن ، وفريق كافر .

فحين دعا رسول الله ﷺ قومه وعشيرته إلى الإيمان بالله الواحد الذى أنزل عليه منهجاً فى كتاب مُعجز ، بدأت أخبار رسول الله ﷺ تنتشر بين قبائل الجزيرة العربية كلها ، وأرسلت كُلّ قبيلة وفداً منها لتتعرف وتستطلع مسألة هذا الرسول .

ولكن كُفّار قريش أرادوا أن يصدُّوا عن سبيل الله ؛ فقسَّموا أنفسهم على مداخل مكة الأربعة ، فإذا سألهم سائل من وفود القبائل « ماذا قال ربكم الذى أرسل لكم رسولاً ؟» .

هنا يرد عليهم قسم الكفار الذى يستقبلهم : « إنه رسول كاذب ، يُحرِّف ويُجدِّف[1] » . والهدف طبعاً أنْ يصُدّ الكفار وفود القبائل .

ويخبر الحق سبحانه رسوله ﷺ بما حدث ، وإذا قيل للواقفين على أبواب مكة من الوفود التى جاءت تستطلع أخبار الرسول : ماذا أنزل ربُّكم ؟ يردُّون « إنه يُردِّد أساطير الأولين » .

---

(١) التجديف : هو الكفر بالنعم . جدَّف الرجل بنعمة الله : كفرها ولم يقنع بها . قال أبو عبيد : يعنى كفر النعمة واستقلال ما أنعم الله عليك . [لسان العرب ـ مادة : جدف] .

وهذا الجواب الواحد من الواقفين على أبواب مكة الأربعة يدلُّ على أنها إجابة مُتفق عليها ، وسبق الإعداد لها ، وقد أرادوا بذلك أنْ يَصرفوا وفود القبائل عن الاستماع لرسول الله ﷺ فشبَّهوا الذِّكْ المُنزَّل من الله بمثل ما كان يرويه لهم - على سبيل المثال - النضر ابن الحارث من قصص القدماء التى تتشابه مع قصص عنترة ، وأبى زيد الهلالى التى تُروى فى قُرَانا . وهذه هى الموقعة الأولى فى الأخذ والرد .

ويُعقِّب الحق سبحانه على قولهم هذا :

﴿ لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

وانظر إلى قوله سبحانه :

﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً .. ﴿٢٥﴾ ﴾ [النحل]

لترى كيف يُوضّح الحق سبحانه أن النفس البشرية لها أحوال متعددة ؛ وإذا أسرفتْ على نفسها فى تلك الجوانب ؛ فهى قد تُسرف فى الجانب الأخلاقى ؛ والجانب الاجتماعى ؛ وغير ذلك ، فتأخذ وِزْر كُلّ ما تفعل .

ويُوضِّح هنا الحق سبحانه أيضاً أن تلك النفس التى ترتكب الأوزار حين تُضل نفساً غيرها فهى لا تتحمل من أوزار النفس التى أضلَّتها إلا ما نتجَ عن الإضلال ؛ فيقول :

﴿وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ .. (٢٥)﴾ [النحل]

ذلك أن النفس التى تَمَّ إضلالها قد ترتكب من الأوزار فى مجالات أخرى ما لا يرتبط بعملية الإضلال .

والحق سبحانه أعدل من أنْ يُحمّل حتى المُضِل أوزاراً لم يكُنْ هو السبب فيها ؛ ولذلك قال الحق سبحانه هنا :

﴿وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ .. (٢٥)﴾ [النحل]

أى : أن المُضِلّ يحمل أوزار نفسه ، وكذلك يحمل بعضاً من أوزار الذين أضلّهم ؛ تلك الأوزار الناتجة عن الإضلال .

وفى هذا مُطْلق العدالة من الحق سبحانه وتعالى ، فالذين تَمَّ إضلالهم يرتكبون نوعين من الأوزار والسيئات ؛ أوزار وسيئات نتيجة الإضلال ؛ وتلك يحملها معهم مَنْ أضلوهم .

أما الأوزار والسيئات التى ارتكبوها بأنفسهم دون أنْ يدفعهم لذلك مَنْ أضلُّوهم ؛ فهم يتحمَّلون تَبِعاتها وحدهم ، وبذلك يحمل كُلُّ إنسان أحمال الذنوب التى ارتكبها .

وقد حسم رسول الله ﷺ ذلك حين قال : « والذى نفس محمد بيده ، لا ينال أحد منكم منها شيئاً إلا جاء به يوم القيامة يحمله على عنقه ، بعير له رُغَاء ، أو بقرة لها خُوَار ، أو شاة تَيْعَر[1] » .

وقِسْ على ذلك من سرق فى الطوب والأسمنت والحديد وخدع الناس .

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١٨٣٢) ، والبخارى فى صحيحه (٢٥٩٧) . حديث أبى حميد الساعدى . ومعنى تيعر أى : تصيح ، والخوار صوت البقرة .

وحين يقول الحق سبحانه :

﴿ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ .. (٢٥) ﴾ [النحل]

إنما يلفتنا إلى ضرورة ألاَّ تُلهينا الدنيا عن أهمِّ قضية تشغل بال الخليقة ، وهى البحث عن الخالق الذى أكرم الخَلْق ، وأعدَّ الكون لاستقبالهم .

وكان يجب على هؤلاء الذين سمعوا من كفار قريش أن يبحثوا عن الرسول ، وأن يسمعوا منه ؛ فهم أُميون لم يسبق أنْ جاءهم رسول ؛ وقد قال فيهم الحق سبحانه :

﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ (٧٨) ﴾

[البقرة]

فإذا ما جاءهم الرسول كان عليهم أنْ يبحثوا ، وأنْ يسمعوا منه لا نقلاً عن الكفار ؛ ولذلك سيعاقبهم الله ؛ لأنهم أهملوا قضية الدين ، ولكن العقوبةَ الشديدة ستكون لِمَنْ كان عندهم عِلْم بالكتاب .

والحق سبحانه هو القائل :

﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً .. (٧٩) ﴾ [البقرة]

ويَصِف الحق سبحانه مَنْ يحملون أوزارهم وبعضاً من أوزار مَنْ أضلوهم :

﴿ أَلا سَاءَ مَا يَزِرُونَ (٢٥) ﴾ [النحل]

أى : ساء ما يحملون من آثام ؛ فهم لَمْ يكتفوا بأوزارهم ، بل

صَدُّوا عن سبيل الله ، ومنعُوا الغير أنْ يستمعَ إلى قضية الإيمان .

ومن نتيجة ذلك أنْ يبيح مَنْ لم يسمع لنفسه بعضاً مِمَّا حرم الله ؛ فيتحمل مَنْ صدَّهم عن السبيل وِزْر هذا الإضلال .

ولذلك نجد رسول الله ﷺ يقول :

« شَرُّكم مَنْ باع دينه بِدُنْياه ، وشَرٌّ منه مَنْ باع دينه بِدُنْيا غيره »[(١)] .

فمَنْ باع الدين ليتمتع قليلاً ؛ يستحق العقاب ؛ أما مَنْ باع دينه ليتمتعَ غيرُه فهو الذى سيجد العقاب الأشدَّ من الله .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ[(٢)] عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ[(٣)] وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾

ويأتى الحق سبحانه هنا بسيرة الأولين والسُّنن التى أجراها سبحانه عليهم ، ليسلى رسوله ﷺ ؛ ويُوضِّح له أن ما حدث معه ليس بدْعاً ؛ بل سبق أنْ حدث مع مَنْ سبق من الرسل . ويُبلغه أنه

---

(١) أخرج مسلم فى صحيحه (١١٨) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « بادروا بالأعمال فتناً كقطع الليل المظلم ، يصبح الرجل مؤمناً ويمسى كافراً ، أو يمسى مؤمناً ويصبح كافراً ، يبيع دينه بعرض من الدنيا » وقد أخرج ابن أبى الدنيا فى « ذم الدنيا » أن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قال : « الخاسر من عمّر دنياه بخراب آخرته ، والخاسر من استصلح معاشه بفساد دينه ، والمغبون حظاً من رضى بالدنيا من الآخرة » .

(٢) خَرَّ : سقط من علوّ إلى سفل بصوت . وخرَّ البناء : سقط . [لسان العرب ـ مادة : خرر] .

(٣) من فوقهم : أى عليهم وقع وكانوا تحته فهلكوا وما أفلتوا . [تفسير القرطبى ٥/٣٨٢٢] .

لم يبعث أىَّ رسول إلا بعد تَعُمّ البَلْوى ويَطم الفساد ، ويفقد البشر المناعة الإيمانية ، نتيجة افتقاد مَنْ يؤمنون ويعملون الصالحات ، ويتواصون بالحقِّ وبالصبر .

والمَثَلُ الواضح على ذلك ما حدث لبنى إسرائيل ؛ الذين قال فيهم الحق سبحانه :

﴿ كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ .. (٧٩) ﴾ [المائدة]

فانصبَّ عليهم العذاب من الله ، وهذا مصير كُلِّ أمة لا تتناهى عن المنكر الظاهر أمامها .

ويقول سبحانه هنا :

﴿ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ .. (٢٦) ﴾ [النحل]

والمكر تبييت خفىّ يُبيّته الماكر بما يستر عن المَمْكُور به . ولكن حين يمكر أحد بالرسل ؛ فهو يمكر بمَنْ يُؤيّده الله العالم العليم .

وإذا ما أعلم اللهُ رسولَه بالمكر ؛ فهو يُلغى كل أثر لهذا التبييت ؛ فقد علمه مَنْ يقدر على إبطاله . والحق سبحانه هو القائل :

﴿ كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي .. (٢١) ﴾ [المجادلة]

وهو القائل :

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) ﴾ [الصافات]

وطبَّق الحق سبحانه ذلك على رسوله ﷺ ؛ حين مكر به كفار قريش وجمعوا شباب القبائل ليقتلوه ؛ فأغشاهم الله ولم يبصروا

خروجه للهجرة[1] ولم ينتصر عليه معسكر الكفر بأىٍّ وسيلة ؛ لا باعتداءات اللسان ، ولا باعتداءات الجوارح .

وهؤلاء الذين يمكرون بالرسل لم يتركهم الحق سبحانه دون عقاب :

﴿ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ .. (٢٦) ﴾ [النحل]

أى : أنهم إنْ جعلوا مكرهم كالبناية العالية ؛ فالحقُّ سبحانه يتركهم لإحساس الأمن المُزيف ، ويحفر لهم منْ تحتها ، فيخرّ عليهم السقف الذى من فوقهم . وهكذا يضرب الله المثَل المعنوى بأمرٍ مُحَسٍّ .

وقوله الحق :

﴿ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ .. (٢٦) ﴾ [النحل]

يُوضِّح أنهم موجودون داخل هذا البيت ، وأن الفوقية هنا للسقف ، وهى فوقية شاءها الله ليأتيهم :

﴿ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ (٢٦) ﴾ [النحل]

وهكذا يأتى عذاب الله بَغْتة ؛ ذلك أنهم قد بيَّتوا ، وظنوا أن هذا التبييت بخفاء يَخْفَى عن الحَىِّ القيوم .

ولَيْتَ الأمرَ يقتصر على ذلك ؛ لا بل يُعذِّبهم الله فى الآخرة أيضاً :

---

(١) اجتمعت قريش على قتل رسول الله ﷺ فأخذوا من كل قبيلة شاباً فتياً ليضربوه ضربة رجل واحد فيتفرق دمه فى القبائل فلا يستطيع بنو هاشم الأخذ بثأره ، فأتاه جبريل قائلاً : لا تبت هذه الليلة على فراشك . ولزم المشركون بابه ينتظرون نومه ليقتلوه ، ولكنه ﷺ خرج عليهم وفى يده حفنة من التراب فنثرها على رؤوسهم وهو يتلو قوله تعالى : ﴿ يسٓ (١) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (٢) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٣) عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٤) ﴾ إلى قوله : ﴿ فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ (٩) ﴾ [يس] . فلم يبق منهم رجل إلا وقد وضع على رأسه تراباً ، ثم انصرف إلى حيث أراد أن يذهب [السيرة النبوية لابن هشام ٢/٤٨٣] بتصرف .

﴿ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ[١] وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تُشَاقُّونَ[٢] فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ (٢٧) ﴾

وهكذا يكون العذاب فى الدنيا وفى الآخرة ، ويَلْقوْن الخِزْى يوم القيامة . والخِزْى هو الهوان والمَذلَّة ، وهو أقوى من الضرب والإيذاء ؛ ولا يتجلَّد أمامه أحدٌ ؛ فالخِزْى قشعريرة تَغْشَى البدن ؛ فلا يُفلت منها مَنْ تصيبه .

وإنْ كان الإنسان قادراً على أنْ يكتمَ الإيلام ؛ فالخِزْى معنى نفسى ، والمعانى النفسية تنضح على البشرة ؛ ولا يقدر أحد أنْ يكتمَ أثرها ؛ لأنه يقتل خميرة الاستكبار التى عاش بها ذلك الذى بيَّت ومكرَ .

ويُوضِّح الحق سبحانه هذا المعنى فى قوله عن القرية التى كان يأتيها الرزق من عند الله ثم كفرت بأنعم الله ؛ فيقول :

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً[٣] كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا[٤] مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١١٢) ﴾ [النحل]

---

(١) أخزاه : أهانه وفضحه . [القاموس القويم ١/١٩٢] . « يخزيهم : أى يفضحهم بالعذاب ويذلهم به ويهينهم » قاله القرطبى فى تفسيره (٥/٣٨٢٢) .

(٢) تشاقون : تخالفون وتعادون وتحاربون . [لسان العرب ـ مادة : شقق] .

(٣) المقصود بالقرية هنا مكة على أرجح الأقوال التى نقلها ابن كثير فى تفسيره (٢/٥٨٩) والقرطبى (٥/٣٩٢١) وساق القرطبى قولاً عاماً أنها أى قرية كانت على هذه الصفة .

(٤) رَغُد العيش : اتسع وطاب ، وقال تعالى : ﴿ وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا .. (٣٥) ﴾ [البقرة] أى : أكلاً طيباً مُوسَّعاً عليكم فيه . [القاموس القويم ١/٢٦٩] .

أى : كأن الجسد كله قد سار مُمتلكاً لحاسة التذوق ، وكأن الجوع قد أصبح لباساً ؛ يعانى منه صاحبه ؛ فيجوع بقفاه ، ويجوع بوجهه ، ويجوع بذراعه وجلده وخطواته ، وبكل ما فيه .

وساعة يحدث هذا الخزى فكُلُّ خلايا الاستكبار تنتهى ، خصوصاً أمام مَنْ كان يدَّعى عليهم الإنسان أن عظمته وتجبّره وغروره باقٍ ، وله ما يسنده .

ويتابع سبحانه متحدياً :

﴿أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ .. (٢٧)﴾ [النحل]

أى : أين الشركاء الذين كنتم تعبدونهم ؛ فجعلتم من أنفسكم شُقَّة ، وجعلتم من المؤمنين شُقّة أخرى ، وكلمة ﴿تُشَاقُّونَ﴾ مأخوذة من « الشق » ويقال : « شَقَّ الجدار أو شَقَّ الخشب » والمقصود هنا أنْ جعلتم المؤمنين ، ومَنْ مع الرسول فى شُقَّة تُعادونها ، وأخذتُم جانب الباطل ، وتركتُم جانب الحق .

وهنا يقول مَنْ آتاهم الله العلم :

﴿قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ (٢٧)﴾

[النحل]

وكأن هذا الأمر سيصير مشهداً بمحضر الحق سبحانه بين مَنْ مكروا برسول الله ﷺ ، وسيحضره الذين أتاهم الله العلم .

والعلم ـ كما نعلم ـ يأتى من الله مباشرة ؛ ثم يُنقَل إلى الملائكة ؛ ثم يُنقَل من الملائكة إلى الرُّسل ، ثم يُنقل من الرُّسُل إلى الأُمم التى كلّفَ الحق سبحانه رسله أنْ يُبلّغوهم منهجه .

وكَما شهدتْ الدنيا سقوط المناهج التى اتبعوها من أهوائهم ، وسقوط مَنْ عبدوهم من دون الله سيشهد اليوم الآخر الخِزْى والسوء وهو يحيط بهم ، وقد يكون الخِزْى من هَوْل الموقف العظيم ، ويحمى الله مَنْ آمنوا به بالاطمئنان .

ونعلم أن الرسول ﷺ قد قال : « ألا هل بلغت ، اللهم فاشهد »[(١)] .

وكما بلَّغَ رسولُ الله أمته واستجابتْ له ؛ فقد طلب منهم أيضاً أن يكونوا امتداداً لرسالته ، وأنْ يُبلِّغوها للناس ، ذلك أن الحق سبحانه قد منع الرسالات من بعد رسالة محمد عليه الصلاة والسلام . وصار من مسئولية الأمة المحمدية أنْ تُبلِّغ كل مَنْ لم تبلغه رسالة الرسول ﷺ .

وقد قال ﷺ : « نَضَّر الله امرءاً سمع مقالتى فوعاها ، وأدَّاها إلى مَنْ لم يسمعها ، فَرُبَّ مُبلَّغ أَوْعَى من سامع »[(٢)] .

والحق سبحانه هو القائل[(٣)] :

---

(١) ورد هذا القول فى أحاديث كثيرة منها حديث عبدالله بن مسعود الذى أخرجه مسلم فى صحيحه (٣٧٨) قال : خطبنا رسول الله ﷺ فأسند ظهره إلى قبة آدم ، فقال : ألا لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة . اللهم هل بلغت ؟ اللهم اشهد .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (١/٤٣٧) والترمذى فى سننه (٢٦٥٧ ، ٢٦٥٨) وابن ماجة فى سننه (٢٣٢) والحميدى (١/٤٧) من حديث عبدالله بن مسعود .

(٣) عن عبدالله بن مسعود رضى الله عنه قال قال لى رسول الله ﷺ : « اقرأ علىّ . فقلت : يا رسول الله ، أقرأ عليك وعليك أنزل . قال : نعم ، إنى أحب أن أسمعه من غيرى » فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية : ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ [النساء] فقال : « حسبك الآن » . فإذا عيناه تذرفان . أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٠٥٠) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٨٠٠) كتاب صلاة المسافرين ولفظه « رفعت رأسى أو غمزنى رجل إلى جنبى فرفعت رأسى فرأيت دموعه ﷺ تسيل » .

﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا (٤١) يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ .. (٤٢)﴾ [النساء]

أى : يتمنوْنَ أنْ يصيروا تُرَاباً ، كما قال تعالى فى موقع آخر :

﴿إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا (٤٠)﴾ [النبأ]

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ[1] مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٨)﴾

يقول تعالى :

﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ .. (٢٨)﴾ [النحل]

أى : تتوفّاهم فى حالة كَوْنهم ظالمين لأنفسهم ، وفى آية أخرى قال الحق تبارك وتعالى :

﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٨)﴾ [النحل]

ومعلوم أن الإنسان قد يظلم غيره لحَظِّ نفسه ولصالحها .. فكيف يظلم هو نفسه ، وهذا يسمونه الظلم الأحمق حين تظلم نفسك التى بين جنبيك .. ولكن كيف ذلك ؟

---

(١) أى : الاستسلام . أى : أقروا لله بالربوبية وانقادوا عند الموت . [تفسير القرطبى ٣٨٢٣/٥] .

نعرف أن العدو إذا كان من الخارج فسهْلٌ التصدى له ، بخلاف إذا جاءك من نفسك التى بين جَنْبَيْك ، فهذا عدو خطير صَعْب التصدِّى له ، والتخلّص منه .

وهنا نطرح سؤالاً : ما الظلم ؟ الظلم أنْ تمنعَ صاحب حَقٍّ حَقَّه ، إذن : ماذا كان لنفسك عليك حتى يقال : إنك ظلمتها بمنعها حَقّها ؟

نقول : حين تجوع ، ألاَ تأكل ؟ وحين تعطش ألاَ تشرب ؟ وحين تُرْهق من العمل ألاَ تنام ؟

إذن : أنت تعطى نفسك مطلوباتها التى تُريحها وتسارع إليها ، وكذلك إذا نِمْتَ وحاولوا إيقاظك للعمل فلم تستيقظ ، أو حاولوا إيقاظك للصلاة فتكاسلت ، وفى النهاية كانت النتيجة فشلاً فى العمل أو خسارة فى التجارة .... الخ .

إذن : هذه خسارة مُجمعة ، والخاسر هو النفس ، وبهذا فقد ظلم الإنسانُ نفسه بما فاتها من منافع فى الدنيا ، وقِسْ على ذلك أمور الآخرة .

وانظر هنا إلى جُزْئيات الدنيا حينما تكتمل لك ، هل هى نهاية كل شىء ، أم بنهايتها يبتدىء شىء ؟ بنهايتها يبتدىء شىء ، ونسأل : الشىء الذى سوف يبدأ ، هل هو صورة مكرورة لما انتهى فى الدنيا ؟

ليس كذلك ، لأن المنتهى فى الدنيا مُنقطع ، وقد أخذت حَظِّى منه على قَدْر قدراتى ، وقدراتى لها إمكانات محدودة .. أما الذى سيبدأ - أى فى الآخرة - ليس بمُنْتهٍ بل خالد لا انقطاع له ، وما فيه من

نعيم يأتى على قَدْر إمكانات المنعِم ربك سبحانه وتعالى .

إذن : أنت حينما تُعطى نفسك متعةً فى الدنيا الزائلة المنقطعة ، تُفوّت عليها المتعة الباقية فى الآخرة .. وهذا مُنتهى الظلم للنفس .

نعود إلى قوله تعالى :

﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ .. (٢٨) ﴾ [النحل]

أثبتت هذه الآية التوفِّى للملائكة .. والتوفِّى حقيقةً لله تعالى ، كما جاء فى قوله :

﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ .. (٤٢) ﴾ [الزمر]

لكن لما كان الملائكة مأمورين ، فكأن الله تعالى هو الذى يتوفّى الأنفُسَ رغم أنه سبحانه وتعالى قال :

﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ .. (٤٢) ﴾ [الزمر]

وقال :

﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ .. (١١) ﴾ [السجدة]

وقال :

﴿ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا .. (٦١) ﴾ [الأنعام]

إذن : جاء الحَدثُ من الله تعالى مرة ، ومن رئيس الملائكة عزرائيل مرة ، ومن مُساعديه من الملائكة مرة أخرى ، إذن : الأمر إما للمزاولة مباشرة ، وإما للواسطة ، وإما للأصل الآمر .

وقوله تعالى :

﴿ تَتَوَفَّاهُمُ .. (٢٨) ﴾ [النحل]

معنى التوفّى من وفَّاه حقَّه أى : وفّاه أجله ، ولم ينقص منه شيئاً ، كما تقول للرجل وَفَّيتُك دَيْنك .. أى : أخذت ما لك عندى .

﴿ ظَالِمِى أَنفُسِهِمْ .. (٢٨) ﴾ [النحل]

نلاحظ أنها جاءت بصيغة الجمع ، و ﴿ ظَالِمِى ﴾ يعنى ظالمين و ﴿ أَنْفُسِهِم ﴾ جمع ، وحين يُقَابَل الجمع بالجمع تقتضى القسمة آحاداً أى : أن كلاً منهم يظلم نفسه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ .. (٢٨) ﴾ [النحل]

أى : خضعوا واستسلموا ولم يَعُدْ ينفعهم تكبّرهم وعجرفتهم فى الدنيا .. ذهب عنهم كل هذا بذَهَاب الدنيا التى راحتْ من بين أيديهم .

وما داموا ألقوا السَّلم الآن ، إذن : فقد كانوا فى حرب قبل ذلك كانوا فى حرب مع أنفسهم وهم أصحاب الشِّقاق فى قوله تعالى :

﴿ تُشَاقُّونَ .. (٢٧) ﴾ [النحل]

أى : تجعلون هذا فى شِقٍّ ، وهذا فى شِقٍّ ، وكأن الآية تقول : لقد رفعوا الراية البيضاء وقالوا : لا جَلَد[1] لنا على الحرب .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ .. (٢٨) ﴾ [النحل]

هذا كقوله تعالى فى آية أخرى :

---

(١) الجلد : القوة والشدة . والجلد : الصلابة والجلادة . [لسان العرب ـ مادة : جلد] .

﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ[1] إِلاَّ أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ (٢٣)﴾ [الأنعام]

والواقع أنهم بعد أنْ ألقَوا السلم ورفعوا الراية البيضاء واستسلموا ، أخذهم موقف العذاب فقالوا محاولين الدفاعَ عن أنفسهم :

﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ .. (٢٨)﴾ [النحل]

وتعجب من كَذِب هؤلاء على الله فى مثل هذا الموقف ، على مَنْ تكذبون الآن ؟!

فيرد عليهم الحق سبحانه :

﴿بَلَىٰ .. (٢٨)﴾ [النحل]

وهى أداةُ نفى للنفى السابق عليها ، ومعلومٌ أن نَفْى النفى إثبات ، فـ ﴿ بلى ﴾ تنفى :

﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ (٢٨)﴾ [النحل]

إذن : معناها .. لا .. بل عملتم السوء . ثم يقول الحق سبحانه :

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٨)﴾ [النحل]

ومن رحمة الله تعالى أنه لم يكتَفِ بالعلم فقط ، بل دوَّن ذلك عليهم وسَجّله فى كتاب سَيُعرض عليهم يوم القيامة ، كما قال تعالى :

---

(١) قال ابن عباس معنيين فى تأويل كلمة (فتنتهم) : الأول : معذرتهم . الثانى : حجتهم . نقلهما السيوطى فى الدر المنثور (٣/٢٥٨) .

﴿وكفى بنا حاسبين (٤٧)﴾ [الأنبياء]

وقال :

﴿وكل إنسان ألزمناه طائره[1] في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا (١٣) اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا (١٤)﴾ [الإسراء]

ويحلو للبعض أنْ ينكر إمكانية تسجيل الأعمال وكتابتها .. ونقول لهؤلاء : تعالوا إلى ما توصل إليه العقل البشرىّ الآن من تسجيل الصور والأصوات والبصمات وغيرها .. وهذا كله يُسهّل علينا هذه المسألة عندما نرقى إمكانات العقل البشرى إلى الإمكانات الإلهية التى لا حدود لها .

فلا وجه - إذن - لأنْ ننكر قدرة الملائكة « رقيب وعتيد»[2] فى تسجيل الأعمال فى كتاب يحفظ أعماله ويُحصى عليه كل كبيرة وصغيرة .

ثم يقول تعالى :

﴿فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (٢٩)﴾

سبق أنْ قُلْنا فى شرح قوله تعالى فى وصف جهنم :

---

(١) طائره : عمله وما قُدِّر عليه من خير وشر ، وهو ملازمه أينما كان . وقال الحسن : أى شقاوته وسعادته وما كتب له من خير وشر وما طار له من التقدير ، أى : صار له عند القسمة فى الأزل [تفسير القرطبى ٣٩٥٧/٥] .

(٢) يقول تعالى فى سورة ق : ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ (١٧) مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (١٨)﴾ [ق] .

﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ (٤٤)﴾ [الحجر]

أى : أن لكل جماعة من أهل المعصية باباً معلوماً .. فبابٌ لأهل الربا .. وبابٌ لأهل الرِّشوة .. وباب لأهل النفاق وهكذا .. ولك أن تتصور ما يُلاقيه مَنْ يجمع بين هذه المعاصى !! إنه يدخل هذا الباب ثم يخرج منه ليدخل باباً آخر .. حقاً ما أتعس هؤلاء !

وهنا يقول تعالى :

﴿فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ .. (٢٩)﴾ [النحل]

فجاءت أيضاً بصورة الجمع . إذن : كل واحد منكم يدخل من بابه الذى خُصِّص له .

ثم يقول سبحانه :

﴿فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (٢٩)﴾ [النحل]

والمثوى هو مكان الإقامة ، وقال تعالى فى موضع آخر :

﴿لا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ (٢٣)﴾ [النحل]

فتكبَّر واستكبر وكل ما جاء على وزن (تفعَّل) يدل على أن كِبْرهم هذا غير ذاتىّ ؛ لأن الذى يتكبر حقاً يتكبّر بما فيه ذاتيّاً لا يسلُبُه منه أحد ، إنما مَنْ يتكبر بشىء لا يملكه فتكبّره غيرُ حقيقىّ ، وسرعان ما يزول ويتصاغر هؤلاء بما تكبَّروا به فى الدنيا ، وبذلك لا يكون لأحد أنْ يتكبّر لأن الكبرياءَ الحقيقى لله عزَّ وجل .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾

وقد سبق أنْ تحدثنا عن قوله تعالى :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ[1] الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [النحل]

فهذه مشاهد ولقطات تُبيّن الموقف الذى انتهى بأنْ أقروا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين .

وهذه الآياتُ نزلتْ فى جماعة كانوا داخلين مكة .. وعلى أبوابها التى يأتى منها أهل البوادى ، وقد قسَّم الكافرون أنفسهم على مداخل مكة ليصدوا الداخلين إليها عن سماع خبر أهل الإيمان بالنبى الجديد.

وكان أهل الإيمان من المسلمين يتحيّنون الفرصة ويخرجون على مشارف مكة بحجة رَعْى الغنم مثلاً ليقابلوا هؤلاء السائلين ليخبروهم خبر النبى ﷺ وخبر دعوته[2] .

مما يدلُّ على أن الذى يسأل عن شىء لا يكتفى بأول عابر يسأله ، بل يُجدّد السؤال ليقف على المتناقضات .. فحين سألوا الكافرين قالوا :

---

(١) الأساطير : جمع أسطار أو أسطورة ، فهى الأحاديث لا نظام لها أو لا أصل لها ، أو هى حكايات عن الأولين كتبوها ولا أساس لها فهى أكاذيب لا تصدّق بزعمهم . [القاموس القويم ١/٣١٣] .

(٢) أورده القرطبى فى تفسيره (٥/٣٨٢٤) ، والسيوطى فى الدر المنثور (٥/١٢٥) .

﴿قَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ (٢٤)﴾ [النحل]

فلم يكتفوا بذلك ، بل سألوا أهل الإيمان فكان جوابهم :

﴿قَالُوا خَيْرًا .. (٣٠)﴾ [النحل]

هذا لنفهم أن الإنسانَ إذا صادف شيئاً له وجهتان متضادتان فلا يكتفى بوجهة واحدة ، بل يجب أن يستمع للثانية ، ثم بعد ذلك للعقل أن يختار بين البدائل .

إذن : حينما سأل الداخلون مكة أهل الكفر :

﴿مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ (٢٤)﴾ [النحل]

وحينما سألوا أهلَ الإيمان والتقوى :

﴿مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا .. (٣٠)﴾ [النحل]

ونلاحظ هنا فى ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا (٣٠)﴾ [النحل]

أن الحق سبحانه لم يوضح لنا مَنْ هم ، ولم يُبيّن هُويّتهم ، وهذا يدلُّنا على أنهم كانوا غير قادرين على المواجهة ، ويُدارون أنفسهم لأنهم ما زالوا ضِعَافاً لا يقدرون على المواجهة .

وقد تكرر هذا الموقف ـ موقف السؤال إلى أنْ تصل إلى الوجهة الصواب ـ حينما عَتَب الحق تبارك وتعالى على نبى من أنبيائه هو سيدنا داوود ـ عليه السلام ـ فى قوله تعالى :

﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا[1] الْمِحْرَابَ (٢١) إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا

(١) تسور السور : تسلّقه وعلاه . [القاموس القويم ١/٣٣٥] .

بالْحَقِّ وَلا تُشْطِطْ[1] وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ (٢٢) إِنَّ هَـٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي[2] فِي الْخِطَابِ (٢٣) ﴾ [ص]

فماذا قال داود عليه السلام ؟

﴿ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ .. (٢٤) ﴾ [ص]

وواضحٌ فى حكم داود عليه السلام تأثُّره بقوله (له تسع وتسعون) ولنفرض أنه لم يكُنْ عنده شىء ، ألم يظلم أخاه بأخْذ نعجته ؟! إذن : تأثر داود بدعوى الخصم ، وأدخل فيه حيثية أخرى ، وهذا خطأ إجرائى فى عَرْض القضية ؛ لأن (تسع وتسعون) هذه لا دَخْل لها فى القضية .. بل هى لاستمالة القاضى وللتأثير على عواطفه ومنافذه ، ولبيان أن الخَصْم غنى ومع ذلك فهو طماع ظالم .

وسرعان ما اكتشف داود ـ عليه السلام ـ خطأه فى هذه الحكومة ، وأنها كانت فتنة واختباراً من الله :

﴿ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ .. (٢٤) ﴾ [ص]

أى : اختبرناه كى نُعلّمه الدرس تطبيقاً .. أيحكم بالحق ويُراعى جميع نواحى القضية أم لا ؟

وانظر هنا إلى فطنة النبوة ، فسرعان ما عرف داود ما وقع فيه واعترف به ، واستغفر ربّه وخَرَّ له راكعاً مُنيباً .

---

(١) الشطط : الجور وتجاوز الحد فى كل شىء . وأشط فى حكمه : جار وظلم . [القاموس القويم ١/٣٤٩] .

(٢) أكفلنيها : معناه اجعلنى أنا أكفلها وانزل أنت عنها . قاله الزجاج . [لسان العرب ـ مادة : كفل] . وعزنى فى الخطاب : أى غلبنى فى الاحتجاج . [لسان العرب ـ مادة : عزز] .

قال تعالى :

﴿فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ (٢٤)﴾ [ص]

إذن : الشاهد هنا أنه كان على داود ـ عليه السلام ـ أن يستمع إلى الجانب الآخر والطرف الثانى فى الخصومة قبل الحكم فيها .

وقوله تعالى :

﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا .. (٣٠)﴾ [النحل]

ما هو الخير ؟ الخير كُلُّ ما تستطيبه النفس بكل مَلَكَاتها .. لكن الاستطابة قد تكون موقوتة بزمن ، ثم تُورِث حَسْرة وندامة .. إذن : هذا ليس خيراً ؛ لأنه لا خيرَ فى خير بعده النارُ ، وكذلك لا شَرَّ فى شر بعده الجنة .

إذن : يجب أن نعرف أن الخير يظل خَيْراً دائماً فى الدنيا ، وكذلك فى الآخرة ، فلو أخذنا مثلاً متعاطى المخدرات نجده يأخذ متعة وقتية ونشوة زائفة سرعان ما تزول ، ثم سرعان ما ينقلب هذا الخير فى نظره إلى شر عاجل فى الدنيا وآجل فى الآخرة .

إذن : انظر إلى عمر الخير فى نفسك وكيفيته وعاقبته .. وهذا هو الخير فى قوله تعالى :

﴿قَالُوا خَيْرًا .. (٣٠)﴾ [النحل]

إذن : هو خير تستطيبه النفس ، ويظل خيراً فى الدنيا ، ويترتب عليه خير فى الآخرة ، أو هو موصول بخير الآخرة .. ثم فسَّره الحق تبارك وتعالى فى قوله سبحانه :

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَـٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ ..(٣٠)﴾

[النحل]

ونفهم من هذه الآية أنه على المؤمن ألاَّ يترك الدنيا وأسبابها ، فربما أخذها منك الكافر وتغلَّب عليك بها ، أو يفتنك فى دينك بسببها ، فمَنْ يعبد الله أَوْلى بسرِّه فى الوجود ، وأسرارُ الله فى الوجود هى للمؤمنين ، ولا ينبغى لهم أن يتركوا الأخذ بأسباب الدنيا للكافرين .

اجتهد أنت أيها المؤمن فى أسباب الدنيا حتى تأمنَ الفتنة من الكافرين فى دُنْياك .. ولا يَخْفى ما نحن فيه الآن من حاجتنا لغيرنا ، مما أعطاهم الفرصة ليسيطروا على سياساتنا ومقدراتنا .

لذلك يقول سبحانه :

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَـٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ .. (٣٠)﴾ [النحل]

أى : يأخذون حسناتهم ، وتكون لهم اليَدُ العليا بما اجتهدوا ، وبما عَملوا فى دنياهم ، وبذلك ينفع الإنسانُ نفسه وينفع غيره ، وكلما اتسعت دائرة النفع منك للناس كانت يدك هى العليا ، وكان ثوابك وخَيْرك موصولاً بخير الآخرة .

لذلك يقول النبى ﷺ :

« ما من مسلم يغرس غرساً ، أو يزرع زرعاً ، فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة »[1] .

ومن هذه الآية أيضاً يتضح لنا جانب آخر ، هو ثمرة من ثمرات

---

(١) متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٣٢٠) ومسلم فى صحيحه (١٥٥٣) كتاب المساقاة من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه .

الإحسان فى الدنيا وهى الأمن .. فمَنْ عاش فى الدنيا مستقيماً لم يقترف ما يُعَاقب عليه تجدْه آمناً مطمئناً ، حتى إذا داهمه شر أو مكروه تجده آمناً لا يخاف ، لأنه لم يرتكب شيئاً يدعو للخوف .

خُذْ مثلاً اللص تراه دائماً مُتوجِّساً[1] خائفاً ، تدور عَيْنه يميناً وشمالاً ، فإذا رأى شرطياً هلع وترقّب وراح يقول فى نفسه : لعله يقصدنى .. أما المستقيم فهو آمن مطمئن .

ومن ثمرات هذا الإحسان وهذه الاستقامة فى الدنيا أن يعيش الإنسان على قَدْر إمكاناته ولا يُرهق نفسه بما لا يقدر عليه ، وقديماً قالوا لأحدهم : قد غلا اللحم ، فقال : أَرْخِصوه ، قالوا : وكيف لنا ذلك ؟ قال : ازهدوا فيه .

وقد نظم ذلك الشاعرُ فقال :

وَإِذَا غَلاَ شَىءٌ عَلَىَّ تركْتُه ... فيكونُ أرخصَ ما يكونُ إذَا غَلاَ

ولا تَقُلْ : النفس توَّاقة إليه راغبة فيه ، فهى كما قال الشاعر :

وَالنفْسُ رَاغِبةٌ إذَا رغَّبْتَها ... وَإِذَا تُرَدّ إلى قَليل تَقْنَعُ

وفى حياتنا العملية ، قد يعود الإنسان من عمله ولمَّا ينضج الطعام ، ولم تُعَد المائدة وهو جائع ، فيأكل أىَّ شىء موجود وتنتهى المشكلة ، ويقوم هذا محل هذا ، وتقنعُ النفسُ بما نالتْه .

ولكى يعيش الإنسان على قَدْر إمكاناته لا بُدَّ له أنْ يوازن بين

---

(١) أوجس : وقع فى نفسه الخوف . والوجْس : الفزع يقع فى القلب أو فى السمع من صوت أو غير ذلك . والتوجس : التسمع إلىَ الصوت الخفى . [لسان العرب ـ مادة : وجس] .

دَخْله ونفقاته ، فمَنْ كان عنده عُسْر فى دَخْله ، أو ضاقت عليه منافذ الرزق لا بُدّ له من عُسْر فى مصروفه ، ولا بُدّ له أنْ يُضيِّق على النفس شهواتها ، وبذلك يعيش مستوراً ميسوراً ، راضى النفس ، قرير العين .

والبعض فى مثل هذه المواقف يلجأ إلى الاستقراض للإنفاق على شهوات نفسه ، وربما اقترض ما يتمتع به شهراً ، ويعيش فى ذلة دَهْراً ؛ لذا من الحكمة إذن قبل أن تسأل الناس القرض سَلْ نفسك أولاً ، واطلب منها أن تصبر عليك ، وأن تُنظرك[1] إلى ساعة اليُسْر ، ولا تُلجئك إلى مذلّة السؤال .. وقبل أن تلوم مَنْ منعك لُمْ نفسك التى تأبَّتْ عليك أولاً .

وما أبدع شاعرنا الذى صاغ هذه القيم فى قوله :

إذَا رُمْتَ أنْ تستقرضَ المالَ مُنفقاً ... على شَهَواتِ النفسِ فى زَمَنِ العُسْر
فَسَلْ نفسكَ الإنفاقَ من كَنْز صَبْرِها ... عليْكَ وإنظاراً إلى سَاعةِ اليُسْر
فَإنْ فعلْتَ كنتَ الغنى ، وإنْ أبَتْ ... فكُل مَنُوع بعدها وَاسِعُ العُذْر

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ .. ﴿٣٠﴾﴾ [النحل]

والخير فى الآخرة من الله ، والنعيم فيها على قَدْر المنعِم تبارك وتعالى ، دون تعب ولا كَدٍّ ولا عمل .

---

(١) الإنظار : الإمهال والتأخير . واستنظره : طلب منه النظرة واستمهله . [لسان العرب ـ مادة : نظر] .

ومعلوم أن كلمة : ﴿قَالُوا خَيْرًا .. (٣٠)﴾ [النحل]

التى فسّرها الحق تبارك وتعالى بقوله :

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَـٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ .. (٣٠)﴾ [النحل]

تقابلها كلمة « شر » ، هذا الشر هو ما جاء فى قول الكافرين :

﴿مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٢٤)﴾ [النحل]

فهؤلاء قالوا خيراً ، وأولئك قالوا شراً .

ولكن إذا قيل : ذلك خير من ذلك ، فقد توفر الخير فى الاثنين ، إلا أن أحدهما زاد فى الخيرية عن الآخر ، وهذا معنى قوله ﷺ :

« المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفى كل خير »[1] .

لذلك لما قال :

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَـٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ .. (٣٠)﴾ [النحل]

قال : ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ .. (٣٠)﴾ [النحل]

أى : خير من حسنة الدنيا ، فحسنة الدنيا خير ، وأخير منها حسنة الآخرة .

ويُنهى الحق سبحانه الآية بقوله :

﴿وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ (٣٠)﴾ [النحل]

أى : دار الآخرة .

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٦٦٤) كتاب القدر . من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

ثم أراد الحق تبارك وتعالى أن يعطينا صورة موجزة عن دار المتقين كأنها برقية ، فقال سبحانه :

﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ كَذَٰلِكَ يَجْزِي ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ (٣١) ﴾

والجنات : تعنى البساتين التى بها الأشجار والأزهار والثمار والخضرة ، مما لا عَيْن رأتْ ، ولا أذُن سمعتْ ، ولا خطر على قلب بشر .. ليس هذا وفقط .. هذه الجنة العمومية التى يراها كل مَنْ يدخلها .. بل هناك لكل واحد قصر خاص به ، بدليل قوله تعالى :

﴿ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) ﴾ [الصف]

إذن : هنا قَدْر مشترك للجميع :

﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ..(٣١) ﴾ [النحل]

ومعنى قوله تعالى : ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ ..(٣١) ﴾ [النحل]

أى : جنات إقامة دائمة ؛ لأن فيها كل ما يحتاجه الإنسان ، فلا حاجة له إلى غيرها .. هَبْ أنك دخلْتَ أعظم حدائق وبساتين العالم - هايد بارك مثلاً - فقصارى الأمر أنْ تتنزَّه به بعض الوقت ، ثم يعتريك التعب ويصيبك المَلل والإرهاق فتطلب الراحة من هذه النزهة .. أما الجنة فهى جنة عدن ، تحب أن تقيم فيها إقامة دائمة .

ويصف الحق سبحانه هذه الجنات فيقول :

﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ .. (٣١)﴾ [النحل]

وفى آية أخرى يقول سبحانه :

﴿تَجْرِى تَحْتَهَا الأَنْهَارُ .. (١٠٠)﴾ [التوبة]

ومعنى « تجرى تحتها » أى : أنها تجرى تحتها ، وربما تأتى من مكان آخر .. وقد يقول هنا قائل : يمكن أن يُمنع عنك جريان هذه الأنهار ؛ لذلك جاءت الآية :

﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ .. (٣١)﴾ [النحل]

أى : ذاتية فى الجنة لا يمنعها عنك مانع .

ثم يقول تعالى :

﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ .. (٣١)﴾ [النحل]

والمشيئة هنا ليست بإرادة الدنيا ومشيئتها ، وإنما مشيئة بالمزاج الخصب الذى يتناسب مع الآخرة ونعيمها .. فمثلاً : إذا دخلتَ على إنسان رقيق الحال فلَكَ مشيئة على قدر حالته ، وإذا دخلتَ على أحد العظماء أو الأثرياء كانت لَكَ مشيئة أعلى .. وهكذا .

إذن : المشيئات النفسية تختلف باختلاف المشَاء منه ، فإذا كان المشَاء منه هو الله الذى لا يُعجزه شىء تكون مشيئتُك مُطلقة ، فالمشيئة فى الآية ليستْ كمشيئة الدنيا ؛ لأن مشيئة الدنيا تتحدّد ببيئة الدنيا .. أما مشيئة الآخرة فهى المشيئة المتفتحة المتصاعدة المرتقية كما تترقى المشيئات عند البشر فى البشر حَسْب مراتبهم ومراكزهم .

ويُرْوى أنه لما أُسِرَتْ بنت أحد ملوك فارس عند رجل ، وأرادوا

شراءها منه وعرضوا عليه ما يريد ، فقال : أريد فيها ألف دينار ، فأعطوه الألف دينار وأخذوها منه .. فقال له أحدهم : إنها ابنةُ الملك ، ولو كنت طلبتَ منه كذا وكذا لم يبخل عليك فقال : والله لو علمتُ أن وراء الألف عدداً لَطلبْته .. فقد طلب قصارى ما وصل إليه علمه .

لذلك لما أراد النبى ﷺ أن يشرح لنا هذا النص القرآنى :

﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ .. (٣١)﴾ [النحل]

وكذلك قوله تعالى :

﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٧١)﴾ [الزخرف]

قال : « فيها ما لا عَيْن رأت ، ولا أذن سمعتْ ، ولا خطر على قَلْب بشر »[(١)] .

إذن : تحديد الإطار للآية بقدر ما هم فيه عند ربهم .

﴿كَذَلِكَ يَجْزِى اللَّهُ الْمُتَّقِينَ (٣١)﴾ [النحل]

أى : هكذا الجزاء الذى يستحقونه بما قدموا فى الدنيا ، وبما حَرَموا منه أنفسهم من مُتَع حرام .. وقد جاء الآن وقْتُ الجزاء ، وهو جزاءٌ أطول وأدْوم ؛ لذلك قال الحق تبارك وتعالى فى آية أخرى :

﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ[(٢)] فِى الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (٢٤)﴾ [الحاقة]

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

---

(١) أخرج مسلم فى صحيحه (٢٨٢٤) وأحمد فى مسنده (٤٦٦/٢) وأبو نعيم فى الحلية (٢٦٢/٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « قال الله عز وجل : أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » .

(٢) أسلف : قدّم أو فعل من قبْل . قال تعالى : ﴿هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ .. (٣٠)﴾ [يونس] أى : ما قدمت وما عملت فى الزمن الماضى فى الدنيا . [القاموس القويم ٣٢٣/١] .

﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ (١) يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾

أى : المتقون هم الذين تتوفاهم الملائكة طيبين .

ومعنى :

﴿ تَتَوَفَّاهُمُ .. ﴿٣٢﴾ ﴾ [النحل]

أى : تأتى لقبْض أرواحهم ، وهنا نَسَب التوفّى إلىٰ جملة الملائكة ، كأنهم جنود ملَك الموت الأصيل عزرائيل ، وقد سبق أنْ قُلْنا : إن الحق تبارك وتعالى مرةً ينسب التوفّى إلى الملائكة ، ومرة ينسبه إلى مَلَك الموت :

﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ .. ﴿١١﴾ ﴾ [السجدة]

ومرّة ينسبه إلى نفسه سبحانه :

﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى .. ﴿٤٢﴾ ﴾ [الزمر]

ذلك لأن الله سبحانه هو الآمر الأعلى ، وعزرائيل مَلَكُ الموت الأصيل ، والملائكة هم جنوده الذين يُنفّذون أوامره .

وقوله : ﴿ طَيِّبِينَ .. ﴿٣٢﴾ ﴾ [النحل]

تقابل الآية السابقة :

---

(١) ذكر المفسرون فى معنى قوله : ﴿ طَيِّبِينَ .. ﴿٣٢﴾ ﴾ [النحل] ستة أقوال : **الأول** : طاهرين من الشرك . **الثانى** : صالحين . **الثالث** : زاكية أفعالهم وأقوالهم . **الرابع** : طيبى الأنفس ثقة بما يلقونه من ثواب الله تعالى . **الخامس** : طيبة نفوسهم بالرجوع إلى الله . **السادس** : أن تكون وفاتهم طيبة سهلة لا صعوبة فيها ولا ألم ، بخلاف ما تقبض به روح الكافر والمخلِّط . [تفسير القرطبى ٥/٣٨٢٦] .

﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ .. (٢٨) ﴾ [النحل]

والطيّب هو الشىء الذى يوجد له خيرٌ دائم لا ينقطع ولا ينقلب خَيْره هذا شراً ، وهو الشىء الذى تستريح له النفس راحة تنسجم منها كل مَلكاتها ، بشرط أن يكون مستمراً إلى خَيْرٍ منه ، ولا يستمر إلى خَيْرٍ منه وأحسن إلا طَيّب القيم وطَيّب الدين ، أما غير ذلك فهو طيب موقوتٌ سرعان ما يُهجر .

ولذلك حينما يدَّعى اثنان المحبة فى الله نقول : هذه كلمة تُقال ، ومِصْداقها أنْ ينمو الودُّ بينكما كل يوم عن اليوم الذى قبله ؛ لأن الحب للدنيا تشوبه الأطماع والأهواء ، فترى الحب ينقص يوماً بعد يوم ، حَسْب ما يأخذ أحدهما من الآخر ، أما المتحابان فى الله فيأخذان من عطاء لا ينفد ، هو عطاء الحق تبارك وتعالى ، فإنْ رأيت اثنين يزداد وُدّهما فاعلم أنه وُدٌّ لله وفى الله ، على خلاف الوُد لأغراض الدنيا فهو وُدٌّ سرعان ما ينقطع .

هل هناك أطيب من أنهم طهَّروا أنفسهم من دَنَس الشرك ؟ وهل هناك أطيبُ من أنهم أخلصوا عملهم لله ، وهل هناك أطيب من أنهم لم يُسْرفوا على أنفسهم فى شىء ؟

وحَسْب هؤلاء من الطيب أنهم ساعة يأتى مَلَكُ الموت يمرُّ عليهم شريط أعمالهم ، ومُلخّص ما قدّموه فى الدنيا ، فيرْون خَيْراً ، فتراهم مُستبشرين فرحين ، يبدو ذلك على وجوههم ساعة الاحتضار ، فتراه أبيضَ الوجه مُشْرقاً مبتسماً ، عليه خاتمة الخير والطيب والسعادة ؛

ذلك لما عاينه من طيب عمله ، ولما يستبشر به من الجزاء عند الله تبارك وتعالى .

وعلى عكس هذه الحالة تماماً نرى أهل الشقاوة ، وما هُمْ عليه ساعةَ الغرغرة من سواد الوجه ، وسُوء الخاتمة ، والعياذ بالله .

﴿ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ .. (٣٢) ﴾ [النحل]

أى : حينما تتوفّاهم الملائكة يقولون لهم سلام ؛ لأنكم خرجتم من الدنيا بسلام ، وستُقبِلون على الآخرة بسلام ، إذن : سلام الطيبين سلامٌ موصول من الدنيا إلى الآخرة ، سلامٌ مُترتّب على سلامة دينكم فى الدنيا ، وسلامة إقبالكم على الله ، دون خوف فى الآخرة .

وهناك سلام آخر جاء فى قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا[1] حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ (٧٣) ﴾ [الزمر]

ثم يأتى السلام الأعلى عليهم من الله تبارك وتعالى ؛ لأن كل هذه السلامات لهؤلاء الطيبين مأخوذة من السلام الأعلى :

﴿ سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ (٥٨) ﴾ [يس]

وهل هناك أفضل وأطيب من هذا السلام الذى جاء من الحق تبارك وتعالى مباشرة .

وتعجب هنا من سلام أهل الأعراف على المؤمنين الطيبين وهم

---

(١) الزمر : جمع زمرة ، وهى الفوج والجماعة. [القاموس القويم ١/٢٨٩] .

فى الجنة ، ونحن نعرف أن أهل الأعراف هم قوم تساوتْ حسناتهم وسيئاتهم فحُجزوا على الأعراف ، وهو مكان بين الجنة والنار ، والقسمة الطبيعية تقتضى أن للميزان كفتين ذكرهما الحق تبارك وتعالى فى قوله :

﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ (٦) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ (٧) وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ (٨) فَأُمُّهُ[1] هَاوِيَةٌ (٩)﴾ [القارعة]

هاتان حالتان للميزان ، فأين حالة التساوى بين الكفتين ؟ جاءت فى قوله تعالى :

﴿وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمَاهُمْ .. (٤٦)﴾ [الأعراف]

أى : يعرفون أهل الجنة وأهل النار :

﴿وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ (٤٦)﴾ [الأعراف]

ووجه العجب هنا أن أهل الأعراف فى مأزق وشدّة وانشغال بما هم فيه من شدة الموقف ، ومع ذلك نراهم يفرحون بأهل الجنة الطيبين ، ويُبادرونهم بالسلام .

إذن : لأهل الجنة سلامٌ من الملائكة عند الوفاة ، وسلام عندما يدخلون الجنة ، وسلام أعلى من الله تبارك وتعالى ، وسلام حتى من أهل الأعراف المنشغلين بحالهم .

---

(١) معناه : فهو ساقط هَاوٍ بأم رأسه فى نار جهنم ، وعبر عنه بأمه يعنى دماغه . وقيل : معناه : فأمه التى يرجع إليها ويصير فى المعاد إليها هاوية ، وهى اسم من أسماء النار . [تفسير ابن كثير ٤/٥٤٣] .

﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٢)﴾ [النحل]

أى : لأنكم دفعتم الثمن ؛ والثمن هو عملكم الصالح فى الدنيا ، واتباعكم لمنهج الحق تبارك وتعالى .

وقد يرى البعض تعارضاً بين هذه الآية وبين الحديث الشريف :

« لن يدخل أحدٌ منكم الجنة بعمله ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمته»[١] .

والحقيقة أنه لا يوجد تعارضٌ بينهما ، ولكن كيف نُوفِّق بين الآية والحديث؟

الله تعالى يُوحى لرسوله ﷺ الحديث كما يُوحى له الآية ، فكلاهما يصدر عن مِشْكاة واحدة ومصدر واحد[٢] .. على حَدِّ قوله تعالى :

﴿وَمَا نَقَمُوا[٣] إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ .. (٧٤)﴾ [التوبة]

فالحَدَثُ هنا واحد ، فلم يُغْنِهم الله بما يناسبه والرسول بما يناسبه ، بل هو غناء واحد وحَدَث واحد ، وكذلك ليس ثمة تعارضٌ بين الآية والحديث .. كيف ؟

الحق تبارك وتعالى كلّف الإنسانَ بعد سنِّ الرُّشْد والعقل ، وأخذ يُوالى عليه النعم منذ صِغَره ، وحينما كلّفه كلّفه بشىء يعود على

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٤٦٣) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٨١٦) كتاب صفات المنافقين ، من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

(٢) أخرج أبو داود فى سننه (٤٥٩١) من حديث المقدام بن معديكرب عن رسول الله ﷺ أنه قال : « ألا إنى أوتيت الكتاب ومثله معه ، ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول : عليكم بهذا القرآن ، فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه ، وما وجدتم فيه من حرام فحرِّموه » .

(٣) نقم منه : عاقبه . ونقم الشىء : أنكره وعابه وكرهه . [القاموس القويم : مادة نقم] .

الإنسان بالنفع والخير ، ولا يعود على الله منه شيء ، ثم بعد ذلك يُجازيه على هذا التكليف بالجنة .

إذن : التكليف كله لمصلحة العبد فى الدنيا والآخرة . إذن : تشريع الجزاء من الله فى الآخرة هو مَحْضُ الفضل من الله ، ولو أطاع العبدُ رَبّه الطاعة المطلوبة منه فى الأفعال الاختيارية التكليفية لما وَفّى نِعَم الله عليه ، وبذلك يكون الجزاء فى الجنة فَضْلاً من الله ومنَّة .

أو : أنهم حينما قالوا :

﴿ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٢) ﴾ [النحل]

يريدون أن عملهم سبب عادىّ لدخول الجنة ، ثم يكتسبونها بفضل الله .. فتجمع الآية بين العمل والفضل معاً ؛ لذلك فإن الحق تبارك وتعالى يُقوّى هذا بقوله تعالى :

﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٥٨) ﴾ [يونس]

فهم لم يفرحوا بالعمل لأنه لا يَفِى بما هم فيه من نعمة ، بل الفرحة الحقيقية تكون بفضل الله ورحمته ، وفى الدعاء : « اللهم عاملنا بالفضل لا بالعدل » .

وأخيراً .. هل كانوا يعملون هكذا من عند أنفسهم ؟ لا .. بل بمنهج وضعه لهم ربّهم تبارك وتعالى .. إذن : بالفضل لا بمجرد العمل .. ومثال ذلك : الوالد عندما يقول لولده : لو اجتهدت هذا العام وتفوقت سأعطيك كذا وكذا .. فإذا تفوّق الولد كان كل شيء لصالحه : النجاح والهدية .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

بعد أن عرضتْ الآيات جزاء المتقين الذين قالوا خيراً ، عادتْ لهؤلاء الذين قالوا ﴿ أسَاطِير الأوَّلينَ ﴾ الذين يُصادمون الدعوة إلى الله ، ويقفون منها موقف العداء والكَيْد والتربُّص والإيذاء .

وهذا استفهام من الحق تبارك وتعالى لهؤلاء : ماذا تنتظرون ؟! بعدما فعلتم بأمر الدعوة وما صَدَدْتُم الناس عنها ، ماذا تنتظرون ؟ أتنتظرون أنْ تَرَوْا بأعينكم ، ليس أمامكم إلا أمران : سيَحُلاّن بكم لا محالة :

إما أنْ تأتيكم الملائكة فتتوفاكم ، أو يأتى أمرُ ربّك ، وهو يوم القيامة ولا ينجيكم منها إلا أنْ تؤمنوا ، أم أنكم تنتظرون خيْراً ؟! فلن يأتيكم خير أبداً .. كما قال تعالى فى آيات أخرى :

﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ .. ﴿١﴾ ﴾ [النحل]

وقال :

﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ .. ﴿١﴾ ﴾ [القمر]

وقال :

﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ .. ﴿١﴾ ﴾ [الأنبياء]

إذن : إنما ينتظرون أحداثاً تأتى لهم بشَرٍّ : تأتيهم الملائكة لقبْض أرواحهم فى حالة هم بها ظالمون لأنفسهم ، ثم يُلْقون السَّلَم رَغْماً عنهم ، أو : تأتيهم الطامة[1] الكبرى وهى القيامة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ .. (٣٣)﴾ [النحل]

أى : ممَّن كذَّب الرسل قبلهم .. يعنى هذه مسألة معروفة عنهم من قبل :

﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ .. (٣٣)﴾ [النحل]

أى : وما ظلمهم الله حين قدَّر أنْ يُجازيهم بكذا وكذا ، وليس المراد هنا ظلمهم بالعذاب ؛ لأن العذاب لم يحُلّ بهم بعد .

﴿وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٣٣)﴾ [النحل]

وهذا ما نُسمّيه بالظلم الأحمق ؛ لأن ظلم الغير قد يعود على الظالم بنوع من النفع ، أما ظُلْم النفس فلا يعود عليها بشىء ؛ وذلك لأنهم أسرفوا على أنفسهم فى الدنيا فيما يخالف منهج الله ، وبذلك فَوَّتوا على أنفسهم نعيم الدنيا ونعيم الآخرة ، وهذا هو ظلمهم لأنفسهم .

ثم يقول الحق سبحانه :

---

(١) طم الأمر : اشتد . وسمى يوم القيامة بالطامة لشدته وعظم هوله . [القاموس القويم ١/٤٠٧] .

﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (٣٤) ﴾ (١)

أى : أنهم لما ظلموا أنفسهم أصابهم جزاء ذلك ، وسُمِّى ما يُفعل بهم سيئة ؛ لأن الحق تبارك وتعالى يُسمّى جزاء السيئة سيئة فى قوله :

﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا .. (٤٠) ﴾ [الشورى]

ويقول تعالى :

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ .. (١٢٦) ﴾ [النحل]

وهذه تُسمّى المشاكلة(٢) ، أى : أن هذه من جنس هذه .

وقوله تعالى : ﴿ مَا عَمِلُوا ﴾ العمل هو مُزَاولة أىٍّ جارحة من الإنسان لمهمتها ، فكُلُّ جارحة لها مهمة . الرِّجْل واليد والعَيْن والأُذن .. الخ . فاللسان مهمته أن يقول ، وبقية الجوارح مهمتها أنْ تفعل . إذن : فاللسان وحده أخذ النصف ، وباقى الجوارح أخذتْ النصف الآخر ؛ ذلك لأن حصائد الألسنة عليها المعوّل الأساسى .

فكلمة الشهادة : لا إله إلا الله لابُدَّ من النطق بها لنعرف أنه

---

(١) حاق به الشىء : نزل به وأحاط به . قال الزجاج فى معنى الآية : أى : أحاط بهم العذاب الذى هو جزاء ما كانوا يستهزئون به . [لسان العرب ـ مادة : حيق] .

(٢) المشاكلة : مصطلح فى بديع القرآن ومعناه : ذكر الشىء بلفظ غيره لوقوعه فى صحبته تحقيقاً أو تقديراً ، والأول كقوله تعالى : ﴿ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ .. (١١٦) ﴾ [المائدة] ، فإن إطلاق النفس والمكر فى جانب البارىء تعالى إنما هو لمشاكلة ما معه . [الإتقان فى علوم القرآن ٣/ ٢٨١] .

مؤمن ، ثم يأتى دَوْر الفعل ليُساند هذا القول ؛ لذا قال تعالى :

﴿يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ (٣)﴾ [الصف]

وبالقول تبلُغ المناهج للآذان .. فكيف تعمل الجوارح دون منهج ؟ ولذلك فقد جعل الحق تبارك وتعالى للأذن وَضْعاً خاصاً بين باقى الحواس ، فهى أول جارحة فى الإنسان تؤدى عملها ، وهى الجارحة التى لا تنقضى مهمتها أبداً .. كل الجوارح لا تعمل مثلاً أثناء النوم إلا الأذن ، وبها يتم الاستدعاء والاستيقاظ من النوم .

وإذا استقرأت آيات القرآن الكريم ، ونظرت فى آيات الخلق ترى الحق تبارك وتعالى يقول :

﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨)﴾ [النحل]

ثم هى آلة الشهادة يوم القيامة :

﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ .. (٢٠)﴾ [فصلت]

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا (١١)﴾ [الكهف]

ومعنى : ضربنا على آذانهم ، أى : عطلنا الأذن التى لا تعطل حتى يطمئن نومهم ويستطيعوا الاستقرار فى كهفهم ، فلو لم يجعل الله تعالى فى تكوينهم الجارحى شيئاً معيناً لما استقر لهم نوم طوال ٣٠٩ أعوام .

ويقول الحق تعالى :

﴿ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (٣٤) ﴾ [النحل]

بماذا استهزأ الكافرون ؟ استهزأوا بالبعث والحساب وما ينتظرهم من العذاب ، فقالوا كما حكى القرآن :

﴿ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (١٦) أَوَ آبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ (١٧) ﴾ [الصافات]

وقالوا :

﴿ أَئِذَا ضَلَلْنَا[1] فِي الأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ..(١٠) ﴾ [السجدة]

ثم بلغ بهم الاستهزاء أن تعجَّلوا العذاب فقالوا :

﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧٠) ﴾ [الأعراف]

وقالوا :

﴿ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا[2] .. (٩٢) ﴾ [الإسراء]

وهل يطلب أحد من عدوه أن يُنزِل به العذاب إلا إذا كان مستهزئاً ؟

فقال لهم الحق تبارك وتعالى : إنكم لن تقدروا على هذا العذاب الذى تستهزئون به . فقال :

---

(١) معناه : أئذا متْنا وصرْنا تراباً وعظاماً فضللْنَا فى الأرض فلم يتبين شىء من خلقنا . [لسان العرب ـ مادة : ضلل] .

(٢) الكسفة : القطعة من الشىء . يقال : أعطنى كسفة من ثوبك . [تفسير القرطبى ٥/٤٠٥٩] .

﴿ وَحَاقَ بِهِم .. (٣٤) ﴾ [النحل]

أى : أحاط ونزل بهم ، فلا يستطيعون منه فراراً ، ولا يجدون معه منفذاً للفكاك ، كما فى قوله تعالى :

﴿ وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ (٢٠) ﴾ [البروج]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ (٣٥) ﴾

نلاحظ أنه ساعة أنْ يأتىَ الفعل نصاً فى مطلوبه لا يُذكر المتعلق به .. فلم يَقُلْ : أشركوا بالله .. لأن ذلك معلوم ، والإشراك معناه الإشراك بالله ، لذلك قال تعالى هنا :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا .. (٣٥) ﴾ [النحل]

ثم يورد الحق سبحانه قولهم :

﴿ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ .. (٣٥) ﴾ [النحل]

إنهم هنا يدافعون عن أنفسهم ، وهذه هى الشماعة التى يُعلّق عليها الكفار خطاياهم ـ شماعة أن الله كتب علينا وقضى بكذا وكذا .

فيقول المسرف على نفسه : ربُّنا هو الذى أراد لى كذا ، وهو

الذى يهدى ، وهو الذى يُضل ، وهو الذى جعلنى أرتكب الذنوب ، إلى آخر هذه المقولات الفارغة من الحق - والنهاية : فلماذا يعذبنى إذن ؟

وتعالوا نناقش صاحب هذه المقولات ، لأن عنده تناقضاً عقلياً ، والقضية غير واضحة أمامه .. ولكى نزيل عنه هذا الغموض نقول له : ولماذا لم تقُل : إذا كان الله قد أراد لى الطاعة وكتبها علىَّ ، فلماذا يثيبنى عليها .. هكذا المقابل .. فلماذا قُلْت بالأُولى ولم تقُلْ بالثانية ؟!

واضح أن الأولى تجرُّ عليك الشر والعذاب ، فوقفتْ فى عقلك .. أما الثانية فتجرُّ عليك الخير ، لذلك تغاضيت عن ذِكْرها .

ونقول له : هل أنت حينما تعمل أعمالك .. هل كلها خير ؟ أم هل كلها شرّ ؟ أمَا منها ما هو خير ، ومنها ما هو شر ؟

والإجابة هنا واضحة . إذن : لا أنت مطبوع على الخير دائماً ، ولا أنت مطبوع على الشرّ دائماً ، لذلك فأنت صالح للخير ، كما أنت صالح للشر .

إذن : هناك فَرْق بين أن يخلقك صالحاً للفعل وضِدّه ، وبين أنْ يخلقك مقصوراً على الفعل لا ضده ، ولما خلقك صالحاً للخير وصالحاً للشر أوضح لك منهجه وبيَّنَ لك الجزاء ، فقال : اعمل الخير .. والجزاء كذا ، واعمل الشر .. والجزاء كذا .. وهذا هو المنهج .

ويحلو للمسرف على نفسه أنْ يقولَ : إن الله كتبه عليَّ .. وهذا عجيب ، وكأنِّى به قد اطّلع على اللوح المحفوظ[١] ونظر فيه ، فوجد أن الله كتب عليه أن يشربِ الخمر مثلاً فراحَ فشربها ؛ لأن الله كتبها عليه .

ولو أن الأمر هكذا لكنتَ طائعاً بشُرْبك هذا ، لكن الأمر خلاف ما تتصور ، فأنت لا تعرف أنها كُتبت عليك إلا بعد أنْ فعلتَ ، والفعل منك مسبوق بالعزم على أنْ تفعلَ ، فهل اطلعتَ على اللوح المحفوظ كى تعرف ما كتبه الله عليك ؟

وانتبه هنا واعلم أن الله تعالى كتب أزلاً ؛ لأنه علم أنك تفعل أجلاً ، وعِلْم الله مُطْلق لا حدودَ له .

ونضرب مثلاً - ولله المثل الأعلى - الوالد الذى يلاحظ ولده فى دراسته ، فيجده مُهملاً غير مُجدٍّ فيتوقع فشله فى الامتحان .. هل دخل الوالد مع ولده وجعله يكتب خطأ ؟ لا .. بل توقّع له الفشل لعلمه بحال ولده ، وعدم استحقاقه للنجاح .

إذن : كتب الله مُسْبقاً وأزلاً ؛ لأنه يعلم ما يفعله العبد أصلاً .. وقد أعطانا الحق تبارك وتعالى صورة أخرى لهذا المنهج حينما وجَّه المؤمنين إلى الكعبة بعد أنْ كانت وجْهتهم إلى بيت المقدس ، فقال تعالى :

---

(١) اللوح المحفوظ : شىء لا يعلمه إلا الله . فيه ما قدَّره الله وقضاه على الخلائق .

﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ[1] فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ .. (١٤٤) ﴾ [البقرة]

ثم أخبر نبيه ﷺ بقوله :

﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا .. (١٤٢) ﴾ [البقرة]

جاء الفعل هكذا فى المستقبل : سيقول .. إنهم لم يقولوا بَعْد هذا القول ، وهذا قرآن يُتلَى على مسامع الجميع غير خاف على أحد من هؤلاء السفهاء ، فلو كان عند هؤلاء عقل لَسكتُوا ولم يُبادروا بهذه المقولة ، ويُفوِّتوا الفرصة بذلك على محمد ﷺ وعلى صِدْق القرآن الكريم .

كان باستطاعتهم أن يسكتوا ويُوجّهوا للقرآن تهمة الكذب ، ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث .

وبذلك تمَّتْ إرادة الله وأمره حتى على الكافرين الذين يبحثون عن مناقضة فى القرآن الكريم .

---

(١) أخرج ابن ماجه فى سننه (١٠١٠) عن البراء بن عازب رضى الله عنه قال : صلينا مع رسول الله ﷺ نحو بيت المقدس ثمانية عشر شهراً ، وصرفت القبلة إلى الكعبة بعد دخوله إلى المدينة بشهرين ، وكان رسول الله ﷺ إذا صلى إلى بيت المقدس أكثر تقلب وجهه فى السماء . وعلم الله من قلب نبيه ﷺ أنه يهوى الكعبة ، فصعد جبريل ، فجعل رسول الله ﷺ يتبعه بصره وهو يصعد بين السماء والأرض ، ينظر ما يأتيه به ، فأنزل الله : ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ .. (١٤٤) ﴾ [البقرة] ، فأتانا آت فقال : إن القبلة قد صرفت إلى الكعبة ، وقد صلينا ركعتين إلى بيت المقدس ونحن رُكوع فتحوّلنا . فبنينا على ما مضى من صلاتنا ، فقال رسول الله ﷺ : يا جبريل ، كيف حالنا فى صلاتنا إلى بيت المقدس ؟ فأنزل الله عز وجل : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ .. (١٤٣) ﴾ [البقرة] .

وهذه الآية : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا .. (٣٥)﴾ [النحل]

تشرح وتُفسِّر قول الله تعالى :

﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ .. (١٤٨)﴾ [الأنعام]

فهنا ﴿ سَيَقُولُ ﴾ وفى الآية الأخرى ﴿ قَالَ ﴾ ؛ لنعلم أنه لا يستطيع أحد معارضة قَوْل الله تعالى ، أو تغيير حكمه .

ثم يقول تعالى :

﴿نَّحْنُ وَلا آبَاؤُنَا .. (٣٥)﴾ [النحل]

لماذا لم يتحدث هؤلاء عن أنفسهم فقط ؟ ما الحكمة فى دفاعهم عن آبائهم هنا ؟ الحكمة أنهم سيحتاجون لهذه القضية فيما بعد ، وسوف يجعلونها حُجَّة حينما يقولون :

﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم[1] مُّهْتَدُونَ (٢٢)﴾ [الزخرف]

إذن : لا حُجّة لهؤلاء الذين يُعلّقون إسرافهم على أنفسهم على شماعة القدر ، وأن الله تعالى كتب عليهم المعصية ؛ لأننا نرى حتى من المسلمين مَنْ يتكلم بهذا الكلام ، ويميل إلى هذه الأباطيل ، ومنهم مَنْ تأخذه الجَرْأة على الله عز وجل فيُشبّه هذه القضية بقول الشاعر :

أَلْقَاهُ فى اليَمِّ مكتُوفاً وقَالَ لَهُ ... إيَّاكَ إيَّاكَ أنْ تبتلَّ بالماءِ

---

(١) أى : وراءهم سائرون متخذين إياهم قدوة ، ومهتدين بهديهم .

وما يفعل هذا إلا ظالم !! تعالى الله وتنزَّه عن قَوْل الجُهّال والكافرين ، وأيضاً هناك مَنْ يقول : إن الإنسان هو الذى يخلق الفعل ، ويعارضهم آخرون يقولون : لا بل رَبّنا هو الذى يخلق الفعْل .

نقول لهم جميعاً : افهموا ، ليس هناك فى الحقيقة خلافٌ .. ونسأل : ما هو الفعل ؟ الفعل توجيه جارحة لحدثٍ ، فأنت حينما تُوجِّه جارحة لحدث ، ما الذى فعلته أنت ؟ هل أعطيت لليد مثلاً قوة الحركة بذاتها ؟ أم أن إرادتك هى التى وجَّهَتْ حركتها ؟

والجارحة مخلوقة لله تعالى ، وكذلك الإرادة التى حكمتْ على الجارحة مخلوقة لله أيضاً .. إذن : ما فعلته أنت ما هو إلا أن وجَّهْتَ المخلوق لله إلى مَا لا يحب الله - فى حالة المعصية - وإلى ما يحبه الله فى حالة الطاعة .

كذلك لا بُدَّ أنْ نلاحظ أن لله تعالى مرادات كونية ومرادات شرعية .. فالمراد الكونىّ هو ما يكون فعلاً ، كُلُّ ما تراه فى الكون أراد الله أن يكون . والمراد الشرعى : هو طَلَبُ الشىء لمحبوبيته .

ولنأخذ مثلاً لتوضيح ذلك : كُفْر الكافر ، أراد الله كَوْنياً أن يكون ، لأنه خلقه مختاراً وقال :

﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ .. (٢٩)﴾ [الكهف]

وطالما خلقك الله مختاراً تستطيع أن تتوجه إلى الإيمان ، أو تتوجه إلى الكفر ، ثم كفرتَ . إذن : فهل كفرتَ غَصْباً عنه وعلى

غيـر مُراده سبـحانه وتعـالى ؟ حاشا لله ومـعنى ذلك أن كُفْـر الكافر مُراد كونىّ ، وليس مراداً شرعياً .

وبنفس المقياس يكون إيمان المؤمن مُـراداً كونياً ومُراداً شرعياً ، أما كـفر المؤمن ، المـؤمن حقيـقة لم يكفر . إذن : هو مـراد شرعى وكـذلك مـراد كونى ، وهـكذا ، فلا بُدَّ أن نُـفرّق بيـن المراد كـونيـاً والمراد شرعياً .

ولذلك لمـا حدثت ضجـة فى الحرم المكى منـذ سنوات ، وحدث فيه إطلاق للنار وترويع للآمنين ، قال بعضـهم : كيف يحدث هذا وقد قال تعالى : ﴿ومَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا (٩٧)﴾ [آل عمران]

وها هو الحال قَتْل وإزعاج للآمنين فيه ؟!

والحـقـيقـة أن هؤلاء خلطـوا بين مراد كـونى ومـراد شـرعى ، فالمقصود بالآية : فَمَنْ دخله فأمِّنوه . أى : اجعلوه آمناً ، فهذا مطلَب من الله تبارك وتعالى ، وهو مراد شـرعى قد يحدث وقد لا يحدث .. أما المراد الكونى فـهو الذى يحدث فعـلاً . وبذلك يكون ما حدث فى الحرم مراداً كونياً ، وليس مراداً شرعياً .

ثم يقول تعالى على لسانهم :

﴿وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ .. (٣٥)﴾ [النحل]

وقد ورد توضيح هذه الآية فى قوله تعالى :

﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلا سَائِبَةٍ وَلا وَصِيلَةٍ وَلا حَامٍ[1] وَلَـٰكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ (١٠٣)﴾ [المائدة]

ثم يقول تعالى مقرراً :

﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ .. (٣٥)﴾ [النحل]

أى : هذه سُنّة السابقين المعاندين .

﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ (٣٥)﴾ [النحل]

البلاغ هو ما بين عباد الله وبين الله ، وهو بلاغ الرسل ، والمراد به المنهج « افعل أو لا تفعل » . ولا يقول الله لك ذلك إلا وأنت قادر على الفِعْل وقادر على التَّرْك .

لذلك نرى الحق تبارك وتعالى يرفع التكليف عن المكْره فلا يتعلق به حكم ؛ لأنه فى حالة الإكراه قد يفعل ما لا يريده ولا يُحبه ، وكذلك المجنون والصغير الذى لم يبلغ التعقل ، كُلُّ هؤلاء لا يتعلق بهم حكْم .. لماذا ؟ لأن الله تعالى يريد أن يضمن السلامة لآلة الترجيح فى الاختيار .. وهى العقل .

وحينما يكون الإنسان محلَّ تكليف عليه أنْ يجعلَ الفيصل فى :

---

(١) البَحيرة : الناقة إذا ولدت خمسة أبطن بحروا أذنها أى : شقوها وأعفوها أن ينتفع بها ، ولم يمنعوها من ماء ولا مرعى .

السائبة : الناقة التى تُسيّب فتترك مهملة لنذر ونحوه .

الوصيلة : الناقة تبكر بأنثى ثم تثنى بأنثى فتعد مباركة لا تُذبح . [القاموس القويم ٢/٣٤٠].

الحامى : من الإبل الذى طال مُكثه عند أصحابه حتى صار له عشرة أبطن فحموا ظهره وتركوه. [المعجم ـ مادة : حما] .

﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ (٣٥)﴾ [النحل]

بلاغ المنهج بافعل ولا تفعل ؛ لذلك استنكر القرآن الكريم على هؤلاء الذين جاءوا بقول من عند أنفسهم دون رصيد من المبلّغ ﷺ ، فقال تعالى فى حَقِّ هؤلاء :

﴿وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَـٰنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ (١٩) وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَـٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم..(٢٠)﴾ [الزخرف]

فأنكر عليهم سبحانه ذلك ، وسألهم :

﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ (٢١)﴾ [الزخرف]

وخاطبهم سبحانه فى آية أخرى :

﴿أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ (٣٧)﴾ [القلم]

وكلمة ﴿ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ ﴾ أى : لا بُدّ أن يُبلَّغ المكلَّف ، فإنْ حصل تقصير فى ألاّ يُبلَّغ المكلَّف يُنسَب التقصير إلى أهل الدين الحق ، المنتسبين إليه ، والمُنَاط بهم تبليغ هذا المنهج لمنْ لَمْ يصلْه . وقد وردت الأحاديث الكثيرة فى الحَثِّ على تبليغ دين الله لمن لم يصلْه الدين .

كما قال ﷺ : « بلِّغُوا عنّى ولو آية »[1] وقوله ﷺ : « نَضَّر الله امرءاً سمع مقالتى فوعَاهَا ثم أدّاها إلى من لم يسمعها ، فرُبَّ مُبلَّغٍ أَوْعَى من سامع »[2] .

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٤٦١) ، وأحمد فى مسنده (٢/١٥٩ ، ٢٠٢) ، والدارمى (١/١٣٦) والترمذى فى سننه (٢٦٦٩) وقال : حديث حسن صحيح .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (١/٤٣٧) والترمذى فى سننه (٢٦٥٧ ، ٢٦٥٨) وابن ماجة فى سننه (٢٣٢) والحميدى (١/٤٧) من حديث عبدالله بن مسعود .

قال تعالى :

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ۚ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (٣٦) ﴾

فالحق سبحانه يقول هنا :

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً .. (٣٦) ﴾ [النحل]

وفى آية أخرى يقول سبحانه :

﴿ مِن كُلِّ أُمَّةٍ .. (٨٤) ﴾ [النحل]

فهذه لها معنى ، وهذه لها معنى .. فقوله :

﴿ مِن كُلِّ أُمَّةٍ .. (٨٤) ﴾ [النحل]

أى : من أنفسهم ، منهم خرج ، وبينهم تربَّى ودَرَج ، يعرفون خِصَاله وصِدْقه ومكانته فى قومه .

أما قوله تعالى :

﴿ فِي كُلِّ أُمَّةٍ .. (٣٦) ﴾ [النحل]

فـ « فى » هنا تفيد الظرفية . أى : فى الأمة كلها ، وهذه تفيد التغلغل فى جميع الأمة .. فلا يصل البلاغ منه إلى جماعة دون أخرى ، بل لا بُدّ من عموم البلاغ لجميع الأمة .

وكذلك يقول تعالى مرة :

﴿أَرْسَلْنَا .. (٢٦)﴾ [الحديد]

ومرة أخرى يقول :

﴿بَعَثْنَا .. (٣٦)﴾ [النحل]

وهناك فرق بين المعنيين فـ ﴿ أَرْسَلْنَا ﴾ تفيد الإرسال ، وهو : أن يتوسط مُرْسَل إلى مُرْسَل إليه . أما ﴿ بَعَثْنَا ﴾ فتفيد وجود شيء سابق اندثر ، ونريد بعثه من جديد .

ولتوضيح هذه القضية نرجع إلى قصة آدم ـ عليه السلام ـ حيث علّمه الله الأسماء كلها ، ثم أهبطه من الجنة إلى الأرض . وقال :

﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨)﴾ [البقرة]

وقال فى آية أخرى :

﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَىٰ (١٢٣)﴾ [طه]

إذن : هذا منهج من الله تعالى لآدم ـ عليه السلام ـ والمفروض أن يُبلّغ آدم هذا المنهج لأبنائه ، والمفروض فى أبنائه أن يُبلّغوا هذا المنهج لأبنائهم ، وهكذا ، إلا أن الغفلة قد تستحوذ على المبلِّغ للمنهج ، أو عدم رعاية المبلّغ للمنهج فتنطمس المناهج ، ومن هنا يبعثها الله من جديد ، فمسألة الرسالات لا تأتى هكذا فجأة لجماعة من الجماعات ، بل هى موجودة منذ أول الخلق .

فـالرسالات إذن بَعْثٌ لمنهج إلـهى ، كان يجب أنْ يظلَّ على ذكـر من الناس ، يتناقله الأبناء عن الآباء ، إلا أن الغـفلة قد تصـيب المبلّغ فـلا يُبلّغ ، وقد تـصيب المـبلَّغ فـلا يلتزم بالـبلاغ ؛ لذلك يجـدد الله الرسل .

وقد وردت آياتٌ كثيرة فى هذا المعنى ، مثل قوله تعالى :

﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا[1] فِيهَا نَذِيرٌ (٢٤) ﴾ [فاطر]

وقـوله : ﴿ ذَلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُـهْلِكَ الْقُـرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَـا غَافِلُونَ (١٣١) ﴾ [الأنعام]

وقوله : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً (١٥) ﴾ [الإسراء]

لذلك نرى غير المؤمنين بمنهج السمـاء يَضعُون لأنفسهم القوانين التى تُنظِّم حياتهم ، أليس لديهم قانون يُحدّد الجرائم ويُعاقب عليها ؟ فلا عقوبة إلا بتجريم ، ولا تجريمَ إلا بنصٍّ ، ولا نصَّ إلا بإبلاغ .

ومن هنا تأتـى أهمـيـة وَضْع القـوانين ونشـرها فـى الصـحف والجرائد الـعامة ليـعلمهـا الجميع ، فـلا يصح أنْ نعاقبَ إنسـاناً على جريمة هو لا يعلم أنها جريمة ، فلا بُدَّ من إبلاغه بها أولاً ، ليعلم أن هذا العمل عقوبته كذا وكذا ، ومن هنا تُقام عليه الحُجة .

وهنا أيضـاً نلاحظ أنه قد يتعـاصر الرسـولان ، ألم يكُنْ إبراهيم ولوط متـعاصريْن ؟ ألم يكُنْ شـعيب وموسى متـعاصريْن ؟ فـما علّة ذلك ؟

---

(١) خلا : مضى وذهب وسبق . [القاموس القويم ١/٢٠٨] .

نقول : لأن العالَم كان قديماً على هيئة الانعزال ، فكُلّ جماعة منعزلة فى مكانها عن الأخرى لعدم وجود وسائل للمواصلات ، فكانت كل جماعة فى أرض لا تدرى بالأخرى ، ولا تعلم عنها شيئاً .

ومن هنا كان لكُلِّ جماعة بيئتُها الخاصة بما فيها من عادات وتقاليد ومُنكَرات تناسبها ، فهؤلاء يعبدون الأصنام ، وهؤلاء يُطفِّفون[1] الكيل والميزان ، وهؤلاء يأتون الذكْران دون النساء .

إذن : لكل بيئة جريمة تناسبها ، ولا بُدَّ أن نرسل الرسل لمعالجة هذه الجرائم ، كُلّ فى بلد على حِدَة .

لكن رسالة محمد ﷺ كانت على موعد مع التقاءات الأمكنة مع وجود وسائل المواصلات ، لدرجة أن المعصية تحدث مثلاً فى أمريكا فنعلم بها فى نفس اليوم .. إذن : أصبحتْ الأجواء والبيئات واحدة ، ومن هنا كان منطقياً أنْ يُرْسلَ ﷺ للناس كافة ، وللأزمنة كافة .

وقد عبّر القرآن الكريم عن هذه الشمولية بقوله :

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً .. (٢٨)﴾ [سبأ]

أى : للجميع لم يترك أحداً ، كما يقول الخياط : كففْتُ القماش أى : جمعتُ بعضه على بعض ، حتى لا يذهبَ منه شىءٌ .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ .. (٣٦)﴾ [النحل]

---

(١) طفف المكيال : بخسه ونقصه . [المعجم الوجيز ـ مادة : طفف] .

هذه هى مهمة الرسل :

﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ .. (٣٦)﴾ [النحل]

والعبادة معناها التزامٌ بأمر فيُفعل ، ويُنهى عن أمر فلا يُفعل ؛ لذلك إذا جاء مَنْ يدَّعى الألوهية وليس معه منهج نقول له : كيف نعبدك ؟ وما المنهج الذى جِئْتَ به ؟ بماذا تأمرنا ؟ وعن أىِّ شىءٍ تنهانا ؟

فهنا أَمْر بالعبادة ونَهْى عن الطاغوت ، وهذا يُسمُّونه تَحْلِيةً وتَخْلِيةً : التحلية فى أنْ تعبدَ الله ، والتخلية فى أنْ تبتعدَ عن الشيطان .

وعلى هذين العنصرين تُبنَى قضية الإيمان حيث نَفْى فى : « أشهد أن لا إلهَ » .. وإثبات فى « إلا الله » ، وكأن الناطق بالشهادة ينفى التعدُّد ، ويُثبت الوحدانية لله تعالى ، وبهذا تكون قد خلَّيْتَ نفسك عن الشرك ، وحلَّيْتَ نفسك بالوحدانية .

ولذلك سيكون الجزاء عليها فى الآخرة من جنس هذه التحلية والتخلية ؛ ولذلك نجد فى قول الحق تبارك وتعالى :

﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ ..(١٨٥)﴾ [آل عمران]

أى : خُلِّى عن العذاب .

﴿وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ .. (١٨٥)﴾ [آل عمران]

أى : حُلِّى بالنعيم .

وقوله سبحانه :

﴿وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ .. (٣٦)﴾ [النحل]

أى : ابتعدوا عن الطاغوت .. فيكون المقابل لها : تقرَّبوا إلى الله و ﴿ الطَّاغُوت ﴾ فيها مبالغة تدل على مَنْ وصل الذِّرْوة فى الطغيان وزادَ فيه .. وفَرْق بين الحدث المجرَّد مثل طغى ، وبين المبالغة فيه مثل (طاغوت) ، وهو الذى يَزيده الخضوعُ لباطله طُغْياناً إلى باطل أعلى .

ومثال ذلك : شاب تمرَّد على مجتمعه ، وأخذ يسرق الشىء التافه القليل ، فوجد الناس يتقرَّبون إليه ويُداهنونه اتقاء شره ، فإذا به يترقّى فى باطله فيشترى لنفسه سلاحاً يعتدى به على الأرواح ، ويسرق الغالى من الأموال ، ويصل إلى الذروة فى الظلم والاعتداء ، ولو أخذ الناس على يده منذ أول حادثة لما وصل إلى هذه الحال .

ومن هنا وجدنا الديات تتحملها العاقلة[1] وتقوم بها عن الفاعل الجانى ، ذلك لما وقع عليها من مسئولية تَرْك هذا الجانى ، وعدم الأخذ على يده وكَفِّه عن الأذى .

ونلاحظ فى هذا اللفظ (الطاغوت) أنه لما جمعَ كلَّ مبالغة فى الفعل نجده يتأبَّى على المطاوعة ، وكأنه طاغوت فى لفظه ومعناه ، فنراه يدخل على المفرد والمثنى والجمع ، وعلى المذكر والمؤنث ، فنقول : رجل طاغوت ، وامرأة طاغوت ، ورجلان طاغوت ، وامرأتان

---

(١) العاقلة : هم العصبة ، وهم القرابة من قبل الأب الذين يعطون دية قتل الخطأ . [لسان العرب ـ مادة : عقل] .

طاغوت ، ورجال طاغوت ، ونساء طاغوت ، وكأنه طغى بلفظه على جميع الصِّيغ .

إذن : الطاغوت هو الذى إذا ما خضع الناس لظُلمه ازداد ظلماً .

ومنه قوله تعالى :

﴿ فَاسْتَخَفَّ[1] قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ .. (٥٤) ﴾ [الزخرف]

فقد وصل به الحال إلى أن ادعى الألوهية ، وقال :

﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى .. (٣٨) ﴾ [القصص]

ويُحكَى فى قصص المتنبِّئين أن أحد الخلفاء جاءه خبر مُدَّعٍ للنبوة ، فأمرهم ألاّ يهتموا بشأنه ، وأن يتركوه ، ولا يعطوا لأمره بالاً لعله ينتهى ، ثم بعد فترة ظهر آخر يدَّعى النبوة ، فجاءوا بالأول ليرى رأيه فى النبى الجديد : ما رأيك فى هذا الذى يدعى النبوة ؟! أيُّكم النبى ؟ فقال : إنه كذاب فإنى لم أرسل أحداً !! ظن أنهم صدقوه فى ادعائه النبوة ، فتجاوز هذا إلى ادعاء الألوهية ، وهكذا الطاغوت .

وقد وردت هذه الكلمة ﴿ الطاغوت ﴾ فى القرآن ثمانى مرات ، منها ستة تصلح للتذكير والتأنيث ، ومرة وردتْ للمؤنث فى قوله تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا .. (١٧) ﴾ [الزمر]

ومرة وردتْ للمذكر فى قوله تعالى :

---

(١) استخفه : استضعف عقله وسخَّره وسيَّره على هواه وحمله على الطيش والحُمْق . [القاموس القويم ١/٢٠٠] . والمقصود به فى الآية فرعون .

﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ .. (٦٠)﴾ [النساء]

وفى اللغة كلمات يستوى فيها المذكر والمؤنث ، مثل قَوْل الحق تبارك وتعالى :

﴿وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً .. (١٤٦)﴾ [الأعراف]

وقوله :

﴿قُلْ هَـٰذِهِ سَبِيلِي .. (١٠٨)﴾ [يوسف]

فكلمة « سبيل » جاءت مرَّة للمذكّر ، ومرّة للمؤنث .

ثم يقول تعالى :

﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ .. (٣٦)﴾ [النحل]

وقد أخذ بعضهم هذه الآية على أنها حُجّة يقول من خلالها : إن الهداية بيد الله ، وليس لنا دَخْل فى أننا غير مهتدين .. إلى آخر هذه المقولات .

نقول : تعالوا نقرأ القرآن .. يقول تعالى :

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ .. (١٧)﴾ [فصلت]

لو كانت الهداية بالمعنى الذى تقصدون لَمَا استحبُّوا العَمى وفضَّلوه ، لكن « هديناهم » هنا بمعنى : دَلَلْناهم وأرشدناهم فقط ،

ولهم حَقّ الاختيار ، وهم صالحون لهذه ولهذه ، والدلالة تأتى للمؤمن وللكافر ، دلَّ الله الجميع ، فالذى أقبل على الله بإيمان به زاده هُدىً وآتاه تقواه ، كما قال تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧) ﴾ [محمد]

ومن هذا ما يراه البعض تناقضاً بين قوله تعالى :

﴿ إِنَّكَ لا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ .. (٥٦) ﴾ [القصص]

وقوله :

﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِى إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٢) ﴾ [الشورى]

حيث نفى الحق سبحانه عن الرسول ﷺ الهداية فى الأولى ، وأثبتها له فى الثانية . نلاحظ أن الحدث هنا واحد وهو الهداية ، والمتحدَّث عنه واحد هو الرسول ﷺ ، فكيف يثبت حَدَثٌ واحد لمُحْدِثٍ واحد مرّة ، وينفيه عنه مرّة ؟!

لا بد أن تكون الجهة مُنفكّة .. فى :

﴿ إِنَّكَ لا تَهْدِى .. (٥٦) ﴾ [القصص]

أى : لا تستطيع أنْ تُدخل الإيمان فى قلب مَنْ تحب ، ولكن تدلُّ وترشد فقط ، أما هداية الإيمان فبيد الله تعالى يهدى إليه مَنْ عنده استعداد للإيمان ، ويَصْرف عنها مَنْ أعرض عنه ورفضهُ .

وكأن الله تعالى فى خدمة عبيده ، مَنْ أحب شيئاً أعطاه إياه ويسَّره له ، وبذلك هدى المؤمن للإيمان ، وختم على قَلْب الكافر بالكفر .

إذن : تأتى الهداية بمعنيين : بمعنى الدلالة والإرشاد كما فى الآية السابقة ، وبمعنى المعونة وشَرْح الصدر للإيمان كما فى قوله تعالى : ﴿ وَلَـٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَاءُ .. (٥٦) ﴾ [القصص]

وقوله : ﴿ زَادَهُمْ هُدًى .. (١٧) ﴾ [محمد]

فقوله تعالى :

﴿ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ .. (٣٦) ﴾ [النحل]

أى : هداية إيمان ومعونةٍ بأن مكّن المنهج فى نفسه ، ويسَّره له ، وشرح به صدره .

﴿ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ .. (٣٦) ﴾ [النحل]

حقَّتْ : أى أصبحتْ حقاً له ، ووجبتْ له بما قدَّم من أعمال ، لا يستحق معها إلا الضلالة ، فما حقَّتْ عليهم ، وما وجبتْ لهم إلا بما عملوا .

وهذه كقوله تعالى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٤٤) ﴾ [الأنعام]

أيُّهما أسبق : عدم الهداية من الله لهم ، أم الظلم منهم ؟

واضح أن الظلم حدث منهم أولاً ، فسمَّاهم الله ظالمين ، ثم كانت النتيجة أنْ حُرموا الهداية .

ونذكر هنا مثالاً كثيراً ما كررناه ليرسخَ فى الأذهان ـ ولله المثل

الأعلى ـ هَبْ أنك سائر فى طريق تقصد بلداً ما ، فصادفك مُفْترق لطرق متعددة ، وعلامات لاتجاهات مختلفة ، عندها لجأتَ لرجل المرور : من فضلك أريدُ بلدة كذا ، فقال لك : من هنا . فقلت : الحمد لله ، لقد كِدْتُ أضلّ الطريق ، وجزاكَ الله خَيْراً .

فلمّا وجدك استقبلتَ كلامه بالرضا والحب ، وشكرْتَ له صنيعه أراد أنْ يُزيد لك العطاء . فقال لك : لكن فى هذا الطريق عقبةٌ صعبة ، وسوف أصحبُك حتى تمرَّ منها بسلام .

هكذا كانت الأولى منه مُجرّد دلالة ، أما الثانية فهى المعونة ، فلمَّا صدَّقْته فى الدلالة أعانكَ على المدلول .. هكذا أمْرُ الرسل فى الدلالة على الحق ، وكيفية قبول الناس لها .

ولك أنْ تتصور الحال لو قُلْتَ لرجل المرور هذا : يبدو أنك لا تعرف الطريق .. فسيقول لك : إذن اتجه كما تُحِب وسِرْ كما تريد .

وكلمة « الضلالة » مبالغة من الضلال وكأنها ضلال كبير ، ففيها تضخيمٌ للفعل ، ومنها قوله تعالى :

﴿قُلْ مَن كَانَ فِى الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ مَدًّا .. (٧٥)﴾ [مريم]

ثم يُقيم لنا الحق ـ تبارك وتعالى ـ الدليلَ على بَعْثة الرسل فى الأمم السابقة لنتأكد من إخباره تعالى ، وأن الناسَ انقسموا أقساماً بين مُكذِّب ومُصدّق ، قال تعالى :

﴿فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (٣٦)﴾ [النحل]

فهناك شواهد وأدلة تدل على أن هنا كان ناس ، وكانت لهم حضارة اندكتْ واندثرتْ ، كما قال تعالى فى آية أخرى :

﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧)﴾ [الصافات]

فأمر الله تعالى بالسياحة فى الأرض للنظر والاعتبار بالأمم السابقة ، مثل : عاد وثمود وقوم صالح وقوم لوط وغيرهم .

والحق تبارك وتعالى يقول هنا :

﴿فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ .. (٣٦)﴾ [النحل]

وهل نحن نسير فى الأرض ، أم على الأرض ؟

نحن نسير على الأرض .. وكذلك كان فهْمُنا للآية الكريمة ، لكن المتكلم بالقرآن هو ربُّنا تبارك وتعالى ، وعطاؤه سبحانه سيظل إلى أنْ تقومَ الساعة ، ومع الزمن تتكشف لنا الحقائق ويُثبت العلم صِدْق القرآن وإعجازه .

فمنذ أعوام كنا نظنُّ أن الأرض هى هذه اليابسة التى نعيش عليها ، ثم أثبت لنا العلم أن الهواء المحيط بالأرض (الغلاف الجوى) هو إكسير الحياة على الأرض ، وبدونه لا تقوم عليها حياة ، فالغلاف الجوى جزء من الأرض .

وبذلك نحن نسير فى الأرض ، كما نطق بذلك الحق - تبارك وتعالى - فى كتابه العزيز .

ونقف أمام مَلْحظ آخر فى هذه الآية :

﴿فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا .. (١٣٧)﴾ [آل عمران]

وفى آية أخرى يقول :

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا .. (١١)﴾ [الأنعام]

ليس هذا مجرد تفنُّن فى العبارة ، بل لكل منهما مدلول خاص ، فالعطف بالفاء يفيد الترتيب مع التعقيب .

أى : يأتى النظر بعد السَّيْر مباشرة .. أما فى العطف بثُم فإنها تفيد الترتيب مع التراخى . أى : مرور وقت بين الحدثَيْن ، وذلك كقوله تعالى :

﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ (٢١) ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ[1] (٢٢)﴾ [عبس]

وقول الحق سبحانه :

﴿فَانظُرُوا .. (٣٦)﴾ [النحل]

فكأن الغرض من السَّيْر الاعتبار والاتعاظ ، ولا بُدَّ - إذن - من وجود بقايا وأطلال تدلُّ على هؤلاء السابقين المكذبين ، أصحاب الحضارات التى أصبحتْ أثراً بعد عَيْنٍ .

وها نحن الآن نفخر بما لدينا من أبنية حجرية مثل الأهرامات مثلاً ، حيث يفِد إليها السُّياح من شتى دول العالم المتقدم ؛ ليَروْا ما عليها هذه الحضارة القديمة من تطوُّر وتقدُّم يُعجزهم ويُحيّرهم ، ولم يستطيعوا فَكّ طلاسمه حتى الآن .

---

(١) أنشره : أحياه وأوجده . قال تعالى : ﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ (٢٢)﴾ [عبس] بعثه من قبره . [القاموس القويم ٢/٢٦٦] .

ومع ذلك لم يترك الفراعنة ما يدل على كيفية بناء الأهرامات ، أو ما يدل على كيفية تحنيط الموتى ؛ مما يدل على أن هؤلاء القوم أُخذوا أَخْذة قوية اندثرتْ معها هذه المراجع وهذه المعلومات ، كما قال تعالى :

﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا[1] (٩٨)﴾ [مريم]

وقد ذكر لنا القرآن من قَصَص هؤلاء السابقين الكثير كما فى قوله تعالى :

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (٨)﴾ [الفجر]

وقال :

﴿وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا[2] الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (١٠) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ[3] عَذَابٍ (١٣)﴾ [الفجر]

هذا ما حدث للمكذِّبين فى الماضى ، وإياكم أنْ تظنُّوا أن الذى يأتى بعد ذلك بمنجىً عن هذا المصير .. كلا :

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (١٤)﴾ [الفجر]

ثم يقول الحق سبحانه :

---

(١) الركز : الحسّ والصوت الخفىّ تسمعه من بعيد . [لسان العرب ـ مادة : ركز] .

(٢) يعنى : يقطعون الصخر بالوادى . قال ابن عباس : ينحتونها ويخرقونها . [تفسير ابن كثير ٤/٥٠٨] .

(٣) قال الفراء : هذه الكلمة تقولها العرب لكل نوع من العذاب يدخل فيه السوط جرى به الكلام والمثل . وهو عندهم غاية العذاب . [لسان العرب ـ مادة : سوط] .

﴿ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾

يُسلِّى الحق تبارك وتعالى رسوله ﷺ ، ويثبت له حِرْصَه على أمته ، وأنه يُحمّل نفسه فى سبيل هدايتهم فوق ما حَمَّله الله ، كما قال له فى آية أخرى :

﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ[1] نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ ﴾ [الشعراء]

ويقول تعالى :

﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [التوبة]

ثم بعد ذلك يقطع الحق سبحانه الأمل أمام المكذبين المعاندين ، فيقول تعالى :

﴿ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِى مَن يُضِلُّ .. ﴿٣٧﴾ ﴾ [النحل]

أى : لا يضل إلا مَنْ لم يقبل الإيمان به فَيَدعُه إلى كفره ، بل ويطمس على قلبه غيْر مأسُوف عليه ، فهذه إرادته ، وقد أجابه الله إلى ما يريد .

﴿ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [النحل]

---

(١) باخع : مهلك . بخع نفسه : قتلها هماً وغَيْظاً وحُزْناً .

إذن : المسألة ليستْ مجرد عدم الهداية ، بل هناك معركة لا يجدون لهم فيها ناصراً أو معيناً يُخلِّصهم منها ، كما قال تعالى :

﴿فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ (١٠٠) وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ (١٠١)﴾ [الشعراء]

إذن : لا يهدى الله مَن اختار لنفسه الضلال ، بل سيُعذّبه عذاباً لا يجد مَنْ ينصُره فيه .

ثم يقول الحق سبحانه عنهم :

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ (١) بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٨)﴾

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ .. (٣٨)﴾ [النحل]

سبحان الله !! كيف تُقسمون بالله وأنتم لا تؤمنون به ؟! وما مدلول كلمة الله عندكم ؟.. هذه علامة غباء عند الكفار ودليل على أن أن موضوع الإيمان غير واضح فى عقولهم ؛ لأن كلمة الله نفسها دليلٌ على الإيمان به سبحانه ، ولا توجد الكلمة فى اللغة إلا بعد وجود ما تدل عليه أولاً .. فالتلفزيون مثلاً قبل أن يوجد لم يكن له اسم ، ثم بعد أن وُجد أوجدوا له اسماً .

---

(١) ذكر الواحدى فى سبب نزول هذه الآية أنه كان لرجل من المسلمين على مشرك دَيْن فتقاضاه ، فكان فيما تكلم به المسلم : والذى أرجوه بعد الموت إنه لكذا ، فأقسم المشرك بالله : لا يبعث الله من يموت . فنزلت الآية [أسباب النزول للواحدى ص ١٦٠] ، [تفسير القرطبى ٥/٣٨٢٩] .

إذن : توجد المعانى أولاً ، ثم توضع للمعانى أسماء ، فإذا رأيت اسماً يكون معناه قبله أم بعده ؟ يكون قبله .. فإذا قالوا : الله غير موجود نقول لهم : كذبتم ؛ لأن كلمة الله لفظ موجود فى اللغة ، ولا بُدّ أن لها معنىً سبق وجودها .

إذن : فالإيمان سابقٌ للكفر .. وجاء الكفر منطقياً ؛ لأن معنى الكفر : السَّتْر .. والسؤال إذن : ماذا ستر ؟ ستر الإيمان ، ولا يستر إلا موجوداً ، وبذلك نقول : إن الكفر دليل على الإيمان .

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ .. (٣٨) ﴾ [النحل]

أى : مبالغين فى اليمين مُؤكّدينه ، وما أقربَ غباءَهم هنا بما قالوه فى آية أخرى :

﴿ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢) ﴾ [الأنفال]

فليس هذا بكلام العقلاء . وكان ما أقسموا عليه بالله أنه :

﴿ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ .. (٣٨) ﴾ [النحل]

وهذا إنكار للبعث ، كما سبق وأنْ قالوا :

﴿ قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٨٢) ﴾ [المؤمنون]

فيرد عليهم الحق سبحانه ﴿ بَلَى ﴾ .

وهى أداة لنفى النفى السابق عليها ، وأهل اللغة يقولون : نفى النفى إثبات ، إذاً « بلى » تنفى النفى قبلها وهو قولهم :

﴿لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ .. (٣٨)﴾ [النحل]

فيكون المعنى : بل يبعث الله مَنْ يموت .

﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا .. (٣٨)﴾ [النحل]

والوَعْد هو الإخبار بشىء لم يأْتِ زمنه بعد ، فإذا جاء وَعْدٌ بحدَث يأتى بَعْد ننظر فيمَنْ وعد : أقادرٌ على إيجاد ما وعد به ؟ أم غير قادر ؟

فإن كان غيرَ قادر على إنفاذ ما وعد به لأنه لا يضمن جميع الأسباب التى تعينه على إنفاذ وعده ، قُلْنا له قُلْ : إنْ شاء الله .. حتى إذا جاء موعد التنفيذ فلم تَفِ بوعدك التمسْنا لك عُذْراً ، وحتى لا تُوصف ساعتها بالكذب ، فقد نسبتَ الأمر إلى مشيئة الله .

والحق - تبارك وتعالى - لا يمنعنا أن نُخطِّط للمستقبل ونعمل كذا ونبنى كذا .. خَطِّط كما تحب ، واعْدُدْ للمستقبل عدَته ، لكن أردف هذا بقولك : إنْ شاء الله ؛ لأنك لا تملك جميع الأسباب التى تمكِّن من عمل ما تريد مستقبلاً ، وقد قال الحق تبارك وتعالى :

﴿وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا (٢٣) إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ .. (٢٤)﴾ [الكهف]

ونضرب لذلك مثلاً : هَبْ أنك أردتَ أن تذهب غداً إلى فلان لتكلمه فى أمر ما .. هل ضمنت لنفسك أن تعيش لغد ؟ وهل ضمنت أن هذا الشخص سيكون موجوداً غداً ؟ وهل ضمنتَ ألاَّ يتغير الداعى الذى تريده ؟ وربما توفرت لك هذه الظروف كلها ، وعند الذهاب أَلَمَّ بك

عائق منعك من الذهاب . إذن : يجب أن نُردف العمل فى المستقبل بقولنا : إن شاء الله .

أما إذا كان الوعد من الله تعالى فهو قادر سبحانه على إنفاذ ما يَعِد به ؛ لأنه لا قوة تستطيع أن تقفَ أمام مُراده ، ولا شىءَ يُعجزه فى الأرض ولا فى السماء ، كان الوعد منه سبحانه (حقاً) أنْ يُوفّيه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٣٨) ﴾ [النحل]

أى : لا يعلمون أن الله قادر على البعث ، كما قال تعالى :

﴿ وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ .. (١٠) ﴾ [السجدة]

وقال : ﴿ وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا[1] أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٤٩) ﴾ [الإسراء]

فقد استبعد الكفار أمر البعث ؛ لأنهم لا يتصورون كيف يبعث الله الخلْق من لَدُن آدم ـ عليه السلام ـ حتى تقوم الساعة .. ولكن لِمَ تستبعدون ذلك ؟ وقد قال تعالى :

﴿ مَا خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ (٢٨) ﴾ [لقمان]

فالأمر ليس مزاولة يجمع الله سبحانه بها جزئيات البشر كل على حدة .. لا .. ليس فى الأمر مزاولة أو معالجة تستغرق وقتاً .

---

(١) رفت الشىء ، جعله رفاتاً : أى دقّه وكسّره وجعله قطعاً صغيرة . [القاموس القويم ١/ ٢٧٠] .

﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٨٢)﴾ [يس]

ونضرب لذلك مثلاً ـ ولله المثل الأعلى ـ فنحن نرى مثل هذه الأوامر فى عالم البشر عندما يأتى المعلّم أو المدرب الذى يُدرِّب الجنود نراه يعلِّم ويُدرِّب أولاً ، ثم إذا ما أراد تطبيق هذه الأوامر فإنه يقف أمام الجنود جميعاً وبكلمة واحدة يقولها يمتثل الجميع ، ويقفون على الهيئة المطلوبة ، هل أمسك المدرب بكل جندى وأوقفه كما يريد ؟! لا .. بل بكلمة واحدة تَمَّ له ما يريد .

وكأن انضباط المأمور وطاعته للأمر هو الأصل ، كذلك كل الجزئيات فى الكون منضبطة لأمره سبحانه وتعالى .. هى كلمة واحدة بها يتم كل شىء .. فليس فى الأمر مُعَالجة ، لأن المعالجة أنْ يُباشر الفاعل بجزئيات قدرته جزئيات الكائن ، وليس البعث هكذا .. بل بالأمر الانضباطى : كن .

ولذلك يقول تعالى :

﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٣٨)﴾ [النحل]

نقول : الحمد لله أن هناك قليلاً من الناس يعلمون أمر البعث ويؤمنون به .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ (٣٩)﴾

فمعنى قوله تعالى :

﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ .. (٣٩)﴾ [النحل]

أى : من أمر البعث ؛ لأن القضية لا تستقيم بدون البعث والجزاء ؛ ولذلك كنت فى جدالى للشيوعيين أقول لهم : لقد أدركتم رأسماليين شرسين ومفترين ، شربوا دم الناس وعملوا كذا وكذا .. فماذا فعلتُم بهم ؟ يقولون : فعلنا بهم كيت وكيت ، فقلت : ومن قبل وجود الشيوعية سنة ١٩١٧ ، ألم يكن هناك ظلمة مثل هؤلاء ؟ قالوا : بلى .

قلت : إذن من مصلحتكم أن يوجد بعث وحساب وعقاب لا يفلت منه هؤلاء الذين سبقوكم ، ولم تستطيعوا تعذيبهم .

ثم يأتى فَصْل الخطاب فى قوله تعالى :

﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ (٣٩)﴾ [النحل]

أى : كاذبين فى قولهم :

﴿لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ .. (٣٨)﴾ [النحل]

وذلك علم يقين ومعاينة ، ولكن بعد فوات الأوان ، فالوقت وقت حساب وجزاء لا ينفع فيه الاعتراف ولا يُجدى التصديق ، فالآن يعترفون بأنهم كانوا كاذبين فى قَسَمهم : لا يبعث الله مَنْ يموت وبالغوا فى الأَيْمان وأكَّدوها ؛ ولذلك يقول تعالى عنهم فى آية أخرى :

﴿وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ[1] الْعَظِيمِ (٤٦)﴾ [الواقعة]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٤٠)﴾

إذن : أمر البعث ليس علاجاً لجزئيات كل شخص وضمِّ أجزائه وتسويته من آدم حتى قيام الساعة ، بل المسألة منضبطة تماماً مع الأمر الإلهى (كُنْ) .

وبمجرد صدوره ، ودون حاجة لوقت ومُزاولة يكون الجميع ماثلاً طائعاً ، كل واحد منتظرٌ دورَه ، منتظر الإشارة ؛ ولذلك جاء فى الخبر : « أمور يبديها ولا يبتديها » .

فالأمر يتوقف على الإذن : اظهر يظهر .

ومثال ذلك ـ ولله المثل الأعلى ـ من يعد القنبلة الزمنية مثلاً ، ويضبطها على وقت معين .. تظل القنبلة هذه إلى وقت الانفجار الذى وُضِع فيها ، ثم تنفجر دون تدخُّل من صانعها .. مجرد الإذن لها بالانفجار تنفجر .

وحتى كلمة (كُنْ) نفسها تحتاج لزمن ، ولكن ليس هناك أقرب منها فى الإذن .. وإن كان الأمر فى حقِّه تعالى لا يحتاج إلى كُنْ ولا غيره .

---

(١) الحنث : الخُلْف فى اليمين . وهو أيضاً الذنب العظيم والإثم . وقيل : هو الشرك . [لسان العرب ـ مادة : حنث] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ (١)

المهاجرون قوم آمنوا بالله إيماناً صار إلى مرتبة من مراتب اليقين جعلتهم يتحمَّلون الأذى والظلم والاضطهاد فى سبيل إيمانهم ، فلا يمكن أن يُضحِّى الإنسان بماله وأهله ونفسه إلا إذا كان لأمر يقينىّ .

وقد جاءت هذه الآية بعد آية إثبات البعث الذى أنكره الكافرون وألحُّوا فى إنكاره وبالغوا فيه ، بل وأقسموا على ذلك :

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ .. ﴿٣٨﴾ ﴾[النحل]

وهم يعلمون أن من الخلق مَنْ يُسىء ، ومنهم من يُحسن ، فهل يعتقدون - فى عُرْف العقل - أن يتركَ الله مَنْ أساء ليُعربد فى خَلْق الله دون أن يُجازيه ؟

ذلك يعنى أنهم خائفون من البعث ، فلو أنهم كانوا محسنين لَتَمنَّوا البعث ، أمَا وقد أسرفوا على أنفسهم إسرافاً يُشفقون معه على أنفسهم من الحساب والجزاء ، فمن الطبيعى أنْ يُنكِروا البعث ،

---

(١) بوأه : أسكنه . وبوأه فى الأرض : مكَّن له فيها . والمعنى : أى ننزلهم منزلة حسنة بالنصر وإغداق النعم عليهم فى الدنيا . [القاموس القويم ١/٨٨] .

ويلجأوا إلى تمنية أنفسهم بالأمانى الكاذبة ، ليطمئنوا على أن ما أخذوه من مظالم الناس ودمائهم وكرامتهم وأمنهم أمرٌ لا يُحاسبون عليه .

وإذا كانوا قد أنكروا البعث ، ويوجد رسول ومعه مؤمنون به يؤمنون بالبعث والجزاء إيماناً يصل إلى درجة اليقين الذى يدفعهم إلى التضحية فى سبيل هذا الإيمان .. إذن : لا بُدَّ من وجود معركة شرسة بين أهل الإيمان وأهل الكفر ، معركة بين الحق والباطل .

ومن حكمة الله أن ينتشر الإسلام فى بدايته بين الضعفاء ، حتى لا يظن ظَانٌّ أن المؤمنين فرضوا إيمانهم بالقوة ، لا .. هؤلاء هم الضعفاء الذين لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم ، والكفار هم السادة .. إذن : جاء الإسلام ليعاند الكبارَ الصناديدَ العتاة .

وكان من الممكن أن ينصرَ الله هؤلاء الضعفاء ويُعلى كلمة الدين من البداية ، ولكن أراد الحق تبارك وتعالى أن تكون الصيحةُ الإيمانية فى مكَّة أولاً ؛ لأن مكة مركز السيادة فى جزيرة العرب ، وقريش هم أصحاب المهابة وأصحاب النفوذ والسلطان ، ولا تقوى أىّ قبيلة فى الجزيرة أن تعارضها ، ومعلوم أنهم أخذوا هذه المكانة من رعايتهم لبيت الله الحرام وخدمتهم للوافدين إليه[1] .

فلو أن الإسلام اختار بقعة غير مكة لَقَالوا : إن الإسلام استضعفَ جماعة من الناس ، وأغرَاهم بالقول حتى آمنوا به . لا ،

---

(١) يدل على هذا قوله تعالى : ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ .. ﴿١٩﴾﴾ [التوبة] .

فالصيحة الإسلاميةُ جاءت فى أُذن سادة قريش وسادة الجزيرة الذين أمَّنهم الله فى رحلة الشتاء والصيف ، وهم أصحاب القوة وأصحاب المال .

وإذا كان الأمر كذلك ، فلماذا لم ينصر الله دينه فى بلد السادة ؟ نقول : لا .. الصيحة فى أذن الباطل تكون فى بلد السادة فى مكة ، لكن نُصْرة الدين لا تأتى على يد هؤلاء السادة ، وإنما تأتى فى المدينة .

وهذا من حكمة الله تعالى حتى لا يقول قائل فيما بعد : إن العصبية لمحمد فى مكة فرضتْ الإيمان بمحمد .. لا بل يريد أن يكون الإيمان بمحمد ﷺ هو الذى خلق العصبية لمحمد ، فجاء له بعصبية بعيدة عن قريش ، وبعد ذلك دانتْ لها قريش نفسها .

وما دامت هناك معركة ، فمَن المطحون فيها ؟ المطحون فيها هو الضعيف الذى لا يستطيع أنْ يحمىَ نفسه .. وهؤلاء هم الذين ظُلموا .. ظُلموا فى المكان الذى يعيشون فيه ؛ ولذلك كان ولا بُدَّ أن يرفع الله عنهم هذا الظلم .

وقد جاء رَفْع الظلم عن هؤلاء الضعفاء على مراحل .. فكانت المرحلة الأولى أن ينتقلَ المستضعفون من مكة ، لا إلى دار إيمان تحميهم وتساعدهم على نَشْر دينهم ، بل إلى دار أَمْن فقط يأمنون فيها على دينهم .. مجرد أَمْن يتيح لهم فرصة أداء أوامر الدين .

ولذلك استعرض رسول الله ﷺ البلاد كلها لينظر أىَّ الأماكن تصلح دار أَمْن يهاجر إليها المؤمنون بدعوته فلا يعارضهم أحد ، فلم

يجد إلا الحبشة ؛ ولذلك قال عنها : « إن بأرض الحبشة ملكاً لا يُظلم عنده أحد ، فالحقوا ببلاده حتى يجعل الله لكم فرجاً ومخرجاً مما أنتم فيه »[(١)] .

وتكفى هذه الصفة فى مَلِك الحبشة ليهاجر إليه المؤمنون ، ففى هذه المرحلة من نُصْرة الدين لا نريد أكثر من ذلك ، وهكذا تمت الهجرة الأولى إلى الحبشة .

ثم يسَّر الله لدينه أتباعاً وأنصاراً التقوْا برسول الله ﷺ وبايعوه على النُّصْرة والتأييد ، ذلكم هم الأنصار من أهل المدينة الذين بايعوا رسول الله ﷺ عند العقبة ومَهَّدوا للهجرة الثانية إلى المدينة ، وهى هجرةٌ ـ هذه المرة ـ إلى دار أَمْن وإيمان ، يأمن فيها المسلمون على دينهم ، ويجدون الفرصة لنشره فى رُبُوع المعمورة .

ونقف هنا عند قوله تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا.. (٤١) ﴾ [النحل]

ومادة هذا الفعل : هجر .. وهناك فَرْق بين هجر وبين هاجر :

هجر : أن يكره الإنسانُ الإقامةَ فى مكان ، فيتركه إلى مكان آخر يرى أنه خَيْرٌ منه ، إنما المكان نفسه لم يُكرهه على الهجرة .. أى المعنى : ترك المكان مختاراً .

أما هاجر : وهى تدل على المفاعلة من الجانبين ، فالفاعل هنا

---

(١) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٢/٣٠١) ، وأورده ابن هشام فى السيرة النبوية بنحوه (١/٣٢١) .

ليس كارهاً للمكان ، ولكن المفاعلة التى حدثتْ من القوم هى التى اضطرتْه للهجرة .. وهذا ما حدث فى هجرة المؤمنين من مكة ؛ لأنهم لم يتركوها إلى غيرها إلاَّ بعد أن تعرضوا للاضطهاد والظُّلْم ، فكأنهم بذلك شاركوا فى الفعل ، فلو لم يتعرَّضوا لهم ويظلموهم لما هاجروا ..

ولذلك قال الحق تبارك وتعالى :

﴿مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا .. (٤١)﴾ [النحل]

وينطبق هذا المعنى على قول المتنبى[1] :

إذَا ترحلْتَ عن قومٍ وقَدْ قَدَرُوا ألاَّ تُفارِقهم فَالراحِلُون هُمُوا

يعنى : إذا كنت فى جماعة وأردْتَ الرحيل عنهم ، وفى إمكانهم أن يقدموا لك من المساعدة ما يُيسِّر لك الإقامة بينهم ولكنهم لم يفعلوا ، وتركوك ترحل مع مقدرتهم ، فالراحلون فى الحقيقة هم ، لأنهم لم يساعدوك على الإقامة .

كذلك كانت الحال عندما هاجر المؤمنون من مكة ؛ لأنه أيضاً لا يعقل أن يكره هؤلاء مكة وفيها البيت الحرام الذى يتمنى كل مسلم الإقامة فى جواره .

إذن : لم يترك المهاجرون مكة ، بل اضطروا إلى تركها وأجبروا

---

(١) هو : أحمد بن الحسين ، أبو الطيب المتنبى ، ولد بالكوفة (٣٠٣ هـ) . قال الشعر صبياً ، ادعى النبوة فى بادية السماوة وسجنه أمير حمص حتى تاب ورجع عن دعواه . وفد على الحكام والولاة فمدحهم شعراً وحظى عندهم ، زار حلب ومصر وبغداد وفارس وقتل بالنعمانية على يد فاتك بن أبى جهل عام (٣٥٤ هـ) عن ٥١ عاماً . (الإعلام ١/١١٥) .

عليه ، وطبيعى إذن أن يلجأوا إلى دار أخرى حتى تقوى شوكتهم ، ثم يعودون للإقامة ثانية فى مكة إقامة طبيعية صحيحة .

ثم إن الحق تبارك وتعالى قال :

﴿هَاجَرُوا فِي اللَّهِ .. (٤١)﴾ [النحل]

ونلاحظ فى الحديث الشريف الذى يوضح معنى هذه الآية :

« فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها[1] فهجرته إلى ما هاجر إليه »[2] .

فما الفرق هنا بين : هاجر فى الله ، وهاجر إلى الله ؟

هاجر إلى مكان تدل على أن المكان الذى هاجر إليه أفضل من الذى تركه ، وكأن الذى هاجر منه ليس مناسباً له .

أما هاجر فى الله فتدل على أن الإقامة السابقة كانت أيضاً فى الله .. إقامتهم نفسها فى مكة وتحمُّلهم الأذى والظلم والاضطهاد كانت أيضاً فى الله .

أما لو قالت الآية « هاجروا إلى الله » لدلَّ ذلك على أن إقامتهم الأولى لم تكن لله .. إذن : معنى الآية :

---

(١) أخرج سعيد بن منصور من قول ابن مسعود أن رجلاً هاجر ليتزوج امرأة يقال لها أم قيس ، فكان يقال له : مهاجر أم قيس . [أورده ابن حجر فى فتح البارى ١/١٠] .

(٢) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (١) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٩٠٧) من حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

﴿هَاجَرُوا فِي اللَّهِ .. (٤١)﴾ [النحل]

أى : أن إقامتهم كانت لله ؛ وهجرتهم كانت لله .

ومثل هذا قوله تعالى :

﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ .. (١٣٣)﴾ [آل عمران]

أى : إذا لم تكونوا فى مغفرة فسارعوا إلى المغفرة ، وفى الآية الأخرى :

﴿يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ .. (٦١)﴾ [المؤمنون]

ذلك لأنهم كانوا فى خير سابق ، وسوف يسارعون إلى خير آخر .. أى : أنتم فى خير ولكن سارعوا إلى خير منه .

وهناك ملمح آخر فى قوله تعالى :

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا .. (٤١)﴾ [النحل]

نلاحظ أن كلمة « الذين » جمع .. لكن هل هى خاصة بمَنْ نزلت فيهم الآية ؟ أم هى عامة فى كُلِّ مَنْ ظُلِم فى أىِّ مكان - فى الله - ثم هاجر منه ؟

الحقيقة أن العبرة هنا بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، فهى عامة فى كل مَنْ انطبقت عليه هذه الظروف ، فإن كانت هذه الآية نزلت[1] فى نفر من الصحابة منهم : صُهيب ، وعمار ، وخباب ، وبلال ، إلا أنها تنتظم غيرهم مِمّن اضطروا إلى الهجرة فِراراً بدينهم .

---

(١) ذكره الواحدى فى أسباب النزول (ص ١٦٠) ، والقرطبى فى تفسيره (٥/٣٨٣١) .

ونعلم قصة صهيب رضى الله عنه ـ وكان رجلاً حداداً ـ لما أراد أنْ يهاجر بدينه ، عرض الأمر على قريش : والله أنا رجل كبير السِّنِّ ، إنْ كنت معكم فلن أنفعكم ، وإنْ كنت مع المسلمين فلن أضايقكم ، وعندى مال .. خذوه واتركونى أهاجر ، فرضَوْا بذلك ، وأخذوا مال صُهَيب وتركوه لهجرته .

ولذلك قال له ﷺ : « ربح البيع يا صُهَيْب »[1] أى : بيعة رابحة .

ويقول له عمر ـ رضى الله عنه : « نِعْم العبدُ صُهيب ، لو لم يخَفِ الله لم يَعْصِه » .

وكأن عدم عصيانه ليس خوفاً من العقاب ، بل حُباً فى الله تعالى ، فهو سبحانه لا يستحق أنْ يُعصى .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى الدُّنْيَا حَسَنَةً .. (٤١)﴾ [النحل]

نُبوِّىء ، مثل قوله تعالى :

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ .. (٢٦)﴾ [الحج]

أى : بيَّنا له مكانه ، ونقول : باء الإنسان إلى بيته إذا رجع إليه ، فالإنسان يخرج للسعى فى مناكب الأرض فى زراعة أو تجارة ، ثم يأوى ويبوء إلى بيته ، إذن : باء بمعنى رجع ، أو هو مسكن الإنسان ، وما أعدَّه الله له .

---

(١) أخرجه أبو نعيم فى حلية الأولياء (١/١٥١ ، ١٥٣) من حديث صهيب رضى الله عنه ، وكذا الحاكم فى مستدركه (٣/٣٩٨) .

فإنْ كان المؤمنون سيخرجون الآن من مكة مغلوبين مضطهدين فسوف نعطيهم ونُحلهم ونُنزلهم منزلةً أحسن من التي كانوا فيها ، فقد كانوا مُضطهدين فى مكة ، فأصبحوا آمنين فى المدينة ، وإنْ كانوا تركوا بلدهم فسوف نُمهّد لهم الدنيا كلها ينتشرون فيها بمنهج الله ، ويجنُون خير الدنيا كلها ، ثم بعد ذلك نُرجعهم إلى بلدهم سادة أعزّة بعد أن تكون مكة بلداً لله خالصة من عبادة الأوثان والأصنام .. هذه هى الحسنة فى الدنيا .

ثم يقول تعالى :

﴿وَلَأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ .. (٤١)﴾ [النحل]

ما ذكرناه من حسنة الدنيا وخيرها للمؤمنين هذا من المعجّلات للعمل ، ولكن حسنات الدنيا مهما كانت ستؤول إلى زوال ، إما أنْ تفارقها ، وإما أن تُفارقك ، وقد أنجز الله وَعْده للمؤمنين فى الدنيا ، فعادوا منتصرين إلى مكة ، بل دانتْ لهم الجزيرة العربية كلها بل العالم كله ، وانساحوا فى الشرق فى فارس ، وفى الغرب فى الرومان ، وفى نصف قرن كانوا سادة العالم أجمع .

وإنْ كانت هذه هى حسنة الدنيا المعَجّلة ، فهناك حسنة الآخرة المؤجلة :

﴿وَلَأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ .. (٤١)﴾ [النحل]

أى : أن ما أعدّ لهم من نعيم الآخرة أعظم مما وجدوه فى الدنيا .

ولذلك كان سيدنا عمر ـ رضى الله عنه ـ إذا أعطى أحد الصحابة

نصيب المهاجرين من العطاء يقول له : « بارك الله لك فيه .. هذا ما وعدك الله فى الدنيا ، وما ادخر لك فى الآخرة أكبر من هذا »[١]

فهذه حسنة الدنيا .

﴿ وَلَأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ .. (٤١) ﴾ [النحل]

وساعة أنْ تسمعَ كلمة (أكبر) فاعلم أن مقابلها ليس أصغر أو صغير ، بل مقابلها (كبير) فتكون حسنة الدنيا التى بوَّأهم الله إياها هى (الكبيرة) ، لكن ما ينتظرهم فى الآخرة (أكبر) .

وكذلك قد تكون صيغةُ أفعل التفضيل أقلَّ فى المدح من غير أفعل التفضيل .. فمن أسماء الله الحسنى (الكبير) فى حين أن الأكبر صفةٌ من صفاته تعالى ، وليس اسماً من أسمائه ، وفى شعار ندائنا لله نقول : الله أكبر ولا نقول : الله كبير .. ذلك لأن كبير ما عداه يكون صغيراً .. إنما أكبر ، ما عداه يكون كبيراً ، فنقول فى الأذان : الله أكبر لأن أمور الدنيا فى حَقِّ المؤمن كبيرة من حيث هى وسيلة للآخرة .

فإياك أنْ تظنَّ أن حركةَ الدنيا التى تتركها من أجل الصلاة أنها صغيرة ، بل هى كبيرة بما فيها من وسائل تُعينك على طاعة الله ، فبها تأكل وتشرب وتتقوّى ، وبها تجمع المال لِتسُدَّ به حاجتك ، وتُؤدِّى الزكاة إلى غير ذلك ، ومن هنا كانت حركة الدنيا كبيرة ، وكانت الصلاة والوقوف بين يدى الله أكبر .

---

(١) أورد هذا الأثر القرطبى فى تفسيره (٥/٣٨٣٢) ، وابن كثير فى تفسيره (٢/٥٧٠) ، والسيوطى فى الدر المنثور (٥/١٣٢) وعزاه لابن جرير الطبرى ولابن المنذر .

ولذلك حينما قال الحق تبارك وتعالى :

﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ .. (٩) ﴾ [الجمعة]

أخرجنا هذا النداء من عمل الدنيا وحركتها ، ثم قال :

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِى الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ .. (١٠) ﴾ [الجمعة]

فأمرنا بالعودة إلى حركة الحياة ؛ لأنها الوسيلةُ للدار الآخرة ، والمزرعة التى نُعد فيها الزاد للقاء الله تعالى .. إذن : الدنيا أهم من أنْ تُنسَى من حيث هى معونة للآخرة ، ولكنها أتفَهُ من أن تكونَ غاية فى حَدِّ ذاتها .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٤١) ﴾ [النحل]

الخطاب هنا عن مَنْ ؟ الخطاب هنا يمكن أن يتجه إلى ثلاثة أشياء :

يمكن أنْ يُراد به الكافرون .. ويكون المعنى : لو كانوا يعلمون عاقبة الإيمان وجزاء المؤمنين لآثروه على الكفر .

ويمكن أنْ يُراد به المهاجرون .. ويكون المعنى : لو كانوا يعلمون لازدادوا فى عمل الخير .

وأخيراً قد يُرَاد به المؤمن الذى لم يهاجر .. ويكون المعنى : لو كان يعلم نتيجة الهجرة لسارع إليها .

وهذه الأَوْجه التى يحتملها التعبير القرآنى دليل على ثراء الأداء وبلاغة القرآن الكريم ، وهذا ما يسمونه تربيب الفوائد .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾

الحق تبارك وتعالى يريد أن يعطينا تشريحاً لحال المهاجرين ، فقد ظُلِموا واضْطهِدوا وأُوذُوا فى سبيل الله ، ولم يفتنهم هذا كله عن دينهم ، بل صبروا وتحمَّلوا ، بل خرجوا من أموالهم وأولادهم ، وتركوا بلدهم وأرضهم فى سبيل دينهم وعقيدتهم ، حدث هذا منهم اتكالاً على أن الله تعالى لن يُضيِّعهم .

ولذلك جاء التعبير القرآنى هكذا ﴿ صَبَرُوا ﴾ بصيغة الماضى ، فقد حدث منهم الصبر فعلاً ، كأن الإيذاء الذى صبروا عليه فترة مضتْ وانتهت ، والباقى لهم عِزّة ومنَعة وقوة لا يستطيع أحد أنْ يضطهدهم بعد ذلك ، وهذه من البشارات فى الأداء القرآنى .

أما فى التوكل ، فقال تعالى فى حقهم :

﴿ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [النحل]

بصيغة المضارع ؛ لأن التوكُّل على الله حدث منهم فى الماضى ، ومستمرون فيه فى الحاضر والمستقبل ، وهكذا يكون حال المؤمن .

وبعد ذلك تكلَّم القرآن الكريم عن قضية وقف منها الكافرون أيضاً موقف العناد والمكابرة والتكذيب ، وهى مسألة إرسال الرسل ، فقال تعالى :

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾

وقد اعترض المعاندون من الكفار على كون الرسول بشراً . وقالوا : إذا أراد الله أن يرسل رسولاً فينبغى أن يكون ملَكاً فقالوا :

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لأَنزَلَ مَلائِكَةً .. ﴿٢٤﴾﴾ [المؤمنون]

وكأنهم استقلُّوا الرسالة عن طريق بشر ؛ وهذا أيضاً من غباء الكفر وحماقة الكافرين ؛ لأن الرسول حين يُبلّغ رسالة الله تقع على عاتقه مسئوليتان : مسئولية البلاغ بالعلم ، ومسئولية التطبيق بالعمل ونموذجية السلوك .. فيأمر بالصلاة ويُصلّى ، وبالزكاة ويُزكّى ، وبالصبر ويصبر ، فليس البلاغ بالقول وفقط ، لا بل بالسلوك العمليّ النموذجيّ .

ولذلك كانت السيدة عائشة رضى الله عنها تقول عن رسول الله ﷺ : « كان خُلقه القرآن »[1]

وكان قرآناً يمشى على الأرض ، والمعنى : كان تطبيقاً كاملاً للمنهج الذى جاء به من الحق تبارك وتعالى .

ويقول تعالى فى حقِّه ﷺ :

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ .. ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب]

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٦/٩١ ، ١٦٣) ، والبيهقى فى دلائل النبوة (١/٣١٠) من حديث عائشة رضى الله عنها .

فكيف نتصور أن يكون الرسول ملَكاً ؟ وكيف يقوم بهذه الرسالة بين البشر ؟ قد يؤدى الملك مهمة البلاغ ، ولكن كيف يُؤدِّى مهمة القدوة والتطبيق العملى النموذجى ؟ كيف ونحن نعلم أن الملائكة خُلْق جُبِلوا على طاعة الله :

﴿لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٦)﴾ [التحريم]

ومن أين تأتيه منافذ الشهوة وهو لا يأكل ولا يشرب ولا يتناسل ؟

فلو جاء ملَك برسالة السماء ، وأراد أن ينهى قومه عن إحدى المعاصى ، ماذا نتوقع ؟ نتوقع أن يقول قائلهم : لا .. لا أستطيع ذلك ، فأنت ملَك ذو طبيعة علوية تستطيع ترْك هذا الفعل ، أما أنا فلا أستطيع .

إذن : طبيعة الأُسْوة تقتضى أن يكون الرسول بشراً ، حتى إذا ما أمر كان هو أول المؤتمرين ، وإذا ما نهى كان هو أول المنتهين .

ومن هنا كان من امتنان الله على العرب ، ومن فضله عليهم أنْ بعثَ فيهم رسولاً من أنفسهم :

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ..(١٢٨)﴾ [التوبة]

فهو أولاً من أنفسكم ، وهذه تعطيه المباشرة ، ثم هو بشر ، ومن العرب وليس من أمة أعجمية .. بل من بيئتكم ، ومن نفس بلدكم مكة ومن قريش ؛ ذلك لتكونوا على علم كامل بتاريخه وأخلاقه وسلوكه ، تعرفون حركاته وسكناته ، وقد كنتم تعترفون له بالصدق

والأمـانة ، وتأتمنونه على كل غَـالٍ ونفـيس لديكم لعلمكم بـأمانتـه ، فكيف تكفرون به الآن وتتهمونه بالكذب ؟!

لذلك رَدَّ عليهم الحق تبارك وتعالى فى آية أخرى فقال :

﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلاَّ أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولاً (٩٤) ﴾ [الإسراء]

فالذى صَدّكم عن الإيمان به كَوْنه بشراً !!

ثم نأخذ على هؤلاء مـأخذاً آخر ؛ لأنهم تـنازلوا عن دعواهم هذه بأنْ يأتىَ الرسول من الملائكة وقالوا :

﴿ لَوْلا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ[1] عَظِيمٍ (٣١) ﴾ [الزخرف]

فـهذا تردُّد عـجيب من الكفـار ، وعدم ثبـات على رأى .. مجـرد لَجَاجة وإنكار ، وقديماً قالوا : إنْ كنتَ كذوباً فكُنْ ذَكُوراً .

ويرد عليهم القرآن :

﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولاً (٩٥) ﴾ [الإسراء]

فلو كان فى الأرض ملائكة لنزَّلنا لهم ملكاً حتى تتحقَّق الأُسْوة .

إذن : لا بُدَّ فى القدوة من اتحاد الجنس .. ولنضـرب لذلك مثلاً : هَبْ أنك رأيتَ أسداً يثور ويجول فى الغابة مثلاً يفترس كُلَّ ما أمامه ،

---

(١) يقصدون مكة والطائف ، وقد ذكر غير واحد أنهم أرادوا بذلك الوليد بن المغيرة وعروة بن مسعود الثقفى . قال ابن كثيـر فى تفسيره (١٢٧/٤) : « والظاهر أن مرادهم رجل كبير من أى البلدتين كان » .

ولا يستطيع أحد أنْ يتعرَّض له .. هل تفكر ساعتها أن تصير أسداً ؟ لا .. إنما لو رأيتَ فارساً يمسك بسيفه ، ويطيح به رقاب الأعداء .. ألاَ تحب أن تكون فارساً ؟ بلى أحب .

فهذه هى القدوة الحقيقية النافعة ، فإذا ما اختلف الجنس فلا تصلح القدوة .

وهنا يردُّ الحق تبارك وتعالى على افتراءات الكفار بقوله تعالى :

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ .. (٤٣)﴾ [النحل]

أى : أنك يا محمد لَسْتَ بدْعاً[1] فى الرسل ، فَمَنْ سبقوك كانوا رجالاً طيلة القرون الماضية ، وفى موكب الرسالات جميعاً .

وجاءتْ هنا كلمة ﴿ رجالاً ﴾ لتفيد البشرية أولاً كجنس ، ثم لتفيد النوع المذكَّر ثانياً ؛ ذلك لأن طبيعة الرسول قائمة على المخالطة والمعاشرة لقومه .. يظهر للجميع ويتحدث إلى الجميع .. أما المرأة فمبنية على التستُّر ، ولا تستطيع أن تقوم بدور الأُسْوة للناس ، ولو نظرنا لطبيعة المرأة لوجدنا فى طبيعتها أموراً كثيرة لا تناسب دور النبوة ، ولا تتمشَّى مع مهمة النبى ، مثل انقطاعها عن الصلاة والتعبد لأنها حائض أو نُفَساء .

كذلك جاءت كلمة ﴿ رِجَالاً ﴾ مُقيَّدة بقوله :

﴿نُوحِي إِلَيْهِمْ .. (٤٣)﴾ [النحل]

---

(١) بدع : بديع أو عجيب . قال تعالى : ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ .. (٩)﴾ [الأحقاف] أى : ما كنت غريباً ولا عجيباً ، ولا كنت على غير مثال سابق ، فأنا مثل الرسل السابقين . [القاموس القويم ١/٥٧] .

فالرسول رجل ، ولكن إياك أنْ تقول : هو رجل مثْلى وبشر مثْلى .. لا هناك مَيْزة أخرى أنه يُوحَى إليه ، وهذه منزلة عالية يجب أن نحفظها للأنبياء ـ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٤٣)﴾ [النحل]

أى : إذا غابتْ عنكم هذه القضية ، قضية إرسال الرسل من البشر ـ ولا أظنها تغيب ـ لأنها عامة فى الرسالات كلها . وما كانت لتخفَى عليكم خصوصاً وعندكم أهل العلم بالأديان السابقة ، مثل ورقة بن نوفل وغيره ، وعندكم أهل السِّيَر والتاريخ ، وعندكم اليهود والنصارى .. فاسألوا هؤلاء جميعاً عن بشرية الرسل .

فهذه قضية واضحة لا تُنكر ، ولا يمكن المخالفة فيها .. وماذا سيقول اليهود والنصارى ؟ .. موسى وعيسى .. إذنْ بشر .

وقوله تعالى :

﴿إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٤٣)﴾ [النحل]

يوحى بأنهم يعلمون ، وليس لديهم شكٌّ فى هذه القضية .. مثل لو قلتَ لمخاطبك : اسأل عن كذا إنْ كنتَ لا تعرف .. هذا يعنى أنه يعرف ، أما إذا كان فى القضية شكٌّ فنقول : اسأل عن كذا دون أداة الشرط .. إذن : هم يعرفون ، ولكنه الجدال والعناد والاستكبار عن قبول الحق .

﴿ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ[1] وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

استهل الحق سبحانه الآية بقوله :

﴿ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ .. ﴿٤٤﴾ ﴾ [النحل]

ويقول أهل اللغة : إن الجار والمجرور لا بُدّ له من متعلق .. فبماذا يتعلق الجار والمجرور هنا ؟ قالوا : يجوز أنْ يتعلّق بالفعل (نُوحِى) ويكون السياق : وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نُوحِى إليهم بالبينات والزبر .

وقد يتعلق الجار والمجرور بأهل الذكر .. فيكون المعنى : فاسألوا أهل الذكر بالبينات والزبر ، فهذان وجهان لعودة الجار والمجرور .

والبينات : هى الأمر البيِّن الواضح الذى لا يشكُّ فيه أحد .. وهو إما أن يكون أمارة ثُبوت صِدْق الرسالة كالمعجزة التى تتحدى المكذِّبين أنْ يأتوا بمثلها .. أو : هى الآيات الكونية التى تلفتُ الخَلْق إلى وجود الخالق سبحانه وتعالى ، مثل آيات الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم .

---

(١) الزُّبُر : الكتب . والزَّبْر : الكتابة . وقد غلب الزبور على صحف داود عليه السلام . قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ .. ﴿١٠٥﴾ ﴾ [الأنبياء] قال أبو هريرة : الزبور ما أنزل على داود من بعد التوراة .

أما الزُّبُر ، فمعناها : الكتب المكتوبة .. ولا يُكتب عادة إلا الشىء النفيس مخافة أنْ يضيعَ ، وليس هنا أنفَسُ مما يأتينا من منهج الله لِيُنظِّم لَنا حركة حياتنا .

ونعرف أن العرب ـ قديماً ـ كانوا يسألون عن كُلِّ شىء مهما كان حقيراً ، فكان عندهم عِلمٌ بالسهم ومَنْ أول صانع لها ، وعن القوس والرَّحْل ، ومثل هذه الأشياء البسيطة .. ألاَ يسألون عن آيات الله فى الكون وما فيها من أسرار وعجائب فى خَلْقها تدلُّ على الخالق سبحانه وتعالى ؟

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ .. (٤٤) ﴾ [النحل]

كلمة الذكر وردتْ كثيراً فى القرآن الكريم بمعانٍ متعددة ، وأصْل الذكر أنْ يظلَّ الشىءُ على البال بحيث لا يغيب ، وبذلك يكون ضِدّه النسيان .. إذن : عندنا ذِكْر ونسيان .. فكلمة « ذكر » هنا معناها وجود شىء لا ينبغى لنا نسيانه .. فما هو ؟

الحق سبحانه وتعالى حينما خلق آدم ـ عليه السلام ـ أخذ العهد على كُلِّ ذرَّة فيه ، فقال تعالى :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) ﴾ [الأعراف]

وأخْذ العهد على آدم هو عَهْد على جميع ذريته ، ذلك لأن فى كُلِّ واحد من بنى آدم ذَرَّة من أبيه آدم .. وجـزءاً حياً منه نتيـجة التوالُد والتناسُل منْ لَدُن آدم حتى قيام الساعة ، ومـا دُمْنا كذلك فقد شهدنا أخذ العهد : ﴿ أَلَسْتُ بربِّكُمْ ﴾ .

وكأن كلمة (ذكر) جاءت لِتُـذكِّرنا بالعهد المطمور فى تكويننا ، والذى ما كان لنا أنْ ننساه ، فلما حدث النسيان اقتضى الأمرُ إرسالَ الرسل وإنزالَ الكتب لِتذكِّرنا بعهد الله لنا :

﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ .. (١٧٢) ﴾ [الأعراف]

ومن هنا سَـمّينا الكتب المـنزلة ذكراً ، لكن الذكْـر يأتى تدريجيـاً وعلى مراحل .. كلُّ رسول يأتى لِيُذكِّرَ قومه على حَسْب ما لديهم من غفلة .. أما الرسـول الخاتم ﷺ الذى جاء للناس كافّة إلى قيـام الساعة ، فقد جاء بالذكر الحقيقى الذى لا ذِكْر بعده ، وهو القرآن الكريم .

وقد تأتى كلمـة (الذكْر) بمعنى الشَّـرَف والرِّفْعة كمـا فى قوله تعالى للعرب :

﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ .. (١٠) ﴾ [الأنبياء]

وقـد أصـبح للعرب مـكانة بالقـرآن ، وعاشت لـغتـهم بالقـرآن ، وتبوءوا مكان الصدارة بين الأمم بالقرْآن .

وقد يأتى الذكْر من الله للعبد ، وقد يـأتى من العبد لله تعالى كما فى قوله سبحانه :

﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ .. (١٥٢) ﴾ [البقرة]

والمعنى : فاذكرونى بالطاعة والإيمان أذكركم بالفيوضات والبركة والخير والإمداد وبثوابى .

وإذا أُطلقت كلمة الذكر انصرفت إلى ما نزل على رسول الله ﷺ ؛ لأنه الكتاب الجامع لكُلِّ ما نزل على الرسُل السابقين ، ولكل ما تحتاج إليه البشرية إلى أنْ تقومَ الساعة .

كما أن كلمة كتاب تطلق على أى كتاب ، لكنها إذا جاءت بالتعريف (الكتاب) انصرفت إلى القرآن الكريم ، وهذا ما نسميه (عَلَم بالغلبة) .

والذكْر هو القرآن الذى نزل على محمد ﷺ ، وهو معجزته الخالدة فى الوقت نفسه ، فهو منهج ومعجزة ، وقد جاء الرسُل السابقون بمعجزات لحالها ، وكتب لحالها ، فالكتاب منفصل عن المعجزة .

فموسى كتابه التوراة ومعجزته العصا ، وعيسى كتابه ومنهجه الإنجيل ومعجزته إبراء الأكمه والأبرص[1] وإحياء الموتى بإذن الله .

أما محمد ﷺ فمعجزته هى نفس كتاب منهجه ، لا ينفصل أحدهما عن الآخر لتظلّ المعجزة مُسَاندة للمنهج إلى قيام الساعة .

وهذا هو السّر فى أن الحق تبارك وتعالى تكفل بحفظ القرآن وحمايته ، فقال تعالى :

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر]

أما الكتب السابقة فقد عُهد إلى التابعين لكل رسول منهم بحِفْظ كتابه ، كما قال تعالى :

---

(١) الأكمه : المولود أعمى . وقد يكون حادثاً بعد بصر . والأبرص : من أصابه مرض البرص ، وهو مرض جلدى يُحدث بُقعاً بيضاء فى الجلد تشوهه . [القاموس القويم مادتا : كمه ، برص] .

﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ .. (٤٤)﴾

[المائدة]

ومعنى استُحفظوا : أى طلبَ الله منهم أنْ يحفظوا التوراة ، وهذا أمْرُ تكليف قد يُطاع وقد يُعصى ، والذى حدث أن اليهود عَصَوْا وبدّلوا وحرَّفوا فى التوراة .. أما القرآن فقد تعهَّد الله تعالى بحفْظه ولم يترك هذا لأحد ؛ لأنه الكتاب الخاتَم الذى سيصاحب البشرية إلى قيام الساعة .

ومن الذِّكْر أيضاً ما جاء به الرسول ﷺ مع القرآن ، وهو الحديث الشريف ، فللرسول مُهمة أخرى ، وهى منهجه الكلامىّ وحديثه الشريف الذى جاء من مِشْكاة القرآن مبيّناً له ومُوضِّحا له .. كما قال ﷺ :

« ألاَ وإنِّى قد أُوتيتُ القرآن ومِثْله معه ، يُوشك رجل شبعان يتكىء على أريكته يُحدَّث بالحديث عنِّى فيقول : بيننا وبينكم كتاب الله ، فما وجدنا فيه من حلال حلَّلْناه ، وما وجدنا فيه من حرام حرَّمناه ، ألاَ وإنَّه ليس كذلك »[1] .

ويقول الحق سبحانه :

﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ .. (٤٤)﴾ [النحل]

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٤/١٣١) ، وأبو داود فى سننه (٤٥٩١) ، وابن حبان (٩٧ - موارد الظمآن) من حديث المقدام بن معديكرب .

إذن : جاء القرآن كتابَ معجزة ، وجاء كتابَ منهج ، إلا أنه ذكر أصول هذا المنهج فقط ، ولم يذكر التعريفات المنهجية والشروح اللازمة لتوضيح هذا المنهج ، وإلاّ لَطالتْ المسألة ، وتضخَّم القرآن وربما بَعُد عن مُرَاده .

فجاء القرآن بالأصول الثابتة ، وترك للرسول ﷺ مهمة أنْ يُبيّنه للناس ، ويشرحه ويُوضِّح ما فيه .

وقد يظن البعض أن كُلَّ ما جاءتْ به السُّنة لا يلزمنا القيام به ؛ لأنه سنة يُثَاب مَنْ فعلها ولا يُعاقب مَنْ تركها .. نقول : لا .. لابُدَّ أن نُفرِّق هنا بين سُنّية الدليل وسُنّية الحكم ، حتى لا يلتبس الأمر على الناس .

فسُنّية الدليل تعنى وجود فَرْض ، إلا أن دليله ثابت من السنة .. وذلك كبيان عدد ركعات الفرائض : الصبح والظهر والعصر والمغرب والعشاء ، فهذه ثابتة بالسنة وهى فَرْض .

أما سُنّية الحكم : فهى أمور وأحكام فقهية وردت عن رسول الله ﷺ ، يُثَاب فاعلها ولا يُعاقب تاركها .. فحين يُبيّن لنا الرسول بسلوكه وأُسْوته حُكْماً ننظر : هل هى سُنّية الدليل فيكون فَرْضاً ، أم سُنّية الحكم فيكون سُنة ؟ ويظهر لنا هذا أيضاً من مواظبة الرسول على هذا الأمر ، فإنْ واظب عليه والتزمه فهو فَرْض ، وإنْ لم يواظب عليه فهو سُنة .

إذن : مهمة الرسول ليست مجرد مُنَاولة القرآن وإبلاغه للناس ، بل وبيان ما جاء فيه من المنهج الإلهى ، فلا يستقيم هنا البلاغ دون

بيـــان .. ولابُدّ أن نفـرّق بيـن العطائين : الـعطاء القـرآنـى ، والعطاء النبوى .

ويجب أن نعلم هنا أن من الـمَيْـزات التى مُيِّـز بهـا النبى ﷺ عن سـائر إخـوانه من الرُّسُل ، أنه الـرسـول الوحـيـد الذى أمنه الله على التشريع ، فقد كان الرسل السابقون يُبلِّغون أوامر السماء فقط وانتهتْ المسألة ، أما محمد ﷺ فقد قال الحق تبارك وتعالى فى حقِّه :

﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا .. (٧)﴾ [الحشر]

إذن : أخذ مَيْـزة التشريع ، فأصـبحت سُنّته هى التشـريع الثانى بعد القرآن الكريم .

ثم يقول تعالى :

﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٤٤)﴾ [النحل]

يتـفكرون .: فى أى شـىء ؟ يتفكرون فى حـال الرسول ﷺ قـبل البعثة ، حيث لم يُؤْثَر عنه أنه كـان خطيباً أو أديباً شاعراً ، ولم يُؤْثَر عنه أنه كان كاتبـاً مُتعلّماً .. لم يُعرف عنه هذا أبداً طيلة أربعـين عاماً من عمره الشريف ، لذلك أمرهم بالتفكُّر والتدبُّر فى هذا الأمر .

فليس مـا جاء به مـحمـد عبقـرية تفجَّـرت هكذا مرَّة واحـدة فى الأربعين من عمره ، فالعمر الطبيـعى للعبقريات يأتى فى أواخر العِقْد الثانى وأوائل العِقْد الثالث من العمر .

ولا يُعـقل أنْ تُؤجّل العبـقرية عند رسـول الله إلى هذا السن وهو يرى القـوم يُصْرعون حـوله .. فيـموت أبوه وهو فى بطـن أمه ، ثم

تموت أمـه وما يزال طفلاً صغـيراً ، ثم يموت جَدُّه ، فـمَنْ يضمن له الحياة إلى سِنِّ الأربعين ، حيث تتفجّر عنده هذه العبقرية ؟!

إذن : تفكّروا ، فليستْ هذه عـبقرية من محمـد ، بل هى أمْر من السماء ؛ ولذلك أمره ربُّه تبارك وتعالى أن يقول لهم :

﴿قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٦)﴾ [يونس]

فكان عليكم أنْ تفكِّروا فى هذه المسألة .. ولو فكرتُمْ فيهـا كان يجب عليكم أنْ تتـهافتـوا على الإسلام ، فـأنتم أعلم الناس بمحـمد ، وما جرَّبتم عليه لا كذباً ولا خيانةً ، ولا اشتغالاً بالشعر أو الخطابة ، فما كان لِيْصدق عندكم ويكذب على الله .

ولا بُدَّ أن نُفـرِّق بين العـقل والفـكر . فـالعـقـل هو الأداة التى تستقبل المحسَّات وتُميِّزها ، وتخرج منها القضايا العامة التى ستكون هى المبـادىء التى يعيش الإنسـان عليهـا ، والتى ستكون عـبارة عن مـعلومات مُـخْـتـزنة ، أما الفكـر فهـو أن تفكر فى هذه الأشيـاء لكى تستنبط منها الحكم .

والله سبحانه وتعالى ترك لنا حُرية التفكير وحرية العقل فى أمور دنيانا ، لكنه ضبطنا بأمور قَسْرية يفـسَدِ العالم بدونها ، فالذى يفسد العالم أن نترك ما شرعـه الله لنا .. والباقى الذى لا يترتب عليه ضرر يترك لنا فيه مجالاً للتفكير والتجربة ؛ لأن الفشل فيه لا يضر .

فمـا أراده الله حُكْماً قسْرياً فـرضه بنصٍّ صريح لا خلافَ فـيه ، وما أراده على وجوه متعـددة يتركه للاجتهاد حيث يحتـمل الفعل فيه

أوجهاً متعددة ، ولا يؤدى الخطأ فيه إلى فساد .

فالمسألة ميزان فكرى يتحكم فى المحسَّات ويُنظم القضايا ، لنرى أولاً ما يريده الله بتّاً وما يريده اجتهاداً ، وما دام اجتهاداً فما وصل إليه المجتهد يصح أنْ يعبد الله به ، ولكن آفة الناس فى الأمور الاجتهادية أن منهم مَنْ يتهم مخالفه ، وقد تصل الحال بهؤلاء إلى رَمْى مخالفيهم بالكفر والعياذ بالله .

ونقول لمثل هذا : اتق الله ، فهذا اجتهادٌ مَنْ أصاب فيه فَلَهُ أجران ، ومَنْ أخطأ فله أجر[1] .. ولذلك نجد من العلماء مَنْ يعرف طبيعة الأمور الاجتهادية فنراه يقول : رأيى صواب يحتمل الخطأ ، ورأى غيرى خطأ يحتمل الصواب . وهكذا يتعايش الجميع وتُحتَرم الآراء .

ومن رحمة الله بعباده أن يأمرهم بالتفكُّر والتدبُّر والنظر ؛ ذلك لأنهم خَلْقه سبحانه ، وهم أكرم عليه من أنْ يتركهم للضلال والكفر ، بعد أن أكرمهم بالخَلْق والعقل ، فأراد سبحانه أن يكرمهم إكراماً آخر بالطاعة والإيمان .

وكأنه سبحانه يقول لهم : رُدُّوا عقولكم ونفوسكم عن كبرياء الجدل ولَجَج الخصومة ، وإنْ كنتم لا تؤمنون بالبعث فى الآخرة ، وبما أُعدّ للظالمين فيها من عقاب ، فانظروا إلى ما حدث لهم وما عُجِّل لهم من عذاب فى الدنيا .

---

(١) عن عمرو بن العاص رضى الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ قال : « إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران ، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر » أخرجه مسلم فى صحيحه (١٧١٦) ، والبخارى فى صحيحه (٧٣٥٢) .

انظروا للذين سبقوكم من الأمم المكذّبة وما آلَ إليه مصيرهم ، أم أنتم آمنون من العذاب ، بعيدون عنه ؟!

ثم يقول تبارك وتعالى :

﴿ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾

قوله تعالى :

﴿ أَفَأَمِنَ .. (٤٥) ﴾ [النحل]

عبارة عن همزة الاستفهام التى تستفهم عن مضمون الجملة بعدها .. أما الفاء بعدها فهى حَرْف عَطْف يعطف جملة على جملة .. إذنْ : هنا جملة قبل الفاء تقديرها : أجهلوا ما وقع لمخالفى الأنبياء السابقين من العذاب ، فأمِنُوا مكر الله ؟

أى : أن أَمْنهم لمكر الله ناشىءٌ عن جهلهم بما وقع للمكَذِّبين من الأمم السابقة .

ثم يقول تعالى :

﴿ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ .. (٤٥) ﴾ [النحل]

المكر : هو التبييت الخفىّ للنيْل ممَّنْ لا تستطيع مجابهته بالحق ومجاهرته به ، فأنت لا تُبيّت لأحد إلا إذا كانت قدرتُك عاجزة عن مُصَارحته مباشرة ، فكونُك تُبيّت له وتمكر به دليل على عَجْزك ؛ ولذلك جعلوا المكر أول مراتب الجُبْن ؛ لأن الماكر ما مكر إلا لعجزه

عن المواجهة ، وعلى قَدْر ما يكون المكْر عظيماً يكون الضعف كذلك .

وهذا ما نلحظه من قوله تعالى فى حَقّ النساء :

﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ (٢٨)﴾ [يوسف]

وقال فى حَقِّ الشيطان :

﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا (٧٦)﴾ [النساء]

فالمكر دليل على الضعف ، وما دام كَيْدهُن عظيماً إذن : ضَعْفُهن أيضاً عظيم ، وكذلك فى كيد الشيطان .

وقديماً قالوا : إياك أنْ يملكَك الضعيف ؛ ذلك لأنه إذا تمكّن منك وواتَتْه الفرصة فلن يدعَكَ تُفلت منه ؛ لأنه يعلم ضعفه ، ولا يضمن أن تُتاحَ له الفرصة مرة أخرى ؛ لذلك لا يضيعها على عكس القوىّ ، فهو لا يحرص على الانتقام إذا أُتيحَتْ له الفرصة وربما فوَّتها لقُوته وقُدرته على خَصْمه ، وتمكّنه منه فى أىِّ وقت يريد ، وفى نفس المعنى جاء قول الشاعر :

وَضَعِيفةٍ فإذَا أَصَابتْ فُرْصةً قتلَتْ كذلكَ قُدرةُ الضُّعَفاءِ

إذن : قدرة الضعفاء قد تقتل ، أما قدرة القوىّ فليستْ كذلك .

ثم لنا وقْفة أخرى مع المكْر ، من حيث إن المكر قد ينصرك على مُساويك وعلى مثلك من بنى الإنسان ، فإذا ما تعرضْتَ لمن هو أقوى منك وأكثر منك حَيْطة ، وأحكم منك مكْراً ، فربما لا يُجدى مكرُك به ، بل ربما غلبك هو بمكْره واحتياطه ، فكيف الحال إذا كان الماكر بك هو ربّ العالمين تبارك وتعالى ؟

وصدق الله العظيم حيث قال :

﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنفال]

وقال :

﴿وَلا يَحِيقُ[1] الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ .. ﴿٤٣﴾﴾ [فاطر]

فمكْر العباد مكشوف عند الله ، أما مكْرُه سبحانه فلا يقدر عليه أحد ، ولا يحتاط منه أحد ؛ لذلك كان الحق سبحانه خَيْر الماكرين .

والمكْر السَّيء هو المكْر البطَّال الذى لا يكون إلا فى الشر ، كما حدث من مكْر المكذِّبين للرسل على مَرِّ العصور ، وهو أن تكيد للغير كيْداً يُبطل حقّاً .

وكل رسول قابله قومه المنكرون له بالمكْر والخديعة ، دليل على أنهم لا يستطيعون مواجهته مباشرة ، وقد تعرَّض الرسول ﷺ لمراحل متعددة من الكَيْد والمكْر والخديعة ، وذلك لحكمة أرادها الحق تبارك وتعالى وهى أن يُوئس الكفار من الانتصار عليه ﷺ ، فقد بيَّتوا له ودَبَّروا لقتله ، وحَاكُوا فى سبيل ذلك الخطط ، وقد باءتْ خُطتهم ليلة الهجرة بالفشل .

وفى مكيدة أخرى حاولوا أن يَسْحروه[2] ﷺ ، ولكن كشف الله أمرهم وخيَّب سَعْيهم .. إذن : فأىّ وسيلة من وسائل دَحْض هذه الدعوة لم تنجحوا فيها ، ونصره الله عليكم ؛ كما قال تعالى :

---

(١) حاق به الشىء : نزل به وأصابه وأحاط به . [القاموس القويم ١/١٨١] .

(٢) عن عائشة رضى الله عنها قالت « سُحِر النبى ﷺ حتى كان يخيل إليه أنه يفعل الشىء وما يفعله » سحره لبيد بن الأعصم فى مشط ومشاقة وجف طلعة ذكر فى بئر ذروان . أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٢٦٨) وأحمد فى مسنده (٦/٥٠ ، ٩٦) .

﴿كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي .. (٢١)﴾ [المجادلة]

وقوله تعالى :

﴿أَن يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الأَرْضَ .. (٤٥)﴾ [النحل]

الخَسْف : هو تغييب الأرض ما على ظهرها .. فانخسفَ الشىء أىْ : غاب فى باطن الأرض ، ومنه خُسوف القمر أى : غياب ضَوْئه .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى عن قارون :

﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ .. (٨١)﴾ [القصص]

وهذا نوع من العذاب الذى جاء على صُور متعددة كما ذكرها القرآن الكريم :

﴿فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا .. (٤٠)﴾ [العنكبوت]

هذه ألوان من العذاب الذى حاقَ بالمكذبين ، وكان يجب على هؤلاء أن يأخذوا من سابقيهم عبرة وعظة ، وأنْ يحتاطوا أن يحدث لهم كما حدث لسابقيهم .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ (٤٥)﴾ [النحل]

والمراد أنهم إذا احتاطوا لمكْر الله وللعذاب الواقع بهم ، أتاهم الله من وجهة لا يشعرون بها ، ولم تخطُر لهم على بال ، وطالما لم تخطُرْ لهم على بال ، إذن : فلم يحتاطوا لها ، فيكون أخْذهم يسيراً ، كما قال تعالى :

﴿ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا .. (٢) ﴾ [الحشر]

ويتابع الحق سبحانه ، فيقول :

﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ (٤٦) ﴾ (١)

التقلُّب : الانتقال من حال إلى حال ، أو من مكان إلى مكان ، والانتقال من مكان الإقامة إلى مكان آخر دليلُ القوة والمقدرة ، حيث ينتقل الإنسان من مكانه حاملاً متاعه وعَتَاده وجميع ما يملك ؛ لينشىء له حركةَ حياة جديدة فى مكانه الجديد .

إذن : التقلُّب فى الحياة مظهر من مظاهر القوة ، بحيث يستطيع أن يقيم حياة جديدة ، ويحفظ ماله فى رحلة تقلُّبه .. ولا شكَّ أن هذا مظهر من مظاهر العزة والجاه والثراء لا يقوم به إلا القوى .

ولذلك نرى فى قول الحق تبارك وتعالى عن أهل سبأ :

﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا (٢) فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ (١٨) فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا .. (١٩) ﴾ [سبأ]

فهؤلاء قوم جمع الله لهم ألواناً شتى من النعيم ، وأمَّن بلادهم وأسفارهم ، وجعل لهم محطات للراحة أثناء سفرهم ، ولكنهم وللعجب طلبوا من الله أن يُباعد بين أسفارهم ، كأنهم أرادوا أنْ يتميزوا عن

---

(١) أى : ليسوا ببعيدين عن الله ولن يفلتوا من عقابه سبحانه .

(٢) قدر كل شىء ومقداره : مقياسه . وقدر الشىء قدّره : قاسه . [لسان العرب ـ مادة : قدر] . قال ابن كثير فى تفسيره (٣/٥٣٣) : « أى : جعلناها بحسب ما يحتاج المسافرون إليه » .

الضعفاء غير القادرين على مشقة السفر والترحال ، فقالوا :

﴿ بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا .. (١٩) ﴾ [سبأ]

حتى لا يقدر الضعفاء منهم على خَوْض هذه المسافات .

إذن : الذى يتقلّب فى الأرض دليل على أن له من الحال حال إقامة وحال ظَعْن[1] وقدرة على أن ينقل ما لديه ليقيم به فى مكان آخر ؛ ولذلك قالوا : المال فى الغربة وطن .. ومَنْ كان قادراً يفعل ما يريد .

والحق سبحانه يقول لرسوله ﷺ :

﴿ لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ (١٩٦) ﴾ [آل عمران]

فلا يخيفنك انتقالهم بين رحلتى الشتاء والصَّيْف ، فالله تعالى قادر أن يأخذَهم فى تقلُّبهم .

وقد يُراد تقلّبهم فى الأفكار والمكْر السىء بالرسول ﷺ وصحابته كما فى قوله تعالى :

﴿ لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الأُمُورَ .. (٤٨) ﴾ [التوبة]

فقد قعدوا يُخطّطون ويمكُرون ويُدبِّرون للقضاء على الدعوة فى مَهْدها .

ويقول تعالى :

﴿ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ (٤٦) ﴾ [النحل]

المعجز : هو الذى لا يمكِّنك من أنْ تغلبه ، وهؤلاء لن يُعجِزوا الله

---

(١) الظعن : السير والترحال .

تعالى ، ولن يستطيعوا الإفلاتَ من عذابه ؛ لأنهم مهما بَيَّتوا فتبييتهم وكَيْدهم عند الله .. أما كيْد الله إذا أراد أنْ يكيد لهم فلن يشعروا به :

﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ .. (٣٠) ﴾ [الأنفال]

وقال :

﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (١٥) وَأَكِيدُ كَيْدًا (١٦) فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا (١٧) ﴾ [الطارق]

فمَنْ لا يستطيع أن يغلبك يخضع لك ، وما دام يخضع لك يسيطر عليه المنهج الذى جِئْتَ به .

وقد يكون العجز أمام القوىّ دليلَ قوة ، كما عجز العرب أمام تحدِّى القرآن لهم ، فكان عجزهم أمام كتاب الله دليلَ قوتهم فى المجال الذى تحدّاهم القرآن فيه ؛ لأن الله تعالى حين يتحدّى وحين يُنازل لا ينازل الضعيف ، لا بل ينازل القوى فى مجال هذا التحدّى .

﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٤٧) ﴾

التخوُّف : هو الفزع من شىء لم يحدث بعد ، فيذهب فيه الخيال مذاهبَ شتَّى ، ويتوقع الإنسان ألواناً متعددة من الشر ، فى حين أن الواقع يحدث على وجه واحد .

هَبْ أنك فى انتظار حبيب تأخَّر عن موعد وصوله ، فيذهب بك الخيال والاحتمال إلى أمور كثيرة .. يا تُرى حدث كذا أو حدث كذا ، وكل خيال من هذه الخيالات له أثر ولذعة فى النفس ، وبذلك تكثر المخاوف ، أما إن انتظرتَ لتعرفَ الواقع فإنْ كان هناك فزع كان مرة واحدة .

ولذلك يقولون فى الأمثال : (نزول البلا ولا انتظاره) ذلك لأنه إنْ نزل سينزل بلون واحد ، أما انتظاره فيُشيع فى النفس ألواناً متعددة من الفزع والخوف .. إذن : التخوُّف أشدُّ وأعظم من وقوع الحَدث نفسه .

وكان هذا الفزع يعترى الكفار إذا ما علِموا أن رسول الله ﷺ بعث سرية من السَّرايا ، فيتوقع كل جماعة منهم أنها تقصدهم ، وبذلك يُشيع الله الفزع فى نفوسهم جميعاً ، فى حين أنها خرجتْ لناحية معينة[1] .

وبعض المفسرين قال : التخوُّف يعنى التنقُّص بأنْ ينقص الله من رُقْعة الكفر بدخول القبائل فى الإسلام قبيلةً بعد أخرى ، فكلُّ واحدة منها تنقص من رقعة الكفر .. كما جاء فى قوله تعالى :

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ .. (١٥٥) ﴾ [البقرة]

ثم يقول الحق تبارك وتعالى فى تذييل هذه الآية :

﴿ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٤٧) ﴾ [النحل]

وهل هذا التذييل مناسب للآية وما قبلها من التهديد والوعيد ؟ فالعقل يقول : إن التذييل المناسب لها : إن ربكم لشديد العقاب مثلاً .

لكن يجب هنا أنْ نعلمَ أن هذا هو عطاء الربوبية الذى يشمل العباد جميعاً مؤمنهم وكافرهم ، فالله تعالى استدعى الجميع للدنيا ، وتكفّل للجميع بما يحفظ حياتهم من شمس وهواء وأرض وسماء ،

---

(١) أخرج البخارى فى صحيحه (٣٣٥ ، ٤٣٨) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٥٢١) كتاب المساجد من حديث جابر بن عبدالله رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلى » وفيه « ونصرت بالرعب بين يدى مسيرة شهر » .

لم تُخلَق هذه الأشياء لواحد دون الآخر ، وقد قال تعالى :

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ (٢٠)﴾ [الشورى]

وكأن فى الآية لَوْناً من ألوان رحمته سبحانه بخَلْقه وحرْصه سبحانه على نجاتهم ؛ لأنه يُنبِّههم إلى ما يمكن أن يحدث لهم إذا أصرُّوا على كفرهم ، ويُبصّرهم بعاقبة كفرهم ، والتبصرة عِظَة ، والعِظَة رأفة بهم ورحمة حتى لا ينالهم هذا التهديد وهذا الوعيد .

ومثال هذا التذييل كثير فى سورة الرحمن ، يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ (١٧) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٨)﴾ [الرحمن]

فهذه نعمة ناسبت قوله تعالى :

﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٨)﴾ [الرحمن]

وكذلك فى قوله تعالى :

﴿مَرَجَ(١) الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (١٩) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ(٢) لاَّ يَبْغِيَانِ (٢٠)﴾ [الرحمن]

فهذه نعمة من نعم الله ناسبت تذييل الآية :

﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢١)﴾ [الرحمن]

---

(١) مرج : خلط البحر الملح والبحر العذب . ومعنى لا يبغيان أى : لا يبغى الملح على العذب فيختلطان . [لسان العرب ـ مادة : مرج] .

(٢) البرزخ : هو الحاجز من الأرض لئلا يبغى هذا على هذا وهذا على هذا فيفسد كل واحد منهما الآخر ويزيله عن صفته التى هى مقصودة منه . [تفسير ابن كثير ٢٧٢/٤] .

أما فى قوله تعالى :

﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٢٧) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٨) ﴾ [الرحمن]

فما النعمة فى ﴿ كل مَنْ عليها فانٍ ﴾ ؟ هل الموت نعمة ؟!

نعم ، يكون الموت نعمة من نِعَم الله على عباده ؛ لأنه يقول للمحسن : سيأتى الموت لتلقَى جزاء إحسانك وثواب عملك ، ويقول أيضاً للكافر : انتبه واحذر .. الموت قادم ، كأنه سبحانه يُوقظ الكفار ويَعظهم لينتهوا عما هم فيه .. أليست هذه نعمة من نعم الله ورحمة منه سبحانه بعباده ؟

وكذلك انظر إلى قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ[1] مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ (٣٥) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٦) ﴾ [الرحمن]

فأىّ نعمة فى :

﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ .. (٣٥) ﴾ [الرحمن]

أىُّ نعمة فى هذا العذاب ؟

نعم المتدبّر لهذه الآية يجد فيها نعمة عظيمة ؛ لأن فيها تهديداً ووعيداً بالعذاب إذا استمروا على ما هُم فيه من الكفر .. ففى طيّاتها تحذير وحِرْص على نجاتهم كما تتوعد ولدك : إذا أهملتَ دروسك

---

(١) الشواظ : اللهب الذى لا دخان فيه . [لسان العرب ـ مادة : شوظ] .

ستفشل وأفعل بك كذا وكذا . وأنت ما قلت ذلك إلا لحرصك على نجاحه وفلاحه .

إذن : فتذييل الآية بقوله :

﴿ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٤٧) ﴾ [النحل]

تذييل مناسب لما قبلها من التهديد والوعيد ، وفيها بيان لرحمة الله التى يدعو إليها كلاً من المؤمن والكافر .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ (٤٨) ﴾ (١)

قوله تعالى :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا .. (٤٨) ﴾ [النحل]

المعنى : أعَمُوا ولم يَرَوْا ولم يتدبروا فيما خلق الله ؟

﴿ مِن شَيْءٍ .. (٤٨) ﴾ [النحل]

كلمة شىء يسمونها جنس الأجناس ، و ﴿ مِنْ ﴾ تفيد ابتداء ما يُقال له شىء ، أى : أتفه شىء موجود ، وهذا يسمونه أدنى الأجناس .. وتفيد أيضاً العموم فيكون :

﴿ مِن شَيْءٍ .. (٤٨) ﴾ [النحل]

أى : كل شىء .

---

(١) تفيأ فيه : تظلل ، وتفيؤ الظلال : رجوعها بعد انتصاف النهار وابتعاث الأشياء ظلالها . [لسان العرب ـ مادة : فيأ] ..

فانظر إلى أىّ شىء فى الوجود مهما كان هذا الشىء تافهاً ستجد له ظِلاً :

﴿ يَتَفَيَّأُ ظِلالُهُ .. (٤٨) ﴾ [النحل]

يتفيأ : من فاءَ أى : رجع ، والمراد عودة الظل مرة أخرى إلى الشمس ، أو عودة الشمس إلى الظل .

فلو نظرنا إلى الظل نجده على نوعين : ظل ثابت مستمر ، وظل مُتغيّر ، فالظل الثابت دائماً فى الأماكن التى لا تصل إليها أشعة الشمس ، كقاع البحار وباطن الأرض ، فهذا ظِلٌّ ثابت لا تأتيه أشعة الشمس فى أى وقت من الأوقات .

والظلّ المتحرك الذى يُسمّى الفَىْء لأنه يعود من الظل إلى الشمس ، أو من الشمس إلى الظل ، إذن : لا يُسمَّى الظل فَيْئاً إلا إذا كان يرجع إلى ما كان عليه .

ولكن .. كيف يتكوّن الظل ؟ يتكوّن الظل إذا مَا استعرض الشمسَ جسم كثيف يحجب شعاع الشمس ، فيكون ظِلاً له فى الناحية المقابلة للشمس ، هذا الظل له طُولان وله استواء واحد .

طول عند الشروق إلى أنْ يبلغَ المغرب ، ثم يأخذ فى التناقص مع ارتفاع الشمس ، فإذا ما استوتْ الشمس فى السماء يصبح ظِلّ الشىء فى نفسه ، وهذه حالة الاستواء ، ثم تميل الشمس إلى الغروب ، وينعكس طول الظلّ الأول من ناحية المغرب إلى ناحية المشرق .

ويلفتنا الحق تبارك وتعالى إلى هذه الآية الكونية فى قوله تعالى :

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً (٤٥) ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا (٤٦)﴾ [الفرقان]

ذلك لأنك لو نظرتَ إلى الظلِّ وكيف يمتدُّ ، وكيف ينقبض وينحسر لوجدتَ شيئاً عجيباً حقاً .. ذلك لأنك تلاحظ الظل فى الحالتين يسير سَيْراً انسيابياً .

ما معنى : (انسيابى) ؟ هو نوع من أنواع الحركة ، فالحركة إما حركة انسيابية ، أو حركة عن توالى سكونات بين الحركات .

وهذه الأخيرة نلاحظها فى حركة عقارب الساعة ، وهى أوضح فى عقرب الثوانى منها فى عقرب الدقائق ، ولا تكاد تشعر بها فى عقرب الساعات .. فلو لاحظت عقرب الثوانى لوجدتَه يسير عن طريق قفزات منتظمة ، تكون حركة فسكوناً فحركة ، وهكذا ..

ومعنى ذلك أنه يجمع الحركة فى حال سكونه ، ثم ينطلق بها ، وبذلك تمرُّ عليه لحظة لم يكن مُتحركاً فيها ، وهذا ما نسميه بالحركة القفزية .. هذه الحركة لا تستطيع رَصْدها فى عقرب الساعات ؛ لأن القفزة فيه دقيقة لدرجة أن العين المجردة تعجز عن رَصْدها وملاحظتها ، هذه هى الحركة القفزية .

أما الحركة الانسيابية ، فتعنى أن كل جزء من الزمن فيه جزء من الحركة .. اى : حركة مستمرة ومُوزّعة بانتظام على الزمن .

ونضرب لذلك مثلاً بنمو الطفل .. الطفل الوليد ينمو باستمرار ، لكن أمه لملازمتها له لا تلاحظ هذا النمو ؛ لأن نظرها عليه دائماً .. فكيف تكون حركة النمو فى الطفل ؟ هل حركة قفزية يتجمع فيها نمو الطفل كل أسبوع أو كل شهر مثلاً ، ثم ينمو طَفْرة واحدة ؟

لو كان نموه هكذا لَلاَحظنا نمو الطفل ، لكنه ليس كذلك ، بل ينمو بحركة انسيابية تُوزّع المِلّى الواحد من النمو على طول الزمن ، فلا نكاد نشعر بنموه .

وهكذا حركة الشمس حركة انسيابية ، بحيث تُوزع جزئيات الحركة على جُزئيات الزمن ، فالشمس ليست مركونة إلى ميكانيكا تتحرك عن التروس كالساعة مثلاً ، لا .. بل مركونة إلى أمر الله ، موصولة بكُنْ الدائمة .

وكأن الحق تبارك وتعالى يريد أن يلفتَ خَلْقه إلى ظاهرة كونية فى الوجود مُحسّة ، يدركها كلٌّ منّا فى ذاته ، وفيما يرى من المرائى ، ومن هذه المظاهر ظاهرة الظلّ التى يعجز الإنسان عن إدراك حركته .

وفى آية آخرى يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ (١٥) ﴾ [الرعد]

فالحق سبحانه يريد أن يُعمم الفكرة التسبيحية فى الكون كله ، كما قال تعالى :

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَـٰكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. (٤٤) ﴾ [الإسراء]

فكل ما يُطلَق عليه شىء فهو يُسبّح مهما كان صغيراً .

وقوله تعالى :

﴿يَتَفَيَّأُ ظِلالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ .. (٤٨)﴾ [النحل]

لنا هنا وقفة مع الأداء القرآنى ، حيث أتى باليمين مُفْرداً ، فى حين أتى بالشمائل على صورة الجمع ؛ ذلك لأن الحق تبارك وتعالى لما قال :

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ .. (٤٨)﴾ [النحل]

أتى بأقلّ ما يُتصوّر من مخلوقاته سبحانه ﴿ مِنْ شَيْءٍ ﴾ وهو مفرد ، ثم قال سبحانه :

﴿ظِلالُهُ .. (٤٨)﴾ [النحل]

بصيغة الجمع . أى : مجموع هذه الأشياء ، فالإنسان لا يتفيأ ظِلّ شىء واحد ، لا .. بل ظِلّ أشياء متعددة .

و ﴿ مِنْ ﴾ هنا أفادت العموم :

﴿مِن شَيْءٍ .. (٤٨)﴾ [النحل]

أى : كل شىء . فليناسب المفرد جاء باليمين ، وليناسب الجمع جاء بالشمائل .

ثم يقول تعالى :

﴿سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ (٤٨)﴾ [النحل]

فما العلاقة بين حركة الظلّ وبين السجود ؟

معنى : سُجّداً أى : خضوعاً لله ، وكأن حركة الظل وامتداده على امتداد الزمن دليلٌ على أنه موصول بالمحرك الأعلى له ، والقائل

الأعلى لـ « كُنْ » ، والظل آية من آياته سبحانه مُسخّرة له ساجدة خاضعة لقوله : كُنْ فيكون .

وقلنا : إن هناك فرقاً بين الشيء تُعده إعداداً كوْنياً ، والشيء تُعده إعداداً قدرياً .. فصانع القنبلة الزمنيةَ يُعدُّها لأنْ تنفجرَ فى الزمن الذى يريده ، وليس الأمر كذلك فى إعداد الكون .

الكون أعدّه الله إعداداً قدرياً قائماً على قوله كُنْ ، وفى انتظار لهذا الأمر الإلهى باستمرار (كن فيكون) . وهكذا .. فليست المسألة مضبوطة ميكانيكياً ، لا .. بل مضبوطة قَدرياً .

لذلك يحلو لبعض الناس أن يقول : باقٍ للشمس كذا من السنين ثم ينتهى ضوؤها ، ويُرتّب على هذا الحكمِ أشياء أخرى .. نقول : لا .. ليس الأمر كذلك .. فالشمس خاضعة للإعداد القدرىّ منضبطةٌ به ومنتظرة لـ « كُنْ » التى يُصغى لها الكون كله ؛ ولذلك يقول تعالى :

﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ (٢٩) ﴾ [الرحمن]

هكذا بيَّنت الآية الكريمة أن كل ما يُقال له « شىء » يسجد لله عز وجل ، وكلمة « شىء » جاءت مُفْردة دالّة على العموم .. وقد عرفنا السجود فيما كلّفنا الله به من ركن فى الصلاة ، وهو مُنْتَهى الخضوع ، خضوع الذات من العابد للمعبود ، فنحن نخضع واقفين ، ونخضع راكعين ، ونخضع قاعدين ، ولكن أتمّ الخضوع يكون بأنْ نسجدَ لله .. ولماذا كان أتمّ الخضوع أن نسجدَ لله ؟

نقول : لأن الإنسان له ذات عامة ، وفى هذه الذات سيد للذات ، بحيث إذا أُطلق انصرف إلى الذات ، والمراد به الوجه ؛ لذلك حينما يعبّر الحق تبارك وتعالى عن فَنَاء الوجود يقول :

﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ .. (٨٨)﴾ [القصص]

وكذلك فى قوله :

﴿إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَىٰ (٢٠) وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ (٢١)﴾ . [الليل]

فيُطلَق الوجه ويُراد به الذات ، فإذا ما سجد الوجه لله تعالى دلَّ ذلك على خضوع الذات كلها ؛ لأن أشرف ما فى الإنسان وجهه ، فإذا ما ألصقه بالأرض فقد جاء بمنتهى الخضوع بكل ذاته للمعبود عز وجل .

كما دلَّتْ الآية على أن الظل أيضاً يسجد لربه وخالقه سبحانه ، والظلال قد تكون لجمادات كالشجر مثلاً ، أو بناية أو جبل ، وهذه الأشياء الثابتة يكون ظلّها أيضاً ثابتاً لا يتحرك ، أما ظلّ الإنسان أو الحيوان فهو ظل متحرك ، وقد ضرب لنا الحق تبارك وتعالى مثلاً فى الخضوع التام بالظلال ؛ لأن ظل كل شىء لا يفارق الأرض أبداً ، وهذا مثال للخضوع الكامل .

ثم يرتفع الحق تبارك وتعالى بمسألة السجود من الجمادات فى الظلال فى قوله :

﴿وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ (١٥)﴾ [الرعد]

يعنى الذوات تسجد ، وكذلك الظلال تسجد ؛ ولذلك يتعجب بعض العارفين من الكافر .. يقول : أيها الكافر ظلُّك ساجد وأنت جاحد .. جاء هذا الترقِّى فى قوله تعالى :

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلائِكَةُ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ (٤٩)﴾

فأجناس الكون التى يعرفها الإنسان أربعة : إما جماد ، فإذا وجدتَ خاصية النمو كان النبات ، وإذا وجدتَ خاصية الحركة والحسِّ كان الحيوان ، فإذا وجدتَ خاصية الفكْر كان الإنسان ، وإذا وجدتَ خاصية العلم الذاتى النورانى كان المَلَك .. هذه هى الأجناس التى نعرفها .

الحق تبارك وتعالى ينقلُنا هنا نَقْلة من الظلال الساجدة ، للجمادات الثابتة ، إلى الشىء الذى يتحرك ، وهو وإنْ كان مُتحركاً إلا أن ظلّه أيضاً على الأرض ، فإذا كان الحق سبحانه قد قال :

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ .. (٤٩)﴾ [النحل]

فقد فصَّل هذا الإجمال بقوله :

﴿مِن دَابَّةٍ وَالْمَلائِكَةُ .. (٤٩)﴾ [النحل]

أى : من أقلّ الأشياء المتحركة وهى الدابة ، إلى أعلى الأشياء وهى الملائكة ..

وقد يقول قائل : وهل ما فى السموات وما فى الأرض يسجد لله ؟

نقول له : نعم .. لأنك فسرتَ السجود فيك أنت بوضْع جبهتك على الأرض ، ليدلّ على أن الذات بعلُوّها ودنُوّها ساجدة لله خاضعة تمام الخضوع ، حيث جعلتَ الجبهة مع القدم .

والحق تبارك وتعالى يريد منّا أن نعرف استطراق العبودية فى الوجود كله ؛ لأن الكافر وإنْ كانَ مُتمرِّداً على الله فيما جعل الله له فيه اختيارا ، فى أنْ يؤمن أو يكفر ، فى أن يطيع أو يعصى ، ولكن الله أعطاه الاختيار .

نقول له : إنك قد ألفْتَ التمرّد على الله ، فطلب منك أن تؤمن لكنك كفرتَ ، وطلبَ منك يا مؤمن أنْ تطيعَ فعصيتَ ، إذن : فلكَ إلْفٌ بالتمرّد على الحق .. ولكن لا تعتقد أنك خرجتَ من السجود والخضوع لله ؛ لأن الله يُجرى عليك أشياء تكرهها ، ولكنها تقع عليك رغم أنفك وأنت خاضع .

وهذا معنى قوله تعالى فى الآية السابقة :

﴿ وَهُمْ دَاخِرُونَ (٤٨) ﴾ [النحل]

أى : صاغرون مُستذلُّون مُنقَادُونَ مع أنهم أَلِفُوا التمرُّد على الحق سبحانه .

وإلا فهذا الذى أَلِف الخروج عن مُرادات الله فيما له فيه اختيار ، هل يستطيع أنْ يتأبّى على الله إذا أراد أنْ يُمرضه ، أو يُفقره ، أو يميته ؟

لا ، لا يستطيع ، بل هو داخر صاغر فى كل ما يُجريه عليه من مقادير ، وإنْ كان يأباها ، وإنْ كان قد أَلِف الخروج عن مُرادات الله .

إذن : ليس فى كون الله شىء يستطيع الخروج عن مرادات الله ؛ لأنه ما خرج عن مرادات الله الشرعية فى التكليف إلا بما أعطاه الله من اختيار ، وإلا لو لم يُعْطه الاختيار لما استطاع التمرّد ، كما فى المرادات الكونية التى لا اختيارَ فيها .

لذلك نقول للكافر الذى تمرّد على الحق سبحانه : تمرّد إذا أصابك مرض ، وقُلْ : لن أمرض ، تمرّد على الفقر وقُلْ : لن أفتقر ..

وما دُمْتَ لا تقدر وسوف تخضع راغماً فلتخضعْ راضياً وتكسب الأمر ، وتنتهى مشكلة حياتك ، وتستقبل حياة أخرى أنظف من هذه الحياة .

وقوله تعالى :

﴿ مِن دَابَّةٍ .. (٤٩) ﴾ [النحل]

هو كل ما يدبّ على الأرض ، والدَّبُّ على الأرض معناه الحركة والمشى .. وقوله :

﴿ وَالْمَلائِكَةُ .. (٤٩) ﴾ [النحل]

أى : أن الملائكة لا يُقال لها دابة ؛ لأن الله جعل سَعْيها فى الأمور بأجنحة فقال تعالى :

﴿ أُوْلِى أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلاثَ وَرُبَاعَ .. (١) ﴾ [فاطر]

وقال فى آية أخرى :

﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِى الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم .. (٣٨) ﴾ [الأنعام]

فخلق الله الطائر يطير بجناحيه مقابلاً للدابة التى تدب على الأرض ، فاستحوذ على الأمرين : الدابة والملائكة .

و ﴿ مَا ﴾ فى الآية تُطلق على غير العالمين وغير العاقلين ؛ ذلك لأن أغلبَ الأشياء الموجودة فى الكون ليس لها عِلْم أو معرفة ؛ ولذلك قال تعالى فى آية أخرى :

﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا .. (٧٢)﴾ [الأحزاب]

ويُنهى الحق سبحانه الآية بقوله :

﴿وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ (٤٩)﴾ [النحل]

أى : أن الملائكة الذين هم أعلى شىء فى خَلْقِ الله لا يستكبرون؛ لأن علوّهم فى الخَلْقْ من نورانية وكذا وكذا لا يعطيهم إدلالاً[1] على خالقهم سبحانه ؛ لأن الذى أعطاهم هذا التكريم هو الله سبحانه وتعالى .

وما دام الله هو الذى أعطاهم هذا التكريم فلا يجوز الإدلال به ؛ لأن الذى يُدلُّ إنما يُدلُّ بالذاتيات غير الموهوبة ، أما الشىء الموهوب من الغير فلا يجوز أن تُدلَّ به على مَنْ وهبه لك .

لذلك يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿لَن يَسْتَنكِفَ[2] الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ..(١٧٢)﴾ [النساء]

فلن يمتنعوا عن عبادة الله والسجود له رغم أن الله كرَّمهم ورفعهم .

ثم يقول تعالى :

﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ (٥٠)﴾

ما هو الخوف ؟ الخوف هو الفزع والوجَلَ ، والخوف والفزع

---

(١) دَلَّ : افتخر . والدلة : المنة . وفلان يُدل عليك بصحبته إدلالاً : أى يجترىء عليك . [لسان العرب ـ مادة : دلل] .

(٢) لن يستنكف : لن يمتنع ولن يأنف ولن يكره ولن يستكبر عن أن يكون عبداً لله قائماً بواجب العبد نحو ربه . [القاموس القويم ٢/٢٨٧] .

والوجل لا يكون إلا من ترقب شيء من أعلى منك لا تقدر أنت على رَفْعه ، ولو أمكنك رَفْعه لما كان هناك داعٍ للخوف منه ؛ لذلك فالأمور التى تدخل فى مقدوراتك لا تخاف منها ، تقول : إنْ حصل كذا أفعل كذا .. الخ :

وإذا كان الملائكة الكرام :

﴿ لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٦) ﴾ [التحريم]

فما داعى الخوف إذن ؟ نقول : إن الخوف قد يكون من تقصير حدث منك تخاف عاقبته ، وقد يكون الخوف عن مهابة للمخُوف وإجلاله وتعظيمه دون ذنب ودون تقصير ، ولذلك نجد الشاعر العربى يقول فى تبرير هذا الخوف :

أَهَابُكَ إجْلاَلاً وما بِكَ قُدْرة علىَّ ولكِنْ مِلْءُ عَيْنٍ حَبِيبُها

إذن : مرّة يأتى الخوف لتوقُّع أذى لتقصير منك ، ومرّة يأتى لمجرد المهابة والإجلال والتعظيم .

وقوله تعالى :

﴿ مِّن فَوْقِهِمْ .. (٥٠) ﴾ [النحل]

ما المراد بالفوْقية هنا ؟ نحن نعرف أن الجهات ستّ : فوق ، وتحت ، ويمين ، وشمال ، وأمام ، وخلف .. بقيتْ جهة الفَوْقية لتكون هى المسيطرة ؛ ولذلك حتى فى بناء الحصون يُشيّدونها على الأماكن العالية لتتحكم بعلُوّها فى متابعة جميع الجهات .

إذن : فالفوقية هى محلّ العُلو ، وهذه الفوقية قد تكون فوقية مكان ، أو فوقية مكانة .

فالذى يقول : إنها فوقية مكان ، يرى أن الله فى السماء ، بدليل أن الجارية التى سُئِلت : أين الله ؟ أشارتْ إلى السماء ، وقالت : فى السماء[(١)] .

فأشارت إلى جهة العُلُو ؛ لأنه لا يصح أن نقول : إن الله تحت ، فالله سبحانه مُنزَّه عن المكان ، وما نُزِّه عن المكان نُزِّه عن الزمان ، فالله عز وجل مُنزَّه عن أنْ تُحيِّزه ، لا بمكان ولا بزمان ؛ لأن المكان والزمان به خُلِقا .. فمَن الذى خلق الزمان والمكان ؟

إذن : ما داما به خُلِقا فهو سبحانه مُنزَّه عن الزمان والمكان .

وهم قالوا بأن الفوقية هنا فوقية حقيقية .. فوقية مكان ، أى : أنه تعالى أعلى منّا .. ونقول لمن يقول بهذه الفوقية : الله أعْلى منّا .. من أىّ ناحية ؟ مَن هذه أم من هذه ؟

إذن : الفوقية هنا فوقية مكانة ، بدليل أننا نرى الحرس الذين يحرسون القصور ويحرسون الحصون يكون الحارس أعلى من المحروس .. فوقه ، فهو فوقه مكاناً ، إنما هل هو فوقه مكانة ؟ بالطبع لا .

وقوله تعالى :

﴿ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [النحل]

---

(١) أخرج أحمد فى مسنده (٥/٤٤٨) وأبو داود الطيالسى فى مسنده (١١٠٥) وابن أبى عاصم فى كتاب « السنة » (١/٢١٥) والبيهقى فى الأسماء والصفات (ص٤٢٢) من حديث معاوية بن الحكم السلمى قال : قلت يا رسول الله إنه كانت لى جارية ترعى قبل أحد والجوانية ، وإنى أطلعها يوماً إطلاعة ، فوجدت الذئب قد ذهب منها بشاة وأنا من بنى آدم آسف لما يأسفون فصككتها صكاً ، فعظم ذلك على النبى ﷺ قال : قلت يا رسول الله أعتقها ؟ قال : ادعها إلىّ . فقال لها : أين الله ؟ قالت : فى السماء . قال : ومن أنا ؟ قالت : رسول الله . قال : اعتقها فإنها مؤمنة .

وهذه هى الطاعة ، وهى أن تفعلَ ما أُمِرْت به ، وأنْ تجتنبَ ما نُهيتَ عنه ، ولكن الآية هنا ذكرت جانباً واحداً من الطاعة ، وهو :

﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [النحل]

ولم تقُلْ الآية مثلاً : ويجتنبون ما ينهوْنَ عنه ، لماذا ؟.. نقول : لأن فى الآية ما يسمونه بالتلازم المنطقى ، والمراد بالتلازم المنطقى أن كلَّ نهى عن شىء فيه أمر بما يقابله ، فكل نهى يؤول إلى أمر بمقابله .

فقوله سبحانه :

﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [النحل]

تستلزم منطقياً « ويجتنبون ما يُنهَوْن عنه » وكأن الآية جمعت الجانبين .

والحق سبحانه وتعالى خلق الملائكة لا عمل لهم إلا أنهم هُيِّموا[1] فى ذات الله ، ومنهم ملائكة مُوكّلون بالخلق ، وهم :

﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴿٥﴾﴾ [النازعات]

ويقول تعالى :

﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ[2] مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ .. ﴿١١﴾﴾ [الرعد]

---

(١) الهُيام : شدة الحب والوله المؤدى إلى الخضوع بدون إرادة .

(٢) أى : ملائكة حفظة يتتبعونه يحفظونه ويحصون أعماله . [القاموس القويم ٢/٢٩] .

ومنهم :

﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (١٠) كِرَامًا كَاتِبِينَ (١١)﴾ [الانفطار]

إذن : فهناك ملائكة لها علاقة بِنَا ، وهم الذين أمرهم الحق سبحانه أن يسجدوا لآدم حينما خلقه الله ، وصوَّره بيده ، ونفخ فيه من رُوحه .. وكأن الله سبحانه يقول لهم : هذا هو الإنسان الذى ستكونون فى خدمته ، فالسجود له بأمر الله إعلانٌ بأنهم يحفظونه من أمر الله ، ويكتبون له كذا ، ويعملون له كذا ، ويُدبّرون له الأمور .. الخ .

أما الملائكة الذين لا علاقة لهم بالإنسان ، ولا يدرون به ، ولا يعرفون عنه شيئاً ، هؤلاء المعْنيون فى قوله سبحانه لإبليس :

﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥)﴾ [ص]

أى : أستكبرتَ أنْ تسجدَ ؟ أم كنتَ من الصِّنْف الملكى العالى ؟.. هذا الصنف من الملائكة ليس لهم علاقة بالإنسان ، وكُلُّ مهمتهم التسبيح والذكْر ، وهم المعنيون بقوله تعالى :

﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ (٢٠)﴾ [الأنبياء]

كلُّ شىء - إذن - فى الوجود خاضع لمرادات الحق سبحانه منه ، إلا ما استثنى الله فيه الإنسان بالاختيار ، فالله سبحانه لم يقهر أحداً ، لا الإنسان ولا الكون الذى يعيش فيه ، فقد عرض الله سبحانه الأمانة على السموات والأرض والجبال ، فأبيْنَ أن يحملنها وأشفقْنَ منها .. وكأنها قالت : لا نريد أن نكون مختارين ، بل نريد أن نكون مُسخّرين ، ولا دَخْلَ لنا فى موضوع الأمانة والتكليف !!

لماذا ـ إذن ـ يأبى الكون بسمائه وأرضه تحمُّل هذه المسئولية ؟

نقول : لأن هناك فَرْقاً بين تقبُّل الشيء وقت تحمُّله ، والقدرة على الشيء وقت أدائه .. هناك فَرْق .. عندنا تحمُّل وعندنا أداء .. وقد سبق أنْ ضربنا مثلاً لتحمُّل الأمانة وقُلْنا : هَبْ أن إنساناً أراد أن يُودع عندك مبلغاً من المال مخافة تبديده لتحفظه له لحين الحاجة إليه ، وأنت فى هذا الوقت قادر على التحمل وتنوى أداء أمانته إليه عند طلبها وذمّتك قوية ، ونيتك صادقة .

هذا وقت تحمُّل الأمانة ، فإذا ما جاء وقت الأداء ، فربما تضطرك الظروف إلى إنفاق هذا المال ، أو يعرض لك عارضٌ يمنعك من الأداء أو تتغيّر ذمتك .

إذن : وقت الأداء شيء آخر .

لذلك ، فالذى يريد أنْ يُبرىء ذمته لا يضمن وقت الأداء ويمتنع عن تحمُّل الأمانة ويقول لنفسه : لا ، إن كنت أضمن نفسى وقت التحمل فلا أضمن نفسى وقت الأداء .

هذا مثال لما حدثَ من السماء والأرض والجبال حينما رفضت تحمُّل الأمانة ، ذلك لأنها تُقدّر مسئوليتها وثقلها وعدم ضمان القيام بحقها ، لذلك رفضت تحمُّلها من بداية الأمر .

وكذلك يجب أن يكون الإنسان عاقلاً عند تحمُّل الأمانات ؛ ولذلك يقول تعالى :

﴿وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً (٧٢)﴾ [الأحزاب]

ما الذى جهله الإنسان ؟ جهل تقدير حاله وقت أداء الأمانة ، فظلم نفسه ، ولو أنه خرج من باب الجمال كما يقولون لَقالَ : يا ربِّ اجعلنى مثل السماء والأرض والجبال ، وما تُجريه علىَّ ، فأنا طَوْع أمرك .

ولذلك ، فمن عباد الله مَنْ قَبِل الاختيار وتحمَّل التكليف ، ولكنه خرج عن اختياره ومراده لمراد ربِّه وخالقه ، فقال : يارب أنت خلقْتَ فينا اختياراً ، ونحن به قادرون أن نفعل أو لا نفعل ، ولكنّا تنازلنا عن اختيارنا لاختيارك ، وعن مرادنا لمرادك ، ونحن طَوْع أمرك .. هؤلاء هم عباد الله الذين استحقوا هذه النسبة إليه سبحانه وتعالى .

إذن : هناك فَرْق بين مَنْ يفعل اختياراً مع قدرته على ألاَّ يفعل ، وبين مَنْ يفعل بالقهر والتسخير .. فالأول مع أنه قادر ألاَّ يفعل ، فقد غلّب مُراد ربّه فى التكليف على مراد نفسه فى الاختيار .

ثم ينتقل الحق - تبارك وتعالى - إلى قمة القضايا العقدية بالنسبة للإنسان ، فيقول تعالى :

﴿ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۖ فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٥١﴾ ﴾

وقد جاء النهى فى الآية نتيجةَ خروج الإنسان عن مُراد ربِّه سبحانه ، فالعجيب أن البشر والجن أيضاً - يعنى الثقلين - هم المختارون فى الكون كله ، اختيار فى أشياء وقَهْر فى أشياء أخرى .. ومع ذلك لم يشذّ من خَلْق الله غيرهما .

فالسموات والأرض والجبال كان لها اختيار ، وقد اختارت التسخير ، وانتهت المسألة فى بداية الأمر ، ومع ذلك فهى مُسخَّرة وتُؤدّى مهمتها لخدمة الإنسان ، فالشمس لم تعترض يوماً ولم ترفض .. فهى تشرق على المؤمن كما تشرق على الكافر .. وكذلك الهواء والأرض والدابة الحلوب ، وكُلُّ ما فى كون الله مُسخَّر للجميع .. إذن : كل هذه الأشياء لها مهمة ، وتؤدى مُهمتها على أكمل وجه .

ولذلك يقول تعالى فى حقِّ هذه الأشياء :

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ .. (١٨)﴾ [الحج]

هكذا بالإجماع ، لا يتخلّف منها شىء عن مُراد ربه .

فما الحال فى الإنسان ؟ يقول تعالى :

﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ .. (١٨)﴾ [الحج]

ولم يَقُلْ : والناس . ثم قال :

﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ .. (١٨)﴾ [الحج]

هذا هو الحال فى الإنسان المكرّم الذى اختاره الله وترك له الاختيار .. إنما كل الأجناس مُؤدّية واجبها ؛ لأنها أخذتْ حظّها من الاختيار الأول ، فاختارت أن تكون مُسخّرة ، وأن تكون مقهورة .

فالإنسان .. واحد يقول : لا إلهَ فى الوجود .. العالم خُلق هكذا بطبيعته ، وآخر يقول : بل هناك آلهة متعددة ؛ لأن العالم به مصالح كثيرة وأشياء لا ينهض بها إله واحد .. يعنى : إله للسماء ، وإله للأرض ، وإله للشمس .. الخ .

إذن : هذا رأى فى العالم أشياء كثيرة بحيث لا ينهض بها فى نظره إله واحد ، ونقول له : أنت أخذتَ قدرة الإله من قدرة الفردية فيك .. لا .. خُذها من قدرة من :

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ .. (١١) ﴾ [الشورى]

لأن القدرة الإلهية لا تعالج الأشياء كما تفعل أنت ، وتحتاج إلى مجهود وعمل .. بل فى حقّه تعالى يتم هذا كله بكلمة كُنْ .. كُنْ كذا وانتهت المسألة .

ونعجب من تناقض هؤلاء ، واحد يقول : الكون خُلِق هكذا لحاله دون إله . والآخر يقول : بل له آلهة متعددة .. نقول لهم : أنتم متناقضون ، فتعالَوْا إلى دين الله ، وإلى الوسطية التى تقول بإله واحد ، لا تنفى الألوهية ولا تثبت التعددية .

فإنْ كنتَ تظنُّ أن دولابَ الكون يقتضى أجهزة كثيرة لإدارته ، فاعلم أن الله تعالى لا يباشر تدبير أمر الكون بعلاج .. يفعل هذه ويفعل هذه ، كما يُزاول البشر أعمالهم ، بل يفعلها بـ « كُنْ » ؛ ولذلك فالحق سبحانه وتعالى يقول فى الحديث القدسى :

« يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم ، وحيَّكم وميتكم ، ورطبكم ويابسكم اجتمعوا فى صعيد واحد ، فسأل كل إنسان منكم ما بلغت أمنيته ، فأعطيت كل سائل منكم ما سأل ما نقص ذلك من مُلْكى إلا كما لو أن أحدكم مر بالبحر فغمس فيه إبرة ثم رفعها إليه ، ذلك بأنِّى جواد ماجد ، أفعل ما أريد ، عطائى كلام ، وعذابى كلام ، إنما

أمرى بشىء إذا أردته أن أقول له كن فيكون »[١] .

فيا مَنْ تُشْفق على الإله الواحد أن يتعبَ من إدارته للكون بشتى نواحيه ، ارتفع بمستوى الألوهية عن أمثال البشر ؛ لأن الله تعالى لا يباشر سلطانه علاجاً فى الكون ، وإنما يباشره بكلمة « كُنْ » .

إذن : إله واحد يكفى ، وما دُمْنا سلَّمنا بإله واحد ، فإياك أن تقول بتعدُّد الآلهة .. وإذا كان الحق تبارك وتعالى نفى إلهين اثنين ، فنَفْى ما هو أكثر من ذلك أَوْلَى .. واثنان أقل صُور التعدد .

ومعنى ﴿ إِلَـٰهَيْنِ ﴾ أى : معبودين ، فيكون لهما أوامر ونواه ، والأوامر والنواهى تحتاج إلى طاعة ، والكون يحتاج إلى تدبير ، فأىُّ الإلهين يقوم بتدبير أمور الكون ؟ أم أنه يحتاج إلى مُسَاعد ؟ إنْ كان يحتاج إلى مساعد فهذا نقْص فيه ، ولا يصلح أن يكون إلهاً .

وكذلك إنْ تخصَّص كُلٌّ منهما فى عمل ما ، هذا لكذا وهذا لكذا ، فقد أصبح أحدهما عاجزاً فيما يقوم به الآخر .. وأى ناحية إذن من نواحى الحياة تكون هى المسيطرة ؟ ومعلوم أن نواحى الحياة مشتركة ومتشابكة .

ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَـٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ .. (٩١) ﴾ [المؤمنون]

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه (٢٤٩٥) ، وأحمد فى مسنده (٥/٧٧ ، ١٥٤) من حديث أبى ذر رضى الله عنه . قال الترمذى : حديث حسن . فى إسناده شهر بن حوشب ، ضعفه بعضهم وقد حسَّن البخارى حديثه وقوَّى أمره .

وقـال :

﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا .. (٢٢)﴾ [الأنبياء]

فكيف الحـال إذا أراد الأول شـيـئـاً ، وأراد الآخـر ألاَّ يكون هذا الشـىء ؟ فـإنْ كان الشىء كـان عجـزاً فى الثانى ، وإن لم يكُن كـان عجزاً فى الأول .. إذن : فقوة أحدهما عَجْز فى الآخر .

ونلحظ فى قوله تعالى :

﴿وَقَالَ اللَّهُ لا تَتَّخِذُوا إِلَـهَيْنِ اثْنَيْنِ .. (٥١)﴾ [النحل]

عظة بليغـة ، كأنه سبـحانه حينمـا دعانا إلى توحيـده يقول لنا : أريحوا أنـفسكم بالتـوحيد ، وقـد أوضح الحق سبـحانه وتعـالى هذه الراحة فى قوله :

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٢٩)﴾ [الزمر]

يعنى رجل خُلَّص لسـيد واحـد ، ورجل أسيـاده كثـيرون ، وهم شركاء مختلفون ، فإنْ أرضى هـذا أغضب ذاك ، وإن احتاجه أحدهما تنازعه الآخر . فـهو دائماً مُتْعبٌ مُـثقَلٌ ، أما المملوك لسيـد واحد فلا يخفى ما فيه من راحة .

ففى أمره سبحانه بتوحيده راحةٌ لنا ، وكأنه سبحانه يقول : لكم وجْهة واحدة تكفيكم كُلَّ الجهات ، وتضمن لكم أن الرضا واحد ، وأن البُغْض واحد .

إذن : فطلبُه سبحانه راحةٌ لنا ؛ لذلك قبل أن يطلبها مِنّا شهد بها لذاته تعالى ، فقال :

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ .. (١٨) ﴾ [آل عمران]

فلو قال معترض : كيف يشهد لذاته ؟ نقول : نعم ، يشهد لذاته سبحانه ؛ لأنه لا أحدَ غيره .. لا أحد معه ، فشهادة الذات للذات هنا شيء طبيعي .. وكأنه سبحانه يقول : لا أحدَ غيرى ، وإنْ كان هناك إله غيرى فَلْيُرنى نفسه ، وليُفصِح عن وجوده .

أنا الله خلقت الكون وأخذته وفعلتُ كذا وكذا ، فإما أنْ أكون صادقاً فيما قلت وتنتهى المسألة ، وإما أنْ أكون غير صادق ، وهناك إله آخر هو الذى خلق .. فأين هو ؟ لماذا لا يعارضنى ؟

وهذا لم يحدث ولم ينازع الله فى خَلْقه أحد ، وحين تأتى الدعوى بلا معاند ولا معارض تَسْلَم لصاحبها .

فإنْ قال قائل : لعل الآلهة الأخرى لم تَدْرِ بأن أحداً قد أخذ منهم الألوهية ، فإنْ كان الأمر كذلك فهم لا يصلُحون للألوهية لعدم درايتهم ، وإنْ دَرَوْا ولم يعارضوا فهُمْ جُبناء لا يستحقون هذه المكانة .

وبشهادته سبحانه لذاته بأنه لا إله إلا هو أقبل على خَلْق الخَلْق ؛ لأنه ما دام يعرف أنه لا إله غيره ، فإذا قال : « كن » فهو واثق أنه سيكون .

ولذلك ساعة يحكم الله حُكْماً غيبياً يقول : أنا حكمت هذا الحكم

مع أنكم مختارون فى أنْ تفعلوا أو لا تفعلوا ، ولكنى حكمتُ بأنكم لا تفعلون ، وما دُمْتُ حكمت بأنكم لا تفعلون ولكم قدرة أن تفعلوا ، ولكن ما فعلتم ، فهذا دليل على أنه لا إله غيرى يُعينكم على أنْ تفعلوا .

ثم شهدتْ الملائكة على شهادة الذات ، وشهد أولو العلم شهادةَ الاستدلال ، كما قال تعالى :

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ .. (١٨) ﴾

[آل عمران]

لنا هنا وَقْفة مع قوله تعالى :

﴿ إِلَـٰهَيْنِ اثْنَيْنِ .. (٥١) ﴾ [النحل]

فعندنا العدد ، وعندنا المعدود ، فإذا قُلْنا مثلاً : قابلت ثلاثة رجال ، فكلمة « ثلاثة » دلتْ على العدد ، وكلمة « رجال » دلَّتْ على جنس المعدود ، وهكذا فى جميع الأعداد ما عدا المفرد والمثنى ، فلفظ كل منهما يدل على العدد والمعدود معاً .

كما لو قلت : إله . فقد دلَّتْ على الوحدة ، ودلتْ على الجنس ، وكذلك « إلهين » دلّتْ على المثنى وعلى جنس المعدود .

ولذلك كان يكفى فى الآية الكريمة أن يقول تعالى : لا تتخذوا إلهين ؛ لأنها دلَّتْ على العدد وعلى المعدود معاً ، ولكن الحق تبارك وتعالى أراد هذا تأكيداً للأمر العقدىّ لأهميته .

ومن أساليب العرب إذا أحبُّوا تأكيد الكلام أن يأتوا بعده بالمراد .

فيقولون : فلان قسيم وسيم ، وفلان حَسن بَسَن[1] ، وفلان شيطان ليطان ، يريدون تأكيد الصفة .. وكذلك فى قوله : ﴿ إِلَـٰهَيْنِ ﴾ فقط تثبت الألوهية ، ولتأكيد هذه القضية العقدية لأنها أهمّ القضايا بالنسبة للإنسان ، وهى قضية القمة ، فقال تعالى :

﴿ إِلَـٰهَيْنِ اثْنَيْنِ .. (٥١) ﴾ [النحل]

وكذلك أيضاً فى قوله :

﴿ إِنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ .. (٥١) ﴾ [النحل]

فجاء بقوله تعالى ﴿ وَاحِدٌ ﴾ لتأكيد وحدانية الله تعالى .

وفى الآية ملْحظ آخر يجب تأمّله ، وهو أن الكلام هنا فى حالة الغيبة :

﴿ إِنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ .. (٥١) ﴾ [النحل]

فكان القياس فى اللغة هنا أن يقول : « فإياه فارهبون » .

ولكن وراء تحويل السياق من الغيبة إلى المجابهة للمتكلم قال :

﴿ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٥١) ﴾ [النحل]

وهذا وراءه حكمة ، وملْحظ بلاغى ، فبعد أنْ أكّد الألوهية بقوله تعالى :

﴿ إِنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ .. (٥١) ﴾ [النحل]

---

(١) قال ابن منظور فى [اللسان ـ مادة : بسن] : « حسن بسن إتْباع . قال ابن الأعرابى : أبسن الرجل إذا حَسُنت سَحْنته » .

صَحَّ أنْ يُجابِهَهم بذاته ؛ لأن المسألة ما دامتْ مسألة رَهْبة ، فالرهبة من المتكلم خير من الرهبة من الغائب .. وكأن السياق يقول : ها هو سبحانه أمامك ، وهذا أدْعى للرهْبة .

وكذلك فى فاتحة الكتاب نقرأ :

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ (٣) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤) ﴾ . [الفاتحة]

ولم يَقُلْ : إياه نعبد . متابعة للغيبة ، بل تحوَّل إلى ضمير الخطاب فقال :

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥) ﴾ [الفاتحة]

ذلك لأن العبد بعد أن استحضر صفة الجلال والعظمة أصبح أهْلاً للمواجهة والخطاب المباشر مع الله عز وجل .

فقوله :

﴿ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٥١) ﴾ [النحل]

بعد ما استحضر العبد عظمة ربه ، وأقرّ له بالوحدانية وعلم أنه إله واحد ، وليس إلهين . واحد يقول : نُعذِّبه . والآخر يقول : لا .

ليس الأمر كذلك ، بل إله واحد بيده أنْ يُعذِّب ، وبيده أنْ يعفو ، فناسب السياق هنا أنْ يُواجههم فيقول :

﴿ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٥١) ﴾ [النحل]

ثم يقول تعالى :

﴿ وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا[1] أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾

عندنا هنا اللام .. وقد تكون (اللام) للمِلْك كما فى الآية . وكما فى : المال لـزيد ، وقد تكون للتـخصيص إذا دخلتْ الـلام على ما لا يملك ، كما نقول : اللجام للفرس ، والمـفتاح للباب ، فالفرس لا يملك اللجام ، والباب لا يملك المفتاح . فهذه للتخصيص .

والحق سبحانه يقول هنا :

﴿ وَلَهُ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. ﴿٥٢﴾ ﴾ [النحل]

وفى موضع آخر يقول :

﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ .. ﴿٦٨﴾ ﴾ [يونس]

وكذلك فى :

﴿ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. ﴿٢٤﴾ ﴾ [الحشر]

ومرة يقول :

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ .. ﴿١﴾ ﴾ [الجمعة]

حينما تكون اللام للملكية قد يكون المملوك مختلفاً ففى قوله :

---

(١) وصب الشىء يصب وصوباً : دام ولزم فهو واصب : دائم لازم . أى : لا يتغير ولا يتبدّل . [القاموس القويم ٢/٣٣٩] .

﴿مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. (٥٢)﴾ [النحل]

يعنى : القدر المشترك الموجود فيهما . أى : الأشياء الموجودة فى السماء وفى الأرض .

أما فى قوله :

﴿مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ .. (٦٨)﴾ [يونس]

أى : الأشياء الموجودة فى السماء وليست فى الأرض ، والأشياء الموجودة فى الأرض وليست فى السماء ، أى : المخصّص للسماء والمخصّص للأرض ، وهذا ما يُسمُّونه استيعاب الملكية .

وما دام سبحانه له ما فى السموات وما فى الأرض ، فليس لأحَد غيره ملْكية مستقلة ، وما دام ليس لأحد غيره ملكية مستقلة . إذن : فليس له ذاتية وجود ؛ لأن وجوده الأول موهوبٌ له ، وما به قيام وجوده موهوب له .. ولذلك يقولون : مَنْ أراد أن يعاند فى الألوهية يجب أن تكون له ذاتية وجود .. وليست هذه إلا لله تعالى .

ونضرب لذلك مثلاً بالولد الصغير الذى يعاند أباه ، وهو ما يزال عَالةً عليه . فيقول له : انتظر إلى أن تكبر وتستقلّ بأمرك .. فإذا ما شَبَّ الولد وبلغ وبدأ فى الكَسْب أمكن له الاعتماد على نفسه ، والاستغناء عن أبيه .

لذلك نقول لمن يعاند فى الألوهية : أنت لا تقدر ؛ لأن وجودك هِبَة ، وقيام وجودك هِبَة ، كل شىء يمكن أنْ يُنزع منك .

ولذلك ، فالحق سبحانه وتعالى يُنبِّهنا إلى هذه المسألة فى قوله تعالى :

﴿كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ (٧)﴾ [العلق]

فهذا الذى رأى نفسه استغنى عن غيره ـ من وجهة نظره ـ إنما هل استغنى حقاً ؟.. لا . لم يستغن ، بدليل أنه لا يستطيع أنْ يحتفظَ بما يملك .

قوله تعالى :

﴿وَلَهُ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. (٥٢)﴾ [النحل]

الذى له ما فى السموات والأرض ، وبه قيام وجوده بقيوميته[1] ، فهو سبحانه يُطمئنك ويقول لك : أنا قيُّوم ـ يعنى : قائم على أمرك .. ليس قائماً فقط .. بل قيُّوم بالمبالغة فى الفعْل ، وما دام هو سبحانه القائم على أمرك إيجاداً من عَدَم ، وإمداداً من عُدم . إذن : يجب أن تكون طاعتُك له سبحانه لا لغيره .

وفى الأمثال يقولون « اللى ياكل لقمتى يسمع كلمتى » فإذا كنتَ أنت عالة فى الوجود .. وجودك من الله ، وإمدادك من الله ، وإبقاء مُقوِّمات حياتك من الله ؛ لذلك قال تعالى :

﴿وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا .. (٥٢)﴾ [النحل]

أى : هذه نتيجة ؛ لأن لله ما فى السموات والأرض ، فلَه الدين واصباً ، أى : له الطاعة والخضوع دائماً مستمراً ، ومُلْك الله دائم ، وهو سبحانه لا يُسلم مُلْكَه لأحد ، ولا تزال يد الله فى مُلْكه .. وما دام الأمر هكذا فالحق سبحانه يسألهم :

---

(١) القيوم : صيغة مبالغة من أسماء الله الحسنى لا يُوصف بها سواه . أى : دائماً شديد القيام والحفاظ على مخلوقاته . [القاموس القويم ٢/١٤٢] .

﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ (٥٢)﴾ [النحل]

والهمزة هنا استفهام للإنكار والتوبيخ ، فلا يجوز أنْ تتقىَ غير الله ، لأنه حُمْق لا يليق بك ، وقد علمتَ أن لله ما فى السموات وما فى الأرض ، وله الطاعة الدائمة والانقياد الدائم ، وبه سبحانه قامت السماوات والأرض ومنه سبحانه الإيجاد من عَدَم والإمداد من عُدم .

إذن : فمن الحُمْق أنْ تتقى غيره ، وهو أوْلى بالتقوى ، فإن اتقيتُم غيره فذلك حُمْق فى التصرّف يؤدّى إلى العطَب والهلاك ، إن اغتررتم بأن الله تعالى أعطاكم نِعَماً لا تُعَدُّ ولا تُحصَى .

ومن نعم الله أن يضمن لعباده سلامة الملكَات وما حولها ، فلو سلِم العَقل مثلاً سلَمت وصَحَّتْ الأمور التى تتعلق به ، فيصحّ النظام ، وتصحّ التصرُّفات ، ويصحّ الاقتصاد .. وهذه نعمة .

فالنعمة تكون للقلب وتكون للقالب ، فللقالب المتعة المادية ، وللقلب المتعة المعنوية .. وأهم المتَع المعنوية التى تريح القالب أن يكون للإنسان دينٌ يُوجّهه .. أن يكون له ربٌّ قادر ، لا يُعجزه شىء ، فإنْ ضاقتْ به الدنيا ، وضاقتْ به الأسباب فإن له رباً يلجأ إليه فيُسعفه ويكفيه ، وهذه هى الراحة الحقيقية .

وقد ضمن لنا الحق ـ سبحانه وتعالى ـ سلامة القالب بما أودع فى الكون من مُقوِّمات الحياة فى قوله :

﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا[1] .. (١٠)﴾ [فصلت]

أى : اطمئنوا إلى هذا الأمر ، فالله سبحانه لا يريد منكم إلا أنْ

---

(١) أقواتها : هو ما يحتاج أهلها إليه من الأرزاق والأماكن التى تزرع وتغرس . قاله ابن كثير فى تفسيره (٤/٩٣) .

تُعملوا عقولكم المخلوقة لله لتُفكِّروا فى المادة المخلوقة لله ، وتنفعلوا لها بالطاقة المخلوقة لله فى جوارحكم ، وسوف تجدون كلَّ شىء مُيسَّراً لكم .. فالله تعالى ما أراد منكم أنْ تُوجِدوا رزقاً ، وإنما أراد أنْ تُعمِلوا العقل ، وتتفاعلوا مع مُعْطيات الكون .

ولكن كيف يتفاعل الإنسان فى الحياة ؟

هناك أشياء فى الوجود خلقها الله سبحانه برحمته وفضله ، فهى تفعل لك وإنْ لم تطلب منها أن تفعل ، فأنت لا تطلب من الشمس أنْ تطلُع عليك ، ولا من الهواء أنْ يَهُبَّ عليك .. الخ .

وهناك أشياء أخرى تفعل لك إنْ طلبتَ منها ، وتفاعلتَ معها ، كالأرض إنْ فعلتَ بيدك فحرثْتَ وزرعْتَ ورويْتَ تعطيك ما تريد .

وفى هذا المجال من التفاعل يتفاضل الناس ، لا يتفاضلون فيما يُفعل لهم دون انفعال منهم .. لا بل ارتقاء الناس وتفاضُلهم يكون بالأشياء التى تنفعل لهم إنْ فعلوا .. أما الأخرى فتَفعل لكل الناس ، فالشمس والهواء والمياه للجميع ، للمؤمن وللكافر فى أىّ مكان .

إذن : يترقّى الإنسان بالأشياء التى خلقها الله له ، فإذا انفعل معها انفعلتْ له ، وإذا تكاسل وتخاذل لم تُعْطه شيئاً ، ولا يستفيد منها بشىء .. ولذلك قد يقول قائل : الكافر عنده كذا وكذا ، ويملك كذا وكذا ، وهو كافر .. ويتعجّب من القدر الذى أعطَى هذا ، وحرَم المؤمن الموحد منه .

نقول له : نعم أخذ ما أخذ ؛ لأنه يشترك معك فيما يُفعل لك وإنْ لم تطلب ، ويزيد عليك أنه يعمل ويكدّ وينفعل مع الكون

وما أعطاه الله من مُقوِّمات وطاقة ، فتنفعل معه وتعطيه ، فى حين أنك قاعد لا همَّة لك .

وكذلك قد يتسامى الارتقاء فى الإنسان ، فيجعل الشىء الذى يُفعل له دون أن يطلب منه ـ أى : الشىء المسخّر له ـ يجعله ينفعل له ، كما نرى فيما توصَّل إليه العلم من استخدام الطاقة الشمسية مثلاً فى تسخين المياه .. هذه الطاقة مُسخَّرة لنا دون جَهْد منّا ، ولكن ترقِّى الإنسان وطموحه أوصله إلى هذا الارتقاء .. وكُلُّ هذه نِعَم من الله ؛ ولذلك قال تعالى :

﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ (١) ﴿٥٣﴾ ﴾

أمدَّنا الله سبحانه بهذه النعم رحمة منه وفضلاً .. نِعَم تترى لا تُعَد ولا تُحْصَى ، ولكن لرتابة(٢) النعمة وحلولها فى وقتها يتعوّدها الإنسان ، ثم يذهل عن المنعم سبحانه .

ونستطيع أن نضرب لذلك مثلاً بالولد الذى تعطيه مصروفه مثلاً كل أول شهر ، تجده لا يحرص على أنْ يلقاك بعد ذلك إلا كل أول شهر ، إنما إذا عوَّدته أن يأخذ مصروفه كل يوم تراه فى الصباح يحوم حولك ، ويُظهِر لك نفسه ليُذكِّرك بالمعلوم .

إذن : رتابة النعمة قد تُذهلك عن المُنعِم ، فلا تتذكره إلا حين

---

(١) جأر إلى الله عز وجل : تضرع بالدعاء . فيرفع صوته بالدعاء متضرعاً جزعاً . [لسان العرب ـ مادة : جأر] .

(٢) الأمر الراتب : الثابت الدائم . [لسان العرب ـ مادة : رتب] .

الحاجة إليه ؛ لذا يُنبِّهنا الحق تبارك وتعالى : إذا أعطيتُ لكم نعمة فإياكم أنْ تغتروا بها .. إياكم أن تُذهلكم النعمة عن المنعم ؛ لأنكم سوف تحكمون على أنفسكم أنه لا مُنعِم غيرى ، بدليل أننى إذا سلبْتُ النعمة منكم فلن تجدوا غيرى تلجأون إليه فستقولون : ياربّ ياربّ .

فأنت ستكون شاهداً على نفسك ، لن تكذب عليها ، فلِمَنْ تتوجّه إذا أصابك فقر ؟ ولمن تتوجَّه إذا أصابك مرض ؟ لن تتوجّه إلا إلى الله تقول : يارب .

﴿ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ (٥٣) ﴾ [النحل]

فترة الضُّر التى تمرُّ بالإنسان هى التى تلفته إلى الله ، والحاجة هى التى تُلجئه إلى المصدر الحقيقى للإمداد ، فإذا كانت النعمة قد تُذهِله وتُنسِيه ، فالضر يُذكِّره بربّه الذى يملك وحده كَشْف الضر عنه .

ولذلك ، فالناس أصحاب اليقين فى الله تعالى ساعةَ أنْ يصيبهم ضُرٌّ ، يقول : ذكَّرتنى بك ياربّ ، يأخذها على أنها نعمة .. كأنها نجدة نجدتْه مما هو فيه من غفلة .. يا ربّ أنت ذكّرتنى بك .. أنا كنتُ ناسياً ذاهلاً .. كنت فى غفلة .

وساعةَ أنْ يعودَ ويشعر بالتقصير يرفع الله عنه البلاء ؛ ولذلك يُرفع القضاء عن العبد إنْ رضى به وعلم أن فيه خيراً له .

ولذلك ، فالرسول ﷺ يُنبّهنا لهذه الأحداث التى تصيبنا ، فإياكم أن تستقبلوها بالجزع والفزع .. ولكن استقبلوها بالإيمان والرضا ، واعلموا أن ربكم يغار عليكم ، وهو بهذه الأحداث يلفتكم إليه قهراً عنكم ؛ لكى تعودوا إليه وتلجأوا إليه .. لكى تقولوا يارب .

يقول رسول الله ﷺ عن رب العزة فى الحديث القدسى :

« مِنْ عبادى مِنْ أحبهم فأنا أبتليهم ليقولوا يارب... »[(١)] .

ويقول تعالى فى الآية الأخرى :

﴿ فَلَوْلا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا[(٢)] تَضَرَّعُوا .. (٤٣) ﴾ [الأنعام]

أى : أنه سبحانه يريد منا إذا نزل بنا بلاء وبأس أنْ نتضرّع إليه سبحانه ؛ لأن الضراعة إلى الله لَفْتة وتذكير به .. والنبى ﷺ يُرشدنا إلى هذه الحقيقة ، فالمصاب الحقيقى ليس مَنْ نزل به ضُرٌّ أو أصابه بلاء .. لا .. بل المصاب الحقيقى مَنْ حُرِم الثواب .

إذن : نقول لمن عنده نعمة : احذر أن تُنسيك النعمة وتُذهلك عن المنعم ، أما صاحب البلاء والضر ، فسوف يردُّك هذا البلاء ، ويُذكّرك هذا الضرّ بالله تعالى ، ولن تجدَ غيره تلجأ إليه .

فقوله تعالى :

﴿ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ (٥٣) ﴾ [النحل]

أى : تضرَعون بصراخ وصوت عالٍ كخُوار البقر ، لا يُسرّه أحد ولا يستحى منه أنْ يُفتضح أمره أمامَ مَنْ تكبّر عليهم .. ويا ليتكم حين ينتابكم مثل ذلك تعتبرون به وتتعظُون ، وتقولون فى لحظة من

---

(١) أورد المنذرى فى الترغيب (٤/٥٢٦) أن رسول الله ﷺ قال : « إذا أحب الله عبداً أو أراد أن يصافيه صب عليه البلاء صباً ، وثجه عليه ثجاً ، فإذا دعا العبد قال : يا رباه . قال الله : لبيك يا عبدى لا تسألنى شيئاً إلا أعطيتك ، إما أن أعجله لك ، وإما أن أدخره لك » .
ورمز الحافظ المنذرى له بالضعف .

(٢) البأس : العذاب والشدة فى الحرب والمشقة . [لسان العرب ـ مادة : بأس] .

اللحظات : سوف تلجئنا الأحداث إلى ربنا .. بل بالعكس حينما نكشف عنكم الضر سوف تعودون إلى ما كنتم عليه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾

فمن الناس مَنْ إذا أصابه الله بضُرٍّ أو نزل به بأسٌ تضرّع وصرخ ولجأ إلى الله ودعاه ، وربما سالتْ دموعه ، وأخذ يُصلّى ويقول : يا فلان ادْعُ لى الله وكذا وكذا .. فإذا ما كشف الله عنه ضُرّه عاود الكَرّة من جديد ؛ لذلك قال تعالى فى آية أخرى :

﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ .. ﴿١٢﴾ ﴾ [يونس]

ومن لُطْف الأداء القرآنى هنا أن يقول :

﴿ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾ [النحل]

أى : جماعة منكم وليس كلكم ، أما الباقى فيمكن أنْ يثبتُوا على الحق ، ويعتبروا بما نزل بهم فلا يعودون .. فالناس - إذن - مختلفون فى هذه القضية : فواحد يتضرّع ويلتفت إلى الله من ضُرٍّ واحد أصابه ، وآخر يلتفت إلى الله من ضُرّيْن ، وهكذا .

وقد وجدنا فى الأحداث التى مرّتْ ببلادنا على أكابر القوم أحداثاً عظاماً تلفتهم إلى الله ، فرأينا مَنْ لا يعرف طريق المسجد يُصلّى ، ومَنْ لا يفكر فى حج بيت الله ، يسرع إليه ويطوف به ويبكى هناك

عند الملتزم[1] ، وما ألجأهم إلى الله ولفتهم إليه سبحانه إلا ما مرَّت بهم من أحداث .

أليست هذه الأحداث ، وهذه الأزمات والمصائب خيراً فى حقهم ؟.. بلى إنها خير .

وأيضاً قد يُصاب الإنسان بمرض يُلِمّ به ، وربما يطول عليه ، فيذهب إلى الأطباء ، ويدعو الله ويلجأ إليه ، ويطلب من الناس الدعاء له بالشفاء ، ويعمل كذا وكذا .. فإذا ما كشف الله عنه المرض وأذن له بالشفاء قال : أنا اخترتُ الطبيب الحاذق ، الطبيب النافع ، وعملتُ وعملتُ .. سبحان الله !

لماذا لا تترك الأمر لله ، وتُعفِى نفسك من هذه العملية ؟

وفى قوله تعالى :

﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٥٤)﴾

[النحل]

صمام أَمْن اجتماعى فى الكون ، يقول للناس : إياكم أن تأخذوا على غيركم حين تُقدمون إليهم جميلاً فيُنكرونه .. إياكم أنْ تكفُّوا عن عمل الجميل على غيركم ؛ لأن هذا الإنكار للجميل قد فعلوه مع أعلى منكم ، فعلوه مع الله سبحانه ، فلا يُزهدك إنكارهم للجميل فى فِعْله ، بل تمسَّك به لتكون من أهله .

---

(١) يستحب الدعاء عند الملتزم بعد الشرب من ماء زمزم . قال عبدالله بن عمرو بن العاص : « رأيت رسول الله ﷺ يلزق وجهه وصدره بالملتزم » . أخرجه ابن عدى فى الكامل (٦/٢٤١٨) .

والحق تبارك وتعالى يضرب لنا مثلاً لإنكار الجميل فى قصة سيدنا موسى عليه السلام :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا[1] مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا (٦٩) ﴾ [الأحزاب]

فقد اتهمه قومه وقعدوا يقولون فيه كذباً وبُهْتاناً ، فقال موسى : يا ربِّ أسألك ألاَّ يُقَال فىَّ ما ليس فىَّ .. فقال تعالى لموسى : أنا لم أفعل ذلك لنفسى ، فكيف أفعلها لك ؟

ولماذا لم يفعلها الحق سبحانه لنفسه ؟.. لم يفعلها الحق سبحانه لنفسه ليعطينا نحن أُسْوة فى تحمُّل هذا الإنكار ، فقد خلق الله الخَلْق ورزقهم ووَسعهم ، ومع ذلك كفروا به ، ومع ذلك ما يزال الحق سبحانه خالقاً رازقاً واسعاً لهم .

إذن : فى الآية تقنين وأمان للمجتمع أن يتفشى فيه مرض الزُّهْد فى عمل الخير .

وقَوْل الحق سبحانه :

﴿ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٥٤) ﴾ [النحل]

تشمل الآية مَنْ أنكر الجميل من المؤمنين ، ومن الكافرين .

ولكن لماذا يشركون ؟

---

(١) وذلك أن موسى عليه السلام كان رجلاً حيياً ، فآذاه قوم من بنى إسرائيل وقالوا : ما يستتر هذا الستر إلا من عيب بجلده ببرص أو غيره ، فأراد الحق أن يبرئه مما قالوا ، فبعد اغتساله أراد أن يرتدى ثيابه ، فذهب بها الحجر بعيداً حتى جاء على ملأ من بنى إسرائيل فرأوه عرياناً أحسن ما خلق الله ، أخرجه البخارى فى صحيحه والترمذى فى سننه من حديث أبى هريرة . ذكره السيوطى فى الدر المنثور (٦/٦٦٥) .

يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾

أى : مُسْتعظمين كقارون الذى قال :

﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي .. ﴿٧٨﴾ ﴾ [القصص]

أخذتُ هذا بَجْهدى وعملى .. ومثله مَنْ تقول له : الحمد لله الذى وفَّقك فى الامتحان ، فيقول : أنا كنت مُجداً .. ذاكرتُ وسهرتُ .. نعم أنت ذاكرتَ ، وأيضاً غيرك ذاكر وجَدَّ واجتهد ، ولكن أصابه مرض ليلة الامتحان فأقعده ، وربما كنت مثله .

فهذه نغمة مَنْ أنكر الفضل ، وتكبَّر على صاحب النعمة سبحانه .

وقوله :

﴿ لِيَكْفُرُوا .. ﴿٥٥﴾ ﴾ [النحل]

هل فعلوا ذلك ليكفروا ، فتكون اللام للتعليل ؟ لا بل قالوا : اللام هنا لام العاقبة .. ومعناها أنك قد تفعل شيئاً لا لشىء ، ولكن الشىء يحدث هكذا ، وليس فى بالك أنت .. إنما حصل هكذا .

ومثال هذه اللام فى قوله تعالى فى قصة موسى وفرعون :

﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا .. ﴿٨﴾ ﴾ [القصص]

ففرعون حينما أخذ موسى من البحر وتبنَّاه وربَّاه ، هل كان يتبنَّاه ليكونَ له عدواً ؟ لا .. إنما هكذا كانت النهاية ، لكى يثبت الحق سبحانه أنهم كانوا مُغفَّلين ، وأن الله حالَ بين قلوبهم وبين

ما يريدون .. إذن : المسألة ليستْ مرادة .. فقد أخذْته وربَّيته فى الوقت الذى تقتل فيه الأطفال .. ألم يخطر ببالك أن أحداً خاف عليه ، فألقاه فى البحر ؟!

لذا يقول تعالى :

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ[1] بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ .. (٢٤)﴾ [الأنفال]

وكذلك أم موسى :

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ .. (٧)﴾ [القصص]

كيف يقبل هذا الكلام ؟ وأنَّى للأم أن ترمى ولدها فى البحر إنْ خافت عليه ؟! كيف يتأتّى ذلك ؟! ولكن حالَ الله بين أم موسى وبين قلبها ، فذهب الخوف عليه ، وذهب الحنان ، وذهبت الرأفة ، ولم تكذّب الأمر الموجّه إليها ، واعتقدت أن نجاة وليدها فى هذا فألقتْه .

وقوله : ﴿فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٥٥)﴾ [النحل]

أى : اكفروا بما آتيناكم من النعم ، وبما كشفنا عنكم من الضر ، وتمتعوا فى الدنيا ؛ لأننى لم أجعل الدنيا دار جزاء ، إنما الجزاء فى الآخرة .

---

(١) حال بينهما يحول : حجز وفصل . ومعنى قوله تعالى : ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ .. (٢٤)﴾ [الأنفال] أى : أن الله يملك أن يعرف قلب الإنسان ويغيّر نيته كما يريد ، فالمرء لا يملك قلبه ، وإنما الله هو الذى يملكه . [القاموس القويم ١/١٧٩] .

وكلمة ﴿ تَمَتَّعُوا ﴾ هنا تدل على أن الله تعالى قد يُوالى نِعمه حتى على مَنْ يكفر بنعمته ، وإلاّ فلو حَجَب عنهم نِعَمه فلن يكون هناك تمتُّع .

ويقول تعالى :

﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٥٥) ﴾ [النحل]

أى : سوف ترونَ نتيجة أعمالكم ، ففيها تهديد ووعيد .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ ۗ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ (٥٦) ﴾

أى : الذين يكفرون بالله ويتخذون الأصنام والشركاء ، يجعلون لها نصيباً

وقول الحق سبحانه :

﴿ لا يَعْلَمُونَ .. (٥٦) ﴾ [النحل]

ما العلم ؟

العلم أن تعرفَ قضية ، هذه القضية صِدْق أى : مطابقة للواقع وتستطيع أن تُدلِّل عليها ، فإذا اختلّ واحد منها لم تكُنْ علماً .. وهؤلاء حينما جعلوا للأصنام نصيباً ، فقد أتَوْا بأشياء لا وجودَ لها فى الواقع ولا فى العلم ، وليست حقائق .. وهل للأصنام وجود ؟ وهل عليها دليل ؟

قال تعالى :

﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ .. (٢٣)﴾ [النجم]

هذه الأصنام ليست لها وجود في الحقيقة ، وفى آية أخرى يقول الحق سبحانه :

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَـٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَـٰذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (١٣٦)﴾ [الأنعام]

حتى لمَّا جعلوا للأصنام نصيباً جعلوه مما رزقهم الله ، ألاَ جعلتم نصيب الأصنام مما تعطيكم الأصنام ؟ ونصيب الله مما رزقكم الله ؟ فهذا اعتراف منكم بعجز أصنامكم ، وأنكم أخذتم رزق الله وجعلتموه لأصنامكم .

وهذا دليل على أن الأصنام لا تعطيكم شيئاً ، وشهادة منكم عليهم .. وهل درت الأصنام بهذا ؟

إذن :

﴿لِمَا لا يَعْلَمُونَ .. (٥٦)﴾ [النحل]

أى : للأصنام ؛ لأنها لا وجودَ لها فى الحقيقة ، وهم يأخذون ما رزقناهم ، ويجعلونه لأصنامهم .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ (٥٦) ﴾ [النحل]

التاء هنا فى ﴿ تالله ﴾ للقسم : أى : والله لَتُسْأَلُنَّ عما افتريتم من أمر الأصنام . والافتراء : هو الكذب المتعمد .

﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ (٥٧) ﴾ (١)

ساعة أنْ تسمع كلمة ﴿ سُبْحَانَهُ ﴾ فاعلم أنها تنزيهٌ لله تعالى عَمّا لا يليق ، فهى هنا تنزيهٌ لله سبحانه وتعالى عما سبق من نسبة البنات له .. تعالى الله عن ذلك عُلواً كبيراً .. أى : تنزيهاً لله عن أن يكونَ له بنات .

فهل يمكن أن يكون له أولاد ذكور ؟

إنهم جعلوا لله البنات ، وجعلوا لأنفسهم الذكور ، وهذه قسمة قال عنها القرآن الكريم :

﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَىٰ (٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ (٢٢) ﴾ [النجم]

أى : جائرة .

لم تجعلوها عادلة ، يعنى لى ولد ولكم ولد ، ولى بنت ولكم بنت ، إنما تجعلون لله مَا تكرهون وهى البنات لله ، وتجعلون لكم ما تحبون .. لذلك كان في جَعْلهم لله البنات عيبان :

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٥/٣٨٤١) : « نزلت فى خزاعة وكنانة ، فإنهم زعموا أن الملائكة بنات الله » .

الأول : أنهم نَسبُوا لله الولد ـ ولو كان ذكراً فهو افتراء باطل يتنزه الله عنه .

الثانى : أنهم اختاروا أخسَّ الأنواع فى نظرهم .. ولا يستطيع أحد أن يقول : إن البنات أخسُّ الأنواع .. لماذا ؟

لأن بالبنات يكون بقاء النوع ؛ ولذلك قال العباس : لو سمع الله ما قال الناس فى الناس لما كان الناس .. أى : لو استجاب الله لرغبة الناس فى أنهم لا يريدون البنات فاستجاب ولم يُعْطهم .. ماذا سيحدث ؟ سينقطع النسل ، فهذا مطْلَب غبىّ ، فالبنت هى التى تَلِد الولد ، وبها بقاء النوع واستمرار النسل .

وقوله تعالى :

﴿ سُبْحَانَهُ .. (٥٧) ﴾ [النحل]

أى : تنزيهاً له أن يكون له ولد ، وتنزيهاً له سبحانه أن يكون له أخسّ النوعين فى نظرهم وعرفهم ، وقد قال عنهم القرآن فى الآية التالية :

﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (٥٨) يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ .. (٥٩) ﴾ [النحل]

ولذلك فالحق ـ تبارك وتعالى ـ حينما يُحدّثنا عن الإنجاب يقول :

﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا .. (٥٠) ﴾ [الشورى]

أول ما بدأ الحق سبحانه بدأ بالإناث .. ثم أعطانا هذه الصور من الخَلْق : إناث ، ذكور ، ذكور وإناث ، عقيم .. إذن : هِبَات الله تعالى

لها أربعة أنواع ، ومن هنا كان العُـقْم أيضاً هبةً من الله لحكمة أرادها سبحـانه .. لكن الناس لا تأخذ العُقْم على أنه هِبَـة .. لكن تأخذه على أنه نِقْمة وغضب .

لمـاذا ؟ لمـاذا تـأخذه على أنه نـقْمـة وبـلاء ؟ فربـمـا وهبـك الولد ، وجـاء عاقّـاً ، كـالولد الذى جـاء فتنة لأبويْه ، يـدعوهمـا إلى الكفر[1] .

ولو أن صـاحب العـقم رضى بما قـسـمه الله له من هـبة العـقم واعتبره هبة ورضى به لرأى كل ولد فى المـجتمع ولده من غير تعب فى حَـمْله وولادته وتربيتـه . فـيرى جـميع الأولاد من حـوله أولاده ويعطف الله قلوبهـم إليه كـأنه والدهم .. وكـأن الحق تبـارك وتعـالى يقـول له : ما دُمْتَ رضـيتَ بهبـة الله لك فى العـقم لأجـعلنَّ كل ولدٍ ولداً لك .

ويُنهى الحق سبحانه الآية بقوله :

﴿وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [النحل]

أى : من الذّكْران ؛ لأن الولد عِزْوة لأبيه ينفعه فى الحرب والقتال وينفـعه فى المكاثرة .. الخ إنمـا البنت تكون عـالةً عليه ؛ ولذلك قـال تعالى بعد هذا :

---

(١) وذلك فى قصة موسى والخضر ، قال تعالى : ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾﴾ [الكهف] وقد علل الخـضر هذا بقوله : ﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾﴾ [الكهف] .

﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ ﴾

نعرف أن البشارة تكون بخير ، فكان يجب عليهم أن يستقبلوها استقبالَ البشارة ، ولكنهم استقبلوها استقبال الناقمين الكارهين لما بُشّروا به ، فتجد وجه الواحد منهم .

﴿ مُسْوَدًّا .. ﴿٥٨﴾ ﴾ [النحل]

ومعنى اسوداد الوجه انقباضه من الغيظ ؛ لذلك يقول تعالى :

﴿ وَهُوَ كَظِيمٌ .. ﴿٥٨﴾ ﴾ [النحل]

الكظم هو كَتْم الشىء .

ولذلك يقول تعالى فى آية أخرى :

﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ .. ﴿١٣٤﴾ ﴾ [آل عمران]

وهو مأخوذ من كَظْم القِرْبة حين تمتلىء بالماء ، ثم يكظمها أى : يربطها ، فتراها ممتلئة كأنها ستنفجر .. هكذا الغضبان تنتفخ عروقه ، ويتوارد الدم فى وجهه ، ويحدث له احتقان ، فهو مكظوم ممنوع أنْ ينفجر .

ثم يقول الحق سبحانه واصفاً حاله :

﴿يَتَوَارَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ[(١)] أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾﴾

قوله تعالى :

﴿يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ .. (٥٩)﴾ [النحل]

أى : يتخفّى منهم مخافَة أنْ يُقال : أنجب بنتاً .

﴿مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ .. (٥٩)﴾ [النحل]

نلاحظ إعادة البشارة فى هذه الآية أيضاً ، وكأنه سبحانه وتعالى يُحنِّن قلبه عليها ، ويدعوه إلى الرِّفْق بها .

فهو متردد لا يدرى ماذا يفعل ؛ لذلك يقول تعالى :

﴿أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ .. (٥٩)﴾ [النحل]

أى : ماذا يفعل فيما وُلد له . أيحتفظ به على هُونٍ ـ أى : هوان ومذلة ـ أم يدسُّه فى التراب ـ أى : يدفنها فيه حية ؟

﴿أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٥٩)﴾ [النحل]

أى : ساء ما يحكمون فى الحالتين . حالة الإمساك على هُون ومذلّة ، أو حالة دَسّها فى التراب ، فكلاهما إساءة . وكان بعض هؤلاء إذا وُلدتْ له بنت كرهها ، فإنْ أمسكها أمسكها على حال كونها ذليلةً عنده ، مُحتقرة مُهَانة ، وهى مسكينة لا ذنبَ لها .

---

(١) الهُون والهوان : الذل الشديد والخزى . [لسان العرب ـ مادة : هون] .

ولذلك ، فإن المرأة العربيـة التى عاصرتْ هذه الأحداث فطنَتْ إلى مـا لم نعرفـه نحن إلا قريبـاً ، حيـث اكتـشف العلم الحديث أن أمـر إنجاب الـولد أو البنت راجع إلى الرجل وليس إلى المـرأة .. وكان أبو حمزة كثيراً ما يتـرك زوجته ويغضب منها ، لأنها لا تلد إلا البنات .. فماذا قالت هذه المرأة العربية التى هجرها زوجها ؟ قالت :

مَا لأبى حمزةَ لاَ يأتينَا غَضْـبانَ ألاَّ نَلِـدَ البَنِينـا
تَاللَّهِ مَا ذَلكَ فى أيْدينا فَنَحنُ كَالأرْضِ لغارسينا
نُعطِى لَهُم مِثْل الذى أُعْطِينَا

والحق سبـحانه وتعـالى حينمـا يريد توازناً فى الكون يصنع هذا التوازن من خـلال مقتـضيات النفس البـشرية ، ومن مقـتضيـاتها أن يكون للإنسـان جـاهٌ ، وأن يكون له عـزّ ، لكن الإنسـان يخطىء فى تكوين هذا الجاه والعـزّ ، فيظن أنه قادر على صُنْع ما يريد بـأسبابه وحدها .

إنما لو علم أن تكوين الجاه والعزّ بشىء فوق أسبابه هو ، بشىء مخلوق لله تعالى ، بقدر مخلوق لله تعـالى ، لو علم هذه الحقيقة لجاء المسألة من بابها .

ذلك لأن العـزة ليـست بمـا تُـنجب .. العـزة هنا لله ولـلرسـول وللمؤمنـين ، اعتزّ هنا بعُـصْبـة الإيمان ، اعتـز بأنك فى بيئـة مؤمنة متكافلة ، إذا أصابك فيها ضَيْم[1] فزِع إليك الجميع .

---

(١) الضيم : الـظلم أو الإذلال ونحوهمـا . ضامه : ظلمـه وأذله . [المعـجم الوجيـز ـ مادة : ضام] .

ولا تعتزّ بالأنسال والأنجال ، فقد يأتى الولد عاقاً لا يُسعف أبويْه فى شدة ، ولا يعينهما في حاجة ؛ ذلك لأنك لجأتَ إلى عَصَبية الدم وعَصَبيّة الدم قد تتخلّف ، أما عَصبيّة العقيدة وعَصَبيّة الإيمان والدين فلا .

ولنأخذ على ذلك مثالاً .. ما حدث بين الأنصار والمهاجرين من تكافل وتعاون فاق كُل ما يتصوره البشر ، ولم يكُنْ بينهم سوى رابطة العقيدة وعصبية الإيمان .. ماذا حدث بين هؤلاء الأفذاذ ؟

وجدنا أن العصبية الإيمانية جعلت الرجل يُضحّى بأنفَس شىء يضِنُّ به على الغير .. نتصور فى هذا الموقف أن يعود الأنصار بفضل ما عندهم من نعم على إخوانهم المهاجرين ، فَمَنْ كانت عنده ركوبة أو منزل مثلاً يقول لأخيه المهاجر : تفضل اركب هذه الركوبة ، أو اجلس فى هذا المنزل .. هذا كله أمر طبيعى .

أما نعيم المرأة ، فقد طُبِع فى النفس البشرية أن الإنسان لا يحب أنْ تتعدّى نعمته فيها إلى غيره .. لكن انظر إلى الإيمان ، ماذا صنع بالنفوس ؟.. فقد كان الأنصارى[1] يقول للمهاجر : انظر لزوجاتى ، أيّهن أعجبتْك أُطلّقها لتتزوجها أنت ، وما حمله على ذلك ليس عصبية الدم أو عَصبيّة الجنس ، بل عَصبيّة اليقين والإيمان .

---

(١) أخرج الإمام أحمد عن أنس أن عبد الرحمن بن عوف قدم المدينة ، فآخى رسول الله ﷺ بينه وبين سعد بن الربيع الأنصارى ، فقال له سعد : أى أخى ، أنا أكثر أهل المدينة مالاً ، فانظر شطر مالى فخذه ، وتحتى امرأتان فانظر أيتهما أعجب إليك حتى أطلقها . فقال عبد الرحمن : بارك الله لك فى أهلك ومالك ، دلّونى على السوق ، فدلوه فذهب فاشترى وباع فربح . أورده ابن كثير فى « البداية والنهاية » (٢٢٨/٣) والكاندهلوى فى « حياة الصحابة » (٣٦٣/١) .

ولذلك تنتفى جميع العصبيات فى قصة نوح ـ عليه السلام ـ وولده الكافر ، حينما ناداه نوح ـ عليه السلام ـ :

﴿ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ (٤٢) قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ .. (٤٣) ﴾ [هود]

ويتمسّك نوح بولده ، ويحرص كل الحرص على نجاته فيقول :

﴿ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ .. (٤٥) ﴾ [هود]

فيأتى فَصْل الخطاب فى هذه القضية :

﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٤٦) ﴾ [هود]

إذن : هذا الولد ليس من أهلك ؛ لأن البُنُوة هنا بُنُوة العمل ، لا بُنُوة الدم والنَّسَب .

صحيح أن الإنسان يحب الغزة ويطلبها لنفسه ، ولكن يجب أن تنظر كيف تكون العزة الحقيقية ؟ وما أسبابها ؟

خُذْ العزة بالله وبالرسول وبالبيئة الإيمانية ، يصبح كل الأولاد أولادك ؛ لأنهم معك فى يقينك بالله وإيمانك به سبحانه .. أما أن تعتز بطريقتك أنت ، فتطلب العزة فى الولد الذكَر ، فمَنْ يُدرِيك أن تجد فيه العزة والعِزْوة والمكاثرة ؟!

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٦٠) ﴾

قوله تعالى :

﴿مَثَلُ السَّوْءِ .. (٦٠)﴾ [النحل]

صفة السوء أى : الصفات السيئة الخسيسة من الكفر والجحود والنكْران ، ومن عَمى البصيرة ، وغيرها من صفات السوء .

لماذا كان للذين لا يؤمنون بالآخرة مثَلُ السوء ؟ لأن المعادلة التى أجْرَوْها معادلة خاطئة ؛ لأن الذى لا يؤمن بالآخرة قصّر عمره .. فعُمْر الدنيا بالنسبة له قصير ، وقد قلنا : إياك أن تقيسَ الدنيا بعمرها .. ولكن قِسْ الدنيا بعمرك أنت ، فعمر الدنيا مدة بقائكَ أنت فيها .. إنما هى باقية من بعدك لغيرك ، وليس لك أنت فيها نصيب بعد انقضاء عمرك .

إذن : عمر الدنيا عمرك أنت فيها .. عمرك : شهر ، سنة ، عشر سنوات ، مائة .. هذا هو عمر الدنيا الحقيقى بالنسبة لك أنت .

ومع ذلك ، فعمر الدنيا مهما طال مُنْتَه إلى زوال ، فَمنْ لا يؤمن بالله ولا يؤمن بالآخرة قد اختار الخاسرة ؛ لأنه لا يضمن أن يعيش فى الدنيا حتى متوسط الأعمار .. وهَبْ أنك عشْتَ فى الدنيا إلى متوسط الأعمار ، بل إلى أرذل العمر .. وهَبْ أنك استمتعتَ فى دنياك بكل أنواع المعاصى ، ماذا ستكون النهاية ؟ أنْ تفوتَ هذا كله إلى الموت .

قارن - إذن - حال هذا بمَنْ آمن بالله وآمن بالآخرة .. نقول لمَنْ لا يؤمن بالآخرة : دنياك مظنونة ، يمكن أن تعيش فيها ، أو يعاجلك الموت .. حتى مَنْ عاش إلى متوسط الأعمار ، فالنهاية إلى زوال .

وما نِلْتَ من مُتَع فى دنياك أخذتها على قَدْر إمكاناتك أنت .

إذن : أنت أخذت صفقة محدودة غير مُتيقّنة ، وتركتَ صفقة غير محدودة ومُتيقّنة .. أليستْ هذه الصفقة خاسرة ؟

أما مَنْ آمن بالآخرة فقد ربحتَ صفقتـه ، حيث اختار حياة ممتدة يجد المتعة فيها على قَدْر إمكانات المنعِم سبحانه وتعالى .

إذن :

﴿مَثَلُ السَّوْءِ .. (٦٠)﴾ [النحل]

أى : الصفة شديدة السوء ، ذلك لأنهم خاسرون لا محالة .

وقوله تعالى :

﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَى .. (٦٠)﴾ [النحل]

لله الصفة العليا ، وكأن الآية تقول لك : اترك صفة السوء ، وخُذ الصفة الأعلى التـى تجد المتعة فـيها على قَدْر إمكانات الحق سـبحانه وتعالى .

ويُنهى الحق سبحانه الآية بقوله :

﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٦٠)﴾ [النحل]

العزيـز أى : الذى لا يُغلَب على أمره ، فـإذا قيل : قد يـوجد مَنْ لا يُغلب على أمره .. نعم ، لكنـه سبحانه عـزيز حكيم يستعمل القـهر والغلبة بحكمة .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾﴾

قول الحق تبارك وتعالى :

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ .. (٦١)﴾ [النحل]

عندنا هنا : الأخْذ والمؤاخذة .. الأخْذ : هو تحصيل الشىء واحتواؤه ، ويدل هذا على أن الآخذ له قدرةٌ على المستمسك بنفسه أو بغيره ، فمثلاً تستطيع حَمْل حصاة ، لكن لا تستطيع حمل حجر كبير ، وقد يكون شيئاً بسيطاً إلا أنه مربوط بغيره ومستمسك به فيُؤخَذ منه قوة .

فمعنى الأخذ : أن تحتوى الشىء ، واحتواؤك له معناه أنك أقوى من تماسكه فى ذاته ، أو استمساك غيره به ، وقد يكون الأَخْذ بلا ذنب .

أما المؤاخذة فتعنى : هو أخذَ منك فأنت تأخذُ منه .. ومنه قَوْل أحدنا لأخيه « لا مؤاخذة » فى موقف من المواقف .. والمعنى : أننى فعلتُ شيئاً أستحق عليه الجزاء والمؤاخذة ، فأقول : لا تؤاخذنى .. لم أقصد .

لذلك ؛ فالحق تبارك وتعالى يقول هنا :

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ .. (٦١)﴾ [النحل]

ولم يَقُلْ : يأخذ الناس .

وفى آية أخرى قال تعالى :

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (١٠٢) ﴾ [هود]

لماذا أخذها الله ؟ أخذها لأنها أخذتْ منه حقوقه فى أن يكون إلهاً واحداً فأنكرتها ، وحقوقه فى تشريع الصالح فأنكرنها .

ويُبيّن الحق سبحانه أن هذه المؤاخذة لو حدثت ستكون بسبب من الناس أنفسهم ، فيقول سبحانه :

﴿ بِظُلْمِهِم .. (٦١) ﴾ [النحل]

أول الظلم أنهم أنكروا الوحدانية ، يقول تعالى :

﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣) ﴾ [لقمان]

فكأنهم أخذوا من الله تعالى حقّه فى الوحدانية ، وأخذوا من الرسول ﷺ ، فقالوا كذاب ، وأخذوا من الكتاب فقالوا « سحر مبين » .

كل هذا ظلم ..

فالحق تبارك وتعالى لو آخذهم بما أخذوا ، أخذوا شيئاً فأخذ الله شيئاً ، لو عاملهم هذه المعاملة ما ترك على ظهرها من دابة .

لذلك نجد فى آيات الدعاء :

﴿ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا .. (٢٨٦) ﴾ [البقرة]

أى : أننا أخذنا منك يا ربّ الكثير بما حدث منّا من إسراف وتقصير وعمل على غير مقتضى أمرك ، فلا تؤاخذنا بما بدر منا .

فلو آخذ الله الناس بما اقترفوا من ظلم ..

﴿مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ .. (٦١)﴾ [النحل]

قد يقول قائل : الله عز وجل سَيُؤاخذ الناس بظلمهم ، فما ذنب الدابة ؟ ماذا فعلت ؟ نقول : لأن الدابة خُلِقَتْ من أجلهم ، وسُخِّرتْ لهم ، وهى من نعم الله عليهم ، فليست المسألة إذن نكايةً فى الدابة ، بل فيمَنْ ينتفع بها ، وقد يُراد العموم لكل الخلق .

فإذا لم يؤاخذ الله الناس بظلمهم فى الدنيا فهل يتركهم هكذا ؟ لا بل :

﴿وَلَـٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى .. (٦١)﴾ [النحل]

هذا الأجل انقضاء دُنيا ، وقيام آخرة ، حتى لو لم يؤمنوا بالآخرة ، فإن الله تعالى يُمهلهم فى الدنيا ، كما قال تعالى فى آية أخرى :

﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ .. (٤٧)﴾ [الطور]

وقد يكون فى هذا الأجل المسمى خير للحق ، فكثير من الصحابة كانوا يدخلون المعارك ، ويُحبون أنْ يقتلوا أهل الكفر فلاناً وفلاناً ، ثم لا يتمكنون من ذلك ولا يصيبونهم ، فيحزنون لذلك .

ولكن أجَل هؤلاء لم يَأْتِ بَعْد ، وفى علم الله تعالى أن هؤلاء الكفار سيؤمنون ، وأن إيمانهم سينفع المسلمين ، وكأن القدر يدّخرهم : إما أنْ يؤمنوا ، وإما أن تؤمنَ ذرياتهم .

وقد آمن عمرو بن العاص ، وعكرمة بن أبى جهل وغيرهم . ومن هؤلاء الذين نَجَوْا كان خالد بن الوليد سيف الله المسلول .

﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ (٦١)﴾ [النحل]

أى : إذا جاءت النهاية فلا تُؤخّر ، وهذا شىء معقول ، ولكن كيف : ولا يستقدمون ؟ إذا جاء الأجل كيف لا يستقدمون ؟ المسألة - إذن - ممتنعة مستحيلة .. كيف إذا جاء الأجل يكون قد أتى قبل ذلك ؟ .. هذا لا يستقيم ، لكن يستقيم المعنى تماماً على أن :

﴿وَلا يَسْتَقْدِمُونَ (٦١)﴾ [النحل]

ليست من جواب إذا ، بل تم الجواب عند (ساعة) ، فيكون المعنى : إذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ، وإذا لم يجىء لا يستقدمون . والله أعلم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى لَا جَرَمَ(١) أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ (٦٢)﴾

قوله تعالى :

﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ .. (٦٢)﴾ [النحل]

---

(١) لا جرم : لا محالة ولا بُدَّ وتحولت إلى معنى القسم ، فصارت بمنزلة قولنا « حقاً » . [القاموس القويم ١/١٢١] .

الأليق أن الذى يُخرج لله يجب أن يكون من أطيب ما أعطاه الله ، فإذا أردت أن تتصدقَ تصدَّقْ بأحسن ما عندك ، أو على الأقل من أوسط ما عندك .. لكن أنْ تتصدَّق بأخسِّ الأشياء وأرذلها .. أن تتصدق مما تكرهه ، كالذى يتصدق بخبز غير جيد أوْ لحم تغيَّر ، أو ملابس مُهَلْهَلة ، فهذا يجعل لله ما يكره[1] .

والحقيقة أن الناس إذا وثقوا بجزاء الله على ما يعطيه العبد لأعطَوْا ربهم أفضل ما يُحبون .. لماذا ؟ لأن ذلك دليلٌ على حبّك للآخرة ، وأنك من أهلها ، فأنت تعمرها بما تحب ، أما صاحب الدنيا المحبّ لها فيعطى أقل ما عنده ؛ لأن الدنيا فى نظره أهمّ من الآخرة .

وبهذا يستطيع الإنسان أنْ يقيسَ نفسه : أهو من أهل الآخرة ، أم من أهل الدنيا بما يعطى لله عز وجل ؟

قوله تعالى :

﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ .. (٦٢)﴾ [النحل]

أى : مما ذكر فى الآيات السابقة من قولهم :

﴿لِلَّهِ الْبَنَاتِ .. (٥٧)﴾ [النحل]

وأن الملائكة بنات الله ، وجعلوا بينه وبين الجنَّة نسباً ، إلى غير ذلك من أقوالهم ، وجعلوا لله البنات وهم يكرهون البنات ؛ لذلك :

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (٥٨)﴾ [النحل]

والمسألة هنا ليستْ مسألة جَعْل البنات لله ، بل مُطْلَق الجَعْل

---

(١) يقول تعالى : ﴿يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَلا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (٢٦٧)﴾[البقرة] .

منهم مردود عليهم ، فلو جعلوا لله ما يحبون من الذكْران ما تُقبّل منهم أيضاً ؛ لأنهم جعلوا لله ما لم يجعل لنفسه .

فالذين قالوا : عزير ابن الله . والذين قالوا : المسيح ابن الله . لا يُقبَل منهم ؛ لأنهم جعلوا لله سبحانه ما لم يجعلْه لنفسه ، فهذا مرفوض ، وذلك مرفوض ؛ لأننا لا نجعل لله إلا ما جعله الله لنفسه سبحانه .

فنحن نجعل لله ما نحب مما أباح الله ، كما جاء فى قوله تعالى :

﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ .. (٩٢)﴾ [آل عمران]

وقوله :

﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ .. (٨)﴾ [الإنسان]

ولذلك قال الحق سبحانه لرسوله ﷺ :

﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ (٨١)﴾ [الزخرف]

فلو كان له ولد لآمنتُ بذلك ، لكن الحقيقة أنه ليس له ولد .. إذن : ليست المسألة فى جَعْل ما يكرهون لله بل فى مُطْلَق الجعْل ، ذلك لأننا عبيد نتقرّب إلى الله بالعبادة ، والعابد يتقرّب إلى المعبود بما يحب المعبود أن يتقرّب به إليه ، فلو جعل الله لنفسه شيئاً فهو على العين والرأس ، كما فى أمره أن ننفق مما نُحب ، ومن أجود ما نملك .

ولذلك قوله تعالى :

﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ .. (٩٢)﴾ [آل عمران]

رَاعِ حق الفقير وضرورة أنْ تجعله كنفسك ، لا يكُنْ هيِّناً عليك فتعطيه أردأ ما عندك .. والحق تبارك وتعالى لما أراد أن نتقرّب إليه بالنّسُك وذَبْح الهَدْى والأضاحى قال :

﴿ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ (٢٨) ﴾ [الحج]

لأنك إذا علمتَ أنك ستأكل منها سوف تختار أجود ما عندك .

وقوله تعالى :

﴿ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ .. (٦٢) ﴾ [النحل]

الكذب : قضية ينطق بها اللسان ليس لها واقع فى الوجود ، أى مخالفة للواقع المشهود به من القلب .. ولماذا يشهد عليه القلب ؟

قالوا : لأنه قد يطابق الكلام الواقع ، ونحكم عليه مع ذلك بالكذب ، كما جاء فى قوله تعالى :

﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (١) ﴾ [المنافقون]

بالله ، أهذه القضية صِدْق أم لا ؟ إنها قضية صادقة .. أنت رسول الله وقد وافق كلامهم ما يعلمه الله .. فلماذا شهد عليهم الحق تبارك وتعالى أنهم (كاذبون) ؟

وفى أىِّ شىء هم كاذبون ؟

قالوا : الحقيقة أنهم صادقون فى قولهم : إنك لرسول الله ، ولكنهم كذبوا فى شهادتهم :

﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ .. (١)﴾ [المنافقون]

لأنهم لا يشهدون فعلاً ؛ لأن الشهادة تحتاج أنْ يُواطىءَ القلبُ اللسانَ ويسانده ، وهذه الشهادة منهم من اللسان فقط لا يساندها القلب .

الإنسان عُرْضة لأنْ يقول الصدق مرة والكذب مرة ، لكن هؤلاء بمجرد أن يقولوا (نشهد) فهم كاذبون ، وهذا معنى :

﴿تَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ .. (٦٢)﴾ [النحل]

لأنهم حينما يقولون مثلاً : العزير ابن الله ، المسيح ابن الله ، الملائكة بنات الله . هذه كلها قضايا باطلة ليس لها واقع يوافق منطوق اللسان .. فألسنتهم تصف الكذب .

وإنْ أردتَ أن تعرف الكذب الذى لا يطابق الواقع فاستمع إليه فبمجرد أنْ يُقال تعلم أنه كذب .. مثل ما حدث مع مُسْيلمة الذى ادَّعى النبوة ، مجرد أنْ قال : أنا نبى قلنا : مسيلمة الكذاب .

ويقول الحق سبحانه :

﴿أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ .. (٦٢)﴾ [النحل]

أى : أن الكذب فى قولهم (لهم الحسنى) فهذا اغترار وتمنٍّ على الله دون حق ، ومثل هذه المقولة فى سورة الكهف ، فى قصة أصحاب الجنتين ، يقول تعالى :

﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا (٣٥) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا (٣٦)﴾

[الكهف]

فهذه مقولات ثلاث كاذبة .

قوله :

﴿مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَـٰذِهِ أَبَدًا (٣٥)﴾ [الكهف]

هذه الأولى ، فكم من أشياء تغيَّرت ، ومَنْ يضمن لك بقاء ما أنت فيه ، والحق تبارك وتعالى يقول فى آية أخرى :

﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا[1] مُصْبِحِينَ (١٧) وَلَا يَسْتَثْنُونَ (١٨) فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ (١٩) فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ[2] (٢٠)﴾ [القلم]

الكذبة الثانية :

﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً .. (٣٦)﴾ [الكهف]

فقد أنكر الساعة .

الكذبة الثالثة :

﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا (٣٦)﴾ [الكهف]

وهذا هو الشاهد فى الآية هنا ، ففيها اغترار وتمنٍّ على الله دون حقٍّ ، كمن ادعوْا أن لهم الحسنى ، وهم ليسوا أهلاً لها .

وفى موضع آخر تأتى نفس المقولة :

---

(١) الصَّرم : القطع مادياً ، كقطع الثمار . ويكون القطع معنوياً بمعنى الهجر وقطع صلة المودة . [القاموس القويم ١/٣٧٥] .

(٢) أى : احترقت فصارت سوداء مثل الليل . وقيل : الصريم أرض سوداء لا تنبت شيئاً . [لسان العرب ـ مادة : صرم] .

﴿لا يَسْأَمُ الإِنسَانُ مِن دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ (٤٩) وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ .. (٥٠)﴾ [فصلت]

وهكذا الإنسان فى طَبْعه أنه لا يسأم من طلب الخير ، وكلما وصل فيه إلى مرتبة تمنّى أعلى منها ، يقنط إنْ مسَّه شر ، وإنْ رفع الله عنه ورحمه قال : هذا لى .. أنا أستحقه ، وأنا جدير به .. ألاَ قلتَ : هذا فضل من الله ونعمة ، ثم بعد ذلك هو يتمنى على الله الأمانى ويقول :

﴿إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَى .. (٥٠)﴾ [فصلت]

ويُرْوى أن سيدنا داود ـ عليه السلام ـ مع ما أعطاه الله من الملْك والعظمة أنه صعد يوماً سطح منزله ، فابتلاه الله بسِرْب من الجراد الذهب ، فحينما رآه داود جعل يجمع منه فى ثوبه ، فقال له ربه : ألم أُغْنِك يا داود ؟ قال : نعم ولكن لا غِنَى لى عن فضلك[1] .

وقوله تعالى :

﴿لا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ .. (٦٢)﴾ [النحل]

لا جرم : أى حقاً أن لهم النار على ما تقدم منهم أن جعلوا لله ما يكرهون ، وتصف ألسنتهم الكذب ، وهذه أفعال يستحقّون النار عليها .

وكلمة ﴿ لاَ جَرَمَ ﴾ منها جارم بمعنى مجرم ، فالمعنى : لا جريمة فى عقاب هؤلاء ، لأنه لا يُقال على عقوبة الجريمة أنها

---

(١) أورده البخارى فى صحيحه (٩٧٢) ، وأحمد فى مسنده (٤١٣/٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، ولكن فى حق أيوب عليه السلام وليس داود . والله أعلم .

جريمة .. إذن : لها معنيان ، لا بُدّ أن لهم النار ، أو لا جريمة فى أن لهم النار جزاء أعمالهم .

﴿ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ (٦٢) ﴾ [النحل]

جاءت فى كلمة مُفْرطون عدة قراءات[١] : مفرَطون ، مفرِطون ، مفرِّطون ، مفرَّطون . وجميعها تلتقى فى المعنى .

نحن حينما نصلى على جنازة مثلاً ، إذا كان الميت مكلّفاً نقول فى الدعاء له : « اللهم اغفر له ، اللهم ارحمه .. اللهم إنْ كان مُحسناً فزِدْ فى إحسانه ، وإنْ كان مُسيئاً فتجاوز عن سيئاته » . فإنْ كان صغيراً غير مُكلَّف قُلْنا فى الدعاء له « اللهم اجعله فرَطاً وذخراً »[٢] . فما معنى فرَطاً هنا ؟

معناه : أن يكون الطفل فَرَطاً لأبويه ومُقدّمة لهما إلى الجنة .. يمرُّ بين يدىْ والديْه ويسبقهما إلى الجنة ، وكأنه يقدم عليهما ليُمهد لهما الطريق ليغفر الله لهما .. إذن : معنى مُفْرطون أى مُقدَّمون . ولكن إلى النار .

---

(١) قراءة (مُفْرَطون) : قراءة أبى عبيدة والكسائى والفراء ، وهو قول سعيد بن جبير ومجاهد . ومعناه : متروكون منسيون فى النار .

– قراءة (مفرِطون) : قراءة نافع فى رواية ورش ، وهى قراءة ابن مسعود وابن عباس ، ومعناه : مسرفون فى الذنوب والمعصية أى : أفرطوا فيها .

– قراءة (مفرِّطون) : قراءة أبى جعفر القارىء . أى : مضيعون أمر الله ، فهو من التفريط فى الواجب . [ذكره القرطبى فى تفسيره ٣٨٤٦/٥] .

(٢) أورد البخارى فى صحيحه (٢٠٣/٣ ـ فتح البارى) كتاب الجنائز ـ باب قراءة فاتحة الكتاب على الجنازة من قول الحسن البصرى : « يقرأ على الطفل بفاتحة الكتاب ، ويقول : اللهم اجعله لنا فرطاً وسلفاً وأجراً » .

ومنه قوله تعالى عن فرعون :

﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .. (٩٨) ﴾ [هود]

أى : يتقدمهم إلى النار .. كما كنتَ مُقدّماً عليهم ، وإماماً لهم فى الدنيا ، فسوف تتقدمهم هنا وتسبقهم إلى النار .

﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٣) ﴾

نعلم أن الحق سبحانه وتعالى يُقسم بما يشاء على ما يشاء ، أما نحن فلا نقسم إلا بالله ، وفى الحديث الشريف : « مَنْ كان حالفاً ، فليحلف بالله أو ليصمت »[(١)] .

والحق تبارك وتعالى هنا يحلف بذاته سبحانه ﴿ تَاللَّهِ ﴾ ، مثل : والله وبالله .

وقد جاء القسم لتأكيد المعنى ؛ ولذلك يقول أحد الصالحين : من أغضب الكريم حتى ألجأه أن يقسم ؟!

وقد يؤكد الحق سبحانه القسم بذاته ، أو القسم ببعض خَلْقه ، وقد ينفى القسم وهو يُقسم ، كما فى قوله تعالى :

﴿ لَا أُقْسِمُ بِهَٰذَا الْبَلَدِ (١) ﴾ [البلد]

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٦٤٦) كتاب الأيمان - رواية (٣) عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما عن رسول الله ﷺ أنه أدرك عمر بن الخطاب فى ركب وعمر يحلف بأبيه ، فناداهم رسول الله ﷺ : « ألا إن الله عز وجل ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم ، فمن كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت » .

وقوله : ﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (٧٦)﴾ [الواقعة]

ومعنى : لا أقسم أن هذا الأمر واضح جَلىّ وضوحاً لا يحتاج إلى القسم ، ولو كنت مُقسماً لأقسمتُ به ، بدليل قوله :

﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (٧٦)﴾ [الواقعة]

إذن : الحق سبحانه يُقسم بذاته ليؤكد لنا الأمر تأكيداً ، وتأكيد الأمر عند الحكم فى القضاء مثلاً : إما بالإقرار ، وإما باليمين .. فإذا ما أقسمت له وحلفتَ فقد سددْتَ عليه منافذ التكذيب .

والحق سبحانه يقول :

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ .. (٦٣)﴾ [النحل]

أى : لستَ بِدْعاً فى أنْ تُكذَّب من قومك ، فهذه طبيعة الذين يستقبلون الدعوة من الله على ألسنة الرسل ؛ لأن الرسل لا يرسلهم الله إلا حينما يطمّ الفساد ويعُم .

ومعنى إرسال الرسل - إذن - أنه لا حَلَّ إلا أنْ تتدخلَ السماء ؛ ذلك لأن الإنسان فيه مناعات يقينية فى ذاته ، وهى نفسه اللوامة التى تلومه إذا أخطأ وتُعدِّل من سلوكه ، فهى رادع له من نفسه .

فإذا ما تبلَّدتْ هذه النفس ، وتعوَّدتْ على الخطأ قام المجتمع من حولها بهذه المهمة ، فمَنْ لا تُردعه نفسه اللوامة يُردعه المجتمع من حوله .. فإذا ما فسدَ المجتمع أيضاً ، فماذا يكون الحل ؟ الحل أن تتدخل السماء لإنقاذ هؤلاء .

إذن : تتدخل السماء بإرسال الرسل حينما يعُمّ الفسادُ المجتمعَ

كله ؛ ولذلك فأمة محمد ﷺ من شرفها عند ربها أنْ قال لهم : أنتم مأمونون على رعاية منهجى فى ذواتكم ، لوَّامون لأنفسكم ، آمرون بالمعروف ، ناهون عن المنكر فى غيركم ؛ لذلك لن أرسل فيكم رسولاً آخر ، فأنتم سوف تقومون بهذه المهمة .

لذلك قال الحق سبحانه :

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ..(١١٠) ﴾ [آل عمران]

فقد أمن أمة محمد ﷺ على أن تكون حارسة لمنهجه ، إما بالنفس اللوامة ، وإما بالمجتمع الآمر بالمعروف الناهى عن المنكر ، وهذا شرف عظيم لهذه الأمة .

إذن : يأتى الرسول حينما يعُمُّ الفساد .. فما معنى الفساد ؟ .. الفساد : أن تُوجد مصالح طائفة على حساب طائفة أخرى ، فأهل الفساد والمنتفعون به إذا جاءهم رسول ليُخلِّص الناس من فسادهم ، كيف يقابلونه ؟ أيقابلونه بالترحاب ؟ بالطبع لا .. لا بُدّ وأن يقابلوه بالكراهية والإنكار ، ويعلنوا عليه الحرب دفاعاً عن مصالحهم .

ويُتبع الحق سبحانه هذا بقوله :

﴿ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ..(٦٣) ﴾ [النحل]

هنا يتدخل الشيطان ، ويُزيِّن لأهل الفساد أعمالهم ، ويحثّهم على محاربة الرسل ؛ فهؤلاء الذين سيقضون على نفوذكم ، سوف يأخذون ما فى أيديكم من مُتَع الدنيا ، سوف يهزُّون مراكزكم ،

ويحطُّون من مكانتكم بين الناس .. هؤلاء سوف يرفعون عليكم السِّفْلة[1] والعبيد ..

وهكذا يتمسَّك أهل الفساد والظلم بظلمهم ، ويعضون عليه بالنواجذ ، ويقفون من الرسل موقف العداء ، فوطِّنْ نفسك على هذا ، فلن تُقابلَ من السادة إلا بالجحود وبالإنكار وبالمحاربة .

ثم يقول تعالى :

﴿ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ .. (٦٣) ﴾ [النحل]

أى : فى الآخرة ، فما دام الشيطان تولاَّهم فى الدنيا ، وزيَّن لهم ، وأغراهم بعداء الرسل ، فَلْيتولَّهم الآن ، وليدافع عنهم يوم القيامة .. وقد عرض لنا القرآن الكريم هذا الموقف فى قوله تعالى :

﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (١٦) ﴾ [الحشر]

وفى جدالهم يوم القيامة مع الشيطان يقولون له : أنت أغويتَنا وزيَّنْتَ لنا .. ماذا يقول ؟ يقول :

﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم .. (٢٢) ﴾ [إبراهيم]

والسلطان هنا : إمّا بالحجة التى تُقنع ، وإما بالقهر والغلبة والقوة التى تفرض ما تريد ، وليس للشيطان شىء من ذلك .. لا يملك حُجة يُقنعك بها لتفعل ، ولا يملك قوة يُجبركَ بها أنْ تفعل وأنت كاره .

---

(١) السفلة : نقيض العِلْية . وهم أراذل الناس وغوغاؤهم . [لسان العرب ـ مادة : سفل] .

وهكذا يجادلهم الشيطان ويردُّ عليهم دعواهم ، فليس له عليكم سلطان ، بل مجرد الإشارة أوقعتْكم فى المعصية .

وفى آية أخرى يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ[1] عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ .. (٤٨) ﴾ [الأنفال]

وقوله :

﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٣) ﴾ [النحل]

يَصف العذاب هنا بأنه أليم شديد مُهلك ، وقد وصف الله العذاب بأنه أليم ، عظيم ، مُهين ، شديد .. والعذاب شعور بالألم وإحساسٌ به ، وقد توصّل العلماء إلى أن الإحساس كله فى الجلد ؛ لذلك قال الحق سبحانه ليُديمَ على هؤلاء العذاب :

﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ (٥٦) ﴾

[النساء]

وهكذا يستمر العذاب باستمرار الجلود وتبديلها .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٦٤) ﴾

---

(١) نكص : رجع وأحجم بعد إقدام . أى : رجع الشيطان متقهقراً إلى الوراء معلناً براءته من المشركين فى بدر بعد أن أغراهم بالقتال . [القاموس القويم ٢/٢٨٧] .

فالكتاب هو القرآن الكريم .

وقَوْل الحق سبحانه :

﴿ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِى اخْتَلَفُوا فِيهِ .. (٦٤) ﴾ [النحل]

دليل على أن أتباع الرسل السابقين نشأ بينهم خلاف ، فأىُّ خلاف هذا طالما أنهم تابعون لنبى واحد ؟ ما سببه ؟

قالوا : سبب هذا الخلاف ما يُسمُّونه بالسلطة الزمنية .. ولتوضيح معنى السلطة الزمنية نضرب مثلاً بواحد كان شيخاً لطريقة مثلاً ، فلما مات تنازع الخلافة أبناؤه من بعده .. كُلٌّ يريدها له ، وأخذ يجمع حوله مجموعة من أتباع أبيه .. فلو كانت مسألة الخلافة هذه واضحة فى أذهانهم ما حدث هذا الخلاف .

وكذلك السلطة الزمنية حدثت فى أتباع الرسل الذين أخذوا يكتبون الصكوك ، ويذكرون ما يحبون وما يرونه صواباً من وجهة نظرهم ، كل هؤلاء كان لهم نفوذ بما نُسميه السلطة الزمنية .

فكيف - إذن - يتركون محمداً ﷺ يأخذ منهم هذه السلطة ، ويُضيع عليهم ما هم فيه من سيادة ، فقد جاء الرسول ﷺ لِيُبيّن لهم . أى : يردّهم إلى جَادّة الحق ، وإلى الطريق المستقيم .

وقوله تعالى :

﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةً .. (٦٤) ﴾ [النحل]

الهدى : معناه بيان الطريق الواضح للغاية النافعة ، والطريق

لا يكون واضحاً إلا إذا خَلا من الصِّعاب والعقبات ، وخلا أيضاً من المخاوف ، فهو طريق واضح مأمون سهل ، وأيضاً يكون قصيراً يُوصّلك إلى غايتك من أقصر الطرق .

وضد الهدى : الضلال . وهو أنْ يُضلّك ، فإنْ أردتَ طريقاً وجَّهك إلى غيره ، ودلّك على سواه ، أو دلّك على طريق به مخاوف وعقبات .

أما الرحمة ، فقد وصف الحق تبارك وتعالى القرآن بأنه رحمة فقال :

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ . . (٨٢) ﴾ [الإسراء]

فكيف يكون القرآن شفاءً ؟ وكيف يكون رحمة ؟

الشفاء : إذا أصابنا داء ربنا سبحانه وتعالى يقول : طيّبوا داءكم وداووا أمراضكم بكذا وكذا ، ورُدُّوا الحكم إلى الله .. هذا شفاء .

أما الرحمة : فهى أن يمنع أن يأتى الداء مرة أخرى ، فتكون وقاية تقتلع الداء من أصله فلا يعود .

ومِثْل هذا يحدث فى عالم الطب ، فقد تذهب إلى طبيب ليُعالجك من داء معين .. بثور فى الجلد مثلاً ، فلا يهتم إلا بما يراه ظاهراً ، ويصف لك ما يداوى هذه البثور .. ثم بعد ذلك تُعاودك مرة أخرى .

أما الطبيب الحاذق الماهر فلا ينظر إلى الظاهر فقط ، بل يبحث عن سببه فى الباطن ، ويحاول أن يقتلع أسباب المرض من جذورها ، فلا تُعاودك مرة أخرى .

ولذلك ، لو نظرنا إلى قصة أيوب ـ عليه السلام ـ وما ابتلاه الله به نرى فيها مثالاً رائعاً لعلاج الظاهر والباطن معاً ، فقد ابتلاه ربُّه ببلاء ظهر أثره على جسمه واضحاً ، ولما أذن له سبحانه بالشفاء قال له :

﴿ ارْكُضْ[1] بِرِجْلِكَ هَـٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ (٤٢) ﴾ [ص]

(مُغْتَسَلٌ) : أى . يغسل ويُزيل ما عندك من آثار هذا البلاء .

(وَشَرَابٌ) : أى . شراب يشفيك من أسباب هذا البلاء فلا يعود .

وكذلك الحال فى علاج المجتمع ، فقد جاء القرآن الكريم وفى العَالَم فساد كبير ، وداءاتٌ متعددة ، لا بُدَّ لها من منهج لشفاء هذه الداءاتِ ، ثم نعطيها مناعاتٍ تمنع عودة هذه الداءات مرة أخرى .

وقوله تعالى :

﴿ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٦٤) ﴾ [النحل]

أى : أن هذا القرآن فيه هدى ورحمة لمَنْ آمن بك وبرسالتك ؛ لأن الطبيب الذى ضربناه مثلاً هنا لا يعالج كل مريض ، بل يعالج مَنْ وثق به ، وذهب إليه وعرض عليه نفسه ففحصه الطبيب وعرف علّته .

وهكذا القرآن الكريم يسمعه المؤمن به ، فيكون له هدًى ورحمة ،

---

(١) الركض : الضرب بالرجل وتحريكها . قال تعالى : ﴿ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ .. (٤٢) ﴾ [ص] أى : اضرب بها . [لسان العرب ـ مادة : ركض ، والقاموس القويم ١/ ٢٧٥] .

ويترك فى نفسه إشراقات نورانية تتسامى به وترتفع إلى أعلى الدرجات ، فى حين يسمعه آخر فلا يَعى منه شيئاً ، ويقول كما حكى القرآن الكريم :

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا (١٦) ﴾ [محمد]

وقال : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ..(٤٤) ﴾ [فصلت]

﴿ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ[1] وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى..(٤٤) ﴾ [فصلت]

إذن : فالقرآن واحد ، ولكن الاستقبال مختلف .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٦٥) ﴾

الحق تبارك وتعالى فى هذه الآية ينقلنا إلى آية مادية مُحسّة لا ينكرها أحد ، وهى إنزال المطر من السماء ، وإحياء الأرض الميتة بهذا المطر ؛ ليكون ذلك دليلاً محسوساً على قدرته تعالى ، وأنه مأمون على خَلْقه .

وكأنه سبحانه يقول لهم : إذا كنتُ أنا أعطيكم كذا وكذا ، وأُوفّر لكم الأمر المادى الذى يفيد عنايتى بكم ، فإذا أنزلتُ لكم منهجاً ينفعكم ويُصلح أحوالكم فصدّقوه .

---

(١) الوقر : ثقل فى السمع أو صمم . [القاموس القويم ٢/٣٥٠] ومعناه فى الآية أنهم لا يفهمون ما فيه كأن فى آذانهم صمماً أو ثقلاً فى السمع . [انظر ابن كثير ٤/١٠٣] .

فهذا دليل مادىّ مُحَسّ يُوصِّلهم إلى تصديق المنهج المعنوى الذى جاء على يد الرسول ﷺ فى قوله تعالى :

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ..(٨٢)﴾ [الإسراء]

وقوله : ﴿وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً..(٦٥)﴾ [النحل]

.. آية كونية مُحسَّة لا ينكرها أحد .

ثم يقول : ﴿فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا (٦٥)﴾ [النحل]

موت الأرض ، أى حالة كَوْنها جدباء مُقفرة لا زرعَ فيها ولا نبات ، وهذا هو الهلاك بعينه بالنسبة لهم ، فإذا ما أجدبتْ الأرض استشرفوا لسحابة ، لغمامة ، وانتظروا منها المطر الذى يُحيى هذه الأرض الميتة .. يُحييها بالنبات والعُشْب بعد أنْ كانت هامدة ميتة .

فلو قبض ماء السماء عن الأرض لَمُتُّمْ جوعاً ، فخذوا من هذه الآية المحسَّة دليلاً على صدق الآية المعنوية التى هى منهج الله إليكم على يد رسوله ﷺ ، فكما أمنْتَنى على الأولى فأْمَنِّى على الثانية .

وقوله : ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٦٥)﴾ [النحل]

مع أن هذه الآية تُرَى بالعين ولا تُسْمع ، قال القرآن :

﴿لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٦٥)﴾ [النحل]

.. لماذا ؟

قالوا : لأن الله سبحانه أتى بهذه الآية ليلْفِتَهم إلى المنهج الذى سيأتيهم على يد الرسول ﷺ ، وهذا المنهج سيُسمع من الرسول المبلّغ لمنهج الله .

ومثال ذلك أيضاً فى قوله تعالى :

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا[١] إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (٧١) ﴾ [القصص]

فالضياء يُرى لا يُسمع .. لكنه قال : ﴿ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴾ لأنه يتكلم عن الليل ، ووسيلة الإدراك فى الليل هى السمع .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ[٢] وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ (٦٦) ﴾

الكون الذى خلقه الله تعالى فيه أجناس متعددة ، أدناها الجماد المتمثل فى الأرض والجبال والمياه وغيرها ، ثم النبات ، ثم الحيوان ، ثم الإنسان .

وفى الآية السابقة أعطانا الحق - تبارك وتعالى - نموذجاً للجماد الذى اهتزّ بالمطر وأعطانا النبات ، وهنا تنقلنا هذه الآية إلى جنس أعلى وهو الحيوان .

﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ..(٦٦) ﴾ [النحل]

---

(١) السرمد : دوام الزمان من ليل أو نهار . والسرمد : الدائم الذى لا ينقطع . [لسان العرب - مادة : سرمد] .

(٢) الفرث : ما فى الكرش من طعام مهضوم متغير كريه الرائحة . [القاموس القويم ٢/٧٤] .

المقصود بالأنعام : الإبل والبقـر والغنم والماعز ، وقد ذُكِرتْ فى سورة الأنعام فى قوله تعالى :

﴿ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٤٣) وَمِنَ الإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ ..(١٤٤) ﴾ [الأنعام]

هذه هى الأنعام .

وقوله سبحانه : ﴿ لَعِبْرَةً ﴾ العِبْرة : الشىء الذى تعتبرون به ، وتستنتجون منه ما يدلكم على قدرة الصانع الحكيم سبحانه وتعالى ، وتأخذون من هذه الأشياء دليلاً على صِدْق منهجه سبحانه فتصدقونه .

ومن معانى العبرة : العبور والانتقال من شىء لآخر .. أى : أن تأخذ من شىء عبرة تفيد فى شىء آخر . ومنها العَبْرة (الدمعة) ، وهى : شىء دفين نبهْتَ عنه وأظهرتَهُ .

والمراد بالعبرة فى خلق الأنعام :

﴿ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ (٦٦) ﴾ [النحل]

مادة : سقى جاءت فى القرآن مرة « سقىٰ » . ومرة « أَسْقى » ، وبعضهم[1] قال : إن معناهمَا واحد ، ولكن التحقيق أن لكل منهما

(١) من هؤلاء ابن منظور فى لسان العرب ـ مادة : سقى . قال : وفى القرآن : ﴿ وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا .. (٤٩) ﴾ [الفرقان] من سقى ، ونُسقيه من أَسْقى . وهما لغتان بمعنى واحد .

معنًى ، وإن اتفقا فى المعنى العام[1] .

سقى : كما فى قوله تعالى :

﴿ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا (٢١) ﴾ [الإنسان]

أى : أعطاهم ما يشربونه .. ومضارعه يَسقى . ومنها قوله تعالى فى قصة موسى عليه السلام :

﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا .. (٢٤) ﴾ [القصص]

أما أسقى : كما فى قوله تعالى :

﴿ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ (٢٢) ﴾ [الحجر]

فمعناه أنه سبحانه أنزل الماء من السماء لا يشربه الناس فى حال نزوله ، ولكن ليكون فى الأرض لمن أراد أنْ يشربَ .. فالحق تبارك وتعالى لم يفتح أفواه الناس أثناء نزول المطر ليشربوا منه .. لا .. بل هو مخزون فى الأرض لمن أراده . والمضارع من أَسْقى : يُسقى .

إذن : هناك فَرْق بين الكلمتين ، وإن اتفقتا فى المعنى العام .. وفرْق بين أن تُعطى ما يُستفَادُ منه فى ساعته ، مثل قوله :

﴿ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ .. (٢١) ﴾ [الإنسان]

وبين أنْ تعطى ما يمكن الاستفادة منه فيما بعد كما فى قوله :

---

(١) قاله الفراء فيما نقله عنه ابن منظور فى اللسان : العرب تقول لكل ما كان من بطون الأنعام ومن السماء أو نهر يجرى لقوم « أسقيت » ، فإذا سقاك ماء لشفتك قالوا « سقاه » ولم يقولوا : أسقاه . [لسان العرب ـ مادة : سقى] .

﴿فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ ..(٢٢)﴾ [الحجر]

لذلك يقولون : إن الذى يصنع الخير قد يصنعه عاجلاً ، فيعطى المحتاج مثلاً رغيفاً يأكله ، وقد يصنعه مُؤجّلاً فيعطيه ما يساعده على الكسْب الدائم ليأكل هو متى يشاء من كسْبه .

والحق ـ تبارك وتعالى ـ أعطانا هذه الفكرة فى سورة الكهف ، فى قصة ذى القرنين ، قال تعالى :

﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لاَّ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً (٩٣)﴾ [الكهف]

فما داموا لا يفقهون قَوْلاً .. فكيف تفاهم معهم ذو القرنين ، وكيف قالوا :

﴿يَـاذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا[1] عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا (٩٤)﴾ [الكهف]

نقول : الذى يريد أن يفعل الخير والمعروف يسعى إليه ويحتال للوصول إليه وكأنه احتال أنْ يفهمهم ، وصبر عليهم حتى توصّل إلى طريقة للتفاهم معهم ، فى حين أنه كان قادراً على ترْكهم والانصراف عنهم ، وحُجّته أنهم لا يفقهون ولا يتكلمون .

فلما أراد ذو القرنين أن يبنى لهم السد لم يَبْنِ هو بنفسه ، بل علَّمهم كيف يكون البناء ، حتى يقوموا به بأنفسهم متى أرادوا ، ولا يحتاجون إليه .. فقال :

---

(١) الخَرْج والخراج : ما يخرجه صاحب المال للعامل عنده من الأجر جزاء عمله أو ما يُخرجه من الزكاة للإمام . [القاموس القويم ١/١٨٩] .

﴿آتُونِي زُبَرَ[1] الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا (٩٦)﴾ [الكهف]

إذن : علَّمهم وأحسن إليهم إحساناً دائماً لا ينتهى .

وقوله : ﴿مِّمَّا فِي بُطُونِهِ ..(٦٦)﴾ [النحل]

أى : مما فى بطون الأنعام ، فقد ذكَّر الضمير فى (بطونه) باعتبار إرادة الجنس .

وقد أراد الحق سبحانه أن يخرج هذا اللبن :

﴿مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا ..(٦٦)﴾ [النحل]

والفَرْث فى كرش الحيوان من فضلات طعامه .

فالعبرة هنا أن الله تعالى أعطانا من بين الفَرْث ، وهو رَوَثُ الأنعام وبقايا الطعام فى كرشها ، وهذا له رائحة كريهة ، وشكل قذر مُنفّر ، ومن بين دم ، والدم له لونه الأحمر ، وهو أيضاً غير مُسْتساغ ؛ ومنهما يُخرِج لنا الخالق سبحانه لبناً خالصاً من الشوائب نقياً سليماً من لون الدم ورائحة الفَرْث .

ومَنْ يقدر على ذلك إلا الخالق سبحانه ؟

ويُنهى الحق سبحانه الآية بقوله واصفاً هذا اللبن :

﴿لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ (٦٦)﴾ [النحل]

---

(١) زُبر الحديد : قطعه . الصدفان : الجبلان وقيل : ما بينهما . أى : وضع بعضه على بعضه من الأساس حتى إذا حاذى به رءوس الجبلين طولاً وعرضاً قال انفخوا . والقطر : النحاس المذاب . [قاله فى تفسير ابن كثير ٣/١٠٤] .

أى : يسيغه شاربه ويستلذّ به ، ولا يُغَصُّ به شاربه ، بل هو مُسْتساغ سَهْل الانزلاق أثناء الشُّرْب ؛ لأن من الطعام أو الشراب ما يحلو لك ويسُوغ وتهنأ به ، ولكنه قد لا يكون مريئاً .

ولذلك ، فالحق سبحانه يقول :

﴿فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا ﴿٤﴾﴾ [النساء]

هنيئاً أى : تستلذّون به ، ومريئاً : أى نافعاً للجسم ، يمرى عليك ؛ لأنك قد تجد لذة فى شىء أثناء أكْله أو شُرْبه ، ثم يسبِّب لك متاعب فيما بَعْد ، فهو هَنِىءٌ ولكنه غير مَرِىء .

فاللبن من نِعَم الله الدالة على قدرته سبحانه ، وفى إخراجه من بين فَرْث ودم عبرة وعِظَة ، وكأن الحق سبحانه يعطينا هذه العبرة لينقلنا من المعنى الحسىِّ الذى نشاهده إلى المعنى القيمىّ فى المنهج ، فالذى صنع لنا هذه العبرة لإصلاح قالبنا قادرٌ على أن يصنعَ لنا من المنهج ما يُصلِح قلوبنا .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾

ثمرات النخيل هى : البلح . والأعناب هو : العنب الذى نُسمّيه الكَرْم . والتعبير القرآنى هنا وإن امتنَّ على عباده بالرزق الحسن ، فإنه لا يمتنّ عليهم بأن يتخذوا من الأعناب سكراً : أى مُسْكِراً ، ولكن يعطينا الحق سبحانه هنا عبرةً فقد نزلتْ هذه الآيات قبل تحريم الخمر .

وكأن الآية تحمل مُقدّمة لتحريم الخمر الذى يستحسنونه الآن ويمتدحونه ؛ ولذلك يقول العلماء : إن الذى يقرأ هذه الآية بفِطنة المستقْبِل عن الله يعلم أن لله حُكْماً فى السَّكر سيأتى .

كيف توصَّلوا إلى أن لله تعالى حُكْماً سيأتى فى السَّكر ؟

قالوا : لأنه قال فى وصف الرزق بأنه حسن ، فى حين لم يَصِفْ السَّكر بأنه حسن ، فمعنى ذلك أنه ليس حسناً ؛ ذلك لأننا نأكل ثمرات النخيل (البلح) كما هو ، وكذلك نأكل العنب مباشرة دون تدخُّل منّا فيما خلق الله لنا .

أما أنْ نُغيّر من طبيعته حتى يصير خمراً مُسْكراً ، فهذا إفساد فى الطبيعة التى اختارها الله لنا لتكون رزقاً حَسناً .

وكأنه سبحانه يُنبّه عباده ، أنَا لا أمتنُّ عليكم بما حرَّمْتُ ، فأنا لم أُحرِّمه بَعْد ، فاجعلوا هذا السَّكر ـ كما ترونه ـ متعةً لكم ، ولكن خذوا منه عبرة أنِّى لم أَصِفْه بالحُسْن ؛ لأنه إنْ لم يكُنْ حَسَناً فهو قبيح ، فإذا ما جاء التحريم فقد نبهتكم من بداية الأمر .

ثم يقول تعالى :

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٦٧)﴾ [النحل]

لأن العقل يقتضى أنْ نُوازِنَ بين الشيئين ، وأن نسأل : لماذا لم يوصف السَّكر بأنه حَسَن ؟ .. أليس معناه أن الله تعالى لا يحب هذا الأمر ولا يرضاه لكم ؟

إذن : كأن فى الآية نيّة التحريم ، فإذا ما أنزل الله تحريم الخمر كان هذا تمهيداً له .

والآية هى : الأمر العجيب الذى يُنبئكم أن الله الذى خلق لكم هذه الأشياء لسلامة مبانيكم وقوالبكم المادية ، قادر ومأمون على أن يُشرّع لكم ما يضمن سلامة معانيكم وقلوبكم القيمية الروحية .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾

النحل خَلْق من خَلْق الله ، وكل خَلْق لله أودع الله فيه وفى غرائزه ما يُقيم مصالحه ، يشرح ذلك قوله تعالى :

﴿ الَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَالَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ ﴾ [الأعلى]

أى : خلق هذه كذا ، وهذه كذا حَسْب ما يتناسب مع طبيعته ؛ ولذلك تجد ما دون الإنسان يسير على منهج لا يختلف .. فالإنسان مثلاً قد يأكل فوق طاقته ، وقد يصل إلى حَدِّ التُّخْمة ، ثم بعد ذلك يشتكى مرضاً ويطلب له الدواء .

أما الحيوان فإذا ما أكل وجبته ، وأخذ ما يكفيه فلا يزيد عليه أبداً ، وإنْ أجبرته على الأكل ؛ ذلك لأنه محكوم بالغريزة الميكانيكية ، وليس له عقل يختار به .

وضربنا مثلاً للغريزة فى الحيوان بالحمار الذى يتهمونه دائماً ويأخذونه مثلاً للغباء ، إذا سُقْتَه ليتخطى قناة ماء مثلاً وجدته ينظر إليها وكأنه يقيس المسافة بدقة .. فإذا ما وجدها فى مقدوره قفزها دون تردد ، وإذا وجدها فوق طاقته ، وأكبر من قدرته تراجع

ولم يُقدِم عليها ، وإنْ ضربتَه وصِحْتَ به .. فلا تستطيع أبداً إجباره على شىء فوق قدرته .

ذلك لأنه محكوم بالغريزة الآلية التى جعلها الله سبحانه فيه ، على خلاف الإنسان الذى يفكر فى مثل هذه الأمور ليختار منها ما يناسبه ، فهذه تكون كذا ، وهذه تكون كذا ، فنستطيع أن نُشبِّه هذه الغريزة فى الحيوان بالعقل الألكترونى الذى لا يعطيك إلا ما غذّيْته به من معلومات .. أما العقل البشرى الربانى فهو قادر على التفكير والاختيار والمفاضلة بين البدائل .

يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ .. (٦٨) ﴾ [النحل]

الحق تبارك وتعالى قد يمتنّ على بعض عباده ويُعلّمهم لغة الطير والحيوان ، فيستطيعون التفاهم معه ومخاطبته كما فى قصة سليمان عليه السلام[1] .. والله سبحانه الذى خلقها وأبدعها يُوحِى إليها ما يشاء .. فما هو الوحى ؟

الوحى : إعلام من مُعْلِم أعلى لمُعْلَم أدنى بطريق خفىّ لا نعلمه نحن ، فلو أعلمه بطريق صريح فلا يكون وَحْياً .

فالوَحْى إذنْ يقتضى : مُوحِياً وهو الأعلى ، ومُوحَىً إليه وهو الأدْنى ، ومُوحًى به وهو المعنىّ المراد من الوَحْى

---

(١) يقول الحق سبحانه : ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ .. (١٦) ﴾ [النمل] وقد قال تعالى عن سليمان وجنوده : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَـٰأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَـٰكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (١٨) فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا .. (١٩) ﴾ [النمل].

والحق - تبارك وتعالى - له طلاقة القدرة فى أنْ يُوحى ما يشاء لما يشاء من خَلْقه .. وقد أوحى الحق سبحانه وتعالى إلى الجماد فى قوله تعالى :

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا (١) وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا (٢) وَقَالَ الإِنسَانُ مَا لَهَا (٣) يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا (٤) بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا (٥)﴾

[الزلزلة]

أعلمها بطريق خفىّ خاص بقدرة الخالق فى مخلوقه .

وهنا أوحى سبحانه إلى النحل .

وأوحى الله إلى الملائكة :

﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا .. (١٢)﴾

[الأنفال]

وأوحى إلى الرسل :

﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ .. (١٦٣)﴾ [النساء]

وأوحى إلى المقربين من عباده :

﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي .. (١١١)﴾ [المائدة]

وقد أوحى إليهم بخواطر نورانية تمرُّ بقلوبهم

وأوحى سبحانه إلى أم موسى :

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ..(٧)﴾ [القصص]

هذا هو وَحْى الله إلى ما يشاء من خَلْقه : إلى الملائكة ، إلى الأرض ، إلى الرسل ، إلى عباده المقرّبين ، إلى أم موسى ، إلى النحل .. إلخ .

وقد يكون الوحى من غيره سبحانه ، ويُسمَّى وَحْياً أيضاً ، كما فى قوله تعالى :

﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ..(١٢١)﴾ [الأنعام]

وقوله : ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ..(١١٢)﴾ [الأنعام]

لكن إذا أُطلقَتْ كلمة (الوَحْى) مُطْلَقاً بدون تقييد انصرفتْ إلى الوحى من الله إلى الرسل ؛ لذلك يقول علماء الفقه : الوحى هو إعلامُ الله نبيه بمنهجه ، ويتركون الأنواع الأخرى : وَحْى الغرائز ، وَحْى التكوين ، وَحْى الفطرة .. إلخ .

وقوله : ﴿أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (٦٨)﴾ [النحل]

كثير من الباحثين شغوفون بدراسة النحل ومراحل حياته منذ القدَم ، ومن هؤلاء باحث تتبّع المراحل التاريخية للنحل ، فتوصّل إلى أنَ النحل أول ما وُجِد عاش فى الجبال ، ثم اتخذ الشجر ، وجعل فيها أعشاشه ، ثم اتخذ العرائش التى صنعها له البشر ، وهى ما نعرفه الآن باسم الخلية الصناعية أو المنحل ، ووَجْه العجب هنا أن هذا الباحث لا يعرف القرآن الكريم ، ومع ذلك فقد تطابق ما ذهب إليه مع القرآن تمام التطابق .

وكذلك توصَّل إلى أن أقدمَ أنواع العسل ما وُجِد فى كهوف الجبال ، وقد تَوصَّلوا إلى هذه الحقيقة عن طريق حَرْق العسل وتحويله إلى كربون ، ثم عن طريق قياس إشعاع الكربون يتم التوصّل إلى عمره .. وهكذا وجدوا أن عسل الكهوف أقدم أنواع العسل ، ثم عسل الشجر ، ثم عسل الخلايا والمناحل .

إذن : أوحى الله تعالى إلى النحل بطريق خفىّ لا نعلمه نحن ، وعملية الوحى تختلف باختلاف الموحِى والموحَى إليه ، ويمكن أنْ نُمثِّل هذه العملية بالخادم الفَطِن الذى ينظر إليه سيده مُجرد نظرة فيفهم منها كل شىء : أهو يريد الشَراب ؟ أم يريد الطعام ؟ أم يريد كذا ؟

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا (١) يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾

علّة كَوْن العسل فيه شفاء للناس أنْ يأكلَ النحل من كُلّ الثمرات ؛ ذلك لأن تنوُّع الثمرات يجعل العسل غنيّاً بالعناصر النافعة ، فإذا ما تناوله الإنسان ينصرف كل عنصر منه إلى شىء فى الجسم ، فيكون فيه الشفاء بإذن الله .

ولكن الآن ماذا حدث ؟ نرى بعض الناس يقول : أكلتُ كثيراً من

---

(١) ذللاً : أى ممهدة للنحل ليجمع العسل منها . [القاموس القويم ١/٢٤٥] .

العسل ، ولم أشعر له بفائدة .. نقول : لأننا تدخّلنا فى هذه العملية ، وأفسدنا الطبيعة التى خلقها الله لنا .. فالأصل أن نتركَ النحل يأكل من كُلّ الثمرَات .. ولكن الحاصل أننا نضع له السكر مثلاً بدلاً من الزَّهْر والنوار الطبيعى ، ولذلك تغيّر طَعْم العسل ، ولم تَعُدْ له مَيْزته التى ذكرها القرآن الكريم .

لذلك ؛ فالمتتبع لأسعار عسل النحل يجد تفاوتاً واضحاً فى سعره بين نوع وآخر ، ذلك حَسْب جودته ومدى مطابقته للطبيعة التى حكاها القرآن الكريم .

والحق سبحانه يقول :

﴿فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً .. (٦٩)﴾ [النحل]

أى : تنقّلى حُرّة بين الأزهار هنا وهناك ؛ ولذلك لا نستطيع أنْ نبنىَ للنحل بيوتاً يقيم فيها ، لا بُدّ له من التنقُّل من بستان لآخر ، فإذا ما جَفَّتْ الزراعات يتغذّى النحل من عسله ، ولكن الناس الآن يأخذون العسل كله لا يتركون له شيئاً ، ويضعون مكانه السكر ليتغذّى منه طوال هذه الفترة .

وقوله تعالى : ﴿ذُلُلاً .. (٦٩)﴾ [النحل]

أى : مُذلَّلة مُمهّدة طيِّعة ، فتخرج النحلة تسعى فى هذه السُّبل ، فلا يردها شىء ، ولا يمنعها مانع ، تطير هنا وهناك من زهرة لأخرى ، وهل رأيت شجرة مثلاً رَدَّتْ نحلة ؟!.. لا .. قد ذَلَّلَ الله لها حياتها ويسَّرها .

ومن حكمته تعالى ورحمته بنا أنْ ذلَّلَ لنا سُبُل الحياة .. وذلَّل لنَا ما ننتفع به ، ولولا تذليله هذه الأشياء ما انتفعنا بها .. فنرى الجمل الضخم يسوقه الصبى الصغير ، ويتحكّم فيه يُنيخه ، ويُحمّله الأثقال ، ويسير به كما أراد ، فى حين أنه إذا ثار الجمل أو غضب لا يستطيع أحدٌ التحكم فيه .. وما تحكّم فيه الصبى الصغير بقوته ، ولكن بتذليل الله له .

أما الثعبان مثلاً فهو على صغَر حجمه يمثِّل خطراً يفزع منه الجميع ويهابون الاقتراب منه ، ذلك لأن الله سبحانه لم يُذلِّلْه لنا ، فأفزعنا على صِغَر حجمه .. كذلك لو تأملنا البرغوث مثلاً .. كم هو صغير حقير ، ومع ذلك يقضّ مضاجعنا ، ويحرمنا لذة النوم فى هدوء .. فهل يستطيع أحدٌ أنْ يُذلّل له البرغوث ؟!

وفى ذلك حكمة بالغة وكأن الحق سبحانه يقول لنا : إذا ذللتُ لكم شيئاً ، ولو كان أكبر المخلوقات كالجمل والفيل تستطيعون الانتفاع به ، وإنْ لم أُذلِّله لكم فلا قدرة لكم على تذليله مهما كان حقيراً صغيراً .. إذن : الأمور ليست بقدرتك ، ولكن خُذْها كما خلقها الله لك .

﴿يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا ..(٦٩)﴾ [النحل]

ذلك أن النحلة تمتصّ الرحيق من هنا ومن هنا ، ثم تتم فى بطنها عملية طَهْى ربانية تجعل من هذا الرحيق شَهْداً مُصفًّى ؛ لأنه قد يظن أحدهم أنها تأخذ الرحيق ، ثم تتقيؤه كما هو .. فلم يَقُلْ القرآن : من أفواهها ، بل قال : من بطونها .. هذا المعمل الإلهى الذى يعطينا عسلاً فيه شفاء للناس .

﴿ شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ .. (٦٩) ﴾ [النحل]

ما دام النحل يأكل من كُلّ الثمرات ، والثمرات لها عطاءاتٌ مختلفة باختلاف مادتها ، واختلاف ألوانها ، واختلاف طُعُومها وروائحها .. إذن : لا بُدَّ أن يكون شراباً مختلفاً ألوانه .

﴿ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ ..(٦٩) ﴾ [النحل]

لذلك وجدنا كثيراً من الأطباء ، جزاهم الله خيراً يهتمون بعسل النحل ، ويُجرْون عليه كثيراً من التجارب لمعرفة قيمته الطبية ، لكن يعوق هذه الجهود أنهم لا يجدون العسل الطبيعى كما خلقه الله .

ومع ذلك ومع تدخّل الإنسان فى غذاء النحل بقيت فيه فائدة ، وبقيت فيه صفة الشفاء ، وأهمها امتصاص المائية من الجسم ، وأىّ ميكروب تريد أنْ تقضىَ عليه قُمْ بامتصاص المائية منه يموت فوراً .

فإذا ما توفَّر لنا العسل الطبيعى الذى خلقه الله تجلَّتْ حكمة خالقه فيه بالشفاء ، ولكن إذا تدخّل الإنسان فى هذه العملية أفسدها .. فالكون كله الذى لا دَخْلَ للإنسان فيه يسير سَيْراً مستقيماً لا يتخلّف ، كالشمس والقمر والكواكب .. إلخ إلا الإنسان فهو المخلوق الوحيد الذى يخرج عن منهج الله .

فالشىء الذى لك دَخْلٌ فيه ، إما أنْ تتدخّل فيه بمنهج خالقه أو تتركه ؛ لأنك إذا تدخلْتَ فيه بمنهج خالقه يعطيك السلامة والخير ، وإنْ تدخلْتَ فيه بمنهجك أنت أفسدتَه .

والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١)﴾ [البقرة]

إنهم لا يعرفون .. لا يُفرِّقون بين الفساد والصلاح .

وفى القرآن أمثلة للناس الذين يُفسِدون فى الأرض ويحسَبون أنهم يُحسِنون صُنْعاً ، يقول تعالى :

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤)﴾ [الكهف]

فالذى اخترع السيارة وهذه الآلات التى تنفث سمومها وتُلوّث البيئة التى خلقها الله .. صحيح وفَّر لنا الوقت والمجهود فى الحمل والتنقُّل ، ولكن انظر إلى ما أصاب الناس من عَطَبٍ بسبب هذه الآلات .. انظر إلى عوادم السيارات وآثارها على صحة الإنسان .

كان يجب على مخترع هذه الآلات أنْ يوازنَ بين ما تؤديه من منفعة وما تُسبِّبه من ضرر ، وأضف إلى الأضرار الصحية ما يحدث من تصادمات وحوادث مُروِّعة تزهق بسببها الأرواح .. وبالله هل رأيت أن تصادمَ جملان فى يوم من الأيام .. فلا بُدَّ إذن أن نقيسَ المنافع والأضرار قبل أنْ نُقدِم على الشىء حتى لا نُفسِد الطبيعة التى خلقها الله لنا .

وقوله تعالى :

﴿ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ .. (٦٩)﴾ [النحل]

الناس : جَمْعٌ مختلفُ الداءات باختلاف الأفراد وتعاطيهم لأسباب

الداءات ، فكيف يكون فى هذا الشراب شفاءٌ لجميع الداءات على اختلاف أنواعها ؟.. نقول : لأن هذا الشراب الذى أعدَّه الله لنا بقدرته سبحانه جاء مختلفاً ألوانه .. من رحيق مُتعدِّد الأنواع والأشكال والطُّعوم والعناصر .. ليس مزيجاً واحداً يشربه كل الناس ، بل جاء مختلفاً متنوعاً باختلاف الناس ، وتنوّع الداءات عندهم .. وكأن كل عنصر منه يُداوِى داءً من هذه الدَّاءات .

وقوله تعالى :

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٦٩)﴾ [النحل]

التفكّر : أنْ تُفكّر فيما أنت بصدده لتستنبطَ منه شيئاً لستَ بصدده ، وبذلك تُثرى المعلومات ؛ لأن المعلومات إذا لم تتلاقح ، إذا لم يحدث فيها توالد تقف وتتجمّد ، ويُصاب الإنسان بالجمود الطموحى ، وإذا أصيب الإنسان بهذا الجمود توقّف الارتقاء ؛ لأن الارتقاءات التى نراها فى الكون هى نتيجة التفكُّر وإعمال العقل .

لذلك فالحق سبحانه يُنبِّهنا حينما نمرُّ على ظاهرة من ظواهر الكون ، ألاّ نمر عليها غافلين مُعرضين ، بل نفكر فيها ونأخذها بعين الاعتبار .. يقول تعالى :

﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥)﴾ [يوسف]

ففى الآية حَثٌّ على التفكّر فى ظواهر الكون ، وفيها تحذير من الإعراض والغفلة عن آيات الله ، فبالفكر نستنبط من الكون ما نستفيد به .

ولو أخذنا مثلاً الذى اخترع الآلة البخارية .. كيف توصل إلى هذا الاختراع الذى أفاد البشرية ؟ نجد أنه توصل إليه حينما رأى القِدْر الذى يغلى على النار يرتفع غطاؤه مع بخار الماء المتصاعد أثناء الغليان .. فسأل نفسه : لماذا يرتفع الغطاء ؟ واستعمل عقله وأعمل تفكيره حتى توصّل إلى قوة البخار المتصاعد ، واستطاع توظيف هذه القوة فى تسيير ودفع العربات .

وكذلك أرشميدس - وغيره كثيرون - توصلوا بالاعتبار والتفكُّر فى ظواهر الكون ، إلى قوانين فى الطبيعة أدت إلى اختراعات نافعة نتمتع نحن بها الآن ، فالذى اخترع العجلة ، كم كانت مشقة الإنسان فى حَمْل الأثقال ؟ وما أقصى ما يمكن أنْ يحمله ؟ فبعد أنْ اخترعوا العجلات واستُخدِمت فى الحمل تمكّن الإنسان من حَمْل وتحريك أضعاف أضعاف ما كان يحمله .

الذى اخترع خزانات المياه .. كم كانت المشقة فى استخراج الماء من البئر ؟ أو من النهر ؟ فبعد عمل الخزانات وضَخِّ المياه أصبحنا نجد الماء فى المنازل بمجرد فَتْح الصنبور .

هذه كلها ثمرات العقل حينما يتدبّر ، وحينما يُفكّر فى ظواهر الكون ، ويستخدم المادة الخام التى خلقها الله وحثّنا على التفكّر فيها والاستنباط منها .. وكأن الحق سبحانه يقول لنا : لقد أعطيتكم ضروريات الحياة ، فإنْ أردتُم ترفَ الحياة وكمالياتها فاستخدموا نعمة العقل والتفكير والتدبّر لتصلوا إلى هذه الكماليات .

وهنا الحق سبحانه يلفتنا لَفْتةً أخرى .. وهى أنه سبحانه يجعل

من المحسّات ما يُقرّب لنا المعنويّات ليلفتنا إلى منهجه سبحانه ؛ ولذلك ينقلنا هذه النَّقْلة من المحسوس إلى المعنوى ، فيقول تعالى :

﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ (١) لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾ ﴾

قوله : ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ .. ﴿٧٠﴾ ﴾ [النحل]

هذه حقيقة لا يُنكرها أحد ، ولم يَدّعها أحدٌ لنفسه ، وقد أمدّكم بمقوِّمات حياتكم فى الأرض والنبات والحيوان ، الأنعام التى تعطينا اللبن صافياً سليماً سائغاً للشاربين ، ثم النحل الذى فيه شفاء للناس .

فالحق سبحانه أعطانا الحياة ، وأعطانا مُقوِّمات الحياة ، وأعطانا ما يُزيل معاطبَ الحياة .. وما دُمْتم صدَّقتم بهذه المحسَّات فاسمعوا :

﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ .. ﴿٧٠﴾ ﴾ [النحل]

وساعة أن نسمع (خلقكم) ، فنحن نعترف أن الله خلقنا ، ولكنْ كيف خلقنا ؟ هذه لا نعرفها نحن ؛ لأنها ليستْ عملية معملية .. فالذى

---

(١) أرذل العمر : هو الذى يَخْرِف من الكِبَر حتى لا يعقل ، وبيَّنه بقوله : ﴿ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا .. ﴿٥﴾ ﴾ [الحج] . [لسان العرب ـ مادة : رذل] . وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه : أرذل العمر : خمس وسبعون سنة [ذكره السيوطى فى الدر المنثور ١٤٦/٥] .

خلق هو الحق سبحانه وحده ، وهو الذى يُخبرنا كيف خلق .. أما أنْ يتدخّل الإنسان ويُقحِمَ نفسه فى مسألة لا يعرفُها ، فنرى مَنْ يقول : إن الإنسان أصلُه قرد .. إلى آخر هذا الهُراء الذى لا أَصْلَ له فى الحقيقة .

ولذلك ، فالحق سبحانه يقول لنا : إذا أردتُمْ أنْ تعرفوا كيف خُلِقْتُم فاسمعوا مِمَّنْ خلقكم .. إياكم أنْ تسمعوا من غيره ؛ ذلك لأننى :

﴿مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ ..(٥١)﴾ [الكهف]

هذه عملية لم يُطلع الله عليها أحداً :

﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا (٥١)﴾ [الكهف]

أى : ما اتخذتُ مساعداً يعاوننى فى مسألة الخَلْق .

وما هو المضلّ ؟ المضِلّ هو الذى يقول لك الكلام على أنه حقيقة ، وهو يُضلُّك .

إذن : ربنا سبحانه وتعالى هنا يعطينا فكرة مُقدّماً : احذروا ، فسوف يأتى أناس يُضلونكم فى موضوع الخَلْق ، وسوف يُغيّرون الحقيقة ، فإياكم أنْ تُصدِّقوهم ؛ لأنهم ما كانوا معى وقت أنْ خلقتكم فيدَّعُون العلم بهذه المسألة .

ونفس هذه القضية فى مسألة خَلْق السموات والأرض ، فالله سبحانه هو الذى خلقهما ، وهو سبحانه الذى يُخبرنا كيف خلق .

فحين يقول سبحانه :

﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ .. (٧٠) ﴾ [النحل]

فعلينا أن نقولَ : سَمْعاً وطاعة ، وعلى العين والرأس .. يا ربّ أنت خلقتنا ، وأنت تعلم كيف خلقتنا ، ولا نسأل فى هذا غيرك ، ولا نُصدِّق فى هذا غير قَوْلك سبحانك .

ثم يقول تعالى :

﴿ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ .. (٧٠) ﴾ [النحل]

أى : منه سبحانه كان المبدأ ، وإليه سبحانه يعود المرجع .. وما دام المبدأ من عنده والمرجع إليه ، وحياتك بين هذين القوسين ؛ فلا تتمرد على الله فيما بين القوسين ؛ لأنه لا يليق بك ذلك ، فأنت منه وإليه .. فلماذا التمرد ؟

ربُّنا سبحانه وتعالى هنا يُعطينا دليلاً على طلاقة قدرته سبحانه فى أمر الموت ، فالموت ليس له قاعدة ، بل قد يموت الجنين فى بطن أمه ، وقد يموت وهو طفل ، وقد يموت شاباً أو شيخاً ، وقد يُرَدُّ إلى أرذلِ العُمر ، أى : يعيش عمراً طويلاً .. وماذا فى أرذل العمر ؟!

يُرَدُّ الإنسان بعد القوة والشباب ، بعد المهابة والمكان ، بعد أنْ كان يأمر وينهى ويسير على الأرض مُخْتالاً ، يُرَدُّ إلى الضَّعْف فى كل شىء ، حتى فى أمْيز شىء فى تكوينه ، فى فكره ، فبعد العِلْم والحِفْظ وقوة الذاكرة يعود كالطفل الصغير ، لا يذكر شيئاً ولا يقدر على شىء .

ذلك لتعلم أن المسألة ليست ذاتيةً فيك ، بل موهوبة لك من خالقك سبحانه ، ولتعلم أنه سبحانه حينما يقضى علينا بالموت فهذا رحمة بنا وستْر لنا من الضعف والشيخوخة ، قبل أن نحتاج لمن يساعدنا ويُعينُنا على أبسط أمور الحياة ويأمر فينا مَنْ كُنّا نأمره .

ومن هنا كان التوفّى نعمةً من نِعَم الله علينا ، ولكى تتأكد من هذه الحقيقة انظر إلى مَنْ أمدّ الله فى أعمارهم حتى بلغوا ما سماه القرآن « أرذل العمر » وما يعانونه من ضعف وما يعانيه ذووهم فى خدمتهم حتى يتمنى له الوفاة أقرب الناس إليه .

الوفاة إذن نعمة ، خاصة عند المؤمن الذى قدّم صالحاً يرجو جزاءه من الله ، فتراه مُسْتبشراً بالموت ؛ لأنه عمَّر آخرته فهو يُحب القدوم عليها ، على عكس المسرف على نفسه الذى لم يُعِدّ العُدّة لهذا اليوم ، فتراه خائفاً جَزِعاً لعلمه بما هو قادم عليه .

و (ثُمَّ) حَرْف للعطف يفيد الترتيب مع التراخى .. أى : مرور وقت بين الحدثين .. فهو سبحانه خلقكم ، ثم بعد وقت وتراخٍ يحدث الحدَث الثانى (يتوفّاكم) . على خلاف حرف (الفاء) ، فهو حرف عطف يفيد الترتيب مع التعقيب أى : تتابع الحدثين ، كما فى قوله تعالى :

﴿أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ (٢١)﴾ [عبس]

فبعد الموت يكون الإقبار دون تأخير .

وقوله تعالى :

﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ ..(٧٠)﴾ [النحل]

وأرذل العمر : أردؤه وأقلّه وأخسُّه ؛ ذلك أن الله سبحانه وتعالى أخرج الإنسان من بطن أمه لا يعلم شيئاً ، فقال : .

﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ..(٧٨)﴾ [النحل]

وهذه هى وسائل العلم فى الإنسان ، فإذا رُدَّ إلى أرذل العمر فقدتْ هذه الحواسّ قدرتها ، وضَعُفَ عملها ، وعاد الإنسان كما بدأ لا يعلم شيئاً بعد ما أصابه من الخَرف والهرم ، فقد توقفتْ آلات المعرفة ، وبدأ الإنسان ينسى ، وتضعف ذاكرته عن استرجاع ما كان يعلمه .

وقوله : ﴿لِكَيْ لا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا ..(٧٠)﴾ [النحل]

لذلك يُسمُّون هذه الحواس الوارث[1] .

ويُنهى الحق سبحانه الآية بقوله :

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٧٠)﴾ [النحل]

لأنه سبحانه بيده الخَلْق من بدايته ، وبيده سبحانه الوفاة والمرجع ، وهذا يتطلَّب علْماً ، كما قال سبحانه :

﴿أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ .. (١٤)﴾ [الملك]

---

(١) وقد كان رسول الله ﷺ يدعو فيقول : « اللهم أمتعنى بسمعى وبصرى ، واجعلهما الوارث منى » قال ابن شميل : أى أبقهما معى صحيحين سليمين حتى أموت . [لسان العرب ـ مادة : ورث] .

فلا بُدَّ من علم ، لأن الذى يصنع صَنْعة لا بُدَّ أنْ يعرفَ ما يُصلحها وما يُفسِدها ، وذلك يتطلّب قدرة للإدراك ، فالعلم وحده لا يكفى .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ ۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾ ﴾

لو نظرنا إلى الكون من حولنا لوجدنا أننا لا نتساوى إلا فى شىء واحد فقط ، هو أننا عبيدٌ لله .. نحن سواسية فى هذه فقط ، وما دون ذلك فنحن مختلفون فيه ، تختلف ألواننا ، تختلف أجسامنا .. صورنا .. مواهبنا .. أرزاقنا .

والعجيب أن هذا الاختلاف هو عَيْنُ الاتفاق ؛ ذلك لأن الاختلاف قد ينشأ عنه الاتفاق ، والاتفاق قد ينشأ عنه الاختلاف .

مثلاً : إذا دخلتَ أنت وصديقك أحد المطاعم وطلبتما دجاجة .. أنت بطبيعتك تحب صدر الدجاجة وصديقك يحب جزءاً آخر منها .. هذا خلاف .. فساعة أن يأتى الطعام تجد هذا الخلاف هو عين الوفاق حيث تأخذ أنت ما تحب ، وهو كذلك .. هذا خلاف أدى إلى وفاق .. فلو فرضنا أن كلانا يحب الصدر مثلاً .. هذا وفاق قد يؤدى إلى خلاف إذا ما حضر الطعام وجلسنا : أيُّنا يأخذ الصدر ؟!

فالحق سبحانه وتعالى خلقنا مختلفين فى أشياء ، وأراد أن يكون

هذا الاختلاف تكاملاً فيما بيننا .. فكيف يكون التكامل إذن ؟

هل نتصور مثلاً أن يُوجَد إنسان مجمعاً للمواهب ، بحيث إذا أراد بناء بيت مثلاً كان هو المهندس الذى يرسم ، والبنّاء الذى يبنى ، والعامل الذى يحمل ، والنجار والحداد والسباك .. الخ . هل نتصور أن يكون إنسان هكذا ؟ .. لا ..

ولكن الخالق سبحانه نثَر هذه المواهب بين الناس نَثْراً لكى يظل كل منهم محتاجاً إلى غيره فيما ليس عنده من مواهب ، وبهذا يتم التكامل فى الكون .

إذن : الخلاف بيننا هو عَيْن الوفاق ، وهو آية من آياته سبحانه وحكمة أرادها الخالق جَلَّ وعَلا ، فقال :

﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) ﴾ [هود]

فقد خلقنا هكذا .

وإلاَّ فلو اتحدنا واتفقنا فى المواهب ، فهل يعقل أن نكون جميعاً فلاسفة ، أطباء ، علماء ، فمَنْ يبنى ؟ ومَنْ يزرع ؟ومَنْ يصنع ؟.. الخ

إذن : من رحمة الله أنْ جعلنا مختلفين متكاملين .

فالحق سبحانه يقول :

﴿ فِي الرِّزْقِ .. (٧١) ﴾ [النحل]

ينظر الناس إلى الرزق من ناحية واحدة ، فهو عندهم المال ، فهذا غنىّ وهذا فقير .. والحقيقة أن الرزق ليس المال فقط ، بل كُلّ

شىء تنتفع به فهو رِزْقك .. فهذا رِزْقه عقله ، وهذا رِزْقه قوته العضلية .. هذا يفكر وهذا يعمل .

إذن : يجب ألاّ ننظر إلى الرزق على أنه لَوْن واحد ، بل ننظر إلى كل ما خلق الله لخَلْقه من مواهب مختلفة : صحة ، قدرة ، ذكاء ، حِلْم ، شجاعة .. كل هذا من الرزق الذى يحدث فيه التفاضل بين الناس .

والحق سبحانه وتعالى حينما تعرَّض لقضية الرزق جعل التفاضل هنا مُبْهماً ، ولم تحدد الآية مَنِ الفاضل ومَنِ المفضول ، فكلمة - بَعْضٍ - مُبْهمة لنفهم منها أن كل بعض من الأبعاض فاضل فى ناحية ، ومفضول فى ناحية أخرى .. فالقوى فاضل على الضعيف بقوته ، وهو أيضاً مفضول ، فربما كان الضعيف فاضلاً بما لديه من علم أو حكمة .. وهكذا .

إذن : فكلُّ واحد من خَلْق الله رَزَقه الله موهبة ، هذه الموهبة لا تتكرر فى الناس حتى يتكامل الخَلْق ولا يتكررون .. وإذا وجدت موهبة فى واحد وكانت مفقودة فى الآخر فالمصلحة تقتضى أن يرتبط الطرفان ، لا ارتباط تفضُّل ، وإنما ارتباط حاجة .. كيف ؟

القوىُّ يعمل للضعيف الذى لا قوةَ له يعمل بها ، فهو إذن فاضل فى قوته ، والضعيف فاضل بما يعطيه للقوى من مال وأجر يحتاجه القوى ليقُوتَ نفسه وعياله ، فلم يشأ الحق سبحانه أنْ يجعلَ الأمر تفضُّلاً من أحدهما على الآخر ، وإنما جعله تبادلاً مرتبطاً بالحاجة التى يستبقى بها الإنسان حياته .

وهكذا يأتى هذا الأمر ضرورة ، وليس تفضّلاً من أحد على أحد ؛ لأن التفضُّل غير مُلْزَم به - فليس كل واحد قادراً على أن يعطى دون مقابل ، أو يعمل دون أجر .. إنما الحاجة هى التى تحكم هذه القضية .

إذن : ما الذى ربط المجتمع ؟ هى الحاجة لا التفضُّل ، وما دام العالم سيرتبط بالحاجة ، فكل إنسان يرى نفسه فاضلاً فى ناحية لا يغترّ بفاضليته ، بل ينظر إلى فاضلية الآخرين عليه ؛ وبذلك تندكُّ سِمَة الكبرياء فى الناس ، فكلٌّ منهما يُكمل الآخر .

وقد ضربنا لذلك مثلاً بالباشا الغنى صاحب العظمة والجاه .. والذى قد تُلْجِئه الظروف وتُحوجه لعامل بسيط يُصلح له عُطْلاً فى مرافق بيته ، وربما لم يجده أو وجده مشغولاً ، فيظل هذا الباشا العظيم نَكِداً مُؤرّقاً حتى يُسعفه هذا العامل البسيط ، ويقضى له ما يحتاج إليه .

هكذا احتاج صاحب الغنى والجاه إلى إنسان ليس له من مواهب الحياة إلا أنْ يقضى مثل هذه المهام البسيطة فى المنزل .. وهو فى نفس الوقت فاضل على الباشا فى هذا الشىء .

فالجميع - إذن - فى الكون سواسية ، ليس فينا مَنْ بينه وبين الله سبحانه نسب أو قرابة فيجامله .. كلنا عبيد لله ، وقد نثر الله المواهبَ فى الناس جميعاً ليتكاملوا فيما بينهم ، وليظل كُلٌّ منهم محتاجاً إلى الآخر ، وبهذا يتم الترابط فى المجتمع .

وقد عُرِضَتْ هذه القضية فى آية أخرى فى قوله تعالى :

﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا (٣٢)﴾ [الزخرف]

البعض يفهم أن الفقير مُسخّر للغنىّ ، لكن الحقيقة أن كلاً منهما مُسخَّر للآخر .. فالفقير مُسخّر للغنى حينما يعمل له العمل ، والغنى مُسخّر للفقير حينما يعطى له أجره ..

ولذلك فالشاعر العربى يقول :

النَّاسُ لِلْناسِ مِنْ بَدْوٍ وحاضرة بَعْضٌ لبعضٍ وإن لم يشعروا خَدَمُ

ونضرب هنا مثلاً بأخسِّ الحرف فى عُرْف الناس - وإنْ كانت الحرف كلها شريفة ، وليس فيها خِسَّة طالما يقوت الإنسان منها نفسه وعياله من الحلال .. فالخِسَّة فى العاطل الأخرق الذى لا يُتقِن عملاً .

هذا العامل البسيط ماسح الأحذية ينظر إليه الناس على أنهم أفضل منه ، وأنه أقل منهم ، ولو نظروا إلى علبة الورنيش التى يستخدمها لوجدوا كثيرين من العمال والعلماء والمهندسين والأغنياء يعملون له هذه العلبة ، وهو فاضل عليهم جميعاً حينما يشترى علبة الورنيش هذه .. لكن الناس لا ينظرون إلى تسخير كل هؤلاء لهذا العامل البسيط .

فقوله تعالى :

﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا .. (٣٢)﴾ [الزخرف]

مَنْ مِنّا يُسخّر الآخر ؟! كُلٌّ منا مُسخَّر للآخر ، أنت مُسخّر لى فيما تتقنه ، وأنا مُسخّر لك فيما أتقنه .. هذه حكمة الله فى خَلْقه ليتم التوازن والتكامل بين أفراد المجتمع .

وربُّنا سبحانه وتعالى لم يجعل هذه المهن طبيعيةً فينا .. يعنى هذا لكذا وهذا لكذا .. لا .. الذى يرضى بقدر الله فيما يُناسبه من عمل مهما كان حقيراً فى نظر الناس ، ثم يُتقن هذا العمل ويجتهد فيه ويبذل فيه وُسْعه يقول له الحق سبحانه : ما دُمْتَ رضيتَ بقدرى فى هذا العمل لأرفعنّك به رِفْعة يتعجَّب لها الخَلْق ..

وفعلاً تراهم ينظرون إلى أحدهم ويشيرون إليه : كان شيالاً .. كان أجيراً .. نعم كان .. لكنه رَضِى بما قسم الله وأتقن وأجاد ، فعوَّضه الله ورفعه وأعلى مكانته .

ولذلك يقولون : مَنْ عمل بإخلاص فى أىّ عمل عشر سنين يُسيّده الله بقية عمره ، ومَنْ عمل بإخلاص عشرين سنة يُسيّد الله أبناءه ، ومَنْ عمل ثلاثين سنة سيَّد الله أحفاده .. لا شىء يضيع عند الله سبحانه .

فليس فينا أعْلى وأدْنى ، وإياك أنْ تظنَّ أنك أعلى من الناس ، نحن سواسية ، ولكن منَّا من يُتقن عمله ، ومنَّا مَنْ لا يتقن عمله ؛ ولذلك قالوا : قيمة كل امرىء ما يُحسنه .

ولا تنظر إلى زاوية واحدة فى الإنسان ، ولكن انظر إلى مجموع الزوايا ، وسوف تجد أن الحق سبحانه عادلٌ فى تقسيم المواهب على الناس .

وقد ذكرنا أنك لو أجريتَ معادلة بين الناس لوجدتَ مجموع كل إنسان يساوى مجموع كُلِّ إنسان ، بمعنى أنك لو أخذتَ مثلاً : الصحة والمال والأولاد والقوة والشجاعة وراحة البال والزوجة الصالحة والجاه والمنزلة .. الخ لوجدت نصيب كُلٍّ منّا فى نهاية المعادلة يساوى نصيب الآخر ، فأنت تزيد عنى فى القوة ، وأنا أزيد عنك فى العلم ، وهكذا .. لأننا جميعاً عبيدٌ لله ، ليس منّا مَنْ بينه وبين الله نسب أو قرابة .

وقوله تعالى :

﴿ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ .. (٧١) ﴾ [النحل]

فما ملكت أيمانهم : هم العبيد المماليك .. والمعنى : أننا لم نَرَ أحداً منكم فضّله الله بالرزق ، فأخذه ووزّعه على عبيده ومماليكه ، أبداً .. لم يحدث ذلك منكم .. والله سبحانه لا يعيب عليهم هذا التصرف ، ولا يطلب منهم أنْ يُوزّعوا رزق الله على عبيدهم ، ولكن فى الآية إقامةٌ للحجة عليهم ، واستدلال على سُوء فعلهم مع الله سبحانه وتعالى(١)

وكأن القرآن يقول لهم : إذا كان الله قد فَضَّل بعضكم فى

---

(١) عن ابن عباس أن هذه الآية نزلت فى نصارى نجران حين قالوا : عيسى ابن الله .. فقال الله لهم : ﴿ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ .. (٧١) ﴾ [النحل] قال القرطبى فى تفسيره (٥/٣٨٦٨) : « أى : لا يرد المولى على ما ملكت يمينه مما رزق حتى يكون المولى والعبد فى المال شرعاً سواء ، فكيف ترضون لى ما لا ترضون لأنفسكم ، فتجعلون لى ولداً من عبيدى » .

الرزق ، فهل منكم مَنْ تطوع برزق الله له ، ووزَّعه على عبيده ؟ .. أبداً .. لم يحدث منكم هذا .. فكيف تأخذون حق الله فى العبودية والألوهية وحقّه فى الطاعة والعبادة والنذر والذبح ، وتجعلونه للأصنام والأوثان ؟!

فأنتم لم تفعلوا ذلك فيما تملكون .. فكيف تسمحون لأنفسكم أنْ تأخذوا حقَّ الله ، وتعطوه للأصنام والأوثان ؟

ويقول تعالى فى آية أخرى :

﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلاً مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ .. (٢٨)﴾ [الروم]

أى : أنكم لم تفعلوا هذا مع أنفسكم ، فكيف تفعلونه مع الله ؟ فهذه لَقْطة : أنكم تُعاملون الله بغير ما تُعاملون به أنفسكم :

﴿ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ (٧١) ﴾ [النحل]

أى : أنكم سوَّيتُم بين الله سبحانه وبين أصنامكم ، وجعلتموهم شركاء له سبحانه وتعالى وتعبدونهم مع الله .

والحق سبحانه وإنْ رزقنا وفضَّلَنا فقد حفظ لنا المال ، وحفظ لنا الملكية ، ولم يأمرنا أن نعطى أموالنا للناس دون عمل وتبادل منافع ، فإذا ما طلب منك أن تعطى أخاك المحتاج فوق ما افترض عليك من زكاة يقول لك :

﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ .. (٢٤٥)﴾ [البقرة]

مع أن الحق سبحانه واهب الرزق والنِّعَم ، يطلب منك أنْ

تُقرضه ، وكأنه سبحانه يحترم عملك ومجهودك ، ويحترم ملكيتك الخاصة التى وهبها لَك .. فيقول : أقرضنى . لعلمه سبحانه بمكانة المال فى النفوس ، وحرْص المقرض على التأكد من إمكانية الأداء عند المقترض ، فجعل القرض له سبحانه لتثقَ أنت أيها المقرض أن الأداء مضمون من الله .

ويختم الحق سبحانه الآية بقوله :

﴿ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٧١) ﴾ [النحل]

أى : بعد أنْ أنعم الله عليهم بالرزق ، ولم يطلب منهم أنْ ينثروه على الغير ، جحدوا هذه النعمة ، وأنكروا فَضْل الله ، وجعلوا له شركاء من الأصنام والأوثان ، وأخذوا حَقَّ الله فى العبودية والألوهية وأعطوْهُ للأصنام والأوثان ، وهذا عَيْنُ الجحود وإنكار الجميل .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ (٧٢) ﴾

الحق سبحانه فى الآية السابقة قنَّن لنا قضية القمة - قضية العقيدة - فى أننا لا نعطى شيئاً جعله الله لنفسه سبحانه من العبودية والألوهية والطاعة وغيرها ، لا نعطيها لغيره سبحانه .. وإذا صَحَّتْ هذه القضية العَقدية صَحّتْ كل قضايا الكون .

ثم بيَّن سبحانه أنه خلقنا من واحد ، ثم خلق من الواحد زوجةً له ، ليتم التناسل والتكاثر .. إذ إن استمرارَ بقائكم خاضعٌ لأمرين :

الأمر الأول : استبقاء الحياة ، وقد ضمنه سبحانه بما أنعم به علينا من الأرزاق ، فنأكل ونشرب فنستبقى الحياة ، فبعد أنْ تحدّث عن استبقاء الحياة بالرزق فى الآية السابقة ذكر :

الأمر الثانى : وهو استبقاء الحياة ببقاء النوع ، فقال سبحانه :

﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا .. (٧٢) ﴾ [النحل]

والأزواج : جمع زوج ، والزوج لا يعنى الرجل فقط ، بل يعنى الرجل والمرأة ؛ لأن كلمة (زوج) تُطلَق على واحد له نظير من مثله ، فكلٌّ واحد منهما زَوْج .. الرجل زوج ، والمرأة زوج ، فتُطلق - إذن - على مُفْرد ، لكن له نظير من مثله .

و ﴿ مِّنْ أَنفُسِكُمْ .. (٧٢) ﴾ [النحل]

أى : من نَفْس واحدة ، كما قال فى آية أخرى :

﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا .. (٦) ﴾ [الزمر]

يعنى : أخذ قطعة من الزوج ، وخلق منها الزوجة ، كما خلق سبحانه حواء من آدم - عليهما السلام .

أو : ﴿ وَخَلَقَ مِنْهَا .. (١) ﴾ [النساء]

أى : من جنسها ، كما قال تعالى :

﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ .. (١٢٨) ﴾ [التوبة]

أى : من جنسكم .

فالمسألة تحتمل المعنيين .. مَن اتسع ظنُّه إلى أن الله خلق حواء من ضلع آدم أى : منه ، من بعضه فلا مانع ، ومَنْ قال : خلق الله حواء كما خلق آدم خَلْقاً مستقلاً ، ثم زَاوَج بينهما بالزواج فلا مانع .. فالأول على معنى البَعْضية ، والثانى على معنى من جنسكم .

قلنا : إن الجمع إذا قابل الجمع اقتضت القسمةُ آحاداً .. كما لو قال المعلم لتلاميذه : أَخْرِجوا كتبكم ، فهو يخاطب التلاميذ وهم جَمْع . وكتبهم جمع ، فهل سيُخرِج كل تلميذ كُتب الآخرين ؟! .. لا .. بل كل منهم سيُخرج كتابه هو فقط .. إذن : القسمة هنا تقتضى آحاداً .. وكذلك المعنى فى قوله تعالى :

﴿خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا .. (٢١)﴾ [الروم]

أى : خلق لكل منكم زَوْجاً .

ولكى نتأكد من هذه الحقيقة ، وأن الخَلْق بدأ بآدم عليه السلام - نردُّ الأشياء إلى الماضى ، وسوف نجد أن كُلَّ متكاثر فى المستقبل يتناقص فى الماضى .. فمثلاً سُكّان العالم اليوم أكثر من العام الماضى .. وهكذا تتناقص الأعداد كلما أوغلنا فى الماضى ، إلى أن نصلَ إلى إنسان واحد هو آدم عليه السلام - ومعه زوجه حواء ، لأن أقلَّ التكاثر من اثنين .

إذن : قوله سبحانه :

﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ..(١)﴾ [النساء]

كلام صحيح يؤيّده الاستقراء والإحصاء .

لذلك يمتنُّ ربّنا سبحانه علينا أنْ خلقَ لنا أزواجاً ، ويمتنُّ علينا أن جعل هذا الزوج من أنفسنا ، وليس من جنس آخر ، لأن إلْفَ الإنسان وأنْسه لا يتم إلا بجنسه ، وهذه من أعظم نعم الله علينا ، ولك أن تتصوَّر الحال إذا جعل الله لنا أزواجاً من غير جنسنا !! كيف يكون ؟!

هذا الزوج اشترك معنا فى أشياء ، واختلف عنّا فى شىء واحد ، اتفقنا فى أشياء : فالشكل واحد ، والقالب واحد ، والعقل واحد ، والأجزاء واحدة : عينان وأذنان .. يدان ورجْلان .. الخ . وهذا الاشتراك يُعين على الارتقاء والمودة والأنْس والألْفة .

واختلفنا فى شىء واحد هو النوع : فهذا ذكر ، وهذه أنثى . إذن : جمعنا جنس ، وفرَّقنا النوع لِيتمّ بذلك التكامل الذى أراده سبحانه لعمارة الأرض .

وهناك احتمال أن يتحوّل الذكر إلى أنثى أو الأنثى إلى ذكر ، لذلك خلق الله الاحتياط لهذه الظاهرة ، كأنْ يكونَ للرجل ثَدْى صغير ، أو غيره من الأعضاء القابلة للتحويل ، إذا ما دَعَتْ الحاجة لتغيير النوع .. فهذا تركيب حكيم وقدرة عالية .

إذن :

﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ .. (٧٢)﴾ [النحل]

ليزداد الإلْف والمحبة والأُنْس والمودّة بينكم ؛ ولذلك نجد فى

قصة سيدنا سليمان عليه السلام ـ والهدهد ، حينما تفقَّد الطير وعرف غياب الهدهد قال :

﴿ لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٢١) ﴾ [النمل]

وهذا سلطان الملْك الذى أعطاه الله لسليمان .. قالوا فى :

﴿ لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا .. (٢١) ﴾ [النمل]

أى : يضعه فى غير جنْسه .. إذن : وَضْعه فى غير جنسه نوع من العذاب[1] .. وتكون (من أنفسكم) نعمة ورحمة من الله .

وفى الآية الأخرى يذكر سبحانه عناصر ثلاثة لاستبقاء العلاقة الزوجية ، فيقول تعالى :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) ﴾ [الروم]

ولو تأملنا هذه المراحل الثلاث لوجدنا السكن بين الزوجين ، حيث يرتاح كُلٌّ منهما إلى الآخر ، ويطمئن له ويسعد به ، ويجد لديه حاجته .. فإذا ما اهتزتْ هذه الدرجة ونفرَ أحدهما من الآخر جاء دور المودّة والمحبة التى تُمسك بزمام الحياة الزوجية وتوفر لكليهما قَدْراً كافياً من القبول .

فإذا ما ضعف أحدهما عن القيام بواجبه نحو الآخر جاء دور الرحمة، فيرحم كل منهما صاحبه .. يرحم ضَعْفه .. يرحم مرضه .. وبذلك تستمر الحياة الزوجية ، ولا تكون عُرْضة للعواصف فى رحلة الحياة .

---

(١) ومن أنواع العذاب أيضاً ما ذكره ابن كثير فى تفسيره (٣/٣٦٠) والسيوطى فى الدّر المنثور (٦/٣٤٩) أن ينتف ريشه ويتركه للنمل يأكله .

فإذا ما استنفدنا هذه المراحل ، فلم يَعُدْ بينهما سكَن ولا مودّة ، ولا حتى يرحم أحدهما صاحبه فقد استحالتْ بينهما العِشرة ، وأصبح من الحكمة مفارقة أحدهما للآخر .

وهنا شرع الحق سبحانه الطلاق ليكون حلاً لمثل هذه الحالات ، ومع ذلك جعله ربنا سبحانه أبغض الحلال[1]، حتى لا نقدم عليه إلا مُضطرِّين مُجْبرين .

وقوله تعالى :

﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً .. (٧٢) ﴾ [النحل]

البنون هم الحلقة الأولى لاستبقاء الحياة ، والحفَدة وهم وَلَدُ الولد ، هم الحلقة الثانية لاستبقاء الحياة ؛ ذلك لأن الإنسان بطبْعه يحب الحياة ويكره الموت ، وهو يراه كل يوم يحصد النفوس من حَوْله .. فإيمانه بالموت مسألة محققة ، فإذا ما تيقَّن أن الحياة تفوته فى نفسه أراد أنْ يستبقيَها فى وَلَده .. ومن هنا جاء حُبُّ الكثيرين منَّا ، للذكور الذين يُمثِّلون امتداداً للآباء .

فإذا ما رزقه الله الأبناء ، وضمن له الجيل الأول تطلّع إلى أنْ يرى أبناء الأبناء ؛ ليستبقى الحياة له ولولده من بعده ؛ ولذلك فالشاعر الذى يخاطب ابنه يقول له :

أبُنىّ .. يَا أنَا بَعْدَمَا أقْضِى[2]

---

(١) عن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال : « أبغض الحلال إلى الله عز وجل الطلاق » . أخرجه أبو داود فى سننه (٢١٧٨) وابن ماجة فى سننه (٢٠١٨) .

(٢) قضى الرجل نحبه : استوفى أجله.ومات . قال تعالى : ﴿ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ .. (٢٣) ﴾ [الأحزاب] مات أو استشهد . [القاموس القويم ٢/١٢٢] .

وهذه هى نظرة الناس إلى الأولاد ، أنهم ذِكْر لهم بعد موتهم .. وكأن اسمه موصولٌ لا ينتهى .

ويقول الله تبارك وتعالى :

﴿بَنِينَ وَحَفَدَةً .. (٧٢)﴾ [النحل]

تدلُّنا على ضرورة الحِرص على اندماج الأجيال .. زوجين ، ثم أبناء وحفدة .. فما فائدة اندماج الأجيال ؟ ما فائدة المعاصرة والمخالطة بين الجدِّ وحفيده ؟

نلاحظ أن الوليد الصغير يبدأ عنده الإدراك بمجرد أنْ تعملَ وسائل الإدراك عنده ، فيبدأ يلتقط ممَّنْ حوله ويتعلّم منهم .. فإذا كان له إخوة أكبر منه تعلّم منهم مثلاً بابا .. ماما .. فإذا لم يكُنْ له إخوة نُعلّمه نحن هذه الكلمات .

ولذلك نرى الطفل الثانى أذكى من الأول ، والثالث أذكى من الثانى .. وهكذا لأنه يأخذ ممَّنْ قبله وممَّنْ حوله ، فيزداد بذلك إدراكه ، وتزداد خبراته ومعلوماته .

ولنتصور أن هذا الابن أصبح أباً ، وجاء الحفيد الذى يعاصر الجيلين ؛ جيل الأب وجيل الجدِّ ، يشبّ الصغير فى أحضانهما ، فتراه يأخذ من أبيه نشاطه فى حركة الحياة وسَعْيه للرزق .

فى حين أنه يأخذ من جَدِّه القيم الدينية حيث الجد فى البيت باستمرار بعد أن تقدَّم به العمر فأقبل على الطاعة والعبادة .. فيسمع منه الصغير قراءة القرآن .. متى يؤذن للظهر .. يا ولد هات

المصحف .. يا ولد هات السجادة لأصلى ، إلى غير هذه من الكلمات التى يأخذ منها الصغير هذه القيم .

إذن : الحفيد يلتقط لوناً من النشاط والحركة فى جيل أبيه ، ويلتقط لوناً من القيم فى جيل جَدِّه ؛ ولذلك فإن ابتعاد الأجيال يُسبِّب نقصاً فى تكوين الأطفال ، والحق سبحانه يريد أنْ تلتحمَ الأجيال لتكتمل للطفل عناصر التربية بين القيم المعنوية والحركة والنشاط .

وقوله تعالى :

﴿ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ..(٧٢) ﴾ [النحل]

الطيبات فى الرزق الذى جعله الله لاستبقاء الحياة ، وفى الزواج الذى جعله الله لاستبقاء النوع .

ثم يقول تعالى :

﴿ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ (٧٢) ﴾ [النحل]

الباطل : هو الأصنام التى اتخذوها من دون الله .

وفى الآية استفهام للتعجُّب والإنكار .. كيف تكفرون بنعمة الله وقد خلقكم فى البَدْء من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها .. وجعل لكم من أنفسكم أزواجاً .. وجعل بينكم سكناً ومودة ورحمة ، ثم جعل لكم البنين والحفدة ، ورزقكم من نِعم الحياة ما يستبقى حياتكم ، ومن نِعَم الأزواج ما يستبقى نوعكم ، وجعلكم فى نعمة ورفاهية .. خلقكم من عَدَم ، وأمدّكم من عُدم .

أبعد ذلك كله تجحدون نعمته وتكفرونها ، وبدل أنْ تُقبلوا عليه وتلتفتوا إليه تنصرفون إلى عبادة الأصنام التى لا تضرُّ ولا تنفع .. وهل عملتْ لكم الأصنامُ شيئاً من ذلك ؟! هل أنعمتْ عليكم بنعمة من هذه النعم ؟!

هذه الأصنام محتاجة إليكم .. تأخذ منكم ولا تعطيكم .. فهذا مائل يريد مَنْ يقيمه .. وهذا كُسر يحتاج لمن يُصلحه .. انقل الإله .. ضَع الإله فى مكان كذا .. الخ .

ولذلك يقول تعالى فى الآية بعدها :

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾

والعبادة أن يطيع العابد معبوده ، وهذه الطاعة تقتضى تنفيذ الأمر واجتناب النهى .. فهل العبادة تنفيذ الأمر واجتناب النهى فقط ؟ نقول : لا بل كل حركة فى الحياة تُعين على عبادة فهى عبادة ، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب ، ولتوضيح هذه القضية نضرب هذا المثل :

إذا أردتَ أن تُؤدّى فرض الله فى الصلاة مثلاً ، فأنت تحتاج إلى قوة لتؤدى هذه الفريضة ، ولن تجد هذه القوة إلا بالطعام والشراب ، ولنأخذ أبسط ما يمكن تصوّره من الطعام .. رغيف العيش .. فانظر كم يَدٌ شاركتْ فيه منذ كان حبةَ قمح تلقى فى الأرض إلى أنْ أصبحَ رغيفاً شهياً .

إن هؤلاء جميعاً الذين أداروا دولاب هذه العملية يُؤدّون حركة إيجابية فى الحياة هى فى حَدّ ذاتها عبادة لأنها أعانتْك على عبادة .

أيضاً إذا أردت أنْ تُصلّى ، فواجب عليك أنْ تستر عورتك .. انظر إلى هذا القماش الذى لا تتم الصلاة إلا به .. كُلّ مَنْ أسهم فى زراعته وصناعته حتى وصل إليك .. جميعهم يؤدون عبادة بحركتهم فى صناعة هذا القماش .

إذن : كل شىء يُعينك على عبادة الله فهو عبادة ، وكل حركة فى الكون تؤدى إلى شىء من هذا فهى عبادة .

والحق سبحانه وتعالى حينما استدعى المؤمنين لصلاة الجمعة ، قال سبحانه :

﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ .. (٩) ﴾ [الجمعة]

لم يأخذهم من فراغ ، بل من عمل ، ولكن لماذا قال سبحانه : (وَذَرُوا الْبَيْعَ) .. لماذا البيع بالذات ؟

قالوا : لأن البيع هو غاية كل حركات الحياة ، فهو واسطة بين مُنتج ومُسْتهلك .. ولم يَقُل القرآن : اتركوا المصانع أو الحقول ، لأن هناك أشياء لا تأتى ثمرتها فى ساعتها .. فمَنْ يزرع ينتظر شهوراً ليحصد ما زرع ، والصانع ينتظر إلى أن يبيعَ صناعته .. لكن البيع صفقة حاضرة ، فهى محلّ الاهتمام .. وكذلك لم يَقُلْ : ذروا الشراء ، قالوا : لأن البائع يحب أن يبيعَ ، ولكن المشترى قد يشترى وهو

كاره .. فأتى القرآن بأدقِّ شىء يمكن أن يربطك بالزمن ، وهو البيع .

فإذا ما انقضتْ الصلاة أُمرنا بالعودة إلى العمل والسعى فى مناكب[1] الأرض :

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ .. (١٠) ﴾ [الجمعة]

فقوله تعالى :

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ .. (٧٣) ﴾ [النحل]

أراد الحق سبحانه أن يتكلم عن الجهة التى يُؤثرونها على الله .. وهى الأصنام .. فالله سبحانه الذى خلقهم ورزقهم من الطيبات ، وجعل لهم من أنفسهم أزواجاً ، وجعل لهم بنين وحفدة .. كان يجب أن يعبدوه لنعمته وفَضْله .. فالذى لا يعبد الله لذاته سبحانه يعبده لنعمه وحاجته إليه .. فعندنا عبادة للذات لأنه سبحانه يستحق العبادة لذاته ، وعبادة لصفات الذات فى معطياتها ، فَمَنْ لم يعبده لذاته عبده لنعمته .

وطالما أن العبادة تقتضى تنفيذ الأوامر واجتناب النواهى .. فكيف تكون العبادة إذن فى حق هذه الأصنام التى اتخذوها ؟! كيف تعبدونها وهى لم تأمركم بشىء ولم تنهكُمْ عن شىء ؟! .

---

(١) مناكب الأرض : جبالها . وقيل : طرقها . وقيل : جوانبها . قال الأزهرى : أشبه التفسير والله أعلم تفسير من قال : فى جبالها . لأن قوله : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً .. (١٥) ﴾ [الملك] معناه : سهَّل لكم السلوك فيها ، فأمكنكم السلوك فى جبالها ، فهو أبلغ فى التذليل . [لسان العرب ـ مادة : نكب] .

وهذا أول نَقْد لعبادة غير الله من شمس أو قمر أو صنم أو شجر .

وكذلك .. ماذا تُعطى الأصنام - أو غيرها من معبوداتكم - لمن عبدها ، وماذا أعدَّتْ لهم من ثواب ؟! وبماذا تعاقب مَنْ كفر بها ؟ .. إذن : فهو إله بلا منهج .

والتديّن غريزة فى النفس يلجأ إليها الإنسان فى وقت ضعفه وحاجته .. والله سبحانه هو الذى يحب أن نلجأ إليه وندعو ونطلب منه قضاء الحاجات .. وله منهج يقتضى مطلوبات تدكُّ السيادة والطغيان فى النفوس ويقتضى تكليفات شاقة على النفس .

إذن : لجأ الكفار إلى عبادة الأصنام والأوثان لأنها آلهة بلا تكليف ، ومعبودات بلا مطلوبات .

ما أسهل أن يتمحّك إنسان فى إله ويقول : أنا أعبده دون أن يأمر بشىء أو ينهى عن شىء ! ما أسهل أن يُرضى فى نفسه غريزة التدين بعبادة مثل هذا الإله .

لكن يجب ألاّ تنسوا أن هذا الإله الذى ليس له تكليف لن تستطيعوا أنْ تطلبوا منه شيئاً ، أو تلجأوا إليه فى شدة .. فهذا غير معقول فكما أنهم لا يطلبون منكم شيئاً ، كذلك لا يملكون لكم نَفْعاً ولا ضراً .

لذلك وجدنا الذين يدَّعُون النبوة .. هؤلاء الكذابون يُيسِّرون على الناس سُبُل العبادة ، ويُبيحون لهم ما حرَّمه الدين مثل اختلاط الرجال والنساء وغيره ؛ ذلك لاستقطاب أكبر عدد ممكن من الأتباع .

فجاء مسيلمة الكذاب وأراد أن يُسهِّل على الناس التكليف فقال بإسقاط الصلاة ، وجاء الآخر فقال بإسقاط الزكاة .. وقد جذب هذا التسهيل كثيراً من المغفلين الذين يَضِيقون بالتكليف ، ويميلون لدين سَهْل يناسب هِمَمهم الدَّنية .

وهكذا وجدنا لهؤلاء الكذابين أنصاراً يُؤيّدونهم ويُناصرونهم .. ولكن سرعان ما تتكشف الحقائق ، ويقف هؤلاء المخدوعون على حقيقة أنبيائهم .

وقوله تعالى :

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا..(٧٣)﴾ [النحل]

نلاحظ فى هذه الآية نَوْعاً من الارتقاء فى الاستدلال على بطلان عبادة الأصنام ؛ ذلك لأن الحق تبارك وتعالى قال عنهم فى آية أخرى :

﴿لا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (٢٠)﴾ [النحل]

فنفى عنهم القدرة على الخَلْق ، بل إنهم هم المخلوقون .. يذهب الواحد منهم فيُعجبه حجر ، فيأخذه ويُعمل فيه معْوله حتى يُصوِّره على صورة ما ، ثم يتخذه إلهاً يعبده من دون الله .

فلما نفى عنهم القدرة على الخَلْق أراد هنا أنْ يترقّى فى الاستدلال ، فنفى عنهم مجرد أنْ يملكوا ، فقد يملك الواحد ما لا يخلقه ، فتُقرّر الآية هنا أنهم لا يملكون .. مجرد الملك .

وقوله تعالى :

﴿ مِّنَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ شَيْئًا . . (٧٣) ﴾ [النحل]

فالرزق من السماء بالمطر ، ومن الأرض بالنبات ، ومن المصدرين يأتى رزق الله ، وبذلك يضمن لنا الحق تبارك وتعالى مُقوِّمات الحياة وضرورياتها من ماء السماء ونبات الأرض .

فإنْ أردتُمْ ترفَ الحياة فاجتهدوا فيما أعطاكم الله من مُقوّمات الحياة لِتصلوا إلى هذا الترف .

فالرزق الحقيقى المباشر ما أنزله الله لنا من مطر السماء فأنبت لنا نبات الأرض . .

ونُوضّح ذلك فنقول : هَبْ أنَ عندك جبلاً من ذهب ، أو جبلاً من فضة ، وقد عضَّك الجوع فى يوم من الأيام .. هل تستطيع أنْ تأكلَ من الذهب أو الفضة ؟

إنك الآن فى حاجة لرغيف عيش ، لا لجبل من ذهب أو فضة .. رغيف العيش الذى يحفظ لك حياتك فى هذا الموقف أفضل من هذا كله .

وهذا هو الرزق المباشر الذى رزقه الله لعباده ، أما المال فهو رِزْق غير مباشر ، لا تستطيع أن تأكل منه أو تعيش عليه .

وكلمة : (شَيْئًا) أى : أقلّ ما يُقَال له شىء ، فالأصنام والأوثان لا تملك لهم رزقاً مهما قَلَّ ؛ لأنه قد يقول قائل : لا يملكون رِزْقاً يكفيهم .. لا .. بل لا يملكون شيئاً .

ثم يعطينا الحق سبحانه لمحة أخرى فى قوله تعالى :

﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ (٧٣)﴾ [النحل]

أى : لا يملكون لهم رِزْقاً فى الحاضر ، ولن يملكوا فى المستقبل ، وهذا يقطع الأمل عندهم ، فهُمْ لا يملكون اليوم ، ولن يملكوا غداً ؛ ذلك لأن هناك أشياء ينقطع الحكم فيها وَقْتاً .. وأشياء مُعلّقة يمكن أن تُسْتأنفَ فيما بعد ، فهذه الكلمة :

﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ (٧٣)﴾ [النحل]

حُكْم قاطع لا استئناف له فيما بَعْد .

ولذلك ؛ نجد هؤلاء الذين يُحِبّون أنْ يجدوا فى القرآن مَأْخذاً يجادلون فى قوله تعالى[1] :

﴿قُلْ يَـٰأَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَاأَعْبُدُ (٣) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ (٤) وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥)﴾

[الكافرون]

فهؤلاء يروْن فى السورة تكراراً يتنافى وبلاغةَ القرآن الكريم .. نقول : ليس فى السورة تكرار لو تأملتُم .. ففى السورة قَطْع علاقات على سبيل التأبيد والاستمرار ، فالحق سبحانه يقول :

﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (٦)﴾ [الكافرون]

---

(١) ذكر الواحدى فى « أسباب النزول » ص ٢٦١ فى سبب نزول هذه السورة أن رهطاً من قريش قالوا : يا محمد هلم اتبع ديننا ونتبع دينك ، تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة ، فإن كان الذى جئت به خيراً مما بأيدينا قد شركناك فيه وأخذنا بحظنا منه ، وإن كان الذى بأيدينا خيراً مما فى يدك قد شركت فى أمرنا وأخذت بحظك . فقال : معاذ الله أن أشرك به غيره ، فأنزل الله تعالى : ﴿قُلْ يَـٰأَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١)﴾ [الكافرون] .

فى الحاضر ، وفى المستقبل ، وإلى يوم القيامة .

فقوله : ﴿ لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) ﴾ [الكافرون]

هذا قَطْع علاقات فى الوقت الحاضر .. ولكن مَنْ يُدرِينا لعلّنا نستأنف علاقات أخرى فيما بعد .. فجاء قوله تعالى :

﴿ وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ (٤) وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) ﴾ [الكافرون]

لا للتكرار ، ولكن لقطع الأمل فى إعادة العلاقات فى المستقبل ، فالقضية ـ إذن ـ منتهية من الآن على سبيل القَطْع .

كذلك المعنى فى قوله تعالى :

﴿ وَلا يَسْتَطِيعُونَ (٧٣) ﴾ [النحل]

أى : لا يستطيعون الآن ، ولا فى المستقبل .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٧٤) ﴾

الأمثال : جمع مِثْل ، وهو النِّد والنظير .

وفى الآية نَهْى عن أن نُشبِّه الله سبحانه بشىء آخر ؛ لأن الحق تبارك وتعالى واحدٌ فى ذاته ، واحد فى صفاته ، واحد فى أفعاله .. إياك أن تقول عن ذات : إنها تشبه ذاته سبحانه ، أو صفات تشبه صفاته سبحانه ، فإنْ وجدت صفة لله تعالى يُوجد مثلها فى البشر فاعلم أنها على مقياس :

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ (١١)﴾ [الشورى]

فالحق سبحانه ينهانا أنْ نضرب له الأمثال ، إنما هو سبحانه يضرب الأمثال ؛ لأنه حكيم يضرب المثَل فى محلّه لِيُوضّح القضية الغامضة بالقضية المشاهدة ؛ ولذلك يقول تعالى :

﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَىٰ ..(٦٠)﴾ [النحل]

أى : الصفة العليا فى كل شىء ، فإذا وجدتَ صفات مشتركةً بينكم وبين الحق سبحانه فنزِّه الله عن الشبيه والنظير والنِّد والمثيل وقل : (ليس كمثله شىء) .

فأنت موجود والله موجود ، ولكن وجودك مسبوقٌ بعدم ويلحقه العدم ، ووجوده سبحانه لا يسبقه عدم ولا يلحقه العدم .

وقد ضرب الله لنا مثلاً لنفسه سبحانه لِيُوضّح لنا تنويره سبحانه للكون ، وليس مثَلاً لنوره كما نظنّ .. بل هو مثَل لتنويره لا لنوره .

يقول تعالى فى سورة النور :

﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ[١] فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ[٢] يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣٥) ﴾ [النور]

نور السماوات والأرض ؛ لأنه بالنور تكون الهداية حسّية أو معنوية .. فالنور الحسِّيُّ مثل نور الشمس والقمر وغيرهما من مصادر الضوء .. هذا النور الحسىّ هو الذى يُبيّن لك الأشياء لتسير فى الكون على بصيرة وهدى .. فلو حاولتَ السَّيْر ليلاً دون ضَوْء يهديك فسوف تصطدم بالأشياء من حولك : إما أقوى منك يُحطّمك ويُؤذيك ، وإما تكون أنت أقوى منه فتُحطّمه أنت .. فالذى يهدى خُطَاك هو النور الحسىُّ .

وقد يكون النور معنوياً ، وهو نور القِيَم والأخلاق ، وهذا النور يجعلك أيضاً تسير فى الحياة على بصيرة وهُدىً ، ويحميك من التخبّط فى مجاهل الأفكار والنظريات ، هذا هو النور القِيَمى الذى أنزله الله لنا فى كتابه الكريم ، وقال عنه :

﴿ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ

---

(١) المشكاة : هى الكُوَّة « الطاقة » التى ليست بنافذة . [لسان العرب ـ مادة : شكا] .

(٢) الكوكب الدرى : هو الكوكب الشديد البريق واللمعان . [القاموس القويم ١/٢٢٦] .

رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٦) ﴾ [المائدة]

فهو نور لكن معنوى .. بالقيم والأخلاق والفضائل .. ولا تقُلْ فى هذا المثل : إنه مَثَلٌ لنور الله .. بل مَثَلٌ لسلطان تنويره للكون ، ولو تأمّلنا بقية الآية لأدركنا ذلك .

﴿ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ ..(٣٥) ﴾ [النور]

البعض يقولون : المشكاة هى المصباح .. لا .. المشكاة هى الكُوّة أو الطاقة المسدودة فى الجدار يعرفها أهل الريف فى بِنَاياتهم القديمة ، وهى تجويف غير نافذ فى الجدار يُوضَع فيه المصباح .

﴿ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ..(٣٥) ﴾ [النور]

أى : ليس مصباحاً عادياً بل فى زجاجة ، وهى تحمى ضَوْء المصباح أنْ يبعثره الهواء من كل ناحية ، وفى نفس الوقت تسمح له بالقدر الكافى من الهواء لاستمرار الاشتعال ، وبذلك يكون الضوء ثابتاً صافياً لا يصدر عنه دُخان يُعكّر صَفْو الزجاجة .

وأهل الريف يعرفون شعلة الجاز التى ليس لها زجاجة ، وما يصدر عنها من دُخان أسود ضارّ .. إذن : المصباح هنا فى غاية الصفاء والقوة ؛ لأن الزجاجة أيضاً ليستْ زجاجة عادية ، بل زجاجة كأنها كوكب دُرىٌّ ، وكَوْنها كالكوكب الدرىّ يعنى أنها تُضِيء بنفسها .

﴿ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ ..(٣٥) ﴾ [النور]

هذا المصباح يُوقـد بزيت ليس عادياً ، بل هو زيت من زيتونة .. شجرة زيتون معتدلة المناخ .

﴿لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ ..(٣٥)﴾ [النور]

هذا الزيت وصل من الصفاء والنقـاء أنه يُضىء ، ولو لم تمسسه نار ؛ ولذلك أعطانا منتهى القوة :

﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ..(٣٥)﴾ [النور]

ولذلك قال تعالى فى وصف هذا المصباح :

﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ..(٣٥)﴾ [النور]

وبعد أنْ وقفتَ على أوصاف هذا المصباح ، وأنه يُوضَع فى كُوّة صغيرة ، بالله عليك هل يمكن وجود نقطة مظلمة فى هذه الكُوّة ؟

إذن : فهذا مَثَلٌ ليس لنوره سبحانه .. فنُوره لا يُدرَكُ ، وإنما هو مثَلٌ لتنويره للكون ، الذى هو كالكُوّة والطاقة فى هذا المثل .. فمعنى قوله تعالى :

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ ..(٣٥)﴾ [النور]

أى : مُنوِّرهمـا ، فكمـا أنه لا يُعقل وجـود نقطة مظلمـة فى هذه الكُوّة ، فكذلك نوره سبحانه وتنويره للكون .. وهذا هو النور الحسىّ الذى أمدَّ الله به الكون .

ثم تحدَّث القرآن بعد ذلك عن النور المعنوى الذى يُنزِل على عباد الله الصالحـين تجليّاتٍ نورانية ، وفيُـوضاتٍ ربانية نتلقّـاها فى بيوت الله :

﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ ..(٣٧)﴾ [النور]

وهكذا نجمع بين النور الحسىّ والنور المعنوى ﷺ

ولذلك ، فأبو تمام[١] حينما أراد أن يمدح الخليفة شبَّهه بمشاهير العرب فى الشجاعة والكرم والحِلْم والذكاء ، فقال :

إقْدام عَمْرٍو فى سَمَاحَةِ حَاتِمٍ فى حِلْمِ أَحْنَفَ فى ذَكَاءِ إيَاسِ

فاعترض على هذا التشبيه أحد حُسَّاد أبى تمام ، وقال له : كيف تُشبّه الخليفة بأجلاف العرب ؟ ففى جيشه ألف واحد كعمرو ، ومن خَزَنته ألف واحد كحاتم .. ولكى يخرج أبو تمام من هذا المأزق ، ويُفلِت من هذا الفخ الذى نصبه له حاسده ، قال على البديهة :

لاَ تُنكِرُوا ضَرْبِى لَهُ مَنْ دُونَهُ مَثَلاً شَرُوداً فى النَّدى والبَاسِ[٢]
فَاللَّهُ قَدْ ضربَ الأقَلَّ لِنُورِهِ مثَلاً مِنَ المشْكَاةِ والنِّبْرَاسِ[٣]

والحق سبحانه وتعالى وإنْ نهانا نحن أن نضربَ له مثلاً لقلّة علْمنا ، فهو سبحانه القادر على ضَرْب الأمثال حتى بأقلّ المخلوقات ، وأتفهها فى نظرنا .. فيقول تعالى :

﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِى أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا .. (٢٦)﴾ [البقرة]

---

(١) هو حبيب بن أوس الطائى ، ولد بقرية من قرى الشام (١٨٠هـ) ، نشأ نشأة متواضعة ، حيث كان يعمل صبياً لحائك ، توفى ٢٣١ هـ عن ٥١ عاماً .

(٢) المثل الشرود : الخارج عن المألوف والعادة . والندى : السخاء والكرم . والباس : القوة والحرب .

(٣) النبراس : المصباح والسراج . والمشكاة : كوة فى جدار البيت ليست بنافذة وتعرف فى قرانا بـ « الطاقة » مع نطق القاف همزة .

فلا تستقلّ أمر هذه البعوضة ، ولا تستحقر أنْ يجعلها الله مثَلاً ؛ لأنه سبحانه لا يستحى أن يضرب بها المثل ؛ لأن فى هذه البعوضة كل أجهزة تكوين الحياة التى فيك ، وفى أضخم الحيوانات مثل الفيل والجمل ؛ ولأن هذه البعوضة التى تستحقرها قد تكون أقوى منك ، قد تُعجِزك أنت على قوتك وحيلتك وجبروتك .

يقول تعالى :

﴿ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣) ﴾ [الحج]

بالله عليك ، هل تستطيع على قوتك وإمكاناتك أنْ تستردّ من الذبابة ما أخذتْه من طعامك ؟ هل تقدر على هذه العملية ؟

إذن : حينما يضرب الله لك مَثَلاً يجب أن تحترم ضَرْب الله للمثل ، وأنْ تبحثَ فيما وراء المثل من الحكمة .. وأنه سبحانه جاء بهذا المثَل لهذا المخلوق الحقير فى نظرك لِيُوضِّح لك قضية غامضة يُنبِّهك إليها .

ولأهمية ضَرْب المثَل فى توضيح الغامض يلجأ إليه الشعراء ليُقرِّبوا المعنى من الأفهام ، فقد يقف الشاعر أمام قضية معقدة لا يدركها إلا العقلاء ، ويريد الشاعر الوصول بها إلى أفهام العامة .. مثل قضية الحاسد الذى يُظهر بحسده مزايا محسوده ومكارمه ، فقد يتهم البرىء بتهمة ظلماً ، فتكون سبباً فى رِفْعته بين قومه .

أخذ الشاعر العربى هذا المعنى ، وصاغه شعراً ، وضرب له مثلاً توضيحياً ، فقال :

وإذَا أرادَ اللهُ نَشْرَ فَضِيلةٍ طُويَتْ أتَـاحَ لَهَـا لِسَـانَ حَسُـودِ
لَوْلاَ اشْتِعَـالُ النَّارِ فِيمَا جَاوَرَتْ مَا كَـانَ يُعرَفُ طِيبُ عَرْفِ[1] العُودِ

فانظر كيف وصل بالقضية المعنوية إلى قضية عامة يعرفها الرجل العادى ، فقد يكون لديك فضيلة مكتومة مغمورة لا يعرفها أحد ، حتى تتعرض لحاسد يتهمك ويُشوِّه صورتك ، فإذا بالحقيقة تتكشّف للجميع ويُظهر ما عندك من مواهب ، وما لديك من فضائل .. وما أشبه ذلك بالعود طيب الرائحة الذى لا نشمُّ رائحته إلا إذا حرقناه .

وقد كان سبب هذا المثَل الشِّعرىّ أن أحد أهل الخير كان يتردد من حين لآخر على أحد بُيوت البلدة وبها عجوز مُقْعدة فى حاجة إلى مساعدة ، فكان يساعدها بما يستطيع ، وكان بجوارها منزل إحدى الجميلات التى قد تكون مطمعاً .. فاستغل أحد الحُسَّاد هذه الجيرة ، واتهم الرجل الصالح بأنه يذهب إلى هذه الحسناء .. وفعلاً تتبعه الناس ، فإذا به يذهب لبيت العجوز المقعدة .. ومن هنا عرف الناس عنه فضيلةً لم يكن يعرفها أحد .

وقد رأينا على مَرِّ التاريخ مَنِ اتهمُوا ظلماً ، وقيل فى حقهم ما يندى له الجبين .. ثم أنصفهم القضاء العادل ، وأظهر أنهم أبطال يستحقون التكريم ، ولولا ما تعرضوا له من اتهام ما عرفنا مزاياهم ومكارمهم .

---

(١) العَرْف : الريح ، طيبة كانت أو خبيثة . والعود : هو الذى يُتبخّر به . والعود : خشبة كل شجرة ، دق أو غلظ . [لسان العرب ـ مادتا : عرف ، عود] .

وقوله تعالى :

﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٧٤)﴾ [النحل]

وهذه علّة النهى عن ضَرْب الأمثال لأننا لا نعلم ، أما الحق سبحانه وتعالى فيضرب لنا الأمثال ؛ لأنه سبحانه يعلم ، ويأتى بالمثَل فى محلّه .

وبعد أنْ هيّأنا ربنا سبحانه لتلقِّى الأمثال ، وأعدَّ أذهاننا لاستقبال الأمثال منه سبحانه .. أتى بهذا المثل .

فيقول الحق سبحانه :

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٧٥)﴾

الحق سبحانه وتعالى يضرب لنا مثلاً له طرفان :

الطرف الأول : عبد : أى مَوْلى ، وصفه بأنه مملوك التصرّف ، وأنه لا يقدر على شىء من العمل ؛ ذلك لأن العبد قد يكون عَبْداً ولكنه يعمل ، كمَنْ تسمح له بالعمل فى التجارة مثلاً وهو عبد ، وهناك العبد المكاتب الذى يتفق مع سيده على مال يُؤدّيه إليه لينال حريته ، فيتركه سيده يعمل بحريته حتى يجمعَ المال المتفق عليه .. فهذا عَبْد ، ومملوك ، ولا يقدر على شىء من السَّعْى والعمل .

والطرف الثانى : سيد حُرٌّ ، رزقه الله وأعطاه رِزْقاً حَسناً أى :

حلالاً طيّباً .. ثم وفّقه الله للإنفاق منه بشتى أنواع الإنفاق : سراً وجَهْراً .. وهذه منزلة عالية : رِزْق من الله وصفه بأنه حلال طيب لا شُبْهة فيه ، بعد ذلك وفّقه الله للإنفاق منه .. كُلٌّ حَسْب ما يناسبه ، فمن الإنفاق ما يناسبه السِّرّ ، ومنه ما يُناسبه الجَهْر :

﴿إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ..(٢٧١)﴾ [البقرة]

هذان هما طَرَفا المثَل المضروب لَنَا .. ويترك لنا السياق القرآنى الحكْم بينهما .. وكأن الحق سبحانه يقول : أنا أرتضى حكمكم أنتم : هل يستوون ؟

والحق سبحانه لا يترك لنا الجواب ، إلا إذا كان الجواب سيأتى على وَفْق ما يريد .. ولا جوابَ يُعقل لهذا السؤال إلا أن نقولَ : لا يستوون .. وكأن الحق سبحانه جعلنا ننطق نحن بهذا الحكم .

وقد ضرب الله هذا المثل لعبدة الأصنام ، الذين أكلوا رزق الله وعبدوا غيره ، فمثَّل الحق سبحانه الأصنامَ بالعبد المملوك الذى لا يقدر على شىء .

وضرب المثَل الآخر للسيد الذى رزقه الله رزقاً حسناً ، فهو ينفق منه سِراً وجَهْراً ، ألم تَرَ إلى قوله تعالى فى آية أخرى :

﴿وَأَسْبَغَ[1] عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً (٢٠)﴾ [لقمان]

---

(١) أسبغ الله النعمة : أتمّها ووسَّعها . [القاموس القويم ـ مادة : سبغ] . وشىء سابغ : كامل وافٍ . وسبغت النعمة : اتسعت . [لسان العرب ـ مادة : سبغ] .

ليُبين لهم خطأهم فى الانصراف عن عبادة الله مع ما أعطاهم من رزق إلى عبادة الأصنام التى لا تعطيهم شيئاً .

ومن هنا تتضح الحكمة فى أن الله تعالى ترك الحكم بنفسه فى هذا المثَل ، وأتى به على صورة سؤال ليأخذ الحكم من أفواههم ويشهدوا هم على أنفسهم ؛ ليقطع عليهم سبيل الإنكار والجدال .

ولنا هنا وَقْفة مع قوله تعالى :

﴿هَلْ يَسْتَوُونَ ..(٧٥)﴾ [النحل]

فالحديث عن مُثنّى ، وكان القياس أن يقول : هل يستويان ، فلماذا عدل عن المثنى إلى الجمع ؟

نقول : لأن المثل وإنْ ضُرِب بمفرد مقابل مفرد إلا أنه ينطبق على عديدين .. مفرد شائع فى عديد مملوكين ، وفى عديد من السادة أصحاب الرزق الحسن ، ذلك لِيُعمّم ضَرْب المثل .

إذن : ليس فى اختلاف الضمير هنا ما يتعارض وبلاغةَ القرآن الكريم ، بل هى دِقّة أداء ؛ لأن المتكلّم هو الحق سبحانه وتعالى .

وكذلك فى قوله تعالى :

﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ..(٩)﴾ [الحجرات]

بعضهم يرى فى الآية مَأخذاً ، حيث تتحدث عن المثنى ، ثم بضمير الجمع فى (اقْتَتَلُوا) ، ثم تعود للمثنى فى (بَيْنَهُمَا) .

نقول لهؤلاء : لو تدبرتُم المعنى لَعرفتم أن ما تتخذونه مأخذاً ،

وتعتبرونه اختلافاً فى الأسلوب هو منتهى الدقة فى التعبير القرآنى .. ذلك أن الحديث عن طائفتين : مُثنّى .. نعم .. فلو تقاتلا ، هل ستمسك كل طائفة سَيْفاً لتقاتل الأخرى ؟

لا .. بل سيُمسك كُلُّ جندى منها سَيْفاً .. فالقتال هناك بالمجموع .. مجموع كل طائفة لمجموع الطائفة الأخرى ، فناسب أن يقول : اقتتلوا ؛ لأن القتال حركة ذاتية من كُلّ فرد فى الطائفتين .

فإذا ما جاء وقت الصُّلْح ، هل نصالح كل جندى من هذه على كل جندى من هذه ؟ لا .. بل الصُّلْح شأْنُ السادة والزعماء والقادة لكل طائفة ، ففى الصُّلْح نعود للمثنى ، حيث ينوب هؤلاء عن طائفة ، وهؤلاء عن طائفة ، ويتم الصُّلْح بينهما .

إذن : اختلاف الضمير هنا آية من آيات الإعجاز البيانى ؛ لأن المتكلم هو الحق سبحانه وتعالى .

وقوله : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ ..(٧٥)﴾ [النحل]

كأن الحق سبحانه يقول : الحمد لله أنْ وافقَ حُكْمكم ما أريد ، فقد نطقتُم أنتم وحكمتُمْ .

﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٧٥)﴾ [النحل]

قوله : أكثرهم لا يعلمون يدل على أن الأقلية تعلم ، وهذا ما يُسمُّونه « صيانة الاحتمال » ؛ لأنه لما نزلَ القرآن الكريم كان هناك جماعة من الكفار ومن أهل الكتاب يُفكّرون فى الإيمان واعتناق هذا الدين ، فلو نفى القرآن العلم عن الجميع فسوف يُصدَم هؤلاء ،

وربما صرفهم عمّا يُفكّرون فيه من أمر الإيمان ، فالقرآن يصون الاحتمال فى أن أُناساً منهم عندهم عِلْم ، ويرغبون فى الإيمان .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ[1] لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ[2] عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٧٦) ﴾

وهذا مَثَلٌ آخر لرجلين أحدهما أبكم ، والأبكم هو الذى لا يتكلم .. ولا بُدّ أن يسبق البكم صَمَمٌ ؛ لأن الكلام وليد السَّمْع ، فإذا أخذنا طفلاً عربياً وربَّيناه فى بيئة إنجليزية نجده يتكلم الإنجليزية ، والعكس صحيح ؛ ذلك لأن الكلام ليس جنساً أو دماً أو لحماً ، بل هو وليد البيئة ، وما تسمعه الأذن ينطق به اللسان .. فإذا لم يسمع شيئاً فكيف يتكلم ؟

لذلك ، فربنا سبحانه تعالى يقول عن الكفار :

﴿ صُمٌّ بُكْمٌ .. (١٨) ﴾ [البقرة]

هذا الأبكم لا يقدر على شىء من العمل والنفع لك ، يقول تعالى :

---

(١) البكم : أن يُولد الإنسان لا ينطق ولا يسمع ولا يبصر . وهو أخرس بيِّن الخرس . [لسان العرب ـ مادة : بكم] .

(٢) الكَلّ : العاجز الثقيل لا خير فيه . كقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ .. (٧٦) ﴾ [النحل] وهو عبء ثقيل على سيده لا خير فيه ولا انتفاع منه . [القاموس القويم ٢/١٦٩] .

﴿ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ ..(٧٦) ﴾ [النحل]

أى : عَالَة على سيده ، لا ينفع حتى نفسه ، ومع ذلك قد يكون عنده حكمة يقضى بها شيئاً لسيده ، حتى هذه ليست عنده .

﴿ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُّ لا يَأْتِ بِخَيْرٍ ..(٧٦) ﴾ [النحل]

إذن : لا خيرَ فيه ، ولا منفعةَ ألبتة ، لا له ولا لغيره ، هذه صفات الرجل الأول .

فماذا عن مقابله ؟

﴿ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ ..(٧٦) ﴾ [النحل]

وهذه أول صفات الرجل الآخر ، أنه يأمر بالعدل ، وصفة الأمر بالعدل تقتضى أنه سمع منهجاً ، ووعتْهُ أذنه ، وانطلق به لسانه آمراً بالعدل ، وهذه الصفة تقابل : الأبكم الذى لا يقدر على شىء .

﴿ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٧٦) ﴾ [النحل]

أى : أنه يذهب إلى الهدف مباشرة ، ومن أقصر الطرق ، وهذه تقابل : أينما يوجهه لا يَأْتِ بخير .

والسؤال هنا أيضاً : هل يستويان ؟ والإجابة التى يقول بها العقل : لا .

وهذا مثَلٌ آخر للأصنام .. فهى لا تسمع ، ولا تتكلم ، ولا تُفصح ، وهى لا تقدر على شىء لا لَهَا ولا لعابديها .. بل هى عَالَة عليهم ، فهم الذين يأتون بها من حجارة الجبال ، وينحتونها

وينصبونها ، ويُصلحون كَسْرها ، وهكذا هم الذين يخدمونها ولا ينتفعون منها بشىء .

فإذا كنتم لا تُسوُّون بين الرجل الأول والرجل الآخر الذى يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم ، فكيف تسوون بين إله له صفة الكمال المطلق ، وأصنام لا تملك لكم نفعاً ولا ضراً ؟!

أو نقول : إن هذا مثَلٌ للمؤمن والكافر ، بدليل أن الحق سبحانه فى المثل السابق قال :

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْدًا مَّمْلُوكًا ..(٧٥)﴾ [النحل]

وفى مقابله قال :

﴿وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا ..(٧٥)﴾ [النحل]

ولم يقُلْ عبد أو رجل .

إنما هنا قال : ﴿رَّجُلَيْنِ.. (٧٦)﴾ [النحل]

فيمكن أن نفهم منه أنه مَثَلٌ للرجل الكافر الذى يمثله الأبكم ، وللرجل المؤمن الذى يمثله مَنْ يأمر بالعدل ، وهو على صراط مستقيم .

والحق سبحانه يقول :

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٧٧)﴾

أراد الحق سبحانه أنْ يُعلمنا أن العالم منه عالم المُلْك ، ومنه عالم الملكوت .. عالم المُلْك هو العالم المحسّ لنا ، وعالم الملكوت المخفىّ عنَّا فلا نراه .

ولذلك ، فربنا سبحانه وتعالى لما تكرّم على سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ قال :

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (٧٥) ﴾ [الأنعام]

إذن : لله تعالى فى كونه ظاهر وغَيْب .. الظاهر له نواميس كونية يراها كل الناس ، وله أشياء غيبيّة لا يراها أحد ، ولا يطّلع عليها .. حتى فى ذاتك أنت أشياء غَيْب لا يعلمها أحد من الناس ، وكذلك عند الناس أشياء غَيْب لا تعرفها أنت .. وهذا الغيب نُسمّيه : غَيْب الإنسان .

إذن : فأنا غائب عنّى أشياء ، وغيرى غائب عنه أشياء .. هذا الغيب الذى لا نعرفه يَعُدّه بعض الناس نَقْصاً فينا ، وهو فى الحقيقة نوع من الكمال فى النفس البشرية ؛ لأنك إنْ أردتَ أنْ تعلمَ غَيْبَ الناس فاسمح لهم أنْ يعلموا غَيْبك .

ولو خُيِّرت فى هذه القضية لاخترتَ أنْ يحتفظ كلٌّ منكم بغَيْبه لا يطلع عليه أحد .. لا أعرف غَيْب الناس ، ولا يعرفون غَيْبى ؛ ولذلك يقولون : « المغطى مليح » .

فسَتْر الغيب كمال فى الكون ؛ لأنه يُربِّى ويُثرى الفائدة فيه .. كيف ؟

هَبْ أنك تعرف رجلاً مستقيماً كثير الحسنات ، ثم اطلعتَ على

سيئة واحدة عنده كانت مستورة ، فسوف ترى هذه السيئة كفيلة بأنْ تُزهِّدك فى كل حسناته وتُكرِّهك فيه ، وتدعوك إلى النُّفْرة منه ، فلا تستفيد منه بشىء ، فى حين لو سُترتْ عنك هذه السيئةُ لاستطعتَ الانتفاع بحسناته .. وهكذا يُنمى الغيبُ الفائدةَ فى الكون .

وفى بعض الآثار الواردة يقول الحق سبحانه :

« يابْنَ آدمَ سترْتُ عنك وسترْتُ منك ، فإنْ شئتَ فضحْنَا لك وفضحناك ، وإنْ شئت أسبلنَا عليك سِبالَ السِّتر إلى يوم القيامة»[(١)]

فاجعل نفسك الآن المخاطب بهذا الحديث ، فماذا تختار ؟

أعتقد أن الجميع سيختار الستْر .. فما دُمْتَ تحب الستر وتكره أنْ يطلعَ الناس على غَيْبك فإياك أنْ تتطاول لتعرفَ غَيْب الآخرين .

والغيب : هو ما غاب عن المدركات المحسَّة من السمع والبصر والشَّمِّ والذَّوْق ، وما غاب عن العقول من الإدراكات المعنوية .

وهناك غيْب وضع الله فى كونه مقدمات تُوصِّل إليه وأسباباً لئلاّ يكونَ غَيْباً .. كالكهرباء والجاذبية وغيرها .. كانت غَيْباً قبل أنْ تُكتشفَ .. وهكذا كل الاكتشافات والأسرار التى يكشفها لنا العلم ، كانت غَيْباً عنّا فى وقت ، ثم صارت مُشَاهدة فى وقت آخر .

ذلك ، لأن الحق سبحانه لا ينثر لنا كُلَّ أسرار كَوْنه مرة واحدة ، بل يُنزله بقَدرٍ ويكشفه لنا بحساب ، فيقول سبحانه :

﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ (٢١)﴾ [الحجر]

---

(١) لم أقف على هذا الأثر رغم طول البحث ، ولكن قد أخرج الحكيم الترمذى عن الحسن مرسلاً والعقيلى عنه عن أنس : « قال الله تعالى : أنا أكرم وأعظم عفواً من أن أستر على عبد مسلم فى الدنيا ثم أفضحه إذ سترته ، ولا أزال أغفر لعبدى ما استغفرنى » وذكره الألبانى فى ضعيف الجامع الصغير (٤/٤٠٥٠) وضعفه .

فالذى كان غَيْباً فى الماضى أصبح ظاهراً مُشَاهداً اليوم ؛ لأن الله سبحانه كشف لنا أسبابه فتوصَّلْنا إليه .. فهذا غَيْب جعل الله له مُقدّمات يصل إليها مَنْ يبحث فى الكون ، فإذا ما أذن الله به ، وحان وقت ميلاده وَفَّق الله أحد الباحثين إلى اكتشافه ، إما عن طريق البحث ، أو حتى الخطأ فى المحاولة ، أو عن طريق المصادفة .

ولذلك إذا بحثتَ فى كُلّ المخترعات والمكتشفات لوجدتَ ٩٠٪ منها جاءت مصادفة ، لم يكونوا بصدد البحث عنها أو التوصل إليها ، وهذا ما نسميه « غيب الأكوان » .

ومثال هذا الغيب : إذا كلفتَ ولدك بحلِّ تمرين هندسىٍّ .. ومعنى حَلِّ التمرين أنْ يصلَ الولدُ إلى نقطة تريد أنت أنْ يصلَ إليها .. ماذا يفعل الولد ؟ يأخذ ما تعطيه من مُعْطيات ، ثم يستخدم ما لديْه من نظريات ، وما يملكه من ذكاء ويستخرج منها المطلوب .

فالولد هنا لم يَأْتِ بجديد ، بل استخدم المعطيات ، وهكذا الأشياء الموجودة فى الكون هى المعطيات مَنْ بحثَ فيها توصّل إلى غيبيّات الكون وأسراره .

وهذا النوع من الغيب يقول عنه الحق سبحانه :

﴿ اللَّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْحَىُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَّهُ مَا فِى السَّمَـوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ مَن ذَا الَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ .. (٢٥٥) ﴾

[البقرة]

فإذا أذِنَ الله لهم تكشفتْ لهم الأسرار : إما بالبحث ، وإما بالخطأ ، أو حتى بالمصادفة .. فطالما حان وقت ميلاد هذا الغيْب واكتشافه ؛ فإن صادف بَحْثاً من البشر التقيا ، وإلاّ أظهره الله لنَا دون بَحْث ودون سَعْى منّا .

وهناك نوع آخر من الغيب ، وهو الغَيْب المطلق ، وهو غَيْب عن كل البشر استأثر الله به ، وليس له مُقدّمات وأسباب تُوصّل إليه ، كما فى النوع الأول .. هذا الغَيْب ، قال تعالى فى شأنه :

﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ..(٢٧)﴾ [الجن]

فإذا ما أعلمنا الرسول غَيْباً من الغيبيات فلا نقول : إنه يعلم الغيب .. لأنه لا يعلم إلا ما أعلمه الله من الغيب .. إذن : هذا غَيْب لا يدركه أحد بذاته أبداً .

ومن هذا الغَيْب المطلق غَيْبٌ استأثر الله به ، ولا يُطلع عليه أحداً حتى الرسل .. ولما سُئِل الرسول ﷺ عن الساعة ، قال : « ما المسئول عنها بأعلمَ من السائل »[(١)] .

وفى الإسراء والمعراج يحدثنا ﷺ أن الله قد أعطاه ثلاثة أوعية : وعاء أمره بتبليغه وهو وعاء الرسالة ، ووعاء خَيَّره فيه فلا يعطيه إلا

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٠) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٠) كتاب الإيمان من حديث أبى هريرة رضى الله عنه فى حديث جبريل أنه قال لرسول الله ﷺ وهو فى هيئة رجل : يا رسول الله متى تقوم الساعة ؟ قال ﷺ : ما المسئول عنها بأعلم من السائل .

لأهل الاستعداد السلوكى الذين يتقبلون أسرار الله ولا تنكرها عقولهم ، ووعاء منعه فهو خصوصية لرسول الله ﷺ .

ولذلك يقول راوى الحديث : إن رسول الله ﷺ أعطانى وعاءين ، أما أحدهما فقد بثثْتُه أى رويْته وقُلْته للناس ، وأما الآخر فلو بُحْت به لَقُطع حلقومى هذا ، فهذا من الأسرار التى يختار الرسول ﷺ لها مَنْ يحفظها .

قوله تعالى :

﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. (٧٧) ﴾ [النحل]

هذا يُسمُّونه أسلوب قَصْر بتقديم الجار والمجرور ، أى قصر غيب السموات والأرض عليه سبحانه ، فلو قلنا مثلاً : غيب السموات والأرض لله ، فيحتمل أن يقول قائل : ولغير الله ، أما :

﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ ..(٧٧) ﴾ [النحل]

أى : له وحده لا شريك له .

ومعنى السموات والأرض ، أى : وما بينهما وما وراءهما ، ولكن المشهور من مخلوقات الله : السماء ، والأرض .

ثم يقول تعالى :

﴿ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ..(٧٧) ﴾ [النحل]

جاءت الآية بهذا الغَيْب الوحيد ؛ لأنه الغيب الذى استأثر الله به ..

ولا يُجلّيها لوقتها إلا هو .. فناسب الحديث عن الغيب أنْ يأتىَ بهذا الغَيْب المطلق الذى لا يعلمه إلا الله .

وما هو لَمْح البصر ؟

عندنا أفعال متعددة تدلّ كلّها على الرؤية العامة ، وإنْ كان لكل منها معنًى خاصٌّ بها نقول : رأى ونظر ورَمق ولحظ ولمح .. فرأى مثلاً أى بجُمْع عينه ، ورمق بأعلى ، ولحظَ بجانب ، فكلُّها مرتبطة بحركة الحدقة ، هذه الحركة ما نسميه باللمح .

إذن : لمح البصر هو تحرُّك حَدقة العين إلى ناحية الشىء المرئى .. فإنْ أردتَ أنْ ترى ما فوقك تحركتْ الحدقة إلى أعلى ، وإنْ أردتَ أن ترى ما هو أسفل تحركتْ الحدقة إلى أسفل وهكذا .

هذه الحركة هى لَمْح البصر ، انتقال الحدقة من وضع إلى وضع .

إذن : شبَّه الحق تبارك وتعالى أمر الساعة عنده سبحانه بلمح البصر ، ولكن اللمح حدث ، والأحداث تحتاج إلى أزمان ، وقد تطول الأزمان فى ذاتها ولكنها تقصر عند الرائى .

وقد قرَّب إلينا العلم الحديث هذه القضية بما توصّل إليه من إعادة المشاهد المصوَّرة على البطىء ليعطيك فرصة متابعتها بدقة ، فنراهم مثلاً يُعيدون لك مَشْهداً كروياً لترى كل تفاصيله ، فتجد المشهد الذى مَرّ كلمح البصر يُعرَض أمامك بطيئاً فى زمن أطول ،

فى حين أن الزمن فى السرعة يتجمع تجمّعاً لا تدركه أنت بأىّ معيار ، لا بالدقيقة ولا بالثانية .

إذن : فهى جزئيات حركة فى جزئيات زمان ، فلَمْحُ البصر الذى هو تحرُّك حَدَقة العين تحتاج لوقت ولزمن متداخل ، وليس هكذا أمْر الساعة ، بل هذا أقرب ما يعرفه الإنسان ، وأقرب تشبيه لِفَهْم أمْر الساعة بالنسبة له سبحانه .

إذا قيل لك : ما أمر فلان ؟ وما شأنه ؟ . تأخذ فى سَرْد الأحداث .. حدث كيت وكيت .. فإذا قلنا : ما أمْر الساعة ؟ ما شأنها ساعةَ تقوم ، حيث يموت الأحياء أولاً ، ثم يحيا الجميع من لَدُنْ آدم عليه السلام ثم حَشْر وحساب وثواب وعقاب .

أحداث كثيرة وعظيمة لخلْق متعددين من الإنس والجن .. يحدث هذا كله كلمح البصر بالنسبة لنا ، ولكن إياك أنْ تتصوّر أن هذا يحتاج إلى وقت بالنسبة لله سبحانه .

فالأشياء بالنسبة له سبحانه لا تعالج ، وإنما هى كُنْ فيكون ، حتى كُنْ مكوّنة من حرفين : الكاف لفظ وله زمن ، والنون لفظ وله زمن ، إنما أمْر الساعة أقرب من الكاف والنون ، ولكن ليس هناك أقلّ من هذا فى فَهْمنا .

والحق سبحانه وتعالى حينما تكلَّم عن أهل القبور ، قال :

﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا (٤٦)﴾ [النازعات]

فى حين أننا نرى أنهم غابوا كثيراً فى قبورهم .. إذن : كيف يُقَاسُ الزمن ؟ .. يُقاس بتتبُّعك للأحداث ، فحينما لا يُوجد حَدَث لا يُوجَد زمن .. وهذا ما نراه فى حال النائم الذى لا يستطيع تحديد الزمن الذى نامه إلا على غالب ما يكون فى البشر .

ولذلك ، فى قصة أهل الكهف الذين ناموا ثلاث مائة عام وتسعة أعوام قالوا :

﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ..(١١٣)﴾ [المؤمنون]

فهذا هو الغالب فى عُرْف الناس ؛ ذلك لأنهم استيقظوا فلم يجدوا شيئاً حولهم يدل على زمن طويل .. الحال كما هو لم يتغيّر فيهم شىء .. فلو استيقظوا فوجدوا أنفسهم شيوخاً بعد أن كانوا فتية لَعلِموا بمرور الزمن .. إذن : الزمن بالنسبة لعدم الحدث زمن مَلْغىّ .

أو نقول : إن أَمْر الساعة فى أن الحق سبحانه يجعلها جامعة للناس إلا كلمْح البصر ، فكلّ ما يحدث فيها لا تقيسه بزمن ، لأن الذى يُقاسُ بالزمن إنما هى الأحداث الناشئة من فاعل له قدرة وقوة تتوزع على الزمن .

فلو أردْتَ نَقْل هذا الشىء من هنا إلى هنا فسوف يحتاج منك وقتاً ومجهوداً ، أما لو كلفتَ طفلاً بنقل هذا الشىء فسوف يأخذ وقتاً أكثر ويحتاج مجهوداً أكثر .. إذن : فالزمن يتناسب مع قدرة الفاعل تناسباً عكسياً .

ولذلك فالرسول ﷺ حينما حدَّث الناس بالإسراء والمعراج[(١)] قالوا : أتدّعى أنك أتيتها فى ليلة ، ونحن نضرب إليها أكباد الإبل شهراً .. هذا لأن انتقالهم يحتاج لعلاج ومُزَاولة ، تأخذ وَقْتاً يتناسب وقدراتهم فى الانتقال بالإبل من مكة إلى بيت المقدس .. ومحمد ﷺ لم يقل : أسريْتُ ، بل قال : أُسْرِى بى ، الذى أَسْرى به هو الله سبحانه ، فالزمن يُقاس بالنسبة للحق سبحانه وتعالى .

وكذلك إذا قِيسَ زَمن أَمْر الساعة بالنسبة لقدرته سبحانه فإنه يكون كلمح البصر ، أو هو أقرب من ذلك .. إنما هو تشبيه لِنُقرّب لكم الفهم .

وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٧٧) ﴾ [النحل]

أى : يكون أمر الساعة كذلك ؛ لأن الله قادر على كل شىء ، وما دامت الأحداث تختلف باختلاف القدرات ، فقدرة الله هى القدرة العُلْيا التى لا تحتاج لزمن لفعل الأحداث .

ثم يقول الحق سبحانه :

---

(١) حديث الإسراء أخرجه مسلم فى صحيحه (١٦٢) كتاب الإيمان من حديث أنس بن مالك . وقد أخرج البيهقى فى « دلائل النبوة » (٢/٣٦٣) من حديث ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : « إنى أسرى بى الليلة . قالوا : إلى أين ؟ قال : إلى بيت المقدس . قالوا : ثم أصبحت بين ظهرانينا ؟ قال : فقال رسول الله ﷺ : نعم . قال : فمن بين مصفق وواحد واضع يده على رأسه مستعجب للكذب ، زعم . قال : وفى القوم من قد سافر إلى ذلك البلد ورأى المسجد فقال : هل تستطيع أن تنعت لنا المسجد ؟ » الحديث بطوله .

﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾

(مِنْ بُطُونِ أُمهَاتِكُم) المراد الأرحام ؛ لأنها فى البطون ، والمظروف فى مظروف يعتبر مظروفاً ، كما لو قلت : فى جيبى كذا من النقود أو فى حافظتى كذا من النقود .. العبارتان معناهما واحد .

وأمهاتكم : جمع أم ، والقياس يقتضى أن نقول فى جمع أُم : أُمَّات ولكنه قال :

﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ﴿٧٨﴾ ﴾ [النحل]

بزيادة الهاء .

وساعةَ يكون الجنين فى بطن أمه تكون حياته حياة تبعية ، فكل أجهزته تابعة لأمه .. فإذا شاء الله أن يولد جعل له حياة ذاتية مستقلة .. وعند الولادة نرى أطباء التوليد يقولون : الجنين فى الوضع الطبيعى أو فى غير الوضع الطبيعى .. فما معنى الوضع الطبيعى للجنين عند الولادة ؟

الوضع الطبيعى أن يكون رأس الجنين عند الولادة إلى أسفل ، هذا هو الوضع الطبيعى ؛ لأن الحق سبحانه أراد أن يُخرجه خَلْقاً آخر :

﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ..﴿١٤﴾ ﴾ [المؤمنون]

كأنه كان خلقاً لكنه كان تابعاً لأمه فيُخرجه الله خَلْقاً آخر مُسْتقلاً بذاته .. فتكون الرأس إلى أسفل ، وهى أول ما ينزل من المولود ، وبمجرد نزوله تبدأ عملية التنفس .

ومن هذه اللحظة ينفصل الجنين عن أمه ، وبالتنفس تكون له ذاتية ، فإذا ما تعسَّر خروج باقى جسمه فتكون له فرصة التنفس ، وهذا من لُطْف الله سبحانه ؛ لأن الجنين فى هذه الحالة لا يختنق أثناء معالجة باقى جسمه .

أما إذا حدث العكس فكان الرأس إلى أعلى ، ونزل الجنين بقدميْه ، فبمجرد نزول الرِّجْلَيْن ينفصل عن أمه ، ويحتاج إلى حياة ذاتية ويحتاج إلى تنفس ، فإذا ما تعسّرت الولادة حدث اختناق ، ربما يؤدى إلى موت الجنين .

العلم أَخْذ قضية من قضايا الكون مجزوم بها وعليها دليل ؛ وقوله تعالى :

﴿لا تَعْلَمُونَ[1] شَيْئًا .. (٧٨)﴾ [النحل]

ذلك لأن وسائل العلم والإدراك لم تعمل بَعْد ، فإذا أراد الله له أنْ يعلم يخلق له وسائل العلم ، وهى الحواس الخمس : السمع والبصر والشَّم واللمس والتذوّق ، هذه هى الحواس الظاهرة التى بها يكتسب الإنسان العلوم والمعارف ، وبها يُدرِك ما حوله .

وإنْ كان العلم الحديث قد أظهر لنا بعض الحواسّ الأخرى ، ففى علم وظائف الأعضاء يقولون : إنك إذا حملتَ قطعتين من الحديد مثلاً فبأىّ حاسة تُميّز بينهما من حيث الثقل ؟

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٥/٣٨٧٧) : « فيه ثلاثة أقاويل :
أحدها : لا تعلمون شيئاً مما أخذ عليكم من الميثاق فى أصلاب آبائكم .
الثانى : لا تعلمون شيئاً مما قضى عليكم من السعادة والشقاء .
الثالث : لا تعلمون شيئاً من منافعكم .

هذه لا تُعرف باللمس أو السمع أو البصر أو التذوّق أو الشّم .. إذن : هناك حاسة جديدة تُميّز الثقَل هى حاسة العضَل .

وكذلك تُوجَد حاسة البَيْن ، التى تتمكن بها من معرفة سُمْك القماش مثلاً وأنت فى محل الأقمشة ، حيث تفركُ القماش بين أصابعك ، وتستطيع أن تُميّز بين الرقيق والسّميك .

فالطفل المولود إذن لا يعلم شيئاً ، فهذا أمر طبيعى لأن وسائل العلم والإدراك لديه لم تُؤدِّ مهمتها بَعْد .

وقوله تعالى :

﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ[1] .. (٧٨)﴾ [النحل]

وقد بيَّن لنا علماء وظائف الأعضاء أن هذا الترتيب القرآنى للأعضاء هو الترتيب الطبيعىّ ، فالطفل بعد الولادة يسمع أولاً ، ثم بعد حوالى عشرة أيام يُبصر .. وتستطيع تجربة ذلك ، فترى الطفل يفزع من الصوت العالى بعد أيام من ولادته ، ولكن إذا وضعت أصبعك أمام عينيه لا يطرف ؛ لأنه لم يَرَ بعد .

ومن السمع والبصر ـ وهما السادة على جميع الحواس ـ تتكون المعلومات التى فى الأفئدة ، هذا الترتيب القرآنى الوجودى ، وهو الترتيب الطبيعى الذى وافق العلمَ الحديث .

ونلاحظ في الآية إفراد السمع ، وجمع الأبصار والأفئدة :

﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ .. (٧٨)﴾ [النحل]

---

(١) أى : وجعل لكم السمع لتسمعوا به الأمر والنهى . والأبصار لتبصروا بها آثار صنعه . والأفئدة لتصلوا بها إلى معرفته . [قاله القرطبى فى تفسيره (٥/٣٨٧٧)] .

فلماذا لم يأْتِ السمع جَمْعاً ؟

المتحدث هنا هو الحق سبحانه ؛ لذلك تأتى الألفاظ دقيقة معجزة .. ولننظر لماذا السمع هنا مفرد ؟

فَرْقٌ بين السمع وغيره من الحواس ، فحين يوجد صوت فى هذا المكان يسمعه الجميع ، فليس فى الأذن ما يمنع السمع ، وليس عليها قُفْل نقفله إذا أردنا ألاّ نسمع ، فكأن السمع واحد عند الجميع ، أما المرئى فمختلف ؛ لأننا لا ننظر جميعاً إلى شىء واحد .. بل المرائى عندنا مختلفة فهذا ينظر للسقف ، وهذا ينظر للأعمدة .. إلى آخره .

إذن : المرائى لدينا مختلفة .. كما أن للعين قُفْلاً طبيعياً يمكن إسْداله على العين فلا ترى ، فكأن الأبصار لدينا مختلفة متعددة .

وكذلك الحال فى الأفئدة ، جاءت جَمْعاً ؛ لأنها متعددة مختلفة ، فواحد يَعِي ويُدرك ، وآخر لا يعى ولا يدرك ، وقد يعى واحد أكثر من الآخر .

إذن : إفراد السمع هنا آيةٌ من آيات الدقة فى التعبير القرآنى المعجز ؛ لأن المتكلمَ هو ربّ العزة سبحانه .

ونلاحظ أيضاً تقديم السمع على باقى الحواس ؛ لأنه أول الإدراكات ويصاحب الإنسان منذ أنْ يُولدَ إلى أنْ يفارق الحياة ، ولا يغيب عنه حتى لو كان نائماً ؛ لأن بالسمع يتم الاستدعاء من النوم .

وقد قُلْنا فى قصة أهل الكهف أنهم ما كان لهم أن يناموا فى سُبات[1] عميق ثلاثمائة وتسع سنين إلا إذا حجب الله عنهم هذه

---

(١) السبات : النوم . قال الزجاج : : هو أن ينقطع عن الحركة ، والروح فى بدنه . والسبت : القطع ، فكأنه إذا نام فقد انقطع عن الناس . [لسان العرب ـ مادة : سبت] .

الحاسة ، فلا تزعجهم الأصوات . فقال تعالى :

﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾﴾ [الكهف]

أى : قُلْنا للأذن تعطّلى هذه المدة حتى لا تزعجهم أصوات الصحراء ، وتقلق مضاجعهم ، والله تعالى يريد لهم السُّبات والنوم العميق .

وفى قوله تعالى :

﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ .. ﴿٧٨﴾﴾ [النحل]

هل توجد هذه الإدراكات بعد الإخراج (الميلاد) أم هى موجودة قبله ؟.. يجب أنْ نُفرّق بين السمع وآلته ، فقبل الإخراج تتكون للجنين آلات البصر والسمع والتذوّق وغيرها .. لكنها آلات لا تعمل ، فالجنين فى بطن أمه تابع لها ، وليست له حياة ذاتية ، فإذا ما نزل إلى الدنيا واستقلّ بحياته يجعل الله له هذه الآلات تعمل عملها .

إذن : فمعنى :

﴿جَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ .. ﴿٧٨﴾﴾ [النحل]

أى : جعل لكم الاستماع ، لا آلة السمع .

وقوله :

﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [النحل]

تُوحى الآية بأن السمع والأبصار والأفئدة ستعطى لنا كثيراً من المعلومات الجديدة والإدراكات التى تنفعنا فى حياتنا وفى مُقوّمات وجودنا ، وننفع بها غيرنا ، وهذه النعم تستحقّ منا الشكر .

فكلما سمعتَ صَوْتاً أو حكمة تحمد الله أن جعل لك أُذناً تسمع ، وكلما أبصرتَ منظراً بديعاً تحمد الله أنْ جعلَ لِكِ عيناً ترى ، وكلما شممتَ رائحة زكية تحمد الله أنْ جعل لك أنفاً تشمُّ .. وهكذا تستوجب النعم شُكْر المنعم سبحانه .

ولكى تقف على نِعَم الله عليك انظر إلى مَنْ حُرِموا منها ، وتأمّل حالك وحالهم ، وما أنت فيه من نعم الحياة ولذّاتها ، وما هُمْ فيه من حِرْمَان .

ثم ينقلنا الحق سبحانه نقلة أخرى فى قوله تعالى :

﴿ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾

فالحق سبحانه ينقلنا هنا إلى صورة أخرى من صُوَر الكون .. بعد أن حدّثنا عن الإنسان وما حوله .. فالإنسان قبل أنْ يخلقه الله فى هذا الوجود أعدَّ له مُقوّمات حياته ، فالشمس والقمر والنجوم والأرض والسماء والمياه والهواء ، كل هذه أشياء وُجِدتْ قبل الإنسان ، لِتُهيىء له الوجود فى هذا الكون .

والله سبحانه يريد منّا بعد أنْ كفلَ لنا استبقاء الحياة بالرزق ، واستبقاء النوع بالزواج والتكاثر ، يريد منّا إثراء عقائدنا بالنظر فى ملكوت الله وما فيه من العجائب ؛ لنستدل على أنه سبحانه هندسَ كَوْنه هندسة بديعة متداخلة ، وأحكمه إحكاماً لا تصادم فيه .

﴿لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٤٠)﴾ [يس]

فالنظر إلى كَوْن الله الفسيح ، كم فيه من كواكب ونجوم وأجرام . كم هو مَلِيءٌ بالحركة والسكون والاستدارة . ومع ذلك لم يحدث فيه تصادم ، ولم تحدث منه مضرة أبداً فى يوم من الأيام .. الكون كله يسير بنظام دقيق وتناسق عجيب ؛ ولكى تتجلى لك هذه الحقيقة انظر إلى صَنْعة الإنسان ، كم فيها من تصادمات وحوادث يروح ضحيتها الآلاف .

هذا مَثَلٌ مُشَاهَد للجميع ، الطير فى السماء .. ما الذى يُمسكها أنْ تقعَ على الأرض ؟ وكأن الحق سبحانه يجب أنْ يُلفتنا إلى قضية أكبر :

﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ .. (٤١)﴾ [فاطر]

فعلينا أن نُصدِّق هذه القضية .. فنحن لا ندرك بأعيننا جرْم الأرض ، ولا جرْم الشمس والنجوم والكواكب .. نحن لا نقدر على معرفة كل مَا فى الكون .. إذن : يجب علينا أن نُصدّق قوْل ربنا ، ولا نجادل فيه .

وإليكم هذا المثل الذى تشاهدونه كل يوم :

﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ اللَّهُ..(٧٩)﴾ [النحل]

إياك أنْ تقول إنها رَفْرفة الأجنحة ، فنحن نرى الطائر يُثبّت أجنحته فى الهواء ، ومع ذلك لا يقع إلى الأرض ، فهناك إذن ما يمسكه من الوقوع ؛ لذلك قال تعالى فى آية أخرى :

﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ[1] وَيَقْبِضْنَ .. (١٩) ﴾ [الملك]

أى : أنها فى حالة بَسْط الأجنحة ، وفى حالة قبْضِها تظل مُعلّقة لا تسقط .

وكذلك نجد من الطيور ما له أجنحة طويلة ، لكنه لا يطير مثل الأوز وغيره من الطيور .

إذن : ليست المسألة مسألة أجنحة ، بل هى آية من آيات الله تمسك هذا الطير فى جَوِّ السماء .. فتراه حُراً طليقاً لا يجذبه شىء إلى الأرض ، ولا يجذبه شىء إلى السماء ، بل هو حُرٌّ يرتفع إنْ أراد الارتفاع ، وينزل إنْ أراد النزول .

فهذه آية مُحسَّة لنستدلّ بها على قدرة الله غير المحسَّة إلا بإخبار الله عنها ، فإذا ما قال سبحانه :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ .. (٤١) ﴾ [فاطر]

آمنا وصَدّقنا .

---

(١) أى : باسطات أجنحتها . قال ابن كثير فى تفسيره (٣٩٨/٤) : « أى : تارة يصففن أجنحتهن فى الهواء ، وتارة تجمع جناحاً وتنشر جناحاً » .

وقوله تعالى :

﴿فِي جَوِّ السَّمَاءِ .. (٧٩)﴾ [النحل]

أى : فى الهواء المحيط بالأرض ، والمتأمل فى الكون يجد أن الهواء هو العامل الأساسى فى ثبات الأشياء فى الكون ، فالجبال والعمارات وغيرها .. ما الذى يمسكها أنْ تقع ؟

إياك أن تظن أنه الأسمنت والحديد وهندسة البناء .. لا .. بل يمسكها الهواء الذى يحيط بها من كل جانب ، بدليل أنك لو فَرَّغتَ جانباً منها من الهواء لانهارتْ فوراً نحو هذا الجانب ؛ لأن للهواء ضغطاً ، فإذا ما فرَّغْتَ جانباً منها قَلَّ فيه الضغط فانهارتْ .

فالهواء ـ إذن ـ هو الضابط لهذه المسألة ، وبالهواء يتوازن الطير فى السماء ، ويسير كما يهوى ، ويتحرك كما يحب .

ثم يقول تعالى :

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٧٩)﴾ [النحل]

أى : أن الطير الذى يطير فى السماء فيه آيات أى عجائب ، عجائب صَنْعة وعجائب خَلْق ، يجب أنْ تتفكَّرُوا فيها وتعتبروا بها .

ولكى نقف على هذه الآية فى الطير نرى ما حدث لأول إنسان حاول الطيران .. إنه العربى عباس بن فرناس[1] ، أول مَنْ حاول

(١) مخترع أندلسى ، من أهل قرطبة ، كان فى عصر الخليفة عبد الرحمن الثانى فى القرن التاسع للميلاد ، كان فيلسوفاً شاعراً ، له علم بالفلك ، وهو أول من صنع الميقاتة لمعرفة الأوقات . مثَّل فى بيته السماء بنجومها وغيومها وبروقها ورعودها توفى عام ٢٧٤ هـ . [الأعلام للزركلى ٣/ ٢٦٤] .

الطيران فى الأندلس ، فعمل لنفسه جناحين ، وألقى بنفسه من مكان مرتفع .. فماذا حدث لأول طائر بشرى ؟

طار مسافة قصيرة ، ثم هبط على مُؤخرته فكُسرت ؛ لأنه نسى أن المسألة ليست مجرد الطيران ، فهناك الهبوط الذى نسى الاستعداد له ، وفاته أن يعمل له (زِمكّى)[1] ، وهو الذيل الذى يحفظ التوازن عند الهبوط .

وكذلك الذين يصنعون الطائرات كم تتكلف ؟ وكم فيها من أجهزة ومُعدات قياس وانضباط ؟ وبعد ذلك تحتاج لقائد يقودها أو مُوجّه يُوجِّهها ، وحينما أرادوا صناعة الطائرة جعلوها على شكل الطير فى السماء له جناحان ومقدمة وذيل ، ومع ذلك ماذا يحدث لو تعطّل محركها .. أو اختلّ توازنها ؟!

إذن : الطير فى السماء آية تستحق النظر والتدبُّر ؛ لنعلمَ منها قدرة الخالق سبحانه .

ويقول تعالى :

﴿ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [النحل]

يؤمنون بوجود واجب الوجود ، يؤمنون بحكمته ودقَّة صُنْعه ، وأنها لا مثيلَ لها من صنعة البشر مهما بلغتْ من الدقة والإحكام .

---

(١) الزِّمك : إدخال الشىء بعضه فى بعض . والزِّمكى : أصل ذَنَب الطائر ، وقيل : هو منبته ، وقيل : هو ذنبه كله . [لسان العرب ـ مادة : زمك] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ(١) وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا(٢) وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ ﴾

قوله :

﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا .. ﴿٨٠﴾ ﴾ [النحل]

كلمة سكن مأخوذة من السكون ، والسكون ضد الحركة ، فالبيت نُسمّيه سكناً ؛ لأن الإنسان يلجأ إليه ليرتاح فيه من حركة الحياة خارج البيت ، إذن : فى الخارج حركة ، وفى البيت سكن .

والسكن قد يكون مادياً كالبيت وهو سكن القالب ، وقد يكون معنوياً ، كما قال تعالى فى حَقِّ الأزواج :

﴿ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا .. ﴿٢١﴾ ﴾ [الروم]

فالزوجة سكَنٌ معنوىٌّ لزوجها ، وهذا يُسمّونه سكن القلب .

فإنْ قال قائل :

﴿ مِّنْ بُيُوتِكُمْ .. ﴿٨٠﴾ ﴾ [النحل]

---

(١) الظعن : الانتقال من مكان إلى مكان . أى : السفر . [القاموس القويم ١/٤١٥] .

(٢) الأثاث : المال كله والمتاع ، ما كان من لباس أو حشو لفراش أو دثار . [لسان العرب ـ مادة : أثث] .

يعنى : نحن الذين صنعناها وأقمناها . فكيف جعلها الله لنا ؟.

نقول : وأنت كيف صنعتها ؟ ومِمّ بنيْتها ؟ صنعتَها من غابٍ أو خشب ، أو بنيْتها من طين أو طوب .. كل هذه المواد من مادة الأرض من عطاء الله لك ، وكذلك العقل الذى يُفكّر ويرسم ، والقوة التى تبنى وتُشيّد كلها من الله .

إذن : ﴿ جَعَلَ لَكُمْ ﴾ إما أنْ يكون جَعْلاً مباشراً ، وإما أنْ يكون غير مباشر .. فالله سبحانه جعل لنا هذه المواد .. هذا جَعْل مباشر ، وأعاننا وقوّانا على البناء .. هذا جَعْلٌ غير مباشر .

لكن فى أىّ الأماكن تُبنى البيوت ؟

البيوت لا تُبنَى إلا فى أماكن الاستقرار ، التى تتوفّر لها مُقوّمات الحياة .. فقبل أن نُنظّم مدينة سكنية نبحث أولاً عن مُقوّمات الاستقرار فيها من مأكل ومشرب ومرافق وخدمات ومياه وصرف .. إلى آخره .

فإن وجدت هذه المقوّمات فلا مانعَ من البناء هنا .. فإذا لم توجد المرافق فى الصحراء ومناطق البدو ، هنا لا يناسبها البيوت والبناء الدائم ، بل يناسبها :

﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ .. (٨٠) ﴾ [النحل]

فنرى أهل البدو يتخذون من الجلود بُيُوتاً مثل الخيمة والفسطاط .. حيث نراهم كثيرى التنقُّل يبتغون مواطن الكلأ والعشب ، ويرحلون طَلَباً للمرعى والماء ، وهكذا حياتُهم دائمة التنقّل من مكان

لآخر .. فيناسبهم بيت من جلد أو من صوف أو من وَبَر خفيف الحَمْل ، يضعونه أيْنما حَطُّوا رحالهم ، ويرفعونه أينما ساروا .. والظّعْن هو التنقُّل من مكان لآخر .

إذن : كلمة (سكن) تفيد الاستقرار ، وتُوفّر كل مُقوّمات الحياة ؛ ولذلك فالحق سبحانه وتعالى يقول لآدم :

﴿اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ .. (٣٥)﴾ [البقرة]

أى : المكانُ الذى فيه راحتكم ، وفيه نعيمكم ، فحدّد له مكان إقامة وسكَن ..

ومكان الإقامة هذا قد يكون عَامّاً ، وقد يكون خاصاً ، مثل لو قُلْت : أسكن الأسكندرية .. هذا سكَنٌ عام ، فلو أردتَ السكن الحقيقى الخاص بك لَقُلْتَ : أسكن فى شارع كذا ، وفى عمارة رقم كذا ، وفى شقة رقم كذا ، وربما كان لك حجرة خاصة من الشقة هذه .

إذن : هذا سكَنٌ خاص بك .. سكنُك الحقيقى الذى تشعر فيه بالهدوء والراحة والخصوصية ، فالسكن يحتاج إلى استقرار ذاتىٍّ لا يشاركك فيه أحد ؛ ولذلك نرى بعض سكان العمارات يشكُون من الإزعاج والضوضاء ، ويتمنوْنَ أن يعيشوا فى بيوت مستقلة تُحقّق لهم الراحة الكافية التى لا يضايقهم فيها أحد .

إذن : حينما ننظر إلى السكون .. إلى السكن ، نحتاج المكان الضيق الذى يُحقّق لنا الخصوصية التامة التى تصل إلى حجرة ، مجرد حجرة ، ولكنها تعنى السكن الحقيقى الخاص بى ، وقد تصل

الخصوصية أنْ نجعلَ لكل ولد من الأولاد سريراً خاصاً به فى نفس الحجرة .

فإذا ما نظرنا إلى الحركة فى الحياة وجدنا الإنسان على العكس يطلب السعة ؛ لأن الحركة تقتضى السعة فى المكان ، فمَنْ كان عنده مزرعة يطلب عزبة ، ومَنْ كان عنده عزبة يتمنى ثانية وثالثة وهكذا ؛ لأن حركة الحياة تحتاج مجالاً واسعاً فسيحاً .

هذا عن النوع الأول ، وهو السكن المادى سكن القالب ، وهو من أعظم نِعَم الله على عباده .. أن يكون لهم سكَن يأوون إليه ، ويرتاحون فيه من عناء وحركة الحياة .

ولذلك حينما أراد الحق سبحانه أن يُعذِّب بنى إسرائيل ، أشاع سكنهم فى الأرض كلها ، وحرمهم من نعمة السكن الحقيقى الخاص ، فقال تعالى :

﴿ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الأَرْضَ .. (١٠٤) ﴾ [الإسراء]

فالأرض هى المكان العام الذى يسكن فيه كل الناس .. فليس لهم بلد تجمعهم ، بل بدَّدهم الله فى الأرض ولم يجعل لهم وطناً ، كما قال فى آية أخرى :

﴿ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأَرْضِ أُمَمًا .. (١٦٨) ﴾ [الأعراف]

حتى فى البلاد التى يعيشون فيها تراهم معزولين عن الناس فى أماكن خاصة بهم لا يذوبون فى غيرهم ، وهكذا سكنوا الأرض ، ولم تحدد لهم بلد .

أمـا النـوع الثـانى من السكـن ، وهو السكن المـعـنوى أو سكن القلب ، فهـو سكن الزوج إلى زوجتـه الصالحة التى تُخـفّف عنه عناء الحيـاة وهمومـها ، تبتـسم في وجهه إنْ كـان مسـروراً وتُهدِّىء من غضبه إنْ كان مُغْضَباً ، تحتويه بما لديها من حُب وحنان وإخلاص .. هذا هو السكن المعنوى ، سكن القلب .

وقوله :

﴿ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ ﴾ [النحل]

الأصواف للغنم ، والأوبار لـلإبل ، والشعر للمـاعز .. فمـا الفرْق بين هذه الثلاث فى الاستعمال ؟

يستـعمل الناس كـلاً من الصوف والوبر ؛ لأن الشُّـعيـرات فيـها دقيـقة جـداً يمكن نَدْفها وغَـزْلها والانتـفاع بها فى الـفُرش والأبسطة والألحفة والملابس وغيرها مما يحتاجه الناس .

أما شعر الماعـز فالشعيرات فيه ثخينة لا يمكـن نَدْفها أو غَزْلها ، فلا يمكن الانتفاع به فى هذه المنسوجات ، وقوله تعالى :

﴿ أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ ﴾ [النحل]

الأثاث : هو مـا يوجـد فى البـيت ممـا تتطلبـه حـركة الـحيـاة كالأبسطة والمفارش والملابس والستائر .

والمتاع : هو ما يُستمتع ويُنتفع به .. والفرْق بينهما أن الأثاث قد يكون ثابتاً لا يتغير كثيراً ، أما المتاع فقد يتغير حسب الحاجة .

فأنت مثلاً قد تحتاج إلى تغيير التلفاز القديم لتأتى بآخر حديث ، مُلوّن مثلاً ، لكن قلّما تُغير الثلاجة أو الغسالة مثلاً .

وقوله : ﴿إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾﴾ [النحل]

لأن الإنسان قد يغتر حين يستوفى متطلبات حياته ، وقد تلهيه هذه النعم عن مطلوب المنعم سبحانه ، فينشغل بالنعمة التى هو فيها عن المنعم الذى أنعم عليه بها .. فتأتى هذه الآية مُحذِّرة .

إياك أنْ تغترّ بالمتاع والأثاث ؛ لأنها متاع إلى حين .. متاعٌ موقوت لا يدوم ، ومهما استوفيت حظّك منها فى الدنيا فإنها صائرة إلى أمرين :

إما أن تفوتها بالموت ، وإما أنْ تفوتَك بالفقر والحاجة .. إذن : هى ذاهبة ذاهبة .. فتذكّروا دائماً قوله تعالى :

﴿إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾﴾ [النحل]

فمتاع النعمة موقوت ، لكن متاع المنعِم سبحانه خالد .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا(١) وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ(٢) تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾

---

(١) الكِنُّ : ما يُصان أو يستتر فيه الشىء . والبيوت أكنان لأصحابها . [القاموس القويم ٢/١٧٥] .

(٢) السربال : القميص يقى الحر والبرد . أما قوله تعالى : ﴿وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ .. ﴿٨١﴾﴾ [النحل] فهى الدروع . [لسان العرب ـ مادة : سربل] .

بعد أن تكلم الحق سبحانه عن أصحاب البيوت الذين يناسبهم الاستقرار ، ويجدون مُقوّمات الحياة ، وتكلم عن أهل الترحال والتنقُّل وما يناسبهم من بيوت خفيفة يحملونها عند ترحالهم . ثم تحدث هنا عن هؤلاء الذين لا يملكون شيئاً ، ولا حتى جلود الأنعام .. ماذا يفعل هؤلاء ؟

الحق سبحانه جعل لهم الظل يستظلّون به من وهج الشمس ، وجعل لهم من الكهوف والسراديب فى الجبال ما يأوون إليه ويسكنون فيه . وهكذا استوعبتْ الآيات جميع الحالات التى يمكن أن يكون عليها بشر ، فقد نثر الحق سبحانه نعمه على الناس ، بحيث يأخذ كل واحد منهم ما يناسبه من نعم الله .

أما مَنْ لا يملك بيتاً يأويه ، وليس عنده من الأنعام ما يتخذ من جلودها بيتاً ، فقد جعل الله له الأشجار يستظل بها من حَرِّ الشمس ، وجعل له كهوف الجبال تُكِنّه وتأويه .

ونلاحظ هنا أن الآية ذكرتْ الظل الذى يقينا حَرَّ الشمس ، ولم تذكر مثلاً البرد ؛ ذلك لأن القرآن الكريم نزل بجزيرة العرب وهى بلاد حارة ، وحاجتها إلى الظل أكثر من حاجتها إلى الدِّفء .

وقوله :

﴿ ظِلالاً .. (٨١) ﴾ [النحل]

الظلال جمع ظِل ، وهو الواقى من الشمس ومن إشعاعاتها ، وقد يُوصَف الظل بأنه ظِل ظليل .. أى : الظل نفسه مُظلل ، وهذا ما نراه فى صناعة الخيام مثلاً ، حيث يجعلون لها سقفاً من طبقة واحدة

تتلقّى حرارة الشمس ، وإنْ حجبت أشعة الشمس فلا تحجب الحرارة ، وهنا يلجأون إلى جَعْل السقف من طبقتين بينهما مسافة لتقليل حرارة الشمس .

وهنا نقول : إن الظلّ نفسه مُظلّل ، وكذلك الحال فى ظل الأشجار حيث يظلّل الورق بعضه بعضاً ، فتشعر تحت ظلّ الأشجار بجوٍّ لطيف بارد حيث يغطيك ظلٌّ ظليل يحجب عنك ضوء الشمس ، ويسمح بمرور الهواء فلا تشعر بالضيق .

لذلك فالشاعر يقول فى وصف روضة :

وَقَانَا لَفْحَةَ الرمْضَاءِ وَادٍ سَقَاهُ مضاعف الغيْثِ العَمِيمِ
يَصُدُّ الشمسَ أنَّى وَاجهتْنا فيحجُبها ويأذنُ للنسيمِ

وهكذا الأشجار تحجب عنا الضارّ ، وتسمح بالنافع .

وقوله : ﴿ أَكْنَانًا .. (٨١) ﴾ [النحل]

جمع كِنّ ، وهو الكهف أو المغارة فى الجبل تكون سكناً وساتراً لمن يلجأ إليها ويحتمى بها ، والكِنّ من الستر ؛ لأنها تستر الناس ونحن نقول مثلاً للولد : انكنْ يعنى : اسكُنْ وانستر .

ويقول تعالى :

﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ .. (٨١) ﴾
[النحل]

السرابيل : هى ما يُلبس من الثياب أو الدروع :

﴿ تَقِيكُمُ الْحَرَّ .. (٨١) ﴾ [النحل]

أى : تحميكم من الحر .. فقال هنا الحر أيضاً ؛ لذلك وجدنا بعض العلماء يحاول أن يجد مخرجاً لهذه الآية فقال : المعنى تقيكم الحر وتقيكم البرد ، ففى الآية اكتفاءٌ بالحر عن البرد ؛ لأن الشىء إذا جاء يأتى مقابله .. فليس بالضرورة ذِكر الحالتين ، فإحداهما تعنى الأخرى .

هذا دفاع مشكور منهم ، ومعنى مقبول حول هذه الآية .. لكن لو فَطنَّا إلى باقى الآيات التى تحدثتْ فى هذا الموضوع لوجدناها : واحدة تتكلم عن الحر ، وهى هذه الآية ، وأخرى تتكلّم عن البرد فى فى قوله تعالى :

﴿وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ .. ﴿٥﴾﴾ [النحل]

أى : من جلود الأنعام وأصوافها نتخذ ما يقينا البرد ، وما نستدفىء به .. وهكذا تتكامل الآيات وينسجم المعنى .

والمتأمل فى تدفئة الإنسان يجد أن ما يرتديه من ملبوسات لا يعطى للإنسان حرارة تُدفئه ، بل تحفظ للإنسان حرارة جسمه فقط ، فحرارة الإنسان ذاتية من داخله ، وبهذه الحرارة يحفظ الخالق سبحانه الإنسان .

والأطباء يقولون : إن الجسم السليم حرارته ٣٧° لا تختلف إنْ عاش عند خط الاستواء أو عاش فى بلاد الاسكيمو فى القطب الشمالى ، فهذه هى الحرارة العامة للجسم .

فى حين أن أجهزة الجسم المختلفة ربما اختلفتْ درجة حرارتها ، كُلٌّ حَسب ما يناسبه : فالكبد مثلاً درجة حرارته ٤٠° ، وتختلّ

وظيفتـه إذا نقصت عن هذه الدرجة ، فى حين أن درجـة حرارة جَفْن العين مثلا ٩° ، ولو ارتفعت درجة حرارتها تذوب حبّة العين ، ويفقد الإنسان البـصر .. فسـبحانِ الله الـذى حفظ حرارة هذه الأعـضاء فى الجسم لا يطغى أحدها على الآخر .

لذلك حـينمـا سافـرنا إلى أمـريكا ، وفى إحـدى مناطق البـرودة الشـديدة كانت أول نصـائحهم لنا ألاّ نـمسك آذاننا بأيدينا .. لمـاذا ؟ قالـوا : لأن درجة حرارةَ اليـد أقلّ من درجة حـرارة الأذن ، ووَضْع اليد الباردة على الأذن قد تُسبِّب كثيراً من الأضرار .

إذن : كل مـا نستـخدمـه من ملابس وأغـطية تقـينا برد الشتـاء لا تعطينا حـرارة ، بل تحفظ علينا حـرارتنا الطبيـعيـة فلا تتـسرب ، وبذلك تتم التدفئة .. وتستطيع أنْ تضعَ يدك على فراشك قبل أن تنام فسوف تجده بارداً ، أما فى الصباح فتـجده دافئاً .. فالفراش اكتسب الحرارة من حرارة جسمك ، وليس العكس .

وقوله :

﴿وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ .. (٨١)﴾ [النحل]

البـأس هنا : أى الحـرب ، والسـرابيل الـتى تقى من البـأس هى الدروع التى يلبسـها الجنود فى الحرب لتقيهم الضربات .

ولكن هذه الآية فى سـيـاق الحـديث عن بعض نِعَـم الله علينا فى الاستقرار والسكن وما جعله لنا من بيوت وظلال .. حياة دَعَة وسلام ونعمة ، فما الداعى لذكر الحرب هنا ؟

ذلك لأن الحـياةَ لهـا منطق سـلامة للجـمـيع ، فإن اخـتلّ منطق

السلامة فعلى الناس أنْ يقفوا فى وجه مَنْ يُخِلّ بسلامة المجتمع .. وأن يكون على استعداد لذلك فى كل وقت ، لابُدّ فى وقت السِّلْم أنْ نَعُدَّ العُدّة للحرب ؛ لذلك تحدث عن الحرب وعُدتها ، وهو يتحدث عن السكون والاستقرار والنعمة .

والحق سبحانه وتعالى حين يُنزِل الآيات البينات التى تحمل لنا منهج السماء يقول :

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ .. (٢٥)﴾ [الحديد]

هذا هو المنهج الذى يعتمد على الحجة والإقناع .. فإن لم يصلح هذا المنهج لبعض الناس وتمردوا عليه أتى إذن دور القوة والقهر ، يقول تعالى :

﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ[1] شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ .. (٢٥)﴾ [الحديد]

وقوله :

﴿كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ .. (٨١)﴾ [النحل]

كأن من تمام نعمة الله أنْ نحفظها ممنْ يُفسدها علينا ، ونقف له بالمرصاد ونضرب على يده ؛ لأنه لو تركنا هؤلاء المفسدين فى مجتمعنا فسوف يُفسدون علينا هذه النِّعم ، وسنظل مُهدّدين ، لا نشعر بلذة الحياة ومُتعها .

---

(١) البأس : الشدة والقوة . قوله تعالى : ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ .. (٢٥)﴾ [الحديد] أى : قوة وصلابة . [القاموس القويم ١/٥٢] .

إذن : لا تتم النعمة إلا بحفظ السلامة العامة للمجتمع .

وقوله : ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ (٨١)﴾ [النحل]

تُسلمون : أى تُلْقون زمام الاستسلام إلى الله الذى أسلمتَ له ، وأنت لا تُلقى زمامك إلا لمنْ تثق فيه .. والإنسان قد يُلقى زمامه فى أمر لا يجيده إلى إنسان مثله يُجيد هذا الأمر ، فإذا كنتَ فى حاجات نفسك تُلقى زمامك لمن هو مثلك ، ويساويك فى قلّة المعلومات ، ويساويك فى قلّة الحكمة ، ومع ذلك تُسلم إليه أمرك لمجرد أنه يجيد شيئاً لا تجيده أنت ، أفلا تُلقى زمامك وتُسلم أمرك إلى ربك وخالقك ، وخالق كُلّ هذه النعم من أجلك ؟

إذن : جاء ذكْر هذه النعم ، ثم الأمر بإسلام الوجه لله والتسليم له سبحانه حتى نُسلمَ عن يقين واقتناع ، فالحق تبارك وتعالى ليس له مصلحة فى طاعتنا ، ولا تضره معصيتنا ، إنْ أطعناه فلن نزيد فى مُلْكه سبحانه ، وإنْ عصيناه فلن ننقصَ من مُلْكه سبحانه .

إذن : تسليمنا الأمر والزمام لله من مصلحتنا نحن .. فالإنسان حينما يُسلم زمامه إلى غيره قد يكون للغير مصلحة تلْوى رأْيه فى المسألة ، إنما ربُّنا سبحانه حينما يُوجِّه إلينا حُكْماً فليس له مصلحة فيه فلا يُلْوَى ، لا يكون إلاّ لصالحك .

وبعد أنْ عدّد هذه النعم فى الذات والمحيطات وفى السكن وفى الانطباعات . قال : إياك بعد ذلك أنْ تُسلمَ زمامك لغيرى ، وإنْ أجريتُ عليك ما يُخرجك عن نفع السلامة ؛ لأننى لا أجرى عليك ما يُخرجك عن نفس السلامة إلا لغرض أسلم منه .

لذلك نقول : لا عبادة كالتسليم ؛ لأن التسليم لحُكْمه تسليمٌ

لحكيم ، تسليمٌ لغير منتفع .. وما دُمْتَ قد سلمْتَ زمامك لربك عز وجل يُجلِّى لك الحكمة فيما جرى لك من الأحداث لتعلمَ رضاك عن حُكْمه لحكمته ، فتقول : أنا رضيتُ بحكمك يا رب .

ولذلك نقول فى الدعاء : أحمدك على كُلِّ قضائك ، وجميع قَدرِك حَمْد الرِّضا بحكمك لليقينْ بحكمتك .

أى : لك حكمة يارب فيما أجريتَ علىَّ من أحداث ، ولكنى لا أراها .

والذى يعلم مكانة التسليم لله تعالى فيما يُجرى عليه من أحداث وما يقع به من بلاء لا يضجر ولا يسخط ؛ لأنه بذلك يُطيل على نفسه أمدَ القضاء ؛ لأن الله لا يرفع قضاءه عن عبده حتى يرضى به ، فالله تعالى لا مُجبر له .

فإن أردت رَفْع القضاء فارْضَ به أولاً ، وإذا لم يرفع عنك القضاء فاعلم أن مكان الرضى من نفسك لم يكُنْ مقبولاً ، قد ترضى بلسانك ولكن قلبك لا يزال ساخطاً ضَجِراً .

فالذى يُسلِم زَمامه إلى الله ويردّ كل حدث وقع أو بلاء نزل به يردُّه إلى الله ، وإلى حكمة مُجريه ، الله تعالى يقول له : لقد فهمتَ عنى ، ويرفع عنه البلاء .

وفى مقام التسليم لله دائماً نذكر قصة سيدنا إبراهيم حينما أمره ربه بذبح ولده إسماعيل ـ عليهما السلام .. وهل هناك بلاء أكثر من أن يُبتلَى الرجل بذبح ولده الذى رُزِقه على كِبَر ، ويذبحه هو بيده .

إنه ابتلاء من مراتب مُتعدِّدة ، ومن نَواحٍ مختلفة ، وليْتَ الأمر بوحى ظاهر ، ولكنه بمنام كان يستطيع أن يتأوّل فيه ، ولكن رؤيا الأنبياء حق .

ونرى إبراهيم ـ عليه السلام ـ يقصُّ على ولده المسألة حرْصاً عليه أنْ يتحوّل قلبه عن أبيه ساعةَ يأخذه ليذبحه ، وأيضاً لكى يشاركه ولده فى الرضا بقدر الله ، ولا يحرم ثواب هذا الابتلاء .. فقال له :

﴿إِنِّى أَرَىٰ فِى الْمَنَامِ أَنِّى أَذْبَحُكَ .. (١٠٢)﴾ [الصافات]

فليس الغرض هنا أنْ يزعجه أو يُخيفه ، ولكن ليقول له : هذه مسألة تعبدية أمرنا بها الخالق سبحانه ليكون على بصيرة هو أيضاً ، ولا يتغير قلبه على أبيه .

ولذلك كان الولد حكيماً فى الرد ، فقال :

﴿ قَالَ يَـٰأَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ .. (١٠٢)﴾ [الصافات]

ما دام الأمر من الله فافعل ، وهكذا سلّم إسماعيلُ كما سلَّم إبراهيم ، فقال تعالى :

﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ[1] لِلْجَبِينِ (١٠٣)﴾ [الصافات]

أسلما : أى الأب والابن ، ورَضيا بقضاء الله ، جاء الفرج ورُفِع القضاء ، فقد فهم كل منهما الأمر عن الله ، فلم يرفع القضاء وفقط ، بل وفديناه بذبح عظيم ، ليس هذا وفقط ، بل ومنّنا عليه بولد آخر :

﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ .. (١١٢)﴾ [الصافات]

إذن : لعلكم تُسلِّمون زمامكم إلى الله ، وتعلمون أنه خلق لكم الكون قبل أن يُوجِدكم فيه ، وأمدّكم بكل متطلبات الحياة ضماناً لبقاء

---

(١) تله : ألقاه على عنقه وخده . كما تقول كبّه لوجهه . [لسان العرب ـ مادة : تلل] .

حياتكم ، وضماناً لبقاء نوعكم ، ومتَّعكم هذه المتع .

فالذى أنعم عليكم بهذا كله عن غير حاجة له عندكم جديرٌ أنْ تُسلموا له زمام أمركم وتُسلموا له .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ ﴾

أى : لا تحزن يا محمد إذا أعرض قومك ، فلستَ مأموراً إلا بالبلاغ ، ويخاطبه الحق سبحانه فى آية أخرى :

﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ[1] نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ ﴾ [الشعراء]

أى : مهلكها . وقال تعالى :

﴿ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴿٤﴾ ﴾ [الشعراء]

لكن الدين لا يقوم على السيطرة على القالب ، وفَرْق بين السيطرة على القالب والسيطرة على القلب ، فيمكنك بمسدس فى يدك أنْ تُرغمنى على ما تريد ، لكنك لا تستطيع أبداً أن تُرغم قلبى على شىء لا يؤمن به ، والله يريد منّا القلوب لا القوالب ، ولو أراد منّا القوالب لجعلها راغمة خاضعة لا يشذّ منها واحد عن مراده سبحانه .

ولذلك حينما أرسل الله سليمان ـ عليه السلام ـ وجعله ملكاً رسولاً لم يقدر أحد أن يقف فى وجهه ، أو يعارضه لما له من

---

(١) بخع نفسه : قتلها هماً وغيظاً وحزناً . [القاموس القويم ١/٥٦] .

السلطان والقوة إلى جانب الرسالة .. أمّا الأمر فى دعوته ﷺ فقائم على البلاغ فقط دون إجبار .

وقوله : ﴿ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٨٢) ﴾ [النحل]

أى : البلاغ التام الكامل الذى يشمل كل جزئيات الحياة وحركاتها ، فقد جاء المنهج الإلهى شاملاً للحياة بداية بقول : لا إله إلا الله حتى إماطة الأذى عن الطريق ، فلم يترك شيئاً إلا حدّثنا فيه ، فهذا بلاغ مبين محيط لمصالح الناس .. فلا يأتى الآن مَنْ يتمحّك ويقول : ربنا ترك كذا أو كذا .. فمنهج الله كامل ، فلو لم تأخذوه ديناً لوجب عليكم أن تأخذوه نظاماً .

ونرى الآن الأمم التى تُعادى الإسلام تتعرّض لمشاكل فى حركة الحياة لا يجدون لها حَلاً فى قوانينهم ، فيضطرون لحلول أخرى تتوافق تماماً أو قريباً من حَلّ القرآن ومنهج الحق سبحانه وتعالى .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ (٨٣) ﴾

وقد حكى القرآن عنهم فى آيات أخرى :

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٨٧) ﴾ [الزخرف]

وقال عنهم :

﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ .. (١٤) ﴾ [النمل]

ذلك لأنهم يعلمون تماماً أن الله خلقهم ، وأنه خلق السموات والأرض .. يعلمون كل نِعَم الله عليهم ، ومع ذلك يُنكرونها ويجحدونها .. لماذا ؟

لأن الإيمان بالله والاعتراف بنعمه مسألة شاقة عليهم ، ولو كانت مجرد كلمة تُقال لقالوها .. ما أسهل أنْ يقولوا « لا إله إلا الله » لكنهم يعلمون أن : لا إله إلا الله لها مطلوبات ، فما دام لا إله إلا الله ، فلا يُشرّع إلا الله ، ولا يأمر إلا الله ، ولا يَنْهى إلا الله ، ولا يُحِلُّ إلا الله ، ولا يُحرّم إلا الله .

إذن : مطلوبات لا إله إلا الله جعلتهم فى قالب من حديد ، منضبطين بمنهج يهدم سيادتهم ، ويمنع الطغيان والجبروت ، منهج يُسوّى بين السادة والعبيد .

إذن : الدين الحق يُقيّد حركتهم ، وهم لا يريدون ذلك ، فتراهم يعرفون الله ولا يؤمنون به ؛ لأنهم يعلمون مطلوبات لا إله إلا الله محمد رسول الله ، وإلا لو كانت مجرد كلمة لقالوها .

وقوله :

﴿ وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ (٨٣) ﴾ [النحل]

بعض العلماء يقولون : أكثرهم يعنى كلهم .. لا .. بل هذا أسلوب قرآنى لصيانة الاحتمال وللاحتياط للقلة التى تفكر فى الإسلام ويراودها أمر هذا الدين الجديد من هؤلاء الكفار ، لابدّ أنْ نُراعى أمر هذه القلة ، ونترك لهم الباب مفتوحاً ، فالاحتمال هنا قائم ..

فلو قال القرآن : كلهم كافرون لتعارض ذلك مع هؤلاء الذين

يفكرون فى أنْ يُسلِموا .. وكذلك مراعاة لهؤلاء الذين لم يبلغُوا حَدَّ التكليف من أبناء الكفار .

إذن : قوله ﴿ وأكْثرهُمْ ﴾ تعبير دقيق ، فيه ما نُسمّيه صيانة الاحتمال .

ثم يقول تعالى :

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٨٤) ﴾

الحق تبارك وتعالى يُنبّهنا هنا إلى أن المسألة ليست ديناً ، وتنتهى القضية آمن مَنْ آمن ، وكفر مَنْ كفر .. إنما ينتظرنا بعث وحساب وثواب وعقاب .. مرجع إلى الله تعالى ووقوف بين يديه ، فإنْ لم تذكر الله بما أنعم عليك سابقاً فاحتط للقائك به لاحقاً .

والشهيد : هو نبىُّ الأمة الذى يشهد عليهم بما بلّغهم من منهج الله .

وقال تعالى فى آية أخرى :

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا .. (١٤٣) ﴾ [البقرة]

فكأن أمة محمد ﷺ أعطاها الله أمانة الشهادة على الخَلْق لأنها بلغتهم ، فكل مَنْ آمن برسول الله ﷺ مطلوب منه أن يُبلّغ ما بلَّغه الرسول ، ليكون شاهداً على مَنْ بلغه أنه بلَّغه :

﴿ثُمَّ لا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا .. (٨٤)﴾ [النحل]

فحينما يشهد عليهم الشهيد لا يُؤْذَن لهم فى الاعتذار ، كما قال تعالى فى آية أخرى :

﴿وَلا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ (٣٦)﴾ [المرسلات]

أو حينما يقول أحدهم :

﴿رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ .. (١٠٠)﴾ [المؤمنون]

فلا يُجَاب لذلك ؛ لأنه لو عاد إلى الدنيا لفعل كما كان يفعل من قبل ، فيقول تعالى :

﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ .. (٢٨)﴾ [الأنعام]

وقوله :

﴿وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٨٤)﴾ [النحل]

يستعتبون : مادة استعتب من العتاب ، والعتاب مأخوذ من العَتْب ، وأصله الغضب والموجدة تجدها على شخص آخر صدر منه نحوك ما لم يكن مُتوقّعاً منه .. فتجد فى نفسك موجدة وغضباً على مَنْ أساء إليك .

فإن استقرّ العَتْب الذى هو الغضب والموجدة فى النفس ، فأنت إمّا أنْ تعتب على مَنْ أساء إليك وتُوضّح له ما أغضبك ، فربما كان له عُذْر ، أو أساء عن غير قصد منه ، فإن أوضح لك المسألة وأرضاك وأذهب غضبك فقد أعتبك .. فنقول : عتَب فلان على فلان فأعتبه ، أى : أزال عَتْبه .

والإنسان لا يُعاتب إلا عزيزاً عليه يحرص على علاقته به ، ويضعه موضعاً لا تتأتى منه الإساءة ، ومن حقه عليك أن تعاتبه ولا تدعْ هذه الإساءة تهدم ما بينكما .

إذن : معنى :

﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٨٤)﴾ [النحل]

أى : لا يطلب أحد منهم أنْ يرجعوا عما أوجب العَتْب وهو كفرهم .. فلم يَعُد هناك وقت لعتاب ؛ لأن الآخرة دار حساب ، وليست دار عمل أو توبة .. لم تَعُدْ دارَ تكليف .

ويقول الحق تبارك وتعالى :

﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ (٨٥)﴾

﴿رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ .. (٨٥)﴾ [النحل]

كأن العذاب سيُنصب أمامهم ، فيرونه قبل أن يباشروه ، وهكذا يجمع الله عليهم ألواناً من العذاب ؛ لأن إدراكات النفس تتأذى بالمشاهدة قبل أنْ تألم الأحاسيس بالعذاب ؛ لذلك قال :

﴿فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ .. (٨٥)﴾ [النحل]

وقوله : ﴿وَلا هُمْ يُنظَرُونَ .. (٨٥)﴾ [النحل]

أى : لا يُمْهَلُون ولا يُؤَجّلون .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ ۖ فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾

ذلك حينما يجمع الله المشركين وشركاءهم من شياطين الإنس والجن والأصنام ، وكل مَنْ أشركوه مع الله وَجْهاً لوجه يوم القيامة ، وتكون بينهما هذه المواجهة .. حينما يرى المشركون شركاءهم الذين أضلّوهم وزيّنوا لهم المعصية ، وزيّنوا لهم الشرك والكفر بالله .. يقولون : هؤلاء هم سببُ ضلالنا وكُفْرنا .. كما قال تعالى عنهم فى آية أخرى :

﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ ﴾ [البقرة]

ويقول تعالى :

﴿ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [سبأ]

وقوله :

﴿ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ .. ﴿٨٦﴾ ﴾ [النحل]

أى : ردُّوا عليهم بالمثل ، وناقشوهم بالحجة ، كما قال تعالى فى حَقّ الشيطان .

﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ[1] وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ .. (٢٢) ﴾ [إبراهيم]

إذن : ردّوا عليهم القول : ما كان عليكم سلطان . نحن دعوناكم فاستجبتم لنا ، ولم يكن لنا قوة تُرغمكم على الفعل ، ولا حُجّة تُقنعكم بالكفر ؛ ولذلك يتهمونهم بالكذب :

﴿ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ (٨٦) ﴾ [النحل]

أى : كاذبون فى هذه الدعوى .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ[2] وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٨٧) ﴾

السَّلَم : أى الاستسلام .. فقد انتهى وقت الاختيار ومضى زمن المهْلة ، تعمل أو لا تعمل . إنما الآن ﴿ لمن الملك اليوم ﴾ ؟ الأمر والملك لله ، وما داموا لم يُسلِّموا طواعية واختياراً ، فَلْيُسلّموا له قَهْراً ورَغْماً عن أنوفهم .

وهنا تتضح لنا مَيْزة من مَيْزات الإيمان ، فقد جعلنى أستسلم لله

---

(١) المُصرخ : المغيث المنقذ من يستصرخه . واستصرخه : استغاث به . [القاموس القويم ١/٣٧٣] .

(٢) أى : استسلم المشركون لعذابه وخضعوا لعزه . وقيل : استسلم العابد والمعبود وانقادوا لحكمه فيهم . [تفسير القرطبى ٥/٣٨٩٠] .

عز وجل مختاراً ، بدل أنْ أستسلمَ قَـهْراً يوم أنْ تتكشّف الحقيقة على أنه لا إله إلا الله ، وسوف يُواجهنى سبحانه وتعالى فى يوم لا اختيار لى فيه .

وقوله :

﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٨٧)﴾ [النحل]

كلمة : الضـلال تردُ بمعانٍ مـتعددة ، منهـا : ضلَّ أى غاب عنهم شفـعاؤهم ، فـأخذوا يبـحثـون عنهم فلَم يجدوهم ، ومن هذا المـعنى قوله تعالى :

﴿أَئِذَا ضَلَلْنَا فِى الأَرْضِ أَئِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ .. (١٠)﴾ [السجدة]

أى : يغيـبوا فى الأرض ، حـيث تأكل الأرض ذرّاتهم ، وتُغيِّـبهم فى بطنهـا .. وكذلك نقـول : الضالة أى الدابة التى ضلَّتْ أى : غـابتْ عن صاحبها .

ومن معانى الضلال : النسيان ، ومنه قوله تعالى :

﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَىٰ ..(٢٨٢)﴾ [البقرة]

ومن معانيه : التردد ، كما فى قوله تعالى :

﴿وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَىٰ (٧)﴾ [الضحى]

فلم يكُنْ لرسول الله ﷺ مـنهج ثم تركه وانصرف عنه وفـارقه ، ثم هداه الله .. بل كان ﷺ مُتحيّراً مُتردّداً فيما عليه سادة القوم وأهل العقـول الراجحة من أفـعال تتنافى مع العقل السلـيم والفطرة النَّيرة ،

فكانت حيرة الرسول ﷺ فيما يراه من أفعال هؤلاء وهو لا يعرف حقيقتها .

فقوله :

﴿ وَضَلَّ عَنْهُم .. (٨٧) ﴾ [النحل]

أى : غاب عنهم :

﴿ مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٨٧) ﴾ [النحل]

أى : يكذبون من ادعائهم آلهةً وشفعاءَ من دون الله .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ (٨٨) ﴾

هنا فرْق بين الكفر والصَّدِّ عن سبيل الله ، فالكفر ذنب ذاتىّ يتعلق بالإنسان نفسه ، لا يتعدّاه إلى غيره .. فَاكفُرْ كما شئت ـ والعياذ بالله ـ أنت حر !!

أما الصدُّ عن سبيل الله فذنبٌ مُتعدٍّ ، يتعدّى الإنسان إلى غيره ، حيث يدعو غيره إلى الكفر ، ويحمله عليه ويُزيّنه له .. فالذنب هنا مضاعف ، ذنب لكفره فى ذاته ، وذنب لصدّه غيره عن الإيمان ، لذلك يقول تعالى فى آية أخرى :

﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ .. (١٣) ﴾ [العنكبوت]

فإنْ قال قائل : كيف وقد قال تعالى :

﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ .. (١٦٤) ﴾ [الأنعام]

نقول : لا تعارضَ بين الآيتين ، فكل واحد سيحمل وزْره ، فالذى صَدَّ عن سبيل الله يحمل وِزْرَيْن ، أما مَنْ صدَّه عن سبيل الله فيحمل وِزْر كفره هو .

وقوله :

﴿ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ .. (٨٨) ﴾ [النحل]

العذاب الأول على كفرهم ، وزِدْناهم عذاباً على كفر غيرهم مِمَّنْ صدُّوهم عن سبيل الله .

ولذلك فالنبى ﷺ يقول : « مَنْ سَنَّ سُنة حسنة فله أجرها وأجر مَنْ عمل بها إلى يوم القيامة ، ومَنْ سَنَّ سنة سيئة فعليه وزرها ووزر مَنْ عمل بها إلى يوم القيامة »[1] .

فإياك أنْ تقعَ عليك عيْن المجتمع أو أُذنه وأنت فى حال مخالفة لمنهج الله ؛ لأن هذه المخالفة ستؤثر فى الآخرين ، وستكون سبباً فى مخالفة أخرى بل مخالفات ، وسوف تحمل أنتَ قِسْطاً من هذا .. فأنت مسكين تحمل سيئاتك وسيئات الآخرين .

وقوله :

﴿ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ (٨٨) ﴾ [النحل]

والإفساد : أنْ تعمدَ إلى شىء صالح أو قريب من الصلاح

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٤/٣٦١ ، ٣٦٢) ، وابن ماجة فى سننه (٢٠٧) والترمذى فى سننه (٢٦٧٥) عن جرير بن عبد الله ، قال الترمذى : حديث حسن صحيح .

فتُفسده ، ولو تركتَه وشأنه لربما يهتدى إلى منهج الله .. إذن : أنت أفسدتَ الصالح ومنعت القابل للصلاح أن يُصلح .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ (٨٩) ﴾

قوله :

﴿ مِّنْ أَنفُسِهِمْ .. (٨٩) ﴾ [النحل]

يعنى من جنسهم . والمراد : أهل الدعوة إلى الله من الدُّعَاة والوعاظ والأئمة الذين بلّغوا الناس منهج الله ، هؤلاء سوف يشهدون أمام الله سبحانه على مَنْ قصّر فى منهج الله .

وقد يكون معنى :

﴿ مِّنْ أَنفُسِهِمْ .. (٨٩) ﴾ [النحل]

أى : جزء من أجزائهم وعضواً من أعضائهم ، كما قال تعالى :

﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) ﴾ [النور]

وقوله : ﴿ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا .. (٢١) ﴾ [فصلت]

والشهيد إذا كان من ذات الإنسان وبعض من أبعاضه فلا شكَّ أن حجته قوية وبيِّنته واضحة .

وقوله :

﴿وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَىٰ هَـٰؤُلاءِ .. (٨٩)﴾ [النحل]

أى : شهيداً على أمتك كأنه ﷺ شهيد على الشهداء .

﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ.. (٨٩)﴾ [النحل]

الكتاب : القرآن الكريم .. تبياناً : أى بياناً تاماً لكل ما يحتاجه الإنسان ، وكلمة (شىء) تُسمّى جنس الأجناس . أى : كل ما يُسمّى « شىء » فبيانُه فى كتاب الله تعالى .

فإنْ قال قائل : إنْ كان الأمر كذلك ، فلماذا نطلب من العلماء أن يجتهدوا ليُخرجوا لنا حُكْماً مُعيّناً ؟

نقول : القرآن جاء معجزة ، وجاء منهجاً فى الأصول ، وقد أعطى الحق تبارك وتعالى لرسوله ﷺ حقَّ التشريع ، فقال تعالى :

﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا .. (٧)﴾ [الحشر]

إذن : فسُنة الرسول ﷺ قَوْلاً أو فعْلاً أو تقريراً ثابتة بالكتاب ، وهى شارحة له ومُوضّحة ، فصلاة المغرب مثلاً ثلاث ركعات ، فأين هذا فى كتاب الله ؟ نقول فى قوله تعالى :

﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ .. (٧)﴾ [الحشر]

وقد بيَّن الرسول ﷺ هذه القضية حينما أرسل معاذ بن جبل

رضى الله عنه ـ قاضياً لأهل اليمن ، وأراد أن يستوثق من إمكانياته فى القضاء . فسأله : « بِمَ تقضى ؟ قال : بكتاب الله ، قال : فإنْ لم تجد ؟ قال : فبُسنة رسول الله ، قال : فإنْ لم تجد ؟ قال : أجتهد رأيى[1] ولا آلو ـ أى لا أُقصّر فى الاجتهاد .

فقال ﷺ : « الحمد لله الذى وفَّق رسولَ رسولِ الله لما يُرضى الله ورسوله »[2] .

إذن : فالاجتهاد مأخوذ من كتاب الله ، وكل ما يستجد أمامنا من قضايا لا نصّ فيها ، لا فى الكتاب ولا فى السنة ، فقد أبيح لنا الاجتهادُ فيها .

ونذكر هنا أن الإمام محمد عبده[3] ـ رحمه الله ـ حُدِّث عنه وهو فى باريس أن أحد المستشرقين قال له : أليس فى آيات القرآن :

﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ .. (٣٨)﴾ [الأنعام]

قال : بلى ، قال له : فهات لى من القرآن : كم رغيفاً يوجد فى أردب القمح ؟

---

(١) قال الخطابى فى « معالم السنن » : « يريد الاجتهاد فى رد القضية من طريق القياس إلى معنى الكتاب والسنة ، ولم يرد الرأى الذى يسنح له من قبل نفسه أو يخطر بباله من غير أصل من كتاب أو سنة ، وفى هذا إثبات القياس وإيجاب الحكم به » . نقله شمس الحق العظيم آبادى فى « عون المعبود شرح سنن أبى داود » (٩/٣٦٩) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٥/٢٣٠ ، ٢٣٦ ، ٢٤٢) ، وأبو داود فى سننه (٣٥٨٧) ، والترمذى فى سننه (١٣٢٧) من حديث معاذ بن جبل رضى الله عنه .

(٣) مفتى الديار المصرية ، من كبار رجال الإصلاح والتجديد فى الإسلام ، ولد ١٨٤٩ م فى قرية من قرى الغربية بمصر ، تعلم بالجامع الأحمدى بطنطا ثم الأزهر ، له « تفسير القرآن الكريم » ورسالة التوحيد . أصدر مع الأفغانى جريدة « العروة الوثقى » فى باريس ، توفى بالأسكندرية عام ١٩٠٥ عن ٥٦ عاما . [الأعلام للزركلى ٦/٢٥٢] .

فقال الشيخ : نسأل الخباز فعنده إجابة هذا السؤال .. فقال المستشرق : أريد الجواب من القرآن الذى ما فرط فى شىء ، فقال الشيخ : هذا القرآن هو الذى علَّمنا فيما لا نعلم أن نسأل أهل الذكر ، فقال :

﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٧)﴾ [الأنبياء]

إذن : القرآن أعطانى الحجة ، وأعطانى ما أستند إليه حينما لا أجد نصاً فى كتاب الله ، فالقرآن ذكر القواعد والأصول ، وأعطانى حَقَّ الاجتهاد فيما يعِنّ لى من الفروع ، وما يستجدّ من قضايا ، وإذا وُجِد فى القرآن حكم عام وجب أن يُؤخذ فى طيّه ما يُؤخذ منه من أحكام صدرت عن رسول الله ﷺ ؛ لأن الله وكله.

فقال :

﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا .. (٧)﴾ [الحشر]

وكذلك الإجماع من الأمة ؛ لأن الله تعالى قال :

﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ[1] مَا تَوَلَّىٰ .. (١١٥)﴾ [النساء]

وكل اجتهاد يُرَدُّ إلى أهل الاجتهاد :

﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ .. (٨٣)﴾ [النساء]

---

(١) نوله ما تولى : أى نوجهه إلى ما أحب ، أى : نيسره إلى ما فضله ، فنتركه فى ضلاله الذى آثره وأحبه ، أو نمكنه من السير فى ضلاله حتى يلقى جزاءه . [القاموس القويم ٢/٣٥٩] .

إذن : فكلّ ما صدر عن الرسول ﷺ وعن الإجماع وعن الأئمة المجتهدين موجود فى القرآن ، فهو إذن صادق .

ويجب هنا أن نُفرّق بين الأشياء والقضايا فهى كثيرة ، فما الذى يتعرّض له القرآن ؟ يتعرض القرآن للأحكام التكليفية المطلوبة من العبد الذى آمن بالله ، وهناك أمور كونية لا يتأثر انتفاع الإنسان بها بأنْ يعلمها ، فهو ينتفع بها سواء علمها أو جهلها ، فكوْنُ الأرض كُروية الشكل ، وكَوْنها تدور حول الشمس ، وغير هذه الأمور من الكونيات إنْ علمها فبها ونعمتْ ، وإنْ جهلها لا يمنعه جهله من الانتفاع بها .

فالأُميّ الذى يعيش فى الريف مثلاً ينتفع بالكهرباء ، وهو لا يعلم شيئاً عن طبيعتها وكيفية عملها ، ومع ذلك ينتفع بها ، مجرد أن يضع أصبعه على زِرّ الكهرباء تُضىء له .

فلو أن الحق تبارك وتعالى أبان الآيات الكونية إبانةً واضحة ربما صَدَّ العرب الذين لا يعرفون شيئاً عن حركة الكون ، وليس لديهم من الثقافة ما يفهمون به مقاصد القرآن حول الآيات الكونية ؛ ولذلك سألوا رسول الله ﷺ عن الأهلّة ، كما حكى القرآن الكريم :

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ .. (١٨٩) ﴾ [البقرة]

والأهلة : جمع هلال ، وهو ما يظهر من القمر فى بداية الشهر حيث يبدو مثل قلامة الظفر ، ثم يزداد تدريجياً إلى أنْ يصل إلى مرحلة البدر عند تمام استدارته ، ثم يتناقص تدريجياً أيضاً إلى أنْ يعودَ إلى ما كان عليه ، هذه عجيبة يرونها بأعينهم ، ويسألون عنها .

ولكن ، كيف رَدَّ عليهم القرآن ؟ لم يُوضح لهم القرآن الكريم كيف يحدث الهلال ، وأن الأرض إذا حالَتْ بين الشمس والقمر وحجبت عنه ضوء الشمس نتج عن ذلك وجود الهلال ومراحله المختلفة .

فهذا التفصيل لا تستوعبه عقولهم ، وليس لديهم من الثقافة ما يفهمون به مثل هذه القضايا الكونية ؛ لذلك يقول لهم : اصرفوا نظركم عن هذه ، وانظروا إلى حكمة الخالق سبحانه فى الأهلة :

﴿قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ .. (١٨٩)﴾ [البقرة]

فردّهم إلى أمر يتعلق بدينهم التقليدى ، فاهتمّ ببيان الحكمة منها ، وفى نفس الوقت ترك هذه المسألة للزمن يشرحها لهم ، حيث سيجدون فى القرآن ما يُعينهم على فَهْمْ هذا الموضوع .

إذن : قوله تعالى :

﴿مِن شَيْءٍ .. (٣٨)﴾ [الأنعام]

أى : من كل شىء تكليفىّ ، إنْ فعله المؤمن أثيب ، وإنْ لم يفعله يُعاقب ، أما الأمور الكونية فيعطيهم منها على قدر وَعْيهم لها ، ويترك للزمن مهمة الإبانة بما يحدث فيه من فكر جديد .

لذلك نرى القرآن الكريم لم يفرغ عطاءه كله فى القرن الذى نزل فيه ، فلو فعل ذلك لاستقبل القرون الأخرى بغير عطاء ، فالعقول تتفتّح على مَرِّ العصور وتتفتّق عن فكر جديد ، ولا يصح أنْ يظلّ العطاء الأول هو نفسه لا يتجدد ، لابُدّ أن يكون لكل قرن عطاء جديد يناسب ارتقاءات البشر فى علومه الكونية .

والرسول ﷺ حينما رأى الناس يُؤبّرون النخل ، أى : يُلقّحونه . وهو ما يُعرف بعملية الإخصاب ، حيث يأخذون من الذكر ويضعون فى الأنثى ، فماذا قال لهم ؟ قال : لو لم تفعلوا لأثمر ، ففى الموسم القادم تركوا هذه العملية فلم يُثمر النخل ، فلما سئل ﷺ فى ذلك قال : « أنتم أعلم بشئون دنياكم »[(١)] .

فهذا أمر دنيوى خاضع للتجربة ووليد بَحْث معملىّ ، وليس من مهمة الرسول ﷺ توضيح هذه الأمور التى يتفق فيها الناس وتتفق فيها الأهواء ، إنما الأحكام التكليفية التى تختلف فيها الأهواء ، فحسمها الحق بالحكم .

فمثلاً فى العالم موجاتٌ مادية تهتم بالاكتشافات والاختراعات والاستنباطات التى تُسخر أسرار الكون لخدمة الإنسان ، فهل يختلف الناس حول مُعْطيات هذه الموجة المادية ؟ هل نقول مثلاً : هذه كهرباء أمريكانى ، وهذه كهرباء روسى ؟ هل نقول : هذه كيمياء إنجليزى ، وهذه كيمياء ألمانى ؟

فهذه مسألة وليدة المعمل والتجربة يتفق فيها كل الناس ، فى حين نجدهم يختلفون فى أشياء نظرية ويتحاربون من أجلها ، فهذه اشتراكية ، وهذه رأسمالية ، وهذه وجودية ، وتلك علمانية .. الخ ، فجاء الدين ليحسمَ ما تختلف فيه الأهواء .

لذلك نرى كل معسكر يحاول أنْ يسرقَ ما توصّل إليه المعسكر الآخر من اكتشافات واختراعات ، ويرسل جواسيسه ليتابعوا أحدث

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٣٦٣) من حديث أنس بن مالك أن النبى ﷺ مرَّ بقوم يلقحون . فقال : لو لم تفعلوا لصلح . قال : فخرج شيصاً فمر بهم فقال : ما لنخلكم ؟ قالوا : قلت كذا وكذا . قال : « أنتم أعلم بأمر دنياكم » .

ما توصّل إليه غيرهم ، فهل يسرقون الأمور النظرية أيضاً ؟ لا .. بل على العكس تجدهم يضعون الحواجز والاحتياطات لكى لا تنتقل هذه المبادىء إلى بلادهم وإلى أفكار مواطنيهم .

وقد جعل الرسول ﷺ من نفسه مثالاً ونموذجاً لتوضيح هذه المسألة ، مع أنه قد يقول قائل : لا يصح فى حَقّ رسول الله أن يُشير على الناس بشىء ويتضح خطأ مشورته ، إنما الرسول هنا يريد أنْ يُؤصّل قاعدة فى نفوس المتكلمين فى شئون الدين : إياكم أنْ تُقحموا أنفسكم فى الأمور المادية المعملية التطبيقية ، فهذه أمور يستوىَ فيها المؤمن والكافر .

ولذلك عندما اكتشف العلماء كُروية الأرض ، وأنها تدور حول الشمس اعترض على ذلك بعض رجال الدين ووضعوا أنوفهم فى قضية لا دَخْل للدين فيها ، وقد حذرهم رسول الله ﷺ من ذلك .

وما قولكم بعد أن صعد العلماء إلى كواكب أخرى ، وصوروا الأرض ، وجاءت صورتها كُروية فعلاً ؟ فلا تفتحوا على أنفسكم باسم الدين باباً لا تستطيعون غَلْقه .

وقوله تعالى :

﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [النحل]

الحق تبارك وتعالى وصف القرآن هنا بأنه (هُدىً) ، فإذا كان القرآن قد نزل تبياناً فكان التوافق يقتضى أن يقول : وهادياً ، لكن لم يَصف القرآن بأنه هاد ، بل هُدىً ، وكأنه نفس الهدى ؛ لأن هادياً ذاتٌ ثبت لها الهداية ، إنما هُدى : يعنى هو جوهر الهدى ، كما

نقول : فلان عادل . وفى المبالغة نقول : فلان عَدْل . كأن العَدْل مجسّم فيه ، وليس مجرد واحد ثبتت له صفة العدل .

وكذلك مثل قولنا عالم وعليم ، وقد قال تعالى :

﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ (٧٦) ﴾ [يوسف]

فما معنى الهدى ؟ هو الدلالة على الطريق الموصّل للغاية من أقرب الطرق .

﴿ ورَحْمَة ﴾ مرّة يُوصَف القرآن بأنه رحمة ، ومرة بأنه :

﴿ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ .. (٨٢) ﴾ [الإسراء]

والشفاء : أن يُوجد داء يعالجه القرآن ، والرحمة : هى الوقاية التى تمنع وجود الداء ، وما دام القرآن كذلك فَمَنْ عمل بمنهجه فقد بُشِّر بالثواب العظيم من الله تعالى ، الثواب الخالد فى نعيم دائم .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٩٠) ﴾

للحق تبارك وتعالى فى هذه الآية ثلاثة أوامر : العدل ، والإحسان ، وإيتاء ذى القُرْبى . وثلاثة نَواه : عن الفحشاء والمنكر والبغى . ولما نزلت هذه الآية قال ابن مسعود : أجمعُ آيات القرآن للخير هذه

الآية[١] لأنها جمعتْ كل الفضائل التى يمكن أن تكون فى القرآن الكريم .

ولذلك سيدنا عثمان بن مظعون[٢] كان رسول الله ﷺ يحب له أن يُسلم ، وكان يعرض عليه الإسلام دائماً ، ورسول الله ﷺ لا يحب عَرْض الإسَلام على أحد إلا إذا كان يرى فيه مخايل وشِيَماً تحسن فى الإسلام .

وكأنه ـ ﷺ ـ ضَنَّ بهذه المخايل أن تكون فى غير مسلم ، لذلك كان حريصاً على إسلامه وكثيراً ما يعرضه عليه ، إلا أن سيدنا عثمان بن مظعون تريَّث فى الأمر ، إلى أن جلس مع الرسول ﷺ فى مجلس ، فرآه رفع بصره إلى السماء ثم تنبه ، فقال له ابن مظعون : ما حدث يا رسول الله ؟ فقال : إن جبريل ـ عليه السلام ـ قد نزل علىَّ الساعة بقول الله تعالى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٩٠) ﴾ [النحل]

قال ابن مظعون ـ رضى الله عنه : فاستقر حبُّ الإيمان فى قلبى بهذه الآية الجامعة لكل خصال الخير[٣] .

ثم ذهب فأخبر أبا طالب ، فلما سمع أبو طالب ما قاله ابن مظعون فى هذه الآية قال : يا معشر قريش آمِنُوا بالذى جاء به محمد ، فإنه قد جاءكم بأحسن الأخلاق[٤] .

---

(١) أورده القرطبى فى تفسيره (٥/٣٨٩٢) .

(٢) هو : عثمان بن مظعون الجمحى ، أبو السائب ، صحابى ، كان من حكماء العرب فى الجاهلية ، أسلم بعد ثلاثة عشر رجلاً ، هاجر إلى أرض الحبشة مرتين ، شهد بدراً ، لما مات جاءه النبى ﷺ فقبله ميتاً ، حتى رؤيت دموعه تسيل على خد عثمان . [الأعلام للزركلى ٤/٢١٤] .

(٣) أورده السيوطى فى الدر المنثور (٥/١٥٩) وعزاه لأحمد والبخارى فى الأدب وابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه عن ابن عباس رضى الله عنهما ، وكذا أورده الواحدى فى أسباب النزول (١٦١) .

(٤) أورده القرطبى فى تفسيره (٥/٣٨٩١) أن أبا طالب قال : اتبعوا ابن أخى ، فوالله إنه لا يأمر إلا بمحاسن الأخلاق.

ويُروى أن رسول الله ﷺ وهو يعرض نفسه على قبائل العرب ، وكان معه أبو بكر وعلى ، قال على : فإذا بمجلس عليه وقار ومَهَابة ، فأقبل عليهم رسول الله ﷺ ودعاهم إلى شهادة ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فقام إليه مقرون بن عمرو وكان من شيبان ابن ثعلبة فقال : إلى أى شىء تدعونا يا أخا قريش ؟ فقال ﷺ :

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِى الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [النحل]

فقال مقرون : إنك دعوت إلى مكارم الأخلاق وأحسن الأعمال ، أفِكتْ[١] قريش إن خاصمتْك وظاهرتْ عليك .

أخذ عثمان بن مظعون هذه الآية ونقلها إلى عكرمة بن أبى جهل ، فأخذها عكرمة ونقلها إلى الوليد بن المغيرة ، وقال له : إن آية نزلت على محمد تقول كذا وكذا ، فأفكر[٢] الوليد بن المغيرة ـ أى : فكَّر فيما سمع ـ وقال : والله إن له لحلاوةً ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وإنه يعلو ولا يُعْلَى عليه ، وما هو بقول بشر[٣] .

ومع شهادته هذه إلا أنه لم يؤمن ، فقالوا : حَسْبُه أنه شهد للقرآن وهو كافر .

---

(١) الإفك : الكذب والإثم . والأفاك : الذى يأفك الناس أى يصدهم عن الحق بباطله . والمأفوك : المأفون وهو ضعيف العقل والرأى . [لسان العرب ـ مادة : أفك] .

(٢) فكرَ فى الشىء وأفكر فيه وتفكّر . بمعنى واحد . [لسان العرب ـ مادة : فكر] .

(٣) أورده القرطبى فى تفسيره (٣٨٩٢/٥) .

وهكذا دخلتْ هذه الآيةُ قلوبَ هؤلاء القوم ، واستقرتْ فى أفئدتهم ؛ لأنها آيةٌ جامعةٌ مانعةٌ ، دعَتْ لكل خير ، ونَهتْ عن كل شر .

قوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ ..(٩٠) ﴾ [النحل]

ما العدل ؟ العدل هو الإنصاف والمساواة وعدم الميْل ؛ لأنه لا يكون إلا بين شيئين متناقضين ، لذلك سُمِّى الحاكم العادل مُنْصفاً ؛ لأنه إذا مَثَّلَ الخصمان أمامه جعل لكل منهما نصفَ تكوينه ، وكأنه قسَم نفسه نصفين لا يميل لأحدهما ولا قَيْد شعرة ، هذا هو الإنصاف .

ومن أجل الإنصاف جُعِل الميزان ، والميزان تختلف دقّته حَسْب الموزون ، فحساسية ميزانِ البُرّ غير حساسية ميزان الجواهر مثلاً ، وتتناهى دقّة الميزان عند أصحاب صناعة العقاقير الطبية ، حيث أقلّ زيادة فى الميزان يمكن أن تحوّل الدواء إلى سُمٍّ ، وقد شاهدنا تطوراً كبيراً فى الموازين ، حتى أصبحنا نزن أقلّ ما يمكن تصوّره .

والعدل دائر فى كل أقضية الحياة من القمة فى شهادة ألا إله إلا الله إلى إماطة الأذى عن الطريق ، فالعدل مطلوب فى أمور التكليف كلها ، فى الأمور العقدية التى هى عمل القلب ، وكذلك مطلوب فى الأمور العملية التى هى أعمال الجوارح فى حركة الحياة .

فكيف يكون العدل فى الأمور العقدية ؟

لو نظرنا إلى معتقدات الكفار لوجدنا بعضهم يقول بعدم وجود

إله فى الكون ، فأنكروا وجوده سبحانه مطلقاً ، وآخرون يقولون بتعدُّد الآلهة ، هكذا تناقضتْ الأقوال وتباعدتْ الآراء ، فجاء العدل فى الإسلام ، فالإله واحد لا شريك له ، مُنزّه عَمّا يُشبه الحوادث ، كما وقف موقفَ العدل فى صفاته سبحانه وتعالى .

فلله سَمْع ، ولكن ليس كأسماع المحدثات ، لا ننفى عنه سبحانه مثل هذه الصفات فنكون من المعطّلة ، ولا نُشبّهه سبحانه بغيره فنكون من المشبِّهة ، بل نقول : ليس كمثله شىء ، ونقف موقف العَدْل والوسطية .

كذلك من الأمور العقدية التى تجلَّى فيها عدل الإسلام قضية الجبر والاختيار ، حيث اختار موقفاً وسطاً بين مَنْ يقول إن الإنسان يفعل أفعاله باختياره دون دَخْل لله سبحانه فى أعمال العبد ؛ ولذلك رتَّبَ عليها ثواباً وعقاباً . ومن يقول : لا ؛ بل كل الأعمال من الله والعبد مُجْبَر عليها .

فيأتى الإسلام بالعدالة والوسطية فى هذه القضية فيقول : بل الإنسان يعمل أعماله الاختيارية بالقوة التى خلقها الله فيه للاختيار .

وفى التشريع والأحكام حدث تبايُن كبير بين شريعة موسى عليه السلام وبين شريعة عيسى عليه السلام ـ فى القصاص مثلاً : فى شريعة موسى حيث طغتْ المادية على بنى إسرائيل حتى قالوا لموسى عليه السلام :

﴿أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً (١٥٣)﴾ [النساء]

فهم لا يفهمون الغيب ولا يقتنعون به ، فكان المناسب لهم

القصاص ولابُدّ ، ولو تركهم الحق سبحانه لَكَثُر فيهم القتل ، فهم لا ينتهون إلا بهذا الحُكْم الرادع : مَنْ قتَل يُقتلُ ، والقتل أنْفى للقتل .

وقد تعدّى بنو إسرائيل فى طلبهم رؤية الله ، فكوْنُك ترى الإله تناقض فى الألوهية ؛ لأنك حين تراه عينُك فقد حددّتَه فى حيّز .

إذن : كونه لا يرى عَيْن الكمال فيه سبحانه وتعالى . وكيف نطمع فى رؤيته جلَّ وعلاَ ، ونحن لا نستطيع رؤية حتى بعض مخلوقاته ، فالروح التى بين جَنْبى كل منّا ماذا نعرف عن طبيعتها وعن مكانها من الجسم ، وبها نتحرك ونزاول أعمالنا ، وبها نفكّر ، وبها نعيش ، أين هى ؟!

فإذا ما فارقتْ الروح الجسم وأخذ الله سره تحول إلى جيفة يسارع الناس فى مواراتها التراب . هل رأيت هذه الروح ؟ هل سمعتها ؟ هل أدركتها بأى حاسّة من حواسِّك ؟!

فإذا كانت الروح وهى مخلوقة لله يعجز العقل عن إدراكها ، فكيف بمَنْ خلق هذه الروح ؟ فمن عظمته سبحانه أنه لا تُدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار .

كذلك هناك أشياء مما يتطلبها الدين كالحق مثلاً ، وهو معنىً من المعانى التى يدّعيها كل الناس ، ويطلبون العمل بها ، هذا الحق ما شكْله ؟ ما لونه ؟ طويل أم قصير ؟! فإذا كُنّا لا نستطيع أن نتصوّر الحق وهو مخلوق لله سبحانه ، فكيف نتصور الله ونطمع فى رؤيته ؟!

ومن إسراف بنى إسرائيل فى المادية أن جعلوا لله تعالى فى التلمود جماعة من النقباء ، وجعلوه سبحانه قاعداً على صخرة يُدلى رِجْلَيْه فى قصعة من المرمر ، ثم أتى حوت .. الخ .. سبحان الله ؛ ألهذا الحدِّ وصلتْ بهم المادية ؟

ومن هنا كان الكون فى حاجة إلى طاقة روحية ، تكون هى أيضاً مُسرفة فى الروحانية ليحدث نوع من التوازن فى الكون ، فجاءت شريعة عيسى - عليه السلام - بعد مادية مُفْرطة وإسراف فى الموسَوية ، فكيف يكون حُكْم القصاص فيها وهى تهدف إلى أنْ تسموَ بروحانيات الناس ؟

جاءت شريعة عيسى عليه السلام تُهدّىء الموقف إذا حدث قتل ، فيكفى أن قُتِل واحد ولنستبقى الآخر ولا نثير ضجّة ، ونهيج الأحقاد والترة بين الناس ، فدَعَتْ هذه الشريعة إلى العفو عن القاتل .

ثم جاء الإسلام ووقف موقف العدل والوسطية فى هذا الحكم ، فأقرّ القصاص ودعا إلى العفو ، فأعطى ولىَّ المقتول حَقّ القصاص ، ودعاه فى نفس الوقت إلى العفو فى قوله تعالى :

﴿ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ .. (١٧٨) ﴾ [البقرة]

ونلاحظ هنا أن القرآن جعلهم إخوة لِيُرقّق القلوب ويُزيل الضغائن .

وللقصاص فى الإسلام حكَم عـالية ، فليس الهدف منه أن يُضخّم هذه الجريمة ، بل يهدف إلى حفظ حياة الناس كما قال تعالى :

﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَـٰأُوْلِي الأَلْبَابِ .. (١٧٩) ﴾ [البقرة]

فمن أراد أنْ يحافظَ على حياته فلا يُهدد حياة الآخرين .

وحينمـا يُعطى ربُّنا تبارك وتعـالى حقَّ القصـاص لولىّ المقـتول ويُمكّنه منه تبردُ ناره ، وتهدأ ثورته ، فيفكر فى العفو وهو قادر على الانتقام ، وهكذا ينزع هذا الحكمُ الـغِلَّ من الصدور ويُطفِىء نار الثأر بين الناس .

ولذلك نرى فى بعض البلاد الـتى تنتشر فيـها عمليـة الثأر يأتى القاتل حاملاً كفنه على يده إلى ولىّ المـقتول ، ويضـع نفسه بين يديه مُعترفاً بجريمته : ها أنا بين يديْك اقتلنى وهذا كفنِى .

مـا حدث ذلك أبداً إلا وعـفا صـاحب الحق وولىّ الدم ، وهذا هو العدل الذى جاء به الإسلام ، دين الوسطية والاعتدال .

هذا العفو من ولىّ الدم أداةُ بِـنَاء ، ووسيلة محبة ، فـحين نعطيه حَقّ القصاص ، ثم هو يعفو ، فقد أصـبحتْ حياة القاتل هبةً من ولىّ الدم ، فكأنه استـأثره واستبقـاه بعفوه عنه ، وهذا جمـيل يحفظه أهل القاتل ، ويقولون : هذا حقَن دم ابننا .

مـوقف آخـر لعدالة الإسـلام ووسطيـتـه نراها فى حُكْم الحـيض مثلاً ، فـفى شريعة موسى ـ عليه السلام ـ يُخـرج الزوج زوجته من البيت طوال مدة الحيض لا يجمعهما بيت واحد .

وفى شريعة عيسى ـ عليه السلام ـ لا مانع من وجودها فى البيت ، ولا مانع من معاشرتها والاستمتاع بها .

فجاء الإسلام بالعدل فى هذه القضية فقال : تبقى المرأة الحائض فى بيتها لا تخرج منه ، ولكن لا يقربها الزوج طوال مدة الحيض ، فقال تعالى :

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ (٢٢٢) ﴾ [البقرة]

وكذلك لو أخذنا الناحية الاقتصادية فى حياتنا ، والتى هى عصب الحياة ، والتى بها يتم استبقاء الحياة بالطعام والشراب والملْبس وغيره ، وبها يتم استبقاء النوع بالزواج ، وكُل هذا يحتاج إلى حركة إنتاج ، وإلى حركة استهلاك ، وبالإنتاج والاستهلاك تستمر الحياة ، ولو توقف أحدهما لحدث فى المجتمع بطالة وفساد .

وبناء عليه وزّع الحق سبحانه وتعالى المواهب بين العباد ، فما أعرفه أنا أخدم به الكل ، وما يعرفه الكل يَخدمنى به ، وهكذا تستمر حركة الحياة .

والكون الذى تعيش فيه أنت لك فيه مصالح وتُراودك فيه آمال ، فإنْ شاركتَ فى حركة الحياة واكتسبتَ المال الذى هو عصبُ الحياة فعليك أن تُوازنَ بين متطلباتك العاجلة وآمالك فى المستقبل .

فلو أنفقتَ جميع ما اكتسبت فى نفقاتك الحاضرة فقد ضيَّعتَ على نفسك تحقيق الآمال فى المستقبل ، فلن تجد ما تبنى به بيتاً مثلاً ، أو تشترى به سيارة ، أو ترتقى بمستواك ببعض كماليات الحياة .

وهذا ما نسميه الإسراف .

وفى المقابل ، كما لا يليق بك الإسراف حتى لا يبقى عندك شىء ، وكذلك لا يليق بك التقتير والبخل والإمساك فتكنز كل ما تكتسب ، ولا تنفق إلا ما يُمسك الرمَق ؛ لأنك فى هذه الحالة لن تساهم فى عملية الاستهلاك ، فتكون سبباً فى بطالة المجتمع وفساد حاله .

وقد عالج القرآن هذه القضية علاجاً دقيقاً فى قوله تعالى :

﴿وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا (٢٩)﴾ [الإسراء]

أى : لا تُمسك يدك بُخْلاً وتقتيراً ، فتكون ملُوماً من أهلك وأولادك ، ومن الدنيا من حولك ، فيكرهك الجميع ، وكذلك لا تبسط يدك بالإنفاق بَسْطاً يصل إلى حَدّ الإسراف والتبذير ، فيفوتك تحقيق الآمال وتتحسَّر حينما ترى المقتصد قد حقَّق ما لم تستطع أنت تحقيقه من آمال الحياة ، وترقّى هو فى حياته وأنت مُعْدم لا تملك شيئاً ، فكان عليك أن تدّخر جُزْءاً من كَسْبك يمكنك أن ترتقى به حينما تريد .

ولذلك قال تعالى :

﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ (٢٧)﴾ [الإسراء]

وقال : ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا[1] وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ

---

(١) قتر الرجل على عياله : ضيَّق عليهم فى النفقة . [القاموس القويم ٢/٩٩] .

قَوَامًا (٦٧) ﴾ [الفرقان]

إذن : فالعَدْل أمر دائر فى كل حركات التكليف ، سواء كان تكليفاً عَقَدياً ، أو تكليفاً بواسطة الأعمال فى حركة الحياة ، فالأمر قائم على الوسطية والاعتدال ، ومن هنا قالوا : خَيْر الأمور الوسط .

وقوله : ﴿ وَالإِحْسَانِ.. (٩٠) ﴾ [النحل]

ما الإحسان ؟

إذا كان العدل أن تأخذ حقَّك ، وأنْ تُعاقب بمثل ما عُوقبت به كما قال تعالى :

﴿ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ..(١٩٤) ﴾ [البقرة]

وقوله : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ .. (١٢٦) ﴾ [النحل]

فالإحسان أنْ تتركَ هذا الحق ، وأنْ تتنازلَ عنه ابتغاءَ وجه الله ، عملاً بقوله تعالى :

﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤) ﴾ [آل عمران]

والناس فى الإحسان على مراتب مختلفة حسب قدرة الإنسان واستعداده الخُلقى .

وأول هذه المراتب كظم الغيظ ، من كَظْم القِرْبة المملوءة ،

فـالإنسان يكظـم غَيْظه فى نفـسـه ، ويحتـمل مـا يَعـتلج بداخله على المذنب دون أن يـتعدَّى ذلك إلى الانفـعال والردّ بالمـثل ، ولكنه يظل يعانى ألم الغيظ بداخله وتتأجج ناره فى قلبه .

لذلك يحـسُن الترقى إلى المـرتبـة الأعلى ، وهى مرتبـة العفـو ، فيأتـى الإنسان ويقول : لماذا أدَعُ نفـسى فريسة لهذا الغـيظ ؟ لماذا أشغل به نفسى ، وأُقَـاسى ألمه ومرارته ؟ فيمـيل إلى أنْ يُريح نفسه ويقتلع جذور الغيظ من قلبه ، فيعفو عمَّنْ أساء إليه ، ويُخرِج المسألة كلها من قلبه .

فإن ارتقى الإنسان فى العـفو ، سعى إلى المرتبـة الثالثة ، وهى مـرتبة أن تُحـسن إلى مَنْ أسـاء إليك ، وتزيد عـمـا فرضَ لك حـيث تنازلتَ عن الردِّ بالمـثل ، وارتقيتَ إلى درجـة العارفيـن بالله ، فالذى اعتدى اعـتدى بقدرته ، وانتقم بما يناسـبه ، والذى ترقّى فى درجات الإحـسان ترك الأمـر لقـدرة الله تعالى ، وأيْـن قدرتُك من قـدرة ربك سبحانه وتعالى ؟

إذن : فالإحسان أجمل بالمؤمن ، وأفضل من الانتقام .

لكن كيف يصل الأمر إلى أنْ تعفوَ عمَّنْ أساء ، بل إلى أنْ تُحسِن إليه ؟

نقول : هَبْ أن لك ولديْن اعتدى أحـدهما على الآخر وأساء إليه ، فماذا يكون موقفك منهما ؟ وإلى أيّهما يميل قلبك ؟

لا شكَّ أن القلب هنا يميل إلى المـعتدى عليه ، وقد يتـعدّى الأمر

إلى أنْ تُرضيه بهدية وتُريه من حنانك وألطافك ما يُذهب عنه ما يُعانى ، والسبب في ذلك إساءة أخيه له فهى التى عطفتْ قلبك إليه ، وعادتْ عليه بالهدايا والألطاف .

إذن : من الطبيعى أنْ يُحسنَ المعتَدى عليه إلى المعتدِى ، وأنْ يشكرَ له أنْ تسبَّب له فى هذه النعم ؛ ولذلك يقول الحسن البصرى - رحمه الله : أفلا أُحسِن لمن جعل الله فى جانبى ؟

فالإحسان : أنْ تصنع فوق ما فرض الله عليك ، بشرط أن يكونَ من جنس ما فرض الله عليك ، ومن جنس ما تعبَّدنا الله به ، فمثلاً تعبّدنا الله بخمس صلوات فى اليوم والليلة فلا مانعَ من الزيادة عليها من جنسها ، وكذلك الأمر فى الزكاة والصيام والحج . والإحسان هنا يكون بزيادة ما فرضه الله علينا .

وقد يكون الإحسان فى الكيفية دون زيادة فى العمل ، فلا أزيد مثلاً عن خمس صلوات ، ولكن أُحسِن ما أنا بصدده من الفرْض ، وأُتقِن ما أنا فيه من العمل ، وأُخلِص فى ذلك عملاً بحديث جبريل عليه السلام - حينما سأل رسول الله ﷺ عن الإحسان ، فقال : « الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكُنْ تراه فإنه يراك »[1] .

فعليك أن تستحضر فى عبادتك ربك عز وجل بجلاله وجماله وكماله ، فإنْ لم تصل إلى هذه المرتبة فلا أقلّ من أن تؤمن أنه يراك ويطلع عليك ، وهذه كافية لأنْ تُعطى العبادة حقّها ولا تسرق منها ،

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٠) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، وأخرجه مسلم فى صحيحه (٨) كتاب الإيمان من حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

فاللصُّ لا يجرؤ على سرقة البيت وهو يعلم أن صاحبه يراه ، فإذا كنا نفعل ذلك مع بعضنا البعض فيخشى أحدنا نظر الآخرين ، أيليق بنا أنْ نتجرأ على الله ونحن نعلم نظره إلينا ؟!

ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى فى الحديث القدسى :

« يا عبادى ، إنْ كنتم تعتقدون أنِّى لا أراكم فالخلَل فى إيمانكم ، وإنْ كنتم تعتقدون أنى أراكم ، فلِمَ جعلتمونى أهونَ الناظرين إليكم ؟ »

وقال بعضهم[1] فى معنى العدل والإحسان :

العدل : أن تستوى السريرة مع العلانية .

والإحسان : أن تعلو السريرة وتكون أفضل من العلانية .

والمنكر : إنْ علَتْ العلانية على السريرة .

وقوله تعالى : ﴿وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ .. (٩٠)﴾ [النحل]

إيتاء : أى إعطاء .

قالوا : لأن العالم حلَقات مقترنة ، فكل قادر حوله أقرباء ضُعَفاء محتاجون ، فلو أعطاهم من خيْره ، وأفاض عليهم مِمّا أفاض الله عليه

---

(١) قاله سفيان بن عيينة فيما نقله القرطبى عنه فى تفسيره (٥/٣٨٩٢) وقال ابن العربى :

- العدل بين العبد وبين ربه إيثار حقه تعالى على حظ نفسه ، وتقديم رضاه على هواه ، والاجتناب للزواجر ، والامتثال للأوامر .
- وأما العدل بينه وبين نفسه فمنعها مما فيه هلاكها ، ولزوم القناعة فى كل حال ومعنى .
- وأما العدل بينه وبين الخلق فبذل النصيحة ، وترك الخيانة فيما قلّ وكثر ، والإنصاف من نفسك لهم بكل وجه ، ولا يكون منك إساءة إلى أحد بقول ولا فعل ، لا فى سر ولا فى علن ، والصبر على ما يصيبك منهم من البلوى .

لَعَمّ الخير كل المجتمع ، وما وجدنا مُعْوزاً محتاجاً ؛ ذلك لأن هذه الدوائر ستشمل المجتمع كله ، كل قادر يُعطى مَنْ حوله .

وقد تتداخل هذه الدوائر فتلتحم العطاءات وتتكامل ، فلا نرى فى مجتمعنا فقيراً ، وقد حثتْ الآية على القريب ، وحنَّنَتْ عليه القلوب ؛ لأن البعيد عنك قريب لغيرك ، وداخل فى دائرة عطاء أخرى .

وقد يكون الفقير قريباً لعدة أطراف يأخذ من هذا ويأخذ من هذا ، وبذلك تتكامل الحياة وتستطرق موارد العيش لكل الناس .

وقالوا : المراد هنا قرابة النبى ﷺ ؛ لأن قرابة النبى ﷺ حرَّمتْ عليهم الزكاة التى أُحلّت لغيرهم من الفقراء ، وأصبح لهم مَيْزة يمتازون بها عن قرابة الرسول ، ولا يليق بنا أن نجعل قرابة رسول الله ﷺ فى حاجة إلى الزكاة ، وإنْ كان أقرباؤكم أصحابَ رحم ، فلا تنسوا أن قرابة رسول الله ﷺ أَوْلى من أرحامكم ، كما قال تعالى :

﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ .. ﴿٦﴾ ﴾ [الأحزاب]

هذه هى مجموعة الأوامر الواردة فى هذه الآية ، وإنَّ مجتمعاً يُنفِّذ مثل هذه الأوامر ويتحلّى بها أفراده ، مجتمع ترتقى فيه الاستعدادات الخُلقية ، إلى أن يترك الإنسان العقوبة والانتقام ويتعالى عن الاعتداء إلى العفو ، بل إلى الإحسان ، مجتمع تعمُّ فيه النعمة ، ويستطرق فيه الخير إلى كل إنسان .

إن مجتمعاً فيه هذه الصفات لَمجتمعٌ سعيد آمِنٌ يسوده الحب والإيمان والإحسان ، إنه لجدير بالصدارة بين أمم الأرض كلها .

وقوله :

﴿ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ ..(٩٠) ﴾ [النحل]

وهذه مجموعة من النواهى تمثل مع الأوامر السابقة منهجاً قرآنياً قويماً يضمن سلامة المجتمع ، وأُولى هذه النواهى النهى عن الفحشاء أو الفاحشة ، والمتتبع لآيات القرآن الكريم سيجد أن الزنا هو الذنب الوحيد الذى سماه القرآن فاحشة ، فهى إذن الزنا ، أو كل شىء يخدش حُكْماً من أحكام الله تعالى ، ولكن لماذا الزنا بالذات ؟

نقول : لأن كل الذنوب الأخرى غير الزنا إنما تتعلق بمحيطات النفس الإنسانية ، أما الزنا فيتعلّق بالنفس الإنسانية ذاتها ، ويترتب عليه اختلاط الأنساب وبه تدنَسُ الأعراض ، وبه يشكُّ الرجل فى أهله وأولاده ، ويحدث بسبب هذا من الفساد ما لا يعلمه إلا الله ؛ لذلك نصَّ عليه القرآن صراحة فى قوله تعالى :

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً (٣٢) ﴾ [الإسراء]

ومن أقوال العلماء فى الفاحشة : أنها الذنب العظيم الذى يخجل صاحبه منه ويستره عن الناس ، فلا يستطيع أنْ يُجاهر به ، كأنه هو نفسه حينما يقع فيه يعلم أنه لا يصحّ ، ولا ينبغى لأحد أن يطلع عليه .

(والمنكر) هو الذنب الذى يتجرّأ عليه صاحبه ، ويُجاهر به ، ويستنكره الناس .

إذن : لدينا هنا مرتبتان من الذنب :

الأولى : أن صاحبه يتحرّج أن يعرفه المجتمع فيستره فى نفسه ، وهذا هو الفحشاء .

والثانية: ما تعالم به صاحبه وأنكره المجتمع ، وهذا هو المنكر .

(والبـغْى) هـو الظلم فـى أىِّ لوْنٍ من ألوانه ، وهـو داخل فى أشيـاء كثيرة أعظمـها ما يقع فى العقـيدةً من الشرك بالله ، كمـا قال تعالى :

﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣) ﴾ [لقمان]

والظلم هنا أنْ تسلبَ الحق ـ تبارك وتعالى ـ صـفة من صفاته ، وتشرك مـعه غيره وهو خلقك ورزقك ، ومنه ظلم الرَسـول ﷺ حيث لم يُجرَّب عليه فى يوم من الأيام أنْ قال خطبة أو ألقى قصيدة ، كما لم يُجرَّب عـليه الكذب أو غيـره من الصفـات الذميمـة ، ومع هذا كله قالوا عنه حينمـا نزل عليه القرآن كذاب وسـاحر ومجنون ، وأىُّ ظلم أعظم من هذا ؟

ومن الظلم ظُلْم الإنسـان لنفسـه حينمـا يُحقِّق لهـا شهوة عـاجلة ومُتعـةً زائفة ، تُورثه ندماً وحَسْرة وألمـاً آجلاً ، وبذلك يكون قد ظلم نفسه ظلماً كبيراً وجَرَّ عليها ما لا تطيق ، ذلك فَضْلاً عن ظلم الإنسان لغيره بشتى أنواع الظلم وأشكاله .

إذن : الآية انتظمتْ مـجمـوعة مـن الأوامر والنواهى التى تضـمن سلامة المجتمع بمـا جمعتْ من مكارم الأخلاق ، والأخلاق أعمُّ من أن تكون فى الاعـتقادات ، وأعمُّ مـن أن تكون فى المعـجزة إيمانـاً بها ، وأعمُّ مـن أن تكون فى التكـاليف ، وأعمُّ من أن تكون فى أمـر لا حَدَّ فيه ولا حُكْمَ ولا إثم .

وقوله :

﴿ يَعِظُكُمْ ..(٩٠) ﴾ [النحل]

الوعظ : تذكير بالحكم ، فعندنا أولاً إعلام بالحكم لكى نعرفه ، ولكنه عُرْضة لأنْ نغفلَ عنه ، فيكون الوعظ والتذكير به ، ونحتاج إلى تكرار ذلك حتى لا نغفل .

وعادة لا تكون العظَة إلا فيما له قيمة ، ومادام الشىء له قيمة فلا تصطفى له إلا مَنْ تحب ، كذلك الحق ـ تبارك وتعالى ـ يحب خَلْقه وصَنْعته ؛ لذلك يَعظهم ويُذكِّرهم باستمرار لكى يكونوا دائماً على الجادة ليتمتعوا بنعم المسبِّب فى الآخرة ، كما تمتعوا بنعمة الأسباب فى الدنيا .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ ﴾

الوفاء : أنْ تفىَ بما تعاهدتَ عليه ، والعهود لا تكون فى المفروض عليك ، إنما تكون فى المباحات ، فأنت حُرٌّ أنْ تلقانى غداً وأنا كذلك ، لكن إذا اتفقنا وتعاهدنا على اللقاء غداً فى الساعة كذا ومكان كذا فقد تحوَّل الأمر من المباح إلى المفروض ، وأصبح كُلٌّ منّا ملزماً بأن يفى بعهده ؛ لأن كل واحد منّا عطَّل مصالحه ورتَّب أموره على هذا اللقاء ، فلا يصح أنْ يفىَ أحدنا ويُخلف الآخر ، لأن ذلك يتسبب فى عدم تكافؤ الفُرص ، ومعلوم أن مصالح العباد فى الدنيا قائمة على الوفاء بالعهد .

وقد ينظر البعض إلى الوفاء بالعهد على أنه مُلْزَمٌ به وحده ، أو أنه عبْءٌ عليه دون غيره ، لكنه فى الحقيقة عليك وعلى غيرك ، فكما طلب منك الوفاء طلبه كذلك من الآخرين ، فكلّ تكليف لك لا تنظر إليه هذه النظرة ، بل تنظر إليه على أنه لصالحك .

فمن أخذ التكاليف وأحكام الله من جانبه فقط يتعب ، فالحق - تبارك وتعالى - كما كلفك لصالح الناس فقد كلّف الناس جميعاً لصالحك ، فحين نهاك عن السرقة مثلاً إياك أنْ تظنّ أنه قيّد حريتك أمام الآخرين ؛ لأنه سبحانه نهى جميع الناس أن يسرقوا منك ، فمَن الفائز إذن ؟ أنا قيَّدت حريتك بالحكم ، وأنت فرْد واحد ، ولكنى قيّدتُ جميع الخلق من أجلك .

كذلك حين أمرك الشرع بغضٍّ بصرك عن محارم الناس ، أمر الناس جميعاً بغضٍّ أبصارهم عن محارمك[1] . إذن : لا تأخذ التكليف على أنه عليك ، بل هو لك ، وفى صالحك أنت .

كثيرون من الأغنياء يتبرّمون من الإنفاق ، ويضيقون بالبذْل ، ومنهم مَنْ يَعُد ذلك مَغْرماً لأنه لا يدرى الحكمة من تكليف الأغنياء بمساعدة الفقراء ، لا يدرى أننا نُؤمِّن له حياته .

وها نحن نرى الدنيا دُوَلاً وأغياراً ، فكم من غنىٍّ صار فقيراً ، وكم من قوى صار ضعيفاً .

إذن : فحينما يأخذ منك وأنت غنىّ نُطمئنك : لا تخَفْ إذا ضاقتْ

---

(١) قال تعالى : ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ .. ﴿٣١﴾﴾ [النور] .

بك الحال ، وإذا تبدّل غناك فقراً ، فكما أخذنا منك فى حال الغنى سنُعطيك فى حال الفقر ، وهكذا يجب أن تكون نظرتنا إلى الأمور التكليفية .

وقوله تعالى :

﴿بِعَهْدِ اللَّهِ ..(٩١)﴾ [النحل]

عهد الله : هو الشىء الذى تعاهد الله عليه ، وأول عَهْد لك مع الله تعالى هو الإيمان به ، وما دُمْتَ قد آمنتَ بالله فانظر إلى ما طلبه منك وما كلّفك به ، وإياك أن تُخلّ بأمر من أموره ؛ لأن الاختلالَ فى أىّ أمر تكليفى من الله يُعَدُّ نَقْصاً فى إيمانك ؛ لأنك حينما آمنت بالله شهدتَ بما شهد الله به لنفسه سبحانه فى قوله تعالى :

﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ (١٨)﴾ [آل عمران]

فأوّل مَنْ شهد الله سبحانه لنفسه ، وهذه شهادة الذات للذات (والملائكة) أى : شهادة المشاهدة (وأُولُوا العِلْم) أى : بالدليل والحجة .

إذن : فأوّل عَهْد بينك وبين الله تعالى أنك آمنتَ به إلهاً حكيماً قادراً خالقاً مُربِّياً ، فاستمع إلى ما يطلبه منك ، فإنْ لم تستمع وتُنفّذ فاعلم أن العهد الإيمانى الأول قد اختلَّ .

ولذلك ، فالحق ـ تبارك وتعالى ـ لم يُكلِّف الكافر ، لأنه ليس بينه وبينه عهد ، إنما يُكلِّف مَنْ آمن ، فتجد كل آية من آيات الأحكام تبدأ بهذا النداء الإيمانى :

﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا .. (١٨٣) ﴾ [البقرة]

كما فى قوله تعالى :

﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ .. (١٨٣) ﴾ [البقرة]

فيا مَنْ آمنتَ بى رَبّاً ، ورضيتنى إلهاً اسمع منِّى ؛ لأنى سأعطيك قانون الصيانة لحياتك ، هذا القانون الذى يُسعدك بالمسبِّب فى الآخرة بعد أن أسعدك بالأسباب فى الدنيا .

وقوله :

﴿ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا .. (٩١) ﴾ [النحل]

الأَيْمان : جمع يمين ، وهو الحلف الذى نحلفه ونُؤكِّد عليه فنقول : والله ، وعهد الله .. الخ . إذن : فلا يليق بك أنْ تنقضَ ما أكَّدته من الأَيْمان ، بل يلزمك أنْ تُوفِّى بها ؛ لأنك إنْ وفَّيت بها وُفِّى لك بها أيضاً ، فلا تأخذ الأمر من جانبك وحدك ، ولكن انظر إلى المقابل .

وكذلك العهد بين الناس بعضهم البعض مأخوذ من باطن العهد الإيمانى بالله تعالى ؛ لأننا حينما نتعاهد نُشهد الله على هذا العهد ، فنقول : بينى وبينك عَهْد الله ، فنُدخل بيننا الحق سبحانه وتعالى لنُوثِّق ما تعاهدنا عليه ، وربنا سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً .. (٩١) ﴾ [النحل]

أى : شاهداً ورقيباً وضامناً .

وقوله :

﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (٩١)﴾ [النحل]

أى : اعلم أن الله مُطَّلع عليك ، يعلم خفايا الضمائر وما تُكنّه الصدور ، فاحذر حينما تعطى العهد أن تعطيه وأنت تنوى أن تخالفه ، إياك أنْ تُعطى العهد خِداعاً ، فربُّك سبحانه وتعالى يعلم ما تفعل .

ثم يُعقِّب الحق سبحانه :

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا[1] تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا[2] بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٩٢)﴾

الحق تبارك وتعالى يضرب لنا فى هذه الآية مثلاً توضيحياً للذين ينقضون العهد والأيْمان ، ولا يُوفون بها ، بهذه المرأة القرشية الحمقاء ريْطة بنت عامر ، وكانت تأمر جواريها بغزل الصوف من الصبح إلى الظهر ، ثم تأمرهُنَّ بنقض ما غزلنه من الظهر حتى العصر[3] ، والمتأمل فى هذا المثل يجد فيه دروساً متعددة .

أولاً : ما الغزل ؟

---

(١) الأنكاث : جمع نكْث ، وهو الغزل يُحَلُّ بعد فتله وإحكامه . [القاموس القويم ٢/٢٨٤] .

(٢) الدَّخَل : المكر والخديعة والغدر وما يفعله من فسد باطنه وساءت سريرته . [القاموس القويم ١/٢٢٤] .

(٣) أورده القرطبى فى تفسيره (٥/٣٨٩٧) وعزاه للفراء . قال القرطبى : حكاه عبد الله بن كثير والسدى ولم يسميا المرأة . وقال مجاهد وقتادة : ذلك ضرْب مثل لا على امرأة معينة .

الغَزْل عملية كان يقوم بها النساء قديماً ، فكُنَّ يُحضِرْن المادة التى تصلح للغزل مثل الصوف أو الوبر ومثل القطن الآن ، وهذه الأشياء عبارة عن شعيرات دقيقة تختلف فى طولها من نوع لآخر يُسمُّونها التيلة ، فيقولون « هذه تيلة قصيرة » « وهذه طويلة » .

والغَزْل هو أن نُكوِّن من هذه الشعيرات خَيْطاً طويلاً ممتداً وانسيابياً دون عُقَد فيه لكى يصلح للنسْج بعد ذلك ، وتتم هذه العملية بآلة بدائية تسمى المغزل . تقوم المرأة بخلط هذه الشعيرات الدقيقة ثم بَرْمِها بالمغزل ، ليخرج فى النهاية خيطٌ طويلٌ مُنْسابٌ متناسق لا عُقَد فيه .

والآية هنا ذكرتْ المرأة فى هذا العمل ؛ لأنه عمل خاص بالنساء فى هذا الوقت دون الرجال ، فكانت المرأة تكنّ فى بيتها وتمارس مثل هذه الصناعات البسيطة التى تكوِّن منها أثاث بيتها من فَرْش وملابس وغيره .

وإلى الآن نرى المرأة التى تحافظ على كرامتها من زحمة الحياة ومُعْترك الاختلاط ، نراها تقوم بمثل هذا العمل النسائى .

وقد تطورْ المغزل الآن إلى ماكينة تريكو أو ماكينة خياطة ، مما يُيسِّر للنساء هذه الأعمال ، ويحفظهُنَّ فى بيوتهن ، وينشر فى البيت جَواً من التعاون بين الأم وأولادها ، وأمامنا مثلاً مشروع الأسر المنتجة حيث تشارك المرأة بجزء كبير فى رُقىِّ المجتمع ، فلا مانع إذن من عمل المرأة إذا كان عملاً شريفاً يحفظ عليها كرامتها ويصُون حرمتها .

فالقرآن ضـرب لنا مثلاً بعمل المرأة الجـاهلية ، هذا العمل الذى يحتـاج إلى جَهْد ووقت فى الغزل ، ويحـتاج إلى أكثر منه فى نَـقْضه وفكِّه ، فـهذه عمليـة شاقـة جداً ، وربمـا أمرت الجوارى بفـكِّ الغزل والنسيج أيضاً ؛ ولذلك أطلقوا عليها حمقاء قريش .

وقوله :

﴿ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ .. (٩٢) ﴾ [النحل]

كلمة قوة هنا تدلُّنا على المراحل التى تمرُّ بها عملية الغَزْل ، وكم هى شاقة ، بداية من جَزِّ الصوف من الغنم أو الوبر من الجمال ، ثم خَلْط أطراف كل تيلة من هذه الشعـيرات ، بحيث تكون طرف كل تيلة منها فى وسط الأخـرى لكى يتم التلاحم بينها بهـذا المزج ، ثم تدير المرأة المغزل بين أصابعها لتخـرج لنا فى النهاية بضعة سنتيمترات من الخيط ، ولو قارنَّا بين هذه العملية اليدوية ، وبين ما توصلتْ إليه صناعة الغزل الآن لَتبيَّن لنا كم كانت شاقة عليهم .

فكأن القـرآن الكريم شـبَّـه الذى يُعطِى العـهـد ويُوثِّقـه بالأيْمـان المؤكـدة ، ويجعل الله وكـيلاً وشاهـداً على ما يقول بالتـى غزلتْ هذا الغـزل ، وتحملت مـشـقتـه ، ثم راحتْ فنقـضت ما أنجـزته ، وفكَّتْ ما غزلته .

وكذلك كلمة (قوة) تدلُّناَ على أن كل عمل يحتاج إلى قوة ، هذه القوة إما أنْ تُحرِّك الساكن أو تُسكِّن المتحرِّك ؛ لذلك قال تعالى فى آية أخرى :

﴿ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ .. (٦٣) ﴾ [البقرة]

لأن ساكن الخير نريد أن نحركك إليه ، ومتحرك الشر نريد أن نكفك عنه .

وهذه يسمونها فى علم الحركة (قانون العطالة) المتحرك يظل مُتحرِّكاً إلى أنْ يعرضَ له شىء يُسكنه ، والساكن يظل ساكناً إلى أنْ يعرِضَ له شىء يُحرِّكه .

ومن هنا يتعجَّب الكثيرون من الأقمار الصناعية التى تدور أعواماً عدة فى الفضاء : ما الوقود الذى يُحرِّك هذه الأقمار طوال هذه الأعوام ؟

والواقع أنه لا يوجد وقود يحركها ، الوقود فى مرحلة الانطلاق فقط ، إلى أن يخرج من منطقة الهواء والجذْب ، فإذا ما استقرّ القمر أو السفينة الفضائية فى منطقة عدم الجذب تدور وتتحرك بنفسها دون وقود ، فهناك الشىء المتحرك يظل متحركاً ، والساكن يظل ساكناً .

والحق ـ تبارك وتعالى ـ بهذا المثَل المشَاهد يُحذرنا من إخلاف العهد ونقْضه ؛ لأنه سبحانه يريد أن يصونَ مصالح الخلق ؛ لأنها قائمة على التعاقد والتعاهد والأيْمان التى تبرم بينهم ، فمَنْ خان العهد أو نقضَ الأيْمان لا يُوثق فيه ، ولا يُطْمأنُ إلى حركته فى الحياة ، ويُسقطه المجتمع من نظره ، ويعزله عن حركة التعامل التى تقوم على الثقة المتبادلة بين الناس .

وقوله : ﴿ أَنكَاثًا ..(٩٢) ﴾ [النحل]

جمع نِكْث ، وهو ما نُقِض وحُلَّ فَتْله من الغزل .

وقوله :

﴿ تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ..(٩٢) ﴾ [النحل]

الدَّخَل : أنْ تدخل فى الشىء شيئاً أدنى منه من جنسه على سبيل الغشِّ والخداع ، كأن تدخل فى الذهب عيار ٢٤ قيراطاً مثلاً ذهباً من عيار ١٨ قيراطاً ، أو كأن تُدخِلَ فى اللوز مثلاً نَوى المشمش على أنه منه . فكأن الأيْمان القائمة على الصدق والوفاء يعطيها صاحبها وهو ينوى بها الخداع والغش ، فيحلف لصاحبه وهو يقصد تنويمه والتغرير به .

وقوله :

﴿ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ[1] ..(٩٢) ﴾ [النحل]

هذه هى العلة فى أنْ نتخذَ الأيْمان دَخَلاً فيما بيننا ، الأيْمان الزائفة الخادِعة ؛ ذلك لأن الذى باع نوى المشمش مثلاً على أنه لوز ، فقد أرْبى أى : أخذ أزيْد من حقه ونقص حَقَّ الآخرين ، فالعلة إذن فى الخداع بالأيْمان الطمع وطلب الزيادة على حساب الآخرين .

وقد تأتى الزيادة بصورة أخرى ، كأن تُعاهد شخصاً على شىء ما ، وأدَّيْتَ له بالعهود والأيْمان والمواثيق ، ثم عنَّ لك مَنْ هو أقوى منه سواء كان بالقهر والسلطان أو بالإغراء ، فنقضت العهد الأول لأن الثانى أرْبى منه وأزيد .

---

(١) قال مجاهد فى سبب نزول هذه الآية : نزلت فى العرب الذين كانت القبيلة منهم إذا حالفت أخرى ، ثم جاءت إحداهما قبيلة كثيرة قوية فداخلتها غدرت الأولى ونقضت عهدها ورجعت إلى هذه الكبرى [تفسير القرطبى ٣٨٩٨/٥] .

وفى مثل هذه المواقف يجب أن يأخذ الإنسان حذْره ، فمَنْ يُدريك لعله يُفعل بك كما فعلت ، ويُكال لك بنفس المكيال الذى كلْتَ به لغيرك ، فاحذر إذا تجرأتَ على خَلْق الله أن يُجَرِّىء الله عليك مَنْ يسقيك من نفس الكأس .

وإذا كنت صاحب حرفة أو صناعة ، فإياك أنْ تغُشَّ الناس ، وتذكَّر أن لك عندهم مصالح ، وفى أيديهم لك حرف وصناعات ، فإذا تجرأْتَ عليهم جرَّأهم الله عليك ؛ لأنه سبحانه يقول : أنا القيُّوم ، أى : القائم على أمركمْ ، فناموا أنتم فأنا لا أنام ، فهذه مسألة يجب أن نلحظها جيداً .

مَنْ تَجرّأ على الناس جرّأهم الله عليه ، ومَنْ أخلص عمله وأتقنه قذف الله فى قلوب الخلق أنْ يُتقنوا له حاجته .

وقوله :

﴿ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ..(٩٢) ﴾ [النحل]

أى : يختبركم الله تعالى بهذا العهد ، فهو سبحانه يعلم ما أنتم عليه ساعة أنْ عقدتم العهد ، أفِى نيتكم الوفاء ، أم فى نيتكم الغدر والخداع ؟

وهَبْ أنك تنوى الوفاء ثم عرضَ لك ما حال بينك وبينه ، فالله سبحانه يعلم حقائق الأمور ولا يخفَى عليه شىء .

إذن : الابتلاء هنا لا يعنى النكبة والبلاء ، بل يعنى مجرد الاختبار والنكبة والبلاء على الذى يفشل فى الاختبار ، فالعبرة هنا بالنتيجة .

وقوله :

﴿ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٩٢) ﴾ [النحل]

فيوم القيامة تجتمع الخصوم ، وتتكشَّف الحقائق ، ويأتى القضاء فيما اختلفنا فيه فى الدنيا ، وهَبْ أن إنساناً عمَّى على قضاء الأرض فى أشياء ، نقول له : إن عَمَّيْتَ على قضاء الأرض فلن تُعمىَ على قضاء السماء ، وانتظر يوماً نجتمع فيه ونحكم هذه المسائل[1] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٣) ﴾

لو حرف امتناع لامتناع . أى : امتناع وجود الجواب لامتناع وجود الشرط ، كما فى قوله تعالى :

﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا (٢٢) ﴾ [الأنبياء]

فقد امتنع الفساد لامتناع تعدّد الآلهة .

فلو شاء الله لجعلَ العالم كله أمةً واحدة على الحق ، لا على

---

(١) أخرج مسلم فى صحيحه (١٧١٣) كتاب الأقضية (٤) من حديث أم سلمة رضى الله عنها قالت قال رسول الله ﷺ : « إنكم تختصمون إلىَّ ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض ، فأقضى له على نحو ما أسمع منه ، فمن قطعت له من حق أخيه شيئاً فلا يأخذه ، فإنما أقطع له به قطعة من النار » .

الضلال ، أمةً واحدة فى الإيمان والهداية ، كما جعل الأجناس الأخرى أمةً واحدة فى الانصياع لمرادات الله منها .

ذلك لأن كل أجناس الوجود المخلوقة للإنسان قبل أن يفِدَ إلى الحياة مخلوقة بالحق خَلْقاً تسخيرياً ، فلا يوجد جنس من الأجناس تأبّى عما قصد منه ، لا الجماد ولا النبات ولا الحيوان .

كل هذه الأكوان تسير سَيْراً سليماً كما أراد الله منها ، والعجيب أن يكون الإنسان هو المخلوق الوحيد المختلّ فى الكون ، ذلك لما له من حرية الاختيار ، يفعل أو لا يفعل .

لذلك يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ .. (١٨) ﴾ [الحج]

هكذا تسجد كل هذه المخلوقات لله دون استثناء ، إلا فى الإنسان فقال تعالى :

﴿ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ .. (١٨) ﴾ [الحج]

فلماذا حدث هذا الاختلاف عند الناس ؟ لأنهم أصحاب الاختيار ، فيستطيع الواحد منهم أن يفعلَ أو لا يفعل ، هل هذه المسألة خرجت عن إرادة الله ، أم أرادها الله سبحانه وتعالى ؟

قالوا بأن الله زاول قدرته المطلقة فى خَلْق الأشياء المُسخرة ، بحيث لا يخرج شىء عما أريد منه ، وكان من الممكن أنْ يأتىَ

الإنسان على هذه الصورة من التسخير ، لكنه فى هذه الحالة لن يزيد شيئاً ، ولن يضيف جديداً فى الكون ، أليستْ الملائكة قائمة على التسخير ؟

فالتسخير يُثبِت القدرة لله تعالى ، فلا يخرج عن قدرته ولا عن مراده شىء ، لكن الاختيار يثبت المحبوبية لله تعالى ، وهذا فَرْقٌ يجب أنْ نتدبّره .

فمثلاً لو كان عندك عبدان أو خادمان أحدهما سعيد ، والآخر مسعود ، فأخذت سعيداً وقيَّدته إليك فى حبل ، فى حين تركت مسعوداً حراً طليقاً ، وحين أمرت كلاً منهما لَبَّى وأطاع ، فأىّ طاعة ستكون أحبّ إليك : طاعة القهر والتسخير ، أم الطاعة بالاختيار ؟

فكأن الحق تبارك وتعالى خلق الإنسان وكرَّمه بأنْ جعلَه مختاراً فى أنْ يطيعَ أو أنْ يعصىَ ، فإذا ما أتى طائعاً مختاراً ، وهو قادر على المعصية ، فقد أثبتَ المحبوبية لربه سبحانه وتعالى .

ولا بُدّ أنْ تتوافرَ للاختيار شروطٌ . أولها : العقل ، فهو آلة الاختيار ، كذلك لا يُكلّف المجنون ، فإذا توفّر العقل فلا بُدّ له من النُّضْج والبلوغ ، ويتمّ ذلك حينما يكون الإنسان قادراً على إنجاب مثْله ، وأصبحتْ له ذاتية مولده .

وهذه سمَة اكتمال الذات ؛ فهو قبل هذا الاكتمال ناقص التكوين ، وليس أهْلاً للتكليف ، فإذا كان عاقلاً ناضجاً بالبلوغ واكتمال الذات ، فلا بُدَّ له أن يكون مختاراً غَيْرَ مُكْره ، فإنْ أُكْره على الشىء فلن يسأل عنه ، فإن اختلَّ شَرْط من هذه الثلاثة فلا معنى للاختيار ، وبذلك يضمن الحق تبارك وتعالى للإنسان السلامة فى الاختيار .

والحق تبارك وتعالى وإن كرَّم الإنسان بالاختيار ، فمن رحمته به أنْ يجعلَ فيه بعض الأعضاء اضطرارية مُسخّرة لا دَخْلَ له فيها .

ولو تأملنا هذه الأعضاء لوجدناها جوهرية ، وتتوقف عليها حياة الإنسان ، فكان من رحمة الله بنا أنْ جعل هذه الأعضاء تعمل وتُؤدِّى وظيفتها دون أنْ نشعرَ .

فالقلب مثلاً يعمل بانتظام فى اليقظة والمنام دون أن نشعرَ به ، وكذلك التنفس والكُلَى والكبد والأمعاء وغيرها تعمل بقدرته سبحانه مُسخّرة ، كالجماد والنبات والحيوان .

ومن لُطْفِ الله بخَلْقه أنْ جعلَ هذه الأعضاء مُسخّرة ، لأنه بالله لو أنت مختار فى عمل هذه الأعضاء ، كيف تتنفس مثلاً وأنت نائم ؟!

إذن : من رحمة الله أنْ جعلكَ مختاراً فى الأعمال التى تعرِضُ لك ، وتحتاج فيها إلى النظر فى البدائل ؛ ولذلك يقولون : الإنسان أبو البدائل . فالحيوان مثلاً وهو أقرب الأجناس إلى الإنسان ليس لديْه هذه البدائل ولا يعرفها ، فإذا آذيتَ حيواناً فإنه يُؤذيك ، وليس لديه بديل آخر .

ولكن إذا آذيْت إنساناً ، فيحتمل أن يردّ عليك بالمثل ، أو بأكثر مما فعلتَ ، أو أقلّ ، أو يعفو ويصفح ، والعقل هو الذى يُرجِّح أحد هذه البدائل .

إذن : لو شاء الحق سبحانه وتعالى أن يجعل الناس أمة واحدة لجعلها ، كما قال تعالى :

﴿ أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا ﴿٣١﴾ ﴾ [الرعد]

ولكنه سبحانه وتعالى لم يشأْ ذلك ، بدليل قوله :

﴿ وَلَـٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ..(٩٣) ﴾ [النحل]

وهذه الآية يقف عندها المتمحِّكون ، والذين قَصُرَتْ أنظارهم فى فهْم كتاب الله ، فيقولون : طالما أن الله هو الذى يضلّ الناس ، فلماذا يُعذِّبهم ؟ ونتعجَّب من هذا الفهم لكتاب الله ونقول لهؤلاء : لماذا أخذتُمْ جانب الضلال وتركتُم جانب الهدى ؟ لماذا لم تقولوا : طالما أن الله بيده الهداية ، وهو الذى يهدى ، فلماذا يُدخلنا الجنة ؟

إذن : هذه كلمة يقولها المسرفون ؛ لأن معنى :

﴿ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِى مَن يَشَاءُ ..(٩٣) ﴾ [النحل]

أى : يحكم على هذا من خلال عمله بالضلال ، ويحكم على هذا من خلال عمله بالهداية ، مثل ما يحدث عندنا فى لجان الامتحان ، فلا نقول : اللجنة أنجحت فلاناً وأرسبت فلاناً ، فليست هذه مهمتها ، بل مهمتها أن تنظر أوراق الإجابة ، ومن خلالها تحكم اللجنة بنجاح هذا وإخفاق ذاك .

وكذلك الحق ـ تبارك وتعالى ـ لا يجعل العبد ضالاً ، بل يحكم على عمله أنه ضلال وأنه ضَالّ ؛ فالمعنى إذن : يحكم بضلال مَنْ يشاء ، ويحكم بهُدَى مَنْ يشاء ، وليس لأحد أن ينقلَ الأمر إلى عكس هذا الفهم ، بدليل قوله تعالى بعدها :

﴿ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٣) ﴾ [النحل]

فالعبد لا يُسأل إلا عَمَّا عملتْ يداه ، والسؤال هنا معناه حرية الاختيار فى العمل ، وكيف تسأل عن شىء لا دَخْل لك فيه ؟ فلنفهم ـ إذن ـ عن الحق تبارك وتعالى مُرَادَهُ من الآية .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلَكُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٩٤﴾ ﴾

وردتْ كلمة الدّخَل فى الآية قبل السابقة وقلنا : إن معناها : أن تُدخِلَ فى الشىء شيئاً أدْنى منه من جنسه على سبيل الغشِّ والخداع ، وإن كان المعنى واحداً فى الآيتين فإن الآية السابقة جاءت لتوضيح سبب الدَّخَل وعلّته ، وهى أن تكون أُمة أرْبى من أمة ، ويكسب أحد الأطراف على حساب الآخر . أما فى هذه الآية فجاءت لتوضيح النتيجة من وجود الدَّخَل ، وهى :

﴿ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا ..(٩٤) ﴾ [النحل]

ففى الآية نَهْىٌ عن اتخاذ الأيْمان للغش والخداع والتدليس ؛ لأن نتيجة هذا الفعل فساد يأتى على المجتمع من أساسه ، وفَقْد للثقة المتبادلة بين الناس والتى عليها يقوم التعامل ، وتُبنَى حركة الحياة ، فالذى يُعطى عهداً ويُخْلفه ، ويحلف يميناً ويحنث[1] فيه يشتهر عنه أنه مُخلِف للعهد ناقض للميثاق .

وبناءً عليه يسحب الناس منه الثقة فيه ، ولا يجرؤ أحد على

---

(١) حنث فى يمينه : لم يَفِ باليمين . [القاموس القويم ١/١٧٥] .

الصَّفَق[١] معه ، فيصبح مَهيناً ينفضُ الناس أيديهم منه ، بعد أنْ كان أميناً وأهلاً للثقة ومَحَلاً للتقدير[٢] .

هذا معنى قوله تعالى :

﴿فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا ..(٩٤)﴾ [النحل]

وبذلك يسقط حقُّه مع المجتمع ، ويحيق به سوء فِعْله ، ويجنى بيده ثمار ما أفسده فى المجتمع ، وبانتشار هذا الخلُق السيىء تتعطّل حركة الحياة ، وتضيع الثقة والأمانة .

إذن : هذه زَلَّة وكَبْوة بعد ثبات وقوة ، بعد أنْ كان أهْلاً للثقة صاحب وفاء بالعهود والمواثيق يُقبِل عليه الناس ، ويُحبُّون التعامل معه بما لديْه من شرف الكلمة وصِدْق الوعد ، فإذا به يتراجع للوراء ، ويتقهقر للخلف ، ويفقد هذه المكانة .

ولذلك نجد أهل المال والتجارة يقولون : فلان اهتزَّ مركزه فى السوق أى : زَلَّتْ قدمه بما حدث منه من نقْضٍ للعهود ، وحِنْث فى

---

(١) تصافقوا : تبايعوا . وصفق يده بالبيعة والبيع وعلى يده صفقاً : ضرب بيده على يده ، وذلك عند وجوب البيع . [لسان العرب ـ مادة : صفق] .

(٢) أخرج أبو داود فى سننه (٣٣٨١) والبيهقى فى السنن الكبرى (٧٨/٦) وكذا فى السنن الصغرى (٢٢٠١) والحاكم فى مستدركه (٥٢/٢) من حديث أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ : « يقول الله عز وجل : أنا ثالث الشريكين ما لم يخن أحدهما صاحبه ، فإذا خانه خرجت من بينهما » .

قال الطيبى رحمه الله : « الشركة عبارة عن اختلاط أموال بعضهم ببعض بحيث لا يتميز ، وشركة الله تعالى إياهما على الاستعارة ، كأنه تعالى جعل البركة والفضل والربح بمنزلة المال المخلوط ، فسمى ذاته تعالى ثالثهما » . نقله شمس الدين العظيم آبادى فى عون المعبود (١٧٠/٥) .

الأيمـان وغيـر ذلك ممـا لا يليق بأهل الثقـة فى السوق ، ومـثل هذا ينتهى به الأمر إلى أنْ يعلنَ إفلاسه فى دنيا التعامل مع الناس

أما الوفـاء بالعهود والمـواثيق والأيْمان فيـجعل قدمك فى حـركة الحياة ثابتـة لا تتزحزح ولا تهتزّ ، فـترى مال الناس جميـعاً مالَـه ، وتجد أصحـاب الأموال مقبلين عليك يضعـون أموالهم بين يديك ، بما تتمتع به من سمعة طيبة ونزاهة وأمانة فى التعامل .

ولذلك ، فالتـشريع الإسلامى حـينما شرع لنا الشـركة راعى هذا النوع من الناس الذى لا يملك إلا سمعة طيـبة وأمانة ونزاهة ووفاء ، هذا هو رأس مالهم ، فإنْ دخل شريك بما لدْيه من رأس المال ، فهذا شـريك بمـا لديْه من شـرف الكلمـة وشـرف السلوك ، ووجـاهة بين الناس ، وماضٍ مُشرِّف من التعامل .

وهذه يسمونها « شركة الوجـوه والأعيان » وهذا الوجيه فى دنيا المال والتجارة لم يأخذ هذه الوجاهة إلا بما اكتسبه من احترام الناس وثقتهم ، وبما له من سوابق فضائل ومكارم .

وكذلك ، قـد نرى هذه الثقـة لا فى شخص من الأشـخاص ، بل نراها فى مـاركة من المـاركات أو العـلامات التـجارية ، فنراها تُـبَاع وتُشْـترى ، ولها قيمـة غالية فى السـوق بما نالتْه من احـترام الناس وتقـديرهم ، وهذا أيضـاً نتـيجـة الصدق والالتـزام والأمانة وشـرف الكلمة .

وقوله تعالى :

﴿وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾﴾

[النحل]

السوء : أى العذاب الذى يسُوء صاحبه فى الدنيا من مهانة واحتقار بين الناس ، وكساد فى الحال ، بعد أنْ سقط من نظر المجتمع ، وهدم جِسْر الثقة بينه وبين مجتمعه .

وقوله تعالى :

﴿بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ .. ﴿٩٤﴾﴾ [النحل]

الحديث هنا عن الذين ينقضون العهود والأيْمان ولا يُوفُونَ بها ، فهل فى هذا صدٌّ عن سبيل الله ؟

نقول : أولاً إن معنى سبيل الله : كل شىء يجعل حركة الحياة منتظمة تُدَار بشرف وأمانة وصِدْق ونفاذ عهد .

ومن هنا ، فالذى يُخلف العهد ، ولا يفى بالمواثيق يعطى للمجتمع قدوة سيئة تجعل صاحب المال يضنُّ بماله ، وصاحب المعروف يتراجع ، فلو أقرضتَ إنساناً وغدرَ بكَ فلا أظنُّك مُقرِضاً لآخر .

إذن : لا شكَّ أن فى هذا صداً عن سبيل الله ، وتزهيداً للناس فى فعْل الخير .

وقوله تعالى :

﴿وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾﴾ [النحل]

فبالإضافة إلى ما حاقَ بهم من خسارة فى الدنيا ، وبعد أنْ زلَّتْ بهم القدم ، ونزل بهم من عذاب الدنيا ألوانٌ ما زال ينتظرهم عذاب عظيم أى فى الآخرة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٩٥) ﴾

الحق تبارك وتعالى فى هذه الآية ينهانا ويُحذِّرنا : إياك أنْ تجعلَ عَهْدَ الله الذى أكدته للناس ، وجعلت الله عليه كفيلاً ، فبعد أن كنت حُراً فى أن تعاهد أو لا تعاهد ، فبمجرد العهد أصبح نفاذه واجباً ومفروضاً عليك .

أو : عهد الله - أى - شرعه الذى تعاهدتَ - على العمل به والحفاظ عليه ، وهو العهد الإيمانى الأعلى ، وهو أن تؤمنَ بالله وبصدق الرسول فى البلاغ عن الله ، وتلتزم بكل ما جاء به الرسول من أحكام ، إياك أنْ تقابله بشىء آخر تجعله أغْلى منه ؛ لأنك إنْ نقضْتَ عهد الله لشىء آخر من متاع الدنيا الزائل فقد جعلتَ هذا الشىء أغلى من عهد الله ؛ لأن الثمن مهما كان سيكون قليلاً .

ثم يأتى تعليل ذلك فى قوله :

﴿ إِنَّمَا عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ .. (٩٥) ﴾ [النحل]

فالخير فى الحقيقة ليس فى متاع الدنيا مهما كَثُر ، بل فيما عند الله تعالى ، وقد أوضح ذلك فى قوله تعالى :

﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ (٩٦) ﴾ [النحل]

ولنا وقفة مع قوله تعالى :

﴿ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ .. (٩٥) ﴾ [النحل]

فهـذا أسلوب توكيـد بالقصر بإعـادة الضميـر (هو) ، فلم يَقُل الحق سبحانه إنمـا عند الله خير لكم ، فيحتمل أن مـا عند غيره أيضاً خيْرٌ لكم ، أمـا فى تعبير القـرآن ﴿ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ أى : الخير فـيما عند الله على سبيل القَصْر ، كما فى قوله تعالى :

﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ ﴾ [الشعراء]

فجاء بالضميـر « هو » ليؤكد أن الشافى هو الله لوجود مَظنّة أن يكون الشفاء من الطبيب ، أما فى الأشيـاء التى لا يُظَنّ فيها المشاركة فتأتى دون هذا التوكيد كما فى قوله تعالى :

﴿ وَالَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ ﴾ [الشعراء]

فلم يقل : هو يميتنى هو يُحيين ؛ لأنه لا يميت ولا يُحيى إلا الله ، فلا حاجةَ للتوكيد هنا .

ما الذى يُخرج الإنسان عن الوفاء بالعهد ؟

الذى يُخرج الإنسـان عن الوفاء بالعهـد أنْ يرى مصلحة سطحـية فوق ما تعاقـد عليه تجعله يخرج عما تعاهد عـليه إلى هذه السطحية ، ولكنه لو عــقل وتدبَّر الأمـر لعلـم أنّ مـا يسـعى إليــه ثمن بَخْسٌ ، ومكسب قليل زائل إذا مـا قارنـه بما ادخِـر له فى حالة الوفـاء ؛ لأن ما أخذه حظاً من دنياه لابُدّ له من زوال .

والعـقل يقـول : إن الشىء ، إذا كـان قليـلاً باقـيـاً يفضــل الـكثيـر الـذى لا يبقى ، فـما بالك إذا كان القليل هو الذى يفنى ، والكثـير هو الذى يبقى .

ومثال ذلك : لو أعطيتُك فاكهة تكفيك أسبوعاً أو شهراً فأكلتها فى يوم واحد ، فقد تمتعْتَ بها مرة واحدة ، وفاتَكَ منها مُتَعٌ وأكلاتٌ متعددة لو أكلتَها فى وقتها .

لذلك ؛ فالحق سبحانه وتعالى يُنبِّهك أنَّ ما عند الله هو الخير الحقيقى ، فجعل موازينك الإيمانية دقيقة ، فمن الحُمْق أن تبيع الكثير الباقى بالقليل الفانى :

﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٩٥)﴾ [النحل]

فى الآية دِقَّة الحساب ، ودِقّة المقارنة ، ودِقّة حَلِّ المعادلات الاقتصادية .

ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٦)﴾

يُوضِّح الحق تبارك وتعالى أن حظَّ الإنسان من دُنْياه عَرَضٌ زائل ، فإمَّا أنْ تفوته بالموت ، أو يفوتك هو بما يجرى عليك من أحداث ، أما ما عند الله فهو بَاق لا نفاد له .

﴿وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا .. (٩٦)﴾ [النحل]

كلمة ﴿ صَبَرُوا ﴾ تدلُّ على أن الإنسان سيتعرّض لهزَّات نفسية نتيجة ما يقع فيه من التردد بين الوفاء بالعهد أو نَقْضه ، حينما يلوح

له بريق المال وتتحرَّك بين جنباته شهوات النفس ، فيقول له الحق تبارك وتعالى : اصبر .. اصبر لا تكُنْ عَجُولاً ، وقارن المسائل مقارنة هادئة ، وتحمَّل كل مشقة نفسية ، وتغلّب على شهوة النفس ؛ لتصل إلى النتيجة المحمودة .

فالتلميذ الذى يجتهد ويتعب ويتحمّل مشقة الدرس والتحصيل يصبر على الشهوات العاجلة لما ينتظره من شهوات باقية آجلة ، فوراء الدرس والتحصيل غايةٌ أكبر وهَدَفٌ أسْمى .

ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا .. (٩٦) ﴾ [النحل]

أى : على مشقَّات الوفاء بالعهود .

﴿ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٦) ﴾ [النحل]

أى : أجراً بالزيادة فى الجزاء على أحسن ما يكون ؛ فالإنسان حين يعمل مفروضاً أو مندوباً فله الجزاء ، أما المباح فالمفروض ألا جزاء له ، ولكنّ فضل الله يجزى عليه أيضاً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (٩٧) ﴾

الحق تبارك وتعالى يُعطينا قضية عامة ، هى قضية المساواة بين الرجل والمرأة ، فالعهود كانت عادةً تقع بين الرجال ، وليس للمرأة

تدخُّل فى إعطاء العهود ، حتى إنها لما دخلتْ فى عهد مع النبى ﷺ يوم بيعة العقبة جعل واحداً من الصحابة يبايع النساء نيابة عنه[١]

إذن : المرأة بعيدة عن هذا المعترَك نظراً لأن هذا من خصائص الرجال عادةً ، أراد سبحانه وتعالى أن يقول لنا : نحن لا نمنع أن يكونَ للأنثى عملٌ صالح .

ولا تظنّ أن المسألة منسحبة على الرجال دون النساء ، فالعمل الصالح مقبول منْ الذكر والأنثى على حدٍّ سواء ، شريطة أنْ يتوفَّر له الإيمان ، ولذلك يقول تعالى :

﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ..(٩٧)﴾ [النحل]

وبذلك يكون العمل له جَدْوى ويكون مقبولاً عند الله ؛ ولذلك نرى كثيراً من الناس الذين يُقدِّمون أعمالاً صالحةً ، ويخدمون البشرية بالاختراعات والاكتشافات ، ويداوون المرضى ، ويبنون المستشفيات والمدارس ، ولكن لا يتوفر لهم شرط الإيمان بالله .

فنرى الحق تبارك وتعالى لا يبخس هؤلاء حقهم ، ولكن يُعجِّله لهم فى الدنيا ؛ لأنه لا حَظَّ لهم فى أجر الآخرة ، يقول تعالى :

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ (٢٠)﴾ [الشورى]

ويقول الحق سبحانه وتعالى :

---

(١) ذكر ابن هشام فى السيرة (٢/٤٦٦) أن رسول الله ﷺ كان لا يصافح النساء ، إنما كان يأخذ عليهن ، فإذا أقرْرنَ ، قال : اذهبن فقد بايعتكن .

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨)﴾ [الزلزلة]

وهذا كله خاصٌّ بأمور الدنيا ، فالذى يحسن شيئاً ينال ثمرته ، لكن فى جزاء الآخرة نقول لهؤلاء : لا حَظَّ لكم اليوم ، وخذوا أجركم ممَّنْ عملتُم له فقد عملتُم الخير للإنسانية للشهرة وخلود الذكْر ، وقد أخذتم ذلك فى الدنيا فقد خلَّدوا ذكْراكم ، ورفعوا شأنكم ، وصنعوا لكم التماثيل ، ولم يبخسوكم حقّكم فى الشُّهْرة والتكريم .

ويوم القيامة يواجههم الحق سبحانه وتعالى : فعلتم ليقال .. وقد قيل ، فاذهبوا وخذوا ممّنْ عملتم لهم[1] .

هؤلاء الذين قال الله فى حقهم :

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ[2] يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩)﴾ [النور]

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن أول الناس يُقضى يوم القيامة عليه رجل استُشهد فأتى به فعرفه نعمه فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : قاتلت فيك حتى استشهدت . قال : كذبت ، ولكنك قاتلت لأن يقال جرىء فقد قيل . ثم أُمر به فسُحب على وجهه حتى ألقى فى النار . ورجل تعلم العلم وعلمه ، وقرأ القرآن فأتى به فعرّفه نعمه فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن . قال : كذبت ، ولكنك تعلمت العلم ليقال : عالم ، وقرأت القرآن ليقال : هو قارىء فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه ، حتى ألقى فى النار » الحديث أخرجه مسلم فى صحيحه (١٩٠٥) وأحمد فى مسنده (٢/٣٢٢) .

(٢) القاع والقيعة : ما استوى من الأرض وانخفض عما يحيط به من الجبال والأكمات . [القاموس القويم ٢/١٣٧] والسراب : ما تراه فى نصف النهار فى الأرض الفضاء كأنه ماء وليس بماء . [القاموس القويم ١/٣٠٨] .

يُفاجأ يوم القيامة أن له إلهاً كان ينبغى أنْ يؤمن به ويعمل ابتغاء وجهه ومرضاته .

إذن : فالإيمان شَرْطٌ لقبول العمل الصالح ، فإذا ما توفر الإيمان فقد استوى الذّكَر والأنثى فى الثواب والجزاء .

يقول تعالى :

﴿ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً .. (٩٧) ﴾ [النحل]

هذه هى النتيجة الطبيعية للعمل الصالح الذى يبتغى صاحبه وجه الله والدار الآخرة ، فيجمع الله له حظين من الجزاء ، حظاً فى الدنيا بالحياة الطيبة الهانئة[1] ، وحظاً فى الآخرة :

﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٧) ﴾ [النحل]

ويقول الحق سبحانه :

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٩٨) ﴾

الاستعاذة : اللجوء والاعتصام بالله من شىء تخافُه ، فأنت لا تلجأ ولا تعتصم ، ولا تستجير ولا تستنجد إلا إذا استشعرتَ فى نفسك أنك ضعيف عن مقاومة عدوك .

فإذا كان عدوك الشيطان بما جعل الله له من قوة وسلطان ،

---

(١) نقل القرطبى فى تفسيره خمسة أقوال فى تأويل الحياة الطيبة :
الأول : الرزق الحلال ، قاله ابن عباس وسعيد بن جبير وعطاء .
الثانى : القناعة ، قاله الحسن البصرى وعلى بن أبى طالب .
الثالث : توفيقه إلى الطاعات ، فإنها تؤديه إلى رضوان الله . قال معناه الضحاك .
الرابع : الجنة ، قاله مجاهد وقتادة وابن زيد . قال الحسن البصرى : لا تطيب الحياة لأحد إلا فى الجنة .
الخامس : حلاوة الطاعة ، قاله أبو بكر الوراق .

وما له من مداخل للنفس البشرية فلا حَوْلَ لك ولا قُوّة فى مقاومته إلا أنْ تلجأ إلى الله القوى الذى خلقك وخلق هذا الشيطان ، وهو القادر وحده على رَدّه عنك ؛ لأن الشيطان فى معركة مع الإنسان تدور رحاها إلى يوم القيامة .

وقد أقسم الشيطان للحق تبارك وتعالى ، فقال :

﴿ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣) ﴾ [ص]

فما عليك إلا أن تكون من هؤلاء ، ما عليك إلا أنْ ترتمى فى حضن ربك عز وجل وتعتصم به ، فهو سبحانه القوى القادر على أنْ يدفعَ عنك ما لم تستطع أنت دَفْعه عن نفسك ، فلا تقاومه بقوتك أنت ؛ لأنه لا طاقة لك به ، ولا تدعه ينفرد بك ؛ لأنه إن انفرد بك وأبعدك عن الله فسوف تكون له الغلبة .

ولذلك نقول دائماً : لا حَوْلَ ولا قوةَ إلا بالله ، أى : لا حول : لا تحوُّل عن المعصية . ولا قوة . أى : على الطاعة إلا بالله .

ونحن نرى الصبى الصغير الذى يسير فى الشارع مثلاً قد يتعرَّض لمَنْ يعتدى عليه من أمثاله من الصبية ، أما إذا كان فى صُحْبة والده فلا يجرؤ أحد منهم أنْ يتعرضَ له ، فما بالك بمَنْ يسير فى صُحْبة ربه تبارك وتعالى ، ويُلْقى بنفسه فى حماية الله سبحانه ؟!

وفى مقام الاستعاذة بالله نذكر قاعدة إيمانية علَّمنا إياها

الرسول ﷺ فى حديثه الشريف : « من استعاذ بالله فأعيذوه »[١] .

فيلزم المؤمن أنْ يعيذ من استعاذ بالله ، وإنْ كان فى أحب الأشياء إليه ، والرسول ﷺ يعطينا القدوة فى ذلك ، حينما تزوج من فتاة[٢] على قدر كبير من الحسن والجمال لدرجة أن نساءه غِرْنَ منها ، وأخذْنَ فى الكَيْد لها وزحزحتها من أمامهن حتى لا تغلبهن على قلب النبى ﷺ ، ولكن كيف لهُنَّ ذلك ؟

حاولْنَ استغلال أن هذه الفتاة ما تزال صغيرة غِرة ، تتمتع بسلامة النية وصفاء السريرة ، ليس لديها من تجارب الحياة ما تتعلم منه لُؤْماً أو مكْراً ، وهى أيضاً ما تزال فى نشوة فرحتها بأنْ أصبحت أماً للمؤمنين ، وتحرص كل الحرص على إرضاء النبى ﷺ فاستغل نساء النبى ﷺ هذا كله ، وقالت لها إحداهن : إذا دخلتِ على رسول الله فقولى له : أعوذ بالله منك ، فإنه يحب هذه الكلمة .

أخذت الفتاة هذه الكلمة بما لديها من سلامة النية ، ومحبة لرسول الله ، وحرص على إرضائه ، وقالت له : أعوذ بالله منك ، وهى لا تدرى معنى هذه العبارة فقال ﷺ : « لقد عُذْت بمعاذ ، الحقى بأهلك »[٣] .

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (١/ ٢٥٠) ، وأبو داود فى سننه (٥١٠٨) والنسائى فى سننه (٥/ ٨٢) من حديث ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال « من استعاذ بالله فأعيذوه ، ومن سألكم بوجه الله فأعطوه » .

(٢) هى ابنة الجون . قال ابن حجر العسقلانى فى الفتح (٩/ ٣٥٧) : « الصحيح أن اسمها أميمة بنت النعمان بن شراحيل الكندية » .

(٣) أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٢٥٤ ـ ٥٢٥٧) ، وابن ماجة فى سننه (٢٠٥٠) من حديث عائشة رضى الله عنها .

أى : ما دُمْت استعذت بالله فأنا قبلت هذه الاستعاذة ؛ لأنك استعذت بمعاذ أى : بمن يجب علينا أن نتركك من أجله ، ثم طلقها النبى ﷺ امتثالاً لهذه الاستعاذة .

إذن : مَن استعاذ بالله لا بُدَّ للمؤمن أنْ يُعيذه ، ومن استجار بالله لا بُدَّ للمؤمن أن يكون جندياً من جنود الله ، ويجيره حتى يبلغ مأمنه .

وفى الآية الكريمة أسلوب شرط ، اقترن جوابه بالفاء فى قوله تعالى :

﴿ فَاسْتَعِذْ .. (٩٨) ﴾ [النحل]

فإذا رأيت الفاء فاعلم أن ما بعدها مترتبٌ على ما قبلها ، كما لو قُلْتَ : إذا قابلت محمداً فقُلْ له كذا .. فلا يتم القول إلا بعد المقابلة . أما فى الآية الكريمة فالمراد : إذا أردت قراءة القرآن فاستعذْ ؛ لأن الاستعاذة هنا تكون سابقة على القراءة ، كما جاء فى قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ .. (٦) ﴾ [المائدة]

فالمعنى : إذا أردتُمْ إقامة الصلاة فاغسلوا وجوهكم ، وكذلك إذا أردتَ قراءة القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم ؛ لأن القرآن كلام الله .

ولو آمنّا أن الله سبحانه وتعالى هو الذى يتكلم لعلمنا أن قراءة القرآن تختلف عن أى قراءة أخرى ، فأنت كى تقرأ القرآن تقوم بعمليات متعددة :

أولها : استحضار قداسة المُنْزِل سبحانه الذى آمنتَ به وأقبلتَ على كلامه .

ثانيها : استحضار صدق الرسول فى بلاغ القرآن المنزّل عليه .

ثالثها : استحضار عظمة القرآن الكريم ، بما فيه من أوجه الإعجاز ، وما يحويه من الآداب والأحكام .

إذن : لديك ثلاث عمليات تستعد بها لقراءة كلام الله فى قرآنه الكريم ، وكل منها عمل صالح لن يدعكَ الشيطانُ تؤديه دون أنْ يتعرَّض لك ، ويُوسوس لك ، ويصرفك عما أنت مُقبِلٌ عليه .

وساعتها لن تستطيع منعه إلا إذا استعنتَ عليه بالله ، واستعذتَ منه بالله ، وبذلك تكون فى معية الله منزل القرآن سبحانه وتعالى ، وفى رحاب عظمة المنزل عليه محمد صدقاً ، ومع استقبال ما فى القرآن من إعجاز وآداب وأحكام .

ومن هنا وجب علينا الاستعاذة بالله من الشيطان قبل قراءة القرآن .

ومع ذلك لا مانع من حَمْل المعنى على الاستعاذة أيضاً بعد قراءة القرآن ، فيكون المراد : إذا قرأتَ القرآن فاستعذ بالله .. أى : بعد القراءة ؛ لأنك بعد أن قرأتَ كتاب الله خرجتَ منه بزاد إيمانى وتجليّات ربانية ، وتعرَّضْتَ لآداب وأحكام طُلبت منك ، فعليك - إذن - أن تستعيذ بالله من الشيطان أن يفسد عليك هذا الزاد وتلك التجليات ، أو يصرفك عن أداء هذه الآداب والأحكام .

وقوله تعالى :

﴿مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٩٨)﴾ [النحل]

أى : الملعون المطرود من رحمة الله ؛ لأن الشيطان ليس مخلوقاً جديداً يحتاج أنْ نُجرّبه لنعرف طبيعته وكيفية التعامل معه ، بل له معنا سوابق عداء منذ أبينا آدم عليه السلام .

وقد حذر الله تعالى آدم منه فقال :

﴿يَـٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَـٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ..(١١٧)﴾ [طه]

وسبق أنْ رُجم ولُعِن وأُبعِد من رحمة الله ، فقد هددنا بقوله :

﴿لَأَحْتَنِكَنَّ[1] ذُرِّيَّتَهُۥٓ..(٦٢)﴾ [الإسراء]

إذن : هناك عداوة مسبقة بيننا وبينه منذ خُلِق الإنسان ، وإلى قيام الساعة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَـٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٩٩)﴾

لحكمة أرادها الخالق سبحانه أنْ جعل للشيطان سلطاناً . أى : تسلطاً .

---

(١) احتنك فلاناً : استولى عليه واستماله إليه فلا يخرج عن طوعه على المجاز ، كأنه وضعه فى حنكه فلا يفلت منه . وقوله معناه : أى لأملكن أمرهم وأستولى عليهم فلا يعصون أمرى . [القاموس القويم ١/١٧٥] .

وكلمة (السلطان) مأخوذة من السَّليط ، وهو الزيت[١] الذى كانوا يُوقِدون به السُّرج والمصابيح قبل اكتشاف الكهرباء ، فكانوا يضعون هذا الزيت فى إناء مغلق مثل السلطانية يخرج منه فتيلة ، وعندما توقد تمتصّ من هذا الزيت وتُضىء ؛ ولذلك سُمِّيتْ الحجة سُلْطاناً ؛ لأنها تنير لصاحبها وَجْه الحق .

والسلطان ، إما سلطان حجة تقنعك بالفعل ، فتفعل وأنت راضٍ مقتنع به . وإما سلطان قَهْر وغلبة يجبرك على الفعل ويحملك عليه قَهْراً دون اقتناع به .

إذن : تنفيذ المطلوب له قوتان : قوة الحجة التى تُضىء لك وتُوضّح أمامك معالم الحق ، وقوة القهر التى تُجبرك على تنفيذ المطلوب عن غير اقتناع وإنْ لم ترهَا .

والحقيقة أن الشيطان لا يملك أياً من هاتين القوتين ، لا قوة الحجة والإقناع ، ولا قوة القهر . وهذا واضح فى قول الحق تبارك وتعالى على لسان الشيطان يوم القيامة :

﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ[٢] وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ

---

(١) قال ابن الأعرابى : السليط عند عامة العرب الزيت . وعند أهل اليمن : دُهْن السمسم . وقال الزجاج : اشْتقاق السلطان من السليط . والسليط ما يُضاء به . [لسان العرب ـ مادة : سلط] .

(٢) أى : بمغيثكم . والصارخ والمستصرخ هو الذى يطلب النصرة والمعاونة . والمصرخ هو المغيث . [تفسير القرطبى ٥/٣٦٩٤] .

بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٢) ﴾ [إبراهيم]

هذا حوار يدور يوم القيامة بعد أن انتهتْ المسألة وتكشفتْ الحقيقة ، وجاء وقت المصارحة والمواجهة . يقول الشيطان لأوليائه مُتنصلاً من المسئولية : ما كان عندى من سلطان عليكم ، لا سلطأن حجة تقنعكم أنْ تفعلوا عن رضاً ، ولا سلطان قَهْر أجبركم به أن تفعلوا وأنتم كارهون ، أنا فقط أشرتُ ووسوستُ فأتيتمونى طائعين .

﴿ مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ..(٢٢) ﴾ [إبراهيم]

أى : نحن فى الخيبة سواء ، فلا أستطيع نجدتكم ، ولا تستطيعون نجدتى ؛ لأن الصُّراخَ يكون من شخص وقع فى ضائقة أو شدة لا يستطيع الخلاص منها بنفسه ، فيصرخ بصوت عالٍ لعله يجد مَنْ يُغيثه ويُخلّصه ، فإذا ما استجاب له القوم فقد أصرخوه . أى : أزالوا سبب صُرَاخه .

إذن : فالمعنى : لا أنا أستطيع إزالة سبب صراخكم ، ولا أنتم تستطيعون إزالة سبب صُرَاخى .

وكذلك فى حوار آخر دار بين أهل الباطل الذين تكاتفوا عليه فى الدنيا ، وها هى المواجهة يوم القيامة :

﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ (٢٤) مَا لَكُمْ لا تَنَاصَرُونَ (٢٥) بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (٢٦) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٧) قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ (٢٨) قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٢٩) وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ (٣٠) ﴾ [الصافات]

والمراد بقوله : (عَنِ الْيَمِينِ) أن الإنسان يزاول أعماله بكلتا

يديه ، لكن اليد اليمنى هى العُمْدة فى العمل ، فأتيته عن اليمين . أى : من ناحية اليد الفاعلة .

وقوله : ﴿ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ (٣٠) ﴾ [الصافات]

أى : فى انتظار إشارة منّا ، مجرد إشارة ، فسارعتم ووقعتم فيما وقعتُم فيه .

فعلى مَنْ يكون تسلط الشيطان وتلك الغلبة والقهر ؟

يُوضّح الحق تبارك وتعالى أن تسلّط الشيطان لا يقع على مَنْ آمن به رباً ، ولجأ إليه واعتصم به ، وما دُمْت آمنتَ بالله فأنت فى مَعيّته وحفْظه ، ولا يستطيع الشيطان وهو مخلوق لله تعالى أنْ يتسلّط عليك أو يغلبك .

إذن : الحصن الذى يقينا كيْدَ الشيطان هو الإيمان بالله والتوكّل عليه سبحانه .

فعلىَ مَنْ إذن يتسلّط الشيطان ؟

يُوضِّح الحق تبارك وتعالى الجانب المقابل ، فيقول :

﴿ إِنَّمَا سُلْطَانُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ (١٠٠) ﴾

معنى يتولونه : أى يتخذونه وَليّاً يطيعون أمره ، ويخضعون لوسوسته ، ويتبعون خطواته :

﴿الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ (١٠٠)﴾ [النحل]

أى : مشركون بالله ، أو يكون المعنى : وهُمْ به أى بسببه أشركوا ؛ لأنه أصبح له أوامر ونواهٍ وهم يطيعونه ، وهذه هى العبادة بعينها ، فكأنهم عبدوه من دون الله بما قدّموه من طاعته فى أمره ونَهْيه .

وقد سَمَّى الله طريقة الشيطان فى الإضلال والغواية وَسْوسةً ، والوسوسة فى الحقيقة هى صَوْت الحُلىّ حينما يتحرك فى أيدى النساء ، فيُحدث صوتاً رقيقاً فيه جاذبية وإغراء تهيج له النفس ، وكذلك الشيطان يدخل إليك عن طريق الإغراء والتزيين ، فإذا ما هاجتْ عليك نفسُك وحدّثتْك بالمعصية تركك لها ، فعند هذه النقطة تنتهى مُهمته .

ولكن ، هل النفس لا تفعل المعصية إلا بوسوسة الشيطان ؟

قالوا : لا ، فالنفس ـ والمراد هنا النفس الأمّارة بالسوء ـ قد تفعل المعصية من نفسها دون وسوسة من الشيطان ، وقد يُوسْوِسُ الشيطان لها ، وينزغها نَزغاً ويُؤلّبها ، ويُزيّن لها معصية ما كانت على بالها .

فكيف ـ إذن ـ يُفرّق بين هاتين المعصيتين ؟

النفس حينما ترغب فى معصية أو شهوة تراها تقف عند معصية بعينها لا تتزحزح عنها ، وإذا قاومتَ نفسك ، وحاولتَ صَرْفها عن هذه الشهوة ألحَّتْ عليك بها ، وطلبتها بعينها ، فشهوة النفس إذن ثابتة ؛ لأنها تشتهى شيئاً واحداً تُلح عليه .

ولكن حينما يُوسوِسُ الشيطان لك بشهوة فوجد منك مقاومة وقدرة على مجابهته صرف نظرك إلى أخرى ؛ لأنه يريدك عاصياً بأىٍّ شكل من الأشكال ، فتراه يُزيِّن لك معصية أخرى وأخرى ، إلى أنْ ينال منك ما يريد .

ومن ذلك ما نراه فى الرشوة مثلاً - والعياذ بالله - فإنْ رفضتَ رشوة المال زيَّن لك رشوة الهدية ، وإنْ رفضتَ رشوة الهدية زيَّنَ لك الرشوة بقضاء مصلحة مقابلة .

وهكذا يظل هذا اللعين وراءك حتى يصل إلى نقطة ضَعْف فيك ، إذن : فهو ليس كالنفس يقف بك عند شهوة واحدة ، ولكنه يريد أن يُوقِع بك على أىِّ صورة من الصور .

ولكى نقفَ على مداخل الشيطان ونكون منه على حَذر يجب أنْ نعلم أن الشيطان على علم كبير وصل به إلى صفوف الملائكة ، بل سَمَّوه « طاووس الملائكة » ، ويمكن أن نقف على شىء من علم الشيطان فى دقّة قَسَمه ، حينما أقسم للحق تبارك وتعالى أن يُغوى بنى آدم ، فقال :

﴿فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣)﴾ [ص]

هكذا عرف الشيطان أنْ يُقسِم القسَم المناسب ، فلم يَقُلْ : بقوتى ولا بحجتى سأغوى الخَلْق ، بل عرف لله تعالى صفة العزة ، فهو سبحانه عزيز لا يُغلب ؛ لذلك ترك لخلْقه حرية الإيمان به ، فقال :

﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ (٢٩)﴾ [الكهف]

فالمعنى : فبعزتك عن خَلْقك : يؤمن مَنْ يؤمن ، ويكفر مَنْ يكفر ، سوف أدخل من هذا الباب لإغواء البشر ، ولكننى لا أجرؤ على الاقتراب ممَّنْ اخترتَهم واصطفيتَهم ، لن أتعرَّضَ لعبادك المخلصين ، ولا دَخْلَ لى بهم ، ولا سلطان لى عليهم .

كذلك يجب أن نعلم أن الشيطان دقيق فى تخطيطه ، وهذا مِن مداخله وتلبيسه الذى يدعونا إلى الحذر من هذا اللعين . فالشيطان لا حاجة له فى أن يذهب إلى الخمارات مثلاً ، فقد كفاه أهلُها مشقة الوَسْوسة ، ووفَّروا عليه المجهود ، هؤلاء هم أولياؤه وأحبابه ومُريحوه بما هم عليه من معصية الله ، ولكنه فى حاجة إلى أن يكون فى المساجد ليُفسِد على أهل الطاعة طاعتهم .

وقد أوضح هذه القضية وفطن إليها الإمام الجليل أبو حنيفة النعمان ، وكان مشهوراً بالفطْنة ، وعلى دراية بمداخل الشيطان وتلبيسه ، وكل هذا جعل له باعاً طويلاً فى الإفتاء ، وقد عرض عليه أحدهم هذه المسألة :

قال : يا إمام كان لدىّ مال دفنته فى مكان كذا ، وجعلتُ عليه علامة ، فجاء السَّيْل وطمس هذه العلامة ، فلم أهتدِ إليه ، فماذا أفعل ؟

فتبسَّم أبو حنيفة وقال : يا بُنى ليس فى هذا علم ، ففى أىّ باب من أبواب الفقه سيجد أبو حنيفة هذه القضية ؟! ولكنى سأحتال لك .

وفعلاً تفتقتْ قريحة الإمام عن هذه الحيلة التى تدل على علْمه وفقهه ، قال له : إذا جئتَ فى الليل فتوضَّأ ، وقُمْ بين يدى ربِّك

مُتهجِّداً . وفى الصباح أخبرنى خبرك .

وفى صلاة الفجر قابله الرجل مُبتسماً . يقول : لقد وجدتُ المال ، فقال : كيف ؟ قال الرجل : حينما وقفتُ بين يدىْ ربى فى الصلاة تذكرت المكان وذهبتُ فوجدت مالى ، فضحك الإمام وقال : والله لقد علمت أن الشيطان لن يدعَك تُتِم ليلتك مع ربك .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٠١) ﴾

قوله : ﴿ بَدَّلْنَا ﴾ ومنها : أبدلت واستبدلْتُ ، أى : رفعتُ آية وطرحتُها . وجئت بأخرى بدلاً منها ، وقد تدخل الباء على الشىء المتروك ، كما فى قوله تعالى :

﴿ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِى هُوَ خَيْرٌ .. (٦١) ﴾ [البقرة]

أى : تتركون ما هو خير ، وتستبدلون به ما هو أدنى .

وما معنى الآية ؟ كلمة آية لها مَعَانٍ متعددة منها :

– الشىء العجيب الذى يُلفت الأنظار ، ويُبهر العقول ، كما نقول : هذا آية فى الجمال ، أو فى الشجاعة ، أو فى الذكاء ، أى : وصل فيه إلى حَدٍّ يدعو إلى التعجُّب والانبهار .

- ومنها الآيات الكونية ، حينما تتأمل فى كون الله من حولك تجد آياتٍ تدلُّ على إبداع الخالق سبحانه وعجيب صنعته ، وتجد تناسقاً وانسجاماً بين هذه الآيات الكونية .

يقول تعالى عن هذا النوع من الآيات :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ (٣٧) ﴾ [فصلت]

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ (٣٢) ﴾ [الشورى]

ونلاحظ أن هذه الآيات الكونية ثابتة دائمة لا تتبدّل ، كما قال الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً .. (٢٣) ﴾ [الفتح]

- ومن معانى الآية : المعجزة ، وهى الأمر العجيب الخارق للعادة ، وتأتى المعجزة على أيدى الأنبياء لتكون حُجّة لهم ، ودليلاً على صدق ما جاءوا به من عند الله .

ونلاحظ فى هذا النوع من الآيات أنه يتبدّل ويتغيّر من نبى لآخر ؛ لأن المعجزة لا يكون لها أثرها إلا إذا كان فى شىء نبغ فيه القوم ؛ لأن هذا هو مجال الإعجاز ، فلو أتيناهم بمعجزة فى مجال لا عِلْمَ لهم به لقالوا : لو أن لنا عِلْماً بهذا لأتيْنا بمثله ؛ لذلك تأتى المعجزة فيما نبغُوا فيه ، وعلَموه جيداً حتى اشتهروا به .

فلما نبغَ قوم موسى عليه السلام فى السحر كانت معجزته من

نوع السحر الذى يتحدى سحرهم ، فلما جاء عيسى - عليه السلام - ونبغ قومه فى الطب والحكمة كانت معجزته من نفس النوع ، فكان - عليه السلام - يبرىء الأكمه والأبرص ويحي الموتى بإذن الله .

فلما بُعِث محمد ﷺ ، ونبغ قومه فى البلاغة والفصاحة والبيان ، وكانوا يقيمون لها الأسواق ، ويُعلّقون قصائدهم على أستار الكعبة اعتزازاً بها ، فكان لا بُدَّ أنْ يتحدّاهم بمعجزة من جنس ما نبغوا فيه وهى القرآن الكريم ، وهكذا تتبدّل المعجزات لتناسب كُلٌّ منها حال القوم ، وتتحدّاهم بما اشتهروا به ، لتكون أدْعى للتصديق وأثبت للحجة .

- ومن معانى كلمة آية : آيات القرآن الكريم التى نُسمّيها حاملة الأحكام ، فإذا كانت الآية هى الأمر العجيب ، فما وجه العجب فى آيات القرآن ؟

وجه العجب فى آيات القرآن أن تجدَ هذه الآيات فى أُمّة أُمية ، وأُنزِلتْ على نبى أُميٍّ فى قوم من البدو الرُّحل الذين لا يجيدون شيئاً غير صناعة القول والكلام الفصيح ، ثم تجد هذه الآيات تحمل من القوانين والأحكام والآداب ما يُرهب أقوى حضارتين معاصرتين ، هما حضارة فارس فى الشرق ، وحضارة الرومان فى الغرب ، فنراهم يتطلّعون للإسلام ، ويبتغون فى أحكامه ما ينقذهم ، أليس هذا عجيباً ؟

وهذا النوع الأخير من الآيات التى هى آيات الكتاب الكريم ، والتى نُسمّيها حاملة الأحكام ، هل تتبدّل هى الأخرى كسابقتها ؟

نقـول : آيات الكتـاب لا تتـبـدّل ؛ لأن أحكام الله الـمطلوبة مِـمَّن عاصر رسول الله ﷺ كالأحكام المطلوبة مِمَّنْ تقوم عليه الساعة .

وقد سُـبق الإسلام باليـهودية والمسـيحيـة ، فعندنا أمـر رسول الله ﷺ بتحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعـبة المشرفة . اعترض على ذلك اليهود[1] وقالوا : ما بال محمـد لا يثـبتُ على حال ، فيأمر بالشىء اليـوم ، ويأمر بخـلافه غـداً ، فإنْ كان البـيت الصحـيح هو الكعـبة فصـلاتكم لبيت المـقدس باطلـة ، وإنْ كان بيت المـقدس هو الصحيح فصلاتكم للكعبة باطلة .

لذلك قال الحق تبارك وتعالى :

﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَـا يُنَزِّلُ قَـالُوا إِنَّمَـا أَنتَ مُفْتَرٍ ..(١٠١)﴾ [النحل]

فالمراد بقول الحق سبحانه :

﴿آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ ..(١٠١)﴾ [النحل]

أى : جِئْنا بآيـة تدلُّ على حكم يخالف ما جـاء فى التوراة ، فـقد كان استقبال الكعبة فى القرآن بدل استقبال بيت المقدس فى التوراة .

وقوله : ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ..(١٠١)﴾ [النحل]

---

(١) أخرج البـيهقى فى دلائل النبوة (٢/ ٥٧٤) مـرسلاً من حديث الزهرى أن القـبلة صرفت نحو المسـجد الحرام فى رجب على رأس ستـة عشر شهراً من مـخرج رسول الله ﷺ من مكة ، وأن اليهـود أنشأت تقـول : قد اشتـاق الرجل إلى بلده ، وبيت أبيه ، ومـا لهم حتى تركوا قبلتهم يصلون مرة وجهاً ، ومرة وجهاً آخر .

أى : يُنزل كل آية حَسْب ظروفها : أمةً وبيئةً ومكاناً وزماناً .

وقوله : ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ ..(١٠١)﴾ [النحل]

أى : اتهموا رسول الله ﷺ بالكذب المتعمد ، وأن هذا التحويل من عنده ، وليس وَحْياً من الله تعالى ؛ لأن أحكام الله لا تتناقض . ونقول : نعم أحكام الله سبحانه وتعالى لا تتناقض فى الدين الواحد ، أما إذا اختلفتْ الأديان فلا مانعَ من اختلاف الأحكام .

إذن : فآيات القرآن الكريم لا تتبدّل ، ولكن يحدث فيها نَسْخ ، كما قال الحق تبارك وتعالى :

﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ..(١٠٦)﴾ [البقرة]

وإليك أمثلة للنسْخ فى القرآن الكريم :

حينما قال الحق سبحانه : ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ..(١٦)﴾ [التغابن]

جعل الاستطاعة ميزاناً للعمل ، فالمشرّع سبحانه حين يرى أن الاستطاعةَ لا تكفى يُخفّف عنّا الحكم ، حتى لا يُكلّفنا فوق طاقتنا ، كما فى صيام المريض والمسافر مثلاً ، وقد قال تعالى :

﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا (٢٨٦)﴾ [البقرة]

وقال : ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ مَا آتَاهَا (٧)﴾ [الطلاق]

فليس لنا بعد ذلك أنْ نلوىَ الآيات ونقول : إن الحكم الفلانى لم تَعُدْ النفس تُطيقه ولم يَعُد فى وُسْعنا ، فالحق سبحانه هو الذى يعلم الوُسْع ويُكلّف على قَدْره ، فإنْ كان قد كلّف فقد علم الوُسْع ، بدليل أنه سبحانه إذا وجد مشقة خفّف عنكم من تلقاء نفسه سبحانه ، كما قال تعالى :

﴿الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا..(٦٦)﴾ [الأنفال]

ففى بداية الإسلام حيث شجاعة المسلمين وقوتهم ، قال تعالى :

﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ..(٦٥)﴾ [الأنفال]

أى : نسبة واحد إلى عشرة ، فحينما علم الحق سبحانه فيهم ضَعْفاً ، قال :

﴿الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ..(٦٦)﴾ [الأنفال]

أى : نسبة واحد إلى اثنين . فالله تعالى هو الذى يعلم حقيقة وُسْعنا ، ويُكلّفنا بما نقدر عليه ، ويُخفِّف عنَّا عند الحاجة إلى التخفيف ، فلا يصح أنْ نُقحِم أنفسنا فى هذه القضية ، ونُقدّر نحن الوُسْع بأهوائنا .

ومن أمثلة النسخ أن العرب كانوا قديماً لا يعطون الآباء شيئاً من المال على اعتبار أن الوالد مُنْته ذاهب ، ويجعلون الحظ كله للأبناء على اعتبار أنهم المقبلون على الحَياة .

وحينما أراد الحق سبحانه أن يجعل نصيباً للوالدين جعلها وصية فقال :

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ[1] لِلْوَالِدَيْنِ..(١٨٠)﴾ [البقرة]

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (١/٢١١) : « اشتملت هذه الآية الكريمة على الأمر بالوصية للوالدين والأقربين ، وقد كان ذلك واجباً على أصح القولين قبل نزول آية المواريث ، فلما نزلت آية الفرائض نسخت هذه وصارت المواريث المقدرة فريضة من الله يأخذها أهلوها حتماً من غير وصية ولا تحمل منة الموصى » .

فلما استقر الإيمان فى النفوس جعلها ميراثاً ثابتاً ، وغَيَّر الحكم من الوصية إلى خير منها وهو الميراث ، فقال تعالى :

﴿ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ .. (١١) ﴾ [النساء]

إذن : الحق تبارك وتعالى حينما يُغيِّر آية ينسخها بأفضل منها .

وهذا واضح فى تحريم الخمر مثلاً ، حيث نرى هذا التدريج المحكم الذى يراعى طبيعة النفس البشرية ، وأن هذا الأمر من العادات التى تمكَّنَتْ من النفوس ، ولا بُدّ لها من هذا التدرُّج ، فهذا ليس أمراً عَقَدياً يحتاج إلى حُكْم قاطع لا جدال فيه .

فانظر إلى هذا التدريج فى تحريم الخمر : قال تعالى :

﴿ وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا[1] وَرِزْقًا حَسَنًا (٦٧) ﴾ [النحل]

أهل التذوق والفهم عن الله حينما سمعوا هذه الآية قالوا : لقد بيَّت الله للخمر أمراً فى هذه الآية ؛ ذلك لأنه وصف الرزق بأنه حَسَن ، وسكت عن السَّكَر فلم يصفه بالحُسْن ، فدلَّ ذلك على أن الخمر سيأتى فيه كلام فيما بعد .

وحينما سُئل ﷺ عن الخمر رَدَّ القرآن عليهم :

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا .. (٢١٩) ﴾ [البقرة]

---

(١) قال ابن عباس : السَّكَر : الخمر . والرزق الحسن : جميع ما يُؤكل ويُشرب حلالاً من هاتين الشجرتين . قال ابن العربى : الصحيح أن ذلك كان قبل تحريم الخمر فتكون منسوخة ، فإن هذه الآية مكية باتفاق من العلماء ، وتحريم الخمر مدنى.. نقله القرطبى فى تفسيره (٥/٣٨٥٣ ، ٣٨٥٤) .

جاء هذا على سبيل النصح والإرشاد ، لا على سبيل الحكم والتشريع ، فعلى كل مؤمن يثق بكلام ربه أن يرى له مَخْرجاً من أسْر هذه العادة السيئة .

ثم لُوحظ أن بعض الناس يُصلى وهو مخمور ، حتى قال بعضهم في صلاته : أعبد ما تعبدون[1] ، فجاء الحكم :

﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ..(٤٣) ﴾ [النساء]

ومقتضى هذا الحكم أنْ يصرفهم عن الخمر معظم الوقت ، فلا تتأتى لهم الصلاة دون سُكْر إلا إذا امتنعوا عنها قبل الصلاة بوقت كاف ، وهكذا عوَّدهم على تركها معظم الوقت ، كما يحدث الآن مع الطبيب الذى يعالج مريضه من التدخين مثلاً ، فينصحه بتقليل الكمية تدريجياً حتى يتمكّن من التغلب على هذه العادة .

وبذلك وصل الشارع الحكيم سبحانه بالنفوس إلى مرحلة ألفَتْ فيها تَرْك الخمر ، وبدأت تنصرف عنها ، وأصبحت النفوس مُهيّئة لتقبُّل التحريم المطلق ، فقال تعالى :

﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ..(٩٠) ﴾ [المائدة]

---

(١) ذكر ابن كثير فى تفسيره (١/٥٠٠) سبب نزول هذه الآية أن على بن أبى طالب قال : صنع لنا عبد الرحمن بن عوف طعاماً فدعانا وسقانا من الخمر فأخذت الخمر منا وحضرت الصلاة فقدموا فلاناً ، قال فقرأ : « قل يا أيها الكافرون ما أعبد ما تعبدون ونحن نعبد ما تعبدون » فأنزل الله تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ .. (٤٣) ﴾ [النساء] .

إذن : الحق سبحانه وتعالى نسخ آية وحُكْماً بما هو أحسن منه .

والعجيب أنْ نرى من علمائنا مَنْ يتعصّب للقرآن ، فلا يقبل القول بالنسخ فيه ، كيف والقرآن نفسه يقول :

﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ..(١٠٦) ﴾ [البقرة]

قالوا : لأن هناك شيئاً يُسمَّى البداء[1] .. ففى النسخ كأن الله تعالى أعطى حُكْماً ثم تبيّن له خطؤه ، فعدل عنه إلى حُكْم آخر .

ونقول لهؤلاء : لقد جانبكم الصواب فى هذا القول ، فمعنى النسخ إعلان انتهاء الحكم السابق بحكم جديد أفضل منه ، وبهذا المعنى يقع النسخ فى القرآن الكريم .

ومنهم مَنْ يقف عند قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ..(١٠٦) ﴾ [البقرة]

فيقول : ﴿ نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا ﴾ فيها علَّة للتبديل ، وضرورة تقتضى النسخ وهى الخيرية ، فما علّة التبديل فى قوله : ﴿ أَوْ مِثْلِهَا ﴾ ؟

أولاً : فى قوله تعالى : ﴿ نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا ﴾ قد يقول قائل : ولماذا لم يَأْتِ بالخيرية من البداية ؟

نقول : لأن الحق سبحانه حينما قال :

---

(١) قال السيوطى فى الإتقان (٣/٦٠) : « أجمع المسلمون على جوازه ، وأنكره اليهود ظناً منهم أنه بداء ، كالذى يرى الرأى ثم يبدو له ، وهو باطل لأنه بيان مدة الحكم كالإحياء بعد الإماتة وعكسه . والمرض بعد الصحة وعكسه ، وذلك لا يكون بداء ، فكذا الأمر والنهى » وقال ابن كثير فى تفسيره (١/١٥١) : « المسلمون كلهم متفقون على جواز النسخ فى أحكام الله تعالى لما له فى ذلك من الحكمة البالغة وكلهم قال بوقوعه » .

﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ .. (١٠٢) ﴾ [آل عمران]

وهذه منزلة عالية فى التقوى ، لا يقوم بها إلا الخواصّ من عباد الله ، شَقَّتْ[1] هذه الآية على الصحابة وقالوا : ومَنْ يستطيع ذلك يا رسول الله ؟

فنزلت :

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ .. (١٦) ﴾ [التغابن]

وجعل الله تعالى التقوى على قدر الاستطاعة ، وهكذا نسخت الآية الأولى مطلوباً ، ولكنها بقيت ارتقاء ، فَمنْ أراد أنْ يرتقى بتقواه إلى (حَقّ تُقَاته) فبها ونعْمت ، وأكثر الله من أمثاله وجزاه خيراً ، ومَنْ لم يستطع أخذ بالثانية .

ولو نظرنا إلى هاتين الآيتين نظرة أخرى لوجدنا الأولى :

﴿ اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ .. (١٠٢) ﴾ [آل عمران]

وإنْ كانت تدعو إلى كثير من التقوى إلا أن العاملين بها قِلّة ، فى حين أن الثانية :

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ .. (١٦) ﴾ [التغابن]

وإنْ جعلتَ التقوى على قَدْر الاستطاعة إلا أن العاملين بها كثير ،

---

(١) قال سعيد بن جبير : لما نزلت هذه الآية اشتد على القوم العمل ، فقاموا حتى ورمت عراقيبهم وتقرحت جباههم ، فأنزل الله تعالى هذه الآية تخفيفاً على المسلمين : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ .. (١٦) ﴾ [التغابن] فنسخت الآية الأولى ، ذكره ابن كثير فى تفسيره (٤/٣٧٧) .

ومن هنا كانت الثانية خَيْراً من الأولى ، كما نقول : قليل دائم خير من كثير منقطع .

أما فى قوله تعالى : ﴿ أَوْ مِثْلِها ﴾ أى : أن الأولى مِثْل الثانية ، فما وَجْه التغيير هنا ، وما سبب التَبديل ؟

نقول : سببه هنا اختبار المكلَّف فى مدى طاعته وانصياعه ، إنْ نُقل من أمر إلى مثله ، حيث لا مشقَّة فى هذا ، ولا تيسيرَ فى ذاك ، هلَ سيمتثل ويطيع ، أم سيجادل ويناقش ؟

مثل هذه القضية واضحة فى حادث تحويل القبلة ، حيث لا مشقة على الناس فى الاتجاه نحو بيت المقدس ، ولا تيسير عليهم فى الاتجاه نحو الكعبة ، الأمر اختبار للطاعة والانصياع لأمر الله[1] ، فكان من الناس مَنْ قال : سمعاً وطاعة ونفّذوا أمر الله فوراً دون جدال ، وكان منهم مَن اعترض وأنكر واتهم رسول الله بالكذب على الله .

ومن ذلك أيضاً ما نراه فى مناسك الحج مما سنَّه لنا رسول الله ﷺ حيث نُقبل الحجر الأسعد وهو حجر ، ونرمى الجمرات وهى أيضاً حجر ، إذن : هذه أمور لا مجال للعقل فيها ، بل هى لاختبار الطاعة والانقياد للمشرع سبحانه وتعالى .

ثم يقول تعالى :

﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (١٠١) ﴾ [النحل]

بل : حرف يفيد الإضراب عن الكلام السابق وتقرير كلام جديد ،

---

(١) وقد قال تعالى : ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ .. (١٤٣)﴾ [البقرة] .

فالحق سبحانه وتعالى يُلغى كلامهم السابق :

﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ .. (١٠١)﴾ [النحل]

ويقول لهم : لا ليس بمفتر ولا كذاب ، فهذا اتهام باطل ، بل أكثرهم لا يعلمون .

وكلمة ﴿ أَكْثَرهُمْ ﴾ هنا ليس بالضرورة أنْ تقابل بالأقل ، فيمكن أن نقول : أكثرهم لا يعلمون . وأيضاً : أكثرهم يعلمون كما جاء فى قول الحق سبحانه :

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ .. (١٨)﴾ [الحج]

هكذا بالإجماع ، تسجد لله تعالى جميع المخلوقات إلا الإنسان ، فمنه كثير يسجد ، يقابله أيضاً كثير حَقَّ عليه العذاب ، فلم يقُلْ القرآن : وقليل حَقَّ عليه العذاب .

وعلى فَرْض أن :

﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (١٠١)﴾ [النحل]

إذن : هناك أقلية تعلم صِدْق رسول الله ﷺ فى البلاغ عن ربه ، وتعلم كذبهم وافتراءهم على رسول الله حينما اتهموه بالكذب ، ويعلمون صِدْق كل آية فى مكانها ، وحكمة الله المرادة من هذه الآية .

فَمَنْ هم هؤلاء الذين يعلمون فى صفوف الكفار والمشركين ؟

قالوا : لقد كان بين هؤلاء قَوْم أصحاب عقول راجحة ، وفَهْم للأمور ، ويعلمون وجه الحق والصواب فى هذه المسألة ، ولكنهم أنكروها ، كما قال الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا (١٤) ﴾ [النمل]

وأيضاً من هؤلاء أصحاب عقول يفكرون فى الهدى ، ويُراودهم الإسلام ، وكأن لديهم مشروعَ إسلام يُعدون أنفسهم له ، وهم على علم أن كلام الكفار واتهامهم لرسول الله باطل وافتراء .

وأيضاً من هؤلاء مؤمنون فعلاً ، ولكن تنقصهم القوة الذاتية التى تدفع عنهم ، والعصبية التى تردّ عنهم كَيْد الكفار ، وليس عندهم أيضاً طاقة أنْ يهاجروا ، فهم ما يزالون بين أهل مكة إلا أنهم مؤمنون ويعلمون صدْق رسول الله وافتراء الكفار عليه ، لكن لا قدرةَ لهم على إعلان إيمانهم .

وفى هؤلاء يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَهُوَ الَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٢٤) هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْىَ[1] مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ .. (٢٥) ﴾ [الفتح]

أى : تدخلوا على أهل مكة وقد اختلط الحابل بالنابل ، والمؤمن

---

(١) الهدى : هى الذبيحة تُهْدى إلى الحرم فى الحج . [القاموس القويم ٢/٣٠١] ومعكوفاً : محبوساً عن أن يبلغ أماكن نحْره . [القاموس القويم ٢/٣٢] .

بالكافر ، فتقتلوا إخوانكم المؤمنين دون علم .

﴿لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٢٥)﴾ [الفتح]

أى : لو كانوا مُميّزين ، الكفـار فى جانب ، والمؤمنون فى جانب لَعذَّبْنَا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً .

إذن : فإن كان أكثرهم لا يعلمون ويتهمونك بالكذب والافتراء فإنَّ غير الأكثرية يعلم أنهم كاذبون فى قولهم :

﴿إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ .. (١٠١)﴾ [النحل]

وما داموا اتهموك بالافتراء فقُلْ رداً عليهم :

﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ (١٠٢)﴾

الحق تبارك وتعـالى فى هذه الآية يرد على الكفار افـتراءهم على رسول الله ، واتهامـهم له بالكذب المتعمـد ، وأنه جاء بهذه الآيات من نفسه ، فقال له : يا محمد قُلْ لهؤلاء : بل نزَّله روح القُدس .

والقدس : أى المطهّر ، من إضافة الموصوف للصفة ، كما نقول : حاتم الجود مـثلاً . والمراد بـ « روح القُدُس » سفيـر الوحى جبريل عليه السلام ، وقد قال عنه فى آية أخرى :

﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣)﴾ [الشعراء]

وقال عنه :

﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (١٩) ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى الْعَرْشِ مَكِينٍ (٢٠) مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ (٢١)﴾ [التكوير]

وقول الحق سبحانه :

﴿مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ .. (١٠٢)﴾ [النحل]

أى : أن جبريل لم يأت بهذا القرآن من عنده هو ، بل من عند الله بالحق ، فمُحمد ﷺ لم يَأْتِ بالقرآن من عنده ، وكذلك جبريل ، فالقرآن من عند الله ، ليس افتراءً على الله ، لا من محمد ، ولا من جبريل عليهما السلام .

وقوله تعالى :

﴿لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ (١٠٢)﴾ [النحل]

أى : ليُثبِّتَ الذين آمنوا على تصديق ما جاء به الرسول من الآيات ، أن الله تعالى أعلمُ بما يُنزل من الآيات ، وأن كل آية منها مُناسبة لزمانها ومكانها وبيئتها ، وفى هذا دليلٌ على أن المؤمنين طائعون مُنصَاعون لله تعالى مُصدِّقون للرسول ﷺ فى كُلِّ ما بلغ عن ربه تعالى .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ (١٠٣) ﴾

وفى هذه الآية اتهام آخر لرسول الله ﷺ وافتراء جديد عليه ، لا يأنف القرآن من إذاعته ، فمَنْ سمع الاتهام والافتراء يجب أنْ يسمع الجواب ، فالقرآن يريد أنْ يفضحَ أمر هؤلاء ، وأنْ يُظهِر إفلاس حُججهم وما هم فيه من تخبُّط .

يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ .. (١٠٣) ﴾ [النحل]

وقد سبق أنْ قالوا عن رسول الله « مجنون » وبرَّأه الله بقوله تعالى :

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤) ﴾ [القلم]

والخلقُ العظيم لا يكون فى مجنون ؛ لأن الخلُق الفاضل لا يُوضع إلا فى مكانه ، بدليل قوله تعالى :

﴿ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (٢) ﴾ [القلم]

وسبق أنْ قالوا : ساحر وهذا دليل على أنهم مغفلون يتخبّطون فى ضلالهم ، فلو كان محمد ساحراً ، فلِمَ لم يسحركم كما سحر المؤمنين به وتنتهى المسألة ؟

---

(١) الإلحاد : الميل . يقال : لحد وألحد ، أى : مال عن القصد [تفسير القرطبى ٥/٣٩٠٥] .

وسبق أنْ قالوا « شاعر » مع أنهم أدْرى الناس بفنون القول شِعْراً ونثراً وخطابة ، ولم يُجرِّبوا على محمد ﷺ شيئاً من ذلك ، لكنه الباطل حينما يَلجّ فى عناده ، ويتكبّر عن قبول الحق .

وهنا جاءوا بشىء جديد يُكذِّبون به رسول الله ، فقالوا :

﴿ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ .. (١٠٣) ﴾ [النحل]

أى : أن رسول الله ﷺ يتردد على أحد أصحاب العلم ليعلمه القرآن فقالوا[1] : إنه غلام لبنى عامر بن لؤى اسمه (يعيش) ، وكان يعرف القراءة والكتابة ، وكان يجلب الكتب من الأسواق ، ويقرأ قصص السابقين مثل عنترة وذات الهمة وغيرها من كتب التاريخ .

وقد تضاربتْ أقوالهم فى تحديد هذا الشخص الذى يزعمون أن رسول الله ﷺ تعلّم على يديه ، فقالوا : اسمه « عداس » وقال آخرون : سلمان الفارسى . وقال آخرون : بَلْعام وكان حداداً رومياً نصرانياً يعلَم كثيراً عن أهل الكتاب .. الخ .

والحق تبارك وتعالى يردُّ على هؤلاء ، ويُظهِر إفلاسهم الفكرى ، وإصرارهم على تكذيب رسول الله ﷺ فيقول :

﴿ لِّسَانُ الَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ (١٠٣) ﴾

[النحل]

---

(١) قاله المهدوى عن عكرمة . [ذكره القرطبى فى تفسيره ٥/٣٩٠٤] . وذُكرتْ أقوال أخرى : أنه غلام للفاكه بن المغيرة واسمه جبر وكان نصرانياً . ومنها : أنه غلام عتبة بن ربيعة واسمه عداس . وقيل : عابس غلام حويطب بن عبد العُزَّى . ويسار أبو فُكَيْهة مولى ابن الحضرمى ، وكانا قد أسلما :

اللسان هنا : اللغة التى يُتحدَّث بها .

ويُلحِدون إليه : يميلون إليه وينسبون إليه أنه يُعلِّم رسول الله ﷺ .

أعجمى : أى لغته خفية ، لا يُفصح ولا يُبين الكلام ، كما نرى الأجانب يتحدثون العربية مثلاً .

ونلاحظ هنا أن القرآن الكريم لم يقُلْ (عجمى) ، لأن العجم جنس يقابل العرب ، وقد يكون من العجم مَنْ يجيد العربية الفصيحة ، كما رأينا سيبوَيْه[1] صاحب (الكتاب) أعظم مراجع النحو حتى الآن وهو عَجمى .

أما الأعجمى فهو الذى لا يُفصِح ولا يُبين ، حتى وإنْ كان عربياً . وقد كان فى قبيلة لؤى رجل اسمه زياد يُقال له « زياد الأعجمى » لأنه لا يُفصح ولا يُبين ، مع أنه من أصل عربى .

إذن : كيف يتأتَّى لهؤلاء الأعاجم الذين لا يُفصحون ، ولا يكادون ينطقون اللغة العربية ، كيف لهؤلاء أنْ يُعلِّموا رسول الله ﷺ وقد جاء بمعجزة فى الفصاحة والبلاغة والبيان ؟

كيف يتعلم من هؤلاء ، ولم يثبت أنه ﷺ التقى بأحد منهم إلا (عداس) يُقال : إنه قابله مرة واحدة ، ولم يثبت أنه ﷺ تردَّد إلى معلم ، لا من هؤلاء ، ولا من غيرهم ؟

---

(١) سيبويه : هو عمرو بن عثمان الحارثى بالولاء ، أبو بشر ، إمام النحاة ، ولد فى إحدى قرى شيراز (١٤٨م) ، قدم البصرة فلزم الخليل بن أحمد فأفاقه ، وسيبويه بالفارسية رائحة التفاح ، توفى بشيراز ١٨٠ هـ عن ٣٣ عاماً (الأعلام ـ للزركلى ٥/٨١) .

كما أن ما يحويه القرآن الكريم من آيات وأحكام ومعجزات ومعلومات يحتاج فى تعلُّمه إلى وقت طويل يتتلمذ فيه محمد على يد هؤلاء ، وما جرّبْتم على محمد شيئاً من هذا كله .

وهل يُعقل أن ما فى القرآن يمكن أن يطويه صَدْرُ واحدٍ من هؤلاء ؟! لو حدث لكان له من المكانة والمنزلة بين قومه ما كان للنبى ﷺ من منزلة ، ولأشاروا إليه بالبنان ولذَاع صِيتُه ، واشتُهر أمره ، وشىء من ذلك لم يحدث .

وقوله تعالى :

﴿ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ (١٠٣) ﴾ [النحل]

أى : لغته ﷺ ، ولغة القرآن الكريم عربية واضحة مُبِينة ، لا لَبْسَ فيها ولا غموض .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٠٤) ﴾

الحق تبارك وتعالى فى قوله :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ .. (١٠٤) ﴾ [النحل]

ينفى عن هؤلاء صفة الإيمان ، فكيف يقول بعدها :

﴿ لاَ يَهْدِيهِمُ اللَّهُ .. (١٠٤) ﴾ [النحل]

أليسوا غير مؤمنين ، وغير مُهْتدين ؟

قُلْنا : إن الهداية نوعان :

- هداية دلالة وإرشاد ، وهذه يستوى فيها المؤمن والكافر ، فقد دَلَّ الله الجميع ، وأوضح الطريق للجميع ، ومنها قوله تعالى :

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ .. (١٧)﴾ [فصلت]

أى : أرشدناهم ودَلَلْناهم .

- وهداية المعونة والتوفيق ، وهذه لا تكون إلا للمؤمن ، ومنها قوله تعالى :

﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧)﴾ [محمد]

إذن : معنى :

﴿لا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ .. (١٠٤)﴾ [النحل]

أى : هداية معونة وتوفيق .

ويصح أن نقول أيضاً : إن الجهة هنا مُنفكّة إلى شىء آخر ، فيكون المعنى : لا يهديهم إلى طريق الجنة ، بل إلى طريق النار ، كما قال تعالى :

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا (١٦٨) إِلاَّ طَرِيقَ جَهَنَّمَ .. (١٦٩)﴾ [النساء]

بدليل قوله تعالى بعدها :

﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٠٤) ﴾ [النحل]

ولأنه سبحانه فى المقابل عندما تحدَّث عن المؤمنين قال :

﴿ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ (٦) ﴾ [محمد]

أى : هداهم لها وعرَّفهم طريقها .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٠٥) ﴾

كأن الحق سبحانه وتعالى يقول : وإن افتريتم على رسول الله واتهمتموه بالكذب فإن الكذب الحقيقى أنْ تُكذِّبوا بآيات الله ، ولا تؤمنوا بها .

ونلاحظ فى تذييل هذه الآية أن الحق سبحانه لم يَقُلْ : وأولئك هم الكافرون . بل قال : الكاذبون . ليدل على شناعة الكذب ، وأنه صفة لا تليق بمؤمن .

ولذلك حينما سُئِل رسول الله ﷺ : أيسرق المؤمن ؟ قال : « نعم » . لأن الله قال :

﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ .. (٣٨) ﴾ [المائدة]

فما دام قد شرَّع حُكْماً ، وجعل عليه عقوبة فقد أصبح الأمر وارداً ومحتمل الحدوث .

وسُئل : أيزنى المؤمن ؟ قال : « نعم » ، لأن الله قال :

﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي .. ﴿٢﴾ ﴾ [النور]

وسُئل : أيكذب المؤمن ؟ قال : لا[1] .

والحديث يُوضّح لنا فظاعة الكذب وشناعته ، وكيف أنه أعظم من كل هذه المنكرات ، فقد جعل الله لكل منها عقوبة معلومة فى حين ترك عقوبة الكذب ليدل على أنها جريمة أعلى من العقوبة وأعظم .

إذن : الكذب صفة لا تليق بالمؤمن ، ولا تُتصوّر فى حقِّه ؛ ذلك لأنه إذا اشتُهر عن واحد أنه كذاب لما اعتاده الناس من كذبه ، فنخشى أن يقول مرة : أشهد ألاَّ إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله فيقول قائل : إنه كذاب وهذه كذبة من أكاذيبه .

ثم يقول الحق سبحانه[2] :

﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿١٠٦﴾ ﴾

---

(١) أخرجه الإمام مالك فى موطئه (ص٩٩٠) من حديث صفوان بن سليم مرسلاً .

(٢) **سبب نزول الآية** : قال ابن عباس : نزلت فى عمار بن ياسر ، وذلك أن المشركين أخذوه وأباه ياسراً وأمه سمية وصهيباً وبلالاً وخباباً وسالماً ، فأما سمية فإنها رُبطت بين بعيرين ، ووُجِىء قُبُلها بحربة ، وقيل لها : إنك أسلمتِ من أجل الرجال ، فقتلت وقتل زوجها ياسر ، وهما أول قتيلين قتلا فى الإسلام .

وأما عمار فإنه أعطاهم ما أرادوا بلسانه مكرهاً ، فأخبر النبى ﷺ بأن عماراً كفر ، فقال كلا ، إن عماراً ملىء إيماناً من قرنه إلى قدمه ، واختلط الإيمان بلحمه ودمه ، فأتى عمار رسول الله ﷺ وهو يبكى ، فجعل رسول الله ﷺ يمسح عينيه ، وقال : إنْ عادوا لك فعُدْ لهم بما قلت . فأنزل الله تعالى هذه الآية . ذكره الواحدى فى أسباب النزول (ص ١٦٢) وتفسير القرطبى (٥/٣٩٠٧) .

الحق سبحانه وتعالى سبق وأنْ تحدث عن حكم المؤمنين وحكم الكافرين ، ثم تحدّث عن الذين يخلفون العهد ولا يُوفون به ، ثم تحدث عن الذين افترَوْا على رسول الله والذين كذَّبوا بآيات الله ، وهذه كلها قضايا إيمانية كان لابد أنْ تُثار .

وفى هذه الآية الكريمة يوضح لنا الحق سبحانه وتعالى أن الإيمان ليس مجرد أن تقول : لا إله إلا الله محمد رسول الله . فالقول وحده لا يكفى ولا بُدَّ وأنْ تشهدَ بذلك ، ومعنى تشهد أنْ يُواطِىء القلب واللسان كل منهما الآخر فى هذه المقولة .

والمتأمل لهذه القضية يجد أن القسمة المنطقية تقتضى أن يكون لدينا أربع حالات :

الأولى : أنْ يُواطىء القلب اللسان إيجاباً بالإيمان ؛ ولذلك نقول : إن المؤمن منطقىّ فى إيمانه ؛ لأنه يقول ما يُضمره قلبه .

الثانية : أنْ يُواطِىءَ القلب اللسان سلباً أى : بالكفر ، وكذلك الكافر منطقى فى كفره بالمعنى السابق .

الثالثة : أنْ يؤمن بلسانه ويُضمرَ الكفر فى قلبه ، وهذه حالة المنافق ، وهو غير منطقى فى إيمانه حيث أظهر خلاف ما يبطن ليستفيد من مزايا الإيمان .

الرابعة : أن يؤمن بقلبه ، وينطق كلمة الكفر بلسانه .

وهذه الحالة الرابعة هى المرادة فى هذه الآية . فالحق تبارك وتعالى يعطينا هنا تفصيلاً لمن كفر بعد إيمان ، وما سبب هذا الكفر ؟ وما جزاؤه ؟

قوله :

﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ .. (١٠٦)﴾ [النحل]

هذه جملة الشرط تأخَّر جوابها إلى آخر الآية الكريمة ، لنقف أولاً على تفصيل هذا الكفر ، فإما أن يكون عن إكراه لا دَخْلَ للإنسان فيه ، فيُجبر على كلمة الكفر ، فى حين قلبه مطمئن بالإيمان .

﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ .. (١٠٦)﴾ [النحل]

ثم سكت عنه القرآن الكريم ليدلّنا على أنه لا شىءَ عليه ، ولا بأسَ أن يأخذ المؤمن بالتقية ، وهى رخصة تقى الإنسان موارد الهلاك فى مثل هذه الأحوال .

وفى تاريخ الإسلام نماذج متعددة أخذت بهذه الرخصة ، ونطقتْ كلمة الكفر وهى مطمئنة بالإيمان .

وفى الحديث الشريف : « رفع عن أمتى : الخطأ ، والنسيان ، وما استكرهوا عليه »[1] .

ويذكر التاريخ أن ياسر أبا عمار وزوجه سُمية أول شهيدين فى الإسلام ، فكيف استشهدا ؟ كانا من المسلمين الأوائل ، وتعرّضوا لكثير من التعذيب حتى عرض عليهم الكفار النطق بكلمة الكفر مقابل

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٥٠/٣٩٠٩) : « والخبر وإن لم يصح سنده فإن معناه صحيح باتفاق من العلماء ، قاله القاضى أبو بكر بن العربى . وذكر أبو محمد عبد الحق أن إسناده صحيح . قال : وقد ذكره أبو بكر الأصيلى فى الفوائد ، وابن المنذر فى كتاب الإقناع » .

العفو عنهما ، فماذا حدث من هذين الشهيدين ؟ صَدَعا بالحق وأصرًّا على الإيمان حتى نالا الشهادة فى سبيل الله ، ولم يأخذا برخصة التقية .

وكان ولدهما عمار أول مَنْ أخذ بها ، حينما تعرّض لتعذيب المشركين .

وقد بلغ رسول الله ﷺ أن عمار بن ياسر كفر ، فأنكر ﷺ هذا ، وقال :

« إن إيمان عمار من مفرق رأسه إلى قدمه ، وإن الإيمان فى عمار قد اختلط بلحمه ودمه »[١] .

فلما جاء عمار أقبل على رسول الله وهو يبكى ، ثم قص عليه ما تعرَّض له من أذى المشركين ، وقال : والله يا رسول الله ما خلّصنى من أيديهم إلا أنِّى تناولتك[٢] وذكرت آلهتهم بخير ، فما كان من النبى ﷺ إلا أن مسح دموع عمار بيده الشريفة وقال له « إنْ عادوا إليك فَقُلْ لهم ما قلت »[٣] .

وقد أثارت هذه الرخصة غضب بعض الصحابة ، فراجعوا فيها

---

(١) أخرج أبو نعيم فى الحلية (١/١٣٩) عن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى ﷺ قال : « إن عماراً ملىء إيماناً من قرنه إلى قدمه » . وأورده الواحدى فى أسباب النزول (ص١٦٢) .

(٢) أى : أنه تناول رسول الله ﷺ بالسب والشتم وذكره بالشر .

(٣) أورده السيوطى فى الدر المنثور (٥/١٧٠) وعزاه لعبد الرزاق وابن سعد وابن جرير والحاكم وصححه والبيهقى فى الدلائل أن المشركين أخذوا عمار بن ياسر فلم يتركوه حتى سبّ النبى ﷺ وذكر آلهتهم بخير ، ثم تركوه ، فلما أتى رسول الله ﷺ قال : ما وراءك شىء ؟ قال : شر ، ما تُرِكْت حتى نلت منك وذكرت آلهتهم بخير . قال : كيف تجد قلبك ؟ قال : مطمئن بالإيمان ، قال : إن عادوا فعُدْ .

رسول الله ﷺ وقالوا : فما بال بلال[١] ؟ فقال : « عمار استعمل رخصة ، وبلال صدع بالحق » .

ولا شكّ أن هاتين منزلتان فى مواجهة الباطل وأهله ، وأن الصَّدْع بالحق والصبر على البلاء أعْلَى منزلةً ، وأسْمَى درجة من الأَخْذ بالرخصة ؛ لأن الأول آمن بقلبه ولسانه ، والآخر آمن بقلبه فقط ونطق لسانه الكفر .

لذلك ، ففى حركة الردة حاول مسيلمة الكذاب أن يطوف بالقبائل لينتزع منهم شهادة بصدق نُبوّته ، فقال لرجل : ما تقول فى محمد ؟ قال : رسُول الله ، قال : فما تقول فىَّ ؟ فقال الرجل فى لباقة : وأنت كذلك ، يعنى أخرج نفسه من هذا المأزق دون أن يعترف صراحة بنبوة هذا الكذاب .

فقابل آخر وسأله : ما تقول فى محمد ؟ قال : رسول الله ، قال : وما تقول فىَّ ؟ فقال الرجل متهكماً : اجهر لأنى أصبحت أصمَّ الآن ، وأنكر على مسيلمة ما يدعيه فكان جزاؤه القتل . فلما علم رسول الله ﷺ خبرهما قال : « أحدهما استعمل الرخصة ، والآخر صدع بالحق »[٢] .

---

(١) وذلك أن بلالاً هانت عليه نفسه فى الله ، فجعلوا يُعذِّبونه ويقولون له : ارجع عن دينك ، وهو يقول : أَحَدٌ أحدٌ ، حتى ملّوه ، ثم كتفوه وجعلوا فى عنقه حبلاً من ليف ، ودفعوه إلى صبيانهم يلعبون به بين أخشبى مكة . ذكره القرطبى فى تفسيره (٥/٣٩٠٨) .

(٢) أورده السيوطى فى الدر المنثور (٥/١٧٢) وعزاه لابن أبى شيبة عن الحسن أن عيوناً لمسيلمة أخذوا رجلين من المسلمين فأتوه بهما ، فقال لأحدهما : أتشهد أن محمداً رسول الله ؟ قال : نعم . قال : أتشهد أنى رسول الله ؟ فأهوى إلى أذنيه فقال : إنى أصمّ . فأمر به فقتل . وقال للآخر : أتشهد أن محمداً رسول الله ؟ قال : نعم . قال : أتشهد أنى رسول الله ؟ قال : نعم . فأرسله . فأتى النبى ﷺ فأخبره فقال : « أما صاحبك فمضى على إيمانه ، وأما أنت فأخذت بالرخصة » وذكر ابن كثير فى تفسيره (٢/٥٨٨) رواية تفيد أن الأول منهما هو حبيب بن زيد الأنصارى .

وقد تحدَّث العلماء عن الإكراه فى قوله تعالى :

﴿ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ .. (١٠٦) ﴾ [النحل]

وأوضحوا وجوه الإكراه وحكم كل منها ، على النحو التالى :

- إذا أكره الإنسان على أمر ذاتىٍّ فيه . كأن قيل له : اشرب الخمر وإلاَّ قتلتُك أو عذبتُك قالوا : يجب عليه فى هذه الحالة أنْ يشربها وينجو بنفسه ؛ لأنه أمر يتعلق به ، ومن الناس مَنْ يعصون الله بشربها . فإنْ قيل له : اكفر بالله وإلاّ قتلتُك أو عذبتُك ، قالوا : هو مُخيّر بين أن يأخذ بالتقيّة هنا ، ويستخدم الرخصة التى شرعها الله له ، أو يصدع بالحق ويصمد .

- أما إذا تعلّق الإكراه بحقٍّ من حقوق الغير ، كأنْ قيل لك : اقتل فلاناً وإلا قتلتك ، ففى هذه الحالة لا يجوز لك قَتْله ؛ لأنك لو قتلتهُ لقُتِلْت قِصَاصاً ، فما الفائدة إذن ؟ .

وبعد أن تحدّث الحق تبارك وتعالى عن حكم مَنْ أكرهَ وقلبه مطمئن بالإيمان ، يتحدث عن النوعِ الآخر :

﴿ وَلَـكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا .. (١٠٦) ﴾ [النحل]

أى : نطق كلمة الكفر راضياً بها ، بل سعيدة بها نفسه ، مُنْشرِحاً بها صدره ، وهذا النوْع هو المقصود فى جواب الشرط .

﴿ فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٦) ﴾ [النحل]

فإنْ كانت الآيات قد سكتت عَمَّنْ أُكرهَ ، ولم تجعل له عقوبة لأنه مكره ، فقد بيَّنت أن من شرح بالكفر صدراً عليه غضب من الله أى : فى الدنيا . ولهم عذاب عظيم أى : فى الآخرة .

وكما رأينا فى تاريخ الإسلام نماذج للنوع الأول الذى أُكْره وقلبه مطمئن بالإيمان ، كذلك رأينا نماذج لمن شرح بالكفر صَدْراً ، وهم المنافقون ، ومنهم مَنْ أسلم بعد ذلك وحَسُن إسلامه ، ومنهم عبد الله ابن سعد بن أبى السرح من عامر بن لؤى .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾﴾

﴿ ذَلِكَ ﴾ أى : ما استحقوه من العذاب السابق .

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ..(١٠٧)﴾ [النحل]

استحب : أى آثر وتكلَّف الحب ؛ لأن العاقل لو نظر إلى الدنيا بالنسبة لعمره فيها لوجدها قصيرة أحقر من أنْ تُحبَّ لذاتها ، ولَوجدَ الأغيار بها كثيرة تتقلّب بأهلها فلا يدوم لها حال ، ينظر فإذا الأحوال تتبدّل من الغنى إلى الفقر ، ومن الصحة إلى السَّقَم ، ومن القوة إلى الضعف ، فكيف إذن تستحب الدنيا على الآخرة ؟!

والحق تبارك وتعالى يريد منّا أنْ نعطى كلاً من الدنيا والآخرة ما يستحقه من الحب ، فنحب الدنيا دون مبالغة فى حبها ، نحبها على أنها مزرعة للآخرة ، وإلاَّ ، فكيف نطلب الجزاء والثواب من الله ؟

لذلك نقول : إن الدنيا أهمّ من أنْ تُنسى ، وأتفه من أن تكون غاية ، وقد قال الحق سبحانه :

﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا..(٧٧)﴾ [القصص]

ففهم البعض الآية على أنها دعوة للعمل للدنيا وأخْذ الحظوظ منها ، ولكن المتأمل لمعنى الآية يجد أن الحق سبحانه يجعل الدنيا شيئاً هيّناً مُعرَّضاً للنسيان والإهمال ، فيُذكّرنا بها ، ويحثُّنا على أن نأخذ منها بنصيب ، فأنا لا أقول لك : لا تنسَ الشىء الفلانى إلا إذا كنتُ أعلم أنه عُرْضَة للنسيان ، وهذا جانب من جوانب الوسطية والاعتدال فى الإسلام .

ويكفينا وَصْف هذه الحياة بالدنيا ، فليس هناك وَصْفٌ أقلّ من هذا الوصف ، والمقابل لها يقتضى أن نقول : العُلْيا وهى الآخرة ، نعم نحن لا ننكر قَدْر الحياة الدنيا ولا نبخسها حقها ، ففيها الحياة والحسّ والحركة ، وفيها العمل الصالح والذكْرى الطيبة .. إلخ .

ولكنها مع ذلك إلى زوال وفناء ، فى حين أن الآخرة هى الحياة الحقيقية الدائمة الباقية التى لا يعتريها زوال ، ولا يهددها موت ، كما قال الحق سبحانه :

﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٦٤) ﴾ [العنكبوت]

أى : الحياة الحقيقية التى يجب أن نحرص عليها ونحبها .

ومن ذلك قوله تعالى :

﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ .. (٢٤) ﴾ [الأنفال]

ما معنى (لِمَا يُحْيِيكُمْ) والقرآن يخاطبهم وهم أحياء يُرزَقُون ؟ قالوا : يُحييكم أى : الحياة الحقيقية الباقية التى لا تزول .

وقوله :

﴿عَلَى الآخِرَةِ..(١٠٧)﴾ [النحل]

لقائل أن يقول : إن الآية تتحدث عن غير المؤمنين بالآخرة ، فكيف يُقَال عنهم :

﴿اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ..(١٠٧)﴾ [النحل]

نقول : من غير المؤمنين بالآخرة مَنْ قال الله فيهم :

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ(٣٨)﴾ [النحل]

وأيضاً منهم مَنْ قال :

﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا (٣٦)﴾ [الكهف]

إذن : من هؤلاء مَنْ يؤمن بالآخرة ، ولكنه يُفضّل عليها الدنيا .

وقوله تعالى :

﴿وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (١٠٧)﴾ [النحل]

أى : لا يهديهم هداية معونة وتوفيق . وسبق أنْ قُلْنا : إن الهداية نوعان : هداية دلالة ، ويستوى فيها المؤمن والكافر ، وهداية معونة خاصة بالمؤمن .

إذن : إذا نفيتَ الهداية ، فالمراد هداية المعونة ، فعدم هداية الله انصبتْ على الكافر لكونه كافراً ، فكأن كُفْره سبق عدم هدايته ، أو نقول : لكونه كافراً لم يَهْدِه الله .

ولذلك يحكم الله على هؤلاء بقوله سبحانه :

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ ﴾

طبع : أى ختم عليها ، وإذا تأملتَ الختْم وجدتَ المقصود منه أن الشىء الداخل يظلّ داخلاً لا يخرج ، وأن الخارج يظل خارجاً لا يدخل .

وفَرْقٌ بين ختم البشر وختم ربِّنا سبحانه ، فقصارى ما نفعله أن نختم الأشياء المهمة كالرسائل السرية مثلاً ، أو نريد إغلاق مكان ما نختم عليه بالشمع الأحمر لنتأكد من غلقه ، ومع ذلك نجد مَنْ يحتال على هذا الختم ويستطيع فضّه وربما أعاده كما كان .

أما إذا ختم الحق سبحانه وتعالى على شىء فلا يستطيع أحد التحايل عليه سبحانه .

فالمراد - إذن - بقوله تعالى :

﴿ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ .. ﴿١٠٨﴾ ﴾ [النحل]

أن ما فيها من الكفر لا يخرج منها ، وما هو خارجها من الإيمان لا يدخل فيها ؛ ذلك لأن القلب هو الوعاء الذى تصبّ فيه الحواس التى هى وسائل الإدراكات المعلومية ، وأهمها السمع والبصر .

فبالسمع تسمع الوحى والتبليغ عن الله ، وبالبصر ترى دلائل قدرة الله فى كونه وعجيب صُنْعه مما يلفتك إلى قدرة الله ، ويدعوك للإيمان به سبحانه ، فإذا ما انحرفتْ هذه الحواسّ عما أراده الله منها ، وبدل أن تمدّ القلب بدلائل الإيمان تعطَّلتْ وظيفتها .

فالسمع موجود كآلة تسمع ولكنها تسمع الفارغ من الكلام ، فلا يوجد سَمْع اعتبارىّ ، وكذلك البصر موجود كآلة تُبصر ما حرم الله فلا يوجد بصر اعتبارى ، فما الذى سيصل إلى القلب - إذن - من خلال هذه الحواس ؟

فما دام القلب لا يسمع الهداية ، ولا يرى دلائل قدرة الله فى كونه فلن نجد فيه غير الكفر ، فإذا أراد الإيمان قُلْنا له : لا بُدَّ أن تُخرِج الكفر من قلبك أولاً ، فلا يمكن أن يجتمع كفر وإيمان فى قلبٍ واحد ؛ لذلك عندنا قانون موجود حتى فى الماديات يسمونه (عدم التداخل) يمكن أن تشاهده حينما تملأ زجاجة فارغة بالماء ، فترى أن الماء لا يدخل إلا بقدر ما يخرج من الهواء .

فكذلك الحال فى الأوعية المعنوية .

فإنْ أردتَ الإيمان - أيها الكافر - فأخرجْ أولاً ما فى قلبك من الكفر ، واجعله مُجرّداً من كل هوى ، ثم ابحث بعقلك فى أدلة الكفر وأدلة الإيمان ، وما تصل إليه وتقتنع به أدْخله فى قلبك ، لكن أنْ تبحث أدلة الإيمان وفى جوفك الكفر فهذا لا يصحّ ، لا بُدّ من إخلاء القلب أولاً وتجعل الأمريْن على السواء .

لذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ﴿٤﴾ ﴾ [الأحزاب]

وفى الأثر : « لا يجتمع حب الدنيا وحب الله فى قلب واحد »[(١)]

لأن للإنسان قلباً واحداً لا يجتمع فيه نقيضان ، هكذا شاءت قدرة الله أن يكون القلب على هذه الصورة ، فلا تجعلْه مزدحماً بالمظروف فيه .

كما أن طَبْع الله على قلوب الكفار فيه إشارة إلى أن الحق سبحانه وتعالى يعطى عبده مراده ، حتى وإنْ كان مراده الكفر ، وكأنه سبحانه يقول لهؤلاء : إنْ كنتم تريدون الكفر وتحبونه وتنشرح له صدوركم فسوف أطبع عليها ، فلا يخرج منها الكفر ولا يدخلها الإيمان ، بل وأزيدكم منه إنْ أحببتُمْ ، كما قال تعالى :

﴿ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا .. (١٠) ﴾ [البقرة]

فهنيئاً لكم بالكفر ، واذهبوا غَيْرَ مأسوف عليكم .

وقوله : ﴿ وَأُوْلَـٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٠٨) ﴾ [النحل]

الغافل : مَنْ كان لديه أمر يجب أن يتنبه إليه ، لكنه غفل عنه ، وكأنه كان فى انتظار إشارة تُنبّه عقله ليصل إلى الحق .

ثم يُنهى الحق سبحانه الكلام عن هؤلاء بقوله تعالى :

﴿ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٠٩) ﴾

---

(١) ورد فى معنى هذا عدة آثار :

- قال عيسى بن مريم : « كما لا يستقيم النار والماء فى إناء ، كذلك لا يستقيم حب الآخرة والدنيا فى قلب المؤمن » . أخرجه ابن أبى الدنيا فى « ذم الدنيا » (ص٣٤) .
- وقيل ليونس بن متى : « يا يونس إذا أحب العالم الدنيا نزعت مناجاتى من قلبه » أخرجه ابن أبى الدنيا فى « ذم الدنيا » (ص ١٥٦) .

فقوله تعالى :

﴿ لا جَرَمَ..(١٠٩) ﴾ [النحل]

أى : حقاً ولا بُدَّ ، أولا جريمة فى أن يكون هؤلاء خاسرين فى الآخرة ، بما اقترفوه من مُوجبات الخسارة ، وبما أتَوْا به من حيثيّات ترتَّبَ عليها الحكم بخسارتهم فى الآخرة ، فقد حقَّ لهم وثبت لهم ذلك .

والمتتبع للآيات السابقة يجد فيها هذه الحيثيات ، بدايةً من قَوْلهم عن رسول الله :

﴿ إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ ..(١٠١) ﴾ [النحل]

وقولهم : ﴿ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ..(١٠٣) ﴾ [النحل]

وعدم إيمانهم بآيات الله ، وكونهم كاذبين مفترين على الله ، واطمئنانهم بالكفر ، وانشراح صدورهم به ، واستحبابهم الحياة الدنيا على الآخرة .

هذه كلها حيثيات وأسباب أوجبتْ لهم الخسران فى الآخرة يوم تُصفّى الحسابات ، وتنكشف الأرباح والخسائر ، وكيف لا يكون عاقبته خُسْراناً مَن اقترف كل هذه الجرائم ؟!

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِن بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١١٠) ﴾

قوله تعالى : ﴿ فُتِنُوا..(١١٠) ﴾ [النحل]

أى : ابتلوا وعُذِّبوا عذاباً أليماً ؛ لأنهم أسلموا .

وقوله : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١١٠) ﴾ [النحل]

من رحمة الله تعالى أن يفتح باب التوبة لعباده الذين أسرفوا على أنفسهم ، ومن رحمته أيضاً أن يقبل توبة مَنْ يتوب ؛ لأنه لو لم يفتح الله باب التوبة للمذنب ليئسَ من رحمة الله ، ولتحوّل - وإن أذنب ولو ذنباً واحداً - إلى مجرم يشقَى به المجتمع ، فلم يَرَ أمامه بارقة أمل تدعوه إلى الصلاح ، ولا دافعاً يدفعه إلى الإقلاع .

أما إذا رأى باب ربه مفتوحاً ليل نهار يقبل توبة التائب ، ويغفر ذنب المسىء ، كما جاء فى الحديث الشريف :

« إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مُسىء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسىء الليل ، حتى تطلع الشمس من مغربها »[(١)] .

بل ويزيده ربنا سبحانه وتعالى من فضله إنْ أحسن التوبة ، وندم على ما كان منه ، بأن يُبدّل سيئاته حسناتٍ ، كما قال سبحانه :

﴿ إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَـئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٧٠) ﴾ [الفرقان]

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٧٥٩) من حديث أبى موسى الأشعرى . قال النووى فى شرح مسلم : « قال المازرى : المراد به قبول التوبة ، وإنما ورد لفظ بسط اليد لأن العرب إذا رضى أحدهم الشىء بسط يده لقبوله ، وإذا كرهه قبضها عنه ، فخوطبوا بأمر حسى يفهمونه ، وهو مجاز ، فإن يد الجارحة مستحيلة فى حق الله تعالى » .

لو رأى المذنب ذلك كان أدْعى لإصلاحه ، وأجْدَى فى انتشاله من الوَهْدة التى تردَّى فيها .

إذن : تشريع التوبة من الحق سبحانه رحمة ، وقبولها من المذنب رحمة أخرى ؛ لذلك قال سبحانه :

﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ..(١١٨) ﴾ [التوبة]

أى : شرع لهم التوبة ودلَّهم عليها ، ليتوبوا هم .

فإنْ اغترَّ مُغْترٌّ برحمة الله وفضله فقال : سأعمل سيئات كثيرة حتى يُبدِّلها الله لى حسنات . نقول له : ومَنْ يدريك لعله لا تنطبق عليك شروط الذين يُبدِّل الله سيئاتهم حسنات ، وهل تضمن أنْ يُمهِلك الأجل إلى أن تتوب ، وأنت تعلم أن الموت يأتى بغتة ؟

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١١١) ﴾

قد يكون المعنى فى هذه الآية على اتصال بالآية السابقة ، ومتعلق بها ، فيكون المراد :

﴿ إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١١٠) ﴾ [النحل]

يحدث هذا :

﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا ..(١١١) ﴾ [النحل]

أى : يوم القيامة . أو يكون المعنى : اذكر يا محمد :

﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا (١١١)﴾ [النحل]

وهل للإنسان أكثر من نفس ، فتجادل إحداهما عن الأخرى ؟

الحقيقة أن للإنسان نفساً واحدة فى الدنيا والآخرة ، ولكنها تختلف فى الدنيا عنها يوم القيامة ؛ لأن الحق سبحانه منحها فى الدنيا الاختيار ، وجعلها حرة فى أن تفعل أو لا تفعل ، فكان من النفوس : الطائعة ، والعاصية ، والمنصاعة ، والمكابرة .

فإذا ما وقفت النفس فى موقف القيامة ، وواجهتْ الحق الذى كانت تخالفه علمت أن الموقف لا تفيد فيه مكابرة ، ولا حيلة لها إلا أن تجادل وتدافع عن نفسها ، فكأن نفس القيامة تجادل عن نفس الدنيا فى موقف ينادى فيه الحق تبارك وتعالى :

﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦)﴾ [غافر]

وقد حكى القرآن الكريم نماذج من جدال النفس يوم القيامة ، فقال تعالى :

﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ (٢٣)﴾ [الأنعام]

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ..(٣)﴾ [الزمر]

﴿رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلاَّنَا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا..(٢٩)﴾ [فصلت]

إذن : هى نفس واحدة ، تجادل عن نفسها فى يوم لا تجزى فيه نفس عن نفس ، فكلٌّ مشغول بكَرْبه ، مُحاسَب بذنبه ، كما قال تعالى :

﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٣٧)﴾ [عبس]

وقوله تعالى :

﴿وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (١١١)﴾ [النحل]

الحق سبحانه يعطينا لقطة سريعة للحساب والجزاء يوم القيامة ، فالميزان ميزان عَدْل وقسطاس مستقيم لا يظلم أحداً .

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨)﴾ [الزلزلة]

وقوله تعالى : ﴿وَتُوَفَّىٰ..(١١١)﴾ [النحل]

يدلُّ على أن الجزاء من الله يكون وافياً ، لا نقص فيه ولا جَوْر ، فالجميع عبيد لله ، لا يتفاضلون إلا بأعمالهم ، فإنْ رحمهم فبفضله ، وإنْ عذَّبهم فبعدْله ، وقد قال تعالى :

﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٨)﴾ [النحل]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا (١) مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ (١١٢)﴾

---

(١) رَغُد العيش : اتسع وطاب . وقوله : ﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا (٣٥)﴾ [البقرة] أى : أكلاً طيباً موسّعاً عليكم فيه .

الحق سبحانه وتعالى بعد أنْ تكلّم عن الإيمان بالله والإيمان بصدق رسوله فى البلاغ عنه ، واستقبال منهج الله فى الكتاب والسنة ، وتكلم عن المقابل لذلك من الكفر واللجاج والعناد لله وللرسول وللمنهج . أراد سبحانه أنْ يعطينا واقعاً ملموساً فى الحياة لكل ذلك ، فضرب لنا هذا المثل .

ومعنى المثل : أن يتشابه أمران تشابهاً تاماً فى ناحية معينة بحيث تستطيع أن تقول : هذا مثل هذا تماماً .

والهدف من ضرب الأمثال أنْ يُوضّح لك مجهولاً بمعلوم ، فإذا كنتَ مثلاً لا تعرف شخصاً نتحدث عنه فيمكن أن نقول لك : هو مثل فلان ـ المعلوم لك ـ فى الطول ومثل فلان فى اللون .. إلخ من الصور المعلومة لك ، وبعد أن تجمع هذه الصور تُكوِّن صورة كاملة لهذا الشخص الذى لا تعرفه .

لذلك ، فالشىء الذى لا مثيلَ له إياك أن تضرب له مثلاً ، كما قال الحق سبحانه :

﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ (٧٤)﴾ [النحل]

لأنه سبحانه لا مثيل له ، ولا نظير له ، لا فى ذاته ، ولا فى صفاته ، ولا فى أفعاله ، وهو سبحانه الذى يضرب المثل لنفسه ، أما نحن فلا نضرب المثل إلا للكائنات المخلوقة له سبحانه .

لذلك نجد فى القرآن الكريم أمثالاً كثيرة توضح لنا المجهول بمعلوم لنا ، وتوضح الأمر المعنوى بالأمر الحسىِّ الملموس لنا .

ومن ذلك ما ضـربه الله لنا مثلاً فى الإنفاق فى سـبيل الله ، وأن الله يضاعف النفقـة ، ويُخلف على صاحبها أضـعافاً مضاعـفة ، فانظر كيف صوَّر لنا القرآن هذه المسألة :

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦١) ﴾ [البقرة]

وهكذا أوضح لنا المـثل الأمـر الغيـبى المجـهـول بالأمر المـحسِّ المُشَاهد الذى يعلمـه الجميع ، حتى استقرَّ هذا الـمجهول فى الذهن ، بل أصبح أمراً مُتيقَّناً شاخصاً أمامنا .

والمتـأمل فى هذا المثل التـوضيحى يـجد أن الأمر الذى وضّـحه الحق سبـحانه أقوى فى العطاء من الأمر الذى أوضح به ، فـإنْ كانت هذه الأضعاف المضاعـفة هى عطاء الأرض ، وهى مخلوقة لله تعالى ، فما بالك بعطاء الخالق سبحانه وتعالى ؟

وكلمـة (ضَرَبَ) مـأخوذة من ضَـرْب العـملة ، حيث كـانت فى المـاضى من الذهب أو الفـضـة ، ولخـوف الغش فـيهـا حـيث كـانوا يخلطون الذهب مثـلاً بالنحاس ، فكان النقاد أى : الـخبراء فى تمـيـيز العملة يضربونـها أى : يختمون عليـها فتصيـر مُعتمدة مـوثوقاً بها ، ونافذة وصالحة للتداول .

كذلك إذا ضرب الله مـثلاً لشىء مجهول بشىء معلوم اسـتقرَّ فى الذهن واعتُمِد .

فقال تعالى فى هذا المثل :

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً..(١١٢)﴾ [النحل]

الهدف من ضرب هذا المثل أن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يوضح لنا أن الإنسان إذا أنعم الله عليه بشتى أنواع النعم فجحدها ، ولم يشكره عليها ، ولم يُؤدِّ حقَّ الله فيها ، واستعمل نعمة الله فى معصيته فقد عرَّضها للزوال ، وعرّض نفسه لعاقبة وخيمة ونهاية سيئة ، فقيّد النعمة بشكرها وأداء حق الله فيها ، لذلك قال الشاعر :

إذَا كُنْتَ فى نعمةٍ فَارْعَها فَإنَّ المعَاصِى تُزيلُ النِّعم
وحَافِظْ عليها بشُكْرِ الإله فإنَّ الإلَه شَدِيدُ النِّقَم

ولكن ، القرية التى ضربها الله لنا مثلاً هنا ، هل هى قرية معينة أم المعنى على الإطلاق ؟ قد يُراد بالقرية قرية معينة كما قال البعض إنها مكة[1] ، أو غيرها من القرى ، وعلى كلٍّ فتحديدها أمر لا فائدة منه ، ولا يُؤثِّر فى الهدف من ضَرْب المثل بها .

والقرية : اسم للبلد التى يكون بها قِرىً لمن يمرُّ بها ، أى : بلد استقرار . وهى اسم للمكان فإذا حُدِّث عنها يراد المكين فيها ، كما فى قوله تعالى :

﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِى كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِى أَقْبَلْنَا فِيهَا..(٨٢)﴾ [يوسف]

فالمراد : اسأل أهل القرية ؛ لأن القرية كمكان لا تُسأل .. هكذا

---

(١) قاله ابن عباس ومجاهد . وقالت عائشة وحفصة رضى الله عنهما : هى المدينة . [ذكره السيوطى فى الدر المنثور ٥/١٧٤] وقال القرطبى فى تفسيره (٥/٣٩٢١) : « قيل إنه مثل مضروب بأى قرية كانت على هذه الصفة من سائر القرى » .

قال علماء التفسير ، على اعتبار أن فى الآية مجازاً مرسلاً علاقته المحلية .

ولكن مع تقدُّم العلم الحديث يعطينا الحق تبارك وتعالى مدداً جديداً ، كما قال سبحانه :

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ.. (٥٣) ﴾ [فصلت]

والآن تطالعنا الاكتشافات بإمكانية التقاط صور وتسجيل أصوات السابقين ، فمثلاً يمكنهم بعد انصرافنا من هذا المكان أن يُسجِّلوا جلستنا هذه بالصوت والصورة .

ومعنى ذلك أن المكان يعي ويحتفظ لنا بالصور والأصوات منذ سنوات طويلة ، وعلى هذا يمكن أن نقول : إن القرية يمكن أنْ تُسأل ، ويمكن أن تجيب ، فلديها ذاكرة واعية تسجِّل وتحتفظ بما سجَّلته ، بل وأكثر من ذلك يتطلعون لإعادة الصور والأصوات من بَدْء الخليقة على اعتبار أنها موجودة فى الجو ، مُودعة فيه على شكل موجات لم تُفقد ولم تَضِع .

وما أشبه هذه الموجات بانديا ح الماء إذا ألقيتَ فيه بحجر ، فينتج عنه عدة دوائر تبتعد عن مركزها إلى أنْ تتلاشى بالتدريج.

إذن : يمكن أن يكون سؤال القرية على الحقيقة ، ولا شك أن سؤال القرية سيكون أبلغ من سؤال أهلها ؛ لأن أهلها قد يكذبون ، أما هى فلا تعرف الكذب .

وبهذا الفهم للآية الكريمة يكون فيها إعجاز من إعجازات الأداء القرآنى .

وقوله تعالى : ﴿ كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً .. (١١٢) ﴾ [النحل]

آمنةً : أى فى مَأْمَن من الإغارة عليها من خارجها ، والأمن من أعظم نِعَم الله تعالى على البلاد والعباد .

وقوله : ﴿ مُّطْمَئِنَّةً .. (١١٢) ﴾ [النحل]

أى : لديها مُقوّمات الحياة ، فلا تحتاج إلى غيرها ، فالحياة فيها مُستقرّة مريحة ، والإنسان لا يطمئن إلا فى المكان الخالى من المنغِّصات ، والذى يجد فيه كل مقومات الحياة ، فالأمن والطمأنينة هما سرُّ سعادة الحياة واستقرارها .

وحينما امتنَّ الله تعالى على قريش قال :

﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ (١) إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (٢) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَـٰذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ (٤) ﴾ [قريش]

فطالما شبعت البطن ، وأمنتْ النفس استقرت بالإنسان الحياة .

والرسول ﷺ يعطينا صورة مُثْلى للحياة الدنيا ، فيقول :

« مَنْ أصبح معافىً فى بدنه ، آمناً فى سربه[1]، عنده قوت يومه ، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها »[2]

ويصف الحق سبحانه هذه القرية بأنها :

﴿ يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ .. (١١٢) ﴾ [النحل]

---

(١) السرب : النفس والمذهب . وقال ابن درستويه : وإنما المعنى آمن فى أهله وولده . وقيل : السرب هنا القلب ، أى : آمنْ القلب . [لسان العرب ـ مادة : سرب] .

(٢) أخرجه أبو نعيم فى الحلية (٥/٢٤٩) ، وابن حبان (٢٥٠٣ ـ موارد الظمآن) من حديث أبى الدرداء رضى الله عنه ، وأورده الهيثمى فى مجمع الزوائد (١٠/٢٨٩) وعزاه للطبرانى وقال : « رجاله وُثقوا على ضعف فى بعضهم » .

معلـوم أن الناس هم الذين يخرجـون لطلب الرزق ، لكن فى هذه القرية يأتى إليها الرزق ، وهذا يُرجّح القول بأنها مكة ؛ لأن الله تعالى قال عنها :

﴿ أَوَ لَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٥٧) ﴾ [القصص]

ومن تيسَّر له العـيش فى مكة يرى فيها الثمـرات والمنتجات من كل أنحاء العالم ، وبذلك تمَّتْ لهم النعمة واكـتملتْ لديهم وسائل الحياة الكريمة الآمنة الهـانئة ، فمـاذا كان منهم ؟ هل استـقبلوها بشكر الله ؟ هل استخدموا نعمة الله عليهم فى طاعته ومَرْضاته ؟ لا .. بل :

﴿ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ..(١١٢) ﴾ [النحل]

أى : جـحدت بهـذه النعم ، واسـتـعملتـهـا فى مصـادمـة منهج الله وشريعته ، فكانت النتيجة :

﴿ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١١٢) ﴾ [النحل]

وكأن فى الآية تحـذيراً من الحـق سـبحانه لكل مجـتمع كفر بنـعمة الله ، واستـعمل النعمـة فى مصادمـة منهجه سـبحانه ، فـسوف تكون عاقبته كعاقبة هؤلاء .

﴿ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ..(١١٢) ﴾ [النحل]

من الذوق ، نقـول : ذاق وتذوّق الطـعـام إذا وضـعـه على لسـانه وتذوَّقه . والذَّوْق لا يتجاوز حلمـات اللسان . إذن : الذوْق خاصٌّ بطعْم الأشياء ، لكن الله سبحانه لم يقُلْ : أذاقها طعم الجوع ، بل قال :

﴿لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ..(١١٢)﴾ [النحل]

فجعل الجوع والخوف وكأنهما لباسٌ يلبسه الإنسان ، والمتأمل فى الآية يطالع دِقّة التعبير القرآنى ، فقد يتحول الجوع والخوف إلى لباس يرتديه الجائع والخائف ، كيف ذلك ؟

الجوع يظهر أولاً كإحساس فى البطن ، فإذا لم يجد طعاماً عوّض من المخزون فى الجسم من شحوم ، فإذا ما انتهتْ الشحوم تغذَّى الجسم على اللحم ، ثم بدأ ينحت العظام ، ومع شدة الجوع نلاحظ على البشرة شحوباً ، وعلى الجلد هُزَالاً وذبولاً ، ثم ينكمش ويجفّ ، وبذلك يتحول الجوع إلى شكل خارجى على الجلد ، وكأنه لباس يرتديه الجائع .

وتستطيع أن تتعرف على الجوع ليس من بطن الجائع ، ولكن من هيئته وشُحوب لونه وتغيُّر بشرته ، كما قال تعالى عن الفقراء الذين لا يستطيعون ضرباً فى الأرض :

﴿تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا .. (٢٧٣)﴾ [البقرة]

وكذلك الخوف وإنْ كان موضعه القلب ، إلا أنه يظهر على الجسم كذلك ، فإذا زاد الخوف ترتعد الفرائص ، فإذا زاد الخوف يرتعش الجسم كله ، فيظهر الخوف عليه كثوب يرتديه .

. وهكذا جَسَّد لنا التعبير القرآنى هذه الأحاسيس الداخلية ، وجعلها محسوسة تراها العيون ، ولكنه أدخلها تحت حاسَّة التذوق ؛ لأنها أقوى الحواسّ .

وفى تشبيه الجوع والخوف باللباس ما يُوحى بشمولهما الجسم

كله ، كما يلفّه اللباس فليس الجوع فى المعدة فقط ، وليس الخوف فى القلب فقط .

ومن ذلك ما اشتُهِر بين المحبين والمتحدثين عن الحب أن محله القلب ، فنراهم يتحدثون عن القلوب ، كما قال الشاعر :

خَطَرَاتُ ذِكْرِكَ تَسْتَسِيغُ مَودَّتى فَأُحِسُّ مِنْها فِى الفُؤادِ دَبِيبَا

فإذا ما زاد الحب وتسامى ، وارتقت هذه المشاعر ، تحوّل الحب من القلب ، وسكَن جميع الجوارح ، وخالط كل الأعضاء ، على حَدِّ قول الشاعر :

لاَ عُضْوَ لِى إلاَّ وَفِيهِ صَبَابَةٌ فَكَأَنَّ أَعْضَائِى خُلِقْنَ قُلُوبَا

وقوله : ﴿بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١١٢)﴾ [النحل]

أى : أن الحق سبحانه ما ظلمهم وما تجنَّى عليهم ، بل ما أصابهم هو نتيجة عملهم وصدودهم عن سبيل الله ، وكفرهم بأنعمه ، فحبسها الله عنهم ، فهم الذين قابلوا رسول الله ﷺ بالصُّدود والجحود والنكران ، وتعرَّضوا له ولأصحابه بالإيذاء وبيَّتوا لقتله ، حتى دعا عليهم قائلاً :

« اللهم اشْدُدْ وطأتك على مضر ، واجعلها عليهم سنين كسنى يوسف »[1]

فاستجاب الحق سبحانه لنبيه ، وألبسهم لباس الجوع والخوف ،

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى صحيحه (١٠٠٦) ، وأحمد فى مسنده (٢/ ٤٧٠ ، ٥٠٢ ، ٥٢١) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

حتى إنهم كانوا يأكلون الجيف ، ويخلطون الشعر والوبر بالدم فيأكلوه .

وظلوا على هذا الحال سبع سنين حتى ضَجُّوا ، وبلغ بهم الجَهْد والضَّنْك مُنْتهاه ، فأرسلوا وفداً منهم لرسول الله ، فقالوا : هذا عملك برجال مكة ، فما بال صبيانها ونسائها ؟ فكان ﷺ يرسل لهم ما يأكلونه من الحلال الطيب .

أما لباس الخوف فتمثَّل فى السرايا التى كان يبعثها رسول الله ﷺ من المدينة لترهبهم وتزعجهم ؛ ليعلموا أن المسلمين أصبحتْ لهم قوة وشوكة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾﴾

رأينا كيف كانت النعمة تامة على أهل مكة ، وقد تمثلت هذه النعمة فى كَوْنها آمنة مطمئنة ، وهذه نعمة مادية يحفظ الله بها القالب الإنسانى ، لكنه ما يزال فى حاجة إلى ما يحفظ قِيَمه وأخلاقه .

وهذه هى نعمة النعم ، وقد امتنَّ الله عليهم بها حينما أرسل فيهم رسولاً منهم ، فما فائدة النعم المادية فى بلد مهزوزة القيم ، مُنْحلة الأخلاق ، فجاءهم رسول الله ﷺ ليُقوِّم ما اعوجّ من سلوكهم ، ويُصلح ما فسد من قِيَمِهم ومبادئهم .

وقوله : ﴿مِّنْهُمْ..﴿١١٣﴾﴾ [النحل]

أى : من جنسهم ، وليس غريباً عنهم ، وليس من مُطْلق العرب ، بل من قريش أفضل العرب وأوسطها .

يقول تعالى : ﴿فَكَذَّبُوهُ..(١١٣)﴾ [النحل]

وكان المفترض فيهم أن يستقبلوه بما علموا عنه من صفات الخير والكمال ، وبما اشتهر به بينهم من الصدق والأمانة ، ولكنهم كما كفروا بالنعم المادية كفروا أيضاً بالنعم القيمية متمثلة فى رسول الله ﷺ .

وقوله : ﴿فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ (١١٣)﴾ [النحل]

مَنِ الذى أخذهم ؟

لم تقُلْ الآية : أخذهم الله بالعذاب ، بل : أخذهم العذاب ، كأن العذابَ نفسه يشتاق لهم ، وينقضُّ عليهم ، ويسارع لأخذهم ، ففى الآية تشخيص يُوحى بشدة عذابهم .

كما قال تعالى فى آية أخرى :

﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ (٣٠)﴾ [ق]

ثم يقول تعالى :

﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (١١٤)﴾ (١)

---

(١) الضمير فى (فُكُلوا) هنا يحتمل أمرين :

١ ـ أن يكون الخطاب للمؤمنين ، ليأكلوا من الرزق الحلال الطيب ، ومن الغنائم .

٢ ـ أن يكون الخطاب للمشركين ، لأن النبى ﷺ بعث إليهم بطعام ، بعد أن أكلوا الجيف والكلاب الميتة والجلود . [تفسير القرطبى ٣٩٢٢/٥] بتصرف .

قُلْنا : إن الرسول ﷺ حينما اشتد الحال بأهل مكة حتى أكلوا الجيف ، كان يرسل إليهم ما يأكلونه من الحلال الطيب رحمة منه ﷺ بهم فيقول :

﴿ فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ .. (١١٤) ﴾ [النحل]

أى : أن هذا الرزق ليس من عندى ، بل من عند الله .

﴿ حَلالاً طَيِّبًا .. (١١٤) ﴾ [النحل]

ذلك لأنهم كانوا قبل ذلك لا يتورّعون عن أكل ما حرم الله ، ولا عن أكل الخبيث ، فأراد أن يُنبِّههم أن رِزْق الله لهم من الحلال الطيب الهنيىء ، فيبدلهم الحلال بدل الحرام ، والطيب بدل الخبيث .

وقوله تعالى : ﴿ وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ .. (١١٤) ﴾ [النحل]

وهنا إشارة تحذير لهم أنْ يقعوا فيما وقعوا فيه من قَبْل من جُحود النعمة ونكْرانها والكفر بها ، فقد جَرَّبوا عاقبة ذلك ، فنزع الله منهم الأمْنَ ، وألبسهم لباسَ الخوف ، ونزع منهم الشِّبَع ورَغَد العيش ، وألبسهم لباس الجوع ، فخذوا إذن عبرة مما سلف :

﴿ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (١١٤) ﴾ [النحل]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ۖ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١١٥) ﴾ (١)

---

(١) الإهلال : الصياح ورفع الصوت . وأهلَّ بالذبيحة : ذكر اسم من ذبحها له . [القاموس القويم ٢/٣٠٥] .

الحق سبحانه وتعالى بعد أنْ قال :

﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّبًا..(١١٤)﴾ [النحل]

أراد أن يُكرِّر معنًى من المعانى سبق ذكره فى البقرة والمائدة ، فقال فى البقرة :

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ(١) وَلا عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٧٣)﴾ [البقرة]

وقال تعالى فى سورة المائدة :

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ..(٣)﴾ [المائدة]

وهذه الأشياء كنتم تأكلونها وهى مُحرّمة عليكم ، والآن ما دُمْنَا ننقذكم ، ونجعل لكم معونة إيمانية من رسول الله ، فكلوا هذه الأشياء حلالاً طيباً .

ولكن ، لماذا كرَّر هذا المعنى هنا ؟

التكرار هنا لأمرين :

الأول : أنه سبحانه لا يريد أنْ يعطيهم صورة عامة بالحكم ، بل صورة مُشخَّصة بالحالة ؛ لأنهم كانوا جَوْعى يريدون ما يأكلونه ، حتى وإنْ كانت الجيف ، ولكن الإسلام يُحرِّم الميتة ، فأوضح لهم أنكم بعد ذلك ستأكلون الحلال الطيب .

---

(١) أى : فى غير بغى ولا عدوان ، وهو مجاوزة الحد فلا إثم عليه فى أكل ذلك . وقال مقاتل ابن حيان : غير باغ ، يعنى : غير مستحله . وقال السدى : غير باغ . يبتغى فيه شهوته . [تفسير ابن كثير ٢/٢٠٥] .

ثانياً : أن النص يختلف ، ففى البقرة :

﴿وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ..(١٧٣)﴾ [البقرة]

وهنا : ﴿وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ .. (١١٥)﴾ [النحل]

وليس هذا من قبيل التفنُّن فى الأسلوب ، بل المعنى مختلف تماماً ؛ ذلك لأن الإهلال هو رَفْع الصوت عند الذبح ، فكانوا يرفعون أصواتهم عند الذبح ، ولكن والعياذ بالله يقولون : باسم اللات ، أو باسم العُزّى ، فيُهلون بأسماء الشركاء الباطلين ، ولا يذكرون اسم الله الوهاب .

فمرَّة يُهلُّون به لغير الله ، ومرة يُهِلُّون لغير الله به . كيف ذلك ؟

قالوا : لأن الذبْح كان على نوعين : مرة يذبحون للتقرُّب للأصنام ، فيكون الأصل فى الذبح أنه أُهِلَّ لغير الله به . أى : للأصنام .

ومرَّة يذبحون ليأكلوا دون تقرُّب لأحد ، فالأصل فيه أنه أُهِلَّ به لغير الله .

إذن : تكرار الآية لحكمة ، وسبحان مَنْ هذا كلامه .

وقوله : ﴿ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ .. (١١٥)﴾ [النحل]

الاضطرار : ألاَّ تجد ما تأكله ، ولا ما يقيم حياتك .

والحق سبحانه وتعالى يعطينا هنا رخصة عندما تُلجِئنا الضرورة أن نأكل من هذه الأشياء المحرَّمة بقدر ما يحفظ الحياة ويسُدُّ الجوع ، فمَعنى (غَيْر بَاغٍ) غير مُتجاوزٍ للحدِّ ، فلو اضطررْتَ وعندك مَيْتة

وعندك طعام حلال ، فلا يصحّ أن تأكل الميتة فى وجود الحلال .

﴿وَلَا عَادٍ (١١٥)﴾ [النحل]

أى : ولا مُعْتَدٍ على القدر المرخّص به ، وهو ما يمسك الحياة ، ويسُدُّ جوعك فقط ، دون شِبَع منها .

ويقول تعالى :

﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١١٥)﴾ [النحل]

وفى البقرة :

﴿ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ..(١٧٣)﴾ [البقرة]

فالمعنى واحد ، ولكن هنا ذكر المغفرة والرحمة ، وهناك ذكر سببهما .

وتجدر الإشارة هنا إلى ما يتشدَّق به البعض من الملاحدة الذين يبحثون فى القرآن عن مَغْمز ، فيقولون : طالما أن الله حرَّم هذه الأشياء ، فما فائدتها فى الكون ؟

نقول : أتظنون أن كل موجود فى الكون وُجِد ليُؤكل ، أليس له مهمة أخرى ؟ ومن ورائه مصلحة أخرى غير الأَكْل ، فإنْ حرَّم الإسلام أكْله فقد أباح الانتفاع به من وجه آخر .

فالخنزير مثلاً حَرَّم الله أكْله ، ولكن خلَقه لمهمة أخرى ، وجعل له دَوْراً فى نظافة البيئة ، حيث يلتهم القاذورات ، فهو بذلك يُؤدّى مهمة فى الحياة .

وكذلك الثعابين لا نأكلها ، ولها مهمة فى الحياة أيضاً ، وهى أنْ تُجهِّز لنا السُّم فى جوفها ، وبهذا السم تعالج بعض الداءات والأمراض ، وغير ذلك من الأمثلة كثير .

وكذلك يجب أنْ نعلمَ أن الحق سبحانه ما حرَّم علينا هذه الأشياء إلا لحكمة ، وعلى الإنسان أن يأخذ من واقع تكوينه المادى وتجاربه ما يُقرِّب له المعانى القيمية الدينية ، فلو نظر إلى الآلات التى تُدار من حوله من ماكينات وسيارات وطائرات وخلافه لوجد لكل منها وقوداً ، ربما لا يناسب غيرها ، حتى فى النوع الواحد نرى أن وقود السيارات وهو البنزين مثلاً لا يناسب الطائرات التى تستخدم نفس الوقود ، ولكن بدرجة نقاء أعلى .

إذن : لكل شىء وقود مناسب ، وكذلك أنت أيها الإنسان لك وقودك المناسب لك ، وبه تستطيع أداء حركتك فى الحياة ، وأنت صَنْعة ربك سبحانه ، وهو الذى يُحدّد لك ما تأكله وما لا تأكله ، ويعلم ما يُصلحك وما يضرُّك .

والشىء المحرَّم قد يكون مُحرَّماً فى ذاته كالميتة لما فيها من ضرر ، وقد يكون حلالاً فى ذاته ، ولكنه مُحرَّم بالنسبة لشخص معين ، كأن يُمنعَ المريض من تناول طعام ما ؛ لأنه يضرُّ بصحته أو يُؤخّر شفاءه ، وهو تحريم طارىء لحين زوال سببه .

وصورة أخرى للتحريم ، وهى أن يكون الشىء حلالاً فى ذاته ولا ضررَ فى تناوله ، ومع ذلك تحرمه عقوبةً ، كما تفعل فى معاقبة الطفل إذا أساء فنحرمه من قطعة الحلوى مثلاً .

إذن : للتحريم أسباب كثيرة ، سوف نرى أمثلة منها قريباً .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ (١١٦) ﴾

معنى ﴿ تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ ﴾ : تُظهره على أوضح وجوهه ، فليس كلامهم كذباً فقط ، بل يصفه ، فمَنْ لا يعرف الكذب فليعرفه من كلام هؤلاء .

والمراد بالكذب هنا قولهم :

﴿ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ .. (١١٦) ﴾ [النحل]

فهذا كذب وافتراء على الله سبحانه ؛ لأنه وحده صاحب التحليل والتحريم ، فإياك أنْ تُحلِّل شيئاً من عند نفسك ، أو تُحرِّم شيئاً حَسْب هواك ؛ لأن هذا افتراءٌ على الله[1] :

﴿ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ .. (١١٦) ﴾ [النحل]

وقوله تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ (١١٦) ﴾ [النحل]

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٥/٣٩٢٤) : « قال مالك : لم يكن من فتيا الناس أن يقولوا هذا حلال وهذا حرام ، ولكن يقولوا : إياكم كذا وكذا ، ولم أكن لأصنع هذا . ومعنى هذا : أن التحليل والتحريم إنما هو لله عز وجل ، وليس لأحد أن يقول أو يصرح بهذا فى عين من الأعيان ، إلا أن يكون البارىء تعالى يخبر بذلك عنه » .

فإن انطلى كذبهم على بعض الناس ، فأخذوا من ورائه منفعة عاجلة ، فعمَّا قليل سيُفتضح أمرهم ، وينكشف كذبهم ، وتنقطع مصالحهم بين الخلق .

ويصف الحق سبحانه ما يأخذه هؤلاء من دنياهم بأنه :

﴿ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١١٧﴾ ﴾

أى : ما أخذتموه بكذبكم وافترائكم على الله متاعٌ قليل زائل ، سيحرمكم من المتاع الكثير الباقى الذى قال الله عنه :

﴿ مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٖ ﴿٩٦﴾ ﴾ [النحل]

ليس هذا فقط بل :

﴿ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١١٧﴾ ﴾ [النحل]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا مَا قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُۖ (١) وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾

---

(١) وذلك فى سورة الأنعام ، فى قوله تعالى : ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿١٤٦﴾ ﴾ [الأنعام] . فاليهود لا تأكل الإبل والنعام والأوز ولا كل شىء غير مشقوق الأصابع ، وكذلك حرم عليهم الدهن إلا ما كان مختلطاً بعظم . (من تفسير ابن كثير ٢/١٨٥) بتصرف كثير .

بعد أن تكلمت الآيات فيما أحلَّ الله وفيما حرَّم ، وبيَّنتْ أن التحليل أو التحريم لله تعالى ، جاءت لنا بصورة من التحريم ، لا لأن الشىء ذاته مُحرَّم ، بل هو مُحرَّم تحريم عقوبة ، كالذى مثَّلْنا له سابقاً بحرمان الطفل من الحلوى عقاباً له على سُوء فِعْله .

والذين هادوا هم : اليهود عاقبهم الله بتحريم هذه الأشياء ، مع أنها حلال فى ذاتها ، وهذا تحريم خاصٌّ بهم كعقوبة لهم .

وقوله تعالى :

﴿ مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ..(١١٨) ﴾ [النحل]

المراد ما ذُكر فى سورة الأنعام من قوله تعالى :

﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (١٤٦) ﴾ [الأنعام]

كل ذى ظفر : الحيوان ليس منفرجَ الأصابع ، والحوايا : هى المصارين والأمعاء ، ونرى أن كل هذه الأشياء المذكورة فى الآية حلال فى ذاتها ، ومُحلَّلة لغير اليهود ، ولكن الله حرَّمها عليهم عقوبةً لهم على ظلمهم وبغيهم ، كما قال تعالى :

﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيراً (١٦٠) وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ .. (١٦١) ﴾ [النساء]

أى : بسبب ظلمهم حَرَّمنا عليهم هذه الطيبات .

ذلك لأن مَنْ أخذ حكماً افتراءً على الله فحرّم ما أحلَّ الله . أو حلَّل ما حرّم الله لا بد أنْ يُعاقبَ بمثله فيُحرِّم عليه ما أحلّ لغيره ، وقد وقع الظلم من اليهود لأنهم اجترأوا على حدود الله وتعاليمه ، وأول الظلم وقمته الشرك بالله تعالى :

﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣) ﴾ [لقمان]

والظلم نَقْل الحق من صاحبه إلى غيره .

ومن ظلمهم : ما قالوه لموسى ـ عليه السلام ـ بعد أن عبر بهم البحر ، ومرُّوا على قوم يعكفون على أصنام لهم ، فقالوا : يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة . قال تعالى :

﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ .. (١٣٨) ﴾ [الأعراف]

ومن ظلمهم : أنهم عبدوا العجل من دون الله .

ومن ظلمهم لموسى ـ عليه السلام ـ : أنهم لم يؤمنوا به . كما قال تعالى :

﴿ فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ (٨٣) ﴾ [يونس]

ومن ظلمهم :

﴿ وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ (١٦١) ﴾ [النساء]

إذن : بسبب ظلمهم وأخذهم غير حقِّهم حرَّم الله عليهم أشياء كانت حلالاً لهم ؛ لذلك قال تعالى :

﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٨) ﴾ [النحل]

ظلموا أنفسهم بأن أعطوا لأنفسهم متاعاً قليلاً عاجلاً ، وحرموها من المتعة الحقيقية الباقية .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١١٩) ﴾

الحق سبحانه وتعالى يعطى عبده فرصة ، ويفتح له باب التوبة والرجاء ، فمن رحمته سبحانه بعباده أنْ شرع لهم التوبة من الذنوب ، ومن رحمته أيضاً أن يقبلها منهم فيتوب عليهم . ولو أغلق باب التوبة لَتحوَّل المذنب ـ ولو لمرة واحدة ـ إلى مجرم يُعربد فى المجتمع ، وبفتح باب التوبة يقى الله المجتمع من هذه العربدة .

ويبين الرسول ﷺ مكانة التوبة فيقول :

« لله أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة[1] فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه فأيس منها فأتى شجرة فاضطجع فى ظلها قد أيس من راحلته ، فبينا هو كذلك إذ

---

(١) الفلاة : الصحراء الواسعة التى لا ماء بها ولا أنيس ، فهى أرض قفر لأنها فُليت عن كل خير . [لسان العرب ـ مادة : فلا]

هو بها قائمة عنده فأخذ بخطامها[١] ثم قال من شدة الفرح : اللهم أنت عبدى وأنا ربك . أخطأ من شدة الفرح »[٢]

وقوله تعالى فى بداية الآية : ﴿ثُمَّ﴾ تدلُّ على كثرة ما تقدم من ذنوب ، ومع ذلك غفرها الله لهم ليُبيِّن لك البَوْن الشاسع بين رحمة الله وإصرار العُصَاة على الكفران بالله ، وعلى المعصية .

وقوله تعالى : ﴿بِجَهَالَةٍ﴾

أى : بطيش وحُمْق وسَفَه ، وجميعها داخلة فى الجهل بمعنى أنْ تعتقد شيئاً وهو غير واقع ، فالجهل هنا ليس المراد منه عدم العلم ، إنما الجاهل مَنْ كانت لديه قضية مخالفة للواقع وهو متمسك بها ، والمراد أن ينظر إلى خير عاجل فى نظره ، ويترك خيراً آجلاً فى نظر الشرع .

وقد ورد هذا المعنى فى قول الحق سبحانه :

﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ ﴿١٧﴾﴾ [النساء]

بجهالة : يعنى فى لحظة سَفَه وطيْش ، فالعاصى يعلم الحكم تماماً ، ولكنه فى غفلة عنه ، وعدم تبصُّر بالعواقب ، ولو فكَّر فى عاقبة أمره ما تجرّأ على المعصية .

لذلك نقول : إن صاحب المعصية لا يُقدِم عليها إلا فى غيبة العقل .

---

(١) الخطام : أن يأخذ حبلاً من ليف أو شعر أو كتان ، فيجعل فى أحد طرفيه حلقة ثم يشد فيه الطرف الآخر حتى يصير كالحلقة ، ثم يقلد البعير ثم يُثنَّى على مُخطَّمه . [اللسان - مادة : خطم] .

(٢) الحديث أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٧٤٧) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه .

ولذلك قال ﷺ :

« لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن »[(١)]

ولو استحضر قسوة الجزاء لما أقدم على معصيته ، ولكن سفهه وطيْشه يُغلّف الجزاء ويستره عنه ويُزيّن له ما ينتظره من لذة ومتعة عاجلة .

وهَبْ أن شخصاً ألحتْ عليه غريزة الجنس ، وهى أشرس الغرائز فى الإنسان ، ففكّر فى الفاحشة والعياذ بالله ، وقبل أنْ يقع فى هذه الوهدة السحيقة أخذناه إلى موقد النار ، وذكّرناه بما غفل عنه من جزاء وعقوبة هذه الجريمة.

بالله عليك ، ماذا تراه يفعل ؟ هل يُصِرّ على جريمته ؟ لا ، لأنه كان ذاهلاً غافلاً ، وبمجرد أن تذكره يرجع .

إذن: طيشه وسفهه صرفه عن التفكر فى العاقبة وأذهله عن رَدِّ الفعل ، وجعله ينظر إلى الأمور نظرة سطحية متعجِّلة .

وقوله : ﴿ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا . . (١١٩) ﴾ [النحل]

والتوبة هنا هى التوبة النصوح الصادقة ، التى ينوى صاحبها الإقلاع عنها وعدم العَوْد إليها مرة أخرى ، ويعزم على ذلك حال توبته ، فإذا فعل ذلك قَبِل الله منه وتاب عليه .

ولا يمنع ذلك أن يعود للذنب مرة أخرى إذا ضعُفَتْ نفسه عن المقاومة ، فإنْ عاد عاد إلى التوبة من جديد ، لأن الله سبحانه من

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٥٧) كتاب الإيمان من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، وكذا البخارى فى صحيحه (٢٤٧٥) .

أسمائه ﴿ التواب ﴾ أى : كثير التوبة ، فلم يقل: تائب بل تواب ، فلا تنقطع التوبة فى حق العبد مهما أذنب ، وعليه أنْ يُحدِث لكل ذنبٍ توبة .

بل وأكثر من ذلك ، إذا تاب العبد وأحسن التوبة ، وأتى بالأعمال الصالحة بدلاً من السيئة ، منَّ الله عليه بأن يُبدِّل سيئاته حسنات ، وهذه معاملة رب كريم غفور رحيم .

وقوله سبحانه :

﴿ إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١١٩) ﴾ [النحل]

فيه إشارة لحرص النبى ﷺ علينا ، وأنه يسرُّه أن يغفر الله لنا .

﴿ إِنَّ رَبَّكَ ﴾ يا محمد غفور رحيم ، فكأنه سبحانه يمتنُّ على نبيه ﷺ أنه سيغفر للمذنبين من أمته .

ثم يقول الحق سبحانه واصفاً نبيه إبراهيم عليه السلام :

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠) ﴾

بعد أن ذكرتْ الآيات طرفاً من سيرة اليهود ، وطرفاً من سيرة أهل مكة تعرَّضتْ لخليل الله إبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام .

والسؤال : لماذا إبراهيم بالذات دون سائر الأنبياء ؟

ذلك لأنه أبو الأنبياء ، وله مكانته بين الأنبياء ، والجميع يتمحكون فيه ، حتى المشركون يقولون : نحن على دين إبراهيم ، والنصارى قالوا عنه : إنه نصرانى . واليهود قالوا : إنه يهودى .

فجاءت الآية الكريمة تحلل شخصية إبراهيم عليه السلام ، وتُوضّح مواصفاتها ، وتردُّ وتُبطِل مزاعمهم فى إبراهيم عليه السلام ، وهاكم مواصفاته :

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً..(١٢٠) ﴾ [النحل]

أُمَّة : الأمة فى معناها العام : الجماعة ، وسياق الحديث هو الذى يُحدِّد عددها ، فنقول مثلاً : أمة الشعراء . أى : جماعة الشعراء ، وقد تكون الأمة جماعة قليلة العدد ، كما فى قوله تعالى :

﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ..(٢٣) ﴾ [القصص]

فسمى جماعة من الرعاة أمة ؛ لأنهم خرجوا لغرض واحد ، وهو سَقْى دوابهم .

وتُطلَق الأمة على جنس فى مكان ، كأمة الفرس ، وأمة الروم ، وقد تُطلق على جماعة تتبع نبياً من الأنبياء ، كما قال سبحانه :

﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ (٢٤) ﴾ [فاطر]

وحين نتوسَّع فى معنى الأمة نجدها فى رسالة محمد ﷺ تشمل جميع الأمم ؛ لأنه أُرسِل للناس كافّة ، وجمع الأمم فى أمة واحدة ، كما قال تعالى :

﴿ إِنَّ هَـٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً (٩٢) ﴾ [الأنبياء]

ومعنى أمة واحدة . أى : جامعة لكل الأمم .

فالمعنى - إذن - أن إبراهيم - عليه السلام - يقوم مقام أمة كاملة ؛ لأن الكمالات المطلقة لله وحده ، والكمالات الموهوبة من الله لخلْقه فى الرسل تُسمَّى كمالات بشرية موهوبة من الله .

أما ما دون الرسل فقد وُزِّعت عليهم هذه الكمالات ، فأخذ كل إنسان واحداً منها ، فهذا أخذ الحلم ، وهذا الشجاعة ، وهذا الكرم ، وهكذا لا تجتمع الكمالات إلا فى الرسل .

فإذا نظرتَ إلى إبراهيم - عليه السلام - وجدتَ فيه من المواهب ما لا يُوجد إلا فى أمة كاملة .

كذلك رسولنا محمد ﷺ حينما حَدَّد موقعه بين رسالات الله فى الأرض يقول :

« الخير فىَّ - وهذا هو الكمال البشرى الذى أعطاه الله إياه - وفى أمتى »[1] .

أى : أن كل واحد منهم أخذ جزءًا من هذا الكمال ، فكأن كماله ﷺ مُبعثر فى أمته كلها .

لذلك حين تتتبع تاريخ إبراهيم - عليه السلام - فى كتاب الله تعالى تجد كل موقف من مواقفه يعطيك خَصْلة من خصال الخير ، وصفة من صفات الكمال ، فإذا جمعتَ هذه الصفات وجدتها لا توجد إلا فى أمة بأسْرها ، فهو إمام وقدوة جامعة لكل خصال الخير .

---

(١) قال ابن حجر العسقلانى : لا أعرفه ، ولكن معناه صحيح . ذكره القارى فى « الأسرار المرفوعة » (٤٥٧) وكذا السيوطى فى « الدرر المنتثرة » (٢٢٠) ، والعجلوني فى كشف الخفاء (١/٤٧٦) .

ومن معـانى أمة : أنه عليه السلام يقـوم مقام أمة فى عـبادة الله وطاعته .

وقوله : ﴿ قَانِتًا لِّلَّهِ .. (١٢٠) ﴾ [النحل]

أى : خاشعاً خاضعاً لله تعالى فى عبادته .

﴿ حَنِيفًا (١٢٠) ﴾ [النحل]

الحنف فى الأصل : المـيْل ، وقـد جاء إبراهيـم ـ عليه السـلام ـ والكون على فسـاد واعوجاج فى تكوين القيم ، فـمال إبراهيم عن هذا الاعوجاج ، وحَاد عن هذا الفساد .

والحق سبحانه وتعـالى لا يبعث الرسل إلا إذا طَمَّ الفساد ، إذن : ميْله عن الاعـوجاج والفساد ، فمـعناه أنه كان مستـقيماً مـعتدلاً على الدين الحق ، مائلا عن الاعوجاج حائدا عن الفساد .

ثم يُنهى الحق سبحانه الآية بقوله :

﴿ وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠) ﴾ [النحل]

وهذه هى الصـفة الرابعـة لخليل الله إبراهيم بعـد أن وصفـه بأنه كان أمة قانتـاً لله حنيفاً ، وجميعها تنفى عنه الشـرك بالله ، فما فائدة نَفْى الشرك عنه مرة أخرى فى :

﴿ وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠) ﴾ [النحل]

يجب أنْ نُفرّق بين أنواع الشـرك ، فمنه الشرك الأكـبر ، وهو أن تجعل لله شركـاء ، وهو القمة فى الشرك . ومنه الشـرك الخفى ، بأن تجعل للأسباب التى خلقها دَخْل فى تكوين الأشياء .

فالآية هنا : ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠)﴾ [النحل]

أى : الشرك الخفى ، فالأوصاف السابقة نفتْ عنه الشرك الأكبر ، فأراد سبحانه أن ينفى عنه شركَ الأسباب أيضاً ، وهو دقيق خفىّ .

ولذلك عندما أُلقىَ - عليه السلام - فى النار لم يلتفت إلى الأسباب وإنْ جاءت على يد جبريل - عليه السلام - ، فقال له حينما عرض عليه المساعدة : أما إليك فلا[1] . فأين الشرك الخفى - إذن - والأسباب عنده معدومة من البداية ؟

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٢١)﴾

قوله تعالى : ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ (١٢١)﴾ [النحل]

فيه تلميح لأهل مكة الذين جحدوا نعمة الله وكفروها ، وكانت بلدهم آمنة مطمئنة ، فلا يليق بكم هذا الكفر والجحود ، وأنتم تدَّعُون أنكم على ملّة إبراهيم - عليه السلام - فإبراهيم لم يكن كذلك ، بل كان شاكراً لله على نعمه .

وقوله : ﴿اجْتَبَاهُ (١٢١)﴾ [النحل]

اصطفاه واختاره للنبوة ، واجتباء إبراهيم - عليه السلام - كان عن اختبار ، كما قال تعالى :

﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ (١٢٤)﴾ [البقرة]

أى : اختبره ببعض التكاليف ، فأتمها إبراهيم على أكمل وجه ، فقال له ربه :

---

(١) أورده القرطبى فى تفسيره (٦/٤٤٨٢) فى تفسير قوله تعالى : ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (٦٩)﴾ [الأنبياء] من حديث أُبىّ بن كعب . وأن إبراهيم عليه السلام قال : « حسبى من سؤالى علمه بحالى » .

﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا (١٢٤)﴾ [البقرة]

ولكنه لحبه أن تتصل الإمامة فى ذريته قال :

﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي (١٢٤)﴾ [البقرة]

فعدَّل الله لـه هذه الرغبة ، وصحَّح له ، بأن ذريتك سـيكون منها الظالم ، فقال :

﴿لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (١٢٤)﴾ [البقرة]

لذلك تعلَّم إبراهيـم ـ عليه السـلام ـ من هذا المـوقف ، وأراد أن يحتاط لـنفسه بعد ذلك ، فـعندما أراد أن يطلب من ربه أن يرزق أهل مكة من الثمرات قال :

﴿رَبِّ اجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ..(١٢٦)﴾ [البقرة]

فـصـحَّح الله له أيضـاً هذا المطلب ، فـالموقف هنـا مخـتلف عن الأول ، الأول كان فى إمامة القـيم والدين ، وهذه لا يقوم بها ظالم ، أمـا هـذه فـرزق وعطاء ربوبيـة يشـمل المـؤمن والكافـر والطائع والعاصى ، فالجميع فى الرزق سواء ، فقال تعالى :

﴿وَمَن كَفَرَ..(١٢٦)﴾ [البقرة]

أى : سأرزق الكافر أيضاً[1] .

---

(١) قال ابن عباس : كان إبراهيم يحجرها على المؤمنين دون الناس ، فأنزل الله (وَمَنْ كَفَرَ) أيضاً أرزقهم كمـا أرزق المؤمنين ، أأخلق خلقاً لا أرزقهم ؟ أمتـعهم قليلاً ثم أضطرهم إلى عذاب النار وبئس المصيـر ، ثم قرأ ابن عباس : ﴿كُلاًّ نُّمِدُّ هَـٰؤُلاءِ وَهَـٰؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا (٢٠)﴾ [الإسراء] . ذكره ابن كثير فى تفسيره (١/١٧٥) .

وهنا تتجلى عظمة الربوبية التى تُربِّى الأنبياء ، وتصنعهم على عَيْنها ، فكل مواقف الأنبياء تتجمع فى النهاية ، وتعطينا خلاصة الكمال البشرى .

ويدل على دقة إبراهيم - عليه السلام - فى أداء ما طُلِب منه موقفه فى بناء البيت ، فبعد أن دلَّه الله على مكانه أخذ يُزيح عنه آثار السيول ، ويكشف عن قواعده ، وكان يكفى إبراهيم لتنفيذ أمر ربه أنْ يرفع البناء إلى ما تناله يده من ارتفاع ، ولكنه أحب أن يأتى بالأمر على أتمِّ وجوهه ؛ وينفذه بدقة واحتياط ، ففكَّر أن يأتى بحجر مرتفع ، ويقف عليه ليزيد من ارتفاع البناء ، فجاء بالحجر الذى هو مقام إبراهيم ، كل ذلك وولده يساعده ؛ لذلك لما أتى بالحجر جاء بحجر لا يرفعه إلا رجلان .

وكذلك موقفه الإيمانى وتخلّيه عن الأسباب ، حينما ترك زوجه هاجر وصغيره إسماعيل فى وادٍ غير ذى زرع ، وفى مكان خالٍ من مُقوّمات الحياة وأسباب العيش[1] .

إنه لا يؤمن بالأسباب ، إنما يؤمن بمُسبِّبها ، وطالما أنه سبحانه موجود فسوف يُوفّر لهم من الأسباب ما يحفظ حياتهم ؛ لذلك حينما سألته هاجر : أهذا منزل أنزلكه الله أم من عندك ؟

فلما علمت أنه من الله قالت : إذن لن يُضيِّعنا . وكأن إيمان

---

(١) وذلك قوله تعالى عن إبراهيم أنه قال : ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (٣٧)﴾ [إبراهيم]

إبراهيم نضح على زوجته ، وملأ قلبها يقيناً فى الله تعالى .

وقوله سبحانه :

﴿وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٢١)﴾ [النحل]

كيف .. بعد كل هذه الأوصاف الإيمانية تقول الآيات (وَهَدَاهُ) أليست هذه كلها هداية ؟

نقول : المراد زاده هداية ، كما قال تعالى :

﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧)﴾ [محمد]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ (١٢٢)﴾

الحق سبحانه يُبيّن أن جزاء إبراهيم ـ عليه السلام ـ عظيم فى الدنيا قبل جزاء الآخرة ، والمراد بحسنة الدنيا محبة جميع أهل الأديان له ، وكثرة الأنبياء فى ذريته والسيرة الطيبة والذكر الحسن .

وها نحن نتحدث عن صفاته ومناقبه ونفخر ونعتز به . وهذا العطاء من الله لإبراهيم فى الدنيا ؛ لأنه بالغ فى طاعة ربه وعبادته .

وقد طلب إبراهيم ـ عليه السلام ـ من ربه هذه المكانة ، فقال :

﴿رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِالصَّالِحِينَ (٨٣) وَاجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى الْآخِرِينَ (٨٤)﴾ [الشعراء]

حُكْماً : أى : حكمة أضع بها الأشياء فى مواضعها .

ولسان صدق : هو الذكر الطيب والثناء الحسن بعد أن أموت .

وقوله تعالى :

﴿ وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٢٢) ﴾ [النحل]

فإنْ كان هذا جزاءَه فى الدنيا ، فلا شكَّ أن جزاء الآخرة أعظم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ (١٢٣) ﴾

الحق سبحانه وتعالى بعد أن ذكر بعضاً من صفات الخليل إبراهيم من كونه أمة قانتاً لله حنيفاً ، ولم يك من المشركين ، وأنه شاكر لأنعمه ، واجتباه ربه وهداه .. إلخ قال :

﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ (١٢٣) ﴾ [النحل]

يا محمد :

﴿ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا (١٢٣) ﴾ [النحل]

كأن قمة مناقب إبراهيم وحسناته أننا أوحينا إليك يا خاتم الرسل أن تتبع ملته .

وملة إبراهيم : أى شريعة التوحيد .

ثم يُؤكّد الحق سبحانه براءة إبراهيم من الشرك فيقول :

﴿ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٣) ﴾ [النحل]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾

بعد أن تحدّث الحق سبحانه عن إبراهيم أبى الأنبياء ، وذكر جانباً من صفاته ومناقبه تكلّم عن بنى إسرائيل فى قضية خالفوا فيها أمر الله بعد أن طلبوها بأنفسهم ، وكأنَّ القرآن يقول لهم : لقد زعمتم أن إبراهيم كان يهودياً ، فها هى صفات إبراهيم ، فماذا عن صفاتكم أنتم ؟ وأين أنتم من إبراهيم عليه السلام ؟

ويعطينا الحق سبحانه مثالاً عن مخالفتهم لربهم فيما يأمر به ، وأنهم ليسوا كإبراهيم فى اتباعه ، فيذكر ما كان منهم فى أمر السبت .

و (السبت) هو يوم السبت المعروف التالى للجمعة السابق للأحد ، والسبت مأخوذ من سَبَتَ يَسْبِتِ سَبْتاً . يعنى : سكن واستقرّ ، ومنه قوله تعالى :

﴿ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ ﴾ [النبأ]

ذلك أن بنى إسرائيل طلبوا يوماً يرتاحون فيه من العمل ، ويتفرغون فيه لعبادة الله ، وقد اقترح عليهم نبيهم موسى - عليه السلام - أن يكون يوم الجمعة ، فهو اليوم الذى أتمَّ الله فيه خَلْق

الكون فى ستة أيام ، وهو اليوم الذى اختاره الخليل إبراهيم ، ولكنهم رفضوا الجمعة واختاروا هم يوم السبت وقالوا :

إن الله خلق الدنيا فى ستة أيام بدأها بيوم الأحد ، وانتهى منها يوم الجمعة ، وارتاح يوم السبت ، وكذلك نحن نريد أن نرتاح ونتفرغ لعبادة الله يوم السبت ، وهكذا كانت هذه رغبتهم واختيارهم .

أما العيسويون فرفضوا أن يتبعوا اليهود فى يوم السبت ، أو إبراهيم عليه السلام فى يوم الجمعة ، واختاروا يوم الأحد على اعتبار أنه أول بَدْء الخلق .

أما أمة محمد ﷺ فقد اختار لها الله يوم الجمعة يوم الانتهاء وتمام النعمة[1] .

إذن : اليهود طلبوا يوم السبت واختاروه للراحة من العمل والتفرغ للعبادة ، فهذا مطلبهم ، وقد وافقهم ربُّهم سبحانه وتعالى عليه ، وأمرهم أنْ يتفرغوا لعبادته فى هذا اليوم ، وافقهم ليُبيّن لجاجتهم وعنادهم ، وأنهم لن يُوفُوا بما التزموا به وإن اختاروه بأنفسهم ، ووافقهم ليقطع حجتهم ، فلو اختار لهم يوماً لاعترضوا عليه ، ولكن هاهم يختارونه بأنفسهم .

كما أن قصة السبت مع اليهود جاءت لتخدم قضية عقدية عامة ،

---

(١) أخرج مسلم فى صحيحه (٨٥٦) كتاب الجمعة من حديث أبى هريرة وحذيفة رضى الله عنهما أنهما قالا : قال رسول الله ﷺ : « أضلَّ الله عن الجمعة من كان قبلنا ، فكان لليهود يوم السبت ، وكان للنصارى يوم الأحد ، فجاء الله بنا فهدانا ليوم الجمعة ، فجعل الجمعة والسبت والأحد ، وكذلك هم تبع لنا يوم القيامة ، نحن الآخرون من أهل الدنيا ، والأولون يوم القيامة المقضىّ لهم قبل الخلائق » .

هى أن الآيات التى تأتى مُصدِّقة للرسل فى البلاغ عن الله تعالى قد تكون من عند الله وباختياره سبحانه ، وقد تكون باختيار المرسَل إليهم أنفسهم ، وقد كان من بنى إسرائيل أنْ كذَّبوا بهذه وهذه ، ولذلك قال تعالى :

﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ (٥٩) ﴾ [الإسراء]

أى : لكونهم يقترحون الآية ثم يُكذِّبونها ، فأمْرهم تكذيب فى تكذيب .

وقصة السبت ذُكِرَتْ فى مواضع كثيرة ، مثل قوله تعالى :

﴿ وَاسْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ[1] الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٣) ﴾ [الأعراف]

لقد نقض اليهود عهدهم مع الله كعادتهم ، وأخلفوا ما التزموا به ، وذهبوا للصيد فى يوم السبت ، فكادهم الله وأغاظهم ، فكانت تأتيهم الحيتان والأسماك تطفو على سطح الماء كالشراع ، ولا ينتفعون منها بشىء إلا الحسرة والأسف ، فيقولون : لعلها تأتى فى الغد فيخيب الله رجاءهم :

﴿ وَيَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ .. (١٦٣) ﴾ [الأعراف]

وقد سمَّى القرآن الكريم ذلك منهم اعتداءً ؛ لأنهم اعتدوا على ما شرع الله ، قال تعالى :

---

(١) اختلف المفسرون فى تحديد هذه القرية ، فقال ابن عباس : هى قرية على شاطىء البحر بين مصر والمدينة يقال لها أيلة . وقال ابن شهاب الزهرى : هى طبرية . وقال سعيد بن جبير : هى مدين . أوردها السيوطى فى الدر المنثور (٣/٥٨٧) .

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (٦٥)﴾ [البقرة]

وقوله تعالى :

﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ[1] .. (١٢٤)﴾ [النحل]

كلمة (اخْتَلَفُوا) تُوحى بوجود طائفتين متناقضتين فى هذه القضية ، والحقيقة أن الخلاف لم يكُنْ بين اليهود بعضهم البعض ، بل بينهم وبين نبيهم الذى اختار لهم يوم الجمعة ، فخالفوه واختاروا السبت ، فجعل الله الخلاف عليهم .

فالمعنى : إنما جُعِل السبت حُجّة على الذين اختلفوا فيه ؛ لأنه أثبت عدوانهم على يوم العبادة ، فبعد أن اقترحوه واختاروه انقلب حُجة عليهم ، ودليلاً لإدانتهم .

ولو تأملنا قوله :

﴿عَلَى الَّذِينَ .. (١٢٤)﴾ [النحل]

نجد أن كلمة (عَلَى) تدلُّ على الفوقية أى : أن لدينا شيئاً أعلى وشيئاً أدنى ؛ فكأن السبت جاء ضد مصلحتهم ، وكأن خلافهم مع نبيهم انقلب عليهم .

ومن ذلك قوله تعالى :

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ .. (٦)﴾ [الرعد]

---

(١) أى : فى يوم الجمعة . اختلفوا على نبيهم موسى وعيسى . ووجه الاتصال بما قبله أن النبى ﷺ أمر باتباع الحق ، وحذر الله الأمة من الاختلاف عليه فيشدد عليهم كما شدد على اليهود . [قاله القرطبى فى تفسيره ٥/٣٩٢٧] .

يؤولها بعضهم على معنى (مع ظلمهم) نقول : المعنى صحيح ، ولكن المعية لا تقتضى العلو ، فلو قلنا : مع ظلمهم فالمعنى أن المغفرة موجودة مع الظلم مجرد معية ، أما قول الحق سبحانه :

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ .. (٦) ﴾ [الرعد]

أى : أن المغفرة علَت على الظلم ، فالظلم يتطلب العقاب ، ولكن رحمة الله ومغفرته علَتْ على أنْ تُعامل الظالم بما يستحق ، فرحمة الله سبقتْ غضبه ، ونفس الملحظ نجده فى قول الحق سبحانه :

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ (٣٩) ﴾ [إبراهيم]

فالكبر كان يقتضى عدم الإنجاب ولكن هبة الله علت على سنة الكِبَر .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ (١٢٥) ﴾

فبعد أن تحدثتْ الآيات عن النموذج الإيمانى الأعلى فى الإنسان فى شخص أبى الأنبياء إبراهيم ، وجعلتْ من أعظم مناقبه أن الله أمر خاتم رسُله باتباعه ، أخذتْ فى بيان الملامح العامة لمنهج الدعوة إلى الله .

قوله : ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ .. (١٢٥) ﴾ [النحل]

الحق تبارك وتعالى لا يُوجّه هذا الأمر بالدعوة إلى رسوله ﷺ إلا وهو يعلم أنه سيُنفِّذ ما أُمِر به ، وسيقوم بأمر الدعوة ، ويتحمل مسئوليتها .

﴿ادْعُ﴾ : بمعنى دُلّ الناس وارشدهم .

﴿سَبِيلِ رَبِّكَ (١٢٥)﴾ [النحل]

السبيل هو الطريق والمنهج ، والحكمة : وَضْع الشيء في موضعه المناسب ، ولكن لماذا تحتاج الدعوةُ إلى الله حكمةً ؟

لأنك لا تدعو إلى منهج الله إلا مَن انحرف عن هذا المنهج ، ومَن انحرف عن منهج الله تجده أَلِف المعصية وتعوَّد عليها ، فلا بُدَّ لك أنْ ترفقَ به لتُخرجه عما ألف وتقيمه على المنهج الصحيح ، فالشدة والعنف في دعوة مثل هذا تنفره ، لأنك تجمع عليه شدتين :

شدة الدعوة والعنف فيها ، وشدة تَرْكه لما أحبَّ وما أَلِفَ من أساليب الحياة ، فإذا ما سلكتَ معه مَسْلَك اللِّين والرِّفق ، وأحسنت عَرْض الدعوة عليه طاوعك في أنْ يتركَ ما كان عليه من مخالفة المنهج الإلهي .

ومعلوم أن النصْح في عمومه ثقيل على النفس ، وخاصة في أمور الدين ، فإياك أن تُشعر مَنْ تنصحه أنك أعلم منه أو أفضل منه ، إياك أن تواجهه بما فيه من النقص ، أو تحرجه أمام الآخرين ؛ لأن كل هذه التصرّفات من الداعية لا تأتي إلا بنتيجة عكسية ، فهذه الطريقة تثير حفيظته ، وربما دَعَتْه إلى المكابرة والعناد .

وهذه الطريقة في الدعوة هي المرادة من قوله تعالى :

﴿بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ..(١٢٥)﴾ [النحل]

ويُروى في هذا المقام - مقام الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة

الحسنة ـ قصة دارت بين الحسن والحسين رضى الله عنهما ، هذه القصة تجسيدٌ صادق لما ينبغى أنْ يكون عليه الداعية .

فيُروى أنهما رأيَا رجلاً لا يُحسن الوضوء ، وأرادا أنْ يُعلّماه الوضوء الصحيح دون أنْ يجرحَا مشاعَره ، فما كان منهما إلا أنهما افتعلا خصومة بينهما ، كل منهما يقول للآخر : أنت لا تُحسن أنْ تتوضأ ، ثم تحاكما إلى هذا الرجل أنْ يرى كلاً منهما يتوضأ ، ثم يحكم : أيهما أفضل من الآخر ، وتوضأ كل منهما فأحسن الوضوء ، بعدها جاء الحُكْم من الرجل يقول : كل منكما أحسن ، وأنا الذى ما أحسنْتُ .

إنه الوعظ فى أعلى صورة ، والقدوة فى أحكم ما تكون .

مثال آخر للدعوة يضربه لنا الرسول ﷺ ، حينما أتاه شاب فى فَوْرة شبابه ، يشتكى عدم صَبْره عن رغبة الجنس ، وهى ـ كما قلنا ـ من أشرس الغرائز فى الإنسان .

جاء الشاب وقال : « يا رسول الله إئذن لى فى الزنا » .

هكذا تجرأ الشاب ولم يُخْفِ علّته ، هكذا لجأ إلى الطبيب ليطلب الدواء صراحة ، ومعرفة العلة أولَ خطوات الشفاء . فماذا قال رسول الله ؟

انظر إلى منهج الدعوة ، كيف يكون ، وكيف استلَّ رسول الله ﷺ الداء من نفس هذا الشاب ؟ فلم يزجره ، ولم ينهره ، ولم يُؤذه ، بل أخذه وربَّت على كتفه فى لطف ولين ، ثم قال :

« أتحبه لأمك ؟ قال : لا يا رسول الله ، جُعِلْتُ فِدَاك . قال : فكذلك الناس لا يحبونه لأمهاتهم ، قال : أتُحبه لأختك ؟

قال : لا يا رسول الله جُعِلْتُ فِداك ، قال : « فكذلك الناس لا يحبونه لأخواتهم » .

وهكذا حتى ذكر العمة والخالة والزوجة ، ثم وضع رسول الله ﷺ يده الشريفة على صدر الشاب ودعا له : « اللهم نَقِّ صدره ، وحَصِّن فَرْجه » فقام الشاب وأبغض ما يكون إليه أن يزنى ، وهو يقول : فوالله ما هَمَّتْ نفسى بشىء من هذا ، إلا ذكرْتُ أمى وأختى وزوجتى[(١)] .

فلنتأمل هذا التلطُّف فى بيان الحكم الصحيح ، فمعالجة الداءات فى المجتمع تحتاج إلى فقه ولباقة ولين وحُسْن تصرف ، إننا نرى حتى الكفرة حينما يصنعون دواءً مُرًا يغلفونه بغُلالة رقيقة حُلْوة المذاق ليستسيغه المريض ، ويسهل عليه تناوله . وما أشبه علاج الأبدان بعلاج القلوب فى هذه المسألة .

ويقول أهل الخبرة فى الدعوة إلى الله : النصح ثقيل فلا تُرْسِله جبلاً ، ولا تجعله جدلاً .. والحقائق مُرّة فاستعيروا لها خِفّة البيان .

وكان ﷺ إذا سمع عن شىء لا يرضيه من ذنب أو فاحشة فى مجتمع الإيمان بالمدينة كان يصعد منبره الشريف ، ويقول :

« ما بال أقوام قالوا كذا وكذا »[(٢)] .

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٥/٢٥٦ ، ٢٥٧) ، والطبرانى فى معجمه الكبير (٨/١٩٠ ، ٢١٥) من حديث أبى أمامة رضى الله عنه ، وفيه أن رسول الله ﷺ قال : « اللهم اغفر ذنبه وطهر قلبه وحصن فرجه » فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شىء .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٤٠١) كتاب النكاح من حديث أنس رضى الله عنه أن نفراً من أصحاب النبى ﷺ سألوا أزواج النبى ﷺ عن عمله فى السر . فقال بعضهم : لا أتزوج النساء . وقال بعضهم : لا آكل اللحم . وقال بعضهم : لا أنام على فراش . فحمد الله وأثنى عليه فقال : « ما بال أقوام قالوا كذا وكذا ، لكنى أصلى وأنام وأصوم وأفطر وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتى فليس منى » .

ويكتفى بالتوجيه العام دون أنْ يجرحَ أحداً من الناس على حَدِّ قولهم فى الأمثال : إياك أعنى واسمعى يا جارة .

ومن ذلك ما كان يلجأ إليه العقلاء فى الريف حينما يتعرض أحدٌ للسرقة ، أو يضيع منه شىء ذو قيمة ، فكانوا يعلنون عن فَقْد الشىء الذى ضاع أو سُرِق ويقول : ليلة كذا بعد غياب القمر سوف نرمى التراب .

ومعنى « نرمى التراب » أن يحضر كل منهم كمية من التراب يلقيها أمام بيت صاحب هذا الشىء المفقود ، وفى الصباح يبحثون فى التراب حتى يعثروا على ما فُقد منهم ، ويصلوا إلى ضالّتهم دون أنْ يُفتضحَ الأمر ، ودون أن يُحرَج أحد ، وربما لو واجهوا السارق لأنكر وتعقدت المسألة .

وقوله سبحانه :

﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ..(١٢٥)﴾ [النحل]

والجدل مناقشة الحجج فى قضية من القضايا ، وعلى كُلٍّ من الطرفين أنْ يعرضَ حُجّته بالتى هى أحسن . أى : فى رفق ولين ودون تشنُّج أو غَطْرسة .

ويجب عليك فى موقف الجدال هذا ألاّ تُغضبَ الخصْم ، فقد يتمحّك فى كلمة منك ، ويأخذها ذريعة للانصراف من هذا المجلس .

وقوله سبحانه :

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (١٢٥)﴾ [النحل]

قد يتساءل البعض : ما علاقة هذا التذييل للآية بموضوع الدعوة إلى الله ؟

يريد الحق سبحانه أن يُبيّن لنا حساسية هذه المهمة ، وأنها تُبنى على الإخلاص لله فى توجيه النصيحة ، ولا ينبغى للداعية أبداً أنْ يغُشَّ فى دعوته ، فيقصد من ورائها شيئاً آخر ، وقد تقوم بموعظة وفى نفسك استكبار على الموعوظ ، أو شعور أنك أفضل منه أو أعلم منه .

ومن الناس - والعياذ بالله - مَنْ يجمع القشور عن موضوع ما ، فيظن أنه أصبح عالماً ، فيضر الناس أكثر ممّا ينفعهم .

إذن : إنْ قُبِل الغش فى شىء فإنه لا يُقبل فى مجال الدعوة إلى الله ، فإياك أنْ تغشَّ بالله فى الله ؛ لأنه سبحانه وتعالى أعلم بمَنْ يضل الناس ، ويصدهم عن سبيل الله ، وهو أعلم بالمهتدين .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾

نلاحظ أن هذا المعنى ورد فى قوله تعالى :

﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ..﴿١٩٤﴾﴾

[البقرة]

---

(١) سبب نزول الآية : روى الدارقطنى عن ابن عباس قال : لما انصرف المشركون عن قتلى أحد ، انصرف رسول الله ﷺ فرأى منظراً ساءه ، رأى حمزة قد شُق بطنه ، واصطُلم أنفه ، وجُدعت أذناه ، فقال : « لولا أن يحزن النساء أو تكون سنة بعدى لتركته حتى يبعثه الله من بطون السباع والطير لأمثّلنَّ مكانه بسبعين رجلاً » فنزلت هذه الآية إلى قوله تعالى : ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ..﴿١٢٧﴾﴾ [النحل] فصبر رسول الله ﷺ ولم يمثل بأحد . ذكره القرطبى فى تفسيره (٥/٣٩٢٨) والواحدى فى « أسباب النزول » (ص١٦٢) .

وبمقارنة الآيتين نرى أنهما يقرران المثلية فى رد الاعتداء :

﴿فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ..(١٢٦)﴾ [النحل]

و ﴿فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ..(١٩٤)﴾ [البقرة]

إذن : الحق سبحانه ، وإنْ شرع لنا الرد على الاعتداء بالمثل ، إلا أنه جعله صعباً من حيث التنفيذ ، فمَنِ الذى يستطيع تقدير المثلية فى الرد ، بحيث يكون مثله تماماً دون اعتداء ، ودون زيادة فى العقوبة ، وكأن فى صعوبة تقدير المثلية إشارةً إلى استحباب الانصراف عنها إلى ما هو خير منها ، كما قال تعالى :

﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ (١٢٦)﴾ [النحل]

فقد جعل الله فى الصبر سَعة ، وجعله خيراً من رَدِّ العقوبة ، ومقاساة تقدير المثلية فيها ، فضلاً عما فى الصبر من تأليف القلوب ونَزْع الأحقاد ، كما قال الحق سبحانه :

﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ(٣٤)﴾ [فصلت]

ففى ذلك دَفْع لشراسة النفس ، وسَدٌّ لمنافذ الانتقام ، وقضاء على الضغائن والأحقاد .

وقوله : ﴿لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ (١٢٦)﴾ [النحل]

الخيرية هنا من وجوه :

أولاً : فى الصبر وعدم رَدِّ العقوبة بمثلها إنهاءٌ للخصومات ،

وراحة للمجتمع أن تفزعه سلسلة لا تنتهى من العداوة .

ثانياً : مَنْ ظُلِم من الخلق ، فصبر على ظلمهم ، فقد ضمن أن الله تعالى فى جواره ؛ لأن الله يغار على عبده المظلوم ، ويجعله فى معيته وحفظه ؛ لذلك قالوا : لو علم الظالم ما أعدَّه الله للمظلوم لَضنَّ عليه بالظلم .

والمتتبع لآيات الصبر فى القرآن الكريم يجد تشابهاً فى تذييل بعض الآيات .

يقول تعالى :

﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٧﴾﴾ [لقمان]

وفى آية أخرى :

﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾ [الشورى]

ولا ننسى أن المتكلم هو الله ، إذن : ليس المعنى واحداً ، فلكل حرف هنا معنى ، والمواقف مختلفة ، فانظر إلى دِقّة التعبير القرآنى .

ولما كانت المصائب التى تصيب الإنسان على نوعين :

النوع الأول : هناك مصائب تلحق الإنسان بقضاء الله وقدره ، وليس له غريم فيها ، كمن أُصيب فى صحته أو تعرَّض لجائحة فى ماله ، أو انهار بيته .. إلخ .

وفى هذا النوع من المصائب يشعر الإنسان بألم الفَقْد ولذْعة الخسارة ، لكن لا ضغن فيها على أحد .

إذن : الصبر على هذه الأحداث قريب ؛ لأنه ابتلاء وقضاء وقدر ، فلا يحتاج الأمر بالصبر هنا إلى توكيد ، ويناسبه قوله تعالى :

﴿ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٧﴾ ﴾ [لقمان]

أما النوع الآخر : فهو المصائب التى تقع بفعل فاعل ، كالقتل مثلاً ، فإلى جانب الفَقْد يوجد غريم لك ، يثير حفيظتك ، ويهيج غضبك ، ويدعوك إلى الانتقام كلما رأيته ، فالصبر فى هذه أصعب وحَمْل النفس عليه يحتاج إلى توكيد كما فى الآية الثانية :

﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾ [الشورى]

فاستعمل هنا لام التوكيد ؛ لأن الصبر هنا شاقّ ، والفرصة مُتَاحَة للشيطان لِيُؤلّب القلوب ، ويثير الضغائن والأحقاد .

كما نلاحظ فى الآية الأولى قال : (وَاصْبِرْ) .

وفى الثانية قال : (صَبَر وغَفَر) لأن أمامه غريماً يدعوه لأنْ يغفر له .

ويُحكى فى قصص العرب قصة اليهودى المرابى الذى أعطى رجلاً مالاً على أنْ يردَّه فى أجل معلوم ، واشترط عليه إنْ لم يَفِ بالسداد فى الوقت المحدد يقطع رَطْلاً من لحمه ، ووافق الرجل ، وعند موعد السداد لم يستطع الرجل أداء ما عليه .

فرفع اليهودى الأمر إلى القاضى وقَصَّ عليه ما بينهما من اتفاق ، وكان القاضى صاحب فِطْنة فقال : نعم العقد شريعة المتعاقدين ، وأمر له بسكين . وقال : خُذْ من لحمه رَطْلاً ، ولكن فى ضربة

واحدة ، وإنْ زاد عن الرطل أو نقص أخذناه من لحمك أنت .

ولما رأى اليهودى مشقة ما هو مُقْدِم عليه آثر السلامة وتصالح مع خصمه .

والسؤال الآن : ما علاقة[1] هذه الآية :

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ .. (١٢٦) ﴾ [النحل]

بما قبلها :

﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ (١٢٥) ﴾ [النحل]

الدعوة إلى الله منهج يلفت الإنسان ـ خليفة الله فى أرضه ـ أنْ يلتزمَ بمنهج الله الذى استخلفه ، ووضع له هذا المنهج لِيُنظِّم حركة حياته ، والداعية يواجه هؤلاء الذين يُفسدون فى الأرض ، ويحققون لأنفسهم مصالح على حساب الغير ، والذى يحقق لنفسه مصلحة على حساب غيره لا بُدّ أن يكون له قوة وقدرة ، بها يطغى ويستعلى ويظلم .

فإذا جاء منهج الله تعالى ليعدل حركة هؤلاء ويُخرجهم مما ألفُوه ، وينزع منهم سلطان الطغيان والظلم ، ويسلبهم هذا السوط الذى يستفيدون به ، فلا بُدَّ أنْ يُجادلوه ويصادموه ويقفوا فى وجهه ، فقد جمع عليهم شدة النصح والإصلاح ، وشدة تَرْك ما ألفوه .

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٣٩٢٨/٥) : « المعنى متصل بما قبلها من المكى اتصالاً حسناً ، لأنها تتدرج الرتب من الذى يُدْعى ويوعظ ، إلى الذى يجادل ، إلى الذى يُجازى على فعله ، ولكن ما روى الجمهور أثبت » وذلك فى أن هذه الآية مدنية .

فعلَى الداعية ـ إذن ـ أن يتحلى بالحكمة والموعظة الحسنة ، وأن يجادلهم بالتى هى أحسن ، فإذا ما تعدَّى أمرُهم إلى الاعتداء على الداعية ، إذا ما استشرى الفساد وغلبت شراسة الطباع ، فسوف نحتاج إلى أسلوب آخر ، حيث لم يَعُدْ يُجدى أسلوب الحكمة .

ولا بُدّ لنا أن نقفَ الموقف الذى تقتضيه الرجولة العادية ، فضلاً عن الرجولة الإيمانية ، وأن يكون لدينا القدرة على الرد الذى شرعه لنا الحق سبحانه وتعالى ، دون أن يكون عندنا لَدَد فى الخصومة ، أو إسراف فى العقوبة .

فجاء قوله تعالى :

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ..(١٢٦)﴾ [النحل]

وفى الآية تحذير أن يزيدَ الردّ على مثله ، وبذلك يتعلم الخصوم أنك خاضع لمنهج رباني عادل يستوى أمامه الجميع ، فهم وإن انحرفوا وأجرموا فإن العقاب بالمثل لا يتعداه ، ولعل ذلك يلفتهم إلى أن الذى أمر بذلك لم يطلق لشراسة الانتقام عنانها ، بل هَدَّأها ودعاها إلى العفو والصفح ، ليكون هذا أدعى إلى هدايتهم .

وهذا التوجيه الإلهى فى تقييد العقوبة بمثلها قبل أن يتوجه إلى أمته ﷺ توجّه إليه ﷺ فى تصرُّف خاص ، لا يتعلق بمؤمن على عموم إيمانه ، ولكن بمؤمن حبيب إلى رسول الله ، وصاحب منزلة عظيمة عنده ، إنه عمه وصاحبه حمزة بن عبد المطلب سيد الشهداء رضى الله عنه .

فقد مثَّل به الكفار فى أُحُد ، وشقَّتْ هند بطنه ، ولاكت كبده ،

فشقَّ الأمر على رسول الله ﷺ ، وأثّر فى نفسه ، وواجه هذا الموقف بعاطفتين : عاطفته الإيمانية ، وعاطفة الرحم والقرابة فهو عمه الذى آزره ونصره ، ووقف إلى جواره ، فقال فى انفعاله بهذه العاطفة :

« لئن أظهرنى الله عليهم لأُمثِّلنَّ بثلاثين رجلاً منهم »[١] .

ولكن الحق سبحانه العادل الذى أنزل ميزان العدل والحق فى الخلق هَدَّأ من رَوْعه ، وعدَّل له هذه المسألة ولأمته من بعده ، فقال :

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ .. (١٢٦) ﴾ [النحل]

والمتأمل للأسلوب القرآنى فى هذه الآية يلحظ فيها دعوة إلى التحنُّن على الخصم والرأفة به ، فالمتحدث هو الله سبحانه ، فكل حرف له معنى ، فلا تأخذ الكلام على إجماله ، ولكن تأمل فيه وسوف تجد من وراء الحرف مراداً وأن له مطلوباً .

لماذا قال الحق سبحانه : (وإنْ) ولم يستخدم (إذا) مثلاً ؟

إن عاقبتم : كأن المعنى : كان يحب ألاَّ تعاقبوا .

أما (إذا) فتفيد التحقيق والتأكيد ، والحق سبحانه يريد أنْ يُحنِّن القلوب ، ويضع ردّ العقوبة بمثلها فى أضيق نطاق ، فهذه رحمة حتى مع الأعداء ، هذه الرحمة تُحبِّبهم فى الإسلام ، وتدعوهم إليه ، وبها يتحوّل هؤلاء الأعداء إلى جنود فى صفوف الدعوة إلى الله .

---

(١) أورده ابن كثير فى تفسيره (٢/٥٩٢) وعزاه لمحمد بن إسحاق فى السيرة .

كما أن فى قوله : (عَاقَبْتُمْ) دليل على أن ردَّ العقوبة يحتاج إلى قوة واستعداد ، كما قال تعالى :

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ .. (٦٠) ﴾ [الأنفال]

كأنه يقول : كونوا دائماً على استعداد ، وفى حال قوة تُمكنكم من الردِّ إذا اعتُدِى عليكم ، كما أن فى وجود القوة والاستعداد ما يردع العدو ويرهبه ، فلا يجرؤ على الاعتداء من البداية ، وبالقوة والاستعداد يُحفظ التوازن فى المجتمع ، فالقوى لا يفكّر أحد فى الاعتداء عليه .

وهذا ما نراه الآن بين دول العالم فى صراعها المحموم حول التسلُّح بأسلحة فاتكة .

وكلمة : ﴿ مَا عُوقِبْتُم بِهِ .. (١٢٦) ﴾ [النحل]

نلاحظ أن الردَّ على الاعتداء يُسمَّى عقوبة ، لكن الاعتداء الأول لماذا نُسميه أيضاً عقوبة ؟

قالوا : لأن هذه طريقة فى التعبير تسمَّى « المشاكلة »[1] ، أى : جاءت الأفعال كلها على شاكلة واحدة .

ومن ذلك قوله تعالى :

---

(١) المشاكلة : مصطلح من مصطلحات بديع القرآن معناه : ذكر الشىء بلفظ غيره لوقوعه فى صحبته تحقيقاً أو تقديراً . [الاتقان فى علوم القرآن ١ / ٢٢٨]

﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا(٤٠)﴾ [الشورى]

لأن ردَّ السيئة لا يُسمَّى سيئة .

ولسائل فى هذه القضية أن يسأل : طالما أن الإسلام يسعى فى هذه المسألة إلى العفو ، فلماذا لم يُقرِّره من البداية ؟ وما فائدة الكلام عن العقوبة بالمثل ؟

نقول : لأن المجتمع لا يكون سليم التكوين إلا إذا أمِن كل إنسان فيه على نفسه وعِرْضه وماله .. إلخ . وهذا الأمن لا يتأتّى إلا بقوة تحفظه ، كما أن للمجتمع توازناً ، هذا التوازن فى المجتمع لا يُحفظ إلا بقوة تضمن أداء الحقوق والواجبات ، وتضمن أن تكون حركة الإنسان فى المجتمع دون ظلم له .

كما أن للحق سبحانه حكمة سامية فى تشريع العقوبة على الجرائم ، فهدف الشارع الحكيم أنْ يَحُدَّ من الجريمة ، ويمنع حدوثها ، فلو علم القاتل أنه سيُقتل ما تجرّأ على جريمته ، ففى تشريع العقوبة رحمة بالمجتمع وحِفْظ لسلامته وأمْنه .

ونرى البعض يعترض على عقوبة الردة ، فيقول : كيف تقتلون مَن يرتد عن دينكم ؟ وأين حرية العقيدة إذن ؟

نقول : فى تشريع قتل المرتد عن الإسلام تضييق لمنافذ الدخول فى هذا الدين ، بحيث لا يدخله أحد إلا بعد اقتناع تام وعقيدة راسخة ، فإذا علم هذا الحكم من البداية فللمرء الحرية يدخل

أو لا يدخل ، لا يغصبه أحد ، ولكن ليعلم أنه إذا دخل ، فحكم الردة معلوم[١] .

إذن : شرعَ الإسلامُ العقوبةَ ليحفظ للمجتمع توازنه ، وليعمل عملية ردع حتى لا تقع الجريمة من البداية ، لكن إذا وقعتْ يلجأ إلى علاج آخر يجتثُّ جذور الغلِّ والأحقاد والضغائن من المجتمع .

لذلك سبق أن قلنا عن عادة الأخذ بالثأر فى صعيد مصر : إنه يظل فى سلسلة من القتل والثأر لا تنتهى ، وتفزِّع المجتمع كله ، حتى الآمنين الذين لا جريرة لهم ، وتنمو الأحقاد والكراهية بين العائلات فى هذا الجو الشائك ، حتى إذا ما تشجَّع واحد منهم ، فأخذ كفنه على يديه وذهب إلى وليّ القتيل ، وألقى بنفسه بين يديه قائلاً : ها أنا بين يديك وكفنى معى ، فاصنع بى ما شئت ، وعندها تأبى عليهم كرامتهم وشهامتهم أنْ يثأروا منه ، فيكون العفو والصفح والتسامح نهاية لسلسلة الثأر التى لا تنتهى .

ثم يقول الحق سبحانه[٢] :

﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾

---

(١) عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « من بدل دينه فاقتلوه » أخرجه أحمد فى مسنده (١/٢٨٢ ، ٣٨٣) ، والبخارى فى صحيحه (١٢/٢٦٧ ـ فتح البارى) ، وابن ماجه فى سننه (٢٥٣٥) ، وكذا الترمذى (١٤٥٨) .

(٢) قال ابن زيد : هى منسوخة بالقتال . وجمهور الناس على أنها محكمة . أى : اصبر بالعفو عن المعاقبة بمثل ما عاقبوا من المُثْلة . [تفسير القرطبى ٥/٣٩٣٠] .

بعد أن ذكرتْ الآيات فضل الصبر وما فيه من خيرية ، وكأن الآية السابقة تمهد للأمر هنا (وَاصْبِرْ) ليأتمر الجميع بأمر الله ، بعد أنْ قدّم لهم الحيثيات التى تجعل الصبر شجاعة لا ضعفاً ، كما يقولون فى الحكمة : من الشجاعة أنْ تجبُنَ ساعة .

فإذا ما وسوس لك الشيطان ، وأغراك بالانتقام ، وثارت نفسُك ، فالشجاعة أنْ تصبر ولا تطاوعهما .

قوله تعالى : ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ..(١٢٧)﴾ [النحل]

من حكمة الله ورحمته أنْ جعلك تصبر على الأذى ؛ لأن فى الصبر خيراً لك ، والله هو الذى يُعينك على الصبر ، ويمنع عنك وسوسة الشيطان وخواطر السوء التى تهيج غضبك ، وتجرّك إلى الانتقام .

والحق سبحانه وتعالى يريد من عبده أن يتجه لإنفاذ أمره ، فإذا علم ذلك من نيته تولّى أمره وأعانه ، كما قال تعالى :

﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧)﴾ [محمد]

إياك أن تعتقد أن الصبر من عندك أنت ، فالله يريد منك أن تتجه إلى الصبر مجرد اتجاه ونية ، وحين تتجه إليه يُجنّد الله لك الخواطر الطيبة التى تُعينك عليه وتُيسِّره لك وتُرضيك به ، فيأتى صبرك جميلاً ، لا سخطَ فيه ولا اعتراضَ عليه .

ثم يقول تعالى :

﴿وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ.. (١٢٧)﴾ [النحل]

لقد امتنّ الله على أمة العرب التى استقبلتْ دعوة الله على لسان رسوله ﷺ ، بأنْ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم ومن أوسطهم ، يعرفون حَسَبَه ونَسَبَه وتاريخه وأخلاقه ، وقد كان ﷺ مُحباً لقومه حريصاً على هدايتهم ، كما قال تعالى :

﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٢٨) ﴾ [التوبة]

أى : تعز عليه مشقتكم ، ويؤلمه عَنَتكم وتعبكم ، حريص عليكم ، يريد أن يستكمل لكم كل أنواع الخير ؛ لأن معنى الحرص : الضَّنّ بالشىء ، فكأنه ﷺ يضِنّ بقومه .

وقد أوضح هذا المعنى فى الحديث الشريف :

« إنما مثلى ومثَل أمتى كمثل رجل استوقد ناراً ، فجعلت الدواب والفراش يقعن فيه ، فأنا آخذ بحجزكم[1] وأنتم تقحّمون فيه »[2] .

لذلك حزن رسول الله ﷺ على قومه لما رأى من كفرهم وعنادهم وتكبُّرهم عن قبول الحق ، وهو يريد لهم الهداية والصلاح ؛ لأنك إذا أحببتَ إنساناً أحببتَ له ما تراه من الخير ، كمن ذهب إلى سوق ، فوجدها رائجة رابحة ، فدلّ عليها من يحب من أهله ومعارفه .

كذلك لما ذاق رسول الله ﷺ حلاوة الإيمان أحبَّ أنْ يُشاركه قومه هذه المتعة الإيمانية .

---

(١) حُجزة الإنسان : مَعْقِد السراويل والإزار . واحتجز بالإزار إذا شدّه على وسطه ، فاستعاره للالتجاء والاعتصام والتمسُّك بالشىء والتعلق به . [لسان العرب ـ مادة : حجز] .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٢٨٤) كتاب الفضائل ، من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

والحق سبحانه وتعالى هنا يُسلِّى رسوله ، ويخفف عنه ما صُدِم فى قومه ، يقول له : لا تحزن عليهم ولا تُحمِّل نفسك فوق طاقتها ، فما عليك إلا البلاغ . ويخاطبه ربه فى آية أخرى :

﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَـٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا (٦)﴾ [الكهف]

أى : لا تكن مُهْلكاً نفسك أسفاً عليهم .

وقوله : ﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ (١٢٧)﴾ [النحل]

الضيق : تأتى بالفتح وبالكسر ، ضِيْق ، ضَيْق[1] .

والضيق : أن يتضاءل الشىء الواسع أمامك عما كنت تُقدِّره ، والضيق يقع للإنسان على درجات ، فقد تضيق به بلده فينتقل إلى بلد آخر .

وربما ضاقت عليه الدنيا كلها ، وفى هذه الحالة يمكن أنْ تسعه نفسه ، فإذا ضاقتْ عليه نفْسه فقد بلغ أقصى درجات الضيق ، كما قال تعالى عن الثلاثة[2] الذين تخلفوا عن الجهاد مع رسول الله :

﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ..(١١٨)﴾ [التوبة]

---

(١) قال الفراء : الضَّيق ما ضاق عنه صدرك . والضِّيق ما يكون فى الذى يتسع ويضيق . مثل الدار والثوب . وقال ابن السكيت : هما سواء . [تفسير القرطبى ٥/٣٩٣٠] .

(٢) هم : كعب بن مالك ، وهلال بن أمية ، ومرارة بن الربيع . تخلفوا عن رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك دون عذر ، فعوقبوا بأن هجرهم المسلمون نحواً من خمسين ليلة بأيامها وضاقت عليهم أنفسهم وضاقت عليهم الأرض بما رحبت ولكنهم صبروا لأمر الله وثبتوا حتى فرج الله عنهم بسبب صدقهم مع رسول الله ﷺ فى تخلفهم وأنه كان عن غير عذر . [تفسير ابن كثير ٢/٣٩٩] بتصرف .

فالحق سبحانه ينهى رسوله ﷺ أنْ يكون فى ضيق من مكر الكفار ؛ لأن الذى يضيق بأمر ما هو الذى لا يجد فى مجال فكره وبدائله ما يخرج به من هذا الضيق ، إنما الذى يعرف أن له منفذاً ومَخْرجاً فلا يكون فى ضَيْق .

فالمعنى : لا تَكُ فى ضيق يا محمد ، فالله معك ، سيجعل لك من الضيق مخرجاً ، ويرد على هؤلاء مكرهم :

﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الأنفال]

ولذلك يقول : لا كرب وأنت رب . فساعة أن تضيق بك الدنيا والأهل والأحباب ، وتضيق بك نفسك فليسعْك ربك ، ولتكُنْ فى معيته سبحانه ؛ ولذلك قال تعالى بعد ذلك :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾

هذه قضية معيّة الله لمن اتقاه ، فمَن اتقى الله فهو فى جواره ومعيته ، وإذا كنت فى معية ربك فمَنْ يجرؤ أن يكيدك ، أو يمكرُ بك ؟

وفى رحلة الهجرة تتجلى معية الله تعالى وتتجسد لنا فى الغار ، حينما أحاط به الكفار ، والصِّدِّيق يقول للرسول ﷺ : لو نظر أحدهم تحت قدميه لَرآنا ، فيجيبه الرسول ﷺ وهو واثق بهذه المعية :

« يا أبا بكر ، ما ظنك باثنين الله ثالثهما »[1] .

---

(١) متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٦٦٣) ، ومسلم فى صحيحه (٢٣٨١) من حديث أبى بكر الصديق رضى الله عنه .

فما علاقة هذه الإجابة من رسول الله بما قال أبو بكر ؟

المعنى : مادام أن الله ثالثهما إذن فهما فى معية الله ، والله لا تدركه الأبصار ، فمَنْ كان فى معيته كذلك لا تدركه الأبصار .

وقوله : ﴿ اتَّقَوا . . (١٢٨) ﴾ [النحل]

التقوى فى معناها العام : طاعة الله باتباع أوامره واجتناب نواهيه ، ومن استعمالاتها نقول : اتقوا الله ، واتقوا النار ، والمتأمل يجد معناهما يلتقى فى نقطة واحدة .

فمعنى « اتق الله » : اجعل بينك وبين عذاب الله وقاية وحاجزاً يحميك ، وذلك باتباع أمره واجتناب نهيه ؛ لأن للحق سبحانه صفات رحمة ، فهو : الرؤوف الرحيم الغفور ، وله صفات جبروت فهو : المنتقم الجبار العزيز ، فاجعل لنفسك وقاية من صفات الانتقام .

ونقول : اتقوا النار ، أى : اجعلوا بينكم وبين النار وقاية ، والوقاية من النار لا تكون إلا بطاعة الله باتباع أوامره ، واجتناب نواهيه ، إذن : المعنى واحد ، ولكن جاء مرّة باللازم ، ومرَّة بلازم اللازم .

وقوله : ﴿ وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ (١٢٨) ﴾ [النحل]

المحسن : هو الذى يُلزم نفسه فى عبادة الله بأكثر مما ألزمه الله ، ومن جنس ما ألزمه الله به ، فإنْ كان الشرع فرض عليك خمس صلوات فى اليوم والليلة ، فالإحسان أن تزيدها ما تيسَّر لك من النوافل ، وإنْ كان الصوم شهرَ رمضان ، فالإحسان أنْ تصومَ من باقى الشهور كذا من الأيام ، وكذلك فى الزكاة ، وغيرها مِمَّا فرض الله .

لذلك نجد أن الإحسان أعلى مراتب الدين ، وهذا واضح فى حديث جبريل حينما سأل رسول الله ﷺ عن الإسلام والإيمان والإحسان ، فقال :

« الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإنْ لم تكُنْ تراه فإنه يراك »[1] .

والآية الكريمة تُوحِى لنا بأن الذين اتقوا لهم جزاء ومعيّة ، وأن الذين هم محسنون لهم جزاء ومعيّة ، كُلٌّ على حسب درجته ؛ لأن الحق سبحانه يعطى من صفات كماله لخَلْقه على مقدار معيتهم معه سبحانه ، فالذى اكتفى بما فرض عليه ، لا يستوى ومَنْ أحسن وزاد ، لا بُدَّ أن يكون للثانى مزيّة وخصوصية .

وفى سورة الذاريات يقول تعالى :

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) ﴾ [الذاريات]

لم يقل « مؤمنين » ؛ لأن المؤمن يأتى بما فُرِض عليه فحسب ، لكن ما وجه الإحسان عندهم ؟

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٠ ، ٤٧٧٧) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٩) كتاب الإيمان من حديث أبى هريرة رضى الله عنه . قال ابن حجر فى الفتح (١/١٢٠) : « إحسان العبادة الإخلاص فيها والخشوع وفراغ البال حال التلبس بها ومراقبة المعبود . بأن يغلب عليه مشاهدة الحق بقلبه حتى كأنه يراه بعينه ، وهو قوله « كأنك تراه » . وأن يستحضر أن الحق مطلع عليه يرى كل ما يعمل ، وهو قوله « فإنه يراك » .

يقول تعالى :

﴿ كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩) ﴾ [الذاريات]

وكلها أمور نافلة تزيد عما فرض الله عليهم .

ويجب أن نتنبه هنا إلى أن المراد من قوله تعالى :

﴿ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩) ﴾ [الذاريات]

ليست الزكاة ، بل هى الصدقة ، لأنه فى الزكاة قال سبحانه :

﴿ حَقٌّ مَّعْلُومٌ .. (٢٤) ﴾ [المعارج]

سُورَةُ الإِسْرَاءِ

لو تأملنا خواتيم سورة النحل لوجدناها مقدمة طبيعية لأحداث سورة الإسراء[١] ، ولوجدنا توافقاً وتناسباً فى ترتيب هاتين السورتين ، فقد خُتِمَتْ النحل ببيان حُكْم رَدِّ العقوبة بمثلها ، ثم أمرت رسول الله ﷺ بالصبر وبيَّنَتْ جزاء الصابرين ، ونهَتْ رسول الله عن الضيق من مكْر الكفار .

نستشف من هذا أن رسول الله ﷺ سيستقبل أحداثاً تحتاج إلى صبر وشدائد ، تحتاج إلى سعة صدر ، وكأن هذه التوجيهات جاءت بمثابة مناعات إيمانية ، تُحصِّن رسول الله وتُعدّه لما هو مُقبل عليه من أحداث فى سورة الإسراء ، وكأنها إشارات لما سيحدث من شدائد حتى لا يُفاجأ رسول الله بها ، ولا تأتيه على غِرّة .

هذه المناعات التى جاءت فى نهاية سورة النحل أشبه بما نلجأ إليه فى حِفْظ سلامة البنية وسلامة القالب ، حينما نخاف من

---

(١) سورة الإسراء ، هى السورة (١٧) فى ترتيب المصحف ، وعدد آياتها (١١١) آية . وهى سورة مكية ، إلا ثلاث آيات :

- قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِلنَّاسِ..(٦٠)﴾ [الإسراء]

- قوله تعالى : ﴿وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذاً لاَّ يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلاَّ قَلِيلاً (٧٦)﴾ [الإسراء]

- قوله تعالى : ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا (٨٠)﴾ [الإسراء]

وببدايتها يبدأ الجزء (١٥) من القرآن .

ولسورة الإسراء أسماء أخرى . منها : سورة سبحان ، سورة بنى إسرائيل .

الأمراض ، إنه ما نسمِّيه بالتطعيم ضد المرض ، فيأخذ الجسم من هذا الطُّعْم حصانة تحميه إذا هاجمه المرض .

كذلك الحق سبحانه وتعالى يُعطى رسوله هذه التحصينات ، حتى يواجه الأحداث والشدائد القادمة بصبر وجَلَد ، ويعلم أن الله تعالى لن يخذله ، ولن يتخلى عنه ، فما أرسل الله رسولاً وخذله أبداً ، فإنْ خذله الناس ، وضاقتْ عليه الدنيا بما رَحُبَتْ وجد الملجأ فى معيته سبحانه وتعالى .

وفعلاً نزلت الشدائد برسول الله ﷺ ، وكانت قمة هذه الأحداث عند فَقْد عمه أبى طالب ، وزَوْجه خديجة فى عام واحد ، ولقسوة هذا عليه سماه « عام الحزن » .

ففقد ﷺ بموت عمه الحماية الخارجية التى كانت تدفع عنه أذى المشركين ، وتصد عنه صناديد قريش ، وفقد بموت زوجته الحماية الداخلية والملجأ الذى كان يأوى إليه ، حيث كانت تواسيه وتُهدِّىء من رَوْعه فى أول نزول الوحى عليه . وتُبيِّن له بفقه أن ما يجده فى الغار من علامات النبوة ، وأن الله لن يتخلى عنه وتقول له : « والله إنك لَتصلُ الرحم ، وتغيث الملهوف ، وتحمل الكَلَّ[1] ، وتعين على نوائب الدهر»[2]

نعم لقد كان عام حزن فعلاً ، فقد فيه السكن الخارجى والداخلى معاً ، فأين يذهب ﷺ .

فما عاد يشعر بأمْن فى مكة ، ففكّر فى أهل الطائف ، عَسَاه يجد الأمن والأمان بينهم ، ولكنه كان كالمستجير من الرمضاء بالنار ، فقد

---

(١) الكَلّ : الذى هو عيال وثِقَل على صاحبه . والكَلُّ : اليتيم . [اللسان ـ مادة : كلل] .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه (٣) من حديث عائشة رضى الله عنها فى كتاب بدء الوحى .

آذوه أشد الإيذاء ، وقذفوه بالحجارة حتى أدْمَوْا قدمه الشريفة ، وأغرَوْا به صبيانهم وسفهاءهم ، وعاد منها حزيناً مُنكسراً إلى مكة مرة أخرى ، فلم يجد مَنْ يجيره إلا مطعم بن عدى .

ومن هنا نعلم أن نهايات سورة النحل جاءت في موقعها المناسب ، وكأن الحق سبحانه يقول لنبيه ﷺ : لقد ضاقتْ عليك الأرض بما رَحُبَتْ ، وضاقت عليك نفسك ، ولكن ملجأك إلى الله سيُريك أن قسوة الأرض وتجهُّم الحياة لك سأُبدلك به تحية مباركة ، فى أن أُريك حفاوة السماء بك ، فبعد ما حدث لك فى مكة والطائف :

﴿ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ (١٢٧) إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ (١٢٨) ﴾ [النحل]

وجاء حادث الإسراء والمعراج ليرى رسول الله ﷺ حفاوة الملأ الأعلى بعد ما أصابه من أذى البشر ، وقبل أن يرى رسول الله حفاوة السماء غيَّر الله له نظام الكون ، فقال تعالى :

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١) ﴾

استهل الحق سبحانه هذه السورة بقوله (سُبْحَانَ) ؛ لأنها تتحدث عن حدث عظيم خارق للعادة ، ومعنى سبحان : أى تنزيهاً لله تعالى تنزيهاً مطلقاً ، أن يكون له شبيه أو مثيل فيما خلق ، لا فى

الذات ، فلا ذاتَ كذاته ، ولا فى الصفات فلا صفات كصفات ، ولا فى الأفعال ، فليس فى أفعال خَلْقه ما يُشبِه أفعاله تعالى .

فإن قيل لك : الله موجود وأنت موجود ، فنزِّه الله أن يكون وجوده كوجودك ؛ لأن وجودك عن عدم ، وليس ذاتياً فيك ، ووجوده سبحانه ليس عن عدم ، وهو ذاتى فيه سبحانه .

فذاته سبحانه لا مثيلَ لها ، ولا شبيه فى ذوات خلقه . وكذلك إن قيل : لك سَمْع ولله سمع . فنزِّه الله أنْ يُشابه سمعُه سمعَك ، وإن قيل : لك فِعْل ، ولله فِعْل فنزِّه الله أن يكون فعله كفعلك .

ومن معانى (سُبْحَان) أى : أتعجب من قدرة الله .

إذن : كلمة (سُبْحَان) جاءت هنا لتشير إلى أنَّ ما بعدها أمرٌ خارج عن نطاق قدرات البشر ، فإذا ما سمعتَه إياك أنْ تعترضَ أو تقول : كيف يحدث هذا ؟ بل نزِّه الله أن يُشابه فعلُه فعْلَ البشر ، فإن قال لك : إنه أسرى بنبيه محمد ﷺ من مكة إلى بيت المقدس فى ليلة ، مع أنهم يضربون إليها أكباد الإبل شهراً ، فإياك أن تنكر .

فربك لم يقُلْ : سَرَى محمد ، بل أُسْرِى به . فالفعل ليس لمحمد ولكنه لله ، وما دام الفعل لله فلا تُخضعْه لمقاييس الزمن لديك ، ففعْل الله ليس علاجاً ومزاولة كفعل البشر .

ولو تأملنا كلمة (سُبْحَان) نجدها فى الأشياء التى ضاقتْ فيها العقول ، وتحيَّرتْ فى إدراكها وفى الأشياء العجيبة ، مثل قوله تعالى :

﴿ سُبْحَانَ الَّذِى خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ (٣٦) ﴾ [يس]

فالأزواج أى : الـزوجين الذكـر والأنثى ، ومنهمـا يتم التكاثر فى النبـات ، وفى الإنسان وقـد فـسر لنا العـلم الحديث قـوله : ﴿وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ﴾ بما توصّل إليه من اكـتشاف الذرة والكهرباء ، وأن فيـهما السالب والموجب الذى يساوى الذكر والأنثى ؛ لذلك قال تعالى :

﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٤٩)﴾ [الذاريات]

ومنها قوله تعالى :

﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ..(١٧)﴾ [الروم]

فَـمَنْ يطالع صفـحة الكون عـند شروق الشـمس وعند غروبهـا ، ويرى كـيف يحُلُّ الظلام مـحلّ الضـيـاء ، أو الضيـاء مـحل الظلام ، لا يملك أمام هذه الآية إلا أن يقول : سبحان الله .

ومنها قوله تعالى :

﴿سُبْحَانَ الَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَـٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ[1] (١٣)﴾ [الزخرف]

هذه كلها أمور عجـيبة ، لا يقدر عليها إلا الله ، وردتْ فـيها كلمة (سبحان) فى خلال السور وفى طيّات الآيات .

و (سُـبْحَـان) اسم يدلُّ على الثـبـوت والدوام ، فكأن تنزيه الله موجود وثابت له سبحانه قبل أن يوجد المنزَّه ، كما نقول فى الخلق ، فالله خالق ومُتصف بهذه الصفة قبل أنْ يخلق شيئاً .

وكما تقـول : فلان شاعر ، فهـو شاعر قبل أن يقول القـصيدة ، فلو لم يكن شاعراً ما قالها .

---

(١) أقـرن الشىء : قدر علـيه وأطاقـه وأخـضعـه وسـخَّره ، كـأنه مع آخـر فى قرن واحـد . [القاموس القويم ٢/١١٤] .

إذن : تنزيه الله ثابت له قبل أن يوجد مَنْ يُنزِّهه سبحانه ، فإذا وُجِد المنزِّه تحوّل الأسلوب من الاسم إلى الفعل ، فقال سبحانه :

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ۝١﴾ [الحشر]

وهل سبَّح وسكت وانتهى التسبيح ؟ لا ، بل :

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ.. ۝١﴾ [الجمعة]

على سبيل الدوام والاستمرار ، وما دام الأمر كذلك والتسبيح ثابت له ، وتُسبّح له الكائنات فى الماضى والحاضر ، فلا تتقاعس أنت أيُّها المكلّف عن تسبيح ربك ، يقول تعالى :

﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ۝١﴾ [الأعلى]

وقوله : (أُسْرِى) من السُّرى ، وهو السير ليلاً ، وفى الحِكَم : (عند الصباح يحمَدُ القومُ السُّرى) .

فالحق سبحانه أسرى بعبد ، فالفعل لله تعالى ، وليس لمحمد ﷺ فلا تَقِسْ الفعل بمقياس البشر ، ونزِّه فعْل الله عن فعْلك ، وقد استقبل أهل مكة هذا الحدث استقبال المكذِّب . فقالوا : كيف هذا ونحن نضرب إليها أكباد الإبل شهراً ، وهم كاذبون فى قولهم ؛ لأن رسول الله لم يَدَّع أنه سَرَى بل قال : أُسْرِى بى .

ومعلوم أن قَطْع المسافات يأخذ من الزمن على قدر عكس القوة المتمثلة فى السرعة . أى : أن الزمن يتناسب عكسياً مع القوة ، فلو أردنا مثلاً الذهاب إلى الأسكندرية سيختلف الزمن لو سرْنا على الأقدام عنه إذا ركبنا سيارة أو طائرة ، فكلما زادت القوة قَلَّ الزمن ،

فمـا بالك لو نسب الفعل والسـرعة إلى الله تعالى ، إذا كـان الفعل من الله فلا زمن .

فإنْ قـال قائل : مـادام الفعل مع الله لا يحـتاج إلى زمن ، لـماذا لم يَأْتِ الإسراء لمحةً فحسْب ، ولماذا استغرق ليلة ؟

نقول : لأن هناك فـرْقاً بين قطْع المـسافات بقـانون الله سبـحانه وبين مَرَاءٍ عُرِضَتْ على النبى ﷺ فـى الطريق ، فرأى مواقف ، وتكلَّم مع أشخاص ، ورأى آيات وعجائب ، هذه هى التى استغرقت الزمن .

وقلنا : إنك حين تنسب الفعل إلى فاعله يجب أن تعطيه من الزمن على قَـدْر قـوة الفـاعل . هَبْ أن قـائلاً قـال لك : أنا صـعـدتُ بابنى الرضـيع قـمة جـبل « إفـرست » ، هل تقـول له : كيف صـعـد ابنك الرضيع قمة « إفرست » ؟

هذا سـؤال إذن فى غـيـر مـحلّه ، وكـذلك فى مـسـألة الإسـراء والمعراج يقول تعالى : أنا أسريتُ بعبدى ، فمن أراد أنْ يُحيل المسألة ويُنكرها ، فليعترض على الله صاحب الفعل لا على محمد .

لكن كيف فاتتْ هذه القضية على كفار مكة ؟

ومن تكذيب كفار مكة لرسول الله ﷺ فى رحلة الإسراء والمعراج نأخذ رَدّاً جـميلاً على هؤلاء الذين يخـوضون فى هذا الحادث بعـقول ضيـقة وبإيمـانية سطحـية فى عـصرنا الحاضـر ، فيطالعـونا بأفكار سقيمة ما أنزل الله بها من سلطان .

ونسمع منهم مَنْ يقـول : إن الإسراء كان منَامـاً ، أو كان بالروح دون الجسد .

ونقول لـهؤلاء : لو قال مـحمـد لقومـه : أنا رأيتُ فى الرؤيا بيت المقدس ، هل كانوا يُكذّبونه ؟ ولو قال لهم : لقد سبحتْ روحى الليلة حـتى أتتْ بيت المـقدس ، أكـانوا يُكذّبونه ؟ أتُكـذَّب الرّؤى أو حركـة الأرواح ؟!

إذن : فى إنكار الكفـار على رسول الله وتكذيبـهم له دليل على أن الإسراء كان حقيقة تمت لرسول الله ﷺ برُوحه وجسده ، وكأن الحق سبحـانه ادَّخر الموقف التكذيبى لمكـذبى الأمس ، ليردّ به على مُكذّبى اليوم .

وقوله سبحانه :

﴿بِعَبْدِهِ..(١)﴾ [الإسراء]

العبد كلمة تُطلق على الروح والجسد معاً ، هذا مدلولها ، لا يمكن أن تُطلَق على الروح فقط .

لكن ، لماذا اختار الحق سبحانه لرسوله ﷺ هذه الصفة بالذات ؟

نقول : لأن الله تعـالى جعل فى الكون قـانوناً عامـاً للناس ، وقد يُخـرَق هذا القانون أو النامـوس العام ليكون مـعجـزةً للخاصـة الذين مـيَّـزهم الله عن سـائر الخَلْق ، فكأن كلـمة (عـبـده) هى حـيثـيـة الإسـراء .

أى : أُسْرِى به ؛ لأنه صادق العـبودية لله ، ومادام هو عبـده فقد أخلص فى عبوديته لربه ، فاستحق أنْ يكون له مَيْزة وخصوصية عن غيره ، فالإسـراء والمعراج عطاء من الله استحقّـه رسوله بما حقّق من عبودية لله .

وفَرْق بين العبودية لله والعبودية للبشر ، فالعبودية لله عِزٌّ وشرف يأخذ بها العبدُ خَيْرَ سيده ، وقال الشاعر :

وَمِمَّا زَادَنِى شَرَفاً وَعِزّاً ... وكِدْتُ بأخْمُصِى أطَأ الثُّرَيَّا
دُخُولِى تَحْتَ قولِكَ يَا عِبَادِى ... وَأنْ صَيَّرت أحمدَ لِى نبيّا

أما عبودية البشر للبشر فنقْصٌ ومذلَّة وهوان ، حيث يأخذ السيد خَيْر عبده ، ويحرمه ثمرة كَدِّه .

لذلك ، فالمتتبّع لآيات القرآن يجد أن العبودية لا تأتى إلا فى المواقف العظيمة مثل :

﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ..(١) ﴾ [الإسراء]

وقوله : ﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ..(١٩) ﴾ [الجن]

ويكفيك عزّاً وكرامة أنك إذا أردتَ مقابلة سيدك أن يكون الأمر فى يدك ، فما عليك إلا أنْ تتوضأ وتنوى المقابلة قائلاً : الله أكبر ، فتكون فى معية الله عز وجل فى لقاء تحدد أنت مكانه وموعده ومُدّته ، وتختار أنت موضوع المقابلة ، وتظل فى حضرة ربك إلى أن تنهى المقابلة متى أردتَ .

وما أحسنَ مَا قال الشاعر :

حَسْبُ نَفْسِى عِزّاً بأنِّى عَبْدٌ ... يَحْتَفِى بى بِلاَ مَوَاعِيدَ رَبُّ
هُو فى قُدْسِهِ الأعَزُّ ولكِنْ ... أنَا ألْقَى مَتَى وَأيْنَ أُحِبُّ

فما بالك لو حاولت لقاء عظيم من عظماء الدنيا ؟ وكم أنت مُلاقٍ من المشقة والعنت ؟ وكم دونه من الحجّاب والحرّاس ؟ ثم بعد ذلك ليس لك أن تختار لا الزمان ولا المكان ، ولا الموضوع ولا غيره .

وقد كان الرسول ﷺ وهو المتخلِّق بأخلاق الله إذا سلَّم على أحد لا ينزع يده من يده حتى يكون الرجل هو الذى ينزع يده[(١)] .

وقوله : ﴿لَيْلاً..(١)﴾ [الإسراء]

سبق أن قُلْنا : إن السُّرى هو السير ليلاً ، فكانت هذه كافية للدلالة على وقوع الحدث ليلاً ، ولكن الحق سبحانه أراد أنْ يؤكد ذلك ، فقد يقول قائل : لماذا لم يحدث الإسراء نهاراً ؟

نقول : حدث الإسراء ليلاً ، لتظلَّ المعجزة غَيْباً يؤمن به مَنْ يصدق رسول الله ﷺ ، فلو ذهب فى النهار لرآه الناس فى الطريق ذهاباً وعودة ، فتكون المسألة - إذن - حِسِّية مشاهدة لا مجالَ فيها للإيمان بالغيب .

لذلك لما سمع أبو جهل خبر الإسراء طار به إلى المسجد وقال : إن صاحبكم يزعم أنه أُسْرِى به الليلة من مكة إلى بيت المقدس ، فمنهم مَنْ قلَّب كفَّيْه تعجُّباً ، ومنهم مَنْ أنكر ، ومنهم مَن ارتد .

أما الصِّدِّيق أبو بكر فقد استقبل الخبر استقبالَ المؤمن المصدِّق ، ومن هذا الموقف سُمِّى الصديق ، وقال قولته المشهورة : « إن كان قال فقد صدق »[(٢)] .

---

(١) عن أنس رضى الله عنه قال : ما رأيت رجلاً قط أخذ بيد رسول الله ﷺ فيترك يده حتى يكون الرجل هو ينزع يده . أخرجه أبو الشيخ الأصبهانى فى « أخلاق النبى » (ص٢٩) .

(٢) أخرج البيهقى فى دلائل النبوة (٢/٣٦١) عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : « لما أُسْرِى بالنبى ﷺ إلى المسجد الأقصى أصبح يتحدث الناس بذلك ، فارتد ناس ممن كانوا آمنوا به وصدقوه ، وسعوا بذلك إلى أبى بكر رضى الله عنه ، فقالوا : هل لك فى صاحبك يزعم أنه أُسْرِى به فى الليل إلى بيت المقدس . قال : أو قال ذلك ؟ قالوا : نعم . قال : لئن كان قال ذلك لقد صدق . قالوا : وتُصدِّقه أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس وجاء قبل أن يصبح . قال : نعم ، إنى لأصدقه بما هو أبعد من ذلك ، أصدِّقه بخبر السماء فى غدوة أو روحة . فلذلك سُمِّى أبو بكر الصديق » . وكذا أخرجه الحاكم فى مستدركه (٣/٦٢ ، ٦٣) وقال : « صحيح الإسناد ، ولم يخرجاه » .

إذن : عمدته أن يقول رسول الله ، وطالما قال فهو صادق ، هذه قضية مُسلَّم بها عند الصِّدِّيق رضى الله عنه .

ثم قال : « إنَّا لَنُصدقه فى أبعد من هذا ، نُصدِّقه فى خبر السماء (الوحى) ، فكيف لا نُصدّقه فى هذا » ؟

إذن : الحق سبحانه جعل هذا الحادث مَحكاً للإيمان ، ومُمحِّصاً ليقين الناس ، حتى يغربل مَنْ حول رسول الله ، ولا يبقى معه إلا أصحاب الإيمان واليقين الثابت الذى لا يهتز ولا يتزعزع .

لذلك قال تعالى فى آية أخرى :

﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ..(٦٠)﴾ [الإسراء]

وهذا دليل آخر على أن الإسراء لم يكُنْ مناماً ، فالإسراء لا يكون فتنة واختباراً إلا إذا كان حقيقة لا مناماً ، فالمنام لا يُكذِّبه أحد ولا يختلف فيه الناس .

لكن لماذا قال عن الإسراء (رُؤْيَا) يعنى المنامية ، ولم يقُلْ « رؤية » يعنى البصرية ؟

قالوا : لأنها لما كانت عجيبة من العجائب صارت كأنها رؤيا منامية ، فالرؤيا محل الأحداث العجيبة .

وورد فى الإسراء أحاديث كثيرة تكلَّم فيها العلماء : أكان بالروح والجسد ؟ أكان يقظة أم مناماً ؟ أكان من المسجد الحرام أم من بيت أم هانىء[1] ؟ ونحن لا نختلف مع هذه الآراء ، ونُوضّح ما فيها من تقارب .

---

(١) هى : أم هانىء بنت أبى طالب الهاشمية ابنة عم النبى ﷺ . قيل : اسمها فاختة ، فاطمة ، هند . والأول أشهر . وكانت زوج هبيرة بن عمرو المخزومى . [الإصابة فى تمييز الصحابة (٨/٢٨٧)] .

فمن حيث : أكان الإسراء بالروح فقط أم بالروح والجسد ؟ فقد أوضحنا وَجْه الصواب فيه ، وأنه كان بالروح والجسد جميعاً ، فهذا مجال الإعجاز ، ولو كان بالروح فقط ما كان عجيباً ، وما كذّبه كفار مكة .

أما مَنْ ذهب إلى أن الإسراء كان رؤيا منام ، فيجب أن نلاحظ أن أول الوحى لرسول الله ﷺ كان الرؤيا الصادقة ، فكان ﷺ لا يرى رُؤْيَا إلا وجاءت كفلَق الصبح[1] ، فرؤيا النبى ﷺ ليست كرؤيانا ، بل هى صدْق لا بُدّ أن يتحقَّق . ومثال ذلك ما حدث ، مَنْ إرادةِ اللهِ لهُ رؤْيا الفتح .

قال تعالى :

﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخَافُونَ..(٢٧)﴾ [الفتح]

وقد أخبر ﷺ صحابته هذا الخبر ، فلما ردَّهم الكفار عند الحديبية ، فقال الصحابة لرسول الله : ألم تُبشِّرنا بدخول المسجد الحرام ؟ فقال : ولكن لم أَقُلْ هذا العام[2] .

لذلك يسمون هذه الرُّؤى رؤى الإيناس ، وهى أن يرى النبى ﷺ

---

(١) عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : « أول ما بُدِىء به رسول الله ﷺ من الوحى الرؤيا الصالحة فى النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح » أخرجه البخارى فى صحيحه (٣ ، ٣٣٩٢) كتاب بدء الوحى .

(٢) أورد هذا ابن كثير فى تفسيره (٤/٢٠١) ولفظه أن عمر بن الخطاب قال لرسول الله ﷺ : أفلم تكن تخبرنا أنا سنأتى البيت ونطوف به ؟ فقال ﷺ : « بلى ، أفأخبرتك أنك تأتيه عامك هذا ؟ » قال عمر : لا . فقال النبى ﷺ : « فإنك آتيه ومطوف به » .

الشيء مناماً ، حتى إذا ما تحقق لم يُفَاجأ به ، وكان له أُنْس به . وما دام لا يرى رؤيا إلا جاءت كفلَق الصبح فلا بُدَّ أن هذه الرؤيا ستأتى واقعاً وحقيقة ، وقد يرى هذه الرؤيا مرة أخرى على سبيل التذكرة بذلك الإيناس .

إذن : مَنْ قال : إن الإسراء كان مناماً نقول له : نعم كان رؤيا إيناس تحققتْ فى الواقع ، فلدينا رؤى الإيناس أولاً ، ورؤى التذكير بالنعمة ثانياً ، وواقع الحادث فى الحقيقة ثالثاً ، وبذلك نخرج من الخلاف حول : أكان الإسراء يقظة أم مناماً ؟

وحتى بعد انتهاء حادث الإسراء كانت الرؤيا الصادقة نوعاً من التسلية لرسول الله ﷺ ، فكان كلما اشتدتْ به الأهوال يُريه الله تعالى ما حدث له ليُبيِّن له حفاوة السماء والكون به ﷺ ؛ ليكون جَلْداً يتحمل ما يلاقى من التعنت والإيذاء .

أما من قال : إن الإسراء كان من بيت أم هانىء ، فهذا أيضاً ليس محلاً للخلاف ؛ لأن بيت أم هانىء كان مُلاصقاً للمطاف من المسجد الحرام ، والمطاف من المسجد .

إذن : لا داعى لإثارة الشكوك والخلافات حول هذه المعجزة ؛ لأن الفعل فِعْل الحق سبحانه وتعالى ، والذى يحكيه لنا هو الحق سبحانه وتعالى ، فلا مجالَ للخلاف فيه .

وقوله تعالى :

﴿مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا..(١)﴾ [الإسراء]

المسجد الحرام هو بيت الله : الكعبة المشرفة ، وسُمّى حراماً ؛ لأنه حُرّم فيه ما لم يحرُمْ فى غيره من المساجد . وكل مكان يخصص لعبادة الله نسميه مسجداً ، قال تعالى :

﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ..(١٨)﴾ [التوبة]

ويختلف المسجد الحرام عن غيره من المساجد ، أنه بيت لله باختيار الله تعالى ، وغيره من المساجد بيوت لله باختيار خَلْق الله ؛ لذلك كان بيت الله باختيار الله قِبْلة لبيوت الله باختيار خَلْق الله .

وقد يُراد بالمسجد المكان الذى نسجد فيه ، أو المكان الذى يصلح للصلاة ، كما جاء فى الحديث الشريف : « .. وجُعِلَتْ لى الأرض مسجداً وطهوراً »[(١)] .

أى : صالحة للصلاة فيها .

ولا بُدَّ أن نُفرِّق بين المسجد الذى حُيِّز وخُصِّص كمسجد مستقل ، وبين أرض تصلح للصلاة فيها ومباشرة حركة الحياة ، فالعامل يمكن أن يصلى فى مصنعه ، والفلاح يمكن أن يصلى فى مزرعته ، فهذه أرض تصلح للصلاة ولمباشرة حركة الحياة .

أما المسجد فللصلاة ، أو ما يتعلق بها من أمور الدين كتفسير آية ، أو بيان حكم ، أو تلاوة قرآن .. إلخ ولا يجوز فى المسجد مباشرة عمل من أعمال الدنيا .

---

(١) عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلى : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً ، فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل ، وأحلت لى المغانم ، ولم تحل لأحد قبلى ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبى يُبعث إلى قومه خاصة ، وبعثت إلى الناس عامة » أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٣٥) ومسلم فى صحيحه (٥٢١) .

لذلك حينما رأى النبى ﷺ رجلاً ينشد ضالته فى المسجد ، قال له : « لا رَدَّها الله عليك »[(١)] وقال لمن جلس يعقد صفقة فى المسجد : « لا بارك الله لك فى صفقتك »[(٢)] .

ذلك لأن المسجد خُصِّص للعبادة والطاعة ، وفيه يكون لقاء العبد بربه عز وجل ، فإياك أن تشغل نفسك فيه بأمور الدنيا ، ويكفى ما أخذتْه منك ، وما أنفقته فى سبيلها من وقت .

والمسجد لا يُسمَّى مسجداً إلا إذا كان بناءً مستقلاً من الأرض إلى السماء ، فأرضه مسجد ، وسماؤه مسجد ، لا يعلوه شىء من منافع الدنيا ، كمَنْ يبنى مسجداً تحت عمارة سكنية ، ودَعْكَ من نيته عندما خَصَّص هذا المكان للصلاة : أكانت نيته لله خالصة ؟ أم لمأرب دنيوى ؟

وقد قال تعالى :

﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾ [الجن]

فمثل هذا المكان لا يُسمّى مسجداً ؛ لأنه لا تنطبق عليه شروط المسجد ، ويعلوه أماكن سكنية يحدث فيها ما يتنافى وقدسية المسجد ، وما لا يليق بحُرْمة الصلاة ، فالصلاة فى مثل هذا المكان كالصلاة فى أى مكان آخر من البيت .

---

(١) أخرج مسلم فى صحيحه (٥٦٨) كتاب المساجد من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « من سمع رجلاً ينشد ضالة فى المسجد فليقل : لا ردها الله عليك ، فإن المساجد لم تبن لهذا » .

(٢) عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إذا رأيتم من يبيع أو يبتاع فى المسجد فقولوا : لا أربح الله تجارتك » أخرجه الترمذى فى سننه (١٣٢١) وقال : « حديث حسن غريب » .

لذلك يحرم على الطيار غير المسلم أن يُحلِّق فوق مكة ؛ لأن جوَّ الحرَم حَرَمٌ .

وقوله تعالى :

﴿إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا..(١)﴾ [الإسراء]

فى بُعْد المسافة نقول : هذا قصىّ . أى : بعيد . وهذا أقصى أى : أبعد ، فالحق تبارك وتعالى كأنه يلفت أنظارنا إلى أنه سيوجد بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى مسجدٌ آخر قصىّ ، وقد كان فيما بعد مسجد رسول الله ﷺ .

فالمسجد الأقصى : أى : الأبعد ، وهو مسجد بيت المقدس .

وقوله سبحانه : ﴿بَارَكْنَا حَوْلَهُ..(١)﴾ [الإسراء]

البركة : أن يُؤتى الشىءُ من ثمره فوقَ المأمول منه ، وأكثر مما يُظنّ فيه ، كأن تُعد طعاماً لشخصين ، فيكفى خمسة أشخاص ، فتقول : طعام مباركَ .

وقول الحق سبحانه :

﴿بَارَكْنَا حَوْلَهُ..(١)﴾ [الإسراء]

دليل على المبالغة فى البركة ، فإنْ كان سبحانه قد بارك ما حول الأقصى ، فالبركة فيه من باب أوْلى ، كأن تقول : مَنْ يعيشون حول فلان فى نعمة ، فمعنى ذلك أنه فى نعمة أعظم .

لكن بأىِّ شىء بارك الله حوله ؟

لقد بارك الله حول المسجد الأقصى ببركة دنيوية ، وبركة دينية :

بركة دنيوية بما جعل حوله من أرض خِصْبة عليها الحدائق

والبساتين التى تحوى مختلف الثمار ، وهذا من عطاء الربوبية الذى يناله المؤمن والكافر .

وبركة دينية خاصة بالمؤمنين ، هذه البركة الدينية تتمثل فى أن الأقصى مَهْد الرسالات ومَهْبط الأنبياء ، تعطَّرَتْ أرضه بأقدام إبراهيم وإسحق ويعقوب وعيسى وموسى وزكريا ويحيى ، وفيه هبط الوحى وتنزلتْ الملائكة .

وقوله : ﴿لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا.. (١)﴾ [الإسراء]

اللام هنا للتعليل .

كأن مهمة الإسراء من مكة إلى بيت المقدس أن نُرِى رسول الله الآيات ، وكلمة : الآيات لا تُطلق على مطلق موجود ، إنما تطلق على الموجود العجيب ، كما نقول : هذا آية فى الحُسْن ، آية فى الشجاعة ، فالآية هى الشىء العجيب .

ولله عز وجل آيات كثيرة منها الظاهر الذى يراه الناس ، كما قال تعالى :

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ..(٣٧)﴾ [فصلت]

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ (٣٢)﴾ [الشورى]

والله سبحانه يريد أن يجعل لرسوله ﷺ خصوصية ، وأن يُريه من آيات الغيب الذى لم يَرَهُ أحد ، ليرى ﷺ حفاوة السماء به ، ويرى مكانته عند ربه الذى قال له :

﴿وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ (١٢٧)﴾ [النحل]

لأنك فى سَعة من عطاء الله ، فإن أهانك أهل الأرض فسوف يحتفل بك أهل السماء فى الملأ الأعلى ، وإنْ كنت فى ضيق من الخَلْق فأنت فى سَعة من الخالق .

وقوله : ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ۝١﴾ [الإسراء]

أى : الحق سبحانه وتعالى .

السمع : إدراك يدرك الكلام . والبصر : إدراك يدرك الأفعال والمرائى ، فلكل منهما ما يتعلق به .

لكن سميع وبصير لمن ؟

جاء هذا فى ختام آية الإسراء التى بيَّنَتْ أن الحق سبحانه جعل الإسراء تسلية للرسول ﷺ بعد ما لاقاه من أذى المشركين وعنتهم ، وكأن معركة دارت بين رسول الله والكفار حدثتْ فيها أقوال وأفعال من الجانبين .

ومن هنا يمكن أن يكون المعنى : (سَمِيعٌ) لأقوال الرسول (بَصِيرٌ) بأفعاله ، حيث آذاه قومه وكذبوه وألجؤوه إلى الطائف ، فكان أهلها أشدَّ قسوة من إخوانهم فى مكة ، فعاد مُنكَراً دامياً ، وكان من دعائه :

« اللهم إنى أشكو إليك ضعف قوتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين وأنت ربى ، إلى من تكلنى ؟ إلى بعيد يتجهمنى ؟ أم إلى عدو ملكته أمرى ؟ إن لم يكن بك علىَّ غضب فلا أبالى ، ولكن عافيتك هى أوسع لى ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تُنزل بى غضبك ، أو يحل علىَّ سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك »[1] .

---

(١) أورده ابن هشام فى السيرة النبوية (٢/٤١٩ ، ٤٢٠) ، والبيهقى فى « دلائل النبوة » (٢/٤١٥) .

فالله سميع لقول نبيه ﷺ . وبصير لفعله .

فقد كان ﷺ فى أشدِّ ظروفه حريصاً على دعوته ، فقد قابل فى طريق عودته من الطائف عبداً ، فأعطاه عنقوداً من العنب ، وأخذ يحاوره فى النبوات ويقول : أنت من بلد نبى الله يونس بن متى[(١)] .

أو يكون المعنى : سميع لأقوال المشركين ، حينما آذوا سَمْع رسول الله وكذَّبوه وتجهمَّوا له ، وبصير بأفعالهم حينما آذوه ورَمَوْه بالحجارة .

الحق تبارك وتعالى تعرّض لحادث الإسراء فى هذه الآية على سبيل الإجمال ، فذكر بدايته من المسجد الحرام ، ونهايته فى المسجد الأقصى ، وبين البداية والنهاية ذكر كلمة الآيات هكذا مُجْملة .

وجاء ﷺ ففسَّر لنا هذا المجمل ، وذكر الآيات التى رآها ، فلو لم يذكر لنا رسول الله ﷺ ما رأى من آيات الله لَقُلْنا : وأين هذه الآيات ؟

فالقرآن يعطينا اللقطة الملزمة لبيان الرسول ﷺ :

﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١٧) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ(١٩) ﴾ [القيامة]

إذن : كان لا بُدَّ لتكتمل صورة الإسراء فى نفوس المؤمنين أن يقول الرسول ﷺ ما قال من أحاديث الإسراء .

---

(١) هذا العبد يُسمى عداس ، وهو غلام نصرانى ، قال له رسول الله ﷺ : من أهل أىّ البلاد أنت يا عداس ، وما دينك ؟ قال : نصرانى ، وأنا رجل من أهل نينوى . فقال رسول الله ﷺ : من قرية الرجل الصالح يونس بن متى . فقال له عداس : وما يدريك ما يونس ابن متى ؟ فقال رسول الله ﷺ : ذاك أخى ، كان نبياً وأنا نبى . فأكبّ عدّاس على رسول الله ﷺ يقبّل رأسه ويديه وقدميه . [السيرة النبوية لابن هشام ٢/٤٢١] .

لكن يأتى المشكِّكُون وضعَاف الإيمان يبحثون فى أحاديث الإسراء عن مأخذ ، فيعترضون على المرائى التى رآها رسول الله ، وسأل عنها جبريل عليه السلام .

فكان اعتراضهم أن هذه الأحداث فى الآخرة ، فكيف رآها محمد ﷺ ؟

ونقول لهؤلاء : لقد قصُرَتْ أفهامكم عن إدراك قدرة الله فى خَلْق الكون ، فالكون لم يُخلَق هكذا ، بل خُلِق بتقدير أزلى له ، ولتوضيح هذه المسألة نضرب هذا المثل :

هَبْ أنك أردتَ بناء بيت ، فسوف تذهب إلى المهندس المختص وتطلب منه رَسْماً تفصيلياً له ، ولو كنت ميسور الحال تقول له : اعمل لى (ماكيت) للبيت ، فيصنع لك نموذجاً مُصغّراً للبيت الذى تريده .

فالحق سبحانه خلق هذا الكون أزلاً ، فالأشياء مخلوقة عند الله (كالماكيت) ، ثم يبرزها سبحانه على وَفْق ما قدّره .

وتأمل قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٨٢)﴾ [يس]

انظر : ﴿أَن يَقُولَ لَهُ﴾ كأن الشىء موجود والله تعالى يظهره فحسب ، لا يخلقه بداية ، بل هو مخلوق جاهز ينتظر الأمر ليظهر فى عالم الواقع ؛ لذلك قال أهل المعرفة : أمور يُبديها ولا يبتديها .

وإنْ كان الحق تبارك وتعالى قد ذكر الإسراء صراحة فى هذه الآية ، فقد ذكر المعراج بالالتزام فى سورة النجم ، فى قوله تعالى :

﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ (١٣) عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ (١٤) عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ (١٥) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ (١٦) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ (١٧) لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ (١٨)﴾ [النجم]

ففى الإسراء قال تعالى :

﴿لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا..(١)﴾ [الإسراء]

وفى المعراج قال :

﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ (١٨)﴾ [النجم]

ذلك لأن الإسراء آية أرضية استطاع الرسول ﷺ بما آتاه الله من الإلهام أنْ يُدلِّل على صدْقه فى الإسراء به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ؛ لأن قومه على علم بتاريخه ، وأنه لم يسبق له أنْ رأى بيت المقدس أو سافر إليه ، فقالوا له : صِفْه لنا وهذه شهادة منهم أنه لم يَرَهْ ، فتحدَّوْهُ أن يصفه .

والرسول ﷺ حينما يأتى بمثل هذه العملية ، هل كان عنده استحفاظ كامل لصورة بيت المقدس ، خاصة وقد ذهب إليه ليلاً ؟

إذن : صورته لم تكن واضحة أمام النبى ﷺ بكل تفاصيلها ، وهنا تدخلتْ قدرة الله فجلاَّه الله له ، فأخذ يصفه لهم كأنه يراه الآن .

كما أن الطريق بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى طريق مسلوك للعرب ، فهو طريق تجارتهم إلى الشام ، فأخبرهم ﷺ أن عِيراً لهم فى الطريق ، ووصفها لهم وصفاً دقيقاً ، وأنها سوف تصلهم مع شروق شمس يوم مُعين .

وفعلاً تجمعوا فى صبيحة هذا اليوم ينتظرون العير . وعند الشروق قال أحدهم : ها هى الشمس أشرقتْ . فردَّ الآخر : وها هى العير قد ظهرتْ[(١)] .

إذن : استطاع ﷺ أن يُدلِّل على صدق الإسراء ؛ لأنه آية أرضية يمكن التدليل عليها ، بما يَعْلمه الناس عن بيت المقدس ، وبما يعلمونه من عِيرهم فى الطريق .

أما ما حدث فى المعراج ، فآيات كبرى سماوية لا يستطيع الرسول ﷺ التدليل عليها أمام قومه ، فأراد الحق سبحانه أنْ يجعل ما يمكن الدليل عليه من آيات الأرض وسيلة لتصديق ما لا يوجد دليل عليه من آيات الصعود إلى السماء ، وإلا فهل صعد أحد إلى سدرة المنتهى ، فيصفها له رسول الله ؟

إذن : آية الأرض أمكن أنْ يُدلِّل عليها ، فإذا ما قام عليها الدليل ، وثبت للرسول خَرْق نواميس الكون فى الزمن والمسافة ، فإنْ حدّثكم عن شىء آخر فيه خَرْق للنواميس فصدِّقوه ، فكأن آية الإسراء جاءت

---

(١) وقد أورد ابن هشام فى السيرة النبوية (١/٤٠٢) من حديث أم هانىء أن النبى ﷺ قال : آية ذلك أنى مررت بعير بنى فلان بوادى كذا وكذا ، فأنفرهم حسّ الدابة ، فندّ لهم بعير ، فدللتهم عليه ، وأنا مُوجّه إلى الشام ، ثم أقبلت حتى إذا كنت بضجنان مررت بعير بنى فلان ، فوجدت القوم نياماً ، ولهم إناء فيه ماء قد غطَّوْا عليه بشىء ، فكشفت غطاءه ، وشربت ما فيه ، ثم غطيت عليه كما كان ، وآية ذلك أن عيرهم الآن يصوب من البيضاء ثنية التنعيم ، يقدمها جمل أورق ، عليه غرارتان ، إحداهما سوداء ، والأخرى برقاء . قالت : فابتدر القوم الثنية فلم يلقهم أول من الجمل كما وصف لهم ، وسألوهم عن الإناء ، فأخبروهم أنهم وضعوه مملوءاً ماء ثم غطوه ، وأنهم هبوا فوجدوه مغطى كما غطوه ، ولم يجدوا فيه ماء . وسألوا الآخرين وهم بمكة ، فقالوا : صدق والله ، لقد أُنْفرنا فى الوادى الذى ذكر ، وندَّ له بعير ، فسمعنا صوت رجل يدعونا إليه ، حتى أخذناه .

لِتُقرِّب للناس آية المعراج .

فالذى خرق له النواميس فى آيات الأرض من الممكن أنْ يخرق له النواميس فى آيات السماء ، فالله تعالى يُقرِّب الغيبيات ، التى لا تدركها العقول بالمحسّات التى تدركها .

ومن ذلك ما ضربه إليه مثلاً محسوساً لمضاعفة النفقة فى سبيل الله إلى سبعمائة ضعف ، فأراد الحق سبحانه أنْ يُبيّن ذلك ويُقرّبه للعقول ، فقال :.

﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦١)﴾ [البقرة]

ومن لُطْف الله سبحانه بعقول خَلْقه أنْ جعل آيات الإسراء بالنصّ الملزم الصريح ، لكن آيات المعراج جاءت بالالتزام فى سورة النجم ؛ لذلك قال العلماء : إن الذى يُكذّب بالإسراء يكفر ، أما مَنْ يكذّب بالمعراج فهو فاسق .

لكن أهل التحقيق يذهبون إلى تكفير مَنْ يُكذّب المعراج أيضاً ؛ لأن المعراج وإنْ جاء بالالتزام فقد بيّنه الرسول ﷺ فى حديثه الشريف ، والحق سبحانه يقول :

﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا..(٧)﴾ [الحشر]

والمتأمل فى الإسراء والمعراج يجده إلى جانب أنه تسلية لرسول الله وتخفيف عنه ، إلا أن لهم هدفاً آخر أبعد أثراً ، وهو بيان أن رسول الله ﷺ مُؤيّد من الله ، وله معجزات ، وتُخرَق له القوانين

والنواميس العامة ؛ ليكون ذلك كله تكريماً ودليلاً على صدق رسالته .

فالمعجزة : أمر خارق للعادة الكونية يُجريه الله على يد رسوله ؛ ليكون دليلاً على صدقه ، ومن ذلك ما حدث لإبراهيم الخليل ـ عليه السلام ـ حيث ألقاه قومه فى النار ، ومن خواص النار الإحراق ، فهل كان المراد نجاة إبراهيم من النار ؟

لو كان القصد نجاته من النار ما كان الله مكَّنهم من الإمساك به ، ولو أمسكوا فيمكن أنْ يُنزِل الله المطر فيطفىء النار .

إذن : المسألة ليست نجاة إبراهيم ، المسألة إثبات خَرْق النواميس لإبراهيم عليه السلام ، فشاء الله أنْ تظلَّ النار مشتعلة ، وأن يُمسكوا به ويرموه فى النار ، وتتوفر كل الأسباب لحرقه ـ عليه السلام .

وهنا تتدخل عناية الله لتظهر المعجزة الخارقة للقوانين ، فمن خواصّ النار الإحراق ، وهى خَلْق من خَلْق الله ، يأتمر بأمره ، فأمر اللهُ النارَ ألاَّ تحرق ، سلبها هذه الخاصية ، فقال تعالى :

﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (٦٩)﴾ [الأنبياء]

وربما يجد المشكِّكون فى الإسراء والمعراج ما يُقرِّب هذ المعجزة لأفهامهم بما نشاهده الآن من تقدُّم علمى يُقرِّب لنا المسافات ، فقد تمكّن الإنسان بسلطان العلم أنْ يغزوَ الفضاء ، ويصعد إلى كواكب أخرى فى أزمنة قياسية ، فإذا كان فى مقدور البشر الهبوط على سطح القمر ، أتستبعدون الإسراء والمعراج ، وهو فِعْل لله سبحانه ؟!

وكذلك من الأمور التى وقفتْ أمام المعترضين على الإسراء

والمعراج حادثة شَقِّ الصدر التى حكاها رسول الله ﷺ ، والمتأمل فيه يجده عملاً طبيعياً لإعداد الرسول ﷺ لما هو مُقبِل عليه من أجواء ومواقف جديدة تختلف فى طبيعتها عن الطبيعة البشرية .

كيف ونحن نفعل مثل هذا الإعداد حينما نسافر من بلد إلى آخر ، فيقولون لك : البس ملابس كذا . وخذ حقنة كذا لتساير طبيعة هذا البلد ، وتتأقلم معه ، فما بالك ومحمد ﷺ سيلتقى بالملائكة وبجبريل وهم ذوو طبيعة غير طبيعة البشر ، وسيلتقى بإخوانه من الأنبياء ، وهم فى حال الموت ، وسيكون قاب قوسيْن أو أدنى من ربه عز وجل ؟

إذن : لا غرابة فى أنْ يحدث له تغيير ما فى تكوينه ﷺ ليستطيع مباشرة هذه المواقف .

وإذا استقرأنا القرآن الكريم فسوف نجد فيه ما يدلُّ على صدق رسول الله فيما أخبر به من لقائه بالأنبياء فى هذه الرحلة ، قال تعالى :

﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا..(٤٥)﴾ [الزخرف]

والرسول ﷺ إذا أمره ربّه أمراً نفّذه ، فكيف السبيل إلى تنفيذ هذا الأمر : واسأل مَن سبقك من الرسل ؟

لا سبيل إلى تنفيذه إلا فى لقاء مباشر ومواجهة ، فإذا حدَّثنا بذلك رسول الله فى رحلة الإسراء والمعراج نقول له : صدقت ، ولا يتسلل الشكّ إلا إلى قلوب ضعاف الإيمان واليقين .

فالفكرة فى هذه القضية ـ الإسراء والمعراج ـ دائرة بين يقين

المؤمن بصدق رسول الله ، وبين تحكيم العقل ، وهل استطاع عقلك أنْ يفهم كل قضايا الكون من حولك ؟

فما أكثر الأمور التى وقف فيها العقل ولم يفهم كُنْهَها ، ومع مرور الزمن وتقدُّم العلوم رآها تتكشّف له تدريجياً ، فما شاء الله أنْ يُظهره لنا من قضايا الكون يسَّر لنا أسبابه باكتشاف أو اختراع ، وربما بالمصادفة .

وما العقل إلا وسيلة إدراك ، كالعين والأذن ، وله قوانين محددة لا يستطيع أنْ يتعدّاها ، وإياك أنْ تظنَّ أن عقلك يستطيع إدراك كل شىء ، بل هو محكوم بقانون .

ولتوضيح ذلك ، نأخذ مثلاً العين ، وهى وسيلة إدراك يحكمها قانون الرؤية ، فإذا رأيت شخصاً مثلاً تراه واضح الملامح ، فإذا ما ابتعد عنك تراه يصغُر تدريجياً حتى يختفى عن نظرك ، كذلك السمع تستطيع بأذنك أنْ تسمعَ صوتاً ، فإذا ما ابتعد عنك قَلَّ سمعك له ، حتى يتوقف إدراك الأذن فلا تسمع شيئاً .

كذلك العقل كوسيلة إدراك له قانون ، وليس الإدراك فيه مطلقاً .

ومن هنا لما أراد العلماء التغلُّب على قانون العيْن وقانون الأذن حينما تضعف هذه الحاسة وتعجز عن أداء وظيفتها صنعوا للعين النظارة والميكروسكوب والمجهر ، وهذه وسائل حديثة تُمكِّن العين من رؤية ما لا تستطيع رؤيته . وكذلك صنعوا سماعة الأذن لتساعدها على السمع إذا ضعفت عن أداء وظيفتها .

إذن : فكل وسيلة إدراك لها قانونها ، وكذلك العقل ، وإياك أنْ تظنَّ

أن عقلك يستطيع أن يدرس كل شيء ، ولكن إذا حُدِّثْتَ بشيء فعقلك ينظر فيه ، فإذا وثقته صادقاً فقد انتهت المسألة ، وخذ ما حدثت به على أنه صدق .

وهذا ما حدث مع الصِّدِّيق أبى بكر رضى الله عنه جينما حدثوه عن صاحبه ﷺ ، وأنه أُسرِى به من مكة إلى بيت المقدس ، فما كان منه إلا أن قال : « إن كان قال فقد صدق » .

فالحجة عنده إذن قول الرسول ، وما دام الرسول قد قال ذلك فهو صادق ، ولا مجال لعمل العقل فى هذه القضية ، ثم قال : « كيف لا أُصدقه فى هذا الخبر ، وأنا أصدقه فى أكثر من هذا ، أصدقه فى خبر الوحى يأتيه من السماء »[1] .

فآية الإسراء - إذن - كانت آية أرضية ، يمكن أنْ يُقام عليها الدليل ، ويمكن أن يفهم الناس عنها أن القانون قد خُرِق لمحمد فى الإسراء ، فإذا ما أتى المعراج وخرق له القانون فيما لا يعلم الناس كان أدْعى لتصديقه .

والمتأمل فى هذه السورة يجدها تسمى سورة الإسراء ، وتسمى سورة بنى إسرائيل ، وليس فيها عن الإسراء إلا الآية الأولى فقط ، وأغلبها يتحدث عن بنى إسرائيل ، فما الحكمة من ذِكْر بنى إسرائيل بعد الإسراء ؟

سبق أن قلنا : إن الحكمة من الكلام عن الإسراء بعد آخر النحل

---

(١) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٢/٣٦٠) من حديث عائشة رضى الله عنها ، وكذا الحاكم فى مستدركه (٣/٦٢) وقال : « صحيح الإسناد ولم يخرجاه » ووافقه الذهبى .

أن رسول الله ﷺ كان فى ضيق مما يمكرون ، فأراد الحق سبحانه أنْ يُخفّف عنه ويُسلّيه ، فكان حادث الإسراء ، ولما أَلِفَ بنو إسرائيل أن الرسول يُبعَثُ إلى قومه فحسب ، كما رأوا موسى عليه السلام .

فعندما يأتى محمد ﷺ ويقول : أنا رسول للناس كافّة سيعترض عليه هؤلاء وسيقولون : إنْ كنتَ رسولاً فعلاً وسلَّمنا بذلك ، فأنت رسول للعرب دون غيرهم ، ولا دَخْلَ لك ببنى إسرائيل ، فلَنا رسالتنا وبيت المقدس علَم لنا .

لذلك أراد الحق سبحانه أن يلفت بنى إسرائيل إلى عموم رسالة محمد ﷺ ، ومن هنا جعل بيت المقدس قبلةً للمسلمين فى بداية الأمر ، ثم أسرى برسوله ﷺ إليه ؛ ليدلل بذلك على أن بيت المقدس قد دخل فى مقدسات الإسلام ، وأصبح منذ هذا الحدث فى حَوْزة المسلمين .

ثم يبدأ الحديث عن موسى عليه السلام وعن بنى إسرائيل ، فيقول تعالى :

﴿ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾ ﴾

قوله : ﴿ وَآتَيْنَا ﴾ أى : أوحينا إليه معانيه ، كما قال تعالى :

﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ..(٥١) ﴾ [الشورى]

فليس فى هذا الأمر مباشرة .

و (الكتاب) هو التوراة ، فلو اقترن بعيسى فهو الإنجيل ، وإنْ أُطلِق دون أن يقترنَ بأحد ينصرف إلى القرآن الكريم .

والوَحْى قد يكون بمعانى الأشياء ، ثم يُعبِّر عنها الرسول بألفاظه ، أو يعبر عنها رجاله وحواريوه بألفاظهم .

ومثال ذلك : الحديث النبوى الشريف ، فالمعنى فيه من الحق سبحانه ، واللفظ من عند الرسول ﷺ ، وهكذا كان الأمر فى التوراة والإنجيل .

فإن قال قائل : ولماذا نزل القرآن بلفظه ومعناه ، فى حين نزلت التوراة والإنجيل بالمعنى فقط ؟

نقول : لأن القرآن نزل كتاب منهج مثل التوراة والإنجيل ، ولكنه نزل أيضاً كتاب معجزة لا يستطيع أحد أنْ يأتىَ بمثله ، فلا دَخْلَ لأحد فيه ، ولا بُدَّ أنْ يظلَّ لفظه كما نزل من عند الله سبحانه وتعالى .

فالرسول ﷺ أُوحِىَ إليه لَفْظُ ومعنى القرآن الكريم ، وأُوحِى إليه معنى الحديث النبوى الشريف .

والحق سبحانه يقول :

﴿ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ .. (٢) ﴾ [الإسراء]

فهذا الكتاب لم ينزل لموسى وحده ، بل لِيُبلِّغه لبنى إسرائيل ،

وليرسمَ لهم طريق الهدى إلى الله سبحانه ، وقال تعالى فى آية أخرى :

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلا تَكُن فِي مِرْيَةٍ[1] مِّن لِّقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ (٢٣)﴾ [السجدة]

والهُدَى : هو الطريق الموصّل للغاية من أقصر وجه ، وبأقلّ تكلفة ، وهو الطريق المستقيم ، ومعلوم عند أهل الهندسة أن الخط المستقيم هو أقصر مسافة بين نقطتين .

ثم أوضح الحق سبحانه وتعالى خلاصة هذا الكتاب ، وخلاصة هذا الهدى لبنى إسرائيل فى قوله تعالى :

﴿أَلاَّ تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلاً (٢)﴾ [الإسراء]

ففى هذه العبارة خلاصة الهُدى ، وتركيز المنهج وجِمَاعه .

والوكيل : هو الذى يتولّى أمرك ، وأنت لا تُولِّى أحداً أمرك إلا إذا كنتَ عاجزاً عن القيام به ، وكان مَنْ تُوكِّله أحكمَ منك وأقوى ، فإذا كنت ترى الأغيار تنتاب الناس من حولك وتستولى عليهم ، فالغنى يصير فقيراً ، والقوى يصير ضعيفاً ، والصحيح يصير سقيماً .

وكذلك ترى الموت يتناول الناس واحداً تِلْو الآخر ، فاعلم أن هؤلاء لا يصلحون لِتولِّى أمرك والقيام بشأنك ، فربما وَكَّلْتَ واحداً منهم ففاجأك خبر موته .

إذن : إذا كنتَ لبيباً فوكِّل مَنْ لا تنتابه الأغيار ، ولا يدركه

---

(١) المرية : الجدل والشك . [القاموس القويم ٢/ ٢٢٤] .

الموت ؛ ولذلك فالحق سبحانه حينما يُعلمنا أن نكون على وعى وإدراك لحقائق الأمور ، يقول :

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِى لا يَمُوتُ(٥٨)﴾ [الفرقان]

وما دام الأمر كذلك ، فإياك أنْ تتخذَ من دون الله وكيلاً ، حتى لو كان هذا الوكيل هو الواسطة بينك وبين ربك كالأنبياء ؛ لأنهم لا يأتون بشىء من عند أنفسهم ، بل يناولونك ويُبلِّغونك عن الله سبحانه .

ولذلك الحق سبحانه يقول :

﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ..(٨٦)﴾ [الإسراء]

ولو شئنا ما أوحينا إليك أبداً ، فمن أين تأتى بالمنهج إذن ؟

وقد تحدث العلماء طويلاً فى (أن) فى قوله :

﴿أَلاَّ تَتَّخِذُوا مِن دُونِى وَكِيلاً (٢)﴾ [الإسراء]

فمنهم مَنْ قال : إنها ناهية . ومنهم من قال : نافية ، وأحسن ما يُقال فيها : إنها مُفسِّرة لما قبلها من قوله تعالى :

﴿وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى..(٢)﴾ [الإسراء]

ففسرت الكتاب والهدى ولخَّصتْه ، كما فى قوله تعالى :

﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَـآدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَّ يَبْلَىٰ (١٢٠)﴾ [طه]

فقوله : ﴿ قَالَ يَا آدَمُ ﴾ تُفسِّر لنا مضمون وسوسة الشيطان .

ومثله قوله تعالى :

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ..(٧)﴾ [القصص]

(فأنْ) هنا مُفسِّرة لما قبلها . وكأن المعنى : وأوحينا إليه ألاّ تتخذوا من دونى وكيلاً .

أو نقول : إن فيها معنى المصدرية ، وأنْ المصدرية قد تُجرّ بحرف جر كما نقول : عجبت أنْ تنجحَ ، أى : من أنْ تنجح ، ويكون معنى الآية هنا : وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبنى إسرائيل لأنْ لا تتخذوا من دونى وكيلاً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا (٣)﴾

(ذرية) منصوبة هنا على الاختصاص لِقصْد المدح ، فالمعنى : أخصّكم أنتم يا ذرية نوح ، ولكن لماذا ذرية نوح بالذات ؟

ذلك لأننا نجَّيْنَا الذين آمنوا معه من الطوفان والغرق ، وحافظنا على حياتهم ، وأنتم ذريتهم ، فلا بُدّ لكم أنْ تذكروا هذه النعمة لله تعالى ، أنّ أبقاكم الآن من بقاء آبائكم .

فكأن الحق سبحانه يمتنّ عليهم بأنْ نجَّى آباءهم مع نوح ، فليستمعوا إلى منهج الله الذى جَرَّبه آباؤهم ، ووجدوا أن مَنْ يؤمن بالله تكون له النجاة والأمن من عذاب الله .

ويقول تعالى :

﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ۝٣﴾ [الإسراء]

أى : أن الحق سبحانه أكرم ذريته ؛ لأنه كان عبداً شكوراً ، والعمل الصالح ينفع ذرية صاحبه ؛ ولذلك سنلاحظ ذرية نوح بعنايتنا ، ولن نتركهم يتخبّطون فى متاهات الحياة ، وسنرسل لهم الهدى الذى يرسم لهم الطريق القويم ، ويُجنّبهم الزَّلل والانحراف .

ودائماً ما ينشغل الآباء بالأبناء ، فإذا ما توفّر للإنسان قُوت يومه تطلّع إلى قُوت العام كله ، فإذا توفّر له قوت عامه قال : أعمل لأولادى ، فترى خير أولاده أكثر من خَيْره ، وتراه ينشغل بهم ، ويُؤثِرهم على نفسه ، ويترقّى فى طلب الخير لهم ، ويودُّ لو حمل عنهم كل تعب الحياة ومشاقها .

ومع ذلك ، فالإنسان عُرْضَة للأغيار ، وقد يأتيه أجله فيترك وراءه كل شىء ؛ ولذلك فالحق سبحانه يدلّنا على وَجْه الصواب الذى ينفع الأولاد ، فيقول تعالى :

﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا ۝٩﴾ [النساء]

والحق تبارك وتعالى حينما يُعلّمنا أن تقوى الله تتعدَّى بركتها إلى أولادك من بعدك ، يعطينا مثلاً واقعياً فى قصة موسى والخضر عليهما السلام ـ التى حكاها لنا القرآن الكريم .

والشاهد فيها أنهما حينما مرّا على قرية ، واستطعما أهلها فأبَوْا أنْ يُضيّفوهما ، وسؤال الطعام يدل على صدْق الحاجة ، فلو طلب منك السائل مالاً فقد تتهمه بكَنْزِه ، أما إذا طلب منك رغيفاً يأكله فلا شكّ

أنه صادق فى سؤاله ، فهذا دليل على أنها قرية لئام لا يقومون بواجب الضيافة ، ولا يُقدِّرون حاجة السائل .

ومن هنا تعجَّبَ موسى - عليه السلام - من مبادرة الخضْر إلى بناء الجدار الذى أوشك على السقوط دون أنْ يأخذ أجْره من هؤلاء اللئام :

﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا (٧٧) ﴾ [الكهف]

وهنا يكشف الخضر لموسى حقيقة الأمر ، ويُظهر له ما أطلعه الله عليه من بواطن الأمور التى لا يدركها موسى عليه السلام ، فيقول :

﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ .. (٨٢) ﴾ [الكهف]

فالجدار ملْك لغلامين صغيرين لا يقدران على حماية مالهما من هؤلاء اللئام ، ولأن أباهما كان صالحاً سخّر الله لهما مَنْ يخدمهما ، ويحافظ على مالهما .

إذن : فعلّة هذا العمل أن أباهما كان صالحاً ، فأكرمهم الله من أجله ، وجعلَهما فى حيازته وحفظه .

وهنا قد يسأل سائل : ومن أين للغلامين أن يعلما بأمر هذا الكنز عند بلوغهما ؟

والظاهر أن الخضر بما أعطاه الله من الحكمة بنى هذا الجدار بناءً موقوتاً ، بحيث ينهدم بعد بلوغ الغلامين ، فيكونان قادريْنِ على حمايته والدفاع عنه .

والحق سبحانه وتعالى يوضح لنا هذه القضية فى آية أخرى ، فيقول سبحانه :

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم[1] مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ ﴿٢١﴾﴾ [الطور]

فكرامةً للآباء نلحق بهم الأبناء ، حتى وإنْ قَصَّروا فى العمل عن آبائهم ، فنزيد فى أجر الأبناء ، ولا ننقص من أجر الآباء .

وقوله : ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإسراء]

وشكور صيغة مبالغة فى الشكر ، فلم يَقل شاكر ؛ لأن الشاكر الذى يشكر مرة واحدة ، أما الشكور فهو الدائب على الشكر المداوم عليه ، وقالوا عن نوح عليه السلام : إنه كان لا يتناول شيئاً من مُقوّمات حياته إلا شكر الله عليها . ولا تنعَّم بنعمة من ترف الحياة إلا حمد الله عليها ، فإذا أكل قال : الحمد لله الذى أطعمنى من غير حول منى ولا قوة ، وإذا شرب قال : الحمد لله الذى سقانى من غير حول منى ولا قوة ، وهكذا فى جميع أمره[2] .

---

(١) لاته يليته حقه ليتاً : نقصه ولم يؤده كاملاً ، قال تعالى : ﴿لا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا ﴿١٤﴾﴾ [الحجرات] أى : لا ينقصكم شيئاً من ثوابها . [القاموس القويم ٢/٢٠٩] .

(٢) ذكره القرطبى فى تفسيره (٥/٣٩٤١) من قول عمران بن سليم قال : إنما سُمى نوحاً عبداً شكوراً لأنه كان إذا أكل قال : الحمد لله الذى أطعمنى ولو شاء لأجاعنى . وإذا شرب قال : الحمد لله الذى سقانى ولو شاء لأظمأنى . وإذا اكتسى قال : الحمد لله الذى كسانى ولو شاء لأعرانى ، وإذا احتذى قال : الحمد لله الذى حذانى ولو شاء لأحفانى ، وإذا قضى حاجته قال : الحمد لله الذى أخرج عنى الأذى ولو شاء لحبسه فىّ .

ويقول بعض العارفين : ما أكثر ما غفل الإنسان عن شكر الله على نعمه .

ونرى كثيراً من الناس قصارى جَهْدهم أن يقولوا : بسم الله فى أول الطعام والحمد لله فى آخره ، ثم هم غافلون عن نعم كثيرة لا تُعَدُّ ولا تُحْصَى ، تستوجب الحمد والشكر .

لذلك حينما يعقل الإنسان ويفقه نعَم الله عليه ، ويعلم أن الحمد قَيْد للنعمة ، تجده يعمل ما نُسمّيه حَمْد القضاء مثل الصلاة القضاء أى : حمد الله على نعم فاتت لم يحمده عليها ، فيقول : الحمد لله على كل نعمة أنعمتَها علىَّ يا ربِّ ، ونسيت أنْ أحمدَك عليها ، ويجعل هذا الدعاء دأبه وديدنه .

وقد يتعدى حمدَ الله لنفسه ، فيحمد الله عن الناس الذين أنعم الله عليهم ولم يحمدوه ، فيقول : الحمد لله عن كل ذى نعمة أنعمتَ عليه ، ولم يحمدك عليها .

ولذلك يقولون : إن النعمة التى تحمد الله عليها لا تُسأل عنها يوم القيامة ؛ لأنك أدَّيْتَ حقها من حَمْد الله والثناء عليه .

والحمد والشكر وإنْ كان شكراً للمنعم سبحانه وثناء عليه ، فهو أيضاً تجارة رابحة للشاكر ؛ لأن الحق سبحانه يقول :

﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ ۝٧﴾ [إبراهيم]

فمَنْ أراد الخير لنفسه وأحب أن نواصل له النعم فليداوم على حمدنا وشكرنا .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ ﴾ (١)

قوله تعالى :

﴿ وَقَضَيْنَا .. ﴿٤﴾ ﴾ [الإسراء]

أى : حكمنا حُكْماً لا رجعةَ فيه ، وأعلنَّا به المحكوم عليه ، والقاضى الذى حكم هنا هو الحق سبحانه وتعالى.

والقضاء يعنى الفَصْل فى نزاع بين متخاصمين ، وهذا الفَصْل لا بُدَّ له من قاضٍ مُؤهَّل ، وعلى علم بالقانون الذى يحكم به ، ويستطيع الترجيح بين الأدلة .

إذن : لا بُد أن يكون القاضى مُؤهّلاً ، ولو فى عُرْف المتنازعين ، ويمكن أن يكونوا جميعاً أميِّين لا يعرفون عن القانون شيئاً ، لكنهم واثقون من شخص ما ، ويعرفون عنه قَوْل الحق والعدل فى حكومته ، فيرتضونه قاضياً ويُحكّمونه فيما بينهم .

ثم إن القاضى لا يحكم بعلمه فحسب ، بل لا بُدَّ له من بينة على المدعى أن يُقدّمها أو اليمين على مَنْ أنكر ، والبينة تحتاج إلى سماع الشهود ، ثم هو بعد أن يحكم فى القضية لا يملك تنفيذ حكمه ، بل

---

(١) قضينا : أعلمنا وأخبرنا . قاله ابن عباس . وقال قتادة : حكمنا . وأصل القضاء الإحكام للشىء والفراغ منه . وقيل : قضينا أوحينا . [تفسير القرطبى ٥/٣٩٤٢] .

هناك جهة أخرى تقوم بتنفيذ حكمه ، ثم هو فى أثناء ذلك عُرْضة للخداع والتدليس وشهادة الزور وتلاعب الخصوم بالأقوال والأدلة .

وقد يستطيع الظالم أنْ يُعمِّى عليه الأمر ، وقد يكون لبقاً متكلماً يستميل القاضى ، فيحوّل الحكم لصالحه ، كل هذا يحدث فى قضاء الدنيا .

فما بالك إذا كان القاضى هو رب العزة سبحانه وتعالى ؟

إنه سبحانه وتعالى القاضى العدل الذى لا يحتاج إلى بيّنة ولا شهود ، ولا يقدر أحد أنْ يُعمِّى عليه أو يخدعه ، وهو سبحانه صاحب كل السلطات ، فلا يحتاج إلى قوة أخرى تنفذ ما حكم به ، فكل حيثيات الأمور موكولة إليه سبحانه .

وقد حدث هذا فعلاً فى قضاء قضاه النبى ﷺ ، وهل القضاة أفضل من رسول الله ؟!

ففى الحديث الشريف : « إنما أنا بشر مثلكم ، وإنكم تختصمون إلىَّ ، ولعل أحدكم أن يكون ألحن[1] بحجته فأقضى له ، فمَنْ قضيت له من حق أخيه شيئاً ، فلا يأخذه ؛ فإنما أقطع له قطعة من النار »[2] .

فردَّ ﷺ الحكم إلى ذات المحكوم له ، ونصحه أنْ يراجعَ نفسه وينظر فيما يستحق ، فالرسول ﷺ بشر يقضى كما يقضى البشر ، ولكن إنْ عمَّيْتَ على قضاء الأرض فلن تُعمِّى على قضاء السماء .

---

(١) ألحن بحجته : أى أفطن له وأجدل . واللحن : الفطنة . [لسان العرب مادة : لحن] .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٧١٣) كتاب الأقضية من حديث أم سلمة رضى الله عنها .

ولذلك يقول ﷺ فيمَنْ يستفتى شخصاً فيفتيه فتوى تخالف الحق وتجانب الصواب :

« استفتِ قلبك ، وإنْ أفتوْكَ ، وإنْ أفتوْكَ ، وإنْ أفتوْكَ »[1] .

قالها ثلاثاً ليلفتنا إلى ضرورة أن يكون الإنسان واعياً مُميّزاً بقلبه بين الحلال والحرام ، وعليه أن يُراجع نفسه ويتدبر أمره .

وقوله : ﴿فِي الْكِتَابِ.. ﴿٤﴾﴾ [الإسراء]

أى : فى التوراة ، كتابهم الذى نزل على نبيهم ، وهم محتفظون به وليس فى كتاب آخر ، فالحق سبحانه قضى عليهم . أى : حكم عليهم حُكْماً وأعلمهم به ، حيث أوحاه إلى موسى ، فبلّغهم به فى التوراة ، وأخبرهم بما سيكون منهم من ملابسات استقبال منهج الله على ألسنة الرسل ، أيُنفذونه وينصاعون له ، أم يخرجون عنه ويفسدون فى الأرض ؟

وإذا كان رسولهم ـ عليه السلام ـ قد أخبرهم بما سيحدث منهم ، وقد حدث منهم فعلاً ما أخبرهم به الرسول وهم مختارون ، فكان عليهم أنْ يخجلوا من ربهم عز وجل ، ولا يتمادوا فى تصادمهم بمنهج الله وخروجهم عن تعاليمه ، وكان عليهم أن يصدقوا رسولهم فيما أخبرهم به ، وأنْ يُطيعوا أمره .

---

(١) عن وابصة بن معبد أن رسول الله ﷺ قال له : يا وابصة ، استفت نفسك . البر ما اطمأن إليه القلب ، واطمأنت إليه النفس ، والإثم ما حاك فى القلب وتردد فى الصدر ، وإن أفتاك الناس وأفتوك . أخرجه أحمد فى المسند (٤/٢٢٨) والدارمى فى سننه (٢/٢٤٦) .

وقوله تعالى :

﴿لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ..(٤)﴾ [الإسراء]

جاءتْ هذه العبارة هكذا مُؤكّدة باللام ، وهذا يعنى أن فى الآية قَسَماً دَلَّ عليه جوابه ، فكأن الحق سبحانه يقول : ونفسى لتفسدن فى الأرض ، لأن القسَم لا يكون إلا بالله .

أو نقول : إن المعنى : ما دُمْنا قد قضينا وحكمنا حُكْماً مُؤكّداً ، لا يستطيع أحد الفكَاك منه ، ففى هذا معنى القسَم ، وتكون هذه العبارة جواباً لـ « قضينا » ؛ لأن القسَم يجىء للتأكيد ، والتأكيد حاصل فى قوله تعالى :

﴿وَقَضَيْنَا..(٤)﴾ [الإسراء]

فما هو الإفساد ؟

الإفساد : أن تعمد إلى الصالح فى ذاته فتُخرجه عن صلاحه ، فكُلُّ شىء فى الكون خلقه الله تعالى لغاية ، فإذا تركتَه ليؤدىَ غايته فقد أبقيته على صلاحه ، وإذا أخللْتَ به يفقد صلاحه ومهمته ، والغاية التى خلقه الله من أجلها .

والحق سبحانه وتعالى قبل أنْ يخلقنا على هذه الأرض خلق لنا مُقوّمات حياتنا فى السماء والأرض والشمس والهواء .. إلخ وليس مقومات حياتنا فحسب ، بل وأعدَّ لنا فى كَوْنه ما يُمكِّن الإنسان بعقله وطاقته أن يَزيدَ الصالح صلاحاً ، فعلى الأقل إنْ لم تستطع أن تزيد الصالح صلاحاً فأبْقِ الصالح على صلاحه .

فمثلاً ، عندك بئر محفورة تخرج لك الماء ، فإما أنْ تحتفظَ بها على حالها فلا تطمسها ، وإما أنْ تزيدَ فى صلاحها بأنْ تبنىَ حولها ما يحميها من زحف الرمال ، أو تجعل فيها آلة رفع للماء تضخُّه فى مواسير لتسهِّل على الناس استعماله ، وغير ذلك من أوْجُه الصلاح .

ولذلك الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا..(٦١)﴾ [هود]

أى : أنشأكم من الأرض ، وجعل لكم فيها مُقوّمات حياتكم ، فإنْ أحببتَ أنْ تُثرى حياتك فأعملْ عقلك المخلوق لله ليفكر ، والطاقة المخلوقة فى أجهزتك لتعمل فى المادة المخلوقة لله فى الكون ، فأنت لا تأتى بشىء من عندك ، فقط تُعمل عقلك وتستغل الطاقة المخلوقة لله ، وتتفاعل مع الأرض المخلوقة لله ، فتعطيك كل ما تتطلع إليه وكل ما يُثرِى حياتك ، ويُوفّر لك الرفاهية والترقى .

فالذين اخترعوا لنا صهاريج المياه أعملُوا عقولهم ، وزادوا الصالح صلاحاً ، وكم فيها من مَيْزات وفَّرت علينا عناء رفع المياه إلى الأدوار العليا ، وقد استنبط هؤلاء فكرة الصهاريج من ظواهر الكون ، حينما رأوا السيل ينحدر من أعلى الجبال إلى أسفل الوديان ، فأخذوا هذه الفكرة ، وأفلحوا فى عمل يخدم البشرية .

وكما يكون الإفساد فى الماديات كمَنْ أفسدوا علينا الماء والهواء بالملوّثات ، كذلك يكون فى المعنويات ، فالمنهج الإلهى الذى أنزله الله تعالى لهداية الخلق وألزمنا بتنفيذه ، فكونُك لا تنفذ هذا المنهج ، أو تكتمه ، أو تُحرّف فيه ، فهذا كله إفساد لمنهج الله تعالى .

ويقول تعالى لبنى إسرائيل :

﴿لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ..(٤)﴾ [الإسراء]

وهل أفسد بنو إسرائيل فى الأرض مرتين فقط ؟

والله إنْ كانوا كذلك فقد خلاهم ذم ، والأمر إذن هَيِّن ، لكنهم أفسدوا فى الأرض إفساداً كثيراً متعدداً ، فلماذا قال تعالى : مرتين ؟

تحدّث العلماء كثيراً عن هاتين المرتين[1] ، وفى أىّ فترات التاريخ حدثتا ، وذهبوا إلى أنهما قبل الإسلام ، والمتأمل لسورة الإسراء يجدها قد ربطتهم بالإسلام ، فيبدو أن المراد بالمرتين أحداثٌ حدثتْ منهم فى حضْن الإسلام .

فالحق سبحانه وتعالى بعد أن ذكر الإسراء ذكر قصة بنى إسرائيل ، فدلّ ذلك على أن الإسلام تعدّى إلى مناطق مُقدّساتهم ، فأصبح بيت المقدس قِبْلة للمسلمين ، ثم أُسْرِى برسول الله ﷺ إليه ، وبذلك دخل فى حَوْزة الإسلام ؛ لأنه جاء مهيمناً على الأديان السابقة ، وجاء للناس كافة .

إذن : كان من الأوْلى أن يُفسِّروا هاتين المرتين على أنهما فى

---

(١) ذكر السيوطى فى الدر المنثور (٥/٢٣٩) آثاراً فى تفسير هذه الآية ، فقال :

- أخرج ابن عساكر فى تاريخه عن على بن أبى طالب قال : الأولى : قتل زكريا عليه الصلاة والسلام . والأخرى : قتل يحيى عليه السلام .

- وأخرج ابن أبى حاتم عن عطية العوفى قال : أفسدوا المرة الأولى ، فبعث الله عليهم جالوت فقتلهم ، وأفسدوا المرة الثانية ، فقتلوا يحيى بن زكريا فبعث الله عليهم بختنصر .

حضن الإسلام ؛ لأنهم أفسدوا كثيراً قبل الإسلام ، ولا دَخْلَ للإسلام فى إفسادهم السابق ؛ لأن الحق سبحانه يقول :

﴿ وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا (٤) ﴾ [الإسراء]

فإنْ كان الفساد مُطْلَقاً . أى : قبل أن يأتى الإسلام فقد تعدَّد فسادهم ، وهل هناك أكثر من قولهم بعد أن جاوز بهم البحر فرأوا جماعة يعكفون على عبادة العجل ، فقالوا لموسى ـ عليه السلام :

﴿ اجْعَل لَّنَا إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ (١٣٨) ﴾ [الأعراف]

هل هناك فساد أكثر من أنْ قتلوا الأنبياء الذين جعلهم الله مُثُلاً تكوينية وأُسْوة سلوكية ، وحرّفوا كتاب الله ؟

والناظر فى تحريف بنى إسرائيل للتوراة يجد أنهم حرَّفوها من وجوه كثيرة وتحريفات متعددة ، فمن التوراة ما نسوه ، كما قال تعالى :

﴿ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ .. (١٣) ﴾ [المائدة]

والذى لم ينسَوْهُ لم يتركوه على حاله ، بل كتموا بعضه ، والذى لم يكتموه لم يتركوه على حاله ، بل حرَّفوه ، كما قال تعالى :

﴿ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ .. (١٣) ﴾ [المائدة]

ولم يقف الأمر بهم عند هذا النسيان والكتمان والتحريف ، بل تعدَّى إلى أن أتَوا بكلام من عند أنفسهم ، وقالوا هو من عند الله ، قال تعالى :

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا..(٧٩)﴾ [البقرة]

فهل هناك إفساد فى منهج الله أعظم من هذا الإفساد ؟

ومن العلماء مَنْ يرى أن الفساد الأول ما حدث فى قصة طالوت وجالوت فى قوله تعالى :

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ[1] لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا..(٢٤٦)﴾ [البقرة]

فقد طلبوا القتال بأنفسهم وارتضَوْه وحكموا به ، ومع ذلك حينما جاء القتال تنصَّلوا منه ولم يقاتلوا .

ويرون أن الفساد الثانى قد حدث بعد أن قويَتْ دولتهم ، واتسعتْ رقعتها من الشمال إلى الجنوب ، فأغار عليهم بختنصَّر وهزمهم ، وفعل بهم ما فعل .

وهذه التفسيرات على أن الفسادَيْن سابقان للإسلام ، والأوْلى أن

---

(١) اختُلف فى تحديد من هو هذا النبى على أقوال منها :

- إنه يوشع بن نون . قاله قتادة .
- إنه شمعون . قاله السدى .
- إنه شمويل ، قاله مجاهد ووهب بن منبه . ذكره ابن كثير فى التفسير (١/٣٠٠) .

يقول فضيلة الشيخ الشعراوى - رحمه الله - فى تفسير هذه الآية (٢/١٠٥٦) : « لا يعنينا ذلك ، لأن القرآن لا يذكر فى أى عهد كانوا ، المهم أنهم كانوا بعد موسى عليه السلام » .

نقول : إنهما بعد الإسلام ، وسوف نجد فى هذا رَبْطاً لقصة بنى إسرائيل بسورة الإسراء .

كيف ذلك ؟

قالوا : لأن الإسلام حينما جاء كان يستشهد بأهل الكتاب على صدق محمد ﷺ ، ونفس أهل الكتاب كانوا يستفتحون به على الذين كفروا ، فكان أهل الكتاب إذا جادلوا الكفار والمشركين فى المدينة كانوا يقولون لهم : لقد أظلَّ زمان نبى يأتى فنتبعه ، ونقتلكم به قتل عاد وإرم[(١)] .

لذلك يقول الحق سبحانه لرسوله ﷺ : إنهم ينكرون عليك أن الله يشهد ومَنْ عنده علم الكتاب ، فمَنْ عنده علم الكتاب منهم يعرف بمجيئك ، وأنك صادق ، ويعرف علامتك ، بدليل أن الصادقين منهم آمنوا بمحمد ﷺ .

ويقول أحدهم[(٢)] : لقد عرفته حين رأيته كمعرفتى لابنى ، ومعرفتى لمحمد أشد ، لأنه قد يشك فى نسبة ولده إليه ، ولكنه لا يشك فى شخصية الرسول ﷺ لِمَا قرأه فى كتبهم ، وما يعلمه من أوصافه ، لأنه ﷺ موصوف فى كتبهم ، ويعرفونه كما يعرفون أبناءهم .

إذن : كانوا يستفتحون برسول الله على الذين كفروا ، وكانوا

---

(١) قال تعالى : ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [البقرة] .

(٢) هو : عبد الله بن سلام . قال له عمر : أتعرف محمداً كما تعرف ولدك ؟ قال : نعم وأكثر . ذكره ابن كثير فى تفسيره (١/١٩٤) وعزاه السيوطى فى الدر المنثور (١/٣٥٧) للثعلبى من طريق السدى الصغير عن الكلبى عن ابن عباس .

مستشرفين لمجيئه ، وعندهم مُقدّمات لبعثته ﷺ .

ومع ذلك :

﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ .. (٨٩)﴾ [البقرة]

فلما كفروا به ، ماذا كان موقفه ﷺ بعد أن هاجر إلى المدينة ؟

فى المدينة أبرم رسول الله ﷺ معهم معاهدة يتعايشون بموجبها ، ووفّى لهم رسول الله ما وفّوا ، فلما غدروا هم ، واعتدوا على حرمات المسلمين وأعراضهم ، جاس[1] رسول الله ﷺ خلال ديارهم ، وقتل منهم مَنْ قَتل ، وأجلاهم عن المدينة إلى الشام وإلى خيبر ؛ وكان هذا بأمر من الله تعالى لرسوله ﷺ ، فقال تعالى :

﴿هُوَ الَّذِى أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَـٰأُولِى الْأَبْصَارِ (٢)﴾ [الحشر]

وهذا هو الفساد الأول الذى حدث من يهود بنى النضير ، وبنى قَيْنقاع ، وبنى قريظة ، الذين خانوا العهد مع رسول الله ، بعد أن كانوا يستفتحون به على الذين كفروا ، ونصُّ الآية القادمة يُؤيّد ما نذهب إليه من أن الإفسادتين كانتا بعد الإسلام .

---

(١) جاسوا : ذهبوا وجاءوا فى الأرض . وفى الصحاح : جاسوا خلال الديار أى : فطافوا فى خلال الديار ينظرون هل بقى أحد لم يقتلوه . [لسان العرب ـ مادة : جوس] .

يقول الحق سبحانه :

﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ﴾

معلوم أن (إذَا) ظرف لما يستقبل من الزمان ، كما تقول : إذا جاء فلان أكرمته ، فهذا دليل على أن أولى الإفسادتين لم تحدث بعد ، فلا يستقيم القول بأن الفساد الأول جاء فى قصة طالوت وجالوت ، وأن الإفساد الثانى جاء فى قصة بختنصر .

وقوله : ﴿ وَعْد ﴾ . والوعد كذلك لا يكون بشىء مضى ، وإنما بشىء مستقبل . و ﴿ أُولاَهُمَا ﴾ أى : الإفساد الأول .

وقوله : ﴿ بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا .. ﴿٥﴾ ﴾ [الإسراء]

وفى هذه العبارة دليل آخر على أن الإفسادتين كانتا فى حضن الإسلام ؛ لأن كلمة (عِبَاداً) لا تطلق إلا على المؤمنين ، أما جالوت الذى قتله طالوت ، وبختنصر فهما كافران .

وقد تحدّث العلماء فى قوله تعالى : ﴿ عِبَادًا لَّنَا .. ﴿٥﴾ ﴾ [الإسراء]

فمنهم مَنْ رأى أن العباد والعبيد سواء ، وأن قوله (عِبَاداً) تُقَال للمؤمن وللكافر ، وأتوا بالأدلة التى تؤيد رأيهم حَسْب زعمهم .

ومن أدلتهم قول الحق سبحانه وتعالى فى قصة عيسى عليه السلام : ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن

كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١١٧) إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨) ﴾ [المائدة]

والشاهد فى قوله تعالى : ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ .. (١١٨) ﴾[المائدة]

فأطلق كلمة « عبادى » على الكافرين ، وعلى هذا القول لا مانع أن يكون جالوت وبختنصر ، وهما كافران قد سُلِّطا على بنى إسرائيل .

ثم استدلوا بآية أخرى تحكى موقفاً من مواقف يوم القيامة ، يقول تعالى للشركاء الذين اتخذوهم من دون الله : ﴿ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَـٰؤُلاءِ .. (١٧) ﴾ [الفرقان]

فأطلق كلمة (عباد) على الكافرين أيضاً .

إذن : قوله تعالى : ﴿ بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَّنَا .. (٥) ﴾ [الإسراء]

ليس من الضرورى أن يكونوا مؤمنين ، فقد يكونون من الكفار ، وهنا نستطيع أن نقول : إن الحق سبحانه وتعالى يريد أن ينتقم منهم ، ويُسلِّط عليهم أمثالهم من الكفرة والظالمين ، فإذا أراد سبحانه أن ينتقم من الظالم سلّط عليه مَنْ هو أكثر منه ظلماً ، وأشدّ منه بطشاً ، كما قال سبحانه : ﴿ وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٢٩) ﴾ [الأنعام]

وإذا كان أصحاب هذا الرأى لديهم من الأدلة ما يثبت أن كلمة

عباد تُطلَق على المؤمنين وعلى الكافرين ، فسوف نأتى بما يدل على أنها لا تُطلَق إلا على المؤمنين[١] .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَـٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا (٦٣) وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (٦٤) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (٦٥) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٦٦) وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا (٦٧)﴾ [الفرقان]

إلى آخر ما ذكرت الآيات من صفات المؤمنين الصادقين ، فأطلق عليهم « عباد الرحمن » .

دليل آخر فى قول الحق سبحانه فى نقاشه لإبليس : ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ .. (٤٢)﴾ [الحجر]

والمراد هنا المؤمنون .. وقد قال إبليس : ﴿فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣)﴾ [ص]

إذن : هنا إشكال ، حيث أتى كُلٌّ بأدلّته وما يُؤيّد قوله ، وللخروج من هذا الإشكال نقول : كلمة « عباد » و « عبيد » كلاهما جمع ومفردهما واحد (عبد) . فما الفرق بينهما ؟

لو نظرتَ إلى الكون كله مؤمنه وكافره لوجدتهم جميعاً لهم اختيارات فى أشياء ، ومقهورين فى أشياء أخرى ، فهم جميعاً عبيد

---

(١) قال الأزهرى : اجتمع العامة على تفرقة ما بين عباد الله والمماليك . فقالوا : هذا عبد من عباد الله ، وهؤلاء عبيد مماليك . وقال الليث : يقال للمشركين هم عبدة الطاغوت ، ويقال للمسلمين : عباد الله يعبدون الله . [لسان العرب ـ مادة : عبد]

بهذا المعنى يستوى فى القهر المؤمن والكافر ، إذن : كل الخَلْق عبيد فيما لا اختيارَ لهم فيه .

ثم بعد ذلك نستطيع أن نُقسّمهم إلى قسمين : عبيد يظلون عبيداً لا يدخلون فى مظلة العباد ، وعبيد تسمو بهم أعمالهم وانصياعهم لأمر الله فيدخلون فى مظلة عباد الله . كيف ذلك ؟

لقد جعل الله تعالى لك فى أفعالك منطقة اختيار ، فجعلك قادراً على الفِعْل ومقابله ، وخلقك صالحاً للإيمان وصالحاً للكفر ، لكنه سبحانه وتعالى يأمرك بالإيمان تكليفاً .

ففى منطقة الاختيار هذه يتمايز العبيد والعباد ، فالمؤمنون بالله يخرجون عن اختيارهم إلى اختيار ربهم ، ويتنازلون عن مُرادهم إلى مُراد ربهم فى المباحات ، فتراهم يُنفِّذون ما أمرهم الله به ، ويجعلون الاختيار كالقهر . ولسان حالهم يقول لربهم : سمعاً وطاعة .

وهؤلاء هم العباد الذين سَلّموا جميع أمرهم لله فى منطقة الاختيار ، فليس لهم إرادة أمام إرادة الله عز وجل .

إذن : كلمة عباد تُطلق على مَنْ تنازل عن منطقة الاختيار ، وجعل نفسه مقهوراً لله حتى فى المباحات .

أما الكفار الذين اختاروا مُرادهم وتركوا مُراد الله ، واستعملوا اختيارهم ، ونسوا اختيار ربهم ، حيث خَيَّرهم : تُؤمن أو تكفر قال : أكفر ، تشرب الخمر أو لا تشرب قال : أشرب ، تسرق أو لا تسرق ، قال : أسرق . وهؤلاء هم العبيد ، ولا يقال لهم « عباد » أبداً ؛ لأنهم لا يستحقون شرف هذه الكلمة .

ولكى نستكمل حَلَّ ما أشكل فى هذه المسألة لابُدَّ لنا أن نعلم أن منطقة الاختيار هذه لا تكون إلا فى الدنيا فى دار التكليف ؛ لأنها محل الاختيار ، وفيها نستطيع أن نُميِّز بين العباد الذين انصاعوا لربهم وخرجوا عن مرادهم لمراده سبحانه ، وبين العبيد الذين تمرَّدوا واختاروا غير مراد الله عز وجل فى الاختياريات ، أما فى القهريات فلا يستطيعون الخروج عنها .

فإذا جاءت الآخرة فلا محلَّ للاختيار والتكليف ، فالجميع مقهور لله تعالى ، ولا مجالَ فيها للتقسيم السابق ، بل الجميع عبيد وعباد فى الوقت ذاته .

إذن : نستطيع أن نقول : إن الكل عباد فى الآخرة ، وليس الكل عباداً فى الدنيا . وعلى هذا نستطيع فَهْم معنى (عباد) فى الآيتين :

﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ .. (١١٨)﴾ [المائدة]

وقوله : ﴿أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَـٰؤُلاءِ .. (١٧)﴾ [الفرقان]

فسمّاهم الحق سبحانه عباداً ؛ لأنه لم يَعُدْ لهم اختيار يتمردون فيه ، فاستوَوْا مع المؤمنين فى عدم الاختيار مع مرادات الله عز وجل .

إذن : فقول الحق سبحانه : ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَّنَا .. (٥)﴾ [الإسراء]

المقصود بها الإفساد الأول الذى حدث من اليهود فى ظلِّ الإسلام ، حيث نقضوا عهدهم مع رسول الله ﷺ ، والعباد هم رسول الله والذين آمنوا معه عندما جَاسُوا خلال ديارهم ، وأخرجوهم من المدينة وقتلوا منهم مَنْ قتلوه ، وسَبَوْا مَنْ سَبَوْه .

وقوله : ﴿أُوْلِى بَأْسٍ شَدِيدٍ .. ۝٥﴾ [الإسراء]

أى : قوة ومنَعة ، وهذه كانت حال المؤمنين فى المدينة ، بعد أن أصبحت لهم دولة وشوكة يواجهون بها أهل الباطل ، وليس حال ضعفهم فى مكة .

وقوله سبحانه :﴿فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيَارِ .. ۝٥﴾ [الإسراء]

جاسُوا من جاسَ أى : بحث واستقصى المكان ، وطلب مَنْ فيه ، وهذا المعنى هو الذى يُسمّيه رجال الأمن « تمشيط المكان » .

وهو اصطلاح يعنى دِقّة البحث عن المجرمين فى هذا المكان ، وفيه تشبيه لتمشيط الشعر ، حيث يتخلل المشط جميع الشعر ، وفى هذا ما يدل على دِقّة البحث ، فقد يتخلل المشط تخلُّلاً سطحياً ، وقد يتخلل بعمق حتى يصل إلى البشرة فيخرج ما لصق بها .

إذن : جاسُوا أى : تتبعوهم تتبعاً بحيث لا يخفى عليهم أحد منهم ، وهذا ما حدث مع يهود المدينة : بنى قينقاع ، وبنى قريظة ، وبنى النضير ، ويهود خيبر .

ونلاحظ هنا أن القرآن آثر التعبير بقوله : ﴿بَعَثْنَا ..۝٥﴾ [الإسراء]

والبعث يدل على الخير والرحمة ، فرسول الله ﷺ لم يكن فى حال اعتداء ، بل فى حالة دفاع عن الإسلام أمام مَنْ خانوا العهد ونقضوا الميثاق .

وكلمة : ﴿عَلَيْكُمْ﴾ [الإسراء] تفيد العلو والسيطرة .

وقوله : ﴿ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولاً ﴾ [الإسراء]

أى : وَعْد صدق لابد أن يتحقق ؛ لأنه وعد من قادر على الإنفاذ ، ولا توجد قوة تحول بينه وبين إنفاذ ما وعد به ، وإياك أن تظن أنه كأى وَعْد يمكن أنْ يَفِى به صاحبه أو لا يفى به ؛ لأن الإنسان إذا وعد وَعْداً : سألقاك غداً مثلاً .

فهذا الوعد يحتاج فى تحقيقه أن يكون لك قدرة على بقاء طاقة الإنفاذ ، لكن قد يطرأ عليك من العوارض ما يحول بينك وبين إنفاذ ما وعدت به ، إنما إذا كان الوعد ممَّنْ يقدر على الإنفاذ ، ولا تجرى عليه مِثْل هذه العوارض ، فوعْدُه مُتَحقِّق النفاذ .

فإذا قال قائل : الوعد لا تُقال إلا فى الخير ، فكيف سَمَّى القرآن هذه الأحداث :﴿ بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ .. ﴾ [الإسراء]

قالوا : الوعيد يُطلَق على الشر ، والوعد يُطلَق على الخير وعلى الشر ، ذلك لأن الشىء قد يكون شراً فى ظاهره ، وهو خير فى باطنه ، وفى هذا الموقف الذى نحن بصدده ، إذا أراد الحق سبحانه أنْ يُؤدِّبَ هؤلاء الذين انحرفوا عن منهجه ، فقد نرى أن هذا شر فى ظاهره ، لكنه فى الحقيقة خير بالنسبة لهم ، إنْ حاولوا هم الاستفادة منه .

ونضرب لذلك مثلاً بالولد الذى يعاقبه والده على إهماله أو تقصيره ، فيقسو عليه حِرْصاً على ما يُصلحه ، وصدق الشاعر حين قال :

فَقَسَا لِيزْدَجِرُوا وَمَنْ يَكُ حَازِماً فَلْيَقْسُ أَحْيَاناً على مَنْ يَرْحَمُ

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾﴾

الخطاب فى هذه الآية مُوجَّه لبنى إسرائيل ، والآية تمثل نقطة تحوُّل وانقلاب للأوضاع ، فبعد ما تحدثنا عنه من غلبة المسلمين ، وأن الله سلّطهم لتأديب بنى إسرائيل ، نرى هنا أن هذا الوضع لم يستمر ؛ لأن المسلمين تخلَّوْا عن منهج الله الذى ارتفعوا به ، وتَنصَّلوا من كَوْنهم عباداً لله ، فدارت عليهم الدائرة ، وتسلّط عليهم اليهود ، وتبادلوا الدور معهم ؛ لأن اليهود أفاقوا لأنفسهم بعد أن أدبهم رسول الله والمسلمون فى المدينة ، فأخذوا ينظرون فى حالهم وما وقعوا فيه من مخالفات .

ولا بُدّ أنه قد حدث منهم شبه استقامة على منهج الله ، أو على الأقل حدث من المسلمين انصراف عن المنهج وتنكُّب للطريق المستقيم ، فانحلَّتْ الأمور الإيمانية فى نفوس المسلمين ، وانقسموا دُولاً ، لكل منها جغرافيا ، ولكل منها نظام حاكم ينتسب إلى الإسلام ، فانحلّتْ عنهم صِفَة عباد الله .

فبعد قوتهم واستقامتهم على منهج الله ، وبعد أن استحقوا أن يكونوا عباداً لله بحق تراجعت كِفتهم وتخلَّوْا عن منهج ربهم ، وتحاكموا إلى قوانين وضعية ، فسلَّط عليهم عدوهم ليؤدّبهم ، فأصبحتْ الغلبة لليهود ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ .. ﴿٦﴾﴾ [الإسراء]

و ﴿ ثُمَّ ﴾ حرف عطف يفيد الترتيب مع التراخى ، على خلاف الفاء مثلاً التى تفيد الترتيب مع التعقيب ، ومن ذلك قوله تعالى :

﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ (٢١) ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ (٢٢)﴾ [عبس]

فلم يَقُل الحق سبحانه : فرددنا ، بل ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا ﴾ . ذلك لأن بين الكَرَّة الأولى التى كانت للمسلمين فى عهد رسول الله ، وبين هذه الكَرَّة التى كانت لليهود وقتاً طويلاً .

فلم يحدث بيننا وبينهم حروب لعدة قرون ، منذ عصر الرسول إلى أن حدث وَعْد بلفور ، الذى أعطى لهم الحق فى قيام دولتهم فى فلسطين ، وكانت الكَرَّة لهم علينا فى عام ١٩٦٧ ، فناسب العطف بـ « ثم » التى تفيد التراخى .

والحق سبحانه يقول : ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ .. (٦)﴾ [الإسراء]

أى : جعلنا لبنى إسرائيل الغَلَبَة والقوة والنصر على المسلمين وسلّطناهم عليهم ؛ لأنهم تخلوْا عن منهج ربهم ، وتنازلوا عن الشروط التى جعلتْهم عباداً لله .

و (الكَرَّة) أى : الغلبة من الكَرِّ والفَرِّ الذى يقوم به الجندى فى القتال ، حيث يُقدِم مرة ، ويتراجع أخرى .

وقوله تعالى : ﴿وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً (٦)﴾ [الإسراء]

وفعلاً أمدّهم الله بالمال حتى أصبحوا أصحاب رأس المال فى العالم كله ، وأمدّهم بالبنين الذين يُعلِّمونهم ويُثقّفونهم على أعلى المستويات ، وفى كل المجالات .

ولكن هذا كله لا يعطيهم القدرة على أن تكون لهم كَرَّة على المسلمين ، فهم فى ذاتهم ضعفاء رغم ما فى أيديهم من المال والبنين ، ولا بُدَّ لهم لكى تقوم لهم قائمة من مساندة أنصارهم وأتباعهم من الدول الأخرى ، وهذا واضح لا يحتاج إلى بيان منذ الخطوات الأولى لقيام دولتهم ووطنهم القومى المزعوم فى فلسطين ، وهذا معنى قوله تعالى : ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾﴾ [الإسراء]

فالنفير مَنْ يستنفره الإنسان لينصره ، والمراد هنا الدول الكبرى التى ساندتْ اليهود وصادمتْ المسلمين .

وما زالت الكَرَّة لهم علينا ، وسوف تظل إلى أنْ نعودَ كما كُنَّا ، عباداً لله مُسْتقيمين على منهجه ، مُحكِّمين لكتابه ، وهذا وَعْد سيتحقّق إنْ شاء الله ، كما ذكرتْ الآية التالية :

﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ﴿٧﴾﴾ (١)

وما زال الخطاب مُوجّهاً إلى بنى إسرائيل ، هاكم سُنّة من سنن الله الكونية التى يستوى أمامها المؤمن والكافر ، وهى أن مَنْ أحسن فله إحسانه ، ومَنْ أساء فعليه إساءته .

فها هم اليهود لهم الغَلَبة بما حدث منهم من شبه استقامة على

---

(١) تبَّره : دمره وأهلكه . قال تعالى : ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾﴾ [الأعراف] متبَّرٌ : اسم مفعول أى مُدمَّر مُهْلَك . [القاموس القويم ١/٩٧] .

المنهج ، أو على الأقل بمقدار ما تراجع المسلمون عن منهج الله ؛ لأن هذه سُنّة كونية ، مَنِ استحق الغلبة فهى له ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى مُنزّه عن الظلم ، حتى مع أعداء دينه ومنهجه .

والدليل على ذلك ما أمسى فيه المسلمون بتخليهم عن منهج الله .

وقوله تعالى : ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ .. (٧)﴾ [الإسراء]

فيه إشارة إلى أنهم فى شكٍّ أنْ يُحسِنوا ، وكأن أحدهم يقول للآخر : دَعْكَ من قضية الإحسان هذه .

فإذا كانت الكَرَّة الآن لليهود ، فهل ستظل لهم على طول الطريق ؟ لا .. لن تظل لهم الغَلَبة ، ولن تدوم لهم الكرّة على المسلمين ، بدليل قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ .. (٧)﴾[الإسراء]

أى : إذا جاء وقت الإفسادة الثانية لهم ، وقد سبق أنْ قال الحق سبحانه عنهم : ﴿لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ .. (٤)﴾ [الإسراء]

وبينّا الإفساد الأول حينما نقضوا عهدهم مع رسول الله ﷺ فى المدينة .

وفى الآية بشارة لنا أننا سنعود إلى سالف عهدنا ، وستكون لنا يقظة وصَحْوة نعود بها إلى منهج الله وإلى طريقه المستقيم ، وعندها ستكون لنا الغَلَبة والقوة ، وستعود لنا الكَرَّة على اليهود .

وقوله تعالى : ﴿لِيَسُوؤُوا وُجُوهَكُمْ .. (٧)﴾ [الإسراء]

أى : نُلحق بهم من الأذى ما يظهر أثره على وجوههم ؛ لأن

الوجه هو السِّمة المعبِّرة عن نوازع النفس الإنسانية ، وعليه تبدو الانفعالات والمشاعر ، وهو أشرف ما فى المرء ، وإساءته أبلغ أنواع الإساءة .

وقوله تعالى : ﴿وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ..(٧)﴾[الإسراء] أى : أن المسلمين سيدخلون المسجد الأقصى ، وسينقذونه من أيدى اليهود .

﴿كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ .. (٧)﴾ [الإسراء]

المتأمل فى هذه العبارة يجد أن دخولَ المسلمين للمسجد الأقصى أول مرة كان فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، ولم يكن الأقصى وقتها فى أيدى اليهود ، بل كان فى أيدى الرومان المسيحيين .

فدخوله الأول لم يكُنْ إساءةً لليهود ، وإنما كان إساءة للمسيحيين ، لكن هذه المرة سيكون دخول الأقصى ، وهو فى حوزة اليهود ، وسيكون من ضمن الإساءة لوجوههم أن ندخل عليهم المسجد الأقصى ، ونُطهِّره من رِجْسهم .

ونلحظ كذلك فى قوله تعالى : ﴿كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ..(٧)﴾ [الإسراء] أن القرآن لم يقُلْ ذلك إلا إذا كان بين الدخولين خروج .

إذن : فخروجنا الآن من المسجد الأقصى تصديق لِنُبوءَة القرآن ، وكأن الحق سبحانه يريد أنْ يلفتنا : إنْ أردتُمْ أنْ تدخلوا المسجد الأقصى مرة أخرى ، فعودوا إلى منهج ربكم وتصالحوا معه .

وقوله تعالى : ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ .. (٧)﴾ [الإسراء]

كلمة الآخرة تدلُّ على أنها المرة التى لن تتكرر ، ولن يكون لليهود غَلَبة بعدها .

وقوله تعالى : ﴿وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا (٧)﴾ [الإسراء]

يتبروا : أى : يُهلكوا ويُدمِّروا ، ويُخرِّبوا ما أقامه اليهود وما بنَوْهُ وشيَّدوه من مظاهر الحضارة التى نشاهدها الآن عندهم .

لكن نلاحظ أن القرآن لم يقُلْ : ما علوتُم ، إنما قال ﴿ مَا عَلَوْا ﴾ ليدل على أن ما أقاموه وما شيدوه ليس بذاتهم ، وإنما بمساعدة مَنْ وراءهم من أتباعهم وأنصارهم ، فاليهود بذاتهم ضعفاء ، لا تقوم لهم قائمة ، وهذا واضح فى قَوْل الحق سبحانه عنهم :

﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ..(١١٢)﴾ [آل عمران]

فهم أذلاء أينما وُجدوا ، ليس لهم ذاتية إلا بعهد يعيشون فى ظلِّه ، كما كانوا فى عهد رسول الله ﷺ فى المدينة ، أو عهد من الناس الذين يدافعون عنهم ويُعاونونهم .

واليهود قوم منعزلون لهم ذاتية وهُويّة لا تذوب فى غيرهم من الأمم ، ولا ينخرطون فى البلاد التى يعيشون فيها ؛ لذلك نجد لهم فى كل بلد يعيشون به حارة تسمى « حارة اليهود » ، ولم يكن لهم ميْلٌ للبناء والتشييد ؛ لأنهم كما قال تعالى عنهم : ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأَرْضِ أُمَمًا (١٦٨)﴾ [الأعراف]

كل جماعة منهم فى أمة تعيش عيشة انعزالية ، أما الآن ، وبعد أنْ أصبح لهم وطن قومى فى فلسطين على حَدِّ زعمهم ، فنراهم يميلون للبناء والتعمير والتشييد .

ونحن الآن ننتظر وَعْد الله سبحانه ، ونعيش على أمل أن تنصلح أحوالنا ، ونعود إلى ساحة ربنا ، وعندها سينجز لنا ما وعدنا من دخول المسجد الأقصى ، وتكون لنا الكرّة الأخيرة عليهم ، سيتحقق لنا هذا عندما ندخل معهم معركة على أسس إسلامية وإيمانية ، لا على عروبة وعصبية سياسية ، لتعود لنا صِفَة العباد ، ونكون أَهْلاً لِنُصْرة الله تعالى .

إذن : طالما أن الحق سبحانه قال : ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ..(٧)﴾ [الإسراء]

فهو وَعْد آتٍ لا شَكَّ فيه ، بدليل أن هذه العبارة جاءت بنصِّها فى آخر السورة فى قوله تعالى : ﴿وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا[1] (١٠٤)﴾ [الإسراء]

والمتأمل لهذه الآية يجد بها بشارة بتحقُّق وَعْد الله ، ويجد أن ما يحدث الآن من تجميع لليهود فى أرض فلسطين آية مُرادة لله تعالى .

ومعنى الآية أننا قُلْنا لبنى إسرائيل من بعد موسى :

اسكنوا الأرض وإذا قال لك واحد : اسكُنْ فلابُدَّ أن يُحدد لك

---

(١) اللفيف : الجمع العظيم من أخلاط شتى فيهم الشريف والدنىء ، والمطيع والعاصى ، والقوى والضعيف . [لسان العرب ـ مادة : لفف] .

مكاناً من الأرض تسكن فيه فيقول لك : اسكن بورسعيد .. اسكن القاهرة .. اسكن الأردن .

أما أن يقول لك : اسكن الأرض !! فمعنى هذا أن الله تعالى أراد لهم أنْ يظلُّوا مبعثرين فى جميع الأنحاء ، مُفرَّقين فى كل البلاد ، كما قال عنهم : ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأَرْضِ أُمَمًا .. (١٦٨)﴾ [الأعراف]

فتجدهم منعزلين عن الناس منبوذين بينهم ، كثيراً ما تُثار بسببهم المشاكل ، فيشكو الناس منهم ويقتلونهم ، وقد قال تعالى : ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ[1] سُوءَ الْعَذَابِ .. (١٦٧)﴾ [الأعراف]

وهكذا سيظل اليهود خميرة عكننة ونكَد بين سكان الأرض إلى يوم القيامة ، وهذه الخميرة هى فى نفس الوقت عنصر إثارة وإهاجة للإيمان والخير ؛ لأن الإسلام لا يلتفت إليه أهله إلا حين يُهَاج الإسلام ، فساعة أنْ يُهَاجَ تتحرك النزعة الإيمانية وتتنبّه فى الناس .

إذن : فوجود اليهود كعنصر إثارة له حكمة ، وهى إثارة الحيوية الإيمانية فى النفوس ، فلو لم تُثَر الحيوية الإيمانية لَبهتَ الإسلام .

وهذه هى رسالة الكفر ورسالة الباطل ، فلوجودهما حكمة ؛ لأن الكفر الذى يشقى الناس به يُلفِت الناس إلى الإيمان ، فلا يروْنَ راحة

---

(١) سامه الأمر : كلّفه إياه . وقال الزجاج : أوْلاَه إيَّاه ، وأكثر ما يستعمل فى العذاب والشر والظلم . [لسان العرب ـ مادة : سوم] .

قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس : هى الجزية ، والذى يسومهم سوء العذاب محمد رسول الله ﷺ وأمته إلى يوم القيامة . نقله ابن كثير فى تفسيره (٢/٢٥٩) .

لهم إلا فى الإيمـان بالله ، ولو لم يكُنْ الكفـر الذى يؤذى الناس ويُقلق حياتهم ما التفتوا إلى الإيمان .

وكذلك البـاطل فى الكون يعض الناس ويُزعجـهم ، فيلتفـتون إلى الحق ويبحثون عنه .

وبعد أن أسكنهم الله الأرض وبعـثرهم فيها ، أهاج قلـوب أتباعهم من جنود البـاطل ، فأوحَـوْا إليهم بفكرة الوطن القـومى ، وزيَّنُوا لهم أولى خطوات نهايتـهم ، فكان أن اختاروا لهـم فلسطين ليتخـذوا منها وطناً يتجمعون فيه من شتى البلاد .

وقد يرى البـعض أن فى قيـام دولة إسرائيل وتجـمّع اليهـود بها نكايةً فى الإسـلام والمـسلمـين ، ولكن الحـقيـقـة غيـر هذا ، فـالحق سبـحانه وتعـالى حين يريد أن نضـربهم الضربة الإيمانـية من جنود موصوفين بأنهم : ﴿عِبَادًا لَّنَا.. ۝٥﴾ [الإسراء]

يلفتنا إلى أن هذه الضربة لا تكون وهم مُفرّقون مُبعْثرون فى كل أنحاء العالم ، فلن نحارب فى العالم كله ، ولن نرسل عليهم كتيبة إلى كل بلد لهم فيها حارة أو حى ، فكيف لنا أن نتتبعهم وهم مبعثرون ، فى كل بلد شِرْذمة منهم ؟

إذن : ففكرة التجمُّع والوطن القـومى التى نادى بها بلفور وأيَّدتْها الدول الكبـرى المساندة لـليهود والمـعادية للإسـلام ، هذه الفكرة فى الحقيقة تمثل خدمة لقضية الإسلام ، وتُسهِّل علينا تتبعهم وتُمكّننا من القضـاء عليهم ؛ لذلك يقـول تعالى : ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ۝١٠٤﴾ [الإسراء]

أى : أتينا بكم جميعاً ، نضمُّ بعضكم إلى بعض ، فهذه إذن بُشرى لنا معشر المسلمين بأن الكَرَّة ستعود لنا ، وأن الغلبة ستكون فى النهاية للإسلام والمسلمين ، وليس بيننا وبين هذا الوعد إلا أن نعود إلى الله ، ونتجه إليه كما قال سبحانه : ﴿فَلَوْلا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا[1] تَضَرَّعُوا .. (٤٣)﴾ [الأنعام]

والمراد بقوله هنا : ﴿وَعْدُ الآخِرَةِ .. (٧)﴾ [الإسراء]

هو الوعد الذى قال الله عنه : ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوؤُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ .. (٧)﴾ [الإسراء]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا[2] (٨)﴾

و (عَسَى) حَرْف يدلّ على الرجاء ، وكأن فى الآية إشارةً إلى أنهم سيظلون فى مذلّة ومَسْكنة ، ولن ترتفع لهم رأس إلا فى ظلٍّ حبل من الله وعَهْد منه ، وحبل من الناس الذين يُعاهدونهم على النُّصْرة والتأييد والحماية .

وقوله : ﴿رَبُّكُمْ .. (٨)﴾ [الإسراء]

---

(١) البأس : الشدة والقوة . ويقول تعالى : ﴿وَحِينَ الْبَأْسِ (١٧٧)﴾ [البقرة] أى : وقت الحرب الشديدة . [القاموس القويم ١/٥٢] .

(٢) حصيراً : مَحْبساً ومَحْصراً ، وأصل الحصر والإحصار : المنع . [لسان العرب ـ مادة : حصر] . قال ابن كثير فى تفسيره (٣/٢٦) : « حصيراً أى : مستقراً ومحصراً وسجناً لا محيد لهم عنه » .

انظر فيه إلى العظمة الإلهية ، ورحمة الرب سبحانه الذى ما يزال يخاطب الكافرين الملحدين المعاندين لرسوله ، وهو آخر رسول يأتى من السماء ، ومع ذلك كله يخاطبهم بقوله : ﴿رَبُّكُمْ..(٨)﴾ [الإسراء]

لأن الربّ هو المتولّى للتربية والمتكفّل بضمان مُقوّمات الحياة ، لا يضنّ بها حتى وإنْ كان العبد كافراً ، فالكلُّ أمام عطاء الربوبية سواء : المؤمن والكافر ، والطائع والعاصى .

الجميع يتمتع بنِعَم الله : الشمس والهواء والطعام والشراب ، فهو سبحانه لا يزال ربَّهم مع كل ما حدث منهم .

وقوله تعالى : ﴿أَن يَرْحَمَكُمْ .. (٨)﴾ [الإسراء]

والرحمة تكون للإنسان إذا كان فى موقف يستحق فيه الرحمة ، واليهود لن تكون لهم دولة ، ولن يكون لهم كيان ، بل يعيشون فى حضْن الرحمة الإيمانية الإسلامية التى تُعطى لهم فرصة التعايش مع الإسلام معايشة ، كالتى كانت لهم فى مدينة رسول الله ، يوم أن أكرمهم وتعاهد معهم .

وقد وصلتْ هذه المعايشة لدرجة أن النبى ﷺ كان إذا أراد أنْ يقترضَ لا يقترض من مسلم ، بل كان يقترض من اليهود ، وفى هذا حكمة يجب أنْ نعيها ، وهى أن المسلم قد يستحى أن يطالب رسول الله إذا نسى مثلاً ، أما اليهودى فسوف يُلِحّ فى طلب حقِّه وإذا نسى رسول الله سيُذكّره .

لذلك كان اليهود كثيراً ما يجادلون رسول الله ﷺ ويُغالطونه مِراراً ، وقد حدث أن وفَّى رسول الله لأحدهم دَيْنه ، لكنه أنكره وأتى

يطالب به من جديد ، وأخذ يراجع رسول الله ويغالطه وينكر ويقول : ابْغِنى شاهداً .

ولم يكن لرسول الله شاهد وقت السداد ، وهكذا تأزّم الموقف فى حضور أحد الصحابة ، واسمه خزيمة ، فهَبَّ خزيمة قائلاً : أنا يا رسول الله كنت شاهداً ، وقد أخذ هذا اليهودى دَيْنه ، فسكت اليهودى ولم يرد ولم يجادل ، فَدل ذلك على كذبه . ويكاد المريب أن يقول : خذونى .

لكن رسول الله ﷺ عندما اختلى بخزيمة بعد أن انصرف الدائن قال : يا خزيمة ما حملك على هذا القول ، ولم يكن أحد معنا ، وأنا أقضى لليهودى دَيْنه ؟ فضحك خزيمة وقال : يا رسول الله أأُصدِّقُك فى خبر السماء ، وأُكذِّبك فى عِدّة دراهم ؟

فَسُرَّ رسول الله من اجتهاد الرجل ، وقال : « مَنْ شهد له خزيمة فحَسْبه »[1] .

ثم يُهدِّد الحق سبحانه بنى إسرائيل ، فيقول : ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا .. (٨)﴾ [الإسراء]

إنْ عُدتُّم للفساد ، عُدْنا ، وهذا جزاء الدنيا ، وهو لا ينجيكم من جزاء الآخرة ، فهذه مسألة وتلك أخرى حتى لا يفهموا أن العقاب على الذنوب فى الدنيا يُبرِّئهم من عذاب الآخرة .

---

(١) أخرجه الحاكم فى المستدرك على الصحيحين (٢/١٨) والطبرانى فى المعجم الكبير (٤/١٠١) من حديث خزيمة بن ثابت . قال الهيثمى فى المجمع (٩/٣٢٠) : « رجاله كلهم ثقات » .

فالعقوبة على الذنب التى تُبرّىء المذنب من عذاب الآخرة ما كان فى حِضْن الإسلام ، وإلاَّ لاَسْتوى مَنْ أقيم عليه الحدّ مع مَنْ لم يُقمْ عليه الحد .

فلو سرق إنسان وقُطِعَتْ يده ، وسرق آخر ولم تُقطع يده ، فلو استَوَوْا فى عقوبة الآخرة ، فقد زاد أحدهما عن الآخر فى العقوبة ، وكيف يستوى الذى قُطِعَتْ يده . وعاش بِذلّتها طوال عمره مع مَنْ أفلت من العقوبة ؟

هذا إنْ كان المذنب مؤمناً .

أما إذا كان المذنب غير مؤمن فالأصل الذى بنينا عليه هذا الحكم ضائع لا وجودَ له ، وعقوبة الدنيا هنا لا تُعفى صاحبها من عقوبة الآخرة ؛ لذلك يقول تعالى بعدها : ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً ۝٨﴾ [الإسراء]

﴿ جَعَلْنَا ﴾ فعْل يفيد التحويل ، كأن تقول : جعلت العجين خبزاً ، وجعلت القطن ثوباً ، أى : صيَّرْتُه وحوَّلْتُه . فماذا كانت جهنم أولاً فيُحوّلها الحق سبحانه حصيراً ؟

قوله تعالى : ﴿ جَعَلْنَا ﴾ فى هذه الآية لا تفيد التحويل ، إنما هى بمعنى خلَقْنا ، أى : خلقناها هكذا ، كما نقول : سبحان الذى جعل اللبن أبيض ، فاللبن لم يكن له لون آخر فحوَّله الله تعالى إلى البياض ، بل خلقه هكذا بداية .

ومعنى : ﴿حَصِيراً .. ۝٨﴾ [الإسراء]

الحصير فراش معروف يُصنع من القَشِّ أو من نبات يُسمى

السَّمُر ، والآن يصنعونه من خيوط البلاستيك ، وسُمِّى حصيراً ، لأن كلمة حصير مأخوذة من الحَصْر ، وهو التضييق فى المكان للمكين ، وفى صناعة الحصير يضمُّون الأعواد بعضها إلى بعض إلى أنْ تتماسكَ ، ولا توجد مسافة بين العود والآخر .

لكن لماذا نفرش الحصير ؟ نفرش الحصير ؛ لأنه يحبس عنّا القذَر والأوساخ ، فلا تصيب ثيابنا . إذن : الحصر معناه المنع والحبس والتضييق .

والمتتبع لمادة (حصر) فى القرآن الكريم يجدها بهذه المعانى ، يقول تعالى : ﴿فَإِذَا انسَلَخَ[1] الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ .. (٥)﴾ [التوبة] أى : ضَيِّقوا عليهم .

وقال تعالى فى فريضة الحج : ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ .. (١٩٦)﴾ [البقرة] أى : حُبِسْتم ومُنِعْتم من أداء الفريضة .

إذنْ : فقوله تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً (٨)﴾ [الإسراء]

أى : تحبسهم فيها وتحصرهم ، وتمنعهم الخروج منها ، فهى لهم سجن لا يستطيعون الفرار منه ؛ لأنها تحيط بهم من كل ناحية ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا[2] .. (٢٩)﴾ [الكهف]

---

(١) انسلخ الشهر : انقضى وانتهى . [القاموس القويم ١/٣٢٢] .

(٢) قال ابن الأعرابى : سرادقها : سورها . وعن ابن عباس : حائط من نار . وقال الكلبى : عنق تخرج من النار فتحيط بالكفار كالحظيرة ، وخرَّج ابن المبارك من حديث أبى سعيد الخدرى عن النبى ﷺ قال : « لسرادق النار أربع جُدُر ، كُثْف كل جدار مسيرة أربعين سنة » قال القرطبى فى تفسيره (٥/٤١٢٤): « وهذا يدل على أن السرادق ما يعلو الكفار من دخان أو نار ، وجدره ما وُصف » .

فلا يستطيعون الخروج ، فإنْ حاولوا الخروج رُدُّوا إليها ، كما قال تعالى : ﴿ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا .. ﴿٢٠﴾ ﴾ [السجدة]

وفى قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً ﴿٨﴾ ﴾ [الإسراء]

إشارة إلى أنهم كانوا إذا أجرموا فى الدنيا يحتمُون فى أنصارهم وأتباعهم من الأقوياء ، ويدخلون فى حضانة أهل الباطل ، أما فى الآخرة فلن يجدوا ناصراً أو مدافعاً .

يقول تعالى : ﴿ مَا لَكُمْ لا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [الصافات]

وبعد أن تكلّم الحق سبحانه عن الإسراء بالرسول الخاتم الرحمة ، وجَعْله آيةً أرضية يمكن إقامة الدليل عليها ، حيث خرق له الناموس فى أمور يعلمها قومه ، فإذا جاءت آية المعراج وخرقَ له الناموس فيما لا يعلمه القوم كان أدْعى إلى تصديقه .

ثم أوضح الحق سبحانه أن عبودية محمد ﷺ لربه هى التى أعطتْه هذه المنزلة ، وكذلك كان نوح ـ عليه السلام ـ عبداً شكوراً ، فهناك فَرْق بين عبودية الخَلْق للخالق ، وعبودية الخَلْق للخَلْق ؛ لأن العبودية للخَلْق مذمومة ، حيث يأخذ السيد خيْر عبده ، أما العبودية لله فالعبد يأخذ خَيْر سيده .

ثم تحدَّث الحق سبحانه عن بنى إسرائيل ، وما وقعوا فيه من إفساد فى الأرض ، فأعطانا بذلك نماذج للأعمال لمن أحسن ولمن أساء ، وكُلٌّ له عمله دون ظُلْم أو جَوْر .

لذلك ينقلنا السياق القرآنى إلى بيان المنهج الإلهى المنزّل من

السمـاء ليوضح عبودية الإنسـان لربه ، وكيف يكون عبداً مُـخْلِصاً لله تعالى ، فيقول الحق سبحانه :

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝٩﴾

فـمَنْ كان يريد الأُسْـوة الطيبـة فى عـبودية الرسـول لربه ، هذه العبـودية التى جعلتْه يسـرى به إلى بيت المقدس ، ثم يصـعد به إلى السمـاء ، ومَنْ كان يريد أن يكون مثل نوح فى عـبوديته لربه فـأكرم ذريتـه من أجله ، فعليـه أنْ يسيـرَ على دَرْبهم ، وأنْ يقتـدىَ بهم فى عبوديتـهم لله تعالى ، وليحذر أن يكون مثل اليهـود الذين أفسدوا فى الأرض مرتين .

والذى يرسم لنا الطريق ويُوضِّـح لنا الحق من الباطل هو القـرآن الكريم : ﴿إِنَّ هَـٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ .. ۝٩﴾ [الإسراء]

قول الحق تبارك وتعالى : ﴿إِنَّ هَـٰذَا الْقُرْآنَ .. ۝٩﴾ [الإسراء]

هل عند نزول هذه الآية كان القرآن كله قد نزل ، ليقول : إن هذا القرآن ؟

نقـول : لم يكن القـرآن كله قـد نـزل ، ولكن كل آية فى القـرآن تُسمّى قرآناً ، كما قال تعالى : ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ۝١٨﴾ [القيامة]

فليس المراد القرآن كله ، بل الآية من القرآن قرآن . ثم لما اكتمل نزول القرآن ، واكتملتْ كل المسائل التى تضـمن لنا استقامة الحياة ، قال تعالى : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِينًا ..۝٣﴾ [المائدة]

فإن استشرف مُسْتشرف أنْ يستزيد على كتاب الله ، أو يأتى بجديد فليعلم أن منهج الله مُنزَّه عن النقص ، وفى غِنىً عن زيادتك ، وما عليك إلا أن تبحث فى كتاب الله ، وسوف تجد فيه ما تصبو إليه من الخير .

قوله : ﴿يَهْدِى .. ⑨﴾ [الإسراء]

الهداية هى الطريق الموصِّل للغاية من أقرب وَجْه ، وبأقل تكلفة . وهو الطريق المستقيم الذى لا التواءَ فيه ، وقلنا : إن الحق سبحانه يهدى الجميع ويرسم لهم الطريق ، فمن اهتدى زاده هُدى ، كما قال سبحانه : ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ⑰﴾ [محمد]

ومعنى : ﴿أَقْوَمُ .. ⑨﴾ [الإسراء]

أى : أكثر استقامة وسلاماً . هذه الصيغة تُسمّى أفعل التفضيل ، إذن : فعندنا (أقوم) وعندنا أقل منه منزلة (قَيِّم) كأن نقول : عالم وأعلم .

فقوله سبحانه : ﴿إِنَّ هَـٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ .. ⑨﴾ [الإسراء]

يدل على وجود (القيّم) فى نُظم الناس وقوانينهم الوضعية ، فالحق سبحانه لا يحرم البشر من أن يكون لهم قوانين وشرائع حينما تعضُّهم المظالم ويشقُون بها ، فيُقنّنون تقنينات تمنع هذا الظلم .

ولا مانع من ذلك إذا لم ينزل لهم منهج من السماء ، فما وضعوه وإنْ كان قَيِّماً فما وضعه الله أقوم ، وأنت لا تضع القيم إلا بعد أنْ

تُعضَّ بشىء مُعوج غير قيّم ، وإلا فماذا يلفتُك للقيم ؟

أما منهج السماء فإنه يضع الوقاية ، ويمنع المرض من أساسه ، فهناك فَرْق بين الوقاية من المرض وبين العلاج للمرض ، فأصحاب القوانين الوضعية يُعدّلون نُظمهم لعلاج الأمراض التى يَشْقَون بها .

أما الإسلام فيضع لنا الوقاية ، فإن حَدثتْ غفلة من المسلمين ، وأصابتهم بعض الداءات نتيجة انصرافهم عن منهج ربهم نقول لهم : عودوا إلى المنهج : ﴿إِنَّ هَـٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ..(٩)﴾ [الإسراء]

ولتوضيح أن منهج الحق سبحانه أقوم نروى ما حدث معنا فى مدينة « سان فرانسيسكو » فقد سألنا أحدُ المستشرقين عن قول الحق تبارك وتعالى : ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٣٢)﴾ [التوبة]

وفى آية أخرى يقول : ﴿هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٣٣)﴾ [التوبة]

فكيف يقول القرآن : ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ..(٣٣)﴾ [التوبة]

فى حين أن الإسلام محصور ، وتظهر عليه الديانات الأخرى ؟

فقلتُ له : لو تأملتَ الآية لوجدتَ فيها الردّ على سؤالك ، فالحق سبحانه يقول : ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٣٢)﴾ [التوبة]

ويقول : ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٣٣)﴾ [التوبة]

إذن : فالكافرون والمشركون موجودون ، فالظهور هنا ليس ظهور

اتّباع ، ولم يقُل القرآن : إن الناس جميعاً سيؤمنون .

ومعنى الظهور هنا ظهور حُجّة وظهور حاجة ، ظهور نظم وقوانين ، ستضطرهم أحداث الحياة ومشاكلها إلى التخلّى عن قوانينهم والأخذ بقوانين الإسلام ؛ لأنهم وجدوا فيها ضَالّتهم .

فنظام الطلاق فى الإسلام الذى كثيراً ما هاجموه وانتقدوه ، ورأوا فيه ما لا يليق بالعلاقة الزوجية ، ولكن بمرور الزمن تكشفت لهم حقائق مؤلمة ، وشقى الكثيرون منهم لعدم وجود هذا الحل فى قوانينهم ، وهكذا ألجأتهم مشاكل الحياة الزوجية لأنْ يُقنِّنوا للطلاق .

ومعلوم أن تقنينهم للطلاق ليس حُباً فى الإسلام أو اقتناعاً به ، بل لأن لديهم مشاكل لا حَلَّ لها إلا بالطلاق ، وهذا هو الظهور المراد فى الآيتين الكريمتين ، وهو ظهور بشهادتكم أنتم ؛ لأنكم ستلجأون فى حل قضاياكم لقوانين الإسلام ، أو قريباً منها .

ومن هذه القضايا أيضاً قضية تحريم الربا فى الإسلام ، فعارضوه وأنكروا هذا التحريم ، إلى أن جاء « كنز » وهو زعيم اقتصادى عندهم ، يقول لهم : انتبهوا ، لأن المال لا يؤدى وظيفته كاملة فى الحياة إلا إذا انخفضتْ الفائدة إلى صفر .

سبحان الله ، ما أعجب لَجَج هؤلاء فى خصومتهم مع الإسلام ، وهل تحريم الربا يعنى أكثر من أن تنخفض الفائدة إلى صفر ؟ إنهم يعودون لمنهج الله تعالى رَغْماً عنهم ، ومع ذلك لا يعترفون به .

ولا يخفى ما فى التعامل الربوى من سلبيات ، وهل رأينا دولة اقترضت من أخرى ، واستطاعت على مَرّ الزمن أنْ تُسدد حتى أقساط

الفائدة ؟ ثم نراهم يغالطوننا يقولون : ألمانيا واليابان أخذت قروضاً بعد الحرب العالمية الثانية ، ومع ذلك تقدمت ونهضت .

نقول لهم : كفاكم خداعاً ، فألمانيا واليابان لم تأخذ قروضاً ، وإنما أخذت معونة لا فائدة عليها ، تسمى معونة (مارشال) .

وأيضاً من هذه القضايا التى ألجأتهم إليها مشاكل الحياة قضية ميراث المرأة ، فلما عَضَّتهم قَنَّنُوا لها .

فظهور دين الله هنا يعنى ظهورَ نُظم وقوانين ستضطرهم ظروف الحياة إلى الأخذ بها ، وليس المقصود به ظهور اتّباع .

إذن : فمنهج الله أقوم ، وقانون الحق سبحانه أعظم من قوانين البشر وأَهْدى ، وفى القرآن الكريم ما يُوضّح أن حكم الله وقانونه أقوم حتى من حكم رسوله ﷺ .

وهذا فى قصة مولاه « زيد بن حارثة »[1] ، وزيد لم يكن عبداً ، إلى أن خطفه بعض تجار الرقيق وباعوه ، وانتهى به المطاف إلى السيدة خديجة ـ رضى الله عنها ـ التى وهبتْه بدورها لخدمة رسول الله ﷺ .

فكان زيد فى خدمة رسول الله ﷺ إلى أن علم أهله بوجوده فى مكة فأتوا ليأخذوه ، فما كان من رسول الله ﷺ ، إلا أن خَيَّره بين البقاء معه وبين الذهاب إلى أهله ، فاختار زيد البقاء فى خدمة رسول

---

(١) هو : زيد بن حارثة بن شراحيل الكلبى : صحابى ، اختطف فى الجاهلية صغيراً ، واشترته خديجة بنت خويلد فوهبته إلى النبى ﷺ حين تزوجها ، فتبناه وأعتقه وزوّجه بنت عمته ، جعل له الإمارة فى غزوة مؤتة فاستشهد فيها ، توفى ٨ هـ .

الله وآثره على أهله . فقال ﷺ : « فما كنت لأختار على مَنِ اختارنى شيئاً »[١] .

وفى هذه القصة دليل على أن الرقَّ كان مباحاً فى هذا العصر ، وكان الرقّ حضانةَ حنانٍ ورحمة ، يعيش فيها العبد كما يعيش سيده ، يأكل من طعامه ، ويشرب من شرابه ، يكسوه إذا اكتسى ، ولا يُكلّفه ما لا يطيق ، وإنْ كلّفه أعانه ، فكانت يده بيده[٢] .

وهكذا كانت العلاقة بين محمد ﷺ وبين زيد ؛ لذلك آثره على أهله ، وأحب البقاء فى خدمته ، فرأى رسول الله أن يُكافىء زيداً على إخلاصه له وتفضيله له على أهله ، فقال : « لا تقولوا زيد بن حارثة ، قولوا زيد بن محمد »[٣] .

وكان التبنى شائعاً فى ذلك الوقت . فلما أراد الحق سبحانه أنْ يُحرّم التبنى ، وأنْ يُحرِّم نسبة الولد إلى غير أبيه بدأ برسول

---

(١) أورده ابن حجر العسقلانى فى كتاب « الإصابة فى تمييز الصحابة » (ترجمة رقم ٢٨٨٤) فى ترجمة « زيد بن حارثة الكلبى » .

(٢) أخرج البخارى فى صحيحه (٦٠٥٠) ومسلم فى صحيحه (١٦٦١) من حديث أبى ذر رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال له : « هم إخوانكم ، جعلهم الله تحت أيديكم ، فأطعموهم مما تأكلون ، وألبسوهم مما تلبسون ، ولا تكلفوهم ما يغلبهم ، فإن كلفتموهم فأعينوهم » .

(٣) ذلك أن رسول الله ﷺ قال : « اشهدوا أن زيداً ابنى يرثنى وأرثه » أورده ابن حجر فى الإصابة ترجمة رقم (٢٨٨٤) فدعى زيد بن محمد حتى نزل قوله تعالى : ﴿ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ..﴿٥﴾﴾ [الأحزاب] . ثم إن رسول الله ﷺ زوّج زيداً ابنة عمته زينب بنت جحش ، ثم نزل قوله تعالى : ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِى أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَىْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِى أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً ﴿٣٧﴾﴾ [الأحزاب] .

الله ﷺ ، فقال : ﴿ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ .. ﴿٥﴾﴾ [الأحزاب]

والشاهد هنا : ﴿هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ .. ﴿٥﴾﴾ [الأحزاب]

فكأن الحكم الذى أنهى التبنى ، وأعاد زيداً إلى زيد بن حارثة هو الأقسط والأعدل ، إذن : حكم الرسول ﷺ لم يكن جَوْراً ، بل كان قِسْطاً وعدلاً ، لكنه قسط بشرى يَفْضُله ما كان من عند الحق سبحانه وتعالى .

وهكذا عاد زيد إلى نسبه الأصلى ، وأصبح الناس يقولون « زيد ابن حارثة » ، فحزن لذلك زيد ، لأنه حُرِم من شرف الانتساب لرسول الله ﷺ فعوَّضه الله تعالى عن ذلك وساماً لم يَنَلْه صحابى غيره ، هذا الوسام هو أن ذُكر اسمه فى القرآن الكريم ، وجعل الناس يتلونه ، ويتعبدون به فى قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا .. ﴿٣٧﴾﴾ [الأحزاب]

إذن : عمل الرسول قسط ، وعمل الله أقسط .

قوله تعالى : ﴿يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ .. ﴿٩﴾﴾ [الإسراء]

لأن المتتبع للمنهج القرآنى يجده يُقدِّم لنا الأقوم والأعدل والأوسط فى كل شىء . فى العقائد ، وفى الأحكام ، وفى القصص .

ففى العقائد مثلاً ، جاء الإسلام ليجابه مجتمعاً متناقضاً بين مَنْ ينكر وجود إله فى الكون ، وبين مَنْ يقول بتعدُّد الآلهة ، فجاء الإسلام وَسَطاً بين الطرفين ، جاء بالأقوم فى هذه المسألة ، جاء ليقول بإله واحد لا شريك له .

فإذا ما تحدّث عن صفات هذا الإله سبحانه اختار أيضاً ما هو أقوم وأوسط ، فللحق سبحانه صفات تشبه صفات البشر ، فلَه يَدٌ وسمع وبصر ، لكن ليست يده كيدنا ، وليس سمعه كسمعنا ، وليس بصره كبصرنا : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١١)﴾ [الشورى]

وبهذا المنهج الحكيم خرجنا مما وقع فيه المشبِّهة الذين شبّهوا صفات الله بصفات البشر ، وخرجنا مما وقع فيه المعطّلة الذين أنكروا أن يكون لله تعالى هذه الصفات وأوّلوها على غير حقيقتها .

وكذلك فى الخلق الاجتماعى العام ، يلفتنا المنهج القرآنى فى قوله تعالى : ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ(١٠٥)﴾ [يوسف]

يلفتنا إلى ما فى الكون من عجائب نغفل عنها ، ونُعرِض عن تدبُّرها والانتفاع بها ، ولو نظرنا إلى هذه الآيات بعين المتأمل لوجدنا فيها منافع شتى منها : أنها تُذكّرنا بعظمة الخالق سبحانه ، ثم هى بعد ذلك ستفتح لنا الباب الذى يُثرى حياتنا ، ويُوفّر لنا ترف الحياة ومتعتها .

فالحق سبحانه أعطانا مُقوّمات الحياة ، وضمن لنا برحمته ضروريات البقاء ، فمَنْ أراد الكماليات فعليه أنْ يُعمِل عقله فيما أعطاه الله ليصل إلى ما يريد .

والأمثلة كثيرة على مشاهدات متأملة فى ظواهر الكون ، اهتدى بها أصحابها إلى اكتشافات واختراعات خدمت البشرية ، وسَهَّلَتْ عليها كثيراً من المعاناة .

فالذى اخترع العجلة فى نقل الأثقال بنى فكرتها على ثِقل وجده

يتحرك بسهولة إذا وُضع تحته شىء قابل للدوران ، فتوصل إلى استخدام العجلات التى مكَّنَته من نقل أضعاف ما كان يحمله .

والذى أدخل العالم عصر البخار استنبط فكرة البخار ، وأنه يمكن أن يكون قوةً مُحرِّكة عندما شاهد القدْر وهو يغلى ، ولاحظ أن غطاءه يرتفع إلى أعلى ، فاهتدى إلى استخدام البخار فى تسيير القطارات والعربات .

والعالِم الذى اكتشف دواء « البنسلين » اهتدى إليه عندما شاهد طبقة خضراء نسميها « الريم » تتكون فى أماكن استخدام الماء ، وكان يشتكى عينه ، فعندما وصلت هذه المادة إلى عينه ربما مصادفةً ، لاحظ أن عينه قد برئتْ ، فبحث فى هذه المسألة حتى توصّل إلى هذا الدواء .

إلى غير ذلك من الآيات والعجائب فى كون الله ، التى يغفل عنها الخَلْق ، ويمرُّون عليها وهم معرضون .

أما هؤلاء العلماء الذين أثروا حياة البشرية بنظرتهم الثاقبة ، فقد استخدموا عقولهم فى المادة التى خلقها الله ، ولم يأتوا بشىء من عند أنفسهم ؛ لأن الحق سبحانه حينما استخلف الإنسان فى الأرض أعدَّ له كُلَّ متطلبات حياته ، وضمن له فى الكون جنوداً إنْ أعمل عقله وطاقته يستطيع أن يستفيد منها ، وبعد ذلك طلب منه أن يعمر الأرض : ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا .. (٦١)﴾ [هود]

والاستعمار أنْ تجعلها عامرة ، وهذا الإعمار يحتاج إلى مجهود ، وإلى مواهب متعددة تتكاتف ، فلا تستقيم الأمور إنْ كان هذا يبنى

وهذا يهدم ، إذن : لابد أن تُنظّم حركة الحياة تنظيماً يجعل المواهب فى الكون تتساند ولا تتعاند ، وتتعاضد ولا تتعارض .

ولا يضمن لنا هذا التنظيم إلا منهج من السماء ينزل بالتى هى أقوم ، وأحكم ، وأعدل ، كما قال تعالى فى آية أخرى : ﴿ اللَّهُ الَّذِى أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ .. (١٧) ﴾ [الشورى]

وإنْ كان الحق سبحانه وتعالى قد دعانا إلى النظر فى ظواهر الكون ، والتدبُّر فى آيات الله فى كونه ، والبحث فيها لنصل إلى أسرار ما غُيّب عنا ، فإنه سبحانه نهانا أن نفعل هذا مع بعضنا البعض ، فقد حرَّم علينا التجسُّس وتتبُّع العورات ، والبحث فى أسرار الآخرين وغَيْبهم .

وفى هذا الأدب الإلهى رحمة بالخلق جميعاً ؛ لأن الله تعالى يريد أن يُثرى حياة الناس فى الكون ، وهَبْ أن إنساناً له حسنات كثيرة ، وعنده مواهب متعددة ، ولكن له سيئة واحدة لا يستطيع التخلّى عنها ، فلو تتبعتَ هذه السيئة الواحدة فربما أزهدتْك فى كل حسناته ، وحرمتْك الانتفاع به ، والاستفادة من مواهبه ، أما لو تغاضيت عن هذه السيئة فيه لأمكنك الانتفاع به .

وهَبْ أن صانعاً بارعاً فى صنعته وقد احتجْتَه ليؤدىَ لك عملاً ، فإذا عرفت عنه ارتكاب معصية ما ، أو اشتهر عنه سيئة ما لأزهدك هذا فى صَنْعته ومهارته ، ولرغبت عنه إلى غيره ، وإنْ كان أقلّ منه مهارة .

وهذا قانون عام للحق سبحانه وتعالى ، فالذى نهاك عن تتبُّع

غيب الناس ، والبحث عن أسرارهم نهاهم أيضاً عن تتبُّع غَيْبك والبحث عن أسرارك ؛ ولذلك ما أنعم الله على عبيده نعمةً أعظمَ من حِفْظ الغيب عنده هو ؛ لأنه ربّ ، أما البشر فليس فيهم ربوبية ، أمر البشر قائم على العبودية ، فإذا انكشف لأحدهم غَيْبُ أخيه أو عيبٌ من عيوبه أذاعه وفضحه به .

إذن : فالحق تبارك وتعالى يدعونا إلى أن نكون طُلَعة[1] فى استنباط أسرار الكون والبحث عن غيبه ، وفى الوقت نفسه ينهانا أن نكون طُلَعة فى تتبّع أسرار الناس والبحث عن غيبهم ؛ لأنك إنْ تتبعتَ غيب الناس والتمسْتَ عيوبهم حرمْتَ نفسك من مصادر يمكن أنْ تنتفع بها .

فالحق سبحانه يريد فى الكون حركة متبادلة ، وهذه الحركة المتبادلة لا تنشأ إلا بوجود نوع من التنافس الشريف البنّاء ، التنافس الذى يُثرى الحياة ، ولا يثير شراسة الاحتكاك ، كما قال تعالى : ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ (٢٦)﴾ [المطففين]

كما يتنافس طالب العلم مع زميله المجدّ ليكون مثْله أو أفضل منه ، وكأن الحق سبحانه يعطينا حافزاً للعمل والرُّقى ، فالتنافس المقصود ليس تنافس الغلِّ والحقد والكراهية ، بل تنافس مَنْ يحب للناس ما يحب لنفسه ، تنافس مَنْ لا يشمت لفشل الآخرين .

وقد يجد الإنسان هذا الحافز للمنافسة حتى فى عدوه ، ونحن

---

(١) الطلعة : كثرة التطلع إلى الشىء . ومنها نفس طلعة : كثيرة الميل إلى هواها تشتهيه حتى تهلك صاحبها . [لسان العرب ـ مادة : طلع] .

نرى الكثير منا يغضب وتُثَار حفيظته إنْ كان له عدو ، ويراه مصدر شرٍّ وأذى ، ويتوقع منه المكروه باستمرار.

وهو مع ذلك لو استغل حكمة الله فى إيجاد هذا العدو لانتفع به انتفاعاً لا يجده فى الصديق ، لأن صديقك قد يُنافقك أو يُداهنك أو يخدعك .

أما عدوك فهو لك بالمرصاد ، يتتبع سقطاتك ، ويبحث عن عيوبك ، وينتظر منك كَبْوة ليذيعها ويُسمّع بك ، فيحملك هذا من عدوك على الاستقامة والبعد عما يشين .

ومن ناحية أخرى تخاف أن يسبقك إلى الخير ، فتجتهد أنت فى الخير حتى لا يسبقك إليه .

وما أجمل ما قاله الشاعر فى هذا المعنى :

عِدَاىَ لَهُمْ فَضْلٌ علىَّ ومِنَّةٌ ... فَلاَ أبعَدَ الرحْمَنُ عَنّى الأعَادِياَ
هُمُو بحثُوا عَنْ زَلّتى فَاجْتنبْتُها ... وهُمْ نَافَسُونى فاكْتَسبْتُ المعَالِيا

وهكذا نجد لكل شىء فى منهج الله فائدة ، حتى فى الأعداء ، ونجد فى هذا التنافس المثمر الذى يُثرى حركة الحياة دليلاً على أن منهج السماء هو الأقوم والأنسب لتنظيم حركة الحياة .

أيضاً لكى يعيش المجتمع آمناً سالماً لا بُدّ له من قانون يحفظ توازنه ، قانون يحمى الضعيف من بطش القوى ، فجاء منهج الله تعالى ليُقنّن لكل جريمة عقوبتها ، ويضمن لصاحب الحق حَقّه ، وبعد ذلك ترك الباب مفتوحاً للعفو والتسامح بين الناس .

ثم حذَّر القوى أنْ تُطغيه قوته ، وتدعوه إلى ظلم الضعيف ، وذكّره أن قوته ليست ذاتية فيه ، بل هى عَرَضٌ سوف يزول ، وسوف تتبدل قوته فى يوم ما إلى ضَعْف يحتاج معه إلى العون والمساعدة والحماية .

وكأن الحق تبارك وتعالى يقول لنا : أنا أحمى الضعيف من قوتك الآن ، لأحمى ضعفك من قوة غيرك غداً .

أليس فى هذا كله ما هو أقوم ؟

ونقف على جانب آخر من جوانب هذه القوامة لمنهج الله فى مجال الإنفاق ، وتصرُّف المرء فى ماله ، والمتأمل فى هذا المنهج الأقوم يجده يختار لنا طريقاً وسطاً قاصداً لا تبذيرَ فيه ولا تقتير[1].

ولا شك أن الإنسان بطبعه يُحب أن يُثرى حياته ، وأن يرتقى بها ، ويتمتع بترفها ، ولا يُتاح له ذلك إنْ كان مُبذِّراً لا يُبقِى من دخله على شىء ، بل لا بُدّ له من الاعتدال فى الإنفاق حتى يجد فى جعبته ما يمكنه أن يُثرى حياته ويرتقى بها ويُوفّر لأسرته كماليات الحياة ، فضلاً عن ضرورياتها .

جاء هذا المنهج الأقوم فى قول الحق تبارك وتعالى : ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا (٦٧)﴾ [الفرقان]

وفى قوله تعالى : ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا (٢٩)﴾ [الإسراء]

---

(١) قتر على عياله : ضيق عليهم فى النفقة . والإقتار : التضييق على الإنسان فى الرزق . [لسان العرب ـ مادة : قتر] .

فللإنسان فى حياته طموحات تتتابع ولا تنتهى ، خاصة فى عصر كثُرت فيه المغريات ، فإنْ وصل إلى هدف تطلع لما هو أكبر منه ، فعليه إذن ألاَّ يُبدّد كل طاقته ، وينفق جميع دَخْله .

وكما نهى الإسلام عن التبذير نهى أيضاً عن البُخْل والإمساك ؛ لأن البخل مذموم ، والبخيل مكروه من أهله وأولاده ، كما أن البُخْل سبب من أسباب الركود والبطالة والكساد التى تصيب المجتمع ، فالممسك لا يتعامل مع المجتمع فى حركة البيع والشراء ، فيسهم ببُخْله فى تفاقم هذه المشاكل ، ويكون عنصراً خاملاً يَشْقى به مجتمعه .

إذنْ : فالتبذير والإمساك كلاهما طرف مذموم ، والخير فى أوسط الأمور ، وهذا هو الأقوم الذى ارتضاه لنا المنهج الإلهى .

وكذلك فى مجال المأكل والمشرب ، يرسم لنا الطريق المعتدل الذى يحفظ للمرء سلامته وصحته ، ويحميه من أمراض الطعام والتُّخْمة ، قال تعالى : ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (٣١)﴾ [الأعراف]

فقد علَّمنا الإسلام أن الإنسان إذا أكل وشرب على قَدْر طاقة الوقود الذى يحتاجه جسمه لا يشتكى ما يشتكيه أصحاب الإسراف فى المأكل والمشرب .

والمتأمل فى حال هؤلاء الذين يأكلون كلّ مَا لَذَّ وطاب ، ولا يَحْرمون أنفسهم مما تشتهيه ، حتى وإن كان ضاراً ، نرى هؤلاء عند كِبَرهم وتقدُّم السِّنِّ بهم يُحْرمون بأمر الطبيب من تناول هذه

الملذّات ، فترى فى بيوت الأعيان الخادم يأكل أطيب الطعام ويتمتع بخير سيده ، فى حين يأكل سيده أنواعاً محددة لا يتجاوزها ، ونقول له :

لأنك أكلتها وأسرفتَ فيها فى بداية الأمر ، فلا بُدَّ أنْ تُحرَم منها الآن .

وصدق رسول الله ﷺ حين قال : « كُلُوا واشربوا وتصدقوا ، والبسوا فى غير إسراف ولا مخيلة»[1]

وأيضاً من أسباب السلامة التى رسمها لنا المنهج القرآنى ، ألاَّ يأكل الإنسان إلا على جوع ، فالطعام على الطعام يرهق المعدة ، ويجرُّ على صاحبه العطب والأمراض ، ونلاحظ أن الإنسان يجد لذة الطعام وحلاوته إذا أكل بعد جوع ، فمع الجوع يستطيب كل شىء ولو كان الخبز الجاف .

وهكذا نجد المنهج الإلهى يرسم لنا الطريق الأقوم الذى يضمن لنا سلامة الحياة واستقامتها ، فلو تدبرْتَ هذا المنهج لوجدته فى أىِّ جانب من جوانب الحياة هو الأقوم والأنسب .

فى العقائد ، فى العبادات ، فى الأخلاق الاجتماعية العامة ، فى العادات والمعاملات ، إنه منهج ينتظم الحياة كلها ، كما قال الحق سبحانه : ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ﴿٣٨﴾﴾ [الأنعام]

هذا المنهج الإلهى هو أقْوم المناهج وأصلحها ؛ لأنه منهج الخالق سبحانه الذى يعلم مَنْ خلق ، ويعلم مَا يصلحهم ، كما قلنا سابقاً :

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٢/١٨١ ، ١٨٢) ، وابن ماجه فى سننه (٣٦٠٥) والنسائى فى سننه (٥/٧٩) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما .

إن الصانع من البشر يعلم صَنْعته ، ويضع لها من تعليمات التشغيل والصيانة ما يضمن لها سلامة الأداء وأمن الاستعمال .

فإذا ما استعملْتَ الآلة حَسْب قانون صانعها أدَّتْ مهمتها بدقة ، وسلِمتْ من الأعطال ، فالذى خلق الإنسان أعلم بقانون صيانته ، فيقول له : افعل كذا ولا تفعل كذا : ﴿أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤)﴾ [الملك]

فآفة الناس فى الدنيا أنهم وهم صَنْعة الحق سبحانه يتركون قانونه ، ويأخذون قانون صيانتهم من أمثالهم ، وهى قوانين وضعية قاصرة لا تسمو بحال من الأحوال إلى قانون الحق سبحانه ، بل لا وَجْهَ للمقارنة بينهما . إذن : لا تستقيم الحياة إلا بمنهج الله عز وجل.

ثم يقول تعالى : ﴿وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا (٩)﴾ [الإسراء]

فالمنفذ لهذا المنهج الإلهى يتمتع باستقامة الحياة وسلامتها ، وينعم بالأمن الإيمانى ، وهذه نعمة فى الدنيا ، وإنْ كانت وحدها لكانت كافية ، لكن الحق سبحانه وتعالى يُبشِّرنا بما هو أعظم منها ، وبما ينتظرنا من نعيم الآخرة وجزائها ، فجمع لنا ربنا تبارك وتعالى نَعيمَىْ الدنيا والآخرة .

نعيم الدنيا لأنك سِرْتَ فيها على منهج معتدل ونظام دقيق ، يضمن لك فيها الاستقامة والسلامة والتعايش الآمن مع الخَلْق .

ومن ذلك قول الحق سبحانه : ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨)﴾ [البقرة]

وقوله تعالى فى آية أخرى : ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَىٰ (١٢٣)﴾ [طه]

ويقول تعالى : ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٧)﴾ [النحل]

وفى الجانب المقابل يقول الحق سبحانه : ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا[1] وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ (١٢٦)﴾ [طه]

فكما أن الحق تبارك وتعالى جمع لعباده الصالحين السائرين على منهجه خيرى الدنيا والآخرة ، ففى المقابل جمع لأعدائه المعرضين عن منهجه عذاب الدنيا وعذاب الآخرة ، لا ظُلْماً منه ، فهو سبحانه مُنزَّه عن الظلم والجَوْر ، بل عَدْلاً وقِسطاً بما نَسُوا آيات الله وانصرفوا عنها .

ومعنى : ﴿يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ ..(٩)﴾ [الإسراء]

وعمل الصالحات يكون بأن تزيد الصالح صلاحاً ، أو على الأقل تُبقِى الصالح على صلاحه ، ولا تتدخل فيه بما يُفسده .

وقوله : ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا (٩)﴾ [الإسراء]

نلاحظ هنا أن الحق سبحانه وصف الأجر بأنه كبير ، ولم يَأْتِ

---

(١) الضنك : الضيق من كل شىء . والمعيشة الضنك : الضيقة غير المتسعة . [القاموس القويم ١/٣٩٥] .

بصيغة أفعل التفضيل منها (أكبر) ، فنقول : لأن كبير هنا أبلغ من أكبر ، فكبير مقابلها صغير ، فَوَصْف الأجر بأنه كبير يدل على أن غيره أصغر منه ، وفى هذا دلالة على عِظَم الأجر من الله تعالى .

أما لو قال : أكبر فغيره كبير ، إذن : فاختيار القرآن أبلغ وأحكم .

كما قلنا سابقاً : إن من أسماء الحق تبارك وتعالى (الكبير) ، وليس من أسمائه أكبر ، إنما هى وَصْف له سبحانه . ذلك لأن (الكبير) كل ما عداه صغير ، أما (أكبر) فيقابلها كبير .

ومن هنا كان نداء الصلاة (الله أكبر) معناه أن الصلاة وفَرْض الله علينا أكبر من أىّ عمل دنيوىّ ، وهذا يعنى أن من أعمال الدنيا ما هو كبير ، كبير من حيث هو مُعين على الآخرة .

فعبادة الله تحتاج إلى طعام وشراب وإلى مَلْبس ، والمتأمل فى هذه القضية يجد أن حركة الحياة كلها تخدم عمل الآخرة ، ومن هنا كان عمل الدنيا كبيراً ، لكن فَرْض الله أكبر من كل كبير .

ولأهمية العمل الدنيوى فى حياة المسلم يقول تعالى عن صلاة الجمعة : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِى الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [الجمعة]

والمتأمل فى هذه الآيات يجد الحق تبارك وتعالى أمرنا قبل الجمعة أن نترك البيع ، واختار البيع دون غيره من الأعمال ؛ لأنه الصفقة السريعة الربح ، وهى أيضاً الصورة النهائية لمعظم الأعمال ،

كما أن البائع يحب دائماً البيع ، ويحرص عليه ، بخلاف المشترى الذى ربما يشترى وهو كاره ، فتجده غير حريص على الشراء ؛ لأنه إذا لم يشْتَرِ اليوم سيشترى غداً .

إذن : فالحق سبحانه حينما يأمرنا بترك البيع ، فتَرْك غيره من الأعمال أوْلَى .

فإذا ما قُضِيَت الصلاة أمرنا بالعودة إلى العمل والسعى فى مناكب الأرض ، فأخرجنا للقائه سبحانه فى بيته من عمل ، وأمرنا بعد الصلاة بالعمل .

إذن : فالعمل وحركة الحياة (كبير) ، ولكن نداء ربك (أكبر) من حركة الحياة ؛ لأن نداء ربك هو الذى سيمنحك القوة والطاقة ، ويعطيك الشحنة الإيمانية ، فتُقبِل على عملك بهِمّة وإخلاص .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾﴾

وهذه الآية امتداد للآية السابقة ، ومعطوفة عليها ؛ لأن الله تعالى ذكر فعلاً واحداً : ﴿وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ..﴿٩﴾﴾ [الإسراء]

ثم عطف عليه : ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ.. ﴿١٠﴾﴾ [الإسراء]

إذن : فالآية داخلة فى البشارة السابقة ، ولكن كيف ذلك ، والبشارة السابقة تُبشّر المؤمنين بأن لهم أجراً كبيراً ، والبشارة إخبار بخيْر يأتى فى المستقبل ، فكيف تكون البشارة بالعذاب ؟ .

قالوا : نعم ، هذه بشارة على سبيل التهكُّم والاستهزاء بهم ، كما

قال تعالى فى آية أخرى : ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤)﴾ [التوبة]

وكما قال الحق سبحانه متهكماً : ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ[1] الْكَرِيمُ (٤٩)﴾ [الدخان]

وكما تقول للولد الذى أهمل فأخفق فى الامتحان : مبروك عليك الفشل ، أو تقول : بشِّر فلاناً بالرسوب .

وقد تكون البشارة للمؤمن بالجنة ، وللكافر بالعذاب ، كلاهما بشارة للمؤمن ، فبشارة المؤمن بالجنة تسرُّه وتُسعده ، وتجعله يستشرف ما ينتظره من نعيم الله فى الآخرة .

وبشارة الكافر بالعذاب تسرُّ المؤمن ؛ لأنه لم يقع فى مصيدة الكفر ، وتزجر مَنْ لم يقع فيه وتُخيفه ، وهذا رحمة به وإحسان إليه .

وهذا المعنى واضح فى قول الحق سبحانه فى سورة الرحمن :

﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ (١٧) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٨) مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (١٩) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَّ يَبْغِيَانِ (٢٠) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢١) يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ (٢٢) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٣) وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ (٢٤) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٥)﴾ [الرحمن]

فهذه كلها نِعَم من نعَم الله تعالى علينا ، فناسب أن تُذيَّل بقوله

---

(١) رجل عزيز : منيع لا يُغلب ولا يُقهر . ومعنى قوله تعالى : ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (٤٩)﴾ [الدخان] . أى : ذُق بما كنت تُعَدّ فى أهل العز والكرم . [لسان العرب ـ مادة: عزز] .

تعالى : ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾ ﴾ [الرحمن]

أما قوله تعالى : ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ[1] مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الرحمن]

فأيُّ نعمة فى أنْ يُرسل الله عليهما شواظ من نار ونحاس فلا ينتصران ؟

نعم ، المتأمل فى هذه الآية يجد فيها نعمة من أعظم نِعَم الله ، ألا وهى زَجْر العاصى عن المعصية ، ومسرّة للطائع .

ثم يقول الحق سبحانه عن طبيعة الإنسان البشرية :

﴿ وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا ﴿١١﴾ ﴾

(يَدْعُ) الدعاء : طلَب ما تعجز عنه من قادر عليه .

وأهل النحو يقولون . إن الفعل : ماضٍ ومضارع وأمر . فالأمر : طَلَبٌ من الأعلى إلى الأدنى ، فكلّ طلب من الله لخلْقه فهو أمر ، أو من الأعلى من البشر للأدنى . أما إنْ كان الطلب من مُسَاوٍ لك فهو التماس أو رجاء . فإنْ كان الطلب من الأدنى للأعلى ، كطلبِ العبد من ربه فهو دعاء .

لذلك نجد التدقيق فى الإعراب يحفظ لله تعالى مكانته ويُعظّمه ، فنقول للطالب : أعرب : رب اغفر لى ، فيقول : اغفر ، فعْل دالّ على الدعاء ، لأنه لا يجوز فى حَقِّ المولَى تبارك وتعالى أن نقول : فعل أمر ، فالله لا يأمره أحد .

---

(١) الشواظ : القطعة من اللهب ليس فيها دخان . [القاموس القويم ١/٣٦١] .

فأوَّل ما يُفهم من الدعاء أنه دَلَّ على صفة العجز والضعف فى العبد ، وأنه قد اندكتْ فيه ثورة الغرور ، فعلِم أنه لا يقدر على هذا إلا الله فتوجّه إليه بالدعاء .

(بِالشَّرِّ) بالمكروه ، والإنسان لا يدعو على نفسه ، أو على ولده ، أو على ماله بالشر إلا فى حالة الحنَق والغضب وضيق الأخلاق ، الذى يُخرِج الإنسان عن طبيعته ، ويُفقِده التمييز ، فيتسرّع فى الدعاء بالشر ، ويتمنى أن يُنفّذ الله له مَا دعا به .

ومن رحمة الله تعالى بعباده ألاَّ يستجيب لهم هذا الدعاء الذى إنْ دلَّ فإنما يدلّ على حُمْق وغباء فى العبد .

وكثيراً ما نسمع أماً تدعو على ولدها بما لو استجاب الله له لكانت قاصمة الظهر لها ، أو نسمع أباً يدعو على ولده أو على ماله ، إذن : فمن رحمة الله بنا أنْ يفوت لنا هذا الحمق ، ولا يُنفّذ لنا ما تعجّلناه من دُعاءٍ بالشر .

قال تعالى : ﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ (١١) ﴾ [يونس]

أى : لو استجاب الله لهم فى دعائهم بالشر لكانت نهايتهم .

وإن كنت تُسَرّ وتسعد بأن ربك سبحانه وتعالى فوّتَ لك دعوة بالشر فلم يَسْتجب لها ، وأن لعدم استجابته سبحانه حكمةً بالغةً .

فاعلم أن لله حكمة أيضاً حينما لا يستجيب لك فى دعوة الخير ، فلا تقُلْ : دعوتُ فلم يستجِبْ لى ، واعلم أن لله حكمة فى أن يمنعك

خيراً تُريده ، ولعله لو أعطاك هذا الخير لكاَن وبالاً عليك .

إذن : عليك أن تقيسَ الأمـريْن بمقياس واحـد ، وترضى بأمر الله فى دعائك بالخيـر ، كما رضيت بأمره حين صـرف عنك دعاء الشر ، ولم يسـتجب لك فـيه . فكمـا أن له سبـحانه حكمـة فى الأولى ، فلَه حكمة فى الثانية .

وقد دعـا الكفار على عهد رسـول الله ﷺ على أنفسهم ، فـقالوا : ﴿ اللَّهُمَّ إِن كَـانَ هَـٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَـأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِـجَـارَةً مِّنَ السَّمَاءِ . . (٣٢) ﴾ [الأنفال]

وقالوا : ﴿ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا[1] . . (٩٢) ﴾ [الإسراء]

ولو استـجاب الله لهم هذا الدعـاء لَقَضى عليـهم ، وقطع دابرهم ، لكن لله تعالى حـكمة فى تفويت هذا الدعـاء لهؤلاء الحَـمْقى ، وها هم الكفار باقون حتى اليوم ، وإلى أن تقوم الساعة .

وكـان المنتظر منهم أن يقـولوا : اللهم إنْ كـان هذا هو الحقّ من عندك فاهْدنا إليه ، لكن المسألة عندهم ليست مسألة كفر وإيمان ، بل مسألة كراهية لمحـمد ﷺ ، ولما جاء به ، بدليل أنهم قَبلوا الموت فى سبيل الكفر وعدم الإيمان برسالة محمد ﷺ .

ومن طبيـعة الإنسان العـجلة والتسـرُّع ، كما قـال تعالى : ﴿ خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلا تَسْتَعْجِلُونِ (٣٧) ﴾ [الأنبياء]

---

(١) الكسفة : القطعة . وكِسْف السحاب وكسفه : قِطعه . [لسان العرب ـ مادة : كسف] .

فكثيراً ما يدعو الإنسان بالخير لنفسه أو بما يراه خيراً ، فلا يجد وراءه إلا الشر والتعب والشقاء ، وفى المقابل قد يُنزل الله بك ما تظنه شراً ، ويسوق الله لك الخير من خلاله .

إذن : أنت لا تعلم وَجْه الخير على حقيقته ، فدع الأمر لربك عز وجل ، واجعل حظك من دعائك لا أنْ تُجابَ إلى ما دعوت ، ولكن أن تظهر ضراعة عبوديتك لعزّة ربك سبحانه وتعالى .

ومعنى : ﴿ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ .. (١١) ﴾ [الإسراء]

أى : أن الإنسان يدعو بالشر فى إلحاح ، وكأنه يدعو بخير .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا (١٢) ﴾ (١)

الحق سبحانه وتعالى جعل الزمن ليلاً ونهاراً ظرفاً للأحداث ، وجعل لكل منهما مهمة لا تتأتّى مع الآخر ، فهما متقابلان لا متضادان ، فليس الليل ضد النهار أو النهار ضد الليل ؛ لأن لكل منهما مهمة ، والتقابل يجعلهما متكاملين .

ولذلك أراد الله تعالى أن يُنظِّر بالليل والنهار فى جنس الإنسان

---

(١) محونا : طمسنا . وقال على بن أبى طالب وقتادة : يريد بالمحو اللطخة السوداء التى فى القمر ، ليكون ضوء القمر أقل من ضوء الشمس فيتميز به الليل من النهار . [تفسير القرطبى ٥/٣٩٥٦] .

من الذكورة والأنوثة ، فهما أيضاً متكاملان لا متضادان ، حتى لا تقوم عداوة بين ذكورة وأنوثة ، كما نرى البعض من الجنسين يتعصَّب لجنسه تعصُّباً أعمى خالياً من فَهْم طبيعة العلاقة بين الذكر والأنثى .

فالليل والنهار كجنس واحد لهما مهمة ، أما من حيث النوع فلكل منهما مهمة خاصة به ، وإياك أن تخلط بين هذه وهذه .

تأمل قول الحق سبحانه : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ① وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ② وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ ③ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ④ ﴾ [الليل]

فلا تجعل الليل ضداً للنهار ، ولا النهار ضداً لليل ، وكذلك لا تجعل الذكورة ضداً للأنوثة ، ولا الأنوثة ضداً للذكورة .

قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ .. ⑫ ﴾ [الإسراء]

جعلنا : بمعنى خلقنا ، والليل والنهار هما المعروفان لنا بالمعايشة والمشاهدة ، ومعرفتنا هذه أوضح من أنْ نعرِّفهما ، فنقول مثلاً : الليل هو مَغيب الشمس عن نصف الكرة الأرضية ، والنهار هو شروق الشمس على نصف الكرة الأرضية .

إذن : قد يكون الشيء أوضح من تعريفه .

والحق سبحانه خلق لنا الليل والنهار ، وجعل لكل منهما حكمة ومهمة ، وحينما يتحدّث عنهما ، يقول تعالى : ﴿ وَالضُّحَىٰ ① وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ② ﴾ [الضحى] فبدأ بالضحى .

ويقول : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ① وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ② ﴾ [الليل] فبدأ بالليل .

ومرة يتحدث عن اللازم لهما ، فيقول : ﴿ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ① ﴾ [الأنعام]

لأن الحكمة من الليل تكمن فى ظُلْمته ، والحكمة من النهار تكمُن فى نوره ، فالظُّلْمة سكَنٌ واستقرار وراحة . وفى الليل تهدأ الأعصاب من الأشعة والضوء ، ويأخذ البدن راحته ؛ لذلك قال ﷺ : « أطفئوا المصابيح إذا رقدتم »(١) .

فى حين نرى الكثيرين يظنون أن الأضواء المبهرة ـ التى نراها الآن ـ مظهر حضارى ، وهم غافلون عن الحكمة من الليل ، وهى ظلمته .

والنور للحركة والعمل والسَّعْى ، فمَن ارتاح فى الليل يُصبح نشيطاً للعمل ، ولا يعمل الإنسان إلا إذا أخذ طاقة جديدة ، وارتاحت أعضاؤه ، ساعتها تستطيع أن تطلب منه أن يعمل .

لذلك قال الحق سبحانه : ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ..(٧٣)﴾ [القصص]

لماذا ؟ ﴿لِتَسْكُنُوا فِيهِ .. (٧٣)﴾ [القصص] أى : فى الليل .

﴿وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ .. (٧٣)﴾ [القصص] أى : فى النهار .

إذن : لليل مهمة ، وللنهار مهمة ، وإياك أنْ تخلط هذه بهذه ، وإذا ما وُجد عمل لا يُؤدَّى إلا بالليل كالحراسة مثلاً ، نجد الحق

---

(١) أخرج البخارى فى صحيحه (٣٢٨٠) من حديث جابر بن عبد الله عن النبى ﷺ قال : « إذا استجنح الليل ـ أو كان جنح الليل ـ فكفّوا صبيانكم ، فإن الشياطين تنتشر حينئذ ، فإذا ذهب ساعة من العشاء فخلوهم ، وأغلق بابك ، واذكر اسم الله ، وأطفىء مصباحك ، واذكر اسم الله ، وأوك سقاءك واذكر اسم الله ، وخمّر إناءك واذكر اسم الله ، ولو تعرض عليه شيئاً » .

سبحانه يفتح لنا باباً لنخرج من هذه القاعدة العامة .

فيقول تعالى : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ .. (٢٣)﴾ [الروم]

فجعل النهار أيضاً محلاً للنوم ، فأعطانا فُسْحة ورُخْصة ، ولكن فى أضيق نطاق ، فمَنْ لا يقومون بأعمالهم إلا فى الليل ، وهى نسبة ضئيلة لا تخرق القاعدة العامة التى ارتضاها الحق سبحانه لتنظيم حركة حياتنا .

فإذا خرج الإنسان عن هذه القاعدة ، وتمرَّد على هذا النظام الإلهى ، فإن الحق سبحانه يَردعه بما يكبح جماحه ، ويحميه من إسرافه على نفسه ، وهذا من لُطْفه تعالى ورحمته بخَلْقه .

هذا الردْع إما رَدْع ذاتىّ اختيارى ، وإما رَدْع قَهْرىّ ، الردع الذاتى يحدث للإنسان حينما يسعى فى حركة الحياة ويعمل ، فيحتاج إلى طاقة ، هذه الطاقة تحتاج إلى دم متدفق يجرى فى أعضائه ، فإنْ زادتْ الحركة عن طاقة الإنسان يلهث وتتلاحق أنفاسه ، وتبدو عليه أمارات التعب والإرهاق ، لأن الدم المتوارد إلى رئته لا يكفى هذه الحركة .

وهذا نلاحظه مثلاً فى صعود السُّلَّم ، حيث حركة الصعود مناقضة لجاذبية الأرض لك ، فتحتاج إلى قوة أكثر ، وإلى دم أكثر وتنفس فوق التنفس العادى .

فكأن الحق سبحانه وتعالى جعل التعب والميل إلى الراحة رادعاً ذاتياً فى الإنسان ، إذا ما تجاوز حَدّ الطاقة التى جعلها الله فيه .

أما الردْع القهرى فهو النوم ، يلقيه الله على الإنسان إذا ما كابر وغالط نفسه ، وظن أنه قادر على مزيد من العمل دون راحة ، فهنا يأتى دور الرادع القَسْرى ، فينام رغماً عنه ولا يستطيع المقاومة ، وكأن الطبيعة التى خلقها الله فيه تقول له : ارحم نفسك ، فإنك لم تَعُدْ صالحاً للعمل .

فالحق تبارك وتعالى لا يُسلِم الإنسان لاختياره ، بل يُلقِى عليه النوم وفقدان الوعى والحركة ليحميه من حماقته وإسرافه على نفسه .

لذلك نرى الواحد منّا إذا ما تعرّض لمناسبة اضطرته لعدم النوم لمدة يومين مثلاً ، لا بُدَّ له بعد أن ينتهى من مهمته هذه أنْ ينَام مثل هذه المدة التى سهرها ؛ ليأخذ الجسم حَقَّه من الراحة التى حُرم منها .

وقوله تعالى : ﴿آيَتَيْنِ .. (١٢)﴾ [الإسراء]

قلنا : إن الآية هى الشىء العجيب الذى يدعو إلى التأمل ، ويُظهِر قدرة الخالق وعظمته سبحانه ، والآية تُطلَق على ثلاثة أشياء :

– تُطلَق على الآيات الكونية التى خلقها الله فى كونه وأبدعها ، وهذه الآيات الكونية يلتقى بها المؤمن والكافر ، ومنها كما قال تعالى :

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ..(٣٧)﴾ [فصلت]

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ (٣٢)﴾ [الشورى]

وهذه الآيات تلفتنا إلى قدرة الخالق سبحانه وتعالى .

- وتُطلق الآيات على المعجزات التى تصاحب الرسل ، وتكون دليلاً على صدْقهم ، فكل رسول يُبعَث ليحمل رسالة الخالق لهداية الخَلْق ، لا بُدَّ أن يأتى بدليل على صِدْقه وأمارة على أنه رسول .

وهذه هى المعجزة ، وتكون مما نبغ فيه قومه ومهروا ؛ لتكون أوضح فى إعجازهم وأدْعَى إلى تصديقهم .

قال تعالى : ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ .. (٥٩) ﴾ [الإسراء]

- وتُطلق الآيات على آيات القرآن الكريم الحاملة للأحكام .

إذن : هذه أنواع ثلاثة ، فى كل منها عجائب تدعوك للتأمل ، ففى **الأولى** : هندسة الكون ونظامه العجيب البديع الدقيق ، وفى **الثانية** : آيات الإعجاز ، حيث أتى بشىء نبغ فيه القوم ، ومع ذلك لم يستطيعوا الإتيان بمثله ، وفى **الثالثة** : آيات القرآن وحاملة الأحكام ؛ لأنها أقوم نظام لحركة الحياة .

فقول الحق سبحانه : ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ .. (١٢) ﴾ [الإسراء]

أى : كونيتين ، ولا مانع أنْ تفسر الآياتُ الكونية آيات القرآن .

وقوله : ﴿ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ .. (١٢) ﴾ [الإسراء]

أى : بعد أنْ كان الضوء غابت الشمس فَحَلَّ الظلام ، أو مَحوْناهَا : أى جعلناها هكذا ، كما قلنا : سبحان مَنْ بيَّض اللبن . أى خلقه هكذا ، فيكون المراد : خلق الليل هكذا مظلماً .

﴿ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً .. (١٢) ﴾ [الإسراء]

أى : خلقنا النهار مضيئاً ، ومعنى مبصرة أو مضيئة أى : نرى بها الأشياء ؛ لأن الأشياء لا تُرى فى الظلام ، فإذا حلَّ الضياء والنور رأيناها ، وعلى هذا كان ينبغى أن يقول : وجعلنا آية النهار مُبْصَراً فيها ، وليست هى مبصرة .

وهذه كما فى قوله تعالى فى قصة موسى وفرعون : ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً .. (١٣) ﴾ [النمل]

فنسب البصر إلى الآيات ، كما نسب البصر هنا إلى النهار .

وهذه مسألة حيَّرتْ الباحثين فى فلسفة الكون وظواهره ، فكانوا يظنون أنك ترى الأشياء إذا انتقل الشعاع من عينك إلى المرئى فتراه . إلى أن جاء العالم الإسلامى « ابن الهيثم » الذى نَوَّر الله بصيرته ، وهداه إلى سرِّ رؤية الأشياء ، فأوضح لهم ما وقعوا فيه من الخطأ ، فلو أن الشعاع ينتقل من العين إلى المرئى لأمكنك أن ترى الأشياء فى الظُّلمة إذا كنتَ فى الضوء .

إذن : الشعاع لا يأتى من العين ، بل من الشىء المرئى ؛ ولذلك نرى الأشياء إنْ كانت فى الضوء ، ولا نراها إنْ كانت فى الظلام .

وعليه يكون الشىء المرئىّ هو الذى يبصرك من حيث هو الذى يتضح لك ، ويساعدك على رؤيته ، ولذلك نقول : هذا شىء يُلفت النظر أى : يرسل إليك مَا يجعلك تلتفت إليه .

إذن : التعبير القرآنى : ﴿ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً .. (١٢) ﴾ [الإسراء] على مستوى عالٍ من الدقة والإعجاز ، وصدق الله تعالى حين قال : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ .. (٥٣) ﴾ [فصلت]

وقوله تعالى : ﴿لِّتَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ .. (١٢)﴾ [الإسراء]

وهذه هى العلة الأولى لآية الليل والنهار .

أى : أن السعى وطلب الرزق لا يكون إلا فى النهار ؛ لذلك أتى طلب فضل الله ورزقه بعد آية النهار ، ومعلوم أن الإنسان لا تكون له حركة نشاطية وإقبال على السَّعى والعمل إلا إذا كان مرتاحاً ولا تتوفر له الراحة إلا بنوم الليل .

وبهذا نجد فى الآية الكريمة نفس الترتيب الوارد فى قوله تعالى :

﴿وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ .. (٧٣)﴾ [القصص]

فالترتيب فى الآية يقتضى أن نقول : ﴿لِتَسْكُنُوا فِيهِ .. (٧٣)﴾ [القصص] أى : فى الليل ، ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ .. (٧٣)﴾ [القصص] أى : فى النهار ، وعمل النهار لا يتم إلا براحة الليل ، فهما ـ إذن ـ متكاملان .

والحق سبحانه وتعالى جعل النهار مَحلاً للحركة وابتغاء فضل الله ؛ لأن الحركة أمرٌ مادىّ وتفاعل مادىّ بين الإنسان ومادة الكون من حوله ، كالفلاح وتفاعله مع أرضه ، والعامل وتفاعله مع آلته .

هذا التفاعل المادى لا يتم إلا فى ضوء ؛ لأن الظلمة تغطى الأشياء وتُعمِّيها ، وهذا يتناسب مع الليل حيث ينام الناس ، أما فى السعى والحركة فلا بُدَّ من ضوء أتبين به الفاعل والمنفعل له ، ففى الظلمة قد تصطدم بما هو أقوى منك فيحطمك ، أو بما هو أضعف منك فتحطمه .

إذن : فأول خطوات ابتغاء فضل الله أن يتبيّن الإنسان المادة التى يتفاعل معها . لذلك ، فالحق سبحانه جعل الظلمة سابقة للضياء ، فقال تعالى : ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ .. (١)﴾ [الأنعام]

لأن النور محلٌّ للحركة ، ولا يمكن للإنسان أن يعمل إلا بعد راحة ، والراحة لا تكون إلا فى ظُلْمة الليل .

وقوله تعالى : ﴿وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ .. (١٢)﴾ [الإسراء]

وهذه هى العِلَّة الأخرى لليل والنهار ، حيث بمرورهما يتمّ حساب السنين .

وكلمة « عَدَدَ » تقتضى شيئاً له وحدات ، ونريد أن نعرف كمية هذه الوحدات ؛ لأن الشىء إنْ لم تكُنْ له كميات متكررة فهو واحد .

وقوله : ﴿السِّنِينَ وَالْحِسَابَ .. (١٢)﴾ [الإسراء]

لأنها من لوازم حركتنا فى الحياة ، فعن طريق حساب الأيام نستطيع تحديد وقت الزراعات المختلفة ، أو وقت سقوط المطر ، أو هبوب الرياح . وفى العبادات نحدد بها أيام الحج ، وشهر الصوم ، ووقت الصلاة ، ويوم الجمعة ، هذه وغيرها من لوازم حياتنا لا نعرفها إلا بمرور الليل والنهار .

ولو تأملتَ عظمة الخالق سبحانه لوجدتَ القمر فى الليل ، والشمس فى النهار ، ولكل منهما مهمة فى حساب الأيام والشهور والسنين ، فالشمس لا تعرف بها إلا اليوم الذى أنت فيه ، حيث يبدأ اليوم بشروقها وينتهى بغروبها ، أما بالقمر فتستطيع حساب الأيام والشهور ؛ لأن الخالق سبحانه جعل فيه علامة ذاتية يتم الحساب على

أساسها ، فهو فى أول الشهر هلال ، ثم يكبر فيصير إلى تربيع أول ، ثم إلى تربيع ثان ، ثم إلى بدر ، ثم يأخذ فى التناقص إلى أن يصل إلى المحاق آخر الشهر .

إذن : نستطيع أن نحدد اليوم بالشمس والشهور بالقمر ، ومن هنا تثبت مواقيت العبادة بالليل دون النهار ، فتثبت رؤية رمضان ليلاً أولاً ، ثم يثبت نهاراً ، فنقول : الليلة أول رمضان ، لذلك قال تعالى :

﴿هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ[1] لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ .. ﴿٥﴾﴾ [يونس]

فقوله : ﴿قَدَّرَهُ..﴿٥﴾﴾ [يونس] أى : القمر ؛ لأن به تتبين أوائل الشهور ، وهو أدقّ نظام حسابى يُعتمد عليه حتى الآن عند علماء الفلك وعلماء البحار وغيرهم .

و ﴿مَنَازِلَ..﴿٥﴾﴾ [يونس] هى البروج الاثنى عشر للقمر التى أقسم الله بها فى قوله تعالى : ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾﴾ [البروج]

ولأن حياة الخَلْق لا تقوم إلا بحساب الزمن ، فقد جعل الخالق سبحانه فى كَوْنه ضوابط تضبط لنا الزمن ، وهذه الضوابط لا تصلح لضبط الوقت إلا إذا كانت هى فى نفسها منضبطة ، فمثلاً أنت لا تستطيع أن تضبط مواعيدك على ساعتك إذا كانت غير منضبطة (تُقدّم أو تُؤخّر) .

لذلك يقول الخالق المبدع سبحانه عن ضوابط الوقت فى كَوْنه :

---

(١) أى : قدرنا له فى سيره أن ينزل فى أماكن محددة ، تجعله مرة هلالاً ، ومرة بدراً ، ومرة كالعرجون القديم فى إشرافه على المحاق آخر الشهر . [القاموس القويم ٢/ ٢٦٠] .

﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥)﴾ [الرحمن]

أى : بحساب دقيق لا يختلّ ، وطالما أن الخالق سبحانه خلقها بحساب فاجعلوها ضوابط لحساباتكم .

وقوله تعالى : ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً (١٢)﴾ [الإسراء]

معنى التفصيل أن تجعل بَيْناً بين شيئين ، وتقول : فصلْتُ شيئاً عن شىء ، فالحق سبحانه فصَّل لنا كل ما يحتاج إلى تفصيل ، حتى لا يلتبس علينا الأمر فى كل نواحى الحياة .

ومثال ذلك فى الوضوء مثلاً يقول سبحانه : ﴿يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ..(٦)﴾[المائدة]

فأطلق غَسْل الوجه ؛ لأنه لا يختلف عليه أحد ، وحدَّد الأيدى إلى المرافق ، لأن الأيدى يُختلف فى تحديدها ، فاليد قد تكون إلى الرُّسْغ ، أو إلى المرفق ، أو إلى الكتف ، لذلك حددها الله تعالى ، لأنه سبحانه يريدها على شكل مخصوص .

وكذلك فى قوله تعالى : ﴿وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ.. (٦)﴾ [المائدة]

فالرأس يناسبها المسْح لا الغَسْل ، والرِّجْلاَن كاليد لابُدَّ أنْ تُحدَّد . فإذا لم يوجد الماء أو تعذَّر استعماله شرع لنا سبحانه التيمم ، فقال تعالى : ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً[1] طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ .. (٤٣)﴾ [النساء]

---

(١) الصعيد : هو كل تراب طيب . وقال الشافعى : لا يقع اسم صعيد إلا على تراب ذى غبار . وقال أبو إسحاق : الصعيد وجه الأرض وعلى الإنسان أن يضرب بيديه وجه الأرض ، ولا يبالى أكان فى الموضع تراب أو لم يكن ، لأن الصعيد ليس هو التراب ، إنما هو وجه الأرض ، تراباً كان أو غيره . [لسان العرب ـ مادة : صعد] .

والتيمم يقوم مقام الوضوء ، من حيث هو استعداد للصلاة ولقاء الحق سبحانه وتعالى ، وقد يظنّ البعض أن الحكمة من الوضوء الطهارة والنظافة ، وكذلك التيمُّم ؛ لذلك يقترح بعضهم أن نُنظّف أنفسنا بالكولونيا مثلاً .

نقول : ليس المقصود بالوضوء أو التيمم الطهارة أو النظافة ، بل المراد الاستعداد للصلاة وإظهار الطاعة والانصياع لشرع الله تعالى ، وإلا كيف تتم الطهارة أو النظافة بالتراب ؟

هذا الاستعداد للصلاة هو الذى جعل سيدنا على زين العابدين رضى الله عنه يَصْفرّ وجهه عند الوضوء ، وعندما سُئِل عن ذلك قال : أتعلمون على مَنْ أنا مُقبل الآن ؟

فللقاء الحق سبحانه وتعالى رهبة يجب أن يعمل لها المؤمن حساباً ، وأنْ يستعدّ للصلاة بما شرعه له ربه سبحانه وتعالى .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ﴾ (١)

كلمة (طائره) أى : عمله وأصلها أن العرب كانوا فى الماضى يزجرون الطير ، أى : إذا أراد أحدهم أنْ يُمضىَ عملاً يأتى بطائر ثم يطلقه ، فإنْ مَرَّ من اليسار إلى اليمين يسمونه « السانح » (٢) ويتفاءلون

---

(١) قال الحسن : أى شقاوته وسعادته ، وما كتب له من خير وشر وما طار له من التقدير ، أى : صار له عند القسمة فى الأزل . [تفسير القرطبى ٥/٣٩٥٧] .

(٢) السانح : ما أتاك عن يمينك من ظبى أو طائر أو غير ذلك . والبارح : ما أتاك من ذلك عن يسارك . [لسان العرب ـ مادة : سنح] .

به ، وإنْ مَرّ من اليمين إلى اليسار يسمونه « البارح » ويتشاءمون به ، ثم يتهمون الطائر وينسبون إليه العمل ، ولا ذنب له ولا جريرة .

إذن : كانوا يتفاءلون باليمين ، ويتشاءمون باليسار ، وقد كان النبى ﷺ يحب الفأل الحسن[1] ، ولا يحب التشاؤم ؛ لأن الفَأْل الطيب يُنشّط أجهزة الجسم انبساطاً للحركة ، أما التشاؤم فيدعو للتراجع والإحجام ، ويقضى على الحركة والتفاعل فى الكون .

والحق سبحانه هنا يُوضّح : لا تقوِّلوا الطائر ولا تتهموه ، بل طائرك أى : عملك فى عنقك يلازمك ولا ينفكّ عنك أبداً ، ولا يُسأل عنه غيره ، كما أنه لا يُسأل عن عمل الآخرين ، كما قال تعالى : ﴿وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ .. (١٥)﴾ [الإسراء]

فلا تُلقى بتبعة أفعالك على الحيوان الذى لا ذنب له .

وقوله تعالى : ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا (١٣)﴾ [الإسراء]

وهو كتاب أعماله الذى سجَّلتْه عليه الحفظة الكاتبون ، والذى قال الله عنه : ﴿وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَٰذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا (٤٩)﴾ [الكهف]

هذا الكتاب سيلقاه يوم القيامة منشوراً . أى : مفتوحاً مُعدّاً للقراءة .

---

(١) عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « يعجبني الفأل الصالح ، والفأل الصالح : الكلمة الحسنة » أخرجه أحمد فى مسنده (٣/١١٨ ، ١٥٤) وأبو الشيخ الأصبهانى فى أخلاق النبى (حديث ٧٩٤) .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ ﴾

الحق تبارك وتعالى يُصوّر لنا موقفاً من مواقف يوم القيامة ، حيث يقف العبد بين يدىْ ربه عزَّ وجل ، فيدعوه إلى أن يقرأ كتابه بنفسه ، ليكون هو حجة على نفسه[1] ، ويُقِر بما اقترف ، والإقرار سيد الأدلة .

فهذا موقف لا مجالَ فيه للعناد أو المكابرة ، ولا مجالَ فيه للجدال أو الإنكار ، فإن حدث منه إنكار جعل الله عليه شاهداً من جوارحه ، فيُنطقها الحق سبحانه بقدرته :

يقول تعالى : ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [النور]

ويقول سبحانه : ﴿ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِى أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ .. ﴿٢١﴾ ﴾ [فصلت]

وقد جعل الخالق سبحانه للإنسان سيطرةً على جوارحه فى الدنيا ، وجعلها خاضعة لإرادته لا تعصيه فى خير أو شر ، فبيده يضرب ويعتدى ، وبيده يُنفق ويقيل عثرة المحتاج ، وبرجْله يسعى إلى بيت الله أو يسعى إلى مجلس الخمر والفساد .

وجوارحه فى كل هذا مُسخَّرة طائعة لا تتأبى عليه ، حتى وإن كانت كارهة للفعل ؛ لأنها منقادة لمراداتك ، ففعْلها لك ليس دليلاً على

---

(١) قال بعض الصلحاء : هذا كتاب ، لسانك قلمك ، وريقك مداده ، وأعضاؤك قرطاسه ، أنت كنت المملى على حفظتك ، ما زيد فيه ولا نُقص منه ، ومتى أنكرت منه شيئاً يكون فيه الشاهد منك عليك . [تفسير القرطبى ٥/٣٩٥٨] .

الرضى عنك ؛ لأنه قد يكون رضى انقياد .

وقد ضربنا مثلاً لذلك بقائد السرية ، فأمره نافذ على جنوده ، حتى وإن كان خطئاً ، فإذا ما فقد هذا القائد السيطرة وأصبح الجنود أمام القائد الأعلى باحوا له بكل شىء .

كذلك فى الدنيا جعل الله للإنسان إرادة على جوارحه ، فلا تتخلف عنه أبداً ، لكنها قد تفعل وهى كارهة وهى لاعنةٌ له ، وهى مُبغضة له ولفعْله ، فإذا كان يوم القيامة وانحلَّت من إرادته ، وخرجتْ من سجن سيطرته ، شهدتْ عليه بما كان منه .

﴿ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ ﴾ [الإسراء]

أى : كفانا أن تكون أنت قارئاً وشاهداً على نفسك .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ مَّنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ مَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ .. ﴿١٥﴾ ﴾ [الإسراء]

لأن الحق سبحانه لا تنفعه طاعة ، ولا تضره معصية ، وهو سبحانه الغنىّ عن عباده ، وبصفات كماله وضع منهج الهداية للإنسان الذى جعله خليفة له فى أرضه ، وقبل أنْ يخلقه أعدَّ له مُقوّمات الحياة

كلها من أرض وسماء ، وشمس وقمر ، وهواء وجبال ومياه .

فصفات الكمال ثابتة له سبحانه قبل أن يخلق الخَلْق ، إذن : فطاعتهم لن تزيده سبحانه شيئاً ، كما أن معصيتهم لن تضرّه سبحانه فى شىء .

وهنا قد يسأل سائل : فلماذا التكليفات إذن ؟

نقول : إن التكليف من الله لعباده من أجلهم وفى صالحهم ، لكى تستمر حركة حياتهم ، وتتساند ولا تتعاند ؛ لذلك جعل لنا الخالق سبحانه منهجاً نسير عليه ، وهو منهج واجب التنفيذ لأنه من الله ، من الخالق الذى يعلم من خلق ، ويعلم ما يصلحهم ويُنظم حياتهم ، فلو كان منهجَ بشرٍ لبشر لكان لك أنْ تتأبّى عليه ، أما منهج الله فلا ينبغى الخروج عليه .

لذلك نسمع فى الأمثال الدارجة عند أهل الريف يقولون : الأصبع الذى يقطعه الشرع لا ينزف ، والمعنى أن الشرع هو الذى أمر بذلك ، فلا اعتراضَ عليه ، ولو كان هذا بأمر البشر لقامت الدنيا ولم تقعُدْ .

ومن كماله سبحانه وغِنَاهُ عن الخَلْق يتحمل عنهم ما يصدر عنهم من أحكام أو تجنٍّ أو تقصير ؛ ذلك لأن كل شىء عنده بمقدار ، ولا يُقضى أمر فى الأرض حتى يُقضى فى السماء ، فإذا كلَّفْتَ واحداً بقضاء مصلحة لك ، فقصّر فى قضائها ، أو رفض ، أو سعى فيها ولم يُوفّق نجدك غاضباً عليه حانقاً .

وهنا يتحمّل الخالق سبحانه عن عباده ، ويُعفيهم من هذا الحرج ،

ويعلمهم أن الحاجات بميعاد وبقضاء عنده سبحانه ، فلا تلوموا الناس ، فلكل شيء ميلاد ، ولا داعيَ لأنْ نسبق الأحداث ، ولننتظر الفرج وقضاء الحوائج من الله تعالى أولاً .

ومن هنا يُعلّمنا الإسلام قبل أن نَعد بعمل شيء لا بُدَّ أنْ نسبقه بقولنا : إنْ شاء الله لنحمى أنفسنا ، ونخرج من دائرة الحرج أو الكذب إذا لم نستطع الوفاء ، فأنا - إذن - فى حماية المشيئة الإلهية إنْ وُفِّقْتُ فبها ونعْمت ، وإنْ عجزتُ فإن الحق سبحانه لم يشأ ، وأخرج أنا من أوسع الأبواب .

إذن : تشريعات الله تريد أن تحمى الناس من الناس ، تريد أن تجتث أسباب الضِّغن على الآخر ، إذا لم تقض حاجتك على يديه ، وكأن الحق سبحانه يقول لك : تمهل فلكل شيء وقته ، ولا تظلم الناس ، فإذا ما قضيتَ حاجتك فاعلم أن الذى كلَّفْته بها ما قضاها لك فى الحقيقة ، ولكن صادف سَعْيُه ميلادَ قضاء هذه الحاجة ، فجاءت على يديه ، فالخير فى الحقيقة من الله ، والناس أسباب لا غير .

وتتضح لنا هذه القضية أكثر فى مجال الطب وعلاج المرضى ، فالطبيب سبب ، والشفاء من الله ، وإذا أراد الله لأحد الأطباء التوفيق والقبول عند الناس جعل مجيئه على ميعاد الشفاء فيلتقيان .

ومن هنا نجد بعض الأطباء الواعين لحقيقة الأمر يعترفون بهذه الحقيقة ، فيقول أحدهم : ليس لنا إلا فى (الخضرة) .

والخضرة معناها : الحالة الناجحة التى حان وقت شفائها .

وصدق الشاعر حين قال :

والناسُ يلْحون الطَّبيبَ وإنَّما ... خَطَأُ الطَّبيبِ إصَابَةُ الأَقْدَارِ

فقولُ الحق تبارك وتعالى : ﴿مَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ..(١٥)﴾[الإسراء] أى : لصالح نفسه .

والاهتداء : يعنى الالتزام بمنهج الله ، والتزامك عائد عليك ، وكذلك التزام الناس بمنهج الله عائد عليك أيضاً ، وأنت المنتفع فى كل الأحوال بهذا المنهج ؛ لذلك حينما ترى شخصاً مستقيماً عليك أن تحمد الله ، وأن تفرحَ باستقامته ، وإياك أن تهزأ به أو تسخر منه ؛ لأن استقامته ستعود بالخير عليك فى حركة حياتك .

وفى المقابل يقول الحق سبحانه : ﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا..(١٥)﴾ [الإسراء]

أى : تعود عليه عاقبةُ انصرافه عن منهج الله ؛ لأن شرَّ الإنسان فى عدم التزامه بمنهج الله يعود عليك ويعود على الناس من حوله ، فيشقى هو بشرّه ، ويشقى به المجتمع .

ومن العجب أن نرى بعض الحمقى إذا رأى مُنحرفاً أو سىء السلوك ينظر إليه نظرة بُغْض وكراهية ، ويدعو الله عليه ، وهو لا يدرى أنه بهذا العمل يزيد الطين بلة ، ويُوسِّع الخُرْق على الراقع كما يقولون .

فهذا المنحرف فى حاجة لمَنْ يدعو الله له بالهداية ، حتى تستريح أولاً من شرِّه ، ثم لتتمتع بخير هدايته ثانياً . أما الدعاء عليه فسوف يزيد من شرِّه ، ويزيد من شقاء المجتمع به .

ومن هذا المنطلق علَّمنا الإسلام أن مَنْ كانت لديه قضية علمية تعود بالخير ، فعليه أنْ يُعديها إلى الناس ؛ لأنك حينما تُعدّى الخير

إلى الناس ستنتفع بأثره فيهم ، فكما انتفعوا هم بآثار خلالك الحميدة ، فيمكنك أنت أيضاً الانتفاع بآثار خلالهم الحميدة إن نقلتها إليهم .

لذلك حرّم الإسلام كَتْم العلم لما يُسبِّبه من أضرار على الشخص نفسه وعلى المجتمع .

يقول ﷺ :« من كتم علماً ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة»[1].

وكذلك من الكمال الذى يدعونا إليه المنهج الإلهى أن يُتقِن كل صاحب مهنة مهنته ، وكل صاحب صَنْعة صَنْعته ، فالإنسان فى حركة حياته يُتقِن عملاً واحداً ، لكن حاجاته فى الحياة كثيرة ومتعددة .

فالخياط مثلاً الذى يخيط لنا الثياب لا يتقن غير هذه المهنة ، وهو يحتاج فى حياته إلى مِهَن وصناعات كثيرة ، يحتاج إلى : الطبيب والمعلم والمهندس والحداد والنجار والفلاح .. الخ .

فلو أتقن عمله وأخلص فيه لَسخّر الله له مَنْ يتقن له حاجته ، ولو رَغْماً عنه ، أو عن غير قصد ، أو حتى بالمصادفة .

إذن : من كمالك أن يكون الناس فى كمال ، فإنْ أتقنتَ عملك فأنت المستفيد حتى إنْ كان الناس من حولك أشراراً لا يتقنون شيئاً ، فسوف يُيسِّر الله لهم سبيل إتقان حاجتك ، من حيث لا يريدون ولا يشعرون .

---

(١) أخرجه ابن حبان (٩٦ ـ موارد الظمآن) ، والحاكم فى مستدركه (١/١٠٢) وقال : هذا إسناد صحيح من حديث المصريين على شرط الشيخين وليس له علة . وأقره الذهبى .

وقوله تعالى : ﴿وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ .. (١٥)﴾ [الإسراء]

أى : لا يحمل أحدٌ ذنبَ أحدٍ ، ولا يُؤاخَذ أحدٌ بجريرة غيره ، وكلمة : ﴿تَزِرُ وَازِرَةٌ .. (١٥)﴾ [الإسراء]

من الوزر : وهو الحِمْل الثقيل ، ومنها كلمة الوزير : أى الذى يحمل الأعباء الثقيلة عن الرئيس ، أو الملك ، أو الأمير .

فعدْلُ الله يقتضى أنْ يُحاسب الإنسان بعمله ، وأنْ يُسأل عن نفسه ، فلا يرمى أحد ذنبه على أحد ، كما قال تعالى : ﴿لاَّ يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا ..(٣٣)﴾ [لقمان]

وحول هذه القضية تحدَّث كثير من المستشرقين الذين يبحثون فى القرآن عن مأخذ ، فوقفوا عند هذه الآية : ﴿وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ .. (١٥)﴾ [الإسراء]

وقالوا : كيف نُوفِّق بينها وبين قوله : ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ .. (١٣)﴾ [العنكبوت]

وقوله تعالى : ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلا سَاءَ مَا يَزِرُونَ (٢٥)﴾ [النحل]

ونقول : التوفيق بين الآية الأولى والآيتين الأخيرتين هيِّن لو فهموا الفرق بين الوِزْر فى الآية الأولى ، والوِزْر فى الآيتين الأخيرتين .

ففى الأولى وزر ذاتىٌّ خاص بالإنسان نفسه ، حيث ضلَّ هو فى نفسه ، فيجب أنْ يتحمّل وزْر ضلاله . أما فى الآية الثانية فقد أضلَّ

غيره ، فتحمَّل وِزْره الخاص به ، وتحمَّل وِزْر مَنْ أضلَّهم .

ويُوضِّح لنا هذه القضية الحديث النبوى الشريف : « من سن فى الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شىء ، ومن سن فى الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شىء »[(١)] .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴿١٥﴾ ﴾ [الإسراء]

العذاب : عقوبة على مخالفة ، لكن قبل أنْ تُعاقبنى عليها لا بُدَّ أن تُعلِّمنى أن هذه مخالفة أو جريمة (وهى العمل الذى يكسر سلامة المجتمع) ، فلا جريمةَ إلا بنصٍّ ينصُّ عليها ويُقنِّنها ، ويُحدِّد العقاب عليها ، ثم بعد ذلك يجب الإعلام بها فى الجرائد الرسمية لكى يطلع عليها الناس ، وبذلك تُقام عليهم الحجة إنْ خالفوا أو تعرَّضوا لهذه العقوبة .

لذلك حتى فى القانون الوضعى نقول : لا عقوبة إلا بتجريم ، ولا تجريم إلا بنصٍّ ، ولا نصَّ إلا بإعلام .

فإذا ما اتضحت هذه الأركان فى أذهان الناس كان للعقوبة معنى ، وقامت الحجة على المخالفين ، أما أنْ نعاقب شخصاً على جريمة هو لا يعلم بها ، فله أن يعترضَ عليك من منطلق هذه الآية .

أما أنْ يُجرَّم هذا العمل ، ويُعلَن عنه فى الصحف الرسمية ، فلا

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٠١٧) من حديث جرير بن عبد الله البجلى .

حجة لمَنْ جهله بعد ذلك ؛ لأن الجهل به بعد الإعلام عنه لا يُعفِى من العقوبة .

فكأن قول الله تعالى : ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً(١٥)﴾[الإسراء] يجمع هذه الأركان السابقة : الجريمة ، والعقوبة ، والنص ، والإعلام ، حيث أرسل الله الرسول يُعلِّم الناس منهج الحق سبحانه ، ويُحدّد لهم ما جرَّمه الشرع والعقوبة عليه .

لذلك يقول تعالى فى آية أخرى : ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ(٢٤)﴾ [فاطر]

ويقول : ﴿يَـأَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ[1] مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلا نَذِيرٍ.. (١٩)﴾ [المائدة]

إذن : قد انقطعت حجتكم برسالة محمد البشير النذير ﷺ .

وقد وقف العلماء أمام هذه القضية فقالوا : إن كانت الحجة قد قامت على مَن آمن برسالة محمد ﷺ ، فما بال الكافر الذى لم يؤمن ولم يعلم منهج الله ؟ وكأنهم يلتمسون له العذر بكفره .

نقول : لقد عرف الإنسان ربه عز وجل أولاً بعقله ، وبما ركّبه فيه خالقه سبحانه من ميزان إيمانى هو الفطرة ، هذه الفطرة هى المسئولة عن الإيمان بقوة قاهرة وراء الوجود ، وإنْ لم يأتِ رسول ، والأمثلة كثيرة لتوضيح هذه القضية :

هَبْ أنك قد انقطعتْ بك السُّبل فى صحراء واسعة شاسعة لا تجد

---

(١) الفترة : هى المدة من الزمن التى تفصل بين نبيين . [القاموس القويم ٢/٧١] .

فيها أثراً لحياة ، وغلبك النومُ فنمْتَ ، وعندما استيقظتَ فوجئت بمائدة منصوبة لك عليها أطايب الطعام والشراب .

بالله ألاَ تفكِّر فى أمرها قبل أن تمتدّ يدُك إليها ؟ ألاَ تلفت انتباهك وتثير تساؤلاتك عَمَّنْ أتى بها إليك ؟

وهكذا الإنسان بعقله وفطرته لا بُدّ أنْ يهتدىَ إلى أن للكون خالقاً مُبْدِعاً ، ولا يمكن أن يكون هذا النظام العجيب المتقن وليدَ المصادفة ، وهل عرف آدم ربه بغير هذه الأدوات التى خلقها الله فينا ؟

لقد جئنا إلى الحياة فوجدنا عالماً مستوفياً للمقوِّمات والإمكانيات ، وجدنا أمام أعيننا آيات كثيرة دالّة على الخالق سبحانه ، كل منها خيط لو تتبعته لأوصلك . خذ مثلاً الشمس التى تنير الكون على بُعْدها تطلع فى الصباح وتغرب فى المساء ، ما تخلَّفتْ يوماً ، ولا تأخرت لحظة عن موعدها ، ألاَ تسترعى هذه الآية الكونية انتباهك ؟

وقد سبق أنْ ضربنا مثلاً بـ « أديسون » الذى اكتشف الكهرباء ، وكم أخذ من الاهتمام والدراسة فى حين أن الإضاءة بالكهرباء تحتاج إلى أدوات وأجهزة وأموال ، وهى عُرْضة للأعطال ومصدر للأخطار ، فما بالنا نغفل عن آية الإضاءة الربانية التى لا تحتاج إلى مجهود أو أموال أو صيانة أو خلافه ؟

والعربى القُحُّ الذى ما عرف غير الصحراء حينما رأى بَعْر البعير وآثار الأقدام استدلَّ بالأثر على صاحبه ، فقال فى بساطة العربى : البَعْرة تدلّ على البعير ، والقدم تدلّ على المسير ، سماء ذات أبراج ، وأرض ذات فجاج ، ونجوم تزهر ، وبحار تزخر ، ألا يدل ذلك على وجود اللطيف الخبير ؟

إذن : بالفطرة التكوينية التى جعلها الله فى الإنسان يمكن له أن يهتدى إلى أن للكون خالقاً ، وإنْ لم يعرف مَنْ هو ، مجرد أن يعرف القوة الخفية وراء هذا الكون .

وحينما يأتى رسول من عند الله يساعده فى الوصول إلى ما يبحث عنه ، ويدلّه على ربه وخالقه ، وأن هذه القوة الخفية التى حيَّرتْك هى (الله) خالقك وخالق الكون كله بما فيه ومَن فيه .

وهو سبحانه واحد لا شريك له ، شهد لنفسه أنه لا إله إلا هو[1] ، ولم يعارضه أحد ولم يَدَّعِ أحد أنه إله مع الله ، وبذلك سلِمَتْ له سبحانه هذه الدعوى ؛ لأن صاحب الدعوة حين يدَّعيها تسلم له إذا لم يوجد معارض لها .

وهذه الفطرة الإيمانية فى الإنسان هى التى عناهَا الحق سبحانه فى قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ .. (١٧٢) ﴾ [الأعراف]

وهذا هو العَهْد الإلهى الذى أخذه الله على خَلْقه وهم فى مرحلة الذَّرِّ ، حيث كانوا جميعاً فى آدم ـ عليه السلام ـ فالأنْسَال كلها تعود إليه ، وفى كل إنسان إلى يوم القيامة ذرة من آدم ، هذه الذرة هى التى شهدتْ هذا العهد ، وأقرَّتْ أنه لا إله إلا الله ، ثم ذابتْ هذه الشهادة فى فطرة كل إنسان ؛ لذلك نسميها الفطرة الإيمانية .

ونقول للكافر الذى أهمل فطرته الإيمانية وغفل عنها ، وهى تدعوه

---

(١) يقول تعالى : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٨) ﴾ [آل عمران] .

إلى معرفة الله : كيف تشعر بالجوع فتطلب الطعام ؟ وكيف تشعر بالعطش فتطلب الماء ؟ أرأيت الجوع أو لمسْتَه أو شَمَمْته ؟ إنها الفطرة والغريزة التى جعلها الله فيك ، فلماذا استخدمت هذه ، وأغفلت هذه ؟

والعجيب أن ينصرف الإنسان العاقل عن ربه وخالقه فى حين أن الكون كله من حوله بكل ذراته يُسبِّح بحمد ربّه ، فذراتُ الكون وذراتُ التكوين فى المؤمن وفى الكافر تُسبِّح بحمد ربها ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَـكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ.. (٤٤) ﴾

[الإسراء]

فكيف بك يا سيد الكون تغفل عن الله والذرات فيك مُسبّحة ، فإن كانت ذرات المؤمن حدث بينه وبين ذرات تكوينه انسجام واتفاق ، وتجاوب تسبيحه مع تسبيح ذراته وأعضائه وتوافقت إرادته الإيمانية مع إيمان ذراته ، فترى المؤمن مُنْسجماً مع نفسه مع تكوينه المادى .

ويظهر هذا الانسجام بين إرادة الإنسان وبين ذرّاته وأعضائه فى ظاهرة النوم ، فالمؤمن ذرّاته وأعضاؤه راضية عنه تُحبه وتُحب البقاء معه لا تفارقه ؛ لأن إرادته فى طاعة الله ، فترى المؤمن لا ينام كثيراً مجرد أن تغفل عينه ساعةً من ليل أو نهار تكفيه ذلك ؛ لأن أعضاءه فى انسجام مع إرادته ، وهؤلاء الذين قال الله فيهم :

﴿ كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) ﴾ [الذاريات]

وكان النبى ﷺ تنام عينه ولا ينام قلبه[1] ، لأنه فى انسجام تام

---

(١) عن أنس رضى الله عنه قال : كان النبى ﷺ تنام عيناه ، ولا ينام قلبه . أخرجه الحاكم فى مستدركه (٢/٤٣١) وقال : صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه . وأخرج مسلم من حديث عائشة (٧٣٨) : « يا عائشة إن عينىّ تنامان ولا ينام قلبى » .

مع إرادته ﷺ . وما أشبه الإنسان فى هذه القضية بسيد شرس سىء الخُلق ، لديه عبيد كثيرون ، يعانون من سُوء معاملته ، فيلتمسون الفرصة للابتعاد عنه والخلاص من معاملته السيئة .

على خلاف الكافر ، فذراته مؤمنة وإرادته كافرة ، فلا انسجام ولا توافق بين الإرادة والتكوين المادى له ، لذا ترى طبيعته قلقة ، ليس هناك تصالح بينه وبين ذراته ، لأنها تبغضه وتلعنه ، وتود مفارقته .

ولولا أن الخالق سبحانه جعلها مُنْقادةً له لما طاوعتْه ، وإنها لتنتظر يوم القيامة يوم أنْ تفكّ من إرادته ، وتخرج من سجنه ، لتنطق بلسان مُبين ، وتشهد عليه بما اقترف فى الدنيا من كفر وجحود ؛ لذلك ترى الكافر ينام كثيراً ، وكأن أعضاءه تريد أن ترتاح من شره .

ولا بُدّ أن نعلم أن ذرات الكون وذرات الإنسان فى تسبيحها للخالق سبحانه ، أنه تسبيح فوق مدارك البشر ؛ لذلك قال تعالى : ﴿ وَلَـٰكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. (٤٤) ﴾ [الإسراء]

فلا يفقهه ولا يفهمه إلا مَنْ منحه الله القدرة على هذا ، كما منح هذه الميزة لداود ـ عليه السلام ـ فقال : ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ (٧٩) ﴾ [الأنبياء]

وهنا قد يقول قائل : ما الميزة هنا ، والجبال والطير تُسبّح الله بدون داود ؟

الميزة هنا لداود ـ عليه السلام ـ أن الله تعالى أسمعه تسبيح الجبال وتسبيح الطير ، وجعلها تتجاوب معه فى تسبيحه وكأنه

(كورس) أو نشيد جماعى تتوافق فيه الأصوات ، وتتناغم بتسبيح الله تعالى ، ألم يقل الحق سبحانه فى آية أخرى : ﴿ يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُ وَالطَّيْرَ .. (١٠) ﴾ [سبأ]

أى : رَجِّعى معه وردِّدى التسبيح .

ومن ذلك أيضاً ما وهبه الله تعالى لنبيه سليمان عليه السلام من معرفة منطق الطير أى لغته ، فكان يسمع النملة وهى تخاطب بنى جنسها[1] ويفهم ما تريد ، وهذا فضل من الله يهبه لمَنْ يشاء من عباده ، لذلك لما فهم سليمان عليه السلام لغة النملة ، وفهم ما تريده من تحذير غيرها تبسم ضاحكاً :

﴿ وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِى[2] أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِى أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَالِدَىَّ .. (١٩) ﴾ [النمل]

إذن : لكل مخلوق من مخلوقات الله لغة ومنطق ، لا يعلمها ولا يفهمها إلا مَنْ يُيسِّر الله له هذا العلم وهذا الفهم .

وحينما نقرأ عن هذه القضية نجد بعض كُتَّاب السيرة مثلاً يقولون : سبَّح الحصى فى يد النبى ﷺ نقول لهم : تعبيركم هذا غير دقيق ، لأن الحصى يُسبِّح فى يده ﷺ كما يُسبِّح فى يد أبى جهل ، لكن الميزة أنه ﷺ سمع تسبيح الحصى فى يده ، وهذه من معجزاته ﷺ .

---

(١) وذلك أن سليمان عليه السلام عندما أتى على وادى النمل هو وجنوده من الجن والإنس والطير قالت نملة : ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَـٰكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (١٨) ﴾ [النمل] .

(٢) أوزعه أن يفعل كذا : دفعه وحثَّه وأغراه ، أو ألهمه وأرشده . ومعنى قول سليمان عليه السلام: ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِى أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ (١٩) ﴾[النمل] أى : ألهمنى شكرك وادفعنى إليه وحبِّبْه إلىَّ .

والحق سبحانه يريد أنْ يلفتنا إلى حقيقة من حقائق الكون ، وهى كما أن لك حياة خاصة بك ، فاعلم أن لكل شىء دونك حياة أيضاً ، لكن ليستْ كحياتك أنت ، بدليل قول الحق سبحانه : ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ .. (٨٨)﴾ [القصص]

فكل ما يُطلق عليه شىء مهما قَلَّ فهو هالك ، والهلاك ضد الحياة ؛ لأن الله تعالى قال : ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ .. (٤٢)﴾ [الأنفال] فدلَّ على أن له حياة تُناسبه .

ونعود إلى قول الحق سبحانه : ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً (١٥)﴾ [الإسراء]

فإن اهتدى الإنسان بفطرته إلى وجود الخالق سبحانه ، فمن الذى يُعْلمه بمرادات الخالق سبحانه منه ، إذن : لا بُدَّ من رسول يُبلِّغ عن الله ، ويُنبِّه الفطرة الغافلة عن وجوده تعالى .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا (١٦)﴾

الحق تبارك وتعالى فى هذه الآية يعطينا مثالاً لعاقبة الخروج عن منهج الله تعالى ؛ لأنه سبحانه حينما يُرسل رسولاً ليُبلِّغ منهجه إلى خَلْقه ، فلا عُذْرَ للخارجين عنه ؛ لأنه منهج من الخالق الرازق المنعم ، الذي يستحق منا الطاعة والإنقياد . وكيف يتقلب الإنسان فى نعمة ربه ثم يعصاه ؟ إنه رَدٌّ غير لائق للجميل ، وإنكار للمعروف الذى

يسوقه إليك ليل نهار ، بل فى كل نَفَسٍ من أنفاسك .

ولو كان هذا المنهج من عند البشر لكان هناك عُذْر لمَنْ خرج عنه ، ولذلك يقولون : « من يأكل لقمتى يسمع كلمتى » .

كما أن هذا المنعِم سبحانه لم يفاجئك بالتكليف ، بل كلفك فى وقت مناسب ، فى وقت استوت فيه ملكاتُكَ وقدراتُكَ ، وأصبحتَ بالغاً صالحاً لحمل هذا التكليف ، فتركك خمسة عشر عاماً تربع فى نعمه وتتمتع بخيره ، فكان الأَوْلَى بك أن تستمع إلى منهج ربك ، وتُنفِّذه أمراً ونهياً ؛ لأنه سبحانه أوجدك من عدم وأمدَّك من عُدم .

والمتأمل فى قضية التكليف يرى أن الحق سبحانه أمر بعضنا أن يُكلِّف بعضاً ، كما قال تعالى : ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا . . (١٣٢)﴾ [طه]

وقد شرح لنا النبى ﷺ هذه القضية فقال : « مُرُوا أولادكم بالصلاة لسبع ، واضربوهم عليها لعشر »[(١)] .

وهذا التكليف وإنْ كان فى ظاهره من الأهل لأولادهم ، إلا أنه فى حقيقته من الله تعالى فهو الآمر للجميع ، ولكن أراد الحق سبحانه أن يكون التكليف الأول فى هذه السنِّ من القريب المباشر المحسّ أمام الطفل ، فأبوه هو صاحب النعمة المحسّة حيث يوفر لولده الطعام والشراب ، وكل متطلبات حياته ، فإذا ما كلفه أبوه كان أَدْعَى إلى الانصياع والطاعة ؛ لأن الولد فى هذه السن المبكرة لا تتسع مداركه لمعرفة المنعم الحقيقى ، وهو الله تعالى .

---

(١) أخرجه أبو داود فى سننه (٤٩٥) ، وأحمد فى مسنده (٢/١٨٧) بلفظ « مروا أبناءكم » من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص .

لذلك أمر الأب أن يعوّد ولده على تحمُّل التكليف وأن يعاقبه إنْ قصَّر ؛ لأن الآمر بالفعل هو الذى يُعاقب على الإهمال فيه . حتى إذا بلغ الولد سنَّ التكليف الحقيقى من المنعم الأعلى سبحانه كان عند الولد أُنْس بالتكليف وتعوُّد عليه ، وبذلك يأتى التكليف الإلهى خفيفاً على النفس مألوفاً عندها .

أما إن أخذتَ نعم الله وانصرفتَ عن منهجه فطغيْتَ بالنعمة وبغيتَ فانتظر الانتقام ، انتظر أَخْذه سبحانه وسنته التى لا تتخلف ولا تُردُّ عن القوم الظالمين فى الدنيا قبل الآخرة .

واعلم أن هذا الانتقام ضرورى لحفظ سلامة الحياة ، فالناس إذا رأوا الظالمين والعاصين والمتكبرين يرتعُونَ فى نعَم الله فى أمن وسلامة ، فسوف يُغريهم هذا بأن يكونوا مثلهم ، وأنْ يتخذوهم قدوة ومثلاً ، فيهم الفساد والظلم وينهار المجتمع من أساسه .

أما إنْ رأَوْا انتقام الحق سبحانه من هؤلاء ، وشاهدوهم أذلاّء منكسرينَ ، فسوف يأخذون منهم عبرة وعظة ، والعاقل مَنِ اعتبر بغيره ، واستفاد من تجارب الآخرين .

فالانتقام من الله تعالى لحكمة أرادها سبحانه وتعالى ، وكم رأينا من أشخاص وبلاد حاقَ بهم سوء أعمالهم حتى أصبحوا عبرةً ومُثْلة ، ومَنْ لم يعتبر كان عبرة حتى لمَنْ لم يؤمن ، وبذلك تعتدل حركة الحياة ، حيث يشاهد الجميع ما نزل بالمفسدين من خراب ودمار ، وإذا استقرأت البلاد فى نواحى العالم المختلفة لتيسَّر لك الوقوف على هذه السُّنة الإلهية فى بلاد بعينها ، ولاستطعْتَ أن تعزو ما حدث لها إلى أسباب واضحة من الخروج عن منهج الحق سبحانه .

وصدق الله حين قال : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً[1] مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١١٢) ﴾ [النحل]

وإياك أن تظن أن الحق سبحانه يمكن أن يهمل الفسقة والخارجين عن منهجه ، فلا بُدَّ أن يأتى اليوم الذى يأخذهم فيه أخْذَ عزيز مُقْتدر ، وإلاَّ لكانت أُسْوة سيئة تدعو إلى الإفساد فى حركة الحياة .

قال تعالى : ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً (١٦) ﴾ [الإسراء]

الآفة أن الذين يستقبلون نصَّ القرآن يفهمون خطأ أن ﴿ فَفَسَقُوا ﴾ مترتبة على الأمر الذى قبلها ، فيكون المعنى أن الله تعالى هو الذى أمرهم بالفسق ، وهذا فهم غريب لمعنى الآية الكريمة ، وهذا الأمر صادر من الحق سبحانه إلى المؤمنين ، فتعالوا نَرَ أوامر الله فى القرآن :

﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ .. (٥) ﴾ [البينة]

﴿ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَـٰذِهِ الْبَلْدَةِ .. (٩١) ﴾ [النمل]

﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٧٢) ﴾ [يونس]

فأمْر الله تعالى لا يكون إلا بطاعة وخير ، ولا يأمر سبحانه بفسق أو فحشاء ، كما ذكر القرآن الكريم ، وعلى هذا يكون المراد من الآية : أمرنا مترفيها بطاعتنا وبمنهجنا ، ولكنهم خالفوا وعَصَوْا وفسقوا ؛ لذلك حَقَّ عليهم العذاب .

---

(١) رَغُد العيش : اتسع وطاب . يقول تعالى : ﴿ وَكُلا مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا (٣٥) ﴾ [البقرة] . أى : أكلاً طيباً موسعاً عليكم فيه [القاموس القويم ١/٢٦٩] .

والأمر : طَلَب من الأعلى ، وهو الله تعالى إلى الأدنى ، وهم الخَلْق طلب منهم الطاعة والعبادة ، فاستغلُّوا فرصة الاختيار ففسقوا وخالفوا أمر الله .

قوله : ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً .. (١٦) ﴾ [الإسراء]

من الخطأ أن نفهم المعنى على أن الله أراد أولاً هلاكهم ففسقوا ؛ لأن الفهم المستقيم للآية أنهم فسقوا فأراد الله إهلاكهم . و ﴿ قَرْيَةً ﴾ أى أهل القرية .

وقوله : ﴿ فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ .. (١٦) ﴾ [الإسراء]

أى : وجب لها العذاب ، كما قال تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا .. (٣٣) ﴾ [يونس]

وقد أوجب الله لها العذاب لتسلَم حركة الحياة ، وليحمى المؤمنين من أذى الذين لا يؤمنون بالآخرة .

وقوله تعالى : ﴿ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا (١٦) ﴾ [الإسراء]

أى : خربناها ، وجعلناها أثراً بعد عَيْن ، وليستْ هذه هى الأولى ، بل إذا استقرأتَ التاريخ خاصة تاريخ الكفرة والمعاندين فسوف تجد قرى كثيرة أهلكها الله ولم يُبْقِ منها إلا آثاراً شاخصة شاهدة عليهم ، كما قال تعالى :

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (١٧) ﴾

فأيْن عـاد وثمود وقـوم لوط وقوم صالح ؟ إذن : فـالآية قضـية قولية ، لها من الواقع ما يُصدِّقها .

وقوله : ﴿مِنْ بَعْدِ نُوحٍ .. (١٧)﴾ [الإسراء]

دَلَّ على أن هذا الأخذ وهذا العذاب لم يحدث فـيما قبل نوح ؛ لأن الناس كانوا قريبى عَـهْد بخَلْق الله لآدم ـ عليه السلام ـ كـما أنه كان يُلقِّنهم معـرفة الله وما يضـمن لهم سلامة الحـياة ، أما بعد نوح فـقد ظهر الفسـاد والكفر والجحود ، فنزل بهم العـذاب . الذى لم يسبق له مثيل .

قال تعـالى : ﴿وَالْفَجْرِ (١) وَلَيَالٍ عَشْرٍ (٢) وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ (٤) هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ[1] (٥) أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (٨) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (١٠) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (١٤)﴾ [الفجر]

ولنا وَقْفـة سريعة مع هذه الآيات من سـورة الفجر ، فقـد خاطب الحق سـبـحـانه رسـوله ﷺ بقـوله : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦)﴾ [الفجر]

و ﴿ ألم تر ﴾ بمـعنى : ألم تعلم ؛ لأن النبى لم يـر ما فـعله الله بعاد ، فلماذا عدل السياق القرآنى عن : تعلم إلى تَرَ ؟

---

(١) الحجـر : العقل ، لأنه يمنع صاحـبه ويحجـزه عما لا يليق به . قـال تعالى : ﴿هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ (٥)﴾ [الفجر] . أى : لصاحب عقل . [القاموس القويم ١/١٤٤] .

قالوا : لأن إعلام الله لرسوله أصدق من عينه ورؤيته ، ومثلها قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾﴾ [الفيل]

حيث وُلِد رسول الله فى عام الفيل ، ولم يكن رأى شيئاً .

وفى آيات سورة (الفجر) ما يدلُّنا على أن حضارة عاد التى لا نكاد نعرف عنها شيئاً كانت أعظمَ من حضارة الفراعنة التى لفتتْ أنظار العالم كله ؛ ذلك لأن الحق تبارك وتعالى قال عن عاد : ﴿الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ ﴿٨﴾﴾ [الفجر]

أى : لا مثيلَ لها فى كل حضارات العالم ، فى حين قال عن حضارة الفراعنة : ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ ﴿١٠﴾﴾ [الفجر]

مجرد هذا الوصف فقط .

وقوله تعالى : ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ .. ﴿١٧﴾﴾ [الإسراء]

كَمْ : تدل على كثرة العدد .

والقرون : جمع قرن ، وهو فى الاصطلاح الزمنى مائة عام ، ويُطلَق على القوم المقترنين معاً فى الحياة ، ولو على مبدأ من المبادىء ، وتوارثه الناس فيما بينهم .

وقد يُطلَق القرن على أكثر من مائة عام كما نقول : قرن نوح ، قرن هود ، قرن فرعون . أى : الفترة التى عاشها .

وقوله : ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾ [الإسراء]

أى : أنه سبحانه غنىّ عن إخبار أحد بذنوب عباده ، فهو أعلم بها ، لأنه سبحانه لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء : ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ[1] الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴿١٩﴾﴾ [غافر]

فلا يحتاج لمَنْ يخبره ؛ لأنه خبير وبصير ، هكذا بصيغة المبالغة .

وهنا قد يقول قائل : طالما أن الله تعالى يعلم كل شىء ، ولا تخفى عليه خافية ، فلماذا يسأل الناس يوم القيامة عن أعمالهم ؟

نقول : لأن السؤال يَرِدُ لإحدى فائدتين :

الأولى : كأنْ يسألَ الطالب أستاذه عن شىء لا يعلمه ، فالهدف أنْ يعلم ما جهل .

والأخرى : كأن يسأل الأستاذ تلميذه فى الامتحان ، لا ليعلم منه ، ولكن ليقرره بما علم .

وهكذا الحق سبحانه ـ ولله المثل الأعلى ـ يسأل عبده يوم القيامة عن أعماله ليقرره بها ، وليجعله شاهداً على نفسه ، كما قال : ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾ [الإسراء]

وقوله تعالى : ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ .. ﴿١٧﴾﴾ [الإسراء]

---

(١) عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴿١٩﴾﴾ [غافر] قال : الرجل يكون فى القوم ، فتمر بهم المرأة فيريهم أنه يغض بصره عنها ، وإذا غفلوا لحظ إليها ، وإذا نظروا غض بصره عنها ، وقد اطلع الله من قلبه أنه ودّ أنه ينظر إلى عورتها [أورده السيوطى فى الدر المنثور ٢٨٢/٧] .

كما تقول : كفى بفلان كذا ، أى : أنك ترتضيه وتثقُ به ، فالمعنى : يكفيك ربك فلا تحتاج لغيره ، وقد سبق أنْ أوضحنا أن الله تعالى فى يده كل السلطات حينما يقضى : السلطة التشريعية ، والسلطة القضائية ، والسلطة التنفيذية ، وهو سبحانه غنىّ عن الشهود والبينة والدليل .

إذن : كفى به سبحانه حاكماً وقاضياً وشاهداً . ولأن الحق سبحانه خبير بصير بذنوب عباده ، فعقابه عَدْل لا ظلمَ فيه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ ﴾ (١)

الحق تبارك وتعالى قبل أن يخلق الإنسان الذى جعله خليفة له فى أرضه ، خلق له الكون كُلّه بما فيه ، وخلق له جميع مُقوّمات حياته ، ووالى عليه نعَمه إيجاداً من عدم ، وإمداداً من عُدم ، وجعل من مُقوّمات الحياة ما ينفعل له وإنْ لم يُطلب منه ، كالشمس والقمر والهواء والمطر ... الخ فهذه من مُقوّمات حياتك التى تُعطيك دون أنْ تتفاعلَ معها .

ومن مُقوّمات الحياة مَا لا ينفعل لك ، إلا إذا تفاعلتَ معه ،

---

(١) أصلاه الله النار : أدخله إياها . والصِّلاء : الشواء ، لأنه يُصْلى بالنار . [لسان العرب - مادة : صلا] .

كالأرض مثلاً لا تعطيك إلا إذا حرثتها ، وبذرت فيها البذور فتجدها قد انفعلتْ لك ، وأعطتْك الإنتاج الوفير .

والمتأمل فى حضارات البشر وارتقاءاتهم فى الدنيا يجدها نتيجة لتفاعل الناس مع مُقوّمات الحياة بجوارحهم وطاقاتهم ، فتتفاعل معهم مُقوِّمات الحياة ، ويحدث التقدم والارتقاء .

وقد يرتقى الإنسان ارتقاءً آخر ، بأن يستفيد من النوع الأول من مُقوّمات الحياة ، والذى يعطيه دون أنْ يتفاعل معه ، استفادة جديدة ، ومن ذلك ما توصّل إليه العلماء من استخدام الطاقة الشمسية استخدامات جديدة لم تكن موجودة من قبل .

إذن : فهذه نواميس فى الكون ، الذى يُحسِن استعمالها تُعطيه النتيجة المرجوة ، وبذلك يُثرى الإنسان حياته ويرتقى بها ، وهذا ما أسْميناه سابقاً عطاء الربوبية الذى يستوى فيه المؤمن والكافر ، والطائع والعاصى .

لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ..(١٨)﴾ [الإسراء]

أى : عطاء الدنيا ومتعها ورُقيها وتقدّمها .

﴿عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ..(١٨)﴾ [الإسراء]

أجبْنَاهُ لما يريد من متاع الدنيا .

ولا بُدَّ لنا أنْ نتنبه إلى أن عطاء الربوبية الذى جعله الله للمؤمن

والكافر ، قد يغفل عنه المؤمن ويترك مُقوّمات الحياة وأسبابها يستفيد منها الكافر ويتفاعل معها ويرتقى بها ، ويتقدم على المؤمن ، ويمتلك قُوته ورغيف عيشه ، بل وجميع متطلبات حياتهم ، ثم بالتالى تكون لهم الكلمة العليا والغلبة والقهر ، وقد يفتنونك عن دينك بما فى أيديهم من أسباب الحياة .

وهذا حال لا يليق بالمؤمن ، ومذلّة لا يقبلها الخالق سبحانه لعباده ، فلا يكفى أن نأخذ عطاء الألوهية من أمر ونهى وتكليف وعبادة ، ونغفل أسباب الحياة ومُقوّماتها المادية التى لا قِوامَ للحياة إلا بها .

فى حين أن المؤمن أَوْلَى بمقوّمات الحياة التى جعلها الخالق فى الكون من الكافر الذى لا يؤمن بإله .

إذن : فمن الدين ألاَّ تمكِّن أعداء الله من السيطرة على مُقوِّمات حياتك ، وألاَّ تجعلَهم يتفوقون عليك .

وقوله : ﴿مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ .. (١٨)﴾ [الإسراء]

أى : أن تفاعل الأشياء معك ليس مُطْلقاً ، بل للمشيئة تدخُّلٌ فى هذه المسألة ، فقد تفعل ، ولكن لا تأخذ لحكمة ومراد أعلى ، فليس الجميع أمام حكمة الله سواء ، وفى هذا دليل على طلاقة القدرة الإلهية .

ومعنى ﴿مَا نَشَاءُ ..﴾ للمعجَّل و ﴿لِمَن نُّرِيدُ﴾ للمعجَّل له .

وما دام هذا يريد العاجلة ، ويتطلع إلى رُقىِّ الحياة الدنيا وزينتها ، إذن : فالآخرة ليستْ فى باله ، وليست فى حُسْبانه ؛ لذلك

لم يعمل لها ، فإذا ما جاء هذا اليوم وجد رصيده صفْراً لا نصيبَ له فيها ؛ لأن الإنسان يأخذ أجره على ما قدّم ، وهذا قَدَّم للدنيا وأخذ فيها جزاءه من الشهرة والرقىّ والتقدّم والتكريم .

قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩) ﴾ [النور]

والسراب ظاهرة طبيعية يراها مَنْ يسير فى الصحراء وقت الظهيرة ، فيرى أمامه شيئاً يشبه الماء ، حتى إذا وصل إليه لم يجدْهُ شيئاً ، كذلك إنْ عمل الكافرُ خيراً فى الدنيا فإذا أتى الآخرة لم يجدْ له شيئاً من عمله ؛ لأنه أخذ جزاءه فى الدنيا .

ثم تأتى المفاجأة : ﴿ وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ .. (٣٩) ﴾ [النور]

لأن الله تعالى لم يكُنْ فى حُسْبانه حينما قدَّم الخير فى الدنيا .

وفى آية أخرى يَصفه القرآن بقوله : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ (١٨) ﴾ [إبراهيم]

فمرة يُشبِّه عمل الكافر بالماء الذى يبدو فى السراب ، ومرة يُشبِّهه بالرماد ؛ لأن الماء إذا اختلط بالرماد صار طيناً ، وهو مادة الخصْب والنماء ، وهو مُقوِّم من مُقوِّمات الحياة .

ووصفه بقوله تعالى : ﴿ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ[1] عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ

(١) الصفوان : الحجر الأملس . قال ابن سيده : الصفاة الحجر الصلد الضخم الذى لا ينبت شيئاً . [لسان العرب ـ مادة : صفا] .

فَتَرَكَهُ صَلْدًا لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٢٦٤) ﴾ [البقرة]

والحق تبارك وتعالى فى هذه الآية يُجسِّم لنا خَيْبة أمل الكافر فى الآخرة فى صورة مُحسَّة ظاهرة ، فمثَلُ عمل الكافر كحجر أملس أصابه المطر ، فماذا تنتظر منه ؟ وماذا وراءه من الخير ؟

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا (١٨) ﴾ [الإسراء]

أى : أعددناها له ، وخلقناها من أجله يُقاسى حرارتها ﴿ مَذْمُوماً ﴾ أى : يذمُّه الناس ، والإنسان لا يُذَمّ إلا إذا ارتكب شيئاً ما كان يصحّ له أنْ يرتكبه .

و ﴿ مَّدْحُورًا (١٨) ﴾ [الإسراء] مطروداً من رحمة الله .

وبعد أنْ أعطانا الحق سبحانه صورة لمن أراد العاجلة وغفل عن الآخرة ، وما انتهى إليه من العذاب ، يعطينا صورة مقابلة ، صورة لمن كان أعقل وأكيس ، ففضَّل الآخرة .

يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا (١٩) ﴾

المتأمل فى أسلوب القرآن الكريم يجده عادة يُعطِى الصورة ومقابلها ؛ لأن الشىء يزداد وضوحاً بمقابله ، والضِّد يظهر حُسْنه الضّد ، ونرى هذه المقابلات فى مواضع كثيرة من كتاب الله تعالى

كما فى : ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ (١٤)﴾ [الانفطار]

وهنا يقول تعالى : ﴿وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ .. (١٩)﴾ [الإسراء] فى مقابل : ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ .. (١٨)﴾ [الإسراء]

قوله تعالى : ﴿وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا .. (١٩)﴾ [الإسراء]

أى : أراد ثوابها وعمل لها .

﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ .. (١٩)﴾ [الإسراء]

لأن الإيمان شَرْط فى قبول العمل ، وكُلُّ سعى للإنسان فى حركة الحياة لابُدَّ فيه من الإيمان ومراعاة الله تعالى لكى يُقبَل العمل ، ويأخذ صاحبه الأجر يوم القيامة ، فالعامل يأخذ أجره ممَّنْ عمل له .

فالكفار الذين خدموا البشرية باختراعاتهم واكتشافاتهم ، حينما قدّموا هذه الإنجازات لم يكُنْ فى بالهم أبداً العمل لله ، بل للبشرية وتقدُّمها ؛ لذلك أخذوا حقهم من البشرية تكريماً وشهرة ، فأقاموا لهم التماثيل ، وألّفوا فيهم الكتب .. الخ .

إذن : انتهت المسألة : عملوا وأخذوا الأجر ممن عملوا لهم .

وكذلك الذى يقوم ببناء مسجد مثلاً ، وهذا عمل عظيم يمكن أن يُدخل صاحبه الجنة إذا توافر فيه الإيمان والإخلاص لله ، كما قال النبى ﷺ : « من بنى لله مسجداً ولو كمفحص[1] قطاة بنى الله له بيتاً فى الجنة »[2] .

---

(١) القطا : طائر سُمّى بذلك لثقل مَشْيه ، واحدته قطاة . ومفحص القطاة : حيث تُفرّخ فيه من الأرض . والفحص : شدة الطلب خلال كل شىء . والدجاجة تفحص برجليها وجناحيها فى التراب تتخذ لنفسها أفحوصة تبيض أو تجثم فيها [لسان العرب ـ مادة : فحص ، قطا] .

(٢) أخرجه ابن ماجة فى سننه (٧٣٨) من حديث جابر بن عبد الله . قال البوصيرى فى الزوائد : « إسناده صحيح ، ورجاله ثقات » .

ولكن سرعان ما نقرأ على باب المسجد لافتة عريضة تقول : أنشأه فلان ، وافتتحه فلان ... الخ مع أنه قد يكون من أموال الزكاة !! وهكذا يُفسد الإنسان على نفسه العمل ، ويُقدم بنفسه ما يُحبطه ، إذن : فقد فعل ليقال وقد قيل . وانتهت القضية .

وقوله تعالى : ﴿فَأُوْلَـٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾ [الإسراء]

وهذا جزاء أهل الآخرة الذين يعملون لها ، ومعلوم أن الشكر يكون لله استدراراً لمزيد نِعَمه ، كما قال تعالى : ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ .. ﴿٧﴾﴾ [إبراهيم]

فما بالك إنْ كان الشاكر هو الله تعالى ، يشكر عبده على طاعته ؟

وهذا يدل على أن العمل الإيمانى يُصادف شُكْراً حتى من المخالف له ، فاللص مثلاً إنْ كان لديه شىء نفيس يخاف عليه ، فهل يضعه أمانة عند لصٍّ مثله ، أم عند الأمين الذى يحفظه ؟

فاللصّ لا يحترم اللص ، ولا يثق فيه ، فى حين يحترم الأمين مع أنه مخالف له ، وكذلك الكذاب يحترم الصادق ، والخائن يحترم الأمين .

ومن هنا كان كفار مكة رغم عدائهم للنبى ﷺ وكفرهم بما جاء به إلا أنهم كانوا يأتمنونه على الغالى والنفيس عندهم ؛ لأنهم واثقون من أمانته ، ويلقبونه « بالأمين » ، رغم ما بينهما من خلاف عقدىّ جوهرى ، فهم فعلاً يكذبونه ، أما عند حفْظ الأمانات فلن يغشُّوا أنفسهم ، لأن الأحفظ لأماناتهم محمد ﷺ[1] .

---

(١) حدث هذا عند هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة ، يقول ابن هشام فى السيرة النبوية (٢/٤٨٥) أن النبى ﷺ أمر علىَّ بن أبى طالب « أن يتخلف بعده بمكة ، حتى يؤدى عن رسول الله ﷺ الودائع ، التى كانت عنده للناس ، وكان رسول الله ﷺ ليس بمكة أحد عنده شىء يخشى عليه إلا وضعه عنده ، لما يُعلم من صدقه وأمانته ﷺ » .

وقد ضربنا لذلك مثلاً بشاهد الزور الذى تستعين بشهادته ليُخرجك من ورطة ، أو قضية ، فرغم أنه قضى لك حاجتك ، وأخرجك من ورطتك ، إلا أنه قد سقط من نظرك ، ولم يعُدْ أهلاً لثقتك فيما بعد .

لذلك قالوا : مَنِ استعان بك فى نقيصة فقد سقطْتَ من نظره ، وإنْ أعنْتَه على أمره كشاهد الزور ترتفع الرأس على الخصم بشهادته وتدوس القدم على كرامته .

ثم يقول الحق سبحانه عن كلا الفريقين :

﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ﴾

﴿ كُلاً ﴾ أى : كلاَ الفريقين السابقين : مَن أراد العاجلة ، ومَن أراد الآخرة : ﴿ نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ .. ﴿٢٠﴾ ﴾ [الإسراء]

أى : أن الله تعالى يمدُّ الجميع بمُقوّمات الحياة ، فمنهم مَنْ يستخدم هذه المقومات فى الطاعة ، ومنهم مَنْ يستخدمها فى المعصية ، كما لو أعطيتَ لرجلين مالاً ، فالأول تصدّق بماله ، والآخر شرب بماله خمراً .

إذن : فعطاء الربوبية مددٌ ينال المؤمن والكافر ، والطائع والعاصى ، أما عطاء الألوهية المتمثل فى منهج الله : افعل ولا تفعل ، فهو عطاء خاصٌّ للمؤمنين دون غيرهم .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ﴾ [الإسراء]

أى : ممنوعاً عن أحد ؛ لأن الجميع خَلْقه تعالى ، المؤمن والكافر ، وهو الذى استدعاهم إلى الحياة ، وهو سبحانه المتكفّل لهم بمُقوّمات حياتهم ، كما تستدعى ضيفاً إلى بيتك فعليك أنْ تقومَ له بواجب الضيافة .

ونلاحظ هنا أن الحق سبحانه اختار التعبير بقوله : ﴿مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ .. (٢٠)﴾ [الإسراء]

لأن العطاء المراد هنا عطاء ربوبية ، وهو سبحانه ربّ كلّ شىء . أى : مُربّيه ومتكفّل به ، وشرف كبير أن يُنسبَ العطاء إلى الرب تبارك وتعالى .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا (٢١)﴾

الحق تبارك وتعالى أعطانا قضايا إيمانية نظرية ، ويريد منّا أنْ ننظر فى الطبيعة والكون ، وسوف نجد فيه صدْق ما قال .

يقول تعالى : ﴿انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ..(٢١)﴾ [الإسراء]

والمتأمل يجد أن الله تعالى جعل التفضيل هنا عاماً ، فلم يُبيّن مَن المفضَّل ومَنِ المفضّل عليه ، فلم يقُلْ : فضلت الأغنياء على الفقراء ، أو : فضلت الأصحاء على المرضى .

إذن : فما دام فى القضية عموم فى التفضيل ، فكلُّ بعض مُفضَّل

فى جهة ، ومُفضّل عليه فى جهة أخرى ، لكن الناس ينظرون إلى جهة واحدة فى التفضيل ، فيفضلون هذا لأنه غنى ، وهذا لأنه صاحب منصب .. الخ .

وهذه نظرة خاطئة فيجب أن ننظر للإنسان من كُلِّ زوايا الحياة وجوانبها ؛ لأن الحق سبحانه لا يريدنا نماذج مكررة ، ونُسَخاً مُعَادة ، بل يُريدنا أُنَاساً متكاملين فى حركة الحياة ، ولو أن الواحد منّا أصبح مَجْمعاً للمواهب ما احتاج فينا أحدٌ لأحد ، ولتقطعت بيننا العلاقات .

فمن رحمة الله أن جعلك مُفضَّلاً فى خَصْلة ، وجعل غيرك مُفضَّلاً فى خصال كثيرة ، فأنت محتاج لغيرك فيما فُضِّل فيه ، وهم محتاجون إليك فيما فُضِّلْتَ فيه ، ومن هنا يحدث التكامل فى المجتمع ، وتسلَمُ للناس حركة الحياة .

ونستطيع أن نخرج من هذه النظرة بقضية فلسفية تقول : إن مجموع مواهب كل إنسان تساوى مجموع مواهب كل إنسان ، فإنْ زِدْتَ عنى فى المال فربما أزيد عنك فى الصحة ، وهكذا تكون المحصّلة النهائية متساوية عند جميع الناس فى مواهب الدنيا ، ويكون التفاضل الحقيقى بينهم بالتقوى والعمل الصالح ، كما قال تعالى :

﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات]

لذلك يجب على المسلم أن يلتزمَ أدب الإسلام فى حفْظ مكانة الآخرين ، فمهما كنت مُفضّلاً فلا تحتقر غيرك ، واعلم أن لهم أيضاً ما يفضلون به ، وسوف يأتى اليوم الذى تحتاج إليهم فيه .

وقد ضربنا لذلك مثلاً بالعظيم الوجيه الذى قد تضطره الظروف وتُحوِجه لسباك أو عامل بسيط ليؤدى له عملاً لا يستطيع هو القيام به ، فالعامل البسيط فى هذا الموقف مُفضّل على هذا العظيم الوجيه . ولك أنْ تتصورَ الحال مثلاً إذا أضرب الكناسون عدة أيام عن العمل . إذن : مهما كان الإنسان بسيطاً ، ومهما كان مغموراً فإن له مهمة يفضّل بها عن غيره من الناس .

خُذ الخياط مثلاً ، وهو صاحب حرفة متواضعة بين الناس ، ولا يكاد يُجيد عملاً إلا أن يخيطَ للناس ثيابهم ، فإذا ما كانت ليلة العيد وجدته من أهم الشخصيات ، الجميع يقبلون عليه ، ويتمنون أن يتكرم عليهم ويقضى حاجتهم من خياطة ثيابهم وثياب أولادهم .

وبهذا نستطيع أن نفهم قَوْل الحق تبارك وتعالى : ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ[1] فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا[2] وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٣٢)﴾ [الزخرف]

فكل منا مُسخَّر لخدمة الآخرين فيما فُضِّل فيه ، وفيما نبغ فيه .

وصدق الشاعر حين قال :

النَّاسُ لِلناسِ مِنْ بَدْوٍ ومِنْ حَضَرٍ بَعْضٌ لبعْضٍ وإن لم يشعروا خَدَمُ

إذن : فى التفاضل يجب أن ننظر إلى زوايا الإنسان المختلفة ؛

---

(١) قال قتادة : فتلقاه ضعيف الحيلة ، عيىّ اللسان ، وهو مبسوط له فى الرزق ، وتلقاه شديد الحيلة سليط اللسان وهو مقتور عليه . [الدر المنثور ٧/٣٧٥] .

(٢) سخره يسخره : أذله وقهره وأخضعه . [القاموس القويم ١/٣٠٦] .

لأن الجميع أمام الله سواء ، ليس منّا مَن هو ابن لله ، وليس منّا مَنْ بينه وبين الله نسَبٌ أو قرابة ، ولا تجمعنا به سبحانه إلا صلة العبودية له عز وجل ، فالجميع أمام عطائه سواء ، لا يوجد أحد أَوْلَى من أحد .

فالعاقل حين ينظر فى الحياة لا ينظر إلى تميُّزه عن غيره كموهبة ، بل يأخذ فى اعتباره مواهب الآخرين ، وأنه محتاج إليها ، وبذلك يندكّ غروره ، ويعرف مدى حاجته لغيره . وكما أنه نابغ فى مجال من المجالات ، فغيره نابغ فى مجال آخر ؛ لأن النبوغ يأتى إذا صادف العمل الموهبة ، فهؤلاء البسطاء الذين تنظر إليهم نظرة احتقار ، وترى أنهم دونك يمكن أن يكونوا نابغين لو صادف عملهم الموهبةَ .

وقوله تعالى : ﴿وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً (٢١)﴾ [الإسراء]

فإنْ كان التفاضل بين الناس فى الدنيا قائماً على الأسباب المخلوقة لله تعالى ، فإن الأمر يختلف فى الآخرة ؛ لأنها لا تقوم بالأسباب ، بل بالمسبب سبحانه ، فالمفاضلة فى الآخرة على حسبها .

ولو تأملتَ حالك فى الدنيا ، وقارنتَه بالآخرة لوجدتَ الآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً ، فعمرك فى الدنيا موقوت ، وسينتهى إلى الموت ؛ لأن عمرك فى الدنيا مدة بقائك فيها ، فإنْ بقيتْ من بعدك فهى لغيرك ، وكذلك ما فُضِّلْتَ به من نعيم الدنيا عُرْضَة للزوال ، حيث تناله الأغيار التى تطرأ على الإنسان .

فالغنىّ قد يصير فقيراً ، والصحيح سقيماً ، كما أن نعيم الدنيا على قَدْر إمكانياتك وتفاعلك مع الأسباب ، فالدنيا وما فيها من نعيم غير مُتيقّنة وغير موثوق بها .

وهَبْ أنك تنعَّمْتَ فى الدنيا بأعلى درجات النعيم ، فإن نعيمك هذا يُنغِّصه أمران : إما أن تفوت هذا النعيم بالموت ، وإما أنْ يفوتَك هو بما تتعرّض له من أغيار الحياة .

أما الآخرة فعمرك فيها مُمتدّ لا ينتهى ، والنعمة فيها دائمة لا تزول ، وهى نعمة لا حدودَ لها ؛ لأنها على قَدْر إمكانيات المنعِم عز وجل ، فى دار خلود لا يعتريها الفناء ، وهى مُتيقنة موثوق بها .

فأيهما أفضل إذن ؟ لذلك الحق سبحانه يدعونا إلى التفكُّر والتعقُّل :

﴿ انْظُرْ ﴾ أىَّ الصفقتين الرابحة ، فتاجر فيها ولا ترضى بها بديلاً .

إذن : فالآخرة أعظم وأكبر ، ولا وجهَ للمقارنة بين نعيم الدنيا ونعيم الآخرة . وأذكر أننا سافرنا مرة إلى (سان فرانسيسكو) فأدخلونا أحد الفنادق ، لا للإقامة فيه ، ولكن لمشاهدة ما فيه من روعة وجمال ومظاهر الرقى والرفاهية .

وفعلاً كان هذا الفندق آية من آيات الإبداع والجمال ، فرأيتُ رفاقى وكانوا من علية القوم مبهورين به ، مأخوذين بروعته ، فقلت لهم عبارة واحدة : هذا ما أعد البشر للبشر ، فكيف بما أعدّه ربُّ البشر للبشر ؟

فنعيم الدنيا ومظاهر الجمال فيها يجب أنْ تثير فينا الشوق لنعيم دائم فى الجنة ؛ لا أنْ يثير فينا الحقد والحسد ، يجب أن نأخذ من مظاهر الترف والنعيم عند الآخرين وسيلة للإيمان بالله ، وأن نُصعِّد هذا الإيمان بالفكر المستقيم ، فإنْ كان ما نراه من ترف وتقدم ورُقىّ وعمارة فى الدنيا من صُنْع مهندس أو عامل ، فكيف الحال إنْ كان الصانع هو الخالق سبحانه وتعالى ؟

ويجب ألاَّ نغفلَ الفرْق بين نعيم الدنيا الذى أعدّه البشر ونعيم الآخرة الذى أعدّه الله تعالى ، فقصارى ما توصل إليه الناس فى رفاهية الخدمة أن تضغط على زر فيأتى لك منه الشاى مثلاً ، وتضغط على زر آخر فيأتى لك منه القهوة .

وهذه آلة تستجيب لك إنْ تفاعلتَ معها ، لكن مهما ارتقى هؤلاء ، ومهما تقدَّمت صناعتهم فلن يصلوا إلى أنْ يقدموا لك الشىء بمجرد أن يخطر على بالك ؛ لأن هذا من نعيم الجنة الذى أعده الخالق سبحانه لعباده الصالحين[1] .

إذن : فما دام الأمر كذلك ، وسلَّمنا بأن الآخرة أفضل وأعظم ، فما عليك إلاَّ أنْ تبادر وتأخذ الطريق القويم ، وتسلك طريق ربك من أقصر اتجاه ، وهو الاستقامة على منهج الله الواحد والالتزام به .

فيقول الحق سبحانه :

﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾ ﴾

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال قال الله عز وجل : « أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » مصداق ذلك فى كتاب الله ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [السجدة] .

لأنه سبحانه أعطاك فى الدنيا ، وأمدّك بالأسباب ، وبمقوّمات حياتك ، أوجدك من عدم ، وأمدك من عُدْمٍ ، حتى وإنْ كنت كافراً ، ثم أعدَّ لك فى الآخرة الدرجات العالية والنعيم المقيم الذى لا يَفْنى ولا يزول .

وهذه هى الحيثيات التى ينبغى عليك بعدها أن تعرفه سبحانه ، وتتوجّه إليه ، وتلتحم به وتكون فى معيته ، ولا تجعل معه سبحانه إلهاً آخر ؛ لأنك إنْ فعلتَ فلن تجد من هذا النعيم شيئاً ، لن تجد إلا المذمّة والخُذْلان فى الدنيا والآخرة .

وسوف تُفَاجأ فى القيامة بربك الذى دعاك للإيمان به فكفرْتَ .

﴿ وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ .. (٣٩) ﴾ [النور]

ساعتها ستندم حين لا ينفعك الندم ، بعد أن ضاعت الفرصة من يديك.

ويقول تعالى : ﴿ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولاً (٢٢) ﴾ [الإسراء]

والقعود ليس أمراً عادياً هنا ، بل هو أنكَى ما يصير إليه الإنسان ؛ لأن الإنسان لا يقعد إلا إذا أصبح غيرَ قادر على القيام ، ففيها ما يُشعر بإنهاك القوة ، وكأنه سقط إلى الأرض ، بعد أنْ أصبحتْ رِجلاه غير قادرتين على حَمْله ، ولم تَعُد به قوة للحركة .

ونلاحظ فى تعبير القرآن عن هذا الذى خارتْ قواه ، وانتهت تماماً ، أنه يختار له وَضْع القعود خاصة ، ولم يَقُلْ مثلاً : تنام ، لأن العذاب لا يكون مع النوم ، ففى النوم يفقد الإنسان الوعى فلا يشعر بالعذاب ، بل قال ﴿ فَتَقْعُدَ ﴾ هكذا شاخص يُقاسى العذاب ؛ لأن العذاب ليس للجوارح والمادة ، بل للنفس الواعية التى تُحِسّ وتألم .

ولذلك يلجأ الأطباء إلى تخدير المريض قبل إجراء العمليات الجراحية ؛ لأن التخدير يُفقده الوعى فلا يشعر بالألم .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (٩٥)﴾ [النساء]

وقال : ﴿وَالْقَوَاعِدُ[1] مِنَ النِّسَاءِ اللاَّتِي لا يَرْجُونَ نِكَاحًا .. (٦٠)﴾[النور]

فالقعود يدل على عدم القدرة ، وفى الوقت نفسه لا يرتاح بالنوم ، فهو فى عذاب مستمر .

وفى مجال الذم قال الشاعر :

دَعِ المكَارِمَ لاَ ترحَل لِبُغْيتِهَا وَاقْعُدْ فإنكَ أنتَ الطَّاعِمُ الكَاسى

وقوله : ﴿مَذْمُومًا .. (٢٢)﴾ [الإسراء] لأنه أتى بعمل يذمه الناس عليه .

﴿مَّخْذُولاً (٢٢)﴾ [الإسراء] من الخذلان ، وهو عدم النُّصْرة ، فالأبعد فى موقف لا ينصره فيه أحد ، ولا يدافع عنه أحد ، لذلك يقول تعالى لهؤلاء : ﴿مَا لَكُمْ لا تَنَاصَرُونَ (٢٥) بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ(٢٦)﴾ [الصافات]

ثم ينتقل بنا الحق سبحانه إلى قضية يعطينا فيها نوعاً من الاستدلال ، فيقول سبحانه :

---

(١) القواعد من النساء : هن اللواتى انقطع عنهن الحيض ويئسن من الولد . ولم يبق لهن تشوّف إلى التزوج . نقله ابن كثير فى تفسيره (٣/٣٠٤) عن سعيد بن جبير ومقاتل ابن حيان والضحاك وقتادة .

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ ﴾ (١)

بعد أنْ وجَّهنا الله تعالى إلى القضية العقدية الكبرى : ﴿ لا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَـٰهًا آخَرَ .. ﴿٢٢﴾ ﴾ [الإسراء]

أراد سبحانه أنْ يُبيِّن لنا أن العقيدة والإيمان لا يكتملان إلا بالعمل ، فلا يكفى أن تعرف الله وتتوجّه إليه ، بل لا بُدّ أنْ تنظر فيما فرضه عليك ، وفيما كلّفك به ؛ لذلك كثيراً ما نجد فى آيات الكتاب الكريم الجمع بين الإيمان والعمل الصالح ، كما فى قوله تعالى :

﴿ وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾ ﴾ [العصر]

لأن فائدة الإيمان وثمرته العمل الصالح ، وما دُمْتَ ستسلك هذا الطريق فانتظر مواجهة أهل الباطل والفساد والضلال ، فإنهم لن يدعُوك ولن يُسالموك ، ولا بُدّ أن تُسلِّح نفسك بالحق والقوة والصبر ، لتستطيع مواجهة هؤلاء .

ودليل آخر على أن الدين ليس الإيمان القولىّ فقط ، أن كفار مكة لم يشهدوا أن لا إله إلا الله ، فلو كانت المسألة مسألةَ الإيمان بإله واحد وتنتهى القضية لكانوا قالوها وشهدوا بها ، إنما هم يعرفون

(١) قضى : أى : أمر وألزم وأوجب . قال ابن عباس والحسن وقتادة : وليس هذا قضاء حكم بل هو قضاء أمر . [تفسير القرطبى ٥/٣٩٦٥] .

تماماً أن للإيمان مطلوباً ، ووراءه مسئولية عملية ، وأن من مقتضى الإيمان بالله أن تعمل بمراده وتأخذ بمنهجه .

ومن هنا رفضوا الإيمان بإله واحد ، ورفضوا الانقياد لرسوله ﷺ الذى جاء ليُبلغهم مراد الله تعالى ، وينقل إليهم منهجه ، فمنهج الله لا ينزل إلا على رسول يحمله ويُبلّغه للناس ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ (٥١) ﴾ [الشورى]

وها هى أول الأحكام فى منهج الله : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ .. (٢٣) ﴾ [الإسراء]

وقد آثر الحق سبحانه الخطاب بـ ﴿ رَبُّكَ ﴾ على لفظ (الله) ؛ لأن الربَّ هو الذى خلقك وربَّاك ، ووالى عليك بنعمه ، فهذا اللفظ أدْعَى للسمع والطاعة ، حيث يجب أن يخجل الإنسان من عصيان المنعِم عليه وصاحب الفضل .

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ .. (٢٣) ﴾ [الإسراء]

الخطاب هنا مُوجّه إلى النبى محمد ﷺ ؛ لأنه هو الذى بلغ المرتبة العليا فى التربية والأدب ، وهى تربية حَقّة ؛ لأن الله تعالى هو الذى ربَّاه ، وأدَّبه أحسن تأديب .

وفى الحديث الشريف : « أدّبنى ربى فأحسن تأديبى »[1] .

---

(١) قال عبد الرحمن بن على الشافعى الشيبانى فى كتابه « تمييز الطيب من الخبيث فيما يدور على ألسنة الناس من الحديث » (ص ١٧) عن هذا الحديث : « أخرجه العسكرى فى الأمثال عن على رضى الله عنه مرفوعاً فى حديث طويل . قال شيخنا : سنده ضعيف . ولكن معناه صحيح » .

قضى : معناها : حكم ؛ لأن القاضى هو الذى يحكم ، ومعناها أيضاً : أمر ، وهى هنا جامعة للمعنيين ، فقد أمر الله ألاَّ تعبدوا إلا إيّاه أمراً مؤكداً ، كأنه قضاء وحكم لازم .

وقد تأتى قضى بمعنى : خلق . كما فى قوله تعالى : ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ .. (١٢)﴾ [فصلت]

وتأتى بمعنى : بلغ مراده من الشىء ، كما فى قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا[1] زَوَّجْنَاكَهَا .. (٣٧)﴾ [الأحزاب]

وقد تدل على انتهاء المدة كما فى : ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الأَجَلَ .. (٢٩)﴾ [القصص]

وتأتى بمعنى : أراد كما فى : ﴿فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٦٨)﴾ [غافر]

إذن : قضى لها معانٍ مُتعدّدة ، لكن تجتمع كلها لتدل على الشىء اللازم المؤكّد الذى لا نقصَ فيه .

وقوله : ﴿أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ .. (٢٣)﴾ [الإسراء]

العبادة : هى إطاعة آمر فى أمره ونهيه ، فتنصاع له تنفيذاً للأمر ، واجتناباً للنهى ، فإنْ تركَ لك شيئاً لا أمرَ فيه ولا نهىَ فاعلم أنه ترك لك الاختيار ، وأباح لك : تفعل أو لا تفعل .

---

(١) الوطر : الحاجة التى يعتنى بها الإنسان ويهتم لها وإذا بلغها قيل إنه قضى وطره ، أى : حقق رغبته وقضى حاجته وانتهى من أمرها . ومعنى قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا .. (٣٧)﴾ [الأحزاب] . أى : فلما طلقها ولم يعد بحاجة لها . [القاموس القويم ٣٤٣/٢] .

لذلك ، فالكفار الذين عبدوا الأصنام والذين أتوا بها حجارةً من الصحراء ، وأعملوا فيها المعاول والأدوات لينحتوها ، وتكسرت منهم فعالجوها ، ووقعت فأقاموها ، وهم يرون كم هى مهينة بين أيديهم لدرجة أن أحدهم رأى الثعلب يبول برأس أحد الأصنام فقال مستنكراً حماقة هؤلاء الذين يعبدونها :

أَرَبٌّ يبولُ الثُّعلَبانُ برأسِهِ لَقدْ ذَلَّ مَنْ بَالَتْ عَلَيْهِ الثَّعَالِبُ

فإذا ما تورطوا فى السؤال عن آلهتهم هذه قالوا : إنها لا تضر ولا تنفع ، وما نعبدها إلا ليقربونا إلى الله زُلْفى ، كيف والعبادة طاعة أمر واجتناب نهى . فبأىّ شىء أمرتكم الأصنام ؟ وعن أىّ شىء نهتْكُمْ ؟! إذن : كلامُكم كذب فى كذب .

وفى قوله تعالى : ﴿أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ .. (٢٣)﴾ [الإسراء]

أسلوب يسمونه أسلوب قَصْر ، يفيد قصر العبادة وإثباتها لله وحده ، بحيث لا يشاركه فيها أحد . فلو قالت الآية : وقضى ربك أن تعبدوه .. فلقائل أن يقول : ونعبد غيره لأن باب العطف هنا مفتوح لم يُغلَق ، كما لو قُلْت : ضربتُ فلاناً وفلاناً وفلاناً .. هكذا باستخدام العطف . إنما لو قلت : ما ضربت إلا فلاناً فقد أغلقتَ باب العطف .

إذن : جاء التعبير بأسلوب القصر ليقول : اقصروا العبادة عليه سبحانه ، وانفوها عن غيره .

ثم ينقلنا الحق سبحانه إلى التكليف والأمر الثانى بعد عبادته : ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا .. (٢٣)﴾ [الإسراء]

وقد قرن الله تعالى بين عبادته وبين الإحسان إلى الوالدين فى

آيات كثيرة ، قال تعالى : ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا .. (٣٦)﴾ [النساء]

وقال : ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا .. (١٥١)﴾ [الأنعام]

وقال : ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا .. (٨)﴾ [العنكبوت]

لكن ، لماذا قرن الله تعالى بين عبادته وبين الإحسان إلى الوالدين ؟ أتريد أن نقرب الأولى بالثانية ، أم نقرب الثانية بالأولى ؟

نقول : لا مانع أن يكون الأمران معاً ؛ لأن الله تعالى غَيْب ، والإيمان به يحتاج إلى إعمال عقل وتفكير ، لكن الوالدين بالنسبة للإنسان أمر حسىّ ، فهما سرُّ وجوده المباشر ، وهما رَبَّياه ووفَّرا له كل متطلبات حياته ، وهما مصدر العطف والحنان .

إذن : التربية والرعاية فى الوالدين مُحسَّة ، أما التربية والرعاية من الله فمعقولة ، فأمْر الله لك بالإحسان إلى الوالدين دليل على وجوب عبادة الله وحده لا شريك له ، فهو سبحانه الذى خلقك ، وهو سبب وجودك الأول ، وهو مُربّيك وصاحب رعايتك ، وصاحب الفضل عليك قبل الوالدين ، وهل ربّاك الوالدان بما أوجداه هما ، أم بما أوجده الله سبحانه ؟

إذن : لابد أن يلتحم حَقُّ الله بحقِّ الوالدين ، وأن نأخذ أحدهما دليلاً على الآخر .

ونلاحظ أن الحق تبارك وتعالى حين أمرنا بعبادته جاء بأسلوب النفى : ﴿أَلاَّ تَعْبُدُوا .. (٢٣)﴾ [الإسراء]

يعنى نهانا أن نعبد غيره سبحانه ، أما حين تكلم عن الوالدين فلم يقل مثلاً : لا تسيئوا للوالدين ، فيأتى بأسلوب نفى كسابقه ، لماذا ؟

قالوا : لأن فضل الوالدين واضح لا يحتاج إلى إثبات ، ولا يحتاج إلى دليل عقلىّ ، وقولك : لا تسيئوا للوالدين يجعلهما مَظنَّة الإساءة ، وهذا غير وارد فى حَقّهما ، وغير مُتصوَّر منهما ، وأنت إذا نفيتَ شيئاً عن مَنْ لا يصح أن ينفى عنه فقد ذَمَمْته ، كأن تنفى عن أحد الصالحين المشهورين بالتقوى والورع ، تنفى عنه شرب الخمر مثلاً فهل هذا فى حقه مدح أم ذم ؟

لأنك ما قلتَ : إن فلاناً لا يشرب الخمر إلا إذا كان الناس تظنّ فيه ذلك . ومن هنا قالوا : نَفْى العيب عَمَّنْ لا يستحق العيب عَيْب .

إذن : لم يذكر الإساءة هنا ؛ لأنها لا تَرِد على البال ، ولا تُتصوّر من المولود لوالديه .

وبعد ذلك ، ورغم ما للوالدين من فضل وجميل عليك فلا تنسَ أن فضل الله عليك أعظم ؛ لأن والديك قد يَكِدانك ويُسْلِمانك إلى الغير ، أما ربك فلن يُسلمك إلى أحد .

وقوله تعالى : ﴿إِحْسَانًا .. (٢٣)﴾ [الإسراء]

كأنه قال : أحْسِنوا إليهم إحساناً ، فحذف الفعل وأتى بمصدره للتأكيد .

وقوله تعالى : ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا[1] وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا (٢٣)﴾ [الإسراء]

(١) نهر وانتهر : زَجَر . والانتهار : الزجر ، واستقباله بكلام تزجره به . [لسان العرب - مادة : نهر] بتصرف .

الحق سبحانه وتعالى حينما يوصينا بالوالدين ، مرة تأتى الوصية على إطلاقها ، كما قال تعالى : ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا .. (١٥)﴾ [الأحقاف]

ومرّة يُعلِّل لهذه الوصية ، فيقول : ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ .. (١٤)﴾ [لقمان]

والذى يتأمل الآيتين السابقتين يجد أن الحق سبحانه ذكر العلّة فى برِّ الوالدين ، والحيثيات التى استوجبت هذا البرّ ، لكنها خاصة بالأم ، ولم تتحدث أبداً عن فضل الأب ، فقال : ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا .. (١٥)﴾ [الأحقاف]

وقال : ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ .. (١٤)﴾ [لقمان]

فأين دَوْر الأب ؟ وأين مجهوداته طوال سنين تربية الأبناء ؟

المتتبع لآيات بر الوالدين يجد حيثية مُجْملة ذكرت دور الأب والأم معاً فى قوله تعالى : ﴿كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا .. (٢٤)﴾ [الإسراء]

لكن قبل أن يُربّى الأب ، وقبل أن يبدأ دوره كان للأم الدور الأكبر ؛ لذلك حينما تخاصم الأب والأم لدى القاضى على ولد لهما ، قالت الأم : لقد حمله خِفّاً وحملتُه ثقلاً ، ووضعه شهوة ووضعتُه كرهاً .

لذلك ذكر القرآن الحيثيات الخاصة بالأم ؛ لأنها تحملتها وحدها لم يشاركها فيها الزوج[1] ؛ ولأنها حيثيات سابقة لإدراك الابن فلم

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٥/٣٩٦٧) : « وذلك أن صعوبة الحمل ، وصعوبة الوضع ، وصعوبة الرضاع والتربية تنفرد بها الأم دون الأب ، فهذه ثلاث منازل يخلو منها الأب » .

يشعر بها ، فكأنه سبحانه وتعالى أراد أنْ يُذكّرنا بفضل الأم الذى لم ندركه ولم نُحِسّ به .

وذلك على خلاف دور الأب فهو محسوس ومعروف للابن ، فأبوه الذى يوفر له كل ما يحتاج إليه ، وكلما طلب شيئاً قالوا : حينما يأتى أبوك ، فدَوْر الأب - إذن - معلوم لا يحتاج إلى بيان .

والآية هنا أوصتْ بالوالدين فى حال الكِبَر ، فلماذا خَصَّتْ هذه الحال دون غيرها ؟

قالوا : لأن الوالدين حال شبابهما وقُوتهما ليسا مظنّة الإهانة والإهمال ، ولا مجال للتأفف والتضجُّر منهما ، فهما فى حال القوة والقدرة على مواجهة الحياة ، بل العكس هو الصحيح نرى الأولاد فى هذه الحال يتقربون للآباء ، ويتمنون رضاهما ، لينالوا من خيرهما .

لكن حالة الكِبَر ، ومظهر الشيخوخة هو مظهر الإعالة والحاجة والضعف ، فبعد أنْ كان مُعْطياً أصبح آخذاً ، وبعد أنْ كان عائلاً أصبح عالة .

لذلك ، فالنبى ﷺ فى حديث الآمينات والمراغم ، وكان على المنبر ، فسمعه الصحابة يقول : آمين . ثم سكت برهة . وقال : آمين وسكت . ثم قال : آمين . فلما نزل قالوا : يا رسول الله سمعناك تقول : آمين ثلاثاً . فقال :

جاءنى جبريل فقال : رغم أنف مَنْ ذُكرْتَ عنده ولم يُصلِّ عليك ، قل : آمين . فقلت : آمين ، ورغم أنف مَنْ أدرك رمضان فلم يُغفر له ، قل : آمين . فقلت : آمين ، ورغم أنف مَنْ أدرك والديه -

أو أحدهما ـ فلم يدخل بهما الجنة ، قل : آمين . فقلت : آمين »[(١)] .

فخصَّ الحق سبحانه حال الكِبَر ، لأنه حال الحاجة وحال الضعف ؛ لذلك قال أحد الفلاسفة : خَيْر الزواج مبكره ، فلما سُئل قال : لأنه الطريق الوحيد لإنجاب والد يعولك فى طفولة شيخوختك ، وشبَّه الشيخوخة بالطفولة لأن كليهما فى حال ضعف وحاجة للرعاية والاهتمام .

وصدق الحق سبحانه حين قال : ﴿ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً .. (٥٤) ﴾ [الروم]

فَمَنْ تزوّج مبكراً فسوف يكون له من أولاده مَنْ يُعينه ويساعده حال كِبَره .

والمتأمل فى قوله تعالى : ﴿ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ .. (٢٣) ﴾ [الإسراء]

لم تَأت صفَة الكِبَر على إطلاقها ، بل قيّدها بقوله : ﴿ عِنْدَكَ ﴾ فالمعنى : ليس لهما أحد غَيرك يرعاهما ، لا أخ ولا أخت ولا قريب يقوم بهذه المهمة ، وما دام لم يَعُدْ لهما غيرك فلتكُنْ على مستوى المسئولية ، ولا تتنصَّل منها ؛ لأنك أَوْلى الناس بها .

ويمتد البِرُّ بالوالدين إلى ما بعد الحياة بالاستغفار لهما ، وإنجاز ما أحدثاه من عهد ، ولم يتمكّنا من الوفاء به ، وكذلك أن نصِلَ الرحم

---

(١) أخرج أحمد فى مسنده (٢/٣٤٦) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال ﷺ : « رغم أنف ، رغم أنف ، رغم أنف رجل أدرك والديه ، أحدهما أو كلاهما عنده الكبر لم يدخله الجنة » . وأخرجه بطوله دون ذكر جبريل ، الترمذى فى سننه (٣٥٤٥) وقال : حديث حسن غريب .

التى لا تُوصلَ إلا بهما من قرابة الأب والأم ، ونَصِلَ كذلك أصدقاءهما وأحبابهما ونَودَّهم .

وقد كان ﷺ يودّ صاحبات السيدة خديجة ـ رضى الله عنها ـ وكان يستقبلهن ويكرمهن[١] .

وانظر إلى سُمُوِّ هذا الخلق الإسلامى ، حينما يُعدِّى هذه المعاملة حتى إلى الكفار ، فقد جاءت السيدة أسماء إلى رسول الله ﷺ تسأله فى أمها التى أتتْها ، وأظهرت حاجة مع أنها كافرة ، فقال لها : « صِلِي أمك »[٢] .

بل وأكثر من ذلك ، إنْ كان الوالدان كافرين ليس ذلك فحسب بل ويدعوان الابن إلى الكفر ، ويجاهدانه عليه ، ومع هذا كله يقول الحق سبحانه : ﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا .. ﴿١٥﴾ ﴾ [لقمان]

فهذه ارتقاءات ببرّ الوالدين تُوضّح عظمة هذا الدين ورحمة الخالق سبحانه بالوالدين حتى فى حال كفرهما ولَدَدهما[٣] فى الكفر .

---

(١) عن عائشة رضى الله عنها قالت : استأذنت هالة بنت خويلد ، أخت خديجة ، على رسول الله ﷺ فعرف استئذان خديجة ، فارتاح لذلك ، فقال : « اللهم هالة بنت خويلد » فغرت فقلت : وما تذكر من عجوز من عجائز قريش حمراء الشدقين ، هلكت فى الدهر ، فأبدلك الله خيراً منها . أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٤٣٧) وفى حديث آخر (٢٤٣٤) أنه كان إذا ذبح شاة قال : « أرسلوا بها إلى أصدقاء خديجة » .

(٢) عن أسماء بنت أبى بكر قالت : قدمت علىّ أمى وهى مشركة فى عهد قريش إذ عاهدهم ، فاستفتيت رسول الله ﷺ فقلت : يا رسول الله قدمت علىّ أمى وهى راغبة ، أفأصل أمى ؟ قال : نعم . صلى أمك » . أخرجه مسلم فى صحيحه (١٠٠٣) والبخارى فى صحيحه (٥٩٧٩) .

(٣) اللدد : العداوة الشديدة . والشديد الخصومة . [لسان العرب ـ مادة : لدد] .

ويُرْوَى أن خليل الله إبراهيم ـ عليه السلام ـ جاءه ضيف بليل ، وأراد أن ينزل فى ضيافته ، فسأله إبراهيم ـ عليه السلام ـ عن دينه فقال : مجوسى فأعرض عنه وتركه يذهب . فَسرْعان ما أوحى الحق سبحانه إلى إبراهيم مُعاتباً إياه فى أمر هذا الضيف : يا إبراهيم لقد وَسعْتُه فى ملكى أعواماً عديدة ، أطعمه وأسقيه وأكسوه وهو كافر بى ، وأنت تُعرض عنه وتريد أنْ تُغيّر دينه من أجل ليلة يبيتها عندك . فأسرع الخليل خلف الضيف حتى لحق به ، وحكى له ما حدث ، فقال الرجل . نعْم الرب ربٌّ يعاتب أحبابه فى أعدائه ، وشهد أن لا إله إلا الله ، وأن إبراهيم رسول الله .

وقد رأى المستشرقون لضيق أُفُقهم وقلّة فقْههم لأسلوب القرآن الكريم ، رأَوْا تناقضاً بين قوله تعالى : ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا.. (١٥)﴾ [لقمان]

وبين قوله تعالى : ﴿لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ.. (٢٢)﴾ [المجادلة]

فكيف يأمر القرآن بمصاحبة الوالدين وتقديم المعروف لهما ، فى حين ينهى عن مودّة مَنْ حَادّ الله ورسوله ؟

ولو فَهِم هؤلاء مُعْطيات الأسلوب العربى الذى جاء به القرآن لعلموا أن المعروف غير الودّ ؛ لأن المعروف يصنعه الإنسان مع مَنْ يحب ، ومع مَنْ يكره ، مع المؤمن ومع الكافر ، تُطعمه إذا جاع ، وتسقيه إذا عطش ، وتستره إنْ كان عرياناً ، أما المودة فلا تكون إلا لمَنْ تحب ؛ لأنها عمل قلبىّ .

وقوله تعالى : ﴿فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا (٢٣)﴾ [الإسراء]

وهذا توجيه وأدب إلهىّ يُراعِى الحالة النفسية للوالدين حال كِبَرهما ، وينصح الأبناء أن يكونوا على قدر من الذكاء والفطْنة والأدب والرِّفْق فى التعامل مع الوالدين فى مثل هذه السن .

الوالد بعد أنْ كان يعطيك وينفق عليك أصبح الآن مُحتاجاً إليك ، بعد أنْ كان قوياً قادراً على السعى والعمل أصبح الآن قعيدَ البيت أو طريحَ الفراش ، إذن : هو فى وَضْع يحتاج إلى يقظة ولباقة وسياسة عالية ، حتى لا نجرح مشاعره وهى مُرْهفة فى هذه الحال .

وتأمل قول الله تعالى : ﴿فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ .. (٢٣)﴾ [الإسراء]

وهى لفظة بسيطة أقلّ ما يقال ، وهذه لفظة قَسْرية تخرج من صاحبها قهراً دون أن تمر على العقل والتفكير ، وكثيراً ما نقولها عند الضيق والتبرُّم من شىء ، فالحق سبحانه يمنعك من هذا التعبير القَسْرى ، وليس الأمر الاختيارى .

و ﴿ أُفٍّ ﴾ اسم فعل مضارع بمعنى : أتضجر ، وهذه الكلمة تدل على انفعال طبيعى ، ولكن الحق سبحانه يُحذِّرك منه ، ويأمرك بأن تتمالكَ مشاعرك ، وتتحكّم فى عواطفك ، ولا تنطق بهذه اللفظة .

ومعلوم أنه سبحانه إذا نهانى عن هذه فقد نهانى عن غيرها من باب أوْلى ، وما دامتْ هى أقلّ لفظة يمكن أنْ تُقال . إذن : نهانى عن القول وعن الفعل أيضاً .

ثم أكّد هذا التوجيه بقوله : ﴿وَلا تَنْهَرْهُمَا .. (٢٣)﴾ [الإسراء]

والنهر هو الزَّجْر بقسوة ، وهو انفعال تَالٍ للتضجُّر وأشدّ منه قسوة ، وكثيراً ما نرى مثل هذه المواقف فى الحياة ، فلو تصوَّرنا الابن يعطى والده كوباً من الشاى مثلاً فارتعشت يده فأوقع الكوب فوق سجادة ولده الفاخرة ، وسريعاً ما يتأفّف الابن لما حدث لسجادته ، ثم يقول للوالد من عبارات التأنيب ما يؤلمه ويجرح مشاعره .

إذن : كُنْ على حذر من التأفف ، ومن أن تنهر والديك ، كُنْ على حذر من هذه الألفاظ التى تسبق إلى اللسان دون فِكْر ، ودون تعقّل .

ثم بعد هذا النهى المؤكد يأتى أمر جديد ليؤكد النهى السابق : ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا (٢٣)﴾ [الإسراء]

وفى هذا المقام تُرْوَى قصة الشاب الذى أوقع أبوه إناء الطعام على ثيابه ، فأخذ الولد يلعق الطعام الذى وقع على ثوبه وهو يقول لوالده : أطعمك الله كما أطعمتنى ، فحوّل الإساءة إلى جميل يُحمَد عليه .

والآخر الذى ذهب يتمرّغ تحت أقدام أمه ، فقالت له : كفى يا بنى ، فقال : إنْ كنتِ تُحبِّيننى حقاً فلا تمنعينى من عمل يُدخِلنى الجنة .

والقول الكريم هنا نوع من التصرُّف واللباقة فى معاملة الوالدين ، خاصة حال الشيخوخة التى قد تُقعد صاحبها ، أو المرض الذى يحتاج إلى مساعدة الغير ، والأولاد هم أَوْلَى الناس بإعالة الوالدين فى

هذه الظروف ، حيث سيبدو من الإنسان مَا لا يصح الاطلاع عليه إلا لأولاده وأقرب الناس إليه .

وهَبْ أن الوالد المريض أو الذى بلغ من الكِبَر عتياً يريد أنْ يقضى حاجته ، ويحتاج لمن يحمله ويُقعده ويُريحه ، وينبغى هنا أن يقول الابن لأبيه : هَوِّن عليك يا والدى ، وأعطنى فرصة أردّ لك بعض جميلك علىَّ ، فلكَمْ فعلتَ معى أكثر من هذا .

وهو مع ذلك يكون مُحباً لوالده ، رفيقاً به ، حانياً عليه لا يتبرّم به ، ولا يتضجر منه ، هذا هو القول الكريم الذى ينتقيه الأبناء فى المواقف المختلفة .

فمثلاً : قد يزورك أبوك فى بيتك وقد يحدث منه أنْ يكسر شيئاً من لوازم البيت ، فتقول له فى هذا الموقف : فداك يا والدى ، أو تقول : لا عليك لقد كنت أفكر فى شراء واحدة أحدث منها . أو غيره من القول الكريم الذى يحفظ للوالدين كرامتهما ، ولا يجرح شعورهما .

وكثيراً ما يأتى المرض مع كِبَر السن ، فترى الوالد طريحَ الفراش أو مشلولاً ـ عافانا الله وإياكم ـ لذلك فهو فى أمسِّ الحاجة لمن يُخفّف عنه ويُواسيه ، ويفتح له باب الأمل فى الشفاء ويُذكّره أن فلاناً كان مثله وشفاه الله ، وفلاناً كان مثله وأخذ الله بيده ، وهو الآن بخير ، وهكذا .

ومع هذا ، كُنْ على ذِكْر لفضل الوالدين عليك ، ولا تَنْسَ ما كان عندهما حال طفولتك من عاطفة الحب لك والحنان عليك ، وأن الله

تعالى جعل هذه العاطفة الأبوية تقوى مع ضعفك ، وتزيد مع مرضك وحاجتك ، فترى الابن الفقير محبوباً عن أخيه الغنى ، والمريض أو صاحب العاهة محبوباً عن الصحيح ، والغائب محبوباً عن الحاضر ، والصغير محبوباً عن الكبير ، وهكذا على قَدْر حاجة المربَّى يكون حنان المربِّى .

إذن : نستطيع أن نأخذَ من هذا إشارة دقيقة يجب ألاَّ نغفل عنها ، وهى : إنْ كان بر الوالدين واجباً عليك فى حال القوة والشباب والقدرة ، فهو أوجب حالَ كبرهما وعجزهما ، أو حال مرضهما .

ثم يرشدنا الحق سبحانه إلى حسن معاملة الوالدين ، فيقول :

﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ ﴾

﴿ وَاخْفِضْ ﴾ : الخفْض ضد الرّفْع .

﴿ جنَاحَ الذُّلِّ ﴾ : الطائر معروف أنه يرفع جناحه ويُرفْرِف به ، إنْ أراد أن يطير ، ويخفضه إنْ أراد أن يحنوَ على صغاره ، ويحتضنهم ويغذيهم .

وهذه صورة مُحسَّة لنا ، يدعونا الحق سبحانه وتعالى أن نقتدى بها ، وأن نعامل الوالدين هذه المعاملة ، فنحنو عليهم ، ونخفض لهم الجناح ، كنايةً عن الطاعة والحنان والتواضع لهما ، وإياك أن تكون كالطائر الذى يرفع جناحيه ليطير بهما مُتعالياً على غيره .

وكثيراً ما يُعطينا الشرع الحكيم أمثلة ونماذج للرأفة والرحمة فى الطيور ، ويجعلها قدوة لنا بنى البشر . والذى يرى الطائر يحتضن صغاره تحت جناحه ، ويزقّهم[1] الغذاء يرى عجباً ، فالصغار لا يقدرون على مضغ الطعام وتكسيره ، وليس لديهم اللعاب الذى يساعدهم على أنْ يزدردوا الطعام ، فيقوم الوالدان بهذه المهمة ، ثم يناولانهم غذاءهم جاهزاً يسهل بلْعه ، وإنْ تيسر لك رؤية هذا المنظر فسوف ترى الطائر وفراخه يتراقصون فرحة وسعادة .

إذن : قوله تعالى : ﴿جَنَاحَ الذُّلِّ .. (٢٤)﴾ [الإسراء]

كناية عن الخضوع والتواضع ، والذُّل قد يأتى بمعنى القهر والغلبة ، وقد يأتى بمعنى العطف والرحمة ، يقول تعالى : ﴿يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ .. (٥٤)﴾ [المائدة]

فلو كانت الذلّة هنا بمعنى القهر لقال : أذلة للمؤمنين ، ولكن المعنى : عطوفين على المؤمنين . وفى المقابل ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ .. (٥٤)﴾ [المائدة]

أى : أقوياء عليهم قاهرين لهم .

وفى آية أخرى يقول تعالى : ﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ .. (٢٩)﴾ [الفتح]

لأن الخالق سبحانه لم يخلق الإنسان رحيماً على الإطلاق ،

---

(١) زقّه : أطعمه بفيه (بفمه) . [لسان العرب ـ مادة : زقق] .

ولا شديداً على الإطلاق ، بل خلق فى المؤمن مرونة تمكِّنه أن يتكيف تبعاً للمواقف التى يمر بها ، فإنْ كان على الكافر كان عزيزاً ، وإنْ كان على المؤمن كان ذليلاً متواضعاً .

ونرى وضوحَ هذه القضية فى سيرة الصِّديق أبى بكر والفاروق عمر رضى الله عنهما ، وقد عُرِف عن الصِّديق اللين ورِقّة القلب والرحمة ، وعُرِف عن عمر الشدة فى الحق والشجاعة والقوة ، فكان عمر كثيراً ما يقول لرسول الله ﷺ إذا تصادم بأحد المعاندين : « إئذن لى يا رسول الله أضرب عنقه »[(١)] .

وعندما حدثت حروب الردة بعد وفاة الرسول ﷺ كان لكل منهما موقف مغاير لطبيعته ، فكان مِنْ رأى عمر ألاّ يحاربهم فى هذه الفترة الحرجة من عمر الدعوة ، فى حين رأى الصديق محاربتهم والأخْذ على أيديهم بشدة حتى يعودوا إلى ساحة الإسلام ، ويُذعنوا لأمر الله تعالى فقال : « والله ، لو منعونى عقالاً كانوا يُؤدُّونه لرسول الله لجالدتهم عليه بالسيف ، والله لو لم يَبْقَ إلا الزرع »[(٢)] .

وقد جاء هذا الموقف من الصِّديق والفاروق لحكمة عالية ، فلو قال عمر مقالة أبى بكر لكان شيئاً طبيعياً يُنْسب إلى شدة عمر

---

(١) وقد روت لنا السنة طرفاً من هذا ، فعن أبى سعيد الخدرى قال : بينما نحن عند رسول الله ﷺ وهو يقسم قسْماً أتاه ذو الخويصرة ، وهو رجل من بنى تميم . فقال : يا رسول الله اعدل . قال رسول الله ﷺ : « ويلك من يعدل إن لم أعدل ؟ قد خبت وخسرت إن لم أعدل » فقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : يا رسول الله ، ائذن لى فيه أضرب عنقه . أخرجه مسلم فى صحيحه (٢/٧٤٤) كتاب الزكاة ـ باب ذكر الخوارج وصفاتهم .

(٢) متفق عليه ـ أخرجه البخارى فى صحيحه (٧٢٨٤ ، ٧٢٨٥) وكذا مسلم فى صحيحه (٢٠) كتاب الإيمان . من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

وجـرأته ، لكنه أتى من صـاحب الـقلب الرحـيم الصِّـديق ـ رضى الله عنه ـ ليعرف الجميع أن الأمـر ليس للشدة لذاتها ، ولكن للحفاظ على الدين والدفاع عنه .

وكـأن المـوقف هو الذى صنع أبا بكـر ، وتطلب منه هذه الشـدة التى تغلبت على طابع اللين السائد فى أخلاقه .

فيقول تعالى :﴿ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ.. (٢٤) ﴾[الإسراء]

إذن : الذلَّة هنا ذلَّة تواضع ورحمة بـالوالدين ، ولكن رحمتك أنت لا تكفى ، فعليك أن تطلب لهما الرحـمة الكبرى من الله تعالى : ﴿ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً (٢٤) ﴾ [الإسراء]

لأن رحمتك بهـما لا تَفِى بما قدّموه لك ، ولا ترد لهمـا الجميل ، وليس البادىء كالمكافىء ، فهم أحسنوا إليك بداية وأنت أحسنتَ إليهما ردّاً ؛ لذلك ادْعُ الله أنْ يرحـمـهـمـا ، وأنْ يتكـفل سـبـحـانه عنك برد الجميل ، وأن يرحمهما رحمة تكافىء إحسانهما إليك .

وقوله تعالى : ﴿ كَمَا رَبَّيَانِي .. (٢٤) ﴾ [الإسراء]

كمـا : قد تفـيد التشـبيه ، فـيكون المعنى : ارحـمهمـا رحمـة مثل رحمتهما بى حين ربيانى صغيـراً . أو تفيد التعليل : أى ارحمهما لأنهما ربيانى صغيراً ، كما قال تعالى : ﴿ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ.. (١٩٨) ﴾ [البقرة]

و ﴿ رَبَّيَـانِى ﴾ هذه الكلـمة أدخـلت كل مُـربٍّ للإنسـان فى هذا الحكم ، وإنْ لم يكُنْ من الوالدين ، لأن الولد قد يُربّيه غير والديه لأىِّ ظرف من الظروف ، والحكم يدور مع العلة وجوداً وعَدماً ، فإنْ ربّاك

غيـر والديك فلهمـا ما للوالدين من البـرِّ والإحسـان وحُسْن المـعاملة والدعاء .

وهذه بشـرى لمن رَبَّى غـير ولده ، ولا سـيـما إنْ كـان المـربَّى يتيماً ، أو فى حكم اليتيم .

وفى ﴿ رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ ﴾ [الإسراء] اعتراف من الابن بما للوالدين من فضل عليه وجميل يستحق الرد .

وبعد ذلك يأتى الحق سبحانه فى تذييل هذا الحـكم بقضية تشترك فيها معاملة الابن لأبويه مع معاملته لربه عز وجل ، فيقول تعالى :

﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ (١) غَفُورًا ﴿٢٥﴾ ﴾

وقـد سـبق أنْ تكلّمنا عن الإيـمـان والنفـاق ، وقلنا : إن المـؤمن منطقىّ مع نفسـه ؛ لأنه آمن بقلبه ولسانه ، وأن الكافـر كذلك منطقىّ لأنه كفر بقلبه ولسانه ، أما المنافق فغير منطقى مع نفسه ؛ لأنه آمن بلسانه وجحد بقلبه .

وهذه الآية تدعـونا إلى الـحـديث عن الـنفـاق ؛ لأنـه ظاهرة من الظواهر المصاحـبة للإيمان بالله ، وكما نعلم فـإن النفاق لم يظهر فى مكة التى صـادمتْ الإسـلام وعاندته ، وضـيقتْ عـليه ، بل ظهـر فى

---

(١) الأوابون : هم الذين يذكـرون ذنوبهم فى الخلاء ثم يستـغفـرون الله عز وجل . [تفسـير القرطبى ٥/٣٩٧٥] .

المدينة التي احتضنتْ الدين ، وانساحت به فى شتى بقاع الأرض ، وقد يتساءل البعض : كيف ذلك ؟

نقول : النفاق ظاهرة صحية إلى جانب الإيمان ؛ لأنه لا يُنافَق إلا القوى ، والإسلام فى مكة كان ضعيفاً ، فكان الكفار يُجابهونه ولا ينافقونه ، فلما تحوّل إلى المدينة اشتد عوده ، وقويتْ شوكته ، وبدأ ضِعَاف النفوس ينافقون المؤمنين .

لذلك يقول أحدهم : كيف وقد ذَمَّ الله أهل المدينة ، وقال عنهم : ﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا[1] عَلَى النِّفَاقِ .. (١٠١) ﴾ [التوبة]

نقول : لقد مدح القرآن أهل المدينة بما لا مزيدَ عليه ، فقال تعالى فى حقهم : ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا[2] الدَّارَ وَالإِيمَانَ .. (٩) ﴾ [الحشر]

وكأنه جعل الإيمان مَحَلاً للنازلين فيه .

﴿ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ[3] .. (٩) ﴾ [الحشر]

فإنْ قال بعد ذلك : ﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ .. (١٠١) ﴾ [التوبة]

---

(١) مردوا على النفاق : أقاموا عليه لم يتوبوا كما تاب آخرون . وقال ابن جريج : ماتوا عليه ، عبد الله بن أُبىّ ، وأبو عامر الراهب ، والجد بن قيس . [تفسير الدر المنثور للسيوطى ٢٧٣/٤] .

(٢) أى : سكنوا دار الهجرة وهى المدينة أولاً ، وهم الأنصار ، وعطف الإيمان على الدار كأنه منزل طيب يسكنه الإنسان ويستريح فيه . [القاموس القويم ٨٨/١] .

(٣) الخصاصة : الفقر وسوء الحال والحاجة إلى الشىء . [لسان العرب ـ مادة : خصص] .

فالنفاق فى المدينة ظاهرة صحية للإيمان ؛ لأن الإيمان لو لم يكن قوياً فى المدينة لما نافقه المنافقون .

ومن هنا جعل الله المنافقين فى الدرْك الأسفل من النار ، لأنه مُندَسٌّ بين المؤمنين كواحد منهم ، يعايشهم ويعرف أسرارهم ، ولا يستطيعون الاحتياط له ، فهو عدو من الداخل يصعُب تمييزه . على خلاف الكافر ، فعداوته واضحة ظاهرة معلنة ، فيمكن الاحتياط له وأخذ الحذر منه .

ولكن لماذا الحديث عن النفاق ونحن بصدد الحديث عن عبادة الله وحده وبِرِّ الوالدين ؟

الحق سبحانه وتعالى أراد أنْ يُعطينا إشارة دقيقة إلى أن النفاق كما يكون فى الإيمان بالله ، يكون كذلك فى برِّ الوالدين ، فنرى من الأبناء مَنْ يبرّ أبويْه نفاقاً وسُمْعة ورياءً ، لا إخلاصاً لهما ، أو اعترافاً بفضلهما ، أو حِرْصاً عليهما .

ولهؤلاء يقول تعالى : ﴿ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ .. (٢٥) ﴾ [الإسراء]

لأن من الأبناء مَنْ يبرّ أبويه ، وهو يدعو الله فى نفسه أنْ يُريحه منهما ، فجاء الخطاب بصيغة الجمع : ﴿ رَبّكُم ﴾ أى : رب الابن ، وربّ الأبوين ؛ لأن مصلحتكم عندى سواء ، وكما ندافع عن الأب ندافع أيضاً عن الابن ، حتى لا يقعَ فيما لا تُحمد عُقباه .

وقوله : ﴿ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ .. (٢٥) ﴾ [الإسراء]

أىْ : إنْ توفّر فيكم شَرْط الصلاح ، فسوف يُجازيكم عليه الجزاء الأوفى . وإنْ كان غير ذلك وكنتم فى أنفسكم غير صالحين غَيْر

مخلصين ، فارجعوا من قريب ، ولا تستمروا فى عدم الصلاح ، بل عودوا إلى الله وتوبوا إليه .

﴿ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُوراً (٢٥) ﴾ [الإسراء]

والأوابون هم الذين اعترفوا بذنوبهم ورجعوا تائبين إلى ربهم .

وقد سبق أنْ أوضحنا أن مشروعية التوبة من الله للمذنبين رحمةٌ من الخالق بالخلق ؛ لأن العبد إذا ارتكب سيئة فى غفلة من دينه أو ضميره ، ولم تشرع لها توبة لوجدنا هذه السيئة الواحدة تطارده ، ويشقى بها طِوَال حياته ، بل وتدعوه إلى سيئة أخرى ، وهكذا يشقى به المجتمع .

لذلك شرع الخالقُ سبحانه التوبة ليحفظ سلامة المجتمع وأمْنه ، وليُثرِى جوانب الخير فيه .

ثم يُوسّع القرآن الكريم دائرة القرابة القريبة وهي « الوالدان » إلى دائرة أوسع منها ، فبعد أنْ حنَّنه على والديه لفتَ نظره إلى ما يتصل بهما من قرابة ، فقال تعالى :

﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا (٢٦) ﴾

الحق سبحانه بعد أنْ حنَّن الإنسان على والديْه صعَّد المسألة فحنَّنه على قرابة أبيه وقرابة أمه ، فقال : ﴿ وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ .. (٢٦) ﴾ [الإسراء]

﴿ حَقَّهُ ﴾ لأن الله تعالى جعله حَقّاً للأقارب إنْ كانوا فى حاجة ، وإلا فلو كانا غير محتاجين ، فالعطاء بينهما هدية متبادلة ، فكل قريب

يُهادى أقرباءه ويهادونه . والحق سبحانه وتعالى يريد أن يُشيعَ فى المجتمع روحِ التكافل الاجتماعى .

لذلك كان بعض فقهاء الأندلس إذا منع الرجل زكاةً تقرُب من النِّصاب أمر بقطع يده ، كأنه سرقه ؛ لأن الله تعالى أسماه (حقاً) فمَنْ منع صاحب الحق من حقه ، فكأنه سرقه منه .

وقد سلك فقهاء الأندلس هذا المسلك ، لأنهم فى بلاد ترف وغنى ، فتشدّدوا فى هذه المسألة ؛ لأنه لا عُذْر لأحد فيها[1] .

لذلك ، لما جاء أحد خلفائهم إلى المنذر بن سعيد ، وقال : لقد حلفتُ يميناً ، وأرى أن أُكفِّر عنه فأفتاه بأن يصوم ثلاثة أيام ، فقال أحدهم : لقد ضيّقتَ واسعاً فقد شرع الله للكفارة أيضاً إطعامَ عشرة مساكين أو كسوتهم أو تحرير رقبة ، فرد عليه المنذر قائلاً : أو مثلُ أمير المؤمنين يُزْجَر بإطعام عشرة مساكين أو كسوتهم ؟ إنه يفعل ذلك فى اليوم لألْف وأكثر ، وإنما يزجره الصوم ، وهكذا أخذوا الحكم بالروح لا بالنص ؛ ليتناسب مع مقدرة الخليفة ، ويُؤثِّر فى رَدْعه وزَجْره .

وكلمة (حق) وردت فى القرآن على معنيين :

الأول : فى قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ (٢٤) ﴾ [المعارج]

والحق المعلوم هو الزكاة .

---

(١) جاء فى كتاب المغنى لابن قدامة (٢/٤٣٥) فى حكم مانع الزكاة : « إن منعها معتقداً وجوبها وقدر الإمام على أخذها منه أخذها وعزره ولم يأخذ زيادة عليها فى قول أكثر أهل العلم منهم أبو حنيفة ومالك والشافعى و أصحابهم ، وكذلك إن غل ماله وكتمه حتى لا يأخذ الإمام زكاته فظهر عليه ، يأخذها وشطر ماله » .

أما الحق الآخر فحقٌّ غير معلوم وغير موصوف ، وهو التطوع والإحسان ، حيث تتطوَّع لله بجنس ما فرضه عليك ، كما قال تعالى :

﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩) ﴾ [الذاريات]

ولم يقل : « معلوم » : لأنه إحسان وزيادة عَمَّا فرضه الله علينا .

ويجب على من يُؤْتى هذا الحق أن يكون سعيداً به ، وأن يعتبره مَغْنماً لا مَغْرماً ؛ لأن الدنيا كما نعلم أغيار تتحول وتتقلب بأهلها ، فالصحيح قد يصير سقيماً ، والغنى قد يصير فقيراً وهكذا ، فإعطاؤك اليوم ضمانٌ لك فى المستقبل ، وضمان لأولادك من بعدك ، والحق الذى تعطيه اليوم هو نفسه الذى قد تحتاجه غداً ، إنْ دارتْ عليك الدائرة .

إذن : فالحق الذى تدفعه اليوم لأصحابه تأمين لك فى المستقبل يجعلك تجابه الحياة بقوة ، وتجابه الحياة بغير خور وبغير ضعف ، وتعلم أن حقك محفوظ فى المجتمع ، وكذلك إنْ تركتَ أولادك فى عوزٍ وحاجة ، فالمجتمع مُتكفِّل بهم .

وصدق الله تعالى حين قال : ﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا (٩) ﴾ [النساء]

ولذلك ، فالناس أصحاب الارتقاء والإثراء لورعهم لا يعطون الأقارب من أموال الزكاة ، بل يخصُّون بها الفقراء الأباعد عنهم ،

ويُعْطون الأقارب من مالهم الخاص مساعدة وإحساناً .

و (المسْكِين) هو الذى يملك وله مال ، لكن لا يكفيه ، بدليل قول الحق سبحانه : ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ..(٧٩)﴾ [الكهف]

أما الفقير فهو الذى لا يملك شيئاً ، وقد يعكس البعض فى تعريف المسكين والفقير ، وهذا فهم خاطىء .

و ﴿وَابْنَ السَّبِيلِ..(٢٦)﴾ [الإسراء]

السبيل هو الطريق ، والإنسان عادةً يُنْسَب إلى بلده ، فنقول : ابن القاهرة ، ابن بورسعيد ، فإنْ كان منقطعاً فى الطريق وطرأتْ عليه من الظروف ما أحوجه للعون والمساعدة ، وإن كان فى الحقيقة صاحب يَسَارٍ وَغِنىً ، كأن يُضيع ماله فله حَقٌّ فى مال المسلمين بقدر ما يُوصِّله إلى بلده .

وابن السبيل إذا طلب المساعدة لا تسأله عن حقيقة حاله ، لأن له حقاً واجباً فلا تجعله فى وضع مذلّة أو حرج .

﴿وَلا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً (٢٦)﴾ [الإسراء]

كما قال تعالى فى آية أخرى : ﴿وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (١٤١)﴾ [الأنعام]

فالتبذير هو الإسراف ، مأخوذ من البذر ، وهو عملية يقوم بها الفلاح فيأخذ البذور التى يريد زراعتها ، وينثرها بيده فى أرضه ،

فإذا كان متقناً لهذه العملية تجده يبذر البذور بنسب متساوية ، بحيث يوزع البذور على المساحة المراد زراعتها ، وتكون المسافة بين البذور متساوية .

وبذلك يفلح الزرع ويعطى المحصول المرجو منه ، أما إنْ بذرَ البذور بطريقة عشوائية وبدون نظام نجد البذور على مسافات غير متناسبة ، فهى كثيرة فى مكان ، وقليلة فى مكان آخر ، وهذا ما نُسمِّيه تبذيراً ، لأنه يضع الحبوب فى موضع غير مناسب ؛ فهى قليلة فى مكان مزدحمة فى آخر فَيُعاق نموّها .

لذلك ، فالحق سبحانه آثر التعبير عن الإسراف بلفظ (التبذير) ؛ لأنه يضع المال فى غير موضعه المناسب ، وينفق هكذا كلما اتفق دون نظام ، فقد يعطى بسخاء فى غير ما يلزم ، فى حين يمسك فى الشىء الضرورى .

إذن : التبذير : صَرْف المال فى غير حِلِّه ، أو فى غير حاجة ، أو ضرورة .

والنهى عن التبذير هنا قد يُراد منه النهى عن التبذير فى الإيتاء ، يعنى حينما تعطى حَقّ الزكاة ، فلا تأخذك الأريحية الإيمانية فتعطى أكثر مما يجب عليك ، وربما سمعتَ ثناء الناس وشكرهم فتزيد فى عطائك ، ثم بعد ذلك وبعد أن تخلوَ إلى نفسك ربما ندمتَ على ما فعلتَ ، ولُمْتَ نفسك على هذا الإسراف .

وقد يكون المعنى : أعْطِ ذا القربى والمساكين وابن السبيل ،

ولكن لا تُبذِّر فى الأمور الأخرى ، فالنهى هنا لا يعود إلى الإيتاء ، بل إلى الأمور التافهة التى يُنفَق فيها المال فى غير ضرورة[١] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ ﴾

كلمة (أخ) تُجمع على إخْوة و إخْوان .

وإخوة : تدلّ على أُخوّة النسب ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ .. ﴿٥٨﴾ ﴾ [يوسف]

وتدل أيضاً على أخوة الخير والورع والتقوى ، كما فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ .. ﴿١٠﴾ ﴾ [الحجرات]

ومنها قوله تعالى عن السيدة مريم : ﴿ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ .. ﴿٢٨﴾ ﴾[مريم]

والمقصود : هارون أخو موسى ـ عليهما السلام ـ وبينهما زمن طويل يقارب أحد عشر جيلاً ، ومع ذلك سماهما القرآن إخوة أى أخوّة الورع والتقوى .

أما : إخوان ، فتدل على أن قوماً اجتمعوا على مبدأ واحد ، خيراً كان أو شراً ، فقد تدلّ على الاجتماع فى الخير ، كما فى قوله

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٥/٣٩٧٦) : « من أنفق ماله فى الشهوات زائداً على قدر الحاجات ، وعرَّضه بذلك للنفاد فهو مبذر ، ومن أنفق ربح ماله فى شهواته وحفظ الأصل أو الرقبة فليس بمبذر ، ومن أنفق درهماً فى حرام فهو مبذر ، ويُحجر عليه فى نفقته الدرهم فى الحرام ، ولا يحجر عليه إن بذله فى الشهوات إلا إذا خيف عليه النفاد » .

تعالى : ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا .. (١٠٣)﴾ [آل عمران]

وقد تدل على الاجتماع فى الشر ، كما فى قوله تعالى : ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ .. (٢٧)﴾ [الإسراء]

فكأن المبذرين اجتمعوا مع الشياطين فى هوية واحدة ، ووُدٍّ واحد ، وانتظمتهما صفات واحدة من الشر .

إذن : كلمة (إِخْوَة) تدل على أُخُوّة النسب ، وقد تتسامى لتدل على أُخوّة الإيمان التى تنهار أمام قوتها كل الأواصر . ونذكر هنا ما حدث فى غزوة بدر بين أخويْنِ من أسرة واحدة هما « مصعب بن عمير » بعد أن آمن وهاجر إلى المدينة وخرج مع جيش المسلمين إلى بدر وأخوه « أبو عزيز » وكان ما يزال كافراً ، وخرج مع جيش الكفار من مكة ، والتقى الأخوانِ : المؤمن والكافر .

ومعلوم أن « مصعب بن عمير » كان من أغنى أغنياء مكة ، وكان لا يرتدى إلا أفخر الثياب وألينها ، ويتعطر بأثمن العطور حتى كانوا يسمونه مُدلَّل مكة ، ثم بعد أنْ آمنَ تغيّر حاله وآثر الإيمان بالله على كل هذا الغنى والنعيم ، ثم بعثه الرسول ﷺ إلى المدينة ليعلّم الناس أمور دينهم[(١)] ، وفى غزوة أحد رآه رسول الله ﷺ يرتدى جلد شاة ، فقال : « انظروا ما فعل الإيمان بأخيكم »[(٢)] .

---

(١) أخرج أبو نعيم فى الحلية (١٠٧/١) أن أهل المدينة بعثوا إلى رسول الله ﷺ معاذ بن عفراء ورافع بن مالك أن ابعث إلينا رجلاً من قبلك فليدع الناس بكتاب الله ، فإنه حقيق أن يتبع ، فبعث إليهم رسول الله ﷺ مصعب بن عمير .

(٢) أخرجه أبو نعيم فى الحلية (١٠٨/١) من حديث عمر بن الخطاب قال : نظر النبى ﷺ إلى مصعب بن عمير مقبلاً وعليه إهاب كبش قد تنطق به ، فقال النبى ﷺ « انظروا إلى هذا الرجل الذى قد نور الله قلبه . لقد رأيته بين أبوين يغذوانه بأطيب الطعام والشراب ، فدعاه حب الله ورسوله إلى ما ترون » .

فماذا حدث بين الأخوينْ المؤمن والكافر ؟ وأىّ الصلات كانت أقوى : صلة الإيمان بالله ، أم صلة النسب ؟

لما دارتْ المعركة نظر مصعب ، فإذا بأخيه وقد أَسَرَهُ أحد المسلمين اسمه « أبو اليَسَر »[1] فالتفتَ إليه . وقال : يا أبا اليَسَر اشدد على أسيرك ، فأُمّه غنية ، وسوف تفديه بمال كثير .

فنظر إليه « أبو عزيز »[2] وقال : يا مصعب ، أهذه وصاتك بأخيك ، فقال له مصعب : هذا أخى دونك .

فأخوة الدين والإيمان أقوى وأمتن من أخوة النسب ، وصدق الله تعالى حين قال : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ .. (١٠)﴾ [الحجرات]

قوله : ﴿إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ .. (٢٧)﴾ [الإسراء]

أى : أن الحق تبارك وتعالى جعلهما شريكين فى صفة واحدة هى التبذير والإسراف ، فإنْ كان المبذّر قد أسرف فى الإنفاق ووَضْع المال فى غير حلّه وفى غير ضرورة . فإن الشيطانَ أسرف فى المعصية ، فلم يكتف بأن يكون عاصياً فى ذاته ، بل عدّى المعصية إلى غيره وأغوى بها وزيّنها ؛ لذلك وصفه الحق سبحانه بقوله : ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً (٢٧)﴾ [الإسراء]

ليس كافراً فحسب ، بل (كفور) وهى صيغة مبالغة من الكفر ؛ لأنه كَفر وعمل على تكفير غيره .

---

(١) اسمه : كعب بن عمرو الأنصارى السلمى ، شهد العقبة وبدراً ، وهو الذى أسر العباس . قال المدائنى : كان قصيراً دحداحاً (سميناً) عظيم البطن ، مات بالمدينة سنة ٥٥ هجرية . [الإصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر العسقلانى (٢١٨/٧) ترجمة رقم (١٢٤٣) فى الكنى] .

(٢) اسمه : زرارة بن عمير . له صحبة وسماع من النبى ﷺ ، اتفق أهل المغازى على أنه أسر يوم بدر . [الإصابة ١٣٠/٧] .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ ﴾

ولنا أنْ نسأل : عَمَّنْ يكون الإعراض ؟ فقد سبق الحديث عن الوالدين والأقارب والمسكين وابن السبيل ، والإعراض عن هؤلاء لا يتناسب مع سياق الآية لأنه إعراض عن طاعة الله ، بدليل قوله : ﴿ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا .. ﴿٢٨﴾ ﴾ [الإسراء]

فالله تعالى فى ذهنك ، وتبتغى من وراء هذا الإعراض رحمة الله ورزقه وسِعَته . إذن : الإعراض هنا ليس معصية أو مخالفة . فماذا إذن الغرض من الإعراض هنا ؟

نقول : قد يأتيك قريب أو مسكين أو عابر سبيل ويسألك حاجة ، وأنت لا تملكها فى هذا الوقت فتخجل أنْ تواجهه بالمنع ، وتستحى منه ، فما يكون منك إلا أنْ تتوجّه إلى ربّك عز وجل وتطلب منه ما يسدُّ حاجتك وحاجة سائلك ، وأن يجعل لك من هذا الموقف مَخْرجاً .

فالمعنى : إما تُعرضنّ عنهم خجلاً وحياءً أنْ تواجههم ، وليس

---

(١) **سبب نزول الآية** : قال زيد : نزلت الآية فى قوم كانوا يسألون رسول الله ﷺ فيأبى أن يعطيهم ، لأنه كان يعلم منهم نفقة المال فى فساد ، فكان يعرض عنهم رغبة فى الأجر فى منعهم لئلا يعينهم على فسادهم . ذكره القرطبى فى تفسيره (٥/٣٩٧٦) .

عندك ما يسدُّ حاجتهم ، وأنت فى هذا الحال تلجأ إلى الله أنْ يرحمك رحمةً تسعك وتسعهم .

وقوله تعالى : ﴿فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُورًا (٢٨)﴾ [الإسراء]

كما قال فى موضع آخر فى مثل هذا الموقف : ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى .. (٢٦٣)﴾ [البقرة]

فحتى فى حال المنع يجب على المسلم أن يلتزم الأدب ، ولا يجرح مشاعر السائل ، وأنْ يردّه بلين ورفْق ، وأنْ يُظهر له الحياء والخجل ، وألاّ يتكبر أو يتعالى عليه ، وأن يتذكر نعمة الله عليه بأنْ جعله مسئولاً لا سائلاً .

إذن : فالعبارات والأعمال الصالحة فى مثل هذا الموقف لا يكفى فيها أن تقول : ما عندى ، فقد يتهمك السائل بالتعالى عليه ، أو بعدم الاهتمام به ، والاستغناء عنه ، وهنا يأتى دور الارتقاءات الإيمانية والأريحية للنفس البشرية التى تسمو بصاحبها إلى أعلى المراتب .

وتأمل هذا الارتقاء الإيمانى فى قوله تعالى عن أصحاب الأعذار فى الجهاد : ﴿وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ (٩٢)﴾[التوبة]

هذه حكاية بعض الصحابة[1] الذين أتوا رسول الله ليخرجوا معه

---

(١) قال محمد بن كعب القرظى : كانوا : سالم بن عوف ، حرمى بن عمرو ، عبد الرحمن بن كعب أبو ليلى ، فضل الله من بنى المعلى ، عمرو بن عتمة ، عبد الله بن عمرو المزنى .
جاءوا إلى رسول الله ﷺ ليمدهم بالعدة والعتاد ليخرجوا فى سبيل الله فقال لهم : ﴿لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ .. (٩٢)﴾ [التوبة] . فأنزل الله عذرهم فى كتابه فقال : ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٩١)﴾ [التوبة] الآيات .

إلى الجهاد ، ويضعوا أنفسهم تحت أمره وتصرّفه ، فإذا برسول الله ﷺ يعتذر لهم ، فليس لديه من الركائب ما يحملهم عليه إلى الجهاد .

فماذا كان من هؤلاء النفر المؤمنين ؟ هل انصرفوا ولسان حالهم يقول : لقد فعلنا ما علينا ويفرحون بما انتهوا إليه ؟ لا ، بل : ﴿ تَوَلَّوْا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ (٩٢) ﴾ [التوبة]

وهكذا يرتقى الإيمان بأهله ، ويسمو بأصحابه ، فإذا لم يقدروا على الأعمال النزوعية ، فالأعمال القولية ، فإذا لم يقدروا على هذه أيضاً فلا أقلّ من الانفعال العاطفى المعبِّر عن حقيقة الإيمان الذى يفيض دمع الحزْن لضيق ذات اليد .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا (٢٩) ﴾

تحدّث الحق سبحانه وتعالى فى آية سابقة عن المبذِّرين ، وحذّرنا من هذه الصفة ، وفى هذه الآية يقيم الحق سبحانه موازنة اقتصادية تحفظ للإنسان سلامة حركته فى الحياة .

فقوله تعالى : ﴿ وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ .. (٢٩) ﴾ [الإسراء]

واليد عادة تُستخدم فى المنْح والعطاء ، نقول : لفلان يد عندى ، وله علىَّ أيادٍ لا تُعَد ، أى : أن نعمه علىَّ كثيرة ؛ لأنها عادة تُؤدّى باليد ، فقال : لا تجعل يدك التى بها العطاء (مَغْلُولَة) أى : مربوطة

إلى عنقك ، وحين تُقـيّد اليد إلى العنق لا تستطيع الإنفـاق ، فهى هنا كناية عن البُخْل والإمساك .

وفى المقابل : ﴿ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ .. (٢٩) ﴾ [الإسراء]

فـالنهى هنا عن كل البَـسْط ، إذن : فـيُبـاح بعض البـسْط ، وهو الإنفـاق فى حدود الحـاجة والضـرورة . وبَسْط اليد كناية عن الـبَذْل والعطاء ، وهكذا يلـتقى هـذا المعـنى بمـعنى كل من بذَر ومـعنى بذَّر الذى سبق الحديث عنه .

فبذّر : أخـذ حفنة من الحبِّ ، وبَسَط بها يده مرة واحـدة ، فأحدثتْ كومةً من النبات الذى يأكل بعضه بعضاً ، وهذا هو التبذير المنهىّ عنه ، أما الآخر صـاحب الخبرة فى عمليـة البذْر فيأخذ حـفنة الحبِّ ، ويقبض عليها بعض الشىء بالقدر الذى يسمح بتفلّـت حبات التقاوى واحدة بعد الأخرى ، وعلى مسافات متقاربة ومتساوية أى [بَذَرَ] .

وهذا هو حـدّ الاعتـدال المرغـوب فيـه من الشـرع الحكيم ، وهو الوسط ، وكلا طرفيه مذموم .

وقـد أتى هذا المـعنى أيضـاً فى قـول الحق سبـحـانه وتعـالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا (٦٧) ﴾ [الفرقان]

أى : اعتدال وتوسُّط .

إذن : لا تبسط يدك كل الـبَسْط فتنفق كل مـا لديْك ، ولكن بعض البَـسْط الذى يُبقِى لك شـيئـاً تدخـره ، وتتمكن من خـلاله أنْ ترتقىَ بحياتك .

وقد سبق أنْ أوضحنا الحكمة من هذا الاعتدال فى الإنفاق ، وقلنا : إن الإنفاق المتوازن يُثرى حركة الحياة ، ويُسهم فى إنمائها ورُقيّها ، على خلاف القَبْض والإمساك ، فإنه يُعرقل حركة الحياة ، وينتج عنه عطالة وبطالة وركود فى الأسواق وكساد يفسد الحياة ، ويعوق حركتها .

إذن : لابُدّ من الإنفاق لكى تساهم فى سَيْر عجلة الحياة ، ولابُد أن يكون الإنفاق معتدلاً حتى تُبقِى على شىء من دَخْلك ، تستطيع أن ترتقى به ، وترفع من مستواك المادى فى دنيا الناس .

فالمبذر والمسْرف تجده فى مكانه ، لا يتقدم فى الحياة خطوة واحدة ، كيف وهو لا يُبقِى على شىء ؟ وبهذا التوجيه الإلهى الحكيم نضمن سلامة الحركة فى الحياة ، ونُوفِّر الارتقاء الاجتماعى والارتقاء الفردى .

ثم تأتى النتيجة الطبيعية للإسراف والتبذير : ﴿فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا (٢٩)﴾ [الإسراء]

وسبق أنْ أوضحنا أن وضَعْ القعود يدلّ على عدم القدرة على القيام ومواجهة الحياة ، وهو وَضْع يناسب مَنْ أسرف حتى لم يَعُدْ لديه شىء .

وكلمة ﴿ فَتَقْعُدَ ﴾ تفيد انتقاص حركة الحياة ؛ لأن حركة الحياة تنشأ من القيام عليها والحركة فيها ؛ لذلك قال تعالى : ﴿لا يَسْتَوِى الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ..(٩٥)﴾ [النساء]

﴿ مَلُومًا ﴾ أى : أتى بفعل يُلاَم عليه ، ويُؤنَّب من أجله ، وأول مَنْ يلوم المسرفَ أولادهُ وأهلُه ، وكذلك الممسك البخيل ، فكلاهما مَلُوم لتصرُّفه غير المتزن .

﴿ مَحْسُورًا ﴾ أى : نادماً على ما صرْتَ فيه من العدم والفاقة ، أو من قولهم : بعير محسور . أى : لا يستطيع القيام بحمله . وهكذا المسرف لا يستطيع الارتقاء بحياته ، أو القيام بأعبائها وطموحات المستقبل له ولأولاده من بعده .

فإنْ قبضتَ كل القَبْض فأنت مَلُوم ، وإنْ بسطتَ كُلَّ البسْط فتقعد محسوراً عن طموحات الحياة التى لا تَقْوى عليها .

إذن : فكلا الطرفين مذموم ، ويترتب عليه سوء لا تُحمد عُقْباه فى حياة الفرد والمجتمع . إذن : فما القصد ؟

القصد أن يسير الإنسان قواماً بين الإسراف والتقتير ، كما قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا (٦٧) ﴾ [الفرقان]

فالقرآن يضع لنا دستوراً حاسماً وَسَطاً ينظّم الحركة الاقتصادية فى حياة المجتمع ، فابْسُط يدك بالإنفاق لكى تساهم فى سَيْر عجلة الحياة وتنشيط البيع والشراء ، لكن ليس كل البسط ، بل تُبقى من دخلك على شىء لتحقق طموحاتك فى الحياة ، وكذلك لا تمسك وتُقتّر على نفسك وأولادك فيلومونك ويكرهون البقاء معك ، وتكون عضواً خاملاً فى مجتمعك ، لا تتفاعل معه ، ولا تُسهم فى إثراء حركته .

والحق سبحانه وتعالى وهو صاحب الخزائن التى لا تنفد ، وهو القائل : ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ .. (٩٦) ﴾ [النحل]

ولو أعطى سبحانه جميع خَلْقه كُلّ ما يريدون ما نقص ذلك من مُلْكه سبحانه ، كما قال فى الحديث القدسى : « يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم ، وحيّكم وميتكم ، وشاهدكم وغائبكم ، وإنسكم وجنكم ، اجتمعوا فى صعيد واحد ، فسألنى كُلٌّ مسألته فأعطيتها له ما نقص ذلك مما عندى إلا كمغرز إبرة أحدكم إذا غمسه فى البحر ، ذلك أنِّى جَوَاد واجد ماجد ، عطائى كلام وعذابى كلام ، إنما أمرى لشىء إذا أردته أن أقول له كن فيكون »[1] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ ﴾

الله الذى لا تنفد خزائنه يعطى خلْقه بقدَر ، فلا يبسط لهم الرزق كل البَسْط ، ولا يقبضه عنهم كُلّ القَبْض ، بل يبسط على قوم ، ويقبض عن آخرين لتسير حركة الحياة ؛ لأنه سبحانه لو بسط الرزق ووسَّعه على جميع الناس لاستغنى الناس عن الناس ، وحدثت بينهم مقاطعة تُفسد عليهم حياتهم .

إنما حركة الحياة تتطلب أنْ يحتاج صاحب المال إلى عمل ، وصاحب العمل إلى مال ، فتلتقى حاجات الناس بعضهم لبعض ، وبذلك يتكامل الناس ، ويشعر كل عضو فى المجتمع بأهميته ودوره فى الحياة .

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه (٢٤٩٥) من حديث أبى ذر رضى الله عنه وقال : حديث حسن ، وكذا أخرجه أحمد فى مسنده (٥/٧٧ ، ١٥٤) وابن ماجة فى سننه (٤٢٥٧) .

وسبق أن ذكرنا أن الحق سبحانه لم يجعل إنساناً مَجْمعاً للمواهب ، بل المواهب مُوزَّعة بين الخَلْق جميعهم ، فأنت صاحب موهبة فى مجال ، وأنا صاحب موهبة فى مجال آخر وهكذا ، ليظل الناس يحتاج بعضهم لبعض .

فالغنى صاحب المال الذى ربما تعالى بماله وتكبَّر به على الناس يُحوجه الله لأقل المهن التى يستنكف أن يصنعها ، ولا بُدّ له منها لكى يزاول حركة الحياة .

والحق سبحانه لا يريد فى حركة الحياة أن يتفضّل الناس على الناس ، بل لا بُدَّ أن ترتبط مصالح الناس عند الناس بحاجة بعضهم لبعض .

فإذا كان الحق تبارك وتعالى لا يبسط لعباده كل البَسْط ، ولا يقبض عنهم كل القَبْض ، بل يقبض ويبسط ، فوراء ذلك حكمة لله تعالى بالغة ؛ لذلك ارتضى هذا الاعتدال منهجاً لعباده ينظم حياتهم ، وعلى العبد أن يرضى بما قُسم له فى الحالتين ، وأن يسير فى حركة حياته سَيْراً يناسب ما قدَّره الله له من الرزق .

يقول تعالى : ﴿ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ .. (٧) ﴾ [الطلاق]

أى : مَنْ ضُيِّق عليه الرزق فلينفق على قَدْره ، ولا يتطلع إلى ما هو فوق قدرته وإمكاناته ، وهذه نظرية اقتصادية تضمن للإنسان الراحة فى الدنيا ، وتوفر له سلامة العيش .

ورحم الله امرءاً عرف قَدْر نفسه ؛ لأن الذى يُتعب الناس فى الحياة ويُشقيهم أن ترى الفقير الذى ضُيِّق عليه فى الرزق يريد أنْ

يعيشَ عيشة الموسَّع عليه رزقه ، ويتطلّع إلى ما فضّل الله به غيره عليه .

فلو تصورنا مثلاً زميلين فى عمل واحد يتقاضيان نفس الراتب :

الأول : غنىٌّ وفى سَعَةٍ من العيش قد يأخذ من أبيه فوق راتبه .

والآخر : فقير ربما يساعد أباه فى نفقات الأسرة .

فإذا دخلا محلاً لشراء شىء ما ، فعلى الفقير ألاَّ ينظر إلى وضعه الوظيفى ، بل إلى وَضْعه ومستواه المادى ، فيشترى بما يتناسب معه ، ولا يطمع أن يكون مثل زميله ؛ لأن لكل منهما قدرةً وإمكانية يجب ألاَّ يخرج عنها .

هذه هى النظرة الاقتصادية الدقيقة ، والتصرُّف الإيمانى المتزن ؛ لذلك فالذى يحترم قضاء الله ويَرْضَى بما قَسَمه له ويعيش فى نطاقه غير متمرد عليه ، يقول له الحق سبحانه : لقد رضيت بقدرى فيك فسوف أرفعك إلى قدرى عندك ، ثم يعطيه ويُوسِّع عليه بعد الضيق .

وهذا مُشَاهَد لنا فى الحياة ، والأمثلة عليه واضحة ، فكم من أُناس كانوا فى فقر وضيق عيش ، فلما رَضُوا بما قَسَمه الله ارتقتْ حياتهم وتبدّل حالهم إلى سَعَة وتَرَف .

فالحق سبحانه يبسط الرزق لمَنْ يشاء ويقدر ؛ لأنه سبحانه يريد أن يضع الإنسانُ نفسه دائماً فى مقام الخلافة فى الأرض ، ولا ينسى هذه الحقيقة ، فيظن أنه أصيل فيها .

والخيبة كل الخيبة أن ينسى الإنسان أنه خليفة لله فى الأرض ، ويسير فى حركة الحياة على أنه أصيل فى الكون ، فأنت فقط خليفة

لمن استخلفك ، مَـمْدود ممَّنْ أمدّك ، فإياك أنْ تغـترّ ، وإياك أنْ تعيش فى مستوىً فوق المستوى الذى قدّره الله لك .

فإن اعـتبرتَ نفـسك أصيلاً ضلَّ الكون كله ؛ لأن الله تعـالى جعل الدنيا أغـيـاراً وجعلها دُوَلاً ، فالذى وُسِّـع عليه اليوم قد يُضـيَّق عليه غداً ، والذى ضُيِّق عليه اليوم قد يُوسَّع عليه غداً .

وهذه سُنة مـنْ سُنَن الله فى خَلْقِـه لِيَـدكّ فى الإنسـان غـرور الاستغناء عن الله .

فلو متَّع اللهُ الإنسانَ بالغنى دائماً لما استمتع الكون بلذة : يا رب ارزقنى ، ولو متَّـعه بالصـحة دائماً لمـا استمـتع الكون بلذة : يا رب اشفنى . لذلـك يظل الإنسان موصـولاً بالمنعِم سبـحانه محـتاجـاً إليه داعياً إياه .

وقد قال تعالى : ﴿ كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ (٧) ﴾ [العلق]

فالحاجة هى التى تربط الإنسان بربه ، وتُوصله به سبحانه .

فالبَسْط والتضيـيق من الله تعالى له حكمة ، فلا يبسط لهم الرزق كل البـسط ، فيـعطيهم كُلَّ مـا يريدون ، ولا يقبض عنهم كل القـبض فيـحرمهم ويُريهم مـا يكرهون ، بل يعطى بحساب وبقـدر ؛ لتستـقيم حركة الحـياة ، كما قال تـعالى فى آية أخرى : ﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ وَلَـٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ .. (٢٧) ﴾ [الشورى]

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً (٣٠) ﴾ [الإسراء]

لأن الحق سـبحـانه لو لم يُوزّع الرزق هذا التـوزيع الحكيم لاخـتلَّ ميزان العالم ، فَمَنْ بُسِط له يستغنى عن غـيره فيما بُسِط له فيه ، ومَنْ

ضُيِّق عليه يتمرد على الكون ويحقد على الناس ، ويحسدهم ويعاديهم .

إنما إذا علم الجميع أن هذا بقدر الله وحكمته فسوف يظل الكون المخلوق موصولاً بالمُكوِّن الخالق سبحانه .

وفى قوله : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ .. ﴿٣٠﴾ ﴾ [الإسراء]

ملمح لطيف : أى ربك يا محمد وأنت أكرم الخلق عليه ، ومع ذلك بَسَط لك حتى صرْتَ تعطى عطاء مَنْ لا يخشى الفقر ، وقبض عنك حتى تربط الحجر على بطنك من الجوع[1] .

فإن كانت هذه حاله ﷺ فلا يستنكف أحد منا إنْ ضيّق الله عليه الرزق ، ومَنْ منّا ربط الحجر على بطنه من الجوع ؟!

وبعد أنْ حدَّثنا الحق سبحانه عن فرع من فروع الحياة وهو المال ، ورسم لنا المنهج الذى تستقيم الحياة به ويسير الإنسان به سَيْراً يُحقّق له العيش الكريم والحياة السعيدة ، ويضمن له الارتقاءات والطموحات التى يتطلع إليها .

أراد سبحانه أن يُحدّثنا عن الحياة فى أصلها ، فأمر باستبقاء النسل ، ونهى عن قتله فقال تعالى :

﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ[2] ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ ﴾

---

(١) وقد كان هذا دأب بعض صحابة رسول الله ﷺ ، مثل أبى هريرة (البخارى ٦٤٥٢) ، وأبى سعيد الخدرى (أحمد فى المسند ٣/٤٤) .

(٢) الإملاق : الفقر . والإملاق : كثرة إنفاق المال وتبذيره حتى يورث حاجة . والمملق : الذى لا شىء له . [لسان العرب ـ مادة : ملق] .

وواضحٌ الصلة بين هذه الآية وسابقتها ؛ لأن الكلام هنا ما يزال فى الرزق ، والخالق سبحانه يُحذِّرنا : إياكم أنْ تُدخلوا مسألة الرزق فى حسابكم ؛ لأنكم لم تخلقوا أنفسكم ، ولم تخلقوا أولادكم ولا ذريتكم .

بل الخالق سبحانه هو الذى خلقكم وخلقهم ، وهو الذى استدعاكم واستدعاهم إلى الوجود ، وما دام هو سبحانه الذى خلق ، وهو الذى استدعى إلى الوجود فهو المتكفّل برزق الجميع ، فإياك أنْ تتعدَّى اختصاصك ، وتُدخِل أنفك فى هذه المسألة ، وخاصة إذا كانت تتعلق بالأولاد .

وقوله تعالى : ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ .. (٣١)﴾ [الإسراء]

القتل : إزهاق الحياة ، وكذلك الموت . ولكن بينهما فَرْق يجب ملاحظته :

فالقتل : إزهاق الحياة بنَقْض البِنْية ؛ لأن الإنسان يتكوّن من بنية بناها الخالق سبحانه وتعالى ، وهى أجهزة الجسم ، ثم يعطيها الروح فتنشأ فيها الحياة .

فإذا ضرب إنسانٌ إنساناً آخر على رأسه مثلاً ، فقد يتلف مخه فتنتهى حياته ، لكن تنتهى بنقْض البنية التى بها الخياة ، لأن الروح لا تبقى إلا فى جسم له مواصفات خاصة ، فإذا ما تغيرت هذه الصفات فارقتْه الروح .

أما الموت : فيبدأ بمفارقة الروح للجسد ، ثم تُنقَض بنيته بعد ذلك . وتتلَفُ أعضاؤه ، فالموت يتم فى سلامة الأعضاء .

وما أشبه هذه المسألة بلمبة الكهرباء التى لا تُضىء ، إلا إذا توافرتْ لها مواصفات خاصة : من مُولّد أو مصدر للكهرباء ، وسلك مُوصّل ولمبة كهرباء ، فإذا كُسرَتْ هذه اللمبة يذهب النور ، لماذا ؟

لأنك نقضتَ شيئاً أساسياً فى عملية الإنارة هذه . وكذلك إذا صَوَّب واحد رصاصة مثلاً فى قلب الآخر فإنه يموت وتفارقه الروح ؛ لأنك نقضْتَ عنصراً أساسياً من بنية الإنسان ، ولا تستمر الروح فى جسده بدونها .

لذلك ليس فى الشرع عقوبة على الموت ـ ونقصد به هنا الموت الطبيعى الذى يبدأ بخروج الروح من الجسد ـ لكن توجد عقوبة على القتل ، وقد قال النبى ﷺ : « ملعون من هدم بنيان الله » .

لأن حياة كل منا هى بناء أقامه الخالق تبارك وتعالى ، وهو ملْك لخالقه لا يجوز حتى لصاحبه أن ينقضه ، وإلا فلماذا حرَّم الإسلامُ الانتحار ، وجعله كفراً بالله ؟!

إذن : المنهى عنه فى الآية القتل ؛ لأنه من عمل البشر ، وليس الموت . وقد أوضح القرآن الكريم هذه المسألة فى قوله تعالى : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ .. (١٤٤) ﴾ [آل عمران]

فالقتل غير الموت ، القتل اعتداء على بِنْية إنسان آخر وهَدْم لها .

وقوله تعالى : ﴿ أَوْلادَكُمْ .. (٣١) ﴾ [الإسراء]

الأولاد تُطلق على الذكَر والأنثى ، ولكن المشهور فى استقصاء

التاريخ أنهم كانوا يَئدون البنات خاصة دون الذكور ، وفى القرآن الكريم : ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾﴾ [التكوير]

لأنهم فى هذه العصور كانوا يعتبرون الذكور عَوْناً وعُدّةً فى مُعْترك الحياة ، وما يملؤها من هجمات بعضهم على بعض ، كما يَروْن فيهم العزْوة والامتداد . فى حين يعتبرون البنات مصدراً للعار ، خاصة فى ظلِّ الفقر والعَوَزِ والحاجة ، فلربما يستميل البنت ذو غِنىً إلى شىء من المكروه فى عِرْضها ، وبهذا الفهم يؤول المعنى إلى الرزق أيضاً .

وقوله : ﴿خَشْيَةَ إِمْلاقٍ .. ﴿٣١﴾﴾ [الإسراء]

أى : خَوْفاً من الفقر ، والإملاق : مأخوذة من ملَق وتملّق ، وكلها تعود إلى الافتقار ؛ لأن الإنسان لا يتملَّق إنساناً إلا إذا كان فقيراً لما عنده محتاجاً إليه ، فيتملَّقه ليأخذ منه حاجته[1] .

وقوله : ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ .. ﴿٣١﴾﴾ [الإسراء]

وفى هذه الآية ملْمح لطيف يجب التنبّه إليه وفَهْمه لنتمكن من الردِّ على أعداء القرآن الذين يتهمونه بالتناقض .

الحق سبحانه وتعالى يقول هنا : ﴿خَشْيَةَ إِمْلاقٍ .. ﴿٣١﴾﴾ [الإسراء]

---

(١) من معانى الملَق : الزيادة فى التودد والدعاء والتضرع فوق ما ينبغى ، ورجل مَلِق : يعطى بلسانه ما ليس فى قلبه . وفى الحديث : « ليس من خلق المؤمن الملَق » . [لسان العرب ـ مادة : ملق] . وقد أورده المتقى الهندى فى كنز العمال (٢٨٩٣٧) من حديث أنس بن مالك وعزاه لابن عدى فى الكامل والبيهقى فى الشُّعب عن معاذ وانظر الفردوس بمأثور الخطاب للديلمى (٥١٥٨) .

أى : خَوْفاً من الفقر ، فالفقر ـ إذن ـ لم يَأْتِ بعد ، بل هو مُحْتمل الحدوث فى مستقبل الأيام ، فالرزق موجود وميسور ، فالذى يقتل أولاده فى هذه الحالة غير مشغول برزقه ، بل مشغول برزق أولاده فى المستقبل ؛ لذلك جاء الترتيب هكذا : ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ..(٣١)﴾ [الإسراء]

أولاً : لأن المولود يُولَد ويُولَد معه رزقه ، فلا تنشغلوا بهذه المسألة ؛ لأنها ليستْ من اختصاصكم .

ثم : ﴿وَإِيَّاكُمْ .. (٣١)﴾ [الإسراء]

أى : أن رِزْق هؤلاء الأبناء مُقدَّم على رزقكم أنتم . ويمكن أن يُفْهَم المعنى على أنه : لا تقتلوا أولادكم خَوْفاً من الفقر ، فنحن نرزقكم من خلالهم ، ومن أجلهم .

ونهتمّ بتوضيح هذه المسألة ؛ لأن أعداء الدين الذين يُنقِّبون فى القرآن عن مَأْخذ يروْنَ تعارضاً أو تكراراً بين هذه الآية التى معنا وبين آية أخرى تقول : ﴿وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ.. (١٥١)﴾ [الأنعام]

ونقول لهؤلاء : لقد استقبلتم الأسلوب القرآنى بغير الملَكَة العربية فى فَهْمه ، فأسلوب القرآن ليس صناعة جامدة ، بل هو أسلوب بليغ يحتاج فى فَهْمه وتدبُّره إلى ذَوْق وحِسٍّ لُغوىٍّ .

وإذا استقبلتم كلام الله استقبالاً سليماً فلن تجدوا فيه تعارضاً ولا تكراراً ، فليست الأولى أبلغَ من الثانية ، ولا الثانية أبلغ من الأولى ، بل كل آية بليغة فى موضوعها ؛ لأن الآيتين وإنْ تشابهتَا فى

النظرة العَجْلَى لكنْ بينهما فَرْق فى المعنى كبير ، فآية الإسراء تقول :

﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ .. (٣١) ﴾ [الإسراء]

وقد أوضحنا الحكمة من هذا الترتيب : نرزقهم وإياكم .

أما فى آية الأنعام : ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ .. (١٥١) ﴾ [الأنعام]

فلا بُدَّ أن نلاحظَ أن للآية صدراً وعَجُزاً ، ولا يصح أن تفهم أحدهما دون الآخر ، بل لا بُدَّ أن تجمع فى فَهْم الآية بين صدرها وعجزها ، وسوف يستقيم لك المعنى ويُخرجك من أى إشكال .

وما حدث من هؤلاء أنهم نظروا إلى عَجُزَىْ الآيتين ، وأغفلوا صَدريهما ، ولو كان الصدر واحداً فى الآيتين لكان لهم حق فيما ذهبوا إليه ، ولكنّ صَدْرى الآيتين مختلفان :

الأولى : ﴿ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ .. (٣١) ﴾ [الإسراء]

والأخرى : ﴿ مِّنْ إِمْلاقٍ .. (١٥١) ﴾ [الأنعام]

والفرْق واضح بين التعبيرين : فالأول : الفقر غير موجود ؛ لأن الخشية من الشىء دليل أنه لم يحدث ، ولكنه مُتوقَّع فى المستقبل ، وصاحبه ليس مشغولاً برزقه هو ، بل برزق مَنْ يأتى من أولاده .

أما التعبير الثانى : ﴿ مِّنْ إِمْلاقٍ .. (١٥١) ﴾ [الأنعام]

فالفقر موجود وحاصل فعلاً ، والإنسان هنا مشغول برزقه هو لا برزق المستقبل ، فناسب هنا أنْ يُقدِّم الآباء فى الرزق عن الأبناء .

وما دام الصَّدْر مختلفاً ، فلا بُدَّ أن يختلف العَجُز ، فأيْنَ التعارضُ

إذن ؟ وهناك مَلْحَظٌ آخر في الآية الكريمة ، وهو أن النهى مُخَاطَبٌ به الجمع : ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ .. (٣١)﴾ [الإسراء]

فالفاعل جمع ، والمفعول به جمع ، وسبق أن قلنا : إن الجمع إذا قُوبل بالجمع تقتضى القسمة آحاداً ، فالمعنى : لا يقتل كل واحد منكم ولده . كما يقول المعلم للتلاميذ : أخرجوا كُتبكم . والمقصود أنْ يُخرج كل تلميذ كتابه .

فإنْ قال قائل : إن الآية تنهى أنْ يقتلَ الأب ولده خَوْفاً من الفقر ، لكنها لا تمنع أنْ يقتل الأبُ ولد غيره مجاملةً له ، وهو الآخر يقتل ولد غيره مجاملة له .

نقول : لا .. لأن معنى الآية ألاَّ يقتل كل الآباء كل الأولاد ، فينسحب المعنى على أولادى وأولاد غيرى ، وهذا هو المراد بمقابلة الجمع بالجمع . أما لو قُلْنا : إن المعنى : تجاملنى وتقتل لى ابنى ، وأجاملك وأقتل لك ابنك ، فهذا لا يستقيم ؛ لأن المقابلة هنا ليست مقابلة جمع بجمع .

وقوله تعالى : ﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا (٣١)﴾ [الإسراء]

خِطْئاً مثل خطأ ، وهو الإثم والذنب العظيم . وتأتى بالكسر وبالفتح كما نقول : خُذوا حِذْركم ، وخذوا حَذَركم .

وكلمة : ﴿خِطْئًا .. (٣١)﴾ [الإسراء]

الخاء والطاء والهمزة تدل على عدم موافقة الصواب ، لكن مرة يكون عدم موافقة الصواب لأنك لم تعرف الصواب ، ومرة أخرى لم توافق الصواب لأنك عرفتَ الصواب ، ولكنك تجاوزْتَه .

فالمعلِّم حينما يُصوِّب للتلاميذ أخطاءهم أثناء العام الدراسى نجده يُوضِّح للتلميذ ما أخطأ فيه ، ثم يُصوّب له هذا الخطأ ، وهو لم يفعل ذلك إلا بعد أن أعلمَ تلميذه بالقاعدة التى يسير عليها ، ولكن التلميذ قد يغفل عن هذه القاعدة فيقع فى الخطأ .

وهنا لا مانع أنْ نُصوِّب له خَطَأه ونُرشده ؛ لأنه ما يزال فى زمن الدرس والتعلُّم والترويض والتدريب .

لكن الأمر يختلف إنْ كانت هذه الأسئلة فى امتحان آخر العام ، فالمعلِّم يُبيِّن الخطأ ، ولكنه لا يُصحِّحه ، بل يُقدِّره بالدرجات التى تُحسَب على التلميذ ، وتنتهى المسألة بالنجاح لمَنْ أصاب ، وبالفشل لمن أخطأ ؛ لأن آخر العام أصبح لديه قواعد مُلْزِمة ، عليه أنْ يسيرَ عليها .

وكلمة (خطْئاً أو خطأ) مأخوذة من خطا خطوة[1] ، وتعنى الانتقال بالحركة ، فإذا كان الصواب هو الشىء الثابت الذى استُقِرَّ عليه وتعارف الناس عليه ، ثم تجاوزتَه وانتقلتَ عنه إلى غيره ، فهذا هو الخطأ أى : الخطوة التى جعلتك تتجاوز الصواب .

ومنه قوله تعالى : ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ[2] الشَّيْطَانِ .. (١٦٨)﴾[البقرة]

لأنه ينقلكم عن الشىء الثابت المستقر فى شريعة الله .

---

(١) الفعل خطأ وأخطأ . فعل صحيح آخره همزة . أما خطا فهو فعل معتل الآخر بألف منقلبة عن واو . ولذلك يأتى المضارع من الأول (يخطىء) ـ أما الثانى فيأتى (يخطو) .

(٢) قال الأزهرى فى المعتل فى قوله تعالى : ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ .. (١٦٨)﴾ [البقرة] : قرأ بعضهم خطؤات الشيطان من الخطيئة : المأثم . قال أبو منصور : ما علمت أن أحداً من قراء الأمصار قرأه بالهمزة ولا معنى له . [لسان العرب ـ مادة : خطأ] .

والشيء الثابت هنا هو أن الخالق سبحانه خلق الإنسان وكرَّمه ليكون خليفةً له فى الأرض ليعمرها ، ويقيم فيها بمنهج الخالق سبحانه ، فكيف يستخلفك الخالق سبحانه ، وتأتى أنت لتقطع هذا الاستخلاف بما تُحدِثه من قَتْل الأولاد ، وهم بذُور الحياة فى المستقبل ؟

حتى لو أخذنا بقول مَنْ ذهب إلى أن (أَوْلَادَكُمْ) المراد بها البنون دون البنات ، وسلَّمنا معه جدلاً أنك تُميت البنات ، وتُبقِى على الذكور ، فما الحال إذا كَبِر هؤلاء الذكور وطلبوا الزواج ؟! وكيف يستمر النسل بذكر دون أنثى ؟!

إذن : هذا فَهْمٌ لا يستقيم مع الآية الكريمة ، لأن النهى هنا عن قتل الأولاد ، وهم البنون والبنات معاً .

وقد وصف الحق سبحانه الخطأ هنا بأنه كبير ، فقال : ﴿ خِطْئًا كَبِيرًا (٣١) ﴾ [الإسراء]

ذلك لأنه خطأ من جوانب مُتعدِّدة :

أولها : أنك بالقتل هدمتَ بنيان الله ، ولا يهدم بنيان الله إلا الله .

ثانيها : أنك قطعت سلسلة التناسل فى الأرض ، وقضيتَ على الخلافة التى استخلفها الله فى الأرض .

ثالثها : أنك تعديتَ على غريزة العطف والحنان ؛ لأن ولدك بعض مِنْك ، وقتله يُجرِّدك من كل معانى الأُبُوة والرحمة ، بل والإنسانية .

وهكذا وضع الحق سبحانه لنا ما يضمن بقاء النسل واستمرار

خلافة الإنسان لله فى أرضه ، بأنْ نهى كل والد أن يقتلَ ولده ، ونهى كل الآباء أنْ يقتلوا كل الأولاد .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾

بعد أن تحدّث الحق سبحانه عما يحفظ النسل ويستبقى خلافة الله فى الأرض ، أراد سبحانه أن يحمى هذا النسل من الضياع ، ويوفر له الحياة الكريمة . والإنسان منّا حينما يُرزَق بالولد أو البنت يطير به فَرحاً ، ويُؤثره على نفسه ، ويُخرج اللقمة من فيه ليضعها فى فم ولده ، ويسعى جاهداً ليُوفّر له رفاهية العيش ، ويُؤمِّن له المستقبل المُرْضِى ، وصدق الشاعر حين قال :

إنما أوْلادُنَا أكبادُنَا ... تمشى عَلَى الأَرْضِ
إنْ هَبَّتْ الريحُ على بَعْضِهِم ... امتنعَتْ عَيْنى عَنِ الغُمْضِ .

لكن هذا النظام التكافلىّ الذى جعله الحق سبحانه عماداً تقوم عليه الحياة الأسرية سرعان ما ينهار من أساسه إذا ما دَبَّ الشكُّ إلى قلب الأب فى نسبة هذا الولد إليه ، فتتحوّل حياته إلى جحيم لا يُطَاق ، وصراع داخلى مرير لا يستطيع مواجهته أو النطق به ؛ لأنه طَعْن فى ذاته هو .

لذلك يُحذِّرنا الحق ـ تبارك وتعالى ـ من هذه الجريمة النكْراء ؛

ليحفظ على الناس أنسابهم ، ويطمئن كل أب إلى نسبة أبنائه إليه ، فيحنو عليهم ويرعاهم ، ويستعذب ألم الحياة ومتاعبها فى سبيل راحتهم .

فيقول تعالى : ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى .. (٣٢)﴾ [الإسراء]

والمتأمل فى آى القرآن الكريم يجد أن الحق سبحانه حينما يُكلِّمنا عن الأوامر يُذيِّل الأمر بقوله تعالى : ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا .. (٢٢٩)﴾ [البقرة]

والحديث هنا عن أحكام الطلاق ، فقد وضع له الحق سبحانه حدوداً ، وأمرنا أن نقف عندها لا نتعداها ، فكأنه سبحانه أوصلنا إلى هذا الحد ، والممنوع أن نتعداه .

وأما فى النواهى ، فيُذيِّلها بقوله : ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوهَا .. (١٨٧)﴾ [البقرة]

والنهى هنا عن مباشرة النساء حال الاعتكاف ، وكأن الحق سبحانه يريد ألاّ نصلَ إلى الحدِّ المنهى عنه ، وأنْ يكون بيننا وبينه مسافة ، فقال ﴿ فَلاَ تَقْرَبُوهَا ﴾ لنظلّ على بُعْدٍ من النواهى ، وهذا احتياط واجب حتى لا نقتربَ من المحظور فنقع فيه .

وقد قال النبى ﷺ : « من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه »[1] .

---

(١) قال رسول الله ﷺ : « من وقع فى الشبهات وقع فى الحرام كالراعى يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه ، ألا وإن لكل ملك حمى ، ألا وإن حمى الله محارمه » متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٠٥١) ، ومسلم فى صحيحه (١٥٩٩) من حديث النعمان ابن بشير .

فالحق سبحانه خالق الإنسان ، وهو أعلم به لا يريد له أنْ يقتربَ من المحظور ؛ لأن له بريقاً وجاذبية كثيراً ما يضعف الإنسان أمامها ؛ لذلك نهاه عن مجرد الاقتراب ، وفَرْقٌ بين الفعل وقُرْبان الفعل ، فالمحرّم المحظور هنا هو الفِعْل نفسه ، فلماذا إذن حرَّم الله الاقتراب أيضاً ، وحذّر منه ؟

نقول : لأن الله تعالى يريد أنْ يرحَم عواطفك فى هذه المسألة بالذات ، مسألة الغريزة الجنسية ، وهى أقوى غرائز الإنسان ، فإنْ حُمْتَ حولها توشك أن تقعَ فيها ، فالابتعاد عنها وعن أسبابها أسلَمُ لك .

وحينما تكلَّم العلماء عن مظاهر الشعور والعلم قسَّموها إلى ثلاث مراحل : الإدراك ، ثم الوجدان ، ثم النزوع .

فلو فرضنا أنك تسير فى بستان فرأيتَ به وردة جميلة ، فلحظة أنْ نظرتَ إليها هذا يُسمَّى « الإدراك » ؛ لأنك أدركتَ وجودها بحاسة البصر ، ولم يمنعك أحد من النظر إليها والتمتُّع بجمالها .

فإذا ما أعجبتك وراقك منظرها واستقر فى نفسك حُبُّها فهذا يسمى « الوجدان » أى : الانفعال الداخلى لما رأيتَ ، فإذا مددتَ يدك لتقطفها فهذا « نزوع » أى : عمل فعلى .

ففى أى مرحلة من هذه الثلاث يتحكَّم الشرع ؟

الشرع يتحكم فى مرحلة النزوع ، ولا يمنعك من الإدراك ، أو من الوجدان ، إلا فى هذه المسألة « مسألة الغريزة الجنسية » فلا يمكن فيها فَصْل النزوع عن الوجدان ، ولا الوجدان عن الإدراك ، فهى

مراحل ملتحمة ومتشابكة ، بحيث لا تقوى النفس البشرية على الفَصْل بينها .

فإذا رأى الرجل امرأة جميلة ، فإن هذه الرؤية سرعان ما تُولِّد إعجاباً وميلاً ، ثم عِشْقاً وغريزة عنيفة تدعوه أنْ تمتدَّ يده ، ويتولد النزوع الذى نخافه ، وهنا إما أنْ ينزعَ ويُلبى نداء غريزته ، فيقع المحرم ، وإما أنْ يعف ويظل يعانى مرارة الحرمان .

والخالق سبحانه أعلم بطبيعة خَلْقه ، وبما يدور ويختلج داخلهم من أحاسيس ومشاعر ؛ لذلك لم يُحرِّم الزنا فحسب ، بل حرَّم كل ما يؤدى إليه بداية من النظر ، فقال تعالى : ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا[1] مِنْ أَبْصَارِهِمْ .. (٣٠) ﴾ [النور]

لأنك لو أدركتَ لوجدتَ ، ولو وجدتَ لنزعتَ ، فإنْ أخذتَ حظَّك من النزوع أفسدتَ أعراض الناس ، وإنْ عففتَ عِشْتَ مكبوتاً تعانى عِشْقاً لن تناله ، وليس لك صبر عنه .

إذن : الأسلم لك وللمجتمع ، والأحفظ للأعراض وللحرمات أنْ تغُضَّ بصرك عن محارم الناس فترحم أعراضهم وترحم نفسك .

لكن هذه الحقيقة كثيراً ما تغيب عن الأذهان ، فيغشّ الإنسانُ نفسه بالاختلاط المحرم ، وإذا ما سُئل ادَّعى البراءة وحُسْن النية وأخذ من صلة الزمالة أو القرابة أو الجوار ذريعة للمخالطة والمعاشرة وهو لا يدرى أنه واهم فى هذا كله ، وأن خالقه سبحانه أدرى به

(١) غض بصره : خفضه ولم يرفعه ولم يحدّق فيما أمامه ، أو كفَّ بصره ولم ينظره . [القاموس القويم ٢/٥٦] .

وأعلم بحاله ، وما أمره بغضٍّ بصره إلا لما يترتب عليه من مفاسد ومضار ، إما تعود على المجتمع ، أو عليه نفسه .

لذلك قال ﷺ : « النظرة سَهْم مسموم من سهام إبليس ، مَنْ تركها من مخافتى أبدلتُه إيماناً يجد حلاوته فى قلبه »[(١)] .

ومن هنا نفهم مراده سبحانه من قوله : ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى.. (٣٢)﴾ [الإسراء]

ولم يقل : لا تزنوا . لأن لهذه الجريمة مقدمات تؤدى إليها ، فاحذر أنْ تجعلَ نفسك على مقربة منها ؛ لأن مَنْ حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه ، ودَعْكَ ممَّنْ يُنادون بالاختلاط والإباحية ؛ لأن الباطل مهما عَلاَ ومهما كَثُر أتباعه فلن يكون حقاً فى يوم من الأيام .

واحذر ما يشيع على الألسنة من قولهم هى بنت عمه ، وهو ابن خالها ، وهما تربَّيا فى بيت واحد ، إلى آخر هذه المقولات الباطلة التى لا تُغيِّر من وجه الحرام شيئاً ، فطالما أن الفتاة تحل لك فلا يجوز لك الخلوة بها .

وفى الحديث النبوى : « لا يخلون رجل بامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما »[(٢)] .

---

(١) أخرجه الحاكم فى مستدركه (٤/٣١٤) من حديث حذيفة رضى الله عنه ، وقال : حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه . قال الذهبى فى تلخيصه : « إسحاق واهٍ ، وعبد الرحمن هو الواسطى ضعفوه » .

(٢) أخرجه الحاكم فى مستدركه (١/١١٤) من حديث ابن عمر رضى الله عنهما قال الحاكم : حديث صحيح على شرط الشيخين . وأشار إليه الترمذى فى سننه (١١٧١) وأخرجه موصولاً مرفوعاً (٢١٦٥) . وقال : حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه .

إذن : ما حرَّم الإسلام النظر لمجرد النظر ، وما حرّم الخُلْوة فى ذاتها ولكن حَرَّمهما ؛ لأنهما من دوافع الزنا وأسبابه . فقوله تعالى : ﴿وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَى.. (٣٢)﴾ [الإسراء] أبلغ فى التحريم وأحوط وأسلم من : لا تزنوا .

ومثال ذلك أيضاً قوله تعالى فى تحريم الخمر : ﴿يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٩٠)﴾ [المائدة]

ومع ذلك يخرج علينا مَنْ يقول : ليس فى القرآن آية واحدة تحرم شرب الخمر .. سبحان الله ، فأيُّهما أبلغ وأشدّ فى التحريم أن نقول لك : لا تشرب الخمر ، أم اجتنب الخمر ؟

لا تشرب الخمر : نَهْى عن الشُّرْب فقط . إذن : يُبَاحُ لك شراؤها وبيعُها وصناعتها ونقلها ... الخ . أما الاجتناب فيعنى : البعد عنها كُلية ، وعدم الالتقاء بها فى أى مكان ، وعلى أية صورة . فالاجتناب - إذن - أشدّ من مجرد التحريم .

وكيف نقول بأن الاجتناب أقل من التحريم ، وقد قال تعالى فى مسألة هامة من مسائل العقيدة : ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا.. (١٧)﴾ [الزمر]

فهل تقول فى هذه : إن الاجتناب أقلّ من التحريم ؟ وهل عبادة الطاغوت ليست محرمة ؟!

ثم يقول تعالى : ﴿إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً .. (٣٢)﴾ [الإسراء]

الفاحشة : هى الشىء الذى اشتدّ قبْحه . وقد جعل الحق سبحانه الزنا فاحشة ؛ لأنه سبحانه وتعالى حينما خلق الزوجين : الذكر والأنثى ، وقدَّر أن يكون منهما التناسل والتكاثر قدَّر لهما أصولاً يلتقيان عليها ، ومظلّةً لا يتم الزواج إلا تحتها ، ولم يترك هذه المسألة مشَاعاً يأتيها مَنْ يأتيها ؛ ليحفظ للناس الأنساب ، ويحمى طهارة النسل ، فيطمئن كل إنسان إلى سلامة نسبه ونسب أولاده .

والمراد من الأصول التى يلتقى عليها الزوجان عقد القِران الذى يجمعهما بكلمة الله وعلى سنة رسوله ﷺ .

وهَبْ أن لك بنتاً بلغت سنَّ الزواج ، وعلمتَ أن شاباً ينظر إليها ، أو يحاول الاقتراب منها ، أو ما شابه ذلك ، ماذا سيكون موقفك ؟ لا شكَّ أن نار الغيرة ستشتعل بداخلك ، وربما تعرَّضْتَ لهذا الشاب ، وأقمْتَ الدنيا ولم تُقعِدْها .

لكن إذا ما طرق هذا الشاب بابَك ، وتقدَّم لخطبة ابنتك فسوف تقابله بالترْحَاب وتسعد به ، وتدعو الأهل ، وتقيم الزينات والأفراح .

إذن : فما الذى حدث ؟ وما الذى تغيَّر ؟ وما الفرق بين الأولى والثانية ؟

الفرق بينهما هو الفرق بين الحلال والحرام ؛ لذلك قيل : « جدع الحلال أنف الغيرة » .

فالذى يغَارُ على بناته من لمسة الهواء تراه عند الزواج يُجهِّز ابنته ، ويُسلمها بيده إلى زوجها ؛ لأنهما التقيا على كلمة الله ، هذه الكلمة المقدسة التى تفعل فى النفوس الأعاجيب .

مجرد أن يقول ولىُّ الزوجة : زوجتُكَ . ويقول الزوج : وأنا قبلتُ . تنزل هذه الكلمة على القلوب بَرْداً وسلاماً ، وتُحدِث فيها انبساطاً وانشراحاً ؛ لأن لهذه الكلمة المقدسة عملاً فى التكوين الذاتى للإنسان ، ولها أثر فى انسجام ذراته ، وفى كل قطرة من دمه .

ومن آثار كلمة الله التى يلتقى عليها الزوجان ، أنها تُحدِث سيالاً بينهما ، هو سِيَال الاستقبال الحسن ، وعدم الضَّجَر ، وعدم الغيرة والشراسة ، فيلتقيان على خير ما يكون اللقاء .

ولذلك حينما يُشرِّع لنا الحق تبارك وتعالى العِدَّة ، نجد عدة المطلقة غير عِدَّة المتوفَّى عنها زوجها ، وفى هذا الاختلاف حكمة ؛ لأن الحق سبحانه يعلم طبيعة النفس البشرية وما يُؤثِّر فيها .

ولو كانت الحكمة من العدة مجرد استبراء الرحم لكفى شهر واحد وحَيْضة واحدة ، إنما الأمر أبعد من ذلك ، فعند المرأة اعتبارات أخرى ومازالت تحت تأثير الزواج السابق ؛ لأن سيال الحل فيه التقاء الإيجاب والسلب من الرجل والمرأة ، وقد تعودتْ المرأة على الإيجاب الحلال والسلب الحلال .

فإذا طُلِّقَت المرأة فلا يحلّ لها الزواج قبل انقضاء العدة التى حددها الشرع بثلاثة أشهر[1] ، وهى المدة التى يهدأ فيها سِيَال الحلال فى نفسها ويجمد ، وبذلك تكون صالحة للالتقاء بزوج آخر .

---

(١) قال تعالى عن عدة المطلقة ، وهى المدة التى يصح للزوج المطلّق أن يراجع زوجته خلالها ، وهى أيضاً المدة التى إذا مرت دون مراجعة صح للمرأة أن تتزوج زوجاً آخر ، قال تعالى : ﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ .. ﴿٢٢٨﴾ ﴾ [البقرة] . أى : ثلاث حيضات .

أما فى حالة المتوفّى عنها زوجها فعدتها أربعة أشهر وعشرة[١] ، والحكمة من الفارق بين العدَّتين أن المطلقة غالباً ما يكون بين الزوجين كُرْه ، هذا الكُرْه بينهما يساعد على موت السِّيال ؛ لأنها بطبيعة الحال نافرة عنه غير راغبة فيه . أما المتوفَّى عنها زوجها فقد فارقها دون كُرْه ، فرغبتها فيه أشدّ ؛ لذلك تحتاج إلى وقت أطول للتخلُّص من هذا السيال .

والحق سبحانه هنا يُراعِى طبيعة المرأة ومشاعرها ، وعواطف الميل والرغبة فى زوجها ، ويعلم سبحانه أن هذا الميلَ وهذه الرغبة تحتاج إلى وقت لتهدأ هذه العواطف لدى المرأة ، وتستعد نفسياً للالتقاء بزوج آخر ؛ لأن لقاء الزوج بزوجته مسألة لا يحدث الانسجام فيها بالتكوين العقلى ، بل الانسجام فيها بالتكوين العاطفى الغريزى الذى يعتمد بالدرجة الأولى على توافق الذرات بين الذكر والأنثى .

هذا التوافق هو الذى يُولّد ذرات موجبة ، وذرات سالبة ، فيحدث التوافق ، ويحدث الحب والعِشْق الذى يجمعهما ويمتزجان من خلاله .

وهذا ـ كما قلنا ـ أثر من آثار كلمة الله التى اجتمعا عليها وتحت ظلها .

وهكذا يلتقى الزوجان فى راحة وهدوء نفسى ، ويسكن كل منهما للآخر ؛ لأن ذراتهما انسجمت وتآلفت ؛ ويفرح الأهل ويسعد الجميع ،

---

(١) أما عدة الأرملة التى مات زوجها ، فيقول تعالى : ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِى أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ .. (٢٣٤)﴾ [البقرة]

وصدق رسول الله ﷺ حين قال فى وصيته بالنساء : « إنما استحللتم فروجهن بكلمة الله »[(١)]

وهذه الكلمة من الله تعالى الذى خلق الإنسان ويعلم ما يُصلحه ، ولك أنْ تتصورَ الحال إنْ تَمَّ هذا اللقاء فيما حَرَّم الله ، وبدون هذه الكلمة وما يحدث فيه من تنافر الذرات وعدم انسجام ونكَدٍ ومرارة لا تنتهى ، ما بقيتْ فيهما أنفاس الحياة .

لذلك سمَّاه القرآن فاحشةً ، والدليل على فُحْشه أن الموصوم به يحب ألاَّ يُعرف ، وأن تظل جرائمه خِلْسة من المجتمع ، وأن الذى يقترف هذه الفاحشة يكره أن تُفعلَ فى محارمه ، ويكفيها فُحْشاً أن الله تعالى سماها فاحشة ، وشرع لها حداً يُقام على مرتكبها علانية أمام أعين الجميع .

وقد عالج رسول الله ﷺ هذا الداء ، حينما أتاه شاب يشتكى ضعفه أمام غريزته الجنسية ، ويقول له : يا رسول الله ائذن لى فى الزنا ، والنبى ﷺ أتى بقضايا دينية عامة للجميع ، ولكن حين يعالج داءات المجتمع يعالج كل إنسان بما يناسبه ، وعلى حَسْب ما فيه من داءات الضعف أمام شهوات نفسه .

ويتضح لنا هذا المنهج النبوى فى جواب رسول الله ﷺ ، وقد سُئِلَ كثيراً عن أفضل الأعمال ، فقال لأحدهم : « الصلاة لوقتها »[(٢)] .

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٢١٨) من حديث جابر بن عبد الله من حديث طويل وفيه « فاتقوا الله فى النساء ، فإنكم أخذتموهن بأمان الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله » .

(٢) عن عبد الله بن مسعود قال : سألت رسول الله ﷺ : أىُّ العمل أفضل ؟ قال : « الصلاة لوقتها » أخرجه مسلم فى صحيحه (٨٥) كتاب الإيمان .

وقال لآخر : « أنْ تَلْقى أخاك بوجه طَلْق »[١]

وقال لآخر : « أنْ تَبرَّ أخاك » .

وهكذا تعددتْ الإجابات ، لأن النبى ﷺ لا يصف مزيجاً عاماً يعطيه للجميع ، بل يعطى لكل سائل الجرعة التى تُصلِح خللاً فى إيمانه ، كالطبيب الذى يهتم بعلاج مريضه ، فيُجرى له التحاليل والفحوصات اللازمة ؛ ليقف على موضع المرض ويصِف العلاج المناسب .

فكيف استقبل رسول الله ﷺ هذا الشاب الذى جاءه يقول : يا رسول الله إننى أصلى وأصوم ، وأفعل كل أوامر الدين إلا أننى لا أقدر على مقاومة هذه الغريزة ؟

هل نهره واعتبره شاذاً ، وأغلق الباب فى وجهه ؟ لا والله ، بل اعتبره مريضاً جاء يطلب العلاج بعد أن اعترف بمرضه ، والاعتراف بالمرض أولى خطوات الشفاء والعافية .

وهذا الشاب ما جاء لرسول الله إلا وهو كاره لمرضه ، وأول ظاهرة فى العافية أن تعترف بمرضك ، ولا تتكبر عليه ، فإنْ تكبَّرتَ عليه استفحلَ واستعصى على العلاج .

وقد اعتبر النبى ﷺ شكوى هذا الشاب ظاهرة صحية فى إيمانه ؛ لأنه ما جاء يشكو إلا وهو كاره لهذه الجريمة ، ويجد لها شيئاً فى نفسه ، وانظر كيف عالجه النبى ﷺ :

---

(١) عن أبى ذر رضى الله عنه قال قال لى النبى ﷺ : « لا تحقرن من المعروف شيئاً ، ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق » أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٦٢٦) ، وكذا أخرجه أحمد فى مسنده (٥/١٧٣) .

أجلسه ، ثم قال له : « يا أخا العرب أتحب هذا لأمك ؟ » فانتفض الشاب ، وتغيَّر وجهه وقال : لا يا رسول الله جُعِلْتُ فِدَاك ، فقال : « أتحبه لأختك ؟ أتحبه لزوجتك ؟ أتحبه لبناتك ؟ » والشاب يقول فى كل مرة : لا يا رسول الله جُعِلْتُ فِدَاك .

ثم قال ﷺ : « وكذلك الناس لا يحبونه لأمهاتهم ولا لأخواتهم ولا لزوجاتهم ولا لبناتهم » ثم وضع يده الشريفة على صدر هذا الشاب ودعا له : « اللهم نَقِّ صدره ، و حَصِّنْ فَرْجه »[1] .

وانصرف الشاب وهو يقول : لقد خرجتُ من عند رسول الله وليس أكرَه عندى من الزنا ، ووالله ما هممْتُ بشىء من ذلك إلا وذكرْتُ أمى وأختى وزوجتى وبناتى .

وما أشبه طريقة الرسول ﷺ فى علاج هذا الشاب بما يفعله أهل الصيدلة ، فعندهم مصطلح يسمونه « برشمة المر » ، فإن كان الدواء مُرًّا لا يستسيغه المريض غلَّفوه بمادة سكرية حتى يمرَّ من منطقة التذوق ، فلا يشعر المريض بمرارته .

وقد جعل الخالق سبحانه منطقة التذوق فى اللسان فحسب ، دون غيره من الأعضاء التى يمرُّ بها الطعام ، واللسان آية من آيات الله فى خَلْق الإنسان ، ومظهر من مظاهر قدرته سبحانه ، حيث جعل فيه حلمات دقيقة يختصُّ كل منها بتذوُّق نوع من الطعام : فهذه للحلو ، وهذه للمر ، وهذه للحرِّيف ، وهكذا ، مع أنها مُتراصّة ومُلْتصقة بعضها ببعض .

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٥/٢٥٦ ، ٢٥٧) ، والطبرانى فى معجمه الكبير (٨/١٩٠ ، ٢١٥) من حديث أبى أمامة رضى الله عنه ، وفيه أن رسول الله ﷺ قال : « اللهم اغفر ذنبه ، وطهر قلبه ، وحصن فرجه » فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شىء .

وكما تحدث برشمة الدواء الحسيِّ المر ، كذلك يحدث فى العلاجات الأدبية المعنوية ، فيُغلِّف الناصح نصيحته ليقبلها المتلقى ويتأثر بها ؛ لذلك قالوا : النصح ثقيل ، فاستعيروا له خِفَّة البيان .

وقالوا : الحقائق مُرّة ، فلا ترسلوها جبلاً ، ولا تجعلوها جدلاً .

وعلى الناصح أن يراعى حال المنصوح ، وأنْ يرفقَ به ، فلا يجمع عليه قسوة الحرمان مما أَلِف مع قسوة النصيحة . وقد وضع لنا الحق سبحانه المنهج الدعوى الذى يجب أن نسير عليه فى قوله تعالى : ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ..(١٢٥)﴾ [النحل]

ومن أدب النصيحة أيضاً الذى تعلَّمناه من النبى ﷺ أن تكون سِراً ، فليس من مصلحة أحد أنْ تُذاعَ الأسرار ؛ لأن لها أثراً سلبياً فى حياة المجتمع كله وفى المنصوح نفسه ، فإنْ سترْتَ عليه فى نصيحتك له كان أدعى إلى قبوله لما تقول ، وقديماً قالوا : مَنْ نصح أخاه سراً فقد ستره وزَانَه ، ومَنْ نصحه جَهْراً فقد فضحه وشَانَهُ[1] .

ثم يقول تعالى : ﴿وَسَاءَ سَبِيلاً (٣٢)﴾ [الإسراء]

والسبيل هو الطريق الموصل لغاية ، وغاية الحياة أننا مُسْتخلفون فى الأرض ، خلقنا الله لعمارتها والسعى فيها بما يُسعدنا جميعاً ، ويعود علينا بالخير والصلاح ، فإذا ضَلَّ الإنسانُ وانحرف عَمّا رسمه له ربه أفسد هذه الخلافة ، وأشقى الدنيا كلها بدل أنْ يُسعدها .

وأعتقد أن ما نشاهده الآن فى بيئات الانحلال والانحراف ،

---

(١) الشين : العيب . والمشاين : المعايب والمقابح . [لسان العرب ـ مادة : شين] .

وما امتدَّ منهم إلى بلاد الإسلام من التفزيع والرعب يجعلنا نؤمن بأن الزنا فعلاً ساء سبيلاً ، وساء طريقاً ومسلكاً ، يقضى على سلامة المجتمع وأَمْنه وسعادته .

ويكفى أنك إذا خرجتَ من بيتك فى مهمة تستلزم المبيت تأخذ جميع لوازمك وأدواتك الشخصية ، وتخاف من شبح العدوى الذى يطاردك فى كل مكان ، فى الحجرة التى تدخلها ، وفى السرير الذى تنام عليه ، وفى دورة المياه التى تستعملها ، الجميع فى رُعْب وفى هلع ، والإيدز ينتشر انتشار النار فى الهشيم ، وأصبح لا يسلَم منه حتى الأسوياء الأطهار .

وما حدث هذا الفزع إلا نتيجةً لخروج الإنسان عن منهج الله خروجاً جعل هذه المسألة فوضى لا ضابطَ لها ، فأحدث الله لهم من الأمراض والبلايا بقدْر فجورهم وعصيانهم ، وما داموا لم يأتُوا بالحسنى فليأتوا راغمين مُفزَّعين .

لذلك العالم كله الآن يباشر مشروعات عفَّة وطهارة ، لا عن إيمان بشرع الله ، ولكن عن خَوْف وهلَع من أمراض شتَّى لا ترحم ، ولا تُفرِّق بين واحد وآخر .

إذن : الزنا فاحشة وساء سبيلاً ، وها هى الأحداث والوقائع تُثبت صدْق هذه الآية ، وتثبت أن أىّ خروج من الخَلْق عن منهج الخالق لن يكون وراءه إلا نَكَدُ الدنيا قبل ما ينتظرهم فى الآخرة .

والآن وقد ضمنَّا سلامة الأعراض ، وضمنَّا طهارة النسل ، وأصبح لدينا مجتمع طاهر سليم ، يأْمَنُ فيه الإنسان على هذا

الجانب ، فلا بُدَّ إذن أن نحافظَ فيه على الأرواح ، فلا يعتدى أحد على أحد ، فيقول تعالى :

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ .. (٣٣) ﴾ [الإسراء]

كان القياس أنْ يُقابل الجمع بالجمع ، فيقول : لا تقتلوا النفوس التى حرَّم الله ، لكن الحق سبحانه وتعالى يريد أن قَتْل النفس الواحدة مسئوليةُ الجميع ، لا أنْ يسأل القاتل عن النفس التى قتلها ، بل المجتمع كله مسئول عن هذه الجريمة .

﴿ الَّتِى حَرَّمَ اللَّهُ .. (٣٣) ﴾ [الإسراء] أى : جعلها محرّمة لا يجوز التعدى عليها ؛ لأنها بنيان الله وخلْقته وصناعته ، وبنيان الله لا يهدمه أحد غيره . أو نقول : ﴿ النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللَّهُ .. (٣٣) ﴾[الإسراء] أى : حرَّم الله قتلها .

﴿ إِلاَّ بِالْحَقِّ .. (٣٣) ﴾[الإسراء] وهذا استثناء من الحكم السابق الذى قال : لا تقتلوا النفس التى حرم الله ﴿ إِلاَّ بِالْحَقِّ ﴾ أى : ولكن اقتلوها بالحق ، والحق هنا المراد به ثلاثة أشياء :

- القصَاص من القاتل .

- الردَّة عن الإسلام .

- زِنَا المحصَن أو المحصَنة[1] .

وهذه أسباب ثلاثة تُوجِب قَـتْل الإنسان ، والقتْل هنا يكون بالحق أى : بسبب يستوجب القتل .

وقد أثار أعداء الإسلام ضَـجَّة كبيرة حول هذه الحـدود وغيرها ، واتهموا الإسلام بالقسوة والوحشية ، وحُجَّتهم أن هذه الحدود تتنافى وإنسانيـة الإنسان وآدميتـه ، وتتعارض مع الحرية الدينيـة التى يقول بها الإسلام فى قوله تعالى : ﴿لا إِكْرَاهَ فِى الدِّينِ .. (٢٥٦)﴾ [البقرة]

ففى القـصاص قالوا : لقـد خَسِر المـجتمع واحـداً بالقتل ، فكيف نُزِيد من خسارته بقتْل الآخر ؟

نقـول : لا بُدَّ أن نستـقـبلَ أحكام الله بفهْـمٍ وَاعٍ ونظرة متـأمّلة ، فليس الهدف من تشريع الله للقصاص كثرة القتل ، إنما الهدف ألاّ يقع القتل ، وألاَّ تحدثَ هذه الجريمة من البداية .

فحـين يُخبرك الـحق سبحـانه أنك إنْ قتلتَ فسـوف تُقتَلُ ، فـهو يحمى حيـاتك وحياة الآخرين . وليس لدى الإنسـان أغلى من حياته ، حتى القاتل لم يـقتل إلا لأنه يحب الحياة ، وقتل من أجـلها مَنْ قتل ؛ لأنه ربما خدش عِزَّته أو كرامته ، وربما لأنه عدو له أقوى منه .

ولا شكَّ أن حيـاته أغلى من هذا كله ، فحين نقـول له : إنْ قتلْتَ ستُقـتل ، فنحن نمنعه أنْ يُقدِم على هذه الجريمـة ، ونُلوّح له بأقسى ما يمكن من العقوبة . ولذلك قالوا : القتْلُ أنْفَى للقتل .

---

(١) أحصن الرجل وأحصنت المـرأة : تزوجا ، وكان الزواج حِصْن يحمى المـتزوج من الوقوع فى الشهوات فهو مُحصِن . [القاموس القويم ١/١٥٧] .

وقال تعالى : ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَـأُولِي الأَلْبَابِ .. (١٧٩)﴾ [البقرة]

وهذا نداء لأصحاب الأفهام والعقول الواعية ، ليس القصاص كما يظنُّ البعض ، بل فيه الحياة وفيه سلامة المجتمع وحَقْن الدماء .

ويجب أن يكون عندنا يقظةُ استقبال لأحكام الله ؛ لأن القاتل ما قتل إلا حينما غفل عن الحكم ، ويجب أيضاً أن ننظر إلى حكم القصاص نظرة موضوعية ، لأنه كما حَمى غيرى من قَتْلى له حمانى أيضاً من قَتْل غيرى لى ، وما دامت المسألة : لك مثل ما عليك ، وحظك منها كحظِّ الناس جميعاً ، فلماذا الاعتراض ؟

وكذلك فى السرقة ، حينما يقول لك : لا تسرق ، فأنت ترى أن هذا الأمر قد قيَّد حريتك أنت ، لكن الحقيقة أنه أيضاً قيَّد حرية الآخرين بالنسبة للسرقة منك . والذى يتأمل هذه الحدود يجدها فى صالح الفرد ؛ لأنها تُقيِّد حريته وهو فرد واحد ، وتُقيِّد من أجله حرية المجتمع كله .

وفى الزكاة ، حينما يُوجب عليك الشارع الحكيم أنْ تُخرج قَدْراً معلوماً من مالك للفقراء ، فلا تَقُلْ : هذا مالى جمعتُه بجَهْدى وعَرقى . ونقول لك : نعم هو مالك ، ولكن لا تنسَ أن الأيام دُوَلٌ وأغيار ، والغنىّ اليوم قد يفتقر غداً ، فحين تعضّك الأيام فسوف تجد مَنْ يعطيك ، ويكيل لك بنفس الكَيْل الذى كِلْتَ به للناس .

إذن : يجب أن نكون على وَعْى فى استقبال الأحكام عن الله تعالى ، وأن ننظر إليها نظرة شمولية ، فنرى ما لنا فيها وما علينا ،

وما دامت هذه الأحكام تعطينا بقدر ما تأخذ منّا فهى أحكام عادلة .

وحُكْم القصاص يجعل الإنسان حريصاً على نفسه ، ويمنعه أنْ يُقدِم على القَتْل ، فإنْ غفل عن هذا الحكم وارتكب هذه الجريمة فلا بُدَّ أن يقتصَّ منه ؛ فإنْ أخذتنا الشهامة وتشدَّقْنا بالإنسانية والكرامة والرحمة الزائفة ، وعارضنا إقامة الحدود فليكُنْ معلوماً لدينا أن مَنْ يعارض فى إعدام قاتل فسوف يتسبب فى إعدام الملايين ، وسوف يفتح الباب لفوضى الخلافات والمنازعات ، فكلّ مَنِ اختلف مع إنسان سارع إلى قَتْله ؛ لأنه لا يوجد رادع يُردِعه عن القتل .

إذن : لكى نمنع القتل لابُدَّ أن نُنفِّذَ حكم الله ونُقيم شَرعه ولو على أقرب الناس ؛ لأن هذه الأحكام ما نزلتْ لتكون كلاماً يُتلَى وفقط ؛ بل لتكون منهجاً عملياً يُنظِّم حياتنا ، ويحمى سلامة مجتمعنا.

لذلك جعل الحق سبحانه وتعالى تنفيذ هذه الأحكام علانية أمام الجميع ، وعلى مَرْأى ومَسْمع المجتمع كله ؛ ليعلموا أن أحكام الله ليست شفوية ، بل ها هى تُطبَّق أمامهم ، وصدق الله تعالى حين قال : ﴿ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢) ﴾ [النور]

والذين اعترضوا على القصاص اعترضوا أيضاً على إقامة حَدّ الردَّة ، ورأوا فيه وحشية وكَبْتاً للحرية الدينية التى كفلَها الإسلام فى قوله تعالى : ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ .. (٢٥٦) ﴾ [البقرة]

والحقيقة أن الإسلام حينما شرع حَدَّ الردة ، وقال بقتل المرتد عن الدين أراد أن يُصعِّب على غير المسلمين الدخول فى الإسلام ، وأنْ يُضيِّق عليهم هذا الباب حتى لا يدخل فى الإسلام إلا مَنْ أخلص

له ، واطمأنَّ قلبه إليه ، وهو يعلم تماماً أنه إنْ تراجع عن الإسلام بعد أن دخل فيه فجزاؤه القتل .

فهذه تُحسَب للإسلام لا عليه ؛ لأنه اشترط عليك أولاً ، وأوضح لك عاقبة ما أنت مُقدِم عليه .

أما حرية الدين والعقيدة فهى لك قبل أن تدخل الإسلام دخولاً أولياً ، لا يجبرك أحد عليه ، فلك أنْ تظلَّ على دينك كما تحب ، فإنْ أردتَ الإسلام فتفكّر جيداً وتدبّر الأمر وابحثه بكل طاقات البحث لديك .

فليس فى دين الله مجالٌ للتجربة ، إنْ أعجبكَ تظلّ فى ساحته ، وإنْ لم يَرُقْ لك تخرج منه ، فإنْ علمتَ هذه الشروط فليس لك أنْ تعترضَ على حدِّ الردّة بعد ذلك . ولتعلم أن دين الله أعزّ وأكرم من أنْ يستجدى أحداً للدخول فيه .

ثم يقول تعالى : ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا .. (٣٣)﴾ [الإسراء]

وهذا حكم نفى ، المفروض ألاَّ يحدث . ومعنى ﴿ مَظْلُوماً ﴾ أى : قُتل دون سبب من الأسباب الثلاثة السابقة أى : دون حق ، فعلى فَرْض أن هذا القتل وقع بالفعل ، فما الحكم ؟

يقول تعالى : ﴿فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلا يُسْرِف فِّى الْقَتْلِ .. (٣٣)﴾ [الإسراء]

وليه : أى ولىّ المقتول ، وهو مَنْ يتولّى أمره من قرابته : الأب أو الأخ أو الابن أو العم .. الخ فهو الذى يتولّى أمر المطالبة بدمه .

﴿ سُلْطَانًا .. (٣٣) ﴾ [الإسراء] أى : شرعنا له ، وأعطيناه الحقَّ والقوة فى أنْ يقتل القاتل ، والسلطان يكون فى خدمة التنفيذ ، ويُمكّنه منه ، وكذلك المؤمنون أيضاً يقفون إلى جواره ، ويساعدونه فى تنفيذ هذا الحكم ؛ لأن الأمر من الله قد يكون رادعه فى ذات النفس ، لكن إنْ ضعُفَتْ النفس فلا بُدَّ لرادع من الخارج ، وهنا يأتى دور السلطان ودور المجتمع الإيمانى الذى يُعين على إقامة هذا الحكم .

إذن : جعل الحق سبحانه وتعالى سلطان القصاص لوليّ الدم ، فإنْ لم يكن له وليّ فإن السلطان ينتقل للحاكم العام ليتولى إقامة هذا الحكم ، لكن ما يُتعِب الدنيا ـ حينما ينتقل حَقُّ القصاص إلى الحاكم العام ـ طُول الإجراءات التى تُخرج الحكم عن المراد منه ، وتُذْكِى نار الحقد والغِلِّ والثِّرَة فى نفسِ وليِّ الدم .

فوليّ الدم وحده الذى يُعانى طول فترة التقاضى مع أناس لا يعنيهم أن تطولَ هذه الفترة أو تقصُر ؛ لأن طول فترة التقاضى تأتى فى صالح القاتل ، حيث بمرور الأيام ـ بل والسنين ـ تبْرُد شراسة الجريمة فى نفوس الناس ، وتأخذ طريقاً إلى طيّات النسيان .

وبهذا تبهت الجريمة وتُنسَى بشاعتها ، وبدلَ أن يقف المجتمع ويفكر فى القاتل وفى القصاص منه ، تتحول الأنظار والعواطف إلى النفس الجديدة التى ستُقتل ، وبذلك يتعاطف الناس معه بدل أن يتعاطفوا فى إقامة القصاص عليه .

لكن يجب أنْ يُقامَ القصاص قبل أنْ تبرُدَ شراسة الجريمة فى النفوس ، وتبهت وتفقد حرارتها .

والحق سبحانه وتعالى كما شرع القصاص ، وجعله فى يد ولىّ الدم ، أراد فى الوقت نفسه ألاَّ يحرم المجتمع من طموحات العفو الذى يُنهى أصول الخلاف ، فيقول تعالى : ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ .. (١٧٨)﴾ [البقرة]

ففى جَوِّ القتل وثورة الدماء التى تغلى بالثأر يتكلم الحق سبحانه عن العفو والأخوة والمعروف والإحسان ، فمهما كان الأمر فالمؤمنون إخوة ، وباب العفو والإحسان مفتوح . ولولىّ الدم بعد أن أعطيناه حَقَّ القصاص ندعوه إلى العفو ، وله أن يأخذ الدية[1] وتنتهى المسألة ، وله أن يعفوَ عن بعضها أو عنها كلها .

إذن : فإعطاء الحق مَنع عن المقتول له ذلّة التسلُّط من القاتل ؛ لأن الله تعالى أعطاه حَقَّ القصاص منه ، فإذا ما عفا عنه علِم القاتل أن حياته أصبحت هبةً من ولىّ الدم ، وما دام الأمر كذلك فسوف تتلاشى بينهما الضغائن والأحقاد ، ويحل محلها الوفاق والمحبة والسلام ، ونُنهى تسلسل الثارات الذى لا ينتهى .

وقد اشتهر فى صعيد مصر ـ وكان مثالاً للأخْذ بالثأر ـ أن القاتل يأخذ كفنه فى يده ، ويذهب به إلى ولىّ الدم ويُسلِّم نفسه إليه معترفاً بجريمته ، معطياً لولى الدم حرية التصرف فيه . فما يكون من ولى الدم أمام هذا الاستسلام إلاّ أنْ يعفوَ ويصفح ، وبذلك تُقتلَع الضغائن من جذورها .

---

(١) الدية : هى المال الذى يجب بسبب الجناية . وتُؤدّى إلى المجنى عليه أو وليه . والدية تكون مغلظة ومخففة ، فالمخففة تجب فى قتل الخطأ ، والمغلظة تجب فى شبه العمد . [فقه السنة ٣/٣٧ ـ ٥٩] .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿فَلا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ..(٣٣)﴾[الإسراء]

أى : طالما أن الله أعطاك حَقَّ القصاص فليكُنْ القصاص بقَدْره دون زيادة أو تعدٍّ أو مجاوزة للحدِّ ، والإسراف فى القتل يكون بأوجه عدة :

فقد يكون القاتل غير ذى شأن فى قومه ، فلا يرضى ولىّ الدم بقتْله ، بل يتطلع إلى قتل إنسان آخر ذى مكانة وذى شأن ، فيقتل إنساناً بريئاً لا ذنبَ له ، وهذا من الإسراف فى القتل ، وهو إسرافٌ فى ذات المقتول .

وقد يكون الإسراف فى الكَمِّ ، فإنْ قُتِل واحد فلا يكتفى ولىّ الدم بأن يقتل القاتل ، بل يحمله الغِلّ وثورة الدم إلى أنْ يقتل به أكثر من واحد .

وقد يكون الإسراف بأنْ يُمثِّل بجثة المقتول ، ولا يكفيه قتله ، والمفروض ألاَّ يحملك الغضب على تجاوز الحدِّ المشروع لك . وقد أراد النبى ﷺ أن يفعلها فى قاتل حمزة ، فنهاه الله عن ذلك[1] .

ثم يقول تعالى : ﴿إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا (٣٣)﴾ [الإسراء]

أى : لا يجوز له أنْ يُسرف فى القتل ؛ لأننا لم نتخلّ عنه ، بل وقفنا بجانبه وأعطيناه حقّ القصاص ومكنَّاه منه ، إذن : فهو منصور

---

(١) حين قُتل حمزة ومُثِّل به فى أحد قال رسول الله ﷺ : « لئن أظهرنى الله عليهم لأمثلن بثلاثين رجلاً منهم ، فلما سمع المسلمون ذلك قالوا : والله لئن ظهرنا عليهم لنمثلن بهم مُثلة لم يمثلها أحد من العرب بأحد قط ، فأنزل الله ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ (١٢٦) ﴾ [النحل] .

ليس متروكاً ، فيجب أن يقف عند حدِّ النُّصْرة لا يتجاوزها ؛ لأنه إن تجاوزها بقتل غير القاتل ، فسوف يُقتل هو الآخر قصاصاً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ (١) وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ ﴾

وهنا أيضاً يقول الحق سبحانه : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا .. ﴿٣٤﴾ ﴾ [الإسراء]

ولم يقل : ولا تأكلوا مال اليتيم ليحذرنا من مجرد الاقتراب ، أو التفكير فى التعدِّى عليه ؛ لأن اليُتْم مظهر من مظاهر الضعف لا يصح أنْ تجترىءَ عليه .

و (اليتيم) هو مَنْ مات أبوه وهو لم يبلغ مبلغَ الرجال وهو سِنّ الرُّشْد ، وما دام قد فقد أباه ولم يَعُدْ له حاضن يرعاه ، فسوف يضجر ويتألم ساعة أنْ يرى غيره من الأولاد له أب يحنو عليه ، وسوف يحقد على القدَر الذى حرمه من أبيه .

فيريد الحق سبحانه وتعالى أولاً أنْ يستلَّ من قلب اليتيم وفكره هذه المشاعر ؛ لذلك يُوصى المجتمع به ليشعر أنه وإنْ فقد أباه فالمؤمنون جميعاً له آباء ، وفى حُنوِّهم وعطفهم عِوَض له عن وفاة والده .

---

(١) حتى يبلغ أشده : أى يبلغ السن التى تشتد فيها أعضاؤه وتقوى . [القاموس القويم ٣٤٣/١] قال الزجاج : بلوغه أشده أن يُؤْنَس منه الرشد مع أن يكون بالغاً . وقال بعضهم : حتى يبلغ ثمانى عشرة سنة . قال أبو إسحاق : لست أعرف ما وجه ذلك ؛ لأنه إن أدرك قبل ثمانى عشرة سنة وقد أونس منه الرشد فطلب دفْع ماله إليه وجب له ذلك . [لسان العرب ـ مادة : شدد] .

وكذلك حينما يرى الإنسانُ أن اليتيم مُكرّم فى مجتمع إيمانى يكفله ويرعاه ، ويعتبره كل فرد فيه ابناً من أبنائه ، يطمئن قلبه ولا تُفزِعه أحداث الحياة فى نفسه ، ولا يقلق إنْ قُدِّر له أنْ يُيَتَّم أولاده ، فسوف يجدون مثل هذه الرعاية ، ومثل هذا الحنان من المجتمع الإيمانى .

إذن : إنْ وجد اليتيم فى المجتمع عوَضاً عن أبيه عَطْفاً وحناناً ورعاية يرضى بما قُدِّر له ، ولا يتأبَّى على قدر الله ، وكذلك تطمئن النفس البشرية إنْ قُدِّر عليها اليُتْم فى أولادها .

ثم يقول تعالى : ﴿إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ .. (٣٤)﴾ [الإسراء]

أى : لا تنتهز يُتْم اليتيم ، وأنه ما يزال صغيراً ضعيف الجانب ، فتطمع فى ماله ، وتأخذه دون وجه حق .

وقوله : ﴿إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ .. (٣٤)﴾ [الإسراء] استثناء من الحكم السابق ﴿ وَلاَ تَقْرَبُوا ... ﴾ يبيح لنا أن نقرب مال اليتيم ، ولكن بالتى هى أحسن .

و ﴿ أَحْسَنُ ﴾ أفعل تفضيل تدل على الزيادة فى الإحسان ، فكأن لدينا صفتين ممدوحتين : حسنة وأحسن ، وكأن المعنى : لا تقربوا مال اليتيم بالطريقة الحسنة فحسب ، بل بالطريقة الأحسن . فما الطريقة الحسنة ؟ وما الطريقة الأحسن ؟

الطريقة الحسنة : أنك حين تقرب مال اليتيم لا تُبدده ولا تتعدَّى عليه . لكن الأحسن : أنْ تُنمى له هذا المال وتُثمّره وتحفظه له ، إلى أن يكون أهْلاً للتصرّف فيه .

لذلك فالحق سبحانه حينما تكلم عن هذه المسألة قال : ﴿وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا .. ﴿٥﴾﴾ [النساء]

ولم يقل : وارزقوهم منها ؛ لأن الرزق منها يُنقِصها ، لكن معنى: ﴿وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا .. ﴿٥﴾﴾ [النساء] أى : من ريعها وربحها ، وليس من رأس المال .

وإلاَّ لو تصوّرنا أن أحد الأوصياء على الأيتام عنده مال ليتيم ، وأخذ ينفق عليه من هذا المال ، ويُخرج منه الزكاة وخلافه ، فسوف ينتهى هذا المال ويبلغ اليتيم مبلغ الرُّشْد فَلا يجد من ماله شيئاً يُعتَدُّ به .

وكأن الحق ـ تبارك وتعالى ـ يقول : حقِّقوا الحسن أولاً بالمحافظة على مال اليتيم ، ثم قدِّموا الأحسن بتنميته له وزيادته زيادة تتسع لنفقات حياته ، وإلاَّ فسوف يشبّ الصغير ، وليس أمامه من ماله شىء .

والحق سبحانه وتعالى يريد ألاَّ يحرم اليتيم من خبرة أصحاب الخبرة والصلاحية الاقتصادية وإدارة الأموال ، فقد يكون من هؤلاء مَنْ ليس لديه مال يعمل فيه ، فليعمل فى مال اليتيم ويُديره له ويُنمّيه ، وليأكل منه بالمعروف ، وإنْ كان غنياً فليستعفف عنه ؛ لأنه لا يحلّ له ، يقول تعالى : ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ..﴿٦﴾﴾ [النساء]

لأن الإنسان إذا كان عنده خبرة فى إدارة الأموال ولديْه الصلاحية فلا نُعطِّل هذه الخبرة ، ولا نحرم منها اليتيم ، وهكذا نوفر نفقة

صاحب الخبرة الذى لا يجد مالاً ، ونفقة اليتيم الذى لا يستطيع إدارة أمواله ، وبذلك يتم التكامل فى المجتمع الإيمانى .

ثم يقول تعالى : ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ .. ﴿٣٤﴾﴾ [الإسراء]

أى : حتى يكبر ويبلغ مبلغ الرجال ، ولكن هل هـذه الصفة كافية لكى نُعطِى لليتيم ماله وقد بلغ سِنّ الرُّشْد والتكليف ؟

فى الحقيقة أن هذه الصفة غير كـافية لنُسلّم له ماله يتصرف فيه بمعرفته ؛ لأنه قد يكون مع كِبَر سنّه سفيهاً لا يُحسن التصرُّف ، فلا يجوز أن نتـركَ له المال ليُبدِّده ، بدليل قـوله تعالى : ﴿فَإِنْ آنَسْتُم[1] مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ .. ﴿٦﴾﴾ [النساء]

وقال فى آية أخرى : ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ .. ﴿٥﴾﴾ [النساء]

ولم يقل : أموالهم ، لأن السفيـه ليس له مال ، وليس له ملكية ، والمال مال وليِّه الذى يحافظ عليه ويُنمّيه له .

إذن : فالرُّشْد وهو سلامة العقل وحُسْن التصرُّف ، شرط أساسى فى تسليم المال لليتيم ؛ لأنه أصبح بالرُّشْد أهْلاً للتصرُّف فى ماله .

وكلمة : ﴿أَشُدَّهُ.. ﴿٣٤﴾﴾[الإسراء] أى : يبلغ شِدّة تكوينه ، ويبلغ الأشدّ أى : تسـتوى ملكاته استـواءً لا زيادة عليه ، فأعضـاء الإنسان تنمـو وتتـربى مع نمـوه علـى مَرِّ الـزمن ، إلى أن يصل سِنّ الرشـد ويصبحَ قادراً على إنجاب مثله ، وهذه هى سِنّ الأشُدّ أى : الاستواء.

---

(١) آنس الشىء : أدركه وأحسَّه ببصره أو بعلمـه وفكره . أى : علمتم وأدركتم إدراكاً معنوياً . [القاموس القويم ١/٣٧] .

لذلك أجَّلَ الله تعالى التكليف للإنسان إلى سنِّ البلوغ ؛ لأنه لو كلَّفه قبل أن يبلغ ثم طرأ عليه البلوغ بعد التكليف لاحتجَّ بما طرأ عليه فى نفسه من تغيرات لم تكن موجودة حال التكليف .

ثم يقول تعالى : ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً (٣٤)﴾ [الإسراء]

﴿ العَهْد ﴾ ما تعاقد الإنسان عليه مع غيره عقداً اختيارياً يلتزم هو بنتائجه ومطلوباته ، وأول عقد أُبرِمَ هو العَقْد الإيمانى الذى أخذه الله تعالى علينا جميعاً ، وأنت حُرٌّ فى أن تدخل على الإيمان بذاتك مختاراً أو لا تدخل ، لكن حين تدخل إلى الإيمان مُخْتَاراً يجب أن تلتزم بعهد الإيمان ؛ لأن الله لا يريد منّا قوالبَ تخضع ، ولكن يريد منّا قلوباً تخشع ، ولو أراد الله منّا قوالب تخضع ما استطاع واحد منّا أنْ يشذَّ عن الإيمان بالله .

لذلك خاطب الحق تبارك وتعالى رسوله بقوله : ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣) إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ (٤)﴾ [الشعراء]

فالله لا يريد أعناقاً ، وإنما يريد قلوباً ، لكن يخلط كثير من الناس إنْ أمرته بأمر من أمور الدين فيقول : ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ .. (٢٥٦)﴾[البقرة] نقول له : أنت لم تحسن الاستدلال ، المراد : لا إكراه فى أنْ تدخل الدين ، ولكن إذا دخلتَ فعليك الالتزام بمطلوباته .

ومن باطن هذا العهد الإيمانى تنشأ كل العقود ، لذلك يجب الوفاء بالعهود ؛ لأن الوفاء بها جزء من الإيمان ، فأنت حُرٌّ أن تقابل فلاناً

أولا تقابله ، إنما إذا عاهدتَه على المقابلة فقد أصبحتَ مُلْزماً بالوفاء ؛ لأن المقابل لك قد رتَّبَ نفسه ومصالحه على أساس هذا اللقاء ، فإنْ أخلفتَ معه العهد فكأنك أطلقتَ لنفسه حرية الحركة ، وقيَّدتَ حركة الآخر .

وهذه صفة لا تليق أبداً بالمؤمنين ، وقد جعلها النبى ﷺ من صفات المنافقين[1] .

وقوله : ﴿إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً (٣٤)﴾ [الإسراء]

قد يكون المعنى : أى مسئولاً عنه ، فيسأل كل إنسان عن عهده أوفَّى به أم أخلفه ؟

وقد يراد ﴿ مَسْئُولاً ﴾ أى : مسئول ممَّنْ تعاقد عليه أنْ يُنفِّذه ، وكأنه عدَّى المسئولية إلى العهد نفسه ، فأنا حُرٌّ وأنت حُرٌّ ، والعهد هو المسئول .

والحق سبحانه وتعالى يستعمل اسم المفعول فى مواضع تقول للوهلة الأولى أنه فى غير موضعه ، ولكن إذا دققتَ النظر تجده فى موضعه بليغاً غايةَ البلاغة ، كما فى قوله تعالى : ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا (٤٥)﴾ [الإسراء]

هكذا بصيغة اسم المفعول ، والحجاب فى الحقيقة ساتر وليس مستوراً ، ولكن الحق سبحانه يريد أنْ يجعلَ الحجاب صفيقاً ، كأنه

---

(١) عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال قال رسول الله ﷺ : « أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ، ومن كانت فيه خلة منهن كانت فيه خلة من نفاق حتى يدعها ، إذا حدث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا وعد أخلف ، وإذا خاصم فجر » أخرجه مسلم فى صحيحه (٥٨) ، وكذا البخارى فى صحيحه (٢٤٥٩) .

نفسه مستور بحجاب الغير ، كما يصنع بعض المترفين ستائر البيوت من طبقتين ، فتصبح الستارة نفسها مستورة ، وكما فى قوله تعالى : ﴿ ظِلاًّ ظَلِيلاً (٥٧) ﴾ [النساء] أى : أن الظلَّ نفسه مُظَلَّلٌ .

وانظر إلى حال المجتمع إذا لم تُرَاعَ فيه العهود ، ولم تُحترَم المواثيق ، مجتمع يستهين أهله بالوفاء وشرف الكلمة ، فسوف تجده مجتمعاً مُفكّكاً فُقدت فيه الثقة بين الناس ، وإذا ما فُقدت الثقة وضاع الوفاء وشرف الكلمة الذى تُدار به حركة الحياة فاعلم أنه مجتمع فاشل ، وليس أهْلاً لرقىٍّ أو تقدُّم .

ولأهمية العهد فى الإسلام نجده ينعقد بمجرد الكلمة ، وليس من الضرورى أن يُسجَّل فى سجلات رسمية ؛ لأن المؤمن تثق فى كلمته حتى إن لم تُوثَّق وتكتب .

ومن هنا وُجِد ما يسمونه بالحق القضائى وبالحق الدينى ، فيقولون : هذا قضاءً وهذا ديانة ، والفرق واضح بينهما ، ويمكن أن نضرب له هذا المثل :

هَبْ أنك أخذتَ دَيْناً من صديق لك ، وكتبت له مستنداً بهذا الدين ليطمئن قلبه ، ثم قابلته بعد أن تيسَّر لك السداد ووفَّيت له بدَيْنه . لكنه اعتذر لعدم وجود المستند معه الآن ، فقلت له : لا عليك أرسله لى متى شئتَ ، فلو تصوَّرنا أنه أراد الغدر بك وأنكر سداد الدين ، فالقضاء يقول : له الحق فى أخذ دَيْنه ، أما ديانة فليس له شىء .

إذن : العهد الذى نعقده مع الناس يدخل تحت المسئولية الدينية وليس القضائية .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ[1] الْمُسْتَقِيمِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا[2] ﴿٣٥﴾﴾

تنتقل بنا الآيات إلى قضية من أخطر قضايا المجتمع ، هذه القضية هى التى تضمن للإنسان نتيجة عرقه وثمار جهده وتعبه فى الحياة ، ويطمئن أنها عائدة عليه لا على هذه الطبقة الطفيلية المتسلطة التى تريد أن تعيش على أكتاف الآخرين وتتغذى على دمائهم .

وبذلك ييأس الكسول الخامل ، ويعلم أنه ليس له مكان فى مجتمع عامل نشيط ، وأنه إنْ تمادى فى خموله فلن يجد لقمة العيش فيأخذ من ذلك دافعاً للعمل ، وبذلك تزداد طاقة العمل ويَرْقى المجتمع ويسعد أفراده .

صحيح فى المجتمع الإيمانى إيثار ، لكنه الإيثار الإيجابى النابع من الفرد ذاته ، أما الخطف والسرقة والاختلاس والغَصب فلا مجال لها فى هذا المجتمع ؛ لأنه يريد لحركة الحياة أن تستوعب الجميع فلا يتطفل أحد على أحد .

وإن كنا نحارب الأمراض الطفيلية التى تتغذى على دماء الإنسان فإن محاربة الطفيليات الآدمية أَوْلَى بهذه المحاربة . فما دُمْتَ قادراً

---

(١) القسطاس : الميزان والعدل . [القاموس القويم ٢/١١٦] والقسطاس المستقيم : أعدل الموازين وأقومها . [لسان العرب ـ مادة : قسطس] .

(٢) أى : أحسن عاقبة ومآلاً ومرجعاً ونتيجة ، لأنه أقرب إلى الحق والعدل وفيه الخير الكثير للناس . [القاموس القويم ١/٤٤] .

على العمل فيجب أن تعمل ، أما غير القادرين من أصحاب الأعذار فهم على العين والرأس ، ولهم حَقٌّ مكفول فى الدولة وفى أعناق المؤمنين جميعاً ، وهذا هو التأمين الذى يكفله الإسلام لكل محتاج .

لذلك نقول للغنى الذى يسهم فى سَدِّ حاجة الفقير : لا تتأفف ولا تضجر إنْ أخذنا منك اليوم ؛ لأن الطاقة التى عملت بها واجتهدتَ وجمعتَ هذا المال طاقة وقدرة ليست ذاتية فيك ، بل هى هبَة من الله يمكن أنْ تُنزعَ منك فى أى وقت ، وتتبدَّل قوتك ضعفاً وغِنَاك حاجة ، فإنْ حدث لك ذلك فسوف نعطيك ونُؤمِّن لك مستقبلك .

لذلك على الإنسان أن يعيش فى الحياة إيجابياً ، يعمل ويكدح ويُسهِم فى رُقىّ الحياة وإثرائها ، ولا يرضى لنفسه التقاعس والخمول ؛ لأن المجتمع الإيمانى لا يُسوِّى بين العامل والقاعد ، ولا بين النشيط والمتكاسل .

وهَبْ أن شقيقين اقتسما ميراثاً بينهما بالتساوى ؛ الأول عاش فى ماله باقتصاد وأمانة وسَعَى فيه بجدّ وعمل على تنميته ، أما الآخر فكان مُسْرفاً مُنحرفاً بدَّد كل ما يملك وقعد مُتحسِّراً على ما مضى ، فلا يجوز أنْ نُسوِّى بين هذا وذاك ، أو نأخذ من الأول لنُعطىَ للآخر ، إياك أن تفعل هذا لأن الإنسان وكذلك الدول - إذا أخذتْ ما ليس لها حمّلها الله ما ليس عليها .

ولذلك لا يجوز أن نحقد على الغنى طالما أن غنَاه ثمرة عمله وكَدِّه ونتيجة سعيه ، وطالما أنه يسير فى ماله سَيْراً معتدلاً ويؤدى ما عليه من حقوق للمجتمع ، ولندعه يعمل بكل ما يملك من طاقات

ومـواهب ، وبكل ما لديه من طمـوحـات الحيـاة ؛ لأن الفقـير سـوف يستـفيد مـنه ومن طموحاته شـاء أم أبى . فدَعْـه يجتهـد ، وإنْ كان اجتهاده فى الظاهر لنفسه فإنه فى الحقيقة يعود عليك أيضاً ، والخير فى المجتمع تعود آثاره على الجميع .

لنفـرض أن أحد هؤلاء الأغنـياء أراد أن يبنى مـصنعـاً أو عمـارة أو مشـروعاً كـبيـراً ، فكم من العمـال والصناع ، وكم من الموظـفين والمهندسين سـيستفيدون من هذا المـشروع ؟ إن الغنى لن يملك مثل هذه الإنجـازات إلا بعـد أن يصـبح ثمنهـا قُـوتاً فى بطون الفـقـراء ، وكسوة على أجساد الفقراء .

إذن : علينا أنْ ندعَ الغنى يجـتهد ويسـعى ؛ لأن المجتـمع سوف يستفيد من سَعْيه واجتهاده ، وما عليك إلا أن تراقبه ، فإنْ كان سعيُه فى الحق فبها ونعمتْ ، وإنْ كان فى غير الحق فلتضرب على يده .

وإليك ما يضمن لـك سعادة الحياة وسـلامة الحركة فيـها ، يقول تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ .. (٣٥) ﴾ [الإسراء]

والحديث هنا لا يخصُّ الكيْل فقط ، بل جميع المقادير المستخدمة فى حركة الحـياة مثل المقادير الطوليـة مثلاً ، والتى تُقدّر بالملليـمتر أو السنتـيمتـر أو المتـر أو الكيلو مـتر وتُقاسُ بـها الأشيـاء كُلٌّ على حَسْبه ، فالكتاب مثلاً يُقَاس بالسنتـيمتر ، والحجرة تُقَاس بالمتر ، أما الطريق فيُقاس بالكيلومتر وهكذا .

إذن : فالتـقدير الطُّولـى يجب أن تتناسب وحدة القـياس فـيه مع الشىء الذى نقـيسـه . هذا فى الطوليات ، أمـا فى المسـاحات فـيأتى

الطول والعرض ، وفى الأحجام : الطول والعرض والارتفاع . وفى الكُتَل يأتى الميزان .

إذن : فالحياة محكومة فى تقديرات الأشياء بالكيْل الذى يُبيِّن الأحجام ، وبالميزان الذين يُبيّن الكتلة ؛ لأن الكيْل لا دخلَ له فى الكتلة ، إنما الكتلة تُعرف بالميزان ، بدليل أن كيلو القطن مثلاً أكبر بكثير من كيلو الحديد .

ومعنى ذلك أن ميزان التقدير يجب أن يكون سليماً ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ .. (٣٥) ﴾ [الإسراء] يعنى : أعطوا المقادير على قدر المطلوب من الطرفين دون نقص .

وقد قال تعالى فى آية أخرى : ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ (١) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣) ﴾ [المطففين]

ومعنى المطففين الذين يزيدون ، وهؤلاء إذا اكتالوا على الناس ، أى : أخذوا منهم . أخذوا حَقَّهم وافياً ، وهذا لا لَوْم عليه ، وإنما اللوم على : ﴿ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣) ﴾ [المطففين]

أى : إذا كالوا للناس أو وزنوا لهم ﴿ يُخْسِرون ﴾ أى : ينقصون . هذا هو موضع الذمِّ ومجال اللوْم فى الآية ؛ لأن الإنسان لا يُلام على أنه استوفى حَقَّه ، بل يُلام على أنه لم يُسَوِّ بينه وبين الآخرين ، ولم يعامل الناس بمثل ما يحب أنْ يُعاملوه به .

ونلاحظ أن الكثيرين يفهمون أن التطفيف يكون فى الكَيْل والميزان

فحسب ، لكنه أيضاً فى السعر ، فالبائع الذى ينقصك الكيلو عشرين جراماً مثلاً فقد بخسَك فى الوزن ، وطفَّف عليك فى الثمن أيضاً .

ثم يقول تعالى : ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ .. (٣٥)﴾ [الإسراء] أى : اجعلوا الوزن دقيقاً مستقيماً لا جَوْرَ فيه .

والمتأمل يجد أن الحق سبحانه وتعالى حينما أراد دقة الأحجام فى تعاملات الناس أمرهم بإيفاء الكيل حقَّه ، هكذا : ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ.. (٣٥)﴾ [الإسراء]

أما فى الوزن فقد ركز على دِقَّته ، وجَعلَه بالقسطاس، ليس القسطاس فحسب بل المستقيم ، إذن : لماذا هذه الدِّقة فى الميزان بالذات ؟

لو نظرتَ إلى عملية الكيْل لوجدتها واضحة مكشوفة ، قلَّما يستطيع الإنسان الغشَّ فيها ، وكثيراً ما ينكشف أمره ويُعلَم تلاعبه ؛ لأن الكيْل أمام الأعين والتلاعب فيه مكشوف .

أما الوزن فغير ذلك ، الوزن مجال واسع للتلاعب ، ولدى التجار ألف طريقة وطريقة يبخسون بها الوزن دون أن يدرى بهم أحد ؛ لأن الميزان كما نعلم رافعة من النوع الأول ، عبارة عن محور ارتكاز فى الوسط ، وكفّة القوة فى ناحية ، وكفَّة المقاومة فى الناحية الأخرى ، فأىُّ نَقْص فى الذراعين يفسد الميزان ، وأىُّ تلاعب فى كِفة القوة أو المقاومة يفسد الميزان .

ولو تحدثنا عن ألاعيب البائعين فى أسواقنا لطال بنا المقام ؛ لذلك أكد الحق سبحانه وتعالى على الدقة فى الميزان خاصة ؛ لأنه

مجـال واسـع للغشِّ والخـداع وأكْل أمـوال النـاس .

وسبـق أن أوضحنا أن مـيزان كُلِّ شىء بحـسبـه ، ويتناسب مع قيمـته ونفاستـه ، فالذى يزن الجير مـثلاً غير الذى يزن اللـوز ، غير الذى يزن الذهب أو الألماس ؛ لذلك من معانى (القسطاس المستقيم) أن يتناسب الميزان مع قـيمة الموزون ، فالذى يبـيع الذهب مثلاً يزن أشياء ثمـينة مهما كانت قليلـة فى الميزان ؛ فإنها تسـاوى الكثير من المـال .

لذلك فإن أهل الخـبرة فى هذه المسألة يقـولون : احذر أن يُدخِل البـائع رأسه قـريباً مـن الميـزان ؛ لأنه قد ينـفخ فى كِفَّـة الميـزان ، ولا شكَّ أنك ستخسر كثيراً من جَرَّاء هذه النفخة !!

لذلك نقـول لهـؤلاء الذين أخـذت أيديهـم على الغش والخـداع فى البيع والشـراء : أنت تبيع للناس شـيئـاً واحداً وتغشـهم فيـها ، وفى الوقت نفسه تشترى أشياء كثيرة من متطلبات الحياة ، فاعلم جيداً أنك إنْ غشـشْتَ الناس فى سلعة واحدة فـسوف تُغشّ فى مـئات السلع ، وأنت بذلك خاسر لا محالة . مهما دارت بك الأوهام والظنون فحسبت أن المسألة فى صالحك .

ولا تنسَ أن فوقك قيُّومـاً ، لا تأخذه سنة ولا نوم ، ولا تخفى عليه من أمرك خافية ، وسوف يُسلِّط عليك مَنْ يسقيك بنفس كأسك إلى أنْ تتبـينَ لك حقيقـة هذه الصفقة الخـاسرة ؛ لأنك إن عَمَّيْتَ على قـضاء الأرض فلن تُعمِّى على قضاء السماء ، وسوف تذهب هذه الأموال التى اختلستها من أقـوات الناس من حيث أتت ، كما قال النبى ﷺ : « من

أصاب مالاً من مهاوش[١] أذهبه الله فى نهابر[٢] »[٣] .

وكذلك فى المقابل : مَنْ صدق الناس ، ووفّى لهم فى بيعه وشرائه[٣] وتعاملاته يسَّر الله له مَنْ يُوفِّى له ويصدُق معه .

ثم يقول تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴿٣٥﴾ ﴾ [الإسراء]

(ذلك) أى : الوزن بالقسطاس المستقيم خير وأحسن (تأويلاً) أى : عاقبة ، ومعنى ذلك أن المقابل له ليس خيراً ولا أحسن عاقبة . فالذى يغش الناس ويخدعهم يظن أنه بغشِّه يزيد فى ماله ويجلب الخير لنفسه . نقول له : أنت واهم ، فليس فى الغش والبخس خير والزيادة عن طريقه هى عين النقص ، لأن الحق سبحانه وتعالى سيُجرِّىء الناس عليك فيغشوك ، هذه واحدة ثم لا يلبث الناس أن يكتشفوا تلاعبك فى الكيل والميزان فينصرفون عنك ويقاطعونك .

إذن : عدم الوزن بالقِسْطاس المستقيم لا هو خَيْر ، ولا هو أحسن عاقبة .

أما التاجر الصادق الذى يُوفى الكيل والميزان ، فإن الله تعالى يُيَسِّر له مَن يُوفى له الكَيْل والميزان ، وكذلك يشتهر بين الناس بصدقه وأمانته ، فيقبلون عليه ويحرصون على التعامل معه . وهذا هو المراد بقوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴿٣٥﴾ ﴾ [الإسراء] أى : أحسن عاقبة .

---

(١) المهاوش : مكاسب السوء ، فهو كل مال يُصاب من غير حِلِّه ولا يُدْرى ما وجهه كالغصب والسرقة ونحو ذلك . [لسان العرب ـ مادة : هوش] .

(٢) النهابر : المهالك . أى : أذهبه الله فى مهالك وأمور متبددة [اللسان ـ مادة : نهبر] .

(٣) أورده العجلونى فى كشف الخفاء (٢ /٣١٣) وعزاه للقضاعى عن أبى سلمة الحمصى مرفوعاً ، وأبو سلمة ضعيف ولا صحبة له . قال التقى السبكى : لا يصح .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَلَا تَقْفُ[1] مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾

ينتقل الحق سبحانه وتعالى إلى قضية أخرى تُنظِّم حركة الحياة ، والإنسان الذى استخلفه الله فى الأرض ووهَبه الحياة وأمدَّه بالطاقات وبمُقَوِّمات الحياة وضرورياتها .

وبعد أنْ تكفّل له بالضروريات ، دلّه على الترقِّى فى الحياة بالبحث والفكر ، واستخدام العقل المخلوق لله والمادة المخلوقة لله بالطاقات المخلوقة لله ، فيُرقِّى ويُثرى حياته ومجتمعه .

وحركة الترقِّى والإثراء هذه لا تتمّ إلا على قضية ثابتة واضحة ، فإذا تحركتَ فى الحياة بناءً على هذه القضية فسوف تصل إلى النتيجة المرجوّة .

فمثلاً ، الطالب الذى يرغَب فى دخول كلية الحقوق مثلاً ، لديه قضية واضحة مجزوم بها ، فعندما يلتحق بالحقوق يجتهد ، ويصل من خلالها إلى طموحاته ؛ لأنه سار على ضَوْء قضية اقتنع بها .

إذن : لا بُدَّ أن تُبْنَى حركة الحياة على قضايا ثابتة ، هذه القضايا الثابتة تجعل المتحرِّك فى أىِّ حركة واثقاً من أن حركته ستُؤدِّى إلى النتيجة المطلوبة ، فلو أردتَ مثلاً الذهاب إلى الإسكندرية أو إلى

---

(١) أى : لا تتبع من العقائد ما ليس لك به علم ، ولا من الآراء ولا من الأحداث ما لا تعرف له دليلاً ، ولا تسترسل فى الحديث عما ليس لك به علم . [القاموس القويم ١٢٨/٢] .

أسوان ، فلن تتحرّك إلا إذا تأكدتَ أن هذا الطريق هو الموصِّل إلى غايتك ، وكذلك حركة الحياة لا يمكن أنْ تتمَّ إلا بناءً على قضايا حقيقية مضبوطة فى الكون ، وهذا ما نسميه (العلم) .

وقد سبق أن أوضحنا معنى القضية ، وأنها المقولة التى يُحكَم على قائلها بالصدق أو بالكذب ، كأن نقول : الأرض كُروية ، أو الشمس مضيئة ، أو القمر منير ، وهذه القضايا تعطينى قضية علمية مجزوماً بها وواقعة ، ويمكن أنْ نُدلِّل عليها . وهذا هو العلم .

أما الجهل فأنْ تجزم بقضية ليست واقعية فهى قضية كاذبة ، وليس الجهل عدم العلم كما يعتقد البعض ؛ لأن عدم العلم أمية ، والأميّ ليس عنده قضية لا صادقة ولا كاذبة .

لذلك تجد الأميّ أطوعَ فى التعلم من الجاهل ؛ لأن الأمى بمجرد أنْ تُعلِّمه قضية ما يأخذها ويتعلمها ، أما الجاهل فيلزمك أولاً أن تُخرِج من ذهنه القضية المخالفة ، ثم تُعلّمه القضية الصادقة .

وقضايا الحياة يمكن أنْ تُقسَّم إلى قسمين :

قضايا تختلف فيها الأهواء .

وقضايا تتفق فيها الأهواء .

فالقضايا التى تختلف فيها الأهواء : هى القضية التى يخدم بها كل قائل لها فكرةً عنده فقط ، وإنْ كانت ضارة بغيره ، فما دام الأمر قائماً على الأهواء فلا بُدَّ أنْ تختلفَ ، فكُلٌّ له هواه الخاص ، فلو أن لكل واحد قضية ما التقينا على شىء أبداً .

وصدق الحق تبارك وتعالى حين قال : ﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَـٰوَاتُ وَالأَرْضُ.. (٧١) ﴾ [المؤمنون]

إذن : فما المخرج من هذا الاختلاف والتبايُن ؟ المخرَج أن يخرج كل واحد منَّا من هوى نفسه أولاً ، ثم نرد القضية التى اختلفتْ فيها أهواؤنا إلى مَنْ لا هوى له .

وربُّكَ سبحانه وتعالى هو وحده الذى لا هَوى له ، ونحن جميعاً خَلْقه ، وكلنا عنده سواء ، ليس منا مَنْ بينه وبين الله نسب أو قرابة ، فشرع الله واحد للجميع ، ولا غضاضة فالكل خاضع لهذا الشرع مُتّبع له ؛ لأنه شَرْع الخالق سبحانه لا شَرْع أحد من الناس .

لذلك اشتهر قولهم : « اللى الشرع يقطع صباعه مَيْخُرش دم » . فأنا لم أخضع لك ، وأنت لم تخضع لى ، بل الجميع خاضع لله تعالى مُنصَاع لأمره . إذن : اتركوا قضايا الأهواء لله تعالى يُشرِّعها لكم ، لكى ترتاحوا من تسلُّط بعضكم على بعض .

أما القضايا التى تتفق فيها الأهواء فهى القضايا المادية القائمة على المادة الصَّماء التى لا تُجامل أحداً على حساب أحد ، ولا مانعَ أن تتبعوا الآخرين فيها ؛ لأنكم سوف تلتقون عليها قَهْراً ورَغْماً عنكم ، فالمعمل الذى تدخله لتجرى التجارب التى توصلك لقضية ما مادية أو كيماوية معمل محايد لا يجامل أحداً .

وقد سبق أن قلنا : إن الكهرباء أو الكيمياء ليس فيها روسى وأمريكى ؛ لأن هذه أشياء مادية لا خلافَ عليها ، أما الذى جعل المعسكر الشرقى يختلف والمعسكر الغربى هى القضايا الأهوائية ، فهذا شيوعى ، وهذا رأسمالى .

لذلك ، فالنبى ﷺ وضع بنفسه هذا المبدأ فى الوجود الإيمانى حينما رأى الناس يُؤبّرون النخل ، فأشار عليهم بعدم تأبيره[١] ، فأطاعوه ولم يؤبروا النخل فى هذا العام ، وكانت النتيجة أن شاص النخل ولم يثمر ، وأثبتتْ التجربة الطبيعية أن ما أشار به رسول الله ﷺ ليس صواباً .

يأتى هذا ممَّنْ ؟ من محمد بن عبد الله نبى الله ورسوله ، الذى يحرص على أن تأتى كل قضاياه صادقة صائبة ، وما كان منه إلا أن قال : « أنتم أعلم بشئون دنياكم »[٢] .

ليضع بذلك أُسْوة لعلماء الدين ألاَّ يضعوا أنوفهم فى قضايا الماديات ، وقد قال الحق تبارك وتعالى : ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ .. (٦٠)﴾ [البقرة]

ويقول ﷺ : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به »[٣] .

فإنْ أردتَ أنْ تتحرَّك فى الحياة حركة سليمة مجدية ، وحركة متساندة مع إخوانك غير متناقضة ؛ فالحق سبحانه يقول : ﴿لا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ .. (٣٦)﴾ [الإسراء] لكى تسير فى حركة الحياة على هُدىً وبصيرة .

---

(١) تأبير النخيل : تلقيحه وإصلاحه . [لسان العرب ـ مادة : أبر] .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٣٦٢) من حديث رافع بن خديج أنه قال حين أسقطت النخل ثمرها : « إنما أنا بشر ، إذا أمرتكم بشىء من دينكم فخذوا به ، وإذا أمرتكم بشىء من رأيى فإنما أنا بشر » . وفى حديث أنس (٢٣٦٣) : « أنتم أعلم بأمر دنياكم » .

(٣) أخرجه ابن أبى عاصم فى كتاب « السنة » (١/١٢) من حديث عبد الله بن عمرو ، وأورده ابن رجب الحنبلى فى « جامع العلوم والحكم » (ص٤٦٠) وضعَّفه .

﴿ لاَ تَقْفُ ﴾ أى : لا تتبع ولا تتدخل فيما لا علْم لك به ، كمَنْ يدَّعى مثلاً العلم بإصلاح التليفزيون وهو لا يعلم ، فربما أفسد أكثر مما يُصلح .

ومن هنا قال أهل الفقه : مَنْ قال لا أدرى فقد أفتى ؛ لأنه بإعلان عدم معرفته صرف السائل إلى مَنْ يعلم ، أما لو أجاب خطأ ، فسوف يترتّب على إجابته مَا لا تُحمد عُقْباه ، والذى يسلك هذا المسلك فى حياته تكون حركته فى الحياة حركة فاشلة .

والفعل ﴿ يَقفُو ﴾ مأخوذ من القفا وهو المؤخرة ، وقد قال تعالى فى آية أخرى : ﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا .. (٢٧) ﴾[الحديد] أى : أتبعناهم . ويقفو أثره أى : يسير خَلْفه .

وحينما نصح أحدهم رجلاً يريد أنْ يتزوج قال له[1] : لا تتخذها حنَّانة ، ولا منَّانة ، ولا عُشْبة الدار ، ولا كَبّة القفا .

فالحنانة التى لها ولد من غيرك يُذكِّرها دائماً بأبيه فتحنّ إليه ، والمنّانة التى لديها مال تَمنُّ به عليك ، وعُشْبة الدار هى المرأة الحسناء فى المنبَت السوء والمستنقع القذر ، وكبَّة القفا هى التى لا تعيب الإنسان فى حضوره ، وتعيبه وتذمه فى غيبته .

والعلم هنا يُراد به العلم المطلق ؛ لأن الكثير من الناس كان يعتقد أن العلم يعنى العلم الدينى فقط ، لكن العلم هو كل ما يُثرى حركة الحياة ، والعلم علمان :

– علم دينى ، وهو الذى يقضى على الأهواء ، ويُوحِّدهَا إلى هوىً واحد هو الهَوى الإيمانى .

---

(١) أورده ابن منظور فى لسان العرب ـ مادة : حنن ، عشب ، من وصية أب لابنه أراد الزواج .

وهذا العلم يتولاّه الخالق سبحانه ، وليس لنا دَخْل فيه ؛ لأن الصانع أدْرى بصنعته ، وهو الذى يضع لها قانون صيانتها ؛ لأنه يعلم مَا يصلحْها ومَا يفسدها .

وكما أنك لا تذهب إلى الجزار ليضع لك قانون صيانة التلفاز مثلاً ؛ كذلك لا تطلب قانون صيانة الإنسان إلا من خالقه عز وجل : ﴿أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك]

وهذا النوع من العلم قال الله تعالى عنه : ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا .. ﴿٧﴾﴾ [الحشر]

- فليس لنا أنْ نتدخَّلَ فيه ، أو نزيد عليه ؛ لأنه منهج الله الذى جاء بـ « افعل ولا تفعل » ، وهو منهج لا يقبل الزيادة أو التعديل ، فما كان فيه أمر ونهى فعليك الالتزام به ، وإلا لو خرجت عن هذا الإطار الذى رسمه لك ربك وخالقك فسوف تحدث فى الكون فساداً بترك الأمر أو بإتيان النهى . أما الأمور التى تركها الخالق سبحانه ولم يرد فى شأنها أمر أو نهى فأنت حر فيها ، تفعل أو لا تفعل .

والمتأمل فى شرع الخالق سبحانه يجد أمور التكليف بافعل ولا تفعل قليلة إذا ما قيست بالأمور التى ترك لك الحرية فيها ، إذن : فدع لربك وخالقك والأعلم بك مجالاً يحكم من خلاله حياتك وينظمها لك ، ألا يجدر بنا ونحن عباده وصنعته أن نُحكّمه فى أمور ديننا ، ونُخرِج أنوفنا مما اختص به سبحانه ؟

- أما النوع الآخر من العلم ، فهو العلم المادى التجريبى الذى لا يخضع للأهواء ، فقد جعله الخالق سبحانه مجالاً للبحث والتسابق ،

ومضماراً يجرى فيه الجميع ؛ لأنهم فى النهاية سيلتقون فيه قَهْراً ورَغْماً عنهم . وقد أعطانا الحق سبحانه وتعالى مثالاً لهذا النوع من العلم ، فقال تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ .. (٢٨) ﴾ [فاطر]

فذكر الحق سبحانه أجناس الوجود كلها : الإنسان ، والحيوان ، والنبات ، والجماد . ثم ختم ذلك بقوله : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ .. (٢٨) ﴾ [فاطر]

فهذه ظواهر الكون ، اربَع فيها كما شئت بحثاً ودراسة ، وإنْ أحسنتَ الإمعان فيها فسوف تُوصِّلك إلى ظواهر أخرى تُثرى حياتك وتُرقّيها ؛ فالذى اكتشف عصر البخار ، والذى اكتشف العجلة والكهرباء والجاذبية وغيرها لم يخلق جديداً فى كَوْن الله ، إنما أحسن النظر والتأمّل فتوصّل إلى ما يُريح المجتمع ويُسعده .

لذلك ، فالحق سبحانه وتعالى يُحذّرنا أن نمرَّ على ظواهر الكون فى إعراض وغفلة ودون تمعُّن فيها : ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥) ﴾ [يوسف]

والذين عبَّروا عن هذه الإنجازات العلمية بكلمة (الاكتشافات) كانوا أمناء فى التعبير عن الواقع الفعلى ، فهم لم يخلقوا جديداً فى الكون ، فكلُّ هذه الأشياء موجودة ، والفضل لهم فى الاهتداء إليها

واكتشافها ، ومن هنا فكلمة (اختراع) ليست دقيقةً فى التعبير عن هذه الاكتشافات .

فإذا كان الحق سبحانه نهانا عن تتبُّع ما ليس لنا به علم ، فماذا نتبع ؟ نتبع ما نعلمه وما نتيقن منه من علوم ، فإنْ كانت فى الدين تركناها للخالق سبحانه يُقنّنها لنا ، وإنْ كانت فى أمور الدنيا أعملنا فيها عقولنا بما ينفعنا ويُثرى حياتنا ؛ لذلك تكلّم الحق سبحانه بعد ذلك عن وسائل إدراك العلم ، فقال : ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَـئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً (٣٦)﴾ [الإسراء]

وما دام الحق سبحانه قد نهانا عن تتبع مَا لا نعلم ، وأمرنا أن نسير على ضوء ما نعلم من العلم اليقينى فلا بُدّ أنْ يسأل المرءُ عن وسائل العلم هذه ، لأنه لولا وسائل الإدراك هذه ما علَم الإنسانُ شيئاً ، وهذا واضح فى قول الحق تبارك وتعالى : ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨)﴾ [النحل]

وهل يشكر الإنسان إلا على حصيلة أخذها ؟ هذه الحصيلة هى العلم .

وهذه الحواس تُؤدِّى عملها فى الإنسان بمجرد أن تنشأ فيه ، وبعد أنْ يخرجَ إلى الحياة ، والبعض يظنّ أن الطفل الصغير لا يفهم إلا عندما يكبر ويستطيع الكلام والتفاهم مع الآخرين ، والحقيقة أن الطفل يدرك ويَعِى من الأيام الأولى لولادته .

ولذلك ، فإن علماء وظائف الأعضاء يقولون : إن الطفل يُولَد

ولديْه ملكَاتٌ إدراكية سمّاها العلماء احتياطاً « الحواس الخمس الظاهرة » ، وقد كان احتياطهم فى محله لأنهم اكتشفوا بعد ذلك حواس أخرى ، مثل حاسة العضل مثلاً التى نُميِّز بها بين الخفيف والثقيل .

وإنْ كانت حواس الإنسان كثيرة فإن أهمها : السمع والبصر ، وقد وردت فى القرآن بهذا الترتيب ، السمع أولاً ، ثم البصر لأن السمع يسبق البصر ، فالإنسان بمجرد أنْ يُولَد تعمل عنده حاسّة السمع ، أما البصر فإنه يتخلّف عن السمع لعدة أيام من الولادة ، إذن : فهو أسبق فى أداء مهمته ، هذه واحدة .

الأخرى : أن السمع هو الحاسَّة الوحيدة التى تُؤدّى مهمتها حتى حال النوم ، وفى هذا حكمة بالغة للخالق سبحانه ، فبالسمع يتم الاستدعاء من النوم .

وقد أعطانا الخالق سبحانه صورة واضحة لهذه المسألة فى قصة أهل الكهف ، فلما أراد سبحانه أن يناموا هذه السنين الطوال ضرب على آذانهم وعطّل حاسة السمع لديهم ، وإلاّ لَمَا تمكّنوا من النوم الطويل ، ولأزعجتهم الأصوات من خارج الكهف . فقال تعالى : ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ﴾ [الكهف]

ولم يسبق البصر السمع إلا فى آية واحدة فى كتاب الله تعالى وهى : ﴿ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا .. ﴿١٢﴾ ﴾ [السجدة]

والحديث هنا ليس عن الدنيا ، بل عن الآخرة ، حيث يفزع الناس من هَوْلها فيقولون : ﴿ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا .. ﴿١٢﴾ ﴾ [السجدة] لأنهم فى الآخرة أبصروا قبل أن يسمعوا .

فالسمع أوّل الحواس ، وهو أهمها فى إدراك المعلومات ، حتى الذى يأخذ معلوماته بالقراءة سمع قبل أن يقرأ ، فتعلّم أولاً بالسماع ألف باء ، فالسمع أولاً فى التعلُّم ، ثم يأتى دَوْر البصر .

والذى يتتبع الآيات التى ورد فيها السمع والبصر سيجدها جاءت بإفراد السمع وجمع البصر ، مثل قوله سبحانه : ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ .. (٩)﴾ [السجدة]

إلا فى هذه الآية التى نحن بصدد الحديث عنها جاءت : ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَـئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً (٣٦)﴾ [الإسراء]

لماذا ؟ وما الحكمة من إفرادها هنا بالذات ؟

وقبل أن نُوضِّح الحكمة هنا يجب أن نعى أن المتكلم هو الله تعالى ، وما دام المتكلم هو الله فلا بُدَّ أن تجد كل كلمة دقيقة فى موضعها ، بليغة فى سياقها .

فالسمع جاء بصيغة الإفراد ؛ لأنه لا يتعدد فيه المسموع بالنسبة للسامع ، فإذا حدث الآن صوت نسمعه جميعاً ، فهو واحد فى جميع الآذان .

أما البصر فهو خلاف ذلك ؛ لأن أمامنا الآن مرائىَ متعددة ومناظر مختلفة ، فأنت ترى شيئاً ، وأنا أرى شيئاً آخر ، فَوحْدة السمع لا تنطبق على البصر ؛ لذلك أفرد السمع وجاء البصر بصيغة الجمع .

أما فى قوله تعالى : ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ .. (٣٦)﴾ [الإسراء] فقد

ورد البصر هنا مفرداً ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى يتحدث عن المسئولية ، مسئولية كل إنسان عن سَمْعه وبصره ، والمسئولية أمام الحق سبحانه وتعالى فردية لا يُسأل أحد عن أحد ، بل يُسأل عن نفسه فحَسْب ، فناسب ذلك أنْ يقول : السمع والبصر ؛ لأنه سيُسأل عن بصر واحد هو بصره .

فالإنسان - إذن - مسئول عن سَمْعه وبصره وفؤاده من حيث التلقِّى ، تلقّى القضايا العلمية التى سنسير عليها فى حركة حياتنا ، وكذلك من حيث الإعطاء ، فكأن الحق سبحانه وتعالى يقول للأذن : لا تسمعى إلا خيراً ، ولا تتلقىْ إلا طيّباً ، ويا مُربِّى النشء لا تُسْمعه إلا ما يدعو إلى فضيلة ، ولا تعط لأذنه إلا ما يصلح حياته ويُثريها .

ويقول للعين : لا ترَىْ إلا الحلال الذى لا يهيج غرائزك إلى الشهوات ، ويا مُربِّى النشء احجب عنه ما يثير الغرائز ويفسد الحياة ؛ وبذلك نربى فى المجتمع المعلومات الصحيحة التى تنبنى عليها حركة حياته .

وما دُمْتَ مسئولاً عن أعضائك هذه المسئولية ، ومحاسباً عنها ، فإياك أنْ تقولَ : سمعت وأنت لم تسمع ، وإياك أنْ تقولَ : رأيت وأنت لم ترَ ، إياك أنْ تتعرّض لشهادة تُدلى فيها بغير ما تعلم وتتيقن . أو تتبنّى قضية خاطئة وتبنى عليها حركة حياتك ؛ لأن المبنىّ على مقدمات فاسدة ينتج عنه نتائج فاسدة ، وما بُنِى على مقدمات صحيحة أنتج النتيجة الصحيحة .

وجماع هذا كله فى قوله تعالى : ﴿وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ.. (٣٦)﴾ [الإسراء] لماذا ؟ لأنك محاسب على علمك هذا وعلى وسائل إدراكه لديك : ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَـٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً (٣٦)﴾ [الإسراء]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا (٣٧)﴾

ما زالت الآيات تسير فى خطٍّ واحد ، وترسم لنا طريق التوازن الاجتماعى فى مجتمع المسلمين ، فالمجتمع المتوازن يصدر فى حركته عن إله واحد ، هو صاحب الكلمة العليا وصاحب التشريع .

والمتتبع لهذه الآيات يجد بها منهجاً قويماً لبناء مجتمع متماسك ومتوازن ، يبدأ بقوله تعالى : ﴿لا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَـٰهًا آخَرَ .. (٢٢)﴾ [الإسراء]

وهذه قضية القمة التى لا تنتظم الأمور إلا فى ظلّها ، ثم قسّم المجتمع إلى طبقات ، فأوصى بالطبقة الكبيرة التى أدَّت مهمتها فى الحياة ، وحان وقت إكرامها وردِّ الجميل لها ، فأوصى بالوالدين وأمر ببّرهما .

ثم توجّه إلى الطبقة الصغيرة التى تحتاج إلى رعاية وعناية ، فأوصى بالأولاد ، ونهى عن قتلهم خَوْفَ الفقر والعَوز ، وخَصَّ بالوصية اليتيم ؛ لأنه ضعيف يحتاج إلى مزيد من الرعاية والعناية والحنو والحنان .

ثم تكلم عن المال ، وهو قوام الحياة ، واختار فيه الاعتدال والتوسُّط ، ونهى عن طرفَيْه : الإسراف والإمساك . ثم نهى عن الفاحشة ، وخصَّ الزنا الذى يُلوِّث الأعراض ويُفسد النسل ، ونهى عن القتل وسَفْك الدماء .

ثم تحدث عمَّا يحفظ للإنسان ماله ، ويحمى تعبه ومجهوداته ، فأمر بتوفية الكيل والميزان ، ونهى عن الغش فيهما والتلاعب بهما ، ثم حَثَّ الإنسان على الأمانة العلمية ، حتى لا يقول بما لا يعلم ، وحتى لا يبنى حياته على نظريات خاطئة .

ألم تَرَ أنه منهج وأسلوب حياة يضمن سلامة المجتمع ، وسلامة المجتمع ناشئة من سلامة حركة الإنسان فيه ، إذن : الإنسان هو مدار هذه الحركة الخلافية فى الأرض ؛ لذلك يريد الحق سبحانه وتعالى أنْ يضع له توازناً اجتماعياً .

وأوّل شىء فى هذا التوازن الاجتماعى أننا جميعاً عند الله سواء ، وكلنا عبيده ، وليس منا مَنْ بينه وبين الله قرابة أو نَسَب ، فالجميع عند الله عبيد كأسنان المشط[1] ، لا فَرْق بينهم إلا بالتقوى والعمل الصالح .

وإنْ تفاوتت أقدارنا فى الحياة فهو تفاوت ظاهرى شكلى ؛ لأنك حينما تنظر إلى هذا التفاوت لا تنظر إليه من زاوية واحدة فتقول مثلاً : هذا غنى ، وهذا فقير .

---

(١) أخرج ابن عدى فى الكامل (٣/٢٤٨) من حديث أنس بن مالك قال : قال ﷺ : « الناس سواء كأسنان المشط ، وإنما يتفاضلون بالعافية ، والمرء كثير بأخيه يرفده ويحمله ، ولا خير فى صحبة من لا يرى لك مثل ما ترى له » وفيه أبو داود النخعى ، قال ابن عدى : اجتمعوا على أنه يضع الحديث . وعزاه العجلونى فى كشف الخفاء (٢/٤٥١) للديلمى عن أنس ، وعن سهل بن سعد .

ومعظم الناس يهتمون بهذه الناحية من التفاوت ، ويَدَعُون غيرها من النواحى الأخرى ، وهذا لا يصح ، بل انظر إلى الجوانب الأخرى فى حياة الإنسان ، وإلى الزوايا المختلفة فى النفس الإنسانية ، ولو سلكتَ هذا المسلك فسوف تجد أن مجموع كل إنسان يساوى مجموع كل إنسان ، وأن الحصيلة واحدة ، وصدق الله العظيم القائل : ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ .. (١٣)﴾ [الحجرات]

وما دام المجتمع الإيمانى على هذه الصورة فلا يصح لأحد أنْ يرفعَ رأسه فى المجتمع ليعطى لنفسه قداسةً أو منزلة فوق منزلة الآخرين ، فقال تعالى : ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا .. (٣٧)﴾ [الإسراء]

أى : فخراً واختيالاً ، أو بَطَراً وتعالياً ؛ لأن الذى يفخر بشىء ويختال به ، ويظن أنه أفضل من غيره ، يجب أن يضمن لنفسه بقاء مَا افتخر به ، بمعنى أن يكون ذاتياً فيه ، لا يذهب عنه ولا يفارقه ، لكن من حكمة الله سبحانه وتعالى أنْ جعل كل ما يمكن أن يفتخر به الإنسان هِبةً له ، وليست أصيلة فيه .

كل أمور الإنسان بداية من إيجاده من عدم إلى الإمداد من عُدم هى هبة يمكن أنْ تسترد فى يوم من الأيام ، وكيف الحال إذا تكبَّرْتَ بمالك ، ثم رآك الناس فقيراً ، أو تعاليت بقوتك ثم رآك الناس عليلاً ؟

إذن : فالتواضع والأدب أليَقُ بك ، والتكبُّر والتعالى لا يكون إلا للخالق سبحانه وتعالى ، فكيف تنازعه سبحانه صفة من صفاته ؟ وقد نهانا الحق سبحانه عن ذلك ؛ لأنه لا يستحق هذه الصفة إلا هو سبحانه وتعالى ، وكَوْنُ الكبرياء لله تعالى يعصمنا من الاتضاع للكبرياء الكاذب من غيرنا .

ومَنْ أحب أن يرى مساواة الخَلْق أمام الخالق سبحانه ، فلينظر إلى العبادات ، ففيها استطراق العبودية فى الناس ، فحينما يُنادَى للصلاة مثلاً ترى الجميع سواسية : الغنى والفقير ، والرئيس والمرؤوس ، الوزير مثلاً والخفير ، الكل راكع أو ساجد ، الكل خاضع لله مُتذلّل لله فقير لله ، الكل عبيد لله بعد أنْ خلعوا أقدارهم ، عندما خلعوا نعالهم ، ففى ساحة الرحمن يتساوى الجميع . وتتجلى لنا هذه المساواة بصورة أوضح فى مناسك الحج .

والأهم من هذا أن الرئيس أو الكبير لا يأنف ، ولا يرى غضاضة فى أن يراه مرؤوسه وهو فى هذا الموقف وفى هذا الخضوع والتذلُّل ، لماذا ؟ لأن الخضوع هنا والتذلُّل لله ، وهذا عين العِزَّة والشرف والكرامة .

ثم يقول تعالى : ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً (٣٧)﴾ [الإسراء]

فى هذه العبارة نلحظ إشارة توبيخ وتقريع ، كأن الحق سبحانه وتعالى يقول لهؤلاء المتكبرين ، ولأصحاب الكبرياء الكاذب : كيف تتكبرون وتسيرون فَخْراً وخُيلاء بشىء موهوب لكم غير ذاتى فيكم ؟

فأنتم بهذا التكبُّر والتعالى لن تخرقوا الأرض ، بل ستظل صلبة تتحداكم ، وهى أدْنى أجناس الوجود وتُدَاس بالأقدام ، وكذلك الجبال وهى أيضاً جماد ستظل أعلى منكم قامةً ولن تطاولوها . والحق

سبحانه وتعالى يُوبِّخ عبده المؤمن المكرم لِيُبقِى له على التكريم فى :
﴿وَلَا تَمْشِ فِى الْأَرْضِ مَرَحًا .. (٣٧)﴾ [الإسراء]

وحينما أراد الحق سبحانه وتعالى أن يُوبِّخ أهل التكبُّر الكاذب أتى بأَدْنى أجناس الوجود بالأرض والجبال وهى جماد ؛ لكنه قد يسمو على الإنسان ويفضُل عليه .

والناظر لأجناس الكون : الجماد والنبات والحيوان والإنسان ، يجد الإنسان ينتفع بكل هذه الأجناس ، فالجماد ينفع النبات ، والحيوان والنبات ينفع الحيوان والإنسان ، والحيوان ينفع الإنسان ، وهكذا جميع الأجناس مُسخّرة فى خدمة الإنسان ، فما وظيفتك أنت أيها الإنسان ؟ ومَنْ تخدم ؟

لا بُدَّ أنْ يكون لك دَوْر فى الكون ووظيفة فى الحياة ، وإلا كانت الأرض والحجر أفضل منك ، فابحثْ لك عن مهمة فى الوجود .

وفى فلسفة الحج أمر عجيب ، فالجماد الذى هو أَدْنى الأجناس نجد له مكانة ومنزلة ، فالكعبة حجر يطوف الناس من حوله ، وفى ركنها الحجر الأسعد الذى سَنَّ لنا رسول الله ﷺ تقبيله وهو حجر ، وعليه يتزاحم الناس ويتشرَّفون بتقبيله والتمسُّح به .

وهذا مظهر من مظاهر استطراق العبودية فى الكون ، فالإنسان المخدوم الأعلى لجميع الأجناس يرى الشرف والكرامة فى تقبيل حجر .

وكذلك النبات يحْرُم قطعه ، وإياك أن تمتدَّ يدك إليه ، وكذلك الحيوان يحرُم صَيْده ، فهذه الأشياء التى تخدمنى أتى الوقت الذى أخدمها وأُقدِّسها ، وجعلها الحق سبحانه وتعالى مرة فى العمر لنلمح

الأصل ، ولكى لا يغترَّ الإنسان بإنسانيته ، وليعلم أن العبودية لله تعالى تَسْرى فى الكون كله .

فإياك أيها الإنسان أن تخدش هذا الاستطراق العبودىّ فى الكون بمرح أو خُيَلاء أو تعالٍ .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ﴾

أى : كُلُّ ما تقدّم من وصايا وتوجيهات بداية من قوله تعالى : ﴿ لا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَـٰهًا آخَرَ .. ﴿٢٢﴾ ﴾ [الإسراء]

وهذه الأمور التى تقدَّمَتْ ، والتى تحفظ للمجتمع توازنه وسلامته فيها السىء وفيها الحسن ، والسىء هو المكروه من الله تعالى ، والله تعالى لا يكره إلا ما خالفَ منهج العبودية له سبحانه ، أما الإنسان فيكره ما يخالف هواه ، ولا يتفق ومزاجه .

وهذه الأوامر والنواهى التى تقدَّمتْ يقولون : إنها الوصايا العَشْر التى نزلت على موسى ـ عليه السلام ـ والمقصودة فى قوله تعالى : ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِى الأَلْوَاحِ[1] مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا .. ﴿١٤٥﴾ ﴾ [الأعراف]

ولذلك يقول الحق سبحانه :

---

(١) الألواح : جمع لوْح ، وهو الذى يُكتب فيه . قال الزجاج : قيل فى التفسير أنهما كانا لوحيْن ، ويجوز فى اللغة أن يقال للوحين : ألواح . [لسان العرب ـ مادة : لوح] . قال ابن كثير فى تفسيره (٢/٢٤٦) : « قيل : كانت الألواح من جوهر ، وأن الله تعالى كتب له فيها مواعظ وأحكاماً مفصلة مبينة للحلال والحرام » .

﴿ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِۗ وَلَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلۡقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدۡحُورًا ﴿٣٩﴾ ﴾

﴿ ذَٰلِكَ ﴾ أى : ما تقدّم من الوصايا .

﴿ الحِكْمَة ﴾ هى : وَضعْ الشىء فى مَوْضعه المؤدّى للغاية منه ، لتظلَّ الحكمة سائدة فى المجتمع تحفظه من الخلل والحمْق والسَّفَه والفساد .

وقوله : ﴿ وَلا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَـهًا آخَرَ .. ﴿٣٩﴾ ﴾ [الإسراء]

لسائل أنْ يسأل : لماذا كرَّر هذا النهى ، وقد سبق أنْ ذُكِر فى استهلال المجموعة السابقة من الوصايا ؟

الحق سبحانه وتعالى وضع لنا المنهج السليم الذى يُنظِّم حياة المجتمع ، وقد بدأه بأن الإله واحد لا شريكَ له ، ثم عدّل نظام المجتمع كله بطبقاته وطوائفه وأرْسى قواعد الطُّهْر والعِفّة ليحفظ سلامة النسل ، ودعا إلى تواضع الكُلِّ للكُلِّ .

فالحصيلة النهائية لهذه الوصايا أنْ يستقيم المجتمع ، ويسعد أفراده بفضل هذا المنهج الإلهى .

إذن : فإياك أنْ تجعلَ معه إلهاً آخر ، وكرَّر الحق سبحانه هذا النهى : ﴿ وَلا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَـهًا آخَرَ .. ﴿٣٩﴾ ﴾ [الإسراء]

لأنه قد يأتى على الناس وقتٌ يُحْسنون الظن بعقول بعض المفكرين ، فيأخذون بأقوالهم ويسيرون على مناهجهم ، ويُفضّلونها

على منهج الحق تبارك وتعالى ، فيفتنون الناس عن قضايا دينهم الحق إلى قضايا أخرى يُوهِمون الناس أنها أفضل مما جاء به الدين .

إذن : لا يكفى أن تؤمن أولاً ، ولكن احذر أنْ يُزحزحك أحد عن دينك فلا تجعل مع الله إلهاً آخر يفتنك عن دينك ، فتكون النتيجة : ﴿فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا (٣٩)﴾ [الإسراء]

﴿ مَلُوماً ﴾ : لأنك أتيتَ بما تُلاَم عليه ، ﴿ مَدْحُوراً ﴾ : أى : مطروداً مُبْعَداً من رحمة الله ، وهذا الجزاء فى الآخرة .

أما الذى لا يؤمن بها ، فلا بُدّ لكى نستطيع العيش معه فى الدنيا ، أن يُذيقه الله بعض العذاب ، ويُعجِّله له فى الدنيا قبل عذاب الآخرة ، كما قال تعالى : ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَىٰ (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا .. (١٢٤)﴾ [طه] أى : فى الدنيا .

وقد ذكر الحق سبحانه وتعالى فى قصة ذى القرنين : ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ[1] وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا (٨٦) قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا (٨٧)﴾ [الكهف]

فقوله : ﴿فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ.. (٨٧)﴾ [الكهف] لأنه مُمكَّن فى الأرض ، ومَنُوط به حِفْظ ميزان الحياة واستقامتها ، حتى عند الذين لا يُؤمنون

---

(١) أى : رأى الشمس فى منظره تغرب فى البحر المحيط ، وهذا شأن كل من انتهى إلى ساحله يراها كأنها تغرب فيه ، وهى لا تفارق الفلك الرابع الذى هى مثبتة فيه لا تفارقه . [تفسير ابن كثير ٣/١٠٢] .

بالآخرة ، وإلا فلو أخَّرْنا العذاب عن هؤلاء إلى الآخرة لأفسدوا على الناس حياتهم ، وعاثوا فى الأرض يُعربِدون ويُفسِدون .

ولذلك لا يموت ظلوم فى الكون حتى ينتقمَ الله منه ، ويذيقه عذاب الدنيا قبل عذاب الآخرة ، ولا بُدَّ أنْ يراه المظلوم ليعلم أن عاقبة الظلم وخيمة ، فى حين أن المظلوم فى رعاية الله وتأييده ينصره بما يشاء من نعمه وفضله ، حتى إن الظالم لو علم بما أعدَّه الله للمظلوم لَضَنَّ عليه بالظلم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾

لما جعل بعض المشركين لله ولداً ، فمنهم مَنْ قالوا : المسيح ابن الله ، ومنهم مَنْ قالوا : عزير ابن الله ، ومنهم مَنْ قالوا : الملائكة بنات الله . فوبَّخهم الله تعالى : كيف تجعلون للخالق سبحانه البنات ولكم البنين ، إنها قسمة جائرة ، كما قال الحق سبحانه فى آية أخرى: ﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ[1] ضِيزَىٰ ﴿٢٢﴾ ﴾[النجم]

أى : قسمة جائرة ظالمة .

قوله : ﴿ أَفَأَصْفَاكُمْ.. ﴿٤٠﴾ ﴾[الإسراء] أى : اصطفاكم واختار لكم البنين ، وأخذ لنفسه البنات ؟

---

(١) ضازه يضيزه : جار عليه . وضازه حقه : نقصه حقه ، وقسمة ضيزى : جائرة ظالمة . [القاموس القويم ١/٣٩٧] .

ويقول فى آية أخرى : ﴿ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا .. (١٥) ﴾[الزخرف]

لذلك قال تعالى بعدها : ﴿ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيمًا (٤٠) ﴾ [الإسراء]

فوصف قولهم بأنه عظيم فى القُبْح والافتراء على الله ، كما قال فى آية أخرى : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا (٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا[1] (٨٩) ﴾ [مريم]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَـٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا (٤١) ﴾

﴿ صَرَّفْنَا ﴾ أى : حَوَّلْنا الشىء من حال إلى حال ، ومنها قوله تعالى : ﴿ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ .. (١٦٤) ﴾ [البقرة]

يعنى : تغييرها من حال إلى حال ، فمرة : تراها سكْسكاً[2] عليلة هادئة ، ومرّة تجدها رُخَاءً أى : قوية ، ومرة : تجدها إعصاراً مدمراً . والرياح قد تكون لواقح تأتى بالخير والنماء ، وقد تكون عقيماً لا خير فيها . هذا هو المراد بالتصريف .

فمعنى : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَـٰذَا الْقُرْآنِ .. (٤١) ﴾ [الإسراء]

أى : صرف مسألة ادعاء اتخاذ الله الأبناء فى القرآن ، وعالجها فى كثير من المسائل ؛ لأنه أمر مهم عالجه القرآن علاجات متعددة فى مقامات مختلفة من سُوره ، فتكرر ذِكْر هذه المسألة . والتّكرار قد يكون فى

---

(١) الإد والإدَّة : العجب والأمر الفظيع العظيم والداهية . [لسان العرب ـ مادة : أدد] .

(٢) السكسكة : الضعف . [لسان العرب ـ مادة : سكك] والمقصود أنها ريح ضعيفة ذات نسيم عليل .

ذات الشىء ، وقد يكون باللَّف بالشىء ، كما فى قوله تعالى : ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٣)﴾ [الرحمن]

وقوله : ﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ نُفُوراً (٤١)﴾ [الإسراء]

أى : بدلَ أنْ يذكروا ويعودوا إلى جَادّة الصواب ازدادوا إعراضاً ونفوراً . ولنا أن نسأل : لماذا الإعراض والنفور منهم ؟

لأنهم أرادوا الاحتفاظ بالسلطة الزمنية التى كانت لهم قبل الإسلام ، ولكى نوضح المقصود بالسلطة الزمنية نقول :

لو درسنا تواريخ القوانين فى العالم نجد أن القانون الوضعىّ الذى وضعه البشر لم يَأْتِ أول الأمر ، بل جاء نتيجة تسلُّط الكهنة ، وكانوا هم أصحاب القانون يضعونَه باسم الدين ، ويلزمون الناس به ، ولكن لُوحِظ عليهم أنهم يحكمون فى قضية ما بحكم ، ثم بعد فترة يحكمون فى نفس القضية بحكم مخالف للأول ، فانصرف الناس عن أحكام الكهنة ، ووضعوا لأنفسهم هذه القوانين الوضعية ، وبذلك أصبح لهؤلاء ما يُسمَّى بالسلطة الزمنية .

وهذه السُّلْطة الزمنية هى التى منعتْ يهود المدينة من الإيمان بمحمد ﷺ ، وقد كانوا على علم ومعرفة بأوصافه وبرسالته وزمن بعثته ، وكانوا حينما يروْنَ عُبّاد الأصنام فى مكة يقولون لهم : سيأتى زمان يُبعث فيه نبى فى هذا البلد ، وسوف نتبعه ، ونقتلكم به قتل عاد وإرم ، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ، وقد كانوا من قبل يستفتحون به على الذين كفروا .

وعن هذا يقول الحق سبحانه فى حق يهود المدينة : ﴿وَلَمَّا

جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾

[البقرة]

لقد تنكَّر اليهود لرسالة محمد ﷺ ، مع أنهم على يقين من صِدْقه ؛ لأن هذه الرسالة ستحرمهم هذه السلطة الزمنية ، وستقضى على السيادة العلمية والسيادة الاقتصادية والسيادة الحربية التى كانت لهم قبل الإسلام .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ ﴾

أى : لو كان مع الله آلهة أخرى لَطلبتْ هذه الآلهةُ طريقاً إلى ذى العرش .

وقد عالج الحق تبارك وتعالى هذه القضية فى قوله : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ .. ﴿١٨﴾ ﴾ [آل عمران]

وهذه قضية : إما أن تكون صادقة ، وإما أنْ تكونَ غير ذلك . فإنْ كانت صادقة فقد انتهتْ المسألة ، وإنْ كانت غير صادقة ، وهناك إله ثانٍ ، فأين هو ؟ لماذا لم نسمع به ؟ فإنْ كان موجوداً ، ولا يدرى - أو كان يدرى بهذه القضية - ولكنه تقاعس عن المواجهة ولم يعارض ، ففى كل الأحوال لا يستحق أن يكون إلهاً .

إذن : ما دام أن الله تعالى شهد لنفسه بالوحدانية ، ولم يَقُمْ له معارض فقد سلِمتْ له هذه الدعوى .

وكلمة ﴿ ذِى العَرْشِ ﴾ لا تُقَال إلا لمَنْ استتبَّ له الأمر بعد عِرَاك وقتال ، فيُصنع له كرسى أو سرير يجلس عليه .

وابتغاء الطريق إلى ذى العرش ، إما ليواجهوه ويوقفوه عند حده ويبطلوا دعوته ، فإن غلبوا فقد انتهت المسألة ، وإن غُلبوا فعلى الأقل يذهب كل إله بما خلق كما قال تعالى : ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَـٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ.. (٩١)﴾ [المؤمنون]

أو : يبتغون إليه سبيلاً ، ليكونوا من خَلْقه ومن عبيده ؛ لذلك يقول الحق سبحانه فى موضع آخر : ﴿لَن يَسْتَنكِفَ[1] الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ .. (١٧٢)﴾ [النساء]

ويقول : ﴿أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ .. (٥٧)﴾ [الإسراء]

فهؤلاء الذين أشركتموهم مع الله فقُلْتم : المسيح ابن الله ، وعزير ابن الله ، والملائكة بنات الله ، كُلُّ هؤلاء فقراء إلى الله يبتغون إليه الوسيلة ، حتى أقربهم إلى الله وهم الملائكة يبتغون إلى الله الوسيلة ، فغيرهم - إذن - أَوْلَى .

---

(١) أى : لن يمتنع ولن يأنف ولن يكره ولن يستكبر عن أن يكون عبداً لله قائماً بواجب العبد نحو ربه . [القاموس القويم ٢/٢٨٧] .

وينزِّه الحق سبحانه نفسه ، فيقول :

﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ ﴾

وقوله : ﴿ سُبْحَانَهُ ﴾ يعنى تنزيهاً مطلقاً له تعالى فى ذاته ، وفى صفاته ، وفى أفعاله ، فلله تعالى ذات ليست كذاتك ، وله صفات ليست كصفاتك ، وله أفعال ليست كأفعالك ؛ لأن الأشياء تختلف فى الوجود بحَسْب المُوجِد لها .

فمثلاً : لو بنى كُلٌّ من العمدة ، ومأمور المركز ، والمحافظ بيتاً ، فسوف يتفاوت هذا البناء من واحد للآخر ، بحسب قدرته ومكانته . وكذلك لا بُدَّ من وجود هذا التفاوت بين إله ومألوه ، وبين رَبٍّ ومربوب ، وبين عابد ومعبود .

إذن : كُلُّ الأشياء فى المتساوى تتفاوت بتفاوت الناس .

وقوله : ﴿ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ ﴾[الإسراء] أى : تعالى الله وتنزَّه عَمَّا يقول هؤلاء علواً كبيراً ؛ لأن الناس تتفاوت فى العلو .

ونلاحظ أن الحق سبحانه اختار (كبيراً) ولم يَقُلْ : أكبر . وهذا من قبيل استعمال اللفظ فى موضعه المناسب ؛ لأن كبيراً تعنى : أن كلّ ما سواه صغير ، لكن أكبر تعنى أن ما دونه كبير أى : مُشَارِك له فى الكِبَر .

لذلك نقول فى نداء الصلاة : الله أكبر وهى صفة له سبحانه ، وليست من أسمائه ؛ ذلك لأن من أعمال الحياة اليومية ما يمكن أن يُوصَف بأنه كبير ، كأعمال الخير والسعى على الأرزاق ، فهذه كبيرة ، ولكن : الله أكبر .

ثم يقول تعالى :

﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ (١) وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ ﴾

التسبيح : هو حيثية الإيمان بالله ؛ لأنك لا تؤمن بشىء فى شىء إلاَّ أنْ تثق أن مَنْ آمنتَ به فوقك فى ذلك الشىء ، فأنت لا تُوكِّل أحداً بعمل إلا إذا أيقنتَ أنه أقدر منك وأحكم وأعلم .

فإذا كنت قد آمنت بإلـه واحد ، فحيثـية ذلك الإيمان أن هذا الإله الواحد فوق كل المألوهين جميـعاً ، وليس لأحد شبه به ، وإن اشترك مـعه فى مُطْلَق الـصفـات ، فالله غنـىّ وأنت غنى ، لكن غِنَى الله ذاتىّ وغِنَاك موهوب ، يمكن أنْ يُسلب منك فى أى وقت .

وكذلك فى صفة الوجود ، فالله تعالى موجود وأنت موجود ، لكن وجـوده تعـالى لا عن عدم ، بـل هو وجود ذاتى ووجـودك مـوهوب سينتهى فى أى وقت .

إذن : فتسبيح الله هو حيثية الإيمان به كإله ، وإلا لو أشبهناه فى شىء أو أشبهنا فى شىء ما استحق أن يكون إلهاً .

والتسـبيح : هو التنزيه ، وهـذا ثابت لله تعالى قبـل أن يوجد منْ خَلْقه مَنْ يُنزِّهه ، والحق سبحانه مُـنزَّه بذاته والصفة كائنة له قبل أن

---

(١) قوله تـعالى ﴿وَمَن فِيهِنَّ .. ﴿٤٤﴾﴾ [الإسراء] . قـال القرطبـى فى تفسـيره (٥/ ٣٩٩٤) : « يريد المـلائكة والإنس والجن . ثم عَمَّ بعـد ذلك الأشيـاء كلها فى قـوله ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ .. ﴿٤٤﴾﴾ [الإسراء] .

يخلق الخلق ؛ لأنه خالق قبل أن يخلق ، كما نقول : فلان شاعر ، أهو شاعر لأنه قال قصيدة ؟ أم شاعر بذاته قبل أن يقول شعراً ؟

الواقع أن الشعر موهبة ، وملَكة عنده ، ولولاها ما قال شعراً ، إذن : هو شاعر قبل أن يقول .

كذلك فصفات الكمال فى الله تعالى موجودة قبل أن يوجد الخَلْق .

لذلك فإن المتتبع لهذه المادة فى القرآن الكريم مادة (سبح) يجدها بلفظ (سُبْحان) فى أول الإسراء : ﴿سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ .. ﴿١﴾﴾ [الإسراء]

ومعناها أن التنزيه ثابت لله تعالى قبل أن يخلق من ينزهه .

ثم بلفظ : ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. ﴿١﴾﴾ [الحديد]

بصيغة الماضى ، والتسبيح لا يكون من الإنسان فقط ، بل من السموات والأرض ، وهى خَلْق سابق للإنسان .

ثم يأتى بلفظ : ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ..﴿١﴾﴾ [الجمعة]

بصيغة المضارع ؛ ليدل على أن تسبيح الله ليس فى الماضى ، بل ومستمر فى المستقبل لا ينقطع . إذن : ما دام التسبيح والتنزيه ثابتاً لله تعالى قبل أن يخلق مَنْ يُنزِّهه ، وثابتاً لله من جميع مخلوقاته فى السموات والأرض ، فلا تكُنْ أيها الإنسان نشازاً فى منظومة الكون ، ولا تخرج عن هذا النشيد الكونى : ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ﴿١﴾﴾ [الأعلى]

وقوله تعالى : ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ .. (٤٤)﴾ [الإسراء]

أى : ما من شىء ، كل ما يُقال له شىء . والشىء : هو جنس الأجناس ، فالمعنى أن كل ما فى الوجود يُسبِّح بحمده تعالى .

وقد وقف العلماء أمام هذه الآية ، وقالوا : أى تسبيح دلالة على عظمة التكوين ، وهندسة البناء ، وحكمة الخلق ، وهذا يلفتنا إلى أن الله تعالى مُنزَّه ومُتعَالٍ وقادر ، ولكنهم فهموا التسبيح على أنه تسبيح دلالة فقط ؛ لأنهم لم يسمعوا هذا التسبيح ولم يفهموه .

وقد أخرجنا الحق سبحانه وتعالى من هذه المسألة بقوله : ﴿وَلَـٰكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. (٤٤)﴾ [الإسراء]

إذن : يوجد تسبيح دلالة فعلاً ، لكنه ليس هو المقصود ، المقصود هنا التسبيح الحقيقى كُلّ بِلُغته[1] .

فقوله تعالى : ﴿وَلَـٰكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. (٤٤)﴾ [الإسراء]

يدل على أنه تسبيح فوق تسبيح الدلالة الذى آمن بمقتضاها المؤمنون ، إنه تسبيح حقيقىّ ذاتىّ ينشأ بلغة كل جنس من الأجناس ، وإذا كنا لا نفقه هذا التسبيح ، فقد قال تعالى : ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاَتَهُ وَتَسْبِيحَهُ .. (٤١)﴾ [النور]

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٣٩٩٦/٥) : « الصحيح أن الكل يسبح للأخبار الدالة على ذلك ، ولو كان ذلك التسبيح تسبيح دلالة ، فأىّ تخصيص لداود (يقصد قوله تعالى عن داود عليه السلام : ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ (٧٩)﴾ [الأنبياء]) . وإنما ذلك تسبيح المقال بخلق الحياة والإنطاق بالتسبيح ، وقد نصت السنة على ما دل عليه ظاهر القرآن من تسبيح كل شىء ، فالقول به أَوْلَى . والله أعلم » . وهذا يتوافق مع ما قاله فضيلة الشيخ الشعراوى .

إذن : كل شىء فى الوجود عَلِم كيف يُصلّى لله ، وكيف يُسبِّح لله ، وفى القرآن آياتٌ تدل بمقالها ورمزيتها على أن كل عَالَم فى الوجود له لغة يتفاهم بها فى ذاته ، وقد يتسامى الجنس الأعلى ليفهم عن الجنس الأدنى لُغته ، فكيف نستبعد وجود هذه اللغة لمجرد أننا لا نفهمها ؟

وها هم الناس أنفسهم ولهم فى الأداء القولىّ لغة يتفاهمون بها ، ومع ذلك تختلف بينهم اللغات ، ولا يفهم بعضهم بعضاً ، فإذا ما تكلم الإنجليزى - مع أنه يتكلم بألفاظ العربى - ومع ذلك لا يفهمه ؛ لأنه ما تعلَّم هذه اللغة .

واللغة ظاهرة اجتماعية ، بمعنى أن الإنسان يحتاج للغة ؛ لأنه فى مجتمع يريد أن يتفاهم معه ليعطيه ما عنده من أفكار ، ويسمع ما عنده من أفكار فلا بُدَّ من اللغة لنقل هذه الأفكار ، ولو أن الإنسان وحده ما كان فى حاجة إلى لغة ؛ لأنه سيفعل ما يخطر بباله وتنتهى المسألة .

واللغة لا ترتبط بالدم أو الجنس أو البيئة ؛ لأنك لو أتيتَ بطفل إنجليزى مثلاً ، ووضعتَه فى بيئة عربية سيتكلم العربية ؛ لأن اللغة ظاهرة اجتماعية تعتمد على السمع والمحاكاة ؛ لذلك إذا لم تسمع الأذن لا تستطيع أن تتكلم ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ..﴾ (١٨) [البقرة]

فهم بُكْم لا يتكلمون ؛ لأنهم صُمٌّ لم يسمعوا شيئاً ، فإذا لم يسمع الإنسان اللفظ لا يستطيع أن يتحدثَ به ؛ لأن ما تسمعه الأذن يحكيه اللسان .

إذن ؛ بالسماع انتقلتْ اللغة ، كُلٌّ سمع من أبيه ، ومن البيئة التى يعيش فيها ، فإذا ما سلسلْتَ هذه المسألة ستصل إلى آدم ـ عليه السلام ـ وهنا يأتى السؤال : وممَّنْ سمع آدم اللغة التى تكلم بها ؟

وقد حلَّ لنا القرآن الكريم هذه القضية فى قوله تعالى : ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا .. (٣١)﴾ [البقرة]

وأكثر من ذلك ، فقد يتكلم العربى بنفس لغتك ولا تفهم عنه ما يقول ، واللغة هى اللغة ، كما حدث مع أبى علقمة النحوى ، وكان يتقعَّر فى كلامه ويأتى بألفاظ شاذة غير مشتهرة ، وقد أتعب بذلك مَنْ حوله ، وخاصة غلامه الذى ضاق به ذَرْعاً لكثرة ما سمع منه من هذا التقعر .

ويُروَى أنه فى ذات ليلة قال أبو علقمة لغلامه : (أَصقَعَت[1] العَتَارِيفُ) ؟ فردَّ عليه الغلام قائلاً : (زقْفَيْلَم) . وكانت المرة الأولى التى يستفهم فيها أبو علقمة عن كلمة ، فقال : يا بنى وما (زقْفَيْلَم) ؟ قال : وما (صقعت العتاريف) ؟ قال : أردتُ : أصاحت الديكة ؟ فقال الغلام : وأنا أردتُ لم تَصِحْ .

إذن : فكيف نستبعد أننا لا نعلم لغة المخلوقات الأخرى من حيوان ونبات وجماد ؟ ألم يكْفِنا ما أخبرنا الله به من وجود لغة لجميع المخلوقات ، وإنْ كنا لا نفهمها ؛ لأننا نعتقد أن اللغة هى النطق باللسان فقط ، ولكن اللغة أوسع من ذلك .

فهناك ـ مثلاً ـ لغة الإشارة ، ولغة النظرات ، ولغة التلغراف .

---

(١) صقْع الديك : صوته . وقد صقع الديك : صاح . والعُتْرفان : الديك . [لسان العرب ـ مادة : صقع ، عترف] فمعنى : أصقعت العتاريف : أى : أصاحت الديكة .

إذن : اللغة ليست اللسان فقط ، بل هى استعداد لاصطلاح يُفْهم ويُتعارف عليه ، فالخادم مثلاً يكفى أن ينظرَ إليه سيّده نظرة يفهم منها ما يريد ، فهذه النظرة لَوْنٌ من ألوان الأداء .

والآن بدأنا نسمع عن قواميس يُسجّل بها لغات بعض الحيوانات لمعرفة ما تقول .

وقد أعطانا الحق تبارك وتعالى إشارات تدل على أن لكل عَالَم لغة يتفاهم بها ، كما فى قوله تعالى : ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ .. (٧٩)﴾ [الأنبياء]

فالجبال تُسبّح مع داود ، وتُسبّح مع غيره ، ولكن المراد هنا أنها تُسبّح معه ويوافق تسبيحها تسبيحه ، وكأنهما فى أنشودة جماعية منسجمة . إذن : فلا بُدَّ أن داود عليه السلام قد فَهِم عنها وفهمتْ عنه .

وكذلك النملة التى تكلمتْ أمام سليمان عليه السلام ففهم كلامها ، وتبسَّم ضاحكاً من قولها . وقد علَّمه الله منطقَ الطير . إذن : لكل جنس من الأجناس منطق يُسبّح الله به ، ولكن لا نفقه هذا التسبيح ؛ لأنه تسبيح بلغة مُؤدِّية مُعبّرة يتفاهم بها مَنْ عرف التواضع عليها .

وقد جعل الحق سبحانه وتعالى تنزيهه مطلقاً ينقاد له الجميع ، حتى الكافر ينقاد لتنزيه الله قَهْراً عنه ، مع أن لديه ملكةَ الاختيار بين الكفر أو الإيمان ، لكن أراد الحق سبحانه أن يكون تنزيهه مُطْلقاً من الجماد والنبات والحيوان ، ومن المؤمن والكافر . كيف ذلك ؟

أطلق الحق سبحانه على ذاته لفظ الجلالة (الله) فهو علَم على

واجب الوجود ، ثم تحدّى الكافرين أنْ يُسمُّوا أحداً بهذا الاسم ، فقال : ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا (٦٥)﴾ [مريم]

ومع ما عندهم من إلْف بالمخالفة وعناد بالإلحاد ، مع ذلك لم يجرؤ أحد منهم أنْ يُسَمِّىَ ابناً له بهذا الاسم ، ومعلوم أن التسمية أمر اختيارىّ يطرأ على الجميع .

إذن : فهذا تنزيه لله تعالى ، حتى من الكافر رَغْماً عنه ، وهو دليل على عظمته سبحانه وجلاله ، هذه العظمة وهذا الجلال الذى لم يجرؤ حتى الكافر على التشبُّه به ؛ ذلك لأنهم فى كفرهم غير مقتنعين بالكفر ، ويخافون بطش الله وانتقامه إنْ أقدموا على هذا العمل ، لذلك لا يجرؤ أحد منهم أنْ يُجرِّب فى نفسه مثل هذه التسمية .

وفى مجال العبادات ، فقد اختار الحق سبحانه لنفسه عبادة لا يشاركه فيها أحد ، ولا يقدمها أحد لغيره تعالى ؛ لأن الناس كثيراً ما يتقربون لأمثالهم من البشر بأعمال أشبه ما تكون بعبادة الله تعالى ، فمنهم مَنْ ينحنى خضوعاً لغيره ؛ كأنه راكع أو ساجد ، ومنهم مَنْ يمدح جباراً بأنه لا مثيلَ له ، وتصل به المبالغة إلى جَعْله إلهاً فى الأرض ، ومنهم مَنْ يسجدُ للشمس كما فعل أهل سبأ ، وأخبر الهدهد عنهم بقوله :

﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ .. (٢٤)﴾ [النمل]

ألسْنَا نرى إنساناً يتقرّب لأحد الحكام ، بأن ينفق فيما يحبه هذا الحاكم ، وكأنه يُخرِج زكاة ماله ؟ ألسْنا نرى أحدهم يذهب كل يوم

إلى قصر سيده ، ويُوقّع فى سجل التشريفات باسمه ليقدم بذلك فروض الولاء والطاعة ؟

إذن : فالإيمان بالوحدانية فى شىء متميز وارد عند الناس ، والخضوع الزائد بالسجود أو بالركوع أو بالكلام وارد عند الناس .

لذلك تفرّد الحق سبحانه بفريضة الصوم ، وجعلها خالصة له سبحانه ، لا يتقرب بها أحد لأحد ، وهل رأيت إنساناً يتقرّب لآخر بصوم ؟ فانظر إلى هذه السُّبْحانية وهذا التنزيه فى ذاته سبحانه ، فلا يجرؤ أحد أنْ يتسمّى باسمه .

وفى العبادة لا يُصَام لأحد غيره تعالى ، فلو تصوَّرنا أن يقول واحد للآخر : أنا سأتقرّب إليك بصوم هذا اليوم أو هذا الشهر ، إذن : أنت تريد منه أن يجلس بجوارك يحرسك ويراعى صومك ، فكأنك تريد له العنت والمشقة من حيث تريد أنت أنْ تتقرّب إليه .

لذلك يقول الحق سبحانه فى الحديث القدسى : « كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لى وأنا أجزى به »[(١)] .

يعنى من الممكن أن يتقرب بأىٍّ ركن من أركان الإسلام لغيرى ، إلا الصوم ، فلا يجرؤ أحد أنْ يتطوّع به أو يتقرب به لأحد .

إذن : فالسُّبحانية هى الدليل السائد الشامل الجامع لكل الخَلْق ؛ لذلك نقول للكافر : أيها الكافر لقد تأبَّيْتَ على الإيمان بالله ،

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (١٩٠٤) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٨٠٦/٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، وهو حديث قدسى عن رب العزة سبحانه .

وللعاصى : لقد تأبيتَ على أوامر الله ، وما دُمْتُم قد تأبيتم على الله ، وألفتم هذا التأبِّى وهذا التمرد ، فلماذا لا تتأبون على المرض إنْ أصابكم ، وعلى الموت إنْ طرق بابكم ؟

لماذا لا تتمرد على ملك الموت وتقول له : لن أموت اليوم ؟! إنها قاهرية الحق سبحانه وتعالى حتى على الكافر ، فلا يستطيع أحد أن يخرج عليها أو يتمرد .

وكذلك العاصى حينما ينحرف عن الجادّة ، وتمتد يده إلى مال غيره بالسرقة أو الاختلاس أو التعدِّى على المال العام ، فإن الحق سبحانه يفتح عليه أبواباً للإنفاق تبتلع ما جمع من الحرام ، وربما أخذت فى طريقها الحلال أيضاً ، وصدق رسول الله ﷺ حين قال :

« من جمع مالاً من مهاوش أذهبه الله فى نهابر »[1] .

فالتسبيح إذن لغة الكون كله ، منه ما نفهمه ، ومنه ما لا نفهمه ، إلا مَنْ أطلعه الله عليه ، فإذا مَنَّ الله على أحد وعلّمه لغة الطير أو الحيوان أو النبات أو الجماد ، فهمها وفقه عنها ، كما أنعم بهذه النعمة على داود وسليمان عليهما السلام .

ويقول سليمان ـ عليه السلام ـ شاكراً هذه النعمة : ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِى[2] أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِى أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَالِدَىَّ .. ﴿١٩﴾ ﴾ [النمل] فقَوْل الحق سبحانه : ﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ .. ﴿٤٤﴾ ﴾[الإسراء]

---

(١) أورده العجلونى فى كشف الخفاء (٢/٣١٣) وعزاه للقضاعى عن أبى سلمة الحمصى مرفوعاً ، وأبو سلمة ضعيف ولا صحبة له . قال التقى السبكى : لا يصح .

(٢) أى : ألهمنى شكرك وادفعنى إليه وحبّبه إلىَّ . [القاموس القويم ٢/٣٣٤] .

يجب على العلماء أنْ ينقلوها من خاطر الدلالة إلى خاطر المقالة أيضاً ، ولكنها مقالة ، ولكنها مقالة بلغة يفهمها أصحابها إذا شاء الله لهم ذلك .

ثم يُذيّل الحق سبحانه هذه الآية بقوله : ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (٤٤)﴾ [الإسراء]

لأن الإنسانَ كثيراً ما يغفل الاستدلال بظواهر الكون وآياته دلالة الحال ، فيقف على قدرة الله وبديع صُنْعه ، وكذلك كثيراً ما يغفل عن تسبيح الله تسبيح المقالة ؛ لذلك أخبر سبحانه أنه حليمٌ لا يعاجل الغافلين بالعقوبة ، وغفور لمن تاب وأناب .

وهذا من رحمته سبحانه بعباده ، فلولا أنْ يتداركَ الله العباد بهذه الرحمة لكان الإنسان سيد الكون أقلّ حظاً من الحيوان ، ويكفى أن تتدبر قوله تعالى عن تسبيح المخلوقات له سبحانه :

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ .. (١٨)﴾ [الحج]

فها هى جميع الأجناس من جماد ونبات وحيوان تسجد لله لا يتخلف منها شىء ، فهى تسجد وتُسبّح بالإجماع ، ولم ينقسم الأمر إلا فى الإنسان السيّد المكرّم ، ولكن لماذا الإنسان بالذات هو الذى يشذُّ عن منظومة التسبيح فى الكون ؟

نقول : لأنه المخلوق الوحيد الذى مَيَّزَهُ الله بالاختيار ، وجعل له الحرية فى أنْ يفعل أو لا يفعل ، أما باقى المخلوقات فهى مُسخّرة مقهورة ، فإن قال قائل : لماذا لم يجعل الحق سبحانه وتعالى

الإنسان أيضاً مقهوراً كباقى المخلوقات ؟

لقد جعل الله تعالى فى الإنسان الاختيار لحكمة عالية ، فالقهر يُثبتُ للحق سبحانه صفة القدرة على مخلوقه ، فإذا قهره على شىء لا يشذ ولا يتخلَف ، ولكنه لا يثبت صفة المحبوبية لله تعالى .

أما الاختيار فيثبت المحبوبية لله ؛ لأنه خلقك مختاراً تؤمن أو تكفر ، ومع ذلك اخترْتَ الإيمان حُباً فى الله تعالى ، وطاعة وخضوعاً ، فأثبتَّ بذلك صفة المحبوبية .

وإياك أن تظن أن مَنْ يَعْصى الله يعصيه قهراً عن الله ، بل بما ركَّب فيه من الاختيار ، وقد يقول قائل : وما ذنب الإنسان أن يكون مختاراً من بين جميع المخلوقات ؟

لو حققتَ هذه القضية منطقياً وفلسفياً لوجدتَ الكون كله كان مختاراً ، وليس الإنسان فقط ، لكن اختارت جميع المخلوقات أنْ تُسلِّم الأمر لله ، وفضَّلتْ أن تكون مقهورة مسخرة من البداية ، أما الإنسان ففضَّل الاختيار ، وقال : سأعمل بحرص ، وسأحمل الأمانة بإخلاص ، وهذا واضح فى قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً (٧٢) ﴾ [الأحزاب]

وفى رَفْض هذه المخلوقات لتحمُّل الأمانة والاختيار دليل على العلم الواسع ؛ لأنه يوجد فَرْق كبير بين قبول الأمانة وقت التحمُّل ووقت الأداء . فقد تتحمل الأمانة وأنت واثق من أدائها ، لكن يطرأ عليك وقت الأداء مَا يحول بينك وبين أداء الأمانة .

والأمانة كما هو معروف لا تُوثَّق ولا تُكتب ، وكثيراً ما يقع فيها التلاعب ؛ لأنها لا تثبتُ إلا بذمّة الآخذ الذى قد يضعف عن الأداء وتُلجئه الأحداث إلى هذا التلاعب أو الإنكار ، والأحداث قد تكون أقوى من الرجال .

فالإنسان - إذن - لا يضمن نفسه وقت الأداء ، وإنْ كان يضمنها وقت التحمُّل ، ولهذا اختارت جميع المخلوقات أن تكون مقهورة مُسيَّرة ، أما الإنسان فقال : لى عقل وأستطيع التصرُّف والترجيح بين البدائل ، فكان بذلك ظالماً لنفسه ؛ لأنه لا يضمنها وقت الأداء ، وجهولاً بما يكون من تغيُّر أحواله .

فالكون - إذن - ليس مقهوراً رَغْماً عنه ، بل بإرادته واختياره ، وكذلك الإنسان ليس مختاراً رَغْماً عنه ، بل بإرداته واختياره .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ ﴾

الحق سبحانه وتعالى يعدل الأشياء تنفيذاً لأشياء أخرى ، ويصنع أحداثاً أوّلية لتكون بمثابة المقدمة والتمهيد لأحداث أخرى أهم منها . وكفار مكة ما ادَّخروا وُسْعاً ، وما تركوا وسيلة من وسائل الإيذاء لرسول الله ﷺ والتنكيل به إلا فعلوها .

ومع ذلك لم يُفَاجأ بها رسول الله ، ولم تُثبِّط من عزيمته ، لماذا ؟ لأنه كان مُتوقِّعاً لكل هذا الإيذاء ، ولديه من سوابق الأحداث ما يعطيه الحصانة الكافية لمقابلة كل الشدائد .

فالمسألة لم تُفاجىء رسول الله ؛ لأنه عرفها حتى قبل أن يُبعث ، فحينما جاءه جبريل للمرة الأولى فى الغار ، وعاد إلى السيدة خديجة فَزِعاً ذهبتْ به إلى ابن عمها ورقة بن نوفل ، فطمأنه بأن هذا هو النَاموس الإلهى ، وأنه ﷺ سيكون مبعوث السماء إلى الأرض ، وأنه نبىُّ هذه الأمة ، وقال فيما قال : ليتنى أكون حياً حين يُخرِجك قومك ، فقال ﷺ : « أَمُخرجىّ هم ؟ »[1] .

قال : نعم ، لم يأت رجل بمثل ما جئتَ به إلا عودِى ، وإنْ يدركنى يومك أنصرك نصراً مؤزراً .

إذن : فالحق سبحانه وتعالى حَصَّن رسوله ﷺ ضد ما سيأتى من أحداث ؛ لكى يكون على توقُّع لها ، ولا تحدث له المفاجأة التى ربما ولدتْ الانهيار ، وأعطاه الطُّعْم المناسب للداء قبل حدوثه ؛ لتكون لديه المناعة الكافية عند وقوع الأحداث ، واليقين الثابت فى نصر الله له مهما ادْلهَمتْ الخطوب ، وضاق الخناق عليه ﷺ وعلى أصحابه .

والحديث عن الذين لا يؤمنون بالآخرة ، وما داموا كذلك فليس لهم إلا الدنيا ، هى فرصتهم الوحيدة ، لذلك يحرصون على استنفاد كل شهواتهم فيها ، ولا يؤخرون منها شيئاً ، فإنْ أجَّل المؤمن بعض مُتَعِه وشهواته انتظاراً لما فى الآخرة فإلامَ يؤجل الكفار مُتعتهم ؟

إذن : الذى يجعل هؤلاء يتهافتون على شهواتهم فى الدنيا أنهم غير مؤمنين بالآخرة .

---

(١) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٢/١٣٩ ، ١٤٠) من حديث محمد بن النعمان بن بشير . وأورده ابن هشام فى السيرة النبوية (١/٢٣٨) وفيه أن ورقة قال : « والذى نفسى بيده ، إنك لنبى هذه الأمة ، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذى جاء موسى ، ولتكذبنه ولتؤذينه ولتخرجنه ولتقاتلنه ، ولئن أنا أدركت ذلك اليوم لأنصرن الله نصراً يعلمه » .

فإذا جاء رسول بمنهج ليعدل حركة الناس لتنسجم مع الكون ، فلا بُدّ أن يثور هؤلاء الكفار الحريصون على شهواتهم ومكانتهم ، لابُدَّ أنْ يُصادموا هذه الدعوة ، ويقاوموها فى ذات الرسول وفى منهجه ، فى ذاته بالإيذاء ، وفى دعوته ومنهجه بصَرْف الناس عنه ، ألم يقل الكفار لمن يَروَنْ عنده مَيْلاً للإسلام : ﴿لا تَسْمَعُوا لِهَـٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (٢٦)﴾ [فصلت]

وقولهم : ﴿لا تَسْمَعُوا لِهَـٰذَا الْقُرْآنِ .. (٢٦)﴾ [فصلت] شهادة منهم بصدق القرآن الكريم ، وأنه ينفذ إلى القلوب ويؤثر فيها ، وإلا لما قالوا هذا القول .

وقولهم : ﴿وَالْغَوْا فِيهِ .. (٢٦)﴾ [فصلت] أى : هرِّجوا وشَوِّشوا عليه حتى لا يصل إلى آذان الناس ، إذن : هم واثقون من صدق رسول الله وصدق دعوته ، وقد دلَّتْ تصرفاتهم على ذلك ، فحينما كان رسول الله ﷺ يذهب إلى الكعبة ، ويجلس بجوارها يُدندِن بآيات القرآن كان صناديد الكفر فى مكة يتعمدون سماع القرآن ، والتلذُّذ بروعته وبلاغته[1] .

فقوله تعالى : ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا (٤٥)﴾ [الإسراء]

---

(١) أورد ابن هشام هذه القصة فى السيرة النبوية (١/٣١٥) ، أن أبا سفيان وأبا جهل والأخنس بن شريق خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله ﷺ وهو يصلى من الليل فى بيته ، وكل لا يعلم بمكان صاحبه ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق فتلاوموا . وتكرر هذا ثلاث ليال .

يُرْوَى[١] أن أبا جهل ، وأبا سفيان ، وأبا لهب ، وأم جميل كانوا يتابعون رسول الله ، ويتنصتون عليه وهو يقرأ القرآن ليروْا ما يقول ، وليجدوا فرصة لإيذائه ﷺ ، فكان الحق سبحانه يصمُّ آذانهم عن سماع القرآن ، فالرسول يقرأ وهم لا يسمعون شيئاً ، فينصرفون عنه بغيظهم .

وكأن الحق سبحانه يريد من هذه الواقعة أن تكون تمهيداً لحدث أهم ، وهو ما كان من رسول الله ليلة الهجرة ، ليلة أنْ بيَّتوا له القتل بضربة رجل واحد ، فتحرسه عناية الله وتقول له : اخرج عليهم ولا تخف ، فإن الذى جعلك تقرأ وجعل بينك وبينهم حجاباً فلا يستمعون إليك ، هو الذى سينزل على أعينهم غشاوة فلا يرونك .

ومع إحكام خيوط هذه المؤامرة لم يخرج الرسول من بينهم صامتاً يحبس أنفاسه خَوْفاً ، بل خرج وهو يقول « شاهت الوجوه »[٢] وهو لا يخشى انتباههم إليه ، وأكثر من ذلك : يأخذ حفنة من التراب ويذروها على وجوههم ، إنها الثقة واليقين فى نصره وتأييده .

وقوله : ﴿ حِجَابًا مَّسْتُورًا (٤٥) ﴾ [الإسراء]

الحجاب : هو المانع من الإدراك ، فإنْ كان للعين فهو مانع للرؤية ، وإنْ كان للأذن فهو مانع للسمع .

---

(١) قال الزجاج فيما نقله عنه القرطبى فى تفسيره (٣٩٩٨/٥) : « نزلت فى قوم كانوا يؤذون رسول الله ﷺ إذا قرأ القرآن ، وهم : أبو جهل ، وأبو سفيان ، والنضر بن الحارث ، وأم جميل امرأة أبى لهب وحويطب ، فحجب الله سبحانه رسوله ﷺ عن أبصارهم عند قراءة القرآن ، وكانوا يمرون به ولا يرونه .

(٢) ورد قول رسول الله ﷺ هذا فى حديث الهجرة عن ابن عباس عند أحمد فى المسند (٣٦٨/١) وكذلك فى غزوة حنين فى صحيح مسلم (١٧٧٧) من حديث إياس بن سلمة عن أبيه ، وأحمد فى مسنده (٢٨٦/١) والدارمى فى سننه (٢١٩/٢) من حديث أبى عبد الرحمن الفهرى .

وكلمة ﴿ مَّسْتُوراً ﴾ اسم مفعول من الستر ، فلم يقل الحق سبحانه وتعالى (ساتراً) ، وهذا من قبيل المبالغة فى الستر والإخفاء ، فالمعنى أن الحجاب الذى يمنعهم من سماعك أو رؤيتك هو نفسه مستور ، فإن كان الحجاب نفسه مستوراً ، فما بالُكَ بما خلفه ؟

ولا شكَّ أن الذِّهْن سينشغل هنا بالحجاب المادى ، لكن هذا الحجاب الذى يتحدث عنه الحق سبحانه حجاب معنوىّ ولا يراه أحد ، كما فى قوله تعالى : ﴿ رَفَعَ السَّمَـٰوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا .. (٢) ﴾[الرعد]

فلو قال : بغير عمد وسكت فقد نفى وجود عَمَد للسماء وانتهت المسألة ، وأدخلناها تحت قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا .. (٤١) ﴾ [فاطر] فالأمر قائم على قدرة الله دون وجود عَمَدٍ تحمل السماء .

لكن قوله سبحانه : ﴿ تَرَوْنَهَا ﴾ تجعل المعنى صالحاً لأنْ نقول بغير عَمَد ، وأنتم ترونها كذلك ، فننظر هنا وهناك فلا نجد للسماء عمداً تحملها ، أو نقول : إن لها عمداً لكنَّا لا نراها ، فهى عَمَد معنوية ، فلا ينصرف ذهنك إلى ما نقيمه نحن من عَمد المسلح أو الرخام أو الحديد .

وفى هذا ما يدُكُّ الغرور فى الإنسان ، ليعلم أنه لا يدرك إلا ما أذن الله له فى إدراكه ، وأن حواسَّ الإدراك لديه قد تتوقف عن هذا الإدراك ، فليس معنى أنها مدركة أن تظل مدركة دائماً ، فليس لها طلاقة لتفعل ما تشاء ، بل الحق سبحانه وتعالى يعطيها هذه القدرة ، أو يسلبها إياها .

فالقـدرة الإلهية هى التى تُسيِّـر هذا الكون ، وتأمر كل شىء بأن يُؤدِّى مهمته فى الحيـاة ، وإنْ شاء عطّلها عن أداء هذه المهمة ؛ لذلك نرفض قول الفلاسفة أن الحق سبحانه وتعالى زاول سلطانه فى مُلْكه مرة واحـدة ، بأن جعـل فيه الـنواميس والقـوانين ، وهى التى تحكم العالم وتُسيِّره .

ففـى قصة مـوسى ـ عليه الـسلام ـ أنه سار بـجيشـه ، يطارده فرعـون وجنوده حتى وصـل إلى شاطىء البـحر فأصـبح البحـر من أمـامـه ، وفـرعـون من خلفـه حـتى قـال أصـحـاب مـوسى : ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١)﴾ [الشعراء]

فأين المفر ، وها هو البـحر من أمامنا ، والعدو من خلفنا ؟ وهذا كلام منطقى مع واقع الحدث البشـرى ، لكن الأمر يختلف عند موسى ـ عليـه السـلام ـ فـقـال بملء فـيـه : ﴿قَـالَ كَـلاَّ إِنَّ مَـعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢)﴾ [الشعراء]

فهل قالهـا موسى برصيد بشرى ؟ لا ، بل بـما عنده من ثقة فى ربه ، وهكذا انتقلت المـسألة إلى ساحة الخالق سـبحانه ، فقـال لنبيه موسى : ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٣)﴾ [الشعراء]

فخرق الله لموسى قانون سيولة الماء واستطراقه ، ويتجمد الماء ، ويصير كالجبل ويتحول البحـر إلى يابسة ، ويعبر موسى وقومه إلى الناحيـة الأخرى ، وتنشرح صدورهم بـفرحة النجاة ، ويأخـذ موسى ـ عليـه السلام ـ عصاه ليضرب البـحـر ليعـود إلى طبيعته ، وحـتى

لا يعبره فرعون ويلحق به ، لكن الحق سبحانه يأمره ، أن يتركه على حاله : ﴿ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا[1] إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ (٢٤) ﴾ [الدخان]

فعندما نزل فرعون وجنوده البحر واكتمل عددهم فى قاعه أطلق الخالق سبحانه للماء قانون سيولته ، فأطبق على فرعون وجنوده ، وكانت آيةً من آيات الله ، شاهدة على قدرته سبحانه ، وأنه إنْ شاء أنجى وأهلك بالشىء الواحد ، وشاهدة على قيوميته تعالى على خَلْقه ، فليس الأمر ـ كما يقولون ـ أمر قانون أو ناموس يعمل ، ويدير حركة الكون ، فكل المعجزات التى مرَّتْ فى تاريخ البشرية جاءت من باب خرق النواميس .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً[2] أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا[3] وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا (٤٦) ﴾

ومعنى ﴿ أكنة ﴾ جمع كِنَان ، وهو الغطاء ، وقد حكى القرآن اعترافهم بهذه الأكنة وهذه الحجب التى غلَّفَتْ قلوبهم فى قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ .. (٥) ﴾ [فصلت]

الكون كله خَلْق الله ، والإنسان سيد هذا الكون ، وخليفة الله فيه وهو مربوب للخالق سبحانه لا يخرج عن مربوبيته لربه ، حتى وإنْ

---

(١) أى : اترك البحر ساكناً ليغتروا فينزلوا فيه . [القاموس القويم ١/٢٧٩] .

(٢) الأكنة : الأغطية . مفرده : كِنان [لسان العرب ـ مادة : كنن] .

(٣) الوقر : ثِقَل فى السمع ، وقيل : هو أن يذهب السمع كله [لسان العرب ـ مادة : وقر] .

كان كافراً لا يزال يتقلّب فى عطاء الربوبية ، فلا يُحرم منها كافر بكفره ولا عاص بمعصيته ، بل كما قال تعالى : ﴿كُلاًّ نُّمِدُّ هَـٰؤُلَاءِ وَهَـٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ .. (٢٠)﴾ [الإسراء]

وسبق أنْ فرَّقنا بين عطاء الربوبية المتمثّل فى كل نِعَم الحياة وبين عطاء الألوهية ، وهو التكليف الذى يقتضى عبداً ومعبوداً ، وافعل ولا تفعل .

إذن : عطاء الربوبية عام للجميع ودائم للجميع ، فكان على الإنسان أن يقف مع نفسه وقفة تأمُّل فى هذه النعم التى تُساق إليه دون سَعْى منه أو مجهود ، هذه الشمس وهذه الأرض وهذا الهواء ، هل له قدرة عليها ؟ هل تعمل له بأمره ، إنها أوليات النعم التى أجراها الله تعالى من أجله ، وسخّرها بقدرته من أجله ، ألا تدعوه هذه النعم إلى الإيمان بالمنعم سبحانه وتعالى ؟

وسبق أنْ ضربنا مثلاً للاستدلال على الخالق سبحانه بما أودعه فى الكون من ظواهر وآيات بالرجل الذى انقطعت به السُّبُل فى صحراء ، حتى أوشك على الهلاك ، وفجأة رأى مائدة عليها ما يشتهى من الطعام والشراب ، ألاَ تثير فى نفسه تساؤلاً عن مصدرها قبل أن تمتدَّ إليها يده ؟

وكذلك الكافر الذى يتقلَّب فى نِعَم لا تُعَدُّ ولا تُحصَى ، وقد طرأ على الكون فوجده مُعداً لاستقباله مُهَيئاً لمعيشته ، فكان عليه أنْ يُجرى عملية الاستدلال هذه ، ويأخذ من النعمة دليلاً على المنعِم .

والحق تبارك وتعالى لا يمنع عطاء ربوبيته عَمَّنْ كفر ، بل إن

الكافر حين يتمكَّن الكفر منه ويُغلق عليه قلبه يساعده الله على ما يريد ، ويزيده مما يحب ، كما قال تعالى : ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا .. (١٠)﴾ [البقرة]

إذن : فقوله تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً .. (٤٦)﴾ [الإسراء] لم تَأْتِ من الله ابتداءً ، بل لما أحبُّوا هم الكفر ، وقالوا عن أنفسهم : قلوبنا فى أكنة ، فأجابهم الله إلى ما أرادوا وختم على قلوبهم ليزدادوا كفراً ، وطالما أنهم يحبونه فلْنُزدهم منه .

ثم يقول تعالى : ﴿أَن يَفْقَهُوهُ .. (٤٦)﴾ [الإسراء]

أى : كراهية أنْ يفقهوه ؛ لأن الله تعالى لا يريد منهم أن يفهموا القرآن رَغْماً عنهم ، بل برضاهم وعن طيب خاطر منهم بالإقناع وبالحجة ، فالله لا يريد منا قوالبَ تخضع ، بل يريد قلوباً تخشع ، وإلا لو أرادنا قوالبَ لما استطاع أحد منا أنْ يشذَّ عن أمره ، أو يمنع نفسه من الله تعالى ، فالجميع خاضع لأمره وتحت مشيئته .

وفى سورة الشعراء يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣) إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ (٤)﴾ [الشعراء]

فالأعناق هى الخاضعة وليست القلوب ؛ لأنك تستطيع أن تقهر قالب خصمك فتجبره على فعل أو قول ، لكنك لا تستطيع أبداً أن تجبر قلبه وتكرهه على حبك ، إذن : فالله تعالى يريد القلوب ، يريدها طائعة محبة مختارة ، أما هؤلاء فقد اختاروا الأكنّة على قلوبهم ، وأحبُّوها وانشرحت صدورهم بالكفر ، فزادهم الله منه .

ثم يقول تعالى : ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا .. (٤٦)﴾ [الإسراء]

(وَقْراً) أى : صَمم ، والمراد أنهم لا يستمعون سماعاً مفيداً ؛ لأنه ما فائدة السمع ؟ واللغة وسيلة بين متكلم ومخاطب ، ومن خلالها تنتقل الأفكار والخواطر لتحقيق غاية ، فإذا كان يستمع بدون فائدة فلا جدوى من سمعه وكأن به صَمماً .

وقوله تعالى : ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا .. (٤٦)﴾ [الإسراء]

لماذا ولوا على أدبارهم نفوراً ؟ لأنك أتيتَ لهم بما يُخوِّفهم ويُزعجهم ، وبالله لو أن قضيةَ الإيمان ليست فطرية موجودة فى الذات وفى ذرّات التكوين ، أكان هؤلاء يخافون من ذكر الله ؟ فَمِمّا يخافون وهم لا يؤمنون بالله ، ولا يعترفون بوجوده تعالى ؟

إذن : ما هذا الخوف منهم إلا لانقهار الطبع ، وانقهار الفطرة التى يعتريها غفلة ، فإذا ذُكِر الله تعالى أمامهم ، فإذا بهم يُولُّون مدبرين فى خَوْفٍ ونُفور .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا (٤٧)﴾

الحق سبحانه وتعالى لا يَخْفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، وهذه حقيقة كان على الكفار أنْ ينتبهوا إليها ويُراعوها ، ويأخذوها سبيلاً إلى الإيمان بالله ، فقد أخبر سبحانه نبيه ﷺ بقوله :

﴿ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٨) ﴾ [المجادلة]

فكان عليهم أن يتدبروا هذا القول : فهم قالوا فى أنفسهم ، ولم يقولوا لأحد ، فمَنْ أخبر محمداً بهذا القول الذى لم يخرج إلى عالم الواقع ، ومَنْ أطلعه عليه ؟ ألاَ يدعوهم هذا الإعلام بما يدور فى نفوسهم إلى الإيمان بالله ؟

وما دام الحق سبحانه يعلم كل الأحوال ، ولا يَخْفَى عليه شىء ، فهو أعلم بأحوالهم هذه : **الأول** : يستمعون إليك . **والثانى** : وإذ هم نجوى . **والثالث** : إذ يقول الظالمون . إذن : هم يستمعون ثم يتناجون ، ثم يقول بعضهم لبعض .

قالوا : إن سبب نزول هذه الآية ما كان عند العرب من حُبٍّ للغة وشغف بأساليب البيان ؛ لذلك كانت معجزة النبى ﷺ من جنس ما نبغ فيه قومه ، لتكون أوضح فى التحدى ، هكذا شأن الحق سبحانه مع كل الرسل .

وكان للعرب أسواق للبيان والبلاغة يجتمع فيها أهل الشعر والبلاغة والفصاحة ، وفى مكة تصب كل الألسنة فى مواسم الحج ، فعرفوا صفوة لغات الجزيرة وأساليبها ، ومن هنا انجذبوا لسماع القرآن ، وشغفوا ببيانه بما لديهم من أذن مُرْهفة للأسلوب وملَكة عربية أصيلة ، إلا أن القرآن له مطلوبات وتكاليف لا يقدرون عليها ، ولديه منهج سيُقوِّض مملكة السيادة التى يعيشون فيها .

ومن هنا كابروا وعاندوا ، ووقفوا فى وجه هذه الدعوة ، وإنْ كانوا

مُعْجبين بالقرآن إعجاباً بيانياً بلاغياً بما فى طباعهم من ملَكات عربية .

فيُرْوَى أن كباراً مثل : النضر بن الحارث ، وأبى سفيان ، وأبى لهب كانوا يتسللون بعد أن ينام الناس - ممن كانوا يقولون لهم : « لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه » - كانوا يذهبون إلى البيت يتسمَّعون لقراءة القرآن ، ولماذا يحرمون أنفسهم من سماع هذا الضرب البديع من القول ، وقد حرموا مواجيدهم وقلوبهم منه ، فكانوا عند انصرافهم يرى بعضهم بعضاً مُتسلّلاً مُتخفّياً ، فكانوا مرة يكذبون على بعضهم بحجج واهية ، ومرة يعترفون بما وقعوا فيه من حُبٍّ لسماع القرآن[1] .

فقال تعالى : ﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ .. (٤٧) ﴾ [الإسراء] أى : بالحال الذى يستمعون عليه ، إذ يستمعون إليك بحال إعجاب . ثم : ﴿ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ .. (٤٧) ﴾ [الإسراء] من التناجى وهو الكلام سِراً ، أو : أن نَجْوى جمع نجى ، كقتيل وقَتْلى ، وجريح وجَرْحى .

فالمعنى : نحن أعلم بما يستمعون إليه ، وإذ هم متناجون أو نجوى ، فكأن كل حالهم تناجٍ .

وقوله : ﴿ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ .. (٤٧) ﴾ [الإسراء] فيه مبالغة ، كما تقول : رجل عادل ، ورجل عَدْل . ومِنْ تناجيهم مَا قاله أحدهم بعد سماعه لآيات القرآن : « والله ، إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة[2] ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وإنه يعلو ولا يُعْلَى عليه »[3] .

---

(١) أورد ابن هشام هذه القصة فى السيرة النبوية (١/٣١٥) .

(٢) الطلاوة : الحسن والبهجة والقبول والرونق . [لسان العرب - مادة : طلى] .

(٣) هو من قول الوليد بن المغيرة . وانظر السيرة النبوية لابن هشام (١/٢٧٠) .

ثم تأتى الحالة الثالثة من أحوالهم : ﴿إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُوراً (٤٧)﴾ [الإسراء]

وهذا هو القول المعْلَن عندهم ، أن يتهموا رسول الله بالسحر مرة ، وبالجنون أخرى ، ومرة قالوا : شاعر . وأخرى قالوا : كاهن . وهذا كله إفلاس فى الحجة ، ودليل على غبائهم العقدىّ .

وكلمة (مَسْحُوراً) اسم مفعول من السحر ، وهى تخييل الفعْل . وليس فعلاً ، وتخييل القَوْل وليس قولاً ، فهى صَرْف للنظر عن إدراك الحقائق ، أما الحقائق فهى ثابتة لا تتغير .

لذلك نقول : إن معجزة موسى ـ عليه السلام ـ من جنس السحر وليست سحْراً ؛ لأن ما جرى فيها كان حقيقة لا سحْراً ، فقد انقلبتْ العصا حَيَّة تبتلع حبال السحرة وعصيّهم على وَجْه الحقيقة ، لكن لما كانت المعجزة فى مجال السحر ظنها الناسُ سحْراً ؛ لأن القرآن قال فى سحرة فرعون : ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ .. (١١٦)﴾ [الأعراف] وقال فى آية أخرى : ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ (٦٦)﴾ [طه]

إذن : فحقيقة الأشياء ثابتة لا تتغير ، فالساحر يرى العصا عصا ، أما المسحور فيراها حية ، وليست كذلك مسألة موسى ـ عليه السلام ـ وليؤكد لنا الحق سبحانه هذا المعنى ، وأن ما حدث من موسى ليس من سحرهم وتغفيلهم أنه حينما قال له : ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ (١٧)﴾ [طه]

فأطال موسى ـ عليه السلام ـ الكلام ؛ لأنه أحب الأُنْس بالكلام

مع ربه تعالى فأجاب : ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ[1] بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي .. ﴿١٨﴾﴾ [طه] ثم أحس موسى أنه أطال فقال موجزاً : ﴿وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾ [طه]

فهذا هو مدى علْمه عن العصا التى فى يده ، لكن الله تعالى سيجعلها غير ذلك ، فقال له : ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَـٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ [طه]

فهل خُيِّل لموسى أنها حيَّة وهى عصا ؟ أم أنها انقلبت حيّة فعلاً ؟ إنها حية فعلاً على وجه الحقيقة ، بدليل قوله تعالى : ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾﴾ [طه]

وموسى لم يَخَفْ إلا لأنه وجد العصا حيّة حقيقية ، ثم طمأنه ربه : ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾﴾ [طه]

لذلك لما رأى السحرة ما تفعله عصا موسى علموا أنها ليست سحراً ، بل هى شىء خارج عن نطاق السحر والسحرة ، وفوق قدرة موسى عليه السلام ، فآمنوا بربِّ موسى القادر وحده على إجراء مثل هذه المعجزة .

وقوله تعالى : ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾﴾ . [الإسراء]

أى : سحره غيره .. وهذا قوْل الظالمين الذين يُلفِّقون لرسول الله التهمة بعد الأخرى ، وقد قالوا أيضاً : ساحر . قال تعالى : ﴿قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَـٰذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾﴾ [يونس]

---

(١) هش الشجر يهشه : ضربه بعصاً ليسقط ورقه لتأكله الماشية ، قال تعالى : ﴿وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي .. ﴿١٨﴾﴾ [طه] أى : أسقط بعصاى أوراق الشجر على غنمى لتأكلها . [القاموس القويم ٢/٣٠٣] .

فمـرّة قُلْتم : ساحر . ومرة قلتـم : مسحور . وهذا دليل التـخبُّط واللَّجج ، فـإن كان سـاحـراً فعندكم من السـحـرة كثـيرون ، فلمـاذا لا يُواجِهونه بسحـر مثل سِحْره ؟ ولماذا لم يسحركم أنتم كـما سحر غيركم وتنتهى المسألة ؟ وهل يمكن أن يُسْحر الساحر ؟

وإنْ كان مـسحوراً سـحره غـيره ، فهل جـرَّبْتُم عليه فى سـحره كلاماً مخالفاً لواقع ؟ هل سمعتموه يهذى كما يهذى المسحور ؟ إذن : فهـذا اتهام باطل وقـول كاذب لا أصل له ، بدليل أنكم تأبَّيـتم عليه ، ولم يُصِبْكم منه أذى .

فلما أخفقوا فى هذه التهمة ذهبـوا إلى ناحية أخرى فقالوا : شاعر ، وبالله أَمثِّلكم أيها العرب ، يا أربابَ اللغة والفصاحة والبيان ـ يَخْفى عليه أن يُفرِّقَ بين الشعر والنثر ؟ والقرآن أسلوب متفرد بذاته ، لا هو شعر ، ولا هو نثر ، ولا هو مسجوع ، ولا هو مُرْسل ، إنه نسيج وحده .

لذلك نجد أهل الأدب يُقسِّمون الكلام إلى قسمين : كلام الله وكلام البشر ، فكلام البشر قسمـان : شعر ونثر ويخرج كلام الله تعالى من دائرة التقسيم ؛ لأنه متفرد بذاته عن كل كلام .

فلو قـرأت مثـلاً فى كـتب الأدب تجد الكـاتب يقول : هذا العـدل محمود عواقبه ، وهذه النَّـبْوة غُمّة ثم تنجلى ، ولن يريبنى من سيدى أن أبطأ سـيبـه ، أو تأخـر غيـر ضنين غناؤه ، فـأبطأُ الدِّلاَء فَـيْضـاً أحفلُهـا ، وأثقل السحائب مَـشْياً أحـفلها ، ومع اليـوم غد ، ولكلٍّ أجل كتاب ، له الحمد على احتباله ، ولا عتب عليه فى احتفاله .

فإنْ يكن الفِعْلُ الذى سَاءَ وَاحِداً ... فأَفْعالُه الَّلائِى سُرِرْنَ أُلُوفُ

فلا شكَّ أنك ستعرف انتقالك من النثر إلى الشعر ، وسوف تُميِّز أذنك بين الأسلوبين ، لكن أسلوب القرآن غير ذلك ، فأنت تقرأ آياته فتجدها تنساب انسياباً لا تلحظ فيه أنكَ انتقلتَ من نثر إلى شعر ، أو من شعر إلى نثر . واقرأ قول الله تعالى : ﴿نَبِّئْ عِبَادِى أَنِّى أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٤٩)﴾ [الحجر]

أَجْرِ عليه ما يُجريه أهل الشعر من الوزن ، فسوف تجد بها وزناً شعرياً : مستفعل فاعلات .... وكذلك : ﴿وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ (٥٠)﴾ [الحجر] تعطيك الشطر الثانى من البيت ، لكن هل لاحظتَ ذلك فى سياق الآيات ؟ وهل لاحظتَ أنك انتقلت من شعر إلى نثر ، أو من نثر إلى شعر ؟

إذن : فالقرآن نسيج فريد لا يُقال له : شعر ولا نثر ، وهذا الأمر لا يَخْفى على العربى الذى تمرَّس فى اللغة شعرها ونثرها ، ويستطيع تمييز الجيِّد من الردىء .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾﴾

أى : تعجَّبْ مما هم فيه من تخبُّط ولَجج ، فمرَّة يقولون عن القرآن : سحر ومرة يقولون : شعر ، ويصفونك بأنك : شاعر ، وكاهن ، وساحر .

ومعلوم أن الرسالة لها عناصر ثلاثة : مُرسِل ، وهو الحق سبحانه وتعالى ، ومُرسَل وهو النبى ﷺ ومُرْسَلٌ به وهو القرآن الكريم ، وقد تخبّط الكفار فى هذه الثلاثة ودعاهم الظلم إلى أن يقول فيها قولاً كاذباً افتراءً على الله تعالى وعلى رسوله وعلى كتابه .

وقد سبق أن تحدثنا عن افتراءاتهم فى الألوهية وعن موقفهم من رسول الله ﷺ .

ومن ذلك قولهم : ﴿لَوْلا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١)﴾ [الزخرف]

وقولهم عن القضية الإيمانية العامة : ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢)﴾ [الأنفال]

أهذه دعوة يدعو بها عاقل ؟! فبدل أنْ يقولوا : فاهدنا إليه تراهم يُفضّلون الموت على سماع القرآن ، وهذا دليل على كِبْرهم وعنادهم وحماقتهم أمام كتاب الله .

لذلك ، فالحق سبحانه وتعالى من حبه لرسوله ﷺ ورفْعة منزلته حتى عند الكافرين به ، يردُّ على الكافرين افتراءهم ، ويُطمئن قلب رسوله ، ويتحمل عنه الإيذاء فى قوله تعالى : ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِى يَقُولُونَ .. (٣٣)﴾ [الأنعام]

أى : قولهم لك : ساحر ، وكاهن ، وشاعر ، ومجنون ﴿فَإِنَّهُمْ لايُكَذِّبُونَكَ وَلَـٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٣٣)﴾ [الأنعام]

فليست المسألة عندك يا محمد ، فهُمْ مع كفرهم لا يكذبونك

ولا يجرؤون على ذلك ولا يتهمونك ، إنما المسألة أنهم يجحدون بآياتى ، وكُلُّ تصرفاتهم فى مقام الألوهية ، وفى مقام النبوة ، وفى مقام الكتاب ناشئة عن الظلم .

وقولهم عن رسول الله : مجنون قولٌ كاذب بعيد عن الواقع ؛ لأن ما هو الجنون ؟ الجنون أن تُفسد فى الإنسان آلة التفكير والاختيار بين البدائل ، والجنون قد يكون بسبب خَلْقى أى : خلقه الله تعالى هكذا ، أو بسبب طارىء كأنْ يُضربَ الإنسان على رأسه مثلاً ، فيختلّ عنده مجال التفكير .

ومن رحمة الله تعالى بالعبد أن أخَّرَ له التكليف إلى سِنِّ البلوغ واكتمال العقل ، وحتى يكون قادراً على إنجاب مثله ؛ لأنه لو كلّفه قبل البلوغ فسوف تطرأ عليه تغييرات غريزية قد يحتج بها ، ومع ذلك طلب من الأب أن يأمر ابنه بالصلاة قبل سِنِّ التكليف ليُعَوِّده الصلاة من الصغير ليكون على إلْفٍ بها حين يبلغ سِنّ التكليف ، وليألف صيغة الأمر من الآمر .

والإنسان لا يشك فى حُبّ أبيه وحِرْصه على مصلحته ، فهو الذى يُربّيه ويُوفّر له كل ما يحتاج ، فله ثقة بالأب المحس ، فالحق سبحانه يريد أنْ يُربِّبَ فينا الطاعة لمن نعلم خيره علينا ، فإذا ما جاء وقت التكليف يسهل علينا ولا يشق ؛ لأنها أصبحتْ عادة .

والذى أعطى للأب حَقَّ الأمر أعطاه حَقّ العقاب على تركه ليكون التكليف من الرب الصغير ، والعقوبة من الرب الصغير لِتُعوِّده بالأُبُوة

المحسَّة والرحمة الظاهرة على طاعة الحق سبحانه الذى أنعم علىَّ وعليك .

فالعقل ـ إذن ـ شرْط أساسى فى التكليف ، وهو العقل الناضج الحرّ غير المكْرَه ، فإنْ حدث إكراه فلا تكليف .

فقوله : ﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ .. (٤٨)﴾ [الإسراء] أى : قالوا مجنون ، والمجنون ليس عنده اختيار بين البدائل ، وقد رَدَّ الحق سبحانه عليهم بقوله : ﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (١) مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (٢) وَإِنَّ لَكَ لأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ (٣) وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤)﴾ [القلم]

فنفى الحق سبحانه عن رسوله هذه الصفة ، وأثبت له صفة الخُلق العظيم ، والمجنون لا خُلقَ له ، ولا يُحاسَب على تصرفاته ، فهو يشتم هذا ويضرب هذا ويبصق فى وجه هذا ، ولا نملك إلا أنْ نبتسم فى وجهه ونُشفِق عليه .

ولقائل أنْ يقول : كيف يسلبه الخالق سبحانه وتعالى نعمة العقل ، وهو الإنسان الذى كرّمه الله ؟ وكيف يعيش هكذا مجرد نسخة لإنسان ؟

ولنعلم الحكمة من هذه القضية علينا أنْ نُقارن بين حال العقلاء وحال المجنون ، لنعرف عدالة السماء وحكمة الخالق سبحانه ، فالعاقل نحاسبه على كل كبيرة وصغيرة ومقتضى ما تطلبه من عظمة فى الكون ، ومن جاه وسلطان ألاَ يُعقّب على كلامك أحد ، وأنْ تفعلَ ما تريد .

ألاَ ترى أن المجنون كذلك يقول ويفعل ما يريد ، ثم يمتاز عنك أن لا يسأل فى الدنيا ولا فى الآخرة ؟ أليست هذه كافية لتُعوِّضه عن فقد العقل ؟ فلا تنظر إلى ما سلب منه ، ولكن إلى ما أعطاه من مَيْزات فى الدنيا والآخرة .

وقوله تعالى : ﴿فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً (٤٨)﴾ [الإسراء]

أى : لم يستطيعوا أنْ يأتُوا بمثَلٍ يكون صَادّاً وصارفاً لمن يؤمن بك أنْ يؤمن ، فقالوا : مجنون وكذبوا . وقالوا : ساحر وكذبوا . وقالوا : شاعر وكذبوا . وقالوا : كاهن وكذبوا . فَسُدّتْ الطرق فى وجوههم ، ولم يجدوا مَنْفَذاً لِصدِّ الناس عن رسول الله .

فلما عجزوا عن إيجاد وَصْف يصدُّ مَنْ يريد الإيمان برسول الله ، قالوا : ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ .. (٣٢)﴾ [الأنفال]

ومنهم مَنْ قال : ﴿وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١)﴾ [الزخرف]

فلم يستطيعوا إيجاد سبيل يُعَوقون به دعوتك ، بدليل أنه رغم ضَعْف الدعوة فى بدايتها ، ورغم اضطهادهم لها تراها تزداد يوماً بعد يوم ، وتتسع رُقْعة الإيمان ، أما كَيْدهم وتدبيرهم فيتجمّد أو يقلّ . كما فى قوله تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا[1] مِنْ أَطْرَافِهَا .. (٤١)﴾ [الرعد]

---

(١) قال ابن عباس فى تأويل هذه الآية : « أولم يروا أنا نفتح لمحمد ﷺ الأرض بعد الأرض . وفى رواية عنه : نقصان أهلها وبركتها » . [تفسير ابن كثير ٢/٥٢٠] .

فكل يوم تزداد أرض الإيمان ، وتقلُّ أرض الكفر .

والحق سبحانه وتعالى فى قضية استماع القرآن وقولهم : قلوبنا فى أكنة ، وقلوبنا غلف يريد أن يُلفتَ أنظارنا إلى قضية هامة فى الوجود ومنتظمة فى كل الكائنات ، وهى أن الأفعال تقتضى فاعلاً للحدث وقابلاً لفعل الحدث ، ومثال ذلك : الفلاح الذى يُقلِّب التربة بفأسه ، فتقبل التربة منه هذا الفعل ، وتنفعل هى معه ، فتعطيه ما ينتظره من محصول .. أما لو فعل هذا الفعل فى صخرة فلن تقبل منه هذا الفعل . إذن : فثمرة الحدث تتوقف على طرفين : فاعل ، وقابل للفعل .

لذلك أتعجب من هؤلاء الذين يقولون : إن الغرب يفتن المسلمين عن دينهم ، ويأتى إلينا بالمغْريات وأسباب الانحراف ، ويُصدّر إلينا المبادىء الهدامة ويُشككنا فى ديننا .. إلخ .

ونقول لهؤلاء : مَا يضركم أنتم إنْ فعل هو ولم تقبلوا أنتم منه هذا الفعل ؟! دَعُوه يفعل ما يريد ، المهم ألاَّ نقبلَ وألاَّ نتفاعلَ مع مقولاته ومبادئه . فالخيبة ليست فى فعل الغرب بنا ، ولكن فى تقبُّلنا نحن ولَهْثنا وراء كُلِّ ما يأتينا من ناحيته ، وما ذلك إلا لقلّة الخميرة الإيمانية فى نفوسنا ، فالغرب يريد أنْ يُثبِّت نفوذه ، ويثبت مبادئه ، وما عليك إلاّ أنْ تتأبّى على قبول مثل هذه الضلالات .

وعلى نظرية الفاعل والقابل هذه تُبنَى الحضارات فى العالم كله ؛ لأن الخالق سبحانه حينما استدعانا إلى الوجود جعل لنا فيه مُقوِّمات الحياة الأساسية من : شمس ، وقمر ، ونجوم ، وأرض ، وسماء ،

وماء ، وهواء . ومن هذه المقوّمات ما يعطيك ويخدمك دون أنْ تتفاعَل معه أو تطلبَ منه ، كالشمس والماء والهواء ، ومنها ما لا يعطيك إلاَّ إذا تفاعلتَ معه مثل الأرض لا تعطيك إلا إذا تعهدتها بالحرث والسَّقْى والبَذْر .

والمتأمل فى الكون يجد أن جميع ارتقاءات البشر من هذا النوع الثانى الذى لا يعطيك إلا إذا تفاعلتَ معه ، وقد ترتقى الطموحات البشرية إلى أن تجعلَ من النوع الأول الذى يعطيك دون أن تتفاعلَ معه ومن غير سلطان لك عليه ، تجعل منه مُنْفَعلاً بعملك فيه ، كما يحدث الآن فى استعمال الطاقة الشمسية فى مجالات جديدة لم تكُنْ من قبل . إذن : فهذه ارتقاءاتٌ لا يُحْرَم منها مَنْ أخذ بالأسباب وسَعَى إلى الرُّقىّ والتقدم .

إذن : إنْ جاء يُشكِّك فى دينك نَدَعْهُ ، وما يقول فليس بملوم ، إنما الملوم أنت إنْ قبلْتَ منه ؛ ولذلك يجب علينا وعلى كُلّ قائم على تربية النشء أنْ نُحصِّن أولادنا ضد هجمات الإلحاد والتنصير والتغريب ، ونُعلِّمهم من أساسيات الدين ما يُمكِّنهم من الدفاع والردِّ بالحجة والإقناع حتى لا يقعوا فريسة سَهْلة فى أيدى هؤلاء .

وهذه هى المناعة المطلوبة وما أشبهها بما نستخدمه فى الماديات من التطعيم ضد المرض ، حتى إذا طرأ على الجسم لا يؤثر فيه . ألاَ ترى الحق سبحانه فى قرآنه الكريم يَعْرض لشُبَه الكافرين والملاحدة ويُفصِّلها ويُناقشها ، ثم يبين زَيْفها ، فيقول : ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا ۝﴾ [الكهف]

فلماذا يعرضها القرآن ؟ هل لنأخذ بها ونتعلمها ؟ لا بل لكى لا نُفَاجأ بها ، فإذا أَتَتْ يكون لدينا المناعة الكافية ضِدّها ، ولكى تتربّى فينا الحصانة المانعة من الانزلاق أو الانحراف .

إذن : فأصول الحياة فاعل وقابل ، وسبق أنْ ضربنا مثلاً فقلنا : فى الشتاء ينفخ الإنسان فى يده ليدفئها ، وكذلك ينفخ فى كوب الشاى ليبرده ، فالفعل واحد ولكن القابل مختلف . وكذلك حال الناس فى سماع القرآن واستقبال كلمات الله ، فقد استقبله أحد الكفار[1] فى حال هدوء وانسجام ، فقال :

« والله إنَّ له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أسفله لمغْدق ، وإن أعلاه لمثمر ، وإنه يعلو ولا يُعْلَى عليه » لقد استمعه بملكَة العربى الشَّغُوف بكل ما هو جميل من القَوْل ، لا بملكةِ العناد والكِبْر والغطرسة .

وكذلك سيدنا عمر ـ رضى الله عنه ـ له حالان فى سماع القرآن : حال كفرٍ وشدة وغلظة عند سماع القرآن ، وحال إيمان ورِقَّة قلب حينما بلغه نبأ إسلام أخته ، فأسرع إليها وهى تقرأ القرآن ، فصفَعها بقسْوة حتى أَدْمَى وجهها ، فأخذتْه عاطفة الرحم ، وتغلبت على عاطفة الكفر عنده ، فلما سمع القرآنَ بهذه العاطفة الحانية تأثَّر به ، فآمن مِنْ فَوْره ؛ لأن القرآنَ صادف منه قَلْباً صافياً ، فلا بد أَنْ يُؤثِّر فيه .

---

(١) هو : الوليد بن المغيرة . وهذا القول نقله ابن هشام فى السيرة النبوية (١/ ٢٧٠) . وذلك أن أشراف قريش اجتمعوا ليروا رأياً واحداً فى أمر محمد ﷺ رفض الوليد كل ما قاله القوم عن محمد إلى أن قال قولته هذه ثم قال : « ما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عُرِف أنه باطل ، وإن أقرب القول فيه لأنْ تقولوا ساحر ، جاء بقول هو سحر يُفرّق به بين المرء وأبيه ، وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجته ، وبين المرء وعشيرته » .

فالمسألة ـ إذن ـ تحتاج أن يكون لدى القابل استعداد لِتقبُّل الشىء والانفعال به .

وقد لخَّص لنا الحق سبحانه هذه القضية فى قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا .. (١٦) ﴾ [محمد] فيأتى الرد عليهم : ﴿ أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (١٦) ﴾ [محمد]

وفى آية أخرى يقول سبحانه : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى .. (٤٤) ﴾ [فصلت]

فالقرآن واحد ، ولكن المستقبل مختلف ، إذن : فإياك أنْ تلوم مَنْ يريد أن يلوىَ الناس إلى طريق الضلال ، بل دَعْه فى ضلاله ، ورَبٍّ فى الآخرين مناعة حتى لا يتأثروا ولا يستجيبوا له .

بعد أن تكلمنا عن موقف الكفار من الألوهية ومن النبوة نتكلم عن موقفهم من المنهج الذى جاء به رسول الله ﷺ ، وهذا المنهج يتضمن قضايا كثيرة وأموراً متعددة ، لكن أم هذا المنهج وأساسه أن نؤمن بالآخرة ، وما دُمْنَا نؤمن بالآخرة فسوف تنسجم حركتنا فى الحياة . فالإيمان بالآخرة وما فيها من ثواب وعقاب هو الحافز لنا على العمل والاستقامة فى الدنيا ، وما أشبه ذلك بالتلميذ الذى يجتهد ويجدّ ؛ لأنه يؤمن بالامتحان آخر العام ، وما ينتج عنه من توفيق أو إخفاق .

غبىّ مَنْ يظن أن الدنيا هى نهاية المطاف ، وأنها الغاية التى ليس بعدها غاية ؛ لأن الجميع عبيدٌ لله تعالى متساوون ، ومع ذلك نرى مَنْ يموت فى بطن أمه ، ومَنْ يموت بعد عدة شهور ، وآخر بعد عدة أعوام ، فلو أن الدنيا هى الغاية لاستوى الجميع فى المكْث فيها ، فاختلاف الأعمار فى الدنيا دليل على أنها ليست غاية .

وعجيب فى أمر الموت أن نرى الناس يحزنون كثيراً على مَنْ مات صغيراً ويقولون : أُخذ فى شبابه ويُكثرون عليه العويل ، لماذا ؟ يقولون : لأنه لم يتمتع بالدنيا ، سبحان الله أى دنيا هذه التى تتحدثون عنها ، وقد اختاره الله قبل أنْ تُلوّثه آثامها وتُلطّخه ذنوبها ، لماذا تحزنون كل هذا الحزن ولو رأيتم ما هو فيه لحسدتموه عليه ؟

والناس كثيراً ما يُخطئون فى تقدير الغايات ؛ لأن كل حَدَث يُحدثه الإنسان له غاية من هذا الحدث ، هذه الغاية مرحلية وليست نهائية ، فالغاية النهائية والحقيقية ما ليس بعدها غاية أخرى ، فالتلميذ يذاكر بالمرحلة الابتدائية لينتقل إلى المرحلة الإعدادية ، ويذاكر الإعدادية لينتقلَ إلى الثانوية .

وهكذا تتوالى الغايات فى الدنيا إلى أنْ يصل إلى غاية الدنيا الأخيرة ، وهى أن يبني بيتاً ويتزوج ويعيش حياة سعيدة يرتاح فيها بما تحت يديه من خدم ، يقضون له ما يريد ، هذا على فرض أنه سيعيش حتى يكمل هذه المراحل ، ولكن ربما مات قبل أنْ يصلَ إلى هذه الغاية .

إذن : فلابد للإنسان أنْ يتعبَ أولاً ، ويبذل المجهود ليصبح مخدوماً ، وهذه المخدومية تتناسب مع مجهودك الأول ، فَمن اكتفى

بالإعدادية مثلاً ليس كمن تخرّج من الجامعة ، فلكُلٍّ مرتبته ومكانته ؛ لأنك تعيش فى الدنيا بالأسباب وعلى قَدْر ما تعطى تأخذ .

إذن : فغايتك فى الدنيا أن تكون مخدوماً ، مع أن خادمك قد يتمرَّد عليك وقد يتركك ، أما غاية الآخرة فسوف تُوفّر عليك هذا كله ، وليس لأحد علاقة بك إلا ذاتك أنت ، فبمجرد أنْ يخطر الشىء على بالك تجده أمامك ؛ ذلك لأنك فى الدنيا تعيش بالأسباب ، وفى الآخرة تعيش بمُسبِّب الأسباب سبحانه وتعالى .

وكذلك لو أجريتَ مقارنة اقتصادية بين متعة الدنيا ومتعة الآخرة لرجحَتْ كِفّة الآخرة ؛ لأن الدنيا بالنسبة لك هى عمرك فيها فقط ، وليس عمر الدنيا كله ، كما يحلو للبعض أنْ يُحدِّد عمر الدنيا بعدة ملايين من السنين ، فما دَخْلك أنت بكل هذه الملايين ؟!

فالدنيا - إذن - هى عمرى فيها ، وهذا العمر مظنون غير مُتيقّن ، وعلى فرض أنه مُتيقّن فهو خاضع لمتوسط الأعمار ، وسوف ينتهى حتماً بالموت . أَضِفْ إلى ذلك أن نعيمك فى الدنيا على قَدْر سَعْيك وأَخْذِك بأسبابها .

أما الآخرة فهى باقية لا نهاية لها ، فلا يعتريها زوال ولا يُنهيها الموت ، كما أن مُدتها مُتيقّنة وليست مظنونة ، ونعيمك فيها ليس على قَدْر إمكانياتك ، ولكن على قدر إمكانيات خالقك سبحانه وتعالى .

فأيّهما أحسن ؟ وأيُّهما أَوْلَى بالسَّعْى والعمل ؟ ويكفى أنك فى الدنيا مهما توفَّر لك من النعيم ، وإنْ كنت فى قمة النعيم بين أهلها فإنه يُنغّص عليك هذا النعيمَ أمران : فأنت تخاف أنْ تفوتَ هذا النعيم

بالموت ، وتخاف أن يفوتك هو بالفقر ، فهى نعمة مُكدّرة ، أما فى الآخرة فلا تخاف أن تفوتها ، ولا أن تفوتك ، فأىُّ الصفقتين أربح إذن ؟

ثم يقول الحق سبحانه عن إنكارهم للبعث بعد الموت :

﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ﴾

الاستفهام فى الآية استفهام للتعجّب والإنكار لموضوع البعث يوم القيامة بعد أنْ صاروا رُفَاتاً وعظاماً .

والرفات : هو الفتات ومسحوق الشىء ، وهو التراب أو الحُطَام ، وكذلك كل ما جاء على وزن (فُعال) .

لقد استبعد هؤلاء البعث بعد الموت ؛ لأنهم غفلوا عن بداية الوجود وبداية خَلْق الإنسان ، ولو استعملنا علم الإحصاء الذى استحدثه العلماء لوجدناه يخدم هذه القضية الإيمانية ، فلو أحصينا تعداد العالم الآن لوجدناه يتزايد فى الاستقبال ويقلّ فى الماضى ، وهكذا إلى أنْ نصل بأصل الإنسان إلى الأصل الأصيل ، وهو آدم وحواء ، فمن أين أتَيَا إلى الوجود ؟ فهذه قضية غيبية كان لا بُدَّ أن يُفكّروا فيها .

ولأنها قضية غيبية فقد تولَّى الحق سبحانه وتعالى بيانها ؛ لأن الناس سوف يتخبّطون فيها ، فينبهنا الخالق سبحانه بمناعة إيمانية عقدية فى كتابه العزيز ، حتى لا ننساق وراء الذين سيتهورون ويَهْرفون بما لا يعلمون ، ويقولون بأن أصل الإنسان كان قرداً ،

وهذه مقولة باطلة يسهُل رَدُّها بأن نقول : ولماذا لم تتحول القرود الباقية إلى إنسان ؟ وعلى فرض أن أصل الإنسان قرد ، فمن أين أتى ؟ إنها نفس القضية تعود بنا من حيث بدأتْ ، إنها مجرد شوشرة وتشويه لوجه الحقيقة بدون مبرر .

وكذلك من القضايا التى تخبَّط فيها علماء الجيولوجيا ما ذهبوا إليه من أن السماء والأرض والشمس كانت جميعاً جزءاً واحداً ، ثم انفصلت عن بعضها ، وهذه أقوال لا يقوم عليها دليل .

لذلك أراد الخالق سبحانه أنْ يعطينا طرفاً من هذه القضية ، حتى لا نُصغِى إلى أقوال المضلِّلين الذين يخوضون فى هذه الأمور على غير هدى ، ولتكون لدينا الحصانة من الزَّلَل ؛ لأن مثل هذه القضايا لا تخضع للتجارب المعملية ، ولا تُؤخَذ إلا عن الخالق سبحانه فهو أعلم بما خلق .

يقول تعالى : ﴿مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ .. (٥١)﴾ [الكهف] أى : لم يكن معى أحد حين خلقتُ السماء والأرض ، وخلقتُ الإنسان ، ما شهدنى أحد ليَصفَ لكم ما حدث ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً (٥١)﴾ [الكهف] أى : ما اتخذت من هؤلاء المضللين مُساعداً أو مُعاوناً ، وكأن الحق سبحانه يقول لنا : احكموا على كل مَنْ يَخوض فى قضية الخَلْق هذه بأنه مُضلّل فلا تستمعوا إليه .

ولكى تُريحوا أنفسكم من مثل هذه القضايا لا تُحمِّلوا العقل أكثر مما يحتمل ، ولا تعطوه فوق مقومات وظائفه ، وجَدْوى العقل حينما ينضبط فى الماديات المعملية ، أما إنْ جنح بنا فلا نجنى من ورائه إلا الحُمْق والتخاريف التى لا تُجدى .

وكلمة « العقل » نفسها من العقال الذى يمنع شرود البعير ، وكذلك العقل جعله الله ليضبط تفكيرك ، ويمنعك من الجموح أو الانحراف فى التفكير .

وأيضاً ، فالعقل وسيلة من وسائل الإدراك ، مثله مثل العين التى هى وسيلة الرؤية ، والأذن التى هى وسيلة السمع .. وما دام العقل آلة من آلات الإدراك فله حدود ، كما أن للعين حدوداً فى الرؤية ، وللأذن حدوداً فى السمع ، فللعقل حدود فى التفكير أيضاً حتى لا يشطح بك ، فعليك أنْ تضبط العقل فى المجال الذى تُجوِّد فيه فقط ، ولا تُطلق له العنان فى كُلِّ القضايا .

ومن هنا تعب الفلاسفة وأتعبوا الدنيا معهم ؛ لأنهم خاضوا فى قضايا فوق نطاق العقل ، وأنا أتحدى أىّ مدرسة من مدارس الفلسفة من أول فلاسفة اليونان أن يكونوا متفقين على قضية إلا قضية واحدة ، وهى أن يبحثوا فيما وراء المادة ، فَمنِ الذى أخبرك أن وراء المادة شيئاً يجب أن يُبحث ؟

لقد اهتديتُم بفطرتكم الإيمانية إلى وجود خالق لهذا الكون ، فليس الكون وليد صدفة كما يقول البعض ، بل له خالق هو الغيبيات التى تبحثون عنها ، وتَرْمَحُون بعقولكم خلفها ، فى حين كان من الواجب عليكم أنْ تقولوا : إن ما وراء المادة هو الذى يُبين لنا نفسه .

ولقد ضربنا مثلاً لذلك ـ ولله المثل الأعلى ـ وقلنا : هَبْ أننا فى مكان مغلق ، وسمعنا طَرْق الباب ـ فكلنا نتفق فى التعقُّل أن طارقاً بالباب ، ولكن منا مَنْ يتصور أنه رجل ، ومنا مَنْ يتصوّر أنه امرأة ،

وآخر يقول : بل هو طفل صغير ، وكذلك منا مَنْ يرى أنه نذير ، وآخر يرى أنه بشير . إذن : لقد اتفقنا جميعاً فى التعقُّل ، ولكن اختلفنا فى التصوُّر .

فلو أن الفلاسفة وقفوا عند مرحلة التعقُّل فى أن وراء المادة شيئاً ، وتركوا لمن وراء المادة أنْ يُظهر لهم عن نفسه لأراحوا واستراحوا ، كما أننا لو قُلْنا للطارق : مَنْ ؟ لقال : أنا فلان ، وجئت لكذا ، وانتهتْ المسألة .

ولقد رَدَّ عليهم القرآن إنكارهم للبعث وقولهم : ﴿أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الإسراء] بقوله تعالى : ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [يونس]

وبقوله تعالى : ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ[1] لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ [الأنبياء]

وبقوله تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ..﴿٢٧﴾﴾ [الروم] فإعادة الشىء أهون من خَلْقه أوّلاً .

وقف الفلاسفة طويلاً أمام قضية البعث ، وأخذوا منها سبيلاً

---

(١) قال السدى : السجل ملك مُوكّل بالصحف ، فإذا مات دفع كتابه إلى السجل فطواه ورفعه إلى يوم القيامة . [أورده السيوطى فى الدر المنثور ٥/٦٨٣] قال ابن كثير فى تفسيره (٣/٢٠٠) : « الصحيح عن ابن عباس أن السجل هى الصحيفة . وعلى هذا يكون معنى الكلام : يوم نطوى السماء كطى السجل للكتاب أى على الكتاب بمعنى المكتوب » .

لتشكيك الناس فى دين الله ، ومن مغالطاتهم فى هذه المسألة أنْ قالوا : ما الحل إذا مات إنسان مثلاً ثم تحوَّل جسمه إلى رفات وتراب ، ثم زُرِعَتْ فوقه شجرة وتغذَّت على عناصره ، فإذا أكل إنسان من ثمار هذه الشجرة فسوف تنتقل إليه بالتالى عناصر من عناصر الميت ، وتتكوّن فيه ذرات من ذراته ، فهذه الذرات التى تكوّنت فى الثانى نقُصَتْ من الأول ، فكيف يكون البعث - إذن - على حَدِّ قَوْلهم ؟

والحقيقة أنهم فى هذه المسألة لم يفطِنُوا إلى أن مُشخّص الإنسان شىء ، وعناصر تكوينه شىء آخر .. كيف ؟

هَبْ أن إنساناً زاد وزنه ونصحه الطبيب بإنقاص الوزن فسعى إلى ذلك بالطرق المعروفة لإنقاص الوزن ، وهذه العملية سواء زيادة الوزن أو إنقاصه محكومة بأمرين : التغذية والإخراج ، فالإنسان ينمو حينما يكون ما يتناوله من غذاء أكثر مما يُخرِجه من فضلات ، ويضعف إن كان الأمر بعكس ذلك ، فالولد الصغير ينمو لأنه يأكل أكثر مِمّا يُخرِج ، والشيخ الكبير يُخرِج أكثر مِمّا يأكل ؛ لذلك يضعف .

فلو مرض إنسان مرضاً أَهْزَلَهُ وأنقص من وزنه ، فذهب إلى الطبيب فعالجه حتى وصل إلى وزنه الطبيعى ، فهل الذرات التى خرجتْ منه حتى صار هزيلاً هى بعينها الذرات التى دخلتْه حين تَمَّ علاجه ؟ إن الذرات التى خرجتْ منه لا تزال فى (المجارى) ، لم يتكون منها شىء أبداً ، إنما كميّة الذرّات ومقاديرها هى التى تقوى وتشخص .

وربنا سبحانه وتعالى رحمة منه ، قال : ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ﴿٤﴾﴾ [ق] فالحق سبحانه سيجمع الأجزاء التى تُكوِّن فلاناً المشخّص .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾﴾

أى : قُلْ رداً عليهم : إنْ كُنتم تستبعدون البعث وتَسْتصعبونه مع أنه بَعْثٌ للعظام والرُّفات ، وقد كانت لها حياة فى فترة من الفترات ، ولها إلْف بالحياة ، فمن السهل أنْ نعيدَ إليها الحياة ، بل وأعظم من ذلك ، ففى قدرة الخالق سبحانه أنْ يُعيدكم حتى وإنْ كنتم من حجارة أو من حديد ، وهى المادة التى ليس بها حياة فى نظرهم .

وكأن الحق سبحانه يتحدَّاهم بأبعد الأشياء عن الحياة ، ويتدرج بهم من الحجارة إلى الحديد ؛ لأن الحديد أشدّ من الحجارة وهو يقطعها ، فلو كنتم حجارة لأعدْناكم حجارة ، ولو كنتم حديداً لأعدْناكم حديداً .

ثم يترقّى بهم إلى ما هو أبعد من ذلك ، فيقول تعالى :

﴿أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾﴾ (١)

---

(١) أى : سيحركونها ويهزونها تعجباً وإنكاراً أو سخرية واستهزاء [القاموس القويم ٢/٢٧٦] .

قوله تعالى : ﴿ أَوْ خَلْقاً مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ .. (٥١) ﴾ [الإسراء]
أى : هاتوا الأعظم فالأعظم ، وتوغّلوا فى التحدِّى والبُعْد عن الحياة ، فأنا قادر على أنْ أهبَ له الحياة مهما كان بعيداً عن الحياة على إطلاقها .

وقوله : ﴿ مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ .. (٥١) ﴾ [الإسراء]

يكبر : أى يعظُم منْ كَبُر يكْبُر . ومنه قوله تعالى : ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ .. (٥) ﴾ [الكهف] أى : عَظُمت . والمراد : اختاروا شيئاً يعظم استبعادُ أن يكون فيه حياة بعد ذلك ، وغاية ما عندهم فى بيئتهم الحجارة والحديد ، فَهُما أبعد الأشياء عن الحياة ، وقد اتفقوا على ذلك فليس فى محيط حياتهم ما هو أقسى من الحجارة والحديد . ولكن الحق سبحانه وتعالى ارتقى بهم فى فَرْضية الأمر إلى أنْ يختاروا وتجتمع نفوسهم على شىء ، يكون أعظمَ استبعاداً من الحجارة والحديد .

ونلاحظ فى قوله تعالى : ﴿ مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ .. (٥١) ﴾ [الإسراء] جاء هذا الشىء مُبْهَماً ؛ لأن الشىء العظيم الذى يعظُم عن الحجارة والحديد استبعاداً عن أصل الحياة مختلفٌ فيه ، فإن اتفقوا فى أمر الحجارة والحديد فقد اختلفوا فى الأشياء الأخرى ، فجاءت الآية مُبْهمة ليشيع المعنى فى نفس كل واحد كُلّ على حَسْب ما يرى .

بدليل أنهم حينما سألوا الإمام علياً ـ رضى الله عنه ، وكرّم الله وجهه ـ عن أقوى الأجناس فى الكون ، وقد علموا عن الإمام علىّ سرعة البديهة والتمرُّس فى الفُتْيَا ، فأرادوا اختباره بهذا السؤال الذى

يحتاج فى الإجابة عليه إلى استقصاء لأجناس الكون وطبيعة كل منها .

دخل عليهم الإمام على وهم مختلفون فى هذه المسألة ، منهم من يقول : الحديد أقوى . ومنهم من يقول : بل الحجارة . وآخر يقول : بل الماء ، فأفتاهم الإمام فى هذه القضية ، وانظر إلى دِقّة الإفتاء واستيعاب العلم ، فلم يَقُلْ : أقوى جنود الله كذا وكذا ثم يكمل كما اتفق له ويذكر ما يخطر بباله ، لا بل حصرها أولاً ، فقال : أشد جنود الله عشرة .

فالمسألة ليست ارتجالية ، بل مسألة مدروسة لديه مُسْتَحضرة فى ذِهْنه ، مُرتَّبة فى تفكيره ، فبسط الإمام لمستمعيه يده وفَرَدَ أصابعه ، وأخذ يعدّ هذه العشرة ، وكأنه المعلم الذى استحضر درسه وأعدَّه جيداً .

قال : « أشد جنود الله عشرة ، الجبال الرواسى ، والحديد يقطع الجبال ، والنار تذيب الحديد ، والماء يطفىء النار ، والسحاب المسخّر بين السماء والأرض يحمل الماء ، والريح يقطع السحاب ، وابن آدم يغلب الريح يستتر بالثوب أو بالشىء ويمضى لحاجته ، والسُّكْرُ يغلب ابن آدم ، والنوم يغلب السُّكْر ، والهمّ يغلب النوم ، فأشد جنود الله فى الكون الهمّ » .

فهذه الأجناس هى المراد بقوله تعالى : ﴿أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ .. (٥١)﴾ [الإسراء] فاختاروا أياً من هذه الأجناس ، فالله تعالى قادر على إعادتكم وبعثكم كما كنتم أحياء .

ثم يقول تعالى : ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ .. (٥١)﴾ [الإسراء]

أى : أن الذى خلقكم بدايةً قادرٌ على إعادتكم ، بل الإعادة أهْوَن من الخَلْق بدايةً ، ولكن الجواب لا يكون مُقنعاً إلا إذا كانت النتيجة التى يأتى بها الجواب مُسلّمة . فهل هم مقتنعون بأن الله تعالى فطرهم أوّل مرة ؟

نعم ، هم مؤمنون بهذه الحقيقة رغم كُفْرهم ، بدليل قولهم : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٨٧) ﴾ [الزخرف] فهم مقتنعون بذلك ، ولكنهم نقلوا الجدل إلى قضية أخرى فقالوا : مَنْ يُعيدنا ؟ فإنْ قلت لهم : الذى فطركم أول مرة . ﴿ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ .. (٥١) ﴾ [الإسراء]

معنى يُنغِض رأسه : يهزُّها من أعلى لأسفل ، ومن أسفل لأعلى استهزاءً وسخريةً مما تقول ، والمتأمل فى قوله ﴿ فَسَيُنْغِضُونَ ﴾ يجده فعْلاً سيحدث فى المستقبل ويقع من مُختار ، والمقام مقام جَدل بين الكفار وبين رسول الله ، وهذه الآية يتلوها رسول الله على أسماعهم ويخبر أنه إذا قال لهم : ﴿ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ .. (٥١) ﴾ [الإسراء] فسينغضون رؤوسهم .

فكان فى وُسْع هؤلاء أنْ يُكذِّبوا هذا القول ، فلا يُنغِضون رؤوسهم لرسول الله ويمكرون به فى هذه المسألة ، ولهم بعد ذلك أنْ يعترضوا على هذا القول ويتهموه ، ولكن الحق سبحانه غالبٌ على أمره ، فها هى الآية تُتْلَىَ عليهم وتحْتَ سَمْعهم وأبصارهم ، ومع ذلك لم يقولوا ، مما يدلُّ على غباء الكفار وحُمْق تفكيرهم .

وما أشبه هذا الموقف منهم بموقفهم من حادث تحويل القبلة

حينما قال الحق سبحانه لنبيه ﷺ : ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا .. (١٤٤)﴾ [البقرة]

ثم أخبره بما سيحدث من الكفار ، فقال : ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا .. (١٤٢)﴾ [البقرة]

وهذا قَوْلٌ اختيارىّ فى المستقبل ، وكان بإمكانهم إذا سمعوا هذه الآية ألاَّ يقولوا هذا القول ويجدوا بذلك مَأْخَذاً على القرآن ، ولكنهم مع هذا قالوا ما حكاه القرآن ؛ لأن الحق سبحانه يعلم أنهم سيقولون لا محالةَ : ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ .. (٥١)﴾ [الإسراء]

والاستفهام هنا كسابقه للإنكار والتعجُّب الدالّ على استبعاد البعث بعد الموت ، ولاحظ هنا أن السؤال عن الزمن ، فقد نقلوا الجدل من إمكانية الحدث إلى ميعاد الحدث ، وهذا تراجعٌ منهم فى النقاش ، فقد كانوا يقولون : مَنْ يُعيدنا ؟ والآن يقولون : متى ؟ فيأتى الجواب : ﴿عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا (٥١)﴾ [الإسراء]

عسى : كلمة تفيد الرجاء ، والرجاء أمر مُتوقّع يختلف باختلاف الراجى والمرجو منه ، فإذا قُلْت مثلاً : عسى فلاناً أنْ يعطيك كذا ، فالرجاء هنا بعيد شيئاً ما ؛ لأنه رجاء من غيرى لك ، أما لو قلْت : عسى أنْ أُعطيك كذا ، فهى أقرب فى الرجاء ؛ لأننى أتحدَّث عن نفسى ، وثقة الإنسان فى نفسه أكثر من ثقته فى الآخرين ، ومع ذلك قد يتغير رأيىٌ فلا أعطيك ، أو يأتى وقت الإعطاء فلا أجد ما أعطيه لك .

لكن إذا قُلْتَ : عسى الله أن يعطيك فلا شكَّ أنها أقربُ فى

الرجاء ؛ لأنك رجوت الله تعالى الذى لا يُعجِزه شىء فى الأرض ولا فى السماء . وإنْ كان القائل هو الحق سبحانه وتعالى ، فالرجاء منه سبحانه مُحقَّق وواقع لا شكَّ فيه ؛ فالرجاء من الغير للغير رتبة ، ومن الإنسان لغيره رتبة ، ومن الله تعالى للغير رتبة .

وقد شرح لنا الرسول ﷺ مسألة القرب فقال : « بُعِثْتُ أنا والساعة كهاتين »[1] وأشار بالسَّبابة والوسطى ؛ لأنه ليس بعده رسول ، فهو والقيامة متجاوران لا فاصلَ بينهما ، كما أننا نقول : كُلُّ آتٍ قريب ، فالأمر الآتى مستقبلاً قريب ؛ لأنه قادم لا محالةَ .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾ ﴾

هذا فى يوم القيامة ، حيث لا يستطيع أحدٌ الخروجَ عن مُرادات الحق سبحانه بعد أن كان يستطيع الخروج عنها فى الدنيا ؛ لأن الخالق سبحانه حين خلق الخَلْق جعل للإرادة الإنسانية سلطاناً على الجوارح فى الأمور الاختيارية ، فهو مُخْتَار يفعل ما يشاء ، ويقول ما يشاء ، ويترك ما يشاء ، فإرادته أمير على جوارحه ، أما الأمور القهرية فلا دَخْل للإرادة بها .

فإذا جاء اليوم الآخر انحلَّتْ الإرادة عن الجوارح ، ولم يَعُدْ لها

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٩٥١) ، والبخارى فى صحيحه (١١/٣٤٧ ـ فتح البارى) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه .

سلطان عليها ، بدليل أن الجوارح سوف تشهد على صاحبها يوم القيامة : ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِى أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ .. (٢١)﴾ [فصلت]

لقد كانت لكم وَلاَية علينا فى دُنْيا الأسباب ، أما الآن فنحن جميعاً مرتبطون بالمسبِّب سبحانه ، فلا ولاية لكم علينا الآن ؛ لذلك يقول الحق تبارك وتعالى عن يوم القيامة : ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦)﴾ [غافر]

ففى الدنيا ملَّك الناس ، وجعل مصالح أُناس فى أيدى آخرين ، أما فى الآخرة ، فالأمر كله والملْك كله لله وحده لاَ شريك له .

فقوله تعالى : ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ .. (٥٢)﴾ [الإسراء] أى : يقول لكم اخرجوا من القبور للبعث بالنفخة الثانية فى الصُّور ﴿فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ .. (٥٢)﴾ [الإسراء] أى : تقومون فى طاعة واستكانة ، لا قوْمةَ مُسْتنكف أو مُتقاعس أو مُتغطرس ، فكلّ هذا انتهى وقته فى الدنيا ، ونحن الآن فى الآخرة .

ونلاحظ أن الحق سبحانه قال : ﴿فَتَسْتَجِيبُونَ .. (٥٢)﴾ [الإسراء] ولم يقل : فتُجيبون ؛ لأن استجاب أبلغُ فى الطاعة والانصياع ، كما نقول : فهم واستفهم أى : طلب الفَهْم ، وكذلك ﴿فَتَسْتَجِيبُونَ﴾ أى : تطلبون أنتم الجواب ، وتُلحُّون عليه لا تتقاعسون فيه ، ولا تتأبَّوْن عليه ، فتُسرعون فى القيام .

ليس هذا وفقط ، بل : ﴿فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ .. (٥٢)﴾ [الإسراء] أى : تُسرِعون فى القيام حامدين الله شاكرين له ، ولكن كيف والحمد لا يكون إلا على شىء محبوب ؟

نعم ، إنهم يحمدون الله تعالى ؛ لأنهم عاينوا هذا اليوم الذى طالما ذكَّرهم به ، ودعاهم إلى الإيمان به ، والعمل من أجله ، وطالما ألحَّ عليهم ودعاهم ، ومع ذلك كله جحدوا وكذَّبوا ، وها هم اليوم يَرَوْنَ ما كذَّبوه وتتكشّف لهم الحقيقة التى أنكروها ، فيقومون حامدين لله الذى نبَّههم ولم يُقصِّر فى نصيحتهم . كما أنك تنصح ولدك بالمذاكرة والاجتهاد ، ثم يخفق فى الامتحان فيأتيك معتذراً : لقد نصحتنى ولكنى لم أستجبْ .

إذن : فبيانُ الحق سبحانه لأمور الآخرة من النِّعَم التى لا يعترف بها الكفار فى الدنيا ، ولكنهم سيعترفون بها فى الآخرة ، ويعرفون أنها من أعظم نِعَم الله عليهم ، ولكن بعد فوات الأوان .

لذلك اعترض المستشرقون على قوله تعالى فى سورة (الرحمن) : ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٤) ﴾ [الرحمن] بعد قوله تعالى : ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ[1] مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلا تَنتَصِرَانِ (٣٥) ﴾ [الرحمن] فالآية فى نظرهم تتحدث عن نِقْمة وعذاب ، فكيف يناسبها : ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٤) ﴾ [الرحمن]

والمتأمّل فى الآية يجدها منسجمة كل الانسجام ؛ لأن من النعمة أن نُنبِّهك بالعظَة للأمر الذى ينتظرك والعذاب الذى أُعدَّ لك حتى لا تقعَ فى أسبابه ، فالذى يعلم حقيقة العذاب على الفعْل لا يقترفه .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً (٥٢) ﴾ [الإسراء]

الظن : خبر راجح ؛ لأنهم مذبذبون فى قضية البعث لا يقين عندهم بها .

---

(١) الشواظ : القطعة من اللهب ليس فيها دخان . [القاموس القويم ١/٣٦١] .

﴿ إِنْ لَبِثْتُمْ ﴾ أى : أقمتُم فى الدنيا ، أو فى قبوركم ؛ لأن الدنيا متاع قليل ، وما دامتْ انتهت فلن يبقى منها شىء . وكذلك فى القبور ؛ لأن الميت فى قبره شِبْه النائم لا يدرك كم لَبِثَ فى نومه ، ولا يتصوّر إلا النوم العادى الذى تعوّده الناس .

ولذلك كل مَنْ سُئِل فى هذه المسألة : كم لبثتم ؟ قالوا : يوماً أو بعض يوم ، فهذا هو المعتاد المتعارف عليه بين الناس ، ذلك لأن الشعور بالزمن فرع مراقبة الأحداث ، والنوم والموت لا أحداثَ فيها ، فكيف ـ إذن ـ سنراقب الأحداث والملكة الواعية مفقودة ؟

وقد قال تعالى فى آية أخرى : ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا (٤٦) ﴾ [النازعات]

وقال : ﴿ قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (١١٢) قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ (١١٣) ﴾ [المؤمنون]

أى : لم يكُنْ لدينا وَعْىٌ لنعُدّ الأيام ، فاسأل العَادّين الذين يستطيعون العدَّ .

وفى قصة العزير الذى أماته الله مائة عام ، ثم بعثه : ﴿ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ .. (٢٥٩) ﴾ [البقرة] على مُقْتضى العادة التى ألفَها فى نومه ، فيُوضِّح له ربه : ﴿ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ[1] وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ .. (٢٥٩) ﴾ [البقرة]

فالمدّة فى نظر العزير كانت يوماً أو بعض يوم ، والحق سبحانه أخبر أنها مائة عام ، فالبَوْنُ شاسع بينهما ، ومع ذلك فالقوْلاَن

---

(١) وذلك أنه كان معه فيما ذكر عنب وتين وعصير ، فوجده لم يتغير منه شىء ، لا العصير استحال ، ولا التين حمض ، ولا أنتن ولا العنب نقص . قاله ابن كثير فى تفسيره (١/ ٣١٤) .

صادقـان . والحق سبحـانه أعطانا الدليل على ذلك ، فقـد بعث العُزَير من موته ، فوجد حماره عظاماً باليـة يصدُق عليها القول بمائة عام ، ونظر إلى طعامـه وشرابه فوجده كمـا هو لم يتغير ، وكـأنّ العهدَ به يوم أو بعض يوم ، ولو مَـرّ على الطعام مـائة عام لتـغيَّر بل لتـحلَّل ولم يَبْقَ له أثر .

وكأن الخالق سبـحانه قبض الزمن وبَسَطه فى وقت واحد ، وهو سبحانه القابض الباسط ، إذن : قَـوْلُ الحق سبحانه مائة عام صدْق ، وقـول العُـزَير ﴿ يَوْمـاً أَوْ بَعْـضَ يَوْمٍ ﴾ صِـدْق أيضـاً ، ولا يجـمع الضِّدَّيْن إلا خالق الأضداد سبحانه وتعالى .

وبعد أن تكلم القرآن عن موقف الكفار من الألوهية ، وموقفهم من النبـوة وتكذيبهم للنبى ﷺ ، ثم عن مـوقفـهم من منهج الله وكفـرهم بالبعث والقيامة ، أراد سبحانه أنْ يُعطينا الدروس التى تُربِّب منهج الله فى الأرض ، فقال تعالى[1] :

﴿ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ[2] بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ ﴾

وسبق أنْ أوضـحنا الفرق بين عبـيد وعباد ، وأنـهما جَمْع عـبد ، لكن عبيد تدل على مَنْ خضع لسيّـده فى الأمور القهرية ، وتمرَّد عليه فى الأمور الاختيـارية ، أما عباد فتدلّ على مَنْ خـضع لسيده فى كُلِّ

---

(١) ذكـر الواحدى فـى أسبـاب النزول (ص ١٦٦) أن هذه الآية نزلت فى عـمـر بن الخطاب رضى الله عنه ، وذلك أن رجلاً من العرب شـتمه ، فأمره الله تعالى بالعـفو . وقال القرطبى فى تفسيره (٥/٤٠٠٤) : « ذكره الثعلبى والماوردى وابن عطية والواحدى » .

(٢) نزغ الشـيطان بينهم : أفسـد وأغرى . ونَزْغ الشـيطان : وساوسه ونـخسه فى القلـب بما يُسوِّل للإنسان من المعاصى . [لسان العرب ـ مادة : نزغ] .

أموره القهرية والاختيارية ، وفضَّل مراد الله على مُرَاده ، وعنهم قال تعالى : ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَـٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا (٦٣) وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (٦٤) ﴾ [الفرقان]

وهذا الفَرْق قائم بينهما فى الدنيا دون الآخرة ، حيث فى الآخرة تنحلّ صفة الاختيار التى بنينا عليها التفرقة ، وبذلك يتساوى الجميع فى الآخرة ، فكلهم عبيد وعباد ؛ لذلك قال تعالى فى الآخرة للشيطان :﴿ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَـٰؤُلاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ (١٧) ﴾[الفرقان]

فسمَّاهم عباداً رغم ضلالهم وكفرهم .

وقوله تعالى : ﴿ يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ .. (٥٣) ﴾ [الإسراء]

أى : العبارة التى هى أحسن ، و كذلك الفِعْل الذى هو أحسن . والمعنى : قُلْ لعبادى : قولوا التى هى أحسن يقولوا التى هى أحسن ؛ لأنهم مُؤتمرون بأمرك مُصدِّقون لكَ .

و ﴿ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ تعنى : الأحسن الأعلى الذى تتشقَّق منه كُل أَحْسَنيات الحياة ، والأحسن هو الإيمان بالله بشهادة أن لا إله إلا الله ، هذه أحسن الأشياء وأولها ، لذلك كان ﷺ يقول : « خَيْرُ ما قُلْته أنا والنبيون من قبلى : لا إله إلا الله »[1] .

لأن من باطنها ينبتُ كل حسن ، فهى الأحسن الكبيرة ؛ لأنك ما دُمْتَ تؤمن بالله فلن تتلقّى إلا عنه ، ولن تخاف إلا منه ، ولن ترجوَ إلا هو ، وهكذا يحسُن أمرك كلُّه فى الدنيا والآخرة .

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه (٣٥٨٥) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما . قال الترمذى : هذا حديث غريب من هذا الوجه .

وأنت حين تقول : لا إله إلا الله ، لا تقولها إلا وأنت مؤمن بها ؛ لأنك تريد أنْ تُشيعها فيمن سمعك ، ولا تكتفى بنفسك فقط ، بل تحب أنْ يُشاركك الآخرون هذا الخير ؛ لذلك إذا أردنا أن ننطقَ بهذه الكلمة نقول : أشهد أن لا إله إلا الله . فمعنى أشهد يعنى عند مَنْ لم يشهد ، فكأن إيمانك بها دَعاك إلى نَقْلها إلى الناس ، وبثِّها فيما بينهم .

ويمكن أن نقول ﴿ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ الأحسن هو : كل كلمة خير ، أو الأحسن هو : الجدل بالتى هى أحسن ، كما قال تعالى : ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ .. (١٢٥)﴾ [النحل]

أو نقول : الأحسن يعنى التمييز بين الأقوال المتناقضة وفَرْزها أمام العقل ، ثم نختار الأحسن منها ، فنقول به .

فالأحسن ـ إذن ـ تَشيُع لتشمل كُلَّ حَسَنٍ فى أىِّ مجال من مجالات الأقوال أو الأفعال ، ولنأخذ مثلاً مجال الجدل ، وخاصة إذا كان فى سبيل إعلاء كلمة الله ، فلا شكّ أن المعارض كَارِهٌ لمبدئك العام ، فإنْ قَسَوْتَ عليه وأغلظْتَ له القول أو اخترتَ العبارة السيئة فسوف ينتقل الخلاف بينكما من خلاف فى مبدأ عام إلى عَدَاء شخصى .

وإذا تحوَّلَتْ هذه المسألة إلى قضية شخصية فقد أججْتَ أُوَار غضبه ؛ لأنه فى حاجة لأنْ تَرْفُقَ به ، فلا تجمع عليه مرارة أنْ تُخرجه مما أَلِف إلى ما يكره ، بل حاول أنْ تُخرجه مما أَلِف إلى ما يحب لتطفىء شراسته لعداوتك العامة ، وتُقرِّب من الهُوّة بينك وبينه فيقبل منك ما تقول .

يقول تعالى : ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ

فَإِذَا الَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِىٌّ[1] حَمِيمٌ (٣٤) ﴾ [فصلت]

وقد يطلُع علينا مَنْ يقول : لقد دفعتُ بالتى هى أحسن ، ومع ذلك لا يزال عدوى قائماً على عداوتى ، ولم أكسب محبته . نقول له : أنت ظننتَ أنك دفعتَ بالتى هى أحسن ، ولكن الواقع غير ذلك ، إنك تحاول أنْ تُجرِّب مع الله ، والتجربة مع الله شكٌّ ، فادفع بالتى هى أحسن من غير تجربة ، وسوف يتحول العدو أمامك إلى صديق .

وما أروعَ قول الشاعر :

يَا مَنْ تُضَايِقُه الفِعَالُ مِنَ التِي ومِنَ الذِى
ادْفَع ـ فَدَيْتُكَ ـ بالتِى حتَّى تَرَى فَإِذَا الذِى[2]

لكن ، لماذا نقول التى هى أحسن ؟

لأن الشيطان ينزغ بينكم : ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ .. (٥٣) ﴾ [الإسراء] والنزْغ هو نَخْس الشيطان ووسوسته ، وقد قال تعالى فى آية أخرى : ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ .. (٢٠٠) ﴾ [الأعراف]

فإن كنْت مُنتبهاً له ، عارفاً بحيله فذكرتَ الله عند نَخْسه ونَزْغه انصرف عنك ، وذهب إلى غيرك ؛ لذلك يقول تعالى عن الشيطان : ﴿ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ (٤) ﴾ [الناس] أى : الذى يخنس ويختفى إذا ذُكِرَ الله ، لكن إذا رأى منك ضعفاً وغفلة ومرَّتْ عليك حِيلُه ،

---

(١) الولى : الصديق والنصير ، وهو التابع المحب . والوليّ : ضد العدو . [لسان العرب ـ مادة : ولى] .

(٢) قوله « حتى ترى فإذا الذى » أى : حتى ترى تحقيق ما فى الآية الكريمة : ﴿ فَإِذَا الَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِىٌّ حَمِيمٌ (٣٤) ﴾ [فصلت] فتنقلب العداوة محبة بمداومة دفعك بالتى هى أحسن .

واستجبتَ لوساوسه ، فقد أصبحت فريسة سهلة بين أنيابه ومخالبه .

وعادةً تأتى خواطر الشيطان وكأنها مجَسٌّ للمؤمن واختبار لانتباهه وحَذَّره من هذا العدو ، فينزغه الشيطان مرَّة بعد أخرى ليُجرِّبه ويختبره . فإذا كان النزغ هكذا ، فأنت حين تجادل بالتى هى أحسن لا تعطى للشيطان فُرْصة لأنْ يُؤجِّج العداوة الشخصية بينكما ، فيُزيِّن لك شَتْمه أو لَعْنه ، وهكذا يتحول الخلاف فى المبدأ العام إلى عداوة ذاتية شخصية .

لذلك إذا رأيتَ شخصين يتنازعان لا صلَة لك بهما ، ولكن ضايقك هذا النزاع ، فما عليك إلا أنْ تقول : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ثلاثاً ، وأتحدّى أن يستمر النزاع بعدها ، إنها الماء البارد الذى يُطفىء نار الغضب ، ويطرد الشيطان فتهدأ النفوس ، وما أشبهك فى هذا الموقف برجل الإطفاء الذى يسارع إلى إخماد الحريق ، وخصوصاً إذا قلت هذه العبارة بنية صادقة فى الإصلاح ، وليس لك مأرَبٌ من هذا التدخّل .

والحق سبحانه يقول : ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ .. (٥٣)﴾ [الإسراء]

تلاحظ أن نَزْغ الشيطان لا يقتصر على المتخاصمين والمتجادلين حول مبدأ دينى عقدى ، بل ينزغ بين الإخوة والأهل والأحبة ، ألم يَقُل يوسف :﴿مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي..(١٠٠)﴾[يوسف]

لقد دخل الشيطان بين أولاد النبوة ، وزرع الخلاف حتى بين الأسباط وفيهم رائحة النبوة ، ولذلك لم يتصاعد فيهم الشر ، وهذا دليل على خَيْريتهم ، وأنت تستطيع أنْ تُميِّز بين الخيِّر والشرير ، فتجد الخيِّر يهدد بلسانه بأعنف الأشياء ، ثم يتضاءل إلى أهون

الأشياء ، على عكس الشرير تراه يُهدد بأهونِ الأشياء ، ثم يتصاعد إلى أعنف ما يكون .

انظر إلى قولْ إخوة يوسف : ﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا.. (٩)﴾ [يوسف] فقال الآخر وكان أميل إلى الرفق به :﴿وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ ..(١٠)﴾ [يوسف] وقد اقترح هذا الاقتراح وفى نيته النجاة لأخيه ، بدليل قوله تعالى : ﴿يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ.. (١٠)﴾ [يوسف] وهكذا تضاءل الشر فى نفوسهم .

ثم يقول تعالى :﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا(٥٣)﴾[الإسراء]

أى : أن عداوة الشيطان لكم قديمة منذ أبيكم آدم ـ عليه السلام ـ فهى عداوة مُسْبقة ، قال عنها الحق سبحانه : ﴿إِنَّ هَـٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ (١١٧)﴾ [طه]

لذلك يجب على الأب كما يُعلِّم ابنه علوم الحياة ووسائلها أنْ يُعلّمه قصة العداوة الأولى بين الشيطان وآدم ـ عليه السلام ـ ويُعلمه أن خواطر الخير من الله وخواطر الشر من الشيطان ، فليكُنْ على حَذَر من خواطره ووساوسه ، وبذلك يُربِّى فى ابنه مناعة إيمانية ، فيحذر كيد الشيطان ونَزْغه ، ويعلم أن كل أمر يخالف أوامر الشرع فهو من الشيطان ، وهذه التربية من الآباء تحتاج إلى إلحاح بها على الأبناء حتى ترسخ فى أذهانهم .

فقوله تعالى : ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا (٥٣)﴾ [الإسراء]
أى : كان ولا يزال . وإلى يوم القيامة بدليل قوله : ﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً (٦٢)﴾ [الإسراء]

أى : لأتعهّدنّهم بالإضلال والغواية إلى يوم القيامة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ ﴾

فى هذه الآية إشارة إلى طلاقة المشيئة الإلهية ، فالحق سبحانه إنْ شاء يرحمنا بفضله ، وإنْ شاء يُعذِّبنا بعدله ؛ لأن الحق سبحانه لو عاملنا بميزان عدله ما نجا منّا أحد ، ولو جلس أحدنا وأحصى ماله وما عليه لوجد نفسه لا محالةَ واقعاً تحت طائلة العقاب ؛ لذلك يَحسُن بنا أن ندعوَ الله بهذا الدعاء : « اللهم عاملنا بالفضل لا بالعدل ، وبالإحسان لا بالميزان ، وبالجبر لا بالحساب » .

والحق تبارك وتعالى لا يُيئس العُصَاة من فضله ، ولا يملى لهم بعدله ، بل يجعلهم بين هذه وهذه ليكونوا دائماً بين الخوف والرجاء .

وحينما كان المسلمون الأوَّلون يتعرضون لشتى ألوان الإهانة والتعذيب ولا يجدون مَنْ يمنعهم من هذا التعذيب ، فكانوا يذهبون إلى رسول الله ﷺ يشكون إليه ما ينزل بهم ، فرسول الله ينظر فى أنحاء العالم من حوله بحثاً عن المكان المناسب الذى يلجأ إليه هؤلاء المضطهدون ، ويأمرهم بالهجرة إلى الحبشة ويقول : « إن فيها ملكاً لا يُظْلَم عنده أحدٌ »[1] .

---

(١) عن أم سلمة أنها قالت : « لما ضاقت علينا مكة ، وأوذى أصحاب رسول الله ﷺ وفتنوا ورأوا ما يصيبهم من البلاء والفتنة فى دينهم ، وأن رسول الله لا يستطيع دفع ذلك عنهم ، وكان رسول الله فى منعة من قومه ومن عمه لا يصل إليه شىء مما يكره مما ينال أصحابه ، فقال لهم رسول الله ﷺ : « إن بأرض الحبشة ملكاً لا يظلم أحد عنده ، فالحقوا ببلاده حتى يجعل الله لكم فرجاً ومخرجاً مما أنتم فيه » حديث طويل أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٣٠١/٢) وابن هشام فى السيرة بنحوه (٣٢١/١) .

لقد كانوا فى مرحلة لا يستطيعون فيها الدفاع عن أنفسهم ، فالضعيف منهم عاجز عن المواجهة ، والقوى منهم لا يستطيع حماية الضعيف ؛ لأنه كان يذهب إلى رسول الله ﷺ فيقترح عليه الرد على الكفار ومواجهتهم بكذا وكذا ، فكان ﷺ يقول لهم : « لم أومر ، لم أومر ... » .

لأن الله تعالى أراد ألاَّ يبقى للإيمان جندى إلا وقد مَسَّه العذاب ، وذاق ألوان الاضطهاد ليربى فيهم الصبر على الأذى وتحمُّل الشدائد ؛ لأنهم سيحملون رسالة الانسياح بمنهج الله فى الأرض ، ولا شكَّ أن القيام بمنهج الله يحتاج إلى صلابة وإلى قوة ، فلا بُدَّ من تمحيص المؤمنين ، لذلك حدث للإسلام فى عصر النبوة أحداث وشدائد ، ومرَّت به عقبات مثل تعذيب المؤمنين وإيذائهم وحادث الإسراء والمعراج .

وكانت الحكمة من هذه الأحداث تمحيص المؤمنين وغربلة المنتسبين لدين الله ، حتى لا يبقى إلا القوى المأمون على حَمْل منهج الله ، والانسياح به فى شتَّى بقاع الأرض ، وحتى لا يبقى فى صفوف المؤمنين مَنْ يحمل راية الإيمان لمغنَم دنيوى ، فالغنيمة فى الإسلام ليست فى الدنيا بل فى جنة عَرْضُها السموات والأرض .

لذلك ، ففى بيعة العقبة الثانية قالوا لرسول الله ﷺ : سل يا محمد لربك ما شئت ، ثم سل لنفسك بعد ذلك ما شئت ، ثم أخبرنا ما لنا من الثواب على الله وعليكم إذا فعلنا ذلك . قال : أسألكم لربى أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، وأسألكم لنفسى ولأصحابى أن تؤوونا وتنصرونا وتمنعونا مما منعتم منه أنفسكم ، قالوا : فما لنا إذا فعلنا ذلك ؟ فماذا قال لهم رسول الله ؟ أقال لهم تملكون الدنيا ؟

لا ، بل قال : « لـكم الجنة »[1] قالوا : فلك ذلك .

فهذه هى الجائزة الحقيقـية التى ينبغى أن يفوز بها المؤمن ؛ لأنه من الجـائز أن يمـوت أحـدهم بعـد أن أعطى رسـول الله هذا العـهـد ولم يدرك شيئاً من خير الدنيا فى ظل الإسلام ، إذن : فالنبى صادق فى هذا الوعد . وما دام الجزاء هو الجنـة فلا بُدَّ لها من جنود أقوياء يصبرون على الأحداث ، ويُواجهون الفتن والمكائد .

فالمـعنى : ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ .. (٥٤)﴾ [الإسراء] بالخروج من مـكة مهاجـرين إلى ديار الأمن فى الحبـشة ﴿أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ .. (٥٤)﴾ [الإسراء] أى : عذاباً مـقصوداً لكى يُمـحِّص إيمانكم ويُميِّز المؤمنين منكم الجديرين بحمل رسالة الله ومنهجه .

ثم يقول تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً (٥٤)﴾ [الإسراء]

الوكيل : هو المفوَّض من صاحب الشأن بفعل شىء ما ، والمراد : ما أرسلناك إلا للبلاغ ، ولستَ مـسئولاً بعد ذلك عن إيمانـهم ، ولستَ وكيلاً عليهم ؛ لأن الهداية والتوفيق للإيمان بيد الحق سبحانه وتعالى .

إذن : قـول الحق سـبحـانه لرسـوله ﷺ : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً .. (٥٤)﴾ [الإسراء]

ليست قهراً لرسول الله ، وليست إنقاصاً من قَدْره ، بل هى رحمة به ورأفة ، كـأنه يقول له : لا تُحمِّل نفسك يا مـحمـد فوق طاقـتها ، كـما خـاطبـه فى آية أخرى بقـوله : ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ[2] نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا

---

(١) أخرجـه البيهـقى فى دلائل النبوة (٢/٤٥٠) من حـديث عامر الشـعبى وأحمـد فى مسنده (٤/١٢٠) وعزاه السيوطى فى الدر المنثور (٤/٢٩٤) لابن سعد فى الطبقات الكبرى .

(٢) بخع نفسه : قتلها هماً وغيظاً وحزناً . [القاموس القويم ١/٥٦] .

مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾ [الشعراء] فالحق - تبارك وتعالى - فى هذه المسألة لا يعتب على رسوله ، بل يعتب لصالحه ، والمتتبع لمواقف العتاب للرسول ﷺ يجده عتاباً لصالحه ﷺ رحمةً به ، وشفقةً عليه ، لا كما يقول البعض : إن الله تعالى يُصحّح للرسول خطئاً وقع فيه .

ومثال لهذا قوله تعالى : ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١﴾ أَن جَاءَهُ الأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ ﴿٣﴾﴾ [عبس]

الله تعالى يعتب على رسوله ﷺ ؛ لأنه ترك الرجل الذى جاءه سائلاً عن الدين ، وشَقَّ على نفسه بالذهاب إلى جدال هؤلاء الصناديد ، وكأن الحق سبحانه يشفق على رسوله أن يشقَّ على نفسه ، فالعتاب هنا حِرْصاً على رسول الله وعلى راحته .

وكذلك فى قوله تعالى : ﴿يَـٰأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ[1] وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١﴾﴾ [التحريم]

والتحريم تضييق على النفس ، فالحق سبحانه يعتب على رسوله ﷺ ؛ لأنه ضيَّق على نفسه ، وحرَّم عليها ما أحلَّه الله لها . كما تعتب على ولدك الذى سَهِر طويلاً فى المذاكرة حتى أرهقَ نفسه ، فالعتاب لصالح الرسول لا ضده .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾﴾

---

(١) أخرج النسائى عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ كانت له أمة يطؤها ، فلم تزل به عائشة وحفصة حتى حرمها ، فأنزل الله عز وجل : ﴿يَـٰأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ .. ﴿١﴾﴾ [التحريم] . أورده ابن كثير فى تفسيره (٤/٣٨٦) .

قوله تعالى : ﴿ أَعْلَمُ ﴾ أفعل تفضيل تدلُّ على المبالغة فى العلم ، وإنْ كان الحق سبحانه أعلم فما دونه يمكن أنْ يتصفَ بالعلم ، فنقول : عالم . ولكن الله أعلم ؛ لأن الله تعالى لا يمنع عباده أن تشرئب عقولهم وتطمح إلى معرفة شىء من أسرار الكون .

والمعنى أن الحق سبحانه وتعالى لا يقتصر علمه عليك يا محمد وعلى أمتك ، وقد سُبِقت الآية بقوله تعالى : ﴿ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ .. (٥٤) ﴾ [الإسراء] ولكن علمه سبحانه يسَع السموات والأرض علْماً مُطْلقاً لا يغيب عنه مثقال ذرة ، وبمقتضى هذا العلم يُقسِّم الله الأرزاق ويُوزِّع المواهب بين العباد ، كُلّ على حسب حاله ، وعلى قَدْر ما يُصلحه .

فإنْ رأيتَ شخصاً ضيَّق الله عليه فاعلم أنه لا يستحق غير هذا ، ولا يُصلحه إلا ما قَسَمه الله له ؛ لأن الجميع عبيد لله مربوبون له ، ليس بين أحد منهم وبين الله عداوة ، وليس بين أحد منهم وبين الله نسب .

فالجميع عنده سواء ، يعطى كُلاً على قَدْر استعداده عطاءَ ربوبية ، لا يحرم منه حتى الكافر الذى ضاق صدره بالإيمان ، وتمكّن النفاق من قلبه حتى عشق الكفر وأحب النفاق ، فالله تعالى لا يحرمه ممّا أحبّ ويزيده منه .

إذن : لعلمه سبحانه بمَنْ فى السموات والأرض يعطى عباده على قَدْر مَا يستحقّون فى الأمور القَهْرية التى لا اختيارَ لهم فيها ، فهُمْ فيها سواء . أما الأمور الاختيارية فقد تركها الخالق سبحانه لاجتهاد العبد وأخْذه بالأسباب ، فالأسباب موجودة ، والمادة موجودة ، والجوارح موجودة ، والعقل موجود ، والطاقة موجودة . إذن : على كل إنسان أن يستخدم هذه المعطيات ليرتقى بحياته على قَدْر استطاعته .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ .. (٥٥) ﴾ [الإسراء]

مَن الذى فضَّل ؟ الله سبحانه وتعالى هو الذى يُفضِّل بعض النبيين على بعض ، وليس لنا نحن أن نُفضّل إلا مَنْ فضَّله الله ؛ لأنه سبحانه هو الذى يملك أن يُجازى على حَسْب الفضل ، أما نحن فلا نملك أنْ نجازى على قَدْر الفضل .

لذلك قال النبى ﷺ : « لا ينبغى لعبد أن يقول : أنا خير من يونس بن متى »[(١)] .

لأن الذى يُفضِّل هو الله تعالى ، وقد نُصّ على هذا التفضيل فى قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ .. (٢٥٣) ﴾ [البقرة]

فالتفضيل على حسب ما يعلمه الله تعالى من أن أُولى العزم من الرسل قد فَضَّلهم عن غيرهم لِمَا تحمّلوه من مشقة فى دعوة أقوامهم ، ولما قاموا به من حمل منهج الله والانسياح به ، أو من طول مُدّتهم من قومهم .. الخ فهو وحده يعلم أسباب التفضيل .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا (٥٥) ﴾ [الإسراء]

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٣٧٦) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال النووى فى شرحه لصحيح مسلم (١٤١/١٥) : « قال العلماء : هذه الأحاديث تحتمل وجهين : أحدهما : أنه ﷺ قال هذا قبل أن يعلم أنه أفضل من يونس ، فلما علم ذلك قال : أنا سيد ولد آدم .. والثانى : أنه ﷺ قال هذا زجراً عن أن يتخيل أحد من الجاهلين شيئاً من حط مرتبة يونس عليه السلام » .

فلماذا ذكر داود بالذات مقترناً بالكتاب الذى أُنزل عليه ؟ قالوا : لأن داود عليه السلام أُوتِى مع الكتاب المُلْك ، فكان نبياً ملكاً ، فكأن الحق سبحانه يشير إلى أن تفضيل داود لا من حيث أنه ملِك ، بل من حيث هو نبى صاحب كتاب .

وفى الحديث الشريف يقول ﷺ : « لقد خُيِّرْتُ بين أن أكون عبداً نبياً أو نبياً ملكاً ، فاخترت أن أكون عبداً نبياً »[1] .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ ﴾

الله تعالى يقول لرسوله ﷺ : قل للذين يُعارضونك فى الوحدانية إذا مسَّكم ضُرٌّ فلا تلجأوا إلى مَنْ تكفرون به ، بل الجأوا إلى مَنْ زعمتم أنهم شركاء وآمنتم بهم . فإنهم لن يستمعوا إليك ؛ لأن الإنسان بطبعه لا يخدع نفسه ، ولو علموا أن الذين يتخذونهم آلهة من دون الله ينفعونهم فى شىء لما دَعَوْا ربهم الذى يكفرون به وتركوا الذين يؤمنون بهم ، لماذا ؟

لأن الإنسان لا يتمرد ولا يطغى إلا إذا كان مُسْتغنياً بكل ملكاته ، بمعنى أن تكون ملكاته كلها على هيئة الاستقامة والانسجام ، فإذا

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٢/٢٣١) من حديث أبى هريرة قال : « جلس جبريل إلى النبى ﷺ فنظر إلى السماء فإذا ملك ينزل فقال جبريل : إن هذا الملك ما نزل منذ يوم خلق قبل الساعة فلما نزل قال : يا محمد أرسلنى إليك ربك قال : أفملكاً نبياً يجعلك أو عبداً رسولاً . قال جبريل : تواضع لربك يا محمد .. قال : بل عبداً رسولاً » .

اختلتْ له ملكة من الملكات ضَعُفَ طغيانه ، وحاول أن يستكمل هذا النقص ، وحينئذ لن يخدع نفسه بأن يطلب الاستكمال مِمَّنْ لا يملكه ، بل يطلبه ممَّنْ يعتقد أنه يملكه .

لذلك يقول تعالى : ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ .. (٦٧)﴾ [الإسراء]

وقال : ﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ .. (٨)﴾ [الزمر]

لماذا ؟ لأن ما أصابه من ضُرٍّ أضعفه ، وكسر عنده غريزة الاستعلاء والاستكبار ، لقد كفر بالله من قبل حينما حمله التكاليف ، ولكن الآن وبعد أن نزل به الضُّر وأحاط به البلاء فلا بُدَّ أن يكون صريحاً مع نفسه لا يخدعها .

وضربنا لهذه المسألة مثلاً بحلاق الصحة عند أهل الريف فى الماضى وكان مسئولاً عن صِحَّة الناس ، ويقوم مقام الطبيب فى هذا الوقت ، فإذا ما عُيِّن بالقرية طبيب هاجمه الحلاق وأفسد ما بينه وبين الناس ، وأشاع عنه عدم العلم وقلَّة الخبرة ليخلوَ له وجه الناس ، ولا يشاركه أحد فى رزقه ، ومرَّت الأيام وأصيب الحلاق بضُرٍّ ، حيث مرض ولد له ، فإذا به يحمله خُفْيةً بليْل ، ويتسلل به إلى الطبيب ، ولكن سرعان ما ينكشف أمره ويُفتضح بين الناس .

إذن : الإنسان فى ساعة الضر لا يخدع نفسه ولا يكذب عليها ، فقل لهم : إذا مسكم الضر فاذهبوا إلى مَن ادعيتم أنهم آلهة وادعوهم ، فإنهم لن يستجيبوا ولن يدعوهم ، ولو دَعَوْهم فلن يكشفوا عنهم ضرهم : ﴿فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ .. (٥٦)﴾ [الإسراء]

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَحْوِيلًا (٥٦) ﴾ [الإسراء] أى : ولا يملكون تحويل حالكم من الضر إلى النفع أو النعمة أو الرحمة ، أو : لا يملكون تحويل هذا الضر إلى أعدائكم ، فهم ـ إذن ـ لا يملكون هذه ولا هذه .

فالحق سبحانه يُلقِّن رسوله ﷺ الحجة ، ليوضح لهم أنهم يغالطون أنفسهم ، ويعارضون مواجيدهم وفطرتهم ، فإن أصابهم الضر فى ذواتهم لا يلجأون إلى آلهتهم ؛ لأنهم يعلمون أنها لا تملك لهم نفعاً ولا ضراً ، ولن تسمعهم ، وإن سمعتهم ـ فرضاً ـ ما استجابوا لهم ، ويوم القيامة يكفرون بشركهم ، بل يلجأون إلى الله الذى يملك وحده كَشْف الضُّر عنهم .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ[2] أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا (٥٧) ﴾

فهؤلاء الذين تعتبرونهم آلهة وتتخذونهم شركاء لله ، هؤلاء أيضاً عبيد لله ، يتقربون إليه ويتوسَّلون إليه ، فالمسيح الذى أشركتموه مع الله ، وكذلك الملائكة هم عباد لله : ﴿ لَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ .. (١٧٢) ﴾ [النساء]

---

(١) **سبب نزول الآية** : أخرج مسلم فى صحيحه (٣٠٣٠) فى كتاب التفسير فى سبب نزول هذه الآية أن عبد الله بن مسعود قال : كان نفر من الإنس يعبدون نفراً من الجن ، فأسلم النفر من الجن واستمسك الإنس بعبادتهم فنزلت الآية .

(٢) الوسيلة : ما يُتقَرَّب به إلى الغير . وهى الوُصْلة والقربى . وتوسَّل إليه بوسيلة إذا تقرب إليه بعمل . [لسان العرب ـ مادة : وسل] .

هؤلاء لا يرفضون ولا يتأبَّوْن أن يكونوا عباداً لله ، ويريدون التقرُّب إليه سبحانه ، فكيف ـ إذن ـ تتوجهون إليهم بالعبادة وهم عباد ؟

وقوله تعالى : ﴿يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ .. (٥٧)﴾ [الإسراء] أى : يطلبون الغاية والقربى إليه تعالى ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ أى : كلما تقرّب واحد منهم إلى الله ابتغى اللهَ أكثرَ من غيره وأقبل عليه ، فإذا كان الأقرب إلى الله منهم يبتغى القُرْبى ، فما بال الأبعد ؟

وقوله تعالى : ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا (٥٧)﴾ [الإسراء]

أى : يجب الحذر منه وتجنُّب أسبابه ؛ لأن العذاب إذا كان من الله فلا فكاكَ منه ولا مهرب ، وأيضاً فالعذاب يتناسب مع قدرة المعذِّب ضعفاً وشدة ، فإذا نُسب العذاب إلى الله فلا شكَّ أنه أليم شديد ، لا طاقة لأحد به ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (١٠٢)﴾ [هود]

والحق سبحانه قد أوضح لنا مسألة الوحدانية فى آيات كثيرة ، ولم يطلب منا الاعتراف بها إلا بعد أنْ شهد بها لنفسه سبحانه ، وبعد أن شهد بها الملائكة وأولو العلم ، قال تعالى : ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ .. (١٨)﴾ [آل عمران]

فشهد الله سبحانه شهادة الذات للذات ، وشهدتْ الملائكة شهادة المشهد والمعاينة ، وشهد أولو العلم شهادة الاستدلال ، فهذه شهادات ثلاث قبل أنْ يطلب منّا الشهادة .

وبهذه الشهادة أقبل الحق سبحانه على مزاولة سلطانه وقدرته فى الكون ، وما دام « لا إله إلا هو » يقول للشىء : كُنْ فيكون ، قالها لأنه يعلم أنه لا إله إلا هو ، وبها يحكم على الأشياء ويُغيِّر من وضع

إلى وضع ، فإنْ صحَّتْ هذه الشهادات الثلاث فقد انتهت المسألة . وإنْ لم تصح وهناك إله آخر فأين هو ؟! إنْ كان لا يدرى فهو إله نائم لا يصلح لهذه المكانة ، وإنْ كان يدرى فلماذا لم يطالب بحقه .

إذن : فهذه الدَّعْوى قد سلمتْ للحق سبحانه لأنه لم يدَّعها أحد لنفسه ، فهى للحق تبارك وتعالى حتى يقوم مَنْ يدعيها لنفسه .

قال تعالى : ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا (٤٢)﴾ [الإسراء]

أى : لو كان للكون إله آخر لطلبوا هذا الإله الذى استقرتْ له الأمور واستتبّ له الحال ، ليُجادلوه فى هذه المسألة ، أو لطلبوه ليتقربوا إليه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا (٥٨)﴾

ساعةَ أنْ تسمعَ (وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلاَّ) فاعلم أن الأسلوب قائم على نفى وإثبات ، فالمعنى : لا توجد قرية إلا والله مُهلكها قبل يوم القيامة ، أو مُعذِّبها عذاباً شديداً ، لكن هل كل القرى ينسحب عليها هذا الحكم ؟

نقول : لا ، لأن هذا حكم مطلق والإطلاقات فى القرآن تُقيِّدها قرآنيات أخرى ، وسوف نجد مع هذه الآية قول الحق سبحانه : ﴿ذَلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ (١٣١)﴾ [الأنعام]

وقال تعالى : ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ (١١٧)﴾ [هود]

فهذه آيات مُخصِّصة تُوضِّح الاستثناء من القاعدة السابقة ، وتُقيِّد المبدأ السابق والسور العام الذى جاءت به الآية ، فيكون المعنى - إذن - وإنْ من قرية غير غافلة وغير مُصلِحة إلا والله مُهلكها أو مُعذِّبها .

وقوله : ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلاَّ نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا .. (٥٨)﴾ [الإسراء]

﴿مُهْلِكُوهَا﴾ أى : بعذاب الاستئصال الذى لا يُبقِى منهم أحداً .

﴿مُعَذِّبُوهَا﴾ أى : عذاباً دون استئصال .

لأن التعذيب مرحلة أولى ، فإنْ أتى بالنتيجة المطلوبة وأعاد الناس إلى الصواب فبها ونعْمتْ وتنتهى المسألة ، فإنْ لم يقتنعوا وأصرُّوا ولم يرتدعوا وعاندوا يأتى الإهلاك ، وهذا واضح فى قول الحق سبحانه : ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١١٢)﴾ [النحل]

والواقع أن فى حاضرنا شواهدَ عدة على هذه المسألة ، فلا بُدَّ لأىِّ قرية طغتْ وبغَتْ أن ينالها شىء من العذاب ، والأمثلة أمامنا واضحة ، ولا داعىَ لذكرها حتى لا ننكأ جراحنا .

وطبيعى أن يأتى العذاب قبل الإهلاك ؛ لأن العذاب إيلام حىّ

يشعر بالعذاب ويُحِسّ به ، والإهلاك إذهاب للحياة ، وهذا يمنع الإحساس بالعذاب .

وباستقراء تاريخ الأمم السابقة نلاحظ ما جاق بهم من سُنّة إهلاك الظالمين ، فقوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط نزل بهم عذاب الله الذى لا يُرَدُّ عن القوم الكافرين ، ولكنه كان عذاب استئصال ؛ لأن الأنبياء فى هذا الوقت لم يكونوا مُطَالَبين بحمل السلاح لنشر دعوتهم ، فكان عليهم البلاغ ، والحق سبحانه وتعالى هو الذى يتولّى تأديب المخالفين . إلا إذا طلب أتباع النبى الجهاد معه لنشر دعوته ، كما حدث من أتباع موسى عليه السلام :

﴿ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ .. (٢٤٦) ﴾ [البقرة]

وهكذا طلب بنو إسرائيل القتال وحَمْل السلاح ، ولكن حذّرهم نبيهم ، وخشى أنْ يفرضَ عليهم ثم يتقاعسوا عنه ، وهذا ما حدث فعلاً ولم يَبْق معه إلا قليل منهم ، وهذا القليل سرعان ما تراجع هو أيضاً واحداً بعد الآخر .

إذن : الهِمَّة الإنسانية فى هذا الوقت لم يكُنْ عندها استعداد ونضج لأنْ تحملَ سلاحاً فى سبيل الله ، فكان على الرسول أنْ يُبلِّغ ، وعلى السماء أنْ تُؤدِّب بهذا اللون من العذاب الذى يستأصلهم فلا يُبقى منهم أحداً .

أما فى أمة محمد ﷺ فقد رحمنا ربنا تبارك وتعالى من هذا العذاب ، فقال : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ .. (٣٣) ﴾ [الأنفال]

وهذه من كرامات الله تعالى لرسوله ، فلم يأخذ قومه بعذاب الاستئصال ، لماذا ؟ لأن رسولهم آخر الرسل وخاتم الأنبياء ، وسوف يُنَاطُ بهم حَملُ رسالته ونَشْر دعوته ، والانسياح بمنهج الله فى شتى بقاع الأرض .

ذلك لأن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ حينما يرسل منهجه إلى الأرض يُقدِّر غفلة الناس عن المنهج ، ويُقدِّر فكرة التأسِّى بالجيل السابق ، فهذان مُعوِّقان فى طريق منهج الله ، يقول تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ .. (١٧٣) ﴾[الأعراف]

فأوضح لنا الحق سبحانه أن الإنسان يتخبّط أو ينحرف عن المنهج ، إما بسبب غفلة ، أو بسبب تقليد أعمى لأُسْوة سيئة ، فأول مَنْ تلقى عن الله آدم ، ثم بلّغ ذريته منهج الله ، وبمرور الأجيال حدثتْ الغفلة عن بعض المنهج نتيجة ما رُكِّب فى الإنسان من حُبٍّ للشهوات ، وهذه الشهوات هى التى تصرفه عن منهج ربه ، فإنْ حدثت غفلة فى جيل فإنها سوف تزداد فى الجيل التالى ، وهكذا ؛ لأن الجيل سيقع تحت مُؤثِّرين : الغفلة الذاتية فيه ، والتأسى بالجيل السابق .

إذن : بتوالى الأجيال وازدياد الغفلة عن المنهج لا بُدَّ أن الحق سبحانه سيبعث فى مواكب الرسل مَنْ يُنبِّه الناس .

ومن هنا كانت أمة محمد ﷺ خَيْر أمة أُخرِجَتْ للناس : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ .. (١١٠) ﴾ [آل عمران] لماذا ؟ ﴿ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ .. (١١٠) ﴾ [آل عمران] فخيرية هذه الأمة ناشئة من حَمْل رسالة الدعوة ، وقد كرَّم الله أمة محمد بأنْ جعل كل مَنْ آمن به يحمل دعوته إلى يوم القيامة ، لقد بلّغ الرسول مَنْ عاصروه من أمته ، وعلى أمته أن تُبلّغ مَنْ بعده ؛ لذلك يشهد علينا رسول الله ، ونشهد نحن على الناس .

وفى الحديث الشريف « نضَّر الله امرءاً سمع مقالتى فوعاها ، ثم أدَّاها إلى مَنْ لم يسمعها ، فَرُبَّ مُبلَّغ أَوْعَى من سامع »[1] .

وهكذا تظل فى الأمة هذه الخيرية وتحمل دعوة رسولها حيث لا رسول من بعده إلى يوم القيامة ، ولأهمية هذا الدور الذى يقوم به المسلمون فى كل زمان ومكان يُنبِّهنا رسول الله ﷺ إلى مسألة هامة فى مجال حَمْل الدعوة ونَشْرها ، فيقول : « إن كل واحد منكم يقف على ثغرة من ثغرات هذا الدين ، فإياكم أن يُؤتَى الدين من ثغرة أحدكم » . أو كما قال .

فليعلم كل مسلم أنه محسوب للدين أو عليه ، فالعيون تتطلع إليه وتَرْصُد تصرفاته فى مجتمعه ، فهو صورة للدين وسفير له ، وعليه أن يراعى هذه المسئولية ويقوم بها على أكمل وجه ليكون أداة جَذْب ، وليكون وجهاً مشرقاً لتعاليم هذا الدين .

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (١/٤٣٧) والترمذى فى سننه (٢٦٥٧ ، ٢٦٥٨) وابن ماجه فى سننه (٢٣٢) والحميدى (١/٤٧) من حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه .

فأنت حارس على باب من الأبواب ، وعليك أنْ تسدَّه بصدق انطباعك عن الإيمان ، وبصدق انقيادك لقضايا الإسلام ، وبهذا السلوك تكون وسيلة إغراء للآخرين الذين يراودهم الإيمان ، ويتراءى لهم منهج الله من بعيد .

ويحلو للبعض أن يأخذوا الإسلام بجريرة أهله ، ويحكموا عليه بناءً على تصرفات المنتسبين إليه ، وهذا خطأ ، فَمَنْ أراد الصورة الحقيقية للإسلام فليأخذْها من منابع الدين فى كتاب الله وسنة رسوله ، فإنْ رأيتَ بين المنتسبين للإسلام سارقاً فلا تقُلْ : هذا هو الإسلام ؛ لأن الإسلام حرَّم السرقة ، وجعل لها عقوبة وحَداً يُقَام على السارق ، وليس لأحد أن يكون حجة على دين الله .

لذلك فإن كبار العلماء والمفكرين الذين درسوا فى الدين الإسلامى لم ينظروا إلى تصرُّفات المسلمين وحاضرهم ، بل أخذوه من منابعه الأصلية . ومنهم « جينو » الفرنسى الذى قال : الحمد لله الذى هدانى للإسلام قبل أن أعرف المسلمين . لأنه فى الحقيقة لو اطلع على أحوالنا الآن لكَان فى المسألة كلام آخر .

إذن : الذين نظروا إلى قضايا الإسلام نظرة عَدْل وإنصاف لا بُدَّ أن يهتدوا إلى الإسلام ، لكن منهم مَنْ نظر إليه نظرة عَدْل وإنصاف إلا أنهم أبعدوا قضية التديّن من قلوبهم ، وإن اقتنعتْ بها عقولهم ، وفَرْق كبير بين القضية العقلية والقضية القلبية .

ومن هؤلاء الكاتب الذى ألَّفَ كتاباً عن العظماء فى التاريخ وأسماه : « العظماء مائة أعظمهم محمد بن عبد الله » وهو كاتب غير

مؤمن ، لكنه أخذ يستقرىء صفحة التاريخ ، ويسجِّل أصحاب الأعمال الجليلة التى أثَّرت فى تاريخ البشرية ، فوجدهم مائة ، وبالمقارنة بينهم وجد أن أعظمهم محمد ﷺ ، ومع ذلك لم يتربَّ محمد فى مدرسة ، ولم يتخرج فى جامعة ، ولم يجلس إلى مُعلم .

ألم تسأل نفسك أيها المؤلف : من أين أتى محمد بهذه الأوليّة ؟ ولماذا استحق أن يكون فى المقدمة ؟ لقد ذكرتَ حيثيات النبوغ فى جميع شخصياتك ، من تربية ودراسة فى جامعات وعلى أساتذة وإطلاع وأبحاث ، فلماذا لم تذكر حيثيات النبوغ فى رسول الله ؟ ألم تعلم أنه أُميّ فى أمة أُميّة ؟ مما يدل على أن هذا الباحث تناول هذه القضية بعقله لا بقلبه .

نعود إلى مسألة الإهلاك والعذاب ؛ لأنها أثارتْ خلافاً بين رجال القانون فى موضوع إقامة حَدِّ الرجْم على الزانى المحصن[1] والجَلْد للزانى غير المحصن ، فقد رأى جماعة منهم أن الجلد ثابت بالقرآن ، أما الرجم فثابت بالسنة ، لذلك قال بعضهم بأن رجم الزانى المحصَن سنة .

وهذا قول خاطىء وبعيد عن الصواب ، لأن هناك فرقاً بين سُنية الدليل وسُنية الحكم ، فسُنية الدليل أن يكون الأمر فَرْضاً ، لكن دليله من السنة كهذه المسألة التى معنا . وكصلاة المغرب مثلاً ثلاث ركعات وهى فَرْض لكن دليلها من السنة ، أما سُنية الحكم فيكون الحكم نفسه سُنة يُثَاب فاعله ، ولا يُعَاقب تاركه كالتسبيح ثلاثاً فى الركوع مثلاً .

---

(١) أحصن الرجل وأحصنت المرأة ؛ تزوج وكأن الزواج حِصْن يحمى المتزوج من الوقوع فى الشهوات فهو مُحصِن . [القاموس القويم ١/١٥٧] .

إذن : فرجْم الزانى المحصَن فَرْض ، لكن دليله من السنة ، فالسُّنية هنا سُنية دليل ، لا سنية حكم .

فمَنْ يقول : إن الرجْم لم يَرِدْ به نصٌّ فى كتاب الله ، نقول : الدليل عليه جاء فى السنة ، وهى المصدر الثانى للتشريع ، حتى على قول مَنْ قال بأن القرآن هو المصدر الوحيد للتشريع ، ففى القرآن : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا .. (٧) ﴾ [الحشر]

إذن : ففعْل الرسول ﷺ كنصِّ القرآن سواء بسواء ، وهل رجم فى عهد رسول الله أو لم يرجم ؟ رجم فعلاً فى عهد رسول الله[1] ، فإنْ قال قائل : فهذا ليس نصاً فى الرجْم . نقول : بل الفعل أقوى من النص ؛ لأن النص قد تتأول فيه ، أما الفعل فهو صريح لا يحتمل تأويلاً .

ودليل آخر على فرضية الرجم ، وهو الشاهد فى هذه الآية ، فى قوله تعالى عن إقامة الحد على الأمة : ﴿ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ .. (٢٥) ﴾ [النساء]

فيقولون : الرجْم لا يُنصَّف . إذن : ليس هناك رَجْم . نقول : أنتم لم تُفرِّقوا بين الرجم وبين العذاب ، فالرجم إماتة ، والعذاب إيلام لحيٍّ يشعر ويُحِسُّ بهذا الإيلام ، والمقصود به (الجلْد) .

---

(١) أخرج مسلم فى صحيحه (١٦٩١ ـ ١٦) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : « أتى رجل من المسلمين رسول الله ﷺ وهو فى المسجد فناداه فقال : يا رسول الله إنى زنيت فأعرض عنه فتنحى تلقاء وجهه فقال له : يا رسول الله إنى زنيت فأعرض عنه حتى ثنى ذلك عليه أربع مرات ، فلما شهد على نفسه أربع شهادات دعاه رسول الله ﷺ فقال : أبك جنون ؟ قال : لا . قال : فهل أحصنت ؟ قال : نعم . فقال رسول الله ﷺ : اذهبوا به فارجموه » .

إذن : ﴿فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ .. (٢٥)﴾ [النساء] أى : من الجَلْد ، وهو الذى يُنصَّف ، ولو كان الحكم عاماً لَقَال : فعليهن نصف ما على المحصنات . فقوله : ﴿مِنَ الْعَذَابِ .. (٢٥)﴾[النساء] دليل على وجود الرَّجْم الذى لا فَرْق فيه بين حُرة وأمة.

وكذلك نلحظ التدرج من العذاب إلى الإهلاك فى قول سليمان - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - حينما تفقّد الطير ، واكتشف غياب الهدهد : ﴿لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ .. (٢١)﴾ [النمل]

ولسائل أنْ يسأل : هل لا بُدَّ للقرى الظالمة أن ينالها الإهلاك أو العذاب قبل يوم القيامة ؟

نعم لابُدَّ أن يمسَّهم شىء من هذا ؛ لأن الله تعالى لو أخَّر كل العذاب لهؤلاء إلى يوم القيامة لاستشرى الظلم وعمَّ الفساد فى الكون ، وحين يرى الناس الظالم يرتع فى الحياة ، وينعم بها مع ظلمه لأغراهم ذلك بالظلم ، أما إذا رأوه وقد حاق به سوء عمله ، ونزلت به النوازل لارتدعوا عن الظلم ، ولَعلموا أن عاقبته وخيمة ، ولن يفلت الظالم من عذاب الدنيا قبل عذاب الآخرة . أما لو تأخر عذاب الظالمين إلى الآخرة ، فالوَيْل ممَّنْ لا يؤمنون بها .

لذلك لما مات رأسٌ من رؤوس الظلم فى الشام ، ولم يَرَ الناس عليه أثراً لعذاب أو نقمة ، قال أحدهم : إن وراء هذه الدار داراً يُجَازى فيها المحسن بإحسانه ، والمسىء بإساءته ؛ لأنه يستحيل أنْ يُفلِتَ الظالم من العذاب .

وفى مناقشتى مع الشيوعيين فى بروكسل قلت لهم : لقد قسوتُمْ

على المخالفين لكم من الرأسماليين والإقطاعيين عام ١٩١٧ وما بعدها ، فقالوا : إنهم يستحقون أكثر من ذلك ، فقد فعلوا كذا وكذا ، قُلْت : منذ متى ؟ قالوا : طوال عمرهم وهم يفعلون ذلك ، فقلتُ : إذا كنتم أخذتم المعاصرين لكم بذنوبهم ، فما بال الذين سبقوهم ؟ وما حظّهم من العقاب الذى أنزلتموه بإخوانهم ؟ قالوا : ما أدركناهم .

قلت : إذن كان من الواجب عليكم أنْ تؤمنوا باليوم الآخر ، حيث سيعذب فيه هؤلاء ، فإنْ أفلتوا من عذاب الدنيا جاءت الآخرة لتُصفّى معهم الحساب ، كما يقول تعالى : ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ .. ﴿٤٧﴾﴾ [الطور] وأريد منكم أنْ تطلعوا على تفسير هذه الآية التى نحن بصددها : ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلاَّ نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾﴾ [الإسراء]

راجعوا تفسيرها فى كتاب النسفى[1] ، وسوف تجدون به أمثلة تُؤيّد هذه الآية ، يقول : قرية كذا سيحدث لها كذا ، وقرية كذا سيحدث لها كذا . وقد جاء الواقع على وفق ما قال ، إلى أن ذكر مصر وقال عنها كلاماً طويلاً أظن أنه يُمثِّل ما أصاب مصر منذ سنة ١٩٥٢ ، وكان مما قال عنها : ويدخل مصر رجل من جهينة فويْلٌ لأهلها ، وويل لأهل الشام ، وويل لأهل أفريقيا ، وويل لأهل الرملة ، ولا يدخل بيت المقدس[2] . اقرأوا هذا الكلام عند النسفى .

ثم يقول تعالى : ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾﴾ [الإسراء]

---

(١) النسفى هو أبو البركات عبد الله بن أحمد النسفى (ت٧٠١ هـ) وكتابه فى التفسير هو المسمى « مدارك التنزيل وحقائق التأويل » .

(٢) أورد النسفى هذا فى تفسيره (٣١٨/٢) طبعة دار الفكر قال : « وعن مقاتل وجدت فى كتب الضحاك فى تفسيرها » وساق ما قاله الشيخ الشعراوى هنا بنصه .

أى : مُسجّل ومُسطّر فى اللوح المحفوظ ، ولا يقول الحق سبحانه : ﴿كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا (٥٨)﴾ [الإسراء] وتأتى الأحداث بغير ذلك ، بل لابُدَّ أنْ يؤكد هذه الحقائق القرآنية بأحداث كونية واقعية .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ۚ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا (٥٩)﴾

الآيات : جمع آية ، وهى الأمر العجيب الذى يلفت النظر ويسترعى الانتباه ، وهذه الآيات إما أن تكون آيات كونية نستدل بها على قدرة المدبِّر الأعلى سبحانه مثل المذكورة فى قوله تعالى : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ .. (٣٧)﴾ [فصلت]

وقد تكون الآيات بمعنى المعجزة التى تثبت صِدْق الرسول فى البلاغ عن ربه تعالى ، وقد تكون الآيات بمعنى آيات القرآن الكريم ، والتى يسمونها حاملة الأحكام .

فالآيات إذن ثلاثة : كونية ، ومعجزات ، وآيات القرآن . فأيها

---

(١) **سبب نزول الآية** : عن ابن عباس قال : سأل أهل مكة النبى ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهباً ، وأن ينحى عنهم الجبال فيزرعون ، فقيل له : إن شئت أن تستأنى بهم لعلنا نجتبى منهم ، وإن شئت نؤتهم الذى سألوا ، فإن كفروا أهلكوا كما أهلك من قبلهم ، قال : لا ، بل أستأنى بهم ، فأنزل الله عز وجل ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ .. (٥٩)﴾ [الإسراء] .

المقصود فى الآية : ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ .. (٥٩)﴾ [الإسراء]

الآيات الكونية وهى موجودة لا تحتاج إلى إرسال ، الآيات القرآنية وهى موجودة أيضاً ، بقى المعجزات وهى موجودة ، وقد جاءت معجزة كل نبى على حَسْب نبوغ قومه ، فجاءت معجزة موسى من نوع السحر الذى نبغ فيه بنو إسرائيل ، وكذلك جاءت معجزة عيسى مما نبغ فيه قومه من الطب .

وجاءت معجزة محمد ﷺ فى الفصاحة والبلاغة والبيان ؛ لأن العرب لم يُظهروا نبوغاً فى غير هذا المجال ، فتحدّاهم بما يعرفونه ويُجيدونه ليكون ذلك أبلغ فى الحجة عليهم .

إذن : فما المقصود بالآيات التى منعها الله عنهم ؟

المقصود بها ما طلبوه من معجزات أخرى ، جاءت فى قوله تعالى : ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ .. (٩٣)﴾ [الإسراء]

والمتأمل فى كل هذه الاقتراحات من كفار مكة يجدها بعيدة كل البُعْد عن مجال المعجزة التى يُراد بها فى المقام الأول تثبيت الرسول ، وبيان صدْق رسالته وتبليغه عن الله ، وهذه لا تكون إلا فى أمر نبغ فيه قومه ولهم به إلمام ، وهم أمة كلام وفصاحة وبلاغة ، وهل لهم إلمام بتفجير الينابيع من الأرض ؟ وهل إسقاط السماء

عليهم كِسَفاً يقوم دليلاً على صدْق الرسول ؟ أم أنه الجدل العقيم والاستكبار عن قبول الحق ؟

إذن : جلس كفار مكة يقترحون الآيات ويطلبون المعجزات ، والحق سبحانه وتعالى يُنزِل من المعجزات ما يشاء ، وليس لأحد أن يقترح على الله أو يُجبره على شيء ، قال تعالى : ﴿قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا[1] مِّن قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٦)﴾ [يونس]

فالحق تبارك وتعالى قادر أن يُنزل عليهم ما اقترحوه من الآيات ، فهو سبحانه لا يُعجِزه شيء ، ولا يتعاظمه شيء ، ولكن للبشر قبل ذلك سابقة مع المعجزات .

والحق سبحانه يقول : ﴿وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا .. (٥٩)﴾ [الإسراء]

مبصرة : أى آية بينة واضحة .

لقد طلب قوم ثمود معجزة بعينها[2] فأجابهم الله وأنزلها لهم ، فما كان منهم إلا أن استكبروا عن الإيمان ، وكفروا بالآية التى طلبوها ،

---

(١) قال جعفر بن أبى طالب للنجاشى ملك الحبشة : قد كانت مدة مقامه عليه السلام بين أظهرنا قبل النبوة أربعين عاماً . وعن سعيد بن المسيب : ثلاثاً وأربعين سنة . قال ابن كثير فى تفسيره (٢/٤١٠) : « والصحيح المشهور الأول » .

(٢) قال ابن كثير فى تفسيره (٢/٢٢٨) : « كانوا هم الذين سألوا صالحاً أن يأتيهم بآية ، واقترحوا عليه بأن تخرج لهم من صخرة صماء عيَّنوها بأنفسهم وهى صخرة منفردة فى ناحية الحجر يقال لها الكاتبة ، فطلبوا منه أن تخرج لهم منها ناقة عشراء تمخض (أى : دنا ولادها وأخذها الطلق) » فجاءت كما سألوا « فتحركت تلك الصخرة ثم انصدعت عن ناقة جوفاء وبراء يتحرك جنينها بين جنبيها » .

بل وأكثر من ذلك ظلموا بها أى : جاروا على الناقة نفسها ، وتجرّأوا عليها فعقروها .

وهذه السابقة مع ثمود هى التى منعتنا عن إجابة أهل مكة فيما اقترحوه من الآيات ، وليس عَجْزاً منَّا عن الإتيان بها .

وقوله تعالى عن الناقة أنها آية ﴿ مُبْصِرَةٌ ﴾ لبيان وضوحها ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً .. (١٢) ﴾ [الإسراء] فهل آية النهار مُبصِرة ، أم مُبْصَر فيها ؟

كانوا قديماً يعتقدون أن الإنسان يرى الشىء من شعاع ينطلق من عينه إلى الشىء المرئىّ فتحدث الرؤية ، إلى أن جاء ابن الهيثم وأثبت خطأ هذه المقولة ، وبيّن أن الإنسان يرى الشىء إذا خرج من الشىء شعاع إلى العين فتراه ، بدليل أنك ترى الشىء إذا كان فى الضوء ، ولا تراه إذا كان فى ظلمة ، وبهذا الفهم نستطيع القول بأن آية النهار هى المبصرة ؛ لأن أشعتها هى التى تُسبّب الإبصار .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفًا (٥٩) ﴾ [الإسراء]

أى : نبعث بآيات غير المعجزات لتكون تخويفاً للكفار والمعاندين ، فمثلاً الرسول ﷺ اضطهده أهل مكة ودبَّروا لقتله جهاراً وعلانية ، فخيّب الله سَعْيهم ورأوا أنهم لو قتلوه لَطالبَ أهله بدمه ، فحاكوا مؤامرة أخرى للفتك به بليل ، واقترحوا أنْ يُؤْتَى من كل قبيلة بفتى جَلْدٍ ، ويضربوه ضَرْبة رجل واحد .

ولكن الحق سبحانه أطلع رسوله على مكيدتهم ، ونجّاه من غدرهم ، فإذا بهم يعملون له السحر ليُوقِعوا به ، وكان الله لهم

بالمرصاد ، فأخبر رسوله بما يُدبّر له ، وهكذا لم يفلح الجهر ، ولم يفلح التبييت ، ولم يفلح السحر ، وباءت محاولاتهم كلها بالفشل، وعلموا أنه لا سبيلَ إلى الوقوف فى وجه الدعوة بحال من الأحوال ، وأن السلامة فى الإيمان والسير فى ركابه من أقصر الطرق .

إذن : للحق سبحانه آيات أخرى تأتى لِرَدْع المكذبين عن كذبهم ، وتُخوّفهم بما حدث لسابقيهم من المُكذِّبين بالرسل ، حيث أخذهم الله أَخْذ عزيز مقتدر ، ومن آيات التخويف هذه ما جاء فى قوله تعالى : ﴿ فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٠) ﴾ [العنكبوت]

فكل هذه آيات بعثها الله على أمم من المكذبين ، كُلّ بما يناسبه .

ثم يقول الحق سبحانه مخاطباً رسوله ﷺ :

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا (٦٠) ﴾ (١)

أى : اذكر يا محمد ، وليذكر معك أصحابك إذ قلنا لك : إن ربك أحاط بالناس ، فلا يمكن أن يتصرفوا تصرُّفاً ، أو يقولوا قولاً يغيب

---

(١) هى شجرة الزقوم التى قال عنها ربُّ العزة سبحانه : ﴿ إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ (٤٣) طَعَامُ الأَثِيمِ (٤٤) ﴾ [الدخان] ، وقال : ﴿ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ (٦٢) إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ (٦٣) إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ (٦٤) طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ (٦٥) فَإِنَّهُمْ لآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (٦٦) ﴾ [الصافات] .

عن عِلْمِه تعالى ، لأن الإحاطة تعنى الإلمام بالشىء من كُلّ نواحيه .

وما دام الأمر كذلك فاطمئن يا محمد ، كما نقول فى المثل (حُط فى بطنك بطيخة صيفى) ، واعلم أنهم لن ينالوا منك لا جهرة ولا تبييتاً ، ولا استعانة بالجنس الخفى (الجن) ؛ لأن الله محيط بهم، وسيبطل سَعْيَهم ، ويجعل كَيْدهم فى نحورهم .

لذلك لما تحدَّى الحق سبحانه وتعالى الكفار بالقرآن تحدَّى الجن أيضاً ، فقال : ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَـٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا[1] (٨٨)﴾ [الإسراء]

ففى هذا الوقت كان يشيع بين العرب أن كل نابغة فى أمر من الأمور له شيطان يُلهمه ، وكانوا يدَّعُون أن هذه الشياطين تسكن وادياً يسمى « وادى عبقر » فى الجزيرة العربية ، فتحدّاهم القرآن أنْ يأتوا بالشياطين التى تُلهمهم .

وهكذا يُطمئن الحق سبحانه وتعالى رسوله ﷺ بأنه يحيط بالناس جميعاً ، ويعلم كل حركاتهم ظاهرة أو خفيّة من جنس ظاهر أو من جنس خفىّ ، وباطمئنان رسول الله تشيع الطمأنينة فى نفوس المؤمنين .

وهذا من قيوميته تعالى فى الكون ، وبهذه القيومية نردُّ على الفلاسفة الذين قالوا بأن الخالق سبحانه زاول سلطانه فى الكون مرة واحدة ، فخلق النواميس ، وهى التى تعمل فى الكون ، وهى التى تُسيّره .

والرد على هذه المقولة بسيط ، فلو كانت النواميس هى التى

(١) الظهير : المعين المساعد كأنه يسند ظهر من يعاونه . [القاموس القويم ١/٤١٨] .

تُسيِّر الكون ما رأينا فى الكون شـذوذاً عن الناموس العام ؛ لأن الأمر الميكانيكى لا يحدث خروجاً عن القاعدة ، إذن : فحدوث الشذوذ دليل القدرة التى تتحكم وتستطيع أن تخرق الناموس .

ومثال ذلك : النار التى أشـعلوها لحرق نبى الله وخليله إبراهيم ـ عليه السلام ـ فهل كـان حظ الإيمان أو الإسلام فى أن ينجو إبراهيم من النار ؟

لا .. لم يكن الهدف نجاة إبراهيم عليه السلام ، وإلا لما مكَّنهم الله من الإمساك به ، أو سخر سحابة تطفىء النار ، ولكن أراد سبحانه أن يُظهر لهـم آية من آياته فى خَرْق النامـوس ، فمكّنهم من إشـعال النار ومكّنَهم من إبراهيم حتى ألقوْه فى النار ، ورأَوْهُ فى وسطها ، ولم يَعُدْ لهم حجة ، وهنا تدخلت القـدرة الإلهية لتسلب النار خاصـية الإحراق : ﴿قُلْنَا يَـنَارُ كُونِى بَرْدًا[1] وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (٦٩)﴾ [الأنبياء]

إذن : فالناموس ليس مخلوقاً ليعمل مطلقاً ، وما حدث ليس طلاقة ناموس ، بل طلاقة قدرة للخالق سبحانه وتعالى .

فكأن الحق سـبحانه يريد أنْ يُسلِّى رسوله ويُؤْنسـه بمدد الله له دائماً ، ولا يفزعه أن يقوم قومه بمـصادمته واضطهاده ، ويريد كذلك أنْ يُطمئن المؤمنين ويُبشِّرهم بأنهم على الحق .

وقوله تعالى : ﴿أَحَاطَ بِالنَّاسِ..(٦)﴾ [الإسراء]

الإحاطة تقتضى العلم بهم والقدرة عليهم ، فلن يُفلتوا من علم الله ولا من قـدرته ، ولا بُدَّ من العلم مع القـدرة ؛ لأنك قـد تعلم شـيئـاً

---

(١) البرد : خلاف الـحر . قال ابن عباس وأبو الـعالية : لولا أن الله عز وجل قـال (وسلاماً) لآذى إبراهيم بردها . [تفسير ابن كثير ٣/١٨٤] .

ضاراً ولكنك لا تقدر على دَفْعه ، فالعلم وحده لا يكفى ، بل لا بُدَّ له من قدرة على التنفيذ ، إذن : فإحاطته سبحانه بالناس تعنى أنه سبحانه يُعلِّمهم ويقدر على تنفيذ أمره فيهم .

كلمة (الناس) تُطلَق إطلاقات متعددة ، فقد يراد بها الخلْق جميعاً من آدم إلى قيام الساعة ، كما فى قول الحق تبارك وتعالى : ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١) مَلِكِ النَّاسِ (٢) إِلَـٰهِ النَّاسِ (٣) مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ[1] الْخَنَّاسِ (٤) الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (٥) مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ (٦)﴾[الناس]

وقد يُراد بها بعض الخَلْق دون بعض ، كما فى قوله تعالى : ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ .. (٥٤)﴾ [النساء]

فالمراد بالناس هنا رسول الله ﷺ حين قال عنه كفار مكة : ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ[2] عَظِيمٍ (٣١)﴾[الزخرف]

وكما فى قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ .. (١٧٣)﴾ [آل عمران] فهؤلاء غير هؤلاء .

وقد وقف العلماء عند كلمة الناس فى الآية : ﴿إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ .. (٦٠)﴾ [الإسراء] وقصروها على الكافرين الذين يقفون من رسول الله موقف العداء ، لكن لا مانع أن نأخذ هذه الكلمة على عمومها ، فَيُراد بها أحاط بالمؤمنين ، وعلى رأسهم رسول الله ﷺ ، وأحاط بالكافرين وعلى رأسهم صناديد الكفر فى مكة .

---

(١) الخناس : الشيطان يتأخر ويبعد عند ذكر الله . [القاموس القويم ١/ ٢١١] .

(٢) سئل ابن عباس رضى الله عنهما عن قول الله ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١)﴾ [الزخرف] قال : يعنى بالقريتين مكة والطائف ، والعظيم : الوليد بن المغيرة القرشى ، وحبيب بن عمير الثقفى . أورده السيوطى فى الدر المنثور (٧ / ٣٧٤) وعزاه لابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه .

لذلك فالإحاطة هنا ليست واحدة ، فلكل منهما إحاطة تناسبه ، فإنْ كنتَ تريد الإحاطة بالمؤمنين وعلى رأسهم رسول الله فهى إحاطة عناية وحماية حتى لا ينالهم أذى ، وإنْ أردتَ بها الكافرين فهى إحاطة حصار لا يُفلتون منه ولا ينفكُّون عنه ، وهذه الإحاطة لها نظير ، وهذه لها نظير .

فنظير الإحاطة بالكافرين قوله تعالى : ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ .. (٢٢)﴾ [يونس]

أى : حُوصِروا وضُيِّق عليهم فلا يجدون منفذاً .

ونظير الإحاطة بالمؤمنين وعلى رأسهم رسول الله قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢)﴾ [الصافات]

فالحق سبحانه محيط بالمؤمنين وبرسوله ﷺ إحاطة عناية ، وكأنه يقول له : امْضِ إلى شأنك وإلى مهمتك ، ولن يُضيرك ما يُدبِّرون .

لذلك كان المؤمنون فى أَوْج فترات الاضطهاد والقسوة من الكفار فى وقت كان المؤمنون غير قادرين حتى على حماية أنفسهم ينزل قول الحق تبارك وتعالى : ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥)﴾ [القمر]

حتى إن عمر - رضى الله عنه - الذى جاء القرآن على وَفْق رأيه يقول : أىّ جَمْعٍ هذا ؟! ويتعجب ، كيف سنهزم هؤلاء ونحن غير قادرين على حماية أنفسنا[1] وهذه تسلية لرسول الله وتبشير

---

(١) قال عكرمة : لما نزلت ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥)﴾ [القمر] قال عمر : أىّ جمع يُهزم ؟ أى : أىّ جمع يُغلب ؟ قال عمر : فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ يثب فى الدرع وهو يقول « سيهزم الجمع ويولون الدبر » فعرفت تأويلها يومئذ . أورده ابن كثير فى تفسيره (٤/٢٦٦) وعزاه لابن أبى حاتم .

للمؤمنين ، فمهما نالوكم بالاضطهاد والأذى فإن الله ناصركم عليهم .

وكما قال فى آية أخرى : ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) ﴾ [الصافات]

فاذكر جيداً يا محمد حين تنزل بك الأحداث ، ويظن أعداؤك أنهم أحاطوا بك ، وأنهم قادرون عليك ، اذكر أن الله أحاط بالناس ، فأنت فى عناية فلن يصيبك شرٌّ من الخارج ، وهم فى حصار لن يُفلتوا منه .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِى أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ .. (٦٠) ﴾ [الإسراء]

كلمة ﴿ الرُّؤْيَا ﴾ مصدر للفعل رأى ، وكذلك (رؤية) مصدر للفعل رأى ، فإنْ أردتَ الرؤيا المنامية تقول : رأيتُ رُؤْيا ، وإنْ أردتَ رأى البصرية تقول : رأيتُ رؤية .

ومن ذلك قول يوسف عليه السلام فى المنام الذى رآه : ﴿ وَقَالَ يَـٰأَبَتِ هَـٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَاىَ مِن قَبْلُ .. (١٠٠) ﴾ [يوسف]

ولم يَقُلْ رؤيتى . إذن : فالفعل واحد ، والمصدر مختلف .

وقد اختلف العلماء : ما هى الرؤيا التى جعلها الله فتنة للناس ؟

جمهرة العلماء[1] على أنها الرؤيا التى ثبتتْ فى أول السورة : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا .. (١) ﴾ [الإسراء] أى : حادثة الإسراء والمعراج .

---

(١) قاله ابن عباس وأبو مالك وأم هانىء والحسن البصرى وقتادة ، أورد السيوطى آثارهم فى الدر المنثور (٥/٣٠٨ ، ٣٠٩) ، ونقل ابن كثير فى تفسيره (٣/٤٩) اختيار ابن جرير الطبرى لهذا الرأى قال : « لإجماع الحجة من أهل التأويل على ذلك » أى : فى الرؤيا والشجرة .

وبعضهم[١] رأى أنها الرُّؤْيا التى قال الله فيها : ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا (٢٧)﴾ [الفتح]

فقد وعد رسولَ الله ﷺ بأنهم سيدخلون المسجد الحرام فى هذا العام ، ولكن مُنعوا من الدخول عند الحديبية ، فكانت فتنة بين المسلمين وتعجبوا أنْ يعدهم رسول الله وَعْداً ولا ينجزه لهم .

ثم بيّن الحق ـ تبارك وتعالى ـ لهم الحكمة من عدم دخول مكة هذا العام ، فأنزل على رسوله وهو فى طريق عودته إلى المدينة :

﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا[٢] أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا[٣] لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٢٥)﴾ [الفتح]

إذن : الحق سبحانه منعهم تحقيق هذه الرؤيا فى الحديبية ؛ لأنهم لو دخلوا مكة مُحاربين حاملين السلاح ، وفيها مؤمنون ومؤمنات

---

(١) قاله ابن عباس فى رواية عنه قال : الرؤيا التى فى هذه الآية هى رؤيا رسول الله ﷺ أنه يدخل مكة فى سنة الحديبية ، فردَّ فافتتن المسلمون لذلك ، فنزلت الآية ، فلما كان العام المقبل دخلها ، وأنزل الله تعالى ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ .. (٢٧)﴾ [الفتح] . قال القرطبى فى تفسيره (٤٠١١/٥) : « فى هذا التأويل ضعف ، لأن السورة مكية ، وتلك الرؤيا كانت بالمدينة » .

(٢) معكوفاً : محبوساً عن أن يبلغ أماكن نَحْره . [القاموس القويم ٣٢/٢] .

(٣) لو تزيلوا : أى لو تميز الكفار من المؤمنين الذين بين أظهرهم ، لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً . [تفسير ابن كثير ١٩٣/٤] .

لا يعلمهم أحد ، وسوف يصيبهم من الأذى وينالهم من هذه الحرب ؛ لأنهم لن يُميِّزوا بين مؤمن وكافر ، فقد يقتلون مؤمناً فتصيبهم مَعَرَّةٌ بقتله ، ولو أمكن التمييز بين المؤمنين والكفار لدخلوا مكة رَغْماً عن أُنُوف أهلها .

لذلك كان من الطبيعى أنْ يتشكَّكَ الناس فيما حدث بالحديبية ، وأن تحدث فتنة تزلزل المسلمين ، حتى إن الفاروق ليقول لرسول الله ﷺ : ألسنا على الحق ؟ أليسوا هم على الباطل ؟ ألستَ رسول الله ؟ فيقول أبو بكر : الزم غَرْزَه يا عمر ، إنه رسول الله[1] .

وقد ساهمتْ السيدة أم سلمة ـ أم المؤمنين ـ فى حَلِّ هذا الإشكال الذى حدث نتيجة هذه الفتنة ، فلما اعترض الناس على رسول الله فى عودته من الحديبية دخل عليها ، فقال : « يا أم سلمة ، هلك المسلمون ، أمرتُهم فلم يمتثلوا » . فقالت : يا رسول الله إنهم مكروبون ، جاءوا على شَوْق للبيت ، ثم مُنعوا وهم على مَقْرُبة منه ، ولا شكَّ أن هذا يشقّ عليهم ، فَامْضِ يا رسول الله لما أمرك الله ، فإذا رأوك عازماً امتثلوا ، ونجح اقتراح السيدة أم سلمة فى حل هذه المسألة[2] .

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٤/٣٢٥) من حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم فى حديث الحديبيْة الطويل .

(٢) أخرج أحمد فى مسنده (٤/٣٢٥) حديث الحديبية بطوله عن المسور بن مخرمة ومروان ابن الحكم ، وفيه : أن رسول الله ﷺ قال يأيها الناس انحروا واحلقوا فما قام أحد . ثم عاد بمثلها فما قام رجل حتى عاد بمثلها ، فما قام رجل ، فرجع ﷺ فدخل على أم سلمة فقال : يا أم سلمة ما شأن الناس ؟ قالت : يا رسول الله قد دخلهم ما قد رأيت فلا تكلمن منهم إنساناً ، واعمد إلى هديك حيث كان فانحره واحلق فلو قد فعلت ذلك فعل الناس ذلك ، فخرج ﷺ لا يكلم أحداً حتى أتى هديه فنحره ثم جلس فحلق فقام الناس ينحرون ويحلقون . حتى إذا كان بين مكة والمدينة فى وسط الطريق فنزلت سورة الفتح .

وقال بعضهم : إن المراد بالرؤيا التى جعلها الله فتنة ما رآه رسول الله ﷺ قبل غزوة بدر ، حيث أقسم وقال : « والله لكأنِّى أنظر إلى مصارع القوم » . وأخذ يومىء إلى الأرض وهو يقول : « هذا مَصْرع فلان ، وهذا مَصْرع فلان ، وهذا مَصْرع فلان »[(١)] .

وفعلاً ، جاءت الأحداث موافقة لقوله ﷺ فَقُلْ لى : بالله عليك ، مَن الذى يستطيع أنْ يتحكَّم فى معركة كهذه ، الأصل فيها الكَرّ والفَرّ ، والحركة والانتقال لِيُحدد الأماكن التى سيقتل فيها هؤلاء ، اللهم إنه رسول الله .

لكن أهل التحقيق من العلماء[(٢)] قالوا : إن هذه الأحداث سواء ما كان فى الحديبية ، أو ما كان من أمر الرسول يوم بدر[(٣)] ، هذه أحداث حدثتْ فى المدينة ، والآية المرادة مكية ، مما يجعلنا نستبعد هذين القولين ويؤكد أن القول الأول - وهو الإسراء والمعراج - هو الصواب .

وقد يقول قائل : وهل كان الإسراء والمعراج رؤيا منامية ؟ إنه كان رؤية بصرية ، فما سِرّ عدول الآية عن الرؤية البصرية إلى

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٧٧٩) وأحمد فى مسنده (٣/٢١٩) من حديث أنس رضى الله عنه .

(٢) من هؤلاء العلماء القرطبى فى تفسيره (٥/٤٠١١) ، وابن كثير فى تفسيره (٣/٤٩) .

(٣) أمْر الرسول يوم بدر لم يرد فى تأويل هذه الآية ، ولكن ذكرت الكتب قولاً آخر ولكن العلماء ردوه وضعفوه . فعن سهل بن سعد قال : إنما هذه الرؤيا هى أن رسول الله ﷺ كان يرى بنى أمية ينزون على منبره نزو القردة ، فاغتم لذلك ، وما استجمع ضاحكاً من يومئذ حتى مات ﷺ . ذكره القرطبى فى تفسيره (٥/٤٠١١) . وضعف ابن كثير سند هذا الحديث فى تفسيره (٣ /٤٩) وقال : « محمد بن الحسن بن زبالة متروك ، وشيخه أيضاً ضعيف بالكلية » .

الرؤيا المنامية ؟ وكيف يعطى الحق سبحانه وتعالى للكفار والمشككين فرصة لأن يقول : إن الإسراء والمعراج كان مناماً ؟

نقول : ومَنْ قال إن كلمة رؤيا مقصورة على المنامية ؟ إنها فى لغة العرب تُطلق على المنامية وعلى البصرية ، بدليل قول شاعرهم الذى فرح بصيد ثمين عنَّ له :

فَكَبَّر لِلْرُؤْيَا وهَاش[1] فُؤَادُهُ وَبشَّرَ نَفْساً كَانَ قَبْلُ يَلُومُهَا

أى : قال الله أكبر حينما رأى الصيد الثمين يقترب منه ، فعبَّر بالرؤيا عن الرؤية البصرية .

لكن الحق سبحانه اختار كلمة ﴿ رُؤْيَا ﴾ ليدل على أنها شىء عجيب وغريب كما نقول مثلاً : هذا شىء لا يحدث إلا فى المنام . وهذا من دقّة الأداء القرآنى ، فالذى يتكلم رَبّ ، فاختار الرؤيا ؛ لأنها معجزة الإسراء وذهاب النبى ﷺ من مكة إلى بيت المقدس فى ليلة .

فَوَجْه الإعجاز هنا ليس فى حدث الذهاب إلى بيت المقدس لأن كثيراً من كفار مكة قد ذهب إليها فى رحلات التجارة أو غيرها ، بل وَجْه الإعجاز فى الزمن الذى اختُصر لرسول الله ، فذهب وعاد فى ليلة واحدة ، بدليل أنهم سألوا رسول الله « صِفْ لنا بيت المقدس »[2] .

---

(١) هش للشىء وهاش : سُرَّ به وفرح [وقد ذكر ابن منظور هذا البيت فى لسان العرب مادة هشش].

(٢) وذلك أن رجلاً منهم قال : « يا محمد أنا أعلم الناس ببيت المقدس ، فأخبرنى كيف بناؤه وكيف هيئته وكيف قربه من الجبل ، قال : فرفع لرسول الله ﷺ بيت المقدس من مقعده ، فنظر إليه كنظر أحدنا إلى بيته ، قال : بناؤه كذا وكذا وهيئته كذا وكذا وقربه من الجبل كذا وكذا ، فقال الآخر : صدقت فرجع إليهم فقال : صدق محمد فيما قال » ذكره ابن كثير فى تفسيره (٣/١٣) .

ولو كانوا يشكُّون في الحدث ما سألوا هذا السؤال ، إذن : فاعتراضهم على وقت هذه الرحلة التى كانوا يضربون إليها أكباد الإبل شهراً ، ويخبر محمد أنه أتاها فى ليلة واحدة ، ولأن الإسراء حدث فى هذا الزمن الضيق المختصر ناسب أن يُطلق عليه رؤيا ، لأن الرؤيا المنامية لا زمنَ لها ، ويختصر فيها الزمن كذلك .

ولقد توصّل العلماء الباحثون فى مسألة وعى الإنسان أثناء نومه ، وعن طريق الأجهزة الحديثة إلى أنْ قالوا : إن الذهن الإنسانى لا يعمل أثناء النوم أكثر من سبع ثوان ، وهذه هى المدّة التى يستغرقها المنام .

فى حين إذا أردتَ أن تحكى ما رأيتَ فسيأخذ منكم وقتاً طويلاً . فأين الزمن ـ إذن ـ فى الرؤيا المنامية ؟ لا وجود له ؛ لأن وسائل الإدراك فى الإنسان والتى تُشعره بالوقت نائمة فلا يشعر بوقت ، حتى إذا جاءت الرؤيا مرَّتْ سريعة حيث لا يوجد فى الذهن غيرها .

لذلك مَنْ يمشى على عجل لا يستغرق زمناً ، كما نقول : (فلان يفهمها وهى طايرة) وهذا يدل على السرعة فى الفعل ؛ لأنه يركز كل إدراكاته لشىء واحد .

ومن ناحية أخرى ، لو أن الإسراء والمعراج رؤيا منامية ، أكانت توجد فتنة بين الناس ؟ وهَبْ أن قائلاً قال لنا : رأيت الليلة أننى ذهبتُ من القاهرة إلى نيويورك ، ثم إلى هاواى ، ثم إلى اليابان ، أنُكذِّبه ؟!

إذن : قَوْل الله تعالى عن هذه الرؤيا أنها فتنة للناس عَدَّلَتْ المعنى

من الرؤيا المنامية إلى الرؤية البصرية ، وكأن الحق سبحانه اختار هذه الكلمة ليجعل من الكافرين بمحمد دليلاً على صدقه ، فيقولون : نحن نضرب إليها أكباد الإبل شهراً وأنت تدعى أنك أتيتها فى ليلة ؟ فلو كانت هذه الحادثة مناماً ما قالوا هذا الكلام .

لكن ، ما الحكمة من فتنة الناس واختبارهم بمثل هذا الحدث ؟

الحكمة تمحيص الناس وصَهْرهم فى بوتقة الإيمان لنميز الخبيث من الطيب ، والمؤمن من الكافر ، فلا يبقى فى ساحتنا إلا صادق الإيمان قوىُّ العقيدة ، لأن الله تعالى لا يريد أن يسلم منهجه الذى سيحكم حركة الحياة فى الدنيا إلى أن تقوم الساعة ، إلا إلى قوم موثوق فى إيمانهم ليكونوا أهلاً لحمل هذه الرسالة .

فكان الإسراء هو هذه البوتقة التى ميَّزَتْ بين أصالة الصِّدِّيق حينما أخبروه أن صاحبك يُحدِّثنا أنه أتى بيت المقدس ، وأنه عُرج به إلى السماء وعاد من ليلته ، فقال : « إنْ كان قال فقد صدق »[1] هكذا من أقرب طريق ، فميزان الصدق عنده مجرد أن يقول رسول الله . وكذلك ميزت الزَّبَد الذى زلزلته الحادثة وبلبلته ، فعارض وكذب .

ثم يقول تعالى : ﴿وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ ..(٦٠)﴾ [الإسراء]

أى : وما جعلنا الشجرة الملعونة فى القرآن إلا فتنةً للناس أيضاً ، وإنْ كانت الفتنة فى الإسراء كامنة فى زمن حدوثه ، فهى فى الشجرة كامنَة فى أنها تخرج فى أصل الجحيم ، فى قَعْر جهنم ،

---

(١) ذكره القرطبى فى تفسيره (٤٠١٢/٥) وتمامه أنه قيل له : أتصدقه قبل أن تسمع منه ؟ فقال : أين عقولكم ؟ أنا أُصدّقه بخبر السماء ، فكيف لا أُصدّقه بخبر بيت المقدس ، والسماء أبعد منها بكثير .

ومعلوم أن الشجرة نبات لا يعيش إلا بالماء والرى ، فكيف تكون الشجرة فى جهنم ؟

ومن هنا كانت الشجرة فتنة تُمحِّص إيمان الناس ؛ لذلك لما سمع أبو جهل هذه الآية جعلها مُشكلة ، وخرج على الناس يقول[1] : اسمعوا ما يحدثكم به قرآن محمد ، يقول : إن فى الجحيم شجرة تسمى « شجرة الزقوم » ، فكيف يستقيم هذا القول والنار تحرق كل شىء حتى الحجارة ؟

وهذا الاعتراض مقبول عقلاً ، لكن المؤمن لا يستقبل آيات الله استقبالاً عقلياً ، وإنما يعمل حساباً لقدرته تعالى ؛ لأن الأشياء لا تأخذ قوامها بعنصر تكوينها ، وإنما تأخذه بقانون المعنصر نفسه ، فالخالق سبحانه يقول للشجرة : كونى فى أصل الجحيم ، فتكون فى أصل الجحيم بطلاقة القدرة الإلهية التى قالت للنار : كُونى بَرْداً وسلاماً على إبراهيم .

وقد قال ابن الزِّبْعَرى حينما سمع قوله تعالى : ﴿أَذَلِكَ خَيْرٌ نُّزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ (٦٢) إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ (٦٣) إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ (٦٤)﴾ [الصافات]

فقال : والله ما عرفنا الزقوم إلا الزُّبْد على التمر ، فقوموا تزقَّموا

---

(١) عن قتادة قال : لما ذكر الله شجرة الزقوم افتتن بها الظلمة ، فقال أبو جهل : يزعم صاحبكم هذا ، أن فى النار شجرة ، والنار تأكل الشجر، وإنّا والله ما نعلم الزقوم إلا التمر والزبد ، فتزقموا ، فأنزل الله حين عجبوا أن يكون فى النار شجر ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ (٦٤)﴾ [الصافات] أى : غذيت بالنار ، ومنها خلقت ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ (٦٥)﴾ [الصافات] قال : يشبهها بذلك .

معى[1] ، أى : استهزاءً بكلام الله ، وتكذيباً لرسوله ﷺ .

أما المؤمن فيستقبل هذه الآيات استقبالَ الإيمان والتسليم بصدق كلام الله ، وبصدق المبلِّغ عن الله ، ويعلم أن الأشياء لا تأخذ صلاحيتها بعنصر تكوينها ، وإنما بإرادة المعنْصِر أن يكون ؛ لأن المسألة ليست ميكانيكا ، وليست نواميس تعمل وتدير الكون ، بل هى قدرة الخالق سبحانه وطلاقة هذه القدرة .

ولسائل أن يقول : كيف يقول الحق سبحانه عن هذه الشجرة أنها (ملعونة) ؟ ما ذنب الشجرة حتى تُلْعَن ، وهى آية ومعجزة لله تعالى ، وهى دليل على اقتداره سبحانه ، وعلى أن النواميس لا تحكم الكون ، بل ربّ النواميس سبحانه هو الذى يحكم ويُغيِّر طبائع الأشياء ؟ كيف تُلْعَن وهى الطعام الذى سيأكله الكافر ويتعذب به ؟ إنها أداة من أدوات العقاب ، ووسيلة من وسائل التعذيب لأعداء الله .

نقول : المراد هنا : الشجرة الملعون آكلها ، لأنه لا يأكل منها إلا الأثيم ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ (٤٣) طَعَامُ الأَثِيمِ (٤٤)﴾ [الدخان] والأثيم لا شكَّ ملعون .

لكن ، لماذا لم يجعل الملعونية للآكل وجعلها للشجرة ؟

---

(١) أورد الواحدى فى أسباب النزول (ص ١٦٦) عن ابن عباس أنه قال : لما ذكر الله تعالى الزقوم خوّف به هذا الحى من قريش ، فقال أبو جهل : هل تدرون ما هذا الزقوم الذى يخوفكم به محمد عليه الصلاة والسلام ؟ قالوا : لا . قال : الثريد بالزبد ، أما والله لئن أمكننا فيها لنتزقمنها تزقماً ، فأنزل الله تعالى ﴿وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِى الْقُرْآنِ .. (٦٠)﴾ [الإسراء] . وعزاه السيوطى فى الدر المنثور (٥/٣١٠) لابن إسحاق وابن أبى حاتم وابن مردويه والبيهقى فى البعث .

قالوا : لأن العربى دَرَجَ على أن كل شىء ضار ملعون ، أى : مُبْعَد من رحمة الله ، فكأن الكافر حينما يرى هذه الشجرة هو الذى يلعنها ، فهى ملعونة من آكلها . وقد أكل منها لأنه ملعون ، إذن : نستطيع القول إنها ملعونة ، وملعون آكلها[1] .

ومن الإشكالات التى أثارتها هذه الآية فى العصر الحديث قول المستشرقين الذين يريدون أن يتورّكوا على القرآن ، ويعترضوا على أساليبه ، مثل قوله تعالى عن شجرة الزقوم : ﴿ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ (٦٥) ﴾ [الصافات]

ووَجْه اعتراضهم أن التشبيه إنما يأتى عادةً ليُوضِّح أمراً مجهولاً من مخاطب بأمر معلوم له ، أما فى الآية فالمشبَّه مجهول لنا ؛ لأنه غَيْب لا نعلم عنه شيئاً ، وكذلك المشبَّه به لم نَرَهُ ، ولم يعرف أحد منّا رأس الشيطان ، فكيف يُشبِّه مجهولاً بمجهول ؟ لأننا لم نَرَ شجرة الزقوم لنعرف طَلْعها ، ولم نَرَ الشيطان لنعرف رأسه .

ثم يقولون : الذى جعل المسلمين يمرُّون على هذه الآية أنهم يُعطون للقرآن قداسة ، هذه القداسة تُربّى فيهم التهيُّب أنْ يُقبلوا على القرآن بعقولهم ليفتشوا فيه ، ولو أنهم تخلصوا من هذه المسألة وبدأوا البحث فى أسلوب القرآن دون تهيُّب لاستطاعوا الخروج منه بمعطيات جديدة .

---

(١) ذكره أبو يحى زكريا الأنصارى فى كتابه « فتح الرحمن بكشف ما يلتبس فى القرآن » ص ٢٣٨ طبعة ١٩٨٥ م ـ دار الصابونى .

وللردِّ على قَوْل المستشرقين السابق نقول لهم : لقد تعلمتم العربية صناعة ، وليس عندكم الملَكَة العربية أو التذوّق الكافى لفهم كتاب الله وتفسير أساليبه ، وفَرْقٌ بين اللغة كملَكَة واللغة كصناعة فقط .

الملَكة اللغوية تفاعل واختمار للغة فى الوجدان ، فساعة أنْ يسمعَ التعبير العربى يفهم المقصود منه ، أما اللغة المكتسبة ـ خاصة على كِبَر ـ فهى مجرد دراسة لإمكان التخاطب ، فلو أن عندكم هذه الملكة لما حدث منكم هذا الاعتراض ، ولعلمتم أن العربى قبل نزول القرآن قال[1] :

يَغُطُّ غَطِيطَ البكْر شُدّ خِنَاقُه ... لِيقتُلَنِى والمرْءُ ليسَ بقتَّالِ

أَيقتُلِنى وَ المشْرفىُّ[2] مُضَاجِعِى ... وَمسْنُونَةٍ زُرْقٍ كأنْيَابِ أَغْوَالِ

فهل رأيتم الغول ؟ وهل له وجود أصلاً ؟ لكن الشاعر العربى استساغ أن يُشبّه سلاحه المسنون بأنياب الغول ؛ لأن الغول يتصوَّره الناس فى صورة بشعة مخيفة ، فهذا التصوّر والتخيُّل للغول أجاز أنْ نُشبّه به .

وكذلك الشيطان ، وإنْ لم يَرَهُ أحد إلا أن الناس تتخيله فى صورة بشعة وقبيحة ومخيفة ، فلو كلّفنا جميع رسّامى الكاريكاتير فى العالم برسم صورة مُتخيّلة للشيطان لرسم كل واحد منهم صورة تختلف

---

(١) هو : امرؤ القيس بن حُجْر ، شاعر جاهلى .

(٢) سيف مشرفىٌّ منسوب إلى قرية من أرض اليمن تسمى المشارف . [لسان العرب ـ مادة : شرف] .

عن الآخر ؛ لأن كلاً منهم سيتصوره بصورة خاصة حَسْب تصوره للشيطان وجهة البشاعة فيه .

فلو أن الحق سبحانه شبَّه طَلْع شجرة الزقوم بشىء معلوم لنا لَتصوّرناه على وجه واحد ، لكن الحق تبارك وتعالى أراد أنْ يُشيعَ بشاعته ، وأنْ تذهب النفس فى تصوُّر بشاعته كل مذهب ، وهكذا يؤدى هذا التشبيه فى الآية مَا لا يُؤدّيه غيره ، ويُحدث من الأثر المطلوب ما لا يُحدثه تعبير آخر ، فهو إبهام يكشف ويجلىٍّ .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ طُغْيَانًا كَبِيرًا (٦٠) ﴾ [الإسراء]

أى : نُخوّفهم بأنْ يتعرّضوا للعقوبات التى تعرّض لها المكذِّبون للرسل ، فالرسل نهايتهم النصر ، والكافرون بهم نهايتهم الخُذْلان . وأنت حينما تُخوّف إنساناً أو تُحذره من شر سيقع له ، فقد أحسنتَ إليه وأسديتَ إليه جميلاً ومعروفاً ، كالوالد الذى يُخوِّف ابنه عاقبة الإهمال ، ويُذكّره بالفشل واحتقار الناس له ، إنه بذلك ينصحه ليلتفت إلى دروسه ويجتهد .

فقوله تعالى : ﴿ وَنُخَوِّفُهُمْ .. (٦٠) ﴾ [الإسراء] التخويف هنا نعمة من الله عليهم ، لأنه يُبشّع لهم الأمر حتى لا يقعوا فيه ، وسبق أن ذكرنا أن التخويف قد يكون نعمة فى قوله تعالى ، فى سورة الرحمن : ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ[1] مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلا تَنتَصِرَانِ (٣٥) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٦) ﴾ [الرحمن]

فجعل النار والشُّواظ هنا نعمة ؛ لأنها إعلام بشىء سيحدث فى المستقبل ، وسيكون عاقبة عمل يجب أن يحذروه الآن .

---

(١) الشواظ : القطعة من اللهب ليس فيها دخان . [القاموس القويم ١/٣٦١] .

وقوله تعالى : ﴿فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾﴾ [الإسراء]

أى : يزدادون بالتخويف طغياناً ، لماذا ؟ لأنهم يفهمون جيداً مطلوبات الإيمان ، وإلا لو جهلوا هذه المطلوبات لقالوا : لا إله إلا الله وآمنوا وانتهت القضية ، لكنهم يعلمون تماماً أن كلمة لا إله إلا الله تعنى : لا سيادةَ إلا لهذه الكلمة ، ومحمد رسول الله لا بلاغَ ولا تشريعَ إلا منه ، ومن هنا خافوا على سيادتهم فى الجزيرة العربية وعلى مكانتهم بين الناس ، كيف والإسلام يُسوِّى بين السادة والعبيد ؟!

إذن : كلما خوَّفْتهم وذكّرتهم بالله ازدادوا طغياناً ونفوراً من دين الله الذى سيهدم عليهم هذه السلطة الزمنية التى يتمتعون بها ، وسيسحب بساط السيادة من تحت أقدامهم ؛ لذلك تجد دائماً أن السلطة الزمنية لأعداء الرسل ، وتأتى الرسل لهدم هذه السلطة ، وجَعْل الناس سواسية .

وقد اتضح هدم الإسلام لهذه السلطة الزمنية للكفار عندما دخل رسول الله ﷺ المدينة ، وكان أهلها يستعدون لتنصيب عبد الله بن أُبىٍّ ملكاً عليهم[1] ، فلما جاء رسول الله المدينة انفض الناس عن ابن أُبىٍّ ، وتوجهت الأنظار إليه ﷺ ، وطبيعى - إذن - أن يغضب ابن أُبىٍّ، وأن يزدادَ كُرْهه لرسول الله ، وأن يسعى لمحاربته ومناوأته ،

(١) ذكر البيهقى فى دلائل النبوة (٢/٤٩٩) أن رسول الله ﷺ حين دخوله المدينة مر بعبد الله بن أبى بن سلول وهو على ظهر الطريق ، وهو فى بيت ، فوقف عليه النبى ﷺ ينتظر أن يدعوه إلى المنزل ، وهو يومئذ سيد الخزرج فى أنفسها . فقال له عبد الله : انظر الذين دعوك فانزل عليهم ، فذكر رسول الله ﷺ لنفر من الأنصار وقوفه على عبد الله بن أُبىٍّ والذى قال له ، فقال له سعد بن عبادة : إنا والله يا رسول الله ، لقد كنا قبل الذى خصنا الله به منك ومَنَّ علينا بقدومك ، أردنا أن نعقد على رأس عبد الله بن أُبىٍّ التاج ، ونُملِّكه علينا » .

وأنْ يحسده على ما نال من حُبِّ الناس والتفافهم حوله .

ثم أراد الحق سبحانه أن يقول : إن هذه سُنّة من سُنَن المعاندين للحق والكائدين للخير دائماً ، فقال تعالى :

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ ﴾

أى : تذكّروا أن الحسد قديم قِدمَ وجود الإنسان على هذه الأرض ، تذكّروا ما كان من أمر آدم عليه السلام وإبليس لعنه الله ، فهى مسألة قديمة ومستمرة فى البشر إلى يوم القيامة .

والمعنى : واذكُرْ يا محمد ، وليذكر معك قومك إذ قلنا للملائكة : اسجدوا لآدم . وسبق أنْ تكلمنا عن السجود ، ونشير هنا إلى أن السجود لا يكون إلا لله تعالى ، لكن إذا كان الأمر بالسجود لغير الله من الله تعالى ، فليس لأحد أن يعترض على هذا السجود ؛ لأنه بأمر الله الذى يعلم أن سجودهم لآدم ليس عَيْباً وليس قَدْحاً فى دينهم وعبوديتهم للحق سبحانه وتعالى ؛ لأن العبودية طاعة أوامر .

والمراد بالملائكة المدبرات أمراً ، الذين قال الله فيهم : ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ .. ﴿١١﴾ ﴾ [الرعد]

وقد أمرهم الله بالسجود لآدم ؛ لأنه سيكون أبا البشر ، وسوف يُسخّر له الكون كله ، حتى هؤلاء الملائكة سيكونون فى خدمته ؛ لذلك أمرهم الله بالسجود له سجودَ طاعة وخضوعٍ لما أريده منكم ، إذن : السجود لآدم ليس خضوعاً لآدم ، بل خضوعاً لأمر الله لهم .

وقوله تعالى : ﴿ إِلاَّ إِبْلِيسَ .. (٦١) ﴾ [الإسراء]

فهم البعض منها أن إبليس كان من الملائكة ، ونحن نعذر أصحاب هذا الفهم لو عزلنا هذه الآية عن بقية الآيات التى تحدثتْ عن هذه القضية ، لكن طالما نتكلم فى موضوع عام مثل هذا ، فيجب استحضار جميع الآيات الواردة فيه لتتضح لنا الصورة كاملة .

فإذا كان دليل أصحاب هذا القول : الالتزام بأن الله قال ﴿ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ .. (٦١) ﴾ [الإسراء] وقد كان الأمر للملائكة فهو منهم ، وسوف نُسلِّم لهم جدلاً بصحة قولهم ، لكن ماذا يقولون فى قَوْل الحق سبحانه فى القرآن الذى أخذوا منه حجتهم : ﴿ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ .. (٥٠) ﴾ [الكهف]

فإنْ كان دليلكم الالتزام ، فدليلنا نصٌّ صريح فى أنه من الجن ، فإنْ قال قائل : كيف يكون من الجن ويُؤاخَذ على أنه لم يسجد ؟

نقول : إبليس من الجن بالنصِّ الصريح للقرآن الكريم ، لكن الحق سبحانه وتعالى آخذه على عدم السجود لآدم واعتبره من الملائكة ؛ لأنه كان مطيعاً عن اختيار ، والملائكة مطيعون عن جِبلَّة وعن طبيعة .

فبذلك كانت منزلة إبليس أعلى من منزلة الملائكة ، لأنه مختار أن يطيع أو أن يعصى ، لكنه أطاع مع قدرته على العصيان فأصبح جليس الملائكة ، بل طاووس الملائكة[1] الذى يزهو عليهم ويتباهى

---

(١) قال سعيد بن المسيب : كان رئيس ملائكة سماء الدنيا . وقال ابن عباس : كان إبليس من أشرف الملائكة وأكرمهم قبيلة ، وكان خازناً على الجنان ، وكان له سلطان السماء الدنيا . أورده ابن كثير فى تفسيره (٣/٨٩) .

بأنه صالح للاختيار فى العصيان ، ومع ذلك ألزم نفسه منهج الله .

فإذا أصبح فى منزلة أعلى من الملائكة وأصبح فى حضرتهم ، فإن الأمر إذا توجَّه إلى الأدنى فى الطاعة فإن الأعلى أَوْلَى بهذا الأمر ، وكذلك إن اعتبرناه أقلّ منهم منزلة ، وجاء الأمر للملائكة بالسجود فإن الأمر للأعلى أمر كذلك للأدنى ، وهكذا إنْ كان أعلى فعليه أن يسجد ، وإنْ كان أدنى فعليه أنْ يسجدَ .

وقد ضربنا لذلك مثلاً ـ ولله المثل الأعلى ـ إذا دخل رئيس الجمهورية على الوزراء فإنهم يقومون له إجلالاً واحتراماً ، وهَبْ أن معهم وكلاء وزارات فإنهم سوف يقومون أيضاً ؛ لأنهم ارتفعوا إلى مكان وجودهم .

ومن الإشكالات التى أثارها المستشرقون حول هذا الموضوع اعتراضهم على قول القرآن عن إبليس مرة ﴿ أبَى ﴾ ومرة أخرى ﴿ استكبَر ﴾ ومرة ﴿ أَبَى واستكبر ﴾ ، وكذلك قوله مرة : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ .. (٧٥) ﴾ [ص] ، ومرة أخرى يقول : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ .. (١٢) ﴾ [الأعراف]

وقد سبق أن تحدثنا عن قصور هؤلاء عن فَهْم أساليب العربية ؛ لأنها ليستْ لديهم مَلَكَة ، والمتأمل فى هذه الأساليب يجدها منسجمة يُكمل بعضها بعضاً .

فالإباء قد يكون مجرد امتناع لا عن استكبار ، فالحق سبحانه يريد أن يقول : إنه أبى استكباراً ، فتنوّع الأسلوب القرآنى ليعطينا هذا المعنى .

أما قوله تعالى : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ .. (٧٥) ﴾ [ص] و ﴿ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ .. (١٢) ﴾ [الأعراف]

صحيح أن فى الأولى إثباتاً وفى الأخرى نفياً ، والنظرة العَجْلَى تقول: إن ثمة تعارضاً بين الآيتين ، مما حمل العلماء على القول بأن (لا) فى الآية الثانية زائدة ، فالأصل ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ .. (٧٥) ﴾ [ص]

والقول بوجود حروف زائدة فى كتاب الله قول لا يليق ، ونُنزّه المتكلم سبحانه أن يكون فى كلامه زيادة ، والمتأدب منهم يقول (لا) حرف وَصْل ، كأنه يستنكف أن يقول : زائدة .

والحقيقة أن (لا) هنا ليست زائدة ، وليست للوَصْل ، بل هى تأسيس يضيف معنى جديداً ، لأن ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ .. (٧٥) ﴾ [ص]

كأنه همَّ أنْ يسجد ، فجاءه مَنْ يمنعه من السجود ، لأنه لا يقال : ما منع من كذا إلا إذا كان لديك استعداد للفعل ، وإلا من أىّ شىء سيمنعك ؟

أما ﴿ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ .. (١٢) ﴾ [الأعراف] تعنى : ما منعك بإقناعك بأنك لا تسجد ، فالمعنيان مختلفان ، ونحن فى حاجة إليهما معاً .

ثم يقول تعالى : ﴿ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا (٦١) ﴾ [الإسراء]

والهمزة للاستفهام الذى يحمل معنى الاعتراض والاستنكار ، وقد فُسِّرت هذه الآية بآيات أخرى ، مثل قوله تعالى : ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ (١٢) ﴾ [الأعراف]

فالمخلوقية لله مُتفق عليها ، إنما الاختلاف فى عنصر المخلوقية هذا من نار وهذا من طين ، لكن من قال لك يا إبليس : إن النار فوق الطين ، أو خير منه ؟ من أين أتيتَ بهذه المقولة وكلاهما مخلوق لله ، وله مهمة فى الكون ؟ وهل نستطيع أن نقول : إن العين خير من الأذن مثلاً ؟ أم أن لكل منهما مهمتها التى لا تؤديها الأخرى ؟

وسبق أنْ قُلْنا مثلاً : إنك تفضل الحديد إنْ كان مستقيماً ، أما إنْ أردتَ خُطَّافاً فالاعوجاج خير من الاستقامة ، أو : أن اعوجاجه هو عين الاستقامة فيه ، فكل شيء في الوجود مخلوق لغاية ولمهمة ، ولا يكون جميلاً ولا يكون خَيْراً إلا إذا أدى مهمته في الحياة ، فمن أين جاء إبليس بخيرية النار على الطين ؟

والنار الأصل فيها الخشب الذى توقد به ، والخشب من الطين ، إذن : فالطين قبل النار وأفضل منه ، فقياس إبليس إذن قياس خاطىء .

ومعنى : ﴿ خَلَقْتَ طِينًا (٦١) ﴾ [الإسراء] يعنى : خلقته حال كونه من الطين ، أو خلقتَه من طين ، والخَلْق من الطين مرحلة من مراحل الخَلْق ؛ لأن الخَلْق المباشر له مراحل سبقته .

فقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي .. (٢٩) ﴾ [الحجر] سبقتْه مراحل متعددة ، قال عنها الخالق سبحانه مرة : من الماء . ومرة : من التراب . ومرة : من طين . والماء إذا خُلط بالتراب صار طيناً ، وبمرور الوقت يسودُّ هذا الطين ، وتتغير رائحته ، فيتحول إلى حمأ مسنون .

وما أشبهَ الحمأ المسنون بما يفعله أهل الريف فى صناعة الطوب ، حيث يخلطون الماء بالتراب بالقشِّ ، ويتركونه فترة حتى يختمر ويأكل بعضه بعضاً ، وتتغير رائحته ويعطَن ، ثم يصبُّونه فى قوالب . فإذا ما تُرك الطين حتى يجفّ ، ويتحول إلى الصلابة يصير صلْصَالاً كالفخَّار ، يعنى يُحدث رنّة إذا طرقت عليه .

وبعد كل هذه المراحل يقول تعالى : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٢٩) ﴾ [الحجر]

إذن : لا وَجْه للاعتراض على القرآن فى قوله عن خلق الإنسان

مرة أنه : من : ماء ، أو من تراب ، أو طين ، أو حمأ مسنون ، فهذه كلها مراحل للمكوّن الواحد .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا (٦٢) ﴾ (١)

﴿ قَالَ ﴾ أى : إبليس ﴿أرأيتك ﴾ الهمزة للاستفهام ، والتاء للخطاب ، وكذلك الكاف ، وجمع بينهما فى الخطاب للتأكيد ، كما تقول : أنت أنت تفعل ذلك . والمعنى : أخبرنى ، لأن رأى البصرية تُطلق فى القرآن على معنى العلم ؛ لأن علم العين علم مُؤكّد لا شكَّ فيه .

لذلك قالوا : (ليس مع العين أيْن) فما تراه أمامك عياناً ، وإنْ كان للعلم وسائل كثيرة فأقواها الرؤية ؛ لأنها تعطى علماً مؤكداً على خلاف الأذن مثلاً ، فقد تسمع بها كلاماً تعرف بعد ذلك أنه كذب .

وقد ورد هذا المعنى فى قَوْل الحق سبحانه : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) ﴾ [الفيل]

واستخدم الفعل ترى ، مع أن رسول الله ﷺ كان فى عام الفيل وليداً لم يَرَ شيئاً ، فالمعنى : ألم تعلم ، ولكن الحق سبحانه عدل عن « تعلم » إلى « تَرَ » كأنه يقول للرسول ﷺ : إذا أخبرك الله بمعلوم ، فاجعل إخبار الله لك فوق رؤيتك بعينك .

---

(١) الاحتناك : الاستيلاء والاحتواء والإضلال ، قال القرطبى فى تفسيره (٥/٤٠١٥) : « المعنى متقارب ، أى : لأستأصلن ذريته بالإغواء والإضلال ولأجتاحنهم » .

فقوله تعالى : ﴿أَرَأَيْتَكَ هَـٰذَا الَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ .. (٦٢)﴾ [الإسراء]
أى : أعلمنى ، لماذا فضلته علىَّ ، وكأن تفضيل آدم على إبليس مسألة تحتاج إلى برهان وتبرير ، وكان على إبليس أن ينتظر إجابة هذا السؤال الذى توجه به لربّه عزَّ وجل ، ولكنه تعجَّل وحمله الغيظ والحسد على أن يقول : ﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا (٦٢)﴾ [الإسراء]

وهذا لأن حقده وعداوته لآدم مُسْبقة فلم ينتظر الجواب .

ومعنى : ﴿أَخَّرْتَنِ﴾ أخَّرت أجلى عن موعده ، كأنه يعلم أن الله يجعل لكل نفس منفوسة من إنس أو جنٍّ أجلاً معلوماً ، فطلب أنْ يُؤخِّره الله عن أجله ، وهذه مبالغة منه فى اللدد والعناد ، فلم يتوعدهم ويُهدّدهم مدة حياته هو ، بل إلى يوم القيامة ، فإن كانت البداية مع آدم فلن ينجو ولن تنجو ذريته أيضاً .

فالعداوة بين إبليس وآدم ، فما ذنب ذريته من بعده ؟ لقد كان عليه أن يقصر هذا الحقد ، وهذه العداوة على آدم ، ثم يوصى ذريته بحمل هذا العداء من بعده . إنه الغيظ الدفين الذى يملأ قلبه .

وقد أمهله الحق سبحانه بقوله : ﴿إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (١٥)﴾ [الأعراف]

ومعنى ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ .. (٦٢)﴾ [الإسراء] اللام للقسم ، كما أقسم فى آية أخرى : ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢)﴾ [ص]

وعجيب أمر إبليس ، يقسم بالله وهو يعلم أن العمر والأجل بيده سبحانه ، فيسأله أن يُؤخّره ، ومع ذلك لا يطيع أمره .

والاحتناك : يَرِد بمعنيين : الأول : الاستئصال . ومنه قولهم : احتنك الجراد الزرع . أى : أتى عليه كله واستأصله ، والآخر : بمعنى القهر على التصرف ، مأخوذ من اللجام الذى يُوضَع فى حنَك الفرس ، ويسمونه (الحنكة) وبها تستطيع أن تُوجّه الفرس يميناً أو يساراً أو تُوقِفه ، فهى أداة التحكّم فيه ، والسيطرة عليه قَهْراً .

فالاحتناك قد يكون استئصالاً للذات ، وقد يكون قهراً لحركتها .

وقوله سبحانه : ﴿إِلاَّ قَلِيلاً (٦٢)﴾ [الإسراء] فيها دليل على عِلْم إبليس ومعرفته بقدرة الله تعالى ، فعرف كيف يقسم به حين قال : ﴿فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢)﴾ [ص] والمعنى : بعزتك عن خَلْقك : ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ (٢٩)﴾ [الكهف] .

سأدخل من هذا الباب ، أما عبادك الذين هديتهم واصطفيتهم فلا دَخْلَ لى بهم ، وليس لى عليهم سلطان ، لقد تذكّر قدرة الله ، وأن الله إذا أراد إخلاص عبده لنفسه لا يستطيع الشيطان أنْ يأخذَه ، فقال : ﴿إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣)﴾ [ص]

فقوله : ﴿إِلاَّ قَلِيلاً (٦٢)﴾ [الإسراء] هذا القليل المستثنى هم المؤمنون الذين اختارهم الله وهداهم ، ولم يجعل للشيطان عليهم سبيلاً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُورًا (٦٣)﴾

قوله تعالى (اذْهبْ) أمر يحمل معنى الطرد والإبعاد . ﴿فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ .. (٦٣)﴾ [الإسراء] أى : الذين اتبعوك وساروا فى ركابك فجزاؤهم جهنم .

ونلاحظ أن الحق سبحانه قال : ﴿ جَزَاؤكم ﴾ . ولم يَقُلْ (جزاؤهم) لأنه معهم وداخل فى حكمهم ، وهو سبب غوايتهم وضلالهم ، وكذلك هو المخاطب فى الآية الكريمة ، وحتى لا يظن إبليس أن الجزاء مقصور على العاصين من ذرية آدم ، أو يحتج بأنه يُنفّذ أوامر الله الواردة فى قوله تعالى :

﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا (٦٤)﴾ [الإسراء]

فليست هذه أوامر يراد تنفيذها ؛ لأن هناك فرقاً بين الأمر الذى يُراد منه تنفيذ الفعل ، والأمر الذى لا يُراد منه التنفيذ . فالأول طَلَب أعلى من أَدْنى لكى يفعل : اكتب ، اجلس . لكن إذا اتجه الأمر إلى غير مطلوبٍ عادةً من العقلاء ينصرف عن الأمر إلى معنى آخر .

وهذا كما تقول لولدك مراراً : ذاكر دروسك واجتهد ، وإذا به لا يهتمّ ولا يستجيب فتقول له : العب كما تشاء ، فهل تقصد ظاهر هذا الأمر ؟! وهل لو أخفق الولد فى الامتحان سيأتى ليقول لك : يا والدى لقد قلت لى العب ؟!

إن الأمر هنا لا يُؤخَذ على ظاهره ، بل يُراد منه التهديد ، كما يقولون فى المثل (أعلى ما فى خَيْلك اركبه) .

وقوله : (جَزَاءً مَوْفُوراً) أى : وافياً مكتملاً لا نقصَ فيه ، لا من العذاب ، ولا من المعذبين .

والحق سبحانه يقول مخاطباً إبليس :

﴿ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ[1] وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ .. ﴿٦٤﴾ ﴾[الإسراء]

هذا كما تستنهض ولدك الذى تكاسل ، وتقول له : فِزّ يعنى انهض ، وقُمْ من الأرض التى تلازمها وكأنها مُمسكة بك ، وكما فى قوله تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ .. ﴿٣٨﴾ ﴾ [التوبة]

فتقول للمتثاقل عن القيام : فِزّ أى : قُمْ وخِفّ للحركة والقيام بإذعان . فالمعنى : استفزز مَنِ استطعت واستخفّهم واخدعهم (بِصَوْتِكَ) بوسوستك أو بصوتك الشرير ، سواء أكان هذا الصوت من جنودك من الأبالسة أمثالك ، أو من جنودك من شياطين الإنس ، الذين يعاونونك ويساندونك .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ .. ﴿٦٤﴾ ﴾[الإسراء]

---

(١) قوم رجْلة أى رجّالة . والرجال : جمع راجل أى ماش . والراجل خلاف الفارس . [لسان العرب ـ مادة : رجل] والمقصود . أى : بكل قوتك وبجنودك كلهم راكبين أو مشاة غير راكبين . [القاموس القويم ١/٢٥٧] .

أجْلَبَ عليه : صاح به ، وأجلبَ على الجواد : صاح به راكبه ليسرع. والجَلْبة هى : الصوت المزعج الشديد ، وما أشبه الجَلْبة بما نسمعه من صوت جنود الصاعقة مثلاً أثناء الهجوم ، أو من أبطال الكاراتيه .

وهذه الأصوات مقصودة لإرهاب الخصم وإزعاجه ، وأيضاً لأن هذه الصيحات تأخذ شيئاً من انتباه الخصم ، فيضعف تدبيره لحركة مضادة ، فيسهل عليك التغلّب عليه .

وقوله تعالى : ﴿ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ .. (٦٤) ﴾ [الإسراء]

أى : صَوِّتْ وصِحْ بهم راكباً الخيل لتفزعهم ، والعرب تطلق الخيل وتريد بها الفرسان ، كما فى الحديث النبوى الشريف : « يا خيل الله اركبى »[(١)] .

وما أشبه هذا بما كنا نُسمِّيهم : سلاح الفرسان (ورَجِلك) من قولهم : جاء راجلاً . يعنى : ماشياً على رِجْلَيْه و (رَجِل) يعنى على سبيل الاستمرار ، وكأن هذا عمله وديدنه ، فهى تدل على الصفة الملازمة ، تقول : فلانٌ رَجْل أى : دائماً يسير مُترجّلاً . مثل : حاذر وحَذِرْ ، وهؤلاء يمثلون الآن « سلاح المشاة » .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَشَارِكْهُمْ فِى الأَمْوَالِ .. (٦٤) ﴾ [الإسراء]

فكيف يشاركهم أموالهم ؟ بأن يُزيِّن لهم المال الحرام ، فيكتسبوا

---

(١) أورده العجلونى فى «كشف الخفاء» (٢/٥٣١) ، وقال : « رواه أبو الشيخ فى الناسخ والمنسوخ عن عبد الكريم قال : حدثنى سعيد بن جبير عن قصة المحاربين ، قال : كان ناس أتوا رسول الله ﷺ ، فقالوا : نبايعك على الإسلام ، فذكر القصة ، وفيها فأمر النبى ﷺ فنودى فى الناس : ياخيل الله اركبى ، فركبوا لا ينتظر فارس فارساً » . وقال ابن حجر فى الفتح (٧/٤١٣) : « روى ابن عائذ من مرسل قتادة قال : « بعث رسول الله ﷺ منادياً ينادى ، فنادى : يا خيل الله اركبى» .

من الحرام وينفقوا فى الحرام (وَالأَوْلاَدِ) المفروض فى الأولاد طهارة الأنساب ، فدَوْر الشيطان أنْ يُفسِدَ على الناس أنسابهم ، ويُزيِّن لهم الزنا ، فيأتون بأولاد من الحرام . أو : يُزيِّن لهم تهويد الأولاد ، أو تنصيرهم ، أو يُغريهم بقتْلِ الأولاد مخافةَ الفقر أو غيره ، هذا من مشاركة الشيطان فى الأولاد .

وقوله تعالى ﴿ وعِدْهُمْ ﴾ أى : مَنِّيهم بأمانيك الكاذبة ، كما قال سبحانه فى آية أخرى : ﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦٨) ﴾ [البقرة]

وقوله : ﴿ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُوراً (٦٤) ﴾ [الإسراء]

أى : لا يستطيع أن يَغُرَّ بوعوده إلا صاحب الغِرّة والغفلة ، ومنها الغرور : أى يُزيِّن لك الباطل فى صورة الحق فيقولون : غَرَّهُ . وأنت لا تستطيع أبداً أن تُصوِّر لإنسان الباطل فى صورة الحق إلا إذا كان عقله قاصراً غافلاً ؛ لأنه لو عقل وانتبه لتبيَّن له الحق من الباطل ، إنما تأخذه على غِرَّة من فكره ، وعلى غَفْلة من عقله .

لذلك كثيراً ما يُخاطبنا الحق سبحانه بقوله : ﴿ أَفَلا تَعْقِلُونَ (٦٠) ﴾ [القصص] ﴿ أَفَلا تَتَفَكَّرُونَ (٥٠) ﴾ [الانعام] ﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ .. (٨٢) ﴾ [النساء] ويناديا بقوله : ﴿ يَـأُولِي الأَلْبَابِ .. (١٠) ﴾ [الطلاق]

وهذا كله دليل على أهمية العقل ، وحثٌّ على استعماله فى كل أمورنا ، فإذا سمعتم شيئاً فمرِّروه على عقولكم أولاً ، فما معنى أن يطلب الله منَّا ذلك ؟ ولماذا يُوقِظ فينا دائماً ملكة التفكير والتدبُّر فى كل شىء ؟

لا شكَّ أن الذى يُوقِظ فيك آلة الفكر والنقد التمييز ، ويدعوك إلى

النظر والتدبر واثق من حُسْن بضاعته ، كالتاجر الصدوق الذى يبيع الجيد من القماش مثلاً ، فيعرض عليك بضاعته فى ثقة ، ويدعوك إلى فحصها ، وقد يشعل النار ليُريك جودتها وأصالتها .

ولو أراد الحق سبحانه أن يأخذنا هكذا على جهل وعمى ودون تبصُّر ما دعانا إلى التفكُّر والتدبُّر .

وهكذا الشيطان لا يُمنّيك ولا يُزيّن لك إلا إذا صادف منك غفلة ، إنما لو كنت متيقظاً له ومُسْتصحباً للعقل ، عارفاً بحيله ما استطاع إليك سبيلاً ، ومن حيله أنْ يُزيِّن الدنيا لأهل الغفلة ويقول لهم : إنها فرصة للمتعة فانتهزها وَخذْ حظك منها فلن تعيش مرتين ، وإياك أن تُصدّق بالبعث أو الحساب أو الجزاء .

وهذه وساوس لا يُصدّقها إلا مَنْ لديه استعداد للعصيان ، وينتظر الإشارة مجرد إشارة فيطيع ويقع فريسة لوعود كاذبة ، فإنْ كان يوم القيامة تبرّأ إبليس من هؤلاء الحمقى ، وقال :

﴿ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ[1] وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ .. (٢٢) ﴾ [إبراهيم]

إذن : فى الآيتين السابقتين خمسة أوامر لإبليس : اذهب ، استفزز ، وأجْلب ، وشاركهم ، وعِدْهم . وهذه الأوامر ليست لتنفيذ مضمونها ، بل للتهديد ولإظهار عجزه عن الوقوف فى وجه الدعوة ،

---

(١) المُصْرِخ : المغيث المنقذ من يستصرخه . واستصرخه : استغاث به . والصريخ : الاستغاثة والمستغيث والمغيث . [القاموس القويم ١/٣٧٣] .

أو صَدّ الناس عنها ، وكأن الحق سبحانه يقول له : إفعل ما تريد ودبِّر ما تشاء ، فلن توقف دعوة الله ؛ لذلك قال بعدها :

﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾ ﴾

سبق أن تحدثنا عن الفرق بين العباد والعبيد ، وقلنا كلاماً نُوجزه فى أن العبيد هم المقهورون للسيد فى الأمور القَسْرية القهرية ، ومتمردون عليه فى الأمور الاختيارية ، أما العباد فهم مقهورون فى الأمور القسرية القهرية ، وتنازلوا أيضاً عن مُرادهم فى الأمور الاختيارية لمراد ربهم ، فرضوا أنْ يكونوا مقهورين لله فى جميع أحوالهم .

وقد تحدّث الحق سبحانه عن عباده وأصفيائه ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿٦٣﴾ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴿٦٤﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ ﴾ [الفرقان]

فعباد الله الذين هم أصفياؤه وأحباؤه الذين خرجوا من مرادهم لمراده ، وفَضَّلوا أن يكونوا مقهورين لربهم حتى فى الاختيار ، فاستحقوا هذه الحصانة الإلهية فى مواجهة كيد الشيطان ووسوسته وغروره : ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ .. ﴿٦٥﴾ ﴾ [الإسراء]

وسبق أنْ تحدَّثنا عن كَيْد الشيطان الذى قال الله عنه : ﴿ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ ﴾ [النساء] ففى مُحاجّته يوم القيامة أمام ضحاياه الذين أغواهم وأضلّهم ، سيقول :

﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي.. (٢٢) ﴾ [إبراهيم] فليس لى سلطان قَهْر أحملكم به على المعصية ، ولا سلطان حُجَّة وبرهان فأُقنِعكم بها .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلاً (٦٥) ﴾ [الإسراء]

الوكيل هو المؤيِّد ، وهو الناصر ، تقول : وكلت فلاناً . أى : وثقت به ليؤدى لى كل ما أريد ، فإنْ كان فى البشر مَنْ تثق به ، وتأتمنه على مصالحك ، فما بالك إنْ كان وكيلك هو الله عز وجل ؟ لا شكَّ إنْ كان وكيلك الله فهو كافيك ومُؤيِّدك وناصرك ، فلا يُحوجك لغيره سبحانه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ رَّبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي (١) لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ ۚ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا (٦٦) ﴾

الربّ هو المتولّى تربيتك : خَلْقاً من عَدم ، وإمداداً من عُدم ، وقيُّوميته تعالى عطاء ينتظم المؤمن والكافر ﴿ يُزْجِي ﴾ الإزجاء : الإرسال بهوادة شيئاً فشيئاً . و ﴿ الفُلْك ﴾ هى السفن وتُطلَق على المفرد وعلى الجمع ، وعلى المذكّر والمؤنث .

---

(١) زجا الشىء : تيسّر واستقام . وأزجاه : ساقه برفق . قال تعالى : ﴿ رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ .. (٦٦) ﴾ [الإسراء] أى : يدفعها ويُسيِّرها برفق فوق الماء [القاموس القويم ١/ ٢٨٤] .

ومنها قوله تعالى ﴿وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ .. (١٦٤)﴾ [البقرة]

ومنها قوله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ .. (٢٢)﴾ [يونس]

ثم يقول تعالى : ﴿لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ .. (٦٥)﴾ [الإسراء]

الابتغاء هو القصد إلى نافع يطلب من البحر كالقوت أو غيره ، كما قال تعالى في آية أخرى : ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا .. (١٤)﴾ [النحل]

فالبحر مصدر من مصادر الرزق والقُوت ، ومُسْتودع لثروة عظيمة من فضل الله تعالى ؛ لذلك قال بعدها : ﴿إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا (٦٦)﴾ [الإسراء]

والرحمة اتساع مَدَد الفضل من الله ، فالذى أعطاكم البَرَّ بما فيه من خيرات أعطاكم البحر أيضاً بما فيه من خيرات .

والأرض التى نعيش عليها إما بَرّ يسمى يابسة ، أو بحر ، وإنْ كانت نسبة اليابس من الأرض الرُّبْع أو الخُمْس ، فالباقى بحر شاسع واسع يَزْخَر من خَيْرات الله بالكثير .

وطُرُق السير فى اليابسة كثيرة متعددة ، تستطيع أن تمشى أو تركب ، وكُلُّ وسيلة من وسائل الركوب حَسْب قدرة الراكب ، فهذا يركب حماراً ، وهذا يركب سيارة ، وتستطيع أن تنتقل فيها من مكان إلى آخر . أما البحر فلا يمكن الانتقال فيه إلا أنْ تُحملَ على شىء ، فمن رحمة الله بنا أنْ جعل لنا السفن آية من آياته تسير بنا على لُجَّة الماء ، ويمسكها بقدرته تعالى فنأمَن الغرق .

وأول مَنْ صنع السفن بوحى من الله نوح عليه السلام ، فلم تكُنْ معروفة قبله ، بدليل قوله تعالى : ﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (٣٨) ﴾ [هود]

فلم يكُنْ للناس عَهْد بالسفن ، وكانت سفينة نوح بدائية من ألواح الخشب والحبال ، ولولا أن الله تعالى دلَّه على طريقة بنائها ، وهداه إلى تنظيمها ما كان له علْم بهذه المسألة ، فكَوْنُ الحق سبحانه يهدينا بواسطة نبى من أنبيائه إلى مركب من المراكب التى تيسّر لنا الانتفاع بثلاثة أرباع الأرض ، لا شكَّ أنها رحمة بالإنسان وتوسيع عليه .

وكذلك من رحمته بنا أنْ يسّر لنا تطوير هذا المركب على مَرِّ العصور ، فبعد أنْ كان يتحرك على سطح الماء بقوة الهواء باستخدام ما يُسمَّى بالقلْع ، والذى يتحكم فى المركب من خلاله ، ويستطيع الربّان الماهر تسفيح القلع ، يعنى توجيهه إلى الناحية التى يريدها .

فكان الريح هو الأصل فى سَيْر السفن ، ثم أتى التقدم العلمى الذى اكتشف البخار والآلات ثم الكهرباء ، وبذلك سهّل على الإنسان تحريك السفن على سطح الماء بسهولة ويُسْر ، كما تطورتْ صناعة السفن كذلك على مَرِّ العصور ، حتى أصبحنا نرى الآن البوارج الكبيرة متعددة الأدوار ، والتى تشبه فعلاً الجبال ، مِصْداقاً لقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ[1] (٣٢) ﴾ [الشورى]

يعنى : كالجبال ، وكأن الحق سبحانه وتعالى يُعطينا الدليل على

---

(١) الأعلام : الجبال . والعلَم : الجبل الطويل . [لسان العرب ـ مادة : علم] .

علْمه تعالى بما سيصل إليه العالم من تقدم ، وما ستصل إليه صناعة السفن من رقىّ يصل بها إلى أنْ تكونَ كالجبال ، وإلاّ ففى زمن نزول القرآن لم يكُنْ هناك بوارج عالية كهذه ، إنها لم توجد إلا بعد قانون أرشميدس الذى تُبنَى على أساسه هذه البوارج .

لكن مع كل هذا التقدم فى مجال الملاحة البحرية لا نغفل أن القدرة الإلهية هى التى تُسيِّر هذه السفن ، وتحملها بأمان على صفحة الماء ، ويجب ألاّ يغترّ الإنسان بما توصّل إليه من العلوم ، ويظن أنه أصبح مالكاً لزمام الأمور فى الكون ؛ لأن الحق سبحانه يقول : ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ .. (٣٣)﴾ [الشورى]

والريح هى الأصل فى تسيير السفن .

فإنْ قال قائل الآن : إنْ توقف الريح استخدمنا القوى الأخرى مثل البخار أو الكهرباء . نقول : لقد أخذت الريح على أنه الهواء فقط ، إنما لو نظرتَ إلى كلمة الريح ، وماذا تعنى لوجدتَ أن معنى الريح القوة المطلقة أياً كان نوعها ، بدليل قَوْل الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ .. (٤٦)﴾ [الأنفال] إذن : الريح هو القوة المطلقة .

فمعنى : ﴿يُسْكِنِ الرِّيحَ .. (٣٣)﴾ [الشورى] يُسكن القوة المحرّكة للسفن أياً كانت هذه القوة : قوة الريح أو البخار أو الكهرباء أو غيرها من القوى ، فإنْ شاء سبحانه تعطَّلَتْ كُلُّ هذه القوى .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنسَانُ كَفُورًا (٦٧)﴾

البحر هو المزنق والضائقة التى لا يستطيع الخلاص منها إنْ أصابه فيه سوء ، فالبر منافذ النجاة فيه متعددة ، أما البحر فلا نجاة فيه إلا بعناية الله ، يقول تعالى :

﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ .. (٢٢)﴾ [يونس]

وهكذا الإنسان حتى الكافر ، إذا ضاقتْ به الحيَل ولم يجد مَنْفذاً يلجأ إلى الله المنقذ الحقيقى والمفرِّج للكَرْب ، والإنسان عادة لا يُسلم نفسه ويظلّ مُتعلّقاً بالأمل فى النجاة .

فقوله تعالى : ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ .. (٦٧)﴾ [الإسراء]

أى : أحاط بهم الخطر بالريح العاصف أو الموج العالى ، وأحسُّوا بخطورة الموقف ولا مُنقذَ لهم إلا الله ، حتى الكفار فى هذا الموقف يَصْدُقون مع أنفسهم ، ولا يخدعونها ولا يكذبون عليها ، فإنْ آمنوا بآلهة أخرى وإنْ عبدوا الأصنام والأوثان ، فإنهم فى هذا الضيق لا يلجأون إلا إلى الله ، ولا يدعون إلا الله ؛ لأنهم يعلمون تماماً أن آلهتهم لا تسمع ولا تجيب ، ولا تملك لهم نفعاً ولا نجاة .

قوله تعالى : ﴿ضَلَّ مَن تَدْعُونَ .. (٦٧)﴾ [الإسراء] أى : ذهب عن بالكم مَن اتخذتموهم آلهة ، وغابوا عن خاطركم ، فلن يقولوا هنا يا هبل ؛ لأنهم لن يغشُّوا أنفسهم ، ولن ينساقوا وراء كذبهم فى هذا الوقت العصيب .

إنهم فى هذا الضيق لن يتذكروا آلهتهم ، ولن تخطرَ لهم ببال

أبداً ؛ لأن مجرد تذكّرهم يُضعف ثقتهم فى الله الذى يملك وحده النجاة ، والذى يطلبون منه المعونَة .

وسبق أن أوضحنا هذه المسألة بقصة حلاق الصحة فى الريف الذى يتولى علاج البسطاء ، ويدّعى العلم والخبرة ، فإذا ما مرض ولده فإنه يُسرع به إلى الطبيب ، لأنه إنْ خدع الناس فلن يخدع نفسه ، وإنْ كذب عليهم فلن يكذب على نفسه .

وكذلك الإنسان لا يبيع نفسه رخيصاً ، فإنْ أحاطتْ به الأخطار لا يلجأ إلا إلى الله ؛ لأنه وحده القادر على تفريج الكروب وإغاثة الملهوف ، حتى وإنْ كان كافراً ؛ لأنه سبحانه هو الذى أمره أنْ يلجأ إليه ، وأنْ يدعوه ، فقال :

﴿فَلَوْلا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا .. (٤٣)﴾ [الأنعام]

فإنْ دَعَوهُ سمع لهم وأجابهم على كفرهم وعنادهم ؛ لأنهم عباده وخَلْقه وصَنْعته ، فما أرحمه سبحانه حتى بمَنْ كفر به !

لذلك قال رَب العزة فى الحديث القدسى : « قالت الأرض : يا رب إئذن لى أن أخسف بابن آدم فقد طعم خيرك ومنع شكرك ، وقالت السماء : يا رب إئذن لى أن أسقط كسَفاً على ابن آدم فقد طعم خيرك ومنع شكرك ، وقالت الجبال : يا رَب إئذن لى أن أَخرَّ على ابن آدم فقد طعم خيرك ومنع شكرك ، وقالت البحار : يا رب إئذن لى أن أُغرقَ ابن آدم فقد طَعِم خيرك ومنع شكرك . فقال تعالى : دعونى وما خلقت ، لو خلقتموهم لرحمتموهم ، فإنهم عبادى ، فإنْ تابوا إلىَّ فأنا حبيبهم ، وإنْ لم يتوبوا فأنا طبيبهم » .

لقد غفر لهم الحق سبحانه أن يعبدوا غيره ، وأن يؤذوا النبوة ، وأنْ يقفوا فى وجه الدعوة ، غفر لهم لأنه ربٌّ ، وما دام رباً فهو

رحيم ، فتضرعوا إليه ودَعَوْهُ ، فلمّا نجّاهم إلى البر أعرضوا ، وعادوا لما كانوا عليه وتنكّروا للجميل والمعروف ؛ لذلك يقول تعالى بعدها :

﴿ وَكَانَ الإِنسَانُ كَفُورًا (٦٧) ﴾ [الإسراء]

وكفور : صيغة مبالغة من الكفر ، أى : كثير الكفر للنعمة ، ولَيْتَه كفر بنعمة الخلق فقال : إنه أتى هكذا من فعل الطبيعة ، إنما كفر بنعمة ملموسة مشاهدة عاش مأزقها ، وقاسى خطرها ، ثم إذا نجّاه الله أعرض وتمرَّد ، وهذا من طبيعة الإنسان .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا (١) ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا (٦٨) ﴾

فهؤلاء الذين أعرضوا عن الله بعد إذ نجّاهم فى البحر أأمِنُوا مكْر الله فى البر ؟ وهل الخطر فى البحر فقط ؟ وأليس الله تعالى بقادر على أن يُنزِل بهم فى البر مثل ما أنزل بهم فى البحر ؟

يقول تعالى : ﴿ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ .. (٦٨) ﴾ [الإسراء]

. كما قال تعالى فى شأن قارون : ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ .. (٨١) ﴾ [القصص] ولستم ببعيدين عن هذا إنْ أراده الله لكم ، وإنْ كنا نقول « البر أمان » فهذا فيما بيننا وبين بعضنا ، أما إنْ جاء أمر الله فلن يمنعنا منه مانع .

---

(١) حصبه : قذفه بالحصى . والحاصب : الإعصار الشديد يَقذفكم بالحصى فيهلككم والرياح العاصفة تفعل أكثر من ذلك . [القاموس القويم ١/١٥٥] .

وقوله تعالى : ﴿أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا .. (٦٨)﴾ [الإسراء] أى : ريحاً تحمل الحصباء ، وترجمكم بها رَجْماً ، والحصباء الحصى الصغار ، وهى لَوْن من ألوان العذاب الذى لا يُدفَع ولا يُرَدّ ؛ لذلك قال بعدها : ﴿ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلاً (٦٨)﴾ [الإسراء]

أى : لا تجدوا مَنْ ينصركم ، أو يدافع عنكم . إذن : لا تظنوا أن البر أمان لا خطر فيه .. لا ، بل خطرى موجود غير بعيد منكم ، سواء أكنتم فى البحر أم فى البر .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا (٦٩)﴾

أى : وإنْ نجاكم من خطر البحر ، فلا مجال للأمن فى البر ؛ لأنه قادر سبحانه أن يُذيقكم بأسه فى البر ، أو يُعيدكم فى البحر مرة أخرى ، ويُوقعكم فيما أوقعكم فيه من كَرْب فى المرة الأولى ، فالمعنى : أنجوتُمْ فأمنتُم .

وقوله تعالى : ﴿فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ .. (٦٩)﴾ [الإسراء]

القاصف : هو الذى يقصف بعنف وشدة ، ولا يكون إلا فى اليابس ﴿فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ .. (٦٩)﴾ [الإسراء] أى : بسبب كفركم بنعمة الله ، وجحودكم لفضله ، فقد نجاكم فى البحر فأعرضتم وتمردتم ، فى حين كان عليكم أن تعترفوا لله بالجميل ، وتُقِرُّوا له بالفضل .

ثم يقول تعالى : ﴿ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا (٦٩)﴾ [الإسراء]

عندنا تابع وتبيع ، التابع : هو الذى يتبعك لعمل شىء فيك ، أما التبيع : فهو الذى يُوالِى تتبعك ، ويبحث عنك لأَخْذ ثأره منك . فالمعنى : إنْ فعلنا بكم هذه الأفعال فلن تجدوا لكم تبيعاً يأخذ بثأركم أو ينتقم لكم ، إذن : لا أملَ لكم فى ناصر ينصركم ، أو مدافع يحميكم .

وكأن الحق سبحانه وتعالى يقول : أنا لا أخاف ردَّ الفعل منكم ، والإنسان يُحجم عن الفعل مخافةَ ردِّ الفعل ، ويجلس يفكر طويلاً : إذا ضربتُ فلاناً فسيأتى أهله ويفعلون بى كذا وكذا ، أما الحق سبحانه وتعالى فلا أحدَ يستطيع رداً على انتقامه أو عذابه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا (٧٠) ﴾

وهل هناك تكريم لبنى آدم أعظم من أنْ يُعدّ لهم مُقوّمات حياتهم قبل أنْ يخلقهم ؟ لقد رتَّب لهم الكون وخلق من أجلهم الأشياء ﴿هُوَ الَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى الأَرْضِ جَمِيعًا .. (٢٩)﴾ [البقرة]

إذن : فكل ما فى الوجود مُسخَّر لكم من قبل أنْ تُوجَدوا ؛ لأن خلق الله تعالى إما خادم وإما مخدوم ، وأنت أيُّها الإنسان مخدوم من

كل أجناس الكون حتى من الملائكة ، ألم يَقُلْ الحق سبحانه : ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ[1] مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ .. ﴿١١﴾﴾ [الرعد]

وقال تعالى : ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴿٥﴾﴾ [النازعات]

فالكون كله يدور من أجلك وفى خدمتك ، يعطيك عطاءً دائماً لا ينقطع دون سَعْى منك ، لذلك نقول : كان من الواجب على العقل المجرد أنْ يقفَ وقفة تأمُّل وتفكُّر ؛ ليصل إلى حَلٍّ للغز الكون ، وليهتدى إلى أن له خالقاً مُبْدعاً ، يكفى أن أنظر إلى آيات الله التى تخدمنى ، وليس لى قدرة عليها ، وليست تحت سيطرتى ، فالشمس والقمر والنجوم والأرض والهواء والماء والمطر والسحاب كلها تعطينى وتُمدّنى دون قدرة لى عليها ، أليس من الواجب عليك عدلاً أن تقول : مَنِ الذى أعدّ لى كلَّ هذه الأشياء التى ما ادَّعاهَا أحد لنفسه ؟

فإذا ما صاح صائح منك أيُّها الإنسان وقال : أنا رسول من الرب الذى خلق لكم كل هذه المخلوقات ، كان يجب عليكم أنْ تُرهفُوا له السمع لتسمعوا ما جاء به ؛ لأنه سوف يحلُّ لكم هذا اللغز الذى حيّركم .

وسبق أنْ ضربنا مثلاً لذلك بالرجل الذى انقطعتْ به السُّبل فى الصحراء حتى أشرف على الهلاك ، فإذا هو بمائدة مُعدَّة بأطايب الطعام والشراب ، أليس حَرياً به قبل أنْ تمتد يده إليها أنْ يفكر كيف أتتْه ؟

---

(١) له معقبات : أى ملائكة حفظة يتتبعونه يحفظونه ويحصون أعماله . أو المعنى : تتعاقب الملائكة ليلاً ونهاراً . [القاموس القويم ٢/٢٩] .

إذن : كان على الإنسان أن يُعمل عقله وفِكْره فى معطيات الكون التى تخدمه وتسخر من أجله ، وهى لا تأتمر بأمره ولا تخضع لقدرته .

وقد اختلف العلماء فى بيان أَوْجُه التكريم فى الإنسان ، فمنهم مَنْ قال : كُرِّمَ بالعقل ، وآخر قال : كُرِّمَ بالتمييز ، وآخر قال : كُرِّمَ بالاختيار ، ومنهم مَنْ قال : كُرِّم الإنسان بأنه يسير مرفوع القامة لا مُنحنياً إلى الأرض كالبهائم ، ومنهم مَنْ يرى أنه كُرِّم بشكل الأصابع وتناسقها فى شكل بديع يسمح لها بالحركة السلسة فى تناول الأشياء ، ومنهم مَنْ يرى أنه كُرِّم بأن يأكلَ بيده لا بفمه كالحيوان . وهكذا كان لكل واحد منهم مَلْحظ فى التكريم[1] .

ولنا فى مسألة التكريم هذه ملحظ كنت أودُّ أنْ يلتفت إليه العلماء ، ألاَ وهو : أن الحق سبحانه خلق الكون كله بكلمة (كُنْ) إلا آدم ، فقد خلقه الله بيده ونفخ فيه من روحه ، قال تعالى : ﴿ يَـٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴿٧٥﴾ ﴾ [ص]

وقال : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الحجر]

فقمة الفضل والتكريم أن خلق الله تعالى أبانا آدم بيده ، بدليل أن الله جعلها حيثية له .

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٥/٤٠٢٢) : « والصحيح الذى يُعوّل عليه أن التفضيل إنما كان بالعقل الذى هو عمدة التكليف ، وبه يُعرف الله ويُفهم كلامه ويوصل إلى نعيمه وتصديق رسله ، إلا أنه لما لم ينهض بكل المراد من العبد بعثت الرسل وأنزلت الكتب » .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ (١) فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ ﴾

أى : يوم القيامة ، والداعى هو المنادى ، والناس هم المدعوون ، والنداء على الناس فى هذا اليوم لا يكون بفلان بن فلان ، بل ينادى القوم بإمامهم أى : برسولهم ، فيقال : يا أمة محمد ، يا أمة عيسى ، يا أمة موسى ، يا أمة إبراهيم .

ثم يُفصّل هذا الإجمال ، فتُنادى كل جماعة بمَنْ بلَّغهم وهداهم ودلَّهم ليُغرى الناس بنقل الفضل العلمى من أنفسهم إلى غيرهم .

وقال بعضهم (بإمَامِهِمْ) أى : بأمهاتهم ، وفى دعاء الناس بأمهاتهم فى هذا الموقف تكريم لعيسى عليه السلام أولاً ، وستْر على

---

(١) اختلف العلماء والمفسرون فى تأويل كلمة « بإمامهم » :

- بكتابهم ، بكتاب كل إنسان منهم الذى فيه عمله . قاله ابن عباس والحسن وقتادة والضحاك .
- بالكتاب المنزل عليهم . أى : يدعى كل إنسان بكتابه الذى كان يتلوه ، فيدعى أهل التوراة بالتوراة ، وأهل القرآن بالقرآن ، قاله ابن زيد .
- بنبيهم ، والإمام مَنْ يؤتم به . قاله مجاهد
- بإمام عصرهم . قاله قتادة وعلى بن أبى طالب رضى الله عنه .
- بأعمالهم . فيقال : أين الراضون بالمقدور ، أين الصابرون عن المحذور . قاله الحسن وأبو العالية وابن عباس .
- بأمهاتهم . قاله محمد بن كعب .

ذكر القرطبى هذه الأقوال فى تفسيره (٥/٤٠٢٥) .

أولاد الإثم ثانياً ، حتى لا يُفضحوا على رؤوس الأشهاد فى مثل هذا الموقف .

ثم يقول تعالى : ﴿فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُوْلَـٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً (٧١)﴾ [الإسراء]

فكوْنه أخذ كتابه بيمينه ، فهذه بشارة الخير وبداية السلامة ، فإذا به يسارع إلى قراءته ، بل ويتباهى به بين الناس قائلاً : ﴿هَـٰؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ (١٩)﴾ [الحاقة] إنه مسرور بعمله الصالح الذى يحب أنْ يطلع عليه الناس ، وقوله تعالى : ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً (٧١)﴾ [الإسراء]

الظلم أنْ تأخذ من خير غيرك مما ليس عندك ، إذن : فعندك نقص فى شىء تريد أنْ تحصل عليه ظلماً ، إذن : فماذا ينقص الحق سبحانه وتعالى حتى يظلم الخَلْق ؟! إن الخلق يتصفون بالظلم ؛ لأن الإنسان عادةً لا يرضى بما قسم الله له ؛ لذلك يشعر بالنقص فيظلم غيره ، أما الله عز وجل فهو الغنى عن الخَلْق ، فكيف يظلمهم ؟ وهم جميعاً بما يملكون هِبة منه سبحانه .

ومعنى ﴿ فَتِيلاً ﴾ عادةً يضرب الحق سبحانه وتعالى الأمثال فى القرآن بالمألوف عند العرب وفى بيئتهم ، ومن مألوفات العرب التمر ، وهو غذاؤهم المفضّل والعلَف لماشيتهم ، ومن التمر أخذ القرآن النقير والقطمير والفتيل ، وهى ثلاثة أشياء تجدها فى نواة الثمرة ، وقد استخدمها القرآن فى تمثيل الشىء الضئيل القليل .

فالنقير[1] : هو تجويف صغير فى ظهر النواة مثل النقطة .

---

(١) ورد لفظ « النقير » فى القرآن مرتين :
- ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لاَّ يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا (٥٣)﴾ [النساء] .
- ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَـٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا (١٢٤)﴾ [النساء]

والقطمير[1] : هو اللفافة الرقيقة الشفافة بين الثمرة والنواة .

والفتيل : هو غلالة رقيقة تشبه الخيط فى بطن النواة .

فمعنى : ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾﴾ [الإسراء] أى : أنه سبحانه وتعالى لا يظلم الناس أبداً ، فهو سبحانه مُنزَّه عن الظلم مهما تناهى فى الصِّغَر .

وفى مقابل مَنْ أوتى كتابه بيمينه لم تذكر الآية مَنْ أُوتى كتابه بشماله ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ﴿٢٥﴾﴾ [الحاقة] وفى آية أخرى قال : ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴿١٠﴾﴾ [الانشقاق]

أما هنا فقال الحق سبحانه :

﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْأَخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾﴾

وهذا هو المقابل لمن أخذ كتابه بيمينه ؛ لأنه عميتْ بصيرته فى الدنيا فعمى فى الآخرة ، وطالما هو كذلك فلا شكَّ أنه من أهل الشمال ، فالآيات ذكرتْ مرة السبب ، وذكرتْ مرة المسبّب ، ليلتقى السبب والمسبب ، وهو ما يعرف باسم [الاحتباك] البلاغى .

فكأن الحق سبحانه قال : إن مَنْ أُوتى كتابه بيمينه وقرأه وتباهى به لم يكُنْ أعمى فى دنياه ، بل كان بصيراً واعياً ، فاهتدى إلى منهج الله وسار عليه ، فكانت هذه نهايته وهذا جزاءه .

---

(١) ورد لفظ « القطمير » فى القرآن مرة واحدة :
- ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾﴾ [فاطر] .

أما مَنْ أوتى كتابه بشماله فقد كان أعمى فى الدنيا عمى بصيرة لا عمى بصر ؛ لأن عمى البصر حجب الأداة الباصرة عن إدراك المرائى ، والكافرون فى الدنيا كانوا مُبصرين للمرائى من حولهم . مُدركين لماديات الحياة ، أما بصيرتهم فقد طُمِس عليها فلا ترى خيراً ، ولا تهتدى إلى صلاح .

وسبق أن قلنا : إن الإنسان لكى يسير فى رحلة الحياة على هدى لا بُدّ له من بصر يرى به المرائى المادية ، حتى لا يصطدم بأقوى منه فيتحطم أو بأضعف منه فيحطمه ، والبصر للمؤمن والكافر من عطاء الربوبية للإنسان . لكن إلى جانب البصر هناك عطاء آخر هو ثمرة من ثمار عطاء الألوهية الذى لا يكون إلا للمؤمن ، ألا وهو البصيرة ، بصيرة القيم التى يكتسبها الإنسان من منهج الله الذى آمن به وسار على هَدْيه .

وقوله : ﴿فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلاً (٧٢)﴾ [الإسراء]

إنْ كان عماه فى الدنيا عمى بصيرة ، فَعَماه فى الآخرة عمى بصر ؛ لأن البصيرة مطلوبة منه فى الدنيا فقط ؛ لأن بها سيُعرف الخير من الشر ، وعليها يترتب العمل ، وليست الآخرة مجال عمل ، إذن : العمى فى الآخرة عمى البصر ، كما قال تعالى فى آية أخرى :

﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَىٰ (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤)﴾ [طه]

وقال عنهم فى آية أخرى : ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا .. (٩٧)﴾ [الإسراء]

لكن قد يقول قائل : هناك آيات أخرى تثبت لهم الرؤية فى الآخرة ، مثل قوله تعالى : ﴿حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ .. (٧٥)﴾ [مريم]

وقوله تعالى : ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا .. (٥٣)﴾ [الكهف]

وللجمع بين هذه الآيات وللتوفيق بينها نقول : للكفار يوم القيامة فى مجال الرؤية البصرية حالتان : الأولى عند القيام وهَوْل المحشر يكونون عُمْياً وبُكْماً وصُمّاً لتزداد حَيْرتهم ويشتد بهم الفزع حيث هم فى هذا الكرب الشديد ، ولكن لا يعرف ما يحدث ولا أين المهرب ، ولا يستمعون من أحد كلمة ، وهكذا هم فى كَرْب وحَيْرة لا يدرون شيئاً . وهذه حالة العمى البصرى عندهم .

أما الحالة الثانية وهى الرؤية ، فتكون عندما يتجلى الحق تبارك وتعالى لأهل الموقف ويكشف الغطاء عن نفسه سبحانه ، فهنا يصير الكافر حادّ البصر ، ليرى مكانه من النار .

ولا بُدَّ لنا هنا أن نلحظَ أن ألفاظ اللغة قد يكون اللفظ واحداً ولكن يختلف السياق ، ففى قوله تعالى : ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلاً (٧٢)﴾ [الإسراء]

فلفظ (أَعْمَى) واحد ، لكن فى الآخرة قال (وَأَضَلُّ سَبِيلاً) إذن : لابُدَّ أن عمى الدنيا أقلّ من عمى الآخرة ، كما تقول : هذا خير . فمقابل خير : شر . أما لو قلت : هذا خَيْر من هذا فقد فضَّلتَ الأول فى الخيرية عن الثانى ، إذن : كلمة خير إما أنْ تأتى وَصْفاً ، وإما أن تأتى تفضيلاً .

ومن ذلك قول الرسول ﷺ : « المؤمن القوى خَيْرٌ وأحَبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفى كُلٍّ خير »[١] .

فالمراد أن المؤمن القوى أكثر فى الخيرية . إذن : فكلمة : ﴿ فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَىٰ .. ﴿٧٢﴾ ﴾ [الإسراء] ليست وَصْفاً ، وإنما تفضيل لعمى الآخرة على عمى الدنيا ، أى أنه فى الآخرة أشدّ عمًى .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَضَلُّ سَبِيلاً ﴿٧٢﴾ ﴾ [الإسراء] ومعلوم أنه كان ضالاً فى الدنيا ، فكيف يكون أضلَّ فى الآخرة ؟

قالوا : لأن ضلاله فى الدنيا كان يمكن تداركه بالرجوع إلى المنهج والعودة إلى الطريق السَّوىّ ، أما فى الآخرة فضلاله لا يمكن تداركه ، فقد انتهى وقت الاختيار ، إذن : فضلالهُ فى الآخرة أشدّ وأعظمُ من ضلاله فى الدنيا .

ثم يقول الحق سبحانه[٢] :

﴿ وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ ﴾

وهذه خبيثة جديدة من خبائثهم مع رسول الله ﷺ ، فقد كانوا يحاولون جادِّين أنْ يصرفوا رسول الله عما بعثه الله به ، فمرة

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٦٦٤) ، وأحمد فى مسنده (٢/٣٦٦ ، ٣٧٠) وابن ماجة فى سننه (٧٩) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

(٢) سبب نزول الآية : قال ابن عباس : نزلت فى وفد ثقيف أتوا رسول الله ﷺ فقالوا : متعنا باللات سنة ، وحرّم وادينا كما حرمت مكة شجرها وطيرها ووحشها ، فأبى ذلك رسول الله ﷺ ولم يجبهم . فأنزل الله هذه الآية . وقال سعيد بن جبير : قال المشركون للنبى ﷺ : لا نكف عنك إلا بأن تُلم بآلهتنا ولو بطرف أصابعك ، فقال النبى ﷺ : ما علىّ لو فعلت والله يعلم أنى بارّ ، فأنزل الله تعالى هذه الآية .

يقولون له : دَعْ آلهتنا نتمتع بها سنة ونأخذ الغنائم من ورائها وتحرم لنا بلدنا ـ أى : ثقيف ـ كما حرمت مكة . ومرة يقولون له : لا تستلم الحجر ويمنعونه من استلامه حتى يستلم آلهتهم أولاً .

ومعنى (كادوا) أى قاربوا ، والمقاربة غير الفعل ، فالمقاربة مشروع فعل وتخطيط له ، لكنه لم يحدث ، إنهم قاربوا أنْ يفتنوك عن الذى أُنزِل إليك لكن لم يحدث ؛ لأن محاولاتهم كانت من بعيد ، فهى تحوم حول فتنتك عن الدين ، كما قالوا مثلاً : نعبد إلهك سنة ، وتعبد آلهتنا سنة[1] .

ومعنى : ﴿ لِيَفْتِنُونَكَ ﴾ لَيُحوّلونك ويَصْرِفونك عما أنزل الله إليك ، لماذا ؟ ﴿لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ .. (٧٣)﴾ [الإسراء] كما حكى القرآن عنهم فى آية أخرى : ﴿ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَـٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ .. (١٥)﴾ [يونس]

فيكون الجواب من الحق سبحانه : ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥)﴾ [يونس]

وقال تعالى : ﴿قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٦)﴾ [يونس]

ونلاحظ فى مثل هذا الموقف أن الحق سبحانه يتحمل العنت عن

---

(١) أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم والطبرانى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن قريشاً دعت رسول الله ﷺ إلى أن يعطوه مالاً فيكون أغنى رجل بمكة ويزوجوه ما أراد من النساء ، فقالوا : هذا لك يا محمد ، وكف عن شتم آلهتنا ولا تذكر آلهتنا بسوء ، فإن لم تفعل فإنا نعرض عليك خصلة واحدة ولك فيها صلاح . قال : ما هى ؟ قالوا : تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة . فنزل الوحى بقوله تعالى : ﴿قُلْ يَـٰأَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢)﴾ [الكافرون] ذكره السيوطى فى الدر المنثور (٨/٦٥٤) .

رسوله ، وينقل المسألة من ساحة الرسول إلى ساحته تعالى ، لكى لا تكون عداوة بين محمد وقومه ، فالأمر ليس من عند محمد بل من عند الله ، يقول تعالى : ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لايُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٣٣)﴾ [الأنعام]

فلا تحزن يا محمد ، فأنت مُصَدَّق عندهم ، لكن المسألة عندى أنا ، وهكذا يتحمل الحق سبحانه الموقف عن رسوله حتى لا يحمل القوم ضغينة لرسول الله .

ثم يقول تعالى : ﴿وَإِذًا لاَّتَّخَذُوكَ خَلِيلاً (٧٣)﴾ [الإسراء]

الخليل : هو المخالّ الذى بينك وبينه حُبٌّ ومودّة ، بحيث يتخلل كل منكما الآخر ويتغلغل فيه ، ومنه قوله تعالى فى إبراهيم : ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً (١٢٥)﴾ [النساء]

ومنه قول الشاعر :

وَلَمَّا التقيْنَا قَرَّبَ الشَّوْقُ جَهْدَهُ ... خَلِيلَيْنِ ذَابَا لَوْعَةً وَعِتَابَا
كأنَّ خَلِيلاً فِى خِلاَلِ خَلِيلِهِ ... تَسَرَّبَ أثناءَ العِنَاقِ وَغَابَا

فإذا ما تقابل الخليلان ذاب كل منهما فى صاحبه أو تخلَّله ودخل فيه .

فالمعنى : لو أنك تنازلتَ عن المنهج الذى جاءك من الله لَصِرْتَ خليلاً لهم ، كما كنت خليلاً لهم من قبل ، وكانوا يحبونك ويقولون عنك « الصادق الأمين » . إذن : الذى جعلهم فى حالة عداء لك هو منهج الله الذى جئتَ به ، فلو تنازلتَ عنه أو تهاونت فيه فسوف يتخذونك خليلاً ، فلا تكُنْ خليلاً لهم بل خليلاً لربك الذى أرسلك .

ويخاطب الحق سبحانه رسوله ﷺ ، فيقول :

﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾﴾

﴿وَلَوْلاَ﴾ أداة شرط إنْ دخلت على الجملة الإسمية ، وتفيد امتناع وجود الجواب لوجود الشرط ، ويسمونها حرف امتناع لوجود . كما لو قلت : لولا زيدٌ عندك لَزُرْتُكَ ، فقد امتنعت الزيارة لوجود زيد .

فإنْ دخلت (لولا) على الجملة الفعلية أفادتْ الحثَّ والحضَّ ، كما فى قوله تعالى : ﴿لَوْلا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ.. ﴿١٣﴾﴾ [النور]

و (لولا) فى الآية دخلتْ على جملة إسمية ؛ لأن (أن) بعدها مصدرية ، فالمعنى : لولا تثبيتنا لك لقاربتَ أنْ تركنَ إليهم شيئاً قليلاً .

والمتأمل فى هذه الآية يجدها تحتاط لرسول الله عدة احتياطات ، فلم تقُلْ : لولا تثبيتنا لك لَركنتَ إليهم ، لا ، بل لَقاربتَ أنْ تركنَ فمنعتْ مجرد المقاربة ، أما الركون فهو أمر بعيد وممنوع نهائياً وغير مُتصوّر من رسولِ الله ، ومع ذلك أكّد سبحانه وتعالى هذا المعنى بقوله : ﴿شَيْئًا قَلِيلاً ﴿٧٤﴾﴾ [الإسراء] أى : ركوناً قليلاً .

مما يدلُّ على أن طبيعته ﷺ ـ حتى دون الوحى من الله ـ طبيعة سليمة بفطرتها ، فلو تصوَّرنا عدم التثبيت له من الله ماذا كان يحدث منه ؟ يحدث مجرد (كاد) أو (قَرُب) أنْ يركنَ إليهم شيئاً قليلاً ، وقلنا : إن المقاربة تعنى مشروعَ فِعْل ، لكنه لم يحدث ، مِمّا يدلُّ على أن لرسول الله ذاتية مستقلة .

ومعنى ﴿ثَبَّتْنَاكَ.. ﴿٧٥﴾﴾ [الإسراء] التثبيت هو منع المثبَّت أنْ يتأرجح ، لذلك نقول للمتحرك : اثبت .

ومعنى : (تَرْكَنُ) من ركون الإنسان إلى شىء يعتصم به ويحتمى ، والناس يبنون الحوائط ليحموا بها ممتلكاتهم ، وإذا احتمى الإنسان بجدار فأسند ظهره إليه مثلاً فقد حَمَى ظهره فقط ، وأمن أنْ يأتيه أحد من ورائه ، فإنْ أراد أنْ يحمىَ جميع جهاته الأربع ، فعليه أن يلجأ إلى رُكْن وأنْ يسند ظهره إلى الركن فيأمن ما أمامه ، ويحتمى بجدار عن يمينه وجدار عن شماله . إذن : الركون أن تذهب إلى حِرْز يمنعك من جميع جهاتك .

ومن الركون قوله تعالى عن لوط عليه السلام مع قومه : ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾﴾ [هود] أى : أحتمى به وألجأ إليه .

والحق سبحانه فى هذه الآيات يريد أنْ يستلَّ السخيمةَ على محمد ﷺ من قلوب أعدائه ؛ لأنه ﷺ كان حريصاً على هدايتهم وتأليف قلوبهم ، وقد كان يشقُّ على نفسه ويُحمّلها ما لا تطيق فى سبيل هذه الغاية ، ومن ذلك ما حدث من تَرْكه عبد الله بن أم مكتوم الذى جاءه سائلاً ، وانصرافه عنه إلى صناديد قريش ؛ لذلك عتب عليه ربه تبارك وتعالى لأنه شقَّ على نفسه[1] .

وكأن الحق تبارك وتعالى فى هذه الآية يقول : يا قوم إنْ لم يوافقكم محمد على ما كنتم تريدون منه من الانصراف عَمَّا أُنزل إليه من ربه ، فاعذروه ؛ لأن الأمر عندى والتثبيت منى ، ولا ذنب لمحمدْ فيما خالفكم فيه ، كما لو كان عندك خادم مثلاً ارتكب خطأ ما ، فأردتَ أنْ تتحمل عنه المسئولية ، فقلت : أنا الذى كلفتُه بهذا وأمرتُه به ، فالأمر عندى وليس للخادم ذنب فيما فعل .

---

(١) وقد قال تعالى عن هذا : ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١﴾ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾﴾ [عبس] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ﴾

﴿ إِذًا ﴾ أى : لو كدتَ تركن إليهم شيئاً قليلاً لأذقناك ضعْف الحياة وضعْف الممات ، وبهذا التهديد يرفع الحق سبحانه سخيمة الكُرْه من صدور القوم لمحمد ، وينقلها له سبحانه وتعالى .

ومعنى ﴿ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ .. ﴿٧٥﴾ ﴾ [الإسراء] الضعْف : مضاعفة الشىء مرة أخرى . أى : قَدْر الشىء مرتين ، ولا يُذاق فى الحياة إلا العذاب ، فالمراد : لأذقناك ضعْف عذاب الحياة وضعْف عذاب الممات ، لكن لماذا يُضَاعَف العذاب فى حَقِّ محمد ﷺ ؟

قالوا : لأنه أُسْوة كبيرة وقُدْوة يقتدى الناس بها ، ويستحيل فى حقِّه هذا الفعل ، ولا يتصور منه ﷺ ، لكن على اعتبار أن ذلك حدث منه فسوف يُضاعَف له العذاب ، كما قال تعالى فى نساء النبى : ﴿ يَـٰنِسَآءَ النَّبِىِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَـٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ ﴾ [الأحزاب]

ذلك لأنهن بيت النبوة وأمهات المؤمنين ، وهنَّ أُسْوة لغيرهنّ من نساء المسلمين ، وكلما ارتفع مقام الإنسان فى مركز الدعوة إلى الله وجب عليه أنْ يتبرأ عن الشبهة ؛ لأنه سيكون أُسْوة فعل ، فإنْ ضلَّ فلن يضل فى ذاته فقط ، بل سيضل معه غيره ، ومن هنا شدَّد الله العقوبة وضاعفها للنبى ولزوجاته .

وقد اختار الحق سبحانه لفظ ﴿ لأَذَقْنَاكَ ﴾ ؛ لأن الإذاقة من

الذَّوْق ، وهو أعمّ الملكَات شُيوعاً فى النفس ، فأنت ترى بعينك وتسمع بأذنك وتشمُّ بأنفك ، لكن المذاق تشترك فيه كل الملكات .

ثم يقول تعالى : ﴿ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً (٧٥) ﴾ [الإسراء]

أى : لا تجد مدافعاً يدافع عنك ؛ أو ناصراً ينصرك ؛ لأن مددَك منى وحدى ، فكيف يكون لك ناصر من دونى ؟

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿ وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ[2] لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا (٧٦) ﴾

وهنا أيضاً يقول تعالى : ﴿ كَادُوا ﴾ أى : قاربوا ، فهم لا يجرؤون على الفعل ، ولا يستطيعون ، فالأمر مجرد القُرْب من الفعل ، فإنهم سيحاولون إخراجك ، لكنك لن تخرج إلا بأمرى وتقديرى .

وقوله تعالى : ﴿ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ .. (٧٦) ﴾ [الإسراء] من استفزَّه أى : طلب منه النهوض والخفّة إلى الفعْل ، كما تقول لولدك المتثاقل : (فِز) أى : قُمْ وانهض ، والمراد : يستحثونك على الخروج ﴿ مِنَ الأَرْضِ ﴾ من مكة بإيذائهم لك ، وعَنَتهم معك ليحملوك على الخروج ، ويُكرِّهوك فى الإقامة بها .

---

(١) سبب نزول الآية : قال مجاهد وقتادة : نزلت فى هَمِّ أهل مكة بإخراجه ، ولو أخرجوه لما أمهلوا ، ولكن الله أمره بالهجرة فخرج . قال القرطبى فى تفسيره (٥/٤٠٣٠) : « وهذا أصح ؛ لأن السورة مكية ، ولأن ما قبلها خبر عن أهل مكة ، ولم يجر لليهود ذكر » .

(٢) يريد أرض مكة . قال تعالى : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ (١٣) ﴾ [محمد] . قاله القرطبى فى تفسيره (٥/٤٠٣٠) .

وكفار مكة يعلمون أن فى خروجه ﷺ من مكة راحة لهم ، وحتى لا يكون أُسْوة لعبيدهم ولضعاف القوم الذين أحبوه ، ومالوا لاعتناق دينه والإيمان به .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَإِذًا لاَّ يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلاَّ قَلِيلاً (٧٦) ﴾ [الإسراء]

أى : لو أخرجوك من مكة فلن يلبثوا فيها بعدك إلا قليلاً ، وقد حدث فعلاً ، فبعد خروجه ﷺ من مكة بعام جاءت بدر ، فقُتل سبعون من صناديد قريش ، وأُسرَ سبعون ، وبعد أن خرج الرسول من مكة لم يتمتعوا فيها بالنعيم ولا بالسيادة التى كانوا يَرجُونها بعد خروجه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا (٧٧) ﴾

يُوضِّح الحق تبارك وتعالى أن ما حدث هو سُنة من سُنن الله فى الرسل ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) ﴾ [الصافات]

فكان عليهم أنْ يأخذوا عِبْرة من الرسل السابقين ، وبما حلَّ بأعدائهم من عذاب الله ، لقد أرسل الله الرسل فكُذِّبوا وعُودوا واضطهِدُوا ، ومع ذلك نصرهم الله ، وجعل لهم الغَلَبة .

والسُّنة : هى العادة والطريقة التى لا تتخلَّف ولا تتبدَّل ؛ لذلك يقول بعدها : ﴿ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا (٧٧) ﴾ [الإسراء] ؛ لأن السُّنة لا تتحوّل ولا تتبدّل إلا بالأقوى الذى يأتى ليُغير السنة بأخرى من عنده ، فإذا كانت السُّنة من الله القوى بل الأقوى ، فهو سبحانه وحده

الذى يملك هذا التحويل ، ولا يستطيع أحد أبداً تحويل سنة الله ، فإذا قال سبحانه ، فقوله الحق الذى لا يُبدِّله أحد ، ولا يُعارضه أحد .

● ● ●

وبعد أن تكلَّم الحق سبحانه عن الإلهيات إيماناً بها ، وعن النبوات تصديقاً لها ، وعن القيامة ووجوب الإيمان بها وبما يحدث فيها من تناول الكتب ، أراد سبحانه أنْ يأتى لنا بثمرة هذا المنهج وحصيلته النهائية ، وهى أنْ يستقيمَ لنا منهج الحياة وتنضبط حركتنا فيها .

هذا المنهج الإلهى جاء فى صورة أحكام ، ولهذه الأحكام أركان أساسية جمعها النبى ﷺ فى قوله : « بُنِىَ الإسلامُ على خَمْس : شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً »[1] .

إذن : هذه هى الأركان التى بُنِى عليها الإسلام ، لكن ما حَظُّ المسلم من هذه الأركان ؟ لو تأملتَ لوجدتنَا نشترك كلنا فى شهادة أنْ لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وفى الصلاة لأنها لا تسقط عن أحد لأىّ سبب ، وهى المكرَّرة فى اليوم خمس مرات .

أما باقى الأركان وهى : الزكاة ، والصوم ، والحج فقد لا تنطبق شروطها على الجميع ، فالفقير لا تُفرض عليه زكاة أو حج ، والمريض لا يُفرض عليه الصوم . إذن : عندنا أركان للإسلام وأركان للمسلم التى هى : الشهادتان والصلاة ، وقد يدخل فيها الزكاة أو الصوم أو الحج ، فإذا أتى المسلم بجميع الأركان فقد اتفقتْ أركان الإسلام مع أركان المسلم .

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٦) ، وكذا البخارى فى صحيحه (٨) من حديث ابن عمر رضى الله عنهما .

وتلاحظ فى هذه الأركان أن الشهادتين يكفى أن تقولهما وتشهد بهما ولو مرة واحدة ، والزكاة والصوم والحج قد لا تنطبق عليك شروطها ، فلم يَبْقَ إلا الصلاة ؛ لذلك جعلها عماد الدين[1] .

ثم قال تعالى :

﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ[2] إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ[3] وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ ﴾

فالصلاة هى الفريضة الثابتة المتكررة التى لا تسقط عن المسلم بأى حال ، وفيها إعلانُ ولاء للإيمان بالله كل يوم خمس مرات ، وهى أيضاً تنتظم كل أركان الإسلام ؛ لأنك فى الصلاة تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فبدل أنْ كنتَ تقولها مرة واحدة ها أنت تقولها عدة مرات فى كل صلاة ، وهذا هو الركن الأول .

كما أنها تشتمل على الصوم ؛ لأنك تصوم فى أثناء الصلاة ، فتمتنع عن شهوتَىْ البطن والفرج ، وكذلك عن أىٍّ فعل غير أفعال الصلاة ، وعن الكلام فى غير ألفاظ الصلاة . إذن : فى الصلاة صيام بالمعنى الأوسع للصوم .

---

(١) لفظه : « الصلاة عماد الدين ، فمن أقامها أقام الدين ، ومن هدمها فقد هدم الدين » قال الحافظ العراقى فى تخريجه للإحياء (١/١٤٧) : « رواه البيهقى فى الشُّعَب بسند ضعّفه من حديث عمر » وقال الملا على القارى فى « الأسرار المرفوعة (حديث ٥٧٨) » : « قال ابن الصلاح فى مشكل الوسيط : إنه غير معروف . وقال النووى فى التنقيح : إنه منكر باطل . لكن رواه الديلمى عن على كما ذكره السيوطى فى الدرر المنتثرة (ح٢٧٩) .

(٢) قال القرطبى فى تفسيره (٥/٤٠٣١) : « اختلف العلماء فى الدلوك على قولين : أحدهما : أنه زوال الشمس عن كبد السماء ، قاله عمر وابنه وأبو هريرة وابن عباس وطائفة سواهم من علماء التابعين وغيرهم .
الثانى : أن الدلوك هو الغروب ، قاله على وابن مسعود وأبى بن كعب قال الماوردى : من جعل الدلوك اسماً لغروبها ، فلأن الإنسان يدلك عينيه براحته لتبينها حالة المغيب ، ومن جعله اسماً لزوالها فلأنه يدلك عينيه لشدة شعاعها » .

(٣) الغسق : ظلمة الليل ، وهو وقت صلاة العشاء . [القاموس القويم ٢/٥٣]

وفى الصلاة زكاة ؛ لأن المال الذى تكتسبه وتُزكِّيه ناتج عن الحركة ، والحركة فرع الوقت ، وفى الصلاة تُضحّى بالوقت نفسه ، فكأن الزكاة فى الصلاة أبلغ .

وكذلك فى الصلاة حج ؛ لأنك تتوجّه فيها إلى كعبة الله ، وتستحضرها فى ذِهْنك وأمام ناظريْكَ .

لذلك استحقت الصلاة أن تكون عماد الدين ، مَنْ أقامها فقد أقام الدين ، ومَنْ هدمها فقد هدم الدين ، ومن هنا جاءت الصلاة فى أول هذه الأحكام ، فقال تعالى : ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ .. (٧٨) ﴾ [الإسراء] أى : أدِّها أداءً كاملاً فى أوقاتها .

والصلاة لها مَيْزة عن كل أركان الإسلام ؛ لأن كل تكليفات الإسلام جاءت بواسطة الوحى لرسول الله إلا الصلاة ، فقد فُرِضَتْ بالمباشرة مما يدلُّ على أهميتها ، وقد مثَّلنَا لذلك ـ ولله المَثل الأعلى ـ بالرئيس الذى يتصل بمرؤوسه تليفونياً ليأمره بشىء ، فإذا كان هذا الشىء من الأهمية بمكان استدعاه إليه وأفهمه ما يريد .

وهكذا كانت الصلاة ، فقد فُرِضَتْ على رسول الله ﷺ وعلى أمته بالمباشرة لما لها من أهمية بين فرائض الدين ، ثم تولى جبريل عليه السلام تعليم رسول الله الصلاة ، وعلَّمها رسول الله للناس ، وقال : « صلُّوا كما رأيتمونى أُصلِّى »[1] .

وقوله تعالى : ﴿لِدُلُوكِ الشَّمْسِ .. (٧٨) ﴾ [الإسراء]

الحق سبحانه يريد أن يُبيِّن لنا مواقيت الصلاة . و (الدلوك) معناه : الزوال من حركة إلى حركة ، ومنها قولنا : فلان (المدلكاتى)

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٣١) ، وأحمد فى مسنده (٥/٥٣) من حديث مالك بن الحويرث رضى الله عنه . ضمن حديث .

أى : الذى يتولّى عملية التدليك ، وتتحرك يده من مكان لمكان .

والمراد بدلوك الشمس : مَيْلها عن وسط السماء إلى ناحية الغرب ، والإنسان يرى الأفق الواسع إذا نظر إلى السماء ، فيراها على شكل قوس ممتدّ وعلى حَسْب نظره وقوته يرى الأفق ، فإنْ كان نظره قوياً رأى الأُفْق واسعاً ، وإنْ كان نظره ضعيفاً رأى الأفق ضيّقاً ؛ لذلك يقولون لقليل التفكير : ضيِّق الأفق .

وأنت حين تقف فى مكانك وتنظر إلى السماء تراها على شكل نصف دائرة ، وأنت مركزها ، وساعةَ أنْ ترى الشمس عمودية عليك ، فهذا وقت الزوال ، فإذا ما انحرفتْ الشمس ناحية المغرب يُقَال : دلكت الشمس . أى : مالت ناحية المغرب ، وهذا هو وقت الظهر .

والمتأمل فى فَرْض الصلاة على رسول الله يجد أن الظُّهْر هو أول وقت صَلَّاه رسول الله ؛ لأن الصلاة فُرِضَتْ عليه فى السماء فى رحلة المعراج ، وكانت بليل ، فلما عاد ﷺ كان يستقبل الظهر ، فكانت هى الصلاة الأولى .

ثم يقول تعالى : ﴿إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ .. (٧٨)﴾ [الإسراء] أى : أقِم الصلاة عند دُلوك الشمس إلى متى ؟ إلى غَسَق الليل أى : ظُلْمته ، وفى الفترة من دُلوك الشمس إلى ظُلمة الليل تقع صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء ، ولا يبقى إلى صلاة الصبح ، فقال عنها سبحانه وتعالى : ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا (٧٨)﴾ [الإسراء] ونتساءل هنا : لماذا ذكر قرآن الفجر ولم يَقُلْ صلاة ؟

قالوا : لأن القرآن فى هذا الوقت حيث سكون الكون وصفاء النفوس ، فتتلقى القرآن ندياً طرياً وتستقبله استقبالاً واعياً قبل أن تنشغل بأمور الحياة ﴿إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا (٧٨)﴾ [الإسراء]

أى : تشهده الملائكة . إذن : المشهودية لها دَخْل فى العبادة ، فإذا كانت مشهودية مَنْ لا تكليف عليه فى الصلاة جعلها الله حيثية ، فكيف بمشهودية مَنْ كُلِّفَ بالصلاة ؟

والحق سبحانه وتعالى جعل فى صلاة الجماعة استطراقاً للعبودية ، ففى صلاة الجماعة يستوى كل الخَلْق حيث يخلعون وجاهتهم ، ويخلعون أقدارهم على أبواب المسجد ، كما يخلعون أحذيتهم ، فالرئيس بجانب المرؤوس والوزير بجانب الخفير .

لذلك نهى النبى ﷺ أن يُوطِّن الإنسان لنفسه مكاناً فى المسجد ، يجلس فيه باستمرار[1] ؛ لأن الأصل أنْ يجلس المصلى حيث ينتهى به المجلس ، فيجلس الناس بأولوية الحضور كل حَسْب مكانه ومبادرته للصلاة ، فلا يتخطى الرقاب[2] ، ولا يُفرق بين اثنين[3] .

ونرى بعض المصلين يسارع إلى الصفِّ الأول مثلاً ، ويضع سجادته ليحجزَ بها مكاناً ، ثم ينصرف لحَاجته ، فإذا ما تأخر عن الصلاة أتى ليتخطّى رقاب الناس ليصل إلى مكانه ، فإذا بالناس يضيقون من هذا التصرُّف ، ويُنحُّون سجادته جانباً ويجلسون مكانها ، إنه تصرُّف لا يليق ببيوت الله التى تُسوِّى بين خَلْق الله جميعاً ، وتحقق

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٤٢٨/٣) ، وابن ماجة فى سننه (١٤٢٩) ، وأبو داود فى سننه (٨٦٢) من حديث عبد الرحمن بن شبل قال : « نهى رسول الله ﷺ عن نقرة الغراب ، وافتراش السبع ، وأن يوطن الرجل المكان فى المسجد كما يوطن البعير » .

(٢) أخرج ابن ماجة فى سننه (١١١٦) من حديث معاذ بن أنس قال قال ﷺ : « من تخطى رقاب الناس يوم الجمعة اتُّخذ جسراً إلى جهنم » .

(٣) عن سلمان الفارسى قال قال ﷺ : « من اغتسل يوم الجمعة وتطهر بما استطاع من طهر ، ثم ادهن أو مسَّ من طيب ، ثم راح فلم يفرق بين اثنين فصلى ما كُتب له ، ثم إذا خرج الإمام أنصت ، غُفِر له ما بينه وبين الجمعة الأخرى » . أخرجه البخارى فى صحيحه (٩١٠) .

استطراق العبودية لله ، فأنت اليوم بجوار فلان ، وغداً بجوار آخر ، الجميع خاضع لله راكع وساجد ، فليس لأحد أن يتعالى على أحد .

ونرى كذلك استطراق العبودية واضحاً فى مناسك الحج ، حيث يأتى أحد العظماء والوجهاء فتراه عند الملتزم خاضعاً ذليلاً باكياً متضرعاً ، وهو مَنْ هو فى دُنْيا الناس .

إذن : فوقت الفجر وقت مبارك مشهود ، تشهده ملائكة الليل ، وهم غير مُكلَّفين بالصلاة ، فالأفضل من مَشْهدية الملائكة مَشْهدية المصلِّين الذين كلَّفهم الله بالصلاة ، وجعلهم ينتفعون بها .

ومن هنا كانت صلاة الجماعة أفضل من صلاة الفرد بسبع وعشرين درجة ، كما جاء فى الحديث النبوى الشريف[1] .

ويجب أن نلتفت إلى أن الحق سبحانه ربط الصلوات الخمس بالوقت ، وبآية كونية تدلُّ عليه هى الشمس ، فكيف العمل إذا غابت ، أو حُجِبَتْ عنَّا بغيْم أو نحوه ؟

إذن : على الإنسان المؤمن أن يجتهد ويُعملَ تفكيره فى إيجاد شىء يضبط به وقته ، وفعلاً تفتقتْ القرائح عَن آلات ضبط الوقت الموجودة الآن ، والتى تُيسِّر كثيراً على الناس ؛ لذلك كانت الطموحات الإنسانية لأشياء تخدم الدين وتوضح معالمه أمراً واجباً على علماء المسلمين ، على اعتبار أن مَا لا يتم الواجب إلا به فهو واجب .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ ﴾

---

(١) عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال : « صلاة الجماعة تفضل صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة » أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٤٥) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٦٥٠) .

الهجود : هو النوم ، وتهجَّد : أى أزاح النوم والهجود عن نفسه ، وهذه خصوصية لرسول الله وزيادة على ما فرض على أمته ، أنْ يتهجَّد لله فى الليل ، كما قال له ربه تعالى : ﴿يَـٰأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١) قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً (٢) نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً (٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً (٤)﴾ [المزمل]

فهذه الخصوصية لرسول الله وإنْ كانت فَرْضاً عليه ، إلا أنها ليست فى قالب من حديد ، بل له ﷺ مساحة من الحرية فى هذه العبادة ، المهم أن يقوم لله تعالى جزءاً من الليل ، لكن ما علَّة هذه الزيادة فى حَقِّ رسول الله ؟ العلة فى قوله تعالى : ﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً (٥)﴾ [المزمل]

وكأن التهجُّد ليلاً ، والوقوف بين يدى الله فى هذا الوقت سيعطى رسول الله ﷺ القوة والطاقة اللازمة للقيام بهذه المسئولية الملقاة على عاتقه ، ألاَ وهى مسئولية حَمْل المنهج وتبليغه للناس .

وفى الحديث الشريف « أن رسول الله كان كلما حزبه أمر قام إلى الصلاة »[1] ، ومعنى حَزَبه أَمْر : أى : ضاقت أسبابه عنه ، ولم يَعُد له فيه منفذ ، فإنْ ضاقت عليه الأسباب فليس أمامه إلا المسبِّب سبحانه يلجأ إليه ويُهْرع إلى نجدته ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلاً (٦)﴾ [المزمل]

لأنك فى الوقت الذى ينام فيه الناس ويخلدون إلى الراحة وتتثاقل رؤوسهم عن العبادة ، تقوم بين يدى ربك مناجياً مُتضرِّعاً ، فتتنزل عليك منه الرحمات والفيوضات ، فَمَنْ قام من الناس فى هذا الوقت

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٥/٣٨٨) ، وأبو داود فى سننه (١٣١٩) من حديث حذيفة بن اليمان رضى الله عنه .

واقتدى بك فلَهُ نصيب من هذه الرحمات ، وحَظٌّ من هذه الفيوضات . ومَنْ تثاقلتْ رأسه عن القيام فلا حَظَّ له .

إذن : فى قيام الليل قوة إيمانية وطاقة روحية ، ولما كانت مهمة الرسول فوق مهمة الخَلْق كان حظّه من قيام الليل أزيد من حظهم ، فأعباء الرسول ﷺ كثيرة ، والعِبْءُ الثقيل يحتاج الاتصال بالحق الأحد القيوم ؛ حتى يستعين بلقاء ربه على قضاء مصالحه .

ومن العجيب أنْ ينصرف المسلمون عن هذه السُّنة ، ويتغافلون عنها ، فإذا حزبهم أمر لا يُهْرَعون إلى الصلاة ، بل يتعللون ، يقول أحدهم : أنا مشغول . وهل شغل الدنيا مبرر للتهاون فى هذه الفريضة ؟ ومَنْ يدريك لعلك بالصلاة تُفتح لك الأبواب ، وتقضى فى ساعة ما لا تقضيه فى عدة أيام .

ونقول لهؤلاء الذين يتهاونون فى الصلاة وتشغلهم الدنيا عنها ، فإنْ صلُّوا صلُّوا قضاءً ، فإنْ سألتَهم قالوا : المشاغل كثيرة والوقت لا يكفى ، فهل إذا أراد أحدهم الذهاب لقضاء حاجته ، هل سيجد وقتاً لهذا ؟ إنه لا شكَّ واجدٌ الوقت لمثل هذا الأمر ، حتى وإنْ تكالبتْ عليه مشاغل الدنيا ، فلماذا الصلاة هى التى لا تجد لها وقتاً ؟!

وقوله تعالى : ﴿نَافِلَةً لَّكَ .. (٧٩) ﴾ [الإسراء]

النافلة هى الزيادة عما فرض على الجميع (لك) أى : خاصة بك دون غيرك ، وهذا هو مقام الإحسان الذى قال الله عنه :

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) ﴾ [الذاريات]

والمحسن هو الذى دخل مقام الإحسان ، بأن يزيد على ما فرضه الله عليه ، ومن جنس ما فرض ؛ لذلك جاءت حيثية الإحسان : ﴿كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨)﴾ [الذاريات]

وهذا المقام ليس فرضاً عليك ، فلك أن تصلى العشاء وتنام حتى صلاة الفجر ، لكن إنْ أردت أن تتأسَّى برسول الله وتتشبّه به فادخُلْ فى مقام الإحسان على قَدْر استطاعتك .

ثم يقول تعالى : ﴿عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا (٧٩)﴾ [الإسراء]

تحدثتْ الآية فى أولها عن التكليف ، وهذا هو الجزاء ، و (عَسَى) تدل على رجاء حدوث الفعل ، وفَرْق بين التمنى والرجاء ، التمنى : أن تعلن أنك تحب شيئاً لكنه غير ممكن الحدوث أو مستحيل ، ومن ذلك قول الشاعر :

لَيْتَ الكَواكِبَ تَدْنُو لِي فَأَنْظِمُهَا

فالشاعر يتمنى لو أصبحت الكواكب بين يديه فينظمها قصائد مدح فيمن يمدحه ، وهذا أمر مستحيل الحدوث .

وقوله :

أَلاَ لَيْتَ الشَّباب يعُودُ يَوْماً فَأُخبرُه بِمَا فَعَلَ المشيبُ

أما الرجاء فهو طلب فعل ممكن الحدوث .

ويقع تحت الطلب أشياء متعددة ؛ فإنْ طلب المتكلم من المخاطب شيئاً غير ممكن الحدوث فهو تمنٍّ ، وإنْ طلب شيئاً ممكن الحدوث فهو ترجٍّ ، وإنْ طلب صورة الشىء لا حقيقته فهو استفهام كما تقول : أين زيد ؟ وفَرْقٌ بين طلب الحقيقة وطلب الصورة .

فإنْ طلبتَ حقيقة الشىء ، فأمامك حالتان : إما أنْ تطلب الحقيقة على أنها تُفعل فهذا أمر ، مثل : قُمْ ، فإنْ طلبتها على أنها لا تفعل فهذا نهى : لا تَقُمْ .

إذن : (عَسَى) تدل على الرجاء ، وهو يختلف باختلاف المرجو منه ، فإنْ رجوت من فلان فقد يعطيك أو يخذلك ، فإنْ قُلْتَ : عسى أنْ أعطيك فقد قربت الرجاء ؛ لأننى أرجو من نفسى ، لكن الإنسان بطبعه صاحب أغيار ، ويمكن أن تطرأ عليه ظروف فلا يَفِى بما وعد .

فإنْ قُلْت : عسى الله أن يعطيك ، فهو أقوى الرجاء ؛ لأنك رجوتَ مَنْ لا يُعجزه شىء ، ولا يتعاظمه شىء ، ولا تتناوله الأغيار إذن : فالرجاء فيه مُحقَّق لاَ شكَّ فيه .

والمقام المحمود ، كلمة محمود : أى الذى يقع عليه الحمد ، والحمد هنا مشاع فلم يَقُلْ : محمود ممَّنْ ؟ فهو محمود ممَّنْ يمكن أن يتأتّى منه الحمد ، محمود من الكل من لَدُنْ آدم ، وحتى قيام الساعة .

والمراد بالمقام المحمود : هو مقام الشفاعة ، حينما يقف الخَلْق فى ساحة الحساب وهَوْل الموقف وشدّته ، حتى ليتمنى الناس الانصراف ولو إلى النار ، ساعتها تستشفع كُلُّ أمة بنبيها ، فيردّها إلى أنْ يذهبوا إلى خاتم المرسلين وسيد الأنبياء ، فيقول : أنا لها ، أنا لها[1] .

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٥/٤٠٣٨) : « اختلف فى المقام المحمود على أربعة أقوال :
الأول : وهو أصحها ، الشفاعة للناس يوم القيامة . قاله حذيفة بن اليمان .
الثانى : إعطاؤه لواء الحمد يوم القيامة . قلت : وهذا القول لا تنافر بينه وبين الأول ، فإنه يكون بيده لواء الحمد ويشفع .
الثالث : هو أن يُجلس الله تعالى محمداً ﷺ معه على كرسيه .
الرابع : إخراجه من النار بشفاعته من يخرج . قاله جابر بن عبد الله .

لذلك أمرنا ﷺ أن ندعو بهذا الدعاء : « وابعثه اللهم المقام المحمود الذى وعدته »[(١)] ولا شكَّ أنه دعاء لصالحنا نحن .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ مُدْخَلَ صِدْقٍ .. ﴿٨٠﴾ ﴾ [الإسراء] أى : من حيث النظرة العامة ؛ لأنك قبل أنْ تدخلَ اطلب الخروج أولاً ؛ لأنك لن تدخلَ إلا بعد أنْ تخرجَ . وإنْ كان الترتيب الطبيعى أن نقول : أخرجنى مُخْرَج صدق ، وأدخلنى مُدْخَل صدق .

نقول : لا ؛ لأن الدخول هو غاية الخروج ، ولأن الخروج متروك والدخول مستقبل لك ، إذن : الدخول هو الأهمّ فبدأ به . لذلك يقولون : إياك أنْ تخرجَ من أمر إلا إذا عرفتَ كيف تدخل .

ومعنى مخرجَ الصدق ، ومدخل الصدق ، أنك لا تدخل أو تخرج بدون هدف ، فإنْ خرجتَ من مكان فليكُن مخرجك مخرج صدق ، يعنى : مطابقاً لواقع مهمتك ، وإنْ دخلتَ مكاناً فليكُنْ دخولك مدخل صدق . أى : لهدف محدد تريد تحقيقه . فإن دخلتَ محلاً مثلاً فادخل

---

(١) عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال : « من قال حين يسمع النداء : اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمداً الوسيلة والفضيلة ، وابعثه مقاماً محموداً الذى وعدته ، حلت له شفاعتى يوم القيامة » أخرجه البخارى فى صحيحه (٦١٤) ، والترمذى فى سننه (٢١١) ، وأحمد فى مسنده (٣/ ٣٥٤) .

لهدف ، كشراء سلعة مثلاً ، فهذا دخول صِدْق ، أما لو دخلتَ دون هدف أو لتؤذى خَلْق الله ، فليس فى هذا دخول صدق .

إذن : يكون دخولك لله وخروجك لله ، وهكذا خرج رسول الله من مكة ودخل المدينة ، فكان خروجه لله ودخوله لله ، فخرج مُخْرجَ صِدْق ، ودخل مُدخَل صدق ، لأنه ﷺ ما خرج من مكة إلا لما آذاه قومه واضطهدوه وحاربوا دعوته حتى لم تعُدْ التربة فى مكة صالحة لنمو الدعوة ، وما دخل المدينة إلا لما رأى النُّصْرة والمؤازرة من أهلها .

فالصدق أنْ يطابق الواقع والسلوك ما فى نفسك ، فلا يكُنْ لك قصور فى نفسك ، ولك حركة مخالفة لهذا القصد .

ثم يقول تعالى : ﴿وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا (٨٠)﴾[الإسراء]

طلب النُّصْرة من الله تعالى لرسوله ﷺ ؛ لأنه أرسله بمنهج الحق ، وسوف يصطدم هذا الحق بأهل الباطل والفساد الذين يحرصون على الباطل ، وينتفعون بالفساد ، وهؤلاء سوف يُعَادُون الدعوة ، ويُجابِهونها ؛ لذلك توجه رسول الله ﷺ إلى ربه تعالى الذى أرسله واستعان به على مواجهة أعدائه .

وقوله تعالى : ﴿سُلْطَانًا نَّصِيرًا (٨٠)﴾ [الإسراء] السلطان : سبق أنْ أوضحنا أنه يُراد به إما حجة تُقنع ، وإما سيف يَرْدَع ، وهذا واضح فى قَوْل الحق تبارك وتعالى : ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ .. (٢٥)﴾ [الحديد] أى : بالآيات الواضحات ، وهذه أدوات الحجة والإقناع .

ثم يقول تعالى : ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ .. (٢٥)﴾ [الحديد] وهذه أدوات القوة والردع .

فالخيِّر من الناس يرتدع بقول الله وبقول الرسول ويستجيب ، أما الشرير فلا تُجدى معه الحجة ، بل لا بُدّ من رَدْعه بالقوة ، فالأول إنْ تعرّض للحلف بالله حلف صادقاً ، أما الآخر فإنْ تعرّض للحلف حلف كاذباً ، ووجدها فُرْصة للنجاة ، ولسان حاله يقول : أتاك الفرج .

وفى الأثر : « إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن »[1] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا (٨١)﴾

هكذا أطلقها الحق سبحانه شعاراً مُدوّياً (جَاءَ الحَقُّ) وما دام قال للرسول : (قل) فلا بُدَّ أن الحق قادم لا شكَّ فيه ؛ لذلك أمره بهذا الأمر الصريح ولم يُوسْوسْه له ، وبعد ذلك يقولها رسول الله فى عام الفتح ، وعندما دخل مكة فاتحاً وحولَ البيت ثلاثمائة وستون صنماً فيُكبكبُهم جميعاً ، وينادى : « جاء الحق وزهق الباطل ، جاء الحق وزهق الباطل ، وما يبدىء الباطل وما يعيد »[2] .

أى : جاء الحق واندحر الباطل ، ولم يَعُدْ لديْه القوة التى يُبدِىء بها أو يُعيد ، فقد خَمدتْ قواه ولم يَبْقَ له صَوْلَة ولا كلمة .

وقوله تعالى : ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ .. (٨١)﴾ [الإسراء]

---

(١) قال ابن منظور فى (لسان العرب ـ مادة : وزع) : « معناه أن من يكفه السلطان عن المعاصى أكثر ممن يكفه القرآن بالأمر والنهى والإنذار » .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٧٨١) من حديث ابن مسعود رضى الله عنه . وأورده القرطبى فى تفسيره (٤٠٤٢/٥) وعزاه للبخارى والترمذى عن ابن مسعود .

يشعرنا بأن الحق أتى بنفسه ؛ لأنه نسب المجيء إلى الحق كأنه أمر ذاتىّ فيه ، فلم يأْتِ به أحد ، وكذلك فى ﴿وَزَهَقَ الْبَاطِلُ (٨١)﴾ [الإسراء] فالباطل بطبيعته زاهق مُندحر ضعيف لا بقاءَ له .

ومن العجيب أن الحق الذى جاء على يد رسول الله فى فتح مكة انتفع به حتى مَنْ لم يؤمن ، ففى يوم الفتح تتجلى صورة من صور العظمة فى دين الإسلام ، حين يجمع رسول الله أهل مكة الذين عاندوا وتكبَّروا وأخرجوا رسول الله من أحب البلاد إليه ، وها هو اليوم يدخلها منتصراً ويُوقفهم أمامه ويقول : « ما تظنون أنى فاعل بكم ؟ » قالوا : خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم ، قال : « اذهبوا فأنتم الطلقاء »[(١)] .

إذن : جاء الحق ليس لاستعباد الناس ، ولكن لراحتهم ورَفْع رؤوسهم . ومن الحق الذى أظل مكة بالفتح ما يُرْوَى أن واحداً دخل على النبى ﷺ الكعبة وأراد إيذاءه ، وحينما وضع يده على رسول الله ﷺ تبدَّل حاله وقال : فو الله لقد أقبلت عليه ، وما فى الأرض أبغض إلىَّ منه ، فحين وضعت يدى عنده فو الله ما فى الأرض أحب إلىَّ منه[(٢)] ، وهكذا جاء الحق وزهق الباطل .

---

(١) عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ حين سار إلى مكة يستفتحها وفتح الله عليكم ، ثم دخل صناديد قريش من المشركين الكعبة وهم يظنون أن السيف لا يُرفع عنهم ، ثم طاف بالبيت وصلى ركعتين . ثم أتى الكعبة فأخذ بعضادتى الباب فقال : ما تقولون وما تظنون ؟ قالوا : ابن أخ وابن عم حليم رحيم . [ثلاثاً] فقال رسول الله ﷺ : أقول كما قال يوسف : ﴿قَالَ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٩٢)﴾ [يوسف] قال : فخرجوا كأنما نشروا من القبور فدخلوا فى الإسلام . أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٥/٥٨) .

(٢) قال ابن هشام فى سيرة النبى ﷺ (٤/٣٧) : أن فضالة بن عمير بن الملوح الليثى أراد قتل النبى ﷺ وهو يطوف بالبيت عام الفتح ، فلما دنا منه قال رسول الله ﷺ « أفضالة » قال : نعم فضالة يا رسول الله ، قال : ماذا كنت تحدث به نفسك ؟ قال : لا شىء كنت أذكر الله عز وجل . قال : فضحك النبى ﷺ ثم قال : « استغفر الله » ثم وضع يده على صدره فسكن قلبه ، فكان فضالة يقول : والله ما رفع يده عن صدرى حتى ما من خلق الله شىء أحبّ إلىّ منه .

وقوله تعالى : ﴿إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا (٨١)﴾ [الإسراء]

زَهُوق صيغة مبالغة ، فالباطل نفسه سريعاً ما يذهب ويندثر ، ومن العَجَب أن ترى الباطل نفسه من جنود الله ؛ لأن الباطل لو لم يُؤلم الناس ويُزعجهم ما تشوَّقوا للحق وما مالوا إليه ، فإذا ما لدغهم الباطل واكتَووْا بناره عرفوا الحق .

وقد ضرب لنا الحق سبحانه وتعالى مثلاً للحق وللباطل ، فقال :

﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ (١٧)﴾ [الرعد]

الحق سبحانه يُمثِّل للحق وللباطل بشىء حسِّىٍّ نراه حينما ينهمر المطر على قمم الجبال ، فيسيل الماء إلى الأودية بين الجبال حاملاً معه صغار الحصى والرمال والقشّ ، وهذا هو الزَّبَد الذى يطفو على صفحة الماء ولا ينتفع الناس به ، وحين تهب الرياح تُنحِّىَ هذا الزبد جانباً ، ويبقى الماء الرائق الصالح الذى ينتفع الناس به ، وهذا الماء مثالٌ للحق الذى ينفع الناس ، والزَّبَد مثال للباطل الذى لا خَيْر فيه .

أو : يعطينا المثال فى صورة أخرى : صورة الحداد أو الصائغ الذى يُوقِد النار على الذهب ليخرج منه ما علق به من شوائب .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا (٨٢)﴾

الآية تُعطينا نموذجين لتلقِّى القرآن : إنْ تلقَّاه المؤمن كان له شفاء ورحمة ، وإنْ تلقّاه الظالم كان عليه خَسَار ، والقرآن حَدَّد الظالمين لِيُبيِّن أن ظلمهم هو سبب عدم انتفاعهم بالقرآن ؛ لأن القرآن خير فى ذاته وليس خساراً .

وقد سبق أن أوضحنا أن الفعل قد يكون واحداً ، لكن يختلف القابل للفعل ، ويختلف الأثر من شخص لآخر ، كما أن الماء الزلال يشربه الصحيح ، فيجد له لذة وحلاوة ويشربه العليل فيجده مُرّاً مائعاً ، فالماء واحد لكن المنفعل للماء مختلف . كذلك أكل الدَّسم ، فإنْ أكله الصحيح نفعه ، وزاد فى قوته ونشاطه ، وإنْ أكله السقيم زاده سُقْماً وجَرَّ عليه علة فوق علّته .

وقد سبق أن أوضحنا فى قصة إسلام الفاروق عمر ـ رضى الله عنه ـ أنه لما تلقَّى القرآن بروح الكفر والعناد كَرِهه ونَفَر منه ، ولما تلقاه بروح العطف والرِّقّة واللين على أخته التى شجَّ وجهها أعجبه فآمن .

إذن : سلامة الطبع أو فساده لها أثر فى تلقِّى القرآن والانفعال به . وما أشبه هذه المسألة بمسألة التفاؤل والتشاؤم ، فلو عندك كوب ماء قد مُلِىء نصفه ، فالمتفائل يُلفت نظره النصف المملوء ، فى حين أن المتشائم يُلفت نظره النصف الفارغ ، فالأول يقول : نصف الكوب ممتلىء . والآخر يقول : نصف الكوب فارغ ، وكلاهما صادق لكن طبعهما مختلف .

وقد عالج القرآن مسألة التلقِّى هذه فى قوله تعالى :

﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـٰذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا

الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٤) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ (١٢٥) ﴾ [التوبة]

فالآية واحدة ، لكن الطبع المستقبل مختلف ، فالمؤمن يستقبلها بملَكات سليمة ، فيزداد بها إيماناً ، والكافر يستقبلها بملكَات فاسدة فيزدادَ بها كفراً ، إذن : المشكلة في تلقّي الحقائق واستقبالها أن تكون ملكاتُ التلقي فاسدة .

ومن هنا نقول : إذا نظرتَ إلى الحق ، فإياك أنْ تنظره وفي جوفك باطل تحرص عليه ، لا بُدَّ أن تُخرِج ما عندك من الباطل أولاً ، ثم قارن وفاضل بين الأمور .

وكذلك جاءت هذه المسألة في قول الله تعالى :

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (١٦) وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧) ﴾ [محمد]

وقولهم : ﴿ مَاذَا قَالَ آنِفًا .. (١٦) ﴾ [محمد] دليل على عدم اهتمامهم بالقرآن ، وأنه شيء لا يُؤْبَهُ له .

وكذلك في قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى .. (٤٤) ﴾ [فصلت]

ومثالٌ لسلامة التلقّي من حياتنا المعاصرة إرسال التلفاز مثلاً ، فقد تستقبله أنت في بيتك فتجده واضحاً في حلْقة من الحلقات أو برنامج من البرامج ، فتتمتع بما شاهدت ، ثم تقابل صديقاً فيشكو

لك سوء الإرسال وعدم وضوح الصورة فيؤكد لك سلامة الإرسال ، إلا أن العيب فى جهاز الاستقبال عندك ، فعليك أولاً أن تضبط جهاز الاستقبال عندك لتستقبل آيات الله الاستقبال الصحيح .

إذن : قول الحق تبارك وتعالى : ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ .. (٨٢)﴾ [الإسراء] متوقف على سلامة الطبع ، وسلامة الاستقبال ، والفهم عن الله تعالى .

والشفاء : أن تعالج داءً موجوداً لتبرأ منه . والرحمة : أن تتخذ من أسباب الوقاية ما يضمن لك عدم معاودة المرض مرة أخرى ، فالرحمة وقاية ، والشفاء علاج .

لكن ، هل شفاء القرآن شفاءٌ معنوىٌّ لأمراض القلوب وعِلَل النفوس ، فيُخلِّص المسلم من القلق والحَيْرة والغَيْرة ، ويجتثّ ما فى نفسه من الغِلِّ والحقد ، والحسد ، إلى غير هذا من أمراض معنوية ، أم هو شفاء للماديات ، ولأمراض البدن أيضاً ؟

والرأى الراجح ـ بل المؤكد ـ الذى لا شكَّ فيه أن القرآن شفاء بالمعنى العام الشامل لهذه الكلمة ، فهو شفاء للماديات كما هو شفاء للمعنويات ، بدليل ما رُوِى عن أبى سعيد الخدرى ـ رضى الله عنه ـ وأنه خرج على رأس سرية وقد مَرُّوا بقوم ، وطلبوا منهم الطعام ، فأبَوْا إطعامهم ، وحدث أنْ لُدِغ كبير القوم ، واحتاجوا إلى مَنْ يداويه فطلبوا مَنْ يرقيه ، فقالوا : لا نرقيه إلا بجُعْلٍ[1] ، وذلك لما رأوه من

---

(١) الجُعْل : ما جعله له على عمله . وهو الأجر على الشىء فعلاً أو قولاً . [لسان العرب ـ مادة : جعل] .

بُخْلهم وعدم إكرامهم لهم ، على حَدِّ قوله تعالى : ﴿لَوْ شِئْتَ لاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا (٧٧)﴾ [الكهف]

ولما اتفقوا معهم على جُعل من الطعام والشياه قام أحدهم برقية اللديغ بسورة الفاتحة فبرىء ، فأكلوا من الطعام وتركوا الشياه إلى أنْ عادوا إلى رسول الله ﷺ ، وسألوه عن حِلِّ هذا الجُعْل فقال ﷺ : « ومَنْ أدراك أنها رقية » أى : أنها رُقْية يرقى بها المريض فيبرأ بإذن الله ، ثم قال ﷺ : « كُلوا منها ، واجعلوا لى سهماً معكم »[(١)] .

فشفاء أمراض البدن شىء موجود فى السُّنة ، وليس عجيبة من العجائب ؛ لأنك حين تقرأ كلام الله فاعلم أن المتكلم بهذا الكلام هو الحق سبحانه ، وهو رَبّ كل شىء ومليكه ، يتصرّف فى كونه بما يشاء ، وبكلمة (كُنْ) يفعل ما يريد ، وليس ببعيد أنْ يُؤثِّر كلام الله فى المريض فيشفى .

ولما تناقش بعض المعترضين على هذه المسألة مع أحد العلماء ، قالوا له : كيف يُشْفَى المريض بكلمة ؟ هذا غير معقول ، فقال العالم لصاحبه : اسكت أنت حمار !! فغضب الرجل ، وهَمَّ بترك المكان وقد ثارت ثورته ، فنظر إليه العالم وقال : انظر ماذا فعلتْ بك كلمة ، فما بالُكَ بكلمة ، المتكلّم بها الحق سبحانه وتعالى ؟

ثم يقول تعالى : ﴿وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَارًا (٨٢)﴾ [الإسراء] لأنهم بظُلْمهم واستقبالهم فُيوضات السماء بملكَات سقيمة ، وأجهزة متضاربة متعارضة ، فلم ينتفعوا بالقرآن ، ولم يستفيدوا برحمات الله .

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٣/٤٤) والبخارى فى صحيحه (٥٧٣٦) من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾ ﴾

الله تعالى يريد أن يعطى الإنسان صورة عن نفسه ؛ لتكون عنده المناعة الكافية إذا ما أصابه المرض ، كما يعطى الطبيب جَرْعة الطُّعْم أو التحصين الذى يمنع حدوث مرض ما . فها هى طبيعة الإنسان وسِمَتُه الغالبة ، وعليه أنْ يُخفِّف من هذه الطبيعة ، والمراد أن الإنسان إذا أنعم الله عليه استغنى وأعرضَ .

ولكى نُوضِّح هذه المسألة نُمثِّل لها ـ ولله المثل الأعلى ـ بالوالد الذى يعطى للابن مصروفه كل شهر مثلاً ، فترى الولد لا يلتفت إلى أبيه إلا أول كل شهر ، حيث يأتى موعد ما تعوَّد عليه من مصروف ، وتراه طوال الشهر منصرفاً عن أبيه لا يكاد يتذكره ، أما إذا عوَّده على أنْ يُعطيه مصروفه كل يوم ، فترى الولد فى الصباح يتعرَّض لأبيه ويُظهِر نفسه أمامه ليُذكِّره بالمعلوم . فالولد حين أعرض عن أبيه وانصرف عنه ، ما الذى دعاه إلى هذا التصرف ؟

لأن الوالد أعطاه طاقة الاستغناء عنه طوال الشهر ، فإنْ كان الابن باراً مؤمناً فإنه لا ينسى فَضْل والده الذى وَفَّر له طاقة الاستغناء هذه ، فيُذكِّر والده بالخير ، ويحمل له هذا الجميل .

فإنْ كان هذا هو الحال مع الرب الأدنى فهو كذلك مع الربِّ الأعلى سبحانه ، فيقول تعالى : ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ .. ﴿٨٣﴾﴾ [الإسراء]

أى : أعرض عنا وعن ذِكْرنا وانصرف عن منهجنا ، ومن الناس مَنْ يُعرِض عن ذكر الله ، ولكنه يؤدِّى منهجه ، ولو أدَّى المنهج مع ذكر صاحب المنهج ما نسى المنعم أبداً .

وإذا شُغِل الإنسان بالنعمة عن المنعم ، فكأنه يُخطِّىء المنعم ، كما قال تعالى : ﴿ كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝٦ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ۝٧ ﴾[العلق]

فالاستغناء هنا ليس ذاتياً فى الإنسان ، بل هو استغناء موهوب ، قد ينتهى فى يوم من الأيام ويعود الإنسان من جديد يطلب النعمة من المنعِم سبحانه ، يقول تعالى : ﴿ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ ۝٨ ﴾ [العلق]

ثم يتحدث الحق عن صفة أخرى فى الإنسان : ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا ۝٨٣ ﴾ [الإسراء] وهذه صفة مذمومة فى الإنسان الذى إذا ما تعرّض لشرٍّ أو مسَّه ضُرٌّ يقنط من رحمة الله ، وكأن الحق سبحانه يخاطب عبده الذى يقنط : لا يليق بك أن تقنط إذا ضاقتْ بك الدنيا ، وأنت مؤمن لا تعيش مع الأسباب وحدها إنما مع المسبِّب سبحانه ، وما دُمْتَ فى رحاب مُسبِّب الأسباب فلا تيأس ولا تقنط .

لذلك يقولون : « لا كَرْبَ وأنت ربٌّ » ، فيجوز لك القنوط إن لم يكُنْ لك رَبٌّ يتولاَّك ، أما والرب موجود فلا يليق بك ، كيف ومَنْ له أب لا يُلقى لهموم الدنيا بالاً ، ويستطيع أن يعتمد عليه فى قضاء حاجاته ، فما بالك بمَنْ له رَبٌّ يرعاه ويتولاَّه ، ويستطيع أن يتوجه إليه ، ويدعوه فى كل وقت ؟

والحق سبحانه حينما يُنبِّهنا إلى هذه المسألة يريد أنْ يُعطينا الأُسْوة به سبحانه وتعالى ، يريد أن يقول للإنسان : لا تحزن إن

أدَّيْتَ للناس جميلاً فأنكروه ، أو معروفاً فجحدوه ، وكيف تحزن وهم يفعلون هذا معى ، وأنا ربُّ العالمين ، فكثيراً ما أُنعِم عليهم ، ويُسيئون إلىَّ ، ويكفرون بى وبنعمتى .

وسيدنا موسى ـ عليه السلام ـ حينما طلب من ربه تعالى ألاَّ يُقال فيه ما ليس فيه ، قال له ربه : كيف ، وأنا لم أفعل ذلك لنفسى ؟! إنهم يفترون على الله ما ليس فيه ، ويكفرون به سبحانه وينكرون إيجاده ونعمه ، فَمَنْ يغضب لقول الكافرين أو إيذائهم له بعد هذا ؟

لكن ، لماذا ييأس الإنسان ويقنط ؟ لأنه فى حال النعمة أعرض عن الله ونأى بجانبه : أى ابتعد عن ربه ، لم يَعُدْ له مَنْ يدعوه ويلجأ إليه أن يُفرِّج عنه ضيق الدنيا .

إذن : لما أعرض فى الأولى يَئِس فى الثانية . والله تعالى يجيب مَنْ دعاه ولجأ إليه حال الضيق حتى إنْ كان كافراً ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ .. (٦٧) ﴾ [الإسراء]

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلاً (٨٤) ﴾

أى : أن كل إنسان يعمل على طريقته ، وعلى طبيعته ، وعلى مقدار ما تكونت به من خلايا الإيمان ، أو من خلايا إيمان اختلطت بخلايا عصيان ، أو بما عنده من خلايا كفر ، فالناس مختلفون

وليسوا على طبع واحد ، فلا تحاول - إذن - أن تجعل الناس على طبع واحد .

وما دام الأمر كذلك ، فليعمل كل واحد على شاكلته ، وحسب طبيعته ، فإنْ أساء إليك إنسان سيء الطبع فلا تقابله بسوء مثله ، ولتعمل أنت على شاكلتك ، ولتقابله بطبع طيّب ؛ لذلك يقولون : لا تُكافىء مَنْ عصى الله فيك بأكثر من أنْ تطيع الله فيه . وبذلك يستقيم الميزان فى المجتمع ، ولا تتفاقم فيه أسباب الخلاف .

ثم يقول تعالى : ﴿فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلاً (٨٤)﴾ [الإسراء] والربُّ : المتولّى للتربية ، والمتولّى للتربية لا شكَّ يعلم خبايا المربَّى ، ويعلم أسراره ونواياه ، كما قال تعالى : ﴿أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤)﴾ [الملك]

ثم يقول الحق تبارك وتعالى[1] :

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا (٨٥)﴾

---

(١) **سبب نزول الآية** : عن عبد الله بن مسعود قال : بينا أنا مع النبى ﷺ فى حرث بالمدينة وهو متكىء على عسيب ، فمر بنا ناس من اليهود فقالوا : سلوه عن الروح . فقال بعضهم : لا تسألوه فيستقبلكم بما تكرهون ، فأتاه نفر منهم فقالوا : يا أبا القاسم ما تقول فى الروح ؟ فسكت ثم ماج ، فأمسكت بيدى على جبهته ، فعرفت أنه ينزل عليه ، فأنزل الله عليه ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً (٨٥)﴾ [الإسراء] أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٧٢١) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٧٩٤) .

قال ابن كثير فى تفسيره (٣/٦٠) : « هذا السياق يقتضى فيما يظهر بادى الرأى أن هذه الآية مدنية ، وأنها نزلت حين سأله اليهود عن ذلك بالمدينة مع أن السورة كلها مكية ، وقد يجاب عن هذا بأنه قد تكون نزلت عليه بالمدينة مرة ثانية كما نزلت عليه بمكة قبل ذلك ، أو أنه نزل عليه الوحى بأنه يجيبهم عما سألوه بالآية المتقدم إنزالها عليه » .

والسؤال يَرِد فى القرآن بمعان متعددة ، ووردتْ هذه الصيغة ﴿ يَسْأَلُونَكَ ﴾ فى مواضع عدّة ، فإنْ كان السؤال عن شىء نافع يضر الجهل به أجابهم القرآن ، كما فى قوله تعالى : ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ .. (٢٢٢)﴾ [البقرة]

وقوله تعالى : ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٢١٥)﴾ [البقرة]

فإنْ كان السؤال عن شىء لا يضر الجهل به ، لفت القرآن أنظارهم إلى ناحية أخرى نافعة ، كما فى سؤالهم عن الأهلّة : كيف يبدو الهلال صغيراً ثم يكبر ويكبر إلى أن يصير بدراً ، ثم يأخذ فى التناقص ليعود كما بدأ ؟

فالحديث مع العرب الذين عاصروا نزول القرآن فى هذه الأمور الكونية التى لم نعرفها إلا حديثاً أمر غير ضرورى ، وفوق مستوى فهمهم ، ولا تتسع له عقولهم ، ولا يترتب عليه حكم ، ولا ينتج عن الجهل به ضرر ، ولو أخبرهم القرآن فى إجابة هذا السؤال بحقيقة دوران القمر بين الأرض والشمس وما يترتب على هذه الدورة الكونية من ليل ونهار ، وهم أمة أُميّة غير مثقفة لاتهموا القرآن بالتخريف ، ولربما انصرفوا عن أصل الكتاب كله .

لكن يُحوِّلهم القرآن ، ويُلفت أنظارهم إلى ما يمكن الانتفاع به من الأهلَّة : ﴿قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ .. (١٨٩)﴾ [البقرة]

وقد يأتى السؤال ، ويُرَاد به اختبار رسول الله ﷺ ، ومن ذلك ما حدث من اتفاق كفار مكة واليهود حيث قالوا لهم : اسألوه عن

الروح ، وهم يعلمون تماماً أن هذه مسألة لا يعلمها أحد ، لكنهم أرادوا الكيد لرسول الله ، فلعله يقول فى الروح كلاماً يأخذونه عليه ويستخدمونه فى صَرْف الناس عن دعوته[1] .

ولا شكَّ أنه سؤال خبيث ؛ لأن الإنسان عامة يحب أن يظهر فى مظهر العالم ، ولا يحب أن يعجز أمام محاوره فاستغلوا هذه العاطفة ، فالرسول لن يُصَغِّر نفسه أمام سائليه من أهل مكة ، وسوف يحاول الإجابة عن سؤالهم .

ولكن خَيَّب الله سَعْيهم ، فكانت الإجابة : ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً (٨٥)﴾ [الإسراء]

فعندما سمع أهل الكتاب هذه الإجابة آمن كثيرون منهم ؛ لأنها طابقت ما قالته كتبهم عن الروح ، وأنها من عند الله .

و (الرُّوح) لها إطلاقات مُتعدِّدة ، منها : الرُّوح التى تمدُّ الجسم بالحياة إن اتصلت به ، كما فى قوله تعالى : ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٢٩)﴾ [الحجر]

فإذا ما فارقتْ هذه الروح الجسد فقد فارق الحياة ، وتحوَّل إلى جثة هامدة ، وفيها يقول تعالى : ﴿فَلَوْلا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ (٨٣)﴾

[الواقعة]

وقد تأتى الروح لتدل على أمين الوحى جبريل عليه السلام ، كما فى قوله تعالى : ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣)﴾ [الشعراء]

---

(١) أخرج أحمد فى مسنده (٣/ ٦٠) عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قالت قريش ليهود : أعطونا شيئاً نسأل عنه هذا الرجل ، فقالوا : سلوه عن الروح ، فنزلت ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً (٨٥)﴾ [الإسراء] .

وقد تُطلَق الروح على الوحى ذاته ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا (٥٢) ﴾ [الشورى]

وتأتي بمعنى التثبيت والقوة ، كما فى قول الله تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ .. (٢٢) ﴾ [المجادلة]

وأُطلِقَتْ الروح على عيسى ابن مريم ـ عليه السلام ـ فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ .. (١٧١) ﴾ [النساء]

إذن : لهذه الكلمة إطلاقات مُتعدِّدة ، فما العلاقة بينها ؟

قالوا : الروح التى بها حركة الحياة إذا وُجِدَتْ فى الإنسان تعطى مادية الحياة ، ومادية الحياة شىء ، وقيَمُ الحياة شىء آخر ، فإذا ما جاءك شىء يعدل لك قيم الحياة فهل تُسمِّيه روحاً ؟ لا ، بل هو روح الروح ؛ لأن الروح الأُولى قصاراها الدنيا ، لكن روح المنهج النازل من السماء فخالدة فى الآخرة ، فأيُّهما حياته أطول ؟

لذلك فالحق سبحانه يُنبِّهنا : إياك أنْ تظنَّ أن الحياة هى حياتك أنت وكونك تُحسُّ وتتحرك وتعيش طالما فيك روح ، لا بل هناك روح أخرى أعظم فى دار أخرى أبْقى وأدْوم : ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٦٤) ﴾ [العنكبوت]

لأن الروح التى تعيش بها فى الدنيا عُرْضة لأنْ تُؤخَذ منك ، وتُسلَب فى أىِّ مرحلة من مراحل حياتك منذ وجودك جنيناً فى بطن أمك ، إلى أنْ تصير شيخاً طاعناً فى السنِّ .. أما روح الآخرة ، وهى روح القيم وروح المنهج ، فهى الروح الأقْوى والأبْقى ؛ لأنها لا يعتريها الموت .

إذن : سُمّى القرآن ، وسُمّى الملَك النازل به روحاً ؛ لأنه سيعطينى حياة أطول هى حياة القيم فى الآخرة .

وهنا يقول تعالى : ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى .. (٨٥)﴾ [الإسراء]

أى : أن هذا من خصوصياته هو سبحانه ، وطالما هى من خصوصياته سبحانه ، فلن يطلع أحداً على سرِّها . وهل هى جوهر يدخل الجسم فيحيا ويسلب منه فيموت ، أم هى مراد (بكُنْ) من الخالق سبحانه ، فإنْ قال لها كُنْ تحيا ، وإنْ قال مِتْ تموت ؟

إنّ علم الإنسان سيظل قاصراً عن إدراك هذه الحقيقة ، وسيظل بينهما مسافات طويلة ؛ لذلك قال تعالى بعدها : ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً (٨٥)﴾ [الإسراء]

وهل عرف العقل البشرى كل شىء حتى يبحث فى أسرار الروح ؟!

ولما تعرَّض أحد رجال الصوفية للنقد ، واعترض عليه أحد الأشخاص فقال له الصوفى : وهل أَحَطْتَ عِلْماً بكل شىء فى الكون ؟ قال الرجل : لا ، قال : فأنا من الذى لا تعلم .

والحق سبحانه وتعالى حينما يعطينا فكرة عن الأشياء لا يعطينا بحقائق ذاتها وتكوينها ؛ لأن أذهاننا قد لا تتسع لفهمها ، وإنما يعطينا بالفائدة منها . فحين حدثنا عن الأهِلّة قال : ﴿قُلْ هِىَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ .. (١٨٩)﴾ [البقرة]

وهذه هى الفائدة التى تعود علينا والتى تهمنا من الأَهِلّة ، أما حركتها ومنازلها والمراحل التى تمر بها الأَهِلّة فأمور لا يضر الجهل بها ؛ ذلك لأن الاستفادة بالشىء ليستْ فرعاً لفهم حقيقته ، فالرجل

الأُميّ فى ريفنا يقتنى الآن التلفاز وربما الفيديو ، ويستطيع استعمالهما وتحويل قنواتهما وضبطهما ، ومع ذلك فهو لا يعرف كيف تعمل هذه الأجهزة ؟ وكيف تستقبل ؟

إذن : الاستفادة بالشىء لا تحتاج معرفة كل شىء عنها ، فيكفيك - إذن - أنْ تستفيد بها دون أن تُدخِل نفسك فى متاهات البحث عن حقيقتها .

والحق سبحانه وتعالى ينبهنا إلى هذه المسألة فى قوله تعالى : ﴿وَلا تَقْفُ[1] مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ .. (٣٦)﴾ [الإسراء] لأن الخالق سبحانه يريد للإنسان أن يُوفّر طاقاته الفكرية ليستخدمها فيما يُجدى ، وألاَّ يُتعِب نفسه ويُجهدها فى علم لا ينفع ، وجهل لا يضر .

فعلى المسلم بدل أن يشغل تفكيره فى مثل مسألة الروح هذه ، أنْ ينشغل بعمل ذى فائدة له ولمجتمعه . وأىّ فائدة تعود عليك إنْ توصلت إلى سرٍّ من أسرار الروح ؟ وأىّ ضرر سيقع عليك إذا لم تعرف عنها شيئاً ؟

إذن : مناط الأشياء أن تفهم لماذا وجدت لك ، وما فائدتها التى تعود عليك .

والحق سبحانه حينما قال : ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً (٨٥)﴾[الإسراء] كان يخاطب بها المعاصرين لرسول الله منذ ما يزيد على ألف وأربعمائة عام ، وما زال يخاطبنا ويخاطب مَنْ بعدنا ، وإلى أن تقوم الساعة بهذه الآية مع ما توصلتْ إليه البشرية من علم ،

---

(١) أى : لا تتبع من العقائد ما ليس لك به علم ولا من الآراء ولا من الأحداث ما لا تعرف له دليلاً ، ولا تسترسل فى الحديث عما ليس لك به علم . [القاموس القويم ١٢٨/٢] .

وكأنه سبحانه يقـول : يا ابن آدم ، الزم غرزك ، فإن وقفت على سرٍّ فقد غابتْ عنك أسرار .

وقد أوضح الحق سـبحانه لنا هذه المسـألة فى قوله : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ .. (٥٣) ﴾ [فصلت]

وهاهم العلمـاء والباحـثون يقـفون كل يوم على جـديد فى الكون الفـسـيح وفى الإنسـان ، ولو تابعتَ مـا توصّل إليـه علماء الـفضـاء ورجـال الطب لَهالكَ مـا توصَّلوا إليـه من آيات وعجـائب فى خَلْق الله تعـالـى ، لكن هل مـعـنى ذلك أننا عـرفنا كل شىء ؟ إن كـلمـة ﴿ سَنُرِيهِمْ ﴾ ستظل تعمل إلى قيام الساعة .

والمتتـبع لطموحات العـقول وابتكاراتها يجد التطور يسـير بخُطىً واسعة ، فـفى الماضى كان التقدم يُقَاسُ بالقـرون ، أما الآن ففى كل يوم يطلع علينا حديث وجـديد ، ونرى الأجهزة تُصنع ولا تُسـتعمل ؛ لأنها قبل أنْ تُبَاع يخرج عليها أحـدث منها ، لكن كلها زخارف الحياة وكـماليـاتهـا ، كـما قـال تعـالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ .. (٢٤) ﴾ [يونس]

فكلُّ مَا نراه من تقدُّم ليس من ضروريات الحياة ، فقد كُنَّا نعيش بخـير قـبل أن نعـرف الكهـرباء ، وكُنَّا نشرب فـى الفخـار والآن فى الكريستـال ، فابتكارات الإنسان فى الكمـاليات ، أما الضروريات فـقد ضمنها الخالق سبحانه قبل أن يوجد الإنسان على هذه الأرض .

فـإذا ما اسـتنفدتْ العـقـول البشـرية نشـاطاتها ، وبلغتْ مُنتـهى مَا لديها من ابتكارات ، حـتى ظنَّ الناس أنهم قادرون على التحكم فى

زمام الكون ، لا يعجزهم فيه شيء ، كما قال تعالى : ﴿ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ[1] بِالأَمْسِ .. (٢٤) ﴾ [يونس]

فبعد ما أخذتم أسرار المنعِم فى الكون على قَدْر ما استطعتم ، فاذهبوا الآن إلى المنعِم ذاته لتروا النعيم على حقيقته ، وكلما رأيت فى دنيا الناس ابتكارات واختراعات تُسعد الإنسان ، فهذا ما أعدَّ البشر للبشر ، فكيف بما أعدَّ الله الخالق لخَلْقه ؟

فالمفروض أن زخارف الحياة وزينتها وكمالياتها لا تدعونا إلى الحقد أو الحسد لمن توفرتْ لديه ، بل تدعونا إلى مزيد من الإيمان والشوق إلى النعيم الحقيقى عند المنعِم سبحانه .

ولو تأملتَ هذه الارتقاءات البشرية لوجدتها قائمة على المادة التى خلقها الله والعقل المخلوق لله والطاقة المخلوقة لله ، فَدوْر الإنسان أنه أعمل عقله وفكره فى المقوّمات التى خلقها الله ، لكن مهما وصلتْ هذه الارتقاءات ، ومهما تطورتْ هل ستصل إلى درجة : إذا خطر الشيء ببالك تجدْه بين يديك ؟

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا (٨٦) ﴾

---

(١) أى : كأنها ما كانت حيناً قبل ذلك . وقال قتادة : كأن لم تغن ، كأن لم تنعم . [تفسير ابن كثير ٢/٤١٣] .

الحق سبحانه فى هذه الآية يريد أنْ يُربِّى الكفار ويُؤنِّبهم ، ويريد أن يُبَرِّىء ساحة رسوله ﷺ ويتحمل عنه المسئولية ، فهو مجرد مُبلِّغ عن الله ، وإياكم أن تقولوا عنه مُفْتر ، أو أتى بشىء من عنده ، بدليل أننى لو شِئْتُ لسلبتُ ما أوحيتُه إليه وقرأه عليكم وسمعتموه أنتم وكتبه الصحابة .

فإنْ سأل متسائل : وكيف يذهب الله بوحى مُنزَّل على رسوله ، وحفظه وكتبه الصحابة ، وسمعه الكفار ؟

نقول : أولاً : سياق الآية يدلُّنا على أن هذه العملية لم تحدث ؛ لأن الحق سبحانه يقول ﴿وَلَئِن شِئْنَا .. (٨٦)﴾ [الإسراء] بمعنى : لو شِئْنا فعلنا ذلك ، فالفعل لم يحدث ، والمراد بيان إمكانية ذلك ليُبَرِّىء موقف رسول الله ، وأنه ليس له من الأمر شىء .

والغريب أن يفهم البعض من قوله تعالى : ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ .. (١٢٨)﴾ [آل عمران] أنها ضد رسول الله ، وقَدْح فى شخصه ، وليس الأمر كذلك ؛ لأنه ربه تبارك وتعالى يريد أنْ يتحمّل عنه ما يمكن أن يُفسِد العلاقة بينه وبين قومه ، وكأنه يقول لهم : لا تغضبوا من محمد فالأمر عندى أنا ، وشبَّهنا هذا الموقف بالخادم الذى فعل شيئاً ، فيأتى سيده ليدافع عنه ، فيقول : أنا الذى أمرته .

ثانياً : لماذا نستبعد فى قدرة الخالق سبحانه أن يسلب منَّا ما أوحاه لرسوله وحفظناه وكتبناه ، ونحن نرى فاقد الذاكرة مثلاً لا يكاد يذكر شيئاً من حياته ، فإذا ما أرادوا إعادة ذاكرته يقومون بإجراء عملية جراحية مثلاً ، فما أشبه هذه بتلك .

ونلاحظ فى الآية جملة شرطية ، أداة الشرط فيها « إنْ » ، وهى

تستخدم للأمر المشكوك فى حدوثه ، على خلاف « إذا » فتأتى للأمر المحقق .

ثم يُوضِّح لنا الحق سبحانه أنه إنْ ذهب بما أوحاه لرسوله ، فلن يستطيع أحد إعادته ﴿ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلاً (٨٦)﴾ [الإسراء]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا (٨٧)﴾

قوله تعالى ﴿إِلاَّ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ .. (٨٧)﴾ [الإسراء] أى : أنك لا تجد لك وكيلاً فى أىِّ شىء إلا من جانب رحمتنا نحن ، لأن فَضْلنا عليك كبير .

ثم يخاطب الحق سبحانه رسوله ﷺ ليعلن تحديه للعالمين :

﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (٨٨)﴾

(قُلْ) لا يقولها الحق سبحانه بينه وبين رسوله ، بل المراد : أعلنها يا محمد على الملأ ، وأسمِعْ بها الناس جميعاً ؛ لأن القضية قضية تَحَدٍّ للجميع .

﴿لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ .. (٨٨)﴾ [الإسراء] وهما الثَّقَلان اللذان يكونان أمة التكليف لما منحهما الله من نعمة الاختيار الذى هو مَنَاطُ التكليف . وقد أرسل النبى ﷺ إليهما جميعاً ، وقد استمعت الجن إلى

القرآن كما استمعت إليه البشر :

﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ .. (٢)﴾ [الجن]

والتحدِّى معناه الإتيان بآية معجزة يعجز عنها المعارض ، لكن من جنس ما نبغ فيه المعارض ، فلا يتحدّاهم بشىء لا علْم لهم به ، ولا خبرة لهم فيه ؛ لأنه لا معنى للتحدى فى هذه الحالة ولا جدوى منه ، كما لو تحدَّيْتَ إنساناً عادياً برفع الأثقال ولم يسبق له أن ارتاض هذه الرياضة ، إنما تتحدَّى بها بطلاً معروفاً عنه ممارسة هذه العملية .

لذلك جاءت كل معجزات الرسل من جنس ما نبغ فيه القوم ليكون التحدِّى فى محلِّه ، ولا يعترضون عليه بأنه خارج عن نطاق علمهم ومقدرتهم ، فكانت معجزة موسى ـ عليه السلام ـ العصا واليد ، وهى من جنس ما نبغ فيه قومه من السِّحْر ، وجاءت معجزة عيسى ـ عليه السلام ـ إحياء الموتى بإذن الله ، وإبراء الأكمه والأبرص ؛ لأن قومه نبغوا فى الطب ، وكانت معجزته ﷺ فى البلاغة والفصاحة التى نبغ فيها العرب .

وقد اقترح كفار مكة على رسول الله آيات معينة لإثبات صدْق رسالته ، لكن الآيات لا تُقترح على الله تعالى ؛ لأنه سبحانه هو الذى يختار الآيات التى تناسب الطباع وتكون معجزة تثبت صدْق رسوله ، وقد اقترحوا على رسول الله آيات ومعجزات فى مجالات لا علْم لهم بها ، فكيف يتحدّاهم الله فى مجال لا نبوغَ لهم فيه ، وليس لهم دراية به ؟

والحق سبحانه أنزل القرآن ، وجعله المعجزة الوحيدة لصدق محمد ﷺ ، وهو المعجزة الوحيدة لكل أمة الإسلام من لَدُن رسول الله إلى قيام الساعة . وهذا لا يمنع أن توجد معجزات كونية حدثتْ لرسول الله ليراها القوم الذين عاصروه ، ومثْل هذه المعجزات لا نطالب بها نحن ، ولا نطالب بالإيمان بها ، إلا إذا وردتْ من صادق معصوم ؛ لأن الهدف من هذه المعجزات تثبيت الإيمان برسول الله فى نفوس مَنْ شاهدوها ، فنبُوع الماء من بين أصابعه ﷺ ، وكَوْنُ الشجرة تسعى إليه والحيوان يُكلِّمه ، فالمقصود بهذه المعجزات مَنْ شاهدها وعاصرها ، لا مَنْ أتى بعد عصره ﷺ .

وفى القرآن خاصية تفرّد بها عن الكتب السابقة ، حيث نزل جامعاً بين أمرين : أنه منهج سماوى يُنظِّم حركة الحياة ، وهو فى الوقت نفسه معجزة مصاحبة للمنهج لا تنفكّ عنه إلى قيام الساعة .

أما الكتب السابقة فكانت تأتى بمنهج فقط ، أما المعجزة فشىء آخر منفصل عن الكتاب ، فمعجزة موسى العصا واليد وكتابه التوراة ، ومعجزة عيسى إبراء الأكمه والأبرص ، وكتابه الإنجيل ، أما محمد ﷺ فقد انفرد بأن تكون معجزته هى منهجه .

لذلك لما طلب كفار مكة من رسول الله أنْ يُفسح لهم جبال مكة ، ويُوسِّع عليهم الأرض ، وأنْ يُحيى لهم موتاهم ليشهدوا بصدقه ، خاطبهم الحق سبحانه بقوله : ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ الأَمْرُ جَمِيعًا .. (٣١) ﴾ [الرعد]

أى : كان فى القرآن غَنَاءٌ لكم عن كُلِّ هذه المسائل .

وقد اعترض المستشرقون على هذه القضية ، فقالوا : إنْ كانت

الرسالة المحمدية للناس كافة ، وجاءت معجزته فى البلاغة والفصاحة ليتحدَّى بها قومه من العرب ، فما لَوْنُ الإعجاز لغير العرب ؟

نقول : أولاً : إذا كان العرب الذين ارتاضوا على الملكَة العربية وأساليبها قد عجزوا أمام هذا التحدى ، فغيرهم ممَّنْ اتخذ العربية صناعة لا شكَّ أعجز .

ثانياً : مَنْ قال إن المعجزة فى القرآن فى فصاحته وبلاغته فقط ؟

لقد جاءت بلاغة القرآن وفصاحته للأمة المتلقِّية للدعوة الأولى ، هؤلاء الذين سيحملون عِبْءَ الدعوة ، ويَسيحُون بها فى شتى بقاع الأرض ، فإذا ما انتشرت الدعوة كانت المعجزة للناس الآخرين من غير العرب شيئاً آخر .

فالغيبيات التى يخبرنا بها ، والكونيات التى يُحدّثنا عنها ، والتى لم تكُنْ معلومة لأحد نجدها موافقة تماماً لما جاء به القرآن ، وهو مُنزَّل على نبى أُميٍّ ، وفى أُمة أُميّة غير مثقفة ، فهذه كلها نواحى إعجاز للعرب ولغيرهم ، وما زلْنا حتى الآن نقف أمام آيات ، وننتظر من العلم أنْ يكشفَ لنا عن معناها .

وفى الماضى القريب توصّل العلم إلى أن الذرة أصغر شىء فى الوجود ، وقد ذكر القرآن الذرة فى مثل قوله تعالى : ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨﴾ [الزلزلة]

وبتقدُّم وسائل البحث توصَّلوا إلى تفتيت الذرة أو شطرها ، ووجدنا فى الكون ما هو أقل من الذرة ، فظنّ البعض أن هذه لا ذكْر لها فى القرآن ، وظنوا أنهم تصيَّدوا على القرآن مأخذاً ، ولو أمعَنوا

النظر فى كتاب الله لوجدوا لهذا التطور العلمى رصيداً فى كتاب الله حيث قال تعالى :

﴿ وَمَا يَعْزُبُ[1] عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٦١) ﴾ [يونس]

والقرآن يقول (أصغر) لا صغير ، فلو فتَّتْنَا أجزاء الذرة لوجدنا لها رصيداً واحتياطاً فى كتاب الله ، ألاَ ترى فى ذلك إعجازاً ؟

إذن : تحدَّاهم الحق سبحانه بقوله : ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ .. (٨٨) ﴾ [الإسراء] وأُدخل الجنّ فى مجال التحدى ؛ لأن العرب كانوا يعتقدون أن لكل شاعر نابغ ، أو أديب مُفوَّه ، أو عبقرى عنده نبوغ بيانى شيطاناً يلهمه ، وهذه الشياطين تسكن وادياً عندهم يسمونه « وادى عَبْقَر » ، لذلك لم يكتَفِ القرآن بتحديهم هم ، بل تحدى أيضاً مَنْ يُلهمونهم ، أو مَنْ ينسبونَ إليهم القوة فى هذا الأمر .

ثم يقول تعالى : ﴿ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَـٰذَا الْقُرْآنِ .. (٨٨) ﴾ [الإسراء] فالتحدِّى أنْ يأتوا (بمثله) لأنه لا يمكن أنْ يأتوا به نفسه ؛ لأنه نزل من عند الله وانتهى الأمر ، فمستحيل أنْ يأتُوا به نفسه مرة أخرى ؛ لأن الواقع لا يقع مرتين .

إذن : المتصوَّر فى مجال التحدى أنْ يأتوا بمثله ، فلو قلت : هذا الشىء مثل هذا الشىء ، فلا شكَّ أن المشبَّه به أقوى وأصدق من المشبه ، ولا يرتقى المشبه ليكون هو المشبه به بل مثله ، فإذا انتفى المثل فقد انتفى الأصل من باب أَوْلَى .

فالحق سبحانه فى قوله : ﴿ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ .. (٨٨) ﴾ [الإسراء]

---

(١) أى : لا يغيب ولا يبعد عنه أى شىء ، فهو يعلم الصغير والكبير من الأمور والأشياء . [القاموس القويم ٢/١٨] .

لا ينفى عنهم أن يأتُوا بقـرآن ، بل بمثل القرآن ، فـإذا كانوا لا يأتون بالصورة ، فهل يقدرون على الأصل ؟!

ثم يقول تعالى زيادةً فى التحدِّى : ﴿وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (٨٨)﴾ [الإسراء]

والظهير : هو المعاون والمسـاعد والمعين على الأمر ، ومنه قوله تعالى : ﴿وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ (٤)﴾ [التحريم]

لأنه قد يقول قائل : إن هذه المهمة لا يقوم بها فرد واحد ، فقال لهم سبـحانه : بل هاتوا كل مـا لديكم من طاقات إبداعـية وعبـقريات بيانية ، واستـعينوا بما تزعمون من إلهام الجن ، وتعاونوا جـميعاً فى سبيل هذا التحدّى ، حتى إذا كان فى أحدكم نقص أكمله الآخر .

لكن ، هل ظَلَّ التحدى قائماً على أنْ يأتُوا بمثل القرآن ؟

المتتبع لهذا الموضـوع فى القرآن الكريم يجد الحق تبارك وتعالى يتنزَّل معهم فى القدر المطلوب لـلتحدِّى ، وهذا التنزُّل يدل على ارتقاء التحـدِّى ، فبـعد أنْ تحـدّاهم بأنْ يأتوا بمثل القـرآن ، تحدّاهم بعـشْر سُور[1] ، ثم تحدّاهم بسورة واحدة[2] ، وكلما تنزل معهم درجة ارتقى بالتحدى ، فـلا شكَّ أن تحديهم بسورة واحدة أبلغ من تحـديهم بمثل هذا القرآن .

وهذا التنزُّل الذى يفيد الارتقاء كما نجـمع مثلاً بين المتناقضات ،

---

(١) وذلك قوله تعالى : ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٣)﴾ [هود] .

(٢) يقول تعالى : ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ (٢٣)﴾ [البقرة] .

فنقول : صعد إلى الهاوية ، وانحدر إلى القمة . ومع هذا التنزُّل لم يستطيعوا الإتيان بمثل آية واحدة من كتاب الله .

ويجب أن نلتفت إلى مغزى آخر من وراء هذا التحدّى ، فليس الهدف منه تعجيز القوم ، بل أن نثبت لهم السواسية بين الخَلْق ، فالجميع أمام الإله الواحد سواء ، وهذه هى القضية التى تُزعجهم وتقضّ مضاجعهم ، والقرآن سيثبت لهم صدْق محمد ، وسيرفع من مكانته بين القوم ، وهم الذين يحاولون إيذاءه ويُدبِّرون لقتله .

ولذلك من غبائهم أن قالوا : ﴿لَوْلا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١)﴾ [الزخرف]

إذن : فاعتراضهم ليس على القرآن فى حَدِّ ذاته ، بل على محمد الذى نزل القرآن عليه ، فهم يحسدونه على هذه المكانة ، كما قال تعالى : ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ .. (٥٤)﴾[النساء]

وسبحان الله ، إذا كان الخَلْق يختلفون أمام رحمة الله فى مسائل الدنيا التى لهم فيها أسباب وسَعْى واجتهاد ، فكيف بالأمر الذى ليس فى أيديهم ؟ كيف يريدون التدخُّل فيه : ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ .. (٣٢)﴾ [الزخرف]

ثم يتحدث الحق سبحانه عن طبيعة الأداء القرآنى ، فيقول :

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَـٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا (٨٩)﴾

التصريف : هو التحويل والتنويع بأساليب مختلفة لزيادة البيان ،

والمراد أن القرآن الكريم لا يعالج القضايا بأسلوب رتيب جامد ، بل يُحوِّل الكلام بين أساليب متعددة ؛ لأنه يخاطب طباعاً متعددة ، ويتعرض أيضاً لموضوعات متعددة ومعانى مختلفة ، فلا بُدَّ أن يصرف الأسلوب ويَقلِبه على أكثر من وجه ، فالذى لا يفهم هذه يفهم هذه ، فيعرض المعنى الواحد بأساليب متعددة وأمثال مختلفة .

ونأخذ مثالاً على ذلك قضية القمة ، وهى الألوهية ووحدانية الله تعالى ، فنرى القرآن يعرضها فى معارض مختلفة هكذا : ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا .. (٢٢)﴾ [الأنبياء]

أى : فى السماء والأرض .

وهذا الأسلوب قد لا يفهمه غير العربى ؛ لأنه يفتقد الملَكَة اللغوية التى يتلقّى بها كلام الله ، وقد يعترض فيقول : (إلا) أداة استثناء . فالمعنى : لو كان فيهما آلهة خارج منهم الله لَفَسدتَا ، فلو كانت هناك آلهة ومعهم الله فهذه لا تجوز ؛ لأنها مشاركة ، لكنها تفيد أن الله تعالى موجود ، وإنْ كان معه آخرون ، والمنطق فى هذه الحالة يقول : لو كان فى السماء والأرض آلهة ومعهم الله لا تفسد .

لكن الحقيقة أن (إلاَّ) هنا ليس للاستثناء ، بل هى اسم بمعنى (غير) . فالمعنى إذن : لو كان فيهما آلهة غير الله لَفسدتَا .

ثم يعرضها بأسلوب آخر ، فيقول تعالى : ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَـٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ.. (٩١)﴾ [المؤمنون]

فالحق تبارك وتعالى مُنزّه عن الولد والشريك ، إذ لو كان معه إله

آخر لَذهبَ كل إلـه بما خلق ، واختصّ نفسه بمنطقة معينة ، ولعلا بعضُهم على بعض ، فإن أرادوا إبراز شىء للوجود ، فأيّهما يبرزه ؟ إنْ قدر على إبراز واحد فالآخر عاجز ، وإنْ لم يقدر عليه واحد بمفرده ، فهما عاجزان لا يصلحان للألوهية .

ثم يعرض نفس القضية بأسلوب آخر ، فيقول : ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَى ذِى الْعَرْشِ سَبِيلاً (٤٢)﴾ [الإسراء]

أى : إنْ كان مع الله آلهة كما يدَّعى المشركون لَذهَب هؤلاء الآلهة إلى ذى العرش يُعاتبونه أو يُؤدِّبونه ، أو يُعاقبونه ؛ لأنه انفرد بالملْك من دونهم .

وبأسلوب آخر يقول تعالى : ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ .. (١٨)﴾ [آل عمران]

ولم يَأْتِ مَنْ ينازعه هذه المكانة ، أو يدَّعيها لنفسه ، إذن : فقد ثبتتْ له هذه القضية إلى أنْ يوُجَد معارض ، فالمختلف فيه يتفق عليه إنْ لم يظهر له معارض .

وسبق أن ضربنا لذلك مثلاً ، ولله المثل الأعلى : هَبْ أن جماعة انصرفوا من مجلس ، ثم وجد صاحب البيت حافظة نقود فى مكان مجلسهم فعرضها عليهم ، فلم يدَّعها أحد لنفسه إلا رجل واحد قال : هى لى ، أيشكُّ صاحب البيت أنها له ؟

نرى هذا التصريف أيضاً فى أسلوب القرآن فى مسألة ادعاء أن لله تعالى ولداً ، تعالى الله عمَّا يقول المبطلون عُلُواً كبيراً ، فيعرضها القرآن هكذا : ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ

اللَّه .. (٣٠) ﴾ [التوبة] فيردُّ القرآن هذا الزعْم بقوله تعالى : ﴿ بَدِيعُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ .. (١٠١) ﴾[الأنعام]

وفي موضع آخر يعرض المسألة هكذا : ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ (٥٧) ﴾ [النحل]

أى : فإن كنتم تريدون مقاسمة الخالق سبحانه ، فهل يليق أنْ تأخذوا أنتم البنين ؛ لأنهم المفضلون حَسْب زعمكم ، وتتركون له تعالى البنات : ﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَىٰ (٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ (٢٢) ﴾ [النجم] أى : قسمة جائرة .

وهكذا يُصرِّف القرآن أسلوبه ، ويُحوّله ليقنع به جميع العقول ؛ ليناسب كل الطباع . وتمتاز لغة العرب بالمثل والحكمة ؛ لذلك كان من التصريف فى أسلوب القرآن استخدام المثل ، وهو تعبير مُوجَز ، يحمل المعانى الكثيرة وتتعشق لفظه ، وتقوله كما هو دون تغيير إذا جاءت مناسبته .

فإذا أرسلتَ أحداً فى مهمة أو جماعة ، فيمكنك حين عودتهم تقول لهم مستفهماً : (ماذا وراءك يا عصام ؟) هكذا بصيغة المؤنثة المفردة ، لأن المثل قيل هكذا ، حيث أرسل أحدهم امرأة تسمى عصام لتخطب له إحدى النساء وحينما أقبلتْ عليه خاطبها بهذه العبارة ، فصارت مثلاً[1] .

وكما تقول لصاحبك الذى يتعالى عليك : (إن كنت ريحاً فقد لاقيت إعصاراً) إذن : المثل يمتاز بأنه يثبت على لفظه الأول ولا يتغير عنه .

أما الحكمة فهى : قول شارد يقوله كل واحد ، وهو كلام يقلُّ لفظه ، ويجلُّ معناه .

---

(١) ذكر ابن منظور فى لسان العرب (مادة : عصم) هذا المثل ولكن للمذكر ، ثم قال : « عصام هو اسم حاجب النعمان بن المنذر ، وهو عصام بن شهير الجَرْمىّ » وقد ذكره الزركلى فى الأعلام (٤/٢٣٣) .

كما تقول : « رُبَّ أخ لك لم تَلِدْهُ أمك » .

« لا تُعلِّم العَوانُ الخمْرة »[١] .

« إن المنبتَّ[٢] لا أرضاً قطع ، ولا ظهراً أبقى » أى : أن الذى يُجهِد دابته فى السير لن يصل إلى ما يريد ؛ لأنها ستنقطع به ولا تُوصِّله .

ومن الحكمة هذه الأبيات الشعرية التى صارت حكمة متداولة :

وَمَنْ يكُ ذَا فَمٍ مُرٍّ مَرِيضٍ يَجِدْ مُرّاً بِهِ المَاءَ الزُّلاَلاَ[٣]

وقوله :

وأَتْعَس النَّاسِ حَظّاً مَنْ تكونُ لَه نَفْسُ الملُوكِ وحالاتُ المساكين

وهَبْ أن ولدك أهمل دروسه طوال العام وعند الامتحان أخذ يجدّ ويَجْتهد ويُرهق نفسه ، هنا يمكنك أن تقول له : (قبل الرماء تُملأُ الكنائن) والكنانة هى المخلاة التى تُوضَع بها السهام ، وهذه لا بُدَّ أنْ يُعدّها الصياد قبل صَيْده لا وقت الصيد .

إذن : لأهمية المثل فى لغة العرب جعله القرآن لَوْناً أسلوبياً ، وأداة للإقناع ، كما فى قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا .. (٢٦)﴾ [البقرة]

لأن الله تعالى يخاطب بالقرآن عقولاً مختلفة وطبائع متعددة ؛ لذلك لا يستحى أن يضرب المثل بأحقر مخلوقاته لِيُقنِعَ الجميع كُلاً بما يناسبه .

---

(١) قال ابن برى : أى المجرِّب عارف بأمره ، كما أن المرأة التى تزوجت تُحسن القناع بالخمار . [لسان العرب ـ مادة : عون] .

(٢) الانبتات : الانقطاع . والمنبت فى الحديث : الذى أتعب دابته حتى عطب ظهره ، فبقى منقطعاً به . [لسان العرب ـ مادة : بتت] فلا هو وصل إلى غايته من سفره ، ولا هو حافظ على دابته .

(٣) الماء الزلال : سريع النزول والمرّ فى الحلق . وقيل : هو الماء العذب الصافى . [لسان العرب ـ مادة : زلل] .

وقوله : ﴿ فَمَا فَوْقَهَا ﴾ قد يقول قائل : ولماذا قال ﴿ فَمَا فَوْقَهَا ﴾ ، فالعجيب هنا مسألة الصِّغَر ؟

نقول : المراد بما فوقها . أى : فى المعنى المراد ، وهو الصِّغر . أى : ما فوقها فى الصِّغر لا أكبر منها .

ثم يأتى بالمعنى فى صورة أخرى :

﴿ يَـأَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣) ﴾ [الحج]

وفى آية أخرى يقول سبحانه : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٤١) ﴾ [العنكبوت]

إذن : يُصرِّف الله الأمثال ويُحوِّلها ليأخذ كل طَبْع ما يناسبه وما يقتنع به ، وليس القرآن على وتيرة واحدة أو مزيج واحد يعطى للجميع . بل يُشخّص الداءات ويُحلِّلها ويعالجها بما يناسبها ؛ لذلك يأتى الأسلوب مختلفاً .

وهذه المسألة واضحة فى الحديث النبوى الشريف ، حيث كان الصحابة يسألون رسول الله ﷺ السؤال الواحد ، وتأتى الإجابة مختلفة من شخص لآخر ، فقد سُئل ﷺ كثيراً : ما أفضل الأعمال يا رسول الله ؟ فقال للسائل : « الصلاة لوقتها »[1] . وقال لآخر :

---

(١) عن عبد الله بن مسعود قال : سألت رسول الله ﷺ : أىُّ العمل أفضل ؟ قال : « الصلاة لوقتها » أخرجه مسلم فى صحيحه (٨٥) كتاب الإيمان .

« بر الوالدين »[١] وقال لآخر : « أنْ تلقَى أخاك بوجه طَلْق »[٢] .

وهكذا جاءت الإجابة مختلفة من شخص لآخر ؛ لأن رسول الله ﷺ يراعى حال سائله ، ويحاول أنْ يعالج نقطة الضعف فيه ، فالأمر ليس (أكلشيه) ثابتاً يعطيه للجميع ، بل هى مراعاة الأحوال والطباع .

ثم يقول تعالى : ﴿فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾﴾ [الإسراء]

نعرف أن (إلاّ) أداة استثناء ، تُخرج ما بعدها من حكم ما قبلها ، كما تقول : جاء القوم إلا زيداً ، ولو طبَّقْنَا هذه القاعدة على الآية لا يستقيم معناها ، كما لو قلت : ضربت إلا زيدا ، والآية أسلوب عربى فصيح .

نقول : لأن معنى أبى : لم يقبل ولم يَرْضَ ، فالمراد : لم يَرْضَ إلا الكفور ، فلا بُدَّ للاستثناء المفرّغ أنْ يُسبق بنفى .

ثم يقول الحق سبحانه[٣] :

﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾﴾

---

(١) قال أبو عمرو الشيبانى : أخبرنا صاحب هذه الدار ـ وأومأ بيده إلى دار عبد الله ـ قال : سألت النبى ﷺ : أى العمل أحب إلى الله عز وجل ؟ قال : « الصلاة على وقتها . قال : ثم أى ؟ قال : ثم بر الوالدين » أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٩٧٠) ، ومسلم فى صحيحه (٨٥) كتاب الإيمان .

(٢) عن أبى ذر رضى الله عنه قال قال لى النبى ﷺ : « لا تحقرن من المعروف شيئاً ، ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق » أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٦٢٦) ، وكذا أخرجه أحمد فى مسنده (١٧٣/٥) .

(٣) **سبب نزول الآية** : ذكر الواحدى فى أسباب النزول (ص ١٦٨ ـ ١٧٠) عن ابن عباس أن عتبة وشيبة وأبا سفيان والنضر بن الحارث والوليد بن المغيرة وأبا جهل ورؤساء قريش اجتمعوا على ظهر الكعبة فقال بعضهم لبعض : ابعثوا إلى محمد وكلموه وخاصموه حتى تعذروا به ، فبعثوا إليه : إن أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك ، فجاءهم سريعاً وهو يظن أنه بدا فى أمره بداء ، وكان عليهم حريصاً يحب رشدهم ويعزّ عليه تعنتهم حتى جلس إليهم » ودار بينهم نقاش طويل ذكره الواحدى بطوله ، فنزلت الآية .

(لَنْ) تفيد تأبيد نَفْى الفعل فى المستقبل ، تقول : أنا لم أصنع هذا ، ولن أصنعه . أى : فى المستقبل .

ومعلوم أن الإنسان ابن أغيار ، لا يحكمه حال واحد بل هو مُتقلِّب بين أحوال شتى طوال حياته ، والله تعالى وحده هو الذى لا يتغيّر ، وما دام الإنسان ابنَ أغيار ويطرأ عليه حال بعد حال ، فليس له أنْ يحكمَ على شىء حُكْماً قاطعاً فى مستقبل هو لا يملكه ، فالذى يملك الحكم القاطع هو الحق سبحانه الذى لا تتناوله الأغيار .

لذلك ؛ فالإنسان مثلاً إذا صعد حتى القمة نخاف عليه الهبوط ؛ لأنه من أهل الأغيار ، ولا يدوم له حال ، إذن : فماذا بعد القمة ؟

وقد عَبَّر الشاعر عن هذا المعنى بقوله :

إِذَا تَمَّ شَىءٌ بَدَا نَقْصُهُ تَرقَّبْ زَوَالاً إِذَا قِيل تَمّ

والعجيب أن الناس يتطلعون فى نعمة الله إلى التمام ، فيقول أحدهم : يا حبَّذا ، لو حدث كذا لَتَمّت هذه النعمة ، وهم لا يدرون أن هذا النقص فى النعمة سبب بقائها ، فلو تَمَّتْ لك النعمة وأنت من أهل الأغيار ، فماذا تنتظر إلا زوالها ؟

فَلْيَرْضَ كلُّ صاحب نعمة بما فيها من نقص ، فلعل هذا النقص يردُّ عنه عَيْن حاسد ، أو حقد حاقد .

فبعض الناس يرزقه الله بالأولاد ويُعينه على تربيتهم ، ولحكمة يفشل أحدهم فيحزن لذلك ، ويألم أشد الألم ، ويقول : لو أن هذا الولد .. وهو لا يدرك حكمة الله من وراء هذا النقص ، وأنه حارسٌ للنعمة فى الآخرين ، وأنه التميمة التى تحميه وتردُّ عنه ما يكره .

لذلك لما أراد المتنبى[١] أن يمدح سيف الدولة[٢] قال له :

شَخِصَ الأَنامُ إلى كَمَالِكَ فَاسْتَعِذْ مِنْ شَرِّ أَعْيُنِهِمْ بعَيْبٍ وَاحِدِ

أى : نظروا إليك معجبين بما فيك من كمال ، فاعملِ عملاً سيئاً واحداً يصد عنك شرَّ أعينهم .

إذن : (لن)تفيد تأبيد النفى فى المستقبل ، وهذا أمر لا يملكه إلا مالك الأحداث سبحانه وتعالى ، أمّا صاحب الأغيار فليس له ذلك ، والذين آمنوا فيما بعد برسول الله ممَّنْ قالوا هذه المقولة : ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾﴾ [الإسراء]

نستطيع أن نقول لهم : لقد أوقعتْكم (لن) فى الكذب ؛ لأنكم أبَّدتُم نَفْى الإيمان ، وها أنتم مؤمنون ، ولم يُفجِّر لكم النبى ينبوعاً من الأرض .

وعند فتح مكة وقف عكرمة بن أبى جهل وقال فى الخَنْدَمَة[٣]

---

(١) المتنبى : هو أحمد بن الحسين أبو الطيب الكندى ، ولد (٣٠٣ هـ) بالكوفة فى محلة تسمى كندة ، نشأ بالشام ، ثم تنقل فى البادية يطلب الأدب وعلم العربية ، قال الشعر صبياً ، تنبأ فى بادية السماوة ، أسره أمير حمص وسجنه حتى تاب ورجع عن دعواه ، توفى ٣٥٤ هـ عن ٥٢ عاماً [الأعلام للزركلى ١/١١٥] .

(٢) هو : على بن عبد الله بن حمدان التغلبى ، أبو الحسن سيف الدولة ، ولد فى ميافارقين بديار بكر عام ٣٠٣ هـ ، له أخبار ووقائع مع الروم كثيرة ، ملك واسط ودمشق وحلب وتوفى بها ودفن فى ميافارقين عام ٣٥٦ هـ عن ٥٣ عاماً . [الأعلام للزركلى ٤/٣٠٣] .

(٣) الخندمة : جبل معروف عند مكة ، قال ابن برى : كانت به وقعة يوم فتح مكة ، ومنه يوم الخندمة ، وكان لقيهم خالد بن الوليد فهزم المشركين وقتلهم . [لسان العرب ـ مادة : خندم] .

وكان عكرمة بن أبى جهل قد قال قبل هذا عن أذان بلال بن رباح للظُّهْر فوق ظَهْر الكعبة يوم فتح مكة : لقد أكرم الله أبا الحكم (يقصد أباه أبا جهل) حيث لم يسمع هذا العبد يقول ما يقول . [دلائل النبوة للبيهقى ٤/٣٢٨] .

ما قال ، ثم رجع إلى النبى ﷺ مؤمناً معتذراً[1] وخرج محارباً مع خالد بن الوليد فى اليرموك ، وحين طُعِن الطعنة المميتة ، وحمله خالد ، فإذا به يقول له : أهذه ميتة تُرضِى عنى رسول الله ؟

إذن : مَنْ يقول كلمة عليه أن يكون قادراً على تنفيذها ، مالكاً لزمامها ، ضامناً لنفسه ألاَّ يتغير ، وألاَّ تتناوله الأغيار ، ولا يملك ذلك إلا الله سبحانه وتعالى .

والمتدبّر لأسلوب القرآن فى سورة (الكافرون) يجد هذه المسألة واضحة ، حيث يقول تعالى : ﴿قُلْ يَـٰأَيُّهَا الْكَافِرُونَ ① لاأَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ② وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ③ وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ④﴾ [الكافرون]

هكذا نفتْ الآية عبادة كل منهما لإله الآخر فى الزمن الحاضر ، ثم يقول تعالى : ﴿وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ④ وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ⑤﴾ [الكافرون] لينفى أيضاً احتمال العبادة فى المستقبل ، إذن : فليس فى الآية تكرار ، كما يرى بعض قِصَار النظر .

ولك الآن أنْ تسألَ : كيف نفى القرآن الحدث فى المستقبل ؟ نقول : لأن المتكلّم هنا هو الحق سبحانه وتعالى الذى يملك الأحداث ولا تُغيِّره الأغيار ، ولا تتسلط عليه ، فحكم على المستقبل هذا الحكم القاطع وأبَّد النَّفى فيه .

---

(١) فَرَّ عكرمة بن أبى جهل فركب البحر فأصابهم عاصف ، فقال أصحاب السفينة : أخلصوا فإن آلهتكم لا تغنى عنكم ههنا شيئاً . فقال عكرمة : « والله لئن لم ينجنى فى البحر إلا الإخلاص لا ينجينى فى البر غيره ، اللهم إن لك علىّ عهداً إن عافيتنى مما أنا فيه أن آتى محمداً حتى أضع يدى فى يده فلأجدنه عفواً كريماً قال : فجاء فأسلم » [الإصابة فى تمييز الصحابة [٢٥٨/٤ ، ترجمة ٥٦٣٢] .

ثم يقول تعالى : ﴿ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعًا (٩٠) ﴾ [الإسراء]

وفى آية أخرىٰ قال : ﴿ وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا .. (١٢) ﴾ [القمر]

فالتفجير : أن تعمل فى الأرض عملية تُخرِج المستتر فى باطنها على ظهرها ، وعين الماء تُخرِج لك الماء من الأرض ، وتأخذ منه حاجتك فلا ينقص ؛ لأنها تعوض ما أُخذ منها بقانون الاستطراق ، وقد يحدث أن يغيض الماء فيها قليلاً .

أما الينبوع فتراه يفيض باستمرار دون أن ينقص فيه منسوب الماء ، كما فى زمزم مثلاً ، ولا شكَّ أن هذا المطلب منهم جاء نتيجة حرمانهم من الماء ، وحاجتهم الشديدة إليه .

ويذكر الحق سبحانه أنهم واصلوا حديثهم للرسول ﷺ ، فقالوا :

﴿ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا (٩١) ﴾

سبق أن طلبوا الماء لأنفسهم ، وهنا يطلبون للرسول (جنة) أى : بستان أو حديقة من النخيل والعنب ؛ لأنهما الصِّنْفان المشهوران عند العرب ﴿ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا (٩١) ﴾ [الإسراء] أى : خلال هذه الحديقة حتى تستمر ولا تذبل .

ويواصلون تحديهم لرسول الله ﷺ ، فيقولون :

﴿ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا (٩٢) ﴾

الزَّعْم : هو القول المخالف للواقع ، ويقولون : الزعم مطيّة

الكذب ، قال تعالى : ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا .. (٧) ﴾ [التغابن]

وإنْ كانوا اتهموا رسول الله بالزعم ، فما هو إلا مُبلِّغ عن الله ، وناقل إليهم منهج ربه ، فإنْ أرادوا أنْ يتَّهموا فليتهموا الحق سبحانه وتعالى ؛ لأن رسوله لا ذنبَ له ، وقد جاءوا بمسألة إسقاط السماء عليهم ؛ لأن الحق سبحانه سبق أنْ قال عنهم :

﴿ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ .. (٩) ﴾ [سبأ]

لذلك طلبوا من رسول الله أنْ يُوقِع بهم هذا التهديد .

و﴿ كِسَفًا .. (٩٢) ﴾ [الإسراء] أى : قِطَعاً ، ومفردها كسفة كقطعة .

ويقول تعالى : ﴿ أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً (٩٢) ﴾ [الإسراء] أى : نراهم أمامنا هكذا مُقابلةً عياناً ، وقد جاء هذا المعنى أيضاً فى قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا .. (٢١) ﴾ [الفرقان]

والمتأمل فيما طلبه الكفار من رسول الله ﷺ يجده تعجيزاً بعيداً كُلَّ البعد عن الواقع ، مما يدلنا على أنهم ما أرادوا الإيمان والهداية ، بل قصدوا الجدل والعناد ؛ لذلك يقول الحق سبحانه رَدّاً على لَجَج هؤلاء وتعنُّتهم : ﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا .. (١١١) ﴾ [الأنعام]

ثم يقول تعالى عنهم أنهم قالوا :

﴿ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ[1] وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا (٩٣) ﴾

البيت : هو المكان المعدّ للبيتوتة ، والزخرف : أى المزيَّن ، وكان الذهب وما يزال أجمل أنواع الزينة ؛ لأن كل زُخْرف من زخارف الزينة يطرأ عليه ما يُغيِّره فيبهت لونه ، وينطفىء بريقه ، وتضيع ملامحه إلا الذهب ، ونقصد هنا الذهب الخالص غير المخلوط بمعدن آخر ، فالذهب الخالص هو الذى لا يتأكسد ولا يتفاعل مع غيره ؛ لذلك يظل على بريقه ورَوْنقه ، فإنْ كان البيت نفسه من زخرف ، فماذا سيكون شكله ؟

ونرى الذين يُحبُّون أن ينافقوا نفاقَ الحضارات ، ويتبارَوْنَ فى زخرفة الصناعات يُلصقون على المصنوعات الخشبية مثلاً طبقة أو قشرة من الذهب ؛ لتظلَّ محتفظة بجمالها ، كما فى الأطقم الفرنساوى أو الإنجليزى مثلاً .

ثم يقول تعالى : ﴿ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ .. (٩٣) ﴾ [الإسراء]

أى : يكون لك سُلَّم تصعد به فى السماء ، ويظهر أنهم تسرعوا فى هذا القول ، ورأَوْا إمكانية ذلك ، فسارعوا إلى إعلان ما تنطوى عليه نفوسهم من عناد : ﴿ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ .. (٩٣) ﴾ [الإسراء]

---

(١) رقى : علا وصعد . [القاموس القويم ١/٢٧٣] .

وكـأنهم يُبيِّـتـون العناد لرسـول الله ، فهم كـاذبون فى الأولى ، وكاذبون فى الثانية ، ولو نزَّل الله عليهم الكتاب الذى أرادوا ما آمنوا ، وقد رَدَّ عليهم الحق سبحانه بقوله :

﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَـٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ (٧) ﴾ [الأنعام]

وانظر إلى رَدِّ القرآن على كل هذا التـعنت السابق : ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي .. (٩٣) ﴾ [الإسراء] وكلمـة (سبـحان) كلمـة التنزيه العُلْيـا للحق سبحانه وتعالى ، وقد تحدَّى بها الكون كله ؛ لأنها كلمة لا تُقَال إلا لله تعـالى ، ولم يحدث أبداً بين الناس أنْ قـالها أحـد لأحد ، مع مـا فى الكون من جـبابرة وعُـتَاة ، يحـرص الناس على منافقـتهم وتملُّقـهم ، وهذه كلمة اختـيارية يمكن أن يقولها كل إنسـان ، لكن لم يجرؤ أحد على قَوْلها لأحد .

والحق سبحانه وتعالى يتحدَّى الكون كله بأمور اختيارية يقدرون عليها ، وتحدى المختار فى المـثل معناها أنه سبحانه عالم بأن قدرته لن تسـتطيع أن تفعل ذلك ، ومـثال ذلك قـول الحق تبارك وتعـالى : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (٢) سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (٣) ﴾ [المسد]

نزلت هذه الآيات فى أبى لهب ، وهو كافر ، ويحـتمل منه الإيمان كما آمن غيره من الكفرة ، فقد آمن عـمر والعباس وغيرهم ، فما كان يُدرِى رسول الله أن أبا لهب لن يؤمن ، لكنه يُبلِّغ قول ربه قرآناً يُتلَى

ويُحفظ ويُسجَّل ، وفيه تقرير وشهادة بأن أبا لهب سيموت كافراً ، وأن مصيره النار .

وهنا نقول : أمَا كان فى إمكان أبى لهب أنْ يُكذِّب هذا القول ، فيقوم فى قومه مُنادياً بلا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ـ ولو نِفَاقاً ـ وله بعد ذلك أن يتهم محمداً وقرآن محمد بالكذب ؟

لكن هذا لم يحدث ؛ لأن المتكلم هو الله ربُّ العالمين .

ومن هذا التحدى أن الحق سبحانه له صفات وله أسماء ، الأسماء مأخوذة من الصفات ، إلا اسم واحد مأخوذ للذات ، هو لفظ الجلالة (الله) ، فهو علَم على الذات الإلهية لم يُؤخَذ من صفة من صفاته تعالى ، فالقادر والغفور والحىّ القيوم وغيرها من الأسماء مأخوذة من صفات ، إنما (الله) علَم على الذات الجامعة لكُلِّ هذه الصفات

لذلك تحدَّى الخالق سبحانه جميع الخَلْق ، وقد أعطاهم الحرية فى اختيار الأسماء أنْ يُسمُّوا أنفسهم أو أبناءهم بهذا الاسم (الله) ، ويعلن هذا التحدى فى كتابه الكريم وعلى رؤوس الأشهاد يقول : ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا (٦٥)﴾ [مريم] ؟

ومع ذلك لم يجرؤ كافر واحد على أنْ يُسمِّىَ هذا الاسم ليظلَّ هذا التحدى قائماً إلى قيام الساعة ؛ لأن الله تعالى حق ، والإيمان به وبوجوده تعالى متغلغل حتى فى نفوس الكفار ، فلو كانوا يعلمون أن هذه الكلمة كذب ، أو لا وجودَ لها لأقدموا على التسمية بها دون أن يُبالُوا شيئاً ، أمَا وهم يعلمون أن الله حق فلن يجرؤ أحد ، ويُجرِّب هذه التسمية فى نفسه ؛ لأنه يخشى عاقبة وخيمة لا يدرى ما هى .

لذلك رَدَّ الحق سبحانه على تعنُّت الكفار فيما طلبوه من رسوله ﷺ قائلاً : ﴿سُبْحَانَ رَبِّي .. (٩٣)﴾ [الإسراء] لأن الأمور التى طلبوها أمور بلغتْ من العجب حدّاً ، ولا يمكن أن يُتعجب منها إلا بسبحان الله ؛ لأنها كلمة التعجُّب الوحيدة والتى لا تُطلَق لغير الله ، وكأنه أرجع الأمور كلها لله ، ولقد كان لهم غِنىً عن ذلك فى كتاب الله الذى نزل إليهم :

﴿أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥١)﴾ [العنكبوت]

والهمزة هنا للاستفهام المراد به التعجُّب أيضاً : أيطلبون هذه الآيات ، ولم يكْفِهم أنَّا أنزلنا عليك الكتاب ، وقد كان فيه غناءٌ لهم .

ثم يقول تعالى : ﴿هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً (٩٣)﴾ [الإسراء]

هل ادعيْتُ لكم أنِّى إله ؟! ما أنا إلا بشر أبلغكم رسالة ربى ، وأفعل ما يأمرنى به ، كما فى قوله تعالى : ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥)﴾ [يونس]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا (٩٤)﴾

أى : ما منعهم من الإيمان إلا هذه المسألة : أن يكون الرسول بشراً ، هذه هى القضية التى وقفت فى حلوقهم : ﴿أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولاً (٩٤)﴾ [الإسراء]

والمتأمِّل فى مسألة التبليغ عن الله يجد أنها لا يمكن أنْ تتم إلا ببشر ، فكيف يبلغ البشر جنس آخر ، ولا بُدَّ للتلقِّى عن الله من وسائط بين الحق سبحانه وتعالى وبين الناس ؛ لأن البشر لا يستطيع أنْ يتلقّى عن القُوة العليا مباشرة ، فإذنْ : هناك مراحل : ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ (٥١)﴾ [الشورى]

لكن الرسول البشرى كيف يُكلِّم الله ؟ لا بُدَّ أنْ نأتى برسول من الجنس الأعلى : ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً .. (٧٥)﴾ [الحج] وهذا مرحلة ، ثم يصطفى رسولاً من البشر يتلقّى عن الملَك كى يستطيع أنْ يُبلِّغكم ؛ لأنكم لا تقدرون على اللقاء المباشر مع الحق سبحانه .

ونضرب لذلك مثلاً ـ ولله المثل الأعلى : أنت إذا أردتَ إضاءة لمبة صغيرة وعندك تيار كهربائى عالٍ ، هل يمكن أنْ تُوصِّله بهذه اللمبة ؟ لا لأنها ستحترق فوراً ، إذنً : ما الحل ؟ الحل أنْ تأتى بجهاز وسيط يُقلِّل لك هذا التيار القوى ، ويعطى اللمبة على قَدْر حاجتها فتضىء .

كذلك الحق سبحانه يصطفى من الملائكة رسلاً يمكنهم التلقِّى عن الله ويصطفى من البشر رسلاً يمكنهم التلقِّى عن الملائكة ، ثم يُبلِّغ الرسول المصطفى من البشر بنى جنسه . إذن : فماذا يُزعجكم فى أنْ يكون الرسول بشراً ؟ ولماذا تعترضون على هذه المسألة وهى أمر طبيعى ؟

يقول تعالى : ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ .. (٢)﴾ [يونس]

وفى موضع آخر يقول سبحانه : ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ[1] إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (١٣) إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ (١٤) قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا .. (١٥)﴾[يس]

إذن : فاعتراضهم على بشرية الرسول أمر قديم توارثه أهل الكفر والعناد من أيام نوح ـ عليه السلام ـ ألم يَقُلْ له قومه : ﴿فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِّثْلَنَا .. (٢٧)﴾ [هود]

وقالوا : ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ (٣٤)﴾ [المؤمنون]

وقالوا : ﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلالٍ وَسُعُرٍ (٢٤)﴾[القمر]

لذلك يدعونا الحق سبحانه وتعالى إلى النظر فى السُّنة المتبعة فى الرسل : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ .. (٤٣)﴾ [النحل]

أى : ليسوا ملائكة ، لا بُدَّ أنْ يكونوا رجالاً ليتمّ اللقاء بينكم ، وإلاّ فلو جاء الرسول ملَكاً كما تقولون ، هل سترونْ هذا الملَك ؟ قالوا : لا هو مُستتر عنَّا ، لكنه يرانا ، لكن تبليغ الرسالة لا يقوم على مجرد الرؤية ، فتبليغ الرسالة يحتاج إلى مخالطة ومخاطبة ، وهنا لا بُدَّ أنْ يتصوّر لكم الملَك فى صورة رجل ليؤدى مهمة البلاغ

---

(١) قال ابن إسحاق فيما بلغه عن ابن عباس وكعب الأحبار ووهب بن منبه أنها مدينة أنطاكية ، وكان بها ملك يعبد الأصنام فبعث الله تعالى إليه ثلاثة من الرسل وهم صادق وصدوق وشلوم فكذبهم ، وقد استشكل بعض الأئمة كونها أنطاكية ورجحوا أنها قرية أخرى أو تكون أنطاكية مدينة أخرى غير هذه المشهورة فإن هذه لم يعرف أنها أهلكت لا فى الملة النصرانية ولا قبل ذلك ، والله سبحانه وتعالى أعلم . انظر تفسير ابن كثير (٣/٥٦٦ ، ٥٧٠) .

عن الله ، وهكذا نعود من حيث بدأنا ؛ لأنها الطبيعة التى لا يمكن لأحد الخروج عنها .

لذلك يقول سبحانه : ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾﴾ [الأنعام] إذن : لا داعى للتمحُّك والعناد ، ومصادمة الفطرة التى خلقها الله ، والطبيعة التى ارتضاها لخَلْقه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾﴾

(قُلْ) أى : رَدًّا عليهم : لو أن الملائكة يمشون فى الأرض مطمئنين لَنزَّلنا عليهم مَلَكاً رسولاً لكى يكون من طبيعتهم ، فلا بُدَّ أنْ يكون المبلِّغ من جنس المبلَّغ ، وهذا واضح فى حديث جبريل الطويل حينما جاء إلى رسول الله يسأله عن بعض أمور الدين لِيُعلّم الصحابة : ما الإحسان ؟ ما الإيمان ؟ ما الإسلام . فيأتى جبريل مجلس رسول الله فى صورة رجل من أهل البادية ، وبعد أنْ أدَّى مهمته انصرف دون أنْ يشعر به أحد ، فلما سألوا عنه قال لهم رسول الله : « إنه جبريل ، أتاكم لِيُعلِّمكم أمور دينكم »[1] .

شىء آخر يقتضى بشرية الرسول ، وهو أن الرسول أُسْوة سلوك لقومه ، كما قال تعالى : ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ .. ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب]

---

(١) حديث متفق عليه ، أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٠) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٨) من حديث عمر بن الخطاب .

وبالله ، كيف تتم هذه الأسوة ؟ وكيف يقتدى الناس بها إنْ كان الرسول ملكاً ؟

فالرسول عندما يُبلِّغ منهج الله عليه أنْ يُطبّق هذا المنهج فى نفسه أولاً ، فلا يأمرهم أمراً ، وهو عنه بِنَجْوَة ، بل هو إمامهم فى القول والعمل .

لذلك فالحاكم الحق الناصح يُطبّق القانون عليه أولاً ، فكان سيدنا عمر - رضى الله عنه - إذا أراد أن يُقنّن قانوناً ويرى أنه سيتعب بعض الظالمين والمنحرفين فيجمع أهله ويخبرهم بما أراد ، ثم يُحذّرهم من المخالفة : « فو الذى نفسى بيده ، مَنْ خالفنى منكم إلى شىء لأجعلنّه نكَالاً للمسلمين ، وأنا أول مَنْ أُطبِّقه على نفسى » .

لذلك حكم عمر الفاروق الدنيا كلها فى عصره ، ولما رآه الرجل نائماً مطمئناً تحت شجرة قال قولته المشهورة : « حكمتَ ، فعدلْتَ ، فأمنت ، فنمْتَ يا عمر » وعمر ما حكم الدنيا والبشر ، بل حكم نفسه أولاً فحُكمت له الدنيا ؛ لأن الحاكم هو مركز الدائرة ، وحَواليْه دوائر أخرى صغيرة تراه وتقتدى به ، فإنْ رأوه مستقيماً استقاموا ، ولم يجرؤ أحد منهم على المخالفة ، وإنْ رأوْه منحرفاً فاقوه فى المخالفة ، وأفسدوا أضعاف ما يُفسد .

لذلك ، لا يمكن أبداً لحاكم أن يحكم إلا إذا حكم نفسه أولاً ، بعدها تنقاد له رعيته ويكونون طوعاً لأمره دون جهد منه أو تعب[1] .

ولقد رأينا فى واقعنا بعض الحكام الذين فهموا الأُسْوة على حقيقتها ، فترى الواحد من رعيته يركب أفخم السيارات ، ويسكن

---

(١) وقد كتب عمر بن الخطاب إلى أبى موسى الأشعرى رضى الله تعالى عنهما : أما بعد ، فإن أسعد الرعاة من سعدت به رعيته ، وإن أشقى الرعاة عند الله عز وجل من شقيت به رعيته ، وإياك أن ترتع فيرتع عمالك [حلية الأولياء ١/ ٥٠] .

أعظم القصور ، حتى إن معظم أدواتها تكون من الذهب ، فى حين ترى هذا الحاكم يعيش عيشة متواضعة وربما يعيش فى قصر ورثه عن أبيه أو جَدِّه ، وكأنه يُغلظ على نفسه ويبغى الرفاهية لرعيته .

وكذلك رسول الله ﷺ وقد أتى بمنهج ، وهو فى الوقت نفسه أُسْوة سلوك وقُدْوة ، فنراه ﷺ يحثّ الغنىّ على الصدقة للفقير ، ثم يحرم أهل بيته من هذه الصدقة فلا يقبلها لهم ، وإنْ توارث الناس فيما يتركونه من أموال فإن ما تركه الرسول لا يُوَرَّثُ لأهله من بعده ، بل هو صدقة لفقراء المسلمين[1] ، وهكذا يحرم رسول الله أهل بيته مما أعطاه للآخرين لتكون القدوة صحيحة ، ولا يجد ضعاف النفوس مأخذاً عليه ﷺ .

إذن : فليس المراد من الحكم أن يتميز الحاكم عن المحكوم ، أو يفضل بعض الرعية على بعض ، فإذا ما أحسَّ الناس بالمساواة خضعوا للحاكم ، وأذعنوا له ، وأطاعوا أمره ؛ لأنه لا يعمل لمصلحته الشخصية بل لمصلحة رعيته ، بدليل أنه أقلُّ منهم فى كُلِّ مستويات الحياة .

فالرسول إنْ جاء ملَكاً فإن الأُسْوة لا تتمّ به ، فإنْ أمرنا بشىء ودعانا إلى أن نفعل مثله فسوف نحتجّ عليه : كيف وأنت ملَكٌ لا شهوةَ لك ، لا تأكل ولا تشرب ولا تتناكح ولا تتناسل ، إن هذه الأوامر تناسبك أنت ، أما نحن فلا نقدر عليها .

---

(١) أخرج مسلم فى صحيحه (١٧٥٨) من حديث عائشة رضى الله عنها أنها قالت : إن أزواج النبى ﷺ حين توفى رسول الله ﷺ أردن أن يبعثن عثمان بن عفان إلى أبى بكر ، فيسألنه ميراثهن من النبى ﷺ قالت عائشة لهن : أليس قد قال رسول الله ﷺ « لا نورث، ما تركنا فهو صدقة » وكذا أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٧١١ ، ٣٧١٢) .

ومن هنا لا بُدّ أن يكون الرسول بشراً فإنْ حمل نفسه على منهج فلا عُـذْر لأحد فى التخـلُّف عنه ؛ لأنه يطبق ما جاء بـه ويدعوكم إلى الاقتداء بسلوكه .

وسبق أنْ ضربنا لذلك مثلاً وقُلْنا : هَبْ أنك رأيتَ فى الغابة أسداً يصـول ويجول ويفـتك بفريسـته ، بالله هل يراودك أن تكـون أسداً ؟ إنما لو رأيتَ فارساً على صَهْوة جـواده يصول ويجول ويحصد رقاب الأعداء ، ألاَّ تتطلع إلى أن تكون مثله ؟

إذن : لا تتمّ القُـدْوة ولا تصح إلا إنْ كـان الرسـول بشـراً ، ولا داعى للتمرُّد على الطبيعة التى خلقها الله .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾ ﴾

(قُلْ) أى : رَدّاً على مـا اقتـرحوه من الآيات وعلى اعـتراضـهم على بشرية الرسول : ﴿ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ .. ﴿٩٦﴾ ﴾[الإسراء]

والشهـيد إنما يُطلَب للشهـادة فى قضية مـا ، فما القضـية هنا ؟ القضيـة هى قضية تعنُّت الكفار مع رسـول الله ﷺ ؛ لأنهم طلبوا منه مَا ليـس فى وُسْعه . والرسـول لا يعنيه الـمتعنتـون فى شىء ؛ لأن أمره مع ربه عز وجل ؛ لذلك قال : ﴿ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيداً .. ﴿٩٦﴾ ﴾

[الإسراء]

فإنْ كانت شهادة الشاهد فى حوادث الدنيا تقوم على الإخبار بما حدث ، وعليها يترتب الحكم فإن شهادة الحق سبحانه تعنى أنه تعالى الشهيد الذى رأى ، والحاكم الذى يحكم ، والسلطة التنفيذية التى تنفذ .

لذلك قال : ﴿ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا .. (٩٦) ﴾ [الإسراء]

فهو كافيك هذا الأمر ؛ لأنه كان بعباده (خَبيراً) يعلم خفاياهم ويطّلع على نواياهم من وراء هذا التعنُّت (بَصِيراً) لا يخفى عليه شىء من أمرهم .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا (٩٧) ﴾

سبق أنْ قُلْنا : إن الهداية نوعان : هداية الدلالة المطلقة والتى تكون لجميع الخلق المؤمن والكافر ، فقد دَلَّ الله المؤمن والكافر على الطريق المستقيم وبيَّنه لهم وأرشدهم إليه .

والأخرى : هداية التوفيق والمعونة للقيام بمطلوبات المنهج الذى آمنوا به ، وهذه خاصّة بالمؤمن ، فبعد أنْ دَلَّه الله آمن وصدَّق واعترف لله تعالى بالفضل والجميل ، بأن أنزل له منهجاً ينظم حياته . فأتحفه الله تعالى بهداية التوفيق والمعونة .

وعن الهداية يقول الحق سبحانه : ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ .. (١٧)﴾ [فصلت]

أى : دَلَلْناهم على الطريق المستقيم ، لكنهم استحبُّوا العمى والضلال على الهدى ، فمنع الله عنهم معونته وتوفيقه .

والحق سبحانه يخاطب رسوله ﷺ بأسلوبين قرآنيين يوضِّحان هذيْن النوعيْن من الهداية ، يقول تعالى : ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَـٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَاءُ .. (٥٦)﴾ [القصص]

فنفى عن رسول الله هداية التوفيق والمعونة ؛ لأنه ﷺ لا يملكها ، وفى آية أخرى قال تعالى : ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِى إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٢)﴾ [الشورى]

فأثبتَ له هداية البيان والدلالة ؛ لأن هذه هى مهمته كمبلِّغ عن الله ، وهكذا أثبتَ له الحدث ونفاه عنه ؛ لأن الجهة مُنفكَّة أى : أن جهة الإثبات غير جهة النفى ، كما فى قوله تعالى : ﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لايَعْلَمُونَ (٦) يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. (٧)﴾ [الروم]

فمرة : نفَى عنهم العلم ، ومرة أخرى : أثبتَ لهم العلم . والمراد أنهم لا يعلمون حقائق الأمور ، ولكنهم يعلمون العلوم السطحية الظاهرة منها . ونحن نكرّر مثل هذه القضايا لكى تستقرّ فى النفس الإنسانية ، وفى مواجيد المتدينين فينتفعوا بها .

ومن ذلك أيضاً قَوْلُ الحق سبحانه : ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ .. (١٧)﴾ [الأنفال]

فأثبت للرسول رَمْياً ، ونفى عنه رَمْياً ، لكن إذا جاء هذا الكلام من بليغ حكيم فاعلم أن الجهة مُنفكّة ؛ لأن النبى ﷺ فى غزوة بدر أخذ حَفْنة من التراب ورمى بها نحو أعدائه ، وهذا هو الرّمْى الذى أثبتته الآية ، وقد تولَّتْ القدرة الإلهية إيصال ذرات هذه الحفنة إلى عيون الأعداء ، فأصابتهم جميعاً وشغلتْهم عن القتال ، وهذا هو الرَّمْى الذى نفاه الحق عن رسوله ﷺ[1] .

ولتقريب هذه المسألة : ابنك الذى تحمله على المذاكرة وتُرغمه عليها يأتى بالكتب ويضعها أمامه ويُقلِّب فيها ليوهمك أنه يذاكر ، فإذا ما راجعتَ معه ما ذاكر لا تجدْه حصَّل شيئاً فتقول له : ذاكرتَ وما ذاكرت ، فتُثبِت له الحدث مرة ، وتنفيه عنه أخرى ؛ لأنه ذاكر شكلاً ، ولم يذاكر موضوعاً .

إذن : فالحق سبحانه وتعالى يهدى الجميع هداية إرشاد وبيان ودلالة ، ويختص مَنْ آمن بهداية المعونة والتوفيق للقيام بمقتضيات المنهج ، كما قال تعالى : ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧)﴾ [محمد]

وقال عن الآخرين : ﴿وَاللَّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٧)﴾ [الصف] لكن يهدى العادلين .

وقال : ﴿وَاللَّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٥)﴾ [الصف] .. لكن يهدى الطائعين .

---

(١) قال الواحدى النيسابورى فى أسباب النزول (ص١٣٣) : « أكثر أهل التفسير أن الآية نزلت فى رمى النبى عليه الصلاة والسلام القبضة من حصباء الوادى يوم بدر حين قال للمشركين : شاهت الوجوه . ورماهم بتلك القبضة ، فلم يبق عين مشرك إلا دخلها منه شىء » ، وانظر الآثار المروية فى هذا فى الدر المنثور للسيوطى (٤/٤٠ ، ٤١) .

وقال : ﴿وَاللَّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٢٦٤)﴾ [البقرة] .. لكن يهدى المؤمنين .

إذن : بيَّن الحق سبحانه فى أساليب القرآن مَنْ شاء هدايته ، أما مَنْ آثر الكفر وصمم ألاَّ يؤمن فهو وشأنه ، بل ويزيده الله من الكفر ويختم على قلبه ، كما قال تعالى : ﴿وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١٠)﴾ [الأنعام]

نعود إلى (مَن) فى قوله تعالى : ﴿ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ .. (٩٧)﴾ [الإسراء] قلنا : إن (من) اسم موصول بمعنى الذى ، واستخدام (مَنْ) كاسم موصول لا يقتصر على (الذى) فقط ، بل تستخدم لجميع الأسماء الموصولة : الذى ، التى ، اللذان ، اللتان ، الذين ، اللاتى . فتقول : مَنْ جاءك فأكرِمْه ، ومَنْ جاءتك فأكرمْها ، ومَنْ جاءاك فأكرمهما ، ومَنْ جاءتاك فأكرمهما ، ومَنْ جاءوك فأكرمهم ، ومَنْ جِئْنَكَ فأكرمْهُن .

فهذه ستة أساليب تؤديها (مَن) فهى - إذن - صالحة للمذكّر وللمؤنّث وللمفرد وللمثنى وللجمع ، وعليك أن تلاحظ (مَنْ) فى الآية : ﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ .. (٩٧)﴾ [الإسراء] جاءت (مَنْ) دالَّة على المفرد المذكر ، وهى فى نفس الوقت دالّة على المثنى والجمع المذكر والمؤنث ، فنقول : مَنْ يهدِهَا الله فهى المهتدية ، ومَنْ يهدهم الله فهم المهتدون . وهكذا .

ونسأل : لماذا جاءت (مَنْ) دالة على المفرد المذكر بالذات دون

غيره فى مجال الهدى ، أما فى الضلال فجاءتْ (مَنْ) دالَّة على الجمع المذكّر ؟

نقول : لأنه لاحظ لفظ (مَنْ) فأفرد الأولى ، ولاحظ ما تطلق عليه (من) فجمع الثانية : ﴿وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِهِ .. (٩٧)﴾ [الإسراء]

وهنا ملْحظ دقيق يجب تدبُّره : فى الاهتداء جاء الأسلوب بصيغة المفرد : ﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ .. (٩٧)﴾ [الإسراء] لأن للاهتداء سبيلاً واحداً لا غير ، هو منهج الله تعالى وصراطه المستقيم ، فللهداية طريق واحد أوضحه رسول الله ﷺ بقوله : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به »[1] .

أما فى الضلال ، فجاء الأسلوب بصيغة الجمع : ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ .. (٩٧)﴾ [الإسراء] لأن طرق الضلال متعددة ومناهجه مختلفة ، فللضلال ألف طريق ، وهذا واضح فى قول الحق سبحانه : ﴿وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ .. (١٥٣)﴾ [الأنعام]

والنبى ﷺ حينما قرأ هذه الآية خَطَّ للصحابة خَطّاً مُسْتقيماً ، وخَطَّ حوله خطوطاً مُتعرّجة ، ثم أشار إلى الخط المستقيم وقال : « هذا ما أنا عليه وأصحابى »[2] .

---

(١) أخرجه ابن أبى عاصم فى كتاب « السنة » (١/١٢) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ، وأورده ابن رجب الحنبلى فى « جامع العلوم والحكم » ص (٤٦٠) وضعَّفه .

(٢) عن عبد الله بن مسعود قال : خط رسول الله خطاً بيده ، ثم قال : هذا سبيل الله مستقيماً ، ثم خط عن يمينه وشماله ، ثم قال : هذه السبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه ، ثم قرأ ﴿وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ .. (١٥٣)﴾ [الأنعام] . أخرجه أحمد فى مسنده (١/٤٦٥) والحاكم فى مستدركه (٢/٣١٨) وقال : « صحيح الإسناد ولم يخرجاه » . وكذا أخرجه ابن حبان (١٧٤١ ـ موارد الظمآن) .

إذن : للهداية طريق واحد ، وللضلال ألْف مذهب ، وألف منهج ؛ لذلك لو نظرتَ إلى أهل الضلال لوجدتَ لهم فى ضلالهم مذاهب ، ولكل واحد منهم هواه الخاص فى الضلال . فعليك أنْ تقرأ هذه الآية بوعى وتأمُّل وفَهْم لمراد المتكلّم سبحانه ، فلو قرأها غافل لَقال : فلن تجد له أولياء من دونه ، ولأتبع الثانية الأولى .

ومن هنا تتضح توقيفية القرآن ، حيث دقة الأداء الإلهى التى وضعتْ كُلَّ حَرْف فى موضعه .

وقوله : (أَوْلِيَاءَ) أى : نُصَراء ومعاونين ومُعينين (مِنْ دُونِه) أى : من بعده ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ .. (٩٧)﴾ [الإسراء]

الحشْر : القيام من القبور والجمع للحساب (عَلَى وُجوههم) هنا تعجب بعض الصحابة ، فسألوا رسول الله : وكيف يسير الإنسان على وجهه ؟ فقال ﷺ : « إن الذى أمشاهم على أرجلهم قادر أن يُمشيهم على وجوههم »[1] .

وما العجب فى ذلك ونحن نرى مخلوقات الله : ﴿فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ .. (٤٥)﴾ [النور]

ألم تَرَ الثعبان ، كيف هو سريع فى مِشْيته ، خفيف فى حركته ، فالذى خلق قادر أن يُمشِىَ من ضَلَّ فى القيامة على بطنه ، لأن

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « يُحشر الناس ثلاثة أصناف : صنفاً مشاة ، وصنفاً ركباناً ، وصنفاً على وجوههم ، قالوا : يا رسول الله وكيف يمشون على وجوههم . قال : إن الذى أمشاهم على أقدامهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم » أخرجه أحمد فى مسنده (٢/٣٥٤ ، ٣٦٣) ، والترمذى فى سننه (٣١٤٢) وحسَّنه .

المسألة إرادة مريد ليُوقع بهم غاية الذِّلَّة والهوان ، وياليتهم تنتهى بهم المهانة والمذلّة عند هذا الحدِّ ، بل ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا .. (٩٧)﴾ [الإسراء]

هذا استطراق لوسائل الإهانة ، ففضلاً عن مَشْيهم على الوجوه فهم عُمْى لا يروْنَ شيئاً ، ولا يهتدون ، وهم صُمٌّ لا يسمعون نداءً ، وهم بُكْمٌ لا يقدرون على الكلام ، ولك أنْ تتصوَّر إنساناً جمعت عليه كل هذه الوسائل ليس فى يوم عادى ، بل فى يوم البعث والنشور ، فإذا به يُفَاجأ بهوْل البعث ، وقد سُدَّتْ عليه جميع منافذ الإدراك ، فهو فى قلب هذا الهَوْل والضجيج ، ولكنه حائر لا يدرى شيئاً ، ولا يدرك ما يحدث من حوله .

ولنا هنا لفتة على هذه الآية ، فقد ورد فى القرآن كثيراً : صُمٌّ بُكْم بهذا الترتيب إلا فى هذه الآية جاءت هكذا : (بُكْمًا وَصُمًّا) ومعلوم أن الصَّمَم يسبق البكَم ؛ لأن الإنسان يحكى ما سمعه ، فإذا لم يسمع شيئاً لا يستطيع الكلام ، واللغة بنت السماع ، وهى ظاهرة اجتماعية ليستْ جنساً وليست دَماً .

وسبق أنْ قُلْنا : إن الولد الإنجليزى إذا تربَّى فى بيئة عربية يتكلم بالعربية والعكس ؛ لأن اللغة ليست جنساً ، بل ظاهرة اجتماعية تقوم على السماع ، فما تسمعه الأذن يحكيه اللسان . حتى العربى نفسه الذى يعيش فى بيئة عربية ، إلا أنه لم يسمع هذه الألفاظ الغريبة المتقعِّرة لا يستطيع محاكاتها ولا يعرف معناها .

لكن فى هذه الآية جاء البكَم أولاً ، لماذا ؟ لأنه ساعة يُفاجأ بهوْلِ البعث والحشر كان المفروض أن يسأل أولاً عَمَّا يحدث ، ثم يسمع

بعد ذلك إجابة على ما هو فيه ، لكنه فُوجىء بالبعث وأهواله ، ولم يستطع حتى الاستفسار عَمَّا حوله ، وهكذا سبق البكَم الصَّمَم فى هذا الموقف .

وهنا أيضاً اعتراض لبعض المستشرقين ومَنْ يُجارونهم ممَّنْ أسلموا بألسنتهم ، ولم تطمئن قلوبهم لنور الله ، يقولون : القرآن يقول : ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا .. (٩٧) ﴾ [الإسراء] فينفى عنهم الرؤية ، وفى آيات أخرى يقول : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ .. (٧٥) ﴾ [مريم]

﴿ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا .. (٥٣) ﴾ [الكهف]

فأثبت لهم الرؤية ، فكيف نجمع بين هذه الآيات ؟ والمتأمل فى حال هؤلاء المعذَّبين فى موقف البعث يجد أن العمى كان ساعة البعث ، حيث قاموا من قبورهم عُمْيًا ليتحققَ لهم الإذلال والحيرة والارتباك ، ثم بعد ذلك يعودون إلى توازنهم ويعود إليهم بصرهم ليشاهدوا به ألوان العذاب الخاصة بهم ، وهكذا جمع الله عليهم الذل فى الحالَيْن : حال العمى وحال البصر .

لذلك يقول تعالى : ﴿ لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (٢٢) ﴾ [ق]

ثم يقول تعالى : ﴿ مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا (٩٧) ﴾ [الإسراء] مأواهم : أى : مصيرهم ونهايتهم . خَبَتْ : خبت النار . أى : ضَعُفَت أو انطفأتْ ، لكن ما دام المراد من النار التعذيب ، فلماذا تخبو النار أو تنطفىء ؟ أليس فى ذلك راحة لهم من العذاب ؟

المتأمل فى الآية يجد أن خفوت النار وانطفاءها هو فى حَدِّ ذاته

لَوْنٌ من العذاب ؛ لأن استدامة الشىء يُوطِّن صاحبه عليه ، واستدامة العذاب واستمراره يجعلهم فى إلْف له ، فإنْ خَبتِ النار أو هدأتْ فترةً فإنهم سيظنون أن المسألة انتهت ، ثم يُفاجئهم العذاب من جديد ، فهذا أنكَى لهم وآلم فى تعذيبهم .

وهذا يُسمُّونه فى البلاغة « اليأس بعد الإطماع » ، كما جاء فى قول الشاعر :

فَأصْبَحْتُ مِنْ لَيْلَى الغَداةَ كَقَابِضٍ عَلَى المَاء خَانَتْهُ فُرُوجُ الأَصَابِعِ

وفى السجون والمعتقلات يحدث مثل هذا ، فترى السجين يشتد به العطش إلى حَدٍّ لا يطيقه ، فيصيح بالحارس ويتحنن إليه ويرجوه كوباً من الماء ، فيأتى له بكوب الماء حتى يكون على شَفَتَيْه ، ويطمع فى أنْ يبلّ ريقه ويطفىء غُلَّته ، فإذا بالحارس يسكبه على الأرض ، وهذا أنكى وأشدّ فى التعذيب .

وقد عَبَّر الشاعر[1] عن هذا المعنى بقوله :

كَمَا أبرقَتْ قَوْماً عِطَاشاً غَمَامَةٌ فَلَمَّا رَجَوْهَا أَقْشَعَتْ وتَجلَّتِ[2]

أى : ساعة أنْ رأوْهَا ، واستشرفوا فيها الماء إذا بها تنقشع وتتلاشى ، وتُخيِّب رجاءهم فيها .

---

(١) هو : كثير بن عبدالرحمن الخزاعى أبو صخر ، شاعر متيم مشهور ، من أهل المدينة ، أكثر إقامته بمصر ، أخباره مع عزة بنت حميل الضمرية كثيرة ، وكان عفيفاً فى حبه . توفى ١٠٥ هـ (الأعلام للزركلى ٥/٢١٩) .

(٢) البيت لكُثَيِّر عزة . انظر ديوانه (ص١٠٧) ـ دار الثقافة بيروت ١٩٧١ ، تحقيق إحسان عباس . وقال شهاب الدين محمود الحلبى (ت ٧٢٥ هـ) فى كتابه : « حسن التوسل إلى صناعة الترسل » تحقيق أكرم عثمان يوسف (ص ١٢١) « فإن مجرد قوله « أبرقت قوماً عطاشاً غمامة » ليس تشبيهاً مستقلاً بنفسه ؛ لأن مقصود الشاعر أن يصف ابتداء مطمعاً أدى إلى انتهاء مؤيس » .

وكذلك من ألوان العذاب التى قد يظنُّها البعض لَوْناً من الراحة فى جهنم والعياذ بالله ، أن الله تعالى يُبدِّل جلودهم بجلود أخرى جديدة ، لا رحمةً بهم بل نكايةً فيهم ، كما قال تعالى : ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ .. (٥٦) ﴾ [النساء]

لأن الجلود إذا نضجتْ وتفحَّمتْ امتنع الحسُّ ، وبالتالى امتنعتْ إذاقة العذاب ، إذن : العلة من تبديل الجلود تجديدَ الحسِّ ليذوقوا العذاب إذاقةً مستديمة . ومنذ عهد قريب كانوا يظنون أن الحسَّ يأتى من المخ ، إلا أنهم لاحظوا على الإنسان إحساساً قبل أن يصل شىء للمخ .

فمثلاً : لو أشرت بأصبعك إلى عين إنسان تراه يُغمض عينه قبل أنْ تلمسه ، وفسَّروا ذلك بما يسمونه العكس فى النخاع الشوكى ، ثم توالت البحوث للتعرف على مناط الحسِّ فى الإنسان أيْن هى ؟ إلى أن انتهت تلك الأبحاث إلى ما أخبر به القرآن منذ أكثر من أربعة عشر قرناً من الزمان ، من أن الجلد هو مركز الإحساس فى الإنسان ، بدليل أنك إذا أخذتَ حقنة مثلاً ، فبمجرد أن تخترق طبقة الجلد لا تشعر بألمها .

فمن أين عرف العرب هذه النظريات العلمية الدقيقة ؟ ومَنْ أخبر بها الرسول ﷺ؟ إنه لَوْنٌ من ألوان الإعجاز القرآنى للعرب ولغيرهم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا(١) أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٩٨) ﴾

(١) رفت الشىء رفْتاً : جعله رفاتاً ، أى : دقه وكسَّره وجعله قطعاً صغيرة . [القاموس القويم ١/ ٢٧٠] .

(ذَٰلِكَ) أى : ما حدث لهم من العذاب الذى تستبشعه أنت (جَزَاؤُهُمْ) أى : حاق بهم العذاب عَدْلاً لا ظُلْماً ، فإياك حين تسمع آيات العذاب هذه أنْ تأخذَك بهم رأْفة أو رحمة ؛ لأنهم أخذوا جزاء عملهم وعنادهم وكفرهم ، والذى يعطف قلوب الناس على أهل الإجرام هو تأخير العقاب .

فهناك فَرْقٌ بين العقوبة فى وقت وقوع الجريمة ، وهى ما تزال بشعةً فى نفوس الناس ، وما تزال نارها تشتعل فى القلوب ، فإنْ عاقبتَ فى هذا الجو كان للعقوبة معنىً ، وأحدثتْ الأثر المرجوّ منها وتعاطفَ الناس مع المظلوم بدلَ أنْ يتعاطفوا مع الظالم .

فحين نُؤخِّر عقوبة المجرم فى ساحات المحاكم لعدة سنين فلا شكَّ أن الجريمة ستُنْسَى وتبرد نارها ، وتتلاشى بشاعتها ، ويطويها النسيان ، فإذا ما عاقبتَ المجرم فلن يبدو للناس إلاَّ ما يحدث من عقوبته ، فترى الناس يرأفون به ويتعاطفون معه .

إذن : قبل أن تنظر إلى : ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ .. (٥٦) ﴾ [النساء]

وإلى : ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا (٩٧) ﴾ [الإسراء]

انظر إلى ما فعلوه ، واعلم أن هذا العذاب بعدل الله ، فاحذر أنْ تأخذك بهم رحمة ، ففى سورة النور يقول تعالى : ﴿ وَلا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢) ﴾ [النور]

ثم يُوضّح سبحانه وتعالى حيثية هذا العذاب : ﴿ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا

بِآيَاتِنَا .. (٩٨) ﴾ [الإسراء] والآيات تطلق على الآيات الكونية ، أو على آيات المعجزات المؤيّدة لصدْق الرسول ، أو آيات القرآن الحاملة للأحكام .. وقد وقع منهم الكفر بكل الآيات ، فكفروا بالآيات الكونية ، ولم يستدلوا بها على الخالق سبحانه ، ولم يتدبّروا الحكمة من خَلْق هذا الكون البديع ، وكذلك كفروا بآيات القرآن ولم يُؤمنوا بما جاءتْ به .

وهذا كله يدلُّ على نقص فى العقيدة ، وخلَل فى الإيمان الفطرى الذى خلقه الله فيهم ، وكذلك كذَّبوا بمعجزات الرسول ، فدلَّ ذلك على خلَل فى التصديق .

ومن باطن هذا الكفر ومن نتائجه أنْ قالوا : ﴿ أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٩٨) ﴾ [الإسراء] وهذا القول منهم تكذيبٌ لآيات القرآن التى جاءتْ على لسان رسول الله ﷺ لتخبرهم أنهم مبعوثون يوم القيامة ومُحاسَبُون ، وهم بهذا القَوْل قد نقلوا الجدل إلى مجال جديد هو : البعث بعد الموت .

وقوله : ﴿ عِظَامًا وَرُفَاتًا .. (٩٨) ﴾ [الإسراء] الرفات : هو الفُتَات وَزْناً ومعنىً ، وهو : الشىء الجاف الذى تكسّر ؛ لذلك جاء الترتيب هكذا : عظاماً ورُفَاتاً ؛ لأن جسم الإنسان يتحلّل وتمتصُّ الأرض عناصر تكوينه ، ولا يبقى منه إلا العظام ، وبمرور الزمن تتكسّر هذه العظام ، وتتفتتْ وتصير رفاتاً ، وهم يستبعدون البعث بعد ما صاروا عظاماً ورفاتاً .

وقوله تعالى : ﴿ أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ .. (٩٨) ﴾ [الإسراء] والهمزة هنا استفهام يفيد الإنكار ، فلماذا ينكر هؤلاء مسألة البعث بعد الموت ؟

نقول : لأن الكافر عنده لَدَدٌ فى ذات إيمانه ، ومن مصلحة آماله وتكذيب نفسه أنْ ينكر البعث ، وعلى فَرْض أنه سيحدث فإنهم

سيكونون فى الآخرة سادة ، كما كانوا سادةً فى الدنيا . وهؤلاء القوم يفهمون الحياة على ظاهرها ، فالحياة عندهم هى الحركة الحسية التى يمارسونها ، وبها يعيشون حياتهم هذه ، ولا يدركون أن لكل شىء حياةً تناسبه .

فمثلاً : علماء الجيولوجيا والحَفْريات يقولون : إن الأشياء المطمورة فى باطن الأرض تتغيّر بمرور الزمن ، وتتحول إلى موادّ أخرى ، إذن : ففيها حركة وتفاعل أو قُلْ فيها حياة خاصة بها تناسبها ، فليست الحياة قاصرة على حركتنا فى الحياة الدنيا ، بل للحياة معنى آخر أوسع بكثير من الحياة التى يفهمها هؤلاء .

فالإنسان الحىّ مثلاً له فى مظهرية أموره حالتان : حالة النوم وحالة اليقظة ، فحياته فى النوم محكومة بقانون ، وحياته فى اليقظة محكومة بقانون ، هذا وهو ما يزال حياً يُرزَق ، إذن : عندما نخبرك أن لك قانوناً فى الموت وقانوناً فى البعث فعليك أنْ تُصدِّق .

ألم تَرَ النائم وهو مُغْمَض العينين يرى الرؤيا ، ويحكيها بالتفصيل وفيها حركة وأحداث وألوان ، وهو يدرك هذا كله وكأنه فى اليقظة ؟ حتى مكفوف البصر الذى فقد هذه الحاسة ، هو أيضاً يرى الرؤيا كما يراها المبصر تماماً ويحكيها لك ، يقول : رأيتُ كذا وكذا ، كيف وهو فى اليقظة لا يرى ؟

نقول : لأن للنوم قانوناً آخر ، وهو أنك تدرك بغير وسائل الإدراك المعروفة ، ولك فى النوم حياة مستقلة غير حياة اليقظة . ألاَ ترى الرجلين ينامان فى فراش واحد ، وهذا يرى رؤيا سعيدة مفرحة يصحو منها ضاحكاً مسروراً ، والآخر إلى جواره يرى رؤيا مؤلمة

مُحـزِنة يصحو فـيها مُكدّراً مـحزوناً ، ولا يدرى الواحد منهم بأخـيه ولا يشعر به ، لماذا ؟

لأن لكل منهما قانونه الخاص ، وحيـاته المستقلة التى لا يشاركه فيها أحد .

وقد ترى الرؤيا تحكيها لصـاحبك فى نصف ساعة ، فى حين أن العلمـاء توصلوا إلى أن أقـصى مـا يمكن للذهن مـتـابعـتـه فى النوم لا يتجاوز سبع ثـوان ، مما يدلُّ على أن الزمن فى النوم زمن مُلْغى ، كما أن أدوات الإدراك ملغاة ، إذن : فحيـاتك فى النوم غير حياتك فى اليقـظة ، وكذلك فى المـوت لك حياة ، وفى الـبعث لك حيـاة ، ولكل منهما قانون يحكمها بما يتناسب معها .

وقد يقول قـائل عن الرُّؤَى : إنها مجرد تخـيُّلات لا حقيـقةَ لها ، لكن يَرُدّ هذا القول مـا نراه فى الواقع من صاحب الرُّؤْيا الذى يحكى لك أنه أكل طعامـاً ، أو شرب شراباً مـا يزال طَعْمه فى فمـه ، وآخر ضُرِب ، ويُريك أثر الضرب على ظهره مـثلاً ، وآخر يصحو من النوم يتصَبَّب عَرقاً ، وكأنه كان فى عراك حقيقى لا مجرد منام .

فالحق سبحانه وتعالى يريد أنْ يُوضّح لنا أننا فى النوم لنا حياة خاصـة وقانون خـاص ، لنأخذ من هـذا دليلاً على حـياة أخرى بـعد الموت .

والعلماء قالوا فى هذه المسألة بظاهرة المـتواليات ، والمراد بها : إذا كانت اليقظة لها قـانون ، والنوم له قانون ألطف وأخفّ من قانون اليقظة ، فبالتالى للمـوت قانون أخفّ من قانون النوم ، وللبعث قانون أخفّ من قانون الموت .

وقد حَسَمَ القرآن الكريم هذه القضية فى قوله تعالى : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ .. (٨٨) ﴾ [القصص]

أى : كلُّ ما يُقَال له شىء فى الوجود هالك إلا الله تعالى فهو الباقى ، والهلاك ضدّه الحياة ، بدليل قوله تعالى : ﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ .. (٤٢) ﴾ [الأنفال]

إذن : لكل شىء مهما صَغُر فى كَوْن الله حياة خاصة تناسبه قبل أنْ يعتريه الهلاك .

ولذلك نعجب حينما يطالعنا العلماء بأن فى علبة الكبريت هذه التى نضعها فى جيوبنا قوةَ تجاذب بين ذراتها ، تصلح هذه القوة لتسيير قطار حول العالم لمدة ست سنوات ، سبحان الله .. أين هذه القوة ؟ إنها موجودة لكنّنا لا نشعر بها ولا ندركها ، إنما الباحثون فى معاملهم يمكنهم ملاحظة مثل هذه الحركة وتسجيلها .

وأقرب من ذلك ظاهرة الجاذبية التى تعلَّمناها منذ الصِّغَر والتى تعتمد على ترتيب الذرّات ترتيباً مُعيناً ، ينتج عنه المُوجَب والسالب ، فيتم التجاذب فكانوا يضعون لنا بُرادةَ الحديد فى أنبوبة ، ويُمَرِّرون عليها قضيباً مُمغْنَطاً ، فنرى برادة الحديد تتحرك فى نفس اتجاه القضيب .

إذن : فى الحديد حركة وحياة بين ذراته ، حياة تناسبه بلغتْ من الدقة مَبْلَغاً فوق مستوى إدراكك .

إذن : نستطيع القول بأن للعظام وللرفات حياةً ، ولك أيها المنكر وجود حتى بعد أنْ صِرْتَ رُفاتاً ، فشىء منك موجود يمكن أن يكون

نواةً لخلْقك من جديد ، وبمنطق هؤلاء المنكرين أيهما أهوَنُ فى الخَلْق : الخَلْق من شىء موجود ، أم الخَلْق ابتداءً ؟

وقد رَدَّ عليهم الحق سبحانه بقوله : ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ (٤)﴾ [ق]

أى : فى علمه سبحانه عدد ذرات كل منّا ، وكم فى تكوينه من مواد ، لا ينقص من ذلك شىء ، وهو سبحانه قادر على جمع هذه الذرات مرة أخرى ، وليس أمره تعالى متوقفاً على العلم فقط ، بل عنده كتاب دقيق يحفظ كل التفاصيل ، ولا يغيب عنه شىء .

وقال تعالى كذلك فى الرد عليهم : ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ (١٥)﴾ [ق] أى : فى خَلْط وشكٍّ وتردُّد .

وقد ناقشنا منْ منكرى البعث الشيوعيين الذين قتَّلوا فى أعدائهم ، وأخذوا أموالهم مُعاقبةً لهم على ما اقترفوه من ظلم الناس ، فكنت أقول لهم : فما بال الذين ماتوا من هؤلاء ، ولم يأخذوا حظّهم من العقاب ؟ وكيف يذهبون هكذا ويُفلتون بجرائمهم ؟ لقد كان الأَوْلَى بكم أنْ تؤمنوا بالآخرة التى يُعاقب فيها هؤلاء الذين أفلتوا من عقاب الدنيا ، حتى تتحقق عدالة الانتقام .

وقوله تعالى : ﴿أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٩٨)﴾ [الإسراء]

إنهم يستبعدون البعث من جديد ؛ لذلك فالحق سبحانه وتعالى يجارى هؤلاء ويتسامح معهم ، فيقول : ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ .. (٢٧)﴾ [الروم]

فإعادة شىء كان موجوداً أسهلُ وأهونُ من إيجاده منْ لا شىء ،

والحديث هنا عن بَعْث الإنسان ، هذا المخلوق الذى أبدعه الخالق سبحانه ، وجعله سيد هذا الكون ، وجعل عمره محدوداً ، فما بالكم تنشغلون بإنكار بعث الإنسان عن باقى المخلوقات وهى أعظم فى الخَلْقِ من الإنسان ، وأطول منه عُمراً ، وأثبت منه وأضخم .

فلا تَنْسَ أيها الإنسان أن خَلْقك أهونُ وأسهلُ من مخلوقات أخرى كثيرة هى أعظم منك ، ومع ذلك تراها خاضعة لله طائعة ، لم تعترض يوماً ، ولم تنكر كما أنكرتَ ، يقول تعالى : ﴿لَخَلْقُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ .. (٥٧)﴾ [غافر]

فمَنْ ينكر بَعْث الإنسان بعد أن يصير رفاتاً عليه أن يتأمل مثلاً الشمس كآية من آيات الله فى الكون ، وقد خلقها الله قبل خَلْق الإنسان ، وستظل إلى ما شاء الله ، وهى تعطى الضوء والدفء دون أنْ تتوقف أو تتعطّل ، ودون أن تحتاج إلى صيانة أو قطعة غيار ، وهى تسير بقدرة الخالق سبحانه مُسخَّرة لخدمتك ، ما تخلَّفتْ يوماً ولا اعترضتْ . فماذا يكون خَلْقك أنت أيها المنكر أمام قدرة الخالق سبحانه ؟

والحق سبحانه يقول :

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا (٩٩)﴾

قوله تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا .. (٩٩)﴾ [الإسراء]

إذا جاءت همزة الاستفهام بعدها واو العطف وبعدها نفى ، فاعلم أن الهمزة دخلتْ على شىء محذوف ، إذن : فتقدير الكلام هنا : أيقولون ذلك ويستبعدون البعث ولم يَرَوْا أن الله الذى خلق السموات والأرض قادر على أنْ يخلقَ مثلهم .

وقوله تعالى : (مِثْلَهُمْ) أى : يخلقهم هم ويُعيدهم من جديد ؛ لأن الخَلْق إنشاء جديد ، فهُمْ خَلْق جديد مُعَادٌ ، فالمثلية هنا فى أنهم مُعَادون ، أو يكون المراد (مِثْلَهم) أى : ليسوا هم ، بل خَلْق مختلف عنهم على اعتبار أنهم كانوا فى الدنيا مختارين ، ولهم إرادات ، أما الخلق الجديد فى الآخرة وإنْ كان مثلهم فى التكوين إلا أنه عاد مقهوراً على كل شىء لا إرادةَ له ؛ لأنه الآن فى الآخرة التى سينادى فيها الخالق سبحانه : ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾﴾ [غافر]

وقوله تعالى : ﴿وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لاَّ رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلاَّ كُفُوراً ﴿٩٩﴾﴾ [الإسراء]

أى : أن القيامة التى كذَّبوا بها وأنكروها واقعة لا شكّ فيها ، لكن هؤلاء معاندون مُصرُّون على الكفر مهما أتيتَ لهم بالأدلة ، ومهما ضربتَ لهم الأمثلةَ ، فإنهم مُصمِّمون على الإنكار ؛ لأن الإيمان سيسلبهم ما هم فيه من السيادة وما يدعونه من العظمة ، الإيمان سيُسوّى بينهم وبين العبيد ، وسيُقيّد حريتهم فيما كانوا فيه من ضلال وفساد .

لكن هؤلاء السادة والعظماء الذين تأبَّوْا على الإيمان ، وأنكروا البعث خوفاً على مكانتهم وسيادتهم وما عندهم من سلطة زمنية ، ألم تتعرَّضوا لظلم من أحد فى الدنيا ؟ ألم يعتَدِ عليكم أحد ؟ ألم يسرق

منكم أحد ولم تتمكنوا من الإمساك به ومعاقبته ؟ لقد كان أَوْلَى بكم الإيمان بالآخرة حيث تتحقق عدالة العقاب وتنالون حقوقكم مِمَّنْ ظلمكم ، أو اعتدى عليكم .

ثم ينتقل السياق القرآنى إلى موضوع جديد ، حيث يقول تعالى :

﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّيٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾ ﴾

قوله تعالى : (قُلْ) أمر من الحق سبحانه وتعالى أنْ يقولَ لأمته هذا الكلام ، وكان يكفى فى البلاغ أن يقول النبى ﷺ لأمته : لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربى .. لكن النبى هنا يحافظ على أمانة الأداء القرآنى ، ولا يحذف منه شيئاً ؛ لأن المتكلم هو الله ، وهذا دليلٌ على مدى صدق الرسول فى البلاغ عن ربه .

ومعنى (خَزَائِن) هى ما يُحفظ بها الشىء النفيس لوقته ، فالخزائن مثلاً لا نضع بها التراب ، بل الأشياء الثمينة ذات القيمة .

ومعنى ﴿ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّى .. ﴿١٠٠﴾ ﴾ [الإسراء] أى : خَيْرات الدنيا من لَدُنْ آدم عليه السلام وحتى قيام الساعة ، وإنْ من شىء يحدث إلى قيام الساعة إلا عند الله خزائنه ، فهو موجود بالفعل ، ظهر فى عالم الواقع أو لم يظهر : ﴿ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ ﴾ [الحجر] أى : أنه موجود فى عِلْم الله ، إلى حين الحاجة إليه .

لذلك لما تحدَّث الحق سبحانه عن خلق الآيات الكونية فى السماء والأرض قال : ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ مِن فَوْقِهَا

وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ [فصلت]

نلاحظ أن قوله تعالى (وَبَارَكَ فِيهَا) جاءت بعد ذكْر الجبال الرواسى ، ثم قال : ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا .. ﴿١٠﴾﴾ [فصلت] كأن الجبال هى مخازن القوت ، وخزائن رحمة الله لأهل الأرض . والقوت : وهو الذى يتمّ به استبقاء الحياة ، وهذا ناشىء من مزروعات الأرض ، وهذه من تصديقات القرآن لطموحات العلم وأسبقية إخبار بما سيحدث ، فها هو القرآن يخبر بما اهتدى إليه العلم الحديث من أن العناصر التى تُكوّن الإنسان هى نفس عناصر التربة الزراعية التى نأكل منها .

لكن ، كيف تكون الجبال مخازن القوت الذى جعله الله فى الأرض قبل أن يُخْلَق الإنسان ؟

نقول : إن الجبال هى أساس التربة التى نزرعها ، فالجبل هذه الكتلة الصخرية التى تراها أمامك جامدة هى فى الحقيقة ليست كذلك ؛ لأن عوامل التعرية وتقلبات الجو من شمس وحرارة وبرودة ، كل هذه عوامل تُفتِّت الصخر وتُحدث به شروخاً وتشققات ، ثم يأتى المطر فيحمل هذا الفُتات إلى الوادى ، ولو تأملتَ شكل الجبل وشكل الوادى لوجدتهما عبارة عن مثلثين كل منهما عكس الآخر ، فالجبل مثلث رأسه إلى أعلى ، وقاعدته إلى أسفل ، والوادى مثلث رأسه إلى أسفل وقاعدته إلى أعلى .

وهكذا ، فكُلُّ ما ينقص من الجبل يزيد فى الوادى ، ويُكوِّن التربة الصالحة للزراعة ، وهو ما يسمى بالغرْيَن أو الطمى ؛ لذلك حَدَّثونا أن مدينة دمياط قديماً كانت على شاطىء البحر الأبيض ، ولكن بمرور الزمن تكوَّنت مساحات واسعة من هذا الغرْيَن أو الطمى الذى حمله النيل من إفريقيا ففصل دمياط عن البحر ، والآن وبعد بناء السد وعدم تكوُّن

الطمى بدأت المياه تنحت فى الشاطىء ، وتنقص فيه من جديد .

إذن : فقوله تعالى عن بداية خَلْق الأرض : ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا .. ﴿١٠﴾﴾ [فصلت] كأنه يعطينا تسلسلاً لخَلْق القُوت فى الأرض ، وأن خزائن الله لا حدودَ لها ولا نفادَ لخيراتها .

ثم يقول تعالى : ﴿إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنفَاقِ وَكَانَ الإِنسَانُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾﴾ [الإسراء]

أى : لو أن الله تعالى ملَّك خزائن خيراته ورحمته للناس ، فأصبح فى أيديهم خزائن لا تنفد ، ولا يخشى صاحبها الفقر ، لو حدث ذلك لأمسك الإنسان وبخِلَ وقَتَر خوف الفقر ؛ لأنه جُبِل على الإمساك والتقتير حتى على نفسه ، وخوف الإنسان من الفقر ولو أنه يملك خزائن رحمة الله التى لا نفادَ لها ناتج عن عدم مقدرته على تعويض ما أنفق ؛ ولأنه لا يستطيع أنْ يُحدث شيئاً .

والبخل يكون على الغير ، فإنْ كان على النفس فهو التقتير ، وهو سُبَّة واضحة ومُخزية ، فقد يقبل أن يُضَيِّق الإنسانُ على الغير ، أما أنْ يُضيق على نفسه فهذا منتهى ما يمكن تصوّره ؛ لذلك يقول الشاعر[1] فى التندُّر على هؤلاء :

يُقتِّر عِيسَى عَلَى نَفْسِه ... وَلَيْسَ بِبَاقٍ وَلاَ خَالِدِ
فَلَوْ يستطيعُ لتَقتِيرِه ... تنفَّسَ مِنْ مَنْخَرٍ وَاحِدِ

---

(١) هو : الشاعر ابن الرومى ، وهو على بن العباس بن جريج ، أبو الحسن ، شاعر كبير من طبقة بشار والمتنبى ، كان جده من موالى بنى العباس ، ولد ببغداد (ت ٢٢١ هـ) ونشأ بها ، ومات فيها مسموماً (٢٨٣ هـ) عن ٦٣ عاماً . (الأعلام للزركلى ٤/٢٩٧) .

ويقول أيضاً :

لَوْ أنَّ بيتَكَ يَا ابْنَ يوسف كُلُّه إبرٌ يَضِيقُ بِهاَ فَضَاءُ المنْزِلِ
وأَتَاكَ يُوسُفُ يَستعِيرُكَ إبْرةً لِيَخيطَ قدَّ قميصِه لَمْ تفْعَلِ(١)

فالإنسان يبخل على الناس ويُقتِّر علَى نفسه ؛ لأنه جُبِل علَى البخل مخافة الفقر ، وإنْ أُوتِى خزائن السموات والأرض .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا (١٠١) ﴾

وقد سبق أن اقترح كفار مكة على رسول الله ﷺ عدة آيات ذُكِرَتْ فى قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ .. (٩٣) ﴾ [الإسراء]

فأراد الحق سبحانه أنْ يُلفت نظره أن سابقيهم من اليهود أتتهم تسع آيات ونزلت عليهم دون أنْ يطلبوها ، ومع ذلك كفروا ، فالمسألة كلها تعنّت وعناد من أهل الكفر فى كل زمان ومكان .

ومعنى ﴿ بَيِّنَاتٍ .. (١٠١) ﴾ [الإسراء] أى : واضحات مشهورات بلَقْاء

---

(١) البيت لابن الرومى أيضاً .

كالصبح ، لأنها حدثت جميعها على مَرْأىً ومشهد من الناس .

والمراد بالآيات التسع هنا هى الآيات الخاصة بفرعون ؛ لأن كثيرين يخلطون بين معجزات موسى إلى فرعون ، ومعجزاته إلى بنى إسرائيل .

إذن : فقوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ .. (١٠١)﴾ [الإسراء] هى الآيات التى أُرسِل بها إلى فرعون وقومه وهى : العصا التى انقلبتْ حية ، واليد التى أخرجها من جيبه بيضاء مُنورة ، وأَخْذ آل فرعون بالسنين ونَقْص من الأموال والأنفس والثمرات ، ثم لما كذَّبوا أنزل الله عليهم الطوفان ، والجراد ، والقُمّل[1] ، والضفادع ، والدم ، هذه تسع آيات خاصة بما دار بين موسى وفرعون .

أما المعجزات الأخرى مثل العصا التى ضرب بها الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً ، ونتق[2] الجبل فوقهم كأنه ظُلَّة ، وإنزال المنِّ والسَّلْوى عليهم ، فهذه آيات خاصة ببنى إسرائيل .

وقوله تعالى : ﴿فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ .. (١٠١)﴾ [الإسراء] والأمر هنا لرسول الله ﷺ ، لكن كيف يسأل بنى إسرائيل الذين جاءهم موسى - عليه السلام - وقد ماتوا ، والموجود الآن ذريتهم ؟

نقول : لأن السؤال لذريتهم هو عَيْن سؤالهم ؛ لأنهم تناقلوا الأحداث جيلاً بعد جيل ؛ لذلك قال تعالى مُخاطباً بنى إسرائيل

---

(١) القُمَّل : صغار الذر والدبى . وهو شىء صغير له جناح أحمر . قال ابن السكيت : القُمَّل شىء يقع فى الزرع ليس بجراد فيأكل السنبلة وهى غضة قبل أن تخرج فيطول الزرع ولا سُنبل له . [لسان العرب - مادة : قمل] .

(٢) نتقه : رفعه من مكانه وحرّكه وجذبه . [القاموس القويم ٢/٢٥٢] .

المعاصرين لرسول الله : ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ[1] سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾﴾ [إبراهيم]

والنجاة لم تكُنْ لهؤلاء ، بل لأجدادهم المعاصرين لفرعون ، لكن خاطبهم الحق بقوله (أنجاكم) لأنه سبحانه لو أهلك أجدادهم لما وُجِدُوا هم ، فكأن نجاة السابقين نجاةٌ للاحقين .

ويسأل رسول الله بنى إسرائيل لأنهم هم الأمة التى لها ممارسة مع منهج الله ووحيه ، ولها اتصال بالرسل وبالكتب المنزَّلة كالتوراة والإنجيل ، أما مشركو قريش فليس لهم صلَة سابقة بوَحْى السماء ؛ لذلك لما كذَّبوا رسول الله خاطبه بقوله : ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴿٤٣﴾﴾ [الرعد]

لأن الذى عنده عِلْم من الكتاب : اليهود أو النصارى عندهم عِلْم فى كتبهم وبشارة ببعثة محمد ، وهم يعرفونه ويعرفون أوصافه وزمن بعثته ، بل ويعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، بل وأكثر من معرفتهم لأبنائهم ، كما قال واحد منهم[2] .

وسؤال رسول الله لبنى إسرائيل سؤالَ حُجَّة واستشهاد ؛ لأن قومه سألوه وطلبوا أنْ يظهر لهم عدة آيات ـ سبق ذِكْرها ـ لكى يؤمنوا به ، فأراد أنْ يُنبِّههم إلى تاريخ إخوانهم وسابقيهم على مَرِّ

---

(١) يسومونكم : يذيقونكم أشد العذاب . قال الليث : السوم أن تُجشِّم إنساناً مشقة أو سوءاً أو ظلماً . [لسان العرب ـ مادة : سوم] .

(٢) هو عبد الله بن سلام ، قال القرطبى : يُروى عن عمر أنه قال لعبد الله بن سلام : أتعرف محمداً كما تعرف ولدك ؟ قال : نعم وأكثر . نزل الأمين من السماء على الأمين فى الأرض بنعته فعرفته ، وإنى لا أدرى ما كان من أمه . [ذكره ابن كثير فى تفسيره ١/١٩٤] .

العصور ، وقد أنزل الله لهم الآيات الواضحات والمعجزات الباهرات ، ومع ذلك كفروا ولجُّوا ولم يؤمنوا . فقوم فرعون رَأَوْا من موسى تسع آيات وكفروا ، وقوم صالح : ﴿وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا.. (٥٩)﴾ [الإسراء] ولَيْتهم كذَّبوا وكفروا بهذه الآية فحَسْب ، بل واعتدَوْا عليها وعقروها .

لذلك قال تعالى : ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ .. (٥٩)﴾ [الإسراء] أى : التى اقترحوها ﴿إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ .. (٥٩)﴾ [الإسراء] وما دام كذَّب بها الأولون فسوف يُكذِّب بها هؤلاء ؛ لأن الكفر ملَّة واحدة فى كل زمان ومكان .

إذن : مسألة طلب الآيات واقتراح المعجزات ليستْ فى الحقيقة رغبة فى الإيمان ، بل مجرد عناد ولَجَج ومحاولة للتعنُّت والجدَل العقيم لإضاعة الوقت .

ثم يقول تعالى : ﴿فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ (١٠١)﴾ [الإسراء] أى : بعد أنْ رأى الآيات كلها : ﴿إِنِّي لأَظُنُّكَ يَـٰمُوسَىٰ مَسْحُوراً (١٠١)﴾ [الإسراء] فاتهمه بالسحر بعد أنْ أراه كُلَّ هذه الدلائل والمعجزات .

وكلمة ﴿مَسْحُوراً (١٠١)﴾ [الإسراء] اسم مفعول بمعنى سحره غيره ، وقد يأتى اسم المفعول دالاً على اسم الفاعل لحكمة ، كما فى قوله تعالى : ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَاباً مَّسْتُوراً (٤٥)﴾ [الإسراء]

والحجاب يكون ساتراً لا مستوراً ، لكن الحق سبحانه جعل الحجاب نفسه مستوراً مبالغة فى السَّتْر ، كما نبالغ نحن الآن فى استعمال الستائر ، فنجعلها من طبقتين مثلاً .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿ظِلاًّ ظَلِيلاً (٥٧)﴾ [النساء] فالظل نفسه مُظلَّل ، ونستطيع أن نلاحظ هذه الظاهرة إذا جلسنا فى الحرِّ تحت شجرة ، فسوف نجد الهواء تحتها رَطباً بارداً ، لماذا ؟ لأن أوراق الشجر مُتراكمة يُظلّل بعضها بعضاً ، فتجد أعلاك طبقات متعددة من الظل ، فتشعر فى النهاية بجو لطيف مُكيف تكييفاً ربانياً .

إذن : قوله (مسحوراً) تفيد أنه سحَر غيره ، أو سحره غيره ؛ لأن المسحور هو الذى أَلَمَّ به السحر ، إما فاعلاً له ، أو مفعولاً عليه . وهذه الكلمة قالها كفار مكة لرسول الله ﷺ فقالوا : ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُوراً (٤٧)﴾ [الإسراء] والمسحور بمعنى المخبول الذى أثّر فيه السحر ، فصار مخبولاً مجنوناً ، وهذا كذب وافتراء على رسول الله من السهل رَدُّه وضَحْده .

فإنْ كان ساحراً ، فكيف يسحره غيره ؟! ولماذا لم يسحركم كما سحر الذين آمنوا به ؟ لماذا تأبَّيتم أنتم على سحره فلم تؤمنوا ؟ وإنْ كان مسحوراً مَخْبُولاً ، والمخبول تتأتّى منه حركات وأقوال دون أنْ تَمُرّ على العقل الواعى الذى يختار بين البديلات ، فلا يكون له سيطرة على إراداته ولا على خُلقه ، فهل عهدكم بمحمد أنْ كان مَخبولاً ؟ هل رأيتم عليه مثل هذه الصفات ؟

لذلك رَدَّ الحق سبحانه عليهم هذا الافتراء بقوله تعالى : ﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (١) مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (٢) وَإِنَّ لَكَ لأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ (٣) وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤)﴾ [القلم]

والمجنون لا يكون على خُلُق أبداً .

وسوف يناقض فرعون نفسه ، فبعد أنْ اتهم موسى بالسحر ، ثم كانت الغَلَبة لموسى ، وخَرَّ السحرة ساجدين ، قال : ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِى عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ .. (٧١)﴾ [طه] وهذا دليل على التخبُّط والإفلاس .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا (١٠٢)﴾

أى : قال موسى لفرعون ، والتاء فى (عَلِمْتَ) مفتوحة أى : تاء الخطاب ، فهو يُكلِّمه مباشرة ويُخاطبه : لقد علمتَ يا فرعون علْمَ اليقين أننى لستُ مسحوراً ولا مخبولاً ، وأن ما معى من الآيات مما شاهدتَه وعاينته من الله رب السموات والأرض ، وأنت تعلم ذلك جيداً إلا أنك تنكره ، كما قال تعالى : ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا .. (١٤)﴾ [النمل]

إذن : فعندهم يقينٌ بصدق هذه المعجزات ، ولكنهم يجحدونها ؛ لأنها ستزلزل سلطانهم ، وتُقوِّض عروشهم .

وقوله تعالى : ﴿بَصَائِرَ .. (١٠٢)﴾ [الإسراء] أى : أنزل هذه الآيات بصائر تُبصّر الناس ، وتفتح قلوبهم ، فيُقبلوا على ذلك الرسول الذى جاء بآية معجزة من جنس ما نبغَ فيه قومه .

ثم لم يَفُتْ موسى ـ عليه السلام ـ وقد ثبتتْ قدمه ، وأرسى قواعد دعوته أمام الجميع أنْ يُكلِّم فرعونَ من منطلق القوة ، وأن يُجابهه واحدة بواحدة ، فيقول : ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا (١٠٢)﴾ [الإسراء] فقد سبق أنْ قال فرعون : ﴿إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا (١٠١)﴾ [الإسراء] فواحدة بواحدة ، والبادى أظلم .

والمثبور : الهالك ، أو الممنوع من كُلِّ خير ، وكأن الله تعالى أطْلعَ موسى على مصير فرعون ، وأنه هالكٌ عن قريب . وعلى هذا يكون المجنون على أية حال أحسن من المثبور ، فالمجنون وإنْ فقد نعمة العقل إلا أنه يعيش كغيره من العقلاء ، بل ربما أفضل منهم ، لأنك لو تأملتَ حال المجنون لوجدته يفعل ما يشاء ويقول ما يشاء دون أنْ يتعرّض له أحد أو يُحاسبه أحد ، وهذا مُنْتَهى ما يتمناه السلاطين والحكام وأهل الجبروت فى الأرض ، فماذا ينتظر القادة والأمراء إلاَّ أنْ تكون كلمتهم نافذة ، وأمرهم مُطَاعاً ؟ وهذا كله ينعَم به المجنون .

وهنا قد يقول قائل : ما الحكمة من بقاء المجنون على قَيْد الحياة ، وقد سلبه الله أعظم ما يملك ، وهو العقل الذى يتميز به ؟

نقول : أنت لا تدرى أن الخالق سبحانه حينما سلبه العقل ماذا أعطاه ؟ لقد أعطاه ما لو عرفته أنت أيُّها العاقل لتمنيتَ أنْ تُجَنَّ !! ألاَ تراه يسير بين الناس ويفعل ما يحلو له دون أنْ يعترضه أحد ، أو يؤذيه أحد ، الجميع يعطف عليه ويبتسم فى وجهه ، ثم بعد ذلك لا يُحاسَب فى الآخرة ، فأىُّ عِزٍّ أعظم من هذا ؟

إذن : سَلْب أىّ نعمة مساوية لنعم الآخرين فيها عطاء لا يراه ولا يستنبطه إلا اللبيب ، فحين ترى الأعمى مثلاً فإياك أنْ تظنّ أنك أفضل منه عند الله ، لا ليس منّا مَنْ هو ابنٌ لله ، وليس منّا مَنْ بينه وبين الله نسب ، نحن أمام الخالق سبحانه سواء ، فهذا الذى حُرِم نعمة البصر عُوِّض عنها فى حواس أخرى ، يفوقك فيها ـ أنت أيها المبصر ـ بحيث تكون الكِفَّة فى النهاية مُسْتوية .

واسمع إلى أحد العِمْيان يقول :

عَمِيتُ جَنِيناً والذكَاءُ مِنَ العَمَى فجئتُ عَجِيبَ الظَّنِّ للعِلْم مَوْئِلاً
وَغَاب ضِيَاءُ العَيْن للقلْبِ رافداً لِعِلْمٍ إذَا مَا ضيَّع الناسُ حَصّلا[1]

فحدِّث عن ذكاء هؤلاء وفطْنتهم وقوة تحصيلهم للعلم ولا حرج ، وهذا أمر واضح يُشاهده كُلُّ مَنْ عاشر أعمى . وهكذا تجد كُلَّ أصحاب العاهات الذين ابتلاهم الخالق سبحانه بنقص فى تكوينهم يُعوِّضهم عنه فى شىء آخر عزاءً لهم عما فَاتهم ، لكن هذا التعويض غالباً ما يكون دقيقاً يحتاج إلى مَنْ يُدرِكه ويستنبطه .

وكذلك نرى كثيرين من هؤلاء الذين ابتلاهم الله بنقْصٍ ما يحاولون تعويضه ويتفوقون فى نواحٍ أخرى ، ليثبتوا للمجتمع جدارتهم ويُحدِثوا توازناً فى حياتهم ليعيشوا الحياة الكريمة الإيجابية فى مجتمعهم .

ومن ذلك مثلاً العالم الألمانى (شاخْت) وقد أصيب بقِصَرٍ فى إحدى ساقيْه أعفاه من الخدمة العسكرية مع رفاقه من الشباب ، فأثَّر ذلك فى نفسه فصمَّم أنْ يكون شيئاً ، وأنْ يخدُمَ بلده فى ناحية أخرى ، فاختار مجال الاقتصاد ، وأبدع فيه ، ورسم لبلاده الخُطّة

---

(١) هذان البيتان لبشار بن برد . وقد قيل له عندما أنشد قوله :

كَأنَّ مَثَارَ النَّقْع فَوْقَ رُؤوسنَا وَأسْيافَنَا لَيْلٌ تَهَاوَى كَوَاكِبُهْ

ما قال أحد أحسن من هذا التشبيه ، فمن أين لك هذا ولم تر الدنيا قط ولا شيئاً فيها ؟ فقال : إن عدم النظر يُقوى ذكاء القلب ويقطع عنه الشغل بما ينظر إليه من الأشياء ، فيتوفر جسّه وتذكو قريحته . ثم أنشدهم هذين البيتين ، الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى (١/٣٧٦) .

التى تعينها فى السِّلْم وتعويضها ما فاتها فى الحرب ، فكان (شاخْت) رجل الاقتصاد الأول فى ألمانيا كلها .

ويجب أن نعلم أن التكوين الإنسانى وخَلْق البشر ليس عملية ميكانيكية تعطى نماذج متماثلة تماماً ، إبداع الخالق سبحانه ليس ماكينة كالتى تصنع الأكواب مثلاً ، وتعطينا قِطَعاً متساوية ، بل لا بُدّ من الشذوذ فى الخَلْق لحكمة ؛ لأن وراء الخلق إرادة عليا للخالق سبحانه ، ألا ترى الأولاد من أب واحد وأم واحدة وتراهم مختلفين فى اللون أو الطول أو الذكاء .. الخ ؟!

يقول تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ .. (٢٢) ﴾ [الروم]

إنها قدرةٌ فى الخَلْق لا نهاية لها ، وإبداعٌ لا مثيلَ له فيما يفعل البشر .

وهناك ملْمح آخر يجب أن نتنبه إليه ، هو أن الخالق سبحانه وتعالى جعل أصحاب النقص فى التكوين وأصحاب العاهات كوسائل إيضاح ، وتذكُّر للإنسان إذا ما نسى فضْل الله عليه ، لأنه كما قال تعالى : ﴿ كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ (٧) ﴾ [العلق]

فالإنسان كثيراً ما تطغيه النعمة ، ويغفل عن المنعِم سبحانه ، فإذا ما رأى أصحاب الابتلاءات انتبه وتذكّر نعمة الله ، وربما تجد المبصر لا يشعر بنعمة البصر ولا يذكرها إلا إذا رأى أعمى يتخبَّط فى الطريق ، ساعتها فقط يذكر نعمة البصر فيقول : الحمد لله .

إذن : هذه العاهات ليستْ لأن أصحابها أقلُّ منّا ، أو أنهم أهوَنُ

على الله .. لا ، بل هى ابتلاء لأصحابها ، ووسيلة إيضاح للآخرين لتلفتهم إلى نعمة الله .

لكن الآفة فى هذه المسألة أنْ ترى بعض أصحاب العاهات والابتلاءات لا يستر بَلْوَاه على ربه ، بل يُظهرها للناس ، وكأنه يقول لهم : انظروا ماذا فعل الله بى ، ويتخذ من عَجْزه وعاهته وسيلةً للتكسُّب والترزّق ، بل وابتزاز أموال الناس وأَخْذها دون وَجْه حق .

وفى الحديث الشريف : « إذَا بُلِيتم فاستتروا »[1] .

والذى يعرض بَلْواه على الناس هكذا كأنه يشكو الخالق للخَلْق ، ووالله لو ستر صاحب العاهة عاهته على ربه وقبلها منه لساقَ له رزقه على باب بيته . والأدْهَى من ذلك أن يتصنّع الناس العاهات ويدَّعوها ويُوهموا الناس بها لِيُوقِعوهم ، وليبتزّوا أموالهم بسيف الضعف والحاجَة .

نعود إلى قصة موسى وفرعون لنستنبط منها بعض الآيات والعجائب ، وأوّل ما يدعونا للعجب أن فرعون هو الذى ربَّى موسى منذ أنْ كان وليداً ، وفى وقت كان يقتل فيه الذكور من أبناء قومه ، لنعلم أن الله يحول بين المرء وقلبه ، وأن إرادته سبحانه نافذة . فقد وضع محبة موسى فى قلب فرعون وزوجته فقالت :

﴿ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا .. (٩) ﴾ [القصص]

---

(١) أورده العجلونى فى كشف الخفاء (٢١١) بلفظ : « إذا بليتم بالمعاصى فاستتروا » وقد أخرج الحاكم فى مستدركه (٤/٢٤٤) من حديث عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قام بعد أن رجم الأسلمى فقال : « اجتنبوا هذه القاذورة التى نهى الله عنها ، فمن ألمَّ فليستتر بستر الله وليتب إلى الله ، فإنه مَنْ يُبْدِ لنا صَفْحته نُقِم عليه كتاب الله » قال الحاكم : « صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه » .

فأين ذهبت عداوتُه وبُغْضه للأطفال ؟ ولماذا أحبَّ هذا الطفلَ بالذات ؟ ألم يكُنْ من البدهى أنْ يطرأ على ذهْن فرعون أن هذا الطفل ألقاه أهله فى اليَمِّ لينجو من القتل ؟ ولماذا لم تطرأ هذه الفكرة البدهية على ذهْنه ؟ اللهم إلا قوله تعالى : ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ .. (٢٤)﴾ [الأنفال]

لقد طمس الله على قلب فرعون حتى لا يفعل شيئاً من هذا ، وحال بينه وبين قلبه ليُبيِّن للناس جهل هذا الطاغية ومدى حُمْقه ، وأن وراء العناية والتربية للأهل والأسرة عنايةُ المربّى الأعلى سبحانه .

لذلك قال الشاعر :

إذَا لَمْ تُصَادِفْ مِنْ بَنِيكَ عِنَايَةً ... فَقَدْ كذبَ الرَّاجِى وَخَابَ المؤملُ
فمُوسَى الذِى رَبَّاهُ جِبْرِيلُ كافِرٌ ... وَمُوسَى الذِى رَبَّاهُ فِرْعَوْنُ مُرْسَلُ

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ جَمِيعًا (١٠٣)﴾

(فَأَرَادَ) أى : فرعون . (أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ) كلمة « استفزَّ » سبق الكلام عنها فى قوله تعالى : ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ .. (٦٤)﴾ [الإسراء] فالاستفزاز هو الإزعاج بالصوت العالى ، يقوم المنَادَى ويخفّ من مكانه ، وهذا الصوت أو هذه الصَّيْحة يُخرجها الفارس أو اللاعب كما نرى فى لعبة الكراتيه مثلاً ليُزعِج الخصم ويُخيفه ، وأيضاً فإن هذه الصيحة تشغَل الخَصْم ، وتأخذ

جزءاً من تفكيره ، فيقلّ تركيزه ، فيمكن التغلُّب عليه . ومن الاستفزاز قَوْل أحدِنا لابنه المتكاسل : فِزْ . أى : انهض وخِفّ للقيام .

إذن : المعنى : فأراد فرعون أنْ يستفزّهم ويخدعهم خديعة تُخرِجهم من الأرض ، فتخلو له من بعدهم ، وهذا دليلٌ على غباء فرعون وتغفيله وحماقته ، فما جاء موسى إلا ليأخذ بنى إسرائيل ، كما جاء فى قوله تعالى :

﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦) أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٧)﴾ [الشعراء]

فكأن غباء فرعون أعان القدر الذى جاء به موسى ـ عليه السلام ـ ولكن كان لله تعالى إرادة فوق إرادة فرعون ، فقد أراد أن يُخرج بنى إسرائيل وتخلو له الأرض ، وأراد الحق سبحانه وتعالى أن يستفزّه هو من الأرض كلها ومن الدنيا ، فأغرقه الله تعالى وأخذه أَخْذَ عزيز مقتدر ، وعاجله قبل أنْ يُنفذ ما أراد .

كما يقولون فى الأمثال عند أهل الريف للذى هدَّد جاره بأنْ يحرق غلّته وهى فى الجرن ، فإذا بالقدر يعاجله (والغلة لسه فريك) أى : يعاجله الموت قبل نُضْج الغلة التى هدد بحرقها ، فأغرقه الله ومَنْ معه جميعاً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا (١٠٤)﴾

قوله تعالى : (مِنْ بَعْدِهِ) أى : من بعد موسى (اسْكُنُوا الأَرْضَ) أغلب العلماء[١] قالوا : أى الأرض المقدسة التى هى بيت المقدس ، التى قال تعالى عنها : ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ[٢] الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ .. (٢١)﴾ [المائدة] فكان ردّهم على أمر موسى بدخول بيت المقدس : ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ[٣] وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا .. (٢٢)﴾ [المائدة]

وقالوا : ﴿إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ (٢٤)﴾ [المائدة]

لكن كلمة (الأرض) هنا جاءت مجرّدة عن الوَصْف (اسْكُنُوا الأَرْضَ) دون أنْ يُقيِّدها بوصف ، كما نقول : أرض الحرم ، أرض المدينة ، وإذا أردتَ أنْ تُسكِنَ إنساناً وتُوطِّنه تقول : اسكن أى : استقر وتوَطّن فى القاهرة أو الأسكندرية مثلاً ، لكن اسكن الأرض ،

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٥/٤٠٦٧) : « أى أرض الشام ومصر » .

(٢) قال ابن كثير فى تفسيره (٢/٣٧) : « قال ابن عباس : هى الطور وما حوله . وكذا قال مجاهد وغير واحد . وعن ابن عباس أيضاً قال : هى أريحاء وكذا ذكر عن غير واحد من المفسرين ، وفى هذا نظر لأن أريحاء ليست هى المقصودة بالفتح ولا كانت فى طريقهم إلى بيت المقدس ، إلا أن يكون المراد بأريحاء أرض بيت المقدس كما قاله السدى فيما رواه ابن جرير عنه ، لا أن المراد بها هذه البلدة المعروفة فى طرف الطور شرقى بيت المقدس » .

(٣) ذكر كثير من المفسرين ههنا أخباراً من وضع بنى إسرائيل فى عظمة خلق هؤلاء الجبارين ، وأن منهم عوج بن عنق بنت آدم عليه السلام ، وأنه كان طوله ثلاثة آلاف ذراع وثلاثمائة وثلاثة وثلاثون ذراعاً وثلث ذراع ، وهذا شىء يستحى من ذكره ، ثم هو مخالف لما ثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله خلق آدم وطوله ستون ذراعاً ثم لم يزل الخلق ينقص حتى الآن » قاله ابن كثير فى تفسيره (٢/٣٨) .

كيف وأنا موجود فى الأرض بالفعل ؟! لا بُدَّ أن تُخصِّص لى مكاناً أسكن فيه .

نقول : جاء قوله تعالى (اسْكُنُوا الأَرْضَ) هكذا دون تقييد بمكان معين ، لينسجم مع آيات القرآن التى حكمتْ عليهم بالتفرُّق فى جميع أنحاء الأرض ، فلا يكون لهم وطن يتجمعون فيه ، كما قال تعالى : ﴿ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأَرْضِ أُمَماً .. (١٦٨) ﴾ [الأعراف]

والواقع يُؤيد هذا ، حيث نراهم مُتفرِّقين فى شتَّى البلاد ، إلا أنهم ينحازون إلى أماكن مُحدَّدة لهم يتجمَّعون فيها ، ولا يذوبون فى الشعوب الأخرى ، فتجد كل قطعة منهم كأنها أمة مُستقلة بذاتها لا تختلط بغيرها .

وقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفاً (١٠٤) ﴾[الإسراء]

والمراد بوَعْد الآخرة : هو الإفساد الثانى لبنى إسرائيل ، حيث قال تعالى عن إفسادهم الأول على عهد رسول الله ﷺ :

﴿ وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيراً (٤) فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْداً مَّفْعُولاً (٥) ﴾ [الإسراء]

فقد جاس رسول الله ﷺ خلال ديارهم فى المدينة ، وفى بنى قريظة وبنى قَيْنُقاع ، وبنى النضير ، وأجلاهم إلى أَذْرُعَات بالشام ، ثم انقطعت الصلة بين المسلمين واليهود فترة من الزمن .

ثم يقول تعالى عن الإفسادة الثانية لبنى إسرائيل : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوؤُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا[1] مَا عَلَوْا تَتْبِيراً (٧) ﴾ [الإسراء]

---

(١) تبَّره : دمره وأهلكه . مُتَبَّر : اسم مفعول أى مُدمَّر مُهْلَك . [القاموس القويم ١/٩٧] .

وهذه الإفسادة هى ما نحن بصدده الآن ، حيث سيتجمع اليهود فى وطن واحد ليتحقق وَعْد الله بالقضاء عليهم ، وهل يستطيع المسلمون أن ينقضُّوا على اليهود وهم فى شتيت الأرض ؟ لا بُدّ أن الحق سبحانه أوحى إليهم بفكرة التجمُّع فى وطن قومى لهم كما يقولون ، حتى إذا أراد أَخْذهم لم يُفلتوا ، ويأخذهم أَخْذ عزيز مقتدر .

وهذا هو المراد من قوله تعالى : ﴿جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الإسراء] أى : مجتمعين بعضكم إلى بعض من شَتّى البلاد ، وهو ما يحدث الآن على أرض فلسطين .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾﴾

قوله تعالى : ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ .. ﴿١٠٥﴾﴾ [الإسراء]

الحق من حقَّ الشىء . أى : ثبت ، فالحقّ هو الشىء الثابت الذى لا يطرأ عليه التغيير أبداً ، أما الباطل فهو مُتغير مُتلوّن لأنه زَهُوق ، والباطل له ألوان متعددة ، والحق ليس له إلا لون واحد .

لذلك لما ضرب الله لنا مثلاً للحق والباطل ، قال سبحانه : ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾﴾ [الرعد]

فإنْ رأيت فى عَصْر من العصور خَوَرًا يصيب أهل الحق ، وعُلُواً يحالف أهل الباطل فلا تغتر به ، فهو عُلُوّ الزَّبَد الذى يعلو صَفْحة

الماء ، ولا ينتفع الناس به ، وسرعان ما تُلقى به الريح هنا وهناك لتجلوَ صفحة الماء الناصعة المفيدة ، أما الزَّبَد فيذهب جُفَاءً دون فائدة ، ويمكث فى الأرض الماء الصافى الذى ينتفع الناس به فى الزراعة ونحوها .

وهكذا الباطل مُتغيِّر مُتقلِّب لا ينتفع به ، والحق ثابت لا يتغير لأنه مَظْهرية من مَظْهريات الحق الأعلى سبحانه ، وهو سبحانه الحق الأعلى الذى لا تتناوله الأغيار .

وقوله : ﴿أَنزَلْنَاهُ .. (١٠٥)﴾ [الإسراء]

ونلاحظ هنا أن ضمير الغائب فى ﴿ أَنْزَلْنَاهُ ﴾ لم يتقدَّم عليه شىء يوُضِّح الضمير ويعود إليه ، صحيح أن الضمير أعْرفُ المعارف ، لكن لا بُدَّ له من مرجع يرجع إليه . وهنا لم يُسبِق الضمير بشىء ، كما سُبق بمرجع فى قوله تعالى : ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَـٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ .. (٨٨)﴾ [الإسراء]

فهنا يعود الضمير فى (بِمِثْلِهِ) إلى القرآن الذى سبق ذكره .

نقول : إذا لم يسبق ضمير الغائب بشىء يرجع إليه ، فلا بُدَّ أن يكون مرجعه مُتعيّناً لا يختلف فيه اثنان ، كما فى قوله تعالى : ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١)﴾ [الإخلاص]

فهو ضمير للغائب لم يسبق بمرجع له ؛ لأنه لا يرجع إلا إلى الله تعالى ، وهذا أمر لا يُختَلفُ عليه .

كذلك فى قوله تعالى : ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ .. (١٠٥)﴾ [الإسراء]

أى : القرآن ؛ لأنه شىء ثابت مُتعيّن لا يُختَلف عليه . وجاء الفعل أنزل للتعدية ، فكأن الحق سبحانه كان كلامه ـ وهو القرآن ـ محفوظاً فى اللوح المحفوظ ، إلى أنْ يأتىَ زمان مباشرة القرآن لمهمته ،

فأنزله الله جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (١) ﴾ [القدر]

وهذا هو المراد من قوله (أَنْزَلْنَاهُ) ثم نُنزِّله مُنَجَّماً حَسْب الأحداث فى ثلاث وعشرين سنة مُدَّة الدعوة كلها ، فكلما حدث شىء نزل القسط أو النجم الذى يعالج هذه الحالة .

و ﴿ أَنزَلْنَاهُ .. (١٠٥) ﴾ [الإسراء] أى : نحن ، فالمراد الحق سبحانه وتعالى هو الذى حفظه فى اللوح المحفوظ ، وهو الذى أنزله ، وأنزله على الأمين من الملائكة الذى اصطفاه لهذه المهمة .

﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣) ﴾ [الشعراء] أى : جبريل ـ عليه السلام ـ الذى كرَّمه الله وجعله روحاً ، كما جعل القرآن روحاً فى قوله : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا .. (٥٢) ﴾ [الشورى]

وقال عنه أيضاً : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (١٩) ﴾ [التكوير]

والكريم لا يكتم شيئاً ممّا أُوحى إليه ﴿ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (٢٠) مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ (٢١) ﴾ [التكوير]

هذه صفات جبريل الذى نزل بالوحى من الحق سبحانه ، ثم أوصله لمن ؟ أوصله للمصطفى الأمين من البشر : ﴿ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ (٢٢) وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ (٢٣) وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ (٢٤) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ (٢٥) ﴾ [التكوير]

إذن : فالقرآن الذى بين أيدينا هو هو الذى نزل من اللوح المحفوظ ، وهو الحق الثابت الذى لا شكَّ فيه ، والذى لم يتغيّر منه حرفٌ واحدٌ ، ولن يجد فيه أحد ثُغْرة للاتهام إلى أنْ تقومَ الساعة .

ثم يقول تعالى : ﴿وَبِالْحَقِّ نَزَلَ .. (١٠٥)﴾ [الإسراء] الأولى كانت : ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ .. (١٠٥)﴾ [الإسراء]

أى : الوسائل التى نزل بها كلها ثابتة ، وكلها حَقٌّ لا رَيْبَ فيه ولا شكَّ ﴿وَبِالْحَقِّ نَزَلَ (١٠٥)﴾ [الإسراء] أى : مضمونه ، وما جاء به القرآن هو أيضاً حقٌّ ثابت ؛ لأن القرآن نزل معجزة ، ونزل كتاب منهج ، معجزة حق لأنه تحدّى الفُصَحاء والبلغاء وأهل اللغة ، فأعجزهم فى كل مراحل التحدى ، والقرآن يحتوى على منهج حق .

وأول شىء فى منهج القرآن أنّه تكلّم عن العقائد التى هى الأصْل الأصيل لكل دين ، فقبل أنْ أقول لك : قال الله ، وأمَر الله لابُدَّ أن تعرف أولاً مَنْ هو الله ، ومَن الرسول الذى بلَّغ عن الله ، فالعقائد هى ينبوع السُّلوكيات .

إذن : تعرّض القرآن للإلهيات ، وأوضح أن الله تعالى إله واحد له صفات الكمال المطلق ، وتعرَّض للملائكة وللنبوات والمعجزات والمعاد واليوم الآخر ، كُلُّ هذا فى العقائد ؛ لأن الإسلام حرصَ أولاً على تربية العقيدة ، فكانت الدعوة فى مكة تُركّز على هذا الجانب دون غيره من جوانب الدين ليُربّىَ فى المسلمين هذا الأصل الأصيل ، وهو الاستسلام لله ، وإلقاء الزمام إليه سبحانه وتعالى .

والإنسان لا يُلقى زمام حركته إلا لمَنْ يثق به ، فلا بُدَّ إذنْ من معرفة الله تعالى ، ثم الإيمان به تعالى ، ثم التصديق للمبلّغ عن الله .

وفى القرآن أيضاً أحكامٌ وشرائع ثابتة لا تتغير ، ولن تُنسَخ بشريعة أخرى ؛ لأنها الشريعة الخاتمة ، كما قال تعالى : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا .. (٣)﴾ [المائدة]

إذن : نزل القرآن بما هو حَقٌّ من : إلهيات وملائكة ونبوّات ومعجزات وأحكام وشرائع ، كلها حَقٌّ ثابت لا شكَّ فيه ، فنزل الحق الثابت من الله بواسطة مَنِ اصطفاه من الملائكة وهو جبريل على مَنِ اصطفاه من الناس وهو محمد ، وفى طى ما نزل الحق الثابت الذى لا يتغير .

وصدق الحق سبحانه حين قال : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر]

ونسوق هنا دليلاً عصرياً على أن كتاب الله جاء بالحق الثابت الذى لا يتغير على مَرِّ العصور ، ففى ألمانيا استحدث أحد رجال القانون قانوناً للتعسف فى استعمال الحق ، وظنّوا أنهم جاءوا بجديد ، واكتشفوا سلاحاً جديداً للقانون ليعاقب مَنْ له حَقّ ويتعسّف فى استعمال حقه .

ثم سافر إلى هناك محام من بنى سويف للدراسة ، فقرأ عن القانون الجديد الذى ادعَوْا السبق إليه ، فأخبرهم أن هذا القانون الذى تدَّعُونه لأنفسكم قانون إسلامى ثابت وموجود فى سُنّة رسول الله ، فعمدوا إلى كتب السيرة ، فوجدوا قصة الرجل الذى شكا إلى رسول الله ﷺ أن رجلاً له نخلة يمتلكها داخل بيته ، أو أنها تميل فى بيته ، فأخذها ذريعة وجعل منها مسمار جحا ، وأخذ يقتحم على صاحب البيت بيته بحجة أنه يباشر نخلته ، فماذا كان حكم الرسول فى هذه المسألة ؟

هذا الرجل له حَقٌّ فى النخلة ، فهى ملْكٌ له لكنه تعسَّف فى استعمال حقه ، وأتى بما لا يليق من المعاملَة ، فالمفروض ألاَّ يذهب إلى نخلته إلا لحاجة ، مثل : تقليمها ، أو تلقيحها ، أو جمع ثمارها .

لقد أحضر رسول الله ﷺ الرجل وقال له : « إما أن تهبَ له هذه النخلة ، وإما أنْ تبيعها له ، وإما قطعناها » .

أليس ذلك من الحق الذى سبق به الإسلام ؟ وأليس دليلاً على استيعاب شرع الله لكل كبيرة وصغيرة فى حياة الناس ؟

أَضِفْ إلى ذلك ما قاله بعض العلماء من أهل الإشراقات فى معنى : (وَبِالْحَقِّ نَزَلَ) أى : وعلى الحق الذى هو رسول الله ﷺ نزل القرآن كما تقول : ذهبت إلى القاهرة ونزلت بفلان . أى : نزلت عنده أو عليه .

ثم يقول تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (١٠٥)﴾ [الإسراء]

والبشارة تكون بالخير ، والنذارة تكون بالشر ، ويُشترط فى التبشير والإنذار أن تُعطَى للمبشَّر أو للمُنْذَر فرصة يراجع فيها نفسه ، ويُعدّل من سلوكه ، وإلا فلا فائدة . ولا جدوى منهما ، فتُبشّر بالجنة وتُنذَر بالنار فى مُتَّسَع من الوقت ليتمكن هذا من العمل للجنة ، ويتمكن هذا من الإقلاع عن سبيل النار .

ومثال ذلك : أنك تُبشِّر ولدك بالنجاح والمستقبل الباهر إن اجتهد ، وتحذره من الفشل إن أهمل ، وهذا بالطبع لا يكون ليلة الامتحان ، بل فى مُتَّسَع أمامه من الوقت لينفذ ما تريد .

والحق سبحانه وتعالى هنا يخبر رسوله ﷺ بحقيقة مهمته كرسول عليه البلاغ بالبشارة والنذارة ، فلا يُحمِّل نفسه فوق طاقتها ؛ لأنه ليس مُلْزَماً بإيمان القوم ، كما قال تعالى : ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَـٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا (٦)﴾ [الكهف]

أى : مُهلكها حُزْناً على عدم إيمانهم ، وفى آية أخرى قال : ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ ﴾ [الشعراء]

فكأنه سبحانه يُخفِّف العِبْءَ عن رسوله ، ويدعوه ألاَّ يُتعِب نفسه فى دعوتهم ، فما عليه إلا البلاغ ، وعلى الله تبارك وتعالى الهداية للإيمان .

لكن حِرْص رسول الله على هداية قومه نابع من قضية تحكمه وتستولى عليه لخَّصها فى قوله : « والله لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه »[(١)] .

فالنبى ﷺ كامل الإيمان ، ويحب لقومه أن يكونوا كذلك ، حتى أعداؤه الذين وقفوا فى وجه دعوته كان إلى آخر لحظة فى الصراع يرجو لهم الإيمان والنجاة ؛ لذلك لما مُكِّن منهم لم يعاجلهم بالعقوبة ، بل قال : « بل أرجو أن يُخرِج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ، لا يُشرك به شيئاً »[(٢)] .

وفعلاً صدق الله ورسوله ، وجاء من ذريات هؤلاء مَنْ حملوا راية

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (١٣) ، ومسلم فى صحيحه (٤٥) كتاب الإيمان ، عن أنس بن مالك بلفظ : « والذى نفسى بيده ، لا يؤمن عبد حتى يحب لجاره ـ أو قال : لأخيه ـ ما يحب لنفسه » .

(٢) أخرج البخارى فى صحيحه (٣٢٣١ ، ٧٣٨٩) من حديث عائشة رضى الله عنها أن جبريل عليه السلام قال لرسول الله ﷺ : إن الله قد سمع قول قومك لك ، وما ردوا عليك ، وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم ، فنادانى ملك الجبال فسلم علىّ ثم قال : يا محمد إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين ، فقال النبى ﷺ : « بل أرجو أن يُخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً » .

الدين ، وكانوا سيوفاً على أعدائه ، أمثال عكرمة بن أبى جهل ، وعمرو بن العاص ، وخالد بن الوليد ، وكثير من المسلمين كانوا حريصين على قَتْل هؤلاء حال كفرهم فى معارك الإسلام الأولى ، وهم لا يعلمون أن الله لم يُمكِّنهم من هؤلاء لحكمة ، إنهم سوف يكونون معك من سيوف الإسلام وقادته .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ ﴾

معنى (فَرَقْنَاهُ) أى : فصّلناه ، أو أنزلناه مُفرّقاً مُنجّماً حَسْب الأحداث (عَلَى مُكْثٍ) على تمهُّل وتُؤدَة وتأنٍّ .

وقد جاءت هذه الآية للردِّ على الكفار الذين اقترحوا أن ينزل القرآن جملة واحدة ، كما قال تعالى حكاية عنهم : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً .. ﴿٣٢﴾ ﴾ [الفرقان]

وأول ما نلحظه عليهم أن أسلوبهم فضحهم ، وأبان ما هُمْ فيه من تناقض ، ألم يسبق لهم أن اتهموا الرسول بافتراء القرآن ؟ وها هم الآن يُقِرُّون بأنه نزل عليه ، أى : من جهة أعلى ، ولا دَخْلَ له فيه ، وقد سبق أن أوضحنا أنهم لا يتهمون القرآن ، بل يتهمون رسول الله الذى نزل عليه القرآن .

ثم يتولّى الحق سبحانه الردّ عليهم فى هذا الاقتراح ، ويُبيِّن أنه اقتراح باطل لا يتناسب وطبيعة القرآن ، فلا يصح أن ينزل جملة واحدة كما اقترحوا للأسباب الآتية :

١ - : ﴿ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ .. ﴿٣٢﴾ ﴾ [الفرقان]

(كَذَلِكَ) أى : أنزلناه كذلك على الأمر الذى تنتقدونه من أنه نزل مُفرّقاً مُنجّماً حسْب الأحداث ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ .. (٣٢)﴾ [الفرقان] لأن رسول الله ﷺ سيتعرّض لكثير من تعنّتات الكفار ، وسيقف مواقف مُحرِجة من تعذيب وتنكيل وسخرية واستهزاء ، وهو فى كل حالة من هذه يحتاج لتثبيت وتسلية .

وفى نزول الوحى عليه يَوْماً بعد يَوْم ، وحسْب الأحداث ما يُخفّف عنه ، وما يزيل عن كاهله ما يعانى من مصاعب ومَشَاقّ الدعوة ، وفى استدامة الوحى ما يصله دائماً بمَنْ بعثه وأرسله ، أما لو نزل القرآن جملةً واحدة لكان التثبيت أيضاً مرة واحدة ، ولَفقد رسول الله جانب الصلة المباشرة بالوحى ، وهذا هو الجانب الذى يتعلق فى الآية برسول الله .

٢ - ﴿وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً (٣٢)﴾ [الفرقان] أى : نَزَّلْنَاه مُرتّلاً مُفرّقاً آيةً بعد آية ، والرتل : هو المجموعة من الشىء . كما نقول : رتل من السيارات ، وهكذا نزل القرآن مجموعة من الآيات بعد الأخرى ، وهذه الطريقة فى التنزيل تُيسِّر للصحابة حفْظ القرآن وفَهْمه والعمل به ، فكانوا رضوان الله عليهم يحفظون القدر من الآيات ويعملون بها ، وبذلك تيسَّر لهم حفظ القرآن والعمل به ، فكانت هذه الميْزَة خاصة بالصحابة الذين حفظوا القرآن ، وما زلنا حتى الآن نُجزِّىء القرآن للحفظة ، ونجعله ألواحاً ، يحفظ اللوح تلو الآخر .

٣ - ﴿وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً (٣٣)﴾ [الفرقان]

وهذه للمخالفين لرسول الله ، وللمعاندين لمنهج الله الذين

سيعترضون عليه ، ويحاولون أن يستدركوا عليه أموراً ، وأن يتهموا رسول الله ، فلا بُدَّ من الردّ عليهم وإبطال حُجَجهم فى وقتها المناسب ، ولا يتأتّى ذلك إذا نزل القرآن جملة واحدة .

(وَلاَ يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ) أى : بشىء عجيب يستدركون به عليك (إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالحَقِّ) أى : ردّاً عليهم بالحق الثابت الذى لا جدالَ فيه .

وإليك أمثلة لِردِّ القرآن عليهم رَدّاً حيّاً مباشراً .

فلما اتهموا رسول الله وقالوا : ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُوراً (٤٧)﴾ [الإسراء] رَدَّ القرآن عليهم بقوله تعالى : ﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (١) مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (٢) وَإِنَّ لَكَ لأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ (٣) وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤)﴾ [القلم] والمسحور لا يكون أبداً على خُلق عظيم .

ولما قالوا : ﴿مَا لِهَـٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ .. (٧)﴾ [الفرقان] يردُّ القرآن عليهم بقوله تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ .. (٢٠)﴾ [الفرقان]

فليس محمد ﷺ بدعاً فى هذه المسألة ، فهو كغيره من الرسل الذين عُرفت عنهم هذه الصفات ، وفى هذا ما يؤكد سلامة الأُسْوة فى محمد ﷺ ، وأنه بشر مثل الذين أرسلنا إليهم من قبله ، إنما لو كانت فى محمد خاصية ليست فى غيره ربّما اعترضوا عليها واحتجُّوا بها .

لذلك كان من أدب النبى ﷺ مع ربه ومع صحابته أنه قال : « إنما أنا بشر يرد علىَّ ـ أى بالوحى ـ فأقول : أنا لست كأحدكم ، ويؤخذ منى فأقول : ما أنا إلا بشر مثلكم » .

فانظر إلى أىّ حدٍّ كان تواضعه ﷺ ؟

ولما اتهموا الرسول ﷺ ، فقالوا : ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِ جِنَّةٌ.. ﴿٨﴾﴾ [سبأ] فردّ عليهم الحق سبحانه بقوله : ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾﴾ [هود]

ثم يتنزّل معهم فى هذا التحدى ، ويترأف بهم : ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ ..﴿٢٣﴾﴾ [البقرة]

ثم يناقشهم فى هذه المسألة بهذا الأدب الرفيع والنموذج العالى للحوار : ﴿قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾﴾[هود]

وفى آية أخرى يقول : ﴿قُل لاَّ تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [سبأ]

فانظر إلى هذا الأدب : رسول الله حين يتحدّث عن نفسه يقول (أَجْرَمْنَا) وحين يتحدث عن أعدائه لا ينسب إليهم الإجرام ، بل يقول : (وَلاَ نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ) .

هذا كله من الحق الذى جاء به القرآن ليردّ عن رسول الله اتهامات القوم ، وبالله لو نزل القرآن جملةً واحدة ، أكان من الممكن الردُّ على هذه الاتهامات ومجادلة القوم فيما يُثيرونه من قضايا ؟

وإنْ كانت هذه الأمثلة خاصة برسول الله ﷺ وتبرئة ساحته فى مجال الدعوة إلى الله ، فهناك أيضاً ما يتعلق بالأحكام والتشريع ، فالقرآن نزل بالعقائد والأحكام والتشريعات ، ونزل ليكون دائماً ثابتاً

لا يتغير إلى يوم القيامة ، ولن يُنسَخ منه حرف واحد كما حدث فى الكتب السابقة عليه .

فإن نظرتَ إلى العقائد وجدتَ الكلام فيها قاطعاً لا هوادةَ فيه ، يأتى هكذا قَوْلاً واحداً ، فالله واحد أحد لا شريك له ، له صفات الكمال المطلق ، وكذلك الحديث عن الملائكة والبَعْث والحساب .

لكن تجد الأمر يختلف فى الحديث عن العادات التى ألفها الناس فى حركة الحياة ، فهذه أمور تحتاج إلى تلطُّف وتدرُّج ، ولا يناسبها القصْر والقَطْع . ألم تَرَ إلى المشرّع سبحانه حينما أراد أنْ يُحرِّم الخمر ، كيف تدرّج فى تحريمها على عدة مراحل حتى يجتثّ هذه العادة التى تحكّمتْ فى نفوس الناس وتملَّكتهم ، أكان يمكن معالجة هذه المسألة بهذه الطريقة إذا نزل القرآن جملة واحدة ؟

انظر كيف لفتَ أنظارَ القوم بلُطْف إلى أن في الخمر شيئاً ، فقال تعالى : ﴿وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا[1] وَرِزْقًا حَسَنًا .. (٦٧)﴾ [النحل]

ولما سمع بعض الصحابة هذه الآية قال : والله لكأن الله يُبيِّت للخمر شيئاً . لقد فهم بملكته العربية أن الله تعالى طالما وصف الرزق بأنه حسن ، وسكت عن السَّكَر فلم يَصِفْه بالحُسْن ، فإن وراء هذا الكلام أمراً فى الخمر ؛ لأنه يتلف نعمة الله ويُفسدها على أصحابها .

ثم يُحَوِّل هذه المسألة إلى عظَة وإرشاد ، فيقول : ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا .. (٢١٩)﴾ [البقرة]

---

(١) السكر : كل ما يسكر أى الخمر ، أو نقيع التمر وعصير العنب الذى لم تمسُّه النار وهو غير مسكر . والسَّكَر أيضاً : الخل . [القاموس القويم ١/ ٣٢٠] .

وهكذا قرَّر لهم الحقيقة بعد أن سألوا هم عنها ، وترك لهم حرية الاختيار ، فالأمر ما زال عِظَة ونصيحة لا تشريعاً مُلْزماً ، إلا أنه مهَّد الطريق للقطع بتحريمها بعد ذلك .

ثم حدث من أحدهم أن صلّى وهو مخمور لا يدرى ما يقول ، فلما سمعوه يقول : قل يا أيها الكافرون أعبد ما تعبدون ، فغمزه مَنْ بجواره وعرف أنه مخمور ، ووصل خبره إلى رسول الله ﷺ فنزل قوله تعالى[1] : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ .. ﴿٤٣﴾ ﴾ [النساء]

وبذلك أطال مدَّة الامتناع عن شُرْب الخمر ، فالصلاة خمس مرات فى اليوم والليلة ، فإذاً لا بُدّ من الامتناع عن الخمر قبل الصلاة بوقت كاف ، وهكذا عوَّدهم الامتناع ودرَّبهم على الصبر عن هذه الآفة التى تمكَّنتْ منهم . ثم يتحيَّن الحق سبحانه فرصة منهم ، حيث اجتمع القوم فى مجلس من مجالس الشراب ، ولما لعبتْ الخمر بالعقول تشاجروا حتى سالتْ دماؤهم ، وعندها ذهبوا بأنفسهم إلى رسول الله ﷺ يسألونه[2] :

---

(١) عن على بن أبى طالب قال : صنع لنا عبد الرحمن بن عوف طعاماً فدعانا وسقانا من الخمر فأخذت الخمر منا وحضرت الصلاة فقدموا فلاناً فقرأ : قل يأيها الكافرون ما أعبد ما تعبدون ونحن نعبد ما تعبدون . فأنزل الله ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ .. ﴿٤٣﴾ ﴾ [النساء] أورده ابن كثير فى تفسيره (١/٥٠٠) ، ثم قال : « هكذا رواه ابن أبى حاتم وكذا رواه الترمذى عن عبد بن حميد عن عبد الرحمن الدشتكى به ، وقال : حسن صحيح » .

(٢) عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : اللهم بيّن لنا فى الخمر بياناً شافياً ، فنزلت الآية التى فى البقرة ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ .. ﴿٢١٩﴾ ﴾ [البقرة] فدعى عمر فقرئت عليه ، فقال : اللهم بيِّن لنا من الخمر بياناً شافياً ، فنزلت الآية التى فى النساء ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ .. ﴿٤٣﴾ ﴾ [النساء] ، فكان منادى رسول الله ﷺ إذا أقام الصلاة ينادى : لا يقربنّ الصلاة سكران ، فدعى عمر فقرئت عليه ، فقال : اللهم بيّن لنا فى الخمر بياناً شافياً ، فنزلت هذه الآية ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ .. ﴿٩٠﴾ ﴾ [المائدة] فدعى عمر فقرئت عليه ، فلما بلغ : ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ ﴾ [المائدة] . قال عمر : انتهينا » . أورده الواحدى النيسابورى فى أسباب النزول (ص١١٨) .

يا رسول الله بيِّن لنا فى الخمر رأياً شافياً ، وهنا ينزل الوحى على رسول الله بالحكم القاطع :﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ .. (٩٠)﴾ [المائدة]

فكيف كانت معالجة هذه الآفة التى تمكّنتْ من الناس لو نزل القرآن جملة واحدة ؟

إن الحق تبارك وتعالى بنزول القرآن مُفَرّقاً مُنجّماً حَسْب الأحداث ، كأنه يُجرى مشاركة بين آيات التنزيل والمنفعلين بها الذين يُصِرّون على تنفيذ مطلوباتها ، حتى إنهم ليبادرون رسول الله ﷺ بالسؤال ، مع أنه ﷺ قد نهاهم أن يبدأوه بالسؤال ، كما قال تعالى :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ .. (١٠١)﴾ [المائدة]

ولكنهم مع هذا تغمزهم المسألة فيبادرون بها رسول الله ، كما حكى القرآن :

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ .. (٢١٩)﴾ [البقرة]

﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ .. (٢١٩)﴾ [البقرة]

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ .. (١٨٩)﴾ [البقرة]

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ .. (١٠٥)﴾ [طه]

إذن : وراء نزول القرآن مُفرّقاً مُنجّماً حِكَم بالغة يجب تدبُّرها ، هذه الحِكَم ما كانت لتحدث لو نزل القرآن جملةً واحدةً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا .. ﴿١٠٧﴾ ﴾ [الإسراء] آمِنوا : أمر ، ولا تؤمنوا : نَهْى . والأمر والنهى نوعان من الطلب ، والطلب أن تطلب من الأدنى أن يفعل ، والنهى أنْ تطلبَ من الأدنى ألاَّ يفعل ، فإنْ كان الطلب من مُساو لك فهو التماس ، وإنْ كان إلى أعلى منك فهو دعاء .

لذلك حينما نقول للطالب أعرب : (رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ) يقول : اغفر فعل أمر ، نقول له : أنت سطحىّ العبارة ؛ لأن الأمر هنا من الأدنى للأعلى ، من العبد لربه تبارك وتعالى ، فلا يقال : أمر ، إنما يقال : دعاء .

والطاعة أن تمتثل الأمر والنهى ، فهل نقول فى قوله تعالى : ﴿ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا ..﴿١٠٧﴾ ﴾ [الإسراء] أنها للتخيير ، فإنْ آمنوا فقد أطاعوا ، وكذلك إنْ لم يؤمنوا فقد أطاعوا أيضاً ؟

نقول : الأمر والنهى هنا لا يُراد منه الطلب ، بل يراد به التهديد أو التسوية كما تقول لابنك حين تلاحظ عليه الإهمال : ذاكر أو لا تذاكر ، أنت حر ؛ لا شكَّ أنك لا تقصد النهى عن المذاكرة ، بل تقصد تهديده وحثّه على المذاكرة .

فقوله : ﴿قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا .. (١٠٧)﴾ [الإسراء] للتسوية ، كما قال : ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ .. (٢٩)﴾ [الكهف]

فهذا ليس أمراً بحيث أن الذى يفعل الأمر أو النهى يكون طائعاً ، بل المراد هنا التهديد أو التسوية ، فسواء آمنوا أو كفروا ؛ لأن الحق سبحانه جعل فى ذلك عزاءً لرسوله ﷺ فى إيمان أهل الكتاب .

﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ .. (١٠٧)﴾ [الإسراء] أى : اليهود والنصارى الذين ارتاضوا بالكتب السماوية ، واستمعوا للتوراة والإنجيل ، ونقلوها إلى غيرهم من المعاصرين للقرآن ، فهؤلاء شاهدون بأن الرسول حَقٌّ بما عندهم من بشارة به فى التوراة والإنجيل ؛ لذلك يتركون دينهم ويسارعون إلى الإسلام ؛ لأنهم يعلمون عِلْم اليقين أنه الدين الحق .

ومن هؤلاء عبد الله بن سلام[1] ، وكان من علماء اليهود ، وكان يعلم أوصاف رسول الله وزمن بَعْثته ؛ لذلك قال : لقد عرفته حين رأيته كمعرفتى لابنى ، ومعرفتى لمحمد أشدّ[2] .

---

(١) هو : عبد الله بن سلام بن الحارث الإسرائيلى ، أبو يوسف ، صحابى ، أسلم عند قدوم النبى ﷺ المدينة ، وكان اسمه « الحصين » فسماه رسول الله ﷺ عبد الله ، وشهد مع عمر فتح بيت المقدس ، أقام بالمدينة إلى أن توفى عام ٤٣ هـ . (الأعلام للزركلى ٤/٩٠) .

(٢) يقول تعالى : ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤٦)﴾ [البقرة] . قال القرطبى : ويروى عن عمر بن الخطاب أنه قال لعبد الله بن سلام : أتعرف محمداً كما تعرف ولدك ؟ قال : نعم وأكثر ، نزل الأمين من السماء على الأمين فى الأرض بنعته فعرفته ، وإنى لا أدرى ما كان من أمه . ذكره ابن كثير فى تفسيره (١/١٩٤) .

ولما اختمر الإسلام فى نفسه ذهب إلى رسول الله وصارحه بما نوى من اعتناق الإسلام ، وقال : يا رسول الله إن اليهود قوم بُهْتٌ[(١)] فإن أعلنتُ إسلامى الآن قالوا فىَّ ما ليس فىَّ ، فاسألهم عنى وأنا ما زلت على دينهم ، وانظر ما يقولون ، فسألهم رسول الله : ما تقولون فى ابن سلام ؟ فقالوا : حَبْرنا وابن حَبْرنا ، ووصفوه بخير الصفات ، وأطيب الخصال ، فقال عبد الله : يا رسول الله ، أما وقد قالوا فىَّ ما قالوا فأشهد ألا إله إلا الله وأنك رسول الله ، فإذا بهم يذمونه ويتهمونه بأخسِّ الخصال ، فقال : يا رسول الله ألم أَقُلْ لك إنهم قوم بُهْتٌ[(٢)] .

إذن : ففى إيمان عبد الله بن سلام وغيره من اليهود والنصارى الذين عرفوا رسول الله بأوصافه فى كتبهم وعرفوا موعد بعثته وأنه حق ، فى إيمان هؤلاء عَزَاءٌ لرسول الله حين كفر به قومه وكذّبوه ؛ لذلك قال تعالى : ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ (٤٣)﴾ [الرعد]

ونحن مُكْتفون بشهادة هؤلاء ؛ لأنهم قوم صادقون مع أنفسهم ، صادقون مع أنبيائهم ومع كتبهم التى تلقوْهَا ، فحينما بشَّرت بمحمد ووصفته لم ينكروا هذه الصفات ولم يُحرِّفوها ، بل كانوا يسارعون إلى المدينة انتظاراً لمبعث النبى الجديد الذى سيظهر فيها ، لقد كانوا يقولون لكفار مكة : لقد أظلَّ زمان نبى جديد نتبعه قبلكم ، ونقتلكم به قَتْل عاد وإرم .

---

(١) البهتان : الكذب والافتراء . [لسان العرب ـ مادة : بهت] .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٩٣٨) ، وأحمد فى مسنده (٣/١٠٨ ، ٢٧١ ، ٢٧٢) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه .

﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٨٩)﴾ [البقرة]
إلا أن الله أبقى للحق خلية ، وجعل له خميرة استجابت لرسول الله ، وتفاعلت مع الدين الجديد .

وقوله تعالى: ﴿إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ .. (١٠٧)﴾ [الإسراء] أى : القرآن ﴿يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا (١٠٧)﴾ [الإسراء]

كلمة (يَخِرُّونَ) توحى بأنهم يسارعون إلى السجود ، وكأنها عملية انفعالية غير إرادية ليس لهم فيها تصرُّف ، فبمجرد سماع القرآن يرتمون على الأرض ساجدين ؛ لأنهم تفاعلوا معه ، واختمر الإيمان فى نفوسهم . ليس ذلك وفقط ، بل ويخرون (لِلأَذْقَانِ) جمع ذَقَن ، وهى أسفل الفَكِّ السفلى ، ومعلوم أن السجود يكون على الجبهة ، أما هؤلاء فيسجدون بالوجه كله ، وهذا دليل على الخضوع والاستسلام لله تعالى .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا (١٠٨)﴾

أى : يقولون حال سجودهم : سبحان ربنا الذى وَفّى بوعده فى التوراة والإنجيل ، وبعث الرسول الخاتم ومعه القرآن ، سبحانه حقق لنا وَعْده وأدركناه وآمنا به ، وكأن هذه نعمة يحمدون الله عليها .

ويقول الحق سبحانه عنهم :

﴿وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا (١٠٩)﴾

لقد خَرُّوا ساجدين لله تعالى قبل ذلك لأنهم أدركوا القرآن الذى

نزل على محمد ، وتحقَّق لهم وعد الله فعاصروه وآمنوا به . أما هذه المرة فيخرون ساجدين لما سمعوا القرآن تفصيلاً وانفعلوا به ، فيكون له انفعال آخر ، لذلك يزيد هنا الخشوع والخضوع ، فيقول : ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ .. (١٠٩) ﴾ [الإسراء] فكلما قرأوا آية ازدادوا بها خشوعاً وخضوعاً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا (١١٠) ﴾

(ادْعُوا) اذكروا ، أو نادوا ، أو اطلبوا (الله) عَلَم على واجب الوجود سبحانه ، ومعنى : عَلَم على واجب الوجود أنها إذا أُطلقَتْ انصرفتْ للذات الواجبة الوجود وهو الحق سبحانه ، كما نُسَمِّى شخصاً ، فإذا أُطْلِق الاسم ينصرف إلى المسمَّى .

والأسماء عندنا أنواع كثيرة : إما اسم ، أو كُنْية ، أو لَقَب .

الاسم : وهو أغلب الأعلام ، ويُطلَق على المولود بعد ولادته ويُعرَف المولود به .

والكُنْية : وتُطلَق على الإنسان ، وتُسبَق بأب أو أم أو ابن أو بنت ، كما نقول : أبو بكر ، وأم المؤمنين .

واللقب : وصف يُشْعِر بالمدح أو بالذم ، كما نقول : الصِّديق ، الشاعر ، الفاروق .

فإذا كان الاسم مـعه شريك غيره لا بُدَّ لتـمييزه من وَصْفـه وَصْفاً يُعْرف به ، كما يحدث أن يألف شخص أن يسمى أولاده جميعاً : محمد. فالتسـمية فى هذه الحالة لا تُشخِّص ولا تُعـيِّن المسمّى ؛ لذلك لا بُدَّ أن نصف كل واحد منهم بصـفة فنقول : محـمد الكبير . مـحمد الصـغير . محمد المهندس . فإذا أُطلِق الاسم بصفته ينصرف إلى شخص معين .

وإذا كُنّا نحن نُسـمِّى أولادنا ؛ فإن الـحق سبـحانه سَـمَّى نفسـه بأسمائه التى قـال عنها : الأسماء الحُسْنى ، وكلمـة (حُسْنى) أفعل تفضـيل للمؤنث ، مـثل : كبـرى . والمذكـر منها أحسن . لـكن لماذا وَصَف أسماءه تعالى بالحسنى ؟

الاسم يُبيِّن المسـمّى ، لكن الأسماء عند البشـر قد لا تنطبق على المسمَّى الذى أُطلقت عليه ، فقد نُسمِّى شخصاً « سعيد » وهو شقى ، أو نسـمى شـخـصـاً « ذكى » وهو غـبى . وهذا ليـس بحَسنٍ فى الأسمـاء ، الحسَن فى الاسم أنْ يطابق الاسم المـسمَّى ، ويتـوفّرَ فى الشـخص الصفـة التى أُطلِقت عليـه ، فيكون الشـخص الذى سمـيناه « سعيد » سعيداً فعلاً .

وهكذا يكون الاسم حـسنـاً ، لكنه لا يأخـذ الحُـسْن الأعلى ؛ لأن الحُسن الأعلى لأسماء الله التى سَمّى بها نفسه ، فله الكمال المطلق .

فهذه ـ إذن ـ لا تتأتَّى فى تسمية البـشر ، فكثيراً ما تجد « عادل » وهو ظالم ، و « شريف » وليس بشريف ؛ لذلك قلنا :

وَأَقْبَحُ الظُّلْم بَعْد الشِّرْك منزلةً ... أنْ يظلم اسمٌ مُسمّى ضِدّه جُعلاَ

فَشَـارِع كعِمَادِ الديـن تَسْمِيـةً ... لكِـنّه لعِنَـادِ الدِّيـنِ قَدْ جُـعِلاَ

فالاسم قد يظلم المسمَّى كما حدث أنْ سَمَّوْا الشارع (عماد الدين) ،

وهذا الشارع كان فى الماضى بُؤْرَة للفِسْق والفجور ، وما أبعده سابقاً عن هذه التسمية .

فلفظ الجلالة (الله) عَلَم على واجب الوجود ، وبعد ذلك جاءت صفات غلبت عليه ، بحيث إذا أُطلقَتْ لا تنصرف إلا إليه . فإذا قُلْنا : العزيز على إطلاقه فإنها لا تنصرفَ إلا لله تعالى ، لكن يمكن أن نقول : فلان العزيز فى قومه ، فلان الرحيم بمَنْ معه ، فلان النافع لمَنْ يتصل به ، إنما لو قُلْت : النافع على إطلاقه فهو الحق سبحانه وتعالى .

لذلك ؛ حلَّتْ الصفات محلَّ اسم الذات (الله) ؛ لأنها إذا أُطلقَتْ لا تنصرف إلا لله تعالى ، فأسماءُ الله الحُسْنى هى فى الأصل صفات له سبحانه .

ولو تأملنا هذه الأسماء لوجدناها على قسمين : أسماء ذات ، وأسماء صفات فعلية ، اسم الذات لا يتصف الله بمقابله ، فالعزيز مثلاً اسم ذات فلا نقول فى مقابله الذليل ، والحىّ اسم ذات فلا نقول : الميت . أما اسم الصفة الفعلية فيكون له مقابل ، فالمعزّ صفة فعل يعنى يُعِزّ غيره ، ومقابلها المذلّ ، والضَّارّ مقابلها النافع ، والمحيى مقابلها المميت وهكذا .. إنْ وجدتَ للاسم مقابلاً فاعلم أنه اسمٌ لصفة الفعل من الله تعالى ، وإذا لم يكن له مقابل فهو اسم ذات .

لكن تقف مثلاً عند السَّتَّار وهى صفة فعل لأنه يستر غيره ، لكن ليس لها مقابل فلا نقول الفضَّاح ، لماذا ؟ لأنه تبارك وتعالى يريد أنْ يتخلّق خَلْقه بهذه الصفة ، وأنْ يُربِّب صفة الستر عند الناس للناس ، فلو علم الناس عن أحد أمراً فاضحاً لزهدوا فى كل ما يأتى من عنده ولو كان حسنة ، وبذلك يُحرَم المجتمع من طاقات كثيرة فى الخير .

لكن حين تستر على صاحب العيب عيبه ، فإنك تعطى للمجتمع فرصة لينتفع بما لديه من صفات الخير ؛ لذلك الله تعالى يُعصَى ويحب أن يُستَر على عبده العاصى ؛ لكى يستمر دولاب الحياة ؛ لأنه لا يوجد أحد له كمال إلا النبى ﷺ ، وصدق القائل :

مَنْ ذَا الذِى مَا سَاءَ قَطُّ وَمَنْ لَهُ الحُسْنى فَقَطْ

إذن : فمن الحكمة أن يأمر الله تعالى بستر غَيْب خَلْقه عن خَلْقه حتى تستمر حركة الحياة ؛ لأن الإنسان ابنُ أغيار ، وقلبه سريعاً ما يتقلبُ ، ولربما لو عرفتُ عنك شيئاً مستوراً لتغيَّرْتُ لك وأنت كذلك ، ولربما تقطعت بيننا حبال المودة ، إنما بالستر ينتفع كُلٌّ منّا بالآخر .

ومن هنا قالوا : لو تكاشفتم ما تدافنتم ، أى : لو تكشفتْ الأسرار ، وعرف كُلٌّ منكم عَيْب أخيه ما دفنتم مَنْ يموت منكم ، وهذا منتهى ما يمكن تصوُّره من التقاطع بين الناس .

فقوله تعالى : ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ .. (١١٠)﴾ [الإسراء] فاختار هذا الاسم بالذات (الله) العلَم على واجب الوجود ، وهو اسم ذات لا يدلُ على صفة معينة ، لكنه يحمل فى طياته كل صفات الكمال فيه ، فإنْ كانت للأسماء الأخرى مجالات ، فالقادر فى القدرة ، والحكيم فى الحكمة ، والقابض فى القبض ، والعزيز فى العزّة . فإن لكل اسم مجالاً وسيالاً ، فإن (الله) هو الاسم الجامع لكل الصفات .

لذلك فى الحديث النبوى الشريف : « كُلُّ شىء لا يُبدأ باسم الله فهو أبتر »[1] .

---

(١) أخرج أحمد فى مسنده (٢/٣٥٩) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « كل كلام أو أمر ذى بال لا يفتح بذكر الله عز وجل فهو أبتر ـ أو قال : أقطع » .

لماذا ؟ لأنك حين تُقدِم على أىٍّ فعل تحتاج أولاً إلى حكمة لتعرف من خلالها لماذا تفعل ، وتحتاج إلى قدرة تُعينك على إنجازه ، وتحتاج إلى علم بمصير هذا الفعل وعاقبته ، إذن : تحتاج إلى صفات كثيرة ، فحين تُقبل على العمل لا تَقُل : يا حكيمُ يا قادرُ يا عليمُ ، إنما الحق سبحانه يُريحك ، ويكفى أن تقولَ فى الإقدام على الفعل : باسم الله . لأنك ذكرتَ الاسم الجامع لكلِّ صفات الكمال .

﴿أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَـٰنَ .. (١١٠)﴾ [الإسراء] واختار الرحمن دون الجبار أو القهار ؛ لأن الرحمة صفة التحنين للخلق ، فالحق سبحانه وتعالى يُظهِر هذه الصفة لعباده حتى فى أسماء الجبار والقهار ؛ لأنها من خَدَم الرحمة ومن أسبابها ؛ لأن العبد إذا عرف لله : صفة الجبروت ، وصفة القهر ، وصفة الانتقام انتهى عن أسباب الوقوع تحت طائلة هذه الصفات ، فكأنه يرحم عباده حتى بصفات القهر والانتقام .

ومن هذا قول الحق تبارك وتعالى : ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَـٰأُولِي الْأَلْبَابِ .. (١٧٩)﴾ [البقرة] لأنه إذا علم القاتل أنه سيُقتل انتهى عن القتل . وفى الأثر : « القتل أنْفَى للقتل » .

إذن : فتشريع القصاص وإقامة الحدود والعقوبات لا لتعذيب الخلق ، وإنما رحمة بهم حتى يقفوا بعيداً عن ارتكاب ما يُوجب القصاص أو الحد أو العقوبة ، حتى الذى يقهره الله مرحوم أيضاً ؛ لأنه ما دام قال : أنا قهار . فاحذرنى ، فهو بذلك يرحمه لأنه يُحذِّره من أسباب الوقوع فيما يستوجب غضبه وانتقامه .

وكذلك اختار اسم (الرحمن) لأن مجال التكليف كله الرحمة ، وما نزل المنهج من الله إلا لينظم حياة الناس ويُحقِّق لهم السعادة فى

حركة الحياة ، فيتكامل الخَلْق فيما بينهم ، ويتعاونون ، ويتساندون ولا يتعاندون ، ويكونون جميعاً على قلب رجل واحد ، هذه غاية المنهج الإلهىّ فى دنيا الناس أنْ يعيشَ المجتمع المسلم آمناً سالماً .

فالرحمانية الإلهية هى الغالبة فى كل التشريع ، وهى السِّمَة العامة ، ألاَ ترى قوله تعالى : ﴿الرَّحْمَـٰنُ ۝١ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝٢﴾[الرحمن]

فالقرآن الذى نزل لِيُنظِّم حياة الناس ويحكمها ، ويصلح حركة الحياة ، ويضع السلام بينك وبين الله ، وبينك وبين نفسك ، وبينك وبين الناس ، هذا القرآن مظهر من مظاهر هذه الرحمانية الإلهية .

وقد اعترض بعض المستشرقين على قوله تعالى فى سورة الرحمن : ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٣﴾ [الرحمن] والآلاء هى النعم ، وأنها جاءت تذييلاً لقوله تعالى : ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلا تَنتَصِرَانِ ۝٣٥﴾ [الرحمن] فالآية تتحدث عن النار والشواظ ، فكيف تُختم هذه الخاتمة التى تدلُّ على النعمة ؟

ولو تدبَّر القوم ما اعترضوا ؛ لأن فى النار والتحذير منها والتخويف بها نعمةً ، كأن القرآن يقول لك : إياك أنْ تفعل ما يُوجِب النار والشُّواظ فتقلع وترتدع من قريب ، أليست هذه من نعم الله على عباده ؟ أليست رحمة بهم ؟ وماذا كنتم ستقولون إنْ لم يُقدِّم لكم الحق سبحانه تحذيراً وإنذاراً ، ثم فاجأكم بالعذاب ؟

ونقف على لطيفة أخرى لاستخدام اسم الله (الرحمن) فى قوله تعالى : ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَـٰنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا ۝٥٩﴾ [الفرقان]

أى : بعد أن خلق الخَلْق كله بسمائه وأرضه وما فيهما استوى على العرش ؛ لأن الاستواء على العرش يعنى أن كل شىء تَمَّ له سبحانه خَلْقاً وإيجاداً ، وانتهى إلى الجلوس على العرش ، وهذا تمثيل بالملوك الذين لا يجلسون على العرش إلا بعد أنْ يستتبّ لهم الأمر ، فجلوس الملك على العرش يعنى أنه الأوحد الذى لا يعارضه أحد .

فالحق سبحانه يُنبِّهنا بقوله : ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَٰنُ .. ﴿٥٩﴾﴾ [الفرقان] واختار صفة الرحمة ليُوحِى لنا أن قعوده على العرش لا يعنى القَهْر والجبروت ، إنما قعد على عرشه رحمةً بكم ، قعد على العرش ليُنظّم حياتكم ، ويرحم بعضكم ببعض ، فتسعدوا بالحياة ، فالاستواء هنا لا استواءَ قهر وغلبة ، بل استواء رحمة لمصلحتكم أنتم .

وفى آية أخرى قال : ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴿٥﴾﴾ [طه] وقد ورد استواؤه سبحانه على العرش فى سبعة مواضع فى كتاب الله ، نظمها الناظم فى قوله :

وَذِكْرُ اسْتِواء الله فى كَلِماته ... علَى العَرْشِ فى سَبْع مَواضِعَ فَاعْدُدِ
فَفِى سُورَةِ الأعرافِ ثمة يُونُسَ ... وفى الرعْدِ مع طَه فَلَلْعَدِّ أكدِ
وَفِى سُورة الفُرْقانِ ثمة سَجْدة ... كَذَا فِى الحديدِ افْهَمُوا فَهْم مؤيَّدِ

وكل صفة من صفات جلاله سبحانه إنما هى فى خدمة رحمانيته ، لأنه يُخَوِّف عباده بصفات الجلال حتى لا يقعوا فى المخالفة ، فيأخذوا نعمة الله فى الدنيا ، ويسعدوا بها ، ويأخذوا نعيم الآخرة فيسعدوا بها ، فهى ـ إذن ـ الرحمانية المستولية والسمة العامة لمنهج الله فى الدنيا والآخرة .

وفى الحديث « فى آخر ليلة من رمضان يتجلى الجبار بالمغفرة... »[١] ولم يقُلْ : تجلى الغفار بالمغفرة ، فلماذا آثر صفة الجبار فى مجال المغفرة ؟

قالوا لأن المغفرة تُوحِى بوجود ذنب ، والذنب يقتضى العقوبة ، وهذه من اختصاص صفة الجبار ، فهل تغلَّبتْ صفة الغفار على صفة الجبار ، وأخذت اختصاصها ؟ لا بل تشفع صفة الغفار عند صفة الجبار : الموقف لكِ أيتها الصفة ، لكن نستسمحك فى أن نشفع فى هؤلاء ، فكأن صفات الجمال تشفع عند صفات الجلال .

لذلك ، فالذين يُفسِّرون الحديث يقولون : شفع المؤمنون ، وشفع الأنبياء ، وشفعت الملائكة ، وبقيت شفاعة أرحم الراحمين[٢] فعند مَنْ سيشفع أرحم الراحمين ؟ قالوا : تشفع ذاته عند ذاته ، وهكذا

---

(١) عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال : « أعطيت أمتى فى شهر رمضان خمساً لم يعطهن نبى قبلى ، أما واحدة : فإنه إذا كان أول ليلة من شهر رمضان ينظر الله عز وجل إليهم ، ومن نظر الله إليه لم يعذبه أبداً .. وأما الخامسة فإنه إذا كان آخر ليلة غفر الله لهم جميعاً . فقال رجل من القوم : أهى ليلة القدر ؟ فقال : لا ألم تر إلى العمال يعملون فإذا فرغوا من أعمالهم وفوا أجورهم » قال المنذرى فى الترغيب والترهيب (٢/٦٥) : « رواه البيهقى وإسناده مقارب » .

(٢) عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه فى حديث طويل عن رسول الله ﷺ قال : « عُرِض علىّ ما هو كائن من أمر الدنيا وأمر الآخرة ، فجمع الأولون والآخرون بصعيد واحد .. حتى قال : ثم يقال : ادعوا الصديقين فيشفعون . ثم يقال : ادعوا الأنبياء فيجىء النبى ومعه العصابة ، والنبى ومعه الخمسة والستة ، والنبى ليس معه أحد . ثم يقال : ادعوا الشهداء فيشفعون لمن أرادوا ، فإذا فعلت الشهداء ذلك يقول الله : أنا أرحم الراحمين ، أدخلوا جنتى من كان لا يشرك بى شيئاً فيدخلون الجنة » الحديث أخرجه أحمد فى مسنده (١/٤) وأورده الهيثمى فى المجمع (١٠/٣٧٤) والسيوطى فى « البدور السافرة فى أمور الآخرة » (ص١١٩) .

تشفع صفة الجمال (الغفار) عند صفة الجلال (الجبار) تبارك وتعالى .

ثم يقول تعالى : ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَـٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ .. (١١٠)﴾ [الإسراء] فأىُّ اسم تدعو به لأن أسماءه كلها حُسْنى ، لكن ليكُنْ عندك ذكاء فى الدعاء ، فتدعو بما يناسب حاجتك ، فإنْ أردتَ علْماً فقُلْ : يا عالم علِّمنى ، وإنْ كنتَ ضعيفاً فقُلْ : يا قوى قَوِّنى ، وإنْ أردتَ العزة فَقُلْ : يا عزيز أعِزَّنى وهكذا .. فإن أردتَ الاختصار فقُلْ : يا الله . تكفيك كل شىء .

ثم يقول تعالى : ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ[1] بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا (١١٠)﴾ [الإسراء] الصلاة يراد بها كل أعمال الصلاة (وَلَا تَجْهَرْ) فالجهر منهىٌّ عنه ، وكذلك (وَلَا تُخَافِتْ) أى : لا تُسِرَّها بحيث لا يَسْمعك من خلفك ، وهذا منهىّ عنه أيضاً . فكِلاَ الطرفين مذموم ، وخَيْر الأمور الوسط .

ونُوضِّح هنا : إذا كان الجهر بالصلاة منهياً عنه فارتفاع الصوت عالياً من باب أَوْلَى ، فلا يليق أبداً رَفْع الصوت بالصلاة ، ثم استعمال الميكروفونات أيضاً ، وما تُسبِّبه من إزعاج للناس .

والحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٢٠٤)﴾ [الأعراف]

فأنت حين ترفع صوتك بالقرآن ، وخاصة فى الميكروفون تلزم الناس بالإنصات ، وتُوقِعهم فى الإثم والحرج ، أو تعطل مصالحهم ،

---

(١) خافت الرجل بصوته : لم يرفعه . وخافت بقراءته أو بصلاته : لم يرفع صوته بها .

ولعل غيرك فى هذا الوقت يريد أن يقرأ هو الآخر ، أو يستغفر ، أو يُسبِّح أو يصلى ، فكيف تجعل الأمر المندوب عندك حاكماً على غيرك ؟ هذا لا يجوز ، بل اترك الناس وشئونهم فكل منهم حُرّ فيما يتنفّل به ، ولا تكُنْ من الذين قال الله فى حقهم :

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤) ﴾ [الكهف]

كالذى يُشعِل الميكروفون قبل صلاة الفجر ، ويأخذ فى إنشاد كلام ما نزل به الشرع ، يزعج به الناس ، ويُقلق به المريض ، ولا يراعى للناس حُرْمة . فمتى يفيق المسلمون ؟ ومتى يتنبهون إلى هذه البدع التى تُشوِّش على الناس وتُفسِد عليهم عبادتهم ؟

أما إنْ كان رَفْع الصوت بالقرآن لغرض دنيوى ومكْسَب شخص ، وأن نجعل الأمر مَعْرضاً للأصوات ، ومِضْماراً للسباق ، إنْ كان الأمر استغلالاً للدين لحساب الدنيا والعياذ بالله ، فقد دخل صاحبه فى شريحة أخرى من الإثم ، عافانا الله وإياكم .

والحق سبحانه يقول : ﴿ وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً (١١٠) ﴾ [الإسراء]

أى : بين الجهر والإسرار ، واسلك سبيل الوسطية التى جاء بها الشرع ، وتأسّ برسول الله ﷺ حينما كان يتفقد الصحابة ليلاً ، فوجد أبا بكر ـ رضى الله عنه ـ يقرأ ، ولا يكاد يسمع صوته ، فلما سأله . قال : يا رسول الله ، أناجى ربى وهو عالم بى ، فلما ذهب إلى عمر ـ رضى الله عنه ـ وجده يقرأ بصوت عالٍ ، فلما سأله قال : يا رسول الله أزجر به الشيطان . عندها أمر ﷺ أبا بكر أنْ يرفع

صوته قليلاً ، وأمر عمر أن يخفض صوته قليلاً[1] .

وهذا الاعتدال وهذه الوسطية أُمرْنَا بها حتى فى الدعاء ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ (٢٠٥)﴾ [الأعراف]

فكلمة : ﴿بَيْنَ ذَٰلِكَ .. (١١٠)﴾ [الإسراء] البينية هذه تكاد تشيع فى كل أحكام الدين ؛ لأن القرآن جاء لأمة وَسَط بالأمور الوسط فى كل شئون الحياة ، ففى قمة المسائل وهى الأمور العَقَدية مثلاً يقف الإسلام موقفَ الوسطية بين مَنْ يُنكرون وجود الإله ومَنْ يقول بآلهة متعددة ، فينفى هذه وهذه ويقول بوجود إله واحد أحد لا شريكَ له .

وفى الإنفاق يختار الوسط ، فيقول : ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا (٦٧)﴾ [الفرقان]

وبذلك ضمن لأهله نظاماً اقتصادياً ناجحاً يُثرى حياة الجماعة ، ويَرْقَى بحياة الفرد ، وقد لخّص هذا المنهج الاقتصادى فى قوله تعالى : ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا (٢٩)﴾ [الإسراء]

فالممسك المقتّر الذى يقبض يده عن الإنفاق يتسبّب فى رُكود البضائع وتوقف حركة الحياة ، وهذا خطر على المجتمع ، وفى التبذير خطر على الفرد حيث ينفق كل مَا معه ، ولا يُبقى على شىء

---

(١) قال محمد بن سيرين : نبئت أن أبا بكر كان إذا صلى فقرأ خفض صوته ، وأن عمر كان يرفع صوته ، فقيل لأبى بكر : لم تصنع هذا ؟ قال : أناجى ربى عز وجل وقد علم حاجتى ، فقيل : أحسنت . وقيل لعمر : لم تصنع هذا ؟ قال : أطرد الشيطان وأوقظ الوسنان . قيل : أحسنت . فلما نزلت ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا (١١٠)﴾ [الإسراء] قيل لأبى بكر : ارفع شيئاً . وقيل لعمر : اخفض شيئاً . (ذكره ابن كثير فى تفسيره ٣/٦٩) .

يرتقى به فى الحياة ، فإذا لم تتبع هذا المنهج الحكيم فسوف تقعد ملوماً على الإمساك ، محسوراً على التبذير الذى فوّتَ عليك فرصة الترقِّى مثل الآخرين .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾ ﴾

فما المحمود عليه فى الآية ؟

الحق سبحانه يقول : ﴿ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا .. ﴿١١١﴾ ﴾ [الإسراء]

فكَوْنه سبحانه لم يتخذ ولداً نعمة كبيرة على العباد يجب أنْ يحمدوه عليها ، فإنْ كان له ولد فسوف يخصُّه برعايته دون باقى الخَلْق ، فقد تنزّه سبحانه عن الولد ، وجعل الخَلْق جميعهم عياله ، وكلُّهم عنده سواء ، فليس من بينهم مَنْ هو ابن لله أو مَنْ بينه وبين الله قرابة ، وأحبّهم إليه تعالى أتقاهم له ، وهكذا ينفرد الخَلْق بكل حنان ربهم وبكل رحمته .

ثم ، ما الحكمة من اتخاذ الولد ؟ الناس يتخذون الولد ويحرصون على الذَّكَر ، خاصة لأمرين : أن يكون الولد ذكرى وامتداداً لأبيه بعد موته ، كما قال الشاعر :

* أَبُنىّ يَا أَنَا بَعْدَمَا أَقْضِى *

والحق سبحانه وتعالى باقٍ دائمٌ ، فلا يحتاج لمَنْ يُخلِّد ذكراه ، أو يكون امتداداً له ، تعالى الله عن ذلك عُلواً كبيراً ، فالحمد لله أنه لم يتخذ ولداً .

أو يكون الولد للعِـزْوة والمكاثرة والتقوّى به مـن ضعف ، والحق سبحـانه وتعالى هو الغالب القهـار ، فلا يحتاج إلى عِـزْوة أو كثرة ، لذلك يأمـرنا سبـحـانه أن نُمجِّـده لأنه لم يتـخذ صـاحبـة ولا ولداً ، والمتأمل فى حال الملوك والسلاطين يجـد أكثر فسادهم إما من الولد وإما من الصاحبة .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ..(١١١)﴾[الإسراء]

وهذا أيضاً من النعم التى تسـتوجب الحمد ، ولك أنْ تتـصوّر لو أن لله تعالى شريكاً فى المـلْك ، كم تكون حَيْرة العباد ، فـأيُّهما تُطيع وأيهما تُرضِى ؟

لقـد أوضح لنا الحق سـبحـانه هذه المسـألة فى هذا المـثل الذى ضربه لنا :﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً .. (٢٩)﴾ [الزمر]

لذلك ، ففى أعـراف الناس وأمثالهم يقولون : (المـركب التى بها ريسين تغرق) وكَوْنه سبحـانه واحداً لا شريك له يجعلك تطمئن إلى أمره ونَهْـيه فتُطيعـه وأنت مطمئن ، فأوامره سـبحانه نافذة لا مُـعقِّب لها ، ولا مُعـترِض عليها ، فليس هناك إله آخر يأمرك بأمـر مخالف ، أليست هذه نعمة تستوجب الحمد ؟

وأيضـاً فـإن الحـق سـبـحـانه يقـول : ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ .. (١١١)﴾ [الإسراء]

الولىّ : هو الذى يليك ، وأنت لا تجـعل أمـرك إلا لمن تثق به أنه يجلب لك نَفْعاً ، أو يدفع عنك ضُرّاً ، أو ينصرك أمام عدو ، أو يُقوِّى

ضعفك ، فإذا لم يكُنْ لك ذاتية تحقق بها ما تريد تلجأ لمن له ذاتية ، وتحتمى برحابه ، وتجعل ولاءك له .

والحق سبحانه ليس له ولىٌّ يلجأ إليه ليعزه ؛ لأنه سبحانه العزيز المعِزّ القائم بذاته سبحانه ، ولا حاجة له إلى أحد .

ثم يقول تعالى : ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا (١١١)﴾ [الإسراء]

لأن عظمة الحق سبحانه فى نفس المؤمن أكبر من كل شىء ، وأكبر من كل كبير ؛ لذلك جُعلتْ (الله أكبر) شعار أذانك وصلاتك ، فلا بُدَّ أن تُكبِّر الله ، وتجعله أكبر ممّا دونه من الأغيار ، فإنْ ناداك وأنت فى أىّ عمل فقُلْ : الله أكبر من عملى ، وإنْ ناداك وأنت فى حضرة عظيم ، فقل : الله أكبر من أىِّ عظيم ، كبِّره تكبيراً بأن تُقدِّم أوامره ونواهيه على كُلِّ أمر ، وعلى كل نَهْى .

ولا تنسَ أنك إن كبَّرْتَ الحق سبحانه وتعالى أعززْتَ نفسك بعزة الله التى لا يعطيها إلا لمَنْ يُخلص العبودية له سبحانه ، فَضْلاً عن أن العبودية لله شرفٌ للعبد ، وبها يأخذ العبد خَيْر سيده ، أما العبودية للبشر فهى مذمومة مكروهة ، وهى مذلة وهوان ، حيث يأخذ السيد خير عبده .

وصدق الشاعر حين قال :

حَسْبُ نَفْسِى عِزّاً بأنِّى عَبْدٌ ... يَحْتفِى بى بلاَ مَواعِيدَ رَبُّ
هُوَ فى قُدْسِهِ الأعَزِّ وَلكِنْ ... أَنَا أَلْقَى متَى وَأَينَ أحِبُّ

فكم تتحمل من المشقة والعنت فى مقابلة عظيم من عظماء الدنيا ، أما فى مقابلة ربِّ العزة سبحانه ، فبمجرد أنْ آمنتَ به أصبح الزمام

فى يدك تلقاه متى شئتَ ، وفى أىِّ مكان أردتَ ، وتُحدّثه فى أىّ أمر أحببتَ ، فأىُّ عِزَّة بعد هذا ؟

ولذلك كانت حيثية الرفعة لرسول الله ﷺ فى الإسراء والمعراج أنه عبد لله ، حيث قال تعالى : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا .. (١) ﴾ [الإسراء]

فالعزة فى العبودية لله ، والعزة فى السجود له تعالى ، فعبوديتك لله تعصمك من العبودية لغيره ، وسجودك له تعالى يعصمك من السجود لغيره ، ألاَ ترى قول الشاعر :

وَالسُّجُودُ الذِى تَجْتَوِيه مِنْ أُلُوفِ السُّجودِ فِيهِ نَجَاةٌ

إذن : فكبِّر الله تكبيراً وعَظِّمه ، والتجىء إليه ، فَمن التجأ إلى الله تعالى كان فى معيته ، وأفاض عليه الحق من صفاته ، وعصمه من كَيْد الآخرين وقهرهم . وسبق أنْ ضربنا مثلاً بالولد الصغير الذى يعتدى عليه أقرانه إنْ سار وحده ، فإنْ كان فى يد أبيه فلا يجرؤ أحد على الاعتداء عليه .

فعليك ـ إذن ـ أن تكون دائماً فى معيّة ربك تأمن كيد الكائدين ومكْر الماكرين ، ولا ينالك أحدٌ بسوء ، فإن ابتلاه الله بشىء فكأنما يقول له : أبتليك بنعمتى لتأخذ من ذاتى ، لأن الصحيح المعَافَى إنْ كان فى معية نعمة الله ، فالمبتلى فى معية الله ذاته .

ألم يَقُلْ الحق سبحانه فى الحديث القدسى : « يا بن آدم مرضْتُ فلم تَعُدْنى ، قال : يا رب وكيف أعودك وأنت ربُّ العالمين ؟ فيقول :

أما علمتَ أن عبدى فلاناً مرض فلم تَعُدْه ، أما علمتَ أنك لو عُدْتَهُ لوجدتنى عنده »[١] .

فالمريض الذى يأنس بزائريه ويسعد بهم ويرى فى زيارتهم تخفيفاً من آلامه ومواساة له فى شدته ، ما باله إن أنس بالله وكان فى جواره وكلاءته ، والله الذى لا إله إلا هو لا يشعر بوخْز المرض أبداً ، ويستحى أن يتأوّه من ألم ، ولا ييأس مهما اشتد عليه البلاء ؛ لأنه كيف يتأوه من معية الله ؟ وكيف ييأس والله تعالى معه ؟

إذن : كبِّره تكبيراً . أى : اجعل أمره ونَهْيه فوق كل شىء ، وقُلْ : الله أكبر من كل كبير حتى الجنة قل : الله أكبر من الجنة . ألاَ ترى قَوْل رابعة العدوية[٢] :

كُلُّهُمْ يعبدُونَك من خَوْف نارٍ ... ويَروْنَ النجاةَ حَظّاً جَزِيلا
أَوْ بِأَنْ يَسْكُنُوا الجِنَانَ فَيَحْظَوْا ... بقُصُورٍ ويَشْرَبُوا سَلْسَبِيلاً
لَيْسَ لِى بالجنانِ وَالنَّارِ حَظٌّ ... أنَا لاَ أَبْتغِى بِحُبِّى بَدِيلاً

وفى الحديث القدسى : « أولَوْ لَم أخلق جنة وناراً ، أما كنتُ أهلاً لأنْ أُعبد ؟ » .

فالله تعالى بذاته سبحانه أكبر من أىّ شىء ، حتى إن كانت الجنة ، ففى آخر سورة الكهف يقول تعالى : ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٥٦٩) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

(٢) هى : رابعة بنت إسماعيل العدوية ، أم الخير ، مولاة آل عتيك البصرية ، صالحة مشهورة من أهل البصرة ، ومولدها بها ، لها أخبار فى العبادة والنسك ، توفيت بالقدس عام ١٣٥ هـ (الأعلام للزركلى ٣/١٠) .

فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾ [الكهف]

فلم يَقُلْ : مَنْ كان يرجو جزاء ربه ، أو جنة ربه ، أو نعيم ربه ، إن المؤمن الحق لا ينظر إلى النعيم ، بل يطمع فى لقاء المنعِم سبحانه ، وهذا غاية أمانيه .

وفى حديث آخر يقول الحق سبحانه للملائكة : «أما رأيتم عبادى ، أنعمتُ عليهم بكذا وكذا ، وأسلب عنهم نعمتى ويحبوننى » .

وبهذه الآية خُتِمَتْ سورة الإسراء ، فجعلنا الحق سبحانه نختمها بما أنعم علينا من هذه النعم الثلاث ، وليست هذه هى كل نعم الله علينا ، بل لله تعالى علينا نِعَم لا تُعَدّ ولا تُحصَى ، لكن هذه الثلاث هى قِمة النعم التى تستوجبَ أنْ نحمده عليها .

فالحمد لله الذى لم يتخذ ولداً ؛ لأنه لم يلد ولم يولد وهو واحد أحد ، والحمد لله الذى لم يتخذ شريكاً لأنه واحد ، والحمد لله الذى لم يكُنْ له ولىٌّ من الذل لأنه القاهر العزيز المعز ، ولهذا يجب أن نُكبِّر هذا الإله تكبيراً فى كل نعمة نستقبلها منه سبحانه .

سُورَةُ الكَهْفِ

سورة الكهف[1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا ﴿١﴾ ﴾

ختم الحق سبحانه سورة الإسراء بالحمد ، وبدأ سورة الكهف بالحمد ، والحمد لله دائماً هو الشعار الذى أطلقه رسول الله ﷺ فى خير الكلمات : « سبحان الله والحمد لله » سبحان الله بُدئتْ بها سورة الإسراء ، والحمد لله بُدئت بها سورة الكهف . سبحان الله تنزيه لذاته سبحانه أن يكون له شريك ، لا فى الذات ، ولا فى الأفعال ، ولا فى الصفات ، والحمد لله كذلك تكبرة للذات ، وبعد ذلك جاء العطاء من الذات فقُلْنا : الحمد لله ، فسبحان الله تنزيه ، والحمد لله شكر على العطاء .

والحمد يشترك معه فى المعنى العام : ثناء وشُكْر ومدح ، إلا أن هذه الألفاظ وإنْ تقاربت فى المعنى العام فلكُلٍّ منها معناه الخاص ،

---

(١) سورة الكهف هى السورة رقم (١٨) فى ترتيب المصحف الشريف ، وعدد آياتها ١١٠ آية وتقع فى الجزء الخامس عشر والسادس عشر من المصحف . وهى سورة مكية فى قول جميع المفسرين . قال القرطبى فى تفسيره : « وروى عن فرقة أن أول السورة نزلت بالمدينة إلى قوله ﴿ جُرُزًا ﴾ والأول أصح » .

وقد رُوِى فى فضل سورة الكهف أحاديث كثيرة منها :

– من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عُصِم من الدجال . أخرجه مسلم فى صحيحه (٨٠٩) كتاب صلاة المسافرين من حديث أبى الدرداء رضى الله عنه . قال النووى فى شرحه لمسلم : « وفى رواية « من آخر الكهف » قيل : سبب ذلك ما فى أولها من العجائب والآيات فمن تدبرها لم يفتتن بالدجال وكذا فى آخرها » .

وكل هذه الألفاظ فيها ثناء ، إلا أن الشكر يكون من مُنعَم عليه بنعمة خاصة به ، كأن يُسدى لك إنسان جميلاً لك وحدك ، فتشكره عليه .

أما الحمد فيكون على نعمة عامة لك ولغيرك ، فرُقْعة الحمد أوسع من رُقْعة الشكر ، أما المدح فقد تمدح ما لا يعطيك شيئاً ، كأن تمدح مثلاً الشكل الجميل لمجرد أنه أعجبك .

فقَوْلُ الحق : (الحمد لله) بالألف واللام الدالة على الحصر ، فالمراد الحمد المطلق الكامل لله ، الحمد المستوعب لكل شىء ، حتى إنَّ حمدك لأىِّ إنسان قدَّم لك جميلاً فهو - إذا سَلْسَلْتَهُ - حَمْدٌ لله تعالى الذى أعان هذا الإنسان على أن يحسن إليك ، فالجميل جاء من حركته ، وحركته موهوبة له من خالقه ، والنعمة التى أمدّك بها موهوبة من خالقه تعالى ، وهكذا إذا سلسلتَ الحمد لأىِّ إنسان فى الدنيا تجده يصل إلى المنعِم الأول سبحانه وتعالى .

وكلمة (الحَمْدُ للَّه) هذه هى الصيغة التى علمنا الله أنْ نحمدَهُ بها ، وإلا فلو ترك لنا حرية التعبير عن الحمد ولم يُحدِّد لنا صيغة نحمده ونشكره بها لاختلف الخَلْق فى الحمد حَسْب قدراتهم وتمكّنهم من الأداء وحَسْب قدرتهم على استيعاب النعم ، ولوجدنا البليغ صاحب القدرة الأدائية أفصح من العيى والأُمّى . فتحمّل الله عنا جميعاً هذه الصيغة ، وجعلها متساوية للجميع ، الكل يقول (الحمد لله) البليغ يقولها ، والعيى يقولها ، والأُمّى يقولها .

لذلك يقول ﷺ وهو يحمد الله ويُثنِى عليه : « سبحانك لا نحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيتَ على نفسك » .

فإنْ أردنا أنْ نُحصى الثناء عليك فلن نستطيع ؛ لأن الثناء عليك لا يعرف مداه إلا أنت ، ولا يُحصيه غيرك ، ولا نملك إلا أنْ نقولَ ما علَّمتنا من حمدك : الحمد لله .

إذن : فاستواء الناس جميعاً فى الحمد لله نعمة كبرى فى ذاتها تستحق الحمد ، فنقول : الحمد لله على ما علَّمنا من الحمد لله ، والحمْد الأول أيضاً نعمة ، وبذلك نقول : الحمد لله على ما علَّمنا من الحمد لله بالحمد لله .

وهكذا ، لو تتبعتَ الحمدَ لوجدته سلسلةً لا تنتهى ، حَمْد على حَمْد على حَمْد على حَمْد ، فيظل الله محموداً دائماً ، ويظل العبد حامداً إلى ما لا نهاية .

والحمد لله استهل بها الحق سبحانه خَمْس سور من القرآن :

- ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٢﴾ [الفاتحة]

- ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ۝١﴾ [الأنعام]

- ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ..۝١﴾ [الكهف]

- ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى لَهُ مَا فِى السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِى الآخِرَةِ ..۝١﴾ [سبأ]

- ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً أُوْلِى أَجْنِحَةٍ.. ۝١﴾ [فاطر]

ولكن ، لكُلِّ حَمْد فى كل سورة حيثية خاصة ، فالحمد فى الأولى

لأن الله ربٌّ العالمين ، وربٌّ يعنى الخالق والمتولى للتربية ، خلق من عدم ، وأمدَّ من عُدم ، وتولّى تربية عباده ، فهو رَبٌّ لكل العالمين ؛ لذلك يجب أنْ نحمدَ الله على أنه هو الربُّ الذى خلق العالمين ، وأمدَّهم بفضله .

وفى الثانية : نحمده سبحانه الذى خلق السماوات والأرض ، وجعل الظلمات والنور ، وهذه آيات من آيات الله ونِعَم من نِعَمه ، فالسماوات والأرض فيها قيام البشر كله بما يمدُّ حياتهم بالقوت ، ويستبقى نوعهم بالتكاثر .

والظلمات والنور منَ نعم الله ، وهما متكاملان لا متضادان ، فَلِلْظُّلمة مهمة ، كما أن للنور مهمة ، الظلمة للسكون والراحة ، والنور للسعى والحركة ، ولا يمكن لساعٍ أنْ يسعى ويجدّ فى عمل ، إلا إذا ارتاح وسكن وجدَّد نشاطه ، فتقابُل الظلمة والنور للتكامل ، فالحياة لا تستقيم فى ظلام دائم ، كما أنها لا تستقيم فى نور دائم .

وفى السورة الثالثة من السور التى افتتحها الحق سبحانه بـ (الحَمْدُ لله) ـ والتى نحن بصددها ـ أراد الحق سبحانه أنْ يُوضّح أنه لم يُربِّ الخلْق تربية مادية فقط ، بل هناك تربية أعلى من المادة تربية روحية قيمية ، فذكر هنا الحيثية الحقيقية لخَلْق الإنسان ، فهو لم يُخلق لمادته فحسْب ، ولكن لرسالة أسمى ، خلق ليعرف القيم والرب والدين ، وأنْ يعملَ لحياة أخرى غير هذه الحياة المادية ، فقال تعالى :

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ .. ﴿١﴾ ﴾ [الكهف]

فحيثية الحمد هنا إنزالُ الكتاب الذى يجمع كل القيم . وقلنا : إن

الحق سبحانه محمود برحمانيته قبل أنْ يخلق الخَلْق وضع له النماذج التى تُصلح حركة الحياة ، كما قال تعالى : ﴿الرَّحْمَـٰنُ ۝١ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝٢ خَلَقَ الإِنسَانَ ۝٣ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۝٤﴾ [الرحمن]

فتعليم القرآن جاء قبل خَلْق الإنسان ، إذن : وضع الحق سبحانه لعباده المنهج المنظِّم لحياتهم قبل أن يخلقَهم ، لعلْمه سبحانه بطبيعة خَلْقه ، وبما يصلحهم ، كالمخترع للآلة الذى يعلم مهمتها ويُحدِّد قانون صيانتها ، فالكتاب الذى نزل على محمد ﷺ هو المهمة الأساسية ، فيجب أنْ تُوطّن عليها نفسك ، وتعلَم أنه المنظِّم لحياتك ، وبه قانون صيانتك .

وقوله : ﴿عَلَىٰ عَبْدِهِ ..۝١﴾ [الكهف] كما قلنا : فى سورة الإسراء : إن العبودية كانت حيثية الرِّفْعة فى الإسراء والمعراج ، فقال سبحانه : ﴿سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ ..۝١﴾ [الإسراء]

فالعبودية رفعتْه إلى حضرته تعالى ؛ لأنه كان عبداً بحقّ ، وهذا يعنى إنزال الكتاب عليه ، فكان عبداً بحق قبل أن يُسرَى به ، وحمل منهج الله أولاً فالتفتَ لربه لَفْتةً أراد أنْ يلفتَ بها سواه ، فأخلص هو أولاً فى العبودية ، وتحمَّل ما تحمّل ، فكان من جزائه أن يرتفع إلى مقام الحضرة فَعُرِج به ، وهناك أعطاه الله الصلاة لينزلَ بها إلى الخَلْق ليرفع بها صوته إلى المقام الذى سعى إليه بالمعراج .

إذن : فالنبى تناول ليناول ، وتناول لأنه أخلصَ العبودية ، فصعد إلى حضرة ربه ، وأخذ فريضة الصلاة وبلَّغها لقومه ، وكأنه يقول لهم : مَنْ أراد أن يلتقى بالله ، فليدخل فى الصلاة .

و ﴿الْكِتَابَ ۝١﴾ [الكهف] هو القرآن الكريم ، لكن سورة الكهف ترتيبها الثامنة عشرة بين سور المصحف من المائة والأربعة عشرة سورة ، أى : أن القرآن لم يكتمل بعد ، فلماذا قال تعالى (الكتاب) وهو لم يكتمل بعد ؟

نقول : الكتاب يُطلَق ويُرَادُ به بعضه ، كما فى قوله تعالى : ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ۝١٨﴾ [القيامة] فالآية الواحدة تُسمَّى قرآناً ، والسورة تُسمَّى قرآناً ، والكل نُسمِّيه قرآناً .

أو : يكون المراد أنزل القرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ ، ثم نزَّله بعد ذلك مُنَجَّماً حَسْبَ الوقائع ، فالمراد هنا الإنزال لا التنزيل .

وقوله تعالى : ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا ۝١﴾ [الكهف] أى : جعله مستقيماً ، لا عِوجَ فيه ، كما قال فى آية أخرى : ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ ..۝٢٨﴾ [الزمر] والاعوجاج . أن يأخذ الشىءُ امتداداً مُنْحنياً ملتوياً ، أما الاستقامة فهى الامتداد فى نفس الاتجاه ، لا يميل يميناً أو شمالاً ، ومعلوم أن الخطَّ المستقيم يمثل أقرب مسافة بين نقطتين ، ولا تستقيم حياة الناس فى الدنيا إلا إذا ساروا جميعاً على منهج مستقيم يعصمهم من التصادم فى حركة الحياة .

فالحق سبحانه وتعالى خلق الخَلْق متكاملين ، فكُلٌّ منهم لديه موهبة يحتاجها الآخرون ، فهذا طبيب ، وهذا مهندس ، وهذا نجار ، وهذا خياط ، ولا يستطيع أحد أن يقومَ بذاته أو يستغنى عن مواهب غيره ، فلا بُدَّ أن يتواجه الناس فى الحياة ، وأنْ يتكاملوا .

هذا التواجه إنْ لم يُنظَّم وتوضع له قوانين مرور دقيقة لتصادمت حركات الناس ، كما يحدث على الطريق الملتوى كثير المنحنيات ، فالقادم من هنا لا يرى القادم من هناك ، فيحدث التصادم . إذن : لا بُدَّ من استقامة الطريق ليرى كلٌّ منّا الآخر ، فلا يصطدم به . والمنهج الإلهى هو الطريق المستقيم الذى يضمن سلامة الحركة فى الحياة .

وقد ذُكر الاعوجاج أيضاً فى قوله تعالى : ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (١٠٥) فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا [1] (١٠٦) لا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلا أَمْتًا [2] (١٠٧)﴾ [طه]

أى : أرضاً مستوية خالية من أى شىء ﴿لا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا (١٠٧)﴾ [طه] أى : مستقيمة ﴿وَلا أَمْتًا (١٠٧)﴾ [طه]

أى : مُسْتوية لا يُوجد بها مرتفعات ومنخفضات تعوق الرؤية أيضاً وتسبب التصادم ، وهذا ما يُسمِّيه رجال المرور (العقبة) .

ثم يقول الحق سبحانه واصفاً القرآن الكريم :

﴿قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا (٢)﴾

قوله : (قَيِّماً) أى : القرآن ، وقالوا : قيِّم يعنى مستقيم ، كأنها

---

(١) الصفصف : الأرض الملساء المستوية ، أى : أن الجبال تزول فلا يكون لها أثر . [القاموس القويم ١/٣٧٩]

(٢) الأمْت : التلال الصغار . والأمت : الوهدة بين كل نشزين . وفى التنزيل العزيز : ﴿لا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلا أَمْتًا (١٠٧)﴾ [طه] أى : لا انخفاض فيها ولا ارتفاع . [لسان العرب مادة : أمت] .

تأكيد لقوله : ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا ۝١﴾ [الكهف] لأن الاستقامة والعِوَج قد لا يُدرك بالعين المجردة وتحتاج إلى ميزان دقيق يكشف لك مدى العِوَج أو الاستقامة ، وهذه الظاهرة تراها فى الطرق المستوية المرصوفة ، والتى تراها للوَهْلة الأولى مستقيمة تماماً ومستوية ، فإذا مَّا نزل المطر فضح هذا الاستواء وأظهر ما فيه من عيوب ؛ لذلك أكّد الاستقامة بقوله ﴿قَيِّمًا ۝٢﴾ [الكهف]

ومن معانى القَيِّم : المهيمن على ما دونه ، كما تقول : فلان قَيِّم على فلان أى : مُهيمن عليه وقائم على أمره . فالقرآن - إذن - لاعِوَج فيه ، وهو أيضاً مُهيمن على الكتب السابقة وله الوصاية عليها كما قال تعالى : ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۝٤٨﴾ [المائدة]

ومنه قوله تعالى : ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ ۝٤٣﴾ [الروم] أى : المهيمن على الأديان السابقة .

ثم يقول تعالى : ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ ۝٢﴾ [الكهف]

وهذه هى العِلّة فى الإنزال .

والإنذار : التخويف بشَرٍّ قادم ، والمنْذَر هنا هم الكفار ؛ لأنه لا يُنذَر بالعذاب الشديد إلا الكفار ، لكن سياق الآية لم يذكرها ليترك مجالاً للملَكة العربية وللذّهْن أنْ يعملَ ، وأنْ يستقبلَ القرآن بفكر مُتفتح وعقل يستنبط ، وليس بالضرورة أن يعطينا القرآنُ كلّ شىء هكذا على طرف الثُّمام أى قريباً سهل التناول .

ثم ضَخّم العذاب بأنه شديد ، ليس ذلك وفقط بل ﴿ مِنْ لَدُنَّا ﴾ ،

والعذاب يتناسب مع المعذِّب وقوته ، فإنْ كان العذاب من الله فلا طاقة لأحدٍ به ، ولا مهربَ لأحد منه .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ .. ﴿٢﴾ ﴾ [الكهف] والبشارة تكون بالخير المنتظر فى المستقبل ، ونلاحظ أنه فى البشارة ذكر المبشَّر (المؤمنين) ولم يسكت عنهم كما سكت عن الكفار فى الإنذار ، فهذا من رحمة الله بنا حتى فى الأسلوب ، والبشارة هنا بالأجر الحسن ؛ لأنه أجر من الكريم المتفضّل سبحانه ؛ لذلك قال الحق سبحانه بعدها :

﴿ مَّاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ ﴾

أى : باقين فيه بقاءً أبدياً ، وكان لابُدّ أنْ يُوصَف أجر الله الحسن بأنه دائم ، وأنهم ماكثون فيه أبداً ؛ لأن هناك فرقاً بين أجر الناس للناس فى الدنيا ، وأجر المنعِم سبحانه فى الآخرة ، لقد أَلِفَ الناس الأجر على أنه جُعِل على عمل ، فعلى قَدْر ما تعمل يكون أجرك ، فإنْ لم تعمل فلا أجرَ لك .

أما أَجْر الله لعباده فى الآخرة فهو أجر عظيم دائم ، فإنْ ظلمك الناس فى تقدير أجرك فى الدنيا ، فالله تعالى عادل لا يظلم يعطيك بسخاء ؛ لأنه المنصِف المتفضّل ، وإنِ انقطع الأجر فى الدنيا فإنه دائم فى الآخرة ؛ لأنك مهما أخذتَ من نعيم الدنيا فهو نعيم زائل ، إما أنْ تتركه ، وإما أنْ يتركك .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ ﴾

والإنذار هنا غير الإنذار الأول ، لقد كرّر الإنذار ليكون خاصاً بقمة المعاصى ، إنذار للذين قالوا اتخذ الله ولداً ، أما الإنذار الأول فهو لمطلق الكفر والمعصية ، وأما الثانى فهو لإعادة الخاص مع العام ، كأن لهؤلاء الذين نسبوا لله الولد عذاباً يناسب ما وقعوا فيه من جرأة على الحق سبحانه وتعالى .

وقد أوضح القرآن فظاعة هذه المعصية فى قوله : ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا (٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا[1] إِدًّا (٨٩) تَكَادُ السَّمَـٰوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (٩٠) أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَدًا (٩١) وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَـٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا (٩٢)﴾ [مريم]

إنها قمة المعاصى أنْ نخوضَ فى ذات الله تعالى بمقولة تتفطر لها السماء ، وتنشق لها الأرض ، وتنهدّ لهوْلِها الجبال .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۝٥﴾

فهذه القضية التى ادَّعَوْها ، وهذه المقولة التى كذبوها على الله ، من أين أتَوْا بها ؟ الحقيقة أنهم ادعَوْهَا ولا علمَ لهم بها ، والعلم إما ذاتى ، وإما ورثوه عن آبائهم وأجدادهم وهم لا يملكون شيئاً من هذا ويقولون بأمر لا واقع له ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ .. (٥)﴾ [الكهف]

---

(١) الإد : الداهية والأمر الفظيع والكذب الفاحش ، قال تعالى : ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (٨٩)﴾ [مريم] . أى : منكراً وكذباً فاحشاً . [القاموس القويم ١/١٢] .

وعدم العلم ينشأ من أمرين : إما أن الشيءَ موجود وأنت لا تعلم به ؛ لأنه مستور عنك ، وإما لأن الشيء لا وجودَ له أصلاً ، وأنت لا تعلم أنه غير موجود ؛ لأن غير الموجود لا يمكن أن يتعلق به علم .

وقوله تعالى : ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ .. (٥)﴾ [الكهف]

﴿ كَبُرَتْ ﴾ أى : عَظُمَتْ وتناهتْ فى الإثم ؛ لأنهم تناولوا مسألة فظيعة ، كَبُرتْ أنْ تخرجَ هذه الكلمة من أفواههم .

﴿ كَلِمَةً ﴾ الكلمة قول مُفْرد ليس له نسبة كأن تقول : محمد أو ذهب أو فى ، فالاسم والفعل والحرف كل منها كلمة مستقلة ، والكلمة تُطلَق ويُراد بها الكلام ، فالآية عَبَّرتْ عن قولهم ﴿اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا (٤)﴾ [الكهف] بأنها كلمة ، كما تقول : ألقى فلان كلمة . والواقع أنه ألقى خُطْبة .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا .. (١٠٠)﴾ [المؤمنون] فسمَّى قولهم هذا (كلمة) .

ومنها قوله تعالى : ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ .. (٦٤)﴾ [آل عمران] فسمَّى كل هذا الكلام كلمة .

وقوله تعالى : ﴿تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ..(٥)﴾ [الكهف] أى : أن هذه الكلمة كَبُرت لأنها خرجت منهم وقالوها فعلاً ، ولو أنهم كتموها فى نفوسهم ولم يجهروا بها واستعظموا أن تخرجَ منهم لكانوا فى عداد المؤمنين ، بدليل أن وفد اليمن حينما أتوْا رسول الله ﷺ وقالوا : يا رسول الله تدور بأنفسنا أفكار عن الله ، نتعاظم أن نقولها ـ أى :

لا نقدر على النطق بها فقال ﷺ : « ذاك صريح الإيمان »[(١)] .

إذن : المعيب عليهم أنهم أخرجوا هذه المسألة من أفواههم ، وهذا منتهى القُبْح ، فالأفكار والخواطر مهما بلغتْ من السوء وكتمها صاحبها لا يترتب عليها شيء ، وكأنها لم تكُنْ .

ثم يقول تعالى : ﴿إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا .. ۝٥﴾ [الكهف] أى : ما يقولون إلا كذباً ، والكذب ألاَّ يطابق الكلام واقع الأمر ، فالعاقل قبل أنْ يتكلم يُدير الكلام على ذهْنه ويَعْرضه على تفكيره ، فتأتى النسبة فى ذهْنه وينطقها لسانه ، وهذه النسبة قبل أن يفكر فيها وينطق بها لها واقع .

فمثلاً حين تقول : محمد مجتهد . قبل أن تنطق بها جال فى خاطرك اجتهاد محمد ، وهذه تُسمّى نسبة ذهْنية ، فإنْ قلتَ : محمد مجتهد أصبحتْ نسبة كلامية ، فإنْ وُجد شخص اسمه محمد وهو مجتهد فعلاً ، فإن النسبة الذهنية الكلامية أصبحتْ نسبة واقعية ، والخبر بها خبر صادق . فإنْ كانت النسبة الكلامية لا واقعَ لها كأنْ لا يوجد شخص اسمه محمد أو وُجد ولكنه غير مجتهد ، فالخبر هنا كاذب . وهذا هو الأسلوب الخبرى الذى يحتمل الصدق أو الكذب .

وهناك الأسلوب الإنشائى الذى لا يحتمل الصِّدْق ، ولا يحتمل الكذب ؛ لأن النسبة الواقعية فيه متأخرة عن النسبة الكلامية كما لو قُلْت : ذاكر دروسك . فواقع هذه العبارة سيحدث فى المستقبل ؛ لذلك لا يُوصَف الإنشاء بالصدق أو بالكذب .

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٣٢) كتاب الإيمان من حديث أبى هريرة رضى الله عنه . وفى رواية « تلك محض الإيمان » قال النووى فى شرحه لمسلم (٥١٢/١) : « إن استعظام هذا وشدة الخوف منه ومن النطق به فضلاً عن اعتقاده إنما يكون لمن استكمل الإيمان استكمالاً محققاً وانتفت عنه الريبة والشكوك » .

والتدقيق العلمى يقول : الصدق الحقيقى أنْ تطابقَ النسبة الكلامية الواقع والاعتقاد ، فإن اعتقدتَ شيئاً ولم يحدث ، فالنسبة كاذبة وأنت غير كاذب ؛ لأن هناك فرقاً بين الخبر والمخْبر .

وهذه المسألة واضحة فى قوله تعالى : ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿١﴾﴾ [المنافقون]

فقولهم : إنك لرسول الله نسبة صادقة ؛ لأنها تطابق الواقع ، إنما هل وافقتْ معتقدهم ؟ لم توافق معتقدهم ؛ لذلك شهد الله أنهم كاذبون ؛ لأن كلامهم لم يوافق واقعهم الاعتقادى . أو : لأن التكذيب لم يرد به قولهم : إنك لرسول الله وإنما يُراد به قولهم : نشهد ، فالتكذيب للشهادة لأن الشهادة أنْ يُواطِىء القلب اللسان ، وهم شهدوا بألسنتهم ، ولم تؤمن به قلوبهم .

وهنا لَمّا قالوا ﴿ اتخَذَ اللهُ وَلَداً ﴾ ، فهذه نسبة كلامية ليس لها واقع ، فهى نسبة كاذبة ، فقال تعالى : ﴿إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا ﴿٥﴾﴾ [الكهف]

ثم يُسلِّى الحق سبحانه رسوله ﷺ ليُخفِّف عنه ما يلاقى من متاعب وعناد وسَفَه فى سبيل الدعوة ، فيقول تعالى :

﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾﴾

ومعنى : ﴿بَاخِعٌ نَّفْسَكَ .. ﴿٦﴾﴾ [الكهف] أى : تجهد نفسك فى دعوة قومك إجهاداً يُهلكها ، وفى الآية إشفاق على رسول الله ؛ لأنه

حَمّل نفسه فى سبيل هداية قومه ما لا يحمله الله ويلزم ما لا يلزمه ، فقد كان ﷺ يدعو قومه فيُعرضوا ويتولَّوْا عنه فيُشيِّع آثارهم بالأسف والحزن ، كما يسافر عنك حبيب أو عزيز ، فتسير على أثره تملؤك مرارة الأسى والفراق ، فكأن رسول الله لحبه لقومه وحِرْصه على هدايتهم يكاد يُهلك نفسه (أَسَفاً) .

والأسف : الحزن العميق ، ومنه قَوْلُ يعقوب عليه السلام : ﴿ يَـٰأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ .. (٨٤) ﴾ [يوسف] وقوله تعالى عن موسى لما رجع إلى قومه غاضباً من عبادتهم العجل : ﴿ فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا .. (٨٦) ﴾ [طه]

وقد حدّد الله تعالى مهمة الرسول وهى البلاغ ، وجعله بشيراً ونذيراً ، ولم يُكلّفه من أمر الدعوة ما لا يطيق ، ففى الآية مظهر من مظاهر رحمة الله برسوله ﷺ ، فيقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا (٧) ﴾

وكأن هذه الآية تعقيب على سابقتها ، وإشارة لرسول الله بأن الدنيا قصيرة ، فالمسألة ـ إذن ـ قريبة فلا داعىَ لأنْ يُهلك نفسه حُزْناً على عناد قومه ، فالدنيا لكل إنسان مدة بقائه بها وعَيْشَه فيها ، ولا دخلَ له بعمرها الحقيقى ؛ لأن حياة غيره لا تعود عليه بشىء ، وعلى هذا فما أقصرَ الدنيا ، وما أسرعَ انتهائها ، ثم يرجعون إلينا فنجازيهم بما عملوا ، فلا تحزن ولا تيأس ، ولا تكدِّر نفسك ، لأنهم لم يؤمنوا .

فقوله تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا .. (٧) ﴾ [الكهف]

أى : كل ما على الأرض هو زينة ، والزينة هى الزخرف الذى يبرق أمام الأعين فيغريها ، ثم يندثر ويتلاشى ، وقد أوضح لنا القرآن هذه المسألة فى قوله تعالى :

﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً[1] تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ .. (٤٥)﴾ [الكهف]

فإياك أنْ يأخذك هذا الزخرف ؛ لأنه زَهْر سرعان ما يذبل ويصير حُطاماً .

وقوله : ﴿لِنَبْلُوَهُمْ .. (٧)﴾ [الكهف] البلاء يعنى : الاختبار والامتحان . وليس المصيبة كما يظن البعض ؛ لأن المصيبة تكون على مَنْ يخفق فى الاختبار ، والابتلاء لهم من الله مع علمه تعالى بأمرهم وما سيحدث منهم مُسْبقاً ، ولكن لنعرف معرفة الواقع وشهادة الواقع .

وما أشبه هذه المسألة بالتلميذ الذى يتنبأ له أستاذه بالفشل لما يراه من مقدمات يعرفها عن عقليته وعن اجتهاده والتفاته يحكم من خلالها ، فإذا ما دخل التلميذ الاختبار فشل فيه وأخفق ، لكن هل يعنى هذا أن نلغى الاختبارات فى مدارسنا اعتماداً على خبرة المعلم بتلاميذه ؟ لا بُدَّ من الاختبار ليقوم شاهداً واقعياً على مَنْ يخفق .

إذن : معنى : ﴿لِنَبْلُوَهُمْ .. (٧)﴾ [الكهف] أى : بلاء شهادة منهم على أنفسهم .

---

(١) الهشيم : الحطب أو الخشب المحطّم . وهشّم الشىء اليابس : كسره . وهشم الخبز : كسره وفتّه . [القاموس القويم : ٢/٣٠٣] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾ ﴾

الصعيد : هو طبقة التراب التى تظهر على وجه الأرض ، ولا نباتَ فيها و ﴿ جُرُزاً ﴾ هى الأرض الخالية من النبات ، وقد يكون بها نبات ، إلا أن الجراد أكله أو جاءته جائحة أهلكتْه ، يقول تعالى : ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [السجدة]

وما دام الأمر كذلك والدنيا زُخْرف سرعان ما يزول ، فالأجل قريب ، فدَعْهم لى أختبرهم ، وأُجَازيهم بأعمالهم .

ويقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ(١) كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ ﴾

وقد وردتْ قصة أهل الكهف نتيجة لسؤال كفار مكة الذين أرادوا أنْ يُحرجوا رسول الله ، ويُروى أنهم أرسلوا رجلين منهم هما : النضر ابن الحارث وعقبة بن أبى معيط إلى أهل الكتاب فى المدينة ليسألوهم عن صدق رسول الله ، وما خبره عندهم ، وما ورد عنه فى كتبهم .

---

(١) اختلف الناس فى الرقيم على أقوال كثيرة ، منها ما ذكره القرطبى فى تفسيره :
- الرقيم : واد . قاله مجاهد .
- الرقيم : الصَّخرة التى كانت على الكهف . قاله السدى .
- الرقيم : كلبهم . قاله أنس بن مالك والشعبى .
- الرقيم : لوح من الرصاص كتب فيه أسماؤهم وأنسابهم ودينهم وممن هربوا . قاله ابن عباس والفراء .

وهناك أقوال أخرى ذكرها القرطبى فى تفسيره (٥/٤٠٨٦ - ٤٠٨٧) .

وقد كان يهود المدينة قبل البعثة يتوعدون الأوس والخزرج عباد الأصنام ببعثة النبى الجديد ، يقولون : لقد أطلَّ زمان نبىٍّ نتبعه ، ونقتلكم به قَتْل عاد وإرم ؛ لذلك رغب أهل مكة فى سؤال يهود المدينة عن صدق رسول الله ، فلما ذهب الرجلان إلى يهود المدينة قالوا : إنْ أردتُمْ معرفة صدق محمد فاسألوه عن ثلاثة أشياء ، فإنْ أجابكم فهو صادق ، اسألوه : ما قصة القوم الذين ذهبوا فى الدهر مذاهب عجيبة ؟ وما قصة الرجل الطوّاف الذى طاف الأرض شرقاً وغرباً ؟ وما الروح ؟[1]

وفعلاً ذهب الرجلان إلى رسول الله ، وسألاه هذه الأسئلة فقال ﷺ : « أخبركم بما سألتم عنه غداً »[2] وجاء غد وبعد غد ومرَّت خمسة عشر يوماً دون أنْ يُوحَى لرسول الله شىء من أمر هذه الأسئلة ، فشقّ ذلك على رسول الله وكَبُر فى نفسه أنْ يعطِى وَعْداً ولا يُنجزه .

وقالوا : إن سبب إبطاء الوحى على رسول الله فى هذه المسألة أنه قال : « أخبركم بما سألتم عنه غداً » ولم يقُلْ : إنْ شاء الله ؛ ولذلك خاطبه ربه تبارك وتعالى بقوله : ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا (٢٣) إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ .. (٢٤) ﴾ [الكهف]

وهذه الآية فى حَدِّ ذاتها دليل على صدق رسول الله ، وعلى أدبه ، وعلى أمانته فى البلاغ عن ربه عز وجل ، وقد أراد الحق

---

(١) ذكره القرطبى فى تفسيره (٤٠٧٦/٥) وعزاه لابن إسحاق

(٢) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٢٦٩/٢ - ٢٧١) ، وكذا ابن هشام فى السيرة (٣٢١/١ - ٣٢٣) من حديث ابن عباس وهو من طريق ابن إسحاق .

سبحانه أن يكون هذا الدرس فى ذات الرسول ليكون نموذجاً لغيره ، وحتى لا يستنكف أحد إذا استُدرك عليه شىء ، فها هو محمد رسول الله يستدرك عليه ربه ويُعدِّل له .

فكأن قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا (٢٣) إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ .. (٢٤) ﴾ [الكهف] تربية للأمة فى شخصية رسولها حتى لا يستنكف المربَّى من توجيه المربِّى ، ما دام الهدف هو الوصول إلى الحقيقة ، فإياكم أن ترفضوا استدراك رأى على رأى حتى وإنْ كان من الخَلْق ، فما بالك إنْ كان الاستدراك من الخالق سبحانه ، والتعديل والتربية من ناحيته ؟

وإليك مثال لأدب الاستدراك ومشروعية استئناف الحكم ، لقد ورد هذا الدرس فى قوله تعالى : ﴿ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ[1] فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ (٧٨) ﴾ [الأنبياء]

فكان حكم داود عليه السلام فى هذه المسألة أنْ يأخذ صاحب الزرع الغنم التى أكلتْ زرعه ، فلما بلغ سليمان هذه الحكومة استدرك عليها قائلاً : بل يأخذ صاحب الزرع الغنم ينتفع بها ، ويأخذ صاحب الغنم الزرع يُصلحه حتى يعودَ إلى ما كان عليه ، ثم تعود الغنم إلى صاحبها ، والزرع إلى صاحبه .

لذلك قال تعالى بعدها : ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ .. (٧٩) ﴾ [الأنبياء]
ولم يتهم داود بالخطأ ، بل قال : ﴿ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا .. (٧٩) ﴾[الأنبياء]

ونلحظ هنا أن الاستدراك لم يَأْتِ من الأب للابن ، فيكون أمراً

---

(١) النَّفْش : أن تنتشر الإبل (والغنم) بالليل فترعى من غير علم راعيها [لسان العرب ـ مادة : نفش] . ونفشت الغنم : انتشرت فى المرعى بغير راعٍ ولا ضابط . [القاموس القويم ٢/٢٧٩] .

طبيعياً ، بل جاء من الابن للأب ليؤكد على أنه لا غضاضة أنْ يستدرك الصغير على الكبير ، أو الابن على الأب ، فالهدف هو الوصول إلى الحق والصواب ، ونبىّ الله سليمان فى هذه المسألة لم يغُضّ الطرف عن هذا القصور فى حكومة أبيه ، بل جهر بالحق ونطق به ؛ لأن الحق أعزّ من أىٍّ صلة حتى لو كانت صلة الأبوة .

ومن هذه القضية نعلم أن استدراك الخَلْق على الخَلْق أمر طبيعى ومقبول لا يستنكف منه أحد ، ومن هنا جاءت فكرة الاستئناف فى المحاكم ، فلعل القاضى فى محكمة الاستئناف يستدرك على زميله فى المحكمة الابتدائية ، أو يقف على شىء لم يقف عليه ، أو يرى جانباً من القضية لم يَرَهُ .

ولنا هنا وَقْفة مع أمانته ﷺ فى البلاغ عن الله ، وأنه لم يكتم من الوحى شيئاً حتى ما جاء فى عتابه والاستدراك عليه ، فكأنه أمينٌ حتى على نفسه ، فالرسول هو الذى بلغنا : ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا (٢٣)﴾ [الكهف] وهو الذى بلَّغنا : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ .. (١)﴾ [التحريم]

وهو الذى بلغنا فى شأن غزوة بدر : ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ.. (٤٣)﴾ [التوبة] وغيرها كثير من آيات القرآن ؛ لذلك مدحه ربه تعالى بقوله : ﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ (٢٤)﴾ [التكوير]

حتى فى مجال التهديد والوعيد لم يكتم رسول الله من الوحى حرفاً واحداً ، انظر إلى قوله تعالى : ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦)﴾ [الحاقة]

إنها الأمانة المطلقة والصدق الذى لا يُخفِى شيئاً .

ألم يكُنْ جديراً بالقوم أنْ يفقهوا هذه الناحية من رسول الله ، ويتفكّروا فى صدْقه ﷺ حين يُخبرهم عن نفسه أشياء لم يعرفوها ، وكان من المنتظر أنْ يُخفيها عنهم ؟ أليس فى ذلك دليلاً قاطعاً على صدقه فيما يقول ؟

والحق تبارك وتعالى حينما يعلمنا أن نقول : إن شاء الله إذا أقدمنا على عمل فى المستقبل إنما يُكرّم عبده ويحميه حتى لا يُوصَف بالكذب إذا لم يُحقِّق ما وعد به ، وليس فى قولنا : إنْ شاء الله حَجْر على أحد ، أو تقييد لطموحات البشر كما يدّعى البعض أن قول إنْ شاء الله يلغى التخطيط للمستقبل .

نقول : خَطِّط كما تريد ، ودَبِّر من أمرك ما شئت ، واصنع من المقدمات ما تراه مناسباً لإنجاح سعيك ، لكن ما عليك إنْ قرنتَ هذا كله بمشيئة الله ، وهى فى حَدِّ ذاتها عَوْنٌ لك على ما تريد ، فإنْ أخفقتَ فقد جعلتَ لنفسك حماية فى مشيئة الله ، فأنت غير كاذب ، والحق تبارك وتعالى لم يشأ بَعْدُ أنْ تنجزَ ما تسعى إليه .

والحقيقة أن الحدث فى المستقبل لا يملكه أحد ، ولا يضمنه أحد إلا الله تبارك وتعالى ؛ لذلك عليك أن تُعلِّق الفعل على مشيئة الله ، فإنْ قُلْتَ مثلاً : سأقابل فلاناً غداً لأكلمه فى كذا ، فهل تملك أنت من عناصر هذا الحدث شيئاً ؟

أضمنتَ أن تعيش إلى غد ؟ أضمنتَ حياة فلان هذا إلى الغد ؟ أضمنتَ أن موضوع المقابلة باق لا يتغير فيه شىء ، ولا يطرأ عليه طارىء ؟ إذن : فكيف تقطع بالقول أنك ستفعل غداً كذا ؟ قل : إن شاء الله ، واخرج من دائرة الحرج هذه .

نعود إلى الآية التى نحن بصددها فالحق سبحانه يقول : ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾﴾ [الكهف]

﴿ أَمْ ﴾ حرف من حروف العطف ، ويفيد الإضراب عَمَّا قبله وتوجيه الاهتمام إلى ما بعده ، كما فى قوله تعالى : ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ .. ﴿١٦﴾﴾ [الرعد]

فالمراد : إنْ سألك كفار مكة عن مسألة أصحاب الكهف على أنها معضلة يريدون إحراجك بها ، فدعْكَ من كلامهم ، ودَعْك من سوء نيتهم ، ولا تحسب أن أهل الكهف هى العجيبة الوحيدة لدينا ، فالعجائب عندنا كثيرة ، وهذه واحدة منها .

و ﴿الكَهْف﴾ : الفَجْوة فى الجبل و (الرقيم) الشىء المرقوم أى : المكتوب عليه كحجر أو نحوه ، ولعله حجر كان على باب الكهف رُقم عليه أسماء هؤلاء الفتية ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾﴾ [المطففين] أى : مكتوب .

وقوله : ﴿كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾﴾ [الكهف] أى : ليست هذه هى العجيبة الوحيدة ، فكل آياتنا عجيبة تستحق التأمل .

ثم تأخذ الآيات فى تفصيل هذه العجيبة ، فيقول تعالى :

﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾

(أَوَىَ) من المأوى ، وهو المكان الذى يأوى إليه الإنسان ويلجأ إليه (الفتْيةُ) جمع فتى ، وهو الشاب فى مُقْتبل العمر ، والشباب هم مَعْقِد الآمال فى حَمْل الأعباء والنهوض بكل أمر صعب ،

وهؤلاء شباب مؤمن وقفوا يحملون راية عقيدتهم وإيمانهم أمام جبروت الكفر وطغيان الشرك ، فالفتاء فيهم فتاء إيمان وعقيدة .

لذلك لجأوا إلى الكهف مُخلِّفين وراءهم أموالهم وأهلهم وكل ما يملكون ، وفرُّوا بدينهم إلى هذا المكان الضيق الخالى من أىِّ مُقوِّم من مُقوِّمات الحياة ؛ لأنهم لا يشغلون أنفسهم بهذه المقوّمات ، بل يعلمون أن لهم رباً سيتولى أمرهم ؛ لذلك ضَرَعُوا إليه قائلين :

﴿ رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً .. (١٠) ﴾ [الكهف] أى : رحمة من عندك ، أنت ترحم بها ما نحن فيه من انقطاع عن كل مُقوِّمات الحياة ، فالرحمة فى فجوة الجبل لن تكون من البشر ، الرحمة هنا لا تكون إلا من الله : ﴿ وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا (١٠) ﴾ [الكهف] أى : يَسِّر لنا طريقاً سديداً للخير وللحق .

إن هؤلاء الفتية المؤمنين حينما ألجأهم الكفر إلى ضيق الكهف تضرَّعوا واتجهوا إلى ربهم ، فهو وحده القادر على أن يُوسِّع عليهم هذا الضيق ، كما قال تعالى : ﴿ فَلَوْلا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا .. (٤٣) ﴾ [الأنعام]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا (١١) ﴾

يُقَال : ضُرِب الفسطاط على الأرض يعنى الخيمة ، أى : غُطِّيتْ الأرض بها بعد أنْ كانت فضاءً ، والضرب : أن تلمس شيئاً بشىء بشدة شريطة أن يكون المضروب به أقوى من المضروب ، وإلاّ كان الضارب ضارباً لنفسه .

لذلك ، فالشاعر عندما تكلم عن المعترضين على القدر قال :

أيا هَازِئاً مِنْ صُنُوفِ القَدَرِ بنفْسِكَ تُعنف لاَ بالقَدَر
وَيَا ضَارِباً صَخْرَةً بِالعَصَا ضَرَبْتَ العَصَا أَمْ ضَرَبْتَ الحَجَر ؟

فمعنى ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ .. (١١)﴾ [الكهف] أى : غطيناها بغطاء محكم يحجبهم عن العالم الخارجى ، والضرب على آذانهم هو الرحمة التى دعوا الله بها وطلبوها ؛ لأن الإنسان الذى يحمل الفأس مثلاً ويعمل بها إنْ تعب وأجهده العمل يقف بعض الوقت ليستريح ، فإنْ تعب من الوقوف قعد ، فإنْ تعب من القعود استلقى واضطجع ، فإنْ لم يسترح فلا يبقى إلا أن ينام ، ففى النوم تهدأ الأعصاب ، ويستريح الإنسان ، حتى مع الآلام فى أعنف الأمراض إذا نام المريض لا يشعر بشىء من الألم ؛ لذلك اختار لهم ربهم هذا الوضع ليريحهم به طوال فترة مُكْثهم فى الكهف .

فالحق سبحانه ـ إذن ـ هو الضارب ، والمضروب هو الآذان ، والضرب على الآذان هنا للرحمة لا للعذاب ؛ لأن الله تعالى أراد لهم أقصى درجات الراحة والنوم الهادىء الذى لا يُعكّر صَفْوه شىء ، والنوم هو الراحة التامة التى تطغى على الآلام العضوية فى الذات الإنسانية .

وقد اختار الحق سبحانه الضرب على آذانهم ؛ لأن حاسة السمع هى أول الحواس عملاً فى الإنسان ، وهى أول آلة إدراك تُؤدّى مهمتها فى الطفل ، كما قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨)﴾ [النحل]

هذه الحواس هى منافذ العلم والإدراك للإنسان ، فلو وضعتَ أصبعك أمام عين الطفل المولود تراه لا يرمش ؛ لأنه لا يرى إلا بعد ثلاثة إلى عشرة أيام ، أما لو صرختَ فى أُذنه فإنه ينتبه فحاسة السمع تؤدى مهمتها منذ ولادته . وكذلك فالأذن تمتاز أيضاً بأنها الإدراك الوحيد الذى لا يتعطل ولا يتوقف أثناء النوم لأن بها يتم الاستدعاء من النوم .

وهؤلاء الفتية دخلوا وأَوَوْا إلى الكهف ، وهو فَجْوة فى جبل فى صحراء وهى عُرْضة للعواصف والرياح وأصوات الحيوانات وأشياء كثيرة يمكن أن تزعج النائم ، فلو تركهم الخالق سبحانه فى نومهم هذا على طبيعتهم لأزعجتهم هذه الأصوات وأقلقتْ راحتهم ؛ لذلك عطّل حاسة السمع عندهم ، وبذلك استطاعوا أن يناموا كل هذه المدة .

ثم يقول تعالى : ﴿ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ﴾ [الكهف] ومعنى عدداً أى : سنين كثيرة ؛ لأن القليل لا يُعَدُّ لأنه معروف ، فإنْ ذكر العدّ فاعلم أنه للشىء الكثير ، كما تقول : فلان عنده مليون عَدّاً ونقداً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ[1] أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ﴿١٢﴾ ﴾

---

(١) الحزب : الجماعة من الناس فيهم قوة وصلابة يجمعهم غرض واحد ومصالح وآراء متشابهة . [القاموس القويم ـ مادة : حزب] ، قال القرطبى فى تفسيره (٥/٤٠٩٤) : « الظاهر من الآية أن الحزب الواحد هم الفتية إذ ظنوا لبثهم قليلاً . والحزب الثانى من أهل المدينةالذين بُعث الفتية على عهدهم ، حين كان عندهم التاريخ لأمر الفتية . وهذا قول الجمهور من المفسرين » .

(بَعَثْنَاهم) أى : أيقظناهم من نومهم الطويل ، وما داموا قد ناموا فالأمر إذن ليس موتاً إلا أنهم لما طالتْ مدة نومهم شبَّهها بالموت : ﴿لِنَعْلَمَ أَىُّ الْحِزْبَيْنِ .. (١٢)﴾ [الكهف] أى : الفريقين منهم ؛ لأنهم سأل بعضهم بعضاً عن مُدَّة لُبْثهم فقالوا : يوماً أو بعض يوم . أو : المراد الفريقان من الناس الذين اختلفوا فى تحديد مدة نومهم : ﴿أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا (١٢)﴾ [الكهف] أى : لنرى أىّ الفريقين سيُقدِّر مُدّتهم تقديراً صائباً . والأمد : هو المدة وعدد السنين .

والمتأمل فى الآيات السابقة يجد فيها مُلخَّصاً للقصة ومُوجَزاً لها ، وكأنها برقية سريعة بما حدث ، فأهل الكهف فتية مؤمنون فرُّوا بدينهم إلى كهف من الكهوف ، وضرب الله على آذانهم فناموا مدة طويلة ، ثم بعثهم الله ليعلم مَنْ يحصى مدة نومهم ، وهذه البرقية بالطبع لم تُعطنَا تفصيلاً لكل لقطات القصة ؛ لذلك تبدأ الآيات فى التفصيل فيقول تعالى :

﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى (١٣)﴾

(نَحْنُ) أى : الحق سبحانه وتعالى ، فهو الذى يقصُّ ما حدث بالحق ، فلو أن القاصَّ غير الله لتُوقِّع منه الخطأ أو النسيان ، أو ترك شىء من الأحداث لهَوىً فى نفسه ، إنما إنْ جاءك القصص من الله فهو الحق ، كما قال فى آية أخرى : ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ .. (٣)﴾ [يوسف]

إذن : هناك قصَص ليس بالحسن ، وهو القَصَص غير الدقيق .

فالقصَصُ القرآنى يضمن لك منتهى الدقة فى عرض الأحداث ، ويُصوّر لك كل اللقطات ، وكلمة قصة أو قَصَص تدلُّ على دقة التتبع ؛ لأنها من قصَّ الأثر أى : تتبَّعه وكان لهذه المهمة رجال معروفون بقصّاصى الأثر ، وهم الذين يتتبعون الواقع .

و (نَبَأَهُمْ) النبأ : هو الخبر العظيم .

ثم يقول تبارك وتعالى : ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى (١٣)﴾ [الكهف]

هذا هو تفصيل القصة بعد أنْ لخَّصها القرآن فى المذكرة والبرقية السابقة ، وكأن الحق سبحانه يقول لرسوله : لقد ذكر ناسٌ هذه القصة من قبل ، لكنها قُصَّتْ بغير الحق ، وغُيِّر فيها ، لكن قَصّنا لها هو القَصَص الحق الذى لا كذبَ فيه .

فحقيقة هؤلاء أنهم فتية آمنوا بالله ، وهذه قضيتهم التى ضَحَّوْا من أجلها ، فلما آمنوا بالله تولاّهم ونوَّر بصائرهم وربط على قلوبهم ، وزادهم إيماناً ، كما قال فى آية أخرى : ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧)﴾ [محمد]

وما أشبه هذه المسألة بالمعلِّم الذى يلمح أمارات النجابة والذكاء على أحد تلاميذه ، ويراه مُجيباً حريصاً على العلم فيُولِيه اهتمامه ، ويمنحه المزيد من المعلومات .

ونلاحظ هنا أن هؤلاء المؤمنين الذين ضَحَّوْا بكلِّ شىء وفرُّوا بدينهم ما زالوا فى مرحلة الشباب ، وهو مظنّة الانشغال بالدنيا والحِرْص على مُتعها ، أما هؤلاء فقد انشغلوا بدينهم منذ صِغَرهم ليكونوا قدْوة ومثَلاً للشباب المؤمن فى كل زمان ومكان ، فالفتَاء فى أهل الكهف : فتاء إيمان وفتاء عقيدة .

والحق سبحانه يقول :

﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا (١) ﴿١٤﴾ ﴾

والربط يعنى أن تربط على الشىء وتشدّ عليه لتحفظ ما فيه ، كما تربط القِرْبة حتى لا يسيل منها الماء ، وتربط الدابة حتى لا تنفلت ، وقد وردتْ مادة (ربط) فى القرآن كثيراً ، منها قوله تعالى فى قصة أم موسى : ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا .. ﴿١٠﴾ ﴾ [القصص]

أى : ربط على ما فى قلبها من الإيمان بالله الذى أوحى إليها أن تُلْقِىَ بولدها فى الماء ، ولولا أنْ ربط الله على قلبها وثبّتها لانطلقتْ خلف ولدها تصرخ وتنتحب وتُلفت إليه الأنظار ﴿ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا .. ﴿١٠﴾ ﴾ [القصص]

أى : تكشف عن الخُطّة التى أمرها الله بها لنجاة موسى عليه السلام ، وهكذا اطمأن قلب أم موسى ، وأصبح فؤادها فارغاً ـ أى : من الانفعالات الضارة ، ومعلوم أن القلب هو محلُّ الانفعالات ، بدليل ما يحدث فيه من اضطراب وزيادة ضربات وتدفُّق للدم عند الغضب مثلاً .

ولا يُسمَّى القلب فؤاداً إلا إذا توقّد بالمشاعر وتحرك بها ، وربط

---

(١) الشطط : الجور وتجاوز الحد فى كل شىء ، قال تعالى : ﴿ لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ ﴾ [الكهف] . أى : قولاً جائراً مجاوزاً للحد . [القاموس القويم ١/٣٤٩] .

الله على قلب أم موسى أحدث لها ضَبْطاً للشعور يحكم تصرفاتها فتأتى سليمة مُتمشّية مع الخطة المرادة .

ومن هنا نأمر الغاضب الذى تغلى الدماء فى عروقه بالهدوء وضبط النفس ؛ لأن الهدوء سيعينه على الحق ، ويُلجم جماح غضبه الذى لا تُحمد عُقباه ، ألا ترى التوجيه النبوى فى حال الغضب ؟ إنه ينصح بتغيير الوضع الذى أنت عليه ؛ لأن هذه العملية تحدث لديك نزوعية ، تصرف عنك الغضب .

وفى آية أخرى يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ (٤٣)﴾ [إبراهيم] أى : فارغة خالية ليس فيها شىء ؛ لأن الشىء إذا فَرَّغته من مُحتواه امتلأ بالهواء .

وهنا يقول الحق سبحانه فى أهل الكهف : ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ .. (١٤)﴾ [الكهف] لتظل بداخلها العقيدة والإيمان بالله لا تتزعزع ولا تُخرجها الأحداث والشدائد ، وهذا من زيادة الهدى الذى أخبرتْ به الآيةَ السابقة .

وقوله تعالى : ﴿إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ .. (١٤)﴾ [الكهف]

قاموا : القيام هنا دليل على مواجهتهم للباطل ووقوفهم فى وجهه ، وأن الباطل أفزعهم فهبُّوا للتصدِّى له بقولهم : ﴿رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ .. (١٤)﴾ [الكهف] ولا بُدَّ أنهم سمعوا كلاماً يناقض قولهم ، وتعرّضوا فى دعوتهم للحرب والاضطهاد ، فالآية تعطى صورة لفريقين : فريق الكفر الذى ينكر وجود الله أو يشرك به ، وفريق الإيمان الذى يُعلنها مُدوّية : ﴿رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ .. (١٤)﴾ [الكهف]

وإنْ كان فريق الكفر يدعو إلى عبادة آلهة من دون الله فإن فريق الإيمان يقول : ﴿لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَـٰهًا ﴿١٤﴾﴾ [الكهف] فإن ادّعَيْنَا إلهاً من دون الله ﴿لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾﴾ [الكهف] أى : فقد تجاوزنا الحدّ ، وبَعُدْنا عن الصواب .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿هَـٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَـٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾﴾

وهنا يخبر أهل الكهف الفتية المؤمنون عن قومهم أنهم اتخذوا من دون الله آلهة متعددة ، دون أن يكون لهم دليل أو حُجّة واضحة على صِدْق ما ذهبوا إليه من عبادة هذه الآلهة .

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾﴾ [الكهف] فافظع الظلم وأقبحه أنْ نفترىَ على الله الكذب ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾﴾

هذا حديث الفتية بعضهم إلى بعض : ما دُمْنا اعتزلنا أهل الكفر ، ونأيْنَا عن طريقهم ، وسلكنا مسلكَ الإيمان بالله الذى يسَّره الله لنا ، فهيا بنا إلى الكهف نلجأ إليه ونحتمى فيه فراراً بديننا ، ومخافة أن يفتننا القوم عن ديننا .

ويلفتنا هنا إلى أن فرار هؤلاء الفتية ليس إلى بلد آخر فيه مُتّسع للحياة ، بل إلى كهف ضيق فى جبل فى صحراء ، وليس به مُقوّم من مُقوّمات الحياة ؛ لذلك ينبهنا الحق سبحانه : إياك أن تقول : إن الكهف ضيق ، وكيف يعيشون فيه ؟ لأنهم مهاجرون إلى الله لاجئون إليه مُتوكّلون عليه .

لذلك قال بعدها : ﴿يَنشُرْ لَكُمْ .. (١٦)﴾ [الكهف] فالضيق يقابلُه البَسْط والسّعة ، لقد قالوا هذه الكلمة وهم واثقون فى رحمة الله معتقدون أن الذى هاجروا إليه لن يُسلمهم ولن يخذلهم ، وسوف يُوسِّع عليهم برحمته هذا الضيق ، وقد وَسَّعه الله عليهم فعلاً حين أنامهم ، ألاَ ترى النائم يربع فى الدنيا هنا وهناك لا تحدُّه حدود ؟

ومن هذه السعة ما حدث فى قصة نبى الله موسى ـ عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ـ حينما تبعه فرعون بجنوده حتى قال أتباعه : ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١)﴾ [الشعراء] ، فقد ضاق عليهم الخناق حيث البحر من أمامهم ، والعدو من خلفهم ، ولا مهربَ لهم فيما يرون من واقع الأمر . فماذا قال موسى لقومه فى هذا الموقف ؟ قال بملء فيه قولَة الواثق من نصر الله : ﴿كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢)﴾ [الشعراء]

فجاءه التأييد من ربه فى التوِّ واللحظة ، وفُرِّج عنه وعن أصحابه

ما يُلاَقون من ضيق المخرج ، فأوحى الله إليه : ﴿اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ .. (٦٣)﴾ [الشعراء]

كذلك هنا : ﴿يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ .. (١٦)﴾ [الكهف]

ثم يقول تعالى : ﴿وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا (١٦)﴾ [الكهف] والمراد بالمرفق جمع مرافق ، وهى مُقوّمات الحياة التى لا يستغنى عنها الإنسان ، فلما أنامهم الله أغناهم عن مرافق الحياة ، لأنهم إنْ ظلوا فى حال اليقظة فلا بُدَّ أنْ يحتاجوا إلى هذه المرافق .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ(١) عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ(٢) ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا (١٧)﴾

بعد أنْ ضرب الله على آذانهم فعصمهم من الأصوات التى تُزعجهم وتُقلق نومهم عصمهم أيضاً من ضوء الشمس ، وقد أثبتت الأبحاث خطرَ الأشعة خاصة على النائم ، وأن للظُّلمة مهمةً ، فبها تهدأ الأعصاب وترتاح الأعضاء ، والشمس خلْق من خلْق الله ، لها مَدارٌ ثابت وقانون لا يتخلّف ، كما قال تعالى : ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٣٣)﴾ [الأنبياء]

---

(١) تزاور عنه : مال وتنحّى وانحرف . أى : أن الشمس تميل وتنحرف عنهم لئلا تؤذيهم . [القاموس القويم ١/٢٩٢] .

(٢) قرض المكان : تركه وتجاوزه . أى : تتركهم الشمس وتتجاوزهم جهة اليمين فلا تؤذيهم الشمس بحرِّها . [القاموس القويم ٢/١١٣] .

ولكن الخالق سبحانه وتعالى خرق لهم نظام الشمس حتى لا يزعجهم ضوؤها فجعلها (تزاور) أى : تميل عند طلوعها عن الكهف ، ومنه الزُّور : أى الميل عن الحق ، وازورّ عن الشىء أى : مال عنه ، فكانت الشمس إذا طلعتْ تميل عن الكهف جهة اليمين .

﴿ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ .. ﴿١٧﴾ ﴾ [الكهف] والقرْض - كما هو معلوم - أنْ تعطى غيرك شيئاً يحتاج إليه ، فكأن الشمس تقرضهم وتسلفهم ، كونها لا تدخل عليهم عند غروبها ، وهذا أمر ليس من حقهم ، فكأنها تقرضهم إياه . ولا شكَّ أن هذه العملية مظهرٌ من مظاهر قدرة الله التى تصنع الشىء وضده .

ونلحظ أن الحق - سبحانه وتعالى - جعل الفعل للشمس فى تزاور وتقرضهم ، وكأنها تفعل ذلك من نفسها بعد أنْ ضبط الله تعالى حركتها على هذه الأفعال كما تضبط الآلة اليوم .

وقوله : ﴿ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ .. ﴿١٧﴾ ﴾ [الكهف] أى : فى الكهف ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ .. ﴿١٧﴾ ﴾ [الكهف] وما دامت هذه الأفعال للشمس آيةً من آيات الله ، ومعجزة من معجزاته تعالى ، فإياك أنْ تعترضَ : كيف تميل الشمس ؟ وكيف تُغيِّر اتجاهها ؟ لأن الخالق سبحانه خلق الخَلْق ، وأعطى لكل مخلوق قانونه الذى يسير به ، ومع ذلك لم يترك لكل مخلوق أنْ يفعل بقانونه ما يريد ، بل له سبحانه وتعالى قيُّومية على القانون ، تبطله إنْ شاء ، وتحركه إنْ شاء .

ثم يقول تعالى : ﴿ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ ﴾ [الكهف]

فقضية الهداية والإضلال قائمة من قديم ، ولا تزال ذيول هذه المعركة موجودة إلى الآن ، فهناك دائماً من يقول : إذا كان الله هو الهادى والمُضِل ، فلماذا يعذبنى إن ضللت ؟

وشاع هذا السؤال وأخذه المستشرقون والفلاسفة ، ويراد منه إيجاد مبرر للنفس العاصية غير الملتزمة ، ونقول لكل مجادل : لماذا قصرت الاعتراض على مسألة الضر والعذاب إن ضللت ؟ ولماذا لم تذكر الثواب إن أحسنت وآمنت ؟ إن اقتصارك على الأولى دون الثانية دليل على أن الهداية التى جاءت لك هى مكسب تركته وأخذت المسألة التى فيها ضرر ، ولا يقول ذلك إلا المسرفون على أنفسهم .

والهداية نوعان : هداية دلالة ، وهى للجميع ، للمؤمن والكافر ؛ لأن الحق سبحانه لم يدل المؤمن فقط ، بل يدل المؤمن والكافر على الإيمان به ، فمن يُقبل على الإيمان به ، فإن الحق تبارك وتعالى يجد فيه أهلاً للمعونة ، فيأخذ بيده ويعينه ، ويجعل الإيمان خفيفاً على قلبه ، ويعطى له طاقة لفعل الخير ، ويشرح له صدره وييسر له أمره .

فمن شاء الحق سبحانه هدايته أعطاه الهداية ، ومن شاء له الضلال زاده ضلالاً ، وقد بيّن أن من شاء هدايته يهتدى ، وهذه معونة من الله ، والكافر لا يهتدى ، وكذلك الظالم والفاسق ، لأنه سبحانه قد ترك كل واحد منهم لاختياره ، وهكذا يمنع الحق سبحانه عنهم هداية المعونة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ[1] وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ[2] لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾ ﴾

أى : لو أتيح لك النظر إليهم لخُيِّل إليك أنهم أيقاظٌ غير نائمين ذلك لأن ربهم سبحانه حفظهم على حال اليقظة وعلى هيئتها ، ثم أظهر فيهم آية أخرى من الإعجاز بأنْ يُقلِّبهم فى نومهم مرة ناحية اليمين ، وأخرى ناحية الشمال ، لتظلّ أجسامهم على حالها ، لا تأكلها الأرض .

ومعلوم أن الإنسان إذا قُدِّر له أنْ ينام فترة طويلة على سرير المرض يُصَاب بمرض آخر يُسمُّونه قرحة الفراش ، نتيجة لنومه المستمر على جانب واحد ـ عافانا الله وإياكم ـ وقد جعل لهم هذا التقليب ذات اليمين وذات الشمال على هيئة الإيقاظ .

وقوله : ﴿ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ.. ﴿١٨﴾ ﴾ [الكهف] ويبدو أنهم كانوا من الرعاة ، فتبعهم كلبهم وجلس مَادًا ذراعيْه بفناء الكهف أو على بابه ﴿ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾ ﴾ [الكهف] فقد ألقى الله مهابتهم والخوف منهم فى نفوس

---

(١) قال ابن عباس : لئلا تأكل الأرض لحومهم . قال أبو هريرة : كان لهم فى كل عام تقليبتان . وقيل : فى كل سنة مرة . وقال مجاهد : فى كل سبع سنين مرة . وقالت فرقة : إنما قُلّبوا فى التسع الأواخر ، وأما فى الثلثمائة فلا . وظاهر كلام المفسرين أن التقليب كان من فعل الله . [تفسير القرطبى ٥/٤١٠٠] .

(٢) الوصيد : فناء الكهف أو عتبته . [القاموس القويم ٢/٣٣٩] .

الناس ، فإذا ما اطلع عليهم إنسان خاف وولّى هارباً يملؤه الرعب ؛ لأن هيئتهم تُوحى بذلك ، حيث يتقلّبُون يميناً وشمالاً ، ومع ذلك لا يصحُو منهم أحد ، ولا يقوم منهم أحد طوال هذه المدة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ (١) هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ ﴾

قوله : (بعثناهم) أى : أيقظناهم من نومهم ؛ لأن نومهم الطويل الذى استغرق ثلاثمائة سنة وتسعاً أشبه الموت ، فقال (بَعَثْنَاهُمْ) ، والبعْثُ هنا لقضية خاصة بهم ، وهى أنْ يسأل بعضهم بعضاً عن مُدّة لُبْثهم فى الكهف ، وقد انقسموا فى سؤالهم هذا إلى فريقين الفريق الأول ﴿ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ .. ﴿١٩﴾ ﴾ [الكهف]

فَردَّ الفريق الآخر بما تقتضيه طبيعة الإنسان فى النوم العادى ، فقال : ﴿ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ .. ﴿١٩﴾ ﴾ [الكهف] فالإنسان لا يستطيع تقدير مدّة نومه بالضبط ، لكن المعتاد فى النوم أن يكون كذلك يوماً أو بعض يوم .

---

(١) الوَرِق : الدراهم المضروبة . والورِق : بكسر الراء : الفضة . [لسان العرب ـ مادة : ورق] .

وقد أخذ العلماء من هذا القول أنهم حين تساءلوا هذا السؤال لم يجدوا فى ذواتهم شيئاً يدلُّ على مرور زمن طويل ، حيث وجدوا أنفسهم على الحال التى ناموا عليها ، فلم يتغير مثلاً حالهم من الشباب إلى الشيخوخة ، ولم يتغير شعرهم مثلاً إلى البياض ؛ لذلك قالوا : لبثنا يوماً أو بعض يوم ، ولو وجدوا أنفسهم شيباً لقدَّروا الزمن المناسب لهذا الشيب .

وهذه وقفة المشدوه حين يُسْأل عن زمن لا يدرى مُدته ، إنه طويل عند الله إنما قصير عنده ، وهذا كقوله تعالى فى سورة البقرة : ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ[1] وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ .. (٢٥٩)﴾ [البقرة]

لقد حكم على مُدّة لُبْثه بيوم أو بعض يوم ؛ لأنه وجد نفسه على الحال التى عهدها لم يتغير منه شىء ، فكيف يتأتّى الصدق من الحق سبحانه فى قوله (مائة عام) والصدق فى قول العُزَيْر بيوم أو بعض يوم ؟

لا شكَّ أننا أمام آية من آيات الخالق سبحانه ، ومعجزة من معجزاته لا يقدر عليها إلا المالك للزمان وللمكان ، القابض للزمان ليوم أو بعض يوم ، الباسط له إلى مائة عام .

لذلك أظهر الخالق سبحانه فى هذه المعجزة الدليل على صدق

---

(١) سنه الطعام يسنه : تغيّر بعد مُضى زمن عليه . وتسنّه الطعام : تغير . [القاموس القويم ٣٣٢/١] .

القولين : ففى طعام العُزَير الذى ظلَّ على حاله طازجاً لم يتغير دليل على يوم أو بعض يوم ، وفى حماره الذى رآه عظاماً بالية دليل على المائة عام ، فسبحان الله الذى يجمع الشىء وضده فى آنٍ واحد .

ثم يقول تعالى حكايةً عنهم : ﴿قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ .. (١٩)﴾ [الكهف] وهو قَوْل الجماعة الذين أرادوا إنهاء الخلاف فى هذه المسألة ، فقالوا لإخوانهم : دعونا من هذه القضية التى لا تفيد ، واتركوا أمرها لله تعالى . ودائماً يأمرنا الحق سبحانه بأنْ ننقلَ الجدل من شىء لا ننتهى فيه إلى شىء ، ونُحوله للأمر المثمر النافع ؛ لذلك قالوا :

﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَـٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا (١٩)﴾ [الكهف]

والوَرِق يعنى العملة من الفضة ، فأرادوا أنْ يرسلوا أحدهم بما معهم من النقود ليشترى لهم من المدينة طعاماً ؛ لأنهم بمجرد أن استيقظوا انتهت حالتهم الاستثنائية ، وعادوا إلى طبيعتهم ؛ لذلك طلبوا الطعام ، لكن نلحظ هنا أن الجوع لم يحملهم على طلب مطلق الطعام ، بل تراهم حريصين على تزكية طعامهم واختيار أطيبه وأطْهره ، وأبعده عن الحرام .

وكذلك لم يَفُتْهم أنْ يكونوا على حذر من قومهم ، فَمنْ سيذهب منهم إلى هذه المهمة عليه أن يدخل المدينة خلْسة ، وأن يتلطف فى الأمر حتى لا يشعر به أحد من القوم ، ذلك لأنهم استيقظوا على الحالة التى ناموا عليها ، وما زالوا على حَذَر من قومهم يظنون أنهم يتتبعونهم ويبحثون عنهم ، ويسعَوْن للقضاء عليهم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾ ﴾

وهذا احتياط منهم للدين ، وحماية للعقيدة التى فَرُّوا بها . فإن يرجموكم فسينتصرون عليكم فى الدنيا ، إنما ستأخذون الآخرة ، وإن ردوكم إلى دينهم ، فلن تفلحوا فى الدنيا ولا فى الآخرة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ[1] لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾ ﴾

فى قوله تعالى ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا .. ﴿٢١﴾ ﴾ [الكهف] يقيم من أهل الكهف دليلاً على قيام الساعة والبعث بعد الموت ، فها أنتم ما زلْتم على قَيْد الحياة وفى سَعَة الدنيا ، ومع ذلك أنامكم الله هذه النَّوْمَةَ الطويلة ثم بعثكم ، وقد عُثِر عليهم ، وما زالت فيهم حياة .

ثم يقول تعالى : ﴿ إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ[2] فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا

---

(١) أعثره على الأمر : أطلعه عليه . قال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ .. ﴿٢١﴾ ﴾ [الكهف] . أى : جعلنا الناس يطلعون عليهم ويعرفون كهفهم وقصتهم . [القاموس القويم ٢/٧] .

(٢) قال عكرمة : كان منهم طائفة قد قالوا تبعث الأرواح ولا تبعث الأجساد فبعث الله أهل الكهف حجة ودلالة وآية على ذلك . وذكر غير واحد من السلف أنه كان قد حصل لأهل ذلك الزمان شك فى البعث وفى أمر القيامة . (تفسير ابن كثير ٣/٧٧) .

رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ .. (٢١) ﴾ [الكهف] حدث هذا التنازع من الجماعة الذين عثروا عليهم، ويبدو أنهم كانوا على مسْحة من الدين ، فأرادوا أنْ يحافظوا على هذه الآية الإلهية ، ويصحّ أنهم بمجرد أنْ عثروا عليهم قضى أجلهم فماتوا .

وهذه مسألة يجب أن يُؤرّخ لها ، وأن تخلد ؛ لذلك جعلوها مثلاً شَرُوداً للعالم كله لتُعرف قصة هؤلاء الفتية الذين ضَحَّوْا فى سبيل عقيدتهم وفَرُّوا بدينهم من سَعَة الحياة إلى ضيق الكهف ؛ ليكونوا مثلاً لكل أهل العقيدة ، ودليلاً على أن الله تعالى ينصر أهله ويدافع عنهم ويُخلِّد ذكراهم إلى قيام الساعة .

لذلك قال بعضهم لبعض : ﴿ ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا .. (٢١) ﴾ [الكهف] أى : مطلق البنيان ، فعارضهم آخرون بأن البناء يجب أن يكون مسجداً ﴿ قَالَ الَّذِينَ[1] غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ[2] عَلَيْهِم مَّسْجِدًا (٢١) ﴾ [الكهف] ليكون موضعاً للسجود لله وللعبادة ليتناسب مع هذه الآية العظيمة الخالدة .

ثم تحدَّث الحق سبحانه عن الاختلافات التى نشأت عن فضول الناس لمعرفة عدد أهل الكهف ، وما يتعلَّق بهم من تفصيلات هى فى حقيقتها عِلْم لا ينفع وجَهْل لا يضر ، فقال تعالى :

---

(١) حكى ابن جرير فى القائلين ذلك قولين : أحدهما : إنهم المسلمون منهم . والثانى : أهل الشرك منهم . قال ابن كثير فى تفسيره (٧٨/٣) : « الظاهر أن الذين قالوا ذلك هم أصحاب الكلمة والنفوذ » .

(٢) قال القرطبى فى تفسيره (٤١١٠/٥) : « تنشأ هنا مسائل ممنوعة وجائزة ، فاتخاذ المساجد على القبور والصلاة فيها والبناء عليها إلى غير ذلك مما تضمنته السنة من النهى عنه ممنوع لا يجوز . وروى الصحيحان عن عائشة أن أم حبيبة وأم سلمة ذكرتا كنيسة رأينها بالحبشة فيها تصاوير لرسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : « إن أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات بنوا على قبره مسجداً وصوروا فيه تلك الصور أولئك أشرار الخلق عند الله تعالى يوم القيامة » . لفظ مسلم .

﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾ (١)

لقد اختلف القوم فى عدد أهل الكهف ، منهم مَنْ قال : ثلاثة رابعهم كلبهم . ومنهم مَنْ قال : خمسة سادسهم كلبهم ، وعلَّق الحق سبحانه على هذا القول بأنه -(رجماً بالغيب) ؛ لأنه قَوْل بلا علْم ، مما يدلُّنا على خطئه ومخالفته للواقع . ومنهم مَنْ قال : سبعة وثامنهم كلبهم ، ولم يُعلِّق القرآن على هذا الرأى مما يدلُّ على أنه الأقرب للصواب .

ثم يأتى القول الفَصْل فى هذه المسألة : ﴿قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ .. ﴿٢٢﴾﴾ [الكهف] فلم يُبيِّن لنا الحق سبحانه عددهم الحقيقى ، وأمرنا أن نترك هذا لعلمه سبحانه ، ولا نبحث فى أمر لا طائل منه ، ولا فائدة من ورائه ، فالمهم أنْ يثبت أَصْل القصة وهو : الفتية الأشدّاء فى دينهم والذين فَرُّوا به وضَحَّوْا فى سبيله حتى لا يفتنهم أهل الكفر والطغيان ، وقد لجأوا إلى الكهف ففعل الله بهم ما فعل ، وجعلهم آيةً وعبرةً ومثَلاً وقدْوة .

---

(١) قيل : المراد بهم النصارى ، فإن قوماً منهم حضروا النبى ﷺ من نجران فجرى ذكر أصحاب الكهف فقالت اليعقوبية : كانوا ثلاثة رابعهم كلبهم . وقالت النسطورية : كانوا خمسة سادسهم كلبهم . وقال المسلمون : كانوا سبعة ثامنهم كلبهم . وقيل : هو إخبار عن اليهود الذين أمروا المشركين بمسألة النبى ﷺ عن أصحاب الكهف . ذكره القرطبى فى تفسيره (٥/٤١١٢) .

أما فرعيات القصة فهى أمور ثانوية لا تُقدّم ولا تُؤخّر ؛ لذلك قال تعالى بعدها : ﴿فَلا تُمَارِ فِيهِمْ إِلاَّ مِرَاءً ظَاهِرًا .. (٢٢)﴾ [الكهف] أى : لا تجادل فى أمرهم .

ثم يأتى فضول الناس ليسألوا عن زمن القصة ومكانها ، وعن أشخاصها وعددهم وأسمائهم ، حتى كلبهم تكلموا فى اسمه . وهذه كلُّها أمور ثانوية لا تنفع فى القصة ولا تضرُّ ، ويجب هنا أن نعلم أن القَصَص القرآنى حين يبهم أبطاله يبهمهم لحكمة ، فلو تأملتَ إبهام الأشخاص فى قصة أهل الكهف لوجدته عَيْن البيان لأصل القصة ؛ لأن القرآن لو أخبرنا مثلاً عن مكان هؤلاء الفتية لقال البعض : إن هذا الحدث من الفتية خاص بهذا المكان ؛ لأنه كان فيه قدر من حرية الرأى .

ولو حدد زمانهم لَقال البعض : لقد حدث ما حدث منهم ؛ لأن زمانهم كان من الممكن أن يتأتّى فيه مثل هذا العمل ، ولو حدد الأشخاص وعيَّنهم لقالوا : هؤلاء أشخاص لا يتكررون مرة أخرى .

لذلك أبهمهم الله لتتحقّق الفائدة المرجوّة من القصة ، أبهمهم زماناً ، وأبهمهم مكاناً ، وأبهمهم عدداً ، وأبهمهم أشخاصاً ليشيع خبرهم بهذا الوصف فى الدنيا كلها لا يرتبط بزمان ولا مكان ولا أشخاص ، فحمل راية الحق ، والقيام به أمر واجب وشائع فى الزمان والمكان والأشخاص ، وهذا هو عَيْن البيان للقصة ، وهذا هو المغزى من هذه القصة .

وانظر إلى قوله تبارك وتعالى : ﴿قَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ .. (٢٨)﴾ [غافر]

هكذا (رَجُلٌ مُؤمِنٌ) دون أن يذكر عنه شيئاً ، فالمهم أن الرجولة فى الإيمان ، أياً كان هذا المؤمن فى أىّ زمان ، وفى أىّ مكان ، وبأىّ اسم ، وبأىّ صفة .

كذلك فى قوله تعالى : ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ .. (١٠)﴾ [التحريم] ولم يذكر عنهما شيئاً ، ولم يُشخِّصهما ؛ لأن التشخيص هنا لا يفيد ، فالمهم والمراد من الآية بيانُ أن الهداية بيد الله وحده ، وأن النبى المرسَل من الله لم يستطع هداية زوجته وأقرب الناس إليه ، وأن للمرأة حريةً عَقَدية مُطْلقة .

و كذلك فى قوله :﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ .. (١١)﴾ [التحريم] ولم يذكر لنا مَنْ هى ، ولم يُشخِّصها ؛ لأن تعيُّنها لا يُقدِّم ولا يُؤخِّر ، المهم أن نعلم أن فرعونَ الذى ادَّعى الألوهية وبكل جبروته وسلطانه لم يستطع أنْ يحمل امرأته على الإيمان به .

إذن : العقيدة والإيمان أمر شخصىّ قلبى ، لا يُجبر عليه الإنسان ، وها هى امرأة فرعون تؤمن بالله وتقول : ﴿رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١١)﴾ [التحريم]

أما فى قصة مريم ، فيقول تعالى : ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ .. (١٢)﴾ [التحريم] فشخَّصها باسمها ، بل واسم أبيها ، لماذا ؟ قالوا : لأن الحدث الذى ستتعرَّض له حَدَثٌ فريد وشىء خاصٌّ بها لن يتكرر فى غيرها ؛ لذلك عيَّنها الله وعرَّفها ، أما الأمر العام الذى يتكرر ، فمن الحكمة أنْ يظلَّ مُبْهماً غير مرتبط بشخص أو زمان أو مكان ، كما فى قصة أهل الكهف ، فقد أبهمها الحق سبحانه لتكون مثالاً وقُدْوة لكل مؤمن فى كل زمان ومكان .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ ﴾

وتتجلى فى هذه الآية رحمة الله بالمحبوب محمد ﷺ فلم يُرِدْ سبحانه وتعالى أن يصدم رسوله بمسألة المخالفة هذه ، بل أعطاه ما أراد ، وأجابه إلى ما طَلَب من مسألة أهل الكهف ، ثم فى النهاية ذكَّره بهذه المخالفة فى أسلوب وَعْظ رقيق : ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ .. ﴿٢٤﴾ ﴾ [الكهف]

وقد سبق أنْ ذكرنا أنه ﷺ حينما سأله القوم عن هذه القصة قال لهم : سأجيبكم غداً ولم يَقُلْ : إن شاء الله . فلم يعاجله الله تعالى بالعتاب ، بل قضى له حاجته ، ثم لفتَ نظره إلى أمر هذه المخالفة ، وهذا من رحمة الله برسوله ﷺ .

كما خاطبه بقوله : ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ .. ﴿٤٣﴾ ﴾ [التوبة]

فقدَّم العفو أولاً وقرَّره ؛ لأن هذه المسألة منتهية ومعلومة للرسول ، ثم عاتبه بعد ذلك . كما لو طلب منك شخص عَوْناً أو مساعدة ، وقد سبق أنْ أساء إليك ، فمن اللياقة ألاَّ تَصدمه بأمر الإساءة ، وتُذكّره به أولاً ، بل اقْضِ له حاجته ، ثم ذكّره بما فعل .

والحق سبحانه يقول :

﴿ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾ ﴾

أى : على فَرْض أنك نسيت المشيئة ساعة البَدْء فى الفعل ، فعليك أن تعيدها ثانية لتتدارك ما حدث منك من نسيان فى بداية الأمر .

وقوله تعالى : ﴿وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾﴾ [الكهف] أى : يهدينى ويعيننى ، فلا أنسى أبداً ، وأن يجعل ذِكْره لازمة من لوازمى فى كل عمل من أعمالى فلا أبدأ عملاً إلا بقوْل : إنْ شاء الله .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴿٢٥﴾﴾

وهذه الآية تعطينا لقطةً من المذكرة التفصيلية التى أعطاها الله تعالى لرسوله ﷺ عن أهل الكهف ، وهى تُحدِّد عدد السنين التى قضاها الفِتْية فى كهفهم بأنها ثلاثمائة سنة ، وهذا هو عددها الفعلىّ بحساب الشمس .

لذلك ؛ فالحق سبحانه لم يَقُلْ ثلاثمائة وتسعاً ، بل قال : ﴿وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴿٢٥﴾﴾ [الكهف] ولما سمع أهل الكتاب هذا القول اعترضوا وقالوا : نعرف ثلاثمائة سنة ، ولكن لا نعرف التسعة ؛ ذلك لأن حسابهم لهذه المدة كان حساباً شمسياً .

ومعلوم أن الخالق سبحانه حينما خلق السموات والأرض قسَّم الزمن تقسيماً فلكياً ، فجعل الشمس عنواناً لليوم ، نعرفه بشروقها وغروبها ، ولما كانت الشمس لا تدلّنا على بداية الشهر جعل الخالق

سبحانه الشهر مرتبطاً بالقمر الذى يظهر هلالاً فى أول كل شهر ، وقد قال تعالى : ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ .. (٣٦)﴾ [التوبة]

فلو حسبتَ الثلاثمائة سنة هذه بالحساب القمرى لوجدتها ثلاثمائة سنة وتسعاً ، إذن : هى فى حسابكم الشمسى ثلاثمائة سنة ، وفى حسابنا القمرى ثلاثمائة وتسعاً . ونعرف أن السنة الميلادية تزيد عن الهجرية بأحد عشر يوماً تقريباً فى كل عام .

ومن حكمة الخالق سبحانه أن ترتبط التوقيتات فى الإسلام بالأهلة ، ولك أن تتصور لو ارتبط الحج مثلاً بشهر واحد من التوقيت الشمسى فى طقس واحد لا يتغير ، فإنْ جاء الحج فى الشتاء يظل هكذا فى كل عام ، وكم فى هذا من مشقة على مَنْ لا يناسبهم الحج فى فصل الشتاء . والأمر كذلك فى الصيام .

أما فى التوقيت القمرى فإن هذه العبادات تدور بمدار العام ، فتأتى هذه العبادات مرة فى الصيف ، ومرة فى الخريف ، ومرة فى الشتاء ، ومرة فى الربيع ، فيؤدى كل إنسان هذه العبادة فى الوقت الذى يناسبه ؛ لذلك قالوا : يا زمن وفيك كل الزمن .

والمتأمل فى ارتباط شعائر الإسلام بالدورة الفلكية يجد كثيراً من الآيات والعجائب ، فلو تتبعتَ مثلاً الأذان للصلاة فى ظل هذه الدورة لوجدت أن كلمة « الله أكبر » نداء دائم لا ينقطع فى ليل أو نهار من مُلْك الله تعالى ، وفى الوقت الذى تنادى فيه « الله أكبر » يُنادى آخر « أشهد ألا إله إلا الله » وينادى آخر « أشهد أن محمداً رسول الله » وهكذا دواليك فى منظومة لا تتوقف .

وكذلك فى الصلاة ، ففى الوقت الذى تصلى أنت الظهر ، هناك آخرون يُصلّون العصر ، وآخرون يُصلُّون المغرب ، وآخرون يُصلّون العشاء ، فلا يخلو كَوْنُ الله فى لحظة من اللحظات من قائم أو راكع أو ساجد . إذن : فلفظ الأذان وأفعال الصلاة شائعة فى كُلِّ أوقات الزمن ، وبكُلّ ألوان العبادة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ ﴾

الأسلوب فى قوله تعالى : ﴿أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ .. ﴿٢٦﴾﴾ [الكهف] أسلوب تعجُّب أى : ما أشدّ بصره ، وما أشدّ سمعه ؛ لأنه البصر والسمع المستوعب لكلِّ شىء بلا قانون[1] .

وقوله : ﴿مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾ [الكهف] كأن الحق سبحانه وتعالى يُطمئن عباده بأن كلامه حَقٌّ لا يتغير ولا يتبدل ؛ لأنه سبحانه واحد أحد لا شريك له يمكن أن يُغيّر كلامه .

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٤١١٨/٥) : « ويحتمل أن يكون المعنى « أبصر به » أى : بوحيه وإرشاده هداك وحجبك والحق من الأمور ، وأسمع به العالم ، فيكونان أمرين لا على وجه التعجب » .

ثم يقول الحق سبحانه لنبيه محمد ﷺ :

﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾﴾

أى بعد هذه الأسئلة التى سألك كفار مكة إياها ، وأخبرك الله بها فأجبتهم ، اعلم أن لك رباً رفيقاً بك ، لا يتخلّى عنك ولا يتركك لكيدهم ، فإنْ أرادوا أنْ يصنعوا لك مأزقاً أخرجك الله منه ، وإياك أنْ تظنَّ أن العقبات التى يقيمها خصومك ستُؤثّر فى أمر دعوتك .

وإنْ أبطأتْ نُصْرة الله لك فاعلم أن الله يريد أنْ يُمحِّص جنود الحق الذين يحملون الرسالة إلى أن تقوم الساعة ، فلا يبقى فى ساحة الإيمان إلا الأقوياء الناضجون ، فالأحداث والشدائد التى تمرُّ بطريق الدعوة إنما لتغربل أهل الإيمان حتى لا يصمد فيها إلا مَنْ هو مأمون على حَمْل هذه العقيدة .

وقوله : ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ .. ﴿٢٧﴾﴾ [الكهف] لأن كلمات الله لا يستطيع أحد أنْ يُبدِّلها إلا أنْ يكون معه سبحانه إله آخر ، فما دام هو سبحانه إلهاً واحداً لا شريك له ، فاعلم أن قوله الحق الذى لا يُبدّل ولا يُغيّر ﴿وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾﴾ [الكهف] أى : ملجأ تذهب إليه ؛ لأن حَسْبك الله وهو نِعْم الوكيل ، كما قال تعالى :

﴿أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ [العنكبوت]

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾

نزلتْ هذه الآية فى « أهل الصُّفَّة[1] » وهم جماعة من أهل الله انقطعوا للعبادة فتناولتهم ألسنة الناس واعترضوا عليهم ، لماذا لا يعملون ؟ ولماذا لا يشتغلون كباقى الناس ؟ بل وذهبوا إلى رسول الله ﷺ يقولون : نريد أن تلتفت إلينا ، وأن تترك هؤلاء المجاذيب ، فأنزل الله تعالى : ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم .. ﴿٢٨﴾﴾ [الكهف]

لذلك علينا حينما نرى مثل هؤلاء الذين نُسمِّيهم المجاذيب الذين انقطعوا لعبادة الله أن لا نحتقرهم ، ولا نُقلِّل من شأنهم أو نتهمهم ؛ لأن الله تعالى جعلهم موازين للتكامل فى الكون ، ذلك أن صاحب

---

(١) سبب نزول الآية : عن سلمان الفارسى قال : جاءت المؤلفة القلوب إلى رسول الله ﷺ عيينة بن حصن والأقرع بن حابس وذووهم ، فقالوا : يا رسول الله إنك لو جلست فى صدر المجلس ونحيت عنا هؤلاء وأرواح جبابهم يعنون سلمان وأبا ذر وفقراء المسلمين ، وكانت عليهم جباب الصوف لم يكن عليهم غيرها جلسنا إليك وحادثناك وأخذنا عنك ، فأنزل الله تعالى : ﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ .. ﴿٢٨﴾﴾ [الكهف] . حتى بلغ ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا .. ﴿٢٩﴾﴾ [الكهف] . يتهددهم بالنار ، فقام النبى ﷺ يلتمسهم حتى إذا أصابهم فى مؤخر المسجد يذكرون الله تعالى قال : الحمد لله الذى لم يمتنى حتى أمرنى أن أصبر نفسى مع رجال من أمتى ، معكم المحيا ومعكم الممات » أخرجه الواحدى النيسابورى فى « أسباب النزول » ص ١٧١ . وكذا القرطبى فى تفسيره (٥/٤١٢١) .

الدنيا الذى انغمس فيها وعاش لها وباع دينه من أجل دُنْياه حينما يرى هذا العابد قد نفض يديه من الدنيا ، وألقاها وراء ظهره ، وراح يستند إلى حائط المسجد مُمدّداً رجلاً ، لا تعنيه أمور الدنيا بما فيها .

ومن العجيب أن صاحب الدنيا هذا العظيم صاحب الجاه تراه إنْ أصابه مكروه أو نزلتْ به نازلة يُهْرَع إلى هذا الشيخ يُقبّل يديه ويطلب منه الدعاء ، وكأن الخالق سبحانه جعل هؤلاء المجاذيب ليرد بهم جماح أهل الدنيا المنهمكين فى دوامتها المغرورين بزهرتها .

وأيضاً ، كثيراً ما ترى أهل الدنيا فى خِدْمة هؤلاء العباد ، ففى يوم من الأيام قُمْنا لصلاة المغرب فى مسجد سيدنا الحسين ، وكان معنا رجل كبير من رجال الاقتصاد ، فإذا به يُخرِج مبلغاً من المال ويطلب من العامل صرفه إلى جنيهات ، فأتى العامل بالمبلغ فى صورة جنيهات من الحجم الصغير ، فإذا برجل الاقتصاد الكبير يقول له : لا ، لا بُدَّ من جنيهات من الحجم الكبير ؛ لأن فلاناً المجذوب على باب الحسين لا يأخذ إلا الجنيه الكبير ، فقلت فى نفسى : سبحان الله مجذوب على باب المسجد ويشغل أكبر رجل اقتصاد فى مصر ، ويحرص الرجل على إرضائه ويعطيه ما يريد .

ثم يقول تعالى : ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ .. (٢٨)﴾ [الكهف] أى : اجعل عينيك فيهم ، ولا تصرفها عنهم إلى غيرهم من أهل الدنيا ؛ لأن مَدد النظرة من رسول الله ﷺ زاد للمؤمن ﴿تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا..(٢٨)﴾[الكهف] لأنك إنْ فعلتَ ذلك وانصرفتَ عنهم ، فكأنك تريد زينة الحياة الدنيا وزخارفها .

وفى أمر الرسول ﷺ بملازمة أهل الصُّفَّة وعدم الانصراف عنهم إلى أهل الدنيا ما يُقوِّى هؤلاء النفر من أهل الإيمان الذين جعلوا دَيْدنهم وشاغلهم الشاغل عبادة الله والتقرُّب إليه .

لكن ، هل المطلوب أن يكون الناس جميعاً كأهل الصُّفَّة منقطعين للعبادة ؟ بالطبع لا ، فالحق سبحانه وتعالى جعلهم بين الناس قِلّة ، فى كل بلد واحد أو اثنان ليكونوا أُسْوة تُذكِّر الناس وتكبح جماح تطلّعاتهم إلى الدنيا .

ومن العجيب أن ترى البعض يدَّعى حال هؤلاء ، ويُوهِم الناس أنه مجذوب ، وأنه وَلِىٌّ نَصْباً واحتيالاً ، والشىء لا يُدَّعَى إلا إذا كانت من ورائه فائدة ، كالذى يدَّعى الطب أو يدَّعى العلم لما رأى من مَيْزات الطبيب والعالم . فلما رأى البعض حال هؤلاء المجاذيب ، وكيف أنهم عزفوا عن الدنيا فجاءتْ إليهم تدقُّ أبوابهم ، وسعى إليهم أهلها بخيراتها ، فضلاً عمَّا لهم من مكانة ومنزلة فى النفس ومحبة فى القلوب .

فلماذا – إذنْ – لا يدعون هذه الحال ؟ ولماذا لا ينعمون بكل هذه الخيرات دون أدنى مجهود ؟ وما أفسد على هؤلاء العباد حالَهم ، وما خاض الناس فى سيرتهم إلا بسبب هذه الطبقة الدخيلة المدَّعية التى استمرأتْ حياة الكسل والهوان .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا .. (٢٨) ﴾ [الكهف] لأنه لا يأمرك بالانصراف عن هؤلاء والالتفات إلى أهل الدنيا إلا مَنْ غفل عن ذكر الله ، أما مَن اطمأن قلبه إلى ذِكْرنا وذاق حلاوة

الإيمان فإنه لا يأمر بمثل هذا الأمر ، بل هو أقرب ما يكون إلى هؤلاء المجاذيب الأولياء من أهل الصُّفَّة ، بل وربما تراوده نفسه أن يكون مثلهم ، فكيف يأمر بالانصراف عنهم ؟

وقد أوضح النبى ﷺ الموقف من الدنيا فى قوله : « أوحى الله إلى الدنيا : مَنْ خدمنى فاخدميه ، ومَنْ خدمك فاستخدميه...»[(١)] فالدنيا بأهلها فى خدمة المؤمن الذى يعمر الإيمانُ قلبه ، وليس فى باله إلا الله فى كل ما يأتى أو يَدَع .

وقوله تعالى : ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ .. (٢٨)﴾ [الكهف] أى : أن هذا الذى يُحرِّضك على أهل الصُّفَّة ما غفل قلبه عن ذكرنا إلا لأنه سار خلف هواه ، فأخذه هواه وألهاه عن ذكر الله ، فما دام قد انشغل بشىء يوافق هواه فلن يهتم بمطلوب الله ، إنه مشغول بمطلوب نفسه ؛ لذلك يقول ﷺ : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبَعاً لما جئتُ به»[(٢)] .

فالمؤمن الحق سليم الإيمان مَنْ كان هواه ورغبته موافقة لمنهج الله ، لا يحيد عنه ، وقد قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ .. (٧١)﴾ [المؤمنون]

---

(١) أورده الشوكانى فى « الفوائد المجموعة فى الأحاديث الموضوعة » (ص ٢٣٨) وقال : « رواه الخطيب عن ابن مسعود . وفى إسناده : الحسين بن داود البلخى . والحديث موضوع » . قال الكنانى فى « تنزيه الشريعة » (٢/٣٠٣) : « تعقب بأن له شاهداً من حديث النعمان بن بشير . أخرجه البيهقى فى الشُّعَب وقال : لم نكتبه إلا بهذا الإسناد وفيهم مجاهيل » قال الخطيب فى تاريخ بغداد (٨/٤٤) : « الحسين بن داود ليس بثقة ، حديثه موضوع » .

(٢) أخرجه ابن أبى عاصم فى كتاب « السنة » (١/١٢) من حديث عبد الله بن عمرو ، وأورده ابن رجب الحنبلى فى « جامع العلوم والحكم » (ص٤٦٠) وضعَّفه .

وقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [الكهف] أى : كان أمره ضياعاً وهباءً ، فكأنه أضاع نفسه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا (١) وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ (٢) يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [الكهف] أى : قُل الحق جاء من ربكم ، واختار كلمة الرب ولم يَقُلْ من الله ، لأن الكل معتقد أن الرب هو الذى خلق ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [الزخرف]

وقوله : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ .. ﴿٢٥﴾ ﴾ [لقمان]

فمعنى : ﴿ مِن رَّبِّكُمْ .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [الكهف] أى : بإقراركم أنتم ، فالذى خلقكم وربّاكم وتعهدكم هو الذى نزَّل لكم هذا الحق و ﴿ رَّبِّكُمْ .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [الكهف] أى : ليس ربى وحدى ، بل ربكم وربّ الناس جميعاً .

---

(١) السرادق : الخيمة وكل ما أحاط بالشىء أو ما يمد فوق صحن البيت . والمعنى هنا أى أنهم لا نجاة لهم فقد أحاط بهم سرادق النار فلا يفلتون منه . [القاموس القويم ١/٣٠٩] .

(٢) قال ابن عباس : المهل ماء غليظ مثل دردى الزيت . وقال مجاهد : القيح والدم . وقال الضحاك : ماء أسود . وقال أبو عبيدة : هو كل ما أذيب من جواهر الأرض من حديد ورصاص ونحاس ، فتموج بالغليان ، فذلك المهل . [تفسير القرطبى ٥/٤١٢٤] .

والحق : هو الشىء الثابت ، وما دام من الله فلن يُغيِّره أحد ؛ لأن الذى يتغير كلامه هو الذى يقضى شيئاً ويجهل شيئاً مُقبلاً ، وبعد ذلك يُعدِّل ، فالحق من الله لأنه سبحانه لا يَخْفَى عليه شىء ولا يَعْزُب عن علمه شىء ، لذلك لا استدراك على حُكْم من أحكامه من أحد من خلقه .

فالربوبية عطاء ، فربك الذى خلقك وأمدَّك بالنعم ، وهو الذى يُربّيك كما يُربِّى الوالد ولده ؛ لذلك لم يعترض على الربوبية أحد ، أما الألوهية فمطلوبها تكليف : افعل كذا ، ولا تفعل كذا ، فخاطبهم بالربوبية التى فيها مصلحتهم ، ولم يخاطبهم بالألوهية التى تُقيِّد اختياراتهم والإنسان بطبعه لا يميل إلى ما يُقيّد اختياراته ؛ لذلك يلجأون إلى عبادة آلهة أخرى ؛ لأنها ليس لها مطلوبات .

فالذى يعبد الشمس أو الصنم أو غيره : بماذا أمرك معبودك ؟ وعَمَّا نهاك ؟ فما العبادة إلا طاعة عابد لمعبود ، إذن : فلهم أن يقولوا : نِعْمَ هذا الإله ، ونِعْم هذا الدين ؛ لأنه يتركنى بحريتى أفعل ما أريد .

لذلك ؛ نجد الذين يدَّعُون ألوهية ، أو يدعون نُبوّة دائماً يميلون إلى تخفيف المناهج ؛ لأنهم يعلمون أن المناهج السماوية تصعُب على الناس ؛ لأن فيها حَجْراً على حرية حركتهم وحرية اختياراتهم ، فلما ادَّعى مسيلمة النبوة رأى الناس تتبرم من الزكاة فأسقطها عنهم ، وكذلك لما ادعتّ سجاح[1] النبوة خففتْ الصلاة ، وإلا ،

---

(١) هى : سجاح بنت الحارث بن سويد التميمية ، من بنى يربوع ، متنبئة مشهورة ، كانت شاعرة أديبة عارفة بالأخبار ، ادعت النبوة بعد وفاة النبى ﷺ ، كان لها علم بالكتاب أخذته عن نصارى تغلب ، نزلت اليمامة واجتمعت بمسيلمة وتزوجها ، ثم بلغها مقتل مسيلمة ، فأسلمت وهاجرت إلى البصرة وتوفيت فيها ، وصلى عليها سمرة بن جندب والى البصرة لمعاوية عام ٥٥ هـ . [الأعلامَ للزركلى ٣/٧٨] .

فكيف سيجمعون الناس من حولهم ؟

وما أشبه مُدَّعى الأمس بمدعى اليوم الذين يبيعون الدين بعَرَضٍ من الدنيا ، فيُفْتون الناس بتحليل ما حرَّم الله ، مثل الاختلاط وغيره من القضايا حتى هان أمر الدين على الناس . والدين وإنْ كان فطرياً فى النفس الإنسانية إلا أن الإنسان يميل إلى مَنْ يُخفِّف عنه ، وتعجب حين ترى بعض المثقفين وحملة الشهادات يذهبون إلى الدجالين ويُصدِّقونهم ، وترى الواحد منهم يُكذِّب نفسه أنه على دين يريحه ، ويفعل فى ظله ما يريد .

إذن : ما دُمْتم مؤمنين بربوبية خلق وربوبية إمداد وإنعام ، فعليكم أن تؤمنوا بما جاء من ربكم ، كما نقول فى المثل : (اللى يأكل لقمتى يسمع كلمتى) ، ومع ذلك ورغم فضل الله ونعمه عليهم قُلْ لهم : لا جبرَ فى الإيمان ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ .. ﴿٢٩﴾﴾ [الكهف] لأن منفعة الإيمان عائدة عليكم أنتم .

وقد جاء فى الحديث القدسى[1] : « إنكم لن تملكوا نفعى فتنفعونى ، ولن تملكوا ضُرِّى فتضرونى ، ولو أن أوّلكم وآخركم ، وحيكم وميتكم ، وشاهدكم وغائبكم اجتمعوا على أتْقَى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك فى مُلْكى شيئاً ، ولو أن أولكم وآخركم ، وحيكم وميتكم ، وشاهدكم وغائبكم اجتمعوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئاً » .

« ولو أن أولكم وآخركم اجتمعوا فى صعيد واحد ، وسألنى كُلٌّ مسألته فأعطيتها له ما نقص ذلك مما عندى إلا كمِغْرز إبرة إذا

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه بنحوه (٢٤٩٥) ، وأحمد فى مسنده (٥/١٥٤ ، ١٧٧) من حديث أبى ذر رضى الله عنه .

غمسها أحدكم فى بحر ، وذلك أنِّى جواد واجد ماجد ، عطائى كلام وعذابى كلام ، إنما أمرى لشىء إذا أردتُه أنْ أقولَ له كُنْ فيكون » .

إذن : فائدة الإيمان تعود على المؤمن ، كما قال تعالى : ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا .. (٤٦)﴾ [فصلت] لكنى أحب لخَلْقى أن يكونوا دائماً على خير منى ، فأنا أعطيهم خير الدنيا ، وأحب أيضاً أن أعطيهم خير الآخرة .

جاءتْ هذه الآية بعد قوله تعالى : ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ .. (٢٨)﴾ [الكهف]

وكان خصوم الإسلام حينما يَرَوْنَ الدعوة تنتشر شيئاً فشيئاً يحاولون إيقافها ، لا من جهتهم بالعدوان على مَنْ يؤمن ، ولكن من جهته ﷺ ، فأرسلوا إليه وَفْداً ، قالوا : يا محمد إنّا بعثنا إليك لنُعْذرَ فيك ، لقد أدخلتَ على قومك ما لم يُدخلْه أحد قبلك ، شتمتَ آلهتنا وسفَّهْتَ أحلامنا وسبَبْت ديننا ، فإنْ كنت تريد مالاً جمعنا لك المال حتى تصير أغنانا ، وإنْ كنت تريد جاهاً سوَّدناكَ علينا ، وجعلناك رئيسنا ، وإنْ كنت تريد مُلْكاً ملكْناك .

فقال ﷺ : « والله ما بى ما تقولون ، ولكن ربى أرسلنى بالحق إليكم ، فإنْ أنتم أطعتُم فبها ، وإلاَّ فإنَّ الله ناصرى عليكم »[1] .

---

(١) أورده ابن هشام فى السيرة النبوية (١/٢٩٥ - ٢٩٧) ، أنه قد اجتمع ١٥ من كبار قريش عند الكعبة وأرسلوا إلى محمد ﷺ ليكلموه ، فعرضوا عليه الأموال والملك والشرف والجاه أو الطب إن كان له تابع من الجن ، فقال لهم ﷺ : « ما بى ما تقولون ، ما جئت بما جئت به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملْك عليكم ولكن الله بعثنى إليكم رسولاً ، وأنزل علىّ كتاباً .. فإن تقبلوا ما جئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة ، وإن تردوه علىّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم » .

وكانت هذه المحاولة بينهم وبينه ﷺ لعل الأمر حين يكون سراً يتساهل فيه رسول الله ، فلما لم يجدوا بُغْيتهم قالوا : نتوسل إليك بمَنْ يحب ، فربما خجل أنْ يقبلَ منا ونحن خصومه ، فلنرسل إليه مَنْ يحبه ، فذهبوا إلى عمه أبى طالب ، فلما كلَّمه عمه قال قولته المشهورة : « والله ، يا عَمِّ لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أتركَ هذا الأمر ما تركته ، حتى يُظهِره الله ، أو أَهْلِك دونه »(١)

فلما فشلت هذه المحاولة أيضاً أتَوْهُ من ناحية ثالثة ، فقالوا : ننتهى إلى أمر هو وسط بيننا وبينك : دَعْكَ من هؤلاء الفقراء ، واصْرِف وجهك عنهم ، ولا تربط نفسك بهم ، ووجِّه وجهك إلينا ، فأنزل الله : ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ .. (٢٨)﴾ [الكهف]

ثم بيَّن الحق سبحانه وتعالى أن الإسلام أو الدين الذى أنزله الله لا يأخذ أحكامه من القوم الذين أُنزِل عليهم ؛ لأن رسول الله إنما أُرسِلَ ليضع لهم موازين الحق ، ويدعو قومه إليها ، فكيف يضعون هم هذه الموازين ، فيأمرون رسول الله بأنْ يصرف وجهه عن الفقراء ويتوجّه إليهم ؟

لذلك قال : ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ .. (٢٩)﴾ [الكهف] لأنه بعثنى بالحق رسولاً إليكم ، وما جئت إلا لهدايتكم ، فإنْ كنتم تريدون

---

(١) أورده ابن هشام فى السيرة النبوية (١/٢٦٦) معزواً لابن إسحاق أن يعقوب بن عتبة ابن المغيرة بن الأخنس حدَّثه أن قريشاً عندما طلبوا من أبى طالب أن يكف محمداً ﷺ عنهم فقال لابن أخيه : يابن أخى إن قومك قد جاءونى ، فقالوا لى كذا وكذا للذى كانوا قالوا له : فأبْقِ علىّ وعلى نفسك ، ولا تُحمِّلنى من الأمر ما لا أطيق . فقال رسول الله ﷺ مقالته هذه . فقال أبو طالب : اذهب يا بن أخى ، فقل ما أحببت ، فو الله لا أسلمك لشىء أبداً .

توجيهى حسْب أهوائكم فقد انقلبتْ المسألة ، ودعوتكم لى أن أنصرف عن هؤلاء الذين يدعُون ربهم بالغداة والعشىّ وأتوجه إليكم ، فهذا دليل على عدم صدْق إيمانكم ، وأنكم لستم جادِّين فى اتباعى ؛ لذلك فلا حاجة بى إليكم .

ثم يقول تعالى : ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ .. (٢٩)﴾ [الكهف] أى : ادخلوا على هذا الأساس : أن كل حَقٍّ ينزل من الله ، لا أن آخذ الحق منكم ، ثم أردّه إليكم ، بل الحق الذى أرسلنى الله به إليكم ، وعلى هذا مَنْ شاء فليؤمن ومَنْ شاء فليكفر .

والأمر فى هذه الآية سبق أنْ أوضحناه فقلنا : إذا وجدنا أمراً بغير مطلوب فلنفهم أن الأمر استُعمل فى غير موضعه ، كما يقول الوالد لولده المهمل : العب كما تريد ، فهو لا يقصد أمر ولده باللعب بالطبع ، بل يريد تهديده وتأنيبه .

وهكذا فى : ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ .. (٢٩)﴾ [الكهف] وإلا لو أخذتَ الآية على إطلاقها لكانَ مَنْ آمن مطيعاً للأمر : ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن .. (٢٩)﴾ [الكهف] والعاصى أيضاً مطيع للأمر : ﴿وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ .. (٢٩)﴾ [الكهف] فكلاهما ـ إذن ـ مطيع ، فكيف تُعذِّب واحداً دون الآخر ؟

فالأمر هنا ليس على حقيقته ، وإنما هو للتسوية والتهديد ، أى : سواء عليكم آمنتم أم لم تؤمنوا ، فأنتم أحرار فى هذه المسألة ؛ لأن الإيمان حصيلته عائدة إليكم ، فالله سبحانه غنىّ عنكم وعن إيمانكم ، وكذلك خَلْق الله الذين آمنوا بمحمد هم أيضاً أغنياء عنكم ، فاستغناء الله عنكم مَسْحوب على استغناء الرسول ، وسوف ينتصر محمد وينتشر دين الله دونكم .

وقد أراد الحق سبحانه أن يصيح رسول الله ﷺ بالدعوة فى مكة ويجهر بها فى أُذن صناديد الكفر وعُتَاة الجزيرة العربية الذين لا يخرج أحد عن رأيهم وأمرهم ؛ لأن لهم مكانةً وسيادة بين قبائل العرب .

ولحكمة أرادها الحق سبحانه لم يأْتِ نصر الإسلام على يد هؤلاء ، ولو جاء النصر على أيديهم لقيل : إنهم أَلفُوا النصر وأَلفُوا السيادة على العرب ، وقد تعصَّبوا لواحد منهم لَيسُودوا به الدنيا كلها ، فالعصبية لمحمد لم تخلق الإيمان بمحمد ، ولكن الإيمان بمحمد خلق العصبية لمحمد .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا .. (٢٩)﴾ [الكهف]

والعذاب هنا لمن اختار الكفر ، لكن لماذا تُهوّل الآية وتُفخِّم أمر العذاب ؟ لأن الإعلام بالعقاب وتهويله وتفظيعه والإنذار به لا ليقع الناس فى موجبات العقاب ، بل لينتهوا عن الجريمة ، وينأوْا عن أسبابها ، إذن : فتفظيع العقاب وتهويله رحمة من الله بالعباد ؛ لأن خَوْف العذاب سيمنعهم من الجريمة .

ومعنى (أعتدنا) أى : أعددنا ، فالمسألة منتهية مُسْبقاً ، فالجنة والنار مخلوقة فعلاً ومُعدَّة ومُجهّزة ، لا أنها ستُعَدُّ فى المستقبل ، وقد أُعدَّتْ إعداد قادر حكيم ، فأعدَّ الله الجنة لتتسع لكل الخَلْق إنْ آمنوا ، وأعدّ النار لتتسع لكل الخلق إنْ كفروا ، فإنْ آمن بعض الخلق وكفر البعض ، فالذى آمن وَفّر مكانه فى النار ، والذى كفر وفَّر مكانه فى الجنة .

لذلك قال تعالى فى هذه المسألة : ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٧٢)﴾ [الزخرف]

إذن : فخَلْق الله تعالى للجنة وللنار أمر منضبط تماماً ، ولن يحدث فيهما أزمة أو زحام أبداً ، بل لكلٍّ مكانه المعدّ المخصّص .

وقوله تعالى : ﴿لِلظَّالِمِينَ .. (٢٩)﴾ [الكهف] والظلم أن تأخذ حقاً وتعطيه للغير ، وللظلم أشكال كثيرة ، أفظعها وأعظمها الإشراك بالله ، لأنك تأخذ حَقَّ الله فى العبادة وتعطيه لغيره ، وهذا قمة الظلم ، ثم يأتى الظلم فيما دون ذلك ، فيأخذ كل ظالم من العذاب على قَدْر ظُلْمه ، إلا أن يكون مشركاً . فهذا عذابه دائم ومستمر لا ينقطع ولا يفتُر عنه ، فإنْ ظلم المؤمن ظلماً دون الشرك فإنه يُعذَّب به ، ثم يُدخله الله الجنة ، إنْ لم يتُبْ ، وإنْ لم يغفر الله له .

وقوله تعالى : ﴿أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا .. (٢٩)﴾ [الكهف] السرادق ، كما نقول الآن : أقاموا السرادق أى : الخيمة . ومعنى سرادق : أى محيط بهم ، فكأن الله تعالى ضرب سرادقاً على النار يحيط بهم ويحجزهم ، بحيث لا تمتد أعينهم إلى مكان خالٍ من النار ؛ لأن رؤيته لمكان خَالٍ من النار قد تُوحى إليه بالأمل فى الخروج ، فالحق سبحانه يريد أنْ يؤيسَهم من الخروج .

ثم يقول تعالى : ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِى الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا (٢٩)﴾ [الكهف]

الاستغاثة : صَرْخة ألم من متألم لمن يدفع عنه ذلك الألم ، كما قال فى آية أخرى : ﴿مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ .. (٢٢)﴾ [إبراهيم] أى : حين تصرخون من العذاب لا أستطيع أنْ أزيل صراخكم ، وأنتم كذلك لا تزيلون صراخى .

فأهل النار حين يستغيثون من ألم العذاب (يُغَاثُوا) يتبادر إلى الذِّهْن أنهم يُغَاثُون بشىء من رحمة الله ، فتأتيهم نفحة من الرحمة أو

يُخفّف عنهم العذاب .. لا ﴿يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ .. (٢٩)﴾ [الكهف] أى : فإنْ طلبوا الغَوْث بماء بارد يخفف عنهم ألم النار ، فإذا بهم بماء كالمهل .

والمهْل هو عُكَارة الزيت المغلى الذى يسمونه الدُّرْدِىّ ، أو هو المذاب من المعادن كالرصاص ونحوه ، وهذا يحتاج إلى حرارة أعلى من غَلْى الماء ، وهكذا يزدادون حرارةً فوق حرارة النار ، ويُعذَّبون من حيث ينتظرون الرحمة .

وقوله تعالى هنا : (يُغَاثُوا) أسلوب تهكمىّ ؛ لأن القاعدة فى الأساليب اللغوية أنْ تخاطب المخاطب على مقتضى حاله ، فتهنئه حال فرحه ، وتعزيه حال حزنه بكلام موافق لمقتضى الحال ، فإنْ أخرجتَ المقتضى عن الحال الذى يطلبه ، فهذا ينافى البلاغة إلا إنْ أردتَ التهكُّمَ أو الاستهزاء .

إذن : فقوله تعالى عن الكفار : ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ .. (٢٩)﴾ [الكهف] تهكّم بهم ، لأن الكلام فيه خرج عن مقتضى الحال ، كما يقول الوالد لولده الذى أخفق فى الامتحان : مبارك عليك السقوط .

ومعنى : ﴿يَشْوِى الْوُجُوهَ .. (٢٩)﴾ [الكهف] أن الماء من شدة حرارته يشوى وجوههم ، قبل أن يدخل أجوافهم : ﴿بِئْسَ الشَّرَابُ .. (٢٩)﴾ [الكهف] أى : الذى يغاثون به ﴿وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا (٢٩)﴾ [الكهف] المرتفق هو الشىء الذى يضع الإنسان عليه مِرْفقه ليجلس مُستريحاً ، لكن بالله هل هناك راحة فى جهنم ؟

إذن : فهذه أيضاً من التهكّم بهم وتبكيتهم ، كما قال تعالى

مخاطباً جبابرة الدنيا وأعزّتها وأصحاب العظمة فيها ممَّنْ عَصَوْا الله : ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (٤٩)﴾ [الدخان]

والحق سبحانه وتعالى يتكلم فى هذه المسألة بأساليب متعددة ، منها استخدام كلمة (النُّزُل) وهو ما يُعد لإكرام الضيف ، كما فى قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً (١٠٧)﴾ [الكهف]

وقوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (٣١) نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ (٣٢)﴾ [فصلت]

فالذى أَعَدَّ هذا النُّزُل وهذه الضيافة هو الغفور الرحيم ، والذى يُعد نُزُلاً لضيفه يُعدّه على قَدْر غِناه وبَسْطة كرمه ، فما بالك بنُزل أعدّه الله لأحبابه وأوليائه ؟

وذيّل الآية بقوله : ﴿غَفُورٍ رَّحِيمٍ (٣٢)﴾ [فصلت] لأنه ما من مؤمن إلا وقد عمل سيئة ، أو همَّ بها ، وكأن الحق سبحانه يقول : إياك أنْ تذكرَ ما كان منك وأنت فى هذا النُّزُل الكريم ، فالله غفور لسيئتك ، رحيم بك ، يقبل توبتك ، ويمحو أثر سيئتك .

والحديث عن النُّزل هنا فى الجنة ، فهى محلُّ الإكرام والضيافة ، فإن استخدم فى النار فهو للتهكُّم والسخرية من أهلها ، كما قال تعالى : ﴿وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ (٩٢) فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ (٩٣)﴾ [الواقعة] فقد استخدم النزل فى غير مقتضاه .

بعد أن جاء الأمر الإلهى فى قوله تعالى : ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ .. (٢٩)﴾ [الكهف] أراد سبحانه أنْ يُبيّن حكم كُلٍّ من الاختيارين : الإيمان ، والكفر على طريقة اللَّفِّ والنشر[١] ، وهو أسلوب معروف فى العربية ، وهو أن تذكر عدة أشياء ، ثم تُورِد أحكامها حَسْب ترتيبها الأول ، أو تذكرها مُشوَّشة دون ترتيب .

ومن النوع الأول الذى يأتى فيه اللَّفُّ والنشْر على الترتيب قوله تعالى : ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ .. (٧٣)﴾ [القصص] أى : لتسكنوا فى الليل ، وتبتغوا من فضل الله فى النهار .

فالترتيب إذا كان الحكم الأول للمحكوم عليه الأول ، والحكم الثانى للمحكوم عليه الثانى وهكذا ، ومن ذلك قول الشاعر :

قَلْبِى وَجَفْنِى وَاللسان وخالقى

هذه أربع مُخْبر عنها ، فما قصتها وبماذا أخبرنا عنها ؟ يقول :

قَلْبِى وَجَفْنِى وَاللسَانُ وَخَالِقِى رَاضٍ وبَاكٍ شَاكِرٌ وغَفُورُ

فتكون على الترتيب : قلبى راضٍ ، وجفنى باكٍ ، ولسانى شاكر ، وخالقى غفور .

ومرة يأتى اللف والنشر على التشويش ودون ترتيب ثقةً بأن نباهةَ السامع سترُدُّ كل شىء إلى أصله[٢] كما فى الآية التى نحن

---

(١) اللف والنشر : هو أن يذكر شيئان أو أشياء ، إما تفصيلاً بالنص على كل واحد أو إجمالاً ، بأن يؤتى بلفظ يشتمل على متعدد ، ثم يذكر أشياء على عدد ذلك ، كل واحد يرجع إلى واحد من المتقدم ، ويفوّض إلى عقل السامع رد كل واحد إلى ما يليق به [الإتقان فى علوم القرآن ٣/٢٧٩ - ٢٨١] .

(٢) وذلك مثل قوله تعالى : ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (١٠٦) وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١٠٧)﴾ [آل عمران] .

بصددها ، فتلاحظ أن الحق سبحانه بعد أن قال : ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ .. (٢٩)﴾ [الكهف] فبدأ باختيار الإيمان ثم ذكر الكفر ، أما فى الحكم على كل منهما فقد ذكر حكم الكفر أولاً : ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا .. (٢٩)﴾ [الكهف] ثم ذكر بعده حكم المؤمنين : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً (٣٠)﴾ [الكهف]

وليكُنْ فى الاعتبار أن المتكلم رَبٌّ حكيم ، ما من حرف من كلامه إلا وله مغزى ، ووراءه حكمة ، ذلك أنه تعالى لما تكلّم عن الإيمان جعله اختياراً خاضعاً لمشيئة العبد ، لكنه تعالى رجّح أن يكونَ الإيمانُ أولاً وأنْ يسبق الكفر . أما حينما يتكلم عن حكم كل منهما ، فقد بدأ بحكم الكفر من باب أنْ « دَرْءَ المفسدة مُقدَّم على جَلْب المنفعة » .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾﴾

وهنا نلاحظ أن الحق سبحانه عطف على الإيمان العملَ الصالح ؛ لأن الإيمان هو العقيدة التى ينبع عن أصلها السلوك ، فلا جدوى من الإيمان بلا عمل بمقتضى هذا الإيمان ، وفائدة الإيمان أنْ تُوثّق الأمر أو النهى إلى الله الذى آمنتَ به ؛ لذلك جاء الجمع بين الإيمان والعمل الصالح فى مواضع عدّة من كتاب الله ، منها قوله تعالى : ﴿وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣)﴾ [العصر]

ذلك لأن المؤمنين إذا ما أثمر فيهم الإيمانُ العملَ الصالح فإنهم سيتعرضون ولا بُدّ لكثير من المتاعب والمشاق التى تحتاج إلى التواصى بالصبر والتواصى بالحق ، ولنا أسوة فى هذه المسألة بصحابة رسول الله ﷺ الذين تحمّلوا عِبء الدعوة وصبروا على الأذى فى سبيل إيمانهم بالله تعالى .

ثم يقول تعالى : ﴿إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً (٣٠)﴾ [الكهف]

نلاحظ أن (مَنْ) هنا عامة للمؤمن وللكافر ؛ لذلك لم يَقُل سبحانه : إنَّا لا نضيع أجر مَنْ أحسن الإيمان ؛ لأن العامل الذى يُحسِن العملَ قد يكون كافراً ، ومع ذلك لا يبخسه الله تعالى حقّه ، بل يعطيه حظه من الجزاء فى الدنيا .

فالكافر إن اجتهد وأحسن فى علم أو زراعة أو تجارة لا يُحرم ثمرة عمله واجتهاده ، لكنها تُعجَّل له فى الدنيا وتنتهى المسألة حيث لا حَظَّ له فى الآخرة .

ويقول تبارك وتعالى : ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا (٢٣)﴾ [الفرقان]

ويقول تعالى : ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ[1] عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا (١٨)﴾ [الإسراء]

ويقول تعالى : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩)﴾ [النور]

---

(١) العاجلة : الدنيا . والآجلة : الآخرة [لسان العرب ـ مادة : عجل] .

فهؤلاء قد استوفوا أجورهم ، وأخذوا حظّهم فى الدنيا ألواناً من النعيم والمدح والثناء ، وخُلِّدتْ ذكراهم ، وأقيمت لهم التماثيل والاحتفالات ؛ لذلك يأتى فى الآخرة فلا يجد إلا الحسرة والندامة حيث فُوجىء بوجود إله لم يكُنْ يؤمن به ، والإنسان إنما يطلب أجره ممَّنْ عمل من أجله ، وهؤلاء ما عملوا لله بل للإنسانية وللمجتمع وللشهرة ، وقد نالوا هذا كله فى الدنيا ، ولم يَبْقَ لهم شىء فى الآخرة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾ ﴾ (١)

(أُولَئكَ) أى : الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴿ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ .. ﴿٣١﴾ ﴾ [الكهف] الجنات رأينا منها صورة فى الدنيا ، وتُطلق إطلاقاً شرعياً وإطلاقاً لغوياً . أما الشرعى : فهو الذى نعرفه من أنها الدار التى أعدَّها الله تعالى لثواب المؤمنين فى الآخرة . أما المعنى اللغوى : فهى المكان الذى فيه زرع وثمار وأشجار تُوارِى مَنْ سار فيها وتستره ؛ ومادة الجيم والنون تدور كلها حول الاستتار والاختفاء فالجنون استتار العقل والجن مخلوقات لا ترى والجُنّة بالضم الدرع يستر الجسم عن المهاجم .. إلخ .

وقلنا : إن الحق سبحانه حينما يُحدِّثنا عن شىء غيبىّ يُحدِّثنا بما يوجد فى لغتنا من ألفاظ ، واللغة التى نتكلم بها ، يوجد المعنى أولاً

---

(١) السندس : رقيق الديباج ، وهوالحرير الذى يتلون ألواناً . [القاموس القويم ٣٣١/١] . والإستبرق : الديباج الغليظ وهو من الحرير الطبيعى ، ويصلح للشتاء لأنه مدفىء وللملابس الخارجية . [القاموس القويم ١٨/١] .

ثم يوُجَد اللفظ الدالّ عليه ، فإذا عرفنا أن هذا اللفظ موضوع لهذا المعنى ، فإنْ نُطِق اللفظ نفهم معناه . فإذا كانت الأشياء التى يُحدِّثنا الله عنها غيباً كما قال عنها رسول الله ﷺ : « فيها ما لا عين رأتْ ، ولا أذن سمعتْ ، ولا خطر على قلب بشر »[(١)] .

إذن : فمن أين نأتى بالألفاظ الدَّالة على هذه المعانى ونحن لم نعرفها ؟ لذلك يُعبِّر عنها الحق سبحانه بالشبيه لها فى لغتنا ، لكن يعطيها الوصف الذى يُميّزها عن جنة الدنيا ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ .. (١٥)﴾ [محمد]

ونحن نعرف النهر ، ونعرف الماء ، لكن يأتى قوله : (غير آسن) ليميز ماء الآخرة عن ماء الدنيا ، وكذلك فى : ﴿وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ .. (١٥)﴾ [محمد]

فالخمر فى الدنيا معروفة ؛ لكنها ليست لذة لشاربها ، فشاربها يبتلعها بسرعة ؛ لأنه لا يستسيغ لها طعماً أو رائحة ، كما تشرب مثلاً كوباً من العصير رشفة رشفة لتلتذ بطعمه وتتمتع به ، كما أن خمر الدنيا تغتال العقول على خلاف خمر الآخرة ؛ لذلك لما أعطاها اسم الخمر لنعرفها ميَّزها بأنها لذة ، وخَمْر الدنيا ليست كذلك ؛ لأن لغتنا لا يوجد بها الأشياء التى سيخلقها الله لنا فى الجنة ، فبها ما لا

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٨٢٤) وأحمد فى مسنده (٢/٤٦٦) وأبو نعيم فى الحلية (٢/٢٦٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، وتمامه : « أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » . وقد شرحه فضيلة الشيخ الشعراوى رحمه الله فى كتاب « الأحاديث القدسية » المجلد الأول ـ صفحة ٦٩ – ٨٥ .

عَيْن رأت ، ولا أذن سمعتْ ، والعين إدراكاتها أقلّ من إدراكات الأذن ؛ لأن العين تعطيك المشهد الذى رأيته فحسب ، أما الأذن فتعطيك المشهد الذى رأيته والذى رآه غيرك ، ثم يقول : « ولا خطر على قلب بشر » فوسَّع دائرة ما فى الجنة ، مما لا نستطيع إدراكه .

وكذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُصَفًّى .. (١٥) ﴾ [محمد]

ونحن نعرف العسل فميَّزه هنا بأنه مُصفّى ، ومعروف أن العسل قديماً كانوا يأخذونه من الجبال ، وكان يعلَقُ به الحصى والرمل ؛ لذلك مُيِّز عسل الجنة بأنه مُصفّى .

وكذلك فى قوله سبحانه : ﴿ سِدْرٍ مَّخْضُودٍ (٢٨) ﴾ [الواقعة] ونعرف سدر الدنيا ، وهو نوع من الشجر له شوك ، وليس كذلك سدْر الجنة ؛ لأنه سدر مخضود لا شوك فيه، ولا يُدْمِى يدك كسِدْر الدنيا .

وهنا ميَّز الله الجنة فى الآخرة عن جنات الدنيا ، فقال : ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ .. (٣١) ﴾ [الكهف] أى : إقامة دائمة لا تنتهى ولا تزول ، وليست كذلك جنات الدنيا ، فهَبْ أن واحداً يتمتع فى الدنيا بالدُّور والقصور فى الحدائق والبساتين التى هى جنة الدنيا ، فهل تدوم له ؟ إن جنات الدنيا مهما عَظُم نعيمها ، إما أنْ تفوتك ، وإما أنْ تفوتها .

والعَدْن اسم للجَنّة ، فهناك فَرْق بين المسكن والمسكن فى الجنة ، كما ترى حدائق عامة وحدائق خاصة ، فالمؤمن فى الجنة له مسكن خاص فى جنة عدن .

ويقول تعالى عن أنهار الجنة : ﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ .. (١٢) ﴾ [محمد] ، وفى آية أخرى يقول : ﴿ تَجْرِى تَحْتَهَا الأَنْهَارُ .. (١٠٠) ﴾ [التوبة]

ليعطينا صورتين لجريان الماء ، ففى قوله : ﴿تَجْرِى تَحْتَهَا الأَنْهَارُ .. (١٠٠)﴾ [التوبة] يدلُّ على أن الماء يأتيها من بعيد ، وقد تخشى أن يمنعه أحد عنك أنْ يَسُدَّه دونك ؛ لذلك يقول لك : اطمئن فالماء يجرى (من تحتها) أى : من الجنة نفسها لا يمنعه أحد عنك .

وفى هذه الآية كأنَّ الحق سبحانه وتعالى يعطينا إشارة لطيفة إلى أننا نستطيع أن نجعل لنا مساكن على صفحة الماء ، وأن نستغل المسطحات المائية فى إقامة المبانى عليها ، خُذْ مثلاً المسطحات المائية للنيل ، أو الريَّاح التوفيقى من القناطر الخيرية حتى دمياط لَوجدْتَ مساحات كبيرة واسعة يمكن بإقامة الأعمدة فى الماء ، واستخدام هندسة البناء أنْ نقيم المساكن الكافية لسُكْنى أهل هذه البلاد ، وتظل الأرض الزراعية كما هى للخُضْرة وللزرع ولِقُوتِ الناس .

ويمكن أن تُطبَّق هذه الطريقة أيضاً فى الريف ، فيقيم الفلاحون بيوتهم وحظائر مواشيهم بنفس الطريقة على الترع والمصارف المنتشرة فى بلادنا ، ولا نمس الرقعة الزراعية .

لقد هجمتْ الحركة العمرانية على الجيزة والدقى والمهندسين ، وكانت فى يوم من الأيام أراضى تغل كل الزراعات ، وتخدم تموين القاهرة . ولما استقدموا الخبراء الأجانب لتوسيع القاهرة توجهوا إلى الصحراء وأنشأوا مصر الجديدة ، ولم يعتد أحد منهم على شبر واحد من الأرض الزراعية ، بل جعلوا فى تخطيطهم رقعة خضراء لكل منزل .

إذن : فى الآية لفتة يمكن أنْ تحلَّ لنا أزمة الإسكان ، وتحمى لنا الرقعة الزراعية الضيقة .

ثم يقول تعالى : ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ .. (٣١)﴾ [الكهف] وقد يقول قائل : وما هذه الأساور من الذهب التى يتحلَّى بها الرجال ؟ هذه من الزخرف والزينة ، نراه الآن فى طموحات الإنسان فى زُخْرفية الحياة ، فنرى الشباب يلبسون ما يُسمَّى (بالانسيال) وكذلك أساور الذهب فى الآخرة زينة وزخرف ، وفى آية أخرى ، يقول تعالى : ﴿وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ .. (٢١)﴾ [الإنسان]

ومرة أخرى يقول : ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٣٣)﴾ [فاطر]

فالأساور إما من ذهب أو فضة أو لؤلؤ ؛ لذلك قال ﷺ عن هذه الحلية فى الآخرة أنها تبلغ ما بلغه الوضوء عند المؤمن[1] .

ونلحظ فى قوله تعالى : ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ .. (٣١)﴾ [الكهف] أن التحلية هنا للزينة ، وليست من الضروريات ، فجاء الفعل (يُحلَّوْنَ) أى : حلاَّهم غيرهم ولم يقل يتحلون ؛ لذلك لما تكلم بعدها عن الملبس ، وهو من الضروريات قال :

﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ .. (٣١)﴾ [الكهف]

فأتى بالفعل مبنياً للمعلوم ؛ لأن الفعل حدث منهم أنفسهم بالعمل ، أما الأولى فكانت بالفضل من الله ، وقد قُدم الفضل على العمل ، كما قال تعالى فى آية أخرى : ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا .. (٥٨)﴾ [يونس]

---

(١) أخرج أحمد فى مسنده (٣٧١/٢) ، ومسلم فى صحيحه (٢٥٠) ، والنسائى فى سننه (٩٣/١) أن أبا حازم قال : كنت خلف أبى هريرة وهو يتوضأ للصلاة وكان يغسل يديه حتى يبلغ إبطيه . فقلت : يا أبا هريرة ما هذا الوضوء ؟ فقال لى : يا بنى فروخ أنتم هاهنا ، لو علمت أنكم ها هنا ما توضأت هذا الوضوء ، سمعت خليلى ﷺ يقول : « تبلغ حلية المؤمن حيث يبلغ الوضوء »

أى : إياك أن تقول هـذا بعملى ، بل بفـضل الله وبرحمتـه ؛ لذلك نرى الرسـول ﷺ يقر بهذه الحـقيـقة ، فـيقول : « لن يدخـل أحدكم الجنة بعـمله ، قـالوا : ولا أنت يا رسـول الله ؟ قـال : ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمته »[1] .

ذلك لأنك لو نظرتَ إلى عـملك لوجدتَه بعد تكليـفك الذى كلفت به فى سنِّ البلوغ ، وقد عشْت طوال هـذه المدة ترتع فى نِعَم الله ورزقه دون أنْ يُكلِّفك بشىء ؛ لذلك مهـما قَدَّمْتَ لله تعـالى من طاعات ، فلن تفِى بما أنعم به عليك .

وما تفعله من طاعات إنمـا هو وفاء لحق الله ، فإذا أدخلناك الجنة كان فضلاً من الله عليك ، لأنك أخذتَ حقك سـابقاً ومُقدَّماً فى الدنيا ، لكنه قسم هنا فقال : ﴿يَلْبَسُونَ ..(٣١)﴾ [الكهف] أى : بما عملوا ، أما فى الزينة والتـحليـة فـقال : (يُحـلَّوْنَ) كالرجـل الذى يُجهِّـز ابنتـه للزواج ، فـيـأتى لهـا بضـروريات الحـياة ، ثم يـزيدها على ذلك من الكماليات وزُخْرف الحياة من نجف أو سَجَّاد أو خلافه .

واللباس من ضروريات الحياة التى امـتنّ الله بها على عباده ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿يَا بَنِى آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِى سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا .. (٢٦)﴾ [الأعراف] والريش : هو الكماليات الـتى يتخذها الناس للفَـخْفـخة والمـتعـة ، وهو ما زاد عن الضـروريات . والسُّندس : هو الحرير الرقيق ، والإستبرق : الحرير الغليظ السميك .

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٤٦٣) ، ومسلم فى صحيحه (٢٨١٦) عن أبى هريرة رضى الله عنه .

وقد وقف العلماء عند هذه الكلمة (الإستبرق) وغيرها من الكلمات غير العربية مثل : القسطاس ، وهى كلمات فارسية الأصل ، أو كلمة (آمين) التى نتخذها شعاراً فى الصلاة وأصلها يمنىّ أو حبشىّ . وقالوا : كيف يستخدم القرآن مثل هذه الألفاظ ، وهو قرآن عربى ؟

نقول : هل أدخل القرآن هذه الألفاظ فى لغة العرب ساعةَ نزل ، أم جاء القرآن وهى سائرة على ألسنة الناس يتكلمون بها ويتفاهمون ؟ لقد عرف العرب هذه الكلمات واستعملوها ، وأصبحت ألفاظاً عربية دارتْ على الألسنة ، وجرتْ مجرى الكلمات العربية .

ومن الكلمات التى دخلتْ العربية حديثاً استخدمت ككلمة عربية (بنك) ، وربما كانت أخفّ فى الاستعمال من كلمة (مصرف) ؛ لذلك أقرَّها مَجْمع اللغة العربية وأدخلها العربية .

إذن : فهذا القول يمكن أن يُقبَل لو أن القرآن جاء بهذه الألفاظ مجيئاً أولياً ، وأدخلها فى اللغة ولم تكُن موجودة ، لكن القرآن جاء ليخاطب العرب ، وما داموا قد فهموا هذه الألفاظ وتخاطبوا بها ، فقد أصبحت جُزْءاً من لغتهم .

ثم يقول تعالى : ﴿ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ .. (٣١) ﴾ [الكهف] الاتكاء : أن يجلس الإنسان على الجنب الذى يُريحه ، والأرائك : هى السُّرر التى لها حلْية مثل الناموسية مثلاً . ﴿ نِعْمَ الثَّوَابُ .. (٣١) ﴾ [الكهف] كلام منطقىّ : ﴿ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا (٣١) ﴾ [الكهف] أى : أن هذا هو مُقْتضى الحال فيها ، على خلاف ما أخبر به عن أهل النار : ﴿ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا (٢٩) ﴾ [الكهف]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ ﴾ (١)

وما زال الكلام موصولاً بالقوم الذين أرادوا أن يصرفوا رسول الله ﷺ عن الذين يدعُونَ ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ، وبذلك انقسم الناس إلى قسميْن : قسم مُتكبّر حريص على جاهه وسلطانه ، وقسم ضعيف مستكين لا جاهَ له ولا سلطان ، لكن الحق سبحانه يريد استطراق آياته استطراقاً يشمل الجميع ، ويُسوِّى بينهم .

لذلك ؛ أراد الحق سبحانه وتعالى أن يضرب لنا مثَلاً موجوداً فى الحياة ، ففى الناس الكافر الغنى والمؤمن الفقير ، وعليك أنْ تتأمل موقف كل منهما .

قوله تعالى : ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ .. ﴿٣٢﴾ ﴾ [الكهف] قلنا : إن الضرب معناه أن تلمس شيئاً بشىء أقوى منه بقوة تؤلمه ، ولا بُدّ أن يكون الضارب أقوى من المضروب ، إلا فلو ضربتَ بيدك شيئاً أقوى منك فقد ضربتَ نفسك ، ومن ذلك قول الشاعر :

---

(١) سبب نزول الآية : ورد فى نزول هذه الآية عدة أقوال ، منها :

– نزلت فى أخويْن من أهل مكة مخزوميين ، أحدهما مؤمن وهو أبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد زوج أم سلمة قبل النبى ﷺ . والآخر كافر وهو الأسود بن عبد الأسد ، وورث كل واحد منهما ٤ آلاف دينار ، فأنفق أحدهما ماله فى سبيل الله ، وطالب أخاه شيئاً فقال ما قال . قاله الكلبى وذكره الثعلبى والقشيرى .

– وقيل : هو مثل لعيينة بن حصْن وأصحابه مع سلمان وصهيب وأصحابه ، شبههم الله برجلين من بنى إسرائيل أخوينَ أحدهما مؤمن واسمه يهوذا . فى قول ابن عباس . وقال مقاتل : اسمه تمليخا . والآخر كافر واسمه قرطوش . وقد ذكر قصتهما بالتفصيل القرطبى فى تفسيره (٥/٤١٢٩ ، ٤١٣٠) .

وَيَا ضَارِباً بِعَصَاهُ الحَجَر ضربْتَ العَصَا أَمْ ضربْتَ الحجَر ؟

وضَرْب المثل يكون لإثارة الانتباه والإحساس ، فيُخرجك من حالة إلى أخرى ، كذلك المثَل : الشيء الغامض الذى لا تفهمه ولا تعيه ، فيضرب الحق سبحانه له مثلاً يُوضِّحه ويُنبِّهك إليه ؛ لذلك قال : ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً .. (٣٢)﴾ [الكهف]

وسبق أن أوضحنا أن الأمثال كلام من كلام العرب ، يردُ فى معنى من المعانى ، ثم يشيع على الألسنة ، فيصير مثلاً سائراً ، كما نقول : جود حاتم ، وتقابل أى جَوّاد فتناديه : يا حاتم ، فلما اشتهر حاتم بالجود أُطلِقَتْ عليه هذه الصفة . وعمرو بن معد اشتُهِر بالشجاعة والإقدام ، وإياس اشتُهِر بالذكاء ، وأحنف بن قيس اشتهر بالحلم . لذلك قال أبو تمام[1] فى مدح الخليفة :

إقْدامُ عَمْرٍو فى سَمَاحَةِ حَاتِم فى حِلْمِ أحنَفَ فِى ذَكَاءِ إياس

فأراد خصوم أبى تمام أن يُحقِّروا قوله ، وأن يُسقطوه من عين الخليفة ، فقالوا له : إن الخليفة فوق مَنْ وصفتَ ، وكيف تُشبِّه الخليفة بهؤلاء وفى جيشه ألفٌ كعمرو ، وفى خُزَّانه ألف كحاتم فكيف تشبهه بأجلاف العرب ؟ كما قال أحدهم : -

وَشبَّهه المدّاحُ فى البَاسِ والغِنَى بمَنْ لَوْ رآهُ كانَ أَصْغر خَادِمِ

فَفِى جيْشِه خَمْسُونَ أَلْفاً كعنْتَرٍ وَفِى خُزَّانه أَلْفُ حَاتِمِ

(١) هو : حبيب بن أوس الطائى ، ولد بقرية من قرى الشام (١٨٠ هـ) ، نشأ نشأة متواضعة ، حيث كان يعمل صبياً لحائك ، توفى عام ٢٣١ هـ عن ٥١ عاماً .

فألهمه الله الردَّ عليهم ، على نفس الوزن ونفس القافية ، فقال :

لاَ تُنكرُوا ضَرْبى لَهُ مَنْ دُونَه مثَلاً شرُوداً[1] فى النَّدَى وَالبَاس
فَاللهُ قَدْ ضَربَ الأقلّ لِنُوره مَثَلاً مِنَ المشْكَاةِ والنِّبْراسِ[2]

إذن : فالمثل يأتى ليُنبّه الناس ، وليُوضّح القضية غير المفهومة ، والحق تبارك وتعالى قال : ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا .. (٢٦)﴾ [البقرة]

ثم يعطينا القرآن الكريم أمثالاً كثيرة لتوضيح قضايا معينة ، كما فى قوله تعالى : ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٤١)﴾ [العنكبوت]

وكذا قوله تعالى عن نقض الوعد وعدم الوفاء به : ﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا .. (٩٢)﴾ [النحل]

ومنه قوله تعالى : ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِى اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ (١٧)﴾ [البقرة]

ومنه قوله تعالى مُصوِّراً حال الدنيا ، وأنها سريعة الزوال : ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا[3] تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا (٤٥)﴾ [الكهف]

---

(١) المثل الشرود : الخارج عن المألوف والعادة . والندى : السخاء والكرم . والباس : القوة والحرب .

(٢) النبراس : المصباح والسراج . والمشكاة : كوة فى جدار البيت ليست بنافذة ، وتُعرف فى قرانا بـ « الطاقة » مع نطق القاف همزة .

(٣) الهشيم : الحطب والخشب المحطم الذى تكسَّر . والهشيم : النبت اليابس المتكسر . وتهشَّم الشجر تهشماً إذا تكسر من يُبسه . [لسان العرب ـ مادة : هشم] .

فالمثل يُوضِّح لك الخفىّ بشىء جلىٍّ ، يعرفه كل مَنْ سمعه ، من ذلك مثلاً الشاعر[١] الذى أراد أنْ يصفَ لنا الأحدب فيُصوِّره تصويراً دقيقاً كأنك تنظر إليه :

قَصُرَتْ أَخَادعه[٢] وَغَاصَ قَذَالُه[٣] فكأنه مُتربِّصٌ أنْ يُصْفَعَا
وكأنما صُفِعْتَ قَفَاهُ مرةً وأَحسَّ ثانيةً لَهَا فتجمَّعَا

وهنا يقول الحق سبحانه : اضرب لهم يا محمد مثلاً للكفر إذا استغنى ، والفقير إذا رَضِى بالإيمان .

وقوله : ﴿رَّجُلَيْنِ .. ﴿٣٢﴾﴾ [الكهف] أى : هما مَحَلُّ المثل : ﴿جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾﴾[الكهف]

لكن ، هل هذا المثل كان موجوداً بالفعل ، وكان للرجلين وجود فعلىّ فى التاريخ[٤] ؟

نعم ، كانوا واقعاً عند بنى إسرائيل وهما براكوس ويهوذا ، وكان يهوذا مؤمناً راضياً ، وبراكوس كان مستغنياً ، وقد ورثا عن أبيهم ثمانية آلاف دينار لكل منهما ، أخذ براكوس نصيبه واشترى به أرضاً يزرعها وقَصْراً يسكنه وتزوج فأصبح له ولدان وحاشية ، أما يهوذا ،

---

(١) هو ابن الرومى على بن العباس بن جريج ، شاعر كبير من طبقة بشار والمتنبى ، رومى الأصل ، كانْ جده من موالى بنى العباس ، ولد ببغداد ٢٢١ هـ ونشأ بها ، ومات فيها مسموماً عام ٢٨٣ هـ عن ٦٢ عاماً . [الأعلام للزركلى ٤/٢٩٧] .

(٢) الأخادع : جمع الأخدع . وهو أحد عرقين فى جانبى العنق .

(٣) القذال : جماع مؤخّر الرأس من الإنسان . [لسان العرب ـ مادة : قذل] .

(٤) ذكر الماوردى فيما نقله عنه القرطبى فى تفسيره (٥/٤١٣١) : إن هذا مثل ضربه الله تعالى لهذه الأمة ، وليس بخبر عن حال متقدمة ، لتزهد فى الدنيا وترغب فى الآخرة ، وجعله زجراً وإنذاراً . قال القرطبى : « سياق الآية يدل على خلاف هذا ، والله أعلم » .

فقد رأى أنْ يتصدّق بنصيبه ، وأن يشترى به أرضاً فى الجنة وقصراً فى الجنة وفضَّل الحور العين والولدان فى جنة عدن على زوجة الدنيا وولدانها وبهجتها .

وهكذا استغنى براكوس بما عنده واغترَّ به ، كما قال تعالى : ﴿كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ (٧)﴾ [العلق]

وأول الخيبة أن تشغلك النعمة عن المنعم ، وتظن أن ما أنت فيه من نعيم ثمرةُ جهدك وعملك ، ونتيجة سعْيك ومهارتك ، كما قال قارون : ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي .. (٧٨)﴾ [القصص] فتركه الله لعلْمه ومهارته ، فليحرص على ماله بما لديه من علم وقوة : ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ ..(٨١)﴾ [القصص] ولم ينفعه ماله أو علمه .

إذن : هاتان صورتان واقعيتان فى المجتمع : كافر يستكبر ويستغنى ويستعلى بغناه ، ومؤمن قَنُوع بما قسم الله له .

وانظر إلى الهندسة الزراعية فى قوله تعالى : ﴿جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا (٣٢)﴾ [الكهف]

فقد علَّمنا الله تعالى أن نجعل حول الحدائق والبساتين سُوراً من النخيل ليكون سياجاً يصدُّ الهواء والعواصف ، وذكر سبحانه النخل والعنب وهى من الفاكهة قبل الزرع الذى منه القوت الضرورى ، كما ذكر من قبل الأساور من ذهب ، وهى للزينة قبل الثياب ، وهى من الضروريات .

وقوله : ﴿جَنَّتَيْنِ .. (٣٢)﴾ [الكهف] نراها إلى الآن فيمَنْ يريد أن

يحافظ على خصوصيات بيته ؛ لأن للإنسان مسكناً خاصاً ، وله عموميات أحباب ، فيجعل لهم مسكناً آخر حتى لا يطَّلع أحد على حريمه ؛ لذلك يسمونه السلاملك والحرملك .

وكذلك فى قوله تبارك وتعالى : ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَأٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ (١٥)﴾ [سبأ]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا (٣٣)﴾ (١)

أى : أعطتْ الثمرة المطلوبة منها ، والأُكُل : هو ما يُؤكل ، ونعرف أن الزراعات تتلاحق ثمارها فتعطيك شيئاً اليوم ، وشيئاً غداً ، وشيئاً بعد غد وهكذا .

﴿وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا .. (٣٣)﴾ [الكهف] كلمة (تظْلِم) تعطينا إشارة إلى عمل الخير فى الدنيا ، فالأرض وهى جماد لا تظلم ، ولا تمنعك حقاً ، ولا تهدر لك تعباً ، فإنْ أعطيتَها جهدك وعملك جادتْ عليك ، تبذر فيها كيلة تعطيك إردباً ، وتضع فيها البذرة الواحدة فتُغِلُّ عليك الآلاف .

إذن : فهى كريمة جوادة شريطة أن تعمل ما عليك من حَرْثٍ وبَذْر ورعاية وسُقْيا ، وقد تريحك السماء ، فتسقى لك .

---

(١) ذكر السيوطى فى الدر المنثور (٥/ ٣٩٠) أن يحيى بن أبى عمرو الشيبانى قال : نهر أبى فرطس نهر الجنتين . قال ابن أبى حاتم : وهو نهر مشهور بالرملة .

لذلك ، لما أراد الحق سبحانه أنْ يضرب لنا المثل فى مضاعفة الأجر ، قال : ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ .. (٢٦١)﴾ [البقرة]

فإذا كانت الأرض تعطيك بالحبة سبعمائة حبة ، فما بالك بخالق الأرض ؟ لا شك أن عطاءه سيكون أعظم ؛ لذلك قال بعدها : ﴿وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦١)﴾ [البقرة]

إذن : فالأرض لا تظلم ، ومن عدل الأرض أنْ تعطيك على قَدْر تعبك وكَدِّك فيها ، والحق سبحانه أيضاً يُقدِّر لك هذا التعب ، ويشكر لك هذا المجهود ، والنبى ﷺ لما رأى أحد الصحابة وقد تشققت يداه من العمل قال : « هذه يَدٌ يحبها الله ورسوله »[1] .

يحبها الله ورسوله ؛ لأنها تعبت وعملت لا على قَدْر حاجتها ، بل على أكثر من حاجتها ، عملتْ لها وللآخرين ، وإلا لو عمل كُلُّ عامل على قَدْر حاجته ، فكيف يعيش الذى لا يقدر على العمل ؟

إذن : فعلى أصحاب القدرة والطاقة أنْ يعملوا لما يكفيهم ، ويكفى العاجزين عن العمل ، وهَبْ أنك لن تتصدَّق بشىء للمحتاج ، لكنك ستبيع الفائض عنك ، وهذا فى حَدِّ ذاته نوعٌ من التيسير على الناس والتعاون معهم .

وما أشبه الأرض فى عطائها وسخائها بالأم التى تُجزِل لك العطاء

---

(١) عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من أمسى كالاً من عمل يديه أمسى مغفوراً له » قال الهيثمى فى المجمع (٦٣/٤) : « رواه الطبرانى فى الأوسط وفيه جماعة لم أعرفهم » وعزاه السيوطى فى الدرر المنتثرة (ص ٣٨٨) لابن عساكر ، وله أيضاً من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه .

إنْ بررْتَ بها ، وكذلك الأرض ، بل إن الأم بطبيعتها قد تعطيك دون مقابل وتحنو عليك وإنْ كنت جاحداً ، وكذلك الأرض ألاَ تراها تُخرج لك من النبات ما لم تزرعه أو تتعب فيه ؟ فكيف إذا أنت أكرَمتها بالبر ؟ لا شك ستزيد لك العطاء .

والحقيقة أن الأرض ليست أُمَّنا على وجه التشبيه ، بل هى أُمّنا على وجه الحقيقة ؛ لأننا من ترابها وجزء منها ، فالإنسان إذا مرض مثلاً يصير ثقيلاً على كل الناس لا تتحمله وتحنو عليه وتزيل عنه الأذى مثل أمه ، وكذلك إنْ مات وصار جيفة يأنف منه كل أخ مُحب وكل قريب ، فى حين تحتضنه الأرض ، وتمتصّ كل ما فيه ، وتستره فى يوم هو أحوج ما يكون إلى السَّتْر .

ثم يقول تعالى : ﴿وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الكهف] ذلك لأن الماء هو أَصْل الزرع ، فجعل الله للجنتين ماءً مخصوصاً يخرج منهما ويتفجر من خلالهما لا يأتيهما من الخارج ، فيحجبه أحد عنهما .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾﴾

أى : لم يقتصر الأمر على أنْ كان له جنتان فيهما النخيل والأعناب والزرع الذى يُؤتى أُكُله ، بل كان له فوق ذلك ثمر أى : موارد أخرى من ذهب وفضة وأولاد ؛ لأن الولد ثمرة أبيه ، وسوف يقول لأخيه بعد قليل : أنا أكثر منك مالاً وأعزُّ نفراً .

ثم تدور بينهما هذه المحاورة : ﴿فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا (٣٤)﴾ [الكهف]

دليل على أن ما تقدم ذِكْره من أمر الجنتين وما فيهما من نعَم دَعَتْهُ إلى الاستعلاء هو سبب القول (لِصَاحِبِهِ) ، والصاحب هو : مَنْ يصاحبك ولو لم تكن تحبه (يُحاوِرُه) أى : يجادله بأن يقول أحدهما فيرد عليه الآخر حتى يصلوا إلى نتيجة . فماذا قال صاحبه ؟ قال : ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً .. (٣٤)﴾ [الكهف] يقصد الجنتين وما فيهما من نعم ﴿وَأَعَزُّ نَفَرًا (٣٤)﴾ [الكهف] داخلة فى قوله : ﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ (٣٤)﴾ [الكهف] وهكذا استغنى هذا بالمال والولد .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا (٣٥)﴾

عرفنا أنهما جنتان ، فلماذا قال : ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ .. (٣٥)﴾ [الكهف] ؟ نقول : لأن الإنسان إنْ كان له جنتان فلنْ يدخلهما معاً فى وقت واحد ، بل حَالَ دخوله سوف يواجه جنةً واحدة ، ثم بعد ذلك يدخل الأخرى .

وقوله : ﴿وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ .. (٣٥)﴾ [الكهف] قد يظلم الإنسان غيره ، لكن كيف يظلم نفسه هو ؟ يظلم الإنسان نفسه حينما يُرخِى لها عنان الشهوات ، فيحرمها من مشتهيات أخرى ، ويُفوِّت عليها ما هو أبقى وأعظم ، وظلم الإنسان يقع على نفسه ؛ لأن النفس لها جانبان : نفسٌ تشتهى ، ووجدان يردع بالفطرة .

فالمسألة ـ إذن ـ جدل بين هذه العناصر ؛ لذلك يقولون : أعدى أعداء الإنسان نفسه التى بين جنبيه ، فإنْ قلت : كيف وأنا ونفسى شىء واحد ؟ لو تأملتَ لوجدتَ أنك ساعة تُحدِّث نفسك بشىء ثم تلوم نفسك عليه ؛ لأن بداخلك شخصيتين : شخصية فطرية ، وشخصية أخرى استحوازية شهوانية ، فإنْ مَالتْ النفس الشهوانية أو انحرفتْ قوَّمتها النفس الفطرية وعَدلَت من سلوكها .

لذلك قلنا : إن المنهج الإلهى فى جميع الديانات كان إذا عَمَّتْ المعصية فى الناس ، ولم يَعُدْ هناك مَنْ ينصح ويرشد أنزل الله فيهم رسولاً يرشدهم ويُذكِّرُهم ، إلا فى أمة محمد ﷺ ؛ لأنه سبحانه حَمَّلهم رسالة نبيهم ، وجعل هدايتهم بأيديهم ، وأخرج منهم مَنْ يحملون راية الدعوة إلى الله ؛ لذلك لن يحتاجوا إلى رسول آخر وكان ﷺ خاتم الأنبياء والرسل .

وكأنه سبحانه يطمئننا إلى أن الفساد لن يَعُمّ ، فإنْ وُجِد من بين هذه الأمة العاصون ، ففيها أيضاً الطائعون الذين يحملون راية الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وهذه مسألة ضرورية ، وأساسٌ يقوم عليه المجتمع الإسلامى .

ثم يقول تعالى : ﴿قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَـٰذِهِ أَبَدًا (٣٥)﴾ [الكهف]

فهل معنى هذا أنه ظالم لنفسه بالدخول ؟ لا ، لأنها جنتُه يدخلها كما يشاء ، إنما المراد بالظلم هنا ما دار فى خاطره ، وما حَدَّث نفسه به حالَ دخوله ، فقد ظلم نفسه عندما خطر بباله الاستعلاء بالغنَى ، والغرور بالنعمة ، فقال : ما أظنُّ أنْ تبيدَ هذه النعمة ، أو تزول هذه الجنة الوارفة أو تهلك ، لقد غَرَّهُ واقع ملموس أمام عينيه استبعد معه

أن يزول عنه كل هذا النعيم ، ليس هذا وفقط ، بل دعاه غروره إلى أكثر من هذا فقال :

﴿ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ ﴾

هكذا أطلق لغروره العنان ، وإنْ قُبلَتْ منه : ﴿ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ ﴾ [الكهف] فلا يُقبَل منه ﴿ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً .. ﴿٣٦﴾ ﴾ [الكهف] لذلك لما أنكر قيام الساعة هزَّته الأوامر الوجدانية ، فاستدرك قائلاً : ﴿ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي .. ﴿٣٦﴾ ﴾ [الكهف] أى : على كل حال إنْ رُددتُ إلى ربى فى القيامة ، فسوف يكون لى أكثر من هذا وأعظم ، وكأنه ضمن أن الله تعالى أعدَّ له ما هو أفضل من هذا .

ونقف لنتأمل قَوْل هذا الجاحد المستعلى بنعمة الله عليه المفتون بها : ﴿ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي .. ﴿٣٦﴾ ﴾ [الكهف] حيث يعرف أن له رباً سيرجع إليه ، فإنْ كنت كذوباً فكُنْ ذَكُوراً ، لا تُناقض نفسك ، فما حدثَ منك من استعلاء وغرور وشكٍّ فى قيام الساعة يتنافى وقولك (ربِّى) ولا يناسبه .

و (منقلَباً) أى : مرجعاً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ ﴾ (١)

---

(١) النطفة : ماء الرجل أو المرأة الذى يُخلق منه الولد . [القاموس القويم ٢/٢٧١] . والنطفة : القليل من الماء . قال ابن منظور فى [لسان العرب ـ مادة : نطف] : « وبه سُمِّى المنىُّ نطفة لقلته » .

هنا يردُّ عليه صاحبه المؤمن مُحَاوراً ومُجادلاً ليجُلِّىَ له وَجْه الصواب :- ﴿أَكَفَرْتَ بِالَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ .. (٣٧)﴾ [الكهف] أى : كلامك السابق أنا أنا ، وما أنت فيه من استعلاء وإنكار ، أتذكر هذا كله ولا تذكر بدايتك ومنشأك من تراب الذى هو أصل خَلْقك ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ .. (٣٧)﴾ [الكهف] وهى أصل التناسل ﴿ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً (٣٧)﴾ [الكهف] أى : كاملاً مُسْتوياً (ملو هدومك) .

و ﴿سَوَّاكَ .. (٣٧)﴾ [الكهف] التسوية: هى إعداد الشىء إعداداً يناسب مهمته فى الحياة ، وقلنا : إن العود الحديد السَّوىّ مستقيم ، والخطاف فى نهايته أعوج ، والاعوجاج فى الخطاف هو عَيْن استقامته واستواء مهمته ؛ لأن مهمته أن نخطف به الشىء ، ولو كان الخطاف هذا مستقيماً لما أدَّى مهمته المرادة .

والهمزة فى ﴿أَكَفَرْتَ .. (٣٧)﴾ [الكهف] ليست للاستفهام ، بل هى استنكار لما يقوله صاحبه ، وما بدر منه من كُفْر ونسيان لحقيقة أمره وبداية خَلْقه .

والتراب هو أَصْل الإنسان ، وهو أيضاً مرحلة من مراحل خَلْقه ؛ لأن الله تعالى ذكر فى خلق الإنسان مرة (من ماء)[١] ومرة (من تراب)[٢] ومرة (من حمأ مسنون)[٣] ومرة (من صلصال كالفخار)[٤] .

لذلك يعترض البعض على هذه الأشياء المختلفة فى خَلْق الإنسان ، والحقيقة أنها شىء واحد ، له مراحل متعددة انتقالية ، فإنْ أضفْتَ الماء للتراب صار طيناً ، فإذا ما خلطْتَ الطين بعضه ببعض

---

(١) ذلك قوله تعالى : ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ (٨)﴾ [السجدة] .

(٢) ذلك فى قوله تعالى : ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ .. (٥٩)﴾ [آل عمران] ، وقوله : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ .. (٢٠)﴾ [الروم] .

(٣) وذلك قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٢٦)﴾ [الحجر] .

(٤) يقول تعالى : ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ (١٤)﴾ [الرحمن] .

صار حمأ[1] مسنوناً ، فإذا تركته حتى يجفّ ويتماسك صار صلْصَالاً ، إذن : فهى مرحليات لشىء واحد .

ثم يقول الحق سبحانه أن هذا المؤمن قال :

﴿ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ ﴾

قوله: ﴿ لَكِنَّا .. ﴿٣٨﴾ ﴾ [الكهف] أى : لكن أنا ، فحذفت الهمزة وأُدغمت النون فى النون . ولكن للاستدراك ، المؤمن يستدرك على ما قاله صاحبه : أنا لستُ مثلك فيما تذهب إليه ، فإنْ كنت قد كفرتَ بالذى خلقك من تراب ، ثم من نطفة ، ثم سوَّاك رجلاً ، فأنا لم أكفر بمَنْ خلقنى ، فقَوْلى واعتقادى الذى أومن به : ﴿ هُوَ اللَّهُ رَبِّى .. ﴿٣٨﴾ ﴾ [الكهف]

وتلاحظ أن الكافر لم يَقُلْ : الله ربى ، إنما جاءتْ ربى على لسانه فى معرض الحديث ، والفرْق كبير بين القولين ؛ لأن الربّ هو الخالق المتولّى للتربية ، وهذا أمر لا يشكّ فيه أحد ، ولا اعتراض عليه ، إنما الشكّ فى الإله المعبود المطاع ، فالربوبية عطاء ، ولكن الألوهية تكليف ؛ لذلك اعترف الكافر بالربوبية ، وأنكر الألوهية والتكليف .

ثم يؤكد المؤمن إيمانه فيقول :﴿ وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّى أَحَدًا ﴿٣٨﴾ ﴾[الكهف]

ولم يكتفِ المؤمن بأن أبانَ لصاحبه ما هو فيه من الكفر ، بل أراد أنْ يُعدّى إيمانه إلى الغير ، فهذه طبيعة المؤمن أن يكون حريصاً على هداية غيره ، لذلك بعد أنْ أوضح إيمانه بالله تعالى أراد أن يُعلِّم

---

(١) الحمأ والحمأة : الطين الأسود . والمسنون : المصبوب فى قالب إنسانى أو مُصوّر بصورة إنسان أو طين كالفخار صالح للتصوير والصقل . [القاموس القويم ١/٣٣١] .

صاحبه كيف يكون مؤمناً ، ولا يكمُل إيمان المؤمن حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، وأيضاً من العقل للمؤمن أن يحاول أن يهدى الكافر ؛ لأن المؤمن صُحح سلوكه بالنسبة للآخرين ، ومن الخير للمؤمن أيضاً أن يُصحِّح سلوك الكافر بالإيمان .

لذلك من الخير بدل أنْ تدعوَ على عدوك أن تدعو له بالهداية ؛ لأن دعاءك عليه سيُزيد من شقائك به ، وها هو يدعو صاحبه ، فيقول :

﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ ﴾

يريد أنْ يُعلمه سبيل الإيمان فى استقبال النعمة ، بأنْ يردَّ النعم إلى المنعم ؛ لأن النعمة التى يتقلّب فيها الإنسان لا فضْلَ له فيها ، فكلها موهوبة من الله ، فهذه الحدائق والبساتين كيف آتتْ أُكُلها ؟ إنها الأرض التى خلقها الله لك ، وعندما حرثْتها حرثْتها بآلة من الخشب أو الحديد ، وهو موهوب من الله لا دَخْلَ لك فيه ، والقوة التى أعانتك على العمل موهوبة لك يمكن أن تُسلبَ منك فى أىِّ وقت ، فتصير ضعيفاً لا تقدر على شىء .

إذن : حينما تنظر إلى كُلِّ هذه المسائل تجدها منتهيةً إلى العطاء الأعلى من الله سبحانه .

خُذْ هذا المقعد الذى تجلس عليه مستريحاً وهو فى غاية الأناقة وإبداع الصَّنْعة ، من أين أتى الصُّنّاع بمادته ؟ لو تتبعتَ هذا لوجدته

قطعةَ خشب من إحدى الغابات ، ولو سألتَ الغابة : من أين لك هذا الخشب لأجابتْك : من الله .

لذلك يُعلّمنا الحق سبحانه وتعالى الأدب فى نعمته علينا ، بقوله : ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (٦٤)﴾ [الواقعة]

هذه الحبة التى بذرتها فى حقلك ، هل جلستَ بجوارها تنميها وتشدّها من الأرض ، فتنمو معك يوماً بعد يوم ؟ إن كل عملك فيها أن تحرث الأرض وتبذر البذور ، حتى عملية الحرث سخّر الله لك فيها البهائم لتقوم بهذه العملية ، وما كان بوُسْعك أنْ تُطوّعها لهذا العمل لولا أنْ سخرها الله لك ، وذلّلها لخدمتك ، كما قال تعالى : ﴿وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (٧٢)﴾ [يس]

ما استطعت أنت تسخيرها .

إذن : لو حلَّلْتَ أىَّ نعمة من النعم التى لك فيها عمل لوجدت أن نصيبك فيها راجع إلى الله ، وموهوب منه سبحانه . وحتى بعد أن ينمو الزرع ويُزهر أو يُثمر لا تأمن أن تأتيه آفةٌ أو تحلُّ به جائحة فتهلكه ؛ لذلك يقول تعالى بعدها : ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (٦٥) إِنَّا لَمُغْرَمُونَ (٦٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٦٧)﴾ [الواقعة]

كما يقول تعالى : ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا[1] مُصْبِحِينَ (١٧) وَلَا يَسْتَثْنُونَ (١٨) فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ (١٩) فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ (٢٠)﴾ [القلم]

---

(١) ليصرمنها : أى : حلفوا فيما بينهم ليجذن ثمرها ليلاً لئلا يعلم بهم فقير ولا سائل ليتوفر ثمرها عليهم ولا يتصدقوا منه بشىء . [تفسير ابن كثير ٤/٤٠٦] .

وكذلك فى قوله تعالى : ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِى تَشْرَبُونَ (٦٨) أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ (٦٩)﴾ [الواقعة]

هذا الماء الذى تشربونه عَذْباً زلالاً ، هل تعرفون كيف نزل ؟ هل رأيتم بخار الماء الصاعد إلى الجو ؟ وكيف ينعقد سحاباً تسوقه الريح ؟ هل دريْتُم بهذه العملية ؟ ﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا .. (٧٠)﴾ [الواقعة]

أى : مِلْحاً شديداً لا تنتفعون به .

فحينما يمتنُّ الله على عبيده بأىّ نعمة يُذكِّرهم بما ينقضها ، فهى ليست من سَعْيهم ، وعليهم أنْ يشكروه تعالى عليها لتبقى أمامهم ولا تزول ، وإلاَّ فَلْيحافظوا عليها هم إنْ كانت من صُنْع أيديهم !

وكذلك فى مسألة خَلْق الإنسان يُوضّح سبحانه وتعالى أنه يمنح الحياة وينقضها بالموت ، قال تعالى : ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ (٥٨) أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ (٥٩) نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٦٠)﴾ [الواقعة]

فإنْ كنتم أنتم الخالقين ، فحافظوا عليه وادفعوا عنه الموت . فذكر سبحانه النعمة فى الخَلْق ، وما ينقض النعمة فى أَصْل الخَلْق .

أما فى خَلْق النار ، فالأمر مختلف ، حيث يقول تعالى : ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ[1] (٧١) أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ (٧٢)﴾ [الواقعة]

---

(١) أورى القادح زنده : أخرج منه النار . [القاموس القويم ٢/٣٣٣] . قال ابن كثير فى تفسيره (٤/٢٩٦) : « أى : تقدحون النار من الزناد وتستخرجونها من أصلها » .

فذكر سبحانه قدرته فى خَلْق النار وإشعالها ولم يذكر ما ينقضها ، ولم يقُلْ : نحن قادرون على إطفائها ، كما ذكر سبحانه خَلْق الإنسان وقدرته على نقضه بالموت ، وخَلْق الزرع وقدرته على جعله حطاماً ، وخَلْق الماء وقدرته على جعله أجاجاً ، إلا فى النار ، لأنه سبحانه وتعالى يريدها مشتعلة مضطرمة باستمرار لتظل ذكرى للناس ، لذلك ذيَّل الآية بقوله تعالى : ﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ[1] (٧٣)﴾ [الواقعة]

كما نقف فى هذه الآيات على ملمح من ملامح الإعجاز ودِقَّة الأداء القرآنى ؛ لأن المتكلم ربٌّ يتحدث عن كل شىء بما يناسبه ، ففى الحديث عن الزرع ـ ولأن للإنسان عملاً فيه مثل الحرْث والبذْر والسَّقْى وغيره ـ نراه يؤكد الفعل الذى ينقض هذا الزرع ، فيقول : ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا .. (٦٥)﴾ [الواقعة] حتى لا يراودك الغرور بعملك .

أما فى الحديث عن الماء ـ وليس للإنسان دخل فى تكوينه ـ فلا حاجةَ إلى تأكيد الفعل كسابقه ، فيقول تعالى : ﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا .. (٧٠)﴾ [الواقعة] دون توكيد ؛ لأن الإنسان لا يدعى أن له فضلاً فى هذا الماء الذى ينهمر من السماء .

نعود إلى المؤمن الذى ينصح صاحبه الكافر ، ويُعلِّمه كيف

---

(١) قال ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك ، يعنى بالمقوين المسافرين ، واختاره ابن جرير ، وقال : ومنه قولهم : أقوت الدار إذا رحل أهلها . وقال مجاهد : يعنى المستمتعين من الناس أجمعين ، وكذا ذكر عن عكرمة . قال ابن كثير فى تفسيره (٤/٢٩٧) : « وهذا التفسير أعم من غيره ، فإن الحاضر والبادى من غنى وفقير ، الجميع محتاجون إليها للطبخ والاصطلاء والإضاءة وغير ذلك من المنافع » .

يستقبل نعمة الله عليه : ﴿وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ..(٣٩)﴾ [الكهف] (لَوْلاَ) بمعنى : هلاَّ وهى للحثِّ والتحضيض ، وعلى الإنسان إذا رأى ما يعجبه فى مال أو ولد حتى لو أعجبه وجهه فى المرآة عليه أن يقول : ما شاء الله لا قوة إلا بالله .

وفى الحديث يقول رسول الله ﷺ : « ما قيل عند نعمة : ما شاء الله لا قوة إلا بالله ، إلا ولا ترى فيها آفة إلا الموت »[(١)] .

فساعة أن تطالع نعمة الله كان من الواجب عليك ألاَّ تُلهيكَ النعمة عن المنعم ، كان عليك أن تقول : ما شاء الله لا قوة إلا بالله ، أى : أن هذا كله ليس بقوتى وحيلتى ، بل فضل من الله فتردّ النعمة إلى خالقها ومُسديها ، وما دُمْتَ قد رددْتَ النعمة إلى خالقها فقد استأمنْتَهُ عليها واستحفظته إياها ، وضمنْتَ بذلك بقاءها .

وذكرنا أن سيدنا جعفر الصادق ـ رضى الله عنه ـ كان عالماً بكنوز القرآن ، ورأى النفس البشرية ، وما يعتريها من تقلُّبات تعكر عليها صَفْو الحياة من خوف أو قلق أو همٍّ أو حزن أو مكر ، أو زهرة الدنيا وطموحات الإنسان فيها .

فكان رضى الله عنه يُخرج لهذه الداءات ما يناسبها من علاجات القرآن ، فكان يقول فى الخوف : « عجبت لمن خاف ولم يفزع إلى قول الله تعالى : ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣)﴾ [آل عمران] فإنى سمعت الله بعقبها يقول : ﴿فَانقَلَبُوا[(٢)] بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ (١٧٤)﴾ [آل عمران]

---

(١) عن أنس بن مالك قال قال ﷺ : « ما أنعم الله على عبدٍ من نعمة فى أهل ولا مال فقال : ما شاء الله لا قوة إلا بالله ، فيرى فيه آفة دون الموت » أورده الهيثمى فى مجمع الزوائد (١٠/١٤٠) وقال : « رواه الطبرانى فى الصغير والأوسط وفيه عبد الملك بن زرارة وهو ضعيف » .

(٢) انقلبوا : رجعوا . قال ابن منظور فى اللسان : « الانقلاب : الرجوع مطلقاً » . [لسان العرب ـ مادة : قلب] .

وعجبتُ لمن اغتمَّ ـ لأن الغَمَّ انسداد القلب وبلبلة الخاطر من شىء لا يعرف سببه ـ وعجبتُ لمن اغتمَّ ولم يفزع إلى قول الله تعالى : ﴿لاَّ إِلَـهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧)﴾ [الأنبياء] فإنى سمعت الله بعقبها يقول : ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ .. (٨٨)﴾ [الأنبياء] ليس هذا وفقط ، بل : ﴿وَكَذَلِكَ نُنجِى الْمُؤْمِنِينَ (٨٨)﴾ [الأنبياء] وكأنها (وصْفة) عامة لكل مؤمن ، وليست خاصة بنبىّ الله يونس عليه السلام .

فقولْ المؤمن الذى أصابه الغم : ﴿لاَّ إِلَـهَ إِلاَّ أَنتَ .. (٨٧)﴾ [الأنبياء] أى : لا مفزع لى سواك ، ولا ملجأ لى غيرك ﴿إِنِّى كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ .. (٨٧)﴾ [الأنبياء] اعتراف بالذنب والتقصير ، فلعل ما وقعتُ فيه من ذنب وما حدث من ظلم لنفسى هو سبب هذا الغم الذى أعانيه .

وعجبتُ لمن مُكر به ، كيف لا يفزع إلى قول الله تعالى : ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِى إِلَى اللَّهِ .. (٤٤)﴾ [غافر] فإنى سمعت الله بعقبها يقول : ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا .. (٤٥)﴾ [غافر] فالله تبارك وتعالى هو الذى سيتولى الرد عليهم ومقابلة مكرهم بمكره سبحانه ، كما قال تعالى : ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٥٤)﴾ [آل عمران]

وعجبت لمن طلب الدنيا وزينتها ـ صاحب الطموحات فى الدنيا المتطلع إلى زخرفها ـ كيف لا يفزع إلى قول الله تعالى : ﴿مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ .. (٣٩)﴾ [الكهف] فإنى سمعت الله بعقبها يقول : ﴿فَعَسَىٰ رَبِّى أَن يُؤْتِيَنِى خَيْراً مِّن جَنَّتِكَ .. (٤٠)﴾ [الكهف] فإن قلتها على نعمتك حُفظتْ ونمَتْ ، وإن قلتها على نعمة الغير أعطاك الله فوقها .

والعجيب أن المؤمن الفقير الذى لا يملك من متاع الدنيا شيئاً يدل صاحبه الكافر على مفتاح الخير الذى يزيده من خير الدنيا ، رغم ما يتقلّب فيه من نعيمها ، فمفتاح زيادة الخير فى الدنيا ودوام النعمة فيها أن نقول : ﴿مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ (٣٩)﴾ [الكهف]

ويستطرد المؤمن ، فيُبيِّن لصاحبه ما عَيَّره به من أنه فقير وهو غنى ، وما استعلى عليه بماله وولده : ﴿إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالاً وَوَلَدًا (٣٩)﴾ [الكهف]

ثم ذكّره بأن الله تعالى قادر على أنْ يُبدِّل هذا الحال ، فقال :

﴿فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤۡتِيَنِ خَيۡرٗا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرۡسِلَ عَلَيۡهَا حُسۡبَانٗا[1] مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصۡبِحَ صَعِيدٗا زَلَقًا (٤٠)﴾

وعسى للرجاء ، فإن كان الرجاء من الله فهو واقع لا شكَّ فيه ؛ لذلك حينما تقول عند نعمة الغير : (ما شاء الله لا قوة إلا بالله) يعطيك الله خيراً مما قُلْت عليه :(ما شاء الله لا قوة إلا بالله) ، وإن اعترفتَ بنعمة الله عليك ورددْتَ الفضل إليه سبحانه زادك ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ (٧) ﴾ [إبراهيم] .

فقوله : ﴿فَعَسَىٰ رَبِّى أَن يُؤْتِيَنِى خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ (٤٠) ﴾ [الكهف] أى : ينقل مسألة الغنى والفقر ويُحوِّلها ، فأنت لا قدرة لك على حفظ هذه النعمة ، كما أنك لا قدرةَ لك على جَلْبها من البداية . إذن : يمكن أنْ يعطينى ربى نعمة مثل نعمتك ، فى حين تظل نعمتك كما هى ، لكن إرادة الله تعالى أن يقلبَ نعمتك ويزيلها :

---

(١) الحسبان : العذاب المحسوب المقدَّر كالصواعق المدمرة . [القاموس القويم ـ ١/١٥٢] .

﴿وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ(٤٠)﴾ [الكهف] هذه النعمة التى تعتز بها وتفخر بزهرتها وتتعالى بها على خَلْق الله يمكن أنْ يرسلَ الله عليها حُسْباناً .

والحُسْبان : الشىء المحسوب المقدَّر بدقّة وبحساب ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥)﴾ [الرحمن] والخالق سبحانه وتعالى جعل الشمس والقمر لمعرفة الوقت : ﴿لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ(٥)﴾ [يونس] ونحن لا نعرف من هذه عدد السنين والحساب إلا إذا كانت هى فى ذاتها منضبطةً على نظام دقيق لا يختلّ ، مثل الساعة لا تستطيع أنْ تعرفَ بها الوقت وتضبطه إلا إذا كانت هى فى ذاتها منضبطة ، والشىء لا يكون حسباناً لغيره إلا إذا كان هو نفسه مُنْشأ على حُسْبان .

وحَسب حُسْباناً مثل غفر غفراناً ، وقد أرسل الله على هذه الجنة التى اغترَّ بها صاحبها صاعقة محسوبة مُقدَّرة على قَدْر هذه الجنة لا تتعدَّاها إلى غيرها ، حتى لا يقول : إنها آية كونية عامة أصابتنى كما أصابت غيرى .. لا . إنها صاعقة مخصوصة محسوبة لهذه الجنة دون غيرها .

ثم يقول تعالى : ﴿فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا(٤٠)﴾ [الكهف] أى : أن هذه الجنة العامرة بالزروع والثمار ، المليئة بالنخيل والأعناب بعد أن أصابتها الصاعقة أصبحتْ صَعيداً أى : جدباء يعلُوها التراب ، ومنه قوله تعالى فى التيمُّم : ﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا(٤٣)﴾ [النساء] ليس هذا وفقط ، بل ﴿صَعِيدًا زَلَقًا(٤٠)﴾ [الكهف] أى : تراباً مُبلّلاً تنزلق عليه الأقدام ، فلا يصلح لشىء ، حتى المشى عليه .

﴿ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ ﴾

(غَوْراً) أى : غائراً فى الأرض ، فإنْ قُلْت : يمكن أنْ يكونَ الماء غائراً ، ونستطيع إخراجه بالآلات مثلاً ، لذلك يقطع أمله فى أىِّ حيلة يفكر فيها : ﴿ فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ﴿٤١﴾ ﴾ [الكهف] أى : لن تصل إليه بأىِّ وسيلة من وسائلك ، ومن ذلك قوله تعالى فى آية أخرى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الملك]

لاحظ أن هذا الكلام من المؤمن لصاحبه الكافر مجرد رجاء يخاطبه به : ﴿ فَعَسَىٰ رَبِّى ..﴿٤٠﴾ ﴾ [الكهف] رجاء لم يحدث بَعْد ، ولم يصل إلى إيقاعيات القدر .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ ﴾

هكذا انتقل الرجاء إلى التنفيذ ، وكأن الله تعالىَ استجاب للرجل المؤمن ولم يُكذّب توقّعه ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الكهف] أحيط : كأنْ جعل حول الثمر سوراً يحيط به ، فلا يكون له منفذ ، كما قال فى آية أخرى : ﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ﴿٢٢﴾ ﴾ [يونس]

وتلاحظ أنه سبحانه قال : ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الكهف] ولم يقُلْ مثلاً : أحيط بزرعه أو بنخله ؛ لأن الإحاطة قد تكون بالشىء ، ثم يثمر بعد ذلك ، لكن الإحاطة هنا جاءت على الثمر ذاته ، وهو قريب الجنْى قريب التناول ، وبذلك تكون الفاجعة فيه أشدَّ ، والثمر هو الغاية والمحصّلة النهائية للزرع.

ثم يُصوِّر الحق سبحانه ندم صاحب الجنة وأسَفه عليها : ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا﴾ [الكهف] أى : يضرب كَفّاً بكفٍّ ، كما يفعل الإنسان حينما يفاجئه أمر لا يتوقعه ، فيقف مبهوتاً لا يدرى ما يقول ، فيضرب كفّاً بكفٍّ لا يتكلم إلا بعد أن يُفيق من هَوْل هذه المفاجأة ودَهْشتها .

ويُقلِّب كفَّيْه على أىِّ شىء ؟ يُقلِّب كفيه ندماً على ما أنفق فيها ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ [الكهف] خاوية : أى خَربة جَرْداء جَدْباء ، كما قال سبحانه فى آية أخرى : ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ [البقرة]

ومعلوم أن العروش تكون فوق ، فلما نزلت عليها الصاعقة من السماء دكَّتْ عروشها ، وجعلت عاليها سافلها ، فوقع العرش أولاً ، ثم تهدَّمتْ عليه الجدران .

وقوله تعالى : ﴿وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ [الكهف] بعد أن ألجمتْه الدهشة عن الكلام ، فراحَ يضرب كفّاً بكفٍّ ، أفاق من دهشته ، ونزع هذا النزوع القولىّ الفورى : ﴿يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ [الكهف] يتمنى أنه لم يشرك بالله أحداً ؛ لأن الشركاء الذين اتخذهم من دون الله لم ينفعوه ، لذلك قال بعدها :

﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾﴾

أى : ليس لديه أعوان ونُصراء يدفعون عنه هذا الذى حلّ به ، ويمنعون عنه الخراب الذى حاقَ بجنته ﴿وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾ [الكهف] أى : ما كان ينبغى له أن ينتصر ، ولا يجوز له الانتصار ، لماذا ؟

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾ ﴾

هنالك : أى فى وقت الحالة هذه ، وقتَ أنْ نزلتْ الصاعقة من السماء ، فأتتْ على الجنة ، وجعلتها خاوية على عروشها ، هنالك تذكّر المنعمَ وتمنّى لو لم يشرك بالله ، فقوله : ﴿ هُنَالِكَ ﴾ أى : فى الوقت الدقيق وقت القمة ، قمة النكَد والكَدَر .

و﴿ هُنَالِكَ ﴾ جاءت فى القرآن فى الأمر العجيب ، ويدعو إلى الأمر الأعجب ، من ذلك قصة سيدنا زكريا ـ عليه السلام ـ لما دخل على السيدة مريم ، فوجد عندها رزقاً : ﴿ قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ [آل عمران]

وكان زكريا ـ عليه السلام ـ هو المتكفّل بها ، الذى يُحضر لها الطعام والشراب ، فلما رأى عندها أنواعاً من الطعام لم يَأْتِ بها سألها من أيْن ؟ فقالت : هو من عند الله إن الله يرزق مَنْ يشاء بغير حساب ، فأطمع هذا القولُ زكريا فى فضل الله ، وأراد أن يأخذ بالأسباب ، فدعا الله أن يرزقه الولد ، وقد كانت امرأته عاقراً فقال تعالى :

﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ﴿٣٨﴾ ﴾ [آل عمران]

و(الوَلَايَةُ) أن يكون لك وَلِىٌّ ينصرك ، فالولىّ هو الذى يليك ، ، ويدافع عنك وقت الشدة ، وفى قراءة أخرى [1] : (هُنَالِكَ الْوِلَايَةُ) بكسر الواو يعنى الملك ، كما فى قوله : ﴿ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ﴾ [غافر]

وقوله : ﴿ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا .. ﴿٤٤﴾ ﴾ [الكهف] لأنه سيجازى على العمل

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٤١٤٢/٥) : « قرأ الأعمش وحمزة والكسائى « الولاية » بكسر الواو ، والباقون بفتحها ، وهما بمعنى واحد كالرِّضاعة والرَّضاعة . وقيل : الولاية بالفتح من الموالاة ، وبالكسر يعنى السلطان والقدرة والإمارة . وقال أبو عبيد : إنها بفتح الواو للخالق ، وبكسرها للمخلوق » .

الصالح بثواب ، هو خير من الدنيا وما فيها ﴿وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾﴾[الكهف] أى : خير العاقبة بالرزق الطيب فى جنة الخلد .

هكذا ضرب الله تعالى لنا مثلاً ، وأوضح لنا عاقبة الغنىّ الكافر ، والفقير المؤمن ، وبيَّن لنا أن الإنسان يجب ألاّ تخدعه النعمة ولا يغرَّه النعيم ؛ لأنه موهوب من الله ، فاجعل الواهب المنعمَ سبحانه دائماً على بالك ، كى يحافظ لك على نعمتك وإلا لَكُنْتَ مثلَ هذا الجاحد الذى استعلى واغترّ بنعمة الله فكانت عاقبته كما رأيت .

وهذا مثل فى الأمر الجزئى الذى يتعلق بالمكلّف الواحد ، ولو نظرتَ إليه لوجدتَه يعمُّ الدنيا كلها ؛ فهو مثال مُصغَّر لحال الحياة الدنيا ؛ لذلك انتقل الحق سبحانه من المثل الجزئىّ إلى المثل العام ، فقال تعالى :

﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ(١) وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾﴾

الحق تبارك وتعالى فى هذه الآية يوضح المجهول لنا بما عُلِم لدينا . وأهل البلاغة يقولون : فى هذه الآية تشبيه تمثيل ؛ لأنه سبحانه شبّه حال الدنيا فى قصَرها وسرعة زوالها بالماء الذى نزل من السماء ، فارتوتْ به الأرض ، وأنبتتْ ألواناً من الزروع والثمار ،

---

(١) تذروه الرياح : تغرقه . قاله أبو عبيدة . وقال ابن قتيبة : تنسفه . وقال ابن كيسان : تذهب به وتجىء . وقال ابن عباس : تديره ، قال القرطبى فى تفسيره (٥/٤١٤٣) « والمعنى متقارب » .

ولكن سرعان ما يذبلُ هذا النبات ويصير هشيماً مُتفتتاً تذهب به الريح .

وهذه صورة ـ كما يقولون ـ منتزعة من مُتعدّد . أى : أن وجه الشبه فيها ليس شيئاً واحداً ، بل عدّة أشياء ، فإن كان التشبيه مُركّباً من أشياء متعددة فهو مَثَل ، وإنْ كان تشبيه شىء مفرد بشىء مفرد يُسمُّونه مثْل ، نقول : هذا مثْل هذا ، لذلك قال تعالى ﴿فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الأَمْثَالَ (٧٤)﴾ [النحل] ؛ لأن لله تعالى المثل الأعلى .

وهكذا الدنيا تبدو جميلة مُزهرة مُثمرة حُلْوة نَضرة ، وفجأة لا تجد فى يديك منها شيئاً ؛ لذلك سماها القرآن دُنْيا وهو اسم يُوحى بالحقارة ، وإلا فأىّ وصف أقل من هذا يمكن أن يصفها به ؟ لنعرف أن ما يقابلها حياة عُلْيا .

وكأن الحق سبحانه يقول لرسوله ﷺ : كما ضربتُ لهم مَثَل الرجلين وما آل إليه أمرهما اضرب لهم مثل الحياة الدنيا وأنها تتقلّب بأهلها ، وتتبدّل بهم، واضرب لهم مثلاً للدنيا من واقع الدنيا نفسها .

ومعنى ﴿فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ(٤٥)﴾ [الكهف] أى : اختلط بسببه نبات الأرض ، وتداخلَ بعضُه فى بعض ، وتشابكتْ أغصانه وفروعه ، وهذه صورة النبات فى الأرض الخصْبة ، أما إنْ كانت الأرض مالحة غير خِصْبة فإنها تُخرِج النبات مفرداً ، عود هنا وعود هناك .

لكن ، هل ظل النبات على حال خُضْرته ونضارته ؟ لا ، بل سرعان ما جفَّ وتكسَّر وصار هشيماً تطيح به الريح وتذروه ، هذا مثلٌ للدنيا حين تأخذ زخرفها وتتزيَّن ، كما قال تعالى :

﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا..(٢٤)﴾ [يونس]

ثم يقول تعالى ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾﴾ [الكهف] لأنه سبحانه القادر دائماً على إخراج الشىء إلى ضدّه ، كما قال سبحانه : ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [المؤمنون]

فقد اقتدر سبحانه على الإيجاد ، واقتدر على الإعدام ، فلا تنفكّ عنه صفة القدرة أبداً ، أحيا وأمات ، وأعزَّ وأذلَّ ، وقبض وبسط ، وضرَّ ونفع ..

ولما كان الكلام السابق عن صاحب الجنة الذى اغترّ بماله وولده فناسب الحديث عن المال والولد ، فقال تعالى :

﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا[1] وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾

تلك هى العناصر الأساسية فى فتنة الناس فى الدنيا : المال والبنون ، لكن لماذا قدَّم المال ؟ أهو أغلى عند الناس من البنين ؟ نقول : قدَّم الحق سبحانه المال على البنين ، ليس لأنه أعزُّ أو أغلى ؛ إنما لأن المال عام فى المخاطب على خلاف البنين ، فكلُّ إنسان لديه المال وإنْ قلَّ ، أما البنون فهذه خصوصية ، ومن الناس مَنْ حُرِم منها .

كما أن البنين لا تأتى إلا بالمال ؛ لأنه يحتاج إلى الزواج والنفقة لكى يتناسل ويُنجب ، إذن : كل واحد له مال ، وليس لكل واحد

---

(١) المال : ما ملكته من جميع الأشياء . قال ابن الأثير : المال فى الأصل ما يُملك من الذهب والفضة ، ثم أطلق على كل ما يُقتنى ويُملك من الأعيان ، وأكثر ما يطلق المال عند العرب على الإبل لأنها كانت أكثر أموالهم . [لسان العرب ـ مادة : مول] .

بنون ، والحكم هنا قضية عامة ، وهى : ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ..(٤٦)﴾ [الكهف]

كلمة (زِينَةُ) أى : ليست من ضروريات الحياة ، فهو مجرد شكل وزخرف ؛ لأن المؤمن الراضى بما قُسِمَ له يعيش حياته سعيداً بدون مال ، وبدون أولاد ؛ لأن الإنسان قد يشقَى بماله ، أو يشقى بولده ، لدرجة أنه يتمنى لو مات قبل أن يُرزقَ هذا المال أو هذا الولد .

وقد باتت مسألة الإنجاب عُقْدة ومشكلة عند كثير من الناس ، فترى الرجل كَدِراً مهموماً ؛ لأنه يريد الولد ليكون له عِزْوة وعزّة ، وربما يُرزَق الولد ويرى الذُّلَّ على يديه ، وكم من المشاكل تُثار فى البيوت ؛ لأن الزوجة لا تنجب .

ولو أيقن الناس أن الإيجاد من الله نعمة ، وأن السَّلْب من الله أيضاً نعمة لاستراح الجميع ، ألم نقرأ قول الله تعالى :

﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٥٠)﴾ [الشورى]

إذن : فالعُقْم فى ذاته نعمة وهبَة من الله لو قبلها الإنسان من ربه لَعوَّضه الله عن عُقْمه بأنْ يجعل كل الأبناء أبناءه ، ينظرون إليه ويعاملونه كأنه أبٌ لهم ، فيذوق من خلالهم لذَّة الأبناء دون أن يتعب فى تربية أحد ، أو يحمل هَمَّ أحد .

وكذلك ، الذى يتكدر لأن الله رزقه بالبنات دون البنين ، ويكون كالذى قال الله فيه : ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ(٥٨)﴾ [النحل]

إنه يريد الولد ليكون عِـزْوة وعِـزّة . ونسى أن عزة المـؤمن بالله لا بغيـره ، ونقول :والله لو استقبلت البنت بالفرح والرضا على أنها هبَـة من الله لكانتْ سببـاً فى أن يأتى لها زوج أبرّ بك من ولدك ، ثم قد تأتى هى لك بالولد الذى يكون أعزّ عندك من ولدك .

إذن : المـال والبنون من زينة الحـيـاة وزخـرفـها ، وليـسـا من الضـروريات ، وقد حـدد لنا النبى ﷺ الدنيـا ، فـقال : « من أصـبح مُعَـافىً فى بدنه ، آمناً فى سـرْبه ـ أى : لا يهدد أمنه أحـد ـ وعنده قُوت يومه ، فكأنما حِيزَتْ له الدنيا بحذافيرها »[1]

فما زاد عـن ذلك فهو من الزينة ، فالإنسـان – إذن – يستطيع أن يعـيش دون مال أو ولد ، يعـيش بقـيم تعطى له الخـير ، ورضـاً يرضيه عن خالقه تعالى .

ثم يقول تعالى : ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً (٤٦)﴾ [الكهف]

لأن المـال والبـنين لن يدخـلا مـعـك القـبـر ، ولن يمـنعـاك من العذاب ، ولن ينفعك إلا الباقيـات الصالحات . والنبى ﷺ حينما أُهديَتْ إليه شاة ، وكانت السيدة عائشة – رضى الله عنها ـ تعرف أن رسول الله يحب من الشاة الكتف[2] ؛ لأنه لَحْم رقيق خـفيف ؛ لذلك احـتفظتْ

---

(١) أخرجـه الترمـذى فى سننه (٢٣٤٦) ، وابن ماجـه فى سننه (٤١٤١) والحمـيدى فى مـسنده (٤٣٩) من حديـث عبـيد الله بـن محـصن الأنصـارى وكانت له صـحـبة . قـال الترمذى : « هذا حديث حسن غريب » .

(٢) قال ابن عباس : « كان أحب اللحم إلى رسول الله ﷺ الكتف » أخـرجه أبو الشيخ الأصبهانى فى « أخلاق النبى » (ص ٢٠١) وأورده السيوطى فى « الجـامع الصغير » (٥/٨٥) وعزاه لأبى نعـيم عن ابن عبـاس ، وأشار إليـه بالضعف ، وأخـرجه البـخارى (٤٧١٢) بنحـوه عن أبى هريرة قال : « أتى رسول الله ﷺ بلحم ، فرفع إليه الذراع وكانت تعجبه » .

لرسول الله بالكتف وتصدّقت بالباقى ، فلما جاء ﷺ قال : « ماذا صنعتِ فى الشاة » ؟ قالت : ذهبتْ كلها إلا كتفها ، فضحك ﷺ وقال : « بل بقيت كلها إلا كتفها »[(١)].

وفى حديث آخر قال ﷺ : « هل لك يابن آدم من مالك إلا ما أكلتَ فأفنيتَ ، أو لبستَ فأبليْتَ ، أو تصدَّقْتَ فأبقيْتَ »[(٢)]

وهذا معنى : ﴿ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ .. (٤٦) ﴾ [الكهف]

والسؤال الذى يتبادر إلى الذِّهْن الآن : إذا لم يكُنْ المال والبنون يمثلان ضرورة من ضروريات الحياة ، فما الضروريات فى الحياة إذن ؟ الضروريات فى الحياة هى كُلُّ ما يجعل الدنيا مزرعة للآخرة ، ووسيلة لحياة باقية دائمة ناعمة مسعدة ، لا تنتهى أنت من النعيم فتتركه ، ولا ينتهى النعيم منك فيتركك ، إنه نعيم الجنة .

الضروريات - إذن - هى الدين ومنهج الله والقِيَم التى تُنظم حركة الحياة على وَفْق ما أراد الله من خلق الحياة .

ومعنى : ﴿ وَالْبَاقِيَاتُ (٤٦) ﴾ [الكهف] مادام قال (وَالْبَاقِيَاتُ) فمعنى هذا أن ما قبلها لم يكُنْ من الباقيات بل هو زائل بزوال الدنيا ، ثم وصفها بالصالحات ليفرق بينها وبين الباقيات السيئات التى يخلدون بها فى النار .

﴿ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ (٤٦) ﴾ [الكهف] خير عند مَنْ ؟ لأن كل مضاف إليه يأتى على قوة المضاف إليه ، فخَيْرك غير خير مَنْ هو أغنى منك ، غير خير الحاكم ، فما بالك بخير عند الله ؟

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٦/٥٠) والترمذى فى سننه (٢٤٧٠) من حديث عائشة رضى الله عنها . قال الترمذى : « حديث صحيح » .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٤/٢٤ ، ٢٦) ومسلم فى صحيحه (٢٩٥٨) والترمذى فى سننه (٢٣٤٢) وصححه .

﴿.. خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً ﴿٤٦﴾﴾ [الكهف]

والأمل : ما يتطلع إليه الإنسان مما لم تكُنْ به حالته ، فإنْ كان عنده خير تطلَّع إلى أعلى منه ، فالأمل الأعلى عند الله تبارك وتعالى ، كُلُّ هذا يُبيّن لنا أن هذه الدنيا زائلة ، وأننا ذاهبون إلى يوم باقٍ ؛ لذلك أردف الحق سبحانه بعد الباقيات الصالحات ما يناسبها ، فقال تعالى :

﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً[1] وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾﴾

أى : اذكر جيداً يوم نُسيِّر الجبال وتنتهى هذه الدنيا ، واعمل الباقيات الصالحات لأننا سنُسيّر الجبال التى تراها ثابتة راسخة تتوارث الأجيال حجمها وجِرْمها ، وقوتها وصلابتها ، وهى باقية على حالها .

ومعنى تسيير الجبال : إزالتها عن أماكنها ، كما قال فى آية أخرى : ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾﴾ [النبأ]

وقال فى آية أخرى ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾﴾ [التكوير] وقال : ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾﴾ [المرسلات] وقال : ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ[2] ﴿٩﴾﴾ [المعارج]

ونلحظ أن الحق سبحانه ذكر أقوى مظهر ثابت فى الحياة الدنيا ، وإلا ففى الأرض أشياء أخرى قوية وثابتة كالعمائر ناطحات السحاب،

---

(١) أى : ترى الأرض ظاهرة ليس عليها ما يسترها من مساكن أو أشجار أو غيرها . [القاموس القويم ١/٦٣] .

(٢) العهن : الصوف المصبوغ بأى لون أو بألوان مختلفة . [القاموس القويم ٢/٤٠] .

والشجر الكبير الضخم المعمّر وغيرها كثير . فإذا كان الحق سبحانه سينسف هذه للجبال ويُزيلها عن أماكنها ، فغيرها مما على وجه الأرض زائل من باب أَوْلَى .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً (٤٧) ﴾ [الكهف]

الأرض : كُلّ ما أقلَّك[1] من هذه البسيطة التى نعيش عليها ، وكل ما يعلوك ويُظلُّك فهو سماء ، ومعنى : (بَارِزَةً) البَرَازُ : هو الفضاء ، أى : وترى الأرض فضاءً خالية مما كان عليها من أشكال الجبال والمبانى والأشجار ، حتى البحر الذى يغطى جزءاً كبيراً من الأرض .

كل هذه الأشكال ذهبتْ لا وجودَ لها ، فكأن الأرض بَرزَتْ بعد أنْ كانت مختبئة : بعضها تحت الجبال ، وبعضها تحت الأشجار ، وبعضها تحت المبانى ، وبعضها تحت الماء ، فأصبحتْ فضاء واسعاً ، ليس فيه مَعْلَمٌ لشىء .

ومن ذلك ما نُسمِّيه نحن المبارزة ، فنرى الفتوة يقول للآخر (اطلع لى بره) أى : فى مكان خال حتى لا يجد شيئاً يحتمى به ، أو حائطاً مثلاً يستند عليه ، وبرز فلان لفلان وبارزه أى : صارعه .

﴿ وَحَشَرْنَاهُمْ (٤٧) ﴾ [الكهف] أى : جمعناهم ليوم الحساب ؛ لأنهم فارقوا الدنيا على مراحل من لَدُن آدم عليه السلام ، والموت يحصد الأرواح ، وقد جاء اليوم الذى يُجمع فيه هؤلاء .

﴿ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا (٤٧) ﴾ [الكهف] أي : لم نترك منهم واحداً ، الكلُّ معروض على الله ، وكلمة ﴿ نُغَادِرْ (٤٧) ﴾[الكهف] ومادة (غدر) تؤدى جميعها معنى الترْك ، فالغدر مثلاً تَرْك الوفاء وخيانة الأمانة ،

---

(١) أقلَّ الشىء واستقلّه : حمله ورفعه . فالأرض تُقلُّنا لأنها تحملنا على ظهرها . [لسان العرب ـ مادة : قلل] .

حتى غدير وهو جدول الماء الصغير سُمِّى غديراً ؛ لأن المطر حينما ينزل على الأرض يذهب ويترك شيئاً قليلاً فى المواطىء .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾﴾

قوله تعالى : ﴿وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا ﴿٤٨﴾﴾ [الكهف] العرض : أن يستقبل العارض المعروضَ استقبالاً مُنظّماً يدلّ على كُلِّ هيئاته ، كما يستعرض القائد الجنود فى العرض العسكرى مثلاً ، فيرى كل واحد من جنوده (صفاً) أى : صُفوفاً منتظمة ، حتى الملائكة تأتى صُفوفاً ، كما قال تعالى : ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾ [الفجر]

أى : أنها عملية مُنظمة لا يستطيع فيها أحد التخفى ، ولن يكون لأحد منها مفرٌّ ، وهى صفوف متداخلة بطريقة لا يُخفى فيها صفٌّ الصفَّ الذى يليه ، فالجميع واضح بكل أحواله .

وفى الحديث عن معاذ بن جبل ـ رضى الله عنه ـ قال : حدثنا رسول الله ﷺ فقال : « يَحشر الله الخَلْق ثم ينادى : يا عبادى أحضروا حُجتكم ويسِّروا جوابكم ، فإنكم مجموعون مُحَاسَبُون مَسْئولون ، يا ملائكتى أقيموا عبادى صفوفاً على أطراف أنامل أقدامهم للحساب »[1] .

ولك أنْ تتصوَّر المعاناة والألم الذى يجده مَنْ يقف على أطراف أنامل قدميْه ؛ لأن ثقل الجسم يُوزَّع على القدمين فى حال الوقوف ، وعلى

(١) أورده القرطبى فى تفسيره (٥/٤١٤٨) وعزاه لأبى القاسم عبد الرحمن بن منده فى كتاب التوحيد من حديث معاذ بن جبل ، وكذا السيوطى فى الدر المنثور (٥/٤٠٠) .

المقعدة فى حال الجلوس ، وعلى الجسم كله فى حال النوم ، وهكذا يخفّ ثقل الجسم حسب الحالة التى هو عليها ، فإنْ تركّز الثقل كله على أطراف أنامل القدمين ، فلا شكَّ أنه وَضْع مؤلم وشاقّ ، يصعُب على الناس ، حتى إنهم ليتمنون الانصراف ولو إلى النار .

ثم يقول تعالى : ﴿ لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ (٤٨) ﴾ [الكهف]

أى : على الحالة التى نزلتَ عليها من بطن أمك عرياناً ، لا تملك شيئاً حتى ما يستر عورتك ، وقد فُصِّل هذا المعنى فى قوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ(١) وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٩٤) ﴾ [الأنعام]

وقوله تعالى :﴿ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا (٤٨) ﴾[الكهف] والخطاب هنا مُوجَّه للكفار الذين أنكروا البعث والحساب ﴿ زَعَمْتُمْ (٤٨) ﴾[الكهف] والزعْم مطيّة الكذب .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا(٢) وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا (٤٩) ﴾

---

(١) خوَّله كذا : ملَّكه إياه متفضلاً عليه بغير عوض . [القاموس القويم ١/ ٢١٤] .

(٢) الإحصاء : العد والحفظ . وفى أسماء الله تعالى : المحصى ، هو الذى أحصى كل شىء بعلمه فلا يفوته دقيق منها ولا جليل . وأحصى الشىء : أحاط به . [لسان العرب ـ مادة : حصى] .

قوله تعالى : ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ (٤٩)﴾ [الكهف] أى : وضعته الملائكة بأمر من الله تعالى ، فيعطون كل واحد كتابه ، فهى - إذن - صور متعددة ، فمَنْ أخذ كتابه بيمينه فرح وقال :

﴿ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ (١٩)﴾ [الحاقة] يعرضه على ناس ، وهو فخور بما فيه ؛ لأنه كتاب مُشرِّف ليس فيه ما يُخجل ؛ لذلك يتباهى به ويدعو الناس إلى قراءته ، فهو كالتلميذ الذى حصل على درجات عالية ، فطار بها ليعرضها ويذيعها .

وهذا بخلاف مَنْ أوتى كتابه بشماله فإنه يقول : ﴿لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ (٢٥) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ (٢٦) يَـٰلَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ (٢٧) مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ (٢٨) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ .. (٢٩)﴾ [الحاقة]

إنه الخزى والانكسار والندم على صحيفة مُخْجِلة .

﴿فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ (٤٩)﴾ [الكهف] أى : خائفين يرتعدون ، والحق سبحانه وتعالى يصور لنا حالة الخوف هذه ، ليُفزع عباده ويُحذِّرهم ويُضخِّم لهم العقوبة ، وهم ما يزالون فى وقت التدارك والتعديل من السلوك ، وهذا من رحمة الله تعالى بعباده .

فحالتهم الأولى الإشفاق ، وهو عملية هبوط القلب ولجلجته ، ثم يأتى نزوع القول : ﴿وَيَقُولُونَ يَـٰوَيْلَتَنَا (٤٩)﴾ [الكهف] يا : أداة للنداء ، كأنهم يقولون : يا حسرتنا يا هلاكنا ، هذا أوانُك فاحضرى .

ومن ذلك قوله تعالى فى قصة ابنى آدم - عليه السلام - لما قتل قابيل هابيل ، وكانت أول حادثة قتل ، وأول ميت فى ذرية آدم ؛ لذلك بعث الله له غراباً يُعلِّمه كيف يدفن أخاه ، فقال : ﴿ يَـٰوَيْلَتَىٰ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَـٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي .. (٣١)﴾ [المائدة]

﴿ يَـٰوَيْلَتَىٰٓ (٣١) ﴾ [المائدة] يا هلاكى كأن يتحسَّر على ما أصبح فيه ، وأن الغراب أعقل منه ، وأكثر منه خبرة ؛ لكى لا نظلم هذه المخلوقات ونقول : إنها بهائم لا تَفهم ، والحقيقة : ليتنا مثلهم .

قوله تعالى : ﴿ مَا لِهَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا (٤٩) ﴾ [الكهف] أى : لا يترك كبيرة أو صغيرة إلا عدَّها وحسبها ﴿ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا (٤٩) ﴾ [الكهف] فكل ما فعلوه مُسجَّل مُسطّر فى كُتبهم ﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا (٤٩) ﴾ [الكهف] لأنه سبحانه وتعالى عادل لا يؤاخذهم إلا بما عملوه .

ثم يقول الله سبحانه :

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا (٥٠) ﴾

تكررتْ قصة سجود الملائكة لآدم ـ عليه السلام ـ كثيراً فى القرآن الكريم ، وفى كل مرة تُعطينا الآياتُ لقطةً معينة ، والحق سبحانه فى هذه الآية يقول لنا : يجب عليكم أنْ تذكروا جيداً عداوة إبليس لأبيكم آدم ، وتذكّروا جيداً أنه أخذ العهد على نفسه أمام الله تعالى أنْ يُغويكم أجمعين ، فكان يجب عليكم أن تتنبهوا لهذا العداوة ، فإذا حدّثكم بشىء فاذكروا عداوته لكم .

والحق ـ سبحانه وتعالى ـ حينما يُحذّرنا من إبليس فإنه يُربِّى فينا المناعة التى نُقاومه بها ، والمناعة أنْ تأتىَ بالشىء الذى يضرُّ مستقبلاً حين يفاجئك وتضعه فى الجسم فى صورة مكروب خامد ، وهذا هو التطعيم الذى يُعوِّد الجسم على مدافعة المرض وتغلُّب عليه إذا أصابه .

فكذلك الحق سبحانه يعطينا المناعة ضد إبليس ، ويُذكِّرنا ما كان

منه لأبينا آدم واستكباره عن السجود له ، وأن نذكر دائماً قوله : ﴿أَرَأَيْتَكَ هَـٰذَا الَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ[1] ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً (٦٢)﴾ [الإسراء]

فانتبهوا ما دُمنا سنُسيِّر الجبال ، ونُسوِّى الأرض ، ونحصر لكلٍّ كتابه ، فاحذروا أنْ تقفوا موقفاً حرجاً يوم القيامة ، ثم تُفَاجأوا بكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة ، وها أنا أُذكِّركم من الآن فى وقت السَّعة والتدارك، فحاولوا التوبة إلى الله ، وأنْ تصلحوا ما بينكم وبين ربكم .

والأمر هنا جاء للملائكة : ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ .. (٥٠)﴾ [الكهف] لأنهم أشرف المخلوقات ، حيث لا يعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يُؤمَرُون . وحين يأمر الله تعالى الملائكة الذين هذه صفاتهم بالسجود لآدم ، فهذا يعنى الخضوع ، وأن هذا هو الخليفة الذى آمُركُم أنْ تكونوا فى خدمته .

لذلك سمَّاهم : المدبِّرات أمراً ، وقال تعالى عنهم : ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ[2] مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ .. (١١)﴾ [الرعد] فكأن مهمة هؤلاء الملائكة أن يكونوا مع البشر وفى خدمتهم .

فإذا كان الحق سبحانه قد جنَّد هؤلاء الملائكة وهم أشرفُ المخلوقات لخدمة الإنسان ، وأمرهم بالسجود له إعلاناً للخضوع للإنسان ، فمن باب أَوْلى أن يخضع له الكون كله بسمائه وأرضه ، وأن يجعلَه فى خدمته ، إنما ذكر أشرف المخلوقات لينسحب الحكم على مَنْ دونهم .

---

(١) احتنك فلاناً : استولى عليه واستماله إليه فلا يخرج عن طوعه على المجاز كأنه وضعه فى حنكه فلا يفلت منه ، والمعنى : أى لأملكن أمرهم وأستولى عليهم فلا يعصون أمرى . [القاموس القويم ١/١٧٥] .

(٢) أى : لله ملائكة يتعاقبون بالليل والنهار ، فإذا صعدت ملائكة الليل أعقبتها ملائكة النهار . [تفسير القرطبى ٥/٣٦٢٦] .

وقلنا : إن العلماء اختلفوا كثيراً على ماهية إبليس : أهو من الجن أم من الملائكة ، وقد قطعت هذه الآية هذا الخلاف وحَسَمَتْه ، فقال تعالى : ﴿ إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ .. (٥٠) ﴾ [الكهف] وطالما جاء القرآن بالنص الصريح الذى يُوضّح جنسيته ، فليس لأحد أن يقول : إنه من الملائكة .

وما دام كان من الجن ، وهم جنس مختار فى أنْ يفعل أو لا يفعل ، فقد اختار ألاَّ يفعل ﴿ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ .. (٥٠) ﴾ [الكهف] أى : رجع إلى أصله ، وخرج عن الأمر .

وقوله تعالى : ﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ .. (٥٠) ﴾ [الكهف] فهذا أمر عجيب ، فكيف بعد ما حدث منه تجعلونه ولياً من دون الله الذى خلقكم ورزقكم ، فكان أَوْلَى بهذه الولاية .

و ﴿ وَذُرِّيَّتَهُ .. (٥٠) ﴾ [الكهف] تدل على تناسل إبليس ، وأن له أولاداً ، وأنهم يتزاوجون ، ويمكن أن نقول : ذريته : كل مَنْ كان على طريقته فى الضلال والإغواء ، ولو كان من الإنس ، كما قال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ[1] الْقَوْلِ غُرُورًا .. (١١٢) ﴾ [الأنعام]

﴿ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً (٥٠) ﴾ [الكهف] أى : بئس البدل أن تتخذوا إبليس الذى أبى واستكبر أنْ يسجدَ لأبيكم وَلياً ، وتتركوا ولاية الله الذى أمر الملائكة أنْ تسجدَ لأبيكم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلاَ خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا (٥١) ﴾

---

(١) الزخرف : الزينة . وزخرف القول : حُسْنه بتزيين الكذب . [لسان العرب ـ مادة : زخرف] .

إن هذا الشيطان الذى واليتموه من دون الله ، وأعطيتموه الميْزة ، واستمعتم إليه ما أشهدتهم خَلْق السموات والأرض مجرد المشاهدة ، لم يحضروها لأن خَلْق السموات والأرض كان قبل خَلْقهم ، وكذلك ما شَهدوا خَلْق أنفسهم ؛ لأنهم ساعة خلقتهم لم يكونوا موجودين ، إنهم لم يشهدوا شيئاً من ذلك لكى يخبروكم .

﴿ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا (٥١) ﴾ [الكهف] أى : مساعدين ومعاونين ومساندين ، فما أشهدتهم الخَلْق وما عاونونى فيه .

والعَضُد : هو القوة التى تُسعفك وتسندك ، وهو مأخوذ من عَضُد الإنسان ، حيث يزاول أغلب أعماله بيديه ، وحين يزاول أعماله بيديه تتحرك فيه مجموعة من الأعضاء قَبْضاً وبَسْطاً واتجاهاً يميناً وشمالاً ، وأعلى وأسفل ، وكُلُّ هذه الحركات لا بُدَّ لها من مُنظِّم أو موتور هو العضد ، وفى حركة اليد ودقتها فى أداء مهمتها آياتٌ عُظْمى تدلُّ على دِقَّة الصَّنْعة .

وحينما صنع البشر ما يشبه الذراع واليد البشرية من الآلات الحديثة ، تجد سائق البلدوزر مثلاً يقوم بعدة حركات لكى يُحرِّك هذه الآلة ، أما أنت فتحرِّك يدك كما شئْتَ دون أن تعرف ماذا يحدث ؟ وكيف تتم لك هذه الحركة بمجرد أن تُفكِّر فيها دون جهد منك أو تدبير ؟

فكل أجزائك مُسخَّرة لإرادتك ، فإنْ أردتَ القيام مثلاً قمتَ على الفور ؛ لذلك إياك أنْ تظن أنك خَلْق ميكانيكى ، بل أنت صَنْعة ربانية بعيدة عن ميكانيكا الآلات ، بدليل أنه إذا أراد الخالق سبحانه أن يُوقِف جزءاً منك أمر المخ أنْ يقطعَ صِلَته به ، فيحدث الشلل التام ، ولا تستطيع أنت دَفْعَه أو إصلاحه .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى فى قصة موسى : ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ .. (٣٥)﴾ [القصص] أى : نُقوِّيك ونُعطيك السَّنَد والعَوْن .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا (٥٢)﴾

يعنى : واذْكر يا محمد ، ولتذْكُرْ معك أمتك هذا اليوم ﴿يَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ .. (٥٢)﴾ [الكهف] يقول الحق سبحانه للكفار : ادعوا شركائى الذين اتخذتموهم من دونى . وزعمتم : أى : كذبتم فى ادعائكم أنهم آلهة ﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ .. (٥٢)﴾ [الكهف]

وهذا من سماجتهم وتبجُّحهم وسوء أدبهم مع الحق سبحانه ، فكان عليهم أنْ يخجلوا من الله ، ويعودوا إلى الحق ، ويعترفوا بما كذَّبوه ، لكنهم تمادَوْا ﴿فَدَعَوْهُمْ .. (٥٢)﴾ [الكهف] ويجوز أن من الشركاء أناساً دون التكليف ، وأناساً فوق التكليف ، فمثلاً منهم مَنْ قالوا : عيسى . ومنهم مَنْ قالوا : العزير ، وهذا باطل ، وهل استجابوا لهم ؟

ومنهم مَن اتخذوا آلهة أخرى ، كالشمس والقمر والأصنام وغيرها ، ومنهم مَنْ عبد ناساً مثلهم وأطاعوهم ، وهؤلاء كانوا موجودين معهم ، ويصح أنهم دَعَوْهم ونادوهم : تعالوا ، جادلوا عنّا ، وأخرجونا مما نحن فيه ، لقد عبدناكم وكنا طَوْعَ أمركم ، كما قال تعالى عنهم : ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ .. (٣)﴾ [الزمر]

ولكن ، أنَّى لهم ما يريدون ؟ فقد تقطعتْ بينهم الصلات ، وانقطعت

حجتهم ﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ .. ﴿٥٢﴾﴾ [الكهف] ثم جعل الحق سبحانه بين الداعى والمدعو وادياً سحيقاً ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾﴾ [الكهف]

والمَوْبِق : المكان الذى يحصل فيه الهلاك ، وهو وَاد من أودية جهنم يهلكون فيه جميعاً ، أو : أن بين الداعى والمدعو مكاناً مُهْلِكاً ، فلا الداعى يستطيع أنْ يلوذَ بالمدعو ، ولا المدعو يستطيع أنْ ينتَصرَ للداعى ويُسعفه ، لأن بينهم منبعَ هلاك .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾﴾ [الشورى] يعنى : يهلكهن .

ومن العجيب أن تكون هذه أولَ إطاعة منهم لله تعالى ، فلما قال لهم : ﴿نَادُوا شُرَكَائِي ﴿٥٢﴾﴾ [الكهف] استجابوا لهذا الأمر ، فى حين أنهم لم يطيعوا الأوامر الأخرى .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾﴾

رأى : الرؤية : وقوع البصر على المرئىّ ، والرؤية هنا ممّن سيُعذّب فى النار ، وقد تكون الرؤية من النار التى ستعذبهم ؛ لأنها تراهم وتنتظرهم وتناديهم ، كما قال تعالى : ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾﴾ [ق]

أى : ها أنا ذا أنتظرهم ومستعدة لملاقاتهم ؟

والمجرمون : الذين ارتكبوا الجرائم ، وعلى رأسها الكفر بالله . إذن : فالرؤية هنا مُتبَادلة : المعذِّب والمعذَّب ، كلاهما يرى الآخر ويعرفه .

وقوله تعالى : ﴿فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا .. (٥٣)﴾ [الكهف] الظن هنا يُراد منه اليقين . أى : أيقنوا أنهم واقعون فيها ، كما جاء فى قول الحق سبحانه : ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا رَبِّهِمْ .. (٤٦)﴾ [البقرة]

أى : يوقنون .

﴿وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا (٥٣)﴾ [الكهف] أى : فى حين أن بينهما مَوْبِقاً ، وأيضاً لا يجدون مفراً يفرون منه ، أو ملجأ يلجؤون إليه ، أو مكاناً ينصرفون إليه بعيداً عن النار ، فالمَوْبِق موجود ، والمصْرِف مفقود .

ثم يقول تبارك وتعالى :

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا (٥٤)﴾

سبق أن تكلمنا عن تصريف الآيات ، وقلنا : إن التصريف معناه تحويل الشىء إلى أشياء متعددة ، كما يصرّف الله الرياح مثلاً ، فلا تأتى من ناحية واحدة ، بل تأتى مرة من هنا ، ومرة من هناك ، كذلك صَرَّف الله الأمثال . أى : أتى بأحوال متعددة وصُور شتى منها .

والحق سبحانه يضرب الأمثال كأنه يقرع بها آذان الناس لأمر قد يكون غائباً عنهم ، فيمثله بأمر واضح لهم مُحَسٍّ ليتفهموه تفهّماً دقيقاً .

وما دام أن الحق سبحانه صرّف فى هذا القرآن من كل مثَل ، فلا عُذْر لمن لم يفهم ، فالقرآن قد جاء على وجوه شتّى ليُعلم الناس على اختلاف أفهامهم ومواهبهم ؛ لذلك ترى الأمى يسمعه فيأخذ منه على قدر فَهْمه ، والنصف مثقف يسمعه فيأخذ منه على قدر ثقافته ، والعالم الكبير يأخذ منه على قدر علمه ويجد فيه بُغْيته ، بل وأكثر

من ذلك ، فالمتخصص فى أىِّ علم من العلوم يجد فى كتاب الله أدقّ التفاصيل ؛ لأن الحق سبحانه بيَّن فيه كل شىء .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً (٥٤) ﴾ [الكهف] أى : كثير الخصومة والتنازع فى الرأى ، والجدل : هو المحاورة ومحاولة كل طرف أن يثبت صدْق مذهبه وكلامه ، والجدل إما أن يكون بالباطل لتثبيت حجة الأهواء وتراوغ لتبرر مذهبك ولو خطأً ، وهذا هو الجَدل المعيب القائم على الأهواء . وإما أن يكون الجدل بالحق وهو الجدل البنّاء الذى يستهدف الوصول إلى الحقيقة ، وهذا بعيد كل البعد عن التحيّز للهوى أو الأغراض .

ولما تحدَّث القرآن الكريم عن الجدل قال تعالى : ﴿ وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ .. (٤٦) ﴾ [العنكبوت] وقال: ﴿ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ .. (١٢٥) ﴾ [النحل]

والنبى ﷺ لما مرَّ على علىٍّ وفاطمة ـ رضى الله عنهما ـ ليوقظهما لصلاة الفجر ، وطرق عليهما الباب مرة بعد أخرى ، ويبدو أنهما كانا مستغرقيْن فى نوم عميق ، فنادى عليهما ﷺ « ألا تصلون ؟ »[1] فردَّ الإمام على قائلاً : يا رسول الله إن أنفسنا بيد الله ، إن شاء أطلقها وإن شاء أمسكها ، فضحك النبى ﷺ وقال : ﴿ وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً (٥٤) ﴾ [الكهف]

لأن الإنسان له أهواء متعددة وخواطر متباينة ، ويحاول أنْ يُدلّل على صحة أهوائه وخواطره بالحجة ، فيقارع الحق ويغالط ويراوغ .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (١/٧٧) ، ومسلم فى صحيحه (٢٠٦) كتاب صلاة المسافرين ، والبخارى فى صحيحه (٧٣٤٧) من حديث على بن أبى طالب رضى الله عنه .

ولو دققتَ فى رأيه لوجدتَ له هوىً يسعى إليه ويميل إلى تحقيقه ، وترى ذلك واضحاً إذا اخترتَ أحد الطرق تسلكه أنت وصاحبك مثلاً لأنه أسهلها وأقربها ، فإذا به يقترح عليك طريقاً آخر ، ويحاول إقناعك به بكل السُّبل ، والحقيقة أن له غرضاً فى نفسه وهوىً يريد الوصول إليه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾﴾

ما الذى منعهم أن يؤمنوا بعد أن أنزل عليهم القرآن ، وصرّفنا فيه من الآيات والأمثال ، وبعد أن جاءهم مطابقاً لكل الأحوال ؟

وفى آية أخرى ، أوضح الحق سبحانه سبب إعراضهم عن الإيمان ، فقال تعالى : ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَـٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُورًا ﴿٨٩﴾ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ .. ﴿٩٣﴾﴾ [الإسراء]

فكُلُّ هذه التعنّتات وهذا العناد هو الذى حال بينهم وبين الإيمان بالله ، والحق سبحانه وتعالى حينما يأتى بآية طلبها القوم ، ثم

لم يؤمنوا بها يُهلكهم ؛ لذلك قال بعدها : ﴿إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ..(٥٥)﴾ [الكهف] فهذه هى الآية التى تنتظرهم : أن تأتيهم سُنَّة الله فى إهلاك مَنْ كذَّب الرسل .

فقبل الإسلام ، كانت السماء هى التى تتدخل لنُصْرة العقيدة ، فكانت تدكُّ عليهم قُراهم ومساكنهم ، فالرسول عليه الدعوة والبلاغ ، ولم يكن من مهمته دعوة الناس إلى الحرب والجهاد فى سبيل نَشْر دعوته ، إلا أمة محمد فقد أمِنَها على أن تحمل السيف لتُؤدِّب الخارجين عن طاعة الله .

وقوله تعالى : ﴿وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ .. (٥٥)﴾ [الكهف] أى : على ما فات من المهاترات والتعنُّتات والاستكبار على قبول الحق ﴿إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ .. (٥٥)﴾ [الكهف] أى : بهلاك المكذبين ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلاً (٥٥)﴾ [الكهف] أى مُقابلاً لهم ، وعياناً أمامهم ، أو (قُبُلاً) جمع قبيل ، وهي ألوان متعددة من العذاب ، كما قال تعالى : ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ .. (٤٧)﴾ [الطور] أى : لهم عذاب غير النار ، فألوان العذاب لهم متعددة .

ثم يُسلِّى الحق سبحانه رسوله ﷺ حتى لا يأبه لعمل الكفار ، ولا يهلك نفسه أسَفاً على إعراضهم ، فيقول سبحانه :

﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ ۖ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا (٥٦)﴾

قلنا : إن الجدل قد يكون بالحق ، وقد يكون بالباطل كما يفعل الذين كفروا هنا ، فيجادلون بالباطل ويستخدمون كل الحِيَل لدحْضِ

الحق أى : ليُعطّلوه ويزيلوه ﴿ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا (٥٦) ﴾ [الكهف] أى : الآيات الكونية التى جاءت لتصديق الرسل ، وكذلك آيات القرآن ، وآيات الأحكام اتخذوها سُخْرية واستهزاءً ، ولم يعبأوا بما فيها من نذارة .

ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا (١) وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا (٥٧) ﴾

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ .. (٥٧) ﴾ [الكهف] جاء الخبر على صورة الاستفهام لتأكيد الكلام ، كأنْ يدَّعى صاحبك أنك لم تصلْه ، ولم تصنع معه معروفاً ، فمن الممكن أن تقول له : صنعتُ معك كذا وكذا على سبيل الخبر منك ، والخبر يحتمل الصدق ويحتمل الكذب .

إنما لو عرضْتَ المسألة على سبيل الاستفهام فقُلْتَ له : ألم أصنع معك كذا ؟ فسوف تجتذب منه الإقرار بذلك ، وتقيم عليه الحجة من كلامه هو ، وأنت لا تستفهم عن شىء من خَصْم إلا وأنت واثق أن جوابه لا يكون إلا بما تحب .

وهكذا أخرج الحق سبحانه الخبر إلى الاستفهام : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ .. (٥٧) ﴾ [الكهف] ؟ وترك لنا الجواب لنقول نحن : لا أحدَ أظلمُ ممَّنْ فعل ذلك ، والإقرار سيد الأدلة .

---

(١) وقرت أذنه : ثقل سمعها . أو صُمَّتْ . يقول الكافرون ذلك سخرية وإصراراً على العناد والكفر والتكذيب . [القاموس القويم ٢/٣٥٠] .

وقوله ﴿فَأَعْرَضَ عَنْهَا .. (٥٧)﴾ [الكهف] تركها ﴿وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ .. (٥٧)﴾ [الكهف] نسى السيئات ، وكان من الواجب أن يتنبه إلى هذه الآيات فيؤمن بها ، لعل الله يتوب عليه بإيمانه ، فيُبدِّل سيئاته حسنات .

ثم يقول تعالى : ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ .. (٥٧)﴾ [الكهف]

أكنة : أغطية جمع كِنّ ، فجعل الله على قلوبهم أغطية ، فلا يدخلها الإيمان ، ولا يخرج منها الكفر ، وليس هذا اضطهاداً منه تعالى لعباده ، تعالى الله عن ذلك ، بل استجابة لما طلبوا وتلبية لما أحبُّوا ، فلما أحبُّوا الكفر وانشرحتْ به صدورهم زادهم منه ؛ لأنه رَبٌّ يعطى عبده ما يريد .

كما قال عنهم فى آية أخرى : ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (١٠)﴾ [البقرة]

وقال تعالى فى هذا المعنى : ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ .. (٧)﴾ [البقرة]

ومعنى : ﴿أَن يَفْقَهُوهُ .. (٥٧)﴾ [الكهف] أى : يفهموه ، يفهموا آيات الله ؛ لأنهم سبق أنْ ذُكِّروا بها فأعرضوا عنها ، فحرَمهم الله فقهها وفهمها .

وقوله تعالى : ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا .. (٥٧)﴾ [الكهف] أى : صمم فلا يسمعون ﴿وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا (٥٧)﴾ [الكهف] وهذا أمر طبيعى ، بعد أن ختم الله على قلوبهم وعلى أسماعهم ، وسَدَّ عليهم منافذ العلم والهداية ؛ لأن الهدى ناشىء من أن تسمع كلمة الحق ، فيستقبلها قلبُكَ بالرضا ، فتنفعل لها جوارحك بالالتزام ،

فتسمع بالأذن ، وتقبل بالقلب ، وتنفعل بالجوارح طاعةً والتزاماً بما أُمِرَتْ به .

وما دام فى الأذن وَقْر وصَمَمٌ فلن تسمع ، وإنْ سمعتْ شيئاً أنكره القلب ، والجوارح لا تنفعل إلا بما شُحِن به القلب من عقائد .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا (١) ﴿٥٨﴾ ﴾

فمن رحمة الله بالكفار أنه لم يعاجلهم بعذاب يستأصلهم ، بل أمهلهم وتركهم ؛ لأن لهم موعداً لن يهربوا منه ، ولن يُفلتوا ، ولن يكون لهم مَلْجأ يحميهم منه ، ولا شكَّ أن فى إمهالهم فى الدنيا حكمة لله بالغة ، ولعل الله يُخرِج من ظهور هؤلاء مَنْ يؤمن به ، ومَنْ يحمل راية الدين ويدافع عنه ، وقد حدث هذا كثيراً فى تاريخ الإسلام ، فمنْ ظَهْر أبى جهل جاء عكرمة ، وأمهل الله خالد بن الوليد ، فكان أعظمَ قائد فى الإسلام .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾ ﴾

تلك : أداة إشارة لمؤنث هى القرى ، والكاف للخطاب ، والخطاب هنا للنبى ﷺ ، وأمتُه مُنْضوية فى خطابه ؛ لأن خطابَ الرسول

---

(١) الموئل : الملجأ أو المكان للنجاة . وألَ إليه يئل : لجأ إليه فراراً ، ووأل من المكروه : نجا منه أو : نجا من خطر يتهدده . [القاموس القويم ٢/٣١٧] .

خطاب لأمته . لكن الإشارة لا تكون إلا لشيء معلوم موجود مُحَسٍّ ، كما جاء فى قوله تعالى :﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ ﴾ [طه] .

فأين هذه القُرَى ؟ وهل كان لها وجود على عهد النبى ﷺ ؟

نعم ، كان لهذه القرى آثار وأطلال تدل عليها ويراها النبى ﷺ ويراها الناس فى رحلاتهم إلى الشام وغيرها مثل : قُرَى ثمود قوم صالح ، وقرى قوم لوط ، وقد قال تعالى عنها : ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾ [الصافات]

إذن : فتلك إشارة إلى موجود مُحَسٍّ دَالٍّ بما تبقّى منه على ما حاق بهذه القرى من عذاب الله ، وما حلَّ بها من بَأْسِه الذى لا يُرَدُّ عن القوم الظالمين .

وكلمة (القرى) جمع قرية ، وتُطلَق على المكان الذى تتوفّر فيه مُقوِّمات الحياة وضرورياتها ، بل بها ما يزيد على الضروريات ومُقوّمات الحياة العادية ؛ لأن القرية لا تُطلَق إلا على مكان تتسع فيه مُقوِّمات الحياة اتساعاً يكفى لمن يطرأ عليها من الضيوف فيجد بها قِرَى[1] . فإنْ كانت قرية كبيرة يأتيها الرزق الوفير من كل مكان كأنها أُمٌّ ، نسميها (أم القرى)[2] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ ﴾

---

(١) القرى : طعام الأضياف . والمقْرى : كل ما يؤتى به من قرى الضيف من قصعة أو جفنة . [لسان العرب ـ مادة : قرىَ] .

(٢) وقد جاء هذا الوصف في القرآن في قوله تعالى قاصداً مكة المكرمة ، فقال : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا .. ﴿٧﴾ ﴾ [الشورى] .

قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ .. (٦٠)﴾ [الكهف] أى : اذكر يا محمد وقت أنْ قال موسى لفتاه ، وفتى موسى هو خادمه يوشع ابن نون ، وكان من نَسْل يوسف ـ عليه السلام ـ وكان يتبعه ويخدمه ليتعلم منه .

﴿لا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ .. (٦٠)﴾ [الكهف]

لكن ، ما حكاية موسى مع فتاه ؟ وما مناسبتها للكلام هنا ؟

مناسبة قصة موسى هنا أن كفار مكة بعثوا ليهود المدينة يسألونهم عن خبر النبى ﷺ ؛ لأنهم أهل كتاب وأعلم بالسماء ، فأرادوا رأيهم فى محمد : أهو مُحِقٌّ أم لا ؟ فقال اليهود لوفد مكة : اسألوه عن ثلاثة أشياء ، فإن أجابكم فهو نبى : اسألوه عن الفتية الذين ذهبوا فى الدهر ، والرجل الطواف الذى طاف البلاد ، وعن الروح ، فما كان منهم إلا أن سألوا رسول الله هذه الأسئلة ، فقال لهم : « فى الغد أجيبكم »[(١)] .

إذن : إجابة هذه الأسئلة ليست عنده ، وهذه تُحسَب له لا عليه ، فلو كان محمد ﷺ يضرب الكلام هكذا دون علم لأجابهم ، لكنه سكت إلى أن يأتى الجواب من الله تعالى ، وهذا من أدبه ﷺ مع ربه الذى أدَّبه فأحسن تأديبه .

ومرَّتْ خمسة عشر يوماً دون أن يُوحَى لرسول الله فى ذلك شىء ، حتى شَقَّ الأمر عليه ، وفرح الكفار والمنافقون ؛ لأنهم وجدوا على رسول الله مأخذاً فاهتبلوا هذه الفرصة ليندوا برسول الله ، إنما أدب الله لرسوله فوق كل شىء ليبين لهم أن رسول الله لن يتكلم فى

---

(١) أورده ابن كثير فى تفسيره (٣/٧١) وعزاه لمحمد بن إسحاق من قول ابن عباس رضى الله عنهما عن وفد قريش إلى أحبار يهود بالمدينة ليسألوهم عن محمد ﷺ وصفته .

هذه المسألة إلا بوحى من الله ؛ لأنه لا ينطق عن الهوى ولا يصدر عن رأيه .

ولو كان لهؤلاء القوم عقول لفهموا أن البُطْءَ فى هذه المسألة دليلُ صدق النبى ﷺ ؛ لذلك جاءت قصة موسى هنا لتردَّ على مهاترَات القوم ، وتُبيِّن لهم أن النبى لا يعلم كل شىء ، وهل المفروض فيه أن يجيبكم عن كل شىء ؟ وهل يقدح فى مكانته أنه لا يعرف مسألة ما ؟

جاءت هذه الآيات لتقول لليهود ومَنْ لَفَّ لَفَّهم من كفار مكة : أنتم متعصبون لموسى وللتوراة ولليهودية ، وها هو موسى يتعلم ليس من الله ، بل يتعلم من عبد مثله ، ويسير تابعاً له طلباً للعلم .

جاءت الآيات لتقول لهم : يا مَنْ لقنتم كفار مكة هذه الأسئلة وأظهرتم الشماتة بمحمد حينما أبطأ عليه الوحى ، اعلموا أن إبطاء الوحى لتعلموا أن محمداً لا يقول شيئاً من عند نفسه ، فكان من الواجب أنْ تلفتكم هذه المسألة إلى صدق محمد وأمانته ، وما هو على الغيب بضنين .

وسبب قصة موسى عليه السلام ـ يُقال : إنه سأل الله ـ وكان له دلال على ربه : ﴿رَبِّ أَرِنِى أَنظُرْ إِلَيْكَ .. (١٤٣)﴾ [الأعراف] والذى أطمعه فى هذا المطلب أن الله كلَّمه ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ (١٧)﴾ [طه] فأطال موسى الكلام مع ربه ، ومَنْ الذى يكلمه الله ولا يطيل أمد الأُنْس بكلام الله ؟ لذلك قال موسى : ﴿هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ (١٨)﴾ [طه]

(١) هش الشجر : ضربه بعصاً ليسقط ورقه لتأكله الماشية . ومعنى قوله تعالى : ﴿وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى.. (١٨)﴾ [طه] . أى : أسقط بعصاى أوراق الأشجار على غنمى لتأكلها . [القاموس القويم ٢/٣٠٣] .

وهكذا أطال موسى مدة الأنس بالله والحديث معه سبحانه ، لذلك سأله : يا ربِّ ، أيوجد فى الأرض أعلم منى ؟ فأجابه ربُّه تبارك وتعالى : نعم فى الأرض مَنْ هو أعلم منك ، فاذهب إلى مجمع البحرين ، وهناك ستجد عبداً من عبيدى هو أعلم منك ، فأخذ موسى فتاه وذهب إلى مَجْمع البحرين .

وقد ورد فى حديث رسول الله ﷺ أن موسى ـ عليه السلام ـ خطب مرة فسُئل : مَنْ أعلم ؟ فقال : أنا ـ يعنى من البشر ، فأخبره الله تعالى : لا بل فى الأرض مَنْ هو أعلم منك من البشر[1] حتى لا يغترَّ موسى ـ عليه السلام ـ بما أعلمه الله .

ثم يقول تعالى : ﴿ لا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ .. ﴿٦٠﴾ ﴾ [الكهف]

لا أبرح : أى لا أترك ، والبعض يظن أن لا أبرح تعنى : لا أترك مكانى الذى أنا فيه ، لكنها تعنى : لا أترك ما أنا بصدده ، فإنْ كنتُ قاعداً لا أترك القعود ، وإنْ كنتُ ماشياً لا أترك المشى ، وقد قال موسى ـ عليه السلام ـ هذا القول وهو يبتغى بين البحرين ، ويسير متجهاً إليه ، فيكون المعنى : لا أترك السير إلى هذا المكان حتى أبلغ مجمع البحرين .

وقد وردتْ مادة (برح) فى قوله تعالى فى قصة يوسف عليه السلام : ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي .. ﴿٨٠﴾ ﴾ [يوسف] قالها كبيرهم بعد أن أخذ يوسف أخاه بنيامين ومنعه من الذهاب معهم ، فهنا استحى الأخ الأكبر من مواجهة أبيه الذى أخذ عليهم العهد والميثاق أنْ يأتوا به ويُعيدوه إليه .

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٧٢٥-٤٧٢٧) فى تفسير آية : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ ﴾ [الكهف] . وكذا أخرجه أحمد فى مسنده (١١٧/٥) من حديث أبىّ بن كعب .

و « مجْمَع البحرين » أى : موضع التقائهما ، حيث يصيران بحراً واحداً ، كما يلتقى مثلاً دجلة والفرات فى شَطِّ العرب .

وقوله : ﴿أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾﴾ [الكهف]

الحُقُب : جمع حِقْبة ، وهى الفترة الطويلة من الزمن ، وقد قدَّروها بحوالى سبعين أو ثمانين سنة ، فإذا كان أقل الجمع ثلاثة ، فمعنى ذلك أن يسير موسى ـ عليه السلام ـ مائتين وعشرة سنين ، على اعتبار أن الحِقْبة سبعون سنة .

ويكون المعنى : لا أترك السير إلى هذا المكان ولو سِرْتُ مائتين وعشرة سنين ؛ لأن موسى عليه السلام كان مَشُوقاً إلى رؤية هذا الرجل الأعلم منه ، كيف وهو النبى الرسول الذى أوحى الله إليه ؛ لذلك أخبره ربه أن عِلْم هذا الرجل علم من لدنا ، علم من الله لا من البشر .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾﴾ (١)

(بَلَغَا) أى : موسى وفتاه (مجْمَعَ بينهمَا) أى : مجمع البحرين (نَسِيَا حُوتَهُمَا) أى : حدث النسيان منهما معاً ، وإنْ كان حمل الحوت منوطاً بفتى موسى وقد نسيه ، فكان على موسى أنْ يُذكِّره به ، فرئيس القوم لابُدَّ أن يتنبه لكل جزئية من جزئيات الرَّكْب ، وكانت العادة أنْ يكون هو آخر المبارحين للمكان ليتفقده وينظر لعل واحداً نسى شيئاً ، إذن : كان على موسى أن يعقب ساعة قيامهم لمتابعة السير ، ويُذكِّر فتاهُ بما معهم من لوازم الرحلة .

---

(١) الحوت : السمكة كبرت أو صغرت والجمع حيتان . [القاموس القويم ١/١٧٦] .

والحوت : نوع من السمك معروف ، وفى بعض البلاد يُطلقون على كل سمك حُوتاً ، وقد أعدُّوه للأكل إذا جاعوا أثناء السير ، وكان الفتى يحمله وهو مشوى فى مكتل[1] .

وقوله تعالى : ﴿فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا (٦١)﴾ [الكهف] أى : خرج الحوت المشوى من المكتل ، وتسرَّب نحو البحر ، والسَّرَب : مثل النفق أو السرداب ، أو هو المنحدر ، كما نقول : تسرب الماء من القِرْبة مثلاً ؛ ذلك لأن مستوى الماء فى القِرْبة أعلى فيتسرَّب منها ، وهذه من عجائب الآيات أن يقفز الحوت المَشوىّ ، وتعود له الحياة ، ويتوجّه نحو البحر ؛ لأنه يعلم أن الماء مسكنه ومكانه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا (٦٢)﴾

أى : جاوزا فى سيرهما مجمع البحرين ومكان الموعد ، قال موسى ـ عليه السلام ـ لفتاه : أحضر لنا الغداء فقد تعبنا من السفر ، والنَّصَب : هو التعب .

فمعنى ذلك أنهما سارا حتى مجمع البحرين ، ثم استراحا ، فلما جاوزا هذا المكان بدا عليهما الإرهاق والتعب ؛ لذلك طلب موسى الطعام . وهنا تذكَّر الفتى ما كان من نسيان الحوت .

﴿قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ ۚ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا (٦٣)﴾

---

(١) المِكْتل : الزَّنبيل الذى يُحمل فيه التمر أو العنب إلى الجرين . وقيل : المكتل شبه الزنبيل يسع خمسة عشر صاعاً . [لسان العرب ـ مادة : كتل] .

هذا كلام فتى موسى : أرأيت : أخبرنى إذْ لجأنا إلى الصخرة عند مَجْمع البحرين لنستريح ﴿فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ .. (٦٣)﴾ [الكهف] ونلحظ أنه قال هنا (نَسِيتُ) وقال فى الآية السابقة ﴿نَسِيَا..(٦١)﴾ [الكهف] ذلك لأن الأولى إخبار من الله ، والثانية كلام فتى موسى .

فكلام الله تبارك وتعالى يدلُّنا على أن رئيساً متبوعاً لا يترك تابعه ليتصرف فى كلِّ شىء ؛ لأن تابعه قد لا يهمه أمر المسير فى شىء ، وقد ينشغل ذِهْنه بأشياء أخرى تُنسيه ما هو منُوط به من أمر الرحلة .

ثم يعتذر الفتى عما بَدَر منه من نسيان الحوت ، ويقول : ﴿وَمَا أَنسَانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ .. (٦٣)﴾ [الكهف] فالشيطان هو الذى لعب بأفكاره وخواطره حتى أنساه واجبه ، وأنساه ذكْر الحوت .

وقوله تعالى : ﴿وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا (٦٣)﴾ [الكهف] أى : اتخذ الحوتُ طريقه فى البحر عَجَباً ، فى الآية السابقة قال ﴿سَرَبًا (٦١)﴾ [الكهف] وهذه حال الحوت ، وهنا يقول (عَجَباً) لأنه يحكى ما حدث ويتعجب منه ، وكيف أن الحوت المشوىّ تدبّ فيه الحياة حتى يقفز من المكتل ، ويتجه صَوْبَ الماء ، فهذا حقاً عجيبة من العجائب ؛ لأنها خرجتْ عن المألوف .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا (٦٤)﴾

أى : قال موسى ـ عليه السلام ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ .. (٦٤)﴾ [الكهف] أى : نطلب ، فهذا المكان الذى فُقِد فيه الحوت هو المكان المراد ، فكأن الحوت كان أعلم بالموعد من موسى ، وهكذا عُرف

عنوان المكان ، وهو مَجْمع البحرين ، حيث يلتقى البحران فيصيران بحراً واحداً .

وهذه الصورة لا توجد إلاَّ فى مسرح بنى إسرائيل فى سيناء . وهناك خليج العقبة وخليج السويس ، ويلتقيان فى بحر واحد عند رأس محمد[1] .

ثم يقول تعالى : ﴿ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا (٦٤) ﴾ [الكهف] أى : عادا على أثر الأقدام كما يفعل قَصَّاصُو الأثر ، ومعنى ﴿ قَصَصًا (٦٤) ﴾ [الكهف] أى : بدقة إلى أنْ وصلاَ إلى المكان الذى تسرَّب فيه الحوت ، وهو الموعد الذى ضربه الله تعالى لموسى ـ عليه السلام ـ حيث سيجد هناك العبد الصالح .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا (٦٥) ﴾

سبق أن تحدثنا عن العبودية ، فإنْ كانت لله تعالى فهى العزّ والشرف ، وإنْ كانت لغير الله فهى الذلُّ والهوان ، وقلنا : إن النبى ﷺ لم يأخذ حَظْوة الإسراء والمعراج إلا لأنه عبد لله ، كما قال سبحانه : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ .. (١) ﴾ [الإسراء]

كما أن العبودية لله يأخذ فيها العبد خَيْر سيده ، أما العبودية للبشر فيأخذ السيد خَيْر عبده .

---

(١) قال قتادة عن مجمع البحرين : هو بحر فارس والروم . وقيل : هما بحر الأردن وبحر القلزم (أى : خليج السويس) . وقيل : مجمع البحرين عند طنجة ، قاله محمد بن كعب . [تفسير القرطبى ٥/٤١٦٢] .

ثم وصف الحق سبحانه هذا العبد الصالح ، فقال : ﴿آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا .. (٦٥)﴾ [الكهف] وقد تكلم العلماء فى معنى الرحمة هنا ، فقالوا : الرحمة وردتْ فى القرآن بمعنى النبوة ، كما فى قوله تعالى : ﴿وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١)﴾ [الزخرف] فكان رَدُّ الله عليهم : ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ..(٣٢)﴾ [الزخرف]

أى : النبوة ، ومطلق الرحمة تأتى على يد جبريل ـ عليه السلام ـ وعلى يد الرسل ، أما هذه الرحمة ، فمن عندنا مباشرة دون واسطة الملَك ؛ لذلك قال تعالى : ﴿آتَيْنَاهُ .. (٦٥)﴾ [الكهف] نحن ، وقال : ﴿مِّنْ عِندِنَا .. (٦٥)﴾ [الكهف] فالإتيان والعنْدية من الله مباشرة .

ثم يقول بعدها : ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا (٦٥)﴾ [الكهف] أى : من عندنا لا بواسطة الرسل ؛ لذلك يسمونه العلم اللدنى ، كأنه لا حرجَ على الله تعالى أن يختار عبداً من عباده ، ويُنعِم عليه بعلم خاص من وراء النبوة .

إذن : علينا أنْ نُفرِّق بين علم وفيوضات تأتى عن طريق الرسول وتوجيهاته ، وعلم وفيوضات تأتى من الله تعالى مباشرة لمن اختاره من عباده ؛ لأن الرسول يأتى بأحكام ظاهرية تتعلق بالتكاليف : افعل كذا ولا تفعل كذا ، لكن هناك أحكام أخرى غير ظاهرية لها علَل باطنة فوق العلل الظاهرية ، وهذه هى التى اختصَّ الله بها هذا العبدَ الصالح (الخضرَ) كما سماه النبى ﷺ .

والدليل على ذلك أن النبى يأتى بأحكام تُحرّم القتل وتحرّم إتلاف مال الغير ، فأتى الخضر وأتلف السفينة وقتل الغلام ، وقد اعترض موسى ـ عليه السلام ـ على هذه الأعمال ؛ لأنه لا علْمَ له بعلتها ، ولو أن موسى ـ عليه السلام ـ علم العلّة فى خَرْق السَفينة لبادر هو إلى خرقها .

إذن : فعلْم موسى غير علم الخضر ؛ لذلك قال له : ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٦٧) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا (٦٨)﴾ [الكهف]

فهذا علْم ليس عندك ، فعلْمى من كيس الولاية ، وعلمك من كيس الرسل ، وهما فى الحقيقة لا يتعارضان ، وإنْ كان لعلم الولاية عِلَل باطنة ، ولعلم الرسالة عِلَل ظاهرة .

ثم يقول تعالى :

﴿قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا (٦٦)﴾

كأن موسى عليه السلام يُعلِّمنا أدب تلقّى العلم وأدب التلميذ مع معلمه ، فمع أن الله تعالى أمره أن يتبع الخضر ، فلم يقُل له مثلاً : إن الله أمرنى أن أتبعك ، بل تلطّف معه واستسمحه بهذا الأسلوب ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ .. (٦٦)﴾ [الكهف]

والرشد : هو حُسْن التصرّف فى الأشياء ، وسداد المسلك فى علة ما أنت بصدده ، وسبق أن قلنا : إن الرُّشْد يكون فى سنِّ البلوغ ، لكن لا يعنى هذا أن كل مَنْ بلغ يكون راشداً ، فقد يكون الإنسان بالغاً وغير راشد ، فقد يكون سفيهاً .

لذلك لما تكلم الحق سبحانه عن اليتامى قال : ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ .. (٦)﴾ [النساء] أى : اختبروهم ، واختبار اليتيم يكون حال يُتْمه وهو ما يزال فى كفالتك ، فعليك أنْ تكلّفه بعمل ما لإصلاح حاله ، وتعطيه جزءاً من ماله يتصرَّف فيه تحت عينك وفى رعايتك ، لترى كيف سيكون تصرفه .

عليك أنْ تحرص على تدريبه لمواجهة الحياة ، لا أن تجعله فى مَعْزل عنها إلى أنْ يبلغَ الرشْد ، ثم تدفع إليه بماله فلا يستطيع التصرف فيه لعدم خبرته ، وإنْ فشل كانت التجربة فى ماله والخسارة عليه .

إذن : فاختبار اليتيم يتمُّ وهو ما يزال فى ولايتك ، وتحت سمعك وبصرك رعاية لحقه .

﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ .. (٦) ﴾ [النساء] وهو سن البلوغ ، ولم يقُلْ بعدها : فادفعوا إليهم أموالهم ؛ لأن بعد البلوغ شرطاً آخر ﴿ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا .. (٦) ﴾ [النساء] فعلى الوصىّ أنْ يُراعِىَ هذا الترتيب :

أنْ تُراعى اليتيم وهو تحت ولايتك ، وتدفع به فى مُعْتَرك الحياة وتجاربها حتى يتمكّن من مواجهة الحياة ولا يتخبط فى ماله لعدم تجربته وخبرته ، فإنْ علمت رُشْده بعد البلوغ فادفع إليه بماله ليتصرّف فيه ، فإنْ لم تأنسْ منه الرشد وحُسْن التصرف فلا تترك له المال يُبدّده بسوء تصرفه .

لذلك يقول تعالى فى هذا المعنى : ﴿ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ .. (٥) ﴾ [النساء] ولم يقُلْ : أموالهم ؛ لأن السفيه لا مالَ له حال سَفَهه ، بل هو مالكم لِتُحسِنوا التصرف فيه وتحفظوه لصاحبه لحين تتأكدون من رُشْده .

إذن : فالرشد الذى طلبه موسى من العبد الصالح هو سداد التصرف والحكمة فى تناول الأشياء ، لكن هل يعنى ذلك أن موسى - عليه السلام - لم يكن راشداً ؟ لا ، بل كان راشداً فى مذهبه هو كرسول ، راشداً فى تبليغ الأحكام الظاهرية .

أما الرشد الذى طلبه فهو الرشد فى مذهب العبد الصالح ، وقد دلّ هذا على أنه طلب شيئاً لم يكن معلوماً له ، وهذا لا يقدح فى

مكانة النبوة ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى قال : ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً (٨٥)﴾ [الإسراء]

وقال للنبى ﷺ : ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا (١١٤)﴾ [طه]

لذلك يقول الشاعر :

كُلّما ازْدَدْتُ عُلوماً زِدْتُ إيقَاناً بجهْلى

لأن معنى أنه ازداد علْماً اليوم أنه كان ناقصاً بالأمس ، وكذلك هو ناقص اليوم ليعلمَ غداً .

والإنسان حينما يكون واسعَ الأفق محباً للعلم ، تراه كلما علَم قضية اشتاق لغيرها ، فهو فى نَهمٍ دائم للعلم لا يشبع منه ، كما قال ﷺ : « منهومان لا يشبعان : طالبُ علم ، وطالب مال »[1] .

والشاعر الذىَ تنبَّه لنفسه حينما دَعَتْه إلى الغرور والكبرياء والزَّهْو بما لديه من علم قليل ، إلا أنه كان متيقظاً لخداعها ، فقال :

قالتِ النفْسُ قَدْ علِمْتُ كَثِيراً قُلْتُ هَذَا الكثيرُ نَزْعٌ يسِيرُ

ثم جاء بمثل توضيحى :

تمْلأُ الكُوزَ غَرْفَةٌ مِنْ مُحِيط فَيَرى أنَّهُ المحيطُ الكَبِيرُ

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٦٧)﴾

هنا يبدأ العبد الصالح يُملى شروط هذه الصُّحْبة ويُوضّح لموسى ـ عليه السلام ـ طبيعة علْمه ومذهبه ، فمذهبُك غير مذْهبى ، وعلمى من كيس غير كيسك ، وسوف ترى منى تصرفات لن تصبر عليها ؛

---

(١) أخرجه الطبرانى فى المعجم الكبير (١٠/٢٢٣) (حديث ١٠٣٨٨) من حديث عبد الله بن مسعود ، قال الهيثمى فى « مجمع الزوائد » (١/١٣٥) : « فيه أبو بكر الداهرى وهو ضعيف » .

لأنه لا علْم لك ببواطنها ، وكأنه يلتمس له عُذْراً على عدم صَبْره معه ؛ لذلك يقول :

﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾﴾

فلا تحزن لأنى قُلت : لن تستطيع معى صبراً ؛ لأن التصرفات التى ستعترض عليها ليس لك خُبر بها ، وكيف تصبر على شىء لا عِلْمَ لك به ؟

ونلحظ فى هذا الحوار بين موسى والخضر[1] ـ عليهما السلام ـ أدبَ الحوار واختلافَ الرأى بين طريقتين : طريقة الأحكام الظاهرية ، وطريقة ما خلف الأحكام الظاهرية ، وأن كلاً منهما يقبَل رأىَ الآخر ويحترمه ولا يعترض عليه أو يُنكره ، كما نرى أصحاب المذاهب المختلفة ينكر بعضهم على بعض ، بل ويُكفِّر بعضهم بعضاً ، فإذا رأوْا مثلاً عبداً من عباد الله اختاره الله بشىء من الفيوضات ، فكانت له طريقة وأتباع نرى مَنْ ينكر عليه ، وربما وصل الأمر إلى الشتائم والتجريح ، بل والتكفير .

لقد تجلَّى فى قول الخضْر : ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾﴾ [الكهف] مظهر من مَظاهر أدب المعلّم مع المتعلِّم ، حيث احترمَ رأيه ، والتمس له العُذْر إن اعترض عليه ، فلكُلٍّ منهما مذهبه الخاص ، ولا يحتج بمذهب على مذهب آخَر .

فماذا قال المتعلم بعد أن استمع إلى هذه الشروط ؟

﴿قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾﴾

---

(١) قال مجاهد : سمى الخضر لأنه كان إذا صلى اخضرَّ ما حوله . وروى الترمذى عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ : « إنما سمى الخضر لأنه جلس على فروة بيضاء فإذا هى تهتز تحته خضراء » ذكره القرطبى فى تفسيره (٥/٤١٦٩) .

أى : أنا قابل لشروطك أيُّها المعلم فاطمئن ، فلن أجادلك ولن أعارضك فى شىء . وقدّم المشيئة فقال : ﴿إِن شَاءَ اللَّهُ .. (٦٩)﴾ [الكهف] ليستميله إليه ويُحنِّن قلبه عليه ﴿صَابِرًا .. (٦٩)﴾ [الكهف] على ما تفعل مهما كان ﴿وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا (٦٩)﴾ [الكهف] وهكذا جعل نفسه مأموراً ، فالمعلم آمر ، والمتعلّم مأمور .

﴿قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا (٧٠)﴾

وهذا تأكيد من الخضر لموسى ، وبيان للطريقة التى يجب اتباعها فى مصاحبته : إنْ تبعتنى فلا تسألْنى حتى أخبرك ، وكأنه يُعلِّمه أدب تناول العلم والصبر عليه ، وعدم العَجلة لمعرفة كل أمر من الأمور على حِدة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا (٧١)﴾

(فَانْطَلَقَا) سارا معاً ، حتى ركبا سفينة ، وكانت مُعَدَّة لنقل الركاب ، فما كان من الخضر إلا أنْ بادر إلى خَرْقها وإتلافها ، عندها لم يُطِق موسى هذا الأمر ، وكبُرت هذه المسألة فى نفسه فلم يصبر عليها فقال : ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا (٧١)﴾ [الكهف]

أى : أمراً عجيباً أو فظيعاً . ونسى موسى ما أخذه على نفسه من طاعة العبد الصالح وعدم عصيانه والصبر على ما يرى من تصرفاته .

كأن الحقَّ ـ تبارك وتعالى ـ يريد أن يُعلِّمنا أن الكلام النظرى شىء ، والعمل الواقعى شىء آخر ، فقد تسمع من أحدهم القول الجميل الذى يعجبك ، فإذا ما جاء وقت العمل والتنفيذ لا تجد شيئاً ؛ لأن الكلام قد يُقَال فى أول الأمر بعبارة الأريحية ، كمن يقول لك : أنا رَهْن أمرك ورقبتى لك ، فإذا ما أحوجك الواقع إليه كنت كالقابض على الماء لا تجد منه شيئاً .

ونلحظ هنا أن موسى ـ عليه السلام ـ لم يكتف بالاستفهام : ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا .. (٧١) ﴾ [الكهف] بل تعدَّى إلى اتهامه بأنه أتى أمراً منكراً فظيعاً ؛ لأن كلام موسى النظرى شىء ورؤيته لخرق السفينة وإتلافها دون مبرر شىء آخر ؛ لأن موسى استحضر بالحكم الشرعى إتلاف مال الغير ، فضلاً عن إغراق ركاب السفينة ، فرأى الأمر ضخماً والضرر كبيراً ، هذا لأن موسى يأخذ من كيس والخضر يأخذ من كيس آخر .

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٢)﴾

وهذا درس آخر من الخضر لموسى ـ عليهما السلام ـ يقول : إن كلامى لك كان صادقاً ، وقد حذرتُك أنك لن تصبرَ على ما ترى من تصرفاتى ، وها أنت تعترض علىَّ ، وقد اتفقنا وأخذنا العهد ألاَّ تسألنى عن شىء حتى أُخبرك أنا به .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا (٧٣)﴾

يعتذر موسى ـ عليه السلام ـ عما بدر منه لمعلمه ، ويطلب منه

مسامحته وعدم مؤاخذته ﴿ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا (٧٣) ﴾ [الكهف] أى : لا تُحمِّلنى من أمر اتباعك عُسْراً ومشقة . فسامحه الخضر وعاود السير .

﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا (٧٤) ﴾

تلاحظ أن الاعتداء الأول من الخضر كان على مال أتلفه ، وهنا صعَّد الأمر إلى قَتْل نفس زكية دون حق ، فبأىِّ جريرة يُقتل هذا الغلام الذى لم يبلغ رُشْده ؟ لذلك قال فى الأولى : ﴿ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا (٧١) ﴾ [الكهف] أى عجيباً أما هنا فقال : ﴿ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا (٧٤) ﴾ [الكهف] أى : مُنكَراً ؛ لأن الجريمة كبيرة .

والنفس الزكية : الطاهرة الصافية التى لم تُلوِّثها الذنوب ومخالفة التكاليف الإلهية .

وكذلك يأتى الرد من الخضْر مخالفاً للرد الأول ، ففى المرة الأولى قال : ﴿ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٢) ﴾ [الكهف] أى : قلت كلاماً عاماً ، أما هنا فقال :

﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٥) ﴾

وأكَّدها وأراده بالكلام أى : قُلْت لك أنت .

ثم بعد المرة الثانية التى يقاطع فيها موسى معلمه الخضر يأخذ عهداً جديداً على نفسه .

﴿ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا (٧٦) ﴾

وهكذا قطع موسى ـ عليه السلام ـ الطريق على نفسه ، وأعطى

لهـا فرصـة واحدة يتم بعـدها الفـراق ؛ لذلك فى الحديث أن رسـول الله ﷺ قـال : « رحـمنا الله ، ورحم أخى مـوسـى لو صـبـر لعـرفنا الكثير »[(١)] .

فهذه هى الثالثة ، وليس لموسى عذر بعد ذلك .

ومعنى : ﴿قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا (٧٦)﴾ [الكهف] أى : قد فـعلت معى كل ما يمكن فعله ، وليس لى عُذْر بعد ذلك .

ثم يقول سبحانه :

﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا (٧٧)﴾

اسـتطـعم : أى طلب الطعـام ، وطلَبُ الطعـام هـو أصـدق أنواع السؤال ، فلا يسأل الطعام إلا جائع محتاج ، فلو سأل مالاً لقلنا : إنه يدخره ، إنمـا الطعام لا يعتـرض عليه أحد ، ومنْعُ الطعـام عن سائله دليل بُخْل ولُؤْم مـتـأصل فى الطبـاع ، وهذا مـا حـدث من أهل هذه القرية التى مَرّا بها وطلبَا الطعام فمنعوهما .

والمتأمل فى الآية يجد أن أسلـوب القرآن يُصوّر مدى بُخْل هؤلاء القوم ولُؤْمهم وسُـوء طباعهم ، فلم يقُلْ مثلاً : فأبوا أن يطعـموهما ،

---

(١) أخرجـه مسلم فى صـحيـحه (٢٣٨٠) كتـاب الفضـائل من حديث أبى بن كـعب بلفظ : « رحـمة الله علينا وعـلى موسى ، لولا أنه عـجل لرأى العـجب ، ولكنه أخـذته ذمامـة من صاحـبه » وفى لفظ آخر له أيضـاً ولأحمد (١٢١/٥) : « يـرحم الله موسى ، لوددت أنه كان صبر حتى يقص علينا من أخبارهما » .

بل قال : ﴿فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا .. (٧٧)﴾ [الكهف] وفرْق بين الإطعام والضيافة ، أَبَوْا الإطعام يعنى منعوهما الطعام ، لكن أبَوْا أن يُضيِّفوهما ، يعنى كل ما يمكن أنْ يُقدَّم للضيف حتى مجرد الإيواء والاستقبال ، وهذا مُنْتَهى ما يمكن تصوُّره من لُؤمْ هؤلاء الناس .

وتلحظ أيضاً تكرار كلمة (أَهْل) فلما قال : ﴿أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ .. (٧٧)﴾ [الكهف] فكان المقام للضمير فيقول : استطعموهم ، لكنه قال : ﴿اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا .. (٧٧)﴾ [الكهف] لأنهم حين دخلوا القرية : هل قابلوا كل أهلها ، أم قابلوا بعضهم الذين واجهوهم أثناء الدخول ؟

بالطبع قابلوا بعضهم ، أما الاستطعام فكان لأهل القرية جميعاً ، كأنهما مرّا على كل بيت فى القرية وسألا أهلها جميعاً واحداً تلو الآخر دون جدوى ، كأنهم مجمعون على البُخْل ولُؤْم الطباع .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ .. (٧٧)﴾ [الكهف]

أى : لم يلبثا بين هؤلاء اللئام حتى وَجَدا جداراً يريد أنْ ينقضّ ، ونحن نعرف أن الإرادة لا تكون إلا للمفكر العاقل ، فإنْ جاءت لغير العاقل فهى بمعنى : قَرُب . أى : جداراً قارب أنْ ينهار ، لما نرى فيه من علامات كالتصدُّع والشُّروخ مثلاً .

وهذا الفهم يتناسب مع أصحاب التفكير السطحى وضَيِّقى الأفق ، أما أصحاب الأفق الواسع الذين يعطون للعقل دوره فى التفكير والنظر ويُدقِّقون فى المسائل فلا مانع لديهم أنْ يكونَ للجدار إرادة على أساس أن لكل شىء فى الكون حياةً تناسبه ، ولله تعالى أن يخاطبه ويكون بينهما كلام .

ألم يَقُل الحق سبحانه : ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ .. (٢٩)﴾ [الدخان]

فإذا كانت السماء تبكى فقد تعدَّتْ مجرد الكلام ، وأصبح لها أحاسيس ومشاعر ، ولديها عواطف قد تسمو على عواطف البشر ، فقوله : ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ .. (٢٩)﴾ [الدخان] دليل على أنها تبكى على فَقْد الصالحين .

وقد سُئل الإمام على ـ رضى الله عنه ـ عن هذه المسألة فقال : « نعم ، إذا مات المؤمن بكى عليه موضعان : موضع فى السماء وموضع فى الأرض ، أما موضعه فى الأرض فموضع مُصلاَّه ، أما موضعه فى السماء فهو مصعد عمله »[(١)] .

وهذا دليل انسجام العبد المؤمن مع الكَوْن من حوله ، فالكون ساجد لله مُسبِّح لله طائع لله يحب الطائعين وينبُو بالعاصين ويكرههم ويلعنهم ؛ لذلك العرب تقول : (نَبَا به المكان) أى : كرهه لأنه غير منسجم معه ، فالمكان طائع وهو عاص ، والمكان مُسبِّح وهو غافل .

وعلى هذا الفهم فقوله تعالى : ﴿يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ .. (٧٧)﴾ [الكهف] قول على حقيقته .

إذن : فهذه المخلوقات لها إحساس ولها بكاء ، وتحزن لفقد الأحبة ، وفى الحديث أن النبى ﷺ قال : « إنى لأعرف حجراً بمكة كان يسلم علىَّ قبل أن أُبعث »[(٢)] .

---

(١) أورده ابن كثير فى تفسيره (٤/١٤٢) وعزاه لابن أبى حاتم عن على بن أبى طالب بلفظ : « إنه ليس من عبد إلا له مصلى فى الأرض ومصعد عمله من السماء ، وإن آل فرعون لم يكن لهم عمل صالح فى الأرض ولا عمل يصعد فى السماء ، ثم قرأ على رضى الله عنه ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ .. (٢٩)﴾ [الدخان] » .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٥/٨٩ ، ٩٥) ، ومسلم فى صحيحه (٢٢٧٧) كتاب الفضائل من حديث جابر بن سمرة .

ورُوى فى السيرة حنين الجذع إلى رسول الله ، وتسبيح الحصى فى يده ﷺ . وسبق أن أوضحنا هذه المسألة فقلنا : لا ينبغى أن نقول : سَبَّح الحصى فى يد رسول الله ؛ لأن الحصى يُسبِّح أيضاً فى يد أبى جهل ، لكن نقول : سمع رسول الله ﷺ تسبيح الحصى فى يديه .

ولا غرابة أن يعطينا القرآن أمثلة لكلام هذه الأشياء ، فقد رأينا العلماء فى العصر الحديث يبحثون فى لغة للأسماك ، ولغة للطير ، ولغة للوطاويط التى أخذوا منها فكرة الرادار ، بل وتوصلوا إلى أن الحيوان يستشعر بوقوع الزلزال وخاصة الحمار ، وأنها تفرّ من المكان قبل وقوع الزلزال مباشرة . إذن : فلهم وسائل إدراك ، ولهم لغة يتفاهمون بها ، ولهم منطق يعبرون به .

ثم يقول الحق سبحانه عن فعْل الخضر مع الجدار الذى قارب أن ينقض ﴿فَأَقَامَهُ (٧٧)﴾ [الكهف] ، أى : أصلحه ورمَّمه ﴿قَالَ لَوْ شِئْتَ لاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا (٧٧)﴾ [الكهف]

هذا قول موسى ـ عليه السلام ـ لما رأى لُؤْمَ القوم وخسّتهم ، فقد طلبنا منهم الطعام فلم يُطْعمونا ، بل لم يقدموا لنا مجرد المأوى ، فكيف نعمل لهم مثل هذا العمل دون أجرة ؟

وجاء هذا القول من موسى ـ عليه السلام ـ لأنه لا يعلم الحكمة من وراء هذا العمل .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا (٧٨)﴾

(قَالَ) أى : العبد الصالح (هذَا) أى : ما حدث منك من قولك : ﴿لَوْ شِئْتَ لاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا (٧٧)﴾ [الكهف] وقد سبق أن

اشترط موسى ـ عليه السلام ـ على نفسه إن اعترض على معلمه هذه المرة يكون الفراقُ بينهما ، وكأن العبد الصالح لم يَأْت بشىء من عنده ، لقد قالَ موسى : ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلا تُصَاحِبْنِي (٧٦)﴾ [الكهف] وهاهو يسأله ، إذن : فليس إلا الفراق : ﴿قَالَ هَـٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ .. (٧٨)﴾ [الكهف]

قوله : ﴿هَـٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ .. (٧٨)﴾ [الكهف] تُعد دُستوراً من الحق ـ سبحانه وتعالى ـ ودليلاً على أن هذين المذهبين لا يلتقيان ، فيظل كل منهما له طريقه : المرتاض له طريقه ، وغير المرتاض له طريقه ، ولا ينبغى أن يعترض أحدهما على الآخر ، بل يلزم أدبه فى حدود ما علَّمه الله .

ثم يقول تعالى على لسان الخضر : ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا (٧٨)﴾ [الكهف] أى : لن أتركك وفى نفسك هذه التساؤلات ، حتى لا يكون فى نفسك منى شىء ، سوف أخبرك بحقيقة هذه الأفعال التى اعترضْتَ عليها لتعلم أن الله لم يخدعْكَ ، بل أرسلك إلى مَنْ يُعلّمك شيئاً لم تكُنْ تعلمه .

ثم أخذ العبد الصالح يكشف لموسى الحكمة من هذه الأفعال واحداً تلْو الآخر ، كما لو عتبَ عليك صاحبك فى أمر ما ، وأنت حريص على مَودَّته فتقول له : أمهلنى حتى أوضح لك ما حدث ، لقد فعلتُ كذا من أجل كذا ، لتريح قلبه وتُزيل ما التبس عليه من هذا الأمر .

وقالوا : إن هذا من أدب الصُّحْبة ، فلا يجوز بعد المصاحبة أنْ نفترقَ على الخلاف ، ينبغى أن نفترق على وفَاق ورضا ؛ لأن الافتراق على الخلاف يُنمِّى الفجوة ويدعو للقطيعة ، إذن : فقبل أنْ نفترق : المسألة كيت وكيت ، فتتضح الأمور وتصفو النفوس .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾﴾

قوله : (لمسَاكينَ) اللام هنا للملكية ، يعنى مملوكة لهم ، وقد حسمتْ هذه الآيةُ الخَلافَ بين العلماء حول تعريف الفقير والمسكين ، وأيهما أشدّ حاجةً من الآخر ، وعليها فالمسكين : هو مَنْ يملك شيئاً لا يكفيه ، كهؤلاء الذين كانوا يملكون سفينة تعمل فى البحر ، وسماهم القرآن مساكين ، أما الفقير : فهو مَنْ لا يملك شيئاً .

ومعنى ﴿يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ .. ﴿٧٩﴾﴾ [الكهف] أى : مجال عملهم البحر ، يعملون فيه بنقل الركاب أو البضائع ، أو الصيد ، أو خلافه .

وقوله : ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا .. ﴿٧٩﴾﴾ [الكهف] المتكلم هنا هو الخضْر ـ عليه السلام ـ فنسب إرادة عَيْب السفينة إلى نفسه ، ولم ينسبها إلى الله تعالى تنزيهاً له تعالى عمَّا لا يليق ، أما فى الخير فنسب الأمر إلى الله فقال : ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا .. ﴿٨٢﴾﴾ [الكهف] لذلك فإنه فى نهاية القصة يُرجع كل ما فعله إلى الله فيقول : ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي .. ﴿٨٢﴾﴾ [الكهف]

ثم يقول تعالى : ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾﴾ [الكهف] كلمة : كل ترسم سُوراً كُلياً لا يترك شيئاً ، فالمراد يأخْذ كل سفينة ، سواء أكانت معيبة أم غير معيبة ، لكن الحقيقة أنه يأخذ السفينة الصالحة للاستعمال فقط ، ولا حاجةَ له فى المعيبة الغير صالحة ، وكأن فى سياق الآية صفة مُقدَّرة : أى يأخذ كل سفينة صالحة غَصْباً من صاحبها .

والغَصْب : ما أُخذ بغير الحق ، عُنْوةً وقَهْراً ومُصَادرة ، وله صور

متعددة منها مثلاً السرقة : وهى أَخْذ المال من حِرْزه خفية ككسر دولاب أو خزينة ، ومنها الغَصْب : وهو أخْذ مال الغير بالقوة ، وتحت سمعه وبصره ، وفى هذه الحالة تحدث مقاومة ومشادة بين الغاصب والمغصوب .

ومنها الخطف : وهو أخْذ مال الغير هكذا علانية ، ولكن بحيلة ما ، يخطف الشىء ويفرّ به دون أن تتمكّن من اللحاق به ، فالخَطْفُ - إذن - يتم علانية ولكن دون مقاومة . ومنها الاختلاس : وهو أن تأخذ مال الغير وأنت مؤتمن عليه ، والاختلاس يحدث خفية ، ولا يخلو من حيلة تستره .

وما دام الأمر هنا غَصْباً فلا بُدَّ لمالك الشىء أنْ يقاوم ولو بعض مقاومة يدافع بها عن حَقِّه ، وقد يتوسل إليه أنْ يترك له ماله ، فالمسألة - إذن - فيها كلام وأخْذٌ وَرَدٌّ .

إذن : خَرْق السفينة فى ظاهره اعتداء على ملك مُقوّم ، وهذا منهىّ عنه شرعاً ، لكن إذا كان هذا الاعتداء سيكون سبباً فى نجاة السفينة كلها من الغاصب فلا بأس إذن ، وسفينة معيبة خير من عدمها ، ولو علِم موسى - عليه السلام - هذه الحكمة لَبادرَ هو إلى خَرْقها .

وما دام الأمر كذلك ، فعلينا أن نُحوِّل السفينة إلى سفينة غير صالحة ونعيبها بخَرْقها ، أو بخلْع لَوْح منها لنصرف نظر الملك المغتصب عن أَخْذها .

وكلمة (وَرَاءَهُمْ) هنا بمعنى أمامهم ؛ لأن هذا الظالم كان يترصَّد للسفن التى تمر عليه ، فما وجدها صالحة غصبها ، فهو فى الحقيقة أمامهم ، على حَدِّ قوله تعالى : ﴿مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ (١٦)﴾ [إبراهيم] . وهل جهنم وراءه أم أمامه ؟

وتستعمل وراء بمعنى : بَعْد ، كما فى قوله تعالى : ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ (٧١)﴾ [هود]

وتأتى وراء بمعنى : غير . كما فى قوله تعالى فى صفات المؤمنين : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥) إِلاَّ عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٧) ﴾ [المؤمنون]

وفى قوله تعالى : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ .. (٢٣) ﴾ إلى .. ﴿ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ .. (٢٤) ﴾ [النساء]

وقد تستعمل وراء بمعنى خلف ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ .. (١٨٧) ﴾ [آل عمران]

إذن : كلمة (وراء) جاءتْ فى القرآن على أربعة معَان : أمام ، خلف ، بعد ، غير . وهذا مما يُميِّز العربية عن غيرها من اللغات ، والملكة العربية قادرة على أن تُميّز المعنى المناسب للسياق ، فكلمة العَيْن ـ مثلاً ـ تأتى بمعنى العين الباصرة . أو : عين الماء ، أو : بمعنى الذهب والفضة ، وبمعنى الجاسوس . والسياق هو الذى يُحدد المعنى المراد .

ثم يقول الحق سبحانه فى قرآنه عما أوضحه الخضر لموسى عليه السلام مما خفى عليه :

﴿ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا (٨٠) ﴾

الغلام : الولد الذى لم يبلغ الحُلُم وسنّ التكليف ، وما دام لم يُكلَّف فما يزال فى سنِّ الطهارة والبراءة من المعاصى ؛ لذلك لما اعترض موسى على قتله قال : ﴿ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً .. (٧٤) ﴾ [الكهف] أى : طاهرة ، ولا شكَّ أن أخْذ الغلام فى هذه السِّنِّ خَيْر له ومصلحة قبل أنْ تلوّثه المعاصى ، ويدخل دائرة الحساب .

إذن : فطهارته هى التى دعتْنَا إلى التعجيل بأخذه . هذا عن الغلام ، فماذا عن أبيه وأمه ؟

يقول تعالى : ﴿فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ .. ﴿٨٠﴾﴾ [الكهف] وكثيراً ما يكون الأولاد فتنة للآباء ، كما قال تعالى : ﴿يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ[1] فَاحْذَرُوهُمْ .. ﴿١٤﴾﴾ [التغابن]

والفتنة بالأولاد تأتى من حِرْص الآباء عليهم ، والسعى إلى جعلهم فى أحسن حال ، وربما كانت الإمكانات غير كافية ، فيُضطر الأب إلى الحرام من أجل أولاده . وقد علِم الحق - سبحانه وتعالى - أن هذا الغلام سيكون فتنة لأبويه ، وهما مؤمنان ولم يُرِد الله تعالى لهما الفتنة ، وقضى أن يقبضهما إليه على حال الإيمان .

وكأن قضاء الله جاء خيراً للغلام وخيراً للوالدين ، وجميلاً أُسْدِى إلى كليْهما ، وحكمة بالغة تستتر وراء الحدَث الظاهر الذى اعترض عليه موسى عليه السلام .

لذلك يُعَدُّ من الغباء إذا مات لدينا الطفل أو الغلام الصغير أنْ يشتد الحزن عليه ، وننعى طفولته التى ضاعتْ وشبابه الذى لم يتمتع به ، ونحن لا ندرى ما أُعدَّ له من النعيم ، لا ندرى أن مَنْ أُخذ من أولادنا قبل البلوغ لا يُحدَّد له مسكن فى الجنة ، لأنها جميعاً له، يجرى فيها كما يشاء ، ويجلس فيها أين أحب ، يجلس عند الأنبياء

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٣٧٦/٤) : « بمعنى أنه يلتهى به عن العمل الصالح » وذكر ابن أبى حاتم فى هذا أثراً عن ابن عباس رضى الله عنهما : « هؤلاء رجال أسلموا من مكة فأرادوا أن يأتوا رسول الله ﷺ ، فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم ، فلما أتوا رسول الله ﷺ رأوا الناس قد فقهوا فى الدين فهَمُّوا أن يعاقبوهم ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ﴿وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾﴾ [التغابن] .

وعند الصحابة ، لا يعترضه أحد ، لذلك يُسمَّوْن « دعاميص[١] الجنة »[٢] .

ثم يقول تعالى : ﴿ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ ﴾ [الكهف]

خشينا : خفْنا . فالواحد منا يولد له ابن ، فيكون قرة عَيْن وسنداً ، وقد يكون هذا الابن سبباً فى فساد دين أبيه ، ويحمله على الكذب والرشوة والسرقة ، فهذا الابن يقود أباه إلى الجحيم ، ومن الخير أن يبعد الله هذا الولد من طريق الوالد فلا يطغى .

﴿ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ ﴾

ولا يفوت الخضر ـ عليه السلام ـ أن ينسب الخير هنا أيضاً إلى الله ، فيقول : أنا أحب هذا العمل وأريده ، إنما الذى يُبدّل فى الحقيقة هو الله تعالى ﴿ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا .. ﴿٨١﴾ ﴾ [الكهف] فهذا الخير من الله ، وما أنا إلا وسيلة لتحقيقه .

وقوله : ﴿ خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً .. ﴿٨١﴾ ﴾ [الكهف] أى : طُهْراً ﴿ وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ ﴾ [الكهف] لأنهما أرادا الولد لينفعهما فى الدنيا ، وليكون قُرَّة عَيْن لهما ، ولما كانت الدنيا فانية لا بقاءَ لها ، وقد ثبت فى علمه تعالى أن هذا الولد سيكون فتنة لأبويْه ، وسيجلب عليهما المعاصى

---

(١) الدعاميص : جمع دعموص ، وهو الدخّال فى الأمور أى أنهم سياحون فى الجنة دخّالون فى منازلها لا يُمنعون من موضع . [لسان العرب ـ مادة : دعمص] .

(٢) عن أبى حسان قال : قلت لأبى هريرة : إنه قد مات لى ابنان ، فما أنت مُحدثى عن رسول الله ﷺ بحديث تُطيِّب به أنفسنا عن موتانا ؟ قال : نعم ، صغارهم دعاميص الجنة يتلقى أحدهم أباه فيأخذ بثوبه ، كما آخذ أنا بصنفة ثوبك هذا ، فلا يتناهى حتى يُدخله الله وأباه الجنة » أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٦٣٥) ، وأحمد فى مسنده (٢/٥١٠) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

والسيئات ، وسيجرّهما إلى العذاب ، كانت الرحمة الكاملة فى أخذه بدل أنْ يتمتّعا به فى الدنيا الفانية ، ويشقيَا به فى الآخرة الباقية .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ[1] وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ[2] لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ ﴾

(لِغُلَامَيْنِ) أى : لم يبلغا سنَّ الرشْد ، وفوق ذلك هما يتيمان . وكان تحت هذا الجدار المائل كَنْز لهذين الغلامين الغير قادرين على تدبير شأنهما ، ولك أنْ تتصوّر ما يحدث لو تهدَّم الجدار ، وانكشف هذا الكنز ، ولمع ذهبه أمام عيون هؤلاء القوم الذين عرفت صفاتهم ، وقد منعوهما الطعام بل ومجرد المأْوى ، إنَّ أقل ما يُوصفون به أنهم لئَام لا يُؤتمنون على شىء . ولقد تعوَّدنا أن نعبر عن شدة الضياع بقولنا : ضياع الأيتام على موائد اللئام .

إذن : فلا شكَّ أن ما قام به العبد الصالح من بناء الجدار وإقامته أو ترميمه يُعَدُّ بمثابة صَفْعة لهؤلاء اللئام تناسب ما قابلوهم به من تنكُّر وسوء استقبال ، وترد لهم الصَّاع صاعين حين حرمهم الخضر من هذا الكنز .

---

(١) قال هنا الحق سبحانه : ﴿ فِي الْمَدِينَةِ .. ﴿٨٢﴾ ﴾ [الكهف] . وفى آية أخرى قال : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ ..﴿٧٧﴾ ﴾ [الكهف] . ولذلك قال ابن كثير فى تفسيره (٣/٩٨) : « فى هذه الآية دليل على إطلاق القرية على المدينة » .

(٢) قال عكرمة وقتادة وغير واحد : كان تحته مال مدفون لهما ، قال ابن كثير (٣/٩٨) : « وهو ظاهر السياق من الآية وهو اختيار ابن جرير رحمه الله ، وقال العوفى عن ابن عباس : كان تحته كنز علم » .

فعلَّة إصلاح الجدار ما كان تحته من مال يجب أنْ يحفظ لحين أنْ يكبُرَ هذان الغلامان ويتمكنا من حفظه وحمايته فى قرية من اللئام . وكأن الحق سبحانه وتعالى أرسله لهذين الغلامين فى هذا الوقت بالذات ، حيث أخذ الجدار فى التصدُّع ، وظهرت عليه علامات الانهيار ليقوم بإصلاحه قبل أنْ يقع وينكشف أمر الكنز وصاحبيه فى حال الضعف وعدم القدرة على حمايته .

ثم إن العبد الصالح أصلح الجدار ورَدَّه إلى ما كان عليه رَدَّ مَنْ علَّمه الله من لَدُنْه ، فيقال : إنه بنَاهُ بناءً موقوتاً يتناسب وعُمْرَ الغلامين ، وكأنه بناه على عمر افتراضى ينتهى ببلوغ الغلامين سنَّ الرشْد والقدرة على حماية الكنز فينهار . وهذه فى الواقع عملية دقيقة لا يقدر على حسابها إلا مَنْ أُوتِى علماً خاصاً من الله تعالى .

ويبدو من سياق الآية أنهما كانا فى سنٍّ واحدة توأمين لقوله تعالى : ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا .. (٨٢)﴾ [الكهف] أى : سوياً ، ومعنى الأشُدّ : أى القوة ، حيث تكتمل أجهزة الجسم وتستوى ، وأجهزة الجسم تكتمل حينما يصبح المرء قادراً على إنجاب مثله .

وتلاحظ أن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ قال هنا : ﴿يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا .. (٨٢)﴾ [الكهف] ولم يقُلْ رُشْدهما ، لأنْ هناك فرْقاً بين الرُّشْد والأَشُدّ فالرُّشْد : حُسْن التصرُّف فى الأمور ، أما الأشُدّ : فهو القوة ، والغلامان هنا فى حاجة إلى القوة التى تحمى كَنْزهما من هؤلاء اللئام فناسب هنا ﴿أَشُدَّهُمَا .. (٨٢)﴾ [الكهف]

ثم يقول تعالى : ﴿وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ .. (٨٢)﴾ [الكهف] أى : يستخرجاه بما لديهما من القوة والفُتوَّة . والرحمة : صفة تُعطَى للمرحوم لتمنعه من الداء ، كما فى قوله تعالى : ﴿وَنُنَزِّلُ

مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ.. ﴿٨٢﴾ [الإسراء] فقوله : شفاء : أى : يشفى داءً موجوداً ويُبرِئه . ورحمة : أى رحمة تمنع عودة الداء مرة أخرى .

وكذلك ما حدث لهذين الغلامين ، كان رحمة من الله لحماية مالهما وحفْظ حقِّهما ، ثم لم يَفُتْ العبد الصالح أنْ يُرجِع الفضل لأهله ، وينفى عن نفسه الغرور بالعلم والاستعلاء على صاحبه ، فيقول : ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِى .. ﴿٨٢﴾﴾ [الكهف] أى : أن ما حدث كان بأمر الله ، وما علَّمتك إياه كان من عند الله ، فليس لى مَيْزة عليك ، وهذا درس فى أدب التواضع ومعرفة الفضْل لأهله .

ثم يقول : ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع[1] عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾ [الكهف] تأويل : أى إرجاع الأمر إلى حقيقته ، وتفسير ما أشكل منه .

* * *

بعد ذلك تنتقل الآيات إلى سؤال آخر من الأسئلة الثلاثة التى سألها كفار مكة لرسول الله بإيعاز من اليهود ، وهو السؤال عن الرجل الطَّواف الذى طاف البلاد :

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾﴾

ذو القرنين : هذا لقبه ؛ لأنه ربما كان فى تكوينه ذا قرنين ، أو

---

(١) فى هذه الآية قال : ﴿مَا لَمْ تَسْطِع .. ﴿٨٢﴾﴾ [الكهف] . وقبل ذلك قال : ﴿مَا لَمْ تَسْتَطِع .. ﴿٧٨﴾﴾ [الكهف] . قال ابن كثير فى تفسيره (٣/١٠٠) : « لما أن فسّره وبيّنه ووضّحه وأزال المشكل قال (تسطع) وقبل ذلك كان الإشكال قوياً ثقيلاً فقال (ما لم تستطع) فقابل الأثقل بالأثقل والأخف بالأخف ، كما قال ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ .. ﴿٩٧﴾﴾ [الكهف] . وهو الصعود إلى أعلاه ، وقال : ﴿وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ﴿٩٧﴾﴾ [الكهف] . وهو أشق من ذلك ، فقابل كلاً بما يناسبه لفظاً ومعنى ، والله أعلم » .

يلبس تاجاً له اتجاهان ؛ أو لأنه بلغ قرنى الشمس فى المشرق وفى المغرب .

وقد بحث العلماء فى : مَنْ هو ذو القرنين ؟ فمنهم مَنْ قال : هو الإسكندر الأكبر المقدونى الطواف فى البلاد ، لكن الإسكندر الأكبر كان فى مقدونيا فى الغرب ، وذو القرنين جاب المشرق والمغرب مما دعا عالماً محققاً من علماء الهند هو : أبو الكلام آزاد - وزير المعارف الهندى - إلى القول بأنه ليس هو الإسكندر الأكبر ، بل هو قورش الصالح ، وهذه رحلته فى الشرق والغرب وبين السدين ، كما أن الإسكندر كان وثنياً ، وكان تلميذاً لأرسطو ، وذو القرنين رجل مؤمن كما سنعرف من قصته .

وعلى العموم ، ليس من صالح القصة حَصْرها فى شخص بعينه ؛ لأن تشخيص حادثة القصة يُضعف من تأثيرها ، ويصبغها بصبْغة شخصية لا تتعدى إلى الغير فنرى مَنْ يقول بأنها مسألة شخصية لا تتكرر .

إذن : لو جاء العلم فى ذاته سنقول : هذه الحادثة أو هذا العَمَل خاص بهذا الشخص ، والحق - سبحانه وتعالى - يريد أن يضرب لنا مثلاً يعُمُّ أى شخص ، ماذا سيكون مَسْلكه وتصرّفه إنْ مكَّنَ الله له ، ومنحه الله قوة وسلطة ؟

ولو حددَ القرآن هذه الشخصية فى الإسكندر أو قورش أو غيرهما لَقُلْنَا : إنه حَدث فردىّ لا يتعدى هذا الشخص ، وتنصرف النفس عن الأُسْوة به ، وتفقد القصة مغزاها وتأثيرها . ولو كان فى تعيينه فائدة لَعيَّنه الله لَنَا .

وسبق أنْ أوضحنا أن الحق - سبحانه - عندما ضرب مثلاً للذين

كفروا ، قال : ﴿امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ .. (١٠)﴾ [التحريم] ولم يُعيّنهما على التحديد ؛ لأن الهدف من ضرب المثل هنا بيان أن الرسول المرسَل من الله لهداية الناس لم يتمكّن من هداية زوجته وأقرب الناس إليه ؛ لأن الإيمان مسألة شخصية ، لا سيطرة فيها لأحد على أحد .

وكذلك لما ضرب الله مثلاً للذين آمنوا قال : ﴿امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ .. (١١)﴾ [التحريم]

ففرعون الذى أضلَّ الناس وادَّعى الألوهية زوجته مؤمنة ، وكأن الحق سبحانه يُلمِّح للناس جميعاً أن رأيك فى الدين وفى العقائد رأْى ذاتى ، لا يتأثر بأحد أيّاً كان ، لا فى الهداية بنبى ، ولا فى الغواية بأضلِّ الضالين الذى ادعى الألوهية .

وهكذا يحفظ الإسلام للمرأة دورها وطاقتها ويحترم رأيها .

إذن : الحق سبحانه وتعالى أتى بهذه القصة غير مُشخّصة لتكون نموذجاً وأُسْوة يحتذى بها كل أحد ، وإلاَّ لو شخصتْ لارتبطتْ بهذا الشخص دون غيره ، أما حينما تكلم الحق سبحانه عن مريم فنراه يحددها باسمها ، بل واسم أبيها ؛ ذلك لأن ما سيحدث لمريم مسألة خاصة بها ، ولن تحدث بعدها أبداً فى بنات آدم ، لذلك عيَّنها وشخَّصها ؛ لأن التشخيص ضرورى فى مثل هذا الموقف .

أما حين يترك المثل أو القصة دون تشخيص ، فهذا يعنى أنها صالحة لأنْ تتكرر فى أىّ زمان وفى أىّ مكان ، كما رأينا فى قصة أهل الكهف ، وكيف أن الحق سبحانه أبهمهم أسماءً ، وأبهمهم مكاناً وأبهمهم زماناً ، وأبهمهم عدداً ، ليكونوا أُسْوة وقُدْوة للفتيان المؤمنين فى أىِّ زمان ، وفى أىِّ مكان ، وبأىِّ عدد .

قوله : ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِى الْقَرْنَيْنِ .. (٨٣)﴾ [الكهف]

نلاحظ أن مادة السؤال لرسول الله ﷺ فى القرآن أخذتْ حيِّزاً كبيراً فيه ، فقد ورد السؤال للنبى من القوم ست عشرة مرة ، إحداها بصيغة الماضى فى قوله تعالى : ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ .. (١٨٦)﴾ [البقرة]

وخمس عشرة مرة بصيغة المضارع ، كما فى : ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ .. (١٨٩)﴾ [البقرة]

وقوله : ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ .. (٢١٥)﴾ [البقرة]

: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ .. (٢١٧)﴾ [البقرة]

: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ .. (٢١٩)﴾ [البقرة]

: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ .. (٢١٩)﴾ [البقرة]

: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ .. (٢٢٠)﴾ [البقرة]

: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ .. (٢٢٢)﴾ [البقرة]

: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ .. (٤)﴾ [المائدة]

: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ .. (١٨٧)﴾ [الأعراف] ثلاث مرات،[النازعات ٤٢]

: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ .. (١)﴾ [الأنفال]

: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ .. (٨٥)﴾ [الإسراء]

: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِى الْقَرْنَيْنِ .. (٨٣)﴾ [الكهف]

: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا (١٠٥)﴾ [طه]

خمسة عشر سؤالاً بالمضارع ، إلا أن الجوابَ عليها مختلف ،

وكلها صادرة عن الله الحكيم ، فلا بُدَّ أنْ يكون اختلاف الجواب فى كل سؤال له مَلْحظ ، ومن هذه الأسئلة ما جاء من الخصوم ، ومنها ما سأله المؤمنون ، السؤال من المؤمنين لرسول الله ـ وقد نهاهم أنْ يسألوه حتى يهدأوا ـ إلحاحٌ منهم فى معرفة تصرُّفاتهم وإنْ كانت فى الجاهلية ، إلا أنهم يريدون أنْ يعرفوا رأى الإسلام فيها ، فكأنهم نَسُوا عادات الجاهلية ويرغبون فى أن تُشرَّع كل أمورهم على وَفْق الإسلام .

وبتأمّل الإجابة على هذه الأسئلة تجد منها واحدةً يأتى الجواب مباشرة دون (قُلْ) وهى قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ .. (١٨٦) ﴾ [البقرة] وواحدة وردتْ مقرونة بالفاء (فَقُلْ) وهى قوله تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا (١٠٥) ﴾ [طه]

وباقى الأسئلة وردت الإجابة عليها بالفعل (قُلْ) ، فما الحكمة فى اقتران الفعل بالفاء فى هذه الآية دون غيرها ؟

قالوا : حين يقول الحق سبحانه فى الجواب (قُلْ) فهذه إجابة على سؤال سُئِلَهُ رسول الله بالفعل ، أى : حدث فعلاً منهم ، أما الفاء فقد أتتْ فى الجواب على سؤال لم يُسأله ، ولكنه سيُسأله مستقبلاً .

فقوله تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ .. (١٠٥) ﴾ [طه] سؤال لم يحدث بَعْد ، فالمعنى : إذا سألوك فَقُلْ ، وكأنه احتياط لجواب عن سؤال سيقع .

فإذا قُلْتَ : فما الحكمة فى أنْ يأتى الجواب فى قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ .. (١٨٦) ﴾ [البقرة] خالياً من : قُلْ أو فَقُلْ : مع أن (إذا) تقتضى الفاء فى جوابها ؟

نقول : لأن السؤال هنا عن الله تعالى ، ويريد سبحانه وتعالى أنْ يُجيبهم عليه بانتفاء الواسطة من أحد ؛ لذلك تأتى الإجابة

مباشرة دون واسطة : ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ .. (١٨٦)﴾ [البقرة]

قوله تعالى : ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِى الْقَرْنَيْنِ .. (٨٣)﴾ [الكهف] أى : عن تاريخه وعن خبره والمهمة التى قام بها ﴿قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا (٨٣)﴾ [الكهف]

وأىُّ شرف بعد هذا الشرف ، إن الحق تبارك وتعالى يتولّى التأريخ لهذا الرجل ، ويُؤرّخ له فى قرآنه الكريم الذى يُتلَى ويُتعبَّد به إلى يوم القيامة والذى يُتحدّى به ، ليظل ذكْره باقياً بقاء القرآن ، خالداً بخلوده ، ويظل أثره فيما عمل أُسْوة وقُدْوة لمن يعمل مثله . إنْ دَلَّ هذا على شىء فإنما يدلُّ على أن العمل الصالح مذكور عند الله قبل أنْ يُذكَرَ عند الخلق .

فأىُّ ذكْر أبقى من ذكر الله لخبر ذى القرنين وتاريخه ؟

و (مِنْهُ) أى : بعضاً من ذِكْره وتاريخه ، لا تاريخه كله .

وكلمة (ذِكْر) وردت فى القرآن الكريم بمعان متعددة ، تلتقى جميعها فى الشرف والرفعة ، وفى التذكُّر والاعتبار . وإنْ كانت إذا أُطلقتْ تنصرف انصرافاً أولياً إلى القرآن ، كما فى قوله تعالى : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩)﴾ [الحجر] وبعد ذلك تُستعمل فى أىّ كتاب أنزله الله تعالى من الكتب السابقة ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِى إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٤٣)﴾ [النحل]

وقد يُطلَق الذكر على ما يتبع هذا من الصِّيت والشرف والرفعة وتخليد الاسم ، كما فى قوله تعالى : ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ .. (١٠)﴾ [الأنبياء]

وقوله تعالى : ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ .. (٤٤)﴾ [الزخرف]

أى : صيت حَسَن وشرف ورفْعة كون القرآن يذكر هذا الاسم ؛ لأن الاسم إذا ذُكر فى القرآن ذاعَ صيتُه ودَوَّى فى الآفاق .

وقلنا فى قصة زيد بن حارثة أنه كان عبداً بعد أنْ خُطف من قومه وبيع فى مكة لخديجة رضى الله عنها ، ثم وهبته لرسول الله ﷺ ؛ لذلك أطلقوا عليه زيد بن محمد ، فلما علم أهله بوجوده فى مكة أتى أبوه وعمه ، وكلّموا رسول الله فى شأن زيد فقال : خَيِّروه .

فلما خَيَّروا زيداً قال : ما كنتُ لأختار على رسول الله أحداً ، لذلك أكرمه النبى ﷺ وسمَّاه زيدَ بن محمد ، فلما أراد الحق سبحانه أن يبطل التبنى ، ونزل قوله تعالى : ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَـٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ .. (٤٠)﴾ [الأحزاب] وقال : ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ .. (٥)﴾ [الأحزاب]

فلا تقولوا : زيد بن محمد . وقولوا : زيد بن حارثة ، وهنا حَزِنَ زَيْد لهذا التغيير ، ورأى أنه خسر به شرفاً عظيماً بانتسابه لمحمد ، ولكن الحق سبحانه وتعالى يجبر خاطر زيد ، ويجعل اسمه عَلَماً يتردد فى قرآن يُتْلَى ويُتعبَّد به إلى يوم القيامة ، فكان زيد هو الصحابى الوحيد الذى ورد ذكره باسمه فى كتاب الله فى قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا[1] زَوَّجْنَاكَهَا .. (٣٧)﴾ [الأحزاب]

فأىُّ شرف أعلى وأعظم من هذا الشرف ؟

ونلحظ فى هذه الآية : ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ .. (٥)﴾

---

(١) الوطر : الحاجة التى يعتنى بها الإنسان ويهتم لها ، وإذا بلغها قيل : إنه قضى وطره ، أى : حقق رغبته وقضى حاجته وانتهى من أمرها . وقوله عن زيد معناه : فلما طلقها ولم يعد بحاجة لها . [القاموس القويم ٢/٣٤٣] .

[الأحزاب] أن الحق سبحانه لم يتهم رسوله ﷺ بالجور ، فقال ﴿ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ .. (٥) ﴾ [الأحزاب] فما فعله الرسول كان أيضاً قِسْطاً وعدلاً ، وما أمر الله به هو الأقسط والأعدل .

إذن : فذِكْر ذى القرنين فى كتاب الله شرف كبير ، وفيه إشارة إلى أن فاعل الخير له مكانته ومنزلته عند الله ، ومُجازىً بأنْ يُخلّد ذكره ويبقى صِيته بين الناس فى الدنيا .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا (٨٤) ﴾ (١)

التمكين : أى أننا أعطيناه إمكانات يستطيع بها أن يُصرِّف كل أموره التى يريدها ؛ لأنه مأمون على تصريف الأمور على حَسْب منهج الله ، كما قال تعالى فى آية أخرى عن يوسف عليه السلام : ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ .. (٥٦) ﴾[يوسف]

فالتمكين يعنى إعطاءه إمكانات لكل غرض يريده فيُصرِّف به الأمور ، لكن لماذا مكنّاه ؟ مكنّاه لأنه مأمون على تصريف الأمور وَفْق منهج الله ، ومأمون على ما أعطاه الله من إمكانات .

وقوله : ﴿ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا (٨٤) ﴾ [الكهف] أى : أعطيناه أسباباً يصل بها إلى ما يريد ، فما من شىء يريده إلا ويجعل الله له وسيلة مُوصِّلة إليه .

فماذا صنع هو ؟

﴿ فَأَتْبَعَ سَبَبًا (٨٥) ﴾

---

(١) أى : أعطيناه ملكاً عظيماً ممكناً فيه من جميع ما يؤتى الملوك من التمكين والجنود وآلات الحرب والحصارات . [تفسير ابن كثير ٣/١٠١] .

أتبع السبب ، أى : لا يذهب لغاية إلا بالوسيلة التى جعلها الله له ، فلقد مكَّن الحق لذى القرنين فى الأرض ، وأعطاه من كل شىء سبباً ، ومع ذلك لم يركن ذو القرنين إلى ما أُعطى ، فلم يتقاعس ، ولم يكسل ، بل أخذ من عطاء الله له بشىء من كل سبب .

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ (١) وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ ﴾

وبلوغه مغرب الشمس دليل على أنه لم يكُنْ بهذا المكان ، بل كان قادماً إليه من المشرق . ومعنى (مغرب الشمس) هل الشمس تغرب ؟

هى تغرب فى عين الرائى فى مكان واحد ، فلو لاحظتَ الشمس ساعة الغروب لوجدتها تغربُ مثلاً فى الجيزة ، فإذا ذهبت إلى الجيزة وجدتها تغرب فى مكان آخر وهكذا ، إذن : غروبها بمعنى غيابها من مرأىَ عينك أنت ؛ لأن الشمس لا تغيب أبداً ، فهى دائماً شارقة غاربة ، بمعنى أنها حين تغرب على قوم تشرق على آخرين ؛ لذلك تتعدد المشارق والمغارب .

وهذه أعطتنا دوام ذكر الله ودورانه على الألسنة فى كل الأوقات ،

---

(١) قرأها ابن عاصم وعامر وحمزة والكسائى « حامية » أى : حارة . والباقون قرأوها « حمئة » أى : كثيرة الحمأة وهى الطينة السوداء . [تفسير القرطبى ٦/٤٢١٨] .

قال ابن كثير فى تفسيره (٣/١٠٢) : « قال ابن جرير : والصواب أنهما قراءتان مشهورتان وأيهما قرأ القارىء فهو مصيب . قلت : ولا منافاة بين معنييهما ، إذ قد تكون حارة لمجاورتها وهج الشمس عند غروبها وملاقاتها الشعاع بلا حائل وحمئة فى ماء وطين أسود كما قال كعب الأحبار وغيره » .

فحين نصلى نحن الظهر مثلاً يصلى غيرنا العصر ، ويصلى غيرهم المغرب ، وهكذا فالحق سبحانه مذكور فى كل وقت بكل وقت ، فلا ينتهى الظهر لله ، ولا ينتهى العصر لله ، ولا ينتهى المغرب لله ، بل لا ينتهى الإعلام بواحدة منها طوال الوقت ، وعلى مَرِّ الزمن ؛ لذلك يقول أهل المعرفة : يا زمن وفيك كل الزمن .

ثم يقول تعالى : ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ .. (٨٦)﴾ [الكهف] أى : فى عين فيها ماء . وقلنا : إن الحمأ المسنون هو الطين الذى اسودّ لكثرة وجوده فى الماء . وفى تحقيق هذه المسألة قال عالم الهند أبو الكلام آزاد[1] ، ووافقه فضيلة المرحوم الشيخ عبد الجليل عيسى ، قال : عند موضع يسمى (أزمير) .

وقوله : ﴿وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا .. (٨٦)﴾ [الكهف] أى : عند هذه العين ﴿قُلْنَا يَـٰذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا (٨٦)﴾ [الكهف] إذن : فهذا تفويض له من الله ، ولا يُفوَّض إلا المأمون على التصرُّف ﴿إِمَّا أَن تُعَذِّبَ .. (٨٦)﴾ [الكهف] ولا بُدّ أنهم كانوا كفرة أو وثنيين لا يؤمنون بإله ، فإما أنْ تأخذهم بكفرهم ، وإما أن تتخذَ فيهم حُسْناً .

لكن ما وجه الحُسْن الذى يريد الله أن يتخذه ؟ يعنى أنهم قد يكونون من أهل الغفلة الذين لم تصلهم الدعوة ، فبيّن لهم وجه الصواب ودلّهم على دين الله ، فَمنْ آمن منهم فأحسن إليه ، ومَنْ أصرّ على كُفْرِه فعذّبه ، إذن : عليك أن تأخذهم أولاً بالعِظَة الحسنة والبيان الواضح ، ثم تحكم بعد ذلك على تصرفاتهم .

---

(١) أبو الكلام آزاد : هو أحمد بن خير الدين ، الهندى الأب ، العربى الأم والثقافة ، ولد بمكة (١٣٠٢ هـ) وأصله من دهلى ، درس على علماء الأزهر ، مفسر من خطباء المسلمين وزعمائهم فى الهند أيام حركتها التحررية ، تولى وزارة المعارف فى الهند إلى أن توفى مشلولاً عام (١٣٧٧ هـ) [الأعلام للزركلى ١/١٢٢] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾﴾

قوله : ﴿فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ .. ﴿٨٧﴾﴾ [الكهف] يعطينا إشارة إلى المهلة التى سيعطيها لهؤلاء ، مهلة تمكّنه أنْ يعظِهم ويُذكِّرهم ويُفهِّمهم مطلوبات دين الله .

وسبق أن قلنا : إن الظلم أنواع ، أفظعها وأعلاها الشرك بالله ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان]

ثم يقول تعالى : ﴿ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾﴾ [الكهف]

فلن نُعذِّبه على قدْر ما فعل ، بل نُعذّبه عقوبة دنيوية فقط ؛ لأن العقوبات الدنيوية شُرِعَتْ لحفظ توازن المجتمع ، ورَدْع مَنْ لا يرتدع بالموعظة ، وإلا فما فائدة الموعظة فى غير المؤمن ؟ لذلكَ نرى الأمم التى لا تؤمن بإله ، ولا بالقيامة والآخرة تُشرِّع هذه العقوبات الدنيوية لتستقيم أوضاعها .

وبعد عذاب الدنيا وعقوبتها هناك عذاب أشدّ فى الآخرة ﴿عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾﴾ [الكهف] والشىء النكر : هو الذى لا نعرفه ، ولا عَهْد لنا به أو أُلْفة ؛ لأننا حينما نُعذِّب فى الدنيا نُعذِّب بفطرتنا وطاقتنا ، أما عذاب الله فى الآخرة فهو شىء لا نعرفه ، وفوق مداركنا وإمكاناتنا .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾﴾

قوله : ﴿فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ .. (٨٨)﴾ [الكهف] أى : نعطيه الجزاء الحسن ﴿وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا (٨٨)﴾ [الكهف] نقول له الكلام الطيب الذى يُشجِّعه ويحفزه ، وإنْ كلَّفناه كلَّفناه بالأمر اليسير غير الشاق .

وهذه الآية تضع لنا أساس عملية الجزاء التى هى ميزان المجتمع وسبب نهضته ، فمجتمعٌ بلا جزاءات تثيب المجدّ وتعاقب المقصِّر مجتمع ينتهى إلى الفوضى والتسيُّب ، فإنْ أمنَ الناسُ العقابَ تكاسلوا ، وربما ما تعانيه مصر الآن من سوء الإدارة راجع إلى ما فى المجتمع من أشخاص فوق القانون لا نستطيع معاقبتهم فيتسيّب الآخرون .

وكذلك نرى المراتب والجوائز يظفر بها مَنْ لا يعمل ، ويظفر بها مَنْ يتقرب ويتودد ويتملّق وينافق ، ولهؤلاء أساليبهم الملتوية التى يجيدونها ، أما الذى يجدّ ويعمل ويخلص فهو مُنْهك القوى مشغول بإجادة عمله وإتقانه ، لا وقْتَ لديه لهذه الأساليب الملتوية ، فهو يتقرب بعمله وإتقانه ، وهذا الذى يستحق التكريم ويستحق الجائزة . ولك أنْ تتصوَّر مدى الفساد والتسيّب الذى تسببه هذه الصورة المقلوبة المعوجة .

إذن : فميزان المجتمع وأساس نهضته : ﴿أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا (٨٧) وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا (٨٨)﴾ [الكهف]

فما أجمَل أنْ نرصُدَ المكافآت التشجيعية والجوائز ، ونقيم حفلات التكريم للمتميزين والمثاليين ، شريطةَ أنْ يقومَ ميزان الاختيار على الحق والعدل .

والحُسْنى : أفعل التفضيل المؤنث لحسن ، فإذا أعطيناه الحسنى

فالحسن من باب أَوْلَى ، ومن هذا قوله تعالى : ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ .. ﴿٢٦﴾﴾ [يونس]

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾﴾

أى : ذهب إلى مكان آخر.

﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾﴾

قوله تعالى : ﴿مَطْلِعَ الشَّمْسِ .. ﴿٩٠﴾﴾ [الكهف] كما قلنا فى مغربها ، فهى دائماً طالعة ؛ لأنها لا تطلع من مكان واحد ، بل كل واحد له مطلع ، وكل واحد له مغْرب حسب اتساع الأفق .

ثم يقول تعالى : ﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾﴾ [الكهف] السِّتْر : هو الحاجز بين شيئين ، وهو إما ليقينىَ الحر أو ليقينىَ البرد ، فقد ذهب ذو القرنين إلى قوم من المتبدين الذين يعيشون عراة كبعض القبائل فى وسط أفريقيا مثلاً ، أو ليس عندهم ما يسترهم من الشمس مثل البيوت يسكنونها ، أو الأشجار يستظلّون بها .

وهؤلاء قوم نسميهم « ضاحون » أى : ليس لهم ما يأويهم من حَرِّ الصيف أو بَرد الشتاء ، وهم أُنَاسٌ متأخرون بدائيون غير متحضرين . ومثل هؤلاء يعطيهم الله تعالى فى جلودهم ما يُعوِّضهم عن هذه الأشياء التى يفتقدونها ، فترى فى جلودهم ما يمنحهم الدفء فى الشتاء والبرودة فى الصيف .

وهذا نلاحظه فى البيئات العادية ، حيث وَجْه الإنسان وهو

مكشوف للحر وللبرد ، ولتقلبات الجو ؛ لذلك جعله الله على طبيعة معينة تتحمل هذه التقلبات ، على خلاف باقى الجسم المستور بالملابس ، فإذا انكشف منه جزء كان شديدَ الحساسية للحرِّ أو للبرد ، وكذلك من الحيوانات ما منحها الله خاصية فى جلودها تستطيع أنْ تعيش فى القطب المتجمد دون أن تتأثر ببرودته .

وهؤلاء البدائيون يعيشون هكذا ، ويتكيفون مع بيئتهم ، لا تشغلهم مسألة الملابس هذه ، ولا يفكرون فيها، حتى يذهب إليهم المتحضرون ويروْنَ الملابس ، وكيف أنها زينة وسَتْر للعورة فيستخدمونها .

ونلاحظ هنا أن القرآن لم يذكر لنا عن هؤلاء القوم شيئاً ، وماذا فعل ذو القرنين معهم ، وإنْ قسْنا الأمر على القوم السابقين الذين قابلهم عند مغرب الشمس نقول : ربما حضَّرهم ووفَّر لهم أسباب الرُّقى .

وبعض المفسرين يروْنَ أن ذا القرنين ذهب إلى موضعٍ يومُه ثلاثة أشهر ، أو نهاره ستة أشهر ، فصادف وصوله وجود الشمس فلم يَرَ لها غروباً فى هذا المكان طيلة وجوده به ، ولم يَرَ لها سِتْراً يسترها عنهم ، ويبدو أنه ذهب فى أقصى الشمال .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ﴾

كذلك : يعنى ذهب كذلك ، كما ذهب للمغرب ذهب للمشرق .

﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ ﴾

ذهب إلى مكان آخر .

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾﴾ (١)

السد: هو الحاجز بين شيئين ، والحاجز قد يكون أمراً معنوياً ، وقد يكون طبيعياً محسوساً كالجبال ، فالمراد بالسدين هنا جبلان بينهما فجوة ، وما دام قد قال : (بين السدين) فالبَيْن هنا يقتضى وجود فجوة بين السدين يأتى منها العدو .

﴿وَجَدَ مِن دُونِهِمَا .. ﴿٩٣﴾﴾ [الكهف] أى : تحتهما ﴿قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾﴾ [الكهف] أى : لا يعرفون الكلام ، ولا يفقهون القول ؛ لأن الذى يقدر أن يفهم يقدر أن يتكلم ، وهؤلاء لا يقولون كلاماً ، ولا يفهمون ما يُقَال لهم ، ومعنى : ﴿لَّا يَكَادُونَ .. ﴿٩٣﴾﴾ [الكهف] لا يقربون من أن يفهموا ، فلا ينفى عنهم الفَهْم ، بل مجرد القُرْب من الفهم ، وكأنه لا أملَ فى أن يفهمهم .

لكن ، كيف نفى عنهم الكلام ، ثم قال بعدها مباشرة : ﴿قَالُوا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ .. ﴿٩٤﴾﴾ [الكهف] فأثبت لهم القول ؟

يبدو أنه خاطبهم بلغة الإشارة ، واحتال على أن يجعلَ من حركاتهم كلاماً يفهمه وينفذ لهم ما يريدون ، ولا شكَّ أن هذه العملية احتاجت منه جهداً وصبراً حتى يُفهمهم ويفهم منهم ، وإلا فقد كان فى وُسْعه أنْ ينصرف عنهم بحجة أنهم لا يتكلمون ولا يتفاهمون .

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٦/٤٢٢٤) : « هما جبلان من قبل أرمينية وأذربيجان » . وقال ابن كثير (٣/١٠٣) : « هما جبلان متناوحان بينهما ثغرة يخرج منهما يأجوج ومأجوج على بلاد الترك » .

فهو مثال للرجل المؤمن الحريص على عمل الخير ، والذى لا يألو جَهْداً فى نَفْع القوم وهدايتهم .

والإشارة أصبحت الآن لغةً مشهورة ومعروفة ، ولها قواعد ودارسون يتفاهمون بها ، كما نتفاهم نحن الآن مع الأخرس .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا[1] عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ ﴾

المراد بالقول هنا : دلالة مُعبِّرة تعبير القول ، فلا بُدَّ أنهم تعارفوا على شىء كالإشارة مثلاً يتفاهمون به .

ويأجوج ومأجوج قوم خَلْف السدين أو الجبلين ، ينفذون إليهم من هذه الفجوة ، فيؤذونهم ويعتدون عليهم ؛ لذلك عرضوا عليه أن يجعلوا له (خَرْجاً) أى : أجراً وخراجاً يدفعونه إليه على أنْ يسدَّ لهم هذه الفجوةِ ، فلا ينفذ إليهم أعداؤهم .

ثم يقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ عن ذى القرنين أنه :

﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ﴾

والقوْل هنا أيضاً قَوْل دلالة وإشارة تُفهمهم أنه فى غِنىً عن

(١) الخرْج والخَراج : ما يخرجه صاحب المال للعامل عنده من الأجر جزاء عمله . [القاموس القويم ١/١٩٠] .

الأجر ، فعنده الكثير من الخير الذى أعطاه الله ، إنما هو فى حاجة إلى قوة بشرية عاملة تُعِينه ، وتقوم معه بتنفيذ هذا العمل .

ونفهم من الآية أن المعونة من المُمكَّن فى الأرض المالك للشىء يجب أن تكون حِسْبة لله ، وأنْ تُعين معونة لا تحوج الذى تعينه إلى أن تُعينه كل وقت ، بل أعنه إعانة تغنيه أن يحتاج إلى المعونة فيما بعد ، كأن تعلّمه أنْ يعمل بنفسه بدل أنْ تعطيه مثلاً مالاً ينفقه فى يومه وساعته ثم يعود محتاجاً ؛ لذلك يقولون : لا تُعطِنى سمكة ، ولكن علِّمنى كيف أصطاد ، وهكذا تكون الإعانة مستمرة دائمة ، لها نَفَس ، ولها عُمْر .

ولما كان ذو القرنين ممكّناً فى الأرض ، وفى يده الكثير من الخيرات والأموال ، فهو فى حاجة لا إلى مال بل إلى الطاقة البشرية العاملة ، فقال : ﴿ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ .. (٩٥) ﴾ [الكهف] أى : قوة وطاقة بشرية قوية مخلصة ﴿ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا (٩٥) ﴾ [الكهف]

ولم يقُلْ : سداً ؛ لأن السدّ الأصمَّ يعيبه أنه إذا حصلت رَجَّة مثلاً فى ناحية منه ترجّ الناحية الأخرى ؛ لذلك أقام لهم ردماً أى : يبنى حائطاً من الأمام وآخر من الخلف ، ثم يجعل بينهما ردماً من التراب ليكون السد مَرِناً لا يتأثر إذا ما طرأت عليه هزة أرضية مثلاً ، فيكون به التراب مثل « السُّوست » التى تمتص الصدمات .

والردم أن تضع طبقات التراب فوق بعضها ، حتى تردم حُفْرة مثلاً وتُسوّيها بالأرض ، ومن ذلك ما نسمعه عندما يعاتب أحدهم صاحبه ، وهو لا يريد أنْ يسمعَ ، فيقول له : اردم على هذا الموضوع .

﴿ ءَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ[1] حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ ﴾

لم يكن ذو القرنين رجلاً رحالة ، يسير هكذا بمفرده ، بل مكَّنه الله من أسباب كل شيء ، ومعنى ذلك أنه لم يكن وحده ، بل معه جيش وقوة وعدد وآلات ، معه رجال وعمال ، معه القوت ولوازم الرحلة ، وكان بمقدوره أنْ يأمرَ رجاله بعمل هذا السدِّ ، لكنه أمر القوم وأشركهم معه فى العمل ليُدرِّبهم ويُعلِّمهم ما داموا قادرين ، ولديهم الطاقة البشرية اللازمة لهذا العمل .

والحق ـ تبارك وتعالى ـ يقول : ﴿ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ مَا آتَاهَا .. ﴿٧﴾ ﴾ [الطلاق] فما دام ربك قد أعطاك القوة فاعمل ، ولا تعتمد على الآخرين ؛ لذلك تجد هنا أوامر ثلاثة : أعينونى بقوة ، آتونى زبر الحديد ، آتونى أفرغ عليه قطراً .

زبر الحديد : أى قطع الحديد الكبيرة ومفردها زُبْرة ، والقطْر : هو النحاس المذاب ، لكن ، كيف بنى ذو القرنين هذا السد من الحديد والنحاس ؟

هذا البناء يشبه ما يفعله الآن المهندسون فى المعمار بالحديد والخرسانة ؛ لكنه استخدم الحديد ، وسَدَّ ما بينه من فجوات بالنحاس المذاب ليكون أكثر صلابة ، فلا يتمكن الأعداء من خَرْقه ، وليكون أملسَ ناعماً فلا يتسلقونه ، ويعلُون عليه .

فقوله : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ .. ﴿٩٦﴾ ﴾ [الكهف] الصدف :

---

(١) زُبَر الحديد : قطعه . والصدفان : الجانبان . [القاموس القويم ١/٢٨٣ ، ٣٧١] .

الجانب ، ومنه قوله تعالى : ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا .. (١٥٧)﴾ [الأنعام] أى : مال عنها جانباً .

فمعنى : ساوى بين الصدفين . أى : ساوى الحائطين الأمامى والخلفى بالجبلين ﴿قَالَ انفُخُوا .. (٩٦)﴾ [الكهف] أى : فى الحديد الذى أشعل فيه ، حتى إذا التهب الحديد نادى بالنحاس المذاب ﴿قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا (٩٦)﴾ [الكهف] وهكذا انسبكَ الحديد الملتهب مع النحاس المذاب ، فأصبح لدينا حائطٌ صلْبٌ عالٍ أملس .

لذلك قال تعالى بعدها :

﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا (٩٧)﴾

(أنْ يظهرُوهُ) أى : ما استطاعت يأجوج ومأجوج أن يعلوا السد أو يتسلقوه وينفذوا من أعلاه ؛ لأنه ناعم أملس ، ليس به ما يمكن الإمساك به : ﴿وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا (٩٧)﴾ [الكهف] لأنه صلْب .

ثم يقول تعالى على لسان ذى القرنين :

﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ۖ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا (٩٨)﴾

لم يَفُتْ ذا القرنين ـ وهو الرجل الصالح ـ أنْ يسند النعمة إلى المنعم الأول ، وأنْ يعترف بأنه مجرد واسطة وأداة لتنفيذ أمر الله : ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي (٩٨)﴾ [الكهف] لأننى أخذتُ المقوِّمات التى منحنى الله إياها ، واستعملتها فى خدمة عباده .

الفكر مخلوق لله ، والطاقة والقوة مخلوقة لله ، المواد والعناصر فى الطبيعة مخلوقة لله ، إذن : فما لى أن أقول : أنا عملتُ كذا وكذا ؟

ثم يقول تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّى .. (٩٨) ﴾ [الكهف] أى : الآخرة ﴿ جَعَلَهُ دَكَّاءَ .. (٩٨) ﴾ [الكهف] فإياكم أنْ تظنوا أن صلابة هذا السَّد ومتانته باقية خالدة ، إنما هذا عمل للدنيا فحسب ، فإذا أتى وَعْد الله بالآخرة والقيامة جعله الله دكّاً وسوّاه بالأرض ، ذلك لكى لا يغترون به ولا يتمردون على غيرهم بعد أنْ كانوا مُستذلّين مُسْتضعفين ليأجوج ومأجوج . وكأنه يعطيهم رصيداً ومناعة تقيهم الطغيان بعد الاستغناء .

﴿ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا (٩٨) ﴾ [الكهف] واقعاً لا شكَّ فيه .

والتحقيق الأخير فى مسألة ذى القرنين وبناء السد أنه واقع بمكان يُسمَّى الآن (بلخ) والجبلان من جبال القوقاز ، وهما موجودان فعلاً ، وبينهما فَجْوة مبنىٌّ فيها ، ويقولون : إن صاحب هذا البناء هو قورش ، وهذا المكان الآن بين بحر قزوين والبحر الأسود .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ وَنُفِخَ فِى الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا (٩٩) ﴾

فإذا كانت القيامة تركناهم يموج بعضهم فى بعض ، كموج الماء لا تستطيع أن تفرق بعضهم من بعض ، كما أنك لا تستطيع فصل ذرات الماء فى الأمواج ، يختلط فيهم الحابل بالنابل ، والقوىّ بالضعيف ، والخائف بالمخيف ، فهم الآن فى موقف القيامة ، وقد انتهت العداوات الدنيوية ، وشُغل كل إنسان بنفسه .

وقوله تعالى : ﴿ وَنُفِخَ فِى الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا (٩٩) ﴾ [الكهف]

وهذه هى النفخة الثانية ؛ لأن الأولى نفخة الصَّعْق ، كما قال تعالى : ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ (٦٨)﴾ [الزمر]

فالنفخة الأولى نفخة الصَّعْق ، والثانية نفخة البَعْث والقيامة ، والصَّعْق قد يكون مميتاً ، وقد يكون مُغْمياً لفترة ثم يفيق صاحبه ، فالصَّعْق المميت كما فى قوله تعالى :

﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ (٤٣) فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ (٤٤)﴾ [الذاريات]

أما الصَّعْقة التى تُسبِّب الإغماء فهى مثْل التى حدثت لموسى - عليه السلام - حينما قال : ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَـٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ (١٤٣)﴾ [الأعراف]

فالجبل الأشمّ الراسى الصَّلْب اندكّ لما تجلَّى له الله ، وخَرَّ موسى مصعوقاً مُغمى عليه ، وإذا كان موسى قد صُعِق من رؤية المتجلَّى عليه ، فكيف برؤية المتجلِّى سبحانه ؟

وكأن الحق سبحانه أعطى مثلاً لموسى - عليه السلام - فقال له : لست ضنيناً عليك بالرؤية ، ولكن قبل أن ترانى انظر إلى الجبل أولاً ليكون لك مثالاً ، إذن : لا يمنع القرآن أنْ يتجلى الله على الخَلْق ، لكن هل نتحمل نحن تجلِّى الله ؟

فمن رحمة الله بنا ألاَّ يتجلى لنا على الحالة التى نحن عليها فى الدنيا . أما فى الآخرة ، فإن الخالق سبحانه سيُعِدّنا إعداداً آخر ،

وسيخلقنا خلْقة تناسب تجلِّيه سبحانه على المؤمنين فى الآخرة ؛ لأنه سبحانه القائل : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣) ﴾ [القيامة]

وسوف نلحظ هذا الإعداد الجديد فى كُلِّ أمور الآخرة ، ففيها مثلاً تقتاتون ولا تتغوطون ؛ لأن طبيعتكم فى الآخرة غير طبيعتكم فى الدنيا .

لذلك جاء السؤال من موسى ـ عليه السلام ـ سؤالاً علمياً دقيقاً : ﴿ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ .. (١٤٣) ﴾ [الأعراف] أى : أرنى كيفية النظر إليك ؛ لأنى بطبيعتى وتكوينى لا أراك ، إنما إنْ أريتنى أنت أرى .

وفى ضوء هذه الحادثة لموسى ـ عليه السلام ـ نفهم حديث النبى ﷺ : « لا تُخيِّروا بين الأنبياء ، فإن الناس يُصْعقون يوم القيامة ، فأكون أولَ مَنْ تنشقُّ عنه الأرض ، فإذا أنا بموسى آخذٌ بقائمة من قوائم العرش ، فلا أدرى أكان فيمن صُعِق ، أم حُوسِب بصَعْقة الأولى »[1] .

قالوا : لأنه صُعِق مرة فى الدنيا ، ولا يجمع الله تعالى على عبده صَعقتَيْن .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا (١٠٠) ﴾

أى : تُعرَض عليهم ليروها ويشاهدوها ، وهذا العَرْض أيضاً للمؤمنين ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا .. (٧١) ﴾ [مريم] والبعض يظن أن (واردها) يعنى : داخلها ، لا بل واردها

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٤١٢) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٣٧٤) من حديث أبى سعيد الخدرى .

بمعنى : يراها ويمرُّ بها ، فقد ترد الماء بمعنى تصل إليه دون أنْ تشربَ منه ؛ ذلك لأن الصراط الذى سيمر عليه الجميع مضروبٌ على ظهر جهنم ليراها المؤمن والكافر .

أما المؤمن فرؤيته للنار قبل أنْ يدخل الجنة تُريه مدى نعمة الله عليه ورحمته به ، حيث نجّاه من هذا العذاب ، ويعلم فضل الإيمان عليه ، وكيف أنه أخذ بيده حتى مَرَّ من هذا المكان سالماً .

لذلك يُذكّرنا الحق سبحانه بهذه المسألة فيقول : ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ .. (١٨٥)﴾ [آل عمران]

أما الكافر فسيُعرض على النار ويراها أولاً ، فتكون رؤيته لها قبل أن يدخلها رؤية الحسرة والندامة والفزع ؛ لأنه يعلم أنه داخلها ، ولن يُفلتَ منها .

وقد وردتْ هذه المسألة فى سورة التكاثر حيث يقول تعالى : ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ (١) حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ (٢) كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٤) كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (٥) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (٦) ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ (٧) ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ (٨)﴾ [التكاثر]

والمراد : لو أنكم تأخذون عنِّى العلم اليقينى فيما أُخبركم به عن النار وعذابها لكُنْتم كمنْ رآها ، لأننى أنقل لكم الصورة العلمية الصادقة لها ، وهذا ما نُسمِّيه علم اليقين ، أما فى الآخرة فسوف ترونَ النار عينها . وهذا هو عين اليقين أى : الصورة العينية التى ستتحقق يوم القيامة حين تمرُّون على الصراط .

وبرحمة الله بالمؤمنين وبفضله وكرمه تنتهى علاقة المؤمن بالنار عند هذا الحد ، وتُكتب له النجاة ؛ لذلك قال تعالى بعدها : ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ (٨)﴾ [التكاثر]

أما الكافر والعياذ بالله فلَهُ مع النار مرحلة ثالثة هى حَقُّ اليقين ، يوم يدخلها ويباشر حَرَّها ، كما قال تعالى : ﴿وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ (٩٢) فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ (٩٣) وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ (٩٤) إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ (٩٥) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٩٦)﴾ [الواقعة]

إذن : عندنا علْم اليقين ، وهو الصورة العلمية للنار ، والتى أخبرنا بها الحق سبحانه وتعالى ، وأن من صفات النار كذا وكذا وحذَّرنا منها ، ونحن فى بحبوحة الدنيا وسعَتها . وعَيْن اليقين : فى الآخرة عندما نمرُّ على الصراط ، ونرى النار رؤيا العين . ثم حَقُّ اليقين : وهذه للكفار حين يُلْقَوْن فيها ويباشرونها فعلاً .

وقد ضربنا لذلك مثلاً : لو قُلْتُ لك : توجد مدينة اسمها نيويورك وبها ناطحات سحاب ، وأنها تقع على سبع جزر ، ومن صفاتها كذا وكذا فأُعطيك عنها صورة علمية صادقة ، فإنْ صدَّقتنى فهذا علْم يقين . فإنْ مررنا عليها بالطائرة ورأيتها رأْىَ العين فهذا عَيْن اليقين ، فإنْ نزلت بها وتجولت خلالها فهذا حَقُّ اليقين .

إذن : فقوله تعالى : ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا (١٠٠)﴾ [الكهف] ليس كعرضها على المؤمنين ، بل هو عَرْض يتحقّق فيه حَقُّ اليقين بدخولها ومباشرتها .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا (١٠١)﴾

أى : على أبصارهم غشاوة تمنعهم إدراك الرؤية ، ليس هذا وفقط ، بل ﴿وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا (١٠١)﴾ [الكهف]

والمراد هنا السمع الذى يستفيد منه السامع ، سَمْع العبرة

والعظَة ، وإلا فآذانهم موجودة وصالحة للسمع ، ويسمعون بها ، لكنه سماعٌ لا فائدةَ منه ؛ لأنهم ينفرون من سماع الحق ومن سماع الموعظة ويسدُّون دونها آذانهم ، فهم فى الخير أذن من طين ، وأذن من عجين كما نقول .

أما المؤمنون فيقول الحق تبارك وتعالى فيهم : ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ .. (٨٣)﴾ [المائدة]

إذن : فكراهية أولئك للمسموع جعلتهم كأنهم لا سَمْعَ لهم ، كما نقول نحن فى لغتنا العامية : (أنت مطنش عنى) ، يعنى : لا تريد أنْ تسمعَ ، ومن أقوال أهل الفكاهة : قال الرجل لصاحبه : فيك مَنْ يكتم السرَّ ؟ قال : نعم ، قال : أعْطنى مائة جنيه ، قال : كأنِّى لم أسمع .

ولذلك حكى القرآن عن كفار مكة قولهم : ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (٢٦)﴾ [فصلت]

يعنى : شَوِّشُوا عليه ، ولا تُعطوا الناس فرصة لسماعه ، ولو أنهم علموا أن القرآن لا يؤثر فى سامعه ما قالوا هذا ، لكنهم بأذنهم العربية وملكَتهم الفصيحة يعلمون جيداً أن القرآن له تأثير فى سامعه تأثيراً يملك جوانب نفسه ، ولابُدَّ لهذا العربى الفصيح أنْ يهتزّ للقرآن ، ولابُدَّ أنه سيعرف أنه مُعجز ، وأنه غير قَوْل البشر ، وحتماً سيدعوه هذا إلى الإيمان بأن هذا الكلام كلام الله ، وأن محمداً رسول الله ؛ لذلك قال بعضهم لبعض محذراً : ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ .. (٢٦)﴾ [فصلت]

وفى آية أخرى يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ

أَثِيمٍ (٧) يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٨) ﴾ [الجاثية]

وقد يتعدَّى الأمر مجرد السماع إلى منْع الكلام كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ .. (٩) ﴾ [إبراهيم]

فليس الأمر منْع الاستماع ، بل أيضاً منْع الكلام ، فربما تصل كلمة إلى آذانهم وهم فى حالة انتباه فتُؤثِّر فيهم ، أى منعوهم الكلام كما يُقال : اسكت ، أو أغلق فمك .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا (١٠٢) ﴾

قوله تعالى : ﴿ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ .. (١٠٢) ﴾ [الكهف] يعنى : أَعَمُوا عن الحق فظنُّوا أنْ يتخذوا عبادى من دونى أولياء ؟ وسبق أن تحدثنا عن كلمة (عِبَادِى) وقلنا : إنهم المؤمنون بى المحبون لى ، الذين اختاروا مرادات الله على اختيارات نفوسهم ، وفرَّقْنا بين عبيد وعباد .

والكلام هنا عن الذين كفروا الذين اتخذوا عباد الله المقربين إليه المحبين له أولياء من دون الله ، كما قال تعالى : ﴿ لَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ .. (١٧٢) ﴾ [النساء]

فكيف تتخذونهم أولياء من دونى وتعاندوننى بهم وهم أحبتى ؟

يقول تعالى : ﴿ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ .. (٣٠) ﴾ [التوبة]

ومنهم مَنْ قال : الملائكة بنات الله ، فكيف تتخذونهم أولياء من دون الله وهم لا يستنكفون أن يكونوا عباداً لله ، ويرونَ شرفهم وعزَّتهم فى عبوديتهم له سبحانه ، فإذا بكم تتخذونهم أولياء من دونى ، ويا ليتكم جعلتُم ذلك فى أعدائى ، فهذا منهم تغفيل حتى فى اتخاذ الشركاء ؛ لذلك كان جزاءَهم أنْ نُعدَّ لهم جهنم :

﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلاً (١٠٢) ﴾ [الكهف] والنُّزُل : ما يُعَدُّ لإكرام الضيف كالفنادق مثلاً ، فهذا من التهكّم بهم والسُّخرية منهم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (١٠٣) ﴾

(قُلْ) أى : يا محمد ﴿ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً (١٠٣) ﴾ [الكهف] الأخسر : اسم تفضيل من خاسر ، فأخسر يعنى أكثر خسارة (أَعْمَالاً) أى : خسارتهم بسبب أعمالهم . وهؤلاء الأخسرون هم :

﴿ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤) ﴾

وقد ضلَّ سَعْى هؤلاء ؛ لأنهم يفعلون الشر ، ويظنون أنه خير ، فهم ضالّون من حيث يظنون الهداية . ومن ذلك ما نراه من أعمال الكفار حيث يبنون المستشفيات والمدارس وجمعيات الخير والبر ، ويُنَادون بالمساواة وغيرها من القيم الطيبة ، ويحسبون بذلك أنهم أحسنوا صُنْعاً وقدَّموا خَيْراً ، لكن هل أعمالهم هذه كانت لله ؟

الواقع أنهم يعملونها للناس وللشهرة وللتاريخ ، فليأخذوا أجورهم من الناس ومن التاريخ تعظيماً وتكريماً وتخليداً لذكراهم .

ومعنى : ﴿ ضَلَّ سَعْيُهُمْ .. (١٠٤) ﴾ [الكهف] أى : بطُل وذهب ،

وكأنه لا شيءَ ، مثل السراب كما صوَّرهم الحق سبحانه فى قوله : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا .. (٣٩) ﴾ [النور]

وهؤلاء لا يبخسهم الله حقوقهم ، ولا يمنعهم الأَجْر ؛ لأنهم أحسنوا الأسباب ، لكن هذا الجزاء يكون فى الدنيا ؛ لأنهم لما عملوا وأحسنوا الأسباب عملوا للدنيا ، ولا نصيبَ لهم فى جزاء الآخرة .

وقد أوضح الحق سبحانه وتعالى هذه المسألة فى قوله تعالى : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ (٢٠) ﴾ [الشورى]

ومع ذلك يُبقى للكافر حَقَّه ، فلا يجوز لأحد من المؤمنين أنْ يظلمه أو يعتدى عليه ، وفى حديث سيدنا جابر بن عبد الله ـ رضى الله عنه ـ قال : سمعت أن مُحدِّثاً حدَّث عن رسول الله بحديث أحببت ألاَّ أموت ، أو يموت هو حتى أسمعه منه ، فسألت عنه فقيل : إنه ذهب إلى الشام ، قال : فاشتريت ناقة ورحَّلتها[1] ، وسرْت شهراً إلى أنْ وصلتُ إلى الشام ، فسألت عنه فقيل : إنه عبد الله بن أُنَيْس ، فلما ذهبت قال له خادمه : إن جابر بن عبد الله بالباب ، قال جابر : فخرج ابنُ أُنَيْس وقد وَطِىء ثيابه من سرعته . قال عبد الله : واعتنقا .

قال جابر : حدِّثت أنك حدثتَ حديثاً عن رسول الله ﷺ : « إن الله ينادى يوم القيامة : يا ملائكتى ، أنا الملك ، أنا الديان ، لا ينبغى لأحد من أهل النار أنْ يدخلَ النار وله عند أحد من أهل الجنة حَقٌّ حتى أقصّه منه ، ولا ينبغى لأحد من أهل الجنة أنْ يدخلَ الجنة وله عند أحد من أهل النار حق حتى أقصَّه منه ، حتى اللطمة »[2] .

---

(١) ارتحل البعير ؛ جعل عليه الرحل . ويقال : رحلت البعير أرحله رحْلاً إذا علوته . [لسان العرب ـ مادة : رحل] .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٣/٤٩٥) من حديث عبد الله بن أنيس رضى الله عنه .

فانظر إلى دقَّة الميزان وعدالة السماء التى تراعى حَقَّ الكافر ، فتقتصّ له قبل أنْ يدخل النارَ ، حتى ولو كان ظالمه مؤمناً .

وفى قوله تعالى : ﴿ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. (١٠٤)﴾ [الكهف] جاءت كلمة الضلال فى القرآن الكريم فى عدّة استعمالات يُحدِّدها السياق الذى وردتْ فيه . فقد يأتى الضلال بمعنى الكفر ، وهو قمة الضلال وقمة المعاصى ، كما جاء فى قول الحق تبارك وتعالى : ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١٠٨)﴾ [البقرة]

ويُطلق الضلال ، ويُراد به المعصية حتى من المؤمن ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُّبِينًا (٣٦)﴾ [الأحزاب]

ويُطلق الضلال ، ويُراد به أنْ يغيب فى الأرض ، كما فى قوله تعالى : ﴿أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ .. (١٠)﴾ [السجدة]

يعنى : غِبْنا فيها واختفينا .

ويُطلَق الضلال ويُراد به النسيان ، كما فى قوله تعالى : ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَىٰ .. (٢٨٢)﴾ [البقرة]

ويأتى الضلال بمعنى الغفلة التى تصيب الإنسان فيقع فى الذنب دون قصد . كما جاء فى قصة موسى وفرعون حينما وكز[1] موسى الرجل فقضى عليه ، فلما كلمه فرعون قال : ﴿فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ (٢٠)﴾ [الشعراء]

---

(١) وكز : دفع وضرب : أى : ضربه بجُمْع يده الواحدة فمات . [القاموس القويم ٢/٣٥٤] .

أى : قتلتُه حال غفلة ودون قصد ، ومَنْ يعرف أن الوكزة تقتل ؟ والحقيقة أن أجلَ الرجل جاء مع الوكزة لا بها . ويحدث كثيراً أن واحداً تدهسه سيارة وبتشريح الجثة يتبين أنه مات بالسكتة القلبية التى صادفتْ حادثة السيارة .

ويأتى الضلال بمعنى : ألاّ تعرف تفصيل الشىء ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَىٰ (٧) ﴾ [الضحى] أى : لا يعرف ما هذا الذى يفعله قومه من الكفر .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا (١٠٥) ﴾

﴿ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ .. (١٠٥) ﴾ [الكهف] والآيات تُطلَق ثلاثة إطلاقات ، وقد كفروا بها جميعاً وكذَّبوا ، كفروا بآيات الكون الدالة على قدرة الله ، فلم ينظروا فيها ولم يعتبروا بها ، وكفروا بآيات الأحكام والقرآن والبلاغ من رسول الله ، وكذلك كفروا بآيات المعجزات التى أنزلها الله لتأييد الرسل فلم يصدقوها . إذن : كلمة : ﴿ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ .. (١٠٥) ﴾ [الكهف] هنا عامة فى كل هذه الأنواع .

(ولقائه) أى : وكفروا أيضاً بلقاء الله يوم القيامة ، وكذَّبوا به ، فمنهم مَنْ أنكره كلية فقال : ﴿ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٨٢) ﴾ [المؤمنون]

ومنهم مَن اعترف ببعْث على هواه ، فقال : ﴿ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا (٣٦) ﴾ [الكهف]

ومنهم مَنْ قال : إن البعث بالروح دون الجسد وقالوا فى ذلك كلاماً طويلاً ، إذن : إما ينكرون البعث ، وإما يُصوِّرونه بصورة ليست هى الحقيقة .

ثم يقول تعالى : ﴿فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ .. (١٠٥)﴾ [الكهف] أى : بَطُلت وذهب نفعُها ﴿فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا (١٠٥)﴾ [الكهف]

وقد اعترض المستشرقون على هذه الآية ﴿فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا (١٠٥)﴾ [الكهف] وقالوا : كيف نُوفِّق بينها وبين الآيات التى تثبت الميزان ، كما فى قوله تعالى : ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ (٤٧)﴾ [الأنبياء]

وقوله تعالى : ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ (٧) وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ (٨) فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ (٩) وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ (١٠) نَارٌ حَامِيَةٌ (١١)﴾ [القارعة]

ونقول : إن العلماء فى التوفيق بين هذه الآيات قالوا[1] : المراد بقوله تعالى : ﴿فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا (١٠٥)﴾ [الكهف] جاءتْ على سبيل الاحتقار وعدم الاعتبار ، فالمراد لا وزنَ لهم عندنا أى : لا اعتبارَ لهم ، وهذه نستعملها الآن فى نفس هذا المعنى نقول : فلان لا وزنَ له عندى . أى : لا قيمة له .

وبالبحث فى هذه الآية وتدبرها تجد أن القرآن الكريم يقول : ﴿فَلا نُقِيمُ لَهُمْ .. (١٠٥)﴾ [الكهف] ولم يقُلْ : عليهم ، إذن : الميزان

---

(١) قال الإمام أبو يحيى زكريا الأنصارى فى كتابه « فتح الرحمن بكشف ما يلتبس فى القرآن » (ص ٢٥١) : « قوله تعالى : ﴿فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا (١٠٥)﴾ [الكهف] . أى : قدراً لحقارتهم ، وليس المراد فلا ننصب لهم ميزاناً لأن الميزان إنما ينصب ليوزن به الحسنات فى مقابلته السيئات ، والكافر لا حسنة له » .

موجود ، ولكنه ليس فى صالحهم ، فالمعنى : لا نقيم لهم ميزاناً لهم ، بل نقيم لهم ميزاناً عليهم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ ﴾

(ذلك) أى : ما كان من إحباط أعمالهم ، وعدم إقامتنا لهم وزناً ليس تجنِّياً منَّا عليهم أو ظلماً لهم ، بل جزاءً لهم على كفرهم فقوله ﴿ بِمَا كَفَرُوا .. ﴿١٠٦﴾ ﴾ [الكهف] أى : بسبب كفرهم .

﴿ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ ﴾ [الكهف] فقد استهزأوا بآيات الله ، وكلما سمعوا آية قالوا : أساطير الأولين : ﴿ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ ﴾ [القلم]

وكذلك لم يَسْلَم رسول الله ﷺ من سخريتهم واستهزائهم ، والقرآن يحكى عنهم قولهم لرسول الله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ ﴾ [الحجر] فقولهم ﴿ نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ .. ﴿٦﴾ ﴾ [الحجر] أى : القرآن وهم لا يؤمنون به سُخرية واستهزاءً .

وفى سورة « المنافقون » يقول القرآن عنهم : ﴿ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا .. ﴿٧﴾ ﴾ [المنافقون] فقولهم ﴿ رَسُولِ اللَّهِ .. ﴿٧﴾ ﴾ ليس إيماناً به ، ولكن إمّا غفلة منهم عن الكذب الذى يمارسونه ، وإما سُخْرية واستهزاءً كما لو كنتَ فى مجلس ، ورأيتَ أحدهم يدَّعى العلم ويتظاهر به فتقول : اسألوا هذا العالم .

وفى آية أخرى يقول سبحانه عن استهزائهم برسول الله : ﴿ وَإِن

يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ[1] بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ (٥١) ﴾ [القلم]

ثم يتحدث القرآن عن المقابل لهؤلاء ، فيقول :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا (١٠٧) ﴾

قوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا .. (١٠٧) ﴾ [الكهف] سبق أن قلنا : إن الإيمان هو تصحيح الينبوع الوجدانى العقدى لتصدر الأفعال مناسبة لإيمانك بمَنْ شرّع ، ومن هنا كان الإيمان أولاً وشرطاً لقبول العمل ، وإلاَّ فهناك مَنْ يعمل الخير لا من منطلق إيمانى بل لاعتبارات أخرى ، والنية شَرْط لازم فى قبول العمل .

لذلك يعاقب الله تعالى مَنْ يعمل العمل لغير الله ، يعاقبه بأنْ ينكره صاحبه ويجحده ويكرهه بسببه ، بدل أنْ يعترفَ له بالجميل . ومن هنا قالوا : (اتق شَرَّ مَنْ أحسنتَ إليه) ؛ وهذا قول صحيح لأنك حين تُحسن إلى شخص تدكُّ كبرياءه ، وتكون يدك العليا عليه ، فإذا ما أخذ حظاً من الحياة وأصبح ذا مكانة بين الناس فإن كان غير سَوِىِّ النفس فإنه لا يحب مَنْ تفضل عليه فى يوم من الأيام ودَكَّ كبرياءه ؛ لذلك تراه يكره وجوده، ولا يحب أنْ يراه ، وربما دبَّر لك المكائد لتختفى من طريقه ، وتُخلى له الساحة ؛ لأنك الوحيد الذى يحرجه حضورك .

لذلك ، مَنْ عمل عملاً لغير الله أسلمه الله لمن عمل له ، فليأخذ منه الجزاء ، وإذا بالجزاء يأتى على خلاف ما تنتظر ، فقد فعلت له

---

(١) أزلقه : جعله يزلق (تزل قدمه) كأن أبصارهم أدوات إزلاق لشدة حسدهم وحقدهم . [القاموس القويم ١/٢٨٩] .

ليُكرمك فإذا به يُهينك ، فعلْتَ له ليحترمك فإذا به يَحْقرك ، فعلتَ له ليُواليك فإذا به عدو لك ؛ لذلك يقولون : العمل لله عاجلَ الجزاء ، أما العمل لغير الله فغير مضمون العواقب ، فقد يُوفى لك وقد لا يُوفى .

ثم أردف الحق ـ سبحانه وتعالى ـ الإيمانَ بالعمل الصالح ؛ لأن العمل الصالح لا بُدَّ له أن ينطلق من الإيمان ويصدر عنه ، فقال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ .. (١٠٧)﴾ [الكهف]

﴿عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ .. (١٠٧)﴾ [الكهف] يعنى : عمل الشىء الصالح ، فإن كان الشىء صالحاً بنفسه فليتركه على صلاحه لا يفسده ، أو يزيده صلاحاً ، كبئر الماء الذى يشرب منه الناس ، فإمّا أن تتركه على حال صلاحه لا تُلقى فيه ما يسدُّه أو يُفسده فتُخرج الصالح عن صلاحه ، وإما أنْ تزيده صلاحاً فتُضيف إليه ما يُحسِّن من أدائه ويُزيد من كفاءته كأنْ تبنى حوله سوراً يحميه أو غطاءً يحفظه ، أو آلةَ رفع تُيسِّر على الناس استعماله .

والفرد حين يعمل الصالحات تكون حصيلته من صلاح غيره أكثرَ من حصيلته من عمله هو ؛ لأنه فَرْد واحد ، ويستفيد بصلاح المجتمع كله ، ومن هنا لا ينبغى أنْ تستثقلَ أوامر الشارع وتكليفاته ؛ لأنه يأخذ منك ليعطيك ولَيُؤمِّن حياتك وقت الحاجة والعَوَز ، وحينما يتوفّر لك هذا التكافل الاجتماعى تستقبل الحياة بنفس راضية حال اليُسْر ، مطمئنة حال العُسْر .

وساعةَ أنْ يأمرك الشرع بكفالة اليتيم وإكرامه ، فإنه [illegible] أولادك من بعدك ، فلا تحزن إنْ أصابك مكروه ؛ لأنك فى مجتمع متعاون ، سيكفل أولادك ، بل قد يكون اليتيم فى ظل الإسلام وتعاليمه أسعَد حظاً من حياته فى رعاية أبيه ؛ لأنه بموت أبيه يجد

المؤمنين جميعاً آباءَ له ، وربما كان أبوه مشغولاً عنه فى حياته لا يُفيده بشىء ، بل ويصدُّ عنه الخير حيث يقول الناس : أبوه موجود وهو يتكفّل به .

لذلك يقول أحمد شوقى[1] :

لَيْسَ اليَتيمُ مَنِ انتهَى أبَواهُ ... مِنْ هَمِّ الحيَاةِ وخلَّفَاهُ ذَليلا

إنَّ اليَتيمَ هُوَ الذى تَلْقَى لَهُ ... أُمًّا تخلَّتْ أَوْ أبًا مَشْغُولا

وقوله تعالى : ﴿كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً (١٠٧)﴾ [الكهف]
الفردوس : هو أعلى الجنة ، والنُّزُل : ما يُعده الإنسان لإكرام ضيفه من الإقامة ومُقوّمات الحياة وتَرَفها ، والإنسان حينما يُعدُّ النزُلَ لضيفه يعده على حَسْب قدراته وإمكانياته وعلمه بالأشياء ، فما بالك إنْ كان المعدّ للنُّزُل هو الله تبارك وتعالى ؟

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا (١٠٨)﴾

وخلود النعيم فى الآخرة يُميّزه عن نعيم الدنيا مهما سَمَا ، كما أن نعيم الدنيا يأتى على قَدْر تصوُّرنا فى النعيم وعلى حَسْب قدراتنا ، وحتى إنْ بلغنا القمة فى التنعُّم فى الدنيا فإننا على خَوْف دائم من زواله ، فإما أنْ يتركك النعيم ، وإما أن تتركه ، وأما فى الجنة فالنعمة خالدة لا مقطوعة ولا ممنوعة ، وأنت مُخلّد فيها فلن تتركك النعمة ولن تتركها .

---

(١) هو : أشهر شعراء العصر الحديث ، يلقب بأمير الشعراء ، مولده ووفاته بالقاهرة ، نشأ فى ظل البيت المالك بمصر . ولد ١٨٦٨ م . تابع دراسة الحقوق فى فرنسا . من آثاره « الشوقيات » « مجنون ليلى » « مصرع كليوباترا » توفى عام ١٩٣٢ م عن ٧٥ عاماً . (الأعلام للزركلى ١ / ١٣٦ ، ١٣٧) .

لذلك يقول تعالى بعدها : ﴿لا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً (١٠٨)﴾ [الكهف] أى : لا يطلبون تحوُّلهم عنها إلى غيرها ، لأنه لا يُتصوَّر فى النعيم أعلى من ذلك .

ومعلوم أن الإنسان لديه طموحات ترفيهية ، فكلما نال خيراً تطلع إلى أعلى منه ، وكلما حاز متعةً ابتغى أكثر منها ، هذا فى الدنيا أما فى الآخرة فالأمر مختلف ، وإلا فكيف يطلب نعيماً أعلى من نعيم الجنة الذى قال الله عنه : ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَـٰذَا الَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا .. (٢٥)﴾ [البقرة]

أى : كلما رزقهم الله ثمرةً أتتْهم أخرى فقالوا : لقد رُزِقْنا مثلها من قبل ، وظنّوها كسابقتها ، لكنها ليست كسابقتها بل بطعم جديد مختلف ، وإنْ كانت نفس الثمرة ، ذلك لأن قدرة الأسباب محدودة ، أما قدرة المسبِّب فليست محدودة .

والحق سبحانه وتعالى قادر على أن يُخرج لك الفاكهة الواحدة على ألف لَوْن وألف طَعْم ؛ لأن كمالاته تعالى لا تتناهى فى قدرتها ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا .. (٢٥)﴾ [البقرة] فالثمر واحد متشابه ، أمَّا الطعم فمختلف[1] .

والإنسان منّا ليشقَّ طريقه فى الحياة يظل يتعلّم ، ليأخذ شهادة مثلاً أو يتعلم مهنة ، ويظل فى تعب ومشقة ما يقرب من خمسة وعشرين عاماً من عمره أملاً فى أن يعيش باقى حياته المظنونة مرتاحاً هانئاً ، وهَبْ أنك ستعيش باقى حياتك فى راحة ، فكم سيكون الباقى منها ؟

---

(١) قال ابن عباس : ليس فى الدنيا مما فى الجنة شىء إلا الأسماء . أورده السيوطى فى « الدر المنثور » (٩٦/١) وعزاه لمسدد وهناد فى الزهد وابن جرير وابن المنذر والبيهقى فى البعث .

أما الراحة الأبدية فى الآخرة فهى زمن لا نهايةَ له ، ونعيم خالد لا ينتهى ، ففى أىِّ شىء يطمع الإنسان بعد هذا كله ؟ وإلى أىِّ شىء يطمح ؟

لذلك قال تعالى بعدها :

﴿ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا (١٠٩) ﴾

لأن قدرته تعالى لا حدود لها ، وما دامت قدرته لا حدود لها فالمقدورات أيضاً لا حدود لها ؛ لذلك لو كان البحر مداداً أى : حبْراً يكتب به كلمات الله التى هى (كُنْ) التى تبرز المقدورات ما كان كافياً لكلمات الله ﴿ وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا (١٠٩) ﴾ [الكهف] أى : بمثل البحر .

ونحن نقول مثلاً عن السلعة الجيدة : لا يستطيع المصنع أنْ يُخرج أحسن من هذه ، أما صنعة الله فلا تقف عند حد ؛ لأن المصنع يعالج الأشياء ، أما الحق ـ تبارك وتعالى ـ فيصنعها بكلمة كُنْ ؛ لذلك نجد فى أرقى فنادق الدنيا أقصى ما توصَّل إليه العلم فى خدمة البشر أنْ تضغطَ على زرٍّ معين ، فيُخرج لك ما تريد من طعام أو شراب .

وهذه الأشياء بلا شكٍّ مُعدَّة ومُجهَّزة مُسْبقاً ، فقط يتم استدعاؤها بالضغط على زر خاص بكل نوع ، لكن هل يوجد نعيم فى الدنيا يحضر لك ما تريد بمجرد أن يخطر على بالك ؟ إذن : فنعيم الدنيا له حدود ينتهى عندها .

لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢٤) ﴾ [يونس]

وكأن الحق سبحانه يقول لنا : لقد استنفدتم وسائلكم فى الدنيا ، وبلغتم أقصى ما يمكن من مُتَعها وزينتها ، فتعالوا إلى ما أعددتُه أنا لكم ، اتركوا ما كنتم فيه من أسباب الله ، وتعالوا عِيشُوا بالله ، كنتم فى عالم الأسباب فتعالوْا إلى المسبِّب .

وإنْ كان الحق سبحانه قد تكلم فى هذه الآية عن المداد الذى تُكتب به كلمات الله ، فقد تكلَّم عن الأقلام التى يكتب بها فى آية أخرى أكثر تفصيلاً لهذه المسألة ، فقال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ .. (٢٧) ﴾ [لقمان]

ونقف هنا عند دقَّة البيان القرآنى ، فلو تصوَّرنا ما فى الأرض من شجر أقلام ، مع ما يتميز به الشجر من تجدُّد مستمر ، وتكرُّر دائم يجعل من الأشجار ثروة لا حَصْر لها ولا تنتهى ، وتصوَّرنا ماء البحر مداداً يُكتب به إلا أنّ ماء البحر منذ خلقه الله تعالى محدود وثابت لاَ يزيد ولا ينقص .

لذلك لما كان الشجر يتجدَّد ويتكرَّر ، والبحر ماؤه ثابت لا يزيد . قال سبحانه : ﴿ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ .. (٢٧) ﴾ [لقمان] ليتناسب تزايد الماء مع تزايد الشجر ، والمراد سبعة أمثاله ، واختار هذا العدد بالذات ؛ لأنه مُنتَهى العدد عند العرب .

وقد أوضح لنا العلم دورة الماء فى الطبيعة ، ومنها نعلم أن كمية الماء فى الأرض ثابتة لا تزيد ؛ لأن ما يتم استهلاكه من الماء يتبخّر ويعود من جديد فالإنسان مثلاً لو شَرِبَ طيلة عمره مائة طن من الماء ، فاحسب ما يخرج منه من بول وعرق وفضلات فى عملية الإخراج تجدها نفس الكمية التى شربها ، وقد تبخرتْ وأخذَتْ دورتها من جديد ؛ لذلك يقولون : رُبَّ شربةِ ماء شربها من آدم الملايين .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾ ﴾

(قُلْ) أى : يا محمد ، وهذا كلام جديد ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ .. ﴿١١٠﴾ ﴾ [الكهف] يعنى : خُذُونى أُسْوة ، فأنا لست ملَكاً إنما أنا بشر مثلكم ، وحملتُ نفسى على المنهج الذى أطالبكم به ، فأنا لا آمركم بشىء وأنا عنه بنجْوَى . بل بالعكس كان ﷺ أقلَّ الناس حَظّاً من مُتَعِ الحياة وزينتها .

فكان فى المؤمنين به الأغنياء الذين يتمتعون بأطايب الطعام ، ويرتدُونَ أغْلى الثياب فى حين كان ﷺ يمر عليه الشهر والشهران دون أنْ يُوقَد فى بيته نار لطعام[1] ، وكان يرتدى المرقّع من الثياب ، كما أن أولاده لا يرثونه ، كما يرث باقى الناس ، ولا تحل لهم الزكاة كغيرهم ، فحُرِموا من حَقٍّ تمتع به الآخرون .

لذلك كان ﷺ أدنى الأسوات أى : أقل الموجودين فى مُتع الحياة وزُخْرفها ، وهذا يلفتنا إلى أن الرسالة لم تُجْرِ لمحمد نفعاً دنيوياً ، ولم تُميِّزه عن غيره فى زَهْرة الدنيا الفانية ، إنما مَيَّزتْه فى القيم والفضائل .

---

(١) عن عائشة رضى الله عنها أنها كانت تقول : كان يمر بنا هلال وهلال وهلال وما يوقد فى منزل رسول الله ﷺ نار . قلت : أىْ خالة ، على أى شىء كنتم تعيشون ؟ قالت : على الأسودين : التمر والماء . أخرجه البخارى فى صحيحه (٥/٢٥٦٧ ـ فتح) (١١/٦٤٥٩ ـ فتح) وكذا مسلم فى صحيحه (جـ ٤ ـ الزهد / ٢٨) .

ومن هنا كان ﷺ يقول : « يرد عليَّ - يعنى من الأعلى - فأقول : أنا لست مثلكم ، ويؤخذ منى فأقول : ما أنا إلا بشر مثلكم » .

والآية هنا لا تميزه ﷺ عن البشر إلا فى أنه ﴿يُوحَىٰ إِلَيَّ .. (١١٠)﴾ [الكهف] فما زاد محمد عن البشر إلا أنه يُوحَى إليه .

ثم يقول تعالى : ﴿أَنَّمَا إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ .. (١١٠)﴾ [الكهف] أنما : أداة قَصْر ﴿إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ .. (١١٠)﴾ [الكهف] أى : لا إله غيره ، وهذه قمَّة المسائل ، فلا تلتفتوا إلى إله غيره ، ومن أعظم نعم الله على الإنسان أنْ يكونَ له إله واحد ، وقد ضرب لنا الحق سبحانه مثلاً ليوضح لنا هذه المسألة فقال تعالى :

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً .. (٢٩)﴾ [الزمر]

فلا يستوى عبد مملوك لعدة أسياد يتجاذبونه ؛ لأنهم متشاكسون مختلفون يَحَارُ فيما بينهم ، إنْ أرضى هذا سخط ذاك . هل يستوى وعبد مملوك لسيد واحد ؟ إذن : فمما يُحمَد الله عليه أنه إله واحد .

﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ .. (١١٠)﴾ [الكهف] الناس يعملون الخير لغايات رسمها الله لهم فى الجزاء ، ومن هذه الغايات الجنة ونعيمها ، لكن هذه الآية تُوضّح لنا غاية أَسْمى من الجنة ونعيمها ، هى لقاء الله تعالى والنظر إلى وجهه الكريم ، فقوله تعالى : ﴿يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ .. (١١٠)﴾ [الكهف] تصرف النظر عن النعمة إلى المنعم تبارك وتعالى .

فمَنْ أراد لقاء ربه لا مُجرَّد جزائه فى الآخرة ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا .. (١١٠)﴾ [الكهف] فهذه هى الوسيلة إلى لقاء الله ؛ لأن العمل

الصالح دليل على أنك احترمتَ أمر الآمر بالعمل ، ووثقتَ من حكمته ومن حُبِّه لك فارتاحتْ نفسك فى ظلِّ طاعته ، فإذا بك إذا أويْتَ إلى فراشك تستعرض شريط أعمالك ، فلا تجد إلا خيراً تسعَدُ به نفسك ، وينشرح له صدرك ، ولا تتوجَّس شراً من أحد ، ولا تخاف عاقبة أمر لا تُحمَدُ عقباه ، فمَنِ الذى أنعم عليك بكل هذه النعم ووفَّقك لها ؟

ثم : ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف] وسبق أن قُلْنا : إن الجنة أحد ، فلا تشرك بعبادة الله شيئاً ، ولو كان هذا الشىء هو الجنة ، فعليك أنْ تسموَ بغاياتك ، لا إلى الجنة بل إلى لقاء ربها وخالقها والمنعِم بها عليك .

وقد ضربنا لذلك مثلاً بالرجل الذى أعدَّ وليمة عظيمة فيها أطايب الطعام والشراب ، ودعا إليها أحبابه فلما دخلوا شغلهم الطعام إلا واحداً لم يهتم بالطعام والشراب ، وسأل عن صاحب الوليمة ليُسلِّم عليه ويأنس به .

وما أصدق ما قالته رابعة العدوية :

كُلُّهم يَعبدُونَ مِنْ خَوْف ... نارٍ ويروْنَ النَّجاةَ حَظًّا جَزيلاً
أوْ بأنْ يسكنُوا الجِنَان فيحظَوْا ... بقصُورٍ ويشْرَبُوا سلْسَبيلا
ليسَ لِى بالجِنَانِ والنَّارِ حظٌّ ... أنَا لا أبتَغِى بحُبِّى بَديلا

وهذا يشرح لنا الحديث القدسى : « لوْ لَم أخلق جنة وناراً ، أما كنتُ أهْلاً لأنْ أُعْبَد ؟ » .

فلا ينبغى للعبد أن يكون نفعياً حتى فى العبادة ، والحق سبحانه وتعالى أهْل بذاته لأن يُعبد ، لا خوفاً من ناره ، ولا طمعاً فى جنته ، فاللهم ارزقنا هذه المنزلة ، واجعلنا برحمتك من أهلها .

سُورَةُ مَرْيَمَ

سورة مريم (١)

بسم الله الرحمن الرحيم

كهيعص ١

هذه خمسة حروف مقطعة ، تُنطق باسم الحرف لا بمُسمَّاه ، لأن الحرف له اسم وله مُسمَّى ، فمثلاً كلمة (كتب) مسماها (كتب) ، أما بالاسم فهى كاف ، تاء ، باء . فالاسم هو العلَم الذى وُضِع للدلالة على هذا اللفظ .

وفى القرآن الكريم سور كثيرة ابتُدِئَتْ بحروف مُقطعة تُنطق باسم الحرف لا مُسمَّاه ، وهذه الحروف قد تكون حَرفاً واحداً مثل : ن ، ص ، ق . وقد تكون حرفين مثل : طه ، طس . وقد تكون ثلاثة أحرف مثل : الم ، طسم . وقد تأتى أربعة أحرف مثل : المر . وقد تأتى بخمسة أحرف مثل : كهيعص ، حمعسق .

---

(١) سورة مريم هى السورة (١٩) فى ترتيب المصحف الشريف ؛ وهى سورة مكية ، عدد آياتها ٩٨ آية . وهى السورة الثالثة والأربعون فى ترتيب النزول ، وقد نزلت بعد سورة فاطر وقبل سورة طه . قاله ابن الضريس فى فضائل القرآن ، نقله السيوطى فى الإتقان فى علوم القرآن (١/٢٧) . وسورة مريم تقع كلها فى الجزء السادس عشر من القرآن .

لذلك نقول : لا بُدَّ فى تعلُّم القرآن من السماع ، وإلاَّ فكيف تُفرِّق بين الم فى أول البقرة فتنطقها مُقطَّعة وبين ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١﴾ [الشرح] فتنطقها موصولة ؟ وصدق الله تعالى حين قال : ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ۝١٨﴾ [القيامة]

ونلاحظ فى هذه الحروف أنه يَنطِق بالمسمّى المتعلم وغير المتعلم ، أما الاسم فلا ينطق به ولا يعرفه إلا المتعلّم الذى عرف حروف الهجاء . فإذا كان الرسول ﷺ أُمياً لم يجلس إلى معلم ، وهذا بشهادة أعدائه ، فمن الذى علمه هذه الحروف ؟

إذن : فإذا رأيت هذه الحروف المقطعة فاعلم أن الحق سبحانه وتعالى نطق بها بأسماء الحروف ، ونحن نتكلم بمُسمَّيات الحروف لا بأسمائها .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ۝٢﴾

الذكْر : له معانٍ متعددة ، فالذكْر هو الإخبار بشىء ابتداءً ، والحديث عن شىء لم يكُنْ لك به سابق معرفة ، ومنه التذكير بشىء عرفته أولاً ، ونريد أن نُذكِّرك به ، كما فى قوله تعالى : ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ۝٥٥﴾ [الذاريات]

ويُطلَق الذكْر على القرآن : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر] وفى القرآن أفضل الذكر ، وأصدق الأخبار والأحداث . كما يُطلق الذكر على كل كتاب سابق من عند الله ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ۝٤٣﴾ [النحل]

والذكْر هو الصِّيت والرِّفْعة والشرف ، كما فى قوله تعالى : ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ .. (٤٤)﴾ [الزخرف] وقوله تعالى : ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ .. (١٠)﴾ [الأنبياء] أى : فيه صِيتكم وشرفكم ، ومن ذلك قولنا : فلان له ذِكْر فى قومه .

ومن الذكْر ذكْر الإنسان لربه بالطاعة والعبادة ، وذكْر الله لعبده بالمثوبة والجزاء والرحمة ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ .. (١٥٢)﴾ [البقرة]

فقوله تعالى : ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ .. (٢)﴾ [مريم] أى : هذا يا محمد خبر زكريا وقصته ورحمة الله به .

والرحمة : هى تجليّات الراحم على المرحوم بما يُديم له صلاحه لمهمته ، إذن : فكلُّ راحم ولو من البشر ، وكلُّ مرحوم ولو من البشر ، ماذا يصنع ؟ يعطى غيره شيئاً من النصائح تُعينه على أداء مهمته على أكمل وجه ، فما بالك إنْ كانت الرحمة من الخالق الذى خلق الخلق ؟ وما بالك إذا كانت رحمة الله لخير خَلْقه محمد ؟

إنها رحمة عامة ورحمة شاملة ؛ لأنه ﷺ أشرف الأنبياء وأكرمهم وخاتمهم ، فلا وَحْىَ ولا رسالة من بعده ، ولا إكمال . إذن : فهو أشرف الرسل الذين هم أشرف الخَلْق ، ورحمة كل نبى تأخذ حظها من الحق سبحانه بمقدار مهمته ، ومهمة محمد أكرم المهمات .

وكلمة (رَحْمَة) هنا مصدر يؤدى معنى فعله ، فالمصدر مثل الفعل يحتاج إلى فاعل ومفعول ، كما نقول : آلمنى ضَرْب الرجل ولدَه ، فمعنى : ﴿رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا (٢)﴾ [مريم] أى : رحم ربُّك عبده زكريا .

لذلك قال تعالى : ﴿رَحْمَتِ رَبِّكَ .. ﴿٢﴾﴾ [مريم] لأنها أعلى أنواع الرحمة ، وإنْ كان هنا يذكر رحمته تعالى بعبده زكريا ، فقد خاطب محمداً ﷺ بقوله : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء] فرحمة الله تعالى بمحمد ليست رحمة خاصة به ، بل هى رحمة عامة لجميع العالمين ، وهذه منزلة كبيرة عالية .

فالمراد من ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ﴿٢﴾﴾ [مريم] يعنى هذا الذى يُتلَى عليك الآن يا محمد هو ذِكْر وحديث وخبر رحمة ربك التى هى أجلُّ الرحمات بعبده زكريا . وسبق أن أوضحنا أن العبودية للخَلْق مهانة ومذلَّة ، وهى كلمة بشعة لا تُقبل ، أما العبودية لله تعالى فهى عزٌّ وشرف ، بل مُنتَهى العزّ والشرف والكرامة ، وعللنا لذلك بأن العبودية التى تسوء وتُحزن هى عبودية العبد لسيد يأخذ خيره ، أما العبودية لله تعالى فيأخذ العبد خير سيده .

لكن ، ما نوع الرحمة التى تجلى الله تعالى بها حين أخبر رسوله ﷺ بخبر عبده زكريا ؟

قالوا : لأنها رحمة تتعلق بطلاقة القدرة فى الكون ، وطلاقة القدرة فى أن الله تبارك وتعالى خلق للمسبِّبات أسباباً ، ثم قال للأسباب : أنت لست فاعلة بذاتك ، ولكن بإرادتى وقدرتى ، فإذا أردتُك ألاَّ تفعلى أبطلْتُ عملك ، وإذا كنت لا تنهضين بالخير وحدك فأنا أجعلك تنهضين به .

ومن ذلك ما حدث فى قصة خليل الله إبراهيم حين ألقاه الكفار فى النار ، ولم يكن حظ الله بإطفاء النار عن إبراهيم ، أو بجَعْل النار بَرْداً وسلاماً على إبراهيم أن يُنجى إبراهيم ؛ لأنه كان من الممكن ألاَّ يُمكّنَ خصوم إبراهيم عليه السلام من القبض عليه ، أو أن يُنزِل مطراً

يُطفىء ما أوقدوه من نار ، لكن ليست نكاية القوم فى هذا ، فلو أفلتَ إبراهيم من قبضتهم ، أو نـزل المطر فأطفأ النار لقالوا : لو كُنَّا تمكنّا منه لفعلنا به كذا وكذا ، ولو لم ينزل المطر لفعلنا به كذا وكذا .

إذن : شـاءت إرادة الله أنْ تكيـد هؤلاء ، وأن تُظـهـر لهم طلاقـة القـدرة الإلهية فـتُمكّـنهم من إبراهيم حتى يلقـوه فى النار فعـلاً ، ثم يأتى الأمر الأعلى من الخـالق سبحـانه للنار أن تتعطل فـيها خاصـية الإحراق : ﴿قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰٓ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾ [الأنبياء]

وكذلك فى قصـة رحمة الله لعبده زكريا تـعطينا دليلاً على طلاقة القدرة فى مسألة الخَلْق ، وليلفتنا إلى أن الخـالق سبحانه جعل للكون أسباباً ، فمَنْ أخذ بالأسباب يصل إلى المسبَّب ، ولكن إياكم أنْ تُفتَنوا فى الأسباب ؛ لأن الخالق سـبحانه قد يعطيكم بالأسباب ، وقـد يُلغيها نهائياً ويأتى بالمسبَّبات دون أسبابٍ .

وقـد تجلَّتْ طلاقة الـقدرة فى قـصة بَدْء الـخَلْق ، فنحن نعلم أن جمهرة الناس وتـكاثرهم يتم عن طريق التزاوج بين رجل وامرأة ، إلا أن طلاقة القدرة لا تتوقف عند هذه الأسبـاب ، والخالق سبحانه يُدير خلقـه على كُلِّ أوجـه الخَلْق ، فيـأتى آدم دون ذكـر أو أنثى ، ويخلق حواء من ذكر دون أنثى ، ويخلق عيسى من أنثى بدون ذكر .

فالقدرة الإلهية ـ إذن ـ غير مُقيَّدة بالأسباب ، وتظلّ طلاقة القدرة هذه فى الخَلْق إلى أنْ تقـومَ الساعة ، فنرى الرجل والمـرأة زوجين ، لكن لا يتم بينهما الإنجاب وتتعطل فيهـما الأسباب حتى لا نعتمد على الأسباب وننسى المسبِّب سبحانه ، فهو القائل :

﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا

وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ﴾ [الشورى]

وطلاقة القدرة فى قصة زكريا عليه السلام تتجلى فى أن الله تعالى استجاب لدعاء زكريا فى أنْ يرزقَه الولد . قال تعالى : ﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ﴿٢﴾ ﴾ [مريم]

أى : رحمه الله ، لكن متى كانت هذه الرحمة ؟

يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ ﴾

أى : فى الوقت الذى نادى فيه ربه نداءً خفياً .

والنداء لَوْنٌ من ألوان الأساليب الكلامية ، والبلاغيون يقسمون الكلام إلى : خبر ، وهو أن تخبر عن شىء بكلام يحتمل الصدق أو الكذب . وإنشاء ، وهو أنْ تطلب بكلامك شيئاً ، والإنشاء قَوْلٌ لا يحتمل الصدق أو الكذب .

والنداء من الإنشاء ؛ لأنك تريد أن تنشىء شيئاً من عندك ، فلو قُلْت : يا محمد فأنت تريد أن تنشىء إقبالاً عليك ، فالنداء ـ إذن ـ طلَبُ الإقبال عليك ، لكن هل يصح أن يكون النداء مع الله تعالى بهذا المعنى ؟ إنك لا تنادى إلا البعيد عنك الذى تريد أن تستدنيه منك .

فكيف تنادى ربك ـ تبارك وتعالى ـ وهو أقرب إليك من حبل الوريد ؟ وكيف تناديه سبحانه وهو يسمعك حتى قبل أن تتكلم ؟ فإذا كان إقباله عليك موجوداً فى كل وقت ، فما الغرض من النداء هنا ؟ نقول : الغرض من النداء : الدعاء .

ووَصْف النداء هنا بأنه : ﴿نِدَاءً خَفِيًّا ۝٣﴾ [مريم] لأنه ليس كنداء الخَلْق للخَلْق ، يحتاج إلى رَفْعَ الصوت حتى يسمع ، إنه نداء لله - تبارك وتعالى - الذى يستوى عنده السر والجهر ، وهو القائل : ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ[1] الصُّدُورِ ۝١٣﴾ [الملك]

ومن أدب الدعاء أنْ ندعوَه سبحانه كما أمرنا : ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً .. ۝٥٥﴾ [الأعراف]

وهو سبحانه ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧﴾ [طه] أى : وما هو أَخْفى من السر ؛ لأنه سبحانه قبل أن يكون سِراً ، علم أنه سيكون سراً .

لذلك ، جعل الحق سبحانه أحسن الدعاء الدعاء الخفى ؛ لأن الإنسان قد يدعو ربه بشىء ، إنْ سمعه غيره ربما استنقصه ، فجعل الدعاء خَفياً بين العبد وربه حتى لا يُفتضحَ أمره عند الناس .

أما الحق سبحانه فهو ستَّار يحب الستر حتى على العاصين ، وكذلك ليدعو العبد رَبَّه بما يستحى أنْ يذكره أمام الناس ، وليكون طليقاً فى الدعاء فيدعو ربه بما شاء ؛ لأنه ربُّه ووليه الذى يفزع إليه . وإنْ كان الناس سيحزنون ويتضجرون إن سألتهم أدنى شىء ، فإن الله تعالى يفرح بك إن سألته .

لكن لماذا أخفى زكريا دعاءه ؟

دعا زكريا ربه أنْ يرزقه الولد ، ولكن كيف يتحقق له هذا المطلب وقد بلغ من الكبر عتياً وامرأته عاقر ؟ فكأن الأسباب الموجودة جميعها مُعطَّلة عنده ؛ لذلك توجه إلى الله بالدعاء : يا رب لا ملجأ لى إلا أنت ، فأنت وحدك القادر على خَرْق الناموس والقانون ، وهذا مطلب من زكريا جاء فى غير وقته .

---

(١) أى : بما يخطر فى القلوب . قاله ابن كثير فى تفسيره (٣٩٧/٤) .

أخفاه أيضاً ؛ لأنه طلب الولد فى وجود أبناء عمومته الذين سيحملون منهجه من بعده ، إلاّ أنه لم يأتمنهم على منهج الله ؛ لأن ظاهر حركتهم فى الحياة غير متسقة مع المنهج ، فكيف يأمنهم على منهج الله وهم غير مؤتمنين على أنفسهم ؟ فإذا دعا زكريا ربه أنْ يرزقه الولد ليرث النبوة من بعده ، فسوف يغضب هؤلاء من دعاء زكريا ويعادونه ؛ لذلك جاء دعاؤه خفياً يُسِرُّه بينه وبين ربه تعالى .

سؤال آخر تنبغى الإجابة عليه هنا : لماذا يطلب زكريا الولد فى هذه السن المتأخرة ، وبعد أن بلغ من الكبر عتياً ، وأصبحت امرأته عاقراً ؟

لقد أوضح زكريا عليه السلام العلة فى ذلك فى الآيات القادمة فقال : ﴿ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ .. ﴿٦﴾ ﴾ [مريم]

إذن : فالعلَّة فى طلب الولد دينية مَحْضة ، لا يطلبه لمغْنَم دنيوى ، إنما شغفه بالولد لأنه لم يأمن القوم من بعده على منهج الله وحمايته من الإفساد .

لذلك قوله : (يرثنى) هنا لا يفهم منه ميراث المال كما يتصوره البعض ؛ لأن الأنبياء لا يورثون ، كما قال النبى ﷺ : « نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة »[1] وبذلك يخرج النبى من الدنيا دون أن ينتفع أحد من أقاربه بماله حتى الفقراء منهم .

فالمسألة مع الأنبياء خالصة كلها لوجه الله تعالى ؛ لذلك قال بعدها : ﴿ وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ .. ﴿٦﴾ ﴾ [مريم] أى : النبوة التى

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه مسلم فى صحيحه (١٧٥٨) ، والبخارى فى صحيحه (٣٠٩٢) بنحوه عن عائشة رضى الله عنها . ولفظ مسلم : إن أزواج النبى ﷺ حين توفى ﷺ أردن أن يبعثن عثمان بن عفان إلى أبى بكر ، فيسألنه ميراثهن من النبى ﷺ قالت عائشة لهن : أليس قد قال رسول الله ﷺ « لا نورث ما تركنا فهو صدقة».

تناقلوها . فلا يستقيم هنا أبداً أن نفهم الميراث على أنه ميراث المال أو متاع الدنيا الفانى .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ .. ﴿١٦﴾ ﴾ [النمل] ففى أىِّ شىء ورثه ؟ أورثه فى تركته ؟ إذن : فما موقف إخوته الباقين ؟ لابد أنه ورثه فى النبوة والملك ، فالمسألة بعيدة كل البعد عن الميراث المادى[1] .

ثم يقول الحق سبحانه أن زكريا عليه السلام قال :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ ﴾

هذا هو النداء ، أو الدعاء الذى دعا به زكريا عليه السلام : ﴿ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي .. ﴿٤﴾ ﴾ [مريم] ويرد فى الدعاء أن نقول : يارب . أو نقول : يا الله ، فقال زكريا (رب) أى : يا رب ؛ لأنه يدعو بأمر يتعلق بعطاء الربوبية الذى يشمل المؤمن والكافر ، إنه يطلب الولد ، وهذا أمر يتعلق ببنية الحياة وصلاحها للإنجاب ، وهذه من عطاء الرب سبحانه وتعالى ، وإن كانت العلة فى طلب الولد إلهية ، وهى أنْ يحمل المنهج من بعد أبيه .

فكأن زكريا عليه السلام دعا ربه : يا ربّ يا مَنْ تعطى مَنْ آمن بك ، وتعطى مَنْ كفر ، يا مَنْ تعطى مَنْ أطاع ، وتعطى مَنْ عصى ، حاشاك أن تمنع عطاءك عمَّن أطاعك ويدعو الناس إلى طاعتك .

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٤٢٥٢/٦) : « للعلماء فيه ثلاثة أجوبة : قيل : هى وراثة نبوة . وقيل : هى وراثة حكمة . وقيل : هى وراثة مال . أما قولهم وراثة نبوة فمحال ، لأن النبوة لا تورث . ووراثة العلم والحكمة مذهب حسن » . وقال ابن كثير فى تفسيره (١١١/٣) : « اختار ابن جرير فى تفسيره قول أبى صالح : يرث مالى ويرث من آل يعقوب النبوة » بتصرف .

أما الدعاء بالله ففى أمور العبادة والتكليف .

ثم يُقدِّم زكريا عليه السلام حيثيات هذا المطلب : ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي .. ﴿٤﴾﴾ [مريم] والوَهَن هو الضعف ، وقال : ﴿وَهَنَ الْعَظْمُ.. ﴿٤﴾﴾ [مريم] لأن لكل شىء قواماً فى الصلابة والقوة ، فمثلاً الماء له قوام معروف والدُّهْن له قوام ، واللحم له قوام ، والعصب والعظم وكل عناصر تكوين الإنسان ، والعَظْم هو أقوى هذه الأشياء ، والعَظْم فى بناء الجسم البشرى مثل (الشاسيه) فى لغة العصر الحديث ، وعلى العظم يبنى جسم الإنسان من لحم ودم وعصب ، فإذا أصاب العظام ـ وهى أقوى العناصر ـ ضعفٌ ووهنٌ فغيرها من باب أَوْلى .

لذلك ، فإن الرجل العربى حينما شكا الجدب والقحط ماذا قال ؟ قال : مرَّتْ بنا سنون صعبة : فَسنة أذابتْ الشحم ـ أى : بعد الجوع وعدم الطعام ـ وسنة أذهبت اللحم ـ أى : بعد أن أنهت الشحم ـ وسنة محَّت العظم .

فكأن العَظْم هو آخر مخزن من مخازن القوت فى جسم الإنسان ساعة أن ينقطع عنه الطعام والشراب . والعظم فى هذه الحالة يُوجِّه غذاءه للمخ خاصة ؛ لأنه ما دام فى المخ بقية قبول حياة فما حدث للجسم من تلف قابل للإصلاح والعودة إلى طبيعته ، إذن : فسلامة الإنسان مرتبطة بسلامة المخ .

لذلك نجد الأطباء فى الحالات الحرجة يُركِّزون اهتمامهم على سلامة المخ ، ويرتبون عليه حياة الإنسان أو موته ، حتى إن توقف القلب فيمكنهم بالتدليك إعادته إلى حالته الطبيعية ، أما إنْ توقف المخ فهذا يعنى الموت .

فكأن نبى الله زكريا ـ عليه السلام ـ يقول : يارب ضعف عظمى ، ولم يَعُدْ لدىَّ إلا المصدر الأخير لاستبقاء الحياة .

ولما كان العظم شيئاً باطناً مدفوناً تحت الجلد ، فهو حيثية باطنة ، فأراد زكريا عليه السلام أنْ يأتىَ بحيثية أخرى ظاهرة بينة ، فأتى بأمر واضح : ﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا .. ④﴾ [مريم] فشبّه انتشار الشيب فى رأْسه باشتعال النار ، فالشعر الأبيض الذى يعلوه واضح كالنار .

والمتأمل فى هذا التشبيه يجد أن النار أيضاً تتغذى على الحطب وتظل مشتعلة لها لهب يعلو طالما فى الحطب الحيوية النباتية التى تمد النار ، فإذا ما انتهتْ هذه الحيوية النباتية فى الحطب أخذت النار فى التضاؤل ، حتى تصير جَذْوة لا لَهبَ لها ثم تنطفىء .

واشتعال الرأس بالشيب أيضاً دليل على ضعف الجسم ووَهَن قُوته ؛ لأن الشعر يكتسب لونه من مادة مُلوّنة سوداء أو حمراء أو صفراء توجد فى بُصَيْلة الشعرة ، وتُمد الشعرة بهذا اللون ، وضعْفُ الجسم يُضعف هذه المادة تدريجياً ، حتى تختفى ، وبالتالى تخرج الشعرة بيضاء ، والبياض ليس لوناً ، إنما البياض عدم اللون نتيجة ضَعْف الجسم وضَعْف الغُدَد التى تفرز هذا اللون .

لذلك ، نجد المترفين الذين يعنون كثيراً بشعرهم ويضعُون عليه المواد المختلفة أول ما يظهر الشيب عندهم تبيض سوالفهم ؛ لأن السوالف عادة بعد أنْ يُهذِّبها الحلاق تأخذ أكبر قدر من المواد الكاوية التى تؤثر على بُصيْلات الشعر وعلى هذه المادة الملونة ، والشعرة مثل الأنبوبة يسهل توصيل هذه المواد منها خاصة بعد الحلاقة مباشرة وما تزال الشعرة مفتوحة .

ثم يقول : ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾﴾ [مريم] أى : لم أكُنْ فيما مضى بسبب دعائى لك شقياً ؛ لأنى مُستجَابُ الدعوة عندك ، فكما أكرمتنى سابقاً بالإجابة فلم أكُنْ شقياً بدعائك ، بل كنتُ سعيداً بالإجابة ، فلا تُخلف عادتك معى هذه المرة ، واجعلنى سعيداً بأنْ تُجيبنى ، خاصة وأن طلبى منك طاعة لك ، فأنا لا أريد أنْ أخرج من الدنيا إلاَّ وأنا مطمئن على مَنْ يحمل المنهج ، ويقوم بهذه المهمة من بعدى .

وأنت قد تدعو الله لأمر تحبه ، فإذا لم يأْتِ ما تحبه ولم تجب حزنت وكأنك شقيت بدعائك ، وقد يكون شقاءَ كذب ؛ لأنك لا تدرى الحكمة من المنع وعدم الإجابة ، لا تدرى أن الله تعالى يتحكم فى تصرفاتك .

وربما دعوْت بأمر تراه الخير من وجهة نظرك وفى علم الله أنه لا خَيْرَ لك فيه ، فمنعه عنك وعدَّل لك ما أخطأتَ فيه من تقدير الخير ، فأعطاك ربك من حيث ترى أنه منعك ، وأحسن إليك من حيث ترى أنه حرمك ، لأنك طلبتَ الخير من حيث تعلم أنت أنه خير ومنع الله من حيث يعلم أن الخير ليس فى ذلك .

ثم يذكر زكريا عليه السلام عِلَّة أخرى هى علة العِلَل ولُبّ هذه المسألة ، فيقول :

﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾﴾

(الموَالِى) من الولاء ، وهم أقاربه من أبناء عمومته ، فهم الجيل الثانى الذى سيأتى بعده ، ويخاف أنْ يحملوا المنهج ودين الله من

بعده ؛ لأنه رأى من سلوكياتهم فى الحياة عدم أهليتهم لحمْل هذه المهمة .

﴿مِن وَرَائِي .. ۝٥﴾ [مريم] سبق أن أوضحنا فى سورة (الكهف) أن كلمة وراء تأتى بمعنى : خلف ، أو أمام ، أو بعد ، أو غير . وهنا جاءت بمعنى : من بعدى .

ثم يقول : ﴿وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا .. ۝٥﴾ [مريم] والعاقر هى التى لا تلد بطبيعتها بداية ، أو صارت عاقراً بسبب بلوغها سنَّ اليأس مثلاً . ونحن نعلم أن التكاثر والإنجاب فى الجنس البشرى ينشأ من رجل وامرأة ، وقد سبق أنْ وصفَ زكريا حاله من الضعف والكبر ، ثم يخبر عن زوجته بأنها عاقرٌ لا تلد ، إذن : فأسباب الإنجاب جميعها مُعطَّلة .

وقوله : ﴿وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا .. ۝٥﴾ [مريم] أى : هى بطبيعتها عاقر ، وهذا أمر مصاحب لها ليس طارئاً عليها ، فلم يسبق لها الإنجاب قبل ذلك .

ثم يقول : ﴿فَهَبْ لِي .. ۝٥﴾ [مريم] والهِبَة هى العطاء بلا مقابل ، فالأسباب هنا مُعطَّلة ، والمقدمات تقول : لا يوجد إنجاب ؛ لذلك لم يقُلْ مثلاً : أعطنى ؛ لأن العطاء قد يكون عن مقابل ، أما فى هذه الحالة فالعطاء بلا مقابل وبلا مقدمات ، فكأنه قال : يارب إنْ كنتَ ستعطينى الولد فهو هبَة منك لا أملك أسبابها ؛ لذلك قال فى آية أخرى عن إبراهيم عليه السلام : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ[1] إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ .. ۝٣٩﴾ [إبراهيم]

(١) كان عُمر إبراهيم ـ عليه السلام ـ حين بُشِّر بإسماعيل وإسحاق (١١٧) عاماً . قاله سعيد ابن جبير فيما نقله السيوطى فى الدر المنثور (٤٩/٥) .

ولنا وَقْفة وملْحظ فى قوله تعالى ﴿عَلَى الْكِبَرِ .. (٣٩)﴾ [إبراهيم] حيث قال المفسرون : (على) هنا بمعنى (مع) و (على) ثلاثة أحرف و (مع) حرفان ، فلماذا عدل الحق تبارك وتعالى عن الخفيف إلى الثقيل ؟ لا بد أن وراء هذا اللفظ إضافةً جديدة ، وهى أن (مع) تفيد المعية فقط ، أما (على) فتفيد المعية والاستعلاء ، فكأنه قال : إن الكِبَر يا رب يقتضى ألاَّ يوجد الولد ، لكن طلاقة قدرتك أعلى من الكِبَر .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ .. (٦)﴾ [الرعد] كأن الظلم يقتضى أن يُعاقبوا ، لكن رحمة الله بهم ومغفرته لهم علَتْ على استحقاق العقاب .

وقوله : ﴿مِن لَّدُنكَ .. (٥)﴾ [مريم] أى : من عندك أنت لا بالأسباب (وَلِياً) أى : ولداً صالحاً يلينى فى حَمْل أمانة تبليغ منهجك إلى الناس لِتسلَم لهم حركة الحياة .

ثم يقول :

﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ۖ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا (٦)﴾

سبق أن أوضحنا أن الميراث هنا لا يُراد به ميراث المال ؛ لأن الأنبياء لا يورثون ، وما تركوه من مال فهو صدقة من بعدهم ، إنما المراد هنا ميراث العلم والنبوة والملْك ، وحَمْل منهج الله إلى الناس ، ونلحظ أنه لم يكتَفِ بقوله (يَرِثُنى) بل قال : ﴿وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ .. (٦)﴾ [مريم] فلستُ أنا القمة فى الطاعة فى آل يعقوب ، فهناك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ، وهذا تواضع منه ومراعاة لأقدار الرجال وإنزالهم منازلهم .

وقوله : ﴿وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾﴾ [مريم] أى : مرضياً عنه منك .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾﴾

المتأمل لهذه القصة يجد هذه الآية قد اختصرت من القصة ما يفهم من سياقها ثقةً فى نباهة السامع ، وأنه قادر على إكمال المعنى ، فكأن معنى الآية : سمع الله دعاء زكريا وحيثيات طلبه ، فأجابه بقوله : ﴿يَٰزَكَرِيَّا .. ﴿٧﴾﴾ [مريم]

وتوجيه الكلام إلى زكريا عليه السلام هكذا مباشرة دليلٌ على سرعة الاستجابة لدعائه ، فجاءت الإجابة مباشرة دون مُقدِّمات .

ومثال ذلك : ما حكاه القرآن من قصة سليمان - عليه السلام - وبلقيس ، قال سليمان : ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ الَّذِى عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ[1] فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِى أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ .. ﴿٤٠﴾﴾ [النمل]

فبين قوله : ﴿قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ .. ﴿٤٠﴾﴾ [النمل] وقوله : ﴿رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ .. ﴿٤٠﴾﴾ [النمل] كلام يقتضيه سياق القصة ، كأن نقول : فأذن له فذهب وأتى بالعرش ، لكن جاء الأسلوب سريعاً

---

(١) الطرْف : جانب العين ، ويطلق على العين وعلى البصر . وقوله تعالى : ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ .. ﴿٤٠﴾﴾ [النمل] . أى : بصرك ، أى : مقدار غمضة العين وفتحها . [القاموس القويم ١/٤٠٠] .

ليتناسب مع سرعة الحدث فى إحضار عرش بلقيس من مكانه .

وقوله : ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ .. ⑦﴾ [مريم] البشارة : هى الإخبار بما يسرُّك قبل أن يجىء ليستطيل أمدَ الفرح بالشىء السَّار ، وقد يُبشرك مُساويك ويكذب فى البُشْرى ، وقد تأتى الظروف والأحداث مُخالفة لما يظنه ، فكيف بك إذا بشّرك الله تعالى ؟ ساعة أن تكون البشارة من الله فاعلم أنها حَقٌّ وواقعٌ لا شكَّ فيه .

وقوله : ﴿بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ .. ⑦﴾ [مريم] أى : وسماه أيضاً . ونحن نعلم أن للبشر اختيارات فى وَضْع الأسماء للمسميات ، ولهم الحرية فى ذلك ، فواحدة تُسمى ولدها (حرنكش) هى حرة ، والأخرى تسمى ابنتها الزنجية (قمر) هى أيضاً حرة .

إلا أن الناس حين يُسمُّون يتمنون فى المسمّى مواصفات تَسرُّ النفس وتقرُّ العين ، فحين نُسمِّى سعيداً تفاؤلاً بأن يكون سعيداً فعلاً ، والاسم وُضِع للدلالة على المسمى ، لكن ، أيملك هذا المتفائل أن يأتى المسمى على وَفْق ما يحب ويتمنى ؟ لا ، لا يملك ذلك ولا يضمنه ؛ لأن هناك قوة أعلى منه تتحكم فى هذه المسألة ، وقد يأتى المسمَّى على غير مُراده .

أما إذا كان الذى سمّى هو الله تعالى فلابد أن يتحقق الاسم فى المسمَّى ، وينطبق عليه ، ولابُدَّ أنْ يتحقَّق مراده تعالى فى مَنْ سَمَّاه ، وقد سَمَّى الحق تبارك وتعالى ابن زكريا يحى فلا بُدَّ أن تنطبق عليه هذه الصفة ، ويحيى فعل ضده يموت ، إذن : فهو سبحانه القادر على أن يُحييه ، لكن يحييه إلى متى ؟ وكم عاماً ؟ الحياة هنا والعيش يتحقق ولو بمتوسط الأعمار مثلاً ، فقد أحياه وتحققت فيه صفة الحياة .

ولذلك استدل أهل المعرفة من تسميته يحيى على أن ابن زكريا سيموت شهيداً ليظل حياً كما سماه الله وقد كان .

وقوله : ﴿لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا (٧)﴾ [مريم] السمىُّ : اختلف العلماء فى معناها فقالوا : تأتى بمعنى : نظير أو مثيل أو شبيه وإما سمياً يعنى : اسمه كاسمه .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿رَبُّ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا (٦٥)﴾ [مريم] فقالوا : سمياً هنا تحمل المعنيين : هل تعلم له نظيراً أو شبيهاً ؛ لأنه سبحانه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ .. (١١)﴾ [الشورى] ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤)﴾ [الإخلاص]

ويمكن أن نقول بهذا المعنى أيضاً فى قصة يحيى عليه السلام ، إلا أنه يقع فيه شىء وهو : أن الله تعالى حينما قال فى مسألة يحيى : ﴿لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا (٧)﴾ [مريم] واعتبرناها بمعنى المثْل أو النظير والشبيه ، فهذا يعنى أنه لم يسبق يحيى واحد مثله فى الصلاح والتقوى ، فأين - إذن - أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام ؟ وأين إسماعيل وإسحق ؟

فهذا المعنى وإن كان السياق يحتمله فى غير هذا الموضع إلا أنه لا يستقيم هنا ؛ لأن الله تعالى جعل من قَبْل يحيى مَنْ هو أفضل من يحيى ، أو مثله على الأقل .

أما المعنى الآخر فيكون : ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا (٦٥)﴾ [مريم] أى : هل هناك مَنْ تسمى باسمه تعالى ؟ وهذا هو المعنى الذى يستقيم فى قصة يحيى عليه السلام ؛ لأنه أول اسم وضعه الحق سبحانه على ابن زكريا ، ولم يكن أحدٌ تسمى به من قبل ، أما بعده فقد انتشر هذا الاسم ، حتى قال الشاعر :

وسَمَّيتُه يَحْيى ليحيى فلم يكُنْ لِـردِّ قَضَـاءِ اللهِ فِيـهِ سَبِيلُ

ونقف هنا على آية من آيات الله فى التسمية ، حيث لم يجرؤ أحد حتى من الكفرة والملاحدة الذين يجاهرون بإلحادهم ويعلنون إنكارهم للخالق سبحانه ، لم يجرؤ أحدهم أن يسمى ولده (الله) ، وحرية اختيار الأسماء مكفولة ، وهذا إنْ دَلَّ فإنما يدلُّ على أن كفرهم عناد ولَجَجٌ ، وأنهم غير صادقين فى كُفْرهم ، ويعلمون أن الله موجود ؛ لذلك يخافون على أنفسهم وعلى أولادهم أنْ يُسمّوا بهذا الاسم .

إذن : كلمة (سَمِياً) فى مسألة الألوهية تُؤخَذ على المعنيين ، أما فى مسألة يحيى فلا تحتمل إلا المعنى الثانى .

وَهبْ أن الحق سبحانه وتعالى استعرض الأسماء السابقة فلم يجد فى الماضى من سُمِّى (الله) فأعلنها تحدياً : ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا (٦٥)﴾ [مريم] ؟ فلم يحدث بعد هذا التحدى أنْ يُسمَّى أحد بهذا الاسم .

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا (٨)﴾

لما سمع زكريا عليه السلام البشارة من ربه ، واطمأن إلى حصولها أغراه ذلك فى أنْ يوُغل فى معرفة الوسيلة ، وكيف سيتم ذلك ، وتتحقق هذه البشارة حالَ كوْنه قد بلغ من الكبر عتياً وامرأته عاقر ؟

لكن ماذا يقصد زكريا من سؤاله ، وهو يعلم تماماً أن الله تعالى عالم بحاله وحال زوجه ؟ الواقع أن زكريا عليه السلام لا يستنكر حدوث هذه البشرى ، ولا يستدرك على الله ، وحاشاه أنْ يقصد ذلك ،

وإنما أطمعته البُشْرى فى أنْ يعرف الكيفية ، كما حدث فى قصة موسى ـ عليه السلام ـ حينما كلَّمه ربه واختاره ، وأفرده بهذه الميزة فأغراه الكلام فى أنْ يطلب الرؤيا ، فقال : ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ .. (١٤٣)﴾ [الأعراف]

وكما حدث فى قصة ـ إبراهيم عليه السلام ـ لما قال لربه : ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ .. (٢٦٠)﴾ [البقرة] وأبو الأنبياء لا يشكّ فى قدرة الله تعالى على إحياء الموتى ، ولكنه يريد أنْ يعرف هذه الطريقة العجيبة ، فالكلام ليس فى الحقيقة وجوداً وعدماً ، إنما فى كيفية وجود الحقيقة ، والكلام فى الكيفية لا دخْلَ له بالوجود .

فأخبره الحق سبحانه أن هذه المسألة لا تُقال إنما تُباشَر عملياً ، فأمره بما نعلم من هذه القصة : وهو أن يحضر أربعة من الطير بنفسه ، ثم يضمهنّ إليه ليتأكد بنفسه من حقيقتها ، ثم أمره أنْ يُقطِّعهن أجزاء ، ثم يُفرِّق هذه الأجزاء على قمم الجبال ، ثم بعد ذلك ترك له الخالق سبحانه أنْ يدْعُوَهُن بنفسه ، وأن يصدر الأمر منه فتتجمع هذه القطع المبعثرة وتدبّ فيها الحياة من جديد ، وهذا من مظاهر عظمته سبحانه وتعالى أنه لم يفعل ، بل جعل مَنْ لا يستطيع ذلك يفعله . ويقدر عليه[1] .

فإنْ كان البشر يُعَدُّون أثر قدرتهم إلى الضعفاء ، فمَنْ لا يقدر على حَمْل شىء يأتى بمَنْ يحمله له ، ومَنْ يعجز عن عمل شىء يأتى بمَنْ يقوم به ، ويظل هو ضعيفاً لا يقدر على شىء ، أما الحق سبحانه وتعالى فيُعدِّى قوته بنفسه إلى الضعيف فيصير قوياً قادراً على الفعل .

---

(١) يقول تعالى فى هذا لإبراهيم : ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٦٠)﴾ [البقرة] .

فقوله : ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ .. (٨)﴾ [مريم] ؟ سؤال عن الكيفية ، كما أن إبراهيم عليه السلام لما قال له ربه : ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن .. (٢٦٠)﴾ [البقرة] ؟ أى : بقدرتى على إحياء الموتى ، قال (بَلَى) أى : نعم أومن ﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي .. (٢٦٠)﴾ [البقرة] أى : إلى الكيفية التى يتم بها الإحياء .

أو : أن زكريا عليه السلام بقوله : ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ .. (٨)﴾ [مريم] يريد أن يُوثِّق هذه البشرى ويُسجِّلها ، كما تَعِد ولدك بأنْ تشترى له هدية فيُلِحّ عليك فى هذه المسألة ليؤكد وَعْدك له ، ويستلذ بأنه وَعْد مُحقَّق لا شكَّ فيه ، ثم يذكر زكريا حيثيات تعجُّبه من هذا الأمر فيقول :

﴿وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا (٨)﴾ [مريم]

عتياً : من عَتَا يعنى طغى وتجبر وأفسد كثيراً ، والعُتُو : الكفر ، والعَتِىّ : هو القوى الذى لا يُغالب ؛ لذلك وصف الكِبَر الذى هو رمز للضعف بأنه عَتِىّ ؛ لأن ضعف الشيب والشيخوخة ضَعْف لا يقدر أحد على مقاومته ، أو دفعه أبداً ، مهما احتال عليه بالأدوية والعقاقير (والفيتامينات) .

ويبدو أن مسألة الولد هذه كانت تشغل زكريا عليه السلام ، وتُلِح عليه ؛ لأنه دعا الله كثيراً أنْ يرزقه الولد ، ففى موضع آخر يقول : ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ (٨٩)﴾ [الأنبياء] . فزكريا عليه السلام يريد الولد الذى يَرِثه وهو موروث ؛ لأن الله تعالى خير الوارثين .

لكن يأتى الرد : ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا[1] لَهُ زَوْجَهُ..(٩٠)﴾ [الأنبياء]. ونلاحظ أنه تعالى قبل أن يقول : ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ .. (٩٠)﴾ [الأنبياء] التى ستنجب هذا الولد ، قال : ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ .. (٩٠)﴾ [الأنبياء] فصلاح الزوجة ليس شرطاً فى تحقُّق هذه البشرى وحدوث هذه الهبة .

وهنا مظهر من مظاهر طلاقة القدرة الإلهية التى لا يُعجزها شىء ، فهو سبحانه قادر على إصلاح هذه الزوجة العاقر ، فالصنعة الإلهية لا تقف عند حدٍّ ، كما لو تعطَّل عندك أحد الأجهزة مثلاً فذهبتَ به إلى الكهربائى لإصلاحه فوجد التلفَ به كبيراً ، فينصحك بتركه وشراء آخر جديد ، فلا حيلةَ فى إصلاحه .

لذلك أصلح الله تعالى لزكريا زوجه حتى لا نظنَّ أن يحيى جاء بطريقة أخرى ، والزوجة ما تزال على حالها .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا (٩)﴾

(قَالَ) أى : الحق تبارك وتعالى ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ .. (٩)﴾ [مريم] أى : أنه تعالى قال ذلك وقضى به ، فلا تناقش فى هذه المسألة ، فنحن أعلَم بك وما أنتَ فيه من كِبَر ، وأن زوجتك عاقر ، ومع ذلك سأهبك الولد .

---

(١) قال قتادة وسعيد بن جبير وأكثر المفسرين : إنها كانت عاقراً فجُعلت ولوداً . وقال ابن عباس وعطاء : كانت سيئة الخلق ، طويلة اللسان ، فأصلحها الله فجعلها حسنة الخلق . قال القرطبى : ويحتمل أن تكون جمعت المعنيين فجعلت حسنة الخلق ولوداً . (تفسير القرطبى ٤٥١٦/٦) . وقال ابن كثير فى تفسيره (١٩٣/٣) : « والأظهر من السياق الأول » .

وقوله تعالى : ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ .. (٩)﴾ [مريم] وفى آية أخرى يقول فى آية البعث : ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ .. (٢٧)﴾ [الروم] فلا تظن أن الأمر بالنسبة لله تعالى فيه شىء هَيِّن وشىء أَهْوَن ، وشىء شاقّ ، فالمراد بهذه الألفاظ تقريب المعنى إلى أذهاننا .

والحق سبحانه يخاطبنا على كلامنا نحن وعلى منطقنا ، فالخَلْق من موجود أهون فى نظرنا من الخلق من غير موجود ، كما قال الحق سبحانه تعالى : ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ[1] مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ (١٥)﴾ [ق]

إذن : فمسألة الإيجاد بالنسبة له تعالى ليس فيها سَهْل وأسْهَل أو صَعْب وأصعب ، لأن هذه تُقال لمَنْ يعمل الأعمال علاجاً ، ويُزاولها مُزَاولة ، وهذا فى أعمالنا نحن البشر ، أما الحق تبارك وتعالى فإنه لا يعالج الأفعال ، بل يقول للشىء كُنْ فيكون : ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٨٢)﴾ [يس]

ثم يُدلّل الحق سبحانه وتعالى بالأَقْوى ، فيقول : ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا (٩)﴾ [مريم] فلأنْ يوجد يحيى من شىء أقلّ غرابة من أن أوجد من لا شىء .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا (١٠)﴾

---

(١) فى لبس . أى : فى شك ، ولبس الشىء : خلطه وعمّاه وأبهمه وجعله مُشْكلاً مُحيّراً . [القاموس القويم ٢/١٨٨] .

(آية) أى : علامة على أن امرأته قد حملتْ فى يحيى ، وكأن زكريا عليه السلام يتعجل الأمور ولا صبرَ له طوال تسعة أشهر ، بل يريد أن يعيش فى ظِلِّ هذه النعمة ، وكأنها واقع لا ينفكّ لسانه حامداً شاكراً عليها ، وتظل النعمة فى باله رغم أن ولده ما يزال جنيناً فى بطن أمه .

فيجيبه ربه : ﴿آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾﴾ [مريم] علامتك أَلاَّ تُكَلِّم الناس ثلاث ليال و (أَلاَّ) ليست للنهى عن الكلام ، بل هى إخبار عن حالة ستحدث له دون إرادته ، فلا يكلم الناس مع سلامة جوارحه ودون عِلَّة تمنعه من الكلام ، كخرس أو غيره .

لذلك قال : ﴿ثَلاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾﴾ [مريم] أى : سليماً مُعَافىً ، سوىّ التكوين ، لا نقص فيك ، ولا قصور فى جارحة من جوارحك . وهكذا لا يكون عدم الكلام عَيْباً ، بل آية من آيات الله .

وهناك فَرْق بين أمر كونىٍّ وأمر شرعى ، الأمر الكونىُّ هو ما يكون وليس لك فيه اختيار فى ألاَّ يكون ، والأمر الشرعىّ ما لك فيه اختيار من الممكن أن تطيعه فتكون طائعاً ، أو تعصيه فتكون عاصياً .

وهذا الذى حدث لزكريا أمر كونى ، وآية من الله لا اختيار له فيها ، وكأن الحق سبحانه يعطينا الدليل على أنه يوجد مِنْ لا مظنّة أسباب ، وقد يبقى الأسباب سليمة صالحة ولا يظهر المسبَّب ، فاللسان هنا موجود ، وآلات النطق سليمة ، ولكنه لا يقدر على الكلام .

فتأمّل طلاقة القدرة ، فقد شاء سبحانه لزكريا الولد بغير أسباب ، وهنا منع مع وجود الأسباب ، فكلا الآيتين سواء فى قدرته تعالى ومشيئته .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾ ﴾

إذن : حدثتْ هذه المسألة لزكريا وهو فى (المحرَاب) أى : مكان العبادة والصلاة ، وعادةً ما يكون مرتفعاً على شرف عما حوله ، وكان مصلى الأنبياء والصالحين ، وسُمى محراباً لأنه يحارب فيه الشيطان بكيْده ووسوسته . وقد ذُكر المحراب أيضاً فى قصة داود عليه السلام : ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ ﴾ [ص]

وقد وردتْ هذه اللقطة من قصة زكريا عليه السلام فى آية أخرى دلَّتْ أيضاً على أن البشارة بيحيى كانت وهو فى محرابه ، حيث قال تعالى : ﴿ فَنَادَتْهُ الْمَلائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا .. ﴿٣٩﴾ ﴾ [آل عمران]

وقوله تعالى : ﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ .. ﴿١١﴾ ﴾ [مريم] قلنا : إن الوَحْى له معنى لُغَوىّ ومعنى شرعى ، الوحى لُغةً : الإخبار بطريق خفىٍّ . وعلى هذا المعنى يأتى الوحى بطرق متعددة ، فالله تعالى يُوحِى للرسل والأنبياء ، ويُوحى لغير الرسل من المصطفين ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ .. ﴿٧﴾ ﴾ [القصص] أى : أخبرها بطريق خفىٍّ ، هو طريق الإلهام .

ويُوحى إلى الملائكة : ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا .. (١٢)﴾ [الأنفال]

ويُوحى للصالحين من أتباع الرسل : ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي .. (١١١)﴾ [المائدة]

ويتعدَّى الإعلام بخفاء إلى الحشرات : ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (٦٨)﴾ [النحل]

بل يتعدَّى الوحى إلى الجماد فى قوله تعالى : ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا (١) وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا (٢) وَقَالَ الإِنسَانُ مَا لَهَا (٣) يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا (٤) بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا (٥)﴾ [الزلزلة]

وقد يُوحى الشياطين بعضهم إلى بعض : ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا .. (١١٢)﴾ [الأنعام]

ويُوحون إلى أوليائهم : ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ .. (١٢١)﴾ [الأنعام] لأن الشيطان لا يأتى الإنسان إلا بطريق خفىٍّ ، ووسوسة فى خواطره .

أما الوحى الشرعى فهو إعلام من الله وحده إلى نبى يدَّعى النبوة ومعه معجزة . إذن فالوحى : إعلام خفىّ من الله للرسول .

فقوله تعالى : ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ .. (١١)﴾ [مريم] أى : قال لهم بطريق الإشارة ؛ لأنه لا يتكلم ﴿أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (١١)﴾ [مريم] بُكرة : أول النهار ، وعَشيًا : آخره ، يعنى : طوِّقوا النهار بالتسبيح بداية ونهاية . وكأن زكريا عليه السلام قد بدتْ عليه علامات الفرح

والانبساط بالبُشْرى ، ورأى أن شُكْره لله وتسبيحه لا ينهض بهذه النعمة ، فأمر قومه أنْ يُسبِّحوا الله معه ، ويشكروه معه على هذه النعمة ؛ لأنها لا تخصُّه وحده ، بل هى عامة لكل القوم .

ثم يقول تعالى :

﴿ يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ (١) وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ﴿١٢﴾ ﴾

نلحظ أن الآية الكريمة انتقلتْ بنا نَقْلة واسعة ، وطوَتْ فترة طويلة من حياة يحيى ـ عليه السلام ـ فقد كان السياق يتحدث عنه وهو بُشْرى لوالده ، وهو ما يزال فى بطن أمه جنيناً ، وفجأة يخاطبه وكأنه أصبح أمراً واقعاً : ﴿ يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖ .. ﴿١٢﴾ ﴾ [مريم] فقد بلغ مبلغ النُّضْج ، وأصبح أهْلاً لحمْل مهمة الدعوة ، إذن : المسألة مأخوذة مأخَذ الجدِّ ، وهى حقيقة واقعة .

وقوله : ﴿ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ .. ﴿١٢﴾ ﴾ [مريم] أى : التوراة ، وفيها منهج الله الذى يُنظِّم لهم حركة حياتهم ﴿ بِقُوَّةٖ .. ﴿١٢﴾ ﴾ [مريم] أى : بإخلاص فى حِفْظه وحِرْص على العمل به ؛ لأن العلم السماوى والمنهج الإلهى الذى جاءكم فى التوراة ليس المراد أن تعلمه فقط بل وتعمل به .

وإلا فقد قال تعالى فى بنى إسرائيل : ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ

---

(١) الحكم : الأحكام والمعرفة بها . قال مجاهد : الفهم . وقال معمر بن راشد : بلغنى أن الصبيان قالوا ليحى بن زكريا : اذهب بنا نلعب ، قال : ما للعب خلقت . [أورده السيوطى فى الدر المنثور ٥/٤٨٥] .

ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا .. ﴿٥﴾ ﴾ [الجمعة] فقد حمَّلهم الله التوراة ، فلم يحملوها ولم يعملوا بها .

والقوة : هى الطاقة الفاعلة التى تدير دولاب الحياة حركةً وسكوناً ، وخُذْ مثلاً سفينة الفضاء التى تنطلق إلى الفضاء الخارجى ، وتظل تدور فيه عدة سنوات وتتساءل : من أين لها بالوقود الذى يُحرّكها طوال هذه المدة ؟ والحقيقة أنها لا تحتاج إلى وقود إلا بمقدار ما يُخرِجها من مدار الجاذبية الأرضية ، فإذا ما خرجت من نطاق الجاذبية وهى متحركة تظل متحركة ولا تتوقف إلا بقوة توقفها ، وكذلك الساكن يظل ساكناً إلى أنْ تأتىَ قوة تحركه .

إذن : القوة إمّا أنْ تُحرِّك الساكن أو تُسْكِن المتحرك وتصده ، ومن ذلك ما نراه فى السكك الحديدية من مصدَّات تُوقِف القطارات ؛ لأنك إنْ أردتَ أن توقف القطار تمنع عنه الوقود ، لكن يظل به قوة دفع تحركه تحتاج إلى قوة معاكسة توقفه ، وهذا ما يسمونه قانون العطالة . يعنى : إن كان الشىء متحركاً فيحتاج إلى قوة توقفه ، وإن كان ساكناً يحتاج إلى قوة تحركه .

ومن ذلك قانون القصور الذاتى الذى تعلمناه فى المدارس ، وتلاحظه إذا تحركتْ بك السيارة تجد أن جسمك يندفع للخلف ؛ لأنها تحركتْ للأمام وأنت ساكن ، فإنْ توقفتْ السيارة تحرَّك جسمك للأمام لأنها توقفت وأنت متحرك . إذن : هذه الأشياء التى تتحرك فى الكون أو الساكنة نتيجة قوة .

فقوله تعالى : ﴿خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ .. ﴿١٢﴾ ﴾ [مريم] لأن الكتاب فيه

أوامر وفيه نَوَاه ، يأمر بالخير وينهاك عن الشر ، فإنْ أمركَ بالخير وأنت لا تفعله تحتاج إلى قوة دَفْع تدفعك إلى الخير ، وكأنك كنتَ ساكناً تحتاج إلى قوة تحركك ، وإنْ نهاك عن الشر وأنت تفعله فأنت فى حاجة إلى قوة تمنعك وتوقف حركتك فى الشر . والمنهج هو هذه القوة التى تُحرِّكك إلى الخير وأنت ساكن ، وتُسكنك عن الشر وأنت متحرك .

ثم يقول تعالى : ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾﴾ [مريم] الحكم : العلم والفهم للتوراة ، أو الطاعة والعبادة ، ﴿صَبِيًّا ﴿١٢﴾﴾ [مريم] فى سِنٍّ مبكرة[1] ؛ لأن المسألة عطاء من الله لا يخضع للأسباب ، فجاء يحيى عليه السلام مُبكِّر النضج والذكاء ، يفوق أقرانه ، ويسبق زمانه ، وقد أُثِر عنه وهو صغير أنْ دعاه أقرانه للعب فقال لهم : « ما للعب خُلِقْنا »[2] .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾﴾

ولأن يحيى جاء إلى الدنيا حال كِبَر وضعف والديه ، وهو كطفل يحتاج مَنْ يشمله بالعطف والحنان ، ويُعوِّضه حنان الوالدين ، ويحتاج إلى مَنْ يُعلِّمه ويُربِّيه ؛ لذلك تولَّى الحق سبحانه وتعالى هذه المهمة ، فهو سبحانه خالقه ومُسمِّيه ومُتولِّيه فوهبه حناناً منه

---

(١) قال قتادة ومقاتل : وهو ابن ثلاث سنين . [الدر المنثور ٥/٤٨٤] وعزاه لعبد الله بن أحمد بن حنبل فى زوائد الزهد وابن أبى حاتم . وأورد حديثاً عن ابن عباس عزاه لأبى نعيم وابن مردويه والديلمى أن رسول الله ﷺ قال : « أعطى الفهم والعبادة وهو ابن سبع سنين » .

(٢) أخرجه الحاكم فى تاريخه عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ : « قال الغلمان ليحيى بن زكريا : اذهب بنا نلعب . فقال يحيى : ما للعب خلقنا . اذهبوا نصلى » . [أورده السيوطى فى الدر المنثور ٥/٤٨٥] .

سبحانه ﴿مِّن لَّدُنَّا .. ﴿١٣﴾﴾ [مريم] من عندنا ؛ لأن طاقة الحنان عند الوالدين قد نضبتْ .

وقوله : ﴿وَزَكَاةً .. ﴿١٣﴾﴾ [مريم] أى : طهارة من الذنوب وصفاءَ نفْسٍ وبركة ، وهذه كلها نتيجة التربية الإلهية بمنهج الله الذى يرسم له حركته فى الحياة : افعل كذا ولا تفعل كذا .

﴿وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾﴾ [مريم] أى : استجاب لهذا الحنان ، وأثمرت فيه هذه التربية فكان تقياً ، أى : مُنفذاً لأوامر الله مُجتنباً لنواهيه ، وبذلك وقَى نفسه من صفات الجلال من الله تعالى .

وقلنا : إن التقوى أنْ تجعل بينك وبين ما تتقيه مانعاً يحميك ويبعدك عن إيذائه ، فنقول : اتقِ الله واتقِ النار ، كيف ذلك ونحن نريد أن نصل إلى معيته سبحانه ؟

نقول : اتق الله أى : اجعل بينك وبين صفات جلاله وجبروته وقايةً تحميك من جبروته وجباريته وقهره ، فلسْت مطيقاً لأدنى شىء من العذاب ، والنار من جنود الله ومظهر من مظاهر قهره ، فاتقاء النار جزء من اتقاء الله ، والوقاية التى تحميك من صفات الجبروت والجلال هى الطاعة بامتثال الأوامر والنواهى .

ثم يقول تعالى :

﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾﴾

فرغم أن يحيى عليه السلام جاء أبويْه فى حال كِبَرهما وضعفهما ، ولم يجد منهما الحنان الكافى والتربية المناسبة ، ولم

يشعر معهما بالأُبوة الكاملة ، فكان دورهما فى حياته ثانوياً ، وحمايلهم عليه باهتة متواضعة ، مع هذا كله كان باراً بهما حانياً عليهما . وقال عنه أيضاً : ﴿ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ ﴾ [مريم]

وصفة الجبروت وصفة العصيان لا يُتصوَّران من الولد على والديه ، إلا حين يرى من أبيه شروداً عنه وانصرافاً عن رعايته ، وحين يرى من أمه انشغالاً عن تربيته ، فهى تاركة له غير مُراعية لحقه .

لذلك نرى صوراً من هذا الجبروت ومن هذا العصيان ، ونسمع مَنْ يقسو على أمه وعلى أبيه ؛ لأنه لم يجد منهما العطف والحنان والرعاية ، فتقطعتْ بينهما أواصر الأبوة . ويبدو أن زكريا حكى لولده ما حدث ، وقصَّ عليه قصّته ، فتفهَّم الولد دور والديه ونفى عنهما أىّ تقصير ، فكان بهما باراً رحيماً ، ولهما طائعاً متواضعاً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾ ﴾

هذه مسائل ثلاث تُعَدُّ أعلام حياة للإنسان : الميلاد ، والموت ، والبعث . وقد خَصَّه الله بالسلام يوم مولده ؛ لأنه وُلِد على غير العادة فى الميلاد فأُمّه عاقر قد أسنتْ ، ومع ذلك لم تتعرض لألسنة الناس ولم يعترض أحد على ولادتها ، وهى على هذا الوصف ، فلم يتجرأ أحد عليها ؛ لأن ما حدث لها كان آيةً من آيات الله وقد بشّر الله بها

زكريا لتكون البُشْرى إعداداً ومقدمة لهذا الحدث العجيب .

وخَصَّه بالسلام يوم يموت ؛ لأنه سيموت شهيداً ، والشهادة غير الموت ، الشهادة تعطيه حياة موصولةً بالحياة الأبدية الخالدة . وكذلك خَصَّه بالسلام يوم القيامة يوم يُبعث حياً .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ (١) مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ ﴾

وقصة مريم فى واقع الأمر كانت قبل قصة زكريا ويحيى ؛ لأن طلب زكريا للولد جاء نتيجة لما سمعه من مريم حين سألها عن طعام عندها لم يأتِ به ، وهو كافلها ومُتولّى أمرها ، فتعجب أنْ يرى عندها رزْقاً لم يحمله إليها ، وهى مقيمة على عبادتها فى محرابها ، فقال لها : ﴿ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ [آل عمران]

وكأن هذه أول بداية قانون : من أين لك هذا ؟ لكن عطاءه تعالى لا يخضع للأسباب ، بل هو سبحانه يرزق مَنْ يشاء متى شاء وبغير حساب .

وشاءتْ إرادة الله أن تنطقَ مريم بهذه المقولة : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ [آل عمران] لأنها ستُنبِّه زكريا إلى شىء ،

(١) انتبذ : اعتزل ورمى نفسه بعيداً عن الناس . أى : أن مريم اعتزلت أهلها فى مكان شرقى . [القاموس القويم ٢/٢٥١] .

وستحتاجها أيضاً مريم فيما بعد حينما تشعر بالحَمْل من غير زَوْج ، فلن تعترض على هذا الوضع ، وستعلم أنه عطاءٌ من الله .

وكذلك نبَّهتْ هذه الآية زكريا ـ عليه السلام ـ إلى فَضْل الله وسعَة رحمته ، وهذا أمر لا يغيب عن نبى الله ، ولكن هناك قضايا فى النفس البشرية إلا أنها بعيدة عن بُؤْرة الشعور وبعيدة عن الاهتمام ، فإذا ما ذُكِّر بها انتبه إليها ؛ لذلك يقول الحق ـ سبحانه وتعالى : ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ .. (٣٨)﴾ [آل عمران]

فما دام أن الله يرزق مَنْ يشاء بغير حساب ، فلماذا لا أدعو الله بولد صالح يحمل أمر الدعوة من بعدى ، وطالما أن الرزق بغير حساب فلن يمنعه كِبَر السِّنِّ أو العُقْم أو خلافه .

إذن : فمريم هى التى أوحَتْ لزكريا بهذا الدعاء ، واستجاب الله لزكريا ورزقه يحيى ؛ ليكون ذلك مقدمة وتمهيداً لمريم ، فلا تنزعج من حَمْلها ، وتردّ هذه المسألة إلى أن الله يرزق مَنْ يشاء بغير حساب ، وليكون ذلك إيناساً لنفسها واطمئناناً ، وإلاَّ فمن الممكن أن تلعبَ بها الظنون وتنتابها الشكوك ، وتتصور أن هذا الحمْل نتيجة شىء حدث لم تشعر به ، أو كانت نائمة مثلاً .

لكن الحق ـ تبارك وتعالى ـ يقطع عنها كل هذه الشكوك ، ويعطيها مقدمة تراها وتعايشها بنفسها فى طعام لم يَأْتِ به أحد إليها ، وفى حَمْل زوجة زكريا وهى عاقر لا تلد .

قوله تعالى : ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ .. (١٦)﴾ [مريم]

الكتاب هو القرآن الكريم ، أى : اذكُر يا محمد فى كتاب الله الذى

أوحاه إليك مما تذكر قصة مريم ، وقد سبق الحديث عن هذه القصة فى سورة (آل عمران) لما تكلم الحق - سبحانه وتعالى - عن نَذْر أمها لما فى بطنها لخدمة بيت المقدس ، ولم يكن يصلح لخدمة بيت المقدس إلا الذكْران الذين يتحمَّلون مشقة هذا العمل ، فلما وضعتْها أنثى لم يوافق ظنّها إرادة الله ، ولم تستطع مريم خدمة البيت مكاناً أفرغتْ نفسها لخدمته قيماً ، ودِيناً حملتْ نفسها عليه حَمْلاً ، حتى إنها هجرتْ أهلها وذهبت إلى هذا المكان الذى اتخذته خُلْوة لها لعبادة الله بعيداً عن أعيُنِ الناس .

ومريم هى ابنة عمران ، وقد قال القرآن فى خطابها : ﴿ يَـٰٓأُخْتَ هَـٰرُونَ .. ﴿٢٨﴾ ﴾ [مريم] ولذلك حدث لَبْسٌ عند كثير من الناس ، فظنوها أخت نبى الله موسى بن عمران وأخت هارون أخى موسى عليهما السلام .

والحقيقة أن هذه المسألة جاءتْ مصادفة اتفقتْ فيها الأسماء ؛ لذلك لما ذهب بعض الصحابة إلى اليمن قال لهم أهلها : إنكم تقولون : إن مريم هى أخت موسى وهارون ، مع أن بين مريم وعمران أبى موسى أحد عشر جيلاً !!

فقال رسول الله ﷺ : « أما ذكرتُمْ لهم أن الناس كانوا يتفاءلون بذكر الأسماء خاصة الأنبياء فيُسمّون على أسمائهم عمران ويسمون على أسمائهم هارون »[(١)] .

حتى ذكروا أنهم فى جنازة بعض العلماء سار فيها أربعة آلاف

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢١٣٥) ، والترمذى فى سننه (٣١٥٥) من حديث المغيرة ابن شعبة ، قال الترمذى : هذا حديث صحيح غريب لا نعرفه إلا من حديث ابن إدريس .

رجل اسمهم هارون . إذن : فالأسماء هنا مصادفة ، فهى ابنة عمران ، لكن ليس أبا موسى ، وأخت هارون ، لكن ليس هو أخو موسى .

وقد أفرد القرآن سورة كاملة باسم مريم وخصَّها وشخَّصها باسمها واسم أبيها ، وسبق أنْ أوضحنا أن التشخيص فى قصة مريم جاء لأنها فذَّة ومُفْردة بين نساء العالم بشىء لا يحدث ولن يحدث إلا لها ، فهذا أمر شخصى لن يتكرر فى واحدة أخرى من بنات حواء .

أما إنْ كان الأمر عاماً يصح أنْ يتكرّر فتأتى القصة دون تشخيص ، كما فى حديث القرآن عن زوجة نوح وزوجة لوط كمثال للكفر ، وهما زوجتان لنبيين كريمين ، وعن زوجة فرعون كمثال للإيمان الذى قام فى بيت الكفر وفى عُقْر داره ، فالمراد هنا ليس الأشخاص ، بل المراد بيان حرية العقيدة ، وأن المرأة لها فى الإسلام حريةٌ عقدية مستقلة ذاتية ، وأنها غيرُ تابعة فى عقيدتها لأحد ، سواء أكانت زوجة نبى أم زوجة إمام من أئمة الكفر .

وقوله تعالى : ﴿إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا (١٦)﴾ [مريم]

﴿انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا .. (١٦)﴾ [مريم] أى : ابتعدتْ عنهم ، من نبذ الشىء عنه أى أبعده ، فكأن أُنْسها لا بالأهل ، ولكن أُنْسها كان برب الأهل . والقرآن يقول : ﴿مِنْ أَهْلِهَا .. (١٦)﴾ [مريم] ولم يقُلْ : من الناس ، فقد تركتْ مريم أقرب الناس إليها وأحبّهم عندها وذهبت ، إلى هذا المكان .

﴿مَكَانًا شَرْقِيًّا (١٦)﴾ [مريم] لكن شرقىّ أىّ شىء ؟ فكل مكان

يصح أن يكون شرقياً ، ويصح أن يكون غربياً ، فهى - إذن - كلمة دائرة فى كل مكان . لكن هناك علَم بارز فى هذا المكان ، هو بيت المقدس ، فالمراد إذن : شرقى بيت المقدس ، وقد جاء ابتعادها عن أهلها إلى هذا المكان المقدس لتتفرغ للعبادة ولخدمة هذا المكان .

لكن ، لماذا اختارتْ الجهة الشرقية من بيت المقدس بالذات دون غيرها من الجهات ؟ قالوا : لأنهم كانوا يتفاءلون بشروق الشمس[1] ، لأنها سِمَة النور المادىّ الذى يسير الناس على هُدَاه فلا يتعثرون ، وللإنسان فى سَيْره نوران : نور مادىّ من الشمس أو القمر أو النجوم والمصابيح ، وهو النور الذى يظهر له الأشياء من حوله ، فلا تصطدم بما هو أقوى منه فيحطمك ولا بأضعف منه فتحطمه .

وكذلك له نور من منهج الله يهديه فى مسائل القيم ، حتى لا يتخبّط تائهاً بين دُروبها ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ .. (٣٥) ﴾ [النور] ثم يقول بعدها : ﴿ نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ .. (٣٥) ﴾ [النور]

أى : نور السماء الذى ينزل بالوحى لهداية الناس .

﴿ فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (١٧) ﴾

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٥/٤٢٦١) : « إنما خص المكان بالشرق لأنهم كانوا يعظمون جهة المشرق ومن حيث تطلع الأنوار ، وكانت الجهات الشرقية من كل شىء أفضل من سواها . حكاه الطبرى . وحُكى عن ابن عباس أنه قال : إنى لأعلم الناس لم اتخذ النصارى المشرق قبلة ، لقول الله عز وجل ﴿ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا (١٦) ﴾ [مريم] . فاتخذوا ميلاد عيسى عليه السلام قبلة » .

الحجاب : هو الساتر الذى يحجب الإنسان عن غيره ويحجب غيره عنه ، فما فائدة أنْ تتخذ بينها وبين أهلها ستْراً بعد أن ابتعدتْ عنهم ؟ نقول : انتبذتْ من أهلها مكاناً بعيداً ، هذا فى المكان ، إنما لا يمنع أنْ يكونَ هناك مكينٌ آخر يسترها حتى لا يطّلع عليها أحد ، فهناك إذن مكان ومكين .

والحجاب قد يكون حجاباً مُفْرداً فهو ساتر فقط ، وقد يكون حجاباً مستوراً بحجاب غيره ، فهو حجاب مُركّب ، كما يصنع أهل الترف الآن الستائر من طبقتين ، إحداهما تستر الأخرى ، فيكون الحجاب نفسه مَسْتوراً ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا (٤٥)﴾ [الإسراء]

وقوله تعالى : ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا .. (١٧)﴾ [مريم]

كلمة الروح فى القرآن الكريم لها إطلاقات مُتعدّدة ، أولها الروح التى بها قِوام حياتنا المادية ، فإذا نفخَ الله الروح فى المادة دبَّتْ فيها الحياة والحِسّ والحركة ، ودارت كل أجهزة الجسم ، وهذا المعنى فى قوله تعالى :

﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٢٩)﴾ [الحجر]

لكن ، هل هذه الحياة التى تسرى فى المادة بروح من الله هى الحياة المقصودة من خَلْق الله للخَلْق ؟ قالوا : إنْ كانت هذه الحياة هى المقصودة فما أهونها ؛ لأن الإنسان قد يمرُّ بها ويموت بعد ساعة ، أو بعد يوم ، أو بعد سنة ، أو عدة سنوات .

إذن : هى حياة قصيرة حقيرة هيِّنة ، هى أقرب إلى حياة الديدان والهوام ، أما الإنسان الذى كرّمه الله وخلق الكون من أجله فلا بُدَّ أن

تكون له حياة أخرى تناسب تكريمَ الله له ، هذه الحياة الأخرى الدائمة الباقية يقول عنها القرآن : ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٦٤)﴾ [العنكبوت]

﴿لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾ أى : الحياة الحقيقية ، أما حياتك الدنيا فهى مُهدّدة بالموت حتى لو بلغتَ من الكبر عتياً ، فنهايتك إلى الموت ، فإنْ أردتَ الحياة الحقيقية التى لا يُهدِّدها موت فهى فى الآخرة .

فإذا كان الخالق ـ تبارك وتعالى ـ جعل لك روحاً فى الدنيا تتحرك بها وتناسب مُدّة بقائك فيها ، ألاَ يجعل لك فى الآخرة رُوحاً تناسبها ، تناسب بقاءها وسَرْمديتها ، والقرآن حينما يتحدث عن هذه الروح يقول للناس : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ .. (٢٤)﴾ [الأنفال]

فكيف يدعوهم لما يُحييهم ، ويُخاطبهم وهم أحياء ؟ نعم ، هم أحياء الحياة الدنيا ، لكنه يدعوهم إلى حياة أخرى دائمة باقية ، أما مَنْ لم يستجب لهذا النداء ويسعى لهذه الحياة فلن يأخذ إلا هذه الحياة القصيرة الفانية التى لا بقاءَ لها .

وكما سمَّى الله السِّرَّ الذى ينفخه فى المادة فتدبّ فيها الحركة والحياة « روحاً » ، كذلك سمَّى القيم التى تحيا بها النفوس حياة سعيدة « روحاً » ، كما قال تعالى : ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا .. (٥٢)﴾ [الشورى] أى : القرآن الكريم .

كما سَمَّى الملَك الذى ينزل بالروح رُوحاً : ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣)﴾ [الشعراء] وهو جبريل عليه السلام .

إذن : فقوله تعالى : ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا .. (١٧)﴾ [مريم] أى : جبريل عليه السلام . ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (١٧)﴾ [مريم] معنى تمثَّل : أى : ليستْ هذه حقيقته ، إنه تمثَّل بها ، أما حقيقته فنورانية ذات صفات أخرى ، وذات أجنحة مَثْنى وثُلاَث ورُبَاع ، فلماذا ـ إذن ـ جاء الملَكُ مريمَ فى صورة بشرية ؟

لأنهما سيلتقيان ، ولا يمكن أنْ يتمّ هذا اللقاء خُفْية ، وكذلك يستحيل أنْ يلتقىَ الملَكُ بملكيته مع البشر ببشريته ، فلكل منهما قانونه الخاص الذى لا يناسب الآخر ، ولابُدَّ فى لقائهما أنْ يتصوَّر الملَك فى صورة بشر ، أو يُرقَّى البشر إلى صفات الملائكة ، كما رُقى محمد ﷺ إلى صفات الملائكة فى حادثة الإسراء والمعراج ، ولا يتم الالتقاء بين الجنسين إلا بهذا التقارب .

لذلك ، لما طلب الكفار أن يكون الرسول ملكاً رَدَّ عليهم الحق تبارك وتعالى : ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولاً (٩٥)﴾ [الإسراء]

وقال : ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ (٩)﴾ [الأنعام] إذن : لا يمكن أن يلتقى الملَكُ بالبشر إلا بهذا التقارب .

جاء جبريل ـ عليه السلام ـ إلى مريم فى صورة بشرية لتأنس به ، ولا تفزع إنْ رأتْه على صورته الملائكية ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا .. (١٧)﴾ [مريم] أى : من جنسها ﴿سَوِيًّا (١٧)﴾ [مريم]

أى : سوىّ الخلْقة والتكوين ، وسيماً ، قد انسجمتْ أعضاؤه وتناسقتْ على أجمل ما يكون البشر ، فلا يعيبه كِبَر جبهته أو أنفه أو فمه ، كما نرى فى بعض الناس .

وهذا كله لإيناس مريم وطمأنينتها ، وأيضاً ليثبت أنها العذراء العفيفة ؛ لأنها لما رأت هذا الفتى الوسيم القَسيم ما أبدتْ له إعجاباً ولا تلطفتْ إليه فى الحديث ، ولا نطقتْ بكلمة واحدة يُفهَم منها مَيْل إليه ، بل قالت كما حكى القرآن :

﴿ قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ ﴾

فلم تُظهِر له إعجاباً ، ولا مالتْ إليه بكلمة واحدة ، وهذا دليل على عِفّتها وطهارتها واستقامتها والتزامها .

وقولها : ﴿ أَعُوذُ .. ﴿١٨﴾ ﴾ أى : ألجأ وأعتصم بالله منك ؛ لأننى أخاف أنْ تفتك بى ، أو تعتدى علىَّ وأنا ضعيفة لا حَوْلَ لى ولا قوة إلا بالله ، فأستعيذ به منك . والمؤمن هو الذى يحترم الاستعاذة بالله ويُقدِّرها ، فإنْ استعذتَ بالله أعاذك ، وإن استجرتَ بالله أجارك .

ولما خطب النبى ﷺ امرأة[1] ، وكانت على شىء من الحسن أثار غَيْرة نسائه ، فخشينَ أنْ تغلبهن على قلب رسول الله ، فدبَّرْنَ لها أمراً يبعدها من أمامهن ، فقُلْنَ لها ـ وكانت غِرَّة ساذجة ـ أن رسول الله ﷺ يحب إذا اقترب منه إنسان أن يقول له : أعوذ بالله منك ، فما كان من المرأة إلا أنْ قالت هكذا لرسول الله عندما دخلت عليه ، فقال لها : « لقد استعذت بمعيذ ، الحقى بأهلك »[2] .

فقول مريم : ﴿ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ ﴾ [مريم] لأن المؤمن التقىّ هو الذى يخاف الله ، ويحترم الاستعاذة به ، وكأنها

---

(١) جاء فى تاريخ الطبرى أنها ملكة بنت داود الليثية (٣/١٢٣) أو فاطمة بنت الضحاك الكلابية (٣/١٣٩) .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٢٥٥) كتاب الطلاق من حديث أبى أسيد رضى الله عنه .

قالتْ : إنْ كنت تقياً فابتعد عنى ، واختارت الاستعاذة بالرحمن لما عندها من الأمل إنْ لم يكُنْ تقياً مؤمناً أن يبتعد عنها رحمةً بها وبضعفها ، ولجأتْ إلى الرحمن الرحيم الذى يحميها ويحرسها منه .

﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ ﴾

قال : ﴿ رَسُولُ رَبِّكِ .. ﴿١٩﴾ ﴾ [مريم] ولم يقلْ رسول الله ؛ لأن الربّ هو المتولّى للتربية الذى يُحسِنها ويصونها من الفساد ، فعطاء الربوبية عطاء مادىّ ، أما عطاء الألوهية فهو عطاء معنوى قِيَمى هو العبادة ، فأنا رسول ربك الذى يتولاَّك ويرعاك ويحرسك فلا تخافى .

وقوله : ﴿ لِأَهَبَ لَكِ .. ﴿١٩﴾ ﴾ [مريم] يفهم منه أن ما سيحدث لمريم هبة من الله غير خاضعة للأسباب التكوينية ، فالهبة فى هذه الحالة هبة حقيقية مَحْضَة ، فقد قلنا فى قصة زكريا ويحيى أن الله تعالى وهب يحيى لزكريا حال كونه كبير السِّن وامرأته عاقر ، لكن على أية حال فالجهازان موجودان : الذكورة والأنوثة ، لكن فى حالة مريم فهى أنثى بلا ذكر ، فهنا الهِبَة المحضة ، والمعجزة الحقيقية .

وقوله : ﴿ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ ﴾ أى مُنقًّى مُطهّر صافى الخِلْقة .

ثم يقول الحق سبحانه عن مريم :

﴿ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ ﴾

(أنَّى) استفهام عن الكيفيات التى يمكن أن تتم بها هذه المسألة ، وتعجُّب كيف يحدث ذلك .

وقوله : ﴿ يَمْسَسْنِي .. (٢٠) ﴾ [مريم] المسّ هنا كناية وتعبير مُهذَّب عن النكاح ، وقد نفتْ السيدة مريم كل صور اللقاء بين الذكر والأنثى حين قالت : ﴿ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (٢٠) ﴾ [مريم] فالتقاء الذكر بالأنثى له وسائل : الوسيلة الأولى : هى الزواج الشرعى الذى شرعه الله لعباده للتكاثر وحفْظ النسل ، وهو إيجاب وقبول ، وعقد وشهادة ، وهذا هو المسّ الحلال .

الوسيلة الثانية : أنْ يتم هذا اللقاء بصورة محرمة بموافقة الأنثى أو غَصْباً عنها . وقد نفتْ مريم عن نفسها كل هذه الوسائل فقالت : ﴿ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ .. (٢٠) ﴾ [مريم] لا فى الحلال ، ولا فى الحرام ، وأنا بذاتى ﴿ لَمْ أَكُ بَغِيًّا (٢٠) ﴾ [مريم] إذن : فمن أين لى بالغلام ؟

وكلمة : مسَّ جاءتْ فى القرآن للدلالة على الجماع ، كما فى قوله تعالى : ﴿ لا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ .. (٢٣٦) ﴾ [البقرة] فالمراد بالمسّ هنا الجماع ، لذلك فقد فسر الإمام أبو حنيفة قوله تعالى : ﴿ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ .. (٤٣) ﴾ [النساء] بأنه الجماع ؛ لأن القرآن أطلق المسَّ ، وأراد به النكاح ، والمسُّ فعل من طرف واحد ، أما الملامسة فهى مُفَاعلة بين اثنين ، فهى من باب أَوْلَى تعنى : جامعتم .

وقولها : ﴿ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (٢٠) ﴾ [مريم] البغِىُّ : هى المرأة التى تبغى الرجال . والبِغَاء : هو الزنا ، والبَغِىّ : التى تعرض نفسها على الرجال وتدعوهم ، وربما تُكرههم على هذه الجريمة .

وقولها : ﴿بَغِيًّا (٢٠)﴾ [مريم] مبالغة فى البَغْى وهو الظلم ، واختارتْ صيغة المبالغة بَغِىّ ولم تقُلْ باغية ؛ لأن باغية تتعلق بحقوق ما حول العِرْض ، أما الاعتداء على العِرْض ذاته فيناسبه المبالغة فى هذا الفعل .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا (٢١)﴾

كما قال الحق سبحانه لزكريا حينما تعجب أن يكون له ولد : ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ .. (٩)﴾ [مريم] أى : أنا أعرف ما أنت فيه من كِبَر السن ، وأن امرأتك عاقر لا تلد ، لكن الأمر جاء من الله وصدر حكمه ، وهو وحده الذى يملك التنفيذ ، فلِمَ التعجب إذن ؟

وهنا نجد بعض المتورِّكين على القرآن يعترضون على قوله تعالى : (كَذَلِكَ) بالفتح فى قصة زكريا وبالكسر فى قصة مريم (كذلكِ) ، والسياق والمعنى واحد ، وأيُّهما أبلغ من الأخرى ، وإنْ كانت أحدهما بليغة فالأخرى غير بليغة ؟

وهذا الاعتراض منهم ناتج عن قصور فَهْمهم لكلام الله ، فكلمة (كذلك) عبارة عن ذا اسم إشارة ، وكاف الخطاب التى تُفتح فى خطاب المذكر ، وتُكسر فى خطاب المؤنث .

وهنا أيضاً قال : (ربك) أى : الذى يتولى تربيتك ورعايتك ، والذى يُربيه ربُّه يربيه تربية كاملة تعينه على أداء مهمته المرادة للمربِّى .

وقوله : ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ .. (٢١)﴾ [مريم] كما قال فى مسألة البعث بعد الموت : ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ .. (٢٧)﴾ [الروم] فكلمة هيّن وأَهْوَن بالنسبة للحق ـ تبارك وتعالى ـ لا تُؤخَذ على حقيقتها ؛ لأن هَيِّن وأهوَنَ تقتضى صعب وأصعب ، وهذه مسائل تناسب فِعْلَ الإنسان فى معالجته للأشياء على قَدْر طاقته وإمكاناته ، أما بالنسبة للخالق سبحانه فليس عنده هَيِّن وأهون منه ؛ لأنه سبحانه لا يفعل الأفعال مُعَالجةً ، ولا يزاولها ، وإنما بقوله تعالى (كُنْ) .

فالحق سبحانه يخاطبنا على قَدْر عقولنا ، فقوله : ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ .. (٢١)﴾ [مريم] أى : بمنطقكم أنتم إنْ كنت قد خَلَقْتكم من غير شىء ، فإعادتكم من شىء موجود أمر هَيِّن .

ثم يقول تعالى : ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا .. (٢١)﴾ [مريم]

هل كان الغرض من خَلْق عيسى عليه السلام على هذه الصورة أن يُظهِر الحق سبحانه قدرته فى الخلق وطلاقة قدرته فقط ؟ لا ، بل هناك هدف آخر ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ .. (٢١)﴾ [مريم] أى : أمراً عجيباً ، يخرج عن مألوف العادة والأسباب ، كما نقول : هذا آية فى الحُسْن ، آية فى الذكاء ، فالآية لا تُقال إلا للشىء الذى يخرج عن معتاد التناول .

والآية هنا أن الخالق ـ تبارك وتعالى ـ كما خلق آدم ـ عليه السلام ـ من غير أب أو أم ، وخلق حواء من غير أم ، خلق عيسى ـ عليه السلام ـ من أم دون أب ، ثم يخلقكم جميعاً من أب وأم ، وقد يوجد الأب والأم ولا يريد الله لهما فيجعل مَنْ يشاء عقيماً .

إذن : فهذا أمر لا يحكمه إلا إرادة المكوِّن سبحانه . فالآية للناس فى أنْ يعلموا طلاقة قدرته تعالى فى الخَلْق ، وأنها غير خاضعة للأسباب ، وليستْ عملية ميكانيكية ، بل إرادة للخالق سبحانه أن يريد أو لا يريد .

لكن ، أكانتْ الآية فى خَلْق عيسى عليه السلام أمْ فى أمه ؟ كان من الممكن أنْ يوجد عيسى من أب وأم ، فالآية - إذن - فى أمه ، ما هو السبب الأصيل فى هذه الآية ؛ لذلك يقول تعالى فى آية أخرى : ﴿ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً .. (٥٠) ﴾ [المؤمنون] فعيسى ومريم آية واحدة ، وليستا آيتين ؛ لأنهما لا ينفصلان .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَرَحْمَةً مِّنَّا .. (٢١) ﴾ [مريم] ووجْه الرحمة فى خَلْق عيسى عليه السلام على هذه الصورة ، أنه سبحانه يرحم الناس من أنْ يشكُّوا فى أن قدرة الله منوطة بالأسباب ومتوقفة عليها ، ولو كان هذا الشكُّ مجرد خاطر ، فإنه لا يجوز ولا يصحّ بالنسبة للخالق سبحانه ، وكأنه تبارك وتعالى يرحمنا من مجرد الخواطر بواقع يؤكد أن طلاقة القدرة تأتى فى الخَلْق من شىء ، ومن بعض شىء ، ومن لا شىء .

وقوله : ﴿ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا (٢١) ﴾ [مريم] أى : مسألة منتهية لا تقبل المناقشة ، فإياك أن تناقش فى كيفيتها ؛ لأن الكلام عن شىء فى المستقبل إنْ كان من متكلم لا يملك إنفاذ ما يقول فيمكن ألاَّ يتم مراده لأىِّ سبب من الأسباب كأن تقول : سأفعل غداً كذا وكذا ، ويأتى غد ويحول بينك وبين ما تريد أشياء كثيرة ربما تكون خارجة عن إرادتك ، إذن : فأنت لا تملك كُلَّ عناصر الفعل .

أما إذا كان الكلام من الله تعالى الذى يملك كل عناصر الفعل فإن قوله حَقٌّ وواقع ، فقال تعالى : ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا (٢١)﴾ [مريم]

ولما تكلمنا عن تقسيمات الأفعال بين الماضى الذى حدث قبل الكلام ، والمضارع الذى يحدث فى الحال ، أو فى الاستقبال قلنا : إن هذه الأفعال بالنسبة للحق سبحانه تنحل عنها الماضوية والحالية والاستقبالية .

فإذا قال تعالى : ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (١٤)﴾ [الفتح] فهل كان الحق سبحانه غفوراً رحيماً فى الماضى ، وليس كذلك فى الحاضر والمستقبل ؟ لا ، لأن الحق سبحانه كان ولا يزال غفوراً رحيماً ، فرحمتُه ومغفرتُه أزلية حتى قبل أنْ يوجدَ مَنْ يغفر له ومَنْ يرحمه .

لذلك جاء الفعل بصيغة الماضى ، فالصفة موجودة فيه سبحانه أزلاً ، فهو سبحانه خالق قبل أن يخلق الخَلْق وبصفة الخَلْق خَلَقَ ، كما ضربنا مثلاً لذلك : نقول فلان شاعر ، فهل هو شاعر لأنه قال قصيدة ؟ أم قال القصيدة لأنه شاعر ، وبالشعر صنع القصيدة ؟ إذن : فهو شاعر قبل أن يقول القصيدة ، ولولا وجود الصفة فيه ما قال .

فالصفة ـ إذن ـ أزلية فى الحق سبحانه ، فإذا قلت : ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (١٤)﴾ [الفتح] فقد ثبتتْ له هذه الصفة أزلاً ، ولأنه سبحانه لا يتغير ، ولا يعارضه أحد فقد بقيتْ له ، هذا معنى : كان ولا يزال .

وهذه المسألة واضحة فى استهلال سورة النحل : ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ .. (١)﴾ [النحل] لذلك وقف بعض المستشرقين أمام هذه

الآية ، كيف يقول سبحانه (أَتَى) بصيغة الماضى ، ثم يقول : ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ .. (١)﴾ [النحل] أى : فى المستقبل ؟ نقول : لأن قوله تعالى : (أَتَى) فهذه قضية منتهية لا شكّ فيها ولا جدالَ ، فليس هناك قوة أخرى تعارضها أو تمنع حدوثها ؛ لذلك جاءت بصيغة الماضى وهى فى الواقع أمر مستقبل .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا (٢٢)﴾

(فَحَمَلَتْهُ) أى : حملتْ به على الحذف والإيصال ، والحمل يقتضى حاملاً ومحمولاً . ﴿فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا (٢٢)﴾ [مريم] لا تظن أن هذه اللقطة من القصة لقطةٌ مُعَادة ، فالانتباذ الأول كان للخلوة للعبادة ، وهنا ﴿فَانتَبَذَتْ بِهِ .. (٢٢)﴾ [مريم] أى : ابتعدتْ عن القوم لما أحسَّتْ بالحمل ، وخشيت أعيُنَ الناس وفضولهم فخرجتْ إلى مكان بعيد .

﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا (٢٣)﴾

﴿فَأَجَاءَهَا .. (٢٣)﴾ [مريم] الفعل جاء فلان . أى : باختياره ورِضَاه ، إنما أجاءه فلان أى جاء به رغماً عنه ودون إرادته ، فكأن المخاض هو الذى ألجأها إلى جِذْع النخلة وحملها على الذهاب إلى هذا المكان رَغْماً عنها ﴿فَأَجَاءَهَا .. (٢٣)﴾ [مريم] أى : جاء بها ، فكأن هناك قوة خارجة عنها تشدُّها إلى هذا المكان .

والمخاض : هو الألم الذى ينتاب المرأة قبل الولادة ، وليس هو الطَّلْق الذى يسبق نزول الجنين .

وقوله : ﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ .. (٢٣)﴾ [مريم] أوضح لنا علَّة مجيئها إلى جِذْع النخلة ؛ لأن المرأة حينما يأتى وقت ولادتها تحتاج إلى ما تستند إليه ، وتتشبث به ليخفف عنها ألم الوضع ، أو رفيقة لها تفزع إليها وتقاسمها هذه المعاناة ، فألجأها المخاض - إذن - إلى جذع (النخلة) ، وجاءت النخلة مُعرَّفة لأنها نخلة معلومة معروفة .

وجذع النخلة : ساقها الذى يبدأ من الجذر إلى بداية الجريد ، فهل ستتشبث مريم عند وضعها بكل هذه الساق ؟ بالطبع ستأخذ الجزء القريب منها فقط ، وأُطلق الجذع على سبيل المبالغة ، كما فى قوله تعالى : ﴿يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ .. (١٩)﴾ [البقرة]

ومعلوم أن الإنسان يسدّ أذنه بأطراف الأصابع لا بأصابعه كلها ، فعبَّر عن المعنى بالأصابع مبالغةً فى كَتْم الصوت المزعج والصواعق التى تنزل بهم .

إذن : فالسيدة مريم أصبحت أمام أمر واقع وحمل ظاهر لا تستطيع إخفاءه ، ولا تقدر على ستره ، فقد قبلتْ قبل ذلك أنْ يُبشِّرها الملَك بغلام زكىٍّ ، وقبلتْ أنْ تحمل به ، فكيف بها الآن وقد تحوّل الأمر من الكلام إلى الواقع الفعلى ، وها هو الوليد فى أحشائها ، وقد حان موعد ولادته ؟

لابُدَّ أن ينتابها نزوع انفعالى فالأمر قد خرج عن نطاق السَّتْر

والتكتّم ، فإذا بها تقول : ﴿ يَـٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَـٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ ﴾ [مريم] أى : تمنتْ لو ماتت قبل أن تقف هذا الموقف العصيب ، مع أن الملك حين أخبرها من قبل بأن الله تعالى سيهَبُ لها غلاماً زكياً تعجبتْ قائلة : ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَـٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ ﴾ [مريم]

مجرد تعجُّب وانفعال هادىء ، أما وقد أصبح الأمر ولادة حقيقية فلا بُدَّ من فعل نزوعى شديد يُعبِّر عما هى فيه من حَيْرة ، لذلك تمنتْ الموت ، مع أن الله تعالى نهانا عن تمنى الموت ، كما ورد فى الحديث الشريف الذى يرشدنا إذا ضاقتْ بنا الحياة ألاَّ نتمنى الموت ، بل نقول : « اللهم أحْيِنى ما كانت الحياة خيراً لى ، وتوفَّنى ما كانت الوفاة خيراً لى »[(١)] .

وقلنا : إن تمنى الموت المنهىّ عنه ما كان فيه اعتراض على قَدَر الله ، وتمرد على إرادته سبحانه ، كأنْ تكره الحياة والعيش إذا ضاق بك فتتمنى الموت ، أما أن تتمنى الموت لعلمك أنك ستصير إلى خير مما تركت فهذا أمر آخر .

وقد ورد فى القرآن مسألة تمنى الموت هذه فى الكلام عن بنى إسرائيل الذين قالوا : نحن أبناء الله وأحباؤه[(٢)] ، وقالوا : لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة[(٣)] ، وأن الدار الآخرة لنا خالصة عند الله ، فبماذا رَدّ عليهم القرآن الكريم ؟

---

(١) عن أنس رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به ، فإن كان لابد متمنياً فليقل : اللهم أحينى ما كانت الحياة خيراً لى ، وتوفنى إذا كانت الوفاة خيراً لى » أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٦٨٠) ، وكذا البخارى فى صحيحه (٦٣٥١) .

(٢) قال تعالى : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ .. ﴿١٨﴾ ﴾ [المائدة] .

(٣) قال تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ .. ﴿٨٠﴾ ﴾ [البقرة] .

والله طالما أن الأمر كما تقولون ، والآخرة لكم ﴿فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٩٤)﴾ [البقرة] ثم قرَّر الحق سبحانه ما سيكون منهم فقال : ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ .. (٩٥)﴾ [البقرة]

وقال عنهم : ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ .. (٩٦)﴾ [البقرة]

وما داموا لن يتمنوا الموت ، وما داموا أحرصَ الناس على الحياة ، فلا بُدَّ أن حياتهم هذه التى يعيشونها أفضل لديهم من الحياة الأخرى .

فالمؤمن - إذن - لا يجوز أن يتمنى الموت هَرباً من بلاء أصابه أو اعتراض على قَدَرِ الله ، ويجوز له ذلك إنْ علم أنه صائر إلى أفضل ممّا هو فيه .

وقولها : ﴿نَسْيًا مَّنسِيًّا (٢٣)﴾ [مريم] النسىّ : هو الشىء التافه الذى لا يُؤْبَه به ، وهذا عادةً ما يُنْسَى لعدم أهميته ، كالرجل الذى نسى عند صاحبه علبة كبريت بها عودان اثنان ، وفى الطريق تذكرها فعاد إلى صاحبه يطلب ما نسيه ، وهكذا تمنتْ مريم أن تكون نسياً منسياً حتى لا يذكرها أحد .

ولم تكتفِ بهذا ، بل قالت : ﴿نَسْيًا مَّنسِيًّا (٢٣)﴾ [مريم] لأن النسىّ : الشىء التافه الذى يُنسَى فى ذاته ، لكن رغم تفاهته فربما يجد مَنْ يتذكره ويعرفه ، فأكدت النسىّ بقولها (منسياً) أى : لا يذكره أحد ، ولا يفكر فيه أحد .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ ﴾

﴿ مِن تَحْتِهَا .. ﴿٢٤﴾ ﴾ [مريم] فيها قراءتان (مِنْ ، مَنْ) صحيح أن جبريل عليه السلام ما زال موجوداً معها لكنه ليس تحتها ، فدلّ ذلك على أن الذى ناداها هو الوليد ﴿ أَلَّا تَحْزَنِي .. ﴿٢٤﴾ ﴾ [مريم] ، وحزن مريم منشؤه الانقطاع عن الناس ، وأنها فى حالة ولادة ، وليس معها مَنْ يسندها ويساعدها ، وليس معها مَنْ يُحضِر لها لوازم هذه المسألة من طعام وشراب ونحوه .

لذلك تعهّدها ربها تبارك وتعالى فوفّر لها ما يُقيتها من الطعام والشراب ، فقال : ﴿ قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ ﴾ [مريم] والسرىّ : هو النهر الذى يجرى بالماء العَذْب الزُّلال ، ثم يعطيها الطعام المناسب لحالتها ، فيقول تعالى :

﴿ وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ ﴾

وهكذا وفّر الحق سبحانه وتعالى لمريم مقوّمات الحياة وعناصر استبقائها ، وهى مُرتَّبة على حَسْب أهميتها للإنسان : الهواء والشراب والطعام ، والإنسان يصبر على الطعام شهراً دون أنْ يأكلَ ، ويمكنه أنْ يقتاتَ على ما هو مخزون فى جسمه من غذاء ، لكنه لا يصبر على الماء أكثر من ثلاثة أيام إلى عشرة أيام حسب ما فى جسمه من

مائية ، فى حين لا يصبر على الهواء لحظة واحدة ، ويمكن أنْ يموتَ من كَتْم نفَسٍ واحد .

لذلك ، من حكمة الخالق سبحانه وتعالى أن يُملِّك الطعام كثيراً ، ويُملك الماء قليلاً ، ولا يُملِّك الهواء لأحد أبداً ، لأنك لو غضبتَ على أحد فمنعتَ عنه الهواء لمات قبل أنْ ترضى عنه ، إذن : فعناصر استبقاء الحياة مرتبة حَسْب أهميتها فى حياة الإنسان ، وقد ضمنها الحق سبحانه لمريم وجعلها فى متناول يدها وأغناها عن أنْ يخدمها أحد .

فالهواء موجود وهى فى الخلاء ، ثم الماء فأجرى تحتها نهراً عذباً زلالاً ، ثم الطعام فقال : ﴿وَهُزِّى إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا (٢٥)﴾ [مريم] وكأن الحق - تبارك وتعالى - يريد أنْ يُظهر لمريم آية أخرى من آياته ، فأمرها أنْ تهزَّ جذع النخلة اليابس الذى لا يستطيع هَزَّه الرجل القوىّ ، فما بالها وهى الضعيفة التى تعانى ألم الولادة ومشاقها ؟

كما أن الحق سبحانه قادر على أنْ يُنزِل لها طعامها دون جَهْد منها ودون هَزِّها ، إنما أراد سبحانه أن يجمع لها بين شيئين : طلب الأسباب والاعتماد على المسبب ، الأخذ بالأسباب فى هَزِّ النخلة ، رغم أنها متعبة قد أرهقها الحمل والولادة ، وجاء بها إلى النخلة لتستند إليها وتتشبث بها فى وحدتها لنعلم أن الإنسان فى سعيه مُطَالب بالأخذ بالأسباب مهما كان ضعيفاً .

لذلك أبقى لمريم اتخاذ الأسباب مع ضَعْفها وعدم قدرتها ، ثم

تعتمد على المسبِّب سبحانه الذى أنزل لها الرُّطَب مُسْتوياً ناضجاً ، وهل استطاعت مريم أنْ تهزَّ هذا الجذع الكبير اليابس ؟

إنها مجرد إشارة إليه تدلُّ على امتثال الأمر ، والله تعالى يتولى إنزال الطعام لها ، وقد صوَّر الشاعر هذا الموقف بقوله :

أَلَمْ تَرَ أنَّ اللهَ قَالَ لمريَم ... وَهُزِّى إليك الجذْعَ يَسَّاقَط الرُّطبْ
وَإنْ شَاءَ أعطَاهَا ومِنْ غير هَزَّة ... ولكن كُلَّ شَىءٍ لَهُ سَبَبْ

وقوله : ﴿تُسَاقِطْ .. (٢٥)﴾ [مريم] أى : تتساقط عليك ﴿رُطَبًا جَنِيًّا (٢٥)﴾ [مريم] أى : استوى واستحق أن يُجنى ، وليس مُبْتسراً قبل موعده ، ومن الرُّطَب ما يتساقط قبل نُضْجه فلا يكون صالحاً للأكل .

وقوله : ﴿تُسَاقِطْ عَلَيْكِ .. (٢٥)﴾ [مريم] فيه دليل على استجابة الجماد وانفعاله ، وإلا فالبلحة لم تخرج عن طَوْع أمها ، إذن : فقد ألقتْها طواعيةً واستجابة حين تَمَّ نضجها .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا (٢٦)﴾

ونلحظ هنا أن الحق ـ تبارك وتعالى ـ عند إيجاد القُوت لمريم جاء بالماء أولاً ، فقال : ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا (٢٤)﴾ [مريم] ، ثم أتى بالطعام فقال : ﴿وَهُزِّى إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا (٢٥)﴾ [مريم] لأن الماء أَوْلى من الطعام فى احتياج الإنسان ، أما عند

الأمر بالانتفاع قال : ﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي .. (٢٦)﴾ [مريم] فبدأ بالطعام قبل الشراب ، لماذا ؟ لأن الإنسان عادةً يأكل أولاً ، ثم يشرب ، فالماء مع أهميته ، إلا أنه يأتى فى العادة بعد الطعام ، فسبحان مَنْ هذا كلامه .

وقوله : ﴿وَقَرِّى عَيْنًا .. (٢٦)﴾ [مريم] بعد أن وفَّر لها الحق سبحانه الطعام والشراب الذى هو قِوَام المادة ، وبه يتم استبقاء الحياة ، لكن بعد الطعام والشراب يبقى لديها حُزْن عميق وألم وحَيْرة ممَّا هى فيه ؛ لذلك يعطيها ربها تبارك وتعالى بعد القوت الذى هو قِوام المادة يعطيها السكينة والطمأنينة ويُخفِّف عنها ألم النفس وحَيْرة الفؤاد .

﴿وَقَرِّى عَيْنًا .. (٢٦)﴾ [مريم] قرّى : أى : اسكنى . وهذا التعبير عند العرب كناية عن السرور ، ومنه قوله تعالى على لسان امرأة فرعون : ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ .. (٩)﴾ [القصص]

والعرب تعبر بِقُرَّة العين وسكونها عن السرور ؛ لأن سكون العين على مَرأًى واحد لا تتحول عنه دليلٌ على أن العين صادفت مرأى جميلاً تسعد به وتُسَرُّ فلا يُغنى عنه مَرأًى آخر ، فتظل ساكنة عليه لا تتحرك عنه .

وقد يستعمل هذا التعبير فى المقابل أى : فى الشر والدعاء على إنسان وتمنى الشر له ، كالمرأة التى دخلتْ على أحد الخلفاء فنهرَها فقالت له : أتمَّ الله عليك نعمته وأقرَّ عينك . فظنَّ الحضور أنها تدعو له ، لكنه فَطِن لمرادها ، فقال لجلسائه : ما فهمتم ما تقول ، إنها

تقصد أتمَّ الله عليك نعمته أى : أزالها ، أما سمعتم قول الشاعر :

إذَا تَمَّ شَىءٌ بَدَا نَقْصُه ترقَّبْ زَوَالاً إذَا قِيلَ تَمْ

ذلك لأن الإنسان بطبيعته ابنُ أغيار ، لا يثبت على حال ، فإذا ما وصل إلى القمة وتمتْ له النعمة ، وهو ابن أغيار فلا بُدَّ أنْ يتحوَّل عنها .

وقولها : أقرَّ الله عينك ، أى : أسْكَنَها بالعمى .

فقوله تعالى لمريم : ﴿وَقَرِّي عَيْنًا .. (٢٦)﴾ [مريم] أى : كونى سعيدة باصطفاء الله لك مسرورة بما أعطاك ، فما تهتمين به وتحزنين هو عَيْن النعمة التى ليستْ لأحد غيرك من نساء العالمين .

ثم يقول تعالى : ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا (٢٦)﴾ [مريم]

وهنا يتولَّى الحق سبحانه وتعالى الدفاع عن مريم وتبرير موقفها الذى لا تجد له هى مبرراً فى أعراف الناس ، فَمَنْ يلتمس عُذْراً لامرأة تحمل وتلد دون أن يكون لها زوج ؟ ومهما قالت فلن تُصدَّق ولن تسْلَم من ألسنة القوم وتجريحهم .

إذن : فجواب ما يكره السكوت ، فأمرها سبحانه أنْ تلزم الصمت ولا تجادل أحداً فى أمرها : ﴿فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا (٢٦)﴾ [مريم] والصوم هنا أى : عن الكلام ، كما حدث مثل هذا فى قصة زكريا ؛ لأن المعجزات قريبة من بعضها ، فقد أعطى الله

زكريا مع عَطَب الآلات ، وأعطى مريم بنقص الآلات ، ولا يبرر هذه المعجزات ولا يدافع عنها إلا صانعها تبارك وتعالى .

وهذه المسألة اعترض عليها بعض الذين يحبون أنْ ينتقدوا على القرآن ، فقالوا : كيف يأمرها بالصوم عن الكلام ، وفى نفس الوقت يأمرها أن تقول : نذرت للرحمن صوماً[1] ؟

يجوز أنها قالت هذه العبارة أولاً لأول بشر رأته ليتم بذلك إعلان صومها ، ثم انقطعت عن الكلام ، ويجوز أن يكون المراد بالكلام هنا الإشارة ، والدلالة بالإشارات أقوى الدلالات وأعمّها ، فإن اختلفت اللغات بين البشر لأن كل جماعة تواضعوا على لغة خاصة بهم ، فإن لغة الإشارة تظل لغة عامة يتفق عليها الجميع ، فمثلاً حين تُومىء برأسك هكذا تعنى نعم فى كل اللغات ، وحين تُشير بأصبعك هكذا تعنى لا ، إذن : فالدلالة لغة عالمية وعامّة .

وقد تعرَّضَ القرآن الكريم فى موضع آخر لهذه المسألة فى قوله تعالى : ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لاَّ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً (٩٣)﴾ [الكهف]

أى : لا يقربون من الفهم ، فَهُمْ يفهمون من باب أَوْلى ، ومع ذلك كان بينهم كلام وإشارة ولغة ، وفَهِم كل منهم عن الآخر : ﴿قَالُوا يَـٰذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ .. (٩٤)﴾ [الكهف]

---

(١) قال أبو يحى زكريا الأنصارى فى « فتح الرحمن بكشف ما يلتبس فى القرآن » ص ٢٥٥: « قوله تعالى : ﴿فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَـٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا (٢٦)﴾ [مريم] . مرتب على مقدَّر بينه وبين الشرط تقديره : فإما ترين من البشر أحداً ، فيسألك الكلام ، فقولى إنى نذرت .. الآية ، وبهذا سقط ما قيل من أن قولها « فلن أكلم اليوم إنسياً » كلام بعد النذر ، إذ هو بهذا التقدير من تمام النذر لا بعده » .

ونلحظ فى قولها : ﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾﴾ [مريم] أن النهى عن الكلام مع البشر خاصة فلم تَقُل : لن أتكلم ، وإلاّ فمعها جبريل ـ عليه السلام ـ يُكلّمها وبينهما تفاهم ، لعلَّه يرى لها مَخْرجاً ، وقد كانت مريم واثقة مطمئنة إلى هذا المخرج ، فإذا كان ربها ـ تبارك وتعالى ـ أمرها بالصوم عن الكلام ، فإنه سينطق الوليد ليتكلم هو ويدافع عن أمه أمام اتهامات القوم .

ولما تكلّمنا فى قوله تعالى : ﴿فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلاَّ تَحْزَنِي .. ﴿٢٤﴾﴾ [مريم] استبعدنا أنْ يكون هذا النداء من جبريل ، وقلنا : إنه نداء الوليد ؛ لذلك اطمأنتْ مريم وعلِمتْ أنها أمام معجزة عُظْمى ، ووثقتْ تمام الثقة أنها حين تُشير إليه سيتكلم هو ويردُّ عنها الحَرَج مع قومها ؛ لأن الكلام ممَّنْ يقدر على الكلام لا يأتى بحجة تُقنع الناس عن خلاف العادة ، أما حين يتكلم وهو فى المهد ، فهذا يعنى أنه معجزة خارقة للعادة ، فإذا كان الوليد معجزةً فالمعجزة فى أُمِّه من باب أَوْلَى .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾﴾

ونعجب للسيدة مريم ، فبدلَ أن تخجل مما حدث وتستتر بوليدها عن أعيُن الناس ، أو تنتقل به إلى مكان آخر فى فيافى الأرض إذا بها تحمله ، وتذهب به ، وتبادر به قومها ، وما كانت لتفعل ذلك وتتجرأ عليه إلا لثقتها فى الحجة التى معها ، والتى ستوافيها على يد وليدها .

لذلك لما سأل بعض المستشرقين الإمام محمد عبده رحمه الله فى باريس : بأىٍّ وجه قابلتْ عائشة قومها بعد حديث الإفْك ؟ سبحان الله إنهم يعلمون أنه إفْكٌ وباطل ، لكنهم يرددونه كأنهم لا يفهمون .

فأجاب الشيخ رحمه الله ببساطة : بالوجه الذى قابلتْ به مريم قومها وهى تحمل وليدها . أى : بوجه الواثق من البراءة ، المطمئن إلى تأييد الله ، وأنه سبحانه لن يُسلِمها أبداً ؛ لذلك لما نزلتْ براءة عائشة فى كتاب الله قالوا لها : اشكرى النبى ، فقالت : بل أشكر الله الذى برأنى من فوق سبع سموات[1] .

فلما رآها القوم على هذه الحال قالوا فيها قولاً غليظاً : ﴿ يَـٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ ﴾ [مريم] فرياً : الفَرْىُ للجلد : تقطيعه ، والأمر الفرى : الذى يقطع معتاداً عند الناس فليس له مثيل ، أو من الفِرْية وهى تعمد الكذب .

ثم قالوا لها :

﴿ يَـٰٓأُخْتَ هَـٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ ﴾

قولهم لمريم : ﴿ يَـٰٓأُخْتَ هَـٰرُونَ .. ﴿٢٨﴾ ﴾ [مريم] هذا كلام جارح وتقريع ومبالغة منهم فى تعييرها ، فنسبوها إلى هارون الذى سُمِّى

---

(١) قالت عائشة رضى الله عنها أن الوحى نزل على رسول الله ﷺ فسكتنا عنه ، وإنى لأتبين السرور فى وجهه وهو يمسح جبينه ويقول « أبشرى يا عائشة فقد أنزل الله براءتك » قالت : وكنت أشد ما كنت غضباً . فقال لى أبواى : قومى إليه . فقلت : لا والله لا أقوم إليه ولا أحمده ولا أحمدكما ، ولكن أحمد الله الذى أنزل براءتى لقد سمعتموه فما أنكرتموه ولا غيرتموه . أخرجه البخارى فيما ذكره ابن كثير فى تفسيره (٣/٢٧١) فى حديث طويل .

على اسم النبى ، فأنت من بيت صلاح ونشأت فى طاعة الله ، فكيف يصدر منك هذا الفعل ؟ كما ترى أنت سيدة محجبة يصدر منها فى الشارع عمل لا يتناسب ومظهرها فتلومها على هذا السلوك الذى لا يُتصوّر من مثلها .

وقوله : ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ .. (٢٨)﴾ [مريم] الرجل السوء هو الذى إنْ صحبْتَه أصابك منه سوء ، ونالك بالأذى ﴿وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا (٢٨)﴾ [مريم] قلنا : إن البَغِىَّ : هى المرأة التى تبغى الرجال وتدعوهم إليها ، فالمراد : من أين لك هذه الصفة ، وأنت من أسرة خَيِّرة صالحة ؟

وفى هذا دليل على أن نَضْح الأُسَر يؤثر فى الأبناء ، فحين نُكوِّن الأسرة المؤمنة والبيت الملتزم بشرع الله ، وحين نحتضن الأبناء ونحوطهم بالعناية والرعاية ، فسوف نستقبل جيلاً مؤمناً واعياً نافعاً لنفسه ولمجتمعه .

إذن : فقولهم : ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا (٢٨)﴾ [مريم] اتهام صريح لمريم ، وتأكيد على أنها وقعتْ فى محظور ، وكأنهم مصرون على رَمْيها بالفاحشة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (٢٩)﴾

أى : حين قال القوم ما قالوا أشارتْ إلى الوليد وهى واثقة أنه سيتكلم ، مطمئنة إلى أنها لا تحمل دليل الجريمة ، بل دليل البراءة .

فلما أشارتْ إليه تقول لقومها : اسألوه ، تعجَّبُوا : ﴿قَالُوا كَيْفَ

نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ ﴾ [مريم] ونلاحظ فى قولهم أنهم لم يستبعدوا أنْ يتكلّمَ الوليد ، فلمَ يقولوا : كيف يتكلم مَنْ كان فى المهد صبيـاً ؟ بل قـالوا : ﴿ كَيْفَ نُكَلِّمُ .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [مريم] أى : نحن ، فاستبعدوا أنْ يكلموه ، فكأنهم يطعنون فى أنفسهم وفى قدرتهم على فَهْم الوليد إنْ كلَّمهم .

والمهد : هو المكان الممهد المعدّ لنوم الطفل ، لأن الوليد لا يقدر أن يبعد الأذى عن نفسه ، فالكبير مثلاً يستطيع أنْ يُمهد لنفسه مكان نومه ، وأن يُخرِج منه ما يُؤرِّق نومه وراحته ، وعنده وَعْى ، فإذا آلمه شىء فى نومه يستطيع أنْ يتحلَّل من الحالة التى هو عليها ، وينظر ماذا يؤلمه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ ﴾

وكأنه قال للقوم : لا تتكلموا أنتم ، أنا الذى سأتكلم . ثم بادرهم بالكلام : ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ .. ﴿٣٠﴾ ﴾ [مريم] وهكذا استهلّ عيسى عليه السلام كلامه بإظهار عبوديته لله تعالى ، وفى هذا دليل على أنه قد يُقال فيه أنه ليس عبداً ، وأنه إله أو شريك للإله .

لذلك كانت أول كلمة نطق بها ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ .. ﴿٣٠﴾ ﴾ [مريم] فالمعجزة التى جاءتْ بى لا تمنع كَوْنى عبداً لله ؛ لذلك لو سألتَ الذين يعتقدون فى عيسى عليه السلام أنه إله أو شريك للإله : إنكم تقولون أنه تكلّم فى المهد ، فماذا قال ؟ فلا يعترفون بقوله أبداً ؛ لأن قوله ونُطْقه : ﴿ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ .. ﴿٣٠﴾ ﴾ [مريم] ينفى معتقدهم من أساسه .

ليس هذا وفقط ، بل : ﴿ آتَانِيَ الْكِتَابَ .. ﴿٣٠﴾ ﴾ [مريم] لكن كيف

آتاه الله الكتاب وهو ما يزال وليداً فى مَهْده ؟ قالوا : على اعتبار أنه أمرٌ مفروغ منه ، وحادث لا شكَّ فيه ، كأنه يقول : أنا أهْل لأنْ أتحملَ أمانةَ السماء إلى أهل الأرض . مع أن الكتاب لم يأت بعد ، إلا أنه مُلقَّن لقَّنه ربه الكتاب بالفعل ، وإنْ لم يأت الوقت الذى يُبلِّغ فيه هذا الكتاب .

﴿ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ ﴾ [مريم] فسلوكى سلوك قويم ، ولا يمكن أن يكون فىَّ مطعَنٌ بعد ذلك ، وإنْ كان هناك مطعن فهو بعيد عنى ، ولا ذنبَ لى فيه .

ثم يقول :

﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ ﴾

أى : وشرَّع لى أيضاً ما دُمْت حياً .. وقد قال عيسى عليه السلام فى المهد هذه الكلمات ليبرِّىء أمه الصِّدِّيقة ، ذلك أنهم اتهموها فى أعزِّ شىء لديْها ؛ ولذلك لم يكُنْ ليُجدى أىّ كلام منها ، وإنقاذاً لها أبلغها الحق عن طريق جبريل أو عيسى عليهما السلام أن تقول : ﴿ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾ ﴾ [مريم]

ثم يقول :

﴿ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ ﴾

فلِمَ ذكر والدته هنا ؟ ولِمَ حرص على تقرير برِّه بها ؟ قالوا : لأن البعض قد يظن أن عيسى ـ عليه السلام ـ حينما يكبر ويعرف قصة خَلْقه ، وأن أمه أتَتْ به من غير أب ، ودون أنْ يمسسْها بشر

قد تترك هذه المسألة ظلالاً فى نفسه وتُساوره الشكوك فى أمه ، فأراد أنْ يقطع كل هذه الظنون .

ذلك لأنه هو نفسه الدليل ، وهو نفسه الشاهد على براءة أمه ، والدليل لا يُشكِّك فى المدلول ، فكأنه يقول للقوم : إياكم أنْ تظنوا أنى سأتجرأ على أمى ، أو يخطر ببالى خاطر سوء نحوها .

ثم يقول : ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢)﴾ [مريم] فنفى عن نفسه صفة الجبروت والقسوة والتعاظم ؛ لأن الرسول لابُدَّ أنْ يكون ليِّنَ الجانب رفيقاً بقومه ؛ لأنه أتى ليُخرِج الناس مِمَّا ألِفُوه من الفساد إلى ما يثقل عليهم من الطاعة .

والإنسان بطبعه حين يألَف الفساد يكره مَنْ يُخرجه عن فساده ، فمن الطبيعى أن يتعرّض النبى لاستفزاز القوم وعنَادهم ومكابرتهم ، فلو لم يكُنْ ليِّن الجانب ، رقيق الكلمة ، يستميل الأذن لتسمع والقلوب لتعى ما صلح لهذه المهمة .

لذلك يخاطب الحق - تبارك وتعالى - نبيه محمداً ﷺ بقوله : ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ .. (١٥٩)﴾ [آل عمران]

ومعنى ﴿شَقِيًّا (٣٢)﴾ [مريم] أى : عاصياً ، وما أبعدَ مَنْ هذه صفاته عن معصية الله التى يشقى بسببها الإنسان .

ثم يقول تعالى عن عيسى عليه السلام أنه قال :

﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (٣٣)﴾

سبق أن قلنا فى قصة يحيى عليه السلام : إن هذه الأحداث أعلام

ثلاثة فى حياة الإنسان : يوم مولده ، ويوم موته ، ويوم أنْ يُبعث يوم القيامة . فما وجه السلامة فى هذه الأحداث بالنسبة لعيسى عليه السلام ؟

قوله : ﴿وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ .. (٣٣)﴾ [مريم] لأن يوم مولده مَرَّ بسلام ، رغم ما فيه من عجائب ، فلم يتعرَّض له أحد بسوء ، وهو الوليد الذى جاء من دون أب ، وكان من الممكن أنْ يتعرّض له ولأمه بعض المتحمسين الغيورين بالإيذاء ، لكن شيئاً من ذلك لم يحدث ، ومَرَّ الميلاد بسلام عليه وعلى أمه .

﴿وَيَوْمَ أَمُوتُ .. (٣٣)﴾ [مريم] لأنهم أخذوه ليصلبوه ، فنجّاه الله من أيديهم ، وألقى شبهه على شخص آخر ، ورفعه الله تعالى إلى السماء .

﴿وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (٣٣)﴾ [مريم] فليس هناك من الرسل مَنْ سيسأل هذه الأسئلة ، ويناقش هذه المناقشة التى نُوقشها عيسى فى الدنيا :

﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ .. (١١٧)﴾ [المائدة]

وليس هذا قَدْحاً فى مكانة عيسى عليه السلام ؛ لأن ربَّه تبارك وتعالى يعلم أنه ما قال لقومه إلا ما أُمِرَ به ، ولكن أراد سبحانه توبيخ القوم الذين اتخذوه وأمه إلهين من دون الله ، فوجْه السلام فى يوم ﴿أُبْعَثُ حَيًّا (٣٣)﴾ [مريم] انه نُوقش فى الدنيا وبُرّئتْ ساحته .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾

﴿ ذَٰلِكَ .. ﴿٣٤﴾ ﴾ [مريم] أى : ما تقدّم من قصة عيسى عليه السلام ﴿ قَوْلَ الْحَقِّ .. ﴿٣٤﴾ ﴾ [مريم] أى : يقولها الله تعالى قَوْلَة حَقٍّ ، والحق هو الله ، فالذى قَصّ عليك هذا القَصَص هو الله ، وقوله الحق الذى لا باطلَ فيه ، فيكون الحق الذى هو ضد الباطل ، فالمعنيان ملتقيان .

أو : يكون المراد بقول الحق كلمة (كُنْ) التى بها يتمّ الخَلْق .

ثم يقول تعالى : ﴿ الَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [مريم] من المراء : وهو الاختلاف والجدال بالباطل ، فالحق سبحانه يعلم أنهم سيشكُّون فيه ، ويتجادلون بالباطل ، وأنهم سيقولون فيه الأقاويل ، وكأن الله تعالى يقول لهم : اتركوا هذه الأقاويل والأباطيل فى شأن عيسى وخُذُوا بما أخبرتكُم به من خبره ، فهو الحق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خَلْفه .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ ﴾

لماذا تكلم الحق سبحانه هنا عن نفى الولد بالذات ؟

قالوا : لأن مسألة الشريك لله تعالى تُنفَى بأولية العقل ، فإنْ كان

كُلٌّ إله صالحاً للفعل وللترك ، فهذه صورة مُكرّرة لا تناسب الإله ، وإنْ كان هذا إلهاً لكذا وهذا إله لكذا ، فما عند أحدهما نقص فى الآخر ، وهذا محال فى الإله ، ولو أن هناك إلهاً آخر لذهب كل منهما بجزء ، كما قال سبحانه : ﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ .. (٩١)﴾ [المؤمنون]

لذلك نفى مسألة الولد ؛ لأنها ذات أهمية خاصة بالنسبة لقصة عيسى عليه السلام ؛ لأن الولد من الممكن أنْ يُستبعَد فيه الدليل ، لماذا ؟ لأن دليله اتخاذُ الولد أو حُبُّ الولد ، والإنسان يحب الولد ويسعى إليه ، لماذا ؟

قالوا : لأن الإنسان ابْنُ دنياه ، وهو يعلم أنه ميت ميت ، فيحبّ أن يكون له امتداد فى الدنيا وذِكْر من بعده ، فالإنسان يتمسّح فى الدنيا حتى بعد موته ، وهو لا يدرى أن ذِكْر الإنسان لا يأتى بعده ، بل ذِكْره يسبقه إلى الآخرة بالعمل الصالح .

إذن : فحبُّ الولد هنا لاستدامة استبقاء الحياة ، وهذا مُحَال فى حَقِّ الله تبارك وتعالى ؛ لأنه الباقى الذى لا يزول .

وقد يتخذ الولد ليكون عِزْوة لأبيه وسَنداً ومُعيناً ، وهذا دليل الضَّعْف ، والحق سبحانه هو القوىّ الذى لا يحتاج إلى معونة أحد . إذن : فاتخاذ الولد أمر منفىّ عنه تبارك وتعالى ، فهو أمر لا يليق بمقام الألوهية ، ويجب أنْ تُنزِّه الله تعالى أن يكون له ولد ؛ لذلك يقول تعالى بعدها : ﴿سُبْحَانَهُ .. (٣٥)﴾ [مريم]

وسبحان تدل على التنزيه المطلق لله تعالى تنزيهاً له فى ذاته ، وفى صفاته ، وفى أفعاله ، فهو سبحانه ليس كمثله شىء ، وإنْ

وجدتَ صفة مشتركة بينك وبين الله كأنْ يكونَ لله تعالى وجه ويد ، ولكَ وجه ويد ، فإياك أنْ تنزل بالمستوى الأعلى فتقول : وجهه كوجهى ، أو يده كيدى ، لأن لك وجوداً ولله تعالى وجود ، فهل وجودك كوجود الله ؟

وجودك مسبوق بعدم ويلحقه العدم ، ووجوده تعالى لم يُسبَق بعدم ولا يلحقه العدم ، فعليك - إذن - أن تقول فى مثل هذه المسائل : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى]

والمتتبع لمادة (سَبَّح) فى القرآن الكريم يجد أنها جاءت بكل الصِّيَغ :

الماضى : ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ..﴿١﴾﴾ [الحديد]

والمضارع : ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ .. ﴿١﴾﴾ [الجمعة]

والأمر فى : ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ﴿١﴾﴾ [الأعلى]

فما دام الكون كله سبَّح لله ، ولم ينقطع عن تسبيحه ، بل ما زال مُسبِّحاً ، فلما خلق الخلق أمرهم بالتسبيح ؛ لأنهم جزء من منظومة الكون المسبِّح ، وعليهم أنْ ينتظموا معه ، ولا يكونوا نشازاً فى كون الله .

أما المصدر (سبحان) فقد جاء ليدل على التنزيه المطلق لله تعالى ، حتى قبل أن يخلق الخَلْق ، والتنزيه ثابت له تعالى قبل أنْ يخلق مَنْ يُنزِّهه كما فى قوله تعالى : ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ .. ﴿١﴾﴾[الإسراء]

لأن المسألة عجيبة وفوق إدراك العقل ، فقد جاء بالمصدر (سبحان) الدالّ على التنزيه المطلَق لله ، كأنه تعالى يُحذِّر الذين

يُحكِّمون عقولهم ، ولا يُحكِّمون قدرة الله الذى خلقهم بقانون الزمان والمكان والبُعْد والمسافة ، فكُلُّ فعل يتناسب قوةً وقدرةً مع فاعله .

ثم يقول تعالى : ﴿إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾﴾ [مريم] ذلك لأن الآية فى خَلْق عيسى عليه السلام مخالفة للنواميس كلها ، وخارقة للعادة التى ألِفها الناس ، فإياك أنْ تتعجب من فعْل الله تعالى فى يحيى ، حيث جاء به مع عطب الآلات ، أو تتعجب من خَلْق عيسى حيث جاء به مع نقص الآلات .

وإياك أنْ تتعَجَّب من كلام عيسى وهو فى المهد صَبِياً ، فهى أمور نعم خارقة للعادة وللنواميس ، فخُذْها فى إطار (سبحانه) وتنزيهاً له ؛ لأنه تعالى إذا أراد شيئاً لا يعالجه بعمل ومُزاولة ، وإنما يعالجه (بكُنْ) فيكون .

ولا تظن أن خَلْق الأشياء متوقف على هذا الأمر (كُنْ) ، فإن كان الفعل مُكوّناً من (كاف) و (نون) فقبل أن تنطق النون يكون الشىء موجوداً ، لكن (كُنْ) هو أقصر ما يمكن تصوُّره لنا ، والحق سبحانه يخاطبنا بما يُقرِّب هذه المسألة إلى عقولنا ، وإلا فإرادته سبحانه ليستْ فى حاجة إلى قول (كُنْ) فما يريده الله يكون بمجرد إرادته .

كما أنك لو أمعنتَ النظر فى قوله تعالى : ﴿إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ.. ﴿٣٥﴾﴾ [مريم] تجد (يقُولُ لَهُ) أى : للشىء ، فكأن الشىء موجود بالفعل ، موجود أزلاً ، فالأمر بكُنْ ليس لإيجاده من العدم ، بل لمجرد إظهاره فى عالم الواقع .

ثم يقول :

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾

الرب : هو المتولّى للتربية والرعاية . والتربية تعنى أن يأخذ المربِّى المربَّى بالرياضة إلى مَا يصلحه لأداء مهمته والقيام بها ، كما لو أردتَ مهندساً تُربّيه تربية مهندس ، وإن أردت طبيباً تربيه تربية طبيب . ونحن هنا أمام قوم أشركوا بالله ، ونحتاج لداعية يُخرِجهم من الشرك إلى الإيمان ، ومن المعصية إلى الطاعة .

فالمعنى : ما دام أن الله تعالى ربى وربكم ، والمتولّى لتربيتنا جميعاً ، فلا بُدَّ أن يُربّى لكم مَنْ يصلحكم ؛ لأنه تعالى لا يخاطبكم مباشرة ، بل سيبعثنى إليكم أبلغكم رسالته ، وأدعوكم إلى عبادته وحده لا شريك له ، وما دام الله ربى وربكم فمن الواجب أنْ تُطيعوه ﴿فَاعْبُدُوهُ .. ﴿٣٦﴾﴾ [مريم] والعبادة أنْ يطيعَ العابدُ معبوده فى أوامره وفى نواهيه . كما قال تعالى : ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ .. ﴿٥﴾﴾ [البينة]

ثم يقول تعالى : ﴿هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾ [مريم] أى : الذى لا التواءَ فيه ولا اعوجاجَ ، وهو الطريق الذى يُوصِّلك لمقصودك من أقرب طريق ، وبأقلّ مجهود ، ومعلوم أن الخط المستقيم هو أقرب طريق بين نقطتين .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾

الأحزاب : أى الذين اختلفوا فى عيسى عليه السلام من قومه ، فمنهم مَنْ قال : هو إله ، ومنهم مَن قال : ابن إله . وآخر قال : هو

ثالث ثلاثة . ومنهم مَنْ رماه بالسحر وقال عنه بعضهم : ابن زنى ـ نستغفر الله مما يقوله الظالمون والكافرون ـ .

والأحزاب : جمع حِزْب ، وهم طائفة من الناس اجتمعوا حول مبدأ من المبادىء ، ورأى من الآراء يدافعون عنه ويعتقدونه ، ويسيرون فى حياتهم على وفقه ، ويُخضِعون حركة حياتهم لخدمته .

ومعنى : ﴿مِنْ بَيْنِهِمْ .. (٣٧)﴾ [مريم] يعنى من داخل المؤمنين به ومن أتباع عيسى أنفسهم ، فالذين قالوا عنه هذه الأباطيل ليسوا من أعدائه ، بل من المؤمنين به .

وهكذا اختلف القوم فى أمر عيسى ، وكان لكل منهم رأى ، وجميعها مُنَافية للصواب بعيدة عن الحقيقة ؛ لذلك توعّدهم الخالق سبحانه بقوله : ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٣٧)﴾ [مريم]

فقد قلتم فى عيسى ما قُلْتم فى الدنيا ، وخُضْتم فيه بما أحببتُمْ من القول ؛ لأن الله تعالى جعل إرادتكم نافذة على جوارحكم ، وأعطاكم حرية الفعل والاختيار ، فوجَّهتم جوارحكم واخترتم ما يُغضب الله ، فكأن عقوبة الدنيا لا تناسب ما فعلوه ، ولابُدَّ لهم من عقوبة آجلة فى الآخرة تناسب ما حدث منهم فى حَقِّ نبيهم وفى حَقِّ ربهم تبارك وتعالى .

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٣٧)﴾ [مريم] ومشهد يوم عظيم هو يوم القيامة ، يوم تُبْلَى السرائر ، يوم يقوم الناس لرب العالمين ، يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله .

وسماه المشهد العظيم ؛ لأنه يوم مشهود يشهده الجميع ؛ لأن العذاب فى الدنيا مثلاً لا يشهده إلا الحاضرون المعاصرون ، ولا يشهده

السابقون ولا اللاحقون ، أما عذاب الآخرة فهو المشهد العظيم الذى يراه كل الخَلْق .

وربما كان بعض العذاب أهونَ من رؤية الغير للإنسان وهو يُعذَّب ، فربما تحمَّل هو العذاب فى نفسه أما كونه يُعذَّب على مرأىً من الناس جميعاً ، ويرونه فى هذه المهانة وهذه الذلة وقد كان فى الدنيا عظيماً أو جباراً أو عاتياً أو ظالماً ، لا شكَّ أن رؤيتهم له فى هذه الحالة تكون أنكَى له وأبلغ .

لذلك يقول الحق تبارك وتعالى عنهم فى آية أخرى : ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٧)﴾ [الأنعام] هذا منهم مجرد كلام : ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ .. (٢٨)﴾ [الأنعام] أى : ظهر لهم ما كانوا يخفون ولم يقُلْ يخفَى عنهم ، كأنهم كانوا يعلمون عنه شيئاً ولكنهم أخفوْه .

وقال عنهم : ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا[1] رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ (١٢)﴾ [السجدة]

فلماذا أبصروا وسمعوا الآن ؟ لأنهم كانوا يسمعون فى الدنيا عن غير وَعْى ، فينكرون ويُبصرون آيات الله فى الكون ولا يؤمنون ، أما فى الآخرة فقد انكشفتْ لهم الحقائق التى طالما أنكَروها ، ولم يَعُدْ هناك مجال للمكابرة أو الإنكار ؛ لذلك يقول تعالى بعدها :

﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٣٨)﴾

---

(١) نكَّس رأسه : طأطأه ذلاً وانكساراً . [القاموس القويم ٢/٢٨٦] .

قوله : ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ .. (٣٨)﴾ [مريم] أى : أسمع بهم وأبْصر بهم ، وهذه من صيَغ التعجُّب على وزن (أفعل به) يعنى ما أشَدّ سمعهم ، وما أشَدّ بصرهم ، فهم الآن يُرهفُون السمع ويُدقِّقون النظر حتى إن الإنسان ليتعجب من سمعهم الدقيق ، وبصرهم المحيط بعد أن كانوا فى الدنيا يضعون أصابعهم فى آذانهم فلا يسمعون ، ويستغشون ثيابهم فلا يبصرون ، كانوا فى عَمىً عن آيات الله الواضحات التى تثبت صدْق الرسل ، وعن الآيات التى تحمل الأحكام ، وعن الآيات الكونية التى تدلُّ على قدرة الصانع الحكيم .

وقوله : ﴿يَوْمَ يَأْتُونَنَا .. (٣٨)﴾ [مريم] أى : أسمع بهم وأبصر بهم فى هذا اليوم يوم القيامة ، والإنسان بحكم خَلْق الله تعالى له ، واستخلافه فى الأرض جعل له السيطرة على جوارحه فهو يأمرها فتطيعه ، فجوارح الإنسان وطاقاته مُسخّرة لإرادته ، فلسانك تستطيع أنْ تنطقَ بـ لا إله إلا الله . كما تستطيع أن تقول : لا إله أو تقول : الله ثالث ثلاثة . واللسان مطْواع لك لا يعصاك فى هذه أو تلك ، وما أعطاك الله هذه الحرية وكفَل لك الاختيار إلا لأنه سيحاسبك عليها يوم القيامة : أأردتَ الخير الذى وجَّهك إليه أم أردتَ الشر الذى نهاك عنه ؟

أما يوم القيامة فتنحلّ هذه الإرادة ، ويبطل سلطانها على الجوارح فى يوم يُنادى فيه الحق تبارك وتعالى : ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦)﴾ [غافر] يومها ستشهد الجوارح على صاحبها ، كما قال الحق سبحانه تعالى : ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤)﴾ [النور]

ويقول تعالى : ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِى أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ .. (٢١)﴾ [فصلت]

لم لا ؟ وقد تحررتْ الجوارح من قَيْد الإرادة ، وجاء الوقت لتشتكى

إلى الله ، وتنطق بكلمة الحق التى كتمتْها تحت وطأة الإرادة وقهْرها .

وسبق أن ضربنا مثالاً لذلك بمجموعة من الجنود يسيرون تحت إمْرة قائدهم المباشر ، ويأتمرون بأمره ، ويطيعونه طاعة عمياء ، فإذا ما عادوا إلى القائد الأعلى انطلقتْ ألسنتهُم بالشكوى من تعسُّف قائدهم وغَطْرسته .

ثم يقول تعالى : ﴿ لَـٰكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٣٨) ﴾ [مريم] فيا ليتهم فهموا هذه المسألة ، لكنهم ظلموا ، وما ظلموا إلا أنفسهم ، فالله تبارك وتعالى لا يضره كفر الكافرين ، ولا ينقص من مُلْكه تعالى وسلطانه ، لكن كيف يظلم الإنسان نفسه ؟

يظلم الإنسان نفسه ؛ لأنه صاحب عَقْل واعٍ يستقبل الأشياء ويميزها ، وصاحب نفس شهوانية تصادم بشهواتها العاجلة هذا العقل الواعى ، وتصادم المنهج الربّانى الذى يأمرها بالخير وينهاها عن الشر ، هذه النفس بشهواتها تدعو الإنسان إلى مرادها وتوُقعه فى المتعة الوقتية واللذة الفانية التى تستوجب العذاب وتُفوِّت عليه الخير الباقى والنعيم الدائم .

لذلك يقول تعالى : ﴿ وَلَـٰكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٤) ﴾ [يونس]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٩) ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ .. (٣٩) ﴾ [مريم] الإنذار : هو التحذير من شر قادم .

والحسرة : هى الندم البالغ الذى يصيب النفس الإنسانية حينما يفوتها خير لا يمكن تداركه ، وحينما تلقى شيئاً لا تستطيع دفعه . أما الندم فيكون حزناً على خير فاتَكَ ، لكن يمكن تداركه ، كالتلميذ الذى يخفق فى امتحان شهر من الشهور فيندم ، لكنه يمكنه تدارك هذا الإخفاق فى الشهر التالى ، أما إذا أخفق فى امتحان آخر العام فإنه يندم ندماً شديداً ، ويتحسَّر على عام فات لا يمكن تداركُ الخسارة فيه .

لذلك سيقول الكفار يوم القيامة : ﴿يَـٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا .. (٣١)﴾ [الأنعام]

والمعنى : يا حسرتنا تعالَىْ فهذا أوانك ، واحضرى فقد فاتتْ الفرصة إلى غير رجعة . إذن : فيوم الحسرة هو يوم القيامة ، حيث لن يعود أحدٌ ليتدارك ما فاته من الخير فى الدنيا ، وليتَ العقول تعى هذه الحقيقة ، وتعمل لها وهى ما تزال فى سَعَة الدنيا .

ومعنى : ﴿إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ .. (٣٩)﴾ [مريم] أى : وقع وحدث ، ولا يمكن تلافيه ، ولم يَعُدْ هناك مجال لتدارُك ما فات ؛ لأن الذى قضى هذا الأمر وحكم به هو الله تبارك وتعالى الذى لا يملك أحدٌ ردَّ أمره أو تأخيره عن موعده أو مناقشته فيه ، فسبحانه ، الأمر أمره ، والقضاء قضاؤه ، ولا إله إلا هو .

وروى عن رسول الله ﷺ : « أن الله حينما يُدخل أهلَ الجنة الجنةَ ، ويُدخل أهلَ النار النار يأتى بالموت على هيئة كبش ، فيقول للمؤمنين : أتعرفون هذا ؟ قالوا : نعم هو الموت جاءنا وعرفناه ، ويقول للكفار : أتعرفون هذا ؟ يقولون : عرفناه ، فيميت

الله الموت ويقول لأهل الجنة : خلود بلا موت . ولأهل النار : خلود بلا موت »[١] .

وهكذا قضى اللهُ الأمرَ ليقطع الأمل على الكفار الذين قد يظنُّون أن الموت سيأتى ليُخرجهم مما هُمْ فيه من العذاب ويريحهم ، فقطع الله عليهم هذا الأمل وآيسهم منه ، حيث جاء بالموت مُشخّصاً وذبحه أمامهم ، فلا موتَ بعد الآن فقد مات الموت .

لذلك يخبر عنهم الحق تبارك وتعالى : ﴿وَنَادَوْا يَـٰمَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ (٧٧)﴾ [الزخرف]

ثم يقول تعالى : ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (٣٩)﴾ [مريم]

الغفلة : أن يصرف الإنسان ذهْنه عن الفكر فى شىء واضح الدليل على صحته ؛ لأن الحق ـ تباركَ وتعالى ـ ما كان ليُعذّب خَلْقه إلا وقد أظهر لهم الأدلة التى يستقبلها العقل الطبيعى فيؤمن بها .

فالذى لا يؤمن ـ إذن ـ إما غافل عن هذه الأدلة أو متغافل عنها أو جاحد لها ، كما قال سبحانه : ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا .. (١٤)﴾ [النمل]

ومن الغفلة غفلتهم عن الموت ، وقد قالوا : من مات قامت قيامته[٢] .

ومن حكمة الله أنْ أبهم الموت ، أبهمه وقتاً ، وأبهمه سبباً ،

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٧٣٠) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٨٤٩) من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه . وقد وصف الكبش فى الحديث بأنه كبش أملح . قال القرطبى : « الحكمة فى ذلك أن يجمع بين صفتى أهل الجنة والنار السواد والبياض » نقله ابن حجر فى الفتح (٨/٤٢٨) .

(٢) ذكره العجلونى فى كشف الخفاء (حديث رقم ٢٦١٨) عن أنس بن مالك رضى الله عنه ، وتمامه : « أكثروا ذكر الموت ، فإنكم إن ذكرتموه فى غِنىً كدَّره عليكم ، وإن ذكرتموه فى ضيق وسَّعه عليكم » الحديث .

وأبهمه مكاناً ، فكان إبهام الموت هو عَيْن البيان للموت ؛ لأن إبهامه يجعل الإنسان على استعداد للقائه فى أىّ وقت ، وبأىّ سبب ، وفى أىّ مكان ، فالموت يأتى غفلةً ؛ لأنه لا يتوقف على وقت أو سبب أو مكان .

فالطفل يموت وهو فى بطن أمه ، ويموت بعد يوم ، أو أيام من ولادته ، ويموت بعد مائة عام ، ويموت بسبب وبدون سبب ، وقد نتعجَّب من موت أحدنا فجأة دون سبب ظاهر ، فلم تصدمه سيارة ، ولم يقع عليه جدار أو حجر ، ولم يداهمه مرض ، فما السبب ؟ السبب هو الموت ، إنه سيموت ، أى أنه مات لأنه يموت ، كما يقال : والموت من دون أسباب هو السبب .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾

كيف يقول الحق سبحانه : ﴿ نَرِثُ الأَرْضَ .. ﴿٤٠﴾ ﴾ [مريم] وهى والكون كله ملْك له تعالى ؟ قالوا : لأنه تبارك وتعالى هو المالك الأعلى ، وقد ملَّك من خَلْقه من ملَّك ، هذا فى الدنيا ، أما فى الآخرة فليس لأحد ملك على شىء ، ليس للإنسان سيطرة حتى على جوارحه وأعضائه ، فالأمر كله يومئذ لله تعالى ، فيُردّ الملْك إلى صاحبه الأعلى ، ولا أحدَ يرث هذا الملْكَ إلا الله تعالى .

لذلك ، فالذين اغترُّوا بنعم الله فى الدنيا فظنوا أن لهم مثْلها فى الآخرة ، فقال أحدهم : ﴿ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [الكهف] نقول له : لا ، صحيح ستُردّ إلى ربك ، لكن لن يكون لك عنده شىء ؛ لأن الذى ملّكك فى الدنيا ملّكك من باطن ملكيته تعالى ، فإذا ما جاءت الآخرة كان هو الوارث الوحيد .

وقوله : ﴿وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [مريم] أى : أن الأمر لا يتوقف على أنْ نرث مُلْكهم ، ويذهبوا هم لحال سبيلهم ، بل سنرث مُلْكهم ، ثم يرجعون إلينا لنحاسبهم فلن يخرجوا هم أيضاً من قبضة الملكية .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾﴾

بعد أن تكلم الحق سبحانه وتعالى فى استهلال سورة مريم عن ميلاد سيدنا يحيى لزكريا ، وعن ميلاد سيدنا المسيح من مريم ، أراد أنْ يعرض لنا موكباً من مواكب الرسالات التى أرسلها الله نوراً من السماء لهداية الأرض ، فقال :

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ .. ﴿٤١﴾﴾ [مريم]

فهو أبو الأنبياء وقمتهم ؛ لأن الله تعالى مدحه بقوله :

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً .. ﴿١٢٠﴾﴾ [النحل]

فليس هناك فرد يحتوى على خصال الكمال ومواهب الفضل كلها ، لكن المجموع يحتويها فهذا شجاع قوى البنية ، وهذا ذكى ، وهذا حادّ البصر ، وهذا نابغ فى الطب ، وهذا فى الزراعة ، مواهب متفرقة بين البشر ، لا يجمعها واحد منهم ، فلا طاقته ولا حياته ولا مجهوده يستطيع أن يكون موهوباً فى كل شىء ، فالكمال كله مُوزّع فى الخَلْق ، إلا إبراهيم ، فقد كان عليه السلام يساوى فى مواهبه أمةً بأكملها .

وقوله : ﴿إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾﴾ [مريم] صدّيق : من مادة صدق ، ومعناها : تكلّم بواقع ؛ لأن الكذب أنْ تتكلّم بغير واقع . وهذا يُسمَّى : صادق فى ذاته ، أما قولنا : صِدِّيق أى : مبالغة فى الصدق ،

فقد بلغ الغاية فى تصديق ما يأتى من الحق تبارك وتعالى ، فهو يطيع ويُذعن ولا يناقش ، كما رأينا من أم موسى ـ عليه السلام ـ لما قال لها الحق سبحانه : ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي .. (٧)﴾ [القصص]

بالله ، أى أم يمكن أن تُصدِّق هذا الكلام ، وتنصاع لهذا الأمر ؟ وكيف تُنجِّى ولدها من شر أو موت مظنون بموت مُحقَّق ؟

إذن : فهذا كلام لا يُصدَّق ، وفوق نطاق العقل عند عامة الناس ، أما فى موكب الرسالات فالأمر مختلف ، فساعة أنْ سمعتْ أم موسى هذا النداء لم يساورها خاطر مخالف لأمر الله ، ولم يراودها شكٌّ فيه ؛ لأن وارد الله عند هؤلاء القوم لا يُعارض بوارد الشيطان أبداً ، وهذه قضية مُسلَّمة عند الرسل .

إذن : الصِّدِّيق هو الذى بلغ الغاية فى تصديق الحق ، فيورثه الله شفافية وإشراقاً بحيث يهتدى إلى الحق ويُميِّزه عن الباطل من أول نظرة فى الأمر ودون بحث وتدقيق فى المسألة ؛ لأن الله تعالى يهبُكَ النور الذى يُبدِّد عندك غيامات الشك ، ويهبك الميزان الدقيق الذى تزنُ به الأشياء ، كما قال سبحانه : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا .. (٢٩)﴾ [الأنفال]

ومن هنا سُمِّى أبو بكر رضى الله عنه صِدِّيقاً ، ليس لأنه صادق فى ذاته ، بل لأنه يُصدِّق كل ما جاءه من رسول الله ﷺ ؛ لذلك لما أخبروه خبر الإسراء والمعراج الذى كذَّب به كثيرون ، ماذا قال ؟ قال : « إنْ كان قال فقد صدق »[1] .

---

(١) ذكره القرطبى فى تفسيره (٤٠١٢/٥) وتمامه أنه قيل له : أتصدقه قبل أن تسمع منه ؟ فقال : أين عقولكم ؟ أنا أصدقه بخبر السماء ، فكيف لا أصدقه بخبر بيت المقدس ، والسماء أبعد منها بكثير .

فالأمر عنده متوقف على مجرد قول رسول الله ، فهذا هو الميزان عنده ، وطالما أن رسول الله قد قال فهو صادق ، هكذا دون جدال ، ودون مناقشة ، ودون بَحْث فى ملابسات هذه المسألة ؛ لذلك من يومها وهو صِدِّيق عن جدارة .

والسيدة مريم قال عنها الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ .. (٧٥) ﴾ [المائدة] فسماها صديقة ؛ لأنها صدَّقتْ ساعة أنْ قال لها الملَك : ﴿ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا (١٩) ﴾ [مريم]

فوثقتْ بهذه البشارة ، وأخذتْها على أنها حقيقة واقعة ، فلما جاء الوليد أشارت إليه وهى على ثقة كاملة ويقين تام أنه سينطق ويتكلم .

إذن : فالصِّديق ليس هو الذى يَصدُق ، بل الذى يُصدِّق . وهكذا كان خليل الله إبراهيم (صديقاً) وكان أيضاً (نبياً) لأن الإنسان قد يكون صديقاً يعطيه الله شفافية خاصة ، وليس من الضرورى أن يكون نبياً ، كما كانت مريم صدِّيقة وأبو بكر صدِّيقاً ، فهذه إذن صفة ذاتية إشراقية من الله ، أما النبوة فهى عطاء وتشريع يأتى من أعلى ، وهُدى يأتى من السماء يحمل النبى مسئوليته .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا (٤٢) ﴾

هذا الحديث من إبراهيم عليه السلام لأبيه على اعتبار أنه نبى جاء ليُعدِّل سلوك الناس على وَفْق منهج الله ، وأوّلهم أبوه ، وقد ذكره القرآن هكذا بأبوته لإبراهيم دون أن يذكر اسمه ، إلا فى آية واحدة قال فيها : ﴿ لِأَبِيهِ آزَرَ .. (٧٤) ﴾ [الأنعام]

وهذه الآية أحدثتْ إشكالاً فظنَّ البعض أن آزر هو أبو إبراهيم الحقيقى الصُّلبى ، وهذا القول يتعارض مع الحديث النبوى الشريف الذى يُوضّح طهارة أصْل النبى محمد ﷺ حيث قال : « أنا خيار من خيار ، ما زِلت أنتقل من أصلاب الطاهرين إلى أرحام الطاهرات »[(١)] .

إذن : فأصول النبى إلى آدم « طاهر متزوج طاهرة » ، فلو قلنا : إن آزر الذى قال الله فى حقه : ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ .. (١١٤)﴾ [التوبة] هو أبو إبراهيم ، لكَانَ فى ذلك تعارض مع الحديث النبوى ، فكيف يكون فى آباء محمد ﷺ مثل هذا الكافر ؟

ولو تأملنا إطلاقات الأُبوّة فى القرآن الكريم لخرجنا من هذا الإشكال ، فالقرآن تكلم عن الأبوة الصُّلْبية المباشرة ، وتكلم عن الأُبوة غير المباشرة فى الجد وفى العم ، فسمَّى الجد أباً ، والعم أباً ؛ لأنه يشترك مع أبى فى جدى ، فله واسطة استحق بها أن يُسمَّى أباً . وفى القرآن نصَّان : أحدهما : يُطلِق على الجد أباً ، والآخر يُطلِق على العم أباً .

فالأول فى قوله تعالى من قصة يوسف عليه السلام :

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٣٦)﴾ [يوسف]

فاختاروا يوسف لتأويل رؤياهم ؛ لأنهم رأوه من المحسنين ،

---

(١) أخرج البيهقى فى دلائل النبوة (١/١٦٦) من حديث واثلة بن الأسقع قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله تعالى اصطفى كنانة من ولد إسماعيل ، واصطفى قريشاً من كنانة ، واصطفى من قريش بنى هاشم ، واصطفانى من بنى هاشم » . وعند ابن عساكر فى تهذيب تاريخ دمشق الكبير (١/٢٧٨) عن أنس قال : قرأ رسول الله ﷺ : ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ .. (١٢٨)﴾ [التوبة] بفتح الباء ، وقال : « أنا أنفسكم نسباً وصهراً وحسباً ، ليس فى آبائى من لدن آدم سفاح ، كلنا نكاح » .

فكأن الإحسان له مقاييس معروفة حتى عند غير المحسن ، فلما تعرَّضوا لأمر يُهمهم لم يلجئوا إلا لهذا الرجل الطيب ، فمقاييس الكمال محترمة ومعتبرة حتى عند فاقد الكمال .

فلما قالوا له ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٣٦)﴾ [يوسف] علم أنهم متتبعون حركاته وتصرفاته ، وكيف سلوكه بينهم ، فأراد أنْ يزيدهم مما عنده من إشراقات ، فأمْره ليس مجرد سلوك طيب وسيرة حسنة بينهم ، بل عنده أشياء أخرى ، فقال : ﴿لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا .. (٣٧)﴾ [يوسف]

ثم ترك الإجابة عن سؤالهم ، وأخذ فى الحديث فيما يخصّه كنبىّ وداعية إلى الله ، فأخبرهم أن ما عنده من مواهب هو عطاء من الله ، وليس هو بأذكى منهم ، فقال : ﴿ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٣٧) قَالَ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ .. (٣٨)﴾ [يوسف]

ثم يلفت نظر رفاقه إلى بطلان ما هم عليه من عبادة أرباب متفرقين لم ينفعوهم بشىء ، فهاهم يتركونهم ويلجئون إلى يوسف الذى له رَبٌّ واحد : ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٣٩)﴾ [يوسف]

وهكذا كان يوسف النبى الداعية حريصاً على نَشْر دعوته وهداية مَنْ حوله ، حتى وهو فى سجنه ما نسىَ مهمته ، وما قصَّر فى دعوته ، فلما فرغ من موعظته واستطاع بلباقة أنْ يُسمعهم ما يريد ، وإلاّ لو أجابهم عن سؤالهم من بداية الأمر لانصرفوا عن هذه الموعظة ، وما أعاروها اهتماماً .

والآن يعود إلى سؤالهم وتفسير رؤياهم : ﴿أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي

رَبَّهُ[١] خَمْرًا وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ (٤١) ﴾ [يوسف]

شَاهِدُنا في هذه القصة هو قوله تعالى : ﴿ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ .. (٣٨) ﴾ [يوسف] ويوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم ، فسمَّى الأجداد آباءً .

وقد يُسمَّى العَمُّ أباً ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ .. (١٣٣) ﴾ [البقرة] فعَدَّ إسماعيلَ في آباء يعقوب ، وهو عَمُّه .

إذن : لو أن القرآن الكريم حينما تحدث عن أبي إبراهيم فقال (لأبيه) في كل الآيات لانصرف المعنى إلى الأُبوة الصُّلْبية الحقيقية ، أما أنْ يقول ولو مرة واحدة ﴿ لِأَبِيهِ آزَرَ .. (٧٤) ﴾ [الأنعام] فهذا يعني أن المراد عمه ؛ لأنه لا يُؤتى بالعَلَم بعد الأبوة إلا إذا أردنا العم ، كما نقول نحن الآن حين نريد الأبوة الحقيقية : جاء أبوك هكذا مبهمة دون تسمية ، وفي الأبوة غير الحقيقية نقول : جاء أبوك فلان .

وبناءً عليه فقد ورد قوله تعالى : ﴿ لِأَبِيهِ آزَرَ .. (٧٤) ﴾ [الأنعام] مرة واحدة ، ليثبت لنا أن آزر ليس هو الأب الصُّلْبي لإبراهيم ، وإنما هو عَمُّه[٢] ، وبذلك يسلَم لرسول الله ﷺ طهارة نسبه ونقاء سِلْسلته إلى آدم عليه السلام .

---

(١) الرب : يُطلق على المالك وعلى السيد وعلى راعي الأسرة ورئيسها . [القاموس القويم ١/ ٢٥١].

(٢) آزر : اسم أعجمي . وقد اختلف في اسم أبي إبراهيم ، فالنسابون والمفسرون على أن اسم أبيه « تارح » وبعضهم قال « تارخ » . وبعضهم قال : إنهما اسمان له كما لكثير من الناس وكما كان ليعقوب عليه السلام فهو إسرائيل أيضاً . والبعض قال : إن تارح اسم وآزر لقب . وقيل : إن آزر هو اسم للصنم الذي كانوا يعبدونه . انظر : تفسير القرطبي (٣/ ٢٥٤٤) ، وابن كثير في تفسيره (٢/ ١٤٩) وقصص الأنبياء لابن كثير (ص١٠٤) ، ولسان العرب (مادة أزر) . وقصص الأنبياء ـ عبد الوهاب النجار (ص ٩٣-٩٦) .

وقوله : ﴿يَـٰٓأَبَتِ .. ﴿٤٢﴾﴾ [مريم] وكان التركيب العربى يقتضى أن يقول : يا أبى ، إلا أنهم يحذفون ياء المتكلم ويُعوِّضون عنها بالتاء ، فلماذا ؟ قالوا : لأن (أبت) لها مَلْحظ دقيق ، فهو يريد أنْ يُثبت أنه وإنْ كان أباً إلا أن فيه حنان الأبوين : الأب والأم . فجاء بالتاء التى تشير إلى الجانب الآخر ؛ لذلك نجدها لا تُقال إلا فى الحنانية المطلقة (يَا أَبَت) كما لو ماتتْ الأم مثلاً ، فقام الأب بالمهمتين معاً ، وعوض الأبناء حنان الأم المفقود .

وقوله : ﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِى عَنكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾﴾ [مريم] يبدو من أسلوب إبراهيم عليه السلام مع أبيه أدَبُ الدعوة ، حيث قدَّم الموعظة على سبيل الاستفهام حتى لا يُشعِر أباه بالنقص ، أو يُظهِر له أنه أعلم منه .

﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِى عَنكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾﴾ [مريم] نلحظ أنه لم يقُلْ من البداية : لمَ تعبد الشيطان ، بل أخّر هذه الحقيقة إلى نهاية المناقشة ، وبدل أنْ يقولَ الشيطان حلّل شخصيته ، وأبان عناصره ، وكشف عن حقيقته : لا يسمع ولا يبصر ، ولا يُغنى عنك شيئاً ، فهذه الصفات لا تكون فى المعبود ، وهى العلَّة فى أنْ نتجنبَ عبادة ما دون الله من شجر أو حجر أو شيطان ، وخَصوصاً فى بيئة إبراهيم ـ عليه السلام ـ وكانت مليئة بالأوثان والأصنام .

لأن العبادة ماذا تعنى ؟ تعنى طاعةَ عابدٍ لمعبود فى أَمْره ونَهْيه ، فالذين يعبدون ما دون الله من صنم أو وَثَنٍ أو شمس أو قمر ، بماذا أمرتْهم هذه المعبودات ؟ وعن أىِّ شىء نَهتْهُم ؟ وماذا أعدَّتْ هذه المعبودات لمنْ عبدها ؟ وماذا أعدَّتْ لمَنْ عصاها ؟ ما المنهج الذى جاءتْ به حتى تستحقَّ العبادة ؟ لا يوجد شىء من هذا كله ، إذن : فعبادتهم باطلة .

ثم يقول :

﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ ﴾

يُكرِّر نبى الله إبراهيم هذا النداء الحنون مرة أخرى ، وكأنه يريد أنْ يثير فى أبيه غريزة الحنان ، ويُوقظ عنده أواصر الرحم ، كأنه يقول له : إن كلامى معك كلام الابن لأبيه ، كما نفعل نحن الآن إنْ أراد أحدنا أنْ يُحنّن إليه قلب أبيه يقول : يا والدى كذا وكذا .. يا أبى اسمع لى . وكذلك حال إبراهيم ـ عليه السلام ـ حيث نادى أباه هذا النداء فى هذه الآيات أربع مرات متتاليات ، وما ذلك إلا لحرصه على هدايته ، والأخْذ بيده إلى الطريق المستقيم .

وقوله : ﴿ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ .. ﴿٤٣﴾ ﴾ [مريم] أى : لا تظن يا أبى أنِّى متعالم عليك ، أو أنِّى أفضل ، أو أذكى منك ، فهذا الكلام ليس من عندى ، بل من أعلى منى ومنك ، فلا غضاضةَ فى سماعه والانصياع له ، وهو رسالة كُلِّفْتُ بإبلاغك إياها ، وهذا الذى جاءنى من العلم لم يأتكَ أنت ، وهذا اعتذار رقيق من خليل الله ، فالمسألة ليستْ ذاتية بين ولد وعمه ، أو ولد وأبيه ، إنها مسألة عامة تعدَّتْ حدود الأُبُوة والعمومة .

ولذلك لما تحدَّثْنا فى سورة الكهف عن قصة موسى والخضر ـ عليهما السلام ـ ، قلنا : إن العبد الصالح التمس لموسى عُذْراً ؛ لأنه تصرَّف بناءً على علم عنده ، ليس عند موسى مثله ، فقال له : ﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ ﴾ [الكهف] وكذلك قال إبراهيم لأبيه حتى لا تأخذه العِزّة ، ويأنف من الاستماع لولده .

ثم يقول : ﴿فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (٤٣)﴾ [مريم] لأن هذا المنهج الذى أدعوك إليه ليس من عندى ، بل من أعلى منى ومنك ، والصراط السَّوىّ : هو الطريق المستقيم الذى يُوصِّلك للغاية بأيسر مشقة ، وفى أقصر وقت .

ثم يقول :

﴿يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا (٤٤)﴾

نلحظ أن إبراهيم فى بداية محاورته لأبيه قال : ﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا (٤٢)﴾ [مريم] وهنا يقول : ﴿لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ .. (٤٤)﴾ [مريم] مع أن الشيطان يمكن أن يسمع ويبصر ، فكيف يكون ذلك ؟

قالوا : لأن الشيطان هو الذى يُسوِّل عبادة الصنم أو الشجر أو الشمس أو القمر ، فالأمر مردود إليه وهو سببه ، إلا أن إبراهيم عليه السلام حلَّل المسألة المباشرة ؛ لأن أباه يعبد صنماً لا يسمع ولا يُبصر ، ولا يُغنى عنه شيئاً ، وهذا بشهادتهم أنفسهم ، كما جاء فى قوله تبارك تعالى : ﴿هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (٧٣)﴾ [الشعراء]

فهذا استفهام ، ولا يستفهم مُستفهِم مجادل ممَّن يجادله عن شىء ، إلا وقد علِم أن الجواب لا بُدَّ أن يكون فى صالحه ؛ لأنه ائتمنه على الجواب . إذن : فعبادة ما دون الله مردُّها إلى إغواء الشيطان .

ثم يستطرد إبراهيم قائلاً : ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ عَصِيًّا (٤٤)﴾ [مريم] عصياً : مبالغة فى العصيان ، فالشيطان ليس عاصياً ، بل عَصِيّاً يعصى أوامر الله بلَدَدٍ وعناد .

ثم يقول :

﴿يَـٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَـٰنِ وَلِيًّا (٤٥)﴾

مازال خليل الله يتلطف فى دعوة أبيه فيقول : ﴿يَمَسَّكَ عَذَابٌ .. (٤٥)﴾ [مريم] ولم يقُلْ مثلاً : يصيبك . فهو لا يريد أنْ يصدمه بهذه الحقيقة ، والمسُّ : هو الالتصاق الخفيف ، وكأنه يقول له : إن أمرك يُهمنى ، وأخاف عليك مجرد هبو التراب أن ينالك . وهذا منتهى الشفقة عليه والحرص على نجاته .

ثم يقول : ﴿فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (٤٥)﴾ [مريم] أى : قريباً منه ، وتابعاً له يصيبك من العذاب مَا يصيبه ، وتُعذّب كما يُعذّب .

وهكذا انتهتْ هذه المحاورة التى احتوتْ أربعة نداءات حانية ، وجاءت نموذجاً فريداً للدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ؛ فراعتْ مشاعر الأب الذى يدعوه ولده ويُقدِّم له النُّصْح ، ورتبت الأمور ترتيباً طبيعياً ، وسلْسلَتْها تسلْسُلاً لطيفاً لا يثير حفيظة السامع ولا يصدمه .

وقد راعى الحق ـ تبارك وتعالى ـ جوانب النفس البشرية فأمر أنْ تكونَ الدعوة إليه بالحكمة والموعظة الحسنة حتى لا تجمع على المدعو قسوة الدعوة ، وقسوة أنْ يترك ما أَلِف ، ويخرج منه إلى ما لم يألف .

فأنت حين تدعو شخصاً إلى الله فإنما تُخرجه عن الفساد الذى ألفه ، وهو لم يألف الفساد إلا بعد أن اشتهاه أولاً ، ثم اعتاده بالفعل والممارسة ثانياً ، وهاتان مصيبتان آخذتان بزمامه ، فما أحوجه لأسلوب لَيِّن يستميل مشاعره ويعطفه نحوك فيستجيب لك .

وما أشبه الداعية فى هذا الموقف بالذى يحتال ليخلص الثوب الحرير من الأشواك ، أما إنْ نهرته وقسوْتَ عليه فسوف يُعرض عنك ، وينصرف عن دعوتك ، ويظلّ على ما هو عليه من الفساد ؛ لذلك قال تعالى : ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ .. (١٢٥)﴾ [النحل]

ويقولون : النصح ثقيل فلا تُرسلْه جبلاً ، ولا تجعله جدلاً ، وقالوا : الحقائق مُرّة فاستعيروا لها خِفَّة البيان .

وبعد أنْ أنهى إبراهيم مقالته يرد الأب قائلاً :

﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا (٤٦)﴾

الفعل (رغب) يحمل المعنى وضده حَسْب حرف الجر بعده ، نقول : رغب فى كذا . أى : أحبه وذهب إليه ، ورَغب عن كذا أى : كرهه واعتزله ، فمعنى ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَٰٓإِبْرَاهِيمُ .. (٤٦)﴾ [مريم] أى : تاركها إلى غيرها ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ .. (١٣٠)﴾ [البقرة] أى : تركها إلى مِلَّة أخرى .

ونلاحظ أن الفعل رَغِب لم يأْتِ مقترناً بعده بفى إلا مرة واحدة ،

وإنْ كانت (فى) مُقدَّرة بعد الفعل ، وهذا فى قوله تعالى عن نكاح يتامى النساء : ﴿ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ .. (١٢٧) ﴾ [النساء]

والرغبة فى الشىء تعنى حُبه وعشْقه ، والرغبة فى الطريق الموصّل إليه ، إلا أنك لم تسلك هذا الطريق بالفعل ، ولم تأخذ بالأسباب التى تُوصّلك إلى ما ترغب فيه ، وهذا المعنى واضح فى قصة أصحاب الجنة فى سورة (ن) حيث يقول تعالى :

﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا[1] مُصْبِحِينَ (١٧) وَلَا يَسْتَثْنُونَ (١٨) فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ (١٩) فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ (٢٠) ﴾ [القلم]

فقد اتفقوا على قَطْف ثمار بستانهم فى الصباح ، ولم يقولوا : إن شاء الله ، فدمّرها الله وأهلكها وهم نائمون ، وفى الصباح انطلقوا إلى جنتهم وهم يقولون فيما بينهم :

﴿ لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ (٢٤) ﴾ [القلم]

وهكذا قطعوا الطريق على أنفسهم حينما حَرَمُوا المسكين ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ (٢٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٢٧) ﴾ [القلم] ثم تنبهوا إلى ما وقعوا فيه من خطأ ، وعادوا إلى صوابهم فقالوا : ﴿ عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ (٣٢) ﴾ [القلم]

أى : راغبون فى الطريق الموصّل إليه تعالى ، فقبل أنْ تقول : أنا راغب فى الله . قل : أنا راغب إلى الله ، فالمسألة ليست حُباً فقط بل

---

(١) الصرم : القطع مادياً ، كقطع الثمار . ويكون القطع معنوياً بمعنى الهجر وقطع صلة المودة . فيصرمنها : أى يقطعون ثمارها . وقوله تعالى : ﴿ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ (٢٠) ﴾ [القلم] أى : أصبحت حديقتهم بعد احتراقها كالليل المسودّ أو صارت كالأرض التى قطعت أشجارها ولا نبات فيها . [القاموس القويم ١/ ٣٧٥] .

حُباً بثمن وسَعْى وعَمل يُوصِّلك إلى ما تحب . إذن : قبل أنْ تكونوا راغبين فى ربكم ارغبوا إليه أولاً .

وفى موضع آخر يقول تعالى : ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ .. (٥٨)﴾ [التوبة] أى : يعيبك فى توزيعها ﴿فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ (٥٨)﴾ [التوبة] فهم - إذن - لا يحبون الله ، وإنما يحبون العطاء والعَرَض الزائل ، بدليل أنهم لما مُنِعُوا سخطوا وصرفوا نظرهم عن دين الله كمَنْ قال الله فيهم :

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ.. (١١)﴾ [الحج]

لذلك يُعدِّل لهم الحق سبحانه سلوكهم ، ويرشدهم إلى المنهج القويم : ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ (٥٩)﴾ [التوبة] أى : آخذين الوسيلة الموصِّلة إليه ، فالذى يرغب فى حب الله عليه أنْ يرغبَ فى الطريق الموصِّل إليه .

ثم يقول أبو إبراهيم : ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ .. (٤٦)﴾ [مريم] أى : تترك هذه المسألة التى تدعو إليها . والرجْم : هو الرمى بالحجارة ، ويبدو أن عملية الرجم كانت طريقة للتعذيب الشديد ، كما فى قوله تعالى : ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ .. (٢٠)﴾ [الكهف]

﴿وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (٤٦)﴾ [مريم] أى : ابتعد عنى وفارقنى ﴿مَلِيًّا (٤٦)﴾ [مريم] الملىّ : البُرْهة الطويلة من الزمن . ومنها الملاوة : الفترة الطويلة من الزمن ، والملوَان : الليل والنهار .

فماذا قال نبى الله إبراهيم لعمه بعد هذه القسوة ؟ لم يخرج إبراهيم عن سَمْته العادل ، ولم يتعدَّ أدب الحوار والدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة . قال :

﴿ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ ﴾

وكأن إبراهيم ـ عليه السلام ـ يريد أنْ يلفتَ نظر عمه ، ويؤكد له أنه فى خطر عظيم يستوجب العذاب من الله ، وهذا أمر يُحزنه ولا يُرضيه ، وكيف يترك عمه دون أنْ يأخذَ بيده ؟ فقال له أولاً : ﴿ سَلَامٌ عَلَيْكَ .. ﴿٤٧﴾ ﴾ [مريم] أى : سلام منى أنا ، سلام أقابل به ما بدر منك فأمْرى معك سلام ، فلن أقابلَك بمثل ما قُلْت ، ولن أُغلظ لك ، ولن ينالك منى أذىً ، ولن أقول لك : أُفٍّ .

لكن السلام منِّى أنا لا يكفى ، فلا بُدَّ أنْ يكونَ لك سلام أيضاً من الله تعالى ؛ لأنك وقعت فى أمر خطير لا يُغفر ويستوجب العذاب ، وأخشى ألاّ يكونَ لك سلام من الله .

لذلك قال بعدها : ﴿ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّى .. ﴿٤٧﴾ ﴾ [مريم] كأنه يعتذر عن قوله : ﴿ سَلَامٌ عَلَيْكَ .. ﴿٤٧﴾ ﴾ [مريم] فأنا ما قُلْتُ لك : سلام عليك إلا وأنا أنوى أن أستغفرَ لك ربى ، حتى يتمّ لك السلام إنْ رجعتَ عن عقيدتك فى عبادة الأصنام ، وهو بذلك يريد أنْ يُحنِّنه ويستميل قلبه .

ثم أخبر عن الاستغفار فى المستقبل فلم يقُلْ استغفرتُ ، بل ﴿ سَأَسْتَغْفِرُ .. ﴿٤٧﴾ ﴾ [مريم] يريد أنْ يُبرىء استغفاره لعمه من المجاملة والنفاق والخداع ، وربما لو استغفرتُ لك الآن لظننتُ أنِّى

أجاملك ، أما ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ .. (٤٧)﴾ [مريم] أى : بعيداً عنك ليكون دعاءً عن ظَهْر غيب ، وهو أَرْجَى للقبول عند الله .

ثم يقول : ﴿إِنَّهُ كَانَ بِى حَفِيًّا (٤٧)﴾ [مريم] يريد أنْ يُطمئن عمه إلى أن له منزلة عند الله ، فإذا استغفر له ربه فإنه تعالى سيقبل منه .

وحَفِياً : من الفعل حَفِىَ يَحْفَىَ كرَضِى يرضى ، ويأتى بعده حرف جر يُحدِّد معناها . تقول : حفىٌّ به : أى بالغ فى إكرامه إكراماً يستوعب متطلبات سعادته ، وقابله بالحفاوة : أى بالإكرام الذى يتناسب مع ما يُحقِّق له السعادة .

وهذا أمر نسبىّ يختلف باختلاف الناس ، فمنهم مَنْ تكون الحفاوة به مجرد أنْ تستقبلَه ولو على حصيرة ، وتُقدِّم له ولو كوباً من الشاى ، ومن الناس مَنْ يحتاج إلى الزينات والفُرُش الفاخرة والموائد الفخمة ليشعر بالحفاوة به .

ونقول : حَفِىٌّ عنه : أى بالغ فى البحث عنه ليعرف أخباره ، وبلغ من ذلك مبلغاً شَقَّ عليه وأضناه ، وبالعامية يقولون : وصلتُ له بعدما حفيتُ ، ومن ذلك قوله تعالى عن الساعة : ﴿يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (١٨٧)﴾ [الأعراف] أى : كأنك معنىٌّ بالساعة ، مُغْرم بالبحث عنها ، دائم الكلام فى شأنها .

إذن : فمعنى : ﴿إِنَّهُ كَانَ بِى حَفِيًّا (٤٧)﴾ [مريم] أى : أن ربى يبالغ فى إكرامى إكراماً يُحقِّق سعادتى ، ومن سعادتى أن الله يغفر لك الذنب الكبير الذى تُصرّ عليه ، وكأنه عليه السلام يُضخِّم أمريْن : يُضخِّم الذنب الذى وقع فيه عمه ، وهو الكفر بالله ، ويُعظِّم الرب الذى سيستغفر لعمه عنده ﴿إِنَّهُ كَانَ بِى حَفِيًّا (٤٧)﴾ [مريم]

وما دام ربى حَفِيّاً بى فلن يخذلنى ، كيف وقد جعلنى نبياً واحتفى بى ، فكُنْ مطمئناً إنْ أنت تُبْتَ مما أنت عليه من المعتقدات الباطلة ، إنه سيغفر لك . وكأن إبراهيم عليه السلام يؤكد لعمه على منزلته عند ربه ، وما على عمه إلا أنْ يسمع كلامه ، ويستجيب لدعوته .

وظَلَّ إبراهيم ـ عليه السلام ـ يستغفر لعمه كما وعده ، إلى أنْ تبيَّن له أنه عدو لله فانصرف عند ذلك ، وتبرأ منه ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ .. (١١٤) ﴾ [التوبة]

ثم يقول الحق سبحانه عن إبراهيم ـ عليه السلام ـ أنه قال لقومه :

﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا (٤٨) ﴾

اعتزل : ترك صحبة إلى خير منها ولو فى اعتقاده ، وهنا يلفتنا الحق سبحانه إلى أن الإنسان حين يجادل فى قضية ، ويرى عند خَصْمه لدداً وعناداً فى الباطل ، لا يطيل معه الكلام حتى لا يُؤصِّل فيه العناد ، ويدعوه إلى كبرياء الغَلَبة ولو بالباطل .

لذلك ، فالحق ـ تبارك وتعالى ـ يُعلِّم المعاصرين لرسول الله ﷺ إنْ أرادوا البحث فى أمره صدْقاً أو كذباً والعياذ بالله ، أنْ يبحثوه مَثْنى أو فُرَادى ، ولا يبحثوه بَحْثاً جماهيرياً غوغائياً ؛ لأن العمل الغوغائى بعيد عن الموضوعية يستتر فيه الواحد فى الجماعة ، وقد يحدث ما لا تُحمد عُقباه ولا يعرفه أحد .

والغوغائية لا يحكمها عقل ولا منطق ، والجمهور كما يقولون : عقله فى أذنيه . وسبق أن قلنا : إن كليوباترا حين هُزمت وحليفها صَوّروا هذه الهزيمة على أنها نصر ، كما حدث كثيراً على مَرِّ التاريخ ، وفيها يقول الشاعر :

أسْمَعُ الشَّعْب دُيُونُ ... كيْفَ يُوحُونَ إليْه
مَلأَ الجوَّ هتافاً ... بحياتىْ قاتليْه
أثَّر البُهتانُ فيه ... وَانْطلَى الزُّورُ عليْه
يَالَهُ مِنْ بَبَّغَاءَ ... عقلُه فى أُذُنيْه

إذن : فالجمهرة لا تُبدى رأياً ، ولا تصل إلى صواب .

يقول الحق سبحانه للمعاصرين لرسول الله ﷺ :

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ .. (٤٦) ﴾ [سبأ]

فبَحْث مثل هذا الأمر يحتاج إلى فرديْن يتبادلان النظر والفكْر والدليل ويتقصَّيان المسألة ، فإنْ تغلّب أحدهما على الآخر كان الأمر بينهما دون ثالث يمكن أنْ يشمتَ فى المغلوب ، أو يبحثه فرد واحد بينه وبين نفسه فينظر فى شخص رسول الله ، وما هو عليه من أدب وخُلق ، وكيف يكون مع هذا مجنوناً ؟ وهل رأينا عليه أمارات الجنون ؟ والذين قالوا عنه : ساحر لماذا لم يسحرهم كما سحر التابعين له ؟

إذن : لو أدار الشخص الواحد هذه الحقائق على ذهْنه ، واستعرض الآراء المختلفة لاهتدى وحده إلى الصواب ، فالاعتزال أمر مطلوب إنْ وجد الإنسان البيئة غير صالحة لنقاش الباطل مع الحق حتى لا نُؤصِّل الجدل والعناد فى نفس الخَصْم .

لذلك يقول تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ[١] الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا .. (٩٧)﴾ [النساء]

أى : كانت الفرصة أمامكم لتتركوا هذه البُقْعة إلى غيرها من أرض الله الواسعة ، وكأن الحق ـ تبارك وتعالى ـ يُلفت نظرنا إلى أن الأرض كلها أرض الله ، فأرض الله الواسعة ليست هى مصر أو سوريا أو ألمانيا ، بل الأرض كلها بلا حواجز هى أرض الله ، فمَنْ ضاق به مكانٌ ذهب إلى غيره لا يمنعه مانع ، وهل يوجد هذا الآن ؟ هل تستطيع أن تخترق هذه الحواجز ودونها نظم وقوانين ما أنزل الله بها من سلطان .

لذلك يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ (١٠)﴾[الرحمن]

أى : الأرض كل الأرض للأنام كل الأنام[٢] وهذا من المبادىء التى جعلها الخالق سبحانه للإنسانية ، فلما استحدثَ الإنسانُ الحواجز والحدود ، وأقام الأسوار والأسلاك ومنع الأنام من الحركة فى أرض الله نشأ فى الكون فساد كبير ، فإنْ ضاق بك موضع لا تجد بديلاً عنه فى غيره ، وإنْ عِشْتَ فى بيئة غير مستقيمة التكوين كتب عليك أنْ تشقى بها طوال حياتك .

---

(١) توفاهم . أى : تتوفاهم بحذف إحدى التاءين تخفيفاً . أى : تميتهم وتقبض أرواحهم . [القاموس القويم ٣٤٧/٢] . قال ابن كثير فى تفسيره (٥٤٢/١) : « نزلت هذه الآية الكريمة عامة فى كل من أقام بين ظهرانى المشركين وهو قادر على الهجرة وليس متمكناً من إقامة الدين فهو ظالم لنفسه مرتكب حراماً بالإجماع » .

(٢) الأنام : ما ظهر على الأرض من جميع الخلق . وقال المفسرون : هم الجن والإنس . [نقله ابن منظور فى لسان العرب . مادة : أنم] .

وقلنا : إن هذه الحدود وتلك الحواجز أفرزتْ أرضاً بلا رجال ، ورجالاً بلا أرض ، ولو تكاملتْ هذه الطاقات لاستقامتْ الدنيا .

ومسألة الاعتزال هذه ، أو الهجرة من أرض الباطل ، أو من بيئة لا ينتصر فيها الحق وردتْ فى نصوص عِدَّة بالنسبة لسيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ منها قوله تعالى :

﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ (٦٨) قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ (٧٠) وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ (٧١) ﴾ [الأنبياء]

فترك إبراهيم الأرض التى استعصتْ على منهج الله إلى أرض أخرى ، وهاجر بدعوته إلى بيئة صالحة لها من أرض الشام .

نعود إلى اعتزال إبراهيم عليه السلام للقوم ، لا لطلب الرزق وسَعة العيش ، بل الاعتزال من أجل الله وفى سبيل مبدأ إيمانى يدعو إليه : ﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ .. (٤٨) ﴾ [مريم] وأول ما نلحظ أن فى هذا النص عدولاً ، حيث كان الكلام عن العبادة : ﴿ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ .. (٤٢) ﴾ [مريم] ، ﴿ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ .. (٤٤) ﴾ [مريم]

والقياس يقتضى أن يقول : وأعتزلكم وما تعبدون .. وأدعو ربى . أى : أعبده ، إلا أنه عدل عن العبادة هنا وقال : ﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ .. (٤٨) ﴾ [مريم] فلماذا ؟

قالوا : لأن الإنسان لا ينصرف عن ربه وعن وحدانيته تعالى إلا حين يستغنى ، فإنْ ألجأتْهُ الأحداث واضطرته الظروف لا يجد ملجأ

إلا إلى الله فيدعو . إذن : فالعبادة ستصل قَطْعاً إلى الدعاء ، وما دُمْتَ ستضطر إلى الدعاء فليكُنْ من بداية الأمر :

﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ .. (٤٨)﴾ [مريم]

إذن : استخدم الدعاء بدل العبادة ؛ لأننى أعبد الله فى الرخاء ، فإنْ حدثتْ لى شِدَّةٌ لا أجد إلا هو أدعوه .

وقوله : ﴿وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلاَّ أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا (٤٨)﴾ [مريم] أى : عسى ألاَّ أكون شقياً بسبب دعائى لربى ؛ لأنه تبارك وتعالى لا يُشقى مَنْ عبده ودعاه ، فإنْ أردتَ المقابل فقُلْ : الشقىُّ مَنْ لا يعبد الله ولا يدعوه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا (٤٩)﴾

قوله : ﴿وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ .. (٤٩)﴾ [مريم] لم يذكر هنا إسماعيل ؛ لأن إسحق جاء جزاءً من الله لإبراهيم على صبره فى مسألة ذَبْح إسماعيل ، وما حدث من تفويضهما الأمر لله تعالى ، والتسليم لقضائه وقَدره ، كما قال تعالى : ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا .. (١٠٣)﴾ [الصافات] أى : إبراهيم وإسماعيل ﴿وَتَلَّهُ[1] لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧)﴾ [الصافات]

---

(١) تله : أى ألقاه وجبينه ووجهه إلى الأرض . [القاموس القويم ١/١٠١] .

ولم يقتصر الأمر على الفداء ، بل ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ .. (١١٢)﴾ [الصافات] فلما امتثل لأمر الله فى الولد الأول وهبنا له الثانى .

وفى آية أخرى يقول تعالى : ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلاًّ جَعَلْنَا صَالِحِينَ (٧٢)﴾ [الأنبياء]

كأن الحفيد نافلة وزيادة فى عطاء الذرية ، ومبالغة فى الإكرام .

ثم يمتنُّ الله على الجميع بأن يجعلَهم أنبياء ﴿وَكُلاًّ جَعَلْنَا نَبِيًّا (٤٩)﴾ [مريم] فليس الامتنان بأنْ وهب له إسحاق ومن بعده يعقوب ، بل بأنْ جعلهم أنبياء ، وهذه جاءت بشرى لإبراهيم ، وكان حظّه أنْ يرعى دعوة الله حياً ، ويطمع أنْ تكونَ فى ذريته من بعده ، وكانت هذه هى فكرة زكريا ـ عليه السلام ـ فكلهم يحرصون على الذرية لا للعزوة والتكاثر وميراث عَرَضِ الدنيا ، بل لحمل منهج الله وامتداد الدعوة فيهم والقيام بواجبها .

انظر إلى قوله تعالى فى حق إبراهيم عليه السلام : ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ[1] فَأَتَمَّهُنَّ .. (١٢٤)﴾ [البقرة] أى : حَمَّله تشريعات فقام بها على أتمِّ وجه وأدّاها على وجهها الصحيح ، فلما علم الله منه

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (١/١٦٥) : « اختلف فى تعيين الكلمات التى اختبر الله بها إبراهيم . قال ابن عباس : ابتلاه الله بالمناسك .

وعنه أيضاً : ابتلاه بالطهارة : خمس فى الرأس وخمس فى الجسد ، فى الرأس قص الشارب ، والمضمضة ، والاستنشاق والسواك وفرق الرأس ، وفى الجسد تقليم الأظفار وحلق العانة والختان ونتف الإبط وغسل أثر الغائط والبول بالماء .

وعن ابن عباس أيضاً قول ثالث : الكلمات التى ابتلى الله بهن إبراهيم فأتمهن : فراق قومه فى الله حين أمر بمفارقتهم ، ومحاجته النمروذ فى الله حين وقفه على ما وقفه عليه من خطر الأمر الذى فيه خلافه ، وصبره على قذفه إياه فى النار ليحرقوه فى الله على هول ذلك من أمرهم ، والهجرة بعد ذلك من وطنه وبلاده فى الله حين أمره بالخروج عنهم .. إلخ .

عشْقه للتكليف أتمها عليه : ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا (١٢٤)﴾ [البقرة] فتثور مسألة الإمامة فى نفس إبراهيم ، ويطمع أنْ تكونَ فى ذريته من بعده فيقول : ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي .. (١٢٤)﴾ [البقرة] لذلك يُعدِّل الحق سبحانه فكرة إبراهيم عن الإمامة ، ويضع المبدأ العام لها ، فهى ليستْ ميراثاً ، إنها تكليف له شروط :

﴿قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِى الظَّالِمِينَ (١٢٤)﴾ [البقرة]

فالظالمون لا يصلحون لهذه المهمة . فوعى إبراهيم عليه السلام هذا الدرس ، وأخذ هذا المبدأ ، وأراد أنْ يحتاط به فى سؤاله لربه بعد ذلك ، فلما دعا ربه : ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ .. (١٢٦)﴾ [البقرة] فاحتاط لأنْ يكونَ فى بلده ظالمون ، فقال : ﴿مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ .. (١٢٦)﴾ [البقرة]

لكن جاء قياس إبراهيم هنا فى غير محله ، فعدَّل الله له المسألة ؛ لأنه يتكلم فى أمر خاص بعطاء الربوبية الذى يشمل المؤمنَ والكافر ، والطائعَ والعاصى ، فقد ضمن الله الرزق للجميع فلا داعى للاحتياط فى عطاء الربوبية ؛ لذلك أجابه ربه : ﴿قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٢٦)﴾ [البقرة]

إذن : فهناك فارق بين العطاءين : عطاء الربوبية وعطاء الألوهية ، والإمامية فى منهج الله ، فعطاء الربوبية رزْق يُساق للجميع وخاضع للأسباب ، فمَنْ أخذ بأسبابه نال منه ما يريد ، أما عطاء الألوهية فتكليف وطاعة وعبادة .

يقول تعالى : ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ (٢٠)﴾ [الشورى]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ مِّن رَّحْمَتِنَا .. ﴿٥٠﴾ ﴾ [مريم] المراد بالرحمة النبوة ؛ لذلك لما قال أهل العظمة والجاه المعاصرون لرسول الله ﷺ : ﴿ لَوْلا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾ [الزخرف] وكأنهم استقلُّوا رسول الله أن يكون فى هذه المنزلة ، رَدَّ عليهم القرآن : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ .. ﴿٣٢﴾ ﴾ [الزخرف]

إذن : فعطاؤه تعالى فى النبوات رحمةٌ أشاعها الله فى ذرية إبراهيم .

وقوله : ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾ ﴾ [مريم] أى : كلمة صدق وحق ثابت مطابق للواقع ، ولسان الصِّدْق يعنى مَدْحاً فى موضعه ، وثناءً بحق لا مجاملةَ فيه ، والثناء يكون باللسان ، وها نحن نذكر هذا الركْب من الأنبياء إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب بالثناء الحسَن والسيرة الطيبة ، ونأخذهم قدوة ، وهذا كله من لسان الصدق ، ويبدو أنها دعوةُ إبراهيم حين قال :

﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾ [الشعراء]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ ﴾

وهذا أيضاً ركْب من ركْب النبوات ، وقد أخذت قصة موسى عليه السلام حيِّزاً كبيراً من كتاب الله لم تأخذه قصة نبى آخر ، مما دعا الناس إلى التساؤل عن سبب ذلك ، حتى بنو إسرائيل يُفضّلون أنفسهم على الناس بأنهم أكثر الأمم أنبياءً ، وهذا من غبائهم ؛ لأن هذه تُحسَب عليهم لا لهم ، فكثرة الأنبياء فيهم دليل على عنادهم وغطرستهم مع أنبيائهم .

فما من أمة حيَّرتْ الأنبياء ، وآذتْهم كبنى إسرائيل ؛ لذلك كَثُرَ أنبياؤهم ، والأنبياء أطباء القيَم وأُساة أمراضها ، فكثرتهم دليل تفشِّى المرض ، وأنه أصبح مرضاً عُضَالاً يحتاج فى علاجه لا لطبيب واحد ، بل لفريق من الأطباء .

والبعض يظن أن قصة موسى فى القرآن مجرد حكاية تاريخ ، كما نقول نحن ونقصُّ : كان يا ما كان حدث كذا وكذا ، ولو كانت قصة موسى فى القرآن مجرد حكاية تاريخ لجاءتْ مرة واحدة . لكنها ليست كذلك ؛ لأن الحكمة من قَصِّها على رسول الله كما قال تعالى : ﴿ وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ .. (١٢٠) ﴾ [هود]

إذن : فالهدف من هذا القَصَص تثبيت النبى ﷺ فى دعوته لقومه ؛ لأنه سيتعرض لمواقف وشدائد كثيرة يحتاج فيها إلى تثبيت ومواساة وتسلية ، فكلما جَدَّ بينه وبين قومه أمر قال له ربه : اذكر موسى حين فعل كذا وكذا ، وأنت خاتم الرسل ، وأنت التاج بينهم ، فلا بُدَّ لك أنْ تتحمَّل وتصبر .

أما لو نزلت مثل هذه القصة مرة واحدة لكان التثبيت بها مرة واحدة ، وما أكثر الأحداث التى تحتاج إلى تثبيت فى حياة الدعوة .

لذلك نجد خصوم الإسلام يتهمون القرآن الكريم بالتكرار فى قصة موسى عليه السلام ، وهذا دليلٌ على قصورهم فى فَهْم القرآن ، فهذه المواضع التى يروْنَ فيها تكراراً ما هى إلا لقطات مختلفة لموضوع واحد ، لكن لكل لقطة منها موقع وميلاد ، فإذا جاء موقعها وحان ميلادها نزلتْ .

ومما رأوا فيه تكراراً ، وليس كذلك قوله تعالى عن موسى عليه السلام طفلاً : ﴿عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ .. (٣٩)﴾ [طه] ونتساءل : متى تستعر العداوة بين عدوين ؟ إنْ كانت العداوة من طرف واحد فإن الطرف الآخر يقابلها بموضوعية ودون لَدَدٍ فى الخصومة إلى أنْ تهدأ العداوة بينهما ، فهو عدو دون عداوة ، فحينما يراه صاحب العداوة على هذا الخُلق يصرف ما فى نفسه من عداوة له ، كما قال تعالى :

﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ[1] حَمِيمٌ (٣٤)﴾ [فصلت]

أمّا إنْ كانت العداوة بين عدوَّيْن حقيقيين : هذا عدو وهذا عدو ، هنا تستعر العداوة ، وتزكو نارها ، ويحتدم بينهما صراع ، ولا بُدَّ أنْ يصرَع أحدهما الآخر .

والحق تبارك وتعالى حينما تكلّم عن موسى وفرعون ، جعل العداوة مرة من موسى فى قوله تعالى : ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا .. (٨)﴾ [القصص]

---

(١) الولى : هو القريب بالنسب أو بالمحبة أو بالطاعة . أو الولى : الصديق وهو ضد العدو . [القاموس القويم ٢/٣٥٨] قال ابن الأعرابى : الولى التابع المحب . وقال ابن منظور فى اللسان [مادة : ولى] : الولى : الصديق والنصير .

فالعداوة هنا من موسى ليفضح الله أمر فرعون ، فها هو يأخذ موسى ويُربِّيه ، وهو لا يعلم أنه عدو له ، وعلى يديْه ستكون نهايته غريقاً ، فالمقاييس عنده خاطئة ، وهو يدَّعِى الألوهية .

ومرة أخرى يُثبت العداوة من فرعون فى قوله تعالى :

﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ .. (٣٩)﴾ [طه]

فالعداوة هنا من فرعون . إذن : فالعداوة من الطرفين ، لذلك فالمعركة بينهما كانت حامية .

كذلك من المواضع التى ظنوا بها تكراراً قوله تعالى : ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧)﴾ [القصص]

وفى آية أخرى يقول تبارك وتعالى : ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ (٣٨) أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ .. (٣٩)﴾ [طه]

والمستشرقون أحدثوا ضجة حول هذه الآيات : لأنهم لا يفهمون أسلوب القرآن ، وليست لديهم الملَكَة العربية للتلقِّى عن الله ، فهناك فَرْق بين السياقين ، فالكلام الأول : ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ .. (٧)﴾ [القصص] هذه أحداث لم تقع بعد ، إنها ستحدث فى المستقبل ، والكلام مجرد إعداد أم موسى للأحداث قبل أنْ تقعَ .

أمّا المعنى الثانى فهو مباشر للأحداث وقت وقوعها ؛ لذلك جاء فى عبارات مختصرة كأنها برقيات حاسمة لتناسب واقع الأحداث :

﴿أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ .. (٣٩)﴾ [طه]

كما أن الآية الأولى ذكرت : ﴿ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ .. (٧) ﴾ [القصص] ولم تذكر التابوت كما فى الآية الأخرى : ﴿أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ .. (٣٩) ﴾ [طه]

إذن : ليس فى المسألة تكرار كما يدَّعى المغرضون ؛ فكل منهما تتحدث عن حال معين ومرحلة من مراحل القصة .

ثم يقول تعالى : ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا .. (٥١) ﴾ [مريم] من خَلَّصَ شيئا من أشياء ، أى : استخرج شيئاً من أشياء كانت مختلطة به ، كما نستخلص مثلاً العطور من الزهور ، فقد أخذت الجيد وتركت الردىء ، وبالنسبة للإنسان نقول : فلان مُخلص لأن الإنسان مركب من ملكات متعددة لتخدم كل حركة فى الحياة ، وكل مَلَكَة من ملَكَاته ، أو جهاز من أجهزته له مهمة يؤديها ، إلا أنها قد تدخل عليها أشياء ليست من مهمته ، أو تخرج عن غاياتها فتحدث فيه بعض الشوائب ، فيحتاج الإنسان لأنْ يُخلِّص نفسه من هذه الشوائب .

فمثلاً ، الحق ـ تبارك وتعالى ـ جعل التقاء الرجل والمرأة لهدف محدد ، وهو بقاء النوع ؛ لذلك تجد الحيوان المحكوم بالغريزة لا بالعقل والاختيار إذا أدى كُلٌّ من الذكر والأنثى هذه المهمة لا يمكن أنْ تُمكِّن الأنثى الذكر منها ، وكذلك الذكر لا يأتى الأنثى إذا علم من رائحتها أنها حامل .

إذن : وقف الحيوان بهذه الغريزة عند مهمتها ، وهى حفظ النوع ، لكن الإنسان لم يقف بهذه الغريزة عند حدودها ، بل جعلها مُتعةً شخصية يأتى حِفْظ النوع تابعاً لها .

وكذلك الحال فى غريزة الطعام ، فالإنسان إذا جاع يحتاج بغريزته إلى أنْ يأكلَ ، والحكمة من ذلك استبقاء الحياة ، لا الامتلاء باللحم والشحم . فالحيوان يقف بهذه الغريزة عند حَدِّها ، فإذا شبع فلا يمكن أنْ تُجبره على عود برسيم واحد فوق ما أكل .

أما فى الإنسان فالأمر مختلف تماماً ، فيأكل الإنسان حتى الشِّبَع ، ثم حتى التُّخْمة ، ولا مانع بعد ذلك من الحلو والمشروبات وخلافه ؛ لذلك وضع لنا الخالق سبحانه وتعالى المنهج الذى يُنظِّم لنا هذه الغريزة ، فقال تعالى : ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا .. (٣١) ﴾ [الأعراف]

وفى الحديث الشريف : « بحسب ابن آدم لقيمات يُقِمْنَ صلْبه ، فإن كان ولا بُدَّ فاعلاً ، فثُلث لطعامه ، وثُلث لشرابه ، وثُلث لنفَسه »(١)

ومن الغرائز أيضاً غريزة حب الاستطلاع ، فالإنسان يحب أن يعرف ما عند الآخر ليحدث بين الناس الترقى اللازم لحركة الحياة ، ومعرفة أسرار الله فى الكون ، وهذا هو الحد المقبول أما أن يتحول حب الاستطلاع إلى التجسس وتتبّع عورات الآخرين ، فهذا لا يُقبل ويُعَدُّ من شوائب النفوس ، يحتاج إلى أنْ نُخلِّص أنفسنا منه .

إذن : لكل غريزة حكمة ومهمة يجب ألاَّ نخرج عنها ، والمُخْلَص هو الذى يقف بغرائزه عند حَدِّها لا يتعدَّاها ويخلصها من الشوائب التى تحوط بها . وهذه الصفة إمّا أنْ يكرم الله بها العبد فيُخلِّصه من

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (١٣٢/٤) ، والترمذى فى سننه (٢٣٨٠) من حديث المقدام ابن معد يكرب ، ولفظه « ما ملأ آدمى وعاء شراً من بطن » الحديث قال الترمذى « حديث حسن صحيح » .

البداية من هذه الشوائب ، أو يجتهد هو ليُخلّص نفسه من شوائبها باتباعه لمنهج الله . هذا هو المُخْلَص : أى الذى خلص نفسه .

لذلك ، يقولون : من الناس مَنْ يصل بطاعة الله إلى كرامة الله ، ومن الناس مَنْ يصل بكرامة الله إلى طاعة الله . وقد جعل الله تعالى الأنبياء مخْلَصين من بدايتهم ، ليكونوا جاهزين لهداية الناس ، ولا يُضيِّعون أوقاتهم فى تخليص أنفسهم من شوائب الحياة وتجاربها .

ألم يستمر رسول الله ﷺ ثلاثاً وعشرين سنة يُعلِّم الناس كيف يُخلِصون أنفسهم ؟ فكيف إنْ كان النبى نفسه فى حاجة لأنْ يُخلص نفسه ؟

ولمكانة هؤلاء المخْلَصين ومنزلتهم تأدَّب إبليس وراعى هذه المنزلة حين قال : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣) ﴾ [ص]

لأن هؤلاء لا يقدر إبليس على غوايتهم .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا (٥١) ﴾ [مريم] لأن من عباد الله مَنْ يكون مخْلَصاً دون أن يكون نبياً أو رسولاً كالعبد الصالح مثلاً ؛ لذلك أخبر تعالى عن موسى ـ عليه السلام ـ أنه جمع له كل هذه الصفات .

والرسول : مَنْ أُوحِى إليه بشرع يعمل به ويُؤْمَر بتبليغه لقومه . أما النبى ، فهو مَنْ أُوحِى إليه بشرع يعمل به لكن لم يُؤْمَر بتبليغه . إذن : فكل رسول نبى ، وليس كل نبى رسولاً ؛ لأن النبى يعيش على منهج الرسول الذى يعاصره أو يسبقه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ مِن جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ .. (٥٢) ﴾ [مريم] أيمن الطور ، أَمْ أيمن موسى ؟ أىّ مكان لا يُقال له أيمن ولا أيسر ، إنما الأيمن والأيسر بالنسبة لك أو لغيرك ، فالذى تعتبره أنت يميناً يعتبره غيرُك يساراً ، ولا يُقال للمكان أيمن ولا أيسر إلا إذا قسْته إلى شىء ثابت كالقبْلة مثلاً فتقول : أيمن القبلة ، وأيسر القبلة ، وخلف القبْلة ، وأمام القبْلة .

إذن : فقوله : ﴿ مِن جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ .. (٥٢) ﴾ [مريم] أى : أيمن موسى ، وهو مُقبل على الجبل ، وهذه لقطة مختصرة من القصة جاءت مُفصَّلة فى قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا .. (٢٩) ﴾ [القصص]

وقوله : ﴿ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا (٥٢) ﴾ [مريم] أى : قرَّبْناه لنُنَاجيه بكلام . والنجىّ : هو المنَاجِى الذى يُسِرُّ القول إلى صاحبه ، كما جاء فى الحديث الشريف : « إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجَ اثنان دون الآخر ، فإن ذلك يُحزِنه »[1] .

وقد قرَّب الله تعالى موسى ليناجيه ؛ لأن هذه خصوصية لموسى عليه السلام ، فكلام الله لموسى خاصٌّ به وحده لا يسمعه أحد غيره ، فإنْ قلتَ : فكيف يكلّمه الله بكلام ، ويسمى مناجاة ؟ قالوا : لأنه

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢١٨٤) كتاب السلام ، وكذا أخرجه ابن ماجة فى سننه (٣٧٧٥) من حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه ، وعند مسلم زيادة « حتى تختلطوا بالناس » .

تعالى أسمعه موسى ، وأخفاه عن غيره ، فصار مناجاة كما يتناجى اثنان سِراً . وهذا من طلاقة قدرته تعالى أن يُسمع هذا ، ولا يُسمع ذاك .

وبعض المفسرين يرى أن (الأيمن) ليس من اليمين ، ولكن من اليُمْن والبركة . و ﴿وَقَرَّبْنَاهُ .. (٥٢)﴾ [مريم] أى : من حضرة الحق تبارك وتعالى . لكن هل حضرة الحق قُرْب منه ، أم موسى هو الذى قَرُب من حضرة الحق سبحانه ؟ كيف نقول إن الله قرب منه وهو سبحانه أقرب إليه من حبل الوريد ، فالتقريب إذن لموسى عليه السلام .

وهكذا جمع الحق ـ تبارك وتعالى ـ لموسى عدة خصال ، حيث جعله مخلَصاً ورسولاً ونبياً ، وخَصَّه بالكلام والمناجاة ، ثم يزيده هبةً أخرى فى قوله :

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا (٥٣)﴾

وهب الله لموسى أخاه هارون رحمةً بموسى ؛ لأن هارون كان مُعيناً لأخيه ومسانداً له فى مسألة الدعوة ، وهذه لم تحدث مع نبى آخر ، أن يجعل الله له معيناً فى حمل هذه المهمة ؛ لذلك قال موسى عليه السلام : ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا[1] يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ (٣٤)﴾ [القصص]

والرِّدْء : هو المعين . وهكذا أعطانا الحق ـ تبارك وتعالى ـ لقطة سريعة من موكب النبوة فى قصة موسى ، ولمحة مُوجَزة هنا أتى تفصيلها فى موضع آخر .

---

(١) رداه : قوّاه وأعانه . والردء بكسر الراء : المعين والناصر . [القاموس القويم ١/ ٢٦٠] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ .. (٥٤) ﴾ [مريم] ما الميزة هنا وكل الرسل كانوا صادقى الوعد ؟ قالوا : لأن هناك صفة تبرز فى شخص ويتميز بها ، وإن كانت موجودة فى غيره ، فالذى يصدُق فى وعد أعطاه ، أو كلمة قالها صدق فى أمر يملكه ويتعلق به .

أما إسماعيل ـ عليه السلام ـ فكان صادق الوعد فى أمر حياة أو موت ، أمر يتعلق بنفسه ، حين قال لأبيه : ﴿ يَـٰأَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِى إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢) ﴾ [الصافات]

وليت الأمر جاء مباشرة ، إنما رآه غيره ، وربما كانت المسألة أيسَر لو أن الولد هو الذى رأى أباه يذبحه ، لكنها رُؤْيا رآها الأب ، والرؤيا لا يثبت بها حكم إلا عند الأنبياء . فكان إسماعيل دقيقاً فى إجابته حينما أخبره أبوه كأنه يأخذ رأيه فى هذا الأمر : ﴿ إِنِّى أَرَىٰ فِى الْمَنَامِ أَنِّى أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ .. (١٠٢) ﴾ [الصافات]

فخاف إبراهيم عليه السلام أن يُقبل على ذَبْح ولده دون أن يخبره حتى لا تأتى عليه فترة يمتلىء غيظاً من أبيه إذا كان لا يعرف السبب ، فأحبَّ إبراهيم أن يكون استسلامُ ولده للذبح قُرْبَى منه لله ، له أجْرُها وثوابها .

قال إسماعيل عليه السلام لأبيه إبراهيم : ﴿ يَـٰأَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ .. (١٠٢) ﴾ [الصافات]

والوعد الذى صدق فيه قوله : ﴿ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢) ﴾ [الصافات] وصدق إسماعيل فى وعده ، واستسلم للذبح ، ولم يتردد ولم يتراجع ؛ لذلك استحق أنْ يميزه ربه بهذه الصفة ﴿ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ .. (٥٤) ﴾ [مريم]

فلما رأى الحق ـ تبارك وتعالى ـ استسلام إبراهيم وإسماعيل ـ عليهما السلام ـ لقضاء الله رفع عنه قضاءه وناداه : ﴿ أَن يَـٰإِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّءْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧) ﴾ [الصافات] فكانت نتيجة الصبر على هذا الابتلاء أنْ فدى الله الذبيح ، وخلَّصه من الذبح ، ثم أكرم إبراهيم فوق الولد بولد آخر : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ .. (٨٤) ﴾ [الأنعام]

وهذه لقطة قرآنية تُعلِّمنا أن المسلم إذا استسلم لقضاء الله ، ورَضِى بقدره فسوف يجنى ثمار هذا الاستسلام ، والذى يطيل أمد القضاء على الناس أنهم لا يرضون به ، والحق تبارك وتعالى لا يجبره أحد ، فالقضاء نافذ نافذ ، رضيتَ به أم لم تَرْضَ .

وحين تسلم لله وترضى بقضائه يرفعه عنك ، أو يُبيِّن لك وجه الخير فيه . إذن : عليك أن تحترم القدر وترضى به ؛ لأنه من ربك الخالق الحكيم ، ولا يُرفع قضاء الله عن الخلق حتى يرضوا به .

وكثيراً ما نرى اعتراض الناس على قضاء الله خاصة عند موت الطفل الصغير ، فنراهم يُكثِرون عليه البكاء والعويل ، يقول أحدهم : إنه لم يتمتع بشبابه .

ونعجب من مثل هذه الجهالات : أىّ شباب ؟ وأيَّة متعة هذه ؟ وقد فارق فى صِغَره دنيا باطلة زائلة ، ومتعة موقوتة إلى دار باقية

ومتعة دائمة ؟ كيف وقد فارق العيش مع المخلوق ، وذهب إلى رحاب الخالق سبحانه ؟

إنه فى نعيم لو عرفتَه لتمنيتَ أن تكون مكانه ، ويكفى أن هؤلاء الأطفال لا يُسألون ولا يُحاسبون ، وليس لهم مسكن خاص فى الجنة ؛ لأنهم طلقاء فيها يمرحون كما يشاؤون ؛ لذلك يسمونهم (دعاميص الجنة)[1] .

وآخر يعترض لأن زميله فى العمل رُقِّى حتى صار رئيساً له ، فيحقد به عليه ويحقره ، وتشتعل نفسه عليه غضباً ، وكان عليه أن يتساءل قبل هذا كله : أأخذ زميله شيئاً من مُلْك الله دون قضائه وقدره ، إذن : فعليك إذا لم تحترم هذا الزميل أن تحترم قدر الله فيه، فما أخذَ شيئاً غصباً عن الله .

لذلك فالنبى ﷺ يقول : « اسمعوا وأطيعوا ، ولو وُلِّى عليكم عبد حبشىّ ، كأنّ رأسَه زبيبة »[2] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾ ﴾

---

(١) أخرج أحمد فى مسنده (٤٧٧/٢ ، ٥١٠) ، ومسلم فى صحيحه (٢٦٣٥) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه أن أبا حسان قال لأبى هريرة : إنه قد مات لى ابنان . فما أنت محدثى عن رسول الله ﷺ بحديث تطيب به أنفسنا عن موتانا ؟ قال قال : نعم صغارهم دعاميص الجنة يتلقى أحدهم أباه فيأخذ بثوبه ، كما آخذ أنا بصنفة ثوبك هذا ، فلا يتناهى حتى يُدخله الله وأباه الجنة » .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (١١٤/٣) ، والبخارى فى صحيحه (٧١٤٢) وابن ماجة فى سننه (٢٨٦٠) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه ، وفى لفظ لأحمد (١٧١/٣) : أن رسول الله ﷺ قال لأبى ذر : « اسمع وأطع ولو لحبشى كأن رأسه زبيبة » .

أى : من خصال إسماعيل العظيمة التى ذكرها الله تعالى له : ﴿ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ .. (٥٥) ﴾ [مريم] أى : زوجته . والحق تبارك وتعالى لا يهتم بخَصْلة ولا يذكرها إلا إنْ كانت كبيرة عنده ، تساوى كونه صادقَ الوعد وكونه رسولاً ونبياً ، فمَنْ أراد أنْ يتصفَ بصفة من صفات النبوة ، فعليه أنْ يأمرَ أهله بالصلاة والزكاة .

لكن ، لماذا اختص أهله بالذات ؟ اختص أهله لأنهم البيئة المباشرة التى إنْ صلُحتْ للرجل صَلُحَ له بيته ، وصلُحَتْ له ذريته ، إذا كان الرجل يلفت أهله إلى ذكر الله والصلاة خمس مرات فى اليوم والليلة فإنه بذلك يسدُّ الطريق على الشيطان ، فليس له مجال فى بيت يصلى أهله الخمس صلوات .

لذلك فالنبى ﷺ يقول : « رحم الله امرأ استيقظ من الليل ، فصلَّى ركعتين ثم أيقظ أهله فإن امتنعتْ نضح فى وجهها الماء ، ورحم الله امرأة قامت من الليل فصلَّتْ ركعتين ، ثم أيقظتْ زوجها ، فإنِ امتنع نضحتْ فى وجهه الماء »[1] .

إذن : فكل رجل وكل امرأة يستطيع فى كل ليلة أن يكون رسولاً لأهله ولبيئته يقوم فيها بمهمة الرسول ؛ لأن محمداً ﷺ هو خاتم الأنبياء والرسل ، فليس بعد تشريعه تشريع ، وليس بعد كتابه كتاب ؛ لأن أمته ستحمل رسالته من بعده ، وكل مؤمن منهم يعلم من الإسلام حُكْماً ، فهو خليفة لرسول الله فى تبليغه .

كما قال تعالى : ﴿ لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً .. (١٤٣) ﴾ [البقرة] فالرسول يشهد أنه بلَّغكم ، وعليكم أنْ

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٢/٢٥٠ ، ٤٣٦) ، والنسائى فى سننه (٢/٢٠٥) وأبو داود فى سننه (١٣٠٨) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

تشهدوا أنكم بلّغتُم الناس ، وما دُمْتم بلَّغتم الناس مَنْطقاً ولفظاً فلا بُدَّ أنْ يكون سلوكاً أيضاً ، لأن لكم فى رسول الله أسوة حسنة .

ودائماً ما يقرن الحق ـ تبارك وتعالى ـ بين الصلاة والزكاة ، والصلاة تأخذ بعض الوقت ، والزكاة تأخذ المال الذى هو فرع العمل الذى هو فرع الوقت ، فإنْ كانت الزكاة تأخذ نتيجة الوقت ، فالصلاة تأخذ الوقت نفسه . إذن : ففى الصلاة زكاة أبلغ من الزكاة .

وإنْ كان فى الزكاة نماء المال وبركته ـ وإنْ كانت فى ظاهرها نقصاً ـ ففى الصلاة نماء الوقت وبركته ، فإياك أنْ تقول : أنا مشغول ، ولا أجد وقتاً للصلاة ؛ لأن الدقائق التى ستصلى فيها فَرْض ربك هى التى ستُشيع البركة فى وقتك كله .

كما أنك حين تقف بين يَدَىْ ربك فى الصلاة تأخذ شحنة إيمانية نورانية تُعينك على أداء مهمتك فى الحياة ، وتعرض نفسك على ربِّك وخالقك وصانعك ، ولن تُعدم خيراً ينالك من هذا اللقاء .

ولك أنْ تتصوّر صنعةً تُعرَض على صانعها خمس مرات كل يوم ، هل يصيبها عُطْل أو عَطَب ؟! وإنْ كان المهندس الصانع يعالج بأشياء مادية فلأنه حِسِّىٌّ مشهود ، أما الخالق سبحانه فهو غَيْب يصلحك من حيث لا تدرى .

وإنْ كان إسماعيل ـ عليه السلام ـ يأمر أهله بالصلاة والزكاة فهو حريص عليها من باب أَوْلَى .

وقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾ ﴾ [مريم] أى : رضى الله عنه ، ليس لخصال الخير التى وصفه بها ، بل من بدايته ، فقد رضى عنه فاختاره رسولاً ونبياً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾﴾

مازال القرآن يعطينا لقطات من موكب الرسالات والنبوات . وإدريس عليه السلام أوّل نبى بعدَ آدم عليه السلام ، فهو إدريس بن شيث بن آدم . وبعد إدريس جاء نوح ثم إبراهيم ، ومنه جاءت سلسلة النبوات المختلفة .

وقوله : ﴿إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾﴾ [مريم]

تحدثنا عن معنى الصِّدِّيق فى الكلام عن إبراهيم عليه السلام ، والصِّدِّيق هو الذى يبالغ فى تصديق ما جاءه من الحق ، فيجعل الله له بذلك فُرْقاناً وإشراقاً يُميّز به الحق فلا يتصادم معه شيطان ؛ لأن الشيطان قد ينفذ إلى عقلى وعقلك .

أما الوارد من الحق سبحانه وتعالى فلا يستطيع الشيطان أن يعارضه أو يدخل فيه ، لذلك فالصِّدِّيق وإن لم يكُنْ نبياً فهو مُلْحق بالأنبياء والشهداء ، كما قال تعالى : ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾ [النساء]

وكذلك كان إدريس عليه السلام (نبياً) ولم يقُلْ : رسولاً نبياً ، لأن بينه وبين آدم عليه السلام جيلين ، فكانت الرسالة لآدم ما زالت قائمة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾

مكاناً عالياً فى السماء ، رفْعة معنوية ، أو رفْعة حسّية ، خُذْها كما شئتَ ، لكن إياك أنْ تجادل : كيف رفعه ؟ لأن الرِّفْعة من الله تعالى ، والذى خلقه هو الذى رفعه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ(١) إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴿٥٨﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ أُوْلَـٰئِكَ .. ﴿٥٨﴾ ﴾ [مريم] أى : الذين تقدَّموا وسبق الحديث عنهم من الأنبياء والرسل ﴿ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ .. ﴿٥٨﴾ ﴾ [مريم] أى : مباشرة مثل إدريس عليه السلام ﴿ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ .. ﴿٥٨﴾ ﴾ [مريم] الذين جاءوا بعد إدريس مباشرة ﴿ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ .. ﴿٥٨﴾ ﴾ [مريم] أى : الذين جاءوا بعد نوح .

وقد انقسموا إلى فرعين من ذرية إبراهيم .

الأول : فرع إسحق الذى جاء منه جمهرة النبوة ، بداية من يعقوب ، ثم يوسف ، ثم موسى وهارون ، ثم داود وسليمان ، ثم زكريا ويحيى ، ثم ذو الكفل ، ثم أيوب ، ثم ذو النون .

والفرع الآخر : فرع إسماعيل عليه السلام الذى جاء منه جماع جواهر النبوة ، وهو محمد ﷺ .

---

(١) اجتبى فلاناً : اختاره واستخلصه واصطفاه . [القاموس القويم ١/١١٧] .

﴿وَإِسْرَائِيلَ .. (٥٨)﴾ [مريم] هو نبىّ الله يعقوب ﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا .. (٥٨)﴾ [مريم] الذين هديناهم واجتبيناهم . أى : اخترناهم واصطفيناهم للنبوة ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا (٥٨)﴾ [مريم]

لماذا قال ﴿آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ (٥٨)﴾ [مريم] ولم يقُلْ : آيات الله ؟ قالوا : لأن آيات الله تحمل منهجاً وتكليفاً ، وهذا يشقُّ على الناس ، فكأنه يقول لنا : إياكم أنْ تفهموا أن الله يُكلّفكم بالمشقة ، وإنما يُكلّفكم بما يُسعد حركة حياتكم وتتساندون ، ثم يسعدكم به فى الآخرة ؛ لذلك اختار هنا صفة الرحمانية .

وقوله : ﴿خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا (٥٨)﴾ [مريم] لم يقُل : سجدوا ، بل سقطوا بوجوههم سريعاً إلى الأرض . وهذا انفعال قَسْرى طبيعى ، لا دَخْلَ للعقل فيه ولا للتفكير ، فالساجد يستطيع أنْ يسجدَ بهدوء ونظام ، أما الذى يخرُّ فلا يفكر فى ذلك ، وهذا أشبه بقوله تعالى : ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ ..(٢٦)﴾ [النحل] أى: سقط عليهم فجأة .

وهذا الانفعال يُسمُّونه « انفعال نزوعى » ناتج عن الوجدان ، والوجدان ناتج عن الإدراك ، وهذه مظاهر الشعور الثلاثة : الإدراك ، ثم الوجدان ، ثم النزوع . والإنسان له حواس يُدرِك بها : العين والأذن والأنف واللسان .. الخ .

فهذه وسائل إدراك المحسّات ، فإذا أدركتَ شيئاً بحواسِّك تجد له تأثيراً فى نفسك ، إما حُباً وإما بُغْضاً ، إما إعجاباً وإما انصرافاً ، وهذا الأثر فى نفسك هو الوجدان ، ثم يصدر عن هذا الوجدان حركة هى « النزوع » .

فمثلاً ، لو رأيتَ وردة جميلة فهذه الرؤيا « إدراك » ، فإنْ أُعجبْتَ

بها وسُررْتَ فهذا « وجدان » ، فإنْ مددْتَ يدك لتقطفها فهذا « نزوع » . والشرع لا يحاسبك على الإدراك ولا على الوجدان ، لكن حين تمد يدك لقطف هذه الوردة نقول لك : قفْ فهذه ليست لك ، ولا يمنعك الشارع ويتركك ، إنما يمنعك ويوحى لك بالحلِّ المناسب لنزوعك ، فعليك أنْ تزرع مثلها ، فتكون ملْكاً لك أو على الأقل تستأذن صاحبها .

كذلك الحال فيمن يتسمّع لكلام الله وقرآنه يدرك القرآن بسمعه فينشأ عنه حلاوة ومواجيد فى نفسه ، وهذا هو الوجدان الذى ينشأ عنه انفعال نُزوعى ، فلا يجد إلا أنْ يخر ساجداً لله تعالى . والنزوع هنا لم يكُنْ نزوعاً ظاهرياً بل وأيضاً داخلياً ، ففاضت أعينهم بالدمع ﴿ سُجَّدًا وَبُكِيًّا (٥٨) ﴾ [مريم]

وقد عُولج هذا المعنى فى عدّة مواضع أُخَر ، كما فى قوله تعالى : ﴿ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا (١٠٧) ﴾ [الإسراء]

ومعنى : للأذقان : مبالغة فى الخضوع والخشوع واستيفاء السجود ؛ لأن السجود يكون أولاً على الجبهة ثم الأنف لكن على الأذقان ، فهذا سجود على حَقٍّ ، وليس كنقْر الديكة كما يقولون .

إذن : فأهل الكتاب كانوا على علم ببعثة محمد ﷺ ، وأنه سيأتى بالقرآن على فَتْرة من الرسل ، وها هم الآن يسمعون القرآن ؛ لذلك يقولون : ﴿ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً (١٠٨) ﴾ [الإسراء]

ومن النزوع الانفعالى أيضاً قوله تعالى عن أهل الكتاب : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ .. (٨٣) ﴾ [المائدة]

وقوله تعالى : ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ .. (٢٣) ﴾ [الزمر]

فلماذا يُؤثِّر الانفعال بالقرآن فى كُلِّ هذه الحواس والأعضاء من جسم الإنسان ؟ قالوا : لأن الذى خلق التكوين الإنسانى هو الذى يتكلم ، والخالق سبحانه حينما يتكلم وحينما تفهم عنه وتعى ، فإنه سبحانه لا يخاطب عقلك فقط ، بل يخاطب كل ذرة من ذَرّات تكوينك ؛ لذلك تخرُّ الأعضاء ساجدة ، وتدمع العيون ، وتقشعر الجلود ، وتلين القلوب ، كيف لا والمتكلم هو الله ؟

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ .. (٥٩) ﴾ [مريم] أى : أن المسائل لم تستمر على ما هى عليه من الكلام السابق ذِكْره ، بل خَلَفَ هؤلاء القوم (خَلْفٌ) والخَلْف : هم القوم الذين يخلُفون الإنسان . أى : يأتون بعده أو من ورائهم .

وهناك فَرْق بين خَلْف وخَلَف : الأولى : بسكون اللام ويُراد بها الأشرار من عَقِب الإنسان وأولاده ، والأخرى : بفتح اللام ويُراد بها الأخيار . لذلك ، فالشاعر[1] حينما أراد أنْ يتحسَّر على أهل الخير الذين مَضَوْا قال :

---

(١) هو : لبيد بن ربيعة بن مالك أبو عقيل العامرى ، أحد شعراء الجاهلية ، من أهل عالية نجد ، أدرك الإسلام ، يُعد من الصحابة ، سكن الكوفة ، عاش عمراً طويلاً ، توفى عام (٤١ هـ) . (الأعلام للزركلى ٥/٢٤٠) .

ذَهَبَ الذِينَ يُعاشُ فِى أكنَافِهِمْ وبَقِيتُ فى خَلْف كجِلْدِ الأجْرَبِ[١]

فـماذا تنتظر منْ هؤلاء الأشـرار ؟ لا بُدّ أنْ يأتى بعـدهم صفـات سوء ﴿أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ .. ﴿٥٩﴾﴾ [مريم] إذن : هم خَلْف فاسد ، فأول ما أضاعوا أضاعوا الصلاة التى هى عماد الدين ، وأوْلَى أركانه بالأداء .

صحيح أن الإسلام بُنى على عدّة أركان ، لكن بعض هذه الأركان قد يسقط عن المسلم ، ولا يُطْلب منه كالزكاة والحج والصيام ، فيبقى ركنان أساسيان لا يسقطان عن المسلم بحال من الأحوال ، هما : شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وإقامة الصلاة .

وسُئِلْنَا مرة من بعض إخواننا فى الجزائر : لماذا نقول لمن يؤدى فريضة الحج : الحاج فلان ، ولا نقول للمصلى : المصلى فلان ، أو المزكِّى فلان ، أو الصائم فلان ؟

فقلت للسائل : لأن بالحج تتم نعمة الله على العبد ، وحين نقول : الحاج فلان . فهذا إشعار وإعلام أن الله أتمَّ له النعمة ، واستوفى كل أركان الإسلام ، فمعنى أنه أدَّى فريضة الحج أنه مستطيع مالاً وصحة ، وما دام عنده مال فهو يُزكِّى ، وما دام عنده صحة فهو يصوم ، وهو بالطبع يشهد ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويؤدى الصلاة ، وهكذا تمَّتْ له بالحج جميع أركان الإسلام .

ثم يقول تعالى : ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾﴾ [مريم] هذه العبارة أخذها المتمحّكون الذين يريدون أنْ يدخلوا على القرآن بنقد ، فقالوا : الغَىُّ هو الشر والضلال والعقائد الفاسدة ، وهذه حدثتْ منهم بالفعل

---

(١) أورده أبو على القالى فى الأمالى (١/١٩٧) ، وهو من بحر (الكامل) .

فى الدنيا فأضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات ، فكيف يقول : فسوف يلقوْنه فى المستقبل ؟

لكن المراد بالغىّ هنا أى : جزاء الغى وعاقبتهْ . كما لو قُلْت : أمْطرتْ السماء نباتاً ، فالسماء لم تُمطر النبات ، وإنما الماء الذى يُخرِج النبات ، كذلك غيّهم وفسادهم فى الدنيا هو الذى جَرَّ عليهم العذاب فى الآخرة .

إذن : المعنى : فسوفَ يلقوْنَ عذاباً وهلاكاً فى الآخرة .

ومع ذلك ، فالحق ـ تبارك وتعالى ـ لرحمته بخَلْقه شرع لهم التوبة ، وفتح لهم بابها ، ويفرح بهم إنْ تابوا ؛ لذلك فالذين اتصفُوا بهذه الصفات السيئة فأضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات لا ييأسون من رحمة الله ، ما دام بابُ التوبة مفتوحاً .

وفَتْح باب التوبة أمام العاصين رحمة يرحم الله بها المجتمع كله من أصحاب الشهوات والانحرافات ، وإلاَّ لو أغلقنا الباب فى وجوههم لَشقِىَ بهم المجتمع ، حيث سيتمادَوْن فى باطلهم وغَيِّهم ، فليس أمامهم ما يستقيمون من أجله .

والتوبة تكون من العبد ، وتكون من الرب تبارك وتعالى ، فتشريع التوبة وقبولها من الله وإحداث التوبة من العبد ؛ لذلك قال تعالى : ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا .. (١١٨)﴾ [التوبة] أى : شرعها لهم ليتوبوا فيقبل توبتهم ، فهى من الله أولاً وأخيراً ؛ لذلك يأتى هذا الاستثناء .

﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴿٦٠﴾﴾

وللتوبة شروط يجب مراعاتها ، وهى : أن تُقلع عن الذنب الذى تقع فيه ، وأن تندم على ما بدر منك ، وأنْ تنوى وتعزم عدم العودة إليه مرة أخرى . وليس معنى ذلك أنك إنْ عُدْتَ فلن تُقْبلَ منك التوبة ، فقد تتعرض لظروف تُوقعك فى الذنب مرة أخرى .

لكن المراد أنْ تعزم صادقاً عند التوبة عدم العَوْد ، فإنْ وقعت فيه مرة أخرى تكون عن غير قَصْد ودون إصرار . وإلاّ لو دبرتَ لهذه المسألة فقُلْت : أذنب ثم أتوب ، فمن يُدريك أن الله تعالى سيمهلك إلى أنْ تتوبَ ؟ إذن : فبادر بها قبل فَوات أوانها .

هذه - إذن - شروط التوبة إنْ كانت فى أمر بين العبد وربه ، فإنْ كانت تتعلق بالعباد فلا بُدَّ أنْ يتوفّر لها شرط آخر وهو رَدُّ المظالم إلى أهلها إنْ كانت ترد ، أو التبرع بها فى وجوه الخير على أنْ ينوىَ ثوابها لأصحابها ، إنْ كانت مظالم لا تُردُّ .

ثم يقول تعالى بعدها : ﴿وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا .. ﴿٦٠﴾﴾ [الكهف] معنى : وآمن بعد أنْ تاب ، تعنى أن ما أحدثه من معصية خدش إيمانه ، فيحتاج إلى تجديده . وهذا واضح فى الحديث الشريف :

« لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن »[1] .

فساعةَ مباشرة هذه المعاصى تنتفى عن الإنسان صفة الإيمان ؛

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٤٧٥) ، ومسلم فى صحيحه (٥٧) كتاب الإيمان من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

لأن إيمانه غاب فى هذه اللحظة ؛ لأنه لو استحضر الإيمان وما يلزمه من عقوبات الدنيا والآخرة ما وقع فى هذه المعاصى .

لذلك قال : (وآمَنَ) أى : جدَّد إيمانه ، وأعاده بعد توبته ، ثم ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا .. (٦٠)﴾ [مريم] ليصلح به ما أفسده بفعل المعاصى .

والنتيجة : ﴿فَأُوْلَـٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ شَيْئًا (٦٠)﴾ [مريم] وفى موضع آخر ، كان جزاء مَنْ تاب وآمن وعمل صالحاً : ﴿فَأُوْلَـٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ .. (٧٠)﴾ [الفرقان]

فلماذا كُلُّ هذا الكرم من الله تعالى لأهل المعاصى الذين تابوا ؟ قالوا : لأن الذى ألِفَ الشهوة واعتاد المعصية ، وأدرك لذَّته فيها يحتاج إلى مجهود كبير فى مجاهدة نفسه وكَبْحها ، على خلاف مَنْ لم يتعوّد عليها ، لذلك احتاج العاصون إلى حافز يدفعهم ليعودوا إلى ساحة ربهم .

لذلك قال سبحانه : ﴿فَأُوْلَـٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ .. (٦٠)﴾ [مريم] دون أنْ يُعيَّروا بما فعلوه ؛ لأنهم صدَقُوا التوبة إلى الله ﴿وَلا يُظْلَمُونَ شَيْئًا (٦٠)﴾ [مريم] وبقدر ما تكون التوبة صادقة ، والندم عليها عظيماً ، وبقدر ما تلوم نفسك ، وتسكب الدمْع على معصيتك بقدر ما يكون لك من الأجر والثواب ، وبقدر ما تُبدَّل سيئاتك حسناتٍ . وكُلُّ هذا بفضل الله وبرحمته .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿جَنَّـٰتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَـٰنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ ۚ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا (٦١)﴾

قوله : ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ .. (٦١)﴾ [مريم] أى : إقامة دائمة ؛ لأنك قد تجد فى الدنيا جنات ، وتجد أسباب النعيم ، لكنه نعيم زائل ، إمّا أنْ تتركه أو يتركك . إذن : فكُلُّ نعيم الدنيا لا ضامنَ له .

وجنات عَدْن ليست هى مساكن أهل الجنة ، بل هى بساتين عمومية يتمتع بها الجميع ، بدليل أن الله تعالى عطف عليها فى آية أخرى (وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً) فى قوله تعالى : ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّاتِ عَدْنٍ .. (٧٢)﴾ [التوبة]

وقوله : ﴿الَّتِى وَعَدَ الرَّحْمَـٰنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ .. (٦١)﴾ [مريم] والوعْد : إخبار بخير قبل أوانه ؛ ليشجع الموعود على العمل لينالَ هذا الخير ، وضدّه الوعيد : إخبار بشَرٍّ قبل أوانه ليحذره المتوعد ، ويتفادى الوقوع فى أسبابه .

واختار هنا اسم الرحمن ليُطمئنَ الذين أسرفوا على أنفسهم بالمعاصى أن ربهم رحمن رحيم ، إنْ تابوا إليه قبلهم ، وإنْ وعدهم وَعْداً وَفَى . وقد وعدنا الله تعالى فى قرآنه فآمنّا بوَعده غيْباً ﴿وَعَدَ الرَّحْمَـٰنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ .. (٦١)﴾ [مريم]

وحجة الإيمان بالغيب فيما لم يوجد بعد المشهد الذى نراه الآن ، فالكون الذى نشاهده قد خُلق على هيئة مُهندسة هندسةً لا يوجد أبدعُ منها ، فالذى خلق لنا هذا الكون العجيب المتناسق إذا أخبرنا عن نعيم آخر دائم فى الآخرة ، فلا بُدَّ أن نُصدِّق ، ونأخذ من المشاهَد لنا دليلاً على ما غاب عنَّا ؛ لذلك نؤمن بالآخرة إيماناً غيبياً ثقةً منَّا فى قدرته تعالى التى رأينا طَرَفاً منها فى الدنيا .

ثم يقول تعالى : ﴿إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا (٦١)﴾ [مريم] فما دام الرحمن ـ تبارك وتعالى ـ هو الذى وعد ، فلا بُدَّ أن يكون وعدُه (مَأْتِياً) أى : مُحقّقاً وواقعاً لا شكَّ فيه ، ووعْده تعالى لا يتخلَّف و (مَأْتِياً) أى : نأتيه نحن ، فهى اسم مفعول .

وبعض العلماء[1] يرى أن (مَأتِياً) بمعنى آتياً ، فجاء باسم المفعول ، وأراد اسم الفاعل ، لكن المعنى هنا واضح لا يحتاج إلى هذا التأويل ؛ لأن وعد الله تعالى مُحقَّق ، والموعود به ثابت فى مكانه ، والماهر هو الذى يسعى إليه ويسلك طريقه بالعمل الصالح حتى يصل إليه .

ثم يقول الحق سبحانه عن أهل الجنة فى الجنة :

﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا ۖ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (٦٢)﴾

اللغو : هو الكلام الفُضولى الذى لا فائدة منه ، فهو يضيع الوقت ويُهْدِر طاقة المتكلم وطاقة المستمع ، وبعد ذلك لا طائلَ من ورائه ولا معنى له .

والكلام هنا عن الآخرة ﴿لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا .. (٦٢)﴾ [مريم] فإن كانوا قد سمعوا لَغْواً كثيراً فى الدنيا فلا مجالَ للغو فى الآخرة . ثم يستثنى من عدم السماع ﴿إِلاَّ سَلاماً .. (٦٢)﴾ [مريم] والسلام ليس من اللغو ، وهو تحية أهل الجنة وتحية الملائكة : ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ .. (١٠)﴾ [يونس]

(١) قاله القتبى فيما نقله عنه القرطبى فى تفسيره (٦/٤٢٩٧) : [« مأتياً » بمعنى آت ، فهو مفعول بمعنى فاعل] .

وقد يُرَادُ بالسلام السلامة من الآفات التى عاينوها فى الدنيا ، وهم فى الآخرة سالمون منها ، فلا عاهة ولا مرضَ ولا كَدَّ ولا نصبَ . لكن نرجح هنا المعنى الأول أى : التحية ، لأن السلام فى الآية مما يُسْمَع[1] .

فإنْ قُلْتَ : فكيف يستثنى السلام من اللَّغْو ؟ نقول : من أساليب اللغة : تأكيد المدح بما يشبه الذم ، كأن نقول : لا عيبَ فى فلان إلا أنه شجاع ، وكنت تنتظر أنْ نستثنى من العيب عَيْباً ، لكن المعنى هنا : إنْ عددتَ الشجاعة عيباً ، ففى هذا الشخص عَيْب ، فقد نظرنا فى هذا الشخص فلم نجد به عَيْباً ، إلا إذا ارتكبنا مُحَالاً وعددنا الشجاعة عيباً . وهكذا نؤكد مدحه بما يشبه الذم .

ومن ذلك قول الشاعر :

ولاَ عَيْبَ فِيهِم غَيْرَ أنَّ سُيُوفَهُمْ بِهِنَّ فُلُولٌ مِنْ قِرَاعِ[2] الكَتَائِبِ[3]

ثم يقول تعالى : ﴿ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (٦٢) ﴾ [مريم] لم يقُل الحق سبحانه وتعالى : وعلينا رزقهم ، بل : ولهم رزقهم : أى أنه أمر قد تقرّر لهم وخُصِّص لهم ، فهو أمر مفروغ منه . والرزق : كُلُّ ما يُنتفع به ، وهو فى الآخرة على قَدْر عمل صاحبه من خير فى الدنيا .

ومن رحمة الله تعالى بعباده من أهل الجنة أنْ نزعَ ما فى

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٦/٤٢٩٨) : « السلام اسم جامع للخير ، والمعنى أنهم لا يسمعون فيها إلا ما يحبون » وقال مقاتل وغيره : « يعنى سلام بعضهم على بعض ، وسلام الملَك عليهم » .

(٢) القراع والمقارعة : المضاربة بالسيوف . [لسان العرب ـ مادة : قرع] .

(٣) ذكره ابن منظور فى اللسان قال : « فى حديث عبد الملك ، وذكر سيف الزبير : بهن فلول من قراع الكتائب . أى : قتال الجيوش ومحاربتها » .

صدورهم من غلٍّ ومن حسد ومن حقد ، فلا يحقد أحدٌ على أحد أفضل مرتبة منه ، ولا يشتهى من نعيم الجنة إلا على قَدْر عمله ودرجته ، فإنْ رأى مَنْ هو أفضل منه درجةً لا يجد فى نفسه غلاً منه ، أو حقْداً عليه ؛ لأن موجب الغلِّ فى الدنيا أنْ ترى مَنْ هو أفضل منك .

أما فى الآخرة فسوف ترى هذه المسألة بمنظار آخر ، منظار النفس الصافية التى لا تعرف الغلَّ ، قال تعالى : ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ (٤٧)﴾ [الحجر]

فإنْ رأيت مَنْ هو أعلى منك درجةً فسوف تقول : إنه يستحق ما نال من الخير والنعيم ، فقد كان يجاهد نفسه وهواه فى الدنيا . ويكفى فى وَصْف ما فى الجنة من الرزق والنعيم قوله تعالى : ﴿فِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ .. (٧١)﴾ [الزخرف]

وقول النبى ﷺ : « فيها ما لا عَيْن رأت ، ولا أذن سمعتْ ، ولا خطر على قلب بشر»[(١)] .

إذن : ففى الجنة أشياء لا تقع تحت إدراكنا ؛ لذلك ليس فى لغتنا ألفاظ تُعبِّر عن هذا النعيم ؛ لأنك تضع فى اللغة اللفظ الذى أدركتَ معناه ، وفى الجنة أشياء لا تدركها ولا علْمَ لك بها ؛ لذلك حينما يريد الحق ـ تبارك وتعالى ـ أن يصفَ لنا نعيم الجنة يصفه بما نعرف من نعيم الدنيا : نخل وفاكهة ورمان ولحم طير وريحان .

ويقول : ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٨٢٤) وأحمد فى مسنده (٢/٤٦٦) وأبو نعيم فى حلية الأولياء (٢/٢٦٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، وتمامه : « أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » .

وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى .. (١٥) ﴾ [محمد]

مع الفارق بين هذه الأشياء فى الدنيا والآخرة . ويكفى أن تعرف الفرق بين خمر الدنيا وما فيها من سوء فى طعمها ورائحتها واغتيالها للعقل ، وبين خمر الآخرة التى نفى الله عنها السوء ، فقال : ﴿ لا فِيهَا غَوْلٌ وَلا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ[1] (٤٧) ﴾ [الصافات]

وقوله : ﴿ بُكْرَةً وَعَشِيًّا (٦٢) ﴾ [مريم] فكيف يأتيهم رزقهم بُكْرة وعشياً ، وليس فى الجنة وقت لا بُكْرة ولا عَشياً ، لا لَيْل ولا نهار ؟ نقول : إن الحق ـ تبارك وتعالى ـ يخاطبنا على قَدْر عقولنا ، وما نعرف نحن من مقاييس فى الدنيا ، وإلاّ فنعيم الجنة دائم لا يرتبط بوقت ، كما قال سبحانه : ﴿ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا .. (٣٥) ﴾ [الرعد]

وفى آية أخرى قال تعالى : ﴿ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (١٠) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١١) ﴾ [المؤمنون]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾ ﴾

قوله : ﴿ تِلْكَ الْجَنَّةُ .. (٦٣) ﴾ [مريم] أى : التى يعطينا صورة لها هى : ﴿ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا (٦٣) ﴾ [مريم] أى : يرثونها ، فهل كان فى الجنة أحد قبل هؤلاء ، فَهُم يرثونه ؟

الحق ـ تبارك وتعالى ـ قبل أن يخلق الخَلْق عرف منهم مَنْ سيؤمن باختياره ، ومَنْ سيكفر باختياره ، علم مَنْ سيطيع ومَنْ

---

(١) لا فيها غول : أى لا تغتال العقل مثل خمر الدنيا . [القاموس القويم ٢/٦٣] . ولا هم عنها ينزفون : أى لا يُصرفون عنها وقد غابت عقولهم . [القاموس القويم ٢/٢٦٠] .

سيعصى ، فلم يُرغِم سبحانه عباده على شىء ، إنما علم ما سيكون منهم بطلاقة علمه تعالى ، إلا أنه تعالى أعدَّ الجنة لتسع جميع الخَلْق إنْ أطاعوا ، وأعدَّ النار لتسع جميع الخَلْق إنْ عَصَوْا ، فلن يكون هناك إذن زحام ولا أزمة إسكان ، إنْ دخل الناس جميعاً الجنة ، أو دخلوا جميعاً النار .

إذن : حينما يدخل أهلُ النارِ النارَ ، أين تذهب أماكنهم التى أُعدَّتْ لهم فى الجنة ؟ تذهب إلى أهل الجنة ، فيرثونها بعد أنْ حُرم منها هؤلاء .

ثم يقول رب العزة سبحانه[1] :

﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ۖ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ ﴾

هنا ينتقل السياق إلى موضوع آخر ، فبعد أنْ تحدَّث عن الجنة وأهلها عرض لأمر حدث لرسول الله ﷺ ، وهو ما يحدث له حين ينزل عليه الوحى ، وقلنا : إن الوحى ينزل بواسطة جبريل عليه السلام ، وهو مَلَكٌ ، على محمد ﷺ وهو بشر .

ولقاء جبريل بقانون ملكيته بمحمد ﷺ بقانون بشريته لا يمكن أن يتم إلاَّ بتقارب هذيْن الجنسين وعملية تغيير لابُدَّ أنْ تطرأ على أحدهما ، إما أن ينزل الملَكُ على صورة بشرية ، وإما أنْ يرتفع

---

(١) **سبب نزول الآية** : أخرج البخارى فى صحيحه (٣٢١٨ ، ٤٧٣١ ، ٧٤٥٥) من حديث ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال لجبريل عليه السلام : « ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا » فنزلت الآية : ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ .. ﴿٦٤﴾ ﴾ [مريم] ، وكذلك أخرجه الترمذى فى سننه (٣١٥٨) وقال : « هذا حديث حسن غريب » .

ببشرية الرسول إلى درجة تقرب من الملَك ليأخذ عنه ، وذلك ما كان يحدث لرسول الله حين يأتيه الوحى .

وقد وصف النبى ﷺ هذا التغيير فقال : « ... فغطَّنى حتى بلغ منى الجهْد ... »[(١)] وكان ﷺ يتفصَّد[(٢)] جبينه عرقاً لما يحدث فى جسمه من تفاعل وعمليات كيماوية ، ثم حينما يُسرِّى عنه تذهب هذه الأعراض .

وقد أخبر بعض الصحابة ، وكان يجلس بجوار رسول الله ، والرسول ﷺ يضع رُكْبته على رُكْبته ، فلما نزل على رسول الله الوحى قال الصحابى : شعرتُ برُكْبة رسول الله وكأنها جبل .

وإذا أتاه الوحى وهو على دابة كانت الدابة تئط أى : تنخ من ثقَل الوحى[(٣)] ، وقد قال تعالى : ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ۝٥ ﴾ [المزمل]

إذن : كان النبى ﷺ يتعب بعد هذا اللقاء ويشقُّ عليه ، حتى يذهب إلى السيدة خديجة رضى الله عنها يقول : « زَمِّلونى زَمِّلونى » أو « دَثِّرونى دَثِّرونى »[(٤)] كأن به حمى مما لاقى من لقاء الملَك ومباشرة الوحى أولاً .

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٣) كتاب بدء الوحى من حديث عائشة رضى الله عنها فى حديث طويل . والغطُّ : حبس النفس . وفى رواية الطبرى « فغتنى » كأنه أراد ضمنى وعصرنى . قال ابن حجر فى فتح البارى (١/٢٤) .

(٢) قالت عائشة رضى الله عنه : « لقد رأيته ﷺ ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد ، فيفصم عنه . وإن جبينه ليتفصَّد عرقاً » أخرجه البخارى فى صحيحه (٢) كتاب بدء الوحى . قال ابن حجر فى الفتح (١/٢١) « شبه جبينه بالعرق المفصود مبالغة فى كثرة العرق » والفصد هو قطع العرق لإسالة الدم .

(٣) عن أسماء بنت يزيد قالت : إنى لآخذة بزمام العضباء ناقة رسول الله ﷺ إذ نزلت عليه المائدة كلها وكادت من ثقلها تدق عنق الناقة . أخرجه أحمد فى مسنده (٦/٤٥٥) .

(٤) أخرجه البخارى فى صحيحه (٣) كتاب بدء الوحى من حديث عائشة فى حديث نزول جبريل عليه السلام على محمد ﷺ فى الغار .

ثم أراد الحق سبحانه وتعالى أن يجعل الوحى يفتر عن رسوله ليرتاح من تعبه ومشقته ، فإذا ما ارتاح وذهب عنه التعب بقيتْ له حلاوة ما نزل من الوحى ، فيتشوق إليه من جديد ، كما يشتاق الإنسان لمكان يحبه دونه الأشواك ومصاعب الطريق ، فالحب للشىء يحدث عملية كالتخدير ، فلا تشعر فى سبيله بالتعب .

وقلنا : لما فتر الوحى عن رسول الله شمت فيه الكفار وقالوا : إن رَبَّ محمد قد قلاه يعنى : أبغضه وتركه .

وهذا القول دليل على غبائهم وحماقتهم ، كيف وقد كانوا بالأمس يقولون عنه : ساحر وكذاب ؟ ففى البغض يتذكرون أن له رباً منع عنه الوحى ، وحين دعاهم إلى الإيمان بهذا الرب قالوا : من أين جاء بهذا الكلام ؟

لذلك ، فالحق تبارك وتعالى يخاطب رسوله ﷺ قائلاً : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (١) وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ (٢) الَّذِى أَنقَضَ ظَهْرَكَ (٣) وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (٤) ﴾ [الشرح] إذن : كانت مسألة الوحى شاقة على رسول الله .

فأراد الحق سبحانه أن يعطى هؤلاء درساً من خلال درس كونىّ مشاهد يشهد به المؤمن والكافر ، هذا الأمر الكونىّ هو الزمن ، وهو ينقسم إلى ليل ونهار ، ولكل منهما مهمته التى خلقه الله من أجلها ، كما قال سبحانه : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ (١) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ (٢) ﴾ [الليل]

فإياك أنْ تُغيّر مهمة الليل إلى النهار ، أو مهمة النهار إلى الليل .

ثم يرد عليهم قائلاً : ﴿ وَالضُّحَىٰ (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ[1] (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣) وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأُولَىٰ (٤) ﴾ [الضحى]

---

(١) سجا الليل يسجو : سكن وهدأ كل شىء فيه [القاموس القويم ١/٣٠٤] .

والمعنى : إنْ كان النهار لحركة الحياة واستبقائها ، والليل للراحة والسكون ، فهما آيتان متكاملتان لا مُتضادتان ، وليس معنى أن يأتى الليل بسكونه أن النهار لن يأتى من بعده ، بل سيأتى نهار آخر ، وستستمر حركة الحياة .

وكذلك الأمر إنْ فترَ الوحى عن رسول الله ، فلا تظنوا أنه انقطع إلى غير رَجْعة ، بل هى فترة ليرتاح فيها رسول الله ، كالليل الذى ترتاحون فيه من عناء العمل فى النهار ، ومن هنا كانت الحكمة فى أنْ يُقسم سبحانه وتعالى بالضحى والليل إذا سجى على ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ③﴾ [الضحى]

ونلحظ فى هذا التعبير دقّة الإعجاز فى أداء القرآن ، حيث قال : ﴿مَا وَدَّعَكَ .. ③﴾ [الضحى] بكاف الخطاب ؛ لأن التوديع يكون لمَنْ تحب ولمَنْ تكره ، أما فى القِلَى فلم يقُلْ : قَلاَك . لأن القِلَى لا يكون إلا لمَنْ تكره .

ومعنى : ﴿وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأُولَىٰ ④﴾ [الضحى] الآخرة أى : الفترة الأخيرة من نزول الوحى خَيْر لك من الفترة الأولى ؛ لأنها ستكون أوسع ، وستأتيك بلا تَعَب ولا مشقة ، وفعلاً نزلت جمهرة القرآن بعد ذلك فى يُسْر على رسول الله ﷺ[1] .

وهكذا كان الأمر فى الآية التى نحن بصددها : ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ .. ⑥④﴾ [مريم] فيقال : إنها نزلت حينما قال الكفار : إن ربَّ محمد قد قلاه ، أو أنها نزلت بعد أن سأل كفار مكة الأسئلة

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (١٠/٧٤٣٣) : « روى سلمة عن ابن إسحاق : أى ما عندى فى مرجعك إلىَّ يا محمد خير لك مما عجلت لك من الكرامة فى الدنيا ، وقال ابن عباس : أرى النبى ﷺ ما يفتح الله على أمته بعده فسُرَّ بذلك ، فنزل جبريل بقوله : ﴿وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأُولَىٰ ④﴾ [الضحى] .

الثلاثة التى تحدثنا عنها فى سورة الكهف[1] . وأن رسول الله ﷺ قال لهم : « سأخبركم غداً » لكن الوحى لم يأته مدة خمسة عشر يوماً ، فشقَّ ذلك عليه وحزنَ له فنزلت : ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ .. (٦٤)﴾ [مريم] أى : الملائكة لا تنزل إلا بأمر ، ولا تغيب إلا بأمر .

ثم يقول الحق سبحانه تعالى : ﴿لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ .. (٦٤)﴾ [مريم]

قوله تعالى : ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِينَا .. (٦٤)﴾ [مريم] أى : الذى أمامنا ﴿وَمَا خَلْفَنَا .. (٦٤)﴾ [مريم] أى : فى الخلف ﴿وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ .. (٦٤)﴾ [مريم] أى : ما بين الأمام والخلف ، فماذا بين الأمام والخلف ؟ ليس بين الأمام والخلف إلا أنت . فسبحانه وتعالى المالك ، الذى له الملك والمملوك ، وله المكان والمكين ، وله الزمان والزمين .

وقوله : ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا (٦٤)﴾ [مريم] وهل يرسل الحق ـ تبارك وتعالى ـ رسولاً ، ثم ينساه هكذا دون إمداد وتأييد ؟ فسبحانه تنزَّه عن الغفلة وعن النسيان .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا (٦٥)﴾

أولاً : ما علاقة قوله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا (٦٤)﴾ [مريم] بقوله تعالى فى هذه الآية : ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا .. (٦٥)﴾ [مريم] ؟

---

(١) قاله مجاهد وقتادة وعكرمة والضحاك ومقاتل والكلبى فيما نقله عنهم القرطبى فى تفسيره (٦/٤٣٠٠) وفيه أن النبى ﷺ قال لجبريل « أبطأت علىَّ حتى ساء ظنى واشتقت إليك » فقال جبريل : إنى كنت أشوق ، ولكنى عبد مأمور إذا بُعثت نزلت ، وإذا حُبست احتبست .

قالوا : لأن هذا الكون العظيم بسمائه وأرضه ، وما فيه من هندسة التكوين وإبداع الخلق قائم بقيومية الله تعالى عليه ، كما قال سبحانه : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا .. (٤١)﴾ [فاطر]

فلا تظن أن الكون قائم على قانون يُديره ، بل على القيومية القائمة على كل أمر من أمور الكون ، والحق ـ تبارك وتعالى ـ لا تأخذه سنة ولا نوم . فما دام الأمر كذلك ، وأنه تعالى يعلم ما بين أيدينا وما خلفنا ، وما بين ذلك ، وأنه تعالى قيُّوم لا ينسى ولا يغفل وبه يقوم الكون . فهو ـ إذن ـ يستحق العبادة والطاعة فيما أمر ، وقد أعطاك قبل أن يُكلّفك عطاء لا تستطيع أنت أن تفعله لنفسك ، ثم تركك تربع فى هذا النعيم خمس عشرة سنة دون أنْ يُكلِّفك بشىء من العبادات .

لذلك هنا يقول تعالى : ﴿رَبُّ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ .. (٦٥)﴾ [مريم] وقد أكّد القرآن الكريم فى آيات كثيرة مسألة الوحدانية ، وأنه رَبٌّ واحد فقال : ﴿رَبُّ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا .. (٦٥)﴾ [مريم]

وقال : ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢)﴾ [الفاتحة]

وقال : ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ (٢٦)﴾ [الشعراء]

لأن القدماء ، ومنهم ـ مثلاً ـ قدماء المصريين كانوا يجعلون رباً للسماء ، ورباً للأرض ، ورباً للجو ، ورباً للأموات ، ورباً للزرع .. الخ وما دام هو سبحانه رب كل شىء فقد رتب العبادة على الربوبية . والعبادة : طاعة معبود فيما أمر وفيما نهى ، وكيف لا نطيع الله ونحن خَلْقه وصَنْعته ، ونأكل رزقه ، ونتقلب فى نعمه ؟ وفى ريفنا يقول الرجل لولده المتمرد عليه : (مَنْ يأكل لقمتى يسمع كلمتى) .

ولا بُدَّ أن نعلم أن الله تعالى له الكمال المطلق قبل أنْ يخلق الخَلْق وبصفات الكمال خلق ، فلا تنفعه طاعة ، ولا تضره معصية . فإن قلتَ : فلماذا ـ إذن ـ يُكلِّف الخَلْق بالأمر والنهى ؟ نقول : كلَّف الله الخَلْق لتستمر حركة الحياة وتتساند الجهود ولا تتصادم ، فيحدث فى حياتهم الارتقاء ويسعدوا بها ، إنما لو تركهم وأهواءهم لَفسدتِ الحياة ، فأنت تبنى وغيرك يهدم .

لذلك يقول النبى ﷺ : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به »[1] .

والحق تبارك وتعالى يقول : ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَـٰوَاتُ وَالأَرْضُ .. (٧١)﴾ [المؤمنون]

إذن : التشريعات جُعلَتْ لصالحنا نحن : ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ .. (٦٥)﴾ [مريم] لأن العبادة فيها مشقة ، فلا بُدَّ لها من صبر ؛ لأنها تأمرك بأشياء يشقُّ عليك أنْ تفعلها ، وينهاك عَنْ أشياء يشقُّ عليك أنْ تتركها لأنك أَلِفْتها .

والصبر يكون منا جميعاً ، يصبر كُلٌّ منَّا على الآخر ؛ لأننا أبناء أغيار ، فإن صبرتَ على الأذى صبرَ الناس عليك إنْ حدث منك إيذاء لهم ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣)﴾ [العصر]

والحق ـ سبحانه وتعالى ـ يُعلِّمنا : إن أذنب أحد فى حَقِّك ، أو أساء إليك فاغفر له كما تحب أن أغفر لك ذنبك ، وأعفوَ عن سيئتك .

---

(١) أخرجه ابن أبى عاصم فى كتاب « السنة » (١٢/١) من حديث عبد الله بن عمرو ، وأورده ابن رجب الحنبلى فى « جامع العلوم والحكم » (ص ٤٦٠) وضعَّفه .

يقول تعالى : ﴿وَلا يَأْتَلِ[١] أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ[٢] وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٢)﴾ [النور]

ولا تظن أن صبرك على أذى الآخرين أو غفرانك لهم تطوُّع من عندك ؛ لأنه لن يضيع عليك عند الله ، وستُردُّ لك فى سيئة تُغفَر لك . حتى مَنْ فُضِح مثلاً أو ادُعى عليه ظُلْماً لا يضيعها الله ، بل يدّخرها له فى فضيحة سترها عليه ، فمَنْ فُضِح بما لم يفعل ، سُتر عليه ما فعل .

وقوله تعالى : ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا (٦٥)﴾ [مريم] ؟ سبق أن تكلمنا فى معنى (السَّمىّ) وقد اختلف العلماء فى معناها ، قالوا : السَّمىُّ : الذى يُساميك[٣] ، أى : أنت تسمو وهو يسمو عليك ، أو السَّمىّ : النظير والمثيل .

والحق سبحانه وتعالى ليس له سمىٌّ يُساميه فى صفات الكمال ، وليس له نظير أو مثيل أو شبيه ، بدليل قوله تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ .. (١١)﴾ [الشورى]

---

(١) قال أبو عبيد : لا يأتل هو من ألوْتُ أى قصرت . وقال الفراء : الائتلاء الحلف . [لسان العرب ـ مادة : ألا] .

(٢) نزلت هذه الآية فى قصة أبى بكر الصديق ومسطح بن أثاثة ، وذلك أنه كان ابن بنت خالته وكان مسطح من المهاجرين البدريين المساكين ، وكان أبو بكر ينفق عليه لمسكنته وقرابته ، فلما وقع أمر الإفك وقال مسطح فى عائشة ابنة أبى بكر وزوجة رسول الله ﷺ ما قال ، حلف أبو بكر ألا ينفق عليه ولا ينفعه بنافعة أبداً ، فجاء مسطح فاعتذر . وقال : إنما كنت أغشى مجالس حسان فأسمع ولا أقول فقال له أبو بكر : لقد ضحكتَ وشاركتَ فيما قيل ، ومر على يمينه ، فنزلت الآية فرجع إلى مسطح النفقة التى كان ينفق عليه وقال : لا أنزعها منه أبداً » من تفسير القرطبى (٦/٤٧٤٢) بتصرف .

(٣) قاله مجاهد . وقال ابن عباس : يريد هل تعلم له ولداً أى : نظيراً أو مثلاً ، أو شبيهاً . [القرطبى (٦/٤٣٠١)] .

وقوله تعالى : ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤)﴾ [الإخلاص]

وللسمىِّ معنى آخر أوضحناه فى قصة يحيى ، حيث قال تعالى : ﴿لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا (٧)﴾ [مريم] أى : لم يسبق أنْ تسمَّى أحد بهذا الاسم . وكذلك الحق ـ تبارك وتعالى ـ لم يتسمَّ أحدٌ باسمه ، لا قبل هذه الآية ، ولا بعد أنْ أطلقها رسول الله تحدّياً بين الكفار والملاحدة الذين يتجرؤون على الله . فلماذا لم يجرؤ أحد من هؤلاء أنْ يُسمى ولده الله ؟

الحقيقة أن هؤلاء وإنْ كانوا كفاراً وملاحدة إلا أنهم فى قرارة أنفسهم يؤمنون بالله ، ويعترفون بوجوده ، ويخافون من عاقبة هذه التسمية ، ولا يأمنون أنْ يصيبهم السوء بسببها .

إذن : لم تحدث ، ولم يجرؤ أحد عليها ؛ لأن الله تعالى قالها وأعلنها تحدياً ، وإذا قال الله تعالى ، ملَكَ اختيار الخَلْق ، وعلم أنهم لن يجرؤوا على هذه الفعلة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا (٦٦)﴾

ما المراد بالإنسان ؟ الإنسان تُطلق ويُراد بها عموم أى إنسان مثل : ﴿إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩)﴾ [المعارج] ويُراد بها خصوصية لبعض الناس ، كما فى قوله تعالى : ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ .. (٥٤)﴾ [النساء] فالمراد بالناس هنا رسول الله ﷺ[1] .

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (١/٥١٣) : « يعنى بذلك حسدهم النبى ﷺ على ما رزقه الله من النبوة العظيمة ، ومنعهم من تصديقهم إياه حسدهم له لكونه من العرب وليس من بنى إسرائيل » . وقال عكرمة : الناس فى هذا الموضع النبى ﷺ خاصة ، ذكره السيوطى فى الدر المنثور (٢/٥٦٦) .

أو قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣)﴾ [آل عمران] فالمراد : ناسٌ مخصوصون .

والمعنى هنا : ﴿وَيَقُولُ الإِنسَانُ.. (٦٦)﴾ [مريم] أى : الكافر الذى لا يؤمن بالآخرة ، ويستبعد الحياة بعد الموت : ﴿أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا (٦٦)﴾ [مريم] والاستفهام هنا للإنكار ، لكن هذه مسألة الردُّ عليها سَهْل مَيْسور ، فيقول تعالى :

﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا (٦٧)﴾

فلأنْ يُعادَ الإنسانُ من شىء أهونُ من أنْ يعاد من لا شىء ؛ لذلك قال تعالى فى توضيح هذه المسألة : ﴿وَهُوَ الَّذِى يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ .. (٢٧)﴾ [الروم] مع أن الخالق سبحانه وتعالى لا يُقال فى حقه تعالى هَيِّن وأهون ، أو صعب وأصعب ، ولكنه يحدثنا بما نفهم وبما نعلم فى أعرافنا .

ففى عُرْفنا نحن أن تنشىء من موجود أسهل من أنْ تنشىء من عدم ، وإنْ كان فعل العبد يقوم على المعالجة ومزاولة الأسباب ، ففِعْل الخالق سبحانه إنما يكون بقوله للشىء « كُنْ فيكون » .

وفى آية أخرى يقول تعالى : ﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ .. (٢٨)﴾ [لقمان]

ولما سُئِل الإمام على ـ كرَّم الله وجهه : كيف يُحاسِب اللهُ الناسَ جميعاً فى وقت واحد ؟ قال : كما يرزقهم جميعاً فى وقت واحد .

فقوله : ﴿أَوَلا يَذْكُرُ الإِنسَانُ .. (٦٧)﴾ [مريم] أى : لو تذكّر هذه الحقيقة ما كذّب بالبعث ، وقد عولجت هذه المسألة أيضاً فى قوله تعالى : ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨)﴾ [يس]

فلو تذكّر خَلْقه الأول ما ضرب لنا هذا المثل . ثم يأتى الجواب منطقياً : ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩)﴾[يس]

وهنا أيضاً يكون الدليل : ﴿أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا (٦٧)﴾ [مريم]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا (٦٨)﴾

قوله تعالى : ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ .. (٦٨)﴾ [مريم] الحشر : أن يبعثهم الله من قبورهم ، ثم يسوقهم مجتمعين إلى النار هم والشياطين الذين كانوا يُغْرونهم بالمعصية ويُزينونها لهم .

﴿ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا (٦٨)﴾ [مريم] يقال : جثا يجثو فهو جَاثٍ . أى : ينزل على ركبتيه ، وهى دلالة على الذِّلَّة والانكسار والمهانة التى لا يَقْوى معها على القيام .

﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا (٦٩)﴾

النزع : خَلْع الشيء من أصله بشدة ، ولا يقال : نزع إلا إذا كان المنزوع متماسكاً مع المنزوع منه ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ .. (٢٦)﴾ [آل عمران] كأنهم كانوا مُتمسّكين به حريصين عليه .

وقوله : ﴿مِن كُلِّ شِيعَةٍ .. (٦٩)﴾ [مريم] أى : جماعة متشايعون على رأى باطل ، ويقتنعون به ، ويسايرون أصحابه : ﴿أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَـٰنِ عِتِيًّا (٦٩)﴾ [مريم] العتى : هو الذى بلغ القمة فى الجبروت والطغيان ، بحيث لا يقف أحد فى وجهه ، كما قلنا كذلك فى ضفة الكِبَر ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا (٨)﴾ [مريم] لأنه إذا جاء الكبر لا حيلةَ فيه ، ولا يقدر عليه أحد .

ومعلوم أن رسالات السماء لما نزلتْ على أهل الأرض كان هناك أناس يُضارون من هذه الرسالات فى أنفسهم ، وفى أموالهم ، وفى مكانتهم وسيادتهم ، فرسالات الله جاءتْ لتؤكد حقّاً ، وتثبت وحدانية الله ، وسواسية الخَلْق بالنسبة لمنهج الله .

وهناك طغاة وجبّارون وسادة لهم عبيد ، وفى الدنيا القوى والضعيف ، والغنى والفقير ، والسليم والمريض ، فجاءت رسالات السماء لِتُحدِث استطراقاً للعبودية .

فَمن الذى يُضَار ويَغْضَب ويعادى رسالات السماء ؟ إنهم هؤلاء الطغاة الجبارون ، أصحاب السلطة والمال والنفوذ ، ولا بُدَّ أن لهؤلاء أتباعاً يتبعونهم ويشايعونهم على باطلهم .

فإذا كان يوم القيامة ويوم الحساب ، فبمَنْ نبدأ ؟ الأنكَى أن نبدأ بهؤلاء الطغاة الجبابرة ، ونقدم هؤلاء السادة أمام تابعيهم حتى يروهم أذلاء صاغرين ، وقد كانوا فى الدنيا طغاةً متكبرين ، كذلك لنقطع أمل التابعين فى النجاة .

فربما ظَنُّوا أن هؤلاء الطغاة الجبابرة سيتدخلون ويدافعون عنهم ، فقد كانوا فى الدنيا خدمهم ، وكانوا تابعين لهم ومناصرين ، فإذا ما أخذناهم أولاً وبدأنا بهم ، فقد قطعنا أمل التابعين فى النجاة .

وقد ورد هذا المعنى أيضاً في قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ[1] (٨٣) ﴾ [النمل] أى : من كبارهم وطُغَاتهم ، ليرى التابعون مصارع المتبوعين ، ويشهد الضعفاء مصارع الأقوياء ، فينقطع أملهم فى النجاة .

وفى حديث القرآن عن فرعون ، وقد بلغ قمة الطغيان والجبروت حيث ادَّعى الألوهية ، فقال عنه : ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ (٩٨) ﴾ [هود] فهو قائدهم ومقدمتهم إلى جهنم ، كما كان قائدهم إلى الضلال فى الدنيا ، فهو المعلم وهم المقلّدون .

فعليه - إذن - وزْران : وزر ضلاله فى نفسه ، ووزْر إضلاله لقومه ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا .. (٧٩) ﴾ [البقرة]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا (٧٠) ﴾

---

(١) أى : يُكفُّون عن التفرق ويُجمعون فى مكان واحد . [القاموس القويم ٢ / ٣٣٤] .

صلياً : اصطلاء واحتراقاً فى النار من صلَىَ يصلَى : أى دخل النار وذاق حرَّها . أما : اصطلى أى : طلب هو النار ، كما فى قوله تعالى : ﴿لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (٧)﴾ [النمل]

والمعنى : أننا نعرف مَنْ هو أوْلى بدخول النار أولاً ، وكأن لهم فى ذلك أولويات معروفة ؛ لأنهم سيتجادلون فى الآخرة ويتناقشون ويتلاومون وسيدور بينهم مشهد فظيع رَهيب يفضح ما اقترفوه .

فالتابع والمتبوع ، والعابد والمعبود ، كُلٌّ يُلقى باللائمة على الآخر ، اسمعهم وهم يقولون : ﴿رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاْ (٦٧) رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيراً (٦٨)﴾[الأحزاب]

وفى آية أخرى : ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ (١٦٦)﴾ [البقرة]

وصدق الله العظيم حين قال : ﴿الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ (٦٧)﴾ [الزخرف]

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا (٧١)﴾

وهذا خطاب عام لجميع الخلْق دون استثناء ، بدليل قوله تعالى بعدها : ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَواْ .. (٧٢)﴾ [مريم] إذن : فالورود هنا يشمل الأتقياء وغيرهم .

فما معنى الورود هنا ؟ الورود أن تذهب إلى مصدر الماء للسقيا أى : أخْذ الماء دون أنْ تشرب منه ، كما فى قوله تعالى : ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ

وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ .. (٢٣) ﴾ [القصص] أى : وصل إلى الماء .

إذن : معنى : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا .. (٧١) ﴾ [مريم] أى : أنكم جميعاً مُتقون ومجرمون ، ستردُون النار وتروْنها ؛ لأن الصراط الذى يمرُّ عليه الجميع مضروب على مَتْن جهنم .

وقد ورد فى ذلك حديث أبى سعيد الخدرى قال قال ﷺ : « يوضع الصراط بين ظهرانى جهنم ، عليه حسك كحسك السعدان[(١)] ، ثم يستجيز الناس ، فناجٍ مُسلَّم ، ومخدوش به ، ثم ناج ومحتبس به ، ومنكوس[(٢)] ومكدوس فيها »[(٣)] .

فإذا ما رأى المؤمن النار التى نجاه الله منها يحمد الله ويعلم نعمته ورحمته به .

ومن العلماء مَنْ يرى أن ورد أى : أتى الماء وشرب منه ويستدلون بقوله تعالى : ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ .. (٩٨) ﴾ [هود] أى : أدخلهم . لكن هذا يخالف النسق العربى الذى نزل القرآن به ، حيث يقول الشاعر[(٤)] :

وَلَمَّا وَرَدْنَ الماءَ زُرْقاً جِمامُه ... وَضَعْنَا عِصِيَّ الحاضِرِ المتَخَيِّمِ[(٥)]

---

(١) حسك السعدان : قال أبو حنيفة : هى عشبة تضرب إلى الصفرة ، ولها شوك يسمى الحسك أيضاً مدحرج ، لا يكاد أحد يمشى عليه إذا يبس إلا من فى رجليه خف أو نعل . [لسان العرب – مادة : حسك] .

(٢) مكدوس فى النار : مدفوع فيها . وتكدّس الإنسان : إذا دُفع من ورائه فسقط . [اللسان ـ مادة : كدس] والمنكوس : المطأطىء رأسه من الذل والهوان .

(٣) أخرجه ابن ماجة فى سننه (٤٢٨٠) ، والحاكم فى مستدركه (٤/ ٥٨٥) والديلمى فى الفردوس [حديث رقم ٨٨٣٦] .

(٤) هو : زهير بن أبى سُلمى من مُضَر ، حكيم الشعراء فى الجاهلية ، كان أبوه وخاله وابناه كعب وبجير شعراء ، وكذلك أختاه سلمى والخنساء ، وُلد فى بلاد « مُزيْنة » بنواحى المدينة ، توفى عام ١٣ ق . هـ [الأعلام للزركلى ٣/ ٥٢] .

(٥) هذا بيت من معلقة زهير بن أبى سلمى ، قال الزوزنى فى شرحه : للمعلقات السبع ـ ص ١٠٥ ـ طبعة دار الجيل بيروت ١٩٧٩ م : « يقول : فلما وردت هذه الظعائن الماء وقد اشتد صفاء ما جُمع منه فى الآبار والحياض عزمن على الإقامة كالحاضر المبتنى الخيمة » والجمام هو ما اجتمع من الماء فى البئر والحوض أو غيرهما .

أى : حينما وصلوا إلى الماء ضربوا عنده خيامهم ، فساعةَ أنْ وصلوا إليه وضربوا عنده خيامهم لم يكونوا شَربوا منه ، أو أخذوا من مائه ، فمعنى الورود أى : الوصول إليه دون الشُّرب من مائه .

وأصحاب هذا الرأى الذين يقولون ﴿وَارِدُهَا (٧١)﴾ [مريم] أى : داخلها يستدلون كذلك بقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا (٧٢)﴾ [مريم] يقولون : لو أن الورود مجرد الوصول إلى موضع الماء دون الشرب منه أو الدخول فيه ما قال تعالى : ﴿ وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا (٧٢)﴾ [مريم] ولَقال : ثم يُنجِّى اللهُ الذين اتقوا ويُدخل الظالمين .. لكن ﴿وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ (٧٢)﴾ [مريم] فيها الدليل على دخولهم جميعاً النار .

فعلى الرأى الأول : الورود بمعنى رؤية النار دون دخولها ، تكون الحكمة منه أن الله تعالى يمتنُّ على عباده المؤمنين فيُريهم النار وتسعيرها ؛ ليعلموا فضل الله عليهم ، وماذا قدَّم لهم الإيمان بالله من النجاة من هذه النار ، كما قال تعالى : ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ (١٨٥)﴾ [آل عمران]

ويمكن فَهْم الآية على المعنى الآخر : الورود بمعنى الدخول ؛ لأن الخالق سبحانه وتعالى خلق الأشياء ، وخلق لكل شىء طبيعةً تحكمه ، وهو سبحانه وحده القادر على تعطيل هذه الطبيعة وسلبها خصائصها .

كما رأينا فى قصة إبراهيم عليه السلام ، فيكون دخول المؤمنين النارَ كما حدث مع إبراهيم ، وجَعْلها الله تعالى عليه بَرْداً وسلاماً ، وقد مكَّنهم الله منه ، فألقوه فى النار ، وهىَ على طبيعتها بقانون الإحراق فيها ، ولم يُنزل مثلاً على النار مطراً يُطفئها ليوفر لهم كل أسباب الإحراق ، ومع ذلك ينجيه منها لتكون المعجزة ماثلةً أمام أعينهم .

وكما سلب الله طبيعة الماء فى قصة موسى عليه السلام فتجمد وتوقفت سيولته ، حتىٰ صار كل فرْقٍ كالطوْد العظيم ، فهو سبحانه القادر على تغيير طبائع الأشياء . إذنً : لا مانع من دخول المؤمنين النارَ على طريقة إبراهيم عليه السلام ﴿قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰٓ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾ [الأنبياء]

ثم يُنجِّى الله المؤمنين ، ويترك فيها الكافرين ، فيكون ذلك أنْكَى لهم وأغيظ .

ثم يقول تعالى : ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾﴾ [مريم] الحتْم : هو الشىء الذى يقع لا محالةَ ، والعبد لا يستطيع أنْ يحكم بالحتمية على أىّ شىء ؛ لأنه لا يملك المحتوم ولا المحتوم عليه . فقد تقول لصديقك : أحتم عليك أنْ تزورنى غداً ، وأنت لا تملك من أسباب تحقيق هذه الزيارة شيئاً ، فمَنْ يدريك أن تعيشَ لغد ؟ ومَنْ يدريك أن الظروف لن تتغير وتحُول دون حضور هذا الصديق ؟

إذن : أنت لا تحتم على شىء ، إنما الذى يُحتِّم هو القادر على السيطرة على الأشياء بحيث لا يخرج شىء عن مراده .

فإنْ قلتَ : فمَن الذى حتَّم على الله ؟ حتَّم الله على نفسه تعالى ، وليست هناك قوة أخرى حتَّمتْ عليه ، كما فى قوله تعالى : ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأنعام]

ثم يؤكد هذا الحتم بقوله : ﴿ مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾﴾ [مريم] أى : حكم لا رجعةَ فيه ، وحُكْم الله لا يُعدِّله أحد ، فهو حكم قاطع . فمثلاً : حينما قال كفار مكة لرسول الله ﷺ : نعبد إلهك سنة وتعبد إلهنا سنة ، يريدون أنْ يتعايش الإيمان والكفر .

لكن الحق - تبارك وتعالى - يريد قَطْع العلاقات معهم بصورة نهائية قطعية ، لا تعرف هذه الحلول الوسط ، فقال سبحانه[١] :

﴿قُلْ يَـٰأَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾﴾ [الكافرون]

وقَطْع العلاقات هنا ليس كالذى نراه مثلاً بين دولتين ، تقطع كل منهما علاقتها سياسياً بالأخرى ، وقد تحكم الأوضاع بعد ذلك بالتصالح بينهما والعودة إلى ما كانا عليه ، إنما قَطْع العلاقات مع الكفار قَطْعاً حتمياً ودون رجعة ، وكأنه يقول لهم : إياكم أنْ تظنوا أننا قد نعيد العلاقات معكم مرة أخرى ؛ لذلك تكرَّر النفى فى هذه السورة ، حتى ظنّ البعض أنه تكرار ؛ ذلك لأنهم يستقبلون القرآن بدون تدبُّر .

فالمراد الآن : لا أعبد ما تعبدون ، ولا أنتم عابدون ما أعبد ، وكذلك فى المستقبل : ولا أنا عابد ما عبدتم ، ولا أنتم عابدون ما أعبد . فلن يُرغمنا أحد على تعديل هذا القرار أو العودة إلى المصالحة .

لذلك أتى بعد سورة (الكافرون) سورة الحكم[٢] : ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ..﴿١﴾﴾ [الإخلاص] فلا ثانىَ له يُعدِّل عليه ، فكلامه تعالى وحكمه

---

(١) قال الواحدى فى « أسباب النزول » (ص ٢٦١) : « نزلت فى رهط من قريش قالوا : يا محمد هلم ، اتبع ديننا ونتبع دينك ، تعبد آلهتنا سنة ، ونعبد إلهك سنة ، فإن كان الذى جئت به خيراً مما بأيدينا قد شركناك فيه وأخذنا بحظنا منه ، وإن كان الذى بأيدينا خيراً مما فى يدك قد شركت فى أمرنا وأخذت بحظك ، فقال : معاذ الله أن أشرك به غيره » .

(٢) هى : سورة الإخلاص . قال السيوطى فى « الإتقان فى علوم القرآن » (١/١٥٩) : « تسمَّى الأساس ، لاشتمالها على توحيد الله وهو أساس الدين » .

نهائى وحَتْماً مقضياً لا رجعةَ فيه ولا تعديل .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾

جِثِياً : من جَثَا يجثُو أى : قعد على رُكَبه دلالة على المهانة والتنكيل . ثم ينقلنا الحَق سبحانه إلى لقطة أخرى ، فيقول :

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾﴾

هذا حوار دار بين المؤمنين والكافرين ، المؤمنين وكانوا عادةً هم الضعفاء الذين لا يقدرون حتى على حماية أنفسهم ، وليس لهم جاه ولا سيادة يحافظون عليها ، وجاء منهج الله فى صالحهم يُسوِّى بين الناس جميعاً : السادة والعبيد ، والقوى والضعيف .

فطبيعى أنْ يُقابلَ هذا الدين بالتكذيب من كفار مكة ، أهل الجاه والسيادة ، وأهل القوة الذين يأخذون خَيْر الناس من حولهم ، أما الضعفاء فقد آمنُوا بدين الله فى وقت لم يكن لديهم القوة الكافية لحماية أنفسهم ، فعندما نزل قَوْل الحق - تبارك وتعالى - : ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ [القمر]

قال عمر - رضى الله عنه - وما أدراك مَنْ هو عمر ؟ قال[1] : أىّ جمع هذا ؟ وأىُّ هزيمة ، ونحن غير قادرين على حماية أنفسنا ؟

---

(١) أورد ابن كثير فى تفسيره وعزاه لابن أبى حاتم (٤/٢٦٦) عن عكرمة قال : « لما نزلت : ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ [القمر] قال عمر : أى جمع يُهزم ؟ أى جمع يُغلب ، قال عمر : فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ يثب فى الدرع وهو يقول : « سيهزم الجمع ويولون الدبر » فعرفت يومئذ تأويلها .

وفى هذه الآونة ، يأمر رسول الله ﷺ المؤمنين المستضعفين بالهجرة إلى الحبشة وإلى المدينة . فلما جاء نصر الله للمؤمنين ، وتأييده لهم فى بدر . قال عمر : صدق الله : ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥)﴾ [القمر]

وفى هذا الحوار يُعيِّر الكفار المؤمنين بالله : ماذا أفادكم الإيمان بالله وها أنتم على حال من الضعف والهوان والذِّلَّة وضيق العيش ؟ أيرضى رَبٌّ أن يكون المؤمنون به على هذه الحال ، وأعداؤه والكافرون به هم أهل الجاه والسيادة وسَعَة الرزق ؟

وهكذا فتَن الله بعضهم ببعض ، كما قال سبحانه : ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ (٥٣)﴾ [الأنعام]

فالمؤمن والكافر ، والغنى والفقير ، والصحيح والمريض ، كُلٌّ منهم فتنة للآخر ليُمحِّص الله الإيمان ، ويختبر اليقين فى قلوب المؤمنين ؛ لأن الله تعالى يعدهم لحمل رسالته ﷺ إلى الدنيا كلها فى جميع أزمنتها وأماكنها ، فلا بُدَّ أن يختار لهذه المهمة أقوياء الإيمان الذين يدخلون الإسلام ، ليس لمغنم دنيوى ، بل لحمل رسالته والقيام بأعبائه ، فهذا هو المؤمن المؤتمن على حَمْل منهج الله .

ومن ذلك ما نراه من أن مناهج الباطل فى الدنيا مَنْ يدعو إليها يرشو المدعو ويعطيه ، أمّا منهج الله فيأخذ منه ليختبره وليُمحصه .

فكيف يكون الغنى فتنة للفقير ، والفقير فتنة للغنى ؟ الغنى مفتون بالفقير حيث هو فى سَعَة من العيش والفقير فى ضيق ، الغنى يأكل حتى التُّخمة والفقير جائع ، ويرتدى الغنى الفاخر من الثياب والفقير عريان . فهل سيعرف نعمة الله عليه ويؤدى حقها ؟

والفقير مفتون بالغنى حين يراه على هذه الحال ، فهل سيصبر

على هذه الشدة ؟ أم سيعترض على ما قدَّره الله له ، ويحقد على الغنىّ ؟

ولو علم الفقير أن الفقر درس تدريبى أُجْرِى لجنود الحق الذين يحملون منهج الله إلى خَلْق الله فى كل زمان ومكان ، وأن هذه قسمة الله بين خَلْقه لَمَا اعترض على قسمة الله ، ولَمَا حقد على صاحب الغنى .

وكذلك يُفتَن الصحيح بالمريض والمريض بالصحيح ، فالصحيح يعيش مع نعمة الله بالعافية ، أما المريض فيعيش مع المنعم سبحانه ، كما جاء فى الحديث القدسى : « يا ابْن آدم ، مرضْتُ فلم تعُدْنى . فيقول : وكيف أعودك وأنت ربّ العالمين ؟ قال : أما علمتَ أن عبدى فلاناً مرض فلم تَعُدْه ؟ أما علمت أنك لو عُدَّته لوجدتنى عنده »[1]

لذلك ترى أهل الأمراض من المؤمنين يتألم زُوَّارهم من أمراضهم ، فى حين أنهم فى أُنْس بالله يشغلهم عن أمراضهم وعن آلامهم ، ومَن الذى يزهد فى معية الله ؟ إذن : لو حقد المريض على السليم فهو مفتون به ، وكان يجب عليه أن يعلم : إنْ كان الصحيح فى معية النعمة فهو فى معية المنعم سبحانه وتعالى .

وسيدنا نوح - عليه السلام - بعد أن لبث يدعو قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً كان جواب قومه : ﴿ وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا[2] بَادِيَ الرَّأْيِ..(٢٧) ﴾ [هود] فكان أتباع نوح فى نظرهم حثالة القوم ، ثم حاولوا أنْ يُغروه بهم ليطردهم ، فهم ضعاف لا جاهَ لهم ولا

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٤/١٩٩٠) ، والبخارى فى الأدب المفرد (٥١٧) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

(٢) أى : أفقرنا وأحقر الناس فى نظرنا [القاموس القويم ١/٢٦٣] . قال ابن كثير فى تفسيره (٢/٤٤٢) : « ما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا كالباعة والحاكة وأشباههم ولم يتبعك الأشراف ولا الرؤساء منا ، ثم هؤلاء الذين اتبعوك لم يكن عن تروّ منهم ولا فكر ولا نظر بل بمجرد ما دعوتهم أجابوك فاتبعوك » .

سلطان ، فما كان منه إلا أنْ قال : ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُم مُّلاقُوا رَبِّهِمْ (٢٩)﴾ [هود]

وقال فى آية أخرى : ﴿وَلا أَقُولُ لَكُمْ عندى خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِى أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِى أَنفُسِهِمْ إِنِّى إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ (٣١)﴾ [هود]

فعلى مَرِّ الأزمان واختلاف الرسالات كان الكفار تزدرى أعينهم الفقراء والضعفاء المؤمنين ، ويحاولون طردهم وإخراجهم من ديارهم ، ألم يقل الحق - تبارك وتعالى - لرسوله ﷺ : ﴿وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ (٥٢)﴾ [الأنعام]

وهكذا جاءت اللقطة التى معنا : ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا (٧٣)﴾ [مريم]

قوله : ﴿آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ (٧٣)﴾ [مريم] الآيات : جمع آية وهى الشىء العجيب الذى يتحدث به ، وتُطلق ـ كما قلنا ـ على الآيات الكونية التى تثبت قدرة الله تعالى ، وتلفتنا إلى بديع صُنْعه كآيات الليل والنهار والشمس والقمر ، وتُطلق على المعجزات التى تُثبت صِدْق الرسول ، كما جاء فى قوله تعالى :

﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً (٩٣)﴾ [الإسراء]

كما تُطلق الآيات على آيات القرآن التى تحمل الأحكام ، وهذه هى المرادة هنا ؛ لأن آيات القرآن تنطوى فيها كل الآيات .

وقوله : ﴿ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ .. (٧٣) ﴾ [مريم] أى : لقد ارتضينا حكمكم فى هذه المسألة : نحن الكفار فى سَعَة ، وأنتم يا أهلَ الإيمان فى ضيق ، فأىّ الفريقين خير مقاماً ؟ والله بمقاييسكم أنتم . فأنتم خير ، أمّا بمقياس الأعلى والأبقى فنحن .

والمقام ـ بفتح الميم : اسم لمكان قيامك من الفعل : قام .

أما « مُقام » بضم الميم ، فمنْ أقام . والمراد هنا ﴿خَيْرٌ مَّقَامًا(٧٣)﴾ [مريم] أى : مكاناً يقومَ فيه على الآخر أى : بيت كبير وأثاث ومجلس يتباهى به على غيره.

﴿ وَأَحْسَنُ نَدِيًّا(٧٣) ﴾ [مريم] الإنسان عادةً له بيت يَأويه ، وله مجلس يَأوى إليه ، ويجلس فيه مع أصحابه وأحبابه يُسمُّونه « حجرة الجلوس » أو « المندرة » ، وفيها يجلس كبير القوم ومن حوله أهله وأتباعه ، كما نقول فى العامية : (عامل قعر مجلس) ؛ لذلك إذا قام انفضَّ المجلس كله ؛ لأنهم تابعون له ، كما قال الشاعر :

وانفضَّ بَعْدَكَ يَا كُلَيْبُ المجلسُ[1]

وهناك النادى ، وهو المكان الذى يجتمع فيه عظماء القوم والأعيان ، بدل أنْ يكون لكل منهم مجلسه الخاص ، كما نرى الآن : نادى الرياضيين ونادى القضاة .. إلخ إذن : فالنادى دليلٌ على أنهم متفقون ومتكاتفون ومتكتلون ضد الإسلام وضد الحق .

---

(١) أورده أبو على القالى البغدادى فى كتابه « الأمالى » (١/١٢٧) من شعر مُهَلْهِل ، أنه قال : نُبِّئْتُ أن النارَ بعدكَ أُوقِدَتْ واستبّ بعدك يا كليبُ المجلسُ
وهو من بحر الكامل .

ومن ذلك قول الحق تبارك وتعالى : ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ (١٧)﴾ [العلق]
ومن ذلك ما كان يُسمَّى قبل الإسلام « دار الندوة » ، وكانوا يجتمعون فيها ليدبروا المكائد لرسول الله ﷺ .

ومن النادى ما كان مأخوذاً لعمل المنكر والفاحشة والعياذ بالله ، فيجتمعون فيه لكُلِّ ما هو خبيث من شُرْب الخمر والرقص والفواحش ، كما فى قَوْل الحق ـ تبارك وتعالى ـ : ﴿.. وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ .. (٢٩)﴾ [العنكبوت]

وفى هذا دليل على شيوع الفاحشة والقحَة بين القادرين والمجاهرة بها ، فلم يكونوا يقترفونها سِراً ، بل فى جَمْعَ من رُوَّاد هذه الأماكن .

والنادى أو المنتدَى مأخوذ من النَّدَى أى : الكرم ، ولما مدحَتْ المرأة العربية زوجها قالت :رَفيع العِماد ، كثير الرماد ، قريب البيت من الناد[1]

والمعنى : أن بيته أقرب البيوت إلى النادى ، فهو مَقْصد الناس فى قضاء حاجياتهم .

إذن : كان قول الكفار للمؤمنين : ﴿ أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا (٧٣)﴾ [مريم] موضع فتنة للفريقين ، فقال المؤمنون : ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ (١١)﴾ [الأحقاف] وقال الكفار : ما دام أن الله حبانا فى

---

(١) هذا حديث أم زرع أخرجه البخارى فى صحيحه (٥١٨٩) ومسلم (٢٤٤٨) كتاب فضائل الصحابة أن عائشة قالت : « جلس إحدى عشرة امرأة فتعاهدن وتعاقدن أن لا يكتمن من أخبار أزواجهن شيئاً » حديث طويل . قال ابن حجر فى الفتح (٩/٢٦٥) : « وصفته بالشرف فى قومه ، فهم إذا تفاوضوا واشتوروا فى أمر أتوا فجلسوا قريباً من بيته فاعتمدوا على رأيه وامتثلوا أمره . أو : أنه وضع بيته فى وسط الناس ليسهل لقاؤه ، ويكون أقرب إلى الوارد وطالب القِرَى » .

الدنيا وهو الرزاق ، فلابد أنْ يَحْبُونَا فى الآخرة ، لكن لم تتعرض الآيات للقول المقابل من المؤمنين ، إنما جاء الرد عليهم من طريق آخر ، فقال تعالى :

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِءْيًا (٧٤)﴾ (١)

كم : خبرية تدل على الكثرة التى لا تُحصَى ، وأن المقول بعدها وقع كثيراً ، كأن يقول لك صاحبك : أنت ما عملتَ معى معروفاً أبداً ، فتُعدِّد له صنائع المعروف التى أسديتها إليه ، فتقول : كم فعلتُ معك كذا ، وكم فعلتُ كذا .

والقرن : هم الجماعة المتعايشون زماناً ، بحيث تتداخل بينهم الأجيال ، فترى الجدَّ والأب والابن والحفيد معاً ، وقد قدَّروا القرن بمائة عام . كما يُطلَق القرن على الجماعة الذين يجتمعون على مُلك واحد ، أو رسالة واحدة مهما طال زمنهم كقوم نوح مثلاً .

والأثاث : هو فراش البيت ، وهذا أمر يتناسب وإمكانات صاحبه .

والرِّئْى : على وزن فِعْل ، ويراد به المفعول أى : المرئى ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧)﴾ [الصافات] فذبْح بمعنى : مذبوح .

---

(١) الأثاث : المال الكثير أو متاع البيت لا واحد له من لفظه ، وقيل : واحدته أثاثة [القاموس القويم ١/٦] .

وورد فى قراءة أخرى[١]: (أحْسَنُ أثَاثاً وزِيّاً) وهى غير بعيدة عن المعنى الأول ؛ لأن الزىّ أيضاً من المرئى ، إلا أنه يتكوّن من الزى والذى يرتديه ، والمراد هنا جمال الشكل والهيئة ونضارة الشخص وهندامه ، وقد افتخر الكفار بذلك ، فى حين كان المؤمنون شُعْثاً غُبْراً يرتدون المرقَّع والبالى من الثياب .

وقد جاء الاختلاف فى بعض ألفاظ القرآن من قراءة لأخرى ؛ لأن القرآن الكريم دُوِّن أول ما دُوِّن غير منقوط ولا مشكول اعتماداً على ملَكَة العربى وفصاحته التى تُمكِّنه من توجيه الحرف حَسْب المعنى المناسب للسياق ، وظل كذلك إلى أن وضع له العلماء النقاط فوق الحروف فى العصر الأموى . فمثلاً النَّبْرة فى كلمة دون نقط يحتمل أنْ تُقرأ من أعلى : نون أو تاء أو ثاء . ومن أسفل تُقرأ : باء أو ياء .

والعربى لمعرفته بمواقع الألفاظ يستطيع تحديد الحرف المراد ، فكلمة (رئْيَا) تقرأ (زيا) والمعنى غير بعيد .

ومن ذلك كلمة ﴿ فَتَبَيَّنُوا ﴿٩٤﴾ ﴾ [النساء] قرأها بعضهم (فتثبتوا) وكلمة ﴿ صِبْغَةً ﴿١٣٨﴾ ﴾ [البقرة] قرأها بعضهم (صنعة) ، ودليل فصاحتهم أن الاختلاف فى مثل هذه الحروف لا يؤدى إلى اختلاف المعنى .

لذلك ، كان العربى قديماً يغضب إنْ كُتِب إليه كتاب مُشكل ، لأن تشكيل الكلام كأنه اتهام له بالغباء وعدم معرفته باللغة . ومن هنا وجدنا العلماء الذين وضعوا قواعد اللغة ليسوا من العرب ؛ لأن العربى فى هذا الوقت كان يستنكف أن يضع للغة قواعد ، فهى بالنسبة له

---

(١) هى قراءة ابن عباس وأُبىّ بن كعب وسعيد بن جبير والأعسم المكى . قال القرطبى فى تفسيره (٦/٤٣١٥) : « هو الهيئة والحسن ، ويجوز أن يكون من زويت أى : جمعت ، فيكون أصلها زويا فقلبت الواو ياء » .

ملَكَة معروفة لا تحتاج إلى دراسة أو تعليم . أما الأعاجم فلما دخلوا الإسلام ما كان لهم أنْ يتعلَّموا لغته إلا بهذه الدراسة لقواعدها .

والحق تبارك وتعالى يقول هنا : ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾﴾ [مريم] لأنهم قالوا : ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾﴾ [مريم] يريد أنْ يُدلِّل على أنهم حمْقَى لا ينظرون إلى واقع الحياة ليروا عاقبة مَنْ كانوا أعزَّ منهم مكاناً ومكانة ، وكيف صار الأمر إليهم؟

الحق ـ تبارك وتعالى ـ يردُّ على الكفار ادعاءهم الخيرية على المؤمنين ، فهذه الخيرية ليستْ بذاتيتكم ، بل هى عطاء من الله وفتْنة ، حتى إذا أخذكم أخذكم عن عزَّة وجاه ؛ ليكون أنكى لهم وأشدَّ وأغيظ ، أما إنْ أخذهم على حال ذِلَّة وهَوَان لَمْ يكن لأخذه هذا الأثر فيهم .

فالحق سبحانه يُملى لهم بنعمه ليستشرفوا الخير ثم يأخذهم ، على حَدِّ قول الشاعر[1] :

كَمَا أبرقَتْ قَوْماً عِطَاشاً غَمامَةٌ فلَمَّا رأوْهَا أَقْشَعَتْ وتجلَّتِ[2]

فأطمعهم فى البداية ، ثم أخذهم وخيَّب آمالهم فى النهاية .

وضربنا لذلك مثلاً بالأسير الذى بلغ به العطش مَبْلغاً ، فطلب الماء ، فجاءه الحارس بالماء حتى كان على فيه ، واستشرف الرىَّ منعه وحرمه لتكون حسرته أشد ، وألمُه أعظم ، ولو لم يأته بالماء لكان أهونَ عليه .

---

(١) هو : كثير بن عبد الرحمن أبو صخر الخزاعى ، شاعر متيم مشهور ، من أهل المدينة أكثر إقامته بمصر ، كان مفرط القصر دميماً ، فى نفسه شمم وترفع ، يقال له « كثير عزة » وهى عزة بنت جميل الضمرية ، كان عفيفاً فى حبه لها . توفى عام (١٠٥هـ) . الأعلام للزركلى (٥/٢١٩) .

(٢) ديوان كثير (ص ١٠٧) وأورده شهاب الدين الحلبى (ت ٧٢٥ هـ) فى « حسن التوسل إلى صناعة الترسل » (ص ١٢١) . وأقشعت الغمامة : انكشفت وذهبت .

إذن : حينما تُجرون مُقارنة بينكم وبين المؤمنين وتُعيِّرونهم بما معكم من زينة الدنيا ، فقد قارنتم الوسائل وطرحتُم الغايات ، ومن الغباء أنْ نهتم بالوسائل وننسى الغايات ، فلكى تكون المقارنةُ صحيحة فقارنوا حالكم بحال المؤمنين ، بداية ونهاية .

ومثال ذلك : فلاح مجتهد فى زراعته يعتنى بها ويُعفِّر نفسه من تراب أرضه كل يوم ، وآخر ينعَم بالثياب النظيفة والجلوس على المقهى والتسكع هنا وهناك ، وينظر إلى صاحبه الذى أجهده العمل ، ويرى نفسه أفضل منه ، فإذا ما جاء وقت الحصاد وجد الأولُ ثمرة تعبه ونتيجة مجهوده ، وجلس الآخر حزيناً محروماً . فلا بُدَّ أن تأخذ فى الاعتبار عند المقارنة الوسائل مع الغايات .

لذلك وُفِّق الشاعر حين قال :

أَلاَ مَنْ يُرِينِى غَايَتِى قَبْلَ مذْهَبِى ومِنْ أيْنَ والغَايَاتُ بَعْدَ المذَاهِبِ ؟

وقد عزل الكفار الوسيلة فى الدنيا عن الغاية فى الآخرة ، فتباهوا وعَيَّروا المؤمنين : ﴿ أَىُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا (٧٣) ﴾ [مريم]

وفى قصة سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ : ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ (٢٤)﴾ [العنكبوت]

وهكذا اتفقوا على الإحراق ، ونجَّى الله نبيه وخيَّب سَعْيهم ، ثم كانت الغاية فى الآخرة :﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ (٢٥)﴾ [العنكبوت]

فكان عليهم ألاَّ ينظروا إلى الوسيلة منفصلةً عن غايتها .

وهنا يردُّ الحق ـ تبارك وتعالى ـ على هؤلاء المغترِّين بنعمة الله :

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِءْيًا (٧٤) ﴾ [مريم] وكما قال فى آيات أخرى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (٨) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا[1] الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (١٠) ﴾ [الفجر]

وهلاك هؤلاء وأمثالهم سَهْل لا يكلف الحق سبحانه إلا أنْ تهُبَّ عليهم عواصف الرمال ، فتطمس حضارتهم ، وتجعلهم أثراً بعد عَيْن .

فدعاهم إلى النظر فى التاريخ ، والتأمّل فى عاقبة أمثالهم من الكفرة والمكذبين ، وما عساه أنْ يُغنى عنهم من المقام والندىّ الذى يتباهون به ، وهل وسائل الدنيا هذه تدفع عنهم الغاية التى تنتظرهم فى الآخرة ؟

وكأن الحق ـ تبارك وتعالى ـ لا يردّ عليهم بكلام نظرى يقول : إن عاقبتكم كذا وكذا من العذاب ، بل يعطيهم مثالاً من الواقع .

ويخاطب نبيه ﷺ بقوله : ﴿ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ (٧٧) ﴾ [غافر] أى : من القهر والهزيمة والانكسار ﴿ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٧٧) ﴾ [غافر] فمَنْ أفلت من عذاب الدنيا ، فلن يفلت من عذاب الآخرة .

والقرآن حين يدعوهم إلى النظر فى عاقبة من قبلهم ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ (٧٤) ﴾ [مريم] فإنما يحثُّهم على أخْذ العِبْرة والعظَة ممَّنْ سبقوهم ، ويستدل بواقع شىء حاضر على صِدْق غَيْب آت ، فالحضارات التى سبقتهم والتى لم يوجد مثلها فى البلاد ، وكان من

(١) جابه يجوبه : قطعه . أى : أن ثمود قطعوا الصخر ونحتوه وصنعوا منه بيوتهم وأصنامهم . [القاموس القويم ١/١٣٥] .

صفاتها كذا وكذا ، ماذا حدث لهم ؟ فهل أنتم أشدّ منهم قوة ؟ وهل تمنعون عن أنفسكم ما نزل بغيركم من المكذِّبين ؟

هذا من ناحية الواقع ، أما الغيب فيعرض له القرآن فى مشهد آخر ، حيث يقول تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٣٠) وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ (٣١) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَـٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ (٣٢) وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ (٣٣)﴾ [المطففين]

هذا المشهد فى الدنيا ، فما بالهم فى الآخرة ؟ : ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٣٤) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ (٣٥)﴾ [المطففين]

ثم يخاطب الحق ـ سبحانه وتعالى ـ المؤمنين فيقول : ﴿هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦)﴾ [المطففين]

يعنى : بعد ما رأيتموه من عذابهم ، هل قدرنا أنْ نُجازيهم عَمَّا فعلوه بكم من استهزاء فى الدنيا ؟ وعلى كُلٍّ فإن استهزاءهم بكم فى الدنيا موقوت الأجل ، أما ضِحْككم الآن عليهم فأمر أبدىّ لا نهايةَ له . فأىُّ الفريقين خَيْر إذن ؟

فإياكم أنْ تغرّكم ظواهر الأشياء ، أو تخدعكم بَرقات النعيم وانظروا إلى الغايات والنهايات ؛ لذلك يقول سبحانه :

﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ[1] الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا (٤٦)﴾ [الكهف]

---

(١) اختلفت أقوال العلماء فى ماهية الباقيات الصالحات على أقوال ، ذكرها ابن كثير فى تفسيره (٣/٨٥ - ٨٧) :

- قال ابن عباس : هى الصلوات الخمس ، وفى قول له : هى الكلام الطيب .
- قال مجاهد : هى سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر .
- وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : هى الأعمال الصالحة كلها .

وفى سورة الأعراف لقطة أخرى من مواقف القيامة ، حيث يقول أصحاب الأعراف لأهل النار : ﴿ مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ (٤٨) ﴾ [الأعراف] ثم يلتفتون إلى المؤمنين فى الجنة : ﴿ أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ (٤٩) ﴾ [الأعراف] فأين أنتم منهم الآن ؟

﴿ قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا (٧٥) ﴾

قوله : (قل) أمر لرسوله ﷺ : ﴿ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ مَدًّا (٧٥) ﴾ [مريم] أى : يُمهله ويستدرجه ؛ لأنه رَبٌّ للجميع ، وبحكم ربوبيته يعطى المؤمن والكافر ، وكما يعين المؤمن بالنصر ، كذلك يعين الكافر بمراده ، كما فى قوله تعالى : ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا (١٠) ﴾ [البقرة]

لأنهم ارتاحوا إليه ، ورَضُوا به ، وطلبوا منه المزيد .

﴿ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ (٧٥) ﴾ [مريم] أى : فى الدنيا وزينتها ، كما قال : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ (٢٠) ﴾ [الشورى]

وفى موضع آخر يقول : إياك أنْ تعجبك أموالهم وأولادهم ؛ لأنها فتنة لهم ، يُعذِّبهم بها فى الدنيا بالسَّعْى فى جمع الأموال وتربية الأولاد ، ثم الحسرة على فقدهما ، ثم يُعذِّبهم بسببها فى الآخرة : ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (٥٥) ﴾ [التوبة]

ثم يقول تعالى : ﴿حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ.. (٧٥)﴾ [مريم]

العذاب : عذاب الدنيا . أى : بنصر المؤمنين على الكافرين وإهانتهم وإذلالهم ﴿وَإِمَّا السَّاعَةَ (٧٥)﴾ [مريم] أى : ما ينتظرهم من عذابها ، وعند ذلك: ﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا (٧٥)﴾ [مريم] لكنه علْم لا يُجدى ، فقد فات أوانه ، فالموقف فى الآخرة حيث لا استئناف للإيمان ، فالنكاية هنا أعظم والحسرة أشدّ .

لكن ، ما مناسبة ذكر الجند هنا والكلام عن الآخرة ؟ وماذا يُغنى الجند فى مثل هذا اليوم ؟ قالوا : هذا تهكُّم بهم كما فى قوله تعالى : ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ[1] وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ (٢٣)﴾ [الصافات] ، فهل أَخْذهم إلى النار هداية ؟

ثم يلتفت إليهم : ﴿مَا لَكُمْ لا تَنَاصَرُونَ (٢٥) بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (٢٦) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٧) قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ (٢٨) قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٢٩) وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ (٣٠)﴾ [الصافات]

أى : لم نُجبركم على شىء ، مجرد أنْ أشرَكْنَا لكم أطعتمونا .

لذلك ، سيقولون فى موضع آخر : ﴿رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الأَسْفَلِينَ (٢٩)﴾ [فصلت]

---

(١) قال عمر بن الخطاب فى تأويل هذه الآية : احشروا أمثالهم الذين هم مثلهم ، يجىء أصحاب الربا مع أصحاب الربا ، وأصحاب الزنا مع أصحاب الزنا ، وأصحاب الخمر مع أصحاب الخمر ، أزواج فى الجنة ، وأزواج فى النار . أورده السيوطى فى الدر المنثور (٧/٨٣) وعزاه لعبد الرزاق والفريابى وابن أبى شيبة وابن منيع فى مسنده وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقى فى البعث .

﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾﴾

قلنا : إن للهداية معنيَيْن : هداية بمعنى الدلالة على الخير وبيان طريقه ، وهداية المعونة والتوفيق للإيمان ، فمَنْ صدّق فى الأُولى أعانه الله على الأخرى ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾﴾ [محمد]

وقوله تعالى : ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾﴾ [مريم] الباقيات الصالحات : هى الأعمال الصالحة التى كانت منك خالصةً لوجه الله : ﴿خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾﴾ [مريم] هذه هى الغاية التى ننتظرها ونسعى إليها ، فساعةَ أنْ تقارن السُّبل الشاقة فاقْرِنها بالغاية المسعدة ، فيهون عليك عناء العبادة ومشقّة التكليف .

وقوله : ﴿وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾﴾ [مريم] أى : مرجعاً تُرَدُّ إليه .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾﴾

نلاحظ هنا أن القرآن لم يذكر لنا هذا الشخص الذى قال هذه

---

(١) **سبب نزول الآية** : عن خباب بن الأرت قال : كان لى دين على العاص بن وائل فأتيته أتقاضاه فقال : لا والله حتى تكفر بمحمد ، قلت : لا والله لا أكفر بمحمد حتى تموت ثم تبعث ، قال : إنى إذا متُّ ثم بُعثت جئتنى وسيكون لى ثَمَّ مال وولد فأعطيك فأنزل الله تعالى هذه الآية . أخرجه الواحدى النيسابورى فى أسباب النزول (ص ١٧٣) ، وأخرجه مسلم فى صحيحه (٢٧٩٥) كتاب صفات المنافقين .

المقـولة ولم يُعيِّنه ، وإنْ كـان معلومـاً لرسول الله الذى خُـوطب بهذا الكلام ؛ وذلك لأن هذه المـقـولة يمـكن أنْ تُقـال فى زمـاننا وفى كل زمان ، إذنْ : فليس المهم الـشخص بل القول نفسه . وقـد أخبر عنه أنه أمية بن خلف ، أو العاصى بن وائل السَّهْمى .

وقوله تـعالى : ﴿أَفَرَءَيْتَ (٧٧)﴾ [مريم] يعنى : ألم تَرَ هذا ، كأنه يستدلّ بالذى رآه على هذه القضية ﴿الَّذِى كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَدًا (٧٧)﴾ [مريم] ويروى أنه قال : إنْ كان هناك بَعْثٌ فسوف أكون فى الآخرة كما كنت فى الدنيا ، صاحبَ مال وولد .

كما قال صاحب الجنة لأخيه : ﴿ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا (٣٦)﴾ [الكهف]

والإنسـان لا يعتـزّ إلا بمـا هو ذاتىّ فـيه ، وليس لـه فى ذاتيتـه شىء ، وكـذلك لا يعتـز بنعمـة لا يقدر على صـيانتـها ، ولا يصـون النعمة إلا المنعِم الوهاب سبحانه إذن : فلِمَ الاغترار بها ؟

لذلك يقـول الحق سبـحانه وتعـالى : ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا[1] فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ[2] مَّعِينٍ (٣٠)﴾ [الملك]

ويقول : ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ اللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٨)﴾ [الملك]

ثم يردُّ الحق ـ تبارك وتعالى ـ على هذه المقولة الكاذبة :

﴿أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا (٧٨)﴾

---

(١) غار الماء : ذهب فى الأرض . فـهو الذهاب والضياع النهائى فلا أمل فى عـودته للحديقة . [القاموس القويم ٢/٦٣] .

(٢) المـعين : المـاء المـعيـون أى : المنظور بالعـين الذى تراه العيـن ظاهراً يجرى على وجـه الأرض . [القاموس القويم ٢/٤٦] .

يعنى : أَقُلْتَ هذا القول مُتطوِّعاً به من عند نفسك ، أم اطلعتَ على الغيب ، فعرفتَ منه ما سيكون لك فى الآخرة : ﴿ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا (٧٨) [مريم] أى : أعطاه الله تعالى عهداً بأن يكون له فى الآخرة كما له فى الدنيا ، فإمّا هذه وإمّا هذه ، فأيُّهما توافرتْ لك حتى تجزم بهذا القول ؟

وهذا المعنى واضح فى قوله تعالى : ﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٦) أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ (٣٧) إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ (٣٨) أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ (٣٩) ﴾ [القلم]

والمراد : مَنْ يضمن لهم هذا الذى يدَّعونه ؟

وقد أخبر النبى ﷺ : « مَنْ أدخل على مؤمن سروراً فقد أخذ العهد من الله »[(١)] ، « ومَنْ صلى الصلوات بفرائضها وفى وقتها فقد أخذ العهد من الله »[(٢)]

فمَنْ هؤلاء الذين لهم عَهْد من الله تعالى ألاَّ يدخلهم النار ؟

والعَهْد : الشىء الموثّق بين اثنين ، والعهد إنْ كان بين الناس فهو عَهْد غير موثوق به ، فقد ينفذ أو لا ينفذ ؛ لأن الإنسانَ ابنُ أغيار ، ويمكن أنْ تحُول الظروف بينه وبين ما وعد به ، أما إنْ كان

---

(١) أورد ابن الجوزى فى « العلل المتناهية » (٢/٥١٤) . طبعة دار الكتب العلمية بيروت من حديث ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ : « من أدخل على مؤمن سروراً فقد سرنى ، ومن سرنى فقد اتخذ عند الله عهداً ، ومن اتخذ عند الله عهداً فلن تمسه النار » وهو من طريق الدارقطنى . قال الذهبى فى ميزان الاعتدال (٢/٢٩٣) « خبر باطل متنه» .

(٢) أخرج أحمد فى مسنده (٤/٢٤٤) عن كعب بن عجرة قال قال رسول الله ﷺ : « إن ربكم عز وجل يقول : من صلى الصلاة لوقتها وحافظ عليها ولم يضيعها استخفافاً بحقها فله علىَّ عهد أن أدخله الجنة ، ومن لم يصلها لوقتها ولم يحافظ عليها وضيعها استخفافاً بحقها فلا عهد له إن شئت عذبته وإن شئت غفرت له » .

العهد من الله تعالى المالك لكل شيء ، وليست هناك قوة تبطل إرادته تعالى ، فهو العَهْد الحقّ الموثوق به ، والذى لا يتخلف أبداً .

فحين تعاهد ربك على الإيمان فإنك لا تضمن ما يطرأ عليك من الأغيار ، أما حين يعاهدك ربك على الجزاء ، فثِقْ أنه نافذ لا يُخلَف .

لذلك ، فالنبى ﷺ لما أراد أن ينصحَ الإمام علياً رضى الله عنه قال : « أدعو الله أن يجعل لك عهداً فى قلوب المؤمنين »[(١)]

أى : حُباً ومودة فى قلوبهم ، وما دام أن الله أعطاه هذا العهد ، فهو نافذ مُحقَّق .

واختار هنا اسم الرحمن لما فيه من صفة الرحمانية التى تناسب المعونة على الوفاء .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ ﴾

كلا : أداة لنفى ما قيل قبلها وإبطاله ، أى : قوله : ﴿ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ ﴾ [مريم] ثم يأتى ما بعد كلا حُجة ، ودليلاً على النفى .

وقد ورد هذا الحرف (كَلاَّ) فى قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا

---

(١) عن البراء بن عازب قال قال رسول الله ﷺ لعلىّ « قل : اللهم اجعل لى عندك عهداً ، واجعل لى عندك وداً ، واجعل لى فى صدور المؤمنين مودة » فأنزل الله ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ ﴾ [مريم] قال : فنزلت فى على . ذكره السيوطى فى الدر المنثور (٥/٥٤٤) وقال ابن عباس : نزلت فى عبد الرحمن بن عوف . ذكره القرطبى فى تفسيره (٦/٤٣٣٣) .

مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦) كَلاَّ .. (١٧) ﴾ [الفجر]

فالحق تبارك وتعالى ينفى الكلام السابق ؛ لأن النعمة وسَعَة الرزق ليست دليلَ إكرام ، كما أن الفقر وضيق الرزق ليس دليلَ إهانة ، فكلاهما ابتلاء واختبار كما أوضحتْ الآيات ، فإتيان النعمة فى حَدِّ ذاته ليس هو النعمة إنما النعمة هى النجاح فى الابتلاء فى الحالتين .

فقد يعطيك الله المال فلا تصرفه فيما أحلَّ الله ، فيكون لك فتنة وتخفق فى الاختبار ، إذن : لم يكرمك بالمال ، بل جعله لك وسيلة إغواء وإغراء ، فبيدك يتحوَّل المال إلى نعمة أو نقمة ، ويكون إكراماً أو إهانة .

وقوله تعالى[1] :

﴿ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا (٧٩) ﴾ [مريم]

لقد جاءت كلمة (سَنَكْتُبُ) حتى لا يؤاخذه سبحانه وتعالى يوم القيامة بما يقول هو إنه فعله ، ولكن بما كتب عليه وليقرأه بنفسه ، وليكون حجة عليه ، كأن الكتابة ليست كما نظن فقط ، ولكنها تسجيل للصوت وللأنفاس ، ويأتى يوم القيامة ليجد كل إنسان ما فعله مسطوراً .

يقول تعالى : ﴿ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (١٤) ﴾ [الإسراء] وهذا القول يدل على أنه ساعة يرى الإنسان ما كتب فى

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٦/٤٣١٩) : قوله تعالى ﴿ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ ..(٧٩) ﴾ [مريم] أى : سنحفظ عليه قوله فنجازيه به فى الآخرة ﴿ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا (٧٩) ﴾ [مريم] أى : سنزيده عذاباً فوق عذاب » .

الكتاب سيعرف أنه منه ، وإذا كنا نحن الآن نسجل على خصومنا أنفاسهم وكلماتهم ، أتستبعد على من علمنا ذلك أن يسجل الأنفاس والأصوات والحركات بحيث إذا قرأها الإنسان ورآها لايستطيع أن يكابر فيها أو ينكرها .

وقوله سبحانه : ﴿ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا (٧٩) ﴾ [مريم] أى : يزيده فى العذاب ، لأن المد هو أن تزيد الشىء ، ولكن مرة تزيد فى الشىء من ذاته ، ومرة تزيد عليه من غيره ، قد تأتى بخيط وتفرده إلى آخره ، وقد تصله بخيط آخر ، فتكون مددته من غيره ، فالله يزيده فى العذاب .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا (٨٠) ﴾

أى : فى حين ينتظر أنْ نزيدَه ونعطيه سنأخذ منه ﴿وَنَرِثُهُ (٨٠)﴾ [مريم] أى : نأخذ منه كما فى قوله تعالى : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٤٠)﴾ [مريم]

وقوله : ﴿وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ (٥٨)﴾ [القصص]

فكأن قوله تعالى : ﴿وَنَرِثُهُ (٨٠)﴾ [مريم] تقابل قوله : ﴿ لأُوتَيَنَّ مَالاً (٧٧)[مريم] وقوله تعالى : ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا (٨٠)﴾ [مريم] تقابل ﴿وَوَلَدًا (٧٧)﴾[مريم] ، فسيأتينا فى القيامة فَرْداً ، ليس معه من أولاده أحد يدفع عنه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا (٨١) ﴾

آلهة : جمع إله ، وهو المعبود والرب الذى أوجدك من عَدَم ، وأمدّك من عُدْم ، وتولاّك بالتربية ، فعطاء الألوهية تكليف وعبادة ، وعطاء الربوبية نِعَم وهِبَات . إذن : فمَنْ أَوْلى بعبادتك ومَنْ أحقّ بطاعتك ؟

هؤلاء الذين اتخذوا من دون الله آلهة من شمس ، أو قمر ، أو حجر ، أو شجر ، بماذا تعبَّدتكم هذه الآلهة ؟ بماذا أمرتكم ؟ وعن أى شىء نهتْكُم ؟ وبماذا أنعمتْ عليك ؟ وأين كانت وأنت جنين فى بطن أمك ؟

إن أباك الذى رباك وأنت صغير وتكفَّل بكل حاجياتك ، وأمك التى حملتْك فى بطنها وسهرتْ على راحتك ، هما أوْلَى الناس بطاعتك ، ولا ينبغى أنْ تُقدِّم على أمرهما أمراً . أما أنْ يستحوذَ عليك آخرون ، ويكون لهم طاعتك وولاؤك دون أبويْك فهذا لا يجوز وأنت فى رَيْعان شبابك وأَوْج قوتك .

لذلك ، من أصول التربية أنْ يُربّى الآباء أبناءهم على السمع والطاعة لهم ، ونُحذِّرهم من طاعة الآخرين خاصة غير المؤتمنين على التربية ، من العامة فى الشارع ، أو أصدقاء السُّوء الذين يجرُّون الأبناء إلى مَا لا تُحمد عُقباه .

والآن نُحذّر أبناءنا من السَّيْر مع شخص مجهول ، أو قبول طعام ، أو شراب منه . وما نراه فى عصرنا الحاضر يُغنى عن الإطالة فى هذه المسألة . هذه ـ إذن ـ مناعة يجب أنْ تُعطَى للأبناء ، كالمناعة ضد الأمراض تماماً .

وهكذا الحالُ فيمَنْ اتخذوا من دون الله آلهة وارتاحوا إلى إله لا تكليفَ له ولا مشقةَ فى عبادته ، إله يتركهم يعبدونه كما يحلو

لهم ، إنهم أخذوا عطاء الربوبية فتمتّعوا بنعمة الله ، وتركوا عطاء الألوهية فلم يعبدوه سبحانه وتعالى .

ولما كان الإنسان متديناً بطبعه فقد اختار هؤلاء ديناً على وَفْق أهوائهم وشهواتهم ، واتخذوا آلهة لا أمرَ لها ولا تكليفَ . ومن ذلك ما نراه من كثير من المثقفين الذين يأخذون دين الله على هواهم ، ويطيعون أعداء الله فى قضايا بعيدة كل البُعْد عن دين الله ، وهم أصحاب ثقافة وعقول ناضجة ، ومع ذلك يُقنعون أنفسهم أنهم على دين وأنهم على الحق .

ثم يقول تعالى : ﴿ لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا (٨١) ﴾ [مريم] العز : هو الغَلَبة والامتناع من الغير ، بحيث لا ينال أحد منه شيئاً ، يقولون : فلان عزيز أى : لا يُغلب .

ولنا أن نسأل : ما العزة فى عبادة هذه الآلهة ؟ وما الذى سيعود عليكم من عبادتها ؟ لذلك يردُّ عليهم الحق تبارك وتعالى :

﴿ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا (٨٢) ﴾

كلا : تنفى أن يكون لهؤلاء عِزٌّ فى عبادة ما دون الله ، بل ﴿ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ (٨٢) ﴾ [مريم]

هذه الآلهة نفسها ستكفر بعبادتهم ، وتنكر أن تكون هى آلهة من دون الله ، وأكثر من ذلك ﴿ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا (٨٢) ﴾ [مريم] أى : فى حين اتخذها الكفار آلهة من دون الله وطلبوا العزة فى عبادتها تنقلب عليهم ، وتكون ضِداً لهم وخَصْماً .

والضد : هو العدو المخالف لك ، والذى يحاول أنْ ينكِّل بك . وفى القرآن الكريم حوارات كثيرة بين هذه المعبودات ومَنْ عبدوها ، فمثلاً الذين عبدوا الملائكة واتخذوها آلهةً من دون الله : يسأل الله الملائكة : ﴿أَهَـٰؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ (٤٠)﴾ ؟ [سبأ] فيُجيبون : ﴿ سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ (٤١)﴾ [سبأ]

ويقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا.. (١٦٦)﴾ [البقرة]

لذلك يقول الحق تبارك وتعالى عن هؤلاء : ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ (٥)﴾ [الأحقاف]

إذن : ما ظنَّه الكفار عزّاً ومَنَعة صار عليهم ضداً وعداوة ، كالفتاة التى قالتْ لأبيها : يا أبتِ ما حملك على أنْ تقبلنى مخطوبة لابن فلان ؟ أى : ماذا أعجبك فيه ؟ قال : يا بُنيّتى إنهم أهل عزٍّ وأهل جاه وشرف وأهل قوة ومنعة ، فقالت : يا أبتِ لقد قدَّرْتَ أن يكون بينى وبين ابنهم وُدٌّ ، ولم تُقدِّر أن يكون بينى وبينه كراهية ، فإن حدثتْ الكراهية سيكون ما قلته ضدك ، وستشْقى أنت بهذا العزّ وبهذا الجاه .

ومن الناس من اتخذ من المال إلهاً ، على حَدِّ قَوْل الشاعر :

وَلِلمالِ قَوْمٌ إنْ بَدا المالُ قَائِلاً أنَا المالُ قالَ القومُ إيَّاكَ نعبُدُ

وهؤلاء الذين يعبدون المال ، ويروْن فيه القوة ، ويعتزُّون به لا يدرون أنه سيكون وَبَالاً ونكالاً عليهم يوم القيامة : ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَـٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ (٣٥)﴾ [التوبة]

وهكذا ، كلما زاد حرصه على المال زاد كَيُّه . وتلحظ فى الآية الترتيب الطبيعى لموقف السؤال حين يقف السائلُ الفقير أمام الغنى اللئيم ، فأوَّل ما يطالع السائل يتغيّر وجهه ، ثم يُشيح عنه بوجهه ، فيعطيه جَنْبه ، ثم يُدير له ظهره مُعْرِضاً عنه ، وبنفس هذا الترتيب يكون العذاب ويكون الكيُّ والعياذ بالله . وينقلب المال الذى ظَنّ العزة فيه إلى نكَالٍ ووبَالٍ .

يقول تعالى : ﴿ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ (٦) ﴾ [الأحقاف]

حتى الجوارح التي تمتعتْ بمعصيتك فى الدنيا ستشهد عليك : ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) ﴾ [النور]

ذلك لأنك غفلتَ عمَّنْ كان يجب ألاَّ تغفل عنه ، وذكرت مَنْ كان يجب ألاَّ تذكره ، فالإله الحق الذى غفلْتَ عنه يطلبك الآن ويحاسبك ، والإله الباطل الذى اتخذته يتخلى عنك ويُسلمك للهلاك .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا (٨٣) ﴾

الأزُّ : هو الهزُّ الشديد بعنف أى : تُزعجهم وتُهيجهم ، ومثْله النزغ فى قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ .. (٢٠٠) ﴾ [الأعراف]

والأزّ أو النَّزْغ يكون بالوسوسة والتسويل ليهيجه على المعصية والشر ، كما يأتى هذا المعنى أيضاً بلفظ الطائف ، كما فى قوله

تبارك وتعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ[1] مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ (٢٠١)﴾ [الأعراف]

وهذه الآية : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ .. (٨٣)﴾ [مريم] تثير سؤالاً : إذا كان الحق تبارك وتعالى يكره ما تفعله الشياطين بالإنسان المؤمن أو الكافر ، فلماذا أرسلهم الله عليه ؟

أرسل الله الشياطين على الإنسان لمهمة يؤدونها ، هذه المهمة هى الابتلاء والاختبار ، كما قال تعالى : ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ (٢)﴾ [العنكبوت]

إذن : فهم يُؤدُّون مهمتهم التى خُلقوا من أجلها ، فيقفوا للمؤمن ليصرفوه عن الإيمان فيُمحص الله المؤمنين بذلك ، ويُظهر صلابة مَنْ يثبت أمام كيد الشيطان .

وقلنا : إن للشيطان تاريخاً مع الإنسان ، بداية من آدم عليه السلام حين أبَى أن يطيع أمر الله له بالسجود لآدم ، فطرده الله تعالى وأبعده من رحمته ، فأراد الشيطان أنْ ينتقمَ من ذرية آدم بسبب ما ناله من آدم ، فقال : ﴿فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢)﴾ [ص]

وقال : ﴿فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦)﴾ [الأعراف]

وهكذا أعلن عن منهجه وطريقته ، فهو يتربص لأصحاب الاستقامة ، أما أصحاب الطريق الأعوج فليسوا فى حاجة إلى إضلاله وغوايته .

لذلك نراه يتهدد المؤمنين : ﴿ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ .. (١٧)﴾ [الأعراف]

---

(١) الطائف من الشيطان : مسُّه للإنسان بالوسوسة فهو يأتيه من كل جهة ليضله ولا ينجيه منه إلا ذكر الله . [القاموس القويم ١/ ٤١٠] .

ومعلوم أن الجهات ست ، يأتى منها الشيطان إلا فوق وتحت ؛ لأنهما مرتبطتان بعزِّ الألوهية من أعلى ، وذُلّ العبودية من أسفل ، حين يرفع العبد يديه لله ضارعاً وحين يخرُّ لله ساجداً ؛ لذلك أُغلقَتْ دونه هاتان الجهتان ؛ لأنهما جهتا طاعة وعبادة وهو لا يعمل إلا فى الغفلة ينتهزها من الإنسان .

والمتأمل فى مسألة الشيطان يجد أن هذه المعركة وهذا الصراع ليس بين الشيطان وربه تبارك وتعالى ، بل بين الشيطان والإنسان ؛ لأنه حين قال لربه تعالى : ﴿فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢)﴾ [ص] التزم الأدب مع الله .

فالغواية ليست مهارة منى ، ولكن أغويهم بعزتك عن خَلْقك ، وتركِكَ لهم الخيار ليؤمن مَنْ يؤمن ، ويكفر مَنْ يكفر ، هذه هى النافذة التى أنفذ منها إليهم ، بدليل أنه لا سلطانَ لى على أهلك وأوليائك الذين تستخلصهم وتصطفيهم : ﴿إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣)﴾ [ص]

وهنا أيضاً يثار سؤال : إذا كان الشيطان لا يقعد إلا على الصراط المستقيم لِيُضلَّ أهله ، فلماذا يتعرَّض للكافر ؟

نقول : لأن الكافر بطبعه وفطرته يميل إلى الإيمان وإلى الصراط المستقيم ، وها هو الكون بآياته أمامه يتأمله ، فربما قاده التأمل فى كَوْن الله إلى الإيمان بالله ؛ لذلك يقعد له الشيطان على هذا المسْلك مسْلك الفكر والتأمل لِيحُول بينه وبين الإيمان بالخالق عز وجل .

فالشيطان ينزغك ، إما ليحرك فيك شهوة ، أو ليُنسيك طاعة ، كما قال تعالى : ﴿وَمَا أَنسَانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطَانُ .. (٦٣)﴾ [الكهف]

وقال : ﴿ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٦٨) ﴾ [الأنعام]

وكثير من الإخوان يسألون : لماذا فى الصلاة بالذات تُلِحُّ علينا مشاكل الحياة ومشاغل الدنيا ؟

نقول : هذه ظاهرة صحية فى الإيمان ، لأن الشيطان لولا علمه بأهمية الصلاة ، وأنها ستُقبل منك ويُغفر لك بها الذنوب ما أفسدها عليك ، لكن مشكلتنا الحقيقية أننا إذا أعطانا الشيطان طرفَ الخيط نتبعه ونغفل عن قَوْل ربنا تبارك وتعالى :

﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ .. (٣٦) ﴾ [فصلت]

فما عليك ساعةَ أنْ تشعر أنك ستخرج عن خطِّ العبادة والإقامة بين يدى الله إلاَّ أنْ تقول : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، حتى وإنْ كنت تقرأ القرآن ، لك أنْ تقطعَ القراءة وتستعيذ بالله منه ، وساعةَ أن يعلم منك الانتباه لكيده وألاعيبه مرة بعد أخرى سينصرف عنك وييأس من الإيقاع بك .

وسبق أن ضربنا لذلك مثلاً باللص ؛ لأنه لا يحوم حول البيت الخرب ، إنما يحوم حول البيت العامر ، فإذا ما اقترب منه تنبّه صاحب البيت وزجره ، فإذا به يلوذ بالفرار ، وربما قال اللص فى نفسه : لعل صاحب البيت صاح مصادفة فيعاود مرة أخرى ، لكن صاحب الدار يقظٌ منتبه ، وعندها يفرُّ ولا يعود مرة أخرى .

ويجب أن نعلم أن من حيل الشيطان ومكائده أنه إذا عَزَّ عليه إغواؤك فى باب ، أتاك من باب آخر ؛ لأنه يعلم جيداً أن للناس مفاتيح ، ولكل منا نقطة ضعف يُؤتَى من ناحيتها ، فمن الناس مَنْ

لا تستميله بقناطير الذهب ، إنما تستميله بكلمة مدح وثناء . وهذا اللعين لديه (طفاشات) مختلفة باختلاف الشخصيات .

لذلك من السهل عليك أنْ تُميِّز بين المعصية إنْ كانت من النفس أم من الشيطان : النفس تقف بك أمام شهوة واحدة تريدها بعينها ولا تقبل سواها ، فإنْ حاولتَ زحزحتها إلى شهوة أخرى أبتْ إلا ما تريد ، أما الشيطان فإنْ عزَّتْ عليك معصية دعاك إلى غيرها ، المهم أن يُوقِع بك .

فالحق تبارك وتعالى يُحذرنا الشيطان ؛ لأنه يحارب فى الإنسان فطرته الإيمانية التى تُلح عليه بأن للكون خالقاً قادراً ، والدليل على الوجود الإلهى دليل فطرى لا يحتاج إلى فلسفة ، كما قال العربى قديماً : البعرة تدل على البعير ، والقدم تدل على المسير .. سماء ذات أبراج ، وأرض ذات فجاج ، وبحار ذات أمواج ، ألا يدل ذلك على وجود اللطيف الخبير ؟!

وكذلك ، فكل صاحب صنعة عالم بصنعته وخبير بدقائقها ومواطن العطب فيها ، فما بالك بالخالق سبحانه : ﴿ أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤) ﴾ [الملك]

إذن : فالأدلة الإيمانية أدلة فطرية يشترك فيها الفيلسوف وراعى الشاة ، بل ربما جاءت الفلسفة فعقَّدتْ الأدلة .

ولنا وقفة مع قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ .. (٨٣) ﴾ [مريم] ومعلوم أن عمل الشيطان عمل مستتر ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ[1] مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ .. (٢٧) ﴾ [الأعراف]

---

(١) القبيل : الجماعة أو العشيرة أو الكفلاء أو الأعوان المناصرون . [القاموس القويم٢/٩٨].

فكيف يخاطب الحق ـ تبارك وتعالى ـ رسوله ﷺ فى هذه المسألة بقوله : ﴿أَلَمْ تَرَ .. (٨٣)﴾ [مريم] وهى مسألة لا يراها الإنسان ؟

نقول : ﴿أَلَمْ تَرَ .. (٨٣)﴾ [مريم] بمعنى ألم تعلم ؟ فعدَل عن العلم إلى الرؤيا ، كما فى قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١)﴾ [الفيل] والنبى ﷺ لم يَرَ هذه الحادثة ، فكيف يخاطبه ربه عنها بقوله : ﴿أَلَمْ تَرَ .. (١)﴾ [الفيل] ؟

ذلك ، ليدلك على أن إخبار الله لك أصحُّ من إخبار عينك لك ؛ لأن رؤية العين ربما تخدعك ، أمّا إعلام الله فهو صادق لا يخدعك أبداً . فعلمك من إخبار الله لك أَوْلَى وأوثق من علمك بحواسِّك .

والشياطين : جمع شيطان ، وهو العاصى من الجنّ ، والجن خَلْق مقابل للإنسان قال الله عنهم : ﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ[1] قِدَدًا (١١)﴾ [الجن] فَمَنْ هم دون الصالحين ، هم الشياطين .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا (٨٤)﴾

تمنّى النبى ﷺ لو أن الله أراحه من رؤوس الكفر وأعداء الدعوة ، فقال تعالى : ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا (٨٤)﴾ [مريم] فالله يريد أنْ تطول أعمارهم ، وتسوء فعالهم ، وتكثر ذنوبهم ، فالكتبة يعدُّون عليهم ويُحْصُون ذنوبهم .

ومعنى : ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا (٨٤)﴾ [مريم] أنها مسألة ستنتهى ؛

---

(١) طرائق قدداً : أى : طرائق متعددة مختلفة وآراء متفرقة . قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد . أى : منا المؤمن ومنا الكافر . (تفسير ابن كثير ٤/٤٣٠) .

لأن كل ما يُعَدّ ينتهى ، إنما الشىء الذى لا يُحصَى ولا يُعَدُّ فلا ينتهى ، كما فى قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا .. (٣٤)﴾ [إبراهيم]

لأن نعَم الله لا تُحصَى ولا تُعَدُّ ولا تنتهى ؛ لذلك سُبِقَتْ بإن التى تفيد الشكَّ ، فهى مسألة لا يجرؤ أحد عليها ؛ لأن : ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ .. (٩٦)﴾ [النحل]

وها نحن نرى علم الإحصاء وما وصل إليه من تقدّم حتى أصبح له جامعات وعلماء متخصصون أدخلوا الإحصاء فى كل شىء ، لكن لم يفكر أحد منهم أنْ يُحصِى نِعَم الله فى كَوْنه ، لماذا ؟ لأن الإقبال على العَدِّ معناه ظن أنك تستطيع أنْ تنتهى ، وهم يعلمون تماماً أنهم مهما عَدُّوا ومهما أَحْصَوا فلن يصلُوا إلى نهاية .

إذن : ﴿نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا (٨٤)﴾ [مريم] نُحصى سيئاتهم ونَعدُّ ذنوبهم قبل أن تنتهى أعمارهم ، وكلما طالت الأعمار كثرتْ الذنوب ، وكل ما ينتهى بالعدد ينتهى بالمُدد .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا (٨٥)﴾

الحق ـ تبارك وتعالى ـ أعطانا صوراً متعددة ومشاهد مختلفة ليوم القيامة ، فأعطانا صورة للمعبود الباطل ، وللعابدين للباطل ، وما حدث بين الطرفين من جدال ونقاش ، وأعطانا صورة لمن تعاونوا على الشر ، ولمَنْ تعاونوا على الخير . وهذه صورة أخرى تعرض للمتقين فى ناحية ، والمجرمين فى ناحية ، فما هى صورة المتقين ؟

نحشر : أى : نجمع ، والوفد هم الجماعة تردُ على الملك لأخْذ عطاياه ، جمعها وفود ، والواحد وافد . وهذه حال المتقين حين يجمعهم الله يوم القيامة وَفْداً لأخذ عطايا ربهم تبارك وتعالى . ولا تظن أنهم يُحشَرون ماشين مثلاً ، لا ، بل كل مؤمن تقى يركب ناقة لم يُرَ مثل حُسْنها ، رَحْلها من ذهب ، وأزمّتها من الزبرجد[1] .

وفى المقابل يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ ﴾

نسوق : والسائق يكون من الخلف ينهرهم ويزجرهم ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ[2] إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ ﴾ [الطور] ولم يقل مثلاً : نقودهم ؛ لأن القائد يكون من الأمام ، وربما غافله أحدهم وشرد منه .

وقوله تعالى : ﴿ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ ﴾ [مريم] الوِرْد : هو الذَّهَاب للماء لطلب الرىِّ ، أما النار فمحلُّ اللظى والشُّواظ واللَهب والحميم . فلماذا سُمِّى إتيان النار بحرِّها وِرْداً ؟

هذا تهكُّم بهم ، كما جاء فى آيات أخرى : ﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِى الْوُجُوهَ .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [الكهف]

وأنت ساعةَ تسمع (يغاثوا) تنتظر الخير وتأمل الرحمة ، لكن هؤلاء يُغاثون بماء كالمهل يشوى الوجوه .

---

(١) قال ابن عباس : ركباناً يؤتون بنوق من الجنة ، عليها رحائل من الذهب وسروجها وأزمتها من الزبرجد فيحشرون عليها ، وقال على : ما يُحشرون والله على أرجلهم ، ولكن على نوق رحالها من ذهب ، ونجب سروجها يواقيت ، إن هموا بها سارت ، وإن حركوها طارت . أورد القرطبى هذه الآثار فى تفسيره (٦/٤٣٢٤) .

(٢) يدعون ، أى : يُدفعون دفعاً عنيفاً بقهر وقسوة ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ ﴾ [الماعون] أى : يدفعه ويقهره وينهره . [القاموس القويم ١/٢٢٨] .

وكذلك فى قوله تعالى : ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (٤٩)﴾ [الدخان] فى توبيخ عُتَاة الكفر والإجرام . ومنه قوله تعالى : ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٧)﴾ [لقمان] والبشرى لا تكون إلا بشىء سَار .

إذن : فقوله تعالى : ﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا (٨٦)﴾ [مريم] تهكُّم ، كما تقول للولد المهمل الذى أخفق فى الامتحان : مبروك عليك السقوط .

ثم يقول تعالى :

﴿لَّا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا (٨٧)﴾

الكافر حين يباشر العذاب يطمع أول ما يطمع فى أن يشفعَ له معبوده ، ويُخرجه ممَّا هو فيه لكنْ هيهات ، ألم تقرأ قول الحق تبارك وتعالى : ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ (٥) وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ (٦)﴾ [الأحقاف]

لذلك يقول تعالى عن هؤلاء يوم القيامة : ﴿لا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ .. (٨٧)﴾ [مريم] لأن الشفاعة لا تكون إلا لمن أخذ الإذن بها ﴿إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا (٨٧)﴾ [مريم]

والعهد الذى تأخذه على الله بالشفاعة أنْ تُقدِّم من الحسنات ما يسع تكاليفك أنت ، ثم تزيد عليها ما يؤهلُك لأنْ تشفع للآخرين ، والخير لا يضيع عند الله ، فما زاد عن التكليف فهو فى رصيدك فى كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة ، ولا يهمل مثقال ذرة .

وعلى المؤمن ـ مهما كان مُسْرفاً على نفسه ـ ساعةَ يرى إنساناً مُقبلاً على الله مُستزيداً من الطاعات أنْ يدعوَ له بالمزيد ، وأن يفرح به ؛ لأن فائض طاعاته لعله يعود عليك ، ولعلك تحتاج شفاعته فى يوم من الأيام . أما مَنْ يحلو لهم الاستهزاء والسخرية من أهل الطاعات ، كما أخبر الحق تبارك وتعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٣٠) وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ (٣١) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَـٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ (٣٢) ﴾ [المطففين]

فكيف ستقابل أهل الطاعات ، وتطمع فى شفاعتهم بعدما كان منك ؟ فإنْ لم تكُنْ طائعاً فلا أقلَّ من أنْ تحب الطائعين وتتمسح بهم ، فهذه فى حَدِّ ذاتها حسنةٌ لك ترجو نفعها يوم القيامة .

وما أشبه الشفاعة فى الآخرة بما حدث بيننا من شفاعة فى الدنيا ، فحين يستعصى عليك قضاءُ مصلحة يقولون لك : اذهب إلى فلان وسوف يقضيها لك . وفعلاً يذهب معك فلان هذا ، ويقضى لك حاجتك ، فلماذا قُضيتْ على يديه هو ؟ لا بُد أن له عند صاحب الحاجة هذه أيادىَ لا يستطيع معها أنْ يرد له طلباً .

إذن : لابُدَّ لمن يشفع أن يكون له رصيد من الطاعات يسمح له بالشفاعة ، وإذا تأملت لوجدت رسول الله ﷺ أول مَنْ قدّم رصيداً إيمانياً وسع تكليفه وتكليف أمته ، ألم يخبر عنه ربه بقوله : ﴿ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ[1] لِلْمُؤْمِنِينَ .. (٦١) ﴾ [التوبة] لذلك وجبت له الشفاعة ، وأُذن له فيها .

---

(١) قال ابن عباس : يعنى يصدق بالله ويصدق المؤمنين . وقال الضحاك : يصدق الله بما أنزل إليه ، ويصدق المؤمنين فيما بينهم فى شهاداتهم وأيمانهم على حقوقهم وفروجهم وأموالهم . أورد هذه الآثار السيوطى فى تفسير « الدر المنثور » (٤/٢٢٧) .

والحق - تبارك وتعالى - لا يغفل الرصيد فى خَلقه أبداً ، فكل ما قدَّمت من طاعات فوق ما كلَّفك الله به مُدَّخَر لك ، حتى إن الإنسان إذا اتُّهم ظلماً ، وعُوقب على عمل لم يرتكبه فإن الله يدَّخرها له ويستر عليه ما ارتكبه فعلاً فلا يُعاقب عليه .

فالعهد - إذن - فى قوله تعالى : ﴿إِلاَّ مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾﴾ [مريم] أن تدخل مع ربك فى مقام الإحسان ، ولا يدخل هذا المقام إلا مَنْ أدَّى ما عليه من تكليف ، وإلا فكيف تكون مُحسناً وأنت مُقصِّر فى مقام الإيمان ؟

واقرأ إنْ شئت قول الله تعالى : ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ .. ﴿١٦﴾﴾ [الذاريات] ما العلة ؟ ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ[1] ﴿١٧﴾ وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾﴾ [الذاريات]

فالمحسن مَنْ يُؤدِّى من الطاعات فوق ما فرض الله عليه ، ومن جنس ما فرض ، فالله تعالى لم يُكلِّفنا بقيام الليل والاستغفار بالأسحار ، ولم يفرض علينا صدقة للسائل والمحروم ، ولا بُدَّ أنْ نُفرِّق هنا بين (حق) و (حق معلوم) هنا قال (حق) فقط ؛ لأن الكلام عن الصدقة أما الحق المعلوم ففى الزكاة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾﴾

هذا الكلام منهم عبث وافتراء ؛ لأنه متى كان اتخاذ هذا الولد ؟

---

(١) الهجوع : النوم ليلاً . وقد يكون الهجوع بغير نوم . [لسان العرب - مادة : هجع] .

فى أىِّ قَـرْن من القرون من مـيلاد المـسـيح عليه السـلام ؟ إن هذه المقولة لم تَأْت إلا بعد ثلاثمائة سنة من ميـلاد المسيح ، فما الموقف قبلها ؟ وما الذى زاد فى مُلْك الله بعد أنْ جاء هذا الولد ؟

الشمس هى الشمس ، والنجـوم هى النجوم ، والهواء هو الهواء ، إذن : موضـوعية اتخاذ الولد هذه عـبث ؛ لأنه لم يَزِدْ شىء فى الملْك على يد هذا الولـد ، ولم تكن عند الله تعـالى صـفـة مُـعطلة اكـتـملتْ بمجىء الولد ؛ لأن الصفـات الكمالية لله تعالى مـوجودة قبل أنْ يخلق أىَّ شىء .

فهو سبحانه وتعالى خالق قبل أن يَخْلق ، ورازق قبل أنْ يَرزُق ، ومُحْيٍ قبـل أنْ يحيى ، ومميت قبـل أن يميت . فبالصـفات أوجد هذه الأشياء ، فصفات الكمال فيه سبحانه موجودة قبل متعلقاتها .

وضـربنا لذلك مـثـلاً ـ ولله المـثل الأعلى ـ بالشـاعـر الذى قـال قصيدة . وقلنا : إنه قال القصـيدة لأنه شاعر بدايةً ، ولولا أنه شاعر ما قالها .

لذلك يرد الحق سبـحانه على هذا الافتـراء بقوله : ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا ۝٥﴾ [الكهف]

وهنا يرد عليهم بقوله :

﴿لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ۝٨٩﴾

والإدّ : المـتناهى فى النكْر والفظاعـة ، وهو الأمر الـمسـتبـشع ، من : آده الأمر . أى : أثقله ولم يَقْـو عليه ، ومنه قـوله تعالى فى آية الكرسى : ﴿وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا .. ۝٢٥٥﴾ [البقرة] أى : لا يثقل عليه .

لكن ، لماذا جعل هذا الأمر إداً ومنكراً فظيعاً ؟

قالوا : لأن اتخاذ الولد له مقاصد ، فالولد يُتخذ ليكون لك عِزْوة وقوة ؛ أو ليكون امتداداً لك بعد موتك ، والحق سبحانه وتعالى هو العزيز ، الذى لا يحتاج إلى أحد ، وهو الباقى الدائم الذى لا يحتاج إلى امتداد .

إذن : فاتخاذ الولد بالنسبة لله تعالى لا علةَ له ، كما أن اتخاذ الولد لله تعالى ينفى سواسية العبودية له سبحانه .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ[1] وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ ﴾

أى : فلسنا نحن فحسْب الذين ننكر هذا الأمر ، بل الجماد غير المكلف أيضاً ينكره ، فالسموات بقوتها وعظمها تتفطر أى : تتشقق ، وتكاد تكون مزَعاً لهوْل ما قيل ، تقرب أن تنفطر لكن لماذا لم تنفطر بالفعل ؟ لم تنفطر ؛ لأن الله يمسكها : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا .. ﴿٤١﴾ ﴾ [فاطر]

وفى الحديث القدسى : « قالت السماء : يا رب ائذن لى أنْ أسقط كسَفاً على ابن آدم ، فقد طَعِم خيرك ومنع شكرك ، وقالت الأرض : يارب ائذن لى أن أخسف بابن آدم فقد طعم خيرك ومنع شكرك ، وقالت الجبال : يارب ائذن لى أن أخرَّ على ابن آدم فقد طعم خيرك ومنع شكرك . وقالت البحار : يا ربّ ائذن لى أن أُغرق ابن

(١) يتفطر : يتشقق . أى أن السماوات تكاد أن يتشققن من هول قولهم إن لله ولداً . [القاموس القويم ٢/٨٥] .

آدم فقد طعم خيرك ومنع شكرك . فقال لهم : دعونى وخلقى لو خلقتموهم لرحمتموهم ، فإن تابوا إلىَّ فأنا حبيبهم ، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم » .

فما العلَّة فى أن السماء تقرب أن تنفطر ، والأرض تقرب أن تنشق ، والجبال تقرب أن تخرَّ ؟

﴿أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾﴾

هذه هى العلة والحيثية التى من أجلها يكاد الكونُ كلُّه أن يتزلزل ، ويثور غاضباً لهذه المقولة الشنيعة .

ثم يعقب الحق سبحانه فيقول :

﴿وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾﴾

وعلينا هنا أنْ نُفرق بين نَفْى الحدث ونفى انبغاء الحدث ، فمثلاً فى قول الحق ـ تبارك وتعالى ـ فى شأن نبيه ﷺ : ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ .. ﴿٦٩﴾﴾ [يس] فنفى عنه قَوْل الشعر ، ونفى عنه انبغاء ذلك له ، فقد يظن ظانٌّ أن النبى لا يستطيع أن يقول شعراً ، أو أن أدوات الشعر من اللغة ورقَّة الإحساس غير متوافرة لديه ﷺ ، لكن رسول الله قادر على قَوْل الشعر إنْ أراد ، فهو قادر على الحدث ، إلا أنه لا ينبغى له .

كذلك فى قوله تعالى : ﴿وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾﴾ [مريم] فإنْ أراد سبحانه وتعالى أن يكون له ولد لكانَ ذلك ، كما جاء فى قوله تبارك وتعالى : ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [الزخرف]

أى : إن كان له سبحانه ولد فعلى العَيْن والرأس ، إنما هذه مسألة ما أرادها الحق سبحانه ، وما تنبغى له ، فكيف أدَّعى أنا أن لله ولداً هكذا من عندى ؟

وما حاجته تعالى للولد ، وقد قال فى الآية بعدها :

﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾

ذلك لأن الخالق ـ تبارك وتعالى ـ خلق الإنسان ، وجعل له منطقة اختيار يفعل أو لا يفعل ، يؤمن أو لا يؤمن ، وكذلك جعل فيه منطقة قَهْر ، فالكافر الذى ألف الكفر ، وتعوَّد عليه ، وتمرد على الطاعة والإيمان ، هل يستطيع أنْ يتمرّد مثلاً على المرض أو يتمرَّد على الموت ، أو على الفقر ؟

إذن : فأنت مُختار فى شىء وعَبْد فى أشياء ، كما أن منطقة الاختيار هذه لك فى الدنيا ، وليست لك فى الآخرة . وسبق أنْ فرَّقنا بين العباد والعبيد ، فالجميع : المؤمن والكافر عبيد لله تعالى ، أما العباد فهم الذين تنازلوا عن اختيارهم ومرادهم لمراد ربهم ، فجاءت كُلُّ تصرفاتهم وفقاً لما يريده الله .

وهؤلاء الذين قال الله فيهم : ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا .. ﴿٦٣﴾﴾ [الفرقان]

ومعنى : ﴿إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾ [مريم] أى : فى الآخرة ، حيث تُلْغَى منطقة الاختيار ، ولا يستطيع أحد الخروج عن مراد الله تعالى ، ويسلب الملك من الجميع ، فيقول تعالى : ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾﴾ [غافر]

وهو سبحانه القادر على العطاء ، القادر على السلب : ﴿ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ .. (٢٦) ﴾ [آل عمران]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (٩٤) ﴾

الإحصاء : هو العَدُّ ، وكانوا قديماً يستخدمون الحصَى أو النوى فى العَدِّ ، لكن النوى فرع ملكية النخل ، فقد لا يتوفر للجميع ؛ لذلك كانوا يستخدمون الحصَى ، ومنه كلمة الإحصاء .

ثم يقول تبارك وتعالى :

﴿ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا (٩٥) ﴾

أى . وحده ، ليس معه أهل أو أولاد أو عزْوة ، كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٣٧) ﴾ [عبس]

فكل مشغول بحاله ، ذاهل عن أقرب الناس إليه : ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ .. (٢) ﴾ [الحج]

وتأمَّل قوله : ﴿ آتِيهِ .. (٩٥) ﴾ [مريم] فالعبد هو الذى يأتى بنفسه مُخْتاراً لا يُؤْتَى به ، فكأن الجميع منضبط على وقت معلوم ، إذا جاء يُهْرَع الجميع طواعيةً إلى الله عز وجل .

ثم يقول رب العزة سبحانه :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا (٩٦) ﴾

وُدّاً : مودة ومحبة تقوم على الإيمان ، وتقود إلى شدة التعلّق ، وقد جعل الحق ـ تبارك وتعالى ـ فى كَوْنه أسباباً لهذه المحبة والمودة ، كأنْ ترى إنساناً يُحبك ويتودّد إليك ، فساعةَ تراه مُقبلاً عليك تقوم له وتبشُّ فى وجهه ، وتُفسِح له فى المجلس ، ثم تسأل عنه إنْ غاب ، وتعوده إنْ مرض ، وتشاركه الأفراح وتواسيه فى الأحزان وتؤازره عند الشدائد ، فهذه المودة ناشئة عن حُبٍّ ومودة سابقة .

وقد تنشأ المودة بسبب القرابة أو المصالح المتبادلة أو الصداقة ، فهذه أسباب المودة فى الدنيا بين الخَلْق جميعاً مؤمنهم وكافرهم ، أمّا هنا : ﴿ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَـٰنُ وُدًّا (٩٦) ﴾ [مريم]

أى : بدون سبب من أسباب المودة هذه ، مودة بدون قرابة ، وبدون مصالح مشتركة أو صداقة ، وهذه المودة بين الذين آمنوا ، كأنْ ترى شخصاً لأول مرة فتشعر نحوه بارتياح كأنك تعرفه ، وتقول له : إنى أحبك لله .

هذه محبة جعلها الله بين المؤمنين ، فضلاً منه سبحانه وتكرُّماً ، لا بسبب من أسباب المودة المعروفة .

لذلك قال هرم بن حَيَّان[1] ـ رحمه الله ـ : إن الحق تبارك وتعالى حين يرى عبده المؤمن قد أقبل عليه بقلبه وأسكنه فيه ، وأبعد عن قلبه الأغيار ، وسلَّم قلبه وهو أسمى ما يملك من مستودعات العقائد وينبوع الصالحات وقدَّمه لربه إلا فتح له قلوب المؤمنين جميعاً[2] .

---

(١) هو : هرم بن حيان العبدى ، كان عاملاً لعمر بن الخطاب ، مات فى يوم شديد الحر ، فلما نفضوا أيديهم عن قبره جاءت سحابة فأمطرت ونبت العشب من يومه .

(٢) قال القرطبى فى تفسيره (٦/٤٣٣٣) : « كان هرم بن حيان يقول : ما أقبل أحد بقلبه على الله تعالى إلا أقبل الله تعالى بقلوب أهل الإيمان إليه ، حتى يرزقه مودتهم ورحمتهم ».

كما جاء فى الحديث القدسى :

« ما أقبل علىَّ عبد بقلبه إلا أقبلتُ عليه بقلوب المؤمنين جميعاً »[١] أى : بالمودة والرحمة دون أسباب .

وفى الحديث القدسى : « إن الله إذا أحب عبداً نادى فى السماء : إننى أحببتُ فلاناً فأحبُّوه ، وينادى جبريل فى الأرض : إن الله أحبَّ فلاناً فأحبوه . ويوضعَ له القبول فى الأرض »[٢] .

فيحبه كل مَنْ رآه عطية من الله وفضلاً ، دون سبب من أسباب المودة ، وإنْ كنتَ قد تبرعتَ لله تعالى بما تملك وهو قلبك مستودع العقائد وينبوع الصالحات كلها ، فإنه تعالى وهب لك ما يملك من قلوب الناس جميعاً ، فهى فى يده تعالى يُوجِّهها كيف يشاء .

وقد علَّمنا ربنا ـ تبارك وتعالى ـ فى قوله : ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا .. (٨٦) ﴾ [النساء] أن نرد الجميل بأحسن منه ، فإنْ لم نقدر على الأحسن فلا أقلَّ من الرد بالمثل ، فإنْ كان هذا عطاء العبد ، فما بالك بعطاء الرب ؟

ومن ذلك ما جاء فى الحديث الشريف « من يسَّر على معسر يسَّر الله عليه فى الدنيا والآخرة ، ومن ستر مسلماً ستره الله فى الدنيا والآخرة ، والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه »[٣] .

---

(١) أورد الهيثمى فى مجمع الزوائد (١٠/٢٤٧) عن أبى الدرداء رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ « تفرغوا من هموم الدنيا ما استطعتم فإنه من كانت الدنيا أكبر همه أفشى الله ضيعته وجعل فقره بين عينيه .. وما أقبل عبد بقلبه إلى الله إلا جعل الله قلوب المؤمنين تفد إليه بالود والرحمة وكان الله بكل خير إليه أسرع » رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط وفيه محمد بن سعيد بن حسان المصلوب وهو كذاب .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٦٣٧) ، وأحمد فى مسنده (٢/٤١٣) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

(٣) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٦٩٩) كتاب الذكر والدعاء ، وأحمد فى مسنده (٢/٢٥٢ ، ٢٩٦) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

والعَوْن يقتضى مُعيناً ومُعَاناً ، ولا بُدّ أن يكون المعين أقوى من المعان ، فيفيض عليه من فضل ما عنده : صحة ، أو قدرة ، أو غنىً ، أو علماً . وإعانةُ العبد لأخيه محدودة بقدراته وإمكاناته ، أمّا معونة الله لعبده فغير محدودة ؛ لأنها تناسب قدرة وإمكانات الحق تبارك وتعالى .

وهكذا عوَّدنا ربنا ـ تبارك وتعالى ـ حين نُضحِّى بالقليل أنْ يعطينا الكثير وبلا حدود ، فضلاً من الله وكرماً . ألم تَرَ أن الحسنة عنده تعالى بعشر أمثالها ، وتضاعف إلى سبعمائة ضعف ؟ أليست هذه تجارة مع الله رابحة ، كما قال سبحانه : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) ﴾ [الصف]

وقال عنها : ﴿ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ (٢٩) ﴾ [فاطر]

وكأن الحق ـ تبارك وتعالى ـ يريد منا المحبة المتبادلة التى تربط بين قلوبنا وتُؤلّف بيننا ، ثم يمنحنا سبحانه الثمن .

إذن : العملية الإيمانية لا تظن أنها إيثار ، بل الإيمان أثرة ، وأنت حين تتصدق بكذا إنما تأمل ما عند الله من مضاعفة الأجر ، فالإيمان ـ إذن ـ أنانية عالية .

والحق ـ سبحانه وتعالى ـ يريد منا أنْ نعودَ على غيرنا بفضل ما نملك ، كما جاء فى الحديث : « مَنْ كان عنده فضل مال فليعُدْ به على مَنْ لا مالَ له ... »[1] .

واعلم أن الله سيُعوِّضك خيراً مما أعطيْتَ . ومثال ذلك ـ ولله المثل الأعلى ـ : هَبْ أن عندك ولدين ، أعطيتَ لكل منهما مصروفه ،

---

(١) عن أبى سعيد الخدرى قال : بينما نحن مع رسول الله ﷺ فى سفر إذ جاء رجل على ناقة له ، فجعل يصرفها يميناً وشمالاً ، فقال رسول الله ﷺ : « من كان عنده فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له ، ومن كان عنده فضل زاد فليعد به على من لا زاد له » حتى ظننا أنه لا حق لأحد منا فى الفضل . أخرجه أبو داود فى سننه (١٦٦٣) وأحمد فى مسنده (٣/٣٤) .

فالأول اشترى به حلوى أكل منها ، وأعطى رفاقه ، والآخر بدّد مصروفه فيما لا يُجدى من ألعاب أو خلافه ، فأيهما تعطى بعد ذلك ؟ كذلك الحق سبحانه يعاملنا هذه المعاملة .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ ﴾

الفاء هنا تفيد : ترتيب شىء على شىء فابحث فى الجملة بعدها عن هذا الترتيب ، فالمعنى : بشِّر المتقين ، وأنذر القوم اللُّد[1] لأننا يسرنا لك القرآن .

ويسَّرنا القرآن : أى : طوعناه لك حِفْظاً وأداءً وإلقاء معانٍ ، فأنت تُوظِّفه فى المهمة التى نزل من أجلها .

وتيسير القرآن ورد فى آيات كثيرة ، كقوله تعالى فى سورة القمر : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ ﴾ [القمر]

والمتأمل فى تيسير القرآن يجد العجائب فى أسلوبه ، فترى الآية تأتى فى سورة بنص ، وتأتى فى نفس السياق فى سورة أخرى بنص آخر ، فالمسألة - إذن - ليست (أكلاشيه) ثابت ، وليست عملية ميكانيكية صماء ، إنه كلام رب .

خُذْ مثلاً قوله تعالى :

﴿ كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ ﴿٥٥﴾ ﴾ [المدثر]

---

(١) لَدَّ يلَدُّ : اشتد فى الجدل والخصومة فهو لدٌّ . واللُّدُّ : أشداء الخصومة . [القاموس القويم ٢/١٩١] .

وفى آية أخرى : ﴿إِنَّ هَـٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً (٢٩)﴾ [الإنسان]

مرة يقول : ﴿إِنَّ هَـٰذِهِ تَذْكِرَةٌ .. (٢٩)﴾ [الإنسان] ومرة يقول : ﴿كَلاَّ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (١١)﴾ [عبس]

ونقف هنا أمام ملحظ دقيق فى سورة (الرحمن) حيث يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (٤٦)﴾ [الرحمن] ثم يأتى الحديث عنهما : فيهما كذا ، فيهما كذا إلى أنْ يصلَ إلى قاصرات الطرف فيقول : ﴿فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ .. (٥٦)﴾ [الرحمن]

وكذلك فى : ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ (٦٢)﴾ [الرحمن] فيهما كذا وفيهما كذا إلى أنْ يصلَ إلى الحور العين فيقول : ﴿فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ (٧٠)﴾ [الرحمن]

ولك أنْ تتساءل : الحديث هنا عن الجنتين ، فلماذا عدل السياق عن (فيهما) إلى (فيهن) فى هذه النعمة بالذات ؟

قالوا : لأن نعيم الجنة مشترك ، يصح أنْ يشترك فيه الجميع إلا فى نعمة الحور العين ، فلها خصوصيتها ، فكأن الحق تبارك وتعالى يحترم مشاعر الغَيْرة عند الرجل ، ففى هذه المسألة يكون لكل منا جنته الخاصة التى لا يشاركه فيها أحد .

لذلك لما رأى رسول الله ﷺ الجنة رأى فيها قصراً فابتعد عنه ، فلما سُئِل عن ذلك ﷺ قال : « إنه لعمر ، وأنا أعرف غَيْرة عمر »[1] .

---

(١) أخرج البخارى فى صحيحه (٣٢٤٢) من حديث أبى هريرة قال : « بينما نحن عند النبى ﷺ إذ قال : بينما أنا نائم رأيتنى فى الجنة ، فإذا امرأة تتوضأ إلى جانب قصر ، فقلت : لمن هذا القصر ؟ فقالوا : لعمر بن الخطاب ، فذكرت غيرته ، فوليت مدبراً . فبكى عمر وقال : أعليك أغار يا رسول الله ؟ » . وكذا أخرجه ابن ماجة فى سننه (١٠٧) .

فإلى هذه الدرجة تكون غيرة المؤمن ، وإلى هذه الدرجة تكون دِقَّة التعبير فى القرآن الكريم .

ولولا أن الله تعالى أنزل القرآن ويسَّره لَمَا حفظه أحد ، فالنبى ﷺ كان ينزل عليه الآيات ، وحين يسرى[1] عنه يمليها على الصحابة ، ويظل يقرؤها كما هى ، ولَولا أن الله قال له : ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ ﴿٦﴾ ﴾ [الأعلى] ما تيسّر له ذلك .

ونحن فى حفْظنا لكتاب الله تعالى نجد العجائب أيضاً ، فالصبى فى سنِّ السابعة يستطيع حفْظ القرآن وتجويده ، فإنْ غفل عنه بعد ذلك تَفَلَّتَ منه ، على خلاف ما لو حفظ نصاً من النصوص فى هذه السن يظل عالقاً بذهنه .

إذن : مسألة حفظ القرآن ليست مجرد استذكار حافظة ، بل معونة حافظ ، فإن كنت على وُدٍّ وأُلْفة بكتاب الله ظلَّ معك ، وإنْ تركته وجفوْته تفلَّتَ منك ، كما جاء فى الحديث الشريف :

« تعاهدوا القرآن ، فو الذى نفسى بيده لَهُو أشدُّ تفصّياً[2] من الإبل فى عُقَلها »[3] .

ذلك ؛ لأن حروف القرآن ليست مجرد حرف له رسم ومنطوق ، إنما حروف القرآن ملائكة تُصفّ ، فتكون كلمة ، وتكون آية ، فإنْ وددتَ الحرف ، ووددتَ الكلمة والآية ، ودَّتْك الملائكة ، وتراصتْ عند قراءتك[4] .

---

(١) سُرِّى عنه : كُشف عنه . قال ابن منظور فى لسان العرب ـ مادة سرا : « قد تكرر ذكر هذه اللفظة فى الحديث ، وخاصة فى ذكر نزول الوحى عليه . وكلها بمعنى الكشف والإزالة» .

(٢) قال ابن حجر فى الفتح (٩/ ٨١) : « تفصياً . أى : تفلتاً وتخلصاً . ووقع فى حديث عقبة بن عامر بلفظ « تفلتاً » فمن شأن الإبل أنها تطلب التفلت ما أمكنها ، فمتى لم يتعاهدها برباطها تفلتت ، فكذلك حافظ القرآن إن لم يتعاهده تفلت بل هو أشد فى ذلك » .

(٣) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٠٣٣) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٧٩١) كتاب « صلاة المسافرين » من حديث أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه .

(٤) عن أسيد بن حضير قال : بينما هو يقرأ من الليل سورة البقرة وفرسه مربوط عنده إذ جالت الفرس ، فسكت فسكنت ، فقرأ فجالت الفرس ، فسكت وسكت الفرس .. فرفعت رأسى إلى السماء ، فإذا مثل الظلة فيها أمثال المصابيح ، فخرجت حتى لا أراها ، قال ﷺ : وتدرى ما ذاك ؟ قال : لا . قال : تلك الملائكة دنت لصوتك ، ولو قرأت لأصبحت ينظر الناس إليها ، لا تتوارى منهم » .

ومن العجائب فى تيسير حفظ القرآن أنك إنْ أعملتَ عقلك فى القراءة تتخبّط فيها وتخطىء ، فإنْ أعدتَ القراءة هكذا على السليقة كما حفظت تتابعت معك الآيات وطاوعتك .

وتلحظ هنا أن القرآن لم يأتِ باللفظ الصريح ، إنما جاء بضمير الغيبة فى ﴿يَسَّرْنَاهُ .. (٩٧)﴾ [مريم] لأن الهاء هنا لا يمكن أن تعود إلا على القرآن ، كما فى قوله تعالى : ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١)﴾ [الإخلاص] فضمير الغيبة هنا لا يعود إلا على الله تعالى .

وقوله : ﴿بِلِسَانِكَ (٩٧)﴾ [مريم] أى : بلغتك ، فجعلناه قرآنا عربياً فى أمة عربية ؛ ليفهموا عنك البلاغ عن الله فى البشارة والنذارة ، ولو جاءهم بلغة أخرى لقالوا كما حكى القرآن عنهم :

﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ .. (٤٤)﴾ [فصلت]

وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا (٩٧)﴾ [مريم]

والإنذار : التحذير من شرٍّ سيقع فى المستقبل ، واللَّدَد : عُنْف الخصومة ، وشراسة العداوة ، نقول : فلان عنده لَدَد أى : يبالغ فى الخصومة ، ولا يخضع للحجة والإقناع ، ومهما حاولتَ معه يُصِرُّ على خصومته .

ويُنهى الحق سبحانه سورة مريم بقوله تعالى :

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا (٩٨)﴾

الحق ـ تبارك وتعالى ـ يُسرِّى عن نبيه ﷺ ما يلاقى من عنت فى سبيل دعوته ، كأنه يقول له : إياك أنْ ينالَ منك بُغْض القوم لك وكُرههم لمنهج الله ، إياك أنْ تتضاءلَ أمام جبروتهم فى عنادك ، فهؤلاء ليسوا أعزَّ من سابقيهم من المكذبين ، الذين أهلكهم الله ، إنما أستبقى هؤلاء لأن لهم مهمة معك .

وسبق أن أوضحنا أن الذين نجوْا من القتل من الكفار فى بعض الغزوات ، وحزن المسلمون لنجاتهم ، كان منهم فيما بَعْد سيف الله المسلول خالد بن الوليد .

يقول تعالى : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ .. (٩٨) ﴾ [مريم]

كم : خبرية تفيد الكثرة ، من قرن : من أمة ﴿ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ .. (٩٨) ﴾ [مريم] لأننا أخذناهم فلم نُبق منهم أثراً يحس .

ووسائل الحسِّ أو الإدراك كما هو معروف : العين للرؤية ، والأذن للسمع ، والأنف للشمّ ، واللسان للتذوق ، واليد للمس ، فبأىّ أداة من أدوات الحسّ لا تجد لهم أثراً .

وقوله : ﴿ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا (٩٨) ﴾ [مريم] الركْز : الصوت الخفىّ ، الذى لا تكاد تسمعه . وهذه سُنَّة الله فى المكذبين من الأمم السابقة كما قال سبحانه : ﴿ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ[1] وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (٣٧) ﴾ [الدخان]

أين عاد وثمود وإرم ذات العماد التى لم يُخلَق مثلها فى البلاد ؟

---

(١) تُبَّع : لقب ملوك اليمن العظام ، وهم أهل سبأ ، كانوا كلما ملك فيهم رجل سموه تبعاً كما يقال كسرى لمن ملك الفرس ، وقيصر لمن ملك الروم ، وفرعون لمن ملك مصر ، والنجاشى لمن ملك الحبشة . [تفسير ابن كثير ١٤٣/٤] .

وأين فرعون ذو الأوتاد ؟ فكل جبار مهما علَتْ حضارته ما استطاع أنْ يُبقى هذه الحضارة ؛ لأن الله تعالى أراد لها أنْ تزول ، وهل كفار مكة أشدّ من كل هؤلاء ؟

لذلك حين تسمع هذا السؤال : ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾﴾ [مريم] لا يسَعْك إلاَّ أنْ تُجيب : لا أحسُّ منهم من أحد ، ولا أسمع لهم ركزاً .

سُورَةُ طٰهٰ

سورة طه

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يقول الحق سبحانه فى بداية سورة طه[1] :

﴿ طه ١ ﴾

تكلمنا كثيراً عن الحروف المقطَّعة فى بدايات السور ، ولا مانع هنا أنْ نشير إلى ما ورد فى (طه) ، فالبعض يرى أنها حروف متصلة ، وهى اسم من أسماء الرسول ﷺ ، وآخرون يروْنَ أنها حروف مُقطّعة مثل (الم) ومثل (يس) فهى حروف مُقطّعة ، إلا أنها صادفتْ اسماً من الأسماء كما فى (ن) حرف وهو اسم للحوت : ﴿ وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا .. ﴿٨٧﴾ ﴾ [الأنبياء] و (ق) حرف ، وهو اسم لجبل اسمه جبل قاف .

إذن : لا مانع أن تدل هذه الحروف على اسم من الأسماء ،

---

(١) سورة (طه) هى السورة رقم ٢٠ فى ترتيب المصحف الشريف ، عدد آياتها (١٣٥) آية ، وهى سورة مكية فى قول الجميع ، نزلت قبل إسلام عمر رضى الله عنه ، وهى السورة رقم (٤٤) فى ترتيب نزول القرآن ، وقد نزلت بعد سورة مريم وقبل سورة الواقعة . وهى سورة مكية ، وقد استثنى منها آيتان هما ﴿ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ ﴾ [طه] . فقد ذكر السيوطى فى « الإتقان فى علوم القرآن » (١/ ٤٢) أنهما مدنيتان .

فتكون (طه) اسماً[1] من أسماء الرسول ﷺ خاصة ، وأن بعدها : ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ (٢)﴾ [طه]

لكن تلاحظ هنا مفارقة ، حيث نطق الطاء والهاء بدون الهمزة ، مع أنها حروف مقطعة مثل الف لام ميم ، لكن لم ينطق الحرف كاملاً ، لأنهم كانوا يستثقلون الهَمْز فيُخَفِّفونها ، كما فى ذئب يقولون : ذيب وفى بئر ، يقولون : بير . وهذا النطق يُرجح القول بأنها اسم من أسماء النبى ﷺ .

وسبق أنْ أوضحنا أن فواتح السور بالحروف المقطّعة تختلف عن باقى آيات القرآن ، فكُلُّ آيات القرآن من بدايته لنهايته بُنِيَتْ على الوَصْل ، وإنْ كان لك أن تقف ؛ لذلك فكل المصاحف تُبنَى على الوَصْل فى الآيات وفى السور ، فتنطق آخر السورة على الوصل ببسم الله الرحمن الرحيم فى السورة التى بعدها .

تقول : ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا (٩٨)﴾ [مريم] (بسم الله الرحمن الرحيم) حتى فى آخر سور القرآن ونهايته تقول : ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ (٦)﴾ [الناس] (بسم الله الرحمن الرحيم) مع أنها آخر كلمة فى القرآن ، وماذا سيقول بعدها ؟ لكنها جاءت على الوَصْل إشارة إلى أن القرآن موصولٌ أوّله بآخره ، لا ينعزل بعضه عن بعض ، فإياك أن تجفوَهُ ، أو تظن أنك أنهيته ؛ لأن نهايته موصولة ببدايته ؛ فنقرأ ﴿ من الجنّة والناسِ ﴾ ﴿ بِسم الله الرحمن الرحيم ﴾ الحمدُ لله رب العالمين ....

---

(١) قال ابن عباس : معنى (طه) أى : يا رجل . ذكره البيهقى . وقاله الحسن وقال عكرمة : هو بالسريانية كذلك ، ذكره المهدى . وحكى الطبرى : أنه بالنبطية يا رجل . وهذا قول السدى وسعيد بن جبير .[تفسير القرطبى ٦/٤٣٣٧] .

إذن : فالقرآن كله فى كل جملة وكل آية وكل سورة مبنىٌّ على الوَصْل ، إلا فى فواتح السور بالحروف المقطّعة تُبنَى على الوقف (ألف ـ لام ـ ميم) ، وهذا وجه من وجوه الإعجاز ، وأن القرآن ليس ميكانيكا ، بل كلام مُعْجِز من ربِّ العالمين .

لذلك ، فالنبى ﷺ أوضح استقلالية هذه الحروف بذاتها ، فقال « تعلموا هذا القرآن ، فإنكم تؤجرون بتلاوته ، بكل حرف عشر حسنات ، أما إنى لا أقول الم حرف ، ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف ، بكل حرف عشر حسنات »[(١)] .

يقول الحق سبحانه :

﴿ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ ﴾

الشقاء : هو التعب والنَّصَب والكدّ ، فالحق سبحانه ينفى عن رسوله ﷺ التعب بسبب إنزال القرآن عليه ، إذن : فما المقابل ؟ المقابل : أنزلنا عليك القرآن لتسعد ، تسعد أولاً بأن اصطفاك لأن تكون أهْلاً لنزول القرآن عليك ، وتسعد بأن تحمل نفسك أولاً على منهج الله وفِعْل الخير كل الخير .

فلماذا ـ إذن ـ جاءتْ كلمة ﴿ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ ﴾ [طه] ؟

هذا كلام الكفار أمثال أبى جهل ، ومُطعِم بن عدى ، والنضر بن الحارث ، والوليد بن المغيرة حينما ذهبوا إلى النبى ﷺ وقالوا له :

---

(١) أخرجه الدارمى فى سننه (٢/٤٢٩) كتاب فضائل القرآن ـ باب : فضل من قرأ القرآن من حديث عبد الله بن مسعود .

لقد أشقيتَ نفسك بهذه الدعوة[١] .

وقال رسول الله ﷺ : « إن الله بعثنى رحمة للعالمين »[٢] .

فقد بعث رسول الله ليسعد ويسعد معه قومه والناس أجمعين لا ليشقى ويُشقِى معه الناس . لكن من أين جاء الكفار بمسألة الشقاء هذه ؟ المؤمن لو نظر إلى منهج الله الذى نزل به القرآن لوجده يتدخل فى إراداته واختياراته ، ويقف أمام شهواته ، فيأمره بما يكره وما يشقُّ على نفسه ، ويمنعه مما يألَف ومما يحب .

إذن : فمنهج الله ضد مرادات الاختيار ، وهذا يُتعِب النفس ويشقُّ عليها إذا عُزِلَتْ الوسيلة عن غايتها ، فنظرت إلى الدنيا والتكليف منفصلاً عن الآخرة والجزاء .

أمّا المؤمن فيقرن بين الوسيلة والغاية ، ويتعب فى الدنيا على أمل الثواب فى الآخرة ، فيسعد بمنهج الله ، لا يشقى به أبداً . كالتلميذ الذى يتحمل مشقّة الدرس والتحصيل ؛ لأنه يستحضر فَرْحة الفوز والنجاح آخر العام .

من هنا رأى هؤلاء الكفار فى منهج الله مشقة وتعباً ، لأنهم عزلوا الوسيلة عن غايتها ؛ لذلك شعروا بالمشقة ، فى حين شعر المؤمنون بلذة العبادة ومتعة التكليف من الله ، وهذه المسألة هى التى جعلتهم

---

(١) قال مقاتل : قال أبو جهل والنضر بن الحارث للنبى ﷺ : إنك لتشقى بترك ديننا ، وذلك لما رأياه من طول عبادته واجتهاده ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ﴿٢﴾﴾ [طه] [ذكره الواحدى النيسابورى فى أسباب النزول ص ١٧٤] .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٥/٢٥٧) من حديث أبى أمامة رضى الله عنه ، وتمامه : « إن الله بعثنى رحمة وهدى للعالمين وأمرنى أن أمحق المزامير والكفارات يعنى البرابط والمعازف والأوثان التى كانت تعبد فى الجاهلية » .

يتخذون آلهةً لا مطالبَ لها ، ولا منهج ، ولا تكليف ، آلهة يعبدونها على هواهم ، ويسيرون فى ظلها على حلِّ شعورهم .

لذلك أوضح القرآن أنهم مغفلون فى هذه المسألة ، فقال : ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ﴿٢﴾﴾ [طه]

أو يكون الشقاء :تعرُّضه لعُتاة قريش وصناديدها الذين سخروا منه ، وآذوه وسلَّطوا عليه سفهاءهم وصبيانهم ، يشتمونه ويرمونه بالحجارة ، وهو ﷺ يُشقِى نفسه بدعوتهم والحرص على هدايتهم .

والحق تبارك وتعالى ينفى الشقاء بهذا المعنى أيضاً : ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ﴿٢﴾﴾ [طه] أى : لتُشقى نفسك معهم ، إنما أنزلناه لتبلغهم فحسب[1] ، وقد تكرر هذا المعنى فى القرآن كثيراً فى مثل قوله تعالى : ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾﴾ [الكهف] وقوله : ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴿٤﴾﴾ [الشعراء]

وسبق أنْ ضربنا لذلك مثلاً ـ ولله المثَل الأعلى ـ برجل عنده عبدان : ربط أحدهما إليه بحبل ، وأطلق الآخر حُراً ، فإذا ما دعاهما فاستجابا لأمره ، فأيهما أطوع له ، وأكثر احتراماً لأمره ؟

لا شكَّ أنه الحر الطليق ؛ لأنه جاء مختاراً ، فى حين كان قادراً على العصيان . وكذلك ربك ـ تبارك وتعالى ـ يريد منك أن تأتيه حُراً مختاراً مؤمناً ، وأنت قادر ألاَّ تؤمن .

---

(١) أخرج الترمذى فى سننه (٣٣١٨) من حديث ابن عباس رضى الله عنهما من حديث طويل أن رسول الله ﷺ قال : « إنما بعثنى الله مبلغاً ، ولم يبعثنى مُعنّتاً » قال الترمذى : « هذا حديث حسن صحيح » .

والبعض يحلو لهم نقد الإسلام واتهام الرسول ﷺ ، فيقولون : إن رسول الله يخطىء والله يُصوِّب له ، ونتعجب : وما يضيركم أنتم ؟ طالما أن ربه هو الذى يُصوِّب له ، هل أنتم الذين صوَّبتم لرسول الله !؟ ثم مَنْ أخبركم بخطأ رسول الله ؟ أليس هو الذى أخبركم ؟ أليس هذا من قوة أمانته فى التبليغ ويجب أن تحمد له ؟

إذن : فرسول الله ﷺ لا يستنكف أنْ يُربِّيه ربه ؛ لذلك يقول : « إنما أنا بشر يَرِد علىَّ - يعنى من الحق - فأقول : أنا لست كأحدكم ، ويُؤخذ منى فأقول : ما أنا إلا بشر مثلكم » .

وقد تمحَّك هؤلاء كثيراً فى قصة عبد الله بن أم مكتوم ، حينما انشغل عنه رسول الله بكبار قريش ، والمتأمل فى هذه القصة يجد أن ابن أم مكتوم كان رجلاً مؤمناً جاء ليستفهم من رسول الله عن شىء ، فالكلام معه ميسور وأمر سَهْل ، أمّا هؤلاء فهم رؤوس الكفر وكبار القوم ، ولديهم مع ذلك لَدَد فى خصومتهم للإسلام ، والنبى ﷺ يحرص على هدايتهم ويُرهِق نفسه فى جدالهم أملاً فى أنْ يهدى الله بهم مَنْ دونهم .

إذن : النبى فى هذا الموقف اختار لنفسه الأصعب ، وربه يعاتبه على ذلك ، فهو عِتَاب لصالحه ، له لا عليه[1] .

---

(١) وفى هذا يقول الحق سبحانه : ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ۝١ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ ۝٤ أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠ كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝١١ فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ ۝١٢﴾ [عبس] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ ﴾

أى : ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ، وإنما أنزلناه (تذكرةً) أى تذكيراً (لمَنْ يَخْشَى) الخشية : خَوْف بمهابة ؛ لأن الخوفَ قد يكون خوفاً دون مهابة ، أمّا الخوف من الله فخوْف ومهابة معاً .

﴿ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى ﴿٤﴾ ﴾

تنزيلاً : مصدر أى : أنزلناه تنزيلاً ، وقد ورد فى نزول القرآن : أنزلناه ، ونزلناه ونزل ، يقول تعالى : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا .. ﴿٤﴾ ﴾ [القدر]

لأن القرآن أخذ أدواراً عِدَّة فى النزول ، فقد كان فى اللوح المحفوظ ، فأراد الله له أن يباشر القرآن مهمته فى الوجود ، فأنزله من اللوح المحفوظ مرة واحدة إلى السماء الدنيا . فأنزله ـ أى الله تعالى ـ ثم تَنزَّل مُفرَّقاً حسْب الأحداث من السماء الدنيا على قلب رسول الله ﷺ والذى نزل به جبريل : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ ﴾ [الشعراء]

وقوله تعالى : ﴿ مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى ﴿٤﴾ ﴾ [طه]

خَصَّ السموات والأرض ، لأنها من أعظم خَلْق الله ، وقد أعدهما الله ليستقبلا الإنسان ، فالإنسان طرأ على كَوْن مُعَدٍّ جاهز لاستقباله ، فكان عليه ساعة أنْ يرى هذا الكون المُعدَّ لخدمته بأرضه وسمائه ، ولا قدرة له على تسيير شىء منها ، كان عليه أن يُعمِلَ عقله ،

ويستدل بها على الموجد سبحانه وتعالى .

كأن الحق ـ تبارك وتعالى ـ يقول لك : إذا كان الخالق سبحانه قد أعدَّ لك الكون بما يُقيم حياتك المادية ، أيترك حياتك المعنوية بدون عطاء ؟

والخالق عز وجل خلق هذا الكون بهندسة قيومية عادلة حكيمة تُوفِّر لخليفته فى الأرض استبقاءَ حياته ، وتعطيه كل ما يحتاج إليه بقدر دقيق ، واستبقاء الحياة يحتاج إلى طعام وشراب وهواء ، وقد أعطاها الله للإنسان بحكمة بالغة .

فالطعام يحتاجه الإنسان ، ويستطيع أنْ يصبر عليه شهراً ، دون أن يأكل ، ويحتاج إلى الماء ولكن لا يستطيع أنْ يصبر عليه أكثر من عشرة أيام ، ويحتاج إلى الهواء ولكن لا يصبر عليه لحظةً تستغرق عدَّة أنفاس .

لذلك ، فمن رحمته تعالى بعباده أنْ يمتلك بعضُ الناس القوتَ ، فالوقت أمامك طويل لتحتالَ على كَسْبه ، وقليلاً ما يملك أحدٌ الماءَ ، أما الهواء الذى لا صَبْر لك عليه ، فمن حكمة الله أنه لا يملكه أحد ، وإلا لو منع أحد عنك الهواء لمُتَّ قبل أنْ يرضى عنك .

فمن حكمة الله أنْ خلق جسمك يستقبل مُقوِّمات استبقاء الحياة فترة من الزمن تتسع للحيلة وللعطف من الغير ، وحين تأكل يأخذ الجسم ما يحتاجه على قَدْر الطاقة المبذولة ، وما فاض يُختزَن فى جسمك على شكل دُهْن يُغذِّى الجسم حين لا يتوفر الطعام .

ومن عجائب قدرة الله أن هذه المادة الدُّهنية تتحول تلقائياً إلى أى مادة أخرى يحتاجها الجسم ، فإن احتاج الحديد تتحول كيماوياً إلى الحديد ، وإن احتاج الزرنيخ تتحول كيماوياً إلى زرنيخ ، وهى فى الواقع مادة واحدة ، فمَنْ يقدر على هذه العملية غيره تعالى ؟

وبعد أنْ أعطاك ما يستبقى حياتك من الطعام والشراب والهواء أعطاك ما يستبقى نوعك بالزواج والتناسل .

وقوله تعالى : ﴿السَّمَـٰوَاتِ الْعُلَى ﴿٤﴾﴾ [طه] العلا : جمع عُليا ، كما نقول فى جمع كبرى : كُبَر ﴿إِنَّهَا لإِحْدَى الْكُبَرِ ﴿٣٥﴾﴾ [المدثر]

وهكذا تكتمل مُقوِّمات التكوين العالى لخليفة الله فى الأرض ، فكما أعطاه ما يقيم حياته ونوعه بخَلْق السموات والأرض ، أعطاه ما يُقيم معنوياته بنزول القرآن الذى يحرس حركاتنا من شراسة الشهوات ، فالذى أنزل القرآن هو الذى خلق الأرض والسموات العلا .

والصفة البارزة فى هذا التكوين العالى للإنسان هى صِفَة الرحمانية ؛ لذلك قال بعدها :

﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴿٥﴾﴾

فالآية السابقة أعطتْنا مظهراً من مظاهر العطف والرحمة ، وهذه تعطينا مظهراً من مظاهر القَهْر والغَلَبة ، واستواء الرحمن ـ تبارك وتعالى ـ على العرش يُؤخَذ فى إطار

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ .. ﴿١١﴾﴾ [الشورى]

وسبق أن تكلمنا فى الصفات المشتركة بين الحق سبحانه وبين

خَلْقه ، فلَكَ سمعٌ وبصر ، ولله سمع وبصر ، لكن إياك أنْ تظن أن سمع الله كسمْعك ، أو أن بصره كبصرك .

كذلك فى مسألة الاستواء على العرش ، فللحقِّ سبحانه استواء على عرشه ، لكنه ليس كاستوائك أنت على الكرسى مثلاً[1] .

والعرش فى عُرْف العرب هو سرير الملْك ، وهل يجلس الملك على سريره ليباشر أمر مملكته ويدير شئونها إلا بعد أنْ يستتبَّ له الأمر ؟

وكذلك الخالق ـ جلَّ وعلا ـ خلق الكون بأرضه وسمائه ، وخلق الخَلْق ، وأنزل القرآن لينظم حياتهم ، وبعد أن استتبَّ له الأمر لم يترك الكون هكذا يعمل ميكانيكياً ، ولم ينعزل عن كَوْنه وعن خَلْقه ؛ لأنهم فى حاجة إلى قيوميته تعالى فى خَلْقه .

ألم يقل الحق سبحانه فى الحديث القدسى : « يا عبادى ، ناموا ملْءَ جفونكم ، لأنِّى قَيُّوم لا أنام »[2] .

فكوْنُ الله ليس آلةً تعمل من تلقاء نفسها ، وإنما هو قائم بقيوميته عليه لا يخرج عنها ؛ لذلك كانت المعجزات التى تخرق نواميس الكون دليلاً على هذه القيومية .

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٦/٤٣٤١) : « الذى ذهب إليه الشيخ أبو الحسن وغيره أنه مستو على عرشه بغير حدٍّ ولا كيْف ، كما يكون استواء المخلوقين . وقال ابن عباس : يريد خلق ما كان وما هو كائن إلى يوم القيامة وبعد القيامة » . وقال ابن كثير فى تفسيره (٣/١٤٢) : « المسلك الأسلم فى ذلك طريقة السلف : إمرار ما جاء فى ذلك من الكتاب والسنة من غير تكييف ولا تحريف ولا تشبيه ولا تعطيل ولا تمثيل » .

(٢) أورد ابن كثير فى تفسيره (١/٣٠٩) عن ابن عباس أن بنى إسرائيل قالوا : يا موسى هل ينام ربك ؟ قال : اتقوا الله ، فناداه ربه عز وجل : يا موسى سألوك هل ينام ربك ؟ فخذ زجاجتين فى يديك ، فقم الليلة . ففعل موسى ، فلما ذهب من الليل ثلث نعس فوقع لركبتيه ثم انتعش فضبطهما ، حتى إذا كان آخر الليل نعس فسقطت الزجاجتان فانكسرتا . فقال : يا موسى لو كنت أنام لسقطت السماوات والأرض فهلكت كما هلكت الزجاجتان فى يديك » .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾﴾

الحق ـ تبارك وتعالى ـ يمتنُّ بما يملكه سبحانه فى السموات وفى الأرض وما تحت الثرى ، والله تعالى لا يمتنُّ إلا بملكية الشىء النفيس الذى يُنتفع به .

وكأنه سبحانه يلفت أنظار خَلْقه إلى ما فى الكون من مُقوِّمات حياتهم المادية ليبحثوا عنها ، ويستنبطوا ما ادَّخره لهم من أسرار وثروات فى السموات والأرض ، والناظر فى حضارات الأمم يجد أنها جاءت إما من حَفْريات الأرض ، أو من أسرار الفضاء الأعلى فى عصر الفضاء .

ولو فهم المسلمون هذه الآية منذ نزلت لَعلموا أن فى الأرض وتحت الثرى وهو : (التراب) كنوزاً وثروات ما عرفوها إلا فى العصر الحديث بعد الاكتشافات والحفريات ، فوجدنا البترول والمعادن والأحجار الثمينة ، كلها تحت الثَّرى مطمورةً تنتظر مَنْ يُنقِّب عنها وينتفع بها .

وقد أوضح العلماء أن هذه الثروات موزعة فى أرض الله بالتساوى ، بحيث لو أخذتَ قطاعات متساوية من أراض مختلفة لوجدتَ أن الثروات بها متساوية : هذه بها ماء ، وهذه مزروعات ، وهذه معادن ، وهذه بترول وهكذا . فهى أشبه بالبطيخة حين تقسمها إلى قِطع متساوية من السطح إلى المركز .

لذلك يقول تعالى : ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾﴾ [الحجر]

إذن : فالخير موجود ينتظر القَدَر ليظهر لنا وننتفع به .

ثم يقول تبارك وتعالى :

﴿ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ ﴾

الحق ـ سبحانه وتعالى ـ حينما يطلب من رسوله أن يذكر يريد منه أن يُذكِّر تذكيراً مرتبطاً بنيته ، لا ليقطع العَتْب عن نفسه ، فالمسألة ليست جهراً بالتذكير .

وإذا كان الله تعالى يقول لرسوله ﷺ : إننى سأحرس سرك كما أحرس علانيتك ، وأن الجهر عندى مثل السر ، بل وأخفى من السر ، وهو ﷺ مؤتمن على الرسالة فإنه تعالى يقول أيضاً لأمته : إياكم أن تقولوا كلاماً ظاهره فيه الرحمة ، ونيتكم غير مستقرة عليه ؛ لأن الله كما يعلم الجهر يعلم السر ، وما هو أخفى من السر .

وتكلمنا عن الجهر ، وهو أن تُسمع مَنْ يريد أن يسمع ، والسر : أن تخصَّ واحداً بأن تضع فى أذنه كلاماً لا تحب أن يشيع عند الناس ، وتهمس فى أذنه بأنك المأمون على هذا الكلام ، وأنت ترتاح نفسياً حينما تُلقى بسرِّك إلى مَنْ تثق فيه ، وتأمن ألاَّ يذيعه ، وهناك فى حياة كل منا أمور تضيق النفس بها ، فلا بُدَّ لك أن تُنفِّسَ عن نفسك ، كما قال الشاعر :

وَلاَ بُدَّ مِنْ شكْوَى إِلَى ذِى مُرُوءَةٍ يوَاسِيكَ أَوْ يُسْلِيكَ أَوْ يتوجَّعُ

فأنت ـ إذن ـ فى حاجة لمَنْ يسمع منك ليريحك ، ويُنفِّس عنك ، ولا يفضحك بما أسررْتَ إليه .

ومعنى ﴿وَأَخْفَى ۝٧﴾ [طه] أى : أَخْفى من السر ، فإنْ كان سِرُّك قد خرج من فمك إلى أذن سامعك ، فهناك ما هو أَخْفَى من السر ، أى : ما احتفظتَ به لنفسك ولم تتفوَّه به لأحد .

لذلك يقول تعالى : ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝١٣﴾ [الملك] أى : مكنوناتها قبل أن تصير كلاماً .

وقال أيضاً : ﴿وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ .. ۝١٦﴾ [ق] فوسوسة النفس ، وذات الصدور هى الأَخْفى من السر ، فلدينَا - إذن - جَهْر ، وسِرٌّ ، وأخفى من السر ، لكن بعض العارفين يقول : وهناك فى علم الله ما هو أخْفى من الأَخفى ، فما هو ؟ يقول: إنه تعالى يعلم ما سيكون فى النفس قبل أن يكون .

وبعد ذلك جاء الحق سبحانه بالكلمة التى بعث عليها الرسل جميعاً :

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۝٨﴾

هذه الكلمة (لا إله إلا هو) هى قمة العقيدة ، وقال عنها النبى ﷺ : « خير ما قلته أنا والنبيون من قبلى : لا إله إلا الله »[1] .

وما دام لا إله إلا الله ، فهو سبحانه المؤْتَمن عليك ، فليس هناك إله آخر يُعقِّب عليه ، فاعمل لوجهه يكْفك كل الأوجه وتريح نفسك أن تتنازعك قوى شتى ومختلفة ، ويُغنيك عن كل غنى .

وحينما دخل أعرابى على رسول الله ﷺ وهو يتكلم مع أبى بكر -

(١) أخرجه الترمذى فى سننه (٣٥٨٥) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص قال : « خير الدعاء دعاء يوم عرفة .. » الحديث بتمامه . قال الترمذى : « هذا حديث غريب من هذا الوجه » .

رضى الله عنه ـ لم يفهم من كلامهما شيئاً ، فقال : يا رسول الله أنا لا أُحسن دندنتك ولا دندنة أبى بكر ، أنا لا أعرف إلا : لا إله إلا الله محمد رسول الله . فقال ﷺ : « حَوْلَها ندندن يا أخا العرب »[(١)] .

فهى الأساس والمركز الذى يدور حوله الإسلام .

وكلمة (اللهُ) عَلَم على واجب الوجود بكل صفات الكمال له ، فهو الله الموجود ، الله القادر ، الله العالم ، الله الحىّ ، الله المحيى ، الله الضار . فكل هذه صفات له سبحانه ، لكن هذه الصفات لما بلغتْ حَدَّ الكمال فيه تعالى أصبحتْ كالاسم العَلَم ، بحيث إذا أُطلِق الخالق لا ينصرف إلا له ، والرازق لا ينصرف إلا له .

وقد يشترك الخَلْق مع الخالق فى بعض الصفات ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُوْلُوا الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم .. (٨) ﴾ [النساء]

فالإنسان أيضاً يرزق ، لكن رزقه من باطن رزق الله ، فهو سبحانه الرازق الأعلى ، ومن بَحْره يغترف الجميع .

وكما فى قوله تعالى : ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ﴾ [المؤمنون] وقال تعالى : ﴿ وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا .. (١٧) ﴾ [العنكبوت]

ومعنى ذلك أن هناك خالقين غيره سبحانه ، ومعنى الخَلْق :

---

(١) أخرج أحمد فى مسنده (٣/٤٧٤) وابن ماجه فى سننه (٣٨٤٧) وأبو داود فى سننه (٧٩٢) عن بعض أصحاب النبى ﷺ قال قال النبى ﷺ لرجل : كيف تقول فى الصلاة ؟ قال : أتشهد . ثم أقول : اللهم إنى أسألك الجنة وأعوذ بك من النار ، أما إنى لا أحسن دندنتك ولا دندنة معاذ . فقال النبى ﷺ : « حولها ندندن » .

الإيجاد من عدم ، فالذى جاء بالرمل وصنع منه كوباً فهو خالق للكوب ، فأنت أوجدتَ شيئاً من عدم ، والله تعالى أوجد شيئاً من عدم ، ولكنك أوجدت من موجودِ الله قبل أن توجد أنتَ ، فهو - إذن - أحسن الخالقين فى حين لم يضِنّ عليك ربك بأنْ ينصفك ويسميك خالقاً . وهذا يوجب عليك أنْ تنصفه سبحانه وتقول ﴿أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ [المؤمنون]

وأيضاً ، فإن الله تعالى إذا احترم إيجادك لمعدوم فسمَّاك خالقاً له ، ولم يَضِنّ عليك فأعطاك صفة من صفاته إنما أخبرك أنه أحسن الخالقين ؛ لأنك تُوجِد معدوماً يظل على إيجادك ويجمد على هذه الحالة ، لكن الخالق - سبحانه وتعالى - يُوجِد معدوماً ويمنحه الحياة ، ويجعله يلتقى بمثله ويُنجب ، فهل يستطيع الإنسان الذى أوجد كوباً أن يجعل منه ذكراً وأنثى ينتجان لنا الأكواب ؟! وهل يكبر الكوب الصغير ، أو يتألم إنْ كُسِر مثلاً ؟!.

إذن : فالخالق سبحانه هو أحسن الخالقين ، وكذلك هو خير الرازقين ، وخَيْر الوارثين ، وخَيْر الماكرين .

وقوله تعالى : ﴿لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾﴾ [طه] الحُسْنى : صيغة تفضيل للمؤنث مثل : كُبْرى ، تقابل « أحسن » للمذكر . إذن : فهناك أسماء حسنة هى أسماء الخَلْق ، أما أسماء الله فحسنى ؛ لأنها بلغتْ القمة فى الكمال ، ولأن الأسماء والصفات التى تنطبق عليها موجودة فى الخالق الأعلى سبحانه ، فحين تقول فى أسماء الله تعالى (الرازق) فهى الصفة الحُسْنى لا الحسنة .

لذلك لما أراد رجل يُدْعى (سعد) أن يشاور أباه فى خطبة ابنته حسنى وقد تقدم لها رجلان : حسن وأحسن . فقال له أبوه (فحسنى يا سعد للأحسن) .

وقال تعالى : ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ .. (٢٦)﴾ [يونس] فلم يقل : حسنة ، لأنهم أحسنوا فاستحقوا الحُسْنى بل وزيادة .

وأسماء الله تعالى هى فى الحقيقة صفات ، إلا أنها لما أُطلقت على الحق - تبارك وتعالى - أصبحتْ أسماء . ولَكَ أنْ تُسمِّىَ فتاة زنجية (قمر) وتسمى قِزْماً (الطويل) لأن الاسم إذا أُطلق علَماً على الغير انحلَّ عن معناه الأصلى ولزم العلَمية فقط ، لكن أسماء الله بقيتْ على معناها الأصلى حتى بعد أنْ أصبحتْ علَماً على الله تعالى ، فهى - إذن - أسماء حُسْنى .

وبعد أن تكلَّم الحق - تبارك وتعالى - عن الرسول الخاتم صاحب المنهج الخاتم - فليس بعده نبى وليس بعد منهجه منهج - أراد سبحانه أنْ يُسلّيه تسلية تُبيِّن مركزه فى موكب الرسالات ، وأنْ يعطيه نموذجاً لمن سبقوه من الرسل ، وكيف أن كل رسول تعب على قَدْر رسالته ، فإنْ كانت الرسالات السابقة محدودة الزمان محدودة المكان ، ومع ذلك تعب أصحابها فى سَبيلها ، فما بالك برسول جاء لكل الزمان ولكل المكان ؟ لا بُدَّ أنه سيواجه من المتاعب مثل هؤلاء جميعاً .

إذن : فوطِّن نفسك يا محمد على أنك ستلْقَى من المتاعب والصعاب ما يناسب عظمتك فى الرسالة وخاتميتك للأنبياء ، وامتداد رسالتك فى

الزمان إلى أنْ تقومَ الساعة ، وفى المكان إلى ما اتسعتْ الأرض .

لذلك اختار الحق ـ تبارك وتعالى ـ لرسوله ﷺ نبياً من أُولى العزم ؛ لأنه جاء لبنى إسرائيل وجاء لفرعون ، وقد كان بنو إسرائيل قوماً ماديين ، أما فرعون فقد ادَّعى الألوهية ، اختار موسى ـ عليه السلام ـ ليقصّ على رسول الله قصته ويُسلِّيه فيما يواجهه من متاعب الدعوة ، كما قال تعالى : ﴿ وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَـٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ (١٢٠) ﴾ [هود]

وقال تعالى : ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا[1] مِّنَ الرُّسُلِ .. (٩) ﴾ [الأحقاف]

فأنت يا محمد كغيرك من الرسل ، وقد وجدوا من المشقة على قَدْر رسالاتهم ، وسوف تجد أنت أيضاً من المشقة على قَدْر رسالتك . ونضرب لذلك مثلاً بالتلميذ الذى يكتفى بالإعدادية وآخر بالثانوية أو الجامعة ، وآخر يسعى للدكتوراة ، فلا شكَّ أن كلاً منهم يبذل من الجهد على قَدْر مهمته .

لذلك يقول تعالى :

﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ[2] (٩) ﴾

إذا جاء الاستفهام من الله تعالى فاعلم أنه استفهام على غير حقيقته ، فلا يُرَاد هنا طلب الفهم ، لأن أخبار محمد تأتيه من ربه ـ

---

(١) أى : ما كنت غريباً ولا عجيباً ولا كنت على غير مثال سابق ، فأنا مثل الرسل السابقين . [القاموس القويم ١/٥٧] .

(٢) قال القرطبى فى تفسيره (٦/٤٣٤٣) : « قال أهل المعانى : هو استفهام وإثبات وإيجاب معناه : أليس قد أتاك ؟ وقيل : معناه قد أتاك . قاله ابن عباس » .

عز وجل ـ فكيف يستفهم منه . إنما المراد بالاستفهام هنا التشويق لما سيأتى كما تقول لصاحبك : هل بلغك ما حدث بالأمس ؟ فيُشوِّقه لسماع ما حدث .

والحديث : أى الخبر عنه سواء أكان بالوحى ، أو بغير الوحى ، كأن حكيت له قصة موسى عليه السلام .. فهل بلغتْك هذه القصة ؟ اسمعها الآن منى :

﴿ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ ﴾ (١) (٢)

نلحظ هنا أن السياق لم يذكر قصة موسى من أولها لما قال تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ .. ﴿٧﴾ ﴾ [القصص] ثم خروجه من المدينة خائفاً وذهابه إلى شعيب .. الخ ، وإنما قصد إلى مَنَاط الأمر ، وهى الرسالة مباشرة .

وقوله : ﴿ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ ﴾ [طه] آنست : أى أبصرت ، وشعرت بشىء يستأنس به ويُفرَح به ويُطمأن إليه ، ومقابلها (توجست) للشر الذى يخاف منه كما فى قوله : ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ ﴾ [طه]

---

(١) قال ابن عباس وغيره : هذا حين قضى الأجل وسار بأهله وهو مقبل من مدين يريد مصر ، وكان قد أخطأ الطريق . وقال وهب بن منبه : استأذن موسى شعيباً فى الرجوع إلى والدته فأذن له فخرج بأهله بغنمه ، وولد له فى الطريق غلام فى ليلة شاتية باردة مثلجة ، وقد حاد عن الطريق وتفرقت ماشيته ، فقدح موسى النار فلم تور المقدحة شيئاً إذ بصر بنار من بعيد على يسار الطريق . قاله القرطبى فى تفسيره (٦/٤٣٤٣) .

(٢) القبس : : الشعلة من النار [اللسان ـ مادة : قبس] .

(لَعلِّى) رجاء أنْ أجدَ فيها القبس ، وهو شعلة النار التى تُتَّخذ من النار إنْ أدركت النار وهى ذات لَهَب ، فتأخذ منها عوداً مشتعلاً مثل الشمعة .

وفى سياق آخر قال : (جذوة)[1] وهى النار حينما ينطفىء لهبها ويبقى منها جمرات يمكن أن تشعل منها النار . وفى موضع آخر قال : ﴿ سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ .. (٧) ﴾ [النمل]

وهذه كلها صور متعددة ، وحالات للنار ، ليس فيها تعارض كما يحلو للبعض أن يقول ، فموسى عليه السلام حينما قال ﴿ لَّعَلِّى آتِيكُم .. (١٠) ﴾ [طه] يرجو أن يجد القبس ، لكن لا يدرى حال النار عندما يأتيها ، أتكون قَبَساً أم جَذوة ؟

وقد طلب موسى ـ عليه السلام ـ القَبَس لأهله ؛ لأنهم كانوا فى ليلة مطيرة شديدة البرد ، وهم غرباء لا يعلمون شيئاً عن المكان ، فهو غير مطروق لهم فيسيرون لا يعرفون لهم اتجاهاً ، فماذا يفعل موسى عليه السلام ومعه زوجته وولده الصغير وخادمه ؟

إنهم فى أمسِّ الحاجة للنار ، إما للتدفئة فى هذا الجو القارس ، وإما لطلب هداية الطريق ، لذلك قال : ﴿ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى (١٠) ﴾ [طه] أى : هادياً يدلّنا على الطريق .

وفى موضع آخر قال : ﴿ لَّعَلِّى آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ .. (٢٩) ﴾ [القصص]

لذلك لما أبصر موسى عليه السلام النار أسرع إليها بعد أنْ طمأن أهله : ﴿ امْكُثُوا إِنِّى آنَسْتُ نَارًا .. (١٠) ﴾ [طه]

---

(١) وذلك فى قوله : ﴿ لَّعَلِّى آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (٢٩) ﴾ [القصص] .

وهذه المسألة من قصة موسى كانت مثَارَ تشكيك من خصوم الإسلام ، حيث وجدوا سياقات مختلفة لقصة واحدة ، فمرة يقول : ﴿ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم .. (١٠) ﴾ [طه] ، وفى موضع آخر يقول : ﴿ لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ .. (٢٩) ﴾ [القصص]

ومرة يقول : (قَبَس) وأخرى يقول (بشهَابٍ قَبَسٍ) ومرة (بجَذْوَة) ومرة يقول : ﴿ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى (١٠) ﴾ [طه] ومرة يقول : ﴿ لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ .. (٢٩) ﴾ [القصص]

والمتأمل فى الموقف الذى يعيشه الآن موسى وامرأته وولده الصغير وخادمه فى هذا المكان المنقطع وقد اكفهرَّ عليهم الجو ، يجد اختلاف السياق هنا أمراً طبيعياً ، فكلٌّ منهم يستقبل الخبر من موسى بشكل خاص ، فلما رأى النار وأخبرهم بها أراد أنْ يُطمئنهم فقال : ﴿ سَآتِيكُم .. (٧) ﴾ [النمل] فلما رآهم مُتعلِّقين به يقولون : لا تتركنا فى هذا المكان قال : ﴿ امْكُثُوا .. (١٠) ﴾ [طه] وربما قال هذه لزوجه وولده وقال هذه لخادمه . فلا بُدَّ أنهم راجعوه . فاختلفت الأقوال حول الموقف الواحد .

كذلك فى قوله : قَبَسٍ أو جَذْوةٍ لأنه حين قال : ﴿ لَّعَلِّي آتِيكُم .. (١٠) ﴾ [طه] يرجو أن يجد هناك القبس ، لكن لعله يذهب فيجد النار جَذْوة . وفى مرة أخرى يجزم فيقول : ﴿ سَآتِيكُم .. (٧) ﴾ [النمل]

إذن : هى لقطات مختلفة تُكوِّن نسيج القصة الكاملة ، وتعددتْ الكلمات لأن الموقف قابلٌ للمراجعة ، ولا ينتهى بكلمة واحدة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ ﴾

يقال : إن موسى عليه السلام لما أتاها وجد نوراً يتلألأ فى شجرة ، لكن لا خضرةُ الشجرة تؤثر فى النور فتبهته ، ولا النورُ يطغى على خضرة الشجرة فيمنع عنها الخضرة ، فهى - إذن - مسألة عجيبة لا يقدر عليها إلا الله .

فكانت هذه النار هى أول الإيناس لموسى فى هذا المكان الموحش ، وكأن هذا المنظر العجيب الذى رآه إعداد إلهى لموسى حتى يتلقَّى عن ربه ، فليستْ المسألة مجرد منظر طبيعى .

وقوله تعالى : ﴿ نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ .. ﴿١١﴾ ﴾ [طه] أى : فى هذه الدهشة ﴿ نُودِيَ .. ﴿١١﴾ ﴾ [طه] فالذى يناديه يعرفه تماماً ؛ لذلك ناداه باسمه ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ .. ﴿١١﴾ ﴾ [طه] وما دام الأمر كذلك فطَمع الخير فيه موجود ، وبدأ موسى يطمئن إلى مصدر النداء ، ويأنَسُ به ، ويبحث عن مصدر هذا الصوت ، ولا يعرف من أين هو ؛ لذلك اعتبرها مسألة عجيبة مثل منظر الشجرة التى ينبعث منها النور .

﴿ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَۖ[1] إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ ﴾

---

(١) اختلف العلماء فى السبب الذى من أجله أُمر بخلع النعلين :
- لأنها نجسة ، إذ هى من جلد حمار ميتَ . قاله كعب وعكرمة وقتادة .
- لينال بركة الوادى المقدس ، وتمس قدماه تربة الوادى . قاله على بن أبى طالب والحسن وابن جريج .
- للخشوع والتواضع عند مناجاة الله .
- إعظاماً لذلك الموضع .
- لتفريغ قلبه من أمر الأهل والولد . وقد يعبر عن الأهل بالنعل ، وكذلك هو فى تعبير الرؤى : من رأى أنه لابس نعلين فإنه يتزوج . [تفسير القرطبى ٦/٤٣٤٥] .

فساعة أنْ كلَّمه ربه : ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ .. (١٢)﴾ [طه] أزال ما فى نفسه من العجب والدهشة لما رآه وسمعه ، وعلم أنها من الله تعالى فاطمأنَّ واستبشر أنْ يرى عجائب أخرى .

ونلحظ فى قوله تعالى : ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ .. (١٢)﴾ [طه] أن الحق - تبارك وتعالى - حينما يتحدَّث عن ذاته تعالى يتحدث بضمير المفرد ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ .. (١٢)﴾ [طه] وحينما يتحدث عن فعْله يتحدث بصيغة الجمع ، كما فى قوله عز وجل : ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (١)﴾ [القدر] ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ .. (٩)﴾ [الحجر] ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا .. (٤٠)﴾ [مريم]

فلماذا تكلَّم عن الفعل بصيغة الجمع ، فى حين يدعونا إلى توحيده وعدم الإشراك به ؟ قالوا : الكلام عن ذاته تعالى لا بُدَّ فيه من التوحيد ، كما فى : ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي (١٤)﴾ [طه]

لكن فى الفعل يتكلم بصيغة الجمع ؛ لأن الفعل يحتاج إلى صفات متعددة وإمكانات شتَّى ، يحتاج إلى إرادة تريده ، وقدرة على تنفيذه وإمكانات وعلم وحكمة .

إذن : كل صفات الحق تتكاتف فى الفعل ؛ لذلك جاء الحديث عنه بصيغة الجمع ، ويقولون فى النون فى قوله : ﴿نَزَّلْنَا الذِّكْرَ .. (٩)﴾ [الحجر] ﴿نَرِثُ الأَرْضَ .. (٤٠)﴾ [مريم] أنها : نون التعظيم .

وقد جاء الخطاب لموسى بلفظ الربوبية ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ .. (١٢)﴾ [طه] لإيناس موسى ؛ لأن الربوبية عطاء ، فخطابه (بربك) أى الذى يتولّى رعايتك وتربيتك ، وقد خلقك من عَدَم ، وأمدك من عُدم ،

ولم يقُلْ : إنى أنا الله ؛ لأن الألوهية مطلوبها تكليف وعبادة وتقييد للحركة بافعل كذا ولا تفعل كذا .

وقوله تعالى : ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ.. (١٢)﴾ [طه] أى : ربك أنت بالذات لا الرب المطلق ؛ لأن الرسل مختلفون عن الخَلْق جميعاً ، فلهم تربية مخصوصة ، كما قال تعالى : ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي (٣٩)﴾ [طه] وقال : ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ[1] لِنَفْسِي (٤١)﴾ [طه]

إذن : فالحق تبارك وتعالى يُربِّى الرسل تربيةً تناسب المهمة التى سيقومون بها .

وقوله تعالى : ﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ .. (١٢)﴾ [طه] هذا أول أمر ، وخَلْع النعل للتواضع وإظهار المهابة ؛ ولأن المكان مُقدَّس والعلة ﴿إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (١٢)﴾[طه] فاخلع نعليك حتى لا تفصل جسمك عن تربة هذا المكان المقدس الطاهر ، ولا تجعل نَعْليك يحولان بينك وبين مباشرة ذرات هذا التراب .

ومن ذلك ما نراه فى مدينة رسول الله من أناس يمشون بها حافيى الأقدام ، يقول أحدهم : لَعلِّى أصادف بقدمى موضع قدم رسول الله ﷺ .

وقوله: ﴿طُوًى (١٢)﴾ [طه] اسم الوادى[2] وهذا كلام عام جاء تحديده فى موضع آخر ، فقال سبحانه : ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ

---

(١) أى : علَّمتك وربيتك وأنعمت عليك لتكون صنيعة لى تخدمنى وتؤدى الرسالة التى أكلفك إياها واخترتك لها . [القاموس القويم ١/ ٣٨٤] .

(٢) قاله ابن عباس ومجاهد وغيرهما . وقال الضحاك : هو واد عميق مستدير مثل الطوى . وقال الحسن : ثنيت فيه البركة والتقديس مرتين . وذكر المهدوى عن ابن عباس : أنه قيل له « طوى » لأن موسى طواه بالليل ، إذ مرّ به فارتفع إلى أعلى الوادى . فكأنه قال : « إنك بالواد المقدس » الذى طويته طوى ، أى تجاوزته فطويته بسيرك . [ذكره القرطبى فى تفسيره ٦/ ٤٣٤٧] . قال ابن كثير فى تفسيره (٣/ ١٤٤) : « الأول أصح كقوله ﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (١٦)﴾ [النازعات] » .

الْوَادِ الأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ .. ﴿٣٠﴾ ﴾ [القصص]

والبعض يرى فى الآية تكراراً ، وليست الآية كذلك ، إنما هو تأسيس لكلام جديد يُوضِّح ويُحدِّد مكان الوادى المقدس طوى أين هو ، فإنْ قلتَ: أين طوى ؟ يقول لك : فى الواد الأيمن ، لكن الواد الأيمن نفسه طويل ، فأين منه هذا المكان ؟ يقول لك : عند البقعة المباركة من الشجرة[1] .

إذن : فالآية الثانية تحدد لك المكان ، كما تقول أنت : أسكن فى حى كذا ، وفى شارع كذا ، فى رقم كذا .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ﴿١٣﴾﴾

أى : وإنْ كنتُ رباً لك ورباً للكافرين فسوف أزيدك خصوصية لك ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ ﴿١٣﴾﴾ أى : للرسالة ، والله أعلم حيث يجعل رسالته .

لذلك لم نزل القرآن على سيدنا رسول الله ﷺ ما اعترض كفار مكة على القرآن ، ولم يجدوا فيه عيباً فيما يدعو إليه من أخلاق فاضلة ومُثل عليا ، ولم يجدوا فيه مَأْخذاً فى أسلوبه ، وهم أمة ألفتْ الأسلوب الجيد ، وعَشقَتْ آذانها فصاحة الكلام ، فتوجهوا بنقدهم إلى رسول الله فقالوا : ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ[2] عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الزخرف]

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٣/٣٨٨) : « هذا مما يرشد إلى أن موسى قصد النار إلى جهة القبلة ، والجبل الغربى عن يمينه ، والنار وجدها تضطرم فى شجرة خضراء فى لحف الجبل مما يلى الوادى فوقف باهتاً فى أمرها » .

(٢) المقصود بالقريتين مكة والطائف . وقد اختلفوا فى تعيين الرجل المقصود من كل قرية لينزل عليه القرآن . ذكر غير واحد منهم قتادة أنهم أرادوا بذلك الوليد بن المغيرة وعروة ابن مسعود الثقفى . وعن مجاهد : أنهم يعنون عتبة بن ربيعة . نقله ابن كثير فى تفسيره (٤/١٢٧) ، ثم قال : « والظاهر أن مرادهم رجل كبير من أى البلدتين كان » .

فكلُّ اعتراضهم أنْ ينزلَ القرآن على محمد بالذات ؛ لذلك رَدَّ عليهم القرآن بما يكشف غباءهم فى هذه المسألة ، فقال : ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ (٣٢)﴾ [الزخرف] كيف ونحن قد قسمنا بينهم معيشتهم الأدْنى :﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ (٣٢) ﴾ [الزخرف]

وهم يريدون أنْ يقسموا رحمة الله فيقولون : نزل هذا على هذا ، وهذا على هذا ؟

ثم يقول تعالى : ﴿فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ (١٣)﴾ [طه] مادة : سمع . منها : سمع ، واستمع وتسمَّع . قولنا : سمع أى مصادفة وأنت تسير فى الطريق تسمع كلاماً كثيراً . منه ما يُهمك وما لا يهمك ، فليس على الأذن حجاب يمنع السمع كالجفْنِ للعين ، مثلاً حين ترى منظراً لا تحبه .

إذن : أنت تسمع كل ما يصل إلى أذنك ، فليس لك فيه خيار .

إنما : استمع . أنْ تتكلَّف السماع ، والمتكلم حُر فى أنْ يتكلم أو لا يتكلم .

وتسمَّع . أىْ : تكلّف أشدّ تكلّفاً لكى يسمع .

لذلك ؛ فالنبى ﷺ حين يخبر أنه ستعُم بلوى الغنَاء ، وستنتشر الأجهزة التى ستشيع هذه البلوى ، وتصبها فى كل الآذان رَغْماً عنها يقول : « مَنْ تسمَّع إلى قَيْنة[1] صب الآنك فى أذنيه » .

---

(١) القينة : الأمة المغنية ، تكون من التزيُّن لأنها كانت تزين . قال أبو منصور : إنما قيل للمغنية قينة إذا كان الغناء صناعة لها ، وذلك من عمل الإماء دون الحرائر . [لسان العرب ـ مادة : قين] .

أى : تكلَّف أنْ يسمع ، وتعمَّد أن يوجه جهاز الراديو أو التليفزيون إلى هذا الغناء ، ولم يقُل : سمع ، وإلاّ فالجميع يناله من هذا الشر رَغْماً عنه .

وهنا قال تعالى : (فَاسْتَمِعْ) ولم يقُلْ : تسمَّع : لأنه لا يقترح على الله تعالى أنْ يتكلم ، ومعنى : استمع أى : جَنِّد كلَّ جوارحك ، وهيىء كُلَّ حواسّك لأن تسمع ، فإنْ كانت الأذن للسمع ، فهناك حواسّ أخرى يمكن أنْ تشغلها عن الانتباه ، فالعين تبصر ، والأنف يشمّ ، واللسان يتكلم .

فعليك أنْ تُجنِّد كل الحواسّ لكى تسمع ، وتستحضر قلبك لتعى ما تسمعه ، وتنفذ ما طلب منك ؛ لذلك حين تخاطب صاحبك فتجده مُنْشغلاً عنك تقول : كأنك لست معنا . لماذا ؟ لأن جارحة من جوارحه شردتْ ، فشغلتْه عن السماع[1] .

وقوله تعالى : ﴿ لِمَا يُوحَىٰ ﴿١٣﴾ ﴾ [طه] الوحى عموماً : إعلام بخفاء من أىٍّ لأىٍّ فى أىٍّ ، خيراً كان أم شراً ، أمّا الوحى الشرعى فهو : إعلام من الله إلى رسول أرسله بمنهج خَيْر للعباد ، فإنْ كان الوحى من الله إلى أم موسى مثلاً ، أو إلى الحواريين فليس هذا من الوحى الشرعى . وهكذا تحدَّدَتْ من أىٍّ لأىٍّ فى أىٍّ .

لكن ، كيف ينزل الوحى من الله تعالى على الرسول ؟ كيف تلتقى الألوهية فى عُلُوِّها بالبشرية فى دُنوها ؟ إذن : لا بُدَّ من واسطة ؛ لذلك قال تعالى : ﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ.. ﴿٧٥﴾ ﴾ [الحج]

---

(١) قال سفيان بن عيينة : أول العلم الاستماع ، ثم الفهم ، ثم الحفظ ، ثم العمل ، ثم النشر ، فإذا استمع العبد إلى كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ بنية صادقة على ما يحب الله أفهمه كما يحب ، وجعل له فى قلبه نوراً . ذكره القرطبى فى تفسيره (٤٣٤٨/٦) .

فالمصطفى من الملائكة يتقبَّل من الله ، ويعطى للمصطفى من البشر ؛ لأن الأعلى لا يمكن أنْ يلتقى بالأدنى مباشرة :﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ .. (٥١) ﴾ [الشورى]

فاستعداد الإنسان وطبيعته لا تُؤهّله لهذا اللقاء ، كيف ولما تجلَّى الحق - سبحانه - للجبل جعله دكّاً ، ومن عظمته سبحانه أننا لا نراه ولا نتكلم معه مباشرة ، ولا نُحسّه بأىّ حاسة من حواسنا ، ولو حُسَّ الإله بأىِّ حاسة ما استحق أنْ يكونَ إلهاً .

وكيف يُحَسُّ الحق - تبارك وتعالى - ومن خَلْقه وصَنْعته مَا لا يُحَسُّ ، كالروح مثلاً ؟ فنحن لا نعلم كُنْهها ، ولا أين هى ، ولا نُحسّها بأىّ حاسّة من حواسنا ، فإذا كانت الروح المخلوقة لم نستطعَ أنْ ندركها ، فكيف ندرك خالقها ؟

الحق الذى يدَّعيه الناس ويتمسَّحون فيه ، ويفخر كل منهم أنه يقول كلمة الحق ، وكذلك العدل وغيرها من المعانى : أتدركها ، أتعرف لها شكلاً ؟ فكيف - إذن - تطمع فى أنْ تدرك الخالق عز وجل ؟

إذن : من عظمته سبحانه أنه لا تدركه الحواس ، ولا يلتقى بالخَلْق لقاءً مباشراً ، فالمصطفى من الملائكة يأخذ عن الله ، ويعطى للمصطفى من الخَلْق ، ثم المصطفى من الخَلْق يعطى للخَلْق ، ومع ذلك كان ﷺ يجهد ، ويتصبَّب جبينه عَرَقاً فى أول الوحى .

ولذلك شاء الحق سبحانه أنْ يحجبَ الوحى عن رسوله فترة ليستريح من مباشرة المَلَكِ له ، وبانقطاع الوحى تبقى لرسول الله

حلاوة ما أوحى إليه ويتشوّق إلى الوحى من جديد ، فيهون عليه ما يلاقى فى سبيله من مشقة ؛ لأن انشغال القلب بالشىء يُنسى متاعبه .

وقد رُوى أنه ﷺ حين ينزل عليه الوحى يُسمَع حوله دَوِىٌّ كدَوِىِّ النحل[1] ، ولو صادف أن رسول الله وضع رجله على أحد أصحابه حين نزول الوحى عليه فكان الصحابى يشعر كأنها جبل ، وإن نزل الوحى وهو على دابة كانت تنخ وتئن من ثِقَله[2] .

وقد مثّلنا للواسطة بين الطبيعة الإلهية والطبيعة البشرية بالتيار الكهربائى حين نُوصِّله بمصباح صغير لا يتحمل قوة التيار ، فيضعون له جهازاً ينظم التيار ، ويعطى للمصباح على قَدْر حاجته وإلاّ يحترق .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴿١٤﴾ ﴾

فى الآية قبل السابقة خاطبه ربه : ﴿ إِنِّى أَنَا رَبُّكَ ﴿١٢﴾ ﴾ [طه] ليُطمئنه ويُؤنسه بأنه المربِّى العطوف ، يعطى حتى للكافر الذى يعصاه ، لكن هنا يخاطبه بقوله : ﴿ إِنَّنِى أَنَا اللَّهُ ﴿١٤﴾ ﴾ [طه] أى : صاحب التكاليف ، والمعبود المطاع فى الأمر والنهى ، وأوّل هذه

---

(١) عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : « كان إذا نزل على رسول الله ﷺ الوحى يُسمع عند وجهه دوىٌّ كدوىِّ النحل » . أخرجه أحمد فى مسنده (١/٣٤) ، والحاكم فى مستدركه (٢/٣٩٢) وقال : « حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه » .

(٢) عن أسماء بنت يزيد قالت : إنى لآخذة بزمام العضباء ناقة رسول الله ﷺ إذ نزلت عليه المائدة كلها وكادت من ثقلها تدق عضد الناقة . أورده ابن كثير فى تفسيره لسورة المائدة (٢/٢) وعزاه للإمام أحمد .

التكاليف وقمّتها ، والينبوع الذى يصدر عنه كل السلوك الإيمانى : ﴿ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ أَنَا (١٤) ﴾ [طه]

لذلك قال عنها النبى ﷺ : « خير ما قلت أنا والنبيون من قبلى : لا إله إلا الله »[1] .

وما دام لا إلـه إلا هو فلا يصح أنْ نتلقَّى الأمر والنهى إلاَّ منه ، ولا نعتمد إلا عليه ، ولا يشغل قلوبنا غيره ، وهو سبحانه يريد منا أنْ نكون وكلاء : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِى لا يَمُوتُ (٥٨) ﴾ [الفرقان]

فالناصح الفطن الذى لا يتوكل على أحد غير الله ، فربما توكّلت على أحد غيره ، فأصبحت فلم تجده ، وصدق الشاعر حين قال :

اجْعَلْ بربِّكَ كُلَّ عزِّكَ ... يستقرُّ ويثبتُ
فَإذَا اعْتَزَزْتَ بمَنْ يموتُ ... فإنَّ عزَّكَ ميِّتُ

فكأن الحق سبحانه فى قوله : ﴿ لا إِلَـهَ إِلاَّ أَنَا (١٤) ﴾ [طه] يقول لموسى : لا تخفْ ، فلن تتلقى أوامر من غيرى ، كما قال سبحانه فى آية أخرى : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لاَّبْتَغَوْا إِلَى ذِى الْعَرْشِ سَبِيلاً (٤٢) ﴾ [الإسراء]

أى : لذهبَ هؤلاء الذين يدَّعُون الألوهية إلى الله يجادلونه أو يتودَّدون إليه ، ولم يحدث شىء من هذا .

ويشترط فيمن يُعطى الأوامر ويُشرِّع ويُقنِّن ألاَّ ينتفع بشىء من ذلك ، وأن تكون أوامره ونواهيه لمصلحة المأمورين ، ومن هنا

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه (٣٥٨٥) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص وتمامه : « خير الدعاء دعاء يوم عرفة ، وخير ما قلت أنا والنبيون من قبلى : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير » قال الترمذى : « هذا حديث غريب من هذا الوجه » .

يختلف قانون الله عن قانون البشر الذى يدخله الهوى وتخالطه المصالح والأغراض ، فمثلاً إنْ كان المشرِّع والمقنِّن من العمال انحاز لهم ورفعهم فوق الرأسماليين ، وإن كان من هؤلاء رفعهم فوق العمال .

وكذلك ألاَّ يغيب عنه شىء يمكن أنْ يُستدرك فيما بعد ، وهذه الشروط لا توجد إلا فى التشريع الإلهى ، فله سبحانه صفات الكمال قبل أن يخلق الخَلْق .

لذلك قال بعدها : ﴿ فَاعْبُدْنِي (١٤) ﴾ [طه] بطاعة أوامرى واجتناب نواهىَّ ، فليس لى هَوَى فيما آمرك به ، إنما هى مصلحتك وسلامتك .

ومعنى العبادة : الناس يظنون أنها الصلاة والزكاة والصوم والحج ، إنما للعبادة معنى أوسع من ذلك بكثير ، فكلُّ حركة فى الحياة تؤدى إلى العبادة ، فهى عبادة كما نقول فى القاعدة : كُلُّ ما لا يتمُّ الواجب إلا به فهو واجب .

فالصلاة مثلاً لا تتم إلا بستْر العورة ، وعليك أنْ تتأمل قطعة القماش هذه التى تستر بها عورتك : كم يد ساهمتْ فيها منذ كانتْ بذرة فى الأرض ، إلى أنْ أصبحتْ قماشاً رقيقاً يستر عورتك ؟ فكلُّ واحد من هؤلاء كان فى عبادة وهو يُؤدِّى مهمته فى هذه المسألة .

كذلك رغيف العيش الذى تأكله ، صنبور المياه الذى تتوضأ منه ، كم وراءها من أيادٍ وعمال ومصانع وعلماء وإمكانات جُنِّدَتْ لخدمتك ، لتتمكن من أداء حركتك فى الحياة ؟

لذلك ، فالحق ـ تبارك وتعالى ـ حينما يُحدِّثنا عن الصلاة يوم الجمعة يقول : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ

فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ ﴿١٠﴾ ﴾ [الجمعة]

وهكذا أخرجنا إلى الصلاة من عمل ، وبعد الصلاة أمرنا بالعمل والسعى والانتشار فى الأرض والابتغاء من فضل الله ، فمخالفة الأمر فى : ﴿ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الجمعة] كمخالفة الأمر فى : ﴿ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ ﴿١٠﴾ ﴾ [الجمعة]

وخَصَّ البيع هنا ؛ لأن البائع أحرص على بيْعه من المشترى على شرائه ، وربما كان من مصلحة المشترى ألاَّ يشترى .

فالإسلام - إذن - لا يعرف التكاسل ، ولا يرضى بالتنبلة والقعود ، ومَنْ أراد السكون فلا ينتفع بحركة متحرِّك .

وسيدنا عمر - رضى الله عنه - حينما رأى رجلاً يقيم بالمسجد لا يفارقه سأل : ومَنْ ينفق عليه ؟ قالوا : أخوه ، قال : أخوه أعبد منه . لماذا ؟ لأنه يسهم فى حركة الحياة ويوسع المنفعة على الناس .

إذن : فكلُّ عمل نافع عبادة شريطة أنْ تتوفر له النية ، فالكافر يعمل وفى نيته أنْ يرزق نفسه ، فلو فعل المؤمن كذلك ، فما الفرق بينهما ؟ المؤمن يعمل ، نعم ليقوتَ نفسه ، وأيضاً ليُيسِّر لإخوانه قُوتَهم وحركة حياتهم . فسائق التاكسى مثلاً إذا عمل بمبلغ يكفيه ، ثم انصرف إلى بيته ، وأوقف سيارته ، فمَنْ للمريض الذى يحتاج مَنْ يُوصِّله للطبيب ؟ والبائع لو اكتسب رزقه ، ثم أغلق دكانه مَنْ يبيع للناس ؟

إذن : اعمل لنفسك ، وفى بالك أيضاً مصلحة الغير وحاجتهم ، فإنْ فعلتَ ذلك فأنت فى عبادة . تعمل على قَدْر طاقتك ، لا على قَدْر حاجتك ، ثم تأخذ حاجتك من منتوج الطاقة ، والباقى يُرَدُّ على الناس إما فى صورة صدقة ، وإما بثمن ، وحَسْبك أنْ يسرت له السبيل .

إذن : نقول : العبادة كل حركة تؤدى خدمة فى الكون نيتك فيها لله .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِى ﴿١٤﴾ ﴾ [طه] فلماذا خَصَّ الصلاة دون سائر العبادات ؟

قالوا : لأن الصلاة هى العبادة الدائمة التى لا تنحلّ عن المؤمن ، ما دام فيه نَفَس ، فالزكاة مثلاً تسقط عن الفقير ، والصيام يسقط عن المريض ، والحج يسقط عن غير المستطيع ، أمّا الصلاة فلا عذر أبداً يبيح تركها ، فتصلى قائماً أو قاعداً أو مضطجعاً ، فإنْ لم تستطع تصلى ، ولو إيماءً برأسك أو بجفونك ، فإنْ لم تستطع فحَسْبُك أن تخطرها على قلبك ، ما دام لك وَعْى ، فهى لا تسقط عنك بحال .

كذلك ، فالصلاة عبادة مُتكرِّرة : خمس مرات فى اليوم والليلة ؛ لتذكرك باستمرار إنْ أنستْك مشاغل الحياة رب هذه الحياة ، وتعرض نفسك على ربك وخالقك خمس مرات كل يوم . وما بالك بآلة تُعرَض على صانعها هكذا ، أيمكن أن يحدث بها عُطْل أو عَطَب ؟

أما الزكاة فهى كل عام ، أو كل محصول ، والصوم شهر فى العام ، والحج مرة واحدة فى العمر .

لذلك ، كان النبى ﷺ كلما حَزَبه[١] أمر قام إلى الصلاة[٢] ليعرض نفسه على ربه وخالقه عز وجل ، ونحن نصنع هذا فى الصنعة المادية حين نعرض الآلة على صانعها ومهندسها الذى يعرف قانون صيانتها .

وفى الحديث الشريف : « وجعلت قرة عينى فى الصلاة »[٣]

وسبق أن ذكرنا أن للصلاة أهميتها ؛ لأنها تُذكِّرك بربك كل يوم خمس مرات ، وتُذكِّرك أيضاً بنفسك ، وبقَدر الله فى الآخرين حين ترى الرئيس ومرؤوسه جَنْباً إلى جَنْب فى صفوف الصلاة ، فإنْ جئتَ قبل رئيسك جلستَ فى الصف الأول ، وجلس هو خلفك ، ثم تراه وهو مُنكسِر ذليل لله تعالى ، وهو يعرف أنك تراه على هذه الهيئة فيكون ذلك أدْعى لتواضعه معك وعدم تعاليه عليك بعد ذلك .

وكم رأينا من أصحاب مناصب وقيادة يبكون عند الحرم ، ويتعلقون بأستار الكعبة وعند الملتزم ، وهو العظيم الذى يعمل له الناس ألف حساب . ففى الصلاة ـ إذن ـ استطراق للعبودية لله تعالى .

لذلك من أخطر ما مُنِى به المسلمون أنْ تجعلَ فى المسجد أماكن خاصة لنوعية معينة يُخلى لها المكَان ، ويصاحبها الحرس حتى فى

---

(١) حزبه الأمر يحزبه : نابه واشتد عليه . وأمر حازب وحزيب : شديد . وفى الحديث : كان إذا حزبه أمر صلَّى ، أى إذا نزل به مهم أو أصابه غم . [لسان العرب ـ مادة : حزب] .

(٢) عن حذيفة رضى الله عنه قال : « كان النبى ﷺ إذا حزبه أمر صلى » أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٣٨٨/٥) وأبو داود فى سننه (١٣١٩) .

(٣) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (١٢٨/٣ ، ١٩٩ ، ٢٨٥) والنسائى فى سننه (٦١/٧) والحاكم فى مستدركه (١٦٠/٢) وقال : صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبى من حديث أنس بن مالك ، وتمام الحديث : « حُبب إلىَّ من الدنيا : النساء والطيب .. » الحديث .

بيت الله ، ثم يأتى فى آخر الوقت ويجلس فى الصف الأول ، وآخر يفرش سجادته ليحجز بها مكاناً لحين حضوره ، فيجد المكان خالياً .

وينبغى على عامة المسلمين أن يرفضوا هذا السلوك ، وعليك أنْ تُنحِّى سجادته جانباً ، وتجلس أنت ؛ لأن أولوية الجلوس بأولوية الحضور ، فقد صفها الله فى المسجد إقبالاً عليه . وهذه العادة السيئة تُوقع صاحبها فى كثير من المحظورات ، حيث يتخطى رقاب الناس ، ويُمَيِّز نفسه عنهم دون حق ، ويحدث انتقاص عبودى فى بيت الله .

ولأهمية الصلاة ومكانتها بين العبادات تميَّزت فى فرضها بما يناسب أهميتها ، فكُلُّ العبادات فُرِضَتْ بالوحى إلا الصلاة ، فقد استدعى الحق رسوله الصدق ليبلغه بها مباشرة لأهميتها .

وقد ضربنا لذلك مثلاً ـ ولله المثل الأعلى ـ بالرئيس إذا أراد أنْ يُبلِّغ مرؤوسه أمراً يكتب إليه ، فإنْ كان الأمر مهماً اتصل به تليفونياً ، فإنْ كان أهمّ استدعاه إليه ليُبلِّغه بنفسه . ولما قرَّبه الله إليه بفرض الصلاة جعل الصلاة تقرُّباً لعباده إلى الله .

وقوله : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِى ﴿١٤﴾ ﴾ [طه] أقام الشىء : جعله قائماً على أُسس محكمة ، فإقامة الصلاة أن تؤديها مُحكَمة كاملة الأركان غير ناقصة .

﴿ لِذِكْرِى ﴿١٤﴾ ﴾ [طه] أى : لتذكرى ؛ لأن دوام ورتابة النعمة قد تُنسيك المنعم ، فحين تسمع نداء (الله أكبر) ، وترى الناس تُهرَع إلى بيوت الله لا يشغلهم عنها شاغل تتذكر إنْ كنتَ ناسياً ، وينتبه قلبك إنْ كنتَ غافلاً .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ (١) أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ ﴾

أى : مع ما سبق وَطِّنْ نفسك على أن الساعة آتية لا محالةَ ، والساعة هنا هى عمر الكون كله ، أمّا أعمار المكين فى الكون فمتفاوتة ، كل حسب أجله ، فمَنْ مات فقد قامت قيامته وانتهت المسألة بالنسبة له .

إذن : نقول : الساعة نوعان : ساعة لكُلٍّ منا ، وهى عمره وأجَله الذى لا يعلم متى سيكون ، وساعة للكون كله ، وهى القيامة الكبرى .

فقوله تعالى : ﴿ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ ﴿١٥﴾ ﴾ [طه] أى : اجعل ذلك فى بالك دائماً ، وما دام الموت سينقلك إليها سريعاً فإياك أنْ تقول : سأموت قريباً ، أما القيامة فبعد آلاف أو ملايين السنين ؛ لأن الزمن مُلغىً بعد الموت ، كيف ؟

الزمن لا يضبطه إلا الحدث ، فإن انعدم الحدث فقد انعدم الزمن ، كما يحدث لنا فى النوم ، وهل تستطيع أنْ تُحدِّد الوقت الذى نمْتَه ؟ لذلك قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴿٤٦﴾ ﴾ [النازعات]

---

(١) ذكرت هنا بدون لام التوكيد ، أما فى سورة غافر ، فقد قال سبحانه : ﴿ إِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ لاَّ رَيْبَ فِيهَا .. ﴿٥٩﴾ ﴾ [غافر] بإثبات لام التوكيد . لأن المخاطبين فى سورة غافر هم الكفار ، فاحتاجوا إلى تأكيد الخبر . [فتح الرحمن بكشف ما يلتبس فى القرآن لأبى يحيى زكريا الأنصارى ـ ص ٢٦٠] بتصرف .

والعبد[١] الذى أماته الله مائة عام لما بعثه قال : يوماً أو بعض يوم ، وكذلك قال أهل الكهف بعد ثلاثمائة سنة وتسع[٢] ، لأن يوماً أو بعض يوم هى أقْصى ما يمكن تصوُّره للنائم حين ينام ؛ لذلك نقول : « مَنْ مات فقد قامت قيامته »[٣]

ومن حكمته سبحانه أن أخفى الساعة ، أخفاها للفرد ، وأخفاها للجميع ، وربما لو عرف الإنسان ساعته لقال : أفعل ما أريد ثم أتوب قبل الموت ؛ لذلك أخفاها الحق ـ تبارك وتعالى ـ لنكون على حذر أنْ نلقى الله على حال معصية .

وكذلك أخفى الساعة الكبرى ، حتى لا تأخذ ما ليس لك من خَلْق الله ، وتنتفع به ظُلْماً وعدواناً ، وتعلم أنك إنْ سرقتَ سترجع إلى الله فيحاسبك ، فما دُمْتَ سترجع إلى الله فاستقِمْ وعَدِّل من سلوكك ، كما يقول أهل الريف (ارع مساوِى) .

وقوله تعالى : ﴿آتِيَةٌ (١٥)﴾ [طه] أى : ليس مَأْتِياً بها ، فهى الآتية ، مع أن الحق ـ تبارك وتعالى ـ هو الذى سيأتى بها ، لكن المعنى (آتية) كأنها منضبطة (أوتوماتيكيا) ، فإنْ جاء وقتها حدثتْ .

وقوله تعالى :﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا (١٥)﴾ [طه] كاد : أى : قَرُب مثل : كاد زيد أن يجىء أى : قَرُب لكنه لم يأْتِ بعد ، فالمراد : أقرب أن

---

(١) هو عزير عليه السلام ، قال تعالى فى حقه : ﴿أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِى هَـٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ .. (٢٥٩)﴾ [البقرة] .

(٢) وفى ذلك يقول تعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ .. (١٩)﴾ [الكهف] .

(٣) ذكره العجلونى فى كشف الخفاء (حديث رقم ٢٦١٨) عن أنس بن مالك رضى الله عنه ، وتمامه : « أكثروا ذكر الموت ، فإنكم إن ذكرتموه فى غنى كدره عليكم ، وإن ذكرتموه فى ضيق وسّعه عليكم ، الموت القيامة » .

أخفيها ، فلا يعلم أحد موعدها ، فإذا ما وقعتْ فقد عرفناها . كما قال تعالى : ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ..(١٨٧)﴾ [الأعراف]

وقد تكون ﴿أُخْفِيهَا (١٥)﴾ [طه] بمعنى آخر ، فبعض الأفعال الثلاثية تُعطى عكس معناها عند تضعيف الحرف الثانى منها ، كما فى : مرض أى : أصابه المرض . ومرَّضه الطبيب . أى : عالجه وأزال مرضه . وقَشَرتُ الشىء أى : جعلْتُ له قشرة ، وقشَّرتُ البرتقالة أزلْتُ قشْرها .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا (٨٥)﴾ [يوسف] والحَرَض : هو الهلاك . من : حَرِض مثل : تَعب .

وقوله تعالى:﴿يَـأَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ (٦٥)﴾[الأنفال]

ومعنى (حَرِّض) حثَّهم على القتال ، الذى يُزيل عنهم الهلاك أمام الكفار ؛ لأنهم إنْ لم يجاهدوا هلكوا ، فَحرِض : هلك ، وحرَّض : أزال الهلاك .

وقد يأتى مضاد الفعل بزيادة الهمزة على الفعل مثل : ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا (١٥)﴾ [الجن] فالقاسط من قسط . أى : الجائر بالكفر .

أما فى قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٤٢)﴾ [المائدة] فالمقسط من أقسط : العادل الذى يُزيل الجورَ . وإنْ كانت المادة واحدة هى (قَسَط) فالمصدر مختلف نقول : قسط قسْطاً أى : عدل ، وقسط قَسْطاً وقسوطاً يعنى : جار . فهذه الهمزة فى أقسط تسمى « همزة الإزالة ».

ومن الفعل الثلاثى قَسَطَ يستعمل منها : القسط والميزان والفرق

بين قَسَط وأقسط : قسط أى : عدل من أول الأمر وبادىء ذى بَدْء ، إنما أقسط : إذا وجد ظُلْماً فرفعه وأزاله ، فزاد على العدل أنْ أزال جَوْراً .

وأيضاً الفعل (عجم) عجم الأمر : أخفاه ، وأعجمه : أزال خفاءه . ومن ذلك كلمة المعجم الذى يزيل خفاء الكلمات ويُوضِّحها .

وكذلك فى قوله تعالى : ﴿ أَكَادُ أُخْفِيهَا..(١٥) ﴾ [طه] خفى بمعنى: استتر وأخفاها : أزال خفاءها ، ولا يُزَال خفاء الشىء إلا بإعلانه .

ثم يقول تعالى : ﴿ لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ (١٥) ﴾ [طه]

وإلا لو لم يكُنْ فى الآخرة حساب وجزاء لكَان الذين أسرفوا على أنفسهم وعربدوا فى الوجود أكثر حظاً من المؤمنين الملتزمين بمنهج الله ؛ لذلك فى نقاشنا مع الشيوعيين قُلْنا لهم : لقد قتلتم مَنْ أدركتموه من أعدائكم من الرأسماليين ، فما بال مَنْ مات ولم تدركوه ؟ وكيف يفلت منكم هؤلاء ؟

لقد كان أوْلَى بكم أن تؤمنوا بمكان آخر لا يفلت منه هؤلاء ، وينالون فيه جزاءهم ، إنها الآخرة التى تُجزَى فيها كُلُّ نفس بما تسعى .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ (١٦) ﴾

كأن الحق تبارك وتعالى يعطى لموسى ـ عليه السلام ـ مناعة لما سيقوله الكافرون الذين يُشكِّكون فى الآخرة ويخافون منها ، وغرضهم أنْ يكون هذا كذباً فليست الآخرة فى صالحهم ، ومن حظهم إنكارها .

فإياك أنْ تصغى إليهم حين يصدونك عنها ، يقولون :﴿ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (١٦) أَوَ آبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ (١٧) ﴾ [الصافات]

ولماذا يستبعدها هؤلاء ؟ أليس الذى خلقهم مِنْ لا شىء بقادر على أنْ يعيدهم بعد أن صاروا عظاماً ؟

والحق سبحانه يقول : :﴿ وَهُوَ الَّذِى يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ (٢٧) ﴾ [الروم]

وهذا قياس على قَدْر أفهامكم وما تعارفتم عليه من هَيِّن وأهْوَن ، أما بالنسبة للحق ـ تبارك وتعالى ـ فليس هناك هيِّن وأهون منه ؛ لأن أمره بين الكاف والنون .

لكن لماذا يصدُّ الكفار عن الآخرة ، والإيمان بها ؟ لأنهم يعلمون أنهم سَيُجازون بما عملوا ، وهذه مسألة صعبة عليهم ، ومن مصلحتهم أن تكون الآخرة كذباً .

وصدق أبو العلاء المعرى حين قال :

زَعَمَ المنجِّمُ والطبيبُ كلاَهُمَا ... لاَ تُحْشَرُ الأجْسَادُ قُلْتُ إليْكُمَا
إنْ صَحَّ قَولكُمَا فلسْتُ بخَاسِرٍ ... أوْ صَحَّ قَوْلِى فَالخسَارُ عليكُمَا

أى أن المؤمن بالبعث إن لَم يكسب فلن يخسر ، أما أنتم أيها المنكرون فخاسرون .

وقوله تعالى : ﴿ فَتَرْدَىٰ (١٦) ﴾[طه] أى : تهلك من الردَى ، وهو الهلاك.

وهكذا جاء الكلام من الله تعالى لموسى ـ عليه السلام ـ أولاً : البداية إيماناً بالله وحده لا شريك له ، وهذه القمة الأولى ، ثم جاء بالقمة الأخيرة ، وهى البعث فالأمر ـ إذن ـ منه بداية ، وإليه نهاية : ﴿ إِنَّنِى أَنَا اللَّهُ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ أَنَا .. (١٤) ﴾[طه] إلى أنْ قال : ﴿ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا ... (١٥) ﴾ [طه]

وبعد ذلك شرح لنا الحق ـ سبحانه ـ بَدْء إيحائه لرسوله موسى عليه السلام [(١)]:

﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ ﴾

ما : استفهامية . والتاء بعدها إشارة لشىء مؤنَّث ، هو الذى يمسكه موسى فى يده ، والكاف للخطاب ، كأنه قال له : ما هذا الشىء الذى معك؟ والجواب عن هذا السؤال يتم بكلمة واحدة : عَصَا .

أمّا موسى ـ عليه السلام ـ فهو يعرف أن الله تعالى هو الذى يسأل ، ولا يَخْفَى عليه ما فى يده ، ولكنه كلام الإيناس ؛ لأن الموقف صعب عليه ، ويريد ربه أنْ يُطمئنَه ويُؤنسَه .

وإذا كان الإيناس من الله ، فعلى العبد أنْ يستغلّ هذه الفرصة ويُطيل أمدَ الائتناس بالله عز وجل ، ولا يقطع مجال الكلام هكذا بكلمة واحدة ؛ لذلك رد موسى عليه السلام :

﴿ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ ﴾

قال موسى : ﴿ هِيَ عَصَايَ ﴿١٨﴾ ﴾[طه] ، ثم يفتح لنفسه مجالاً آخر للكلام : ﴿ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي ﴿١٨﴾ ﴾ [طه] وهنا يرى موسى أنه تمادى وزاد ، فيحاول الاختصار : ﴿ وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴾ [طه]

---

(١) قال أبو يحى زكريا الأنصارى فى كتابه « فتح الرحمن » (ص ٢٦٠) : « إن قلت : ما فائدة سؤاله تعالى لموسى ، مع أنه أعلم بما فى يده ؟ قلت : فائدته تأنيسه وتخفيف ما حصل عنده من دهشة الخطاب وهيبة الإجلال وقت التكلم معه أو اعترافه بكونه عصا وازدياد علمه بذلك فلا يعترضه شك إذا قلبها الله ثعباناً أنها كانت عصاً ثم انقلبت ثعباناً بقدرة الله تعالى » .

وكان موسى ينتظر سؤالاً يقول : وما هذه المآرب ؟ ليُطيل أُنْسه بربه ، وإذا كان الخطاب مع الله فلا يُنهِيه إلا زاهد فى الله .

وللعصا تاريخ طويل مع الإنسان ، فهى لازمة من لوازم التأديب والرياضة ، ولازمة من لوازم الأسفار ، ولها أهميتها فى الرعى .. الخ وهنا يذكر موسى ـ عليه السلام ـ بعض هذه الفوائد ـ يقول :

﴿ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا (١٨) ﴾[طه] أى : أعتمد عليها ، وأستند عندما أمشى ، والإنسان يحتاج إلى الاعتماد على عصا عند السير وعند التعب ؛ لأنه يحتاج إلى طاقتين : طاقة للحركة والمشى ، وطاقة لحمل الجسم والعصا تساعده فى حَمْل ثقل جسمه ، خاصة إنْ كان مُتْعباً لا تقوَى قدماه على حَمْله .

فقوله : ﴿ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا (١٨) ﴾[طه] أى : أعتمد عليها حين المشى وحين أقف لرعى الغنم فأستند عليها ، والاتكاء يراوح الإنسان بين قدميْه فيُريح القدم التى تعبتْ ، وينتقل من جنب إلى جنب .

والإنسان إذا ما استقرّ جسمه على شىء لمدة طويلة تنسدّ مسامّ الجسم فى هذا المكان ، ولا تسمح بإفراز العرق ، فيُسبِّب ذلك ضرراً بالغاً نراه فى المرضى الذين يلازمون الفراش لمدة طويلة ، ويظهر هذا الضرر فى صورة قرحة يسمونها « قرحة الفراش » ؛ لذلك ينصح الأطباء هؤلاء المرضى بأن يُغيِّروا من وضْعِهم ، فلا ينامون على جنب واحد .

لذلك شاءت قدرة الله عز وجل أنْ يُقلِّب أهل الكهف فى نومهم من جَنْب إلى جَنْب ، كما قال سبحانه : ﴿ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ .. (١٨) ﴾ [الكهف]

لذلك إذا وقف الإنسان طويلاً ، أو جلس طويلاً ولم يجد له متكأ تراه قلقاً غير مستقر ، ومن هنا كان المتَّكأ من مظاهر النعمة والترف فى الدنيا وفى الآخرة ، كما قال تعالى فى شأن امرأة العزيز : ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً .. (٣١)﴾ [يوسف]

وقال عن نعيم الآخرة : ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ.. (٢٠)﴾[الطور]

وقال : ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ[1] .. (٥٤)﴾ [الرحمن]

وقال الحق تبارك وتعالى : ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ[2] خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ[3] حِسَانٍ (٧٦)﴾ [الرحمن]

فالاتكاء وسيلة من وسائل الراحة ، وعلى الإنسان أنْ يُغيِّر مُتكأهُ من جنب إلى جنب حتى لا يتعرّض لما يسمى بـ « قرحة الفراش » .

ومن فوائد العصا : ﴿وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي ..(١٨)﴾ [طه] أى : أضرب بها أوراق الشجر فتتساقط فتأكلها الغنم والماشية ؛ لأن الراعى يمشى بها فى الصحراء ، فتأكل من العِذْى ، وهو النبات الطبيعى الذى لم يزرعه أحد ، ولا يسقيه إلا المطر ، فإن انتهى هذا العُشْب اتجه الراعى إلى الشجر العالى فيُسقِط ورقه لتأكله الغنم ، فيحتاج إلى العصا ليؤدى بها هذه المهمة .

إذن : قوله : ﴿أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا .. (١٨)﴾ [طه] لراحته هو ، و ﴿وَأَهُشُّ

---

(١) الإستبرق : الديباج الغليظ وهو من الحرير الطبيعى ، ويصلح شتاء لأنه مدفىء وللملابس الخارجية . [القاموس القويم ١/١٨] . قال عبد الله بن مسعود فى تفسير هذه الآية [الرحمن ٥٤] : « هذه البطائن ، فكيف لو رأيتم الظواهر ؟ » .

(٢) الرفرف : الثياب العريضة أو الرقيقة من الحرير ، وهى هنا كناية عن النعيم أى : على فرش حريرية جميلة خضر . [القاموس القويم ١/٢٧١] .

(٣) العبقرى : هو هذه البُسط التى فيها الأصباغ والنقوش [لسان العرب ـ مادة : عبقر] .

بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي .. ﴿١٨﴾ [طه] لخدمة الرعية ، وفيها سياسة إدارة الرزق كلها للماشية وللناس ، ورَعْى الغنم وسياستها تدريب على سياسة الأمة بأسْرها ؛ لذلك ما بعث الله من نبى إلا ورَعَى الغنم ليتعلم من سياسة الماشية سياسة الإنسان .

وفى الحديث الشريف : « ما بعث الله من نبى إلا ورعى الغنم ، وأنا كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة »[1] .

ولما أحسَّ موسى ـ عليه السلام ـ أنه أطال فى خطاب ربه عز وجل أجمل فقال : ﴿وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾ [طه] أى : منافع .

وقد حاول العلماء[2] جزاهم الله عَنَّا خيراً البحث فى هذه المآرب الأخرى التى لم يذكرها موسى عليه السلام ، فتأملوا حال الرعاة ، وما وظيفة العصا فى حياتهم فوجدوا لها منافع أخرى غير ما ذكر .

من هذه المنافع أن الراعى البدائى يضع عصاه على كتفه ويُعلِّق عليها زاده من الطعام والشراب ، وبعض الرعاة يستغل وقته أيضاً فى الصيد ، فيحتاج إلى أدوات مثل : القوس ، والنبل ، والسهام والمخلاة التى يجمع فيها صَيْده ، فتراه يضع عصاه على كتفه هكذا بالعرض ، ويُعلِّق عليها هذه الأدوات من الجانبين .

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٢٦٢) ، وابن ماجه فى سننه (٢١٤٩) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه . قال ابن حجر فى الفتح (٤/٤٤١) : « قال سويد أحد رواته : يعنى كل شاة بقيراط . يعنى القيراط الذى هو جزء من الدينار أو الدرهم » .

(٢) منهم ابن عباس الذى قال : إذا انتهيت إلى رأس بئر الرِّشا وصلته بالعصا ، وإذا أصابنى حر الشمس غرزتها فى الأرض وألقيت عليها ما يظلنى ، وإذا خفت شيئاً من هوام الأرض قتلته بها ، وإذا مشيت ألقيتها على عاتقى وعلقت عليها القوس والكنانة والمخلاة . وأقاتل بها السباع عن الغنم . [انظر : تفسير القرطبى ٦/٤٣٦٠ ، ٤٣٦١] .

فإذا ما اشتدت حرارة الشمس ولم يجد ظلالاً غرز عصاه فى الأرض ، وألقى بثوبه عليها فجعل منها مثل الخيمة أو المظلة تقيه حرارة الجو . فإن احتاج للماء ذهب للبئر ، وربما وجده غائر الماء لا يبلغه الدلو فيحتاج للعصا يربطها ويُطيل بها الحبل ، إلى غير ذلك من المنافع .

وبعض العلماء يقولون : لقد كان موسى عليه السلام ينتظر أن يسأله ربه عن هذه المآرب ليطيل الحديث معه ، لكن الحق سبحانه لم يسأله عن ذلك ؛ لأنه سينقله إلى شىء أهم من مسألة العصا ، فما ذكرْتَه يا موسى مهمة العصا معك ، أمّا أنا فأريد أنْ أخبرك بمهمتها معى :

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾

ارْم بها على الأرض ، وهو هنا إلقاء الدُّرْبة والتمرين على لقاء فرعون ، وهنا خرجت العصا عن ناموسها الذى يعلمه موسى عليه السلام ، فلم تعد للتوكؤ والهش على الغنم ، ولكنها تنتقل من جنس الخشب إلى جنس الحيوان فتصير حية ، قال الحق سبحانه :

﴿فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾﴾

وهذه نَقْلة كبيرة فى مسألة العصا ، فقد كان فى الإمكان لإثبات المعجزة أنْ تتحوَّل العصا ، وهى عود جاف من الخشب إلى شجرة خضراء ، لكن الحق ـ تبارك وتعالى ـ يُجرِى لموسى هذه المعجزة ؛ لأنه

سيحتاج إليها فيما بعد ، ولو تحولتْ العصا إلى شجرة خضراء فسوف تستقر فى مكانها ، أما حين تتحول إلى حيّة فهى حيوان مُتحَرِّك ، تجرى هنا وهناك ، وهذا ما سيحتاجه موسى فى معركته القادمة .

ألقى موسى عصاه ﴿فَإِذَا هِيَ.. (٢٠)﴾ [طه] إذا هنا فجائية كما تقول : خرجتُ فإذا أسدٌ بالباب . وحينما ألقى موسى العصا سرعان ما تحولت وهى جافة يابسة إلى حيّة ، وحيّة تسعى ليستْ جامدة ميتة ، أليست هذه مفاجأة ؟

وطبيعى أن يخاف موسى ـ عليه السلام ـ مما رآه ، فطمأنه ربه فقال :

﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ (٢١)﴾

أى : امسكها بيدك ، وسوف نعيدها فى الحال ﴿سِيرتها الأُولَىٰ (٢١)﴾ [طه] أى : كما كانت عصا يابسة جافة فى يدك ، وقال : ﴿لا تَخَفْ .. (٢١)﴾ [طه] لما ظهر عليه من أمارات الخوف . وقد أخبر عن خوفه فى آية أخرى : ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ (٦٧)﴾ [طه]

وكانت هذه المسألة تدريباً لموسى ـ عليه السلام ـ وتجربةً ، فللعصا مهمة فى رسالته ، وسوف تكون هى معجزته فى صراعه مع فرعون حين يضرب بها البحر[1] وفى دعوته لبنى إسرائيل حين يضرب بها الحجر فيتفجّر منه الماء[2] .

---

(١) قال تعالى : ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٣)﴾ [الشعراء] .

(٢) وذلك قوله تعالى : ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا .. (٦٠)﴾ [البقرة] .

وقد عالج القرآن هذه القصة فى لقطات مختلفة ، فمرة يقول عن العصا كأنها ثعبان . ومرة يقول : حيّة . وأخرى يقول : جان ؛ لذلك اعترض البعض على هذه الاختلافات ، فأيها كانت العصا ؟

الحقيقة أنها صور مختلفة للعصا حينما انقلبتْ ، فمن ناحية قتْلتها المميتة هى حية ، ومن ناحية ضخامتها ثعبان ، ومن ناحية خِفَّة حركتها جان ، وكل هذه الخصائص كانت فى العصا ، وحين تجمع كل هذه اللقطات تعطيك الصورة الكاملة للعصا بعد أنْ صارت حية . فآيات القرآن - إذن - تتكامل لترسم الصورة المرادة للحق تبارك وتعالى .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ ﴾

اليد معروفة ، والجناح للطائر ، ويقابله فى الإنسان الذراع بداية من العَضُد ، والحق سبحانه حينما أوصانا بالوالدين قال : ﴿ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ .. ﴿٢٤﴾ ﴾ [الإسراء] يعنى : تواضع لهما ، ولا تتعالَ عليهما .

وفى موضع آخر قال تعالى : ﴿ اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ .. ﴿٣٢﴾ ﴾ [القصص]

والجَيْب : طَوْق القميص ، سُمِّى جَيْباً ؛ لأنهم كانوا فى الماضى يجعلون الجيب الذى يضعون به النقود أو خلافه فى داخل الثوب ،

ليكون بعيداً عن يد السارق ، فإذا ما احتاج الإنسان شيئاً فى جَيْبه يُدخِل يده من طَوْق القميص ليصل إلى الجيْب فسُمِّى الطوق جيباً . وهذا من مظاهر التكامل بين الآيات .

والمعنى هنا : اضمم كف يدك اليمنى ، وأدْخله من طَوْق قميصك إلى تحت عَضُدك الأيسر ﴿تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ .. (٢٢)﴾ [طه] أى : ساعة أنْ تُخرِج يدك تجدها بيضاء ، لها ضوء ولمعان وبريق وشعاع .

ومعلوم أن موسى ـ عليه السلام ـ كان أسمر اللون ، كما وصفه النبى ﷺ حينما طُلِب منه أنْ يَصف الرسل الذين لقيهم فى رحلة الإسراء والمعراج ، فقال : « أما موسى ، فرجل آدم[1] طُوَال ، كأنه من رجال أزدشنوءة.... »[2] .

أى : أسمر شديد الطول ؛ لأن طُوَال يعنى : أكثر طولاً من الطويل .

ومن هنا كان بياضُ اليد ونورها فى سُمْرة لونه آيةً من آيات الله ، ولو كان موسى أبيض اللون ما ظهر بياضُ يده .

وقوله : ﴿مِنْ غَيْرِ سُوءٍ .. (٢٢)﴾ [طه] أى : من غير مرض ، فقد

---

(١) الأدْمة : السمرة . والآدم من الناس : الأسمر . قال ابن الأثير : الأُدْمة فى الناس : السمرة الشديدة . وقيل : هو من أدمة الأرض وهو لونها . قال : وبه سمى آدم أبو البشر . [لسان العرب ـ مادة : أدم] .

(٢) حديث متفق عليه ، أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٣٩٤) ، ومسلم فى صحيحه (١٦٥) كتاب الإيمان من حديث أبى هريرة رضى الله عنه . وشنوءة : حى من اليمن ينسبون إلى شنوءة وهو عبد الله بن كعب ، ولقب شنوءة لشنآن (بُغْض) كان بينه وبين أهله . [فتح البارى ٦/٤٢٩] .

يكون البياض فى السُّمرة مرضاً ـ والعياذ بالله ـ كالبرص مثلاً . فنفى عنه ذلك .

وقوله تعالى : ﴿آيَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾﴾ [طه] أى : معجزة ، لكنه لم يقُلْ شيئاً عن الآية الأولى ، فدلَّ ذلك على أن العصا كانت الآية الأولى ، واليد الآية الأخرى .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَىٰ ﴿٢٣﴾﴾

أى : نُريك الآيات العجيبة عندنا ؛ لتكون مقدمة لك ، فحين نأمرك بشىء من هذا القبيل فاعلم أن الذى يأمرك ربٌّ لن يغشَّك ، ولن يتخلى عنك ، وسوف يُؤيدك وينصرك ، فلا ترتَعْ ولا تخف أو تتراجع .

وكأن الحق ـ تبارك وتعالى ـ يُعِدُّ نبيه موسى للقاء مرتقب مع عدوه فرعون الذى ادعى الألوهية :

ثم بعد هذه الشحنة والتجربة العملية يقول له :

﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾﴾

فلماذا أرسله إلى فرعون أولاً ، ولم يرسله إلى قومه ؟ قالوا : لأن فرعون فعل فعلاً فظيعاً ، حيث ادعى الألوهية ، وهى القمة فى الاعتداء ، ثم استعبد بنى إسرائيل ، فلا بُدَّ أن نُصفِّى الموقف أولاً مع فرعون .

لذلك حدثت معجزة العصا فى ثلاثة مواقف :

الأول : وكان لِدُرْبة موسى ورياضته على هذه العملية ، وكانت هذه المرة بين موسى وربه ـ عز وجل ـ تدريباً ، حتى إذا أتى وقت مزاولتها أمام فرعون لم يتهيَّب منها أو يتراجع ، بل باشرها بقلب ثابت واثق .

والثانى : كان مع فرعون بمفرده ترويعاً له .

والثالث : مع السَّحَرة تجميعاً .

فكُلٌّ موقف من هذه المواقف كان لحكمة وله دور ، وليس فى المسألة تكرار كما يدَّعى البعض .

وقوله تعالى : ﴿إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [طه] الطغيان : مجاوزة الحدّ ، ومجاوزة الحدِّ يكون بأَخْذ ما ليس لك والمبالغة فى ذلك ، وليْتَه أخذ من المساوى له من العباد ، إنما أخذ ما ليس له من صفات الله عز وجل .

ولما سمع موسى اسم فرعون ، تذكَّر ما كان من أمره فى مصر ، وأنه تربَّى فى بيت هذا الفرعون الذى ادَّعى الألوهية ، فكيف سيواجهه .

كما تذكَّر قصة الرجل الذى وكَزه فقتله[1] ، ثم خرج منها خائفاً يترقب ، فلما شعر موسى أن العبء ثقيل قال :

﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾﴾

(١) وذلك فى قوله تعالى : ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَـٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَـٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ فَٱسْتَغَاثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ .. ﴿١٥﴾﴾ [القصص] .

كأنه قال : يا رب أنا سأنفّذ أوامرك ؛ لكنى لا أريد أنْ أُقبل على هذه المهمة وأنا منقبض الصدر من ناحيتها ؛ لأن انقباضَ الصدر من الشىء يُهدِر الطاقة ويُبدِّدها ، ويعين الأحداث على النفس .

لذلك دعا موسى بهذا الدعاء : ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِى صَدْرِى (٢٥)﴾ [طه] ليوفر قوته لأداء هذه المهمة الصعبة التى تحتاج إلى مجهود يناسبها ، ومعنى ذلك أنه انقبض صدره من لقاء فرعون للأسباب التى ذُكِرت .

ثم قال :

﴿وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى (٢٦)﴾

لأن شَرْح الصدر فى هذه المسألة لا يكفى ، فشَرْح الصدر من جهة الفاعل ، وقد يجد من القابل لَدَداً شديداً وعناداً ؛ لذلك قال بعدها : ﴿وَيَسِّرْ لِى أَمْرِى (٢٦)﴾ [طه] فلا أجد لَدَداً وطغياناً من فرعون ، فتيسير الأمر من جهة القابل للفعل بعد شرح الصدر عند الفاعل .

﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى (٢٧)﴾

لأن الكلام وتبليغ الرسالة يحتاج إلى منطق ولسان مُنطلق بالكلام ، وكان موسى ـ عليه السلام ـ لديه رُتَّة[1] أو حُبْسَة فى لسانه ، فلا ينطلق فى الكلام .

---

(١) الرُّتة : بالضم : عجلة فى الكلام وقلة أناة . وقيل : هو أن يقلب اللام ياء . والأرتُّ : الذى فى لسانه عُقدة وحُبْسة ، ويعجل فى كلامه فلا يطاوعه لسانه . [لسان العرب ـ مادة : رتت] .

وكانت هذه الرُّتَّة أيضاً فى لسان الحسين بن على ـ رضى الله عنهما ـ وكان النبى ﷺ إذا سمع الحسين يضحك ويقول : « ورثها عن عمه موسى » .

وتلحظ دقَّة التعبير فى قوله : ﴿مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾﴾ [طه] ولم يقل : احلل عقدة لسانى . فقد يُفهم منها أنه مُتمرِّد على قَدَر الله من حُبسة لسانه ، إنما هو لا يعترض ويطلب مجرد جزءٍ من لسانه ، يمكِّنه من القيام بمهمته فى التبليغ .

﴿يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾﴾

هذه هى العلّة فى طلبه ، ولولاها ما طلب انطلاقة اللسان . والفقه هو أن يفهموا الكلام والحديث عنه .

ويواصل موسى ـ عليه السلام ـ ما يراه مُعيناً له على أداء مهمته :

﴿وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾﴾

وزيراً : أى معيناً وظهيراً . والحق ـ سبحانه وتعالى ـ لما أراد أنْ يُخوِّف الناس من الآخرة قال : ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾﴾ [القيامة]

أى : لا ملجأ ولا معين تفزع إليه إلا الله ، فالوزير من (وَزَر) ، ويطلب الوزير حين لا يستطيع صاحب الأمر القيام به بمفرده ، فيحتاج إلى مَنْ يعينه على أمره ، وهو وزير إنْ كان ناصحاً أميناً يُعين صاحبه بصِدْق ، فإنْ كان غاشّاً لئيماً يعمل لصالح نفسه ، فليس بوزير ، بل هو (وِزْر) ، ومنه قوله تعالى : ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ .. ﴿١٨﴾﴾ [فاطر]

وفى الحديث النبوى الشريف : « خَيْر الملوك ملك جعل الله له وزيراً ، إنْ نسى ذكَّره ، وإنْ نوى على خير ـ مجرد نيّة ـ أعانه ، وإن أراد شراً كفَّه ... »[١] .

تلك علامات الوزير الناصح للرعية كما بيَّنتها سياسة السماء ؛ لأن لكل حاكم بطانتين : واحدة تأمر بالمعروف ، وأخرى تأمر بالمنكر كما جاء فى الحديث الشريف .[٢] .

فإنْ كانت هذه هى سياسة السماء ، فماذا عن سياسة البشر ؟

يقول أنو شروان : إياكم أنْ تفهموا أن أحداً منَّا يستغنى عن أحد ، فلكُلٍّ واحد مهمته ، فإنْ زدت فى شىء فقد نقصت فى أشياء ، جعلها الله فى غيرك ليكمل بها نقصك ، فالمعايشة مشتركة ، لكن هذه المشاركة تفرضها الضرورة لا التفضّل ، وإلاَّ لو لم يتفضّل عليك غيرك فماذا تفعل ؟

وسبق أن ضربنا مثلاً لحاجة الناس بعضهم لبعض ، قلنا : ماذا يحدث لو امتنع رجال الصرف الصحى أو الكناسون عن العمل لعدة أيام ؟ أما لو غاب الوزراء لعدة أيام فلن يحدث شىء .

إذن : لا تظن أنك أفضل من الآخرين ؛ لأن لكل منهم مهمة يؤديها ، فإنْ كنتَ خيراً منه فى هذه فهو خير منك فى هذه ؛ لأن مجموع مواهب كل إنسان يساوى مجموع مواهب الآخر ، فإنْ قلتَ : فلماذا وُجِد التفاوت بين الناس ؟

---

(١) عن عائشة رضى الله عنها قالت قال رسول الله ﷺ : « من ولى منكم عملاً فأراد الله به خيراً جعل له وزيراً صالحاً ، إن نسى ذكره وإن ذكر أعانه » أخرجه النسائى فى سننه (١٥٩/٧) .

(٢) لفظ الحديث : « ما بعث الله من نبى ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان : بطانة تأمره بالمعروف وتحضه عليه ، وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه ، فالمعصوم من عصمه الله » أخرجه البخارى فى صحيحه (٧١٩٨) ، وكذا أحمد فى مسنده (٣٩/٣) من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه .

قالوا : لتكون هناك ضرورة فى حاجة بعضنا لبعض ، فلو تساوَى الجميع لقلنا لجماعة منا : تفضّلوا بكنس الشوارع يوم كذا فلن يتفضلوا ، أما إنْ ألجأتْهم الحاجة إلى مثل هذا العمل فسوف يسارعون إليه ، كما نرى الآن فى أشقِّ المهن وأصعب المهام التى ينفر منها الناس بل ويحتقرونها ترى صاحبها مُقبلاً عليها حريصاً على القيام بها ، رغم ما فيها من مشقّة ، بل ويغضب إنْ لم يجد فرصة للعمل ، لماذا ؟ لأنه مصدر قُوته وقُوت عياله .

وبهذه النظرة لا يتعالى أحد أو يستكبر ليحدث فى المجتمع توازن استطراقى .

وقوله : ﴿ مِّنْ أَهْلِى (٢٩) ﴾ [طه] أى : ليكون مأموناً علىَّ .

وهذا المطلب من موسى ـ عليه السلام ـ يشير لأدب عال من آداب النبوة ، وقد اختار الله موسى للرسالة ، فلماذا يشرك معه أخاه فى هذه المهمة ؟ إذن : موسى لا يريد أنْ يفخَر بالرسالة ، أو يتعالى بها ، أو يطغى ، إنما يريد أن يقوم بها على أكمل وجه ؛ لذلك يحاول أنْ يُكمل ما فيه من نقص بأخيه ليُعينه على تبليغ رسالته ، ولو أراد الاستئثار بالرسالة ما طلب هذا الطلب .

وهذا نموذج يجب أنْ يُحتذَى ، فإنْ كُلِّفت بأمر فوق طاقتك فلا غبارَ عليك أن تستعين عليه بغيرك ، فهذا دليل على إخلاصك للمهمة التى كُلِّفت بها .

﴿ هَٰرُونَ أَخِى (٣٠) ﴾

فاختار أخاه هارون ليعينه فى مهمة الرسالة .

ثم أوضح العلّةَ فى ذلك ، فقال فى آية أخرى : ﴿ وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا .. (٣٤) ﴾ [القصص]

وهكذا يتكامل موسى وهارون ويُعوِّض كل منهم النقص فى أخيه . ويُقال : إن هارون ـ عليه السلام ـ كان يمتاز على موسى فى أمور أخرى ، فكان به لِينٌ وحِلْم ، وكان موسى حاداً سريع الغضب ، فكان هارون للِّين ، وموسى للشدة .

ويتضح هذا حينما عاد موسى إلى قومه ، وقد تركهم فى صُحْبة أخيه هارون فعبدوا العجل فاشتد غضبه ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا .. (١٥٠) ﴾ [الأعراف]

ثم احتدّ على أخيه ، وجذبه من ذَقْنه ، وظهرتْ حدَّته . وقَسْوته ، فماذا قال هارون ؟ ﴿ قَالَ ابْنَ أُمَّ .. (١٥٠) ﴾ [الأعراف] ليستعطفه ويُذكِّره برأفة الأم وحنانها ﴿ لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلا بِرَأْسِي .. (٩٤) ﴾ [طه] ، كأنه يقول لأخيه : اضربنى كما تريد ، لكن لا تروعنى فى لحيتى ، وفى رأسى .

إذن : فالفصاحة فى هارون تجبر العُقدة فى لسان موسى ، واللين يجبر الشدة والحدة . وأيضاً فإن موسى ـ عليه السلام ـ كان أسمر اللون ، أجعد الشعر ، أقنى[1] الأنف ، أما هارون فكان أبيض اللون ، مُرْسَل الشعر ، وسيم التقاطيع والملامح ، ترتاح له الأبصار ، فمَنْ لم يرتَحْ لموسى ارتاح لهارون .

ولقد كان النبى ﷺ يحب أن ينزل الوحى عليه فى صورة دِحْية[2] الكلبى ، وكان ـ رضى الله عنه ـ وسيماً ، ترتاح العين لرؤيته ، فكان جبريل ـ عليه السلام ـ ينزل عليه فى هذه الصورة ليُؤنسه .

---

(١) قَنى الأنف قَنَاً : ارتفع وسط قصبة الأنف وضاق منخراه ، فهو أقنى ، وهى قنواء . [المعجم الوجيز ـ مادة : قنا] .

(٢) صحابى مشهور ، أول مشاهده الخندق وكان يضرب به المثل فى حسن الصورة وكان جبريل ينزل على صورته وشهد اليرموك ، وقد نزل دمشق وسكن المزة وعاش إلى خلافة معاوية . [الإصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر العسقلانى ٢/١٦٢] .

وموسى ـ عليه السلام ـ مع ما تميَّز به أخوه هارون عليه من هذه الصفات لم يحقد على أخيه ، ولم ينظر إليه على أنه أفضل منه ، إنما جعل صفات أخيه مكملة لصفاته ، والجميع من أجل أداء الرسالة وتبليغها على وجهها الأكمل ، فلم ينظر إلى نفسه ونجاحه هو ، وإنما إلى نجاح المهمة التى كلّفه الله بها .

ويجب أنْ يشيعَ هذا الخُلق بين الناس ، فإنْ رأيت خَصْلَةَ خَيْر فى غيرك ، أو وجهاً من وجوه الكمال فى غيرك ، فاحمد الله عليها ، واعلم أنها سيعود عليك نفعها ، وستجبر ما عندك من نقص فلا تحقد عليه ؛ لأنه سيتحمل ما فيك من قصور ، وتنتفع أنت بخيره .

ثم يقول الحق سبحانه أن موسى ـ عليه السلام ـ قال :

﴿ أَشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ ﴾

الأَزْر : القوة . وكأن موسى ـ عليه السلام ـ عرف أن حَمْل الرسالة إلى فرعون وإلى قومه من بعده عملية شاقة ، فقال لله : أعطنى أخى يساعدنى فى هذه المشقة .

﴿ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ ﴾

قوله : (وَأَشْرِكْهُ) أى : أنت يا ربّ ، ليس أنا الذى أشركه تفضُّلاً منى عليه ، فأراد موسى ـ عليه السلام ـ أن يكون الفضل من الله ، وأن يكون التكليف أيضاً من الله حتى لا يعترض هارون أو يتضجر عند مباشرة أمر الدعوة .

لذلك لما ذَهَبا إلى فرعون قالا : ﴿ إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ.. ﴿٤٧﴾ ﴾ [طه] ولم يقُلْ موسى : إن هارون تابع له بل هو مثله تماماً مُرْسَل من الله ، وإذا تكلَّم موسى تكلَّم عنه وعن هارون .

فلما دعا موسى على قومه : ﴿ رَبَّنَا اطْمِسْ[1] عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٨٨) ﴾ [يونس]

جاءت الإجابة من الله : ﴿ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا .. (٨٩) ﴾ [يونس] ؛ لأن الدعاء كان من موسى ، وهارون يُؤمِّن عليه ، والمؤمِّن أحد الداعيَيْن .

ثم يقول الحق سبحانه عن هارون وموسى أنهما قالا :

﴿ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (٣٣) وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا (٣٤) ﴾

فهذه هى العلّة فى مشاركة هارون لأخيه فى مهمته ، لا طلباً لراحة نفسه ، وإنما لتتضافر جهودهما فى طاعة الله ، وتسبيحه وذكْره .

والتسبيح : تقديس الله وتنزيهه ذاتاً وصفاتاً وأفعالاً ، ذاتاً . فلا ذات مثل ذاته تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ .. (١١) ﴾ [الشورى] لا فى الذات ، ولا فى الصفات ولا فى الأفعال ، فلا تقل : إن سَمْع الله كسَمْعك ، أو أن بصره تعالى كبصرك ، أو أن فعْله كفعْلك .

والمعنى : نُسبِّحك ونُقدِّسك تقديساً يرفعك إلى مستوى الألوهية الثابتة لك ، فلا نزيد شيئاً من عندنا .

وقوله : ﴿ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (٣٣) ﴾ [طه] أى : دائماً ، فكأن التسبيح يُورث المسبِّح لذة فى نفسه ، والطاعة من الطائع تُورثه لذة فى نفسه ، كما قال النبى ﷺ : « ... وجُعلتْ قرّة عينى فى الصلاة »[2] .

---

(١) طمس الشىء : تغيرت صورته أو انمحى أثره . ومعنى الآية : أى : أنزل عليها ما يمحوها ويهلكها . [القاموس القويم ١/٤٠٦] .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٣/١٢٨ ، ١٩٩ ، ٢٨٥) والنسائى فى سننه (٧/٦١) والحاكم فى مستدركه (٢/١٦٠) وقال : صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبى من حديث أنس بن مالك . وتمام الحديث : « حبب إلىَّ من الدنيا : النساء والطيب ... » الحديث .

وكان ﷺ « إذا حزبه أمر قام إلى الصلاة »[(١)] .

﴿ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ ﴾

فأنت قيُّوم علينا ، مُطلع على أفعالنا ، أنؤدّيها على الوجه الأكمل ، أم نُقصِّر فيها ؟

ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ ﴾

سُؤْل : أى : الشىء المسئول مثل (خُبز) أى : مخبوز ، فالمراد : أعطيناك ما سألتَ ، بل وأعطيناك قبل أن تسأل ، بل وقبل أن تعرف كيف تسأل :

﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ ﴾

(منّنا) من المنة ، وهى العطاء بلا مقابل على خلاف الجزاء ، وهو العطاء مقابل عمل ﴿ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ ﴾ [طه] إذن : هناك مرة أولى ، لكن المراد بالمنّة هنا ما حدث من الوحى إلى أم موسى وهو صغير ، فهى فى الحقيقة المنّة الأولى إنما قال هنا ﴿ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ ﴾ [طه] هذا ترتيب ذكرى حَسْب ذِكْر الأحداث .

فمتى كانت هذه المنّة ؟

﴿ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ ﴾

إذ : يعنى وقت أنْ أوحينا إلى أمك ما يُوحَى . فكانت هذه هى المنة الأولى عليك حين وُلدت فى عام ، يقتل فيه فرعون الذكور ، فمنَّنا عليك لما قلنا لأمك : ﴿ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى الْيَمِّ وَلَا تَخَافِى

---

(١) عن حذيفة رضى الله عنه قال : « كان النبى ﷺ إذا حزبه أمر صلى » أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٥/٣٨٨) وأبو داود فى سننه (١٣١٩) .

وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧) ﴾ [القصص]

ومعنى ﴿ مَا يُوحَىٰ (٣٨) ﴾ [طه] أى : أمراً عظيماً لك أن تقدره أنت فتذهب فيها نفسك كل مذهب ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ (٧٨) ﴾ [طه] ويُفصِّل الحق سبحانه هذا الوحى لأم موسى ، فيقول تعالى :

﴿ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ (١) فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ (٢) عَلَىٰ عَيْنِي (٣٩) ﴾

هذا ما أوحينا به إلى أم موسى .

واليمُّ : البحر الكبير ، سواء أكان مالحاً أم عَذْباً ، فلما تكلّم الحق سبحانه عن فرعون قال : ﴿ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ .. (١٣٦) ﴾ [الأعراف] والمراد : البحر الأحمر ، أما موسى فقد وُلِد فى مصر وأُلْقِى تابوته فى النيل ، وكان على النيل قصر فرعون .

وبالله .. أى أم هذه التى تُصدِّق هذا الكلام : إنْ خِفْتِ على ولدك فألقيه فى اليم ؟ وكيف يمكن لها أن تنقذه من هلاك مظنون وترمى به فى هلاك مُتيقّن ؟

---

(١) التابوت : الصندوق الذى يُحرز فيه المتاع . [لسان العرب ـ مادة : تبت] قال القرطبى فى تفسيره (٦/٤٣٦٨) : « قال مقاتل : مؤمن آل فرعون هو الذى صنع التابوت ونجره ، وكان اسمه حزقيل ، وكان التابوت من جُمّيز » .

(٢) الصنع : معناه الإحداث والإنشاء ويكون بقصد وإرادة وتدبير ، وقوله تعالى فى قصة موسى : ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي (٣٩) ﴾ [طه] . أى : تُربَّى محروساً بعنايتى ، وقوله تعالى ﴿ وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي (٤١) ﴾ [طه] . أى : علمتك وربيتك وأنعمت عليك لتكون صنيعة لى تخدمنى وتؤدى الرسالة التى أكلفك إياها واخترتك لها . [القاموس القويم ١/٣٨٤] .

ومع ذلك لم تتردد أم موسى لحظة فى تنفيذ أمر الله ، ولم تتراجع ، وهذا هو الفرق بين وارد الرحمن ووارد الشيطان ، وارد الرحمن لا تجد النفس له رداً ، بل تتلقاه على أنه قضية مُسلَّمة ، فوارد الشيطان لا يجرؤ أن يزاحم وارد الرحمن ، فأخذتْ الأم الوليد وأَلْقَتْه كما أوحى إليها ربها .

وتلحظ فى هذه الآيات أن آية القصص لم تذكر شيئاً عن مسألة التابوت : ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى الْيَمِّ .. (٧)﴾ [القصص] هكذا مباشرة .

قالوا : لأن الحق سبحانه تكلم عن الغاية التى تخيف ، وهى الرَّمْى فى اليم ، وطبيعى فى حنان الأم أنْ تحتال لولدها وتعمل على نجاته ، فتصنع له مثل هذا التابوت ، وتُعِدّه إعداداً مناسباً للطَفْو على صفحة الماء .

فالكلام هنا لإعداد الأم وتهيئتها لحين الحادثة ، وفَرْق بين الخطاب للإعداد قبل الحادثة والخطاب حين الحادثة ، فسوف يكون للأمومة ترتيب ووسائل تساعد على النجاة ، فصنعتْ له صندوقاً جعلت فيه مَهْداً ليّناً واحتاطتْ للأمر ، ثم يطمئنها الحق سبحانه على ولدها : ﴿وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِى .. (٧)﴾ [القصص] فسوف نُنجيه ؛ لأن له مهمة عندى ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧)﴾ [القصص]

فإذا ما جاء وقت التنفيذ جاء الأمر فى عبارات سريعة متلاحقة : ﴿أَنِ اقْذِفِيهِ فِى التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِى الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ .. (٣٩)﴾ [طه]

لذلك ، تجد السياق فى الآية الأولى هادئاً رتيباً يناسب مرحلة الإعداد ، أما فى التنفيذ فقد جاء السياق سريعاً متلاحقاً يناسب سرعة التنفيذ ، فكأن الحق سبحانه أوحى إليها : أسرعى إلى الأمر

الذى سبق أنْ أوحيتُه إليك ، هذا الكلام فى الحبْكة الأخيرة لهذه المسألة .

وقوله تعالى : ﴿فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ .. (٣٩)﴾ [طه] أى : تحمله الأمواج وتسير به ، وكأن لديها أوامر أن تُدخِله فى المجرى الموصِّل لقصر فرعون .

فعندنا ـ إذن ـ لموسى ثلاثة إلقاءات : إلقاء الرحمة والحنان فى التابوت ، وإلقاء التابوت فى اليم تنفيذاً لأمر الله ، وإلقاء اليَمِّ للتابوت عند قصر فرعون .

وقوله تعالى : ﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ .. (٣٩)﴾ [طه] (عَدُو لِى) أى : لله تعالى ؛ لأن فرعون ادعى الألوهية ، (وَعَدُوٌّ لَهُ) أى : لموسى ؛ لأنه سيقف فى وجهه ويُوقفه عند حَدِّه .

وفى الآية إشارة إلى إنفاذ إرادته سبحانه ، فإذا أراد شيئاً قضاه ، ولو حتى على يد أعدائه وهم غافلون ، فمَنْ يتصور أو يصدق أن فرعون فى جبروته وعُتوه وتقتيله للذكور من أولاد بنى إسرائيل هو الذى يضم إليه موسى ويرعاه فى بيته ، بل ويُحبه ويجد له قبولاً فى نفسه .

وهل التقطه فرعون بداية ليكون له عَدواً ؟ أم التقطه ليكون ابناً ؟ كما قالت زوجته آسية : ﴿قُرَّتُ[1] عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (٩)﴾ [القصص]

إذن : كانت محبة ، إلا أنها آلتْ إلى العداوة فيما بعد ، آلتْ إلى

---

(١) أى : مبعث سرور لى ولك . [القاموس القويم ١١٢/٢] . وقيل : أقر الله عينك أى : بلّغك أمنيتك حتى ترضى نفسك وتسكن عينك فلا تستشرف إلى غيره . [لسان العرب ـ مادة : قرر] .

أن يكون موسى هو العدو الذى ستُربيه بنفسك وتحافظ عليه ليكون تقويضُ ملكك على يديه ؛ لذلك سيقول فرعون : ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (١٨)﴾ [الشعراء]

ومسألة العداوة هذه استغلها المشككون فى القرآن واتهموه بالتكرار فى قوله تعالى : ﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ .. (٣٩)﴾ [طه] ثم قال فى آية أخرى : ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا .. (٨)﴾ [القصص]

والمتأمل فى الآيتين يجد أن العداوة فى الآية الأولى من جانب فرعون لموسى وربه تبارك وتعالى ، أما العداوة فى الآية الثانية فمن جانب موسى لفرعون ، وهكذا تكون العداوة متبادلة ، وهذا يضمن شراستها واستمرارها ، وهذا مُراد فى هذه القصة .

أمّا إنْ كانت العداوة من جانب واحد ، فلربما تسامح غير العدو وخَجِل العدو فتكون المصالحة . والعداوة بين موسى وفرعون ينبغى أن تكونَ شرسة ؛ لأنها عداوة فى قضية القِمَّة ، وهى التوحيد .

ولكن ، لماذا لم يُلفِت مجىء موسى على هذه الحالة انتباه فرعون فيسأل عن حكايته ويبحث فى أمره ؟ إنها إرادة الله التى لا يُعجزها شىء ، فتحبه زوجة فرعون ، وتقول : ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ .. (٩)﴾ [القصص] ؛ لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى بعدها : ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي .. (٣٩)﴾ [طه]

فأحبته آسية امرأة فرعون لما رأته ، وأحبَّه فرعون لما رآه ، وهذه محبة من الله بلا سبب للمحبة ؛ لأن المحبة لها أسباب بين الناس ، فتحب شخصاً لأنك تودّه ، أو لأنه قريب لك أو صديق ، أو

أسْدى لك معروفاً ، وقد يكون الحب من الله دون سبب من هذه الأسباب ، فلا سببَ له إلاّ إرادة الله .

فمعنى : ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي.. (٣٩)﴾ [طه] وليس فيك ما يُوجب المحبة ، وليس لديك أسبابها ، خاصة وقد كان موسى عليه السلام أسمر اللون ، أجعد الشعر ، أقنى الأنف ، أكتف[1] ، وكأن هذه الخلْقة جاءت تمهيداً لهذه المحبة ، وإثباتاً لإرادة الله التى طوَّعَتْ فرعون لمحبة موسى ، كما قال تعالى : ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ[2] بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ .. (٢٤)﴾ [الأنفال]

وهكذا ، حوَّل الله قلب فرعون ، وأدخل فيه محبة موسى ليُمرِّر هذه المسألة على هذا المغفل الكبير ، فجعله يأخذ عدوه ويُربِّيه فى بيته ، ولم يكن فى موسى الوسامة والجمال الذى يجذب إليه القلوب .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي (٣٩)﴾ [طه] أى : تُربَّى على عَيْن الله وفى رعايته ، وإنْ كان الواقع أنه يُربّى فى بيت فرعون ، فالحق ـ تبارك وتعالى ـ يرعاه ، فإنْ تعرَّض لشىء فى التربية تدخّل ربُّه عز وجل ليعلمه ويُربّيه .

ومن هذه المواقف أن فرعون كان يجلس وزوجته آسية ، ومعهما موسى صغير يلعب ، فإذا به يمسك بلحية فرعون ويجذبها بشدة أغاظته ، فأمر بقتله ، فتدخّلت امرأته قائلة : إنه ما يزال صغيراً لا يفقه شيئاً ، إنه لا يعرف التمرة من الجمرة .

---

(١) الكتَف : عيب يكون فى الكتف ، وهو انفراج فى أعالى كتف الإنسان والأكتف هو الذى انضمت كتفاه على وسط كاهلَه خلقة قبيحة . [لسان العرب ـ مادة : كتف] .

(٢) قال ابن عباس : يحول بين المؤمن وبين الكفر ، وبين الكافر وبين الإيمان . رواه الحاكم فى مستدركه موقوفاً ، وقال : صحيح ولم يخرجاه . قال ابن كثير فى تفسيره (٢/٢٩٨) : « وكذا قال مجاهد وسعيد وعكرمة والضحاك وأبو صالح وعطية وغيرهم » .

فأتوا له بتمرة وجمرة ليمتحنوه ، فأزاح الله يده عن التمرة إلى الجمرة ليُفوّت المسألة على هذا المغفل الكبير ، بل وأكثر من هذا ، فأخذها موسى رغم حرارتها حتى وضعها فى فمه ، فلدغتْ لسانه ، وسبَّبتَ له هذه العُقْدة فى لسانه التى اشتكى منها فيما بعد .

وكأن الحق - تبارك وتعالى - يُطمئن نبيه موسى - عليه السلام - : لا تخف ، فأنت تحت عينى وفى رعايتى ، وإنْ فعلوا بك شيئاً سأتدخل ، وفى آية أخرى قال : ﴿ وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي (٤١) ﴾ [طه] فأنا أرعاك وأحافظ عليك ؛ لأن لك مهمة عندى .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ (٤٠) ﴾

إذن : كان لأخت موسى دور فى قصته ، كما قال تعالى فى موضع آخر : ﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ[1] فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١١) ﴾ [القصص]

والمراد : تتبعيه بعد أنْ علمت نجاته من اليمّ ، فتتبعته ، وعرفتْ أنه فى بيت فرعون ، ثم حرَّم الله عليه المراضع ، فكان يعَافُ المرضعات ، وهنا تدخلت أخته لتقول : ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن

---

(١) القصُّ : اتباع الأثر . قال ابن كثير فى تفسيره (٣/٣٨١) : « أى : اتبعى أثره وخذى خبره وتطلبى شأنه من نواحى البلد » .

يَكْفُلُهُ.. (٤٠) ﴾ [طه] وهذا الترتيب لا يقدر عليه إلا الله .

ويقول تعالى : ﴿ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ.. (٤٠) ﴾ [طه] حين نستقرىء مادة (رجع) فى القرآن نجدها تأتى مرة لازمة كما فى : ﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ .. (١٥٠) ﴾ [الأعراف]

وتأتى متعدية كما فى : ﴿ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ.. (٤٠) ﴾ [طه] وفى : ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ .. (٨٣) ﴾ [التوبة]

والفَرْق بين اللازم والمتعدِّى أن اللازم رجع بذاته ، أمّا المتعدى فقد أرجعه غيره ، فالرجوع أن تصير إلى حال كنتَ عليها وتركتها ، فإنْ رجعت بنفسك دون دوافع حملتْك على الرجوع فالفعل لازم ، فإنْ كانت هناك أمور دفعتْك للرجوع فالفعل مُتعَدٍّ .

ومثل رجعك : أرجعك ، إلا أن رجعك : الرجوع ـ فى ظاهر الأمر منك من دون دوافع منك . وأرجعك : أى رَغْماً عن إرادتك .

وقوله : ﴿ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا.. (٤٠) ﴾ [طه] تقرُّ العين أى : تثبت ؛ لأن التطلعات إما أن تكون معنوية أو حسِّية ، فالإنسان لديه أمانٍ يتطلع إلى تحقيقها ، فإذا ما تحققت نقول : لم يعُدْ يتطلع إلى شىء .

وكذلك فى الشىء الحسِّىِّ ، فالعرب يقولون للشىء الجميل : قيد النواظر . أى : يقيد العين فلا تتحول عنه ؛ لأن الإنسان لا يتحول عن الجميل إلا إذا رأى ما هو أجمل ، وهذا ما يسمونه قُرَّة العين . يعنى الشىء الحسن الذى تستقر عنده العين ، ولا تطلب عليه مزيداً فى الحُسْن .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا.. (٤٠) ﴾ [طه] وهذه منَّة أخرى من منَن الله تعالى على موسى عليه السلام ، فمنَنُ الله عليه كثيرة كما قال : ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ (٣٧) ﴾ [طه] فهى مرة ، لكن هناك مرات .

ومسألة القتل هذه وردتْ فى قوله تعالى : ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ[1] غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ .. (١٥)﴾ [القصص]

وخرج من المدينة[2] خائفاً يترقب الناس لئلا يلحقوا به فيقتلوه ، وهذا معنى ﴿فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ .. (٤٠)﴾ [طه] أى : من القتل ، أو من الإمساك بك ﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا .. (٤٠)﴾ [طه] أى : عرَّضناك لمحن كثيرة ، ثم نجيناك منها ، أولها : أنك وُلِدْت فى عام يُقتل فيه الأطفال ، ثم رمتْكَ أمك فى اليم ، ثم ما حدث منه مع فرعون لما جذبه من ذقنه .

ثم يقول تعالى : ﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ[3] فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ (٤٠)﴾ [طه] ذكر الله تعالى مدة مُكْثه فى أهل مدين على أنها من مننه على موسى مع أنه كان فيها أجيراً ، وقال عن نفسه : ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (٢٤)﴾ [القصص]

---

(١) أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدى أن فرعون ركب مركباً وليس عنده موسى ، فلما جاء موسى عليه السلام قيل له : إن فرعون قد ركب ، فركب فى أثره . فأدركه المقيل (وقت الظهيرة) بأرض يقال لها منف ، فدخلها نصف النهار ، وقد تغلقت أسواقها ، وليس فى طرقها أحد ، وهى التى يقول الله تعالى : ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا .. (١٥)﴾ [القصص] . [أورده السيوطى فى الدر المنثور ٦/٣٩٧] .

(٢) هى مدينة منف ، وهى تقع الآن على مسافة ٢٨ كم جنوب القاهرة قرب ميت رهينة بالبدرشين بالجيزة وبها أهرامات سقارة ، وكانت منف المدينة الأولى فى مصر حتى بنيت مدينة الإسكندرية ، وكانت منف حصناً قوياً ، وكانت تصنع بها أسلحة القتال وتُبنى فيها سفن الأسطول . [معجم الحضارة المصرية القديمة ـ تأليف جورج بوزنر وآخرون ـ ترجمة أمين سلامة ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب] .

(٣) قال قتادة : مكث عشر سنين . أورده السيوطى فى الدر المنثور (٥/٥٧٩) وعزاه لعبد ابن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم . وقال وهب : لبث عند شعيب ثمانى وعشرين سنة ، منها عشر مهر امرأته صفورا ابنة شعيب وثمانى عشرة أقامها عنده حتى وُلد له عنده .

وفى مدين تعرّف على شعيب عليه السلام ، وتزوج من ابنته وأنجب منها ولداً ، وموسى فى هذا كله غريب عن وطنه ، بعيد عن أمه ، فلما أراد الله له الرسالة شوّقه إلى وطنه ورؤية أمه ، وقدَّر له العودة ؛ فقال تعالى : ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ[1] يَا مُوسَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ [طه]

أى : على قَدَر من اصطفائك ، فقدَر الله هو الذى حرَّك فى قلبك الشوق للعودة ، وحملك على أنْ تمشى فى الطريق غير المأهول ، وتتحمل مشقة البرد وعناء السفر ، قَدَر الله هو الذى حرّك فيك خاطر الشوق لأمك ، ففى طريق العودة وفى طُوىً أنت على موعد مع الاصطفاء والرسالة .

لذلك ، فإن الشاعر الذى مدح الخليفة قال له :

جاء الخِلاَفَةَ أوْ كانتْ لَهُ قَدَراً ... كَما أتَى ربَّه مُوسَى علَى قَدَرِ

ثم يقول الحق سبحانه لموسى :

﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴿٤١﴾﴾

أى : نجّيْتك وحافظت عليك ؛ لأننى أُعدُّك لمهمة عندى ، هى إرسالك رسولاً بمنهجى إلى فرعون وإلى قومك .

وقد حاول العلماء إحصاء المطالب التى طلبها موسى عليه السلام من ربه فوجدوها ثمانية : ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَارُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾﴾ [طه]

---

(١) قال مجاهد : أى على موعد . وقال قتادة : على قَدَر الرسالة والنبوة أوردهما ابن كثير فى تفسيره (١٥٣/٣) .

ثم وجدوا أن الله تعالى أعطاه ثمانية أخرى دون سؤال منه : ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ (٣٨) أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي (٣٩) إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ (٤٠)﴾ [طه]

فإنْ كان موسى عليه السلام قد طلب من ربه ثمانية مطالب فقد أعطاه ربه عز وجل ثمانية أخرى دون أن يسألها موسى ؛ ليجمع له بين العطاء بالسؤال ، والعطاء تكرُّماً من غير سؤال ؛ لأنك إنْ سألت الله فأعطاك دَلَّ ذلك على قدرته تعالى فى إجابة طلبك ، لكن إنْ أعطاك بدون سؤال منك دَلَّ ذلك على محبته لك .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي (٤٢)﴾ (١)

﴿بِآيَاتِي.. (٤٢)﴾ [طه] الآيات هنا هى المعجزات الباهرات التى تبهر فرعون ، فلن تذهبا مُجرَّدَيْن ، بل معكما دليل على صدْق الرسالة التى تحملونها إليه : ﴿لَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي (٤٢)﴾ [طه] من التَّوانى أى : الفتور أو التقصير ؛ لأننى أعددتكما الإعداد المناسب لهذه المهمة الشاقة ، فإياكم والتهاون فيها ، فإنْ حدث منكما تقصير فهو تقصير فى الأداء ، لا فى الإعداد .

ومعنى : ﴿فِي ذِكْرِي (٤٢)﴾ [طه] أى : لأكُنْ دائماً على بالكما ،

---

(١) فى قراءة ابن مسعود « ولا تهنا فى ذكرى » وتحميدى وتمجيدى وتبليغ رسالتى . [القرطبى فى تفسيره ٦/٤٣٧١] .

فأنا الذى أرسلتُ ، وأنا الذى أيدتُ بالمعجزات ، وأنا الذى أرعاكما وأرقبكما ، وأنا الذى سأجازيكما فلا يَغبْ ذلك عنكما .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ ﴾

وهل هناك طغيان فوق ادعاء أنه رَبٌّ ؟ وقد قال تعالى فى موضع آخر : ﴿ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى الأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [يونس] والمسرف : هو الذى يتجاوز الحدود ، وهو قد تجاوز فى إسرافه وادَّعى الألوهية ، فعَلاَ فى الأرض علوَّ طاغية من البشر على غيره من البشر المستضعفين .

﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ ﴾

هذا لفرعون بعد أنْ طغى ، ومن الذى حكم عليه بالطغيان ؟ حين تحكم أنت عليه بالطغيان فهو طغيان يناسب قدرات وإمكانات البشر ، أمّا أن يقول عنه الحق تبارك وتعالى ﴿ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ ﴾ [طه] فلا بُدَّ أنه تجاوز كل الحدود ، وبلغ قمة الطغيان ، فربُّنا هو الذى يقول .

فقوله : ﴿ فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا .. ﴿٤٤﴾ ﴾ [طه] فلا بُدَّ أنْ تعطيه فُسْحة كى يرى حُجَجك وآياتك ، ولا تبادره بعنف وغِلْظة ، وقالوا : النصح ثقيل ، فلا ترسله جبلاً ، ولا تجعله جدلاً ، ولا تجمع على المنصوح شدتين : أنْ تُخرِجه مما ألف بما يكره ، بل تُخرِجه مما ألِف بما يحب .

وهذا منهج فى الدعوة واضح وثابت ، كما فى قوله تعالى : ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ .. ﴿١٢٥﴾ ﴾ [النحل]

لأنك تخلعه مما اعتاد وألف ، وتُخرجه عَمَّا أحبَّ من حرية واستهتار فى الشهوات والملذات ، ثم تُقيِّده بالمنهج ، فليكُنْ ذلك برفق ولُطْف .

وهذه سياسة يستخدمها البشر الآن فى مجال الدواء ، فبعد أن كان الدواء مُرّاً يعافُه المرضى ، توصلوا الآن إلى برشمة الدواء المر وتغليفه بطبقة حلوة المذاق حتى تتم عملية البَلْع ، ويتجاوز الدواء منطقة المذاق .

وكذلك الحال فى مرارة الحق والنصيحة ، عليك أنْ تُغلِّفها بالقول اللين اللطيف .

وقوله : ﴿لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ (٤٤)﴾ [طه] لعل : رجاء ، فكيف يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ (٤٤)﴾ [طه] وفى علْمه تعالى أنه لن يتذكَّر ولن يخشى ، وسيموت كافراً غريقاً ؟

قالوا : لأن الحق سبحانه يريد لموسى أن يدخل على فرعون دخول الواثق من أنه سيهتدى ، لا دخولَ اليائس من هدايته ، لتكون لديه الطاقة الكافية لمناقشته وعَرْض الحجج عليه ، أمّا لو دخل وهو يعلم هذه النتيجة لكان محبطاً لا يرى من كلامه فائدة ، كما يقولون (ضربوا الأعور على عينه قال خسرانة خسرانة) .

فالحق سبحانه يعلم ما سيكون من أمر فرعون ، لكنْ يريد أنْ يقيمَ الحجة عليه ﴿لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ.. (١٦٥)﴾ [النساء]

وقوله : ﴿يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ (٤٤)﴾ [طه] كأن الإنسان إذا ما ترك شراسة تفكيره ، وغُمة شهواته فى نفسه ، لا بُدَّ أنْ يهتدى بفطرته

إلى وجود الله أو (يتذكر) عالم الذَّر ، والعهد الذى أخذه الله عليه يوم أنْ قال : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا .. (١٧٢) ﴾ [الأعراف]

والذى قال عنه النبى ﷺ : « كُلُّ مولود يولد على الفطرة ، فأبوه يُهوِّدانه ، أو يُنصِّرانه ، أو يُمجِّسانه[1] »[2] .

فلو تذكّر الإنسان ، وجرَّد نفسه من هواها لا بُدَّ له أنْ يهتدى إلى وجود الله ، لكن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ جعل للغفلة مجالاً ، وأرسل الرسل للتذكير ؛ لذلك قال : ﴿ رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ .. (١٦٥) ﴾ [النساء] ولم يقل : بادئين .

أمّا مسألة الإيمان بالله فكان ينبغى أن تكون واضحة معروفة للناس أن هناك إيماناً بإله خالق قادر فقط ينتظرون ما يطلبه منهم وما يتعبّدهم به . ماذا تفعل ؟ وماذا تترك ؟ وهذه هى مهمة الرسل .

وسبق أن ضربنا مثلاً برجل انقطعت به السُّبل فى صحراء دَوِيَّة[3] ، لا يجد ماءً ولا طعاماً ، حتى أشرف على الهلاك ، ثم غلبه النوم فنام ، فلما استيقظ إذا بمائدة عليها ألوان الطعام والشراب . بالله قبل أنْ يمد يده للطعام ، ألاَ يسأل : مَنْ أتى إليه به ؟

وهكذا الإنسان ، طرأ على كون مُعَدٍّ لاستقباله : أرض ، وسماء ، وشمس ، وقمر ، وزرع ، ومياه ، وهواء . أليس جديراً به أن يسأل :

---

(١) المجوسية نحلة تقول بالأصلين النور والظلمة ، يزعمون أن الخير من فعل النور ، وأن الشر من فعل الظلمة . ويقال : تمجس الرجل وتمجَّسوا : صاروا مجوساً . ومجَّسوا أولادهم : صيروهم كذلك . [لسان العرب ـ مادة : مجس] .

(٢) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٧٧٥) ، ومسلم فى صحيحه (٢٦٥٨) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

(٣) الصحراء الدويّة : إذا كانت بعيدة الأطراف مستوية واسعة . [لسان العرب ـ مادة : دوى] .

من الذى خلق هذا الكون البديع ؟ فلو تذكرتَ ما طرأتَ عليه من الخير فى الدنيا لانتهيتَ إلى الإيمان .

فمعنى : ﴿ يَتَذَكَّرُ .. (٤٤) ﴾ [طه] أى : النعم السابقة فيؤمن بالمنعم ﴿ أَوْ يَخْشَىٰ (٤٤) ﴾ [طه] يخاف العقوبة اللاحقة ، فيؤمن بالله الذى تصير إليه الأمور فى الآخرة .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى عنهما :

﴿ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ (٤٥) ﴾

الخوف : شعور فى النفس يُحرِّك فيك المهابة من شىء ، ومِمَّ يخافان ؟ ﴿ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا .. (٤٥) ﴾ [طه] يفرط : أى : يتجاوز الحد .. ومضادها : فرَّط يعنى : قصّر فى الأمر ؛ لذلك يقولون : الوسط فضيلة بين إفراط وتفريط .

ومَنْ أفرط يقولون : فَرَس فارط عندما يسبق فى المضمار . ويقولون : حاز قَصْب السبق ، وكانوا يضعون فى نهاية المضمار قصبة يركزونها فى الأرض ، والفارس الذى يلتقطها أولاً هو الفائز ، والفرس فارط يعنى : سبق الحدَّ المعمول له ، لا مجرد أن يسبق غيره .

لذلك عندما يُحدِّثنا القرآن عن الحدود ، يقول مرة : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا .. (٢٢٩) ﴾ [البقرة] أى : إياك أن تسبق الحد الذى وُضِع لك ومرة أخرى يقول : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا .. (١٨٧) ﴾ [البقرة]

ففى المحلَّلات قال ﴿فَلا تَعْتَدُوهَا .. (٢٢٩)﴾ [البقرة] قفُوا على الحدِّ لا تسبقوه ، وفى المحرمات قال ﴿فَلا تَقْرَبُوهَا .. (١٨٧)﴾ [البقرة] لأنك لو اقتربتَ منها وقعتَ فيها .

فالمعنى إذن ﴿يَفْرُطَ عَلَيْنَا .. (٤٥)﴾ [طه] يتجاوز الحدّ ، وربما عاجلنا بالقتل قبل أن نقول شيئاً فيسبق قتلُه لنا كلامنا له .

وقوله تعالى : ﴿أَوْ أَن يَطْغَىٰ (٤٥)﴾ [طه] فلا يكتفى بقتلنا ، بل ويخوض فى حَقِّ ربنا ، أو يقول كلاماً لا يليق ، كما سبق له أن ادَّعى الألوهية .

ومن واجب الدعاة ألاَّ يَصلوا مع المدعوين إلى درجة أن يخوضوا فى حقِّ الله تبارك وتعالى ؛ لذلك فالحق سبحانه يُؤدِّب المؤمنين به بأدب الدعوة فى مجابهة هؤلاء فيقول : ﴿وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا[1] بِغَيْرِ عِلْمٍ .. (١٠٨)﴾ [الأنعام]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ (٤٦)﴾

أى : لن أسلمكما ولن أترككما ، وأنا معكما أسمع وأرى ؛ لأن الحركة إما قول يُسمع ، أو فعل يُرى ، فاطمئنّا ؛ لأننا سنحفظكما ، وقد قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ

(١) عدا عليه يعدو عَدْواً وعدواناً : ظلمه وصال عليه مثل اعتدى عليه . [القاموس القويم ١١/٢] . قال ابن عباس فى هذه الآية : « قالوا (أى : المشركين) : يا محمد لتنتهين عن سبك آلهتنا أو لنهجون ربك فنهاهم الله أن يسبوا أوثانهم » [ذكره ابن كثير فى تفسيره ١٦٤/٢] .

الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) ﴾ [الصافات]

وهذه سُنة من سُنَن الله تعالى ، فإنْ رأيتَ جنداً من الجنود منسوبين لله تعالى وهُزِمُوا ، فاعلم أنهم انحلوا عن الجندية لله ، وإلا فوعْد الله لجنوده لا يمكن أن يتخلف أبداً .

والدليل على ذلك ما حدث للمسلمين فى أُحُد ، صحيح أن المسلمين هُزِموا فى هذه الغزوة ؛ لأنهم انحرفوا عن أوامر رسول الله ﷺ وخالفوه عندما قال للرماة : « لا تتركوا أماكنكم على أىّ حال من الأحوال »[1] ، لكن بمجرد أنْ رأوا بوادر النصر تركوا أماكنهم ، ونزلوا لجَمْع الغنائم ، فالتف من خلفهم خالد بن الوليد وألحق بهم الهزيمة ، وإن انهزم المسلمون فقد انتصر الإسلام ؛ لأنهم لما خالفوا أوامر رسولهم انهزموا ، وبالله لو انتصروا مع المخالفة أكان يستقيم لرسول الله أمر بعد ذلك ؟

ففى الآية التى معنا يطمئنهم الحق ـ تبارك وتعالى ـ حتى لا يخافا ، فقدرة الله ستحفظهما ، وسوف تتدخل إنْ لزمَ الأمر كما تدخلتْ فى مسألة التمرة والجمرة ، وهو صغير فى بيت فرعون .

ثم يقول لهما الحق سبحانه وتعالى :

---

(١) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٣/٢٠٩) ضمن حديث طويل عن غزوة أحد من حديث موسى بن عقبة ، وفيه « أمر رسول الله ﷺ خمسين رجلاً من الرماة فجعلهم نحو خيل العدو ، وأمَّر عليهم عبد الله بن جبير أخا خوّات بن جبير ، وقال لهم : أيها الرماة إذا أخذنا منازلنا من القتال فإن رأيتم خيل المشركين تحركت وانهزم أعداء الله فلا تتركوا منازلكم ، إنى أتقدم إليكم أن لا يفارقن رجل منكم مكانه واكفونى الخيل ، فوعز إليه فأبلغ ، ومن نحوهم كان الذى نزل بالنبى ﷺ يومئذ والذى أصابه » .

﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ ﴾

ونلحظ هنا أنهما لم يواجهاه بما ادعاه من الألوهية مرة واحدة ، إنما أشارا إلى مقام الربوبية ﴿ رَسُولا رَبِّكَ .. ﴿٤٧﴾ ﴾ [طه] وهذه هزّة قوية تزلزل فرعون ، ثم تحوّلا إلى مسألة أخرى ، وهى قضية بنى إسرائيل ، وكان فرعون يُسخِّرهم فى خدمته ويُعذِّبهم ويشقّ عليهم .

﴿ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِى إِسْرَائِيلَ .. ﴿٤٧﴾ ﴾ [طه] فقد جئنا لنأخذ أولادنا وننقذهم من هذا العذاب ﴿ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ .. ﴿٤٧﴾ ﴾ [طه] أى : معجزة ﴿ مِّن رَّبِّكَ .. ﴿٤٧﴾ ﴾ [طه] فأعادوا عليه هذه الكلمة مرة أخرى .

وقد علّمهما الحق سبحانه كيف يدخلون على فرعون ؟ وكيف يتحدثون معه فى أمر لا يمسّ كبرياءه وألوهيته .

وبنو إسرائيل هم البقية الباقية من يوسف عليه السلام وإخوته ، لما جاءوا إلى مصر فى أيام العزيز[1] الذى قرَّب يوسف وجعله على خزائن الأرض ، كما قال تعالى فى قصة يوسف : ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِى بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ[2] أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ اجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ ﴾ [يوسف]

---

(١) العزيز : عزيز مصر فى زمن يوسف ، وهو وزيرها ، قال محمد بن إسحاق : اسمه أطفير ابن روحيب ، وكان على خزائن مصر ، وكان الملك يومئذ الريان بن الوليد رجل من العماليق (أى : الهكسوس) . [ذكره ابن كثير فى تفسيره ٢/٤٧٣] .

(٢) أى : عظيم عندنا ثابت المنزلة . [القاموس القويم ٢/٢٣٢] .

وقوله : ﴿وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ (٤٧)﴾ [طه] وهذه ليست تحية ؛ لأنك تُحيى مَنْ كان مُتبعاً للهدى ، وتدعو له بالسلام ، فإنْ لم يكُنْ كذلك فهى نهاية للكلام .

لذلك كان يكتبها رسول الله ﷺ فى كتبه إلى المقوقس عظيم القبط ، وإلى هرقل عظيم الروم ، يقول : « اسلم تسلم ، يؤتكَ الله أجرك مرتين ، فإنْ توليت فإنما عليك إثم الأريسيين[1] والسلام على مَنِ اتبع الهدى »[2] .

قال موسى وهارون لفرعون :

﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (٤٨)﴾

فأعطاه هنا القضية النهائية : جاءنا فى الوحى أن مَنْ كذّب وتولّى فله العذاب ، ومعنى ﴿أُوحِيَ إِلَيْنَا .. (٤٨)﴾ [طه] أى : من ربك .

فلما سمع فرعون هذه المقولة أحب أنْ يدخل معهما فى متاهات يشغلهم بها ، ويطيل الجدل ليُرتِّب أفكاره ، وينظر ما يقول :

﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ (٤٩)﴾

---

(١) اختلفوا فى المراد بالأريسيين على أقوال ، أصحها وأشهرها أنهم الأكارون أى الفلاحون والزراعون ، ومعناه : إن عليك إثم رعاياك الذين يتبعونك وينقادون بانقيادك ، وهذا هو القول الصحيح . شرح النووى لصحيح مسلم .

(٢) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (حديث ٧) كتاب بدء الوحى ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٧٧٣) كتاب الجهاد والسير فى حديث طويل من حديث ابن عباس فى ذكر كتاب الرسول ﷺ إلى هرقل عظيم الروم .

ووجّه الخطاب إلى الرئيس الأصلى فى هذه المهمة ، وهو موسى عليه السلام[١] .

﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾﴾

معنى ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ .. ﴿٥٠﴾﴾ [طه] أى : كل ما فى الوجود ، خلقه الله لمهمة ، فجاء خَلْقه مناسباً للمهمة التى خُلق لها ﴿ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾﴾ [طه] أى : دلّ كل شىء على القيام بمهمته ويسّره لها .

والحق سبحانه أعطى كل شىء (خَلْقَهُ) الخَلْق يُطلَق ، ويُراد به المخلوق ، فالمخلوق شىء لا بُدَّ له من مادة ، لا بُدَّ أن يكون له صورة وشكل ، له لون ورائحة ، له عناصر ليؤدى مهمته .

فإذا أراد الله سبحانه خَلْق شىء يقْدِر له كل هذه الأشياء فأمدَّ العين كى تبصر ، والأنف كى يشم ، واللسان كى يتذوق ، ثم هدى كل شىء إلى الأمر المراد به لتمام مهمته ، بدون أى تدخّل فيه من أحد .

وإذا كان الإنسان ، وهو المقدور للقادر الأعلى يستطيع أن يصنع مثلاً القنبلة الزمنية ، ويضبطها على وقت ، فتؤدى مهمتها بعد ذلك تلقائياً دون اتصال الصانع بها .

فالحقّ سبحانه خلق كل شىء وأقدره على أنْ يُؤدِّى مهمته على الوجه الأكمل تأدية تلقائية غريزية ، فالحيوانات التى نتهمها بالغباء ،

---

(١) وقد يكون فرعون قد طلب الكلام من موسى لأنه يعلم أن موسى ليس فصيح اللسان ولا يكاد يُفهم منه كلام بسبب العقدة التى فى لسانه ، ولذلك قال : ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾﴾ [الزخرف] .

ونقول عنها « بهائم » هى فى الحقيقة ليست كذلك ، وقد أعطانا الحق ـ سبحانه وتعالى ـ صورة لها فى مسألة الغراب الذى بعثه الله ليُعلِّم ولد آدم كيف يوارى سوءة أخيه كما قال سبحانه : ﴿ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَىٰ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ (٣١) ﴾ [المائدة]

فكيف صنع الغراب هذا الصنيع ؟ صنعه بالغريزة التى جعلها الله فيه ، ولو تأملتَ الحمار الذى يضربون به المثل فى الغباء حين تريده أنْ يتخطى (قناة) مثلاً ، تراه ينظر إليها ويُقدِّر مسافتها ، فإن استطاع أنْ يتخطاها قفز دون تردد ، وإنْ كانت فوق إمكانياته تراجع ، ولم يُقْدِم مهما ضربته أو أجبرته على تخطيها ، هذه هى الغريزة الفطْرية .

لذلك تجد المخلوقات غير المختارة لا تخطىء ؛ لأنها محكومة بالغريزة ، وليس لها عقل يدعو إلى هوىً ، وليس لها اختيار بين البدائل مثل العقل الإلكترونى الذى يعطيك ما أودعته فيه لا يزيد عليه ولا ينقص ، أما الإنسان فيمكن أنْ يُغيِّر الحقيقة ، ويُخفى ما تريده منه ، لأن له عقلاً يفاضل : قُلْ هذه ، ولا تقُلْ هذه ، وهذا ما ميّز الله به الإنسان عن غيره من المخلوقات .

كذلك ، ترى الحيوان إذا شبع يمتنع عن الطعام ولا يمكن أن تؤكله عود برسيم واحد مهما حاولتَ ، إنما الإنسان صاحب العقل والهوى يقول لك : (أرها الألوان تريك الأركان) ، فلا مانع ـ بعد أن أكل حتى التخمة ـ من تذوُّق أصناف شتّى من الحلوى والفاكهة وخلافه .

وفى هذه الآية يقول الحق سبحانه وتعالى أنه : ﴿ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ (٥٠) ﴾ [طه]

خذ مثلاً الأذن ، وكيف هى محكمة التركيب مناسبة لتلقى الأصوات ، ففى الأذن من الخارج تجاعيد وتعاريج تتلقى الأصوات العالية ، فتُخفّف من حدّتها حتى تصل إلى الطبلة الزقيقة هادئة ، وإلاَّ خرقتها الأصوات وأصمّتها ، وكذلك جعلها الله لِصدِّ الرياح حتى إذا هبت لم تجد الأذن هكذا عارية فتؤذيها .

وكذلك العَيْن ، كم بها من آيات لله ، فقد خلقها الله بقدر ، من هذه الآيات أن حرارتها إنْ زادت عن ١٢ درجة تفسد ، وأرنبة الأنف إنْ زادت عن ٩ درجات لا تؤدى مهمتها ، مع أن فى الجسم عضواً حرارته ٤٠ درجة هو الكبد ، والحرارة الكلية للإنسان ٣٧ درجة ، تكون ثابتة فى المناطق الباردة حيث الجليد كما هى فى المناطق الحارة ، لا ترتفع ولا تنخفض إلا لعِلَّة أو آفة فى الجسم .

إذن : كل شىء فى الوجود خلقه الله بقدر وحكمة وكيفية لأداء مهمته ، كما قال فى آية أخرى : ﴿الَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَالَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾﴾ [الأعلى]

اللسان مثلاً جعل الله به حلَمات متعددة ، كل واحدة منها تتذوّق طَعْماً معيناً ، فواحدة للحلو ، وواحدة للمُرِّ ، وواحدة للحريف ، وهكذا ، وجميعها فى هذه المساحة الضيقة متجاورة ومتلاصقة بقَدْر دقيق ومُعْجز .

الأنف وما فيه من مادة مُخاطية عالقة لا تسيل منك ، وشعيرات دقيقة ، ذلك لكى يحدث لهواء الشهيق عملية تصفية وتكييف قبل أن يصل إلى الرئتين ؛ لذلك لا ينبغى أنْ نقصَّ الشعيرات التى بداخل الأنف ؛ لأن لها مهمة .

عضلة القلب وما تحتويه من أُذَيْن وبُطَيْن ، ومداخل للدم ،

ومخارج محكمة دقيقة تعمل ميكانيكياً ، ولا تتوقف ولا تتعطل لمدة ١٤٠ أو ١٢٠ سنة ، تعمل تلقائياً حتى وأنت نائم ، فأىّ آلة يمكن أنْ تُؤدِّى هذه المهمة ؟

والحق سبحانه وتعالى عندما أرسل موسى وهارون بآية دالة على صدقهما إلى فرعون كانت مهمتهما الأساسية أخْذ بنى إسرائيل ، وإنقاذهم من طغيان فرعون ، وجاءت المسألة الإيمانية تبعية ، أما أصل مهمة موسى فكان : ﴿ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِى إِسْرَائِيلَ وَلا تُعَذِّبْهُمْ .. (٤٧) ﴾ [طه]

والحق سبحانه حين يعرض قضية الإيمان يعرضها مبدوءة بالدليل دليل البدء الذى جاء فى قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبُّنَا الَّذِى أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ (٥٠) ﴾ [طه] لأن فرعون الذى ادعى الألوهية لابُدَّ أن يكون له مألوهون ، وهم خَلْق مثله ، وهو يعتزّ بملكه وماله من أرض مصر ونيلها وخيراتها حتى قال :

﴿ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَـٰذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِى مِن تَحْتِى .. (٥١) ﴾ [الزخرف]

فأراد الحق سبحانه وتعالى أنْ يرد عليه : أَلَكَ شىء فى خَلْق هؤلاء المألوهين لك ؟

وما أشبهَ موقف فرعون أمام هذه الحجة بموقف النمروذ أمام نبى الله إبراهيم عليه السلام عندما قال له : ﴿ رَبِّىَ الَّذِى يُحْيِى وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِى وَأُمِيتُ .. (٢٥٨) ﴾ [البقرة]

فلم يجد النمروذ إلا الجدل والسفسطة ، فلجأ إلى حيلة المفلسين ، وجاء برجلين فقال : أنا أحكم على هذا بالموت وأعفو عن هذا ؛ لذلك لما أحسَّ إبراهيم ـ عليه السلام ـ منه المراوغة والجدال نقله إلى مسألة لا يستطيع منها فكاكاً .

﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ[1] الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٢٥٨)﴾ [البقرة]

إذن : فالردُّ إلى قضية الخلق الأول دليل لا يمكن لأحد ردُّه ، حتى فرعون ذاته لم يدَّعِ أنه خلق شيئاً ، إنما تجبّر وتكبّر وادّعى الألوهية فقط على مألوه لم يخلقه ، ولم يخلق نفسه ، ولم يخلق الملْك الذى يعتز به .

ولما كان دليل الخلق الابتدائى هو الدليل المقنع ، لم يكن لفرعون رَدٌّ عليه ؛ لذلك لما سمع هذه المسألةَ ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ (٥٠)﴾ [طه] لم يستطع أنْ ينقضَ هذا الدليل ، فأراد أنْ يُخرِج الحوار من دليل الجد إلى مسألة أخرى يهرب إليها ، مسألة فرعية لا قيمة لها :

﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ (٥١)﴾

أى : ما شأن الأمم السابقة ؟ لكن ما دَخْل القرون الأولى بما نتكلّم فيه ؟ كلمة البال : هو الفكر ، نقول : خطر ببالى . أى : بفكرى ، ولا يأتى فى الفكر وبُؤْرة الشعور إلا الأمر المهم .

لكن ، سرعان ما أحسَّ موسى بمراوغة فرعون ، ومحاولة الهرب من الموضوع الأساسى فسدَّ عليه الباب .

﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى (٥٢)﴾

---

(١) بهت : دهش وتحيَّر . [القاموس القويم ١/٨٦] قال ابن منظور فى [لسان العرب - مادة : بهت] : « انقطع وسكت متحيراً عنها » .

فهذه المسألة ليست من اختصاصى ؛ لأن الذى يُسأل عن القرون الأولى هو الذى يُجازيها ، وينبغى أنْ يعلم حالها ، وما هى عليه من الإيمان أو الكفر ؛ ليُجازيها على ذلك ، إذن : هذا سؤال لا موضعَ له ، إنه مجرد هَزْل ومهاترة وهروب ، فلا يعلم حال القرون الأولى إلا الله ؛ لأنه سبحانه هو الذى سَيُجازيها .

ومعنى ﴿فِي كِتَابٍ.. (٥٢)﴾ [طه] أى : سجّلها فى كتاب ، يطلع عليه الملائكة المدبرات أمراً ؛ ليمارسوا مهمتهم التى جعلهم الله لها ، وليس المقصود من الكتاب أن الله يطّلع عليه ويعلم ما فيه ؛ لأنه سبحانه ﴿لاَّ يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنسَى (٥٢)﴾ [طه]

ثم أرجعه موسى إلى القضية الأولى قضية الخلق ، ولكن بصورة تفصيلية :

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ (٥٣)﴾

مَهْداً : من التمهيد وتوطئة الشىء ليكون صالحاً لمهمته ، كما تفعل فى فراشك قبل أن تنام ، ومن ذلك يسمى فراش الطفل مَهْداً ؛ لأنك تُمهِّده له وتُسوّيه ، وتزيل عنه ما يقلقه أو يزعجه ليستقر فى مَهْده ويستريح .

ولا بُدَّ لك أنْ تقوم له بهذه المهمة ؛ لأنه يعيش بغريزتك أنت ، إلا أن تتنبه غرائزه لمثل هذه الأمور ، فيقوم بها بنفسه ؛ لذلك لزمك فى هذه الفترة رعايته وتربيته والعناية به .

فمعنى ﴿جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْداً .. (٥٣)﴾ [طه] أى : سوَّاها ومهَّدها لتكون صالحة لحياتكم ومعيشتكم عليها .

وليس معنى مهّدها جعلها مستوية ، إنما سوّاها لمهمتها ، وإلا ففى الأرض جبال ومرتفعات ووديان ، وبدونها لا يستقيم لنا العيش عليها ، فتسويتها تقتضى إصلاحها للعيش عليها ، سواء بالاستواء أو التعرّج أو الارتفاع أو الانخفاض .

فمثلاً فى الأرض المستوية نجد الطرق مستوية ومستقيمة ، أما فى المناطق الجبلية فهى مُتعرّجة مُلتوية ؛ لأنها لا تكون إلا كذلك ، ولها ميزة فى التوائها أنك لا تواجه الشمس لفترة طويلة ، بل تراوح بين مواجهة الشمس مرة والظل أخرى .

وسبق أن ضربنا مثلاً بالخطّاف الذى نصنعه من الحديد ، فلو جعلناه مستقيماً ما أدَّى مهمته ، إذن : فاستقامته فى كَوْنه مُعْوجاً فتقول : سويته ليؤدى مهمته ، ولو كان مستقيماً ما جذب الشىء المراد جَذْبه به .

إذن : نقول التسوية : جَعْل الشىء صالحاً لمهمته ، سواء أكان بالاعتدال أو الاعوجاج ، سواء أكان بالأَمْت[1] أو بالاستقامة .

ثم يقول تعالى : ﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً .. (٥٣)﴾ [طه] أى : طرقاً ممهدة تُوصّلكم إلى مهماتكم بسهولة .

سلك : بمعنى دخل ، وتأتى متعدية ، تقول : سلك فلان الطريق . وقال تعالى : ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ[2] (٤٢)﴾ [المدثر] فالمخاطبون

---

(١) الأَمْت : الاختلاف فى المكان ارتفاعاً وانخفاضاً ، قال تعالى : ﴿لا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلا أَمْتًا (١٠٧)﴾ [طه] . أى : لا ترى فى الأرض يوم القيامة التواء ولا انحرافاً يميناً ولا شمالاً ولا ترى فيها اختلافاً فى الارتفاع والانخفاض . [القاموس القويم ١/ ٣٠] .

(٢) قيل : سميت النار سقر لأنها تذيب الأجسام والأرواح ، والاسم عربى من قولهم : سقرته الشمس . أى : أذابته . [لسان العرب ـ مادة : سقر] .

مَسْلوكون فى سقر يعنى : داخلون ، وقال : ﴿اسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ.. (٣٢)﴾ [القصص] أى : أدْخِلْها .

فتعديها إلى المفعول الداخل أو للمدخول فيهْ ، فقوله : ﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً .. (٥٣)﴾ [طه] متعدية للمدخول فيه أى : عديت المخاطب إلى المدخول فيه ، فأنتم دخلتم ، والسُّبل مدخول فيه . إذن : المفعول مرة يكون المسلوك ، ومرة يكون المسلوك فيه .

وحينما تسير فى الطرق الصحراوية تجدها مختلفة على قَدْر طاقة السير فيها ، فمنها الضّيق على قَدْر القدم للشخص الواحد ، ومنها المتسع الذى تسير فيه الجمال المحمّلة أو السيارات ، فسلك لكم طرقاً مختلفة ومتنوعة على قَدْر المهمة التى تؤدونها .

ثم يقول تعالى : ﴿وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ (٥٣)﴾ [طه]

وهذه أيضاً من مسألة الخَلْق التى لا يدعيها أحد ؛ لأنها دَعْوى مردودة على مدعيها ، فأنت يا مَنْ تدّعى الألوهية أخرِجْ لنا شيئاً من ذلك ، أرِنَا نوعاً من النبات فلن يقدر ، وبذلك لزمتْه الحجة .

كما أن إنزال الماء من السماء ليس لأحد عمل فيه ، لكن عندما يخرج النبات قد يكون لنا عمل مثل الحَرْث والبَذْر والسَّقْى وخلافه ، لكن هذا العمل مستمد من الأسباب التى خلقها الله لك ؛ لذلك لما تكلم عن الماء قال (أَنْزَلَ) فلا دَخْل لأحد فيه ، ولما تكلم عن إخراج النبات قال (أَخْرَجْنَا) لأنه تتكاتف فيه صفات كثيرة ، تساعد فى عملية إخراجه ، وكأن الحق ـ تبارك وتعالى ـ يحترم عملك السَّببى ويُقدِّره .

اقرأ قوله تعالى : ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ

الزَّارِعُونَ (٦٤) ﴾ [الواقعة] فأثبت لهم عملاً ، واحترم مجهودهم ، إنما لما حرثتم من أين لكم بالبذور ؟ فإذا ما تتبعت سلْسلة البذور القبلية لانتهتْ بك إلى نبات لا قَبْلَ له . كما لو تتبعتَ سلسلة الإنسان لوجدتها تنتهى إلى أب ، لا أب له إلا مَنْ خلقه .

وأنت بعد أن ألقيتَ البذرة فى الأرض وسقيْتها ، ألَكَ حيلة فى إنباتها ونُموّها يوماً بعد يوم ؟ أأمسكْتَ بها وجذبْتها لتنمو ؟ أم أنها قدرة القادر ﴿ الَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ (٢) وَالَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ (٣) ﴾ [الأعلى]

لذلك يقول تعالى بعدها : ﴿ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا .. (٦٥) ﴾ [الواقعة] ، فإنْ كانت هذه صنعتكم فحافظوا عليها .

كما حدث مع قارون حينما قال عن نعمة الله : ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ .. (٤٩) ﴾ [الزمر]

فما دام الأمر كذلك فحافظ عليه يا قارون بما عندك من العلم ، فلما خسف الله به وبداره الأرض دَلَّ ذلك على كذبه فى مقولته .

ونلحظ فى قوله تعالى : ﴿ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا .. (٦٥) ﴾ [الواقعة] أنه مؤكد باللام ، لماذا ؟ لأن لك شبهة عمل فى مسألة الزرع ، قد تُطمعك وتجعلك مُتردّداً فى القبول . إنما حينما تكلم عن الماء قال :

﴿ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِى تَشْرَبُونَ (٦٨) أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ (٦٩) لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا .. (٧٠) ﴾ [الواقعة]

هكذا بدون توكيد ؛ لأنها مسألة لا يدَّعيها أحد لنفسه .

وقوله تعالى : ﴿ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ (٥٣) ﴾ [طه] لم يقل : نباتاً فقط . بل أزواجاً ؛ لأن الله تعالى يريد أن تتكاثر الأشياء ، والتكاثر لا بُدَّ له من زوجين : ذكر وأنثى . وكما أن الإنسان يتكاثر ، كذلك

باقى المخلوقات ؛ لأن الحق ـ تبارك وتعالى ـ خلق الأرض وقدَّر فيها أقواتها ، ولا بُدَّ لهذه الأقوات أن تكفى كل مَنْ يعيش على هذه الأرض .

فإذا ضاقت الأرض ، ولم تُخرِج ما يكفينا ، وجاع الناس ، فلنعلم أن التقصير منّا نحن البشر فى استصلاح الأرض وزراعتها ؛ لذلك حينما حدث عندنا ضيق فى الغذاء خرجنا إلى الصحراء نستصلحها ، وقد بدأت الآن تُؤتى ثمارها ونرى خيرها ، والآن عرفنا أننا كنا فى غفلة طوال المدة السابقة ، فتكاثرنا ولم نُكثِّر ما حولنا من الرقعة الزراعية .

والذكر والأنثى ليسا فى النبات فحسْب ، بل فى كل ما خلق الله : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ (٣٦) ﴾ [يس]

فالزوجية فى كل شىء ، علِمته أو لم تعلمه ، حتى فى الجمادات ، هناك السالب والموجب والالكترونات والأيونات فى الذرة ، وهكذا كلما تكاثر البشر تكاثر العطاء .

وقوله تعالى : ﴿ مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ (٥٣) ﴾ [طه] شتى مثل : مرضى جمع مريض فشتى جمع شتيت . يعنى أشياء كثيرة مختلفة ومتفرقة ، ليست فى الأنواع فقط ، بل فى النوع الواحد هناك اختلاف .

فلو ذهبت مثلاً إلى سوق التمور فى مدينة رسول الله ﷺ تجد أنواعاً كثيرة ، مختلفة الأشكال والطُّعوم والأحجام ، كلها تحت مُسمّى واحد هو : التمر . وهكذا لو تأملتَ باقى الأنواع من المزروعات .

ثم يذكر الحق ـ تبارك وتعالى ـ العِلَّة فى إخراج النبات :

﴿ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ﴾

(كُلُوا) : تدل على أن الخالق عز وجل خلق الحياة ، وخلق مقومات الحياة ، وأولها القوت من الطعام والشراب ، وهذه المقوّمات تناسبت فيها الملكية مع الأهمية ، فالقوت أولاً ، ثم الماء ، ثم الهواء .

فأنت تحتاج الطعام وتستطيع أن تصبر عليه شهراً على قَدْر ما يختزن فى جسمك من شحم ولحم ، يتغذّى منها الجسم فى حالة فقد الطعام ؛ لأنك حين تأكل تستهلك جزءاً من الطعام فى حركتك ، ثم يُختزن الباقى فى صورة دهون هى مخزن الغذاء فى الجسم ، فإذا ما نفد الدُّهْن امتصَّ الجسم غذاءه من اللحم ، ثم من العظم ، فهو آخر مخازن الغذاء فى جسم الإنسان .

لذلك لما أراد سيدنا زكريا عليه السلام أن يعبر عن ضعفه ، قال : ﴿ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي .. ﴿٤﴾ ﴾ [مريم]

لذلك تجد كثيراً ما يُتملّك الغذاء ؛ لأنك تصبر عليه مدة طويلة تُمكِّنك من الاحتيال فى طلبه ، أو تُمكِّن غيرك من مساعدتك حين يعلم أنك محصور جوعان .

أما الماء فلا تصبر عليه أكثر من ثلاثة أيام إلى عشرة ؛ لذلك قليلاً ما يُملِّك الماء لأحد .

أما الهواء فلا تصبر عليه أكثر من نفَس واحد ، فمن رحمة الله بعباده ألاَّ يُملِّك الهواء لأحد ، وإلاّ لو غضب عليك صاحب الهواء ،

فمنعه عنك لمتّ قبل أنْ يرضى عنك ، وليس هناك وقت تحتال فى طلبه .

وقوله تعالى : ﴿وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ.. (٥٤)﴾ [طه] لأنها تحتاج أيضاً إلى القُوت ، وقال تعالى فى آية أخرى : ﴿مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ (٣٣)﴾ [النازعات] ثم يصبّ الجميع فى أن يكون متاعاً للإنسان الذى سخّر الله له كل هذا الكون .

وقوله تعالى : ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ (٥٤)﴾ [طه]

آيات : عجائب . والنُّهَى : جمع نُهية مثل قُرَبْ جمع : قُرْبة . والنُّهَى : العقول ، وقد سمّاها الله تعالى أيضاً الألباب ، وبها تتم عملية التدبير فى الاختيارات .

والعقل من العقال الذى تعقل به الدابة حتى لا تشرد منك ، وكذلك العقل لم يُخلَق لك كى تشطح به كما تحب ، إنما لتعقل غرائزك ، وتحكمها على قَدْر مهمتها فى حياتك ، فغريزة الأكل مثلاً لبقاء الحياة ، وعلى قَدْر طاقة الجسم ، فإنْ زادت كانت شراهة مفسدة .

وقد جُعل حُبُّ الاستطلاع للنظر فى الكون وكَشْف أسراره وآيات الله فيه ، فلا ينبغى أنْ تتعدّى ذلك ، فتتجسس على خَلْق الله .

وسُمِّيَتْ العقول كذلك النُّهَى ، لأنها تنهى عن مثل هذه الشطحات . إذن : فلا بد للإنسان من عقل يعقل غرائزه ، حتى لا تتعدى المهمة التى جُعلَتْ لها ، ويُوقفها عند حَدِّها المطلوب منها ، وإلا انطلقتْ وعربدتْ فى الكون ، لا بُدَّ للإنسان من نُهية تنهاه وتقول له : لا لشهوات النفس وأهوائها ، وإلاّ فكيف تُطلِق العنان لشهواتك ، ولست

وحدك فى الكون ؟ وما الحال لو أطلق غيرك العنان لشهواتهم ؟

وسُمِّى العقل لُبّاً ، ليشير لك إلى حقائق الأشياء لا إلى قشورها ، ولتكون أبعد نظراً . وأعمق فكراً فى الأمور . فحين يأمرك أن تعطى شيئاً من فضل مالك للفقراء ، فسطحية التفكير تقول : لا كيف أتعب وأعرق فى جمعه ، ثم أعطيه للفقير ؟ وهو لم يفعل شيئاً ؟

أما حين تتعمق فى فَهْم الحكمة من هذا الأمر تجد أن الحق ـ تبارك وتعالى ـ قال لك : أعط المحتاجين الآن وأنت قادر حتى إذا ما احتجتَ تجد مَنْ يعطيك ، فقد يصير الغنى فقيراً ، أو الصحيح سقيماً ، أو القوى ضعيفاً ، فهذه سنة دائرة فى الخَلْق متداولة عليهم .

وحين تنظر إلى تقييد الشرع لشهواتك ، فلا تنسَ أنه قيَّد غيرك أيضاً بنفس المنهج وبنفس التكاليف . فحين يقول لك : لا تنظر إلى محارم الناس وأنت فرد فهو فى نفس الأمر يكون قد أمر الناس جميعاً ألاّ ينظروا إلى حرماتك .

وهكذا جعل الخالق عز وجل آلة العقل هذه ، لا لنعربد بها فى الكون ، إنما لنضبط بها الغرائز والسلوك ، ونحرسها من شراسة الأهواء ، فيعتدل المجتمع ويسْلَم أفراده .

وإلاَّ فإذا سمحتَ لنفسك بالسرقة ، فاسمح للآخرين بالسرقة منك !! إذن : فمن مصلحتك أنت أنْ يوجد تقنين ينهاك ، ومنهج يُنظِّم حياتك وحياة الآخرين .

والحق سبحانه يقول :

﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ ﴾

نلحظ هنا أن موسى ـ عليه السلام ـ يعرض على فرعون قضايا لا تخصُّ فرعون وحده ، إنما تمنع أنْ يوجد فرعون آخر .

وقوله ﴿مِنْهَا .. (٥٥)﴾ [طه] أى : من الأرض التى سبق أنْ قال عنها : ﴿الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا .. (٥٣)﴾ [طه]

ثم ذكر لنا مع الأرض مراحل ثلاث : ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ (٥٥)﴾ [طه]

وفى آية أخرى يذكر مرحلة رابعة ، فيقول : ﴿فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ (٢٥)﴾ [الأعراف]

بذلك تكون المراحل أربعة : منها خلقناكم ، وفيها تحيَوْن ، وإليها تُرجعون بالموت ، ومنها نُخرجكم بالبعث .

فقوله تعالى : ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ.. (٥٥)﴾ [طه] الخلْق قسْمان : خَلْق أولى ، وخَلْق ثانوى ، الخلق الأَولىّ فى آدم عليه السلام ، وقد خُلِق من الطين أى : من الأرض . ثم الخَلْق الثانى ، وجاء من التناسل ، وإذا كان الخَلْق الأَوّلى من طين ، فكل ما ينشأ عنه يُعَدّ كذلك ؛ لأنه الأصل الأول .

ويمكن أن نُوجِّه الكلام توجيهاً آخر ، فنقول : التناسل يتولد من ميكروبات الذكورة وبويضات الأنوثة ، وهذه فى الأصل من الطعام والشراب ، وأصله أيضاً من الأرض . إذن : فأنت من الأرض بواسطة أو بغير واسطة .

وإنْ كانت قضية الخَلْق هذه قضية غيبية ، فقد ترك الخالق فى كونه عقولاً تبحث وتنظر فى الكون ، وتعطينا الدليل على صدْق هذه القضية ، فلما حلّل العلماء طينة الأرض وجدوها ستة عشر عنصراً

تبدأ بالأكسوجين ، وتنتهى بالمنجنيز ، وحين حلّلوا عناصر الإنسان وجدوها نفس العناصر الستة عشر ، ليثبتوا بذلك البحث التحليلى صِدْق قضية الخَلْق التى أخبر عنها الخالق عز وجل .

وقوله : ﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ.. ﴿٥٥﴾﴾ [طه] هذه مرحلة مشاهدة ، فكُلُّ مَنْ يموت منّا ندفنه فى الأرض ؛ لذلك يقول الشاعر :

إنْ سَئِمْتَ الحياةَ فَارْجِعْ إلَى الأرْضِ تَنَمْ آمناً مِنَ الأوْصَابِ[1]
هِـىَ أُمٌّ أحْنَى عَلَيْكَ مِنَ الأم التـى خَلَّفَتْـكَ للإتْعَـابِ

فبعد أن تُنقض بنية الإنسان بالموت لا يسارع إلى مواراته التراب إلا أقرب الناس إليه ، فترى المرأة التى مات وحيدها ، وأحب الناس إليها ، والتى كانت لا تطيق فراقه ليلة واحدة ، لا تطيق وجوده الآن ، بل تسارع به إلى أمه الأصيلة (الأرض) .

وذلك لأن الجسد بعد أنْ فارقته الروح سرعان ما يتحول إلى جيفة لا تطاق حتى من أمه وأقرب الناس إليه ، أما الأرض فإنها تحتضنه وتمتصُّ كل ما فيه من أذى .

ومن العجائب فى نَقْض بنية الإنسان بالموت أنها تتم على عكس بنائه ، فعندما تكلم الخالق عز وجل عن الخلق الأول للإنسان قال : إنه خلق من تراب ، ومن طين ، ومن حمأ مسنون ، ومن صلصال كالفخار . وقلنا : إن هذه كلها أطوار للمادة الواحدة ، ثم بعد ذلك ينفخ الخالق فيه الروح ، فتدبّ فيه الحياة .

فإذا ما تأملنا الموت لوجدناه على عكس هذا الترتيب ، كما أنك لو

---

(١) الوصب : الوجع والمرض ، والجمع أوصاب . والوصب : دوام الوجع ولزومه . [لسان العرب ـ مادة : وصب] .

بنيتَ عمارة من عِدَّة أدوار ، فآخر الأدوار بناءً أولها هَدْماً . كذلك الموت بالنسبة للإنسان يبدأ بنزع الروح التى وُضِعَتْ فيه آخراً ، ثم يتصلّب الجسد و (يشضب) كالصلصال ثم يرِمّ ، ويُنتن كالحمأ المسنون ، ثم يتبخر ما فيه من ماء ، وتتحلل باقى العناصر ، فتصير إلى التراب .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ ﴾ [طه] أى : مرة أخرى بالبعث يوم القيامة ، وهذا الإخراج له نظام خاصّ يختلف عن الإخراج الأول ؛ لأنه سيبدأ بعودة الروح ، ثم يكتمل لها الجسد .

هذه كلها قضايا كونية تُلْقَى على فرعون علَّها تُثنيه عَمَّا هو عليه من ادّعاء الألوهية ، والألوهية تقتضى مألوهاً ، فالإله معبود له عابد ، فكيف يَدّعى الألوهية ، وليس له فى الربوبية شىء ؟ فلا يستحق الألوهية والعبادة إلا مَنْ له الربوبية أولاً ، وفى الأمثال : (اللى ياكل لقمتى يسمع كلمتى)

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ ﴾

الآيات : الأمور العجيبة ، كما نقول : فلان آية فى الذكاء ، آية فى الحسن ، آية فى الكرم . يعنى : عجيب فى بابه ، وسبق أنْ قسّمنا آيات الله إلى : آيات كونية كالشمس والقمر ، وآيات لإثبات صِدْق الرسُل ، وهى المعجزات وآيات القرآن الكريم ، والتى تسمى حاملة الأحكام .

لكن آيات الله ـ عز وجل ـ كثيرة ولا تُحصى ، فهل المراد هنا أن

فرعون رأى كل آيات الله ؟ لا ؛ لأن المراد هنا الآيات الإضافية ، وهى الآيات التسعة التى جعلها الله حُجّة لموسى وهارون ، ودليلاً على صِدْقهما ، كما قال سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ .. (١٠١) ﴾ [الإسراء]

وهى : العصا واليد والطوفان والجراد والقُمَّل[1] والضفادع والدم والسنين والنقص من الثمرات . تلك هى الآيات التى أراها الله لفرعون .

والكلية فى قوله : ﴿ آيَاتِنَا كُلَّهَا .. (٥٦) ﴾ [طه] كلية إضافية . أى : كل الآيات الخاصة به كما تقول لولدك (لقد أحضرتُ لك كل شىء) وليس المقصود أنك أتيتَ له بكل ما فى الوجود ، إنما هى كلية إضافية تعنى كل شىء تحتاج إليه .

ومع ذلك كانت النتيجة ﴿ فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ (٥٦) ﴾ [طه] كذَّب : يعنى نسبها إلى الكذب ، والكذب قَوْل لا واقعَ له ، وكان تكذيبه لموسى علَّة إبائه ﴿ وَأَبَىٰ (٥٦) ﴾ [طه] امتنع عن الإيمان بما جاء به موسى .

ولو ناقشنا فرعون فى تكذيبه لموسى عندما قال : ﴿ رَبُّنَا الَّذِى أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ (٥٠) ﴾ [طه]

لماذا كذبتَ يا فرعون ؟ الحق سبحانه قال : خلقتُ هذا الكون بما فيه ، ولم يَأْتِ أحد لينقضَ هذا القول ، أو يدَّعيه لنفسه ، حتى أنت يا مَنْ ادعيْتَ الألوهية لم تدَّعِ خَلْق شىء ، فهى - إذن - قضية مُسلَّم

---

(١) القُمَّل : حشرات صغيرة تؤذى الزرع وتضايق الناس . [القاموس القويم ٢/١٣٤] وهو ليس بقمل الرأس أو الجسد المعروف .

بها للخالق عز وجل لم ينازعه فيها أحد ، فأنت - إذن - كاذب فى تكذيبك لموسى ، وفى إبائك الإيمان به .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾﴾

عاش المصريون قديماً على ضفاف النيل ؛ لذلك يقولون : مصر هِبَة النيل ، حتى إذا ما انحسر الماء بذروا البذور وانتظروها طوال العام ، ليس لهم عمل ينشغلون به ، وهذه الحياة الرتيبة عوَّدتهم على شىء من الكسل ، إلا أنهم أحبُّوا هذا المكان ، ولو قلت لواحد منهم : اترك هذه الأرض لمدة يوم أو يومين يثور عليك ويغضب .

لذلك استغلّ فرعون ارتباط قومه بأرض مصر ، وحاول أن يستعدى هؤلاء الذين يمثّل عليهم أنه إله ، يستعديهم على موسى وهارون فقال مقولته هذه ﴿أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾﴾ [طه]

وهنا ثار القوم ، لا لألوهية فرعون المهددة ، إنما دفاعاً عن مصلحتهم الاقتصادية ، وما ينتفعون به على ضفاف هذا النيل المبارك ، الذى لا يضنّ عليهم فى فيضانه ولا فى انحساره ، فكان القوم يسمونه : ميمون الغَدَوات والروحَات ، يجرى بالزيادة والنقصان كجرْى الشمس والقمر ، له أوان .

وهكذا نقل فرعون مجال الخلاف مع موسى وهارون إلى رعيته ،

فأصبحت المسألة بين موسى وهارون وبين رعية فرعون ؛ لأنه خاف من كلام موسى وممّا يعرضه من قضايا إنْ فهمها القوم كشفوا زَيْفه ، وتنمَّروا عليه ، وثاروا على حكمه ، ورفضوا ألوهيته لهم ، فأدخلهم طرفاً فى هذا الخلاف .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ ﴾

فسمَّى فرعون ما جاء به موسى سِحْراً ؛ لذلك قال ﴿ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ .. ﴿٥٨﴾ ﴾ [طه] وهذه التسمية خاطئة فى حق موسى ، وإنْ كانت صحيحة بالنسبة لقوم فرعون . فما الفرق - إذن - بين ما جاء به موسى وما جاء به قوم فرعون ؟

السحر لا يقلب حقيقة الشىء ، بل يظل الشىء على حقيقته ، ويكون السحر للرائى ، فيرى الأشياء على غير حقيقتها ، كما قال تعالى : ﴿ سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ .. ﴿١١٦﴾ ﴾ [الأعراف] فلما ألقى السحرةُ حبالهم كانت حبالاً فى الحقيقة ، وإنْ رآها الناظر حيّات وثعابين تسعى ، أما عصا موسى فعندما ألقاها انقلبت حية حقيقية ، بدليل أنه لما رآها كذلك خاف منها .

وقوله : ﴿ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لاَّ نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلا أَنتَ .. ﴿٥٨﴾ ﴾ [طه] أى : نتفق على موعد لا يُخلفه واحد منّا ﴿ مَكَانًا سُوًى

﴿٥٨﴾ [طه] أى : مُسْتوياً ؛ لأنه سيكون مشهداً للناس جميعاً فتستوى فيه مرائى النظارة ، بحيث لا تحجب الرؤية عن أحد . أو (سُوىً) يعنى : سواء بالنسبة لنا ولك ، كما نقول : نلتقى فى منتصف الطريق ، لا أنا أتعب ولا أنت .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾﴾

معلوم أن الحدث يحتاج إلى مُحدِث له ، ويحتاج إلى مكان يقع عليه ، ويحتاج إلى زمان يحدث فيه ، وقد عرفنا المحدِث لهذا اللقاء ، وهما موسى وهارون من ناحية ، وفرعون وسحرته من ناحية .

وقد حدد فرعون المكان ، فقال ﴿مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾﴾ [طه] بقى الزمان لإتمام الحدث ؛ لذلك حدده موسى ، فقال : ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ .. ﴿٥٩﴾﴾ [طه] ؛ لأن الحدث لا يتم إلا فى زمان ومكان .

لذلك لا نقول : متى الله ولا : أين الله ؟ فالحق - تبارك وتعالى - ليس حَدَثاً ، ومتى وأين مخلوقة لله تعالى ، فكيف يحدُّه الزمان أو المكان ؟

وقول موسى ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ .. ﴿٥٩﴾﴾ [طه] ولم يقُلْ : يوم الاثنين أو الثلاثاء مثلاً ، ويوم الزينة يوم يجتمع فيه كل سُكَّان مصر ، يظهر أنه يوم وفاء النيل ، فيخرجون فى زينتهم مسرورين بفيضان النيل وكثرة خيره وبركاته ، وما زالت مصر تحتفل بهذا اليوم .

وكان القاضى لا يقضى بأمر الخراج إلا بعد أنْ يطّلع على مقياس النيل ، فإنْ رآه يُوفى برىِّ البلاد حدَّد الخراج وإلاَّ فلا .

لكن ، لماذا اختار موسى هذا اليوم بالذات ؟ لماذا لم يحدد أى يوم آخر ؟ ذلك ؛ لأن موسى ـ عليه السلام ـ كان على ثقة تامة بنصر الله له ، ويريد أن تكون فضيحة فرعون على هذا الملأ ، ووسط هذا الجمع ، فمثْل هذا التجمع فرصة لا يضيعها موسى ؛ لأن النفس فى هذا اليوم تكون مسرورة منبسطة ، فهى أقرب فى السرور لقبول الحق من أىِّ وقت آخر .

وقوله : ﴿وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى (٥٩)﴾ [طه] أى : ضاحين ، ويوم الزينة يمكن أن يكون فى الصباح الباكر ، أو فى آخر النهار ، لكن موسى متمكِّن واثق من الفوز ، يريد أن يتم هذا اللقاء فى وضح النهار ، حتى يشهده الجميع .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ (٦٠)﴾

تولى : أى : ترك موسى وانصرف ليُدبِّر شأنه ﴿فَجَمَعَ كَيْدَهُ ..(٦٠)﴾ [طه] الكيد : التدبير الخفى للخَصْم ، والتدبير الخفىّ هنا ليس دليلَ قوة ، بل دليل ضَعْف ؛ لأنه لا قوةَ له على المجابهة الواضحة ، مثل الذى يدسُّ السُّم للآخر لعدم قدرته على مواجهته .

إذن : الكيد دليل ضَعْف ؛ لذلك نفهم من قوله تعالى عن النساء : ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ (٢٨)﴾ [يوسف] أنه ليس دليلاً على قوة المرأة ، إنما دليلٌ على ضعفها ، فكما أن كيدهُنّ عظيم ، فكذلك ضعفهُن عظيم .

فمعنى ﴿فَجَمَعَ كَيْدَهُ ..(٦٠)﴾ [طه] أدار فِكْره على ألوان الكَيْد

المختلفة ، ليختار منها ما هو أنكى لخَصْمه ، كما جاء فى آية أخرى فى شأْنِ نوح عليه السلام ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ .. (٧١)﴾ [يونس]

وكأن الأمر الذى هو بصدده يتطلب وجهات نظر متعددة : نفعل كذا ، أو نفعل كذا ؟ ثم ينتهى من هذه المشاورة إلى رأْى يجمع كل الاحتمالات ، بحيث لا يفاجئه شىء بعد أنْ احتاط لكل الوجوه .

فالمعنى : اتفِقُوا على الخطة الواضحة التى تُوحِّد آراءكم عند تحقيق الهدف .

ومن ذلك قوله تعالى فى قصة يوسف عليه السلام : ﴿وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ .. (١٥)﴾ [يوسف] . أى : اتفقوا على هذا الرأى ، وأجمعوا عليه ، بعد أن قال أحدهم ﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا .. (٩)﴾ [يوسف] ، فكان الرأى النهائى أنْ يجعلوه فى غيابة الجب .

فهُمْ على أية حال سلالة نُبوة ، لم يتأصل الشرُّ فى طباعهم ؛ لذلك يتضاءل شرُّهم من القتل إلى الإلقاء فى متاهات الأرض إلى أهْوَن هذه الأخطار ، أنْ يُلْقوه فى الجُبِّ ، وهذه صفة الأخيار ، أما الأشرار الذين تأصل الشر فى نفوسهم وتعمّق ، فشرُّهم يتزايد ويتنامى ، فيقول أحدهم : أريد أنْ أقابل فلاناً ، فأبصق فى وجهه ، أو أضربه ، أو أُقطّعه ، بل رصاصة تقضى عليه فيُصعِّد ما عنده من الشر .

وبعد ذلك يرجُونَ له النجاة ، فيقولون : ﴿يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ .. (١٠)﴾ [يوسف]

ثم يقول تعالى فى شأن فرعون : ﴿ثُمَّ أَتَىٰ (٦٠)﴾ [طه] أى : أتى الموعد الذى سبق تحديده ، مكاناً وزماناً .

ثم يُحدِّثنا الحق سبحانه عن وقائع هذا اليوم ، فيقول :

﴿ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ (٦١) ﴾ (١)

لما رأى موسى السحرة أراد أنْ يُحذِّرهم ممَّا هم مُقبلون عليه ، وأنْ يعطيهم المناهى التى تمنعهم ، فذكَّرهم بأنَ لهم رباً سيحاسبهم كما تقول لشخص ، تراه مُقْدماً على جريمة ، لو فعلتَ كذا سأُبلغ عنك الشرطة ، وستُعاقب بكذا وكذا ، وتُذكّره بعاقبة جريمته .

﴿ لا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّه كَذبًا .. (٦١) ﴾ [طه] افترى أى : جاء بالفرْية ، وهى تعمُّد الكذب ﴿ فَيُسْحِتَكُم بِعَذَاب .. (٦١) ﴾ [طه] يعنى : يستأصلكم بعذاب الدنيا قبل عذاب الآخرة ﴿ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ (٦١) ﴾ [طه] أى : خسر .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ (٦٢) ﴾

يبدو أن تخويفَ موسى لهم بقوله : ﴿ وَيْلَكُمْ لا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّه كَذبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ .. (٦١) ﴾ [طه] قد أثَّر فيهم وأخافهم ﴿ فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم .. (٦٢) ﴾ [طه] أخذوا يتساومون القَوْل ويتبادلون الآراء .

﴿ وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ (٦٢) ﴾ [طه] تحدثوا سِراً ، وهذا دليل خوفهم من كلام موسى ، ودليل ما فيهم من استعداد للخير ، لكن انتهى رأيهم إلى الاستمرار فى الشوط إلى آخره .

---

(١) يسحتكم : يهلككم ويستأصلكم . [القاموس القويم ١/٣٠٤] .

﴿قَالُوٓاْ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾﴾

توقف العلماء طويلاً حول هذه الآية ، لأن فيها قراءتين[1] (إنْ هذان) بسكون (إنْ) والأخرى (إنَّ هذان) بالتشديد .

والقراءة التى نحن عليها قراءة حفص ﴿إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ .. ﴿٦٣﴾﴾ [طه] و (إنْ) شرطية إنْ دخلت على الفعل ، كما نقول : إنْ زارنى زيد أكرمته ، وتأتى نافية بمعنى ما ، كما فى قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلاَّ اللاَّئِى وَلَدْنَهُمْ .. ﴿٢﴾﴾ [المجادلة]

فالمعنى : ما أمهاتهم إلا اللائى وَلَدْنهم . كذلك فى قوله تعالى : ﴿إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ .. ﴿٦٣﴾﴾ [طه] فالمعنى : ما هذان إلا ساحران ، فتكون اللام فى ﴿لَسَاحِرَانِ .. ﴿٦٣﴾﴾ [طه] بمعنى إلا . كأنك قُلْتَ : ما هذان إلا ساحران .

وتأتى اللام بمعنى إلا ، إذا اختلفنا مثلاً على شىء ، كل واحد منّا يدَّعيه لنفسه ، فيأتى الحكم يقول : لَزَيدٌ أحقُّ به ، كأنه قال : مَا هذا الشىء إلا لزيد . إذن : اللام تأتى بمعنى إلا .

وعلى القراءة الثانية بالتشديد (إنَّ هذان لساحران) فإنَّ حرف ناسخ ينصب المبتدأ ويرفع الخبر ، تقول : إنَّ زيداً مجتهدٌ ، أما فى الآية بهذه القراءة : (إنّ هذان لساحران) جاء اسم إنَّ هذان بالرفع

---

(١) هناك قراءة ثالثة أوردها القرطبى فى تفسيره (٦/٤٣٨٩) قال : « قرأ أبو عمرو « إن هذين لساحران » ورويت عن عثمان وعائشة رضى الله عنهما وغيرهما من الصحابة وكذلك قرأ الحسن وسعيد بن جبير وإبراهيم النخعى وغيرهم من التابعين ، ومن القراء عيسى بن عمر وعاصم الجحدرى ، فيما ذكر النحاس . وهذه القراءة موافقة للإعراب مخالفة للمصحف » .

بالألف ؛ لأنه مثنى ، والقاعدة تقتضى أن نقول (هذين) .

فكيف يتم توجيه إنَّ المشددة الناسخة وبعدها الاسم مرفوع ؟

قالوا : هذه لغة كنانة إحدى قبائل العرب ، وكان لكل قبيلة لهجتها الخاصة ولغتها المشهورة فيقولون : جعجعة خزاعة ، وطُمْطُمانيّة حِمْيَر[١] ، وتَلْتلة بَهْراء[٢] ، وفحفحة هذيل .. الخ .

ولما نزل القرآن نزل على جمهرة اللغة القرشية ؛ لأن لغات العرب جميعها كانت تصبُّ فى لغة قريش فى مواسم الحج والشعر والتجارة وغيرها ، فكانت لغة قريش هى السائدة بين لغات كل هذه القبائل ؛ لذلك نزل بها القرآن ، لكن الحق تبارك وتعالى أراد أن يكون للقبائل الأخرى نصيب ، فجاءت بعض ألفاظ القرآن على لهجات العرب المختلفة للدلالة على أن القرآن ليس لقريش وحدها ، ليجعل لها السيادة على العرب ، وإنما جاء للجميع .

ومن لهجات القبائل التى نزل بها القرآن لهجة كنانة التى تلزم المثنى الألف فى كل أحواله رَفْعاً ونَصْباً وجراً[٣] . وشاهدهم فى كتب النحو قول شاعرهم[٤] :

---

(١) الطمطمة : العُجْمة . ورجل طمْطم بالكسر ، أى : فى لسانه عُجمة لا يُفصح . وفى صفة قريش : ليس فيهم طُمْطمانية حمير ، شبَّه كلام حمير لما فيه من الألفاظ المنكرة بكلام العجم . [لسان العرب ـ مادة : طمطم] .

(٢) تلتلة بهراء : كسرهم تاء تِفْعلون يقولون : تِعْلمون وتِشْهدون ونحوه . [لسان العرب ـ مادة : تلل] .

(٣) هذا هو القول الأول من الأقوال الستة التى ذكرها القرطبى فى تفسيره (٦/ ٤٣٩٠) لتوجيه قراءة « إنَّ هذان لساحران » وقال : هى لغة بنى الحارث بن كعب وزبيد وخثعم وكنانة بن زيد . وقال أبو جعفر النحاس : هذا القول من أحسن ما حملت عليه الآية ، إذ كانت هذه اللغة معروفة ، وقد حكاها من يرتضى علمه وأمانته .

(٤) نُسب هذا الشاهد لرؤبة بن العجاج ، ونسبه آخرون لأبى النجم الفضل بن قدامة العجلى ، وقيل : لبعض أهل اليمن . وانظر شرح شواهد ابن عقيل (ص ٧) ، وشرح شذور الذهب لابن هشام الأنصارى ، تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد (ص ٦٨) .

وَاهَـاً لسلْمى ثُمَّ وَاهاً وَاهَا ... يَا ليْـتَ عَيْنَـاهَا لَنَـا وَافَـاهَا
هـيَ المُنَى لَوْ أَنَّنَا نلْنَـاهَا ... ومَوْضع الخُلْخال من قَدمَاهَا
إنَّ أَبَاهَـا وأَبَـا أَبَـاهَـا ... قَـدْ بلغَـا فـى المجْد غَايتَاهَا

فقال : إنَّ أباها . ولم يقل : إنَّ أبيها ؛ لأنه يُلزِم المثنى الألف .

إذن : لم ينزل القرآن بلغة قريش على أنها لغة سيادة ، وإنما لأنها تنطوى على زُبْدة فصاحات لغات الجزيرة كلها ، وكانت لغة قريش تصفَّى فى مواسم الشعر والأدب فى عكاظ وذى المجنّة وغيرها .

نعود إلى قول الحق تبارك وتعالى : ﴿قَالُوا إِنْ هَـٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا .. (٦٣)﴾ [طه] ويبدو أن استعداء فرعون لقومه على موسى وهارون جاء بنتيجة ونالتْ حيلته من نفوسهم ؛ لذلك يُردِّدون نفس كلام المعلم الكبير فرعون ، فيتهمون موسى وهارون بالسحر .

وقولهم : ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ (٦٣)﴾ [طه] طريقتهم المثلى . أى : ما ارتضاه القوم للعيش عليه ، والمذهب والطريق الذى سلكوه . والمراد بالطريقة المثلى التى ساروا عليها أنهم اتخذوا واحداً منهم إلهاً يعبدونه ويأتمرون بأمره ، تلك هى الطريقة المثلى[1] !! والمثلى : أى الفاضلة مُذكّرها أمثل .

﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ (٦٤)﴾

---

(١) وقد قال تعالى عن فرعون أنه قال : ﴿إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ (٢٦)﴾ [غافر] . وقال فى آية أخرى : ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ (٢٩)﴾ [غافر] .

أى : تنبهوا واشحذوا كل أذهانكم ، وكل فنونكم ، وحركاتكم فى السحر حتى لا يتمكنا من هذين الأمرين : إخراجكم من أرضكم ، والقضاء على طريقتكم المثلى .

وهذا قَوْل بعضهم لبعض ﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ .. (٦٤)﴾ [طه] فلا يُخفى أحد فناً من فنون السحر ، وليُقدّم كُلٌّ منّا ما عنده ؛ لأن عادة أهلَ الحِرَف أن يوجد بينهم تحاسد ، فلا يُظهر الواحد منهم كل ما عنده مرة واحدة ، أو يحاول أنْ يُخفى ما عنده حتى لا يطلع عليه الآخر ، لكن فى مثل هذا الموقف لا بُدَّ لهم من تضافر الجهود فالموقف حرِج ستعمُّ بلواه الجميع إنْ فشلنا فى هذه المهمة .

وقوله : ﴿ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا .. (٦٤)﴾ [طه] يعنى : مجتمعين كأنكم يد واحدة ، فهذا أهْيَبُ لكم وأدْخَلُ للرعب فى قلوب خصمكم ، كما أننا إذا جِئْنَا سوياً لم يتمكن أحد من التراجع ، فيكون بعضنا رقيباً على بعض .

﴿وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ (٦٤)﴾ [طه] أفلح : فاز ، كما فى قوله تعالى : ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١)﴾ [المؤمنون] وهذا اللفظ مأخوذ من فلح الأرض ومنه الفلاحة ؛ لأن الفلاح إذا شقَّ الأرض أو حرثَها ورعاها تعطيه خيرها ، فحركتُه فيها حركة ميمونة مباركة .

لذلك ، لما أراد الحق ـ تبارك وتعالى ـ أن يُبيِّن لنا مضاعفة الأجر والثواب على الصدقة وعلى فعل الخير ضرب لنا مثلاً بالزرع ، فقال تعالى : ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦١)﴾ [البقرة]

فإذا كانت الأرض وهى مخلوقة لله تعالى تعطى كل هذا العطاء ،

فما بالك بعطاء الخالق لهذه الأرض ؟ لذلك عقب المثل بقوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ .. (٢٦١) ﴾ [البقرة]

ثم أُخِذَتْ كلمة الفلاح عَلَماً على كل فلاح ، ولو لم يكن فيه صلَة بالأرض ؛ لأن قصارى كل حركات الحياة أن تضمن للإنسان بقاء نَوْعه بالأكل ، والأرض مصدر هذا كله ، فكانت لذلك مصدراً للفوز .

وقوله . ﴿ مَنِ اسْتَعْلَىٰ (٦٤) ﴾ [طه] أى : طلب العُلو على خَصْمه . لكن هل الفلاَح يكون لمن طلب العلو أم لمن علا بالفعل ؟ طبعاً يكون لمن علا ، إذن : مَنْ عَلاَ بالفعل لا بُدَّ أنْ يشحذَ ذهْنه على أن يطلب العلو على خصمه ، فمهما علا الخصم استعلى عليه أى : طلب العُلو ، إذن : قبل علا استعلى .

ثم يقول الحق سبحانه عن السحرة :

﴿ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ (٦٥) ﴾

تُلْقى : ترمى . والمراد أن يرمى واحد منهم ما أعدّه من سحر ، فاختار موسى أنْ يُلْقُوا هم أولاً .

﴿ قَالَ بَلْ أَلْقُوا ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ (٦٦) ﴾

لأنهم إنْ ألقوا سِحْرهم كانت للعصا مهمة حين يلقيها موسى ، فأراد أن يكون للعصا حركة بعد أن تنقلب إلى ثعبان أو حية أو جان ، وإلا لو ألقى هو أولاً ، فماذا سيكون عملها ؟

وقد ألهم الله تعالى سحرة فرعون هذا الأدب فى معركتهم مع

موسى ، فخيَّروه بين أنْ يلقى هو ، أو يلقوا هُمْ ، والله ـ تبارك وتعالى ـ يحُول بين المرء وقلبه ، فألهمهم ذلك مع أنهم خصومه ، وأنطقهم بما يؤيد صاحب المعجزة الخالدة ، فقالوا : ﴿إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾﴾ [طه]

وقد اختار موسى ـ عليه السلام ـ أنْ يُلقى أخيراً ؛ لأن التجربة التى مَرَّ بها فى طوى مع ربه ـ عز وجل ـ لما قال له ربه : ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَـٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾ [طه]

فلما ألقى موسى عصاه انقلبتْ إلى حيَّة تسعى ورأى هو حركتها ، لكن لم يكُنْ بهذه التجربة شىء تلقفه العصا ، فإذا ألقى موسى أولاً وتحوَّلَتْ العصا حية أو ثعباناً ، فما الفرق بينها وبين حبال السحرة التى تحولتْ أمامهم إلى حيَّات وثعابين ؟

إذن : لا بُدَّ من شىء يُميِّز عصا موسى كمعجزة عن سِحْر السحرة وشعوذتهم ؛ لذلك اختار موسى أنْ يُلقى هو آخراً بإلهام من الله حتى تلقف عصاه ما يأفكون ، فما يُلقَف لا بُدَّ أن يسبق ما يَلْقُف .

فمن حيث الحركة أمام الناظرين لا فَرْقَ بين عصا موسى وحبال السحرة وعِصيهم ، فكلها تتحرك ، إنما تميزت عصا موسى بأنها تلقف ما يصنَعون من السحر ، وتتتبع حبالهم وعِصيَّهم ، وتقفز هنا وهناك ، فلها ـ إذن ـ عَيْن تبصر ، ثم تلقف سِحرهم فى جوفها ، ومع ذلك تظل كما هى لا تنتفخ بطنها مثلاً ، وهذا هو موضع المعجزة فى عصا موسى عليه السلام[1] .

---

(١) قال محمد بن إسحاق : جعلت ـ العصا ـ تتبع تلك الحبال والعصى واحدة واحدة ، حتى ما يرى بالوادى قليل ولا كثير مما ألقوا ، ثم أخذها موسى فإذا هى عصا فى يده كما كانت . ذكره ابن كثير فى تفسيره (٢/٢٣٧) .

وقوله تعالى : ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ (٦٦)﴾ [طه] إذن : فحركة العصىّ والحبال ليستْ حركة حقيقية ، إنما هى تخيُّل ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ .. (٦٦)﴾ [طه] فيراها تسعى ، وهى ليست كذلك .

وقد قال تعالى عن هؤلاء السحرة : ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ .. (١١٦)﴾ [الأعراف] فجاءوا بأعمال تخيُّلية خادعة بأىٍّ وسيلة كانت ، فالبعض يقول مثلاً : إنهم وضعوا بها الزئبق ، فلما حَمِيَتْ عليه الشمس تمدّد ، فصارتْ الأشياء تتلوّى وتتحرك ، فأياً كانت وسائلهم فهى مجرد تخيُّلات ، أمَّا الساحر نفسه فيراها حبَالاً على حقيقتها . وهذا هو الفرق بين سِحْر السحرة ، ومعجزة عصا موسى .

والسحر يختلف عن الحيَل التى تعتمد على خفَّة الحركة والألاعيب والخُدَع ، فالسحر أقرب ما يكون إلى الحقيقة فى نظر الرائى ، كما قال تعالى : ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ .. (١٠٢)﴾ [البقرة]

إذن : هو فَنٌّ يُتعلم ، يعطى التخييل بواسطة تسخير الجنِّ ، فهم الذين يقومون بكل هذه الحركات ، فهى - إذن - ليستْ حيلاً ولا خفة حركة ، إنما هى عملية لها أصول وقواعد تُدرَّس وتُتعلَّم .

والخالق - عز وجل - حينما يعرض علينا قضية السحر ، وأنه عبارة عن تَسخير الشياطين لخدمة الساحر ، ويجعل لكل منهما القدرة على مضرّة الآخرين : الساحر بالسحر ، والشياطين بما لديهم من قوة التشكّل فى الأشكال المختلفة والنفاذ من الحواجز ؛ لأن الجن خُلِقُوا من النار ، والنار لها شفافية تنفذ خلال الجدار مثلاً .

أما الإنسان فَخُلِق من الطين ، والطين له كثافة ، وضربنا مثلاً

لنقرب هذه المسألة ، قلنا : هَبْ أنك تجلس خلف جدار ، ووراء هذا الجدار تفاحة مثلاً وهى من الطينية المتجمدة ، أيصل إليك من التفاحة شىء ؟ إنما لو خلف الجدار نار فسوف تشعر من خلال الجدار بحرارتها . هذه ـ إذن ـ خصوصيات جعلها الخالق عز وجل للشياطين فضلاً عن أنهم يرونكُم من حيث لا ترونهم .

لكن ، كان من لُطْف القدير بنا أن جعل لنا ما يحمينا من الشياطين ، فجعل الحق ـ تبارك وتعالى ـ الجن حين يتشكَّلون فى الأشكال المختلفة تحكمهم هذه الأشكال ، بمعنى لو أن الشيطان تشكّل لك فى صورة إنسان فقد حكمتْه هذه الصورة ، فلو أطلقتَ عليه الرصاص فى هذه اللحظة لقتلتَه فعلاً .

لذلك ؛ فالشيطان يخاف منك أكثر مما تخاف منه ، ولا يظهرون لنا إلا ومضة ولمحة سريعة خَوْفاً أن يكون الرائى له على عِلْم بهذه المسألة فيمسك به وساعتها لن يفلت منك .

وقد أمسك النبى ﷺ شيطاناً وقال[1] : « لقد هممت أن أربطه بسارية المسجد ، يلعب به غلمان المدينة ، إلا أننى ذكرت دعوة أخى سليمان ﴿هَبْ لِي مُلْكًا لاَّ يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي .. (٣٥)﴾ [ص] » .

إذن : الحق سبحانه أعطاهم خصوصية التشكّل كما يحبون ، إنما قيدهم بما يتشكّلون به ، كأنه يقول له : إذا تركتَ طبيعتك وتشكَّلْت بصورة أخرى فارْضَ بأنْ تحكمك هذه الصورة ، وأن يتحكم فيك

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٤٢٣) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٥٤١) كتاب المساجد من حديث أبى هريرة رضى الله عنه . وتمامه : « إن عفريتاً من الجن تفلت علىَّ البارحة ليقطع علىَّ صلاتى ، فأمكننى الله منه فأخذته فأردت أن أربطه على سارية من سوارى المسجد حتى تنظروا إليه كلكم فذكرت دعوة أخى سليمان (رب هب لى ملكاً لا ينبغى لأحد من بعدى) » .

الأضعف منك ، وإلا لَفزَّعوا الناس وأرهبوهم ، ولم نسلم من شَرِّهم .

وكذلك الحال مع الساحر نفسه ، فلديه بالسحر والطلاسم أن يُسخِّر الجن يفعلون له ما يريد ، وهذه خصوصية تفوق بها قدرتُه قدرةَ الآخرين ، ولديه بالسحر فُرْصة لا تتوفر لغيره من عامة الناس ، فليس بينه وبينهم تكافؤ فى الفُرص .

والله عز وجل يريد لخَلْقه أنْ تتكافأ فُرَصهم فى حركة الحياة فيقول للساحر : إياك أن تفهم أن ما يسَّرته لك من تسخير الأقوى منك ليقدر على ما لا تقدر عليه يفيدك بشىء ، أو أنك أخذتَ بالسحر فرصةً على غيرك ، بل العكس هو الصحيح فلن تجنىَ من سِحْرك إلا الضرر والشقاء ، فالسحر فتنة للإنسان ، كما أنه فتنة للجن .

لذلك يقول تعالى : ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ .. (١٠٢)﴾ [البقرة]

والفتنة هنا معناها أن نختبر استعماله لمدى مَا أعدَّه الله له ، أيستعمله فى الخير أم فى الشر ؟ فإنْ قُلْتَ : أَتَعلَّم السحر لأستعمله فى الخير . نقول : هذا كلامك ساعة التحمُّل ، ولا تضمن نفسك ساعة الأداء . كما قلنا سابقاً فى تحمُّل الأمانة حين تقبلها ساعة التحمل ، وأنت واثق من قدرتك على أدائها فى وقتها ، ومطمئنٌ إلى سلامة نيتك فى تحمُّلها ، أما وقت الأداء فربما يطرأ عليك ما يُغيِّر نيتك .

وكما جاء فى قول الحق تبارك وتعالى : ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً (٧٢)﴾ [الأحزاب]

فاختـرْنَ التسخيـر على الاختيار وحَمْل الأمـانة ؛ لأنهن لا يضمَنَّ القيام بها .

وقد أعذر الله تعالى إلى السحرة فى قوله : ﴿ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ .. (١٠٢) ﴾ [البقرة]

كأن الساحر مآله إلى الكفـر ؛ لأنه ابن أهواء وأغيار ، لا يستطيع أن يتحكّم فى نفسه فيُسخِّر قوة السحر فى الخير ، كما أن الله تعالى إذا أراد أن يُسخِّر القوى للخير : أيُسخِّر الطائع ؟ أم يُسخِّر العاصى ؟ سيُسخِّر الطائع ، والجن الطائع لا يرضى أبداً بهذه المسألة .

إذن : لن يستطيع السـاحر إلا تسخـير الجن العاصى ، كمـا قال تعالى : ﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ .. (١٢١) ﴾ [الأنعام]

لذلك تلاحظ أن كل الذين يشـتغلـون بهذه العـملية على سَـمْتـهم الغضب ، وعلى سحنتهم آثار الذنوب وشُؤْمها ، ينفر منهم مَنْ رآهم ، يعيـشون فى أضـيق صور العـيش ، فتـرى الساحر يأخـذ من هذا ، ويأخذ من هذا ، ويبتز الناس ويخدعهم ، ومع ذلك تراه شحاذاً يعيش فى ضيق ، ويموت كافراً مُبْعَداً من رحمة الله حتى أولاده من بعده لا يَسْلَمون من شُؤْمه ، وصـدق الله العظيم حين قال : ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ[1] بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا (٦) ﴾ [الجن]

كما أن فـى حياة السحـرة لفتة ، يجب أن نلتفت إليـها ، وهى أن السـحـرة الـذين يصنعـون السـحـر للناس ويخـدعـونهم : من أين يرتزقون ؟ من عـامة الناس الذين لا يفهمـون فى السحر شيـئاً ، ولو

---

(١) قال السدى : كان الرجل يخرج بأهله فيأتى الأرض فينزلها فيقول : أعوذ بسيد هذا الوادى من الجن أن أُضَـرّ أنا فيـه أو مـالى أو ولدى أو ماشـيـتى . قال ابن كـثـير فى تفـسيـره (٤/٤٢٨) : « فلمـا رأت الجن أن الإنس يعـوذون بهم من خوفـهم منهم زادوهم رهقـاً أى خوفاً وإرهاباً وذعراً حتى بقوا أشد منهم مخافة وأكثر تعوذاً بهم » .

أنه أفلح بالسحر لأغنى نفسه عن أنْ تمتد يده إلى هذا ، فيأخذ منه عدة جنيهات ، وإلى هذا يطلب منه أشياء غريبة يُوهمه أن مسألته لن تُحَلّ إلا بها .

ولماذا لم يستخدم سحره فى سرقة خزينة مثلاً ويريح نفسه من هذا العناء ، وإنْ قال : كيف وهى أموال الناس والسطو عليها سرقة ، فليذهب إلى الرِّكاز[1] وكنوز الأرض فليست مملوكة لأحد .

نعود إلى سحرة فرعون ؛ أياً كان سحرهم أمِنْ نوع الألاعيب وخِفّة الحركة وخداع الناظرين ؟ أم من نوع السحر الذى علّمته الشياطين من زمن سليمان ـ عليه السلام ـ فهو سحر لن يقف أمام معجزة باهرة جاءت على يد موسى لإثبات صدقه .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ ﴾

أوجس : من الإيجاس ، وهو تحرّك شىء مخيف فى القلب لا يتعدّى إلى الجوارح ، فإنْ تعدى إلى الجوارح يتحول إلى عمل نزوعى ، كأن يهرب أو يجرى ، فالعمل النزوعى يأتى بعد الإحساس الوجدانى ؛ لذلك يقول بعدها : ﴿ فِي نَفْسِهِ .. ﴿٦٧﴾ ﴾ [طه]

وقد شعر موسى عليه السلام بالخوف لما رأى حبال السحرة وعِصيّهم تتحول أمام النظارة إلى حيَّات وثعابين ، وربما اكتفى

---

(١) الركاز : ما فى الأرض من المعادن فى حالتها الطبيعية . [المعجم الوجيز ـ مادة : ركز] وذهب أحمد بن حنبل إلى أنه كل ما خرج من الأرض مما يخلق فيها من غيرها ، مما له قيمة مثل : الذهب والفضة والحديد والنحاس والقار والنفط ونحو ذلك . ودليل وجوب الزكاة فى الركاز قوله ﷺ : « فى الركاز الخمس » أى ٢٠٪ راجع : فقه السنة (١/ ٣٥٤ – ٣٥٧) .

المشاهدون بما رأوْه فهرجوا عليه وأنهوا الموقف على هذا قبل أنْ يتمكّن هو من عمل شيء . فإنْ قُلْت : فلماذا لم يُلْقِ عصاه وتنتهى المسألة ؟ نقول : لأن أوامره من الله أولاً بأول ، وهو معه يتتبعه سماعاً ورؤية ، فتأتيه التعاليم جديدة مباشرة .

﴿ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ (٦٨) ﴾

هذا حكم لله عز وجل يأتى موسى على هيئة برقية مختصرة ﴿ أَنتَ الْأَعْلَىٰ (٦٨) ﴾[طه] أنت المنصور الفائز فاطمئن ، لكن تتحرك فى موسى بشريته : منصور كيف ؟

وهنا يأتيه الأمر العملى التنفيذى بعد هذا الوعد النظرى ، وكأن الحق سبحانه متتبع لكل حركات نبيه موسى ، ولم يتركه يباشر هذه المسألة وحده ، إنما كان معه يسمع ويرى ، فيردُّ على السماع بما يناسبه ، ويردُّ على الرؤية بما يناسبها . ودائماً يرهف النبى سمعه وقلبه إلى ما يُلْقى عليه من توجيهات ربه عز وجل ؛ لذلك خاطبه ربه بقوله : ﴿ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ (٤٦) ﴾ [طه]

فسيأتيك الرد المناسب فى حينه . إذن : الحق سبحانه لم يخبر موسى بمهمته مع فرعون ثم تركه يباشرها بنفسه ، وإنما تمَّتْ هذه المسألة بتوجيهات مباشرة من الله تعالى .

﴿ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ (٦٩) ﴾

وهذا أصل المعجزة فى عصا موسى ، أن تلقف وتبتلع ما يأفكون من السحر وكلمة ﴿ تَلْقَفْ .. (٦٩) ﴾ [طه] تعطيك الصورة الحركية السريعة التى تُشبه لمح البصر ، تقول : تلقفتُه يعنى أخذتُه بسرعة

وشدة ، وهـذه هى العلّة فى العصـا أن تلقف ما صنعـوا من السـحر ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ .. (٦٩)﴾ [طه] والكَيْد : التدبيـر الخفىّ للتغلُّب على الخَصْم ، لكن ماذا يفعل كَيْد الساحر وألاعـيبه وتلفيقه أمام قدرة الرب تبارك وتعالى ؟

ثم يقول تعالى : ﴿وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ (٦٩)﴾ [طه] سبق أنْ تكلّمنا فى مسـألة فَلاَح السـاحر ، وأنه مـهـما أُوتى من قـدرة على تسخير الجن لعمل شىء فوق طاقة الإنس ، فلن يعطيه ذلك مَيْزةً على غيره ، ولن تكون له قدرة على شىء .

فإياكم أن تظنوا أن الله تعـالى ملَّك مصالحكم لهؤلاء ، صـحيح هو يفعل ، أما الإصابة والأذى فبإذن الله وتحت عنايته : ﴿وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ .. (١٠٢)﴾ [البقرة] وهذه القـضيـة لا تنسـحب على الساحر فحسب ، إنما على الوجود كله ، وإلى أنْ تقوم الساعة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ (٧٠)﴾

قال الـزجاج[1] فى هذا المـوقف : عجـيب أمر هؤلاء ، فـقد ألقـوا حبـالهم وعِصـيّهم للكفر والجـحود ، فـإذا بهم يُلْقُون أنفسـهم للشكر والسجود .

نعم ، لقد دخلوا كـافرين فجـرة فخرجـوا مؤمنين بررة[2] ، لأنهم

---

(١) هو : إبراهيم بن السرى بن سهل أبو إسحاق الـزجاج ، عالم بالنحو واللغة ، ولد ٢٤١ هـ ومات فى بغداد ٣١١ هـ ، كان فى فتوته يخرط الزجاج ومال إلى النحو ، أدَّب القاسم ولد عبيد الله بن سليمان وزير المعتضد العباسى . [الأعلام للزركلى ١/ ٤٠]

(٢) قال ابن عباس وعبيد بن عميـر : كانوا أول النهار سحرة ، وفى آخر النهار شهداء بررة . [أورده ابن كثير فى تفسيره ٣/ ١٥٨] .

جاءوا بكل ما لديهم من الكَيْد ، وجمعوا صَفْوة السحر وأساتذته ممنْ يَعْلمون السحر جيداً ، ولا تنطلى عليهم حركات السحرة وألاعيبهم ، فلما رأَوا العصا وما فعلتْ بسحرهم لم يخالطهم شكٌّ فى أنها معجزة بعيدة عَمّا يصنعونه من السحر ؛ لذلك سارعوا ولم يترددوا فى إعلان إيمانهم بموسى وهارون .

وهذا يدلُّنا على أن الفطرة الإيمانية فى النفس قد تطمسها الأهواء ، فإذا ما تيقظتْ الفطرة الإيمانية وأُزيلَتْ عنها الغشاوة سارعتْ إلى الإيمان وتأثرتْ به .

لقد سارع السحرة إلى الإيمان ، وكان له هَوىً فى نفوسهم ، بدليل أنهم سيقولون فيما بعد : ﴿وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ.. (٧٣)﴾[طه] فكانوا مكرهين ، كانوا أيضاً مُسخَّرين ، بدليل قولهم : ﴿.. إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (١١٣)﴾ [الأعراف]

كأنهم كانوا لا يأخذون على السحر أجراً ، فلما كانت هذه المهمة صعبة طلبوا عليها أجراً ، فهى معركة تتوقف عليها مكانته بين قومه ، أما ممارستهم للسحر إرهاباً للناس وتخويفاً لمن تُسوِّل له نفسه الخروج والتمرد على فرعون ، فكان سُخْرة ، لا يتقاضَوْن عليه أجراً .

لذلك لم يعارض فرعون سحرته فى طلبهم ، بل زادهم منحة أخرى ﴿وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (١١٤)﴾ [الأعراف] فسوف تكونون سدنة الفرعونية ، يريد أنْ يشحن هِمَمهم ، ويشحذَ عزائمهم ، حتى لا يدخروا وُسْعاً فى فَنِّ السحر فى هذه المعركة .

إذن : فطباعهم وفطرتهم تأبى هذا الفعل ، وتعلم أنه كَذب

وتلفيق ، لكن ماذا يفعلون وكبيرهم يأمرهم به ، بل ويُكرههم عليه ، ويلزمهم أنْ يُعلِّموا غيرهم[1] ، لماذا ؟ لأن السحر والشعوذة والتلفيق هى رأس ماله وبضاعته التى يسعى إلى ترويجها ، فعليها يقوم مُلْكه وتُبْنى ألوهيته .

وقوله تعالى : ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا ..(٧٠)﴾ [طه] فَرْق بين ﴿فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ .. (٤٤)﴾ [الشعراء] وهذا منهم عمل اختيارى ، وبين ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا ..(٧٠)﴾ [طه] : يعنى على غير اختيارهم وعلى غير إرادتهم ، كأن صَوْلة الحق فاجأتْ صحوة الفطرة ، فلم يملكوا إلا أنْ خرُّوا لله ساجدين ، فالإلقاء هنا عمل تلقائى دون تفكير منهم ودون شعور ، فقد فاجأهم الحق الواضح والمعجزة الباهرة فى عصا موسى ، لأنها ليستْ سِحْراً فهم أعلم الناس بالسحر .

ونلحظ فى هذه الآية أنها جاءت بصيغة الجمع : أُلقى السحرةُ ، قالوا ، آمنا . لتدل على أنهم كانوا يَداً واحدة لم يشذْ منهم واحد ، مما يدل على أنهم كانوا مكرهين مُسخَّرين .

كما أن إعلان إيمانهم جاء بالفعل المرئى المشاهد للجميع ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا ..(٧٠)﴾ [طه] ، ثم بالقول المسموع ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ (٧٠)﴾ [طه] وفى آية أخرى : ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٧) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ (٤٨)﴾ [الشعراء]

ونعلم أن موسى ـ عليه السلام ـ هو الأصل ، ثم أُرسِل معه أخوه هارون ، ولما عرضَ القرآن موقف السحرة مع موسى حكى

---

(١) أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ .. (٧٣)﴾ [طه] قال : أخذ فرعون أربعين غلاماً من بنى إسرائيل فأمر أن يعلموا السحر بالعوماء ، وقال : علموهم تعليماً لا يغلبهم أحد فى الأرض . أورده السيوطى فى [الدر المنثور ٥/٥٨٧] .

قولهم : ﴿آمَنَّا بِرَبِّ هَـٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾﴾ [طه] وقولهم : ﴿آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [الشعراء]

لذلك كانت هذه المسألة مثارَ جَدَل من خصوم الإسلام ، يقولون : ماذا قال السحرة بالضبط ؟ أقالوا الأولى أم الثانية ؟

ولك أن تتصور جمهرة السحرة الذين حضروا هذه المعركة ، فكان رؤساؤهم وصفوتهم سبعين ساحراً ، فما بالك بالمرؤوسين ؟ إذن : هم كثيرون[1] ، فهل يُعقل مع هذه الكثرة وهذه الجمهرة أن يتحدوا فى الحركة وفى القول ؟ أم يكون لكل منهم انفعاله الخاص على حَسْب مداركه الإيمانية ؟

لا شكَّ أنهم لم يتفقوا على قول واحد ، فمنهم مَنْ قال ﴿آمَنَّا بِرَبِّ هَـٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾﴾ [طه] وآخرون قالوا : ﴿آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [الشعراء]

كذلك كان منهم سطحىّ العبارة ، فقال ﴿آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [الشعراء] ولم يفطن إلى أن فرعون قد ادّعى الألوهية وقال أنا ربكم الأعلى فربما يُفهم من قوله ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [الشعراء] أنه فرعون ، فهو الذى ربّى موسى وهو صغير .

وآخر قد فطن إلى هذه المسألة ، فكان أدقَّ فى التعبير ، وأبعد موسى عن هذه الشبهة ، فقال : ﴿آمَنَّا بِرَبِّ هَـٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾﴾ [طه] وجاء أولاً بهارُون الذى لا علاقة لفرعون بتربيته ، ولا فضل له عليه ، ثم جاء بعده بموسى .

---

(١) اختُلف فى عدد السحرة . قال محمد بن كعب : كانوا ثمانين ألفاً . وقال القاسم بن أبى بَرة : كانوا سبعين ألفاً . وقال السدى : بضعة وثلاثين ألفاً وقال كعب الأحبار : كانوا اثنى عشر ألفاً . وعن ابن عباس : كانت السحرة سبعين رجلاً . [أورد هذه الأقوال ابن كثير فى تفسيره (٣/١٥٨)] .

إذن : هذه أقوال متعددة ولقطات مختلفة لمجتمع جماهيرى لا تنضبط حركاته ، ولا تتفق تعبيراته ، وقد حكاها القرآن كما كانت فليس لأحد بعد ذلك أن يقول : إنْ كان القول الأول صحيحاً ، فالقول الآخر خطأ أو العكس .

وما أشبه هذا الموقف الآن بمباراة رياضية يشهدها الآلاف ويُعلِّقون عليها ، تُرى أتتفق تعبيراتهم فى وصف هذه المباراة ؟

نقول : إذن ، تعددت اللقطات وتعددت الأقوال للقصة الواحدة لينقل لنا القرآن كل ما حدث .

ثم يقص الحق سبحانه رد فعل فرعون على ما حدث ، فيقول :

﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ ﴾

طبيعى أن يشتاط فرعون غضباً بعدما سمعه من سحرته ، فقد جمعهم لينصروه فإذا بهم يخذلونه ، بل ويُقوِّضون عرشه من أساسه فيؤمنون بإله غيره ، ويا ليتهم لما خذلوه سكتوا ، إنما يعلنونها صريحة عالية مدوية : ﴿آمَنَّا بِرَبِّ هَـٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾﴾ [طه]

﴿قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ .. ﴿٧١﴾﴾ [طه] فمع الخيبة التى مُنى بها ما يزال يتمسك بفرعونيته وألوهيته ، ويهرب من الاستخزاء الذى حاق به ، يريد أن يعطى للقوم صورة المتماسك الذى لم تُؤثِّر فيه

هذه الأحداث ، فقال ﴿قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ .. (٧١)﴾ [طه] فأنا كبيركم الذى علّمكم السحر ، وكان عليكم أنْ تحترموا أستاذيته ، وقد كنت سآذنُ لكم .

وكلمة (آمنتم) مادتها : أمِنَ . وقد أخذت حيزاً كبيراً فى القرآن الكريم ، والأصل فيها : أمِنَ فلانٌ أمناً يعنى : اطمأن . فليس هناك ما يُخوّفه . لكن هذه المادة تأتى مرة ثلاثية (أمِنَ) وتأتى مزيدة بالهمزة (آمن) .

وهذا الفعل يأتى متعدياً إلى المفعول مباشرة ، كما فى قوله تعالى ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَـٰذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِى أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ (٤)﴾ [قريش] يعنى : آمن سكان مكة من الخوف .

وقد يتعدى بالباء كما فى : آمنت بالله ، أو يتعدى باللام كما فى قوله تعالى : ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ .. (٨٣)﴾ [يونس] وآمن له يعنى : صدَّقه فيما جاء به .

إذن : لدينا : آمَنَهُ يعنى أعطاه الأمن ، وآمن به : يعنى اعتقده ، وآمن له : يعنى صدَّقه .

وقد تأتى أمن وآمن بمعنى واحد ، كما فى قول سيدنا يعقوب : ﴿هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ .. (٦٤)﴾ [يوسف]

فلماذا اختلفت الصيغة من آمن إلى أمِن ؟

قالوا : لأن قوله ﴿كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ .. (٦٤)﴾ [يوسف] كانت تجربة أولى ، فجاء الفعل (أمن) مُجرّداً على خلاف الحال فى المرة الثانية ، فقد احتاجت إلى نوع من الاحتياط للأمر ، فقال ﴿هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ .. (٦٤)﴾ [يوسف] فزاد الهمزة للاحتياط .

فمعنى قول فرعون : ﴿آمَنتُمْ لَهُ .. (٧١)﴾ [طه] يعنى أى : صدَّقتموه .

وتأمل هنا بلاغة القرآن فى هذا التعبير ﴿قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ .. (٧١)﴾ [طه] ومَن الذى يقولها ؟ إنه فرعون الآمر الناهى فى قومه يتحدث الآن عن الإذن . وفَرْق بين أمر وأذن ، أمر بالشىء يعنى : أنه يحب ما أمر به ، ويجب عليك أنت التنفيذ . أما الإذن فقد يكون فى أمر لا يحبه ولا يريده ، فهو الآن يأذن ؛ لأنه لا يقدر على الأمر .

وما دُمْتُمْ قد آمنتم له قبل أن آذن لكم فلا بُدَّ أن يكون هو كبيركم الذى علّمكم السحر ، فكان وفاؤكم له ، واحترمتم هذا الكِبَر وساعدتموه على الفوز .

وهذا من فرعون سوء تعليل لواقع الإيمان ، ففى نظره أن موسى تفوّق عليهم ، لا لأنه يُجيد فنَّ السحر أكثر منهم ، إنما تفوّق عليهم لأنهم جاملوه وتواطأوا معه ؛ لأنه كبيرهم ومُعلِّمهم .

لذلك يتهدَّدهم قائلاً : ﴿فَلأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ .. (٧١)﴾ [طه]

جاء هذا التهديد والوعيد جزاءً لهم ؛ لأنهم ـ فى نظره ـ هزموه وخذلوه فى معركته الفاصلة أمام موسى عليه السلام ، ومعنى : ﴿مِّنْ خِلافٍ .. (٧١)﴾ [طه] الخِلاَف أن يأتى شىء على خلاف شىء آخر ، والكلام هنا عن الأيدى والأرجل ، فيكون المراد اليد اليمنى مع الرِّجْل اليسرى ، أو اليد اليُسْرى مع الرِّجْل اليُمْنى .

وقوله : ﴿وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ ..(٧١)﴾ [طه] المعروف أن التَّصْليب يكون على الجذوع ؛ لذلك حاول بعض المفسرين الخروج من

هذا الإشكال فقالوا : (فى) هنا بمعنى (على) . لكن هذا تفسير لا يليق بالأسلوب الأعلى للبيان القرآنىّ ، ويجب أن نتفق أولاً على معنى التصليب : وهو أن تأتى بالمصلوب عليه وهو الخشب أو الحديد مثلاً ، ثم تأتى بالشخص المراد صلْبه ، وتربطه فى هذا القائم رباطاً قوياً ، ثم تشدّ عليه بقوة .

ولك أنْ تُجرِّب هذه المسألة ، فتربط مثلاً عود كبريت على إصبعك ، ثم تشدُّ عليه الرباط بقوة ، وسوف تجد أن العود يدخل فى اللحم ، ساعتها تقول : العود فى إصبعك ، لا على إصبعك .

إذن قوله تعالى : ﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ .. (٧١) ﴾ [طه] (فى) هنا على معناها الأصلى للدلالة على المبالغة فى الصَّلْب تصليباً قوياً ، بحيث يدخل المصلوب فى المصلوب فيه ، كأنه ليس عليه ، بل داخل فيه .

ثم يقول : ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ (٧١) ﴾ [طه] أينا . المراد فرعون وموسى ، أو فرعون ورب موسى الذى أرسله ﴿ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ (٧١) ﴾ [طه] فجمع فى العذاب شدته من حيث الكيفية ، ودوامه وبقاءه فى الزمن . ولم يذكر القرآن شيئاً عن تهديد فرعون ، أفعله أم لا ؟ والأقرب أنه نفّذ ما هدد به .

وكان من المفروض فى تهديد فرعون أن يأخذ من قلوب السَّحرة ويُرهبهم ، فيحاولون على الأقل الاعتذار عمَّا حدث ، لكن شيئاً من هذا لم يحدث ، بل قالوا ما أهاجه أكثر :

﴿ قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا ۖ فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٧٢) ﴾

الإيثار : تفضيل شيء على شيء فى مجال متساوٍ تقول : آثرتُ فلاناً على فلان ، وهما فى منزلة واحدة ، أو أن معك شيئاً ليس معك غيره ، ثم جاءك فقير فآثرْتَهُ على نفسك .

ومنه قوله تعالى : ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ .. (٩)﴾ [الحشر]

فقولهم ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا .. (٧٢)﴾ [طه] لأنه قال ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ (٧١)﴾ [طه] أنا أمْ موسى ؟ فالمعركة فى نظره مع موسى ، فأرادوا أنْ يُواجهوه بهذه الحقيقة التى اتضحتْ لهم جميعاً ، وهى أن المعركة ليستْ مع موسى ، بل مع آيات الله البينات التى أُرسِل بها موسى ، ولن نُفضّلك على آيات الله التى جاءتْنا واضحة بيِّنة .

ولما رأى السحرة معجزة العصا كانوا هم أكثَر القوم إيماناً ، وقد وَضُحَ عُمْق إيمانهم لما قالوا : ﴿آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ (٧٠)﴾ [طه] ولم يقولوا آمنا بموسى وهارون ، إذن : فإيمانهم صحيح صادق من أول وهْلة .

وقد تعرضنا لهذه المسألة فى قصة سليمان مع ملكة سبأ ، حين قالت ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٤)﴾ [النمل] فأنا وهو مسلمان لله ، ولم تقل : أسلمت لسليمان ، فهناك رب أعلى ، الجميع مُسلِّم له

إذن فقوْل السَّحَرة لفرعون : ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا . (٧٢)﴾ [طه] تعبير دقيق وواعٍ وحكيم ، لا تلحظ فيه ذاتيةَ موسى . إنما تلحظُ البينة التى جاء بها موسى من الله .

لذلك يقول تعالى : ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ[1] حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ۝١﴾ [البينة] ثم يُبين عند مَنْ جاءت البينة : ﴿رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝٢﴾ [البينة]

فالارتقاء من الرسول إلى البينة إلى مَنْ أعطى له البينة ، فهذه مراحل ثلاث .

والبينات : هى الأمور الواضحة التى تحسم كل جَدَلٍ حولها ، فلا تقبل الجدل والمهاترات ؛ لأن حجتها جليّة واضحة .

وقولهم : ﴿وَالَّذِى فَطَرَنَا .. ۝٧٢﴾ [طه] أى : ولن نُؤثرك أيضاً على الله الذى فطرنا ، أو تكون ﴿وَالَّذِى فَطَرَنَا .. ۝٧٢﴾ [طه] قسَم على ما يقولون ، كما تقول : لن أفعل كذا والذى خلقك ، فأنت تُقسِم ألاَّ تفعل هذا الشىء .

وهذه حيثية عدم الرجوع فيما قالوه وهو الإيمان بربِّ هارون وموسى .

ثم لم يَفُتْهم الإشارة إلى مسألة التهديدات الفرعونية : ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ .. ۝٧١﴾ [طه]

لذلك يقولون : ﴿فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ .. ۝٧٢﴾ [طه] أى : نفِّذ ما حكمتَ به من تقطيع الأيدى والأرجل ، أو اقْضِ ما أنت قاض من أمور أخرى ، وافعل ما تريد فلم تعُدْ تخيفنا هذه التهديدات ﴿إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۝٧٢﴾ [طه]

---

(١) انفكَّ : انفصل وزال وفارق ما كان عليه . قال تعالى : ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ .. ۝١﴾ [البينة] أى : زائلين ومنفصلين عما هم فيه حتى جاءتهم البينة . [القاموس القويم ٢/٨٧] .

فأنت إنسان يمكن أن تموتَ فى أى وقت ، فما تقضى إلا مُدَّة حياتك ، وربما يأتى من بعدك مَنْ هو أفضل منك فلا يدّعى ما ادَّعيْته من الألوهية .

وهَبْ أن مَنْ جاء بعدك كان على شاكلتك ، فحياته أيضاً منتهية ، وحتى لو ظَلَّ ما سننته للناس من ادعاء الألوهية إلى يوم القيامة ، وامتدّ طغيان غيرك من بعدك ، فالمسألة ستنتهى ، ولو حتى بقيام الساعة .

كما سبق أن قُلْنا : إن نعيم الدنيا مهما بلغ فيتهدده أمران : إما أن تفوته أو يفوتك ، أما نعيم الآخرة فنعيم بَاقٍ دائم ، لا تفوته ولا يفوتك .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ ﴾

فما دُمْنا رجعنا من الإيمان بالبشر إلى الإيمان بخالق البشر ، فهذا رُشْدٌ فى تفكيرنا لا يصح أنْ تلومنَا عليه ، ثم أوضحوا حيثية إيمانهم ﴿ لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ .. ﴿٧٣﴾ ﴾ [طه] فالإيمان بالله سينفعنا ، وسيغفر لنا الخطايا وهى كثيرة ، وسيغفر لنا ما أكرهتنا عليه من مسألة السحر ، فقد صنعوا السحر مُكْرهين ، ومارسوه مُجْبرين ، فهو عمل لا يوافق طبيعتهم ولا تكوينهم ولا فطرتهم .

وما أكثر ما يُكْره الناس على أمور لا يرضونها ، وينفذون أوامر وهم غير مقتنعين بها ، خاصة فى عصور الطُّغَاة والجبّارين ، وقد سمعنا كثيراً عن السَّجانين فى المعتقلات ، فكان بعضهم تأتيه الأوامر

بتعذيب فلان ، فماذا يفعل وهو يعلم أنه برىء مظلوم ، ولا يطاوعه قلبه فى تعذيبه ، فكان يدخل على المسجون ويقول له : اصرخ بأعلى صوتك ، ويُمثِّل أنه يضربه .

ثم يقولون : ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿٧٣﴾﴾ [طه] فأنت ستزول ، بل دنياك كلها ستزول بمَنْ جاء بعدك من الطُّغَاة ، ولن يبقى إلا الله ، وهو سبحانه يُمتِّع كل خَلْقه بالأسباب فى الدنيا ، أما فى الآخرة فلن يعيشوا بالأسباب . إنما بالمسبب عز وجل دون أسباب .

لذلك إذا خطر الشىء ببالك تجده بين يديك ، وهذا نعيم الآخرة ، ولن تصل إليه حضارات الدنيا مهما بلغتْ من التطور .

لذلك فى قوله تعالى : ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا .. ﴿٢٤﴾﴾[يونس] . فمهما ظَنَّ البشر أنهم قادرون على كل شىء فى دُنْياهم فهم ضُعفاء لا يستطيعون الحفاظ على ما توصّلوا إليه .

إذن اجعل الله ـ تبارك وتعالى ـ فى بالك دائماً يكُنْ لك عوَضاً عن كل فائت ، واستح أنْ يطلع عليك وأنت تعصيه . وقد ورد فى الحديث القدسى : «إن كنتم تعتقدون أنى لا أراكم فالخلل فى إيمانكم ، وإن كنتم تعتقدون أنى أراكم فلم جعلتمونى أهون الناظرين إليكم ؟! »[1] .

ولما سُئل أحد العارفين : فيم أفنيتَ عمرك ؟ قال : فى أربعة أشياء : علمتُ أنِّى لا أخلو من نظر الله تعالى طَرْفة عَيْن ، فاستحييتُ أن أعصيه ، وعلمتُ أن لى رزْقاً لا يتجاوزنى وقد ضمنه الله لى فقنعتُ به ، وعلمتُ أن علىَّ دَيناً لا يُؤدِّيه عنِّى غيرى فاشتغلتُ به ، وعلمتُ أن لى أجَلاً يبادرنى فبادرته .

---

(١) بالبحث فى كتب الحديث تبين عدم ثبوت حديث بهذا اللفظ ، وإنما ثبتت جملة من هذا الحديث على لسان بعض العارفين ، حيث جاء فى كتاب « حلية الأولياء » (٨/١٤٢) قال رجل لوهيب بن الورد قال . اتق الله أن يكون الله أهون الناظرين إليك ، وجاء فى كتاب جامع العلوم والحكم (١/٣٦) قال بعض العارفين : اتق الله أن يكون أهون الناظرين إليك.

وقد شرح أحد العارفين هذه الأربع ، فقال : اجعل مراقبتك لمن لا تخلو عن نظره إليك ، واجعل شكرك لمن لا تنقطع نعمه عنك ، واجعل طاعتك لمن لا تستغنى عنه ، واجعل خضوعك لمَنْ لا تخرج عن مُلْكه وسلطانه .

وهكذا جمعتْ هذه الأقوالُ الثمانية الدينَ كله .

ثم يُقدِّم السحرة الذين أعلنوا إيمانهم حيثيات هذا الإيمان ، فقالوا :

﴿ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ ﴾

قوله : ﴿ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا .. ﴿٧٤﴾ ﴾ [طه] يعنى مُجرَّماً عمل الجريمة ، والجريمة أنْ تكسر قانوناً من قوانين الحق - عز وجل - كما يفعل البشر فى قوانينهم ، فيضعون عقوبة لمَنْ يخرج عن هذه القوانين ، لكن ينبغى أن تُعيَّن هذه الجريمة وتُعلَن على الناس ، فإذا ما وقع أحد فى الجريمة فقد أعذر من أنذر .

إذن : لا يمكن أن تعاقب إلا بجريمة ، ولا توجد جريمة إلا بنص .

وقوله : (يَأْتِ) أى : هو الذى سيأتى رغم إجرامه ، ورغم ما ينتظره من العذاب . لكن لماذا خاطبوه بلفظ الإجرام ؟ لأنه قال : ﴿ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ النَّخْلِ .. ﴿٧١﴾ ﴾ [طه] ولم يفعلوا أكثر من أنْ قالوا كلمة الحق ، فأيُّنا إذنْ المجرم ؟

وقوله تعالى : ﴿ فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ ﴾ [طه]

لأن الموت سَيُريحهم من العذاب ؛ لذلك يتمنَّوْنَ الموت ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ وَنَادَوْا يَـٰمَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ .. (٧٧) ﴾ [الزخرف] فيأتى رده ﴿ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ (٧٧) ﴾ [الزخرف]

وفَرْقٌ بين عذاب وموت ، فالموت إنهاء للحياة ، وليس بعد الموت إيلام ، أمَّا العذاب فلا ينشأ إلا مع الحياة ؛ لأنه إيلام حَىٍّ .

لذلك ، فالحق ـ تبارك وتعالى ـ لما عرض لهذه المسألة فى قصة سليمان عليه السلام والهدهد وأن سليمان قال : ﴿ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ .. (٢١) ﴾ [النمل] فالعذاب شىء ، والذبح شىء آخر ؛ لأنه إنهاء للحياة الحاسة .

ومعنى : ﴿ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ (٧٤) ﴾ [طه] أن هناك مرحلة وحلقة بين الموت والحياة ، حيث لا يموت فيستريح ، ولا يحيى حياةً سالمة من العذاب ، فبقاؤهم فى جهنم فى هذه المرحلة ، التى لا هى موت ولا هى حياة .

﴿ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَـٰتُ ٱلْعُلَىٰ (٧٥) ﴾

فكأنهم كانوا يشيرون بقولهم : ﴿ إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا .. (٧٤) ﴾ [طه] إلى فرعون ، والآن يشيرون إلى أنفسهم ، وما سلكوه من طريق الإيمان ﴿ وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ .. (٧٥) ﴾ [طه]

فجمعوا بين الإيمان والعمل الصالح ؛ لأن الإيمان هو الينبوع الوجدانى الذى تصدر عنه الحركات النزوعية على وَفْق المنهج الذى آمنت به ، وإلا فما فائدة أنْ تؤمنَ بشىء ، ولا تعمل له ، وكثيراً ما جمع القرآن بين الذين آمنوا وعملوا الصالحات .

وقوله : ﴿فَأُوْلَـٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾﴾ [طه] الدرجات أى : درجات الجنة ، فالجنة درجات ، بعضها فوق بعض ، أما النار فدركات ، بعضها تحت بعض .

وقد جعل الحق ـ تبارك وتعالى ـ الجنة درجات ؛ لأن أهلها متفاوتون فى الأعمال[1] ، كما أنهم متفاوتون حتى فى العمل الواحد ؛ لأن مناط الإخلاص فى العمل متفاوت .

لذلك جاء فى الأثر : « الناس على خطر إلا العالمون ، والعالمون على خطر إلا العاملون ، والعاملون على خطر إلا المخلصون ، والمخلصون على خطر عظيم » .

والعُلاَ : جمع عُليا . فما الدرجات العُلاَ ؟

﴿جَنَّـٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾﴾

عدن : أى إقامة . منْ عَدَنَ فى المكان : أقام فيه ، فالمراد جنات أعدَّتْ لإقامتك ، وفرْق بين أنْ تُعد المكان للإقامة وأنْ تُعدَّ مكاناً

(١) أخرج ابن المبارك فى الزهد (ص ٣٣) (رقم ٩٩) وأبو نعيم فى الحلية (٤\٢٤٧)عن عون بن عبد الله قال : إن الله ليدخل خلقاً الجنة فيعطيهم حتى يملوا ، وفوقهم ناس فى (الدرجات العلى) فإذا نظروا إليهم عرفوهم فيقولون : يا ربنا إخواننا كنا معهم فبم فضلتهم علينا ؟ فيقال : هيهات ، إنهم كانوا يجوعون حين تشبعون ، ويظمأون حين تروون ، ويقومون حين تنامون ، ويشخصون حين تخفضون .

لعابر ، كما أن المكان يختلف إعداده وترفه حَسْب المعدّ وإمكاناته ، فالإنسان العادى يُعد مكاناً غير الذى يعده عظيم من العظماء ، فما بالك إذنْ بمكان أعدّه لك ربك ـ عز وجل ـ بقدراته وإمكاناته ؟

وقوله : ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا .. (٧٦)﴾ [طه]

نعلم أن الماء من أهم مقومات الحياة الدنيا ، فبه تنبت الأرض النبات ، وفيه تذوب العناصر الغذائية ، وبدونه لا تقوم لنا حياة على وجه الأرض . والحق سبحانه وتعالى ساعةَ يُنزل مطراً من السماء قد لا ينتفع بالمطر مَنْ نزل عليه المطر ، فربما نزل على جبل مثلاً ، فالنيل الذى نحيا على مائه يأتى من أين ؟ من الحبشة وغيرها .

لذلك جعل الخالق ـ عز وجل ـ كلمة ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ .. (٧٦)﴾ [طه] رمزاً للخضرة وللنضارة وللنماء وللحياة السعيدة الهانئة ، حتى الإنسان وإنْ لم يكُنْ محتاجاً للطعام بأنْ كان شبعان مثلاً ، يجد لذة فى النظر إلى الطبيعة الخضراء ، وما فيها من زرع وورود وزهور ، فليس الزرع للأكل فقط ، بل للنظر أيضاً ، وإنْ كنتَ تأكل فى اليوم ثلاث مرات ، والأكل غذاء للجسم ، فأنت تتمتع بالمنظر الجميل وتُسَرُّ به كلما نظرتَ إليه ، والنظر متعة للروح ، وسرور للنفس .

وكأن الحق ـ تبارك وتعالى ـ يقول لنا : لا تقصروا انتفاعكم بنعم الله على ما تملكون ، فتقول مثلاً : لا آكل هذه الفاكهة لأنها ليست ملْكى ، لأن هناك متعةً أخرى : ﴿انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ[1] .. (٩٩)﴾ [الأنعام] فقبل أن تأكل انظر ، فالنظر متعة ، وغذاء مستمر .

---

(١) أينع الثمر : أدرك ونضج وحان قطافه . والوصف منه يانع ، أى : ناضج . قال تعالى : ﴿انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ .. (٩٩)﴾ [الأنعام] أى : نضجه واختلاف طعمه بعد النضج . [القاموس القويم ٢/٣٧٣] .

فقوله تعالى : ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ .. (٧٦)﴾ [طه] لأن ظاهرة جريان الأنهار فى الدنيا وسيلة للخُضْرة والخِصْب والإيناع ، و ﴿مِن تَحْتِهَا .. (٧٦)﴾ [طه] أى : أن الماء ذاتىّ فيها ، ونابع منها ، ليس جارياً إليك من مكان آخر ، ربما يُمنَع عنك أو تُحرم منه .

لذلك يقول تعالى فى آية أخرى: ﴿تَجْرِى تَحْتَهَا الأَنْهَارُ .. (١٠٠)﴾ [التوبة] فتحتها أنهار جارية ، لكن مصدرها ومنبعها من مكان آخر .

ونسب الجريان إلى النهر ، لا إلى الماء للمبالغة . فالنهر هو المجرى الذى يجرى فيه الماء .

ثم يقول تعالى : ﴿خَالِدِينَ فِيهَا .. (٧٦)﴾ [طه] وهذا هو التأمين الحقّ للنعيم ؛ لأن آفة النعم أنْ تزولَ ، إمّا بأن تفوتها أنت أو تفوتك هى ، أما نعيم الجنة فقد سلَّمه الله تعالى من هذه الآفة ، فهو خالد باقٍ ، لا يزول ولا يُزال عنه .

﴿وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ (٧٦)﴾ [طه] الزكاة : تُطلَق على الطهارة وعلى النماء ، فالطهارة : أن يكون الشىء فى ذاته طاهراً ، والنماء : أنْ توجَد فيه خصوصية نمو فيزيد عمَّا تراه أنت عليه .

كما ترى مثلاً الورد الصناعى والورد الطبيعى فى البستان ، وفيه المائية والنضارة والرائحة الطيبة والألوان المختلفة والنمو ، وكلها صفات ذاتية فى الوردة ، على خلاف الورد الصناعى فهو جامد على حالة واحدة .

وهذا هو الفرق بين صَنْعة البشر وصَنْعة الخالق للبشر ؛ لذلك كانت صنعة الله أخلد وأبقى ، وصدق الله العظيم حين قال : ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤)﴾ [المؤمنون]

وتلحظ أنه لم يَخسنَّ عليك بصفة الخَلْق ؛ لأنك استعملتَ الأسباب وأعملتَ الفكر ، فكان لك شيء من الخلق ، لكن ربُّك أحسنُ الخالقين ؛ لأنك خلقتَ من باطن خلْقته ، خلقتَ من موجود ، وهو سبحانه يخلق مَن عدم ، خلقتَ شيئاً جامداً لَا حياة فيه ، وخلق سبحانه شيئاً حياً نامياً ، يتكاثر بذاته .

ومن هنا سُمِّى المال الذى تُخرجه للفقراء زكاةً ؛ لأنه يُطهِّر الباقى ويُنمِّيه . ومن العجائب أن الله تعالى سَمَّى ما يخرج من المال زكاة ونماءً ، وسَمَّى زيادة الربا مَحْقاً .

فمعنى : ﴿وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾﴾ [طه] أى : تطهَّر من المعاصى ، ثم نَمَّى نفسه ، ومعنى التنمية هنا ارتقاءات المؤمن فى درجات الوصول للحق ، فهو مؤمن بداية ، لكن يزيد إيمانه وينمو ويرتقى يوماً بعد يوم ، وكلما ازداد إيمانه ازداد قُرْبه من ربه ، وازدادت فيوضات الله عليه . والطهارة للأشياء سابقة على تنميتها ؛ لأن دَرْء المفسدة مُقدَّم على جلب المصلحة .

إذن : زكَّى نفسه : طهَّرها أولاً ، ثم يُنمِّيها ثانياً ، كمَنْ يريد التجارة ، فعليه أولاً أن يأتى برأس المال الطاهر من حلال ثم يُنمِّيه ، لكن لا تأتى برأس المال مُدنَّساً ثم تُنمِّيه بما فيه من دَنَس .

وكلما نَمَّى الإنسانُ إيمانَهُ ارتقى فى درجاته ، فكانت له الدرجات العُلاَ فى الآخرة .

﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾﴾ (١) (٢)

---

(١) سَرَى يَسْرِى : سار ليلاً .

(٢) قال محمد بن كعب : يبساً : أى يابساً ليس فيه ماء ولا طين [أورده السيوطى فى الدر المنثور ٥/٥٩٠ . وعزاه لسعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبى حاتم] .

كان هذا الوحى لموسى ـ عليه السلام ـ بعد أن انتهت المعركة ، وانتصر فيها معسكر الإيمان ، أما فرعون فقد خسر سلاحاً من أهمِّ أسلحته وجانباً كبيراً من سَطْوته وجبروته .

وهنا جمع موسى بنى إسرائيل ، وهم بقايا ذرية آل يعقوب ليذهب بهم إلى أرض الميعاد ، وسرعان ما أعدَّ فرعون جيشه وجمع جموعه ، وسار خلفهم يتبعهم إلى ساحل البحر ، فإذا بموسى وقومه مُحَاصرين : البحر من أمامهم ، وفرعون بجيشه من خلفهم ، وليس لهم مَخْرج من هذا المأزق .

هذا حُكْم القضايا البشرية المنعزلة عن ربِّ البشر ، أما فى نظر المؤمن فلها حَلٌّ ؛ لأن قضاياه ليست بمعزل عن ربه وخالقه ؛ لأنه مؤمن حين تصيبه مصيبة ، أو يمسه مكروه ينظر فإذا ربُّه يرعاه ، فيلجأ إليه ، ويرتاح فى كَنَفه .

لذلك يقولون : لا كَرْبَ وأنت ربٌّ ، وما دام لى رب ألجأ إليه فليست هناك معضلة ، المعضلة فيمن ليس له رَبٌّ يلجأ إليه .

وقد ضربنا لذلك مثلاً ـ ولله المثل الأعلى ـ لو أن إنساناً معه فى جيبه جنيه ، فسقط منه فى الطريق ، فإذا لم يكُنْ عنده غيره يحزن أمّا إنْ كان لديه مال آخر فسوف يجد فيه عِوَضاً عَمَّا ضاع منه ، هذا الرصيد الذى تحتفظ به هو إيمانك بالله .

وهنا جاء الأمر من الله تعالى لموسى ـ عليه السلام ـ ليُخرجه وقومه من هذا المأزق : ﴿أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى الْبَحْرِ يَبَسًا .. (٧٧)﴾ [طه]

أَسْرِ : من الإسراء ليلاً . أى : السير ؛ لأنه أستر للسائر .

وقوله ﴿بِعِبَادِى .. (٧٧)﴾ [طه] كلمة « عبد » تُجمع على « عبيد » و « عباد » والفَرْق بينهما أن كل مَنْ فى الكون عبيد لله تعالى ؛ لأنهم وإنْ كانوا مختارين فى أشياء ، فهم مقهورون فى أشياء أخرى ، فالذى تعوَّد باختياره على مخالفة منهج الله ، وله دُرْبة على ذلك ، فله قَهْريات مثل المرض أو الموت .

أما العباد فهم الصَّفْوة التى اختارت مراد الله على مرادها ، واختياره على اختيارها ، فإنْ خيَّرهم : ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ .. (٢٩)﴾ [الكهف] خرجوا عن اختيارهم لاختيار ربهم .

لذلك نسبهم الله إليه فقال : ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ .. (٤٢)﴾ [الحجر] وقال عنهم : ﴿عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ (٢٦)﴾ [الأنبياء] وقال : ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَـٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا .. (٦٣)﴾ [الفرقان]

ويقول الحق سبحانه : ﴿فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى الْبَحْرِ يَبَسًا .. (٧٧)﴾ [طه] : أى : يابساً جافاً وسط الماء .

والضرب : إيقاع شىء من ضارب بآلة على مضروب ، ومنه ضَرب العملة أى : سكَّها وختمها ، فبعد أنْ كان قطعةَ معدن أصبح عملة متداولة .

وضرب موسى البحر بعصاه فانفلق البحر وانحسر الماء عن طريق جافّ صالح للمشى بالأقدام ، وهذه مسألة لا يتصورها قانون البشر ؛ لذلك يُطمئنه ربه ﴿لَّا تَخَافُ دَرَكًا .. (٧٧)﴾ [طه] أى : من فرعون أنْ يُدركَ ﴿وَلَا تَخْشَىٰ (٧٧)﴾ [طه] أى : غرقاً من البحر ؛ لأن الطريق مضروب أى : مُعَد ومُمهَّد وصالح لهذه المهمة .

وهذه معجزة أخرى لعصا موسى التى ألقاها ، فصارت حية

تسعى ، وضرب بها البحر فانفلق فصار ما تحت العصا طريقاً يابساً ، وما حولها جبالاً ﴿كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ[1] الْعَظِيمِ (٦٣)﴾ [الشعراء] وهى التى ضرب بها الحجر فانبجس[2] منه الماء .

والسياق هنا لم يذكر شيئاً عن الحوار الذى دار بين موسى وقومه حينما وقعوا فى هذه الضائقة ، لكن جاء فى لقطة أخرى من القصة حيث قال تعالى : ﴿فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١) قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢)﴾ [الشعراء]

وبتعدد اللقطات فى القرآن تكتمل الصورة العامة للقصة ، وليس فى ذلك تكرار كما يتوهّم البعض .

فقبل أنْ يُوحى إليه : ﴿فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا .. (٧٧)﴾ [طه] قال القوم : ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١)﴾ [الشعراء] فقال (كَلاَّ) . لكن كيف يقولها قَوْلة الواثق وما يخافون منه محتمل أنْ يقع بعد لحظة ؟

نقول : لأنه لم يقل (كَلاَّ) من عنده ، لم يَقُلْها بقانون البشر ، إنما بقانون خالق البشر ﴿كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢)﴾ [الشعراء] فأنا لا أغالطكم ، ولستُ بمعزل عن السماء وتوجيه ربى .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ (٧٨)﴾

---

(١) الطود : الجبل الثابت العالى . [القاموس القويم ١/٤٠٨] .

(٢) البجس : انشقاق فى قربة أو حجر أو أرض ينبع منه الماء . وانبجس الماء : تفجَّر . قال تعالى : ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا .. (١٦٠)﴾ [الأعراف] .

قوله تعالى : ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ (٧٨)﴾ [طه] غشيهم يعنى : غطّاهم الماء ، وقد أبهم هذا الحدث للدلالة على فظاعته وهَوْله ، وأنه فوق الحَصْر والوصف ، كأن تقول فى الأمر الذى لا تقدر على تفصيله : حصل ما حصل .

وفى لقطة أخرى لهذه الحادثة يُبيِّن الحق - تبارك وتعالى - أن موسى - عليه السلام - بعد أن عبر بقومه آمناً أراد باجتهاده وترجيحاته الإيمانية أن يضرب البحر مرة أخرى ليعود إلى سيولته فلا يتمكن فرعون من اللحاق به ، لكن توجيهات ربه لها شأن آخر ، فأوحى الله إليه : ﴿وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا[1] إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ (٢٤)﴾ [الدخان]

أى : اتركه كما هو لا تُعدْه إلى استطراق سيولته ، فكما أنجيتك بالماء سأتلف عدوك بالماء ، فسبحان مَنْ يُنجِى ويُهلِك بالشىء الواحد .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ (٧٩)﴾

وسبق أن قال فرعون لقومه . ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ (٢٩)﴾ [غافر]

فأين سبيل الرشاد الذى تحدَّث عنه فرعون بعدَ أنْ أطبق الله عليهم البحر ؟ لقد سُقْتَهم إلى الهلاك ، ولم تسلك بهم مناط النجاة والهداية . فأنت - إذن - كاذب فى ادعاء سبيل الرشاد ؛ لأنك أضللتَهم ما هديتهم ، وأهلكتهم ما نجَّيتهم .

---

(١) رها البحر رهواً : سكن فهو راه . فقوله ﴿وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا . (٢٤)﴾ [الدخان] أى : اتركه ساكن الأمواج ليغتروا فينزلوا فيه . أو : كن يا موسى هادئاً مطمئناً إلى النجاة . [القاموس القويم ١/٢٧٩] .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ (١) (٢)
ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ ﴿٨٠﴾ ﴾

لله عز وجل على بنى إسرائيل منَنٌ كثيرة ونعَم لا تُعَدُّ ، كان مقتضى العبادية التى وصفهم بها ﴿ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى .. ﴿٧٧﴾ ﴾ [طه] أن يُنَفِّذوا منهج ربهم ، ويذكروا نعمه ذكْراً لا يغيب عن بالهم أبداً ، بحيث كلما تحركتْ نفوسهم إلى مخالفة ذكروا نعمةً من نعَم الله عليهم ، تذكّروا أنهم غير متطوعين بالإيمان ، إنما يردُّون لله ما عليهم من نِعَم وآلاء .

والحق ـ تبارك وتعالى ـ هنا يُذكِّرهم ببعض نعَمه ، ويناديهم بأحبِّ نداء ﴿ يَـٰبَنِى إِسْرَائِيلَ .. ﴿٨٠﴾ ﴾ [طه] وإسرائيل يعنى عبد الله ، عبده المخلص ، كما تقول لصاحبك : يا ابن الرجل الطيب .. الورع ، فالحق يُذكِّرهم بأصلهم الطيب ، وينسبهم إلى نبى من أنبيائه . كأنه يلفت أنظارهم أنه لا يليق بكم المخالفة ، ولا الخروج عن المنهج ، وأنتم سلالة هذا الرجل الصالح .

وقوله تعالى : ﴿ قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ .. ﴿٨٠﴾ ﴾ [طه] أى : من

---

(١) المنُّ : طَلٌّ ينزل من السماء بشبه العسل كان ينزل على بنى إسرائيل عفواً بلا علاج فيصبحون وهو بأفنيتهم فيتناولونه . [لسان العرب ـ مادة : منن] .

(٢) السلوى : طائر أبيض مثل السُّمانى . [لسان العرب ـ مادة : سلا] . قال فى القاموس القويم للقرآن الكريم (١/٣٢٦) . « هو السمانى ، وهو طائر صغير من رتبة الدجاج وجسمه ممتلىء وهو من الطيور المهاجرة من أوربا فى الشتاء إلى البلاد الدافئة ، ويعود ما سلم منه فى أوائل الصيف إلى موطنه فى أوربا وهو طعام جيد ولحمه كالحمام أو هو أشهى ، وأهل العريش بشمال سيناء مشهورون بصيده » .

فرعون الذى استذلكم ، وذبح أبناءكم ، واستحى[1] نساءكم ويُسخِّرهم فى الأعمال دون أجر ، وفعل بكم الأفاعيل ، ثم ﴿وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الأَيْمَنَ .. ﴿٨٠﴾﴾ [طه] لتأخذوا المنهج السليم لحركة الحياة . إذن : خلَّصْناكم من أذى ، وواعدناكم لنعمة .

﴿وَوَاعَدْنَاكُمْ .. ﴿٨٠﴾﴾ [طه] واعد : مفاعلة لا تكون إلا من طرفيْن مثل : شارك وخاصم ، فهل كان الوَعْد من جانبهما معاً : الله عز وجل وبنى إسرائيل ؟ الوَعْد كان من الله تعالى ، لكن لم يقُلْ القرآن : وعدناكم . بل أشرك بنى إسرائيل فى الوعد ، وهذا يُنبِّهنا إلى أنه إذا وعدك إنسان بشىء ووافقتَ ، فكأنك دخلتَ فى الوعد .

وجانب الطور الأيمن : مكان تلقِّى منهج السماء ، وهو مكان بعيد فى الصحراء ، لا زرعَ فيه ولا ماء ؛ لذلك يضمن لهم ربُّهم عز وجل ما يُقيتهم ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾﴾ [طه]

المنّ : سائل أبيض يشبه العسل ، يتساقط مثل قطرات بلورية تشبه الندى على ورق الأشجار ، وفى الصباح يجمعونه كطعام حلو . وهذه النعمة ما زالت موجودة فى العراق مثلاً ، وتقوم عليها صناعة كبيرة هى صناعة المنّ .

والسَّلْوى : طائر يشبه طائر السُّمان .

وهكذا وفَّر لهم الحق ـ تبارك وتعالى ـ مُقوِّمات الحياة بهذه المادة السُّكَّرية لذيذة الطعم تجمع بين القشدة مع عسل النحل ، وطائر شهى دون تعب منهم ، ودون مجهود ، بل يروْنَه بين أيديهم مُعَدًّا جاهزاً ، وكان المنتظر منهم أن يشكروا نعمة الله عليهم ، لكنهم اعترضوا عليها فقالوا :

---

(١) استحيا النساء : استبقاهن ولم يقتلهن . [لسان العرب ـ مادة : حيا] .

﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا[1] وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ .. (٦١)﴾ [البقرة]

وفى سورة البقرة ذكر مع هذه النعمة التى صاحبتهم فى جَدْب الصحراء نعمة أخرى ، فقال تعالى : ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ .. (٥٧)﴾ [البقرة] أى : حَمَيْناكم من وهج الشمس وحرارتها حين تسيرون فى هذه الصحراء .

ونلحظ اختلاف السياق هنا (نَزَّلْنَا) ، وفى البقرة قال : (أَنْزَلْنَا) ؛ ذلك لأن الحق ـ تبارك وتعالى ـ يعالج الموضوع فى لقطات مختلفة من جميع زواياه ، فقوله (أَنْزَلْنَا) تدل على التعدِّى الأول للفعل ، وقد يأتى لمرة واحدة ، إنما (نَزَّلْنَا) فتدلُّ على التوالى فى الإنزال .

وأهل الريف فى بلادنا يُطلقون المنَّ على مادة تميل إلى الحمرة الداكنة ، ثم تتحول إلى السواد ، تسقط على النبات ، لكنها ليست نعمةً ، بل تُعَدُّ آفة من الآفات الضارة بالنبات .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ (٨١)﴾

---

(١) البقل : نبات عشبىٌّ يؤكل أو تؤكل بذوره ، أو : هو كل ما اخضرت به الأرض . [القاموس القويم ١/٧٨] .
والقثاء : الخيار ، والمعروف أنه أكبر من الخيار وأطول ومختلف عنه ، وهما من فصيلة واحدة . [القاموس القويم ٢/١٠١] .
والفوم : هو الثوم . وهو من مشهيات الطعام . وفيه أقوال أخرى . [القاموس القويم٢/٩٢] .

الطعام والشراب والهواء مُقوِّمات الحياة التى ضمنها الله عز وجل لنا ، والأمر بالأكل هنا للإباحة ، وليس فَرْضاً عليك أنْ تأكل إلا إذا أردتَ الإضراب عن الطعام إضراباً يضرُّ بحياتك فعندها تُجبر عليه .

وقوله : ﴿مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ .. (٨١)﴾ [طه] خصَّ الطيبات ؛ لأن الرزق : منه الطيب ، ومنه غير الطيِّب ، فالرزق : كُلّ ما انتفعتَ به ولو كان حراماً . بمعنى أن ما نِلْتَه من الحرام هو أيضاً من رزقك إلا أنك تعجَّلته بالحرام ، ولو صبرْتَ عليه وعففْتَ نفسك عنه لَنِلْتَ أضعافه فى الحلال .

ثم يقول تعالى : ﴿وَلا تَطْغَوْا فِيهِ .. (٨١)﴾ [طه] وفى آية البقرة ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٨)﴾ [النحل] فكأن ظلمَ النفس علِّته أنهم طَغَوْا فى الأكل من الرزق .

والطغيان : من طغى الشىء إذا زاد عن حَدِّه المألوف الذى ينتفع به ، ومنه طغيان الماء إذا زاد عن الحدِّ الذى يزيل الشَّرق والعطش إلى حَدِّ أنه يُغرق ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ (١١)﴾ [الحاقة] أى : تجاوز الحد الذى ينتفع به إلى العَطَب والهلاك .

وهكذا فى أى حَدٍّ ، لكن كيف تتأتى مجاوزة الحد فى الطعام والأقوات ؟

الحق ـ تبارك وتعالى ـ لما خلق الأرض قدَّر فيها أقواتها إلى يوم القيامة ، فقال تعالى : ﴿وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا .. (١٠)﴾ [فصلت]

فاطمئنوا إلى هذه المسألة ، وإذا رأيتم الأرض لا تعطى فلا تتهموها ، إنما اتهموا أنفسكم بالتقصير والتكاسل عن عمارة

الأرض وزراعتها ، كما أمركم الله : ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا .. (٦١)﴾ [هود]

وقد غفلنا زمناً عن هذه المسألة ، حتى فاجأتنا الأحداث بكثرة العدد وقلَّة المدد ، فكان الخروج إلى الصحراء وتعميرها .

وما دام أن الخالق ـ عز وجل ـ خلق لنا أرزاقنا ومُقوِّمات حياتنا ، وجعلها مناسبة لهذا الإنسان الذى كرّمه وجعله خليفة له فى الأرض ، وجعل لهذا الرزق ولهذه المقوّمات حدوداً حدَّها وبيَّنها هى (الحلال) ، فلا ينبغى لك بعد ذلك أن تتعدى هذه الحدود ، وتطغى فى تناول طعامك وشرابك .

ونحن نرى حتى الآلات التى صنعها البشر ، لكل منها وقودها الخاص ، وإذا أعطيتها غيره لا تؤدى مهمتها ، فمثلاً لو وضعت للطائرة سولاراً لا تتحرك ، فليس هو الوقود المناسب لطبيعتها .

إذن : حدودك فى مُقوِّمات حياتك الحلال ، ولو استقرأنا ما أحلَّ الله وما حرَّم لوجدنا الأصل فى الأشياء أنها حلال ، والكثير هو المحلل لك ، أما المحرم عليك فهو القليل المحصور الذى يمكن تحديده .

لذلك يقول عز وجل : ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ .. (١٥١)﴾ [الأنعام] ولم يقُلْ مثلاً فى آية أخرى : تعالوا أَتْلُ ما أحل الله لكم ؛ لأنها مسألة تطول ولا تحصى .

إذن : ساعةَ أعطاك ربك قال لك : هذا رزْقُك الحلال الخالص ، ومنه وقودك ومُقوِّمات حياتك ، وبه بقاؤك ونشاط حركتك . فلا تتعدَّ الحلال على كثرته إلى الحرام على قِلَّته وانحصاره فى عِدَّة أنواع ، بيَّنها لك وحذَّرك منها .

وبالغذاء تتم فى الجسم عملية (الأَيْض) يعنى : الهدم والبناء ، وهى عملية مستمرة فى كل لحظة من لحظاتك ، فإياك أنْ تبنى ذَرَّة

من ذراتك من الحرام ؛ لأن ذرة الحرام هذه تظل تُشاغبك وتُلِح عليك كى تُوقِعك فى أصلها .

وقد قال رسول الله ﷺ : « أيها الناس ، إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً ، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [المؤمنون] وقال : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴿١٧٢﴾﴾ [البقرة] ثم ذكر الرجل يطيل السفر ، أشعث أغبر ، ثم يمد يديه إلى السماء : يا رب يارب ، ومطعمه حرام ، ومشربه حرام ، وملبسه حرام ، وغُذِّى بالحرام ، فأنَّى يُستجاب لذلك »[1] .

ذلك لأن ذرات بنائه غير منسجمة ، لأنها نَمتْ على وقودٍ ما أحله الله له .

لذلك تسمع من بعض المتمحكين : ما دام أن الله خلق الخنزير فلماذا حرَّمه ؟ نقول : لقد فهمتَ أن كل مخلوق خُلِق ليؤكل ، وهذا غير صحيح ، فالله خلق البترول الذى تعمل به الآلات ، أتستطيع أن تشربه كالسيارة ؟

إذن : فَرْق بين شىء مخلوق لشىء ، وأنت توجهه لشىء آخر ، هذه تسمى إحالة أى : تحويل الشىء إلى غير ما جُعِل له ، وهذا هو الطغيان فى القُوت ؛ لأنك نقلتَ الحرام إلى الحلال .

وقد يأتى الطغيان فى صورة أخرى ، كأن تأكل ما أحلَّ الله من الطيبات ، لكنك تحصل عليها بطريق غير مشروع ، وتُعوِّد نفسك الكسل عن الكسْب الحلال ، فتأخذ مجهود غيرك وتعيش عالةً عليه ، فإلى جانب

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٢/٣٢٨) ، ومسلم فى صحيحه (١٠١٥) كتاب الزكاة ، والترمذى فى سننه (٢٩٨٩) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

أنك تتغذَّى على الحرام فأنت أيضاً تُزهّد غيرك فى الحركة والإنتاج والملك ، وما فائدة أن يتعب الإنسان ويأخذ غيره ثمرة تعبه ؟

وقد أخذ الطغيان بهذا المعنى صُوراً متعددة فى مجتمعاتنا ، فيمكن أن ندرج تحته : الغصب ، والخطف ، والسرقة ، والاختلاس ، والرشوة ، وخيانة الأمانة ، وخداع مَن استأجرك إلى غير ذلك من أَخْذ أموال الناس بالباطل ودون وَجْه حق ، وكل عمل من هذه التعديات له صورته .

فالخطف : أنْ تخطف مال غيرك دون أنْ يكون فى متناول يد المخطوف منه ثم تَفر به ، فإنْ كان فى متناول يده وأنت غالبته عليه، وأخذته عُنْوةً فهو غَصْب مأخوذ من : غَصْب الجلد عن الشاة أى : سلخه عنها . فإنْ كان أخذ المال خُفْية وهو فى حرْزه فهى سرقة . وإن كنت مُؤتمناً على مال بين يديك فأخذتَ منه خفية فهو اختلاس .. الخ .

إذن : أحل الله لك أشياءً ، وحرَّم عليك أخرى ، فإنْ كان الشىء فى ذاته حلالاً فلا تأخذه إلا بحقِّه حتى يحترم كل منّا عمل الآخر وحركته فى الحياة وملكيته للأشياء ، وبذلك تستقيم بنَا حركة الحياة ، ويسعد الجميع ، ونعين المنفق ، ونأخذ على يد المتسيِّب البلطجى .

وللإسلام منهج قويم فى القضاء على مسألة البطالة ، تأخذ به بعض النظم الحديثة الآن ، وهو أن الشرع يأمر للقضاء على البطالة أن تحفر بئراً وتطُمَّها : أى احفرها وارْدِمها ثم اعْطِ الأجير فيها أجره . كيف هذا ؟ تحفر البئر ولا تستفيد منها وتردمها فما الفائدة ؟ ولماذا لم نعط الأجير أجره دون حفر ودون ردم ؟

قالوا : حتى لا يتعوَّد على الخمول والكسل ، وحتى لا يأكل إلاّ من عرقه وكَدِّه ، وإلا فسد المجتمع .

وللطغيان فى القوت صورة أخرى ، هى أن تستخدم القوت الذى جعله الله طاقةً لك فى حركة الحياة النافعة ، فإذا بك تصرف هذه الطاقة التى أنعم الله بها عليك فى معصيته .

وهكذا ، كان الطغيان هو علّة ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ .. (١١٨)﴾ [النحل] أى : بالعقوبة ﴿وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٨)﴾ [النحل] أى : بالطغيان .

ثم يقول تعالى : ﴿فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي .. (٨١)﴾ [طه] الفعل : حَلَّ ، يحلّ يأتى بمعنى : صار حلالاً ، كما تقول للسارق : حلال فيه السجن . وتأتى حلَّ يحل بمعنى : نزل فى المكان ، تقول : حَلَّ بالمكان أى : نزل به . فيكون المعنى : ﴿فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي .. (٨١)﴾ [طه] أى : صار حلالاً ، ووجب لكم ، أو بمعنى : ينزل بكم . وقد يكون المعنى أعمَّ من هذا كله .

والغضب انفعال نفسىٌّ يُحدث تغييراً فى كيماوية الجسم ، فترى الغاضب قد انتفختْ أوداجه واحمرَّ وجهه ، وتغيّرت ملامحه ، فهذه أغيار تصاحب هذا الانفعال . فهل غضب الله عز وجل من هذا النوع ؟

بالطبع لا ؛ لأنه تعالى ليس عنده أغيار ، وإذا كان الغضب يتناسب وقدرة الغاضب على العذاب ، فما بالك إنْ كان الغضب من الله ؟

ثم يقول تعالى : ﴿وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ (٨١)﴾ [طه] مادة : هَوَى لها استعمالان ، الأول : هَوَى يهْوِى : يعنى سقط من أعْلى سقوطاً لا إرادةَ له فى منعه ، كأن يسقطَ فجأة من على السطح مثلاً ، ومن ذلك قوله :

* هُوِىَّ الدلو أَسْلَمَها الرِّشَاء[1] *

إذا انقطع الحبل الذى يُخرِج الدَّلْو .

والآخر : هَوِىَ يهْوَى : أى أحبَّ .

فيكون المعنى ﴿فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾﴾ [طه] سقط إلى القاع سقوطاً لا يبقى له قيمة فى الحياة ، أو هَوَى فى الدنيا ، ويَهوى فى الآخرة ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾﴾ [القارعة] فأمه ومصدر الحنان له هاوية ، فكيف به إذا هوى فى الهاوية ؟

هذه كلها عظَات ومواعظ للمؤمن ، يُبيِّنها الحق ـ سبحانه وتعالى ـ له ـ كى يبنىَ حركة حياته على ضَوْئها وهُدَاها .

ولما كان الإنسان عُرْضة للأغيار لا يثبتُ على حال يتقلَّب بين عافية ومرض ، بين غِنىً وفقر ، فكُلُّ ما فيه موهوب له لا ذاتىّ فيه ، لذلك إياك أن تحزن حين يفوتك شىء من النعمة ؛ لأنها لن تبقى ولن تدوم ، وهَبْ أنك بلغتَ قمة النعيم ، فماذا تنتظر إلا أنْ تزول ، كما قال الشاعر :

إذَا تَمَّ شَىْءٌ بَدَا نَقْصُه تَرقَّبْ زَوَالاً إِذَا قِيلَ تَمّ

فإذا تَمَّ لك الشىء ، وأنت ابْنُ أغيار ، ولا يدوم لك حال فلا بُدَّ لك أنْ تنحدر إلى الناحية الأخرى .

فكأن نقْصَ الإنسان فى آماله فى الحياة هى تميمة حراسة

---

(١) الرِّشاء : الحبل . وأرشى الدلو : جعل لها رشاء أى حبلاً . [لسان العرب ـ مادة : رشا] . وقد ذكر ابن منظور هذا الشطر فى [لسان العرب ـ مادة : هوى] قال : « قال ابن برى : ذكر الرياشى عن أبى زيد أن الهَوِى بفتح الهاء إلى أسفل ، وبضمها إلى فوق» .

النِّعَم ، وما فيه من نَقْص أو عيب يدفع عنه حَسَد الحاسد ، كما قال الشاعر فى المدح :

شَخَصَ الأنَامُ إلى كَمَالِكَ فَاسْتَعِذْ مِنْ شَرِّ أعينهِمْ بِعيْبٍ وَاحِدِ

أى : أن الأعين متطلعة إليك ، فاصرفها عنك ، ولو بعيب واحد يذكره الناس وينشغلون به .

وفى الريف يعيش بعض الفلاحين على الفطرة ، فإنْ رُزِق أحدهم بولد جميل وسيم يُلفت نظر الناس إليه . تراهم يتعمدون إهمال شكله ونظافته ، أو يضعون له (فاسوخة) دَفْعاً للحسد وللعين .

لذلك ، فالمرأة التى دخلت على الخليفة ، فقالت له : أتمَّ الله عليك نعمته ، وأقرَّ عينك ، ففهم الحضور أنها تدعو له ، فلما خرجتْ قال الخليفة : أعرفتم ما قالت المرأة ؟ قالوا : تدعو لك ، قال : بل تدعو علىَّ ، فقد أرادت بقولها : أتمَّ الله عليك نعمته تريد أزالها ؛ لأن النعمة إذا تمت لم يَبْقَ لها إلا الزوال ، وقولها : أَقَرَّ الله عينكَ تريد : أسكنها عن الحركة .

إذن : لا تغضَب إنْ قالوا عنك : ناقص فى كذا ، فهذا النقص هو تميمة الكمال ، ويريدها الله لك لمصلحتك أنت .

وما دام الإنسان ابن أغيار ، فلا بُدَّ أنْ يغفل عن منهج الله ، فتكون له سَقَطات وهَفَوات تحتاج إلى غفران ؛ لذلك يقول تعالى :

﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ ﴾

غفار : صيغة مبالغة من غفر ، فإذا أثبت المبالغة فالترتيب اللغوى بالتالى يُثبِت الأقلَّ وهو غافر ، هذا فى الإثبات . وكذلك فى النفى فى

مثل قوله تعالى : ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (٤٦) ﴾ [فصلت] فنفى المبالغة فى الظلم ، فهل يعنى ذلك أنه ـ تبارك وتعالى ـ يمكن أن يكون ظالماً ؟

والشىء يُبالغ فيه لأمرين : الأول : أن تبالغ فى نفس الحدث ، كأن تأكلَ رغيفاً فى الوجبة أو رغيفين ، وآخر يأكل خمسة أرغفة ، فهذه منه مبالغة فى نفس الحدث وهو الأكل ، والثانى : قد تكون المبالغة بتكرار الحدَث ، فالعادة أن نأكل ثلاث مرات ، وهناك مَنْ يأكل ستّ وجبات ، ونسميه (أكول) أى : كثير الأكل ، لا فى الوجبة الواحدة ، إنما فى عدد الوجبات . .

فمعنى (غَفَّارٌ) غافر لى ، وغافر لك ، وغافر لهذا وهذا .. غافر لكل الخَلْق ، فتكررت مغفرته عز وجل لخَلْقه .

وقد شرع الحق ـ سبحانه وتعالى ـ المغفرة والتوبة ليحمى المجتمعات من شرار الناس فيها ، فالشرير إذا ارتكب جريمة ولم يجد له فرصة للمغفرة والتوبة ، فإنه يستمرىء الجريمة ، بل ويبالغ فيها .

أما إذا فُتِح له باب التوبة والمغفرة فإن هذا يرحم المجتمع من شراسة أصحاب السوء .

والله ـ عز وجل ـ ليس غافراً للذنوب فحسب ، بل هو غفار لها ، وكلما عدت إليه غفر لك ، ولكن وَطِّن نفسك أنك إذا فعلت الذنب وتُبْت منه فلا تعد إليه ، ولا ترتب وتخطط لمعصيتك على أمل أن تتوب ، فما يدريك أن تعيش إلى أن تتوب ؟

والمغفرة تكون ﴿ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ .. (٨٢) ﴾ [طه] وما دام قال ﴿ تَابَ وَآمَنَ .. (٨٢) ﴾ [طه] فلابُدَّ أن التوبة هنا عن الكُفْر ، ثم أنشأ

إيماناً بالله وبرسوله . والإيمان هو الينبوع الذى يصدر عنه السُّلوك البشرى ، وهذا يقتضى أن تسمع كلامه وتُنفِّذ أوامره ، وتجتنب نواهيه ، وهذا هو المراد بقوله ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا .. (٨٢)﴾ [طه]

لكن ، أليس العمل الصالح هداية ؟ فلماذا قال بعدها ﴿ثُمَّ اهْتَدَىٰ (٨٢)﴾ [طه] قالوا[1] : لأن الهداية أنْ تستمر على هذا العمل الصالح ، وأنْ تستزيدَ منه ، كما قال تعالى : ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى .. (١٧)﴾ [محمد]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ (٨٣)﴾[2]

نقول : ما أعجلك ؟ يعنى : ما أسرع بك ؟ لماذا جئتَ قبل موعدك ؟ وكان موسى عليه السلام على موعد مع ربه ـ عز وجل ـ ليتلقى عنه المنهج ، والمفروض فى هذا اللقاء أنْ يأتىَ معه مجموعة

---

(١) قاله سفيان الثورى وقتادة وغيرهما ، وقد ذكره القرطبى فى تفسيره (٦/٤٤٠٤) وذكر بعده سبعة أقوال أخرى :
- أى : لم يشك فى إيمانه . قاله ابن عباس ، وذكره الماوردى والمهدوى .
- أقام على السنة والجماعة . قاله ابن عباس أيضاً ، وذكره الثعلبى .
- أخذ بسنة النبى ﷺ ، قاله أنس ، وذكره المهدوى .
- أصاب العمل . قاله ابن زيد ، ذكره المهدوى .
- تعلم العلم ليهتدى كيف يفعل . قاله ابن زيد .
- علم أن لذلك ثواباً وعليه عقاباً . قاله الشعبى ومقاتل والكلبى والفراء .
- اهتدى فى ولاية أهل بيت النبى ﷺ . قاله ثابت البنانى .

ثم قال القرطبى « والقول الأول أحسن هذه الأقوال ـ إن شاء الله ـ وإليه يرجع سائرها » .

(٢) قال القرطبى فى تفسيره (٦ / ٤٤٠٦) : « قال قوم : أراد بالقوم السبعين الذين اختارهم ، وكان موسى لما قرب من الطور سبقهم شوقاً إلى سماع كلام الله » وقد قال تعالى : ﴿وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا .. (١٥٥)﴾ [الأعراف] .

من صَفْوة قومه ورؤسائهم ، فتعجل موسى موعد ربه ، وذهب دون قومه ، فقال له : ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾﴾ [طه] أى : أسرعتَ وتعجَّلْتَ وجِئْتَ بدونهم .

فقال موسى عليه السلام :

﴿قَالَ هُمْ أُولَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾﴾

أى : قادمين خلفى وسيتبعوننى ، أما أنا فقد ﴿عَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾﴾ [طه] تعجَّلْتُ فى المثول بين يديك لترضى .

وقد تعجَّل موسى إلى ميقات ربه ، وسبق قومه لحكمة ، فالإنسان حين يأمر غيره بأمر فيه مشقّة على النفس وتقييد لشهواتها ، لا بُدَّ أن يبدأ بنفسه يقول : أنا لست بنجْوَة عن هذا الأمر ، بل أنا أول مَنْ أُنفِّذ ما آمركم به ، وسوف أسبقكم إليهً .

لذلك يقول القائد الفاتح طارق بن زياد[1] لجنوده : « واعلموا أنى إذا التقى الفريقان مُقبل بنفسى على طاغية القوم ـ لزريق ـ فقاتله إن شاء الله ، فإن قتلته فَقد كُفيتم أمره » وهكذا تكون القيادة قدوة ومثَلاً كما يقولون فى الأمثال (اعمل كذا وإيدى فى إيدك) وهنا يقول : يدى قبل يدك .

فموسى عليه السلام يقول : ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾﴾ [طه] ترضى أن منهجك يُطبَّق من جهتى كرسول مؤتمن عليه ، ومن جهة قومى ؛ لأنهم حين يرونى قد تعجلت للقائك فى الموعد يعلمون

---

(١) هو : طارق بن زياد الليثى بالولاء ، فاتح الأندلس ، أصله من البربر ، أسلم على يد موسى بن نصير ، فكان من أشد رجاله ولد نحو ٥٠ هـ ، تغلغل فى أرض الأندلس . وتوفى عام ١٠٢ هـ . [الأعلام ـ للزركلى ـ ٣/٢١٧] .

أن فى ذلك خيراً لهم ، وإلا ما سبقتهم إليه . وبذلك يسود منهج الله ويُمكَّن فى الأرض ، وإذا ساد منهج الله رضى الله عن خليفته فى الأرض .

ثم يُخبر الحق ـ تبارك وتعالى ـ نبيه موسى ـ عليه السلام ـ بما كان من قومه بعد مفارقته لهم من مسألة عبادة العجل .

﴿ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ ﴾

الفتنة : ليست مذمومة فى ذاتها ؛ لأن الفتنة تعنى الاختبار ، ونتيجته هى التى تُحمَد أو تُذمّ ، كما لو دخل التلميذ الامتحان فإنْ وُفِّق فهذا خير له ، وإنْ أخفق فهذا خير للناس ، كيف ؟

قالوا : لأن هناك أشياءَ إنْ تحققتْ مصلحة الفرد فيها انهدمتْ مصلحة الجماعة . فلو تمكَّن التلميذ المهمل الكَسُول من النجاح دون مذاكرة ودون مجهود ، فقد نال انتفاعاً شخصياً ، وإنْ كان انتفاعاً أحمق ، إلا أنه سيعطى الآخرين إشارة ، ويُوحِى لهم بعدم المسئولية ، ويفرز فى المجتمع الإحباط والخمول ، وكفى بهذا خسارة للمجتمع .

وقد جاءتْ الفتنة بهذا المعنى فى قول الحق تبارك وتعالى : ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾﴾ [العنكبوت]

إذن : لابد من الاختبار لكى يعطى كل إنسان حسب نتيجته ، فإن سأل سائل : وهل يختبر الله عباده ليعلَم حالهم ؟ نقول : بل ليعلم

الناس حالهم ، وتتكشف حقائقهم فيعاملونهم على أساسها : هذا منافق ، وهذا مخلص ، وهذا كذاب ، فيمكنك أنْ تحتاط فى معاملتهم .

إذن : الاختبار لا ليعلم الله ، ولكن ليعلم خَلْق الله .

أو : لأن الاختبار من الله لقطْع الحجة على المختبر ، كأن يقول : لو أعطانى الله مالاً فسأفعل به كذا وكذا من وجوه الخير ، فإذا ما وُضع فى الاختبار الحقيقى وأُعْطِى المال أمسك وبَخِل ، ولو تركه الله دون مال لَقال : لو عندى كنتُ فعلت كذا وكذا .

فهناك علْم واقع من الله ، أو علم من خَلْق الله لكل مَنْ يفتن ، فإنْ كان مُحْسناً يقتدون به ، ويقبلون عليه ، ويحبونه ويستمعون إليه ، وإلاَّ انصرفوا عنه . فالاختبار ـ إذن ـ قَصْده المجتمع وسلامته .

وقد سَمَّى الحق سبحانه ما حدث من بنى إسرائيل فى غياب موسى من عبادة العجل سماه فتنة ، ثم نسبها إلى نفسه ﴿فَتَنَّا .. (٨٥)﴾ [طه] أى : اختبرنا .

ثم يقول تعالى : ﴿وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ (٨٥)﴾ [طه] أضلهم : سلك بهم غير طريق الحق ، وسلوك غير طريق الحق قد يكون للذاتية المحضة ، فيحمل الإنسان فيها وِزْر نفسه فقط ، وقد تتعدَّى إلى الآخرين فيسلك بهم طريق الضلال ، فيحمل وزْره ووِزْر غيره مِمَّنْ أضلّهم .

وفى هذه المسألة يقول تعالى : ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم .. (٢٥)﴾ [النحل]

مع أن الله تعالى قال فى آية أخرى : ﴿وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ .. (١٨)﴾ [فاطر]

وهذه من المسائل التى توقَّف عندها بعض المستشرقين ، محاولين اتهام القرآن وأسلوبه بالتناقض ، وما ذلك منهم إلا لعدم فَهْمهم للغة القرآن واتخاذها صناعة لا ملَكَة ، ولو فَهِموا القرآن لَعَلِموا الفرق بين أن يضل الإنسان فى ذاته ، وبين أن يتسبب فى إضلال غيره .

والسامرى[1] : اسمه موسى السامرى ، ويُرْوَى أن أمه وضعته فى صحراء لا حياة فيها ، ثم ماتت فى نفاسها ، فظل الولد بدون أم ترعاه ، فكان جبريل عليه السلام يتعهده ويربِّيه إلى أن شبَّ[2] .

وقد عبَّر الشاعر عن هذه اللقطة وما فيها من مفارقات بين موسى عليه السلام وموسى السامرى ، فقال :

إِذَا لَمْ تُصَادِفْ فِى بَنِيكَ عِنَايَةً ... فَقَدْ كَذَبَ الرَّاجِى وَخَابَ المؤمِّل
فَمُوسَى الذِى رَبَّاهُ جِبْرِيلُ كَافِر ... وَمُوسَى الذِى رَبَّاهُ فِرْعَوْنُ مُرْسَلُ

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾ ﴾

---

(١) قال ابن عباس : كان السامرى من قوم يعبدون البقر ، فوقع بأرض مصر فدخل فى دين بنى إسرائيل بظاهره ، وفى قلبه ما فيه من عبادة البقر : وقيل : كان رجلاً من القبط ، وكان جاراً لموسى آمن به وخرج معه . وقيل : كان عظيماً من عظماء بنى إسرائيل ، من قبيلة تعرف بالسامرة وهم معروفون بالشام . [تفسير القرطبى ٦/٤٤٠٧] .

(٢) قال ابن عباس فى قوله تعالى عن السامرى : ﴿ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ .. ﴿٩٦﴾ ﴾ [طه] : « عرف السامرى جبريل ، لأن أمه حين خافت أن يذبح خلفته فى غار وأطبقت عليه ، فكان جبريل يأتيه فيغذوه بأصابعه ، فى واحدة لبناً ، وفى الأخرى عسلاً ، وفى الأخرى سمناً ، فلم يزل يغذوه حتى نشأ ، فلما عاينه فى البحر عرفه » .

رَجَعَ : تُستعمل لازمة . مثل : رجع فلان إلى الحق . ومُتعدِّية مثل ﴿فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَئْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ .. (٨٣)﴾ [التوبة] والمعنى فيهما مختلف .

هنا رجع موسى أى : حين سمع ما حدث لقومه من فتنة السامرى ﴿غَضْبَانَ أَسِفًا .. (٨٦)﴾ [طه] أى : شديد الحزن على ما حدث ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا .. (٨٦)﴾ [طه] الوعْد الحسن أن الله يعطيهم التوراة ، وفيها أصول حركة الحياة ، وبها تَحسُن حياتنا فى الدنيا ، ويحسُن ثوابنا فى الآخرة .

وقوله : ﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ .. (٨٦)﴾ [طه]

يعنى : أطال عهدى بكم ، وأصبح بعيداً لدرجة أنْ تنسَوْه ، ولم أغبْ عنكم إلا مُدَّة يسيرة . قال الله عنها : ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ .. (١٤٢)﴾ [الأعراف]

ثم يقول : ﴿أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى (٨٦)﴾ [طه]

وما دام أن عهدى بكم قريب لا يحدث فيه النسيان ، فلا بُدَّ أنكم تريدون العصيان ، وتبغُون غضب الله ، وإلاّ فالمسألة لا تستحق ، فبمجرد أنْ أغيبَ عنكم تنتكسون هذه النكسة ، وإن كان هذا حال القوم ورسولُهم ما زال بين أظهرهم ، فما بالهم بعد موته ؟

لذلك كان النبى ﷺ يقول : « أذلك وأنا بين ظَهْرانيكم ؟»[1] .

أى : ما هذا الذى يحدث منكم ، وأنا ما زلت موجوداً بينكم ؟

---

(١) أخرج النسائى فى سننه (١٤٢/٦) كتاب الطلاق من حديث محمود بن لبيد قال : أُخْبِر رسول الله ﷺ عن رجل طلق امرأته ثلاث تطليقات جميعاً فقام غضباناً ، ثم قال : أيُلعب بكتاب الله وأنا بين أظهركم حتى قام رجل وقال : يا رسول الله ، ألا أقتله .

وقوله : ﴿فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى (٨٦)﴾ [طه] وفى آية أخرى قال : ﴿بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنْ بَعْدِى .. (١٥٠)﴾ [الأعراف] فكأنه كان له معهم وَعْد وكلام ، فقد أوصاهم قبل أن يُفارقهم أنْ يسلكوا طريق هارون ، وأن يطيعوا أوامره إلى أنْ يعود إليهم ، فهارون هو الذى سيخلفه من بعده فى قومه ، وهو شريكه فى الرسالة ، وله مهابة الرسول وطاعته واجبة .

هذا هو الوَعْد الذى أخلفوه مع نبيهم موسى - عليه السلام -.

﴿قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ (٨٧)﴾

مادة « ملك » لها صور ثلاثة ، لكل منها معنى ، وليست بمعنى واحد كما يدَّعى البعض ، فتأتى مَلْك بفتح الميم ، ومِلْك بكسرها ، ومُلْك بضم الميم ، وجميعها تفيد الحيازة والتملُّك ، إلا أن مَلْك تعنى تملك الإنسان لنفسه وذاته وإرادته ، دون أنْ يملكَ شيئاً آخر ممَّا حوله .

ومِلْك : لتملك ما هو خارج عن ذاتك .

ومُلْك : أنْ تملك شيئاً ، وتملك مَنْ ملكه .

إذن : هذه الثلاثة ليستْ مترادفات بمعنى واحد . فقوله تعالى : ﴿قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا .. (٨٧)﴾ [طه] أى : بإرادتنا ، بل أمور أخرى خارجة عن إرادتنا حملتنا على إخلاف الوعد ، فما هذه الأمور الخارجة عن إرادتكم ؟

قالوا : ﴿وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ .. (٨٧)﴾ [طه] (أَوْزَاراً) جمع وِزْر ، وهو الشىء الثقيل على النفس ، ويطلق الوِزْر على الإثم ؛ لأنه ثقيل على النفس ثِقَلاً يتعدىَ إلى الآخرة أيضاً ،

حيث لا ينتهى ألم الحمْل فيها ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلاً (١٠١)﴾ [طه]

وكانت هذه الأوزار من زينة القوم : أى : قوم فرعون . وقالوا : إنهم كانوا فى أعيادهم يستعيرون الحُلىّ من جيرانهم ومعارفهم من قوم فرعون يتزيَّنون بها . فلماذا لم يردُّوا الأمانات هذه إلى أصحابها قبل أنْ يخرجُوا إلى الميقات الذى واعدهم عليه ؟

قالوا : لأنهم أرادوا أنْ يُسرُّوا ساعة خروجهم حتى لا يستعد لهم أعداؤهم ، ويصدُّوهم عن الخروج فأعجلوا عن رَدِّها .

وقال قوم : إن هذه الزينات والحلىّ كانت مما قذف به البحر بعد أنْ غرق فرعون وقومه ، لكن هذا القول مردود ؛ لأنهم إنْ أخذوها بعد أنْ أَلْقَى بها البحر فسوف تكون أسلاباً لا أوزاراً .

ثم يقول تعالى : ﴿فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ (٨٧)﴾ [طه]

إذا أُطلقَتْ الزينة تنصرف عادةً إلى الذهب . والقَذْف هو الرَّمْى بشدة ، وكأن الرامى يتأفّف أنْ يحمل المرمىّ ، وفى ذلك دلالة على أن بنى إسرائيل ما يزال عندهم خميرة إيمان ، فتألموا وحزنوا لأنهم لم يردُّوا الأمانات إلى أهلها .

لذلك دخل عليهم السامرى من هذه الناحية ، فأفهمهم : إنكم لن تبرأوا من هذه المعصية إلا أنْ ترمُوا بهذه الزينة فى النار[1] ، وهو يقصد شيئاً آخر ، هو أنْ ينصهر الذهب ، ويُخرِج ما فيه من الشوائب ﴿فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى

---

(١) أورد القرطبى فى تفسيره (٦/٤٤٠٨) نحو هذا من قول قتادة : إن السامرى قال لهم حين استبطأ القوم موسى : إنما احتبس عليكم من أجل ما عندكم من الحلى ، فجمعوه ودفعوه إلى السامرى فرمى به فى النار ، وصاغ لهم منه عجلاً ، ثم ألقى عليه قبضة من أثر فرس الرسول وهو جبريل عليه السلام .

السَّامِرِيُّ (٨٧) ﴾ [طه] أى : ألقى ما معه من الحُلىّ ، لكن فَرْق بين القَذْف والإلقاء ، الإلقاء فيه لُطْف وتمهُّل ، فهو كبيرهم ومُعلِّمهم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ (١) فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ (٨٨) ﴾

أى : أخرج لهم من هذا الذهب المنصهر ﴿ عِجْلاً جَسَدًا .. (٨٨) ﴾ [طه] كلمة جسد وردتْ أيضاً فى القرآن فى قصة سليمان عليه السلام ، حيث قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ (٣٤) ﴾ [ص]

وقد أعطى الله سليمان مُلْكاً عظيماً لا ينبغى لأحد من بعده ، فسخَّر له الطير والجنَّ والإنس والريح يأتمرون بأمره ، ويبدو أنه أخذه شىء من الزَّهْو أو الغرور ، فأراد الحق سبحانه أنْ يلفته إلى مانح هذا الملْك ويُذكِّره بأن هذا الملْك لا يقوم بذاته ، إنما بأمر الله القادر على أن يُقعدك على كُرسيِّك جسداً ، لا حركة فيه ولا قدرة له حتى على جوارحه وذاته .

كما ترى الرجل ـ والعياذ بالله ـ قد أصابه شلل كُلىٌّ أقعده جسداً ، لا حركة فيه ، ولا إرادةَ على جوارحه . فإذا لم تكن له إرادة على جارحة واحدة من جوارحه ، أفتكون له إرادة على الخارج عنه من طير أو إنس أو جن ؟

---

(١) الخوار : صوت الثور وما اشتد من صوت البقرة والعجل . وقد خار يخور : صاح . [لسان العرب ـ مادة : خور] .

فلا تغتر بأنْ جعل الله لك إمْرة على كل الأجناس ؛ لأنه قادر أنْ يسلبكَ هذا كله .

ويُروَى[1] أن سليمان ـ عليه السلام ـ ركب بساط الريح يحمله إلى حيث يريد ، كما قال تعالى : ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ .. (١٢)﴾ [سبأ] فَداخَله شيء من الفخر والزَّهْو ، فسمع من تحته مَنْ يقول : يا سليمان ـ هكذا دون ألقاب ـ أُمِرْنا أنْ نطيعك ما أطعتَ الله ، ثم رَدَّه حيث كان .

لذلك استغفر سليمان ـ عليه السلام ـ وأناب .

وكذلك نرى الإنسان ساعة أنْ يموتَ أولَ ما يُنسَى منه اسمه ، فيقولون : الجثة : الجثة هنا ، ماذا فعلتم بالجثة ، ثم تُنسَى هذه أيضاً بمجرد أن يُوضَع فى نعشه فيقولون الخشبة : أين الخشبة الآن ، انتظروا الخشبة .. سبحان الله بمجرد أنْ يأخذ الخالق ـ عز وجل ـ سِرَّه من العبد صار جثة ، وصار خشبة ، فما هذه الدنيا التى تكون نهايتها هكذا ؟

ففى قوله تعالى ﴿عِجْلاً جَسَداً لَّهُ خُوَارٌ .. (٨٨)﴾ [طه] أى : لا حركة فيه ، فهو مجرد تمثال . صُنِع على هيئة معينة ، بحيث يستقبل الريح ، فيحدث فيه صفيراً يشبه الخوار أى : صوت البقر .

لكن ، لماذا فكَّر السامرى هذا التفكير ، واختار مسألة العجل هذه ؟

---

(١) أخرج الخطيب البغدادى فى رواية مالك عن سعيد بن المسيب ـ رضى الله عنه ـ قال : كان سليمان عليه السلام يركب الريح من اصطخر ، فيتغدى ببيت المقدس ، ثم يعود فيتعشى باصطخر . أورده السيوطى فى الدر المنثور (٦/٦٧٧) .

قالوا : لأن السامرى استغلَّ تشوُّق بنى إسرائيل ، وميلهم إلى الصَّنمية والوثنية ، وأنها متأصلة فيهم . ألم يقولوا لنبيهم عليه السلام وما زالت أقدامهم مُبتلة من البحر بعد أن أنجاهم الله من فرعون ، وكان جديراً بهم شكر الله ، فإذا بهم يقولون وقد أتَوْا على قوم يعكفون على أصنام لهم : ﴿يَـٰمُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ .. (١٣٨)﴾ [الأعراف]

فجاءهم بهذا العجل ، وقد ترقَّى به من الصنمية ، فجعله جسداً ، وجعل له خواراً وصَوْتاً مسموعاً .

ثم يقول تعالى : ﴿فَقَالُوا هَـٰذَا إِلَـٰهُكُمْ وَإِلَـٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ (٨٨)﴾ [طه] أى : نسى السامرى خميرة الإيمان فى نفسه ، ونسى أن هذا العمل خروجٌ عن الإيمان إلى الكفر ، ولَيْتَه يكفر فى ذاته ، إنما هو يكفر ويُكفِّر الناس . لا بُدَّ أنه نسى ، فلو كان على ذُكْر من الإيمان ومن عاقبة عمله وخيبة ما أقدم عليه ما فعل[1] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا (٨٩)﴾

أى : كيف يعبدون هذا العجل ، وهو لا يردّ عليهم جواباً ، ولا يملك لهم شيئاً ، كما قال تعالى فى آية أخرى : ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (٧٠) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا

---

(١) وقد قيل فى هذه الآية تأويل آخر ذكره القرطبى فى تفسيره (٤٤٠٩/٦) وابن كثير فى تفسيره (١٦٢/٣) ومؤدى هذا أنه من كلام السامرى عن موسى أنه ضل وذهب يطلب إلهه وهو هنا . وعن ابن عباس قال : « أى فنسى موسى أن يذكر لكم أنه إلهه » .

عَاكِفِينَ (٧١) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (٧٣) ﴾ [الشعراء]

فَمنْ كان لديه ذرة من عقل لا يُقدم على هذه المسألة ؛ لذلك فالحق ـ سبحانه ـ يناقش هؤلاء : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ .. (٢٨) ﴾ [البقرة]

أى : أخبرونا بالطريق الذى يحملكم على الكفر ، كأنها مسألة عجيبة لا يقبلها العقل ولا يُقرُّها . ألم يخطر ببال هؤلاء الذين عبدوا العجل أنه لا يردّ عليهم إنْ سألوه ، ولا يملك لهم ضَرًّا إنْ كفروا به ، ولا نفعاً إن آمنوا به وعبدوه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى (٩٠) ﴾

وكان هارون ـ عليه السلام ـ خليفة لأخيه فى غَيْبته ، كما قال تعالى : ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ لأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ (١٤٢) ﴾ [الأعراف]

اخْلُفْنى واعمل الصالح ، فكان هذا تفويضاً من موسى لأخيه هارون أن يقضى فى القوم بما يراه مناسباً ، وأنْ يُقدِّر المصلحة كما يرى . وقد شُفِع هذا التفويض لهارون أمام أخيه بعد ذلك .

فقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَـٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ .. (٩٠) ﴾ [طه]

وهكذا وعظهم هارون على قَدْر استطاعته ، وبيّن لهم أن مسألة

العِجْل هذه اختبار من الله . وكان تقديره فى هذه القضية ألاَّ يدخل معَ هؤلاء فى معركة ؛ لأن القومَ كانوا جميعاً ثلاثمائة ألف ، عبد العجل منهم اثنا عشر ألفاً ، ولو جعلها هارون - عليه السلام - معركة لأفْنى كل هذا العدد .

لذلك اكتفى بالوعظ ﴿يَـٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَـٰنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي (٩٠)﴾ [طه] كما أخذتم العهد عند موسى .

﴿قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَـٰكِفِينَ(١) حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ (٩١)﴾

﴿لَن نَّبْرَحَ .. (٩١)﴾ [طه] . أى : سنظل على هذا الحال ، البعض يظن أنها للمكان فقط ، إنما هى حَسْب ما تتعلق به ، تقول : لا أبرح سائراً حتى أصلَ لغرضى ، ولا أبرح هذا المكان فقد تكون للمكان ، وقد تكون للحال . كما ورد فى القرآن :

- للمكان والإقامة فى قوله : ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي .. (٨٠)﴾ [يوسف]

- وللحال فى قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ .. (٦٠)﴾ [الكهف] أى : لا أبرح السير .

فالمعنى ﴿لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ .. (٩١)﴾ [طه] سنظلّ على عبادته حتى يرجع موسى ، فلن نمكثَ هذه الفترة دون إله .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿قَالَ يَـٰهَـٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (٩٢) أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي (٩٣)﴾

---

(١) أى : يقيمون عندها لعبادتها . [القاموس القويم ٢/٣١] .

هذا حوار دار بين موسى وأخيه هارون ﴿مَا مَنَعَكَ .. (٩٢)﴾ [طه] وقد وردتْ هذه الكلمة فى القرآن بأُسْلوبين : الأول : قوله تعالى : ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ .. (٧٥)﴾ [ص] أى : ما منعك من السجود .

والآخر : ﴿مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ .. (١٢)﴾ [الأعراف] . أى : ما منعك أن لا تسجد ؛ لأن المانع قد يكون قَهْراً عنك ، وأنت لا تريد أن تفعل ، وقد يأتى آخر فيُقنعك أن تفعل . فمَرّة يُرغمك : أنت لا تريد أنْ تسجد يقول لك : اسجدَ . إذن : منعك أن تسجد يعنى قهراً عنك ، لكن أقنعك أن تسجد أنت باختيارك فقد منعك ألاَّ تسجد .

إذن : مرة من النفس ، ومرة من الغير ، وهكذا يلتقى الأسلوبان .

فقوله : ﴿مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (٩٢) أَلاَّ تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى (٩٣)﴾ [طه] أى : من اتباعى ، لكن هل موسى عليه السلام هنا يستفهم ؟ الحقيقة أنه لا يريد الاستفهام ، فقد تخاطب إنساناً بذنب ، وأنت لا تعلم ذنبه ، إنما تخاطبه بصورة الذَّنْب لتسمع الردَّ منه ، فيكون رَدّاً على مَنْ يعترض عليه .

ومن ذلك ما كان من سيدنا عمر ـ رضى الله عنه ـ عند الحجر الأسود ، فلما قَبَّله قال : « اللهم إنى أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا أنِّى رأيت رسول الله يُقبِّلك ما قبَّلتُك »[1] .

إذن : قبّله عمر ؛ لأن رسول الله ﷺ قبَّله ، إلا أنه جاء بهذا الكلام ليعطينا الجواب المستمر على مَرِّ التاريخ لكل مَنْ يسأل عن تقبيل الحجر .

---

(١) أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه (١٢٧٠) كتاب الحج . قال النووى فى شرحه : « وإنما قال : وإنك لا تضر ولا تنفع . لئلا يغتر بعض قريبى العهد بالإسلام الذين كانوا ألفوا عبادة الأحجار وتعظيمها ورجاء نفعها » .

وهنا أثارها موسى شبهة ؛ كى نسمع نحن الجواب ، ولنسمع الردّ من صاحب الشأن باقياً سائراً فى طول الأزمان .

﴿ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾ ﴾

(١) (٢)

إذن : صاحبَ خطابَ موسى لأخيه هارون فعْل نزوعىٌّ وحركة ، فهمناها من قول هارون : ﴿ يَبْنَؤُمَّ لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلا بِرَأْسِي .. ﴿٩٤﴾ ﴾ [طه]

ثم ذكر العلة ﴿ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾ ﴾ [طه] يقصد قول أخيه : ﴿ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ ﴾ [الأعراف]

فذكّره بالتفويض الذى أعطاه إياه ، وقد اجتهد هارون حَسْب رؤيته للموقف ، ونأى بالقوم عن معركة ربما انتهتْ بالقضاء على خَلية الإيمان فى بنى إسرائيل ، اجتهد فى إطار ﴿ وَأَصْلِحْ ﴿١٤٢﴾ .. ﴾ [الأعراف]

إذن : أثار موسى هذه القضية مع أخيه ، لا ليسمع هو الرد ، وإنما ليُسمع الدنيا كلّها على مَرِّ التاريخ .

ثم ينقل موسى الخطاب إلى رأس هذه الفتنة :

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾ ﴾

أى : ما شأنك ؟ وما قصتك ؟

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (١٦٣/٣) : « ترقق له بذكر الأم مع أنه شقيقه لأبويه ، لأن ذكر الأم ههنا أرق وأبلغ فى الحنو والعطف » .

(٢) قال ابن عباس : أخذ شعره بيمينه ولحيته بيساره . [تفسير القرطبى ٤٤١٢/٦] .

والخَطْب : يُقال فى الحدَث المهم الذى يُسمُّونه الحدَث الجلَل ، والذى يُقال فيه « خطب » ، فليس هو الحدث العابر الذى لا يقف عنده أحد .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ[1] يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ .. (٥١)﴾ [يوسف]

وما حكاه القرآن من قول موسى ـ عليه السلام ـ لابنتَىْ شعيب : ﴿مَا خَطْبُكُمَا .. (٢٣)﴾ [القصص]

ثم يقول الحق سبحانه عن السامرى :

﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا[2] وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي (٩٦)﴾

مادة : بَصُر منها أبصرت للرؤية الحسية ، وبصرت للرؤية العلمية أى : بمعنى علمتُ .

فمعنى ﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ .. (٩٦)﴾ [طه] يعنى : اقتنعتُ بأمر هم غير مقتنعين به ، فأنا فعلتُ وهم قلَّدونى فيما فعلتُ من مسألة العِجْل .

---

(١) راوده على الشىء مراودة : طلبه منه بجهد وحيلة ومساومة ، وقوله تعالى : ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ .. (٢٣)﴾ [يوسف] : أى طلبت منه نفسه فى محاولة ومخادعة ، ليتجاوز وينزل عن كبرياء نفسه وشرفها وعفتها ، وهى كناية عن طلب المعاشرة الجنسية . [القاموس القويم ١/٢٨١] .

(٢) نبذ الشىء : ألقاه ورماه . [القاموس القويم ٢/٢٥١] والنبذ : طرحك الشىء من يدك أمامك أو وراءك . [لسان العرب ـ مادة : نبذ] .

وقد أدَّى به اجتهاده إلى صناعة العجل ؛ لأنه رأى قومه يحبون الأصنام ، وسبق أنْ طلبُوا من موسى أن يجعل لهم إلهاً لما رأوا قوماً يعبدون الأصنام ، فانتهز السامرىُّ فرصة غياب موسى ، وقال لهم : سأصنع لكم ما لم يستطع موسى صناعته ، بل وأزيدكم فيه ، لقد طلبتم مجرد صنم من حجارة إنما أنا سأجعل لكم عِجْلاً جَسَداً من الذهب ، وله صوت وخُوَار مسموع .

وقوله : ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا .. (٩٦)﴾ [طه] قبض على الشىء : أخذه بجُمْع يده . ومثلها : قَبص[١] .

وقوله : ﴿مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ .. (٩٦)﴾ [طه] للعلماء فى هذه المسألة روايات متعددة . منها : أن السامرى حين كان جبريل عليه السلام يتعَهَّده وهو صغير ، كان يأتيه على جواد فلاحظ السامرى أن الجواد كلما مَرَّ على شىء اخضرّ مكان حافره ، ودَبَّتْ الحياة فيه ، لذلك : فأصحاب هذا القول رأوْا أن العجل كان حقيقياً ، وله صوت طبيعى ليس مجرد مرور الهواء من خلاله[٢] .

ورأى آخر يقول : ﴿مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ .. (٩٦)﴾ [طه] الرسول كما نعلم هوالمبلِّغ لشرع الله المباشر للمبلّغ ، أما جبريل فهو رسول للرسول ، ولم يَرَه أحد فأُطلقت الرسول على حامل المنهج إلى المتكلّم به ، لكنها قد تُطلق ويُراد بها التهكّم ، كما جاء فى قوله تعالى :

---

(١) وهى قراءة للحسن البصرى . فقد أخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عن الحسن أنه كان يقرؤها « فقبصت » بالصاد ، قال : والقبص بأطراف الأصابع . [أورده السيوطى فى الدر المنثور ٥/٥٩٦] .

(٢) لهذا قالوا : معنى ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ .. (٩٦)﴾ [طه] أى : من أثر فرسه . قال ابن كثير فى تفسيره (٣/١٦٣) : « هذا هو المشهور عند كثير من المفسرين أو أكثرهم » .

﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ .. ﴿٧﴾﴾ [المنافقون]
فيقولون : رسول الله تهكماً لا إيماناً بها .

وكذلك في قوله تعالى : ﴿وَقَالُوا مَا لِهَـٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ .. ﴿٧﴾﴾ [الفرقان]

إذن : قد يُرَاد بها التهكّم .

لكن ، ما المراد بأثر الرسول ؟ الرسول جاء لِيُبلِّغ شرعاً من الله ، وهذا هو أثره الذى يبقى من بعده . فيكون المعنى : قبضتُ قبضة من شرع الرسول ، قبضة من قمته ، وهى مسألة الإله الواحد الأحد المعبود ، لا صنمَ ولا خلافه .

وقوله تعالى : ﴿فَنَبَذْتُهَا ..﴿٩٦﴾﴾ [طه] أى : أبعدتُها وطرحتها عن مُخيِّلتى ، ثم تركتُ لنفسى العنان فى أن تفكر فيما وراء هذا .

بدليل أنه قال بعدها ﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿٩٦﴾﴾ [طه] أى : زيَّنتها لى ، وألجأتنى إلى معصية . فلا يقال : سوَّلَتْ لى نفسى الطاعة ، إنما المعصية وهى أن يأخذ شيئاً من أثر الرسول ووَحْيه الذى جاء به من الله ، ثم يطرحه عن منهجه ويُبعده عن فِكْره ، ثم يسير بِمَحْض اختياره .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُ ۖ وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾﴾

كان ردّ موسى ـ عليه السلام ـ على هذه الفعْلة من السامرى : جزاؤك أن تذهب ، ويكون قولك الملازم لك ﴿لا مِسَاسَ .. (٩٧)﴾ [طه] والمِسَاس أى : المسّ . المعنى يحتمل : لا مساس مِنّى لأحد ، أو لا مَساسَ من أحد لى .

ذلك لأن الذين يفترون الكذب ويدَّعُون أن لهم رسالة ولهم مهمة الأنبياء ، حظُّهم من هذا كله أن تكون لهم سُلْطة زمنية ومكانة فى قلوب الناس ، وأن يكون لهم مذهب وأتباع وأشياع .

لذلك تراهم دائماً ـ فى سبيل الوصول إلى هذه الغاية ـ يتحللون من المنهج الحق ، ويستبدلونه بمناهج حَسْب أهوائهم ، فيميلون إلى تسهيل المنهج وتبسيطه ، ويُعطون لأتباعهم حريةً ما أنزل الله بها من سلطان ، كالذى خرج علينا يُبيح للناس الاختلاط بين الرجال والنساء .

ومن العجيب أن تجد لهذه الأفكار أنصاراً يؤمنون بها ويُطبِّقونها ، لا من عامة الناس ، بل من المثقفين وأصحاب المناصب . فكيف تحجب عنهم المرأة ، وهى نصف المجتمع ؟

إذن : ما أجملَ هذا الدين ومَا أيسره على الناس ، فقد جاء على وَفْق أهوائهم وشهواتهم ، ووسَّع لهم المسائل ، فالنفس تميل بطبعها إلى التدين ؛ لأنها مفطورة عليه ، لكن تريد هذا الدين سَهْلاً لا مشقةَ فيه ، حتى وإنْ خالف منهج الله .

لذلك تجد مثلاً مسيلمة وسجاح وغيرهما من مُدَّعى النبوة يُخفِّفون عن أتباعهم تكاليف الشرع فى الصلاة والصوم ، أما الزكاة فهى ثقيلة على النفس فلا داعىَ لها . وإلاَّ فما الميْزة التى جاءوا بها

ليتبعهم الناس ؟ وما وسائل التشجيع لاتباع الدين الجديد ؟

وهكذا يصبح لهؤلاء سُلْطة زمنية ومكانة ، وأتباع ، وجمهور ، إذن : الذى أفسد حياته أن يجد العزَّ والمكانة فى انصياع الناس له وتبعيتهم لأفكاره ، فيعاقبه الله بهم ، ويجعل ذُلَّه على أيديهم وفتنته من ناحيتهم ، فهم الذين أعانوه على هذا الباطل ، فإذا به يكرههم ويبتعد بنفسه عنهم ، لدرجة أن يقول ﴿لا مِسَاسَ .. (٩٧)﴾ [طه] كأنه يفِرُّ منهم يقول : إياك أنْ تقربَ منِّى أو تمسَّنى .

لقد تحول القُرْب والمحبة إلى بُعْد وعداوة ، هذه الجمهرة التى كانت حوله وكان فيها عزُّه وتسلُّطه يفرُّ منها الآن ، فهى سبب كَبْوته ، وهى التى أعانَتْه على معصية الله .

وهكذا ، كانت نهاية السامرىّ أن ينعزل عن مجتمعه ، ويهيم على وجهه فى البرارى ، ويفرّ من الناس ، فلا يمسّه أحد ، بعد أنْ صدمه الحق ، وواجهتْه صَوْلته .

وما أشبهَ هذا الموقف بما يحدث لشاب متفوق مستقيم يُغريه أهل الباطل ، ويجذبونه إلى طريقهم ، وبعد أن انخرط فى سلْكهم وذاق لذة باطلهم وضلالهم إذَا به يصحو على صدمة الحق التى تُفيقه ، ولكن بعد أن خسر الكثير ، فتراه بعد ذلك يفِرُّ من هذه الصُّحْبة وينأى بنفسه عن مجرد الاقتراب منهم .

لذلك من الذين اختاروا دينهم وَفْق أهوائهم عبدة الأصنام ، فإن كانت العبادة أنْ يطيع العابدُ معبوده ، فما أيسرَ عبادة الأصنام ؛ لأنها آلهة بدون تكليف ، وعبادة بدون مشقة ، لا تقيد لك حركة ، ولا تمنعك من شهوة ، وإلا فماذا أعدَّتْ الأصنام من ثواب لمَنْ عبدها ؟ وماذا أعدَّتْ من عذاب لمن كفر بها ؟

فكأن الحق ـ تبارك وتعالى ـ قال للسامرى : ستُعاقب بنفس المجتمع الذى كنت تريد منه العزّة والسُّلْطة والسيطرة والذكر ، فتتبرأ أنت منهم وتفرّ من جوارهم ، ولا تتحمل أنْ يمسَّك أحد منهم ، فهم سبب بلائك ، ومصدر فتنتك ، كما قال تعالى : ﴿الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ (٦٧)﴾ [الزخرف]

فأخلاءُ الباطل ، وصُحْبَة السوء الذين يجتمعون على معصية الله فى سهرات مُحرَّمة عليهم أنْ يحذروا هذا اللقاء . أما الخُلّة الحقيقية الصادقة فهى للمتقين ، الذين يأتمرون بالحق ، ويتواصَوْن بطاعة الله .

وفَرْق بين مَنْ يقاسمك الكأس ومَنْ يكسرها ويُريقها قبل أنْ تذوقها ، فَرْق بين مَنْ يلهيك عن الصلاة ومَنْ يحثُّك عليها ، فَرْق بين مَنْ يُسعدك الآن بمعصية ومَنْ يحملك على مشقّة الطاعة ، فانظر وتأمَّلْ .

ثم يقول : ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِداً لَّن تُخْلَفَهُ .. (٩٧)﴾ [طه] أى : ما ينتظرك من عذاب الآخرة

﴿وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَـٰهِكَ الَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِى الْيَمِّ نَسْفًا (٩٧)﴾ [طه]

(عَاكِفاً) أى : مقيماً على عبادته ، والاعتكاف : الإقامة فى المسجد ، والانقطاع عن المجتمع الخارجى .

ومعنى ﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُ .. (٩٧)﴾ [طه] أى : نُصيِّره كالمحروق ، بأنْ نبردَه بالمبرد حتى يصبح فُتاتاً وذرات متناثرة ، بحيث يمكن أن نذروه فى الهواء ﴿ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِى الْيَمِّ نَسْفًا (٩٧)﴾ [طه] أى : نذروه كما

يفعل الفلاحون حين يذرون الحبوب لفَصْل القشْر عنها بآلة تسمى (المنسف)[1] تشبه الغربال ، وقد استبدلوا هذه الأدوات البدائية الآن بآلات ميكانيكية حديثة تُؤدِّى نفس الغرض .

ذلك لأن إلهَ السَّامرى كان هذا العجل الذى اتخذه من ذهب ، فلا يناسبه الحرق فى النار ، إنما نريد له عملية أخرى ، تذهب به من أصله ، فلا نُبقِى له على أثر . وهذا هو إلهك الذى عبدته إنْ أفلح كان يدافع عن نفسه ويحمى رُوحَه .

وبعد أن بَيَّن الحق ـ سبحانه ـ وَجْه البطلان فيما فعله السامرى ، ومَنْ تبعه من القوم ، عاد ليذكِّرهم بمنطقه الحق وجادة الطريق ، وأن كلَّ ما فعلوه هراء فى هراء :

﴿ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾ ﴾

الحق ـ تبارك وتعالى ـ حينما يقول : ﴿لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ .. (٩٨)﴾ [طه] نقولها نحن هكذا ، ونشهد بها ، فقد تعلَّمناها من رسول الله ﷺ الذى سمعها من ربه ونقلها إلينا ، فهى الشهادة بالوحدانية الحقّة ، شهادة من الله لذاته أولاً : ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ .. (١٨)﴾ [آل عمران]

فهذه شهادة الذات للذات قبل أنْ يخلق شاهداً يشهد بها . ثم شهدتْ له بذلك الملائكة شهادةَ المشهد أنه لا إله غيره ، ثم شهد

---

(١) ذكره ابن منظور فى [لسان العرب ـ مادة : نسف] فقال : « نسف الشىء ، وهو نسيف : غربله ، والنسف : تنقية الجيد من الردىء . ويقال لمنخل مُطوّل : المِنْسف ، والمنسفة : الغربال » .

بذلك أولو العلم شهادة استدلال بالمخلوقات التى رأوْها على أبدع نظام وأعجبه ، ولا يمكن أن ينشأ هذا كله إلا عن إله قادر .

وقد سلمتْ لله تعالى هذه الدَّعْوى ؛ لأنها قضية صادقة شَهِد بها سبحانه لنفسه ، وشَهِد بها الملائكة وأولو العلم ولم يَقُمْ لها معارض يدَّعِيها لنفسه .

وإلا ـ والعياذ بالله ـ أين ذلك الإله الذى أخذ الله تعالى منه الألوهية ؟ فإما أنْ يكون لا يعلم ، أو علِم بذلك ولم يعترض ، وفى كلتا الحالتين لا يستحق أن يكون إلهاً . والدَّعْوى إذا لم تُجْبَه بمعارض فقد سلمتْ لصاحبها ، إلى أن يُوجَد المعارض .

وكأن الحق سبحانه قال : لا إله إلا أنا ، وأنا خالق الكون كله ومُدبِّر أمره ، ولم يَأْتِ أحد حتى من الكفار يدَّعى شيئاً من هذا . وقد ضربنا لهذه المسألة مثلاً ـ ولله المثل الأعلى ـ : هَبْ أنه نزل عندك مجموعة ضيوف وزوار ، وبعد انصرافهم وجدتَ حافظة نقود فسألتَ عن صاحبها ، فلم يدَّعِها أحد إلى أنْ قال واحد منهم : هى لى ، إذن : فهو صاحبها ، وهو أحقُّ بها حيث لم يَقُمْ له معارض .

لذلك يقول تعالى : ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً (٤٢)﴾ [الإسراء]

يعنى إنْ كان هناك آلهة أخرى فلا بُدَّ أنْ يذهبوا إلى صاحب العرش ، إما ليخضعوا له ويستلهموا منه القدرة على فعْل الأشياء ، أو ليُحاسبوه ويُحاكموه : كيف يدَّعى الألوهية وهم آلهة ؟ ولم يحدث شىء من هذا كله ، ولا أقام أحد دليلاً على أنه إله ، والدَّعْوى إذا لم يَقُمْ عليها دليل فهى باطلة .

وينفى الحق سبحانه وجود آلهة أخرى ، فيقول في موضع آخر : ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَـهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ .. (٩١)﴾ [المؤمنون]

فهذا إله للسماء ، وهذا إله للأرض ، وهذا للجن ، وهذا للإنس .. إلخ ، وبذلك تكون الميْزة فى أحدهم نقصاً فى الآخر ، والقدرة فى أحدهم عجزاً فى الآخر ، وهذا لا يليق فى صفات الألوهية .

ونلحظ هنا فى قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا إِلَـهُكُمُ اللَّهُ .. (٩٨)﴾ [طه] أن كلمة (إله) لا تعنى (الله) ، وإلا لو كان إلهاً بمعنى الله لأصبح المعنى : إنما الله الله .

إذن : هناك فَرْق بين اللفظين : الله علَم على واجب الوجود الأعلى ، أما الإله فهو المعبود المطاع فيما يأمر ، فالمعنى : أن المعبود المطاع فيما يأمر به هو الله خالق هذا الوجود ، وصاحب الوجود الأعلى .

فالله تعالى هو المعبود المطاع بحقٍّ ، لأن هناك معبوداً ومطاعاً لكن بالباطل ، كالذين يعبدون الشمس والقمر والأشجار والأحجار ويُسمُّونهم آلهة ، فإذا كانت العبادة إطاعة أمر ونهى المعبود ، فبماذا أمرتْهم هذه الآلهة ؟ وعن أىِّ شىء نهتْهم ؟ وماذا أعدَّتْ لمن عبدها أو لمن كفر بها ؟ إذن : هى معبودة ، لكن بالباطل ؛ لأنها آلهة بلا منهج .

وكلمة ﴿إِنَّمَا .. (٩٨)﴾ [طه] لا تأتى إلا استدراكاً على باطل ، وتريد أن تُصوِّبه ، كأن تقول : إنما الذى حضر زيد ، فلا تقولها إلا مَن ادَّعى أن الذى حضر غير زيد ، فكأنك تقول : لا ، فلان لم يحضر ، إنما الذى حضر زيد .

فلا بُدَّ أن قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا إِلَـٰهُكُمُ اللَّهُ .. (٩٨)﴾ [طه] جاء رداً على كلام قيل يدَّعى أن هناك إلهاً آخر ، وإنما لا تُقال إلا إذا ادُّعِىَ أمر يخالف ما بعدها ، فتنفى الأمر الأول ، وتُثبت ما بعدها .

وهنا يقول : ﴿إِنَّمَا إِلَـٰهُكُمُ اللَّهُ .. (٩٨)﴾ [طه] لأن السامرىَّ لما صنع لهم العجل قال : ﴿هَذَا إِلَـٰهُكُمْ وَإِلَـٰهُ مُوسَى .. (٨٨)﴾ [طه] فكذَّبه الله واستدرك بالحقِّ على الباطل : ﴿إِنَّمَا إِلَـٰهُكُمُ اللَّهُ الَّذِى لا إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ .. (٩٨)﴾ [طه]

ثم أضاف الحق ـ تبارك وتعالى ـ ما يُفرِّق بين إله الحق وإله الباطل ، فقال : ﴿وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا (٩٨)﴾ [طه] لأنه سبحانه هو الإله الحق ، وهذه أيضاً رَدٌّ على السامرىّ وما اتخذه إلهاً من دون الله ، فالعجل الذى اتخذه لا علمَ عنده ، وكذلك السامرى الذى أمر الناس بعبادته ، فلو كان عنده علم لعرفَ أن عجْله سيُحرق ويُنسَف وتذروه الرياح ، ولعرفَ العاقبة التى انتهى إليها من قوله للقوم (لا مساس) ، وأنه سينزل به عذاب الدنيا قبل عذاب الآخرة ، فلو علم هذه الحقائق ما أقدمَ على هذه المسألة .

ووسع علم الله لكل شىء يعنى : مَنْ أطاع ومَنْ عصى ، لكن من رحمته تعالى بنا ألاَّ يحاسبنا عمَّا علم منّا ، بل يعلمنا حين ندعوه أن نقول : ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا .. (٧)﴾ [غافر] فسبقتْ رحمته تعالى سيئاتنا وذنوبنا ، وسبقت عذابه ونقمته ، وفى موضع آخر يقول عز وجل : ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ .. (١٥٦)﴾ [الأعراف]

فلو وقفنا عند ﴿وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا (٩٨)﴾ [طه] لأتعبتْنا هذه المسألة ؛ لأنه سيجازينا عن السيئة وعن الحسنة ، ومَنْ يطيق هذا ؟

● ● ●

ثم يُبيِّن الحق سبحانه حكمة القَصَص فى القرآن ، والقَصَص لون من التاريخ ، وليس مطلق التاريخ ، القصص تاريخ لشىء مشهود يهمنى وتفيدنى معرفته ، وإلا فمن التاريخ أن نقول : كان فى مكان كذا رجل يبيع كذا ، وكان يفعل كذا أو كذا .

إذن : فالقصص حدث بارز ، وله تأثيره فيمَنْ سمعه ، وبه تحدث الموعظة ، ومنه تؤخذ العبرة .

والتاريخ هو ربط الأحداث بأزمنتها ، فحين تربط أىَّ حدث بزمنه فقد أرَّخْتَ له ، فإذا كان حَدَثاً متميزاً نسميه قصة تُروَى ، فإنْ كانت قصة شهيرة تعلو على القصص كله نسميها سيرة ، لذلك خُصَّ باسم السيرة تاريخ قصة رسول الله ﷺ ؛ لأن القَصَص شىء مميز ، أما السيرة فهى أميز ، ورسول الله خاتم الأنبياء ؛ لذلك نقول عن تاريخه سيرة ولا نقول قصة ؛ لأن واقعه فى الحياة كان سَيْراً على منهج الله ، وعليه نزل القرآن ، وكان خُلقه القرآن .

والقصص يأتى مرة بالحدث ، ثم تدور حوله الأشخاص ، أو يأتى بشخصية واحدة تدور حولها الأحداث ، فإذا أردتَ أن تؤرخ للثورة العرابية مثلاً وضعت الحدث أولاً ، ثم ذكرتَ الأشخاص التى تدور حوله ، فإنْ أردتَ التأريخ لشخصية عرابى وضعت الشخصية أولاً ، ثم أدرت حولها الأحداث .

وقَصص القرآن يختلف عن غيره من الحكايات والقصص التى نسمعها ونحكيها من وضع البشر وتأليفهم ، فهى قصص مُخْتَرعة تُبنى على عُقْدة وَحلِّها ، فيأخذ القاصُّ حدثاً ، ثم ينسج حوله أحداثاً من خياله .

وبذلك يكونون قد أخذوا من القصص اسمه ، وعدلوا عن مُسمَّاه ، فهم يُسمُّون هذا النسيج قصة ، وليست كذلك ؛ لأن قصة من قصَّ الأثر أى : مشى على أثره وعلى أقدامه ، لا يميل عنها ولا يحيد هنا أو هناك .

فالقصة - إذن - التزام حدثىٌّ دقيق لا يتحمل التأليف أو التزييف ، وهذا هو الفَرْق بين قَصَص القرآن الذى سماه الحق سبحانه وتعالى : ﴿الْقَصَصُ الْحَقُّ .. (٦٢)﴾ [آل عمران] و ﴿أَحْسَنَ الْقَصَصِ .. (٣)﴾ [يوسف] وبين قَصَص البشر وتآليفهم .

القصص الحقُّ وأحسن القصص ؛ لأنه ملتزم بالحقيقة لا يتجاوزها ، وله غاية سامية أسْمى من قَصَص دنياكم ، فقَصَص الدنيا غايته وخلاصته - إن أفلح - أن يحميك من أحداث الدنيا ، أما قصص القرآن فحمايته أوسع ؛ لأنه يحميك فى الدنيا والآخرة .

فإنْ رأيتَ فى قصص القرآن تكراراً فاعلم أنه لهدف وغاية ، وأنها لقطات شتَّى لجوانب الحدَث الواحد ، فإذا ما تجمعتْ لديك كل اللقطات أعطتك الصورة الكاملة للحدث .

وهنا يقول تعالى :

﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا (٩٩)﴾

وفى موضع آخر قال تعالى : ﴿وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ .. (١٢٠)﴾ [هود]

فكأن فؤاده ﷺ كان فى حاجة إلى تثبيت ؛ لأنه سيتناول كل

أحداث الحياة ، وسيتعرض لما تشيب لهَوْله الرؤوس ، ألم يَقُلْ الحق تبارك وتعالى عن الرسل قبله : ﴿وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ .. (٢١٤)﴾ [البقرة]

ألم يُضطهد رسول الله والمؤمنون ويُضربوا ويُحاصروا فى الشِّعْب بلا مأوى ولا طعام ، حتى أكلوا الجلود وأوراق الشجر[1] ؟

فهذه أحداث وشدائد تضطرب النفس البشرية حين تستقبلها ، ولا بُدَّ لها من تأييد السماء لتثبت على الإيمان ؛ لذلك يقصُّ الحق - تبارك وتعالى - على رسوله قصص مَنْ سبقوه فى موكب الرسالات ليقول له : لست يا محمد بِدْعاً من الرسل ، فقد تحملوا من المشاق كيت وكيت ، وأنت سيدهم ، فلا بُدَّ أنْ تتحمل من المشاقِّ ما يتناسب ومكانتك ، فوطِّن نفسك على هذا .

فقوله تعالى : ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ .. (٩٩)﴾ [طه] (كَذَٰلِكَ) : أى : كما قصصنا عليك قصة موسى وهارون وفرعون والسامرىّ نقصُّ عليك قصصاً آخر من أنباء مَنْ سبقُوك من الرسل .

وأنباء : جمع نبأ ، وهو الخبر الهام العظيم ، فلا يُقال للأمر

---

(١) أورد هذا البيهقى فى كتابه « دلائل النبوة » (٢/٣١١ - ٣١٤) وملخصه أن رسول الله ﷺ دخل فى شعب بنى عبد المطلب لخوف عمه أبى طالب عليه من قتل المشركين له علانية ، فاجتمع المشركون وأجمعوا أمرهم أن لا يجالسوهم ولا يبايعوهم ولا يدخلوا بيوتهم حتى يسلموا رسول الله ﷺ للقتل ، وكتبوا صحيفة وعهوداً ومواثيق ، فلبث بنو هاشم ثلاث سنين واشتد عليهم البلاء والجهد ، حتى أخبر رسول الله ﷺ عمه أن الله قد أخبره أن الصحيفة قد أكلتها الأرضة فلم تدع فيها اسماً هو لله تعالى إلا أكلته وبقى فيها الظلم والقطيعة والبهتان ، فلما أفسد الله صحيفة مكرهم خرج النبى ﷺ ورهطُه فعاشوا وخالطوا الناس .

التافه نبأ . ومن ذلك قوله تعالى عن يوم القيامة : ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ۝١ عَنِ النَّبَأِ الْعَظِيمِ ۝٢﴾ [النبأ] إنما يُقال « خبر » فى أى شىء .

ثم يقول تعالى : ﴿وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ۝٩٩﴾ [طه]

وأكد الإتيان بأنه ﴿مِن لَّدُنَّا .. ۝٩٩﴾ [طه] أى : من عندنا ، فلم يَقُلْ مثلاً : آتيناك ذِكْراً . وهذا له معنى ؛ لأن كل الكتب التى نزلت على الرسل السابقين نزلت ورُويتْ بالمعنى ، ثم صاغها أصحابها بألفاظ من عند أنفسهم ، أمَّا القرآن فهو الكتاب الوحيد الذى نزل بلفظه ومعناه ؛ لذلك قال ﴿مِن لَّدُنَّا .. ۝٩٩﴾ [طه] أى : مباشرة من الله لرسوله .

والمتأمّل فى تبليغ الرسول وتلقِّيه عن ربه يجد أنه يحافظ على لفظ القرآن ، لا يُخْفى منه حرفاً واحداً ، كما فى قوله تعالى مثلاً : ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص] فكان يكفى فى تبليغ هذه العبارة أن يقول رسول الله ﷺ : الله أحد ، لكنه يقول نصّ ما جاءه من ربه مباشرة .

أرأيتَ لو قلت لولدك : اذهب إلى عمك وقُلْ له : أبى سيزورك غداً ، ألاَ يكفى أن يقول الولد : أبى سيزورك غداً ؟

إذن : فالقرآن الذى بين أيدينا هو نفسه كلام الله المنزَّل على محمد ﷺ لم يتغير فيه حرف واحد لا بالزيادة ولا بالنقصان ؛ لأنه نصُّ الإعجاز ، وما دام نص الإعجاز فلا بُدَّ أنْ يظلَّ كما قاله الله .

ومعنى ﴿ذِكْرًا ۝٩٩﴾ [طه] للذكْر معان متعددة ، فيُطلق الذكر ، ويُراد به القرآن ، كما فى قوله تعالى : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر]

ويُطلَق ويُراد به الصِّيت والشَّرف والجاه في الدنيا ، كما في قوله تعالى : ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ .. (١٠)﴾ [الأنبياء] أى : شرفكم ورفْعتكم بين الناس ، وقال : ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ .. (٤٤)﴾ [الزخرف]

وقد يقول قائل : كيف يكون القرآن ذكراً وشرفاً للعرب ، وقد أبان عجزهم ، وأظهر ما فيهم من عِيٍّ ؟ وهل يكون للمغلوب صِيت وشَرَف ؟

نقول : كونهم مغلوبين للحق شهادة بأنهم أقوياء ، فالقرآن أعجز العرب وهم أمة فصاحة وبلاغة وبيان ، والحق ـ سبحانه وتعالى ـ حين يتحدى لا يتحدى الضعيف ، إنما يتحدى القوى ، ومن الفخر أن تقول : غلبت البطل الفلانى ، لكن أىّ فخر فى أن تقول : غلبت أىّ إنسان عادى ؟

وكذلك يُطلَق الذكْر على كل كتاب أنزله الله تعالى ، كما قال لرسوله ﷺ : ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٤٣)﴾ [النحل] أى : أهل الذكر قبلكم ، وهم أهل التوراة وأهل الإنجيل .

ويُطلَق الذكر ، ويُراد به فعل العمل الصالح والجزاء من الله عليه ، كما قال تعالى : ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ .. (١٥٢)﴾ [البقرة] أى : اذكرونى بالطاعة أذكركم بالخير .

ويأتى الذكْر بمعنى التسبيح والتحميد ، وبمعنى التذكُّر والاعتبار ، فله ـ إذن ـ معانٍ متعددة يُحدِّدها السياق .

لكن ، لماذا اختار كلمة (ذكر) ولم يقل مثلاً كتاباً ؟

قالوا : لأن الذكْر معناه أن تذكر الشىء بداية ؛ لأنه أمر مهم

لا يُنسَى ، وهو ذِكْر لأنه يُسْتلهم ، ومن الذكر الاعتبار والتذكير ، والشيء لا يُذكر إلا إذا كان له أهمية ، هذه الأهمية تتناسب مع الأمر من حيث مُدّة أهميته ومقدار أهميته ، وكل ذكر لشيء في الدنيا قصارى أمره أنْ يعطيك خير الدنيا ، أمّا القرآن فهو الذكر الذي يعطيك خيرى الدنيا والآخرة ؛ لذلك فهو أهم ذكر يجب أنْ يظلَّ على بالك لا يُنسى أبداً .

إذن : فالقرآن ذِكْر ذُكر أولاً ، وذِكْر يُذكَر ثانياً ، ويستلهم ذكراً يشمل الزمن كله في الدنيا وفي الآخرة .

ثم يصف الحق تبارك وتعالى هذا الذكر ، فيقول :

﴿مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾﴾

أعرض : نعرف أن الطول أبعد المسافات ، وأن العرض أقصر المسافات ؛ لذلك لما أراد الحق سبحانه أن يُصوِّر لنا اتساع مُلْكه سبحانه قال : ﴿جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَٰوَٰتُ وَالأَرْضُ .. ﴿١٣٣﴾﴾ [آل عمران] فأتى بالأوسع للأقل ، فإن كان عَرْضها السموات والأرض ، فما بالك بطولها ؟ لا بُدَّ أنه لا نهاية له .

والإنسان منّا له طول ، وله عرض ، ولا يميز العرض إلا الكتفان ، ودائماً مرآهما من الخلف ، لا من الأمام ؛ لذلك نجد الخياط إذا أراد أنْ يقيس لك الثوب قاسه من الخلف ، فعَرْض الإنسان مؤخرته من أعلى .

وبذلك يكون أعرض عن كذا ، يعني : تركه وذهب بعيداً عنه ، أو : أعطاه ظهره وانصرف عنه .

ومن ذلك ما نقوله (ادينى عرض كتافك) يعنى : در وجهك وانصرف عنى ، فإنْ كان جالساً نقول (انفُضْ طولك أو اطول) أى : قم وأرِنى طولك ، كى ترينى عرض أكتافك وتنصرف عنى .

والحق ـ سبحانه وتعالى ـ يعطينا صورة من الإعراض للذين يكنزون الذهب والفضة ، ولا ينفقونها فى سبيل الله ، فيقول : ﴿ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ (٣٥) ﴾ [التوبة]

وهكذا ترى ترتيب العذاب حسْب ترتيب الإعراض ، فأول ما واجهه السائل قَطَّب جبهته ، وكشَّر وبدَتْ عليه ملامح الغضب والضيق ، ثم أدار له جنبه ، ثم أعطاه ظهره وانصرف عنه .

والوِزْر: الحِمْل الثقيل ، وليْتَه فى الدنيا فيمكنك أن تتخلص منه ، إما بأن يُوضع عنك ، وإما أنْ تفوته بالموت ، إنما الوِزْر هنا فى الآخرة ؛ لذلك فهو وزر ثقيل لا ينحط عنك ولا تفوته بالموت ، فهو حِمْل لا نهايةَ له ولا أملَ فى الخلاص منه . فهو ثقيل ممتد الإيلام ، فقد يكون الحمل ثقيلاً إلا أنه مُحبَّب إلى النفس ، كمَنْ يحمل شيئاً نافعاً له ، أمّا هنا فحِمْل ثقيل مكروه .

وبعد ذلك يستدرك به على العقوبة ، فالذى يأثم يُقال : أتى وزراً .

﴿ خَٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا (١٠١) ﴾

ساء : قبح ذلك الحمل يوم القيامة ؛ لأن الحمل قد لا يكون قبيحاً إنْ كان خيراً ، وإن كان شراً فقد يحمله صاحبه فى الدنيا ويزول عنه أمّا الوزر فحِمْل سيىء قبيح ، لأنه فى دار الخُلْد التى لا نهايةَ لها .

فمتى يكون ذلك ؟

﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ ﴾

وهو يوم القيامة ، والصور : هو البوق الذى يُنفخ فيه النفخة الأولى والثانية ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [الزمر]

وقوله تعالى : ﴿ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ ﴾ [طه]

أى : نجمعهم ونسوقهم زُرْقاً ، والزُّرْقة هى لونهم ، كما ترى شخصاً احتقن وجهه ، وازرقَّ لونه بسبب شىء تعرَّض له ، هذه الزُّرْقة نتيجة لعدم السلام والانسجام فى كيماوية الجسم من الداخل ، فهو انفعال داخلى يظهر أثره على البشرة الخارجية ، فكأن هَوْلَ القيامة وأحداثها تُحدث لهم هذه الزرقة .

والبعض[1] يفسر ﴿ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ ﴾ [طه] أى : عُمْياً ، ومن الزُّرْقة مَا ينشأ عنها العمى ، ومنها المياه الزرقاء التى تصيب العين وقد تسبب العمى .

﴿ يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ ﴾

أى : فى هذه الحال التى يُحشرون فيها زرقاً ﴿ يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ .. ﴿١٠٣﴾ ﴾ [طه] أى : يُسِرُّون الكلام ، ويهمس بعضهم إلى بعض ، لا

---

(١) قاله الكلبى والفراء . ذكره القرطبى فى تفسيره (٦/٤٤١٨) وقد ذكر القرطبى أقوالاً أخرى فى تأويل (زرقاً) :

« - عطاشاً قد ازرقت أعينهم من شدة العطش . قاله الأزهرى .

- الطمع الكاذب إذا أعقبته الخيبة . يقال : ابيضت عينى لطول انتظارى لكذا .

- شخوص البصر من شدة الخوف » .

يجرؤ أحد منهم أنْ يجهر بصوته من هَوْل ما يرى ، والخائف حينما يلاقى من عدوه مَا لا قبلَ له به يُخفى صوته حتى لا يُنبهه إلى مكانه ؛ أو : لأن الأمر مَهُول لدرجة الهلع الذى لا يجد معه طاقة للكلام ، فليس فى وُسْعه أكثر من الهَمْس .

فما وجه التخافت ؟ وبِمَ يتخافتون ؟

يُسِرُّ بعضهم إلى بعض ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ عَشْرًا (١٠٣)﴾ [طه] يقول بعضهم لبعض : ما لبثنا فى الدنيا إلا عشرة أيام ، ثم يُوضِّح القرآن بعد ذلك أن العشرة هذه كلامهم السطحى ، بدليل قوله فى الآية بعدها : ﴿إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ يَوْمًا (١٠٤)﴾ [طه]

فانتهت العشرة إلى يوم واحد ، ثم ينتهى اليوم إلى ساعة فى قوله تعالى حكاية عنهم : ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ .. (٥٥)﴾ [الروم] فكُلُّ ما ينتهى فهو قصير .

إذن : أقوال متباينة تميل إلى التقليل ؛ كأن الدنيا على سَعة عمرها ما هى إلا ساعة : ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ .. (٣٥)﴾ [الأحقاف]

وما هذا التقليل لمدة لُبْثهم فى الدنيا إلا لإفلاسهم وقلَّة الخير الذى قدَّموه فيها ، لقد غفلوا فيها ، فخرجوا منها بلا ثمرة ؛ لذلك يلتمسون لأنفسهم عُذْراً فى انخفاض الظرف الزمنى الذى يسَع الأحداث ، كأنه لم يكُنْ لديهم وقت لعمل الخير !!

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا (١٠٤)﴾

الحق - تبارك وتعالى - يقصُّ على رسوله ﷺ فى الدنيا ما سيكون من أمر هؤلاء المجرمين فى الآخرة ، فإذا ما وقعتْ القيامة جاءت الصورة كما حكاها الله لرسوله هى هى ؛ ذلك لأن الله تعالى وسع كل شىء علماً .

وهذا القول الذى حكاه القرآن عنهم أمر فى اختيارهم ، وقد سمعوا ذلك من رسول الله ، وبوسعهم ألاَّ يقولوا ، لكن إذا جاءت القيامة فسوف يقولونه بالحرف الواحد لا يُغيِّرون منه شيئاً .

وقوله : ﴿أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً .. (١٠٤)﴾ [طه] يعنى : أحسنهم حُكْماً .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا (١٠٥)﴾

تكلمنا عن (يسألونك) في قوله تعالى : ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ .. (٢١٩)﴾ [البقرة]

والسؤال استفهام يعنى : طلب فَهْمٍ يحتاج إلى جواب ، والسؤال إما أن يكون من جاهل لعالم ، كالتلميذ يسأل أستاذه ليعلم الجواب ، أو : من عالم لجاهل ، كالأستاذ يسأل تلميذه ليعرف مكانته من العلم وإقراره بما يعلم .

وهذه المسألة حلَّتْ لنا إشكالاً كان المستشرقون يُوغلون فيه ، يقولون : بينما الحق - تبارك وتعالى - يقول : ﴿فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُسْأَلُ عَن ذَنْبِهِ إِنسٌ وَلا جَانٌّ (٣٩)﴾ [الرحمن] يقول فى آية أخرى : ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ (٢٤)﴾ [الصافات] فالأولى تنفى السؤال ، والثانية تُثبته ؛ لذلك اتهموا القرآن بالتضارب بين آياته .

وهؤلاء معذورون ، فليست لديهم الملكَة العربية لفَهْم الأداء القرآنى ، وبيان هذا الإشكال أن السؤال يردُ فى اللغة إمَّا لتعلمَ ما جهلتَ ، وإما لتقرير المجيب بما تعلم أنت ليكون حجة عليه .

فالحق سبحانه حين يقول : ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الصافات] أى : سؤالَ إقرار ، لا سؤالَ استفهام ، فحين ينفى السؤال ينفى سؤال العلم من جهة المتكلم ، وحين يثبت السؤال فهو سؤال التقرير .

والحدث مرة يُنفَى ، ومرة يُثبت ، لكن جهة النفى مُنفكَّة عن جهة الإثبات ، فمثلاً الحق سبحانه يقول لرسوله ﷺ : ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ .. ﴿١٧﴾﴾ [الأنفال]

فنفى الرمى فى الأولى ، وأثبته فى الثانية ، والحدث واحد ، والمثبَت له والمنفىّ عنه واحد هو محمد ﷺ . فكيف نخرج من هذا الإشكال ؟ أرمَى الرسول أم لم يَرْمِ ؟

ولتوضيح هذه المسألة ضربنا مثلاً بالأب الذى جلس بجوار ولده كى يذاكر دروسه ، فأخذ الولد يذاكر ، ويُقلِّب صفحات الكتاب ، وحين أراد الأب اختبار مدى ما حصَّل من معلومات لم يجد عنده شيئاً ، فقال للولد : ذاكرت وما ذاكرت . ذاكرت يعنى : فعلت فِعْل المذاكر ، وما ذاكرت لأنك لم تُحصِّل شيئاً .

فرسول الله ﷺ حينما رمى ، أيمكنه أنْ يُوصل هذه الرمية إلى أعين الجيش كله ؟ إذن : فرسول الله أخذ قبضة من التراب ورمى بها ناحية الجيش ، إنما قدرة الله هى التى أوصلتْ حفنة التراب هذه وذَرَّتْها فى أعيُنِ الأعداء جميعاً .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٢٦)﴾ [الجاثية] فنفتْ عنهم العلم ، وفى آية أخرى : ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِراً[1] مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. (٧)﴾ [الروم] فأثبتتْ لهم علماً .

نعود إلى قوله تعالى : ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ .. (١٠٥)﴾ [طه] وحينما استعرضنا (يَسْأَلُونَكَ) فى القرآن الكريم وجدنا جوابها مسبوقاً بـ (قُلْ) كما فى قوله تعالى : ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ .. (٢١٩)﴾ [البقرة]

وقوله تعالى ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ[2] قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ .. (١٨٩)﴾ [البقرة] وهكذا فى كل الآيات ، ما عدا قوله تعالى هنا ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (١٠٥)﴾ [طه] فاقترن الفعل (قُلْ) بالفاء ، لماذا ؟

قالوا : لأن السؤال فى كُلِّ هذه الآيات سؤال عن شىء وقع بالفعل ، فكان الجواب بقُلْ . مثل : ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى .. (٢٢٢)﴾ [البقرة] أما ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ .. (١٠٥)﴾ [طه] قال فى الجواب ﴿فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (١٠٥)﴾ [طه] ؛ لأنه حَدَثٌ لم يقع بَعْد .

والحق ـ سبحانه وتعالى ـ يُخبر رسوله ﷺ أنه سيُسأل هذا

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٣/٤٢٧) : « أى : أكثر الناس ليس لهم علم إلا بالدنيا وأكسابها وشؤونها وما فيها ، فهم حذاق أذكياء فى تحصيلها ووجوه مكاسبها ، وهم غافلون فى أمور الدين وما ينفعهم فى الدار الآخرة كأن أحدهم مغفل لا ذهن له ولا فكرة » .

(٢) الأهلة : جمع هلال . والهلال : القمر فى أول ظهوره فى أول الشهر العربى . [القاموس القويم ٢/٣٠٥] .

السؤال ، فكأن الفاء هنا دَلَّتْ على شرط مُقدّر ، بمعنى : إنْ سألوك بالفعل فقُلْ : كذا وكذا .

إذن : السؤال عن الجبال لم يكُنْ وقت نزول الآية ، أمَّا الأسئلة الأخرى فكانت موجودة ، وسُئِلت لرسول الله قبل نزول آياتها .

وقد تأتى إجابة السؤال بدون (قُلْ) كما فى قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ .. (١٨٦) ﴾ [البقرة] ولم يقُلْ هنا (قُلْ أو فقُلْ) لأنها تدلُّ على الواسطة بين الله تعالى وبين عباده ، وكأن الحق ـ سبحانه ـ يُوضّح أنه قريب من عباده حتى عن الجواب بقُلْ .

وقد تتعجب : كيف تأتى فى القرآن كل هذه الأسئلة لرسول الله مع أن القرآن كتاب منهج جاء بتكاليف قد تشقُّ على الناس ؛ لأنه يلزمهم بأمور تخالف ما يشتهون ، فكان المفروض ألاَّ يسألوا عن الأمور التى لم ينزل فيها حكم .

نقول : دَلَّتْ أسئلتهم هذه على عِشْقهم لأحكام الله وتكاليفه ، فالأشياء التى كانت عادات لهم فى الجاهلية يريدون الآن أنْ يُؤدُّوها على طريقة الإسلام على أنها عبادة ، لا مجرد عادة جاهلية .

مع أن النبى ﷺ نهاهم عن السؤال فقال : « دعونى ما تركتكم ، إنما أهلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم »[(١)] .

ومع ذلك سألوا وأرادوا أنْ تُبنَى حياتهم على منهج القرآن من

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٧٢٨٨) والدارقطنى فى سننه (٢/٢٨١) بلفظ « دعونى » ، وقد أخرجه أحمد فى مسنده (٢/٣١٣ ، ٤٨٢ ، ٤٩٥) ، ومسلم فى صحيحه (١٣٣٧) بلفظ « ذرونى » عن أبى هريرة رضى الله عنه .

الله ، لا على أنه إلْف عادة كانت لهم فى الجاهلية ، إذن : هذه الأسئلة ترسيمٌ للأمر من جانب الحق سبحانه وتعالى .

وقوله تعالى : ﴿فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (١٠٥)﴾ [طه] تكلمنا عن هذا المعنى فى قوله تعالى : ﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا (٩٧)﴾ [طه] فالمراد : نُفتِّتها ونذروها فى الهواء ، وأكَّد النسف ، فقال ﴿نَسْفًا (٩٧)﴾[طه] ليؤكد أن الجبل سيتفتت إلى ذرات صغيرة يذروها الهواء .

فقد يتصوَّر البعض أنْ الجبال تُهَدُّ ، وتتحول إلى كُتَل صخرية كما نُفجِّر نحن الصخور الآن إلى قطع كبيرة ؛ لذلك أكّد على النسف ، وأن الجبال ستكون ذرات تتطاير ؛ لذلك قال فى آية أخرى : ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ (٥)﴾ [القارعة] أى : كالصوف المندوف .

لكن ، لماذا ذكر الجبال بالذات ؟

قالوا : لأن الإنسان يرى أنه ابْنُ أغيار فى ذاته ، وابن أغيار فيما حوله ممَّا يخدمه من حيوان أو نبات ، فيرى الحيوان يموت أو يُذبَح ، ويرى النبات يذبل ثم يجفّ ويتفتَّت ، والإنسان نفسه يموت وينتهى .

إذن : كل ما يراه حوله بيِّن فيه التغيير والانتهاء ، إلا الجبال يراها راسية ثابتة ، لا يلحقها تغيير ظاهر على مرِّ العصور .

لذلك يُضرب بها المثل فى الثبات ، كما فى قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ (٤٦)﴾ [إبراهيم]

فالجبال مظهر للثبات ، فقد يتساءل الإنسان عن هذا الخلْق الثابت المستقر ، ماذا سيفعل الله به ؟

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ ﴾

﴿ قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ ﴾ [طه] : أرضاً مستوية ملْساء لا نباتَ فيها ولا بناء ، والضمير فى ﴿فَيَذَرُهَا .. ﴿١٠٦﴾ ﴾ [طه] يعود على الأرض لا على الجبال ؛ لأن الجبال لا تكون قاعاً صفصفاً[1] ، أمّا الأرض مكان الجبال فتصير ملساء مستوية ، لا بناءَ فيها ولا جبال ، فالأرض شىءٌ والجبال فوقها شىء آخر .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ[2] وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِى أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ [فصلت]

فالضمير فى ﴿وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا .. ﴿١٠﴾ ﴾ [فصلت] لا يعود على الأرض ، إنما على الجبال[3] . لأن الجبال فى الحقيقة هى مخازن القُوت ومصدر الخِصْب للأرض ، التى هى مصدر القوت ، فالإنسان مخلوق من الأرض ، واستبقاء حياته من الأرض ، فالنبات قوت للإنسان وللحيوان ، والنبات والحيوان قوت للإنسان .

إذن : لا بُدَّ للأرض من خُصُوبة تساعدها وتُمدّها بعناصر الغذاء ، ولو أن الخالق ـ عز وجل ـ جعل الأرض هكذا طبقةً واحدة بها المخصّبات لانتهتْ هذه الطبقة بعد عدة سنوات ، ولأجدبتْ الأرض بعد ذلك .

---

(١) الأرض الصفصف : الملساء المستوية . وقال الفراء : الصفصف الذى لا نبات فيه . [لسان العرب ـ مادة : صفف] .

(٢) قال ابن كثير فى تفسيره (٩٣/٤) : « يعنى : يوم الأحد ويوم الاثنين » .

(٣) قال قتادة ومجاهد : خلق فيها أنهارها وأشجارها ودوابها . وقال السدى والحسن : أرزاق أهلها ومصالحهم . [تفسير القرطبى ٦٠٠٧/٩] .

إذن : خلق اللهُ الجبالَ لحكمة ، وجعلها مصدراً للخصب الذى يمد الأرض مَدَداً دائماً ومستمراً ما بقيتْ الحياة على الأرض ، ومن هنا تتضح لنا حكمة الخالق ـ سبحانه ـ فى أن تكون الجبال صَخْراً أصمّ ، فإذا ما تعرضت لعوامل التعرية على مَرِّ السنين تتفتتْ منها الطبقة الخارجية نتيجة لتغيُّر الظروف المناخية من حرارة وبرودة .

ثم تأتى الأمطار وتعمل فى الصخر عمل المَبْرَد ، وتُكوِّن ما يسمى بالغرْيَن[1] ، فتحمل هذا الفتات إلى الودْيان ومجارى الأنهار ، وتُوزِّعه على طبقة الأرض ، فتزيدها خصْباً تدريجياً كل عام ، وإلاَّ لو كانت الجبال هَشَّة غير متماسكَة لانهالتْ فى عدة أعوام ، ولم تُؤَدِّ هذا الغرض . لذلك نقول : إن الجبال هى مصدر القوت ، وليست الأرض .

ألاَ ترى أن خصوبة الوادى والدلتا جاءت من طمى النيل ، والغرْين الذى يحمله الماء من أعالى أفريقيا . وهذا الغرْيَن الذى يُنحَتُ من الجبال هو الذى يُسبب الزيادة فى رقعة اليابسة ، وتستطيع أن تلاحظ هذه الظاهرة فى المدن المطلّة على البحر ، فبعد أن كانت على شاطئه أصبحت الآن داخل اليابسة .

وقد مثَّلْنَا سابقاً للجبل بأنه مُثلث قاعدته إلى أسفل ، والوادى مُثلث قاعدته إلى أعلى ، فكل نحْت فى الجبل زيادة فى الوادى ، وكأن الخالق ـ عز وجل ـ جعل هذه الظاهرة لتتناسبَ مع زيادة السكان فى الأرض .

---

(١) الغرْيَن : الطين الذى يحمله السيل فيبقى على وجه الأرض رطباً أو يابساً . قال الأصمعى : الغرين أن يجىء السيل فيثبت على الأرض ، فإذا جف رأيت الطين رقيقاً على وجه الأرض قد تشقق . [لسان العرب ـ مادة : غرن] .

وقد حُذف العائد في ﴿فَيَذَرُهَا .. ﴿١٠٦﴾﴾ [طه] اعتماداً على ذِهْن السامع ونباهته إلى أنه لا يكون إلا ذلك ، كما في قوله تعالى : ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾﴾ [الإخلاص] فلم يذكر عائد الضمير (هو) لأنه إذا قيل لا ينصرف إلا إلى الحق سبحانه وتعالى ، وإنْ لم يتقدم اسمه .

وكما في قوله تعالى : ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴿٣٢﴾﴾ [ص] والمراد : الشمس التي غابت ، ففاتتْ سليمان - عليه السلام - الصلاة ، ولم تذكر الآية شيئاً عن الشمس[1] .

كذلك في : ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ .. ﴿٤٥﴾﴾ [فاطر] أي : على الأرض ولم تذكرها الآية ، كذلك هنا (فيذرها) أي الأرض .

﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾

أي : كأنها مُسْتوية على « ميزان الماء » لا ترى فيها اعوجاجاً ولا (أَمْتاً) يعني : منخفض ومرتفع ، فهي مستوية استواءً تاماً ، كما نفعل نحن في الجدار ، ونحرص على استوائه .

لذلك نرى المهندس إذا أراد استلام مبنى من المقاول يعتمد إما على شعاع الضوء ؛ لأنه مستقيم ويكشف له أدنى عَيْب في الجدار أو على ذرات التراب ؛ لأنها تسقط على استقامتها ، وبعد عدة أيام تستطيع أن تلاحظ من ذرات التراب ما في الجدار من التواءات أو نتوءات .

---

(١) ذكره السيوطي في كتابه « الإتقان في علوم القرآن » (٣/١٨٦) ضمن أمثلة « حذف الفاعل » في فصل « أنواع الحذف » . وقال : « لا يجوز إلا في فاعل المصدر » .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا (١٠٨) ﴾

الداعى : المنادى ، كالمؤذِّن الذى كثيراً ما دعا الناس إلى حضرة الله تعالى فى الصلاة ، فمنهم مَنْ أجاب النداء ، ومنهم مَنْ تأبَّى وأعرض ، أما الداعى فى الآخرة ، وهو الذى ينفخ فى الصور فلن يتأبَّى عليه أحد ، ولن يمتنع عن إجابته أحد .

وقوله : ﴿ لا عِوَجَ لَهُ.. (١٠٨) ﴾ [طه] لأننا نرى داعى الدنيا حين يُنادى فى جَمْع من الناس ، يتجه يميناً ويتجه يساراً ، ويدور ليُسمع فى كُلِّ الاتجاهات ، فإذا لم يَصلْ صوته إلى كل الآذان استيعاباً يستعمل مُكبِّر الصوت مثلاً ، أما الداعى فى الآخرة فليس له عوج هنا أو هناك ؛ لأنه يُسمِع الجميع ، ويصل صوته إلى كل الآذان ، دون انحراف أو ميْل .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلا تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْسًا (١٠٨) ﴾ [طه] هذا الهمْسُ الذى قال عنه فى الآيات السابقة : ﴿ يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ .. (١٠٣) ﴾ [طه]

ونعرف أن كل تجمُّع كبير لا تستطيع أنْ تضبط فيه جَلَبة الصوت ، فما بالك بجَمْع كجمع القيامة من لَدُنْ آدم عليه السلام حتى قيام الساعة ، ومع ذلك : ﴿ وَخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلا تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْسًا (١٠٨) ﴾ [طه] فلماذا كتمت هذه الأصوات التى طالما قالتْ ما تحب ، وطالما كان لها جلبة وضجيج ؟

الموقف الآن مختلف ، والهَوْل عظيم ، لا يجرؤ أحد من الهَوْل على رَفْع صوته ، والجميع كُلٌّ منشغل بحاله ، مُفكّر فيما هو قادم عليه ، فإنْ تحدّثوا تحدّثوا سِراً ومخافتة : ماذا حدث ؟ ماذا جرى ؟

وكذلك نحن فى أوقات الشدائد لا نستطيع الجهر بها ، كما حدث لما مات سعد زغلول[1] ـ رحمه الله ـ وكان أحمد شوقى[2] وقتها فى لبنان ، فسمع الناسَ يتخافتون ، ويهمس بعضهم إلى بعض بأن سعداً قد مات ، ولا يجرؤ أحد أن يجهر بها لِهَوْل هذا الحادث على النفوس ، فقال شوقى :

يَطأُ الآذَانَ هَمْساً والشِّفَاهَا

قُلْتُ يا قَوْم اجمعُوا أَحْلامكُمْ كُلُّ نَفْسٍ فى وَرِيدَيْها رَدَاهَا

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ ﴾

والشفاعة تقتضى مشفوعاً له وهو الإنسان ، وشافعاً وهو الأعلى منزلةً ، ومشفوعاً عنده : والمشفوع عنده لا يسمح بالشفاعة هكذا

---

(١) هو سعد باشا بن إبراهيم زغلول ، زعيم نهضة مصر السياسية ، ولد فى « إبيانة » من قرى « الغربية » عام ١٨٥٧م ، دخل الأزهر سنة ١٨٧٤م ، اتصل بالسيد جمال الدين الأفغانى ، تولى وزارة المعارف ، فالحقانية . انتخب عام ١٩١٩م رئيساً للوفد المصرى للمطالبة بالاستقلال فنفاه الإنجليز إلى مالطة . توفى عام ١٩٢٧م عن ٧٠ عاماً . (الأعلام للزركلى ٣/٨٣) .

(٢) هو : أمير الشعراء أحمد شوقى : أشهر شعراء العصر الحديث ، ولد بالقاهرة ١٨٦٨م نشأ فى ظل البيت المالك بمصر ، درس الحقوق بفرنسا ، عالج أكثر فنون الشعر : مديحاً وغزلاً ورثاء ووصفاً ، ثم تناول الأحداث السياسية ، توفى ١٩٣٢م . (الأعلام للزركلى ١/١٣٧) .

ترتجلها من نفسك ، إنما لا بُدَّ أنْ يأذنَ لك بها ، وأنْ يضعَك فى مقام ومرتبة الشفاعة ، وهذا شَرْط فى الشافع .

وقوله تعالى : ﴿وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً ﴿١٠٩﴾﴾ [طه] هذه للمشفوع له ، أن يقول قولاً يرضى الله عنه - وإنْ قصَّر فى جهة أخرى - وخَيْر ما يقوله العبد ويرضى عنه الله أن يقول : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فهذه مَقُولة مَرْضيَّة عند الله ، وهى الأمل الذى يُتعلق به ، والبُشْرى لأهل المعاصى ؛ لأنها كفيلة أن تُدخِلهم فى شفاعة النبى ﷺ .

فإذا كان لديك خَصْلة سيئة ، أو نقطة ضعف فى تاريخك تراها عقبةً فلا تيأس ، وانظر إلى زاوية أخرى فى نفسك تكون أقوى ، فأكثِرْ بها الحسنات ، لأن الحسنات يُذهِبْن السيئات .

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴿١١٠﴾﴾

معنى ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ .. ﴿١١٠﴾﴾ [طه] ما أمامهم ، ويعلم ما خلفهم ، أما أنت فلا تحيط به علْماً ، ولا تعرف إلا ما يُخبرك به ، إلا أن تكون هناك مقدمات تستنبط منها ، لأن ما ستره الحق فى الكون كثير ، منه ما جعل الله له مقدمات ، فمَنْ ألمَّ بهذه المقدمات يصل إليها .

ومع ذلك لا يقال له : علِم غيباً . إنما اكتشف غيباً بمقدمات أعطاها له الحق سبحانه وتعالى ، كما نعطى التلميذ تمريناً هندسياً ، ونذكر له المعطيات ، فيستدل بالمعطيات على المطلوب .

والكون ملىء بالأشياء والظواهر التى إنْ تأملناها وبحثْناها ولم

نُعرِض عنها وجدنا فيها كثيراً من الأسرار ، فبالنظر فى ظواهر الكون اكتشفوا عصر البخار ويسَّروا الحركة على الناس ، وبالنظر فى ظواهر الكون اكتشف أرشميدس قانون الأجسام الطافية ، واكتشفوا البنسلين .. إلخ .

هذه كلها ظواهر موجودة فى كون الله ، كانت تنتظر مَنْ يُنقِّب عنها ويكتشفها ؛ لذلك ينعى علينا الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥) ﴾[يوسف]

فلو التفتوا إليها الالتفات الحق لانتفعوا بها .

لكن هناك أشياء استأثر الله تعالى بعلمها ، وقد يعطيها لمن أحبَّ من عباده ، ويُطلِعهم عليها ، أو تظل فى علم الله لا يعرفها أحد .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَعَنَتِ (١) الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا (١١١) ﴾

الوجه أشرف وأكرم شىء فى تكوين الإنسان ، وهو الذى يُعطى الشخص سمَتَه المميزة ؛ لذلك يحميه الإنسان ويحفظه ، ألاَ ترى لو أصاب وجهَك غُبَار أو تراب أو طين مثلاً تمسحه بيدك ، لم تزِدْ على أنك جعلْتَ ما فى وجهك فى يدك لماذا ؟ لأنه أشرف شىء فيك .

لذلك ، كان السجود لله تعالى فى الصلاة علامة الخضوع والخشوع والذلَّة والانكسار له عز وجل ، ورضيتَ أن تضع أشرف

---

(١) عنت : أى : ذلت وخضعت . قاله ابن الأعرابى وغيره . [تفسير القرطبى ٦/٤٤٢٣] .
وقال ابن عباس : الركوع والسجود . وقال طلق بن حبيب : إنه وضع الجبهة والأنف على الأرض فى السجود .

جزء فيك على الأرض وتباشر به التراب ، والإنسان لا يعنُو بوجهه إلا لَمَنْ يعتقد اعتقاداً جازماً بأنه يستحقُّ هذا السجود ، وأن السجود له وحده يحميه من السجود لغيره ، كما قال الشاعر :

والسُّجُودُ الذِى تَجْتَوِيه ... مِن أُلُوفِ السُّجُودِ فيه نَجَاةُ

فاسْجُدْ لواحد يكْفك السجود لسواه ، واعمل لوجه واحد يكْفك كل الأوْجُه .

وقوله : ﴿ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا (١١١) ﴾ [طه] حمل : يعنى أخذه عبئاً ثقيلاً عليه . والظلم فى أصله أنْ تأخذَ خيراً ليس لك لتنتفع به وتزيد ما عندك ، فأنت فى الظاهر تزداد كما تظن ، إنما الحقيقة أنك تُحمِّل نفسك وِزْراً وحملاً ثقيلاً ، سوف تنوء به ، وازددْتَ إثماً لا خيراً .

والظلم مراتب ودرجات ، أدناها أنْ تأخذ ما ليس لك وإن كان حقيراً لا قيمة له ، أو تظلم غيرك بأنْ تتناوله فى عِرْضه ، ثم ترقى الظلم إلى أنْ تصلَ به إلى القمة ، وهو الشرك بالله ، كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣) ﴾ [لقمان]

وهو عظيم ؛ لأنك أخذتَ حقاً لله تعالى ، وأعطيته لغيره .

إذن : فحاول أن تَسْلَم من هذه الآفة ؛ لأن الله قال فيها : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ .. (٤٨) ﴾ [النساء]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا (١١٢) ﴾

الصالحات : هى الأعمال التى تعود بالخير عليك أو على غيرك ، وأضعفُ الإيمان فى عمل الصالح أن تترك الصالح فى ذاته على صلاحه فلا تفسده ، كأن تجد بئراً يشرب منه الناس فلا تطمسه ولا تلوثه . فإنْ رقيت العمل الصالح فيمكنك أن تزيد من صلاحه ، فتبنى حوله جداراً يحميه أو تجعل له غطاءً .. إلخ .

ومن رحمة الله بنا أنه سبحانه حينما حثَّنا على العمل الصالح قال : ﴿مِنَ الصَّالِحَاتِ .. (١١٢)﴾ [طه] ومن هنا للتبعيض ، فيكفى أنْ تفعل بعض الصالحات ؛ لأن طاقة الإنسان لا تسع كل الصالحات ولا تقوى عليها ، فحسْبُك أن تأخذ منها طرفاً ، وآخر يأخذ طرفاً ، فإذا ما تجمعتْ كل هذه الأطراف من العمل الصالح من الخلق كوَّنَتْ لنا الصلاح الكامل .

كما سبق أن ذكرنا أن ليس بوسع أحد منا أن يجمعَ الكمال المحمدى فى أخلاقه ، والرسول ﷺ يقول : « الخير فىَّ - حقاً - وفى أمتى إلى يوم القيامة »[1] .

ففى كل فرد من أفراد الأمة خصلة من خصال الخير ، بحيث إذا تجمعت خصال الكمال فى الخلق أعطتنا الكمال المحمدى .

وقوله : ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ .. (١١٢)﴾ [طه] لأن الإيمان شرط فى قبول العمل الصالح ، فإنْ جاء العمل الصالح من غير المؤمن أخذ أجره فى الدنيا ذِكْراً وشُهْرة وتخليداً لذكراه ، فقد عمل ليقال وقد قيل ، وانتهتْ المسألة .

---

(١) قال العجلونى فى كشف الخفاء (١/٤٧٦) : « قال فى المقاصد : قال شيخنا : لا أعرفه ، ولكن معناه صحيح ، يعنى فى حديث : لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين » .

ثم يقول تعالى : ﴿فَلا يَخَافُ ظُلْمًا وَلا هَضْمًا (١١٢)﴾ [طه] والظلم هنا غير الظلم فى قوله تعالى : ﴿ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا (١١١) ﴾ [طه] فالظلم هنا من الإنسان لنفسه أو لغيره ، إنما ﴿فَلا يَخَافُ ظُلْمًا وَلا هَضْمًا (١١٢)﴾ [طه] أى : ظُلْماً يقع عليه ، بألاَّ يأخذ حقه على عمله ، بمعنى أننا لا نعاقبه على سيئة لم يعملها ، ولا نضيع عليه ثواب حسنة عملها ؛ لأن الحق سبحانه لا يظلم الناس مثقال ذرة .

﴿وَلا هَضْمًا (١١٢)﴾ [طه] الهَضْم يعنى النقصان ، فلا ننقصه أجره وثوابه ، ومنه هضم الطعام ، فكمية الطعام التى نأكلها تُهضَم ثم تُمتصّ ، وتتحول إلى سائل دموى ، فتأخذ حَيِّزاً أقل ، ومنه نقول : فلان مهضوم الحق . يعنى : كان له حق فلم يأخذه .

لكن ، ما فائدة عطف (هَضْماً) على (ظُلْماً) فنَفْى الظلم نَفْى للهضم ؟ نقول : لأنه مرة يُبطل الثواب نهائياً ، ومرة يُقلِّل الجزاء على الثواب .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا (١١٣)﴾ (١)

(كَذَلِكَ) أى : كالإنزال الذى أنزلناه إلى الأمم السابقة ، فكما أرسلنا إليهم رُسُلاً أرسلنا إلى الأمم المعاصرة لك رسلاً ، إلا أنْ فارق الرسالات أنهم بُعِثُوا لزمان محدود ، فى مكان محدود ، وبُعثْتَ

---

(١) أى : بيّنا ما فيه من التخويف والتهديد والثواب والعقاب . [قاله القرطبى فى تفسيره ٦/٤٤٢٥] .

للناس كافّة ، وللزمان كافة إلى أنْ تقوم الساعة .

ونفهم من كلمة ﴿أَنزَلْنَاهُ .. (١١٣)﴾ [طه] أن المُنزَّل أعلى من المُنزَّل عليه ، فالإنزال من شيء عالٍ ، وكأن الحق - تبارك وتعالى - يلفت أنظارنا ويُصعِّد هممنا ، فيقول : لا تهبطوا إلى مستوى تشريع الأرض ؛ لأنه يُقنِّن للحاضر ويجهل المستقبل ، ويتحكم فيه الهوى فتغيب عنه أشياء فيحتاج إلى استدراك .

لذلك ، حين ينادينا إلى منهجه العلوى يقول : ﴿قُلْ تَعَالَوْا .. (١٥١)﴾ [الأنعام] يعنى : اعلوا وخُذُوا منهجكم من أعلى ، لا من الأرض .

﴿قُرْآنًا .. (١١٣)﴾ [طه] يعنى : مقروء ، كما قال ﴿كِتَابًا .. (١٠)﴾ [الأنبياء] يعنى : مكتوب ، ليُحْفظ فى الصدور وفى السطور . وقال ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا .. (١١٣)﴾ [طه] مع أن النبى ﷺ مُرْسَل إلى الناس كافة فى امتداد الزمان والمكان ، والقرآن نزل معجزة للجميع .

قالوا : لأنه ﷺ هو المباشر لهذه الأمة العربية التى ستستقبل أول دعوة له ، فلا بُدَّ أنْ تأتى المعجزة بلسانها ، كما أن معجزة القرآن ليستْ للعرب وحدهم ، إنما تحدٍّ للإنس والجن على امتداد الزمان والمكان .

كما قال سبحانه : ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَـٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ .. (٨٨)﴾ [الإسراء]

فالقرآن تحدٍّ لكل الأجناس : الروسى ، والأمريكى ، واليابانى ، والدنيا كلها ، ومعهم الجن أيضاً . لكن لماذا والجن أيضاً داخل فى مجال التحدى ؟

قالوا : لأن العرب قديماً كانوا يعتقدون أن لكل شاعر أو خطيب مفوه شيطاناً يمُدُّه ويُوحِى إليه ؛ لذلك أدخل الجن أيضاً فى هذا المجال .

وقد يقول قائل : وكيف نتحدّى بالقرآن غير العرب وهو بلسان عربى ، فهو حجة على العرب دون غيرهم ؟

نقول : وهل إعجاز القرآن من حيث أسلوبه العربى وأدائه البيانى فقط ؟ لا ، فجوانب الإعجاز فى القرآن كثيرة لا تختلف فيها اللغات ، فهل تختلف اللغات فى التقنين لخير المجتمع ؟ ألم يأتِ القرآن بمنهج فى أمة بدوية أمية يغزو أكبر حضارتين معاصرتين له ، هما حضارة فارس فى الشرق ، وحضارة الروم فى الغرب ؟ ألم تكُنْ هذه الظاهرة جديرةً بالتأمل والبحث ؟

ثم الكونيات التى تحدَّث القرآن عنها منذ ما يزيد على أربعة عشر قرناً ، وما زال العلم الحديث يكتشفها الآن .

إذن : طبيعى أن يأتى القرآن عربياً ؛ لأنه نزل على رسول عربى ، وفى أمة عربية ، والحق سبحانه يقول : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ .. (٤)﴾ [إبراهيم]

فهم الذين يستقبلون الدعوة ، وينفعلون لها ، ويقتنعون بها ، ثم ينساحون بها فى شتَّى بقاع الأرض ، ومن العجيب أنهم بدعوة القرآن أقنعوا الدنيا التى لا تعرف العربية ، أقنعوها بالمبادىء والمناهج التى جاء بها القرآن ؛ لأنها مبادىء ومناهج لا تختلف عليها اللغات .

ثم يقول تعالى ﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ .. (١١٣)﴾ [طه] أى : حينما ينذر القرآن بشىء يُصرف هذا الإنذار على أوجه مختلفة ، ويُكرِّر الإنذار لينبه أهل الغفلة .

يعنى : لوَّنا فيه كل أساليب الوعد والوعيد ، فكل أسلوب يصادف هوى فى نفس أحد المستقبلين ، فخاطبنا الأهواء كلها بكل مستوياتها ، فالعالم والجاهل ومتوسط الفكر ، الكل يجد فى القرآن مَا يناسبه ؛ لأنه يُشرِّع للجميع ، للفيلسوف وللعامى ، فلا بُدَّ أنْ يكون فى القرآن تصريفٌ لكل ألوان الملكات ليقنع الجميع .

وفى القرآن وَعْد ووعيد ، فلكل منهما أَهْل ، ومَنْ لم يَأْتِ بالإغراء بالخير يأتى بأن ينزعه بالقوة والجبروت ، كما قال الشاعر :

أَنَاةٌ فَإِنْ لم تُغْنِ عَقَّبَ بعدهَا وَعِيداً
فَإِنْ لم يُغْنِ أغنَتْ عَزَائمُهُ

وفى الأثر : « إن الله ليزع[1] بالسلطان ما لا يزع بالقرآن » .

والإنذار والتخويف نعمة من الله ، كما ورد فى سورة الرحمن ، حيث يقول تعالى : ﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (١٩) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَّ يَبْغِيَانِ (٢٠) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢١) ﴾ [الرحمن] فهذه نعم من الله .

أما فى قوله : ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلا تَنتَصِرَانِ (٣٥) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٦) ﴾ [الرحمن] فما النعمة فى النار والشُّواظ ؟

النعمة أن ينذرك الله بها ويحذرك منها ، قبل أنْ تقعَ فيها ، ويعظك بها وأنت ما زلتَ فى فترة المهلة والتدارك ، فلا يأخذك على غِرَّة ولا يتركك على غفلتك . كما تُحذِّر ولدك : إنْ أهملتَ دروسك

---

(١) الوزْع : كفُّ النفس عن هواها . ومعنى الأثر : أن من يكف عن ارتكاب العظائم مخافة السلطان أكثر ممن تكفه مخافة القرآن والله تعالى ، فمن يكفه السلطان عن المعاصى أكثر ممن يكفه القرآن بالأمر والنهى والإنذار . [لسان العرب ـ مادة : وزع] .

فسوف تفشل فى الامتحان فيحتقرك زملاؤك ، ويحدث لك كيت وكيت ، فلم يترك ولده على غَفْلته وإهماله ، إلى أنْ يداهمه الامتحان ويُفاجِئه الفشل ، أليستْ هذه نعمة ؟ أليستْ نصيحة مهمة ؟

والتصريف : يعنى التحويل والتغيير بأساليب شتَّى لتناسب استقبال الأمزجة المختلفة عند نزول القرآن لعلها تصادف وَعْياً واهتماماً ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا (١١٣)﴾ [طه]

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ .. (١١٣)﴾ [طه] الاتقاء عادة يكون للشر والمعاصى المهلكة ، أو يُحدث لهم الذكْر والشرف والرفعة بفعل الخيرات ، وهذا من ارتقاءات الطاعة .

ذلك لأن التكليف قسمان : قسم ينهاك عن معصية ، وقسم يأمرك بطاعة ، فينهاك عن شُرْب الخمر ، ويأمرك بالصلاة ، فهم يتقون الأول ، ويُحدث لهم ذكْراً يوصيهم بعمل الثانى . وما دام القرآن نازلاً من أعلى فلا بُدَّ أن يقول بعدها :

﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا (١١٤)﴾

﴿تَعَالَى .. (١١٤)﴾ [طه] تنزّه وارتفع عن كل ما يُشبه الحادث ، تعالى ذاتاً ، فليستْ هناك ذاتٌ كذاته ، وتعالى صفاتاً فليست هناك صفة كصفته ، فإنْ وُجِدَتْ صفة فى الخَلْق تشبه صفة فى الخالق سبحانه ، فخُذْها فى ضوء ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ .. (١١)﴾ [الشورى]

فالحق سبحانه لا يضنُّ على عبده أنْ يُسميه خالقاً إنْ أوجد شيئاً من عدم ، إنما لما تكلم عن خَلْقه سبحانه ، قال : ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤)﴾ [المؤمنون]

فأنت خالق ، لكن ربَّك أحسَنُ الخالقين ، فأنت خلقتَ من موجود أمّا ربك عز وجل فقد خلق من العدم ، أنت خلقتَ شيئاً جامداً على حالة واحدة ، والله خلق خَلْقاً حياً نامياً ، يُحسُّ ويتحرك ويتكاثر ، وسبق أنْ مثَّلنا لذلك ـ ولله المثل الأعلى ـ بصانع الأكواب الزجاجية من الرمال ، وأوضحنا الفرق بين خَلْق وخَلْق .

وقوله تعالى : ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ .. (١١٤)﴾ [طه] تلفتنا إلى ضرورة التطلع إلى أعلى فى التشريع ، فما الذى يُجبرك أنْ تأخذ تشريعاً من عبد مثلك ؟ ولماذا لا يأخذ هو تشريعك ؟ إذن : لا بُدَّ أن يكون المشرِّع أعلا من المشرَّع له .

ومن ألفاظ تنزيه الله التى لا تُقال إلا له سبحانه كلمة (سبحان الله) أسمعتَ بشراً يقولها لبشر ؟ وهناك كفرة وملاحدة ومنكرون للألوهية ومعاندون ، ومع ذلك لم يقُلْها أحد مَدْحاً فى أحد .

كذلك كلمة (تعالى وتبارك) لا تُقال إلا لله ، فنقول : (تباركت ربنا وتعاليت) أى : وحدك لا شريك لك .

فقوله : ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ .. (١١٤)﴾ [طه] علا قَدْره وارتفع التنزيه ارتفاعاً لا يوصل إليه ، أمّا التعالى فى البشر فيما بينهم فأمْر ممقوتٌ ؛ أما تعالى الحق سبحانه فمن مصلحة الخلق ، وهذه اللفتة يُعَبِّر عنها أهل الريف ، يقولون (اللى ملوش كبير يشترى له كبير) ؛ لأن الكبير هو الذى سيأخذ بيد الضعيف ويدكّ طغيان القوى ، فإذا لم يكُنْ لنا كبير نختلف ونضيع .

إذن : من مصلحة الكون كله أنْ يكونَ الله متعالياً ، والحق ليس متعالياً علينا ، بل متعالٍ من أجلنا ولصالحنا ، فأىُّ مُتعالٍ أو جبار من

البشر عندما يعلم أن الله أعلى منه يندكّ جبروته وتعاليه ، وأىّ ضعيف يعلم أن له سنداً أعلى لا يناله أحد ، فيطمئن ويعيش آمناً وبذلك يحدث التوازن الاجتماعى بين الناس .

ونحن نحب عبوديتنا لله عز وجل ، وإنْ كانت العبودية كلمة بغيضة مكروهة حين تكون عبودية الخَلْق للخَلْق فيأخذ السيد خَيْر عبده ، إلا أن العبودية لله شرف وكرامة ؛ لأن العبد لله هو الذى يأخذ خَيْر سيده ، فأنا عبد لله وعبوديتى له لصالحى أنا ، ولن أزيد فى مُلْكه شيئاً ، ولن ينتفع من ورائى بشىء ؛ لأنه سبحانه زاول مُلْكه وزاول سلطانه فى الكون قبل أن يخلق الخَلْق ، فبقدرته وعظمته خلق ، وقبل أنْ توجد أنت أيها الإنسان الطاغى المتمرد أوجد لك الكون كله بما فيه .

فأنت بإيمانك لن تزيد شيئاً فى مُلْك الله ، كما جاء فى الحديث القدسى : « يا عبادى إنكم لن تملكوا نفعى فتنفعونى ، ولن تملكوا ضرى فتضرونى ..»[1] فأنا إنْ تصرَّفْتُ فيكم فلمصلحتكم ، لا يعود علىَّ من ذلك شىء .

وقوله تعالى : ﴿الْمَلِكُ الْحَقُّ .. (١١٤)﴾ [طه] لأن هناك ملوكاً كثيرين ، أثبتَ الله لهم الملْك وسمَّاهم مُلُوكاً ، كما قال سبحانه ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ .. (٥٠)﴾[يوسف] وقال : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ .. (٢٥٨)﴾ [البقرة]

إذن : فى الدنيا ملوك ، لكنهم ليسوا مُلوكاً بحق ، الملك بحق هو الله ؛ لأن ملوك الدنيا ملوك فى مُلْك موهوب لهم من الله ، فيمكن أن

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٥/١٥٤) ، ومسلم فى صحيحه (٢٥٧٧) ، وابن ماجة فى سننه (٤٢٥٧) من حديث أبى ذر رضى الله عنه .

يفوت مُلْكَه ، أو يفوته الملْكُ ، وأىُّ مُلْك هذا الذى لا يملكه صاحبه ؟ أىّ مُلْك هذا الذى يُسلب منك بانقلاب أو بطلقة رصاص ؟

إذن : الملك الحق هو الله ، وإن ملَّك بعض الخلق شئون بعض لمصلحتهم ، فهو سبحانه الذى يهَب الملْك ، وهو الذى ينزعه إن أراد : ﴿ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ .. (٢٦) ﴾ [آل عمران]

فالحق سبحانه له الملْك الحق ، ويهَبُ من مُلْكه لمَنْ يشاء ، لكن يظل الملَك وما ملَكه فى قبضة الله ؛ لأنه سبحانه قيُّوم على خلْقه لا يخرجَ أحد عن قيوميته .

وقد نسمع مَنْ يسبُّ الملوك والرؤساء ، ومَنْ يخوض فى حقهم ، وهو لا يدرى أن مُلْكهم من الله ، فهو سبحانه الذى ملّكهم وفوَّضهم ، ولم يأخذ أحد منهم مُلْكاً رَغْماً عن الله ، فلا تعترض على اختيار الله واحترم مَنْ فوَّضه الله فى أمرك ، واعلم أن فى ذلك مصلحة البلاد والعباد ، ومَنْ يدريك لعلَّ الطاغية منهم يصبح غَداً واحداً من الرعية .

إذن : الحق سبحانه ملَّك بعض الناس أمْر بعض : هذا يتصرف فى هذا ، وهذا يملك هذا لتسير حركة الكون ، فإذا كانت القيامة ، قال عز وجل : ﴿ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦) ﴾ [غافر] هذا هو الملْك الحق .

ومن عظمته فى التعالى أنه يريحك هو سبحانه بعمله لك ، فيقول لك : نَمْ ملْءَ جفونك ، فأنا لا تأخذنى سِنَة ولا نوم ، نَمْ فلكَ رب قيوم قائمَ على أمرك يرعاك ويحرسك .

ومن معانى ﴿ الْمَلِكُ الْحَقُّ .. (١١٤) ﴾ [طه] أى : الثابت الذى لا يتغير ، وكُلُّ ظاهرة من ظواهر القوة فى الكون تتغير إلا قوة الحق

ـ تبارك وتعالى ـ لذلك يُلقِى سبحانه أوامره وهو واثق أنها ستُنفذ ؛ لأنه سبحانه ملكٌ حقّ ، بيده ناصية الأمور كلها ، فلو لم يكُنْ سبحانه كذلك ، فكيف يقول للشىء : كُنْ فيكون ؟ فلا يعصاه أحد ، ولا يخرج عن طَوْعه مخلوق ، فيقول له : كُنْ فلا يكون .

فالحق ـ تبارك وتعالى ـ أنزل القرآن عربياً ، وصرَّف فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكراً ؛ لأنه من حقه أن يكون له ذلك ؛ لأنه ملك حق ليس له هوى فيما شرع ؛ لذلك يجب أن تقبل تشريعه ، فلا يطعن فى القوانين إلا أن تصدر عن هوى ، فإنْ قنَّن رأسمالى أعطَى الامتياز للرأسماليين ، وإنْ قنَّن فقير أعطى الامتياز للفقراء ، والله عز وجل لا ينحاز لأحد على حساب أحد .

وأيضاً يجب فى المقنِّن أن يكون عالماً بمستجدَّات الأمور فى المستقبل ، حتى لا يستدرك أحد على قانون فيُغيِّره كما يحدث معنا الآن ، وتضطرنا الأحداث إلى تغيير القانون ؛ لأننا ساعة شرعناه غابتْ عنا هذه الأحداث ، ولم نحتط لها ؛ لذلك لا استدراكَ على قانون السماء أبداً .

وطالما أن الحق سبحانه وتعالى هو ﴿الْمَلِكُ الْحَقُّ .. (١١٤)﴾ [طه] فلا بُدَّ أنْ يضمن للخلق أنْ يصلهم الكتاب والمنهج كما قاله سبحانه ، لا تغيير فيه ؛ لذلك قال عز وجل : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩)﴾ [الحجر]

نحن الذين سنحفظه ؛ لأن البشر جُرِّبوا فى حِفْظ مناهج السماء ، ولم يكونوا أمناء عليها ، فغيَّروا فى التوراة وفى الإنجيل وفى الكتب المقدَّسة ، إما بأن يكتموا بعض ما أنزل الله ، وإما أنْ ينسُوا بعضه ،

والذى ذكروه لم يتركوه على حاله بل حرَّفوه . وإنْ قُبِل منهم هذا كله فلا يُقبَل منهم أنْ يفتَرُوا على الله فيُؤلِّفون من عندهم ، ويقولون : ﴿هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ..(٧٨)﴾ [آل عمران]

ذلك لأن الحفْظ للمنهج كان موكولاً للبشر تكليفاً ، والتكليف عُرْضَة لأنْ يُطَاع ، ولأن يُعْصَى ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ .. (٤٤)﴾ [المائدة]

أى : طلب منهم أن يحفظوها بهذا الأمر التكليفى ، فعَصَوْه نسياناً ، وكتماناً ، وتحريفاً ، وزيادة ؛ لذلك تولّى الحق ـ تبارك وتعالى ـ حفْظ القرآن ؛ لأنه الكتاب الخاتم الذى لا استدراكَ عليه ، وضمن سبحانه للقرآن ألاَّ يُحرَّف بأىِّ وجه من أَوْجُه التحريف .

فاطمئنوا إلى أن القرآن كتاب الله الذى بين أيديكم هو كلام الله الذى جاء من علمه تعالى فى اللوح المحفوظ الذى قال عنه : ﴿فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ[1] (٧٨) لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ (٧٩)﴾ [الواقعة]

ثم نزل به الروح الأمين ، وهو مُؤتَمن عليه لم يتصرَّف فيه ، ثم نزل على قلب سيد المرسلين الذى قال الله عنه : ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ (٤٤) لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥)﴾ [الحاقة]

إذن : حُفظ القرآن علْماً فى اللوح المحفوظ ، وحُفظ فى أمانة مَنْ نزل به من السماء ، وحُفظ فى مَنْ استقبله وهو النبى ﷺ ، فلا حجةَ لنا بعد أن جمع الحق ـ سبحانه وتعالى ـ للقرآن كُلَّ ألوان الحفظ .

---

(١) قوله : ﴿فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ (٧٨)﴾ [الواقعة] . قيل : هو اللوح المحفوظ . وقيل : هو القرآن يصونه المؤمن مكتوباً أو يصونه فى قلبه محفوظاً . [القاموس القويم ٢/١٧٦].

لذلك كان ولا بُدَّ حين يُنزل الله القرآن على رسوله أن يقول له : ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ۗ (١١٤)﴾ [طه] فليست هناك حقيقة بعد هذا أبداً ، وليس هناك شيء ثابت ثبوتَ الحق سبحانه وتعالى .

ثم يقول تعالى ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ .. (١١٤)﴾ [طه] وهذه مُقدِّمات ليطمئن رسول الله على حِفْظ القرآن ؛ لأنه ﷺ كان ينزل عليه الوحى ، فيحاول إعادته كلمة كلمة . فإذا قال الوحى مثلاً : ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ .. (١)﴾ [الجن] فيأخذ الرسول فى تكرارها فى سرِّه ويُردِّدها خلف جبريل عليه السلام مخافة أنْ ينساها لشدة حِرْصه على القرآن[1] .

فنهاه الله عن هذه العَجَلَة ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ .. (١١٤)﴾ [طه] أى : لا تتعجل ، ولا تنشغل بالتكرار والترديد ، فسوف يأتيك نُضْجها حين تكتمل ، فلا تَخْشَ أنْ يفوتك شيءٌ منه طالما أننى تكفَّلْتُ بحِفْظه ؛ لذلك يقول له فى موضع آخر : ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ (٦)﴾ [الأعلى]

فاطمئن ولا تقلق على هذه المسألة ؛ لأن شغلك بحفظ كلمة قد يُفوِّت عليك أخرى .

والعَجَلَة أنْ تُخرِج الحدث قبل نُضْجه ، كأن تقطف الثمرة قبل نُضْجها وقبل أوانها ، وعند الأكل تُفَاجأ بأنها لم تَسْتَوِ بعد ، أو تتعجل قَطْفها وهى صغيرة لا تكفى شخصاً واحداً ، ولو تركتها لأوانها لكانت كافية لعدة أشخاص .

---

(١) أخرجه ابن أبى حاتم عن السدى . قاله السيوطى فى الدر المنثور (٥/٦٠٢) . وأورد القرطبى نحو هذا فى تفسيره (٦/٤٤٢٥) ، وكذا تفسير ابن كثير (٣/١٦٧) .

والقرآن كلام فى مستوى عَالٍ من البلاغة ، وليس كلاماً مألوفاً له يسهُل عليه حفْظه ؛ لذلك كان حريصاً على الحفْظ والتثبيت .

وفى آية أخرى يُوضِّح الحق سبحانه هذه المسألة : ﴿لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١٧) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (١٨)﴾ [القيامة] أى : لما تكتمل الآيات فلكَ أنْ تقرأها كما تحب .

وهذه الظاهرة من معجزات النبى ﷺ ، نبى ينزل عليه عدة أرباع من القرآن ، أو السورة كاملة ، ثم حين يُسرى عنه الوحى يعيدها كما أُنزلتْ عليه ، ولك أن تأتى بأكثر الناس قدرة على الحفظ ، واقرأ عليه لمدة عشر دقائق مثلاً من أى كتاب أو أى كلام ، ثم اطلب منه إعادة ما سمع فلن يستطيع .

أما النبى ﷺ فكان يأمر الكَتبة بكتابة القرآن ، ثم يمليه عليهم كما سمعه ، لا يُغير منه حرفاً واحداً ، بل ويُملى الآيات فى موضعها من السور المختلفة فيقول : « ضعوا هذه فى سورة كذا ، وهذه فى سورة كذا »[1] .

ولو أن السورة نزلت كاملة مرة واحدة لكان الأمر إلى حَدٍّ ما سهلاً ، إنما تنزل الآيات متفرقة ، فإذا ما قرأ ﷺ فى الصلاة مثلاً قرأ بسورة واحدة نزلتْ آياتها متفرقة ، هذه نزلت اليوم ، وهذه نزلت بالأمس ، وهكذا ، ومع ذلك يقرؤها مُرتَّبة آية آية .

وقوله تعالى بعدها : ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ (١٩)﴾ [القيامة] وخاطب

---

(١) أخرج البيهقى فى دلائل النبوة (١٥٣/٧) من حديث عثمان بن عفان ـ رضى الله عنه ـ أنه قال : إن رسول الله ﷺ كان يأتى عليه الزمان تنزل عليه السور ، ذوات عدد ، فكان إذا نزل عليه الشىء يدعو بعض من كان يكتبه ، فيقول : « ضعوا هذه فى السورة التى يذكر فيها كذا وكذا » . وكذا أخرجه الترمذى فى سننه (٢٧٢/٥) ، والحاكم فى مستدركه (٢٢١/٢ ، ٣٣٠) .

النبى فى آية أخرى : ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ .. (٤٤)﴾ [النحل] فالبيان من الله تعالى والتبيين من النبى ﷺ .

ومعنى : ﴿مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ .. (١١٤)﴾ [طه] أى : انتظر حتى يسرى عنك ، لكن كيف يعرف الرسول ذلك ؟ كيف يعرف أن الحالة التى تعتريه عند نزول الوحى قد زالتْ ؟ والصحابة يصفون حال النبى ﷺ عند نزول الوحى عليه فيقولون : كنا نسمع حول رأسه كغطيط النحل ، وكان جبينه يتفصد عرقاً[1] ، ويبلغ منه الجهد مبلغاً ، وإن نزل الوحى وهو على دابة كانت تنخ برسول الله ؛ لأن الله تعالى قال : ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً (٥)﴾ [المزمل]

إذن : هناك آيات مادية تعرض لرسول الله عند نزول الوحى ؛ لأن الوَحْى من ملَك له طبيعته التكوينية التى تختلف وطبيعة النبى البشرية ، فلكى يتم اللقاء بينهما مباشرة لا بُدَّ أنْ يحدث بينهما نوعٌ من التقارب فى الطبيعة ، فإمّا أن يتحول الملَك من صورته الملائكية إلى صورة بشرية ، أو ينتقل رسول الله من حالته البشرية إلى حالة ملائكية ارتقائية حتى يتلقّى عن الملك .

لذلك ، كانت تحدث لرسول الله تغييرات كيماوية فى طبيعته ، هذه التغييرات هى التى تجعله يتصبَّبُ عَرَقاً حتى يقول : « زملونى زملونى » أو « دثرونى دثرونى »[2] لما حدث فى تكوينه من تفاعل .

فكان الوحى شاقاً على رسول الله خاصة فى أوله ، فأراد الحق ـ

---

(١) قالت عائشة رضى الله عنها : لقد رأيته ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد ، فيفصم عنه ، وإن جبينه ليتفصّد عرقاً . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢) كتاب بدء الوحى ، وأحمد فى مسنده (٦/٢٥٧) .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه (٢) كتاب بدء الوحى من حديث عائشة رضى الله عنها .

سبحانه ـ أنْ يُخفِّف عن رسوله هذه المشقة ، وأنْ يُريحه فترة من نزول الوحى ليريحه من ناحية وليُشوِّقه للوحى من ناحية خرى ، فقال تعالى : ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (١) وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ (٢) الَّذِى أَنقَضَ ظَهْرَكَ (٣)﴾ [الشرح] والوِزْر هو الحِمْل الثقيل الذى كان يحمله رسول الله فى نزول الوحى عليه .

فلما فتر الوحى عن رسول الله شمتَ به الأعداء ، وقالوا : إن ربَّ محمد قد قلاه[1] . سبحان الله ، أفى الجَفْوة تذكرون أن لمحمد رباً ؟ ألستم القائلين له : كذاب وساحر ؟ والآن أصبح له رب لأنه قلاه ؟

وما فهم الكفار أن فتور الوحى لحكمة عالية ، أرادها ربُّ محمد ، هى أنْ يرتاح نفسياً من مشقة هذه التغيرات الكيماوية فى تكوينه ، وأنْ تتجدد طاقته ، ويزداد شوقه للقاء جبريل من جديد ، والشَّوْق إلى الشىء يُهوِّن الصعاب فى سبيله . كما يسير المحب إلى حبيبه ، لا تمنعه مشاقّ الطريق .

فردَّ الله على الكفار : ﴿وَالضُّحَىٰ (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣) وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأُولَىٰ (٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ (٥)﴾ [الضحى]

فنفى عن رسوله ما قاله الكفار ، ثم عدَّل عبارتهم : إن ربَّ محمد قد قلاه فقال : ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣)﴾ [الضحى] هكذا بكاف الخطاب ؛ لأن التوديع قد يكون للحبيب .

أمَّا فى قوله : ﴿وَمَا قَلَىٰ (٣)﴾ [الضحى] فلم يأت هنا بكاف الخطاب حتى مع النفى ، فلم يقُلْ (وما قلاك) ؛ لأنَ النفى مع ضمير المخاطب يُشْعِر بإمكانية حدوث الكُره لرسول الله .

---

(١) عن جندب بن عبد الله البجلى أنه قال : أبطأ جبريل على رسول الله ﷺ ، فقال المشركون : ودع محمداً ربه . أورده ابن كثير فى تفسيره (٤/٥٢٢) .

كما لو قلت : أنا لم أرَ شيخ الأزهر يشرب الخمر ، أمدحتَ شيخ الأزهر بهذا القول أم ذَمَمْته ؟ الحقيقة أنك ذممته ؛ لأنك جعلته مظنة أن يحدث منه ذلك .

فهذا التعبير القرآنى يعطى لرسول الله منزلته العالية ومكانته عند ربه عز وجل .

لكن ، ما الحكمة فى أن الحق ـ تبارك وتعالى ـ أقسم فى هذه المسألة بالضحى وبالليل إذا سَجَى ؟ وما صلتهما بموضوع غياب الوحى عن رسول الله ؟

الله عز وجل يريد بقوله : ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢﴾ [الضحى] أن يرد هؤلاء إلى ظاهرة كونية مُشَاهدة ومُعْتَرف بها عند الجميع ، وهى أن الله خلق النهار وجعله مَحلاً للحركة والنشاط والسعى ، وخلق الليل وجعله مَحَلاً للراحة والسكون ، فيرتاح الإنسان فى الليل ليعاود نشاطه فى الصباح من جديد .

وهكذا أمر الوحى مع رسول الله ﷺ ، فلما أجهده الوحى احتاج إلى وقت يرتاح فيه ، لا لتنتهى المسألة بلا عودة ، بل ليُجدِّد نشاط النبى ، ويُشوِّقه للوحى من جديد ؛ لذلك بشَّره بقوله : ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝٤﴾ [الضحى] أى : انتظر يا محمد ، فسوف يأتيك خير كثير .

فالحق سبحانه يُرجِعهم إلى ظواهر الكون ، وإلى الطبيعة التى يعيشون عليها ، فأنتم ترتاحون من عَناء النهار بسكون الليل ، فلماذا تنكرون على محمد أن يرتاح من عناء الوحى ومشقته ؟ وهل راحتكم فى سكون الليل تعنى دوام الليل وعدم عودة النهار ؟

وقوله تعالى : ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا (١١٤)﴾ [طه] هذا توجيه للنبى ﷺ للاستزادة من العلم ، فما دُمْتَ أنت يا رب الحافظ فزِدْنى منه ، ذلك لأن رسول الله سيحتاج إلى علم تقوم عليه حركة الحياة من لَدُنْه إلى أن تقوم الساعة ، علْمٌ يشمل الأزمنة والأمكنة ، فلا بُدَّ له أنْ يُعَدَّ الإعدادَ اللازم لهذه المهمة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا (١١٥)﴾

كأن الحق ـ تبارك وتعالى ـ يُعزِّى رسوله ﷺ ويُخفِّف عنه ما يعانيه من كفر القوم وعنادهم بقوله له : اقبلهم على علاَّتهم ، فهُمْ أولاد آدم ، والعصيان أمر وارد فيهم ، وسبق أن عهدنا إلى أبيهم فنسى ، فإذا نسى هؤلاء فاقبل منهم فهم أولاد « نسَّاى » .

لذلك ، إذا أوصيتَ أحداً بعمل شىء فلم يَقُمْ به ، فلا تغضب ، وارجع الأمر إلى هذه المسألة ، والتمس له عُذْراً .

وقوله : ﴿عَهِدْنَا إِلَىٰٓ آدَمَ .. (١١٥)﴾ [طه] أى : أمرنا ووصَّيْنا ووعظنا ، وقلنا كل شىء .

﴿مِن قَبْلُ .. (١١٥)﴾ [طه] هذه الكلمة لها دَوْر فى القرآن ، وقد حسمتْ لنا مواقف عدة ، منها قوله هنا عن آدم والمراد : خُذْ لهم أُسْوة من أبيهم الذى كلّفه الله مباشرة ، ليس بواسطة رسول ، وكلّفه بأمر واحد ، ثم نهاه أيضاً عن أمر واحد : كُل من كُلِّ الجنة إلا هذه الشجرة ، هذا هو التكليف ، ومع ذلك نسى آدم ما أُمِر به .

إذن : حينما يأتى التكليف بواسطة رسول ، وبأمور كثيرة ، فمَنْ نسى من ولد آدم فيجب أنْ نعذره ونلتمس له عذراً ، ولكثرة النسيان فى ذرية آدم قال تعالى : ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ .. (٨٢)﴾ [طه] بالمبالغة ؛ لأن الجميع عُرْضَة للنسيان وعُرْضة للخطأ ، فالأمر - إذن - يحتاج إلى مغفرة كثيرة .

كذلك جاءتْ (من قبل) فى قوله تعالى : ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ .. (٩١)﴾ [البقرة]

فكان لها دور ومَغْزى ، فلو قال الحق سبحانه : فلِمَ تقتلون أنبياء الله ؟ فحسْب ، فربما جرَّأهم على الاعتداء على رسول الله أنْ يقتلوه ، أو يفهم منها رسول الله أنه عُرْضة للقتل كما حدث مع سابقيه من الأنبياء . لذلك قيَّدها الحق - تبارك وتعالى - وجعلها شيئاً من الماضى الذى لن يكون ، فهذا شىء حدث من قبل ، وليس هذا زمانه .

وقوله : ﴿فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا (١١٥)﴾ [طه] أى : نسى العَهْد ، هذه واحدة . ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا (١١٥)﴾ [طه] ليس عنده عزيمة قوية تُعينه على المضىِّ والثبات فى الأمر .

فالحق - تبارك وتعالى - يريد أن يعطينا فكرة بأنه سبحانه حين يأمر بأمْر فيه نفع لك تتهافت عليه ، أمّا إذا أمر بشىء يُقيِّد شهواتك تأبَّيْتَ وخالفتَ ، ومن هنا احتاج التكليف إلى عزيمة قوية تعينك على المضىِّ فيه والثبات عليه ، فإنْ أقبلتَ على الأمر الذى يخالف شهوتك نظرتَ فيه وتأملتَ : كيف أنه يعطيك شهوة عاجلة زائلة لكن يعقبها ذلٌّ آجل مستمر ، فالعَزْم هنا ألاَّ تغريك الشهوة .

ألا ترى أن الله تعالى سمَّى الرسل أصحاب الدعوات والرسالات الهامة فى تاريخ البشرية ﴿أُولُوا الْعَزْمِ .. (٣٥)﴾ [الأحقاف] لأنهم

سيتحملون مشاقَ ومهامَ صعبة تحتاج إلى ثبات وصبر على التكاليف.

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ .. (٦٣)﴾ [البقرة] أى : عزيمة تدفع إلى الطاعات ، وتمنع من المعاصى .

ومسألة نسيان العبد للمنهيات التى يترتب عليها عقاب وعذاب أثارتْ عند الناس مشكلة فى القضاء والقدر ، فتسمع البعض يقول : ما دام أن الله تعالى كتب علىَّ هذا الفعل فلِمَ يعاقبنى عليه ؟

ونعجب لهذه المقولة ، ولماذا لم تَقُلْ أيضاً : لماذا يثيبنى على هذا الفعل ، ما دام قد كتبه علىَّ ؟ لماذا توقفتَ فى الأولى و(بلعْتَ) الأخرى ، بالطبع ؛ لأن الأولى ليست فى صالحك . إذن ، عليك أن تتعامل مع ربك معاملة واحدة ، وتقيس الأمور بمقياس واحد .

والعهد الذى أخذه الله على آدم أنْ يأكل رَغَداً من كل نعيم الجنة كما يشاء إلا شجرة واحدة حذَّره من مجرد الاقتراب منها هو وزوجه : ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (٣٥)﴾ [البقرة]

وهذه المسألة تلفتنا إلى أن المحللات كثيرة لا تُعَدُّ ولا تُحْصَى أمّا المحرمات فقليلة معدودة محصورة ؛ لذلك حينما يُحدِّثنا الحق سبحانه عن التكليف يقول : ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ .. (١٥١)﴾ [الانعام] فالمحرَّمات هى التى يمكن حصرها ، أما المحللات فخارجة عن نطاق الحَصْر .

ونلحظ أن الله تعالى حينما يُحذِّرنا من المحرمات لا يُحذِّرنا من مباشرتها ، بلْ من مجرد الاقتراب منها ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ الشَّجَرَةَ .. (٣٥)﴾ [البقرة] ولَم يقُلْ : لا تأكلا منها ؛ ليظل الإنسان بعيداً عن منطقة الخطر ومظنّة الفعْل .

وحينما يُحدِّثنا ربُّنا عن حدوده التى حدَّهَا لنا يقول فى الحدّ

المحلَّل : ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا .. (٢٢٩)﴾ [البقرة] وفى الحدِّ المحرّم يقول : ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوهَا .. (١٨٧)﴾ [البقرة] ذلك لأن مَنْ حامَ حول الحِمَى يوشك أنْ يقع فيه .

وقد كان للعلماء كلام طويل حول ما نسيه آدم عليه السلام ، فمنهم مَنْ قال : نسى (كُل من هذه ولا تقرب هذه) ، وعلى هذا الرأى لم يَنْسَ آدم لأنه نفَّذ الأمر فأكل ممّا أحله الله له ، أما كونه أكل من الشجرة التى نهاه الله عنها فليس فى هذه أيضاً نسيان ؛ لأن إبليس ذكّره بهذا النهى فقال : ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (٢٠)﴾ [الأعراف]

فحينما أكل آدم من الشجرة لم يكُنْ ناسياً ما نهاه الله عنه . إذن : ما المقصود بالنسيان هنا ؟

المقصود أن آدم ـ عليه السلام ـ نسى ما أخبره الله به من عداوة إبليس ـ لعنه الله ـ حين قال له : ﴿إِنَّ هَـٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ (١١٧)﴾ [طه]

والفكر البشرى لا بُدَّ أن تفوتَهُ بعض المسائل ، ولو كان عند الإنسان يقظة وحَذَر ما انطلى عليه تغفيل إبليس ، فتراه يُذكِّر آدمَ بالنهى ولم يَدَعْهُ فى غفلته ثم يحاول إقناعه : إنْ أكلتُما من هذه الشجرة فسوف تكونَا ملكين ، أو تكونَا من الخالدين .

وما دُمْتَ أنت يا إبليس بهذا الذكاء ، فلماذا لم تأكل أنت من الشجرة وتكون ملَكاً أو تكون من الخالدين ؟ لماذا تضاءلت فصرْتَ أرنباً تقول : ﴿أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤)﴾ [الأعراف]

إذن : هذا نموذج من تغفيل إبليس لآدم وذريته من بعده ، يلفتنا الله تعالى إليه يقول : تيقظوا واحذروا ، فعداوته لكم مُسْبقة منذ سجد الجميع لآدم تكريماً ، وأبَى هو أن يسجد .

فكان على آدم أنْ يُحذِّر عدوه ، وأنْ يتحصَّن له بسوء الظن فيه ، فينظر فى قوله ويفكر فى كلامه ويفتش فى اقتراحه .

والبعض يقول : إن خطأ آدم ناتج عن نسيان ، فهو خطأ غير مُتعَمَّد ، والنسيان مرفوع ، كما جاء فى الحديث الشريف : « إن الله تجاوز عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه »[(١)] .

فهل كان النسيان قديماً لا يُرْفَع ، ورُفِع لهذه الأمة إكْراماً لها ؟ فأصحاب هذا القول يلتمسون العُذْر لآدم عليه السلام ، لكن كيف وقد كلَّفه ربُّه مباشرة ، وكلَّفه بأمر واحد ، فالمسألة لا تحتمل نسياناً ، فإذا نسى آدم مع وحدة التكليف وكَوْنه من الله مباشرة ، فهذا على أية حال جريمة .

ثم يقص الحق سبحانه علينا قصة آدم مع إبليس :

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ ﴾

الحق ـ تبارك وتعالى ـ يقصُّ علينا قصة آدم عليه السلام ، لكن نلاحظ أنه سبحانه أعطانا مُجْمل القصة ومُوجزها فى قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ ﴾ [طه] وأصْل القصة وترتيبها الطبيعى أنه سبحانه يقول : خلقْتُ آدم بيدى وصوَّرته ، وكذا وكذا ، ثم أمرْتُ الملائكة بالسجود له ثم قلت له : كذا ....

---

(١) أخرجه ابن ماجة فى سننه (٢٠٤٥) والدارقطنى فى سننه (٤/١٧٠) والحاكم فى مستدركه (٢/١٩٨) وصححه على شرط الشيخين عن ابن عباس ، ولكن إسناد ابن ماجة منقطع .

وعَرْض القصة بهذه الطريقة أسلوبٌ من أساليب التشويق ، يصنعه الآن المؤلفون والكُتَّاب فى قصصهم ، فيعطوننا فى بداية القصة لقطة لنهايتها ؛ لإثارة الرغبة فى تتبُّع أحداثها ، ثم يعود فيعرض لك القصة من بدايتها تفصيلاً ، إذن : هذا لونٌ من ألوان الإثارة والتشويق والتنبيه .

ومن ذلك أسلوب القرآن فى قصة أهل الكهف ، حيث ذكر القصة مُوجَزة فقال : ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ[1] كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا (٩) إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا (١٠) فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا (١١) ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا (١٢)﴾ [الكهف]

ثم أخذ فى عَرْضها تفصيلاً : ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ .. (١٣)﴾ [الكهف]

وقد جاء هذا الأسلوب كثيراً فى قَصَص القرآن ، ففى قصة لوط - عليه السلام - يبدأ بنهاية القصة وما حاق بهم من العذاب : ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ (٣٣) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا[2] إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ[3] (٣٤)﴾ [القمر]

ثم يعود إلى تفصيل الأحداث : ﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ (٣٦) وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ (٣٧)﴾[القمر]

---

(١) الرقيم . قيل : هو كتاب كان معهم . وقيل : اسم وادٍ بفلسطين كان فيه كهفهم . [القاموس القويم ١/٢٧٣] .

(٢) أى : عذاباً يحصبهم أى : يرميهم بحجارة من سجيل . ويُقال للريح التى تحمل التراب والحصى : حاصب . [لسان العرب - مادة : حصب] .

(٣) السَّحَر : آخر الليل قبيل الصبح . والجمع : أسحار . وقيل : هو من ثلث الليل الآخر إلى طلوع الفجر . [لسان العرب - مادة : سحر] .

ومن أبرز هذه المواضع قوله تعالى فى قصة موسى وفرعون : ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (١٠٣)﴾ [الأعراف] أى : من بعد موكب الرسالات إلى فرعون وملئه فظلموا بها ، فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ، هذا مُجمل القصة ، ثم يأخذ فى قَصِّ الأحداث بالتفصيل : ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٤)﴾ [الأعراف]

وهكذا أسلوب القرآن فى قصة آدم عليه السلام ، يعطينا مُجْمل القصة ، ثم يُفصِّلها : ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا (١١٦)﴾ [طه] يعنى : اذكر إذ قُلْنا للملائكة ﴿اسْجُدُوا لِآدَمَ .. (٣٤)﴾ [البقرة]

وقبل أن نخوضَ فى قصة أبينا آدم ـ عليه السلام ـ يجب أن نشير إلى أنها تكررتْ كثيراً فى القرآن ، لكن هذا التكرار مقصود لحكمة ، ولا يعنى إعادة الأحداث ، بل هى لقطاتٌ لجوانب مختلفة من الحدَث الواحد تتجمع فى النهاية لتعطيك القصة الكاملة من جميع زواياها .

كما أن الهدف من قَصَص القرآن تثبيت النبى ﷺ ؛ لأنه سيمرُّ بكثير من الأحداث والشدائد ، سيحتاج فى كل منها إلى تثبيت ، وهذا الغرض لا يتأتَّى إذا سردنا القصة مرة واحدة ، كما فى قصة يوسف عليه السلام مثلاً .

قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا .. (١١٦)﴾ [طه] البعض يعترض يقول : كيف تسجد الملائكة لبشر ؟ نعم ، هم سجدوا لآدم ، لكن ما سجدوا من عند أنفسهم ، بل بأمر الله لهم ، فالمسألة ليستْ سجوداً لآدم ، بقدر ما هى إطاعة لأمر الله . ولقائل هذا الكلام : أأنت مَلِكىٌّ أكثر من الملك ؟ يعنى : أأنت ربانىّ أكثر من الربّ ؟

وما معنى السجود ؟ السجود معناه : الخضوع ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ[1] عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا .. (١٠٠)﴾ [يوسف] أى : سجودَ تعظيم وخضوع ، لا سجودَ عبادة .

وآدم - عليه السلام - هو خليفة الله فى الأرض ، لكنه ليس الوحيد عليها ، فعلى الأرض مخلوقات كثيرة منها المحسّ ، كالشمس والقمر والنجوم والهواء والماء والأرض والجبال ، وكُلّ ما فيه مصلحة لهذا الخليفة ، ومنها ما هو خفىّ كالملائكة التى تدير خفى هذا الكون ، فمنهم الحفظة والكتبة ، ومنهم المكلَّفون بالريح وبالمطر .. إلخ من الأمور التى تخدم الخَلْق . فلا بُدَّ - إذن - أن يخضع الجميع لهذا المخدوم الآتى .

وقد يحلو للبعض أن يقول : لقد ظَلَمنا آدمُ حين عصى ربه ، فأنزلنا من الجنة إلى الأرض . نقول : يجب أن نفهم عن الله تعالى ، فالحق - تبارك وتعالى - لم يخلق آدم للجنة التى هى دار الخُلْد ، إنما خلقه ليكون خليفة له فى الأرض ، كما قال سبحانه : ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى الأَرْضِ خَلِيفَةً .. (٣٠)﴾ [البقرة]

فأوّل بلاغ من الله عن آدم أنه خالقه للأرض لا للجنة . والجنة ، وإن كانت تُطلَق على دار الخُلْد ودار النعيم الأُخْروى فهى تُطلَق أيضاً على حدائق وبساتين الدنيا ، كما جاء فى قول الحق سبحانه :

---

(١) قال السدى وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم : إنما كان أبوه وخالته ، وكانت أمه قد ماتت قديماً . وقال محمد بن إسحاق وابن جرير : كان أبوه وأمه يعيشان . قال ابن جرير : ولم يقم دليل على موت أمه ، قال ابن كثير فى تفسيره (٢/٤٩١) بعد سرد هذه الأقوال : « ظاهر القرآن يدل على حياتها ، وهذا الذى نصره هو المتصور الذى يدل عليه السياق » .

﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا[1] مُصْبِحِينَ (١٧)﴾ [القلم]

وقوله : ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ.. (٣٢)﴾ [الكهف]

إذن : تُطلَق الجنة على شىء فى الدنيا يضمُّ كل ما تطلبه النفس وسمَّوْها الجنة ؛ لأنها تستر بشجرها وكثافتها مَنْ يدخل فيها ، أو جنة لأنها تكفى الإنسان ولا تُحوجه إلى شىء غيرها .

فلا تظلموا آدم بأنه أخرجكم من الجنة ؛ لأنه لم يكُنْ فى جنة الخُلْد ، إنما فى مكان أعدَّه الله له ، وأراد أنْ يُعطيه فى هذا المكان درساً ، ويُدرِّبه على القيام بمهمته فى الحياة وخلافته فى الأرض .

أرأيتَ ما نفعله الآن من إقامة معسكرات للتدريب فى شتى مجالات الحياة ، وفيها نتكفّل بمعيشة المتدرب وإقامته ورعايته .

إنها أماكن مُعدَّة للتدريب على المهام المختلفة : رياضية ، أو علمية ، أو عسكرية .. الخ .

هكذا كانت جنة آدم مكاناً لتدريبه قبل أنْ يباشر مهمته كخليفة لله فى الأرض ، فأدخله الله فى هذه التجربة العملية التطبيقية ، وأعطاه فيها نموذجاً للتكليف بالأمر والنهى ، وحذَّره من عدوه الذى سيتربص به وبذريته من بعده ، وكشف له بعض أساليبه فى الإضلال والإغواء .

---

(١) الصَّرْم : القطع مادياً ، كقطع الثمار . أى : يقطعون ثمارها . قال تعالى : ﴿فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ (٢٠)﴾ [القلم] أى : أصبحت حديقتهم بعد احتراقها كالليل المسودّ ، أو صارت كالأرض التى قطعت أشجارها ولا نبات فيها » . [القاموس القويم ١/٣٧٥] .

وهذه هى خلاصة منهج الله فى الأرض ، وما من رسول إلا وجاء بمثل هذا المنهج : أمر ، ونهى ، وتكليف ، وتحذير من الشيطان ووسوسته حتى يُخرِجنا عن أمر الله ونَهْيه .

وبعد هذا (الكورس) التدريبى فى الجنة علَم آدم بالتطبيق العملى أن الشيطان عدوه ، وأنه سيُغريه ويخدعه ، ثم بعد هذه التجربة أنزله الله ليباشر مهمته فى الأرض ، فيكون من عدوه على ذِكْر وحذر .

والبعض يقف طويلاً عند مسألة عصيان آدم : كيف يعصى الله وهو نبى ؟ ويذكرون قوله تعالى : ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ (١٢١)﴾ [طه]

نقول : ما دام أن آدم ـ عليه السلام ـ هو خليفة الله فى أرضه ، ومنه أنْسَالُ الناس جميعاً إلى أنْ تقوم الساعة ، ومن نَسله الأنبياء وغير الأنبياء ، من نسله الرسل والمرسل إليهم . إذن : فهو بذاته يمثل الخَلْق الآتى كله بجميع أنواعه المعصومين وغير المعصومين .

كما أن آدم ـ عليه السلام ـ مرَّ بهذه التجربة قبل أن يُنبأ ، ومَرَّ بها بعد أن نُبئ ، بدليل قوله تعالى : ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ (١٢١) ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ (١٢٢)﴾ [طه]

فكان الاجتباء والعصمة بعد التجريب ، ثم لما أُهبط آدم وعدوه إلى الأرض خاطبه ربه : ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨)﴾ [البقرة]

وهكذا بدأت مرحلة جديدة فى حياة آدم عليه السلام ، ومثَّل آدم الدَّوْرَيْن : دَوْر العصمة والنبوة بعدما اجتباه ربه ، ودَوْر البشر العادى غير المعصوم والمعرَّض للنسيان وللمخالفة كأىٍّ إنسان من أناس الأرض .

ينبغى - إذن - أن نفهم أن آدم خُلِق للأرض وعمارتها ، وقد هيَّأها الله لآدم وذريته من بعده ، وأعدَّها بكُلِّ مقوِّمات الحياة ومُقوِّمات بقاء النوع ، فمَنْ أراد ترف الحياة فليُعمل عقله فى هذه المقوّمات وليستنبط منها ما يريد .

لقد ذكرنا أن فى الكون مُلكاً وملكوتاً : الملْك هو الظاهر الذى نراه ونشاهده ، والملكوت ما خفى عنّا وراء هذا الملْك ، ومن الملكوت أشياء تؤدى مهمتها فى حياتنا دون أنْ نراها ، فمثلاً ظاهرة الجاذبية الأرضية التى تتدخل فى أمور كثيرة فى حياتنا ، كانت فى حجاب الملكوت لا نراها ولا نعرف عنها شيئاً ، ثم لما اهتدتْ إليها العقول واكتشفتْها عرفنا أن هناك ما يسمى بالجاذبية .

ومن الملكوت الملائكة الموكّلون ، كما قال تعالى : ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ .. (١١)﴾ [الرعد]

ومنهم الكَتَبة : ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (١٨)﴾ [ق]

فلما خلق الله آدم ، وخلق الملائكة الموكلين بمصالحه فى الأرض أمرهم بالسجود له ؛ لأنهم سيكونون فى خدمته ، فالسجود طاعة لأمر الله ، وخضوع للخليفة الذى سيعمر الأرض .

وقوله تعالى : ﴿إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ (١١٦)﴾ [طه] وفى آية أخرى[1] : ﴿إِلاَّ إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ .. (٧٤)﴾ [ص]

وقد أوضح الحق سبحانه سبب رَفْض إبليس للسجود لآدم بقوله : ﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥)﴾ [ص]

---

(١) وفى آية ثالثة جمع بين الإباء والاستكبار فى قوله تعالى : ﴿إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ .. (٣٤)﴾ [البقرة] .

أى : لا سبب لامتناعك إلا الاستكبار على السجود ، أو تكون من العالين . أى : الملائكة الذين لم يشملهم الأمر بالسجود ، فكأن الأمر كان لملائكة خاصة هم الموكّلون بخدمة آدم ، أمّا العالون فهم الملائكة المهيّمون ، ولا علاقة لهم بآدم ، وربما لا يدرُون به .

ومن الأساليب التى أثارتْ جَدَلاً حول بلاغة القرآن لدى المستشرقين قوله تعالى : ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ .. (٧٥)﴾ [ص] وقوله فى موضع آخر : ﴿مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ .. (١٢)﴾ [الأعراف] فأىُّ التعبيريْن بليغ ؟ وإنْ كان أحدهما بليغاً فالآخر غير بليغ .

وهذا كله ناتج عن قصور فى فَهْم لغة القرآن ، وعدم وجود الملكة العربية عند هؤلاء ، فهناك فَرْق بين أنك تريد أن تسجدَ ويأتى مَنْ يقول لك : لا تسجد ، وبين أنْ يُقنعك شخص بألاَّ تسجد . فقوله : ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ .. (٧٥)﴾ [ص] كنت تريد السجود وواحد منعك ، وقوله : ﴿مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ .. (١٢)﴾ [الأعراف] يعنى : أمرك ألاَّ تسجد ، وأقنعك وأنت اقتنعتَ .

ومن المسائل التى أثيرتْ حول هذه القصة : أكان إبليس من الملائكة فشمله الأمر بالسجود ؟ وكيف يكون من الملائكة وهم لا يعصُون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يؤمرون ؟ وإذا لم يكُنْ ملَكاً فماذا أدخله فى الأمر ؟

ولتوضيح هذه المسألة نقول : خلق الله الثَّقلَيْن : الجن والإنس ، وجعلهم مختارين فى كثير من الأمور ، ومقهورين فى بعض الأمور ، ليثبت طلاقة قدرته تعالى فى خَلْقه ، فإنْ كنتَ مختاراً فى أمور التكليف وفى استطاعتك أنْ تطيع أو أنْ تعصى ، فليس فى اختيارك أنْ تكون صحيحاً أو مريضاً ، طويلاً أو قصيراً ، فقيراً أو غنياً ، ليس فى اختيارك أنْ تحيا أو تموت .

والحق ـ تبارك وتعالى ـ لا يُكلِّفك بافعل كذا ولا تفعل كذا ، إلا إذا خلقك صالحاً للفعل ولعدم الفعل ، هذا فى أمور التكليف وما عداه أمور قَهْرية لا اختيارَ لك فيها هى القدريات .

لذلك نقول للذين أَلِفُوا التمرد وتعوَّدوا الخروج على أحكام الله فى التكليفات : لماذا لا تتمردوا أيضاً على القدريات ما دُمْتم قد أَلِفْتم المخالفة ؟ إذن : أنت مقهور وعَبْد رَغماً عنك .

لذلك ، إذا كان المختار طائعاً يلزم نفسه بمنهج ربه ، بل ويتنازل عن اختياره لاختيار الله ، فمنزلته عند الله كبيرة ، وهو أفضل من الملَك ، لأن الملَك يطيع وهو مرغم . ومن هنا يأتى الفرْق بين عباد وعبيد ، فالكل فى القهر عبيد ، لكن العباد هم الذين تركوا اختيارهم لاختيار ربهم .

ومن هنا نقول : إن إبليس من الجن ، وليس من الملائكة ؛ لأنه أُمِر فامتنع فعُوقِب ، وإنْ كان الأمر فى الأصل للملائكة .

وقد حسم القرآن هذه القضية حين قال : ﴿إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ .. ﴿٥٠﴾﴾ [الكهف] وهذا نصٌّ صريح لا جدالَ حوله[1] .

فإنْ قُلْتَ : فلماذا شمله الأمر بالسجود ، وهو ليس ملَكاً ؟

نقول : لأن إبليس قبل هذا الأمر كان طائعاً ، وقد شهد عملية خَلْق آدم ، وكان يُدْعَى « طاووس الملائكة » لأنه ألزم نفسه فى الأمور الاختيارية ففاق بذلك الملائكة ، وصار يزهو عليهم ويجلس فى مجلسهم ، فلما جاء الأمر للملائكة بالسجود لآدم شمله الأمر ولزمه من ناحيتين :

---

(١) قال الحسن البصرى : ما كان إبليس من الملائكة طرفة عين قط ، وإنه لأصل الجن كما أن آدم أصل الإنس . نقله ابن كثير فى تفسيره (١/٧٧) : « هذا إسناد صحيح عن الحسن ، وهكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم سواء » .

الأولى : إنْ كان أعلى منهم منزلةً وهو طاووسهم الذى ألزم نفسه الطاعة رغم اختياره فهو أَوْلَى بطاعة الأمر منهم ، ولماذا يعصى هذا الأمر بالذات ؟

الأخرى : إنْ كان أقلّ منهم ، فالأمر للأعلى لا بُدَّ أنْ يشمل الأدنى ، كما لو أمرتَ الوزراء مثلاً بالقيام لرئيس الجمهورية ، وبينهم وكلاء ومديرون ، فطبيعىٌّ أنْ يشملهم الأمر .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلِزَوْجِكَ .. (١١٧) ﴾ [طه] كلمةُ الزوج لا تعنى اثنين كما يظن البعض ، الزوج فرد واحد معه مثله ، فليس صحيحاً أن نقول : توأم إنما توأمان ، فكل منهما توأم للآخر ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ .. (٤٩) ﴾ [الذاريات]

ملْحَظ آخر فى قوله تعالى : ﴿ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ .. (١١٧) ﴾ [طه] الخطاب لآدم وزوجه يُحذِّرهما من إغواء إبليس وكَيْده ، ثم يقول ﴿ فَتَشْقَىٰ (١١٧) ﴾ [طه] بصيغة الإفراد ، ولم يقُل : فتشقيَا . لماذا ؟ لأن مسئولية الكَدْح والحركة للرجل أمَّا المرأة فهى السكن المريح المنشِّط لصاحب الحركة ، على خلاف ما نرى فى مجتمعنا من الحرص على عمل المرأة بحجة المساعدة فى تبعات الحياة .

﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ ﴾

فقد أعددْتُ لك الجنة ، وجعلتُ لك فيها كل ما تحتاجه ، وأبَحْتُ لك كل نعيمها ونهيتُك عن شيء واحد[1] منها ، ولك علينا ﴿أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾﴾ [طه] فلن تجوع فيها ؛ لأن فيها كل الثمرات ﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا .. ﴿٣٥﴾﴾ [البقرة]

ونلحظ هنا أن الله تعالى تكفَّل لهما بشيء ظاهر يُلبِّى غريزة ظاهرة هى اللباس والتستُّر ، وغريزة باطنة هى غريزة الطعام .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾﴾

(تظمأ) يعنى : تعطش ، و (تضحى) : أى : لا تتعرض لحرارة الشمس اللافحة ، فتكفّل لهما ربهما أيضاً بغريزة باطنة هى العطش ، وغريزة ظاهرة هى ألاَّ تلفحك حرارة الشمس .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾﴾

نلحظ أن الحق سبحانه اختار لعمل الشيطان اسماً يناسب الإغراء

---

(١) وهى الشجرة التى قال عنها الحق سبحانه : ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [البقرة] ، وقد أورد ابن كثير فى تفسيره (١/ ٧٩) . ستة أقوال عن هذه الشجرة ، فقال :

- هى الكرم . قاله ابن عباس وسعيد بن جبير والسدى والشعبى .
- هى الحنطة . زعمته يهود .
- هى السنبلة . قاله ابن عباس .
- هى البر . قاله ابن عباس أيضاً .
- هى النخلة . قاله أبو مالك .
- هى التينة . قاله مجاهد وقتادة وابن جريج .

بالشىء ، وهى كلمة (الوَسْوَسة) وهى فى الأصل صوت الحلىّ - أى : الذهب الذى تتحلَّى به النساء ، كما نقول : نقيق الضفادع ، وصهيل الخيل ، وخُوار البقر ، ونهيق الحمير ، وثغاء الشاة ، وخرير الماء ، وحفيف الشجر .

وكذلك الوسوسة اسم لصوت الحلىّ الذى يجذب الأسماع ، ويُغرى بالتطلع إليه ، وكأن الحق سبحانه يُحذِّرنا أن الشيطان سيدخل لنا من طريق الإغراء والتزيين .

فما الذى وَسوس به إلى آدم ؟

﴿ قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [طه]

ونعجب لإبليس : ما دُمْت تعرف شجرة الخُلْد والملْك الذى لا يبلى ، لماذا لم تأكل أنت منها وتحوز هذه الميزة ؟

﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ﴾ (١)

أى : بعد أن أكلا من هذه الشجرة ظهرتْ لهما سوءآتهما ، والسَّوْأة هى العورة أى : المكان الذى يستحى الإنسان أن ينكشف منه ، والمراد القُبُل والدُّبُر فى الرجل والمرأة . ولكل من القُبل والدُّبر مهمة ، وبهما يتخلص الجسم من الفضلات ، الماء من ناحية الكُلى والحالب والمثانة عن طريق القُبل ، وبقايا وفضلات الطعام الناتجة عن حركة الهَضْم وعملية الأَيْض ، وهذه تخرج عن طريق الدُّبُر .

لكن ، متى أحسَّ آدم وزوجه بسوءاتهما ، أبعد الأكل عموماً من

(١) أى : يلصقان عليهما ما يستر العورة من ورق الجنة . قيل : ورق شجر التوت [القاموس القويم ١/١٩٥] .

شجر الجنة ، أم بعد الأكل من هذه الشجرة بالذات ؟

الحق ـ تبارك وتعالى ـ رتَّب ظهور العورة على الأكل من الشجرة التى نهاهما عنها ﴿فَأَكَلا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا .. (١٢١)﴾ [طه] فقبْل الأكل من هذه الشجرة لم يعرفا عورتيهما ، ولم يعرفا عملية الإخراج هذه ؛ لأن الغذاء كان طاهيه ربُّه ، فيعطى القدرة والحياة دون أن يخلف فى الجسم أىَّ فضلات .

لكن ، لما خالفوا وأكلوا من الشجرة بدأ الطعام يختمر وتحدث له عملية الهضم التى نعرفها ، فكانت المرة الأولى التى يلاحظ فيها آدم وزوجه مسألة الفضلات ، ويلتفتان إلى عورتيهما : ما هذا الذى يخرج منها ؟

وهنا مسألة رمزية ينبغى الالتفات إليها ، فحين ترى عورة فى المجتمع فاعلم أن منهجاً من مناهج الله قد عُطل .

إذن : لم يعرف آدم وزوجه فضلات الطعام وما ينتج عنه من ريح وأشياء مُنفِّرة قذرة إلا بعد المخالفة ، وهنا تحيَّرا ، ماذا يفعلان ؟ ولم يكن أمامهما إلا ورق الشجر ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ .. (١٢١)﴾ [طه]

أى : أخذا يلصقان الورق على عورتيهما لسترها هكذا بالفطرة ، وإلا ما الذى جعل هاتين الفتحتين عورة دون غيرهما من فتحات الجسم كالأنف والفم مثلاً ؟

قالوا : لأن فَتْحتىْ القُبُل والدُّبُر يخرج منهما شىء قذر كريه يحرص المرء على سَتْره ، ومن العجيب أن الإنسان وهو حيوان ناطق فضَّله الله ، وحين يأكل يأكل باختيار ، أمّا الحيوان فيأكل بغريزته ،

ومع ذلك يتجاوز الإنسان الحد فى مأكله ومشربه ، فيأكل أنواعاً مختلفة ، ويأكل أكثر من حاجته ويأكل بعدما شبع ، على خلاف الحيوان المحكوم بالغريزة .

ولذلك ترى رائحة الفضلات فى الإنسان قذرة مُنفّرة ، ولا فائدة منها فى شىء ، أما فضلات الحيوان فلا تكاد تشمُّ لها رائحة ، ويمكن الاستفادة منها فيجعلونها وقوداً أو سماداً طبيعياً . وبعد ذلك نتهم الحيوان ونقول : إنه بهيم .. إلخ .

وقوله تعالى : ﴿ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ (١٢١) ﴾ [طه] أى : فيما قبل النبوة ، وفى مرحلة التدريب ، والإنسان فى هذه المرحلة عُرْضة لأنْ يصيب ، ولأنْ يخطىء ، فإنْ أخطأ فى هذه المرحلة لا تضربه بل تُصوِّب له الخطأ . كالتلميذ فى فترة الدراسة ، إنْ أخطأ صوَّب له المعلم ، أما فى الامتحان فيحاسبه .

ومعنى ﴿ فَغَوَىٰ (١٢١) ﴾ [طه] يعنى : لم يُصبْ الحقيقة ، كما يقولون لمن تاه فى الصحراء غاوٍ أى : تائه . ثم تأتى المرحلة الأخرى : مرحلة العِصْمة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ (١٢٢) ﴾

إذن : مثَّل آدم دَوْر الإنسان العادى الذى يطيع ويعصى ، ويسمع كلام الشيطان ، لكن ربه شرعَ له التوبة كما قال سبحانه : ﴿ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ .. (٣٧) ﴾ [البقرة]

إذن : عصى آدم وهو إنسان عادى وليس وهو نبى كما يقول البعض .

فقوله : ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ .. (١٢٢)﴾ [طه] هذه بداية لمرحلة النبوة في حياة آدم عليه السلام ، و (ثُمَّ) تعنى الترتيب مع التراخى ﴿اجْتَبَاهُ .. (١٢٢)﴾ [طه] اصطفاه ربه .

ولم يقل الحق سبحانه : ثم اجتباه الله ، إنما ﴿اجْتَبَاهُ رَبُّهُ .. (١٢٢)﴾ [طه] لأن الرب المتولى للتربية والرعاية ، ومن تمام التربية الإعداد للمهمة ، ومن ضمن إعداد آدم لمهمته أنْ يمرَّ بهذه التجربة ، وهذا التدريب فى الجنة .

﴿وَهَدَىٰ (١٢٢)﴾ [طه] المراد بالهداية قوله :

﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ (١٢٣)﴾

أى : اهبطا إلى الأرض وامضوا فيها على ضوء التجربة الماضية ، واعلما أن هناك أمراً ونهياً وعدواً يوسوس ويُزيِّن ويُغوى حتى يظهر عوراتكم ، وكأنه ـ عز وجل ـ يعطى آدم المناعة الكافية له ولذريته من بعده لتستقيم لهم حركة الحياة فى ظل التكاليف ؛ لأن التكاليف إما أمر وإما نهى ، والشيطان هو الذى يفسد علينا هذه التكاليف .

ومع ذلك لا ننسى طَرَفاً آخر هو النفس الأمَّارة التى تُحرِّكك نحو المعصية والمخالفة . إذن : ليس عدوك الشيطان فحسب فتجعله شماعة تُعلّق عليها كل معاصيك ، فهناك مَعَاصٍ لا يدخل عليك الشيطان بها إلا عن طريق النفس ، وإلا إبليس لما غوى ، مَنْ أغواه ؟ ومَنْ وسوس له ؟

وقوله : ﴿اهْبِطَا .. (١٢٣)﴾ [طه] بصيغة التثنية أمر لاثنين : آدم مطمور فيه ذريته ، وإبليس مطمور فيه ذريته ، فقوله : ﴿اهْبِطَا .. (١٢٣)﴾ [طه] إشارة إلى الأصل ، وقوله فى موضع آخر : ﴿اهْبِطُوا .. (٣٨)﴾ [البقرة] إشارة إلى ما يتفرّع عن هذا الأصل .

وقوله : ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ .. (٣٦)﴾ [البقرة] أى : بعض عدو للبعض الآخر ، وكلمة (بعض) لها دَوْر كبير فى القرآن ، والمراد : أنت عدو الشيطان إنْ كنتَ طائعاً ، والشيطان عدوك إنْ كنتَ طائعاً . فإنْ كنتَ عاصياً فلا عداوة إذن ؛ لأن الشيطان يريدك عاصياً . وحين لا يُعيِّن البعض تكون العداوة متبادلة ، فالبعض شائع فى الجميع .

كما فى قوله تعالى : ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ .. (٣٢)﴾ [الزخرف] فمَن المرفوع ؟ ومَنْ المرفوع عليه ؟ أصحاب النظرة السطحية يفهمون أن الغنىَّ مرفوع على الفقير .

والمعنى أوسع من هذا بكثير ، فكُلُّ الخَلْق بالنسبة للحق سبحانه سواء ، ومهمات الحياة تحتاج قدرات كثيرة ومواهب متعددة ؛ لذلك لا تتجمع المواهب فى شخص ، ويُحرم منها آخر ، بل ينشر الخالق - عز وجل - المواهب بين خَلْقه ، فهذا ماهر فى شىء ، وذاك ماهر فى شىء آخر ، وهكذا ليحتاج الناس بعضهم لبعض ، ويتم الربْط بين أفراد المجتمع ، ويحدث بينهما الانسجام اللازم لحركة الحياة .

إذن : كُلُّ بعض فى الوجود مرفوع فى شىء ، ومرفوع عليه فى شىء آخر ، فليكُنْ الإنسان مُؤدَّباً فى حركة حياته لا يتعالى على غيره لأنه نبغ فى شىء ، ولينظر إلى ما نبغ فيه الآخرون ، وإلى ما تميَّزوا به حتى لا يسخَر قوم من قوم ، عسى أن يكونوا خيراً

منهم ، وربما لديهم من المواهب ما لم يتوفّر لك .

لكن ما دام بعضكم لبعض عدواً أى : آدم مطمور فيه ذريته ، وإبليس مطمور فيه ذريته ، فَمنْ سيكون الحَكَم ؟ الحَكَم بينهما منهج الله : ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى .. (١٢٣) ﴾ [طه] فإياكم أنْ تجعلوا الهدى من عندكم ؛ لأن الهدى إنْ كان من عندكم فلن ينفع ولن يفلح .

﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ ولا يَشْقَىٰ (١٢٣) ﴾ [طه] فكأن هدى الله ومنهجه هو (كتالوج) سلامة الإنسان وقانون صيانته . ألاَ ترى الصانع من البشر حين يرفق بصنعته (كتالوجاً) يضم تعليمات عن تشغيلها وصيانتها ، فإن اتبعتَ هذه التعليمات خدمتْك هذه الآلة وأدَّتْ لك مهمتها دون تعطّل .

وكما أن هذا (الكتالوج) لا يضعه إلا صانع الآلة ، فكذلك الخالق ـ عز وجل ـ لا يضع لخَلْقه قانونهم وهَدْيَهم إلا هو سبحانه ، فإنْ وضعه آخر فهذا افتئات على الله عز وجل ، كما لو ذهبتَ إلى الجزار تقول له : ضَعْ لى التعليمات اللازمة لصيانة (الميكروفون) !!

إذن : الفساد فى الكون يحدث حينما نخرج عن منهج الله ، ونعتدى على قانونه وتشريعه ، ونرتضى بهَدْى غير هَدْيه ؛ لذلك يقول تعالى بعدها : ﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ ولا يَشْقَىٰ (١٢٣) ﴾ [طه] فإنْ كانت هذه نتيجة مَن اتبع هدى الله وعاقبة السير على منهجه تعالى ، فما عاقبة مَنْ أعرض عنه ؟

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤) ﴾

والإعراض : هو الانصراف ، وأن تعطيه عَرْض أكتافك كما ذكرنا من قبل .

وقوله : ﴿مَعِيشَةً ضَنكًا .. (١٢٤)﴾ [طه] الضنْك هو الضيق الشديد الذى تحاول أنْ تُفلتَ منه هنا أو هناك فلا تستطيع ، والمعيشة الضَّنْك هذه تأتى مَنْ أعرض عن الله ، لأن مَنْ آمن بإله إنْ عَزَّتْ عليه الأسباب لا تضيق به الحياة أبداً ؛ لأنه يعلم أن له رباً يُخرِجه مما هو فيه .

أما غير المؤمن فحينما تضيق به الأسباب وتُعجزه لا يجد مَنْ يلجأ إليه فينتحر . المؤمن يقول : لى ربٌّ يرزقنى ويُفرِّج كَرْبى ، كما يقول عز وجل : ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨)﴾ [الرعد]

لذلك يقولون : لا كَرْب وأنت رَبٌّ ، وإذا كان الولد لا يحمل هَمّاً فى وجودُ أبيه فله أبٌ يكفيه متاعب الحياة ومشاقها ، فلا يدرى بأزمات ولا غلاء أسعار ، ولا يحمل هَمَّ شىء ، فما بالُكَ بمَنْ له رَبٌّ ؟

وسبق أنْ ضربنا مثلاً ـ ولله المثل الأعلى ـ ، قلنا : هَبْ أن معك جنيهاً ثم سقط من جيبك ، أو ضاع منك فسوف تحزن عليه إنْ لم يكُنْ معك غيره ، فإنْ كان معك غيره فلن تحزن عليه ، فإن كان لديك حساب فى البنك فكأن شيئاً لم يحدث . وهكذا المؤمن لديه فى إيمانه بربه الرصيد الأعلى الذى يُعوِّضه عن كل شىء .

والحق ـ تبارك وتعالى ـ أعطانا مثالاً لهذا الرصيد الإيمانى فى قصة موسى عليه السلام مع فرعون ، حينما حُوصِر موسى وقومه بين البحر من أمامهم وفرعون بجنوده من خلفهم ، وأيقن القوم أنهم مُدْركون ، ماذا قال نبى الله موسى ؟

قال : ﴿ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢) ﴾ [الشعراء] هكذا بملْء فيه يقولها قَوْلَةَ الواثق مع أنها قَوْلة يمكن أن تكذب بعد لحظات ، لكنه الإيمان الذى تطمئن به القلوب ، والرصيد الذى يثِقُ فيه كُلُّ مؤمن .

إذن : مَنْ آمن بالله واتبع هُدَاه فلن يكون أبداً فى ضَنْك أو شِدَّة ، فإنْ نزلت به شِدَّة فلن تُخرِج عَزْمه عن الرضى ، واللجوء إلى ربه .

ومن آيات الإعجاز القرآنى فى مسألة الضيق ، قوله تعالى : ﴿ فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ .. (١٢٥) ﴾ [الأنعام]

فمن أين عرف محمد ﷺ أن مَنْ يصعَّد فى السماء يضيق صدره ؟ وهل صَعَد أحد إلى السماء فى هذا الوقت وجَرَّب هذه المسألة ؟ ومعنى ضيق الصدر أن حيِّز الرئة التى هى آلة التنفس يضيق بمرض أو مجهود زائد أو غيره ، ألاَ ترى أنك لو صعدتَ سُلَّماً مرتفعاً تنهج[1] ، معنى ذلك أن الرئة وهى خزينة الهواء لا تجد الهواء الكافى الذى يتناسب والحركة المبذولة ، وعندها تزداد حركة التنفس لتُعوِّض نَقْص الهواء .

والآن وبعد غزو الفضاء عرفنا مسألة ضيق التنفّس فى طبقات الجو العليا مما يضطرهم إلى أخذ أنابيب الأكسوجين وغيرها من آلات التنفس .

﴿ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا (١٢٥) ﴾

وكلمة ﴿ أَعْمَى .. (١٢٥) ﴾ [طه] جاءت فى قوله تعالى : ﴿ وَمَن كَانَ فِي هَـٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلاً (٧٢) ﴾ [الإسراء]

(١) النهج والنهيج : تواتر النفَس من شدة الحركة . [لسان العرب ـ مادة : نهج] .

والمراد بالعَمَى ألاَّ تُدركَ المبصَرات ، وقد توجد المبصَرات ولا تتجه لها بالرؤية ، فكأنك أعمى لا ترى ، وكذلك المعرِض عن الآيات الذى لا يتأملها ، فهو أعمى لا يراها .

لذلك فى الآخرة يقول تعالى : ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا .. (٩٧)﴾ [الإسراء] فساعةَ يُبعَث الكافرون يُفزَّعون بالبعث الذى كانوا ينكرونه ويضطربون اضطراباً ، يحاول كل منهم أن يرى منفذاً وطريقاً للنجاة ، ولكن هيهات ، فقد سلبهم الله منافذ الإدراك كلها ، وسَدَّ فى وجوههم كل طرق النجاة ، والإنسان يهتدى إلى طريقه بذاته وبعيونه ، فإنْ كان أعمى أمكنه أنْ ينادى على مَنْ يأخذ بيده ، فإنْ كان أيضاً أبكم ، فلربما سمع مَنْ يناديه ويُحذره ويُدِله ، فإنْ كان أصمَّ لا يسمع ؟

إذن : سُدَّتْ أمامه كل وسائل النجاة ، فهو أعمى لا يبصر النجاة بذاته ، وأبكم لا يستطيع أنْ يستغيث بمَنْ ينقذه ، وهو أيضاً أصمّ لا يسمع مَنْ يتطوع بإرشاده أو تحذيره .

وقد وجد كثير من المشككين فى هذه الآية شيئاً ظاهرياً يطعنون به على أسلوب القرآن ، حيث يقول هنا : ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى .. (١٢٥)﴾ [طه] وفى موضع آخر يقول : ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا .. (٥٣)﴾ [الكهف] فنفى عنهم الرؤية فى آية ، وأثبتها لهم فى آية أخرى .

وفاتَ هؤلاء المتمحِّكين أن الإنسانَ بعد البعث يمرُّ بمراحل عدَّة : فساعةَ يُحشرون من قبورهم يكونون عُمْياً حتى لا يهتدوا إلى طَريق النجاة ، لكن بعد ذلك يُريهم الله بإيلام آخر ما يتعذبون به من النار .

وهذا الذى حاَق بهم كِفَاءٌ لما صنعوه ، فقد قدَّموا هم العمى

والصمم والبكم فى الدنيا ، فلما دعاهم الرسول إلى الله صَمُّوا آذانهم ، واستغشوا ثيابهم .

﴿قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾

أى : نعاملك كما عاملتنا ، فننساك كما نسيت آياتنا .

والآيات جمع آية ، وهى الأمر العجيب ، وتُطلق على الآيات الكونية التى تلفت إلى المكوِّن سبحانه ، وتُطلَق على المعجزات التى تؤيد الرسل ، وتثبت صدْق بلاغهم عن الله ، وإنْ كانت الآيات الكونية تُلفت إلى قدرة الخالق ـ عز وجل ـ وحكمته ، فالرسول هو الذى يدلُّ النَاس على هذه القوة ، وعلى صاحب هذه الحكمة والقدرة التى يبحث عنها العقل .

أيها المؤمن هذه القوة هى الله ، والله يريد منك كذا وكذا ، فإنْ أطعتَه فلَك من الأجر كذا وكذا ، وإنْ عصيتَه فعقابك كذا وكذا . ثم يؤيد الرسول بالمعجزات التى تدلُّ على صدْقه فى البلاغ عن ربه .

وتُطلَق الآيات على آيات الكتاب الحاملة للأحكام وللمنهج .

وأنت كذَّبْتَ بكل هذه الآيات ولم تلتفت إليها ، فلما نسيت آيات الله كان جزاءَك النسيان جزاءً وفَاقاً . والنسيان هنا يعنى الترك ، وإلا فالنسيان الذى يقابله الذكر مُعْفىً عنه ومعذور صاحبه .

أما قوله : ﴿وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾ [طه] أى تُنسَى فى النعيم وفى الجنة ، لكنك لا تُنسى فى العقاب والجزاء .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾﴾

قوله تعالى : ﴿كَذَٰلِكَ .. (١٢٧)﴾ [طه] أى : مثل هذا الجزاء ﴿نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ .. (١٢٧)﴾ [طه] والإسراف : تجاوز الحدِّ فى الأمر الذى له حَدٌّ معقول ، فالأكْل مثلاً جعله الله لاستبقاء الحياة ، فإنْ زاد عن هذا الحدِّ فهو إسراف .

دَخْلك الذى يسَّره الله لك يجب أن تنفق منه فى حدود ، ثم تدَّخر الباقى لترقى به فى الحياة ، فإنْ أنفقتَه كله فقد أسرفْتَ ، ولن تتمكن من أنْ تُرقِّى نفسك فى ترف الحياة .

ولذلك يقول الحق سبحانه : ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ .. (٢٧)﴾ [الإسراء]

وللإسلام نظرته الواعية فى الاقتصاديات ، فالحق يريد منك أنْ تنفق ، ويريد منك ألاَّ تُسرف وبين هذين الحدَّيْن تسير دَفّة المجتمع ، ويدور دولاب الحياة ، فإنْ بالغتَ فى حَدٍّ منهما تعطلتْ حركة الحياة ، وارتبك المجتمع وبارت السلع .

وقد أوضح الحق سبحانه هذه النظرة فى قوله : ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا[1] وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا (٦٧)﴾ [الفرقان]

فربُّك يريد منك أنْ تجمع بين الأمرين ؛ لأن التقتير والإمساك يُعطِّل حركة الحياة ، والإسراف يُجمِّد الحياة ويحرمك من الترقى ، والأخذ بأسباب الترف ؛ لذلك قال تعالى : ﴿فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا (٢٩)﴾ [الإسراء]

وقد يكون الإسراف من ناحية أخرى : فربُّك عز وجل خلقك ،

---

(١) قتر الرجل على عياله : ضيَّق عليهم فى النفقة . والقتر والإقتار والتقتير كله بمعنى واحد : هو التضييق الذى هو نقيض الإسراف . [القاموس القويم ٢/١٠٠] .

وخلق لك مُقـوِّمات حياتك ، وحـدَّد لك الحلال والحرام ، فـإذا حاولتَ أنت أنْ تزيد فى جـانب الحلال مـمـا حرمـه الله عليك ، فهـذا إسراف منك ، وتجاوز للحدِّ الذى حَدَّه لك ربك ، تجاوزتَ الحدَّ فيما أحلَّ لك ، وفيما حرَّم عليك .

وقد يأتى الإسراف من ناحيـة أخرى : فالشىء فى ذاته قد يكون حلالاً ، لكن أنت تأخذه من غير حِلِّه .

فإذا نقلنا الـمسألة إلى التكاليف وجـدنا أن الله تعالى أحلَّ أشـياء وحرَّم أشياء ، فلا تنقل شيئاً مما حُرِّم إلى شىء أحلَّ ، ولا شيئاً مما أُحلَّ إلى شىء حُرِّم ، كـما قال سبـحانه : ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِى أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ .. (٣٢)﴾ [الأعراف]

وخاطب نبيه ﷺ بقوله : ﴿يَـٰأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ .. (١)﴾ [التحريم]

إذن : فـربّك لا يُضـيِّـق عليك ، وينهـاك أنْ تُضـيِّق عـلى نفـسك وتُحرّم عليـها ما أحلَّ لهـا ، كما يلومك على أنْ تُحلِّل مـا حرّم عليك لأن ذلك فى صالحك .

وكما يكون الإسراف فى الطعام والشراب وهما من مُقوِّمات استبقاء الحياة ، يكون كذلك فى اسـتبقاء النوع بالزواج والتناسل ، إلى أنْ تقوم الساعة ، فجـعل الحق سبحانه للممارسة الجنسـية حدوداً تضمن النسل والاستمتاع الحلال ، فمَنْ تعدَّى هذه الحـدود فقد أسرف .

ومن رحمـته تعالـى أنه يغفر لمنْ أسـرف على نفسـه شريطةَ أن يكون مؤمناً : ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِىَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ .. (٥٣)﴾ [الزمر]

وقوله تعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ .. (١٢٧)﴾ [طه] فأنزل الإسراف منزلةً تالية لعدم الإيمان ؛ لذلك قال بعدها : ﴿وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ .. (١٢٧)﴾ [طه] لأنه حين ينقل الحلال إلى الحرام ، أو الحرام إلى الحلال ، فكأنه عطّل آيات الله .

ثم يقول تعالى : ﴿وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ (١٢٧)﴾ [طه] إذن : فالكلام هنا عن الدنيا ، فلا تظن أن الله يُؤخِّر للكافر كُلَّ العذاب ، فهناك أشياء تُعجَّل له فى الدنيا لا تُؤخَّر .

وأول مَا لا يُؤخَّر ويُعجل الله به فى الدنيا عقوبة الظلم ، فلا يمكن أنْ يموتَ الظالم قبل أن يرى المظلوم ما صنعه الله به ، وإلاّ فالذين لا يؤمنون بالقيامة ولا بالجزاء كانوا فجروا فى الخَلْق وعَاثُوا فى الأرض ، فمن حكمة الله أن نرى لكل ظالم مصرعاً حتى تستقيم حركة الحياة ، ولو لم يكُنْ الإنسان مؤمناً .

والحق سبحانه حين يريد أنْ يُعذِّب يتناسب تعذيبه مع قدرته تعالى ، كما أن ضربة الطفل غير ضربة الشاب القوى . إذن : مَا يناله من عذاب فى الحياة هين لأنه من الناس ، أمّا عذاب الآخرة فشىء آخر ؛ لأنه عذاب من الله يتناسب مع قدرته تعالى .

﴿وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ (١٢٧)﴾ [طه] أبْقَى ؛ لأن عذاب الدنيا ينتهى بالموت ، أو بأن يرضى عنك المعذِّب ويرحمك ، وقد يتوسط لك أحد فيزيل عنك العذاب ، أمّا فى الآخرة فلا شىء من ذلك ، ولا مفرَّ من العذاب ولا ملْجأ .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ (١٢٨)﴾

الهداية : الدلالة والبيان ، وتهديه أى : تدلّه على طريق الخير . والاستفهام فى ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ .. (١٢٨)﴾ [طه] والاستفهام يَرِد مرة لتعلم ما تجهل ، أو يرد للتقرير بما فعلتَ .

فالمراد : أفلم ينظروا إلى الأمم السابقة وما نزل بهم لما كَذَّبوا رسُل الله ؟ كما قال فى آية أخرى : ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧)﴾ [الصافات]

وقال سبحانه : ﴿وَالْفَجْرِ (١) وَلَيَالٍ عَشْرٍ (٢) وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ (٤) هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ[1] (٥) أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (٨) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا[2] الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (١٠)﴾ [الفجر]

ألاَ ترونَ كل هذه الآيات فى المكذبين ؟ ألاَ ترون أن الله ناصرُ رسُلَه ؟ ولم يكُنْ سبحانه ليبعثهم ، ثم يتخلى عنهم ، ويُسلمهم ، كما قال سبحانه : ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣)﴾ [الصافات] وقال : ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ .. (٤٠)﴾ [الحج]

وبعد هذا كله يُعرِض المكذبون ، وكأنهم لم يروا شيئاً من هذه الآيات .

وساعة ترى (كَمْ) فاعلم أنها للشىء الكثير الذى يفوق الحصر ، كما تقول لصاحبك : كم أعطيتُك ، وكم ساعدتُك . أى : مرات كثيرة ، فكأنك وكلته ليجيب هو بنفسه ، ولا تستفهم منه إلا إذا كان الجواب فى صالحك قطعاً .

---

(١) الحجر : العقل ؛ لأنه يمنع صاحبه ويحجره عما لا يليق به . [القاموس القويم ١/١٤٤] .

(٢) جابه يجوبه : قطعه . جابوا : أى قطعوا الصخر ونحتوه وصنعوا منه بيوتهم وأصنامهم . [القاموس القويم ١/١٣٥] .

فمعنى ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ .. (١٢٨)﴾ [طه] يعنى : يُبيّن لهم ويدلُّهم على القرى الكثيرة التى كذَّبت رسلها ، وماذا حدث لها وحاق بها من العذاب ، وكان عليهم أنْ يتنبهوا ويأخذوا منهم عِبرة ولا ينصرفوا عنها .

وقوله تعالى : ﴿يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ .. (١٢٨)﴾ [طه] كقوله : ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧)﴾ [الصافات] فليس تاريخاً يُحكَى إنما واقع ماثل تروْنَه بأعينكم ، وتسيرون بين أطلاله ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ (١٢٨)﴾ [طه] أى : عجائب لمَنْ له عقل يفكر .

وكلمة (النُّهَى) جمع نُهية ، وهى العقل ، وهذه الكلمة تحلُّ لنا إشكالات كثيرة فى الكفر ، فالبعض يظن أن الله تعالى خلق لنا العقل لنرتع به فى مجالات الفكر كما نشاء ، وننفلت من كل القيود .

إنما العقل من العقال الذى يُعقَل به البعير حتى لا ينفلتَ منك ، وكذلك عقلُك يعقِلك ، ويُنظِّم حركتك حتى لا تسير فى الكون على هَواك ، عقلك لتعقل به الأمور فتقول : هذا صواب ، وهذا خطأ . قبل أن تُقدِم عليه .

فالسارق لو عقل ما يفعل ما أقدمَ على سرقة الناس ، وما رأيك لو أبحنا للناس جميعاً أنْ يسرقوك ، وأنت فرد ، وهم جماعة ؟

الحق ساعةَ يعقل بصرك أنْ يمتدَّ لما حرم عليك فلا تقُلْ : ضيق علىَّ ، لأنه أمر الآخرين أنْ يغضُّوا أبصارهم عن محارمك ، والغير أكثر منك ، إذن : فأنت المستفيد . فإنْ أردتَ أن تُعربد فى أعراض الناس ، فأبِح لهم أن يُعربِدوا فى أعراضك .

والنبى ﷺ لما جاءه شاب يشكو عدم صبره على غريزة

الجنس ، يريد أن يبيح له الزنا والعياذ بالله ، فأراد ﷺ أن يُلقِّنه درساً يصرفه عن هذه الجريمة ، فماذا قال له ؟

قال : « يا أخا العرب ، أتحب هذا لأمك ؟ أتحب هذا لأختك ؟ أتحب هذا لزوجتك ؟ » والشاب يقول فى كل مرة : لا يا رسول الله جُعِلْتُ فداك . ولك أنْ تتصوَّر ماذا ينتاب الواحد منا إنْ سمع سيرة أمه وأخته وزوجته فى هذا الموقف .

ثم يقول ﷺ للشاب بعد أن هزَّه هذه الهزة العنيفة : « كذلك الناس لا يحبون ذلك لأمهاتهم ، ولا لزوجاتهم ، ولا لأخواتهم ، ولا لبناتهم » .

وهنا قال الشاب : « فو الله ما همَّتْ نفسى لشىء من هذا إلا وذكرتُ أمى وزوجتى وأختى وابنتى »[(١)] .

إذن : فالعقل هو الميزان ، وهو الذى يُجرى المعادلة ، ويُوازِن بين الأشياء ، وكذلك إنْ جاء بمعنى النُّهى أو اللُّب فإنها تؤدى نفس المعنى : فالنُّهى من النهى عن الشىء ، واللب أى : حقيقة الشىء وأصله ، لا أنْ يكون سطحىّ التفكير يشرد منك هنا وهناك .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ ﴾

الكلام عن آيات الله فى المكذبين للرسل وما حاق بهم من العذاب وقد مَرَّ عليها القوم دون أن يعتبروا بها ، أو يرتدعوا ، أو يخافوا أن

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٥/٢٥٦ ، ٢٥٧) ، والطبرانى فى معجمه الكبير (٨/١٩٠ ، ٢١٥) من حديث أبى أُمامة رضى الله عنه . وفيه أن رسول الله ﷺ دعا له قائلاً : « اللهم اغفر ذنبه ، وطهر قلبه ، وحصِّن فرجه » فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شىء .

تكون نهايتهم كنهاية سابقيهم ، وربما قال هؤلاء القوم : ها نحن على ما نحن عليه دون أن يصيبنا شىء من العذاب : لا صَعْق ولا مَسْخ ولا ريح ، فبماذا تهددنا ؟

لذلك يوضح لهم الحق ـ سبحانه وتعالى ـ هذه المسألة : ما منعنا أنْ نفعل بكم ما فعلنا بسابقيكم من المكذبين بالرسل ، ما منعنا من إذلالكم وتدميركم إلا شىء واحد هو كلمة سبقتْ من الله .

﴿وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى (١٢٩)﴾ [طه]

فما هذه الكلمة التى سبقتْ من الله ، ومنعتْ عنهم العذاب ؟

المراد بالكلمة قوله تعالى لنبيه ﷺ : ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣)﴾ [الأنفال]

فهذه الكلمة التى سبقت منى هى التى منعتْ عنكم عذابى ، والرسول ﷺ يوضح هذه المسألة فيقول : « بل أرجو أن يُخرج الله من أصلابهم مَنْ يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً »(١) .

فإنْ قال قائل : الله يهدد الذين كذبوا محمداً ﷺ بأنْ يُنزل بهم ما أنزل بالمكذِّبين من الأمم السابقة ، وها هم كفار مكة يُكذّبون رسول الله دون أن يحدث لهم شىء .

نقول : لأن لهم أمانين من العذاب ، الكلمة التى سبقتْ ، والأجل المسمّى عند الله ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى (١٢٩)﴾ [طه] فلكل واحد أَجَلٌ معلوم .

ومعنى : ﴿لَكَانَ لِزَامًا .. (١٢٩)﴾ [طه] أى : لزم لزاماً أنْ يحيق بهم ما حاقَ بالأمم السابقة .

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٢٣١ ، ٧٣٨٩) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٧٩٥) من حديث عائشة رضى الله عنها .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ ﴾

فما دام أن القوم يُكذِّبون رسول الله ، وهم فى مأمن من العذاب ، فلابُدَّ أن يتمادوا فى تكذيبهم ، ويستمروا فى عنادهم لرسول الله ؛ لذلك يتوجه الحق - سبحانه وتعالى - إلى الناحية الأخرى فيعطى رسوله ﷺ المناعة اللازمة لمواجهة هذا الموقف ﴿ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ .. ﴿١٣٠﴾ ﴾ [طه] لأن لك بكل صبر أجراً يتناسب مع ما تصبر عليه .

والصبر قد يكون مَيْسوراً سهلاً فى بعض المواقف ، وقد يكون شديداً وصَعْباً ويحتاج إلى مجاهدة ، فمرَّة يقول الحق لرسوله : اصبر . ومرة يقول : اصطبر[1] .

فما الأقوال التى يصبر عليها رسول الله ؟ قولهم له : ساحر . وقولهم : شاعر وقولهم : مجنون وكاهن ، كما قالوا عن القرآن : أضغاث أحلام . وقالوا : أساطير الأولين . فاصبر يا محمد على هذا كله ؛ لأن كلَّ قولة من أقوالهم تحمل معها دليل كذبهم .

فقولهم عن رسول الله : ساحر ، فمَن الذى سَحَره رسول الله ؟ سحر المؤمنين به ، فلماذا - إذن - لم يسحرْكم أنتم أيضاً ، وتنتهى المسألة . إذن : بقاؤكم على عناده والكفر به دليل براءته من هذه التهمة .

---

(١) وذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا .. ﴿١٣٢﴾ ﴾ [طه] . [القاموس القويم ١/٣٦٧] .

وقولهم : شاعر ، كيف وهم أمة صناعتها الكلام ، وفنون القول شعره ونثره ، فكيف يَخْفى عليهم أسلوب القرآن ؟ والشعر عندهم كلام موزون ومُقفّى ، فهل القرآن كذلك ؟ ولو جاء هذا الاتهام من غيركم لكان مقبولاً ، أما أنْ يأتيَ منكم أنتم يا مَنْ تجعلون للكلام أسواقاً ومعارض كمعارض الصناعات الآن ، فهذا غير مقبول منكم .

وسبق أنْ قلنا : إنك إذا قرأتَ مقالاً مثلاً ، ومَرَّ بك بيت من الشعر تشعر به وتحسُّ أذنك أنك انتقلتَ من نثر إلى شعر ، أو من شعر إلى نثر . فخُذْ مثلاً قول ابن زيدون[1] :

« هذا العَذْل محمود عواقبه ، وهذه النَّبْوة غمرة ثم تنجلى ، ولن يريبنى من سيدى أنْ أبطأ سَيْبه ، أو تأخر غير ضنين غناؤه ، فأبطأ الدِّلاء فَيْضاً أملؤها ، وأثقل السحائب مشياً أحفلها . ومع اليوم غد ، ولكل أجل كتاب ، له العتب فى احتباله ، ولا عتبَ عليه فى اغتفاله .

فَإنْ يكُنِ الفعلُ الذى سَاءَ واحداً فَأفْعَالُه اللائى سَرَرْنَ أُلُوفُ »

على الفور تحس أذنك أنك انتقلتَ من نثر إلى شعر .

فإذا ما قرأتَ فى القرآن مثلاً قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٣٠) فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَـٰذَا بَشَرًا إِنْ هَـٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (٣١) قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ .. (٣٢) ﴾ [يوسف]

---

(١) هو : أحمد بن عبد الله بن غالب بن زيدون ، المخزومى الأندلسى ، أبو الوليد ، وزير كاتب شاعر ، من أهل قرطبة ، ولد ٣٩٤ هـ ، انقطع إلى ابن جهور (من ملوك الطوائف بالأندلس) فكان السفير بينه وبين الأندلس ، فأعجبوا به ، كانت له مراسلات ، وله ديوان شعر . توفى عام ٤٦٣ هـ عن ٦٩ عاماً . [الأعلام للزركلى ١/١٥٨] .

فهل أحسستَ بانتقال الأسلوب من نثر إلى شعر ، أو من شعر إلى نثر ؟ ومع ذلك لو وزنتَ ﴿فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ.. ﴿٣٢﴾﴾ [يوسف] لوجدتَ لها وزناً شعْرياً .

وقوله تعالى : ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾﴾ [الحجر]

لو أردتها بيتاً شعرياً تقول (نبىء عبادى أنى أنا الغفور الرحيم) . ومع ذلك تقرأها فى سياقها ، فلا تشعر أنها شعر ؛ لأن الأسلوب فريد من نوعه ، وهذه من عظمة القرآن الكريم ، كلام فَذٌّ لوحدِه غيرِ كلام البشر .

أما قولهم « مجنون » فالمجنون لا يدرى ما يفعل ، ولا يعقل تصرفاته ولا يسأل عنها ، ولا نستطيع أنْ نتهمه بشىء فنقول عنه مثلاً ؛ كذاب أو قبيح ؛ لأن آلة الاختيار عنده مُعطّلة ، وليس لديه انسجام فى التصرفات ، فيمكن أن يضحك فى وجهك ، ثم يضربك فى نفس الوقت ، يمكن أن يعطيك شيئاً ثم يتفل فى وجهك .

والمجنون ليس له خُلق ، والحق سبحانه يخاطب رسوله ﷺ : ﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [القلم]

والخُلق هو الملَكَة المستقرة للخير ، فكيف يكون محمد مجنوناً ، وهو على خلق عظيم ؟ ثم هل جرَّبْتُم عليه شيئاً مما يفعله المجانين ؟

أما قولهم : إن رسول الله افترى هذا القرآن ، كيف وأنتم لم تسمعوا منه قبل البعثة شعْراً أو خطباً ولم يسبق أن قال شيئاً مثل هذا ؟ كيف يفترى مثل هذا الأسلوب المعجز ، وليس عنده صنعة الكلام ؟ وإن كان محمد قد افترى القرآن فلماذا لا تفترون أنتم مثله وتعارضونه ؟

﴿قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ .. (٣٨)﴾ [يونس]

وهكذا تقوم من نفس أقوالهم الأدلة على كذبهم وادعائهم على رسول الله .

ثم يقول تعالى ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا .. (١٣٠)﴾ [طه]

والتسبيح هو التنزيه لله تعالى ، وهو صفة لله قبل أنْ يخلق مَنْ يُسبِّحه ويُنزِّهه ؛ لذلك يقول تعالى فى استهلال سورة الإسراء : ﴿سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ .. (١)﴾ [الإسراء] ؛ لأن العملية مخالفة لمنطق القوانين ، فقال : نزّه فعل الله عن أفعالك .

إذن : فسبحان معناها أن التنزيه ثابت لله ، ولو لم يوجد المنزِّه ، فلما خلق الله الكون سبَّحتْ السموات والأرض وما فيهن لله .

فإذا كان التسبيح ثابتاً لله قبل أن يوجد المسبِّح ، ثم سبح لله أول خلقه ، ولا يزالون يُسبِّحون ، فأنت أيضاً سبِّح باسم ربك الأعلى . أى : نزّهه سبحانه ذاتاً وصفاتاً وأفعالاً وأقوالاً عمَّا تراه من المخلوقات .

ومعنى ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ .. (١٣٠)﴾ [طه] لأن من لوازم الخلق أن يكون مختلفاً فى الأهواء والأغراض والمصالح ، يتشاكلون ويتحاربون على عَرَضٍ زائل ، فمنهم الظالم والمظلوم ، والقوى والضعيف .

إذن : لا بُدَّ من وجود واحد لا توجد فيه صفة من هذه الصفات ، ليضع القانون والقسطاس المستقيم الذى يُنظِّم حياة الخَلْق ، فهذا التنزُّه عن مشابهة الأحداث كلها ، وعن هذه النقائص نعمة يجب أن نشكر الله ونحمده على وجودها فيه ، نحمده على أنه ليس كمثله

شىء ، فذلك يجعل الكون كله طائعاً ، إنما لو مثله شىء فلربما تأبَّى على الطاعة فى « كُنْ فيكون » .

والتسبيح والتنزيه يعنى أن المقياس الذى يضبط العالم ليس كمقياس العالم ، إنما أصلح وأقوى ، وهذا فى صالحك أنت ، فساعةَ أن تُسبِّح الله اذكر أن التسبيح نعمة ، فاحمد الله على أنه لا شىءَ مثلُه . سبِّح تسبيحاً مصحوباً بحمْد ربك ؛ لأن تنزيهه إنما يعود بالخير على مَنْ خلق ، وهذه نعمة تستحق أن تحمدَ الله عليها .

ومثال ذلك ـ ولله المثل الأعلى ـ ربّ الأسرة ، هذا الرجل الكبير العاقل صاحب كلمة الحق والعدل بين أفرادها ، وصاحب المهابة بينهم تراهم جميعاً يحمدون الله على وجوده بينهم ؛ لأنه يحفظ توازن الأسرة ، ويُنظِّم العلاقات بين أفرادها . ألم نَقُلْ فى الأمثال (اللى ملوش كبير يشترى له كبير) ؟

حتى وإن كان هذا الكبير متعالياً ؛ لأن تعاليه لصالح أفراد أسرته ، حيث سيلزم كل واحد منهم حدوده .

لذلك من أسماء الله تعالى : المتعال المتكبر ، وهذه الصفة وإنْ كانت ممقوتة بين البشر لأنها بلا رصيد ، فهى محبوبة لله تعالى ؛ لأنها تجعل الجميع دونه سبحانه عبداً له ، فتكبُّره سبحانه وتعاليه بحقٍّ : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٨٢) ﴾ [يس]

إذن : لا يحفظ التوازن فى الكون إلا قوة مغايرة للخَلْق .

وقوله : ﴿ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ (١٣٠) ﴾ [طه]

أى : تسبيحاً دائماً مُتوالياً ، كما أن نعم الله عليك متوالية

لا تنتهى ، فكلُّ حركة من حركاتك نعمة ، النوم نعمة ، والاستيقاظ نعمة ، الأكل نعمة ، والشرب نعمة ، البصر والسمع ، كل حركة من حركات الأحداث نعمة تستحق الحمد ، وكل نعمة من هذه ينطوى تحتها نِعَم .

خُذْ مثلاً حركة اليد التى تبطش بها ، وتأمّل كم هى مرِنة مطْواعة لك كما شئت دون تفكير منك ، أصابعك تتجمع وتمسك الأشياء دون أن تشعر أنت بحركة العضلات وتوافقها ، وربما لا يلتفت الإنسان إلى قدرة الله فى حركة يده ، إلا إذا أصابها شلل والعياذ بالله ، ساعتها يعرف أنها عملية صعبة ، ولا يقدر عليها إلا الخالق عز وجل .

لذلك ؛ فالحق ـ سبحانه وتعالى ـ يعطينا زمن التسبيح ، فيعيشه فى كل الوقت ﴿قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ ..(١٣٠)﴾ [طه]

وآناء : جمع إنْى ، وهو الجزء من الزمن ، وهذا الجزء يترقَّى حسْب تنبهك لتسبيح التحميد ، فمعنى التسبيح آناء الليل ، يعنى أجزاء الليل كله ، فهل يعنى هذا أن يظل الإنسانُ لا عملَ له إلا التسبيح ؟

المناطقة يقولون عن الجزء من الوقت : مقول بالتشكيك ، فيمكن أن تُجزّىء الليل إلى ساعات ، فتُسبِّح كل ساعة ، أو تترقّى فتسبح كل دقيقة ، أو تترقّى فتُسبِّح كل ثانية ، وهكذا حسْب مقامات المسبّح الحامد وأحواله .

فهناك من عباد الله مَنْ لا يفتر عن تسبيحه لحظة واحدة ، فتراه

يُسبِّح الله فى كل حركة من حركاته ؛ لأنه يعلم أنه لا يؤديها بذاته بدليل أنها قد تُسلَب منه فى أى وقت .

إذن : فأجزاء الوقت تختلف باختلاف المقامات والأحوال ، ألاَ تراهم فى وحدة القياس يقيسون بالمتر ، ثم بالسنتيمتر ، ثم بالمللى متر ، وفى قياس الوقت توصّل اليابانيون إلى أجهزة تُحدِّد جزءاً من سبعة آلاف جزء من الثانية .

ثم يقول : ﴿وَأَطْرَافَ النَّهَارِ .. (١٣٠)﴾ [طه] ليستوعب الزمن كله ليله ونهاره ، والمقامات والأحوال كلها ؛ لذلك يقول بعض العارفين فى نصائحه التى تضمن سلامة حركة الحياة :

(**اجعل مراقبتك لمن لا تخلو عن نظره إليك**) فهذا الذى يستحق المراقبة ، وعلى المرء أنْ يتنبه لهذه المسألة ، فلا تكُنْ مراقبته لمن يغفل عنه ، أو ينصرف ، أو ينام عنه .

(**واجعل شكرك لمن لا تنقطع نعمه عنك**) فإذا شربتَ كوب ماء فقُلْ : الحمد لله أن أرواك ، فساعةَ تشعر بنشاطها فى نفسك قل : الحمد لله . وساعةَ أنْ تُخرجها عرقاً أو بولاً قل : الحمد لله ، وهكذا تكون موالاة حمد الله ، والمداومة على شُكْره .

(**واجعل طاعتك لمن لا تستغنى عنه**) فطالما أنك لا تستغنى عنه ، فهو الأَوْلَى بطاعتك .

(**واجعل خضوعك لمن لا تخرج عن مُلْكه وسلطانه**) وإلاَّ فأين يمكنك أن تذهب ؟

لكن ، لماذا أطلق زمن التسبيح بالليل ، فقال ﴿آنَاءِ اللَّيْلِ .. (١٣٠)﴾ [طه] وحدده فى النهار فقال ﴿وَأَطْرَافَ النَّهَارِ .. (١٣٠)﴾ [طه] ؟

قالوا : لأن النهار عادة يكون محلاً للعمل والسَّعْى ، فربما شغلك التسبيح عن عملك ، وربنا يأمرنا أن نضربَ فى الأرض ونُسهم فى حركة الحياة ، والعمل يُعين على التسبيح ، ويُعين على الطاعة ، ويُعينك أنْ تلبى نداء : الله أكبر .

ألاَ تقرأ قول الله ـ عز وجل ـ فى سورة الجمعة : ﴿ يَـأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِىَ لِلصَّلاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٩) فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِى الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠) ﴾ [الجمعة]

ذلك لأن حركة الحياة هى التى تُعينك على أداء فَرْض ربك عليك ، فأنت مثلاً تحتاج فى الصلاة إلى سَتْر العورة ، فانظر إلى هذا الثوب الذى تستر به عورتك : كم يَدٌ ساهمتْ فيه ؟ وكم حركة من حركات الحياة تضافرتْ فى إخراجه على هذه الصورة ؟

أمّا فى الليل فأنت مستريح ، يمكنك التفرغ فيه لتسبيح الله فى أىِّ وقت من أوقاته .

ويلفتنا قوله تعالى : ﴿ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ .. (١٣٠) ﴾ [طه] فأىّ طلوع ؟ وأىّ غروب ؟ وأىُّ ليل ؟ وأىّ نهار ؟ أهى لمصر أم للجزائر أم للهند أم لليابان ؟ إنها ظواهر متعددة وممتدة بامتداد الزمان والمكان لا تنتهى ، فالشمس فى كل أوقاتها طالعة غاربة ، ففى هذا إشارة إلى أن ذِكْر الله وتسبيح الله دائمٌ لا ينقطع .

ثم يذكر سبحانه الغاية من التسبيح ، فيقول ﴿ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ (١٣٠) ﴾ [طه] ونلحظ أن الحق سبحانه يحثُّ على العمل بالنفعية ، فلم

يقُلْ : لعلِّى أرضى ، قال : لعلك أنت ترضى ، فكأن المسألة عائدة عليك ولمصلحتك .

والرضا : أنْ تصلَ فيما تحب إلى ما تؤمِّل ، والإنسان لا يرضى إلا إذا بلغ ما يريد ، وحقّق ما يرجو ، كما تقول لصاحبك : أأنت سعيد الآن ؟ يقول : يعنى ، يقصد أنه لم يصل بعد إلى حَدِّ الرضا ، فإنْ تحقَّق له ما يريد يقول لك : سعيد والحمد لله .

فإنْ أحسنتَ إليه إحساناً يفوق ما يتوقعه منك يأخذك بالأحضان ويقول : ربنا يُديم عمرك ، جزاك الله خيراً .

إذن : رضا الإنسان له مراحل ؛ لذلك فالحق سبحانه وتعالى يقول فى الحديث القدسى كما روى النبى ﷺ : « إن الله يتجلى على خَلْقه فى الجنة : يا عبادى هل رضيتم ؟ فيقولون : وكيف لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تُعْطِ أحداً من العالمين ، قال : أعطيكم أفضل من ذلك ، قالوا : يا رب ، وهل يوجد أفضل من ذلك ؟ قال : نعم ، أُحِلُّ عليكم رضوانى فلا أسخط بعده عليكم أبداً »[(١)] .

وهكذا يكون الرضى فى أعلى مستوياته . الغاية من التسبيح - إذن - الذى كلّفك ربك به أنْ ترضى أنت ، وأن يعودَ عليك بالنفع ، وإلا فالحق سبحانه مُسبَّح قبل أن يخلق ، أنت مُسبِّح قبل أن يخلق الكون كله ، ولا يزيد تسبيحك فى ملكه تعالى شيئاً . ويتم لك هذا الرضا حين تُرضِى الله فيرضيك .

---

(١) متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٧٥١٨) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٣٠٢) من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ ﴾

بعد أن قال الحق سبحانه لنبيه ﷺ : ﴿ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ .. ﴿١٣٠﴾ ﴾ [طه] حذره أن ينظر إلى هؤلاء الجبابرة والمعاندين على أنهم فى نعمة تمتد عينه إليها . ومعنى مَدِّ العين ألاَّ تقتصر على مجرد النظر على قَدْر طاقتها ، إنما يُوجهها باستزادة ويوسعها لترى أكثر مما ينبغى ، ومَدُّ العين يأتى دائماً بعد شغل النفس بالنعمة وتطلّعها إليها ، فكأن الله يقول : لا تشغل نفسك بما هم فيه من نعيم ؛ لأنه زهرة الدنيا التى سرعان ما تفنى .

وقوله : ﴿ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ .. ﴿١٣١﴾ ﴾ [طه] الأزواج لا يُراد بها هنا الرجل والمرأة ، إنما تعنى الأصناف المقترنة ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ .. ﴿٢٥﴾ ﴾ [فصلت]

---

(١) أخرج الواحدى فى أسباب النزول (ص ١٧٤) عن أبى رافع مولى رسول الله ﷺ أن ضيفاً نزل برسول الله ﷺ ، فدعانى فأرسلنى إلى رجل من اليهود يبيع طعاماً يقول لك محمد رسول الله ﷺ : نزل بنا ضيف ولم يلق عندنا بعض الذى يصلحه ، فبعنى كذا وكذا من الدقيق أو أسلفنى إلى هلال رجب ، فقال اليهودى : لا أبيعه ولا أسلفه إلا برهن ، قال : فرجعت إليه فأخبرته . قال : والله إنى لأمين فى السماء أمين فى الأرض ، ولو أسلفنى أو باعنى لأديت إليه ، اذهب بدرعى إليه ، ونزلت هذه الآية تعزية له عن الدنيا . وذكره السيوطى فى الدر المنثور (٥/٦١٢) وعزاه لابن أبى شيبة والبزار وابن أبى حاتم وابن مردويه وابن جرير . قال القرطبى فى تفسيره (٦/٤٤٣٨) : « قال ابن عطية : هذا معترض أن يكون سبباً ، لأن السورة مكية والقصة المذكورة مدنية فى آخر عمر النبى ﷺ ؛ لأنه مات ودرعه مرهونة عند يهودى بهذه القصة التى ذكرت » .

كل واحد له شيطان يلازمه لا يفارقه . هذه هي الزوجية المرادة ، كذلك في قوله تعالى : ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ (٥١)﴾ [الصافات]

والزَّهْرة إشارة إلى سرعة النهاية والحياة القصيرة ، وهي زَهْرة لحياة دنيا ، وأيّ وصف لها أقل من كَوْنها دنيا ؟ وهذا الذي أعطيناهم من متاع الدنيا الزائل فأخذوا يزهُون به ، ما هو إلا فتنة واختبار ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ .. (١٣١)﴾ [طه]

والاختبار يكون بالخير كما يكون بالشر ، يقول تعالى : ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً .. (٣٥)﴾ [الأنبياء]

ويقول تعالى : ﴿فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥)﴾ [الفجر]

ويشكر أنه عرفها لله ﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦)﴾ [الفجر]

وهنا يُصحِّح لهم الحق سبحانه هذه الفكرة ، يقول : كلاكما كاذب في هذا القول ، فلا النعمةَ دليلُ الإكرام ، ولا سلبها دليلُ الإهانة : ﴿كَلاَّ بَل لاَّ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ (١٧) وَلا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ (١٨) وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ[1] أَكْلاً لَّمًّا (١٩)﴾ [الفجر]

فهَبْ أن الله أعطاك نعمة ولم تُؤَدِّ شكْرها وحقَّها ، فأيُّ إكرام فيها ؟

ثم يقول تعالى : ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ (١٣١)﴾ [طه] أي :

---

(١) التراث : ما يتركه الميت من مال فيورث عنه . قال تعالى : ﴿وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَّمًّا (١٩)﴾ [الفجر] . أي : تأكلون ما ترثونه أكلاً لماً جامعاً للحلال والحرام ، وهو تصوير للطمع والحرص الشديد على الدنيا . [القاموس القويم ٢/٣٢٩] .

لا تشغل بالك بما أعطاهم الله ؛ لأنه سبحانه سيعطيك أعظم من هذا ، ورِزْق ربك خير من هذا النعيم الزائل وأبْقى وأخلد ؛ لأنه دائم لا ينقطع فى دار البقاء التى لا تفوتها ولا تفوتك ، أما هؤلاء فنعيمهم موقوت ، إمّا أنْ يفوتهم بالفقر ، أو يفوتوه هم بالموت .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَالْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾

هنا يعطينا الحق ـ تبارك وتعالى ـ منهجاً لإصلاح المجتمع وضمان انسجامه ، منهج يبدأ بالوحدة الأولى وهو ربُّ الأسرة ، فعليه أنْ يُصلح نفسه أولاً ، ثم ينظر إلى الوحدة الثانية ، وهى الخلية المباشرة له وأقرب الناس إليه وهم أهله وأسرته ، فهو مركز الدائرة فإذا أصلح نفسه ، فعليه أنْ يُصلح الدوائر الأخرى المباشرة له .

فقوله تعالى : ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ .. (١٣٢)﴾ [طه] لتستقيم الوحدة الأولى فى بناء الكون ، فإذا ما صلُحَتْ الوحدة الأولى فى بناء الكون ، فأمَر كل واحد أهله بالصلاة ، استقام الكون كله وصلُح حال الجميع .

والمسألة هنا لا تقتصر على مجرد الأمر وتنتهى مسئوليته عند هذا الحدِّ إنما ﴿وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا .. (١٣٢)﴾ [طه] لأن فى الصلاة مشقة تحتاج إلى صبر ، فالصلاة تحتاج إلى وقت تأخذه من حركة الحياة التى هى سبب الخير والنفْع لك ، فلا بُدَّ ـ إذن ـ من صبر عليها .

وفَرْق بين اصبر واصطبر : اصبر الفعل العادى ، إنما اصطبر

فيها مبالغة أى : تكلَّف حتى الصبر وتعَمَّده .

ومن ذلك أن تحرص على أداء الصلاة أمام أولادك لترسخ فى أذهانهم أهمية الصلاة ، فمثلاً تدخل البيت فتجد الطعام قد حضر فتقول لأولادك : انتظرونى دقائق حتى أُصلى ، هنا يلتفت الأولاد إلى أن الصلاة أهمّ حتى من الأكل ، وتغرس فى نفوسهم مهابةَ التكليف ، واحترامَ فريضة الصلاة ، والحرص على تقديمها على أىِّ عمل مهما كان .

وكان سيدنا عمر ـ رضى الله عنه ـ يقوم من الليل يصلى ما شاء الله له أنْ يصلى حتى يؤذن للفجر ، فيُوقظ أهله للصلاة فإنْ أبَوْا رَشَّ فى وجوههم الماء[1] ؛ لأن الصلاة خَيْر من النوم ، فالنوم فى مثل هذا الوقت فيه راحة للبدن ، أمّا الصلاة فهى أفضل وأعظم ، ويكفى أنك تكون فيها فى حضرة الله تعالى .

وهَبْ أن رب الأسرة غاب عنها لمدة شهر أو عام ، ثم فجأة قالوا : أبوكم جاء ، فترى الجميع يُهرولون إليه ، وهكذا لله المثل الأعلى ، إذا دعاك ، فلا تتخلّف عن دعوته ، بل هَرْول إليه ، وأسرع إلى تلبية ندائه ، ولك أنْ تتصوَّر واحداً يناديك وأنت لا تردّ عليه ولا تجيبه ، أعتقد أنه شىء غير مقبول ، ولا يرضاه صاحبك .

إذن : عليك أنْ تُعوِّد أولادك احترام هذا النداء ، وبمجرد أن يسمعوا « الله أكبر » يُلبُّون النداء ، لا يُقدِّمون عليه شيئاً آخر ، فالله لا يبارك فى عمل ألهاك عن نداء (الله أكبر) ؛ لأنك انشغلتَ بالنعمة عن المنعم عز وجل .

---

(١) أخرج ابن ماجة فى سننه (١٣٣٦) عن أبى هريرة قال قال ﷺ : « رحم الله رجلاً قام من الليل فصلّى وأيقظ امرأته فصلت ، فإن أبت رش فى وجهها الماء ، رحم الله امرأة قامت من الليل فصلت وأيقظت زوجها فصلى ، فإن أبى رشت فى وجهه الماء » .

لذلك ، إنْ أردتَ أنْ تعرف خير عناصر المجتمع فانظر إلى أسبقيتهم إلى إجابة نداء (الله أكبر) ، فإنْ أردتَ أن تعرف مَنْ هو أعلى منه منزلةً ، فانظر إلى آخرهم خروجاً من المسجد ، وليس كذلك مَنْ يأتى الصلاة دُبُراً ، وبمجرد السلام يسرع إلى الانصراف .

ويُروى أن سيدنا رسول الله ﷺ عابَ على أحد الصحابة إسراعه فى الانصراف من المسجد بعد السلام ، فتعمَّد رسول الله أنْ يناديه فى إحدى المرات ، قال : « أزهداً فيناً » ؟

وهل هناك مَنْ يزهد فى رؤية رسول الله والجلوس معه ؟ فقال الرجل : لا يا رسول الله ، ولكن لى زوجة بالبيت تنتظر ثوبى هذا لتصلى فيه ، فيدعو له رسول الله ، وينصرف الرجل إلى زوجته ، فإذا بها تقول له : تأخرت بقدْر كذا تسبيحة ، فقال : لقد استوقفنى رسول الله وحدث كذا وكذا ، فقالت له : شكوتَ ربَّك لمحمد ؟

ثم يقول تعالى : ﴿لا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ .. (١٣٢)﴾ [طه] إذن : ما الذى يشغلك عن حَضْرة ربك ، الرزق ؟ ﴿لا نَسْأَلُكَ رِزْقًا .. (١٣٢)﴾ [طه] فالذى لا يستطيع العمل نُوجِّه إليه من الأغنياء مَنْ يطرق بابه ويعطيه ، فالغنىّ شَرْطٌ فى إيمانه الفقيرُ ، وليس شرطاً فى إيمان الفقير الغنى .

وكأن الحق سبحانه يعطينا إشارة إلى ضرورة البحث عن الفقير ، والطَّرْق على بابه لإعطائه حقَّه فى مال الغنىّ ، لا ينتظره حتى يسأل ، ويُريق ماء وجهه وهو يطلب حَقّاً من حقوقه فى مجتمع الإيمان .

وقوله : ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكَ .. (١٣٢)﴾ [طه] أى : لا نسألك رزقاً ثم

نتركك ، إنما لا نسألك ثم نحن نرزقك ، فاطمئن إلى هذه المسألة .

﴿ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ (١٣٢) ﴾ [طه] لأنك إذا تأزمتْ معك أمور الحياة تلجأ إلى الله ، كما كان النبى ﷺ إذا حَزَبَهُ أمر قام إلى الصلاة ، وتأزُّم الأمور يأتى حينما نفقد نحن الأسباب المعطاة من الله ، فإذا فقدتَ الأسباب وضاقتْ بك الحيَل لم يَبْقَ لك إلا أنْ تلجأ إلى المسبِّب سبحانه ، كما يقول فى آية أخرى :

﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ .. (٣) ﴾ [الطلاق]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ (١٣٣) ﴾

مرت بنا (لولا) فى قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ .. (١٩) ﴾ [يونس] وتعنى : امتناع التعذيب لوجود الكلمة ، أما (لولا) هنا فتعنى : هلا ، للحثِّ والطلب ﴿ لَوْلا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ .. (١٣٣) ﴾ [طه] كما فى ﴿ وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ .. (٣٩) ﴾ [الكهف]

فكأن القرآن لا يعجبهم ، مع أنهم أمةُ بلاغة وبيان ، وأمة فصاحة وكلام ، والقرآن يخجلهم لفصاحته وبلاغته ، فأىُّ آيةٍ تريدونها بعد هذا القرآن ؟

﴿ وَقَالُوا لَوْلا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ .. (١٣٣) ﴾ [طه] كدليل صدْق على بلاغه عن الله كالمعجزات الحسّية التى حدثتْ لمن قبله من الرسل ، كما قال تعالى :

﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ

لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيراً (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً (٩٣)﴾ [الإسراء]

إذن : فالآيات من الله لا دَخْلَ لى فيها ولا أختارها ، وها هو القرآن بين أيديكم يخبركم بما كان فى الأمم السابقة ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٤٣)﴾ [النحل]

وقال تعالى ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ (١٤) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ (١٥) بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (١٦) وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ (١٧) إِنَّ هَـٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَىٰ (١٨) صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ (١٩)﴾ [الأعلى]

وقال تعالى ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ .. (١٦٣)﴾[النساء]

لذلك يقول تعالى بعدها : ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الأُولَىٰ (١٣٣)﴾ [طه]

فالقرآن جاء جامعاً ومُهيْمناً على الكتب السابقة ، وفيه ذِكْر لكل ما حدث فيها من معجزات حسية ، وهل شاهد هؤلاء معجزة عيسى عليه السلام فى إبراء الأكمه والأبرص ؟ هل شاهدوا عصا موسى أو ناقة صالح ؟

لقد عرفوا هذه المعجزات عندما حكاها لهم القرآن ، فصارت خبراً من الأخبار ، وليست مَرْأىً ، والمعجزة الحسِّية تقع مرة واحدة ، مَنْ رآها آمن بها ، ومَنْ لم يرهَا فهى بالنسبة له خبر ، ولولا أن القرآن حكاها ما صدَّقها أحد منهم .

لكن هؤلاء يريدون معجزة حسِّية تصاحب رسالة محمد العامة للزمان وللمكان ، ولو كانت معجزة محمد حسِّية لكانت لمَنْ شاهدها فقط ، والحق سبحانه يريدها معجزة دائمة لامتداد الزمان والمكان ، فَمنْ آمن بمحمد نقول له : هذه هى معجزته الدائمة الباقية إلى أنْ تقومَ الساعة .

لذلك ، كان القرآن معجزة لكل القرون ، ولو أفنى القرآن معجزته مرة واحدة للمعاصرين له فحسب لاستقبلتْه القرون الآتية بلا إعجاز ، لكن شاءتْ إرادة الله أن يكون إعجاز القرآن سراً مطموراً فيه ، وكل قرن يكتشف من أسراره على قدر التفاتهم إليه وتأملهم فيه ، وهكذا تظل الرسالة محروسة بالمعجزة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾﴾

يقول تعالى : أنا قطعت عليهم الحجة ؛ لأننى لو أهلكتُهم على فَتْرة من الرسل لقالوا : لماذا لم تُبقنَا إلى أن يأتينا رسول ، فلو جاءنا رسول لآمنا به قبل أن نقع فى الذُّلِّ والخزْى ، فمعنى : ولو أنّا أهلكناهم بعذاب من قبل أن يأتى القرآن لقالوا : ربنا لولا أرسلتَ إلينا رسولاً لآمنّا به واهتدينا .

وهذه مجرد كلمة هو قائلها ، وكما قال عنهم الحق سبحانه : ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنعام] إنها مجرد كلمة تنقذهم من الإشكال .

وقولهم : ﴿مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ (١٣٤)﴾ [طه] الذل : ما يعترى الحيَّ مما ينشأ عنه انكساره بعد أنْ كان متعالياً ، والذلّ يكون أولاً بالهزيمة ، وأذلّ من الهزيمة الأسْر ، لأنه قد يُهزم ثم يفرُّ ، وأذلُّ منهما القتل . إذن : الذل يكون فى الدنيا أمام المشاهدين له والمعاصرين لانكساره بعد تعاليه .

أما الخزى : نخزى يعنى : يُصيبنا الخزى ، وهو تخاذل النفس بعد ارتفاعها . ومن ذلك يقولون : أنت خزيت. يعنى : كنت تنتظر شيئاً فوجدت خلافه .

ومنه قوله تعالى : ﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ .. (١٩٤)﴾ [آل عمران] فإنْ عُجِّل لهم الذلُّ فى الدنيا ، فإن الخزى مُؤخَّر للآخرة حتى تكون فضيحتهم على رؤوس الأشهاد ، كما يقولون (فضيحة بجلاجل) حيث يشهد خِزْيَهم أهلُ الموقف جميعاً .

وكلمة « الخزى» هذه لها معنا موقف طريف أيام كنا صغاراً نحفظ القرآن على يد سيدنا فضيلة الشيخ حسن زغلول ـ عليه رحمة الله ـ وكان رجلاً مكفوفَ البصر ، وكنا (نستلخمه) فإذا وجدنا فرصة تفلّتنا منه وهربنا من تصحيح اللوح الذى نحفظه ، فالذى يحفظ بمفرده هكذا من المصحف يكون عرْضة للخطأ .

ومن ذلك ما حدث فعلاً من زميل لنا كان اسمه الشيخ محمد حسن عبد البارى ، وقد حضر مدير المدرسة فجأة ، وأراد أن يُسمِّع لنا ، وكان الشيخ عبد البارى لم يصحح لوحه الذى سيقرأ منه فقرأ : (إنك من تدخل النار فقد أخزيته) فقرأها بالراء بدلاً من الزاى ، فضحك الشيخ طويلاً ـ رحمه الله ـ وقال : يا بنى المعنى صحيح ، لكن الرواية ليست هكذا .

فكنا نأخذها على الشيخ عبد البارى ، فَمَنْ أراد أنْ يغيظه قال : (إنك من تدخل النار ..) ويسكت !!

فشاء الله تعالى أن يتعرض كُلٌّ منا لموقف مشابه يُؤْخَذ عليه ، وقد أُخِذ عليَّ مثلُ هذا حين قرأت دون أنْ أُصحِّح اللوح أول سورة الشورى : (حم عسق) وقد سبق لى أن عرفت (حم) لكن لم يمر بى (عسق) فقرأت : (حم عَسَقَ) بالوصل ، فصار الشيخ عبد البارى كلما قلت له : (إنك من تدخل النار ....) يقول : (حم)

فقلنا سبحان الله :

مَنْ يَعِبْ يَوْماً بشَىءٍ لَمْ يمُتْ حتَّى يَرَاهُ

إذن : فقول هؤلاء : ﴿ رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ (١٣٤) ﴾ [طه] تمحُّك منهم : لو أرسلت لنا رسولاً لاتبعناه من قبل أنْ نذلّ فى الدنيا هزيمةً ، أو أسْراً ، أو قَتْلاً ، ونخزى فى الآخرة بفضيحة علنية على رؤوس الأشهاد .

﴿ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَىٰ (١٣٥) ﴾

التربُّص : التحفُّز لوقوع شىء بالغير ، تقول : فلان يتربص بى يعنى : يلاحظنى ويتابعنى ، ينتظر منى هَفْوة أو خطأ ، فقوله : ﴿ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا .. (١٣٥) ﴾ [طه] فكُلٌّ منَّا يتربص بالآخر ، لأننا أعداء ، كل منا ينتظر من الآخر هفوة ويترقب ماذا يحدث له .

وقد أوضح سبحانه وتعالى توجيهات التربُّص منه ومنهم فى آية أخرى : ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ .. (٥٢) ﴾ [التوبة]

ماذا تنتظرون إلا إحدى الحُسْنيين : إما أن نموت فى قتالكم شهداء ، أو ننتصر عليكم ونُذلكم ، فأىُّ تربُّص يحدث شرف لنا ، إما النصر أو الشهادة ، فكلاهما حُسْنى ، ونحن نتربّص بكم أنْ يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا ، فكلاهما سوءة .

وما دام الأمر كذلك فتربَّصُوا بنا كما تحبون ، ونحن نتربص بكم كما نريد ؛ لأن تربصنا بكم يفرحنا ، وتربصكم بنا يُؤلمكم ويُحزنكم .

ومعنى ﴿قُلْ .. (١٣٥)﴾ [طه] هنا أن القول ﴿كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ .. (١٣٥)﴾ [طه] ليست من عند محمد ، فليس فى يده زمام الكون ولا يعلم الغيب ، فهو قَوْل الله الذى قال له (قل) يا محمد ﴿كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا .. (١٣٥)﴾ [طه]

إذن : قيلت ممَّنْ يملك أزمّة الأمور وأعنّتها ، ولا يخرج شىء عن مراده تعالى ، وربما لو قُلْت لكم من عندى تقولون : كلام بشر لا يملك من الأمور شيئاً . إذن : خذوها لا بمقياس كلام البشر ، إنما بمقياس مَنْ يملك زمام أقْضية البشر كلها .

ثم يقول تعالى : ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَىٰ (١٣٥)﴾ [طه] متى سيحدث هذا ؟ ساعةَ تقوم الساعة حيث الانصراف ، إما إلى جنة ، وإما إلى نار ، ساعتها ستعلمون مَنْ أصحاب الصراط السوى : نحن أمْ أنتم ؟ لكنه سيكون علْماً لا ينفع ولا يُجدى ، فقد جاء بعد فوات الأوان ، جاء وقت الحساب لا وقت العمل وتلافى الأخطاء .

إنه علْم لا يترتب عليه عمل ينجيكم ، فقد انتهى وقت العمل ، وهكذا يكون علْماً يُزيد حسرتهم ، ويُؤذيهم ولا ينفعهم .

والصراط : الطريق المستقيم . والسَّوىّ: المستقيم الذى لا عِوجَ فيه ولا أَمْت .

وقال بعدها ﴿وَمَنِ اهْتَدَىٰ (١٣٥)﴾ [طه] لأنه قد يوجد الصراط السوىّ ، ولا يوجد مَنْ يسلكه ، فالمراد : الصراط السَّوى ومَن اهتدى إليه وسلكه .

وقد يظن ظانٌّ أن مسألة التربُّص هذه قد تطول ، فيقطع الحق سبحانه هذا الظن بقوله فى أول سورة الأنبياء الآتية بَعْد : ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ .. (١)﴾ [الأنبياء]

وهكذا تنسجم السُّورتان ، ويتصل المعنى بين الآيات .

سُورَةُ الأَنبِيَاءِ

سورة الأنبياء[1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ[2] وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ ﴾

والاقتراب : إما أن يكون زمناً أو مكاناً ، فإذا كانت المسألة فى مسافات قلنا : اقترب للناس حسابهم يعنى مكانه . وإذا كانت للزمن قلنا : اقترب زمنه . فالاقتراب : دُنُو الحدث من ظرفيه زماناً أو مكاناً .

والحق سبحانه حينما يُعبِّر بالماضى ﴿اقْتَرَبَ .. ﴿١﴾﴾ [الأنبياء] يدل على أن ذلك أمر لازم وسيحدث ولا بُدَّ ، والبشر حينما يتحدثون عن أمر مقبل يقولون : يقترب لا اقتربَ ؛ لأن اقتربَ هكذا بالجزم والحكم بأنه حدثَ فعلاً لا يقولها إلا الله الذى يملك الأحداث ويقدر

---

(١) سورة الأنبياء هى السورة رقم (٢١) فى ترتيب المصحف ، وهى سورة مكية فى قول الجميع ، وعدد آياتها ١١٢ آية ، وقد نزلت سورة الأنبياء بعد سورة إبراهيم وقبل سورة المؤمنين ، وهى السورة رقم ٧٢ فى ترتيب نزول القرآن . [انظر : الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى ١/٢٧] .

(٢) قال الضحاك : أى اقترب عذاب أهل مكة ، لأنهم استبطأوا ما وُعدوا به من العذاب تكذيباً ، وكان قتلهم يوم بدر . [تفسير القرطبى ٦/٤٤٤٣] .

عليها ، أما الإنسان فلا يملك الأحداث ، ولا يستطيع الحكم على شىء لا يملكه بعد أن يتلفظ بهذا اللفظ .

ومثال ذلك فى قوله تعالى : ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ .. (١)﴾ [النحل] فأتى تعنى أن الأمر حدث قبل أن يتكلم ، والأمر ما زال مستقبلاً بدليل قوله : ﴿فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ .. (١)﴾ [النحل] فلا يُقال لك : لا تستعجل شيئاً إلا إذا كان لم يحدث بَعْد . فكيف - إذن - جمع بين الماضى ﴿أَتَىٰ .. (١)﴾ [النحل] والمستقبل ﴿فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ .. (١)﴾ [النحل] ؟

قالوا : أنت ممنوع أن تحكم بمُضىٍّ على أمر مستقبل ؛ لأنك لا تملك نفسك ، ولا تملك ظروف المستقبل ، كما فى قوله تعالى : ﴿وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا (٢٣) إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ .. (٢٤)﴾ [الكهف]

لا بُدَّ أن تُردف هذا القول بالمشيئة ؛ لأن قولك « سأفعل ذلك غداً » قضيةٌ لها عناصر : الفاعل أنت والمفعول به والزمن غداً ، والسبب الذى يدعوك للفعل والقدرة التى تُعينك أن تفعل .

وهذه كلها عناصر لا تملك أنت شيئاً منها ، وربما جاء غَدٌ فتغيَّر عنصر من هذه العناصر ، وحال بينك وبين ما تريد ، فينبغى أن تُبرِّىء نفسك من احتمال الكذب فتقول : إن شاء الله وتردُّ الأمر إلى القادر عليه الذى يملك كل هذه العناصر ، وكأن ربك يُعلِّمك ألا تكون كاذباً .

لذلك نجد أن اللغة قد راعتْ قدرة المتكلم ، ووضعتْ له الزمن المناسب ، فإنْ علمتَ حدوث الفعل قُلْ بالماضى : حضر فلان ، انتهت القضية ، فإنْ علمتَ أنه توجه للحضور واستعدَّ له قُلْ : سيحضر فلان أى قريباً ، أو سوف يحضر أى : بعد ذلك .

هذا الذى يناسب قدرة البشر . أما الحق سبحانه فيملك زمام الأشياء وتوجيهها ، وكلّ شىء مرهون بأمره التكوينى ، فإنْ قال للأمر المستقبل : أتى أو اقترب فصدِّق ؛ لأنه لا شىءَ يُخرِج الأمر عن مراده تعالى ، وهو وحده الذى يملك الانفعال لكلمة كُنْ ، فإنْ قالها فَقد انتهتْ المسألة .

لذلك يقول سبحانه ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ .. (١)﴾ [الأنبياء] بصيغة الماضى ولم يقل : يقترب أو سيقترب ؛ لأن المتكلم هو الله .

وقد ورد الماضى (اقترب) أيضاً فى قوله تعالى : ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ (١)﴾ [القمر]

وفى قوله تعالى ﴿وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ (١٩)﴾ [العلق] فاقترب غير قَرُب ، قرُب : يعنى دنا ، أما اقترب أى : دنا جداً حتى صار قريباً منك .

والحساب : كلمة تُطلَق إطلاقات عدّة ، فالحساب أنْ تحسب الشىء بالأعداد جمعاً ، أو طرحاً ، أو ضَرْباً ، وتدير حصيلة لك أو عليك ، فإنْ كانت لك فأنت دائن ، وإنْ كانت عليك فأنت مدين . أو تربط المسبِّبات بأسبابها .

وهناك أمور تأتى بغير حساب ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٧)﴾ [آل عمران] فهذه مسألة لا تستطيع ضبطها ، والله لا يُسأل : أعطانى زيادة أم نقصاناً .

أما الحساب فى ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ .. (١)﴾ [الأنبياء] فيقتضى مُحَاسِباً هو الله عز وجل ، ومُحاسَباً هم الناس ، ومُحَاسَباً عليه وهى الأعمال والأحداث التى أحدثوها فى دنياهم ، وهذه قسمان : قسم قبل أنْ يُكلَّفوا ، وقسم بعد أن كُلِّفوا .

ما كان قبل التكليف وسنِّ البلوغ لا يحاسبنا الله عليه ، إنما تركنا نمرح ونرتع فى نعمه سبحانه دون أن نسأل عن شىء ، أما بعد البلوغ فقد كلَّفنا بأشياء تعود علينا بالخير ، وألزمنا المنهج الذى يضمن سعادتنا « بافعل » و « لا تفعل » وهذا يقتضى أن نحاسب ، فعلنا ، أم لم نفعل .

إذن : المسألة حساب ، ليست جُزَافاً : جماعة فى الجنة وجماعة فى النار ، وقوله سبحانه فى الحديث القدسى : « هؤلاء فى الجنة ولا أبالى ، وهؤلاء فى النار ولا أبالى »[1] بناءً على علمه تعالى بما يُؤدُّونه وقت الحساب ، ففى علم الله ما فعلوا وما تركوا .

ولا تنْسَ أن المحاسب فى هذا الموقف هو الله ، فإنْ كان الحساب فى الخير عاملك بالفضل والزيادة كما يشاء سبحانه ؛ لذلك يضاعف الحسنات ، وإنْ كان الحساب فى الشر كان على قَدْره دون زيادة ، كما قال تعالى : ﴿جَزَاءً وِفَاقًا (٢٦)﴾ [النبأ]

وما دام المحاسب هو الله سبحانه وتعالى ، وهو لا ينتفع بما يقضيه على الخَلْق ، فمن رحمته بنَا ونعمته علينا أنْ حذَّرنا من أسباب الهلاك ، ولم يأخذنا على غَفْلة ، ولم يفاجئنا بالحساب على غِرّة ، إنما أبان لنا التكاليف ، وأوضح الحلال والحرام ، وأخبرنا بيوم الحساب لنستعدَّ له ، فلا نسير فى الحياة على هوانا .

فقال سبحانه : ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨)﴾ [الزلزلة]

---

(١) أخرج أحمد فى مسنده (٦/٤٤١) وعبد الله بن أحمد فى زوائده على مسند أبيه من حديث أبى الدرداء أن النبى ﷺ قال : « خلق الله آدم حين خلقه فضرب كتفه اليمنى فأخرج ذرية بيضاء كأنهم الذر ، وضرب كتفه اليسرى فأخرج ذرية سوداء كأنهم الحمم فقال للذى فى يمينه : إلى الجنة ولا أبالى . وقال للذى فى كفه اليسرى : إلى النار ولا أبالى ».

فمن رحمته تعالى بعباده أنْ وعدهم هذا الوعد ، وعرفهم هذا الميزان وهم فى سَعَة الدنيا ، وإمكان تدارك الأخطاء ، واستئناف التوبة والعمل الصالح ، من رحمته بنا أنْ يعِظَنا هذه الموعظة ويكررها على أسماعنا ليلَ نهارَ .

إذن : ما أخذنا ربنا على غرَّة ، ولم تُفاجِئْنا القيامة بأهوالها ، فمن الآن اعلم ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ .. (١)﴾ [الأنبياء] وما دام الأمر كذلك فعلى الإنسان أن يُقَدِّر قَدْر الاقتراب ، ومتى سينتقل إلى يوم الحساب ، ولا تظن أن عُمرك هو عمر الدنيا منذ خلقها الله ، إنما عمرك ودنياك على قَدْر مُكْثك فيها ، وهو مُكْث مظنون غير مُتيقَّن ، فمن الخَلْق من عمَّر دهراً ، ومنهم مَنْ مات فى بطن أمه . إذن : لا تُؤجِّل لأنك لا تدرى ، أيمهلك الأجل حتى تتوب ؟ أم يُعاجلك فتُؤخذ بذنبك ؟

والحق سُبحانه يقول : ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ .. (١)﴾ [الأنبياء] مع أن الساعة ما زالت بعيدة ، وبيننا وبين القيامة مَا لا يعلمه إلا الله . فكيف ذلك ؟

قالوا : لأن الحساب إنما يكون على الأعمال ، والأعمال لها وقت هو الدنيا ، فَمنْ مات فقد انقطع عمله ، واقترب وقت حسابه ؛ لأن المدة التى يقضيها فى القبر لا يشعر بها ، فكأنها ساعة من نهار .

فإنْ قُلْت : من الناس مَنْ يعيش مائة عام ، ومائة وخمسين عاماً . نقول : هذا شىء ظنىّ لا نضمنه ، والإنسان عُرْضة للموت فى أىِّ لحظة لسبب أو دون سبب .

ونلحظ فى قوله تعالى : ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ .. (١)﴾ [الأنبياء] فقال (للنَّاسِ) مع أن الحساب لهم وعليهم ، فهل معنى (للناس)

أي : لمصلحتهم ؟ لا يبدو ذلك ؛ لأنه قال بعدها : ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١﴾ [الأنبياء]

إذن : الحساب ليس فى مصلحتهم إنما الحساب عليهم ، إذن : كيف يكون فى مثل هذا السياق ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ .. ۝١﴾ [الأنبياء] ما دام الأمر على الكفار ؟ كان المفروض أن يقول : اقترب على الناس حسابهم .

نقول : هذا إذا أخذتَ اللام للحساب ، إنما اللام هنا للاقتراب ، لا للحساب ، أى : اقترب من الناس ، إنما الحساب لهم أو عليهم ، هذه مسألة أخرى .

وقوله : ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١﴾ [الأنبياء] الغفلة معناها : زحزحة الشىء عن بال الواجب ألاَّ يزحزح عنه ، فكان الواجب أنْ يتذكره ولا يغفل عنه ، والغفلة غير النسيان ؛ لأن الغفلة أن تهمل مسألة كان يجب ألاَّ تهمل ، وألاَّ تغيب عن بالك ، أما النسيان فخارج عن إرادتك .

وغفلتهم هنا عن أصل وقمة الدين ، وهو الإيمان بالألوهية ، فإن آمنتَ بالألوهية فالغفلة عن الأحكام التى جاء بها الدين ، وهذه هى المعاصى ، والكلام هنا عن الكافرين بدليل قوله بعدها : ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ .. ۝٢﴾ [الأنبياء] والغفلة عن الربِّ الأعلى مثلها الغفلة عن حكم الرب الأعلى ، وفَرْق بين غَفْلة وغَفْلة .

وقد حدَّثَ النبى ﷺ صحابته عن هذه الغفلة ، كما روى سيدنا حذيفة بن اليمان قال : حدثنا رسول الله ﷺ حديثين ، قد رأيت أحدهما وأنا أنتظر الآخر . حدثنا (أن الأمانة نزلت فى جَذْر[1] قلوب الرجال)

---

(١) الجذر : الأصل من كل شىء . وفى حديث حذيفة بن اليمان : نزلت الأمانة فى جذر قلوب الرجال ، أى : فى أصلها . [لسان العرب ـ مادة : جذر] .

والأمانة هى الإيمان الحق بالله ، أى : حَلَّ الإيمان ، واستقر فى القلب ، ونطقنا بالشهادة (ثم نزل القرآن ، فعلموا من القرآن ، وعلموا من السُّنة) ثم حدَّثنا عن رَفْع الأمانة فقال : (ينام الرجل النومة ، فتُقبض الأمانة من قلبه) أى : يغفل الغفلة (فيظل أثرها مثل أثر الوكت)[1] الوكت : مثل سيجارة مثلاً تقع على الجلد فلسعته ، فيتغير لونه (ثم ينام النومة) أى : مرة أخرى (فتقبض الأمانة من قلبه ، فيظل أثرها مثل أثر المجل) والمجل : جمرة النار (فنفط[2] فتراه منتبراً عالياً ، وليس به شىء) أى : انتفخ (فيصبح الناس) أى : بعد رفع الأمانة (يتبايعون فلا يكاد يوجد أحد منهم يؤدى الأمانة حتى يقال : إن فى بنى فلان رجلاً أميناً) لندرة الأمانة بين الناس .

ثم يقول الراوى : (وقد مر علىَّ زمان ما كنت أبالى أيكُم بايعت ، فلئن كان مسلماً ليردنَّه علىَّ دينه) يعنى : إنْ غشَّنى فى شىء أو حدث خطأ ما فى البيع (ولئن كان يهودياً أو نصرانياً ليردنَّه علىَّ ساعيه) أى : الناس المكلفون بمراقبة الأسواق ، وهم أهل الحِسْبة ، فإنْ رأَوْا غشّاً منعوه ، وردوا إلى صاحب الحق حقه (وأما الآن فأنا لا أكاد أبايع منكم إلا فلاناً وفلاناً)[3] فإنْ كان هذا فى أيامهم فما بال أيامنا ؟

وصدق رسول الله ﷺ حين قال : « الناس كإبل مائة لا تجد فيها

---

(١) الوكت : الأثر اليسير فى الشىء . كالنقطة من غير لونه . [اللسان ـ مادة : وكت] .

(٢) النفطة : بثرة تخرج فى اليد من العمل ملأى ماءً . قال أبو زيد : إذا كان بين الجلد واللحم ماء . [اللسان ـ مادة : نفط] .

(٣) أخرجه البخارى فى صحيحه (٧٠٨٦) وكذا مسلم فى صحيحه (١٤٣) من حديث حذيفة بن اليمان رضى الله عنه .

راحلة »[١] أى : رَغْم كثرتها لا تجد فيها جملاً يحمل رَحْلك ويحملك .

وفى رواية أخرى : « تُعرض الفتن على القلوب كالحصير عُوداً عوداً »[٢] أى : كنسج الحصير ، عُوداً بعد عود ، حتى تتم الحصيرة ، ثم يكون الرَّان[٣] على القلب .

فغفْلة هؤلاء غَفْلة عن القمة ، وعن الألوهية ، لا عن التكاليف ؛ لأنهم ليسوا مؤمنين بالمكلّف سبحانه .

وقوله تعالى : ﴿مُّعْرِضُونَ ۝١﴾ [الأنبياء] تدل على الافتعال أى : أنهم مفتعلون هذا الإعراض ؟

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢﴾

أى : ذكر من القرآن ﴿مُّحْدَثٍ .. ۝٢﴾ [الأنبياء] يعنى : يسمعونه جديداً لأول مرة ﴿إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢﴾ [الأنبياء] لا يعطونه اهتماماً ، ولا يُلْقون له بالاً ، وهم يتعمدون هذا ، ويُوصِى بعضهم

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٤٩٨) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٥٤٧) من حديث ابن عمر رضى الله عنهما . قال ابن حجر فى فتح البارى (٣٣٥/١١) : « المعنى : لا تجد فى مائة إبل راحلة تصلح للركوب ، لأن الذى يصلح للركوب ينبغى أن يكون وطيئاً سهل الانقياد ، وكذا لا تجد فى مائة من الناس من يصلح للصحبة بأن يعاون رفيقه ويلين جانبه » .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٣٨٦/٥ ، ٤٠٥) ، ومسلم فى صحيحه (١٤٤) من حديث حذيفة بن اليمان ، وتمامه : « فأيّما قلب أشربها نكتت فيه نكتة سوداء ، وأيما قلب أنكرها نكتت فيه نكتة بيضاء » .

(٣) الران والرين : هو كل ما غلبك وعلاك . والرين : سواد القلب من الذنوب . وأصل الرين : الطبع والتغطية . [لسان العرب ـ مادة : رين] .

بعضاً به ويُحرّضون عليه ، كما جاء فى قول الحق سبحانه وتعالى حكاية عنهم : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَـٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (٢٦)﴾ [فصلت]

إنهم يخافون إنْ سمعوا القرآن أنْ يتأثروا به فيؤمنوا ؛ لذلك لا تسمعوه ، بل شَوِّشوا عليه حتى لا يسمعه أحد فى هدوء واطمئنان فيؤمن به . وهذا يعنى أن هذا العمل فى مصلحتهم ؛ لأنهم لا يستطيعون رَدَّ حُجَج القرآن ولا الثبات أمام إعجازيته ولا بلاغته ولا تأثيره على النفوس ، فهُمْ لا يملكون إلاَّ أنْ يصرفوا الناس عن سماعه ، والتشويش عليه ، حتى لا يتمكّن من الأسماع ، وينفذ إلى القلوب ، فيخالطها الإيمان .

واللعب : أن تشغل نفسك بعمل لا قَصْدَ فيه لغاية ، كما يأخذ الطفل الصغير كراسة أخيه ، ويعبث فيها بالقلم دون نظام ودون هدف .

وهناك أيضاً اللهو : وهو عمل مقصود لغاية ، لكن هذه الغاية تضعها أنت لنفسك ، أو يضعها غيرك ممَّنْ يريد أنْ يُفسدك بها ، إذن : هو عمل مقصود وله غاية ، ليس مجرد (شخبطَة) كمَنْ ينشغل مثلاً برسم بعض الصور للتسلية ، أو ينشغل بحلِّ الكلمات المتقاطعة ، فهى أعمال لا فائدة منها .

أما العمل النافع الذى ينبغى أن ينشغل الإنسان به فهو الذى يضعه لك مَنْ هو أعلى منك ، وأنْ يكون حكيماً مُحباً لك ، وهذه المواصفات لا تجدها إلا فى الإله ؛ لذلك كل ما يُلهيك عَمَّا يضعه لك إلهك فهو لَهْو ؛ لأنه شَغَلَك عما هو أهَمّ .

لذلك يقول تعالى : ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ .. (٣٦)﴾ [محمد]

فاللعب فى مرحلة الطفـولة ، بل نأتى نحن باللُّعب ونقول للطفل : العب ، إنما اللهو أن تنشغلَ بعمل مقصود وله غاية ، لكنها تلهيك عن غاية أسمى هى التى وضعها لك الحكيم القادر الأعلى منك المحبّ لك .

إذن : منتـهى اللهـو واللعب أن يلعـبـوا عند سمـاع القـرآن ، فلم يستمعوا له ، حتى على أنه لهو له غاية ، إنما على أنه لَعِبٌ لا غايةَ له ولا فائدةَ منه ؛ لأن غايته ضارّة .

واللعب وإنْ كان مُباحاً فى فترة ما قبل البلوغ ، إنما القلوب يجب أن تُربَّى على أنْ تلتفت إلى الله عز وجل الخالق الرازق فى هذه الفترة المبكرة من حيـاة الإنسان ، وهذه مهمـة الأب ، فإنْ أتى لولده بطعام أو شراب يقـول أمام الولد الصـغيـر : ربنا رزقنا به . وهكذا فى كل أمور الحيـاة يسند الأمر إلى الله وينبه الولد الصـغير : قل : بسم الله قل : الحمد لله .

وهكذا تُربِّى فى الولد مواجيده على اليـقين بالله القوى ، وإنْ كان الولد لا يراه فإنه يرى آثاره ونعَمه . ويرى أباه الذى يتعهده ، ويأتى له بكل شىء لا يتصيّد المجد لنفسه ، إنما ينسب كل شىء إلى الله .

فأبوه ـ وهو المثل الأعلى له ـ يزحزح هذه المسائل عنه وينسبها لله ، فيتربى وجدانُ الولد على الإيمان . فإذا لم يُرَبَّ الولد هذه التربية تسلل إلى نفسه اللَّهْو واللَّعِب .

وسبق أن قلنا : إن كُلَّ فعل من الأفعال لا بُدَّ أنْ ينشأ عن مَوْجدة من المـواجـيـد ، ولا ينشـأ الفعل دون مَـوجـدة إلا فـعل المـجنون ، والقلوب هى التى تُوجِّه الجوارح ، ولو لم تكُنْ القلـوب لاهية ما لعبت الجوارح .

لذلك سيدنا عمر ـ رضى الله عنه ـ حينما دخل على رجل يعبث بذقنه وهو يصلى ـ كما يفعل الكثيرون ـ قال : لو خشعَ قلبُ هذا لخشعتْ جوارحه[1] . فحركة الجوارح دليل على انشغال القلب ؟ لذلك يقول تعالى بعدها :

﴿ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾ ﴾

ويا ليت كلاً منهم يفعل هذا الفعل فى نفسه ، إنما يتآمرون جميعاً على الحق ليفسدوه باللعب واللهو ﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَى .. ﴿٣﴾﴾ [الأنبياء] أى : يتناجَوْن فى الإثم ، ويُسرُّونه يعنى : يجعلونه سراً . والنَّجْوى أو التناجى : خَفْض الصوت ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ .. ﴿٧﴾﴾ [المجادلة]

فلا تظنوا أنكم مستورون عن الله ، أو تُخْفون عنه شيئاً . وتلاحظ فى ارتقاءات العدد فى هذه الآية أنها لم تذكر اثنين ، فبدأت من العدد ثلاثة ؛ لأنه عادةً لا تكون النجوى بين الاثنين ، إنما تكون بين الثلاثة ، حيث يتناجى اثنان حتى لا يسمع الثالث .

كما أنها لم تذكر الأعداد بالترتيب ، فلم تَقُلْ مثلاً : ولا أربعة إلا هو خامسهم ؛ ذلك لأن الآية لا تقصد الترتيب العددى ، إنما تعطيك مجرد أمثلة ونماذج من الأعداد .

---

(١) أورده الإمام الغزالى فى إحياء علوم الدين (١/١٥١) من حديث رسول الله ﷺ ، قال العراقى فى تخريجه للإحياء : « أخرجه الترمذى الحكيم فى النوادر من حديث أبى هريرة بسند ضعيف لأنه من قول سعيد بن المسيب رواه ابن أبى شيبة فى المصنف وفيه رجل لم يسم » .

وكذلك فى قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ .. (٨)﴾ [المجادلة]

وما داموا يُخْفون كلاماً ويُسرُّونه ، فلا بُدَّ أنه مخالف للفطرة السليمة ، ولو كان حقّاً لَقالُوه علانية ، فالنجْوى دليلُ اتهامهم فى العقل ، وفى القلب ، وفى كل شىء .

أما قوله تعالى فى شأن النبى ﷺ : ﴿يَـأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً .. (١٢)﴾ [المجادلة]

وهل كان الصحابة يُحدِّثون الرسول سرّاً ؟ لا بل هنا إشارة أخرى أوضحها قوله تعالى : ﴿لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا .. (٦٣)﴾ [النور]

فالمراد ألاّ نرفع أصواتنا فى حضرة النبى ﷺ كما يحدث منّا حين يُكلِّم بعضنا بعضاً ، بل نُكلِّمه كلام المهيب ، ونلتزم معه الأدب والخشوع .

وقوله تعالى : ﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا .. (٣)﴾ [الأنبياء] هل (الذين) هنا هى الفاعل لأسرُّوا ؟ القاعدة النحوية : إذا تقدم الفعل على الفاعل لزم صورة الإفراد نقول : أكل القوم . لا نقول : أكلوا القوم ، وهنا ﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَى .. (٣)﴾ [الأنبياء] لو أن (الذين ظلموا) هى الفاعل لقال : وأسَرَّ الذين ظلموا ، إنما جاء الفاعل (واو الجماعة) ثم الاسم الموصول (الذين) بعدها فليست هى الفاعل ، وليست هذه من لغات العرب الصحيحة .

فكأن سائلاً سأل : ومَن الذى أسَرَّ ؟ فأجاب : (الَّذِينَ ظَلَمُوا)

وكلمة (ظَلَمُوا) عامة فى الظلم ، فقد ظلموا أنفسهم أولاً ؛ لأن ظلمهم عائد عليهم بالعذاب ، وظُلْم نفسه ناشئ من أنه ظلم الحق الأعلى ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣)﴾ [لقمان]

ثم ظلم الناس فى أمور أخرى وفى حقوق لهم ، لكن جاءتْ (ظلموا) عامة ؛ لأن الظلم الواحد سيشمل كل أنواع الظلم ، وما دام قد وصل به الأمر إلى أنْ ظَلَم اللهَ فلا غرابةَ أنْ يظلم ما دونه تعالى .

فما النجوى التى أسرَّهَا القوم ؟ ومَنْ أخبر رسول الله بها ؟

النجوى قوله تعالى : ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ .. (٨)﴾ [المجادلة]

فكيف عرف محمد هذه المقولة ، وقد قالوها فى أنفسهم وأسرُّوها ؟ ألم يكُن على هؤلاء أنْ يتنبَّهوا : كيف عرف محمد مقولتهم ؟ وأن الذى أخبره بما يدور هو ربُّه الإله الأعلى ، الذى لا تَخْفى عليه خافية ، كان عليهم أن يلتفتوا إلى رب محمد ، الله الإله الحق الذى يعلم خَبْءَ كل شىء فيرتدعوا عَمَّا هم فيه ، وبدل أنْ يشغلوا عقولهم بمسائل الشرك ينتهوا بها إلى الإيمان .

ومما جاء فى تناجيهم : ﴿هَلْ هَـٰذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ .. (٣)﴾ [الأنبياء] إذن : أنكروا أن يكون رسولاً لأنه بشر ، والرسول لا بُدَّ أن يكون ملكاً ﴿أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ (٣)﴾ [الأنبياء] فسمُّوا القرآن سحْراً ، لأنهم يروْنَ السحر يُفرِّق بين الابن وأبيه ، والأخ وأخيه ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ (٣)﴾ [الأنبياء] أن القرآن يفعل مثل هذا .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٤)﴾

كأن سائلاً قال : من أين لك يا محمد بكل هذا وقد أسرّه القوم ؟ ﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ .. ﴿٤﴾﴾ [الأنبياء] فلا تَخْفى عليه خافية ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٤﴾﴾ [الأنبياء] السميع لما يُقال ويُسر العليم بما يُفعل ، فالأحداث أقوال وأفعال .

ومما قالوه أيضاً :

﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الأَوَّلُونَ ﴿٥﴾﴾ (١)

(بَلْ) تعنى أنهم تمادَوْا ، ولم يكتفوا بما قالوا ، بل قالوا أيضاً ﴿أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ .. ﴿٥﴾﴾ [الأنبياء] وأضغاث : جمع ضِغْث ، وهو الحزمة من الحشيش مختلفة الأشكال ، كما جاء فى قصة أيوب عليه السلام : ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلا تَحْنَثْ .. ﴿٤٤﴾﴾ [ص] أى : حزمة من أعواد الحشيش .

ووردتْ أيضاً فى رُؤْيا عزيز مصر : ﴿قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [يوسف]

وقوله ﴿بَلِ افْتَرَاهُ .. ﴿٥﴾﴾ [الأنبياء] أى تمادَوْا فقالوا : تعمد كذبه واختلاقه ﴿بَلْ هُوَ شَاعِرٌ .. ﴿٥﴾﴾ [الأنبياء] إذن : أقوالهم واتهاماتهم لرسول الله متضاربة فى ماهية ما هو ؟ وهذا دليل تخبطهم ، فمرة ينكرون أنه من البشر ، ومرة يقولون : ساحر ، ومرة يقولون : مفتر ، والآن يقولون : شاعر !!

وقد سبق أنْ فنَّدنا كل هذه الاتهامات وقلنا : إنها تحمل فى

---

(١) أضغاث أحلام . أى : أحلام مختلفة مختلطة ملتبسة غير مميّزة على سبيل الاستعارة كالأشياء المختلطة . [القاموس القويم ١/ ٣٩٤] .

طياتها دليل كذبهم وافترائهم على رسول الله .

ثم يقولون : ﴿فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الأَوَّلُونَ (٥)﴾ [الأنبياء] كأن آية القرآن ما أقنعتْهم ، فلم يكتفُوا بها ، ويطلبون آية أخرى مثل التى جاء بها السابقون ، والقرآن يردّ عليهم فى هذه المسألة : لو أنهم سيؤمنون إذا جاءتهم الآية التى اقترحوها لأنزلناها عليهم ، إنما السوابق تؤكد أنهم لنْ يؤمنوا مهما جاءتهم من الآيات ، وهذا من أسباب العذاب .

وقد أوضح الحق سبحانه أنه لن يُعذِّبهم ما دام فيهم رسول الله ؛ لذلك لم يُجبْهم إلى ما طلبوا من الآيات ؛ لأن الله تعالى لا يُخلف وعْدَه ، فإنْ جاءتهم الآية فلم يؤمنوا بها لا بُدَّ أنْ يُنزِل بهم العذاب ؛ لذلك يقول تعالى بعدها :

﴿مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ (٦)﴾

إذن : هذه التجربة مَرَّتْ مع غيرهم من الأمم السابقة ، وهم كأمثالهم من السابقين لو أنزلنا عليهم الآية ما آمنوا ، كما لم يؤمن سابقوهم ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٢٨)﴾ [الأنعام]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٧)﴾

الحق - تبارك وتعالى - يردُّ على اعتراضهم على بشرية الرسول وطلبهم أن يكون الرسول ملكاً ، كما قالوا فى موضع آخر : ﴿أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا .. ⑥﴾ [التغابن]

يعنى : هم مثلنا ، وليسوا أفضل منَّا ، فكيف يهدوننا ؟! وهل الرسول يهديكم ببشريته ؟ أم بشىء جاءه من أعلى ؟ هل منهجه من عنده ؟

الرسول ليس مُصلحاً اجتماعياً ، إنما هو مُبلِّغ عن الله ربى وربكم . وقد سبقتْ السوابق فيمَنْ قبلكم أن يكون الرسول بشراً ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ .. ⑦﴾ [الأنبياء] ولو أرسلنا إليهم ملكاً لجاءكم الرسول ملكاً . ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ⑦﴾ [الأنبياء] وهم اليهود والنصارى ، ماذا أرسلنا إليهم أرجالاً أم ملائكة ؟

ذلك لأن المفروض فى النبى أن يكون قدوة لقومه وأُسْوة ، مُبلِّغَ منهج ، وأُسْوةَ سلوك ، منهج يحققه عن الله ، ثم يُطبِّقه على نفسه ، فهو لا يحمل الناس على أمر هو عنه بنَجْوة[1] ، إنما هو أُسْوتهم وقُدْوتهم ، وشرط أساسى فى القدوة أنْ يتحد فيها الجنس : المتأسِّى مع المتأسَّى به .

فلو رأيتَ مثلاً فى الغابة أسداً يصول ويجول ويفترس ، هل تفكر فى يوم ما أن تكون أسداً ؟! هل تأخذ الأسد لك أُسْوة ؟! لا ، لأنه يُشترط فى أُسْوتك أن يكون من جنسك ، فإذا رأيتَ فارساً على جواده يصول ويجول ويضرب فى الأعداء يميناً وشمالاً ، لا شكَّ أنك تود أن تكون مثله .

---

(١) النجوة : ما ارتفع من الأرض . قال أبو زيد : النجوة المكان المرتفع الذى تظن أنه نجاؤك . [لسان العرب - مادة : نجا] .

كذلك إذا جاء النبى ملكاً ، والملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يُؤْمرون ، إنما نحن بشر ، ولو جاءنا الرسول ملكاً لجاءنا فى صورة بشرية .

يقول تعالى : ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلاَّ أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولاً (٩٤) قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولاً (٩٥)﴾ [الإسراء]

ويردُّ الحق سبحانه عليهم : ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ (٩)﴾ [الأنعام] . وهكذا تظل الشبهة موجودة .

إذن : لا يمكن أن يكون الرسول للبشر إلا من البشر . ونعم ، محمد بشر لكن بشر يُوحَى إليه ، كما جاء فى الحديث الشريف : « يرد علىَّ - يعنى من الحق الأعلى - فأقول : أنا لست كأحدكم ، ويُؤخَذ منى فأقول : ما أنا إلا بشر مثلكم » .

وقوله : ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٧)﴾ [الأنبياء] أى : إنْ كنتم فى شكٍّ من هذه المقولة فاسألوا أهل الذكر من السابقين : اليهود والنصارى أهل الكتاب[1] .

وقال : ﴿إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٧)﴾ [الأنبياء] لأنها مسألة عِلْمُها مشكوك فيه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ (٨)﴾

---

(١) قاله سفيان . وقال ابن زيد : أراد بالذكر القرآن . أى : فاسألوا المؤمنين العالمين من أهل القرآن . قال جابر الجعفى : لما نزلت هذه الآية قال على رضى الله عنه : نحن أهل الذكر . [تفسير القرطبى ٦/٤٤٤٧] .

﴿جَعَلْنَاهُمْ .. ﴿٨﴾﴾ [الأنبياء] أى : الرسل ﴿جَسَدًا .. ﴿٨﴾﴾ [الأنبياء] يعنى : شيئاً مصبوباً جامداً لا يأكل ولا يشرب ولا يتحرك ، إنما هم بشر يأكلون ويشربون كأىّ بشر ، ويمشون فى الأسواق ، ويعيشون حياة البشر العادية ﴿وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴿٨﴾﴾ [الأنبياء] فليس الخلود من صفة البشر وقد تابعوا الرسل ، وعَلِموا عنهم هذه الحقيقة ، وقال تعالى : ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الزمر]

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَن نَّشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾﴾

وهذه سُنة من سُنَن الله فى الرسل أنْ يَصْدقهم وعده ، وهل رأيتم رسولاً عانده قومه وحاربوه واضطهدوه ، وكانت النهاية أن انتصروا عليه ؟

ألم يقل الحق تبارك وتعالى : ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصافات]

وكان صِدْق الوعد أن أنجيناهم ومَنْ نشاء وأهلكنا المسرفين والمسرفون هم الذين تجاوزوا الحدَّ المعروف . فنهاية الرسل جميعاً النُّصْرة من الله ، والوفاء لهم بما وعدهم .

﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾﴾

الحق سبحانه يخاطب المكذِّبين للنبى : ما أنزلتُ إليكم آية بعيدة عن معرفتكم ، إنما أرسلتُ إليكم رسولاً بآية من جنس ما نبغتُم فيه ،

ولما نزل فهمتموه وعرفتم مراميه ، بدليل أن فى القرآن ألفاظاً تُستقبل بالغرابة ولم تعترضوا أنتم عليها ، ولم تُكذِّبوا محمداً فيها مع أنكم تتلمسون له خطأ ، وتبحثون له عن زلة .

فمثلاً لما نزلتْ (الم) ما سمعنا أحداً منهم قال : أيها المؤمنون بمحمد ، إن محمداً يدَّعى أنه أتى بكتاب مُعْجز فاسألوه : ما معنى (الم) ؟ مما يدل على أنهم فهموها وقبلوها ، ولم يجدوا فيها مَغْمزاً فى رسول الله ؛ لأن العرب فى لغتهم وأسلوبهم فى الكلام يستخدمون هذه الحروف للتنبيه .

فالكلام سفارة بين المتكلِّم والسامع ، المتكلِّم لا يُفَاجأ بكلامه إنما يعدّه ويُحضره قبل أن ينطق به ، أمّا السامع فقد يُفَاجأ بكلام المتكلم، وقد يكون غافلاً يحتاج إلى مَنْ يُوقِظه ويُنبِّهه حتى لا يفوته شىء .

وهكذا وُضعَتْ فى اللغة أدوات للتنبيه ، إنْ أردتَ الكلام فى شىء مهم تخشى أنْ يفوتَ منه شىء تُنبِّه السامع ، ومن ذلك قول عمرو ابن كلثوم[1] :

★ أَلاَ هُبِّى بِصَحْنِكِ فَاصْبِحِينَا[2] ★

---

(١) هو : عمرو بن كلثوم بن مالك ، من بنى تغلب ، أبو الأسود ، شاعر جاهلى ، من الطبقة الأولى ، ولد فى شمال جزيرة العرب فى بلاد ربيعة ، كان من أعز الناس نفساً ، ساد قومه تغلب وهو فتى ، وعمر طويلاً ، مات فى الجزيرة الفراتية عام ٤٠ ق هـ . [الأعلام للزركلى ٥/٨٤] .

(٢) شطر البيت الأول من معلقة عمرو بن كلثوم . والصحن : القدح العظيم . والجمع : الصحون . ومعنى البيت : ألا استيقظى من نومك أيتها الساقية واسقينى الصبوح بقدحك العظيم ولا تدخرى خمر هذه القرى . [انظر شرح المعلقات السبع للزوزنى . ص ١٦٥].

وقول آخر :

أَلاَ أنعِمْ صَبَاحاً أَيُّهـا الطَّلَلُ البَـالِى[١]

وَهَـلْ يَنْعَمَنْ مَنْ كَانَ فى العَصْرِ الخالى[٢]

إذن : (ألا) هنا أداة للتنبيه فقط يعنى : اسمعوا وانتبهوا لما أقول .

وكذلك أسلوب القرآن : ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢)﴾ [يونس] ﴿أَلا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ .. (٥)﴾ [هود]

إذن : عندما نزل القرآن عليهم فهموا هذه الحروف ، وربما فهموا منها أكثر من هذا ، ولم يردُّوا على رسول الله شيئاً من هذه المسائل مع حرصهم الشديد على نقده والأخذ عليه .

وقوله تعالى : ﴿فِيهِ ذِكْرُكُمْ .. (١٠)﴾ [الأنبياء] الذكر : سبق أنْ أوضحنا أن الذكر يُطلق بمعنى : القرآن ، أو بمعنى : الكتب المنزّلة ، أو بمعنى : الصِّيت والشرف . أو بمعنى : التذكير أو التسبيح والتحميد .

والذكر هنا قد يُرَاد به تذكيرهم بالله خالقاً ، وبمنهجه الحق دستوراً ، ولو أنكم تنبهتم لما جاء به القرآن لعرفتُم أن الفطرة تهدى إليه وتتفق معه ، ولعرفتم أن القرآن لم يتعصّب ضدكم ، بدليل أنه أقرَّ بعض الأمور التى اهتديتم إليها بالفطرة السليمة ووافقكم عليها .

ومن ذلك مثلاً الدِّيَة فى القتل هى نفس الدية التى حدَّدها القرآن ، مسائل الخطبة والزواج والمهر كانت أموراً موجودة أقرها القرآن ،

---

(١) الطلل : ما شخص من آثار الديار . [لسان العرب ـ مادة : طلل] .

(٢) البيت لامرىء القيس ، ذكره الزوزنى فى شرح المعلقات السبع ص ١٠٢ (هامش) .

كثيرون منهم كانوا يُحرِّمون الخمر ولا يشربونها ، هكذا بالفطرة ، وكثيرون كانوا لا يسجدون للأصنام ، إذن : الفطرة السليمة قد تهتدى إلى الحق ، ولا تتعارض ومنهجَ الله .

أو : يكون معنى ﴿ذِكْرُكُمْ .. ﴿١٠﴾﴾ [الأنبياء] شرفكم وصيْتكم ومكانتكم ونباهة شأنكم بين الأمم ؛ لأن القرآن الذى نزل للدنيا كلها نزل بلغتكم ، فكأن الله تعالى يثنى عقول الناس جميعاً ، ويثنى قلوبهم للغتكم ، ويحثّهم على تعلّمها ومعرفتها والحديث بها ونشرها فى الناس ، فمَنْ لم يستطع ذلك ترجمها ، وأىُّ شرف بعد هذا ؟!

وقوله تعالى : ﴿أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الأنبياء] أفلا تُعملون عقولكم وتتأملون أن خيركم فى هذا القرآن ، فإنْ كنتم تريدون خُلقاً وديناً ففى القرآن ، وإنْ كنتم تريدون شرفاً وسُمعة وصيتاً ففى القرآن ، وأىُّ شرف بعد أن يقول الناس : النبى عربى ، والقرآن عربى ؟

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿١١﴾﴾

قصمنا : القَصْم هو الكَسْر الذى لا جَبْرَ فيه ، وكأن الحق - سبحانه وتعالى - يضع أمام أعينهم القُرَى المكذِّبة الظالمة ، ليأخذوا منها عِبْرة وعِظَة ، فليس بدَعاً أنْ نقصم ظهور المكذِّبين ، بل لها سوابق كثيرة فى التاريخ[1] .

---

(١) قال القرطبى هنا فى تفسيره (٦/٤٤٤٩) : « يريد مدائن كانت باليمن . وقال أهل التفسير والأخبار : إنه أراد أهل حَضُور ، وكان بُعث إليهم نبى اسمه شعيب بن ذى مَهْدَم ، وليس بشعيب صاحب مدين » .

لذلك قال : ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا .. (١١)﴾ [الأنبياء] وكم هنا خبرية تفيد الكثرة التى لا تُعَدُّ ، فاحذروا إنْ لويتُم أعناقكم أنْ يُنزِل بكم ما نزل بهم .

وقوله : ﴿وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ (١١)﴾ [الأنبياء] أى : خَلَف بعدهم خَلْف آخرون .

﴿فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ[1] إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ (١٢)﴾

أى : حين أحسُّوا العذاب ﴿إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ (١٢)﴾ [الأنبياء] حتى لا يلحقهم العذاب . والركْضُ : الجَرْى السريع بهَرْولة ، والأصل فيه : رَكْضُ الدابة . يعنى : ضَرْبها برِجْله كى تُسرع . ومنها : ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ .. (٤٢)﴾ [ص] يعنى : اضرب الأرض برِجْلك لتُخرج الماء ﴿هَـٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ (٤٢)﴾ [ص]

وفى هذه الآية مَلْمحٌ من ملامح الإعجاز القرآنى ، فقد أصاب أيوبَ عليه السلام مرضٌ فى جلده ، وأراد له ربُّه - عز وجل - الشفاء . فقال له : اضرب الأرض برِجْلك تُخرج لك ماءً بارداً ، منه مُغْتَسل ومنه شراب ، فالماء هنا دواء يعالج أمرين : يعالج الظاهر والباطن .

وآفةُ المعالجين أنهم إذا رأوْا مثلاً البثور والدمامل فى الجلد يعالجونها بالمراهم التى يندملُ معها الجُرْح ، لكنها لا تعالج أسباب الظاهرة من الداخل ، أما العلاج الإلهى فمغتسلٌ لعلاج الظاهرة ، وشرابٌ لعلاج أسباب الظاهرة فى الجوف .

---

(١) البأس : الشدة والقوة . [القاموس القويم ١/٥٢] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ ﴿١٣﴾﴾

الحق ـ سبحانه وتعالى ـ فى قصة هؤلاء المكذِّبين قدَّم الغاية من العذاب ، فقال : ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ.. ﴿١١﴾﴾ [الأنبياء] ثم فصَّل القَصْم بأنهم لما أحسُّوا العذاب تركوا قريتهم ، وأسرعوا هاربين أنْ يلحقهم العذاب ، وهنا يقول لهم : لا تركضوا وعودوا إلى مساكنكم ، وإلى ما أُترِفْتم فيه .

والتَّرفُ : هو التنعُّم نقول : ترف الرجل يترف مثل : فرح يفرَح أى : تنعَّم ، فإذا زِيدتْ عليها همزة فقيل : أترف الرجل فمعناها : أخذ نعيماً وأبطره .

ومنها أيضاً : أترفَهُ الله يعنى : غرَّه بالنعيم ؛ ليكون عقاباً له .

فقوله هنا ﴿إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ .. ﴿١٣﴾﴾ [الأنبياء] من أترفه الله يعنى : أعطاهم نعيماً لا يؤدون حقَّه ، فيجرّ عليهم العذاب . لكن ما دام أن الله تعالى يريد بهم العذاب ، فلماذا يُنعِّمهم ؟

قالوا : فَرْق بين عذاب واحد وعذابين : العذاب أن تُوقع على إنسان شيئاً يؤلمه ، أما أن تُنعِّمه وترفعه ثم تعذبه ، فقد أوقعتَ به عذاباً فوق عذاب .

وقد مثَّلْنا لذلك بأنك إنْ أردت أنْ تُوقِع عدوك لا توقعه من فوق حصيرة مثلاً ، إنما ترفعه إلى أعلى ليكون أشدَّ عليه وآلمَ له .

ومن ذلك قَوْلُ القرآن ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ .. (٤٤)﴾ [الأنعام] أعطيناهم الصحةَ والمال والجاه والأرض والدُّور والقصور ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ (٤٤)﴾ [الأنعام] وهكذا يكون أَخْذه أليماً شديداً ، فعلى قَدْر ما رفعهم الله على قَدْر ما يكون عذابهم .

ومَلْمَح آخر فى قوله تعالى : ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ .. (٤٤)﴾ [الأنعام] لا لهم كما فى : ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا (١)﴾ [الفتح] فليس هذا كله فى صالحهم ، بل هو وَبَال عليهم ، فلا تغترُّوا بها ، فقد أعطاها الله لهم ، وهم سَيَبْطرون بها ، فتكون سببَ عذابهم .

وقوله تعالى : ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ (١٣)﴾ [الأنبياء] أى : عودوا إلى مساكنكم وقصوركم وما كنتم فيه من النعيم ، لعل أحداً يمرُّ بكم فيسألكم : أين ما كنتم فيه من النعيم ؟ أين ذهب ؟ لكن ما هم فيه الآن من الخزى سيُخرس ألسنتهم ، ولن يقولوا شيئاً مما حدث ، إنما سيكون قولهم وسلوكهم :

﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (١٤)﴾

لما أحسَّ المكذِّبون بأْسَ الله وعذابه حاولوا الهرب ليُفوِّتوا العذاب ، فقال لهم : ارجعوا إلى ما كنتم فيه ، فلن يُنجيكم من عذاب الله شىء ، ولا يفوت عذاب الله فائت ، فلما وجدوا أنفسهم فى هذا الموقف لم يجدوا شيئاً إلا الحسرة فتوجَّهوا إلى أنفسهم ليقرعوها ، ويحكموا عليها بأنها تستحق ما نزل بها .

فقولهم : ﴿يَا وَيْلَنَا .. (١٤)﴾ [الأنبياء] ينادون على العذاب ، كما تقول (يا بؤسى) أو (يا شقائى) وهل أحد ينادى على العذاب أو

البُؤْس أو الشقاء ؟ الإنسان لا ينادى إلا على ما يُفرِح .

فالمعنى : يا ويلتى تعالى ، فهذا أوانك ، فلن يشفيه من الماضى إلاّ أنْ يتحسَّر عليه ، ويندم على ما كان منه . فالآن يتحسَّرون ، الآن يعلمون أنهم يستحقون العذاب ويلومون أنفسهم .

﴿إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (١٤)﴾ [الأنبياء] ظالمين لأنفسنا بظلمنا لربنا فى أننا كفرنا به ، كما قال فى آية أُخْرى : ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَـٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ .. (٥٦)﴾ [الزمر]

﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَـٰهُمْ حَصِيدًا خَـٰمِدِينَ (١٥)﴾

قوله تعالى : ﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ .. (١٥)﴾ [الأنبياء] أى : قولهم : ﴿يَـٰوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (١٤)﴾ [الأنبياء] فلم يقولوها مرة واحدة سرقة عواطف مثلاً ، إنما كانت ديدنهم ، وأخذوها تسبيحاً : يا ويلنا إنا كنا ظالمين ، يا ويلنا إنا كنا ظالمين . فلا شىءَ يشفى صدورهم إلا هذه الكلمة يُردِّدونها . كما يجلس المجرم يُعزِّى نفسه نادماً يقول : أنا مُخطىء ، أنا أستحق السجن ، أنا كذا وكذا .

وقوله تعالى : ﴿حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ (١٥)﴾ [الأنبياء] الحصيد : أى المحصود وهو الزرْع بعد جمعه ﴿خَامِدِينَ (١٥)﴾ [الأنبياء] الخمود من أوصاف النار بعد أنْ كانت مُتأجِّجة مشتعلة ملتهبة صارت خامدة ، ثم تصير تراباً وتذهب حرارتها . كأن الحق - سبحانه وتعالى - يشير إلى حرارتهم فى عداء الرسول وجَدَلهم وعنادهم معه ﷺ ، وقد خمدتْ هذه النار وصارتْ تراباً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾﴾

ربنا ـ سبحانه وتعالى ـ يعطينا المثل الأعلى فى الخلْق ؛ لأن خَلْق السموات والأرض مسألة كبيرة : ﴿لَخَلْقُ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ .. ﴿٥٧﴾﴾ [غافر] فالناس تُولَد وتموت وتتجدد ، أمّا السماء والأرض وما بينهما من نجوم وكواكب فهو خلْق هائل عظيم منضبط ومنظوم طوال هذا العمر الطويل ، لم يطرأ عليه خَلَل أو تعطُّل .

والحق سبحانه لا يمتنُّ بخَلْق السماء والأرض وما بينهما ؛ لأنها أعجب شىء ، ولكن لأنها مخلوقة للناس ومُسخَّرة لخدمتهم ، فالسماء وما فيها من شمس وقمر ونجوم وهواء ومطر وسحاب والأرض وما عليها من خَيْرات ، بل وما تحتها أيضاً ﴿وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ ﴿٦﴾﴾ [طه]

الكل مخلوق لك أيها الإنسان ، حتى ما تتصوره خادماً لغيرك هو فى النهاية يصبُّ عندك وبين يديك ، فالجماد يخدم النبات ، والنبات يخدم الحيوان ، وكلهم يخدمون الإنسان .

فإنْ كان الإنسان هو المخدوم الأعلى فى هذا الكون فما عمله هو ؟ وما وظيفته فى كون الله ؟ فكل ما دونك له مهمة يؤديها فما مهمتك ؟ إذن : إنْ لم يكن لك مهمة فى الحياة فأنت أتفه من الحيوان ، ومن النبات ، حتى ومن الجماد ، فلا بُدَّ أنْ تبحثَ لك عن عمل يناسب سيادتك على هذه المخلوقات .

ثم هل سخَّرْتَ هذه المخلوقات لنفسك بنفسك ، أم سخَّرها الله وذلَّلها لخدمتك ؟ فكان عليك أن تلتفت لمن سخَّر لك هذه المخلوقات

وهى أقوى منك ، ألك قدرة على السماء ؟ أتطول الشمس والقمر ؟

﴿ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً (٣٧) ﴾ [الإسراء]

إذن : كان يجب عليك أن تبحثَ بعقلك فيمَنْ سخَّر لك هذا كله ، كان عليك أنْ تهتدى إلى الخالق للسماء والأرض وما بينهما ، لأنه سبحانه ما خلقها عبثاً ، ولا خلقها للعب ، إنما خلقها من أجلك أنت .

لذلك يقول سبحانه فى الحديث القدسى : « يا ابن آدم ، خلقتُ الأشياء من أجلك ، وخلقتُك من أجلى ، فلا تنشغل بما هو لك عمن أنت له » .

فالكون مملوك لك ، وأنت مملوك لله ، فلا تنشغل بالمملوك لك عن المالك لك .

فما الحكمة من خَلْق السماء والأرض وما بينهما ؟ الحكمة أن هذه المخلوقات لولاها ما كُنَّا نستدل على القوة القادرة وراء خَلْق هذه الأشياء ، وهو الخالق سبحانه ، فهى - إذن - لإثبات صفات الجلال والجمال لله عز وجل . فلو ادَّعَى أحد أنه شاعر - ولله المثل الأعلى - نقول له : أين القصيدة التى قلتها ؟ فلا نعرف أنه شاعر إلا من خلال شِعْره وآثاره التى ادَّعاها . وهى دعوى دون دليل ؟!

وقد خلق الله هذا الخَلْق من أجلك ، وتركك تربَع فيه ، وخلقه مقهوراً مُسيَّراً ، فالشمس ما اعترضتْ يوماً على الشروق ، والقمر والنجوم والمطر والهواء والأرض والنبات كلها تعطى المؤمن والكافر والطائع والعاصى ؛ لأنها تعمل بالتسخير ، لا بالإرادة والاختيار . أما الإنسان فهو المخلوق صاحب الاختيار فى أن يفعل أو لا يفعل .

ولو نظرتَ إلى هذا الكون لأمكنك أنْ تُقسِّمه إلى قسمين : قسم لا دَخْلَ لك فيه أبداً ، وهذا تراه منسجماً فى نظامه واستقامته وانضباطه ، وقسم تتدخل فيه ، وهذا الذى يحدث فيه الخَلَل والفساد .

قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٨) وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ[1] الْقَدِيمِ (٣٩) لا الشَّمْسُ يَنبَغِى لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٤٠) ﴾ [يس]

فالكَوْن من حولك يسير بأمر خالقه ، منضبط لا يتخلف منه شىء ، فلو أخذتَ مثلاً سنة كاملة ٣٦٥ يوماً ، ثم حاولتَ أنْ تعيدها فى عام آخر لوجدتَ أن الشمس طلعتْ فى اليوم الأول من نفس المكان ، وفى اليوم الثانى من نفس مكان اليوم الثانى ، وهكذا بدقة متناهية ، سبحان خالقها .

لذلك ؛ فالذين يضعون التقويم لمعرفة الأوقات يضعون تقويم ثلاث وثلاثين سنة يُسجِّلون دورة الفلك ، ثم يتكرر ما سجَّلوه بانضباط شديد ، ومن ذلك مثلاً إذا حدَّد العلماء موعد الكسوف أو الخسوف أو نوعه جزئى أو حلْقى ، فإذا ما تابعته وجدته منضبطاً تماماً فى نفس موعده ، وهذا دليل على انضباط هذا الكون وإحكامه ؛ لأنه لا تدخُّل لنا فيه أبداً .

---

(١) العرجون : هو أصل عذق النخلة ، ومنه تتفرع شماريخ البلح ، ويكون أول ظهوره أخضر ثم يبيض ثم يصفر عند نضج البلح ، فإذا قطع وجفَّ صار أبيض ، وشبه به القمر آخر الشهر لأنه يكون ملتوياً كجزء من القوس أبيض قليل الضياء . [القاموس القويم ٢/١٤] .

وفى المقابل انظر إلى أىِّ شىء للإنسان فيه تدخّل : فمثلاً نحن يكيل بعضنا لبعض ، ويزن بعضنا لبعض ، ويقيس بعضنا لبعض ، ويخبز بعضنا لبعض ، ويبيع بعضنا لبعض .. الخ انظر إلى هذه العلاقات تجدها - إلاّ ما رحم الله - فاسدة مضطربة ، ما لم تَسِرْ على منهج الله ، فإنْ سارت على منهج الله استقامتْ كاستقامة السماء والأرض .

إذن : كلما رأيتَ شيئاً فاسداً شيئاً قبيحاً فاعلم أن الإنسان وضع أنفه فيه .

وكأن الخالق - عز وجل - يقول للإنسان : أنت لستَ أميناً حتى على نفسك ، فقد خلقتُ لك كل هذا الكون ، ولم يشذ منه شىء ، ولا اختلَّتْ فيه ظاهرة ، أمّا أنت - لأنك مختار - فقد أخللْتَ بنفسك وأتعبتها .

فاعلم أن المسائل عندى أنا آمَنُ لك ، فإذا أخذتُك من دنيا الأسباب إلى الآخرة وإلى المسبِّب ، فأنا أمين عليك أُنعمك نعيماً لا تعبَ فيه ولا نصبَ ولا شقاء ، وإنْ كنت تخدم نفسك فى الدنيا ، فأنا أخدمك فى الآخرة ، وأُلبِّى لك رغبتك دون أن تُحرِّك أنت ساكناً .

إذن : لو أننى شغلت نفسى بمَنْ يملكنى وهو الله تعالى لاستقام لى ما أملكه .

فهذا الكون وهذا الإيجاد خلقه الله لخدمة الإنسان ، فلماذا ؟ كأن الحق - سبحانه وتعالى - يقول : لأنِّى يكفينى من خلقى أن يشهدوا مختارين أنه : لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ، وإنْ كانت المخلوقات قد شهدتْ هذه الشهادة مضطرة ، فالعظمة أن يشهد المختار الذى يملك أنْ يشهد أو لا يشهد .

كما أننى بعد أنْ أنعمتُ عليك كلَّ هذه النعم أنزلتُ إليك منهجاً بافعل كذا ولا تفعل كذا ، فإنْ أطعتَ أثبتك ، وإنْ عصيت عاقبتك ، وهذه هى الغاية من خَلْق السماء والأرض ، وأنها لم تُخلَق لعباً .

وهذا المنهج تعرفه من الرسل ، والرسل يعرفونه من الكتاب . فلو كذَّبْتَ بالرسل لم تعرف هذه الأحكام ولم تعرف المنهج ، وبالتالى لا نستطيع أنْ نثيب أو نعاقب ، فيكون خَلْقُ السماء والأرض بدون غاية .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا[1] لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٧﴾ ﴾

فلو أردنا اللهو لفعلناه ، فنحن نقدر على كل شىء ، وقوله : ﴿ إِن كُنَّا فَاعِلِينَ .. ﴿١٧﴾ ﴾ [الأنبياء] تدل على أن ذلك لن يحدث .

فمعنى اللهو هو أن تنصرف إلى عمل لا هدف له ولا فائدة منه ، فالإنسان اللاهى يترك الأمر المهم ويذهب إلى الأمر غير المهم ، فاللهو واللعب حركتان من حركات الجوارح ، ولكنها حركات لا مقصد لها إلا الحركة فى ذاتها ، فليس لها هدف كمالى نسعى له فى الحركة ، ولذلك فاللهو واللعب دون هدف يسمى عَبَثاً .

---

(١) اللهو : المرأة بلغة اليمن ، قاله قتادة . وقال عقبة بن أبى جسرة ، وجاء طاوس وعطاء ومجاهد يسألونه عن قوله تعالى : ﴿ لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا .. ﴿١٧﴾ ﴾ [الأنبياء] فقال : اللهو الزوجة ، وقاله الحسن . وقال ابن عباس : اللهو الولد . وقاله الحسن أيضاً . [تفسير القرطبى ٦/٤٤٥٢] .

وهذا يمتنع فى حق الله سبحانه وتعالى :

﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ[(١)] فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

ما دام أنهم فعلوا اللهو واللعب ، وخانوا نِعَم الله فى السماء والأرض فليعلموا أن هذا الحال لن يستمر ، فالحق سبحانه يُملى للباطل ويُوسع له حتى يزحف ويمتد ، حتى إذا أخذه أخذه أخْذ عزيز مقتدر ، وقذف عليه بالحق .

فقوله : ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ .. ﴿١٨﴾ ﴾ [الأنبياء] القذف : الرَّمْى بشدة مثل القذائف المدمرة ﴿ فَيَدْمَغُهُ .. ﴿١٨﴾ ﴾ [الأنبياء] يقال : دمغه أى : أصاب دماغه . والدماغ أشرف أعضاء الإنسان ففيه المخ ، وهو ميزان المرء ، فإنْ كان المخ سليماً أمكن إصلاح أىِّ عطل آخر ، أما إنْ تعطل المخ فلا أملَ فى النجاة بعده .

لذلك جعل الحق ـ سبحانه وتعالى ـ عَظْمة الدماغ أقوى عظام الجسم لتحفظ هذا العضو الهام ، والأطباء لا يحكمون على شخص بالموت ـ مثلاً ـ إذا توقف القلب ؛ لأن القلب يجرى له تدليك معين فيعود إلى عمله كذلك التنفس ، أما إنْ توقف المخ فقد مات صاحبه ، فهو الخلية الأولى والتى تحتفظ بآخر مظاهر الحياة فى الجسم ؛ لذلك يقولون : موت إكلينيكى .

وللمخ يصل خلاصة الغذاء ، وهو المخدوم الأعلى بين الأعضاء ،

---

(١) دمغ الحق الباطل : أبطله ومحقه وأزاله . [القاموس القويم ١/٢٣٣] .

فالجسم يأخذ من الغذاء ما يكفى طاقته الاحتراقية فى العمل ، وما زاد على طاقته يُختزَن على شكل دهون يتغذّى عليها الجسم ، حين لا يوجد الطعام ، فإذا ما انتهى الدُّهْن تغذَّى على اللحم ، ثم على العَظْم ليُوفِّر للمخ ما يحتاجه ، فهو السيد فى الجسم ، ومن بعده تتغذّى باقى الأعضاء .

إذن : كل شىء فى الجسم يخدم المخ ؛ لأنه أعْلَى الأعضاء ، أما النبات مثلاً فيخدم أسفله ، فإذا جَفَّ الماء فى التربة ولم يجد النباتُ الغذاءَ الكافى يتغذى على أعلاه فيذبل أولاً ، ثم تتساقط الأوراق ، ثم تجفّ الفروع الصغيرة ، ثم الجذع ، ثم الجذر .

ومن ذلك قول سيدنا زكريا عليه السلام : ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا .. (٤)﴾ [مريم] فالعَظْم آخر مخزن للغذاء فى الجسم ، فَوهَنُ العظم دليل على أن المسألة أوشكتْ على النهاية .

إذن : فقوله تعالى : ﴿فَيَدْمَغُهُ .. (١٨)﴾ [الأنبياء] أى : يصيبه فى أهم الأعضاء وسيدها والمتحكم فيها ، لا فى عضو آخر يمكن أنْ يُجبر ؛ لذلك يقول بعدها : ﴿فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ .. (١٨)﴾ [الأنبياء] زاهق : يعنى خارج بعنف .

وقوله تعالى : ﴿وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ (١٨)﴾ [الأنبياء] يعنى : أيها الإنسان المغتَرّ بلججه وعناده فى الباطل ، ووقف بعقله وقلبه ليصادم الحق ، سنقذف بالحق على باطلك ، فنصيب دماغه فيزهق ، ساعتها ستقول : يا ويلتى كما سبق أنْ قالوا : ﴿يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (١٤)﴾ [الأنبياء] حينما يباشرون العذاب .

ومعنى : ﴿تَصِفُونَ (١٨)﴾ [الأنبياء] تكذبون كذباً افترائياً ، كما لو رأيتَ شخصاً جميلاً ، فتقول : وجهه يَصِفُ الجمال ، يعنى : إنْ كنت

تريد وَصْفاً للجمال ، فانظر إلى وجهه يعطيك صورة للجمال . كما جاء في قوله تعالى : ﴿ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ .. (٦٢) ﴾ [النحل] يعنى : إنْ أردتَ أنْ تعرف الكذب بعينه ، فاسمع كلامهم وما قالتْه ألسنتهم .

كما يقولون : حديث خرافة[١] ، وأصل هذه المقولة رجل اسمه خرافة ، كان يقول : أنا عندى سهم إنْ أطلقتُه على الظَّبى يسير وراءه ، فإن التفت يميناً سار وراءه ، فإنْ ذهب شمالاً ذهب وراءه ، فإنْ صعد الجبل صعد وراءه ، فإنْ نزل نزل وراءه . وكأن سهمه صاروخ مُوجَّه كالذى نراه اليوم !! فسار كلامه مثالاً يُضرب للكذب[٢] .

لذلك قال الشاعر :

* حَدِيثُ خُرَافَةَ يا أُمَّ عَمْرو *

فإنْ أردتَ تعريفاً للكذب فأنا لا أُعرِّفه لك بأنه قولٌ لا يوافق الواقع ، إنما اسمع إلى كلامهم ، فهو أصدق وَصْف للكذب ؛ لأنه كذب مكشوف مفضوح .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ (١٠٠) ﴾ [الأنعام] أى : يكذبون ويفترون على الله .

وقد يقول قائل : لماذا يُملِى الله للباطل حتى يتمرَّد ويعلو ، ثم يعلو عليه الحق فيدمغه ؟

---

(١) الخرافة : الحديث المستملح من الكذب . ذكر ابن الكلبى : أن خرافة من بنى عذرة أو من جهينة اختطفته الجن ، ثم رجع إلى قومه فكان يحدث بأحاديث مما رأى يعجب منها الناس ، فكذّبوه ، فجرى على ألسن الناس » . [لسان العرب ـ مادة : خرف] .

(٢) أخرج أحمد فى مسنده (١٥٧/٦) عن عائشة قالت : حدث رسول الله ﷺ نساءه ذات ليلة حديثاً فقالت امرأة منهن : يا رسول الله كأن الحديث حديث خرافة فقال : أتدرون ما خرافة ؟ إن خرافة كان رجلاً من عذرة ، أسرته الجن فى الجاهلية ، فمكث فيهن دهراً طويلاً ثم ردوه إلى الإنس ، فكان يحدث الناس بما رأى فيهم من الأعاجيب فقال الناس : حديث خرافة » .

نقول : الحكمة من هذا أنْ تتم الابتلاءات ، والناس لا نتعشق الحق إلا إذا رأتْ بشاعة الباطل ، ولا تعرف منزلة العدل إلا حين ترى بشاعة الظلم ، وبضدها تتميز الأشياء ، كما قال الشاعر :

فَالوجْهُ مِثْلُ الصُّبْح مُبيضٌ وَالشَّعْر مِثْلُ الليْلِ مُسْودُ
ضِدَّان لَمَّا اسْتجْمعَا حَسُنَا والضِّدُّ يُظهِرُ حُسْنَه الضِّدُ

إذن : لا نعرف جمال الحق إلا بقُبْح الباطل ، ولا حلاوة الإيمان إلا بمرارة الكفر .

﴿ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ[1] لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ ﴾

سبق أن أخبر الحق سبحانه أنه خلق السماء والأرض وما بينهما ، وهذا ظَرْف ، فما المظروف فيه ؟ المظروف فيه هم الخَلْق ، وهم أيضاً لله ﴿ وَلَهُ مَن فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. ﴿١٩﴾ ﴾ [الأنبياء] وإنْ كان من الخَلْق مَنْ ميَّزه الله بالاختيار يؤمن أو يكفر ، يطيع أو يعصى ، فإنْ كان مختاراً فى أمور التكليف فهو مقهور فى الأمور الكونية لا دَخْلَ له فيها .

فليس للإنسان تحكم فى ميلاده أو وفاته ، ولا تحكم له فى صحته وعافيته أو مرضه أو ذكائه أو طوله أو قصره ، إذن : فهو ملْك لله ، مقهور له ، إلا أنه سبحانه ترك له زاوية اختيار تكليفية .

أما السماء والأرض فهى مُسخَّرة مقهورة : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا .. ﴿٧٢﴾ ﴾ [الأحزاب]

---

(١) قوله ﴿ وَمَنْ عِندَهُ .. ﴿١٩﴾ ﴾ [الأنبياء] يعنى : الملائكة الذين ذكرتم أنهم بنات الله . [تفسير القرطبى ٦/٤٤٥٣] .

فاختارت التسخير على الاختيار الذى لا طاقة لها به .

أما الإنسان فقد دعاه عقله إلى حملها وفضَّل الاختيار ، ورأى أنه سيُوجِّه هذه الأمانة التوجيه السليم ﴿وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً (٧٢)﴾ [الأحزاب]

فوصفه رَبُّه بأنه كان فى هذا العمل ظلوماً جهولاً ؛ لأنه لا يدرى عاقبة هذا التحمل . فإنْ قلتَ : فما ميزة طاعة السموات والأرض وهى مضطرة ؟ نقول : هى مضطرة باختيارها ، فقد خيَّرها الله فاختارت الاضطرار .

وقوله : ﴿وَمَنْ عِندَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ .. (١٩)﴾ [الأنبياء] أى : ليسوا أمثالكم يكذبون ويكفرون ، بل هم فى عبادة دائمة لا تنقطع ، والمراد هنا الملائكة ؛ لأنهم ﴿لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٦)﴾ [التحريم]

﴿وَلا يَسْتَحْسِرُونَ (١٩)﴾ [الأنبياء] من حسر : يعنى ضَعُفَ وكَلّ وتعب وأصابه الملل والإعياء .

ومنه قوله تعالى : ﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ (٤)﴾ [الملك] أى : كليل ضعيف ، لا يَقْوى على مواجهة الضوء الشديد كما لو واجهت بعينيك ضوءَ الشمس أو ضوء سيارة مباشر ، فإنه يمنعك من الرؤية ؛ لأن الضوء الأصل فيه أن نرى به ما لا نراه .

وفى آية أخرى يقول تعالى : ﴿لَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ..(١٧٢)﴾ [النساء] لأن عِزَّهم فى هذه المسألة .

﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ (١) ﴿٢٠﴾﴾

فهؤلاء الملائكة يعبدون الله ويسبحونه ، لا يصيبهم ضَعْف ، ولا يصيبهم فُتُور ، ولا يشعرون بالملل من العبادة والتنزيه له سبحانه ؛ فالملائكة لا تتكبر عن عبادته والخضوع له .

والحق سبحانه يقول : ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ (٢٠٦)﴾ [الأعراف]

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾﴾

أى : فما لهم أعرضوا عن كل هذه الحقائق ؟ ألهم آلهة غيرى وأنا خالق السماء والأرض ، وهى لى بمَنْ فيها من الإنس والجن والملائكة ؟ فالجميع عَبْد لى يُسبِّح بحمدى ، فما الذى أعجبهم فى غيرى فأعرضوا عنى ، وانصرفوا إليه ؟ أهو أحسن منى ، أو أقرب إليهم منى ؟

كأن الحق ـ تبارك وتعالى ـ يستنكر انصرافهم عن الإله الحق الذى له كل هذا الملك ، وله كل هذه الأيادى والنِّعَم .

وقوله تعالى : ﴿هُمْ يُنشِرُونَ (٢١)﴾ [الأنبياء] أى : لهم قدرة على إحياء الموتى وبَعْثهم . وشىء من هذا كله لم يحدث ؛ لأنه :

﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾﴾

---

(١) لا يفترون : لا ينقطعون عن التسبيح . والفترة : الانكسار والضعف . وفتر الشىء : سكن بعد حدة ولان بعد شدة . [لسان العرب ـ مادة : فتر] .

فمَع انصرافكم عن الإله الحق الذى له مُلْك السماء والأرض ، وله تُسبِّح جميع المخلوقات ، لا يوجد إله آخر ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا .. (٢٢)﴾ [الأنبياء] أى : ما زال الكلام مرتبطاً بالسماء والأرض ﴿لَفَسَدَتَا .. (٢٢)﴾ [الأنبياء] السماء والأرض ، وهما ظرفان لكلِّ شىء من خَلْق الله .

ومعنى ﴿إِلاَّ اللَّهُ .. (٢٢)﴾ [الأنبياء] إلا : أداة استثناء تُخرِج ما بعدها عن حكم ما قبلها كما لو قلتَ : جاء القوم إلا محمد ، فقد أخرجتَ محمداً عن حكم القوم وهو المجىء ، فلو أخذنا الآية على هذا المعنى : ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا .. (٢٢)﴾ [الأنبياء] يعنى : لو كان هناك آلهة ، الله خارج عنها لفسدت السماوات والأرض .

إذن : ما الحال لو قلنا : لو كان هناك آلهة والله معهم ؟ معنى ذلك أنها لا تفسد . فإلا إنْ حققت وجود الله ، فلم تمنع الشَّركة مع الله ، وليس هذا مقصود الآية ، فالآية تقرر أنه لا إله غيره .

إذن : (إلا) هنا ليست أداةَ استثناء . إنما هى اسم بمعنى (غير) كما جاء فى قوله تعالى : ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ .. (٣٦)﴾ [هود]

فالمعنى : لو كان فيهما آلهة موصوفة بأنها غير الله لَفسدتَا ، فامتنع أن يكون هناك شريك .

وهناك آية أخرى : ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لاَّبْتَغَوْا إِلَى ذِى الْعَرْشِ سَبِيلاً (٤٢)﴾ [الإسراء]

الحق ـ سبحانه وتعالى ـ يعطينا القسمة العقلية فى القرآن : فلنفرض جدلاً أن هناك آلهة أخرى ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا

يَقُولُونَ إِذًا.. (٤٢) ﴾ [الإسراء] أى : لو حدث هذا ﴿ لَّابْتَغَوْا إِلَى ذِى الْعَرْشِ سَبِيلاً (٤٢) ﴾ [الإسراء]

السبيل : الطريق ، أى طلبوا طريقاً إلى ذى العرش أى : إلى الله ، لماذا ؟ إما ليجادلوه ويصاولوه ، كيف أنه أخذ الألوهية من خلف ظهورهم ، وإمّا ليتقربوا إليه ويأخذوا ألوهية من باطنه ، وقوة فى ظل قوته ، كما أعطى الله تعالى قوة فاعلة للنار مثلاً من باطن قوته تعالى ، فالنار لا تعمل من نفسها ، ولكن الفاعل الحقيقى هو الذى خلق النار ، بدليل أنه لو أراد سبحانه لَسلَبها هذه القدرة ، كما جاء فى قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰٓ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) ﴾ [الأنبياء]

وقوله : ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَـٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ .. (٩١) ﴾ [المؤمنون] وهذه الآية الكريمة وأمثالها تثبت أنه سبحانه موجود وواحد .

أما على اعتبار أن (إلا) استثناء فهى تثبت أنه موجود ، إنما معه شريك ، وليس واحداً . فهى - إذن - اسم بمعنى غير ، ولما كانت مبنية بناء الحروف ظهر إعرابها على ما بعدها (لو كان فيهما آلهة إلا اللهُ) فيكون إعراب (غيرُ) إعرابَ (إلا) الذى ظهر على لفظ الجلالة (اللهُ) .

لكن ، لماذا تفسد السماء والأرض إنْ كان فيهما آلهة غير الله ؟

قالوا : لأنك فى هذه المسألة أمام أمرين : إما أن تكون هذه الآلهة مستويةً فى صفات الكمال ، أو واحد له صفات الكمال والآخر له صفة نقص . فإنْ كان لهم صفات الكمال ، اتفقوا على خَلْق الأشياء أم اختلفوا ؟

إنْ كانوا متفقين على خَلْق شىء ، فهذا تكرار لا مُبرِّر له ، فواحد سيخلق ، والآخر لا عملَ له ، ولا يجتمع مؤثران على أثر واحد .

فإن اختلفوا على الخَلْق : يقول أحدهم : هذه لى . ويقول الآخر : هذه لى ، فقد علا بعضهم على بعض .

أما إنْ كان لأحدهم صفة الكمال ، وللآخر صفة النقص ، فصاحب النقص لا يصحّ أن يكونَ إلهاً . وهكذا الحق - سبحانه وتعالى - يُصرِّف لنا الأمثال ويُوضِّحها ليجلى هذه الحقيقة بالعقل وبالنقل : لا إله إلا الله ، واتخاذ آلهة معه سبحانه أمر باطل .

كذلك يردُّ على الذين يدعون مع الله آلهة أخرى مثل مَنْ قالوا : العزيرُ ابن الله ومَنْ قالوا : المسيح ابن الله . ومَن اتخذوا الملائكة آلهة من دون الله : ﴿أُوْلَـٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ .. (٥٧)﴾ [الإسراء]

إن هؤلاء الذين تدعُونهم مع الله يطلبون إليه الوسيلة ، ويتقرّبون إليه سبحانه ، وينظرون أيّهم أقرب إلى الله من الآخر ، فكيف يكونون آلهة ؟

ثم يقول تعالى : ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ .. (٢٢)﴾ [الأنبياء] أى : تنزيهاً لله عَمَّا قال هؤلاء ﴿عَمَّا يَصِفُونَ (٢٢)﴾ [الأنبياء] أى : يُلحِدون ويكذبون ويفترون .

والعرش : هو السرير الذى يجلس عليه الملك ، وهو علامة الملْك والسيطرة ، كما فى قوله تعالى عن ملكة سبأ على لسان الهدهد : ﴿إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣)﴾ [النمل] فحين يقول سبحانه ﴿رَبِّ الْعَرْشِ .. (٢٢)﴾ [الأنبياء] ينصرف

إلى عرشه تعالى ، الذى لا يعلو عليه ، ولا ينازعه عَرْش آخر .

ثم يقول الحق سبحانه عن ذاته سبحانه :

﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾

فالله تعالى لا يُسأل عما يفعل ؛ لأن السائلَ له مراتب مع المسئول ، والعادة أن يكون المسئول فى مرتبة أدْنى من السائل ؛ لذلك لا أحدَ يسأل الله تعالى عمَّا يفعل ، أمّا هو سبحانه فيسأل الناس .

لذلك قال بعض الظرفاء : الدليل على أن الله لا شريك له ، خَلْقه لفلان ، لأنه لو كان له شريك كان عارضه فى هذه المسألة .

إذن : لا أحدَ أعلى من الله ، حتى يسأله : لِمَ فعلتَ كذا وكذا ؟

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ ۖ هَـٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ ۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

طالما اتخذوا من دون الله آلهة فهاتوا البرهان على صدْقها ، كما أن الله تعالى ـ وهو الإله الحق ـ أتى بالبراهين الدامغة على وجوده ، وعلى قدرته ، وعلى وحدانيته ، وعلى أحديته ، فهاتوا أنتم أيضاً ما لديكم ، أم أنها آلهة لا أدلةَ لها ولا برهانَ عليها ، فلم تنزل كتاباً ، ولا أرسلتْ رسولاً ، ولا جاءت بمنهج .

فأين هم إذن ؟ إذا لم يكونوا على دراية بما يحدث ، فهى آلهة غافلة لا يصح أنْ يحتلوا هذه المنزلة ، وإنْ كانوا على دراية فلمَ لَمْ

يُجابهوا الحقائق ويدافعوا عن أنفسهم ؟ إذن : هم ضعفاء عن هذه المواجهة .

وقوله تعالى : ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ .. (٢٤)﴾ [الأنبياء] أى : هاتوا الدليل على وجود آلهة غير الله ، والبرهان : التدليل بإيجاد الكون على هذا النظام البديع ، فهل سمعتم أن إلهاً آخر قال : أنا الذى أوجدتُ ؟ هل أرسل رسولاً بآية ؟

إذن : هذا كلام كذب وافتراء واختلاق من عند أنفسكم ؛ لأنكم لستم أهلَ علم فى شىء ، ولا يعنى هذا عدمَ وجود العلم ، إنما العلم موجود ، ولكنكم مُعرِضون عن سماعه : ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ (٢٤)﴾ [الأنبياء]

كأن للحق سمات يعلم بها ، فَمَنْ أقبل على معرفة الحق وجده ، أما مَنْ أعرض عن المعرفة ، فمن أين له أنْ يعرفَ ؟ إذن : فالحق موجود ولو التمسوه لوجدوه وعرفوه ، وأمسكوا بالدليل عليه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ (٢٥)﴾

إذن : فقضية التوحيد واضحة منذ بداية الرسالات إلى خاتمها ، الكل جاء بقول لا إله إلا الله قضية مشتركة بين جميع رسالات السماء .

وقوله تعالى : ﴿مِن رَّسُولٍ .. (٢٥)﴾ [الأنبياء] (مِنْ) هنا للشمول والتعميم ، يعنى : كل أفراد الرسل ، كلّ مَنْ يُقَال له رسول . فلو قال لك شخص : ما عندى مال ، لا يمنع هذا القول أن يكون عنده قليل

من المال ، قروش مثلاً لا يُقال لهـا مال ، فإنْ قال لك : ما عندى من مال فقد نفى وجود جنس المـال من بداية ما يقال له مال ، ما عندى حتى مليم واحد .

إذن : مـا جئـتم به من مـسألة الشـرك بالله أو إنكاره عـز وجل مسألة جديدة (موضة) طلعتُم علينا بها .

﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ (١)

قوله : ﴿ سُبْحَانَهُ .. ﴿٢٦﴾ ﴾ [الأنبياء] أى : تنزيهاً له أنْ يكون له ولد ، فقُلْ : إنْ كان له ، فله عباد مكرمون وهم الملائكة .

ومن صفات هؤلاء العباد المكرمين الذين هم الملائكة أنهم :

﴿ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾

ومع أنهم عبـاد مكرمون إنمـا لا يسبقـونه بالقول ، فـلا يقولون مـا لم يقُلْه ولا يتـقدمـون عليـه بقـول حتى إنْ وافق مـراد الله ، ولا يفـعلون ما لم يأمـر به ، وكأن الحق سـبحـانه يعطينا إشارة لبـعض آفات المجتمع ، فمن آفـات المجتمع أن ترى العظماء المكرمين إلا أنهم يصنعون لأنفسهم سلطة زمنية من باطنهم ، فيقولون ما لم يَقُلْه ربهم عز وجل ، ويفعلون ما لم يأمر به ، ويُقدِّمون أوامرهم على أوامره .

وقوله تعالى : ﴿ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الأنبياء] أى : يأتمرون بأمره ، فإنْ أمر فعلوا ، وإنْ نَهَى تركوا .

---

(١) قال القـرطبى فى تفسيره (٦/٤٤٥٧) : « نزلت فـى خزاعة حيث قـالوا : الملائكة بنات الله ، وكانوا يعبدونهم طمعاً فى شفاعتهم لهم » .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ (٢٨) ﴾

الكلام هنا عن العباد المكرمين من الملائكة ، فَمَع أن الله أكرمهم وفضَّلهم ، إلا أنه لم يتركهم دون متابعة ومراقبة ، إنما يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ، ولم تُترك لهم مسألة الشفاعة يُدخلون فيها مَنْ أحبوا إنما ﴿ لا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَىٰ .. (٢٨) ﴾ [الأنبياء]

أى : لمن ارتضاه الله وأحبه ، فإياكم أنْ تفهموا أنكم حين تقولون : الملائكة بنات الله ، أو تعبدونهم من دون الله أنهم يكونون لكم شفعاء عند الله ؛ لأنهم لا يشفعون إلا لمنْ أحبّه الله ، وارتضاه من أهل الإيمان ، فلا تظن أنهم ﴿ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ (٢٦) ﴾ [الأنبياء] أى : مُدلَّلُون يفعلون ما يحلو لهم ، لا ، إنهم مع ذلك ملتزمون بحدودهم لا يتعدونها ، فما أكرمتهم كل هذا الإكرام إلا لأنهم مطيعون ملتزمون .

وهم مع هذه الطاعة ﴿ مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ (٢٨) ﴾ [الأنبياء] فليسوا مع هذا الإكرام مطمئنين آمنين ، بل مشفقون خائفون وجلون من خشية الله .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٢٩) ﴾ (١)

---

(١) قال الضحاك : لم يقل ذلك أحد من الملائكة إلا إبليس ، دعا إلى عبادة نفسه وشرع الكفر . وقال قتادة : إنما كانت هذه خاصة لإبليس . [أوردهما السيوطى فى الدر المنثور ٥/٦٢٥] .

أى : على فَرْض أنْ قال أحدهم هذا القول ، إذن : هذا كلام لم يحدث ، ولا يمكن أنْ يُقال منهم ﴿فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِى الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الأنبياء] لماذا ؟ لأنهم أخذوا الظُّلم فى أعلى مراتبه وعُنفوانه وطغيانه ، ظلم فى مسألة القمة ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان]

لذلك يُهدِّدهم ، مع أنهم ملائكة ومكرمون ، لكن إنْ بدر من أحدهم هذا القول فجزاؤه جهنم ، وفى هذا اطمئنان للخَلْق أجمعين .

● ● ●

بعد ذلك أراد الحق ـ سبحانه وتعالى ـ أنْ يُدلِّل على هذه الوحدانية التى أكَّدها فى كلامه السابق ، والوحدانية فى طَيِّها الأحدية ، لأن هناك فَرْقاً بينهما ، وليسا مترادفين كما يظن البعض ، فواحد وأحد وَصْفان لله عز وجل ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾﴾ [الإخلاص] وقال : ﴿الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿١٦﴾﴾ [الرعد]

فالواحد أى : الفرد الذى لا يُوجد له نظير ، وهذا الواحد فى ذاته أحد أى : ليس له أجزاء ، فالواحدية تمنع أنْ يُوجد فَرْد مثله ، والأحدية تمنع أن يكون فى ذاته مُكوّناً من أجزاء ؛ لأنه سبحانه لو كوّن من أجزاء لصار كل جزء محتاجاً فى وجوده إلى الجزء الآخر ، فلا احتياج له فى وجوده ليكوِّن كله ، إذن : فلا هو كلىّ ، ولا هو جزئى .

فاختار سبحانه للتدليل آيات الكون الموجودة والمشهودة التى لا يمكن أنْ ينكرها أحد ؛ لأنها آيات مُرتّبة واضحة ونافعة فى الوقت نفسه ، فقد يكون المرئى واضحاً لكن لا حاجةَ لك فيه ـ فالإنسان يشعر بمنفعة الشمس لو غابت عنه ، ويشعر بمنفعة المطر إن امتنعت السماء عن المطر .. إلخ .

فمشهودية هذه الآيات تقتضى الالتفات إليها ، والنفعية فيها تقتضى أيضاً الالتفات إليها ، حتى وهى غائبة عنك ، فتنظر وتتطلع إلى عودتها من جديد .

فيقول الحق سبحانه :

﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا(١) فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾﴾

قوله تعالى : ﴿أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا .. ﴿٣٠﴾﴾ [الأنبياء] يعنى : أعميتْ أبصارهم ، فلم ينظروا إلى هذا الكون البديع الصنع المحكم الهندسة والنظام ، فيكفروا بسبب أنهم عَمُوا عن رؤية آيات الله . وهكذا كلما رأيت الهمزة بعد الواو والفعل المنفى .

لكن كيف يقول الحق سبحانه : ﴿أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا .. ﴿٣٠﴾﴾ [الأنبياء] والحديث هنا عن السماء والأرض ، وقد قال تعالى ﴿مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾﴾ [الكهف] ؟

فهذه مسألة لم يشهدها أحد ، ولم يخبرهم أحد بها ، فكيف يرونَها ؟

سبق أن تكلمنا عن الرؤية فى القرآن ، وأن لها

---

(١) رتقاً : أى مرتوقتين أى متصلتين فى كتلة واحدة ، وبهذا يقول علم الفلك الحديث . [القاموس القويم ١/٢٥٤] . وقد أورد القرطبى فى تفسيره [٦/٤٤٥٩] آثاراً للسلف فى هذا ، منها : « قال ابن عباس والحسن وعطاء والضحاك وقتادة : يعنى أنها كانت شيئاً واحداً ملتزقتين ففصل الله بينهما بالهواء » .

استعمالات مختلفة : فتارة تأتى بمعنى : نظر أى : بصرية . وتأتى بمعنى : علم ، ففى قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾﴾ [الفيل]

والنبى ﷺ لم يَرَ هذه الحادثة ولم يشهدها ؛ لأنه وُلد فى نفس عامها ، فالمعنى : ألم تعلم ، فلماذا عَدلَ السياق عن الرؤية البصرية إلى الرؤية العلمية ، مع أن رؤية العين هى آكد الرُّؤى ، حتى أنهم يقولون : ليس مع العَيْن أيْن ؟

قالوا : لأن الله تعالى يريد أن ينبه رسوله ﷺ : أنت صحيح لم ترهَا بعينيك ، لكن ربك أخبرك بها ، وإخبار الله أصدق من رؤية عينيك ، فإذا أخبرك الله بشىء فإخبار الله أصدقُ من رؤية العين ، فالعين يمكن أنْ تخدعك ، أو ترى بها دون أنْ تتأمل . أما إخبار الله لك فصادقٌ لا خداعَ فيه .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾﴾ [مريم]

لكن ، كيف تمَّتْ الرؤية العلمية لهم فى مسألة خَلْق السموات والأرض ؟

قالوا : لأن الإنسانَ حين يرى هذا الكون البديع كان يجب عليه ولو بغريزة الفضول أنْ يتساءلَ : من أين جاء هذا الكون العجيب ؟ والإنسان بطبعه يلتفت إلى الشىء العجيب ، ويسأل عنه ، وهو لا يعنيه ولا ينتفع به ، فما بالُكَ إنْ كان شيئاً نافعاً له ؟

إذن : كان عليهم أن ينظروا : مَنِ الذى نبَّأ رسول الله بهذه المسألة ؟ خاصة وقد كانوا يسألون عنها ، وقد جاءهم رسول الله

بمعجزة تُثبت صدقه فى البلاغ عن الله ، وتُخبرهم بما كانوا يبحثون عنه ، وما دام الكلام من الله فهو صدق : ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً (١٢٢)﴾ [النساء]

وقد نزل القرآن وفى جزيرة العرب كفار عُبَّاد أصنام ، وفيها اليهود وبعض النصارى ، وهما أهل كتاب يؤمنون بإله وبرُسُل وبكتب ، حتى إنهم كانوا يجادلون الكفار الوثنيين يقولون لهم : لقد أطلّ زمان نبى سنتبعه ونقتلكم به قتل عاد وإرم[1] .

ومع ذلك ، لما جاءهم ما عرفوا من الحق كفروا به ، والتحموا بالكفار ، وكوَّنوا معهم جبهة واحدة ، وحزباً واحداً ، ما جمعهم إلا كراهية النبى ، وما جاء به من الدين الحق ، وما أشبهَ هذا بما يفعله الآن كُلٌّ من المعسكر الشرقى والمعسكر الغربى من اتحاد ضد الإسلام .

إذن : بعد أنْ جاء الإسلام أصبح أهلُ الكتاب والكفار ضد الإسلام فى خندق واحد ، وكان الكفار يسمعون من أهل الكتاب ، وفى التوراة كلام عن خَلْق السماء والأرض يقول : إن الله أول ما خلق الخَلْق خلق جوهرة ، ثم نظر إليها نظرَ الهيبة فحصل فيها تفاعل وبخار ودخان ، فالدخان صعد إلى أعلى فكوَّنَ السماء ، والبقية ظلتْ فكوَّنت الأرض .

---

(١) قال محمد بن إسحاق عن عاصم بن عمرو عن قتادة الأنصارى عن أشياخ منهم قال : فينا والله وفيهم يعنى فى الأنصار وفى اليهود الذين كانوا جيرانهم نزلت هذه القصة يعنى ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ .. (٨٩)﴾ [البقرة] قالوا : كنا قد علوناهم قهراً دهراً فى الجاهلية ونحن أهل شرك وهم أهل كتاب وهم يقولون : إن نبياً سيبعث الآن نتبعه قد أظل زمانه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم ، فلما بعث الله رسوله من قريش واتبعناه كفروا به » . أورده ابن كثير فى تفسيره (١/١٢٤) .

وهكذا كان لديهم طرف من العلم عن مسألة الخَلْق ؛ لذلك قال الله عنهم : ﴿أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا .. (٣٠)﴾ [الأنبياء]

وقد كان للمستشرقين كلام حول قوله تعالى : ﴿كَانَتَا رَتْقًا .. (٣٠)﴾ [الأنبياء] قالوا : السموات جمع ، والأرض كذلك جنس لها جمع ، فالقاعدة تقتضى أنْ نقول : كُنَّ رتقاً بضمير الجمع . وصاحب هذا الاعتراض لم يَدْرِ أن الله سبحانه وتعالى نظر إلى السماء كنوع والأرض كنوع ، فالمراد هنا السماوية والأرضية وهما مُثنَّى .

وفى القرآن نظائر كثيرة لهذه المسألة ؛ لأن القرآن جاء بالأسلوب العربى المبنىّ على الفطْنة والذكاء ومُرونة الفهم . فخُذْ مثلاً قوله تعالى : ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا .. (٩)﴾ [الحجرات]

فلم يقُلْ حسْب الظاهر : اقتتلتَا ؛ لأن الطائفة وإنْ كانت مفرداً إلا أنها تحوى جماعة ، والقتال لا يكون بين طائفة وطائفة ، إنما بين أفراد هذه وأفراد هذه ، فالقتال ملحوظ فيه الجمع ﴿واقْتَتَلُوا.. (٩)﴾ [الحجرات] فإذا ما جئْنا للصُّلْح نرى أن الصُّلْح لا يتم بين هؤلاء الأفراد ، وإنما بين ممثل عن كل طائفة ، فالصُّلْح قائم بين طرفين ؛ لذلك يعود السياق للتثنية .

﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ ..(٩)﴾ [الحجرات]

والرَّتْق : الشىء الملتحم الملتصق ، ومعنى ﴿فَفَتَقْنَاهُمَا .. (٣٠)﴾ [الأنبياء] أى : فَصلْناهما وأزحْنَا هذا الالتحام ، وما ذُكر فى التوراة من أن الله تعالى خلق جوهرة ، ثم نظر إليها فى هَيْبة ، فحصل لها كذا

وكذا فى القرآن له ما يؤيده فى قوله تعالى : ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا .. ﴿١١﴾﴾ [فصلت]

والعلماء ساعةَ يستقبلون الآية الكونية لهم فيها مذاهب اجتهادية مختلفة ؛ لأنها تتعرَّض لحقيقة الكون ، وهذا أمر قابل للخلاف ، فكلٌّ واحد منهم يأخذ منه على قَدْر ثقافته وعِلْمه .

فالعربى القديم لم يكُنْ يعرف كثيراً عن الظواهر الكونية ، لا يعرف الجاذبية ، ولا يعرف كُروية الأرض ولا حركتها ، فلو أن القرآن تعرَّض لمثل هذه الأمور التى لا يتسع لها مداركه وثقافته فلربما صرفه هذا الكلام الذى لا يفهمه ، ولك أنْ تتصوَّر لو قلتَ له مثلاً : إن الأرض كرة تدور بنا بما عليها من بحار وجبال الخ .

والقرآن بالدرجة الأولى كتاب منهج « افعل كذا » و « لا تفعل كذا » لذلك كلُّ ما يتعلق بهذا المنهج جاء واضحاً لا غموض فيه ، أمَّا الأمور الكونية التى تخضع لثقافات البشر وارتقاءاتهم الحضارية فقد جاءت مُجْملةً تنتظر العقول المفكرة التى تكشف عن هذه الظواهر واحدةً بعد الأخرى ، وكأن الحق ـ تبارك وتعالى ـ يعطينا مجرد إشارة ، وعلى العقول المتأمّلة أنْ تُكمِلَ هذه المنظومة .

وقد كان لعلماء الإسلام موقفان فى هذه المسألة ، كلاهما ينطلق من الحب لدين الله ، والغرام بكتابه ، والرغبة الصادقة فى إثبات صدْق ما جاء به القرآن من آيات كونية جاء العلم الحديث ليقول بها الآن ، وقد نزل بها القرآن منذ أكثر من أربعةَ عشر قرناً من الزمان .

الموقف الأول : وكان أصحابه مُولعين بأنْ يجدوا لكل اكتشاف جديد شاهداً من القرآن ليقولوا : إن القرآن سبق إليه وأن محمداً ﷺ صادق فى بلاغه عن الله .

الموقف الثانى : أما أصحاب الموقف الآخر فكانوا يتهيَّبون من هذه المسألة خشية أن يقولوا بنظرية لم تثبت بَعْد ، ويلتمسون لها شاهداً من كتاب الله ، ثم يثبُت بطلانها بعد أنْ ربطوها بالقرآن .

والموقف الحق أن هناك فرقاً بين نظرية علمية ، وحقيقة علمية ، فالنظرية مسألة محلّ بحث ومحلّ دراسة لم تثبت بَعْد ؛ لذلك يقولون : هذا كلام نظرى أى : يحتاج إلى ما يؤيده من الواقع ، أمّا الحقيقة العلمية فمسألة وقعتْ تحت التجربة ، وثبت صدقها عملياً ووثقنا أنها لا تتغير .

فعلينا ـ إذن ـ ألاَّ نربط القرآن بالنظرية التى تحتمل الصدق أو الكذب ، حتى لا يتذبذب الناس فى فَهْم القرآن ، ويتهمونا أننا نُفسِّر القرآن حَسْب أهوائنا . أمّا الحقيقة العلمية الثابتة فإذا جاءت بحيث لا تُدفَع فلا مانعَ من ربطها بالقرآن .

من ذلك مُسألة كروية الأرض ، فعندما قال بها العلماء اعترض كثيرون وأثاروها ضجة وألَّفوا فيها كتباً ، ومنهم مَنْ حكم بكفر مَنْ يقول بذلك ؛ لأن هذه المسألة لم ينص عليها القرآن . فلما تقدم العلم ، وتوفرتْ له الأدلة الكافية لإثبات هذه النظرية ، فوجدوا الكواكب الأخرى مُدوَّرة كالشمس والقمر ، فلماذا لا تكون الأرض كذلك ؟!

كذلك إذا وقفتَ مثلاً على شاطىء البحر ، ونظرتَ إلى مركب قادم من بعيد لا ترى منها إلا طرفَ شراعها ، ولا ترى باقى المركب إلا إذا اقتربتْ منك ، عَلاَم يدلُّ ذلك ؟ هذا يدل على أن سطح الأرض ليس مستوياً ، إنما فيه تقوُّس وانحناء يدل على كُرويتها .

فلما جاء عصر الفضاء ، وصعد العلماء للفضاء الخارجى ، وجاءوا للأرض بصور ، فإذا بها كُروية فعلاً ، وهكذا تحولتْ النظرية

إلى حقيقة علمية لا تُدفع ، ولا جدال حولها ، ومَنْ خالفها حينما كانت نظرية لا يسعه الآن إلاّ قبولها والقول بها .

وما قلناه عن كُروية الأرض نقوله عن دورانها ، ومَنْ كان يصدق قديماً أن الأرض هى التى تدور حول الشمس بما عليها من مياه ومَبانٍ وغيره ؟ ولك أن تأخذَ كوزاً ممتلئاً بالماء ، واربطه بخيط من أعلى ، ثم أَدِرْه بسرعة من أسفل إلى أعلى ، تلاحظ أن فوهة الكوز إلى أسفل دون أنْ ينسكب الماء ، لماذا ؟ لأن سرعة الدوران تفوق جاذبية الأرض التى تجذب الماء إليها ، بدليل أنك إذا تهاونتَ فى دوران الكوز يقع الماء من فُوهته ، ولا بُد من وجود تأثير للجاذبية ، فجاذبية الأرض هى التى تحتفظ بالماء عليها أثناء دورانها .

أما أن نلتقط نظرية وليدة فى طَوْر البحث والدراسة ، ثم نفرح بربطها بالقرآن كما حدث أوائل العصر الحديث والنهضة العلمية ، حين اكتشف العلماءُ المجموعةَ الشمسية ، وكانت فى بدايتها سبعة كواكب فقط مُرتّبة حسب قُرْبها من الشمس فى المركز : عطارد ، فالزهرة ، فالأرض ، فالمريخ ، فالمشترى ، فزُحَل ، فأورانوس .

وهنا أسرع بعض علمائنا الكبار ـ منهم الشيخ المراغى ـ بالقول بأنها السموات السبع ، وكتبوا فى ذلك بحوثاً ، وفى القرآن الذى سبق إلى هذا . ومرَّتْ الأيام ، واكتشف العلماء الكوكب الثامن (نبتون) ، ثم التاسع[1] .

إذن : رَبْط النظرية التى لم تتأكد بَعْد علمياً بالقرآن خطأ كبير ، ومن الممكن إذا توفَّر لهم أجهزةٌ أحدث ومجاهر أكبر ـ كما يقول بعض علماء الفضاء ـ لاكتشفوا كواكب أخرى كثيرة ، لأن مجموعتنا الشمسية هذه واحدة من مائة مليون مجموعة فى المجرة التى نسميها

---

(١) لم يتم اكتشاف كوكب (بلوتو) إلا فى عام ١٩٣٠ م . [موسوعة المعرفة ـ ص ٣٧] .

(سكة التبَّانة) ، والإغريق يسمونها (الطريق اللبنى)[١] .

وهذه الكواكب التى نراها كبيرة وعظيمة ، لدرجة تفوق تصورات الناس ، فالشمس التى نراها هذه أكبر من الأرض بمليون وربع مليون مرة[٢] ، وهناك من الكواكب ما يمكنه ابتلاع مليون شمس فى جوفه . والمسافة بيننا وبين الشمس ثمانى دقائق ضوئية ، وتُحسب الدقيقة الضوئية بأن تُضرب فى ستين ثانية ، الثانية الواحدة السرعة فيها ١٨٦ ألف ميل يعنى : ثلاثمائة ألف كيلومتر[٣] .

أما المسافة بين الأرض والمرأة المسلسلة فقد حسبوها بالسنين الضوئية لا الدقائق ، فوجدوها مائة سنة ضوئية ، أما الشِّعْرى الذى امتنَّ الله به فى قوله ﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾﴾ [النجم] فهو أبعد من ذلك . وهذه الكواكب والأفلاك كلها فى السماء الدنيا فقط ، فما دَخْل هذا بالسموات السبع التى تحدثوا عنها ؟!

لذلك حاول كثيرون من عُشَّاق هؤلاء العلماء أن يمحوا هذه المسألة من كتبهم ، حتى لا تكون سُبَّة فى حقِّهم وزلّة فى طريقهم العلمى .

كذلك من النظريات التى قالوا بها وجانبتْ الصواب قولهم : إن المجموعة الشمسية ومنها الأرض تكوَّنت نتيجة دوران الشمس وهى كتلة ملتهبة ، فانفصل عنها بعض (طراطيش) ، وخرج منها بعض الأجزاء التى بردتْ بمرور الوقت ، ومنها تكونت الأرض ، ولما بردتْ

---

(١) أول من وصف حزمة الضوء العريضة التى تعرف باسم الطريق اللبنى هو ديموكريتس والذى ذهب إلى أن الطريق اللبنى إنما يتكون من عدد وفير من النجوم بحيث لا يمكن لأحد أن يميز بينها ، ولقد أثبتت المناظير الفلكية الحديثة صحة ما ذهب إليه . [موسوعة المعرفة ص ٥] .

(٢) جاء فى « موسوعة المعرفة » (ص ٢٢) : « لو كانت الشمس كرة مفرغة لأمكنها أن تستوعب ١,٣٠٠,٠٠ كرة ، كل واحدة منها فى مثل حجم الأرض ، من قبل أن تمتلىء » .

(٣) أى : أن الشمس تبعد عن الأرض بحوالى ٩٤ مليون ميل ، ويصلنا ضوؤها الذى ينطلق بسرعة ١٨٦ ألف ميل فى الثانية فى أكثر من ثمانى دقائق بقليل . [موسوعة المعرفة ص ٣٦] .

الأرض أصبحتْ صالحة لحياة النبات ، ثم الحيوان ، ثم الإنسان ، بدليل أن باطن الأرض ما يزال ملتهباً حتى الآن . وتتفجر منه براكين كبركان (فيزوف)[1] مثلاً .

والقياس العقلى يقتضى أن نقول : إذا كانت الأرض قطعة من الشمس وانفصلت عنها ، فمن الطبيعى أن تبرد مع مرور الزمن وتقلّ حرارتها حتى تنتهى بالاستطراق الحرارى ، إذن : فهذه نظرية غير سليمة ، وقولكم بها يقتضى أنكم عرفتم شيئاً عن خَلْق السموات والأرض ما أخبر الله به ، وقد قال تعالى : ﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. (٥١) ﴾ [الكهف]

ثم يقول فى آية جامعة ﴿ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا (٥١) ﴾ [الكهف]

والمضلّ هو الذى يأخذ بيدك عن الحقيقة إلى الباطل ، وكأن الحق سبحانه يعطينا إشارة إلى ما سيكون من أقوال مُضلِّلة فى هذه المسألة تقول : حدث فى الخلق كيت وكيت .

والواجب علينا أن نأخذ هذه التفاصيل من الخالق ـ عز وجل ـ وأن نقف عند هذا الحد ، لأن معرفتك بكيفية الشىء ليست شرطاً لانتفاعك به ، فأنت تنتفع بمخلوقات الله وإن لم تفهم كيف خُلِقَتْ ؟ وكيف كانت ؟ انتفعنا بكروية الأرض وبالشمس وبالقمر دون أن نعرف شيئاً عنها ، ووضع العلماء حسابات للكسوف وللخسوف والأوقات قبل أن تكتشف كروية الأرض .

فالرجل الأميّ الذى لا يعلم شيئاً يشترى مثلاً « التليفزيون » ويتعلم كيفية تشغيله والانتفاع به ، دون أنْ يعلم شيئاً عن تكوينه أو كيفية عمله ونَقْله للصورة وللصوت .. الخ . فخُذْ ما فى الكون من

(١) يقع بركان « ڤيزوف » على بعد ١١ كم من مدينة نابولى بإيطاليا ، وهو عبارة عن بركان داخل بركان ، لأنه يقع فى فوهة حوض البركان الخامد المسمى مونت زوما . [موسوعة المعرفة – صفحة ١٠١٢] .

جمال وانتفع به كما خلقه الله لك دون أن تخوض فى أصل خَلْقه وكيفية تكوينه ، كما لو قُدِّم لك طعام شهىّ أتبحثُ قبل أن تأكل : كيف طُهِى هذا الطعام ؟!

وقد تباينتْ آراء العلماء حول هذه الآية ومعنى الرَّتْق والفَتْق ، فمنهم مَنْ قال بالرأى الذى قالتْه التوراة ، وأنها كانت جوهرة نظر الله إليها نظرة المهابة ، وحدث لها كذا وكذا ، وتكوَّنت السماء والأرض .

ومنهم مَنْ رأى أن المعنى خاصٌّ بكل من الأرض والسماء ، كل على حدَة ، وأنهما لم يكونا أبداً ملتحمتين ، واعتمدوا على بعض الآيات مثل قوله تعالى : ﴿فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ (٢٤) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (٢٨)﴾ [عبس]

وفى موضع آخر قال : ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ (١١) وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (١٢)﴾ [القمر]

فالمراد ـ إذن ـ أن الأرض وحدها كانت رَتْقاً ، فتفجرت بالنبات ، وأن السماء كانت رتْقاً فتفجرت بالمطر[1] ، فشقَّ الله السماء بالمطر ، وشَقّ الأرض بالنبات الذى يصدعها : ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ (١١) وَالأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ (١٢)﴾ [الطارق]

وقال عن السماء : ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ .. (٢٥)﴾ [الفرقان]

---

(١) قاله عكرمة وعطية وابن زيد وابن عباس أيضاً فيما ذكر المهدوى : إن السماوات كانت رتقاً لا تمطر ، والأرض كانت رتقاً لا تنبت ، ففتق السماء بالمطر ، والأرض بالنبات [تفسير القرطبى ٦/٤٤٦٠]

على اعتبار أن السماء كُلٌّ ما علاك فأظلّك ، فيكون السحاب من السماء .

نفهم من هذا الرأى أن الفَتْق ليس فَتْقَ السماء عن الأرض ، إنما فتق كل منهما على حدَة ، وعلى كل حال هو فَهْم لا يُعطى حكماً جديداً ، واجتهاد على قَدْر عطاء العقول قد تُثبته الأيام ، وقد تأتى بشىء آخر ، المهم أن القولَيْن لا يمنع أحدُهما الآخر .

وقوله تعالى ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ .. (٣٠)﴾ [الأنبياء] قال أصحاب التأويل الثانى : ما دام ذكر هنا الماء ، فلا بُدَّ أن له صلة بالرَّتْق والفَتْق فى كل من الأرض والسماء .

ونلحظ أن الآية لم تَقُلْ : كل شىء حيًّا ، إنما ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ .. (٣٠)﴾ [الأنبياء] وقد استدلوا بها على أن الحىَّ المراد به الحياة الإنسانية التى نحياها ، ولم يفطنوا إلى أن الماء داخلٌ فى تكوين كل شىء ، فالحيوان والنبات يحيا على الماء فإنْ فَقَد الماء مات وانتهى ، وكذلك الأدنى من الحيوان والنبات فيه مائية أيضاً ، فكُلُّ ما فيه لمعة أو طراوة أو ليونة فيه ماء .

فالمعنى ﴿كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ .. (٣٠)﴾ [الأنبياء] أى : كل شىء مذكور موجود .

والتحقيق العلمى أن لكل شىء حياةً تناسبه ، وكل شىء فيه ماء ، بدليل قوله تعالى : ﴿يَـأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ .. (٢٤)﴾ [الأنفال]

والحق سبحانه يخاطبهم وهم أحياء ، إذن : يحييكم أى : حياة أخرى لها قيمة ؛ لأن حياتكم هذه قصاراها الدنيا ، إنما استجيبوا لحياة أخرى خالدة هى حياة الآخرة .

وسُمِّى الشيء الذى يتصل بالمادة ، فتدبّ فيها الحياة روحاً ، فقال : ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي .. (٢٩)﴾ [الحجر]

وسُمِّى المنهج الذى ينزل من السماء لهداية الأرض روحاً ، وسُمّى الملَك الذى ينزل به روحاً ؛ لأنه يعطينا حياة دائمة باقية ، لا فناء لها ، وهكذا يتم الارتقاء بالحياة .

فإذا نزلنا أدنى من ذلك وجدنا للحيوان حياة ، وللنبات حياة ، فالحيوان يَنْفَق ويموت ، والنبات إنْ منعتَه الماء جَفَّ وذَبُل وانتهى . أما الجماد فله حياة أيضاً ، بدليل قوله تعالى : ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ .. (٨٨)﴾ [القصص]

فوَصَف كل ما يقال له شيء بأنه هالك ، والهلاك ضد الحياة ، فلا بُدَّ أن تكون له حياة ، ألم تقرأ قوله تعالى : ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ .. (٤٢)﴾[الأنفال] فالحياة ضدُّها الهلاك .

إذن : فكل شيء فى المخلوقات حتى الجماد له حياة ، وفى تكوينه مائية ، كما قال سبحانه : ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ .. (٣٠)﴾ [الأنبياء]

ويختتم سبحانه هذه الآية بقوله : ﴿أَفَلا يُؤْمِنُونَ (٣٠)﴾ [الأنبياء] يعنى : أعَمُوا عن هذه الآيات التى نُبِّهوا إليها ، وامتنعوا عن الإيمان ؟ فكان يجب عليهم أنْ يلتفتوا إلى هذه الآيات العجيبة والنافعة لهم ، كيف والبشر الآن يقفون أمام مخترع أو آلة حديثة أو حتى لُعبة تبهرهم فيقولون : مَنْ فعل هذه ؟ ويُؤرِّخون له ولحياته ، وتخرَّج فى كلية كذا ... الخ .

فمن الأَوْلى أنْ نلتفتَ إلى الخالق العظيم الذى أبدع لنا هذا الكون ، فالانصراف ـ إذن ـ عن آيات الله والإعراض عنها حالة غير طبيعية لا تليق بأصحاب العقول .

يقول الحق سبحانه :

﴿ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣١) ﴾ (١)

الرواسى : الجبال جمع رَاسٍ يعنى : ثابت ، وقد عبر عنها أيضاً بالأوتاد ، فقال : ﴿ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا (٧) ﴾ [النبأ] شبّه الجبال بالنسبة للأرض بالأوتاد بالنسبة للخيمة .

ثم يذكر علَّة ذلك : ﴿ أَن تَمِيدَ بِهِمْ .. (٣١) ﴾ [الأنبياء] أى : مخافة أن تميل وتضطرب وتتحرك بهم ، ولو أنها مخلوقة على هيئة الثبوت ما كانت لتميد أو تتحرك ، وما احتاجت لأنْ يُثبِّتها بالجبال ؛ لذلك قال تعالى : ﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ .. (٨٨) ﴾[النمل]

فليس غريباً الآن أن نعرف أن للجبال حركة ، وإنْ كنا لا نراها ؛ لأنها ثابتة بالنسبة لموقعك منها ؛ لأنك تسير بنفس حركة سيرها ، كما لو أنك وصاحبك فى مركب ، والمركب تسير بكما ، فأنت لا تدرك حركة صاحبك لأنك تتحرك بنفس حركته .

وقد شبَّه الله حركة الجبال بمرِّ السحاب ، فالسحاب لا يمرُّ بحركة ذاتية فيه ، إنما يمرُّ بدفْع الرياح ، كذلك الجبال لا تمرُّ بحركة ذاتية إنما بحركة الأرض كلها ، وهذا دليل واضح على حركة الأرض .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا .. (٣١) ﴾ [الأنبياء] أى : من حكمة الله أنْ جعل لنا فى الأرض سُبُلاً نسير فيها ، فلو أن الجبال كانت كتلة تملأ وجه الأرض ما صلُحَتْ لحياة البشر وحركتهم

---

(١) الفج : الطريق الواضح الواسع ، وجمعه فجاج . [القاموس القويم ٢/٧٢] . والفجاج : المسالك ، والفج : الطريق الواسع بين الجبلين . [تفسير القرطبى ٦/٤٤٦٢] .

فيهـا ، فقال ﴿فِجَاجًا سُبُلاً .. ﴿٣١﴾﴾ [الأنبياء] أى : طرقاً واسعة فى الوديان والأماكن السهلة . وفى موضع آخر قال : ﴿لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجًا ﴿٢٠﴾﴾ [نوح]

ومعنى : ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا .. ﴿٣١﴾﴾ [الأنبياء] يصح فى الجبال أو فى الأرض ، ففى كل منهما طرق يسلكها الناس ، وهى فى الجبال على شكل شِعَاب ووديان .

ثم يذكر سبحانه علَّة ذلك ، فيقول : ﴿لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾﴾ [الأنبياء] والهداية هنا تحتمل معنيين : يهتدون لخالقها ومكوِّنها ، ويستدلون بها على الصانع المبدع سبحانه ، أو يهتدون إلى البلاد والأماكن والاتجاهات ، وقديماً كانوا يتخذون من الجبال دلائل وإشارات ويجعلونها علامات ، فيصفون الأشياء بمواقعها من الجبال ، فيقولون : المكان الفلانى قريب من جبل كذا ، وعلى يمين جبل كذا ، وقد قال شاعرهم :

خُذَا بَطْنَ هِرْشَى[1] أو قَفَاهَا فَإِنَّهُ ... كِلاَ جَانِبَى هَرْشَى لَهُنَّ طَرِيقُ[2]

فالهداية هنا تشمل هذا وذاك ، كما فى قوله تعالى : ﴿وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾﴾ [النحل] أى : يهتدون إلى الطرق والاتجاهات ، وكان العربى يقول مثلاً : اجعل الثُّريَا عن يمينك أو النجم القطبى ، أو سهيل أو غيرها ، فكانوا على علم بمواقع هذه النجوم ويسيرون على هَدْيها .

---

(١) هرشى : ثنية فى طريق مكة قريبة من الجُحْفة يُرَى منها البحر ، ولها طريقان ، فكلُّ من سلكهما كان مصيباً . [لسان العرب ـ مادة : هرش] .

(٢) أورد ابن منظور هذا البيت فى لسان العرب ، ولم يعزه لأحد . [لسان العرب ـ مادة : هرش] .

أو : يهتدون إلى أن للنجوم علاقة بحياة الإنسان الحيِّ ، وقديماً كانوا يقولون : فلان هَوَى نَجْمه ، كأن لكل واحد منا نجماً فى السماء له علاقة ما به ، وهذه يعرفها بعض المختصين ، وربما اهتدوا من خلالها إلى شىء ، شريطة أن يكونوا صادقين أمناء لا يخدعون خَلْق الله .

ويُؤيِّد هذا قوله تعالى : ﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (٧٦)﴾ [الواقعة] أى : لو كنتم على معرفة بها لعلمتُم أن للنجوم دوراً كبيراً وعظيماً فى الخَلْق .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ (٣٢)﴾

سمَّى السماء سقفاً ؛ لأن السماء كل ما علاَك فأظلّك ، وفرْقٌ بين سقف من صنع البشر يعتمد على أعمدة ودعائم .. الخ ، وسقف من صُنْع الخالق العظيم ، سقف يغطى الأرض كلها ومحفوظ بلا أعمدة ، سقف مُسْتوٍ لا نتوءَ فيه ولا فتور .

والسماء أخذتْ دوراً تكوينياً خصَّها الله به كما خَصَّ آدم عليه السلام ، فالخَلْق جميعاً خُلقوا بكُنْ من أب وأم ، أمّا آدم فقد خُلق خلقاً مباشراً بيد الله سبحانه ، لذلك قال تعالى : ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ .. (٧٥)﴾ [ص] وهذا شرف كبير لآدم .

وكذلك قال فى خَلْق السماء : ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ[1] .. (٤٧)﴾[الذاريات]

---

(١) بأييد : أى بقوة وقدرة . قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة والثورى وغير واحد . ذكره ابن كثير فى تفسيره (٤/٢٣٧) .

وفى آية أخرى قال سبحانه : ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ (٧)﴾ [الذاريات] يعنى : محبوكة ومحكمة ، والحبكة معناها أن ذراتها التى لا تُدرَك ملتحمة مع بعضها ، ليس التحاماً كلياً إنما التحام ذرات ؛ لذلك ترى السماء ملساء ؛ ولذلك قال عنها الخالق عز وجل : ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا[1] فَسَوَّاهَا (٢٨)﴾ [النازعات]

ولك أن تلاحظ صنعة البشر إذا أراد أحدنا أنْ يبنىَ مثلاً ، أو يصنع سقفاً ، فالبناء يُبنى بمنتهى الدقة ، ومع ذلك ترى طوبة بارزة عن طوبة ، فيأتى عامل المحارة فيحاول تسوية الجدار ، ويزنه بميزان الماء ، ومع ذلك نجد فى الجدار تعاريج ، ثم يأتى عامل الدهانات ، فيحاول إصلاح مثل هذه العيوب فيعد لها معجوناً ويكون له فى الحائط دور هام .

وبعد أن يستنفد الإنسان كل وسائله فى إعداد بيته كما يحب تأتى بعد عدة أيام ، فترى الحق ـ سبحانه وتعالى ـ يُعدِّل على الجميع ، ويُظهر لهم عيوب صنعتهم مهما بلغتْ من الدِّقة بقليل من الغبار ينزل عمودياً فيُريك بوضوح ما فى الحائط من عيوب .

وإذا كانت صنعة البشر تختلف باختلاف مهارة كل منهم وحَذَقه فى عمله ، فما بالك إنْ كان الصانع هو الله الذى يبنى ويُسوِّى ويُزيِّن ؟

﴿الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ طِبَاقًا[2] مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ .. (٣)﴾ [الملك]

وانظر إلى أمهر الصُّناع الآن ، يُسوِّى سقفاً لعدة حجرات ،

---

(١) أى : جعل سقفها مرفوعاً عالياً ، أو جعل المسافة بينها وبين الأرض بعيدة . [القاموس القويم ١/٣٢٩] .

(٢) أى : طبقة فوق طبقة . [القاموس القويم ١/٣٩٩] . قال ابن كثير فى تفسيره (٤/٣٩٦) : « أى : طبقة بعد طبقة ، وهل هُنَّ متواصلات بمعنى أنهن علويات بعضهن على بعض ، أو متفاصلات بينهن خلاء ؟ فيه قولان : أصحهما الثانى كما دل على ذلك حديث الإسراء » .

ويستخدم مادة واحدة ويُلوِّنها بلون واحد ، لابُدَّ أن تجد اختلافاً من واحدة للأخرى ، حتى إنْ خلط العامل اللون مرة واحدة لكل الحجرات يأتى اللون مختلفاً ، لماذا ؟ لأنه حين يأخذ من هذا الخليط تجد ما يتبقى أكثر تركيزاً ، فإذا لم يكمل العمل فى نفس اليوم تجد ما تبقّى إلى الغد يفقد كمية من الماء تؤثر أيضاً فى درجة اللون .

ومعنى ﴿ مَّحْفُوظًا .. (٣٢) ﴾ [الأنبياء] أى : فى بنية تكوينه ؛ لأنه مُحْكَم لا اختلافَ فيه ، ولا يحفظ إلا الشىء النفيس ، تحافظ عليه لنفاسته وأصالته . لكن من أىّ شىء يحفظه الله ؟ يحفظها أن تمور ، يحفظها أن تقع على الأرض إلا بإذنه .

﴿ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ .. (٦٥) ﴾ [الحج]

وقال : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ .. (٢٥) ﴾ [الروم]

إذن : فى خَلْق السماء عظمة خَلْق ، وعظمة تكوين ، وعظمة صيانة تناسب قدرته تعالى ، ولا يقدر عليها إلا الله . فالصيانة من عندنا نحن ، ولن نترك لكم صيانتها ، وإنْ كانت لا تحتاج إلى صيانة لأنها صنعتنا .

ومن المسائل التى بيَّنها لنا الحق - سبحانه وتعالى - فى أمر السماء مسألة استراق السمع ، فكانت الشياطين قبل الإسلام تسترق السمع[1] ، لكن بعد رسالة محمد ﷺ شاء الحق سبحانه ألاَّ يدلس على دعوته بسماع شيطان يُوحى إلى أعدائه ، فمنع الجن من استراق السمع بالشُّهُب ، فقال سبحانه :

---

(١) قال تعالى عن الجن أنهم قالوا : ﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا (٨) وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا (٩) ﴾ [الجن] قال ابن عباس : كان الشياطين لهم مقاعد فى السماء يستمعون فيها الوحى ، فإذا سمعوا الكلمة زادوا فيها تسعاً ، فأما الكلمة فتكون حقاً ، وأما ما زادوا فيكون باطلاً ، فلما بُعث رسول الله ﷺ مُنعُوا مقاعدهم ، فذكروا ذلك لإبليس ، ولم تكن النجوم يرمى بها قبل ذلك ، فقال لهم إبليس : ما هذا الأمر إلا لأمر حدث فى الأرض ، فبعث جنوده فوجدوا رسول الله ﷺ قائماً يصلى بين جبلى نخلة ، فأتوه فأخبروه ، فقال : هذا الحدث الذى حدث فى الأرض . أخرجه الترمذى وصححه والنسائى وابن جرير وأبو نعيم فى دلائل النبوة . [أورده السيوطى فى الدر المنثور ٨/٣٠٢]

﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ (١٦) وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ (١٧) إِلاَّ مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ (١٨) ﴾ [الحجر]

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ (٣٢) ﴾ [الأنبياء] كأن للسماء آيات خاصة بها ، ففى الكون آيات كثيرة ، وللسماء آياتها ، فالشمس والقمر والنجوم والأفلاك من آياتها .

وبعد ذلك نسمع من رجال الأرصاد أن من كواكب السماء ما لم يَصلْنا ضوؤه منذ خلق الله الأرض حتى الآن ، مع أن سرعة الضوء ثلثمئة ألف كيلومتر فى الثانية ، ويمكن أن نفهم هذا فى ضوء قوله تعالى : ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ (٤٧) ﴾ [الذاريات]

لذلك يعطينا رسول الله ﷺ صورة تقريبية لهذه المسألة ، حتى لا نُرهق أنفسنا بالتفكير فيها : « ما السموات والأرض وما بينهما بالنسبة لملْك الله إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة »[1] .

ومع ذلك لما صعد رواد الفضاء للقمر سارع بعض علمائنا من منطلق حُبِّهم للإسلام وإخلاصهم للقرآن بالقول بأنهم صعدوا للسماء ، وهذا هو المراد بقوله تعالى : ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا لا تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ (٣٣) ﴾ [الرحمن]

والمراد هنا : سلطان العلم الذى مكَّنهم من الصعود .

لكن ما داموا نفذوا بسلطان العلم ، فلماذا قال بعدها : ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ[2] مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلا تَنتَصِرَانِ (٣٥) ﴾ [الرحمن] إذن :

---

(١) أخرجه ابن حبان (٩٤ ـ موارد الظمآن) من حديث طويل لأبى ذر الغفارى وفيه « يا أبا ذر ، ما السماوات السبع مع الكرسى إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة ، وفضل العرش على الكرسى كفضل الفلاة على الحلقة » .

(٢) الشواظ : بضم الشين وكسرها ، القطعة من اللهب ليس فيها دخان . [القاموس القويم ١/٣٦١] .

السلطان المراد ليس هو سلطان العلم كما يظنون ، إنما المراد سلطانُ منِّى ، بإذنى وإرادتىَ ،

ولو كان الأمر كما يقولون لقالوا لرسول الله ﷺ لما أخبرهم بالمعراج : كيف تقول ذلك يا محمد وربك هو القائل : ﴿يَـٰمَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ[1] السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا لا تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ (٣٣)﴾ [الرحمن]

إذن : المراد هنا سلطان من الله تعالى هو سبحانه الذى يأذن بهذه المسألة ، فتُفتّح له أبواب السماء .

ثم ما علاقة القمر بالسماء ؟ والكلام عن النفاذ من أقطار السموات ، وأين القمر من السماء ؟ إن المسافة بين الأرض والقمر سنتان ضوئيتان ، فالقمر ـ إذن ـ ما هو إلا ضاحية من ضواحى الأرض ، كالمعادى مثلاً بالنسبة للقاهرة ، فأىُّ سماء هذه التى يتحدثون عنها ؟!

وقوله تعالى : ﴿مُعْرِضُونَ (٣٢)﴾ [الأنبياء] سبق أن تحدّثنا عن الإعراض ، وهو الانصراف عن الشىء مِنْ أعرض يعنى: أعطاه ظهره .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٣٣)﴾

الحق ـ سبحانه وتعالى ـ يمتنّ ببعض خَلْقه ، ولا يمتن الله إلا

---

(١) الأقطار : جمع قُطر ، وهو الناحية والجانب ، فأقطار السماوات والأرض : نواحيها . [لسان العرب ـ مادة : قطر] .

بشىء عظيم ونعمة من نعمه على عباده ، ومن ذلك الليل والنهار ، وقد أقسم سبحانه بهما فى قوله تعالى : ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢﴾ [الليل] .

وقال : ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢﴾ [الضحى] فالليل والنهار آيتان متكاملتان ، ليستا متضادتين ، فالأرض خلقها الله ليعمرها خليفته فيها : ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا .. ۝٦١﴾ [هود]

أى : طلب منكم عمارتها بما أعطاكم الله من مُقوِّمات الحياة ، فالعقل المدبر ، والجوارح الفاعلة ، والقوة ، والمادة كلها مخلوقة لله تعالى ، وما عليك إلا أنْ تستخدم نِعَم الله هذه فى عمارة أرضه ، فإذا ما تَمَّتْ الحركة فى النهار احتاج الجسم بعدها إلى الراحة فى الليل .

لذلك كان النوم آية عُظْمى من آيات الله للإنسان تدلّ على أن الخالق ـ عز وجل ـ أمين على النفس أكثر من صاحب النفس .

لذلك نرى البعض منّا يُرهق نفسه فى العمل ، ولا يعطى لجسده راحته الطبيعية ، إلى أنْ يصيرَ غير قادر على العمل والعطاء ، وهنا يأتى النوم كأنه رادع ذاتىٌّ فيك يُجبرك على الراحة ، ويدقُّ لك ناقوس الخطر : أنت لستَ صالحاً الآن للعمل ، ارحم نفسك وأعطها حقَّها من الراحة . فإنْ حاولتَ أنت أنْ تنام قبل وقت النوم يتأبَّى عليك ولا يطاوعك ، أما هو فإنْ جاء أخذك من أعتى المؤثرات . وغلبك على كل شىء فتنام حتى على الحصى .

وفى المثل العربى : (فراش المتعَب وطىء ، وطعام الجائع هَنِىء) أى : حين ينام الإنسان المتعَب المجهد ينام ، ولو على

الحصى ، ولو دون أىٍّ وسائل للراحة ، ومع ذلك ينام نَوْمة مريحة .

وفى المثَل أيضـاً : (النوم ضيف ، إنْ طلبتَه أعْنَتَكَ ، وإنْ طلبك أراحك) والحق سبحانه يُحدِّثنا عن آية النوم فى موضع آخر : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ .. (٢٣) ﴾ [الروم]

وهنا احتياط وملْحظ ، فإنْ كان النوم بالليل للسكن وللراحة ، فهناك مَنْ يعملون بالليل ، فينامون بالنهار كالحرّاس ورجال الشرطة والخبازين وغيرهم ، وهؤلاء لا مانعَ أن يناموا بالنهار ليسايروا حركة الحياة .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ .. (٣٣) ﴾ [الأنبياء] نعم هناك آيات أخرى كثيرة فى كَوْن الله ، لكن أوضحها وأشهرها : الشمس والقمر فهما تحت المشاهدة ﴿ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٣٣) ﴾ [الأنبياء] فالليل والنهار والشمس والقمر يدور كُلٌّ منهم خَلْف الآخر ويخلفه ، كما قال سبحانه : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً .. (٦٢) ﴾ [الفرقان]

وكلمة ﴿ يَسْبَحُونَ (٣٣) ﴾ [الأنبياء] تعبير قرآنى دقيق للأداء الحركى ، وهى مأخوذة من سبحة السمك فى الماء حيث يسبح السمك فى ليونة الماء بحركة انسيابية سهلة ؛ لأن الحركة لقطع المسافات إما حركة انسيابية ، وإما حركة قفزية .

وتلاحظ هاتين الحركتين فى عقارب الساعة ، فلو لاحظتَ عقرب الثوانى مثلاً لوجدْتَه يتحرّك حركة قفزية ، يعنى : ينطلق من الثبات إلى الحركة إلى الثبات ، فالزمن فيه جزء للحركة وجزء للسكون . أما عقرب الدقائق فيسير بحركة انسيابية مستمرة ، كل جزء من الزمن فيه جزء من الحركة ، وهكذا تكون سُبْحة السمك ، ومنها قوله تعالى : ﴿ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا (٣) ﴾ [النازعات]

وكذلك تكون حركة الظل : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ .. ﴿٤٥﴾ ﴾ [الفرقان] وأيضاً حركة نمو الطفل ، فلو أدمْتَ النظر إلى طفلك الصغير لا تكاد تلاحظ عليه مظاهر النمو ، وكأنه لا يكبر أمام عينيك ، أمّا لو غبْتَ عنه مثلاً عدة شهور يمكن أن تلاحظ نُموه ؛ ذلك لأن النمو حركة مُوزّعة على كل ثانية فى الزمن ، لا أن النمو يتجمع ثم يظهر فجأة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾

ذلك لأن الكفار حاولوا قتل النبى ﷺ بإلقاء حجر عليه من مكان عال[1] وهكذا يتخلّصون منه ﷺ ، وكانوا يتمنون ذلك ، فيخاطبه ربه : يا محمد لست بدعاً من الرسل ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الزمر]

وهذه سُنَّة الله فى خَلْقه ، بل موتك يا محمد لنسرع لك بالجزاء على ما تحمّلْته من مشاقّ الدعوة ، وعناء الحياة الدنيا .

لذلك لما خُيِّر رسول الله ﷺ فى الموت قال : « بل الرفيق الأعلى»[2] أما نحن فنتشبث بالحياة ، ونطلب امتدادها .

---

(١) أتى رسول الله ﷺ يهود بنى النضير ليعيناه فى دية قتيلين قُتلا ، فقالوا : نعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه ، ثم خلا بعضهم ببعض ، فقالوا : إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه ـ ورسول الله إلى جنب جدار من بيوتهم قاعد ـ فمَنْ رجل يعلو على هذا البيت ، فيُلقى عليه صخرة فيريحنا منه ؟ فانتدب لذلك عمرو بن جحاش ، فقال : أنا لذلك ، فصعد ليلقى عليه صخرة ، فأتى رسول الله الخبر من السماء بما أراد القوم ، فقام وخرج راجعاً إلى المدينة . فأمر ﷺ بالتهيؤ لحربهم والسير إليهم . [السيرة النبوية ـ لابن هشام ٣/ ١٩٠] .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٦/ ٢٧٤) من حديث عائشة رضى الله عنها أنها قالت : كان رسول الله ﷺ كثيراً ما أسمعه يقول : إن الله لم يقبض نبياً حتى يخيره قالت : فلما حُضِر رسول الله ﷺ كان آخر كلمة سمعتها منه وهو يقول : « بل الرفيق الأعلى من الجنة » .

فقوله : ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ .. (٣٤)﴾ [الأنبياء] فأنت كغيرك من البشر قبلك ، أما مَنْ بعدك فلن يخلدوا بعد موت ﴿أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ (٣٤)﴾ [الأنبياء] فلا يفرحوا بموتك ؛ لأنهم ليسوا خالدين من بعدك .

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (٣٥)﴾

إذن : فالموت قضية كونية عامة ، وهى فى حقيقتها خَيْر ، فإنْ كانوا أخياراً نُعجِّل لهم جزاءهم عند الله ، وإنْ كانوا أشراراً فقد أراحَ اللهُ منهم البلاد والعباد .

لكن ، كيف يُذَاق الموت ؟ الذَّوْق هنا يعنى إحساسَ الإنسان بالألم من الموت ، فإنْ مات فعلاً يستحيل أنْ يذوق ، أما قبل أن يموت فيذوق مقدمات الموت ، والشاعر يقول :

وَالأَسَى بَعْد فُرْقَةِ الرُّوحِ عَجْزٌ وَالأَسَى لاَ يكُونُ قَبْل الفِرَاقِ

فعلى أىِّ شىء يحزن الإنسان بعد أن يموت ؟ ولماذا الحزن قبل أن يموت ؟

فالمراد ـ إذن ـ ذائقةٌ مقدمات الموت ، التى يعرف بها أنه ميت ، فالإنسان مهما كان صحيحاً لابُدّ أنْ يأتى عليه وقت يدرك أنه لا محالةَ ميت ، ذلك إذا بلغت الروح الحلقوم ، كما قال تعالى : ﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ (٢٦) وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ (٢٧) وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ (٢٨)﴾ [القيامة] فالموت فى هذه الحالة أمر مقطوع به .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً .. (٣٥)﴾ [الأنبياء] أى : نختبركم ، والابتلاء لا يُذَمُّ فى ذاته ، إنما تذم غاية الابتلاء :

أينجح فيه أم يفشل ؟ كما نختبر الطلاب ، فهل الاختبار فى آخر العام شَرٌّ ؟ لكن هل الحق سبحانه فى حاجة لأنْ يختبر عباده ليعلم حالهم ؟ الحق يختبر الخَلْق لا ليعلم ، ولكن ليقيم عليهم الحجة .

والمخاطب فى ﴿نَبْلُوكُم .. ﴿٣٥﴾﴾ [الأنبياء] الجميع : الغنى والفقير ، والصحيح والسقيم ، والحاكم والمحكوم .. الخ .

إذن : كلنا فتنة ، بعضنا لبعض : فالغنىّ فتنة للفقير ، والفقير فتنة للغنى ، كيف ؟ الفقير : هل يصبر على فقره ويرضى به ؟ هل سيحقد على الغنى ويحسده ، أم يقول : بسم الله ما شاء الله ، اللهم بارك له ، وأعطنى من خَيْرك ؟ والغنى : هل يسير فى ماله سَيْراً حسناً ، فيؤدى حقَّه ، وينفق منه على المحتاجين ؟

وهكذا ، يمكنك أنْ تُجرى مثل هذه المقابلات لتعلم أن الشر والخير كلاهما فتنة واختبار ، ينتهى إما بالنجاح وإما بالفشل ؛ لذلك يقول بعدها : ﴿وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأنبياء] لنجازى كُلاً على عمله ، فإنْ حالفك التوفيق فلَكَ الأجر والمكافأة ، وإنْ أخفقتَ فلَكَ العقوبة ، فلا بُدَّ أن تنتهى المسألة بالرجوع إلى الله .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى[1] :

﴿وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾

---

(١) أخرج ابن أبى حاتم عن السدى قال : « مرّ النبى ﷺ على أبى سفيان وأبى جهل وهما يتحدثان ، فلما رآه أبو جهل ضحك وقال لأبى سفيان : هذا نبى بنى عبد مناف . فغضب أبو سفيان فقال : ما تنكرون أن يكون لبنى عبد مناف نبى ، فسمعها النبى ﷺ فرجع إلى أبى جهل فوقع به وخوّفه وقال : ما أراك منتهياً حتى يصيبك ما أصاب عمك . وقال لأبى سفيان : أما إنك لم تقل ما قلت إلا حمية » فنزلت هذه الآية ﴿وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا ..﴿٣٦﴾﴾ [الأنبياء] . الآية » أورده السيوطى فى الدر المنثور (٥/ ٦٣٠) .

هذا خطاب لرسول الله ﷺ عن واقعٍ حدثَ له مع الكفار : ﴿وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُوًا .. (٣٦)﴾ [الأنبياء] و (إنْ) هنا ليست شرطية ، إنما للنفى كما فى قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلاَّ اللاَّئِى وَلَدْنَهُمْ.. (٢)﴾ [المجادلة] أى : ما أمهاتهم إلا اللائى ولَدْنهم .

فالمعنى : إذا رآك الذين كفروا لا يتخذونك إلا هُزُواً ، أى : يهزأون بك ، لكن ما وَجْه الهُزْو هنا ؟

قولهم : ﴿أَهَـٰذَا الَّذِى يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ .. (٣٦)﴾ [الأنبياء] أى : يعيبها ويسبُّها ، ويقول عنها : إنها باطلة ومعنى ﴿أَهَـٰذَا .. (٣٦)﴾ [الأنبياء] كأنهم يستقلّونه ، ويستقلّون أنْ يقول هذا عن آلهتهم .

والذكر قد يكون بالخير ، وقد يكون بالشر ، فإنْ ذكرك صديق تتوقع أنْ يذكرك بخير ، وإنْ ذكرك عدو تتوقع أنْ يذكرك بشرٍّ ، وطالما أن محمداً سيذكر آلهتهم ، فلا بُدَّ أنه سيذكرها بشرٍّ ، والشر الذى ذكره محمد عن آلهتكم أنها أصنام وحجارة لا تضرُّ ولا تنفع :

﴿إِن تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ .. (١٤)﴾ [فاطر]

ثم يقول تعالى : ﴿وَهُم بِذِكْرِ الرَّحْمَـٰنِ هُمْ كَافِرُونَ (٣٦)﴾ [الأنبياء] فكيف تتعجبون وتغضبون أنْ يسُبّ محمد آلهتكم الباطلة ، وأنتم تسبُّون الإله الحق ، وتكفرون به ، ونلحظ أن السياق ذكر الضمير العائد عليهم مرتين : ﴿وَهُم بِذِكْرِ الرَّحْمَـٰنِ هُمْ كَافِرُونَ (٣٦)﴾ [الأنبياء] ليؤكد أن ذلك حدث منهم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ[1] سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ (٣٧) ﴾

معنى : ﴿ مِنْ عَجَلٍ .. (٣٧) ﴾ [الأنبياء] أى : مُتعجِّلاً كأن فى طينته عجلة ، والعجلة أن تريد الشىء قبل نُضْجه وقبل أوانه ، وقد يتعجَّل الإنسان الخير ، وهذا أمر جائز ، أما أنْ يتعجّل الشر فهذا هو الحمق بعينه والغباء ، ألم يقولوا لرسول الله : ﴿ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣٨) ﴾ [الأنبياء]

ألم يقولوا : ﴿ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢) ﴾ [الأنفال]

إذن : تعجَّل هؤلاء العذاب ؛ لأنهم غير مؤمنين به ، لا يُصدِّقون أن شيئاً من هذا سيحدث ؛ لذلك يردُّ عليهم : ﴿ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ (٣٧) ﴾ [الأنبياء] وخاطب نبيه ﷺ بقوله : ﴿ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٧٧) ﴾ [غافر]

أى : سنُريك فيهم آياتنا ، وسترى ما وعدناهم من العذاب ، فإنْ قبضناك إلينا فسترى ما ينزل بهم فى الآخرة .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣٨) ﴾

---

(١) أى : طبع الإنسان العجلة ، فيستعجل كثيراً من الأشياء وإن كانت مضرة . [تفسير القرطبى ٦/٤٤٦٥] .

وهذا استبطاء منهم لوَعْد الله بالآخرة والعَرْض عليه سبحانه ، وأنه سيُعذِّبهم بالنار التى تُنضج جلودهم ، ويُبدِّلهم الله جلوداً غيرها .. الخ ؛ لأنهم لا يُصدِّقون هذا ولا يؤمنون به ، وسبق أنْ قالوا لرسول الله : ﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً (٩٢)﴾ [الإسراء]

ثم يقول تعالى :

﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلا عَن ظُهُورِهِمْ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ (٣٩)﴾

أى : لو يعلمون ما يحدث لهم فى هذا الوقت حين لا يستطيعون دَفْع النار عن وجوههم ، وذكر الوجه بالذات لأنه أشرف أعضاء الإنسان وأكرمها ؛ لذلك إذا أصابك أذىً فى وجهك تحرص على إزالته بيدك ، وأنت لم تفعل أكثر من أنك نقلْتَ الأذى من وجهك إلى يدك ، لماذا ؟ لأن الوجه عزيز عليك ، لا تقبل إهانته ، ولا تتحمَّل عليه أىَّ سوء.

فقوله تعالى : ﴿لا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ .. (٣٩)﴾ [الأنبياء] دلالة على إهانتهم ﴿وَلا عَن ظُهُورِهِمْ .. (٣٩)﴾ [الأنبياء] لأنها تأتيهم من كل مكان : ﴿وَلا هُمْ يُنصَرُونَ (٣٩)﴾ [الأنبياء] أى : لا يجدون مَنْ ينقذهم ، أو يأخذ بأيديهم ويدفع عنهم .

حتى الشيطان الذى أغواهم وأغراهم فى الدنيا سيتبرأ منهم يوم القيامة ، ويقول : ﴿مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ .. (٢٢)﴾ [إبراهيم] وأصرخه : أزال سبب صراخه ، والهمزة فى أصرخه تسمى

همزة إزالة ، تقول : صرخ فلان إذا وقع عليه ما هو فوق طاقته واحتماله ، فيصرخ صرخةً يستدعى بها مَنْ يغيثه ويُعينه ، فإنْ أجابه وأزال ما هو فيه فقد أصرخه ، يعنى : أزال سبب صراخه . فالمعنى : لا أدافع عنكم ، ولا تدافعون عنى ، ولا أنقذكم من العذاب ، ولا تنقذوننى .

وفى موضع آخر : ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (١٦)﴾ [الحشر] فحظُّ الشيطان أنْ يُوقِعك فى المعصية ، ثم يتبرأ منك .

فما جواب (لو) هنا ؟ المعنى : لو يعلم الذين كفروا الوقت الذى لا يكفُّون فيه النار عن وجوههم ، ولا عن ظهورهم ولا يُنصرون لكفّوا عما يُؤدِّى بهم إلى ذلك ، وانتهَوْا عن أسبابه .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ (٤٠)﴾

أى : القيامة ، والبغتة : نزول الحدث قبل توقعه لذلك ﴿فَتَبْهَتُهُمْ .. (٤٠)﴾ [الأنبياء] من البهت : أى : الدهشة والحيرة ، فإذا ما باغتتهم القيامة يندهشون ويتحيرون ماذا يفعلون ؟ وأين يفرون ؟

والبغتة تمنع الاستعداد والتأهُّب ، وتمنع المحافظة على النفس . ومن ذلك ما كانوا يفعلونه أوقات الحروب من صافرات الإنذار التى تُنبِّه الناس إلى حدوث غارة مثلاً ، فيأخذ الناس استعدادهم ، ويلجئون إلى المخابىء ، أمَّا إن داهمهم العدو فجأة فلن يتمكنوا من

ذلك ، ولن يجدوا فرصة للنجاة من الخطر .

ومن البَهْت قوله تعالى فى قصة الذى حَاجَّ إبراهيم عليه السلام فى ربه : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ .. (٢٥٨) ﴾ [البقرة]

وقوله : ﴿ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ (٤٠) ﴾ [الأنبياء] أى : لا يُمهَلُون ولا يُؤخَّرون ، فليست المسألة تهديداً وننصرف عنهم إلى وقت آخر ، إنما هى الأَخْذة الكُبْرى التى لا تُرَدُّ عنهم ولا تُؤخَّر .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٤١) ﴾

سبق أنْ خاطب الحق سبحانه رسوله ﷺ بقوله : ﴿ وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُوًا ..(٣٦) ﴾ [الأنبياء] لذلك يُسلِّيه هنا : لست بدعاً من الرسل ، فَخُذْ هذه المسألة بصدر رَحْب ، فلقد استهزىء بالرسل من قبلك فلا تحزن ، فسوف يحيق بهم ما صنعوا ، ويجدون عاقبة هذا الاستهزاء .

كما جاء فى قصة نوح عليه السلام : ﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ .. (٣٨) ﴾ [هود] فيردُّ نوح : ﴿ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (٣٨) ﴾ [هود] أى : انتظروا النهاية ، وسوف ترون !!

ومعنى ﴿ فَحَاقَ.. (٤١) ﴾ [الأنبياء] أى : حَلَّ ونزل بقسوة ﴿ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (٤١) ﴾ [الأنبياء]

وهذا المعنى واضح فى قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٣٠) وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ (٣١)﴾ [المطففين] أى : مسرورين فرحين ، وهذا دليل على لُؤْمهم ورذالة طباعهم ، فلم يكتفوا بالاستهزاء ، وإنما يحكونه ويتبجحون به .

﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَـٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ (٣٢) وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ (٣٣) فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٣٤) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ (٣٥) هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦)﴾ [المطففين]

هل استطعنا أنْ نُجازيهم بما عملوا ؟ نعم يا ربّ .

ولا ننسى أن استهزاء الكفار بأهل الحق استهزاء موقوت بوقته فى الدنيا ، أمّا استهزاء الله بهم فاستهزاء أبدىّ لا نهايةَ له . ويجب هنا أن نتنبه لهذه المسألة ، فكثيراً ما يتعرض أهل الإيمان للاستهزاء وللسخرية من أهل الباطل ، وهؤلاء الذين يسخرون منهم لأجلهم يصون الله لهم الحياة ويدفع عنهم العذاب ، كما جاء فى الحديث القدسى : « فلولا أطفال رُضَّع ، وشيوخ رُكّع ، وبهائم رُتَّع[1] لصببتُ عليكم العذاب صباً »[2] .

فحين ترى تقياً ، فإذا لم تشكره على تقواه وتقتدى به فلا أقلَّ من أنْ تدعَه لحاله ، لا تهزأ به ، ولا تسخر منه ؛ لأن فى وجوده

---

(١) الرَّتْع : الرعى فى الخصب ، ورتعَتْ الماشية : أكلت ما شاءت ، وجاءت وذهبت فى المرعى نهاراً . [لسان العرب ـ مادة : رتع] .

(٢) أورده الهيثمى فى مجمع الزوائد (٢٢٧/١٠) من حديث أبى هريرة وعزاه للبزار والطبرانى فى الأوسط إلا أنه قال : « لولا شباب خشع ، وشيوخ ركع ، وأطفال رضع ، وبهائم رتع ، لصب عليكم العذاب صباً » وفيه : إبراهيم بن خيثم وهو ضعيف .

استبقاءً لحياتك وأَمْنكَ ، وأقل ما يمكنك أنْ تُقيِّم به التقى : يكفيك منه أن أمنتَ شرَّه ، فلنَ يعتدى عليك ، ولن ترى منه شيئاً يسوؤك .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِالَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾

أى : يرعاكم ويحفظكم ، وكأن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ يُجرى مقارنة بين إنعامه سبحانه على عباده وما يقابلونه به من جحود ونكران وكفران ، أنتم تكفرون بالله وتُؤذُون الصالحين من عباده وتسخرون منهم ، وهو سبحانه الذى ﴿ يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ .. ﴿٤٢﴾ ﴾ [الأنبياء] أى : كلاءة صادرة من الله الرحمن .

كما فى قوله تعالى : ﴿ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ .. ﴿١١﴾ ﴾ [الرعد] فليس المراد أنهم يحفظونه من أمر الله الذى أراده الله فيه ؛ لأن الحفْظَ صادر من الله ، والحفَظة مكلّفون من قبله تعالى بحفظكم ، وليس تطوُّعاً منهم . وكلاءة الله لك وحفْظه إياك فى النهار وفى الليل وأنت نائم عليك حَفَظة يحفظونك ، ويدفعون عنك الأذى .

وكثيراً ما نسمع أن بعض الناس قام من نومه فوجد ثعباناً فى فراشه ، ولم يُصبْه بسوء ، وربما فزع لرؤيته فأصابه مكروه بسبب هذا الخوف ، وهو لا يعلم أن الثعبان لا يؤذيه طالما أنه لم يتعرَّض له ، وهذا من عجائب هذه المخلوقات أنها لا تؤذيك طالما لا تؤذيها . إذن : لا أحدَ يرقبك ويحفظك فى نومك ممَّا يُؤذيك إلا الحق سبحانه .

وكلاءة الله لكم لا تقتصر على الحفْظ من المعاطب ، فمن كلاءته سبحانه أن يمدّكم بمقوّمات الحياة ، فالشمس بضوئها ، والقمر

بنوره ، والأرض بنباتها ، والسماء بمائها . ومع هذا تكفرون به ، وتسخرون من رسله وأهل طاعته ؛ لذلك يقول بعدها : ﴿ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ (٤٢) ﴾ [الأنبياء] وما كان يصحّ أنْ يغيبَ ذِكْره تعالى عنهم .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ (٤٣) ﴾

أَلَهم آلهة أخرى تمنعهم من الإيمان بالله ؟ هؤلاء الآلهة لا يستطيعون نَصْر أنفسهم ، وكيف ينصرون أنفسهم ، وهى أصنام من حجارة نحتَها عُبَّادها على أشكال اختاروها ؟ كيف ينصرون أنفسهم ، ولو أطاحت الريح بأحدهم لاحتاج لمَنْ يرفعه ويقيمه ؟

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ (٤٣) ﴾ [الأنبياء] كانوا قديماً فى البادية ، إذا فعل أحدهم ذنباً ، أو فعل فَعْلَة فى إحدى القبائل ، واحتاج إلى المرور عليهم فى طريقه يذهب إلى واحد قوىٍّ يصاحبه فى مشواره ، ويحميه منهم إلى أنْ يمرَّ على ديارهم ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ (١٤) ﴾ [الشعراء]

فالمراد : يصحبه كى يحميه بهذه الصُّحْبة وينجو من العذاب ، فهؤلاء لن نكون فى صُحْبتهم لننجيهم ، ولا أحدَ يستطيع أن يصحبهم لينجيهم من عذابنا ، فلا هذه ولا تلك .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

أى : أنهم مكثوا فترة طويلة من الزمن يتقلَّبون فى نعَم الله ، لكن انظروا ماذا حدث لهم بعد ذلك ، فخذوا منهم عبرةً : ﴿أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا[1] الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا .. ﴿٩﴾﴾ [الروم]

ومع ذلك أُخذوا أَخْذ عزيز مقتدر ، كما قال تعالى : ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا[2] آخَرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأنعام]

ثم يقول سبحانه : ﴿أَفَلا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا .. ﴿٤٤﴾﴾ [الأنبياء]

وفى موضع آخر : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤١﴾﴾ [الرعد]

---

(١) أثار الأرض : حرثها وشقها وقلَّبها للزراعة أو لغيرها كاستخراج المعادن أو استنباط المياه . [القاموس القويم ١/١١٣] .

(٢) القرن : الأمة تأتى بعد الأمة . والقرن من الناس : أهل زمان واحد . قال الأزهرى : الذى يقع عندى والله أعلم أن القرن أهل كل مدة كان فيها نبى أو كان فيها طبقة من أهل العلم ، قلَّتْ السنون أو كثرت » . [لسان العرب ـ مادة : قرن] .

وهذه آية من الآيات التى وقف عندها بعض علمائنا من المعنيين بعلميات القرآن ، فلما أعلن العلماء أن الأرض بيضاوية الشكل ، وليست كاملة الاستدارة ، يعنى : أقطارها مختلفة بالنسبة لمركزها ، سارع بعضهم من منطلق الغَيْرة على دين الله ومحاولة إثبات صدْق القرآن ، وأنه سبق إلى ذكْر هذه المسألة فقالوا : لقد ذكر القرآن هذا الاكتشاف فى قوله تعالى : ﴿أَفَلا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا .. (٤٤)﴾ [الأنبياء] يعنى : من ناحية خط الاستواء ، لا من ناحية القطبين .

وغفل هؤلاء أن الآية تقول : ﴿نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ..(٤٤)﴾ [الأنبياء] لا من طرفها ، فالنقص من جميع الأطراف ، فمِثْل هذه الأقوال تفتح الباب للطعن فى القرآن والخوْض فيه .

ونتساءل ﴿أَفَلا يَرَوْنَ .. (٤٤)﴾ [الأنبياء] رأى هنا علمية أم بصرية ؟ لو قلنا : إنها بصرية فهذه ظاهرة لم تُعْرَف إلا فى القرن العشرين ، ولم ينتبه لها أحد قبل ذلك ، إذن : فهى ليست بصرية . وأيضاً ليست علمية ، فلم تصل هذه المعلومة إلى هؤلاء ، ولم يكُنْ العرب حينذاك أمةَ علم ، ولا أمة ثقافة ، ولا شىء من ذلك أبداً . فإذا ما استبعدنا هذا التفسير ، فما المعنى المناسب ؟

نقول : إنْ كانت رأى بصرية ، فقد رأوا هذه الظاهرة فى الأمم السابقة ، وقد كانوا يصادمون دين الله ويحاربونه ؛ لأنه جاء ليقضى على سلطتهم الزمنية ، ويجعل الناس سواء ، ومع ذلك كان الدين ينتشر كل يوم وتزيد رقعته وتقلّ رُقعة الكفر .

فالمعنى : ننقص أرض الكفر إما من الناس ، أو من العمائر التى تُهدم وتُخرب بالزلازل والخسف وغيره ، فننقص الأرض ، وننقص

الناس ، وننقص مظاهر العمران فى جانب الكفر ، وهذا النقص هو نفسه الزيادة فى أرض الإيمان[١] . وهذه الظاهرة حدثت فى جميع الرسالات .

فإنْ قال قائل : كيف نقبل هذا التفسير ، وزيادة أرض الإيمان لم تحدث إلا بعد الهجرة ، والآية مكية ؟ نقول : كَوْن الآية مكية لا يقدح فى المعنى هنا ، فليس من الضرورى أن يَروْا ذلك فى أنفسهم ، ويكفى أنْ يروها فى الأمم السابقة ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧) ﴾ [الصافات]

وقال : ﴿ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِى الأَوْتَادِ (١٠) الَّذِينَ طَغَوْا فِى الْبِلادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (١٢) ﴾ [الفجر]

وإن اعتبرنا (رأى) علمية ، فقد علموا ذلك من أهل الكتاب ممَّنْ تحالفوا معهم ، فما حدث للأمم السابقة سيحدث لكم .

وقوله تعالى : ﴿ أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ (٤٤) ﴾ [الأنبياء] يعنى : أفلم يشاهدوا أنَّا ننقص الأرض من أطرافها ، أم أن هذا لم يحدث ، وهم الغالبون ؟ أيهما الغالب : رسل الله ، أم الكافرون ؟ الإجابة أنهم غُلبوا واندحروا ، فقال تعالى : ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) ﴾ [الصافات] وقال : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. (٥١) ﴾ [غافر]

ويخاطب الحق سبحانه نبيه ﷺ :

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ (٤٥) ﴾

---

(١) قال ابن عباس : أولم يروا أنّا نفتح لمحمد ﷺ الأرض بعد الأرض . وقال الحسن والضحاك : هو ظهور المسلمين على المشركين . وقال عكرمة : لو كانت الأرض تنقص لم تجد مكاناً تقعد فيه ، ولكن هو الموت . وقال ابن كثير فى تفسيره (٢/ ٥٢٠) : « القول الأول أولى ، وهو ظهور الإسلام على الشرك قرية بعد قرية وهذا اختيار ابن جرير » .

أى : أن رسول الله ما أبلغكم بشىء من عند نفسه ، إنما كل ما جاء به من وعد ووعيد فهو من عند الله ، وأنتم أنفسكم تؤكدون على بشريته ، نعم هو بشر لا يعلم شيئاً كما تقولون ، وهذه تُحسَب له لا عليه ، إنما ربه يوحى إليه .

فلو قال محمد : إنما أنذركم .. لكان لكم حق أنْ تتشكَّكوا ، إنما القائل هو الله ، وأنا مجرد مُبلِّغ عن الله الذى يملك أعِنَّة الأحداث ، فإذا قال بوجود حدث فلا بُدَّ أنْ يقع .

ثم يقول تعالى : ﴿وَلا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ (٤٥)﴾[الأنبياء]

وحاسّة السمع هى أول معلوميات الإنسان ، وأول حواسه عملاً ، وقبل أن يتكلم الطفل لا بُدَّ أنْ يسمع أولاً ، لينطق ما سمعه ؛ لأن السمع هو الإدراك الأول المصاحب لتكوين الإدراكات ، والأذن ـ كما قلنا ـ تسبق العين فى أداء مهمتها .

لذلك قدَّمه الحق سبحانه ، فقال : ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَـٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً (٣٦)﴾ [الإسراء]

والسمع هو الآلة التى لا تتعطّل عن مهمتها ، حتى ولو كان الإنسان نائماً ؛ لأن به يتم الاستدعاء ؛ لذلك لما أراد الحق سبحانه أنْ يُنيم أهل الكهف هذه المدة الطويلة ضرب على آذانهم ، وعطّل عندهم حاسة السمع حتى لا تُزعجهم أصوات الطبيعة خارج الغار ، فقال : ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا (١١)﴾ [الكهف]

ومعنى : ﴿وَلا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ.. (٤٥)﴾ [الأنبياء] صحيح أنهم يسمعون ، وآلة السمع عندهم صالحة للعمل ، إلا أنه سماعٌ لا فائدةَ

منه ، ففائدة السمع أنْ تستجيب لمن يُحدِّثك ، فإذا لم تستجِبْ فكأنك لم تسمع ، وإذا أمرتَ العامل مثلاً بشىء فتغافل عنه تقول له : أأنت أطرش ؟ ولذلك سماهم القرآن : صُمّاً .

وقوله تعالى : ﴿إِذَا مَا يُنذَرُونَ (٤٥)﴾ [الأنبياء] أى : لَيْتهم يتغافلون عن نداء عادى ، إنما يتغافلون وينصرفون ﴿إِذَا مَا يُنذَرُونَ (٤٥)﴾ [الأنبياء] حين يُخوِّفهم عذاب الله ، والإنذار والتحذير أَوْلَى ما يجب على الإنسان الاهتمام به ، ففيه مصلحته ، ومن الغباء ألاَّ يهتم به ، كما لو أنذرتَ إنساناً وحذَّرْتَه من مخاطر طريق ، وأن فيه ذئاباً أو أُسُوداً أو ثعابين أو قطاعَ طريق ، فلا يهتم بكلامك ، ولا يحتاط للنجاة بنفسه .

وقلنا : إن الإنذار : أنْ تخبر بشرٍّ قبل أوانه ، ليستعد لتلافيه ، لا أنْ تنذره سُاعة الحادث فلا يجد فرصة .

إذن : المسألة ليست طبيعة فى التكوين ، إنما توجيه إدراكات ، كأنْ تكلِّم شخصاً فى أمر لا يعجبه ، فتجده « أذن من طين ، وأذن من عجين »ينصرف عنك كأنه لم يسمع شيئاً ، كأحدهم لما قال لصاحبه : فيك مَنْ يكتم السر ؟ قال : نعم سِرُّك فى بير ، قال : أعطنى عشرة جنيهات ، فردَّ عليه : كأنِّى لم أسمع شيئاً !!

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٤٦)﴾

الآن فقط تنبهتم ووَعَيْتُم ؟ الآن بعد أن مسَّكم العذاب ؟

ومعنى : ﴿مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ .. (٤٦)﴾ [الأنبياء] أى : مساً ولمساً خفيفاً ، والنفحة : هى الريح الليئة التى تحمل إليك آثارَ الأشياء دون حقيقتها ، كأن تحمل لك الريحُ رائحةَ الورود مثلاً ، هى لا تحمل لك الورود نفسها ، إنما رائحتها ، وتظل الورود كما هى .

كذلك هذه المسَّة من العذاب ، إنها مجرد رائحة عذاب ، كما نقول لفح النار الذى نشعر به ، ونحن بعيدون عنها .

والنفحة : اسم مرَّة أى : تدل على حدوثها مرة واحدة ، كما تقول : جلس جلسة أى : مرة واحدة ، وهذا أيضاً دليل على التقليل . (فمسَّتْهُمْ) تقليل و (نَفْحَة) تقليل ، وكونها مرة واحدة تقليل آخر ، ومع ذلك يضجُّون ويجأرون ، فما بالك إنْ نزل بهم العذاب على حقيقته ، وهو عذاب أبدىّ ؟!

وقوله تعالى : ﴿لَيَقُولُنَّ يَـٰوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٤٦)﴾ [الأنبياء] الآن ينطقون ، الآن يقولون كلمة الحق التى طالما كتموها ، الآن ظهرتْ حساسية الإدراك لديهم ، فمن أقلِّ القليل ومن رائحة العذاب يجأرون ، وأين كان هذا الإدراك ، وهذه الحساسية من قبل ؟ إذن : المسألة ـ كما قلنا ـ ليست طبيعة تكوين ، إنما توجيه إدراكات .

وقولهم : ﴿يَـٰوَيْلَنَا .. (٤٦)﴾ [الأنبياء] إحساس بما هم مُقبلون عليه ، وهذا القول صادر عن مواجيد فى النفس وفى الذِّهْن قبل أن ينطق بالكلمة ، ثم يُقرُّون على أنفسهم ويعترفون : ﴿إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٤٦)﴾ [الأنبياء]

﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ (١)

نقلهم الحق سبحانه من إنكار وتكذيب وتسفيه كلام الرسول ، وعدم الإيمان بالوحى ، وصَمِّ آذانهم عن الخير إلى مسألة الحساب والميزان القسط ، فلماذا هذه النَّقْلة ؟ ليُنبههم ويلفت أنظارهم إلى أن هذا الكلام الذى قابلتموه بالتكذيب والتشكيك كان لمصلحتكم ، وأن كل شىء محسوب ، وسوف يُوزَن عليكم ويُحْصَى ، وكأنه ينصحهم ، فما تزال رحمانية الله بهم وحِرْصه على نجاتهم .

وكلمة (موازين) جمع : ميزان ، وهو آلة نُقدِّر بها الأشياء من حيث كثافتها ؛ لأن التقدير يقع على عدة أشياء : على الكثافة بالوزن ، وعلى المسافات بالقياس .. الخ ، وقد جعلوا لهذه المعايير ثوابت ، فمثلاً : المتر صنعوه من البلاتين حتى لا يتآكل ، وهو موضوع الآن - تقريباً - فى باريس ، وكذلك الياردة . وجعلوا للوزن معايير من الحديد : الكيلو والرطل .. الخ .

وقديماً كانوا يَزِنُون قطعةً من الحجارة تساوى كيلو مثلاً ، ويستعملونها فى الوزن ؛ لأن لها مرجعاً ، لكن هذه القطعة تتآكل من كثرة الاستعمال ، فلا بُدَّ من تغييرها .

---

(١) الخردل : نبات له حَبٌّ صغير جداً ، وإذا جفَّت حبة الخردل كانت نهاية فى الصغر ، وهو نبات عُشبى تستعمل بذوره فى الطب . ومعنى قوله تعالى : ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء] . أى : إن كان عمل الإنسان فى الخير أو الشر صغيراً قليلاً فى وزن حبة واحدة من الخردل أحضرها الله يوم الحساب وحاسبه عليها . [القاموس القويم ١/١٩٠] .

وهنا تكلَّم عن الشىء الذى يُوزَن ، ولم يذكر المعايير الأخرى ، قالوا : لأن الأشياء التى لها كثافة هى الأكثر ، وكانوا يختبرون الأولاد يقولون : كيلو الحديد أثقل ، أم كيلو القطن ؟ فالولد ينظر إلى القطن فيراه هَشّاً مُنتفشاً فيقول : القطن ، والقطن أزيد من الحديد فى الحجم ، لكن كثافته يمكن أن تستطرق ، فنُرقّق القطن إلى أن يتحول إلى مساحة طول وعرض . إذن : العُمْدة فى التقدير : الثقل .

وفى موضع آخر قال تعالى : ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ[1] الْمِيزَانَ ⑦﴾ [الرحمن] فهل هى موازين متعددة ، أم هو ميزان واحد ؟

الخَلْق جميعاً سيُحاسبون مرة واحدة ، فلن يقفوا طابوراً ينتظر كل منهم دَوْره ، بل فى وقت واحد ؛ لذلك لما سُئل الإمام على ـ كرَّم الله وجهه : كيف يُحاسِب الله الخَلْق جميعاً فى وقت واحد ؟ قال : كما يرزقهم جميعاً فى وقت واحد . فالمسألة صعبة بالنسبة لك ، إنما سهلة ميسورة للحق سبحانه .

والقِسْط : صفة للموازين ، وهى مصدر بمعنى عدل ، كما تقول فى مدح القاضى : هذا قاضٍ عادل . أى : موصوف بالعدل ، فإذا أردتَ المبالغة تقول : هذا قاضٍ عَدْل ، كأنه هو نفسه عَدْل أى (معجون بالعدل) ؛ لذلك نقول فى أسماء الحق سبحانه : الحكم العدل . ولا نقول : العادل .

وهذه المادة (قسط) لها دور فى اللغة ، فهى من الكلمات المشتركة التى تحمل المعنى وضده ، مثل (الزوج) تُطلق على

---

(١) قال الإمام أبو يحى زكريا الأنصارى فى كتابه « فتح الرحمن بكشف ما يلتبس فى القرآن » (ص ٤٠٥) : « قرن وضع الميزان برفع السماء ؛ لأنه تعالى عدَّد نعمه على عباده ، ومن أجلِّها الميزان ، الذى هو العدل ، الذى به نظام العالم وقوامه » .

الرجل والمرأة ، و (العَيْن) تطلق على : العين الباصرة ، وعلى عين الماء ، وعلى الجاسوس ، وعلى الذهب والفضة .

كذلك (القسْط) نقول : القسْط بالكسر مثل : حمْل بمعنى العدل من قَسَط قسْطاً . ومنه قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٤٢)﴾ [المائدة] ونقول : القَسْط بالفتح يعنى : الظلم من قسط قُسوطاً وقَسْطاً ، ومنه قوله تعالى : ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا (١٥)﴾ [الجن] أى : الجائرون الظالمون .

والقسْط بمعنى العدل إذا حكم بالعدل أولاً وبداية ، لكن أقسط يعنى كان هناك حكم جائر فعدَّله إلى حكم بالعدل فى الاستئناف .

ومن هذه المادة أيضاً قوله تعالى : ﴿ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ .. (٥)﴾ [الأحزاب] فأقسط هنا : أفعل تفضيل ، تدل على أن حكم محمد ﷺ فى مسألة زيد كان عَدْلاً وقِسْطاً ، إنما حكم ربه تعالى هو أقسط وأعدل .

ومعلوم من قصة زيد بن حارثة أنه فضَّل رسول الله واختاره على أهله ، وكان طبيعياً أنْ يكافئه رسول الله على محبته وإخلاصه ويُعوِّضه عن أهله الذين آثر عليهم رسولَ الله ، وكانت المكافأة أن سماه زيد بن محمد .

إذن : الحق سبحانه عدل لرسوله ، لكن عدل له العدل لا الجوْر ، وعَدْل الله أَوْلى من عدل محمد لذلك قال : ﴿أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ .. (٥)﴾ [الأحزاب] أما عندكم أنتم فقد صنع محمد عَيْن العَدْل .

وقوله تعالى : ﴿ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ .. (٥)﴾ [الأحزاب] جاء ليبطل التبنى ؛ ليكون ذلك مقدمة لتشريع جديد فى الأسرة والزواج والمحارم وأمور كثيرة فى شرع الله لا تستقيم فى وجود هذه

المسألة ، وإلاّ فكيف سيكون حال الأسرة حين يكبر المتبنّى ويبلغ مَبْلَغَ الرجال ؟ وما موقفه من الزوجة ومن البنت ، وهو فى الحقيقة غريب، عن الأسرة ؟

ومسألة الموازين هذه من المسائل التى وجد فيها المستشرقون تعارضاً فى ظاهر الآيات ، فجعلوا منها مَأخَذاً على كتاب الله ، من ذلك قولهم بالتناقض بين الآيتين : ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ.. (٤٧)﴾ [الأنبياء] وقوله تعالى : ﴿فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا(١٠٥)﴾ [الكهف] حيث أثبت الميزان فى الأولى ، ونفاه فى الثانية .

وقلنا : إن هؤلاء معذورون ؛ لأنهم لا يملكون الملكَة اللغوية التى تمكِّنهم من فَهْم كلام الله . ولو تأملنا اللام فى ﴿نُقِيمُ لَهُمْ .. (١٠٥)﴾ [الكهف] لانحلَّ هذا الإشكال ، فاللام للملك والانتفاع ، كما يقولون فى لغة البنوك : له وعليه . والقرآن يقول : ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ .. (٢٨٦)﴾ [البقرة]

فالمعنى : ﴿فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا (١٠٥)﴾ [الكهف] أى : وزناً فى صالحهم ، إنما نقيم عليهم وندينهم . كذلك نجد أن كلمة الوزن تُستعمل فى اللغة إمَّا لوزن المادىّ ، أو لوزن المعنى ، كما نقول : فلان لا وَزْنَ له فى الرجال .

وعلى هذا يكون المعنى : أنهم لا وَزْنَ لذواتهم ومادتهم ، إنما الوزن لأعمالهم ، فلا نقول : كان من الأعيان ، كان أصله كذا وكذا ، وهذه المسألة واضحة فى قصة ابن نوح عليه السلام : ﴿قَالَ يَـٰنُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ .. (٤٦)﴾ [هود]

فالبنوة هنا بُنوّة عمل وإيمان ، لا بُنوة ذات .

وقد ظَنَّ الكفار والعصاة أن لهم وَزْناً عند الله ، ومنزلة ستكون لهم فى الآخرة ، كما كانت لهم فى الدنيا ، كما جاء فى قصة صاحب الجنتين الذى قال لأخيه متباهياً مفتخراً :

﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا (٣٤) وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَـٰذِهِ أَبَدًا (٣٥) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا (٣٦)﴾ [الكهف]

لكن هيهات أنْ يكون لهم وَزْنٌ فى الآخرة ، فالوزن فى القيامة للأعمال ، لا للأعيان .

إذن : المعنى لا نقيم لذواتهم ، إنما نزن أعمالهم ؛ لذلك قال النبى ﷺ لقرابته : « لا يأتينى الناس بأعمالهم ، وتأتونى بأحسابكم »[(١)] .

وقال ﷺ :« يا فاطمة بنت محمد اعملى فإنِّى لا أغنى عنك من الله شيئاً »[(٢)]

فالذوات والأحساب والأنساب لا قيمةَ لها فى هذا الموقف .

وقوله تعالى : ﴿فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا .. (٤٧)﴾ [الأنبياء] مع أن القاعدة : ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ .. (١٩٤)﴾ [البقرة] وهؤلاء قد ظلموا الحق سبحانه ظُلْماً عظيماً حين أشركوا به ، وظلموا رسول الله لما قالوا عنه : ساحر ، وكاذب ومجنون ، ومع ذلك فلن نردّ هذا الاعتداء بمثله بظلمهم .

---

(١) عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « إن أوليائى يوم القيامة هم المتقون ، وإن كان نسب أقرب من نسب ، لا يأتى الناس بالأعمال ، وتأتون بالدنيا تحملونها على رقابكم ، وتقولون : يا محمد ، فأقول هكذا ، وأعرض فى عطفيه » . أخرجه ابن أبى عاصم فى السنة (١/ ٩٤) .

(٢) عن حذيفة قال : جئت إلى النبى ﷺ والعباس جالس عن يمينه وفاطمة ـ رضى الله عنها ـ عن يساره . فقال : يا فاطمة بنت رسول الله ﷺ اعملى لله خيراً ، فإنى لا أغنى عنك من الله شيئاً يوم القيامة » . أورده الهيثمى فى مجمع الزوائد (١/ ٤٩) وعزاه للبزار .

وقوله تعالى : ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا .. (٤٧)﴾ [الأنبياء] والخردل : مثال للصِّغَر ، للدلالة على استقصاء كل شىء ، ولا يزال الخردل هو المقياس العالمى للكيلو ، فقد وجدوا حَبَّ الخردل مُتَساوِياً فى الوزن ، فأخذوا منه وحدة الكيلو الآن ، وقد أتى بها القرآن منذ ما يزيد على أربعة عشر قرناً من الزمان .

ومعنى : ﴿أَتَيْنَا بِهَا .. (٤٧)﴾ [الأنبياء] أى : لهم أو عليهم ، فإنْ كانت لهم علموا أنَّ الله لا يظلمهم ، ويبحث لهم عن أقلِّ القليل من الخير ، وإنْ كانت عليهم علموا أن الله يستقصى كل شىء فى الحساب ، وحبّة الخردل تدل فى صِغَرها على الحجم ، وكلمة مثقال تدل على الوزن ، فجمع فيها الحجم والوزن .

ثم يُعقِّب سبحانه على هذه المسألة : ﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ (٤٧)﴾ [الأنبياء] فلا أحدَ يُجيد هذه المسألة ويُدقِّقها كما نفعل نحن ، فليست عندنا غفلة بل دِقَّة وضَبْط لمعايير الحساب .

ولا تظن أن مسألة الحساب والميزان مسألة سهلة يمكن أن تصل فيها إلى الدقة الكاملة مهما أخذتَ من وسائل الحيطة ، فأنت بشر لا تستطيع أنْ تزِنَ الوزن المضبوط ؛ لأن المعيار الحديد الذى تزن به عُرْضة فى استعماله للزيادة أو النقصان .

فقد يتراكم عليه الغبار ويقع عليه مثلاً نقطة زيت ، وبمرور الوقت يزيد المعيار ولو شيئاً ضئيلاً ، وهذا فى صالح الموزون له ، وقد يحدث العكس فينقص الميزان نتيجة الملامسة للأشياء ، ولك أن تنظر مثلاً إلى (أكرة) الباب تراها لامعةً على خلاف ما حولها . إذن : أى ملامسة أو احتكاك للأشياء يُنقصها .

حتى فى الموازين الحديثة التى تضمن لك أقصى درجات الدقة

فبشرية الإنسان لا يمكن أن تُعطى الدقة المتناهية . وهذا معنى ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾﴾ [الأحزاب] ﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء] لأن معياره تعالى لا يختلف ، ولا ينسى شيئاً ، ولا يغفل عن شيء .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾﴾

يريد الحق ـ تبارك وتعالى ـ أن يُسلِّى رسوله ﷺ ويُخفِّف عنه مَا لاقاه من قومه ، فيذكر له نماذجَ من إخوانه أُولى العزم[1] من الرسل الذين اضطهدهم أقوامهم ، وآذوهم ليُسهِّل على رسول الله مهمته ، فلا يصده إيذاء قومه عن غايته نحو ربه .

فبدأ بموسى ـ عليه السلام ـ لأنه من أكثر الرسل الذين تعبوا فى دعوتهم ، فقد تعب موسى مع المؤمنين به فضلاً عن الكافرين به ، فقال سبحانه : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ ..﴿٤٨﴾﴾ [الأنبياء] لأن رسالتهما واحدة ، وهم فيها شركاء : ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا .. ﴿٣٤﴾﴾ [القصص] وقال : ﴿اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴿٣٢﴾﴾ [طه]

والفرقان : هو الفارق القوى بين شيئين ؛ لأن الزيادة فى المبنى تدل على زيادة فى المعنى ، كما تقول : غفر الله لفلان غفراناً ،

---

(١) يقول تعالى : ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ .. ﴿٣٥﴾﴾ [الأحقاف] . قال ابن كثير فى تفسيره (٤/١٧٢) : « قد اختلفوا فى تعداد أولى العزم على أقوال ، وأشهرها أنهم : نوح وإبراهيم وموسى وعيسى وخاتم الأنبياء كلهم محمد ﷺ . وقد يحتمل أن يكون المراد بأولى العزم جميع الرسل فتكون (من) فى قوله (من الرسل) لبيان الجنس والله أعلم » .

وتقول : قرأت قراءة ، وقرأت قرآناً ، فليست القراءة واحدة ، ولا كل كتاب يُقرأ .

والفرقان من أسماء القرآن : ﴿تَبَارَكَ الَّذِى نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ۝١﴾ [الفرقان]

فالفرقان - إذن - مصدر يدلُّ على المبالغة ، تقول : فرَّق تفريقاً وفرقاناً ، فزيادة الألف والنون تدل على زيادة فى المعنى ، وأن الفَرْق فى هذه المسألة فَرْق جليل وفَرْق واضح ؛ لأن كونك تُفرِّق بين شيئين الأمر بينهما هيِّن تسمى هذا فَرْقاً ، أمّا أن تفرق بين شيئين يترتب على ذلك خطورة فى تكوين المجتمع وخطورة فى حركة الحياة ، فهذا فرقان ؛ لذلك سَمَّى القرآن فرقاناً ؛ لأنه يُفرِّق بين الحق والباطل .

ومن الفرقان ، قوله تعالى : ﴿يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا .. ۝٢٩﴾ [الأنفال] وتقوى الله لا تكون إلا بتنفيذ أوامره وتعاليمه الواردة فى القرآن الذى نزل على محمد ، والفرقان هنا يعنى : نور تُفَرِّق به بين الأشياء وتُميِّز به بين المتشابهات .

وعلى قَدْر ما تتقى الله باتباع الفرقان الأول يجعل لكم الفرقان الثانى ، وتتكوَّن لديكم فراسة المؤمن وبصيرته ، وتنزل عليكم الإشراقات التى تُسعِف المؤمن عندما يقع فى مأزق .

ألاَ تراهم يقولون : فلان ذكى ، فلان حاضر البديهة . أى : يستحضر الأشياء البعيدة وينتفع بها فى الوقت الحاضر ، وهذا من توفيق الله له ، ونتيجة لبصيرته وفراسته ، وكانت العرب تضرب

المثل فى الفراسة والذكاء بإياس بن معاوية حتى قال الشاعر[١] :

إقْدامُ عَمْرٍو فى سَمَاحَةِ حَاتِمٍ فى حِلْمِ أحنَفَ فى ذَكَاءِ إيَاسِ

ويُرْوَى أن الخليفة العباسى أبا جعفر المنصور لما أراد أنْ يحج بيت الله فى آخر مرة ، بلغه أن سفيان الثورى[٢] يتناوله وينتقده ويتهمه بالجور ، فقال : سوف أحج هذا العام ، وأريد أنْ أراه مصلوباً فى مكة ، فبلغ الخبر أهل مكة ، وكان سفيان الثورى يقيم بها فى جماعة من أصحابه من المتصوفة وأهل الإيمان ، منهم سفيان بن عيينة والفضيل بن عياض ، وكانا يُدلِّلان الثورى ويعتزان به .

وفى يوم كان الثلاثة فى المسجد والثورى مُسْتَلْقٍ بين صاحبيه يضع رأسه فى حِجْر أحدهما ، ورجْلَيْه فى حِجْر الآخر ، وقد بلغهم خبر المنصور ومقالته ، فتوسل ابنُ عيينة والفضيل للشيخ الثورى : يا سفيان لا تفضحنا واختفِ حتى لا يراك ، فلو تمكَّن منك المنصور ونفذ فيك تهديده فسوف يضعف اعتقاد الناس فى المنسوبين إلى الله .

وهنا يقول الثورى : والذى نفسى بيده لن يدخلها ، وفعلاً دخل المنصور مكة من ناحية الحجون ، فعثرت به الدابة ، وهو على مشارف مكة فوقع وأُصيب بكسر فمات لساعته . ودخل المنصور مكة محمولاً وأتَوْا به إلى المسجد الحرام حيث صلى عليه الثورى .

---

(١) هو : أبو تمام حبيب بن أوس الطائى ، ولد بقرية من قرى الشام (١٨٠ هـ) ، نشأ نشأة متواضعة ، حيث كان يعمل صبياً لحائك ، توفى عام (٢٣١هـ) عن ٥١ عاماً .

(٢) هو : سفيان بن سعيد بن مسروق الثورى ، من مُضَر أبو عبد الله ، أمير المؤمنين فى الحديث ، ولد بالكوفة (٩٧ هـ) ، كان سيد أهل زمانه فى علوم الدين والتقوى راوده المنصور العباسى على أن يلى الحكم فأبى ، مات مستخفياً بالبصرة من المهدى عام (١٦١ هـ) (الأعلام للزركلى ٣/١٠٤) .

هذا هو الفرقان والنور والبصيرة وفراسة المؤمن الذى يرى بنور الله ، ولا يصدر فى أمر من أموره إلا على هَدْيه .

ويُروى أن المهدى الخليفة العباسى أيضاً دخل الكعبة ، فوجد صبياً صغيراً فى السادسة عشرة أو السابعة عشرة من عمره يلتف حوله أربعمائة شيخ كبير من أصحاب اللحى والهَيْبة والوقار ، والصبى يُلْقِى عليهم درساً ، فتعجب المهدى وقال : أُفٍّ لهذه السعانين يعنى الذقون ، أمَا كان فيهم مَنْ يتقدم ؟! ثم دنا من الصبى يريد أن يُقرِّعه ويُؤنِّبه فقال له : كم سِنّك يا غلام ؟ فقال الصبى : سنى سِنُّ أسامة بن زيد حينما ولاه رسول الله ﷺ إمارة جيش فيه أبو بكر وفيه عمر ، فقال له المهدى ـ معترفاً بذكائه وأحقيته لهذا الموقف : بارك الله فيك .

فالفرقان ـ إذن ـ لا تُستعمل إلا للأمور الجليلة العظيمة ، سواء ما نزل على موسى ، أو ما نزل على محمد ، إلا أن الفرقان أصبح علَماً على القرآن ، فهناك فَرْق بين العلم والوصف ، فكل ما يُفرِّق بين حَقٍّ وباطل تصفه بأنه فرقانٌ ، أمّا إنْ سُمِّى به ينصرف إلى القرآن .

والمتأمل فى مادة (فَرَق) فى القرآن يجد أن لها دوراً فى قصة موسى عليه السلام ، فأول آية من آياته : ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ .. ﴿٥٠﴾﴾ [البقرة]

والفَرْق أنْ تفصل بين شىء مُتصل مع اختلاف هذا الشىء ، وفى علم الحساب يقولون : الخَلْط والمزج ، ففَرْق بين أن تفصل بين أشياء مخلوطة مثل برتقال وتفاح وعنب ، وبين أنْ تفصلها وهى مزيج من العصير ، تداخل حتى صار شيئاً واحداً .

إذن : ففَرْق البحر لموسى ـ عليه السلام ـ ليس فَرْقاً بل فرقاناً ،

لأن أعظم ألوان الفروق أن تَفرِق السائل إلى فرْقَيْن ، كل فرق كالطود[١] العظيم ، ومَنْ يقدر على هذه المسألة إلا الله ؟

ثم يقول تعالى : ﴿وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [الأنبياء] أى : نوراً يهدى الناس إلى مسالك حياتهم دون عَطَب ، وإلاَّ فكيف يسيرون فى دروب الحياة ؟ فلو سار الإنسان على غير هدى فإمّا أنْ يصطدم بأقوى منه فيتحطم هو ، وإمّا أن يصطدم بأضعف منه فيحطمه ، فالضياء - إذن - هام وضرورى فى مسيرة الإنسان ، وبه يهتدى لحركة الحياة الآمنة ويسعى على بينة ، فلا يَتْعب ، ولا يُتعِب الآخرين .

﴿وَذِكْرًا .. ﴿٤٨﴾﴾ [الأنبياء] أى : يذكِّر ويُنبِّه الغافلين ، فلو تراكمتْ الغفلات تكوَّنَ الران الذى يحجب الرؤية ويُعمى البصيرة ؛ لذلك لما شبه النبى ﷺ غفلة الناس قال : « تُعْرَض الفتن على القلوب كالحصير عُوداً عُوداً » .

وفى رواية : « عوذاً عوذاً »[٢] أى : يستعيذ بالله أن يحدث هذا لمؤمن ، فهل رأيتَ صانع الحصير حينما يضمُّ عُوداً إلى عُود حتى يُكوِّن الحصير ؟ كذلك تُعرَض علينا الفتن ، فإنْ جاء التذكير فى البداية أزال ما عندك من الغفلة فلا تتراكم عليك الغفلات .

« فأيُّما قلب أُشْرِبها - يعنى قَبِلَها - العود تلو العود - نُكتَتْ فيه نكتة سوداء ، وأيُّما قلب أنكرها نُكتَتْ فيه نكتة بيضاء ، حتى تكون

---

(١) الطود : الجبل الثابت العالى . قال تعالى : ﴿فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾﴾ [الشعراء] .

(٢) وقال ابن الأثير : روى بالذال المعجمة ، كأنه استعاذ من الفتن . [لسان العرب - مادة : عوذ] .

على قلبين ـ صدق رسول الله ـ على أبيض مثل الصفا لا تضرُّه فتنة ، ما دامت السموات والأرض . أو على أسود كالكوز مُجَخِّياً ـ يعنى منكُوساً ـ لا يعرف معروفاً ، ولا ينكر منكراً »[1] .

قالوا : فذلك هو الرَّانُ الذى يقول الله فيه : ﴿ كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٤) ﴾ [المطففين] والذكر هو الذى يُجلِّى هذا الران .

﴿ وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ (٤٨) ﴾ [الأنبياء] ومن صفاتهم أنهم :

﴿ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ (٤٩) ﴾

الخشية : الخوف بتعظيم ومهابة ، فقد تخاف من شىء وأنت تكرهه أو تحتقره . فالخشية كأنْ تخاف من أبيك أو من أستاذك أنْ يراك مُقصِّراً ، وتخجل منه أنْ يراك على حال تقصير . فمعنى الخوف من الله : أن تخاف أن تكون مُقصِّراً فيما طُلب منك ، وفيما كلَّفك به ؛ لأن مقاييسه تعالى عالية ، وربما فاتكَ من ذَلك شىء .

وفى موضع آخر يشرح الحق سبحانه هذه المسألة ، فيقول : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ .. (٢٨) ﴾ [فاطر] لماذا ؟ لأنهم الأعلم بالله وبحكمته فى كونه ، وكلما تكشَّفَتْ لهم حقائق الكون وأسراره ازدادوا لله خشية ، ومنه مهابة وإجلالاً ؛ لذلك قال عنهم : ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ .. (٥٠) ﴾ [النحل] أى : أعلى منهم وعلى رؤوسهم ، لكن بِحُبٍّ ومهابة .

ومعنى : ﴿ بِالْغَيْبِ .. (٤٩) ﴾ [الأنبياء] أنهم يخافون الله ، مع أنهم

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٤٤) كتاب الإيمان ، وأحمد فى مسنده (٥/٣٨٦ ، ٤٠٥) من حديث حذيفة بن اليمان رضى الله عنه .

لا يَروْنه بأعينهم ، إنما يَرَوْنَه فى آثار صُنْعه ، أو بالغيب يعنى : الأمور الغيبية التى لا يشاهدونها ، لكن أخبرهم الله بها فأصبحتْ بَعْد إخبار الله كأنها مشهدٌ لهم يروْنَها بأعينهم .

أو يكون المعنى : يخشون ربهم فى خَلَواتهم عن الخَلْق ، فمهابة الله والأدب معه تلازمهم حتى فى خَلْوتهم وانفرادهم ، على خلاف مَنْ يُظهِر هذا السلوك أمام الناس رياءً ، وهو نمرود فى خَلْوته .

وقوله تعالى : ﴿وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ (٤٩)﴾ [الأنبياء] والإشفاق بمعنى الخوف أيضاً ، لكنه خَوْف يصاحبه الحذر مما تخاف ، فالخوف من الله مصحوب بالمهابة ، والخوف من الساعة مصحوب بالحذر منها ، مخافة أنْ تقوم عليهم قبل أنْ يُعِدوا أنفسهم لها إعداداً كاملاً يُفرحهم بجزاء الله ساعة يلقوْنَه .

﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ (٥٠)﴾

أى : كما جاءت التوراة ﴿ذِكْراً .. (٤٨)﴾ [الأنبياء] كذلك القرآن الذى نزل عليك يا محمد (ذكر) ، لكنه ﴿ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ .. (٥٠)﴾ [الأنبياء] يقولون : هذا شىء مبارك يعنى : فيه البركة ، والبركة فى الشىء أنْ يعطى من الخير فوق ما يتوقع فيه .

كما كان النبى ﷺ يسقى صحابته من قَعْب[1] واحد من اللبن[2] ،

---

(١) القَعْب : القدح الضخم الغليظ ، وقيل : قدح من خشب مُقعَّر ، وهو يُروى الرجل . [لسان العرب ـ مادة : قعب] .

(٢) أخرج البخارى فى صحيحه (٤١٥٢) ، والبيهقى فى دلائل النبوة (٤/١١٥) من حديث جابر رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ أتى يوم الشجرة فى الحديبية بماء فى تور ، فوضع يده فيه ، فجعل الماء يخرج من بين أصابعه كأنه العيون ، قال : فشربنا ووسعنا وكفانا ، فقيل لجابر : كم كنتم ؟ قال : لو كنا مائة ألف كفانا ، كنا ألفاً وخمسمائة .

ويُطعِم الجيش كله من الطعام اليسير القليل[1] . وتسمعهم يقولون : فلانَ راتبه ضئيل ، ومع ذلك يعيش هو وأولاده فى كذا وكذا فنقول : لأن الله يُبارك له فى هذا القليل .

فمعنى ﴿ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ .. ﴿٥٠﴾﴾ [الأنبياء] أى : فيه من الخير فوق ما تظنون ، فإياك أنْ تقولوا : إنه كتاب أحكام وتكاليف فحسْب ، فالقرآن فيه صفة الخلود ، وفيه من الأسرار مَا لا ينتهى ، فبركته تشمل جميع النواحى وجميع المجالات إلى أنْ تقومَ الساعة . فمهما رددنا آياته نجدها جميلة مُوحية مُعبِّرة . فكل عصر يأتى بجديد ، لا يخلق على كثرة الرد ولا تنقضى عجائبه فهو مبارك لأن ما فيه من الخير يتجاوز عصر الرسول ﷺ وكل العصور والأعمار والقرون فيعطى كل يوم سراً جديداً من أسرار قائله سبحانه .

إذن : فالقرآن ﴿ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ .. ﴿٥٠﴾﴾ [الأنبياء] لأن ما فيه من وجوه الخير سيتجاوز العصر الذى نزل فيه ، ويتجاوز كل الأعمار وكل القرون ، فيعطى كل يوم لَوْناً جديداً من أسرار قائله والمتكلِّم به ؛ لذلك يتعجّب بعدها من إنكار القوم له : ﴿أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [الأنبياء] أمِثْل هذا الكلام يُنكر ؟

وسبق أنْ أوضحنا أقوالهم فى القرآن .

منهم مَنْ قال : سحر . ومنهم من قال : شعر . ومنهم من قال :

---

(١) عن عبد الله بن عباس قال : إن رسول الله ﷺ لما نزل مَرَّ فى صلح قريش قال أصحاب النبى ﷺ : يا رسول الله لو نحرنا من ظهورنا فأكلنا من لحومها وشحومها وحسونا من المرق أصبحنا غداً إذا غدونا عليهم وبنا جَمَام قال : لا ولكن ائتونى بما فضل من أزوادكم ، فبسطوا أنطاعاً ثم صَبُّوا عليها فضول ما فضل من أزوادهم ، فدعا عليهم رسول الله ﷺ بالبركة ، فأكلوا حتى تضلعوا شبعاً ، ثم لفَّقوا فضول ما فَضُل من أزوادهم فى جُربهم ، أخرجه مسلم فى صحيحه (كتاب اللقطة ـ باب استحباب خلط الأزواد إذا قلَّت) . وأخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٤/١٢٠) .

كذب وأساطير الأولين ، وهذا كله إفلاس فى الحُجَّة ، وتصيُّد لا معنى له ، ودليل على تضارب أفكارهم .

ألم يقولوا هم أنفسهم : ﴿لَوْلا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١)﴾ [الزخرف] إذن : هم يعرفون صدْق القرآن ومكانته ، وأنه من عند الله ، ولا يعترضون عليه فى شىء ، إنما اعتراضهم على مَنْ جاء بالقرآن ، وفى هذا دليل على أنهم ليستْ عندهم يقظة فى تغفيلهم .

وتأمل : ﴿وَهَـٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ .. (٥٠)﴾ [الأنبياء] ولم يقل : هذا القرآن ، كأنه لا يُشار إلا إلى القرآن .

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ (٥١)﴾ (١)

نلاحظ أن الحق سبحانه بدأ تسليته لرسوله ﷺ بذكْر طرف من قصة موسى ، ثم ثنَّى بقصة إبراهيم ، مع أن إبراهيم عليه السلام سابقٌ لموسى ، فلماذا ؟ قالوا : لأن موسى له صلَة مباشرة باليهود وقريب منهم ، وكان اليهود معه أهلَ جَدَل وعناد .

ومعنى ﴿رُشْدَهُ .. (٥١)﴾ [الأنبياء] الرُّشْد : اهتداء العقل إلى الأكمل فى الصلاح والأعلى فى الخير ، بحيث لا يأتى بعد الصلاح فسادٌ ، ولا بعد الخير شر ، ولا يُسلمك بعد العُلو إلى الهبوط ، هذا هو الرُّشْد . أما أنْ يجرَّك الصلاح الظاهر إلى فساد ، أو يُسلمَك الخير إلى شر ، فليس فى ذلك رُشْدٌ .

---

(١) أى : من قبل النبوة . أى : وفقناه للنظر والاستدلال ، لما جَنَّ عليه الليل فرأى النجم والشمس والقمر . وقيل : « من قبل » أى : من قبل موسى وهارون . والرشد على هذه النبوة . وعلى الأول أكثر أهل التفسير . قاله القرطبى فى تفسيره (٦/٤٤٧٣) .

والآن نسمعهم يتحدثون عن الفنون الجميلة ، ويستميلون الناس بشعارات برّاقة أعجبتْ الناس حتى وصلت بهم الجرأة إلى أنْ قالوا عن الرقص : فنٌّ راقٍ وفنّ جميل .. سبحان الله ، الرقص كما قلتم لو أنه فعلاً راقٍ وجميلٌ ، وظل كذلك إلى آخر الطريق ، ولم ينحدر إلى شىء قبيح وهابط ، ماذا يحدث حين يجلس الرجل أمام راقصة تُبدى من مفاتنها وحركاتها مَا لاَ تُحسنه زوجته فى البيت ؟ كم بيوت خَرِبَتْ وأُسَر تهدمت بسبب راقصة ، فأىُّ رقىٍّ ؟ وأىُّ جمال فى هذا الفن ؟!

لذلك ؛ فالإمام على ـ كرَّم الله وجهه ـ لخَّص هذه المسألة فقال : « لا شَرَّ فى شَرٍّ بعده الجنة ، ولا خيرَ فى خير بعده النار » .

إذن : على الإنسان أن ينتبه إلى الرُّشْد الذى هو اهتداء العقل إلى الصالح الأعلى أو إلى الكمال الأعلى أو الخير الأعلى . وهذا الرُّشْد له اتجاهان : رُشْد البِنْية ، ورُشْد المعنى .

رُشْد البِنْية وهو اكتمال تكوين الإنسان بحيث يُؤدِّى كل جهاز فيه وظيفته ، وهذا لا يكون إلا بعد سنِّ البلوغ ، وقد جعل الخالق سبحانه استواء الأعضاء التناسلية دليلاً على اكتمال هذا الرُّشْد حين يصير المرء قادراً على إنجاب مثله .

وهذا واضح فى الثمار حيث لا يحلو مذاقها إلا بعد نضجها واكتمال بذرتها لتكون صالحة للإنبات إذا زرعتها ، وهذا من حكمة الخالق ـ سبحانه وتعالى ـ فنأكل الثمرة ونستبقى نوعها ببذرتها الصالحة ، أمّا لو استوت الثمرة للأكل قبل نُضْج بذرتها لأكلنا الثمار الموجودة ولم نستبق نوعها فتنقرض .

لذلك ، من حكمة الله أيضاً أن الثمرة إذا استوتْ ونضجَتْ ولم تجد مَنْ يقطفها تسقط من تلقاء نفسها ، وتُجدِّد دورتها فى الحياة .

ولأمر ما جعل الله التكليف بعد البلوغ ، فلو كلّفك قبل البلوغ لوجدتَ فى التكاليف نَهْياً عن بعض الأمور التى لا تعرفها ولا تدركها . وقد تعترض على ربك : كيف أفعل يا ربّ وقد جاءتنى هذه الغريزة ففعلتْ بى كذا وكذا .

ولكل آلة وجهاز فى جسم الإنسان رُشْد يناسبه ، ونمو يناسب تكوينه ، فمثلاً عَيْن الطفل وفمه وأصابع يده كلها تنمو نمواً مناسباً لتكوين الطفل .

أما الأسنان ففيها حكمة بالغة من الخالق عز وجل ، فقد جعل للطفل فى المرحلة التى لا يستطيع فيها تنظيفَ أسنانه بنفسه ، ولا حتى يستطيع غيره تنظيفها جعل له (طقماً) احتياطياً من الأسنان ، يصاحبه فى صغَره تُسمَّى الأسنان اللبنية ، حتى إذا ما شَبَّ وكَبِر واستطاع أنْ يُنظِّف أسنانه بنفسه أبدله الله (طَقْماً) آخر يصاحبه طوال عمره .

وهناك رُشْد أعلى ، رُشْد فكرى معنوى ، رُشْد يستوى فيه العقل والتفكير ويكتمل الذِّهْن الذى يختار ويُفَاضل بين البدائل ، فقد يكتمل للمرء رُشْده البُنيانى الجسمانى دون أنْ يكتملَ عقله وفكْره ، وفى هذه الحالة لا نُمكِّنه من التصرف حتى نختبره ، لنعلم مدى إحسانه للتصرف فيما يملك ، فإنْ نجح فى الاختبار فلْنُعْطه المال الذى له ، يتصرف فيه كما جاء فى قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم[1] مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ .. ﴿٦﴾ ﴾ [النساء] أى : لا تنتظر حتى يكبر ، ثم تعطيه

(١) آنس الشىء : أدركه وأحسَّه ببصره ، أو بعلمه وفكره . وقوله ﴿فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا .. ﴿٦﴾ ﴾ [النساء] . أى : عملتم وأدركتم إدراكاً معنوياً . [القاموس القويم ١/٣٧] .

ماله ، يفعل فيه ما يشاء دون خبْرة ودون تجربة ، إنما تختبره وتَشْركه فى خِضَمِّ الحياة ومعتركها ، فيشبّ مُتمرِّساً قادراً على التصرف السليم .

وفى آية أخرى قال تعالى : ﴿وَلا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ .. (٥)﴾ [النساء] لأنهم إنْ بلغوا الرُّشْد البدنىّ فلم يبلغوا الرُّشْد العقلى ، وإياك أن تقول : هو ماله يتصرف فيه كما يشاء ، فليس للسفيه مال بدليل : ﴿وَلا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ .. (٥)﴾ [النساء] ولم يقُلْ : أموالهم ، فهو مالُكَ تحافظ عليه كأنه لك ، وأنت مسئول عنه أمام الله ، ولا يكون مال السَّفيه له إلا إذا أحسنَ التصرف فيه .

ومن الرُّشْد ما سماه القرآن الأشُدّ : ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي[1] أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ .. (١٥)﴾ [الأحقاف]

والأشُدُّ هو : التسامى فى الرُّشْد وقال هنا (أربعين سنة) مع أننا ذكرنا أن الإنسان يبلغ رُشْد البِنْية ورُشْد العقل بعد سنِّ البلوغ فى الخامسة عشرة تقريباً ، إذن : مَنْ لم يرشُدْ حتى الأربعين فلا أملَ فيه ، والنار أَوْلَى به ؛ لأنه حين يكفر أو ينحرف عن الطريق فى عنفوان شبابه وقوته نقول : شراسة الشباب والشهوة والمراهقة ، إلى آخر هذه الأعذار فإذا ما بلغ الأربعين فما عذره ؟

وإذا لم يتلقَّ مبادىء الرُّشْد فى صِغَره وفى شبابه ، فلا شكَّ أنه سيجد فى أحداث الحياة طوال أربعين سنة واقعاً يُرشده قَهْراً عنه ،

---

(١) أوزعه أن يفعل كذا : دفعه وحثَّه وأغراه . أو ألهمه وأرشده ، قال تعالى : ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ .. (١٥)﴾ [الأحقاف] . أى : ألهمنى شكرك وادفعنى إليه وحبِّبه إلىَّ . [القاموس القويم ٢/٣٣٤] .

حيث يرى أعماله وعواقبها وأخطاءه وسقطاته ، وينبغى أنْ يأخذ منها درساً عملياً نظرياً فى الرُّشْد .

ومن ذلك ما نسمعه من مصطلحات معاصرة يقولون « الرشد السياسى » ويقولون « ترشيد الاستهلاك » ، ما معنى هذه المصطلحات ؟ معناها أن أحداث الحياة وتجاربها وعدم الرُّشْد فى مسيرتهم عضَّت الناس ، وألجأتْهم إلى التفكير فى ترشيد يُذهب هذا الفساد .

إذن : فالرُّشْد للذات والترشيد للغير كما نفعل فى ترشيد استهلاك القمح مثلاً وكنا نعلف به المواشى ، حتى أصبحنا لا نجده ؛ لذلك بدأنا فى ترشيد استهلاك رغيف الخبز وصرْنا نقسمه أربعة أقسام ، ونأكل بحساب ، ولا نهدر شيئاً ، وما يتبقى يتبقى نظيفاً نأكله فى وَجْبة أخرى .

وقد لا يكون عند الخباز نفسه ترشيد ، فيُخرج الرغيف قبل استوائه فتجده عجيناً ، كله لبابة ، فتأتى ربة البيت الواعية فتفتح الرغيف قبل وضعه على المائدة ، وتُخرِج منه هذه اللبابة ، وتجمعها ثم تُحمِّصها فى الفرن ، وتصنع منها طعاماً آخر .

وما يقال فى « ترشيد الخبز » يقال فى « ترشيد الماء » ، وقد أمرنا رسول الله بترشيد استهلاك الماء حتى فى الوضوء الذى هو قربى إلى الله .

هذا الرُّشْد الذى وصفنا رُشْد كل عاقل غير الرسل ، وهو أنه يهتدى إلى قضايا حياته ، ويتصرّف فيها تصرفاً سليماً ، إنما مقتضى نتيجة هذا الصلاح فى الدنيا ، أما الرسل فلهم رُشْد آخر ، رُشْد أعلى للدنيا وللآخرة ، وهذه هبة من الله للرسل .

قال تعالى فى حَقِّ إبراهيم عليه السلام : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ .. (٥١) ﴾ [الأنبياء] وكأن رُشْد إبراهيم لا يخضع لهذه القواعد ، ولا يرتبط ببلوغ ، ولا نبوة ، بل هو رُشْد سابق لأوانه منذ أنْ كان صغيراً يتأمل فى النجوم ويبحث عن ربه :

﴿ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَـٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَـٰذَا رَبِّي هَـٰذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَـٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) ﴾ [الأنعام]

فكان ـ عليه السلام ـ مُؤهَّلاً للرسالة منذ صِغَره ، ولما أُرسل ونُبِّىء ظهرتْ مواهب رُشْده حين أُلقى فى النار ، وجاءه جبريل ـ عليه السلام ـ يعرض عليه المساعدة ، فيقول إبراهيم : أما إليك فلا . وهذه أول بشائر الرشد الفكرى والعقدى عند إبراهيم .

وفى حَقِّه قال تعالى : ﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ .. (١٢٤) ﴾ [البقرة] أى : اختبره فى أشياء فأتمهُنَّ وأتى بهنّ على أكمل وجه ، منها : أنه طلب منه أنْ يرفعَ قواعد البيت ، وكان يكفى أن يرفع إبراهيم قواعد البيت إلى ما تطول يده ، إنما إبراهيم عليه السلام كان حريصاً أنْ يتم الأمر على أكمل وجه ، فيفكر ويحتال فى أنْ يأتىَ بحجر ويقف عليه ليرفع البناء بمقدار الحجر ، ويساعده ولده الصغير إسماعيل فيناوله الحجارة ، لكن الولد الصغير تتزحلق قدماه حينما يرفع الحجارة لأبيه ، فيحتال على هذا الأمر فيحفر فى الحجر على قَدْر قدميه حتى يثبت ، وهاتان القدمان نشاهدهما حتى الآن فى حِجْر إسماعيل .

إذن : كان عنده عِشْق للتكاليف وحِرْص على إتمامها .

وقوله تعالى : ﴿وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ (٥١)﴾ [الأنبياء] هذا واضح فى قوله تعالى : ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ .. (١٢٤)﴾ [الأنعام]

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (٥٢)﴾

أى : اذكر يا محمد ، إذ قال إبراهيم لأبيه وقومه ﴿مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ .. (٥٢)﴾ [الأنبياء]

والتماثيل : جمع تمثال ، وهو مأخوذ من مِثْل أو مَثَل ، ومِثْل الشىء يعنى : شبيهه ونظيره ، وكانوا يعمدون إلى الأشياء التى لها جِرْم ويُصوِّرونها على صورة أشياء مخلوقة لله تعالى ، كصورة الإنسان أو الحيوان ، من الحجر أو الحديد أو الخشب أو غيرها ويُسمُّونه تمثالاً ، ويُقيمونه ليعبدوه .

وكانوا يبالغون فى ذلك : فهذا من الحجر ، وهذا من المرمر ، وهذا صغير ، وهذا كبير ، وقد يضعون فى عينيه خرزتين ليظهر للرائى أن له نظراً ، وهى ألوان من التفنن فى هذه الصناعة .

فإبراهيم ـ عليه السلام ـ يقول مستنكراً لأبيه وقومه ﴿مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (٥٢)﴾ [الأنبياء]

فالاستفهام هنا على غير حقيقته ، بل هو استفهام إنكارى يحمل لهجة الاستهزاء والسخرية والتقريع ، ولابد أنه ألقى عليهم هذا السؤال بشكل أدائى يُوحى بالتقريع .

وسبق أنْ تحدّثنا فى معنى (أبيه) هنا وقلنا : المراد عَمُّه ،

بدليل قوله فى موضع آخر : ﴿لأَبِيهِ آزَرَ .. (٧٤)﴾ [الأنعام] فقد بدأ المسألة بأبيه أو عمه ، وهو أقربُ الناس إليه ، يريد أن يطمئنَ الناسُ إلى ما يدعو إليه ، وأنه خير ، وإلا ما بدأ بأبيه .

وأيضاً لأن القومَ قد لا يكونُ لهم فى نفسه تأثير هَيْبة أو حُبٍّ إنما الهيبة والحب موجود بالنسبة لأبيه أو لعمه ، ومع ذلك لم تمنعه هذه الهيبة أنْ يُسفِّه كلامهم وأفعالهم الباطلة ، كما جاء فى قول الله تعالى :

﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٢٤)﴾ [التوبة]

وقد وقف المفسرون عند اللام فى قوله تعالى : ﴿لَهَا عَاكِفُونَ (٥٢)﴾ [الأنبياء] مع أن المعنى : يعكفون على عبادتها ، كما جاء فى آية أخرى : ﴿فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ .. (١٣٨)﴾ [الأعراف] وهنا جاءت باللام ؛ لذلك قال بعضهم : اللام هنا بمعنى على ، فلماذا عدَل عن على إلى اللام ؟

ولو تنبَّهنا لمعطيات الألفاظ ﴿لَهَا عَاكِفُونَ (٥٢)﴾ [الأنبياء] نقول : الاعتكاف : هو الإقامة . فلان عاكف فى المسجد يعنى : على الإقامة فى المسجد ، فكلمة عاكفون وحدها تعطى معنى (على) أى : لصالح هذه الآلهة . أمّا اللام فلشىء آخر ، اللام هنا لام الملكية والنفعية . وذكروا لها مثالاً آخر فى قوله تعالى : ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ .. (١٠٤)﴾ [الأنبياء]

السِّجل هو : القرطاس والورق الذى نكتب فيه ، ومنه قولهم : نُسجِّل كذا يعنى : نكتبه فى السِّجل أو الورق لتحفظ ، ومعنى

﴿لِلْكُتُبِ .. (١٠٤)﴾ [الأنبياء] يعنى : الشىء المكتوب ، فكأن المعنى : نطوى الورق على ما كُتِب فيه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ (٥٣)﴾

إذن : لا حُجَّة لهم فى عبادتهم لهذه التماثيل التى صنعوها وأقاموها بأنفسهم ، إلا أنهم رأَوْا آباءهم يعبدونها ، فحُجَّتهم التقليد الأعمى ، ولو كان عندهم حجة لذاتية العمل لَقالُوها .

وفى موضع آخر قالوا : ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ (٢٣)﴾ [الزخرف] إذن : نعيب عليهم هذا التقليد ونعيب على آبائهم أيضاً ، فكيف يكون رَدُّ إبراهيم إذن ؟

وكلمة ﴿عَابِدِينَ (٥٣)﴾ [الأنبياء] هنا تعبير عن أن عبادتهم لهم عبادة عن غير فَهْم ، لأن العبادة طاعة عابد لأوامر معبوده ، فبماذا أمرتهم الأصنام ؟

ثم يقول الحق سبحانه عن إبراهيم أنه قال لقومه :

﴿قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٥٤)﴾

أراد أنْ يُرشِّد هذا السَّفَه فقال : أنتم فى ضلال ؛ لأنكم قلّدتم فى الإيمان ، والإيمان لا يكون بالتقليد ، وآباؤكم لأنهم اخترعوا هذه المسألة وسنُّوهَا لكم .

ومن العجيب أنْ يُقلِّدوا آباءهم فى هذه المسألة بالذات دون غيرها ، وإلاَّ فَمن الذى يظل على ما كان عليه أبوه ، ونحن نرى كُلَّ جيل يأتى بجديد مِمَّا لم يكُنْ معروفاً للجيل السابق .

لذلك يقولون : الناس بأزمانهم أشبه منهم بآبائهم ، فلكُل زمن وَضْعه وارتقاءاته ، وأنت تتحكم فى ولدك ما دام صغيراً ، فيأكل الولد ويشرب ويلبس حَسْب ما تحب أنت ، فإذا ما شبَّ وكَبر صارتْ له شخصيته الخاصة وفكْره المستقلّ ، فيختار هو مَأْكله ومَلْبسه ، والكلية التى يدخلها ، وربما انتقدكَ فى بعض الأمور .

إذن : هؤلاء قلَّدوا آباءهم فى هذه المسألة دون غيرها ، فلماذا مسألة الإيمان بالذات تتمسَّكون فيها بالتقليد ؟ ولو أن كُلَّ جيل جاء صورة طِبْق الأصل لسابقه لما تغيَّر وَجْه الحياة ، ففى هذا دلالة على أن لكل جيل ذاتيته المستقلة وفِكْره الخاص .

لقد قلَّد هؤلاء آباءهم فى هذه العبادة دون غيرها من الأمور ؛ لأنها عبادة وتديُّن بلا تكليف ، وآلهة بلا منهج ، لا تُضيِّق عليهم فى شىء ، ولا تمنعهم شيئاً مما أَلِفُوه من الشهوات ، فهو تديُّن بلا تَبِعة .

لذلك ؛ فالحق سبحانه يردُّ عليهم فى أسلوبين مختلفين ، فمرة يقول تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ (١٧٠) ﴾ [البقرة]

وفى موضع آخر يقول : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ (١٠٤) ﴾ [المائدة]

ونلحظ أن عَجُزَ الآيتين مختلف ، فمرة : ﴿ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا .. (١٧٠) ﴾ [البقرة] ومرة : ﴿ لا يَعْلَمُونَ شَيْئًا .. (١٠٤) ﴾ [المائدة] فلماذا ؟

قالوا : لأن عَجُزَ كل آية مناسب لصَدْرها ، وصَدْر الآيتين مختلف ، ففى الأولى قالوا ﴿ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا .. (١٧٠) ﴾

[البقرة] فيمكن أن نتبع هذا أو هذا ، دون أنْ يقصروا أنفسهم على شىء واحد .

وفى الثانية قالوا : ﴿حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا .. (١٠٤)﴾ [المائدة] يعنى : يكفينا ، ولا نريد زيادة عليه ، فقصَروا أنفسهمْ على ما وجدوا عليه آباءهم .

لذلك قال فى عَجُز الأولى : ﴿لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا .. (١٧٠)﴾ [البقرة] وفى عَجُز الثانية ﴿لاَ يَعْلَمُونَ شَيْئًا .. (١٠٤)﴾ [المائدة] لأن العاقل هو الذى يهتدى إلى الأمر بذاته .

أمّا الذى يعلم فيعلم ما عَقله هو ، وما عَقله غيره ، إذن : فدائرة العلم أوسع من دائرة العقل ؛ لأن العقل يهتدى للشىء بذاته ، أمَّا العلم فيأخذ اهتداء الآخرين .

فكان ردُّهم :

﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا بِٱلۡحَقِّ أَمۡ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ (٥٥)﴾

يعنى : أهذا الكلام يا إبراهيم جدٌّ ؟ أم أنك تَهْزر معنا ؟ كأنهم يستبعدون أن يكون كلام إبراهيم جداً ؛ لأنه بعيد عن مداركهم .

﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمۡ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ (٥٦)﴾

يردّ إبراهيم : لقد جئتكم بالحق الذى يقول : إن هذه الأصنام لا تُعبد ، بل الذى يستحق العبادة هو الله ربُّ السموات والأرض : ﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الَّذِى فَطَرَهُنَّ .. (٥٦)﴾ [الأنبياء] فـ (بل) تُضرب عما قبلها ، وتُثبت الحكم لما بعدها

﴿الَّذِى فَطَرَهُنَّ .. (٥٦)﴾ [الأنبياء] يعنى : خلق السموات والأرض والأصنام ، وكل ما فى الوجود .

﴿وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ (٥٦)﴾ [الأنبياء] والشاهد هو الذى اهتدى إلى الحق ، كأنه رأى العَيْن ، وليس مع العين أيْن ، واهتدى إلى الدليل على هذا الحق ، فقال : أنا شاهد على أن ربكم ربّ السموات والأرض ومعى الدليل على هذه الحقيقة .

﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ (٥٧)﴾

بعد ما حدث منهم من لجج وجدال بالباطل أقسم إبراهيم عليه السلام ﴿تَاللَّهِ .. (٥٧)﴾ [الأنبياء] والتاء هنا للقسم ﴿لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم .. (٥٧)﴾ [الأنبياء] وهل الأصنام تُكَاد ؟ أم أن المراد : لأكيدنكم فى أصنامكم ؟ فالأصنام كمخلوق من مخلوقات الله تُسبِّح لله ، وتشكر إبراهيم على هذا العمل .

وما أجملَ ما قاله الشاعر[1] فى هذا المعنى حين تكلَّم بلسان الأحجار فى غار حراء وغار ثور ، حيث كانت الحجارة تَغَارُ وتحسد حراء ؛ لأن المصطفى ﷺ كان يتعبَّد به قبل البَعْثة ، فحراء شاهدُ تعبُّد لرسول الله يزهو بهذه الصحبة ، فلما نزل رسول الله بغار ثور عند الهجرة فرح ثور ؛ لأنه صار فى منزلة حراء :

كَمْ حَسَدْنَا حِرَاءَ حِينَ تَرَى ... الرُّوحَ أميناً يغزُوكَ بالأَنْوارِ
فَحِرَاءُ وثَوْرٌ صَارَا سَواءً ... بِهِمَا تشفع لدولة الأحْجَارِ
عَبَدُونَا ونحْنُ أعبَدُ ... للّه منَ القائمينَ بالأسْحَارِ
تخِذُوا صَمْتَنَا علينَا دَليلاً ... فَغَدَوْنَا لَهُمْ وقُودَ النَّارِ

---

(١) من شعر الشيخ ـ رضى الله عنه ـ فى قصيدة عن الهجرة .

لأن الله قال : ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ .. (٢٤)﴾ [البقرة]

قَدْ تَجَنَّوْا جَهْلاً كما قَدْ تَجَنَّوْهُ علَى ابْنِ مرْيَم والحَوارِى
لِلْمُغَالِى جَزَاؤُهُ وَالمغالَى فِيهِ تُنجيهِ رَحْمَةُ الغَفَّار

إذن : فتحطيم الأصنام ليس كَيْداً للأصنام ، بل لعُبَّادها الذين يعتقدون فيها أنها تضرُّ وتنفع ، وكأن إبراهيم - عليه السلام - يقيم لهؤلاء الدليل على بطلان عبادة الأصنام ، الدليل العملى الذى لا يُدْفَع وكأن إبراهيم يقول بلسان الحال : حين أُكسِّر الأصنام إنْ كنتُ على باطل فليمنعُونى وليردّوا الفأْسَ من يدى ، وإنْ كنتُ على حق تركونى وما أفعل .

وقوله تعالى : ﴿بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ (٥٧)﴾ [الأنبياء] أى : بعد أنْ تنصرفوا عنها . يعنى : على حين غَفْلَة منهم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ (٥٨)﴾

ونلحظ هنا أن السياق القرآنى يحذف ما يُفهم من الكلام ، كما فى قصة سليمان - عليه السلام - والهدهد : ﴿اذْهَب بِّكِتَابِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ (٢٨)﴾ [النمل] وحَذْف مَا كان من الهدهد ورحلته إلى بلقيس ، وإلقائه الكتابَ إليها ، وأنها أخذتْه وعرضتْه على مستشاريها : ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّى أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (٢٩)﴾ [النمل]

ومعنى ﴿جُذَاذًا .. (٥٨)﴾ [الأنبياء] أى : قطَعاً متناثرة وحطاماً ،

بعد أنْ كانت هياكل مجتمعة ﴿إِلاَّ كَبِيرًا لَّهُمْ .. (٥٨)﴾ [الأنبياء] أى : أنه تركه فلم يحطمه ، وقد كانوا يضعون الأصنام على هيئة خاصة و(ديكور) ، بحيث يكون الكبير فى الوسط ، وحوله الأصنام الصغيرة يعنى : كأن له سيطرةً عليهم ومنزلة بينهم ، وكانوا يضعون فى عينه الزبرجد ، حتى يُخيَّل لمَنْ يراه أنه ينظر إليه .

وقوله : ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ (٥٨)﴾ [الأنبياء] فيسألونه عمَّا حدث لأولاده الآلهة الصغار ، ولماذا لم يدافع عنهم خاصةً وقد وجدوا الفأس على كتفه ؟

﴿قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ (٥٩)﴾

أى : لما ذهبوا إلى المعبد الذى يعبدون فيه أصنامهم وجدوها مُحطمة فقالوا : ﴿مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ (٥٩)﴾ [الأنبياء] لأنه اعتدى على الآلهة السليمة وكسَّرها .

إذن : هذه الآلهة لا تستطيع أنْ تدفع عن نفسها الضر ، وكان عليهم أنْ يتنبّهوا إلى هذه المسألة ، كيف يقبلُون عبادتها ، ولو أوقعتْ الريحُ أحدَهم لكسرته ، فيحتاج الإله إلى مَنْ يُصلِح ذراعه ويُرمِّمه ويُقيمه فى مكانه ، فأىُّ ألوهية هذه التى يدافعون عن حقوقها ؟!

﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (٦٠)﴾ (١)

أى : تطوّع بعضهم وقالوا هذا ، وكان للقوم يوم مُحدّد يذهبون

---

(١) الفتى : الشاب ، وقد يُراد به الكامل من الشباب . [القاموس القويم ٢/٧٢] . قال القتيبى : ليس الفتى بمعنى الشابّ والحدَث ، إنما هو بمعنى الكامل الجزْل (الجيد الرأى العاقل) من الرجال . [لسان العرب ـ مادة : فتا] . قال ابن عباس فيما أخرجه ابن أبى حاتم وذكره ابن كثير فى تفسيره (٣/١٨٢) : « ما بعث الله نبياً إلا شاباً ، ولا أُوتِى العلم عالم إلا وهو شاب » .

فيه إلى معبدهم ومكان أصنامهم ، ويأخذون طعامهم وشرابهم ، ويبدو أنه كان يَوْمَ عيد عندهم ، وقد استعدّ آزر لهذا اليوم ، وأراد أنْ يأخذ معه إبراهيم لعلَّ الآلهة تجذبه فيهتدى وينصرف عَمَّا هو فيه .

لكن إبراهيم عليه السلام ادّعى أنه مريض ، لا يستطيع الخروج معهم ، فقال ﴿إِنِّي سَقِيمٌ(١) (٨٩)﴾ [الصافات] وعندها عزم إبراهيم على تحطيم أصنامهم وقال : ﴿تَاللَّهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ (٥٧)﴾ [الأنبياء] سمعه بعض القوم فأخبرهم بأمره .

﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ .. (٦٠)﴾ [الأنبياء] والذكْر هنا يعنى بالشر بالنسبة لهم ، ﴿يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (٦٠)﴾ [الأنبياء] يعنى : اسمه إبراهيم ، أو حين نناديه نقول : يا إبراهيم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (٦١)﴾

ومعنى ﴿عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ .. (٦١)﴾ [الأنبياء] يعنى : على مَرْأىً منهم ليشاهدوه بأعينهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (٦١)﴾ [الأنبياء] أى : يشهدون ما نُوقعه به من العذاب حتى لا يجترىء أحد آخر أنْ يفعل هذه الفعْلة ، ويكون عبرةً لغيره .

﴿قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ (٦٢)﴾

هنا أيضاً كلام محذوف : فأتَوْا به ، ثم سألوه هذا السؤال ، والاستفهام ﴿أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا .. (٦٢)﴾ [الأنبياء] استفهام عن الفاعل ؛

---

(١) قال تعالى : ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ (٨٨) فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ (٨٩)﴾ [الصافات] . قال قتادة : والعرب تقول لمن تفكر : نظر فى النجوم ، يعنى قتادة أنه نظر إلى السماء متفكراً فيما يلهيهم به فقال ﴿إِنِّي سَقِيمٌ (٨٩)﴾ [الصافات] . أى : ضعيف . [تفسير ابن كثير ١٣/٤] .

لأن الفعلَ واضح لا يحتاج إلى استفهام ؛ لذلك لم يقُلْ : أفعلتَ هذا يا إبراهيم ، بل اهتم بالفاعل : ﴿أَأَنتَ فَعَلْتَ هَـٰذَا .. (٦٢)﴾ [الأنبياء] كما تقول : أبنيتَ الدار التى كنتَ تنوى بناءها ؟ فهذا استفهام عن الفِعْل ، إنما أأنت بنيت الدار ، فالمراد الفاعل .

﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَـٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ (٦٣)﴾

وكأنه يريد أنْ ينتزعَ منهم الإقرار بأن هذا الكبير لا يفعل شيئاً ، فيُواجههم : فلماذا ـ إذن ـ تعبدونهم ؟

وقَوْل إبراهيم ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَـٰذَا .. (٦٣)﴾ [الأنبياء] فيه توبيخ وتبكيت لهم ، حيث رَدَّ الأمر إلى مَنْ لا يستطيعه ولا يتأتّى منه ، وقد ضرب الزمخشرى ـ رحمه الله ـ مثلاً لذلك برجل جميل الخطِّ ، وآخر لا يُحسِن الكتابة ، فيرى الأخيرُ لوحة جميلة ، فيقول للأول : أأنت كاتب هذه اللوحة ؟ فيقول : لا بل أنت الذى كتبتَها !! تبكيتاً له وتوبيخاً .

ثم يُصرِّح إبراهيم لهم بما يريد : ﴿فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ (٦٣)﴾ [الأنبياء] وهم لن يسألوهم ؛ لأنهم يعرفون حقيقتهم .

﴿فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ (٦٤)﴾

أى : تنبّهوا وعادوا إلى عقولهم ، ونطقوا بالحق : ﴿إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ (٦٤)﴾ [الأنبياء] يعنى : بعبادتكم هذه الأصنام ، وأنتم تعلمون أنها لا تنفع ولا تضرُّ ، ولا ترى ولا تتكلم .

هكذا واجهوا أنفسهم بهذه الحقيقة وكشفوا عن بطلان هذه

العبادة ، لكن هذه الصحوة ستكون على حسابهم ، وخسارتهم بها ستكون كبيرة ، هذه الصحوة ستُفقدهم السُّلْطة الزمنية التى يعيشون فى ظلها ، وينتفعون من ورائها بما يُهدَى للأصنام ؛ لذلك سرعان ما يتراجعون ويعودون على أعقابهم بعد أن غلبهم الواقع وتذكَّروا ما تجرُّه هذه الصحوة :

﴿ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ (١) لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ (٦٥) ﴾

فبعد أنْ جابهوا أنفسهم بالحق ﴿ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ .. (٦٥) ﴾ [الأنبياء] والنكسة : أن الأعلى يأتى فى الأسفل ، وأنتم تعلمونها طبعاً !! ورجعوا يقولون له نفس حجته عليهم : ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ (٦٥) ﴾ [الأنبياء] وهذا هو التغفيل بعينه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ (٦٦) ﴾

يعنى : لا ينفعكم بشىء إنْ عبدتموه ولا يضرّكم بشىء إنْ تركتم عبادته .

﴿ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٦٧) ﴾

---

(١) أى : عادوا إلى الضلال والانتصار لآلهتهم المحطّمة بعد أن أرشدهم إبراهيم عليه السلام إلى أنها عاجزة لا تصلح آلهة . [القاموس القويم ٢/٢٨٧] .

أفٍّ : اسم فعل بمعنى أتضجر ، فليس اسماً ، ولا فعلاً ، ولا حرفاً ، إنما (أف) اسمٌ مدلوله فعل ، ففيه من الاسمية ، وفيه من الفعلية ؛ لذلك يسمونها « الخالفة » لأن كلام العرب يدور على اسم أو فعل أو حرف ، مثل هيهات : اسم فعل بمعنى بَعُدَ . فإبراهيم - عليه السلام - يعبِّر بهذه الكلمة (أُفٍّ) عن ضيقه وتضجُّره ممَّا يفعل قومه من عبادة الأصنام من دون الله .

﴿ قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَانصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾

ونلحظ قولهم ﴿ حَرِّقُوهُ .. ﴿٦٨﴾ ﴾ [الأنبياء] بالتضعيف الدالّ على المبالغة ، ولم يقولوا مثلاً : احْرقوه ، وقد اجتمعوا على هذا الفعل فبنَوْا بناءً وضعوا فيه النار ، ومكَثوا أربعين يوماً يسجرونها[1] بكل ما يمكن أن يشتعل ، وبذلك اشتدت حرارة النار ، حتى إن الطير الذى يمرُّ فوق هذه النار كان يسقط مشوياً من شدة حرها[2] .

والدليل على ذلك أنهم لما أرادوا إلقاء إبراهيم فى النار لم يستطيعوا الاقتراب منها لشدة لَفْحها ، فصنعوا له مِنجنيقاً لِيُلْقُوه به فى النار من بعيد .

وقولهم : ﴿ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ .. ﴿٦٨﴾ ﴾ [الأنبياء] حسب اعتقادهم كأن المعركةَ بين إبراهيم والآلهة ، والحقيقة أن الآلهة التى يعبدونها مع إبراهيم وليست ضده ، فالمعركة - إذن - بين إبراهيم وبين عُبَّاد الأصنام .

---

(١) سجر التنور يسجره سَجْراً : أوقده وأحماه . وقيل : أشبع وقوده . [لسان العرب - مادة : سجر] .

(٢) قال ابن إسحاق : جمعوا الحطب شهراً ثم أوقدوها ، واشتعلت واشتدت ، حتى أنْ كان الطائر ليمرّ بجنباتها فيحترق من شدة وهجها . [ذكره القرطبى فى تفسيره ٦/٤٤٨١]

وقولهم : ﴿إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ (٦٨)﴾ [الأنبياء] يعنى : إنْ فعلتم شيئاً بإبراهيم فَحرِّقوه .

ثم يقول الحق سبحانه عن إنجائه لإبراهيم ـ عليه السلام ـ من هذه المَحْرَقَة :

﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ (٦٩)﴾

جاء هذا الأمر من الحق الأعلى سبحانه ؛ ليخرق بالمعجزة نواميسَ الكون السائدة ، ولا يخرق الناموسَ إلا خالقُ الناموس ، كما قلنا فى قصة موسى عليه السلام : الماء قانونه السيولة والاستطراق ، ولا يسلبه هذه الخاصية إلا خالقه ؛ لذلك فَرَقه لموسى فُرْقاناً ـ كما قلنا ـ كلُّ فرْق كالطَّوْد العظيم ، فلا يُعطّل قانون الأشياء إلا خالقها ؛ لأن الأشياء لم تُخلق لتكون لها القدرة على قيُّومية نفسها ، بل مخلوقة تُؤدِّى مهمة ، والذى خلقها للمهمة هو القادر أنْ يسلبَها خواصّها .

وفَرْق بين فعْل العبد وفعْل الحق سبحانه : فلو أنَّ فى يدك مسدساً ، وأنت تُحسن التصويب ، وأمامك الهدف ، ثم أطلقتَ تجاه الهدف رصاصةً ، أَلَكَ تحكُّمٌ فيها بعد ذلك ؟ أيمكن أنْ تأمرها أنْ تميلَ يميناً أو شمالاً ؟

لكن الحق سبحانه يتحكّم فيها ، ويُسيِّرها كيف يشاء ، فالحق سبحانه خلق النار وخلق فيها خاصية الإحراق ، وهو وحده القادر على سلْب هذه الخاصية منها ، فتكون ناراً بلا إحراق ، فليس للنار قيومية بذاتها .

لذلك يقول البعض : بمجرد أنْ صدر الأمر : ﴿يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَامًا .. (٦٩)﴾ [الأنبياء] انطفأت كل نار فى الدنيا ، فلما قال : ﴿عَلَىٰٓ إِبْرَاهِيمَ (٦٩)﴾ [الأنبياء] أصبح الأمر خاصاً بنار إبراهيم دون غيرها ، فاشتعلت نيران الدنيا عدا هذه النار . ونلحظ أن الحق سبحانه قيَّد بَرْداً بسلام ؛ لأن البرد المطلق يؤذى[1] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ (٧٠)﴾

والمراد بالكيد هنا مسألة الإحراق ، ومعنى الكيد : تدبير خفىّ للعدو حتى لا يشعر بما يُدبَّر له ، فيحتاط للأمر ، والكيد يكون لصالحِ الشىء ، ويكون ضده ، ففى قوله تعالى : ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ .. (٧٦)﴾ [يوسف]

أى : لصالحه فلم يقُلْ : كِدْنا يوسف إنما كِدْنا له ، وقالوا فى الكيد : إنه دليل ضعف وعدم قدرة على المواجهة ، فالذى يُدبِّر لغيره ، ويتآمر عليه خُفْية ما فعل ذلك إلاّ لعدم قدرته على مواجهته .

لذلك يقولون : أعوذ بالله من قبضة الضعيف ، فإنِّى قوىٌّ على قبضة القوى . فإذا ما تمكّن الضعيف من الفرصة لا يدعها ؛ لأنه لا يضمنها فى كل وقت ، أما القوى فواثق من قوته يستطيع أن ينال خَصْمه فى أىِّ وقت ، ومن هنا قال الشاعر :

وَضَعِيفَةٌ فَإِذَا أَصَابَتْ فُرْصَةً ... قتلتْ كَذلكَ قُدْرَةُ الضُّعفَاءِ

---

(١) قال ابن عباس : لو لم يتبع بردها (سلاماً) لمات إبراهيم من بردها ، فلم يبق فى الأرض يومئذ نار إلا طفئت ، ظنت أنها هى تعنى ، أخرجه الفريابى وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم [قاله السيوطى فى الدر المنثور ٥/٦٤٠] .

لذلك استدلوا على ضعف النساء بقوله تعالى : ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [يوسف] وما دام أن كيدهن عظيم ، فضعفُهن أيضاً عظيم أو حتى أعظم .

ثم يقول تعالى : ﴿فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾﴾ [الأنبياء] والأخسرون جمع أخسر ، على وزن أفعل ؛ ليدل على المبالغة فى الخُسْران ، وقد كانت خسارتهم فى مسألة حَرْق إبراهيم من عدَّة وجوه : أولاً أن إبراهيم عليه السلام لم يُصِبْه سوء رغم إلقائه فى النار ، ثم إنهم لم يَسْلَموا من عداوته ، وبعد ذلك سيُجازون على فِعْلهم ، هذا فى الآخرة ، فأىُّ خُسْران بعد هذا ؟

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾﴾

﴿نَجَّيْنَاهُ .. ﴿٧١﴾﴾ [الأنبياء] يعنى : كان هناك شرٌّ يصيبه ، وأذىً يلحق به ، فنجّاه الله منه ، وهذه النجاة مستمرة ، فبعد أنْ أنجاه الله من النار أنجاه أيضاً ممَّا تعرَّض له من أذاهم .

﴿وَلُوطًا .. ﴿٧١﴾﴾ [الأنبياء] وكان لوط عليه السلام ابنَ أخ إبراهيم ﴿إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الأنبياء] أى : قلنا لإبراهيم : اترك هذه الأرض ـ وهى أرض بابل من العراق ـ واذهب إلى الأرض المقدسة بالشام ، وخُذْ معك ابن أخيك ، فبعد أنْ نجاهما الله لم يتركهما فى هذا المكان ، بل اختار لهما هذا المكان المقدس .

والأرض حينما تُوصَف يُراد بها أرضاً مُحدَّدة مخصوصة ، فإذا لم تُوصَف فتطلق على الأرض عامة إلا أن يعينها سياق الحال ، فمثلاً لما قال أخو يوسف : ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي .. ﴿٨٠﴾﴾ [يوسف]

فالسياق يُوضِّح لنا أنها أرض مصر .

لكن قوله : ﴿ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الأَرْضَ .. (١٠٤) ﴾ [الإسراء] فلم تُعيَّن ، فدلَّ ذلك على أنها الأرض عامة ، اسكنوا كُلَّ الأرض ، يعنى : تبعثروا فيها ، ليس لكم فيها وطن مستقل ، كما قال فى آية أخرى : ﴿ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأَرْضِ أُمَمًا .. (١٦٨) ﴾ [الأعراف]

فإذا أراد الله تجمعوا من الشتات ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ .. (١٠٤) ﴾ [الإسراء] أى : المرة التى سينتصرون فيها ﴿ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا (١٠٤) ﴾ [الإسراء] وهكذا يتجمَّعون فى مكان واحد ، فيسْهُلُ القضاء عليهم .

ومعنى ﴿ بَارَكْنَا فِيهَا .. (٧١) ﴾ [الأنبياء] البركة قد تكون مادية أو معنوية ، وهى الزروع والثمار والأنهار والخيرات ، أو بركة معنوية ، وهى بركة القِيَم فى الأرض المقدسة ، وهى أرض الأنبياء ، ومعالم النبوة والرسالات .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً (١) وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ (٧٢) ﴾

يعطينا الحق سبحانه هنا لقطةً من قصة إبراهيم لكن بعيدة عمّا نحن بصدده من الحديث عنه ، فقد وهب الله لإبراهيم إسحق لما دعا الله قال : ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠٠) ﴾ [الصافات] مع أنه كان عنده

---

(١) النافلة : الحفيد ؛ لأنه زيادة بعد الابن . [القاموس القويم ٢/ ٢٨٠] . قال القرطبى فى تفسيره (٦/ ٤٤٨٤) : « أى : زيادة ؛ لأنه دعا فى إسحاق ، وزيد فى يعقوب من غير دعاء ، فكان ذلك نافلة ، أى : زيادة على ما سأل ، ويُقال لولد الولد نافلة ؛ لأنه زيادة على الولد » .

إسماعيل ، لكن إسماعيل من هاجر ، وقد تحركت مشاعر الغَيْرة لدى سارة ، ووجدت فى نفسها ما تجده النساء فى مسألة الولد ، وكيف يكون لإبراهيم ولد من هاجر التى زوَّجتها له دون أن يكون لها مثْله .

لذلك ألحَّتْ سارة على إبراهيم أن يدعو الله أنْ يرزقها الولد ، فدعا إبراهيم ربه ، وأراد الحق سبحانه أن يجيب إبراهيم ، وأن يُحقِّق له ما ترجوه زوجته ، لكن أراد أن يعطيه هذا الولد فى ملحظ عقدى يُسجَّل ولا يزول عن الأذهان أبداً ، ويظلُّ الولد مقترناً بالحادثة .

فبداية قصة إسحق لما أمر الله نبيه إبراهيم فى الرؤيا أن يذبح ولده إسماعيل ، فأخبره برؤياه : ﴿ يَـٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ .. (١٠٢) ﴾ [الصافات]

أراد إبراهيم أنْ يُشرك ولده معه فى هذا الاختبار ، وألاَّ يأخذه على غرَّة حتى لا تتغير نفسه نحو أبيه فيكرهه وهو لا يعلم ما حدث ، وأراد أيضاً ألاَّ يحرم ولده من الثواب والأجر على هذه الطاعة وهذا الصبر على البلاء .

أما إسماعيل فمن ناحيته لم يعارض ، ولم يقُلْ مثلاً : يا أبت هذه مجرد رؤيا وليست وحياً ، وكيف نبنى عليها ، بل نراه يقول : ﴿ يَـٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ .. (١٠٢) ﴾ [الصافات] ولم يقُلْ : أفعل ما تقول ، فما دام الأمر من الله فافعل ما أمرتَ به ﴿ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ (١٠٢) ﴾ [الصافات]

﴿ فَلَمَّآ أَسْلَمَا .. (١٠٣) ﴾ [الصافات] أى : هما معاً إبراهيم وإسماعيل ﴿ وَتَلَّهُۥ[1] لِلْجَبِينِ (١٠٣) ﴾ [الصافات] يقال : تله يعنى جعل رأسه على

---

(١) تلَّه : ألقاه على وجهه على الأرض ، وقوله ﴿ وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ (١٠٣) ﴾ [الصافات] . أى : ألقاه وجبينه ووجهه إلى الأرض . [القاموس القويم ١/١٠١] .

التل ، وهو المكان المرتفع من الأرض ، و ﴿لِلْجَبِينِ (١٠٣)﴾ [الصافات] يعنى : جعل جبهته مباشرة للأرض ، بحيث يذبحه من قفاه ، وهذا هو الذَّبْح العاجل المثمر .

﴿وَنَادَيْنَاهُ أَن يَـٰإِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّءْيَا .. (١٠٥)﴾ [الصافات] وما دُمْتَ صدّقْتَ الرؤيا ، فلكَ جزاء الإحسان ؛ لأنك أسرعتَ بالتنفيذ مع أنها رؤيا ، كان يمكنه أن يتراخى فى تنفيذها ، لكنه بمجرد أن جاء الأمر قام وولده بتنفيذه .

إذن : الحق سبحانه لا يريد من عبده إلا أنْ يُسلِّم بقضائه ، وصدق القائل[1] :

سلِّم لربِّكَ حُكْمَهُ فلحكْمَةٍ يَقْضِيـ ـه حتى تستريح وتنْعمَا
واذْكُرْ خليلَ اللهِ فى ذَبْحِ ابنهِ إذ قال خالقه فلما أسلمَا

لذلك لا يرفع الله قضاءً يقضيه على خلقه إلا إذا رُضىَ به ، فلا أحدَ يُجبر الله على شىء . وضربنا لذلك مثلاً ـ ولله المثَل الأعلى ـ بالأب حين يدخل ، فيجد ولده على أمر يكرهه ، فيزجره أو يضربه ضربة خفيفة تُعبِّر عن غضبه ، فإنْ خضع الولد لأبيه واستكان عاد الوالد عطوفاً حانياً عليه وربما احتضنه وصالحه ، أمّا لو عارض الولد وتبجَّح فى وجه والده فإنه يشتد عليه ويُضاعِف له العقوبة ، وتزداد قسوته عليه .

وهكذا الحال مع إبراهيم ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧)﴾ [الصافات] ففدينا له إسماعيل ، ليس هذا وفقط بل ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ .. (١١٢)﴾ [الصافات] ثم زاده بأنْ جعل إسحق أيضاً نبياً مثل إسماعيل ، هذه هى مناسبة الكلام عن إسحق ويعقوب .

---

(١) الشيخ رحمه الله .

هنا يقول تعالى : ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً .. (٧٢)﴾ [الأنبياء] والنافلة : الزيادة ، وقد طلب من ربه ولداً من الصالحين ، فبشَّره الله بإسحق ومن بعده يعقوب وجميعهم أنبياء ؛ لذلك قال ﴿نَافِلَةً .. (٧٢)﴾ [الأنبياء] يعنى : أمر زائد عما طلبتَ ، فإجابة الدعاء بإسحق ، والزيادة بيعقوب ، وسرور الإنسان بولده كبير ، وبولد ولده أكبر ، كما يقولون : « أعز من الولْد ولْد الولد » والإنسان يضمن بقاء ذِكْره فى ولده ، فإن جاء ولد الولد ضَمِن ذِكْره لجيل آخر .

والهبة جاءت من الله ؛ لأن المرأة لم تكُنْ صالحة للإنجاب ، بدليل قوله تعالى : ﴿فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ[1] فَصَكَّتْ[2] وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ (٢٩)﴾ [الذاريات] فردَّ عليها : ﴿قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ .. (٧٣)﴾ [هود] أى : أنه سبحانه قادر على كل شىء.

ويقول الحق ,سبحانه : ﴿وَكُلاًّ جَعَلْنَا صَالِحِينَ (٧٢)﴾ [الأنبياء] فالحفيد نافلة وزيادة فى عطاء الذرية ، ومبالغة فى الإكرام ، ثم يمتن الله على الجميع بأن يجعلهم صالحين ، ويجعلهم أنبياء ، كما قال فى آية أخرى : ﴿وَكُلاًّ جَعَلْنَا نَبِيًّا (٤٩)﴾ [مريم]

﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ (٧٣)﴾

---

(١) الصرة : تقطيب الوجه ، والصيحة ، والجماعة ، أى : أقبلت فى صيحة من التعجب ، أو فى تقطيب وجه استبعاداً وتعجباً ، أو فى جماعة من خدمها . [القاموس القويم ١/ ٣٧٤].

(٢) الصَّك : الضرب الشديد بالشىء العريض ، وقيل : هو الضرب عامة بأى شىء كان . [لسان العرب ـ مادة : صكك] .

أئمة : ليس المقصود بالإمامة هنا السُّلْطة الزمنية من باطنهم ، إنما إمامة القدوة بأمر الله ﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا .. (٧٣)﴾ [الأنبياء] فهم لا يصدرون فى شىء إلا على هُدًى من الله .

وقوله تعالى : ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ .. (٧٣)﴾ [الأنبياء] أى : يفتح لهم أبواب الخير ويُيسِّر لهم ظروفه ؛ لأن الموفّق الذى يتوفّر لديه الاستعداد للخير يفتح الله له مصارف الخير ويُعينه عليه

﴿وَإِقَامَ الصَّلاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ .. (٧٣)﴾ [الأنبياء] وإقامة الصلاة هى : عَيْن الخيرات كلها ؛ لأن الخيرات نعمة ، لكن إقامة الصلاة حضرة فى جانب المنعِم سبحانه ، فالصلاة هى خَيْر الخَيْر .

ومع ذلك نجد مَنْ يتشاغل عن الصلاة ، ويعتذر بالعمل وعدم الوقت ... الخ وكلها أعذار واهية ، فكنتُ أقول لبعض هؤلاء : بالله عليك لو احتجتَ دورة المياه أتجد وقتاً أم لا ؟ يقول : أجد الوقت ، فلماذا ـ إذن ـ تحتال فى هذه المسألة وتدبر الوقت اللازم ، ولا تحتال فى وقت الصلاة ؟

وربك عز وجل لو علم منك أنك تُجيب نداءه لَسهَّل لك الإجابة ، وقد رأينا الحق سبحانه يُسخِّر لك حتى الكافر ليعينك على أمر الصلاة .

ففى إحدى سفرياتنا إلى بلجيكا رأينا أن أولاد المسلمين هناك لا يدرسون شيئاً من الدين الإسلامى فى المدارس ، بل يُدرِّسون لهم الدين المسيحى ، فطلبنا مقابلة وزير المعارف عندهم ، وتكلمنا معه فى هذا الأمر ، وكانت حُجَّتنا أنكم قبلتُم وجود هؤلاء المسلمين فى بلادكم لحاجتكم إليهم ، وإسهامهم فى حركة حياتكم ، ومن مصلحتكم أن يكون عند هؤلاء المسلمين دين يراقبهم قبل مراقبتكم أنتم ، وأنتم أوّلُ

المستفيدين من تدريس الدين الإسلامى لأولاد المسلمين .

وفعلاً فى اليوم التالى أصدروا قراراً بتدريس الدين الإسلامى فى مدارسهم لأولاد المسلمين ؛ ذلك لأن الإسلام دين مثمر ، ودين إيجابى تضمنه وتأمنه .

فلأهمية الصلاة ذكرها الحق سبحانه فى أول أفعال الخيرات ، وفى مقدمتها ، فقمّة الخيرات أنْ تتواجد مع الإله الذى يهبُكَ هذه الخيرات .

﴿ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ .. (٧٣) ﴾ [الأنبياء] والزكاة تطبيق عملىٌّ للاستجابة لله حين تُخرِج جزءًا من مالك لله ، والصلاة دائماً ما تُقرَن بالزكاة ، فالعلاقة بينهما قوية ، فالزكاة تضحية بجزء من المال ، والمال فى الحقيقة نتيجة العمل ، والعمل فرع الوقت ، أما الصلاة فهى تضحية بالوقت ذاته .

وقوله تعالى : ﴿ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ (٧٣) ﴾ [الأنبياء] أى : مطيعين لأوامرنا ، مجتنبين لنواهينا ، فالعبادة طاعة عابد لمعبوده .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ[1] الَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَائِثَ[2] إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ (٧٤) ﴾

---

(١) هى قرية « سَدُوم » قال ابن عباس : كانت سبع قرى ، قلب جبريل عليه السلام ستة وأبقى واحدة للوط وعياله ، وهى زَغَر التى فيها الثمر من كورة فلسطين إلى حد السراة ، ولها قرى كثيرة إلى حد بحر الحجاز ذكره القرطبى فى تفسيره (٦/٤٤٨٤) .

(٢) قال القرطبى فى تفسيره (٦/٤٤٨٥) : « فى الخبائث التى كانوا يعملونها قولان : أحدهما : اللواط . والثانى : الضراط ، أى : كانوا يتضارطون فى ناديهم ومجالسهم » .

﴿وَلُوطًا .. (٧٤)﴾ [الأنبياء] جاءتْ منصوبة ؛ لأنها معطوفة على قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ .. (٥١)﴾ [الأنبياء] وأيضاً : آتينا لوطاً رشده . والحُكْم : يعنى الحكمة ، وأصله من الحكمة[1] التى تُوضَع فى حنك الفَرَس ؛ لأن الفَرس قد يشرد بصاحبه أو يتجه إلى جهة غير مرادة لراكبه ؛ لذلك يوضع فى حنكه اللجام أو الحكمة ، وهى قطعة من الحديد لها طرفان ، يتم توجيه الفرس منهما يميناً أو شمالاً .

ومن ذلك الحكْمة ، وهى وَضْع الشىء فى موضعه ، ومنه الحُكْم ، وهو : وضع الحق فى مَوْضعه من الشاكى أو المشكو أى : الخصمين .

﴿وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ..(٧٤)﴾ [الأنبياء] وفرْقٌ بين العلْم والحكم: العلم أن تُحقِّق وتعرف ، أمَّا الحكم فسلوك وتطبيق لما تعلَم ، فالعلم تحقيق والحكم تطبيق .

ثم يقول تعالى : ﴿وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَائِثَ .. (٧٤)﴾ [الأنبياء] فقد نجَّى الله إبراهيم عليه السلام من النار ، وكذلك نجَّى لوطاً من أهل القرية التى كانت تعمل الخبائث ، والخبائث فى قوم لوط معروفة[2]

لذلك يقول بعدها : ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ (٧٤)﴾ [الأنبياء] ورجل السَّوْء هو الذى يسوء كل مَنْ يخالطه ، لا يسوء البعض دون البعض ، فكل مَنْ يخالطه أو يحتكّ به يسوؤه .

---

(١) الحكمة : حديدة فى اللجام تكون على أنف الفرس وحنكه تمنعه عن مخالفة راكبه . [لسان العرب ـ مادة : حكم] .

(٢) أخرج ابن عساكر عن أبى أمامة الباهلى قال : كان فى قوم لوط عشر خصال يُعرفون بها : لعب الحمام ، ورمى البندق ، والمكاء (الصَّفير بالفم) . والخذف فى الأنداء (رَمْى الحصى أو النوى) ، وتسبيط الشعر ، وفرقعة العلك (اللبان) ، وإسبال الإزار (إطالته حتى يجاوز الكعبين) ، وحبس الأقبية ، وإتيان الرجال ، والمنادمة على الشراب . وستزيد هذه الأمة عليها . [أورده السيوطى فى الدر المنثور ٥/٦٤٤] .

والفسْق : الخروج عن أوامر التكليف ، وهذا التعبير ككُلِّ التعابير القرآنيةَ مأخوذ من واقعيات الحياة عند العرب ، فأصل الفسْق من فَسَقت الرُّطبة عن قشرتها حين تستوى البلحة فتنفصل عنها القشرة حتى تَظهر منها الرُّطبة ، وهذه القشرة جُعلَتْ لتؤدى مهمة ، وهى حفْظ الثمرة ، كذلك نقول فى الفسق عن المنهج الدينى الذى جاء ليؤدى مهمة فى حياتنا ، فمَنْ خرج عنه فهو فاسق .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥) ﴾

كيف ؟ ألسنا جميعاً فى رحمة الله ؟ قالوا : لأن هناك رحمة عامة لجميع الخَلْق تشمل حتى الكافر ، وهناك رحمة خاصة تعدى الرحمة منه إلى الغير ، وهذه يعنُون بها النبوة ، بدليل قول الله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) ﴾ [الزخرف] فردَّ الله عليهم : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ .. (٣٢) ﴾ [الزخرف] أى : النبوة : ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. (٣٢) ﴾ [الزخرف]

فكيف يقسمون رحمة الله التى هى النبوة ، وهى قمة حياتهم ، ونحن نقسم لهم أرزاقهم ومعايشهم فى الدنيا ؟

فمعنى ﴿ وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا .. (٧٥) ﴾ [الأنبياء] أى : فى رَكْب النبوة ﴿ إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥) ﴾ [الأنبياء] أى : للنبوة ، والله أعلم حيث يجعل رسالته ، لكن قمة هذه الرحمة جاءت فى النبى الخاتم والرسول الذى لا يُستدرك عليه برسول بعده ؛ لذلك خاطبه ربه بقوله : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٠٧) ﴾ [الأنبياء]

فالرسل قبل محمد ﷺ كانوا رحمة لأممهم ، أمّا محمد فرحمة لجميع العالمين .

ثم يحدثنا الحق سبحانه عن رسول آخر من أولى العزم من الرسل :

﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَنُوحًا .. ﴿٧٦﴾ ﴾ [الأنبياء] مثلما قلنا فى ﴿ وَلُوطًا .. ﴿٧٤﴾ ﴾ [الأنبياء] أى : آتيناه هو أيضاً رُشْده ﴿ إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ .. ﴿٧٦﴾ ﴾ [الأنبياء] والنداء فى حقيقته : طلبُ إقبال ، فإنْ كان من أعلى لأدنى فهو نداء ، وإنْ كان من مُساوٍ لك فهو التماس ، فإنْ كان من أدنى لأعلى فهو دعاء ، فحين تقول يا رب : الياء هنا ليست للنداء بل للدعاء .

وحين تمتحن تلميذاً تقول له : أعرب : رَبِّ اغفر لى ، فلو كان نبيهاً يقول : ربِّ مدعو . والتقدير يا رب ، ومن قال : منادى نسامحه لأنه صحيح أيضاً ، فالياء فى أصلها للنداء ، لكنه غير دقيق فى الأداء . كذلك فى : اغفر لى ، إنْ قال فِعْل أمر نعطيه نصف الدرجة ، أما إن قال دعاء فلَهُ الدرجة الكاملة .

فماذا قال نوح عليه السلام فى ندائه ؟ المراد قوله : ﴿ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا[1] ﴿٢٦﴾ ﴾ [نوح] فاستجاب الله لنبيه نوح عليه السلام : ﴿ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ ﴾ [الأنبياء] والمراد بالكرب ما لبثه نوح فى دعوة قومه من عمر امتد ألف سنة إلا خمسين عاماً ، وما تحمَّله فى سبيل دعوته من عَنَتٍ ومشقّة قال الله فيها :

---

(١) الديار : من يسكن الدار أو من يتحرك فيها ويدور فيها بحرية . ويقال : ما بالدار ديّار . أى : ما فيها أحد . ومعنى دعاء نوح عليه السلام : أى : لا تذر أحداً منهم حياً . [القاموس القويم ١/٢٣٧] .

﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا[1] ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (٧) ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا (٨) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا (٩)﴾ [نوح]

ثم لما أمره الله بصناعة الفُلك أخذوا يسخرون منه : ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ .. (٣٨)﴾ [هود]

إذن : استجاب الله دُعَاءه ونداءه ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ .. (٧٦)﴾ [الأنبياء]

وفى موضع آخر : ﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ (٧٥)﴾ [الصافات]

فوصف الحق سبحانه إجابته لنوح بـ (نِعْم) الدالة على المدح .

فهل يعنى ذلك أن هناك مَنْ يكون بِئْس المجيب ؟ قالوا : نعم إذا سألته شيئاً فأجابك إليه وهو شَرٌّ لك ، أمَّا الحق سبحانه فهو نِعْم المجيب ؛ لأنه لا يُجيبك إلا بما هو صالح ونافع لك ، فإنْ كان فى دعائك شَرٌّ ردَّه لعلمه سبحانه أنه لن ينفعك .

وكأن الحق الأعلى سبحانه يقول لك : أنا لستُ موظفاً عندك ، أجيبك إلى كُلِّ ما تطلب ، إنما أنا قيُّوم عليك ، وقد تدعو بما تظنّه خيراً لك ، وأعلم بأزلية علْمى أن ذلك شر لا خيرَ فيه ، فيكون الخير لك ألاَّ أجيبك ؛ لأننى نِعْمَ المجيب .

وَهبْ أن الله تعالى يجيب كُلاً منّا إلى ما يريد ، فكيف حال الأم التى تغضب مثلاً من وحيدها ، وفى لحظة الغضب والثورة تدعو عليه فتقول مثلاً : (إلهى أشرب نارك) ؟ فالحق ـ تبارك وتعالى ـ حين يردُّ مِثْل هذا الدعاء هو نِعْم المجيب ؛ لأنه نِعْم المانع .

---

(١) استغشى ثيابه وتغشّى بها : تغطَّى بها كى لا يُرَى ولا يُسْمَع . [لسان العرب ـ مادة : غشى] .

لذلك يقول تعالى : ﴿وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً ﴿١١﴾﴾ [الإسراء] أى : يدعو ويُلِحُّ فى الدعاء بما يظنُّه خَيْراً ، وهو ليس كذلك .

﴿وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾﴾

ما زالت الآيات تقصُّ علينا طرفاً مُوجزاً من رَكْب النبوات ، ونحن فى سورة الأنبياء ، وحينما نتأمل هذه الآية نجد أن الله تعالى يُعذِّب بالماء كما يُعذِّب بالنار ، مع أنهما ضدَّانِ لا يلتقيان ، فلا يقدر على هذه المسألة إلا خالقهما سبحانه وتعالى .

وقصة غَرَق قوم نوح وأهل سبأ بعد انهيار سَدِّ مأرب أحدثَا عقدة عند أهل الجزيرة العربية ، فصاروا حين يروْنَ الماء يخافون منه ويبتعدون عنه ، حتى إذا احتاجوا الماء يذهبون إلى مكان بعيد يملأون قِربَهم ؛ ذلك لعلمهم بخطر الطوفان ، وأنه لا يُصَدُّ ولا يردُّه عنهم شىء .

ثم يحدثنا الحق سبحانه عن نبيين من أنبياء بنى إسرائيل من بعد موسى :

﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ[1] فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾﴾

---

(١) النفش : الرعى بالليل . نفشت : أى : رعت فيه ليلاً . [تفسير القرطبى ٦/٤٤٨٦] .
نفشت الإبل : إذا تفرقت فرعَتْ بالليل من غير علم راعيها . [لسان العرب ـ مادة : نفش] .

يحكمان تعنى أن هناك خصومةً بين طرفين ، والحرْث : إثارة الأرض وتقليب التربة ؛ لتكون صالحة للزراعة ، وقد وردتْ كلمة الحرث أيضاً فى قوله تعالى : ﴿وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ (٢٠٥)﴾ [البقرة]

والحرْث ذاته لا يهلك ، إنما يهلك ما نشأ عنه من زُروع وثمار ، فسمَّى الزرع حَرْثاً ؛ لأنه ناشىء عنه ، كما فى قوله تعالى أيضاً : ﴿كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ[1] أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ .. (١١٧)﴾ [آل عمران]

لكن ، لماذا سَمَّى الحرْث زَرْعاً ، مع أن الحَرْث مجرد إعداد الأرض للزراعة ؟ قالوا : ليُبيِّن أنه لا يمكن الزرع إلا بحرْث ؛ لأن الحرْث إهاجة تُرْبة الأرض ، وهذه العملية تساعد على إدخال الهواء للتربة وتجفيفها من الماء الزائد ؛ لأن الأرض بعد عملية الرىِّ المتكررة يتكوَّن عليها طبقة زَبَدية تسدُّ مسَام التُّربة ، وتمنع تبخُّر المياه الجوفية التى تُسبِّب عطباً فى جذور النبات .

لذلك ، ليس من جَوْدة التربة أن تكون طينية خالصة ، أو رملية خالصة ، فالأرض الطينية تُمسك الماء ، والرملية يتسرَّب منها الماء ، وكلاهما غير مناسب للنبات ، أما التربة الجيدة ، فهى التى تجمع بين هذه وهذه ، فتسمح للنبات بالتهوية اللازمة ، وتُعطيه من الماء على قَدْر حاجته .

---

(١) الصِّر : البرد الشديد . [القاموس القويم ١/٣٧٤] . قال ابن كثير فى تفسيره (١/٣٩٧) : « عن ابن عباس أيضاً ومجاهد (فيها صر) أى : نار ، وهو يرجع إلى الأول ، فإن البرد الشديد ولا سيما الجليد يحرق الزروع والثمار ، كما يُحرق الشىء بالنار » .

لذلك سَمَّى الزرْع حَرْثًا ؛ لأنه سببُ نمائه وزيادته وجَوْدته ، وليُلفت أنظارنا أنه لا زَرْع بدون حَرْث ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (٦٤)﴾ [الواقعة]

ففى هذه المسألة إشارة إلى سُنَّة من سُنَن الله فى الكون ، هى أنك لا بُدَّ أن تعمل لتنال ، فربُّك وخالقك قدَّم لك العطاء حتى قبل أنْ تُوجد ، وقبل أن يُكلِّفك بشىء ، ومكثت إلى سِنِّ البلوغ ، تأخذ من عطاء الله دون أنْ تُحاسبَ على شىء من تصرفاتك .

وكذلك الأمر فى الآخرة سيعطيك عطاءً لا ينتهى ، دون أن تتعب فى طلبه ، هذا كُلُّه نظير أنْ تطيعه فى الأمور الاختيارية فى سِنِّ التكليف .

إذن : لقد نلْتَ قبل أن تعمل ، وستنال فى الآخرة كذلك بدون أنْ تعمل ، فلا بُدَّ لكَ من العمل بين بدايتك ونهايتك لتنال الثمرة .

لذلك ، فى الحديث الشريف يقول ﷺ : « أَعْطُوا الأجير أجره قبل أنْ يجفَّ عَرَقُه »[1] ما دام قد عمل فقد استحق الأجر ، والأمر كذلك فى مسألة الحرث .

ثم يقول تعالى : ﴿إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ .. (٧٨)﴾ [الأنبياء] هذه خصومة بين طرفين ، احتكما فيها لداود عليه السلام : رجل عنده زرع ، وآخر عنده غنم ، فالغنم شردتْ فى غفلة من صاحبها فأكلتْ الزرع ، فاشتكى صاحبُ الزرع صاحبَ الغنم لداود ، فحكم فى هذه

---

(١) أخرجه أبو نعيم فى « حلية الأولياء » (٧/ ١٤٢) من حديث أبى هريرة ، والطبرانى فى المعجم الصغير (١/ ٢٠) من حديث جابر بن عبد الله ، وابن ماجة فى سننه (٢٤٤٣) من حديث عبد الله بن عمر ، وفى سند ابن ماجة ضعيفان ، قاله البوصيرى فى الزوائد .

القضـية بأن يأخذَ صـاحبُ الزرعِ الغنَم ، وربما وجد سـيدنا داود أن الزرع الذى أتلفتْه الغنم يساوى ثمنها .

فحينما خرج الخَصْمان لقيـهما سليمان ـ عليه السلام ـ وكان فى الحادية عشرة من عمره ، وعرف منهما حكومة أبيه فى هذه القضية ، فقـال : (غير هذا أرفق بالفـريقين)[1] فسمَّى حُكْم أبيـه رِفْقاً ، ولم يتهمه بالجَوْر مثلاً ، لكن عنده ما هو أرفق .

فلما بلغت مقالته لأبيه سأله : ما الرِّفق بالفريقين ؟ قال سليمان : نعطى الغنم لصـاحب الزرع يستـفيـد من لبنها وأصـوافهـا ، ونعطى الأرض لصاحب الغنم يُصلحـها حتى تعود كمـا كانت ، ساعتـها يأخذ صاحب الغنم غنمه ، وصاحب الزرع زَرْعه .

ومعنى ﴿نَفَشَتْ .. (٧٨)﴾ [الأنبياء] نقول : نفش الشىء أى : أخذ حَجْماً فوق حَـجْمه ، كما لو أخذتَ مثلاً قطعة من الخبـز أو البقسماط ووضعتَها فى لبن أو ماء ، تلاحظ أنهـا تنتفش ويزداد حجمها نقول : انتفشت ، كـما نقول لمن يأخذ حـجماً أكثر من حـجمه : « أنت نافش ريشك » .

وقـوله تعـالى : ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِـهِمْ شَـاهِدِينَ (٧٨)﴾ [الأنبـياء] أى مراقبين .

---

(١) ذكره القرطبى فى تفسيره (٦/٤٤٨٧) أن سليمان سأل الخصمين بعد أن خرجا من عند أبيه داود ، بم قضى بينكمـا نبى الله داود ؟ فقالا : قضى بالغنم لصاحب الحـرث . فقال : لعل الحكم غير هذا ، انصرفا مـعى . فأتى أباه فقال : « يا نبى الله إنك حكمت بكذا وكذا ، وإنى رأيت ما هو أرفق بالجمـيع » وقال حكمه بين الخصمين . فـقال داود : وفقت يا بنى لا يقطع الله فهمك .

يقول الحق سبحانه :

﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ (٧٩) ﴾

فداود وسليمان ـ عليهما السلام ـ نبيان ، لكل منهما مكانته ، وقد أعطاهما الله حُكْماً وعلماً ، ومع ذلك اختلف قولهما فى هذه القضية ، فما توصَّل إليه سليمان لا يقدح فى عِلْم داود ، ولا يطعن فى حُكْمه .

وما أشبه حُكْم كُلٍّ من داود وسليمان بمحكمة درجة أولى ، ومحكمة درجة ثانية ، ومحكمة النقْض ، ومحكمة الاستئناف ، وإياك أن تظن أن محكمة الاستئناف حين تردُّ قضاء محكمة درجة أولى أنها تطعن فيها .

فهذا مثل قوله تعالى : ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ .. (٧٩) ﴾ [الأنبياء] فجاء بحكْم غير ما حكَم به أبوه ؛ لذلك فالقاضى الابتدائى قد يحكم فى قضية ، ويتم تأجيلها إلى أنْ يترقى إلى قاضى استئناف ، فيقرأ نفس القضية لكن بنظرة أخرى ، فيأتى حُكْمه غير الأول .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ .. (٧٩) ﴾ [الأنبياء] حينما جمع السياق القرآنى بين داود وسليمان أراد أنْ يُبيِّن لنا طَرفاً ممَّا وهبهما الله ، فقوله تعالى : ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ .. (٧٩) ﴾ [الأنبياء] مظهر من مظاهر امتيازه ، وهنا يُبيِّن مَيْزةً لداود عليه السلام : ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ .. (٧٩) ﴾ [الأنبياء]

والتسخير : قَهْر المسَخَّر على فعل لا يستطيع أنْ ينفكَّ عنه ،

وليس مختاراً فيه ، ونلحظ هنا الارتقاء من الأَدْنى إلى الأعلى : أولاً : سخّر الجبال وهى جماد ، ثم الطير وهى أَرْقَى من الجماد ، لكن إنْ تصوَّرْنا التسبيح من الطير ؛ لأنه حَىٌّ ، وله روح ، وله حركة وصوت مُعبّر ، فكيف يكون التسبيح من الجبال الصماء ؟

بعض العلماء حينما يستقبلون هذه الآية يأخذونها بظواهر التفسير ، لا بُعمْق ونظر فى لُبِّ الأشياء ، فالجبال يروْنها جامدة ، ليس لها صوت مُعبّر كما للطير ؛ لذلك يعجبون من القول بأن الجبال تُسبِّح ، فكيف لها ذلك وهى جمادات ؟

لكن ؛ ما العجب فى ذلك ، وأنت لو قُمْتَ بمَسْح شامل لأجناس الناس فى الأرض ، واختلاف لغاتهم وألسنتهم وأشكالهم وألوانهم بحسْب البيئات التى يعيشون فيها ، فالناس مختلفون فى مثل هذه الأمور متفقون فقط فى الغرائز ، فالجوع والعطش والخوف والضحك والعواطف كلها غرائز مشتركة بين جميع الأجناس ، وهذه الغرائز المشتركة ليس فيها اختيار .

ألم تَرَ إلى قوله تعالى : ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾﴾ [النجم] فما دام أنه سبحانه الذى يُضحِك ، والذى يُبكِى ، فلن نختلف فى هذه الأمور .

فالكلام ـ إذن ـ من الأشياء التى يختلف فيها الناس ، وهذا الاختلاف ليس فى صوت الحروف ، فالحروف هى هى ، فمثلاً حين ننطق (شرشل) ينطقها أهل اللغات الأخرى كذلك : شين وراء وشين ولام ، فنحن ـ إذن ـ متحدون فى الحروف ، لكن نختلف فى معانى الأشياء .

وقد يعزّ على بعض الحناجر أن تنطقَ ببعض الحروف بطبيعة تكوينها ، فغيْر العربى لا ينطق الضاد مثلاً ، فليس عندهم إلا الدال ، أما فى العربية فعندنا فَرْق بين الدال المرقّقة والضاد المفخّمة ، وفرْق بين السين والثاء ، وبين الزاى والذال ، وبين الهمزة والعَيْن ، لذلك نجد غير العربى يقول فى (على) : ألي ، فليس له قدرة على نُطْق العين ، وهو إنسان ناطق بلغة ومُتكلِّم .

فإذا كنا ـ نحن البشر ـ لا يفهم بعضُنا لغاتِ بعض ، فهذا عربى ، وهذا إنجليزى ، وهذا فرنسى .. الخ فإذا لم تَتعلم هذه اللغة لا تفهمها .

ومعلوم أن اللغة بنت المحاكاة وبنت السماع ، فما سمعتْه الأذن يحكيه اللسان ، والأبكم الذى لا يتكلم كان أصمَّ لا يسمع ، والطفل ينطق بما سمع ، فلو وُضِع الطفل الإنجليزى فى بيئة عربية لنطق بالعربية .. وهكذا .

فلماذا نعجب حين لا نفهم لغة الطَّيْر أو لغة الجمادات ، وهى أشياء مختلفة عنّا تماماً ، فلا يعنى عدم فَهْمنا للغاتهم أنهم ليست لهم لغة فيما بينهم يتعارفون عليها ويُعبِّرون بها .

إذن : لا تستبعد أنْ يكونَ للأجناس الأَدْنى منك لغات يتفاهمون بها وأنت لا تفهمها ، بدليل أن الله تعالى أعطانا صورةً من لغات الطير ، وهذه يعلمها مَنْ علَّمه الله ، كما امتنَّ الله على سليمان وعلَّمه لغة الطير ، ففهم عنها وخاطبها .

وقد حكى الحق سبحانه وتعالى عنه : ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ .. (١٦) ﴾ [النمل] ولولا أن الله علَّمه لغة الطير ما علِمها .

وها هو الهدهد يقول لسليمان عليه السلام لما تفقَّد الطير ، ولم يجد الهدهد فتوعَّده : ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَأٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ (٢٢)﴾ [النمل]

ونلحظ هنا دقَّة سليمان ـ عليه السلام ـ في استعراض مملكته ، فلم يترك شيئاً حتى الهدهد ، ونلحظ أدبه فى قوله : ﴿مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ (٢٠)﴾ [النمل] فقد اتهم نظره وشكَّ أولاً ، فربما الهدهد يكون موجوداً ، ولم يَرَهُ سليمان .

وانظر إلى قَوْل الهدهد للملك : ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ .. (٢٢)﴾ [النمل] ثم معرفته الدقيقة بقضية التوحيد والعقائد : ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ..(٢٤)﴾ [النمل]

ويعترض الهدهد على هذا الشرك ، ويردُّ عليه بشىء خاص به ، وبظاهرة تُهمه : ﴿أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِى يُخْرِجُ الْخَبْءَ[1] فِى السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ.. (٢٥)﴾ [النمل]

فاختار الهدهد مسألة إخراج الخبْء ؛ لأن منه طعامه ، فلا يأكل من ظاهر الأرض ، بل لا بُدَّ أنْ ينبشَ الأرض ، ويُخرِج خبأها ليأكله .

وكذلك النمل ، وهو أقلُّ من الهدهد ، فقد كان للنملة مع سليمان لغة ، وكلام ، وفَهْم عنها : ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَـٰأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (١٨) فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا .. (١٩)﴾ [النمل]

---

(١) الخبأ : المخبوء المخفىّ . [القاموس القويم ١/١٨٥] . قيل : الخبء الذى فى السماوات هو المطر ، والخبء الذى فى الأرض هو النبات . قيل : والصحيح أن الخبء كل ما غاب . [لسان العرب ـ مادة : خبأ] .

إذن : كان الكلام للنمل ، لكنْ فَـهمه سليمـان ؛ لذلك قال : ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ .. (١٩)﴾ [النمل]

ذلك لأننا لا نفهم هذه اللغات إلا إذا فَهَّمنا الله إياها .

ومع هذا حينما وقف العلماء أمام هذه الآية ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ .. (٧٩)﴾ [الأنبياء] قالوا : يعنى تسبيح دلالة ، فهى بحالها تدلُّ على الخالق سبحانه ، وليس المراد التسبيح على حقيقته ، وأَوْلى بهم أنْ يعترفوا لها بالتسبيح ؛ لكنه تسبيح لا نفهمه نحن ، كما قال تعالى : ﴿وَلَـكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. (٤٤)﴾ [الإسراء]

والآن نرى فى طموحات العلماء السَّعْى لعمل قاموس للغة الأسماك ولغة بعض الحيوانات ، ولا نستبعد فى المستقبل عمل قاموس للغة الأحجار والجمادات ، وإلا فكيف ستكون ارتقاءات العلم فى المستقبل ؟ وهذه حقيقة أثبتها القرآن تنتظر أن يكتشفها العلم الحديث .

والمزيّة التى أعطاها الله تعالى لنبيه داود ـ عليه السلام ـ ليستْ فى تسبيح الجبال ؛ لأن الجبال تُسبِّح معه ومع غيره ، إنما الميزة فى أنها تُردِّد معه ، وتوافقه التسبيح ، وتجاوبه ، فحين يقول داود : سبحان الله تردد وراءه الجبال : سبحان الله . وكأنهم جميعاً (كورس) يردد نشيداً واحداً .

وليس معنى الجماد أنه جامد لا حياةَ فيه ، فهو جماد من حيث صورة تكوينه ، ولو تأملتَ المحاجر فى طبقات الأرض لوجدتَ بين الأحجار حياة وتفاعلاً وحركةً منذ ملايين السنين ، ونتيجة هذه الحركة يتغير لَوْنُ الحجر وتتغير طبيعته ، وهذا دليل الحياة فيها ، انظر مثلاً لو دهنتَ الحجرة لَوْناً معيناً تراه يتغير مع مرور الزمن ، إذن : فى هذه الجمادات حياة ، لكن لا ندركها .

وسبق أن أشرنا إلى أن الذين يقولون فى معجزات النبى ﷺ أنه سبَّح الحصى فى يده . أن هذه المقولة غير دقيقة تحتاج إلى تنقيح عقلى ، فالحجر مُسبِّح فى يد رسول الله ، وفىَ يد أبى جهل ، إذن : قل : إن المعجزة هى أن رسول الله سمع تسبيح الحصى فى يده .

فما من شىء فى كون الله إلا وله حياة تناسبه ، وله لغة يُسبِّح الله بها ، أدركناها أم لم ندركها ؛ لأن الكلام فرع وجود حياة ، وكل شىء فى الوجود له حياة ، فعلبة الكبريت هذه التى نستعملها يقول العلماء : إن بين ذراتها تفاعلات تكفى لإدارة قطار حول العالم . هذه التفاعلات دليل حركة وحياة .

ألم يقُلْ الحق سبحانه وتعالى : ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ .. (٨٨)﴾ [القصص]

فكلُّ ما يقال له شىء ـ إلا وَجْه الله ـ هالك ، والهلاك يعنى أن فيه حياةً ؛ لأن الهلاك ضد الحياة ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ (٤٢)﴾ [الأنفال]

فكُلُّ شىء فى الوجود له حياة بقانونه ، وليس من الضرورى أن تسمع الكلام حتى تعترف بوجوده ، فهناك مثلاً لغة الإشارة ، وهى لغة مفهومة ومُعبِّرة ، ألاَ ترى مثلاً إلى الخادم ينظر إليه سيده مجرد نظرة يفهم منها ما يريد أنْ يُقدِّمه للضيف مثلاً .

البحارة لهم إشارات يتعارفون عليها ويتفاهمون بها . جهاز التلغراف لَوْن من ألوان الأداء ووسيلة من وسائل التفاهم ، إذن : الأداء والبيان ليس من الضرورى أنْ يتمّ بالكلام المسموع ، إنما تتفاهم الأجناس ويُكلِّم بعضها بعضاً كلّ بلغته ، فإذا أراد الله أن يفيض عليك من إشراقاته أعطاك من البصيرة والعلم ما تفهم به لغات غيرك من الأجناس .

لذلك يقول تعالى : ﴿ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ .. (٤١) ﴾ [النور] والتنوين هنا دالٌّ على التعميم ، فلكل شىء صلاته التى تناسبه ، وتسبيحه الذى يناسب طبيعته .

والحق - سبحانه وتعالى - حين يعرض قضية التسبيح والخضوع والقَهْر من المخلوقات جميعاً لله يأتى الكلام عاماً فى كل الأجناس بلا استثناء ، إلا فى الكلام عن الإنسان ، فإن التسبيح والخضوع خاصٌّ ببعض الناس .

اقرأ قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ .. (١٨) ﴾ [الحج] هكذا بلا استثناء ، أمّا فى الإنسان ، فقال : ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ (١٨) ﴾ [الحج]

ثم يقول تعالى : ﴿ وَكُنَّا فَاعِلِينَ (٧٩) ﴾ [الأنبياء] نعم ، الحق سبحانه خالق كل شىء ، وفاعل كل شىء ، لكن مع ذلك يؤكد هذه الحقيقة حتى لا نتعجب من تسبيح الطير والجماد ، فالله هو الفاعل ، وهو المانح والمحرك.

ثم يقول الحق سبحانه عن داود عليه السلام :

﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ (٨٠) ﴾ (١)

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٦/٤٥٠٠) : « الصنعة يكفُّ بها الإنسان نفسه عن الناس ، ويدفع بها عن نفسه الضرر والباس ، وفى الحديث : « إن الله يحب المؤمن المحترف الضعيف المتعفف ويبغض السائل الملحف » وقد كانت صناعة داود هى صناعة الدروع » .

﴿عَلَّمْنَاهُ .. (٨٠)﴾ [الأنبياء] العلْم نقل قضية مفيدة فى الوجود من عالم بها إلى جاهل بها ، والإنسانَ دائماً فى حاجة إلى معرفة وتعلُّم ، لأنه خليفة الله فى الأرض ، ولن يؤدى هذه المهمة إلا بحركة واسعة بين الناس ، هذه الحركة تحتاج إلى فَهْم ومعرفة وتفاعل وتبادل معارف وثقافات ، فمثلاً تشكيل الحديد يحتاج إلى تسخين حتى يصير لَيِّناً قابلاً للتشكيل ، الماء لا بُدَّ أنْ نغليَه لكذا وكذا .. الخ .

وقضايا العلم التى تحتاجها حركة الإنسان فى الأرض نوعان : نوع لم يأمن الله فيه الخَلْق على أنفسهم ، فجاء من الله بالوحى ، حتى لا يكون للعقل مجال فيه ، ولا تختلف حوله الأهواء والرغبات ، وهذا هو المنهج الذى نزل يقول لك : افعل كذا ، ولا تفعل كذا .

لكن الأمور التى لا تختلف فيها الأهواء ، بل تحاول أن تلتقى عليها وتتسابق إليها ، وربما يسرق بعضهم من بعض ، هذه الأمور تركها الحق ـ سبحانه ـ لعمل العقول وطموحاتها ، وقد يلهم فيها بالخاطر أو بالتعلم ، ولو من الأدنى كما تعلَّم ابن آدم (قابيل) من الغراب ، كيف يوارى سوأة أخيه ، فقال سبحانه : ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ .. (٣١)﴾ [المائدة]

والقضية العلمية قد يكون لها مقدمات فى الكون حين نُعمل فيها العقل ، ونُرتِّب بعض الظواهر على بعض ، نتوصل منها إلى حقائق علمية ، وقد تأتى القضية العلمية بالتجربة ، أو بالخاطر يقذفه الله فى قَلْب الإنسان .

فقوله تعالى : ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ .. (٨٠)﴾ [الأنبياء] يصح أن نقول : كان هذا التعليم بالوحى ، أو بالتجربة أو الإلقاء فى الرَّوْع ، وهذه الصنعة لم تكن معروفة قبل داود عليه السلام .

واللَّبوس : أبلغ وأحكم من اللباس ، فاللباس من نفس مادة (لبس) هى الملابس التى تستر عورة الإنسان ، وتقيه الحر والبرد ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ[1] تَقِيكُمُ الْحَرَّ .. (٨١)﴾ [النحل]

أما فى الحرب فنحتاج إلى حماية أكبر ووقاية أكثر من العادية التى نجدها فى اللباس ، فى الحرب نحتاج إلى ما يقينا البأس ، ويحمينا من ضربات العدو فى الأماكن القاتلة ؛ لذلك اهتدى الناس إلى صناعة الخوذة والدرع لوقاية الأماكن الخطرة فى الجسم البشرى ، وتتمثل هذه فى الرأس والصدر ، ففى الرأس المخ ، وفى الصدر القلب ، فإن سلِمَتْ هذه الأعضاء فما دونها يمكن مداواته وجَبْره .

إذن : اللبوس أبلغ وأكثر حماية من اللباس ؛ لأن مهمته أبلغ من مهمة اللباس ، وهذه كانت صنعة داود ـ عليه السلام ـ كان يصنع الدروع ، وكانت قبل داود ملْساء[2] يتزحلق السيف عليها ، فلما صنعها داود جعلها مُركَّبة من حلقات حتى ينكسر عليها السيف ؛ لذلك قال تعالى بعدها : ﴿لِتُحْصِنَكُم مِّنْ بَأْسِكُمْ .. (٨٠)﴾ [الأنبياء] أى : تحميكم فى حَرْبكم مع عدوكم ، وتمنعكم وتحوطكم .

إذن : ألهمنا داود عليه السلام ، فأخذ يُفكِّر ويبتكر ، وكل تفكير فى ارتقاء صَنْعة إنما ينشأ من ملاحظة عيب فى صَنْعة سابقة ،

---

(١) السربال : القميص والدرع . وقيل فى قوله تعالى : ﴿سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ ..(٨١)﴾ [النحل] . إنها القُمُص تقى الحر والبرد ، فاكتفى بذكر الحر كأن ما وقى الحر وقى البرد ، وأما قوله تعالى : ﴿وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ .. (٨١)﴾ [النحل] . فهى الدروع [لسان العرب ـ مادة : سربل] .

(٢) قال قتادة : كانت صفائح ، فأول من مدَّها وحلَّقها داود عليه السلام أورده السيوطى فى الدر المنثور (٥/ ٦٥٠) وعزاه لعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير الطبرى وأبى الشيخ فى العظمة .

فيحاول اللاحق تلافى أخطاء السابق ، وهكذا حتى نصلَ إلى شىء لا عَيْبَ فيه ، أو على الأقل يتجنب عيوب سابقه ؛ لذلك يُسمُّونه (آخر موديل) .

ثم يقول تعالى : ﴿فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ (٨٠)﴾ [الأنبياء] شاكرون على نعمة الله الذى يرعاكم ويحفظكم فى المآزق والمواقف الصعبة ، واختار سبحانه موقف البأس أمام العدو ؛ ليعطينا إشارة إلى ضرورة إعداد المؤمن لمواجهة الكافر ، والأخذ بأسباب النجاة إذا تمَّتْ المواجهة .

وفى آية أخرى يقول سبحانه : ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢٥)﴾ [الحديد]

فليست مُهمة الحديد فى الحياة أنه ينفع الناس فحسْب ، إنما له مهمة قتالية أيضاً ؛ لذلك قال : ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ .. (٢٥)﴾ [الحديد] كما قال : ﴿نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ .. (٢٣)﴾ [الإنسان] فإنْ كان القرآن للهداية فالحديد يُؤيِّد هذه الهداية ، حيث نضرب به على أيدى الكافرين العاصين ، ونحمى به صدور المؤمنين المصدِّقين ؛ لذلك قال ﴿أَنزَلْنَا .. (٢٥)﴾ [الحديد] أى : من أعلى مع أنه خارج من الأرض .

إذن : مسألة الحديد فى الأرض نعمة كبيرة من نِعَم الله علينا ، بها نحفظ أنفسنا من العدو ، فالحق - سبحانه وتعالى - خلق الخَلْق ولم يتركه هكذا يُدبِّر أمره ، إنما خلقه ووضع له قانون حمايته وصيانته ، وهذا يستحقّ منّا الشكر الدائم الذى لا ينقطع .

ثم ينتقل السياق من الكلام عن داود إلى ابنه سليمان عليهما السلام ، فيقول الحق سبحانه :

﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ ﴾

لا شكّ أن سليمان ـ عليه السلام ـ قد استفاد بما علَّم الله به أباه داود ، وأخذ من نعمة الله على أبيه ، وهنا يزيده ربه ـ تبارك وتعالى ـ أموراً يتميز بها ، منها الريح العاصفة أى : القوية الشديدة ﴿ تَجْرِى بِأَمْرِهِ إِلَى الأَرْضِ الَّتِى بَارَكْنَا فِيهَا .. ﴿٨١﴾ ﴾ [الأنبياء] وكأنها مواصلات داخلية فى مملكته من العراق إلى فلسطين[1] .

وفى موضع آخر قال : ﴿ وَهَبْ لِى مُلْكًا لاَّ يَنبَغِى لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِى إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [ص]

رُخَاء : أى : هيّنة ليّنة ناعمة ، وهنا قال ﴿ عَاصِفَةً .. ﴿٨١﴾ ﴾ [الأنبياء] فكأن الله تعالى جمع لهذه الريح صفة السرعة فى (عاصفة) وصفة الراحة فى (رخاء) ، وهاتان صفتان لا يقدر على الجمع بينهما إلا الله ، فنحن حين تُسْرِع بنا السيارة مثلاً لا تتوفر لنا صفة الراحة والاطمئنان ، بل يفزع الناس ويطلبون تهدئة السرعة .

أما ريح سليمان فكانت تُسرع به إلى مراده ، وهى فى الوقت نفسه مريحة ناعمة هادئة لا تُؤثِّر فى تكوينات جسمه ، ولا تُحدث له رجَّة أو قوة اندفاع يحتاج مثلاً إلى حزام أمان ، فمَنْ يقدر على

---

(١) « قال الحسن البصرى : كان يغدو على بساطه من دمشق فينزل باصطخر يتغدى بها ويذهب رائحاً من اصطخر فيبيت بكابل ، وبين دمشق واصطخر شهر كامل للمسرع ، وبين اصطخر وكابل شهر كامل للمسرع » نقله ابن كثير فى تفسيره (٣/٥٢٨) . وكابل : هى عاصمة أفغانستان حالياً .

الجمع بين هذه الصفات إلا الله القابض الباسط ، الذى يقبض الزمن فى حق قوم ويبسطه فى حق آخرين .

ومعنى : ﴿ بَارَكْنَا فِيهَا .. (٨١) ﴾ [الأنبياء] أى : بركة حسِّية بما فيها من الزروع والثمار والخصْب والخيرات ، وبركة معنوية حيث جعل فيها مهابط الوحى والنبوات وآثار الأنبياء .

وليس تسخير الريح لسليمان أنها تحمله مثلاً ، كما رأينا فى (السينما) بساط الريح الذى نراه يحمل شيئاً ويسير به فى الهواء ، أو : أنها كانت تُسيِّر المراكب فى البحار ، إنما المراد بتسخيرها له أن تكون تحت مراده ، وتأتمر بأمره ، فتسير حيث شاء يميناً أو شمالاً ، فهى لا تهُبُّ على مرادات الطبيعة التى خلقها الله عليها ، ولكن على مراده هو .

وإنْ كانت هذه الريح الرُّخَاء تحمله فى رحلة داخلية فى مملكته ، فهناك من الرياح ما يحمله فى رحلات وأسفار خارجية ، كالتى قال الله تعالى عنها : ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ .. (١٢) ﴾ [سبأ] فيجوب بها فى الكون كيف يشاء ﴿ حَيْثُ أَصَابَ (٣٦) ﴾ [ص]

ثم يقول تعالى : ﴿ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ (٨١) ﴾ [الأنبياء] أى عندنا علْم نُرتِّب به الأمور على وَفْق مرادنا ، ونكسر لمرادنا قانون الأشياء فنُسيِّر الريح كما نحب ، لا كما تقتضيه الطبيعة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ (٨٢) ﴾

فبعد أنْ سخَّر الله له الريح سخَّر له الشياطين ﴿يَغُوصُونَ لَهُ .. (٨٢)﴾ [الأنبياء] والغَوْصُ : النزول إلى أعماق البحر ؛ ليأتوه بكنوزه ونفائسه وعجائبه التى ادخرها الله فيه ﴿وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذَلِكَ .. (٨٢)﴾ [الأنبياء] أى : مما يُكلِّفهم به سليمان من أعمال شاقة لا يقدر عليها الإنسان ، وقد شرحت هذه الآية فى موضع آخر : ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوابِ[1] وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ.. (١٣)﴾ [سبأ] فأدخل مرادات العمل فى مشيئته .

والمحاريب جمع محراب ، وهو مكان العبادة كالقِبْلة مثلاً ، والجِفَان : جمع جَفْنة ، وهى القَصْعة الكبيرة الواسعة التى تكفى لعدد كبير ، والقدور الراسيات أى : الثابتة التى لا تنقل من مكان لآخر وهى مبنية .

وقد رأينا شيئاً من هذا فى الرياض أيام الملك عبد العزيز رحمه الله ، وكان هذا القدْر من الاتساع والارتفاع بحيث إذا وقف الإنسان مادّاً ذراعيه إلى أعلى لا يبلغ طولها ، وفى الجاهلية اشتهرت مثل هذه القدور عند ابن جدعان ، وعند مطعم بن عدى .

أما التماثيل فهى معروفة ، والموقف منها واضح منذ زمن إبراهيم عليه السلام حينما كسَّرها ونهى عن عبادتها ، وهذا يردُّ قول مَنْ قال بأن التماثيل كانت حلالاً ، ثم فُتن الناس فيها ، فعبدوها من دون الله فَحرِّمت ، إذن : كيف نخرج من هذا الموقف ؟ وكيف يمتنّ الله على نبيه سليمان أن سخر له من يعملون التماثيل وهى مُحرَّمة ؟

نقول : كانوا يصنعون له التماثيل لا لغرض التعظيم والعبادة ،

---

(١) الجواب : جمع جابية ، وهى الحوض الذى يُجبى فيه الماء ، وقال ابن عباس : كالحياض . وكذا قال مجاهد والحسن وقتادة والضحاك . [تفسير ابن كثير ٥٢٨/٣] .

إنما على هيئة الإهانة والتحقير ، كأنْ يجعلوها على هيئة رجل جبار ، أو أسد ضخم يحمل جزءاً من القصر أو شرفة من شرفاته ، أو يُصوِّرونها تحمل مائدة الطعام .. الخ . أى أنها ليست على سبيل التقديس .

ثم يقول تعالى : ﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ (٨٢)﴾ [الأنبياء] حافظين للناس المعاصرين لهذه الأعمال حتى لا تؤذيهم الشياطين أو تفزعهم ، ومعلوم أن الشياطين يروْنَ البشر ، والبشر لا يرَوْنَهم ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ .. (٢٧)﴾ [الأعراف]

أما سليمان عليه السلام فكان يرى الجنَّ ويراقبهم وهم يعملون له ، وفى قصته : ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلاَّ دَابَّةُ الأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ[1] .. (١٤)﴾ [سبأ]

وفى هذا دليل على أن الجن لا يعلمون الغيب ؛ لذلك قال تعالى : ﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ (١٤)﴾ [سبأ]

ويُقال : إن سليمان ـ عليه السلام ـ بعد أنْ امتنَّ الله عليه ، وأعطاه مُلْكاً لا ينبغى لأحد من بعده ، أخذ هؤلاء الجن وحبسهم فى القماقم حتى لا يعملوا لأحد غيره .

هذه مجرد لقطة من قصة سليمان ، ينتقل السياق منها إلى أيوب عليه السلام :

﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٨٣)﴾

---

(١) المنسأة : العصا الغليظة . بلسان الحبشة . [القاموس القويم ٢/٢٦٢] .

(نَادَى) : قلنا النداء لمثلك طلب إقبال ، أما بالنسبة لله تعالى فهو بمعنى الدعاء ، فمعنى ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ .. (٨٣)﴾ [الأنبياء] أى : دعاه وناداه بمطلوب هو : ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٨٣)﴾ [الأنبياء] والضُّر : ابتلاء من الله فى جسده بمرض أو غيره .

أما الضَّر بفتح الضاد ، فهو إيذاء وابتلاء فى أى شىء آخر غير الجسد ، ولا مانع أن يمرض الأنبياء لكن بمرض غير مُنفِّر .

لكن ، كيف ينادى أيوب عليه السلام ربه ويتوجع ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ .. (٨٣)﴾ [الأنبياء] أليس فى علم الله أن أيوبَ مسَّه الضُّر ؟ وهل يليق بالنبى أنْ يتوجّع من ابتلاء الله ؟

نعم ، يجوز له التوجُّع ؛ لأن العبد لا يَشْجَعُ على ربه ؛ لذلك فإن الإمامُ علياً رضى الله عنه لما دخل عليه رجل يعوده وهو يتألم من مرضه ويتوجع ، فقال له : أتتوجَّع وأنت أبو الحسن ؟ فقال : أنا لا أشجع على الله يعنى : أنا لست فتوة أمام الله .

ألا ترى أنه من الأدب مع مَنْ يريد أنْ يُثبت لك قوته فيمسك بيدك مثلاً ، ويضغط عليها لتضجّ وتتألم ، أليس من الأدب أن تطاوعه فتقول : آه وتُظهر له ولو مجاملة أنه أقوى منك ؟

ومعنى : ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٨٣)﴾ [الأنبياء] ساعةَ أنْ ترى جَمْعاً فى صفة من الصفات يُدخل الله فيه نفسه مع خَلْقه ، كما فى : ﴿أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٨٣)﴾ [الأنبياء] و ﴿أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤)﴾ [المؤمنون] و ﴿خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٥٤)﴾ [آل عمران] فاعلم أن الله تعالى يُثبت نفس الصفة لعباده ، ولا يبخسهم حقهم .

فالرحمة من صفات البشر ، كما جاء فى الحديث الشريف : « الراحمون يرحمهم الرحمن »[(١)] .

وفى « ارحموا مَنْ فى الأرض يرحمكم مَنْ فى السماء »[(٢)] .

فالرحمة تخلُّق بأخلاق الحق سبحانه ، والنبى ﷺ يقول : « تخلَّقوا بأخلاق الله » .

إذن : للخَلْق صفة الرحمة ، لكن الله هو أرحم الراحمين جميعاً ؛ لأن رحمته تعالى وسعَتْ كل شىء . كما قلنا فى صفة الخَلْق : فيمكنك مثلاً أن تصنع من الرمل كوباً ، وتُخرِجه إلى الوجود ، وتنتفع به ، لكن أخَلْقك للكوب كخَلْق الله ؟

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾[(٣)]

استجاب الله لأيوب فيما دعا به من كَشْف الضُّر الذى أصابه ،

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٢/١٦٠) ، والترمذى فى سننه (١٩٢٤) ، وأبو داود فى سننه (٤٩٤١) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ، قال الترمذى : « هذا حديث حسن صحيح » .

(٢) أخرج أبو نعيم فى الحلية (٤/٢١٠) ، والطبرانى فى المعجم الكبير (١٠٢٧٧) وكذا فى المعجم الصغير (١/١٠١) من حديث عبد الله بن مسعود بلفظ : « ارحم من فى الأرض يرحمك من فى السماء » .

(٣) قال القرطبى فى تفسيره (٦/٤٥٠٧) : « اختُلِفَ فى مدة إقامته فى البلاء ، فقال ابن عباس : كانت مدة البلاء سبع سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام وسبع ليال . وقال وهب : ثلاثين سنة ، وقال الحسن : سبع سنين وستة أشهر . قلت : وأصح من هذا والله أعلم ثمانى عشرة سنة ، رواه ابن شهاب عن النبى ﷺ ذكره ابن المبارك » .

وأعطاه زيادة عليه ونافلة لم يَدْعُ بهـا ، حيث كان فى قِلَّة من الأهل ، وليس له عزْوة .

﴿ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ (٨٤) ﴾ [الأنبياء] ليعلـم كلُّ عابد أخلص عـبادته لله تعـالى ، أنه إذا مـسَّه ضُـرٌّ أو كَرْب ولجـأ إلى الله أجـابه الله إلى مَـا يريد ، وأعطاه فـوق الإجـابة نافلة أخـرى ، وكـأن ما حدث لنبى الله أيوب نموذج يجب أن يُحْتَذَى .

﴿ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ[1] كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ (٨٥) ﴾

قلنا : إن سـورة الأنبياء لا تذكـر قَصَـصاً كامـلاً للأنبيـاء ، إنما تعطينا طَرَفـاً منها ، وهنا تذكـر إسماعـيل وإدريس وذا الكفل بالاسم فقط .

ثم يقول تعالى : ﴿ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ (٨٥) ﴾ [الأنبياء] كأن الصبر فى حَدِّ ذاته حـيثيـة يُرسل الله من أجلها الرسـول ، ولنتأمل الصـبر عند إسـماعـيل ، وكيف أنه صـبر عـلى أنْ يذبحه أبوه برؤيا رآها ، فـأىُّ صبر أعظم من هذا ؟

ثم يعـيش فى صغَـره ـ وحـتى كبـر ـ فى وَاد غيـر ذى زرع ، ويتحمل مشاق هذه البيئة الجـافة المجْدبة ، ويخضـعُ لقول الله تعالى : ﴿ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ .. (٣٧) ﴾ [إبراهيم]

وكأن فى خروجه من هذه الأرض وطلبه لأرض أخرى فيها النعيم

---

(١) قال ابن كثـير فى تفسيـره (٣/١٩٠) : « الظاهر من السياق أنه ما قـرن مع الأنبياء إلا وهو نبى . وقال آخرون : إنما كان رجلاً صالحـاً وكان ملكاً عادلاً وحكماً مقسطاً ، وتوقف ابن جرير فى ذلك والله أعلم » .

والزروع والثمار تأبّياً على إقامة الصلاة ؛ لذلك نراه يُفضّل البقاء فى هذا المكان ، ويزهد فى نعيم الدنيا الذى يتمتع به غيره امتثالاً لأمر الله .

وتكون النتيجة أنْ أعطاه الله ما هو خَيْر من الزروع والثمار ، أعطاه عطاءً يفخر به بين جميع الأنبياء ، هو أنه جعل من نسله النبى الخاتم محمد بن عبد الله ، وأىُّ ثمرة أحسن من هذه ؟

وإدريس : وهو من الجيل الخامس من أولاد آدم عليه السلام ، وبعض العلماء يقولون هو « أوزوريس » ، ونحن لا نقول إلا ما قاله القرآن (إدريس) وأهل السير يقولون : إن نبى الله إدريس أول مَنْ علّمه الله غزل الصوف وخياطة الملابس ، وكانوا قبلها يسترون عوراتهم بقطع الجلود .

وهو أول مَن استخدم النجوم لمعرفة الاتجاهات والأحوال ، وأول مَنْ خط بالقلم ، هذه يُسمُّونها أوليات إدريس .

وذا الكفل : الكفْل هو الحظ والنصيب ، فلماذا سُمِّى « ذو الكفل » ؟ ذو الكفل ابن أيوب عليه السلام ، ويظهر أن أولاد أيوب كانوا كثيرين ، إنما اختص الله ذا الكفل بالرسالة ، وكان هذا حظه دون غيره من أبناء أيوب ؛ لذلك سُمِّى « ذو الكفل »[1] .

---

(١) قال مجاهد عن ذى الكفل : رجل صالح غير نبى ، تكفل لنبى قومه أن يكفيه أمر قومه ويقيمهم له ويقضى بينهم بالعدل ففعل ذلك فسمى ذا الكفل . [أورده ابن كثير فى تفسيره ٣/١٩٠] ، وقد أورد القرطبى فى تفسيره (٦/٤٥٠٨) أقوالاً أخرى منها :

- كان رجلاً عفيفاً يتكفل بشأن كل إنسان وقع فى بلاء أو تهمة أو مطالبة فينجيه الله على يديه .
- سمى ذا الكفل لأن الله تعالى تكفل له فى سعيه وعمله بضعف عمل غيره من الأنبياء الذين كانوا فى زمانه .

وقد جاءت هذه المادة (كَفَل) أيضاً فى قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ .. (٢٨) ﴾ [الحديد]

جاءت هذه الآية بعد الكلام عن عيسى - عليه السلام - والذين آمنوا به واتبعوه ، يقول تعالى : يا مَنْ آمنتم بالرسل السابقين ، وآخرهم عيسى - عليه السلام - آمنوا بالرسول الخاتم ليكون لكم كفلان أى : نصيبان وحظَّان من رحمةَ الله ، نصيبٌ لإيمانكم بعيسى ، ومَنْ سبقه من الرسل ، ونصيبٌ لإيمانكم بمحمد ﷺ .

ثم يقول تعالى فى وصفهم ﴿ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ (٨٥) ﴾ [الأنبياء] فوصف كلّ الأنبياء بالصبر ؛ لأنهم تعرَّضوا لأنواع الاضطهاد والإيذاء والأهوال فى سبيل دعوتهم ، وصبروا على هذا كله .

﴿ وَأَدْخَلْنَـٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ (٨٦) ﴾

والرحمة هنا بمعنى النبوة ، وهى أمر عظيم وعطاء كبير ، فإنْ تحمّلوا فى سبيله بعض المتاعب ، فلا غضاضةَ فى ذلك .

﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَـٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ أَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَـٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ (٨٧) ﴾

« ذو النون » : هو سيدنا يونس بن متى صاحب الحوت ، والنون من أسماء الحوت ، وجمعه (نينان) كحوت وحيتان ؛ لذلك

سُمِّيَ به ، وقد أُرسل يونس عليه السلام إلى أهل (نِينَوَىَ) من أرض الموصل بالعراق .

وقد قال النبى ﷺ لعداس : « أنت من بلد النبى الصالح : يونس ابن متى »[(١)] .

والنون أيضاً اسم لحرف من حروف المعجم ، لكن قد يوافق اسمُ الحرف اسماً لشىء آخر ، كما فى (ق) وهو اسم جبل ، وكذلك السين ، فهناك نهر اسمه نهر السين ، وهكذا تصادف أسماء الحروف أسماء أشياء .

وقوله تعالى : ﴿ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا .. (٨٧) ﴾ [الأنبياء] مادة (غضب) نأخذ منها الوصف للمفرد . نقول : غاضب وغضبان ، أمّا (مغاضب) فتعطى معنى آخر ؛ لأنها تدل على المفاعلة ، فلا بُدَّ أن أمامك شخصاً آخر ، أنت غاضب وهو غاضب ، مثل : شارك فلان فلاناً .

لكن فى أصول اللغة رجحنا جانب الفاعلية فى أحدهما ، والمفعُولية فى الآخر ، كما نقول : شارك زيدٌ عَمْراً ، فالمشاركة حدثتْ منهما معاً ، لكن جانب الفاعلية أزيد من ناحية زيد ، فكلٌّ واحد منهما فاعل مرة ومفعول أخرى .

واللغة أحياناً تلحظ هذه المشاركة ، فتُحمِّل اللفظ المعنيين معاً : الفاعل والمفعول ، كما جاء فى قَوْل الشاعر العربى الذى يصف السير فى أرض معتربة ، والتى إذا سِرْت فيها دون أنْ تتعرض للعقارب فإنها تسالمك ولا تؤذيك ، فيقول :

---

(١) أورده ابن هشام فى السيرة النبوية (٢/٤٢١) ، وفيه : أن عداساً قال : وما يدريك ما يونس بن متى ؟ فقال رسول الله ﷺ : ذاك أخى ، كان نبياً وأنا نبى ، فأكبّ عداس على رسول الله ﷺ يقبل رأسه ويديه وقدميه .

قَدْ سَالَمَ الحياتُ مِنْه القَدَمَا الأفْعُوانَ[١] والشُّجاعَ القَشْعَمَا[٢]

أى : أنه سَالَم الحيات ، فالحيات سالمتْه ، فالمسالمة منهما معاً ، لكن غلب جانب الحيات فجاءت فاعلاً ؛ لأن إيذاءَها أقوى من إيذائه ، فلما أبدل من الحيات (الأفعوان والشجاع القشعما) وهما من أسماء الحيات كان عليه أنْ يأتى بالبدل مرفوعاً تابعاً للمبدل منه ، إلا أنه نصبه فقال : **الأُفْعَوانَ** والشجاعَ القشعمَا ؛ لأنه لاحظ فى جانب الحيات أنها أيضاً مفعولٌ .

فَمِمَّ غضب ذو النون ؟ غضب لأن قومه كذبوه ، فتوعدهم إنْ لم يتوبوا أنْ يُنزل بهم العذاب ، وأتى الموعد ولم ينزل بهم ما توعدهم به ، فخاف أنْ يُكذِّبوه ، وأن يتجرَّأوا عليه ، فخرج من بينهم مغاضباً إلى مكان آخر ، وهو لا يعلم أنهم تابوا فأخّر الله عذابهم ، وأجّل عقوبتهم .

وفى آية أخرى يُوضِّح الحق سبحانه هذا الموقف : ﴿**فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ (٩٨)**﴾ [يونس]

أى : لم يحدث قبل ذلك أنْ آمنتْ قرية ونفعها إيمانها إلا قرية واحدة هى قوم يونس ، فقد آمنوا وتابوا فأجّل الله عذابهم .

إذن : خرج يونس مُغَاضِباً لا غاضباً ؛ لأن قومه شاركوه ، وكانوا سبب غضبه ، كما حدث فى مسألة هجرة النبى ﷺ فرسول

---

(١) الأفعوان : ذَكَر الأفاعى . والقشعم : الضخم . [لسان العرب ـ مادتا : فعا ، قشعم] .

(٢) أورد ابن منظور فى لسان العرب (مادة : شجع) وعزاه للأحمر ولكن بلفظ « الشجاع الشجعما » وقال : الشجعم : الضخم منها ، وقيل : هو الخبيث المارد منها ، ثم قال : « نصب الشجاع والأفعوان بمعنى الكلام ؛ لأن الحيات إذا سالمت القدم فقد سالمها القدم ، فكأنه قال : سالم القدم الحيات ، ثم جعل الأفعوان بدلاً منها » .

الله هاجر من مكة لكنه لم يهْجرهَا ، فسُمِّيَتْ هجرة ؛ لأن أهل مكة هجروا رسول الله أولاً ، وهجروا دعوته وألجئوه أيضاً إلى الهجرة وتَرْك مكة ، فهم طرف فى الهجرة وسببٌ لها .

لذلك قال ﷺ مخاطباً مكة : « والله إنك لخير أرض الله ، وأحب أرض الله إلىَّ ، ولولا أنَّ أهلك أخرجونى منكِ ما خرجْتُ »[1] .

وقد أخذ المتنبى[2] هذا المعنى ، وعبَّر عنه بقوله :

إذَا ترحلْتَ عَنْ قَوْمٍ وقَدْ قَدَرُوا ... ألاَّ تُفارِقَهُمْ فالراحِلُون هُمُ

وقوله تعالى : ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ .. (٨٧)﴾ [الأنبياء] البعض ينظر فى الآية نظرةً سطحية ، فيقولون : كيف يظن يونس أن الله لن يقدر عليه ؟ وهذا الفَهْم ناشىء عن جَهْل باستعمالات اللغة ، فليس المعنى هنا من القدرة على الشىء والسيطرة ، ولو استوعبتَ هذه المادة فى القرآن (قَدَرَ) لوجدت لها معنى آخر ، كما فى قوله تعالى : ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ .. (٧)﴾ [الطلاق] معنى قُدر عليه رزقه يعنى : ضُيِّق عليه .

ومنها قوله تعالى : ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ .. (٣٠)﴾ [الإسراء]

---

(١) أخرجه ابن ماجة فى سننه (٣١٠٨) ، والدارمى فى سننه (٢/٢٣٩) من حديث عبد الله بن عدى بن حمراء الزهرى قال : رأيت رسول الله ﷺ وهو على راحلته واقفاً بالحزورة يقول .. الحديث .

(٢) هو : أحمد بن الحسين الكندى أبو الطيب المتنبى ، الشاعر الحكيم وأحد مفاخر الأدب العربى . ولد ٣٠٣ هـ بالكوفة فى محلة « كندة » ونشأ بالشام ، ثم تنقل فى البادية يطلب الأدب وعلم العربية وأيام الناس ، وفد على سيف الدولة الحمدانى صاحب حلب فمدحه ومضى إلى مصر فمدح كافور الإخشيدى ثم هجاه . قتل بالنعمانية وابنه وغلامه عام ٣٥٤ هـ (الأعلام للزركلى ١/١١٥) .

وقوله سبحانه وتعالى : ﴿فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦)﴾ [الفجر]

إذن : فقوله : ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ .. (٨٧)﴾ [الأنبياء] أى : أن يونس لما خرج من بلده مُغاضباً لقومه ظنَّ أن الله لن يُضيِّق عليه ، بل سيُوسِّع عليه ويُبدله ببلده مكاناً أفضل منها ، بدليل أنه قال بعدها ﴿فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ[1] أَن لاَّ إِلَـهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧)﴾ [الأنبياء] يريد منه سبحانه تنفيس كربته ، وتنفيس الكربة لا يكون إلا بصفة القدرة له .

فكيف يستقيم المعنى لو قلنا : لن يقدر عليه بمعنى : أن الله لا يقدر على يونس[2] ؟

إذن : المعنى : لن يُضيِّق عليه ؛ لأنه يعلم أنه رسول من الله ، وأن ربه لن يُسْلمه ، ولن يخذله ، ولن يتركه فى هذا الكرب .

وقد وُجِدَتْ شبهة فى قصة يونس - عليه السلام - فى قوله تعالى : ﴿فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤٤)﴾ [الصافات]

فكيف يلبث فى بطن الحوت إلى يوم يُبعثون ، مع أن يونس سيموت ، وسيأتى أجَل الحوت ويموت هو أيضاً ، أم أن الحوت سيظل إلى يوم القيامة يحمل يونس فى بطنه ؟

---

(١) قال ابن مسعود : ظلمة بطن الحوت ، وظلمة البحر ، وظلمة الليل . وكذا روى عن ابن عباس وعمرو بن ميمون وسعيد بن جبير والحسن وقتادة . [قاله ابن كثير فى تفسيره ١٩٢/٣] .

(٢) قال القرطبى فى تفسيره (٤٥١١/٦) : « هذا قول مردود مرغوب عنه ؛ لأنه كفر . وذكر الثعلبى وقال عطاء وسعيد بن جبير وكثير من العلماء معناه : فظن أن لن نضيق عليه » .

وفات هؤلاء نظرية الاحتواء فى المزيجات ، كما لو أذبتَ قالباً من السكر فى كوب ماء ، فسوف تحتوى جزئيات الماء جزئيات السكر ، والأكثر يحتوى الأقل ، فقالب السكر لا يحتوى الماء ، إنما الماء يحتوى السكر .

فلو مات الحوت ، ومات فى بطنه يونس ـ عليه السلام ـ وتفاعلت ذراتهما وتداخلتْ ، فقد احتوى الحوتُ يونسَ إلى أن تقوم الساعة ، وعلى هذا يظل المعنى صحيحاً ، فهو فى بطنه رغم تناثر ذراتهما[1] .

﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾

استجاب الله نداء يونس ـ عليه السلام ـ ونجَّاه من الكرب ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [الأنبياء] إذن : فهذه ليست خاصة بيونس ، بل بكل مؤمن يدعو الله بهذا الدعاء ﴿ وَكَذَٰلِكَ .. ﴿٨٨﴾ ﴾ [الأنبياء] أى : مثل هذا الإنجاء نُنْجى المؤمنين الذين يفزعون إلى الله بهذه الكلمة : ﴿ لاَّ إِلَٰهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [الأنبياء] فيُذهِب الله غَمَّه ، ويُفرِّج كَرْبه .

لذلك يقول ابن مسعود رضى الله عنه : « ثوِّروا القرآن » يعنى : أثيروه ونقِّبوا فى آياته لتستخرجوا كنوزه وأسراره[2] .

---

(١) قال قتادة فى قوله تعالى ﴿ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ [الصافات] قال : لصار له بطن الحوت قبراً إلى يوم القيامة . [أورده السيوطى فى الدر المنثور ١٢٧/٧ ، وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم] .

(٢) فى حديث عبد الله : أثيروا القرآن ، فإن فيه خبر الأولين والآخرين . قال شمر : تثوير القرآن قراءته ومفاتشة العلماء به فى تفسيره ومعانيه . [لسان العرب – مادة : ثور] .

وكان سيدنا جعفر الصادق من المثوِّرين للقرآن المتأملين فيه ، وكان يُخرِج من آياته الدواءَ لكل داء ، ويكون كما نقول (روشتة) لكل أحوال المؤمن .

والمؤمن يتقلّب بين أحوال عدة منها : الخوف سواء الخوف أنْ يفوته نعيم الدنيا ، أو الخوف من جبار يهدده ، وقد يشعر بانقباض وضيق فى الصدر لا يدرى سببه وهذا هو الغَمُّ ، وقد يتعرض لمكر الماكرين ، وكَيْد الكائدين ، وتدبير أهل الشر .

هذه كلها أحوال تعترى الإنسان ، ويحتاج فيها لمَنْ يسانده ويُخرِجه مما يعانيه ، فليس له حَوْل ولا قوة ، ولا يستطيع الاحتياط لكل هذه المسائل .

وقد تراوده بهجة الدنيا وزُخْرفها ، فينظر إلى أعلى ممّا هو فيه ، ويطلب المزيد ، ولا نهايةَ لطموحات الإنسان فى هذه المسألة ، كما قال الشاعر :

تَمُوتُ مع المرْءِ حَاجَاتُه وتَبْقَى لَهُ حَاجَةٌ مَا بَقِى

والناس تحرص دائماً على أن تستوعب نِعَم الحياة وراحتها ، وهم فى ذلك مُخْطِئون ؛ لأن تمام الشىء بداية زواله ، كما قال الشاعر :

إذَا تَمَّ شَىءٌ بَدَا نَقْصُه تَرقَّبْ زَوَالاً إذَا قيلَ تَم

لأن الإنسان ابنُ أغيار ، ولا يدوم له حال من صحة أو مرض ، أو غنىً أو فقر ، أو حزن أو سرور ، فالتغيُّر سمَة البشر ، وسبحان مَنْ لَا يتغير ، إذن : فماذا بعد أنْ تصل إلى القمة ، وأنت ابنُ أغيار ؟

ونرى الناس يغضبون ويتذمرون إنْ فاتهم شىء من راحة الدنيا ونعيمها ، أو انتقصتهم الحياة شيئاً ، وهم لا يدرون أن هذا النقص

هو الذى يحفظ عليك النعمة ، ويدفع عنك عيون الحاسدين فيُسلِّم لك ما عندك .

فتجد مثلاً أسرة طيبة حازتْ اهتمام الناس واحترامهم ، غير أن بها شخصاً شريراً سيِّئاً ، يعيب الأسرة ، فهذا الشخص هو الذى يدفع عنها عُيون الناسِ وحَسَدهم .

وقد أخذ المتنبى هذا المعنى ، وعبَّر عنه فى مدحه لسيف الدولة[1] ، فقال :

شَخَصَ الأنَامُ إِلَى كَمَالِكَ فَاسْتَعِذ ... مِنْ شَرِّ أعيُنِهِمْ بِعَيْبٍ وَاحِدِ

نعود إلى (روشتة) سيدنا جعفر الصادق التى استخلصها لنا من كتاب الله ، كما يستخلص الأطباء الدواءَ والعقاقير من كتب الحكماء :

يقول : عجبتُ لمن خاف ولم يفزع إلى قول الله تعالى : ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣)﴾ [آل عمران] فإنِّى سمعت الله بعقبها يقول : ﴿فَانقَلَبُوا[2] بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ .. (١٧٤)﴾ [آل عمران]

وعجبتُ لمَنْ اغتمَّ ، ولم يفزع إلى قوله تعالى : ﴿لاَّ إِلَـهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧)﴾ [الأنبياء] فإنِّى سمعت الله

---

(١) هو : على بن عبد الله بن حمدان أبو الحسن سيف الدولة الحمدانى ، صاحب المتنبى وممدوحه ، ولد فى ميافارقين (بديار بكر) عام ٣٠٣ هـ ، ونشأ شجاعاً مهذباً على الهمة ، امتلك واسطاً ودمشق وحلب وتوفى فيها عام (٣٥٦ هـ) عن ٥٣ عاماً . الأعلام للزركلى (٣٠٣/٤) .

(٢) انقلب : رجع وتحوَّل إلى وضعه الأول ، أو إلى وضع آخر . فانقلبوا : أى : رجعوا . [القاموس القويم ١٢٩/٢] .

بعقبها يقول : ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ (٨٨)﴾ [الأنبياء]

وعجبتُ لمن مُكرَ به ، ولم يفزع إلى قوله تعالى : ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ .. (٤٤)﴾ [غافر] فإنِّى سمعت الله بعقبها يقول : ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا .. (٤٥)﴾ [غافر]

وعجبتُ لمن طلب الدنيا وزينتها ، ولم يفزع إلى قوله تعالى : ﴿مَاشَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ .. (٣٩)﴾ [الكهف] فإنِّى سمعت الله بعقبها يقول : ﴿فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ .. (٤٠)﴾ [الكهف]

وهكذا يجب على المؤمن أن يكون مُطْمئناً واثقاً من معيّة الله ، ويضع كما نقول (فى بطنه بطيخة صيفى) ؛ لأنه يفزع إلى ربه بالدعاء المناسب فى كل حال من هذه الأحوال ، وحين يراك ربك تلجأ إليه وتتضرع ، وتعزو كل نعمة فى ذاتك أو فى أهلك أو فى مالك وتنسبها إلى الله ، وتعترف بالمنعم سبحانه فيعطيك أحسنَ منها .

ثم يُحدِّثنا الحق سبحانه عن نبى آخر من أنبيائه ، فيقول تعالى :

﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ (٨٩)﴾

لقد بلغ زكريا ـ عليه السلام ـ من الكبر عتياً ، ولم يرزقه الله الولد ، فتوجه إلى الله : ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا (٤) وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ[1] مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا (٥)﴾ [مريم]

---

(١) الموالى هنا : الأقارب وبنو العم والعَصَبة الذين يلونه فى النسب . قاله القرطبى فى تفسيره (٦/٤٢٤٨) .

فلما بشَّره الله بالولد تعجَّب ؛ لأنه نظر إلى مُعْطيات الأسباب ، كيف يرزقه الله الولد ، وقد بلغ من الكبَر عتياً وامرأته عاقر ، فأراد أن يُؤكّد هذه البُشْرى : ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴿٩﴾﴾ [مريم]

يُطمئنُ الله تعالى نبيَّه زكريا : اطرح الأسباب الكونية للخَلْق ؛ لأن الذى يُبشِّرك هو الخالق .

وقد تعلَّم زكريا من كفالته لمريم أن الله يُعطى بالأسباب ، ويعطى إن عزَّتْ الأسباب ، وقد تبارى أهل مريم فى كفالتها ، وتسابقوا فى القيام بهذه الخدمة ؛ لأنهم يعلمون شرفها ومكانتها ؛ لذلك أجروا القرعة على مَنْ يكفلها فأتوا بالأقلام ورموْها فى البحر[1] فخرج قلم زكريا ، ففاز بكفالة مريم :

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [آل عمران]

وإجراء القرعة لأهمية هذه المسألة ، وعظَم شأنها ، والقرعة إجراء للمسائل على القَدَر ، حتى لا تتدخّل فيها الأهواء .

فلما كفَل زكريا مريم كان يُوفِّر لها ما تحتاج إليه ، ويرعى شئونها ، وفى أحد الأيام دخل عليها ، فوجد عندها طعاماً لم يأْتِ

---

(١) ذكر عكرمة والسدى وقتادة والربيع بن أنس وغير واحد ، أنهم ذهبوا إلى نهر الأردن واقترعوا هنالك على أن يلقوا أقلامهم فأيهم يثبت فى جرية الماء فهو كافلها ، فألقوا أقلامهم فاحتملها الماء إلا قلم زكريا فإنه ثبت . ويقال : إنه ذهب صاعداً يشق جرية الماء . [تفسير ابن كثير ١/٣٦٣] .

به[1] : ﴿قَالَ يَـٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَـٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٧)﴾ [آل عمران]

وهنا مَلْحظ وإشارة إلى ضرورة متابعة ربِّ الأسرة لأسرته ، فإذا ما رأى فى البيت شيئاً لم يأْتِ به فليسأل عن مصدره ، فربما امتدت يد الأولاد إلى ما ليس لهم ، إنه أصل لقانون « من أين لك هذا ؟ » الذى نحتاج إلى تطبيقه حين نشكّ .

التقط زكريا إجابة مريم التى جاءتْ سريعة واثقة ، تدل على الحق الواضح الذى لا يتلجلج : ﴿قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٧)﴾ [آل عمران]

نعم ، هذه مسألة يعرفها زكريا ، لكنها لم تكُنْ فى بُؤْرة شعوره ، فقد ذكَّرْته بها مريم : ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٨)﴾ [آل عمران]

أى : ما دام الأمر كذلك ، فَهَبْ لى ولداً يرثُ النبوة من بعدى . ثم يذكر حيثيات ضَعْفه وكِبَر سنِّه ، وكوْن امرأته عاقراً ، وهى حيثيات المنع لا حيثيات الإنجاب ؛ لأن الله يرزق مَنْ يشاء بغير حساب وبغير أسباب .

وهكذا ، استفاد زكريا من هذه الكلمة ، واستفادتْ منها مريم كذلك فيما بعد ، وحينما جاءها الحَمْل فى المسيح بدون الأسباب الكونية .

وهنا يدعو زكريا ربه ، فيقول : ﴿رَبِّ لا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ (٨٩)﴾ [الأنبياء] أى : لا أطلب الولد ليرث مُلْكى من بعدى ، فأنت خير الوارثين ترثُ الأرضَ والسماء ، ولك كل شىء .

---

(١) يعنى : وجد عندها فاكهة الصيف فى الشتاء ، وفاكهة الشتاء فى الصيف . قاله مجاهد وسعيد بن جبير وقتادة والسدى والعوفى . ذكره ابن كثير فى تفسيره (١/ ٣٦٠) .

﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ (١)

فلم تكُنْ استجابة الله لزكريا أنْ يهبه الولد حال كِبَره وكوْن امرأته عاقراً ، إنما أيضاً سماه ، ولله تعالى سرٌّ فى هذه التسمية ؛ لأن الناس أحرار فى وَضْع الأسماء للمُسمّيات كما قلنا فلا مانع أن نسمى فتاة زنجية (قمر) ؛ لأن الاسم يخرج عن معناه الأصلى ، ليصير عَلَماً على هذا المسمى . إذن : هناك فَرْق بين الاسم وبين المسمَّى .

وقد نُسمِّى الأسماء تفاؤلاً أن يكونوا كذلك ، كالذى سمَّى ولده يحيى ، ويظهر أنه كان يعانى من موت الأولاد ؛ لذلك قال :

فَسمَّيْتُه يَحيى ليحيى فلَم يكُنْ ... لِرَدِّ قَضَاءِ الله فيه سَبيلُ

أى : سمَّيْته يحى أملاً فى أن يحيا ، لكن هذا لم يردّ عنه قضاء الله .

وكذلك لما سمَّى عبد المطلب محمداً قال : سمَّيته محمداً ليُحمد فى الأرض وفى السماء(٢) .

---

(١) ذكر المفسرون هنا قولين :
الأول : أنها كانت عاقراً فجُعلَتْ ولوداً . قاله أكثر المفسرين .
الثانى : كانت سيئة الخلق طويلة اللسان فأصلحها الله فجعلها حسنة الخلق ، قاله ابن عباس وعطاء .
قال ابن كثير فى تفسيره (٣/١٩٣) : « الأظهر من السياق الأول » .
قال القرطبى فى تفسيره (٦/٤٥١٦) : « يحتمل أن تكون جمعت المعنيين فجعلت حسنة الخلق ولوداً » .

(٢) عن أبى الحكم التنوخى قال : « لما كان اليوم السابع (لميلاد رسول الله ﷺ) ذبح عبد المطلب عنه ودعا له قريشاً ، فلما أكلوا قالوا : يا عبد المطلب ، أرأيت ابنك هذا الذى أكرمتنا على وجهه ، ما سمَّيْته ؟ قال : سمَّيته محمداً . قالوا : فلم رغبت به عن أسماء أهل بيته ؟ قال : أردت أن يحمده الله تعالى فى السماء وخَلْقه فى الأرض . أخرجه البيهقى فى « دلائل النبوة » (١/١١٣) ، وابن عساكر فى « تهذيب تاريخ دمشق الكبير » (١/٢٨٢) ، ونقله ابن كثير فى « البداية والنهاية » (٢/٢٦٤) .

لكن ، حين يُسمِّى يحيى مَنْ يملك الحياة ويملك الموت ، فلا بُدَّ أن يكون اسماً على مُسمًّى ، ولا بُدَّ له أن يحيا ، حتى إنْ مات يموت شهيداً ؛ لتتحقق له الحياة حتى بعد الموت .

ومعنى ﴿وَهَبْنَا .. (٩٠)﴾ [الأنبياء] أى : أعطيناه بدون قانون التكوين الإنسانى ، وبدون أسباب .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ .. (٩٠)﴾ [الأنبياء] فبعَد أنْ كانت عاقراً لا تلد أجرينا لها عملية ربانية أعادتْ لها مسألة الإنجاب ؛ لأن المرأة تلد طالما فيها البويضات التى تكوِّن الجنين ، فإذا ما انتهتْ هذه البويضات قد أصبحت عقيماً ، وهذه البويضات فى عنقود ، ولها عدد مُحدَّد أشبه بعنقود البيض فى الدجاجة ؛ لذلك يسمون آخر الأولاد « آخر العنقود » .

إذن : وُجد يحيى من غير الأسباب الكونية للميلاد ؛ لأن المكوِّن سبحانه أراد ذلك .

لكن ، لماذا لم يقُلْ لزكريا أصلحناك ؟ قالوا : لأن الرجل صالح للإنجاب ما دام قادراً على العملية الجنسية ، مهما بلغ من الكِبَر على خلاف المرأة المستقبِلة ، فهى التى يحدث منها التوقُّف .

وأصحاب العُقْم وعدم الإنجاب نرى فيهم آيات من آيات الله ، فنرى الزوجين صحيحين ، أجهزتُهما صالحة للإنجاب ، ومع ذلك لا ينجبان ، فإذا ما تزوج كل منهما بزوج آخر ينجب ؛ لأن المسألة ليست (آليّة) ، بل وراء الأسباب الظاهرة إرادة الله ومشيئته .

لذلك يقول تعالى : ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا .. (٥٠)﴾ [الشورى]

ثم تُوضِّح الآيات سبب وعلَّة إكرام الله واستجابته لنبيه زكريا ـ عليه السلام : ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ (٩٠)﴾ [الأنبياء]

هذه صفات ثلاث أهَّلَتْ زكريا وزوجته لهذا العطاء الإلهى ، وعلينا أن نقف أمام هذه التجربة لسيدنا زكريا ، فهى أيضاً ليستْ خاصة به إنما بكل مؤمن يُقدِّم من نفسه هذه الصفات .

لذلك ، أقول لمن يُعانى من العقم وعدم الإنجاب وضاقتْ به أسباب الدنيا ، وطرق باب الأطباء أن يلجأ إلى الله بما لجأ به زكريا ـ عليه السلام ـ وأهله ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ (٩٠)﴾ [الأنبياء] خذوها (روشتة) ربانية ، ولن تتخلف عنكم الاستجابة بإذن الله .

لكن ، لماذا هذه الصفة بالذات : ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ .. (٩٠)﴾ [الأنبياء] ؟

قالوا : لأنك تلاحظ أن أصحاب العُقْم وعدم الإنجاب غالباً ما يكونون بُخَلاء مُمْسكين ، فليس عندهم ما يُشجِّعهم على الإنفاق ، فيستكثرون أن يُخرجوا شيئاً لفقير ؛ لأنه ليس ولده .

فإذا ما سارع إلى الإنفاق وسارع فى الخيرات بشتى أنواعها ، فقد تحدَّى الطبيعة، وسار ضدها فى هذه المسألة ، وربما يميل هؤلاء الذين ابتلاهم الله بالعُقْم إلى الحقد على الآخرين ، أو يحملون ضغينة لمن ينجب ، فإذا طرحوا هذا الحقد ونظروا لأولاد الآخرين على أنهم أولادهم ، فعطفوا عليهم وسارعوا فى الخيرات ، ثم توجَّهوا إلى الله بالدعاء رَغَباً ورَهَباً ، فإن الله تعالى وهو المكوِّن الأعلى يخرق لهم النواميس والقوانين ، ويرزقهم الولد من حيث لا يحتسبون .

ومعنى : ﴿وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ (٩٠)﴾ [الأنبياء] يعنى : راضين بقدرنا

فيهم ، راضين بالعُقْم على أنه ابتلاء وقضاء ، ولا يُرفع القضاء عن العبد حتى يرضى به ، فلا ينبغى للمؤمن أنْ يتمرَّدَ على قدر الله ، ومن الخشوع التطامن لمقادير الخَلْق فى الناس .

﴿ وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩١﴾ ﴾

ولك أنْ تسأل : لماذا يأتى ذِكْر السيدة مريم ضمن مواكب النبوة ؟ نقول : لأن النبوة اصطفاء الله لنبى من دون خَلْق الله ، وكوْنه يصطفى مريم من دون نساء العالمين لتلد بدون ذكورة ، فهذا نوع من الاصطفاء ، وهو اصطفاء خاص بمريم وحدها من بين نساء العالمين ؛ لأن اصطفاء الأنبياء تكرَّر ، أمّا اصطفاء مريم لهذه المسألة فلم يتكرر فى غيرها أبداً .

وقوله تعالى : ﴿ وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا .. ﴿٩١﴾ ﴾ [الأنبياء] يعنى : عَفَّتْ وحفظتْ فَرْجها ، فلم تمكِّن منها أحداً[1] .

ومعنى : ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهَا[2] مِن رُّوحِنَا .. ﴿٩١﴾ ﴾ [الأنبياء] يعنى :

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٤٥١٨/٦) : « قيل : إن المراد بالفرج فرج القميص ، أى : لم تعلق بثوبها ريبة ، أى : أنها طاهرة الأثواب . وفروج القميص أربعة : الكُمّان والأعلى والأسفل . قال السهيلى : فلا يذهبن وهمك إلى غير هذا ، فإنه من لطيف الكناية ، لأن القرآن أنزه معنى ، وأوزن لفظاً ، وألطف إشارة ، وأحسن عبارة من أن يريد ما يذهب إليه الوهم » .

(٢) أى : فى جيب درعها . قاله أبو يحى زكريا الأنصارى فى (فتح الرحمن) (ص ٢٧١) وقال قتادة : نفخ فى جيبها . وقال مقاتل : نفخ فى فرجها . ذكرهما السيوطى فى الدر المنثور (٦٧١/٥) . والدرع : ثوب المرأة .

مسألة خاصة به ، خارجة على قانون الطبيعة ، فليس فى الأمر ذكورة أو انتقاء ، إنما النفخة التى نفخها الله فى آدم ، فجاءت منها كل هذه الأرواح ، هى التى نفخها فى مريم ، فجاءت منها روح واحدة . فالروح هى نفسها التى قال الله فيها : ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي .. (٢٩)﴾ [الحجر]

ثم يقول تعالى : ﴿وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ (٩١)﴾ [الأنبياء] يعنى : شيئاً عجيباً فى الكون ، والعجيبة فيها أن تلدَ بدون ذكورة ، والعجيبة فيه أن يُولَد بلا أب ، فكلاهما آية لله ومعجزة .

ثم يقول الحق سبحانه بعد سَرْد لقطات من موكب الأنبياء :

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ (٩٢)﴾

الأمة : الجماعة يجمعها رباط واحد من أرض أو مُلك ملك أو دين ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ .. (٢٢)﴾ [الزخرف] يعنى : على دين .

فالمراد : هذه أمتكم أمةٌ حال كَوْنها أمةً واحدة ، لا اختلافَ فيها[1] والرسل جميعاً إنما جاءوا ليتمموا بناءً واحداً ، كما قال ﷺ : « إن مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله ، إلا موضع لبنة من زاوية ، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون : هلاّ

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٦/٤٥١٩) : « لما ذكر الأنبياء قال : هؤلاء كلهم مجتمعون على التوحيد ، فالأمة هنا بمعنى الدين الذى هو الإسلام . قاله ابن عباس ومجاهد وغيرهما » .

وُضِعت هذه اللبنة ؟ قال : فأنا اللبنة ، وأنا خاتم النبيين »[١] .

والمعنى أن به ﷺ تتم النبوة وتختم .

وتُطلَق الأمة على الرجل الذى يجمع خصال الخير كلها ؛ لأن الله تعالى بعثر خصال الخير فى الخَلْق ، فليس هناك مَنْ هو مَجْمع مواهب وفضائل ، إنما فى كل منا ميزةٌ وفضيلةٌ فى جانب من الجوانب ؛ ليتكامل الناس ويحتاج بعضهم إلى بعض ، ويحدث الترابط بين عناصر المجتمع ، هذا الترابط يتم إمَّا بحاجات تطوُّعية ، أو حاجات اضطرارية .

فلو تعلَّم الناس جميعاً وتخرّجوا فى الجامعة فَمَنْ للمهَن والحِرَف الأخرى ؟ مَنْ سيكنس الشوارع ، ويقضى مثل هذه الأمور ؟ لو تعطلتْ مجارى الصرف الصحى ، أيجتمع هؤلاء الدكاترة والأساتذة لإصلاحها ، ولو أصلحوها مرة فهذا تطوُّع .

أمّا المصالح العامة فلا تقوم على التطوع إنما تقوم على الحاجة والاضطرار ، ولولا هذه الحاجة لما خرجَ عامل الصرف الصحى فى الصباح إلى هذا العمل الشاقّ المنفّر ، لكن كيف وفى رقبته مسئولية أُسْرة وأولاد ونفقات ؟

وسبق أنْ قُلْنا : ينبغى ألاَّ يغترَّ المرء بما عنده من مواهب ومميزات ، ولا يتعالى بها على خَلْق الله ، وعليه أنْ يسأل عَمَّا عند الآخرين من مواهب يحتاج هو إليها ، ولا يؤديها بنفسه .

إذن : الحاجة هى الرابطة فى المجتمع ، ولو كانَ التطوّع

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٥٣٥) ، ومسلم فى صحيحه (٢٢٨٦) كتاب الفضائل (حديث ٢٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

والتفضّل فلن نحقق شيئاً ، فلو قلنا للعامل : تفضل بكنس الشارع لوجدَ ألْفَ عذر يعتذر به ، أما إنْ كان أولاده سيموتون جوعاً إن لم يعمل فلا شكَّ أنه سيُسرع ويُبادر .

فالحقيقة أن كل فرد فى المجتمع لا يخدم إلا نفسه ، فكما تنفع الآخرين تنتفع بهم ؛ لذلك إياك أنْ تحسد صاحب التفوق على تفوّقه فى أمر من الأمور ؛ لأن تفوقه فى النهاية عائد عليك .

وكما نقول هذه المسائل فى أمور الدنيا نقولها فى أمور الآخرة ، حين نرى صاحب التديُّن ، وصاحب الخُلق والالتزام لا نهزأ به ولا نسخر منه ، كما يحلو للبعض ؛ لأن صلاحه سيعود عليك ، وسوف تنتفع بتديُّنه واستقامته ولعلنا نُرزَق بسبب هؤلاء .

وقد يكون فى البيت الواحد فُتوات وأذكياء ومتعلمون وفيهم مُعوَّق أو مجنون أو مجذوب ، فترى الجميع يحتقرونه ، ويُهوِّنون من شأنه ، أو تراه منبوذاً بين هؤلاء مُبْعَداً ، لا يشرُف بمعرفته أحد ، وربما يعيشون جميعاً فى ظلِّه ويُرزَقون كرامة له .

وكثيراً ما نرى الناس يغضبون وينقمون على قضاء الله إن رزقهم بمولود فيه عيب أو إعاقة ، ووالله لو رضيتَ به وتقبلْتَ قضاء الله فيه ، لكان هو الظل الظليل لك .

فهؤلاء خُلِقوا هكذا لحكمة ، حتى لا نتمرد على صَنْعة الله فى كَوْنه ، وحتى يشعر أهل النعمة والسلامة والصحة بفضل الله عليهم ، ولنعلم أن الله تعالى لا يسلب شيئاً من عبده إلاّ وقد أعطاه عِوَضاً عنه .

ولك أن تلاحظ مثلاً أحوال الناس المجاذيب الذين تراهم فى أىٍّ

مكان مُهملين يستقلهم النـاس ، وينفرون من هيئتهم الرثَّة ، ومع ذلك ترى أصحاب الجـاه والسلطان إذا نزلتْ بهم ضائقة وأعيَتْـهم الأسباب يلجئـون لمثل هؤلاء المجاذيب يلتـمسون منهم البركـة والدعاء ، وهذا فى حَدِّ ذاته أسـمى ما يمكن أن يتطلع إليه أهـل الجاه وأهل السلطان والنفوذ ، أن تكون كلمتهم مسمـوعةً وأمرهم مُطاعاً ، وأن يلجأ الناس إليهم كما لجئوا إلى هذا المجذوب المسكين .

فإذا ما أجرى الله الخير على يد هذا الـشيخ المجذوب ترى السيد العظيم يتـمـحك فـيه ، ويدعـوه إلى طعـامـه ، ويدفع عنه أذى الناس ويحـتضنه ، لأنه جـرَّب وعلم أن لديه فـيضـاً من فـيض الله وكرامـة يختص الله بها مَنْ يشاء من عباده ، ونحن جـميعاً عباد الله ليس فينا مَنْ هو ابن لله ، أو بينه وبين الله قرابة .

وإنْ كان العقل هو أعزّ ما يعتز به الإنسان ، وهو زينته وحليته ، فلك أن تنظر إلى المجنون الذى فقد العـقل ، وحُرِم هذه الآلة الغالية ، وترى الناس يشيرون إليه : هذا مجنون ، نعم هو مجنون ، لكن انظر إلى سلوكه : هل رأيتم مجنوناً يسرق ؟ هل رأيتم مجنوناً يزنى ؟ هل رأيتم مجنوناً انتحر ؟

إذن : مع كونه مجنوناً إلا أنه مدرك لنفسه تماماً ؛ لأن خالقه عز وجل وإنْ سلبه العـقل إلا أنه أعطاه غريزة تحكمه كمـا تحكم الغريزة الحيوان ، وهل رأيتم حماراً ألقى بنفسه مثلاً أمام القطار ؟

إذن : علينا ألاَّ نُحقِّر هؤلاء ، وألاَّ نسـتقل بهم فقد عوَّضـهم الله عما سلبـه منهم ، ومنّا مَنْ يـسـعى ليـصل إلى مـا وصلوا هـم إليـه ولا يستطيع ، ومَنْ منَّا لا يتـمنى أن يكون مثل هذا المجذوب الذى يـتمسَّح الناس فيـه ، ويطلبون منه البركـة والدعاء ؟ وأىُّ عظمة يطلبهـا الإنسان

فوق هذا ؟ ويكفى هذا أنه لا يُسأَلُ عَمّا يفعل فى الدنيا ، ولا يُسْأَل كذلك فى الآخرة .

نعود إلى قول الله تعالى : ﴿إِنَّ هَـٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً .. (٩٢)﴾ [الأنبياء] فمن معانى أمة : الرجل الذى جمع خصال الخير كلها ؛ لذلك وصف الله نبيه إبراهيم بأنه أمة ، فقال : ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً[1] .. (١٢٠)﴾ [النحل]

يعنى : جمع من خصال الخير مَا لا يوجد إلا فى أمة كاملة .

والأمة لا تكون واحدة ، إلا إذا صدر تكوينها المنهجى عن إله واحد ، فلو كان تكوينها من متعدد لذهب كُلٌّ إله بما خلق ، ولعلاَ بعضهم على بعض ، ولفسد الحال . إذن : كما قال سبحانه : ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَـٰوَاتُ وَالأَرْضُ .. (٧١)﴾ [المؤمنون]

فلا تكون الأمة واحدة إلا إذا استقبلت أوامرها من إله واحد وخضعت لمعبود واحد ، فإنْ نسيتْ هذا الإله الواحد تضاربتْ وتشتتتْ .

وكأن الحق سبحانه يقول : أنتم ستجربون أمة واحدة ، تسودون بها الدنيا وتنطلق دعوتكم من أمة أمية لا تعرف ثقافة ؛ ولا تعرف علماً ، ولم تتمرس بحكم الأمم ؛ لأنها كانت أمة قبلية ، لكل قبيلة قانونها وسيادتها وقيادتها .

ثم ينزل لكم نظام يجمع الدنيا كلها بحضاراتها ، نظام يطوى تحت جناحه حضارة فارس وحضارة الروم ويُطوِّعها ، ولو أنكم أمة

---

(١) سُئل ابن مسعود : ما الأمة ؟ قال : الذى يُعلِّم الناس الخير . وقال قتادة : إمام هدى يُقتدَى به ، وتُتبع سنته . [الدر المنثور للسيوطى ١٧٦/٥] .

مثقفة لقالوا قفزة حضارية ، إنما هذه أمة أمية ، ونبيها أيضاً أُمِّى إذن : فلا بُدَّ أن يكونَ المنهج الذى جاء به ليسلب هذه الحضارات عِزَّها ومجدَها منهجاً أعلى من كل هذه المناهج والحضارات .

ثم يقول تعالى : ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ (٩٢)﴾ [الأنبياء] أى : التزموا بمنهجى لتظلوا أمة واحدة ، واختار صفة الربوبية فلم يقُلْ : إلهكم ؛ لأن الرب هو الذى خلق ورزق وربى ، أمّا الإله فهو الذى يطلب التكاليف .

فالمعنى : ما دُمْتُ أنا ربكم الذى خلقكم من عَدَم ، وأمدكم من عُدْم ، وأنا القيوم على مصالحكم ، أكلؤكم بالليل والنهار ، وأرزق حتى العاصى والكافر بى ، فأنا أَوْلَى بالعبادة ، ولا يليق بكم أن أصنع معكم هذا كله وتذهبون إلى إله غيرى ، هذا منطق العقل السليم ، وكما يقولون (اللى يأكل لقمتى يسمع كلمتى) .

ومن العبادة أن تطيع الله فى أمره ونَهْيه ؛ لأن ثمرة هذه الطاعة عائدة عليك بالنفع ، فلله تعالى صفات الكمال الأزلىّ قبل أنْ يخلق مَنْ يطيعه ، فطاعتك لن تزيد شيئاً فى مُلْك الله ، ومعصيتك لن تنتقص منه شيئاً . إذن : فالأمر راجع إليك ، وربك يُثيبك على فعل هو فى الحقيقة لصالحك .

لكن ، هل سمع الناس هذا النداء وعملوا بمقتضاه ، فكانوا أمة واحدة كهذه الأمة التى أدخلتْ الدنيا فى رحاب الإسلام فى نصف قرن ؟ هذه الأمة التى ما زلنا نرى أثرها فى البلاد التى تمردتْ على العروبة ، وعلى لغة القرآن ، ومع ذلك هم مسلمون على لغاتهم وعلى حضارتهم ، إن الدين الذى يصنع هذا ، والأمة الواحدة التى تحمَّلتْ هذه المسئولية ما كان ينبغى أن نتخلى عنها .

والسؤال : هل بقيت الأمة الواحدة ؟ تجيب الآيات :

﴿ وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾

أى : صاروا شيعاً وأحزاباً وجماعات وطوائف ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ .. ﴿١٥٩﴾ ﴾ [الأنعام]

لماذا ، لست منهم فى شىء ؟ لأنهم يقضون على واحدية الأمة ، ولا يقضون على واحدية الأمة إلا إذا اختلفتْ ، ولا تختلف الأمة إلا إذا تعددتْ مناهجها ، هنا ينشأ الخلاف ، أمَّا إنْ صدروا جميعاً عن منهج واحد فلن يختلفوا .

وما داموا قد تقطعوا أمرهم بينهم ، فصاروا قِطَعاً مختلفة ، لكل قطعة منهج وقانون ، ولكل قطعة تكاليف ، ولكل قطعة راية ، وكأن آلهتهم متعددة ، فهل سيُتركون على هذا الحال ، أم سيعودون إلينا فى النهاية ؟

﴿ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ [الأنبياء] إذن : أنتم أمة واحدة فى الخَلْق من البداية ، وأمة واحدة فى المرجع وفى النهاية ، فلماذا تختلفون فى وسط الطريق ؟

إذن : الاختلاف ناشىء من اختلاف المنهج ، وكان ينبغى أن يكون واضع المنهج واحداً . وقد جاء النبى ﷺ خَاتَماً للرسالات ، وجاءت شريعته جامعة لمزايا الشرائع السابقة ، بل وتزيد عليها المزايا التى تتطلبها العصور التى تلى بعثته .

فكان المفروض أن تجتمع الأمة المؤمنة على ذلك المنهج الجامع

المانع الشامل ، الذى لا يمكن أن يستدرك عليه ، وبذلك تتحقق وحدة الأمة ، وتصدر فى تكليفاتها عن إله واحد ، فلا يكون فيها مَدْخَل للأهواء ولا للسلطات الزمنية أو الأغراض الدنيئة .

لذلك ، إذا تعددت الجماعات التى تقول بالإسلام وتفرقت نقول لهم : كونوا جماعة واحدة ، وإلا فالحق مع أىِّ جماعة منكم ؟! لأن الله تعالى خاطب نبيه ﷺ بقوله : ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ..(١٥٩)﴾ [الأنعام]

ولا يتفرق الداعون لدعوة واحدة إلا باتباع الأهواء والأغراض ، أما الدين الحق فهو الذى يأتى على هوى السماء ، موافقاً لما ارتضاه الله تعالى لخَلْقه .

لقد انفضَّ المؤمنون عن الجامع الذى يجمعهم بأمر الله ، فانفضت عنهم الوحدة ، وتدابروا حتى لم يَعُدْ يجمعهم إلا قَوْلُ « لا إله إلا الله محمد رسول الله » أما مناهجهم وقوانينهم فقد أخذوها من هنا أو من هناك ، وسوف تعضهم هذه القوانين ، وسوف تخذلهم هذه الحضارات ، ويرون أثرها السىء ، ثم يعودون فى النهاية إلى الإسلام فهو مرجعهم الوحيد ، كما نسمع الآن نداء لا حَلَّ إلا الإسلام .

نعم ، الإسلام حَلٌّ للمشاكل والأزمات والخلافات والزعامات ، حَلٌّ للتعددية التى أضعفتْ المسلمين وقوَّضَتْ أُخوَّتهم التى قال الله فيها : ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا .. (١٠٣)﴾ [آل عمران]

ووالله ، لو عُدْنا إلى حبل الله الواحد فتمسَّكنا به ، ولم تلعب بنا الأهواء لَعُدْنا إلى الأمة الواحدة التى سادتْ الدنيا كلها .

إذن : ﴿إِلَيْنَا رَاجِعُونَ (٩٣)﴾ [الأنبياء] أى : فى الآخرة للحساب ، وأنا أقول يا رب .. لعل هذا الرجوع يكون فى الدنيا بأنْ تعضَّنا قوانين البشر ، فنفزع إلى الله ونعود إليه من جديد ، فيعود لنا مجدنا ، ويصْدُق فينا قَوْل الرسول ﷺ : « بدأ الإسلام غريباً ، وسيعود غريباً كما بدأ غريباً ، فطوبى للغرباء »[(١)].

ويُعزِّز هذا الفهم ويُقوِّى هذا الرجاء قول الله تعالى بعدها :

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ (٩٤)﴾

الحق ـ سبحانه وتعالى ـ يستأنف معنا العظة بالعمل الصالح ليعطينا الأمل لو رجعنا إلى الله ، والدنيا كلها تَشهد أن أىَّ مبدأ باطل ، أو شعار زائف زائل يُزخرفون به أهواءهم لا يلبث أنْ ينهار ولو بَعْد حين ، ويتبين أصحابه أنه خطأ ويعدلون عنه .

ومثال ذلك الفكر الشيوعى الذى ساد روسيا منذ عام ١٩١٧ وانتهكت فى سبيله الحرمات ، وسفكتْ الدماء ، وهدمتْ البيوت ، وأخذت الثروات ، وبعد أن كانت أمة تصدر الغذاء لدول العالم أصبحت الآن تتسول من دول العالم ، وهم أول مَنْ ضَجَّ من هذا الفكر وعانى من هذه القوانين .

وقوله تعالى : ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ .. (٩٤)﴾ [الأنبياء] ربط العمل الصالح بالإيمان ؛ لأنه مُنطلَق المؤمن فى كُلِّ ما يأتى وفى كُلِّ ما يدع ؛ لينال بعمله سعادة الدنيا وسعادة الآخرة .

أمَّا مَنْ يعمل الصالح لذات الصلاح ومن منطلق الإنسانية

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٤٥) كتاب الإيمان ، وابن ماجة فى سننه (٣٩٨٦) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

والمروءة ، ولا يخلو هذا كله فى النهاية عن أهـواء وأغراض ، فليأخذ نصيبه فى الدنيـا ، ويحظى فيها بالتكريم والسيـادة والسُّمْعة ، وليس له نصيب فى ثواب الآخرة ؛ لأنه فَعَل الخير وليس فى باله الله .

والحق سبحانه يعطينا مثالاً لذلك فى قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ .. (٣٩)﴾ [النور]

يعنى : فـوجىء بوجود إله يحـاسبه ويـجازيه ، وهذه مسـألة لم تكُنْ على باله ، فيقـول له : عملتَ ليقال وقد قيل . وانتـهت المسألة ؛ لذلك يقـول تعالى : ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ .. (٢٠)﴾ [الشورى] أى : نعطيه أجره فى عالم آخر لا نهاية له ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ (٢٠)﴾ [الشورى]

لأنه عَمِلَ للناس ، فليأخذ أجره مـنهم ، يُخلِّدون ذكراه ، ويُقيمون له المعارضَ والتماثيل .. الخ .

وقوله تـعالى : ﴿فَلا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ .. (٩٤)﴾ [الأنبياء] يعنى : لا نبخسـه حقَّه ولا نجحد سَـعْيه أبداً ﴿وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ (٩٤)﴾ [الأنبياء] نسجِّل له أعمـاله ونحفظها ، والمفـروض أن الإنسان هو الذى يُسجِّل لنفسه ، فـإنْ سجَّل لك عـملَك ربُّك الذى يُثيـبك عليه ، وسـجَّله على نفسه ، فلا شكَّ أنه تسجيل دقيق لا يبخسك مثقال ذرة من عملك .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (٩٥)﴾

﴿حَرَامٌ .. (٩٥)﴾ [الأنبياء] يعنى : ممتنع ، لا يجب أن يكون ، والقرية : أى قرية أهلكناها ؛ لأنها كذَّبَتْ الرسل ، ووقفتْ منهم موقف اللَّدَد والعناد والمعارضة ، فأهلكها الله بذنوبها فى الدنيا ، أيُعقَلُ بعد هذا أن نتركها فى الآخرة من غير أنْ نأخذها بذنوبها ؟

لا بُدَّ - إذن - أن ترجع إلينا فى الآخرة لنحاسبها الحساب الدائم الخالد ، فلا نكتفى بحساب الدنيا المنتهى .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ(١) يَنسِلُونَ (٩٦)﴾

وردتْ قصة يأجوج ومأجوج فى آخر سورة الكهف ، حينما سُئِلَ النبى ﷺ عن الرجل الجوَّال الذى طاف الأرض ، فنزلت : ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِى الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا (٨٣)﴾ [الكهف]

وقد تكلم العلماء فى ذى القرنين ، منهم مَنْ قال : هو قورش ومنهم مَنْ قال هو : الإسكندر الأكبر . والقرآن لا يعنيه الشخص وإلاَّ لَذكره باسمه ، فالقرآن لا يُؤرِّخ له ، ولا يقيم له تمثالاً ، إنما يريد التركيز على الأوصاف التى تعنى الحق وتعنى الخَلْق .

فيكفى أن نعلم أنه إنسان مكَّنَه الله فى الأرض . يعنى : أعطاه من أسباب القوة وأسباب المهابة والسيطرة ، وأعطاه من كُلِّ مُقوِّمات

---

(١) الحدب : ما ارتفع من الأرض . أى أنهم يحضرون من كل جانب ، ولو كان مرتفعاً شاقاً لا يعوقهم شىء لأنهم فى غير المرتفع أسرع والسير فيه أيسر ، فهم يأتون من كل جهة ولو شقت . [القاموس القويم ١/١٤٤] .

القوة : أعطاه المال والعلم والجيوش ، فلم يكتف بذلك كله ، بل ﴿ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ ﴾ [الكهف] يعنى : أخذ بالأسباب التى تؤدِّى إلى الخير .

وسبق أنْ تحدثنا عن تشخيص البطل فى قصص القرآن ؛ لأن القرآن لا يُؤرِّخ للشخصية ، ولا يُعطى لها خصوصية ، وإنما يريدها عامة لتكون مثلاً يُحتذَى ، ويتم بها الاعتبار ، وتُحدِث الأثر المراد من القصة .

فما يعنينا فى قصة ذى القرنين أنه رجل مُكِّن فى الأرض ، وكان من صفاته كذا وكذا ، وما يعنينا من أهل الكهف أنهم فتية آمنوا بربهم وتمسَّكوا بدينهم وعقيدتهم وضَحَّوْا فى سبيلها ، لا يهمنا الأشخاص ولا الزمان ولا المكان ولا العدد .

لذلك ؛ أبهم القرآن كل هذه المسائل ، فأىّ فتية ، فى أىّ زمان ، وفى أىٍّ مكان ، وبأىٍّ أسماء يمكن أن يقفوا هذا الموقف الإيمانى ، ولو شخَّصناهم وعيَّناهم لَقالَ الناس : إنها حادثة خاصة بهؤلاء ، أو أنهم نماذج لا تتكرر ؛ لذلك أبهمهم القرآن ليكونوا عبرة وأُسْوة تسير فى الزمان كله .

كذلك ، لما أراد القرآن أنْ يضرب مثلاً للذين كفروا ذكر امرأة نوح وامرأة لوط ولم يُعيِّنهما ، وكذلك ضرب مثلاً للذين آمنوا بامرأة فرعون ولم يذكر مَنْ هى[1] ، فالغرض من ضَرْب هذه الأمثال ليس الأشخاص ، إنما لنعلم أن للمرأة حريةَ العقيدة واستقلاليةَ الرأى ، فليست هى تابعة لأحد ، بدليل أن نوحاً ولوطاً لم يتمكَّن كل منهما من هداية امرأته .

---

(١) قال تعالى : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا .. ﴿١٠﴾ ﴾ [التحريم] .

وفرعون الكافر الذى ادَّعَى الألوهيـة ، لم يستطع أن يمنع زوجته من الإيمان ، وهى التى قالت : ﴿رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١١)﴾ [التحريم]

إذن : مـا يعنينا فـى قصـة « ذى القـرنـين » أن الله مكَّن له فى الأرض وأعطاه كُلَّ أسـباب القـوة والسـيطرة ؛ لذلك ائتـمنه أنْ يكونَ ميزاناً للخير وللحق ، وفوَّضَهُ أن يقضى فى الخَلْق بما يراه من الحق والعدل .

﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَـٰذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا (٨٦)﴾ [الكهف]

لأننا مكَّنَّاه وفـوَّضناه ، فاسـتعـمل التمكين فى مـوضعـه ، وأخذ الأمانة بحقِّها ، فقال : ﴿أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا (٨٧)﴾ [الكهف] أى : نُعذِّبه على قَدْر مـقدرتنا ، ثم يُرَدُّ إلى ربه فيُعذِّبه على قَدْر قدرته تعالى .

﴿وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا (٨٨)﴾ [الكهف]

وهكذا يكون دستور الحياة من الحاكم الممكَّن فى الخَلْق ، دستور الثواب والعـقاب الذى تستـقيم به أمور البـلاد والعباد ، فـحين يرى تقصيـراً لا بُدَّ أنْ يأخذ على يد صاحبـه مهما تكُنْ منزلتـه ، لا يخافه ولا ينافقه ولا يخشى فى الله لومة لائم ، وإنْ رأى المـحسن المجتهد يُثيبه ويكافئه .

وهذا القانون نراه فى مـجتمعنا يكاد يكون مُـعطّلاً بين العاملين ، فـاختلط الحـابل بالنابل ، وتدهـورتْ الأمور ، ودخلت بينـنا مقـاييس

أخرى للثواب وللعقاب ما أنزل الله بها من سلطان ، فانقلبتْ الموازين ، حيث تبجح الكسالى ، وأُحْبِط المجدُّون المحسنون .

﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا (٩٠)﴾ [الكهف]

هذا كُلُّ ما أخْبر الله به ، ويبدو أنه وصل فى تجواله العام إلى بلاد تظل الشمس بها مشرقة ثلاثة أو ستةَ أشهر لا تغرب ؛ لذلك لم يجد لهم من دون الشمس ستْراً يسترها أىْ ظلمة ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا (٩٣)﴾ [الكهف]

ومع ذلك احتال أن يفهم منهم ، ويخاطبهم ؛ لحرصه على نفعهم وما يصلحهم ، وهذه صفة الحاكم المؤمن حين يُمكَّن فى الأرض ، وتُعطَى له أسباب القيادة ، ويُفوَّض فى خَلْق الله ، ولو لم يكُنْ حريصاً على نفعهم لوجد العذر فى كونه لا يفهم منهم ولا يفهمون منه .

فلما توصلوا إلى لغة مشتركة ، ربما هى لغة الإشارة التى نتفاهم بها مع الأخرس مثلاً :

﴿قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا[1] عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا (٩٤)﴾ [الكهف]

ثم أمرهم أن يأتوا بقطَع الحديد ، فأشعل فيها النار حتى احمرَّت فقال ﴿آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا (٩٦)﴾ [الكهف] وهكذا صنع لهم السدَّ الذى يحميهم من هؤلاء القوم ، فلم يَقصُر نفعه لهم على هذه القضية ذاتها ، إنما نفعهم نَفْعاً يعطيهم الخير والقوة فى ألاَّ يتعرضوا لمثلها

---

(١) الخَرْج والخراج : ما يخرجه صاحب المال للعامل عنده من الأجر جزاء عمله . أو ما يُخرجه من الزكاة للإمام . [القاموس القويم ١/ ١٩٠] .

بعد ذلك ، عملاً بالحكمة التى تقول : لا تعطنى سمكة ، ولكن علمنى كيف أصطاد .

ذلك لأنه أشركهم فى العمل ؛ ليشعروا بأهميته ويتمسكوا بالمحافظة عليه وصيانته ، وإذا ما تعرضوا لمثل هذا الموقف لا ينتظرون مَنْ يصنع لهم .

هذا هو النموذج الذى تُقدِّمه قصة « ذى القرنين » وهو نموذج صالح لكل الزمان ولكل المكان ولكل حاكم مكَّنه الله فى الأرض ، وألقى بين يديه أزمّة الأمور ، وفى حديث أفضل العمل يقول ﷺ : « تعين صانعاً ، أو تصنع لأخرق »[1] .

وقد تضاربتْ الأقوال حول : مَنْ هم يأجوج ومأجوج ، فمنْ قائل : هم التتار . وآخر قال : المغول . وآخر قال : هم الحتيت ، أو السرديال ، أو قبائل الهُونْ .

ولو كان فى تحديدهم فائدة لعيَّنهم القرآن ، إنما المهم من قصتهم أنهم قومٌ مفسدون فى الأرض لا يتركون الصالح على صلاحه ، فإذا ما تصدَّى لهم الممكَّن فى الأرض فعليه أن يحول بينهم وبين هذا الإفساد فى غيرهم ، وعلينا نحن ألاَّ نُفسد الصالح كهؤلاء ، إنما نترك الصالح على صلاحه ، بل ونزيده صلاحاً .

وفى بناء ذى القرنين للسد دروس يجب أنْ يعيها أولو الأمر الذين يتولَّوْن مصالح الخَلْق ، من هذه الدروس أنه لم يقف عند طلبهم

---

(١) عن أبى ذر رضى الله عنه قال : قلت : يا رسول الله أى الأعمال أفضل ؟ قال : الإيمان بالله والجهاد فى سبيله . قال قلت : أىّ الرقاب أفضل ؟ قال : أنفسُها عند أهلها وأكثرها ثمناً . قال قلت : فإن لم أفعل ؟ قال : « تعين صانعاً أو تصنع لأخرق » أخرجه مسلم فى صحيحه (٨٤) كتاب الإيمان ، والبخارى فى صحيحه (٢٥١٨) بلفظ : « تعين ضائعاً » .

فى بناء سدٍّ يمنع عنهم أذى عـدوهم ، إنما اجتـهد وترقَّى بالمـسألة إلى ما هو أفضل لهم ، فالسدُّ الأصـمّ المتـماسك كقطعة واحدة يسهل هَدْمه أو النفـاذ منه ؛ لذلك قال : ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا (٩٥)﴾ [الكهف]

لقد طلبـوا سداً وهو يقول : رَدْمـاً ، لقد رقّى لهم الفكرة ، وأراد أنْ يصنع لهم سداً على هيئة خـاصة تمتصّ الصدمات ، ولا تؤثر فى بنائه ؛ لأنه جعل بين الجـانبين رَدْماً كـأنه سوستة تُعطى السـدّ نوعاً من المـرونة . وهـكذا يجب أن يكون المـؤمن عنـد تحـمُّل مسـئوليـة الخَلْق .

ولما عرضـوا عليه المال نظير عـمله أبى ، وقال : ﴿مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ .. (٩٥)﴾ [الكهف] أى : عندى المال الكثـير من عطاء الله لكن أعينونى بما لديكم من قـوة . إذن : زكاة القوة أنْ تمنع الفساد من الغير .

نعود إلى قوله تعالى : ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ.. (٩٦)﴾ [الأنبـياء] فلها عـلاقة بقـوله تعالى : ﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ .. (٩٣)﴾ [الأنبياء] فتقطّـع أهل الخير وتفرُّقهـم يُجرِّىء عليهم أصحـاب الفساد ، وأقلّ ما يقـولونه فى حقِّهم أنهم لو كانوا على خـير لنفعوا أنفـسهم ، فدعُـوكم من كلامهـم ، وهكذا يفُتُّ أهل الباطل فى عَـضُدِ أهل الحق ، ويصرفون الناس عنهم .

﴿حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ .. (٩٦)﴾ [الأنبياء] يعنى : جاءت عناصر الفسـاد والفتنة فى الكون ، وعناصر الفسـاد والفتنة لا تتمكن ولا تجد الفـرصة والسلطة الزمنية إلا إذا غفل أهل الحق وتفـرقوا فلم يردوهم ، ويأخذوا على أيديهم .

ويأجوج ومأجوج هم أهل الفساد فى كل زمان ومكان ، فجنكيزخان الذى هدم أول ولاية إسلامية فى خوارزم ، وكان عليها الملك قطب أرسلان ، ثم جاء من ذريته الثالثة هولاكو الذى دخل بغداد عاصمة الخلافة الإسلامية وخرَّبها وقتل أهلها حتى سالتْ الدماء ، وألقى بالكتب الإسلامية فى النهر حتى كانت قنطرة يعبرون عليها . هؤلاء الذين نُسمِّيهم التتار .

إذن : فالقرآن قَصَّ علينا من التاريخ القديم قصة يأجوج ومأجوج أيام ذى القرنين ، ثم رأيناهم فى حياتنا الإسلامية ، وشاء الله أن يستفيد المسلمون من هجمات هؤلاء البرابرة ، وأن تتجمع ولاياتهم ويصدُّوا هجمات التتار على أرض مصر بقيادة قطز والظاهر بيبرس ، وهما مثالان للممكَّنين فى الأرض ، مع أنهما من المماليك .

هذه الهجمات التترية للمفسدين فى الأرض كانت هجمات همجية وحشية ، وقد تجمَّع أحفاد هؤلاء من يأجوج ومأجوج العصر الحديث فى هجمات مدنية تغزونا بحضارتها ، إنهم الصليبيون الذين انهزموا أمام وحدة المسلمين بقيادة صلاح الدين .

وهكذا على مرِّ التاريخ ننتصر إذا كنا أمة واحدة ، ونُهزَم إذا تفرّقنا وتقطّعنا أمماً وأحزاباً ، وهذه حقائق تُثبِت صِدْق القرآن فيما وجَّهنا إليه من الوحدة وعدم التفرق .

ثم يقول تعالى : ﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الأنبياء]

الحدب : المكان المرتفع ، نقول : فلان أحدب الظهر يعنى : فى ظهره منطقة مرتفعة ، وكذلك هؤلاء المفسدون أتوْا من أماكن مرتفعة فى هضبة شمال الصين . ومعنى ﴿يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الأنبياء] يعنى : يسرعون ، ومنه نقول : انسلَّ القماش ؛ لأن القماش مُكوَّن من سُدى

ولُحمة ، يعنى خيوط طولية وخيوط عرضية ، تتداخل فتكوِّن القماش ، فنسل القماش أن تنزع خيوط العرض وتفكّ تداخلها مع خيوط الطول ، ولا تُنزع خيوط الطول لأنها دائماً مُحكَمة بثَنْى السُّدَى على اللحمة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾ (١)

فكوْنُ أهل الفساد يأتون مُسْرعين من كل حَدَب وصَوْب إلا أن فسادهم لن يطول ، فقد اقتربت القيامة ، قال تعالى : ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴿١﴾ ﴾ [القمر]

وقال : ﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ .. ﴿١﴾ ﴾ [النحل]

وهذا تنبيه للغافل ، وتحذير للباغى من أهل الفساد ، وتطمين ورجاء للمظلومين المستضعفين المعتدَى عليهم : اطمئنوا فقد قرب وقت الجزاء .

﴿ اقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ .. ﴿٩٧﴾ ﴾ [الأنبياء] والوعد الحق أى : الصادق الذى يملك صاحبه أن يُنفّذه ، فقد تَعد وعداً ولا تملك تنفيذه فهو وَعْد ، لكنه وَعْد باطل ، فالوعد يختلف حَسْب مروءة الواعد وإمكانياته وقدرته على إنفاذ ما وعد به .

---

(١) شخص بصره : انفتحت عيناه فلا تطرف ، من الخوف والفزع والحيرة ، وهو كناية عن شدة الهول والفزع يوم القيامة . [القاموس القويم ١/٣٤٣] .

لكن مهما كانت عندك من إمكانيات ، ومهما ملكتَ من أسباب التنفيذ ، أتضمن أن تُمكِّنك الظروف والأحوال من التنفيذ ؟ ولا يملك هذا كله إلا الله عز وجل ، فإذا وعد حقق ما وعد به ، فالوعد الحق - إذن - هو وعد الله .

وحين يقول الحق سبحانه : ﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ .. (٩٧)﴾ [الأنبياء] فتنبه ولا تَقِسْ الدنيا بعمرها الأساسى ، إنما قِسْ الدنيا بعمرك فيها ، فهذه هى الدنيا بالنسبة لك ، ولا دَخْلَ لك بدنيا غيرك ، فإذا كنتَ لا تعلم متى تفارق دنياك فلا شكَّ أن عمرك قريب ، واقترب الوعد الحق بالنسبة لك .

وكذلك مدة مُكْثك فى قبرك إلى أن تقوم الساعة ستمر عليك كساعة من نهار ، كما قال سبحانه : ﴿كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ .. (٤٥)﴾ [يونس]

ولو تنبَّه كل منّا إلى إخفاء الله لأجله ، لعلم أن فى هذا الإخفاء أعظمَ البيان ، فحين أخفاه ترقبناه فى كل طَرْفة عَيْن ، وتنفُّس نَفَس ؛ لذلك يقولون : « مَن مات قامت قيامته »[1] ، لأن القيامة تعنى الحساب والجزاء على الأعمال ، ومَنْ مات انقطع عمله ، وطُويَتْ صحيفته .

وقوله تعالى : ﴿فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا .. (٩٧)﴾ [الأنبياء]

وَعْد الله هنا هو القيامة ، وهى تفاجئنا وتأتينا بغتة ؛ لذلك نقول فى (فَإِذَا) أنها الفجائية ، كما تقول : خرجتُ فإذا أسدٌ بالباب ،

---

(١) ذكره العجلونى فى كشف الخفاء (حديث رقم ٢٦١٨) عن أنس بن مالك رضى الله عنه ، وتمامه : « أكثروا ذكر الموت ، فإنكم إن ذكرتموه فى غنىً كدَّره عليكم ، وإن ذكرتموه فى ضيق وسّعه عليكم ، الموت القيامة » .

يعنى : فوجئت به ، وهكذا ساعةَ تقوم الساعة سوف تُفَاجِىء الجميع ، لا يدرى أحد ماذا يفعل .

لذلك يقول سبحانه : ﴿فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا.. (٩٧)﴾ [الأنبياء] وشخوص البصر يأتى حين ترى شيئاً لا تتوقعه ، ولم تحسب حسابه ، فتنظر مُنْدهشاً يجمد جفنُك الأعلى الذى يتحرك على العين ، فلا تستطيع حتى أنْ ترمش أو تطرف .

وفى آية أخرى يقول تعالى : ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ (٤٢)﴾ [إبراهيم]

وإذا أردتَ أن ترى شُخوص البصر فانظر إلى شخص يُفَاجأ بشىء لم يكُنْ فى باله ، فتراه ـ بلا شعور وبغريزته التكوينية ـ شاخصَ البصر ، لا ينزل جفنه .

ثم يقولون : ﴿يَـوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَـٰذَا .. (٩٧)﴾ [الأنبياء]

فلم يقتصر الموقف على شخوص البصر إنما تتحرك أيضاً أدوات الإدراك فيقول اللسان : (يَا وَيْلَنَا) وهذا نداء للويل أى : جاء وقتُك فلم يَعُدْ أمامهم إلا أنْ يقولوا : يا عذاب هذا أوانك فاحضر .

والويل : هو الهلاك السريع ينادونه ، فهل يطلب الإنسان الهلاكَ ، ويدعو به لنفسه ؟ نقول : نعم ، حين يفعل الإنسان الفعلَ ويجد عواقبه السيئة ، وتواجهه الحقيقة المرّة يميل إلى تعذيب نفسه ، ألاَ تسمع مثل هؤلاء يقولون : أنا أستحق .. أنا أستاهل الضرب ..؟ إنه لَوْم النفس وتأنيبها على ما كان منها ، فهى التى أوقعتْه فى هذه الورطة .

لذلك يقول سبحانه : ﴿الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ (٦٧)﴾ [الزخرف]

فلماذا لا يُؤَنِّب نفسه ، ويطلب لها العذاب ، وهى التى أردتْه فى التهلكة ، ففى هذا الموقف تنقلب موازينهم التى اعتادوها فى الدنيا ، فالأصدقاء فى الشر وفى المعصية هم الآن الأعداء .

﴿قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَـٰذَا .. (٩٧)﴾ [الأنبياء] لم يكن هذا الموقف فى بالنا ، ولم نعمل له حساباً ، والغفلة : أنْ تدرأ عن بالك ما يجب أن يكون على بالك دائماً .

لكن ، أىّ غفلة هذه والله ـ عز وجل ـ يُذكِّرنا بهذا الموقف فى كل وقت من ليل أو نهار ، ألاَ ترى أنه سبحانه سَمَّى القرآن ذِكْراً ليزيح عنّا هذه الغفلة ، فكلما غفلتَ ذكّرك ، وهزَّ مواجدك ، وأثار عواطفك .

إذن : المسألة ليست غفلة ؛ لذلك نراهم يستدركون على كلامهم ، فيقولون : ﴿بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ (٩٧)﴾ [الأنبياء] لأنهم تذكَّروا أن الله تعالى طالما هَزَّ عواطفهم ، وحرَّك مواجيدهم ناحية الإيمان ، فلم يستجيبوا .

لذلك اعترفوا هنا بظلمهم ، ولم يستطيعوا إنكاره فى مثل هذا الموقف ، فلم يعُدْ الكذب مُجْدِياً ، ولعلّهم يلتمسون بصدقهم هذا نوعاً من الرحمة ، ويظنون أن الصدق نافعهم ، لكن هيهات .

وكأن الحق سبحانه يحكى عنهم هذه المواجهة حين تفاجئهم القيامة بأهوالها ، فتشخص لها أبصارهم ، ويقول بعضهم ﴿يَـٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَـٰذَا .. (٩٧)﴾ [الأنبياء] فيردّ عليهم إخوانهم : أىّ غفلة هذه ، وقد كان الله يُذكِّرنا بالقيامة وبهذا الموقف فى كل وقت ﴿بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ (٩٧)﴾ [الأنبياء]

و (بَلْ) حرف إضراب عن الكلام السابق ، وإثبات للكلام اللاحق ، وهكذا يُراجِعون أنفسهم ، ويُواجِه بعضهم بعضاً ، لكن بعد فوات الأوان .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ[1] جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ ﴾

فالذين اتخذتموهم آلهة من دون الله من الأصنام والأوثان والشمس والقمر والأشجار سيسبقونكم إلى جهنم لنقطع عليكم أىَّ أمل فى النجاة ؛ لأنهم حين يرونَ العذاب ربما تذكّروا هؤلاء ، وفكَّروا فى اللجوء إليهم والاستنجاد بهم ، لعلّهم يُخرجونهم من هذا المأزق ، وقد سبق أنْ قالوا عنهم : ﴿ هَـٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ .. ﴿١٨﴾ ﴾ [يونس]

وقالوا : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ .. ﴿٣﴾ ﴾ [الزمر]

لذلك ، يجمعهم الله جميعاً فى جهنم ليقطع عنهم الآمال ، ويبدو خجل المعبود وخيبة العابد ؛ لأنه جاء النارَ فوجد معبوده قد سبقه إليها .. لكن ، هل هذا الكلام على إطلاقه فقد عبد الكفارُ الأصنامَ ، ومنهم مَنْ عبدوا عيسى عليه السلام ، ومنهم مَنْ عبدوا عُزَيْراً ، ومنهم مَنْ عبدوا الملائكة ، فهل سيُجمع هؤلاء أيضاً مع عابديهم فى النار ؟

لو قُلْنا بهذا الرأى فدخولهم النار مثلما دخلها إبراهيم ، فجمع الله له النار والسلامة فى وقت واحد ، ويكون وجودهم لمجرد أنْ يراهم

---

(١) قُرِىءَ هذا اللفظ فى القرآن ثلاث قراءات :
١ - حصب جهنم : قراءة الجمهور .
٢ - حطب جهنم : قراءة على بن أبى طالب وعائشة .
٣ - حضب جهنم : قراءة ابن عباس . [تفسير القرطبى ٦/٤٥٢٤] .

عابدوهم ، ويعلموا أنهم لا ينفعونهم[١] .

ومعنى ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ .. (٩٨)﴾ [الأنبياء] الحصب مثل : الحطب ، وهو كل ما تُوقَد به النار أياً كان خشباً أو قشاً أو بترولاً أو كهرباء ، وفى آية أخرى : ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ .. (٦)﴾ [التحريم] لذلك فإن النار نفسها تشتاق للكفار ، وتنتظرهم ، وتتلهّف عليهم كما يقول تعالى : ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ (٣٠)﴾ [ق]

ويقول تعالى : ﴿إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ (٧) تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ .. (٨)﴾ [الملك]

وقوله تعالى : ﴿أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ (٩٨)﴾ [الأنبياء] الورود هنا بمعنى : الدخول والمباشرة ، لا كالورود[٢] فى الآية الأخرى : ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا .. (٧١)﴾ [مريم]

---

(١) عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال : لما نزلت ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ (٩٨)﴾ [الأنبياء] . فقال ابن الزبعرى : ألست تزعم يا محمد أن عيسى عبد صالح ، وأن عزيراً عبد صالح ، وأن الملائكة صالحون ؟ قال : بلى . قال : فهذه النصارى تعبد عيسى ، وهذه اليهود تعبد عزيراً ، وهذه بنو مليح تعبد الملائكة ، فضج أهل مكة وفرحوا ، فنزلت ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ (١٠١)﴾ [الأنبياء] عزير وعيسى والملائكة . أخرجه أبو داود فى ناسخه وابن المنذر وابن مردويه والطبرانى ، قاله السيوطى فى الدر المنثور (٥/٦٧٩) .

(٢) اختلف العلماء فى معنى الورود فى قوله تعالى : ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا .. (٧١)﴾ [مريم] على أقوال عدة منها :

- الورود : الدخول ، قاله ابن عباس وخالد بن معدان وابن جريج وغيرهما .
- هو ورود إشراف واطلاع وقرب ، وذلك أنهم يحضرون موضع الحساب وهو بقرب جهنم ، فيرونها وينظرون إليها فى حالة الحساب ثم ينجى الله الذين اتقوا مما نظروا إليه ، ويُصار بهم إلى الجنة .
- الورود : النظر إليها فى القبر ، فينجى منها الفائز ، ويصلاها مَنْ قُدِّر عليه دخولها ، ثم يخرج منها بالشفاعة أو بغيرها من رحمة الله . قال القرطبى فى تفسيره (٦/٤٣١٠) بعد إيراد هذه الأقوال : « ظاهر الورود الدخول إلا أنها تكون برداً وسلاماً على المؤمنين ، وينجون منها سالمين » . ثم قال : « هذا القول يجمع شتات الأقوال ، فإن من وردها ولم تؤذه بلهيبها وحرها فقد أبعد عنها ونجى منها » .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ لَوْ كَانَ هَٰؤُلَاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾

لأنهم سيدخلون فيجدون آلهتهم أمامهم ؛ لينْقطع أملهم في شفاعتهم التي يظنونها ، كما قال تعالى فى شأن فرعون : ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ .. ﴿٩٨﴾ ﴾ [هود] فرئيسهم وفُتوتهم يتقدمهم ، ويسبقهم إلى النار ، فلو لم يكُنْ أمامهم لظنوا أنه ينقذهم من هذا المأزق . ولو كان هؤلاء آلهة ـ كما تدَّعون ـ ما وردوا النار .

ومعنى : ﴿ وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾ [الأنبياء] لأن المعروف عن النار أنها تأكل ما فيها ، ثم تنتهى ، أما هذه النار فلا نهايةَ لها ، فكلما نضجَتْ جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ، وهكذا تظل النار مُتوقِّدة لا تنطفىء . ومعنى ﴿ كُلٌّ .. ﴿٩٩﴾ ﴾ [الأنبياء] أى : العابد والمعبود .

﴿ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾

معلوم أن الزفير هو الخارج من عملية التنفس ، فالإنسان يأخذ فى الشهيق الأكسجين ، ويُخرِج فى الزفير ثانى أكسيد الكربون ، فنلحظ أن التعبير هنا اقتصر على الزفير دون الشهيق ؛ لأن الزفير هو الهواء الساخن الخارج ، وليس فى النار هواء للشهيق ، فكأنه لا شهيقَ لهم ، أعاذنا الله من العذاب .

﴿ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [الأنبياء]

. وهذه من الآيات التى توقف عندها المستشرقون ، لأن هناك آياتٍ أخرى تُثبت لهم فى النار سَمْعاً وكلاماً . كما فى قوله سبحانه :

﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (٤٤) ﴾ [الأعراف]

نعم ، هم يسمعون ، لكن لا يسمعون كلاماً يَسُرُّ ، إنما يسمعون تبكيتاً وتأنيباً ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ (٥٠) ﴾ [الأعراف]

﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ (١٠١) ﴾

بعد أن ذكر سبحانه جزاء الكافرين فى النار ذكر المقابل ، وذكْر المقابل يوضح المعنى ، اقرأ قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (١٤) ﴾ [الانفطار]

ويقول : ﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً .. (٨٢) ﴾ [التوبة] ؛ لذلك تظل المقارنة حيَّة فى الذِّهْن .

ومعنى : ﴿ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ .. (١٠١) ﴾ [الانبياء] الحُسْنى : مؤنث الأحسن ، تقول : هذا حَسَن وهذه حسنة ، فإنْ أردتَ المبالغة تقول : هذا أحسن ، وهذه حُسْنى . مثل : أكبر وكُبْرى . ومعنى : ﴿ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ .. (١٠١) ﴾ [الانبياء] أنهم من أهل الطاعة ، ومن أهل الجنة ، فهكذا حُكْم الله لهم ، وقد أخذ الله تعالى جزءاً من خَلْقه

وقال : « هؤلاء للجنة ولا أبالى ، وهؤلاء للنار ولا أبالى »[(١)]

ولا تقُلْ : ما ذنب هؤلاء ؟ لأنه سبحانه حكم بسابق علْمه بطاعة هؤلاء ، ومعصية هؤلاء .

وقوله : ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ[(٢)] عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾ [الأنبياء] أى : مبعدون عن النار .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾

حسيس النار : أزيزها ، وما ينبعث منها من أصوات أول ما تشتعل ﴿ وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [الأنبياء] فلم يقُلْ مثلاً : وهم بما اشتهتْ أنفسهم ، إنما ﴿ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ .. ﴿١٠٢﴾ ﴾ [الأنبياء] كأنهم غارقون فى النعيم ممَّا اشتهتْ أنفسهم ، كأن شهوات أنفسهم ظرف يحتويهم ويشملهم . وهذا يُشوِّق أهل الخير والصلاح للجنة ونعيمها ، حتى نعمل لها ، ونُعِد العُدَّة لهذا النعيم .

وسبق أن قلنا : إن الإنسان يتعب فى أول حياته ، ويتعلم صنعة ، أو يأخذ شهادة لينتفع بها فيما بعد ويرتاح فى مستقبل حياته ، وعلى قَدْر تعبك ومجهودك تكون راحتك ، فكل ثمرة لا بُدَّ لها

---

(١) عن أبى الدرداء رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « خلق الله آدم حين خلقه فضرب كتفه اليمنى فأخرج ذرية بيضاء كأنهم الذر وضرب كتفه اليسرى فأخرج ذرية سوداء كأنهم الحمم فقال للذى فى يمينه : إلى الجنة ولا أبالى . وقال للذى فى كفه اليسرى : إلى النار ولا أبالى » أخرجه أحمد فى مسنده (٦/٤٤١) .

(٢) قال ابن عباس : أولئك أولياء الله يمرون على الصراط مراً ، هو أسرع من البرق ، ويبقى الكفار فيها جثياً وقال آخرون : بل نزلت استثناء من المعبودين وخرج منهم عزير والمسيح كما قال حجاج بن محمد الأعور عن ابن جريج وعثمان بن عطاء عن عطاء عن ابن عباس قاله ابن كثير فى تفسيره (٣/١٩٨) .

من حَرْث ومجهود ، والله عز وجل لا يُضيع أجرَ مَنْ أحسن عملاً .

وكنا نرى بعض الفلاحين يقضى يومه فى حقله ، مهملَ الثياب ، رثَّ الهيئة ، لا يشغله إلا العمل فى زرعه ، وآخر تراه مُهنْدماً نظيفاً يجلس على المقهى سعيداً بهذه الراحة ، وربما يتندر على صاحبه الذى يُشقِى نفسه فى العمل ، حتى إذا ما جاء وقت الحصاد وجد العامل ثمرة تعبه ، ولم يجد الكسول غير الحسرة والندم .

إذن : ربك ـ عز وجل ـ أعطاك الطاقة والجوارح ، ويريد منك الحركة ، وفى الحركة بركة ، فلو أن الفلاح جلس يُقلِّب فى أرضه ويُثير تربتها دون أنْ يزرعها لَعوَّضه الله وأثمر تعبه ، ولو أن يجد شيئاً فى الأرض ينتفع به مثل خاتم ذهب أو غيره .

وترف الإنسان وراحته بحسب تَعبه فى بداية حياته ، فالذى يتعب ويعرق مثلاً عَشْر سنين يرتاح طوال عمره ، فإنْ تعب عشرين سنة يرتاح ويرتاح أولاده من بعده ، وإنْ تعِب ثلاثين سنة يرتاح أحفاده وهكذا .

وترَف المتعلم يكون بحسب شهادته : فهذا شهادة متوسطة ، وهذا عُلْيا ، وهذا أخذ الدكتوراة ، ليكون له مركز ومكانة فى مجتمعه .

لكن مهما أعدَّ الإنسان لنفسه من نعيم الحياة وترفها فإنه نعيم بقَدْر إمكانياته وطاقاته ؛ لذلك ذكرنا أننا حين سافرنا إلى سان فرانسيسكو رأينا أحد الفنادق الفخمة وقالوا : إن الملك فيصل ـ رحمه الله ـ كان ينزل فيه ، فأردنا أنْ نتجوّل فيه ، وفعلاً أخذنا بما فيه من مظاهر الترف والأُبهة وروعة الهندسة ، وكان معى ناس من علْية القوم فقلتُ لهم : هذا ما أعدّه العباد للعباد ، فما بالكم بما أعدَّه رب العباد للعباد ؟

فإذا ما رأيتَ أهل النعيم والترف فى الدنيا فلا تحقد عليهم ؛ لأن نعيمهم يُذكِّرك ويُشوِّقك لنعيم الآخرة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ (١) هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾

ذلك لأنهم فى نعيم دائم لا ينقطع ، وعطاء غير مجذوذ ، لا يفوتك بالفقر ولا تفوته بالموت ؛ لذلك ﴿لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ .. ﴿١٠٣﴾ ﴾ [الأنبياء] وأىُّ فزع مع هذه النعمة الباقية ؟ أو : لا يحزنهم فزع القيامة وأهوالها .

وقوله : ﴿ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ هَـذَا يَوْمُكُمُ الَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [الأنبياء] فقد صدَقكم الله وَعْده ، وأنجزَ لكم ما وعدكم به من نعيم الآخرة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ ﴾

أى : ما يحدث من عذاب الكفار وتنعيم المؤمنين سيكون ﴿يَوْمَ

(١) قال مجاهد : تتلقاهم الملائكة الذين كانوا قرناءهم فى الدنيا يوم القيامة فيقولون : نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، لا نفارقكم حتى تدخلوا الجنة . أخرجه ابن أبى حاتم وذكره السيوطى فى الدر المنثور (٥/٦٨٣) .

نَطْوِى السَّمَاءَ كَطَىِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ .. (١٠٤) ﴾ [الأنبياء] و (يَوم) : زمن وظَرْف للأحداث ، فكأن ما يحدث للكافرين من العذاب والتنكيل ، وما يحدث للمؤمنين من الخلود فى النعيم يتم فى هذا اليوم .

والسجل : هو القرطاس ، والورق الذى نكتب فيه يُسمَّى سجلاً ؛ ولذلك الناس يقولون : نسجل كذا ، أى : نكتبه فى ورقة حتى يكون محفوظاً ، والكتاب : هو المكتوب .

والحق سبحانه يقول فى آية أخرى : ﴿ وَالسَّمَـٰوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ .. (٦٧) ﴾ [الزمر] يطويها بقدرته ؛ لأن اليمين عندنا هى الفاعلة فى الأشياء ، ولكن لا نأخذ الطى أنه الطى المعروف ، بل نأخذه فى إطار ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ .. (١١) ﴾ [الشورى]

وقوله تعالى : ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ .. (١٠٤) ﴾ [الأنبياء] يدلنا على أن الحق سبحانه يتكلم عن الخَلْق الأول و ﴿ نُّعِيدُهُ .. (١٠٤) ﴾ [الأنبياء] تدل على وجود خَلْق ثان .

إذن : فقوله تعالى فى موضع آخر : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ[1] الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَـٰوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (٤٨) ﴾ [إبراهيم] دليل على أن الخَلْق الأول خَلْقٌ فيه الأسباب وفيه المسبِّب ، فالحق سبحانه أعطاك فى الدنيا مُقوِّمات الحياة من : الشمس والقمر والمطر والأرض والماء .... الخ ، وهذه أمور لا دَخْل لك فيها ، وكل ما عليك أنْ تستخدمَ عقلك الذى خلقه الله فى الترقى بهذه الأشياء والترف بها .

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٣٧٢١/٥) : « رُوى مرفوعاً من حديث أبى هريرة أن النبى ﷺ قال : « تُبدَّل الأرض غير الأرض فيبسطها ويمدها مد الأديم العكاظى ، لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً ، ثم يزجر الله الخلق زجرة فإذا هم فى الثانية فى مثل مواضعهم من الأولى ، مَنْ كان فى بطنها ففى بطنها ، ومن كان على ظهرها كان على ظهرها » ذكره الغزنوى .

أما فى الخلق الثانى فأنت فقط تستقبل النعيم من الله دون أخْذ بالأسباب التى تعرفها فى الدنيا ؛ لأن الآخرة لا تقوم بالأسباب إنما بالمسبِّب سبحانه ، وحين ترى فى الجنة ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعتْ ، ولا خطر على قلب بشر تعلم أن فِعْل ربك لك أعظم من فِعْلك لنفسك .

ومهما ارتقتْ أسباب الترف فى الدنيا ، ومهما تفنَّن الخَلْق فى أسباب الراحة والخدمة الراقية ، فقصارى ما عندهم أن تضغط على زرٍّ يفتح لك الباب ، أو يُحضِر لك الطعام أو القهوة ، لكن أتحدَّى العالم بما لديه من تقدُّم وتكنولوجيا أنْ يُقدم لى ما يخطر ببالى من طعام أو شراب ، فأراه أمامى دون أنْ أتكلم ؛ لأن هذه مسألة لا يقدر عليها إلا الله عز وجل .

فقوله : ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ .. (١٠٤) ﴾ [الأنبياء] فالمعنى ليستْ مجرد إعادته كما كان ، إنما نعيده على أرْقى وأفضل مما كان بحيث يصل بك النعيم أنْ يخطرَ الشىء ببالك فتجده بين يديك ، بل إنَّ المؤمن فى الجنة يتناول الصنف من الفاكهة فيقول : لقد أكلتُ مثل هذا من قبل[1] فيُقال له : ليس كذلك بل هو أفضل مما أكلْتَ ، وأهنأ مما تذوقتَ . فلو تناولتَ مثلاً تفاح الدنيا تراه خاضعاً لنوعية التُّرْبة والماء والجو المحيط به والمبيدات التى لا يستغنى عنها الزرع هذه الأيام ... إلخ . أمّا تفاح الآخرة فهو شىء آخر تماماً ، إنه صَنْعة ربانية وإعداد إلهىّ .

وكأن الحق سبحانه يلفت عباده إلى أن عنايته بهم أفضل من

(١) هذا قوله تعالى : ﴿ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَـٰذَا الَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا .. (٢٥) ﴾ [البقرة] .

عنايتهم بأنفسهم ؛ لأنه سبحانه أَوْلَى بنا من أنفسنا ، ولكى نعلم الفرق بين الشىء فى أيدينا والشىء فى يده عز وجل .

ثم يقول تعالى : ﴿وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ [الأنبياء] أى : لا يُخرِجنا شىء عمَّا وعدنا به ، ولا يخالفنا أحد .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ[1] مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾

والكَتْب : التسجيل ، لكن علم الله أزلىٌّ لا يحتاج إلى تسجيل ، إنما التسجيل من أجلنا نحن حتى نطمئن ، كما لو أخذتَ من صاحبك قَرْضاً وبينكما ثقة ، ويأمن بعضكم بعضاً ، لكن مع هذا نكتب القَرْض ونُسجِّله حتى تطمئن النفس .

ومعنى : ﴿كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ .. ﴿١٠٥﴾﴾ [الأنبياء] الزبور : الكتاب الذى أُنزل على نبى الله داود ، ومعنى الزبور : الشىء المكتوب ، فإنْ أطلقتَها على عمومها تُطلَق على كل كتاب أنزله الله ، ومعنى : ﴿مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ .. ﴿١٠٥﴾﴾ [الأنبياء] الذكْر : يُطلَق مرة على القرآن ، ومرة على الكتب السابقة . وما دام الزبور يُطلَق على كل كتاب أنزله الله فلا بُدَّ أن للذكر معنى أوسع ؛ لذلك يُطلَق الذكر على اللوح المحفوظ ، لأنه ذكْر الذكْر ، وفيه كل شىء .

فمعنى : ﴿كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ .. ﴿١٠٥﴾﴾ [الأنبياء] أى : فى الكتب التى

---

(١) الزبور والكتاب واحد ، ولذلك جاز أن يقال للتوراة والإنجيل زبور . وقال سعيد بن جبير : الزبور : التوراة والإنجيل والقرآن . (تفسير القرطبى ٦/٤٥٢٩) .

أُنزلَتْ على الأنبياء ما كتبناه فى اللوح المحفوظ ، أو ما كتبناه فى الزبور ، لا أنّ سيدنا داود أعطاه الله فوق ما أعطى الآخرين .

ومعنى : ﴿مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ .. (١٠٥)﴾ [الأنبياء] هذه تدل على أن واحداً أسبق من الآخر ، نقول : القرآن هو كلام الله القديم ، ليس فى الكتب السماوية أقدم منه ، والمراد هنا ﴿مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ .. (١٠٥)﴾ [الأنبياء] بعدية ذِكْرية ، لا بعدية زمنية .

فما الذى كتبه الله لداود فى الزبور ؟ كتب له ﴿أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ الصَّالِحُونَ (١٠٥)﴾ [الأنبياء] كلمة الأرض إذا أُطلقَتْ عموماً يُراد بها الكرة الأرضية كلها .

وقد تُقيَّد بوصف معين.كما فى : ﴿الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ..(٢١)﴾ [المائدة]

وفى : ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ .. (٨٠)﴾ [يوسف] أى : التى كان بها .

وهنا يقول تعالى : ﴿أَنَّ الأَرْضَ .. (١٠٥)﴾ [الأنبياء] أى : الأرض عموماً ﴿يَرِثُهَا .. (١٠٥)﴾ [الأنبياء] أى : تكون حقاً رسمياً لعبادى الصالحين . فأىُّ أرض هذه ؟ أهى الأرض التى نحن عليها الآن ؟ أم الأرض المبدلة ؟

ما دُمْنَا نتكلّم عن بَدْء الخَلْق وإعادته ، فيكون المراد الأرض المبدلَة المعادة فى الآخرة[1] ، والتى يرثها عباد الله الصالحون ، والإرْث هنا كما فى قوله تعالى : ﴿تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣)﴾ [الأعراف]

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٦/٤٥٣٠) : « أحسن ما قيل فيه أنه يُراد بها أرض الجنة كما قال سعيد بن جبير ؛ لأن الأرض فى الدنيا قد ورثها الصالحون وغيرهم . وهو قول ابن عباس ومجاهد وغيرهما » .

فعن مَنْ ورثوا هذه الأرض ؟

الحق سبحانه وتعالى حينما خلق الخَلْق أعدَّ الجنة لتسعَ كلَّ بنى آدم إنْ آمنوا ، وأعدَّ النار لتسع كُلَّ بنى آدم إنْ كفروا ، فليس فى المسألة زحام على أىِّ حال . فإذا ما دخل أهلُ الجنة الجنةَ ، ودخل أهلُ النارِ النارَ ظلَّتْ أماكن أهل النار فى الجنة خالية فيُورثها الله لأهل الجنة ويُقسِّمها بينهم ، ويُفسح لهم أماكنهم التى حُرِم منها أهل الكفر .

أو نقول : الأرض يُراد بها أرض الدنيا[1] . ويكون المعنى أن الله يُمكِّن الصالح من الأرض ، الصالح الذى يَعْمُرها ولو كان كافراً ؛ لأن الله تعالى لا يحرم الإنسان ثمار عمله ، حتى وإنْ كان كافراً ، يقول تعالى ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ (٢٠)﴾ [الشورى]

لكن عمارة الكفار للأرض وتكوينهم للحضارة سَرْعان ما تنزل بهم النكبات ، وتنقلب عليهم حضارتهم ، وها نحن نرى نكبات الأمم المرتقية والمتقدمة وما تعانيه من أمراض اجتماعية مستعصية ، فليست عمارة الأرض اقتصاداً وطعاماً وشراباً وترفاً . ففى السويد - مثلاً - وهى من أعلى دول العالم دَخْلاً ومع ذلك بها أعلى نسبة انتحار ، وأعلى نسبة شذوذ ، وهذه هى المعيشة الضَّنْك التى تحدَّث عنها القرآن الكريم فى قوله تعالى : ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤)﴾ [طه]

فالضَّنْك لا يعنى فقط الفقر والحاجة ، إنما له صور أخرى كثيرة .

---

(١) عن ابن عباس : إنها أرض الأمم الكافرة ، ترثها أمة محمد ﷺ بالفتوح [تفسير القرطبى ٦ / ٤٥٣٠] .

إذن : لا تَقِسْ مستوى التحضُّر بالماديات فحسب ، إنما خُذْ فى حُسْبانك كُلَّ النواحى الأخرى ، فمَنْ أتقن النواحى المادية الدنيوية أخذها وترف بها فى الدنيا ، أمّا الصلاح الدينى والخُلقى والقِيَمى فهو سبيل لترف الدنيا ونعيم الآخرة .

وهكذا تشمل الآية : ﴿يَرِثُهَا عِبَادِىَ الصَّالِحُونَ (١٠٥)﴾ [الأنبياء] الصلاح المادى الدنيوى ، والصلاح المعنوى الأخروى ، فإنْ أخذتَ الصلاح مُطلقاً بلا إيمان ، فإنك ستجد ثمرته إلى حين ، ثم ينقلب عليك ، فأين أصحاب الحضارات القديمة من عاد وثمود والفراعنة ؟

إن كُلَّ هذه الحضارات مع ما وصلتْ إليه ما أمكنها أن تحتفظ لنفسها بالدوام ، فزالتْ وبادتْ .

يقول تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى الْبِلادِ (٨) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِى الأَوْتَادِ (١٠)﴾ [الفجر]

إنها حضارات راقية دُفنَتْ تحت أطباق التراب ، لا نعرف حتى أماكنها . أمّا إنْ أخذت الصلاح المعنوى ، الصلاح المنهجى من الله عز وجل فسوف تحوز به الدنيا والآخرة ؛ ذلك لأن حركة الحياة تحتاج إلى منهج يُنظِّمها : افعل كذا ولا تفعل كذا . وهذا لا يقوم به البشر أمّا ربُّ البشر فهو الذى يعلم ما يُصلحهم ويُشرِّع لهم ما يُسعدهم .

إن منهج الله وحده هو الذى يأمرنا وينهانا ، ويخبرنا بالحلال والحرام ، وعلينا نحن التنفيذ ، وعلى الحكام وأولياء الأمر الممسكين بميزان العدل أنْ يراقبوا مسألة التنفيذ هذه ، فيُولُّوا مَنْ يصلُح للمهمة ، ويقوم بها على أكمل وجه ، وإلا فسد حال المجتمع ، الحاكم

يُشرف ويُراقِب ، يُشجِّع العامل ويُعاقب الخامل ، ويضع الرجل المناسب فى مكانه المناسب .

فعناصر الصلاح فى المجتمع : علماء يُخططون ، وحكام يُنفّذون ، ويديرون الأمور ، وكلمة حاكم مأخوذة من الحكَمة (بالفتح) وهى : اللجام الذى يكبح الفَرس ويُوجِّهها .

لذلك جاء فى الحديث الشريف : « مَنْ ولِّى أحداً على جماعة ، وفى الناس خير منه لا يشم رائحة الجنة »[1] .

لماذا ؟ لأن ذلك يُشيع الفساد فى الأرض ، ويُثبِّط العزائم العالية والهمم القوية حين ترى مَنْ هو أقلّ منك كفاءة يتولّى الأمر ، وتُستبعد أنت . أما حين تعتدل كِفّة الميزان فسوف يجتهد كُلٌّ مِنّا ليصل إلى مكانه المناسب .

إذن : مهمة الحكام وولاة الأمر ترقية المجتمع ، فلا نقول لحاكم مثلاً يُعِدُّ لنا طعاماً ، أو يصنع لنا آلة ، فليستْ هذه مهمته ، ولقد رأينا أحد الأمراء وكان له أرض يزرعها ، يتولاها أحد الموظفين يقولون له (الخُولى) ومهمة الخولى الإشراف والمراقبة .

وفى يوم جاء الأمير ليباشر أرضه ويتفقد أحوالها فى صُحْبة الخولى ، وفى أثناء جولتهما بالأرض رأى الخولى قناةً ينسابُ منها الماء حتى أغرق الزرع فنزل وسَدَّ القناة بنفسه .

وعندها غضب الأمير وفصله من عمله ؛ لأنه عمل بيده فى حين أن مهمته الإشراف ولديه من العمال مَنْ يقوم بمثل هذا العمل .

---

(١) عن أبى بكر رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « من ولى من أمر المسلمين شيئاً فأمَّر عليهم أحداً محاباة فعليه لعنة الله لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً حتى يدخله جهنم » أخرجه أحمد فى مسنده (١/٦) .

لكن ، لماذا هذه النظرة فى إدارة الأعمال ؟ قالوا : لأنك إنْ عملتَ بيدك فأنت واحد ، لكن إنْ أشرفتَ فيمكن أنْ تُشرف على آلاف من العمال . ومن هنا جاءت مسألة التخصُّص فى الأعمالَ .

وعلى الحاكم ووليّ الأمر أنْ يحافظ على منهج الله ، ويتابع تطبيق الناس له ، فيقف أمام أى فساد ، ويأخذ على يد صاحبه ، ويثيب المجتهد العامل ، كما جاء فى قوله تعالى فى قصة ذى القرنين :

﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا (٨٧) وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا (٨٨)﴾ [الكهف]

ذلك ، لأن الله تعالى يزَعُ بالسلطان مَا لا يزع بالقرآن ، ولو تركنا أهل الفساد والمنحرفين لجزاء القيامة لفسد المجتمع ، لا بُدَّ من قوة تصون صلاح المجتمع ، وتضرب على أيدى المفسدين ، لا بُدَّ من قوة تمنع مَنْ يتجرؤون علينا ويطالبون بتغيير نظامنا الإسلامى .

لذلك يقول تعالى : ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ .. (٦٠)﴾ [الأنفال] لا بُدَّ أن يعلم العدو أن لديك الرادعَ الذى يَردعه إنِ اعتدى عليك أو حاول إفساد صلاح المجتمع .

لذلك ، فالنبى ﷺ يقول فى الحديث[1] إن السهم الذى يُرمى فى سبيل الله ، لكل مَنْ شارك فى إعداده ورميه جزء من الثواب ، فالذى قطعه من الشجرة والذى براه ، والذى وضعه فى القوس ورمى به ؛ لأن فى ذلك صيانةً للحق وصيانة للصلاح حتى يدوم ، ولا يفسده أحد .

---

(١) عن عقبة بن عامر قال قال ﷺ : « إن الله عز وجل يُدخل الثلاثة بالسهم الواحد الجنة : صانعه يحتسب فى صنعه الخير ، والممد به ، والرامى به » أخرجه الدارمى فى سننه (٢/٢٠٤) والترمذى فى سننه (١٦٣٧) ، وابن ماجه فى سننه (٢٨١١) .

والمسئولية هنا لا تقتصر على الحكام وولاة الأمر ، إنما هى مسئولية كل فرد فيمن ولى أمراً من أمور المسلمين ، كما جاء فى الحديث : « كلكم راع ، وكلكم مسئول عن رعيته : فالأمير الذى على الناس راعٍ وهو مسئول عن رعيته ، والرجل راعٍ على أهل بيته وهو مسئول عنهم ، والمرأة راعية على بيت بَعْلها وولده وهى مسئولة عنهم ، والعبد راعٍ على مال سيده وهو مسئول عنه ، ألا فكلكم راعٍ وكلكم مسئول عن رعيته »[1] .

وعلى العامل ألاّ ينظرَ إلى مراقبة صاحب العمل ، وليكُنْ هو رقيباً على نفسه ، والله عز وجل يراقب الجميع ، وقد جاء فى الحديث القدسى « إن كنتم تعتقدون أنِّى لا أراكم فالخَلل فى إيمانكم ، وإنْ كنتم تعتقدون أنِّى أراكم فلِمَ جعلتمونى أهونَ الناظرين إليكم ؟ » .

والمتأمل فى حركة الحياة يجدها متداخلة ، فمثلاً لو أردتَ بناء بيت ، فالهندسة حركة ، والبناء حركة ، والكهرباء حركة ، والنجارة حركة ، وهكذا .. ، فلو قلنا : إن هذا العمل يتكون من مائة حركة مثلاً ، فإنك لا تملك منها إلا حركة واحدة هى عملك الذى تتقنه ، والباقى حركات لغيرك ، فإنْ أخلصتَ فيما للناس عندك ألهمهم الله أنْ يخلصوا لك ولو عن غير قصد ، فأنت أخلصتَ وأتقنتَ حركة واحدة ، وأخلص الناس لك فى تسع وتسعين حركة .

واعلم أن الخواطر والأفكار بيد الله سبحانه ، فإنْ راقبتَ الله فيما للناس عندك راقبهم الله لك فيما لك عندهم ، وكفاك مُؤْنة المراقبة ، فقد يصنع لك الصانع شيئاً ، ويريد أنْ يغشَّك فيه فيحول الله بينه وبين

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٨٢٩) من حديث ابن عمر رضى الله عنهما ، وأحمد فى مسنده (٢/٥٤ ، ١١١) ، والبخارى فى صحيحه (٢٤٠٩) .

هذا ؛ ربما يجلس معه أحد معارفه فيستحى أن يغش أمامه ، أو لا يجد الشىء الذى يغشك به ، أو غير ذلك من الأسباب التى يُسخِّرها الله لك ، فيتقن لك الصانع صَنْعته ، ولو رَغْماً عن إرادته .

إذن : إن أردتَ صلاحَ أمرك فأصلح أمور الآخرين .

ومن الأساسيات التى نُصلح بها ونرث الأرض أن ننظر إلى الناس جميعاً على أنهم سواسية ، لا فضلَ لأحد على أحد إلا بالتقوى والعمل الصالح ، فليس فينا مَنْ هو ابن لله عز وجل ، وليس منا مَنْ بينه وبين الله قرابة ، قال تعالى : ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ .. (١٣)﴾ [الحجرات]

والإسلام لا يعرف الطبقية إلا فى إتقان العمل ، فقيمة كل امرىء ما يُحسنه ، وقد ضربنا لذلك مثلاً ، وما نزال نذكره مع أنه لرجل غير مسلم ، إنه رجل فرنسى كان نقيباً للعمال ، وكان يدافع عن حقوقهم ، ويطلب لهم زيادة الدَّخْل من ميزانية الوزارة ، فلما تولى منصب الوزارة وتولى المسئولية عدلَ عَمَّا كان يطالب به ، فضجَّ العمال ، وأراد أحدهم أنْ يغيظه فقال له : اذكر يا معالى الوزير أنك كنت فى يوم من الأيام ماسح أحذية ، فما كان من الرجل إلا أن قال : نعم .. لكنى كنت أجيدها .

وسبق أن ذكرنا أن الله تعالى وزَّعَ المواهب والقدرات بين خَلْقه ، فساعة ترى نفسك مُميزاً على غيرك فى شىء فلا تغتر به ، وابحثْ فيما مُيِّز به عنك غيرُك ؛ لأننا جميعاً عند الله سواء ، لا يحابى منا أحداً على أحد ، فأنت مُميز بعلمك أو قوتك ، وغيرك أيضاً مُميز فى سعادته مع أهله أو فى أمانته وثقة الناس به ، أو فى رضاه بما قسم له أو فى مقدرته على نفسه ورضاه بالقليل ، وقد يُميِّز الواحد منَّا بالولد الصالح الذى يكون مِطْواعاً لأبيه ، وقُرة عَيْن له .

إذن : هذه مسألة مُقدّرة محسوبة ؛ لأن ربك سبحانه قيُّوم عليك ، لا تخفى عليه منك خافية ، وحين يُميّز بعضنا على بعض إنما ليدكّ فينا الغرور والكبرياء ، وينزع من قلوبنا الحقْد والغلّ ، وهكذا يتوازن المجتمع، ولا يكون التميز مثار حقدٍ ؛ لأنَ تميزَ غيرك لصالحك ، وسيعود عليك .

والحق ـ سبحانه وتعالى ـ يُحدِّثنا عن يوم القيامة ، وكيف أن الشمس ستدنو من الرؤوس ، ويشتدّ بالناس الكرب ، إلا هؤلاء الذين يُظلُّهم الله فى ظلِّه يوم لا ظل إلا ظله ، ذلك لأنهم كانوا مظلة أمان فى الدنيا ، فأظلَهم الله فى الآخرة .

كما جاء فى الحديث الشريف : « سبعة يُظلهم الله فى ظلِّه يوم لا ظلَّ إلا ظلُّه : إمام عادل ، وشاب نشأ فى عبادة الله ، ورجل قلبه مُعلَّقَ فى المَساجد ، ورجلان تحابَّا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال : إنى أخاف الله ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم يمينه ما تنفق شماله ، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه »[1] .

نعم ، لقد صنع هؤلاء بسلوكهم القويم مظلَّة أمانٍ فى الكون ، فاستحقوا مظلَّة الله فى الآخرة . وبمثل هؤلاء يتوازن المجتمع المسلم ويَرْقَى إلى القمة ، هذا المجتمع الذى نريده هو مجتمع غنيّه متواضع ، وفقيره كريم شريف ، وشابُّه طائع .

يقول رب العزة سبحانه فى الحديث القدسى : « أحب ثلاثة وحُبِّى لثلاثة أشدُّ ـ فهؤلاء ستة نقسمهم إلى قسمين ـ أحب الفقير

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٦٠) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٠٣١) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

المتواضع ، وحُبِّى للغنى المتواضع أشد ـ لأن عنده أسبابَ الكبر ومع ذلك يتواضع ـ وأحب الغنىَّ الكريم وحُبِّى للفقير الكريم أشدّ ، وأحب الشيخ الطائع وحبى للشاب الطائع أشدُّ » .

« وأكره ثلاثة وكُرْهى لثلاثة أشد : أكره الغنى المتكبر ، وكُرْهى للفقير المتكبر أشدّ ، وأكره الفقير البخيل ، وكُرْهى للغنى البخيل أشد ، وأكره الشاب العاصى وكرهى للشيخ العاصى أشد » .

هؤلاء اثنا عشر نوعاً : ستة فى المحبوبية ، وستة فى المكروهية ، وكلما التزمنا بتطبيق هذا المنهج وجدنا مجتمعاً راقياً من الدرجة الأولى .

﴿ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴿١٠٦﴾ ﴾

البلاغ : الشىء المهم الذى يجب أن يعلمه الناس ؛ لذلك حين ينشغل الناس بالحرب ، وينتظرون أخبارها تأتيهم على صورة بلاغات ، يقولون : بلاغ رقم واحد ، لأنه أمر مهم .

فقوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا .. ﴿١٠٦﴾ ﴾ [الأنبياء] أى : أن ما جاء به القرآن هو البلاغ الحق ، والبلاغ الأعلى الذى لم يترك لكم عذراً ، ولا لغفلتكم مجالاً ، ولا لمستدرك أنْ يستدرك عليه فى شىء . فهو مُنْتهى ما يمكن أنْ أخبركم به .

وهو بلاغ لمن ؟ ﴿ لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ [الأنبياء] أى : يتلقفون مُرادَ الله لينفذوه ، سواء أكان أمراً أمْ نَهياً .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾

وما دام ﷺ خاتَم الرسل ، وبعثتُه للناس كافة ، وللزمن كله إلى أنْ تقوم الساعة . وقد جاء الرسل السابقون عليه لفترة زمنية

محددة ، ولقوم بعينهم ، أما رسالة محمد ﷺ فجاءتْ رحمةً للعالمين جميعاً ؛ لذلك لا بُدَّ لها أنْ تتسعَ لكل أقضية الحياة التى تعاصرها أنت ، والتى يعاصرها خَلَفُك ، وإلى يوم القيامة .

ومعنى : العالمين ، كُلُّ ما سوى الله عز وجل : عالم الملائكة ، وعالم الجن ، وعالم الإنس ، وعالم الجماد ، وعالم الحيوان ، وعالم النبات . لكن كيف تكون رسالة محمد ﷺ رحمةً لهم جميعاً ؟

قالوا : نعم ، رحمة للملائكة ، فجبريل - عليه السلام - كان يخشى العاقبة حتى نزل على محمد قوله تعالى : ﴿ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾﴾ [التكوير] فاطمأن جبريل عليه السلام وأمِن .

ورسول الله ﷺ رحمة للجماد ؛ لأنه أمرنا بإماطة الأذى عن الطريق . وهو رحمة بالحيوان . وفى الحديث الشريف : « ما من مسلم يزرع زَرْعاً ، أو يغرس غَرْساً فيأكلَ منه طيْرٌ أو إنسان أو بهيمة ، إلا كان له به صدقة »[1] .

وحديث المرأة التى دخلتْ النار فى هِرَّة حبستْها ، فلا هى أطعمتْها وسقتْها ، ولا هى تركتها تأكل من خَشَاش الأرض[2] .

وحديث الرجل الذى دخل الجنة ؛ لأنه سقى كلباً كان يلهث يأكل الثرى من شدة العطش ، فنزل الرجل البئر وملأ خُفَّه فسقى الكلب ، فشكر الله له وغفر له ، لأنه نزل البئر وليس معه إناء يملأ به الماء ،

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٣٢٠) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٥٥٣) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه .

(٢) عن ابن عمر - رضى الله عنهما - عن النبى ﷺ قال : « دخلت امرأة النار فى هرة ربطتها فلم تطعمها ، ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض » أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٣/٨) قال ابن حجر فى الفتح (٣٥٧/٦) : « المراد (بخشاش الأرض) هوام الأرض وحشراتها من فأرة ونحوها » .

فاحتال للأمر ، واجتهد ليسقى الكلب[١] .

وهكذا نالتْ رحمة الإسلام الحيوان والطير والإنسان ، ففى الدين مبدأ ومنهج يُنظِّم كل شىء ولا يترك صغيرة ولا كبيرة فى حياة الناس ؛ لذلك فهو رحمة للعالمين .

فقوله تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٠٧)﴾ [الأنبياء] يعنى أن كل ما يجىء به الإسلام داخل فى عناصر الرحمة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٨)﴾

فالوحدانية هى أول رحمة بنا ، أن نكون كلنا سواء ، ليس لنا إلا إله واحد ، هذه من أعظم رحمات الله أن نعبده وحده لا شريكَ له ، فعبادته تُغنينا عن عبادة غيره ، ولو كانت آلهةً متعددة لأصابتنا الحيرة بين إله يأمر ، وإله ينهى .

لذلك ؛ فالحق ـ سبحانه وتعالى ـ يطلب منا أنْ نعتزّ وأنْ نفخَر بهذه الوحدانية ، وبهذه الألوهية ، وفى هذا يقول الشاعر الإسلامى محمد إقبال :

والسُّجود الذى تَجْتويه مِنْ أُلُوف السُّجود فيه نَجَاةُ

---

(١) عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال : بينما رجل يمشى بطريق اشتد عليه العطش ، فوجد بئراً فنزل بها فشرب ، ثم خرج فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش ، فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذى كان بلغ بى ، فنزل البئر فملأ خُفَّه ثم أمسكه بفيه فسقى الكلب ، فشكر الله له فغفر له ، قالوا : يا رسول الله وإن لنا فى البهائم أجراً ؟ فقال : فى كل ذات كبد رطبة أجر » أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٠٠٩) .

فسجودك لله وتعفير وجهك له سبحانه يحميك من السجود لغيره ، ولولا سجودك لله لَسجدت لكل مَنْ هو أقوى منك ، فعليك - إذن - أن تعتز بعبوديتك لله ؛ لأنها تحميك من العبودية لغيرك من البشر ، وحتى لا يقول لك شخص أنت عبد ، نعم أنا عبد لكن لستُ عبداً لك ، فعبد غيرك حُرٌّ مثلك .

وقد ضرب لنا الحق سبحانه مثلاً فى هذه المسألة في قوله تعالى : ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَماً لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً .. (٢٩)﴾ [الزمر]

فهل يستوى عبد لعدة أسياد يتجاذبونه فى وقت واحد ، وهم مع ذلك مختلفون بعضهم مع بعض ، وعبد سَلَماً لسيد واحد ؟

وهكذا ، نحن جميعاً عبيد لله - عز وجل - حين نخضع لا نخضع إلا له سبحانه ، فلا أخضع لك ولا تخضع أنت لى ؛ لذلك يقولون « اللى الشرع يقطع صباعه ميخرش دم » لأنه أمر من أعلى ، من السماء ، لا دَخْلَ لأحد فيه .

لذلك ؛ فالعبودية تُكره حين تكون عبوديةً للبشر ، لأن عبودية البشر للبشر يأخذ السيد خير عبده ، أما العبودية لله فيأخذ العبد خير سيده .

والشاعر[1] يقول :

حَسْبُ نفسى عِزّاً بأنِّى عَبْدٌ ... يحتفى بى بلاَ مواعيدَ رَبٌّ
هُوَ فى قُدْسِه الأعزِّ ولكنْ ... أنا أَلْقَى متى وأيْنَ أُحِبُّ

ولك أنْ تقارن بين مقابلة عظيم من عظماء الدنيا ، ومقابلة ربك عز وجل . فإنْ أردتَ الدخولَ على أحد هؤلاء لا بُدَّ أن تطلب المقابلة ،

(١) من شعر الشيخ رضى الله عنه .

ويا ترى تقبل أم ترفض ، وإنْ قبلت فلا تملك من عناصرها شيئاً ، فالزمان ، والمكان ، وموضوع الكلام . كلها أمور يحددها غيرك .

أما إن أردتَ مقابلة ربك ـ عز وجل ـ فما عليك إلا أنْ تتوضأ وترفع يديك قائلاً : الله أكبر بعدها ستكون فى معية الله ، وقد اخترتَ أنت الزمان ، والمكان ، وموضوع الحديث ، وإنهاء اللقاء .

ألاَ ترى كيف امتنَّ الله تعالى على رسوله فى رحلة « الإسراء والمعراج » بأنْ وصفه بالعبودية له سبحانه ، فقال : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ .. ﴿١﴾ ﴾ [الإسراء] إذن : جاء قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَىَّ أَنَّمَا إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ .. ﴿١٠٨﴾ ﴾ [الأنبياء] بعد قوله : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [الأنبياء] ليدلنا : أن دعوة الله لنا إلى عبادة إله واحد ترحمنا من عبوديتنا بعضنا لبعض .

ثم يُرغِّبنا الحق سبحانه فى هذه العبودية ، فيقول : ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [الأنبياء] كما تحث ولدك المتكاسل أن يكون مثلَ زميله الذى تفوَّق ، وأخذ المركز الأول ، فتقول له : ألاَ تذاكر وتجتهد حتى تكون مثله ؟

وهكذا فى ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [الأنبياء] أى : مسلمون لله ؛ لأن مصلحتكم فى الإسلام وعزّكم فى عبوديتكم لله .

﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ (١)

---

(١) آذنه الأمر ، وآذنه به : أعلمه ، وآذنتك بالشىء : أعلمتُكه . [لسان العرب ـ مادة : أذن] .

﴿فَإِن تَوَلَّوْا .. (١٠٩)﴾ [الأنبياء] يعنى : أعرضوا وانصرفوا ﴿فَقُلْ آذَنتُكُمْ .. (١٠٩)﴾ [الأنبياء] مادة : أذن ومنها الأذان تعنى الإعلام بالشىء ، والأصل فى الإعلام كان فى الأُذُن بالكلام ، حيث لم يكُنْ عندهم قراءة وكتابة ، فاعتمد الإعلام على الكلام والسماع بالأذن ، فمعنى : ﴿آذَنتُكُمْ .. (١٠٩)﴾ [الأنبياء] أعلمتُكم وأخبرتُكم .

وقوله تعالى : ﴿عَلَىٰ سَوَاءٍ .. (١٠٩)﴾ [الأنبياء] يعنى : جاء الإعلام لكم جميعاً لم أخصّ أحداً دون الآخر ، فأنتم فى الإعلام سواء ، لا يتميز منكم أحد على أحد ؛ لذلك كان النبى ﷺ يحرص على إبلاغ الجميع ، فيقول :

« نضَّر الله امْرأً سمع مقالتى فوعاها ، ثم أدَّاها إلى مَنْ لم يسمعها ، فرُبَّ مبلَّغ أوعى من سامع »[1] وهكذا يشيع الخيْر ويتداول بين الجميع .

﴿فَقُلْ آذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ .. (١٠٩)﴾ [الأنبياء] فلم أُعْلِم قوماً دون قوم ، ولم أُسْمِع أُذناً دون أُذن ، وجعلت من كمال الإيمان أن يخبر السامع مَنْ لم يسمع ؛ لأنه لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه .

ثم يُنبِّههم إلى أمر الساعة : ﴿وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ (١٠٩)﴾ [الأنبياء] فانتبهوا وخُذوا بالكم ، واحتاطوا ، فلا أدرى لعلَّ الساعةَ تكون قريباً ، ولعلها تفاجئكم قبل أنْ أُنهى كلامى معكم .

لذلك ؛ لما سألوا أحد الصالحين : فِيمَ أفنيتَ عمرك ؟ قال :

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (١/٤٣٧) والترمذى فى سننه (٢٦٥٧ ، ٢٦٥٨) وابن ماجة فى سننه (٢٣٢) والحميدى فى مسنده (١/٤٧) من حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه .

« أفنيتُ عمرى فى أربعة أشياء : علمت أنى لا أخلو من نظر الله طَرْفة عين فاستحييتُ أنْ أعصيه ، وعلمتُ أن لى رزْقاً لا يتجاوزنى قد ضمنه الله لى فقنعتُ به ، وعلمتُ أن علىَّ دَيْناً لا يؤديه عنى غيرى فاشتَغلتُ به ، وعلمتُ أن لى أجَلاً يبادرنى فبادرتُه » .

إذن : فالمراد : استعدوا لهذه المسألة قبل أن تفاجئكم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾

وما دام ربك ـ عز وجل ـ يعلم الجهر ويعلم السرَّ وأخْفى ، فإياك أنْ تنافق ؛ لأننا ننهاك عن النفاق مع البشر ، فمن باب أوْلَى أن ننهاك عن نفاق ربك سبحانه الذى يعلم سرَّك كما يعلم علانيتك ، وقصارى أمر البشر أنْ يُراقبوا علانيتك . لَذلك ، فإن كل احتياطات أهل الإجرام التخفِّى عن أعين الدولة ، والهرب من مراقبة الشرطة ، لكن كيف التخفى عن نظر الله وعلمه ؟

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾ [الأنبياء] يُعلّمنا الأدب حتى فيما نكتم ، فالأدب فى الجهر من باب أوْلَى ، ونحن مؤمنون بأن الله سبحانه غَيْب غير مشهد ، وهَبْ أنك فى بيتك تعلم كل شىء فيه ؛ لأنه مشهد لك ، أمّا ما كان خارج البيت فهو غَيْب عنك لا تعلمه ، أمّا الحق سبحانه فهو غَيْب يعلم كل مَشْهد وكل غيب .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ ﴾

أى : لعل الإمهال وبقاءكم دون عذاب وتباطؤ الساعة عنكم فتنةٌ واختبار ، يا ترى أتُوفَّقون وتفوزون فى هذا الاختبار ، كما قال سبحانه فى موضع آخر :

﴿ فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (٥٥) ﴾ [التوبة]

وقال تعالى : ﴿ وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (١٧٨) ﴾ [آل عمران]

وقوله تعالى : ﴿ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (١١١) ﴾ [الأنبياء] أى : لن يدوم هذا النعيم وهذا المتاع ؛ لأن له مدة موقوتة .

ثم يقول الحق سبحانه فى ختام سورة الأنبياء :

﴿ قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ[1] وَرَبُّنَا الرَّحْمَٰنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ (١١٢) ﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ .. (١١٢) ﴾ [الأنبياء] كما دعا بذلك الرسل السابقون : ﴿ رَبَّنَا افْتَحْ[2] بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ (٨٩) ﴾ [الأعراف]

---

(١) قال قتادة : كانت الأنبياء تقول ﴿ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ .. (٨٩) ﴾ [الأعراف] فأمر النبى ﷺ أن يقول : ﴿ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ .. (١١٢) ﴾ [الأنبياء] فكان إذا لقى العدو يقول ـ وهو يعلم أنه على الحق وعدوه على الباطل ـ ﴿ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ .. (١١٢) ﴾ [الأنبياء] أى : اقض به . ذكره القرطبى فى تفسيره (٦/٤٥٣٢) والسيوطى فى الدر المنثور (٥/٦٨٩) وعزاه لابن أبى حاتم .

(٢) أى : انصرنا عليهم ، ويجوز أن يكون المعنى : ربنا افتح بيننا وبين قومنا باب التفاهم والمحبة بالحق حتى يؤمنوا ويتركوا عنادهم . [القاموس القويم ٢/٧٠] .

وهل يحكم الله سبحانه إلا بالحق ؟ قالوا[1] : الحق سبحانه يُبيِّن لنا ؛ لأننا عشْنا فى الدنيا ورأينا كثيراً من الباطل ، فكأننا لأول مرة نسمع الحكمَ بالحق .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَرَبُّنَا الرَّحْمَـٰنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ (١١٢) ﴾ [الأنبياء] أى : المستعان على ما تُجرمون فيه من نسبتنا إلى الجنون ، أو إلى السحر .. الخ .

وتلاحظ أن الحق سبحانه فى آيات سورة الأنبياء تكلم عن طَىِّ السماء كطىِّ السجل للكتب ، ثم قال ﴿ لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ .. (١١١) ﴾ [الأنبياء] ﴿ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (١١١) ﴾ [الأنبياء] ، ثم قال : ﴿ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ .. (١١٢) ﴾ [الأنبياء]

هذا كله ليُقرِّب لنا مسألة الساعة وقيامها ، ويُعِدُّنا لاستقبال « سورة الحج » .

---

(١) قاله ابن عباس فيما أخرجه عنه ابن جرير الطبرى وابن المنذر ، أورده السيوطى فى الدر المنثور (٥/٦٨٩) قال : لا يحكم الله إلا بالحق ، ولكن إنما يستعجل بذلك فى الدنيا يسأل ربه على قومه .

سُورَةُ الحَجِّ

سورة الحج[1]

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ ﴾

الخطاب هنا عام للناس جميعاً ، وعادةً ما يأتى الخطاب الذى يطلب الإيمان عاماً لكل الناس ، إنما ساعة يطلب تنفيذ حكم شرعى يقول : يا أيها الذين آمنوا .

لذلك يقول هنا : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ .. ﴿١﴾ ﴾ [الحج] يريد أنْ يلفتهم إلى قوة الإيمان . وكلمة ﴿ اتَّقُوا رَبَّكُمْ .. ﴿١﴾ ﴾ [الحج] التقوى : أنْ تجعل بينك وبين ما أحدِّثك عنه وقايةً ، أى : شيئاً يقيك العذاب الذى لا طاقةَ لك به .

---

(١) سورة الحج هى السورة رقم (٢٢) فى ترتيب المصحف الشريف ، وعدد آياتها ٧٨ آية ، وهى سورة مختلطة فيها آيات مدنية ، وآيات مكية ، وهو قول جمهور العلماء . قاله ابن الفرس فى أحكام القرآن فيما نقله عنه السيوطى فى (الإتقان فى علوم القرآن ٣٢/١) ورجحه القرطبى أيضاً فى تفسيره (٤٥٣٣/٦) وقال : « وهذا هو الأصح » .

قال الغزنوى : « هى من أعاجيب السور ، نزلت ليلاً ونهاراً ، وسفراً وحضراً ، مكياً ومدنياً ، سلمياً وحربياً ، ناسخاً ومنسوخاً ، محكماً ومتشابهاً ، مختلف العدد » . نقله القرطبى فى تفسيره (٤٥٣٣/٦) .

ونلحظ أن الله تعالى يقول مرة : ﴿اتَّقُوا اللَّهَ .. (١٩٤)﴾ [البقرة] ومرة يقول : ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ ..(٢٤)﴾ [البقرة] نعم ، لأن المعنى ينتهى إلى شىء واحد . معنى : ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ ..(٢٤)﴾ [البقرة] أى : اجعل بينك وبينها وقاية تحميك منها ، ويكون هذا بفِعْل الأمر وتَرْك النهى .

وقوله : ﴿اتَّقُوا اللَّهَ .. (١٩٤)﴾ [البقرة] لأن لله تعالى صفات جمال ، وصفات جلال ، صفات الجمال كالرحمن ، والرحيم ، والباسط والستار ، وصفات الجلال كالقهار والجبار وغيرها مما نخاف منه .

فاجعل بينك وبين صفات الجلال وقايةً ، فليستْ بك طاقة لقاهريته ، وبطشه سبحانه ، والنار من جنود الله ، ومن مظاهر قَهْره . فكما نقول : اتقِ الله نقول : اتقِ النار .

واختار فى هذا الأمر صفة الربوبية ، فقال : ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمْ .. (١)﴾ [الحج] ولم يقُلْ : اتقوا الله ؛ لأن الرب هو المتولِّى للرعاية وللتربية ، فالذى يُحذِّرك هو الذى يُحبك ويُعطيك ، وهو الذى خلقك وربَّاك ورعاك .

فالربوبية عطاء : إيجاد من عَدم وإمداد من عُدم ، فأوْلَى بك أن تتقيه ، لأنه قدَّم لك الجميل .

أما صفة الألوهية فتعنى التكاليف والعبادة بافْعل ولا تفعل ، الله معبود ومُطَاع فيما أمر وفيما نَهَى .

ثم يقول تعالى : ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١)﴾ [الحج] الزلزلة : هى الحركة العنيفة الشديدة التى تُخرِج الأشياء عن ثباتها ، كما لو أردتَ أنْ تخلعَ وتداً من الأرض ، فعليك أولاً أنْ تهزّه وتخلخله من مكانه ، حتى تجعل له مجالاً فى الأرض يخرج منه ،

إنما لو حاولت جذْبه بدايةً فسوف تجد مجهوداً ومشقة فى خلْعه ، وكذلك يفعل الطبيب فى خلع الضِّرس .

فمعنى الزلزلة : الحركة الشديدة التى تزيل الأشياء عن أماكنها ، والحق سبحانه وتعالى تكلم عن هذه الحركة كثيراً فقال : ﴿إِذَا رُجَّتِ الأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ[1] الْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنْبَثًّا ﴿٦﴾﴾[الواقعة]

ويقول : ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ الإِنسَانُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾﴾ [الزلزلة]

فالزلزال هنا ليس زلزالاً كالذى نراه من هزّات أرضية تهدم بعض البيوت ، أو حتى تبتلع بعض القرى ، فهذه مجرد آيات كونية تثبت صدْق البلاغ عن الله ، وتنبهك إلى الزلزال الكبير فى الآخرة ، إنه صورة مصغرة لما سيحدث فى الآخرة ، حتى لا نغتر بسيادتنا فى الدنيا فإن السيادة هبة لنا من الله .

وعندما حدث زلزال « أغادير » لاحظوا أن الحيوانات ثارتْ وهاجتْ قبل الزلزال بدقائق ، ومنها ما خرج إلى الخلاء ، فأىُّ إعلام هذا ؟ وأىُّ استشعار لديها وهى بهائم فى نظرنا لا تفهم ولا تعى ؟

إن فى ذلك إشارة للإنسان الذى يعتبر نفسه سيد هذا الكون : تنبّه ، فلولا أن الله سيَّدَك لوكزتْكَ هذه البهائم فقضت عليك .

نقول : ليس هذا زلزالاً عاماً ، إنما هو زلزال مخصوص منسوب إلى الأرض بوحى من الله ، وبأمر منه سبحانه أن تتزلزل .

---

(١) بسَّه : فتَّه وجعله أجزاء دقيقة . أى : فُتِّتَتْ تفتيتاً شديداً . [القاموس القويم ١/٦٦] .

لذلك وُصف هذا الزلزال بأنه شيء عظيم : ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١)﴾ [الحج] فحين تقول أنت أيها الإنسان : هذا شيء عظيم فهو عظيم بمقياسك أنت ، أما العظيم هنا فعظيم بمقاييس الحق سبحانه ، فلكَ أن تتصوَّر فظاعة زلزال وصفه الله سبحانه بأنه عظيم .

لقد افتُتحَتْ هذه السورة بزلزلة القيامة ؛ لأن الحق سبحانه سبق أنْ قال : ﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ .. (٩٧)﴾ [الأنبياء] فلا بُدَّ أنْ يعطينا هنا صورة لهذا الوعد ، ونُبْذة عما سيحدث فيه ، وصورة مُصغَّرة تدل على قدرته تعالى على زلزال الآخرة ، وأن الأرض ليس لها قوام بذاتها ، إنما قوامها بأمر الله وقدرته ، فإذا أراد لها أنْ تزول زالتْ .

وكذلك فى قوله تعالى : ﴿وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا (٢)﴾ [الزلزلة]

فَمَا نراه من البراكين ومن الثروات فى باطن الأرض وعجائب يقع تحت هذه الآية ؛ لذلك قال تعالى : ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ (٦)﴾ [طه]

وما دام الحق سبحانه يمتنُّ بملكية ما تحت الثَّرى فلا بُدَّ أن تحت الثرى ثروات وأشياءَ نفيسة ، ونحن الآن نُخرج معظم الثروات من باطن الأرض ، ومعظم الأمم الغنية تعتمد على الثروات المدفونة من بترول ومعادن ومناجم وذهب .. إلخ .

وسبق أن ذكرنا أن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ بعثَر الخيرات فى كونه ، وجعل لكل منها وقته المناسب ، فالرزق له ميلاد يظهر فيه : ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ (٢١)﴾ [الحجر]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾ ﴾ (١)

والرؤية : قلنا قد تكون رؤية علمية أو رؤية بصرية ، والشىء الذى نعلمه إما : علمَ اليقين ، وإما عين اليقين ، وإما حقيقة اليقين . علم اليقين : أنْ يخبر مَنْ تثق به بشىء ، كما تواترت الأخبار عن الرحالة بوجود قارة أسموها فيما بعد أمريكا ، وبها كذا وكذا ، فهذا نسميه « علم يقين » ، فإذا ركبت الطائرة إلى أمريكا فرأيتها وشاهدت ما بها فهذا « عين اليقين » فإذا نزلتَ بها وتجولتَ بين شوارعها ومبانيها فهذا نسميه « حقيقة اليقين » .

لذلك ؛ حين يخبر الله تعالى الكافرين بأن هناك عذاباً فى النار فهذا الإخبار صادق من الله فعلْمنا به « علم يقين » ، فإذا رأيناها فهذا « عين اليقين » كما قال سبحانه : ﴿ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴿٧﴾ ﴾ [التكاثر]

فإذا ما باشرها أهلها ، وذاقوا حرّها ولظاها ـ وهذا مقصور على أهل النار ـ فقد علموها حَقَّ اليقين ، لذلك يقول تعالى :

﴿ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾

---

(١) أى : تشتغل . قاله قطرب . وقيل : تنسى ، وقيل : تلهو ، وقيل : تسلو والمعنى متقارب . [تفسير القرطبى ٦/٤٥٣٦] .

وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ (٩٤) إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ (٩٥) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٩٦) ﴾ [الواقعة]

ومعنى : ﴿ تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ .. (٢) ﴾ [الحج] الذهول : هو انصراف جارحة عن مهمتها الحقيقية لهولٍ رأته فتنشغل بما رأته عن تأديةِ وظيفتها ، كما يذهل الخادم حين يرى شخصاً مهيباً أو عظيماً ، فيسقط ما بيده مثلاً ، فالذهول ـ إذن ـ سلوك لا إرادى قد يكون ذهولاً عن شىء تفرضه العاطفة ، أو عن شىء تفرضه الغريزة .

العاطفة كالأم التى تذهَلُ عن ولدها ، وعاطفة الأمومة تتناسب مع حاجة الولد ، ففى مرحلة الحمل مثلاً تجد الأم تحتاط فى مشيتها ، وفى حركاتها ، خوفاً على الجنين فى بطنها ، وهذه العاطفة من الله جعلها فى قلب الأم للحفاظ على الوليد ، وإلاَّ تعرض لما يؤذيه أو يُودِى بحياته .

لذلك ، لما سألوا المرأة العربية عن أحب أبنائها ، قالت : الصغير حتى يكبر ، والغائب حتى يعود ، والمريض حتى يُشْفَى ، فحسب الحاجة يعطى الله العاطفة ، فالحامل عاطفتها نحو ولدها قوية ، وهى كذلك فى مرحلة الرضاعة .

فانظر إلى المرضعة ، وكيف تذهل عن رضيعها وتنصرف عنه ، وأىُّ هول هذا الذى يشغلها ، ويُعطِّل عندها عاطفة الأمومة والحنان ويُعطِّل حتى الغريزة .

وقد أعطانا القرآن صورة أخرى فى قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) ﴾ [عبس]

ومن عظمة الأسلوب القرآنى أن يذكر هنا الأخ قبل الأب والأم ، قالوا : لأن الوالدين قد يُوجدان فى وقت لا يرى أنهما فى حاجة إليه ، ولا هو فى حاجة إليهما لأنه كبر ، أمَّا الأخ ففيه طمع المعونة والمساعدة .

وقوله تعالى : ﴿كُلُّ مُرْضِعَةٍ .. ﴿٢﴾﴾ [الحج]

والمرضعة تأتى بفتح الضاد وكَسْرها : مُرضَعة بالفتح هى التى من شأنها أن ترضع وصالحة لهذه العملية ، أما مُرضِعة بالكسر فهى التى تُرضِع فعلاً ، وتضع الآن ثديها فى فَم ولدها ، فهى مرضِعة . فانظر - إذن - إلى مدى الذهول والانشغال فى مثل هذه الحالة .

وقوله تعالى : ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا .. ﴿٢﴾﴾ [الحج] بعد أنْ تكلَّم عن المرضع رقَّى المسألة إلى الحامل ، ومعلوم أن الاستمساك بالحمل غريزة قوية لدى الأم حتى فى تكوينها الجسمانى ، فالرحم بمجرد أنْ تصل إليه البويضة المخصبة ينغلق عليها ، كما قال سبحانه وتعالى : ﴿وَنُقِرُّ فِى الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى .. ﴿٥﴾﴾ [الحج]

فإذا ما جاء وقت الميلاد انفتح له بقدرة الله ، فهذه - إذن - مسألة غريزية فوق قدرة الأم ودون إرادتها . إذن : وَضْعُ هذا الحمل دليل هَوْل كبير وأمر عظيم يحدث .

والحَمْل نوعان : ثقَل تحمله وهو غيرك ، وثقل تحمله فى ذاتك ، ومنه قوله تعالى : ﴿وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلاً ﴿١٠١﴾﴾ [طه] والحِمْل (بكسر الحاء) : هو الشىء الثقيل الذى لا يُطيقه ظهرك ، أمّا الحَمْل بالفتح فهو : الشىء اليسير تحمله فى نفسك . وفى هذا المعنى يقول الشاعر :

لَيْسَ بِحِمْلٍ مَا أَطَاقَ الظَّهْرُ مَا الحِمْلُ إلاَّ مَا وَعَاهُ الصَّدْرُ

أى : أن الشىء الذى تطيق حَمْله ويَقْوى عليه ظهرك ليس بحمل ، إنما الحمل هو الهمّ الذى يحتويه الصدر .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾﴾ [الحج]

سكارى : أى يتمايلون مضطربين ، مثل السكارى حين تلعب بهم الخمر ، (وتطوحهم) يميناً وشمالاً ، وتُلقى بهم على الأرض ، وكلما زاد سُكْرهم وخروجهم عن طبيعتهم كان النوع شديداً !!

وهكذا سيكون الحال فى موقف القيامة لا من سُكْر ولكن من خوف وهَوْل وفزع ﴿وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾﴾ [الحج]

لكن ، من أين يأتى اضطراب الحركة هذا ؟

قالوا : لأن الله تعالى خلق الجوارح ، وخلق فى كل جارحة غريزة الانضباط والتوازن ، وعلماء التشريح يُحدِّدون فى الجسم أعضاء ومناطق معينة مسئولة عن حفْظ التوازن للجسم ، فإذا ما تأثرتْ هذه الغدد والأعضاء يشعر الإنسانَ بالدُّوار ، ويفقد توازنه ، كأنْ تنظر من مكان مرتفع ، أو تسافر فى البحر مثلاً .

فهذا الاضطراب لا من سُكْر ، ولكن من هَوْل ما يرونه ، فيُحدث لديهم تغييراً فى الغُدد والخلايا المسئولة عن التوازن ، فيتمايلون ، كمن اغتالتْه الخمر .

وقوله تعالى : ﴿وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾﴾ [الحج] إنهم لم يَرَوْا العذاب بَعْد ، إنها مجرد قيام الساعة وأهوالها أفقدتهم توازنهم ؛

لأن الذى يَصْدُق فى أن القيامة تقوم بهذه الصورة يَصْدُق فى أن بعدها عذاباً فى جهنم ، إذن : انتهت المسألة وما كنا نكذب به ، ها هو ماثل أمام أعيننا .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ ﴾ (١)

الجدل : هو المحاورة بين اثنين ، يريد كل منهما أنْ يؤيد رأيه ويدحضَ رأىَ الآخر ، ومنه : جَدْل الخوص أو الحبل أى : فَتْله واحدة على الأخرى .

ولو تأملتَ عملية غَزْل الصوف أو القطن لوجدته عبارة عن شعيرات قصيرة لا تتجاوز عدة سنتيمترات ، ومع ذلك يصنعون منه حَبْلاً طويلاً ، لأنهم يداخلون هذه الشعيرات بعضها فى بعض ، بحيث يكون طرف الشعرة فى منتصف الأخرى ، وهكذا يتم فَتْله وغَزْله ، فإذا أردتَ تقوية هذه الفَتْلة تجدلُها مع فتلة أخرى ، وهكذا يكون الجدل فى الأفكار ، فكل صاحب فكرة يحاول أنْ يُقوِّى رأيه وحجته ؛ ليدحض حجة الآخرين .

فقوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِى اللَّهِ .. ﴿٣﴾ ﴾ [الحج] فكيف يكون الجدل فى الله تعالى ؟

يكون الجدل فى الله وجوداً ، كالملحد الذى لا يعترف بوجود إله ،

---

(١) قال أبو مالك فيما أخرجه ابن أبى حاتم : نزلت فى النضر بن الحارث [الدر المنثور للسيوطى ٨/٦] . قال القرطبى فى تفسيره (٤٥٣٧/٦) : « قال أى : النضر بن الحارث : إن الله غير قادر على إحياء من قد بلى وعاد تراباً » .

أو يكون الجدل فى الوحدانية ، كمن يشرك بالله إلهاً آخر ، أو يكون الجدل فى إعلام الله بشىء غيبى ، كأمر الساعة الذى ينكره البعض ولا يُصدِّقون به ، هذا كله جدل فى الله .

وقوله : ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ .. (٣)﴾ [الحج] إذن : فالجدل فى ذاته مُبَاح مشروع ، شريطة أن يصدر عن علم وفقه ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ .. (١٢٥)﴾ [النحل]

فالحق سبحانه لا يمنع الجدل ، لكن يريده بالطريقة الحسنة والأسلوب اللين ، وكما يقولون : النصح ثقيل ، فلا تجعله جَدَلاً ، ولا ترسله جبلاً ، ولا تُخرج الإنسان مما يألف بما يكره ، واقرأ قوله تعالى : ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ .. (١٢٥)﴾[النحل]

وقال سبحانه : ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ .. (٤٦)﴾ [العنكبوت]

لذلك ؛ فالقرآن الكريم يعلم الرسول ﷺ لَوْناً من الجدل فى قوله تعالى : ﴿قُل لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٢٥)﴾ [سبأ]

فانظر إلى هذا الجدَل الراقى والأسلوب العالى : ففى خطابهم يقول : ﴿قُل لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا .. (٢٥)﴾ [سبأ] وينسب الإجرام إلى نفسه ، وحين يتكلم عن نفسه يقول : ﴿وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٢٥)﴾ [سبأ] ولم يقُلْ هنا : تجرمون لتكون مقابلة بين الحالين . وفى هذا الأسلوب ما فيه من جذب القلوب وتحنينها لتقبُّل الحق .

ولما اتهموا رسول الله ﷺ بالجنون ردَّ عليهم القرآن بالعقل وبالمنطق ، فسألهم : ما الجنون ؟ الجنون أنْ تصدر الأفعال الحركية عن غير بدائل اختيارية من المخ ، فهل جرَّبْتُم على محمد شيئاً من

هذا ؟ وما هو الخُلق ؟ الخُلق : استقامة المنهج والسلوك على طريق الكمال والخير ، فهل رأيتُم على محمد خلاف هذا ؟

لذلك يقول تعالى فى الرد عليهم : ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا[1] مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ .. (٤٦)﴾ [سبأ]

وكيف يكون صاحب هذا الخُلق القويم والسلوك المنضبط فى الخير مجنوناً ؟

ولما قالوا : كذاب ، جادلهم القرآن : ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٦)﴾ [يونس]

لقد أتتْه الرسالة بعد الأربعين ، فهل سمعتم عنه خطيباً أو شاعراً ؟ فهل قال خطبة أو قصيدة تحتفظون بها كما تحتفظون بقصائد شعرائكم ؟

وقالوا : إنها عبقرية كانت عند محمد ، فأىُّ عبقرية هذه التى تتفجَّر بعد الأربعين ، ولو تأملْتَ العبقريات لوجدتها فى العقد الثانى أو الثالث من عمر صاحبها ، فكيف يُؤجِّل محمد عبقريته إلى الأربعين ، ومَنْ يضمن له الحياة وهو يرى الناس يتساقطون من حوله : أبوه مات قبل أنْ يُولد ، وأمه ماتت وهو رضيع ، وجدُّه مات وهو ما يزال صغيراً .

وهكذا ، يعطينا القرآن مثالاً للجدل بالحكمة والموعظة الحسنة ، للجدل الصادر عن عِلْم بما تقول ، وإدراك لحقائق الأمور .

---

(١) أى : تقوموا قياماً خالصاً لله عز وجل من غير هوى ولا عصبية ، فيسأل بعضكم بعضاً : هل بمحمد من جنون فينصح بعضكم بعضاً ، فينظر الرجل لنفسه فى أمر محمد ﷺ ويسأل غيره من الناس عن شأنه إن أشكل عليه ويتفكر فى ذلك . [قاله ابن كثير فى تفسيره ٣/٥٤٣] .

لذلك ؛ لما ذهب الشَّعْبى[1] لملك الروم قال له الملك : عندكم فى الإسلام أمور لا يُصدِّقها العقل ، فقال الشَّعْبىّ : ما الذى فى الإسلام يخالف العقل ؟ قال : تقولون إن فى الجنة طعاماً لا ينفد أبداً ، ونحن نعلم أن كل ما أُخذ منه مرة بعد مرة لابُدَّ أنْ ينفد . انظر إلى الجدل فى هذه المسألة كيف يكون .

قال الشَّعْبى : أرأيتَ لو أن عندك مصباحاً ، وجاءت الدنيا كلها فقبستْ من ضوئه ، أينقص من ضوء المصباح شىء ؟ هذا - إذن - جدل راقٍ وعلى أعلى مستوى .

ويستمر ملك الروم فيقول : كيف نأكل فى الجنة كُلَّ ما نشتهى دون أنْ نتغوّط أو تكون لنا فضلات ؟ نقول : أرأيتم الجنين فى بطن الأم : أينمو أم لا ؟ إنه ينمو يوماً بعد يوم ، وهذا دليل على أنه يتغذَّى ، فهل له فضلات ؟ لو كان للجنين فضلات ولو تغوَّط فى مشيمته لمات ، إذن : يتغذى الجنين غذاءً علَى قَدْر حاجة نموه ، بحيث لا يتبقى من غذائه شىء .

ثم قال : أين تذهب الأرواح بعد أنْ تفارق الأجساد ؟ أجاب الرجل إجمالاً : تذهب حيث كانت قبل أنْ تحلَّ فيك ، وأمامك المصباح وفيه ضوء ، ثم نفخ المصباح فانطفأ ، فقال له : أين ذهب الضوء ؟

ومن الجدل الذى جاء عن علْم ودراية ما حدث من الإمام على رضى الله عنه ، حيث قتلَ أصحابُ معاوية عمارَ بن ياسر ، فغضب الصحابة فى صفوف معاوية وتذكَّروا قول رسول الله ﷺ عن عمار :

---

(١) هو : عامر بن شراحيل الشعبى الحميرى ، أبو عمرو ، راوية من التابعين ، يُضرب المثل بحفظه ، ولد عام ١٩ هـ ، ونشأ ومات فجأة بالكوفة عام ١٠٣ هـ عن ٨٤ عاماً اتصل بعبد الملك بن مروان فكان نديمه ورسوله إلى ملك الروم ، كان ضئيلاً نحيفاً ، وهو من رجال الحديث الثقات ، وفقيهاً وشاعراً . [الأعلام للزركلى ٣/٢٥١] .

« تقتله الفئة الباغية »[١] وأخذوا يتركون جيش معاوية واحداً بعد الآخر ، فذهب عمرو بن العاص إلى معاوية وقال : لقد فشَتْ فى الجيش فاشية ، إنْ هى استمرتْ فلن يبقى معنا رجل واحد ، فقال معاوية : وما هى ؟ قال : يقولون : إننا قتلنا عماراً والنبى ﷺ قال عنه : « تقتله الفئة الباغية » .

فاحتار معاوية ثم قال : قُلْ لهم قتله مَنْ أخرجه للقتال[٢] ـ يعنى : على بن أبى طالب ، فلما بلغ الكلامُ سيدنا علياً ، قال : قولوا لهم : فمَنْ قتل حمزة بن عبد المطلب ؟ أى : إن كان الأمر كما تقولون فالنبى ﷺ هو قاتل حمزة ؛ لأنه هو الذى أخرجه للقتال .

هذا هو الجدل عن علم ، والعلم قد يكون علماً بدهياً وهو العلم الذى تؤمن به ولا تستطيع أن تدلل عليه . أو علماً عقلياً استدلالياً ، وقد يكون العلم بالوحى من الله لا دَخْلَ لأحد فيه ، وسبق أنْ ضربنا مثلاً للبدهيات بالولد الصغير حينما يرى أخاه يجلس بجوار أبيه على المقعد مثلاً ، فيأتى الصغير يريد أنْ يجلس هو بجوار الأب ، فيحاول أولاً أنْ يقيم أخاه من المكان فيشدُّه ويجذبه ليخلى له المكان .

وهنا نتساءل : كيف عرف الطفل الصغير أن الحيِّز لا يسع اثنين ؟ ولا يمكن أنْ يحلَّ بالمكان شىء إلا إذا خرج ما فيه أولاً ؟

---

(١) عن أم سلمة ـ رضى الله عنها ـ أن رسول الله ﷺ قال لعمار : « تقتلك الفئة الباغية » أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٩١٦) كتاب الفتن ، والبخارى فى صحيحه (٤٤٧) .

(٢) عن محمد بن عمرو بن حزم عن أبيه قال : لما قتل عمار بن ياسر دخل عمرو بن حزم على عمرو ابن العاص فقال : قُتِل عمار . وقد قال رسول الله ﷺ : تقتله الفئة الباغية ، فقام عمرو بن العاص فزعاً يرجع حتى دخل على معاوية فقال له معاوية : ما شأنك ؟ قال : قتل عمار . فقال معاوية : قد قتل عمار ، فماذا ؟ قال عمرو : سمعت رسول الله ﷺ يقول : تقتله الفئة الباغية . فقال له معاوية : دحضت فى بولك أو نحن قتلناه إنما قتله على وأصحابه ، جاءوا به حتى ألقوه بين رماحنا ـ أو قال : بين سيوفنا . أخرجه أحمد فى مسنده (٤/١٩٩) .

هذه أمور لم نعلمها إلا فى دراستنا الثانوية ، فعرفنا معنى الحيِّز وعدم تداخل الأشياء ، هذه المسألة يعرفها الطفل بديهة .

ولو تأملتَ النظريات الهندسية لوجدتَ أن كل نظرية تُبنَى على نظرية سابقة ، فلو أردت أنْ تبرهن على النظرية المائة تستخدم النظرية تسعين مثلاً ، وهكذا إلى أنْ تصلَ إلى نظرية بدهية لا برهانَ عليها .

وهكذا تستطيع أن تقول : إن كل شىء علمى فى الكون مبنىٌّ على البدهيات التى لا تحتاج إلى برهان ، ولا تستطيع أن تضع لها تعريفاً ، فالسماء مثلاً ، يقولون : هى كل ما علاك فأظلَّك ، فالسقف سماء ، والغيم سماء ، والسحاب سماء ، والسماء سماء ، مع أن السماء لا تحتاج إلى مثل هذا التعريف ؛ لأنك حين تسمع هذه الكلمة (السماء) تعرف معناها بديهة دون تعريف .

وهذه الأمور البدهية لا جدلَ فيها ؛ لأنها واضحة ، فلو قلتَ لهذا الطفل : اجلس على أخيك ، فهذا ليس جدلاً ؛ لأنه لا يصح .

أما العلم الاستدلالى فأنْ تستدل بشىء على شىء ، كأنْ تدخل بيتك فتجد (عقب سيجارة) مثلاً فى (طفاية السجائر) فتسأل : مَنْ جاءكم اليوم ؟ ومثل الرجل العربى حين سار فى الصحراء ، فوجد على الأرض آثاراً لخفِّ البعير وبَعْره ، فقال : البعرة تدل على البعير ، والقدم تدل على المسير .

أما علْم الوحى فيأتى من أعلى ، يلقيه الله سبحانه على مَنْ يشاء من عباده .

فعلى المجادل أن يستخدم واحداً من هذه الثلاثة ليجادل به ، فإن جادل بغير علم فهى سفسطة لا طائل من ورائها .

وقد نزلت هذه الآية : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ .. ﴿٣﴾﴾ [الحج] فى النضر بن الحارث ، وكان يجادل عن غير علم فى الوجود ، وفى الوحدانية ، وفى البعث .. إلخ .

والآية لا تخص النضر وحده ، وإنما تخص كل مَنْ فعل فِعْله ، ولَفَّ لفَّه من الجدل .

ثم يقول تعالى : ﴿وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾﴾ [الحج] أى : أن هذا الجدل قد يكون ذاتياً من عنده ، أو بوسوسة الشيطان له بما يخالف منهج الله ، سواء أكان شيطانَ الإنس أو شيطانَ الجن .

إذن : فالسيئات والانحرافات والخروج عن منهج الله لا يكون بوسوسة ؛ إما من النفس التى لا تنتهى عن مخالفة ، وإما من الشيطان الذى يُلِحُّ عليك إلى أنْ يُوقِع بك فى شِرَاكه .

لكن ، لا نجعل الشيطان (شماعة) نعلق عليها كل سيئاتنا وخطايانا ، فليست كل الذنوب من الشيطان ، فمن الذنوب ما يكون من النفس ذاتها ، وسبق أنْ قُلْنا : إذا كان الشيطان هو الذى يوسوس بالشر ، فمَنِ الذى وسوس له أولاً ؟ وكما قال الشاعر :

* إِبْلِيسُ لَمَّا غَوَى مَنْ كَانَ إبليسُه ؟ *

وفَرْق بين المعصية من طريق النفس ، والمعصية من طريق الشيطان ، الشيطان يريدك عاصياً على أىِّ وجه من الوجوه ، أمّا النفس فتريدك عاصياً من وجه واحد لا تحيد عنه ، فإذا صرفتَها إلى غيره لا تنصرف وتأبى عليك ، إلاَّ أنْ تُوقعك فى هذا الشىء بالذات .

وهذا بخلاف الشيطان إذا تأبيْتَ عليه ولم تُطِعْهُ فى معصية صرفكَ إلى معصية أخرى ، أياً كانت ، المهم أن تعصى ، وهكذا يمكنك أنْ تُفرِّق بين المعصية من نفسك ، أو من الشيطان .

ولما سُئل أحد العلماء : كيف أعرف : أأنا من أهل الدنيا أمْ من أهل الآخرة ؟ قال : هذه مسألة ليستْ عند العلماء إنما عندك أنت ، قال : كيف ؟ قال : انظر فى نفسك ، فإنْ كان الذى يأخذ منك الصدقة أحبّ إليك ممَّنْ يعطيك هدية ، فاعلم أنك من أهل الآخرة ، وإنْ كانت الهدية أحبَّ إليك من الصدقة فأنت من أهل الدنيا .

ذلك لأن الإنسان يحب من عمَّر له ما يحب ، فالذى يعطيك يعمر لك الدنيا التى تحبها فأنت تحبه ، وكذلك الذى يأخذ منك يعمر لك الآخرة التى تحبها فأنت تحبه . فهذه مسألة لا دَخْل للشيطان فيها .

وفى آية أخرى يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدًى وَلا كِتَابٍ مُّنِيرٍ (٢٠)﴾ [لقمان]

فهذه الآية تُجمل أنواع العلم الثلاثة التى تحدثنا عنها : فالعلم يُرَاد به البدهيات ، والهدى أى : الاستدلال ، والكتاب المنير يُراد به ما جاء وَحْياً من الله ، وبهذه الثلاثة يجب أن يكون الجدال وبالتى هى أحسن .

ومعنى : ﴿مَّرِيدٍ (٣)﴾ [الحج] من مَرَدَ أو مَرُدَ يمرد كنثر ينثُر ، والمرود : العُتوُّ وبلوغ الغاية من الفساد ، ومنها مارد ومريد ومتمرد ، والمارد : هو المستعلى أعلى منك .

﴿ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٤﴾ ﴾

أى : كتب الله على هذا الشيطان المريد ، وحكم عليه حُكماً ظاهراً ، هكذا (عينى عينك) كما يقال ﴿أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ .. ﴿٤﴾﴾ [الحج] أى : تابعه وسار خلفه ﴿فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٤﴾﴾ [الحج] يضله ويهديه ضدّان ، فكيف نجمع بينهما ؟

المراد : يُضلُّه عن طريق الحق والخير ، ويهديه أى : للشر ؛ لأن معنى الهداية : الدلالة مُطْلقاً ، فإن دللْتَ على خير فهى هداية ، وإن دللتَ على شر فهى أيضاً هداية .

واقرأ قوله سبحانه وتعالى : ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ[1] وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾﴾ [الصافات]

أى : دُلُّوهم وخُذوا بأيديهم إلى جهنم .

ويقول تعالى فى آية أخرى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلاَّ طَرِيقَ جَهَنَّمَ .. ﴿١٦٩﴾﴾ [النساء]

والسَّعير : هى النار المتوهّجة التى لا تخمد ولا تنطفىء .

---

(١) قال النعمان بن بشير : يعنى بأزواجهم أشباههم وأمثالهم . قال عمر : يجىء أصحاب الزنا مع أصحاب الزنا ، وأصحاب الربا مع أصحاب الربا ، وأصحاب الخمر مع أصحاب الخمر . [تفسير ابن كثير ٣/٤] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ٥ ﴾

قوله : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ .. ٥ ﴾ [الحج]

الريب : الشك . فالمعنى : إنْ كنتم شاكِّين فى مسألة البعث ، فإليكم الدليل على صدْقه ﴿ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ .. ٥ ﴾ [الحج] أى : الخَلْق الأول ، وهو آدم عليه السلام ، أما جمهرة الناس بعد آدم فخُلِقوا من (نطفة) حية من إنسان حى .

---

(١) **النطفة** : الماء الصافي ، وتطلق فى القرآن على ماء الرجل أو المرأة الذى يُخْلق منه الولد . **العلقة** : الدم الجامد الغليظ الذى يَعْلق بما يمسُّه . **والمضغة** : القطعة من اللحم تُمضَغ لتماسكها . **ومخلقة** : أى مضغة مشكلة ومصورة على هيئة طفل . **وغير مخلقة** : أى غير مشكَّلة ، أى غير تامة التصوير [القاموس القويم للقرآن الكريم] .

(٢) هو : الهرم والخرف حتى لا يعقل . [تفسير القرطبى ٦/٤٥٤٤] .

والمتتبع لآيات القرآن يجد الحق - سبحانه وتعالى - يقول مرة فى خَلْق الإنسان : ﴿مِّن تُرَابٍ .. ﴿٥﴾﴾ [الحج] ، ومرة ﴿مِن مَّاءٍ .. ﴿٦﴾﴾ [الطارق] ، و ﴿مِّن طِينٍ .. ﴿٢﴾﴾ [الأنعام] ، و ﴿مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾﴾ [الحجر] ، و ﴿مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ﴿١٤﴾﴾ [الرحمن] وهذه التى دعتْ المستشرقين إلى الاعتراض على أسلوب القرآن ، يقولون : من أىِّ هذه الأشياء خُلِقْتم ؟

وهذا الاعتراض ناشىء من عدم فَهْم لغة القرآن ، فالتراب والماء والطين والحمأ المسنون والصلصال ، كلها مراحل متعددة للشىء الواحد ، فإذا وضعتَ الماء على التراب صار طيناً ، فإنْ تركتَ الطين حتى يتخمّر ، ويتداخل بعضه فى بعض حتى لا تستطيع أنْ تُميِّز عنصراً فيه عن الآخر . وهذا عندما يعطَنُ وتتغير رائحته يكون هو الحمأ المسنون ، فإنْ جَفَّ فهو صلصال كالفخار ، ومنه خلق اللهُ الإنسان وصوَّره ، ونفخ فيه من روحه ، إذن : هذه مراحل للشىء الواحد ، ومرور الشىء بمراحل مختلفة لا يُغيِّره .

ثم تكلم سبحانه عن الخَلْق الثانى بعد آدم عليه السلام ، وهم ذريته ، فقال : ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ .. ﴿٥﴾﴾ [الحج] والنطفة فى الأصل هى قطرة الماء العَذْب ، كما جاء فى قول الشاعر :

بَقَايَا نِطَافٍ أودَعَ الغيمُ صَفْوَهَا مُثَقَّلَةُ الأرجَاء زُرْقُ الجَوانبِ

ولا تظهر زُرْقة الماء إلا إذا كان صافياً لا يشوبه شىء ، وكذلك النطفة هى خلاصة الخلاصة ، لأن جسم الإنسان تحدث فيه عملية

(١) الحمأ والحَمْأة : الطين الأسود . والمسنون : المصبوب فى قالب إنسانى أو مصور بصورة إنسان أو طين كالفخار صالح للتصوير والصقل . [القاموس القويم ١/٣٣١] .

الاحتراق ، وعملية الأيض أى : الهدم والبناء بصفة مستمرة ينتج عنها خروج الفضلات المختلفة من الجسم : فالبول ، والغائط ، والعرق ، والدموع ، وصَمْغ الأذن ، كلها فضلات ناتجة عن احتراق الطعام بداخل الجسم حيث يمتص الجسم خلاصة الغذاء ، وينقلها إلى الدم .

ومن هذه الخلاصة يُستخلص منىُّ الإنسان الذى تؤخذ منه النطفة ، فهو ـ إذن ـ خلاصة الخلاصة فى الإنسان ، ومنه يحدث الحمل ، ويتكوَّن الجنين ، وكأن الخالق ـ عز وجل ـ قد صَفَّاها هذه التصفية ونقَّاها كل هذا النقاء ؛ لأنها ستكون أصْلاً لأكرم مخلوقاته ، وهو الإنسان .

وهذه النطفة لا تنزل من الإنسان إلا فى عملية الجماع ، وهى ألذُّ متعة فى وجود الإنسان الحىِّ ، لماذا ؟ لو تأملتَ متعة الإنسان ولذاته الأخرى مثل : لذة الذَّوْق ، أو الشم ، أو الملمس ، فهى لذَّاتٌ معروفة محددة بحاسَّة معينة من حواس الإنسان ، أمّا هذه اللذة المصاحبة لنزول المنىِّ أثناء هذه العملية الجنسية فهى لذة شاملة يهتز لها الجسم كله ، ولا تستطيع أنْ تُحدِّد فيها منطقة الإحساس ، بل كل ذرة من ذرات الجسم تحسها .

لذلك أمرنا ربنا ـ عز وجل ـ أن نغتسل بعد هذه العملية ؛ لأنها شغلتْ كل ذرة من ذرات تكوينك ، وربما ـ عند العارفين بالله ـ لا تغفل عن الله تعالى إلا فى هذه اللحظة ؛ لذلك كان الأمر بالاغتسال بعدها ، هذا قول العلماء .

أما أهل المعرفة عن الله وأهل الشطح وأهل الفيوضات فيقولون :

إن الله خلق آدم من طين ، وجعل نَسْله من هذه النطفة الحية التى وضعها فى حواء ، ثم أتى منها كل الخَلْق بعده ، فكأن فى كل واحد منا ذرة من أبيه آدم ؛ لأنه لو طرأ على هذه الذرة موت ما كان نَسْلٌ بعد آدم ، فهذه الذرة موجودة فيك فى النطفة التى تلقيها ويأتى منها ولدك ، وهى أَصْفى شىء فيك ؛ لأنها الذرة التى شهدتْ الخَلْق الأول خَلْق أبيك آدم عليه السلام .

وقد قرّبنا هذه المسألة وقلنا : لو أنك أخذت سنتيمتراً من مادة ملونة ، ووضعته فى قارورة ماء ، ثم أخذتَ ترجُّ القارورة حتى اختلط الماء بالمادة الملونة فإن كل قطرة من الماء بها ذرة من هذه المادة ، وهكذا لو ألقيتَ القارورة فى برميل .. الخ .

إذن : فكل إنسان منّا فيه ذرة من أبيه آدم عليه السلام ، هذه الذرة شهدتْ خَلْق آدم ، وشهدتْ العهد الأول الذى أخذه الله على عباده فى قوله تعالى :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِى آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ .. (١٧٢) ﴾ [الأعراف]

لذلك ؛ يُسمِّى الله تعالى إرسال الرسل بَعْثاً فيقول : ﴿ بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً (٤١) ﴾ [الفرقان] بعثه : كأنه كان موجوداً وله أَصْل فى رسالة مباشرة من الله حين أخذ العهد على عباده ، وهم فى ظَهْر آدم عليه السلام ، كما يخاطب الرسول بقوله : ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ (٢١) ﴾ [الغاشية] أى : مُذكِّر بالعهد القديم الذى أخذناه على أنفسنا .

لذلك اقرأ الآية : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِى آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا .. (١٧٢) ﴾ [الأعراف]

هذا فى مرحلة الذَّرِّ قبل أنْ يأتى الهوى فى النفوس ﴿أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣)﴾ [الأعراف]

إذن : بعث الله الرسل لتُذكِّر بالعهد الأول ، حتى لا تحدث الغفلة ، وحتى تقيم على الناس الحجة .

ثم يقول تعالى : ﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ..(٥)﴾ [الحج] سمِّيت النطفة علقة ؛ لأنها تعلَقُ بالرحم ، يقول تعالى فى آية أخرى : ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ (٣٨)﴾ [القيامة]

فالمنىُّ هو السائل الذى يحمل النطفة ، وهى الخلاصة التى يتكوَّن منها الجنين ، والعلَقة هنا هى البُويْضَة المخصَّبة ، فبعد أنْ كان للبويضة تعلُّق بالأم ، وللحيوان المنوى (النطفة) تعلُّق بالأب ، اجتمعا فى تعلُّق جديد والتقيَا ليتشبَّثا بجدار الرحم ، وكأن فيها ذاتية تجعلها تعلَق بنفسها ، يُسمُّونها (زيجوت) .

ومنها قولهم : فلان هذا مثل العلقة إذا كان ملازماً لك .

بعد ذلك تتحول العلقة إلى مضغة ﴿ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ .. (٥)﴾ [الحج] والمضغة : هى قطعة لحم صغيرة قَدْر ما يُمضغ من الطعام ، وهو خليط من عدَّة أشياء ، كما لو أكلتَ مثلاً قطعة لحم مع ملعقة خضار مع ملعقة أرز ، وبالمضغ يتحوّل هذا إلى خليط ، ذلك لأن جسم الإنسان لا يتكوَّن من عنصر واحد ، بل من ستة عشر عنصراً .

هذه المضغة ﴿مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ .. (٥)﴾ [الحج] معنى مخلقة يعنى : يظهر عليها هيكل الجسم ، وتتشكَّل على صورته ، فهذه

للرأس ، وهذه للذراع ، وهذه للرِّجْل وهكذا ، يعنى تخلَّقَتْ على هيئة الإنسان .

أما غير المخلَّقة ، فقد عرفنا مؤخراً أنها الخلايا التى تُعوِّض الجسم وتُرقِّعه إذا أصابه عَطَب فهى بمثابة (احتياطى) لإعادة تركيب ما تلف من أنسجة الجسم وترميمها ، كما يحدث مثلاً فى حالة الجُرْح فإنْ تركتَه لطبيعة الجسم يندمل شيئاً فشيئاً ، دون أنْ يتركَ أثراً .

نرى هذا فى أولاد الفلاحين ، حين يُجرح الواحد منهم ، أو تظهر عنده بعض الدمامل ، فيتركونها لمقاومة الجسم الطبيعية ، وبعد فترة تتلاشى هذه الدمامل دون أنْ تتركَ أثراً على الإطلاق ؛ لأنهم تركوا الجسم للصيدلية الربانية .

أما إذا تدخَّلنا فى الجُرْح بمواد كيماوية أو خياطة أو خلافه فلا بُدَّ أن يترك أثراً ، فترى مكانه لامعاً ؛ لأن هذه المواد أتلفت مسام الجسم ؛ لذلك نجد مثل هذه الأماكن من الجسم قد تغيرتْ ، ويميل الإنسان إلى حكِّها (وهرشها) ؛ لأن هذه المسام كانت تُخرِج بعض فضلات الجسم على هيئة عرق ، فلما انسدت هذه المسام سببت هذه الظاهرة . هذا كله لأننا تدخَّلْنا فى الطبيعة التى خلقها الله .

إذن : فمعنى ﴿وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ .. ۝﴾ [الحج] هى الصيدلية التى تُعوِّض وتُعيد بناء ما تلف من جسم الإنسان .

ثم يقول سبحانه : ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى .. ۝﴾ [الحج] أى : نُوضِّح لكم كل ما يتعلَّق بهذه المسألة ﴿وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ .. ۝﴾ [الحج] وهى المضْغة التى قُدِّر لها أنْ تكون جنيناً يكتمل إلى أنْ يولد ؛ لذلك قال : ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى .. ۝﴾ [الحج] أو نسقطه ميتاً قبل ولادته .

فإنْ قلتَ : وما الحكمة من خَلْقه وتصويره ، إنْ كان قد قُدِّر له أنْ يموت جنيناً ؟ نقول : لنعرف أن الموت أمر مُطْلق لا رابطَ له ولا سنّ ، فالموت يكون للشيخ كما يكون للجنين فى بطن أمه ، ففى أىِّ وقت ينتهى الأجل .

وقوله تعالى : ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً .. ﴿٥﴾﴾ [الحج] قال : ﴿نُخْرِجُكُمْ .. ﴿٥﴾﴾ [الحج] بصيغة الجمع ولم يقُلْ : أطفالاً إنما ﴿طِفْلاً .. ﴿٥﴾﴾ [الحج] بصيغة المفرد ، لماذا ؟ قالوا : فى اللغة ألفاظ يستوى فيها المفرد والجمع ، فطفل هنا بمعنى أطفال ، وقد وردتْ أطفال فى موضع آخر فى قوله سبحانه : ﴿وَإِذَا بَلَغَ الأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ [1] .. ﴿٥٩﴾﴾ [النور]

وكما تقول : هذا رجل عَدْل ، ورجال عَدْل . وفى قصة سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ يتكلم عن الأصنام فيقول : ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي .. ﴿٧٧﴾﴾ [الشعراء] ولم يقُلْ : أعداء . وحينما تكلم عن ضَيْفه قال : ﴿هَـٰؤُلاءِ ضَيْفِي .. ﴿٦٨﴾﴾ [الحجر] ولمَ يقل : ضيوفى ، إذن : المفرد هنا يُؤدِّى معنى الجمع .

ثم يقول سبحانه : ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ .. ﴿٥﴾﴾ [الحج] وهكذا ، ينقلنا السياق من الطفولة إلى المرحلة النهائية من عمر الإنسان ، وسبق أنْ تحدَّثنا عن مراحل عمر الإنسان ، وأنه يمر بمرحلة الرُّشْد : رُشْد البنية حين يصبح قادراً على إنجاب مثله ، ورُشْد العقل حين يصبح قادراً على التصرّف السليم ، ويُحسن الاختيار بين البدائل .

ثم تأتى مرحلة الأشد : ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ .. ﴿١٥﴾﴾ [الأحقاف] يعنى : نضج نُضْجاً من حوادث الحياة أيضاً .

---

(١) حلم الصبى يحلم حُلماً : بلغ مبلغ الرجال . [القاموس القويم ١/١٦٩] .

ثم يقول تعالى : ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ .. ۝﴾ [الحج] وأرذل العمر يعنى رديئه ، حين تظهر على الإنسان علامات الخَوَر والضعف ﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا .. ۝﴾ [الحج] لأنه ينسى ، وعندها يعرف أن صحته وقوته وسلطانه ليست ذاتية فيه ، إنما موهوبة له من الله .

وإذا بلغ الرجل أرذلَ العمر يعود من جديد إلى مرحلة الطفولة تدريجياً ، فيحتاج لمَنْ يأخذ بيده ليقوم أو ليمشى ، كما تأخذ بيد الطفل الصغير ، فإذا تكلّم يتهته ويتلعثم كالطفل الذى يتعلم الكلام .. وهكذا فى جميع شئونه .

لذلك يقولون : الزواج المبكر أقرب طريق لإنجاب (والد) يعولُك فى طفولة شيخوختك ، ولم يقُلْ : ولداً ؛ لأنه سيقوم معك فيما بعد بدوْر الوالد ، يقولون : لحق والده يعنى سنُّهما متقارب .

لكن ، لماذا يُرَدُّ بعضنا إلى أرذل العمر دون بعض ؟ الحق سبحانه جعلها نماذج حتى لا نقول : يا ليت أعمارنا تطول ؛ لأن أعمار الجميع لو طالتْ إلى أرذَلِ العمر لأصبح الأمر صعباً علينا ، فمن رحمة الله بنا أنْ خلق الموت .

ثم يقول تعالى : ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝﴾ [الحج]

أى : كما كان خَلْق الإنسان من تراب ، ثم من نطفة ، ثم من علقة ، ثم من مُضْغة مُخلَّقة وغير مُخلَّقة ، ثم أخرجه طفلاً ، وبلغ أَشُدَّهُ ، ومنهم مَنْ مات ، ومنهم مَنْ يُرَدُّ إلى أرذَل العمر ، كذلك الحال فى الأرض : ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً .. ۝﴾ [الحج]

هامدة : ساكنة ، ومنه قولنا للولد كثير الحركة : اهمد ﴿فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ ..(٥)﴾ [الحج] أى : تحركتْ ذراتُها بالنبات بعد سكونها .

والاهتزاز : تحرُّك ما كنت تظنه ثابتاً ، وليس ما كان ثابتاً فى الواقع ؛ لأن لكل كائن حركة فى ذاته ، حتى قطعة الحديد الجامدة لها حركة بين ذراتها ، لكن ليس لديْك من وسائل الإدراك ما تدرك به هذه الحركة . ولو تأملت المغناطيس لأدركتَ هذه الحركة بين ذراته ، فحين تُدلِّك القضيب الممغنط وتُمرِّره على قضيب آخر غير مُمغنط فى اتجاه واحد ، فإنه يكتسب منه المغناطيسية ، وتمرير المغناطيس فى اتجاه واحد معناه تعديل للذرات لتحمل شحنة واحدة سالبة أو موجبة ، فإن اختلف اتجاه الدَّلْك فإن الذرات أيضاً تختلف .

إذن : فى الحديد ـ رمز الصلابة والجمود ـ حركة وحياة تناسبه ، وإنْ خُيِّل إليك أنه أصمٌّ جامد فى ظاهره .

لذلك نقول ﴿هَامِدَةً .. (٥)﴾ [الحج] يعنى : ساكنة فى رأْى العلم ، حيث لا نباتَ فيها ثم ﴿اهْتَزَّتْ .. (٥)﴾ [الحج] يعنى : زادتْ وربَتْ وتحركتْ لإخراج النبات ، إنما هى فى الحقيقة لم تكُنْ ساكنة مُطْلقاً ؛ لأن فيها حركة ذاتية بين ذراتها .

ومعنى : ﴿وَرَبَتْ .. (٥)﴾ [الحج] أى : زادت عن حجمها ، كما تزيد حبة الفول مثلاً حين تُوضَع فى الماء ، وتأخذ حظها من الرطوبة ، وكذلك فى جميع البقول ، وهذه الزيادة فى حجم الحبة هى التى تفلقها إلى فلقتين فى عملية الإنبات ، ويخرج منها زبان يتجه إلى أعلى فيكون الساق الذى يبحث عن الهواء ، وإلى أسفل فيكون الجذر الذى يبحث عن الماء . وتظل هاتان الفلقتان مصدرَ غذاءٍ للنبتة حتى

تقوى ، وتستطيع أنْ تمتصَّ غذاءها من التربة ، فإذا أدَّتْ هاتان الفلقتان مهمتهما فى تغذية النبتة تحوَّلتَا إلى ورقتين ، وهما أول ورقتين فى تكوين النبتة .

كذلك ، نلاحظ فى تغذية النبات أنه لا يأخذ كُلَّ غذائه من التربة ، إنما يتغذى بنسبة ربما ٩٠ بالمائة من غذائه من الهواء ، وتستطيع أن تلاحظ هذه الظاهرة إذا نظرتَ إلى إصيص به زرع ، فسوف تجد ما نقص من التربة كمية لا تُذكَر بالنسبة لحجم النبات الذى خرج منها .

وحين تتأمل جذر النبات تجد فيه آية من آيات الله ، فالجذر يمتد إلى أن يصل إلى الرطوبة أو الماء ، حتى إذا وصل إلى مصدر غذائه توقَّف ، ولك أن تنظر مثلاً إلى (كوز الحلبة) فسوف تجد الجذور غير متساوية فى الطول ، بحسب بُعد الحبة عن مصدر الرطوبة .

﴿وَرَبَتْ .. ۝٥﴾ [الحج] أى : زادت وانتفشتْ ، كما يحدث فى العجين حين تضع فيه الخميرة ﴿وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝٥﴾[الحج]

هذه صورة حيَّة واقعية نلاحظها جميعاً عياناً : الأرض تكون جرداء ساكنة ، لا حركةَ فيها ، فإذا ما نزل عليها الماء تغيرتْ وتحركتْ ذراتها وتشققتْ عن النبات ، ولو حتى بالمطر الصناعى ، كما كنا نرى فى عرفة مثلاً ينزل عليها المطر الصناعى فيخضرُّ الوادى ، لكن حينما ينقطع الماء يعود كما كان لعدم موالاة الماء ، ولو واليتَ عليها بالماء لصارت غابات وأحراشاً وبساتين كالتى نراها فى أوروبا .

والمطر لا يحتاج أنْ تُسوَّى له الأرض ؛ لأنه يسْقِى المرتفع

والمنخفض على السواء ، على خلاف الأرض التى تسقيها أنت لا بُدَّ أن تُسوِّيها للماء حتى يصلَ إليها جميعاً .

فإذا أنزل الله تعالى المطر على الأرض الجدباء الجرداء تراها تتفتق بالنبات ، فمن أين جاءت هذه البذور ؟ وكيف لم يُصِبْها العطب ، وهى فى الأرض طوال هذه الفترات ؟ الأرض هى التى تحفظها من العطب إلى أن تجد البيئة المناسبة للإنبات ، وهذا النبات الذى يخرج من الأرض دون تدخُّل الإنسان يسمونه (عِذْى) .

أما عن نَقْل هذه البذور فى الصحراء وفى الوديان ، فهى تنتقل بواسطة الريح ، أو فى رَوَث الحيوانات .

ومعنى : ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝٥﴾ [الحج] الزوج : البعض يظن الزوج يعنى الاثنين ، إنما الزوج كلمة مفردة تدل على واحد مفرد معه مثْله من جنسه ، ففى قوله تعالى : ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ ۝٤٥﴾ [النجم] فكل منهما زوج ، وكما نقول : زوج أحذية يعنى فردة حذاء معها فردة أخرى مثلها ، ومثلها كلمة توأم يعنى مولود معه مثله فكل واحد منهما يسمى (توأم) وهما معاً (توأمان) ولا نقول : هما توأم .

وهنا مظهر من مظاهر دقَّة الأداء القرآنى : ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ .. ۝٥﴾ [الحج] لأن كل المخلوقات ، سواء أكانت جماداً أو نباتاً أو حيواناً ، لا بُدَّ فيه من ذكر وأنثى ، هذه الزوجية قال الله فيها : ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ .. ۝٤٩﴾ [الذاريات] حتى فى الجماد الذى نظنه جماداً لا حركةَ فيه ، يتكوَّن من زوجين : سالب وموجب فى الكهرباء ، وفى الذرة ، وفى المغناطيس ، فكلُّ شىء يعطى أعلى منه ، فلا بُدَّ فيه من زوجيْن .

لذلك ، فالحق سبحانه وتعالى حينما عالج هذه المسألة عالجها برصيد احتياطي في القرآن ، يقول سبحانه : ﴿سُبْحَانَ الَّذِى خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ (٣٦)﴾ [يس]

فقوله سبحانه : ﴿وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ (٣٦)﴾ [يس] رصيد عال لما سيأتى به العلم من اكتشافات تثبت صدْق القرآن على مَرِّ الأيام ، ففى الماضى عرفنا الكهرباء ، وأنها سالب وموجب فقلنا : هذه مما لا نعلم ، وفى الماضى القريب عرفنا الذرة فقلنا : هذه مما لا نعلم ، وهذا وجه من وجوه الإعجاز فى القرآن الكريم .

إذن : خُذْها قضية عامة : كل شىء يتكاثر إلى أعلى منه ، فلا بُدَّ أن فيه زوجية .

فقوله تعالى : ﴿وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٥)﴾ [الحج] فالزوج من النبات مفرد معه مثله ، وهذا واضح فى لقاح الذكر والأنثى ، هذا اللقاح قد يكون فى الذكر وحده ، أو فى الأنثى وحدها كما فى النخل مثلاً ، وقد يكون العنصران معاً فى النبات الواحد كما فى سنبلة القمح أو فى كوز الذرة .

ولو تأملت نبات الذرة لوجدتَ له فى أعلاه (شوشة) بها حبيبات دقيقة تحمل لقاح الذكورة ، وفى منتصف العود يخرج الكوز ، وبه شعيرات تصل كل شعرة منها إلى حبة من حبات الذرة المصطفة على الكوز ، وهذه تحمل لقاح الأنوثة ، فإذا هبَّتْ الريح هزَّتْ أعلى العود فتساقطت لقاحات الذكورة على هذه الشعيرات فلقحتها ؛ لذلك نرى الحبة التى لا يخرج منها شعرة إلى خارج الغلاف تضمر وتموت ؛ لأنها لم تأخذ حظها من اللقاح .

ومعنى : ﴿بَهِيجٍ (٥)﴾ [الحج] من البهجة ، فالمراد : الشىء حسن المنظر والجميل الذى يجذب الأنظار إليه ، وبهجة النظر إلى

النبات شائعة لا تقتصر على مَنْ يملكه بخلاف الأكل منه ، فحين تمر ببستان أو حديقة تتمتع بمنظرها وجمال ألوانها وتُسَرُّ برائحتها .

وفى النفس الإنسانية ملكات تتغذى على هذه الخضرة ، وعلى هذه الألوان وتنبسط لهذا الجمال ، ولو لم تكُنْ تمتلكه .

لذلك الحق ـ سبحانه وتعالى ـ ينبهنا إلى هذه المسألة فى قوله تعالى : ﴿انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ[1] .. ﴿٩٩﴾﴾ [الأنعام] أى : أن النظر مشاع للجميع ، ثم بعد ذلك اتركوا الخصوصيات لأصحابها ، تمتَّعوا بما خلق الله ، ففى النفس ملكَات أخرى غير الطعام .

واقرأ أيضاً قوله تعالى فى الخيل : ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾﴾ [النحل] فليست الخيل لحمل الأثقال وفقط ، وإنما فيها جمال وأُبَّهة ، تُرضِى شيئاً فى نفوسكم ، وتُشْبِع ملكَة من ملكاتها .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾﴾

أى : أن ما حدث فى خَلْق الإنسان تكويناً ، وما حدث فى إنبات الزرع تكويناً ونماءً ، يردُّ هذا كله إلى أن الله تعالى ﴿هُوَ الْحَقُّ .. ﴿٦﴾﴾ [الحج] فلماذا أتى بالحق ولم يقُلْ الخالق ؟ قالوا : لأن الخالق قد يخلق شيئاً ثم يتخلى عنه ، أمّا الله ـ سبحانه وتعالى ـ فهو الخالق الحق ، ومعنى الحق أى : الثابت الذى لا يتغير ، كذلك عطاؤه لا يتغير ، فسوف يظل سبحانه خالقاً يعطيك كل يوم ؛ لأن عطاءه سبحانه دائم لا ينفد .

---

(١) ينع الثمر : أدرك ونضج ، والينْع : النضج . واليانع : الناضج . [لسان العرب ـ مادة : ينع] .

وإذا نظرتَ إلى الوجود كله لوجدته دورة مكررة ، فالله عز وجل قد خلق الأرض وقدَّر فيها أقواتها ، فمثلاً كمية الماء التى خلقها الله فى الكون هى هى لم تَزِدْ ولم تنقص ؛ لأن للماء دورة فى الحياة ، فالماء الذى تشربه طوال حياتك لا يُنقص فى كمية الماء الموجودة ؛ لأنه سيخرج منك على صورة فضلات ليعود فى دورة الماء فى الكون من جديد .

وهكذا فى الطعام الذى نأكله ، وفى الوردة الجميلة الطرية التى نقطفها ، كل ما فى الوجود له دورة يدور فيها ، وهذا معنى : ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا .. (١٠) ﴾ [فصلت]

فمعنى : ﴿ الْحَقُّ .. (٦) ﴾ [الحج] هنا الثابت الذى لا يتغير فى الخَلْق وفى العطاء . فلا تظن أن عطاء الله لك شىء جديد ، إنما هو عطاء قديم يتكرر لك ولغيرك .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ .. (٦) ﴾ [الحج] كما قُلْنا فى الآية السابقة : ﴿ وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً .. (٥) ﴾ [الحج] أى : ساكنة لا حياةَ فيها ، والله وحده القادر على إحيائها ؛ لذلك نجد علماء الفقه يُسمُّون الأرض التى نصلحها للزراعة (إحياء الموات)[1] فالله تعالى

---

(١) إحياء الموات معْناه : إعداد الأرض الميتة التى لم يسبق تعميرها وتهيئتها وجعلها صالحة للانتفاع بها فى السكنى والزرع ونحو ذلك . ويشترط لاعتبار الأرض مواتاً أن تكون بعيدة عن العمران ، حتى لا تكون مرفقاً من مرافقه ، ولا يتوقع أن تكون من مرافقه ، ويرجع إلى العرف فى معرفة مدى البعد عن العمران . واتفق الفقهاء على أن الإحياء سبب للملكية لحديث رسول الله ﷺ : « من أحيا أرضاً ميتة فهى له » . واختلفوا فى اشتراط إذن الحاكم فى الإحياء فأكثر العلماء على عدم اشتراط إذن الحاكم . وذهب أبو حنيفة إلى اشتراط إذن الإمام وإقراره ، وفرَّق مالك بين الأراضى المجاورة للعمران والأراضى البعيدة عنه . ويجوز للحاكم العادل أن يُقطع بعض الأفراد من الأرض الميتة والمعادن والمياه ما دامت هناك مصلحة ، فإذا لم تتحقق المصلحة بأن لم يعمرها من أقطع له ولم يستثمرها فإنها تنزع منه » [فقه السنة ـ الشيخ سيد سابق ٣/٢٠١ ـ ٢٠٤ بتصرف] .

هو القادر وحده على إحياء كل ميت ؛ لذلك يقول بعدها : ﴿وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾﴾ [الحج]

وما دام الأمر كذلك وما دُمْتم تشاهدون آية إحياء الموات فى الأرض الميتة فلا تنكروا البعث وإعادتكم بعد الموت . فيقول تعالى :

﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي ٱلْقُبُورِ ﴿٧﴾﴾

وقد سبق أن أنكروا البعث بعد الموت وقالوا : ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [الصافات]

فيردُّ عليهم الحق سبحانه : نعم ، سنعيدكم بعد الموتَ ، والذى خلقكم من لا شىءَ قادرٌ على إعادتكم من باب أَوْلَى ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ .. ﴿٢٧﴾﴾ [الروم] والحق سبحانه هنا يخاطبنا على قَدْر عقولنا ؛ لأننا نفهم أن الخَلْق من موجود أهون من الخَلْق من عدم ، أما بالنسبة للخالق ـ عز وجل ـ فليس هناك سَهْل وأسهل ، ولا هَيِّن وأهْون .

فقوله تعالى : ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا .. ﴿٧﴾﴾ [الحج] كأن عملية إحياء الموتى ليست مُنْتهى قدرة الله ، إنما فى قدرته تعالى كثير من الآيات والعجائب ، ومعنى : ﴿لَّا رَيْبَ فِيهَا .. ﴿٧﴾﴾ [الحج] أى : لا شكَّ فيها . والساعة : أى زمن القيامة وموعدها ، لكن القيامة ستكون للحساب وللفَصْل بين الناس ، فلا بُدَّ من بَعْثهم من القبور ؛ لذلك يقول بعدها : ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ ﴿٧﴾﴾ [الحج]

فكُلُّ ما تقدَّم ناشىء من أنه سبحانه هو الحق ؛ ولأنه سبحانه الحق ، فهو يُحيى الموتى ، وهو على كل شىء قدير ، والساعة آتية لا رَيْبَ فيها ، وهو سبحانه يبعث مَنْ فى القبور .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ﴾

تكلمنا فى أول السورة عن الجدل بالعلم والموعظة الحسنة وقلنا : العلم إما علم بَدْهى أو علم استدلالى عقلىّ ، أو علم بالوحى من الله سبحانه ، أما هؤلاء الذين يجادلون فى الله بغير علم بدهى ﴿وَلَا هُدًى.. ﴿٨﴾﴾ [الحج] يعنى : علم استدلالى عقلى ، ﴿وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾﴾ [الحج] يعنى : وحى من الله ، فهؤلاء أهل سفسطة وجدل عقيم لا فائدة منه ، وعلى العاقل حين يصادف مثل هذا النوع من الجدال أن لا يجاريه فى سفسطته ؛ لأنه لن يصل معه إلى مفيد ، إنما عليه أنْ ينقله إلى مجال لا يحتمل السفسطة .

ولنا فى هذه المسألة مثَلٌ وقُدْوة بسيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ حينما جادل النمرود ، اقرأ قول الله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِى حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِى رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّىَ الَّذِى يُحْيِى وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِى وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِى بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِى كَفَرَ .. ﴿٢٥٨﴾﴾ [البقرة]

لقد اتبع النمرودُ أسلوب السَّفْسَطة حين قال ﴿أَنَا أُحْيِى

وأُمِيتُ.. ﴿٢٥٨﴾ [البقرة] لأنه ما فعل حقيقةَ الموت ، ولا حقيقة الحياة[1] ، فأراد إبراهيم أن يُلجئه إلى مجال لا سفسطة فيه ؛ لينهى هذا الموقف ويسدّ على خَصْمه باب اللدد والتهريج ، فقال : ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ .. ﴿٢٥٨﴾﴾ [البقرة] وكانت النتيجة أنْ حَارَ عدو الله جواباً ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ .. ﴿٢٥٨﴾﴾ [البقرة] أى : دُهِش وتحيَّر .

﴿ثَانِيَ عِطْفِهِ[2] لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٩﴾﴾

﴿ثَانِيَ .. ﴿٩﴾﴾ [الحج] ثَنَى الشىء يعنى : لَواه ، وعِطْفه : يعنى جَنْبه ، والإنسان فى تكوينه العام له رأس ورقبة وكتفان ، وله جانبان وظَهْر ، وهذه الأعضاء تُؤدِّى دَوْراً فى حياته وحركته ، وتدلّ على تصرفاته ، فالذى يجادل فى الله عن غير علم ولا هدى ولا كتاب منير يَثْنى عنك جانبه ، ويَلْوى رأسه ؛ لأن الكلام لا يعجبه ؛ ليس لأن كلامك باطل ، إنما لا يعجبه لأنه أفلس وليست لديه الحجة التى يواجهك بها ، فلا يملك إلا هذه الحركة .

---

(١) وذلك أن النمرود قال : « إنى أُوتى بالرجلين قد استحقا القتل فآمر بقتل أحدهما فيقتل ، وآمر بالعفو عن الآخر فلا يقتل » قاله قتادة ومحمد بن إسحاق والسدى وغير واحد . أورده ابن كثير فى تفسيره (١/٣١٣) . ثم قال ابن كثير : « والظاهر والله أعلم أنه ما أراد هذا لأنه ليس جواباً لما قال إبراهيم ولا فى معناه ، لأنه مانع لوجود الصانع ، وإنما أراد أن يدعى لنفسه هذا المقام عناداً ومكابرة ويوهم أنه فاعل لذلك وأنه هو الذى يحيى ويميت » .

(٢) العطف : الجانب . عطْفَا الإنسان : جانباه . ويقال : ثنى عطفه : أى : أعرض وابتعد بجانبه . وقوله : ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِ .. ﴿٩﴾﴾ [الحج] . كناية عن الإعراض كبراً وغروراً . [القاموس القويم ٢/٢٥] .

لذلك يُسمَّى هذا الجدل « مراءً » ، ومنه قوله تعالى : ﴿ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ ﴾ [النجم] يعنى : أتجادلون رسول الله فى أمر رآه ؟ والمراء : هو الجَدل العنيف ، مأخوذ من (مَرْى[1] الضرع) يعنى : حَلْب ما فيه من لبن إلى آخر قطرة فيه ، وأهل الريف يقولون عن هذه العملية (قرقر البقرة) يعنى : أخذ كل لبنها ولم يَبْقَ فى ضرعها شىء .

كذلك المجادل بالباطل ، أو المجادل بلا علم ولا حجة تراه يكابر ليأخذ آخر ما عند خَصْمه ، ولو كان عنده علم وحجة لأنهَى الموقف دون لجج أو مكابرة .

والقرآن الكريم يعطينا صورة لهذا الجدل والإعراض عن الحق ، فيقول سبحانه : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ ﴾ [المنافقون]

والقرآن يعطينا التدرج الطبيعى للإعراض عن الحق الذى يبدأ بلَىِّ الرأس ، ثم الجانب ، ثم يعطيك دُبُره وعَرْض أكتافه ، هذه كلها ملاحظ للفرار من الجدل ، حين لا يقوى على الإقناع .

ثم يقول سبحانه : ﴿ ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ .. ﴿٩﴾ ﴾ [الحج] هذه علَّة ثَنْى جانبه ، لأنه يريد أنْ يُضل مَن اهتدى ، فلو وقف يستمع لخَصْمه وما يلقيه من حجج ودلائل لانهزم ولم يتمكّن من إضلال الناس ؛ لذلك يَثْنى عِطْفه هَرَباً من هذا الموقف الذى لا يَقْدر على مواجهته والتصدى له .

فما جزاء هذا الصنف ؟ يقول تعالى : ﴿ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ..﴿٩﴾ ﴾ [الحج] والخِزْى : الهوان والذِّلَّة ، هذا جزاء الدنيا قبل جزاء الآخرة ،

---

(١) المَرْى : مَسْح ضرع الناقة لتدر . وناقة مَرِىٌّ : غزيرة اللبن . [لسان العرب ـ مادة : مرى] .

ألم يحدث للكفار هذا الخزى يوم بدر ؟ ألم يُمسك رسول الله ﷺ بقضيب فى يده قبل المعركة ويشير به : « هذا مصرع فلان ، وهذا مصرع فلان »[(١)] ويسمى صناديد الكفر ورؤوس الضلال فى قريش ؟ وبعد انتهاء المعركة كان الأمر كما أخبر رسول الله ﷺ ، وصُرِع كلُّ هؤلاء الصناديد فى نفس الأماكن التى أشار إليها رسول الله .

ولما قُتِل فى هذه المعركة أبو جهل عَلاَهُ سيدنا عبد الله بن مسعود ، سبحان الله ، عبد الله بن مسعود راعى الغنم يعتلى ظهر سيد قريش ، عندها قال أبو جهل ـ وكان فيه رَمَق حياة : لقد ارتقيتَ مُرْتقىً صَعْباً يا رُوَيْعىَّ الغنم[(٢)] ، يعنى : ركبتنى يا ابن الإيه !! فأىُّ خِزْى بعد هذا ؟!

وأبو سفيان بعد أن شفع له العباس رضى الله عنه عند رسول الله ﷺ ، ورأى موكب النبى يوم الفتح ، وحوله رايات الأنصار فى موكب رهيب مهيب ، لم يملك نفسه ولم يستطع أنْ يُخفى ما فى صدره ، فقال للعباس رضى الله عنه : لقد أصبح مُلْك ابن أخيك قوياً ، فقال له : إنها النبوة يا أبا سفيان[(٣)] يعنى : المسألة ليست مُلْكاً ، إنما هى النبوة المؤيَّدة من الله .

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٧٧٩) من حديث أنس ـ رضى الله عنه ـ وأحمد فى مسنده (٣/٢١٩ ، ٢٥٨) أن رسول الله ﷺ قال : « هذا مصرع فلان » ويضع يده على الأرض هاهنا وهاهنا ، قال : فما ماط أحدهم عن موضع يد رسول الله ﷺ .

(٢) قال عبد الله بن مسعود : وجدته بآخر رمق فعرفته ، فوضعت رجْلى على عنقه . فقال له أبو جهل : لقد ارتقيت مُرْتقى صعباً يا رُوَيْعى الغنم . قال : ثم احتززت رأسه ثم جئت به رسول الله ﷺ ، فقلت : يا رسول الله . هذا رأس عدو الله أبى جهل » أورده ابن هشام فى السيرة النبوية (٢/٦٣٦) .

(٣) ذكره ابن هشام فى السيرة النبوية (٤/٤٠٤) : « قال أبو سفيان : سبحان الله يا عباس ، من هؤلاء ؟ قال : قلت : هذا رسول الله ﷺ فى المهاجرين والأنصار . قال : ما لأحد بهؤلاء قبَل ولا طاقة ، والله يا أبا الفضل ، لقد أصبح مُلْك ابن أخيك الغداة عظيماً . قال : قلت : يا أبَا سفيان ، إنها النبوة . قال : فنعم إذن » .

وسيدنا أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ حينما استأذن عليه القوم فى الدخول ، فأذنَ للسابقين إلى الإسلام من العبيد والموالى ، وترك بعض صناديد قريش على الباب ، (فورِمَتْ) أنوفهم من هذا الأمر واغتاظوا ، وكان فيهم أبو سيدنا أبى بكر فقال له : أتأذن لهؤلاء وتتركنا ؟ فقال له : إنه الإسلام الذى قدَّمَهم عليكم . وقد شاهد عمر هذا الموقف فقال لهم : ما لكم ورِمَتْ[1] أنوفكم ؟ وما بالكم إذا أُذِن لهم على ربهم وتأخرتم أنتم .

فالغضب الحقيقى سيكون فى الآخرة حين يُنَادى بهؤلاء إلى الجنة ، وتتأخرون أنتم فى هَوْل الموقف .

واقرأ قوله تعالى : ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَـٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾﴾ [الواقعة]

ثم يقول تعالى : ﴿وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٩﴾﴾ [الحج] فهذا الخِزْىُ الذى رأَوْه فى الدنيا لن يُفلتهم من خِزْى وعذاب الآخرة ، ومعنى ﴿عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٩﴾﴾ [الحج] الحريق : هو الذى يحرق غيره من شدّته ، كالنار التى أوقدوها لإبراهيم ـ عليه السلام ـ وكانت تشوى الطير الذى يمرُّ بها فى السماء فيقع مشوياً[2] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾﴾

(١) ورم أنفه . أى : غضب . أى : امتلأ وانتفخ من ذلك غضباً ، وخَصَّ الأنف بالذكر لأنه موضع الأنفة والكبر . وورَّم فلان بأنفه توريماً : إذا شمخ بأنفه وتجبَّر . [لسان العرب ـ مادة : ورم] .

(٢) قال ابن إسحاق : جمعوا الحطب شهراً ثم أوقدوها ، واشتعلت واشتدت حتى أن كان الطائر ليمر بجنباتها فيحترق من شدة وهجها . [ذكره القرطبى فى تفسيره (٦/٤٤٨١)] .

﴿ذَٰلِكَ .. ﴿١٠﴾﴾ [الحج] يعنى خِزْى الدنيا وعذاب الحريق فى الآخرة بما قدَّمتْ ، وبما اقترفت يداك ، لا ظُلْماً منّا ولا اعتداء ، فأنت الذى ظلمتَ نفسك ، كما قال سبحانه : ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾﴾ [النحل]

وهل أخذناهم دون إنذار ، ودون أن نُجرِّم هذا الفعل ؟ لأنك لا تعاقب شخصاً على ذنب إلا إذا كنتَ قد نبَّهته إليه ، وعرَّفته بعقوبته ، فإنْ عاقبته دون علمه بأن هذا ذنب وهذه جريمة فقد ظلمتَه ؛ لذلك فأهل القانون يقولون : لا عقوبةَ إلا بتجريم ، ولا تجريمَ إلا بنصٍّ .

وقد جاءكم النص الذى يُبيِّن لكم ويُجرِّم هذا الفعل ، وقد أبلغتُكم الرسل ، وسبق إليكم الإنذار ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴿١٥﴾﴾ [الإسراء]

﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ .. ﴿١٠﴾﴾ [الحج] فهل الذنوب كلها تقديمُ اليد فقط ؟

الذنوب : إما أقوال ، وإما أفعال ، وإما عمل من أعمال القلب ، كالحقد مثلاً أو النفاق .. إلخ لكن فى الغالب ما تُزَاول الذنوب بالأيدى[1] .

ثم يقول تعالى : ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾﴾ [الحج] ظلاَّم : صيغة مبالغة من الظلم ، تقول : ظالم . فإنْ أردتَ المبالغة تقول : ظلاَّم ، كما تقول : فلان آكل وفلان أَكُول ، فالفعل واحد ، لكن ما ينشأ عنه مختلف ، والمبالغة فى الفعل قد تكون فى الفعل نفسه أو فى تكراره ، فمثلاً قد تأكل فى الوجبة الواحدة رغيفاً واحداً ، وقد

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٦/٤٥٤٨) : « عبر باليد عن الجملة ؛ لأن اليد التى تفعل وتبطش للجملة » .

تأكل خمسة أرغفة هذه مبالغة فى الوجبة الواحدة ، فأنت تأكل ثلاث وجبات ، لكن تبالغ فى الوجبة الواحدة ، وقد تكون المبالغة فى عدد الوجبات فتأكل فى الوجبة رغيفاً واحداً ، لكن تأكل خمس وجبات بدلاً من ثلاث . فهذه مبالغة بتكرار الحدث .

وصيغة المبالغة لها معنى فى الإثبات ولها معنى فى النفى : إذا قُلْتَ : فلان أكول وأثبتَّ له المبالغة فقد أثبتَّ له أصل الفعل من باب أَوْلَى فهو آكل ، وإذا نفيتَ المبالغة فنَفْى المبالغة لا ينفى الأصل ، تقول : فلان ليس أكولاً ، فهذا لا ينفى أنه آكل .

فإذا طبَّقنا هذه القاعدة على قوله تعالى : ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾﴾ [الحج] فهذا يعنى أنه سبحانه وتعالى (ظالم) حاشا لله ، وهنا نقول : هناك آيات أخرى تنفى الفعل ، كما فى قوله تعالى : ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف] وقوله تعالى : ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [الزخرف]

كما أن صيغة المبالغة هنا جاءت مضافة للعبيد ، فعلى فرض المبالغة تكون مبالغة فى تكرار الحدث ﴿بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾﴾ [الحج] ظلم هذا ، وظلم هذا ، وظلم هذا ، فالمظلوم عبيد ، وليس عبداً واحداً .

والظلم فى حقيقته أن يأخذ القوىُّ حَقَّ الضعيف ، ويكون الظلم على قَدْر قوة الظالم وقدرته ، وعلى هذا إنْ جاء الظلم من الله تعالى وعلى قَدْر قوته وقدرته فلا شكَّ أنه سيكون ظُلْماً شديداً لا يتحمله أحد ، فلا نقول - إذن - ظالم بل ظلام ، وهكذا يتمشى المعنى مع صيغة المبالغة .

فالحق سبحانه ليس بظلام للعبيد ؛ لأنه بيَّن الحلال والحرام ، وبيَّن الجريمة ووضع لها العقوبة ، وقد بلَّغَتْ الرسل من بداية الأمر فلا حُجَّةَ لأحد .

ثم يقول الحق سبحانه[١] :

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١١﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ .. ﴿١١﴾ ﴾ [الحج]

العبادة : أنْ تطيع الله فيما أمر فتنفذه ، وتطيعه فيما نهى فتجتنبه ، بعض الناس يعبد الله هذه العبادة طالما هو فى خير دائم وسرور مستمر ، فإذا أصابه شرٌّ أو وقع به مكروه ينقلب على وجهه ﴿ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ .. ﴿١١﴾ ﴾ [الحج]

والحق سبحانه يريد من عبده أنْ يُقبل على عبادته فى ثبات إيمان ، لا تزعزعه الأحداث ، ولا تهز إيمانه فيتراجع ، ربك يريدك عبداً له فى الخير وفى الشر ، فى السراء وفى الضراء ، فكلاهما فتنة واختبار ، وما آمنتَ بالله إلا لأنك علمتَ أنه إله حكيم عادل

---

(١) سبب النزول : روى فيها عدة روايات ، منها :

- عن ابن عباس قال : كان ناس من الأعراب يأتون النبى ﷺ فيسلمون فإذا رجعوا إلى بلادهم ، فإن وجدوا عام غيث وعام خصب وعام ولاد حسن قالوا : إن ديننا هذا لصالح فتمسكوا به ، وإن وجدوا عام جدوبة وعام ولاد سوء وعام قحط قالوا : ما فى ديننا هذا خير ، فأنزل الله على نبيه ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ .. ﴿١١﴾ ﴾ [الحج] . أورده ابن كثير فى تفسيره (٣/٢٠٩) ، والواحدى فى أسباب النزول (ص ١٧٥) .
- عن أبى سعيد الخدرى قال : أسلم رجل من اليهود فذهب بصره وماله وولده وتشاءم بالإسلام ، فأتى النبى ﷺ فقال : أقلنى فقال : إن الإسلام لا يقال ، فقال : إنى لم أصب فى دينى هذا خيراً ، أذهب بصرى ومالى وولدى ، فقال : يا يهودى إن الإسلام يسبك الرجال كما تسبك النار خبث الحديد والفضة والذهب ، قال : ونزلت : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ .. ﴿١١﴾ ﴾ [الحج] .

قادر ، ولا بد أنْ تأخذ ما يجرى عليك من أحداث الحياة فى ضوء هذه الصفات .

فإنْ أثقلتْك الحياة فاعلم أن وراء هذه حكمة إنْ لم تكن لك فلأولادك من بعدك ، فلعلهم إنْ وجدوك فى سعة وفى خير طَمعُوا وفسدوا وطَغَوْا ، ولعل حياة الضيق وقلَّة الرزق وتعبك لتوفر لهم متطلبات الحياة يكون دافعاً لهم .

واقرأ قوله تعالى : ﴿كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ (٧)﴾ [العلق] وقوله تعالى : ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (٣٥)﴾ [الأنبياء]

لا بُدَّ أنْ تعرف هذه الحقائق ، وأنْ تؤمن بحكمة ربك فى كل ما يُجريه عليك ، سواء أكان نعيماً أو بُؤْساً ، فإنْ أصابك مرض أقعدك فى بيتك فَقُلْ : ماذا حدث خارج البيت ، أبعدنى الله عنه وعافانى منه ؟ فلعل الخير فيما تظنه شراً ، كما قال تعالى : ﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ .. (٢١٦)﴾ [البقرة]

وقد أجرى علماء الإحصاء إحصاءات على بعض بيوتنا ، فوجدوا الإخوة فى البيت الواحد ، وفى ظروف بيئية واحدة وأب واحد ، وأم واحدة ، حتى التعليم فى المدارس على مستوى واحد ، ومع ذلك تجد أحد الأبناء مستقيماً ملتزماً ، وتجد الآخر على النقيض ، فلمَّا بحثوا فى سبب هذه الظاهرة وجدوا أن الولد المستقيم كانت فترة تربيته وطفولته فى وقت كان والده مريضاً ويلازم بيته لمدة ست سنوات ، فأخذ هذا الولد أكبر قسْط من الرعاية والتربية ، ولم يجد الفرصة للخروج من البيت أو الاختلاط برفاق السوء .

وفى نموذج آخر لأحد الأبناء المنحرفين وجدوا أن سبب انحرافه

أن والده فى فترة تربيته وتنشئته كان تاجراً ، وكان كثير الأسفار ، ومع ذلك كان يُغْدِق على أسرته ، فتربَّى الولد فى سَعَة من العيش ، بدون مراقبة الأب .

وفى نموذج آخر وجدوا أخوين : أحدهما متفوق ، والآخر فاشل ، ولما بحثوا أسباب ذلك رغم أنهما يعيشان ظروفاً واحدة وجدوا أن الابن المتفوق صحته ضعيفة ، فمال إلى البيت والقراءة والاطلاع ، وكان الآخر صحيحاً وسيماً ، فمال إلى حياة الترف ، وقضى معظم وقته خارج البيت . والأمثلة فى هذا المجال كثيرة .

إذن : فالابتلاءات لها مغانم ، ومن ورائها حكَم ؛ لأنها ناشئة وجارية عليك بحكمة ربك وخالقك ، وليست من سَعْيك ولا من عمل يدك ، وما دامت كذلك فارْضَ بها ، واعبد الله بإخلاص وإيمان ثابت فى الخير وفى الشر.

ومعنى : ﴿يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ .. ﴿١١﴾﴾ [الحج] والحرف : هو طرف الشىء ، كأن تدخل فتجد الغرفة ممتلئة فتجلس على طرف فى آخر الجالسين ، وهذا عادةً لا يكون معه تمكُّن واطمئنان ، كذلك مَنْ يعبد الله على حرف يعنى : لم يتمكَّن الإيمان من قلبه ، وسرعان ما يُخرجه الابتلاء عن الإيمان ، لأنه عبد الله عبادةً غير متمكنة باليقين الذى يصدر عن المؤمن بإله حكيم فيما يُجريه على عبده .

والآية لم تترك شيئاً من هواجس النفس البشرية سواء فى الخير أو فى الشر .

وتأمل قول الله تعالى : ﴿فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ .. ﴿١١﴾﴾ [الحج] وكذلك : ﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ .. ﴿١١﴾﴾ [الحج] فأنت لا تقول : أصبتُ الخيرَ ، إنما الخير هو الذى أصابك وأتاك إلى بابك ، فأنت لا تبحث عن رزقك

بقدر ما يبحث هو عنك ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ .. ۝٣﴾ [الطلاق]

ويقول أهل المعرفة : رزْقك أعلم بمكانك منك بمكانه ، يعنى يعرف عنوانك أما أنت فلا تعرف عنوانه ، بدليل أنك قد تطلب الرزق فى مكان فلا تُرزَق منه بشىء ، وقد ترى الزرع فى الحقول زاهياً تأملِ فيه المحصول الوفير ، وتبنى عليه الآمال ، فإذا بعاصفة أو آفة تأتى عليه ، فلا تُرزَق منه حتى بما يسدُّ الرَّمَق .

ولنا عبرة ومثَلٌ فى ابن أُذَيْنة[1] حين ضاقت به الحال فى المدينة ، فقالوا له : إن لك صحبة بهشام بن عبد الملك الخليفة الأموى فاذهب إليه ينالك من خير الخلافة ، وفعلاً سافر ابن أذينة إلى صديقه ، وضرب إليه أكباد الإبل حتى الشام ، واستأذن فأذن له ، واستقبله صاحبه ، وسأله عن حاله فقال : فى ضيق وفى شدة . وكان فى مجلس الخليفة علماء فقال له : يا عروة ألست القائل ـ وكان ابن أُذَيْنَة شاعراً :

لَقَد عَلِمت ومَا الإسْرَافُ مِنْ خُلُقِى أَنَّ الذى هُوَ رِزْقى سَوْفَ يأْتِينِى؟[2]

وهنا أحسَّ عروة أن الخليفة كسر خاطره ، وخَيَّب أمله فيه ، فقال له : جزاك الله خيراً يا أمير المؤمنين ، لقد ذكَّرت منى ناسياً ، ونبَّهْتَ منى غافلاً ، ثم انصرف .

فلما خرج ابن أُذيْنة من مجلس الخليفة ، وفكَّر الخليفة فى

---

(١) هو : عروة بن يحى (ولقبه أذينة) بن مالك بن الحارث الليثى : شاعر غزل مقدم ، من أهل المدينة ، وهو معدود من الفقهاء والمحدثين أيضاً ، ولكن الشعر أغلب عليه . توفى نحو ١٣٠ هـ [الأعلام للزركلى ٤/٢٢٧] .

(٢) ذكر هذا البيت والذى بعده خير الدين الزركلى فى كتابه الأعلام (٤/٢٢٧) من شعر عروة بن أذينة . وانظر : الشعر والشعراء ٢٢٥ ، فوات الوفيات ٢/٣٤ .

الموقف وأنَّب نفسه على تصرُّفه مع صاحبه الذى قصد خَيْره ، وكيف أنه رَدَّه بهذه الصورة ، فأراد أنْ يُصلح هذا الخطأ ، فأرسل إليه رسولاً يحمل الهدايا الكثيرة ، إلا أن رسول الخليفة كلما تبع ابن أُذَيْنة فى مكان وجده قد غادره إلى مكان آخر ، إلى أنْ وصل إلى بيته ، فطرق الباب ، وأخبره أن أمير المؤمنين قد ندم على ما كان منه ، وهذه عطاياه وهداياه .

وهنا أكمل ابن أُذَيْنة بيته الأول ، فقال :

أَسْعَى لَهُ فَيُعَنِّينى تطلُّبه ... وَلَوْ قَعَدْتُ أَتَانى لاَ يُعنِّينى

كذلك نلحظ فى هذه الآية : ﴿فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ .. (١١)﴾ [الحج] ولم يقابل الخير بالشر ، إنما سماها (فتْنَة) أى : اختبار وابتلاء ؛ لأنه قد ينجح فى هذا الاختبار فلا يكون شراً فى حَقِّه .

ومعنى : ﴿انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ .. (١١)﴾ [الحج] يعنى : عكس الأمر ، فبعد أنْ كان عابداً طائعاً انقلب إلى الضِّدِّ فصار عاصياً ﴿خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ .. (١١)﴾ [الحج] وخسْران الإنسان لعبادته خسران كبيرٌ لا يُجْبَر ولا يُعوِّضه شىء ؛ لذلك يقول بعدها : ﴿ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (١١)﴾ [الحج] فهل هناك خُسْران مبين ، وخسران غير مبين ؟

نعم : الخسران هو الخسارة التى تُعوَّض ، أما الخسارة التى لا عوضَ لها فهذه هى الخسران المبين الذى يلازم الإنسان ولا ينفكُّ عنه ، وهو خُسْران لا يقتصر على الدنيا فقط فيمكن أنْ تُعوِّضه أو تصبر عليه ، إنما يمتد للآخرة حيث لا عوضَ لخسارتها ولا صَبْر على شِدَّتها . فالخسران المبين أى : المحيط الذى يُطوِّق صاحبه .

لذلك نقول لمن فقد عزيزاً عليه ، كالمرأة التى فقدت وحيدها مثلاً : إنْ كان الفقيد حبيباً وغالياً فبيعوه غالياً وادخلوا به الجنة ، ذلك حين تصبرون على فَقْده وتحتسبونه عند الله ، وإنْ كنتم خسرتم به الدنيا فلا تخسروا به الآخرة ، فإنْ لطَمْنا الخدود وشَقَقْنَا الجيوب ، واعترضنا على قَدَر الله فيه فقد خسرنَا به الدنيا والآخرة .

وصدق رسول الله ﷺ حين قال : « عجباً لأمر المؤمن ، إن أمره كله خير : إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإنْ أصابته ضراء صبر فكان خيراً له ، وليس ذلك إلا للمؤمن »[1] .

والصبر عند البلاء ، والشكر عند الرخاء مرتبة من مراتب الإيمان ، ومرحلة من مراحل اليقين فى نفس المؤمن ، وهى بداية وعَتَبَة يتلوها مراحل أخرى ومراقٍ ، حَسْب قوة الإيمان .

اسمع إلى هذا الحوار الذى دار بين أهل المعرفة من الزُّهَّاد ، وكيف كانوا يتبارونَ فى الوصول إلى هذه المراقى الإيمانية ، ويتنافسون فيها ، لا عن مُبَاهاة ومفاخرة ، إنما عن نية خالصة فى الرُّقى الإيمانى .

يسأل أحد هؤلاء المتمكِّنين صاحبه : كيف حال الزهاد فى بلادكم ؟ فقال : إن أصابنا خير شكرنا ، وإن أصابنا شَرٌّ صبرنا ، فضحك الشيخ وقال : وما فى ذلك ؟! إنه حال الكلاب فى بَلْخ . أما عندنا : فإنْ أصابنا خير آثرنا ، وإنْ أصابنا شَرٌّ شكرنا .

وهذه ليست مباهاة إنما تنافس ، فكلاَ الرجلين زاهد سالك لطريق الله ، يرى نفسه محسوباً على هذا الطَريق ، فيحاول أنْ يرتقىَ فيه

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٢٩٩) كتاب الزهد ، وأحمد فى مسنده (٥/٢٤) ، والدارمى فى سننه (٢/٣١٨) من حديث صهيب الرومى رضى الله عنه .

إلى أعلى مراتبه ، فإياك أنْ تظن أن الغاية عند الصبر على البلاء والشُّكْر على العطاء ، فهذه البداية وبعدها منازل أعْلَى ومَراقٍ أسمى لمن طلبَ العُلاَ ، وشمَّر عن ساعد الجد فى عبادة ربه .

انظر إلى أحد هؤلاء الزُّهَّاد يقول لصاحبه : ألاَ تشتاق إلى الله ؟ قال : لا ، قال مُتعجباً : وكيف ذلك ؟ قال : إنما يُشتاق لغائب ، ومتى غاب عنى حتى أشتاق إليه ؟ وهكذا تكون درجات الإيمان وشفافية العلاقة بين العبد وربه عز وجل .

ثم يقول الحق سبحانه عن هذا الذى يعبد الله على حرف :

﴿ يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ ﴾

معنى : ﴿ مَا لا يَضُرُّهُ .. ﴿١٢﴾ ﴾ [الحج] هل الصنم الذى يعبده الكافر من دون الله يمكن أن يضره ؟ لا ، الصنم لا يضر ، إنما الذى يضره حقيقة مَنْ عانده وانصرف عن عبادته ، تضره الربوبية التى يعاندها والمجَازى الذى يجازيه بعمله ، إذن : فما معنى : ﴿ يَضُرُّهُ .. ﴿١٢﴾ ﴾ [الحج] هنا ؟

المعنى : لا يضره إن انصرف عنه ولم يعبده ، ولا ينفعه إنْ عبده : ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ ﴾ [الحج] نعم ضلال : لأن الإنسان يعبد ويطيع مَنْ يرجو نفعه فى أىِّ شىء ، أو يخشى ضره فى أىِّ شىء .

وقد ذكرنا سابقاً قول بعض العارفين : (واجعل طاعتك لمن لا تستغنى عنه) ، ولو قلنا هذه المقولة لأبنائنا فى الكتب الدراسية ،

واهتمَّ بهـا القائمـون على التربيـة لما أغـرى الأولاد بعضـهم بعـضاً بالفسـاد ، ولوقفَ الولد يفكر مـرة وألف مـرة فى توجيـهـات ربه ، ونصائح أبيه وأمه ، وكيف أنه سيترك توجيهات مَنْ يحبونه ويخافون عليه ويرجُـون له الخير إلى إغـراء صديق لا يعرف عنه وعن أخـلاقه شيئاً .

لا بُدَّ أنْ نُطعِّم أبناءنا مبادىء الإسلام ، ليـعرف الولد منذ صِغَره مَنْ يحبه ومَنْ يكرهه ، ومَنْ هو أَوْلَى بطاعته .

وتلحظ فى الآية أن الضر سابق للنفع : ﴿مَا لا يَضُرُّهُ وَمَا لا يَنفَعُهُ .. ﴿١٢﴾﴾ [الحج] لأن دَرْءَ المـفسـدة مُقـدَّم على جَلْب المصلحـة ؛ لأن المفسـدة خروج الشىء عن استقامـة تكوينه ، والنفع يزيدك ويضيف إليك ، أما الضر فـينقصك ، لذلك خَيْر لك أنْ تظل كـما أنت لا تنقص ولا تزيد ، فإذا وقفتَ أمام أمرين : أحدهما يجلب خيراً ، والآخر يدفع شراً ، فلا شكَّ أنك ستختار دَفْع الشـر أولاً ، وتشتغل بدَرْءِ المفسدة قبل جَلْب المصلحة .

وضربنا لذلك مثـلاً : هَبْ أن إنسـاناً سيرمى لك بتفـاحة ، وآخر سيـرميك بحجـر فى نفس الوقت ، فماذا تفـعل ؟ تأخذ التفـاحة ، أو تتـقى أذَى الحجـر ؟ هذا هو معنى « دَرْء المـفسـدة مُقـدَّم على جَلْب المصلحة » .

﴿ يَدْعُوا لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ ۚ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴿١٣﴾ ﴾

الآية السابـقة تثبت أنه يدعـو مَا لا يضُـرُّه ومَا لا ينفـعه ، وهذه الآية تُثبت أنه يدعو مَنْ ضَرُّه أقرب من نَفْعه .

صيغة أفعل التفضيل (أقرب) تدل على أن شيئين اشتركا فى صفة واحدة ، إلا أن أحدهما زاد عن الآخر فى هذه الصفة ، فلو قُلْتَ : فلان أحسن من فلان . فهذا يعنى أن كلاهما حَسَن ، لكن زاد أحدهما عن الآخر فى الحُسْن .

فقوله تعالى : ﴿يَدْعُو لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ .. (١٣)﴾ [الحج] إذن : هناك نَفْع وهو قريب ، لكن الضر أقرب منه ، فهذه الآية فى ظاهرها تُناقض الآية السابقة ، والحقيقة ليس هناك تناقض ، ولا بُدَّ أنْ نفهمَ هذه المسألة فى ضوء قوله تعالى : ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا (٨٢)﴾ [النساء]

فالأوثان التى كانوا يعبدونها كان لها سَدَنة يتحكَّمون فيها وفى عابديها ، فإذا أرادوا من الآلهة شيئاً قالوا للسدنة : ادعوا الآلهة لنا بكذا وكذا ، إذن : كان لهم نفوذ وسُلْطة زمنية ، وكانوا هم الواسطة بين الأوثان وعُبَّادها ، هذه الواسطة كانت تُدرُّ عليهم كثيراً من الخيرات وتعطيهم كثيراً من المنافع ، فكانوا يأخذون كل ما يُهْدَى للأوثان .

فالأوثان ـ إذن ـ سبب فى نَفْع سدنتها ، لكن هذا النفع قصاراه فى الدنيا ، ثم يتركونه بالموت ، فمدة النفع قصيرة ، وربما أتاه الموت قبل أنْ يستفيد بما أخذه ، وإنْ جاء الموت فلا إيمانَ ولا عملَ ولا توبةَ ، وهذا معنى ﴿ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ .. (١٣)﴾ [الحج]

لذلك يقول تعالى بعدها : ﴿لَبِئْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ (١٣)﴾ [الحج] كلمة (بئس) تُقَال للذم وهى بمعنى : ساء وقَبُح ، والمولَى : الذى يليك ويقرُب منك ، ويُراد به النافع لك ؛ لأنك لا تقرِّب إلا النافع لك ، إما لأنه يعينك وقت الشدة ، ويساعدك وقت الضيق ، وينصرك إذا احتجتَ لِنُصْرته ، وهذا هو الولىُّ .

وإما أنْ تُقرِّبه منك ؛ لأنه يُسليك ويجالسك وتأنس به ، لكنه ضعيف لا يقوى على نُصْرتك ، وهذا هو العشير .

والأصنام التى يعبدونها بئست المولى ؛ لأنها لا تنصرهم وقت الشدة ، وبئست العشير ؛ لأنها لا تُسليهم ، ولا يأنسون بها فى غير الشدة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾ ﴾

بعد أن تكلَّم الحق ـ سبحانه وتعالى ـ عن الكفار وأهل النار ومَنْ يعبدون الله على حَرْف ، كان لا بُدَّ أنْ يأتىَ بالمقابل ؛ لأن النفس عندها استعداد للمقارنة والتأمل فى أسباب دخول النار ، وفى أسباب دخول الجنة ، وهذا أجْدَى فى إيقاع الحجة .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (١٤) ﴾ [الانفطار] وقوله تعالى : ﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا .. (٨٢) ﴾ [التوبة]

فذكْر النعمة وحدها دون أنْ تقابلها النِّقْمة لا تُؤتى الأثر المطلوبَ ، لكن حينما تقابل النعمة بالنقمة وَسَلْب الضّر بإيجاب النفع فإنَّ كلاهما يُظهر الآخر ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ .. (١٨٥) ﴾ [آل عمران] فإنْ آمنتَ لا تُزَحْزح عن النار فقط ـ مع أن هذه فى حَدِّ ذاتها نعمة ـ لكن تُزَحْزح عن النار وتدخل الجنة .

والإيمان : عمل قلبى ومواجيد تطمئن بها النفس ، لكن الإيمان له مطلوب : فأنت آمنتَ بالله ، واطمأنَّ قلبك إلى أن الله هو الخالق الرازق واجب الوجود .. إلخ ، فما مطلوب هذا الإيمان ؟

مطلوب الإيمان أنْ تستمع لأوامره ، لأنه حكيم ، وتثق فى قدرته لأنه قادر ، وتخاف من بطشه لأنه جبار ، ولا تيأس من بَسْطه لأنه باسط ، ولا تأمن قبضه لأنه قابض .

لقد آمنتَ بكل هذه القضايا ، فحين يأمرك بأمر فعليك أنْ تستحضر حيثيات هذا الأمر ، وأنت واثق أن ربك عز وجل لم يأمرك ولم يَنْهَكَ من فراغ ، إنما من خلال صفات الكمال فيه سبحانه ، أو صفات الجلال والجبروت ، فاستحضر فى كُلِّ أعمالك وفى كُلِّ ما تأتى أو تدع هذه الصفات .

لذلك ، جمعت الآية بين الإيمان والعمل الصالح : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ .. (١٤)﴾ [الحج]

وفى سورة العصر : ﴿وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ.. (٣)﴾ [العصر] ليس ذلك وفقط إنما أيضاً : ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣)﴾ [العصر]

فالتواصى بالحق والصبر على الشدائد من الاستجابة لداعى الإيمان وثمرة من ثماره ؛ لأن المؤمن سيتعرَّض فى رحلة الحياة لفتَن كثيرة قد تزلزله ، وسيواجه سُخْرية واستهزاءً ، وربما تعرَّض لألوان العذاب .

فعليه ـ إذن ـ أنْ يتمسَّك بالحق ويتواصى به مع أخيه ، وعليه أن يصبر ، وأنْ يتواصى بالصبر مع إخوانه ، ذلك لأن الإنسان قد

تعرض له فترات ضَعْف وخَوَر ، فعلى القوى فى وقت الفتنة أنْ ينصحَ الضعيف .

وربما تبدَّل هذا الحال فى موقف آخر وأمام فتنة أخرى ، فَمنْ أوصيْتَه اليوم بالصبر ربما يوصيك غداً ، وهكذا يُثمِر فى المجتمع الإيمانى التواصى بالحق والتواصى بالصبر .

إذن : تواصَوْا ؛ لأنكم ستتعرضون لهزَّات ليست هزَّات شاملة جامعة ، إنما هزَّات يتعرض لها البعض دون الآخر ، فإنْ ضعُفْتَ وجدتَ من إخوانك مَنْ يُواسيك : اصبر ، تجلَّد ، احتسب . وإياك أنْ تُزحزحك الفتنة عن الحق ، أو تخرج عن الصبر ، وهذه عناصر النجاة التى ينبغى للمؤمنين التمسك بها : إيمان ، وعمل صالح ، وتواصٍ بالحق ، وتواصٍ بالصبر .

وقوله سبحانه : ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ .. (١٤)﴾ [الحج] الجنات : هى الحدائق والبساتين المليئة بأنواع المتَع : الزرع ، والخضرة ، والنضارة ، والزهور ، والرائحة الطيبة ، وهذه كلها بنت الماء ؛ لذلك قال : ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ .. (١٤)﴾ [الحج] ومعنى : ﴿مِن تَحْتِهَا .. (١٤)﴾ [الحج] أن الماء ذاتىٌّ فيها ، لا يأتيها من مكان آخر ربما ينقطع عنها ، كما جاء فى آية أخرى : ﴿تَجْرِى تَحْتَهَا الأَنْهَارُ .. (١٠٠)﴾ [التوبة]

ثم يقول سبحانه : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ[1] (١٤)﴾ [الحج] لأنه سبحانه لا يُعْجزه شىء ، ولا يعالج أفعاله كما يعالج البشر أفعالهم ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٨٢)﴾ [يس]

---

(١) أى : يثيب من يشاء ويعذب من يشاء ، فللمؤمنين الجنة بحكم وعده الصدق وبفضله ، وللكافرين النار بما سبق من عدله . [قاله القرطبى فى تفسيره (٦/٤٥٥٢)] .

ولو تأملتَ هذه الآية لوجدتَ الشـيء الذى يريده الله ويأمر بكونه موجوداً فى الحقيقة ، بدليل أن الله تعالى يخاطبه ﴿يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس] فهو ـ إذن ـ كائـن فعلاً ، وموجود حقيـقةً ، والأمر هنا إنما هو لإظهاره فى عالم المشاهدة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾﴾ (١)

(يظنُّ) تفيد علْماً غير يقينى وغير مُتأكد ، وسبق أنْ تكلَّمنا فى نسبـة القضايا ، فهـناك حكم محكوم به ومحكوم عليـه ، تقول : زيد مجـتهد ، فـأنت تعتقـد فى نسْبة الاجـتهاد لزيد ، فـإنْ كان اعتـقادك صحيحاً فتستطيع أنْ تُقدِّم الدَليل على صحته فتقول : بدليل أنه ينجح كل عام بتفوق .

أما إذا اعتقد هذه القضيـة ولم يُقدِّم عليها دليلاً كأنْ سمع الناسَ يقولون : زيد مـجتـهد . فقـال مثلهم ، لكن لا دليلَ عنـده على صدْق

---

(١) ورد فى هذه الآية تأويلان لها :

١ – من كان يظن أن لن ينصر الله مـحمداً ﷺ فى الدنيا والآخرة فليمـدد بسبب أى بحبل إلى السمـاء ـ أى : سمـاء بيته ـ ثم ليـقطع . أى : ثم ليخـتنق به . قاله ابن عـباس ومجاهد وعكرمة وعطاء وقتادة وغيرهم .

٢ – من كان يظـن أن لن ينصر الله نبيـه ويكابد هذا الأمر ليـقطعه عنه ، فليـقطع ذلك من أصله من حيث يأتيه فإن أصله فى السـماء (ثم ليقطع) أى : عن النبى الوحىَ الذى يأتيه من الله إن قدر . قاله عبد الرحمن بن زيد بن أسلم .

قال ابن كثيـر فى تفسيره (٣/٢١٠) : « قول ابن عبـاس وأصحابه أولى وأظهر فى المعنى وأبلغ فى التهكم » . وانظر الدر المنثور للسيوطى (٦/١٥ ، ١٦) وقد قال الشيخ الشعراوى ـ رحمة الله عليه ـ بكلا القولين ، فكلاهما صحيح محتمل والله أعلم .

هذه المقولة ، كالطفل الذي نُلقّنه ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص] هذه قضية واقعية يعتقدها الولد ، لكن لا يستطيع أنْ يُقدِّم الدليل عليها إلا عندما يكبُر ويستوى تفكيره .

فمن أين أخذ الطفل هذه القضية واعتقدها ؟ أخذها من المأمون عليه : من أبيه أو من أستاذه ثم قلَّده . إذن : إنْ كانت القضية واقعة ، لكنْ لا تستطيع أنْ تقيم الدليل عليها فهى تقليد ، فإن اعتقدتَ قضية واقعة ، وأقمْتَ الدليل عليها ، فهذا أسْمى مراتب العلم ، فإن اعتقدتَ قضيةً غير واقعيةٍ ، فهذا جهل .

فالجاهل : مَنْ يعتقد شيئاً غير واقع ، وهذا الذى يُتعِب الدنيا كلها ، ويُشْقى مَن حوله ، لأن الجاهل الأميَّ الذى لا يعلم شيئاً ، وليست لديه فكرة يعتقدها صفحة بيضاء ، تستطيع أنْ تقنعه بالحقيقة ويقبلها منك ؛ لأنه خالى الذهن ولا يعارضك .

أما الجاهل صاحب الفكرة الخاطئة فيحتاج منك أولاً أنْ تُقنعه بخطأ فكرته حتى يتنازل عنها ، ثم تُلقِى إليه بالفكرة الصواب .

فإنْ تشككْتَ فى النسبة بحيث استوت عندك نسبة الخطأ مع نسبة الصواب ، فهذا هو الشَّكُّ ، فلا تستطيع أنْ تجزم باجتهاد زيد ، ولا بعدم اجتهاده ، فإنْ غلب الاجتهاد فهو ظَنٌّ ، فإنْ غلب عدم الاجتهاد فهو وَهْم .

إذن : نسبة القضايا إما **علم** تعتقده : وهو واقع وتستطيع أنْ تقيمَ الدليل عليه ، أو **تقليد** : وهو ما تعتقده وهو واقع ، لكن لا تقدر على إقامة الدليل عليه ، أو **جهل** : حين تعتقد شيئا غير واقع ، أو **شك** : حين لا تجزم بالشىء ويستوى عندك النفى والإثبات ، أو **ظن** : حين تُرجِّح الإثبات ، أو **وهم** : حين تُرجِّح النفى .

فالظن فى قوله تعالى : ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ .. (١٥)﴾ [الحج] أى : يمرُّ بخاطره مجرد مرور أن الله لن ينصر محمداً ، أو يتوهّم ذلك - ولا يتوهم ذلك إلا الكفار - لأنهم يأملون ذلك فى معركة الإيمان والكفر - مَنْ ظَنَّ هذا الظنَّ فعليه أنْ ينتهىَ عنه ؛ لأنه أمر بعيد ، لن يحدث ولن يكون .

وقد ظَنَّ الكفار هذا الظن حين رأَوْا بوادر نصر الإيمان وعلامات فوزه ، فاغتاظوا لذلك ، ولم يجدوا شيئاً يريح خاطرهم إلا هذا الظن .

لذلك ؛ يردُّ الله غيظهم عليهم ، فيقول لهم : ستظلون بغيظكم ؛ لأن النصر للإيمان ولجنوده مستمر ، فليس أمامك إلا أنْ تجعل حبلاً فى السماء وتربط عنقك به ، تشنق نفسك حتى تقع ، فإنْ كان هذا الكيد لنفسك يُنجيك من الغيظ فافعل :

﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ (١٥)﴾ [الحج]

لكن ما الغيظ ؟ الغيظ : نوع من الغضب مصحوب ومشُوب بحزن وأسَىً وحَسْرة حينما ترى واقعاً يحدث أمام عينيك ولا يرضيك ، وفى الوقت نفسه لا تستطيع أن تفعل شيئاً تمنع به مَا لا يُرضيك .

وهذه المادة (غيظ) موجودة فى مواضع أخرى[1] من كتاب

---

(١) وردتْ هذه المادة فى القرآن الكريم :

- يغيظ . الفعل المضارع . ورد ٣ مرات : (التوبة ١٢٠) ، (الحج ١٥) ، (الفتح ٢٩) .
- الغيظ . الاسم معرف بالـ ورد ٤ مرات : (آل عمران ١١٩ ، ١٣٤) ، (التوبة ١٥) ، (الملك ٨) .
- بغيظكم . الاسم قبله حرف الجر الباء ومضاف إلى ضمير المخاطب للجمع ، ورد مرة واحدة : (آل عمران ١١٩) .
- بغيظهم . الاسم قبله حرف الجر الباء ومضاف إلى ضمير الغيبة للجمع . ورد مرة واحدة : (الأحزاب ٢٥) .
- لغائظون . اسم الفاعل الجمع مؤكد باللام ورد مرة واحدة : (الشعراء ٥٥) .
- تغيظاً : مصدر الفعل تغيَّظ . ورد مرة واحدة : (الفرقان ١٢) .

الله ، وقد استُعْمِلَتْ حتى للجمادات التى لا تُحسُّ ، اقرأ قول الله تعالى عن النار : ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ .. (٨)﴾ [الملك] وقال : ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا (١٢)﴾ [الفرقان] فكأن النار مغتاظة من هؤلاء ، تتأهب لهم وتنتظرهم .

والغَيْظ يقع للمؤمن وللكافر ، فحين نرى عناد الكفار وسُخريتهم واستهزاءهم بالإيمان نغتاظ ، لكن يُذهب الله غيْظ قلوبنا ، كما قال سبحانه : ﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ .. (١٥)﴾ [التوبة]

أما غيْظ الكفار من نصْر الإيمان فسوف يَبْقى فى قلوبهم ، فربُّنا - سبحانه وتعالى - يقول لهم : ثقُوا تماماً أن الله لم يرسل رسولاً إلا وهو ضامن أنْ ينصره ، فإنْ خطر ببالكم خلافُ ذلك فلن يُريحكم ويَشْفى غيظكم إلاّ أنْ تشنقوا أنفسكم ؛ لذلك خاطبهم الحق سبحانه فى آية أخرى فقال : ﴿قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ .. (١١٩)﴾ [آل عمران]

ومعنى : ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ .. (١٥)﴾ [الحج] ﴿فَلْيَمْدُدْ .. (١٥)﴾ [الحج] : من مدَّ الشىء يعنى : أطاله بعد أنْ كان مجتمعاً ، ومنه قوله تعالى : ﴿وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا .. (١٩)﴾ [الحجر] فكلما تسير تجد أرضاً ممتدة ليس لها نهاية ، وليس لها حافَّة .

والسبب : الحبل ، يُخرجون به الماء من البئر ، لكن هل يستطيع أحد أنْ يربط حبلاً فى السماء ؟ إذن : علَّق المسألة على محال ، وكأنه يقول لهم : حتى إنْ أردتم شَنْق أنفسكم فلن تستطيعوا ، وسوف تظلُّون هكذا بغيظكم .

أو : يكون المعنى : ﴿إِلَى السَّمَاءِ .. (١٥)﴾ [الحج] يعنى : سماء البيت وسقفه ، كمَنْ يشنق نفسه فى سَقْف البيت .

ويمكن أن نفهم (السبب) على أنه أىّ شىء يُوصِّلك إلى السماء ، وأىّ وسيلة للصعود ، فيكون المعنى : خذوا أىَّ طريقة تُوصِّلكم إلى السماء لتمنعوا عن محمد أسباب النصر ؛ لأن نَصْر محمد يأتى من السماء فامنعوه ، وهذه أيضاً لا يقدرون عليها ، وسيظل غيظهم فى قلوبهم .

وتلحظ أننا نتكلم عن محمد ﷺ ، مع أن الآية لم تذكر شيئاً عنه ، وكل ما جاء فى الآية ضمير الغائب المفرد فى قوله تعالى : ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ.. ﴿١٥﴾﴾ [الحج] والحديث مُوجَّه للكفار المغتاظين من بوادر النصر لركْب الإيمان ، فقوله : ﴿يَنصُرَهُ .. ﴿١٥﴾﴾ [الحج] ينصر مَنْ ؟ لا بُدَّ أنه محمد ، لماذا ؟

قالوا : لأن الأسماء حينما تُطلَق تدلُّ على مَعَانٍ ، فعندما تقول « سماء » نفهم المراد ، وعندما تقول « قلب » نفهم ، « نور » نعرف المراد . والأسماء إما اسم ظاهر مثل : محمد وعلى وعمر وأرض وسماء ، وإما ضمائر تدل على هذه الأسماء الظاهرة مثل : أنا ، أنت ، هو ، هم . والضمير مُبْهم لا يُعيِّنه إلا التكلُّم ، فأنت تقول : أنا وكذلك غيرك يقول أنا أو نحن ، فالذى يُعيِّن الضمير المتكلّم به حال الخطاب ، فعُمْدة الفهم فى الضمائر ذات المتكلم وذات المخاطب . فإنْ لم يكُنْ متكلّماً ولا مخاطباً فهو غائب ، فمن أين تأتى بقرينة التعريف للغائب ؟

حين تقول : هو ، هى ، هم . مَن المراد بهذه الضمائر ؟ كيف تُعيِّنها ؟ إنْ عيَّنْتَ المتكلم بكلامه ، والمخاطب بمخاطبته ، كيف تُعيِّن الغائب ؟ قالوا : لا بُدَّ أنْ يسبقه شىء يدل عليه ، كأن تقول : جاءنى رجل فأكرمتُه ، أكرمت مَنْ ؟ أكرمت الرجل الذى تحدثتُ عنه ، جاءتنى امرأة فأكرمتُها ، جاء قوم فلان فأكرمتهم . إذن : فمرجع الضمير هو الذى يدلُّ عليه .

لكن لم يسبق ذِكْر لرسول الله ﷺ قبل الضمير ليُعيِّنه ويدلُّ عليه ، نعم لم يسبق ذِكْر لرسول الله ، لكن تأمَّل المعنى : الكلام هنا عن النصر بين فريق الإيمان وعلى رأسه محمد ﷺ ، وفريق الكفر وعلى رأسه هؤلاء المعاندون ، فالمقام مُتعيّن أنه لا يعود الضمير إلا على رسول الله ﷺ[1] .

ومثال ذلك قوله تعالى : ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ .. (١)﴾ [القدر]

فالضمير هنا مُتعيِّن ، ولا ينصرف إلا إلى القرآن ، ولا يتعين الضمير إلا إذا كان الخاطر لا ينصرف إلى غيره فى مقامه .

اقرأ : ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١)﴾ [الإخلاص] تلحظ أن الضمير سابق على الاسم الظاهر ، فالمرجع متأخر ، ومع ذلك لا ينصرف الضمير إلا إلى الله ، فإذا قِيلَ : هو هكذا على انفراد لا يمكن أن ينصرف إلا إلى الله عز وجل .

كذلك فى قوله تعالى : ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ .. (٦١)﴾ [النحل] . على ظَهْر أىِّ شىء ؟ الذِّهْن لا ينصرف فى هذا المقام إلا إلى الأرض .

وقوله تعالى : ﴿فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ (١٥)﴾ [الحج] الاستفهام هنا ممَّنْ يعلم ، فهو استفهام للتقرير ، ليُقِروا هم بأنفسهم أن غَيْظهم سيظلُّ كما هو ، لا يشفيه شىء ، وأنهم سيموتون بغيظهم ، كما قال تعالى : ﴿قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ .. (١١٩)﴾ [آل عمران]

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٦/٤٥٥٣) : « الكناية فى ﴿يَنصُرَهُ اللَّهُ .. (١٥)﴾ [الحج] . ترجع إلى محمد ﷺ ، وهو وإن لم يجر ذكره فجميع الكلام دال عليه ، لأن الإيمان هو الإيمان بالله وبمحمد ﷺ ، والانقلاب عن الدين انقلاب عن الدين الذى أتى به محمد ﷺ » .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾ ﴾

قوله : ﴿ أَنزَلْنَاهُ .. ﴿١٦﴾ ﴾ [الحج] أى : القرآن ؛ لأن الضمير هنا كما ذكرنا مرجعه مُتعيِّن ، وما دام مرجعه مُتعيناً فلا يحتاج لذكر سابق . والإنزال يحمل معنى العلو ، فإنْ رأيتَ فى هذا التشريع الذى جاءك فى القرآن ما يشقُّ عليك أو يحولُ بينك وبين ما تشتهيه نفسك ، فاعلم أنه من أعْلى منك ، من الله ، وليس من مُسَاوٍ لك ، يمكن أنْ تستدرك عليه أو تناقشه : لماذا هذا الأمر ؟ ولماذا هذا النهى ؟ فطالما أن الأمر يأتيك من الله فلا بُدَّ أن تسمع وتطيع ولا تناقش .

ولنا أُسْوة فى هذا التسليم بسيدنا أبى بكر لما قالوا له : إن صاحبك يقول : إنه أُسْرِى به الليلة من مكة إلى بيت المقدس ، ثم عُرِج به إلى السماء ، فما كان من الصِّدِّيق إلا أنْ قال : إنْ كان قال فقد صدق[1] ، هكذا دون مناقشة ، فالأمر من أعلى ، من الله .

وقلنا : إنك لو عُدْتَ مريضاً فوجدتَ بجواره كثيراً من الأدوية فسألته : لماذا كل هذا الدواء ؟ قال : لقد وصفه الطبيب ، فأخذت تعترض على هذا الدواء ، وتذكر من تفاعلاته وأضراره وعناصره ، وأقحمت نفسك فى مسألة لا دَخْلَ لك بها .

---

(١) ذكره ابن هشام فى السيرة النبوية (٣٩٨/١) ، وأخرجه الحاكم فى مستدركه (٦٢/٣) وصححه وأقره الذهبى من حديث عائشة رضى الله عنها .

هذا قياس مع الفارق ومع الاعتراف بأخطاء الأطباء فى وصف الدواء ، لكن لتوضيح المسألة ولله المثل الأعلى ، وصدق القائل :

سُبْحانَ مَنْ يَرِثُ الطَّبِيبَ وطِبَّهُ ... ويُرِى المريض مَصَارِعَ الآسِينا

إذن : حجة كل أمر ليس أن نعلم حكمته ، إنما يكفى أنْ نعلم الآمر به .

ومعنى ﴿آيَاتٍ .. (١٦)﴾ [الحج] أى : عجائب ﴿بَيِّنَاتٍ .. (١٦)﴾ [الحج] واضحات . وسبق أنْ ذكرنا أنَّ كلمة الآيات تُطلَق على معَانٍ ثلاثة : الآيات الكونية التى تُثبت قدرة الله ، وبها يستقر الإيمان فى النفوس ، ومنها الليل والنهار والشمس والقمر ، والآيات بمعنى المعجزات المصاحبة للرسل لإثبات صدْق بلاغهم عن الله ، والآيات التى يتكوَّن منها القرآن ، وتُسمَّى « حاملَة الأحكام » .

فالمعنى هنا ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ .. (١٦)﴾ [الحج] تحمل كلمة الآيات كُلَّ هذه المعانى ، فآيات القرآن فيها الآيات الكونية ، وفيها المعجزة ، وهى ذاتها آيات الأحكام .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ (١٦)﴾ [الحج] وهذه من المسائل التى وقف الناس حولها طويلاً : ﴿يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِى مَن يَشَاءُ .. (٩٣)﴾ [النحل] وأمثالها تمسَّك بها مَنْ ليس لهم حَظٌّ من الهداية ، يقولون : لم يُرِد الله لنا الهداية ، فماذا نفعل ؟ وما ذنبنا ؟

وهذه وقفة عقلية خاطئة ؛ لأن الوَقْفة العقلية تقتضى أنْ تذكر الشىء ومقابله ، أما هؤلاء فقد نبَّهوا العقل للتناقض فى واحدة وتركوا الأخرى ، فهى - إذن - وَقْفة تبريرية ، فالضال الذى يقول : لقد كتب الله علىَّ الضلال ، فما ذنبى ؟ لماذا لم يَقُلْ : الطائع الذى كتب الله له الهداية ، لماذا يثيبه ؟!

فلماذا تركتم الخير وناقشتم فى الشر ؟

والمتأمل فى الآيات التى تتحدث عن مشيئة الله فى الإضلال والهداية يجد أنه سبحانه قد بيَّن مَنْ شاء أنْ يُضلّه ، وبين مَنْ شاء أنْ يهديه ، اقرأ قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٦٧)﴾ [المائدة] إذن : كُفْره سابق لعدم هدايته وقوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٦)﴾ [المنافقون] وقوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥٠)﴾ [القصص]

إنما يهدى مَنْ آمن به ، أما هؤلاء الذين اختاروا الكفر واطمأنوا إليه وركنوا ، فإن الله تعالى يختم على قلوبهم ، فلا يدخلها الإيمان ، ولا يخرج منها الكفر ، لأنهم أحبُّوه فزادهم منه كما زاد المؤمنين إيماناً : ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى .. (١٧)﴾ [محمد]

والهداية هنا بمعنى الدلالة على الخير ، وسبق أنْ ضربنا لها مثلاً ، ولله تعالى المثَل الأعلى : هَبْ أنك تسلك طريقاً لا تعرفه ، فتوقفتَ عند جندى المرور وسألته عن وجهتك فدلَّكَ عليها ، ووصف لك الطريق الموصِّل إليها . لكن ، هل دلالته لك تُلزمك أنْ تسلك الطريق الذى وُصف لك ؟

بالطبع أنت حُرٌّ تسير فيه أو فى غيره . فإذا ما حفظتَ لرجل المرور جميلَهُ وشكرته عليه ، ولمس هو فيك الخير ، فإنه يُعينك بنفسه على عقبات الطريق ، وربما ركب معك ليجتاز بك منطقة خطرة يخاف عليك منها . هذا معنى : ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧)﴾ [محمد]

أما لو تعاليتَ على هذا الرجل ، أو اتهمته بعدم المعرفة بمسالك الطرق ، فإنه يدعُكَ وشأنك ، ويضنُّ عليك بمجرد النصيحة .

وهكذا .. الحق ـ سبحانه وتعالى ـ دَلَّ المؤمن ودَلَّ الكافر على الخير ، المؤمن رضى بالله وقَبِل أمره ونَهْيه ، وحمد الله على هذه النعمة ، فزاده إيماناً وأعانه على مشقة العبادة ، وجعل له نوراً يسير على هَدْيه ، أما الكافر فقد تركه يتخبّط فى ظلمات كفره ، ويتردد فى متاهات العمى والضلال .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ[1] وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ ﴾

هذه فئات ست أخبر الله عنها بقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .. ﴿١٧﴾ ﴾ [الحج] ومعنى الفصل بينهم أن بينهم خلافاً ومعركة ، ولو تتبعتَ الآيات التى ذكرت هذه الفئات تجد أن هناك آيتين فى البقرة وفى المائدة .

يقول تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [البقرة]

وفى المائدة يُقدِّم الصابئين على النصارى ، وفى هذا الموضع تأتى بالرفع بالواو ، يقول تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا

---

(١) صبأ يصبأ : خرج من دين إلى دين . والصابئون يزعمون أنهم على دين نوح عليه السلام . وقيل : هم عباد الملائكة . وقيل : عباد الكواكب والنجوم وقيل : عُبَّاد النار . [القاموس القويم ١/٣٦٥] .

وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَىٰ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٩) ﴾ [المائدة]

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا .. (١٧) ﴾ [الحج] أى : بمحمد ﷺ ، ﴿ وَالَّذِينَ هَادُوا .. (١٧) ﴾ [الحج] أى : اليهود ، ثم النصارى وهما قبل الإسلام ، أما الصابئون : فهؤلاء جماعة كانوا على دين إبراهيم عليه السلام ، ثم عبدوا الكواكب فَسُمُّوا الصابئة لخروجهم عن الدين الحق . أما المجوس : فهم عبدة النار ، والذين أشركوا : هم المشركون عَبَدَة الأصنام والأوثان .

أما التقديم والتأخير بين النصارى والصابئين ، قالوا : لأن النصارى فرقة كبيرة معروفة ولهم نبى ، أما الصابئة فكانوا جماعة خرجوا على نبيهم وخالفوه وأتَوْا بعقيدة غير عقيدته ، فهم قلَّة ، لكن سبقوا النصارى فى الترتيب الزمنى ؛ لذلك حين يراعى السَّبْق الزمنى يقول : ﴿ الصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ .. (١٧) ﴾ [الحج] ، وحين يراعى الكثرة والشهرة ، يقول : ﴿ النَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ .. (٦٢) ﴾ [البقرة] فكلٌّ من التقديم أو التأخير مُراد لمعنى مُعيَّن .

أما قوله : ﴿ وَالصَّابِئُونَ .. (٦٩) ﴾ [المائدة] بالرفع على خلاف القاعدة فى العطف ، حيث عطفت على منصوب ، والمعطوف تابع للمعطوف عليه فى إعرابه ، فلماذا وسَّط مرفوعاً بين منصوبات ؟

قالوا : لا يتم الرفع بين المنصوبات إلا بعد تمام الجملة ، فكأنه قال : إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى ، والصابئون كذلك ، فعطف هنا جملة تامة ، فهى مُؤخَّرة فى المعنى ، مُقدَّمة فى اللفظ ، وهكذا تشمل الآية التقديم والتأخير السابق .

لكن ، كيف ينشأ الخلاف بين الأديان ؟

ينشأ الخلاف من أن قوماً يؤمنون بإله ويؤمنون بالنبى المبلِّغ عن هذا الإله ، لكنهم يختلفون على أشياء فيما بينهم ، كما نرى الخلاف مثلاً بين المعتزلة وأهل السنة ، أو الجبرية والقدرية ، فجماعة تثبت الصفات ، وآخرون يُنكرونها ، جماعة يقولون : الإنسان مُجْبَر فى تصرفاته ، وآخرون يقولون : بل هو مختار .

وقد ينشأ الخلاف بين الأديان للاختلاف فى النبوات ، فأهل الديانات يؤمنون بالإله الفاعل المختار ، لكن يختلفون فى الأنبياء موسى وعيسى ومحمد مع أنهم جميعاً حَقٌّ . وقد ينشأ الخلاف من الادعاء ، كالذين يدَّعُون النبوة كهؤلاء الذين يعبدون النار ، أو يعبدون بوذا مثلاً .

فهذه ست طوائف مختلفة ذكرتهم الآية ، فما حكم هؤلاء جميعاً بعد بعثة محمد ﷺ ؟

نقول : أما المشركون الذين عبدوا الأصنام ، وكذلك الذين عبدوا النبوة المدَّعاة ، فهؤلاء كفار ضائعون . أما اليهود والنصارى الذين يؤمنون بإله فاعل مختار ، ويؤمنون بنبوة صادقة ، فشأنهم بعد ظهور الإسلام ، أن الله تعالى أقام لنا تصفية آخر الأمر لهذه الديانات ، فمَنْ كان يهودياً قبل الإسلام ، ومَنْ كان نصرانياً قبل الإسلام ، فإن الله أجْرى لهم تصفية عقدية هى الإسلام ، فإنْ كانوا مؤمنين الإيمان الأول بالله تعالى فعليهم أنْ يبدأوا من جديد مؤمنين مسلمين .

لذلك قال بعدها : ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢)﴾ [البقرة]

فبعد ظهور الإسلام بدأت لهؤلاء جميعاً ـ اليهود والنصارى

والمجوس والمشركين ـ حياة جديدة ، وفُتحَتْ لهم صفحة جديدة هم فيها أولاد اليوم ، حيث لزمهم جميعاً الإيمان بالله تعالى والإيمان بنبيه محمد ﷺ ، وكأن الإسلام تصفية (وأوكازيون إيمانى) يجُبُّ ما قبله ، وعفا الله عما سلف .

والحق ـ سبحانه ـ حينما تكلم عن الأجيال السابقة لنبوة محمد ﷺ . قال : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي[1] قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ (٨١) ﴾ [آل عمران]

لذلك نبَّه كُلٌّ من موسى وعيسى ـ عليهما السلام ـ بوجود محمد ﷺ وبشَّروا به ، بدليل قول الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ .. (٨٩) ﴾ [البقرة] والمراد اليهود والنصارى .

وقد جاء محمد ﷺ رحمة للعالمين ، وجامعاً للأديان كلها فى الإسلام الذى زاد عليها ما زاد مما تقتضيه أمور الحياة وتطورات العصر ، إلى أن تقوم الساعة .

جاء الإسلام تصفيةً لهؤلاء ، استأنفوها بإيمان ، واستأنفوها بعمل صالح ، فكان لهم أجرهم كاملاً عند ربهم لا يطعن فيهم دينهم السابق ، ولا عقائدهم الفاسدة الكافرة .

أما إنْ حدث خلاف حول النبوات كما تذكر الآية التى نحن بصددها : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١٧) ﴾ [الحج] والفَصْل أن نعرف مَنِ المحقُّ ومَنِ المبطل ، وهكذا جمعتْ

---

(١) الإصر : العهد والعقد والميثاق . [لسان العرب ـ مادة : أصر] .

الآيات بين حالة الاتفاق وحالة الاختلاف وبيَّنَتْ جزاء كل منهما .

فالفصل إما فصل أماكن ، وإما فصل جزاءات ، قالوا : بالطبع فالحكم بينهم : هذا مُحِقٌّ وهذا مُبطِل سيؤدى إلى اختلاف الأماكن واختلاف الجزاءات .

وقوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾﴾ [الحج] لأن الله تعالى هو الحكَم الذى يفصل بين عباده ، والحكم يحتاج إما إلى بينة أو شهود ، والشهود لا بُدَّ أن يكونوا عُدولاً ، ولا يتحقق العدل فى الشهادة إلا بدين يمنع الإنسان أنْ يميل عن الحق ، فإن كان الحكم هو الله فلا حاجة لبيِّنة ، ولا حاجةَ لشهود ؛ لأنه سبحانه يحيط علمه بكل بشىء ، ولا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض .

ومن العجيب أن الحُكْم والفَصْل من الحق سبحانه يشمل كل السلطات : التشريعية والقضائية والتنفيذية ، فحُكْمه سبحانه لا يُؤجَّل ولا يُتحَايل عليه ، ولا تضيع فيه الحقوق كما تضيع فى سراديب وأدراج المحاكم .

أما حُكْم البشر فينفصل فيه التشريع عن القضاء عن التنفيذ ، فربما صدر الحكم وتعطَّل تنفيذه ، أما حكم الله فنافذ لا يُؤجِّله شىء .

إذن : المسألة لن تمرَّ هكذا ، بل هى محسوبة لك أو عليك .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ۩ ﴿١٨﴾﴾

قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ .. ﴿١٨﴾﴾ [الحج] يعنى : ألم تعلم ؛ لأن السّجود من هذه الأشياء سجود على حقيقته كما نعلمه فى السجود من أنفسنا ، ولكل جنس من أجناس الكون سجود يناسبه .

وسبق أن تحدثنا عن أجناس الكون وهى أربعة : أدناها الجماد ، ثم يليه النبات ، حيث يزيد عليه خاصية النمو وخاصية الحركة ، ثم يليه الحيوان الذى يزيد خاصية الإحساس ، ثم يليه الإنسان ويزيد عليه خاصية الفكر والاختيار بين البدائل .

وكل جنس من هذه الأجناس يخدم ما هو أعلى منه ، حيث تنتهى هذه الدائرة بأن كل مَا فى كون الله مُسخَّر لخدمة الإنسان ، وفى الخبر : « يا ابن آدم خلقتُ الأشياء من أجلك ، وخلقتُكَ من أجلى ، فلا تشتغل بما هو لك عَمَّنْ أنت له »[(١)] .

فكان على الإنسان أن يفكر فى هذه الميْزة التى منحه ربه إياها ، ويعلم أن كل شىء فى الوجود مهما صَغُر فله مهمة يؤديها ، ودَوْر يقوم به . فأوْلَى بك أيها الإنسان وأنت سيد هذا الكون أن يكون لك مهمة ، وأن يكون لك دور فى الحياة فلستَ بأقلَّ من هذه المخلوقات التى سخَّرها الله لك ، وإلاَّ صرْت أقلّ منها وأدنى .

إن كانت مهمة جميع المخلوقات أنْ تخدمك لأنك أعلى منها ، فانظر إلى مهمتك لمَنْ هو أعلى منك ، فإذا جاءك رسول من أعلى منك ليُنبِّهك إلى هذه المهمة كان عليك أن تشكره ؛ لأنه نبَّهك إلى ما ينبغى لك أن تشتغل به ، وإلى مَنْ يجب عليك الاتصال به دائماً ؛ لذلك فالرسول لا يصح أن تنصرف عنه أبداً ؛ لأنه يُوضِّح لك مسائل كثيرة هى مَحَلٌّ للبحث العقلى .

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٤/٢٣٨) : « ورد فى بعض الكتب الإلهية : يقول الله تعالى : ابن آدم خلقتك لعبادتى فلا تلعب ، وتكفلت برزقك فلا تتعب ، فاطلبنى تجدنى ، فإن وجدتنى وجدت كل شىء ، وإن فُتُّك فاتك كل شىء ، وأنا أحبّ إليك من كل شىء » وقد أخرج أحمد فى مسنده (٢/٣٥٨) عن أبى هريرة رفعه « قال الله : ابن آدم تفرغ لعبادتى أملأ صدرك غِنًى وأسد فقرك وإلا تفعل ملأتُ صدرك شغلاً ولم أسدّ فقرك » .

وكـان على العـقل البـشـرى أن يفكر فى كـل هذه الأجناس التى تخدمه : ألكَ قدرة عليها ؟ لقد خدمتْكَ منذ صغَرِك قبل أنْ تُوجِّه إليها أمراً ، وقـبل أنْ توجدَ عندك القـدرة لتأمـر أوَ لتَتناول هذه الأشـياء ، كان عليك أنْ تتنبه إلى القوة الأعلـى منك ومن هذه المخلوقات ، القوة التى سخَّرَتْ الكون كله لخدمتك ، وهذا بَحْث طبيعى لا بُدَّ أن يكون .

هذه الأشياء فى خدمتها لك لم تتأبَّ عليك ، ولم تتخلف يوماً عن خدمتـك ، انظر إلى الشـمس والقمر وغيرهما : أقـالت الشمس يوماً : إن هؤلاء القوم لا يستحقون المعروف ، فلن أطلع عليهم اليوم ؟!

الأرض : هل ضنَّتْ فى يوم على زارعها ؟ الريح : هل توقفتْ عن الهـبوب . وكـلها مـخلوقـات أقـوى منك ، ولا قدرةَ لك عـليهـا ، ولا تستطيع تسخيرها ، إنما هى فى قبضة الله ـ عز وجل ـ ومُسخَّرة لك بأمره سبحانه ، ولأنها مُسخَّرة فلا تتخلف أبداً عن أداء مهمتها .

أما الإنسان فيأتى منه الفساد ، ويأتى منه الخروج عن الطاعة لما منحه الله من منطقة الاختيار .

البـعض يقـول عن سـجود هذه الـمخلـوقات أنه سـجـود دلالة ، لا سجـوداً على حقـيقتـه ، لكن هذا القول يعـارضه قـول الله تعالى : ﴿ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ .. (٤١) ﴾ [النور]

فلكل مـخلوق مهـمـا صَغُـر صلاة وتسـبـيح وسجـود ، يتناسب وطبيعته ، إنك لو تأملت سجـود الإنسان بجبهته على الأرض لوجدتَ اختـلافاً بين الـناس باختـلاف الأحوال ، وهم نوع واحـد ، فسـجود الصحـيح غيـر سجـود المريض الذى يسـجد وهو على الـفراش ، أو جـالس على مقـعـد ، وربمـا يشيـر بعـينه ، أو أصبـعـه للدلالة على السجود ، فإن لم يستطع أجرى السجود على خاطره .

فإذا كان السجود يختلف بهذه الصورة فى الجنس الواحد حَسْب حاله وقدرته وطاقته ، فلماذا نستبعد أن يكون لكل جنس سجوده الخاص به ، والذى يتناسب مع طبيعته ؟

وإذا كان هذا حال السجود فى الإنسان ، فهل ننتظر مثلاً أن نرى سجود الشمس أو سجود القمر ؟! ما دام الحق - سبحانه وتعالى - قال-إنها تسجد ، فلا بُدَّ أن نؤمن بسجودها ، لكن على هيئة لا يعلمها إلا خالقها عز وجل .

بالله ، لو جلس مريض يصلى على مقعد أو على الفراش ، أتعرف وهو أمامك أنه يسجد ؟ إذن : كيف نطمع فى معرفة كيفية سجود هذه المخلوقات ؟

ومن معانى السجود : الخضوع والطاعة ، فمَنْ يستبعد أن يكون سجود هذه المخلوقات سجوداً على الحقيقة ، فليعتبر السجود هنا للخضوع والانقياد والطاعة ، كما تقول على إنسان متكبر : جاء ساجداً يعنى : خاضعاً ذليلاً ، ومنه قوله تعالى : ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١)﴾ [فصلت]

إذن : لك أن تفهم السجود على أىٍّ هذه المعانى تحب ، فلن تخرج عن مراده سبحانه ، ومن رحمة الله أنْ جعل هذه المخلوقات خاضعة لإرادته ، لا تنحلّ عنها أبداً ولا تتخلف ، كما قال سبحانه : ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا (٧٢)﴾ [الأحزاب]

ونحن نتناقل الآن ، ونروى بعض حوارات السالكين وأهل المعرفة وأصحاب الفيوضات الذين فَهِموا عن الله وتذوَّقوا لذَّة قُرْبه ، وكانوا يتحاورون

ويتنافسون لا للمباهاة والافتخار ، إنما للترقى فى القرب من الله .

جلس اثنان من هؤلاء العارفين وفى فَمِ أحدهم نَخْمة يريد أنْ يبصقها ، وبدتْ عليه الحيرة ، وهو ينظر هنا وهناك فقال لَه صاحبه: أَلْقها واسترح ، فقال : كيف وكلما أردتُ أنْ أبصقها سمعت الأرض تُسَبِّح فاستحيْتُ أنْ أُلقيها على مُسبِّح ، فقال الآخر ـ ويبدو أنه كان فى منزلة أعلى منه ـ وقد افتعل البَصْق وقال : مُسبِّح فى مُسبِّح .

إذن : فأهل الكشف والعارفون بالله يدركون هذا التسبيح ، ويعترفون به ، وعلى قدر ما لديك من معرفة بالله ، وما لديك من فَهْم وإدراك يكون تلقِّيك وتقبُّلك لمثل هذه الأمور الإيمانية .

والحق ـ سبحانه وتعالى ـ حين قال : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ .. ﴿١٨﴾﴾ [الحج] معلوم أن مَنْ فى السموات هم الملائكة ولسْنا منهم ، لكن نحن من أهل الأرض ويشملنا حكم السجود وندخل فى مدلوله ، فلماذا قال بعدها : ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ .. ﴿١٨﴾﴾ [الحج] ؟

كلمة : ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ .. ﴿١٨﴾﴾ [الحج] تُبيِّن أن لنا قهرية وتسخيراً وسجوداً كباقى أجناس الكون ، ولنا أيضاً منطقة اختيار . فالكافر الذى يتعوَّد التمرُّد على خالقه : يأمره بالإيمان فيكفر ، ويأمره بالطاعة فيعصى ، فلماذا لا يتمرد على طول الخط ؟ لماذا لا يرفض المرض إنْ أمرضه الله ؟ ولماذا لا يرفض الموت إنْ حلَّ به ؟

إذن : الإنسان مُؤتمر بأمر الله مثل الشجر والحجر والحيوان ، ومنطقة الاختيار هى التى نشأ عنها هذا الانقسام : كثير آمن ، وكثير حَقَّ عليه العذاب .

لكن ، لماذا لم يجعل الله ـ سبحانه وتعالى ـ الخَلْق جميعاً مُسخَّرين ؟

قالوا : لأن صفة التسخير وعدم الخروج عن مرادات الله تثبت لله تعالى صفة القدرة على الكل ، إنما لا تُثبت لله المحبوبية ، المحبوبية لا تكون إلا مع الاختيار : أن تكون حُرّاً مختاراً فى أنْ تُؤمنَ أو تكفر فتختار الإيمان ، وأنْ تكون حُرّاً وقادراً على المعصية ، لكنك تطيع .

وضربنا لذلك مثلاً – ولله المثل الأعلى – : هَبْ أن عندك عبدين ، تربط أحدهما إليك فى سلسلة مثلاً ، وتترك الآخر حُراً ، فإنْ ناديتَ عليهما أجاباك ، فأيهما يكون أطْوعَ لك : المقهور المجبر ، أم الحر الطليق ؟ .

إذن : التسخير والقهر يُثبت القدرة ، والاختيار يُثبت المحبة .

والخلاف الذى حدث من الناس ، فكثير منهم آمن ، وكثير منهم حَقَّ عليه العذاب ، من أين هذا الاختلاف يا رب ؟ مما خلقتُه فيك من اختيار ، فمَنْ شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر ، فكأن كفر الكافر واختياره ؛ لأن الله سَخَّره للاختيار ، فهو حتى فى اختياره مُسخَّر .

أما قوله تعالى : ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ .. ﴿١٨﴾﴾ [الحج] يعنى : باختياراتهم ، وكان المفروض أن يقول فى مقابلها : وقليل ، لكن هؤلاء كثير ، وهؤلاء كثير أيضاً .

ومعنى : ﴿حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ .. ﴿١٨﴾﴾ [الحج] حقَّ : يعنى ثبتَ ، فهذا أمر لا بُدَّ منه ، حتى لا يستوى المؤمن والكافر : ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [القلم] إذن : لا بُدَّ أنْ يعاقب هؤلاء ، والحق يقتضى ذلك .

وقوله سبحانه : ﴿وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا

يَشَاءُ ﴿١٨﴾ ﴾ [الحج] لأن أحقيَّة العذاب من مُساوٍ لك . قد يأتى مَنْ هو أقوى منه فيمنعه ، أو يأتى شافع يشفع له ، وكأن الحق - سبحانه وتعالى - يُيئِّسُ هؤلاء من النجاة من عذابه ، فلن يمنعهم أحد .

فمَنْ أراد الله إهانته فلن يُكرمه أحد ، لا بنُصْرته ولا بالشفاعة له ، فالمعنى : ﴿ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ .. ﴿١٨﴾ ﴾ [الحج] أى : بالعذاب الذى حَقَّ عليه وثبت ﴿ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ .. ﴿١٨﴾ ﴾ [الحج] يعنى : يكرمه ويُخلِّصه من هذا العذاب ، كذلك لا يوجد مَنْ يُعزه ؛ لأن عزَّته لا تكون إلا قَهْراً عن الله ، وهذا مُحَال ، أو يكون بشافع يشفع له عند الله ، ولا يشفع أحد عند الله إلا بإذنه سبحانه .

لذلك ، نقول : إن الحق سبحانه يُجير على خَلْقه ولا يُجَار عليه ، يعنى : لا أحد يقول لله : هذا فى جوارى ؛ لذلك ذيَّلَ الآية بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿١٨﴾ ﴾ [الحج]

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى[1] :

﴿ هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ ۖ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ ﴾

كلمة خَصْم من الألفاظ التى يستوى فيها المفرد والمثنى

---

(١) سبب نزول الآية : عن أبى ذر - رضى الله عنه - أنه كان يقسم قسماً ، إن هذه الآية ﴿ هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ .. ﴿١٩﴾ ﴾ [الحج] نزلت فى الثلاثة والثلاثة الذين تبارزوا يوم بدر ، وهم : حمزة بن عبد المطلب ، وعبيدة بن الحارث ، وعلى بن أبى طالب ، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة ، والوليد بن عتبة . قال على رضى الله عنه : أنا أول من يجثو فى الخصومة على ركبتيه بين يدى الله يوم القيامة . أورده الواحدى فى أسباب النزول (ص ١٧٦) ، والدر المنثور للسيوطى (١٨/٦) وعزاه للبخارى ومسلم وغيرهما .

والجمع ، وكذلك المذكر والمؤنث كما فى قوله تعالى ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ (٢١)﴾ [ص]

ويقول تعالى : ﴿خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ .. (٢٢)﴾ [ص]

والمراد بقوله : ﴿خَصْمَانِ .. (١٩)﴾ [الحج] قوله تعالى : ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ .. (١٨)﴾ [الحج] والخصومة تحتاج إلى فَصْل بين المتخاصمين ، والفَصْل يحتاج إلى شهود ، لكن إنْ جاء الفَصْل من الله تعالى فلن يحتاج إلى شهود ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا (٧٩)﴾ [النساء]

وإنْ جاء عليهم بشهود من أنفسهم ، فإنما لإقامة الحجة ولتقريعهم ، يقول تعالى : ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ .. (٢١)﴾ [فصلت]

فإنْ قلتَ : كيف تشهد الجوارح على صاحبها يوم القيامة وهى التى فعلت ؟

نقول : هناك فَرْق بين عمل أريده وعمل أؤديه ، وأنا أبغضه وضربنا لذلك مثلاً - ولله المثل الأعلى - بالقائد الذى يأمر جنوده ، وعليهم أنْ يُطيعوه حتى إنْ كانت الأوامر خاطئة ، فإنْ رجعوا إلى القائد الأعلى حكَوْا له مَا كان من قائدهم ؛ ذلك لأن القائد الأعلى جعل له ولاية عليهم ، وألزمهم طاعته والائتمار بأمره .

فالخالق - عز وجل - جعل لإرادة الإنسان ولاية على جوارحه ، فالفعل - إذن - للإرادة ، وما الجوارح إلا أداة للتنفيذ . فحينما تريد مثلاً أنْ تقوم ، مجرد أن تريد ذلك تجد نفسك قائماً دون أنْ تفكر فى حركة القيام أو العضلات التى تحركتْ لتؤدى هذا العمل ، مع أنها

عملية مُعقَّدة تتضافر فيها الإرادة والعقل والأعصاب والأعضاء ، وأنت نفسك لا تشعر بشىء من هذا كله ، وهل فى قيامك أمرتَ الجوارح أنْ تتحرَّك فتحركتْ ؟

فإذا كانت جوارحك تنفعل لك وتطاوعك لمجرد الإرادة ، أفلا يكون أوْلى من هذا أنْ ينفعل خَلْق الله لإرادة الله ؟

إذن : العمدة فى الأفعال ليستْ الجوارح وإنما الإرادة ، بدليل أن الله تعالى إذا أراد أنْ يُعطِّل جارحة من الجوارح عطّل الإرادة الآمرة ، وقطعها عن الجارحة ، فإذا هى مشلولة لا حركةَ فيها ، فإنْ أراد الإنسان تحريكها بعد ذلك فلن يستطيع ، لماذا ؟

لأنه لا يعلم الأبعاض التى تُحرِّك هذه الجارحة ، ولو سألتَ أعلم الناس فى علم الحركة والذين صنعوا الإنسان الآلى : ما الحركة الآلية التى تتم فى جسم الإنسان كى يقوم من نومه أو من جِلْسته ؟ ولن يستطيع أحد أنْ يصفَ لك ما يتم بداخل الجسم فى هذه المسألة .

أما لو نظرتَ مثلاً إلى الحفَّار ، وهو يُؤدِّى حركات أشبه بحركات الجسم البشرى لوجدتَ صبياً يشغله باستخدام بعض الأزرار ، ويستطيع أنْ يصفَ لك كل حركة فيه ، وما الآلات التى تشترك فى كل حركة . فَقُلْ لى بالله : ما الزر الذى تضغط عليه لتحرك يدك أو ذراعك ؟ ما الزر الذى تُحرِّك به عينيك ، أو لسانك ، أو قدمك ؟ إنها مجرد إرادة منك فينفعل لك ما تريد ؛ لأن الله تعالى خلقك ، وجعل لإرادتك السيطرة الكاملة على جوارحك ، فلا تستبعد أنْ تنفعل المخلوقات لله – عز وجل – إنْ أراد منها أنْ تفعلَ .

حتى العذاب فى الآخرة ليس لهذه الجوارح والأبعاض ، إنما العذاب للنفس الواعية ، بدليل أن الإنسان إذا تعرَّض لألم شديد

لا يستريح منه إلا أنْ ينام ، فإذا استيقظ عاوده الألم ، إذن : فالنفس هى التى تألم وتتعذَّب لا الجوارح .

والحق سبحانه هو الذى يفصل بين هذيْن الخصميْن ، كما قال سبحانه فى آية أخرى ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .. (١٧)﴾ [الحج]

لذلك يقول الإمام على رضى الله عنه وكرَّم الله وجهه[1] : أنا أول مَنْ يجثو بين يدى الله يوم القيامة للفصل ومعى عبيدة بن الحارث وحمزة بن عبد المطلب . هؤلاء فى جانب وفى الجانب المقابل : عتبة ابن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، والوليد بن عتبة .

لماذا ؟لأن بين هؤلاء كانت أول معركة فى الإسلام ، وهذه أول خصومة وقعتْ فيه ، ذلك لأنهم فى معركة بدر أخرج رسول الله ﷺ قوماً للمبارزة ، وكانت عادتهم فى الحروب أنْ يخرج أقوياء القوم وأبطالهم للمبارزة بدل أنْ يُعذِّبوا القوم ويشركوا الجميع فى القتال ، ويُعرِّضوا أرواح الناس جميعاً للخطر .

ومن ذلك ما حدث بين على ومعاوية ـ رضى الله عنهما ـ فى موقعة صفِّين حيث قال على لمعاوية : ابرز إلىَّ يا معاويةُ ، فإنْ غلبتنى فالأمر لك ، وإنْ غلبتُك فاجعل الأمر لى ، فقال عمرو بن العاص وكان فى صفوف معاوية : والله ، يا معاوية لقد أنصفك الرجل ، وفى هذا حَقْنٌ لدماء المسلمين فى الجانبين .

فنظر معاوية إلى عمرو وقال : والله يا عمرو ما أردْتَ إلا أن أبرز

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٧٤٤) قال : « أنا أول من يجثو بين يدى الرحمن للخصومة يوم القيامة » قال قيس بن عباد : وفيهم نزلت ﴿هَـٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ .. (١٩)﴾ [الحج] قال : هم الذين بارزوا يوم بدر : على وحمزة وعبيدة وشيبة بن ربيعة وعتبة بن ربيعة والوليد بن عتبة .

له فيقتلني ، ويكون لك الأمر من بعدى ، وما دُمْتَ قد قلتَ ما قلتَ فلا يبارزه غيرك فاخرج إليه .

فقام عمرو لمبارزة على ، لكن أين عمرو من شجاعة على وقوته ؟ وحمل عليٌّ على عمرو حملة قوية ، فلما أحسَّ عمرو أن علياً سيضربه ضربة تميته لجأ إلى حيلة ، واستعمل دهاءه في صَرْف عليٍّ عنه ، فكشف عمرو عن عورته ، وهو يعلم تماماً أن علياً يتورع عن النظر إلى العورة ، وفعلاً تركه على وانصرف عنه ، ونجا عمرو بحيلته هذه[1] .

وقد عبَّر الشاعر عن هذا الموقف فقال :

وَلاَ خَيْرَ فى رَدِّ الرَّدَى بِدَنِيَّةٍ كَمَا رَدَّهَا يَوْماً بِسَوْأَتِهِ عَمْرُو

ويقول الشريف[2] الرضى - وهو من آل البيت - فى القصيدة التى مطلعها :

أَرَاكَ عَصِىَّ الدَّمْعِ شِيمَتُكَ الصَّبْر أَمَا لِلْهَوَى أَمْر عليْكَ ولاَ نَهْىُ

---

(١) ذكر ابن كثير فى كتابه « البداية والنهاية » (٤/ ٢٧٤) أن علياً رضى الله عنه نادى : ويحك يا معاوية ، ابرز إليَّ ولا تفنى العرب بيني وبينك ، فقال له عمرو بن العاص : اغتنمه فإنه قد أثخن بقتل هؤلاء الأربعة ، فقال له معاوية : والله لقد علمت أن علياً لم يقهر قط ، وإنما أردت قتلى لتصيب الخلافة من بعدى ، اذهب إليه ، فليس مثلى يُخدع . وذكروا أن علياً حمل على عمرو بن العاص يوماً فضربه بالرمح فألقاه إلى الأرض فبدت سوءته فرجع عنه ؛ فقال له أصحابه : مالك يا أمير المؤمنين رجعت عنه ؟ فقال : أتدرون ما هو ؟ قالوا : لا قال : هذا عمرو بن العاص تلقانى بسوءته فذكرنى بالرحم فرجعت عنه ، فلما رجع عمرو إلى معاوية قال له : احمد الله واحمد إستك .

(٢) هو : محمد بن الحسين أبو الحسن الرضى العلوى الحسينى ، أشعر الطالبيين ، مولده ٣٥٩ هـ ووفاته (٤٠٦ هـ) في بغداد ، انتهت إليه نقابة الأشراف فى حياة والده . له « المجازات النبوية » ، « مجاز القرآن » ، « خصائص أمير المؤمنين على بن أبى طالب » [الأعلام للزركلى ٦ / ٩٩] .

بَلَى أَنَا مُشْتَاقٌ وعِنْدِى لَوْعَةٌ ... وَلكِنْ مِثْلى لاَ يُذَاعُ لَهُ سِرُّ

• وفيها يقول :

وَإِنَّا أُنَاسٌ لاَ تَوسُّطَ بَيْنَنَا ... لَنَا الصَّدْرُ دُون العَالَمِينَ أَو القَبْرُ

نعود إلى بدر ، حيث اعترض الكفار حينما أخرج لهم رسول الله بعض رجال الأنصار فقالوا : هؤلاء نكرات من الأنصار ، نريد أن تُخرِج لنا أَكْفَاءنا من رجال قريش ، فأخرج لهم رسول الله ﷺ علياً وحمزة وعبيد بن الحارث بن عبد المطلب ، وأخرجوا هم عتبة وشيبة والوليد ، وكان ما كان من نُصْرة المسلمين وهزيمة المشركين[(١)] .

وهذا هو اليوم الذى قال الله فيه : ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢٣)﴾ [آل عمران]

إذن : فبدر كانت فَصْلاً دنيوياً بين هذيْن الخصْمين ، ويبقى فَصْل الآخرة الذى قال فيه الإمام على : « أنا أول مَنْ يجثو بين يدى الله يوم القيامة للفصل » .

ومعنى : ﴿اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ .. (١٩)﴾ [الحج] أى : بسبب اختلافهم فى ربهم ، ففريقٌ يؤمن بوجود إله ، وفريقٌ يُنكره ، فريق يُثبت له الصفات ، وفريق ينفى عنه هذه الصفات ، يعنى : انقسموا بين إيمان وكفر .

---

(١) ذكر ابن هشام فى « السيرة النبوية » (٢/٦٢٥) أن عتبة بن ربيعة خرج بين أخيه شيبة بن ربيعة وابنه الوليد بن عتبة ، حتى إذا فصل من الصف دعا إلى المبارزة ، فخرج إليه فتية من الأنصار ثلاثة ، وهم : عوف ، ومُعوذ ، ابنا الحارث ـ وأمهما عَفْراء ـ ورجل آخر يقال : هو عبد الله بن رواحة ـ فقالوا : من أنتم ؟ قالوا : رهط من الأنصار . قالوا : ما لنا بكم من حاجة . ثم نادى مناديهم : يا محمد ، أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا ، فقال رسول الله ﷺ : قُمْ يا عبيدة بن الحارث ، وقُمْ يا حمزة وقُمْ يا على ، فلما قاموا ودنوا منهم ، قالوا : من أنتم ؟ قالوا : نعم ، أكفاء كرام ، فبارز عبيدة ، وكان أسنَّ القوم . عتبة ابن ربيعة ، وبارز حمزة شيبة بن ربيعة ، وبارز علىٌّ الوليدَ بن عتبة » .

ثم يُفصِّل القول : ﴿ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ (١٩) ﴾ [الحج]

﴿ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ .. (١٩) ﴾ [الحج] كأن النار تفصيل على قَدْر جسومهم إحكاماً للعذاب ، ومبالغةً فيه ، فليس فيها اتساع يمكن أنْ يُقلِّل من شدَّتها ، وليست فضفاضة عليهم .

ثم ﴿ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ (١٩) ﴾ [الحج] والحميم : الماء الذى بلغ منتهى الحرارة ، حتى صار هو نفسه مُحْرِقاً من شِدَّة حَرِّه ، ولكَ أنْ تتصور ماءً يَغليه ربنا عز وجل !!

وهكذا يجمع الله عليهم ألوان العذاب ؛ لأن الثياب يرتديها الإنسان لتستر عورته ، وتقيه الحر والبرد ، ففيها شمول لمنفعة الجسم ، يقول تعالى : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١١٢) ﴾ [النحل]

فالإذاقة ليستْ فى اللباس ، إنما بشىء آخر ، واللباس يعطى الإحاطة والشمول ، لتعم الإذاقة كُلَّ أطراف البدن ، وتحكم عليه مبالغةً فى العذاب .

﴿ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ (٢٠) ﴾

قلنا : إن هذا الماء بلغ من الحرارة منتهاها ، فلم يغْلِ عند درجة الحرارة التى نعرفها ، إنما يُغليه ربه الذى لا يُطيق عذابَه أحدٌ . وأنت إذا صببتَ الماء المغلى على جسم إنسان فإنه يشوى جسمه من الخارج ، إنما لا يصل إلى داخله ، أمّا هذا الماء حين يُصَبُّ عليهم

فإنه يصهر ما فى بطونهم أولاً ، ثم جلودهم بعد ذلك ، فاللهم قِنَا عذابك يوم تبعث عبادك .

﴿ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ ﴾

المقامع : هى السياط التى تقمع بها الدابة ، وتَرْدعها لتطاوعك ، أو الإنسان حين تعاقبه ، لكنها سياط من حديد ، ففيها دلالة على الذِّلَّة والانكسار ، فضلاً عن العذاب .

ثم يُبيِّن الحق سبحانه مهمة هذه المقامع ، فيقول :

﴿ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ ﴾

الحق - سبحانه وتعالى - يُصوّر حال أهل النار وما هم فيه من العذاب ومن اليأس فى أن يُخفف عنهم ، فإذا ما حاولوا الخروج من غَمِّ العذاب جاءتهم هذه السياط فأعادتهم حيث كانوا ، والإنسان قد يتعود على نوع من العذاب فيهون عليه الأمر ، كالمسجون مثلاً الذى يُضْرب بالسياط على ظهره ، فبعد عدة ضربات يفقد الإحساس ولا يؤثر فيه ضَرْب بعد ذلك .

وقد أجاد المتنبى[1] فى وصف هذا المعنى حين قال :

رَمَانِى الدَّهْرُ بالأَرْزَاءِ حتّى ... كَأَنِّى فِى غِشَاءٍ مِنْ نِبَالِ

---

(١) المتنبى : هو أحمد بن الحسين أبو الطيب الكندى ، ولد (٣٠٣ هـ) بالكوفة فى محلة تسمى كندة ، نشأ بالشام ، ثم تنقل فى البادية يطلب الأدب وعلم العربية ، قال الشعر صبياً ، تنبأ فى بادية السماوة ، أسره أمير حمص وسجنه حتى تاب ورجع عن دعواه ، توفى ٣٥٤ هـ عن ٥٢ عاماً [الأعلام للزركلى ١/١١٥] .

فكنتُ إذَا أَصَابَتْنى سِهَامٌ تكسَّرتْ النِّصَالُ علَى النِّصَال

لكن أنَّى يُخفَّف عن أهل النار ، والحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ .. (٥٦) ﴾ [النساء]

ففى إعادتهم تيئيس لهم بعد أنْ طمعوا فى النجاة ، وما أشدّ اليأس بعد الطمع على النفس ؛ لذلك يقولون : لا أفجعَ من يأسٍ مقمع ، بعد أمل مُقْمِع . كما يقول تعالى : ﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا .. (٢٩) ﴾ [الكهف] ساعة يسمعون الإغاثة يأملون ويستبشرون ، فيأتيهم اليأس فى ﴿ بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِى الْوُجُوهَ .. (٢٩) ﴾ [الكهف]

وقوله تعالى : ﴿ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (٢٢) ﴾ [الحج] الحريق : الشىء الذى يحرق غيره لشدته .

● ● ●

وبعد أن تحدثتْ الآياتُ عن الكافرين ، وما حاق بهم من العذاب كان لا بُدَّ أنْ تتحدَّث عن المقابل ، عن المؤمنين ليُجرى العقلُ مقارنةً بين هذا وذاك ، فيزداد المؤمن تشبُّثاً بالإيمان ونُفْرةً من الكفر ، وكذلك الكافر ينتبه لعاقبة كُفْره فيزهد فيه ويرجع إلى الإيمان ، وهكذا ينتفع الجميع بهذه المقابلة ، وكأن الحق سبحانه وتعالى يعطينا فى آيات القرآن وفى هذه المقابلات وسائل النجاة والرحمة .

يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٢٣) ﴾

يُبيِّن الحق سبحانه وتعالى مَا أعدّه لعباده المؤمنين حيث السكن : ﴿ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ .. (٢٣) ﴾ [الحج] والزينة : ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا .. (٢٣) ﴾ [الحج] واللباس : ﴿ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٢٣) ﴾ [الحج] فجمع لهم نعيم السَّكَن والزينة واللباس .

وفى الآخرة يُنعَّم الرجال بالحرير وبالذهب الذى حُرِّم عليهم فى الدنيا ، وهنا قد يعترض النساء ، وما النعيم فى شىء تنعّمنا به فى الدنيا وهو الحرير والذهب ؟

نعم تتمتعْن بالحرير والذهب فى الدنيا ، أمّا فى الآخرة فهو نوع آخر ومتعة كاملة لا يُنغِّصها شىء ، فالحلى للمرأة خالصٌ من المكدِّرات ، وباقٍ معها لا يأخذه أحد ، ولا تحتاج إلى تغييره أو بيعه ؛ لأنه يتجدد فى يدها كل يوم ، فتراه على صياغة جديدة وشكل جديد غير الذى كان عليه[1] . كما قلنا سابقاً فى قوله تعالى عن أهل الجنة : ﴿ قَالُوا هَـٰذَا الَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ .. (٢٥) ﴾ [البقرة]

فحسبوا أن طعام الجنة وفاكهتها كفاكهة الدنيا التى أكلوها من قبل ، فيُبيِّن لهم ربهم أنها ليستْ كفاكهة الدنيا ﴿ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا .. (٢٥) ﴾ [البقرة] يعنى : أنواعاً مختلفة للصنف الواحد .

ثم يقول الحق :

﴿ وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ (٢٤) ﴾

---

(١) أورد ابن القيم (فى حادى الأرواح ص ١٨٩) عن كعب الأحبار فيما أخرجه ابن أبى الدنيا : « إن لله عز وجل ملكاً منذ يوم خلق يصوغ حلى أهل الجنة إلى أن تقوم الساعة ، لو أن قلباً من حلى أهل الجنة أخرج لذهب بضوء شعاع الشمس ، فلا تسألوا بعد هذا عن حلى أهل الجنة » .

(هُدُوا) هداهم الله ، فالذى دلّهم على وسائل دخول الجنة والتمتّع فيها بالسكن والزينة واللباس كذلك يهديهم الآن فى الجنة ويدلّهم على كيفية شُكر المنعم على هذه النعمة ، هذا معنى : ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ ..(٢٤)﴾ [الحج] هذا القول الطيب لخَّصته آيات أخرى ، ومنها قوله تعالى :

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُ .. (٧٤)﴾ [الزمر]

وقوله : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ .. (٣٥)﴾ [فاطر]

وقوله : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ .. (٣٤)﴾ [فاطر]

فحين يدخل أهل الجنة الجنةَ ، ويباشرون النعيم المقيم لا يملكون إلا أنْ يقولوا : الحمد لله ، كما يقول الحق سبحانه عنهم : ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠)﴾ [يونس]

وقالوا[1] : ﴿الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ..(٢٤)﴾ [الحج] هو كلمة التوحيد : لا إله إلا الله ، فهذه الكلمة هى المعشوقة التى أتتْ بنا إلى الجنة ، والمعنى يسَع كل كلام طيب ، كما قال سبحانه : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤)﴾ [إبراهيم]

ثم يقول تعالى : ﴿وَهُدُوا إِلَىٰ صِرَاطِ الْحَمِيدِ (٢٤)﴾ [الحج] أى : هداهم الله إلى طريق الجنة ، أو إلى الجنة ذاتها ، كما قال فى آية أخرى عن الكافرين :

---

(١) قاله ابن عباس ، قال : يريد لا إله إلا الله والحمد لله . [تفسير القرطبى ٦/٤٥٦٢] . وقال أبو العالية : قولهم الله مولانا ولا مولى لكم . أى : فى الخصومة . وقال إسماعيل بن أبى خالد : القرآن . وقال الضحاك : الإخلاص وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : لا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله . [الدر المنثور ٦/٢٤] .

﴿ وَلا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا (١٦٨) إِلاَّ طَرِيقَ جَهَنَّمَ .. (١٦٩) ﴾ [النساء]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ[1] فِيهِ وَالْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ[2] بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٥) ﴾

انتقلتْ بنا الآيات إلى موضوع جديد : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا .. (٢٥) ﴾ [الحج] بصيغة الماضي ، لأن الكفر وقع منهم فعلاً ﴿ وَيَصُدُّونَ .. (٢٥) ﴾ [الحج] بصيغة المضارع ، والقياس أن نقول : كفروا وصَدُّوا ، لكن المسألة ليست قاعدة ولا هي عملية آلية ؛ لأن الصدَّ عن سبيل الله ناشىء عن الكفر وما يزال صدُّهم مستمراً .

ومعنى ﴿ عَن سَبِيلِ اللَّهِ .. (٢٥) ﴾ [الحج] أى : عن الجهاد ﴿ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ .. (٢٥) ﴾ [الحج] لأنهم منعوا المسلمين من دخوله ، وكان فى قبضتهم وتحت سيطرتهم ، وهذا ما حدث فعلاً فى الحديبية حينما اشتاق صحابة رسول الله إلى أداء العمرة والطواف بالبيت الذى طالت مدة حرمانهم منه ، فلما ذهبوا منعهم كفار مكة ، وصدُّوهم عن دخوله .

﴿ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ .. (٢٥) ﴾ [الحج] كلمة حرام يُستفاد منها أنه

---

(١) العاكف فيه والباد . أى : المقيم بالحرم وحوله . والباد : غير المقيم عنده من سكان البادية ، أو البلاد البعيدة عن الحرم . [القاموس القويم ٢/٣١] .

(٢) الإلحاد : العدول عن الحق . أى : من يرد فى المسجد عملاً لا يرضى الله متلبساً بميل عن الحق ومتلبساً بظلم . [القاموس القويم ٢/١٩٠] .

مُحرَّم أنْ تفعل فيه خطأ ، أو تهينه ، أو تعتدى فيه . وكلمة (الحَرَام) وصف بها بعض المكان وبعض الزمان ، وهى خمسة أشياء : نقول : البيت الحرام وهو الكعبة ، والمسجد الحرام ، والبلد الحرام ، ثم المشعر الحرام . وهذه عبارة عن دوائر مركز الكعبة ، هذه أماكن ، ثم الخامس وهو زمن : الشهر الحرام الذى قال الله فيه :

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ .. (٢١٧) ﴾ [البقرة]

وحُرْمة الزمان والمكان هنا لحكمة أرادها الخالق سبحانه ؛ لأنه رَبٌّ رحيم بخَلْقه يريد أن يجعل لهم فرصة لستْر كبريائهم ، والحدّ من غرورهم ، وكانت تنتشر بين القوم الحروب والصراعات التى كانت تُذْكى نارها عادات قبلية وسعار الحرب ، حتى أن كلاً الفريقين يريد أنْ يُفنى الآخر ، وربما استمروا فى الحرب وهم كارهون لها ، لكن يمنعهم كبرياؤهم من التراجع والانسحاب .

لذلك جعل الله سبحانه لهذه الأماكن والأزمنة حُرْمة لتكون ستاراً لهذا الكبرياء الزائف ، ولهذه العزة البغيضة . وكل حَدَث يحتاج إلى زمان وإلى مكان ، فحرَّم الله القتال فى الأشهر الحرم ، حتى إذا ما استعرت بينهم حرب جاء شهر حرام ، فأنقذ الضعيف من قبضة القوى دون أنْ يجرح كبرياءه ، وربما هَزّ رأسه قائلاً : لولا الشهر الحرام كنت فعلتُ بهم كذا وكذا .

فهذه – إذن – رحمة من الله بعباده ، وستار يحميهم من شرور أنفسهم ونزواتها ويَحْقِن دماءهم .

وما أشبه كبرياءَ العرب فى هذه المسألة بكبرياء زوجيْن تخاصما على مَضَض ، ويريد كل منهم أنْ يأتى صاحبه ، لكن يمنعه كبرياؤه أن يتنازل ، فجلس الرجل فى غرفته ، وأغلق الباب على نفسه ، فنظرتْ الزوجة ، فإذا به يرفع يديه يدعو الله أنْ تُصالحه زوجته ،

فذهبتْ وتزيَّنَتْ له ، ثم دفعت الباب عليه وقالت - وكأن أحداً يُجبرها على الدخول - (مُوديَّانِى فين يا أم هاشم)

وكذلك ، جعل فى المكان محرماً ؛ لأن الزمن الحرام الذى حرم فيه قتال أربعة أشهر : ثلاثة سرد وواحد فرد ، الفرد هو رجب ، والسرد هى : ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم .

فحرَّم أيضاً القتال فى هذه الأماكن ليعصم دماء الخَلْق أنْ تُراقَ بسبب تناحر القبائل بالغِلِّ والحِقْد والكبرياء والغرور .

يقول تعالى فى تحريم القتال فى البيت الحرام : ﴿ **وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (١٩١)** ﴾ [البقرة]

فلعلَّهم حين تأتى شهور التحريم ، أو يأتى مكانه يستريحون من الحرب ، فيدركون لذة السلام وأهمية الصلح ، فيقضون على أسباب النزاع بينهم دون حرب ، فسُعَار الحرب يجُرُّ حرباً ، ولذة السلام وراحة الأمن والشعور بهدوء الحياة يَجرُّ مَيْلاً للتصالح وفضّ مثل هذه المنازعات بالطرق السلمية .

والمتأمل فى هذه الأماكن التى حرَّمها الله يجدها على مراتب ، وكأنها دوائر مركزها بيت الله الحرام وهو الكعبة ، ثم المسجد الحرام حولها ، ثم البلد الحرام وهى مكة ، ثم المشعر الحرام الذى يأخذ جزءاً من الزمن فقط فى أيام الحج .

أما الكعبة فليست كما يظنُّ البعض أنها هذا البناء الذى نراه ، الكعبة هى المكان ، أما هذا البناء فهو المكين ، فلو نقضْتَ هذا البناء القائم الآن فمكان البناء هو البيت ، هذا مكانه إنْ نزلْتَ فى أعماق الأرض أو صعدْتَ فى طبقات السماء .

إذن : فبيت الله الحرام هو هذه البقعة من الأرض حتى السماء ، ألاَ ترى الناس يُصَلُّون فى الأدوار العليا ، وهم أعلى من هذا البناء بكثير ؟ إنهم يواجهون جَوَّ الكعبة ، لا يواجهون الكعبة ذاتها ، لماذا ؟ لأن الكعبة ممتدة فى الجو إلى ما شاء الله .

ثم يلى البيت المسجد ، وهو قطعة أرض حُكرت على المسجدية ، لكن هناك مسجد بالمكان حين تقيمه أنت ، وتجعل له بناء مثل هذا البناء الذى نتحدث فيه الآن يسمى « مسجد » بالمكان ، أو مسجد بالمكين حين يضيق علينا هذا المسجد فنخرج نصلى فى الشارع فهو فى هذه الحالة مسجد ، قالوا : ولو امتد إلى صنعاء وتواصلتْ الصفوف فكلُّه مسجد .

نعود إلى ما دار بين المسلمين والمشركين يوم الحديبية ، فقد صدَّ الكفار المسلمين عن بيت الله الحرام وهم على مَرْمى البصر منه ، فاغتاظ المسلمون لذلك ، ورأى بعضهم أن يدخل مكة عُنْوة ورَغْماً عنهم .

لكن كان لرسول الله ﷺ سرٌّ بينه وبين ربه عز وجل ، فنزل على شروطهم ، وعقد معهم صُلْحاً هو « صلح الحديبية » الذى أثار حفيظة الصحابة ، وعلى رأسهم عمر بن الخطاب ، فقال لرسول الله : يا رسول الله ، ألسنا على الحق ؟ قال ﷺ : « بلى » قال : أليسوا هم على باطل ؟ قال : « بلى » قال : فلِمَ نُعْطِى الدنيّة فى ديننا؟[1] .

وكان من بنود هذا الصلح : إذا أسلم كافر ودخل فى صفوف

---

(١) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (١٤٨/٤) ، والبخارى فى صحيحه (كتاب الجزية - باب ١٨) وكذا مسلم فى صحيحه (كتاب الجهاد - باب ٣٤) وفيه « أن رسول الله ﷺ قال بعد مراجعة عمر بن الخطاب له : يا بن الخطاب ، إنى رسول الله ولن يضيعنى الله . وقال له أبو بكر : يا بن الخطاب ، إنه رسول الله ولن يضيعه الله أبداً » .

المسلمين يرده محمد ﷺ ، وإذا ذهب مسلم إليهم لا يردونه إلى المسلمين[١] .

وكان للسيدة أم المؤمنين أم سلمة ـ رضوان الله عليها ـ موقف عظيم فى هذه الشدة ، ورأى سديد ردَّ آراء الرجال إلى الرُّشْد وإلى الصواب ، وهذا مما نفخر به للمرأة فى الإسلام ، ونردّ به على المتشدِّقين بحقوق المرأة .

فلما عاد رسول الله ﷺ إلى فُسْطاطه مُغْضباً فقال لأم سلمة : « هلك المسلمون يا أم سلمة ، لقد أمرتهم فلم يمتثلوا » يعنى : أمرهم بالعودة دون أداء العمرة هذا العام .

فقالت السيدة أم المؤمنين : يا رسول الله ، إنهم مكروبون ، فقد مُنعُوا عن بيت الله وهم على مَرْأىً منه ، لكن اذهب يا رسول الله إلى ماَ أمرك به ربك ، فافعل فإذا رأوْك فعلْتَهُ علموا أن الأمر عزيمة ـ يعنى لا رجعةَ فيه ـ وفعلاً أخذ رسول الله بهذه النصيحة ، فذهب فحلق ، وذبح هديه وفعل الناس مثله ، وانتهت هذه المسألة[٢] .

لكن قبل أنْ يعودوا إلى المدينة شاءتْ إرادة الله أنْ يخبرهم بالحكمة فى قبول رسولِ الله لشروط المشركين مع أنها شروط ظالمة مُجْحفة :

أولاً : فى هذا الصلح وهذه المعاهدة اعتراف منهم بمحمد ومكانته ومنزلته ، وأنه أصبح مساوياً لهم ، وهذا مكسب فى حَدِّ ذاته .

ثانياً : اتفق الطرفان على وقف القتال بينهم لعدة سنوات ، وهذه

---

(١) كان رأى رسول الله ﷺ فى هذا الشرط الذى اشترطته قريش ما قاله : « من أتاهم منا فأبعده الله ، ومن أتانا منهم فرددناه عليهم ، جعل الله له فرجاً ومخرجاً » أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٤/١٤٧) ، ومسلم فى صحيحه (كتاب الجهاد ـ باب ٣٤) .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه (٧/٤٥٣) بشرح فتح البارى ـ كتاب المغازى من حديث المسور بن مخرمة . والبيهقى فى دلائل النبوة (٤/١٥٠) .

الفترة أعطتْ المسلمين فرصة كى يتفرغوا لاستقبال الوفود ونَشْر دين الله .

ثالثاً : كان فى إمكان رسول الله ﷺ أنْ يدخلهم مكة رَغْماً عن أهلها ، وكان فى مقدوره أن يقتلهم جميعاً ، لكن ماذا سيكون موقف المؤمنين من أهل مكة والذين يسترون إيمانهم ولا يعرفهم أحد ؟ إنهم وسط هؤلاء الكفار ، وسينالهم ما ينال الكفار ، ولو تميَّز المؤمنون من الكفار أو خرجوا فى جانب لأمكن تفاديهم .

اقرأ قوله تعالى : ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا[1] لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٢٥)﴾ [الفتح]

ثم يقول تعالى عن المسجد الحرام : ﴿الَّذِى جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ .. (٢٥)﴾ [الحج] أى : جميعاً ﴿سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ .. (٢٥)﴾ [الحج] العاكف فيه يعنى : المقيم ، والباد : القادم إليه من خارج مكة ، ومعنى ﴿سَوَاءً .. (٢٥)﴾ [الحج] يعنى : هذان النوعان متساويان تماماً .

لذلك نقول للذين يحجزون الأماكن لحسابهم فى بيت الله الحرام خاصة ، وفى بيوت الله عامة : أريحوا أنفسكم ، فالمكان محجوز عند الله لمن سبق ، لا لمن وضع سجادته ، وشغل بها المكان .

وقد دَعَتْ هذه الآية : ﴿سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ .. (٢٥)﴾ [الحج]

---

(١) لو تزيلوا : لو تفرقوا . قاله عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فيما أخرجه عنه ابن جرير الطبرى . [ذكره السيوطى فى الدر المنثور ٧/ ٥٣٤] .

البعض لأنْ يقول : لا يجوز تأجير البيوت فى مكة ، فمَنْ أراد أن ينزل فى بيت ينزل فيه دون أجرة حتى يستوى المقيم والغريب[١] .

وهذا الرأى مردود عليه بأن البيوت مكان ومكين ، وأرض مكة كانت للجميع حين كان المكان حُراً يبنى فيه من أراد ، أمَّا بعد أن بنى بيتاً ، وسكنه أصبح مكيناً فيه ، لا يجوز لأحد دخوله إلا بإذنه وإرادته .

وقد دار حول هذه المسألة[٢] نقاش بين الحنظلى[٣] فى مكة والإمام الشافعى[٤] ، حيث يرى الحنظلى أنه لا يجوز تأجير البيوت فى مكة ؛ لأنها حسب هذه الآية للجميع ، فردَّ عليه الشافعى رضى الله عنه : لو كان الأمر كذلك لما قال سبحانه فى المهاجرين : ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ .. (٨)﴾ [الحشر]

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٦/٤٥٦٤) : « كانت دُورهم بغير أبواب حتى كثرت السرقة ، فاتخذ رجل باباً فأنكر عليه عمر وقال : أتغلق باباً فى وجه حاج بيت الله ؟ قال الرجل : إنما أردت حفظ متاعهم من السرقة ، فتركه ، فاتخذ الناس الأبواب ، وروى عن مالك أن الدور ليست كالمسجد ، ولأهلها الامتناع منها والاستبداد ، وهذا هو العمل اليوم وقال بهذا جمهور من الأئمة » .

(٢) قال ابن كثير فى تفسيره (٣/٢١٤) : « هذه المسألة هى التى اختلف فيها الشافعى وإسحاق ابن راهويه بمسجد الخيف وأحمد بن حنبل حاضر أيضاً » وذكر احتجاج كل منهما .

(٣) هو إسحاق بن راهويه أبو يعقوب الحنظلى نزيل نيسابور وعالمها ولد عام ١٦١ هـ ، وهو أحد كبار الحفاظ ، أخذ عنه أحمد والبخارى ومسلم وغيرهم ، اجتمع له الحديث والفقه والحفظ والصدق والزهد . [الأعلام للزركلى ١/٢٩٢] وتذكرة الحفاظ للذهبى (٢/٤٣٣) .

(٤) هو : محمد بن إدريس الشافعى أبو عبد الله ، أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة ، وإليه نسبة الشافعية كافة ، ولد عام ١٥٠ هـ فى غزة بفلسطين ، وحمل منها إلى مكة وهو ابن سنتين ، وزار بغداد مرتين ، وقصد مصر سنة ١٩٩ هـ فتوفى بها وقبره معروف فى القاهرة . له مصنفات أشهرها كتاب « الأم » ، « أحكام القرآن » [الأعلام للزركلى ٦/٢٦] .

فنسب الديار إليهم . ولَمَّا قال رسول الله ﷺ لما نزل مكة : « وهل ترك لنا عقيل من دار أو من ربع ؟»[١] وكَوْنُ عقيل يبيع دُورهم بعد أن هاجروا ، فهذا دليل على ملكيتهم لها . لذلك رجع الحنظلى إلى رأى الشافعى .

هذا مع أن الآية تعنى البيت فقط ، لا مكة كلها ، فما كان الخلاف ليصل إلى مكة كلها .

ثم يقول تعالى : ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ [الحج]

الإلحاد قد يكون فى الحق الأعلى ، وهو الإلحاد فى الله عز وجل ، أما هنا فيُراد بالإلحاد : الميْل عن طريق الحقِّ ، وقوله : ﴿بِظُلْمٍ .. ﴿٢٥﴾﴾ [الحج] الظلم فى شىء لا يسمو إلى درجة الكفر ، والإلحاد بظلم إنْ حدث فى بيت الله فهو أمر عظيم ؛ لأنك فى بيت ربك (الكعبة) .

وكان يجب عليك أن تستحى من مجرد حديث النفس بمعصية ، مجرد الإرادة هنا تُعَدُّ ذنباً ؛ لأنك فى مقام يجب أنْ تستشعر فيه الجلال والمهابة ، فكما أعطى الله لبيته مَيْزة فى مضاعفة الحسنات ، كذلك عظَّم أمر المعصية وأنت فى رحاب بيته ، فتنبَّه لهذه المسألة[٢] .

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (١٥٨٨) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٣٥١) وتمامه « أن أسامة بن زيد قال : يا رسول الله ، أين تنزل ؟ فى دارك بمكة ؟ قال : وهل ترك عقيل من رباع أو دور ؟ وكان عقيل ورث أبا طالب هو وطالب ، ولم يرثه جعفر ولا على رضى الله عنهما شيئاً . لأنهما كانا مسلمين ، وكان عقيل وطالب كافرين » .

(٢) قال ابن مسعود : من هم بخطيئة فلم يعملها ـ فى سوى البيت ـ لم تكتب عليه حتى يعملها ، ومن هم بخطيئة فى البيت لم يمته الله من الدنيا حتى يذيقه من عذاب أليم . أخرجه سعيد بن منصور والطبرانى فيما أورده السيوطى فى الدر المنثور (٦/٢٦) .

حتى فى أمثال أهل الريف يقولون : (تيجى فى بيت العالم وتسكر) يعنى : السُّكْر يُتصوَّر فى بيت أحد العصاة ، فى بيت فاسق ، فى خمارة ، لكن فى بيت عالم ، فهذا شىء كبير ، وجرأة عظيمة . لماذا ؟

فللمكان حُرْمة بحُرْمة صاحبه ، فإذا كان للمكان حُرْمة بحُرْمة صاحبه ، والبيت منسوب إلى الله ، فأنت تعصى ربك فى عُقْر داره ، وأىّ جرأة أعظم من الجرأة على الله ؟

وهذه خاصية للمسجد الحرام ، فكُلُّ المساجد فى أى مكان بيوت الله ، لكن هناك فَرْق بين بيت الله باختيار الله ، وبيت الله باختيار عباد الله ؛ لذلك جُعل بيتُ الله باختيار الله (البيت الحرام) هو القِبْلة التى تتجه إليها كل بيوت الله فى الأرض .

فما عاقبة الإلحاد فى بيت الله ؟ ﴿نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٥)﴾ [الحج] إنهم سيذوقون العذاب بأمر من الحق دائماً وأبداً ، والإذاقة أشد الإدراكات تأثيراً ، وذلك هو العذاب المهين ، والذوق هو الإحساس بالمطعوم شراباً كان أو طعاماً ، إلا أنه تعدى كل مُحسٍّ به ، ولو لم يكن مطعوماً أو مشروباً ، ويقول ربنا عز وجل : ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (٤٩)﴾ [الدخان]

أى : ذق الإهانة والمذلة ، لا مما يُطعم أو مما يُشرب ، ولكن بالإحساس ، فالإذاقة تتعدى إلى كل البدن ، فالأنامل تذوق ، والرِّجْل تذوق ، والصدر يذوق ، والرقبة تذوق . وهذا اللون من إذاقة الذل والإهانة فى الدنيا لهؤلاء مجرد نموذج بسيط لشدة عقاب الله .

وعذاب الآخرة سيكون مهولاً ، والعذاب هو إيلام الحس . إذا أحببت أن تديم ألمه ، فأبْقِ فيه آلة الإحساس بالألم .

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾﴾

ما دام الكلام السابق كان حول البيت الحرام ، فمن المناسب أنْ يتكلم عن تاريخه وبنائه ، فقال سبحانه : ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لاَّ تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾﴾ [الحج] معنى بَوَّأه : أى : جعله مَبَاءةً يعنى : يذهب لعمله ومصالحه ، ثم يبوء إليه ويعود ، كالبيت للإنسان يرجع إليه ، ومنه قوله تعالى : ﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ .. ﴿٦١﴾﴾ [البقرة]

وإذ : ظرف زمان لحدث يأتى بعده الإخبار بهذا الحدث ، والمعنى خطاب لرسول الله ﷺ : اذكر يا محمد الوقت الذى قيل فيه لإبراهيم كذا وكذا . وهكذا فى كل آيات القرآن تأتى (إذ) فى خطاب لرسول الله ﷺ بحدث وقع فى ذلك الظرف .

لكن ، ما علاقة المباءة أو المكان المتبوّأ بمسألة البيت ؟ قالوا : لأن المكان المتبوّأ بقعة من الأرض يختارها الإنسان ؛ ليرجع إليها من متاعب حياته ، ولا يختار الإنسان مثل هذا المكان إلا توفرتْ فيه كل مُقوِّمات الحياة .

لذلك يقول تعالى فى قصة يوسف عليه السلام : ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ .. ﴿٥٦﴾﴾ [يوسف]

وقال فى شأن بنى إسرائيل : ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ .. ﴿٩٣﴾﴾ [يونس] فمعنى : ﴿بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ .. ﴿٢٦﴾﴾ [الحج]

أى : جعلناه مبَاءة له ، يرجع إليه من حركة حياته بعد أنْ أعلمنَاهُ ، ودَلَلْنَاه على مكانه[١] .

وقلنا : إن المكان غير المكين ، المكان هو البقعة التى يقع فيها ويحلُّ بها المكين ، فأرض هذا المسجد مكان ، والبناء القائم على هذه الأرض يُسمَّى « مكين فى هذا المكان » . وعلى هذا فقد دَلَّ الله إبراهيم عليه السلام على المكان الذى سيأمره بإقامة البيت عليه .

وقد كان للعلماء كلام طويل حول هذه المسألة : فبعضهم يذهب إلى أن إبراهيم عليه السلام هو أول مَنْ بنى البيت . ونقول لأصحاب هذا الرأى : الحق ـ تبارك وتعالى ـ بوَّأ لإبراهيم مكان البيت ، يعنى : بيَّنه له ؛ كأن البيت كان موجوداً ، بدليل أن الله تعالى يقول فى القصة على لسان إبراهيم : ﴿إِنِّى أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ .. (٣٧)﴾ [إبراهيم]

وفى قوله تعالى : ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ .. (١٢٧)﴾ [البقرة]

ومعلوم أن إسماعيل قد شارك أباه وساعده فى البناء لما شَبَّ ، وأصبح لديه القدرة على معاونة أبيه ، أمّا مسألة السكن فكانت وإسماعيل ما يزال رضيعاً ، وقوله تعالى : ﴿عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ .. (٣٧)﴾ [إبراهيم] يدل على أن العِنْدية موجودة قبل أنْ يبلغَ إسماعيل أنْ يساعد أباه فى بناية البيت ، إذن : هذا دليل على أن البيت كان موجوداً قبل إبراهيم .

---

(١) أى : أريناه أصله ليبنيه ، وكان قد درس بالطوفان وغيره ، فلما جاءت مدة إبراهيم عليه السلام أمره الله ببنيانه ، فجاء إلى موضعه وجعل يطلب أثراً ، فبعث الله ريحاً فكشفت عن أساس آدم عليه السلام ، فرتب قواعده عليه . [تفسير القرطبى ٦/٤٥٦٧] .

وقد أوضح الحق ـ سبحانه وتعالى ـ هذه المسألة فى قوله تعالى : ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ (٩٦)﴾ [آل عمران]

وحتى نتفق على فَهْم الآية نسأل : مَنْ هُم الناس ؟ الناس هم آدم وذريته إلى أن تقوم الساعة ، إذن : فآدم من الناس ، فلماذا لا يشمله عموم الآية ، فالبيت وُضِع للناس ، وآدم من الناس ، فلا بُدَّ أن يكون وُضِع لآدم أيضاً .

إذن : يمكنك القول بأن البيت وُضِع حتى قبل آدم ؛ لذلك نُصدِّق بالرأى الذى يقول : إن الملائكة هى التى وضعتْ البيت أولاً ، ثم طمسَ الطوفانُ معالم البيت ، فدلَّ الله إبراهيم بوحى منه على مكان البيت ، وأمره أنْ يرفعه من جديد فى هذا الوادى .

ويُقال : إن الله تعالى أرسل إلى إبراهيم سحابة دلَّتْه على المكان ونطقتْ : يا إبراهيم خُذْ على قدرى ، أى : البناء[1] .

ولو تدبرتَ معنى : ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ .. (١٢٧)﴾ [البقرة] الرَّفْع يعنى : الارتفاع ، وهو البعد الثالث ، فكأن القواعد كان لها طُول وعَرْض موجود فعلاً ، وعلى إبراهيم أنْ يرفعها .

لكن لماذا بوَّأ الله لإبراهيم مكان البيت ؟

لما أسكن إبراهيم ذريته عند البيت قال : ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ .. (٣٧)﴾ [إبراهيم] كأن المسألة من بدايتها مسألة عبادة وإقامة للصلاة ،

---

(١) أخرج الديلمى عن على عن النبى ﷺ فى قوله : ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ .. (١٢٧)﴾ [البقرة] قال : « جاءت سحابة على تربيع البيت ، لها رأس تتكلم : ارتفاع البيت على تربيعى ، فرفعاه على تربيعها » [أورده السيوطى فى الدر المنثور ١/٣٠٧] .

الصلاة للإله الحق والربِّ الصِّدْق ؛ لذلك أمره أولاً : ﴿أَن لاَّ تُشْرِكْ بِى شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (٢٦)﴾ [الحج] والمراد : طَهِّر هذا المكان من كل ما يُشعِر بالشرك ، فهذه هى البداية الصحيحة لإقامة بيت الله .

وهل كان يُعقل أنْ يدخل إبراهيم ـ عليه السلام ـ فى الشرك ؟ بالطبع لا ، وما أبعدَ إبراهيمَ عن الشرك ، لكن حين يُرسل الله رسولاً ، فإنه أول مَنْ يتلقَّى عن الله الأوامر ليُبلِّغ أمته ، فهو أول مَنْ يتلقى ، وأول مَنْ يُنفذ ليكون قدوةً لقومه فيُصدِّقوه ويثقوا به ؛ لأنه أمرهم بأمر هو ليس بنَجْوة عنه .

ألا ترى قوله تعالى لنبيه محمد ﷺ : ﴿يَـٰأَيُّهَا النَّبِىُّ اتَّقِ اللَّهَ .. (١)﴾ [الأحزاب] وهل خرج محمد ﷺ عن تقوى الله ؟ إنما الأمر للأمة فى شخص رسولها ، حتى يسهُلَ علينا الأمر حين يأمرنا ربنا بتقواه ، ولا نرى غضاضةً فى هذا الأمر الذى سبقنا إليه رسول الله ؛ لأنك تلحظ أن البعض يأنف أن تقول له : يا فلان اتق الله ، وربما اعتبرها إهانة واتهاماً ، وظن أنها لا تُقال إلا لمَنْ بدر منه ماَ يخالف التقوى .

وهذا فَهْم خاطىء للأمر بالتقوى ، فحين أقول لك : اتق الله . لا يعنى أننى أنفى عنك التقوى ، إنما أُذكِّرك أنْ تبدأ حركة حياتك بتقوى الله .

إذن : قوله تعالى لإبراهيم عليه السلام : ﴿أَن لاَّ تُشْرِكْ بِى شَيْئًا .. (٢٦)﴾ [الحج] لا تعنى تصوُّر حدوث الشرك من إبراهيم ، وقال ﴿شَيْئًا .. (٢٦)﴾ [الحج] ليشمل النهىُ كُلَّ ألوان الشرك ، أياً كانت صورته : شجر ، أو حجر ، أو وثن ، أو نجوم ، أو كواكب .

ويؤكد هذا المعنى بقوله : ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ .. (٢٦)﴾ [الحج] والتطهير يعنى : الطهارة المعنوية بإزالة أسباب الشرك ، وإخلاص العبادة لله وحده لا شريكَ له ، وطهارة حسّية ممّا أصابه بمرور الزمن وحدوث الطوفان ، فقد يكون به شىء من القاذورات مثلاً .

ومعنى ﴿لِلطَّائِفِينَ .. (٢٦)﴾ [الحج] الذين يطوفون بالبيت : ﴿وَالْقَائِمِينَ .. (٢٦)﴾ [الحج] المقيمين المعتكفين فيه للعبادة ﴿وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (٢٦)﴾ [الحج] الذين يذهبون إليه فى أوقات الصلوات لأداء الصلاة ، عبَّر عن الصلاة بالركوع والسجود ؛ لأنهما أظهر أعمال الصلاة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧)﴾ (١)

أمر الله نبيه إبراهيم بعد أنْ رفع القواعد من البيت أنْ يُؤذِّن فى الناس بالحج ، لماذا ؟ لأن البيت بيت الله ، والخَلْق جميعاً خَلْق الله ، فلماذا تقتصر رؤية البيت على مَنْ قُدِّر له أنْ يمرّ به ، أو يعيش إلى جواره ؟

فأراد الحق - سبحانه وتعالى - أنْ يُشيع هذه الميْزة بين خَلْقه جميعاً ، فيذهبوا لرؤية بيت ربهم ، وإنْ كانت المساجد كلها بيوت

---

(١) الضامر : لطيف الجسم قليل اللحم . ومن عادة العرب أن يُضمِّروا الخيل لتكون أقوى وأنشط وأسرع . وقوله تعالى : ﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ .. (٢٧)﴾ [الحج] . أى : حصان ضامر متعود على السفر البعيد بنشاط وقوة . [القاموس القويم ١/٣٩٥] .

الله ، إلا أن هذا البيت بالذات هو بيت الله باختيار الله ؛ لذلك جعله قبْلة لبيوته التى اختارها الخَلْق .

إن من علامات الولاء بين الناس أنْ نزور قصور العظماء وعِلْية القوم ، ثم يُسجل الزائر اسمه فى سِجلِّ الزيارات ، ويرى فى ذلك شرفاً ورِفْعة ، فما بالك ببيت الله ، كيف تقتصر زيارته ورؤيته على أهله والمجاورين له أو مَنْ قُدِّر لهم المرور به ؟

ومعنى ﴿أَذِّن .. (٢٧)﴾ [الحج] الأذان : العلم ، وأول وسائل العلم السماع بالأذن ، ومن الأذن أُخذ الأذان . أى : الإعلام . ومن هذه المادة قوله تعالى : ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ .. (٧)﴾ [إبراهيم] أى : أعلم ؛ لأن الأذن وسيلة السماع الأولى ، والخطاب المبدئى الذى نتعلَّم به ؛ لذلك قبل أنْ تتكلَّم لا بُدَّ أنْ تسمع .

وحينما أمر الله إبراهيم بالأذان لم يكُنْ حول البيت غير إبراهيم وولده وزوجته ، فلمَنْ يُؤذِّن ؟ ومَنْ سيستمع فى صحراء واسعة شاسعة وواد غير مسكون ؟ فناداه ربه : « يا إبراهيم عليك الأذان وعلينا البلاغ .»[1] .

مهمتك أنْ ترفَع صوتك بالأذان ، وعلينا إيصال هذا النداء إلى كل الناس ، فى كل الزمان ، وفى كل المكان ، سيسمعه البشر جميعاً ،

---

(١) عن ابن عباس قال : لما فرغ إبراهيم من بناء البيت قال : رب ، قد فرغت . فقال : ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ .. (٢٧)﴾ [الحج] . قال : رب ، وما يبلغ صوتى ؟ قال : أذِّن وعلىّ البلاغ . قال : رب ، كيف أقول ؟ قال : يا أيها الناس ، كتب عليكم الحج إلى البيت العتيق . فسمعه من بين السماء والأرض ، ألا ترى أنهم يجيئون من أقصى الأرض يلبون ؟ » أورده السيوطى فى الدر المنثور (٣٢/٦) وعزاه لابن أبى شيبة فى المصنف وابن جرير وابن أبى حاتم والحاكم وصححه والبيهقى فى سننه .

وهم فى عالم الذَّرِّ وفى أصلاب آبائهم[١] بقدرة الله تعالى الذى قال لنبيه محمد ﷺ : ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ..(١٧)﴾ [الأنفال]

يعنى : أدِّ ما عليك ، واترك ما فوق قدرتك لقدرة ربك . فأذَّنَ إبراهيم فى الناس بالحج ، ووصل النداء إلى البشر جميعاً ، وإلى أن تقوم الساعة ، فَمنْ أجاب ولَبَّى : لبيك اللهم لبيك كُتبَتْ له حَجَّة ، حتى إن من العلماء من قال[٢] : مَنْ لبَّى مرة كُتبَتْ لَه حجة ، ومَنْ لبَّى مرتين كتِبت له حجَّتيْن وهكذا ، لأن معنى لبَيك : إجابةٌ لك بعد إجابة .

فإنْ قُلْتَ : إن مطالب الله وأوامره كثيرة ، فلماذا أخذ الحج بالذات هذه المكانة ؟ نقول : أركان الإسلام تبدأ بالشهادتين : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، ثم الصلاة ، ثم الزكاة ، ثم الصوم ، ثم الحج ، لو نظرتَ إلى هذه الأركان لوجدتَ أن الحج هو الركن الوحيد الذى يجتهد المسلم فى أدائه وإنْ لم يكُن مستطيعاً له فتراه يوفر ويقتصد حتى من قُوته ، وربما حرمَ نفسه ليُؤدِّى فريضة الحج ، ولا يحدث هذا ولا يتكلفه الإنسان إلا فى هذه الفريضة ، لماذا ؟

قالوا : لأن الله تعالى حكم فى هذه المسألة فقال : أذِّن ـ يأتُوكَ ، هكذا رَغْماً عنهم ، ودون اختيارهم ، ألاَ ترى الناس ينجذبون لأداء هذه الفريضة ، وكأن قوة خارجة عنهم تجذبهم .

---

(١) عن ابن عباس فى قوله ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ .. (٢٧)﴾ [الحج] . قال : قام إبراهيم عليه السلام على الحجر فنادى : يا أيها الناس ، كتب عليكم الحج ، فاسمع من فى أصلاب الرجال وأرحام النساء ، فأجاب من آمن ممن سبق فى علم الله أن يحج إلى يوم القيامة : لبيك اللهم لبيك . أورده السيوطى فى الدر المنثور (٣٣/٦) وعزاه لابن جرير الطبرى .

(٢) أخرجه الديلمى فى « الفردوس بمأثور الخطاب » (رقم ٥٣٠٣) عن على بن أبى طالب ، قال السيوطى فى الدر المنثور (٣٣/٦) : « أخرجه الديلمى بسند واه عن على رفعه » . وقال الفتنى فى تذكرة الموضوعات (ص ٧٣) : « الحديث من نسخة محمد بن الأشعث التى عامة أحاديثها مناكير » .

وهذا معنى قوله تعالى : ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِى إِلَيْهِمْ .. (٣٧)﴾ [إبراهيم] ومعنى تهوى : تأتى دون اختيار من الْهُوِىِّ أى : السقوط ، وهو أمر لا يملكه الإنسان ، كالذى يسقط من مكان عالٍ ، فليس له اختيار فى ألاَّ يسقط .

وهكذا تحنُّ القلوب إلى بيت الله ، وتتحرَّق شَوْقاً إليه ، وكأن شيئاً يجذبها لأداء هذه الفريضة ؛ لأن الله تعالى أمر بهذه الفريضة ، وحكم فيها بقوله ﴿يَأْتُوكَ .. (٢٧)﴾ [الحج] أما فى الأمور الأخرى فقد أمر بها وتركها لاختيار المكلف ، يطيع أو يعصى ، إذن : هذه المسألة قضية صادقة بنصِّ القرآن .

وبعض أهل الفَهْم يقولون : إن الأمر فى : ﴿وَأَذِّن فِى النَّاسِ بِالْحَجِّ .. (٢٧)﴾ [الحج] ليس لإبراهيم ، وإنما لمحمد ﷺ - الذى نزل عليه القرآن ، وخاطبه بهذه الآية ، فالمعنى ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ .. (٢٦)﴾ [الحج] يعنى : اذكر يا مَنْ أُنْزل عليه كتابى إذْ بوأنا لإبراهيم مكان البيت ، اذكر هذه القضية ﴿وَأَذِّن فِى النَّاسِ بِالْحَجِّ .. (٢٧)﴾ [الحج] فكأن الأمر هنا لمحمد ﷺ[1] .

لذلك لا نشاهد هذا النسك فى الأمم الأخرى كاليهود والنصارى ، فهم لا يحجون ولا يذهبون إلى بيت الله أبداً ، وقد ثبت أن موسى - عليه السلام - حج بيت الله[2] ، لكن لم يثبت أن عيسى عليه السلام

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٦ / ٤٥٦٩) : « قيل : إن الخطاب لإبراهيم عليه السلام تم عند قوله ﴿وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (٢٦)﴾ [الحج] ثم خاطب الله عز وجل محمداً ﷺ فقال : ﴿وَأَذِّن فِى النَّاسِ بِالْحَجِّ .. (٢٧)﴾ [الحج] أى : أعلمهم أن عليهم الحج » .

(٢) عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ مر بوادى الأزرق فقال : أى واد هذا ؟ فقالوا : هذا وادى الأزرق . قال : كأنى أنظر إلى موسى عليه السلام هابطاً من الثنية ولَّه جؤار إلى الله بالتلبية ، ثم أتى على ثنية هرشى ، فقال : أى ثنية هذه ؟ قالوا : ثنية هرشى : قال : كأنى أنظر إلى يونس بن متى عليه السلام على ناقة حمراء جعدة عليه جبة من صوف ، خطام ناقته خُلْبة ، وهو يُلبِّى » أخرجه مسلم فى صحيحه (١٦٦) ، وأحمد فى مسنده (١/ ٢١٥) .

حَجَّ ، بدليل أن رسول الله ﷺ قال « يُوشك أنْ ينزل ابن مريم ، ويأتى حاجاً ، ويزور قبرى ، ويُدفن هناك »[١] .

فقال رسول الله : « ويأتى حاجاً » لأنه لم يمت ، وسوف يدرك عهد التكليف من رسول الله حين ينزل من السماء ، وسيصلى خلف إمام من أمة محمد صلى الله على جميع أنبياء الله ورُسُله .

ومن المسائل التى نحتجُّ بها عليهم قولهم : إن الذبيح إسحق ، فلو أن الذبيح إسحق كما يدَّعُون لكانت مناسك الذبح والفداء ورَمْى الجمار عندكم فى الشام ، أمّا هذه المناسك فهى هنا فى مكة ، حيث كان إسماعيل .

ثم تذكَّروا جيداً ما قاله كتابكم المقدس[٢] فى الأصحاح ٢٣ ، ٢٤

---

(١) أورد القرطبى فى التذكرة (ص ٧٧٣) طبعة مكتبة دار التراث من حديث كثير بن عبد الله عن أبيه عن جده قال : غزونا مع النبى ﷺ الحديث ، وفيه : « لا تقوم الساعة حتى ينزل عيسى بن مريم عبد الله ورسوله حاجاً أو معتمراً أو ليجمعن الله ذلك له » وقال محمد بن كعب القرظى : أن رجلاً قال : إنى أشهد أنه لمكتوب فى التوراة والإنجيل أنه يمر بالروحاء حاجاً أو معتمراً أو يجمع الله له ذلك ، فيجعل الله حواريّه أصحاب الكهف والرقيم ، فيمرون حجاجاً فإنهم لم يحجوا ولم يموتوا » .

أما دفن المسيح عليه السلام فقد ذكر القرطبى فى التذكرة (ص ٧٦٢) عن عبد الله بن عمرو عن رسول الله ﷺ : « ويمكث خمساً وأربعين سنة ويدفن معى فى قبرى فأقوم أنا وعيسى من قبر واحد بين أبى بكر وعمر » ذكره الميانشى أبو حفص .

وعن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « يمكث عيسى فى الأرض بعدما ينزل أربعين سنة ، ثم يموت ويصلى عليه المسلمون ويدفنونه » ذكره أبو داود الطيالسى فى مسنده (حديث٢٥٤١) .

(٢) تحقيق هذه المسألة أن إبراهيم عليه السلام كان عمره ٨٦ سنة عندما وُلد له إسماعيل ، وذلك بنص الكتاب المقدس « كان أبرام ابن ست وثمانين سنة لما ولدت هاجر إسماعيل لأبرام » [التكوين ١٦ : ١٦] . أما عمره عندما وُلد له إسحاق ، فكان عمره ١٠٠ سنة ، بنص الكتاب : « وكان إبراهيم ابن مئة سنة حين ولد له إسحاق ابنه » [تكوين ٢١ : ٥] أى أن عمر إسماعيل كان ١٤ سنة حينما ولد أخوه إسحاق ، فكيف يكون وحيده هو إسحاق؟

وهاجر زوجة لإبراهيم بنص التوراة « فأخذت سارای امرأة أبرام هاجر المصرية جاريتها من بعد عشر سنين لإقامة أبرام فى أرض كنعان وأعطتها لأبرام رجلها زوجة له . فدخل على هاجر فحبلت » [تكوين : ٣:١٦ ، ٤] .

فكيف يقولون بعد هذا : « وحدث بعد هذه الأمور أن الله امتحن إبراهيم فقال له يا إبراهيم . فقال هأنذا . فقال : خذ ابنك وحيدك الذى تحبه إسحاق واذهب إلى أرض المريّا وأصعده هناك محرقة على أحد الجبال الذى أقول لك » [تكوين ٢٢ : ٢] وانظر [تكوين ٢٢ : ٩ - ١٦] .

من أن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ أوحى إلى إبراهيم أن يصعد على جبل فاران ، ويأخذ ولده الوحيد ويذبحه ، فالوحيد إسماعيل لا إسحق ؛ لأن الله فدى إسماعيل ، ثم بشَّر إبراهيم بإسحق .

ومن حكمة الله ـ عز وجل ـ أنْ جعل فى كذب الكاذب مَنْفَذاً للحق ، وثغرات نصل منها إلى الحقيقة ؛ لذلك يقول رجال القضاء : ليست هناك جريمة كاملة أبداً ، لا بُدَّ أنْ يترك المجرم قرينة تدلُّ عليه مهما احتاط لجريمته ، كأن يسقط منه شىء ولو أزرار من ملابسه ، أو ورقة صغيرة بها رقم تليفون .. إلخ ، لذلك نقول : الجريمة لا تفيد ؛ لأن المجرم سيقع لا محالة فى يد مَنْ يقتصُّ منه .

ولرجال القضاء ووكلاء النيابة مقدرة كبيرة على استخلاص الحقيقة من أفواه المجرمين أنفسهم ، فيظل القاضى يحاوره إلى أنْ يجد فى كلامه ثغرةً أو تضارباً يصل منه إلى الحقيقة .

ذلك لأن للصدق وجهاً واحداً لا يمكن أنْ يتلجلج صاحبه أو يتردد ، أمّا الكذب فله أكثر من وجه ، والكاذب نفسه لو حاورتَهُ أكثر من مرة لوجدتَ تغييراً وتضارباً فى كلامه ؛ لذلك العرب يقولون : إنْ كنتَ كذوباً فكُنْ ذَكُوراً . يعنى : تذكَّر ما قُلْته أولاً ، حتى لا تُغيِّره بعد ذلك .

ومن أمثلة الكذب الذى يفضح صاحبه قَوْلُ أحدهم للآخر : هل تذكر يوم كنا فى مكان كذا ليلة العيد الصغير ، وكان القمر ظهراً !! فقال : كيف ، يكون القمر مثل الظهر فى آخر الشهر ؟

وقد يلجأ القاضى إلى بعض الحِيَل ، ولا بُدَّ أنْ يستخدم ذكاءه لاستجلاء وجه الحق ، كالقاضى الذى احتكم إليه رجلان يتهم أحدهما الآخر بأنه أخذ ماله أمانة ، ثم أخذها لنفسه ودفنها فى موضع كذا

وكذا ، فلما حاور القاضى المتهم أنكر فانصرف عنه ، وتوجَّه إلى صاحب الأمانة ، وقال له : اذهب إلى هذا المكان ، وابحثْ لعلَّك تكون قد نسيتَه هنا أو هناك .

أو لعلّ آخر أخذه منك ، فذهب صاحب المال ، وفجأة سأل القاضى المتهم : لماذا تأخر فلان طوالَ هذا الوقت ؟ فردَّ المتهم : لأن المكان بعيدٌ يا سيادة القاضى . فخانتْه ذاكرته ، ونطق بالحق دون أن يشعر .

ثم يقول تعالى : ﴿يَأْتُوكَ رِجَالاً .. (٢٧)﴾ [الحج] ورجالاً هنا ليست جَمْعاً لرجل ، إنما جمع لراجل ، وهو الذى يسير على رِجْلَيْه ﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ .. (٢٧)﴾ [الحج] الضامر : الفَرَس أو البعير المهزول من طول السفر .

وتقديم الماشين على الراكبين تأكيد للحكم الإلهى ﴿يَأْتُوكَ .. (٢٧)﴾ [الحج] فالجميع حريص على أداء الفريضة حتى إنْ حَجَّ ماشياً .

وقوله : ﴿يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧)﴾ [الحج] أى : من كل طريق واسع ﴿عَمِيقٍ (٢٧)﴾ [الحج] يعنى : بعيد .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۖ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ (٢٨)﴾

كلمة ﴿مَنَافِعَ .. (٢٨)﴾ [الحج] كلمة عامة واسعة تشمل كل أنواع النفع : مادية دنيوية ، أو دينية أُخروية ، ولا ينبغى أنْ نُضيِّق

ما وسَّعه الله ، فكُلُّ ما يتصل بالحج من حركات الحياة يُعَد من المنافع ، فاستعدادك للحج ، وتدبير نفقاته وأدواته ورَاحلته فيها منافع لك ولغيرك حين توفر لأهلك ما يكفيهم حتى تعود .

ما يتم من حركة بيع وشراء فى مناطق الحج ، كلها منافع متبادلة بين الناس ، التاجر الذى يبيع لك ، وصاحب البيت الذى يُؤجِّره لك ، وصاحب السيارة التى تنقلك .

إذن : المنافع المادية فى الحج كثيرة ومتشابكة ، متداخلة مع المنافع الدينية الأخروية ، فحين تشترى الهَدْى[1] مثلاً تؤدى نُسُكاً وتنفع التاجر الذى باع لك ، والمربِّى الذى ربَّى هذا الهَدْى ، والجزار الذى ذبحه ، والفقير الذى أكل منه .

إذن : لا يتم الحج إلا بحركة حياة واسعة ، فيها نَفْع لك وللناس من حيث لا تدرى ، ولك أنْ تنظرَ فى الهدايا التى يجلبها الحجاج معهم لأهليهم وذويهم ، خاصة المصريين منهم ، فترى بعضهم ينشغل بجَمْع هذه الأشياء قبل أنْ يُؤدِّى نُسُكه ويقضى معظم وقته فى الأسواق ، وكأنه لن يكون حاجاً إلا إذا عاد مُحمّلاً بهذه الهدايا .

لذلك كان يأتى إلينا بعض هؤلاء يسألون : أنا علىَّ دَم مُتْعة[2]

---

(١) الهَدْى : الذبيحة تُهْدى إلى الحرم فى الحج [القاموس القويم ٢/٣٠١] وهو مستحب للحاج المفرد ، والمعتمر المفرد . وواجب على القارن والمتمتع ، وكذلك على من ترك واجباً من واجبات الحج كرمى الجمار أو طواف الوداع . وكذلك واجب على من ارتكب محظوراً من محظورات الإحرام ، غير الوطء ، كالتطيب والحلق . [انظر تفصيل هذا وشروط الهدى فى كتاب فقه السنة للشيخ سيد سابق ١/٥٣١] .

(٢) التمتع : هو الاعتمار فى أشهر الحج ، ثم يحج من عامه الذى اعتمر فيه ، وسمى تمتعاً للانتفاع بأداء النسكين فى أشهر الحج فى عام واحد ، من غير أن يرجع إلى بلده . وصفة التمتع أنْ يُحرم من الميقات بالعمرة وحدها ، ويقول عند التلبية « لبيك بعمرة » ويؤدى مناسك العمرة ، ثم يتحلل من إحرامه ويتمتع بكل ما كان مُحرماً عليه إلى أن يجىء يوم التروية ، فيحرم من مكة بالحج . وهذا يجب عليه الهَدْى [فقه السنة ١/٤٦٥ ، ٤٦٦] .

وليس معى نقود ، فماذا أفعل ؟ يريد أن يصوم . صحيح : كيف سيُؤدى ما عليه وقد أنفق كُلَّ ما معه ؟ فكنت أقول له : اعْطنى حقيبة سفرك ، وسأبيع ما بها ، ولن أُبقى لك إلا ما يكفيك من نفقات حتى تعود .

أليست هذه كلها من المنافع ؟

ومن منافع الحج أن الحاجَّ منذ أنْ ينوى أداء هذه الفريضة ويُعد نفسه لها إعداداً مادياً ، وإعداداً نفسياً معنوياً ، فيحاول أنْ يُعيد حساباته من جديد ، ويُصلح من نفسه ما كان فاسداً ، وينتهى عَمَّا كان يقع فيه من معصية الله ، ويُصلح ما بينه وبين الناس ، إذن : يجرى عملية صَقْل خاصة تُحوِّله إلى إنسان جديد يليق بهذا الموقف العظيم ، ويكون أَهْلاً لرؤية بيت الله والطواف به .

ومن الإعداد للحج أنْ يتعلّم الحاجُّ ما له وما عليه ، ويتأدب بآداب الحج فيعرف محظوراته وما يحرُم عليه ، وأنه سوف يتنازل عن هنْدامه وملابسه التى يزهو بها ، ومكانته التى يفتخر بها بين الناس ، وكيف أن الإحرام يُسوِّى بين الجميع .

يتعلم كيف يتأدَّب مع نفسه ، ومع كل أجناس الكون من حوله[1] ، مع نفسه فلا يُفكّر فى معصية ، ولا تمتدّ يده حتى على شعرة من شعره ، أو ظُفْر من أظافره ولا يقْربُ طيباً ، ولا حتى صابونة لها رائحة .

والعجيب أن الحاج ساعة يدخل فى الإحرام يحرص كل الحرص

---

(١) يقصد صيد المحرم بالحج أو العمرة ، يقول تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ .. ﴿٩٥﴾ ﴾ [المائدة] ، ويقول أيضاً : ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا .. ﴿٩٦﴾ ﴾ [المائدة] .

على هذه الأحكام ، وأتحدى أىَّ إنسان ينوى الحج ويأخذ فى الإحرام به ، ثم يفكر فى معصية ؛ لأنه يُعِدُّ نفسه لمرحلة جديدة يتطهر فيها من الذنوب ، فكيف يكتسب المزيد منها وقد أتى من بلاد بعيدة ليتطهر منها ؟

وفى الحجِّ يتأدب الحاج مع الحيوان ، فلا يصيده ولا يقتله ، ومع النبات فلا يقطع شجراً . يتأدب حتى مع الجماد الذى يعتبره أدْنى أجناس الكون ، فيحرص على تقبيل الحجر الأسود ، ويجتهد فى الوصول إليه ، فإنْ لم يستطع أشار إليه بيده .

إن الحج التزام وانضباط يفوق أىَّ انضباط يعرفه أهل الدنيا فى حركة حياتهم ، ففى الجج ترى هذا الإنسان السيد الأعلى لكل المخلوقات كَمْ هو منكسر خاضع مهما كانت منزلته ، وكم هى طمأنينة النفس البشرية حين تُقبِّل حجراً وهى راضية خاضعة ، بل ويحزن الإنسان إذا لم يتمكن من تقبيل الحجر .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِى أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ .. (٢٨)﴾ [الحج]

يذكروا اسم الله ؛ لأن كل أعمال الحج مصحوبة بذكر الله وتلبيته ، فَمَا من عمل يُؤدِّيه الحاجّ إلا ويقول : لبيك اللهم لبيك . وتظل التلبية شاغله ودَيْدنه إلى أنْ يرمى جمرة العقبة ، ومعنى « لبيك اللهم لبيك » أن مشاغل الدنيا تطلبنى ، وأنت طلبتنى لأداء فَرْضك علىَّ ، فأنا أُلبِّيك أنت أولاً ؛ لأنك خالقى وخالق كل ما يشغلنى ويأخذنى منك .

والأيام المعلومات هى : أيام التشريق[١] .

ومعنى : ﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ .. (٢٨)﴾ [الحج] أى : يشكرون الله على هذا الرزق الوقتى الذى يأكلون منه ويشربون ، ويبيعون ويشترون فى أوقات الحج . أو يشكرون الله على أنْ خلقَ لهم هذه الأنعام ، وإنْ لم يحجُّوا ، ففى خَلْق الأنعام - وهى الإبل والبقر والغنم والماعز - وتسخيرها للإنسان حكمة بالغة ، ففضلاً عن الانتفاع بلحمها وألبانها وأصوافها وأوبارها اذكروا الله واشكروه أنْ سخَّرها لكم ، فلولا تسخير الله لها لَمَا استطعتُم أنْ تنتفعوا بها ، فالجمل مثلاً هذا الحيوان الضخم يقوده الطفل الصغير ، ويُنيخه ويحمله فى حين لم يستطع الإنسان تسخير الثعبان مثلاً أو الذئب .

لذلك يقول تعالى : ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (٧١) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ .. (٧٢)﴾ [يس]

لذلك نذكر الله ونشكره على ما رزقنا من بهيمة الأنعام استمتاعاً بها أكْلاً ، أو استمتاعاً بها بَيْعاً أو زينة ، كما قال تعالى : ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ (٦)﴾ [النحل]

---

(١) ذكر ابن كثير فى تفسيره (٣/٢١٧) أربعة أقوال فى تأويل الأيام المعلومات :

- أيام العشر الأُوَل من شهر ذى الحجة . قاله ابن عباس وأبو موسى الأشعرى ومجاهد وغيرهم وهو مذهب الشافعى والمشهور عن أحمد بن حنبل .
- يوم النحر وثلاثة أيام بعده . وهو أيام ١٠ ، ١١ ، ١٢ ، ١٣ من شهر ذى الحجة وهى المسماة بأيام التشريق . قاله ابن عباس وابن عمر وإليه ذهب أحمد بن حنبل فى رواية عنه .
- يوم النحر ويومان بعده . قاله ابن عمر والسدى وهو مذهب مالك .
- يوم عرفة ويوم النحر وأيام التشريق . قاله زيد بن أسلم أى أيام ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ١٢ ، ١٣ من شهر ذى الحجة .

ولولا أن الله تعالى ذَلَّلها لِخدمتك ما استطعْتَ أنت تذليلها والانتفاع بها ؛ لذلك من حكمة الله أنْ يترك بعض خَلْقه غير مُسْتأنس ، ولا يمكن لك بحال أن تستأنسه أو تُذلّله لتظل على ذِكْر لهذه النعمة ، وتشكر الله عليها .

وسبق أن ضربنا مثلاً بالبرغوث ، وهو من أدْنى هذه المخلوقات ، ولا تكاد تراه ، ومع ذلك لا تقدر عليه ، وربما أقضَّ مَضْجعك ، وأقلق نومك طوال الليل . وتلمس هذه النعمة فى الجمل الذى يقوده الصبى الصغير ، إذا حرن[1] منك فلا تستطيع أن تجعله يسير رغماً عنه ، أو صَالَ فلا يقدر عليه أحد ، وقد يقتل صاحبه ويبطش بمَنْ حوله .

إذن : لا قدرة لك عليه بذاتك ، إنما بتذليل الله يمكن الانتفاع به ، فتسوقه إلى نَحْره ، فيقف ساكناً مُسْتسلماً لك .

والمتأمل فى حال الحيوانات التى أحلها الله لنا يجد أمرها عجيباً ، فالحيوان الذى أحلَّه الله لك تظل تنتفع به طوال عمره ، فإذا ما تعرّض لما يُزهِق روحه ، ماذا يفعل ؟ يرفع رأسه إلى أعلى ، ويعطيك مكان ذَبْحه ، وكأنه يقول لك : أنا فى اللحظات الأخيرة فاجتهد فى أنْ تنتفع بلحمى ، وأهل الريف إذا شاهدوا مثل هذه الحالة يقولون : طلب الحلال يعنى الذبح . أما الحيوان الذى لا يُذبح ولا يُحله الله فيموت مُنكَّس الرأس ؛ لأنه لا فائدة منه .

هذا الحيوان الذى نتهمه بالغباء ونقول أنه بهيم .. الخ لو فكرتَ

---

(١) حرنت الناقة : قامت فلم تبرح . [أى : رفضت السير] . لا تنقاد ، إذا استُدِر [طُلِب منها] جريها وقفت . [لسان العرب ـ مادة : حرن] .

فيه لَتغيَّر رأيُك ، فالحمار الذى نتخذه رَمْزاً للغباء وعدم الفَهْم تسوقه أمامك وتُحمِّله القاذورات وتضربه فلا يعترض عليك ولا يخالفك ، فإنْ نظفْته وزيَّنْتَه بلجام فضة ، وبردعة قطيفة تتخذه رُكُوبة وزينة ويسير بك ويحملُك ، وأنت على ظهره ، فإنْ غضبتَ عليه واستخدمْته فى الأحمال وفى القاذورات تحمَّل راضياً مطيعاً..

وانظر إلى هذا الحمار الذى نتخذه مثالاً للغباء ، إذا أردتَ منه أن يقفز قناة أوسع من مقدرته وإمكانياته ، فإنه يتراجع ، ومهما ضربتَه وقسوْتَ عليه لا يُقدِم عليها أبداً ؛ لأنه يعلم مدى قفزته ، ويعلم مقدرته ، ولا يُقدِم على شىء فوق ما يطيق - وبعد ذلك نقول عنه : حمار !!

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿فَكُلُوا[1] مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ (٢٨)﴾ [الحج]

البائس : هو الذى يبدو على سحْنته وشكله وزيِّه أنه فقير محتاج ، أما الفقير فهو محتاج الباطن ، وإنْ كانَ ظاهره اليُسْر والغنَى ، وهؤلاء الفقراء لا يلتفت الناس إليهم ، وربما لا يعلمون حالهم وحاجتهم ، وقد قال الله فيهم : ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا..(٢٧٣)﴾ [البقرة]

والمعنى : كُلُوا مما يُبَاح لكم الأكل منه ، وهى الصدقة المحضة ، أو الهدية للبيت غير المشروطة بشىء ، يعنى : لا هى دم قِرَان أو

---

(١) قال أبو بكر الجصاص (ت ٣٧٠ هـ) فى كتابه « أحكام القرآن » ط . دار الكتب العلمية (٣/٣٠٧) : « ظاهره يقتضى إيجاب الأكل ، إلا أن السلف متفقون على أن الأكل منها ليس على الوجوب ، وقد رُوى عن عطاء والحسن وإبراهيم ومجاهد قالوا : « إن شاء أكل ، وإن شاء لم يأكل » .

تمتُّع ، ولا هـى فدية لمخـالفة أمـر من أمور الإحـرام ، أو كانت نذراً فهذه كلها لا يؤكَل منها[١] .

إذن : كلوا من الصدقة والتطوع ، وأطعموا كذلك البائس والفقير ، ومن رحمة الله بالفقراء أنْ جعل الأغنياء والمـياسير هم الذين يبحثون عن الذبائح ويشتـرونها ويذهبون لمكان الذبح ويـتحمَّلون مشـقة هذا كله ، ثم يبحثون عن الفقير ليـعطوه وهو جالس فى مكانه مستريحاً ، يأتيه رِزْقه من فَضْل الله سهلاً مُيسّراً .

لذلك يقـولون : من شـرف الفقـير أنْ جـعله الله ركناً من أركـان إسلام الـغنىّ ، أى : فى فريضـة الزكاة ، ولم يجـعل الغنى ركناً من أركان إسلام الفقير .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ[٢] وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ﴾

---

(١) قال الجصـاص فى « أحكام القرآن » (٣/ ٣٠٧) : « الناس فى دم القران والمـتعة على قـولين : منهم مَنْ لا يـجيـز الأكل منـه . ومنهم من يبـيح الأكل منه ولا يوجـبـه » وقـال الشافعى فى كتـاب الأم (٢/ ٣٤٠) : « الهدى هديان : واجب وتطوع ، فكل ما كان أصله واجباً على إنسان ليس له حبسه ، فلا يأكل منه شيئاً وذلك مثل : هدى الفساد والطيب وجزاء الصيد والنذور والمتعة ، وإن أكل من الهدى الواجب تصدق بقيمة ما أكل منه . وكل ما كان أصله تطوعاً مثل الضحـايا والهدايا تطوعاً أكل منه وأطعم وأهدى وادخر وتصدق ، وأحبّ إلىّ أن لا يأكل ولا يحبس إلا ثلثاً ويهدى ثلثاً ويتصدق بثلث » .

(٢) قال الزجاج : لا يعـرف أهل اللغة التفث إلا من التفسـير . وقال أبو عبيـدة : لم يجىء فيه شعـر يحتج به . وقـال ابن الأعرابى : ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ .. ﴿٢٩﴾﴾ [الحج] . قال : قـضاء حوائجهم من الحلق والتنظيف . [لسان العرب ـ مادة : تفث] .

﴿لْيَقْضُوا .. (٢٩)﴾ [الحج] كلمة قضاء تُقال ، إما لقضاء الله الذى يقضيه على الإنسان مثلاً ، وهو أمر لازم محكوم به ، وإما قضاء من إنسان بين متخاصمين ، وأول شىء فى مهمة القضاء أن يقطع الخصومة ، كأن المعنى ﴿لْيَقْضُوا .. (٢٩)﴾ [الحج] أى : يقطعوا .

ومعنى ﴿تَفَثَهُمْ .. (٢٩)﴾ [الحج] لما نزل القرآن بهذه الكلمة لم تكن مستعملة فى لسان قريش ، ولم تكن دائرة على ألسنتهم ، فسألوا عنها أهل البادية ، فقالوا : التفَثُ يعنى : الأدران والأوساخ التى تعلَقُ بالجسم ، فقالوا : والله لم نعرفها إلا ساعةَ نزل القرآن بها .

فالمراد - إذن - ليقطعوا تفثهم أى الأدران التى لحقتهم بسبب التزامهم بأمور الإحرام ، حيث يمكث الحاجُّ أيام الحج مُحْرِماً لا يتطيب ، ولا يأخذ شيئاً من شعره أو أظافره ، فإذا ما أنهى أعمال الحج وذبح هَدْيه يجوز له أنْ يقطع هذا التفث ، ويزيل هذه الأدران بالتحلُّل من الإحرام ، وفعْل ما كان محظوراً عليه .

وقوله تعالى : ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ .. (٢٩)﴾ [الحج] إن كان قد نذر لله شيئاً فعليه الوفاء به .

﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ (٢٩)﴾ [الحج] يعنى : طواف الإفاضة ، والطواف : أنْ تدور حول شىء بحيث تبدأ وتنتهى ، وتبدأ وتنتهى ، وهكذا ، وقد وصف البيت بأنه عتيق ، وكلمة عتيق استعملت فى اللغة استعمالات واسعة ، منها : القديم ، وما دام هو أول بيت وُضِع للناس فهو إذن قديم ، والقدَم هنا صفة مدح ؛ لأنها تعنى الشىء الثمين الذى يُحافظ عليه ويُهتَم به .

كما نرى عند بعض الناس أشياء ثمينة ونادرة يحتفظون بها

ويتوارثونها يسمونها « العاديات » مثل : التحف وغيرها ، وكلما مَرَّ عليها الزمن زادتْ قيمتها ، وغلا ثمنها .

والعتيق : الشيء الجميل الحسن ، والعتيق : المعتوق من السيطرة والعبودية لغيره ، فما المراد بوصف البيت هنا بأنه عتيق ؟

وَصْف البيت بالقِدَم يشمل كُلَّ هذه المعانى : فهو قديم ؛ لأنه أول بيت وُضِع للناس ، وهو غالٍ ونفيس ونادر حيث نرى فيه مَا لا نراه فى غيره من آيات ، ويكفى أن رؤيته والطواف به تغفر الذنوب ، وهو بيت الله الذى لا مثيلَ له .

وهو كذلك عتيق بمعنى معتوق من سيطرة الغير ؛ لأن الله حفظه من اعتداء الجبابرة ، ألاَ ترى قصة الفيل ، وما فعله الله بأبرهة حين أراد هَدْمه ؟ حتى الفيل الذى كان يتقدَّم هذا الجيش أدرك أن هذا اعتداءٌ على بيت الله ، فتراجع عن البيت ، وأخذ يتوجَّه أى وجهة أرادوا إلا ناحية الكعبة .

ويُقال : إن رجلاً[1] تقدّم إلى الفيل . وقال فى أذنه : ابْرُك محمود - اسم الفيل - وارجع راشداً فإنك ببلد الله الحرام . وقد عبَّر الشاعر[2] عن هذا الموقف ، فقال :

حُبِسَ الفيل بالمُغَمَّسِ حَتَّى ظَلَّ يعوى كأنه مَعْقُور[3]

ثم ينزل الله عليهم الطير الأبابيل التى ترميهم بالحجارة حتى الموت .

---

(١) هو : نفيل بن حبيب الخثعمى . فيما ذكره ابن هشام فى السيرة النبوية (١/٥٢) .

(٢) هو : أمية بن أبى الصلت بن أبى ربيعة الثقفى .

(٣) ذكر ابن هشام فى السيرة النبوية (١ / ٦٠) هذا البيت ضمن أبيات أخرى لأمية بن أبى الصلت .

لذلك لما ذهب عبد المطلب جَدُّ الرسول ﷺ ليُكلِّم أبرهة فى الإبل المائة التى أخذها من إبله ، قال أبرهة : لقد كنتُ أهابك[1] حين رأيتُك ، لكنك سقطت من نظرى لما كلَّمتنى فى مائة بعير أصبْتها لك ، وتركتَ البيت الذى فيه مجدُكم وعزكم .

فماذا قال عبد المطلب ؟ قال : أما الإبل فإنها لى ، أما البيت فله رَبٌّ يحميه .

البعض يتهم عبد المطلب لمقالته هذه بالسلبية ، وليست هذه سلبية من كبير قريش ، إنما ثقةٌ منه فى حماية الله لبيته ؛ لذلك رَدَّه إلى أقوى منه ، وكأنه قال : إنْ كنتُ أحميه أنا ، فسأحميه بقوتى وقدرتى وحيلتى ، لكننى أريد أنْ أرعبه بقدرة الله وقوته ، وما سلَّمتُ البيت إلاَّ وأنا واثق أن ربَّ البيت سيحميه ، وهذه تُزلزل العدو وتُربكه .

وما أشبه موقف عبد المطلب بموقف موسى عليه السلام ، لما قال له قومه : ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١)﴾ [الشعراء] فقال فى يقين وثقة : ﴿كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢)﴾ [الشعراء]

إذن : لم يَكُنْ عبد المطلب سلبياً كما يتهمه البعض ، بل كان إيجابياً من النوع الراقى ، فلو كان إيجابياً بالمعنى الذى تريدون لأعطتْه هذه الإيجابية منعةً بقوته هو ، إنما تصرُّفه وما تعتبرونه سلبية أعطاه منعةً بقدرة الله وقُوَّته سبحانه ؛ لذلك تدخَّلتْ فوراً جنود السماء .

---

(١) ويذكر ابن هشام فى السيرة النبوية (١/ ٤٩) أن « عبد المطلب كان أوسم الناس وأجملهم وأعظمهم ، فلما رآه أبرهة أجلَّه وأعظمه وأكرمه عن أن يُجلسه تحته ، وكره أن تراه الحبشة يجلس معه على سرير مُلكه فنزل أبرهة عن سريره ، فجلس على بساطه ، وأجلسه معه عليه إلى جنبه » .

لكن ، لماذا الطواف والدوران حول الكعبة ؟

قالوا : لأن المسلم وهو غائب عن الكعبة يُصلِّى لجهتها ، كلّ حسب موقعه منها ، فتجد المسلمين فى كل أنحاء العالم يتجهون نحوها ، كل من ناحية ، هذا من الشمال ، وهذا من الجنوب ، وهذا من الشرق ، وهذا من الغرب ، يعنى بكل الجهات الأصلية والفرعية .

فإذا ما ذهبتَ إلى الكعبة ذاتها ، وتشرفتَ برؤيتها ، فهل تستقبلها من نفس المكان الذى كنتَ تتجه إليه فى صلاتك وغيرك وغيرك ؟ إذن : فكل اتجاهات الكعبة سواء لك ولغيرك ، كما قال تعالى : ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ .. ﴿١١٥﴾﴾ [البقرة] فليس هناك مكان أَوْلَى من مكان ؛ لذلك نطوف حول البيت .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ(١) وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿٣٠﴾﴾

﴿ذَٰلِكَ .. ﴿٣٠﴾﴾ [الحج] إشارة إلى الكلام السابق بأنه أمْر واضح ، لكن استمع إلى أمر جديد سيأتى ، فهنا استئناف كلام على كلام سابق ، فبعد الكلام عن البيت وما يتعلَّق به من مناسك الحج يستأنف السياق :

---

(١) الأوثان : جمع وثن ، وهو التمثال من خشب أو حديد أو ذهب أو فضة ونحوها وكانت العرب تنصبها وتعبدها ، والنصارى تنصب الصليب وتعبده وتعظمه فهو كالتمثال أيضاً . وقال عدى ابن حاتم : أتيت النبى ﷺ وفى عنقى صليب من ذهب فقال : « ألق هذا الوثن عنك » أى : الصليب وأصله من وثن الشىء أى : أقام فى مقامه . [تفسير القرطبى ٦/٤٥٨٥] .

﴿ وَمَن يُعَظِّمْ ... خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ .. ﴿٣٠﴾ ﴾ [الحج] فالحق ـ سبحانه ـ يريد لعبده أنْ يلتزمَ أوامره بفعل الأمر واجتناب النهى ، فكُلُّ أمر لله يَحرُم عليك أن تتركه ، وكلّ نَهْى يحرم عليك أنْ تأتيه ، فهذه هى حرمات الله التى ينبغى عليك تعظيمها بطاعة الأمر واجتناب النهى .

وحين تُعظِّم هذه الحرمات لا تُعظمها لذاتها ، فليس هناك شىء له حُرْمة فى ذاته ، إنما تُعظِّمها لأنها حرمات الله وأوامره ؛ لذلك قد يجعل الالتزام بها مُتغيّراً ، وقد يطرأ عليك ما يبدو متناقضاً فى الظاهر .

فالوضوء مثلاً ، البعض يرى فيه نظافة للبدن ، فإذا انقطع الماء وعُدِم وجوده حَلَّ محلّه التيمُم بالتراب الطاهر الذى نُغبِّر به أعضاء التيمم ، إذن : ليس فى الأمر نظافة ، إنما هو الالتزام والانقياد واستحضار أنك مُقْبل على أمر غير عادى يجب عليك أنْ تتطَّهر له بالوضوء ، فإنْ أمرتُكَ بالتيمم فعليك الالتزام دون البحث فى أسباب الأمر وعِلّته .

وهكذا يكون الأدب مع الأوامر وتعظيمها ؛ لأنها من الله ، ولِمَ لا ونحن نرى مثل هذا الالتزام أو رياضة التأديب فى الالتزام فى تعاملاتنا الطبيعية الحياتية ، فمثلاً الجندى حين يُجنَّد يتعلم أول ما يتعلم الانضباط قبل أنْ يُمسك سلاحاً أوْ يتدرب عليه ، يتعلم أن كلمة « ثابت » معناها عدم الحركة مهما كانت الظروف فلو لَدغه عقرب لا يتحرك .

ويدخل المدرب على الجنود فى صالة الطعام فيقول : ثابت فينفذ الجميع .. الملعقة التى فى الطبق تظل فى الطبق ، والملعقة التى فى

فم الجندى تظل فى فمه ، فلا ترى فى الصالة الواسعة حركة واحدة . وهذا الانضباط الحركى السلوكى مقدمة للانضباط فى الأمور العسكرية الهامة والخطيرة بعد ذلك .

إذن : فربُّك ـ عز وجل ـ أَوْلَى بهذا الانضباط ؛ لأن العبادة ما هى إلا انضباط عابد لأوامر معبود وطاعة مطلقة لا تقبل المناقشة ؛ لأنك لا تؤديها لذاتها وإنما انقياداً لأمر الله ، ففى الطواف تُقبِّل الحجر الأسود ، وفى رمى الجمار ترمى حجراً ، وهذا حجر وذاك حجر ، هذا ندوسه وهذا نُقبِّله فَحَجر يُقَبَّل وحَجر يُقَنْبل ؛ لأن المسألة مسألة طاعة والتزام ، هذا كله من تعظيم حرمات الله .

لذلك الإمام على ـ رضى الله عنه ـ يلفتنا إلى هذه المسألة فيقول فى التيمم : لو أن الأمر كما نرى لكان مسح باطن القدم أَوْلَى من ظاهرها[1] ؛ لأن الأوساخ تعلق بباطن القدم أولاً .

وقد ذكرنا فى الآيات السابقة أن الحرمات خمس : البيت الحرام ، والمسجد الحرام ، والبلد الحرام ، والمشعر الحرام ، والشهر الحرام ، وحرمات الله هى الأشياء المحرمة التى يجب ألاَّ تفعلها .

ثم يُبيِّن الحق سبحانه جزاء هذا الالتزام : ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ .. ﴿٣٠﴾﴾ [الحج] الخيرية هنا ليست فى ظاهر الأمر وعند الناس أو فى ذاته ، إنما الخيرية للعبد عند الله .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الأَنْعَامُ إِلاَّ مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ .. ﴿٣٠﴾﴾ [الحج] قد تقول : كيف وهى حلال من البداية وفى الأصل ،

---

(١) روى أبو داود فى سننه (١٦٢) عن على بن أبى طالب أنه قال : لو كان الدين بالرأى لكان أسفل الخف أَوْلَى بالمسح من أعلاه ، وقد رأيت رسول الله ﷺ يمسح على ظاهر خفيه ، وفى رواية أخرى (١٦٤) : لو كان الدين بالرأى لكان باطن القدمين أحق بالمسح من ظاهرهما .

قالوا : لأنه لما حرَّم الصيد قد يظن البعض أنه حرام دائماً فلا ينتفعون بها ، فبيَّن سبحانه أنها حلال إلا ما ذُكر تحريمه ، ونصَّ القرآن عليه فى قوله تعالى : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ(١) وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالأَزْلاَمِ .. (٣) ﴾ [المائدة]

وقوله تعالى : ﴿ وَلا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ .. (١٢١) ﴾ [الأنعام]

ومعنى : ﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ .. (٣٠) ﴾ [الحج] الرجْس : النجاسة الغليظة المتغلغلة فى ذات الشىء . يعنى : ليست سطحية فيه يمكن إزالتها ، وإنما هى فى نفس الشىء لا يمكن أنْ تفصلها عنه .

﴿ وَاجْتَنِبُوا .. (٣٠) ﴾ [الحج] لا تدل على الامتناع فقط ، إنما على مجرد الاقتراب من دواعى هذه المعصية ؛ لأنك حين تقترب من دواعى المعصية وأسبابها لا بُدَّ أن تداعبك وتشغل خاطرك ، ومَنْ حام حول الشىء يوشك أنْ يقع فيه ، لذلك لم يقُل الحق ـ سبحانه وتعالى ـ امتنعوا إنما قال : اجتنبوا ، ونعجب من بعض الذين أسرفوا على أنفسهم ويقولون : إن الأمر فى اجتنبوا لا يعنى تحريم الخمر ، فلم يَقُلْ : حُرِّمَتْ عليكم الخمر .

نقول : اجتنبوا أبلغ فى النهى والتحريم وأوسع من حُرِّمَتْ عليكم ، لو قال الحق ـ تبارك وتعالى ـ حُرِّمت عليكم الخمر ، فهذا يعنى أنك لا تشربها ، ولكن لك أن تشهد مجلسها وتعصرها وتحملها

---

(١) المنخنقة : البهيمة التى التف حبلها حول عنقها فخنقها فماتت . والموقوذة : هى الحيوان الذى وُقذ (ضُرِب) بعصاً أو حجر حتى مات قبل أن يُذكَّى ذكاة شرعية . والمتردية : هى التى ماتَت بسبب سقوطها فى حفرة . والنطيحة : ما ماتت بسبب النطح . [القاموس القويم] .

وتبيعها ، أما اجتنبوا فتعنى : احذروا مجرد الاقتراب منها على أىٍّ وجه من هذه الوجوه .

لذلك ، تجد الأداء القرآنى للمطلوبات المنهجية فى الأوامر والنواهى من الله يُفرِّق بين حدود ما أحلَّ الله وحدود ما حرَّم ، ففى الأوامر يقول : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا .. (٢٢٩) ﴾ [البقرة]

وفى النواهى يقول : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوهَا .. (١٨٧) ﴾[البقرة]

ففى الأوامر وما أحلَّ الله لك قفْ عند ما أحلَّ ، ولا تتعداه إلى غيره ، أمَّا المحرمات فلا تقترب منها مجردَ اقتراب ، فلما أراد الله نَهْى آدم وحواء عن الأكل من الشجرة قال لهما : ﴿ وَلا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ الشَّجَرَةَ .. (٣٥) ﴾ [البقرة]

وبعد أن أمر الحق سبحانه باجتناب الرجْس فى عبادة الأصنام قال : ﴿ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ (٣٠) ﴾ [الحج] فقرن عبادة الأوثان بقول الزُّور ، كأنهما فى الإثم سواء ؛ لذلك النبى ﷺ سلَّم يوماً من صلاة الصبح ، ثم وقف وقال : « ألا وإن شهادة الزور جعلها الله بعد الأوثان »[1] .

لماذا ؟ لأن فى شهادة الزور جماع لكل حيثيات الظلم ، فساعةَ يقول : ليس للكون إله ، فهذه شهادة زور ، وقائلها شاهد زور ، ساعة يقول : الإله له شريك فهذه شهادة زور ، وقائلها شاهد زور ، كذلك حين يظلم أو يُغير فى الحقيقة ، أو يذمُّ الآخرين ، كلها داخلة تحت شهادة الزور .

---

(١) عن خريم بن فاتك الأسدى قال : « صلى رسول الله ﷺ صلاة الصبح ، فلما انصرف قائماً قال : عدلت شهادة الزور الإشراك بالله (ثلاثاً) ، ثم تلا هذه الآية ﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ (٣٠) ﴾ [الحج] » أخرجه أحمد فى مسنده (٤/٣٢١) ، والترمذى فى سننه (٢٣٠٠) ، وأبو داود فى سننه (٣٥٩٩) .

ولما عدَّد النبى ﷺ الكبائر ، قال : « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ قلنا : بلى يا رسول الله . قال : الإشراك بالله وعقوق الوالدين ـ وكان متكئاً فجلس ـ فقال : ألا وقول الزور ألا وقول الزور ، قال الراوى : فما زال يكررها حتى قلنا (ليته سكت) أو حتى ظننا أنه لا يسكت»[(١)] .

ويقولون فى شاهد الزور : يا شاهد الزور أنت شر منظور ، ضلَّلتَ القُضاة ، وحلفت كاذباً بالله .

ومن العجيب فى شاهد الزور أنه أول ما يسقط من نظر الناس يسقط من نظر مَنْ شهد لصالحه ، فرغم أنه شَهد لصالحك ، ورفع رأسك على خَصْمك لكن داستْ قدمك على كرامته وحقَّرته ، ولو تعرَّض للشهادة فى قضية أخرى فأنت أول مَنْ تفضحه بأنه شهد زوراً لصالحك .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ﴾

اكتفتْ الآية بذكر صفتين فقط من صفات كثيرة على وجه الإجمال ، وهما حنفاء لله ، غير مشركين به . وحنفاء : جمع حنيف ،

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٩٧٦) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٨٧) من حديث أبى بكرة . قال ابن دقيق العيد : « اهتمامه ﷺ بشهادة الزور يحتمل أن يكون لأنها أسهل وقوعاً على الناس ، والتهاون بها أكثر ، ومفسدتها أيسر وقوعاً ؛ لأن الشرك ينبو عنه المسلم ، والعقوق ينبو عنه الطبع ، وأما قول الزور فإن الحوامل عليه كثيرة فحسُنَ الاهتمام بها ، وليس ذلك لعظمها بالنسبة إلى ما ذكر معها » .

مأخوذة من حنف الرِّجل يعنى : تقوُّسها وعدم استقامتها ، فيقال : فيه حَنَف أى : ميْل عن الاستقامة ، وليس الوصف هنا بأنهم مُعْوجون ، إنما المراد أن الاعوجاج عن الاعوجاج استقامة .

لذلك وُصف إبراهيم ـ عليه السلام ـ بأنه ﴿كَانَ حَنِيفًا .. (٦٧)﴾ [آل عمران] يعنى : مائلاً عن عبادة الأصنام .

وقلنا : إن السماء لا تتدخَّل برسالة جديدة إلا حين يَعمُّ الفسادُ القومَ ، ويستشرى بينهم الضلال ، وتنعدم أسباب الهداية ، حيث لا واعظَ للإنسان لا من نفسه وضميره ، ولا من دينه ، ولا من مجتمعه وبيئته ؛ ذلك لأن فى النفس البشرية مناعةً للحق طبيعية ، لكن تطمسها الشهوات ، فإذا عُدِم هذا الواعظ وهذه المناعة فى المجتمع تدخَّلَتْ السماء بنبى جديد ، ورسالة جديدة ، وإنذار جديد ؛ لأن الفساد عَمَّ الجميع ، ولم يَعُدْ أحد يعظُ الآخر ويهديه .

وهذا المعنى الذى قال الله فيه : ﴿كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٧٩)﴾ [المائدة]

ومن هنا شهد الله لأمة محمد ﷺ أنها خير أمة أُخرِجَتْ للناس ؛ لأن المناعة للحق فيها قائمة ، ولها واعظ من نفسها يأمر بالخير ، ويأخذ على يد المنحرف حتى يستقيم ؛ لذلك قال فيها النبى ﷺ : « الخير فىَّ وفى أمتى إلى يوم القيامة »[1] .

والمعنى : الخير فىَّ حصراً وفى أمتى نَثْراً ، فرسول الله ﷺ جمع خصال الخير كله ، وخَصَّه الله بالكمال ، لكن مَنْ يُطيق الكمال

---

(١) أورده السيوطى فى « الدرر المنتثرة فى الأحاديث المشتهرة » (حديث ٢٢٠) وقال : « قال الحافظ ابن حجر : لا أعرفه » وقال ابن حجر المكى فى الفتاوى الحديثية : « لم يرد بهذا اللفظ ، وإنما يدل على معناه الخبر المشهور : لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق » نقله العجلونى فى كشف الخفاء (١/٤٧٦) .

المحمدى من أمته ؟ لذلك نثر الله خصال الخير فى جميع أمة محمد ، فأخذ كلّ واحد منهم صفةً من صفاته ، فكماله ﷺ منثور فى أمته : هذا كريم ، وهذا شجاع ، وهذا حليم .. إلخ .

ولما كان لأمة محمد هذا الدور كان هو خاتم الأنبياء ؛ لأن أمته ستؤدى رسالته من بعده ، فلا حاجة - إذن - لتدخل السماء برسالة جديدة إلى أن تقوم الساعة .

إذن نقول : الرسل لا تأتى إلا عند الاعوجاج ، يأتون هم ليُقوِّموا هذا الاعوجاج ، ويميلون عنه إلى الاستقامة ، هذا معنى الحنيف أو ﴿حُنَفَاءَ لِلَّهِ .. (٣١)﴾ [الحج]

وهذه الصفة هى مقياس الاستقامة على أوامر الله لا على أوامر البشر ، فنحن لا نضع لأنفسنا أسبابَ الكمال ثم نقول : ينبغى أن يكون كذا وكذا ، لا إنما الذى يضع أسباب الكمال للمخلوق هو الخالق .

والحق - سبحانه وتعالى - ليس مراده من الفعل أنْ يُفعل لذاته ولمجرد الفعل ، إنما مراده من الفعل أنْ يُفعل لأنه أمر به ، وقد أوضحنا هذه المسألة بالكافر الذى يفعل الخير وينفع الناس والمجتمع ، لكن ليس من منطلق الدين وأمر الله ، إنما من منطلق الإنسانية والمكانة الاجتماعية والمهابة والمنزلة بين الناس ، ومثل هذا لا يجحفه الله حقَه ، ولا يبخسه ثواب عمله ، يعطيه لكن فى الدنيا عملاً بقول الله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً (٣٠)﴾ [الكهف]

لكن لا حَظَّ لهؤلاء فى ثواب الآخرة ؛ لأنهم عملوا للمجتمع وللناس وللمنزلة ، وقد أخذوا المقابل فى الدنيا شُهْرة وصيتاً ذائعاً ، ومكانة وتخليداً .

وفى الحديث القدسى يقول الحق سبحانه لهم : « لقد فعلْتَ ليُقال وقد قيل »[١] وانتهت المسألة .

والحق - تبارك وتعالى - ضرب لنا عدة أمثلة لهؤلاء ، فقال : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩) ﴾ [النور]

فعمل الكافر كالسراب يتراءى له من بعيد ، يظن من ورائه الخير ، وهو ليس كذلك ، حتى إذا ما عاين الأمر لم يجد شيئاً ، وفُوجِىء بوجود إله عادل لم يكُنْ فى باله يوم عمل ما عمل .

وفى آية أخرى يقول سبحانه : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لاَّ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ .. (١٨) ﴾ [إبراهيم]

وقال : ﴿ كَالَّذِى يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ[٢] عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٢٦٤) ﴾ [البقرة]

وهل ينبت المطر شيئاً إذا نزل على الحجر الصَّلد الأملس ؟ هكذا

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن أول الناس يُقْضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتى به فعرفه نعمه فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : قاتلت فيك حتى استشهدت . قال : كذبت ، ولكنك قاتلت لأنْ يقال جرىء فقد قيل » ثم أُمر به فسُحب على وجهه حتى أُلقى فى النار » أخرجه مسلم فى صحيحه (١٩٠٥) وأحمد فى مسنده (٣٢٢/٢) والنسائى فى سننه (٢٣/٦ ، ٢٤) وذكر مثلين آخرين : رجل تعلم العلم وعلّمه . ورجل وسَّع الله عليه . وقد شرحه فضيلة الشيخ الشعراوى تفصيلاً فى « الأحاديث القدسية ١٣٥/١ - ١٥١ » .

(٢) الصفوان : الحجر الأملس الذى لا يصلح للزرع . ومثله الصلد . والوابل : المطر الغزير . [القاموس القويم] .

عمل الكافر ، فمن أراد ثواب الآخرة فليحقق معنى ﴿حُنَفَاءَ لِلَّهِ .. ﴿٣١﴾﴾ [الحج] ويعمل من منطلق أن الله أمر .

إذن : العمل لا يُفعَل ؛ لأنه حسن فى ذاته ، إنما لأن الله أمرك به ، بدليل أن الشارع سيأمرك بأمور لا تجد فيها حُسْناً ، ومع ذلك عليك أنْ تلتزم بها لتحقق الانضباط الذى أراده منك الشارع الحكيم ، وبعد ذلك سينكشف لك وجه الحُسْن فى هذا العمل ، وتعلم الحكمة منه .

خذ مثلاً موقف الإسلام من اليتيم ، وقد حث رسول الله ﷺ على رعايته وإكرامه وكفالته حتى أنه قال : « أنا وكافل اليتيم كهاتين فى الجنة ، وأشار بأصبعيه السبابة والوسطى »[1] فكافل اليتيم قرين لرسول الله فى الجنة .

ففى هذا الموقف حِكَم كثيرة ، قد لا يعلمها كثير من الناس ؛ لأن اليتيم فقد أباه وهو صغير ، ونظر فلم يَجِدْ له أباً ، فى حين يتمتع رفاقه بأحضان آبائهم ، فإذا لم يجد هذا الصغير حناناً من كل الناس كأنهم آباؤه لتربّى عنده شعور بالسُّخْط على الله والاعتراض على القدر الذى حرمه دون غيره من حنان الأب ورعايته .

لذلك يريد الإسلام أن ينشأ اليتيم نشأة سويّة فى المجتمع ، لا يسخط على الله ، ولا يسخط على الناس ؛ لأنهم جميعاً عاملوه كأنه ولد لهم .

وهناك ملحظ آخر : حين ترى مكانة اليتيم ، وكيف يرعاه المجتمع وينهض به يطمئن قلبك إنْ فاجأك الموت وأولادك صغار ،

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٣٠٤ ، ٦٠٠٥) ، وأبو داود فى سننه (٥١٥٠) من حديث سهل بن سعد الساعدى .

هذه مناعات يجعلها الإسلام فى المجتمع : مناعة فى نفس اليتيم ، ومناعة فيمَنْ يرعاه ويكفله .

وكفالة اليتيم وإكرامه لا بُدَّ أنْ تتم فى إطار ﴿حُنَفَاءَ لِلَّهِ .. (٣١)﴾ [الحج] فيكون عملك لله خالصاً ، دون نظر إلى شىء آخر من متاع الدنيا ، كالذى يسعى للوصاية على اليتيم لينتفع بماله ، أو أن له مطمعاً فى أمه .. إلخ فهذا عمله كالذى قُلْنا : (كسراب بقيعة) أو كرماد اشتدت به الريح أو كحجر أملس صلْد لا ينبت شيئاً .

فإنْ حاول الإنسان إخلاص النية لله فى مثل هذا العمل فإنه لا يأمن أنْ يخالطه شىء ، كما جاء فى الحديث الشريف : « اللهم إنى أستغفرك من كل عمل أردت به وجهك فخالطنى فيه ما ليس لك »[(١)] .

الصفة الثانية التى وصف الله بها عباده المؤمنين : ﴿غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ .. (٣١)﴾ [الحج] فالشرك أمر عظيم ؛ لأن الحق ـ تبارك وتعالى ـ كما قال فى الحديث القدسى ـ أغنى الشركاء عن الشرك ، فكيف تلجأ إلى غير الله والله موجود ؟

لذلك يقول سبحانه فى الحديث القدسى : « أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، مَنْ عمل عملاً أشرك فيه معى غيرى ، تركته وشِرْكه »[(٢)] .

ويعطينا الحق سبحانه بعدها صورة توضيحية لعاقبة الشرك : ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ الرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ (٣١)﴾ [الحج]

---

(١) ذكره ابن رجب الحنبلى فى كتابه « جامع العلوم والحكم » (ص ٢٧) من دعاء مطرف ابن عبد الله أنه كان يقول : اللهم إنى أستغفرك مما تبت إليك منه ، ثم عدت فيه ، وأستغفرك مما جعلته لك على نفسى ثم لم أفِ لك به ، وأستغفرك مما زعمت أنى أردت به وجهك فخالط قلبى منه ما قد علمت .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٩٨٥) وابن ماجة فى سننه (٤٢٠٢) واللفظ لمسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه .

خرَّ : يعنى سقط من السماء لا يُمسكه شىء ، ومنه قوله تعالى : ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ .. (٢٦)﴾ [النحل]

وفى الإنسان جمادية ؛ لأن قانون الجاذبية يتحكم فيه ، فإنْ صَعد إلى أعلى لا بُدَّ أنْ يعود إلى الأرض بفعل هذه الجاذبية ، لا يملك أنْ يُمسك نفسه مُعلَّقاً فى الهواء ، فهذا أمر لا يملكه وخارج استطاعته ، وفىَ الإنسان نباتية تتمثل فى النمو ، وفيه حيوانية تتمثل فى الغرائز ، وفيه إنسانية تتمثل فى العقل والتفكير والاختيار بين البدائل ، وبهذه كُرِّم عن سائر الأجناس .

وتلحظ أن (خرَّ) ترتبط بارتفاع بعيد ﴿خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ .. (٣١)﴾ [الحج] بحيث لا تستطيع قوة أنْ تحميه ، أو تمنعه لا بذاته ولا بغيره ، وقبل أنْ يصل إلى الأرض تتخطفه الطير ، فإنْ لم تتخطفه تهوى به الريح فى مكان بعيد وتتلاعب به ، فهو هالك هالك لا محالةَ ، ولو كانت واحدة من هذه الثلاث لكانت كافية .

وعلى العاقل أنْ يتأمل مغزى هذا التصوير القرآنى فيحذر هذا المصير ، فهذه حال مَنْ أشرك بالله ، فإنْ أخذتَ الصورة على أنها تشبيه حالة بحالة ، فها هى الصورة أمامك واضحة ، وإنْ أردتَ تفسيراً آخر يُوضِّح أجزاءها : فالسماء هى الإسلام ، والطير هى الشهوات ، والريح هى ريح الشيطان ، يتلاعب به هنا وهناك . فأىُّ ضياع بعد هذا ؟ ومَنْ ذا الذى ينقذه من هذا المصير ؟

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ (٣٢)﴾

﴿ذَٰلِكَ .. ﴿٣٢﴾﴾ [الحج] كما قلنا فى السابقة : إشارة إلى الكلام السابق الذى أصبح واضحاً معروفاً ، ونستأنف بعدها كلاماً جديداً تَنبَّه له .

﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ .. ﴿٣٢﴾﴾ [الحج] الشعائر : جمع شعيرة ، وهى المعالم التى جعلها الله لعباده لينالوا ثوابه بتعظيمها ، فالإحرام شعيرة ، والتكبير شعيرة ، والطواف شعيرة ، والسَّعْى شعيرة ، ورمْى الجمار شعيرة .. إلخ . وهذه أمور عظّمها الله ، وأمرنا بتعظيمها[1] .

وتعظيم الشىء أبلغ وأشمل من فعْله ، أو أدائه ، أو عمله ، عَظَّم الشعائر يعنى : أدَّاها بحبٍّ وعشْق وإخلاص ، وجاء بها على الوجه الأكمل ، وربما زاد على ما طُلِبَ منه .

ومثالنا فى ذلك : خليل الله إبراهيم ، عندما أمره الله أنْ يرفع قواعد البيت : كان يكفيه أنْ يبنى على قَدْر ما تطوله يده ، وبذلك يكون قد أدّى ما أُمر به ، لكنه عشق هذا التكليف وأحبَّه فاحتال للأمر ووضع حجراً علىَ حجر ليقف عليه ، ويرفع البناء بقدر ما ارتفع إليه .

فمحبة أمر الله مَرْقى من مراقى الإيمان ، يجب أن نسموَ إليه ، حتى فى العمل الدنيوى : هَبْ أنك نُقلْتَ إلى ديوان جديد ، ووصل إلى علْمك أن مدير هذا الديوان رجل جَادّ وصعب ، ويُحاسب على كل صَغيرة وكبيرة ، فيمنع التأخير أو التسيّب أثناء الدوام الرسمى ، فإذا

---

(١) هناك قول آخر فى تفسير هذه الآية ، فالمقصود بشعائر الله هنا : البُدْن والهدى الذى يُهدى إلى الكعبة . وتعظيم شعائر الله هنا معناه : استعظام البُدْن واستسمانها واستحسانها . [راجع الآثار التى أوردها السيوطى فى الدر المنثور فى التفسير بالمأثور (٤٦/٦) عن ابن عباس ومجاهد] .

بك تلتزم بهذه التعليمات حرفياً ، بل وتزيد عليها ليس حباً فى العمل ، ولكن حتى لا تُسئَل أمام هذا المدير فى يوم من الأيام .

إذن : الهدف أنْ نؤدى التكاليف بحُبٍّ وعشْق يُوصِّلنا إلى حب الله عز وجل ؛ لذلك نجد من أهل المعرفة مَنْ يقول : رُبَّ معصية أورثتْ ذلاً وانكساراً خَيْر من طاعة أورثت عِزاً واستكباراً[1] .

فالمهم أن نصل إلى الله ، أن نخضع لله ، أنْ نذلّ لعزته وجلاله ، والمعصية التى تُوصِّلك إلى هذه الغاية خير من الطاعة التى تُسلِمك للغرور والاستكبار .

هذه المحبة للتكاليف ، وهذا العشق عبَّر عنه رسول الله ﷺ حينما قال : « وجُعلَتْ قُرَّة عينى فى الصلاة »[2] لذلك نَعَى القرآن على أولئك الذين ﴿إِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا (١٤٢)﴾ [النساء]

وابنته فاطمة[3] ـ رضى الله عنها ـ كانت تجلو الدرهم وتلمعه ، فلما سألها رسول الله عما تفعل ، قالت : لأننى نويتُ أنْ أتصدَّق به ، وأعلم أنه يقع فى يد الله قبل أنْ يقع فى يد الفقير . هذا هو التعظيم لشعائر الله والقيام بها عن رغبة وحب .

وفى عصور الإسلام الأولى كان الناس يتفاضلون بأسبقهم إلى

---

(١) من حكم ابن عطاء الله السكندرى ، ذكره عبد العال كحيل فى كتابه « أبو العينين الدسوقى » ص ٧٦ ـ دار الشعب القاهرة .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (١٢٨/٣ ، ١٩٩ ، ٢٨٥) والنسائى فى سننه (٦١/٧) والحاكم فى مستدركه (١٦٠/٢) وقال : صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبى ، وتمام الحديث « حُبِّب إلىَّ من الدنيا : النساء والطيب » .

(٣) هى : فاطمة بنت رسول الله محمد بن عبد الله ، أمها خديجة بنت خويلد ، ولدت ١٨ ق هـ ، تزوجها أمير المؤمنين على بن أبى طالب فى الثامنة عشرة من عمرها ، وولدت له الحسن والحسين وأم كلثوم وزينب ، عاشت بعد أبيها ستة أشهر . توفيت ١١ هـ عن ٢٩ عاماً . الأعلام للزركلى (١٣٢/٥) .

صلاة الجماعة حين يسمع النداء ، وبآخرهم خروجاً من المسجد بعد أداء الصلاة ، ولك أن تقيس حال هؤلاء بحالنا اليوم . هؤلاء قوم عظَّموا شعائر الله فلم يُقدِّموا عليها شيئاً .

وقد بلغ حُبُّ التكاليف وتعظيم شعائر الله بأحد العارفين إلى أنْ قال : لقد أصبحتُ أخشى ألاَّ يثيبنى الله على طاعته ، فسألوه : ولماذا ؟ قال : لأننى أصبحتُ أشتهيها يعنى : أصبحتْ شهوة عندى ، فكيف يُثاب ـ يعنى ـ على شهوة ؟!

لذلك أهل العزم وأهل المعرفة عن الله إذا ورد الأمر من الله وثبت أخذوه على الرَّحْب والسَّعَة دون جدال ولا مناقشة ، وكيف يناقشون أمر الله وهم يُعظِّمونه ؟ ومن هنا نقول للذين يناقشون فى أمور فعلها رسول الله ﷺ مثل تعدُّد زوجاته مثلاً ويعترضون ، بل ومنهم مَنْ يتهم رسول الله ﷺ بما لا يليق .

نقول لهم : ما دُمْتُم آمنتم بأنه رسول الله ، فكيف تضعون له موازين الكمال من عند أنفسكم . وتقولون : كان ينبغى أنْ يفعل كذا ، ولا يفعل كذا ؟ وهل عندكم من الكمال ما تقيسون به فِعْل رسول الله ؟ المفروض أن الكمال منه ﷺ ومن ناحيته ، لا من ناحيتكم .

ثم يقول سبحانه : ﴿فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ (٣٢)﴾ [الحج] ليست من تقوى الجوارح ، بل تقوى قلب لا تقوى قالب ، فالقلب هو محلُّ نظر الله إليك ، ومحلُّ قياس تعظيمك لشعائر الله .

و سبق أنْ ذكرنا أن الله تعالى لا يريد أنْ يُخضِع قوالبنا ، إنما يريد أنْ يُخضع قلوبنا ، ولو أراد سبحانه أنْ تخضع القوالب لخضعتْ له راغمة ، كما جاء فى قوله تعالى :

﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴿٤﴾﴾ [الشعراء]

وأنت تستطيع أنْ تُرغم مَنْ هو أضعف منك على أىِّ شىء يكرهه ، إنْ شئتَ سجد لك ، لكن لا تملك أنْ تجعل فى قلبه حباً أو احتراماً لك ، لماذا ؟ لأنك تجبر القالب ، أمّا القلب فلا سلطةَ لك عليه بحال .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾﴾

يعنى : ما دامت هذه المسائل من شعائر الله ومن تقوى القلوب فاعملوها وعظِّموها ؛ لأن لكم فيها منافع عرفتها أو لم تعرفها ، وربما تعرف بعضها ولا تعرف الباقى ؛ لأنه مستور عنك ولو أنك لا تعلم قيمة الجزاء على هذه الشعائر ، فقيمة الجزاء على العمل بحسب أنفاس الإخلاص فى هذا العمل .

ومعنى ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى .. ﴿٣٣﴾﴾ [الحج] ما دام الحق ـ سبحانه وتعالى ـ ذَيَّل الآية بقوله ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾﴾ [الحج] إذن : فالمراد هنا شعيرة الذَّبْح ، ولا يخفى ما فيها من منافع حيث ننتفع بصوفها ووبرها ولبنها ولحمها ، ونتخذها زينة وركوبة .

كل هذا ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى .. ﴿٣٣﴾﴾ [الحج] يعنى : زمن معلوم ، وهو حين تقول وتنوى : هذه هدية للحرم ، ساعة تعقد هذه النية

فليس لك الانتفاع بشىء منها ، لا أنت ولا غيرك[١] ؛ لذلك يُميِّزونها بعلامة حتى إنْ ضلت من صاحبها يعرفون أنها مُهْداة لبيت الله ، فلا يأخذها أحد[٢] .

وما دامت هذه منافع إلى أجل مسمى ، فلا بُدَّ أنها المنافع الدنيوية ، أما المنافع الأخروية فسوف تجدها فيما بعد فى الآخرة .

ثم يقول سبحانه : ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾﴾ [الحج] أى : بعد هذا الأجل المسمى ينتهى بها المطاف عند الحرم حيث تُذبَح هناك .

وقد كان للعلماء[٣] كلامٌ حول هذه الآية : ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾﴾ [الحج] حيث قالوا : محل الذَّبْح فى مِنَى ، وليس فى مكة ، والآية تقول : محلها البيت العتيق .

---

(١) قال ابن عباس : ما لم يُسمَّ بدناً ، وقال مجاهد : المنافع الركوب واللبن والولد فإذا سميت بدناً أو هدياً ذهب ذلك كله . وكذا قال عطاء والضحاك وقتادة وغيرهم . وقال آخرون : بل له أن ينتفع بها وإن كانت هدياً إذا احتاج إلى ذلك كما ثبت فى الصحيحين عن أنس أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً يسوق بدنة قال : اركبها . قال : إنها بدنة . قال : « اركبها ويحك » [قاله ابن كثير فى تفسيره ٣/ ٢٢٠] .

(٢) وهو قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلا الْهَدْيَ وَلا الْقَلائِدَ .. ﴿٢﴾﴾ [المائدة] . قال ابن كثير فى تفسيره (٢ / ٤) : « يعنى : لا تتركوا الإهداء إلى البيت الحرام فإن فيه تعظيم شعائر الله ، ولا تتركوا تقليدها فى أعناقها لتتميز به عما عداها من الأنعام ، وليعلم أنها هَدْى إلى الكعبة فيجتنبها من يريدها بسوء ، وتبعث من يراها على الإتيان بمثلها » .

(٣) هناك قولان فى تفسير هذه الآية ، فى عَوْد الضمير فى (مَحِلّها) :

- البُدْن والهَدْى ، أى : إلى يوم النحر تنحر بمنى . [عن عطاء] . وإذا دخلت الحرم فقد بلغت محلها [عكرمة] . وهذا ما أخذ به فضيلة الشيخ الشعراوى رحمه الله .
- شعائر ومناسك الحج . أى : أن شعائر الحج كلها من الوقوف بعرفة ورمى الجمار والسعى ينتهى إلى طواف الإفاضة بالبيت العتيق . قاله القرطبى فى تفسيره (٦/ ٤٥٨٨) .

نقول : الأصل كما جاء فى الآيةَ أن الذبح فى مكة وفى الحرم ، إلا أنهم لما استقذروا الذَّبْح فى الحرم بسبب ما يُخلفه من قاذورات ودماء وخلافه نتيجة هذه العملية ، فرُؤى أن يجعلوا الذبح بعيداً عن الحرم حتى يظل نظيفاً ، وهذا لا يمنع الأصل ، وهو أنْ يكون الذَّبْح فى الحرم ، كما جاء فى آية أخرى : ﴿هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ..(٩٥)﴾ [المائدة]

وفى الحديث الشريف : « مكّةُ كلُّها مَنْحرٌ »[(١)] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا ۗ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ (٣٤)﴾

المنسك : هو العبادة ، كما جاء فى قول الله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام : ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢)﴾ [الأنعام]

ومعنى ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا .. (٣٤)﴾ [الحج] لأن الشعائر والمناسك والعبادات ليس من الضرورى أنْ تتفق عند جميع الأمم ، بل لكل أمة ما يناسبها ، ويناسب ظَرْفها الزمنى والبيئى .

لذلك ، فإن الرسل لا تأتى لتُغير القواعد والأسس التى يقوم عليها

---

(١) عن جابر بن عبد الله أنه قال : نحر رسول الله ﷺ فحلق وجلس للناس ، فما سُئل عن شىء إلا قال : لا حرج لا حرج ، حتى جاءه رجل فقال : حلقت قبل أن أنحر . قال : لا حرج . ثم جاء آخر فقال : يا رسول الله حلقت قبل أن أرمى قال : لا حرج قال رسول الله ﷺ : « عرفة كلها موقف ، والمزدلفة كلها موقف ، ومنى كلها منحر ، وكل فجاج مكة طريق ومنحر » أخرجه أحمد فى مسنده (٣/٣٢٦) والدارمى فى سننه (٢/٥٧) .

الدين ؛ لأن هذه القواعد وهذه الأسس ثابتة فى كل رسالات السماء ، لا تتبدل ولا تتغير بتغيُّر الرسل .

يقول تعالى : ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ .. (١٣)﴾ [الشورى]

هذا فى الأصول العَقَدية الثابتة ، أما فى الفرعيات فنرى ما يصلح المجتمع ، وما يناسبه من طاعات وعبادات .

ثم يُبيِّن الحق سبحانه الحكمة من هذه المناسك : ﴿لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ .. (٣٤)﴾ [الحج] أى : يذكروا الله فى كل شىء ، ويشكروه على كل نعمة ينالونها من بهيمة الأنعام .

لذلك نذكر الله عند الذبح نقول : بسم الله ، الله أكبر ، لماذا ؟ لأن الذبح إزهاق روح خلقها الله ، وما كان لك أنْ تزهقها بإرادتك ، فمعنى « بسم الله والله أكبر » هنا أننى لا أزهق روحها من عندى ، بل لأن الله أمرنى وأباحها لى ، فالله أكبر فى هذا الموقف من إرادتك ، ومن عواطفك .

ونرى البعض يأنف من مسألة الذَّبْح هذه ، يقول : كيف تذبحون هذا الحيوان أو هذه الدجاجة ؟ يدَّعى الرحمة والشفقة على هذه الحيوانات ، لكنه ليس أرحم بها من خالقها ، وما ذبحناها إلا لأن الله أحلَّها ، وما أكلناها إلا بسم الله ، بدليل أن ما حرمه الله علينا لا نقرب منه أبداً .

وهل أنا أكرم القطة عن الأرنب ، فأذبح الأرنب وأترك القطة ؟ وهل أحترم الكلب عن الخروف ؟ أبداً ، المسألة مسألة تشريع وأمر ثبت عن الله ، فَعَلَىَّ أنْ أُعظِّمه وأُطيعه .

وقوله تعالى : ﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ .. ﴿٣٤﴾﴾ [الحج] الرزق يعنى : أنه تعالى أوجدها لك ، وملكك إياها ، وذلَّلها لك فاستأنستْها وسخّرها لك فانتفعتَ بها ، ولولا تسخيره ما انقادتْ لك بقُوتك وقدرتك .

ثم يقول سبحانه : ﴿فَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ .. ﴿٣٤﴾﴾ [الحج] يعنى : إن اختلفت الشرائع من أمة لأمة فإيَّاك أنْ تظنَّ أن هذا من إله ، وهذا من إله آخر ، إنما هو إله واحد يشرِّع لكل أمة ما يناسبها وما يصلحها ؛ لأن التشريعات السماوية تأتى علاجاً لآفات اجتماعية .

والأصل الأصيل هو إيمان بإله واحد فاعل قادر مختار ، يُبلِّغ عنه رسول بمعجزة تُبيِّن صدقه فى التبليغ عن الله . هذا أصل كل الديانات السماوية ، كذلك قواعد الدين وأساسياته واحدة مُتفق عليها ، فالسرقة والزنا وشهادة الزور .. إلخ كلها مُحرَّمة فى كل الأديان .

لكن ، هناك أمور تناسب أمة ، ولا تناسب أخرى ، والمشرِّع للجميع إله واحد ، الناس جميعاً من لَدُن آدم وإلى أنْ تقومَ الساعة عياله ، وهم عنده سواء ، لذلك يختار لكلٍّ ما يُصلحه .

ألاَ ترى ربَّ الأسرة كيف يُنظِّم حياة أولاده ـ ولله المثَل الأعلى ـ فيقول : هذا يفعل كذا ، وهذا يفعل كذا ، وإذا جاء الطعام قال : هذا يأكل كذا وكذا لأنه مريض مثلاً ، لا يناسبه طعام الآخرين ، ويأمر الأم أنْ تُعدَّ لهذا المريض ما يناسبه من الطعام . ذلك لأنه رَاعٍ للجميع مسئول عن الجميع ، وعليه أنْ يراعىَ مصلحة كل واحد منهم على حِدَة[1] .

---

(١) وذلك مصداقاً لحديث رسول الله ﷺ : « ألا كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ، فالأمير الذى على الناس راعٍ وهو مسئول عن رعيته ، والرجل راعٍ على أهل بيته ، وهو مسئول عنهم ، والمرأة راعية على بيت بعلها وولده وهى مسئولة عنهم ، والعبد راعٍ على مال سيده ، وهو مسئول عنه ، ألا فكلكم راعٍ ، وكلكم مسئول عن رعيته » أخرجه مسلم فى صحيحه (١٨٢٩) ، والبخارى فى صحيحه (٨٩٣ ، ٢٤٠٩) من حديث عبد الله بن عمر رضى الله عنهما .

إذن : اختلاف التشريعات فى هذه المسائل الجزئية بين الأمم لا يعنى تعدُّد الآلهة كلاًّ وحاشا لله ، بل هو إله واحد ، يعطى عباده كُلاً على حسب حاجته ، كى يتوازنَ المجتمع ويستقيم حاله .

نذكر أنه كان عند طبيب الوحدة الصحية دورقان ، فى كل منهما مزيج معين ، وكان يعطى كل المرضى مع اختلاف أمراضهم من هذين النوعين فقط ؛ لذلك كانت عديمة الجدوى ، أما الآن فالطبيب الماهر لا بُدَّ أن يُجرى على مريضه الفحوص والتحاليل اللازمة ليقف على مرضه بالتحديد ، ثم يصف العلاج المناسب لهذه الحالة بمقادير دقيقة تُبرىء المرض ولا تضرُّ المريض من ناحية أخرى .. كذلك الأمر فى اختلاف الشرائع السماوية بين الأمم .

وما دام أن إلهكم إله واحد ، وما دُمْتم عنده سواء ، وليس منكم مَنْ هو ابنٌ الله ، ولا بينه وبين الله قرابة . إذن : ﴿فَلَهُ أَسْلِمُوا .. ﴿٣٤﴾﴾ [الحج] يعنى : أَسْلِموا كل أموركم لله ، فإنْ أمر فعظِّموا أمره ، وخذوه على الرَّحْب والسَّعَة ، فإنْ ترك مجالاً لاختيارك فاصنع ما تشاء . ولا تنسَ أن الله تعالى أعطاك فرصة للترقِّى الإيمانى ، وللترقِّى الإحسانى ، وفتح لك مجال الإحسان إنْ أردتَ .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الحج] المخبت : فى المعنى العام : يعنى الإنسان الخاشع الخاضع المتواضع لكل أوامر الله ، والمعنى الدقيق للمخبت : هو الذى إذا ظُلم لا ينتصر لنفسه ، عملاً بقول الله تعالى : ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾ [الشورى] هكذا بلام التوكيد .

أما فى وصية لقمان لولده : ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٧﴾﴾ [لقمان] بدون توكيد ، لماذا ؟

قالوا : لأن لقمان يوصى ولده بالصبر على ما أصابه ، والمصائب قسمان : مصيبة تصيب الإنسان ، وله فيها غريم هو الذى أوقع به المصيبة ، وهذه يصاحبها غضب وسعار للانتقام ، ومصيبة تصيب الإنسان وليس له غريم كالمرض مثلاً ، فإنْ كان له غريم فالصبر أشدُّ ، لذلك احتاج إلى التوكيد ، على خلاف المصيبة التى ليس أمامك فيها غريم ، فهى من الله فالصبر عليها أهونُ من الأولى .

ومع ذلك جعل الحق ـ سبحانه وتعالى ـ للنفس البشرية منافذ تُنفِّس من خلالها عن نفسها ، حتى لا يختمر بداخلها الغضب ، فيتحول إلى حقد وضغينة ، قد تؤدى إلى أكثر مما وقع بك ؛ لذلك أباح لك الرد لكن حبَّبك فى مَرَاق أخرى ، هى أجدى لك ، فقال تبارك وتعالى : ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤)﴾ [آل عمران]

وهذه مراحل ثلاث ، تختار منها بحَسْب فَهْمك عن الله وقُرْبك منه :

الأولى : ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ .. (١٣٤)﴾ [آل عمران] يعنى : تكظم غيظك فى نفسك ، دون أنْ تترجم هذا الغيظ إلى عمل نزوعىّ فتنتقم ، فالغيظ ـ إذن ـ مسألة وجدانية فى القلب ، وموجود فى مواجيد نفسه ، وهذه مرحلة .

الثانية : ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ .. (١٣٤)﴾ [آل عمران] يعنى : لا ينتقم ، ولا حتى يجعل للغَيْظ مكاناً فى نفسه ، فيُصفِّيها من مشاعر الحَنَق والغيظ راضياً .

الثالثة : ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤)﴾ [آل عمران] وهى أعلى المراتب ، وهى ألاَّ تكتفى بالعفو ، بل وتُحسِن إلى مَنْ أساء إليك ،

والبعض يقول : هذا ضد طباع البشر ، نعم هى ضد طباع البشر العاديين ، لكن الذين يعرفون الجزاء ، ويعرفون أنهم بذلك سيكونون فى حضانة ربهم يهون عليهم هذا العمل ، بل ويُحبون الإحسان إلى مَنْ أساء .

لذلك ؛ فالحسن البصرى ـ رضوان الله عليه ـ لما بلغه أنَّ شخصاً نال منه فى أحد المجالس ـ وكان الوقت بواكير الرُّطَب ـ أرسل خادمه إليه بطبق من الرطب ، وقال له : بلغنى أنك أهديْتَ إلىَّ حسناتك بالأمس[1] .

ومعلوم أن الحسنات أغلى وأثمن بكثير من طبق الرُّطَب . ومن هنا يقولون : ما أعجب من الذى يُسىء إلى مَنْ أساء إليه ، لأنه أعطاه حسناته ، وهى خلاصة عمله ، فكيف يُسِىء إليه ؟!

وكأن الحق سبحانه يريد أنْ يُحدث توازناً فى المجتمع ، ويقضى على دواعى الحقد وأسباب الضغائن فى النفس البشرية ، فحين تُحسِن إلى مَنْ يُسِىء إليك فإنك تجتثّ جذور الكُرْه والحِقْد من نفسه ، كما قال سبحانه وتعالى :

﴿ادْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِىٌّ حَمِيمٌ (٣٤)﴾ [فصلت] فقد أخرجتَ خَصْمك من قالب الخصومة ، إلى قالب الولاية والمحبة .

فالمخْبِت المتواضع لله ، أما غير المخبِت فتراه متكبراً (يتفرعن) على مَنْ حوله ، ويرى نفسه أعظم من الجميع ، ولو أنه استحضر

---

(١) ذكره أبو حامد الغزالى (٣/١٥٤) أن رجلاً قال للحسن : إن فلاناً قد اغتابك فبعث إليه رطباً على طبق ، وقال : قد بلغنى أنك أهديت إلىَّ من حسناتك ، فأردت أن أكافئك عليها فاعذرنى فإنى لا أقدر أن أكافئك على التمام .

جلال ربه لخشع له ، وتواضع وانكسر لخَلْقه ، فالتكبر دليل غفلة عن عظمة الله ، كأنه لم يشهد خالقه .

إذن : تستطيع أن تقول أن الإخبات على نوعين : إخبات لله بالخضوع والخشوع والتعظيم لأوامره ، وإخبات لخَلْق الله ، بحيث لا ينتصر لظلمه ولا يظلم ، إنما يتسامح ويعفو ؛ لأنه يعلم جيداً أنه إذا ظُلِم من مخلوق تعصَّب له الخالق .

ولك أن تنظر إلى أولادك إذا ظلم أحدهم الآخر فإلى مَنْ تنحاز ، ومع مَنْ تتعاطف ؟ لا شك أنك ستميل إلى المظلوم ، وتحنو عليه ، وتريد أنْ تُعوِّضه عَمَّا لحقه من الظلم ، حتى إن الظالم ليندم على ظُلْمه ؛ لأنه ميَّز أخاه المظلوم عليه ، وربما تمنى أنْ يكونَ هو المظلوم لا الظالم .

كذلك حال المخبت يرى أن الخَلْق جميعاً عيال الله ، وأن أحبّهم إليه أرأفهم بعياله ؛ لذلك يعفو عَمَّن ظلمَه ، ويترك أمره لله رب الجميع ، كما أن المظلوم إذا رَدَّ الظلم فإنه يَردُّه بقوته ومقدرته هو ، إنما إنْ ترك الردَّ لله جاء الردُّ على مقدار قوته سبحانه .

ملْحظ آخر ينبغى أن يتنبه له المظلوم قبل أن يُفكِّر فى الانتقام ، وهو : مَنْ يدريك لعلك ظلمتَ أنت أيضاً دون أنْ تدرى ، لعل للناس عندك مظالم لا تشعر بها ، وليست فى حُسْبانك ، فالمسألة - إذن - لك وعليك .

لذلك يقول الحق سبحانه فى الحديث القدسى : « يا ابن آدم دعوتَ على مَنْ ظلمك » .

وهذا مباح لك بقوله تعالى : ﴿لا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ

إِلاَّ مَن ظُلِمَ .. (١٤٨) ﴾ [النساء] يعنى : أعطيناك فرصة أنْ تدعو على من ظلمك .

ثم يقول سبحانه : « ودعا عليك مَنْ ظلمتَه ، فإنْ شئتَ أجبناك وأجبنا عليك ، وإنْ شئت أخَّرتكُما للآخرة فيسعكُما عَفْوى »[(١)] .

فالمخبت يستحضر هذا كله ، ويركن إلى العفو والتسامح ؛ ليأخذ رَبَّه عز وجل فى صفه ؛ لذلك يقولون : لو علم الظالم ما أعدَّه الله للمظلوم من الكرامة لضَنَّ عليه بالظلم .

فحين ترى المظلوم يعفو عنك ويتسامح معك ، فلا تظن أنك أخضعته لك ، إنما هو خضع لله الذى سيرفعه عليك ، ويُعْلى رأسه عليك فى يوم من الأيام .

لذلك من أنماط السلوك السوى إذا تشاجر اثنان يقول أحد العقلاء : لكما أب نرد عليه ، أو لكما كبير نرجع إليه فى هذه الخصومة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ (٣٥) ﴾

يُبيِّن لنا الحق سبحانه بعض صفات المخبتين ، فهم ﴿ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ .. (٣٥) ﴾ [الحج] (وَجِلت) : يعنى خافت ، واضطربت ، وارتعدت لذكر الله تعظيماً له ، ومهابة منه .

---

(١) ذكره أبو حامد الغزالى (١٨٣/٣) من قول يزيد بن ميسرة : إن ظللت تدعو على من ظلمك فإن الله تعالى يقول : إن آخر يدعو عليك بأنك ظلمته ، فإن شئت استجبنا لك وأجبنا عليك ، وإن شئت أخرتكما إلى يوم القيامة فيسعكما عفوى .

وفى آية أخرى يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨)﴾ [الرعد]

فمرة يقول ﴿وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ .. (٣٥)﴾ [الحج] ومرة ﴿تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨)﴾ [الرعد] ، لماذا ؟ لأن ذكر الله إنْ جاء بعد المخالفة لا بُدَّ للنفس أنْ تخاف وتَوْجَل وتضطرب هيبةً لله عز وجل ، أما إنْ جاء ذِكْر الله بعد المصيبة أو الشدة فإن النفس تطمئنُّ به ، وتأنَسُ لما فيها من رصيد إيمانى ترجع إليه عند الشدة وتركَنُ إليه عند الضيق والبلاء ، فإنْ تعرَّضَت لمصيبة وعزَّتْ أسبابُ دَفْعها عليك تقول : أنا لى رب فتلجأ إليه ، كما كان من موسى ـ عليه السلام ـ حين قال : ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢)﴾ [الشعراء]

﴿وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ .. (٣٥)﴾ [الحج] ومعنى أصاب : يعنى جاء بأمر سىء فى عُرْفك أنت ، فتعده مصيبة ؛ لأننا نُقدِّر المصيبة حَسْبَ سطحية العمل الإيذائى ، إنما لو أخذتَ مع المصيبة فى حسابك الأجر عليها لهانَتْ عليك وما اعتبرتَها كذلك ؛ لذلك فى الحديث الشريف يقول ﷺ : « المصاب من حرم الثواب » .

هذا هو المصاب حقاً الذى لا تُجبَر مصيبته ، أما أنْ تُصاب بشىء فتصبر عليه حتى تنالَ الأجر فليس فى هذا مصيبة .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَالْمُقِيمِي الصَّلاةِ .. (٣٥)﴾ [الحج] لأن الصلاة هى الولاء الدائم للعبد المسلم ، والفرض الذى لا يسقط عنه بحال من الأحوال ، فالشهادتان يكفى أنْ تقولها فى العمر مرة ، والزكاة إنْ كان عندك نِصَاب فهى مرة واحدة فى العام كله ، والصيام كذلك ، شهر فى العام ، والحج إنْ كنتَ مستطيعاً فهو مرة واحدة فى

العمر ، وإنْ لم تكُنْ مستطيعاً فليس عليك حج .

إذن : الصلاة هى الولاء المستمر للحق سبحانه على مَدار اليوم كله ، وربك هو الذى يدعوك إليها ، ثم لك أنْ تُحدِّد أنت موعد ومكان هذا اللقاء فى حَضْرته تعالى ؛ لأنه سبحانه مستعد للقائك فى أىِّ وقت .

وتصور أن رئيس الجمهورية أو الملك مثلاً يدعوك ويُحتِّم عليك أنْ يراك فى اليوم خمس مرات لتكون فى حضرته ، والحق سبحانه حين يدعو عباده للقائه ، لا يدعوهم مرة واحدة إنما خمس مرات فى اليوم والليلة ؛ لأنه سبحانه لا يتكلف فى هذه العملية تكرار لقاءات ، فهو سبحانه يَلْقَى الجميع فى وقت واحد .

ولما سئل الإمام على ـ رضى الله عنه ـ : كيف يُحاسب اللهُ كلَّ هؤلاء الناس فى وقت واحد ؟ قال : كما أنه يرزقهم جميعاً فى وقت واحد .

وقوله تعالى : ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الحج] لا ينفقون من جيوبهم ، إنما من عطاء الله ورزقه . ومن العجيب أن الله تعالى يعطيك ويهبُكَ ويُغدق عليك تفضُّلاً منه سبحانه ، فإذا أرادك تُعين محتاجاً قال لك : ﴿مَن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا .. ﴿١١﴾﴾ [الحديد]

وكأن الله تعالى يقول لنا : أنا لا أعود فى هبتى ولا فى عطائى ، فأقول : اعْط ما أخذتَه لفلان ، بل إنْ أعطيتَ الفقير من مالك فهو أيضاً لك مُدَّخر لا يضيع ، فرزْقك الذى وهبك الله إياه ملْكك ، ولا نغبنك فى شىء منه أبداً ، فربّك يحترم ملكيتك ، ويحترم جزاء عملك وجدِّك واجتهادك .

نقول ـ ولله المثل الأعلى ـ : كالرجل الذى يحتاج مبلغاً كبيراً لأحد الأبناء فيأخذ من الباقين ما معهم وما ادخروه من مصروفاتهم على وَعْد أنْ يُعوِّضهم بدلاً منها فيما بعد .

لذلك يقول بعدها : ﴿فَيُضَاعِفَهُ لَهُ .. (١١)﴾ [الحديد] فيعاملك ربك بالزيادة ؛ لذلك يقول البعض : إن الله تعالى حرَّم علينا الربا وهو يعاملنا به ، نعم يعاملك ربك بالربا ويقول لك : اترك لى أنا هذا التعامل ؛ لأننى حين أزيدك لا أنقص الآخرين ، ولا أُنقِص مما عندى ، ولا أُرهِق ضعيفاً ولا محتاجاً ولا أستغلّ حاجته .

والصدقة فى الإسلام تأمينٌ لصاحبها ضد الفقر إن احتاج ، فأخوَفُ ما يخافه المرءُ الحاجة عند الكبَر ، وعدم القدرة على الكَسْب ، وعند الإعاقة عن العمل ، يخاف أنْ ينفدَ ماله ، ويحتاج إلى الناس حال كِبَره .

وعندها يقول له ربه : اطمئن ، فكما أعطيْتَ حال يُسْرك سيعطيك غيرُك حال عَوَزِك وحاجتك .

إذن : أخذ منك ليعطيك ، وليُؤمِّن لك مستقبل حياتك الذى تخاف منه .

الصدقة فى الإسلام صندوق لتكافل المجتمع ، كصندوق التأمين فى شركات التأمين ، فإذا ما ضاقت بك أسباب الرزق وشكوْتَ الكِبَر والعجز نقول لك : لا تحزن فأنت فى مجتمع مؤمن متكافل ، وكما طلبنا منك أنْ تعطى وأنت واجد طلبنا من غيرك أنْ يعطيَك وأنت مُعْدم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ (١) فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ (٢) وَالْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٣٦) ﴾

بعد أن تكلم الحق سبحانه وتعالى فى النفقة ممَّا رزقكم الله تكلَّم فى النفقة فى البُدْن ، والبُدْن : جمع بَدَنة ، وهى الجمل أو الناقة ، أو ما يساويهما من البقر ، وسمَّاها بَدَنة إشارة إلى ضرورة أنْ تكون بدينة سمينة وافرة ، ولا بُدَّ أنْ تراعى فيها هذه الصفة عند اختيارك للهَدْى الذى ستُقدمه لله ، واحذر أن تكون من أولئك الذين يجعلون لله ما يكرهون ، إنما كُنْ من الذين قال الله لهم : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ .. (٢٦٧) ﴾ [البقرة]

وقوله تعالى : ﴿ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ .. (٣٦) ﴾ [الحج]

أى : اذكروا الله بالشكر على أنْ وهبها وذلَّلها لكم ، واذكروا اسم الله عليها حين ذَبْحها .

---

(١) ورد فى هذه الكلمة عدة قراءات منها :
- صَوَافَّ : أى : قياماً على ثلاث قوائم معقولة يدها اليسرى . عن ابن عباس ومجاهد وعلى بن أبى طلحة ، وهى قراءة الجمهور .
- صَوَافِن : جمع صافنة ، وهى التى قد رفعت إحدى يديها بالعقل لئلا تضطرب عن ابن مسعود وابنَ عباس وابن عمر .
- صَوَافِىَ : أى : خوالص لله عز وجل ، لا يشركون به فى التسمية على نحرها أحداً . عن الحسن والأعرج ومجاهد وزيد بن أسلم وأبى موسى الأشعرى .
- صَوَاف : وهى بمعنى التى قبلها . عن الحسن البصرى . [تفسير القرطبى ٦/٤٥٩٣]

(٢) قال ابن الأثير : القانع فى الأصل السائل . وقال الحسن البصرى فيما رواه عنه ابن أبى شيبة وعبد بن حميد : القانع الذى يقنع إليك بما فى يديك . والمعتر الذى يتصدى إليك لتطعمه . ولفظ ابن أبى شيبة : والمعتر الذى يعتريك ، يُريك نفسه ولا يسألك . [الدر المنثور للسيوطى٦/٥٥] .

ومعنى ﴿صَوَافَّ .. (٣٦)﴾ [الحج] يعنى : واقفةً قائمة على أَرْجُلها ، لا ضعفَ فيها ولا هُزَال ، مصفوفة وكأنها فى معرض أمامك . وهذه صفات البُدْن الجيدة التى تناسب هذه الشعيرة وتليق أنْ تُقدَّمْ هَدْياً لبيت الله .

ومعنى : ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا .. (٣٦)﴾ [الحج] وجبَ الشىء وجباً يعنى : سقط سقوطاً قوياً على الأرض ، ومعلوم أن البَدَنة لا تُذبح وهى مُلْقاة على الأرض مثل باقى الأنعام ، وإنما تُنْحر وهى واقفة ، فإذا ما نُحرَتْ وقعتْ على الأرض وارتمتْ بقوة من بدانتها .

﴿فَكُلُوا مِنْهَا .. (٣٦)﴾ [الحج] وقلنا : إن الأكل لا يكون إلا من الهَدْى المحض والتطوع الخالص الذى لا يرتبط بشىء من مسائل الحج ، فلا يكون هَدْىَ تمتُّع أو قِرَان ، ولا يكون جَبْراً لمخالفة ، ولا يكون نَذْراً .. إلخ .

وعلَّة الأمر بالأكل من الهَدْى ؛ لأنهم كانوا يتأففون أنْ يأكلوا من المذبوح للفقراء ، وكأن فى الأمر بالأكل منها إشارةً لوجوب اختيارها مما لا تعافه النفس .

ومعنى : ﴿الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ .. (٣٦)﴾ [الحج] القانع : الفقير الذى يتعفَّف أنْ يسأل الناس ، والمعترّ : الفقير الذى يتعرَّض للسؤال .

ثم يقول سبحانه : ﴿كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٣٦)﴾ [الحج] يعنى : سخّرناها لكم ، ولو فى غير هذا الموقف ، لقد سخَّرها الله لكم منذ وُجِد الإنسان ؛ لذلك عليكم أنْ تشكروا الله على أنْ أوجدها وملّككم إياها ، وتشكروه على أنْ سخَّرها وذلَّلها لكم ، وتشكروه على أنْ هداكم للقيام بهذا المنسك ، وأداء هذه الشعيرة وعمل هذا الخير الذى سيعود عليكم بالنفع فى الدنيا وفى الآخرة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾

ذلك لأنهم كانوا قبل الإسلام حين يذبحون للأوثان يُلطّخون الصنم بدماء الذبيحة[1] ، كأنهم يقولون له : لقد ذبحنا لك ، وها هى دماء الذبيحة ، وفى هذا العمل منهم دليل على غبائهم وحُمْق تصرفهم ، فهم يروْن أنهم إذا لم يُلطِّخوه بالدم ما عرف أنهم ذبحوا من أجله .

وهنا ينبه الحق ـ سبحانه وتعالى ـ إلى هذه المسألة : ﴿ لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا .. ﴿٣٧﴾ ﴾ [الحج] يعنى : لا يأخذ منها شيئاً ، وهو سبحانه قادر أنْ يعطى الفقير الذى أمرك أنْ تعطيه ، ويجعله مثلك تماماً غير محتاج .

إنما أراد سبحانه من تباين الناس فى مسألة الفقر والغنى أن يُحدث توازناً فى المجتمع ، فالمجتمع ليس آلة ميكانيكية تسير على وتيرة واحدة ، إنما هى حياة بشر لا بُدَّ أنْ تقومَ على الحاجة وعلى التكامل ، فلا بُدَّ من هذه التفاوتات بين الناس ، ثم تتدخّل الشرائع السماوية فتأخذ من القوى وتعطى الضعيف ، وتأخذ من الغنى وتعطى

---

(١) قال ابن عباس : كان أهل الجاهلية يُضَرِّجون البيت بدماء البُدْن ، فأراد المسلمون أن يفعلوا ذلك ، فنزلت الآية . [تفسير القرطبى ٦ /٤٥٩٦] وذكره السيوطى فى الدر المنثور (٥٦/٦) من قول ابن عباس أيضاً وعزاه لابن المنذر وابن مردويه .

الفقير .. وساعتها ، نقضى على مشاعر الحقد والحسد والبغضاء والأَثَرة .

فحين يعطى القوىُّ الضعيفَ من قوته لا يحسده عليها ، ويتمنى له دوامها ؛ لأن خيرها يعود عليه ، وحين يعطى الغنىّ مما أفاض الله عليه للفقير يُؤلِّف قلبه ، ويجتثّ منه الغِلَّ والحسد ، ويدعو له بدوام النعمة .

لا بد من هذا التفاوت ليتحقق فينا قول الرسول ﷺ : « المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص ، يشدُّ بعضه بعضاً »[1] .

لذلك ، ترى صاحب النعمة الذى ينثر منها على غيره ، إنْ أصابته فى ماله مصيبة يحزن له الآخرون ويتألمون بألمه ؛ لأن نعمته تفيض عليهم ، وخيرُه ينالهم . وأهل الريف إلى عهد قريب كان الواحد منهم يُربِّى البقرة أو الجاموسة ؛ ليحلب لبنها ، وكان لا ينسى الجيران وأهل الحاجة ، فكانوا يدعُونَ الله له أنْ يبارك له فى ماله ، وإنْ أصابته ضرَّاء فى ماله حَزِنوا من أجله .

إذن : حين تفيض من نعمة الله عليك على مَنْ حُرِم منها تدفع عن نفسك الكثير من الحقد والحسد ، فإنْ لم تفعل فلا أقلَّ من إخفاء هذا الخير عن أعْيُن المحتاجين حتى لا تثير حفائظهم ، وربما لو رآك الرجل العاقل يُردعه إيمانه فلا تمتدّ عيناه إلى ما فى يدك ، إنما حين يراك الأطفال الصغار تحمل ما حُرِموا منه ، أو رأوا ولدك يأكل وهم محرومون هنا تكون المشكلة وقوله تعالى :

﴿ وَلَـٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ .. (٣٧) ﴾ [الحج]

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٤٤٦) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٥٨٥) من حديث أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه .

واتقاء الله هو اتباع منهجه ، فيُطاع الله باتباع المنهج فلا يُعصى ، ويُذكر فلا يُنسى ، ويُشكر فلا يُكفر ، وطريق الطاعة يوجد فى اتباع المنهج بـ « افعل » و « لا تفعل » ، ويُذكر فلا ينسى ؛ لأن العبد قد يطيع الله ويُنفِّذ منهج الله ، ولكن النعم التى خلقها الله قد تشغل العبد عن الله ، والمنهج يدعوك أنْ تتذكر فى كل نعمة مَنْ أنعم بها ، وإياك أنْ تُنسيَك النعمةُ المنعمَ .

ثم يقول تبارك وتعالى : ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ (٣٧)﴾ [الحج]

تلحظ هنا مسألة المتشابهات فى القرآن الكريم ، ففى الآية السابقة ذَيَّلها الحق سبحانه بقوله : ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٣٦)﴾ [الحج]

هذه المتشابهات يقف عندها العلماء الذين يبحثون فى القرآن ويُقلِّبون فى آياته ؛ لذلك يجمعون مثل هذه الآيات المتشابهة التى تتحدث فى موضوع واحد ويُرتِّبونها فى الذِّهْن ؛ لذلك لا يُؤتمنون على الحفْظ ، ومن هنا قالوا : ينبغى لمَنْ أراد حفْظ القرآن أنْ يدعَ مسألةَ العلم جانباً أثناء حفْظه ، حتى إذا نسىَ كلمةً وقف مكانه لا يتزحزح إلى أنْ يعرفها ، أمّا العالم فربما وضع مرادفها مكانها ، واستقام له المعنى .

والمراد بقوله تعالى : ﴿لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ .. (٣٧)﴾ [الحج] يعنى : تذكرونه وتشكرونه على ما وفّقكم إليه من هذه الطاعات ﴿وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ (٣٧)﴾ [الحج] بشِّر يعنى : أَخْبِرْ بشىء سَارٍّ قبل مَجِىء زمنه ، ليستعد له المبشَّر ويفرح به ، كذلك الإنذار : أن تخبر بشىء سىء قبل حلوله أيضاً ؛ ليستعد له المنذر ، ويجد الفرصة التى

يتلافى فيها خطأه ، ويُجنِّب نفسه ما يُنذَر به ، ويُقبل على ما يُنجيه .

و ﴿الْمُحْسِنِينَ (٣٧)﴾ [الحج] : جمع مُحسِن ، والإحسان : أعلى مراتب الإيمان ، وهو أنْ تُلزِم نفسك بشىء من طاعة الله التى فرضها عليك فوق ما فرض ، فربُّك عز وجل فرض عليك خمس صلوات فى اليوم والليلة ، وفى إمكانك أنْ تزيد من هذه الصلوات ما تشاء ، لكن من جنس ما فرض الله عليك ، لا تخترع أنت عبادة من عندك ، كذلك الأمر فى الصوم ، وفى الزكاة ، وفى الحج ، وفى سائر الطاعات التى ألزمك الله بها ، فإنْ فعلت هذا فقد دخلتَ فى مقام الإحسان .

وفى الإحسان أمران : مُحسن به وهو العبادة أو الطاعة التى تُلزِم نفسك بها فوق ما فرض الله عليك ، ودافعٌ عليه ، وهو أن تؤدى العمل كأن الله يرقبك ، كما جاء فى حديث جبريل : « والإحسان أنْ تعبدَ الله كأنك تراه ، فإنْ لم تكُنْ تراه فإنه يراك »[(١)] .

فمراقبتك لله ومراعاتك لنظره تعالى إليك ، يدفعك إلى هذا الإحسان ، ألاَ ترى العامل الذى تباشره وتُشرِف عليه ، وكيف يُنهى العمل فى موعده ؟ وكيف يُجيده ؟ على خلاف لو تركتَه وانصرفْتَ عنه .

فإنْ لم تَصِل إلى هذه المرتبة التى كأنك ترى الله فيها ، فلا أقلَّ من أنْ تتذكر نظره هو إليك ، ومراقبته سبحانه لحركاتك وسكناتك .

لذلك ، فى سورة الذاريات : ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦)﴾ [الذاريات]

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٠) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٨) كتاب الإيمان من حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

ثم يُفسِّر سبب هذا الإحسان : ﴿كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩)﴾ [الذاريات]

ومَنْ يلزمك بهذه التكاليف ؟ لك أنْ تصلى العشاء ثم تنام إلى الفجر ، كذلك لم يُلزمك بالاستغفار وقت السَّحَر ، ولم يلزمك بصدقة التطوع . إذن : هذه طاعات فوق ما فرض الله وصلَتْ بأصحابها إلى مقام الإحسان ، وأعلى مراتب الإيمان ، فليُشمِّر لها مَنْ أراد .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ (٣٨)﴾

صَدْر الآية : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا .. (٣٨)﴾ [الحج] يُشْعرنا أن هناك معركة ، والمعركة التى يدافع الله فيها لابُدَّ أنها بين حق أنزله ، وباطل يُواجهه ، وقد تقدَّم قبل ذلك أن قال تبارك وتعالى : ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ .. (١٩)﴾ [الحج]

وما دام أن هناك خصومة فلا بُدَّ أنْ تنشأ عنها معارك ، هذه المعارك قد تأخذ صورة الألفاظ والمجادلة ، وقد تأخذ صورة العنف والقوة والشراسة والالتحام المباشر بأدوات الحرب .

ومعركة النبى ﷺ مع معارضيه من كفار مكة لم تقف عند حَدِّ المعركة الكلامية فحَسْب ، فقد قالوا عنه ـ صلوات الله وسلامه عليه : ساحر ، وكاهن ، ومجنون ، وشاعر ، ومُفْتر .. إلخ ثم تطوَّر الأمر إلى إيذاء أصحابه وتعذيبهم ، فكانوا يأتون رسول الله مَشْدوخين

ومجروحين فيقول لهم ﷺ : « لم أومر بقتال ، اصبروا اصبروا ، صبراً صبراً .. » .

إلى أنْ زاد اعتداء الكفار وطَفَح الكَيْل منهم أذن الله لرسوله بالقتال ، فقال : ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩)﴾ [الحج]

فقوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا .. (٣٨)﴾ [الحج] صيغة يدافع : مبالغة منْ يدفع ، معنى يدفع يعنى : شيئاً واحداً ، أو مرة واحدة ، وتنتهى المسألة ، أمّا يدافع فتدل على مقابلة الفعل بمثله ، فالله يدفعهم وهم يقابلون أيضاً بالمدافعة ، فيحدث تدافع وتفاعل من الجانبين ، وهذا لا يكون إلا فى معركة .

والمعركة تعنى : منتصر ومنهزم ، لذلك الحق ـ تبارك وتعالى ـ يُطمئن المؤمنين أنه سيدخل المعركة فى صفوفهم ، وسيدافع عنهم .

فقوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا .. (٣٨)﴾ [الحج] أمر طبيعى ؛ لأن الحق سبحانه ما كان ليُرسل رسولاً ، ويتركه لأهل الباطل يتغلَّبون عليه ، وإلاّ فما جَدْوى الرسالة إذن ؛ لذلك يُطمئن الله تعالى رسوله ويُبشِّره ، فيقول :

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣)﴾ [الصافات]

وقال : ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ .. (٤٠)﴾ [الحج]

وقال : ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ (٧)﴾ [محمد]

فهذه كلها آيات تُطمئن المؤمنين وتُبشِّرهم ، وقد جاءتْ على

مراحل لحكمة أرادها الحق سبحانه ، فمنعهم عن القتال فى البداية لحكمة ، ثم جعل القتال فيما بينهم ، وقبْل أنْ يأذنَ لهم فى قتال أعدائهم لحكمة : هى أنْ يَبْلوا المؤمنين ويُمحِّصهم ليُخرِج من صفوفهم أهل الخَوَر والجُبْن ، وضعيفى الإيمان الذين يعبدون الله على حَرْف ، ولا يبقى بعد ذلك إلا قوىُّ الإيمان ثابتُ العقيدة ، الذى يحمل راية هذا الدين وينسَاح بها فى بقاع الأرض ؛ لأنها دعوة عالمية لكل زمان ولكل مكان إلى أنْ تقوم الساعة ، ولما كانت هذه الدعوة بهذه المنزلة كان لا بُدَّ لها من رجال أقوياء يحملونها ، وإلا لو استطاع الأعداءُ القضاءَ عليها فلن تقومَ لدين الله قائمة .

إذن : كان لا بُدَّ أن يُصفِّى الحقُ سبحانه أهلَ الإيمان كما يُصفِّى الصائغُ الذهبَ ، ويُخرِج خَبَثه حين يضعه فى النار ، كذلك كانت الفتَن والابتلاءات لتصفية أهل الإيمان وتمييزهم ، لكن بالقتال فى صَفٍّ واحد .

ثم يقول سبحانه : ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ (٣٨)﴾ [الحج] فكأن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ أصبح طرفاً فى المعركة ، والخوَّان : صيغة مبالغة من خائن ، وهو كثير الخيانة وكذلك كفور : صيغة مبالغة من كافر .

ومعنى الخيانة يقتضى أن هناك أمانةً خانها . نعم ، هناك الأمانة الأولى ، وهى أمانة التكليف التى قال الله فيها : ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ .. (٧٢)﴾ [الأحزاب] فلقد خانَ هذه الأمانة بعد أنْ رَضِى أنْ يكونَ أهْلاً لها .

وهناك أمانة قبل هذه ، وهى العهد الذى أخذه الله على عباده ، وهم فى مرحلة الذَّرِّ[١] : ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِى آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ[٢] شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ .. (١٧٣)﴾ [الأعراف]

فإنْ قالوا : نعم هذه أمانة ، لكنها بعيدة ، ومَنْ منَّا يذكرها الآن ؟

نقول : ألم تُقرُّوا بأن الله خلقكم ، وأوجدكم من عدم ، وأمدكم من عُدم ؟ كما قال سبحانه : ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ .. (٨٧)﴾ [الزخرف] كما أقرُّوا بخَلْق السماوات والأرض وما فيها من خيرات لله عز وجل ، فكان وفاء هذا الإقرار أنْ يؤمنوا ، لكنهم مع هذا كله كفروا ، أليست هذه خيانة للأمانة عاصروها جميعاً وعايشوها وأسهموا فيها ؟

والكَفُور : مَنْ كفر نِعَم الله وجَحَدها .

وما دام هناك الخوَّان والكفُور فلا بُدَّ للسماء أنْ تُؤيِّد رسولها ، وأنْ تنصره فى هذه المعركة أولاً ، بأنْ تأذنَ له فى القتال ، ثم تأمره بأخذ العُدة والأسباب المؤدية للنصر ، فإنْ عزَّتْ المسائل عليكم ، فأنا معكم أؤيدكم بجنود من عندى .

---

(١) الذَّرّ فى اللغة : صغار النمل ، واحدتها ذَرَّة . وذَرَّ الله الخلق فى الأرض : نشرهم . والذرية : فعلية منه ، وهى منسوبة إلى الذر الذى هو النمل الصغار . [لسان العرب - مادة : ذرر] .

(٢) قال ابن كثير فى تفسيره (٢/٢٦١) : « وردت أحاديث فى أخذ الذرية من صلب آدم عليه السلام وتمييزهم إلى أصحاب اليمين وأصحاب الشمال ، وفى بعضها الاستشهاد عليهم بأن الله ربهم .. وقد قال قائلون من السلف والخلف أن المراد بهذا الإشهاد إنما هو فطرهم على التوحيد » .

وقد حدث هذا فى بَدْء الدعوة ، فأيَّد الله نبيه بجنود من عنده[١] ، بل أيَّده حتى بالكافر المعاند : ألم يكُن دليل[٢] رسول الله فى الهجرة كافراً ؟ ألم ينصره الله بالحمام وبالعنكبوت وهو فى الغار ؟ ألم ينصره بالأرض التى ساخَتْ تحت أقدام فرس « سُرَاقة »[٣] الذى خرج فى طلبه ؟

هذه جنود لم نَرها ، ولم يُؤيَّد بها رسول الله ﷺ إلا بعد أن استنفد أسبابه ، ولو أراد سبحانه لَطوَّع لرسوله هؤلاء المعاندين ، فما رفع أحد منهم رأسه بعناد لمحمد ، إنما الحق - تبارك وتعالى - يريد أنْ يعطيه طواعية ويخضع له القوم ، ألم يقُلْ سبحانه وتعالى : ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴿٤﴾﴾ [الشعراء]

وقلنا : إن الله تعالى يريد أنْ يُخضع قلوب عباده لا قوالبهم ، فلو أخضعهم الله بآية كونية طبيعية كالريح أو الصاعقة أو الخَسْف ، أو غيره من الآيات التى أخذتْ أمثالهم من السابقين لقالوا : إنها آفاتٌ طبيعية جاءتنا ، لكن جعل الله بين الفريقين هذه المواجهة ، ثم يسَّر لحزبه وجنوده أسباب النصر .

---

(١) قال تعالى : ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ .. ﴿١٠﴾﴾ [الأنفال] . وفى آيات أخرى يقول تعالى : ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلاثَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَـٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [آل عمران] .

(٢) هو عبد الله بن أرقط ، وهو رجل من بنى الدِّئل بن بكر ، وكانت أمه امرأة من بنى سهم ابن عمرو ، وكان مشركاً يدلهما على الطريق ، فدفعا إليه راحلتيهما ، فكانتا عنده يرعاهما لميعادهما . [سيرة ابن هشام ٢/٤٨٥] .

(٣) هو : سراقة بن مالك بن جعشم المدلجى الكنانى ، صحابى ، له شعر ، كان ينزل قديداً ، كان فى الجاهلية قائفاً (قصاصاً للأثر) أخرجه أبو سفيان ليقتاف أثر الرسول ﷺ حين خرج إلى الغار مع أبى بكر . أسلم بعد غزوة الطائف سنة ٨ هـ . توفى ٢٤ هـ . [الأعلام للزركلى ٣/٨٠] .

قال سبحانه : ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ (١٤)﴾ [التوبة]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩)﴾

ودفاع الحق سبحانه عن الحق يأخذ صوراً متعددة ، فأوَّل هذا الدفاع : أنْ أذن لهم فى أنْ يقاتلوا . ثانياً : أمرهم بإعداد القوة للقتال : ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ .. (٦٠)﴾ [الأنفال]

والمراد أنْ يأخذوا بكل أسباب النصر على عدوهم ، وأن يستنفدوا كل ما لديهم من وسائل ، فإن استنفدتم وسائلكم ، أتدخَّل أنا بجنود من عندى لا ترونها ، فليس معنى أن الله يدافع عن الذين آمنوا أن تدخُلَ السماء لحمايتهم وهم جالسون فى بيوتهم ، لا إنما يأخذون بأسباب القوة ويسعَوْنَ ويبادرون هم أولاً إلى أسباب النصر .

ومعنى ﴿أُذِنَ .. (٣٩)﴾ [الحج] أنهم كانوا ينتظرون الأمر بالقتال ، ويستشرفون للنصر على الأعداء ، لكن لم يُؤذَن لهم فى ذلك ، فلما أراد الله لهم أنْ يقاتلوا أذن لهم فيه ، فقال تعالى : ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩)﴾ [الحج]

وعلّة القتال أنهم ظُلموا ، لذلك أمرهم ربهم - تبارك وتعالى - أنْ يقاتلوا ، لكن لا يعتدوا ، كما قال سبحانه : ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (١٩٠) وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ .. (١٩١)﴾ [البقرة]

إذن : أمرهم أولاً بالصبر ، وفى المرحلة الأولى بأنْ يقاتلوا لردِّ العدوان ، وللدفاع عن أنفسهم دون أنْ يعتدوا ، وفى المرحلة الثانية سيقول لهم : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (١٢٣) ﴾ [التوبة]

وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) ﴾ [الحج] بأسباب يُمكِّنهم منها ، أو بغير أسباب فتأتيهم قوة خفية لا يرونْها ، وقد رأوا نماذج من ذلك فعلاً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ (١)

فلو أنهم أُخْرِجوا بحقٍّ كأنْ فعلوا شيئاً يستدعى إخراجهم من ديارهم ، كأنْ خَدشوا الحياء ، أو هددوا الأمْن ، أو أجرموا ، أو خرجوا على قوانين قبائلهم لكانَ إخراجهُم بحقٍّ .

إنما الواقع أنهم ما فعلوا شيئاً ، وليس لهم ذَنْب ﴿ إِلاَّ أَن يَقُولُوا

---

(١) البيعة : كنيسة النصارى ، والجمع بِيَع ، قاله ابن عباس فيما أخرجه عنه عبد بن حميد وابن جرير . وقال أيضاً : الصوامع : التى تكون فيها الرهبان ، والبيع : مساجد اليهود . وصلوات : كنائس النصارى ، والمساجد : مساجد المسلمين . [الدر المنثور للسيوطى ٦/٥٩] .

رَبُّنَا اللَّهُ .. ﴿٤٠﴾ [الحج] هذه المقولة اعتبرها القوم ذَنْباً وجريمة تستحق أنْ يخرجوهم بها من ديارهم .

كما قال سبحانه فى أهل الأخدود : ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾﴾ [البروج]

وفى آية أخرى : ﴿هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ .. ﴿٥٩﴾﴾ [المائدة]

وفى قصة لوط عليه السلام : ﴿قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [النمل]

إذن : أخرجوهم ، لا لأنهم أهل نجاسة ومعصية ، إنما لأنهم أناسٌ يتطهَّرون ، فالطهارة والعفة جريمتهم التى يُخْرَجُون من أجلها !! كما تقول : لا عيْبَ فى فلان إلا أنه كريم ، أو تقول : لا كرامةَ فى فلان إلا أنه لصٌّ . فهذه – إذن – صفة لا تمدح ، وتلك صفة لا تذم .

لقد قلب هؤلاء الموازين ، وخالفوا الطبيعة السويّة بهذه الأحكام الفاسدة التى تدل على فساد الطباع ، وأىّ فساد بعد أنْ قَلَبوا المعايير ، فكرهوا ما يجب أنْ يُحب ، وأحبوا ما يجب أن يكره ؟ ولا أدلَّ على فساد طبائعهم من عبادتهم لحجر ، وتركهم عبادة خالق السماوات والأرض .

ثم يقول تعالى : ﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً .. ﴿٤٠﴾﴾ [الحج]

وفى آية أخرى يُبيِّن الحق سبحانه نتيجة انعدام هذا التدافع : ﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ .. ﴿٢٥١﴾﴾ [البقرة]

والفساد إنْ حدث بين الناس فى حركة الحياة فيمكن أنْ يُعوَّض ويُتدارك ، أمّا إنْ تعدّى الفساد إلى مُقوِّمات اليقين الإيمانى فى الأرض

فكره الناس ما يربطهم بالسماء ، وهدموا أماكن العبادة ، فهذه الطامة والفساد الذى لا صلاحَ بعده ، فكأن الآيتين تصوران نوعاً من الإيغال فى الفساد ، والاتّضاع فى الجرائم .

وتفسد الأرض حين ينعدم هذا التدافع ، كيف ؟ هَبْ أن ظالماً مسْتبداً فى بلد ما يستعبد الناس ويمتصّ خيراتهم بل ودماءهم دون أنْ يردَّه أحد ، لا شكَّ أن هذا سيُحدث فى المجتمع تهاوناً وفوضى ، ولن يجتهد أحد فوق طاقته ، ولمن سيعمل وخيره لغيره ؟ وهذا بداية الفساد فى الأرض .

فإنْ قُلْنا : هذا فساد بين الناس فى حركة حياتهم يمكن أنْ يصلح فيما بعد ، فما بالك إن امتدَّ الفساد إلى أماكن الطاعات والعبادات ، وقطع بين الناس الرباط الذى يربطهم بالسماء ؟

إنْ كان الفساد الأول قابلاً للإصلاح ، ففساد الدين لا يصلح ، لأنك خرَّبْتَ الموازين التى كانت تُنظِّم حركة الحياة ، فأصبح المجتمع بلا ميزان وبلا ضوابط يرجع إليها .

ونلْحظُ فى قوله تعالى : ﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ .. ﴿٤٠﴾﴾ [الحج] جاءت قضية عامة لكل الناس ، فلم يخصْ طائفة دون أخرى ، فلم يَقُلْ مثلاً : لولا دَفْع الله الكافرين بالمؤمنين ، إنما قال مُطْلق الناس ؛ لأنها قضية عامة يستوى فيها الجميع فى كل المجتمعات .

كذلك جاءت كلمة (بعض) عامة ؛ لتدل على أن كلاً الطرفين صالح أن يكون مدفوعاً مرة ، ومدفوعاً عنه أخرى ، فَهُمْ لبعض بالمرصاد : مَنْ أفسد يتصدَّى له الآخر ليُوقِفه عند حَدِّه ، فليس المراد أن طائفة تدفع طائفة على طول الخط .

ومثال ذلك قوله تعالى : ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ .. (٣٢)﴾ [الزخرف] دون أنْ يُحدِّد أيّهما مرفوع ، وأيهما مرفوع عليه ؛ لأن كلاً منهما مرفوع فى شىء ، ومرفوع عليه فى شىء آخر ؛ ذلك لأن العباد كلهم عيال الله ، لا يُحابى منهم أحداً على أحد .

انظر الآن إلى قوة روسيا فى الشرق وقوة أمريكا فى الغرب ، إنهما مثال لقوله تعالى : ﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ .. (٤٠)﴾ [الحج] فكلٌّ منهما تقف للأخرى بالمرصاد ، ترقبها وترصُد تحركاتها وتقدّمها العسكرى ، وكأن الله تعالى جعلهما لحماية سلامة الآخرين أنْ تقف كُلٌّ منهما موقفَ الحذَر والخوف من الأخرى .

وهذا الخوف والترقُّب والإعداد هو الذى يمنع اندلاع الحرب بينهما ، فما بالك لو قامت بينهما حرب أسفرت عن منتصر ومهزوم ؟ لا بُدَّ أن المنتصر سيعيثُ فى الأرض فساداً ويستبد بالآخرين ، ويستشرى ظُلْمه لعدم وجود مَنْ يُردِعه .

ومن رحمة الله بالمؤمنين أنْ يكيد الظالمين بالظالمين بكل ألوانهم وفنونهم ، ويُؤدِّب الظالم بمَنْ هو أشد منه ظُلْماً ؛ ليظلّ أهلُ الخير بعيدين عن هذه المعركة ، لا يدخلون طَرَفاً فيها ؛ لأن الأخيار لا يصمدون أمام هذه العمليات ، لأنهم قوم رِقَاق القلوب ، لا تناسبهم هذه القسوة وهذه الغِلْظة فى الانتقام .

اقرأ قول الله تعالى : ﴿وَكَذَلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٢٩)﴾ [الأنعام]

وهكذا يُوفِّر الله أهل الخير ، ويحْقِن دماءهم ، ويُريح أولياءه من مثل هذه الصراعات الباطلة .

لذلك لما دخل النبى ﷺ مكة دخولَ المنتصر ، بعد أنْ أخرجه

قومه منها ، وبعد أنْ فعلوا به وبأصحابه الأفاعيل ، كيف دخلها وهو القائد المنتصر الذى تمكَّن من رقاب أعدائه ؟

دخل رسول الله ﷺ مكة مُطأطىء الرأس ، حتى لتكاد رأسه تلمس قربوس[1] السرج الذى يجلس عليه ، تواضعاً منه ﷺ ، ومع ذلك قال أبو سفيان لما رأى رسول الله فى هذا الموقف ، قال للعباس : لقد أصبح مُلْك ابن أخيك عظيماً [2].

وبعد أن تمكَّن رسول الله من كفار مكة ، وكان باستطاعته القضاء عليهم جميعهم ، قال : « يا معشر قريش ، ما تظنُّون أنِّى فاعل بكم ؟ قالوا : أخ كريم وابن أخ كريم ، قال : فاذهبوا فأنتم الطلقاء »[3]

فأىُّ رحمة هذه ؟ وأىُّ لين هذا الذى جعله الله فى قلوب المؤمنين ؟ وهل مِثْل هذا الدين يُعارَض ويُنْصَرف عنه ؟

إذن : يُسلِّط الحق - تبارك وتعالى - الأشرار بعضهم على بعض ، وهذه آية نراها فى الظالمين فى كل زمان ومكان ، ويجلس الأخيار يرقبون مثل هذه الصراعات التى يُهلِك الله فيها الظالمين بالظالمين .

---

(١) القَرَبُوس : حنْو السَّرْج . وحنْو كل شىء : اعوجاجه . فحنو الرَّحْل والسَّرْج : كل عود مُعوَج من عيدانه . [لسان العرب - مادتا : قربس ، حنا] . وقد ذكر ابن هشام فى السيرة النبوية (٤/٤٠٥) « أن رسول الله ﷺ كان يضع رأسه تواضعاً لله ، حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح ، حتى إن عثنونه (طرف لحيته) ليكاد يمسّ واسطة الرَّحْل » .

(٢) قال أبو سفيان حين مرَّت أمامه جيوش المسلمين يوم فتح مكة : ما لأحد بهؤلاء قِبَل ولا طاقة ، والله يا أبا الفضل ، لقد أصبح مُلْك ابن أخيك الغداة عظيماً . قال العباس : يا أبا سفيان إنها النبوة . قال : فنعم إذن .

(٣) قال ابن إسحاق : حدثنى بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ قام فى خطابه على باب الكعبة فقال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، إلى أن قال : ما ترون أنى فاعل فيكم ؟ قالوا : خيراً ، أخ كريم ، وابن أخ كريم ، قال : فاذهبوا فأنتم الطلقاء » [السيرة النبوية لابن هشام ٤/٤١٢] .

ثم يقول سبحانه وتعالى : ﴿لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ .. (٤٠)﴾ [الحج] صوامع جمع صومعة ، وهى مكان خاصٌّ للعبادة عند النصارى ، وعندهم مُتعبَّد عام يدخله الجميع هو الكنائس ، أما الصَّومعة فهى مكان خاص لينفرد فيه صاحبه وينقطع للعبادة ، ولا تكون الصَّوْمعة فى حضر ، إنما تكون فى الجبال والأودية ، بعيداً عن العمران لينقطع فيها الراهب عن حركة حياة الناس ، وهى التى يسمونها الأديرة وتوجد فى الأماكن البعيدة .

وقد حرم الإسلام الرهبانية بهذا المعنى ؛ لأنها رهبانية ما شرّعها الله ، كما قال سبحانه : ﴿وَرَهْبَانِيَّةً[1] ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا .. (٢٧)﴾ [الحديد]

ومعنى : ﴿وَبِيَعٌ .. (٤٠)﴾ [الحج] البِيَع هى الكنائس .

فالحق ـ سبحانه وتعالى ـ مَا نعَى عليهم الانقطاعَ للعبادة ، لكن نعى عليهم انقطاعهم عن حركة الحياة ، وأسباب العيش ؛ لذلك قال : ﴿فَمَا رَعَوْهَا[2] حَقَّ رِعَايَتِهَا .. (٢٧)﴾ [الحديد]

وقد أباح الإسلام أيضاً الترهُّب والانقطاع للعبادة ، لكن شريطة أن تكون فى جلْوة يعنى : بين الناس ، لا تعتزل حركة الحياة ، إنما تعبَّد الله فى كل حركة من حركات حياتك ، وتجعل الله تعالى دائماً فى بالك ونُصْب عينيك فى كُلِّ ما تأتى ، وفى كل ما تدَع ، إذن :

---

(١) الترهب : التعبُّد ، كانوا يترهبون بالتخلى من أشغال الدنيا ، وترك ملاذها والزهد فيها ، والعزلة عن أهلها وتعهُّد مشاقها ، حتى إن منهم من كان يخصى نفسه ويضع السلسلة فى عنقه وغير ذلك من أنواع التعذيب ، والراهب : هو المتعبِّد فى الصومعة . [لسان العرب ـ مادة : رهب] .

(٢) أى : فما قاموا بما التزموه حق القيام وهذا ذم لهم من وجهين : أحدهما : الابتداع فى دين الله ما لم يأمر به الله . والثانى : فى عدم قيامهم بما التزموه مما زعموا أنه قربة يقربهم إلى الله عز وجل . قاله ابن كثير فى تفسيره (٤/٣١٥) .

هناك فَرْق بين مَنْ يعبد الله فى خُلْوته ، ومَنْ يعبد الله فى جَلْوته .

لذلك سيدنا عمر - رضى الله عنه - قال عن الرجل الذى لازم المسجد للعبادة وعرف أن أخاه يتكفّل به ويُنفق عليه ، قال : أخوه أعبد منه . كيف ؟

قالوا : لأنك تستطيع أنْ تجعل من كل حركة لك فى الحياة عبادة ، حين تُخلص النية فيها لله عز وجل . ولك أن تقارن بين مؤمن وكافر ، كلاهما يعمل ويجتهد ليقُوتَ نفسه وأهل بيته ، ويحيا الحياة الكريمة ، وهذا هدف الجميع من العمل ، لكن لو أن المؤمن اقتصر فى عمله على هذا الهدف لاستوى مع الكافر تماماً .

إنما للمؤمن فوق هذا مقاصد أخرى تكمن فى نيته وضميره ، المؤمن يفعل على قَدْر طاقته ، لا على قَدْر حاجته ، ثم يأخذ ما يحتاج إليه ويُنفق من الباقى ويتصدَّق على مَنْ لا يقدر على الحركة الحياتية .

لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (٤)﴾ [المؤمنون] هل يعنى : مُؤدُّون فقط ؟ لا ، بل إن المؤمن يتحرك ويعمل ويسعى ، وفى نيته مَنْ لا يقدر على السَّعْى والعمل ، فكأنه يُقبل على العمل ويجتهد فيه ، وفى نيته أنْ يعمل شيئاً لله بما يفيض عن حاجته من ناتج عمله وهذا ما يُميِّز المؤمن فى حركة الحياة عن الكافر .

وأذكر مرة أننا جئنا من الريف فى الشتاء فى الثلاثينيات لزيارة سيدنا الشيخ الحافظ التيجانى ، وكان مريضاً - رحمه الله ورضى الله عنه - وكان يسكن فى حارة ، وفضَّلنا أن نأخذ (تاكسى) يُوصِّلنا بدل أن نمشى فى وَحْل الشتاء ، وعند مدخل الحارة رفض سائق

(التاكسى) الدخول وقال : إن أجرة التوصيل لا تكفى لغسيل السيارة وتنظفيها من هذا الوَحْل ، وبعد إلحاح وافق وأوصلنا إلى حيث نريد ، فأعطيناه ضِعْف أجرته ، لكنى قبل أن أنصرف قلتُ له : أنت لماذا تعمل على هذا (التاكسى) ولماذا تتعب ؟ قال : من أجل مصالحى ومصالح أولادى ، فقلت له : وما يُضيرك إنْ زِدْتَ على ذلك وجعلْتَ فى نيتك أنْ تُيسِّر بعملك هذا على الناس ؟ فاهتمّ الرجل ولبسته الكلمة فقال : والله لا أردُّ راكباً أبداً .

ومعنى : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [المؤمنون] لم يقل مؤدون ؛ لأن ﴿ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [المؤمنون] تعنى : أن نيتهم فى الفعل أنْ يفعلوا على قَدْر طاقتهم ويجتهدوا لتوفير شىء بعد نفقاتهم يتصدقون منه .

إذن : حرَّم الإسلام الرهبانية التى تَحرِم المجتمع من مشاركة الإنسان فقال ﷺ : « لا رهبانية فى الإسلام »[1] لأنه اعتبر كل حركة مقصودٍ منها صالحُ المجتمع كله حركةً إيمانية عبادية ، ومن هنا كان العمل عبادة .

وقد وضع العلماء شروطاً لمَنْ أراد الانقطاع للعبادة : أولها : ألاَّ يأخذ نفقته من أحد ، بمعنى أن يعمل أولاً لِيُوفِّر احتياجاته طوال فترة انقطاعه ، وصدق (إقبال) حين قال :

---

(١) قال العجلونى فى كشف الخفاء (٣١٥٤) : « قال ابن حجر : لم أره بهذا اللفظ ، لكن فى حديث سعد بن أبى وقاص عند البيهقى « إن الله أبدلنا بالرهبانية الحنيفية السمحة » . وقد أخرج أحمد فى مسنده (٦/٢٢٦) من حديث عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : « إن الرهبانية لم تكتب علينا » .

لَيْسَ زُهْداً تصوف من تقى ... فرَّ من غَمْرة الحيَاة بدين
إنما يُعرَفُ التصَوفُ فى الـ ... سُّوق بمالٍ ومَطْمعٍ وفُتُون

ثم يقول تعالى : ﴿وَصَلَوَاتٌ.. ﴿٤٠﴾﴾ [الحج] وهذه لليهود يُسمُّون مكان التعبد : صَالوتاً . لكن ، لماذا لم يرتبها القرآن ترتيباً زمنياً ، فيقول : لهدمت صلوات و صوامع وبيع ؟ قالوا : لأن القرآن يُؤرِّخ للقريب منه فالأبعد .

﴿وَمَسَاجِدُ .. ﴿٤٠﴾﴾ [الحج] وهذه للمسلمين ﴿يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً .. ﴿٤٠﴾﴾ [الحج]

وما دام الحق سبحانه ذكر المساجد بعد الفعل ﴿لَّهُدِّمَتْ .. ﴿٤٠﴾﴾[الحج] فهذا دليل على أنه لا بُدَّ أن يكون للمسلمين مكان يُحكر للعبادة ، وإنْ جُعلَتْ الأرض كلها لهم مسجداً وطَهُوراً ، ومعنى ذلك أنْ تصلى فى أىِّ بقعة من الأرض ، وإنْ عُدِم الماء تتطهر بترابها ، وبذلك تكون الأرض مَحَلاً للعبادة ومَحَلاً لحركة الحياة وللعمل وللسَّعْى ، فيمكنك أن تباشر عملك فى مصنعك مثلاً وتُصلِّى فيه ، لكن الحق سبحانه يريد منا أن نُخصِّص بعض أرضه ليكون بيتاً له تنقطع منه حركة الحياة كلها ، ويُوقَف فقط لأمور العبادة .

لذلك قال ﷺ : « مَنْ بنى لله مسجداً ولو كمِفْحَصِ قَطَاةٍ[1] بنى الله له بيتاً فى الجنة »[2] .

---

(١) القطا : طائر ، سُمِّى بذلك لثقَل مَشْيه . [لسان العرب ـ مادة : قطا] ومفحص القطاة : حيث تُفرِّخ فيه من الأرض . والأُفحوص : مَبيض القطا لأنها تفحص الموضع ثم تبيض فيه ، وكذلك هو للدجاجة [لسان العرب ـ مادة : فحص] .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (١/٢٤١) عن ابن عباس ، وأخرجه أبو نعيم فى حلية الأولياء (٤/٢١٧) من حديث أبى ذر ، وكذا (٥/٢٤) من حديث أبى بكر الصديق .

فقوله تعالى : ﴿لَّهُدِّمَتْ .. وَمَسَاجِدُ .. ﴿٤٠﴾﴾ [الحج] تدل على مكان خاص للعبادة وإلاَّ لو اعتُبرَتْ الأرضُ كلها مسجداً ، فماذا تهدم ؟

وعليه ، فكل مكان تُزاوَل فيه أمورٌ غير العبادة لا يُعتبر مسجداً ، كأماكن الصلاة التى يتخذونها تحت العمارات السكنية ، هذه ليست مساجد ، والصلاة فيها كالصلاة فى الشارع وفى البيت ؛ لأن المسجد (مكان) وما يُبنى عليه (مكين) .

والمسجدية تعنى : المكان من الأرض إلى السماء ، بدليل أننا فى بيت الله الحرام نصلى فوق سطح المسجد ، ونتجه لجوِّ الكعبة ، لا للكعبة ذاتها ، لماذا ؟ لأن جَوَّ الكعبة إلى السماء كعبة ، وكذلك لو كنا فى مخابىء أو فى مناجم تحت الأرض ؛ لأن ما تحت الكعبة من الأرض كعبة . وكذلك فى المسْعَى إذا ضاق الدور الأول يسعى الناس فى الثانى وفى السطح ، لأن جو المسْعَى مَسْعَى .

إذن : المسجد ما حُكر للعبادة ، وخُصِّص للمسجدية من أرضه إلى سمائه ، وهذا لا يُمارس فيه عمل دنيوى ولا تُعقد فيه صفقة .. إلخ .

أما أنْ نجعل المسجد تحت عمارة سكنية ، وفوق المسجد مباشرة يباشر الناس حياتهم ومعيشتهم بما فيها من هَرج ولَهْو ، حلال وحرام ، وطهارة ونجاسة ، ومعاشرة زوجية .. إلخ فهذا كله يتنافى مع المسجدية التى جعلها الله حكْراً للعبادة من الأرض إلى السماء . فلنُسَمِّ هذه الأماكن : مُصلّى . ولاَ نقول : مسجد .

ثم يصف الحق سبحانه المساجد بقوله : ﴿ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً .. ﴿٤٠﴾﴾ [الحج] لأن ذكْر الله فى المساجد دائم لا ينقطع ، ونحن لا نتحدث عن مسجد ، ولاَ عن مساجد قُطْر من الأقطار ، إنما المراد

مساجد الدنيا كلها من أقصى الشرق لأقصى الغرب ، ومن الشمال للجنوب .

ولو نظرتَ إلى أوقات الصلوات لرأيتَ أنها مرتبطة بحركة الفلك وبالشمس فى الشروق ، وفى الزوال ، وفى الغروب ، وباعتبار فارق التوقيت فى كل بلاد الله تجد أن ذكْر الله دائم لا ينقطع أبداً فى ليل أو نهار ، فأنت تُؤذِّن للصلاة ، وغيرُك يقيم ، وغيركما يصلى ، أنت تصلى الظهر ، وغيرك يصلى الصبح أو العصر ، بل أنت فى الركعة الأولى من الصبح ، وغيرك فى الركعة الثانية ، أنت تركع وغيرك يسجد .

إذن : هى منظومة عبادية دائمة فى كل وقت ، ودائرة فى كل مكان من الأرض ، فلا ينفكّ الكون ذاكراً لله . أليس هذا ذكْراً كثيراً ؟ أليستْ كلمة (الله أكبرُ) دائرة على ألسنة الخلق لا تنتهى أبداً ؟

ثم لما كان دَفْع الله الناسَ بعضهم ببعض ينتج عنه معركة تُسْفر عن منتصر ومنهزم ، قال سبحانه : ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ .. ﴿٤٠﴾ ﴾ [الحج] فإنْ كان التدافع بين الكفار فإنه لا ينتهى ، وإنْ كان بين حقٍّ لله وباطل حكم الله بأنه باطل لا بُدَّ أن تنتهى بنُصْرة الحق ، وغالباً لا تطول هذه المعركة ؛ لأن الحق دائماً فى حضانة الله ، إنما تطول المعارك بين باطل وباطل ، فليس أحدهما أَوْلَى بنُصْرة الله من الآخر ، فيظل كل منهما يطحن فى الآخر ، وإنْ لم تكن حرباً ساخنة كانت حرباً باردة ، لماذا ؟ لأنه لا يوجد قوىٌّ لا هوى له يستطيع أن يفصل فيها ، وطالما تدخّل الهوى تستمر المعركة .

يبقى فى القسمة العقلية المعركة بين حق وحق ، وهذه لا وجودَ لها ؛ لأن الحق واحد فى الوجود ، فلا يمكن أنْ يحدث تصادم أبداً بين أهل الحق .

والحق ـ تبارك وتعالى ـ فى نُصْرته لأوليائه يستطيع أن ينصرهم دون حرب ، ويُهلك أعداءهم ، لكن الحق سبحانه يريد أنْ يأخذوا هم بأسباب النصر ؛ لذلك يُعلّمهم أصول هذه المسألة ، فيقول سبحانه :

﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ[1] فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ .. (٤) ﴾ [محمد]

ومعنى ﴿ أَثْخَنتُمُوهُمْ .. (٤) ﴾ [محمد] يعنى : جعلتموهم لا يقدرون على الحركة ﴿ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ .. (٤) ﴾ [محمد] لا تُجهزوا عليهم ، ولا تقتلوهم ، إنما شُدُّوا قيودهم واستأسروهم ، وهذه من رحمة الإسلام وآدابه فى الحروب ، فليس الهدف القتل وإزهاق الأرواح ثم ﴿ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً .. (٤) ﴾ [محمد] مَنّاً إنْ كان هناك تبادل للأسرى . فأنت تمنُّ وهو يمنُّ . والفداء أنْ يفدى نفسه .

وكانت هذه المسألة حجة لنا حينما نتحدث عن الرقِّ فى الإسلام ، ونرد على هؤلاء الذين يحلو لهم اتهام الإسلام ، ويستخدمون فى ذلك السفسطة والمراوغة اللغوية لإقناع الناس بأن الإسلام ساهم فى نَشْر الرقِّ والعبودية .

ونقول : لقد جاء الإسلام والرق موجود ومنتشر لم يُشرِّعه الإسلام ، ولم يُوجِدْه بداية ، حيث كانت أسباب الرق كثيرة ، وأسباب

---

(١) أثخنته الجراح : أعجزته عن الحركة أو عن القتال . [القاموس القويم ١/١٠٦] وقال أبو العباس : معناه غلبتموهم وكثر فيهم الجراح . [لسان العرب ـ مادة : ثخن] .

الاستعباد متعددة : فَمنْ تحمّل دَيْناً وعجز عن سداده يُسْتعبد لصاحب الدين ، ومَنْ عمل ذنباً وخاف من عقوبته أخذوه عبداً ، ومَنْ اختطفه الأشرار فى الطريق جعلوه عبداً .. إلخ .

فلما جاء الإسلام عمل على سَدِّ منابع الرقِّ هذه ، وجعل الرقَّ مقصوراً على الحرب المشروعة . ثم فتح عدة مصارف شرعية للتخلُّص من الرق القائم ، حيث لم يكُنْ موجوداً من أبواب العتق إلا إرادة السيد فى أنْ يعتق عبده ، فأضاف الإسلام إلى هذا الباب أبواباً أخرى ، فجعل العتق كفارة لبعض الذنوب ، وكفارة لليمين ، وكفارة للظِّهار[1] ، وحثَّ على الصدقة فى سبيل العتق ، ومساعدة المكاتب الذى يريد العتق ويسعى إليه .. إلخ .

فإذا لم تعتق عبدك ، فلا أقل من أن تطعمه من طعامك ، وتُلْبسه من ملبسك ، ولا تُحمِّله ما لا يطيق ، وإنْ حمَّلْته فأعِنْه ، وكما يقول النبى ﷺ « إنما هم إخوانكم »[2] .

ونلاحظ على الذين يعيبون على الإسلام مسألة الرقِّ فى الحروب أنهم يقارنون بين الرقِّ والحرية ، لكن المقارنة هنا ليستْ كذلك ،

---

(١) ظاهر من امرأته ، قال لها أنها عليه كظهر أمه أو أخته أو غيرهما من المحرمات فيحرمها ولا يطلقها ، وكان العرب يفعلون ذلك إيذاءً لهن وإضراراً فلما اشتكت الزوجة التى ظاهرها زوجها للنبى ﷺ نزلت الآيات تنظم الظهار ، فإما طلاق أو كفارة كبرى إذا رغب فى العودة إلى زوجته عقوبة له على الظهار ، قال تعالى : ﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلاَّ اللاَّئِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾﴾ [المجادلة] الكفارة الكبرى إما : تحرير رقبة - صيام شهرين متتابعين - إطعام ستين مسكيناً .

(٢) عن أبى ذر - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : « إن إخوانكم خولكم ، جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل ، وليلبسه مما يلبس ، ولا تكلفوهم ما يغلبهم ، فإن كلفتموهم ما يغلبهم فأعينوهم » أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٥٤٥) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٦٦١) كتاب الإيمان .

المقارنة هنا بين الرق والقتل ؛ لأنه لا يُسترقّ إلا مَنْ قدر المسترقُّ عليه وتمكَّن منه فى المعركة ، وكان باستطاعته قَتْله ، لكن رحمة الله بعباده منعتْ قتله ، وأباحت أَخْذه رقيقاً ، فالنفعية للمقاتل المنتصر يقابلها حَقْن دم الآخر ، ثم بعد انتهاء الحرب نحثُّ على عتقه ، ونفتح له أبواب الحرية .

إذن : لا تقارن بين عبد وحر ، إنما قارن بين العبودية والقتل : أيهما أقلّ ضرراً ؟

لذلك قال تعالى : ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ (١٤) وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٥)﴾ [التوبة]

هذه نتائج ستٌّ للأمر ﴿قَاتِلُوهُمْ .. (١٤)﴾ [التوبة] وجواب الأمر مجزوم بالسكون كما فى (يُعذِّبْهم) ومجزوم بحذف حرف العلة كما فى (وَيُخْزِهِم) ، والخزى لأنهم كانوا مغترين بقوتهم ، ولديهم جبروت مفتعل ، يظنون ألاَّ يقدر عليهم أحد ، وكذلك فى : ينصركم ، ويشف ، ويذهب .

ثم قطع السياقُ الحكمَ السابق ، واستأنف كلاماً جديداً ، وإنْ كان معطوفاً على ما قبله فى اللفظ ، وهذا مظهر من مظاهر الدقة فى الأداء القرآنى ، وملْحَظ لرحمة الله تعالى حتى بالكفار ، فقال تعالى : ﴿ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ .. (١٥)﴾ [التوبة] هكذا بالرفع ، لا بالجزم فقطع الفعل (يتوب) عما قبله ؛ لأن الله تعالى لم يشأ أن يشرِّك بينهم حتى فى جواب الأمر .

وحتى على اعتبار أنهم هُزِمُوا ، وكُسِرت شوكتهم ، وضاعتْ

هيبتهم ، لعلهم يفيقون لأنفسهم ، ويعودون للحق ، وهذه من رحمة الله بالكافرين فى معاركهم مع الإيمان .

لكن ، لماذا يتوب الله على الكفار ويرحمهم وهم أعداء دينه وأعداء نبيه ؟ قالوا : لأنه سبحانه وتعالى ربهم وخالقهم ، وهم عباده وعياله ، وهو أرحم بهم ، ومرادات الله فى الخَلْق أن يكونوا جميعاً طائعين .

لذلك ، يقول سبحانه فى الحديث القدسى : « قالت السماء : يا رب ائذن لى أن أسقط كسفاً على ابن آدم فقد طعم خيرك ومنع شكرك ، وقالت الأرض : يا رب ائذن لى أن أخسف بابن آدم فقد طَعِم خيرك ومنع شكرك ، وقالت الجبال : يا رب ائذن لى أن أسقط على ابن آدم فقد طعم خيرك ومنع شكرك ، وقالت البحار : يا رب ائذن لى أن أغرق ابن آدم فقد طعم خيرك ومنع شكرك » .

فالكون كله ناقم على الكافرين ، متمرد على العصاة ، مغتاظ منهم ، فماذا قال الحق ـ تبارك وتعالى ـ لهم ؟ قال سبحانه : « دعونى وخَلْقى ، لو خلقتموهم لرحمتموهم ، فإنْ تابوا إلىَّ ، فأنا حبيبهم ، وإنْ لم يتوبوا فأنا طبيبهم » .

نعود إلى قوله تعالى : ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ .. ﴿٤٠﴾ ﴾ [الحج] وما دام أن النصر من عند الله فإياكم أنْ تبحثوا فى القوة أو تقيسوا قوتكم بقوة عدوكم ، فلربك عز وجل جنود لا يعلمها إلا هو ، ووسائل النصر وأنت فى حضانة الله كثيرة تأتيك من حيث لا تحتسب وبأهْون الأسباب ، أقلّها أن الله يُريكم أعداءكم قليلاً ويُكثِّر المؤمنين فى أعين الكافرين ليفتَّ ذلك فى عَضُدهم ويُرهبهم ويُزعزع معنوياتهم ، وقد يحدث العكس ، فيرى الكفار المؤمنين قليلاً فيجترئون عليهم ، ويتقدمون ، ثم تفاجئهم الحقيقة .

إذن : ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ .. ﴿٣١﴾﴾ [المدثر] فلا تُعوِّل فقط على قوتك وتحسب مدى تكافُئك مع عدوك ، دَعْكَ من هذه الحسابات ، وما عليك إلا أنْ تستنفد وسائلك وأسبابك ، ثم تدع المجال لأسباب السماء .

وأقلُّ جنود ربك أنْ يُلقى الرعب فى قلوب أعدائك ، وهذه وحدها كافية ، ويُرْوى أنهم فى إحدى المعارك الإسلامية تغيرت رائحة أفواه المسلمين ، وأحسُّوا فيها بالمرارة لطول فترة القتال ، فأخرجوا السواك يُنظفُّون أسنانهم ، ويُطيِّبون أفواههم ، عندها قال الكفار : إنهم يسنُّون أسنانهم ليأكلونا ، وقذف الله فى قلوبهم الرعب من حيث لا يدرون .

ثم يقول تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾ [الحج] عزيز : يعنى لا يُغلب ، وما دام أن الله تعالى ينصر مَنْ نصره فلا بُدَّ أن تنتهى المعركة بالنصر مهما خارتْ القوى ومهما ضَعُفتْ ، ألم يكُن المسلمون فى مكة ضعفاء مضطهدين ، لا يستطيع واحد منهم أن يرفع رأسه بين الكفار ؟

ولما نزل قول الله تعالى وهم على هذه الحال : ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ [القمر] تعجب عمر[1] بفراسته وعبقريته : أىُّ جمع هذا الذى سيُهزم ونحن غير قادرين حتى على حماية أنفسنا ؟ فلما رأى يوم بدر قال : صدق الله ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ [القمر]

فما دام أن الله قوى عزيز فلا بُدَّ أن ينصركم ، وهذه مسألة

---

(١) أورد ابن كثير فى تفسيره وعزاه لابن أبى حاتم (٤/٢٦٦) عن عكرمة قال : « لما نزلت ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ [القمر] . قال عمر : أىّ جَمْع هذا ؟ أى أى جمع يغلب ؟ قال عمر : فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ يثب فى الدرع وهو يقول : « سيهزم الجمع ويولون الدبر » فعرفت تأويلها يومئذ .

محكوم بها أزلاً : ﴿كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي .. (٢١)﴾ [المجادلة]

فإذا ما تمَّتْ لكم الغَلَبة ، فاعلموا أن لكم دَوْراً ، ألاَ وهو :

﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ (٤١)﴾

معنى : ﴿مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ .. (٤١)﴾ [الحج] جعلنا لهم سلطاناً وقوة وغَلَبة ، فلا يَجترىء أحد عليهم أو يزحزحهم ، وعليهم أنْ يعلموا أن الله ما مكَّنهم ونصرهم لذاتهم ، وإنما ليقوموا بمهمة الإصلاح وينقوا الخلافة الإنسانية فى الأرض من كُلِّ ما يُضعِف صلاحها أو يفسده .

لذلك ، سيدنا سليمان عليه السلام كان يركب بساط الريح يحمله حيث أراد ، فداخله شىء من الزهو ، فمال به البساط وأوشك أنْ يُلقيه ، ثم سمع من البساط مَنْ يقول له : أُمِرْنا أن نطيعك ما أطعتَ الله .

والممكَّن فى الأرض الذى أعطاه الله البأس والقوة والسلطان ، يستطيع أنْ يفرض على مجتمعه ما يشاء ، حتى إنْ مُكِّن فى الأرض بباطل يستطيع أنْ يفرض باطله ويُخضِع الناس له ، ولو إلى حين .

فماذا يُناط بالمؤمن إنْ مُكِّن فى الأرض ؟

يقول تعالى : ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ .. (٤١)﴾ [الحج] ليكونوا دائماً على ذِكْر وولاء من ربهم الذى وهبهم هذا

التمكين ؛ ذلك لأنهم يترددون عليه سبحانه خَمْس مرات فى اليوم والليلة .

﴿ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ (٤١) ﴾ [الحج] فهذه أُسس الصلاح فى المجتمع والميزان الذى يسعد به الجميع .

﴿ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ (٤١) ﴾ [الحج] يعنى : النهاية إلينا ، وآخر المطاف عندنا ، فمَن التزم هذه التوجيهات وأدَّى دوره المنُوط فى مجتمعه ، فبها ونِعْمتْ ، ومَنْ ألقاها وراء ظهره فعاقبته معروفة .

ثم يُسلِّى الحق سبحانه رسوله ﷺ حتى لا يهتم بما يفعله قومه من كفر وعناد ومجابهة للدعوة :

﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ (٤٢) ﴾

﴿ يُكَذِّبُوكَ .. (٤٢) ﴾ [الحج] يعنى : فى دعوتك فيواجهونك ، ويقفون فى سبيل دعوتك ليبطلوها ، فاعلم أنك لست فى ذلك بِدْعاً من الرسل ، فقد كُذِّب كثير من الرسل قبلك ، وعليك ألاَّ تلاحظ مسألة التكذيب منفصلةً عن عاقبته ، نعم : كذب القوم لكن كيف كانت العاقبة ؟ أتركناهم أم أخذناهم أَخْذ عزيز مقتدر ؟

فلا تحزن ، فسوف يحلُّ بهم ما حَلَّ بسابقيهم من المكذِّبين والمعاندين .

وقلنا : إن الرسول يتحمّل من مشقة الرسالة وعناء الدعوة على قَدْر رسالته ، فكلُّ رسل الله قبل محمد كان الرسول يُرْسَل إلى قومه خاصة ، وفى مدة محدودة ، وزمان محدود ، ومع ذلك تعبوا

كثيراً فى سبيل دعوتهم ، فما بالك برسول بُعِثَ إلى الناس كافة فى كل زمان وفى كل مكان ، لا شكَّ أنه سيتحمل من التعب والعناء أضعاف ما تحمَّله إخوانه من الرسل السابقين .

وكأن الحق ـ تبارك وتعالى ـ يُعد رسوله ﷺ ويُوطِّنه على تحمُّل المشاقِّ من بداية الطريق حتى لا تفتّ فى عَضُده حين يواجهها عند مباشرة أمر الدعوة ، يقول له : ليست السيادة أمراً سهلاً ، إنما دونها متاعب وأهوال ومصاعب فاستعد ، كما تنبه ولدك : انتبه ، فالامتحانات ستأتى هذا العام صعبة ، فالوزارة تريد تقليل عدد المتقدمين للجامعة ، فاجتهد حتى تحصل على مجموع مرتفع ، وحين يسمع الولد هذا التنبيه يُجمع تماسكه ، ويجمع تركيزه ، فلا يهتز حين يواجه الامتحانات .

ثم يذكر الحق ـ تبارك وتعالى ـ نماذج للمكذِّبين للرسل : ﴿ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ (٤٢) ﴾ [الحج]

ثم يقول تعالى :

﴿ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ (٤٣) وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٤٤) ﴾

نلحظ هنا أن الحق سبحانه ذكر المكذبين ، إلا فى قصة موسى فذكر المكذَّب ، فلم يَقُل : وقوم موسى بل قال : وكُذِّب موسى ، لماذا ؟ قالوا : لأن مهمته كانت أصعب حيث تعرَّض فى دعوته لمنِ ادَّعى الألوهية ذاتها .

وقوله تعالى : ﴿ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ .. (٤٤) ﴾ [الحج]
أمليت : أمهلْتُ حتى ظنوه إهمالاً ، وهو إمهال بأنْ يمدّ الله لهم ، ويطيل

فى مدتهم ، لا إكراماً لهم ، ولكن ليأخذهم بعد هذا أخْذ عزيز مقتدر ، وفى آية أخرى يُوضِّح لنا هذه البرقية المختصرة ، فيقول سبحانه :

﴿ وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْماً .. (١٧٨) ﴾ [آل عمران]

وفى هذا المعنى يقول أيضاً : ﴿ فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (٥٥) ﴾ [التوبة]

إذن : لا تغتر بما فى أيديهم ؛ لأنه فتنة ، حتى إذا أخذهم الله كانت حسرتهم أكبر ، فمن عُدم هذه النعم لا يتعلق قلبه بها ، ولا يألَم لفقدها .

وقد حدث شىء من هذا فى أيام سعد زغلول ، وكان أحد معارضيه يشتمه ويتطاول عليه ، لكن فوجىء الجميع بأنه يُولِّيه منصباً مرموقاً فى القاهرة ، فتعجّب الناس وسألوه فى ذلك فقال : نعم ، وضعته فى هذا المنصب ليعرف العلو والمنزلة حتى يتحسَّر عليها حين تُسلَب منه ، وتكون أنكى له . يعنى : يرفعه إلى أعلى حتى يهوى على رقبته ، لأنه ما فائدة أن توقعه من على الحصيرة مثلاً ؟!!

ثم يقول تعالى : ﴿ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٤٤) ﴾ [الحج] الحق سبحانه يُلقى الخبر فى صورة استفهام لتقول أنت ما حدث وتشهد به . والمراد : أعاقبناهم بما يستحقون ؟

والنكير : هو الإنكار على شخص بتغيير حاله من نعمة إلى نقمة ، كالذى يُكرمك ويُواسيك ويَبَشُّ فى وجهك ويُغدق عليك ، ثم يقطع عنك هذا كله ، فتقول : لماذا تنكَّر لى فلان ؟ يعنى : قطع عنى نعمته .

وكأن الحق - تبارك وتعالى - يريد أن ينتزع منَّا الإقرار بقدرته تعالى على عقاب أعدائه ومُكذِّبى رسله ، وهذا المعنى جاء أيضاً فى

قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٣٠) وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ (٣١) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ (٣٢) وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ (٣٣) فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٣٤) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ (٣٥) هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦)﴾ [المطففين] يعنى : هل جُوزِى الكفار بما عملوا ؟ وهل استطعنا أنْ نعاقبهم بما يستحقون من العذاب ؟

﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٤٤)﴾ [الحج] أى : إنكارى لموقفهم من عدم أداء حقوق النعمة فبدَّلها الله عليهم نقمة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ (٤٥)﴾

قوله تعالى : ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ .. (٤٥)﴾ [الحج] (كأيِّن) أداة تدل على الكَثْرة مثل : كم الخبرية حين تقول : كَمْ أحسنتُ إليك . تعنى مرات عديدة تفوق الحصر ، فهى تدل على المبالغة فى العدد والكمية ، ومنها قوله تعالى : ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ .. (١٤٦)﴾ [آل عمران]

والقرية[1] : اسم للمكان ، وحين يُهلك الله القرية لا يُهلك المكان ، إنما يهلك المكين فيه ، فالمراد بالقرية أهلها ، كما ورد فى قوله تعالى : ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ[2] الَّتِي كُنَّا فِيهَا .. (٨٢)﴾ [يوسف] أى : اسأل أهل القرية .

---

(١) القرية : البلدة الكبيرة تكون أقل من المدينة ، أو هى كل مكان اتصلت به الأبنية . [القاموس القويم ٢ / ١١٥] .

(٢) قال قتادة : المراد بالقرية هنا مصر . نَقله ابن كثير فى تفسيره (٢/ ٤٨٧) والقرطبى فى تفسيره (٥/ ٣٥٨٠) وقالا : وقيل قرية من قراها نزلوا بها وامتاروا منها . لفظ القرطبى .

ويحتمل أن يكون المعنى : اسأل القرية تُجبْك ، لأنك لو سألتَ أهل القرية فلربما يكذبون ، أمَّا القرية فتسجل الأحداث وتُخبِر بها كما حدثت .

وقد يتعدى الهلاك إلى القرية ذاتها ، فيغير معالمها بدليل قوله تعالى : ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا .. (٥٢)﴾ [النمل]

ومعنى : ﴿أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ .. (٤٥)﴾ [الحج] أى : بسبب ظُلْمها ، ولا يُغيِّر الله ما بقوم حتى يُغيِّروا ما بأنفسهم ، وفى آية أخرى يقول تعالى : ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١١٢)﴾ [النحل]

فهلاك القُرَى لا بُدَّ أن يكون له سبب ، فلما وقع عليها الهلاك أصبحت ﴿خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا .. (٤٥)﴾ [الحج] الشىء الخاوى يعنى : الذى سقط وتهدَّم على غيره ، وقوله : ﴿عَلَىٰ عُرُوشِهَا .. (٤٥)﴾ [الحج] يدل على عِظَم ما حَلَّ بها من هلاك ، حيث سقط السقف أولاً ، ثم انهارت عليه الجدران ، أو : أن الله تعالى قَلَبها رأساً على عَقِب ، وجعل عاليها سافلها .

وقوله سبحانه : ﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ .. (٤٥)﴾ [الحج] البئر : هو الفجوة العميقة فى الأرض ، بحيث تصل إلى مستوى الماء الجوفىّ ، ومنه يُخرجون الماء للشُّرْب وللزراعة .. إلخ ومنه قوله تعالى : ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ .. (٢٣)﴾ [القصص] أى : البئر الذى يشربون منه .

والبئر حين تكون عاملة ومُستفاداً منها تلحظ حولها مظاهر

حياة ، حيث ينتشر الناس حولها ، وينمو النبات على بقايا المياه المستخرجة منها ، ويحوم حولها الطير ليرتوى منها ، أما البئر المعطّلة غير المستعملة فتجدها خَربة ليس بها علامات حياة ، وربما تسفو[1] عليها الرياح ، وتطمسها فَتُعطَّل وتُهجَر ، فالمراد معطلة عن أداء مهمتها ، ومهمة البئر السُّقيا .

﴿وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ (٤٥)﴾ [الحج] القصر : اسم للمأوى الفَخْم ؛ لأن المأوى قد يكون خيمة ، أو فسطاطاً ، أو عريشة ، أو بيتاً ، أو عمارة ، وعندما يرتقى الإنسان فى المأوى فيبنى لنفسه شيئاً خاصاً به ، لكن لابُدَّ له أنْ يخرج لقضاء لوازم الحياة من طعام وخلافه ، أما القصر فيعنى مكان السكن الذى يتوفر لك بداخله كل ما تحتاج إليه ، بحيث لا تحتاج إلى الخروج منه ، يعنى : بداخله كل مُقوِّمات الحياة . ومنه : سميت الحور مقصورات فى قوله تعالى : ﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ (٧٢)﴾ [الرحمن] يعنى : لا تتعداها ولا تخرج منها .

و ﴿مَّشِيدٍ (٤٥)﴾ [الحج] من الشيد ، وهو الجير الذى يستعمل كَمُونَة فى بناء الحجر يعنى : مادة للصق الحجارة ، وجَعْلها على مستوىً واحد ، وقديماً كان البناء بالطوب اللَّبن ، والمونة من الطين ، أما فى القصور والمساكن الفخمة الراقية فالبناء بالحجر ، والمشيد أيضاً العالى المرتفع ، ومنه قولهم : أشاد به يعنى : رفعه وأعْلى من مكانته ، والارتفاع من مَيْزات القصور ، ومعلوم أن مقاسات الغرف فى العمارات مثلاً غيرها فى القصور ، هذه ضيقة منخفضة ، وهذه واسعة عالية .

---

(١) سفت الريح التراب : ذَرَتْه ، وقيل : حملته . والسافياء : الريح التى تحمل تراباً كثيراً على وجه الأرض تهجمه على الناس . [لسان العرب ـ مادة : سفا] .

وفى قوله تعالى ﴿وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾﴾ [الحج] دليل على أن هؤلاء المهْلكين كانوا من أصحاب الغِنَى والنعيم ، ومن سكان القصور ومِنْ عِلْية القوم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾

السَّيْر : قَطْع مسافات من مكان إلى آخر ، ويسمونه السياحة ، والحق سبحانه يدعو عباده إلى السياحة فى أنحاء الأرض ؛ لأن للسياحة فائدتين :

فإما أنْ تكون سياحة استثمارية لاستنباط الرزق إنْ كنتَ فى مكان يضيق بك العيش فيه ، كهؤلاء الذين يسافرون للبلاد الأخرى للعمل وطلب الرزق .

وإما أن تكون سياحة لأَخْذ العبرة والتأمل فى مخلوقات الله فى مُلْكه الواسع ليستدل بخَلْق الله وآياته على قدرته تعالى .

والسياحة فى البلاد المختلفة تتيح لك فرصة ملاحظة الاختلافات من بيئة لأخرى ، فهذه حارة وهذه باردة ، وهذه صحراء جرداء وهذه خضراء لا يوجد بها حبة رمل ، لذلك يخاطبنا ربنا تبارك وتعالى : ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا .. ﴿١١﴾﴾ [الأنعام]

فالعطف فى الآية بـ (ثُمَّ) يدل على أن للسياحة مهمة أخرى ، هى الاستثمار وطلب الرزق ، ففى الآية إشارة إلى الجمع بين هاتين المهمتين ، فحين تذهب للعمل إياك أنْ تغفل عن آيات الله فى المكان الذى سافرت إليه ، وخُذْ منه عبرة كونية تفيدك فى دينك .

وفى آية أخرى يقول سبحانه : ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا (٦٩)﴾ [النمل]

العطف هنا بالفاء التى تفيد الترتيب ، يعنى : سيروا فى الأرض لتنظروا آيات الله ، فهى خاصة بسياحة الاعتبار والتأمل ، لا سياحة الاستثمار وطلب الرزق .

لذلك يقولون فى الأمثال : (اللى يعيش ياما يشوف ، واللى يمشى يشوف أكثر) فكلما تعددتْ الأماكن تعددت الآيات والعجائب الدالة على قدرة الله ، وقد ترى منظراً لا يؤثر فيك ، وترى منظراً آخر يهزُّك ويُحرِّك عواطفك ، وتأملاتك فى الكون .

وقوله : ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا ..(٤٦)﴾ [الحج] تعنى وتؤكد أنهم ساروا فعلاً ، كما تقول : أفلم أُكرمك ؟ ولا تقول هذا إلا إذا أكرمته فعلاً ، وقد حدث أنهم ساروا فعلاً فى البلاد أثناء رحلة الشتاء والصيف ، وكانوا يمرون على ديار القوم المهلكين ، كما قال تعالى : ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧)﴾ [الصافات]

يعنى : أنتم أهل سَيْر وترحال وأهل نظر فى مصير مَنْ قبلكم ، فكيف يقبل منكم الانصراف عن آيات الله ؟

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَـٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (٤٦)﴾

[الحج] فما داموا قد ساروا وترحَّلوا فى البلاد ، فكيف لا يعقلون آيات الله ؟ وكيف لا تُحرِّك قلوبهم ؟

ولنا وقفة عند قوله تعالى : ﴿فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا .. (٤٦)﴾ [الحج] وهل يعقِل الإنسانُ بقلبه ؟ معلوم أن العقل فى المخ ، والقلب فى الصدر .

نعم ، للإنسان وسائل إدراك هى الحواس التى تلتقط المحسَّات يُسمُّونها تأدُّباً مع العلم : الحواس الخمس الظاهرة ؛ لأن العلم أثبت للإنسان فى وظائف الأعضاء حواساً أخرى غير ظاهرة ، فحين تُمسك بشيئين مختلفين يمكنك أن تُميِّز أيهما أثقل من الآخر ، فبأىِّ حاسَة من الحواس الخمس المعروفة توصلْتَ إلى هذه النتيجة ؟

إنْ قُلْتَ بالعين فدعْها على الأرض وانظر إليها ، وإنْ قُلْتَ باللمس فلك أنْ تلمسها دون أنْ ترفعها من مكانها ، إذن : فأنت لا تدرك الثقل بهذه الحواس ، إنما بشىء آخر وبآلة إدراك أخرى هى حاسة العَضَلِ الذى يُميِّز لك الخفيف من الثقيل .

وحين تذهب لشراء قطعة من القماش تفرك القماش بلطف بين أناملك ، فتستطيع أنْ تُميِّز الثخين من الرقيق ، مع أن الفارق بينهما لا يكاد يُذْكَر ، فبأىِّ حاسة أدركْتَه ؟ إنها حاسة البَيْن . كذلك هناك حاسة البُعْد وغيرها من الحواسّ التى يكتشفها العلم الحديث فى الإنسان .

فلما يدرك الإنسان هذه الأشياء بوسائل الإدراك يتدخَّل العقل ليغربل هذه المدركات ، ويختار من البدائل ما يناسبه ، فإنْ كان سيختار ثوباً يقول : هذا أنعم وأرقّ من هذا ، وإنْ كان سيختار رائحة يقول : هذه ألطف من هذه ، إنْ كان فى الصيف اختار

الخفيف ، وإنْ كان فى الشتاء اختار السميك .

وبعد أن يختار العقل ويوازن بين البدائل يحكم بقضية تستقر فى الذِّهْن وتقتنع بها ، ولا تحتاج لإدراك بعد ذلك ، ولا لاختيار بين البدائل ، وعندها تنفذ ما استقر فى نفسك ، وارتحْتَ إليه بقلبك .

إذن : إدراك بالحواس وتمييز بالعقل ووقوف عند مبدأ بالقلب ، وما دام استقر المبدأ فى قلبك فقد أصبح دستوراً لحياتك ، وكل جوارحك تخدم هذا المبدأ الذى انتهيتَ إليه ، واستقر فى قلبك ووجدانك .

لكن ، لماذا القلب بالذات ؟ قالوا : لأن القلب هو الذى يقوم بعملية ضَخِّ سائل الحياة ، وهو الدم فى جميع أجزاء الجسم وجوارحه ، وهذه الجوارح هى أداة تنفيذ ما استقر فى الوجدان ؛ لذلك قالوا : الإيمان محلّه القلب ، كيف ؟ قالوا : لأنك غربلْتَ المسائل وصفَّيْت القضايا إلى أن استقرت العقيدة والإيمان فى قلبك ، والإيمان أو العقيدة هى ما انعقد فى القلب واستقرَّ فيه ، ومن القلب تمتد العقيدة إلى جميع الأعضاء والحواس التى تقوم بالعمل بمقتضى هذا الإيمان ، وما دُمْتَ قد انتهيتَ إلى مبدأ وعقيدة ، فإياك أنْ تخالفه إلى غيره ، وإلاَّ فيكون قلبك لم يفهم ولم يفقه .

وكلمة ﴿يَعْقِلُونَ بِهَا (٤٦)﴾ [الحج] تدل على أن للعقل مهام أخرى غير أنه يختار ويفاضل بين البدائل ، فالعقل من مهامه أنْ يعقل صاحبه عن الخطأ ، ويعقله أنْ يشرد فى المتاهات ، والبعض يظن أن معنى عقل يعنى حرية الفكر وأنْ يشطح المرء بعقله فى الأفكار كيف يشاء ، لا ، العقل من عِقَال الناقة الذى يمنعها ، ويحجزها أنْ تشرُدَ منك .

ثم يقول سبحانه : ﴿أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا (٤٦)﴾ [الحج] كيف ولهؤلاء القوم آذان تسمع ؟ نعم ، لهم آذان تسمع ، لكن سماع لا فائدة منه ، فكأن الحاسَّة غير موجودة ، وإلا ما فائدة شيء سمعتَه لكن لم تستفد به ولم تُوظِّفه فى حركة حياتك ، إنه سماع كعدمه ، بل إن عدمه أفضل منه ؛ لأن سماعك يقيم عليك الحجة .

﴿فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَـٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (٤٦)﴾ [الحج] فعمى الأبصار شيء هيِّن ، إذا ما قيسَ بعمى القلوب[1] ؛ لأن الإنسان إذا فقد رؤية البصر يمكنه أنْ يسمع ، وأنْ يُعمل عقله ، وأنْ يهتدى ، ومَا لا يراه بعينه يمكن أنْ يخبره به غيره ، ويَصِفه له وَصْفاً دقيقاً وكأنه يراه ، لكن ما العمل إذا عَمِيَتْ القلوب ، والأنظار مبصرة ؟

وإذا كان لعمى الأبصار بديل وعِوَض ، فما البديل إذا عَمى القلب ؟ الأعمى يحاول أنْ يتحسَّس طريقه ، فإنْ عجز قال لك : خُذْ بيدى ، أما أعمى القلب فماذا يفعل ؟

لذلك ، نقول لمن يغفل عن الشيء الواضح والمبدأ المستقر : أعمى قَلْب . يعنى : طُمس على قلبه فلا يعى شيئاً .

وقوله : ﴿الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (٤٦)﴾ [الحج] معلوم أن القلوب فى الصدور ، فلماذا جاء التعبير هكذا ؟ قالوا : ليؤكد لك على أن المراد القلب الحقيقى ، حتى لا تظن أنه القلب التفكيرىّ التعقلىّ ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم (١٦٧)﴾ [آل عمران]

---

(١) قال قتادة : البصر النافذ جُعل بُلْغة ومنفعة ، والبصر النافع فى القلب . وقال مجاهد : لكل عين أربعة أعين ، يعنى لكل إنسان أربعة أعين : عينان فى رأسه لدنياه ، وعينان فى قلبه لآخرته ، فإن عميت عينا رأسه وأبصرت عينا قلبه فلم يضره عماه شيئاً ، وإن أبصرت عينا رأسه وعميت عينا قلبه فلم ينفعه نظره شيئاً . [تفسير القرطبى ٦/٤٦٠٨]

ومعلوم أن القَوْل من الأفواه ، لكنه أراد أن يؤكد على القول والكلام ؛ لأن القول قد يكون بالإشارة والدلالة ، فالقول بالكلام هو أبلغ أنواع القول وآكده ؛ لذلك قال الشاعر :

جِرَاحَاتُ السِّنَانِ لَهَا الْتِئَامٌ ولاَ يُلْتَامُ مَا جَرَحَ اللسَانُ

ويقولون : احفظ لسانك الذى بين فكَّيْك ، وهل اللسان إلا بين الفكَّيْن ؟ لكن أراد التوكيد على القول والكلام خاصة ، لا على طرق التفاهم والتعبير الأخرى .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾﴾

ألم يقولوا فى استعجال العذاب : ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنفال]

وقالوا : ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧٠﴾﴾ [الأعراف]

ولا يستعجل الإنسانُ العذابَ إلا إذا كان غَيْرَ مؤمن به ، المؤمن بالعذاب ـ حقيقةً ـ يخاف منه ، ويريد أنْ يبطىء عنه أو أنْ ينجوَ منه . والمعنى : ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ..﴿٤٧﴾﴾ [الحج] أنهم يظنون أنَّهُ إنْ توعّدهم الله بالعذاب فإنه سيقع لِتَوِّه . لذلك ، الحق سبحانه

---

(١) سبب نزول الآية : قال القرطبى فى تفسيره (٦/٤٦٠٩) : « نزلت فى النضر بن الحارث ، وهو قوله : ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧٠﴾﴾ [الأعراف] . وقيل : نزلت فى أبى جهل بن هشام ، وهو قوله ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنفال] .

يصحح لهم هذا الفهم ، فيقول : ﴿وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ (٤٧)﴾ [الحج] فلا تتعجلوا توعّدكم به ، فهو واقع بكم لا محالة ؛ لأنه وَعْد من الله ، والله لا يُخلف وعده ، لكن اعلموا أن اليوم عند الله ليس كيومكم ، اليوم عندكم أربع وعشرون ساعة ، أما عند الله فهو كألف سنة من حسابكم أنتم للأيام .

واليوم زمن يتسع لبعض الأحداث ، ولا يسع أكثر مما قدِّر أن يُفعل فيه من الأحداث ، أما اليوم عند الله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ فيسع أحداثاً كثيرة تملأ من الزمن ألف سنة من أيامكم ؛ ذلك لأنكم تزاولون الأعمال وتعالجونها ، أما الخالق سبحانه فإنه لا يزاول الأفعال بعلاج ، وإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له : كُنْ فيكون ، ففعْلُك يحتاج إلى وقت ، أما فعْل ربك فبكلمة كُنْ . وقد شاء الحق سبحانه أنْ يعيشَ هؤلاء فى عذابَ التفكير فى هذا الوعيد طول عمرهم ، فيُعذّبون به قبل حدوثه .

إذن : لا تظن أن العذاب الذى توعّدكم به سيحدث اليوم أو غداً ، لا ؛ لأن حساب الوقت مختلف .

ألم تقرأ قول الله تعالى لنبيه موسى ـ عليه السلام ـ لمَّا دعا على قومه : ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ[1] وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٨٨)﴾ [يونس]

قال له ربه : ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا .. (٨٩)﴾ [يونس]

ويقول المفسرون[2] : حدثتْ هذه الإجابة لموسى بعد أربعين سنة من دعوته عليهم .

---

(١) قال الضحاك : صارت دنانيرهم ودراهمهم ونحاسهم وحديدهم حجارة منقوشة . [الدر المنثور للسيوطى ٤/٣٨٤] وعزاه لابن أبى حاتم وأبى الشيخ .

(٢) قاله مجاهد فيما أخرجه عنه الحكيم الترمذى . وقال ابن عباس فيما أخرجه عنه ابن المنذر : يزعمون أن فرعون مكث بعد هذه الدعوة أربعين سنة . أوردهما السيوطى فى (الدر المنثور : ٤/٣٨٥)

وفى موضع آخر يقول تعالى : ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ (٥)﴾ [السجدة]

وتزيد هذه المدة فى قوله سبحانه : ﴿تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ (٤)﴾ [المعارج] لماذا ؟ لأن الزمن عندكم فى هذه الحالة مُعطَّل ، فأنتم من هَوْل ما ترونَ تستطيلون القصير ، ويمر عليكم الوقت ثقيلاً ؛ لذلك تتمنون الانصراف ولو إلى النار .

كما أن صاحب النعيم يستقصر الطويل ، ويمر عليه الوقت كأنه لمح البصر ، ومن ذلك ما تلاحظه من قِصَر الوقت مع الأحبة وطوله مع الأعداء ومَنْ لا يهواه قلبك ، ولهذه المسألة شواهد كثيرة فى شعرنا العربى ، منها قول أحدهم :

حَادِثَاتُ السُّرورِ تُوزَنُ وَزْناً ... وَالبَلايَا تُكَال بالقُفْزَان[1]

وقول الآخر :

لَمْ يَطُلْ لَيْلِى ولكِنْ لَمْ أَنَمْ ... ونَفَى عَنِّى الكَرَى طَيْفٌ أَلَمّ[2]

ويقول ابن زيدون :

إنْ يَطُلْ بعدَكَ لَيْلِى فلَكَمْ ... بِتُّ أشكُو قِصَرَ الليْلِ مَعَك

---

(١) القفزان : جمع قفيز وهو من المكاييل ، وهو من الأرض قدر مائة وأربع وأربعين ذراعاً . [لسان العرب – مادة : قفز] .

(٢) هذا البيت لبشار بن بُرْد . ذكره أبو على القالى فى الأمالى (١/١٣٢) والكرى : النوم والنعاس .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾ ﴾

﴿ وَكَأَيِّن ﴿٤٨﴾ ﴾ [الحج] قلنا : تدل على الكثرة يعنى : كثير من القرى ، ﴿ أَمْلَيْتُ ﴿٤٨﴾ ﴾ [الحج] : أمهلتُ ، لكن طول الإمهال لا يعنى الإهمال ؛ لأن الله تعالى يُملى للكافر ويُمهله لأجل ، فإذا جاء الأجل والعقاب أخذه .

﴿ ثُمَّ أَخَذْتُهَا ﴿٤٨﴾ ﴾ [الحج] وأخْذُ الشىء يتناسب مع قوة الآخذ وقدرته وعنف الانتقام بحسب المنتقم ، فإذا كان الآخذ هو الله عز وجل ، فكيف سيكون أَخْذه ؟

فى آية أخرى يوضح ذلك فيقول : ﴿ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ ﴾ [القمر] لا يُغَالب ، ولا يمتنع منه أحد ، وكلمة الأَخْذ فيها معنى الشدة والعنف والقَهْر .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾ ﴾ [الحج] يعنى : المرجع والمآب ، فلن يستطيعوا أنْ يُفلتوا .

إذن : الإملاء : تأخير العذاب إلى أجل معين ، كما قال سبحانه : ﴿ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴿١٧﴾ ﴾ [الطارق]

هذا الأجل قد يكون لمدة ، ثم يقع بهم العذاب ، كما حدث فى الأمم السابقة التى أهلكها الله بالخسْف أو بالغرق .. الخ ، أما فى أمة محمد ﷺ ، فيكون الإملاء بأحداث سطحية فى الدنيا ، كالذى حَلَّ بالكفار من الخِزْى والهوان والهزيمة وانكسار شوكتهم ، أمّا العذاب الحقيقى فينتظرهم فى الآخرة .

لذلك يقول الحق - تبارك وتعالى - لنبيه ﷺ : لا تستبطىء عذابهم والانتقام منهم فى الدنيا ، فما لم تَرَهُ فيهم من العذاب فى الدنيا ستراه فى الآخرة : ﴿ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٧٧) ﴾ [غافر]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٤٩) ﴾

والإنذار نوع من الرحمة ، لأنك تخبر بشرٍّ قبل أوانه ، ليحذره المنذَر ، ويحاول أنْ يُنجى نفسه منه ، ويبتعد عن أسبابه ، فحين أُذكّرك بالله ، وأنه يأخذ أعداءه أَخْذَ عزيز مقتدر ، فعليك أنْ تربأ بنفسك عن هذه النهاية ، وأن تنجوَ من دواعى الهلاك .

ومعنى ﴿ مُّبِينٌ (٤٩) ﴾ [الحج] محيط ، لا يترك صغيرة ولا كبيرة.

﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٥٠) ﴾

وطالما آمنوا وعملوا الصالحات فقد انتفعوا بالنذارة ، وأثمرتْ فيهم ، فآمنوا بالله إلهاً فاعلاً مختاراً له صفات الكمال المطلق ، ثم عملوا على مقتضى أوامره ؛ لذلك يكون لهم مغفرة إنْ كانت أَلَمَّتْ نفوسهم بشىء من المعاصى ، ويكون لهم رزق كريم . والكريم هو البذَّال ، كأن الرزق نفسه وصل إليهم بكرم وزيادة ، كما أن الكريم هو الذى تظل يده مبسوطة دائماً بالعطاء ، على حَدِّ قول الشاعر :

وَإِنِّى امْرُؤٌ لاَ تَسْتَقِرُّ دَرَاهِمِى ... عَلَى الكَفِّ إِلاَّ عَابِرَات سَبِيل

فالرزق نفسه كريم ؛ لأنه ممدود لا ينقطع ، كما لو أخذت كوب ماء من ماء جارٍ ، فإنه يحلُّ محلَّه غيره على الفور ، وهكذا .

﴿ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٥١﴾ ﴾

السعى : عمل يذهب إلى غاية ، فإنْ كان قطع مسافة نقول : سرْنا من كذا إلى كذا ، وإنْ كان فى قضية علمية فكرية ، فيعنى : أن الحدث يعمل من شىء بداية إلى شىء غاية .

والسَّعْىُ لا يُحمد على إطلاقه ، ولا يُذَمُّ على إطلاقه ، فإنْ كان فى خير فهو محمود ممدوح ، كالسعى الذى قال الله فيه : ﴿ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ ﴾ [الإسراء] ، وإنْ كان فى شرٍّ فهو قبيح مذموم ، كالسعى الذى قال الله تعالى فيه : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ﴿٢٠٥﴾ ﴾ [البقرة]

أما السعاية فعادة تأخذ جانب الشر . وتعنى : الوشاية والسّعى بين الناس بالنميمة ، تقول : فلان سَعَّاء بين الخلق يعنى : بالشر ينقله بين الناس بقصْد الأذى ، وهؤلاء إنْ علِموا الخير أخفَوْه ، وإنْ علموا الشر أذاعوه ، وإن لم يعلموا كذبوا .

لذلك ، نقول عَمَّا ينتج من هذه السعاية من الشر بين الناس : هذا آفة الآخذ ، يعنى : الذى سمع الشرَّ ونقله وسعى به ، وكان عليه أنْ يحبسه ويُخفِيَه ، حتى لا تنتشر هذه الرذيلة بين الخَلْق .

وقد وشى واشٍ بهمام بن عبد الله السلولى إلى زياد بن أبيه ، وكان زياد جباراً فقال للواشى : أأجمع بينك وبينه ؟ فلم يجد الواشى بُدًّا من أنْ يقول : نعم ، فكيف ينكر ما قال ؟! ولعله قال فى نفسه : لعل الله يقضى أمراً يُخرِجنى من هذه (الورطة) قبل هذه المواجهة ؟ ثم أرسل زياد إلى ابن همام فأُتى به ، وقد جعل زياد الواشى فى مجلسه خلف ستار ، وأُدخِل همام ، فقال له : يا همام بلغنى أنك هجوْتنى ، فقال : كلا ، أصلحك الله ما فعلتُ ، ولا أنت لذلك بأهْل ، فكشف زياد الستار وقال : هذا الرجل أخبرنى أنك هجوتنى ، فنظر ابن همام ، فإذا هو صديق له يجالسه ، فقال له :

أنتَ امْرؤٌ إمّا ائتمنْتكَ خَالِياً ... فَخُنْتَ وإمّا قُلْتَ قَوْلاً بِلاَ عِلْمِ

فَأُبْتَ مِنَ الأَمْرِ الذِى كَانَ بينَنَا ... بمنزلةٍ بيْنَ الخِيَانَةِ والإثْمِ[1]

يعنى : أنت مذموم فى كل الأحوال ؛ لأنك إما خُنْتَ أمانة المجلس والحديث ولم تحفظ سِراً فضفضْتُ لك به ، وإمَّا اختلقْتَ هذا القوْل كذباً وبلا علم .

وعندها خلع زياد على همام الخُلَع[2] ، لكنه لم يعاقب الواشى ، وفى هذا إشارة إلى ارتياحهم لمن ينقل إليهم ، وأن آذانهم قد أخذتْ على ذلك وتعوَّدَتْ عليه .

---

(١) أورد الغزالى هذه الأبيات فى « إحياء علوم الدين » (١٥٧/٣) ، ولكنه ذكر قصة غير هذه فى مناسبتها ، قال : « سعى رجل بزياد الأعجم إلى سليمان بن عبد الملك فجمع بينهما للموافقة فأقبل زياد على الرجل وقال .. » وذكر الأبيات .

(٢) الخِلْعة من الثياب : ما خلعته فطرحته على آخر أو لم تطرحه . كل ثوب تخلعه عنك خِلْعة . [لسان العرب - مادة : خلع]

ومعنى ﴿فِي آيَاتِنَا ﴿٥١﴾﴾ [الحج] والآيات إما كونية ، كالشمس والقمر ، وإما معجزات ، وإما آيات الأحكام ، وسَعَوْا فيها يعنى : قالوا فيها قَوْلاً باطلاً غير الحق ، كما يسعى الواشى بالباطل بين الناس ، فهؤلاء إنْ نظروا فى آيات الكون قالوا : من صنع الطبيعة . وإنْ شاهدوا معجزة على يد نبىٍّ قالوا : سحر وأساطير الأولين ، وإنْ سمعوا آيات الأحكام تُتْلَى قالوا : شعر . وهم بذلك كله يريدون أنْ يُفسِدوا على أهل الإيمان إيمانهم ، ويصدُّوا عن سبيل الله .

ومعنى ﴿مُعَاجِزِينَ ﴿٥١﴾﴾ [الحج] جمع لاسم الفاعل معاجز مثل : مقاتل ، وهى من عَاجَزَ غير عجز عن كذا يعنى : لم يقدر عليه ، عَاجَزَ فلانٌ فلاناً يعنى باراه أيُّهما يعجز قبل الآخر ، فعاجزه مثل باراه ليثبتَ أنه الأفضل ، ومثل : سابقه ونافسه .

إذن : فالمعاجزة مفاعلة ومشاركة ، وكلمة نافسه الأصل فيها من النفَس الذى نأخذه فى الشهيق ، ونُخرِجه فى الزفير ، والذى به يتأكسد الدم ، وتستمر حركة الإنسان ، فإن امتنع التنفس يموت ؛ لأن الإنسان يصبر على الطعام ويصبر على الماء ، لكنه لا يصبر على الهواء ولو لنفَس واحد .

وقد حدثتْ هذه المعاجزة أو المنافسة بين سيدنا عمر وسيدنا العباس رضى الله عنهما : قال عمر للعباس : أتُنافسنى فى الماء ، يعنى : نغطس تحت الماء وننظر أيهما يُعجِز الآخر ، ويتحمل عملية توقُّف النفَس ، ومثل هذه المنافسة قد يحتال عليها الإنسان إنْ كتم نفسَه وهو فى جَوِّ الهواء ، أما إنْ نزل تحت الماء حيث ينعدم الهواء ، فكيف سيحتال على هذه المسألة ؟ وتحت الماء لا يكون إلا الهواء الذاتى الذى اختزنه كل منهما فى رئته ، ومثل هذه المنافسة توضح أيهما أفسح

صَدْراً من الآخر ، وأيُّهما أكثر تحمُّلاً تحت الماء . هذه هى المعاجزة .

فمعنى ﴿ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ ..(٥١) ﴾ [الحج] أى : يظنون أنهم قادرون أن يُعجزونا ، فحين نأتى إليهم بكلام بليغ مُعْجز يختلقون كلاماً فارغاً ليعجزونا به ، فأنّى يكون لهم ذلك ؟ وأنّى لهم أنْ يطعنوا بكلامهم على كلام الله ؟

ثم يُبيّن جزاء هذا الفعل وهذه المكابرة : ﴿ أُولَـٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (٥١) ﴾ [الحج] فهذا حُكْم الله فيهم قضية واضحة من أقصر الطرق ، فمَنْ ذَا الذى يُعجز الله ؟

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٢) ﴾

---

(١) **سبب نزول الآية** : أورد الواحدى فى أسباب النزول (ص ١٧٨) عن سعيد بن جبير قال : قرأ رسول الله ﷺ ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّىٰ (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَىٰ (٢٠) ﴾ [النجم] فالقى الشيطان على لسانه : تلك الغرانيق العلى وشفاعتهن ترتجى . ففرح بذلك المشركون وقالوا : قد ذكر آلهتنا ، فجاء جبريل عليه السلام إلى رسول الله ﷺ وقال : اعرض علىّ كلام الله ، فلما عرض عليه فقال : أما هذا فلم آتك به ، هذا من الشيطان ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ ..(٥٢) ﴾ [الحج].

قال ابن كثير فى تفسيره (٣/٢٢٩) : « قد ذكر كثير من المفسرين ههنا قصة الغرانيق ، ولكنها من طرق كلها مرسلة ولم أرها مسندة من وجه صحيح والله أعلم » .

وقال القرطبى فى تفسيره (٦/٤٦١٢) : « الأحاديث المروية فى نزول هذه الآية ، ليس منها شىء يصح » وقال القاضى عياض فى كتاب « الشفا بتعريف حق المصطفى » : « هذا حديث لم يخرجه أحد من أهل الصحة ، ولا رواه بسند سليم متصل ثقة ، وإنما أولع به وبمثله المفسرون والمؤرخون المولعون بكل غريب ، المتلقفون من الصحف كل صحيح وسقيم » .

أثارت هذه الآية جدلاً طويلاً بين العلماء ، ودخل فيه كثير من الحشْو والإسرائيليات ، خاصة حول معنى ﴿تَمَنَّىٰ (٥٢)﴾ [الحج] وهى تَرد فى اللغة بمعنيين ، وما دام اللفظ يحتمل معنيين فليس أحدهما أَوْلَى من الآخر إلا بمدى استعماله وشيوعه بين جمهور العربية ، ويأتى التمنى فى اللغة بمعنى القراءة ، كما ورد فى قول حسان بن ثابت فى رثاء عثمان بن عفان رضى الله عنهما :

تمنَّى كتابَ الله أوَّلَ لَيْلةٍ وآخرَهَا وَافَاهُ حَتْم المقَادرِ[1]

يعنى : قُتل عثمان وهو يقرأ القرآن ، وهذا المعنى غريب فى حَمْل القرآن عليه لعدم شيوعه[2] .

وتأتى تمنى بمعنى : أحب أن يكون الشىء ، وهذا هو القول المشهور فى لغة العرب . أما بمعنى قرأ فهو غير شائع ، ويُردّ هذا القول ، وينقضه نَقْضاً أولياً مبدئياً قوله تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلا نَبِيٍّ ..(٥٢)﴾ [الحج]

ومعلوم أن الرسول ينزل عليه كتاب يمكن أن يقرأه ، أمّا النبى فلا ينزل عليه كتاب ، بل يعمل بشرع مَنْ سبقه من الرسل . إذن : فما دام الرسول والنبى مشتركيْن فى إلقاء الشيطان ، فلا بُدَّ أن تكون الأمنية هنا بمعنى : أحب أن يكون الشىء ، لا بمعنى قرأ ، فأىُّ شىء سيقرأ النبى وليس معه كتاب ؟

والذين فهموا التمنى فى قوله تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِى أُمْنِيَّتِهِ (٥٢)﴾ [الحج] أنه

---

(١) ذكره ابن منظور فى لسان العرب – مادة : منى ، بلفظ :

تَمنَّى كتَابَ الله أوَّل لَيْله وآخرَهُ لاَقَى حمَامَ المقَادر

(٢) قال أبو منصور : وَالتلاوة تسمى أمنيَة لأن تالى القرآن إذَا مرَّ بآيةَ رحمة تمناها ، وإذا مرَّ بآية عذاب تمنى أن يُوقَّاهُ . [لسان العرب – مادة منى] .

بمعنى : قرأ ، سواء أكانوا من العلماء المتعمِّقين أو السطحيين ، قالوا : المعنى إذا قرأ رسولُ الله القرآنَ تدخّل الشيطان فى القراءة ، حتى يُدخِل فيها ما ليس منها .

وذكروا دليلاً على ذلك فى قوله تعالى : ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّىٰ (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَىٰ (٢٠)﴾ [النجم] ثم أضافوا : والغرانيق[1] العلا ، وإن شفاعتهن لترتجى . وكأن الشيطان أدخل فى القرآن هذا الكلام ، ثم نسخه الله بعد ذلك ، وأحكم الله آياته .

لكن هذا القول يُشكِّك فى قضية القرآن ، وكيف نقول به بعد أن قال تعالى فى القرآن : ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (١٩٤)﴾ [الشعراء]

وقال : ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ (٤٤) لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ[2] (٤٦) فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (٤٧)﴾ [الحاقة]

إذن : الحق سبحانه وتعالى حفظ قرآنه وكلامه من أمثال هذا العبث ، وكيف نُدخِل فى القرآن هذه الكفريات ؟ وكيف تستقيم عبارتهم : والغرانيق العلا ، وإن شفاعتهن لترتجى مع قول الله تعالى :

﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّىٰ (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَىٰ (٢٠) أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَىٰ (٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ (٢٢)﴾ [النجم] كيف ينسجم هذا وذاك ؟

---

(١) الغرانيق : الأصنام ، وهى فى الأصل : الذكور من طير الماء . وكانوا يزعمون أن الأصنام تقربهم من الله عز وجل وتشفع لهم إليه ، فشبهت بالطيور التى تعلو وترتفع فى السماء . [لسان العرب – مادة غرنق].

(٢) الوتين : عرق فى القلب إذا قُطع مات صاحبه ، وهو الشريان الرئيسى الهام الذى يغذى الجسم بالدم النقى الخارج من القلب . [القاموس القويم ٢/٣١٩] .

فهذا الفهم في تفسير الآية لا يستقيم ، ولا يمكن للشيطان أنْ يُدخِل في القرآن ما ليس منه ، لكن يحتمل تدخُّل الشيطان على وجه آخر : فحين يقرأ رسول الله القرآن ، وفيه هداية للناس ، وفيه مواعظ وأحكام ومعجزات ، أتنتظر من عدو الله أنْ يُخلى الجو للناس حتى يسمعوا هذا الكلام دون أنْ يُشوِّش عليهم ، ويُبلبل أفكارهم ، ويَحُول بينهم وبين سماعه ؟

فإذا تمنّى الرسول يعنى : قرأ ألقى الشيطان فى أُمنيته ، وسلَّط أتباعه من البشر يقولون فى القرآن : سحْر وشعْر وإفْك وأساطير الأولين . فدَوْر الشيطان - إذن - لا أنْ يُدخلَ فى كلام الله ما ليس منه ، فهذا أمر لا يقدر عليه ولا يُمكِّنه الله من كتابه أبداً ، إنما يمكن أنْ يُلقى فى طريق القرآن وفَهْمه والتأثر به العقبات والعراقيل التى تصدُّ الناس عن فَهْمه والتأثر به ، وتُفسِد القرآن فى نظر مَنْ يريد أن يؤمن به .

لكن ، هل محاولة تشويه القرآن هذه وصَدّ الناس عنه جاءت بنتيجة ، وصرفتْ الناس فعلاً عن كتاب الله ؟

لقد خيَّبَ الله سَعْيه ، ولم تقف محاولاته عقبة فى سبيل الإيمان بالقرآن والتأثر به ؛ لأن القرآن وجد قلوباً وآذاناً استمعتْ وتأملتْ فآمنتْ وانهارتْ لجلاله وعظمته وخضعتْ لأسلوبه وبلاغته ، فآمنوا به واحداً بعد الآخر .

ثم يقول تعالى : ﴿فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٢)﴾ [الحج] يعنى : ألغى وأبطل ما ألقاه الشيطان من الأباطيل والعقبات التى أراد بها أنْ يصدَّ الناس عن القرآن ، وأحكمَ اللهُ آياته ، وأوضح أنها منه سبحانه ، وأنه كلام الله المعْجز

الذى لو اجتمعتْ الإنس والجنُّ على أنْ يأتوا بمثله ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً .

هذا على قول مَنِ اعتبر أن ﴿تَمَنَّىٰ (٥٢)﴾ [الحج] بمعنى : قرأ .

أما على معنى أنها الشىء المحبوب الذى نتمناه ، فنقول : الرسول الذى أرسله الله تعالى بمنهج الحق إلى الخَلْق ، فإنْ كان قادراً على تطبيق المنهج فى نفسه فإنَّ أُمنتيه أن يُصدَّق وأنْ يُطاع فيما جاء به ، أمنيته أنْ يسودَ منهجه ويُسيطر ويسُوس به حركة الحياة فى الناس .

والنبى أو الرسول هو أَوْلى الناس بقومه ، وهو أحرصهم على نَفْعهم وهدايتهم ، والقرآن خير يحب للناس أن يأخذوا به عملاً بقوله ﷺ : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه »[(١)] .

لكن ، هل يترك الشيطان لرسول الله أنْ تتحقق أُمنيته فى قومه أَمْ يضع فى طريقه العقبات ، ويُحرِّك ضده النفوس ، فيتمرّد عليه قومه حيث يُذكِّرهم الشيطان بما كان لهم من سيادة ومكانة سيفقدونها بالإسلام ؟

وهكذا يُلْقى الشيطان فى أُمنيّة الرسول ﴿إِلاَّ إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِى أُمْنِيَّتِهِ (٥٢)﴾ [الحج] وما كان الشيطان ليدع القرآن ينفذ إلى قلوب الناس أو حتى آذانهم ، أليس هو صاحب فكرة : ﴿لا تَسْمَعُوا لِهَـٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ ..(٢٦)﴾ [فصلت]

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (١٣) ، ومسلم فى صحيحه (٤٥) كتاب الإيمان عن أنس بن مالك بلفظ « والذى نفسى بيده ، لا يؤمن عبد حتى يحب لجاره – أو قال : لأخيه – ما يحب لنفسه » .

إن الشيطان لو لم يُلْق العراقيل فى سبيل سماع القرآن ويُشكّك فيه لآمن به كل مَنْ سمعه ؛ لأن للقرآن حلاوةً لا تُقَاوم ، وأثراً ينفذ إلى القلوب مباشرة .

ومع ذلك لم يَفُتّ ما ألقى الشيطان فى عَضُد القرآن ، ولا فى عَضُد الدعوة ، فأخذت تزداد يوماً بعد يوم ، ويزداد عدد المؤمنين بالقرآن المصدِّقين به ، المهم أن نتنبه : كيف نستقبل القرآن ، وكيف نتلقاه ، لا بد أن نستقبله استقبالَ الخالى من هوى ، فالذى يفسد الأحكام أنْ تُستقبل وتدخل على هوى سابق .

وسبق أن قلنا : إن الحيز الواحد لا يسع شيئين فى وقت واحد ، لا بُدَّ أنْ تُخرج أحدهما لتُدخل الآخر ، فعليك - إذن - أنْ تُخلى عقلك وفكرك تماماً ، ثم تستقبل كلَام الله ، وابحث فيه كما شئت ، فسوف تنتهى إلى الإيمان به شريطة أنْ تُصفِّى له قلبك ، فلا تُبق فى ذهْنك ما يُعكِّر صَفْو الفطرة التى خلقها الله فيك ، عندها سيأخذ القرآن طريقه إلى قلبك ، فإذا أُشْرِب قلبُك حُبَّ القرآن ، فلا يزحزحه بعد ذلك شىء .

ولنا فى إسلام سيدنا عمر مثالٌ وعظَة ، فلما سمع القرآن من أخته لأول مرة ، وقد أغلق قلبه على كفره لم يتأثر به ، وضربها حتى أَدْمى وجهها ، وعندها رَقَّ قلبه ، وتحركت عاطفته نحو أخته ، وكأن عاطفة الحب زحزحتْ عاطفة العداوة ، وكشفت عن صفاء طَبْعه ، فلما سمع القرآن بعدها آمن به على الفور[1] .

---

(١) قصة إسلام عمر بن الخطاب ذكرها ابن هشام فى السيرة النبوية (١/٣٤٤) وفيها أنه قال : « لقد أخبرت أنكما تابعتما محمداً على دينه ، وبطش بختنه سعيد بن زيد ، فقامت إليه أخته فاطمة بنت الخطاب لتكفه عن زوجها ، فضربها فشجَّها ، فلما فعل ذلك قالت له أخته وختنه : نعم قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله ، فاصنع ما بدا لك ، فلما رأى عمر ما بأخته من الدم ندم على ما صنع فارعوى » .

كذلك ، إنْ أردت أنْ تناقشَ قضية الإيمان أو الكفر ، وأنْ تختار بينهما ؛ لأنهما لا يجتمعان أبداً ، ولا بُدَّ أنْ تختار ، فحين تناقش هذه القضية وأنت مُصرٌّ على الكفر فلن تصل إلى الإيمان ؛ لأن الله يطبع على القلب المُصرِّ فلا يخرج منه الكفر ، ولا يدخله الإيمان ، إنما أخرِجْ الكفر أولاً وتحرَّر من أسْره ، ثم ناقش المسائل كما تحب .

كما قال تعالى : ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ..(٤٦)﴾ [سبأ]

أما أنْ تناقش قضية ، وفى ذهْنك فكرة مُسبقة ، فأنت كهؤلاء الذين قال الله فيهم : ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا..(١٦)﴾ [محمد] يعنى : ما الجديد الذى جاء به ؟ وما المعجزة فى هذا الكلام ؟ فيأتى الرد : ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (١٦) وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧)﴾ [محمد]

وفى آية أخرى يقول الحق سبحانه عن القرآن :

﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى..(٤٤)﴾ [فصلت]

فالقرآن واحد ، لكن المستقبِل مختلف ، وقد ذكرنا أنك حين تريد أن تبرد كوب الشاى الساخن فإنك تنفخ فيه ، وكذلك إنْ أردتَ أنْ تُدفِىء يديك فى برد الشتاء فإنك أيضاً تنفخ فيها ، كيف ـ إذن ـ والفاعل واحد ؟ نعم ، الفاعل واحد ، لكن المستقبِل للفعل مختلف .

وقوله تعالى : ﴿مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلا نَبِيٍّ (٥٢)﴾ [الحج]

(من) هنا للدلالة على العموم وشمول كل الأنبياء والرسل السابقين ، فكل نبى أو رسول يتمنى يعنى : يودّ ويحب ويرغب أن ينتشر دينه ويُطبِّق منهجه ، ويؤمن به جميع قومه ، لكن هيهات أنْ يتركه الشيطان وما أحبَّ ، بل لا بُدَّ أنْ يقف له بطريق دعوته ليصدَّ الناس عنه ويصرفهم عن دعوته ومنهجه ، لكن فى النهاية ينصر الله رسُله وأنبياءه ، وينسخ عقبات الشيطان التى ألقاها فى طريق الدعوة ، ثم يُحكِم الله آياته ، ويؤكدها ويظهرها ، فتصير مُحْكَمة لا ينكرها أحد .

وساعةَ تسمع كلمة ﴿أَلْقَى (٥٢)﴾ [الحج] فاعلم أن بعدها عقبات وشروراً ، كما يقول تعالى : ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ (٦٤)﴾ [المائدة]

ومما قاله أصحاب الرأى الأول فى تفسير ﴿تَمَنَّىٰ (٥٢)﴾ [الحج] وأنها بمعنى قرأ : يقولون : إن الله تعالى يُنزِل على رسوله ﷺ أشياء تُثبت بشريته ، ثم يمحو الله آثار هذه البشرية ليبين أن الله صنعه على عينه ، حتى إنْ همَّتْ بشريته بشىء يعصمه الله منها .

لذلك يقول ﷺ : « يَرِدُ علىَّ فأقول : أنا لست كأحدكم ، ويُؤخذ منِّى فأقول : ما أنا إلا بشر مثلكم » .

إذن : فالرسول بشر إلا أنه يوحى إليه ما يعصمه من زلاَّت البشر .

ومن بشريته ﷺ أنه تعرّض للسحر ، وهذه واقعة لا تُنكر ، وقد ورد فيها أحاديث صحيحة ، وقد كاد الكفار لرسول الله بكل أنواع الكيد : استهزاءً ، وسباباً ، واضطهاداً ، وإهانة ، ثم تآمروا عليه بليل ليقتلوه ، وبيَّتوا له ، فلم يفلحوا قال تعالى : ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ

كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ[١] أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٣٠)﴾ [الأنفال]

وكاد الله لرسوله وأخرجه من بينهم سالماً ، وهكذا فضح الله تبييتهم وخيّب سَعْيهم ، وفشلَتْ محاولاتهم الجهرية والسرية فلجئوا إلى السحرة ليفعلوا برسول الله ما عجزوا هم عنه ، وعملوا لرسول الله سحراً فى مُشْطٍ ومُشَاطة من شعره ﷺ وطلع نخلة ذكر ففضحهم الله ، وأخبرَ رسوله بذلك فأرسل الإمام علياً فأتى به من بئر ذروان[٢] .

وكأن الحق سبحانه يريد أنْ يُبيِّن لنا بشرية الرسول ، وأنه يجرى عليه ما يجرى على البشر ، لكن ربه لا يترك بشريته وحدها ، وإنما يعصمه بقيوميته .

وهذا المعنى هو ما قصده أصحاب الرأى الأول : أن الرسول يطرأ عليه ما يطرأ على البشر العادى ، لكن تتدخّل السماء لتعصمه . ونحن نختار الرأى الآخر الذى يقول أن تمنى بمعنى ودَّ وأحب .

ثم تختتم الآية بقوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٢)﴾ [الحج] عليم بكيد الشيطان ، وتدبيره ، حكيم فى علاج هذا الكيد .

﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (٥٣)﴾

---

(١) أى : ليحبسوك ويبقوك فى مكانك بمكة تحت سيطرتهم . وقيل : ليقيّدوك . [القاموس القويم ١/١٠٥] .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٢٦٨) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢١٨٩) من حديث عائشة رضى الله عنها .

ولسائل أن يقول : إذا كان الله تعالى ينسخ ما يُلقى الشيطان ، فلماذا كان الإلقاءُ بدايةً ؟

جعل الله الإلقاء فتنةً ليختبر الناس ، وليُميِّز مَنْ ينهض بأعباء الرسالة ، فهى مسئولية لا يقوم بها إلا مَنْ ينفذ من الفتن ، وينجو من إغراءات الشيطان ، ويتخطَّى عقباته وعراقيله ؛ لذلك قال تعالى عنهم : ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ (١١٠)﴾ [آل عمران]

وما تبوأتُم هذه المنزلة إلا لأنكم أهلٌ لحمْل هذه الأمانة ، تمرُّ بكم الفتن فتهزأون بها ولا تزعزعكم ؛ لذلك قال تعالى : ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ (٥٣)﴾ [الحج] أى : نفاق ، فإنْ تعرَّض لفتنة انقلب على وجهه . يقول كما يقولون : سحر وكذب وأساطير الأولين .

وكذلك فتنة ﴿وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ (٥٣)﴾ [الحج] وهم الذين فقدوا لين القلب ، فلم ينظروا إلى الجميل عليهم فى الكون خَلْقاً وإيجاداً وإمداداً ، ولم يعترفوا بفضل الله عليهم ، ولم يستبشروا به ويأتوا إليه .

ونحن نلحظ الولد الصغير يأنس بأمه وأبيه ، ويركن إليهما ؛ لأنه ذاق حنانهما ، وتربَّى فى رعايتهما ، فإنْ ربَّته مثلاً المربية حتى فى وجود أمه فإنه يميل إليها ، ويألف حضنها ، ولا يلتفت لأمه ، لماذا ؟ لأنه نظر إلى الجميل ، من أين أتاه ، ومَنْ صاحب الفضل عليه فرقَّ له قلبه ، بصرف النظر مَنْ هو صاحب الجميل .

فهؤلاء طرأوا على كَوْن الله ، لا حَوْلَ لهم ولا قوة ، فاستقبلهم بكل ألوان الخير ، ومع ذلك كانت قلوبهم قاسيةً مُتحجِّرة لا تعترف بجميل .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (٥٣) ﴾ [الحج] فهم ظالمون أولاً لأنفسهم حين نظروا إلى منفعة عاجلة قليلة ، وتركوا منفعة كبيرة دائمة . والشِّقاق : الخلاف ، ومنه قولنا : هذا فى شقٍّ ، وهذا فى شقٍّ ، يعنى : غير ملتئمين ، وليْته شقَاق هيِّن يكون له اجتماع والتئام ، ليته كشقَاق الدنيا بين الناس على عَرَضٍ من أعراض الحياة ، إنما هم فى شقاق بعيد . يعنى : أثره دائم ، وأثره فظيع .

إذن : العلة الأولى لما يُلقِى الشيطان أن يكون فتنة . أما العلة الثانية ففى قوله تعالى :

﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٤) ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ (٥٤) ﴾ [الحج] يعنى : يتأكدوا تأكيداً واضحاً أن هذا هو الحق ، مهما شوَّشَ عليه المشوِّشُون ، ومهما قالوا عنه : إنه سحر ، أو كذب ، أو أساطير الأولين ؛ لأن الله سيُبطل هذا كله ، وسيقف أهل العلم والنظر على صدْق القرآن بما لديهم من حقائق ومقدمات واستدلالات يعرفون بها أنه الحق .

وما دام هو الحق الذى لم تزعزعه هذه الرياح الكاذبة فلا بُدّ أن يؤمنوا به ﴿ فَيُؤْمِنُوا بِهِ (٥٤) ﴾ [الحج] ثم يتبع هذا الإيمان عملٌ وتطبيق ﴿ فَتُخْبِتَ لَهُ (٥٤) ﴾ [الحج] يعنى : تخشع وتخضع وتلين وتستكين .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٤) ﴾ [الحج]

فمسألة كيد الشيطان وإلقائه لم تنته بموت الرسول ، بل هو قاعد لأمته من بعده ؛ فالشيطان يقعد لأمة محمد كلها ، ولكل مَنْ حمل عنه الدعوة .

يقول تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١١٢) ﴾ [الأنعام]

يعنى : دعهم جانباً فالله لهم بالمرصاد ، فلماذا ـ إذن ـ فعلوه ؟ وما الحكمة ؟

يقول تعالى : ﴿ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا ..(١٤١) ﴾ [آل عمران]

وقال : ﴿ وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ (١١٣) ﴾ [الأنعام]

فمهمة الشيطان أنْ يستغلّ ضعاف الإيمان ، ومَنْ يعبدون الله على حرف من أصحاب الاحتجاجات التبريرية الذين يريدون أنْ يبرروا لأنفسهم الانغماس فى الشهوة والسير فى طريق الشيطان ، وهؤلاء يحلو لهم الطعن فى الدين ، ويتمنون أن يكون الدين والقيامة والرب أوهاماً لا حقيقة لها ، لأنهم يخافون أن تكون حقيقة ، وأن يتورطوا بأعمالهم السيئة ونهايتهم المؤلمة ، فهم ـ إذن ـ يستبعدون القيامة ويقولون : ﴿ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (١٦) ﴾ [الصافات]

لماذا ؟ لأنه يريد أنْ يبرر سلوكه ، إنه يريد أنْ يُخرج نفسه من ورطة ، لا مخرج منها ، وهؤلاء يتبعون كل ناعق ، ويجْرُون وراء كل شبهة فى دين الله يتلقفونها ويرددونها ، ومرادهم أن يهدموا الدين من أساسه .

نسمع من هؤلاء المسرفين على أنفسهم مثلاً مَنْ يعترض على

تحريم الميتة وأكل الذبيحة ، وهذا دليل على خميرة الشرك والكفر فى نفوسهم ، ولهم حجج واهية لا تنطلى إلا على أمثالهم من الكفرة والمنافقين ، وهذه مسألة واضحة ، فالموت غير القتل ، غير الذبح .

الموت : أن تخرج الروح أولاً دون نَقْض بِنْية الجسم ، وبعد خروج الروح ينقض بناء الجسد ، أما القتل فيكون بنقض البنية أولاً ، ويترتب على نَقْض البنية خروج الروح ، كأن يُضرب الإنسان أو الحيوان على رأسه مثلاً ، فيموت بعد أنْ اختلّ مخه وتهشَّم ، فلم يعُدْ صالحاً لبقاء الروح فيه .

يقول تعالى : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ..(١٤٤) ﴾ [آل عمران] إذن : فالموت غير القتل .

وقد مثَّلْنا لذلك بضوء الكهرباء الذى نراه ، والذى يسرى فى الأسلاك ، ويظهر أثره فى هذه اللمبات ، نحن لا نعرف حتى الآن كُنْه هذه الكهرباء وماهية هذا الضوء ، إنما نراه وننعَم به ، فإذا ما كُسِرت هذه اللمبة ينطفىء النور ؛ لأنها لم تعُدْ صالحة لاستقبال هذا النور ، رغم أنه موجود فى الأسلاك ، إذن : لا يظهر نور الكهرباء إلا فى بنية سليمة لهذا الشكل الزجاجى المفرَّغ من الهواء .

كذلك الروح لا تسكن الجسم ، ولا تبقى فيه إلا إذا كانت له مواصفات معينة ، فإنِ اختلَّتْ هذه المواصفات خرجتْ الروح من الجسد .

أما الذبح فهو أيضاً إزهاق روح ، لكن بأمر الله خالقها وبرخصة منه سبحانه ، كأن يُقتلَ إنسان فى قصاص ، أو فى قتال مشروع ، أو نذبح الحيوان الذى أحلَّه الله لنا وأمرنا بذبحه ، ولولا أمْر الله بذبحه ما ذبحناه ، ولولا أن الله أحلَّه ما أكلناه ، بدليل أننا لا نأكل ما لم يحِل لنا من الحيوانات الأخرى .

والذين يجادلون فى عملية الذَّبْح الشرعية ، ويُزهقون أرواح الحيوان بالخنق مثلاً غفلوا عن الحكمة من الذبح : الذبح إراقة للدم ، وفى الدم مواد ضارة بالإنسان يجب أن يتخلص منها بتصفية دم ذبيحته ؛ لأن بها كمية من الدم الفاسد الذى لم يمرّ على الكلية لتنقيه.

فالمسلم حريص على أن يحمل منهج رسول الله ﷺ ، وحريص على أن يسود هذا المنهج حركة الحياة ، لكن لن يدَعَه الشيطان يُحقِّق هذه الأمنية ، كما لم يدع رسوله ﷺ من قبل ، فكيْده وإلقاؤه لم ينتهِ بموت الرسول ، وإنما هو بَاقٍ ، وإلى أنْ تقومَ الساعة .

لذلك يقول تعالى فى الآية بعدها :

﴿ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾ ﴾

قوله : ﴿ فِى مِرْيَةٍ ﴿٥٥﴾ ﴾ [الحج] يعنى : فى شك من هذا ، لذلك قلنا : إن أتباع رسول الله ﷺ مُكلَّفون من الله بأنْ يكونوا امتداداً لرسالته : ﴿ لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا .. ﴿١٤٣﴾ ﴾ [البقرة] شهداء أنكم بلَّغتم كما كان الرسول شهيداً عليكم ، فكلٌّ منَّا كأنه مبعوث من الله ، وكما شهد رسول الله عليه أنه أبلغه ، كذلك هو يشهد أنه بلَّغ من بعد رسول الله ؛ لذلك جاءت هذه الآية للأمرين ليكون الرسول شهيداً عليكم ، وتكونوا شهداء على الناس .

والحق ـ سبحانه وتعالى ـ حينما حمَّلنا هذه الرسالة قال : ما دُمْتم امتداداً لرسالة الرسول ، فلا بُدَّ أنْ تتعرَّضوا لما تعرَّض له

الرسول من استهزاء وإيذاء وإلقاء فى أمنياتكم ، فإنْ صمدتم فإن الله تعالى ينسخ ما يُلقِى الشيطان ، وينصر فى النهاية أولياءه ، وسيظل الإسلام إلى أنْ تقوم الساعة ، وسيظل هناك أناس يُعَادُون الدين ويُشكِّكون فيه ، وسيظل الملحدون الذين يُشكِّكون الناس فى وجود الله يخرجون علينا من حين إلى آخر بما يتناقض ودين الله كقولهم : إن هذا الكون خُلِق بالطبيعة ، وترى وتسمع هذا الكلام فى كتاباتهم ومقالاتهم .

ولم يَسْلم العلم التجريبى من خرافاتهم هذه ، فإنْ رأوا الحيوان منسجماً مع بيئته قالوا : لقد أمدته الطبيعة بلون مناسب وتكوين مناسب لبيئته .

وفى النبات حينما يقفون عند آية من آياته مثلاً : ﴿يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ..﴿٤﴾﴾ [الرعد] يقولون : إن النبات يتغذى بعملية الانتخاب ، يعنى النبات هو الذى ينتخب ويختار غذاءه ، ففى التربة الواحدة وبالماء الواحد ينمو النبات الحلو والمر والحمضى والحريف ، فبدل أنْ يعترفوا لله تعالى بالفضل والقدرة يقولون : الطبيعة وعملية الانتخاب .

وقد تحدثنا مع بعض هؤلاء فى فرنسا ، وحاولنا الرد عليهم وإبطال حججهم ، وأبسطها أن عملية الانتخاب تحتاج إلى إرادة واعية تُميِّز بين الأشياء المنتخبة ، فهل عند النبات إرادة تُمكِّنه من اختيار الحلو أو الحامض ؟ وهل يُميز بين المرِّ والحريف ؟

إنهم يحاولون إقناع الناس بدور الطبيعة ليبعدوا عن الأذهان قدرة الله فيقولون : إن النبات يتغذّى بخاصية الأنابيب الشعرية يعنى : أنابيب ضيقة جداً تشبه الشعرة فسميت بها ، ونحن نعرف أن الشعرة

عبارة عن أنبوبة مجوفة . وحين تضع هذه الأنبوبة الضيقة فى الماء ، فإن الماء يرتفع فيها إلى مستوى أعلى ؛ لأن ضغط الهواء داخل هذه الأنبوبة لضيقها أقلّ من الضغط خارجها لذا يرتفع فيها الماء ، أما إنْ كانت هذه الأنبوبة واسعة فإن الضغط بداخلها سيساوى الضغط خارجها ، ولن يرتفع فيها الماء .

فقُلْنا لهم : لو أحضرنا حوضاً به سوائل مختلفة ، مُذَاب بعضها فى بعض ، ثم وضعنا به الأنابيب الشَّعْرية ، هل سنجد فى كل أنبوبة سائلاً معيناً دون غيره من السوائل ، أم سنجد بها السائل المخلوط بكل عناصره ؟

لو قمتَ بهذه التجربة فستجد السائل يرتفع نعم فى الأنابيب بهذه الخاصية ، لكنها لا تُميِّز بين عنصر وآخر ، فالسائل واحد فى كل الأنابيب ، وما أبعد هذا عن نمو النبات وتغذيته .

وصدق الله حين قال : ﴿ الَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَالَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ ﴾ [الأعلى]

إذن : ما أبعدَ هذه التفسيرات عن الواقع ! وما أجهلَ القائلين بها والمروِّجين لها ! خاصة فى عصر ارتقى فيه العلم ، وتقدّم البحث ، وتنوَّعت وسائله فى عصر استنارتْ فيه العقول ، واكتُشفت أسرار الكون الدالة على قدرة خالقه عز وجل ، ومع ذلك لا يزال هناك مبطلون .

والحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً .. ﴿٥٥﴾ ﴾ [الحج]

فهم - إذن - موجودون فى أمة محمد إلى أنْ تقومَ الساعة ،

وسنُواجههم نحن كما واجههم رسول الله ، وسيظل الشيطان يُلقى فى نفوس هؤلاء ، ويوسوس لهم ، ويوحى إلى أوليائه من الإنس والجن ، ويضع العقبات والعراقيل ليصدَّ الناس عن دين الله . هذا نموذج من إلقاء الشيطان فى مسألة القمة ، وهى الإيمان بالله .

كما يُلقى الشيطان فى مسألة الرسول ، فنجد منهم مَنْ يهاجم شخصية رسول الله ﷺ ، وكيف وهو الأميّ البدوىّ يقود أمة ويتهمونه ويخوضون فى حقِّه ، وفى مسألة تعدُّد زوجاته ﷺ .. الخ ممّا يُمثِّل عقبة فى سبيل الإيمان به ﷺ .

ونعجب لهجوم هؤلاء على رسول الله طالما هم كافرون به ، إن هذا الهجوم يحمل فى طياته إيماناً بأنه رسول الله ، وإلا لَمَا استكثروا عليه ولَمَا انتقدوه ، فلو كان شخصاً عادياً ما تعرَّض لهذه الانتقادات.

لذلك لا تناقش مثل هؤلاء فى مسألة الرسول ، إنما فى مسألة القمة ، ووجود الإله ، ثم الرسول المبلِّغ عن هذا الإله ، أمّا أنْ تخوض معهم فى قضية الرسول بدايةً فلن تصلَ معهم إلى حلٍّ ؛ لأنهم يضعون مقاييس الكمال من عندهم ، ثم يقيسون عليها سلوكيات رسول الله ، وهذا وَضْع مقلوب ، فالكمال نأخذه من الرسول ومن فعْله ، لا نضع له نحن مقاييس الكمال .

ثم يُشكِّكون بعد ذلك فى الأحكام ، فيعترضون مثلاً على الطلاق فى الإسلام ، وكيف نفرق بين زوجين ؟ وهذا أمر عجيب منهم ، فكيف نجبر زوجين كارهين على معاشرة لا يَبْغُونها ، وكأنهما مقترنان فى سلسلة من حديد ؟ كيف وأنت لا تستطيع أنْ تربط صديقاً بصديق لا يريده ، وهو لا يراه إلا مرة واحدة فى اليوم مثلاً ؟ فهل تستطيع أن تربط زوجين فى مكان واحد ، وهما مأمونان على بعض فى حال الكراهية ؟

ويُخيِّب الله سَعْيهم ، ويُظهر بطلان هذه الأفكار ، وتُلجئهم أحداث الحياة ومشاكلها إلى تشريع الطلاق ، حيث لا بديلَ عنه لحلِّ مثل هذه المشاكل .

وقد ناقش هؤلاء كثيراً فى قوله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ (٣٣)﴾ [التوبة]

وفى قوله : ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٨)﴾ [الصف] ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٩)﴾ [الصف]

يقولون : ومع ذلك لم يتم الدين ، ولا يزال الجمهرة العالمية فى الدنيا غَيْر مؤمنين بالإسلام ، يريدون أنْ يُشكِّكوا فى كتاب الله . وهذا القول منهم ناشىء عن عدم فَهْم للآية ، ولمعنى ﴿لِيُظْهِرَهُ (٣٣)﴾ [التوبة] فهى لا تعنى أن ينتصر الإسلام على كل ما عداه انتصاراً يمحو المخالفين له .

إنما يُظهره يعنى : يكتب له الغلبة بصدق حُجَجه وقضاياه على كُرْه من الكافرين والمشركين ، فهم - إذن - موجودون ، لكن يظهر عليهم ، ويعلو دين الإسلام ، ويضطرون هم للأخذ بقوانينه وتشريعاته حَلاً لمشاكلهم ، وكَوْنهم يتخذون منه حلاً لمشاكلهم وهم كافرون به أبلغ فى الردِّ عليهم لو آمنوا به ، فلو آمنوا بالإسلام ما كان ليظهر عليهم ويعلوهم .

فما كنتم تُشكِّكون فيه وتقولون إنه ما كان يصدر من إله ولا من رسول ، فها هى الأيام قد عضّتكم بأحداثها وتجاربها وألجأتكم إلى هذا الحكم الذى تعارضونه ، وها أنتم تُشرِّعون بتشريع الإسلام وأنتم كافرون به ، وهذا دليل ظهوره عليكم .

ومعنى ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً ﴿٥٥﴾﴾ [الحج] يعنى : فجأة ، وقد تكلَّم العلماء فى معنى الساعة : أهى يوم القيامة ، أم يوم يموت الإنسان ؟ الساعة تشمل المعنيين معاً ، على اعتبار أن مَنْ مات فقد قامت قيامته حيث انقطع عمله ، وموت الإنسان يأتى فجأة ، كما أن القيامة تأتى فجأة ، فهما - إذن - يستويان .

لكن ، إنْ كانت الساعة بغتة تفجؤهم بأهوالها ، فما العلامات الصُّغْرى ؟ وما العلامات الكبرى ؟ أليست مقدمات تأذن بحلول الساعة ، وحينئذ لا تُعَدُّ بغتة ؟ قالوا : علامات الشىء ليست هى إذن وجوده ، العلامة تعنى : قُرْب موعده فانتبهوا واستعدُّوا ، أمَّا وقت حدوثه فلا يعلمه أحد ، ولا بُدَّ أنْ يأتى بغتة رغم هذه المقدمات .

ثم يقول تعالى : ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾﴾ [الحج] البعض[1] اعتبر : ﴿عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾﴾ [الحج] يعنى القيامة ، وبالتالى فالساعة تعنى الموت ، وآخرون[2] يقولون : ﴿عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾﴾ [الحج] المراد يوم بدر الذى فصل الله فيه بين الحق والباطل .

وهذا اجتهاد يُشْكرون عليه ، لكن لما نتأمل الآية : ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ.. ﴿٥٥﴾﴾ [الحج] يعنى : المرية مستمرة ، لكن بدراً انتهت ، المرية ستظل إلى أن تقوم الساعة[3] .

ولا مانعَ أن تكون الساعة بمعنى القيامة ، واليوم العقيم أيضاً هو

---

(١) قاله الضحاك ، ومجاهد . قالا : يوم القيامة لا ليلة له . [نقله القرطبى فى تفسيره ٦/٤٦١٩ ، والسيوطى فى الدر المنثور ٦/٧٠] .

(٢) قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة . [نقله القرطبى فى تفسيره ٦/٤٦١٩] .

(٣) قال ابن كثير فى تفسيره (٣/٢٣١) : « هذا القول هو الصحيح ، وإن كان يوم بدر من جملة ما أوعدوا ، لكن هذا هو المراد ، ولهذا قال : ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ﴿٥٦﴾﴾ [الحج] » .

يوم القيامة ، فيكون المدلول واحداً ، لأن هناك فرقاً بين زمن الحدث والحدث نفسه ، فالساعة هى زمن يوجد فيه الحدث وهو العذاب ، فالساعة أولاً ثم يأتى العذاب ، مع أن مجرد قيام الساعة فى حَدِّ ذاته عذاب .

ومعنى ﴿عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ (٥٥)﴾ [الحج] العقيم : الذى لا يلد ، رجل كان أو امرأة ، فلا يأتى بشىء بعده ، ومنه قوله تعالى عن سارة امرأة إبراهيم عليه السلام : ﴿عَجُوزٌ عَقِيمٌ (٢٩)﴾ [الذاريات] وكذلك يوم القيامة يوم عقيم ، حيث لا يوم بعده أبداً ، فهى نهاية المطاف على حَدِّ قول أحدهم : حَبَتْهُم به الدنيا وأدركَها العُقْم .

أو ﴿عَقِيمٍ (٥٥)﴾ [الحج] بمعنى : أنها لا تأتى بخير ، بل بشرٍّ ، كما فى قوله تعالى : ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ (٤١) مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلاَّ جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ (٤٢)﴾ [الذاريات]

ذلك لأن الريح حين تهبُّ ينتظر منها الخير ، إما بسحابة مُمطرة ، أو تحريك لقاح الذكورة بالأنوثة ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ..(٢٢)﴾ [الحجر] أما هذه فلا خَيْر فيها ، ولا طائل منها ، وليتها تقف عند عدم النفع ، ولكن تتعدَّاه إلى جَلْب الضُّر ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلاَّ جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ (٤٢)﴾ [الذاريات] فهى تدمر كل شىء تمرُّ عليه .

وكما جاء فى قوله سبحانه : ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَـٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لا يُرَىٰ إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ(٢٥)﴾ [الأحقاف]

فالمعنى ـ إذن ـ ﴿عَقِيمٍ (٥٥)﴾ [الحج] لا خيرَ فيها ولا نفع ، بل فيها الشر والعذاب ، أو عقيم يعنى : لا يأتى يوم بعده ؛ لأنكم تركتم

دنيا الأغيار ، وتقلّب الأحوال حال بعد حال ، فالدنيا تتقلَّب من فقر إلى غنى ، ومن صحة إلى مرض ، ومن صغَر إلى كبَر ، ومن أَمْن إلى خوف ، وتتحول من صيف إلى شتاء ، ومن حر إلى برد ، ومن ليل إلى نهار .. وهكذا .

أما فى الآخرة فقد انتقلتم من عالم الأغيار الذى يعيش بالأسباب إلى عالِم آخر يعيش مع المسبِّب سبحانه ، وإلى يوم آخر لا يومَ بعده ، كأنه عَقم أن يكون له عَقب من بعده أو مثيل له ، كما لو حضرتَ حفلاً مثلاً قد استكمل ألوان الكمال والنعم ، فتقول : هذا حدث لا يتكرر يعنى : عقيم لا يأتى بعده مثله .

وإذا كنتَ فى الدنيا تعيش بالأسباب التى خلقها الله لك ، فأنت فى الآخرة ستجلس مستريحاً تتمتع بالمسبِّب عَزَّ وجَلَّ ، ويكفى أن يخطر الشىء ببالك ، فتراه بين يديك ؛ ولأن القيامة لا أغيارَ فيها ولا تقلّب ، فسيظل الجميع كلٌّ على حاله فى سِنٍّ واحدة ، لا يشيب ولا يهرم ، ولا يمرض ولا يموت .

ألاَ ترى إلى قوله تعالى فى نساء الجنة : ﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً (٣٥) فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا (٣٦) عُرُبًا[1] أَتْرَابًا (٣٧) لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ (٣٨)﴾ [الواقعة]

والكاره لزوجته فى الدنيا لأنها كانت تتعبه نقول له : لا تقسْ زوجة الدنيا بزوجة الآخرة ؛ لأن الله تبارك وتعالى يقول : ﴿لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ (٥٧)﴾ [النساء]

أى : مطهرة من كل ما كنتَ تكرهه فيها فى الدنيا شكلاً وطَبْعاً وخُلقاً ، فأنت الآن فى الآخرة التى لا يعكر نعيمها كَدَر .

---

(١) العُرُب : جمع عَرُوب ، وهى المرأة المتحببة إلى زوجها ، والأتراب : جمع تِرْب ، وهو المساوى فى السن . [القاموس القويم ١/٩٩] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ ﴾

ولقائل أنْ يقول : أليس الملْك لله يومئذ ، وفى كل يوم ؟ نعم ، الملْك لله فى الدنيا وفى الآخرة ، لكن فى الدنيا خلق الله خَلْقاً وملّكهم ، وجعلهم ملوكاً من باطن مُلْكه تعالى ، لكنه مُلْك لا يدوم ، كما قال سبحانه : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ ﴾ [آل عمران]

إذن : ففى الدنيا ملوك ملّكهم الله أمراً من الأمور ، ففيها ملك للغير ، أمّا فى الآخرة فالملْك لله تعالى وحده : ﴿ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ﴾ [غافر]

وفى القيامة ﴿ الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ..﴿٥٦﴾ ﴾ [الحج] فقد رَدَّ الملْك كله إلى صاحبه ، ورُدَّت الأسباب إلى مُسبِّبها .

ومعنى ﴿ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ..﴿٥٦﴾ ﴾ [الحج] أن هناك خصومةً بين طرفين ، أحدهما على حق ، والآخر على باطل ، والفَصْل فى خصومات الدنيا تحتاج إلى شهود ، وإلى بينة ، وإلى يمين فيقولون فى المحاكم : البينة على المدَّعى واليمين على مَنْ أنكر ، هذا فى خصومات الدنيا ، أما خصومات الآخرة فقاضيها الحق ـ سبحانه وتعالى ـ الذى يعلم السرَّ وأخفى ، فلا يحتاج إلى بينة ولا شهود ولا سلطة تُنفِّذ ما حكم به .

محكمة الآخرة لا تحتاج فيها إلى مُحامٍ ، ولا تستطيع فيها أنْ تُدلِّس على القاضى ، أو تُؤجِّر شاهد زور ، لا تستطيع فى محكمة الآخرة أن تستخدم سلطتك الزمنية فتنقض الحكم ، أو تُسقطه ؛ لأن الملْك يومئذ لله وحده ، والحكم يومئذ لله وحده ، هو سبحانه القاضى والشاهد والمنفِّذ ، الذى لا يستدرك على حكمه أحد .

وما دام هناك حكومة ، فلا بُدَّ أن تسفر عن محكوم له ومحكوم عليه ، ويُوضِّحهما قوله تعالى : ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٥٦)﴾ [الحج]

وهؤلاء هم الفائزون الذين جاء الحكم فى صالحهم .

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (٥٧)﴾

وهؤلاء هم الجبابرة وأصحاب السيادة فى دنيا الكفر والعناد ، والذين حكم الله عليهم بالعذاب الذى يُهينهم بعد عِزَّتهم وسلطانهم فى الدنيا ، وتلحظ أن العذاب يُوصَف مرة بأنه أليم ، ومرة بأنه عظيم ، ومرة بأنه مُهين .

فالعذاب الأليم الذى يُؤلم صاحبه ، لكنه قد يكون لفترة ثم ينتهى ، أما العذاب العظيم فهو الدائم ، والمهين هو الذى يُذله ويدوس كرامته التى طالما اعتز بها . وأنت تجد الناس يختلفون فى تقبُّل ألوان العذاب : فمنهم مَنْ لا يؤثر فيه الضرب الموجع ولا يحركه ، لكن

تؤلمه كلمة تجرح عزَّته وكرامته . لذلك جاء العذاب هكذا ألواناً ؛ ليستوعب كل صنوف الملكات النفسية ، ويواجه كُلَّ نفس بما يؤلمها .

● ● ●

ثم تكلم الحق سبحانه عن أمر كان لا بُدَّ أن نعرفه ، فالمسلمون الأوائل فى مكة أُخرجوا من ديارهم وأبنائهم وأموالهم لأنهم قالوا : ربنا الله ، ولا شكَّ أن للوطن وللأهل والبيئة التى نشأ فيها المرء أثراً فى ملكات نفسه ، لا يمكن أنْ يُمحَى بحال ، فإنْ غاب عنه اشتاق إليه وتمنَّى العودة ، وكما يقول الشاعر :

بلَدِى وإنْ جارَتْ علىَّ عزيزَةٌ ... أهْلِى وإنْ ضَنُّوا علىَّ كِرامُ

لذلك ، فطالب العالم عندما يترك بلده إلى القاهرة يقولون : لا بُدَّ له أن يرجع ، ولو أن تعضَّه الأحداث والشدائد ، فيعود ليطلب من أهله العون والمساعدة ، أو حتى يعود إليها فى نهاية المطاف ليدفنوه فى تراب بلده .

وقالوا : إن سيدنا سليمان ـ عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ـ لما تفقَّد الطير ﴿فَقَالَ مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ (٢٠) لأُعَذِّبَنَّهُ[1] عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٢١)﴾ [النمل] ذلك لأنه نبى ، فالمسألة ليستْ جبروتاً وتعذيباً ، دون أن يسمع منه . وقالوا : إن الطير سأل سليمان : كيف يعذب الهدهد ؟ قال : أضعه

(١) قال ابن عباس : يعنى نتف ريشه . وقال عبد الله بن شداد : نتف ريشه وتشميسه . وكذا قال غير واحد من السلف : إنه نتف ريشه وتركه مُلْقًى يأكله الذر والنمل . [تفسير ابن كثير ٣/٣٦٠]

فى غيـر بنى جنسه ، وفى غيـر المكان الذى يألفه ، يعنى : فى غـير موطنه .

يقول تعالى :

﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوْ مَاتُواْ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾

وفى موضع آخر يقول تعالى : ﴿ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الحج] هؤلاء تحـملوا الكثيـر ، وتعبـوا فى سبيل عـقيدتهم ، فلا بُدَّ أنْ يُعـوِّضـهم الله عن هذه التضحـيات ، لذلك يقول هنا : ﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴿٥٨﴾ ﴾ [الحج] وأوضحنـا أن الموت غيـر القتل : الـموت أن تخرج الروح دون نَقْضٍ للبنية ، أما القتل فهو نَقْض للبِنْية يترتب عليه خروج الروح .

﴿ لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا .. ﴿٥٨﴾ ﴾ [الحج] تعويضاً لهم عَـمَّا فاتوه فى بلدهم من أهل ومال ، كما يُعوّض الحـاكم العادل المظلوم فيعطيه أكثـر ممَّـا أُخذ منه ؛ لذلك يقـول سبـحانه فى مـوضـع آخر : ﴿ وَمَن يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ .. ﴿١٠٠﴾ ﴾ [النساء]

لأن مَنْ قُتل فقد فاز بالشهادة ونال إحدى الحُسْنيين ، أما مَنْ مات فقد حُرِم هذا الشرف ؛ لذلك فقد وقع أجره على الله ، وما بالك بأجر مُؤدِّيه ربك عز وجل ؟ وكما لو أن رجلاً مُتْعباً يسير ليس معه شيء ولا يجد حتى مَنْ يقرضه ، وفجأة سقطت رِجْله فى حفرة فتكدَّر وقال : حتى هذه ؟! لكن سرعان ما وجد قدمه قد أثارتْ شيئاً فى التراب له بريق ، فإذا هو ذهب كثير وقع عليه بنفسه .

ويُرْوى أن فضالة[1] حضرهم وهم يدفنون شهيداً ، وآخر مات غير شهيد ، فرأوْه ترك قبر الشهيد وذهب إلى قبر غير الشهيد ، فلما سألوه : كيف يترك قبر الشهيد إلى غير الشهيد ؟ قال : والله ما أبالى فى أىِّ حفرة منهما بُعثْت[2] ما دام قد وقع أجرى على الله ، ثم تلا هذه الآية : ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ .. (١٠٠)﴾ [النساء]

ثم يقول سبحانه : ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٥٨)﴾ [الحج] حين يصف الحق سبحانه ذاته بصفة ، ثم تأتى بصيغة الجمع ، فهذا يعنى أن الله تعالى أدخل معه الخَلْق فى هذه الصفة ، كما سبق أنْ تكلمنا فى قوله تعالى : ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤)﴾ [المؤمنون]

فقد أثبت للخَلْق صفة الخَلْق ، وأشركهم معه سبحانه فى هذه الصفة ؛ لأنه سبحانه لا يبخس عباده شيئاً ، ولا يحرمهم ثمرة مجهودهم ، فكل مَنْ أوجد شيئاً فقد خلقه ، حتى فى الكذب قال ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا .. (١٧)﴾ [العنكبوت]

---

(١) هو : فضالة بن عبيد الأنصارى الأوسى ، أبو محمد ، صحابى ممن بايع تحت الشجرة شهد أحداً وما بعدها ، وشهد فتح الشام ومصر ، وسكن الشام ، ولى الغزو والبحر بمصر ، ثم ولاه معاوية قضاء دمشق وتوفى فيها عام (٥٣هـ) [الأعلام للزركلى ١٤٦/٥].

(٢) ذكره القرطبى فى تفسيره (٤٦٢٠/٦) وعزاه لابن المبارك أنه ذكر عن فضالة بن عبيد .

لأن الخَلْق إيجاد من عدم ، فأنت حين تصنع مثلاً كوب الماء من الزجاج أوجدتَ ما لم يكن موجوداً ، وإنْ كنت قد استخدمت المواد المخلوقة لله تعالى ، وأعملتَ فيها عقلك حتى توصلْتَ إلى إنشاء شيء جديد لم يكُنْ موجوداً ، فأنت بهذا المعنى خالق حسن ، لكن خلق ربك أحسن ، فأنت تخلق من موجود ، وربك يخلق من عدم ، وما أوجدتَه أنت يظل على حالته ويجمد على خلْقتك له ، ولا يتكرر بالتناسل ، ولا ينمو ، وليست فيه حياة ، أما خَلْق ربك سبحانه فكما تعلم .

كذلك يقول سبحانه هنا : ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٥٨)﴾ [الحج] فأثبت لخَلْقه أيضاً صفة الرزق ، من حيث هم سَبَب فيه ؛ لأن الرزق: هو كل ما ينتفع به حتى الحرام يُعَدُّ رزقاً ؛ لذلك قال تعالى : ﴿يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ .. (١٧٢)﴾ [البقرة]

نقول : فالعبد سبب فى الرزق ؛ لأن الله تعالى هو خالق الرزق أولاً ، ثم أعطاك إياه تنتفع به وتعمل فيه ، وتعطى منه للغير ، فالرزق منك مناولة عن الرازق الأول سبحانه ، فأنت بهذا المعنى رازق وإنْ كرهوا أنْ يُسمَّى الإنسان رازقاً ، رغم قوله تعالى : ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٥٨)﴾ [الحج] لماذا ؟ قالوا : حتى لا يفهم أن الرزق من الناس .

لذلك نسمع كثيراً من العمال البسطاء ، أو موظفاً صغيراً ، أو بواب عمارة مثلاً حين يفصله صاحب العمل ، يقول له : يا سيدى الأرزاق بيد الله . كيف وقد كنت تأخذ راتبك من يده ومن ماله ؟ قالوا : لأنه نظر إلى المناوِل الأول للرزق ، ولم ينظر إلى المناوِل الثانى .

أما الرزق الحسن الذى أعدَّه الله للذين هاجروا فى سبيله ، فيوضحه سبحانه فى قوله :

﴿ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾ ﴾

لأن الرزق قد يكون حسناً لكنه لا يُرضِى صاحبه ، أما رزق الله لهؤلاء فقد بلغ رضاهم ، والرضا : هو اقتناع النفس بشىء تجد فيه متعة ، بحيث لا تستشرف إلى أعلى منه ، ولا تبغى أكثر من ذلك .

لذلك بعد أنْ ينعَم أهل الجنة بنعيمها ، ممَّا لا عَيْنٌ رأتْ ، ولا أذن سمعتْ ، ولا خطر على قلب بشر ، بعدها يتجلَّى الحق - سبحانه - عليهم فيقول لعباده المؤمنين : يا عبادى أرضيتم ؟ فيقولون : وكيف لا نرضى وقد أعطيْتنا ما لم تُعْطِ أحداً من العالمين ؟ قال : ألا أعطيكم أفضل من هذا ؟ قالوا : وهل شىء أفضل مما نحن فيه ؟ قال : نعم ، أُحِلُّ عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم بعده أبداً[1] .

ومن ذلك قوله تعالى لنبيه محمد ﷺ : ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴿٥﴾ ﴾ [الضحى]

وقوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ ﴾ [الفجر]

يبالغ فى الرضا ، حيث يتعداك الرضا إلى أن تكون عيشتك نفسها راضية ، وكأنها تعشقك هى ، وترضى بك .

---

(١) متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٧٥١٨) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٨٢٩) كتاب الجنة وصفة نعيمها . من حديث أبى سعيد الخدرى .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ (٥٩) ﴾ [الحج]

عليم : بما يستحقه كل إنسان عند الحساب من النعيم ، ثم يزيد مَنْ يشاء من فضله ، فليس حساب ربك فى الآخرة كحسابكم فى الدنيا ، إنما حسابُه تعالى بالفضل لا بالعدل .

وحليم : يحلم على العبد إنْ أساء ، ويتجاوز للصالحين عن الهَفَوات ، فإنْ خالط عملك الصالح سوء ، وإنْ خالفت منهج الله فى غفلة أو هفوة ، فلا تجعل هذا يعكر صفو علاقتك بربك أو يُنغِّص عليك طمأنينة حياتك ؛ لأن ربك حليم سيتجاوز عن مثل هذا على حَدِّ قولهم (حبيبك يبلع لك الزلط)

لذلك لما وَشَى أحد المؤمنين[1] للكفار فى فتح مكة ، وهَمَّ عمر أن يقتله فنهاه رسول الله ﷺ وقال : « لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال : افعلوا ما شئتم فقد غفرتُ لكم »[2]

ويكفى أنهم خرجوا بأنفسهم واقتحموا معركة غير متكافئة فى العدد والعُدَّة ، ألا نذكر لهم هذا الموقف ؟ ألم يقل الحق سبحانه : ﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ .. (١١٤) ﴾ [هود] ومَن ابتُلِى بشىء يضعف أمامه ، فليكن قوياً فيما يقدر عليه ، وإنْ غلبك الشيطان فى باب من أبواب الشر فشمِّر له أنت فى أبواب الخير ، فإن هذا يُعوِّض ذاك .

---

(١) هو حاطب بن أبى بلتعة ، وقصته أنه كاتب أهل مكة بتجهيز رسول الله ﷺ لفتح مكة ، فقال عمر : دعنى أضرب عنقه فقال إنه شهد بدراً واعتذر حاطب بأنه لم يكن له فى مكة عشيرة تدفع عن أهله فقبل عذره . قال المرزبانى فى « معجم الشعراء » : كان أحد فرسان قريش فى الجاهلية وشعرائها . قال المداينى : مات حاطب فى سنة ثلاثين فى خلافة عثمان وله ٦٥ سنة . [الإصابة لابن حجر ١/ ٣١٤] .

(٢) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٨٩٠) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٤٩٤) من حديث على بن أبى طالب رضى الله عنه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾ ﴾

﴿ ذَلِكَ ﴾ يعنى هذا الأمر الذى تحدثنا فيه قد استقر ، وإليك هذا الكلام الجديد ﴿ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ .. ﴿٦٠﴾ ﴾ [الحج]

الحق - سبحانه وتعالى - خلق الإنسان وجعل فيه ملكات مختلفة ليؤدى خلافته فى الأرض بحركات متوازنة ، فخلق لنا عواطف وجعل لها مهمة ، هذه العواطف لا يحكمها قانون . وخلق لنا أيضاً غرائز ولها مهمة ، لكن محكومة بقانون تعلية الغرائز عند الخلق ، فإياك أنْ تتعدى بغريزتك إلى غير المهمة التى خلقها الله لها .

فمثلاً ، غريزة حب الطعام جعلها الله فيك لاستبقاء الحياة ، فلا تجعلها غرضاً أصيلاً لذاتها ، فتأكل لمجرد أنْ تلتذَّ بالأكل ؛ لأنها لذة وقتية تعقبها آلام ومتاعب طويلة . وهذه الغريزة جعلها الله فى النفس البشرية منضبطة تماماً كما تضبط المنبّه مثلاً ، فحين تجوع تجد نفسك تاقتْ للطعام وطلبته ، وإنْ عطشتْ مالتْ نفسك نحو الماء ، وكأن بداخلك جرساً يُنبِّهك إلى ما تحتاجه بنيتك من مُقوِّمات استبقائها .

حب الاستطلاع غريزة جعلها الله فيك لتنظر بها وتستطلع ما فى الكون من أسرار دالة على قدرة الله وعظمته ، فلا تتعدى هذا الغرض ، ولا تحرِّك هذه الغريزة إلى التجسُّس على الخَلْق والوقوف على أسرارهم .

التناسل غريزة جعلها الله لحفْظ النوع ، فلا ينبغي أنْ تتعدى ماجعلت له إلى ما حرَّم الله .

الغضب غريزة وانفعال قَسْرى لا تختاره بعقلك تغضب أو لا تغضب ، إنما إنْ تعرضتَ لأسبابه فلا تملك إلا أنْ تغضب ، ومع ذلك جعل له حدوداً وقنَّن له وأمر فيه بضبط النفس وعدم النزوع .

الحب والكُرْه غريزة وعاطفة لا تخضع لقانون ، ولا يحكمها العقل ، فلك أن تحب وأن تكره ، لكن إياك أنْ تتعدَّى هذه العاطفة إلى عمل عقليٍّ ونزوع تعتدى به أو تظلم .

لذلك يقول تعالى : ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ[1] قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا.. ﴿٨﴾﴾ [المائدة]

لأن هذه المسألة لا يحكمها قانون ، وليس بيدك الحب أو الكره ؛ لذلك لما قابل سيدنا عمر قاتل أخيه قال له عمر : أَدِرْ وجهك عنى فإنِّى لا أحبك . وكان الرجل عاقلاً فقال لسيدنا عمر : أَوَ عَدَمُ حبك لى يمنعنى حقاً من حقوقى ؟ قال عمر : لا ، فقال الرجل : إنما يبكى على الحب النساء . يعنى أحبِّ أو اكره كما شِئْتَ ، لكن لا تتعدَّ ولا تحرمنى حقاً من حقوقى .

فهل وقفنا بالغرائز عند حدودها وأهدافها ؟ لو تأملتَ مثلاً الغريزة الجنسية التى يصفُها البعض بِمِلْء فيه يقول : غريزة بهيمية .. سبحان الله ألاَ تستحى أنْ تظلم البهائم لمجرد أنها لا تتكلَّم ، وهى أفهم لهذه الغريزة منك ، ألاَ تراها بمجرد أن يُخصَّب الذكَر أُنثاه

---

(١) شناه وشَنَئَه شنآناً : أبغضه وكرهه . والشانىء : المبغض . [القاموس القويم ١/٣٥٧] وجرمه : حمله على فعل شر أو ذنب أو جُرْم . أى : لا يحملنكم بُغْض قوم على عدم العدل ، أى : التزموا العدل حتى مع من تكرهونهم . [القاموس القويم ١/١٢١] .

لا يقربها أبداً ، وهى لا تمكِّنه من نفسها إذا ما حملَتْ ، فى حين أنك تبالغ فى هذه الغريزة ، وتنطلق فيها انطلاقاً يُخرجها عن هدفها والحكمة منها ؟ على مثل هذا أن يخزى أن يقول مثل هذه المقولة ، وألاَّ يظلم البهائم ، فمن الناس مَنْ هم أدْنى من البهائم بكثير .

وما يقال عن غريزة الجنس فى الحيوان يقال كذلك فى الطعام والشراب .

إذن : الخالق سبحانه خلق الغرائز فيك ، ولم يكبتها ، وجعل لها منافذ شرعية لتؤدى مهمتها فى حياتك ؛ لذلك أحاطها بسياج من التكليف يُنظِّمها ويحكمها حتى لا تشرد بك ، فقال مثلاً فى غريزة الطعام والشراب : ﴿يَـٰبَنِى آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا .. (٣١)﴾ [الأعراف]

وقال فى غريزة حب الاستطلاع : ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا .. (١٢)﴾ [الحجرات] وهكذا فى كل غرائزك تجد لها حدوداً يجب عليك ألاَّ تتعداها .

لذلك قلنا فى صفات الإيمان وفى صفات الكفر أن الله تعالى يصف المؤمنين بأنه ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ .. (٢٩)﴾ [الفتح] لأنهم يضعون كل غريزة فى موضعها فالشدة مع الأعداء ، والرحمة مع إخوانهم المؤمنين ، ويقف عند هذه الحدود لا يقلب مقاييسها ، ويلتزم بقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ .. (٥٤)﴾ [المائدة]

وكأن الخالق عز وجل يُسوِّينا تسوية إيمانية ، فالمؤمن لم يُخلَق عزيزاً ولا ذليلاً ، إنما الموقف هو الذى يضعه فى مكانه المناسب ، فهو عزيز شامخ مع الكفار ، وذليل مُنكسِر متواضع مع المؤمنين .

ويتفرع عن هذه المسألة مسألة ردِّ العقوبة إذا اعتُدى عليك : ﴿وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ .. (٦٠)﴾ [الحج] الحق - سبحانه وتعالى - هو خالق النفس البشرية ، وهو أعلم بنوازعها وخلَجاتها ؛ لذلك أباح لك إن اعتدى عليك أنْ تردَّ الاعتداء بمثله ، حتى لا يختمر الغضب فى نفسك ، وقد ينتج عنه ما هو أشد وأبلغ فى ردِّ العقوبة ، يبيح لك الرد بالمثل لتنتهى المسألة عند هذا الحد ولا تتفاقم ، فمَنْ ضربك ضربة فلك أنْ تُنفِّس عن نفسك وتضربه مثلها ، لك ذلك ، لكن تذكَّر المثلية هنا ، لا بد أن تكون تامة ، كما قال سبحانه فى موضع آخر : ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ .. (١٢٦)﴾ [النحل]

وهل تستطيع أن تضبط هذه المثلية فتردّ الضربة بمثلها ؟ وهل قوتك كقوته ، وحدَّة انفعالك فى الرد كحدَّة انفعاله ؟ ولو حدث وزدْتَ فى ردِّك نتيجة غضب ، ماذا تفعل ؟ أتسمح له أنْ يردَّ عليك هذه الزيادة ؟ أم تكون أنت ظالماً معتدياً ؟

إذن : ماذا يُلجئك لمثل هذه المتاهة ، ولك فى التسامح سعَة ، وفى قول الله بعدها : ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ (١٢٦)﴾ [النحل] مَخْرج من هذا الضيق ؟

وسبق أنْ حكينا قصة المرابى اليهودى الذى قال لطالب الدَّيْن : إن تأخرت فى السداد أشترط عليك أنْ آخذ رطلاً من لحمك . وجاء وقت السداد ولم يُوف المدين ، فرفعه الدائن إلى القاضى وأخبره بما اشترطه عليه ، فقال القاضى : نعم من حقك أن تأخذ رطلاً من لحمه لكن بضربة واحدة بالسكين تأخذ رطلاً ، إنْ زاد أو نقص أخذناه منك .

إذن : مسألة المثلية هنا عقبةٌ تحدُّ من ثورة الغضب ، وتفتح باباً للارتقاءات الإيمانية ، فإنْ كان الحق سبحانه سمح لك أن تُنفِّس عن نفسك فقال : ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا .. (٤٠)﴾ [الشورى] فإنه يقول لك : لا تنسَ العفو والتسامح ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤)﴾ [آل عمران]

لذلك ، فالآية التى معنا تلفتنا لَفْتةً إيمانية : ﴿وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ .. (٦٠)﴾ [الحج] واحدة بواحدة ﴿ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ .. (٦٠)﴾ [الحج] يعنى : زاده بعد أنْ ردَّ العدوان بمثله وظلمه واعتدى عليه ﴿لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ .. (٦٠)﴾ [الحج] ينصره على المعتدى الذى لم يرتَض حكم الله فى رَدِّ العقوبة بمثلها .

وتلحظ فى قوله تعالى مخايل النصر بقوله ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (٦٠)﴾ [الحج] مع أن الصفة التى تناسب النُّصْرة أن يقول قوى عزيز ؛ لأن النُّصْرة تحتاج قوة وتحتاج عزة ، لكنه سبحانه اختار صفة العفو والمغفرة ليلفت نظر مَنْ أراد أنْ يعاقب إلى هذه الارتقاءات الإيمانية : اغفر وارحم واعْفُ ؛ لأن ربك عفو غفور ، فاختار الصفة التى تُحنِّن قلب المؤمن على أخيه المؤمن .

ثم أليس لك ذنب مع الله ؟ ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ .. (٢٢)﴾ [النور] فما دُمْت تحب أن يغفر الله لك فاغفر لعباده ، وحين تغفر لمَنْ يستحق العقوبة تأتى النتيجة كما قال ربك عز وجل : ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤)﴾ [فصلت]

فالحق سبحانه يريد أن يشيع بيننا الصفاء النفسى والتلاحم الإيمانى ، فأعطاك حقَّ رَدِّ العقوبة بمثلها لتنفِّس عن نفسك الغيظ ، ثم دعاك إلى العفو والمغفرة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ﴾

﴿ ذَٰلِكَ .. ﴿٦١﴾ ﴾ [الحج] يعنى ما قُلْته لك سابقاً له دليل ، فما هو ؟ أن الله يأخذ من القوى ويعطى للضعيف ، ويأخذ من الطويل ويعطى للقصير ، فالمسألة ليست ثابتة (أو ميكانيكا) وإنما خلقها الله بقدر . والليل والنهار هما ظرفا الأحداث التى تفعلونها ، والحق سبحانه ﴿ يُولِجُ اللَّيْلَ فِى النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِى اللَّيْلِ .. ﴿٦١﴾ ﴾ [الحج]

يولج الليل يعنى : يُدخل الليل على النهار ، فيأخذ منه جزءاً جزءاً فيُطوِّل الليل ويُقصِّر النهار ، ثم يُدخل النهار على الليل فيأخذ منه جزءاً جزءاً ، فيُطوِّل النهار ويُقصِّر الليل ؛ لذلك نراهما لا يتساويان ، فمرة يطول الليل فى الشتاء مثلاً ، ويقصر النهار ، ومرة يطول النهار فى الصيف ، ويقصر الليل . فزيادة أحدهما ونَقْص الآخر أمر مستمر ، وأغيار متداولة بينهما .

وإذا كانت الأغيار فى ظرف الأحداث ، فلا بُدَّ أن تتغير الأحداث نفسها بالتالى ، فعندما يتسع الظرف يتسع كذلك الخير فيه ، فمثلاً عندنا فى المكاييل : الكَيْلة والقدح والوَيْبة وعندنا الأردب ، وكل منها يسَعُ من المحتوى على قدر سعته . وهكذا كما نزيد أو ننقص فى ظرف الأحداث نزيد وننقص فى الأحداث نفسها .

ثم تُذيِّل الآية بقوله سبحانه : ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ﴾ [الحج] سميعٌ لما يقال ، بصيرٌ بما يفعل ، فالقول يقابله الفعل ، وكلاهما عمل ، والبعض يظن أن العمل شىء والقول شىء آخر ، لا ؛ لأن

العمل وظيفة الجارحة ، فكل جارحة تؤدى مهمتها فهى تعمل ، عمل العَيْن أن ترى ، وعمل الأذن أنْ تسمع ، وعمل اليد أن تلمس ، وعمل الأنف أن يشُم ، وكذلك عمل اللسان القول ، فالقول للسان وحده ، والعمل لباقى الجوارح وكلاهما عمل ، فدائماً نضع القول مقابل الفعل ، كما فى قوله تعالى : ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ (٢)﴾ [الصف]

والسمع والبصر هما الجارحتان الرئيسيتان فى الإنسان ، وهما عمدة الحواس كلها ، حيث تعملان باستمرار على خلاف الشَّم مثلاً ، أو التذوق الذى لا يعمل إلا عدة مرات فى اليوم كله .

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ (٦٢)﴾

﴿ذَٰلِكَ .. (٦٢)﴾ [الحج] أى الكلام السابق أمر معلوم انتهينا منه ﴿بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ .. (٦٢)﴾ [الحج] والحق هو الشىء الثابت الذى لا يتغير أبداً ، فكُلُّ ما سوى الله ـ عز وجل ـ يتغير ، وهو سبحانه الذى يُغيِّر ولا يتغير ؛ ولذلك أهل المعرفة يقولون : إن الله تعالى لا يتغير من أجلكم ، لكن يجب عليكم أنْ تتغيروا أنتم من أجل الله .

وما دام أن ربك ـ عز وجل ـ هو الحق الثابت الذى لا يتغير ، وما عداه يتغير ، فلا تحزن ، ويا غضبان ارْضَ ، ويا مَنْ تبكى اضحك واطمئن ؛ لأنك ابن أغيار ، وفى دنيا أغيار لا تثبت على شىء ؛ لذلك فالإنسان يغضب إذا أُصيب بعقبة فى حياته يقول : لو لم تكُنْ هذه !! نقول له : وهل تريدها كاملة ؟ لا بُدَّ أنْ يصيبك شىء ؛ لأنك ابن أغيار ، فماذا تنتظر إنْ وصلْتَ إلى القمة لا بُدَّ أنْ تتراجع ؛

لأنك ابن أغيار دائم التقلُّب فى الأحوال ، وربك وحده هو الثابت الذى لا يتغير .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ .. (٦٢)﴾ [الحج] كل مَا تدعيه أو تعبده من دون الله هو الباطل ، يعنى الذى يَبْطُل ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا (٨١)﴾ [الإسراء] يعنى : يزول ولا يثبت أبداً ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٦٢)﴾ [الحج] العلى يعنى : كل خَلْقه دونه . وكبير يعنى : كل خَلْقه صغير .

ومن أسمائه تعالى ﴿الْكَبِيرُ (٦٢)﴾ [الحج] ولا نقول أكبر إلا فى الأذان ، وفى افتتاح الصلاة ، والبعض يظن أن أكبر أبلغ فى الوصف من كبير ، لكن هذا غير صحيح ؛ لأن أكبر ما دونه كبير ، إنما كبير مقابله صغير ، فهو سبحانه الكبير ؛ لأن ما دونه وما عداه صغير .

أما حين يناديك ويستدعيك لأداء فريضة الله يقول : الله أكبر ؛ لأن حركة الحياة وضروريات العيش عند الله أمر كبير وأمر هام لا يغفل ، لكن إنْ كانت حركة الحياة والسعى فيها أمراً كبيراً فالله أكبر ، فربُّك يُخرجك للصلاة من عمل ، ويدعوك بعدها إلى العمل : ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ .. (١٠)﴾ [الجمعة]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۚ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (٦٣)﴾

﴿أَلَمْ تَرَ .. (٦٣)﴾ [الحج] إنْ كانت للأمر الحسِّى الذى تراه العين ،

فأنت لم تَرَهُ ونُنبهك إليه ، وإنْ كانت للأمر الذى لا يُدرَك بالعين فهى بمعنى : ألم تعلم . وتركنا العلم إلى الرؤية لنبين لك أن الذى يُعلِّمك الله به أوثق مما تهديك إليه عَيْنك .

فالمعنى : ألم تعلم وألم تنظر ؟ . المعنيان معاً .

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً .. (٦٣)﴾ [الحج] فهذه آية تراها ، لكن ترى منها الظاهر فقط ، فترى الماء ينهمر من السماء ، إنما كيف تكوَّن هذا الماء فى طبقات الجو ؟ ولماذا نزل فى هذا المكان بالذات ؟ هذه عمليات لم تَرَها ، وقدرة الله تعالى واسعة ، ولك أن تتأمل لو أردتَ أنْ تجمع كوب ماء واحد من ماء البخار ، وكم يأخذ منك من جهد ووقت وعمليات تسخين وتبخير وتكثيف ، فهل رأيتَ هذه العمليات فى تكوين المطر ؟

إذن : رأيت من المطر ظاهره ، لذلك يلفتك ربك إلى ما وراء هذا الظاهر لتتأمله .

لذلك ؛ جعل الخالق ـ عز وجل ـ مسطح الماء ثلاثة أرباع الكرة الأرضية ، فاتساع مُسطَّح الماء يزيد من البَخْر الذى ينشره الله تعالى على اليابس ، كما لو وضعتَ مثلاً كوبَ ماء فى غرفتك ، وتركتَه مدة شهر أو شهرين ، ستجد أنه ينقص مثلاً سنتيمتراً ، أما لو نثرتَ الكوب على أرض الغرفة فسوف يجفّ بعد دقائق .

إذن : فاتساع رقعة الماء يزيد من كمية البخار المتصاعد منها ، ونحن على اليابس نحتاج كمية كبيرة من الماء العَذْب الصالح للزراعة وللشرب .. الخ ، ولا يتوفر هذا إلا بكثرة كمية الأمطار .

ثم يُبيِّن سبحانه نتيجة إنزال الماء من السماء : ﴿فَتُصْبِحُ الأَرْضُ

مُخْضَرَّةً .. (٦٣) ﴾ [الحج] يعنى : تصير بعد وقت قصير خضراء زاهية . دون أن يذكر شيئاً عن تدخُّل الإنسان فى هذه العملية ، فالإنسان لم يحرث ولم يبذر ولم يَرْو ، إنما المسألة كلها بقدرة الله ، لكن من أين أتت البذور التى كوَّنَتْ هذا النبات ؟ ومَنْ بذرها ووزَّعها ؟ البذور كانت موجودة فى التربة حيَّة كامنة لم يُصِبْها شىء ، وإنْ مَرَّ عليها الزمن ؛ لأن الله تعالى يحفظها إلى أنْ تجد الماء وتتوفَّر لها عوامل الإنبات فتنبت ؛ لذلك نُسمِّى هذا النبات (العِذْى) ؛ لأنه خرج بقدرة الله لا دَخْل لأحد فيه .

وتولَّتْ الرياح نَقْل هذه البذور من مكان لآخر ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ .. (٢٢) ﴾ [الحجر] ولو سلسلْتَ هذه البذرة ستجدها من شجرة إلى شجرة حتى تصل إلى شجرة أُمٍّ ، خلقها الخالق سبحانه لا شجرةَ قبلها ولا بذرة . لذلك يُرْوى أن يوسف النجار وكان يرعى السيدة مريم عليها السلام ويشرف عليها ، ويقال كان خطيبها ـ لما رآها حاملاً وليس لها زوج سألها بأدب : يا مريم ، أتوجد شجرة بلا بذرة ؟ قالت : نعم الشجرة التى أنبتتْ أول بذرة .

ثم يقول سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (٦٣) ﴾ [الحج] اللطْف هو دقَّة التناول للأشياء ، فمثلاً حين تريد أن تدخل خيطاً فى إبرة ، تجد الخيط لا ينفذ من ثقبها لأول مرة ، فتحاول أنْ تُرقِّق من طرف الخيط وتبرمه حتى يدِقّ فينفذ من الثقب ، فالخيط بعد أنْ كان غليظاً أصبح لطيفاً دقيقاً .

ويقولون : الشىء كلما لَطُف عَنُف ، فى حين يظن البعض أن الشىء الكبير هو القوى ، لكن هذا غير صحيح ، فكلما كان الشىء

لطيفاً دقيقاً كان خطره أعظم ، ألاَ ترى الميكروب كيف يصيب الإنسان وكيف لا نشعر به ولا نجد له ألماً ؟ ذلك لأنه دقيق لطيف ، وكذلك له مدخل لطيف لا تشعر به ؛ لأنه من الصِّغَر بحيث لا تراه بالعين المجردة .

والبعوضة كم هى هيِّنة صغيرة ؛ لذلك تُؤلمك لدغتها بخرطومها الدقيق الذى لا تكاد تراه ، وكلما دَقَّ الشىء احتاج إلى احتياط أكثر لتحمى نفسك من خطره ، فمثلاً إنْ أردتَ بناء بيت فى الخلاء أو منطقة نائية ، فإنك ستضطر أنْ تضع حديداً على الشبابيك يحميك من الحيوانات المفترسة كالذئاب مثلاً ، ثم تضع شبكة من السلك لتحميك من الفئران ، فإن أردْتَ أن تحمى نفسك من الذباب والبعوض احتجت إلى سِلْك أدق ، وهكذا كلما صَغُر الشىء ولطف احتاج إلى احتياط أكثر .

فاللطيف هو الذى يدخل فى الأشياء بلطف ؛ لذلك يقولون : فلان لطيف المدخل يعنى : يدخل لكل إنسان بما يناسبه ، ويعرف لكل إنسان نقطة ضَعْف يدخل إليه منها ، كأن معه (طفاشة) للرجال ؛ يستطيع أن يفتح بها أى شخصية .

لكن ، ما علاقة قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (٦٣)﴾ [الحج] بعد قوله : ﴿فَتُصْبِحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً .. (٦٣)﴾ [الحج] ؟ قالوا : لأن عملية الإنبات تقوم على مَسَامّ وشعيرات دقيقة تخرج من البذرة بعد الإنبات ، وتمتصّ الغذاء من التربة ، هذه الشعيرات الجذرية تحتاج إلى لُطْف ، وامتصاص الغذاء المناسب لكل نوع يحتاج إلى خبرة ، كما

قال تعالى : ﴿يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ.. (٤)﴾ [الرعد]

فالأرض تصبح مُخضَرَّة من لُطْف الحق سبحانه ، ومن خبرته فى مداخل الأشياء ، لذلك قال بعدها : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (٦٣)﴾ [الحج]

ولدقّة الشعيرات الجذرية نحرص ألاَّ تعلو المياه الجوفية فى التربة ؛ لأنها تفسد هذه الشعيرات فتتعطن وتموت فيصفرُّ النبات ويموت .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾﴾

فما فى السموات وما فى الأرض ملْك لله تعالى ، ومع ذلك لا ينتفع منها الحق سبحانه بشىء ، إنما خلقها لمنفعة خَلْقه ، وهو سبحانه غنىٌّ عنها وغنىٌّ عنهم ، وبصفات الكمال فيه سبحانه خلق ما فى السماوات وما فى الأرض ؛ لذلك قال بعدها : ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٦٤)﴾ [الحج]

وصفات الكمال فى الله تعالى موجودة قبل أنْ يخلق الخَلْق ، وبصفات الكمال خلق ، وملكيته تعالى للسماوات وللأرض ، ولما فيهما ملكية للظرف وللمظروف ، ونحن لا نملك السماوات ، ولا نملك الأرض ، إنما نملك ما فيهما من خيرات ومنافع مما ملّكنا الله له ، فهو الغنى سبحانه ، المالك لكل شىء ، وما ملَّكنا إلا من باطن مُلْكه .

والحميد : يعنى المحمود ، فهو غنى محمود ؛ لأن غِنَاه لا يعود

عليه سبحانه ، إنما يعود على خَلْقه ، فيحمدونه لغنَاه ، لا يحقدون عليه ، ومن العجيب أن الحق سبحانه يُملِّك خَلْقَه من مُلْكه ، فمَن استخدم النعمة فيما جُعلتْ له ، ومَنْ أعطى غير القادر من نعمة الله عليه يشكر الله له ، وهى فى الأصل نعمته . ذلك لأنك أنت عبده ، وقد استدعاك للوجود ، وعليه سبحانه أنْ يتولاّك ويرعاك .

فإن احتاج غير القادر منك شيئاً ، قال تعالى : ﴿مَن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا .. (٢٤٥)﴾ [البقرة]

فاعتبره قرضاً ، وهو ماله ، لكنه ملّكك إياه ؛ لذلك لا يسلبه منك إنما يأخذه قرضاً حسناً ويضاعفه لك ؛ لأنه غنىٌّ حميد أى : محمود ، ولا يكون الغنى محموداً إلا إذا كان غير الغنى مستفيداً من غِنَاه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٦٥)﴾

هذه الآية امتداد للآية السابقة ، فما فى السماء وما فى الأرض ملْك له سبحانه لكنه سخَّره لمنفعة خَلْقه ، فإنْ سأل سائل : فلماذا لا يجعلها الله لنا ويُملكنا إياها ؟ نقول : لأن ربك يريد أنْ يُطمئنك أنه لن يعطيها لأحد أبداً ، وستظل ملْكاً لله وأنت تنتفع بها ، وهل تأمن إنْ ملّكها الله لغيره أنْ يتغيّر لك ويحرمك منها ؟ فأمْنُك فى أن يظل الملْك لله وحده ؛ لأنه ربك ومُتولّيك ، ولن يتغير لك ، ولن يتنكّر فى منفعتك .

وقوله تعالى : ﴿وَالْفُلْكَ تَجْرِى فِى الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ .. (٦٥)﴾ [الحج]
الفُلْك : السفن ، تُطلق على المفرد وعلى الجمع ، تجرى فى البحر بأمره تعالى ، فتسيير السفن بالريح حيث أمرها الله ، كما قال سبحانه : ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ .. (١٦٤)﴾ [البقرة] وهذه لا يملكها ولا يقدر عليها إلا الله ، وقال فى آية أخرى : ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ .. (٣٣)﴾ [الشورى]

وتأمَّل دقَّة الأداء القرآنى من الله الذى يعلم ما كان ، ويعلم ما يكون ، ويعلم ما سيكون ، فلقائل الآن أنْ يقول : لم نَعُد فى حاجة إلى الريح تُسيِّر السفن ، أو توجهها ؛ لأنها أصبحت تسير الآن بآلات ومحركات ، نعم السفن الآن تسير بالمحركات ، لكن للريح معنى أوسع من ذلك ، فالريح ليست هذه القوة الذاتية التى تدفع السفن على صفحة الماء ، إنما الريح تعنى القوة فى ذاتها ، أياً كانت ريحاً أم بُخَاراً أم كهرباء أم ذرة .. إلخ .

بدليل قوله تعالى : ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ .. (٤٦)﴾ [الأنفال] يعنى : تذهب قوتكم أيّاً كانت هذه القوة حتى الصياد الذى يركب البحر بقارب صغير يُسيِّره بالمجاديف بقوة يده وعضلاته هى أيضاً قوة ، لا تخرج عن هذا المعنى .

وهكذا يظل معنى الآية صالحاً لكل زمان ولكل مكان ، وإلى أن تقوم الساعة .

والريح إنْ أُفردَتْ دلَّتْ على حدوث شرٍّ وضرر ، كما فى قوله تعالى : ﴿وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ (٤١)﴾ [الذاريات]

وقوله : ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ .. (٤٦)﴾ [الأنفال]

وقوله : ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤)﴾[الأحقاف]

وإنْ جاءت بصيغة الجمع دلَّتْ على الخير ، كما فى قوله تعالى : ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ .. (٢٢)﴾ [الحجر]

وسبق أنْ تحدثنا عن مهمة الريح فى تماسك الأشياء وقيامها بذاتها ، فالجبلُ الأشمّ الذى تراه ثابتاً راسخاً إنما ثبتَ بأثر الريح عليه ، وإحاطته به من كل جانب ، بحيث لو فُرِّغ الهواء من أحد جوانب الجبل لانهار ، وهذه هى الفكرة التى قامت عليها القنبلة ، فالهواء هو الذى يقيم المبانى والعمارات ويثبتها ؛ لأنه يحيطها من كل جانب ، فيُحدث لها هذا التوازن ، فإنْ فُرِّغ من أحد الجوانب ينهار المبنى .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ .. (٦٥)﴾ [الحج] فالسماء مرفوعة فوقنا بلا عَمَد ، لا يمسكها فوقنا إلا الله بقدرته وقيوميته أنْ تقع على الأرض إلا بإذنه تعالى ، كما قال فى آية أخرى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ .. (٤١)﴾ [فاطر]

﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٦٥)﴾ [الحج] فمن صفاته تعالى الرأفة والرحمة ، والفَهْم السطحى لهاتين الصفتين يرى أنهما واحد ، لكن هما صفتان مختلفتان ، فالرأفة تزيل الآلام ، والرحمة تزيد الإنعام ، والقاعدة أن دَرْء المفسدة مُقدَّم دائماً على جَلْب المصلحة ، فربك يرأف بك فيزيل عنك أسباب الألم قبْل أن يجلب لك نفعاً برحمته .

وسبق أن أوضحنا هذه المسألة بمثل : قلنا هَبْ أن واحداً يرميك بحجر ، وآخر يرمى لك تفاحة ، فأيُّهما يشغلك أولاً ؟ لا شكَّ ستُشغل

بالحجر ، كيف تقى نفسك من ضرره ثم تحاول أن تنال هذه التفاحة ؟

لذلك قال تعالى : ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَـٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى .. (٦١)﴾ [النحل]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۗ إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ (٦٦)﴾

الحق ـ تبارك وتعالى ـ يُذكّرنا ببعض نعمه وببعض العمليات التى لو تتبعناها لوقفنا بمقتضاها على نِعَم الله علينا ، ولم نَنْسها أبداً .

أولها : ﴿وَهُوَ الَّذِى أَحْيَاكُمْ .. (٦٦)﴾ [الحج] والإحياء : أن يعطى المحيى ما يُحييه قوة يؤدى بها المهمة المخلوق لها . والإحياء الأول فى آدم ـ عليه السلام ـ حين خلقه ربه وسوّاه ونفخ فيه من روحه ، ثم أوجدنا نحن من ذريته .

﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ .. (٦٦)﴾ [الحج] وكما أن الخَلْق آية من آيات الله ، فكذلك الموت آية من آيات الله ، نراها ونلمسها ، وما دُمْتَ تُصدِّق بآية الخَلْق وآية الموت ، وتراهما ، ولا تشك فيهما ، فحين نقول لك إن بعد هذا حياة أخرىٰ فصدِّق ؛ لأن صاحب هذه الآيات واحد ، والمقدمات التى تحكم أنت بصدقها يجب أنْ تؤدى إلى نتيجة تحكم أيضاً بصدقها ، وها هى المقدمات بين يديك صادقة .

لذلك يقول تعالى بعدها : ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ.. (٦٦)﴾ [الحج] والإحياء

يُطلَق فى القرآن على معانٍ متعددة ، منها الحياة المادية التى تتمثل فى الحركة والأكل والشرب ، ومنها الحياة فى الآخرة التى قال الله عنها : ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٦٤)﴾ [العنكبوت]

وهذه هى الحياة الحقيقية ؛ لأن حياة الدنيا تعتريها الأغيار ، ويتقلَّب فيها الإنسان بين القوة والضعف ، والصحة والمرض ، والغنى والفقر ، والصِّغَر والكِبَر ، وبعد ذلك يعتريها الزوال ، أما حياة الآخرة التى وصفها الله بأنها الحيوان يعنى : مبالغة فى الحياة ، فهى حياة لا أغيار فيها ولا زوالَ لها .

إذن : لديك حياتان : حياة لبِنْية المادة وبها تتحرك وتُحِس وتعيش ، وحياة أخرى باقية لا زوالَ لها .

لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿يَـأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ .. (٢٤)﴾ [الأنفال] كيف - إذن - ونحن أحياء ؟ قالوا : لما يحييكم ليست حياة الدنيا المادية التى تعتريها الأغيار ، إنما يحييكم الحياةَ الحقيقية فى الآخرة ، الحياة الباقية التى لا تزول ، التى قال الله عنها : ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٦٤)﴾ [العنكبوت] يعنى : العلم الحقيقى الذى يهدى صاحبه .

فإنْ كانت الحياة المادية الدنيوية بنفْخ الروح فى الإنسان ، فبِمَ تكون الحياة الثانية ﴿إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ .. (٢٤)﴾ [الأنفال]

قالوا : هذه الحياة تكون بروح أيضاً ، لكن غير الروح الأولى ، إنها بروح القرآن الذى قال الله فيه : ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا .. (٥٢)﴾ [الشورى] وسمَّى الملَك الذى ينزل به روحاً : ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣)﴾ [الشعراء]

فالروح الثانية التى تُحييك الحياة الحقيقية الخالدة هى منهج الله فى كتابه الكريم ، إن اتبعته نلْتَ هذه الحياة الباقية الخالدة وتمتعتَ فيها بما لا عَيْن رأت ، ولا أذن سمعتْ ، ولا خطر على قلب بشر ، وهى لا مقطوعة ولا ممنوعة .

ثم يقول سبحانه : ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾﴾ [الحج] كفور : صيغة مبالغة من كافر ، والكفور الذى لم يعرف للمنعم حَقّ النعمة ، مع أنه لو تبيَّنها لما انفكَّ أبداً عن شكر المنعم سبحانه .

والإنسان يمرُّ بمراحل مختلفة بين الحياة والموت ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾﴾ [غافر] ، فمتى سيقولون هذا الكلام ؟

قالوا : هذا يوم القيامة ، وقد أحياهم الله من موت العدم ، فأحياهم فى الدنيا ثم أماتهم ، ثم أحياهم فى الآخرة ، فهناك موت قبل إيجاد ، وموت بعد إيجاد ، ثم يأتى البعث فى القيامة .

وقوله تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِى أَحْيَاكُمْ .. ﴿٦٦﴾﴾ [الحج] قضية قالها الخالق ـ عز وجل ـ ولم يدعها أحد لنفسه مع كثرة الكفار والملاحدة والأفاقين فى كل زمان ومكان ، لم نسمع مَن ادَّعَى مسألة الخَلْق ، وهذه قضية يجب أن نقف عندها وأن نبحث : لماذا لم يظهر مَنْ يدَّعى ذلك ؟ وإذا لم يَدَّع الخَلْق أحدٌ ، ولم يدَّع الإحياء أحد ، فمَنْ ـ إذن ـ صاحب الخَلْق والإحياء والإماتة ؟

إذا كان الناس يهتمون ويؤرخون لأىِّ مخترع اخترع آلة مثلاً ، فيقولون : مخترع الكهرباء فلان وعاش فى بلدة كذا ، وكان من أمره كذا وكذا ، وتعلم فى كذا ، وحصل على كذا .. الخ فكيف بمَنْ خلقكم

وأحياكم من عدم ؟ خاصة وهذه المسألة لم يتبجح بادعائها أحد فثبتت القضية له سبحانه وتعالى .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ ﴾ (١)

الحق - سبحانه وتعالى - خلق آدم عليه السلام خليفة له فى الأرض ، وأجرى له تدريباً على مهمته بالأمر الإلهى والنهى الإلهى ، وأخبره بعداوة الشيطان له ولذريته ، وحذَّره أن يتبع خطواته ، وقد انتهت هذه التجربة بنزول آدم من الجنة إلى الأرض ليباشر مهمته كخليفة لله فى أرضه على أنْ يظلَّ على ذكْر من تجربته مع الشيطان ، وقد سخَّر الله له كل شىء فى الوجود يخدمه ويعمل من أجله .

ثم أنزل الله عليه منهجاً ، يعمل به لتستقيم حركة حياته وحياة ذريته ، وذكَّره بالمنهج التدريبى السابق الذى كلَّفه به فى الجنة ، وما حدث له لما خالف منهج ربه ، حيث ظهرت عورته : ﴿ وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ .. ﴿٢٢﴾ ﴾ [الأعراف]

كذلك إنْ خالفت هذا المنهج الإلهى فى الدنيا ستظهر عوراتكم . لذلك إذا رأيت أىّ عورة فى المجتمع فى أىّ ناحية : فى الاجتماع ، فى الاقتصاد ، فى التربية ، فاعلم أن حكماً من أحكام الله قد عُطِّل ، فظهرت سوأة من سوءات المجتمع ؛ لأن منهج الله هو قانون الصيانة

---

(١) المنْسَك : الموضع الذى تذبح فيه النسُك . والمنسك : شرعة الفَسْك وهو الذبح ، والمناسك : المتعبدات . [لسان العرب - مادة : نسك] .

الذى يحميك وينظم حياتك لتؤدى مهمتك فى الحياة .

كما لو دخلتَ بيتك فوجدتَ آلة من آلات البيت لا تؤدى مهمتها ، فتعلم أن بها عطلاً فتذهب بها إلى المهندس المختص بصيانتها ، كذلك إن تعطل فى حياتكم شىء عن أداء مهمته فردُّوه إلى صاحب صيانته إلى الله وإلى الرسول ، وهذا منطق حازم يعترف به الجميع المؤمن والكافر أن ترد الصنعة إلى صانعها ، وإلى العالم بقانون صيانتها ، وأنت لم يدّع أحد أنه خلقك ، فحين يحدث فيك خَلَل ، فعليك أنْ تذهبَ إلى ربك وخالقك .

لذلك كان النبى ﷺ إذا حزبه أمر قام إلى الصلاة[1] ، ومعنى « حزبه أمر » يعنى : شىء فوق طاقته وأسبابه ، يُهرَع إلى الصلاة ليعرض نفسه على ربه عز وجل ، فإنْ وجدتَ فى نفسك خللاً فى أى ناحية ، فما عليك إلا أنْ تتوضأ ، وتقف بين يدى ربك ليصلح ما تعطل فيك .

وإن كان المهندس يُصلح لك الآلة بشىء مادى ، ولو قطعة صغيرة من السلك ، فإن ربك عز وجل غَيْب ، وعلاجه أيضاً غَيْب يأتيك من حيث لا تدرى .

ومنهج الله الذى وضعه لصيانة خَلْقه فيه أصول وفيه فروع ، الأصول : أن تؤمن بالإله الواحد الفاعل المختار ، وهذه قاعدة ما اختلف عليها أىٌّ من رسالات السماء أبداً ، كما يقول تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ .. ﴿١٣﴾ ﴾ [الشورى]

فهذه أصول لا يختلف عليها دين من الأديان ، لكن لما كان الناس منثورين فى شتى بقاع الأرض ، تعيش كل جماعة منهم منعزلةً عن

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده [٥/٣٨٨] ، وأبو داود فى سننه (١٣١٩) عن حذيفة بن اليمان رضى الله عنه .

الأخرى لبُعْد المسافات وانعدام وسائل الاتصال والالتقاء التى نراها اليوم ، والتى جعلتْ العالم كله قرية واحدة ، ما يحدث فى أقصى الشرق تراه وتسمع به فى أقصى الغرب ، وفى نفس الوقت . لما عاش الناس هذه العزلة لا يدرى أحد بأحد لدرجة أنهم كانوا منذ مائتى عام يكتشفون قارات جديدة .

وقد نشأ عن هذه العزلة أنْ تعددت الداءات بتعدد الجماعات ، فكان الرسول أو النبى يأتى ليعالج الداءات فى جماعة بعينها يُبعَث إلى قومه خاصة ، فهذا ليعالج مسألة الكيل والميزان ، وهذا ليعالج طغيان المال ، وهذا ليعالج انحراف الطباع وشذوذها ، وهذا ليعالج التعصب القبلى .

أما رسالة محمد ﷺ ، فجاءت فى بداية التقاء الجماعات هنا وهناك ، فكانت رسالته ﷺ عامة للناس كافة ، وتجد أصول الرسالات عند موسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام أصولاً واحدة ، أمّا الفروع فتختلف باختلاف البيئات .

لكن ، لما كان فى علمه تعالى أن هذه العزلة ستنتهى ، وأن هذه البيئات ستجتمع وتلتقى على أمر واحد وستتحد فيها الداءات ؛ لذلك أرسل الرسول الخاتم لهم جميعاً على امتداد الزمان والمكان .

وفى هذه الآية : ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ .. (٦٧)﴾ [الحج] أى : أن الحق سبحانه جعل لكل أمة من الأمم التى بعث فيها الرسل مناسك تناسب أقضية زمانهم ؛ لأنهم كانوا فى عزلة بعضهم عن بعض ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا .. (٤٨)﴾ [المائدة]

فالشرائع تختلف فى الفروع المناسبة للزمان وللمكان وللبيئة ،

أما الأخلاق والعقائد فهى واحدة ، فالله عز وجل إله واحد فى كل ديانات السماء ، والكذب مُحرَّم فى كل ديانات السماء لم يأت نبى من الأنبياء ليبيح لقومه الكذب .

والمنسك : المنهج التعبدى ، ومنه قوله تعالى : ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢)﴾ [الأنعام]

﴿هُمْ نَاسِكُوهُ .. (٦٧)﴾ [الحج] يعنى : فاعلوه .

ثم يقول سبحانه : ﴿فَلا يُنَازِعُنَّكَ فِي الأَمْرِ .. (٦٧)﴾ [الحج] كأنْ يقولوا : أنت رسول ونحن أيضاً نتبع رسولاً ، له منهج وله شريعة ، نعم : لكن هذه شريعة خاتمة جاءت مهيمنة على كل الشرائع قبلها ، ومناسبة لمستجدّات الأمور .

لذلك يُطمئن الحق - تبارك وتعالى - رسوله ﷺ بعدها : ﴿وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ (٦٧)﴾ [الحج] يعنى : اطمئن ، فأنت على الحق وادْعُ إلى ربك ؛ لأنك على هدى مستقيم سيصل إليهم إنْ لم يكن إيماناً فسيكون إصلاحاً وتقنيناً بشرياً تلجئهم إليه أحداث الحياة ومشاكلها ، فلن يجدوا أفضل من شرع الله يحكمون به ، وإنْ لم يؤمنوا

وكأن الحق سبحانه يقول لرسوله ﷺ لا تنازعهم ولا ينازعونك ، وخُذْ ما أمرك الله به : ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (٩٤)﴾ [الحجر] الذين يجادلونك وينازعونك فى الرسالة ، وسوف تحدث لهم أقضية بقدر ما يُحدثون من الفجور ويلجئون إلى شرعك وقانونك ليحلوا به مشاكلهم .

والهدى وُصِف بأنه مستقيم ، لأنه هدى من الله صنعه لك ، هدى

الخالق الذى يعلم ملكات النفس الإنسانية كلها ، وشرع لكل ملكة ما يناسبها ، وأحداث الحياة ستضطرهم إلى ما قنن الله لخلافته فى الأرض .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾

الجدل : مأخوذ من جَدْل الحبل بعضه على بعض لتقويته ، وإنْ كانت خيطاً رفيعاً نبرمه فنعطيه سُمْكاً وقوة ؛ لذلك الخيط حين نبرمه يقلّ فى الطول ؛ لأن أجزاءه تتداخل فيكون أقوى ، فالجدْل من تمتين الشيء وتقويته ، وكذلك الجدال ؛ فهو محاولة تقوية الحجة أمام الخَصْم .

وفى آية أخرى : ﴿ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ .. ﴿١٢٥﴾ ﴾ [النحل] فالمعنى : إنْ جادلوك بعد التي هى أحسن فقُلْ ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [الحج] يعنى : ردهم إلى الله واحتكم إليه ؛ لذلك جاء بعدها :

﴿ ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾

لاحظ أن الحق سبحانه لم يقُلْ : يحكم بيننا وبينكم كما يقتضى المعنى ؛ لأنكما طرفان تتجادلان . وكأن الحق ـ تبارك وتعالى ـ يقول لرسوله ﷺ : أتركهم فسوف يختلفون هم فيما بينهم ، ولن يظل الخلاف معك ؛ لأن الخلاف فى شيء واحد ينشأ عن هوى النفس ، وهوى النفس ينشأ من الحرص على السلطة الزمنية ، يعنى : أرحْ نفسك ، فربُّك سيحكم بينهم فيما كانوا فيه يختلفون .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾ ﴾

هذه قضية حكم بها الحق سبحانه لنفسه ، ولم يدَّعها أحد ، فلا يعلم ما فى السماء والأرض إلا الله ، وهذه الآية جاءت بعد الحكم فى المنازعة فربما اعترض أحد وقال : ما دام الأمر من الله أحكاماً تنظم حركة الحياة وقد جاء كل رسول بها ، فما ضرورة أنْ يجىء رسول الله ﷺ للناس كافة .

وقلنا : إن الدين نوعان : نوع لا يختلف باختلاف الرسل والأمم والعصور ، وهذا فى القضايا العامة الشاملة التى لا تتغير ، وهى العقائد والأصول والأخلاق ، ونوع آخر يختلف باختلاف العصور والأمم ، فيأتى الحكم مناسباً لكل عصر ، ولكل أمة .

وما دام الحق سبحانه هو الذى سيحكم بين الطرفين قال : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ .. ﴿٧٠﴾ ﴾ [الحج] أعلم كل شىء كائن فى الوجود ظاهره وباطنه ، فأنا أحكُم عن علم وعن خبرة .

﴿ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ .. ﴿٧٠﴾ ﴾ [الحج] والعلم شىء ، والكتاب شىء آخر ، فما دام الله تعالى يعلم كل شىء ، وما دام سبحانه لا يضل ولا ينسى ، فما ضرورة الكتاب ؟

قالوا[1] : الكتاب يعنى به اللوح المحفوظ الذى يحوى كل شىء .

---

(١) قاله ابن عباس فيما أخرجه عنه ابن أبى حاتم وابن مردويه . أورده السيوطى فى الدر المنثور (٦/ ٧٤) .

وفى آية أخرى قال : ﴿كَلاَّ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (١١) فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ (١٢) فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ (١٣) مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ (١٤) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (١٥)﴾ [عبس]

حتى القرآن نفسه فى ذلك الكتاب : ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ (٢١) فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ (٢٢)﴾ [البروج]

وقال تعالى : ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ (٣٩)﴾ [الرعد] ويقول تعالى : ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٥٩)﴾ [الأنعام]

فضرورة الكتاب ليدلّك وليدلّ الملائكة المطَّلعين على أن الأشياء التى تحدث مستقبلاً كتبها الله أزلاً ، فمجيئها فى المستقبل على وَفْق ما كتبه دليل علمه سبحانه بها ، فالذى كتب الشىء قبل أنْ يكون ، ثم جاء الشىء موافقاً لما كتب أكبر دليل على علْمه وإحاطته .

إذن : مجىء الكتاب لا ليساعدنا على شىء ، إنما ليكون حُجَّة عليك ، فيقال لك : ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (١٤)﴾ [الإسراء] ها هو تاريخك ، وها هى قصتك ، ليس كلاماً من عندنا ، وإنما فعْلك والحجة عليك .

وعلْم الله تعالى فى قوله : ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ .. (٧٠)﴾ [الحج] يحمل الوعد والوعيد فى وقت واحد ، وهذا من عجائب الأداء القرآنى ، أنْ يعطى الشىء ونقيضه ، كيف ؟ هَبْ أن عندك ولديْن اعتدى أحدهما على الآخر فى غَيْبتك ، فلما عُدْتَ أسرعا بالشكوى ، كل من صاحبه ، فقلتَ لهما : اسكتا لا أسمع لكما صوتاً ، وقد عرفت ما حدث وسأرتب لكل منكما ما يناسبه وما يستحقه على وَفْق

ما علمت ، لا شكَّ عندها أن المظلوم سيفرح ويستبشر ، وأن الظالم سيخاف ويتغير لونه ،

إذن : فعلم الله بكل شيء في السماء والأرض وإحاطته سبحانه بما يجرى بين خَلْقه وَعْد للمحق ، ووعيد للمبطل .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾ ﴾

كأن العبادة ـ وهى : طاعة أمر واجتناب نهى ـ يجب أن تكون صادرة من أعلى منا جميعاً ، فليس لأحد منا أن يُشرِّع للآخر ، فيأمره أو ينهاه ؛ لأن الأمر من المساوى لك لا مُرجح له ، وله أنْ يقول لك : لماذا أنت تأمر وأنا أطيع ؟ أما إنْ جاء الأمر من أعلى منك فأنت تطيع بلا اعتراض ، ومعك الحجة أن الأمر من أعلى ، تقول : أبى أمرنى بكذا وكذا ، أو ربى أمرنى بكذا وكذا ، أو نهانى عن كذا وكذا .

اذن : كل دليل على حكم الفعل أو الترك لا بُدَّ أنْ يكون مصدره من الحق سبحانه وتعالى ، فهو الأعلى منى ومنك ، وإذا انصعْتَ لأمره ونهيه فلا حرجَ علىَّ ولا ضرر ؛ لأننى ما انصعت لمساوٍ إنما انصعت لله الذى أنا وأنت عبيد له ، ولا غضاضةَ فى أن نتبع حكمه .

لذلك فى حِكَم أهل الريف يقولون : (اللى الشرع يقطع صباعه مَيْخُرش دم) لماذا ؟ لأنك ما قطعته أنت إنما قطعه الله ، فليس فى الأمر تسلط أو جبروت من أحد ، وليس فيه مذلّة ولا استكانة لأحد .

ومعنى : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ .. (٧١) ﴾ [الحج] يعنى : يعبدون غيره تعالى ﴿ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا .. (٧١) ﴾ [الحج] السلطان : إما سلطان قَهْر ، أو سلطان حجة ، سلطان القهر أن يقهرك ويجبرك على ما لم تُرِدْ فعْله ، أما سلطان الحجة فيقنعك ويُثبت لك بالحجة أن تفعل باختيارك ، وهذه الآلهة التى يعبدونها من دون الله ليس لها سلطان ، لا قَهْر ولا حُجَّة .

لذلك ؛ فى جدل إبليس يوم القيامة للذين اتبعوه يقول لهم : ﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي .. (٢٢) ﴾ [إبراهيم] يعنى : كنتم على إشارة فاستجبتم لى ، وليس لى عليكم سلطان ، لا قوة أقهركم بها على المعصية ، ولا حجة أقنعكم بها .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِ عِلْمٌ .. (٧١) ﴾ [الحج] يعنى : علم الاجتهاد الذى يستنبط الأحكام من الحكم المُجْمل الذى يُنزله الحق تبارك وتعالى ، وهذه هى حجة العلم التى قال الله تعالى عنها : ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ .. (٨٣) ﴾ [النساء] يعنى : أهل العلم .

إذن : العبادة لا بُدَّ أن تكون بسلطان من الله نصاً قاطعاً وصريحاً لا يحتمل الجدل ، وإما أنْ تكونَ باجتهاد أُولى العلم .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ (٧١) ﴾ [الحج] لم يقُلْ سبحانه : لن ينتصر الظالمون ، ولم ينْفِ عنهم النصر ؛ لأن هذه مسألة مُسلمة إنما لا يفزع لنصرتهم أحد ، فلن ينتصروا ولن ينصرهم أحد ، ولا يفزع أحد لينصر أحداً إلا إذا كان المنصور ضعيفاً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾ ﴾

تصور هذه الآية حال الكفار عند سماعهم لكتاب الله وآياته من رسول الله أو صحابته ، فإذا سمعوها ﴿ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ .. ﴿٧٢﴾ ﴾ [الحج] أى : الكراهية تراها وتقرؤها فى وجوههم عُبُوساً وتقطيباً وغضباً وانفعالاً ، ينكر ما يسمعون ، ويكاد أن يتحول الانفعال إلى نزوع غضبى يفتك بمَنْ يقرأ القرآن لما بداخلهم من شر وكراهية لما يتلى عليهم .

لذلك قال تعالى بعدها : ﴿ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا .. ﴿٧٢﴾ ﴾ [الحج] والسَّطْو : الفَتْك والبطش ؛ لأن العمل الوجدانى الذى يشغل نفوسهم يظهر أولاً على وجوههم انفعالاً يُنبىء بشىء يريدون إيقاعه بالمؤمنين ، ثم يتحول الوجدان إلى نزوع حركى هو الفتك والبطش .

(قُلْ) فى الرد عليهم : ماذا يُغضبكم حتى تسطوا علينا وتكرهوا ما نتلو عليكم من كتاب الله . والغيظ والكراهية عند سماعهم القرآن دليل على عدم قدرتهم على الرد بالحجة ، وعدم قدرتهم أيضاً على الإيمان ؛ لذلك يتقلَّبون بين غيظ وكراهية .

لذلك يخاطبهم بقوله : ﴿قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا .. (٧٢)﴾ [الحج] يعنى : مالى أراكم مغتاظين من آيات الله كارهين لها الآن ، والأمر ما يزال هيِّناً ؟ أمجرد سماع الآيات يفعل بكم هذا كلّه ؟ فما بالكم حينما تباشرون النار فى الآخرة ، الغيظ الذى تظنونه شراً فتسطُون علينا بسببه أمر بسيط ، وهناك أشرّ منه ينتظركم ﴿النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا .. (٧٢)﴾ [الحج]

وما أشبه هذا بموقف الصِّدِّيق أبى بكر حينما أوقف صناديد قريش بالباب ، وقدّم عليهم المستضعفين من المؤمنين ، فغضبوا لذلك وورِمَتْ أنوفهم ، فقال لهم : أَوَرِمتْ أنوفكم أنْ قدمتهم عليكم الآن ، فكيف بكم حين يُقدمهم الله عليكم فى دخول الجنة ؟

وكلمة ﴿وَعَدَهَا .. (٧٢)﴾ [الحج] الوعد دائماً يكون بالخير ، أما هنا فاستُعملَتْ على سبيل الاستهزاء بهم والتقليل من شأنهم ، كما قال فى آية أخرى : ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٤)﴾ [الانشقاق] فساعةَ أن يسمع البُشْرى يستشرف للخير ، فيفاجئه العذاب ، فيكون أنكَى له .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ .. (٢٩)﴾ [الكهف] لأن انقباض النفس ويأسها بعد بوادر الانبساط أشدّ من العذاب ذاته .

وقوله : ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٧٢)﴾ [الحج] أى : ساءت نهايتكم ومرجعكم .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ ﴾

قُلْنا : الضرب إيقاع شىء على شىء بقوة ، ومنه نقول : ضربنا الدينار يعنى : بعد أن كان قطعة من الذهب أو الفضة مثلاً أصبح عملةً معروفةً متداولة .

والمثل : تشبيه شىء غير معلوم بشىء آخر معلوم وعجيب وبديع يَعْلَق فى الذهن ، كما نصف لك إنساناً لم تَرَهُ بإنسان تعرفه . نقول : هو مثل فلان . وهكذا كل التشبيهات : شىء تريد أن تعلمه للمخاطب وهو لا يعلمه .

ومنه قوله تعالى : ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِى اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [البقرة]

وقوله تعالى : ﴿ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ ﴾ [الأعراف]

وقوله تعالى : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [العنكبوت]

إذن : الأمثال : إعلام بشىء معلوم ليصل العلم فيه إلى شىء

مجهول ، وكلمة (مثَل) استقلَّتْ بأن يكون المثَل بديعاً فى النسج ، بليغاً موجزاً ، بحيث تتناقله الألسنة بسرعة فى كلمات معدودة .

فلو وجدتَ مثلاً تلميذاً مُهملاً تكاسل طوال العام ، ولم يذاكر ، فلما حضر الامتحان راح يجتهد فى المذاكرة ، فتقول له : (قبل الرماء تملأ الكنائن) يعنى : قبل أنْ تصطاد بالسهام يجب أنْ تُعدّها أولاً وتملأ بها كنانتك ، فهذا مثَلٌ يُضرَب للاستعداد للأمر قبل حلوله .

ومن أمثلة أهل الريف يقولون : (أعْطِ العيش لخبازه ولو يأكل نصفه) ويُضرب لمن يجعل الصنعة عند غير صانعها والمتخصص فيها .

ويقولون فيمَنْ يُقصِّر فى الأمر المنوط به : (باب النجار مخلع) .

وحين ترسل مَنْ يقضى لك حاجة فيفلح فيها ويأتى بالنتيجة المرجوة يقول لك : (أبدى المخْضُ عن الزبد) والمخضُ عملية خَضِّ اللبن فى القِرْبة لفَصْل الزُّبْد عن اللبن .

وهكذا ، المثل قَوْل موجز بليغ قيل فى مناسبته ، ثم استعمله الناس لخِفَّته وجماله وبلاغته فى المواقف المشابهة ، والمثَل يظل على حاله الأول لا يغير ، ويجب الالتزام بنصِّه مع المفرد والمثنى والجمع ، ومع المذكر والمؤنث ، فمثلاً إنْ أرسلتَ رسولاً يقضى لك حاجة ، فعندما يعود تقول له : (ما وراءك يا عِصام) هكذا بالكسر فى خطاب المؤنث مع أنه رجل ، لماذا ؟ لأن المَثَل قيل أول

ما قيل لمؤنث ، فظلَّ على هذه الصيغة من التأنيث حتى ولو كان المخاطَبُ مذكَّراً .

وقصة هذا المثَل أن الحارث ملك كندة أراد أن يتزوج أم إياس ، وبعث مَنْ تخطبها له ، وكان اسمها عصام ، فلما ذهبت إليها قالت لها أمها : إن فلانة جاءت تخطبك لفلان ، فلا تخفى عنها شيئاً ، ودعيها تشمُّك إنْ أرادت ، وناطقيها فيما استنطقتْك به ، فلما دخلتْ على الفتاة وأرادت أن ترى جسمها خلعتْ ثوبها ، وكشفتْ عن جسمها ، فقالت المرأة : (ترك الخداع من كشف القناع) فسارت مثلاً ، ثم عادت إلى الحارث فاستقبلها متعجلاً ردَّها فقال : (ما وراءك يا عصام) يعنى : ما الخبر ؟ فظلَّ المثل هكذا للمؤنث ، وإن خُوطِب به المذكر .

والحق ـ تبارك وتعالى ـ يضرب لكم هذا المثل ويقول : خذوه فى بالكم ، وانتبهوا له ، وافتحوا له آذانكم جيداً واعقلوه ؛ لأنه سينفعكم فى علاقتكم برسول الله وبالمؤمنين .

والخطاب هنا مُوجَّه للناس كافّة ، لم يخُصّ أحداً دون أحد : ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ .. (٧٣) ﴾ [الحج] فلم يقُل يا أيها المؤمنون ؛ لأن هذا المثَلَ مُوجَّه إلى الكفار ، فالمؤمنون ليسوا فى حاجة إليه ﴿ فَاسْتَمِعُوا لَهُ .. (٧٣) ﴾ [الحج] يعنى : انصتوا وتفهَّموا مراده ومرماه ، لتسيروا فى حركتكم على وَفْق ما جاء فيه ، وعلى وَفْق ما فهمتم من مغزاه .

فما هو هذا المثَل ؟

﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ .. (٧٣) ﴾ [الحج]

أى : الذين تعبدونهم وتتجهون إليهم من دون الله ﴿لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا .. (٧٣)﴾ [الحج] وهو أصغر المخلوقات ﴿وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ .. (٧٣)﴾ [الحج] يعنى : تضافرَتْ جهودهم ، واجتمع أمرهم جميعاً لا واحداً واحداً ، وهذا ترقٍّ فى التحدى ، حيث زاد فى قوة المعاند .

كما ترقَّى القرآن فى تحدِّى العرب ، فتحداهم أولاً بأنْ يأتوا بمثل القرآن ، ولأن القرآن كثير تحدّاهم بعشر سور فما استطاعوا ، فتحدَّاهم بسورة واحدة فلم يستطيعوا .

ثم يترقى فى التحدى فيقول : اجمعوا كل فصحائكم وبلغائكم ، بل والجن أيضاً يساعدونكم ولن تستطيعوا : ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَـٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ .. (٨٨)﴾ [الإسراء]

وقوله تعالى : ﴿لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا .. (٧٣)﴾ [الحج] جاءت بنفى المستقبل فلم يقُلْ مثلاً : لم يخلقوا ، فالنفى هنا للتأبيد ، فهم ما استطاعوا فى الماضى ، ولن يستطيعوا أيضاً فيما بعد حتى لا يظن أحد أنهم ربما تمكّنوا من ذلك فى مستقبل الأيام ، ونفى الفعل هكذا على وجه التأبيد ؛ لأنك قد تترك الفعل مع قدرتك عليه ، إنما حين تتحدَّى به تفعل لتردّ على هذا التحدِّى ، فأوضح لهم الحق سبحانه أنهم لم يستطيعوا قبل التحدى ، ولن يستطيعوا بعد التحدى .

ثم يقول تعالى : ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ .. (٧٣)﴾ [الحج] فقد تقول : إن عملية الخَلْق هذه عملية صعبة لا يُتحدَّى بها ، لذلك تحداهم بما هو أسهل من الخَلْق ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ .. (٧٣)﴾ [الحج] وهل يستطيع أحد أن يُعيد ما أخذه الذباب من طعامه على جناحيه أو أرجله أو خرطومه ؟

وكانوا يذبحون القرابين عند الأصنام ، ويضعون أمامها الطعام

ليباركوه ، فكانت الدماء تسيل عندها وتتناثر عليها ، فيحطّ عليها الذباب ، ويأخذ من هذه الدماء على أرْجُله النحيفة هذه أو على أجنحته أو على خرطومه ، فتحدَّاهم أن يعيدوا من الذباب ما أخذه ، وهذه مسألة أسهل من مسألة الخَلْق .

ولك أنْ تُجرِّب أنت هذه العملية ، إذا وقع ذباب على العسل الذى أمامك ، فلا بُدَّ أن يأخذ منه شيئاً ولو كان ضئيلاً لا يُدرك ولا يُوزَن ولا تكاد تراه ، لكن أتستطيع أنْ تُمسك الذبابة وتردّ ما أخذتْ منك ؟

لذلك يقول تعالى بعدها : ﴿ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣)﴾ [الحج] يعنى : كلاهما ضعيف ، فالذباب فى ذاته ضعيف وهم كذلك ضعفاء ، بدليل أنهم لن يقدروا على هذه المسألة ، لكن هناك ضعيف يدَّعى القوة ، وضعيف قوته فى أنه مُقرٌّ بضعفه ، فالذباب وإنْ كان ضعيفاً إلا أن الله تعالى قال فيه : ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ... (٢٦)﴾ [البقرة] يعنى : ما فوقها فى الصِّغر ، ليس المراد ما فوقها فى الكبر كالعصفور مثلاً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٧٤)﴾

يعنى : هؤلاء الكفار الذين عبدوا من دون الله آلهة لا تستطيع أن تخلق ذباباً ، ولا تستطيع حتى أنْ تردَّ من الذباب ما أخذه ، هؤلاء ما عرفوا لله قَدْره ، ولو عرفوا قَدْر الله ما عبدوا غيره .

والقَدْر : يعنى مقدار الشىء ، وقلنا : إن مقادير الأشياء تختلف

حسب ما تريده من معرفة المقادير ، فالطول مثلاً له مقياس يُقَاس به مقدار الطول ، لكن هذا المقياس يختلف باختلاف المقيس ، فإنْ أردتَ أنْ تقيسَ المسافة بين القاهرة والأسكندرية مثلاً لا تستخدم المللى أو السنتيمتر ولا حتى المتر ، إنما تستخدم الكيلومتر ، فإنْ أردت شراء قطعة من القماش تقول متر ، أما إنْ أردتَ صورة شخصية تقول سنتيمتر .

إذن : لكل شيء مقدار يُقدَّر به ، ومعيار يُقاس به ، فإنْ أردتَ المسافة تقيس الطول ، فإنْ أردت المساحة تقيس الطول فى العرض ، فإنْ أردتَ الحجم تقيس الطول فى العرض فى الارتفاع ، الطول بالمتر والمساحة بالمتر المربع ، والحجم بالمتر المكعب . كذلك فى الوزن تُقدِّره بالكيلو أو الرطل أو الجرام .. إلخ .

وقدر تأتى بمعنى : ضيَّق ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ .. (١٦) ﴾ [الفجر]

ويقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ .. (٧) ﴾ [الطلاق]

والمقدار كما يكون فى الماديات يكون أيضاً فى المعنويات ، فمثلاً تعبر عن الزيادة المادية تقول : فلان كبر يعنى شبَّ وزاد ، أما فى المعنويات فيقول الحق سبحانه : كَبُر ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ .. (٥) ﴾ [الكهف] يعنى : عَظُمتْ .

والحق - تبارك وتعالى - ليس مادة ؛ لأنه سبحانه فوق المادة ، فمعنى المقدار فى حقه تعالى عظمته فى صفات الكمال فيه ﴿ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ .. (٧٤) ﴾ [الحج] ما عظّموه حقَّ التعظيم الذى ينبغى له ،

وما عرفوا قَدْره ، ولو عرفوا ما عبدوا غيره ، ولا عبدوا أحداً معه من هذه الآلهة التى لا تخلق ذباباً ، ولا حتى تسترد ما أخذه منهم الذباب ، فكيف يُسَوُّون هؤلاء بالله ويقارنونهم به عز وجل ؟ إنهم لو عرفوا لله تعالى قَدْره لاستحيوا من ذلك كله .

ثم تُذيِّل الآية بقوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ (٧٤)﴾ [الحج] فما مناسبة هاتين الصفتين للسياق الذى نحن بصدده ؟

قالوا : لأن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ تكلَّم فى المثَل السابق عَمَّنْ انصرفوا عن عبادته سبحانه إلى عبادة الأصنام وقال : ﴿ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣)﴾ [الحج] فقال فى مقابل هذا الضعف إن الله لقوىٌّ ، قوة عن العابد ؛ لأنه ليس فى حاجة إلى عبادته ، وقوة عن المعبود لأنه لو شاء حَطَّمه ، وما دُمْتم انصرفتم عن الله وعبدتم غيره ، فهذا فيه مُضارَّة ، وكأن هناك معركة ، فإنْ كان كذلك فالله عزيز لا يغالب .

والآية : ﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ .. (٧٤)﴾ [الحج] وردتْ فى عدة مواضع فى كتاب الله ، منها : ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ .. (٩١)﴾ [الأنعام] فلم يعرفوا لله تعالى قَدْره لأنهم اتهموه ، وله سبحانه كمال العدل ، فكيف يُكلف عباده بعبادته ، ولا يبلغهم برسول ؟ وهو سبحانه القائل : ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً (١٥)﴾ [الإسراء]

فحين يقولون : ﴿مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ .. (٩١)﴾ [الأنعام] كأنهم يصفُون الحق سبحانه بأنه يُعذِّب الناس دون أنْ يُبلِّغهم بشىء . ويردّ عليهم فى هذه المسألة : ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِى جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ .. (٩١)﴾ [الأنعام]

وفى موضع آخر : ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَـٰوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ .. (٦٧)﴾ [الزمر]

ونقول : قَدَّرَه حَقَّ قدره ، وقَدَره قَدْره ، كأن الأمور تختلف فى تقدير الأشياء ، فمثلاً تنظر إلى حجرة فتقول : هذه تقريباً ٥×٤ هذا تقدير إجمالى تقريبى ، إنما إنْ أخذت المقياس وقدَّرْتَ تقديراً حقيقياً ، فقد تزيد أو تنقص ، فالأول تقول : قدَّرْت الحجرة قَدْرها . والآخر تقول : قدرت الحجرة حَقَّ قَدْرها .

وعليه فإنك إنْ أردت أنْ تُقدِّر الله تعالى حَقَّ قَدْره فإنك تقدِّره على قَدْر استيعاب العقل البشرى ، إنما قَدْره تعالى حقيقة فلا تحيط به ؛ لأن كمالاته تعالى لا تتناهى ولا تُدرَك إدراكاً تاماً .

ومن ذلك ما سبق أن ذكرناه عن علم اليقين وعين اليقين وحقِّ اليقين . ولما نزل قوله تعالى : ﴿يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ.. (١٠٢)﴾ [آل عمران] قال بعض الصحابة[1] : ومَنْ يقدر على ذلك ، إنها مسألة صعبة أن نتقى الله التقوى الكاملة التى يستحقها عز وجل ، فأنزل الله تعالى : ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ .. (١٦)﴾ [التغابن] ونزلت : ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا .. (٢٨٦)﴾ [البقرة]

---

(١) عن سعيد بن جبير وهو من كبار التابعين قال : لما نزلت هذه الآية اشتد على القوم العمل ، فقاموا حتى ورمت عراقيبهم ، وتقرحت جباههم ، فأنزل الله تخفيفاً على المسلمين ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ (١٦)﴾ [التغابن] . فنسخت الآية الأولى . [أخرجه ابن أبى حاتم] .
وابن عباس فى قوله ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ (١٠٢)﴾ [آل عمران] قال : لم تنسخ ولكن ﴿حَقَّ تُقَاتِهِ (١٠٢)﴾ [آل عمران] أن يجاهدوا فى الله حق جهاده ولا تأخذهم فى الله لومة لائم ، ويقوموا لله بالقسط ولو على أنفسهم وآبائهم وأمهاتهم . [أخرجه ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والنحاس فى ناسخه] . أوردهما السيوطى فى الدر المنثور ٢/٢٨٣ .

وكان النبي ﷺ إذا أثنى على الله تعالى يقول : « سبحانك ، لا نحصى ثناءً عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك »(١)

لماذا ؟ لأنه لا يملك أحد مهما أُوتِى من بلاغة الأسلوب أنْ يُثنى على الله الثناء المناسب الذى يليق به سبحانه ، ومن رحمة الله تعالى بعباده أن تحمل عنهم هذه المسألة فأثنى الحق سبحانه على نفسه ، وعلَّمنا كيف نثني عليه سبحانه ، فإذا ما تحدث البليغ وأثنى على الله بفنون القول والثناء ، فإن العيىَّ الذى لا يجيد الكلام يطمئن حيث يُثنى على ربه بما علمه من الثناء ، وما وضعه من صيغ يقولها الفيلسوف ، ويقولها راعى الشاة .

ولولا أن الله تعالى علَّمنا صيغة الحمد فى سورة الفاتحة فقال : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ ﴾ [الفاتحة] ما تعلمنا هذه الصيغة ، فتعليم الله لعباده صيغة الحمد فى ذاتها نعمة تستحق الحمد ، والحمد يستحق الحمد ، وهكذا فى سلسلة لا تنتهى ، ليظل الحق - تبارك وتعالى - محموداً دائماً ، ويظل العبد حامداً دائماً .

وبعد أن تكلم الحق سبحانه عن مسألة الألوهية وما ينبغى لها من صفات الكمال المطلق ، وحذر أنْ نُدخِل عليها ما ليس منها وما لا يستحقها ، وهذه قمة العقائد ، وبعد أن نؤمن بالإلهيات بهذا الصفاء ونُخلِّص إيماننا من كل ما يشوبه لا بُدَّ من البلاغ عن هذه القوة الإلهية التى آمنا بها ، والبلاغ يكون بإرسال الرسل

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٦/٥٨ ، ١٢٠) وكذا مسلم فى صحيحه (٤٨٦) من حديث عائشة رضى الله عنها قالت : فقدت رسول الله ﷺ ليلة من الفراش فالتمسته فوقعت يدى على بطن قدميه وهو فى المسجد وهما منصوبتان وهو يقول : « اللهم أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك ، لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك » .

لذلك قال سبحانه :

﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ ﴾

إذن : المرحلة الثانية فى الإيمان بعد الإيمان بالقمة الإلهية الإيمان بالرسل ﴿ اللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ .. ﴿٧٥﴾ ﴾ [الحج]

والاصطفاء : اختيار نخبة من كثير ، واختيار القليل من الكثير دليل على أنها الخلاصة والصفوة ، كما يختلف الاصطفاء باختلاف المصطفِى ، فإنْ كان المصطفِى هو الله تعالى فلا بُدَّ أنْ يختار خلاصة الخلاصة .

والاصطفاء سائر فى الكون كله ، يصطفى من الملائكة رسلاً ، ومن الناس رسلاً ، ويصطفى من الزمان ، ويصطفى من المكان ، كما اصطفى رمضان من الزمان ، والكعبة من المكان . ولم يجعل الحق سبحانه الاصطفاء لتدليل المصطفى على غيره ، إنما ليُشيع اصطفاءَه على خَلْق الله ، فلما اصطفى رمضان على سائر الزمن ـ لا ليدلل رمضان ـ إنما لتأخذ منه شحنة تُقوِّى روحك ، وتُصفِّيها بقية الأيام ، لتستفيد من صالح عملك فيها .

وقد يتكرر الاصطفاء مع اختلاف متعلق الاصطفاء ؛ لذلك وقف المستشرقون عند قول الله تعالى : ﴿ يَـٰمَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [آل عمران]

يقولون : ما فائدة تكرار الاصطفاء هنا ؟ ولو تأملنا الآية لوجدنا فَرْقاً بين الاصطفاء الأول والآخر : الاصطفاء الأول اصطفاء ؛ لأنْ

تكونى عابدة تقية متبتلة منقطعة فى محرابك لله ، أما الاصطفاء الآخر فاصطفاء على نساء العالمين جميعاً ، بأن تكونى أماً لمولود بلا أب ، فمُتعلِّق الاصطفاء ـ إذن ـ مختلف .

وتنقسم الملائكة فى مسألة الاصطفاء إلى ملائكة مُصْطفاة ، وملائكة مُصْطَفًى منها . وفى آية أخرى يقول تعالى : ﴿جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً (١)﴾ [فاطر] يعنى : كلهم لهم رسالة مع عوالم أخرى غيرنا .

أما فى الآية التى معنا ، فالكلام عن الملائكة الذين لهم صلة بالإنسان أمثال جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل ، والحفظة الكاتبين والمكلفين بحفظ الإنسان ، فالله تعالى يصطفى هؤلاء ، أما الباقون منهم فالله مصطفيهم لعبادته فهم مُهيَّمون ، لا يدرون عن هذا الخلق شيئاً ، وهم الملائكة العالون الذين قال الله عنهم فى الحديث عن إبليس : ﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥)﴾ [ص] يعنى : الذين لم يشملهم الأمر بالسجود ؛ لأن لهم مهمة أخرى .

ثم يقول تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٧٥)﴾ [الحج] السمع يتعلق بالأصوات ، والبصر يتعلق بالأفعال ، وهما كما قلنا عُمْدة الحواسِّ كلها ، والحق سبحانه فى قوله : ﴿سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٧٥)﴾ [الحج] يُبيِّن لنا أن رسله سيُوَاجَهُون بأقوال تؤذيهم واستهزاء ، وسيُقَابلون بأفعال تعرقل مسيرة دعوتهم ، فليكُنْ هذا معلوماً حتى لا يفُتّ فى عَضُدهم ، وأنا معهم سميع لما يُقال ، بَصير بما يفعل ، فهُمْ تحت سمعى وبصرى وكلاءتى .

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ (٧٦)﴾

﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ (٧٦)﴾ [الحج] ما أمامهم ، ويعلم أيضاً ما خلفهم ، فليعمل الإنسان ما يشاء ، فعلْم الله محيط به .

﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ (٧٦)﴾ [الحج] فالمرجع فى النهاية إليه سبحانه ، فالحق - تبارك وتعالى - لم يخلق خَلْقه ليتركهم هَمَلاً ، إنما خلقهم لحكمة ، وجعل لهم نهاية يُجازَى فيها كُلٌّ بعمله ، فمَن تعب ونصب فى سبيل دعوة الله وتحمّل المشاقّ فى مساندة رسل الله فله جزاؤه ، ومَنْ جابههم وعاندهم سواء بالأقوال السَّابّة الشاتمة المستهزئة ، أو بالأفعال التى تعوق دعوتهم ، فله أيضاً ما يستحق من العقاب .

وبعد أن حدَّثنا ربنا عز وجل عن الإلهيات وعن الرسل التى تُبلِّغ عنه سبحانه ، يُحدِّثنا عن المنهج الذى سيأتون به لينظم حركة حياتنا ، هذا المنهج موجز فى افعل كذا ، ولا تفعل كذا ، وهو لا يشمل فى أوامره ونواهيه كل حركات الحياة . فالأوامر والنواهى محصورة فى عدَّة أمور ، والباقى مباح ؛ لأن الله تعالى وضع الأوامر والنواهى فى الأصول التى تعصم حركة الحياة من الأهواء والنزوات ، وترك الباقى لاختيارك تفعله على أىِّ وجه تريد .

لذلك نرى العلماء يجتهدون ويختلفون فى مثل هذه الأمور التى تركها الله لنا ، ولو أراد سبحانه لأنزل فيها حكماً محكماً ، لا يختلف عليه أحد . ولك أن تقول : ولماذا ترك الحق سبحانه هذه الأمور تتضارب فيها الأقوال ، وتختلف فيها الآراء ، وتحدث فيها نزاعات بين الناس ؟

قالوا : هذا مراد الله ؛ لأن الله تعالى خلق الإنسان مُسخَّراً فى أشياء ، ومختاراً فى أشياء أخرى ، فللناس أن يتركوا المجتهد يجتهد

ما وسعه الاجتهاد ، ثم يحكمون على ما وصل إليه أنه حق ، وآخر يجتهد ويقررون أنه باطل ؛ لأن الله لو أراده على لون واحد لقاله ، إنما تركه محتملاً للآراء .

إذن : أراد سبحانه أن تكون هذه الآراء لأن الإنسان كما هو محكوم بقهر فى كثير من الكونيات وله اختيار فى بعض الأمور ، كذلك الحال فى التكليف ، فهو مقهور فى الأصول التى لو حاد عنها يفسد العالم ، ومختار فى أمور أخرى يصحّ فِعْلها ويصحّ تَرْكها .

يقول تعالى فى هذا المنهج :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾

النداء فى ضَرْب المثل السابق[1] كان للناس كافَّة ؛ لأنه يريد أنْ يلفت عُبَّاد الأصنام إلى هذا المثَل ، ويُسْمعهم إياه ، أمَّا هنا فالكلام عن منهج ودستور مُوجَّه ، خاصّة إلى الذين آمنوا ، لأنه لا يُكلَّف بالحكم إلا مَنْ آمن به ، أما مَنْ كفر فليس أهْلاً لحمل هذه الأمانة ؛ لذلك تركه ولم ينظم له حركة حياته . وكما قلنا فى رجل المرور أنه يساعد مَن استعان به ووثق فيه ، فيدلّه ويرشده ، أما مَنْ شكَّ فى كلامه وقلّل من شأنه يتركه يضل فى مفترق الطرق .

فإذا ناداك ربك بما يكلفك به ، فاعلم أن الجهة مُنفكّة ، كما فى قوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ .. ﴿١٣٦﴾ ﴾ [النساء]

وقد اعترض على أسلوب القرآن فى هذه الآية بعض الذين

---

(١) يقصد قوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ .. ﴿٧٣﴾ ﴾ [الحج]

يأخذون الآيات على ظاهرها ، يقولون : كيف يخاطبهم بيأيها الذين آمنوا ثم يقول : آمِنوا ، كيف وهم يؤمنون بالفعل ؟

قالوا : المراد يا أيها الذين آمنوا قبل سماع الحكم الجديد ظلُّوا على إيمانكم فى الحكم الجديد ، واستمرّوا على إيمانكم ؛ لذلك إذا طلبتَ شيئاً ممَّنْ هو موصوف به فاعلم أن المراد الدوام عليه .

كما أن هناك فَرْقاً بين الإيمان بالحكم وبين تنفيذ الحكم ، فقد تؤمن بالحكم أنه من الله ولا تشكّ فيه ولا تعترض عليه ، لكنك لا تنفذه وتعصاه ، فمثلاً في الحج يقول تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ .. (٩٧) ﴾ [آل عمران] الذي لله تعالى على عباده أنْ يحجوا البيت ﴿ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً (٩٧) ﴾ [آل عمران] وهذا شرط ضرورى ، فلا تكليفَ بلا استطاعة ، ثم يقول : ﴿ وَمَن كَفَرَ (٩٧) ﴾ [آل عمران]

فهل يعني هذا أن مَنْ لم يحج فهو كافر ؟

قالوا : لا ، لأن المراد : لله على الناس حكم يعتقده المؤمن ، بأن لله على الناس حج البيت ، فمن اعتقد هذا الاعتقاد فهو مؤمن ، أما كونه ينفذه أو لا ينفذه هذه مسألة أخرى .

ثم يبدأ أول ما يبدأ فى التكليف بمسألة الصلاة : ﴿ ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ .. (٧٧) ﴾ [الحج] لقد جاء الرسل من عند الله بتكاليف كثيرة ، لكن خَصَّ هنا الصلاة لأنها التكليف الذى يتكرر كل يوم خمس مرات ، أما بقية التكاليف فهى موسمية : فالصوم شهر فى العام كله ، والحج مرة فى العمر كله لمن استطاع ، والزكاة عند خروج المحصول لمن يملك النصاب أو عند حلول الحَوْل .

إذن : تختلف فريضة الصلاة عن باقى الفرائض ؛ لذلك خَصَّها

رسول الله ﷺ فى قوله : « العهد الذى بيننا وبينهم الصلاة ، فمَنْ تركها فقد كفر »[١] .

ويقول : « الصلاة عماد الدين »[٢] .

وخصَّها الحق - تبارك وتعالى - بظرف تشريعى خاص ، حيث فُرِضت الصلاة بالمباشرة ، وفُرِضت باقى الفرائض بالوحى .

وضربنا لذلك مثلاً - ولله المثل الأعلى - قلنا : إن رئيس العمل يمكن أن يرسل لك ورقة يقول : افعل كذا وكذا ، فإنْ كان أمراً هاماً اتصل بك تليفونياً ، وأخبرك بما يريد لأهميته ، فإنْ كان الأمر أهم من ذلك وجاء من جهة أعلى يقول لك : تعال عندى لأمر هام ، ويُكلِّفك به مباشرة ، وكذلك على حسب الأهمية يوجد ظرف التشريع .

فالصلاة لم تأت بالوحى كباقى الفرائض ، إنما جاءت مباشرة من المُوحى سبحانه وتعالى ؛ لأنها ستكون صلة بين العبد وربه ، فشاء أن يُنَزِّهَها حتى من هذه الواسطة ، ثم ميَّزها على غيرها من التكاليف ، فجعلها الفريضة التى لا تسقط عن المسلم بحال أبداً . فقد تكون فقيراً فلا تلزمك الزكاة ، وغير مستطيع فلا يلزمك حج ، ومريض أو مسافر فلا يلزمك صوم .

أما الصلاة فلا يُسقطها عنك شىء من هذا كله ، فإنْ كنت غير قادر على القيام فلك أنْ تُصلِّى قاعداً أو مضطجعاً أو راقداً ، تشير

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه (٢٦٢١) ، والنسائى فى سننه (١/٢٣١) من حديث عبد الله بن بريدة عن أبيه . قال الترمذى : حديث حسن صحيح غريب .

(٢) قال الحافظ العراقى فى تخريجه للإحياء (١/١٤٧) : « رواه البيهقى فى الشُّعَب بسند ضعَّفه من حديث عمر » وقال الملا على القارى فى « الأسرار المرفوعة » (حديث ٥٧٨) قال ابن الصلاح فى مشكل الوسيط : إنه غير معروف . وقال النووى فى التنقيح : إنه منكر باطل ، لكن رواه الديلمى عن على كما ذكره السيوطى فى الدرر المنتثرة (ح ٢٧٩) .

بطرفك لركوعك وسجودك ، ولو حتى تجرى أفعال الصلاة على قلبك ، المهم أن تظلّ ذاكراً لربك متصلاً به ، لا يمر عليك وقت إلا وهو سبحانه فى بالك .

وقلنا : إن ذكر الله فى الأذان والإقامة والصلاة ذكْر دائم فى كل الوقت لا ينقطع أبداً ، فحين تصلى أنت الصبح مثلاً غيرك يصلى الظهر ، وحين تركع غيرك يسجد ، وحين تقول : بسم الله الرحمن الرحيم . غيرك يقول : الحمد لله رب العالمين .. الخ .

فهى عبادة متداخلة دائمة لا تنقطع أبداً ؛ لذلك يقول أحد أهل المعرفة مخاطباً الزمن : يا زمن فيك كل الزمن . يعنى : فى كل جزئية من الزمن الزمن كله ، كأنه قال : يا ظُهْر ، وفيك العَصر ، وفيك المغرب ، وفيك العشاء . وهكذا العالم كله يدور بعبادة لله لا تنتهى .

وذكر من الصلاة الركوع والسجود ؛ لأنهما أظهر أعمال الصلاة ، لكن الركوع والسجود حركات يؤديها المؤمن المخلص ، ويؤديها المنافق ، وقد كان المنافقون أسبق الناس إلى الصفوف الأولى ؛ لذلك أراد الحق سبحانه أنْ يُميِّز هذا من هذا ، فقال : ﴿وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ..(٧٧)﴾ [الحج]

فليست العبرة فى حركات الركوع والسجود ، إنما العبرة فى التوجّه بها إلى الله ، وإخلاص النية فيها لله ، وإلا أصبحت الصلاة مجرد حركات لا تعدو أن تكون تمارين رياضية كما يحلو للبعض أن يقول : الصلاة فيها تمارين رياضية تُحرِّك كل أجزاء الجسم ، نعم هى كما تقولون رياضة ، لكنها ليست عبادة ، العبادة أن تؤديها لأن الله تعالى أمرك بها .

ثم يقول تعالى : ﴿وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٧٧)﴾ [الحج]

والخير كلمة عامة تشمل كل أوامر التكليف ، لكن جاءت مع الصلاة على سبيل الإجمال ، لأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب ، فالخير - إذن - كلمة جامعة لكل ما تؤديه وظائف المناهج من خير المجتمع ؛ لأن المنهج ما جاء إلا لينظم حركة الحياة تنظيماً يتعاون ويتساند لا يتعاند ، فإنْ جاء الأمر على هذه الصورة سَعِد المجتمع بأسْره .

ولا تنْسَ أن المنهج حين يُضيِّق عليك ويُقيِّد حركتك يفعل ذلك لصالحك أنت ، وأنت المستفيد من تقييد الحركة ؛ لأن ربك قيّد حركتك وضيَّق عليك حتى لا تُلحق الشر بالآخرين ، وفى الوقت نفسه ضيّق على الآخرين جميعاً أن يتحركوا بالشر ناحيتك ، وأنت واحد وهم كثير ، فمن أجل تقييد حركتك قيّد لك حركة الناس جميعاً ، فمَنِ الكاسب فى هذه المسألة .

الشرع قال لك : لا تسرق وأنت واحد وقال للناس جميعاً : لا تسرقوا منه ، وقال لك : غُضّ بصرك عن محارم الغير وأنت واحد . وقال لكل غير : غُضُّوا أبصاركم عن محارم فلان ، فكل تكليف من الله للخَلْق يعود عليك .

فالمعنى : ﴿وَافْعَلُوا الْخَيْرَ (٧٧)﴾ [الحج] أى : الذى لا يأتى منه فساد أبداً ، وما دامت الحركات صادرة عن مراد لهوى واحد فإنها تتساند وتتعاون ، فإنْ كان لك هوى ولغيرك هوى تصادمتْ الأهواء وتعاندت ، والخير : كل ما تأمر به التكاليف المنهجية الشرعية من الحق تبارك وتعالى .

ثم يقول سبحانه : ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٧٧)﴾ [الحج] لكن ، أين سيكون هذا الفَلاَح : فى الدنيا أم فى الآخرة ؟

الفلاَح يكون فى الدنيا لمن قام بشرع الله والتزم منهجه وفعل

الخير ، فالفَلاح ثمرة طبيعية لمنهج الله فى أىِّ مجتمع يتحرك أفرادُه فى اتجاه الخير لهم وللغير ، مجتمع يعمل بقول رسول الله ﷺ : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه »[(١)] وعندها لن ترى فى المجتمع تزاحماً ولا تنافراً ولا ظلماً ولا رشوة .. الخ هذا الفلاح فى الدنيا ، ثم يأتى زيادة على فلاح الدنيا فلاح الآخرة .

إذن : لا تظنوا التكاليف الشرعية عبْئاً عليكم ؛ لأنها فى صالحكم فى الدنيا ، وبها فلاح دنياكم ، ثم يكون ثوابها فى الآخرة مَحْض الفضل من الله .

وقد نبهنا النبى ﷺ إلى هذه المسألة فقال : « لا يدخل أحدكم الجنة بعمله قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا ، إلا أنْ يتغمّدنى الله برحمته »[(٢)] ذلك لأن الإنسان يفعل الخير فى الدنيا لصالحه وصالح دنياه التى يعيشها ، ثم ينال الثواب عليها فى الآخرة من فضل الله كما قال تعالى : ﴿ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ (١٧٣) ﴾ [النساء]

وقوله تعالى : ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٧٧) ﴾ [الحج] نعرف أن لعل أداة للترجى ، وهو درجات بعضها أرْجى من بعض ، فمثلاً حين تقول : لعل فلاناً يعطيك ، فأنت ترجو غيرك ولا تضمن عطاءه ، فإنْ قلت : لعلِّى أعطيك . فالرجاء - إذن - فى يدك ، فهذه أرجى من سابقتها ، لكن ما زلنا أنا وأنت متساويين ، وربما أعطيك أولاً ، إنما حين تقول : لعل الله يعطيك فقد رجوْتَ الله ، فهذه أرجى من سابقتها ، فإذا قال الله تعالى بذاته : لعلى أعطيك فهذا أقوى درجات الرجاء وآكدها ؛ لأن الوعد من الله والرجاء فيه سبحانه لا يخيب .

---

(١) متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (١٣) ، ومسلم فى صحيحه (٤٥) كتاب الإيمان عن أنس بن مالك رضى الله عنه .

(٢) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٤٦٣) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٨١٦) عن أبى هريرة رضى الله عنه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾ ﴾

معنى ﴿ حَقَّ جِهَادِهِ ﴿٧٨﴾ ﴾ [الحج] كالذى قلناه فى ﴿ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴿٧٤﴾ ﴾ [الحج] لأن الجهاد أيضاً يحتاج إلى إخلاص ، وأنْ تجعل الله فى بالك ، فربما خرجتَ لمجرد أن تدفع اللوم عن نفسك وحملتَ السلاح فعلاً ودخلت المعركة ، لكن ما فى بالك أنها لله وما فى بالك إعلاء كلمة الله ، كالذى يقاتل للشهرة وليرى الناس مكانته ، أو يقاتل طمعاً فى الغنائم ، أو لأنه مغتاظ من العدو وبينه وبينه ثأر ، ويريد أن ينتقم منه ، هذه وغيرها أمور تُخرِج القتال عن هدفه وتُفرغه من محتواه .

لذلك لما سئل سيدنا رسول الله ﷺ : يا رسول الله ، الرجل يقاتل للمغنم ، والرجل يقاتل ليذكر ، والرجل يقاتل ليُرى مكانه ، فمَنْ فى سبيل الله ؟ فقال رسول الله ﷺ : « مَنْ قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله »[1] وهذا هو حق الجهاد ، وأنت فيه حكَم على نفسك ، لأن ميزان ذلك فى يدك .

---

(١) متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (١٢٣) ، ومسلم فى صحيحه (١٩٠٤) عن أبى موسى الأشعرى . .

وقد تسأل : ولماذا الجهاد ؟ قالوا : لأنك إذا انتفعتَ بالمنهج تطبيقاً له بعد التحقيق الذى أتى به الرسل تنفع نفسك ، لكن ربك - عز وجل - يريد أنْ يُشيع النفع لمن معك أيضاً ، وهذا لا يتأتّى إلا بالجهاد بالنفس أو المال أو أىّ شىء محبوب ، وإلا فكيف ستربح الصفقة التى قال الله تعالى عنها : ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ..(١١١)﴾ [التوبة]

وكما أن للجنود فى ساحة القتال مهمة ، كذلك لمن قعد ولم يخرج مهمة : الجندى حين يقتحم الأهوال والمخاطر ويُعرِّض نفسه للموت ، فهذا يعنى أنه ما دخل المعركة وما عرَّض نفسه للقتل إلا وهو واثق تمام الثقة ، أن ما يذهب إليه بالقتل خير مما يناله بالجُبْن ، وهذا يشجع الآخرين ويحثّهم على القتال .

لذلك ، فى غزوة بدر لما سمع الصحابى كلام رسول الله ﷺ عن أجر الشهيد وكان فى فمه تمرة يمصُّها ، فقال : يا رسول الله ، أليس بينى وبين الجنة إلا أنْ أُقتل فى سبيل الله ؟ قال : نعم ، فألقى التمرة من فيه وخرج لتوِّه إلى الجهاد[1] لأنه واثق تمام الثقة أن ما سيذهب إليه بالشهادة خير مما ترك .

أما الذين بَقَوْا ولم يخرجوا ، فمهمتهم أن يحملوا المنهج ، وأنْ يحققوه ، وإلا لو خرج الجميع إلى القتال واستشهدوا جميعاً ، فمَنْ يحمل منهج الله وينشره ؟

---

(١) عن جابر بن عبد الله قال : قال رجل : أين أنا يا رسول الله إن قُتلت ؟ قال : فى الجنة . فألقى تمرات كُنَّ فى يده . ثم قاتل حتى قُتل . وفى حديث سويد : قال رجل للنبى ﷺ يوم أحد . أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٠٤٦) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٨٩٩) كتاب الإمارة . قال ابن حجر فى الفتح (٧/٣٥٤) : « لم أقف على اسم الرجل ، وزعم ابن بشكوال أنه عمير بن الحمام وسبقه إلى ذلك الخطيب واحتج بما أخرجه مسلم من حديث أنس . قلت : لكن وقع التصريح فى حديث أنس أن ذلك كان يوم بدر » .

وجاءت كلمة الجهاد عامة لتشمل كل أنواع الجهاد ، فإذا ما أثمر الجهاد ثمرته وتغلبنا على الكفر فلم يَعُدْ هناك كفار ، أو خلَّوْا طريق دعوتنا وتركونا ، وأحبوا أنْ يعيشوا فى بلادنا أهل ذمة ، فلا داعى - إذن - للقتال ، ويتحول الجهاد إلى ميدان آخر هو جهاد النفس .

لذلك قال تعالى بعدها : ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ..(٧٨)﴾ [الحج] يعنى : اختاركم واصطفاكم لتكونوا خير أمة أُخرجت للناس ، وثمن هذا الاجتباء أن نكون أهلاً له ، وعلى مستوى مسئوليته ، وأنْ نحقق ما أراده الله منّا .

كما ننصح جماعة من أهل الدعوة الذين حملوا رايتها ، نقول لهم : لقد اختاركم الله ، فكونوا أهْلاً لهذا الاختيار ، واجعلوا كلامه تعالى فى محلّه .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ..(٧٨)﴾ [الحج] يعنى : ما اجتباكم ليُعنتكم ، أو ليُضيِّق عليكم ، أو ليُعسِّر عليكم الأمور ، إنما جعل الأمر كله يُسْر ، وشرعه على قَدْر الاستطاعة ، ورخّص لكم ما يُخفِّف عنكم ، ويُذهب عنكم الحرج والضيق ، فمَنْ لم يستطع القيام صلى قاعداً ، ومَنْ كان مريضاً أفطر ، والفقير لا زكاة عليه ولا حج .. الخ .

كما قال سبحانه فى موضع آخر : ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لأَعْنَتَكُمْ..(٢٢٠)﴾ [البقرة] لكنه سبحانه ما أعنتكم ولا ضيَّق عليكم ، وما كلَّفكم إلا ما تستطيعون القيام به .

وقوله تعالى : ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ (٧٨)﴾ [الحج] كلمة (ملة) جاءت هكذا بالنصب ، لأنها مفعول به لفعل تقديره : (الزموا) ملة أبيكم إبراهيم ؛ لأنكم دعوته حين قال : ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا..(١٢٨)﴾ [البقرة]

ومن دعوة إبراهيم عليه السلام : ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ .. (١٢٩)﴾ [البقرة] لذلك كان النبى ﷺ يقول : « أنا دعوة أبى إبراهيم ، وبُشْرى عيسى »[(١)] .

يعنى : من ذريته وذرية ولده إسماعيل ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا .. (١٢٨)﴾ [البقرة] أعطنا التكاليف ، وكأنه مُتشوِّق إلى تكاليف الله ، وهل يشتاق الإنسان للتكليف إنْ كان فيه ضيق أو مشقة ؟

وكذلك كان صحابة النبى ﷺ يعشقون تكاليف الإسلام ، ويسألون عنها رسول الله رغم قوله لهم : « ذرونى ما تركتكم »[(٢)] إلا أنهم كانوا يسألون عن أمور الدين ليبنوا حياتهم الجديدة ، لا على ما كانت الجاهلية تفعله ، بل على ما أمر به الإسلام .

ولنا ملْحظ فى قوله تعالى : ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ .. (٧٨)﴾ [الحج] فالخطاب هنا لأمة الدعوة ، ولأمة الإجابة ، وهل أمة الإسلام كلها من ذرية إبراهيم حتى يقول ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ .. (٧٨)﴾ [الحج] ؟

نقول : الإسلام انقياد عَقَدىٌّ للجميع ، وفى أمة الإسلام مَنْ ليس من ذرية إبراهيم ، لكن إبراهيم عليه السلام أبٌ لرسول الله محمد ﷺ ، والرسول أب لكل مَنْ آمن به ؛ لأن أبوة الرسول أبوة عمل واتباع ، كما جاء فى قول الله تعالى فى قصة نوح عن ابنه : ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ .. (٤٦)﴾ [هود]

---

(١) قال أبو أمامة : قلت يا نبى الله ما كان أول بدء أمرك ؟ قال : دعوة أبى إبراهيم ، وبشرى عيسى ، ورأت أمى أنه يخرج منهما نور أضاءت منها قصور الشام . أخرجه أحمد فى مسنده (٥/٢٦٢) .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٢/٢٤٧) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال : « ذرونى ما تركتكم ، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم ، ما نهيتكم عنه فانتهوا ، وما أمرتكم فائتوا منه ما استطعتم » .

ولما كان النبى ﷺ أباً لكل مَنْ آمن به سَمَّى الله زوجاته أمهات للمؤمنين ، فقال سبحانه : ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ (٦)﴾ [الأحزاب]

وما دامت الأزواج أمهات ، فالزوج أب ، وبناءً على هذه الصلة يكون إبراهيم عليه السلام أباً لأمة الإسلام ، وإنْ كان فيهم مَنْ ليس من سلالته .

ونجد البعض ممَّنْ يحبون الاعتراض على كلام الله يقولون فى مسألة أبوة الرسول لأمته : لكن القرآن قال غير ذلك ، قال فى قصة زيد بن حارثة : ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ..(٤٠)﴾ [الأحزاب] فنفى أن يكون محمد أباً لأحد ، وفى هذا ما يناقض كلامكم .

نقول : لو فهمتم عن الله ما اعترضتُم على كلامه ، فالله يقول : ما كان محمد أباً لأحدكم ، بل هو أب للجميع ، فالمنفىّ أن يكون رسول الله أباً لواحد ، لا أن يكون أباً لجميع أمته . وقال بعدها : ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ..(٤٠)﴾ [الأحزاب] وما دام رسول الله ، فهو أب للكل .

ثم يقول تعالى عن إبراهيم عليه السلام : ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ..(٧٨)﴾ [الحج] يعنى : إبراهيم عليه السلام سماكم المسلمين ، فكأن هذه مسألة واضحة وأمْر معروف أنكم مسلمون منذ إبراهيم عليه السلام : ﴿وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ..(٧٨)﴾ [الحج]

وفى موضع آخر يحدث تقديم وتأخير ، فيقول سبحانه : ﴿لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا(١٤٣)﴾ [البقرة]

لماذا ؟ قالوا : لأن رسول الله بلَّغ رسالة الله ، وأشهد الله على ذلك حين قال : « اللهم قد بلغت ، اللهم فاشهد »[١] اشهد أنِّى بلغتُ ، وهو ﷺ يريد من أمته أن يكون كل شخص فيها حاملاً لهذه الرسالة ، مُبلِّغاً لها حتى يسمع كلام الرسول مَنْ لم يحضره ولم يَرَهُ ، وهكذا يكون الرسول شهيداً على مَنْ آمن به ، ومَنْ آمن شهيداً على مَنْ بلّغه .

لذلك من شرف أمة محمد أولاً أنه لا يأتى بعده رسول ؛ لأنهم مأمونون على منهج الله ، وكأن الخير لا ينطفىء فيهم أبداً . وقلنا : إن الرسل لا يأتون إلا بعد أنْ يعُمَّ الفساد ، ويفقد الناس المناعة الطبيعية التى تحجزهم عن الشر ، وكذلك يفقدها المجتمع كله فلا ينهى أحد أحداً عن شر ؛ عندها يتدخل الحق سبحانه برسول ومعجزة جديدة ليُصلح ما فسد .

فختام الرسالات بمحمد ﷺ شهادة أن الخير لا ينقطع من أمته أبداً ، ومهما انحرف الناس سيبقى جماعة على الجادة يحملون المنهج ويتمسكون به ويكونون قدوة لغيرهم . لذلك حدَّد رسول الله هذه المسألة فقال : « الخير فىَّ حصراً ، وفى أمتى نثراً » فالخير كله والكمال كله فى شخص رسول الله ، ومنثور فى أمته .

ثم يعود السياق إلى الأمر بالصلاة : ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ..(٧٨)﴾ [الحج] لأنها الفريضة الملازمة للمؤمن ، وفيها إعلاء الولاء المكرر فى اليوم خمس مرات ، وبها يستمر ذِكْر الله على مدى

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (١٧٣٩) فى خطبة الوداع من حديث ابن عباس رضى الله عنهما أنه ﷺ قال : « إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا ، فى بلدكم هذا ، فى شهركم هذا » .

الزمن كله لا ينقطع أبداً فى لحظة من لحظات الزمن حين تنظر إلى العالم كله ، وتضم بعضه إلى بعض .

والمتأمل فى الزمن بالنسبة للحق - تبارك وتعالى - يجده دائماً لا ينقطع ، فاليوم مثلاً عندنا أربع وعشرون ساعة ، واليوم عند الله ألف سنة مما تعدُّون ، واليوم فى القيامة خمسون ألف سنة ، وهناك يوم اسمه يوم الآن أى : اللحظة التى نحن فيها ، وهو يوم الله الذى قال عنه : ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾ [الرحمن] لذلك يقول : ما شغل ربك الآن وقد صَحَّ أنَ القلم قد جَفَّ ؟ قال : « أمور يبديها ولا يبتديها ، يرفع أقواماً ، ويضع آخرين »[(١)] .

فيوم الآن يوم عام ، لا هو يوم مصر ، ولا يوم سوريا ، ولا يوم اليابان إذن : فى كل لحظة يبدأ لله يوم وينتهى يوم ، فيومه تعالى مستمر لا ينقطع .

ونقرأ فى الحديث النبوى الشريف : « إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مُسِيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مُسِيء الليل »[(٢)] .

نهار مَنْ ؟ وليل مَنْ ؟ فالنهار والليل فى الزمن دائم لا ينقطع ، وفى كل لحظة من لحظات الزمن ينتهى يوم ويبدأ يوم ، وينتهى ليل ويبدأ ليل . إذن : فالله تعالى يده مبسوطة دائماً لا يقبضها أبداً ، كما

---

(١) عن أبى الدرداء رضى الله عنه عن النبى ﷺ فى قوله : ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾ [الرحمن] قال : « من شأنه أن يغفر ذنباً ، ويفرج كرباً ، ويرفع قوماً ، ويضع آخرين » . أخرجه ابن أبى عاصم فى السنة (١/١٢٩) وابن ماجه فى سننه (٢٠٢) ، وأبو نعيم فى الحلية (٥/٢٥٢) وأبو الشيخ فى العظمة (ح ١٥٠) .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٤/٣٩٥ ، ٤٠٤) ومسلم فى صحيحه (٢٧٥٩) من حديث أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه .

قال سبحانه : ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ (٦٤)﴾ [المائدة]

ثم يقول سبحانه : ﴿وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ(٧٨)﴾ [الحج] الجئوا إليه فى الشدائد ، وهذا يعنى أنكم ستُواجهون وتُضطهدون ، فما من حامل منهج لله إلا اضطُهد ، فلا يؤثر فيكم هذا ولا يفُتُّ فى عَضُدكم ، واجعلوا الله ملجأكم ومعتصمكم فى كل شدة تداهمكم ، كما قال سبحانه : ﴿لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ (٤٣)﴾ [هود]

واعتصامكم بالله أمر لا تأتون إليه بأنفسكم إنما ﴿هُوَ مَوْلاكُمْ(٧٨)﴾ [الحج] يعنى : المتولّى لشأنكم ، وما دام هو سبحانه مولاكم ﴿فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ (٧٨)﴾ [الحج]

سُورَةُ المُؤْمِنُونَ

سورة المؤمنون[1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾

لما قال الحق ـ تبارك وتعالى ـ فى الآية قبل السابقة من سورة الحج ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٧٧﴾ [الحج] ولعلَّ تفيد الرجاء ، أراد سبحانه أن يؤكد هنا على فلاح المؤمنين فقال : ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾ [المؤمنون] وأن الرجاء من الله واقع ومؤكد ، لذلك جاء بأداة التحقيق ﴿قَدْ﴾ التى تفيد تحقُّق وقوع الفعل ، وهكذا تنسجم بداية سورة (المؤمنون) مع نهاية سورة (الحج) .

وقوله تعالى هناك ﴿تُفْلِحُونَ ۝٧٧﴾ [الحج] وهنا ﴿أَفْلَحَ ۝١﴾ [المؤمنون] مادة (فلح) مأخوذة من فلاحة الأرض ، والفَلْح هو الشق ؛ لذلك قالوا : إن الحديد بالحديد يفلح ، وشَقُّ الأرض : إهاجتها وإثارتها بالحرث ، وهذه العملية هى أساس الزرع ، ومن هنا سُمِّى الزرع حَرْثاً فى قوله سبحانه : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ

---

(١) سورة المؤمنون ، هى السورة رقم (٢٣) فى ترتيب المصحف الشريف . عدد آياتها ١١٨ آية ، وهى سورة مكية كلها فى قول الجميع . قاله القرطبى فى تفسيره (٦/٤٦٣٥) . وهى السورة رقم ٧٣ فى ترتيب النزول ، نزلت بعد سورة الأنبياء وقبل سورة السجدة . قاله ابن الضريس فى فضائل القرآن فيما نقله عنه السيوطى فى « الإتقان » (١/٢٧) .

الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ (٢٠٤) وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ (٢٠٥) ﴾ [البقرة]

ومعنى أفلح : فاز بأقصى ما تتطلع إليه النفس من خير .

والأرض حين تحرثها تكون خالية ليس فيها شيء يُهْلَك ، إذن : المراد بالحرث هنا الزرع الناتج عن عملية الحرث ، والتى لا بُدَّ منها كى تتم عملية الزراعة ؛ لأنك بالحرث تثير التربة ليتخللها الهواء ، فيزيد من خصوبتها وصلاحها لاستقبال البذرة ، وسبق أن تحدثنا عن عملية الإنبات ، وكيف تتم ، وأن النبات يتغذى على فَلْقتى البذرة إلى أن يصبح له جذر قوى يستطيع أن يمتصّ من التربة ، فإن ألقيتَ البذرة فى أرض صماء غير مثارة فإن الجذر يجد صعوبة فى اختراق التربة والامتصاص منها .

فالحق - تبارك وتعالى - يعطينا صورة من واقعنا المشاهد ، ويستعير من فلاحة الأرض ليعبر عن فلاح المؤمن وفوزه بالنعيم المقيم فى الآخرة ، فالفلاح يحرث أرضه ويسقيها ويرعاها فتعطيه الحبة بسبعمائة حبة ، وهكذا سيكون الجزاء فى الآخرة : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦١) ﴾ [البقرة]

فإذا كانت الأرض المخلوقة لله عز وجل تعطى كل هذا العطاء ، فما بالك بعطاء مباشر من خالقك وخالق الأرض التى تعطيك ؟ وكما أن الفلاح إذا تعب واجتهد زاد محصوله ، كذلك المؤمن كلما تعب فى العبادة واجتهد زاد ثوابه وتضاعف جزاؤه فى الآخرة .

﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ ﴾ (١)

كأن أول ظاهرية الفلاح فى الصلاة ، وما يزال الحديث عنها موصولاً بما قاله ربنا فى الآيات السابقة : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ ﴿٧٧﴾ ﴾ [الحج] وقال بعدها : ﴿ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ..﴿٧٨﴾ ﴾ [الحج]

وهنا جعل أول وصف للمؤمنين الذين أفلحوا ﴿ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [المؤمنون] فلم يقل مثلاً : مؤدون ؛ لأن أمر أداء الصلاة فى حق المؤمنين مفروغ منه ، العبرة هنا بالهيئة والكيفية ، العبرة بالخشوع والخضوع وسكينة القلب وطمأنينته واستحضار الله الذى تقف بين يديه .

كما تقول لولدك : اجلس أمام المعلم باهتمام ، واستمع إليه بإنصات ، فأنت لا توصيه بالذهاب إلى المدرسة أو حضور الدرس ، فهذا أمر مفروغ منه ؛ لذلك تهتم بجوهر الموضوع والحالة التى ينبغى أن يكون عليها .

والخشوع أن يكون القلب مطمئناً ساكناً فى مهمته هذه ، فلا ينشغل بشىء آخر غير الصلاة ؛ لأن الله ما جعل لرجل من قلبين فى جوفه ، وما دام فى حضرة ربه عز وجل فلا ينبغى أن ينشغل بسواه ، حتى إن بعض العارفين لمعنى الخشوع يقول : إن الذى

---

(١) سبب نزول الآية : أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن محمد ابن سيرين قال : « كان أصحاب رسول الله ﷺ يرفعون أبصارهم إلى السماء فى الصلاة ويلتفتون يميناً وشمالاً ، فأنزل الله ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [المؤمنون] فقالوا برؤوسهم ، فلم يرفعوا أبصارهم بعد ذلك فى الصلاة ، ولم يلتفتوا يميناً ولا شمالاً » [أورده السيوطى فى الدر المنثور ٨٣/٦] .

يتعمد معرفة مَنْ على يمينه أو مَنْ على يساره فى الصف تبطل صلاته[١] .

ولما دخل سيدنا عمر ـ رضى الله عنه ـ على رجل يصلى ويعبث بلحيته ، فضربه على يده وقال : لو خشع قلبك لخشعتْ جوارحك[٢] . ذلك لأن الجوارح تستمد طاقتها من القلب ومن الدم الذى يضخه فيها ، فلو شغل القلب عن الجوارح ما تحركت .

لذلك لما سأل أحد الفقهاء صوفياً : ما حكم مَنْ سها فى صلاته ؟ قال : حكمه عندنا أم عندكم ؟ قال : ألنا عند ولكم عند ؟ قال : نعم ، عند الفقهاء مَنْ يسهو فى الصلاة يجبره سجود السهو ، أما عندنا فمَنْ يسهو فى الصلاة نقتله . يعنى مسألة كبيرة .

ثم ألاَ يستحق منك ربك وخالقك أن تتفرغ له سبحانه على الأقل وقت صلاتك ، وهى خمس دقائق فى كل وقت من الأوقات الخمسة ، وقد تركك باقى الوقت تفعل ما تشاء ؟ أتستكثر على ربك أن تُفرِّغ له قلبك ، وأن تستحضره سبحانه ، وهذه العملية فى صالحك أنت قبل كل شىء ، فى صالحك أن تكون فى جلوة مع ربك تستمد منه سبحانه الطاقة والمعونة ، وتتعرض لنفحاته وإشراقاته وتقتبس من أنواره وأسراره ؟

ومن حرص أهل التقوى على سلامة الصلاة وتمامها قال أحدهم

---

(١) قاله معاذ بن جبل رضى الله عنه فيما ذكره عنه أبو محمد عبد الحق الإشبيلى فى « الصلاة والتهجد » (ص ١٩٣) .

(٢) ذكر أبو محمد عبد الحق هذا الأثر فى كتاب « الصلاة والتهجد » (ص ١٩٨) بتحقيقى ـ طبعة دار الوفاء المنصورة ، ولكن عزاه للحسن البصرى ، وذكر له أيضاً أن الحسن نظر يوماً إلى رجل يعبث بالحصباء فى الصلاة وهو يقول : اللهم زوِّجنى من الحور العين ، فقال له : بئس الخاطب أنت ، تخطب الحور العين وأنت تعبث بالحصباء .

لصاحبه الذى يحرص على أنْ يؤم الناس : لماذا تحرص على الإمامة وأنت تعرف أن طالب الولاية لا يُولَّى ؟ قال : نعم أحرص عليها لأخرج من الخلاف بين الشافعى الذى قال بقراءة الفاتحة خلف الإمام ، وأبى حنيفة الذى قال بأن قراءة الإمام قراءة للمأموم ، فأحرص على الإمامة حتى أقرأ أنا ، ولا أنشغل بهذا الخلاف .

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ ﴾

اللغو : الكلام الذى لا فائدة منه ، ويُطلق أيضاً على كل فعل لا جدوى منه ، وفى موضع آخر يقول تعالى : ﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾ ﴾ [الفرقان] لا يشغلون به ولا يأبهون له ، وحكى القرآن عن الكفار عند سماعهم القرآن قولهم : ﴿ لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ .. ﴿٢٦﴾ ﴾ [فصلت]

لذلك جعل الحق ـ تبارك وتعالى ـ من نعيم الجنة : ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴿٢٦﴾ ﴾ [الواقعة] كأن من المعايب فى الدنيا ومن مصائبها أن نسمع فيها لغواً كثيراً لا فائدة منه ، وفى آية أخرى يقول عن خمر الآخرة التى لا تُذهب العقل ، ولا تجعل صاحبها يهذى بلغو الكلام : ﴿ يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الطور]

و ﴿ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [المؤمنون] الإعراض فى الأصل تجنّب الشىء ، وهو صورة لحركة إباء النفس لشىء ما . وأهل المعرفة يضعون للغو مقياساً ، فيقولون : كل عمل لا تنال عليه ثواباً من الله فهو لغو .

لذلك احرص دائماً أن تكون حركتك كلها لله حتى تُثَابَ عليها ، كصاحبنا الذى دخل عليه رجل وقصده فى قضاء أمر من الأمور وهو لا يملك هذا الأمر ، لكن أراد أنْ يستغل فرصة الخير هذه ، وأن يكون

له ثواب حتى فى حركة الامتناع عنه ، فرفع يده : اللهم إنه عبد قصد عبداً وأنا آخذ بيده وأقصد رباً ، فاجعل تصويب خطئه فى قصدى تصويباً لقصدك . يعنى : أنا وإنْ كنتُ لا أقدر على قضائها إلا أننى أدخل بها على الله من هذه الناحية .

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾﴾

الزكاة أولاً تطلق على معنى التطهير ، كما جاء فى قول الحق تبارك وتعالى : ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا (١٠٣)﴾ [التوبة] لأن الغفلة قد تصيب الإنسان حال جمع المال ، فيخالط ماله ما فيه شبهة مثلاً ، فيحتاج إلى تطهير ، وتطهير المال يكون بالصدقة منه .

والزكاة بمعنى النماء ، فبعد أن تُطهر المال تُنمِّيه وتزيده ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩)﴾ [الشمس] يعنى : نمَّى ملَكة الخير فيها ، ورقَّاها وصعَّدها بأن ينظر إلى العمل إنْ كان سينقص منك فى الظاهر ، إلا أنه سيجلب لك الخير فيما بعد ، فترتقى بذلك ملكَات الخير فى نفسك .

لذلك لما تكلم الحق سبحانه عن الربا ، وهو الزيادة جمع المتناقضات فى آية واحدة ، فالربا يزيد المال ويأخذ المرابى المائة مائة وعشراً ، فى حين تنقص الزكاة من المال فى الظاهر ، فالمائة بعد الزكاة تصبح سبعة وتسعين ونصفاً ، ثم تأتى الآية لتضع أمامك المقياس الحقيقى : ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِى الصَّدَقَاتِ (٢٧٦)﴾ [البقرة] ، فالربا الذى تظنه زيادة هو مَحْقٌ ، والذى تظنه نقصاً هو بركة وزيادة ونماء .

وفى آية أخرى يقول تعالى : ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الروم] أى : الذين يضاعف الله لهم ويزيدهم .

وكما أمرنا ربنا ـ تبارك وتعالى ـ بالخشوع فى الصلاة أمرنا كذلك فى الزكاة ، فلم يقل : مؤدون . ولكن ﴿فَاعِلُونَ ﴿٤﴾﴾ [المؤمنون] وهذه من تربية مقامات العبادة فى الإنسان ، فأنت حين تصلى ينبغى أن تخشع وتخضع فى صلاتك لله ، وكذلك حين تُزكّى تُرقِّى ملكَة الخير فى نفسك ، فحين تعمل وتسعى لا تعمل على قَدْر حاجتك ، وإنما على قَدْر طاقتك ، فتأخذ من ثمرة سَعْيك حاجتك ، وفى نيتك أن تُخرج من الباقى زكاة مالك وصدقتك ، فالزكاة ـ إذن ـ فى بالك وفى نيتك بدايةً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾﴾

الفروج : جمع فَرْج ، والمقصود سَوْءَتَا كُلٍّ من الرجل والمرأة ، وقد أمر الله تعالى بحفظها على المهمة التى خُلقت من أجلها ، ومهمة هذه الأعضاء إما إخراج عادم الجسم من بول أو غائط ، أو العملية الجنسية وهدفها حفْظ النسل ، وعلى الإنسان أن يحفظ فرجه على ما أحلّه الله له فى قوله تعالى :

﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾﴾

أى : يحفظون فروجهم إلا على أزواجهم ؛ لأن الله أحلها ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ﴿٦﴾﴾ [المؤمنون] وملْك اليمين حلال لم يَعُد له موضع ،

ولم يَعُد له وجود الآن ، وقد حرم هذا القانون البشرى الدولى ، فلم يعد هناك إماء كما كان قبل الإسلام ، فهذا حكم مُعطّل لم يَعُدْ له مدلول ، وفرق بين أن يُعطّل الحكم لعدم وجود موضوعه وبين أن يُلْغى الحكم ، فملْك اليمين حكم لم يُلْغ ، الحكم قائم إنما لا يوجد له موضوع .

ولتوضيح هذه المسألة : هَبْ أنك فى مجتمع كله أغنياء ، ليس فيهم فقير ولا مستحق للزكاة عندها تقول : حكم الزكاة مُعطّل ، فهى كفريضة موجودة ، لكن ليس لها موضوع .

وبعض السطحيين يقولون : لقد ألغى عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ سهام المؤلفة قلوبهم[1] ، والحقيقة أنه ما ألغى ولا يملك أن يُلغى حكماً من أحكام الله ، إنما لم يجد أحداً من المؤلّفة قلوبهم ليعطيه ، فالحكم قائم لكن ليس له موضوع ، بدليل أن حكم تأليف القلوب قائم ومعمول به حتى الآن فى بلاد المسلمين ، وكثيراً ما نحاول تأليف قلوب بعض الكُتّاب وبعض الجماعات لنعطفها نحو الإسلام ، خاصة وغيرنا يبذلون قصارى جهودهم فى ذلك . إذن : فسَهْم المؤلّفة قلوبهم ما زال موجوداً ويُعمل به .

كما نسمع مَنْ يقول : إن عمر ـ رضى الله عنه ـ عطَّل حَدَّ السرقة فى عام الرمادة ، وهذا ادعاء مخالف للحقيقة ؛ لأنه ما عطّل

---

(١) روى عبد الرحمن بن محمد المحاربى عن حجاج بن دينار عن ابن سيرين عن عبيدة قال : « جاء عيينة بن حصْن والأقرع بن حابس إلى أبى بكر فقالا : يا خليفة رسول الله ، إن عندنا أرضاً سبخة ليس فيها كلأ ولا منفعة فإن رأيت أن تعطِيَنَاها ! فاقطعها إياهما وكتب لهما عليها كتاباً وأشهد ، وليس فى القوم عمر ، فانطلقا إلى عمر ليشهد لهما ، فلما سمع عمر ما فى الكتاب تناوله من أيديهما ثم تَفَل فيه فمحاه ، فتذمرا وقالا مقالة سيئة ، فقال : إن رسول الله ﷺ كان يتألفكما والإسلام يومئذ قليل ، وإن الله قد أغنى الإسلام ، اذهبا فاجهدا جهدكما لا يرعى الله عليكما إن رعيتما » . [أورده أبو بكر الجصاص فى أحكام القرآن ٣/١٦٠] .

هذا الحد إنما عطَّل نصاً وأحيا نصاً ؛ لأن القاعدة الشرعية تقول : ادرأوا الحدود بالشبهات . وما دام قد سرق ليسُدَّ جَوْعته فلم يصل إلى نصاب السرقة ، فالسرقة تكون بعد قدر يكفى الضرورة .

ولقائل أن يقول : إذا دارت حرب بين المؤمنين والكافرين وأسروا منا وأسرنا منهم ، ألا يوجد حينئذ ملْك اليمين ؟ نقول : نعم يوجد ملْك اليمين ، لكن ستواجهك قوانين دولَية ألزمتَ نفسك بها وارتضيتها تَقول بمنع الرقِّ وعليك الالتزام بها ، لكن إنْ وُجد الرقُّ فملْك اليمين قائم وموجود . وهذه المسألة يأخذونها سُبّة فى الإسلام ، وكيف أنه يبيح للسيد كذا وكذا من ملْك يمينه .

وهذا المأخذ ناشىء عن عدم فهم هؤلاء للحكمة من ملْك اليمين ، وأن كرامة المملوكة ارتفعت بهذه الإباحة ، فالمملوكة أُخذتَ فى حرب أو خلافه ، وكان فى إمكان مَنْ يأخذها أن يقتلها ، لكن الحق سبحانه حمى دمها ، ونمَّى فى النفس مسألة النفعية ، فأباح لمَنْ يأسرها أن ينتفع بها وأحلّها له أيضاً .

ولك أن تتصور هذه الأَمَة أو الأسيرة فى بيت سيدها ومعه زوجة أو أكثر وهى تشاهد هذه العلاقات الزوجية فى المجتمع من حولها ، إن من حكمة الله أن أباح لسيدها معاشرتها ؛ لأنها لن ترى لربة البيت بعد ذلك مزيّة عليها ؛ لأنهما أصبحا سواء ، فإذا ما حملتْ من سيدها فقد أصبحتْ حُرَّة بولدها ، وكأن الحق سبحانه يُسيِّر الأمور تجاه العتْق والحرية . ألاَ تراه بعد هذا يفتح باب العتق ويُعدِّد أسبابه، فجعله أحد مصارف الزكاة وباباً من أبواب الصدقة وكفَّارة لبعض التجاوزات التى يرتكبها الإنسان .

ثم يقول سبحانه : ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾﴾ [المؤمنون] يعنى : لا نمدحهم ولا نذمُّهم ، وكأن المسألة هذه فى أضيق نطاق .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ ﴾

﴿ ابْتَغَىٰ ﴾ : طلب ، ﴿ وَرَاءَ ذَٰلِكَ ﴾ : غير ما ذكرناه من الأزواج وملْك اليمين .

وسبق أن ذكرنا أن كلمة ﴿ وَرَاءَ ﴾ استُعْملت في القرآن لمعَان عدة ، فهى هنا بمعنى غير الأزواج وملْك اليمين . ومن ذلك أيضاً قوله سبحانه : ﴿ .. وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ ﴿٢٤﴾ ﴾ [النساء] يعنى : حرَّمْت عليكم كذا وكذا ، وأحلَلْتُ لكم غير ما ذُكر .

وتُستعمل وراء بمعنى بَعْد ؛ لأن الغيرية قد تتحد فى الزمن ، فيوجد الاثنان فى وقت واحد ، أمّا البعدية فزمنها مختلف ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ[1] فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ ﴾ [هود] يعنى : من بعده ؛ لأن الزمن مختلف .

وتأتى وراء بمعنى : خلف ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ ﴾ [آل عمران] يعنى : جعلوه خلف ظهورهم .

وتأتى وراء أيضاً بمعنى أمام ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ ﴾ [الكهف] ومعلوم أن الملك كان أمامهم ينتظر كل سفينة تمرُّ به فيأخذها غَصْباً .

---

(١) روى الأزهرى عن الفراء فى تفسير هذه الآية : « إنما ضحكت سروراً بالأمن لأنها خافت كما خاف إبراهيم » وقال الفراء : وهو ما يحتمله الكلام والله أعلم ، وأما قولهم فضحكت : حاضت . فلم أسمعه من ثقة » أورده ابن منظور فى لسان العرب ـ مادة : ضحك .

وقوله تعالى : ﴿مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ..(١٦)﴾ [إبراهيم] وجهنم أمامه ، وستأتى فيما بعد ، ولم تَمْضِ فتكون خلفه .

ومعنى : ﴿فَأُوْلَـٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٧)﴾ [المؤمنون] أى : المعتدون المتجاوزون لما شُرع لهم ، وربنا ـ تبارك وتعالى ـ حينما يُحذِّرنا من التعدى يُفرِّق بين التعدى في الأوامر ، والتعدى فى النواهى ، فإنْ كان فى الأوامر يقول : ﴿فَلا تَعْتَدُوهَا (٢٢٩)﴾ [البقرة]

وإن كان فى النواهى يقول : ﴿فَلا تَقْرَبُوهَا (١٨٧)﴾ [البقرة]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ (٨)﴾

﴿رَاعُونَ﴾ : يعنى يحافظون عليها ويراعونها بالتنفيذ ، والأمانة : كل ما استُؤمِنْت عليه ، وأول شىء استُؤمنتَ عليه عهد الإيمان بالله الذى أخذه الله عليك ، وما دُمْت قد آمنت بالإله فعليك أن تُنفِّذ أوامره .

إذن : هناك أمانة للحق وأمانة للخَلْق ، أمانة الحق التى قال الله تعالى عنها :

﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً (٧٢)﴾ [الأحزاب]

فما دُمْتَ قد قبلت تحمُّل الأمانة ، فعليك الأداء .

أما العهد : فكل ما يتعهد به الإنسان فى غير معصية ويلزمه الوفاء بما عاهد به ؛ لأنك حين تعاهد إنساناً على شىء فقد ربطْتَ حركته وقيدتها فى دائرة إنفاذ هذا العهد ، فحين تقول لى : سأقابلك غداً فى المكان الفلانى فى الوقت الفلانى لعمل كذا وكذا ، فإننى

سأُرتِّب حركة حياتى بناءً على هذا الوعد ، فإذا أخلفتَ وعدك فقد أطلقتَ نفسك فى زمنك وتصرفت حسْب راحتك ، وقيَّدْت حركتى أنا فى زمنى وضيَّعت مصالحى ، وأربكت حركة يومى ؛ لذلك شدَّد الإسلام على مسألة خُلْف الوعد .

﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾

فى الآيات السابقة تحدَّث عن الصلاة من حيث هيئة الخشوع والخضوع فيها ، وهنا يذكر الصلاة من حيث أدائها والحفاظ عليها ؛ لأن الحفظ يعنى أن تأخذ كل وقت من أوقات الصلاة بميلاده وميلاد الأوقات بالأذان ، لكن البعض يقولون : إن الوقت مُمْتدٌّ ، فالظهر مثلاً مُمْتد من أذان الظهر إلى قبل أذان العصر ، وهكذا فى باقى الصلوات .

نقول : نعم هذا صحيح والوقت مُمتد ، لكن مَنْ يضمن لك الحياة إلى آخر الوقت ؟ مَنْ يضمن لك أن تصلى العشاء مثلاً قبل أذان الفجر ؟ نعم ، تظل غير آثم إلى آخر لحظة إذا تمكنتَ من الصلاة وصلَّيْتَ ، لكن هل تضمن هذا ؟ كالذى يستطيع أن يحج ، إلا أنه أخّر الحج إلى آخر أيامه ، فإنْ حج فلا شىء عليه ، لكنه لا يضمن البقاء إلى أنْ يحج ؛ لذلك يجب المبادرة بالحج عند أول استطاعة حتى لا تأثم إنْ فاتك وأنت قادر .

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ (١)

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٦/٤٦٤١) : « أى : يرثون منازل أهل النار من الجنة . وفى الخبر عن أبى هريرة عن النبى ﷺ : « إن الله تعالى جعل لكل إنسان مسكناً فى الجنة ومسكناً فى النار ، فأما المؤمنون فيأخذون منازلهم ويرثون منازل الكفار ويجعل الكفار فى منازلهم فى النار » خرجه ابن ماجه بمعناه » .

﴿أُوْلَـئِكَ ﴿١٠﴾﴾ [المؤمنون] يعنى : أصحاب الصفات المتقدمة ، وهم ستة أصناف : الذين هم فى صلاتهم خاشعون ، والذين هم عن اللغو معرضون ، والذين هم للزكاة فاعلون ، والذين هم لفروجهم حافظون ، والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ، والذين هم على صلواتهم يحافظون .

هؤلاء هم الوارثون ، والإرْث : أخْذ حق من غير عقد أو هبة ؛ لأن أخْذ مال الغير لا بُدَّ أن يكون إما ببيع وعقد ، وإما هبة من صاحب المال . لذلك سألوا الوارث : أهذا حقك ؟ قال : نعم ، قالوا : فما صكُّك عليه ؟ يعنى : أين العقد الذى أخذته به ؟ قال : عقدى وصكّى : ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ ﴿١١﴾﴾ [النساء] فهو عقد أوثق وأعلى من تعاقد البشر .

وما دام عقدى من الحق ـ تبارك وتعالى ـ فلا تقُلْ : إن الميراث مأخوذ بغير عقد ؛ لأنه قائم على أوثق العقود ، وهو العقد من الله .

وكثيراً ما يخرج الناس فى مسألة الميراث عما شرع الله حُباً فى المال واستئثاراً به ، أو بخلاً على مَنْ جعل له الشرع نصيباً ، فمَنْ كان عنده البنون والبنات يعطى البنين ويحرم البنات ، ومَنْ كان عنده بنات يكتب لهُنَّ ما يملك حتى يحرم إخوته وأعمامهم من حقهم فى ماله ، وهذا كثيراً ما يحدث فى المجتمع .

ويجب عليك أن تتنبه لمسألة الميراث وتحترم شرع الله فيه وتقسيم الله للمال ، فقد وهبك الله المال وتركك تتصرف فيه طوال حياتك ، وليس لك أن تتصرف فيه أيضاً بعد موتك ، عليك أنْ تدعَ المال لصاحبه وواهبه يتصرف فيه ؛ لذلك قال الله تعالى عن الإرث : ﴿فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ ﴿١١﴾﴾ [النساء] يعنى : ليست من أحد آخر ، وما دامت فريضة من الله فعليك أنْ تمتثل لها وتنفذها ، وحين تتأبَّى عليها فإنك تتأبَّى على الله وترفض قِسْمته .

والمتأمل فى مسألة الإرث يجد الخير كل الخير فيما شرعه الله ، ومَنْ كان يحب البنين فليُعْط البنات حتى لا يفسد علاقة أولاده من بعده ، ويأتى إلينا بعض الرجال الذين أخذوا كل مال أبيهم وحَرَموا منه البنات ، يقولون : نريد أن نُصحِّح هذا الخطأ ونعيد القسمة على ما شرع الله .

ونجد عند بعض الناس إشراقات إيمانية ، فإنْ رفض بعض الإخوة إعادة التقسيم على شرع الله يقول : أنا أتحمل ميراث أخواتى من مالى الخاص ، ومثل هؤلاء يفتح الله عليهم ويبارك لهم فيما بقى ؛ لأنهم جعلوا اعتمادهم على الله فيزيدهم من فضله ويُربى لهم القليل حتى يصير كثيراً ، أما مَنِ اعتمد على ما فى يده فإن الله يكِلُه إليه .

ونعجب من الذى يجعل ماله للبنات ليحرم منه إخوته ، نقول له : أنت لستَ عادلاً فى هذا التصرف ، يجب أن تعاملهم بالمثل ، فلو تركت بناتك فقراء لا مال لهن ، فمَنْ يعولهُنَّ ويرعاهن من بعدك ؟ يعولهن الأعمام . إذن : لتكُنْ معاملة بالمثل .

والحق - تبارك وتعالى - حين يُورث هذه الأصناف يورثهم بفضله وكرمه ، وقد بيَّن النبى ﷺ ذلك بقوله : « لا يدخل أحد منكم الجنة بعمله ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمته »[(١)] .

أما قوله تعالى : ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٢)﴾ [النحل] فهذا خاص بمجرد دخول الجنة ، أما الزيادة فهى من فضل الله ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ (١٧٣)﴾ [النساء]

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٤٦٣) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٨١٦) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

ومن أسمائه تعالى (الوارث) وقال : ﴿وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [الأنبياء] فماذا يرث الحق سبحانه وتعالى منَّا ؟

لقد خلق الله الخَلْق ، وأعطى للناس أسباب ملكيته ، ووزَّع هذه الملكية بين عباده : هذا يملك كذا ، وهذا يملك كذا من فضل الله تعالى . فإذا كان يوم القيامة عاد الملْك كله إلى صاحبه ، وكان الحق سبحانه وتعالىٰ هو الوارث الوحيد يوم يقول : ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾﴾ [غافر]

والله خير الوارثين ؛ لأن الوارث يأخذ ما ورثه لينتفع هو به ، لكن الحق سبحانه يرث ما تركه للغير ليعود خَيْره عليهم ويزيدهم ، ويعطيهم أضعافاً مضاعفة ، وإذا كان يعطيهم فى الدنيا بأسباب فإنه فى الآخرة يرث هذه الأسباب ، ويعطيهم من فضله بلا أسباب ، حيث تعيش فى الجنة مستريحاً لا تعبَ ولا نصبَ ولا سَعْىَ ، وما يخطر ببالك تجده بين يديك دون أنْ تُحرِّك ساكناً .

إذن : البشر يرثون ليأخذوا ، أمّا الحق سبحانه فيرث ليعطى ؛ لذلك فهو خير الوارثين .

فأىُّ شىء يرثه المؤمنون الذين توفرت فيهم هذه الصفات ؟ يجيب الحق سبحانه :

﴿ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾﴾

إذن : الحق سبحانه ورَّثهم فى الفانية ليعطيهم الفردوس الخالد فى الآخرة ، والفردوس أعلى الجنة ، فورث الحق لينفع عباده ويُصعِّد النفع لهم ، ففى الدنيا كنا ننتفع بالأسباب ، وفى الآخرة ننتفع بغير أسباب ، الحق ورث ليعطى ، لا مِثْل ما أخذ إنما فوق ما أخذ ؛ لأننا

نأخذ فى الميراث ما يفنى ، والله تعالى يعطينا فى ميراثه ما يبقى .

لكن مِمَّنْ يرثون الفردوس ؟

قالوا : الحق ـ تبارك وتعالى ـ عندما خلق الخَلْق ، وجعل فيهم الاختيار بين الإيمان والكفر ، وبين الطاعة والمعصية رتَّبَ على ذلك أموراً ، فجعل الجنة على فرض أن الخَلْق كلهم مؤمنون ، بحيث لو دخلوا الجنة جميعاً ما كانت هناك أزمة أماكن ولا زحام ، وكذلك جعل النار على فرض أن الخَلْق كلهم كافرون ، فلو كفر الناس جميعاً لكان لكل منهم مكانه فى النار .

وعليه فحين يدخل أهل الجنة الجنةَ يتركون أماكنهم فى النار ، وحين يدخل أهل النار النارَ يتركون أماكنهم فى الجنة ، فيرث أهل النار الأماكن الشاغرة فيها ، ويرث أهل الجنة الأماكن الشاغرة فيها .

والفردوس أعلى مكان فى الجنة ، لذلك كان النبى ﷺ يقول : « إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة »[(١)] ذلك ؛ لأن الفردوس جنة على أعلى رَبْوة فى الجنة . يعنى : فى مكان مُميّز منها ، والعلو فى مسألة المسكن والجنان أمر محبوب فى الدنيا ، الناس يُحبون السُّكْنى فى الأماكن العالية ، حيث نقاء الهواء ونقاء الماء ، ألاَ تراهم يزرعون فى المرتفعات ، وإنْ كانت الأرض مستوية يجعلون فيها مصارف منخفضة تمتصُّ الماء الزائد الذى يفسد الزرع ؛ لذلك يقول سبحانه : ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ (٢٦٥)﴾ [البقرة]

كذلك الأرض المرتفعة لا تُسْقَى بالماء الغمر ، إنما تُسْقَى من ماء

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٢/٣٣٥ ، ٣٣٩) ، والبخارى فى صحيحه (٧٤٢٣) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

السماء الذى يغسل الأوراق قبل أن يروى الجذور ، فيكون النبات على أفضل ما يكون ؛ لذلك يقول عنها رب العزة : ﴿فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ (٢٦٥)﴾ [البقرة]

ومعلوم أن الأوراق هى رئة النبات ، وعليها تقوم عملية التمثيل الضوئى التى يصنع منها النبات غذاءه ، فإذا ما سُدَّت مسام الأوراق وتراكم عليها الغبار فإن ذلك يُقلِّل من قدرة النبات على التنفس ، مثل الإنسان حينما يُصَاب بشىء فى رئته تزعجه وتُقلِّل من كفاءته .

وفى الفردوس ميزة أخرى هى أن الحق سبحانه وتعالى هو الذى غرس شجرها بيده ، كما كرَّم آدم عليه السلام فخلقه بيده تعالى ، فقال : ﴿يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ..(٧٥)﴾ [ص]

ويُروى أن الحق ـ تبارك وتعالى ـ لما خلق الفردوس ، وغرس أشجارها بيده قال للفردوس[1] : تكلمى ، فلما تكلمت الفردوس قالت : ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١)﴾ [المؤمنون]

ثم يقول تعالى : ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١١)﴾ [المؤمنون] لأن نعيم الجنة باقٍ ودائم لا ينقطع ، وقد عرفنا أن نعيم الدنيا موقوت مهما أُوتى الإنسان منه ، فإنه منقطع زائل ، إما أنْ يتركك بالفقر والحاجة ، وإما أنْ تتركه أنت بالموت ، لذلك يقول تعالى فى نعيم الآخرة : ﴿لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ (٣٣)﴾ [الواقعة]

وهكذا نلحظ على استهلال هذه السورة أن الحق سبحانه بدأ بالكلام عن الفلاح فى الآخرة كأنه قدَّم ثمرة الإيمان أولاً ، ووضع

---

(١) أخرجه الحاكم فى مستدركه (٢/٣٩٢) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال ﷺ : « خلق الله جنة عدن ، وغرس أشجارها بيده فقال لها : تكلَّمى ، فقالت : قد أفلح المؤمنون » . قال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه . وقال الذهبى فى تلخيصه : بل ضعيف .

الجزاء بداية بين يديك كأنه سبحانه يقول لك : هذا جزاء مَنْ آمن بى واتبع منهجى . كما جاء فى قوله تعالى فى استهلال سورة (الرحمن) : ﴿الرَّحْمَـٰنُ ۝١ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝٢ خَلَقَ الإِنسَانَ ۝٣ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۝٤﴾ [الرحمن] كيف وقد خلق الله الإنسان أولاً ، ثم علَّمه القرآن ؟

قالوا : لأن الذى يصنع صنعة يضع لها قانونها ، ويُحدِّد لها مهمتها أولاً قبل أن يشرع فى صناعتها ، فمثلاً - ولله المثل الأعلى - الذى يصنع الثلاجة ، قبل أن يصنعها حدد عملها ومهمتها وقانون صيانتها والغاية منها .

والقرآن هو منهج الإنسان ، وقانون صيانته فى حركة الحياة ؛ لذلك خلق الله المنهج ووضع قانون الصيانة قبل أن يخلق الإنسان .

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ۝١٢﴾

سبق أن تكلمنا عن خَلْق الإنسان ، وعرفنا أن الخالق - عز وجل - خلق الإنسان الأول ، وهو آدم عليه السلام من طين ، ومن أبعاضه خلق زوجه ، ثم بالتزاوج جاء عامة البشر كما قال تعالى : ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً ۝١﴾ [النساء]

ومسألة خَلْق السماء والأرض والناس مسألة احتفظ الله بها ، ولم يطلع عليها أحد ، كما قال سبحانه : ﴿مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً ۝٥١﴾ [الكهف]

فلا تُصْغ إلى هؤلاء المضلين فى كل زمان ومكان ، الذين يدَّعون العلم والمعرفة ، ونسمعهم يقولون : إن العالم كان كتلة واحدة تدور بسرعة فانفصل عنها أجزاء كوَّنَت الأرض .. الخ وعن الإنسان

يقولون : كان أصله قرداً ، إلى آخر هـذه الخرافات التى لا أساسَ لها من الصحة .

لذلك أعطانا الله تعـالى المناعـة الإيمانيـة التى تحـمينا أنْ ننسـاق خلف هذه النظريات ، فـأخبرنا سـبحـانه خبر هؤلاء وحـذرنا منهم ؛ لأنهم ما شهدوا شيئاً من الخَلْق ، ولم يتخذهم الله أعواناً فيقولون مثل هذا الكلام . إذن : هذا أمـر استأثر الله بعلمـه ، فلا تأخـذوا علمه إلاَّ مما أخبركم الله به .

وكلمة الإنـسان اسم جنس تطلق على المـفرد والمثنـى والجمع ، والمذكر والمؤنث ، فكل واحد منا إنسان ، بدليل أن الله تعالى استثنى من المفرد اللفظ جمعاً فى قوله تعالى : ﴿وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا..(٣)﴾ [العصر] فاستثنى من المفرد الجماعة .

ومـعنى ﴿خَلَقْنَا (١٢)﴾ [المـؤمنون] أوجـدنا من عـدم ، وسـبق أن قلنا : إن الله تعالى أثبت للبشر صفة الخَلْق أيضاً مع الفارق بين خَلْق الله من عدم وخَلْق البـشر من مـوجود ، وخَلْق الله فيـه حركة وحـياة فينمو ويتكاثر ، أما ما يخلق البشر فـيجمد على حاله لا يتغير ؛ لذلك وصف الحق سبحانه ذاته فقال :

﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤)﴾ [المؤمنون]

أما قَـوْل القرآن حكايةً عن عـيسى عليـه السلام : ﴿أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ..(٤٩)﴾ [آل عمران] فهذه من خاصياته عليه السلام ، والإيجاد فيها بأمر من الله يُجريه على يد نبيه .

فالمعنى : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ..(١٢)﴾ [المؤمنون] أى : الإنسان الأول ، وهو آدم عليـه السـلام ﴿مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ (١٢)﴾ [المـؤمنون] والسلالة : خلاصة الشىء تُسَلُّ منه كـما يُسَلُّ السيف من غِمْده أى :

الجراب الذى يُوضَع فيه ، فالسيف هو الأداة الفتاكة الفاعلة ، أما الغِمْد فهو مجرد حافظ وحامل لهذا الشىء الهام .

فالسلالة - إذن - هى أجود ما فى الشىء ، وقد خلق الله الإنسان الأول من أجود عناصر الطين وأنواعه ، وهى زُبْد الطين ، فلو أخذتَ قبضة من الطين وضغطتَ عليها بين أصابعك يتفلَّتْ منها الزبد ، وهو أجود ما فى الطين ويبقى فى قبضتك بقايا رمال وأشياء خشنة .

ولما أحب سيدنا حسان بن ثابت أنْ يهجوَ قريشاً لمعاداتهم لرسول الله ﷺ قال : إئذن لى يا رسول الله أنْ أَهْجُوهم من على المنبر فقال ﷺ : « أتهجوهم وأنا منهم ؟ » فقال حسان : أسلُّك منهم كما تُسَلُّ الشعرة من العجين[1] .

وتُطلَق السلالة على الشىء الجيد فيقولون : فلان من سلالة كذا ، وفلان سليل المجد . يعنى : فى مقام المدح ، حتى فى الخيل يحتفظون لها بسلالات معروفة أصيلة ويُسجِّلون لها شهادات ميلاد تثبت أصالة سلالتها ، ومن هنا جاءت شهرة الخيل العربية الأصيلة .

وقد أثبت العلم الحديث صدْق هذه الآية ، فبالتحليل المعملىّ التجريبى أثبتوا أن العناصر المكوِّنة للإنسان هى نفسها عناصر الطين ، وهى ستة عشر عنصراً ، تبدأ بالأكسوجين ، وتنتهى بالمنجنيز ، والمراد هنا التربة الطينية الخصْبة الصالحة للزراعة ؛ لأن الأرض عامة بها عناصر كثيرة قالوا : مائة وثلاثة عشر عنصراً .

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ﴾

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٥٣١) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٤٨٩) عن شيخهما عثمان بن أبى شيبة بسنده إلى عائشة رضى الله عنها .

يعنى : بعد أن جعلناه بشراً مُسْتوياً فيه روح جعلناه يتكاثر من نفسه ، وكما خلقناه من خلاصة الطين فى الإنسان الأول نخلقه فى النسْل من خلاصة الماء وأصفى شىء فيه ، وهى النطفة ؛ لأن الإنسان يأكل ويشرب ويتنفس ، والدم يمتص خلاصة الغذاء ، والباقى يخرج على هيئة فضلات ، ثم يُصفَّى الدم ويرشح فى الرئة وفى الكلى ، ومن خلاصة الدم تكون طاقة الإنسان وتكون النطفة التى يخلق منها الإنسان . إذن : فهو حتى فى النطفة من سلالة مُنْتقاة .

والنطفة التى هى أساس خَلْق الإنسان تعيش فى وسط مناسب هو السائل المنوى ، لذلك قال سبحانه : ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ (٣٧)﴾ [القيامة] ثم جعلنا هذه النطفة ﴿فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣)﴾ [المؤمنون] قرار : يعنى مُستقر تستقر فيه النطفة ، والقرار المكين هو الرحم خلقه الله على هذه الهيئة ، فحصّنه بعظام الحوض ، وجعله مُعداً لاستقبال هذه النطفة والحفاظ عليها .

﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤)﴾

يقول العلماء : بعد أربعين يوماً تتحول هذه النطفة إلى علقة ، وسُمِّيَتْ كذلك لأنها تعلَق بجدار الرحم ، والعلماء يسمونها الزيجوت ، وهى عبارة عن بويضة مُخصَّبة ، وتبدأ فى أخذ غذائها منه .

ومن عجائب قدرة الله فى تكوين الإنسان أن المرأة إذا لم تحمل ينزل عليها دم الحيض ، فإذا ما حملتْ لا ترى الحيض أبداً ، لماذا ؟ لأن هذا الدم ينزل حين لم تكُنْ له مهمة ولا تستفيد به الأم ، أمَا وقد حدث الحمل فإنه يتحول بقدرة الله إلى غذاء لهذا الجنين الجديد .

ثم يقول سبحانه : ﴿فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً..(١٤)﴾ [المؤمنون] وهى قطعة صغيرة من اللحم على قَدْر ما يُمضَغ ، وسبق أن قلنا : إن المضغة تنقسم بعد ذلك إلى مُخلَّقة وغير مُخلَّقة ، كما قال تعالى فى الآية الأخرى : ﴿ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ..(٥)﴾ [الحج] هذا على وجه التفصيل ، أما فى الآية التى معنا فيُحدِّثنا عن أطوار الخلق عامة ، حتى لا نظن أن القرآن فيه تكرار كما يدَّعِى البعض .

المضْغة المخلَّقة هى التى يتكوّن منها جوارح الإنسان وأعضاؤه ، وغير المخلَّقة تظل كما قلنا : احتياطياً لصيانة ما يتلف من الجسم ، كما يحدث مثلاً فى الجروح وما شابه ذلك من عطب يصيب الإنسان ، فتقوم غير المخلَّقة بدورها الاحتياطى .

ثم يقول تعالى : ﴿فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ..(١٤)﴾ [المؤمنون] لأنه كان فى كل هذه الأطوار : النطفة ، ثم العلقة ، ثم المضغة ، ثم العظام واللحم ما يزال تابعاً لأمه متصلاً بها ويتغذّى منها ، فلما شاء الله له أنْ يُولَد ينفصل عن أمه ليباشر حياته بذاته ؛ ولذلك نجد لحظة انفصال الجنين عن أمه فى

عملية الولادة مسألة صعبة ؛ لأنه سيستقبل حياة ذاتية تستلزم أن تعمل أجهزته لأول مرة ، وأول هذه الأجهزة جهاز التنفس .

ومن رحمة الله بالجنين أن ينزل برأسه أولاً ليستطيع التنفس ، ثم يخرج باقى جسمه بعد ذلك ، فإن حدث العكس ونزل برجليه فربما يموت ؛ لأنه انفصل عن تبعيته لأمه ، وليس له قدرة على التنفس ليحتفظ بحياته الذاتية الجديدة ؛ لذلك فى هذه الحالة يلجأ الطبيب إلى إجراء عملية قيصرية لإنقاذ الجنين من هذا الوضع ، وقبل أن يختنق .

ولما كانت مسألة خَلْق الإنسان فيها كثير من العِبَر والآيات ودلائل القدرة طوال هذه المراحل التى يتقلّب فيها الإنسان ، ناسب أنْ تختم الآية بقوله تعالى : ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ [المؤمنون] لأنك حين تقف وتتأمل قدرة الله فى خَلْق الإنسان لا تملك إلا أنْ تقول : سبحان الله ، تبارك الله الخالق .

لذلك يروى أن رسول الله ﷺ حينما قرأ هذه الآية سبق عمر فقال (فتبارك الله أحسن الخالقين) فقال ﷺ للكاتب : اكتبها فقد نزلت[1] ، لأنها انفعال طبيعى لقدرة الله ، وعجيب صُنْعه ، وبديع خلقه ، وهذا نوع من التجاوب بين السليقة العربية واللسان العربى وبين أسلوب القرآن الذى جاء بلسان القوم .

---

(١) أثر عمر : أخرجه ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر عن صالح أبى الخليل أن رسول الله ﷺ قال : « والذى نفسى بيده ، إنها ختمت بالذى تكلمت يا عمر » [أورده السيوطى فى الدر المنثور ٦/٩٢] .

ويقال : إن سيدنا معاذ بن جبل نطق بها أيضاً[١] ، وكذلك نطق بها رجل آخر هو عبد الله بن سعد بن أبى السرح[٢] ، مع اختلاف فى نتيجة هذا النطق : لما نطق بها عمر ومعاذ رضى الله عنهما كان استحساناً وتعجباً ينتهى إلى الله ، ويُقِرّ له سبحانه بالقدرة وبديع الصُّنْع .

أما ابن أبى السرح فقد قالها كذلك تعجباً ، لكن لما وافق قولُه قولَ القرآن أُعْجِب بنفسه ، وادعى أنه يُوحَى إليه كما يُوحَى إلى محمد ، ولم لا وهو يقول كما يقول القرآن ، ومع ذلك هو ما يزال مؤدباً يدَّعى مجرد أنه يوحَى إليه ، لكن زاد تعاليه وجَرَّه غروره إلى أنْ قال : سأنزل مثلما أنزل الله ، فليس ضرورياً وجود الله فى هذه المسألة ، فارتدّ والعياذ بالله بسببها ، وفيه نزل قول الله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ .. (٩٣) ﴾ [الأنعام]

وظل ابن أبى السرح إلى فتح مكة حيث شفع فيه عثمان رضى الله عنه عند رسول الله ﷺ ، فلما رأى رسول الله حرْص عثمان عليه سكت ، ولم يقُلْ فيه شيئاً ، وعندها أخذه عثمان رضى الله عنه

---

(١) أثر معاذ بن جبل : أخرجه ابن راهويه وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى فى الأوسط وابن مردويه عن زيد بن ثابت قال : أملى علىّ رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ (١٢) ﴾ [المؤمنون] إلى قوله ﴿ خَلْقًا آخَرَ .. (١٤) ﴾ [المؤمنون] فقال معاذ بن جبل : فتبارك الله أحسن الخالقين ، فضحك رسول الله ﷺ ، فقال له معاذ : ما أضحكك يا رسول الله ؟ قال : إنها ختمت ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ﴾ [المؤمنون] .

(٢) هو : عبد الله بن سعد أبى سرح القرشى العامرى ، من بنى عامر بن لؤىّ فاتح أفريقية ، أسلم قبل فتح مكة ، كان من كتّاب الوحى ، وكان على ميمنة عمرو بن العاص حين افتتح مصر ووليها بعده لمدة ١٢ عاماً ، دانت له أفريقية كلها وهزم الروم فى معركة « ذات الصوارى » عام ٣٤ هـ . توفى عام ٣٧ هـ . [الأعلام للزركلى ٤/٨٩] .

وانصرف ، فقال النبى ﷺ لصحابته : « أما كان فيكم مَنْ يُجهز عليه ؟ » فقالوا : يا رسول الله لو أومأتَ لنا برأسك ؟ يعنى : أشرْتَ إلينا بهذا ، انظر هنا إلى منطق النبوة ، قال ﷺ : « لا ينبغى أن يكون لنبى خائنة الأعين »[1] يعنى : هذا تصرُّف لا يليق بالأنبياء ، فلو فعلتموها من أنفسكم كان لا بأس .

ثم بعد ذلك تحل بركة عثمان على ابن أبى السرح فيُؤمن ويَحْسُن إسلامه ، ثم يُولَّى مصر ، ويقود الفتوحات فى إفريقيا ، ويتغلب على الضجة التى أثاروها فى بلاد النوبة ، وكأن الله تعالى كان يدخره لهذا الأمر الهام .

وبعد هذه العجائب التى رأيناها فى مراحل خَلْق الإنسان وخروجه إلى الحياة والإقرار لله تعالى بأنه أحسن الخالقين ، يُذكِّرنا سبحانه بأن هذه الحياة لن تدوم ، فيقول تبارك وتعالى :

﴿ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ﴾

ولك أنْ تسأل : كيف يُحدِّثنا الحق ـ تبارك وتعالى ـ عن مراحل الخَلْق ، ثم يُحدِّثنا مباشرة عن مراحل الموت والبعث ؟

نقول : جعلهما الله تعالى معاً لتستقبل الحياة وفى الذِّهْن وفى الذاكرة ما ينقض هذه الحياة ، حتى لا تتعالى ولا تغفل عن هذه النهاية ولتكُنْ على بالك ، فتُرتِّب حركة حياتك على هذا الأساس .

---

(١) أخرجه أبو داود فى سننه (٢٦٨٣) ، والنسائى فى سننه (١٠٦/٧) من حديث سعد بن أبى وقاص ، وفيه أن رسول الله ﷺ قال : « أما كان فيكم رجل رشيد يقوم إلى هذا حيث رآنى كففت يدى عن بيعته فيقتله ؟ فقالوا : ما ندرى يا رسول الله ما فى نفسك ، ألا أومأت إلينا بعينك . قال : « إنه لا ينبغى لنبى أن تكون له خائنة الأعين » .

ومن ذلك أيضاً قول الله تعالى : ﴿تَبَارَكَ الَّذِى بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً..۝٢﴾ [الملك] كأنه سبحانه ينعى إلينا أنفسنا قبل أنْ يخلق فينا الحياة ، وقدَّم الموت على الحياة حتى تستقبل الحياة وتستقبل قبلها الموت الذى ينقضها فلا تغتر بالحياة ، وتعمل لما بعد الموت .

وقد خاطب الحق ـ سبحانه وتعالى ـ نبيه ﷺ بقوله : ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠﴾ [الزمر] البعض يظن أن ميِّت بالتشديد يعنى مَنْ مات بالفعل ، وهذا غير صحيح ، فالميِّت بتشديد الياء هو ما يؤول أمره إلى الموت ، وإنْ كان ما يزال على قيد الحياة ، فكلنا بهذا المعنى ميِّتون ، أمّا الذى مات بالفعل فهو ميْت بسكون الياء ، ومنه قول الشاعر[1] :

لَيْسَ مَنْ مَاتَ فَاسْتَرَاحَ بِمَيْتٍ إنما الميْتُ ميِّتُ الأحْياءِ[2]

ومعنى : ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ ۝١٥﴾ [المؤمنون] يعنى : بعد أطوار الخَلْق التى تقدمت من خَلْق الإنسان الأول من الطين إلى أنْ قال سبحانه : ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ۝١٤﴾ [المؤمنون]

والمتأمل فى هذه الآية وهى تُحدِّثنا عن الموت الذى لا ينكره أحد ولا يشكّ فيه أحد ، ومع ذلك أكدها الحق ـ تبارك وتعالى ـ بأداتين من أدوات التوكيد : ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ۝١٥﴾ [المؤمنون] فأكّدها بإنّ وباللام ، ومعلوم أننا لا نلجأ إلى التوكيد إلا حين يواجهنا منكر ، فيأتى التأكيد على قَدْر ما يواجهك من إنكار ، أما خالى الذهن فلا يحتاج إلى توكيد .

---

(١) هو : عدى بن الرعلاء الغسانى . شاعر جاهلى ، اشتهر بنسبته إلى أمه ، وضاع اسم أبيه . [الأعلام للزركلى ٤/٢٢٠] .

(٢) ذكره ابن منظور فى لسان العرب ـ مادة : موت .

تقول مثلاً لخالى الذهن الذى لا يشك فى كلامك : يجتهد محمد ، فإنْ شك تؤكد له بالجملة الاسمية التى تفيد ثبوت واستقرار الصفة : محمد مجتهد ، وتزيد من تأكيد الكلام على قدر الإنكار ، فتقول : إن محمداً مجتهد ، أو إن محمداً لمجتهد ، أو والله إن محمداً لمجتهد . هذه درجات للتأكيد على حسْب حال مَنْ تخاطبه .

إذن : أكّد الكلام عن الموت الذى لا يشكّ فيه أحد ، فقال : ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾﴾ [المؤمنون] ومع ذلك لما تكلَّم عن البعث وهو محلّ الشك والإنكار قال سبحانه :

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾﴾

ولم يقُلْ : لتبعثون كما قال ﴿لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾﴾ [المؤمنون] فكيف يؤكد ما فيه تصديق وتسليم ، ولا يؤكد ما فيه إنكار ؟

قالوا : نعم ؛ لأن المتكلم هو الله تعالى ، الذى يرى غفلتكم عن الموت رغم وضوحه ، فلما غفلتم عنه كنتم كالمكذِّبين به المنكرين له ، لذلك أكد عليه ، لذلك يقال : « ما رأيت يقيناً أشبه بالشك من يقين الناس بالموت » فالكل يعلم الموت ويعاينه ، لكن يبعده عن نفسه ، ولا يتصوّره فى حقه .

أما البعث والقيامة فأدلتها واضحة لا يصح لأحد أنْ ينكرها ؛ لذلك جاءت دون توكيد : ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾﴾ [المؤمنون] فأدلة البعث أوضح من أن يقف العقل فيها أو ينكرها ؛ لذلك سأطلقها إطلاقاً دون مبالغة فى التوكيد ، أمّا مَنْ يتشكك فيه أو ينكره ، فهذا نؤكد له الكلام ، فانظر إلى بصر الحق ـ سبحانه وتعالى ـ بعقليات خَلْقه وبنفوسهم وملَكَاتهم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴿١٧﴾ ﴾

نلحظ أن للعدد سبعة مواقف فى هذه السورة وأسراراً يجب أن نتأملها ، ففى استهلال السورة ذكر سبحانه سبعة أصناف : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ .. ﴿٢﴾ ﴾ [المؤمنون]

وفي مراحل خَلْق الإنسان نجده مَرَّ بسبعة أطوار : سلالة من طين ، ثم نطفة ، ثم علقة ، ثم مضغة ، ثم عظاماً ، ثم لحماً ، ثم أنشأناه خَلْقاً آخر .

وهنا يقول : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ .. ﴿١٧﴾ ﴾ [المؤمنون]

وفى موضع آخر قال : ﴿ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ .. ﴿١٢﴾ ﴾ [الطلاق]

فهذه سبعة للغاية ، وسبعة للمغيًّا له ، وهو الإنسان ، وسبعة للسماوات والأرض المخلوقة للإنسان .

وطرائق : جمع طريقة أى : مطروقة للملائكة ، والشىء المطروق ما له حجم يتسع بالطَّرْق ، كما تطرق قطعة من الحديد مثلاً ، فانظر إلى السماء واتساعها . وقُلْ : سبحان مَنْ طرقها .

وتلحظ أن الحق سبحانه لم يذكر هنا الأرض ، لماذا ؟ قالوا : لأن الأرض نقف عليها ثابتين لا نخاف من شىء ، إنما الخوف من السماء أنْ تندكّ فوقنا ؛ لذلك يقول سبحانه بعدها : ﴿ وَمَا كُنَّا عَنِ

الْخَلْقِ غَافِلِينَ (١٧) ﴾ [المؤمنون] فلن نغفل عن السماء من فوقكم ، وسوف نُمسكها بأيدينا ، كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ .. (٤١) ﴾ [فاطر]

ثم يعطينا الحق ـ تبارك وتعالى ـ الدليل الحسىّ على هذه الآية ، وكيف أن الله تعالى رفع السماء فوقنا بلا عَمَد ، ومثال ذلك الطير يُمسكه الله فى السماء : ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ الرَّحْمَـٰنُ .. (١٩) ﴾ [الملك]

نعلم أن الطير يطير فى السماء بحركة الجناحين التى تدفع الهواء وتقاوم الجاذبية فلا يسقط ، كالسباح الذى يدفع بذراعيه الماء ليسبح ، فإذا ما قبض الطائر جناحيه ومع ذلك يظل مُعلّقاً فى السماء لا يسقط فمَنْ يُمسكه فى هذه الحالة ؟ هذه صورة تشاهدونها لا يشكّ فيها أحد ، فإذا قلت لكم أنى أمسك السماء أن تقع على الأرض فصدّقوا وآمنوا ، واستدلوا على الغيب بالمشاهد .

وكأن الحق سبحانه فى قوله : ﴿ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ (١٧) ﴾ [المؤمنون] يقول : اطمئنوا إلى السماء من فوقكم ، فقد جعلتُ لها التأمينات اللازمة التى تُؤمِّن معيشتكم تحت سقفها ، اطمئنوا لأنها بأيدينا وفى رعايتنا .

لكن ، ما المراد بقوله ﴿ عَنِ الْخَلْقِ .. (١٧) ﴾ [المؤمنون] أهو الإنسان أم خَلْق السماء ؟ المراد : ما كُنَّا غافلين عن خَلْق السماء ، فبنيناها على ترتيبات ونظم تحميكم وتضمن سلامتكم .

والغفلة : تَرْك شىء لأنه غاب عن البال ، وهذه مسألة لا تكون أبداً فى حق الله ـ عز وجل ـ لأنه لا تأخذه سِنَة ولا نوم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

يقول تعالى عن الماء : ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ ﴿١٨﴾ ﴾ [المؤمنون] فهل الماء مَقرُّه السماء ؟ لا ، الماء مقرُّه الأرض ، كما جاء فى قول الله تعالى : ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ [فصلت]

لما استدعى الخالق ـ عز وجل ـ الإنسان إلى هذا الوجود جعل له فى الأرض مُقوِّمات استبقاء حياته من الهواء والقوت والماء ، والإنسان كما قلنا يستطيع أن يصبر على الطعام ، وصبره أقل على الماء ، لكن لا صبرَ له على الهواء ؛ لذلك شاءت قدرة الله ألاّ يُملّكه لأحد ؛ لأنه مُقوِّم الحياة الأول ، فالغلاف الجوى والهواء المحيط بالأرض تابع لها وجزء منها داخل تحت قوله : ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا ﴿١٠﴾ ﴾ [فصلت] بدليل أنهم حينما يخرجون عن نطاق الأرض يمتنع الهواء .

ومن حكمة الخالق ـ عز وجل ـ وقدرته أنْ جعل الماء على الأرض مالحاً ؛ لأن الملح أساس فى صلاح الأشياء التى يطرأ عليها الفساد ، فالماء العذب عُرضة للتغيُّر والعطن ، وبالملح نصلح ما نخشى تغيُّره فنضعه على الطعام ليحفظه ونستخدمه فى دباغة الجلود .. الخ

لذلك قال الشاعر :

يَا رِجَالَ الدينِ يا مِلْحَ البَلَدِ مَنْ يُصلح الملحَ إذَا المِلْحُ فَسَدَ

إذن : أصل الماء فى الأرض ، لكن ينزل من السماء بعد عملية البَخْر التى تُصفيه فينزل عَذْباً صالحاً للشرب وللرى ، وقلنا : إن الخالق سبحانه جعل رقعة الماء على الأرض أكبر من رقعة اليابسة حتى تتسع رقعة البَخْر ، ويتكون المطر الذى يكفى حاجة أهل الأرض .

ومن رحمة الله بنا أن ينزل الماء من السماء ﴿بِقَدَرٍ (١٨)﴾ [المؤمنون] يعنى : بحساب وعلى قَدْر الحاجة ، فلو نزل هكذا مرة واحدة لأصبح طوفاناً مُدمّراً ، كما حدث لقوم نوح ولأهل مأرب . وفى موضع آخر يقول سبحانه : ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ (٢١)﴾ [الحجر]

ثم يقول سبحانه : ﴿فَأَسْكَنَّاهُ فِي الأَرْضِ..(١٨)﴾ [المؤمنون] لأننا نأخذ حاجتنا من ماء المطر ، والباقى يتسرب فى باطن الأرض ، كما قال سبحانه : ﴿فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ(٢١)﴾ [الزمر] ومن عجيب قدرة الله فى المياه الجوفية أنها تسير فى مسارب مختلفة ، بحيث لا يختلط الماء العَذْب بالماء المالح مع ما يتميز به الماء من خاصية الاستطراق ، والعاملون فى مجال حفر الآبار يجدون من ذلك عجائب ، فقد يجدون الماء العَذْب بجوار المالح ، بل وفى وسط البحر لأنها ليست مستطرقة ، إنما تسير فى شعيرات ينفصل بعضها عن بعض .

والمياه الجوفية مخزون طبيعى من الماء نُخرجه عند الحاجة ، ويُسعفنا إذا نَضُبَ الماء العَذْب الموجود على السطح ﴿فَأَسْكَنَّاهُ فِي الأَرْضِ..(١٨)﴾ [المؤمنون] ليكون احتياطياً لحين الحاجة إليه ، فإذا جَفَّ المطر تستطيعون أن تستنبطوه .

ثم يُذكِّرنا الحق سبحانه بقدرته على سلْب هذه النعمة ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [المؤمنون] يعنى : سيروا فى هذه النعمة سَيْراً لا يُعرِّضها للزوال ، وقال فى موضع آخر : ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الملك]

وحين تَعُدّ نعَم الله التى امتنّ علينا بها بداية من نعمة الماء : ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ ﴿١٨﴾﴾ [المؤمنون] تجدها أيضاً سبعة . ويبدو أن لهذا العدد أسراراً فى هذه السورة ، فقد ذكر من أوصاف المؤمنين سبعة ، ومن مراحل خَلْق الإنسان سبعاً ، ومن السماء والأرض سبعة ، وهنا يذكر من نعمه علينا سبعة ؛ لذلك كان للعلماء وقفات عند هذا العدد بالذات .

وأذكر ونحن فى المملكة السعودية وكنت أستاذاً فى كلية الشريعة ومعى بعض الأساتذة ورئيس بعثتنا الشيخ زكى غيث ـ رحمه الله وغفر الله له ـ ورئيس بعثة المعارف الأستاذ صلاح بك الباقر ، وكان دائماً ما يجلس معنا شيخ علماء المملكة فى هذا الوقت السيد إسحق عزوز ، وكان يجمعنا كل ليلة الفندق الذى نقيم فيه ، وكنا نتدارس بعض قضايا العلم .

وقد أثار الشيخ إبراهيم عطية قضية هذا العدد فى القرآن الكريم ، وكان يقرأ فى تفسير القرطبى فوجد فيه : قال عمر بن الخطاب لابن عباس : يا ابن عباس أتعرف متى ليلة القدر ؟ فقال ابن عباس : أغلب الظن أنها ليلة السابع والعشرين ، فلما سمعنا هذا الكلام قلنا : هذه سبعة ، وهذه سبع وعشرون ، فلما اختلفنا اقترح علينا الشيخ محمد أبو على ـ أطال الله عمره ـ أن نذهب لنصلى فى الحرم بدل أن نصلى فى الفندق عملاً بسنة رسول الله ﷺ ، وقد كان كلما حزبه أمر يقوم

إلى الصلاة ، وقلنا : ربما يفتح الله علينا فى هذه المسألة .

وبعد أن صلينا جلسنا نناقش هذه المسألة ، فإذا برجل لا نعرفه على سمة المجاذيب غير مهتم بنفسه ، يجلس بجوارنا ويُنصت لما نقول ، ثم شاركنا الكلام وقال : ألم يقُل رسول الله ﷺ : « التمسوها فى العشر الأواخر من رمضان »[(١)] ؟ إذن : فدعكم من العشرين يوماً ، واحسبوا فى العشر الأواخر ، ثم نظرنا فلم نجده ، كأن وحدة الزمن التى توجد بها ليلة القدر هى هذه العشر ، وكأنها بهذا المعنى ليلة السابع ، وهذه أيضاً من أسرار هذا العدد ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ (٧٦)﴾ [يوسف]

أطال الله فى عمر مَنْ بقى من هؤلاء ، وغفر الله لمن ذهب .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (١٩)﴾

الجنة : المكان الملىء بالأشجار العالية والمزروعات التى تستر مَنْ يسير فيها ، أو تستره عن الخارج ، فلا يحتاج فى متطلبات حياته إلى غيرها ، فهى من الكمال بحيث تكفيه ، فلا يخرج عنها . واختار هذه الأنواع ﴿نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ (١٩)﴾ [المؤمنون] لما لها من منزلة عند العرب ، وقال ﴿فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ (١٩)﴾ [المؤمنون] لأنه لم يحصر جميع الأنواع .

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٠٢١) من حديث ابن عباس ، وأخرجه مسلم فى صحيحه (١١٦٦) كتاب الصيام عن أبى هريرة رضى الله عنه بلفظ « أريت ليلة القدر ، ثم أيقظنى بعض أهلى فنسيتها فالتمسوها فى العشر الغوابر » .

﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ ﴿٢٠﴾﴾

الطور : جبل منسوب إلى سيناء ، وسيناء مكان حسن ؛ لأن الله بارك فيها ، والطور كلَّم الله عليه موسى ، فهو مكان مبارك ، كما بارك الله أرض بيت المقدس فقال : ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ ﴿١﴾﴾ [الإسراء]

ومعنى ﴿تَنبُتُ بِالدُّهْنِ ﴿٢٠﴾﴾ [المؤمنون] الدهن هو الدَّسَم ، والمراد هنا شجرة الزيتون التى يستخرجون منها الزيت المعروف ﴿وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [المؤمنون] يعنى : يتخذونه إداماً يغمسون فيه الخبز ويأكلونه ، وهو من أشْهَى الأكلات وألذّها عند مَنْ يزرعون الزيتون فى سيناء وفى بلاد الشام ، وقد ذُقْنا هذه الأكْلة الشهيرة فى لبنان ، عندما ذهبنا إليها فى موسم حصاد الزيتون .

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾﴾

الأنعام : يُراد بها الإبل والبقر ، وألحق بالبقر الجاموس ، ولم يُذكَر لأنه لم يكُنْ موجوداً بالبيئة العربية ، والغنم وتشمل الضأن والماعز ، وفى سورة الأنعام يقول تعالى : ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ.. ﴿١٤٣﴾﴾ [الأنعام]

ويقال فيها : أنعام ونَعَم (بفتح النون والعين) .

والعبرة : شىء تعتبرون به وتستدلُّون به على قدرة الله وبديع صُنْعه فى خَلْق الأنعام .

لكن ، ما العبرة فى خَلْق هذه الأنعام ؟ الحق ـ سبحانه وتعالى ـ تكلَّم عن خَلْق الإنسان ، وأنه تعالى خلقه من صفوة وخلاصة وسلالة من الطين ومن النطفة ، وهكذا فى جميع أطوار خَلْقه . وفى الأنعام ترى شيئاً من هذا الاصطفاء والاختيار ، فالأنعام تأكل من هنا وهناك وتجمع شتى الأنواع من المأكولات ، ومن هذا الخليط يخرج الفَرْث ، وهو مُنتن لا تطيق رائحته ويتكون دم الحيوان ، ومن بين الفَرْث والدم يُصفِّى لك الخالق ـ عز وجل ـ لبناً خالصاً ، وهذه سلالة أيضاً وتصفية .

قال تعالى : ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ [1] وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ (٦٦)﴾ [النحل]

ونلحظ أن الآية التى معنا تقول : ﴿نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا (٢١)﴾ [المؤمنون] وفى آية النحل : ﴿نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ (٦٦)﴾ [النحل] ذلك لأننا نأخذ اللبن من إناث الأنعام ليس من كل الأنعام ، فالمعنى ﴿مِّمَّا فِي بُطُونِهَا (٢١)﴾ [المؤمنون] أى : الإناث منها و ﴿مِّمَّا فِي بُطُونِهِ (٦٦)﴾ [النحل] أى : بطون البعض ؛ ولذا عاد الضمير مذكراً .

وقوله : ﴿نُّسْقِيكُم (٢١)﴾ [المؤمنون] من سقى ، وفى موضع آخر ﴿فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ (٢٢)﴾ [الحجر] من الفعل أسقى . البعض يقول إنهما مترادفان ، وهما ليسا كذلك لأن لكل منهما معنى ، فسقى يعنى : أعطاه الشراب ، أمَّا أسقى فيعنى جهز له ما يشربه لحين يحب أن يشرب [2] .

---

(١) الفرث : ما فى الكرش من طعام مهضوم متغير كريه الرائحة . [القاموس القويم ٢ / ٧٤].

(٢) قال الفراء : العرب تقول لكل ما كان من بطون الأنعام ومن السماء أو نهر يجرى لقوم أسقيت ، فإذا سقاك ماء لشفتك قالوا سقاه ولم يقولوا أسقاه ، كما قال تعالى : ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا (٢١)﴾ [الإنسان] ، وربما قالوا لما فى بطون الأنعام ولماء السماء سقى وأسقى . [لسان العرب ـ مادة : سقى] .

لذلك لما تكلَّم الحق سبحانه عن شراب الجنة ، قال : ﴿ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا (٢١) ﴾ [الإنسان]

ولما تكلم عن ماء المطر قال سبحانه : ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ (٢٢) ﴾ [الحجر]

يعنى : جعله فى مستودع لحين الحاجة إليه .

كما قلنا فى (مُرضِع) بالكسر ، و (مُرضَع) بالفتح ، فمرضع بالكسر للتى ترضع بالفعل ، ومنه قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ (٢) ﴾ [الحج]

أما مرضَع بالفتح ، فهى الصالحة للرضاعة .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٢١) ﴾ [المؤمنون] نلحظ أن آية النحل ركزت على مسألة تصفية اللبن من بين فَرْث ودم ، أما هنا فقد ركزت على منافع أخرى للأنعام ، فكل آية تأخذ جانباً من الموضوع ، وتتناوله من زاوية خاصة ، نوضح ذلك لمن يقولون بالتكرار فى القرآن الكريم ، فالآيات فى الموضوع الواحد ليست تكراراً ، إنما هو تأسيس بلقطات مختلفة ، كل لقطة تؤدى فى مكانها موقعاً من العظَة والعبرة ، بحيث إذا جمعتَ كل هذه المكررات الظاهرة تعطيك الصورة الكاملة للشىء .

والمنافع فى الأنعام كثيرة : منها نأخذ الصوف والوبر ، وكانوا يصنعون منه الملابس والفرش والخيام ، قبل أن تُعرف الملابس والمنسوجات الحديثة ، ومن ملابس الصوف سُميت الصوفية لمَنْ يلبسون الثياب الخشنة ، وهم الآن يصنعون من الصوف ملابس ناعمة كالحرير يرتديها المترفون .

ومن منافع الأنعام أيضاً الجلود والعظام وغيرها ، يقول تعالى : ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ[1] وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ (٨٠) ﴾ [النحل]

﴿ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٢١) ﴾ [المؤمنون] أى : لحماً ، وذكر اللحم فى آخر هذه المنافع ؛ لأنه آخر ما يمكن الانتفاع به من الحيوان ، وسبق أنْ ذكرنا أن الحيوان الذى أحلّه الله لنا إذا تعرض لما يزهق روحه ، فإنه يرفع لك رقبته ، ويكشف لك عن موضع ذَبْحه كأنه يقول لك : أسرع واستفد منى قبل أنْ أموت .

وفى لقطة أخرى لمنافع الأنعام يقول سبحانه : ﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ (٧) ﴾ [النحل] إذن : كل آية تحدثت عن الأنعام تعطينا فائدة لتظل مربوطاً بالقرآن كله .

﴿ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

﴿ وَعَلَيْهَا (٢٢) ﴾ [المؤمنون] أى : على الدواب تُحملون ، فنركب الدواب ، ونحمل عليها متاعنا ، لكن لما كانت الأرض ثلاثة أرباعها ماء ، فإن الحق - سبحانه وتعالى - ما تركنا فى البحر ، إنما حملنا فيه أيضاً ﴿ وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (٢٢) ﴾ [المؤمنون] فكما أعددتُ لكم المطايا على اليابسة الضيقة أعددتُ لكم كذلك ما تركبونه فى هذه المساحة الواسعة من الماء .

ولما كان الكلام هنا عن الفُلْك فقد ناسب ذلك الحديث عَمَّنْ له صلة بالفُلْك ، وهو نوح عليه السلام :

---

(١) الظعن : الانتقال من مكان إلى مكان أى سافر . [القاموس القويم ١/٤١٥] .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾

بعد أنْ حدَّثنا القرآن الكريم عن خَلْق الإنسان وخَلْق الحيوان ، وحدثنا عن بعض نعمه التى امتنّ بها علينا تدرج بنا إلى صناعة الفُلْك ؛ لأنه قد يسأل سائل : وكيف تكون هذه الفُلْك أى : تخلق كالإنسان والحيوان بالتوالد ، أم تنبت كالزرع ؟ فأوضح الخالق سبحانه أنها وُجدت بالوحى فى قوله تعالى : ﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ﴿٢٧﴾ ﴾ [المؤمنون]

ومعنى ﴿ بِأَعْيُنِنَا ﴿٢٧﴾ ﴾ [المؤمنون] أنها صنعة دقيقة ، لم يترك فيها الحق سبحانه نبيَّه يفعل ما يشاء ، إنما تابعه ولاحظه ووجَّهه إلى كيفية صناعتها والمواد المستخدمة فيها ، كما قال سبحانه : ﴿ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ ﴾ [القمر] وهى الحبال ، كانوا يربطون بها ألواح الخشب ، ويضمون بعضها إلى بعض ، أو المسامير تُشَدُّ بها الألواح بعضها إلى بعض .

لكن ، مهما أُحكِمَتْ ألواح الخشب بعضها إلى بعض ، فلا بُدَّ أن يظل بينها مسامّ يتسرب منها الماء ، فكيف نتفادى ذلك فى صناعة الفُلْك خاصة فى مراحلها البدائية ؟ يقولون : لا بُدَّ لصانع الفُلْك أنْ يجفف الخشب جيداً قبل تصنيعه فإذا ما نزل الخشبُ الماءَ يتشرب منه ، فيزيد حجمه فيسدّ هذه المسام تماماً ، ولا يتسرب منها الماء .

ومن عجائب القرآن ومعجزاته فى مسألة الفُلْك قوله تعالى :

﴿ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِى الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الرحمن] يعنى : كالجبال العالية . وهذه الفُلْك لم تكُنْ موجودة وقت نزول القرآن إنما

أخبر الله بها ، مما يدل على أنه تعالى الذى امتنّ علينا بهذه النعمة ، علم ما يمكن أن يتوصل إليه الإنسان من تطور فى صناعة الفلك ، وأنها ستكون عالية شاهقة كالجبال .

وطالما أن الكلام معنا عن الفُلْك ، فطبيعى ومن المناسب أن نذكر نوحاً عليه السلام ؛ لأنه أول من اهتدى بالوحى إليه إلى صناعة الفُلْك ، فقال سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ..(٢٣) ﴾ [المؤمنون] لما تكلّم الحق سبحانه عما فى الأنعام من نِعَم وفوائد ، لكنها تؤول كلها ـ بل والدنيا معهاً ـ إلى زوال ، أراد سبحانه أن يعطينا طرفاً من الحياة الباقية والنعيم الدائم الذى لا يزول فذكر منهج الله الذى أُرسِل به نوح ، وهو واحد من أولى العَزْم من الرسل .

والإرسال : هو أنْ يكلِّف مُرسِل مُرْسَلاً إلى مُرْسَل إليه ، فالمكلف هو الحق سبحانه ، والمكلف بالرسالة نوح عليه السلام ، والمرسل إليهم هم قومه ، والله لا يرسل إلى قوم إلا إذا كانوا يهمونه ، وكيف لا وهم عباده وخَلْقه ، وقد جعلهم خلفاء له فى الأرض ؟

والذى خلق خَلْقاً ، أو صنع صَنْعة لا بُدَّ أنْ يضع لها قانون صيانتها ، لتؤدى مهمتها فى الحياة ، وتقوم بدورها على الوجه الأكمل ، كما مثَّلْنا لذلك ـ ولله تعالى المثل الأعلى ـ بصانع الثلاجة أو التليفزيون حين يضع معه كتالوجاً يحوى تعليمات التشغيل وطريقة الصيانة وكيفية إصلاح الأعطال .

فالذى خلق الإنسان وجعله خليفة له فى الأرض أَوْلَى بهذا القانون وأَوْلَى بصيانة خَلْقه ؛ لذلك يقول سبحانه فى الحديث القدسى : « يا ابن آدم ، خلقت الأشياء كلها من أجلك ، وخلقتُك من أجلى ، فلا تشتغل بما هو لك عما أنت له » يعنى : ما دام كل شىء

من أجلك يعمل لك ويُؤدِّى مهمته ، فعليك أيضاً أن تؤدى مهمتك التى خلقتُك من أجلها .

لذلك وضع لك ربُّك قانون صيانتك بافعل كذا ولا تفعل كذا ، فعليك أن تلتزم الأمر فتؤديه فهو سرُّ الجمال فى الكون ، وسرُّ السعادة والتوافق فى حركة الحياة ، وعليك أن تجتنب النهى فلا تقربه ؛ لأنه سيؤدى إلى قُبْح ، وسيكشف عورة من عورات المجتمع ، أما الأمور التى سكت عنها فأنت حُرٌّ فيها تفعل أو لا تفعل ؛ لأن ذلك لا يأتى بقبيح فى المجتمع ، وهذه المسائل تُسمَّى المباحات ، وقد تركها الله لحريتك واختيارك .

والحق - تبارك وتعالى - لما استدعى الإنسان إلى هذا الكون خلق له مقومات حياته من مُقوِّمات استبقاء الحياة من طعام وشراب وهواء واستبقاء النوع بالتناسل ، وقد شمل قانون الصيانة كل هذه المقومات ، فنظمها وحدد ما يحل وما يحرم . فقال : كُلْ هذه ولا تأكل هذه ، واشرب هذا ولا تشرب ذاك ، ولو شاهدنا المخترعين فى مسائل المادة نجد الصانع يحدد مقومات صنعته ، فمثلاً هذا الجهاز يعمل على ١١٠ فولت ، وهذا يعمل على ٢٢٠ فولت ، وهذه الآلة تعمل بالبنزين ، وهذه بالسولار ، فلو غيَّرت فى هذه المقومات تفسد الآلة ولا تؤدى مهمتها .

كذلك - ولله المثل الأعلى - عليك أن تلتزم بقانون ومنهج خالقك عز وجل ، ولا تَحِدْ عنه ، وإلا فسد حالك وعجزتَ عن أداء مهمتك فى الحياة . فإن أردنا أن تستقيم لنا الخلافة التى خلقنا الله لها وهى خلافة مُصلحة لا مُفسدة ، فعلينا بقانون الصيانة الذى وضعه لنا خالقنا عز وجل .

لذلك ، إنْ رأيت فى المجتمع عورة ظاهرة فى أى ناحية من نواحى الحياة فاعلم أنها نتيجة طبيعية للخروج عن منهج الله ، وتعطيل حكم من أحكامه ، فمثلاً حين ترى الفقراء والجوْعى والمحاويج فاعلم أن فى الأمر تعطيلاً لحكم من أحكام الله ، فهم إما كسالى لا يحاولون السَّعْى فى مناكب الأرض ، وإما غير قادرين حرمهم القادرون واستأثروا بالثروة دونهم .

البعض يقول : إذا كان الحق سبحانه قد حرَّم علينا بعض الأشياء ، فلماذا خلقها ؟ ويُمثِّلون لذلك بالخنزير مثلاً وبالخمر . وخطأ هؤلاء أنهم يظنون أن كل شىء خُلِق ليُؤكل ، وهذا غير صحيح ؛ لأن الله تعالى خلق هذه الأشياء لمهمة تؤديها فى الحياة ، وليس بالضرورة أنْ تُؤكل ، فالخنزير خلقه الله لينظف البيئة من القاذورات ، لذلك لا تراه يأكل غيرها .

أما الخمر فلم تُخلق خمراً ، إنما هى ثمرة العنب الحلوة التى تؤكل طازجة ، أخذها الإنسان وتدخّل فى هذه الطبيعة وأفسدها بتخميره ، فصار الحلال بذلك محرماً .

نعود إلى قول الله تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ..(٢٣)﴾ [المؤمنون] القوم : هم الرجال ، خاصة من المجتمع ، وليس الرجال والنساء ، بدليل قوله تعالى : ﴿يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ..(١١)﴾ [الحجرات] فالنساء فى مقابل القوم أى : الرجال .

ومن ذلك قول الشاعر[١] :

وَمَا أَدْرِى وسَوْفَ أَخَالُ أَدْرِى أَقَوْمٌ آلُ حِصنٍ[٢] أَمْ نِسَاءُ

لكنْ هل أُرسِل نوح عليه السلام إلى الرجال دون النساء ؟ أُرسِل نوح إلى الجميع ، لكن ذُكِر القوم لأنهم هم الذين سيحملون معه أمر الدعوة ويسيحون بها ، ويُبلّغونها لمن لهم ولاية عليهم من النساء ، والرجال مَنُوط بهم القيام بمهام الأمور فى عمارة الكون وصلاحه .

والإضافة فى ﴿قَوْمِهِ..(٢٣)﴾ [المؤمنون] بمعنى اللام يعنى : قوم له ؛ لأن الإضافة تأتى بمعنى من مثل : أردب قمح يعنى من قمح ، وبمعنى فى مثل : مكر الليل يعنى فى الليل ، وبمعنى اللام مثل : قلم زيد يعنى لزيد .

فالمعنى هنا : قوم له ؛ لأنه منهم ومأمون عليهم ومعروف لهم سيرته الأولى ، فإذا قال لهم لا يتهمونه ، إذن : فمن رحمة الله بالخَلْق أن يرسل إليهم واحداً منهم ، كما قال سبحانه : ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ .. (١٢٨)﴾ [التوبة] ففى هذا إيناس وإلْفٌ للقوم على خلاف ما إنْ كان الرسول ملَكاً مثلاً ، فإن القوم يستوحشونه ولا يأنسون إليه .

لذلك ، فالنبى ﷺ كان يُسمَّى بين قومه وقبل بعثته بالصادق الأمين ؛ لأنه معروف لهم ماضيه وسيرته ومُقوِّمات حياته تُشجِّع على

---

(١) هو : زهير بن أبى سلمى ، حكيم الشعراء فى الجاهلية ، كان أبوه وخاله وأخته سلمى وابناه كعب وبجير وأخته الخنساء شعراء ، ولد فى بلاد « مزينة » بنواحى المدينة ، من أشهر شعره معلقته . توفى عام ١٣ ق. هـ . [الأعلام للزركلى ٥٢/٣] .

(٢) يريد : حِصْن بن حذيفة الفزارى . قاله ابن منظور فى [لسان العرب – مادة : حصن] .

أنْ يُصدِّقوه فيما جاء به ، وكيف يصدقونه فى أمر الدنيا ، ولا يُصدقونه فى البلاغ عن الله ؟

إذن : ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِ (٢٣)﴾[المؤمنون] أننا لم نأتِ لكم برسول من جنس آخر ، ولا من قبيلة أخرى ، بل منكم ، وتَعرفون ماضيه وتاريخه ، فتأنسون بما يجىء به ، ولا تقفون منه موقف العداء .

أو يكون المعنى : إلى قوم منه ؛ لأنهم لا يكونون قوماً قوّامين على شئون إصلاح الحياة ، إلا إذا استمعوا منهجه ، فهم منه ؛ لأنهم سيأخذون منه منهج الله .

ثم يقول سبحانه : ﴿ فَقَالَ يَـٰقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُ..(٢٣)﴾[المؤمنون] (يا قوم) استمالة وتحنين لهم ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُ..(٢٣)﴾[المؤمنون] والعبادة طاعة عابد لأمر معبود ، والعبادة تقتضى تكليفاً بأمر ونهى . فالألوهية تكليف وعبادة ، أما الربوبية فعطاء وتربية ؛ لذلك قال سبحانه : ﴿هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٣٤)﴾ [هود] أى : ربكم جميعاً : ربّ المؤمن ، وربّ الكافر ، ربّ الطائع ، ورب العاصى .

وكما قلنا : الشمس والقمر والأرض والمطر .. الخ كلها تخدم الجميع ، لا فرْقَ بين مؤمن وكافر ؛ لأن ذلك عطاء الربوبية ، وإنْ سألت الكافر الجاحد : من خلقك ؟ من رزقك ؟ فلن يملك إلا أن يقول : الله ، إذن : فليخْزَ هؤلاء على أعراضهم ، وليعلموا أنه تعالى وحده المستحق للطاعة وللعبادة . فمقتضيات الربوبية والإيمان بها تقتضى أن نؤمن بالألوهية .

كما أن الطفل الصغير ينشأ بين أبيه وأمه ويشبّ ، فلا يجد غيرهما يخدمه ويقضى حاجته ويُوفِّر متطلباته ، بل ويزيل عنه الأذى

ويسهر على راحته . كل ذلك بروح سعيدة ونفس راضية مطمئنة ، ربما يجوعان لتشبع ، ويعريان لتكسى ، ويحرمان نفسيهما ليوفرا لك الحياة الكريمة ، فإذا ما كبر الصغير وبلغ الحُلُم ومبلغ الرجال نجده يعقُّهما ، ويخرج عن طاعتهما ، ويأخذه من أحضانهما أصدقاء السوء ، ويُزيّنون له التمرد على أبيه وأمه .

ونقول لمثل هذا العاق : اخْزَ على عِرْضك واسْتَحِ ، فليس هكذا يكون رد الجميل ، وأين كان هؤلاء الأصدقاء يوم أنْ كنتَ صغيراً تحتاج إلى من يعولك ويميط عنك الأذى ، ويسهر على راحتك ؟ قد كان ينبغى عليك ألاَّ تسمع إلا لمن أحسن إليك .

وهذا مثال لتوحيد الألوهية وتوحيد الربوبية - ولله المثل الأعلى - فكيف تأخذ من ربك عطاء الربوبية ، ثم تتمرد عليه سبحانه فى الألوهية ، فتعصى أمره وتكفر بنعمه ؟ كان من الواجب عليك الوفاء للنعمة .

ولا بد أن تعلم أن ربك - عز وجل - مأمون عليك فى التكليف بالأمر والنهى ، لأنك عبده وصنعته ، وأنك حين تُؤدِّى ما عليك تجاه الألوهية لا ينتفع الله سبحانه من ذلك بشىء ، إنما تعود منفعتها عليك ، وهكذا إذا ما رددت أمور الطاعة والعبادة والتكاليف لوجدتها تعود فى النهاية أيضاً إلى عطاء الربوبية ؛ لأنها تعود عليك أنت بالنفع .

فنحن نأخذ الأوامر والنواهى على أنها تكاليف وأعباء يقتضيها الإيمان بالألوهية ، نقول : نعم هى تكاليف من الله لكن لصالحك ، فلو أنصفتَ لوجدتَ الألوهية من الربوبية ، فحين يُحرِّم مثلاً عليك شرب الخمر ويحميك من فساد العقل ، هل ينتفع سبحانه من ذلك بشىء ؟

لذلك يقول تعالى عن هؤلاء : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ.. (٢٥) ﴾ [لقمان]

ويقول : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ.. (٨٧) ﴾ [الزخرف]

فما دام هو سبحانه خالقكم ورازقكم وخالق السموات والأرض ، فلماذا تعصونه ؟ وهل نقص عصيانكم من مُلْكه شيئاً ؟ وهل زاد فى مُلْكه شىء بطاعة مَنْ أطاع ؟ هل زاد فى مُلْك الله بطاعة الطائعين أرض أو سماء ، أو شمس أو قمر ؟

إن الحق سبحانه قبل أن يخلقكم خلق لكم بصفات الكمال فيه كل مُقوِّمات حياتكم واستدعاكم إلى كون مُعَدٍّ لاستقبالكم ولمعيشتكم . إذن : فربُّكَ ـ عز وجل ـ لا تنفعه طاعة ، ولا تضره معصية .

لذلك يقول فى الحديث القدسى : « يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك فى ملكى شيئاً ، ولو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئاً ، ولو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم وشاهدكم وغائبكم اجتمعوا فى صعيد واحد ، وسألنى كل واحد مسألته فأعطيتها له ما نقص ذلك مما عندى إلا كمغرز إبرة أحدكم إذا غمسه فى البحر ، وذلك أنِّى جواد واجد ماجد ، عطائى كلام ، وعذابى كلام ، إنما أمرى لشىء إذا أردتُه أن أقول له : كن فيكون »[1] .

إذن : حين تطيعنى فالخير لك ؛ لأنك ضمنتَ بهذه الطاعة حياة

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٥٧٧) كتاب البر والصلة ، والترمذى فى سننه (٢٤٩٥) من طريق آخر عن أبى ذر رضى الله عنه ، واللفظ للترمذى ، وقال : « هذا حديث حسن » .

أخرى خالدة باقية بعد هذه الحياة الفانية التى مهما أترفت فيها فهى إلى زوال ، فإما أنْ تفوت نعيمها بالموت ، وإما أنْ يفوتك بالحاجة والفقر ، أما فى الآخرة فالنعيم دائم بَاقٍ لا يفوتك ولا تفوته ؛ لأنها نعمة لا مقطوعة ولا ممنوعة .

لذلك قال سبحانه : ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٦٤)﴾ [العنكبوت] فكأن عطاء الألوهية ربوبية متعدية إلى زمن آخر غير زمن الدنيا ، فلا تظن أن طاعتك ستفيدنى فى شىء ، أو أن معصيتك ستضرنى بشىء ، ومن هنا قال تعالى : ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٨)﴾ [النحل]

وقوله تعالى : ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُ (٢٣)﴾ [المؤمنون] أى : معبود غيره ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ (٢٣)﴾ [المؤمنون] هذا استفهام يحمل معنى التهديد والتوبيخ ، لكن كيف يُوبِّخهم وهو لم يَزَلْ فى مرحلة الأمر بعبادة الله ، ولم يسمع منهم بعد بوادر الطاعة أو العصيان ؟ قالوا : يبدو أنه رأى منهم إعراضاً فأمرهم بتقوى الله .

والتقوى معناها أنْ تجعل بينك وبين ربك وقاية تقيك صفات جبروته وقَهْره وتحميك من أسباب بَطْشه وانتقامه ، فلست مطيقاً لهذه الصفات . والوقاية التى تجعلها بينك وبين هذه الصفات هى أن تنفذ منهج الله بطاعة الأوامر واجتناب النواهى .

ومن عجيب تركيبات التقوى فى القرآن الكريم أنْ يقول سبحانه : ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ (١٩٤)﴾ [البقرة] ويقول : ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ..(٢٤)﴾ [البقرة] قالوا : نعم اتق الله ، واتق النار ؛ لأنك تتقى الله من متعلقات صفات قهره وغضبه ومنها النار ، فحين تتقى الله بالمنهج فقد اتقيْتَ النار أيضاً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾

الملأ : من الملء يعنى : الشىء الذى يملأ الشىء ، فالملأ يعنى الذين يملأون العيون بشرفهم ومكانتهم وعظمتهم وأبهتهم ، ومن ذلك قولهم : فلان ملءُ العين ، أو ملْءُ السمع والبصر ، ويقولون للرجل إذا بلغ فى الحُسْن مبلغاً : فلان قَيْد العيون يعنى : حين تراه لا تصرف بصرك إلى غيره من شدَّة حسنه كأنه قيَّد بصرك نحوه . أما فى المقابل فيقولون : فلان تتقحمه العين ولا تراه وكأنه غير موجود .

إذن : الملأ : هم الذين يملؤون صدور المجالس أُبَّهة وفخامة ووجاهة وسيادة ، لكن ، لماذا هؤلاء بالذات هم الذين تعصَّبوا ضده وواجهوه ؟

قالوا : لأن منهج الله ما جاء إلا لإصلاح ما فسد فى الكون وما استشرى فيه من شر ، فالحق ـ تبارك وتعالى ـ يُنزِل منهجاً على لسان رسول أول ، ويطلب من قومه أن يُبلِّغوا منهج رسولهم من بعده ، لكن تأتى الغفلة على هذا المنهج فيخرج الناس عنه ويأتى خروجهم عن منهج ربهم على عِدَّة صور :

فمنهم مَنْ يخرج عن منهج ربه ويصنع الذنب ، إلا أنه يعاود نفسه ويراجعها ويلومها وسرعان ما يتوب ويندم ، فزاجره من نفسه

وواعظه من داخله ، وهؤلاء الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً .

ومنهم مَنْ يخرج على منهج ربه خروجاً لا رجعةَ له ولا زاجر ، وهذا نسميه بلغتنا (فاقد) يعنى : لم يَعُدْ له زاجر من شرع ولا من ضمير . ويبقى بعد ذلك زاجر المجتمع حين يرى مثل هؤلاء الخارجين عن منهج الحق عليه أنْ يتصدَّى لهم ، ويقاطعهم ولا يودهم ولا يحترمهم ، وإلا لو ظَلَّ المنحرف ومرتكب القبائح على حاله من احترام الناس وتقديرهم ، ولو ظلَّ على مكانته فى المجتمع لتمادى فى غَيِّه وأسرف على نفسه وعلى مجتمعه فيستشرى بذلك الشر فى المجتمع ، ويعُمّ الفساد وتشيع الفوضى .

ألاَ ترى الشرع الحكيم حين جعل الدية فى القتل على العاقلة يعنى : عائلة القاتل ، لا على القاتل وحده ؟ لماذا ؟ لكى يأخذوا على يد ولدهم إنِ انحرف أو بدَتْ عنده بوادر الاعتداء ؛ لأنهم جميعاً سيحملون هذه التبعة .

ونقول : خُصَّ الملأ بالذات ؛ لأنهم هم المنتفعون بالشر والفساد فى المجتمع ، ومن مصلحتهم أنْ يستمر هذا الوضع لتبقى لهم سلطتهم الزمنية ومكانتهم ؛ لذلك هم أول مَنْ يقابلون الرسالات بالجحود والنكران . ألم يقل الحق سبحانه عنهم فى آية أخرى : ﴿مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا..(٢٧)﴾ [هود]

فهؤلاء الذين يُسمُّونهم أراذل هم المستضعفون والفقراء والمطحونون والمهمومون بأمور الخَلْق والدين والقيم ، فما إنْ تسمع آذانهم عن رسالة إلا تلهَّفوا عليها وارتموا فى أحضانها لأنها جاءت لتنقذهم ؛ لذلك يكونون أول مَنْ يؤمن . وإنْ جاء المنهج لإنصاف

هؤلاء ، فقد جاء أيضاً لينزع من أصحاب السلطان والقهر والجبروت سلطانهم وتعاليهم ، فلا بُدَّ أن يواجهوه ويعاندوه .

ومعنى : ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ..(٢٤) ﴾ [المؤمنون] كفروا : يعنى جحدوا وجود الله ﴿ مَا هَـٰذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ (٢٤) ﴾ [المؤمنون] فأول شىء صَدَّهم عن الرسول كونه بشراً ، إذن : فماذا كنتم تنتظرون ؟ وقد شرح هذا المعنى فى قوله تعالى : ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلاَّ أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولاً (٩٤) ﴾ [الإسراء]

ولا بُدَّ فى الرسول أن يكون من جنس المرسَل إليهم ؛ ليصح أن يكون لهم أُسْوة ، فيقلدوه ويهتدوا به ، وإلا لو جاء الرسول ملَكاً فكيف تتحقق فيه القدوة ؟ وكيف تطيعونه وأنتم تعلمون أنه ملَكٌ لا يأكل ولا يشرب ولا يتناسل ، وليست لديه شهوة ، ولا مُقوِّمات المعصية ؟

ولنفرض أن الله نزَّل عليكم ملَكاً ، فكيف ستشاهدونه وتتلقوْن عنه ؟ لا بُدَّ - إذن - أن يأتيكم فى صورة رجل لتتمكنوا من مشاهدته والتلقِّى عنه ، وهكذا نعود فى نقاش هذه المسألة إلى أنه رجل ؛ لذلك قال سبحانه : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ (٩) ﴾ [الأنعام] وتظل الشبهة باقية .

إذن : من الحُمْق أن نقول بأن يكون الرسول ملَكاً .

أما قولهم : ﴿ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ (٢٤) ﴾ [المؤمنون] نعم ، هو بشر ، لكن ليس كمثلكم ، فأنتم كاذبون فى هذه المثلية ، لأنه بشر اصطفاه الله بالوحى ؛ لذلك يقول رسول الله ﷺ : « يؤخذ منى فأقول : ما أنا إلا بشر مثلكم ، وأُعْطَى من الله فأقول : أنا لست كأحدكم » .

ويقول تعالى لرسول الله ﷺ : ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ ﴿٦﴾﴾ [فصلت] ومن هنا كانت الأفضلية فى أنه بشر يُوحَى إليه ، وما بشريته إلا للإيناس والإلْف .

ثم يتابع الحق سبحانه مقالة هؤلاء الكافرين من قوم نوح : ﴿يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ ﴿٢٤﴾﴾ [المؤمنون] يتفضّل : يعنى ينسب نفسه إلى الفضل والشرف والسيادة ليكون متبوعاً وهم تابعون ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ ﴿٢٤﴾﴾ [المؤمنون] يعنى : لو شاء أنْ يرسل رسولاً ﴿لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً ﴿٢٤﴾﴾ [المؤمنون] أى : رسلاً ، وقد رَدَّ الله تعالى عليهم هذا القول ، فقال تبارك وتعالى : ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾﴾ [الإسراء]

ثم يقولون : ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [المؤمنون] المراد بهذا : يعنى أن يأتى مَنْ يقول اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، لأن آباءنا الأولين كانوا يعبدون الأصنام ، ولم يأْتِ مَنْ يقول لنا هذا الكلام مثل نوح .

وهذا دليل على أنهم مُقلِّدون للآباء ، ليس لديهم تفكير واستقلال فى الرأى ينظرون به إلى الأشياء نظرة الحق والعدالة ، وفى موضع آخر قال تعالى عنهم : ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ[1] وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الزخرف]

ولو تأملنا حال المجتمعات ، ومنها مجتمعنا الذى نعيش فيه لوضح لنا كذب هؤلاء فى ادعائهم التقليد للآباء ، كيف ؟ تأمل حال

---

(١) قال ابن عباس : أى على دين ، وفى رده على سؤالات نافع بن الأزرق قال : على ملة غير الملة التى تدعونا إليها . [أوردهما السيوطى فى الدر المنثور ٣٧٢/٧ ، وعزا الأول لابن جرير الطبرى ، والثانى للطستى] .

الأجيال المختلفة تجد كل جيل له رأيه وتطلعاته ورغباته التى ربما اختلف فيها الابن عن أبيه ، فالأبناء الآن لهم رأى مستقل ، فالولد يختار مثلاً الكلية التى يرغبها ، الملابس التى يحبها ، وإنْ خالفتْ رأى أبيه ، بل ويصل الأمر إلى اتهام الآباء بالجمود والتخلف إنْ لزم الأمر ، وهذا موجود فى كل الأجيال .

إذن : لماذا لم تقولوا فى مثل هذه الأمور : إنا وجدنا آباءنا على أمة ؟ لماذا كانت لكم ذاتية ورأىٌ مستقل فى أمور الدنيا دون أمور الدين ؟ إنكم تتخذون الذاتية فيما يُلبِّى رغباتكم وشهواتكم وانحرافاتكم ، وتتخذون التقليد فيما يُقلِّل تكليفكم ؛ لأن التكليف سيُقيِّد هذه الرغبات والشهوات ويقضى على هذه الانحرافات ؛ لذلك يتمرد هؤلاء على منهج الله .

لذلك ، نعجب لما نراه ونسمعه من حال أبنائنا اليوم ، وكيف أفلتَ الزمام من الآباء والأمهات ، فالشاب يسير على هواه فى أمور انحرافية ، فإن وجَّهه أبوه أعرض عنه واتهمه بأنه من جيل قديم وقد ذهب زمانه بلا رجعة ، وقد تعدى الأمر من الأولاد إلى البنات ، فصرْن أيضاً يتمردْنَ على هذه القيم ولا يهتممن بها .

فقولهم : ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ (٢٤)﴾ [المؤمنون] وقولهم : ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ (٢٣)﴾ [الزخرف] هم كاذبون أيضاً فى هذه المقولة ؛ لأنهم لو صدَقوا لقلَّدوهم فى كل شىء فيما لهم وما عليهم فى أمور الدنيا وفى أمور الدين والقيم والأخلاق .

لذلك الحق ـ تبارك وتعالى ـ يعالج هذه القضية فى مواضع عدة من كتابه الكريم ، وبأساليب مختلفة ، منها قوله سبحانه : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا..(١٧٠)﴾ [البقرة]

لأن هذا يريحهم من مشقة التكاليف ، وإنْ كانت العبادة : طاعة عابد لمعبود فى أمره ونهيه ، فما أسهلَ عبادة الأصنام ؛ لأنها آلهة كما يدعون لكن ليس لها منهج ، وليس معها تكاليف ، فبأىِّ شىء أمرك الصنم ؟ وعن أىِّ شىء نهاك ؟ وماذا أعدَّ من جزاء لمن أطاعه ؟ وماذا أعدَّ من عقاب لمن عصاه ، إذن : معبود بلا منهج وبلا تكاليف ، وهذا دليل كذبهم فى عبادة الأصنام وغيرها من آلهتهم .

ألم يقولوا : ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ (٣)﴾ [الزمر] فهذا حُمْق وسَفَه وجهل ؛ لأن الكلام منطقياً لا يستقيم ، كيف تقولون نعبدهم وليس لهم منهج ، وليس لهم تكاليف ، والعبادة طاعة عابد لمعبود ؟

إذن : ما هو إلا خواء وإفلاس عقدىّ ؛ لذلك يردُّ الحق ـ تبارك وتعالى ـ عليهم فيقول سبحانه : ﴿أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ (١٧٠)﴾ [البقرة]

وفى موضع آخر يقول ـ سبحانه وتعالى ـ عنهم : ﴿قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا..(١٠٤)﴾ [المائدة] وهذه أبلغ من سابقتها ، لأنهم يُصعِّدون كفرهم ويُصرون عليه ، فقولهم : ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا (١٧٠)﴾ [البقرة] فلربما يراجعون أنفسهم فيهتدون إلى الحق ، ويخالفون الآباء .

لكن هنا : ﴿حَسْبُنَا..(١٠٤)﴾ [المائدة] يعنى : كافينا ، ولن نغيره ولن نحيد عنه ؛ لذلك يأتى تذييل كل آية بما يناسبها : ففى الأولى قال تعالى ردًا عليهم : ﴿أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا (١٧٠)﴾ [البقرة] وفى الأُخْرى قال ردًا عليهم : ﴿أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْلَمُونَ شَيْئًا..(١٠٤)﴾ [المائدة]

فذكر العقل فى الأولى ؛ لأن الإنسان يأتمر فيه بنفسه ، وذكر فى الأخرى العلم ؛ لأن الإنسان فى العلم يأتمر بعقله ، وعقل العلم أيضاً ، فالعلم - إذن - أوسع من العقل ؛ لذلك ذكره مع قولهم ﴿حَسْبُنَا..(١٠٤)﴾ [المائدة] الدالة على المبالغة والإصرار على الكفر .

كما نلحظ عليهم فى قولهم : ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا..(٢٤)﴾ [المؤمنون] أن الغفلة قد استحكمت فيهم ؛ لأن نوحاً عليه السلام يعتبر الجد الخامس بعد آدم عليه السلام ، فبينهما فترة طويلة ، فكيف ما سمعوا طوال هذه الفترة برسول أو نبى ، يقول : اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ؟

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ (٢٥)﴾

﴿إِنْ هُوَ..(٢٥)﴾ [المؤمنون] يعنى : ما هو و ﴿جِنَّةٌ﴾ : يعنى جنون ، وهو ستر العقل الذى يسيطر على حركة الإنسان فى الحياة فيسير حسب تقنيناتها (افعل كذا) و (لا تفعل كذا) ، أما المجنون فيعمل ما يخطر له دون أنْ يعرض الأعمال على العقل أو التفكير ؛ لذلك من عدالة الله فى خَلْقه أننا لا نؤاخذ المجنون على تصرُّفاته حين يعتدى على أحد منا بالسبِّ أو الضرب مثلاً ، ولا نملك إلا أن نبتسم له ، وندعو الله أن يعافينا مما ابتلاه به .

فإنْ كان هذا حال المجنون فى حركة حياته ، فهل يكون ذو الخلق الذى يسير وَفْق قوانين الحياة ومحكوماً بنظم وقيم خلقية ، هل يكون مجنوناً ؟ ومن العجيب أن تهمة الجنون هذه سائرة على لسان

المكذِّبين للرسل فى كل زمان ومكان ، وقد اتُّهم بها رسول الله ﷺ ، فردَّ الله عليهم ونفى عن رسوله هذه الصفة فى قوله : ﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (١) مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (٢) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ (٣) وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤)﴾ [القلم]

فكيف يكون ذو الخلق مجنوناً ؟ ولو كان ﷺ مجنوناً ، فلماذا استأمنوه على ودائعهم ونفائسهم ، واطمأنوا إليه ، وسمَّوْه الصادق الأمين ؟ إنهم ما فعلوا ذلك إلا لأنهم يعلمون خُلُقه ، وأنه محكوم بقيم من الحق والخير لا تتزحزح .

وما دام الأمر لا يعدو أن يكون رجلاً به جِنَّة ﴿فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ (٢٥)﴾ [المؤمنون] أى : انتظروا واتركوه وشأنه ، فربما عاد إلى صوابه ، وترك هذه المسألة من تلقاء نفسه حين يرانا منصرفين عنه غير مُهتمين به ، أو دَعُوه فإنْ كان على حق ونصره الله وأظهر أمره عندها نتبعه ، وإنْ كانت الأخرى فها نحن مُعرِضون عنه من بداية الأمر .

﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ (٢٦)﴾

بعد أنْ كذَّبه قومه دعا الله أن ينصره ﴿بِمَا كَذَّبُونِ (٢٦)﴾ [المؤمنون] يعنى : انصرنى بسبب تكذيبهم ، واجعل تكذيبهم لا مدلولَ له فينتصر عليهم رغم تكذيبهم ، أو : يا رب عوِّضنى بتكذيبهم نصراً ، يعنى : أبْدِلنى من كذبهم نصراً ، كما تقول : اشتريت كذا بكذا ، فأخذت هذا بدل هذا .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ(١) فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ (٢٧) ﴾

استجاب الله تعالى دعاء نبيه نوح ـ عليه السلام ـ فى النُّصْرة على قومه ، فأمره بأن يصنع الفلك . والفُلْك هى السفينة ، وتُطلق على المفرد والجمع ، قال تعالى : ﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١١٩) ﴾ [الشعراء] وقال : ﴿ وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢) ﴾ [فاطر] فدلَّتْ مرة على المفرد ، ومرة على الجمع .

وقوله تعالى : ﴿ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا .. (٢٧) ﴾ [المؤمنون] دليل على أن نوحاً ـ عليه السلام ـ لم يكن نجاراً كما يقول البعض ، فلو كان نجاراً لهداه عقله إلى صناعتها ، إنما هو صنعها بوحى من الله وتوجيهاته ورعايته ، كما قال سبحانه : ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي (٣٩) ﴾ [طه] فالمعنى : اصنع الفُلْك ، وسوف أوفقك إلى صناعتها ، وأهديك إلى ما يجب أن يكون ، وأُصحِّح لك إنْ أخطأت فى وضع شىء فى غير موضعه ، إذن : أَمَرْتُ وأَعَنْتُ وتابعتُ . والوحى : هو خطاب الله لرسوله بخفاء .

ثم يقول تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ (٢٧) ﴾ [المؤمنون]

---

(١) التنور : مكان تفجُّر الماء ، والكانون الذى يُخبز فيه . وقوله تعالى : ﴿ وَفَارَ التَّنُّورُ (٢٧) ﴾ [المؤمنون] أى : تفجرت الأرض بماء كثير أو تفجرت بماء يشبه فوران النار فى التنور . [القاموس القويم ١/١٠٢] .

وهنا لم يتعرض السياق للفترة التى صنع فيها نوح السفينة ، والتى جاءت فى قوله تعالى : ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (٣٨)﴾ [هود] ذلك لأنهم لا يعلمون شيئاً عن سبب صناعتها .

وفى موضع آخر يُعْلمنا ـ سبحانه وتعالى ـ عن كيفية صُنْعها فيقول : ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ (١٣)﴾ [القمر] وقلنا : إن الدُّسُر : الحبال التى تُضَمُّ بها ألواح الخشب بعضها إلى بعض شريطةَ أن تكون جافة ، وتُضَم إلى بعضها بحكمة حتى إذا ما نزل الماء وتشرَّبت منه يزيد حجمها فتسدُّ المسام بين الألواح ، كما نراهم مثلاً يصنعون براميل الزيت من شرائح الخشب .

وقد صنع أحدهم سفينة من البَرْدى بهذه الطريقة ، وسافر بها إلى أمريكا واستخدم فيها الحبال بدلاً من المسامير .

ثم يقول سبحانه : ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا..(٢٧)﴾ [المؤمنون] يعنى : بإنجاء المؤمنين بك ، وإهلاك المكذبين ﴿وَفَارَ التَّنُّورُ(٢٧)﴾ [المؤمنون] والتنور : هو الفرن الذى يخبزون فيه الخبز ، ويقال : إنه كان موروثاً لنوح من أيام آدم ، يفور بالماء يعنى : يخرج منه الماء ، وهو فى الأصل محلٌّ للنار ، فيخرج منه الماء وكأنه يغلى . لكن هل كل الماء سيخرج من التنور ؟ الماء سيخرج من كل أنحاء الأرض وسينزل من السماء ، وفوران التنور هو إيذان بمباشرة هذه العملية وبداية لها .

إذا حدث هذا ﴿فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ (٢٧)﴾ [المؤمنون] يعنى : احمل وأدخل فيها زوجين ذكراً وأنثى من كل نوع من المخلوقات ، كما فى قوله تعالى : ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (٤٢)﴾ [المدثر] يعنى : أدخلكم ، وقال سبحانه : ﴿اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ ..(٣٢)﴾

[القصص] يعنى : أدخلها ، وقال سبحانه : ﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (١٢)﴾ [الحجر]

ومن مادة (سلك) أخذنا فى أعرافنا اللغوية . نقول : سلَّك الماسورة أو العين يعنى : أدخل فيها ما يزيل سدَّتها .

والتنوين فى ﴿مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ..(٢٧)﴾ [المؤمنون] يعنى : من كل شىء[1] نريد حفْظ نوعه واستمراره ؛ لأن الطوفان سيُغرق كل شىء ، والحق ـ تبارك وتعالى ـ يريد أن يحفظ لعباده المؤمنين مُقوِّمات حياتهم وما يخدمهم من الحيوانات والأنعام وجميع أنواع المخلوقات الأخرى من كل ما يلِدُ أو يبيض .

ومعنى ﴿زَوْجَيْنِ (٢٧)﴾ [المؤمنون] ليس كما يظنُّ البعض أن زوج يعنى : اثنين ، إنما الزوج يعنى فرد ومعه مثله ، ومنه قوله تعالى : ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٤٣) وَمِنَ الإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ..(١٤٤)﴾ [الأنعام]

فسمَّى كلَّ فرد من هذه الثمانية زوجاً ؛ لأن معه مثله .

هذا فى جميع المخلوقات ، أما فى البشر فلم يقُلْ زوجين ، إنما قال ﴿وَأَهْلَكَ (٢٧)﴾ [المؤمنون] أياً كان نوعهم وعددهم ، لكن الأهلية هنا أهلية نسب ، أم أهلية إيمانية ؟

الأهلية هنا يُراد بها أهلية الإيمان والاتباع ، بدليل أن الله تعالى

---

(١) قال الحسن البصرى : لم يحمل نوح فى السفينة إلا ما يلد ويبيض ، فأما البق والذباب والدود فلم يحمل شيئاً منها ، وإنما خرج من الطين . قاله القرطبى فى تفسيره [٦/٤٦٥٣].

شرح هذه اللقطة فى آية أخرى ، فقال على لسان نوح عليه السلام :
﴿فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي..(٤٥)﴾ [هود]

فقال له ربه : ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ (٤٦)﴾ [هود]

فبنوة الأنبياء بنوة عمل واتباع ، فإنْ جاءت من صُلْبه فأهلاً وسهلاً ، وإنْ جاءت من الغير فأهلاً وسهلاً . لذلك النبى ﷺ يقول عن سلمان الفارسى : « سلمان منا آل البيت »[1] فقد تعدى أن يكون مسلماً إلى أن صار واحداً من آل البيت .

وكذلك أدخل فيها أهلك من النسب بدليل أنه استثنى منهم : ﴿إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ (٢٧)﴾ [المؤمنون] وكان له امرأتان ، واحدة كفرت به وخانته هى وولدها كنعان ، والتى ذُكرت فى قول الله تعالى فى سورة التحريم : ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا..(١٠)﴾ [التحريم]

وكنعان[2] هو الذى قال : سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء وهذه اللقطة لم تذكر هنا ؛ لأن أحداث هذه القصة جاءت مُفرَّقة فى عدَّة مواضع ، بحيث لو جُمعت تعطى الصورة العامة للقصة ، فإنْ قُلْتَ : فلماذا لم تأتِ مرة واحدة كما فى قصة يوسف عليه السلام ؟

نقول : جاءت قصة يوسف كاملة فى موضع واحد ليعطينا بها الحق ـ سبحانه وتعالى ـ نموذجاً للقصة الكاملة المحبوكة التى تدل على قدرته تعالى على الإتيان بالقصة مرة واحدة لمن أراد ذلك ، فإنْ

---

(١) أخرجه الحاكم فى مستدركه (٥٩٨/٣) من حديث عمرو بن عوف المزنى . قال الذهبى والعجلونى فى كشف الخفاء (٥٥٨/١) : سنده ضعيف .

(٢) قال ابن كثير فى تفسيره (٤٤٦/٢) « قوله ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ ..(٤٢)﴾ [هود] هذا هو الابن الرابع واسمه يام » .

أردتها كاملة فنحن قادرون على ذلك ، وها هى قصة يوسف ، إنما الهدف من القصص فى القرآن هو تثبيت فؤاد النبى ﷺ كما قال تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً (٣٢) ﴾ [الفرقان] ؛ لأنه ﷺ سيقابل مواقف تكذيب وعداء وعناد من قومه ، وسيتعرض لأزمات شديدة ويحتاج إلى ما يُسلِّيه ويُثبِّته أمام هذه الأحداث .

لذلك جاءت لقطات القصص القرآنى متفرقة فى عدة مواضع لتسلية رسول الله ، والتخفيف عنه كلما تعرَّض لموقف من هذه المواقف ، وبجَمْع هذه اللقطات المتفرقة تتكون لديك القصة الكاملة المستوية .

وقد أدخل نوح معه زوجته الأخرى المؤمنة وأولاده : سام وحام ويافث وزوجاتهم ، فهؤلاء ستة ونوح وزوجه فهم ثمانية ، ومعهم اثنان وسبعون من المؤمنين وأصول الإيمان الباقى مع نوح عليه السلام .

ولما كان الحكم بغرق مَنْ كفر من أهله أمراً لا استئناف فيه ، قال تعالى بعدها : ﴿ وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ (٣٧) ﴾ [هود] لكن ظلموا مَنْ ؟ ظلموا أنفسهم حين كفروا بالله ، والحق سبحانه يقول : ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣) ﴾ [لقمان]

صحيح أنت حين كفرت أخذتَ حقَّ الله فى أنه واحد أحد موجود ، وإله لا معبود غيره ، وأعطيتَه لغيره ، لكن هذا الظلم لم يضر الله تعالى فى شىء إنما أضرَّ بك وظلمتَ به نفسك ، ومنتهى الحُمْق والسفه أن يظلم الإنسان نفسه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢٨) ﴾

﴿ اسْتَوَيْتَ (٢٨) ﴾ [المؤمنون] يعنى : استعليتَ وركبتَ أنت ومَنْ معك على الفُلْك واطمأنّ قلبك إلى نجاة المؤمنين معك ﴿ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ (٢٨) ﴾ [المؤمنون] فلا بد للمؤمن أن يستقبل نعَم الله عليه بالحمد ، وبألاَّ تُنسيه النعمةُ جلالَ المنعِم ، فساعةَ أنْ يستتب لك الأمر على الفُلْك وتطمئن بادر بحمد الله .

وفى موضع آخر يقول سبحانه : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢) ﴾ [يونس]

وكأن الحق ـ تبارك وتعالى ـ يعطينا حصانة ، ويجعل لنا أسوة بذاته سبحانه ، حتى إذا ما تعرضنا لنكران الجميل ممَّنْ أحسنَّا إليه لا نغضب ؛ لأن الناس ينكرون الجميل حتى مع الله عز وجل .

لذلك لما قال موسى ـ عليه السلام ـ : يا ربّ أسألك ألاّ يُقال فىَّ ما ليس فىَّ . يعنى : لا يتهمنى الناس ظلماً ، فردَّ عليه ربه عز وجل : « يا موسى ، كيف ولم أصنع ذلك لنفسى » .

إذن : فهذه مسألة لا يطمع فيها أحد ، ولو أن كل فاعل للجميل يضِنُّ به على الناس لأنهم ينكرونه لَفَسد الحال ، وتوقفت المصالح بين الخَلْق ، وضَنَّ أهل الخير بخيرهم ؛ لذلك وضع لنا ربنا ـ عز وجل ـ الأُسْوة بنفسه سبحانه .

والإنسان إنْ كان حسيساً لا يقف عند إنكارِ الجميل ، إنما يتعدّى ذلك فيكره مَنْ أحسن إليه ويحقد عليه ، ذلك لأن الإنسان مجبول على حب النفس والتعالى والغطرسة ، فإذا ما رأى مَنْ أحسن إليه كرهه ؛ لأنه يدكُّ فيه كبرياء نفسه ، ويَحدُّ من تعاليه .

ومن هنا قالوا : « اتق شرَّ مَنْ أحسنت إليه » لماذا ؟ لأنه يخزَى ساعة يراك ، وهو يريد أنْ يتعالى ، ووجودك يكسر عنده هذا التعالى .

إذن : وطِّنْ نفسك على أن الجميل قد يُنكَر حتى لو كان فاعله رب العزة سبحانه ، فلا يحزنك أنْ يُنكَر جميلك أنت .

وعن ذلك قال الشاعر[1] :

يَسير ذَوُو الحاجَات خلفَكَ خُضَّعاً ... فَإنْ أدركُوهَا خلَّفُوكَ وهَرْوَلُوا
وأفضلُهم مَنْ إنْ ذُكِرْت بسيء ... توقَّفَ لا ينفى وقد يتقوّل
فَلا تَدعِ المعْروفَ مَهما تنكَّرواً ... فَإنَّ ثوابَ الله أرْبَى وأجزَلُ

فالمعنى : إذا استويتَ أنت ومَنْ معك ، واستتبَّ لك الأمر على الفُلْك ، فإياك أنْ تغتَرّ أو تنأى بجانبك فتنسى حَمْد الله على هذه النعمة ؛ لذلك أمرنا حين نركب أى مركب أن نقول : « بسم الله مجريها ومرساها » لأنك ما أجريتها بمهارتك وقوتك ، إنما باسم الله الذى ألهم ، وباسم الله الذى أعان ، وباسم الله الذى تابعنى ، ورعانى بعينه ، وما دُمْتَ تذكر المنعم عند النعمة وتعترف لصاحب الفضل بفضله يحفظها لك .

أما أنْ تنكرها على صاحبها ، وتنسبها لنفسك ، كالذى قال : ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي .. ﴿٧٨﴾﴾ [القصص] فيقول: ما دام الأمر كذلك ، فحافظ أنت عليه .

---

(١) من قول الشيخ رحمه الله .

حتى فى ركوب الدَّابّة يُعلِّمنا ﷺ أنْ نقول : « سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون »[(١)] .

وقوله تعالى : ﴿ الَّذِى نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [المؤمنون] وذكر النجاة لأن دَرْءَ المفسدة مُقدَّم على جَلْب المنفعة .

ثم يُعلِّمه ربه دعاءً آخر يدعو به حين تستقر به السفينة على الجُودى ، وعندما ينزل منها ليباشر حياته الجديدة على الأرض :

﴿ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

وفى موضع آخر قال سبحانه : ﴿ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ .. ﴿٤٨﴾ ﴾ [هود] لأنك ستنزل منها وليست هى مكان معيشتك .

وكذلك دعا النبى ﷺ فقال كما حكى القرآن : ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ .. ﴿٨٠﴾ ﴾ [الإسراء]

فلا بُدَّ أن تذكر فى النعمة المنعمَ بها ، لذلك فالذين يُصابون فى نعم الله عليهم بأعين الحاسدين ، ثقْ تمام الثقة أنهم حين رأوْا نعمة الله عليهم لم يذكروا المنعم بها ، ولو أن الإنسان حين يرى نعمة من نعم الله عليه فى ماله أو ولده فيقول : ما شاء الله لا قوة إلا بالله ، ووضع النعمة فى حماية المنعم لضمن دوام نعمته وسلامتها من أعين الحاسدين ؛ لأنه وضعها تحت قانون الصيانة الإلهية .

---

(١) أخرج مسلم فى صحيحه (١٣٤٢) كتاب الحج من حديث ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ كان إذا استوى على بعيره خارجاً إلى سفر كبَّر ثلاثاً ، ثم قال « سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون » وكذا أخرجه أحمد فى مسنده (٢/١٤٤ ، ١٥٠) .

ومعنى : ﴿مُنزَلاً مُّبَارَكًا .. (٢٩)﴾ [المؤمنون] الشىء المبارك : الذى يعطى فوق ما يتصور من حجمه ، كأن يعيش شخص براتب بسيط عيشة كريمة ويُربِّى أولاده أفضل تربية ، فيتساءل الناس : من أين له ذلك ؟ ونقول : إنها البركة التى تحلّ فى القليل فيصير كثيراً ، صحيح أن الوارد قليل لكن يُكثِّره قلة المنصرف منه .

وقد مثّلنا لذلك بواحد يرتزق من الحلال ، فيُيسِّر الله أمره ، ويقضى مصالحه بأيسر تكلفة ، فإذا مرض ولده مثلاً يشفيه الله بقرص أسبرين وكوب من الشاى ، ولا يفزع لمرضه ؛ لأنه مطمئن القلب ، راضى النفس ، واثق فى معونة الله . أما الذى يتكسب من الحرام ويأكل الرشوة .. الخ إنْ مرض ولده يُهرع به إلى الأطباء ويتوقع فى ولده أخطر الأمراض ، فإنِ ارتشى بعشرة صرف عليها مائة .

وسبق أن قلنا : إن هذه البركة هى رزق السَّلْب الذى لا يزيد من دخلك ، إنما يُقلِّل من مصروفاتك .

وكلمة ﴿وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ (٢٩)﴾ [المؤمنون] أم أنه سبحانه المُنزِل الوحيد ؟ الله خير المنزلين يعنى : أباح أن يقال للعبد أيضاً مُنزِل حين يُنزل شخصاً فى مكان مريح ، كأن يُسكنه مثلاً فى شقة مريحة ، أو يستقبله ضيفاً عليه .. الخ . وإنْ كنتَ مُنزِلاً بهذا المعنى ، فالله عز وجل هو خير المنزلين ؛ لأنه سبحانه حين يُنزلك ينزل على قَدْره تعالى ، وعلى قَدْر كرمه وعطائه .

إذن : الحق ـ تبارك وتعالى ـ لم يضنّ عليه خَلْقه أنْ يصفهم بما وصف به نفسه ، فلم يضنّ عليك أنْ يصفك بالخَلْق فقال : ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤)﴾ [المؤمنون] فأثبت لك صفة الخَلْق ، لأنك توجد

معدوماً مع أنك تُوجده من موجود لله ، كأنْ تصنع من الرمل والنار كوباً من الزجاج مثلاً ، لكن ما توجده يظل جامداً على حالته لا ينمو ولا يتناسل ، وليست فيه حياة ، ومع ذلك سماك ربك خالقاً ، وكذلك قال : ﴿ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [الأنبياء] وقال : ﴿ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ [آل عمران]

وكما أن الله عز وجل لم يضنّ عليك بهذه الصفات ، فلا تضنّ عليه سبحانه بأنه خير المنزلين ، وخير الوارثين ، وخير الماكرين ، وأحسن الخالقين .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾

﴿ فِي ذَٰلِكَ .. ﴿٣٠﴾ ﴾ [المؤمنون] يعنى : فيما تقدم ﴿ لَآيَاتٍ .. ﴿٣٠﴾ ﴾ [المؤمنون] عبر وعظات وعجائب ، لو فكّر فيها المرء بعقل محايد لانتهى إلى الخير ﴿ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [المؤمنون] فلا تظن أن الابتلاء مقصور على الظلمة والكافرين الذين أخذهم الله وأهلكهم ، فقد يقع الابتلاء بمَنْ لا يستحق الابتلاء ، وحين يبتلى اللهُ أهلَ الخير والصلاح فما ذلك إلا ليزداد أجرهم وتُرفع مكانتهم ويُمَحّص إيمانهم .

ومن ذلك الابتلاءات التى وقعت بالمسلمين الأوائل ، فإنها لم تكُنْ كراهية لهم أو انتقاماً منهم ، إنما كانت تصفية لمعدنهم وإظهاراً لإيمانهم الراسخ الذى لا يتزعزع ؛ لأنهم سيحملون دعوة الله إلى أنْ تقوم الساعة ، فلا بُدَّ من تمحيصهم وتصفيتهم .

كما قال سبحانه : ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [العنكبوت] لا ، لابُدَّ من الابتلاء الذى يُميِّز الصادقين ممَّنْ

يعبد الله على حَرْف ، لا بُدَّ أن يتساقط هؤلاء من موكب الدعوة ، ولا يبقى إلا المؤمنون الراسخون على إيمانهم الذين لا تزعزعهم الأحداث .

إذن : المعنى ﴿وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [المؤمنون] يعنى : أهل الإيمان الذين لا يستحقون العذاب ؛ لأننا نحب أن نرفع درجاتهم ونُمحِّص إيمانهم ليكونوا أهْلاً لدعوة الله ؛ لذلك يقول الحق - تبارك وتعالى - فى الحديث القدسى :

« وعزتى وجلالى ، لا أُخرج عبدى من الدنيا وقد أردتُ به الخير حتى أوفيه ما عمله من السيئات ، من مرض فى جسمه وخسارة فى ماله ، وفقد فى ولده ، فإذا بقيتْ عليه سيئة ثقَّلت عليه سكرات الموت حتى يأتينى كيوم ولدته أمه .. وعزتى وجلالى ، لا أخرج عبدى من الدنيا وقد أردتُ به الشر حتى أوفيه ما عمله من الحسنات ، صحةً فى جسمه ، وبركة فى ماله وولده ، فإذا بقيتْ له حسنة خففتُ عليه سكرات الموت حتى يأتينى وليست له حسنة » .

إذن : فالابتلاء كما يكون انتقاماً من الكفرة والظلمة يكون كذلك تربيباً للنفع ، وتمحيصاً للإيمان ، وإرادة للثواب .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٣١﴾﴾

أى : من بعد قوم نوح عليه السلام ، وقلنا : إن القرن : الزمن الذى يجمع أُناساً متقاربين فى مسائل الحياة ، وانتهى العلماء إلى أن

القرن مائة عام ، أو إلى ملك مهما طال ، أو رسالة مهما طالتْ ، كلها تسمى قَرْناً[1] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾

جاء بعد قوم نوح عليه السلام قوم عاد ، وقد أرسل الله إليهم سيدنا هوداً عليه السلام ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا .. ﴿٦٥﴾ ﴾ [الأعراف] وقد دعاهم بنفس دعوة نوح : ﴿ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ .. ﴿٣٢﴾ ﴾ [المؤمنون] وقال لهم أيضاً : ﴿ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [المؤمنون]

إذن : هو منهج مُوحَّد عند جميع الرسالات ، كما قال سبحانه : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ..﴿١٣﴾ ﴾ [الشورى]

فدين الله واحد ، نزل به جميع الرسل والأنبياء ، فإنْ قلتَ : فما بال قوله تعالى : ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا .. ﴿٤٨﴾ ﴾ [المائدة]

نقول : نعم ، لأن العقائد والأصول هى الثابتة التى لا تتغير :

---

(١) قال الأزهرى : القرن أهل كل مدة كان فيها نبىّ أو كان فيها طبقة من أهل العلم ، قلَّتْ السنون أو كثُرت ، والدليل على هذا قول النبى ﷺ : « خيركم قرنى - يعنى أصحابى - ثم الذين يلونهم - يعنى التابعين - ثم الذين يلونهم - يعنى الذين أخذوا عن التابعين » . وقال القرطبى فى تفسير الآية (٦/٤٦٥٤) : « هم قوم عاد . والرسول هود ؛ لأنه ما كانت أمة أنشئت فى إثر قوم نوح إلا عاد » .

اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، أمّا المنهج والشريعة الخاصة بالفروع فهى محلُّ التغيير بين الرسل ؛ لأنها أمور تتعلق بحركة الحياة ، والحق ـ تبارك وتعالى ـ يعطى لكل بيئة على لسان رسولها ما يناسبها وما يعالج أمراضها وداءاتها .

والشِّرْعة : هى القانون الذى يحكم حركة حياتك ، أمّا الدين فهو الأمر الثابت والموحّد من قبل الله ـ عز وجل ـ والذى لا يملك أحد أنْ يُغيِّر فيه حرفاً واحداً .

لذلك ، كانت آفة الأمم أنْ يجعلوا أنفسهم فِرَقاً مختلفة وأحزاباً متباينة ، وهؤلاء الذين قال الله فيهم : ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ .. (١٥٩)﴾ [الأنعام]

وتأمل : ﴿فَرَّقُوا دِينَهُمْ .. (١٥٩)﴾ [الأنعام] ولم يقُلْ : فرّقوا شريعتهم ولا منهجهم ، ذلك لأن الدين واحد عند الله ، أمّا المناهج والشرائع فهى مجال الاختلاف على حَسْب ما فى الأمة من داءات ، فهؤلاء كانوا يعبدون الأوثان ، وهؤلاء كانوا يُطفِّفون الكيل والميزان ، وهؤلاء كانوا يجحدون نِعَم الله .. الخ .

وسبق أنْ أوضحنا أن اختلاف الداءات فى هذه الأمم ناتج عن العزلة التى كانت تبعدهم ، فلا يدرى هذا بهذا ، وهم فى زمن واحد . أمّا فى رسالة الإسلام ـ هذه الرسالة العامة الخاتمة ـ فقد جاءت على موعد من التقاء الأمم وتواصل الحضارات ، فما يحدث فى أقصى الشمال يعرفه مَنْ فى أقصى الجنوب ؛ لذلك توحدت الداءات ، فجاء رسول واحد خاتم بتشريع صالح لجميع الزمان ولجميع المكان ، وإلى قيام الساعة .

وآفة المسلمين فى التعصُّب الأعمى الذى يُنزل الأمور الاجتهادية التى ترك الله لعباده فيها حريةً واختياراً منزلةَ الأصول والعقائد التى لا اجتهادَ فيها ، فيتسرَّعون فى الحكم على الناس واتهامهم بالكفر لمجرد الاختلاف فى وجهات النظر الاجتهادية .

نقول : من رحمة الله بنا أنْ جعل الأصول واحدة لا خلافَ عليها ، أما الفروع والأمور الاجتهادية التى تتأتّى بالفهم من المجتهد فقد تركها الله لأصحاب الفهم ، وينبغى أنْ يحترم كُلٌّ منّا فيها رأى الآخر ، بدليل قول الله تعالى : ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ .. (٨٣) ﴾ [النساء]

وإلا لو أراد الحق سبحانه لَمَا جعل لنا اجتهاداً فى شىء ، ولجاءتْ كل مسائل الدين قهرية ، لا رأىَ فيها لأحد ولا اجتهاد ، أمّا الحق ـ سبحانه وتعالى ـ فقد شاءت حكمته أن يجمعنا جَمْعاً قهرياً على الأمور التى إنْ لم نجمع عليها تفسد ، أما الأمور التى تصلح على أى وجه فتركها لاجتهاد خَلْقه .

فعلينا ـ إذن ـ أنْ نحترم رأى الآخرين ، وألاَّ نتجرأ عليهم بل لنحترم ما اختاره الله لنا من حرية الفكر والاجتهاد .

وأُسْوتنا فى هذه المسألة سيرة رسول الله ﷺ ، وسلف هذه الأمة فى غزوة الأحزاب ، فلما هَبَّتْ الريح على معسكر الكفار فاقتلعت خيامهم وشتتت شملهم وفَرُّوا من الميدان انصرف رسول الله ﷺ إلى المدينة ، لكن سرعان ما أمره ربه بالتوجه إلى بنى قريظة لتأديبهم ، وأخبره ـ سبحانه وتعالى ـ أن الملائكة ما زالت على حال استعدادها ، ولم يضعوا عنهم أداة الحرب ، فجمع رسول الله الصحابة

وقال لهم : « مَنْ كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يصلين العصر إلا فى بنى قريظة »[(١)] .

وفعلاً ، سار الصحابة نحو بنى قريظة فيما بين العصر والمغرب ، فمنهم مَنْ خاف أنْ يدركه المغرب قبل أنْ يصلى العصر ، فصلى فى الطريق ومنهم مَن التزم بأمر رسول الله ﷺ بألاَّ يصلى إلا فى بنى قريظة ، حتى وإن أدركه المغرب ، حدث هذا الخلاف إذن بين صحابة رسول الله وفى وجوده ، لكنه خلاف فرعى ، لَمَّا رفعوه إلى رسول الله وافق هؤلاء ، ووافق هؤلاء ، ولم ينكر على أحد منهم ما اجتهد .

إذن : فى المسائل الاجتهادية ينبغى أن نحترم رأى الآخرين ؛ لذلك فالعلماء ـ رضى الله عنهم ـ وأصحاب الفكر المتزن يقولون : رأيى صواب يحتمل الخطأ ، ورأى غيرى خطأ يحتمل الصواب . فليت المسلمين يتخلصون من هذه الآفة التى فرَّقتهم ، وأضعفتْ شوكتهم بين الأمم . ليتهم يذكرون دائماً قول الله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ .. (١٥٩)﴾ [الأنعام]

ولما تكلم الحق ـ تبارك وتعالى ـ عن مسألة الوضوء ، قال سبحانه :

﴿يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ .. (٦)﴾ [المائدة]

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٤١١٩) وكذلك مسلم فى صحيحه ـ كتاب الجهاد والسير (ح ٦٩) من حديث ابن عمر رضى الله عنهما أن النبى ﷺ نادى فيهم يوم انصرف عنهم الأحزاب : « ألاَّ يصلين أحد الظهر إلا فى بنى قريظة » وفى لفظ « العصر » .

نلحظ أنه تعالى عند الوجه قال ﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ .. ﴿٦﴾﴾ [المائدة] دون أن يحدد للوجه حدوداً ، لماذا ؟ لأن الوجه لا خلافَ عليه بين الناس ، لكن فى الأيدى قال : ﴿وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ .. ﴿٦﴾﴾ [المائدة] فحدد اليد إلى المرفق ؛ لأنها محل خلاف ، فمن الناس مَنْ يقول : الأيدى إلى الكتف . ومنهم مَنْ يقول : إلى المرفق . ومنهم مَنْ يقول : هى كف اليد .

لذلك حدَّدها ربنا ـ عز وجل ـ ليُخرجنا من دائرة الخلاف فى غَسْل هذا العضو ، ولو تركها ـ سبحانه وتعالى ـ دون هذا التحديد لكانَ الأمر فيها مباحاً : يغسل كل واحد يده كما يرى ، كذلك فى الرأس قال سبحانه : ﴿وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ .. ﴿٦﴾﴾ [المائدة] وتركها لاحتمالات الباء التى يراها البعض للإلصاق ، أو للتعدية ، أو للتبعيض .

إذن : حين ترى مخالفاً لك فى مثل هذه الأمور لا تتهمه ؛ لأن النص أجاز له هذا الاختلاف ، وأعطاه كما أعطاك حقَّ الاجتهاد .

ثم قال الحق سبحانه :

﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾﴾

تكلمنا عن معنى ﴿الْمَلَأُ .. ﴿٣٣﴾﴾ [المؤمنون] وهم عَيْن الأعيان وأصحاب السلطة والنفوذ فى القوم ، والذين يضايقهم المنهج الإيمانى ، ويقضى على مكانتهم ، ويقف فى وجه طغيانهم وسيطرتهم واستضعافهم للخلق .

﴿وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا .. (٣٣)﴾ [المؤمنون] تماماً كما حدث مع سابقيهم من قوم نوح ﴿وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. (٣٣)﴾ [المؤمنون] مادة : ترف مثل فرح ، نقول : ترف الرجل يترف إذا تنعّم ، فإذا زِدْتَ عليها الهمزة (أترف) نقول : أترفته النعمة ، أترفه الله ، يعنى : كانت النعمة سبب طغيان ، ووسَّع الله عليه فى النعمة ليتسع فى الطغيان .

وفى هذا المعنى ورد قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ .. (٤٤)﴾ [الأنعام] يعنى من منهج الحق ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ[1] (٤٤)﴾ [الأنعام]

ذلك ، ليكون الأَخْذ أقوى وأعنف وأبلغ فى الإيلام والحسرة ، وسبق أن ذكرنا تشبيهاً أضحك الحاضرين كثيراً ، ولله تعالى ـ المثل الأعلى ـ ، قلنا : إن الله تعالى إذا أراد أنْ يُوقع معانداً لا يُوقعه من فوق الحصيرة ، إنما يوقعه من فوق كرسى عالٍ ومكانة رفيعة ، ليكون (الهُدْر) أقوى وأشدّ .

فإن أخذ الإنسان العادى الذى لا يملك ما يتحسر عليه من مال أو جاه أو منصب ، فالأمر هيِّن ، أمّا حين يُرقِّيه ويُعلى منزلته ويُترفه فى النعيم ، ثم يأخذه على هذه الحال فلا شكَّ أنه أخْذ عزيز مقتدر ، وهذا أشدُّ وأنكَى .

إذن : أترفناهم يعنى : وسَّعنا عليهم وأمددناهم بالنعم المختلفة ليزدادوا فى كفرهم وطغيانهم ، على حَدِّ قوله تعالى : ﴿فَذَرْهُمْ فِي

---

(١) أبلس : حزن ويئس وتحيَّر وسكت غماً وهماً أو سكت لانقطاع حجته . [القاموس القويم ٨٢/١] .

غَمْرَتِهِمْ[1] حَتَّىٰ حِينٍ (٥٤) أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ (٥٥) نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ (٥٦)﴾ [المؤمنون]

إن الله تعالى يمدُّ لهؤلاء فى وسائل الغىّ والانحراف ليزدادوا منها ، ويتعمقوا فى آثامها لنتعمق نحن فى عذابهم والانتقام منهم .

ثم يحكى القرآن عنهم هذه المقولة التى سارت على ألسنتهم جميعاً فى كل الرسالات : ﴿مَا هَـٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ .. (٣٣)﴾ [المؤمنون] وكأن هذه الكلمة أصبحتْ لازمة من لوازم المكذِّبين للرسل المعاندين لمنهج الله ، ثم يؤكدون على بشرية الرسول فيقولون : ﴿يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ (٣٣)﴾ [المؤمنون] ألم يقُل كفار مكة لرسول الله ﷺ : ﴿مَا لِهَـٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ .. (٧)﴾ [الفرقان]

سبحان الله ، كأنهم يتكلمون بلسان واحد مع اختلاف الأمم وتباعد الأزمان ، لكن كما يقولون : الكفر ملة واحدة .

﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ (٣٤)﴾

خاسرون إنْ أطعتُم بشراً مثلكم ، لكنه بشر ليس مثلكم ، إنه بشر يُوحَى إليه ، فأنا لا أتبع فيه بشريته ، إنما أتبع ما ينزل عليه من الوحى .

﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ (٣٥)﴾

---

(١) أى : فى غيّهم وضلالهم . قاله ابن كثير فى تفسيره (٣/٢٤٧) قال القرطبى فى تفسيره (٦/٤٦٦٤) : « الغمرة فى اللغة ما يغمرك ويعلوك ، وأصله الستر . والغمر : الماء الكثير لأنه يغطى الأرض . والمراد هنا : الحيرة والغفلة والضلالة » .

إنهم ينكرون البعث بعد الموت الذى يعدهم به نبيهم ، لكن ما الإشكال فى مسألة البعث ؟ أليست الإعادة أهونَ من البَدْء ؟ وإذا كان الخالق ـ عز وجل ـ قد خلقكم من لا شىء فلأنْ يُعيدكم من الرفات أهون ، وإن كانت كلمة أهون لا تليق فى حق الله تعالى ؛ لأنه سبحانه لا يفعل أموره عن علاج ومزاولة ، إنما عن كلمة « كُنْ » لكن الحديث فى هذه المسألة يأتى بما تعارفتْ عليه العقول ، وبما يُقرِّب القضية إلى الأذهان .

﴿ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

﴿ هَيْهَاتَ .. ﴿٣٦﴾ ﴾ [المؤمنون] اسم فعل بمعنى بَعُد ، يعنى بَعُد هذا الأمر ، وهو أن نرجع بعد الموت ، وبعد أن صِرْنا عظاماً ورُفَاتاً .

والكلمة فى اللغة إما اسم أو فعل أو حرف : الاسم ما دَلَّ على معنى مستقل بالفهم غير مرتبط بزمن ، فحين تقول : سماء نفهم أنها كل مَا علاك فأظلَّك . والفعل كلمة تدل أيضاً على معنى مستقل بالفهم لكنه مرتبط بزمن ، فحين نقول : أكل نفهم المقصود منها ، وهى متعلقة بالزمن الماضى ، أما الحرف فكلمة تدل على معنى غير مستقل بذاته ، فالحرف (على) يدل على معنى الاستعلاء ، لكن استعلاء أى شىء ؟

فالمعنى ـ إذن ـ لا يستقل بذاته ، إنما يحتاج إلى مَا يوضحه ، كذلك (فى) تدل على الظرفية ، لكن لا تُحدد بذاتها هذه الظرفية ، كذلك من للابتداء وإلى للغاية ، ولكل من الاسم والفعل والحرف علامات خاصة يُعرف بها .

وغير هذه الثلاثة قسم رابع جاء مخالفاً لهذه القاعدة ؛ لذلك

يسمونه الخالفة وهو اسم الفعل مثل (هيهات) أى بَعُد ، فهو اسم يدل على معنى الفعل دون أن يقبل علامات الفعل ، ومثله شتان بمعنى تفرق ، أف بمعنى أتضجّر .. الخ .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى عنهم أنهم قالوا :

﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٣٧) ﴾

لقد استبعد هؤلاء أمر البعث ؛ لأنهم لا يعتقدون فى حياة غير حياتهم الدنيا ، فالأمر عندهم محصور فيها ﴿ إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا .. (٣٧) ﴾ [المؤمنون] إن : حرف نفي يعنى . ما هى ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلاَّ اللاَّئِي وَلَدْنَهُمْ .. (٢) ﴾ [المجادلة] يعنى : ما أمهاتهم إلا اللائى ولدْنَهم .

وقوله : ﴿ نَمُوتُ وَنَحْيَا .. (٣٧) ﴾ [المؤمنون] قد يظن البعض أنهم بهذا القول يؤمنون بالبعث ، لأنهم قالوا : (نموت ونحيا) فكيف يُنكرونه ؟

والمراد : نموت نحن ، ويحيا من خلف بعدنا من أولادنا ، بدليل قولهم بعدها : ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٣٧) ﴾ [المؤمنون]

﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ (٣٨) ﴾

يعنى : الرجل الذى أخبركم بمسألة البعث ﴿ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا .. (٣٨) ﴾ [المؤمنون] وعجيب منهم هذا القول ، فهم يعرفون الله ويعترفون ﴿ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ .. (٣٨) ﴾ [المؤمنون] فكيف يكون إلهاً دون أنْ يُبلغكم رسالة على لسان رسوله ؟ وإلاَّ ، فكيف ستعرفون منهج الله ؟ قالوا : بالعقل ، لكن العقل فى هذه المسألة لا يصح .

وسبق أنْ مثَّلنا لذلك ـ ولله المثل الأعلى : هَبْ أننا نجلس فى حجرة مغلقة ودَقَّ جرس الباب ، لا شكَّ أننا سنتفق جميعاً على أن طارقاً بالباب ، وهذا يسمى « تعقل » ، لكنا سنختلف فى التصوُّر : أهو رجل ؟ أم امرأة ؟ أم طفل ، أهو بشير أم نذير ؟ .... الخ .

إذن : نتفق حين نقف عند التعقُّل ، لكن كيف نعرف مَنْ بالباب ؟ نجعله هو يخبر عن نفسه حين نقول : مَن الطارق ؟ يقول : أنا فلان ، وجئتُ لكذا وكذا . فمَن الذى يبلغ عن التعقل ؟ صاحبه .

وكذلك عقلك يؤمن بأن الكون له خالق واجد تدلُّ عليه آيات الكون ، فأنتَ لو نظرتَ إلى لمبة الكهرباء هذه التى تنير غرفة واحدة ، وتأملتَ لوجدتَ وراءها مصانع وعدداً وآلات وعمالاً ومهندسين ومخترعين ، ومع ذلك لها قدرة محدودة ، ولها عمر افتراضى وربما كسرت لأىِّ سبب وطفئتْ .

أفلا تنظر كذلك إلى الشمس وتتأمل ما فيها من آيات وعجائب ، وكيف أنها تنير نصف الكرة الأرضية فى وقت واحد دون أنْ تتعطلَ ودون أنْ تحتاج إلى صيانة أو قطعة غيار ، ومع ذلك لم يدَّعها أحد لنفسه ، أفلاَ يدل ذلك على أن وراء هذا الخَلْق العظيم خالقاً أعظم ؟

إذا كنا نُؤرِّخ لمكتشف الكهرباء ومخترع المصباح الكهربائى ، ونذكر ماذا صنع ؟ وكيف توصّل إلى ما توصّل إليه ، أليس يجدر بنا أنْ نبحث فى خالق هذا الكون العجيب ؟

إنك لو حاولتَ أنْ تنظر إلى قرص الشمس أثناء النهار ، فإنَّ نظرك يكلُّ ولا تستطيع ، وإذا اشتدت حرارتها لا يطيقها أحد ، مع أن بينك وبين الشمس ثمانى دقائق ضوئية ، كل ثانية فيها ثلاثمائة ألف كيلومتر ، فأىّ طاقة هذه التى تنبعث من الشمس ؟

ومن عجائبها أيضاً أنك تشعر بحرارتها على الأرض المنبسطة فإذا ما ارتفعت فوق جبل مثلاً أو منطقة عالية تقلّ درجة الحرارة مع أنك تقترب من الشمس ، على خلاف ما لو أوقدتَ ناراً مثلاً فتجد أن حرارتها تنخفض كلما ابتعدت عنها ، أما الشمس فكلما اقتربت منها قلَّتْ درجة الحرارة ، فمَنْ يقدر على هذه الظاهرة ؟

فإذا جاء مَنْ يخبرنى أنه خالق هذه الشمس أقول له : إذن هى لك ، إلى أن يأتى منازع يدَّعيها لنفسه ، ولم يأت منازع يدَّعيها إلى الآن .

وقولهم : ﴿افْتَرَىٰ .. (٣٨)﴾ [المؤمنون] مبالغة منهم فى حقِّ رسولهم ؛ لأن الافتراء : تعمُّد الكذب ، والكذب كما قلنا : أن يأتى الكلام مخالفاً للواقع ، وقد يأتى الكلام مخالفاً للواقع لكن حسب علم صاحبه ، فهو فى ذاته صادق .

﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ (٣٩)﴾

سبحان الله ، كأن تاريخ الرسالات يعيد نفسه مع المكذِّبين ، وكأنه (أكلشيه) ثابت على ألسنة الرسل : اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، فيتهمونه ويُكذِّبونه ويقولون : ما أنت إلا بشر مثلنا ، فتأتى النهاية واحدة : ربِّ انصرنى بما كذَّبون ، يعنى : أبدلنى بتكذيبهم نَصْراً .

هذه قَوْلة هود ـ عليه السلام ـ حين كذَّبه قومه ، وقوْلة نوح ، وقوْلة كل نبى كذَّبه القوم ؛ لأن الرسول حين يُكذَّب من المرسل إليهم لا يفزع إلا إلى مَنْ أرسله ؛ لأن مَنْ أرسله وعده بالنصرة والتأييد : ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣)﴾ [الصافات]

وقال : ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ .. (٤٠) ﴾ [الحج]

وقال سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) ﴾ [الصافات]

فالمعنى : انصرنى لأنك أرسلتنى ، وقد كذَّبنى القوم بعد أن استنفدتُ فى دعوتهم كل أسبابى ، ولم يَعُدْ لى بهم طاقة ، ولم يَعُد لى إلا معونتك . والإنسان حين يستنفد كل الأسباب التى منحه الله إياها دون أن يصل إلى غايته فقد أصبح مضطراً داخلاً فى قوله سبحانه : ﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ .. (٦٢) ﴾ [النمل]

إذن : لا تلجأ إلى الله إلا بعد أنْ تؤدى ما عليك أولاً ، وتفرغ كل ما فى طاقتك فى سبيل غايتك ، لكن لا تقعد عن الأسباب وتقول : يا رب فالأرض أمامك والفأس فى يدك ومعك عافية وقدرة ، فاعمل واستنفد أسبابك أولاً حتى تكون فى جانب المضطر الذى يُجيب الله دعاءه .

لذلك نسمع كثيراً مَنْ يقول : دعوتُ الله ولم يستجب لى ، ونقول له : أنت لم تَدْعُ بدعاء المضطر ، أنت تدعو بدعاء مَنْ فى يده الأسباب ولكنه تكاسل عنها ؛ لذلك لا يُستجاب لك .

وهذه نراها حتى مع البشر ، ولله تعالى المثل الأعلى : هَبْ أنك صاحب مال وتجارة وجاءتك بضاعة من الجمرك مثلاً ، وجلست تراقب العمال وهم يُدخلونها المخازن ، فليس من مهامك الحمل والتخزين فهذه مهمة العمال ، لكن هَبْ أنك وجدت عاملاً ثقُلَ عليه حمْله وكاد الصندوق أن يوقعه على الأرض ، ماذا يكون موقفك ؟ لاَ شكَّ أنك ستفزع إليه وتأخذ بيده وتساعده ؛ لأنه فعل كل ما فى وُسْعه ، واستفرغ كل أسبابه وقواه ، فلم تضنّ أنت عليه بالعون .

كذلك ربك ـ عز وجل ـ يريد منك أن تؤدى ما عليك ولا تدعه لشىء قد جعل لك فيه أسباباً ؛ لأن الأسباب يد الله الممدودة لخَلْقه ، فلا ترد يد الله بالأسباب لتطلب الذات بلا أسباب .

لذلك جاء قول الرسل الذين كُذبوا : ﴿رَبِّ انصُرْنِي .. (٣٩)﴾ [المؤمنون] ليس وأنا قاعد متخاذل متهاون ، ولكن ﴿بِمَا كَذَّبُونِ (٣٩)﴾ [المؤمنون] يعنى : فعلت كل مَا فى وُسْعى ، ولم يَعُدْ لى بهم طاقة .

فتأتى الإجابة على وجه السرعة :

﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ (٤٠)﴾

﴿عَمَّا قَلِيلٍ .. (٤٠)﴾ [المؤمنون] يعنى : بعد قليل ، فـ (عن) هنا بمعنى بعد ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ (١٩)﴾ [الانشقاق] يعنى : بعد طبق .

أما ﴿مَّا .. (٤٠)﴾ [المؤمنون] هنا فقد دلَّتْ على الظرف الزمنى ؛ لأن المراد بعد قليل من الزمن .

﴿لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ (٤٠)﴾ [المؤمنون] حين يقع بهم ما كانوا به يُكذِّبون ، ويحلّ عليهم العذاب يندمون ، لأنهم لن يستطيعوا تدارك ما فاتهم ، فليس أمامهم إذن إلا الندم ، وهذه المسألة دلَّتْ على أن الفطرة الإنسانية حين لا تختلط عليها الأهواء تنتهى فى ذاتها إلى الحق ، وإنْ أخرجها الغضب إلى الباطل ، فإنها تعود إلى توازنها وإلى الجادة حين تهدأ ثورة الغضب .

والحق ـ تبارك وتعالى ـ يعطينا أدلةً وإشارات حول هذه القضية فى قصة ولدى آدم عليه السلام فيقول : ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَىْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ

إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٢٧) ﴾ [المائدة]

إلى أنْ قال سبحانه : ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ .. (٣٠) ﴾ [المائدة] فجاء القتل أثراً من آثار الغضب ، والمفروض أنه بعد أن قتله شفى نفسه ، وينبغى له أن يُسَرَّ لأنه حقق ما يريد ، لكن ﴿ فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ (٣١) ﴾ [المائدة]

أى : بعد أن هدأتْ ثورة الغضب بداخله ندم على ما فعل ، لماذا ؟ لأن هذه طبيعة النفس البشرية التى لا يُطغيها ولا يُخرجها عن توازنها إلا الهوى ، فإنْ خرج الهوى عادت إلى الاستقامة وإلى الحق ، وكأن الله تعالى خلق فى الإنسان مقاييس يجب ألاَّ تُفسدها الأهواء ولا يُخرِجها الغضب عن حَدِّ الاعتدال ، لذلك يقولون : آفة الرأى الهوى .

لقد استيقظ قابيل ، لكن بعد أنْ رأى عاقبة السوء التى وصل إليها بتسرُّعه ، لكن الذكى يستيقظ قبل رَدِّ الفعل .

لكن ، لماذا اختار لهم وقت الصباح بالذات : ﴿ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ (٤٠) ﴾ [المؤمنون] المتتبع لما حاق بالأمم المكذِّبة من العذاب والانتقام يجد أنه غالباً ما يكون فى الصباح ، كما قال تعالى : ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (١٧٦) فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ (١٧٧) ﴾ [الصافات]

وقال سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ (٣٨) ﴾ [القمر]

وقال سبحانه : ﴿ فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ (٢١) ﴾ [القلم]

ذلك ، لأن الصباح يعقب فترة النوم والخمول الحركى ، فيقومون من نومهم فيفاجئهم العذاب ، ويأخذهم على حين غفلة وعدم استعداد للمواجهة ، على خلاف إنْ جاءهم العذاب أثناء النهار وهم مستعدون .

وندمهم على أنهم كذَّبوا أمراً ما كان ينبغى أن يُكذَّب وقد جَرَّ

عليهم الوَيْلات ، والندم على خير فات من طبيعة النفس البشرية التى عادةً ما تغلبها الشهوة ويُغريها الحمق بردِّ الحق ، ويمنعها الكِبْر من الانصياع للرسول خاصة وهو بشر مثلهم ، ويريد فى ظنهم أنْ يستعلى عليهم ، لكن حين يواجهون عاقبة هذا التكذيب ونتيجة هذا الحمق يندمون ، ولاتَ ساعة مَنْدم .

إذن : فشهوة النفس تجعل الإنسان يقف موقفاً ، إذا ما جُوزى عليه بالشدة يندم أنه لم يُنفذ ولم يطع ، يندم على غطرسته فى موقف كان ينبَغى عليه أنْ يتنازل عن كبريائه ؛ لذلك يقولون : من الشجاعة أنْ تجبن ساعة .

ويحسن ذلك إذا كنت أمام عدو لا تقدر على مجابهته ، ونذكر للرئيس الراحل السادات مثل هذا الموقف حين قال : لا أستطيع أن أحارب أمريكا ، فالبعض فهم هذا القول على أنه ضَعْف وجُبْن ، وهو ليس كذلك ، إنما هو شجاعة من الرجل ، شجاعة من نوع راقٍ ؛ لأن من الشجاعة أيضاً أن تشجع على نفسك ، وهذه شجاعة أعلى من الشجاعة على عدوك ، وتصور لو دخل السادات مثل هذه الحرب فهُزِم كيف سيكون ندمه على شجاعة متهورة لا تحسب العواقب . وقد رأينا عاقبة الجرأة على دخول حرب غير متكافئة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾ ﴾

ما دام أن الحق ـ تبارك وتعالى ـ توعّدهم وحدَّد لهم موعداً ،

فلا بُدَّ أن يقع بهم هذا الوعيد فى الوقت ذاته ، وإلاَّ لو مَرَّ دون أن يصيبهم ما يندمون لأجله لانهدم المبدأ من أساسه ، ما دام أن الله تعالى قالها وسجَّلها على نفسه سبحانه فى قرآن يحفظه هو .

﴿عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [المؤمنون] فلا بُدَّ أن ينزل بهم العذاب فى الصباح .

لذلك ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ .. ﴿٤١﴾﴾ [المؤمنون] لا بالظلم والعدوان ، وفى موضع آخر قال سبحانه عنهم : ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾﴾ [الحاقة] والمعنيان يلتقيان ، لأن الريح الصرصر لها صوت مزمجر كأنه الصيحة والصراخ .

﴿فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً .. ﴿٤١﴾﴾ [المؤمنون] الغثاء : ما يحمله السيل من قش وأوراق وبقايا النبات ، فتكون طبقة طافية على وجه الماء تذهب بها الريح فى إحدى الجوانب ، والغثاء هو الزَّبَد الذى قال الحق سبحانه وتعالى عنه : ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ .. ﴿١٧﴾﴾ [الرعد]

وفى الحديث الشريف قال ﷺ لأصحابه : « يوشك أن تتداعَى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها - يعنى : يدعو بعضهم بعضاً لمحاربتكم كأنكم غنيمة يريدون اقتسامها - فقالوا : أمنْ قلَّة نحن يا رسول الله ؟ قال : بل أنتم يومئذ كثير ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل »[1] يعنى : شيئاً هيِّناً لا قيمةَ له يذهب سريعاً .

وقوله تعالى : ﴿فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾﴾ [المؤمنون] أى : بُعداً لهم عن رحمتنا ونعيمنا الذى كُنَّا نُمنِّيهم به ونَعدهم به لو آمنوا ،

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٥/٢٧٨) ، وأبو داود فى سننه (٤٢٩٧) من حديث ثوبان مولى رسول الله ﷺ .

وليس البُعد عن العـذاب ؛ لأن البعد مسافة زمنيـة أو مكانية ، نقول : هذا بعيد ، أى : زمنه أو مكانه ، المراد هنا البُعْد عن النعيم الذى كان ينتظرهم إنْ آمنوا .

والظلم : كـما قلنا أخْـذ حَقِّ الغـير ، والشـرك هو الظلم الأعظم ؛ لأنه ظلم فى مسـألة القمة ، والبـعض من السطحيـين يظن أن الشرك ظلم عظيم ؛ لأنك ظلمتَ الله سبحانه وتعالى ، لأنك أنكرتَ وجوده وهو مـوجود ، وأشـركتَ مـعه غـيره وهو واحـد لا شـريك له ، نعم أنت ظلمتَ ، لكن مـا ظلمتَ الله ؛ لأنه سـبحـانه لا يظلمـه أحد ، وإنْ كـان الظلم ـ كـما نقـول ـ أَخْذ حَقِّ الغـير ، فحقُّ الله مـحفـوظ وثابت له سبحانـه قبل أن يُوجَد مَنْ يعترف له بهذا الحق ، حقُّ الله ثابـت مهما علاَ الباطل وتبجَّح أهل الضلال .

لذلك يقول عز وجل : ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ .. ﴿٤٠﴾﴾ [التوبة] وفى المقابل : ﴿وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا .. ﴿٤٠﴾﴾ [التوبة] ولم يقُل قياسـاً على الأولى : وكلمةَ الله العليا ؛ لأن مـعنى ذلك أن كلمة الله لم تكُنْ عليـا فى يوم ما ؛ لذلـك جاءت وكلمـةُ الله مرفـوعةً على صـورة الجمـلة الاسميـة الدالّة على الثـبوت ﴿ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا .. ﴿٤٠﴾﴾ [التوبة] أى : دائماً ومهما علَتِ كلمة الكافرين . لماذا ؟

قالوا : لأن عُلُو كلمـة الكافرين فى ذَاته عُلُوٌّ لكلمة الله ، فـإذا علا الكفر واسـتشرى شرُّه وفسـاده يعض الناس ويُوقظ غفلتهم ويُنبـههم إلى خِسَّة الكفـر ودناءته وما جـرّه عليهم من ظلم وفـساد فـينكروه ويعودوا إلى جادة الطريق ، وإلى الحق الثابت لله عز وجل .

إذن : فكلمة الله هى العليا مهما كـانت الجولة لكلمة الذين كفروا ، وكمـا يقولون : والضـد يُظهر حُـسْنه الضدّ . والله عـز وجل لا يُسْلِم

الحق ، ولكن يتركه ليبلو غَيْرة الناس عليه ، فإنْ لم يغاروا عليه غار هو عليه .

وما داموا ما ظلموا الله ، ولا يستطيعون ذلك ، فما ظلموا إلا أنفسهم ، وإنْ عُقل ظلمك لغيرك وأخذك لحقه فلا يُعقَل ظلمك لنفسك ؛ لأنه أبشع أنواع الظلم وأبلغها .

﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾

قبل عدة آيات قال الحق تبارك وتعالى : ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [المؤمنون] فجاءتْ قرناً بصيغة المفرد ؛ لأن الحديث مقصور على عاد قوم هود ، أما هنا فقال تعالى : ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قُرُونًا .. ﴿٤٢﴾ ﴾ [المؤمنون] لأن الكلام سيأتى عن أمم ورسالات مختلفة ومتعددة ، فجاءت (قروناً) بصيغة الجمع ، قروناً متتابعة أو متعاصرة ، كما تعاصر إبراهيم ولوط ، وكما تعاصر موسى وشعيب عليهم جميعاً وعلى نبينا الصلاة والسلام .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾

تأملوا هذه الآية جيداً وارْعَوْها انتباهكم ، فلكل أمة أجلٌ تنتهى عنده تماماً ، مثل أجَل الأفراد الذى لا يتقدّم ولا يتأخّر ، فقرْن بعد قَرْن ، وأمة بعد أمة ، تمرُّ بأطوار شتى كأطوار حياة الإنسان ، ثم تنتهى إلى زوال ويعقبها غيرها .

فلكل أمة رسول يحمل إليها دعوة الله ومنهجه ويجاهد فى سبيل نشرها إلى أنْ ينصره الله وتنتشر دعوته ويتمسَّك الناس بها ، ثم

تصيبهم غفلة وفتور عن منهج الله ، فينصرفون عنه ويختلفون ويتفرقون ، فيكون ذلك إيذاناً بزوالها ثم يخلفها غيرها ؟

كذلك فى مسألة الحضارات التى تندثر ليحلَّ محلَّها حضارات أخرى أقوى ، نسمع عن حضارة قديمة فى مصر وفى الصين وفى اليمن ، نسمع عن الحضارة الرومانية والفينيقية .. الخ حضارات تتوالى وتأخذ حظها من الرُّقىِّ والرفاهية ، وتُورث أصحابها رخاوة وطراوة ، وتبدلهم بالجَلَد والقوة ليناً وضَعْفاً ، فيغفلوا عن أسباب رُقيِّهم وتقدُّمهم ، فتنهدم حضارتهم ويحلُّ محلَّها أقوى منها وأصلب .

وهذا مثال ونموذج فى حضارة بلغت أوج عظمتها : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (٨) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (١٠)﴾ [الفجر]

وإلى الآن ، ونحن نرى آثار الحضارة الفرعونية ، وكيف أنها تجذب انتباه أصحاب الحضارات الحديثة وتنال إعجابهم ، فيأتون إليها من كل أنحاء العالم ، مع أن حضارة عاد كانت أعظم منها ؛ لأن الله تعالى قال فى حقها : ﴿الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (٨)﴾ [الفجر]

ومع ذلك لا نرى لهم أثراً يدل على عظَم حضارتهم ، ولم يكُنْ لهذه الحضارة مناعة لتحمى نفسها ، أو تَحتفظ لها بشىء ، فانهارت وبادتْ ولم يَبْقَ منها حتى أثر .

كذلك أتباع الرسل يمرُّون بمثل هذه الدورة ، فبعد قوة الإيمان تصيبهم الغفلة ويتسرب إليهم الضعف وسوء الحال ، إلى أن يرسل الحق سبحانه رسولاً جديداً .

﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ (٤٣)﴾ [المؤمنون]

المعنى فى الجملة الأولى واضح ، فأىُّ أمة لا يمكن أنْ تسبق

أجلها الذى حدَّده الله لها ، ولا يمكنْ أن تنتهى أو تقوَّض قبل أنْ يحلَّ هذا الأجل .

لكن ما المراد بقوله سبحانه : ﴿وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ (٤٣)﴾ [المؤمنون] كيف يتأتَّى ذلك ؟ فهمنا : لا تسبق أجلها يعنى أجلها أن تقوض بعد عشرين سنة ، فلا يمكن أن تُقوَّض قبل خمس عشرة ، أما كونها تستأخر بعد أن بلغتْ العشرين إلى عشرة ، فكيف يتم ذلك ؟

نقول : لا تستأخر يعنى : من حيث الحكم هى لا تسبق الأجل وهى محكوم عليها بأنها لا تستأخر ؛ لأن الاستئخار بعد بلوغ الأجل مستحيل ، كما لو قلنا : شخص بلغ سنَّ العشرين لا يقدر أن يموت فى العاشرة . فالمعنى : الأصل فيه أنه لا يستأخر .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ (٤٤)﴾

﴿تَتْرَا .. (٤٤)﴾ [المؤمنون] يعنى : متوالين يتبع بعضهم بعضاً ؛ لذلك ظنَّها البعض فعلاً وهى ليست بفعل ، بدليل أنها جاءت فى قراءة أخرى[1] (تتراً) بالتنوين والفعل لا يُنوَّن ، إذن : هى اسم ، والألف فيها للتأنيث مثل حُبْلى .

أضفْ إلى ذلك أن التاء الأولى تأتى فى اللغة بدلاً من الواو ، كما جاء فى الحديث الشريف من نصيحة النبى ﷺ : « احفظ الله

(١) هى قراءة ابن كثير وأبى عمرو بالتنوين على أنه مصدر أدخل فيه التنوين على فتح الراء . [تفسير القرطبى ٦/٤٦٥٩] .

يحفظك ، احفظ الله تجدْه تجاهك ـ أو وجاهك »[١] يعنى : مواجهك .

فإذا أُبدلَتْ التاء الأولى فى (تتراً) واواً تقول (وتراً) يعنى : متتابعين فَرْداً فَرْداً ، والوتر هو الفَرْد .

ثم يقول سبحانه : ﴿كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ .. (٤٤)﴾ [المؤمنون] فهذه طبيعة ولازمة من لوازم المرسل إليهم ، وما من رسول أُرسل إلى قوم إلا كذّبوه ، ثم يلجأ إلى ربه : ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ (٣٩)﴾ [المؤمنون]

ولو لم يُكذَّب الرسول ما كان هناك ضرورة لإرساله إليهم ، وما جاء الرسول إلا بعد أن استشرى الباطل ، وعَمَّ الطغيان ، فطبيعى أنْ يُكذَّب من هؤلاء المنتفعين بالشر المستفيدين من الباطل والذين يدافعون عنه بكل قواهم ، وكأن تكذيبهم للرسل دليل على صواب مجىء الرسل ، وإلا لما كان هناك ضرورة لرسالات جديدة .

وقوله تعالى : ﴿فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا .. (٤٤)﴾ [المؤمنون] يعنى : يمضى واحد ويأتى غيره من الرسل ، أو نهلك المكذِّبين ثم يأتى بعدهم آخرون ، فيكذبون فنهلكهم أيضاً .

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ .. (٤٤)﴾ [المؤمنون] أحاديث : إما جَمْعاً لحديث كما نقول : أحاديث رسول الله ﷺ أو جمع : أحدوثة . وهى المقولة التى يتشدَّق بها الجميع ، وتلوكها كل الألسنة ، ومن ذلك قول الإنسان إذا كثُر كلام الناس حوله : (جعلونى حدوتة) يعنى على سبيل التوبيخ والتقريع لهم .

فقوله : ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ .. (٤٤)﴾ [المؤمنون] كأنه لم يبْقَ منهم

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (١/٢٩٣ ، ٣٠٣ ، ٣٠٧) ، والترمذى فى سننه (٢٥١٦) ، وقال : « حديث حسن صحيح » من حديث عبد الله بن عباس .

أثر إلا أنْ نتكلم عنهم ، ونذكرهم كتاريخ يُحْكَى ، وفى موضع آخر قال تعالى : ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ .. (١٩)﴾ [سبأ]

ثم يقول تعالى عنهم كما قال عن سابقيهم : ﴿فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ (٤٤)﴾ [المؤمنون] يعنى : بُعْداً لهم عن رحمة الله ، وبُعْداً لهم عن نعيم الله الذى كان ينتظرهم ، ولو أنهم آمنوا لنالوه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٤٥)﴾

تكررت قصة موسى ـ عليه السلام ـ كثيراً ومعه أخوه هارون ، كما قال : ﴿اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (٣١) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (٣٢)﴾ [طه] والبعض يظن أن موسى جاء برسالة واحدة ، لكنه جاء برسالتين : رسالة خاصة إلى فرعون ملخّصها : ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلا تُعَذِّبْهُمْ..(٤٧)﴾ [طه]

وجاء له بمعجزات تثبت صدْق رسالته من الله ، ولم يكن جدال موسى لفرعون فى مسألة الإيمان جزءاً من هذه الرسالة ، إنما جاء هكذا عرضاً فى المناقشة التى دارتْ بينهما .

والرسالة الأخرى هى رسالته إلى بنى إسرائيل متمثلة فى التوراة .

وقوله : ﴿بِآيَاتِنَا .. (٤٥)﴾ [المؤمنون] قلنا : إن الآيات جمع آية ، وهى الشىء العجيب الملفت للنظر الفائق على نظرائه وأقرانه ، والذى يكرم ويفتخر به . والآيات إما كونية دالّة على قدرة الله فى الخَلْق كالشمس والقمر .. إلخ كما قال سبحانه : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ .. (٣٧)﴾ [فصلت]

ومهمة هذه الآيات الكونية أنْ تلفت نظر المخلوق إلى بديع صنع الخالق وضرورة الإيمان به ، فمنها نعلم أنَ وراء الكون البديع خالقاً وقوة تمده وتديره ، فَمَنْ يمدُّ هذه الشمس بهذه القوة الهائلة ؟ إن التيار الكهربائى إذا انقطع تُطْفأ هذه اللمبة ، فمَنْ خلق الشمس من عدم ، وأمدَّها بالطاقة من عدم ؟

إذن : وراء هذا الكون قوة ما هى ؟ وماذا تطلب منا ؟ وهذه مهمة الرسول أنْ يُبلغنا ، ويُجيب لنا عن هذه الأسئلة .

وتُطلَق الآية أيضاً على المعجزة التى تثبت صِدْق الرسول فى البلاغ عن الله .

وتُطلق الآية على آيات القرآن الحاملة للأحكام والحاوية لمنهج الله إلى خَلْقه .

ثم يقول تعالى : ﴿وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٤٥)﴾ [المؤمنون] فعطف ﴿سُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٤٥)﴾ [المؤمنون] على ﴿بِآيَاتِنَا .. (٤٥)﴾ [المؤمنون] وهذا من عطف الصفة على الموصوف لمزيد اختصاص ؛ لأن الآيات هى السلطان ، فالسلطان : الحجة . والحجة على الوجود الأعلى آيات الكون ، والحجة على صِدْق الرسول المعجزات ، والحجة على الأحكام الآيات الحاملة لها .

وسَمَّى معجزة موسى عليه السلام (العصا) سلطاناً مبيناً أى : محيطاً ؛ لأنها معجزة متكررة رأينا لها عدة حالات : فهذه العصا الجافة مرة تنقلب إلى حيّة تلقَفُ الحيّات ، ومرة يضرب بها البحر فينفلق ، ومرة يضرب بها الحجر فيتفجر منه الماء ، وفوق ذلك قال عنها : ﴿وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ (١٨)﴾ [طه]

ومن معانىَ السلطان : القَهْر على عمل شىء أو الإقناع بالحجة لعمل هذا الشىء ، لذلك كانت حجة إبليس الوحيدة يوم القيامة أن يقول لأتباعه : ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي .. (٢٢)﴾ [إبراهيم] يعنى : كنتم رَهْن الإشارة ، إنما أنا لا سلطانَ لى عليكم ، لا سلطانَ قهر ، ولا سلطان حجة .

لذلك قال فى النهاية : ﴿مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ .. (٢٢)﴾ [إبراهيم] والإنسان يصرخ إذا فزَّعه أمر لا حيلة له به ، فيصرخ استنفاراً لمعين يُعينه ، فمَنْ أسرع إليه وأعانه يقال : أصرخه . يعنى : أزال سبب صراخه .

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ (٤٦)﴾

﴿فِرْعَوْنَ .. (٤٦)﴾ [المؤمنون] لقب لكل مَنْ كان يحكم مصر ، مثل كِسْرى فى الفرس ، وقيصر فى الروم ، وتكلَّمنا عن معنى (الملأ) وهى من الامتلاء ، والمراد القوم الذين يملؤون العيون مهابةً ومنزلةً ، وهم أشراف القوم وصدور المجالس ، ومنه قولهم : فلان قَيْد النواظر يعنى : مَنْ ينظر إليه لا ينصرف عنه إلى غيره .

وقوله تعالى : ﴿فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ (٤٦)﴾ [المؤمنون] والاستكبار غير التعالى ، فالمستكبر يعلم الحكم ويعترف به ، لكن يأبى أنْ يطيعه ، ويأنف أن يصنع ما أمر به ، أما العالى فهو الذى يظن أنه لم يدخل فى الأمر من البداية .

ومن هنا جاء قوله تعالى لإبليس لما أبى السجود لآدم : ﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥)﴾ [ص]

والعالون هم الملائكة المهيّمون فى الله ، والذين لا يدرون شيئاً عن آدم وذريته .

﴿ فَقَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لِبَشَرَيۡنِ مِثۡلِنَا وَقَوۡمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾

اعترضوا أيضاً هنا على بشرية موسى وهارون كما حدث من الأمم السابقة ، إنهم يريدون الرسول ملكاً ، كما جاء فى موضع آخر : ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلاَّ أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولاً ﴿٩٤﴾ ﴾ [الإسراء]

ومن الغباء أن يطلبوا ملكاً رسولاً ، فلو جاءهم الرسول ملكاً ، فكيف سيكون أسْوة للبشر ؟ وكيف سيروْنَه ويتلقّوْن عنه ؟ إذن : لا بُدَّ أنْ يأتيهم فى صورة بشر ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الأنعام]

وستظل الشبهة قائمة ، فما الذى يجعلك تُصدِّق أنه ملَك ؟

وقوله تعالى : ﴿ وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [المؤمنون] يعنى : كيف نؤمن لموسى وهارون وقومهما ـ أى : بنى إسرائيل ـ خدم لنا ، يأتمرون بأمرنا ، بل ونُذلّهم ونُذبِّح أولادهم ، ونستحيى نساءهم ، ونسومهم سوء العذاب ؟

وسمّى ذلك عبادة ، لأن مَنْ يخضع لإنسان ، ويطيع أمره كأنه عبده .

﴿ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡلَكِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾

أى : بالغرق ، وهذه قصة مشهورة معروفة ، وجعلها الله مُثْلة وعِبرةً .

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾

﴿ الْكِتَابَ .. ﴿٤٩﴾ ﴾ [المؤمنون] أى : التوراة ، وفيه منهج الهداية ﴿ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [المؤمنون] أى : يأخذون الطريق الموصّل للغاية الشريفة المفيدة من أقصر طريق .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾ ﴾ (١)

بعد أن أعطانا هذه اللقطة الموجزة من قصة موسى وهارون انتقل إلى المسيح ابن مريم ، والقرآن فى حديثه عن عيسى عليه السلام مرة يقول : ابن مريم ومرة يقول : عيسى بن مريم . وتسمية عيسى عليه السلام بأمه هى التى جعلتْ سيدتنا وسيدة نساء العالمين مريم ساعة تُبشَّر بغلام تستنكر ذلك ، وتقول : كيف ولم يمسسنى بشر ؟ ولم يخطر ببالها أنها يمكن أنْ تتزوّج وتُنجب ، لماذا ؟ لأن الله

---

(١) الربوة : ما ارتفع من الأرض . قال ابن كثير فى تفسيره (٣/٢٤٦) : « اختلف المفسرون فى مكان هذه الربوة من أى أرض هى ؟

- بمصر . قاله عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، ليس الربى إلا بمصر . قال ابن كثير : وهو بعيد جداً .
- دمشق . قاله سعيد بن المسيب . وقال ابن عباس : أنهار دمشق .
- الرملة من فلسطين . قاله أبو هريرة .
- بيت المقدس . قاله الضحاك وقتادة .

قال ابن كثير : « هذا والله أعلم هو الأظهر ؛ لأنه المذكور فى الآية الأخرى ، والقرآن يفسر بعضه بعضاً ، وهذا أَوْلَى ما يُفسّر به ثم الأحاديث الصحيحة ثم الآثار » .

سمَّاه ابن مريم ، وما دام سماه بأمه ، إذن : فلن يكون له أب .

وليس أصعب على الفتاة من أن تجد نفسها حاملاً ولم يمسسها رجل ؛ لأن عِرْض الفتاة أغلى وأعزّ ما تملك ، لذلك مهّد الحق ـ تبارك وتعالى ـ لهذه المسألة ، وأعدَّ مريم لاستقبالها ، وأعطاها المناعة اللازمة لمواجهة هذا الأمر العجيب ، كما نفعل الآن فى التطعيم ضد الأمراض ، وإعطاء المناعة التى تمنع المرض .

فلما دخل زكريا ـ عليه السلام ـ على مريم فوجد عندها رزقاً لم يأْتِ به ، وهو كفيلها والمسئول عنها ، سألها : ﴿أَنَّىٰ لَكِ هَـٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ .. (٣٧)﴾ [آل عمران] وكان هذا الردّ من مريم عن فَهْم تام لقضية الرزق ، ولم يكُنْ كلام دراويش ، بدليل أنها قالت بعدها : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٧)﴾ [آل عمران]

وفى هذا الموقف درس لكل أب ولكل ولىّ أمر ورب أسرة أن يسأل أهل بيته عن كل شىء يراه فى بيته ولم يأْتِ هو به ، حتى لا يدعَ لأولاده فرصة أنْ تمتد أيديهم إلى ما ليس لهم .

لقد انتفع زكريا ـ عليه السلام ـ بهذا القول وانتبه إلى هذه الحقيقة ، نعم زكريا يعلم أن الله يرزق مَنْ يشاء بغير حساب ، لكن ذلك العلم كان معلومة فى حاشية الشعور ، فلما سمعها من مريم خرجتْ إلى بُؤْرة شعوره ، وعند ذلك دعا الله أن يرزقه الولد وقد بلغ من الكِبَر عِتياً ، وامرأته عاقر .

وكذلك انتفعت بها مريم حين أحسَّتْ بالحمل دون أن يمسسْها بشر فاطمأنتْ ؛ لأن الله يرزق مَنْ يشاء بغير حساب .

وقوله تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ .. (٥٠)﴾ [المؤمنون] فأخبر

سبحانه عن المثنى بالمفرد ﴿آيَةً .. (٥٠)﴾ [المؤمنون] لأنهما مشتركان فيها : مريم آية لأنها أنجبت من غير زوج ، وعيسى آية لأنه وُلد من غير أب ، فالآية إذن لا تكون فى أحدهما دون الآخر ، وهما فيها سواء .

لذلك يراعى النص القرآنى هذه المساواة فيُقَدِّم عيسى فى آية : ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً .. (٥٠)﴾ [المؤمنون] ويقدم مريم فى آية أخرى : ﴿وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ (٩١)﴾ [الأنبياء] هذه العدالة فى النص لأنهما سواء فى الخبرية لا يتميز أحدهما على الآخر .

والآية هى الأمر العجيب الذى يُثبت لنا طلاقة قدرة الخالق فى الخَلْق ، وحتى لا يظن البعض أن مسألة الخَلْق مسألة (ميكانيكية) من أب وأم ، لذلك كان وجه العجب فى خَلْق عيسى أن يخرج عن هذه القاعدة ليجعله الله دليلاً على قدرته تعالى ، فإنْ أراد أنْ يخلق خلق من العدم ، أو من أب فقط ، أو من أم فقط ، وحتى فى اكتمال العنصرين يوجد الأب والأم ، لكن لا يوجد الإنجاب ، إذن : المسألة إرادة لله عز وجل ، وطلاقة لقدرة إلهية لا حدودَ لها .

يقول سبحانه : ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا .. (٥٠)﴾ [الشورى]

والآن نلاحظ أن البعض يحاول منع الإنجاب بشتى الوسائل ، لكن إنْ قُدِّر له مولود جاء رغم أنف الجميع ، ورغم إحكام وسائل منع الحمل التى تفننوا فيها .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ (٥٠)﴾ [المؤمنون] من الطبيعى بعد أن حملتْ مريم بهذه الطريقة أنْ تُضطهد

من قومها وتُطارد ، بل وتستحى هى من الناس وتتحاشى أن يراها أحد ، ألا ترى قوله تعالى عن ابنة شعيب : ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ .. (٢٥)﴾ [القصص] على استحياء ، لأنها ذهبت لاستدعاء فتىً غريب عنها ، فما بالك بمريم حين يراها القوم حاملاً وليس لها زوج ؟ إنها مسألة أصعب ما تكون على المرأة .

لذلك لما سئل الإمام محمد عبده وهو فى باريس : بأىٍّ وجه قابلتْ عائشة قومها بعد حادثة الإفك ؟ فألهمه الله الجواب وهداه إلى الصواب ، فقال : بالوجه الذى قابلتْ به مريمُ قومَها وقد جاءتْ تحمل ولدها ؛ ذلك لأنهم أرادوا أنْ يأخذوها سُبة ومطعناً فى جبين الإسلام .

ولما كانت مريم بهذه الصفة تولاها الله ودافع عنها ، فهذا يوسف النجار وكان خطيب مريم حين يرى مسألة حَمْلها ، وهو أغْير الناس عليها بدل أنْ يتشكك فيها ويتهمها يتحوّل قلبه عليها بالعطف ، كما قال تعالى : ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ .. (٢٤)﴾ [الأنفال]

فإذا به يخدمها ويحنُو عليها ؛ لأن الله أنزل المسألة على قلبه منزل الرضا ، وكل ما قاله فى مجادلة مريم وفى الاستفسار عَمَّا حدث بطريقة مهذبة : يا مريمُ أرأيتِ شجرة بدون بذرة ؟ فضحكتْ مريم وقد فهمت ما يريد وقالت : نعم الشجرة التى أنبتت أول بذرة[1] إنه كلام أهل الإيمان والفهم عن الله .

لذلك آواها الله وولدها ﴿وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ (٥٠)﴾

(١) أورده ابن كثير فى تفسيره (٣/١١٦) وفيه أن مريم عليها السلام ردت عليه فقالت : « أما قولك هل يكون شجر من غير حب وزرع من غير بذر فإن الله قد خلق الشجر والزرع أول ما خلقهما من غير حب ولا بذر ، وهل يكون ولد من غير أب فإن الله تعالى قد خلق آدم من غير أب ولا أم » فصدّقها وسلم لها حالها .

[المؤمنون] وساعةَ تسمع كلمة الإيواء تفهم أن شخصاً اضطر إلى مكان يلجأ إليه ويأوى إليه ، وكذلك كانت مريمُ مضطرة تحتاج إلى مكان يحتويها وهى مضطهدة من قومها . ولا بُدَّ فى مكان الإيواء هذا أنْ تتوفر فيه مُقوِّمات الحياة ، خاصة لمثل مريم التى تستعد لاستقبال وليدها ، ومقومات الحياة : هواء وماء وطعام .

فانظر كيف أعدَّ الحق ـ سبحانه وتعالى ـ لمريم مكان الإيواء : ﴿ وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ .. (٥٠) ﴾ [المؤمنون] وهى المكان العالى عن الأرض المنخفض عن الجبل ، فهو معتدل الجو ؛ لأنه بين الحرارة فى الأرض المستوية والبرودة فى أعلى الجبل .

﴿ ذَاتِ قَرَارٍ .. (٥٠) ﴾ [المؤمنون] يعنى : توفرتْ لها أسباب الاستقرار من ماء وطعام ، فالماء يأتيها من أعلى الجبال ويمرُّ عليها ماءً معيناً ، يعنى : تراه بعينك ، والطعام يأتيها من ثمار النخلة التى نزلت بجوارها .

ومعلوم أن الربوة هى أنسب الأماكن حيث يمر عليها الماء من أعلى ، ولا يتبقى فيها مياه جوفية تضرُّ بمزروعاتها ؛ لأنها تتصرف فى الأرض المنخفضة عنها .

لذلك ضرب لنا الحق ـ تبارك وتعالى ـ المثل للأرض الخصبة التى تؤتى المحصول الوافر ، فقال : ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ .. (٢٦٥) ﴾ [البقرة]

إذن : اختار الله تعالى لمريم القرار الذى تتوفر فيه مقومات الحياة على أعلى مستوى بحيث لا تحتاج أن تنتقل منه إلى غيره .

وبعد ذلك يتكلم الحق ـ سبحانه وتعالى ـ عن قضية عامة بعد أن تكلَّم عن القرار ومُقوِّمات الحياة ، وهى الطعام والشراب والهواء ،

فناسب ذلك أن يتكلم سبحانه عن المطعم :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾

لكن ، كيف يخاطب الحق ـ تبارك وتعالى ـ الرسل جميعاً فى وقت واحد ؟ نقول : لأن القرآن الكريم هو كلام الله القديم ، لم يأتِ خاصاً بمحمد ﷺ ، وإنْ نزل عليه فهو إذن خطاب لكل رسول جاء .

وبعد أن أمرهم الحق سبحانه بالأكل من الطيب أمرهم بالعمل الصالح : ﴿ وَاعْمَلُوا صَالِحًا .. ﴿٥١﴾ ﴾ [المؤمنون] ثم يقول سبحانه : ﴿ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾ [المؤمنون] كأن الحق سبحانه يقول : اسمعوا كلامى فيما آمركم به ، فأنا عليم وخبير بكل ما يُصلحكم ؛ لأننى الخالق الذى أعلم كيف تستقيم بنيتكم للحركة الصالحة للخير ، ولا تستقيم بنيتكم للحركة الصالحة للخير إلا إذا أخذتم المطعم من الحلال الطيب .

وكما قلنا : إن صانع الآلة يضع لها الوقود المناسب لتشغيلها ، وإلاّ تعطلتْ عن أداء مهمتها .

فلكى تؤدى الصالح فى حركة حياتك عليك أنْ تبدأ بالمطْعَم الطيب الذى يبنى ذراتك من الحلال ، فيحدث انسجاماً بين هذه الذرات ، وتعمل معاً متعاونة غير متعاندة ، وإن انسجمتْ ذراتُك وتوافقتْ أعانتك على الصالح .

فإنْ دخل الحرام إلى طعامك وتلوثتْ به ذراتُك تنافرتْ وتعاندت ، كما لو وضعتَ للآلة وقوداً غير ما جُعل لها ، فافهموا هذه القضية ؛ لأننى أنا الخالق فآمنُوا لى كما تؤمنونَ بقدرة الصانع حين يصنع لكم صناعة ، ويضع لكمَ قانون صيانتها .

إذن : أمر الحق سبحانه أولاً رسله بالأكل من الطيبات ؛ لأن

العمل الصالح يحتاج إلى جهاز سليم متوافق من داخله ؛ لذلك فى سيرة النبى ﷺ أن أم عبد الله أخت شداد بن أوس ، أرسلت إلى النبى فى يوم صامه وهو حارّ شيئاً من اللبن يفطر عليه ، وهو ﷺ يعلم أنها فقيرة لا تَملك شيئاً فأرسل إليها : من أين لك هذا اللبن ؟ فأرسلت إليه : من شاة عندى ، فبعث إليها : ومن أين لك بالشاة ؟ قالت : اشتريتها بمال دبّرته . فشرب رسول الله من اللبن[(١)] .

وإنْ كنا نحن لا نتحرى فى مَطْعمنا كُلَّ هذا التحرى ، لكن هذا رسول الله الذى يُنفذ منهج الله كما جاءه ، وعلى أكمل وجه . وفى الحديث الشريف : « أيها الناس ، إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً ، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين ، فقال : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٥١) ﴾ [المؤمنون] وقال : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ .. (١٧٢) ﴾ [البقرة] ثم ذكر الرجل يطيل السفر ، أشعث أغبر ، يمد يديه إلى السماء يا رب يا رب ومطعمه حرام ، ومشربه حرام ، وملبسه حرام ، وغُذِّى بالحرام ، فأنَّى يُستجاب لذلك ؟»[(٢)] .

نعم ، كيف يُسْتجاب له وهو يدعو الله بجهاز إرسال فاسد مُشوّش دَنَّسه وخالطه الحرام ؟

وفى حديث سيدنا سعد رضى الله عنه لما قال لرسول الله : يا رسول الله ادْعُ الله لى أنْ أكون مُستجاب الدعوة ، فقال ﷺ :

---

(١) عن أم عبد الله أخت شداد بن أوس أنها بعثت إلى رسول الله ﷺ بقدح لبن عند فطره وهو صائم وذلك فى طول النهار وشدة الحر فرد إليها رسولها : أنى لك هذا اللبن ؟ قالت : من شاة لى . قال : فرد إليها رسولها : أنى كانت لك هذه الشاة ؟ قالت : اشتريتها من مالى فأخذه منها ، فلما كان من الغد أتته فقالت أم عبد الله : يا رسول الله بعثت لك باللبن مرثية لك من طول النهار وشدة الحر فرددت الرسول فيه فقال لها : بذلك أمرت الرسل ألا تأكل إلا طيباً ولا تعمل إلا صالحاً . أورده الهيثمى فى مجمع الزوائد (٢٩١/١٠) وقال : « رواه الطبرانى وفيه أبو بكر بن أبى مريم وهو ضعيف » .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٠١٥) ، وأحمد فى مسنده (٣٢٨/٢) ، والترمذى فى سننه (٢٩٨٩) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

« يا سعد أطبْ مطعمك تكُنْ مُستجاب الدعوة »[١] .

ثم يُذيِّل الحق سبحانه هذه الآية بقوله تعالى : ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٥١)﴾ [المؤمنون] يعنى : أعلم ما يُصلحكم ، وما يجلب لكم الخير .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ (٥٢)﴾

بعد أن تكلَّم الحق ـ سبحانه وتعالى ـ عن المعركة بين الإيمان والكفر أراد هنا أن يتكلم عن معركة أخرى لا تقلّ خطورة عن الأولى ، وهى معركة الفُرْقة والاختلاف بين صفوف المؤمنين ، ليحذرنا من الخلافات التى تشقُّ عصانا ، وتفُتُّ فى عَضُد الأمة وتُضعفها أمام أعدائها ، ونسمعهم الآن يقولون عنَّا بعدما وصلنا إليه من شَيع وأحزاب ـ ليتفقوا أولاً فيما بينهم ، ثم يُبشِّروا بالإسلام .

الأمة : الجماعة يجمعهم زمن واحد أو دين واحد ، وتُطلَق على الفرد الواحد حين تجتمع فيه خصال الخير التى لا تجتمع إلا فى أمة ، لذلك سمَّى الله تعالى نبيه إبراهيم أمة فى قوله تعالى : ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠)﴾ [النحل]

أما قوله سبحانه : ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا .. (٤٨)﴾ [المائدة] فكيف نقول : إنها أمة واحدة ؟

قالوا : لأن الدين يتكوّن من أصول وعقائد ، وهذه واحدة لا تختلف باختلاف الأديان ، وأخلاق وفروع . وهذه تختلف من دين لآخر باختلاف البيئة ؛ لأنها تأتى بما يناسب حركة الحياة فى كل عصر .

---

(١) عن ابن عباس قال : تليت هذه الآية عند رسول الله ﷺ : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِى الْأَرْضِ حَلَـٰلًا طَيِّبًا .. (١٦٨)﴾ [البقرة] فقام سعد بن أبى وقاص فقال : يا رسول الله ادع الله أن يجعلنى مستجاب الدعوة ، فقال رسول الله ﷺ : يا سعد أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة ، والذى نفس محمد بيده إن العبد يقذف اللقمة الحرام فى جوفه ما يتقبل منه العمل أربعين يوماً وأيما عبد نبت لحمه من سحت فالنار أولى به . أورده الهيثمى فى مجمع الزوائد (٢٩١/١٠) وقال : « رواه الطبرانى فى الصغير وفيه من لم أعرفهم » .

يقول تعالى : ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ .. (١٣)﴾ [الشورى]

إذن : فالأمة واحدة يعنى فى عقائدها وإن اختلفتْ فى الشريعة والمنهج ، والأحكام الجزئية التى تتعرض لأقضية الحياة . ومن ذلك قوله تعالى : ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ .. (٥٠)﴾ [آل عمران]

وكانوا فى الأمم السابقة إذا وقعت نجاسة على ثوب يقطعون الموضع الذى وقعت عليه ، فلما جاء الإسلام خفَّف عن الناس هذا العَنت ، وشرع لهم أنْ يغسلوه فيطهر .

وما دام أن أمتكم أمة واحدة ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ (٥٢)﴾ [المؤمنون] يعنى : اتقوا الله فى هذه الأمة الواحدة وأبقوا على وحدتها ، واحذروا ما يُفرِّقها من خلافات حول فروع إن اختلف البعض عليها اتهموا الآخرين بالكفر ؛ لأنهم يريدون أنْ يَنْهبوا من الدين الجامع سلطة زمنية لأنفسهم .

والحق - تبارك وتعالى - يقول : ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ .. (١٥٩)﴾ [الأنعام]

فالأمور التى أحكمها الله باللفظ الصريح المُحْكَم أصول لا خلافَ عليها ولا اجتهادَ فيها ، وأما الأمور التى تركها سبحانه للاجتهاد فيجب أن نحترم فيها اجتهاد الآخرين ، وإلا لو أراد الحق سبحانه لجعل الأمر كله مُحْكماً لا مجالَ فيه لرأى أو اجتهاد .

ومعنى ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ .. (٥٢)﴾ [المؤمنون] أن من عطاء ربوبيتى أنْ جعلْتُ لكم أموراً محكمة وعقائد ثابتة ؛ لأن الاختلاف فيها يفسد

المجتمع ، وتركتُ لكم أموراً أخرى تأتون بها أو تتركونها ، كُلٌّ حسب اجتهاده ؛ لأن الاختلاف فيها لا يترتب عليه فساد فى المجتمع ، وسبق أن مثَّلنا لهذه الأمور .

وقوله : ﴿فَاتَّقُونِ (٥٢)﴾ [المؤمنون] يعنى : بطاعة الأمر ، فما أحكمتُه فأحْكِموه ، وما جعلتُ لكم فيه اجتهاداً فاقبلوا فيه اجتهاد الآخرين .

لكن ، هل سمعنا قوْل الله وأطعْنَا ؟ يقول سبحانه :

﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٥٣)﴾

﴿زُبُرًا .. (٥٣)﴾ [المؤمنون] يعنى : قطعاً متفرقة ، ومنه ﴿آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ .. (٩٦)﴾ [الكهف]

﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٥٣)﴾ [المؤمنون] يعنى : كل جماعة تتعصب لرأيها وتفرح به ، وكأنها على الحق وغيرها على الباطل ، يريدون أن تكون لهم سلطة زمنية بين الناس ، ويُصوِّرون لهم أنهم أتوْا بما لم يأْتِ به أحد قبلهم ، وتنبّهوا إلى ما غفل عنه الآخرون .

﴿بِمَا لَدَيْهِمْ .. (٥٣)﴾ [المؤمنون] بالرأى الذى يريدونه ، لا بالحكم الذى يرتضيه الحق سبحانه وتعالى .

من ذلك قولهم : إن الصلاة فى مسجد به قبر أو ضريح باطلة ، وأن ذلك شرك فى العبادة .. إلخ ولو أن الأمر كما يقولون فليهدموا القبر فى المدينة .

إن على هؤلاء الذين يثيرون مثل هذه الخلافات أنْ يتفهموا الأمور

على وجهها الصحيح ، حتى لا نكون من الذين قال الله عنهم : ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٥٣)﴾ [المؤمنون]

وما أفسد استقبال الأديان السابقة على الإسلام إلا مثل هذه الخلافات ، وإلاّ فكل دين سبق الإسلام وخصوصاً الموسوية والعيسوية قد بشَّرَتْ بمحمد ﷺ ، وكانوا وهم أهل كتاب ورسالة وعلى صلة بالسماء ـ يجادلون أهل الكفر من عبدة الأصنام يقولون : لقد أطلَّ زمان نبى يظهر فيكم نتبعه ونقتلكم به قتل عاد وإرم[1] .

ومع ذلك : ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ .. (٨٩)﴾ [البقرة] لماذا ؟ لأنهم يريدون أن يحتفظوا بسلطتهم الزمنية .

كيف لا ينكرون رسول الله ﷺ ، وقد كان أحدهم[2] يستعد لتنصيب نفسه ملكاً على المدينة يوم أنْ دخلها رسول الله ، فأفسد عليه ما أراد ؟

﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ (٥٤)﴾

﴿فَذَرْهُمْ .. (٥٤)﴾ [المؤمنون] يعنى : دَعْهم ، والعرب لم تستعمل الماضى من هذين الفعلين ، فورد فيهما يدع ويذر . وقد ورد هذا الفعل أيضاً فى قوله تعالى : ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ .. (١١)﴾ [المزمل]

---

(١) عن أشياخ من الأنصار قالوا : كنا قد علوناهم قهراً دهراً فى الجاهلية ونحن أهل شرك وهم أهل كتاب وهم يقولون : إن نبياً سيبعث الآن نتبعه قد أطل زمانه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم ، فلما بعث الله رسوله من قريش واتبعناه كفروا به . ذكره ابن كثير فى تفسيره (١/١٢٤) نقلاً عن ابن إسحاق .

(٢) هو عبد الله بن أُبىّ بن سلول . رأس المنافقين فى المدينة ، أبو الحباب من خزاعة ، وسلول جدته لأبيه ، كان سيد الخزرج فى آخر جاهليتهم وكان كلما حلت بالمسلمين نازلة شمت بهم ، وكلما سمع بسيئة نشرها . توفى عام ٩ هجرية . [الأعلام للزركلي ٤/٦٥]

وفى قوله تعالى : ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَـٰذَا الْحَدِيثِ..(٤٤)﴾ [القلم]

والمعنى : ذرهم لى أنا أتولى عقابهم ، وأفعل بهم ما أشاء ، أو : ذرهم يفعلون ما يشاءون ليستحقوا العقاب ، وينزل بهم العذاب .

والغمرة : جملة الماء التى تغطى قامة الرجل وتمنع عنه التنفس ، فلا يبقى له من أمل فى الحياة إلا بمقدار ما فى رئته من الهواء ؛ لذلك يحرص الإنسان على أنْ يُمرِّن نفسه على أن تتسع رئته لأكبر قدر من الهواء .

ومن ذلك أخذت كلمة المنافسة ، وأصلها أن يغطس اثنان تحت الماء ليختبر كل منهما الآخر : أيّهما يبقى فترة أطول تحت الماء ودون تنفس .

ويقول تعالى : ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ (٢٦)﴾ [المطففين] وتستطيع أن تُجرى مع نفسك هذه المنافسة ، بأن تأخذ نفساً عميقاً ثم تعد : واحد ، اثنان وسوف ترى مقدار ما فى رئتك من الهواء .

فالمعنى : ذَرْهم فى غبائهم وغفلتهم فلن يطول بهم الوقت ؛ لأنهم كمن غمره الماء ، وسرعان ما تنكتم أنفاسه ويفارق الحياة ؛ لذلك قال تعالى بعدها : ﴿حَتَّىٰ حِينٍ (٥٤)﴾ [المؤمنون] والحين مدة من الزمن قد تطول ، كما فى قوله تعالى : ﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا.. (٢٥)﴾ [إبراهيم]

وقد تقصر كما فى قوله تعالى : ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ (١٧)﴾ [الروم] وكأن الله تعالى عَبّر بالغمرة ليدل على أن حينهم لن يطول .

ثم ينتقل السياق ليعالج قضية قد تشغل حتى كثيراً من المؤمنين :

﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾

هذه قضية شغلت كثيراً من المؤمنين حين يروْنَ الكافرين بالله مُرفَّهين مُنعّمين ، فى يدهم المال والنفوذ ، فى حين أن المؤمنين فقراء ، وربما تشكّك البعض واهتزَّ إيمانه لهذه المتناقضات .

ونقول لهؤلاء : لم تكن هذه صورة المؤمنين فى الماضى ، إنهم سادوا الدنيا بعلومهم وثقافاتهم وازدهرتْ حضارتهم على مدى ألف سنة من الزمان ، فلما تخلَّوْا عن دينهم وقِيَمهم حلَّ بهم ما هم فيه الآن .

لقد تقدم علينا الآخرون ؛ لأنهم أخذوا بأسباب الدنيا ، وينبغى علينا نحن المسلمين أن نأخذ أيضاً بهذه الأسباب ؛ لأنها من عطاء الربوبية الذى لا يُحرم منه لا مؤمن ولا كافر ، فَمنْ أحسنه نال ثمرته وأخذ خيره .

قال سبحانه : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الشورى]

والأسباب يد الله الممدودة لخَلْقه ، فَمنْ ردَّ يد الله إليه فلا بُدَّ أن يشْقى فى رحلة الحياة .

وقد يكون تنعُّم هؤلاء مجرد ترف يجرُّهم إلى الطغيان ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الأنعام]

لذلك فالحق ـ تبارك وتعالى ـ يعالج هنا هذه المسألة :

﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ (٥٥) نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ .. (٥٦)﴾ [المؤمنون] أيظنون أن هذا خير لهم ؟ لا ، بل هو إمهال واستدراج ليزدادوا طغياناً .

وفي موضع آخر يقول سبحانه : ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الدُّنْيَا .. (٨٥)﴾ [التوبة]

وقوله تعالى : ﴿بَل لَّا يَشْعُرُونَ.. (٥٦)﴾ [المؤمنون] (بل) : تفيد الإضراب عما قبلها وإثبات ما بعدها ، إضراب عن مسألة تنعُّم هؤلاء ؛ لأنها نعمة موقوتة وزائلة ، وهى فى الحقيقة عليهم نقمة ، لكنهم لا يشعرون ، لا يشعرون أن هذه النعمة لا تعنى محبتهم ورضانا عنهم ، ولا يشعرون بالمكيدة وبالفخ الذى يُدبَّر لهم .

وسبق أن أوضحنا أن الله تعالى حين يريد الانتقام من عدوه يُمدّه أولاً ، ويُوسِّع عليه ويُعلى مكانته ، حتى إذا أخذه كان أَخْذه مؤلماً وشديداً .

وقوله تعالى : ﴿نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ ..(٥٦)﴾ [المؤمنون] المسارعة ترد فى كتاب الله على مَعَانٍ : مرة يتعدَّى الفعل بإلى ، مثل : ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ .. (١٣٣)﴾ [آل عمران] ومرة يتعدى بفى ، مثل : ﴿يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ..(٦١)﴾ [المؤمنون] فما الفرق بين المعنيين ؟

سارع إلى كذا : إذا كنتَ خارجاً عنه ، وتريد أن تخطو إليه خُطَىً عاجلة ، لكن إنْ كنتَ فى الخير أصلاً وتريد أنْ ترتقى فيه تقول : سارع فى الخيرات . فالأولى يخاطب بها مَنْ لم يدخل فى حيِّز الخير ، والأخرى لمنْ كان مظروفاً فى الخير ، ويريد الارتقاء .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾

الخشية : هى أشد الخوف ، والإنسان قد يخاف من شىء ، لكن يبقى عنده أمل فى النجاة ، ويتوقّع من الأسباب ما ينقذه ويُؤمِّن خوفه ، لكن حين تخاف من الله فهو خوف لا منفذَ للأمل فيه ، ولا تهبُّ فيه هبّة تُشعرك بلطف .

ومعنى ﴿ مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [المؤمنون] الإشفاق أيضاً الخوف ، وهو خوف يُمدَح ولا يُذم ؛ لأنه خوف يحمل صاحبه ويحثّه على تجنُّب أسباب الخشية بالعمل الصالح ، إنه إشفاق من الذنب الذى يستوجب العقوبة ، كالتلميذ الذى يذاكر ويجتهد خوفاً من الرسوب ، وهكذا حال المؤمن يخاف هذا الخوف المثمر الممدوح الذى يجعله يأخذ بأسباب النجاة ، وهذا دليل الإيمان .

أمّا الإشفاق بعد فوات الأوان ، والذى حكاه القرآن عن المجرمين : ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا .. ﴿٤٩﴾ ﴾ [الكهف] فهذا إشفاق لا فائدة منه ؛ لأنه جاء بعد ضياع الفرصة وانتهاء وقت العمل ، فقد قامت القيامة ونُشِرت الكتب ولا أملَ فى النجاة إذن .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾

نلحظ فى هذه الآيات أن الحق سبحانه حدثنا عن الإشفاق والخشية ، ثم عن الإيمان بآيات الله ، ثم فى النهاية عن مسألة الشرك . وقد تسأل : لماذا لم يبدأ بالتحذير من الشرك ؟

نقول : لأن الشرك المراد هنا الشرك الخفى الذى يقع فيه حتى المؤمن ، والذى قال الله فيه : ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ (١٠٦)﴾ [يوسف] فلا تظن أن الشرك فقط أن تجعل لله شريكاً ، أو أن تسجد لصنم ، فمن الشرك شرك خفى دقيق يتسرب إلى القلب ويخالط العمل مهما كان صاحبه مؤمناً .

لذلك ، فالنبى ﷺ يُعلِّمنا الأدب فى هذه المسألة ، فيقول فى دعائه : « اللهم إنى أستغفرك من كل عمل أردتُ به وجهك فخالطنى فيه ما ليس لك »[(١)] .

فالإنسان يشرع فى العمل ويخلص فيه النية لله ، ومع ذلك يتسرب إليه شىء من الرياء وتزيين الشيطان ؛ لذلك وصف النبى ﷺ الشرك الخفى بأنه أخفى من دبيب النملة السوداء فى الليلة الظلماء على الصخرة الصماء[(٢)] .

كما أن الشرك الأكبر لا يتصور ممَّن هذه الصفات المتقدمة صفاته .

---

(١) ذكره ابن رجب الحنبلى فى « جامع العلوم والحكم » (ص ٢٧) من دعاء مطرف بن عبد الله أنه كان يقول : « اللهم إنى أستغفرك مما تبت إليك منه ثم عدت فيه ، وأستغفرك مما جعلته لك على نفسى ثم لم أف لك به ، وأستغفرك مما زعمت أنى أردت به وجهك فخالط قلبى منه ما قد علمتَ » .

(٢) أخرج أحمد فى مسنده (٤٠٣/٤) من حديث أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « أيها الناس اتقوا هذا الشرك فإنه أخفى من دبيب النمل فقال له من شاء الله أن يقول : وكيف نتقيه وهو أخفى من دبيب النمل يا رسول الله ؟ قال قولوا : اللهم إنا نعوذ بك من أن نشرك بك شيئاً نعلمه ونستغفرك لما لا نعلم » .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾﴾ (١)

﴿يُؤْتُونَ . ﴿٦٠﴾﴾ [المؤمنون] يعنى المال ، وقال بعدها : ﴿مَا آتَوْا .. ﴿٦٠﴾﴾ [المؤمنون] حتى لا يجعل لها حداً ، لا العُشْر ولا نصف العُشر ، يريد سبحانه أن يفسح لأريحية العطاء وسخاء النفس ، لذلك جاءت ﴿مَا آتَوْا .. ﴿٦٠﴾﴾ [المؤمنون] هكذا مُبْهمة حتى لا نظن أنها الزكاة ، ونعرف أن الله تعالى يفتح المجال للإحسانية والتفضُّل ، وهذا هو مقام الإحسان الذى قال الله تعالى عنه : ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الذاريات]

والمحسن : الذى يلزم نفسه من الطاعات فوق ما ألزمه الله ، لكن من جنس ما فرض الله عليه ، فإن كان الفرض فى الصوم شهر رمضان يصوم المحسن رمضان ويزيد عليه ؛ لذلك تجد الدقة فى الأداء القرآنى ، حيث يقول بعدها : ﴿كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الذاريات]

---

(١) عن عائشة رضى الله عنها قالت : سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ .. ﴿٦٠﴾﴾ [المؤمنون] قالت عائشة : أهم الذين يشربون الخمر ويسرقون ؟ قال : « لا يا بنت الصديق ، ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون وهم يخافون ألا يقبل منهم ، أولئك الذين يسارعون فى الخيرات » أخرجه أحمد فى مسنده (٦/١٥٩ ، ٢٠٥) ، والترمذى فى سننه (٣١٧٥) ، وابن ماجة فى سننه (٤١٩٨) ، واللفظ للترمذى .

وهذه أمور فوق ما فرض الله عليهم ، ولم يطلب منك أن تقوم الليل لا تنام ، لكن صَلِّ العشاء ونَمْ حتى الفجر ، وهذه المسألة واضحة فى قوله تعالى بعدها : ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾﴾ [الذاريات] ولم يقل (معلوم) لأن الآية لا تتكلم عن الحق المعلوم وهو الزكاة ، إنما عن الصدقة والتطوع فوق ما فرض الله .

والإبهام فى ﴿مَا .. ﴿٦٠﴾﴾ [المؤمنون] جاء أيضاً فى قول الله تعالى : ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾﴾ [طه] ولم يحدد مقدار الماء الذى غشيهم ، وترك المسألة مبهمة ليكون المعنى أبلغ ، ولتذهب الظنون فى هَوْلها كل مذهب .

لكن ؛ ما داموا قد أعْطوا ومدُّوا أيديهم للآخرين بالعطاء ، فلماذا يقول تعالى : ﴿وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ .. ﴿٦٠﴾﴾ [المؤمنون]

نقول : لأن العبرة ليست بمجرد العمل ، إنما العبرة بقبول العمل ، والعمل لا يُقبل إلا إذا كان خالصاً لوجه الله لا يخالطه رياء ولا سمعة ، فهم إذن يعملون ويتحرَّوْن الإخلاص وأسباب القبول ويتصدّق أحدهم بالصدقة ، بحيث لا تعلم شماله ما أنفقتْ يمينه ، ومع ذلك يخاف عدم القبول ، وهذه أيضاً من علامات الإيمان .

وكأن ربك عز وجل يَغَارُ عليك أنْ تعمل عملاً لا تأخذ عليه أجراً ؛ لأنك إنْ رأيت الناس فى شىء من العمل تركك الله وإياهم تأخذ منهم الجزاء ، فهذا إذن جَهْد مُهْدر لا فائدة منه ، وهذه المسألة لا يرضاها لك ربك .

وفى الحديث القدسى : « الإخلاص سِرٌّ من أسرارى أودعته

قلب مَنْ أحببت من عبادى ، لا يطلع عليه ملَك فيكتبه ، ولا شيطان فيفسده »[١] .

والوجل : انفعال قسرى واضطراب يطرأ على العضو من خوف أو خشية ، والخوف شىء يخيفك أنت ، أما الخشية فهى أعلى من الخوف ، وهى أن تخاف ممن يوقع بك أذى أشد مما أنت فيه .

ومن أهل التفسير مَنْ يرى أن الآية ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ .. (٦٠)﴾ [المؤمنون] جاءت فى الرجل الذى يسرق ، والذى يزنى ، والذى يشرب الخمر ، لكن قلبه وَجِلٌ من لقاء الله وخشيته ، فما يزال فيه بقية من بقايا الإيمان والحياء من الله تعالى . وقالوا : إن عائشة رضى الله عنها فهمت هذا من الآية[٢] .

لكن هذا الفهم لا يستقيم مع قوله تعالى ﴿يُؤْتُونَ .. (٦٠)﴾ [المؤمنون] أى : يؤتون غيرهم ، فهناك إذن مُؤتٍ ومُؤْتىً له ، ولو أراد السرقة والزنى وشرب الخمر لقال : يَأْتُون .

فالمراد : يؤتون غيرهم ما عليهم من الحق ، سواء أكانت هذه الحقوق لله تعالى كالزكاة والكفارات والنذور والحدود ، أو كانت متعلقة بالعباد كالودائع والأمانات والعدالة فى الحكم بينهم .. الخ فيؤدى المؤمن ما عليه من هذه الحقوق ، وقلبه وَجِلٌ ألاَّ يصاحب الإخلاص عمله فلا يقبل .

---

(١) ذكره الغزالى فى « إحياء علوم الدين » (٣٧٦/٤) قال العراقى فى تخريجه : « رويناه فى جزء من مسلسلات القزوينى مسلسلاً يقول كل واحد من رواته : سألت فلاناً عن الإخلاص فقال وهو من رواية أحمد بن عطاء الهجيمى عن عبد الواحد بن زيد عن حذيفة عن النبى ﷺ عن جبريل عن الله تعالى ، وأحمد بن عطاء وعبد الواحد كلاهما متروك وهما من الزهاد ورواه أبو القاسم القشيرى فى الرسالة من حديث على بن أبى طالب بسند ضعيف » .

(٢) سبق ذكر حديث عائشة وفهمها للآية صفحة ١٠٠٦٥ .

ثم يقول تعالى : ﴿ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (٦٠) ﴾ [المؤمنون] فالمؤمن يؤدى ما عليه ، ومع ذلك تراه خائفاً وَجِلاً ؛ لأنه يثق فى الرجوع إلى الله والوقوف بين يديه سبحانه ، وهو ربه الذى يُجازيه على قَدْر إخلاصه ، ويخاف أيضاً أن يفتضح أمره إنْ خالط عملَه شىءٌ من الرياء ؛ لأن ربه غيور لا يرضى معه شريكاً فى العمل ، وهو سبحانه يعلم كل شىء ويحاسب على ذرات الخير وعلى ذرات الشر .

وهناك أعمال فى ظاهرها أنها من الدين ، لكن فى طيها شىء من الرياء ، وإنْ لم يَدْرِ الإنسان به ، ومن ذلك قولهم : أفعل هذا لله ثم لك ، أو : توكلت على الله وعليك .. الخ ، فهذه العبارات وأمثالها تحمل فى طياتها معانى الشرك التى ينبغى أن نُنزِّه الله عنها ، فلا نعطف على الله تعالى أحداً حتى لا نشركه مع الله ، ولو عن غير قصد .

لذلك يقول تعالى : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ (١٠٦) ﴾ [يوسف] ويوم القيامة يطمئن أهل الإخلاص إلى الجزاء ، ويُفَاجأ أهل الشرك والرياء بوجود الله تعالى ، ولم يكن على بالهم حين عملوا : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ .. (٣٩) ﴾ [النور] إذن : ما دُمْنَا سنفاجأ بوجود الحق ، ولا شىء غير الحق ، فليكُنْ عملنا للحق ، ولا شىء لغير الحق .

﴿ أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ (٦١) ﴾

﴿ أُولَٰئِكَ .. (٦١) ﴾ [المؤمنون] أى : أصحاب الصفات المتقدمة ﴿ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ .. (٦١) ﴾ [المؤمنون] وفرْق بين أسرع وسارع : أسرع يُسرع يعنى : بذاته ، إنما سارع يسارع أى : يرى غيره

يسرع ، فيحاول أنْ يتفوق عليه ، ففيه مبالغة وحافز على المنافسة .

وسبق أنْ أوضحنا الفرق بين سارع إلى وسارع فى ، فمعنى ﴿يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ .. (٦١)﴾ [المؤمنون] أنهم كانوا فى حيِّز الخيرات ومظروفين فيه ، لكن يحاولون الارتقاء والازدياد من الخيرات للوصول إلى مرتبة أعلى .

وقوله تعالى : ﴿وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ (٦١)﴾ [المؤمنون] هل المسارعة هى علَّة أنهم سبقوا إلى الخيرات ، أم أنْ سَبْقهم إلى الخيرات علّة المسارَعة ؟

فى اللغة يقولون : سبب ومُسبب ، وشرط وجزاء ، وعلة ومعلول . فحين تقول : إنْ تذاكر تنجح ، فالمذاكرة سبب فى النجاح ، لكن هل سبقت المذاكرةُ النجاح ؟ لا ، بل وُجد النجاح أولاً فى بالك ، واستحضرت مميزاته وكيف ستكون منزلتك فى المجتمع وبين الناس ، وبذلك وجد عندك دافع وخاطر ، ثم أردت أنْ تحققه واقعاً ، فذاكرت للوصول إلى هذا الهدف .

إذن : فكل شرط وجواب : الجواب سبب فى الشرط ، والشرط سبب فى الجواب ، الجواب سبب فى الشرط دافعاً له ، والشرط سبب فى الجواب واقعاً وتنفيذاً ، فالنجاح وُجد دافعاً على المذاكرة ، والمذاكرة جاءت واقعاً ليتحقق النجاح .

وكذلك فى ﴿أُولَـٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ (٦١)﴾ [المؤمنون] فالمعنى : القصد أنْ يسبق فسارع ، سارع فى الواقع ليسبق بالفعل ، لكن السبْق قبل المسارعة ؛ لأن الذهن متهيىء له أولاً وحقائقه واضحة .

إذن : الشرط والجزاء ، والسبب والمسبب ، والعلة والمعلول تدور بين دافع هو الجواب ، وواقع هو الشرط .

ومعنى : ﴿ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [المؤمنون] يعنى : هم أهل لهذا العمل وقادرون عليه ، كما لو طلبتُ منك شيئاً فتقول لى : هذا شىء صعب فأقول لك : وأنت لها .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾

بعد أن تكلم الحق سبحانه عن المسارعة والمنافسة بيَّن أنها على قَدْر الوُسْع والطاقة ، وأنه سبحانه ما كلّفك إلا بعد علْمه بقدرتك ، وأنك تسع هذا التكليف ، فإياك أنْ تنظر إلى الحكم فتقول : أنا أسعه أو لا أسعه ، لكن انظر إلى التكليف : ما دام ربك قد كلّفك فاعلم أنه فى وُسْعك ، وحين يعلم منك ربك عدم القدرة يُخفِّف عنك التكليف دون أنْ تطلب أنت ذلك . والأمثلة على تخفيف التكاليف واضحة فى الصلاة والصوم والحج .. إلخ .

والآن نسمع مَنْ يقول : لم تَعُد الطاقة فى هذا العصر تسع هذه التكاليف ، فالزمن تغيّر ، والأعمال والمسئوليات كثرت ، إلى غير ذلك من هذه الأقوال التى يريد أصحابها التنصّل من شرع الله . ونقول : ما دام التكليف باقياً فالوُسْع بَاقٍ ، والحق ـ سبحانه وتعالى ـ أعلم بوُسْع خَلْقه وطاقاتهم .

إذن : أنا أنظر أولاً إلى التكليف ، ثم أحكم على الوُسْع من التكليف ، ولا أحكم على التكليف من الوُسْع .

ثم يقول سبحانه :﴿ وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (٦٢) ﴾ [المؤمنون] المراد هنا كتاب أعمالنا[1] الذى سجّل فيه كل شىء قدّمته الأيدى ، لكن : ما الحكمة من تسجيل الأعمال ؟ وهل يُكذِّب العباد ربهم عز وجل فيما سُجِّل عليهم ؟

قالوا : الحكمة من تسجيل الأعمال أن تكون حجة على صاحبها ، وليعلم أن الله ما ظلمه شيئاً ؛ لذلك سيقول له ربه : ﴿ اقْرَأْ كِتَابَكَ .. (١٤) ﴾ [الإسراء] يعنى : بنفسك حتى تُقام عليك الحجة ، ولا يكون عندك اعتراض .

ثم قال بعدها : ﴿ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (٦٢) ﴾ [المؤمنون] لأن الظلم لا يُتصوّر من الحق ـ سبحانه وتعالى ـ فالظلم نتيجة الحاجة ، وأنت تظلم غيرك حين تريد أن تنتفع بأثر الغير فى الخير زيادة عمّا عندك ، فالظلم إذن نتيجة الحاجة ، والحق سبحانه هو المعطى ، وهو الغنى الذى لا حاجةَ له إلى أحد ، فلماذا يظلم ؟

كذلك قد يظلم الضعيف ليأخذ ما فى يد غيره ليسُدّ حاجته أو شهوته ، ولو كان قوياً لكفى نفسه بمجهوده .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ (٦٣) ﴾

---

(١) ذكر القرطبى فى تفسيره (٦/٤٦٦٧) أقوالاً أخرى فى المراد بالكتاب فى الآية فقال : « وقيل : عنى اللوح المحفوظ ، وقد أثبت فيه كل شىء ، فهم لا يجوزون ذلك . وقيل : الإشارة بقوله ﴿ وَلَدَيْنَا كِتَابٌ .. (٦٢) ﴾ [المؤمنون] القرآن ، فالله أعلم ، وكل محتمل ، والأول أظهر » يقصد أنه كتاب إحصاء أعمال العباد ، وهو ما ذهب إليه فضيلة الشيخ الشعراوى رحمه الله تعالى .

﴿بَلْ .. (٦٣)﴾ [المؤمنون] حرف يدل على الإضراب عن الكلام السابق ، وإثبات الحكم للكلام بعدها . والغَمْرة كما قلنا : هى جملة الماء الذى يعلو قامة الإنسان حتى يمنع عنه التنفس ويحرمه الهواء ، وهو أول مُقوِّم من مُقوِّمات الحياة .

فالإنسان يصبر على الطعام شهراً ، ويصبر على الماء من ثلاثة أيام لعشرة ، إنما لا يصبر على النَّفَس إلا بمقدار ما يحتويه الصدر من الهواء ، فإنْ كان كانت رئتك سليمة تتسع لأكبر كمية من الهواء ، وتستطيع أنْ تتحمل عدم التنفس لفترة أطول ، أما إن كانت الرئة مُعتلّة ، فإنها لا تتسع لكمية كبيرة ، وسرعان ما ينتهى الهواء ويموت الإنسان .

ومن التنفس جاءت المنافسة ، كما فى قوله تعالى : ﴿وَفِى ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ (٢٦)﴾ [المطففين] ثم استُعملَتْ لكل عمل تُنافِس فيه غيرك ؛ لأن الهواء هو العنصر الأساسى فى الحياة .

لذلك الخالق ـ عز وجل ـ حينما خلق هذه البِنْية الإنسانية جعل لها نظاماً فريداً فى وقودها وغذائها على خلاف صَنْعة البشر ، فلو منعتَ البنزين مثلاً عن السيارة توقفتْ ، أمّا صنعة الخالق ـ عز وجل ـ فالجسم يأخذ حاجته من الطعام والماء ، ثم يختزن الباقى لوقت الحاجة ، وقد علم الحق سبحانه شهوتك وحبك للطعام وللشراب ، وأخْذك منهما فوق حاجتك ، فإنْ غاب عنك الطعام تغذَّى جسمك من هذا المخزن الربانى .

لذلك نرى البعض حين يتأخر عنه الطعام يقول : نفسى انصدت عن الأكل ، والحقيقة أنه أكل فعلاً ، وتغذى من مخزون الطعام والشراب فى جسمه .

ومن حكمة الله أن الطعام الفائض يُختزن فى صورة واحدة هى الشحم ، الذى يتحول تلقائياً إلى أىٍّ عنصر آخر يحتاجه الجسم ، فإذا انتهى الشحم تغذَّى الجسم على اللحم والعضلات ، ثم على العظام ، وهى آخر مخزن للقوت فى جسم الإنسان ؛ لذلك جاء فى قصة زكريا عليه السلام : ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا (٤)﴾ [مريم]

أما الهواء فليس له مخزن إلا بقدْر ما تتسع له الرئة ، فإذا نفد منها الهواء بشهيق وزفير فلا حيلة فيه ، ومن رحمة الله بعباده ألاّ يُملِّك الهواء لأحد ، فقد يملك الطعام وربما يملك الماء ، أمّا الهواء الذى يحتاجه فى كل نفَس ، فقد جعله الله ملْكاً للجميع ، حتى لا يمنعه أحد عن أحد ؛ لأنك لا تستطيع أن تحتال له كما تحتال للطعام وللشراب ، ولو غضب عليك مالك الهواء لمتّ قبل أنْ يرضى عنك .

ونلحظ هنا أن الغمرة لا تحتويهم هم ، إنما تحتوى القلوب : ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ .. (٦٣)﴾ [المؤمنون] وهذه بلوى أعظم ؛ لأن القلب محلٌّ لحصيلة المدركات التى يأخذها العقل ، ويُميِّز بينها ويختار منها ويُرجّح ، ثم تتحول هذه المدركات إلى عقائد تستقر فى القلب وعلى هَدْيها تسير فى حركة الحياة .

لذلك إنْ كان القلب نفسه فى الغمرة فالمصيبة أشدّ والبلاء أعظم ؛ لأنه مُسْتودع العقائد والمبادىء التى تُنير لك الطريق .

والقلب هو محلُّ نظر الله إلى عباده ، لذلك يقول سبحانه : ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا .. (١٧٩)﴾ [الأعراف]

وقال سبحانه: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ .. (٧)﴾ [البقرة] لأنهم أحبوا

الكفر واطمأنوا إليه ، ولأنه سبحانه ربٌّ متولٍّ ربوبية الخلق ، يعطيهم ما أرادوا حتى إنْ كان كفراً ؛ لذلك ختم على قلوبهم حتى لا يدخلها إيمان ولا يخرج منها كفر ؛ لأنهم عشقوا الكفر وأحبّوه .

لذلك نقول لأهل المصائب الذين يُصابون فى غَالٍ أو عزيز فيحزنون عليه ، ويبالغون بإقامة المآتم والسرادقات ، ويقيمون ذكرى الخميس والأربعين وغيرها ، وربما كان الابن عاقاً لوالديه فى حياتهما ، فإذا مات أبوه أو أمه أقام المآتم وشغل الناس ، وهو كما قال الشاعر :

لاَ أَعْرِفنَّك بعْد الموتِ تَنْدِبنى وفِى حَيَاتِى مَا بَلَّغْتَنى زَادَا

أو الأم التى فقدت وحيدها مثلاً ، فتعيش حزينة مُكدّرة ، وكأنها عشقتْ الحزن وأحبّته ، نحذر هؤلاء وننصح كل حزين أن يُغلق باب الحزن بمسامير الرضا والتسليم ، فالحزن إنْ رأى بابه مُوارباً دخل وظَلّ معك ولازمك .

وسبق أن وضحنا أن الحق سبحانه لا يرفع بلاءً عن عبده حتى يرضى به ، ولنا القدوة فى هذه المسألة بأبينا إبراهيم - عليه السلام - حين ابتلاه ربه بذبح ولده فى رؤيا رآها ، واعتبرها هو تكليفاً ، ورضى بقدر الله وسلّم لأمره ، ثم أخبر ولده ووحيده بهذه الرؤيا حتى لا يحرمه هذا الأجر ولا يأخذه على غرّة ، فيتغير قلبه عليه :

﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ[1] لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَادَيْنَاهُ أَن يَـٰإِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّءْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧) ﴾ [الصافات]

(١) تله : ألقاه على وجهه على الأرض . [القاموس القويم ١/١٠١] .

فبعد أن رضى إبراهيم وولده بقضاء الله رفع عنهما البلاء ، وجاءهما الفداء من الله لإسماعيل ، بل وزاده بأنْ بشّره بولد آخر هو إسحاق ، ومن وراء إسحاق يعقوب ، أجيال متعاقبة جاءتْ فضلاً من الله وجزاءً على الرضا بقضائه وقدره ، وما أحسن ما قال الشاعر[1] فى هذا الموقف :

سَلِّمْ لربك حُكْمه فلحكْمة ... يَقْضيه حتّى تستْريح وتَغْنَما
واذكُرْ خليلَ الله فِى ذَبْح ابنه ... إذْ قَالَ خالقُه فلمّا أسْلَما

إذن : إذا كانت القلوب نفسها فى غمرة ، فقد خرب جهاز العقائد والمبادىء ، وينشأ عن خرابه خراب حركة الحياة وانحراف السلوك . وقد أخذ القلب هذه الأهمية ؛ لأنه معمل الدم ، ومصدر سائل الحياة ، فإنْ فسدَ لا بُدَّ أنْ ينضح على باقى الجوارح ، فتفسد هى الأخرى ، ولو كان القلب صالحاً فلا بُدّ أنْ ينضحَ صلاحه على الجوارح كلها فتصلح ، كما جاء فى الحديث الشريف :

« ألا إن فى الجسد مُضْغة إذا صلُحت صلُح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب »[2]

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ [المؤمنون] يعنى الأمر لا يتوقف بهم عند مسألة العقائد ، إنما لهم أعمال أخرى كثيرة سيقعون فيها ، فالحق سبحانه لا يذكر لهم إلا قمم المخالفات ونماذج منها ، إنما فى علمه تعالى وفى لوحه المحفوظ أنهم سيفعلون كذا ويفعلون كذا ، وإنْ كانوا هم أنفسهم لا يعلمون أن ذلك سيحدث منهم لكن ربهم - عز وجل - يعلم بطلاقة القدرة ما كان وما سيكون .

---

(١) من شعر الشيخ رضى الله عنه .
(٢) متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٢) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير رضى الله عنه .

ومن عجائب قدرة الله أنه سبحانه يحكم على عبده الكافر أنه سيعمل كذا وكذا ، ومع ذلك لم يعاند أحد الكفار ، فيقول : إن الله حكم عليَّ بكذا ، ولكنى لن أفعل فيكون حكم الله عليه غير صحيح ؛ لأن الحق سبحانه لا يتحكم فيما يجريه علينا فحسب ، وإنما فى اختيار العبد ومراده ، مع أن العبد حُرٌّ فى أنْ يفعل أو لا يفعل .

وهذه القضية واضحة فى قوله تعالى عن أبى لهب : ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (٢) سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (٣)﴾ [المسد] فقوله : ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا .. (٣)﴾ [المسد] تفيد المستقبل ، فقد حكم الحق سبحانه عليه أنه سيكون فى النار ، وكان أبو لهب فى أمة ومَجْمع من القوم الكافرين ، ومنهم مَنْ آمن فمن يضمن أن يسمع أبو لهب هذا الحكم ومع ذلك لا يؤمن ويموت كافراً ؟

ثم ألم يَكُنْ بإمكان هذا (المغفل) أن يقف على ملأ ويقول : « لا إله إلا الله محمد رسول الله » ويدخل فى الإسلام ، فيكون الحكم فيه غير صحيح ؟ لكن هذا كلام الله وحكمه القديم لا يُردّ ولا يخالفه أحد مهما كان أمره فى يده وهو قادر على الاختيار ، هذا من طلاقة قدرة الله فى فِعْله وعلى خَلْقه فى أفعالهم .

فالمعنى : ﴿هُمْ لَهَا عَامِلُونَ (٦٣)﴾ [المؤمنون] حكم لا يُرد ولا يُكذَّب ، حتى وإنْ أخبر به صاحبه ؛ لأن علم الله تعالى مستوعبٌ لما كان ولما سيكون ، وكأن الحق سبحانه يقول : إن طلاقة القدرة ليست فيما أفعله فحسب ، إنما فيما يفعله غيرى مِمَّنْ أعطيتُه حرية الاختيار .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾﴾

يعنى : بعد أن أشركوا بالله وكفروا به ، وبعد أنْ أصبحتْ قلوبهم فى غمرة وعمىً إذا مسَّهم شىء من العذاب يجأرون ويصرخون ، ومَنْ ذا الذى يطيق لفحة أو رائحة من عذاب الله ؟

ومعنى ﴿أَخَذْنَا .. ﴿٦٤﴾﴾ [المؤمنون] كلمة الأخذ لها مجال واسع فى كتاب الله ، والأَخْذ : هو الاستيلاء بعنف على شىء هو لا يحبّ أنْ تستولى عليه ، والأخْذ يُوحى بالعنف والشدة ، بحيث لا يستطيع المأخوذ الإفلات مهما حاول .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾﴾ [القمر] يعنى : أخذاً شديداً يتململ منه فلا يستطيع الفكاك .

وقوله : ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ .. ﴿٦٧﴾﴾ [هود]

ويقول : ﴿إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود]

ومعنى : ﴿مُتْرَفِيهِم .. ﴿٦٤﴾﴾ [المؤمنون] من الترف وهو التنعُّم ؛ لأن الحياة تقوم على ضروريات تستبقى الحياة وكماليات تُسعدها وتُرفِّهها وتُثريها ، فالمترَف مَنْ عنده من النعيم فوق الضروريات ، يقال : ترف الرجل يترَف من باب فَرِح يفرح ، وأترفته النعمة إذا أطغته ، وأترفه الله يعنى : وسّع عليه النعمة وزاده منها . وعلى قدر الإتراف يكون الأخذ أبلغَ والألم أشدَّ .

وسبق أن ذكرنا قول الله عز وجل : ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ .. ﴿٤٤﴾﴾ [الأنعام] يعنى : من منهج الله ، لم نُضيِّق عليهم إنما : ﴿فَتَحْنَا

عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ (٤٤) فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا .. (٤٥) ﴾ [الأنعام]

فهنا تكون النكاية أشدّ ، والحسرة أعظم .

والكلام هنا عن كفار قريش ، فكيف أخذهم الله وهم فى ترف من العيش ، حيث تصبُّ عندهم كل خيرات الجزيرة حتى عاشوا عيشة الترف والتنعم ؟

أخذهم الله حال ترفهم بالقَحْط والسنين ؛ لذلك لما رآهم النبى ﷺ أُترفوا بالنعمة وطغَوْا بها قال : « اللهم اشْدُدْ وطأتك على مُضَر ، واجعلها عليهم سنين كسنى يوسف »[1]

واستجاب الله تعالى دعاء نبيه ، فأصابهم الجدب والقَحْط حتى أكلوا الجيف و (العِلْهِز)[2] وهو شعر الذبيحة أو وبرها المخلوط بدمها بعد أنْ جَفَّ وتجمد تحت حرارة الشمس ، وهذا هو المراد بقوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ .. (٦٤) ﴾ [المؤمنون]

وقوله تعالى : ﴿ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ (٦٤) ﴾ [المؤمنون]

يصرخون ويضجّون ، فهذا أبو سفيان بعد أن أكلوا الجيف والفضلات يقول للنبى ﷺ : يا محمد ألستَ رحمةً للعالمين ؟ إذن :

---

(١) عن أبى هريرة أن النبى ﷺ كان إذا رفع رأسه من الركعة الأخيرة يقول : « اللهم اشدد وطأتك على مضر ، اللهم اجعلها سنين كسنى يوسف » أخرجه البخارى فى صحيحه (١٠٠٦) وأحمد فى مسنده (٢/٤٧٠ ، ٥٠٢ ، ٥٢١) .

(٢) العِلْهِز : دم يابس يُدَق به أوبار الإبل فى المجاعات ويُؤْكَل . قال ابن شميل :

وإن قِرَى قحطان قرْف وعِلْهِز فاقبح بهذا ويح نفسك من فعل

[لسان العرب ـ مادة : علهز] .

فادْعُ الله أنْ يُفرِّج عنا ، فدعا رسول الله ﷺ ربه حتى فرج عنهم[(١)] .

أو : يراد بالعذاب هنا ما حدث لهم يوم بدر ، حيث أذلَّهم الله ، فقتل منهم مَنْ قتل ، وأسر مَنْ أسر ، وانهارت سيادتهم وضاعت هيبتهم ، وقد كانوا يُعذِّبون المؤمنين ويقتلونهم ، ويقيمونهم فى حَرِّ الشمس ويضعون الأحجار الكبيرة فوق بطونهم ، حتى أنزل الله تعالى فى هذه الحالة القاسية التى يعانيها المؤمنون : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) ﴾ [القمر]

فيستقبلون الآية بتعجُّب : حتى يقول عمر : أىُّ جمع هذا الذى سيُهزم ، فليس هناك أىّ بادرة لنصر المؤمنين ، فلما جاء يوم بدر ورأى المؤمنون ما حاق بالكافرين قال عمر نفسه : صدق الله ، سيُهزم الجمع وقد هُزم .

وقوله تعالى : ﴿ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ (٦٤) ﴾ [المؤمنون] يجأر : يصرخ بصوت عالٍ ، والإنسان لا يصرخ إلا إذا كان فى محنة لا تقدر أسبابه على دفعها ، فيصرخ طلباً لمن ينجده ، ويرفع صوته ليُسمِع كل مَنْ حوله ، كما يقولون (يجعر) .

والجؤار مثل الخوار يعنى : يصيحون مثل العجول بعد ما كانوا رجالاً وسادة وطغاة ، فلماذا لم تظلّوا سادة ؟ لماذا تصرخون الآن ؟ وكان المنتظر منهم فى وقت الشدة أنْ يتماسكوا ، وأن يتجلّدوا حتى لا يشمت بهم العبيد والفقراء الذين آمنوا ، كما يقول الشاعر :[(٢)]

---

(١) عن ابن عباس أنه قال : جاء أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ فقال : يا محمد أنشدك الله والرحم فقد أكلنا العلهز ـ يعنى الوبر والدم ـ فأنزل الله ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ (٧٦) ﴾ [المؤمنون] ذكره ابن كثير فى تفسيره (٣/٢٥١) وعزاه لابن أبى حاتم .

(٢) الشاعر هو : أبو ذؤيب ، خويلد بن خالد الهذلى (توفى ٢٧ هـ) .

وتجلُّدِى للشَّامتينَ أُرِيهُمُو أَنِّى لريْبِ الدهْرِ لا أتضعْضَعُ[١]

لكن ، هيهات فقد حاق بهم العذاب ، ولن يخدعوا أنفسهم الآن ، فليس أمامهم إلا الصراخ يطلبون به المغيث والمنجى من المهالك .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾﴾

يرد عليهم الحق سبحانه : ﴿لا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ .. (٦٥)﴾ [المؤمنون] لأن مَنْ يجأر ينادى مَنْ ينصره وأنتم لن تُنصروا ﴿إِنَّكُم مِّنَّا لا تُنصَرُونَ (٦٥)﴾ [المؤمنون] لا تُنصرون من جهتنا ؛ لأننى أنصر أوليائى ، وأنصر رسلى ، وأنصر مَنْ ينصرنى ، فاقطعوا الظن فى نصرى لكم ؛ لأننى أنا الذى أنزلتُ بكم ما جعلكم تجأرون بسببه ، فكيف أزيله عنكم ؟

وفى موضع آخر يتكلم الحق سبحانه عن أهل الكفر الذين تمالئوا عليه ، وشجّع بعضهم بعضاً على التجرّؤ على القرآن وعلى النبى ﷺ ، ويُصفِّقون لمن يخوض فى حقهما : ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ[٢] وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ (٢٣) وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ (٢٤) مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ (٢٥) بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (٢٦)﴾ [الصافات]

---

(١) التضعضع : الخضوع والتذلل . وفى الحديث : ما تضعضع امرؤ لآخر يريد به عرض الدنيا إلا ذهب ثلثا دينه يعنى : خضع وذل . والتجلُّد : إظهار الجلد وهو التصبر والشدة . [لسان العرب ـ مادتا : ضعع ، جلد] .

(٢) قال النعمان بن بشير : يعنى بأزواجهم أشباههم وأمثالهم ، وقال عمر بن الخطاب : يجىء أصحاب الزنا مع أصحاب الزنا ، وأصحاب الربا مع أصحاب الربا ، وأصحاب الخمر مع أصحاب الخمر . [تفسير ابن كثير ٤/٤] .

إذن : لا تجأروا لأنكم لن تُنصروا منّا ، وكيف ننصركم بجؤاركم هذا ، وقد انصرفتم عن آياتى ؟

﴿ قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾

كيف تستغيثون بالله وتجأرون إليه وأنتم تُلْقى عليكم آياته تشرح لكم وتثبت لكم وجود الله بالآيات الكونية ، وتثبت لكم صدْق الرسول بالمعجزات ، وتحمل لكم منهج الله فى الآيات حاملة الأحكام ، ولكنكم عميتم عن ذلك كله .

ومعنى ﴿ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [المؤمنون] العقب : مؤخرة القدم ، فبدل أن يمشى إلى الأمام كما خلقه الله وجعل له كشافات يُبصر بها الطريق ، ويهتدى إلى موضع قدميْه ، إذا به يمشى للخلف على عَقبه ، وكأنهم أُخذوا أَخْذاً غَيَّر عندهم دولاب السير ، لماذا ؟ لأنهم عَمُوا عن أسباب الهداية ، فصاروا يتخبطون فى متاهات الحياة على غير هدى ، كمَنْ يسير بظهره لا يعرف مواقع قدميْه ، وهكذا فعلوا هم بأنفسهم .

وهذا التراجع يسمونه فى قيادة السيارات (مارشادير) ، ويحتاج فيه الإنسان لمن يُوجِّهه ويرشد حركته يميناً أو شمالاً ؛ لأنه لا يرى .

فالمعنى : لا تَلُمْ إلا نفسك حيث حرمتها من أسباب الهداية ، فبعد أنْ جاءتك وأصبحت بين يديك أغمضتَ عنها عينيك .

وفى موضع آخر قال سبحانه عن الشيطان : ﴿ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ .. ﴿٤٨﴾ ﴾ [الأنفال]

﴿ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾

مادة : كبر تأتى بكسر الباء للدلالة على العمر تقول : كَبِر فلان . يعنى : كان صغيراً ثم كبِر ، وبضم الباء للشىء المعنوى وللقيم ، كما فى قوله تعالى : ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ .. ۝٥﴾ [الكهف] يعنى : عظمت .

ومعنى الاستكبار افتعال الكبر وطلبه ، مثل : استفهم يعنى : طلب الفَهْم ، فى حين هو ليس كبيراً فى ذاته ، فهو محتاج إلى غيره . فالكبير فى ذاته مَنْ تكون عنده وتتوفر له فى ذاته مُقوِّمات الحياة وضرورياتها وترفها ، لا يستمدها من أحد .

لكن الإنسان ضروريات حياته ، وأسباب ترفه موهوبة له من غيره ، فلا يصح له أنْ يتكبّر ، فمَنْ أراد أن يتكبّر فليتكبّر بشىء ذاتى فيه من صحة أو مال أو سلطان ... الخ ، وهذه كلها أمور موهوبة لك ، فالصحيح قد يصبح سقيماً ، والغنى قد يصبح فقيراً .

لذلك ، فالكبرياء لله تعالى وحده ؛ لأنه الواهب للغير ، والمتفضِّل على الخَلْق بما يمكن أنْ يتكبروا به ، ومن صفات جلاله وكماله سبحانه (المتكبر) ؛ لأنه سبحانه رب الخَلْق أجمعين ، ومن مصلحة الخلق أن يكون المتكبر هو الله وحده ، حتى لا يرفع أحد رأسه على خَلْقه ويتكبّر عليهم .

وهكذا يحمى الحق سبحانه خَلْقه من خَلْقه ، فإنْ تكبّر عليك ربك ، وأجرى عليك قدراً ؛ لأنك فعلت شيئاً وأنت واحد ، فاعلم أنه يتكبّر على الآخرين جميعاً وهم كثيرون ، إنْ فعلوا بك هذا الشىء ، إذن : فصفة الكبرياء لله عز وجل فى صالحك .

ومثَّلْنَا لذلك ، ولله المثل الأعلى : من مصلحة الأسرة ألاّ يكون لها إلا كبير واحد يُرجَع إليه ، ومن أقوال العامة (اللى ملوش كبير يشترى له كبير) لأنه الميزان الذى تستقيم به الأمور ويُسيِّر دفّة الحياة .

وقلنا : إن من أسمائه تعالى (الكبير) ولا نقول : الأكبر مع أنها صيغة مبالغة ، لماذا ؟ لأن أكبر صيغة مبالغة عندنا نحن البشر ، نقول : هذا كبير وذاك أكبر ، وهذا قوىٌّ وذاك أقوَى ، ولا يقال هذا فى صفته تعالى لأنك لو قُلْت : الله أكبر لكان المعنى أنك شركت معه غيره ، فهو سبحانه أكبر وغيره كبير ، لذلك لا تُقال : الله أكبر إلا فى النداء للصلاة .

إذن : المستكبر : الذى يطلب مؤهلات كبْر وليس لذاتيته شىء من هذه المؤهلات ، والإنسان لا ينبغى له أن يتكبر إلا إذا ملك ذاتيات كبره ، والمخلوق لا يملك شيئاً من ذلك .

ومعنى ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ .. (٦٧)﴾ [المؤمنون] الهاء فى (به) ضمير مُبْهم ، يُعرَّف بمرجعه ، كما تقول : جاءنى رجل فأكرمته ، فالذى أزال إبهام الهاء مرجعه إلى رجل . وفى الآية لم يتقدم اسم يعود عليه الضمير ، لكن الكلام هنا عن الرسول الذى أُرسل إليهم ، والقرآن الذى أُنزل عليهم معجزة ومنهاجاً ، إذن : لا يعود الضمير إلا إلى واحد منهما .

أو : أن الضمير فى (به) يعود إلى بيت الله الحرام ، وقد كان سبباً لمكانة قريش ومنزلتهم بين العرب ، وأعطاهم وَضْعاً من السيادة والشرف ، فكانوا يسيرون فى رحلات التجارة إلى اليمن وإلى الشام دون أن يتعرض لهم أحد ، فى وقت انتشر فيه بين القبائل السَّلْب والنهب والغارة وقطع الطريق .

وما كانت هذه المنزلة لتكون لهم لولا بيت الله الحرام الذى يحجُّه العرب كل عام ، وخدمته وسدانته فى أيدى قريش ؛ لذلك استكبروا به على الأمة كلها ، ليس هذا فقط ، إنما تجرأوا أيضاً على البيت .

ويقول تعالى بعدها : ﴿ سَامِرًا تَهْجُرُونَ (٦٧) ﴾ [المؤمنون] السامر : الجماعة يسْمُرون ليلاً ، وكانوا يجتمعون حوْل بيت الله ليلاً يتحدثون فى حق النبى ﷺ ، يشتمونه ويخوضون فى حقه ، وفى حق القرآن الذى نزل عليه[1] .

وليتهم يسمرون عند البيت بالخير إنما بهُجر ، والهُجْر هو فُحْش الكلام فى محمد ﷺ وفى القرآن .

فأمر هؤلاء عجيب : كيف يفعلون هذا وهم فى رحاب بيت الله الذى جعل لهم السيادة والمنزلة ؟ كيف يخوضون فى رسول الله الذى جاء ليطهر هذا البيت من الأصنام ورجسها ؟ إنه سوء أدب مع الله ، ومع رسوله ، ومع القرآن ، يصدق فيه قول الشاعر :

أُعلِّمهُ الرماية كُلَّ يوْمٍ ... فلَمّا اشْتَدَّ سَاعِدُه رَمَانِي
وكَمْ علَّمتُه نَظْمَ القَوافِى ... فلَمَّا قَالَ قَافِية هَجَانِى

لقد استكبر هؤلاء على الأمة كلها بالبيت ، ومع ذلك ما حفظوا حُرْمته ، وجعلوه مكاناً للسَّمَر وللهُجْر وللسَّفَه وللطيْش ، ولكل مَا لا يليق به ، فالقرآن عندهم أساطير الأولين ، ومحمد عندهم ساحر وكاهن وشاعر ومجنون .. وهكذا .

والحق ـ سبحانه وتعالى ـ يُنبِّهكم إلى أن ضروريات حياتكم هِبةٌ منه سبحانه وتفضُّل ، فحينما جاءكم أبرهة ليهدم هذا البيت العتيق ، وينقل هذه العظمة وهذه القداسة إلى الحبشة ، ولم يكن لكم طاقة لردِّه ولا قدرةَ على حماية البيت ، فلو هدمه لضاعتْ هيبتكم

---

(١) قاله عبد الله بن عباس وغيره ، فيما نقله عنه القرطبى فى تفسيره (٦/٤٦٧١) .

وسيادتكم بين القبائل ، ولتجرأوا عليكم كما تجرأوا على غيركم ، لكن حمى الله بيته ، ودافع عن حرساته ، حتى إن الفيل نفسه وعى هذا الدرس ، ووقف مكانه لا يتحرك نحو البيت خاصة ، ويوجهونه فى أى ناحية أخرى فيسير .

ويُرْوَى أن أحدهم[١] قال للفيل يخاطبه : ابْرك محمود وارجع راشداً ـ يعنى : انفد بجلدك ؛ لأنك فى بلد الله الحرام ، وكما قال الشاعر[٢] :

حُبِسَ الفِيلُ بالمغَمَّس حَتَّى صَارَ يحبُو كَأَنَّهُ مَعْقُورُ[٣]

وهكذا ردّهم الله مقهورين مدحورين ، وحفظ لكم البيت ، وأبقى لكم السيادة .

لذلك لاحظ الانتقال من سورة الفيل إلى سورة قريش ، يقول تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ① أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ② وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ③ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ④ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ⑤﴾ [الفيل] يعنى : مثل التبن والفُتَات الذى تذروه الرياح .

---

(١) عن عائشة رضى الله عنها قالت : لقد رأيت قائد الفيل وسائسه أعميين مقعدين يستطعمان بمكة . أخرجه البيهقى فى (دلائل النبوة) « ١/١٢٥ » قال محققه : الخبر فى سيرة ابن هشام (١/٥٩) يستطعمان « الناس » . ونقله الحافظ ابن كثير فى البداية والنهاية (٢/١٧٤) .

(٢) هو : أمية بن أبى الصلت بن أبى ربيعة .

(٣) المغمس : موضع قريب من مكة . والمعقور : المنحور ، أى كأنهم قطعوا إحدى قوائمه ثم نحروه ، وهو للإبل . [انظر : لسان العرب ـ مادة : عقر]

ثم يقول فى أول قريش : ﴿لإِيلافِ قُرَيْشٍ ۝١﴾ [قريش] يعنى ما حَلَّ بأصحاب الفيل ، فاللام فى (لإيلاف) لام التعليل ، يعنى : حَلَّ ما حَلَّ بأصحاب الفيل لتألف قريش ما اعتادته من رحلة الشتاء والصيف ﴿إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ۝٢﴾[قريش] وما دام أن الله تعالى قد حماكم وحمى لكم البيت ، وحفظ لكم السيادة كان ينبغى عليكم أنْ تعبدوه وحده لا شريك له ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَـٰذَا الْبَيْتِ ۝٣ الَّذِى أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ۝٤﴾ [قريش]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ۝٦٨﴾

فى هذه الآية والآيات بعدها يريد ـ سبحانه وتعالى ـ أن يُوبّخهم بعدة أمور واحد بعد الآخر .

أولها : ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ .. ۝٦٨﴾ [المؤمنون] فالاستفهام هنا للتوبيخ وللتقريع : ماذا جرى لهؤلاء ؟ أفلم يعقلوا القول الذى جاءهم فى القرآن ، وهم أمة الفصاحة والبلاغة والبيان ، وأمة القول بكل فنونه حتى أقاموا له المواسم والمعارض وعلّقوه على الجدار ؟

لذلك لا يُعقل ألاَّ تفهموا القرآن ، وقد جاءكم بأسلوب على مستوى أعلى من البلاغة والفصاحة ، لا بُدَّ أنكم فهمتموه ووعيْتُم ما فيه ، بدليل قولكم : ﴿لَوْلا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ۝٣١﴾ [الزخرف]

وهكذا الكذاب يسرقه طبعه ، وينمّ منطقه عما فى ضميره ،

فاعتراضكم ليس على القرآن إنما على محمد ؛ لأنه فقير من أوسط القوم ، فالمسألة - إذن - منازعة سيادة وسلطة زمنية ، لكن ألم يَدْرِ هؤلاء أن محمداً ﷺ ما جاء ليسلبهم سلطتهم ، أو يعلو هو عليهم ، إنما جاء ليحكمهم بمنهج الله ، ويتحمل هو الأذى والتعب والمشقة فى سبيل راحتهم وسعادتهم ؟

لقد جاء النبى ﷺ ليأخذ الحكم ويحمل منهج الله تكليفاً لا تشريفاً ، بدليل أنه عاش فى مستوى أقلّ منكم ، فلا ترى رسول الله إلا أقلهم طعاماً وأقلهم شراباً ، أقلهم لباساً وأثاثاً ، حتى أقاربه كانوا فقراء ، ومع ذلك حرَّم عليهم الزكاة التى أباحها لعامة المسلمين الفقراء ، كذلك يرث الناس وهم لا يرثون .

وبعد ذلك كله تقولون : ﴿لَوْلا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١)﴾ [الزخرف] يبدو أنكم ألفتم العبودية للعظماء وللجبابرة ، ألفتم العبودية لغير الله ، وعَزَّ عليكم أن يحرركم الله من هذه العبودية على يد رجل منكسر فقير منكم ، جاء ليصلحكم ، ويخرجكم من العبودية للمخلوق إلى العبودية للخالق عز وجل .

ألم يقُلْ أحد رؤوس الكفر عن القرآن : « والله إنّ أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وإنه يعلو ولا يُعْلَى عليه »[1] .

إذن : ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ .. (٦٨)﴾ [المؤمنون] توبيخ ، لأنهم فهموا القرآن ، لكن حسدوا محمداً ﷺ أن ينزل عليه ، وأن ينال دونهم هذه

---

(١) هذا القول قاله الوليد بن المغيرة ، نقله ابن هشام فى السيرة النبوية (١/ ٢٧٠) وذلك أن أشراف قريش اجتمعوا ليروا رأياً واحداً فى أمر محمد ﷺ ، رفض الوليد كل ما قاله القوم عن محمد إلى أن قال قولته هذه ثم قال : « ما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عُرف أنه باطل ، وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا ساحر ، جاء بقول هو سحر يُفرّق به بين المرء وأبيه ، وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجته ، وبين المرء وعشيرته » .

المكانة ، كما قال سبحانه : ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ .. (٥٤)﴾ [النساء]

الأمر الثاني : ﴿أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الأَوَّلِينَ (٦٨)﴾ [المؤمنون] يعنى : جاءهم أمر غريب لا عهدَ لهم به ، وهو أن يأتى رسول من عند الله ، وهذه المسألة معروفة لهم ، فمنهم إبراهيم عليه السلام ، ومنهم إسماعيل وهم مؤمنون بهما ، إذن : ليست مسألة عجيبة ، بل يعرفونها جيداً ، لكن ما منعهم فى الأولى منعهم فى هذه ، إنه الحسد لرسول الله ﷺ ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ .. (٨٧)﴾ [الزخرف]

الأمر الثالث : ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ (٦٩)﴾

يعنى : أَنزَلَ عليهم رسولٌ من السماء لا يعرفون سيرته وخُلقه ونسبه ومسلكه قبل أنْ يُبعث ؟ إنهم يعرفونه جيداً ، وقبل بعثته سَمَّوْه « الصادق الأمين » وارتضَوْا حكومته بينهم فى مسألة الحجر الأسود ، وكانوا يأتمنونه على ودائعهم ونفائس أموالهم ، ولم يجربوا عليه كذباً أو خيانة أو سَقْطة من سقطات الجاهلية .

وقد شرحت هذه المسألة فى قول الله تعالى : ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ .. (١٢٨)﴾ [التوبة] يعنى : من جنسكم ، ومن نوعكم ، ومن قبيلتكم ، ليس غريباً عنكم وهو معروف لكم : سلوكه وسيرته وخُلقه ، وإذا لم تُجرِّبوا عليه الكذب مع الخَلْق ، أتتصورون منه أنْ يكذب على الخالق ؟

وهل رسول الله فى أول بعثته لَمَّا أخبر الناس أنه رسول الله جاء

القرآن ليحمل الناس على الإيمان به ؟ لا ، إنما جاء ليتحدى مَنْ لم يؤمن ، أما مَنْ آمن بداية ، بمجرد أنْ قال محمد : أنا رسول الله قال : صدقت ، وحيثية التصديق ما جُرِّبَ عليه فى الماضى ، وما عُلم من صدقه ، وأنه لم يكذب أبداً ؛ لذلك كان المقياس عند الصحابة أن يقول رسول الله ، فإنْ قال فالمسألة منتهية لأنه صادق لا يشكّ أحد منهم فى صِدْقه .

لذلك النبى ﷺ لما قال أبو بكر فى مسألة الإسراء والمعراج : إنْ كان قال فقد صدق[1] ، يحملها رسول الله تقديراً لأبى بكر ويقول : « كنت أنا وأبو بكر فى الجاهلية كفرسَىْ رهان » يعنى : فى الخُلُق الطيب والسلوك السَّوىِّ « فسبقتُه للنبوة فاتبعنى ، ولو سبقنى هو لاتبعتُه » .

ولما نزل جبريل ـ عليه السلام ـ على سيدنا رسول الله ﷺ فى أول الوحى فأجهده ، فذهب إلى السيدة خديجة ـ رضى الله عنها ـ وحكى لها ما حدث له كأنه يستفهم منها عَمَّا حدث ولم يخبرها أنه رسول من عند الله ، ومع ذلك أخذته إلى ورقة بن نوفل ، وكان على علم بالكتب السابقة ، فلما سمع ورقة بن نوفل ما حدث قال : إنه الناموس الذى كان ينزل على موسى وليتنى أكون حياً إذ يُخرجك قومك ، فقال ﷺ : « أَوَمُخرجِىّ هم ؟ » قال : « ما جاء أحد بمثل

---

(١) ذكر ابن هشام فى السيرة النبوية (٣٩٨/١) باختصار « أن رسول الله ﷺ لما أصبح بعد عودته من بيت المقدس غدا على قريش فأخبرهم الخبر فأنكروا عليه ذلك وقصدوا أبا بكر وعرضوا عليه هذا الأمر فى إنكار فقال لهم أبو بكر : إنكم تكذبون عليه . فقالوا : بلى ها هو ذاك فى المسجد يحدّث به الناس . فقال أبو بكر : والله لئن كان قاله لقد صدق ، فما يعجبكم من ذلك ، فوالله إنه ليخبرنى أن الخبر ليأتيه من الله من السماء إلى الأرض فى ساعة من ليل أو نهار فأصدقه ، فهذا أبعد مما تعجبون منه » .

ما جئت به إلا عُودِى ، وإنْ يدركنى يومك أنصرك نصراً مؤزّراً »[١] .

ومع ذلك يظل رسول الله ﷺ خائفاً قلقاً أن يكون هذا شيئاً من الشيطان ، فتُطمئنه السيدة خديجة ، فهذا لا يعقل مع رسول الله ، لذلك تقول له : « إنك لتصلُ الرحم ، وتُكسب المعدوم ، وتحمل الكَلَّ[٢] ، وتعين على نوائب[٣] الدهر ، والله لن يخذلك الله أبداً »[٤] .

ومن هنا اعتبروا السيدة خديجة أول مجتهدة فى الإسلام ؛ لأنها اجتهدتْ واستنبطتْ من مقدمات رسول الله قبل البعثة دليلاً على صدْقه بعد البعثة ؛ لذلك كانت أول مَنْ سُمِّيت بأم المؤمنين ، حتى قالَ بعض العارفين : خديجة أم المؤمنين بما فيهم رسول الله ﷺ ؛ لأنه فى هذه السِّن كان فى حاجة إلى أم أكثر من حاجته إلى عروس صغيرة تُدلِّله ، وقد قامت خديجة - رضى الله عنها - فعلاً بدور الأم لرسول الله فاحتضنته ، وطمأنته ووقفت إلى جواره فى أشدِّ الأوقات وأحرجها .

كما نلحظ فى الآية : ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ .. (٦٩)﴾ [المؤمنون] فأضاف الرسول إليهم يعنى : رسول لهم ، أما فى الإضافة إلى الله تعالى : رسول الله ، فالمعنى رسول منه ، وهكذا يختلف المعنى باختلاف الإضافة .

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٦٠) كتاب الإيمان ، والبخارى فى صحيحه (٣) من حديث عائشة رضى الله عنها .

(٢) الكل : هو مَنْ لا يستقل بأمره قال تعالى : ﴿وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ .. (٧٦)﴾ [النحل] والكل هو العاجز الثقيل لا خير فيه [القاموس القويم ٢/١٦٩] باختصار .

(٣) النوائب : جمع نائبة ، وهى ما ينوب الإنسان أى : ينزل به من الملمات والحوادث . والنائبة : المصيبة من مصائب الدهر تنزل بالإنسان [لسان العرب - مادة : نوب] .

(٤) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٦٠) كتاب الإيمان ، والبخارى فى صحيحه (٣) من حديث عائشة رضى الله عنها .

﴿ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾

والمسألة الرابعة فى توبيخ الله لهم : ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ .. ﴿٧٠﴾﴾ [المؤمنون] يعنى : جنون ، والجنون أنْ تتعطل الآلة العقلية التى تزن الحركات على وفق النفع والضر ، فتفعل الخير النافع ، وتترك الشر الضارّ . ولننظر : أىّ خصلة من خصال الجنون فى محمد ﷺ .

ودَعْكَ من قضية الدين والإله إنما خُذْ خُلقه ، والخلُق أمر يتفق عليه الجميع ويحمدونه ، حتى وإنْ كانوا ضد صفته ، فالكذاب يحب الصادق ، ويعترف أن الصدق شرف وكرامة ، والبخيل يحب الكريم ، والغضوب يحب الحليم ، ألاَ ترى الكاذب يزاول كذبه على الناس ، لكن لا يحب مَنْ يكذب عليه ؟

ألاَ ترى شاهد الزور ينقذ غيره بشهادته ، ومع ذلك يسقط من نظره ويحتقره ، حتى إن أهل الحكمة ليقولون : إن شاهد الزور ترتفع رأسك على الخصم بشهادته ، وتدوس قدمك على كرامته ، ومَنْ جعلك موضعاً للنقيصة فقد سقطت من نظره ، وإنْ أعنْتَه على أمره .

إذن : فالأخلاق مقاييسها واحدة ، فقيسوا محمداً بأخلاقه ، لا بالدين والرسالة التى جاء بها ، انظروا إلى خُلقه فيكم ، ولن يستطيع واحد منكم أنْ يتهمه فى خُلقه بشىء ، وما دام لا يُتَّهم فى خُلقه فلا يُتهم كذلك فى عقله ؛ لأن العقل هو ميزان الخُلق وأساسه .

لذلك يقول ربه ـ عز وجل ـ فى حقِّه :

﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ

لأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ[1] ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ [القلم] فخلُقك العظيم أكبر دليل على أنك لستَ مجنوناً .

إذن : محمد برىء من هذه التهمة ، والمسألة كلها كما قال تعالى : ﴿ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ .. ﴿٧٠﴾ ﴾ [المؤمنون] فهذا عيبه فى نظرهم ؛ لأن الحق يغيظ أهل الباطل المنتفعين منه ، والبعض يرى الحق فى الخير الذى يأتيه ، فإنْ كان فى شىء لا ينتفع منه فهو شَرٌّ ؛ لذلك إنْ أردتَ أنْ تحكم على خَصْلة فاحكم عليها وهى عليك ، لا وهى لك ، فمثلاً أن تكره الكاذب سواء كذب لك أو كذب عليك ، إذن : فخُذْ المسائل على أنها لك وعليك .

والحق ـ سبحانه وتعالى ـ حينما قيّد حركتك فى النظر إلى محارم الآخرين ، لا تتبرم ولا تقُلْ : منعنى متعة النظر .. الخ ، لكن انظر إلى أنه قيّد عينيك وأنت واحد ، وقيَّد عيون الآخرين عن محارمك وهم كثيرون .

ويقول تعالى بعدها : ﴿ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [المؤمنون] وطبيعى أن يكره أهل الباطل الذين استشرى ظلمهم وطغيانهم ، يكرهون الحق الذى جاء ليعدل الميزان ، ويُقوِّم المعْوج فى حركة الحياة ، وكراهية أهل الباطل لرسول الله كان ينبغى أن تكون معيار تصديق له لا تكذيب به ، ينبغى أن نقول : طالما أن أهل الباطل يكرهون هذا فلا بُدَّ أنه على الحق وإلاّ ما كرهوه .

---

(١) غير ممنون ، أى : غير مقطوع أى دائم . ويحتمل أنه غير مُكدَّر بالمنِّ والتقريع والفخر به ، ولا يتعارض المعنيان . [القاموس القويم ٢/٢٤٠] .

﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ (٧١) ﴾

إذن : فالمسائل لا تسير على هَوَى المخلوق ، إنما على مرادات الخالق ؛ لأن الخالق سبحانه هو صانع هذا الكون ، وكلُّ صانع يغَارُ على صَنْعته ، وهذا مُشَاهد حتى فى صنعة البشر ، ولك أنْ تتصوّر ماذا يحدث لو أفسدتَ على صانعٍ ما صنعَه .

وعدالة الأشياء أن تسير على وَفْق مرادات الصانع ، لا هوى المصنوع ؛ لأن الأهواء تملكها الأغيار ، فالإنسان لو سار فى حركة حياته على وَفْق هواه لأخذ مَا ليس له ، ولَقبل الرشوة ، ومال إلى الفسْق والانحراف ؛ لأنه فى الظاهر يرى أنه منتفع بهذا ولا ينظر إلى العاقبة والمحصلة النهائية ، لقد نظر إلى متعة زائلة موقوتة ، ونسى تبعة ثقيلة لن يقدر عليها فيما بعد .

لذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ .. (٧١) ﴾ [المؤمنون] ولك أن تقول : نعم ، اتباع الأهواء يُفسد الأرض ، ويُفسد حركة الحياة فيها ، لكن كيف يُفسد السماء ؟ وهل لأحد قدرة عليها ؟

ونقول : ألم يكُنْ من أمنيات هؤلاء : ﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا .. (٩٢) ﴾ [الإسراء]

إذن : من أهوائهم أنْ تتهدّم السماء ، ولو حتى على رؤوسهم ، وأىّ فساد بعد هذا ، وهكذا لو اتبعتَ أهواءهم لفسدَتْ السموات والأرض ، ليس هذا وفقط بل ﴿وَمَن فِيهِنَّ .. ﴿٧١﴾﴾ [المؤمنون] حيث سيتعدّى فسادهم ليشمل كل ما فى الوجود .

لذلك يقيد النبى ﷺ هذه الأهواء فى قوله : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به »[1] لأنه ﷺ : ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ [النجم]

وقد توقف بعض المستشرقين مُعترِضاً على هذه الآية : ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾﴾ [النجم] يقولون : يعنى كلامه كله صحيح ، فلماذا يُعدِّل له ربه بعض الأحكام ؟ ومعنى ذلك أن الحكم المعدّل حين نطق به كان ينطق عن هوى .

ولو فهم هؤلاء معنى الهوى ما كان منهم هذا الاعتراض ، فالهوَى أن تعرف الحق ، لكن هواك يصرفك عنه ، ورسول الله ﷺ لم يكُنْ يعرف فى هذه المسائل حُكْماً وانصرف عنه ، إنما نطق وحكم على مقتضى ما فهم فى أمر لم ينزل فيه من الله شىء ، ثم نزل الحكم من الله ليُعدِّل اجتهاد رسوله .

إذن : لم يكُنْ لرسول الله هَوَىً ينطق بمقتضاه ، وفى تعديل الحق سبحانه لرسوله ، وتبليغ الرسول لأمته بهذا التعديل أكبر دليل على صدْقه ﷺ وأمانته فى البلاغ عن ربه ، وإلاَّ فلم يكُنْ أحد ليعلم هذا التعديل ، لو أخفاه رسول الله تعصّباً لنفسه ، أو لدفْع الخطأ عنه .

---

(١) أخرجه ابن أبى عاصم فى كتاب « السنة » (١٢/١) من حديث عبد الله بن عمرو ، وأورده ابن رجب الحنبلى فى « جامع العلوم والحكم » (ص ٤٦٠) وضعَّفه .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿يَـأَيُّهَا النَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ .. (١)﴾ [التحريم] ويقول سبحانه : ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ .. (٤٣)﴾ [التوبة]

وكـان بوسع رسـول الله أن يكتم هذه الآيات التى تعـاتبـه وتُعَـدُّ مأخـذاً عليه ، لكنه ﷺ كان أميناً يـقول ما له وما عليـه ، لذلك يقول عنه ربه : ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ (٤٤) لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ[1] (٤٦)﴾ [الحاقة]

ثم يقول تـعالى : ﴿بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ (٧١)﴾ [المؤمنون] و (بل) تفيد الإضـراب عن الكلام السابق ، وإثبات كـلام جديد بعـدها ، والذكْـر هنا يعنى : الشـرف والصِّـيت والمكانة العـاليـة ، كـما جـاء فى قـوله تعـالى عن القـرآن : ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْـرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ .. (٤٤)﴾ [الزخرف]

وقوله تعالى : ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٠)﴾ [الأنبـياء] فكان يجب عليـهم أن يحتـضنوا هذا القـرآن ، ويرفعـوه فوق رؤوسهم ، ففـيه مجدهم وشرفهم وعـزَّتهم ، والعرب بدون القرآن لا ذكْرَ لهم ، فقد كانوا أمة أمية تعيش على الترحال والتنقل ، ولا تستقر إلا على منابع المـاء ومواضـع الكلأ ، كـانوا بَدْواً تنتـشر فـيمـا بينهم الحـروب والغـارات وقَطْع الطريق ، كـان الواحـد منهم يسـرق ليُكرم ضيفه بما سرق .

وهذه من الأمور العجيبة فى عادات العرب فى الجاهلية ، فلم يكن

---

(١) الوتين : عِرْق فى القلب إذا قطـع مات صاحبـه ، وهو الشريان الرئيسى الهـام الذى يغذى الجسم بالدم النقى الخارج من القلب ، والمعنى : أى أمتناه عاجلاً وأهلكناه سريعاً إذا خالف أمرنا أى مخالفة . [القاموس القويم ٢/٣١٩] .

لديهم منهج يحكم حياتهم ، عجيب أنْ ترى حب الغارة والاعتداء مع الشهامة والكرم فى طبيعة واحدة ، فهو يفعل ما يعِنُّ له ، وما يخطر بباله ، فالمسألة ليست محكومة عندهم بقانون ، حتى قال فيهم الشاعر :

لا تمدحَنَّ ابْنَ عبَّادٍ[١] وإنْ هطلَتْ كَفَّاهُ بالجُود حتَّى أشبَه الدِّيَمَا[٢]
فَإنَّها خطرَاتٌ من وَسَاوِسِه يُعْطى ويمنَع لاَ بُخْلاً ولاَ كرَمَا

ومن أشهر قصائد الشعر العربى فى الكرم هذه القصيدة التى تأصَّل فيها هذا الخُلق حتى عند الأطفال ، وحتى أن الأب يهِمُّ بذبح ولده للضيف ، لأنه لم يجد ما يذبحه لِقرَاه[٣] .

ويقول فيها الشاعر :

وَطَاوٍ ثَلاثاً عَاصِبِ البطن مُرْمِلٍ ببيداءَ لم يَعْرف بها ساكنٌ رَسْما[٤]
أَخِى جَفْوةٍ فيه من الأُنْسِ وَحْشةٌ يرى البُؤْس فِيَها مِنْ شراسته نُعْمى
رَأَى شبحاً وَسْط الظَّلام فَرَاعَه فَلَما رأَى ضَيْفاً تشمَّر واهْتما[٥]
وقَالَ هَيَّا ربَّاه ضَيْف ولا قِرَى !! بحقِّك لاَ تحرمْه تالليلةَ اللَّحْمَا

---

(١) هو : إسماعيل بن عباد أبو القاسم الطالقانى ، وزير غلب عليه الأدب ، استوزره مؤيد الدولة ثم أخوه فخر الدولة ، ولقب بالصاحب لصحبته مؤيد الدولة من صباه ، ولد فى الطالقان (من أعمال قزوين) (عام ٣٢٦هـ) وإليها نسبته ، توفى بالرى (طهران) عام (٣٨٥ هـ) ونقل إلى أصبهان فدفن فيها . [الأعلام للزركلى ١/٣١٦] .

(٢) الديمة : المطر الذى ليس فيه رعد ولا برق . وهو المطر الدائم . ويقال : دامت السماء تديم : مطرت ديمة . [لسان العرب ـ مادة : ديم] .

(٣) القِرَى : طعام الأضياف .

(٤) الطاوى : الجائع . مُرمل : قد اختلط طعامه بالرمل . الرسْم : الأثر .

(٥) راعه : أخافه وأفزعه .

وأفـرد فـى شِعْب عَجُـوزاً إزَاءَهَا ثَلاثَـةِ أشْـباحٍ تَخَالهـموا بُهْـمَا
حُفاةً عُراةً مَا اغتذَوْا خُبْـز مِلَّـة ولاَ عَرفُوا للبُرِّ مُذْ خُلِقـوا طعْما[١]
فَقَـالَ ابنُـه لَـمَّا رآهُ بحَـيْرةٍ أيَا أبْتِ اذْبحْـنى ويـسِّر لَهُم طُعْما
ولاَ تَعتذِرْ بالعُدْم علـى الذى طَرَا يظـنُّ لَنَـا مَـالاً فيُـوسِعُنا ذمّـا
فـروَّى قليـلاً ثُـمَّ أحجـمَ بُرْهـةً وإنْ هُـوَ لـم يذبـح فَتَاهُ فَقَـد همَّا
فبَيْنَا هُمَا عَنَّـتْ على البُـعْد عَـانَـةٌ قَـد انتظـمتْ من خَلْف مِسْحلها نَظْما[٢]
عطَاشاً تريد الماءَ فانْسَابَ نحوهَا علَـى أنَّـه منْـها إلـىَ دَمِـها أظْـما
فَأمهلَـها حـتَّى تـروَّتْ عِطاشُـها وأرسَـل فيـها من كِنَانته سَـهْما
فَخرَّت نَحُوصٌ ذَات جحش قَـدْ اكتنزَتْ لَحْماً وقـد طُبِّقَتْ شـحْما[٣]
فَيَا بشْـرَهُ إذْ جرَّهـا نَحْـو قومه ويَا بشْـرهُم لما رأوا كَلْمها يَدْمَى[٤]
وباتَ أبُوهـم مـن بَشَـاشـته أباً لَضَيْفِهمـوا والأم مِـنْ بِشْـرها أُمَّـا

لقد تأصلتْ خَصْلة الكرم فى العربى ، حتى فى الأطفال الصغار ، فهو وإنْ كان فقيـراً لكن لا يحب أن يُعرف عنه الفقر ، يحب أن يظهر فى صـورة الغنى الكـريم المـعطاء ، وإنْ ناقض ذلك صـفـات أخـرى ذميمة فيه .

والشاهد أنهم جـماعة تناقـضتْ خصالهم ، وقـد عاشوا فى أمـية تامة فـلم يعالجـوا حضارة ، وهـذه حُسِبت لـهم بعد ظهـور الإسلام

---

(١) خبز ملة : هو الخبز يوضع فى الرماد الحار الذى يُحمى ليُدفن فيه الخبز لينضج .
(٢) عنَّت : ظهرت . عانة : العنون من الدواب : من حُمُر الوحش . المسحل : قائد القطيع .
(٣) نحوص : سمينة ممتلئة . طبقت شحماً : امتلأت شحماً ولحماً .
(٤) الكَلْم : الجرح . يدما : ينزف دماً . [راجع لسان العرب] .

وبعثة النبى ﷺ من بينهم ، فكيف لمثل هؤلاء أنْ يأتوا بهذه المعانى والأساليب العالية التى تحكم العالم كله ؟ ولو كانوا أهلَ علم وحضارة لقالوا عنهم وعن الإسلام : إنه قفزة حضارية .

ولو كان رسول الله ﷺ قارئاً لقالوا : قرأ لفلان وفلان ، كما حكى عنهم الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ .. (١٠٣)﴾ [النحل]

إذن : فذكْر العرب وشرفهم ومجدهم وكرامتهم فى القرآن ، ومع ذلك لم يعملوا حتى لمصلحتهم ، ولم يهتموا بهذا القرآن ، إنما أعرضوا عنه ﴿فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ (٧١)﴾ [المؤمنون]

أى : عن القرآن ، وهذا دليل أنهم كانوا مغفلين ، لا يعرفون حتى مصلحتهم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٧٢)﴾

(الخَرْج) : ما يخرج منك طواعية ، أما الخراج فهو ما يخرج منك رغماً عنك ، والزيادة فى المبنى تدل على الزيادة فى المعنى ، فالخراج أبلغ من الخَرْج . والمراد بقوله تعالى : ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ .. (٧٢)﴾ [المؤمنون] إنْ كنتَ تريد خَرْجاً فلا تأخذه من أيديهم ، إنما خُذْه من ربك ، فما عندهم ليس خَرْجاً بل خراج ﴿فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ .. (٧٢)﴾ [المؤمنون]

فلا تأخذ الرزق إلا من يد الخير والبركة ؛ لأن الحق سبحانه لا

يمنُّ على خَلْقه برزق يرزقهم به ، فهو سبحانه قد استدعاهم إلى الحياة ؛ لذلك تكفّل سبحانه بأرزاقهم ، كما لو دعوتَ صديقاً إلى طعام فإنك تُعِدُّ له ما يكفى عشرة ، فما بالك حينما يُعِدُّ لك ربك عز وجل ؟

ثم يُذيِّل الحق سبحانه الآية بقوله تعالى ﴿وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٧٢)﴾ [المؤمنون] وهذه أحدثتْ إشكالاً عند البعض ؛ لأن الحق سبحانه جعل لخَلْقه شراكة فى صفة الرزق ، فغيره سبحانه يرزق أيضاً ، لكن هو خير الرازقين ؛ لأنه يرزق الخَلْق بأصول الأشياء التى يرزقون منها غيرهم ، فإنْ كنتَ ترزق غيرك مثلاً طعاماً فهو سبحانه أصل هذا الطعام ومصدره .

هو سبحانه خالق التربة ، وخالق الماء ، وخالق الهواء ، وخالق البذرة ، وما عليك إلا أنْ أعملتَ عقلك ، واستخدمتَ الطاقات التى منحك الله إياها ، فأخرجتَ هذا الطعام ، فلو أنك جِئْتَ لأهلك بحاجيات المطبخ ولوازم المعيشة طوال الشهر من دقيق وسمن وأرز وسكر .. إلخ وقامت زوجتُك بإعداد الطعام أتقول : إن الزوجة هى التى جاءت بالطعام ؟

لذلك يقول العلماء وأهل المعرفة : نَزِّهوا ألسنتكم عن قول : فلان رازق ، ودَعُوها لقول الله تعالى ؛ لأنه سبحانه هو خالق الرزق ، وواجد أصوله ، وما أنت إلا مُنَاول للغير .

وتلحظ أنه تعالى أضاف الخَراج إلى الربوبية التى تفيد الرعاية والعناية والتربية ، فما دام الخراجُ خراجَ ربك يا محمد ، فهو خراج كثير وعطاء لا ينفد .

﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٧٣)﴾

الصراط المستقيم : الطريق المعتدل الذى لا عوجَ فيه ولا أمتاً[1] ، فكيف إذن يتأبون عليك ويقفون فى طريقك وأنت تدعوهم إلى الصراط المستقيم ؟ وإن انتفع بالصراط المعوج واحد فسوف ينتفع بالصراط المستقيم الملايين .

ومن ذلك ما سبق أن أوضحناه منْ أنه يجب عليك أن تنظر إلى ما أعطاه لك التشريع قبل أنْ تنظر إلى ما أخذه منك ، فالشرع حين يأخذ منك وأنت غنى يعطيك وأنت فقير ، ويأمرك برعاية اليتيم ليرعى أولادك من بعدك إنْ تركتَهم وهم صغار .

فالشرع - إذن - يُؤمِّن حياتك ويجعلك تستقبل مقادير الله بالرضا ؛ لأنك فى مجتمع إيمانى لن يتخلى عنك إن افتقرت ، ولن يترك أولادك إنْ تيتَّموا ، فالمجتمع الإيمانى إنْ مات فيه الأب كان الجميع لليتيم آباء . أما إنْ ضاع اليتيم فى مجتمع الإيمان فإن ذلك يفتح الباب للسخط على قدر الله ، ويُغرى ضعاف الإيمان أنْ يقولوا : ما الحكمة فى أن يأخذ أباهم ويتركهم عالة لا يتكفل بهم أحد ؟

﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾﴾

﴿الصِّرَاطِ .. ﴿٧٤﴾﴾ [المؤمنون] هو الطريق المستقيم الذى يُؤدِّى إلى الغاية بأقلّ مجهود ، وفى أقل وقت ويوصلك إلى أفضل غاية . والطريق يأخذ حظه من العناية والاهتمام بقدر الغاية الموصِّل إليها ،

---

(١) الأمت : الاختلاف فى المكان ارتفاعاً وانخفاضاً ، ومنه قوله تعالى : ﴿لَا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾ [طه] أى : لا ترى فى الأرض يوم القيامة التواءً ولا انحرافاً يميناً ولا شمالاً ولا ترى فيها اختلافاً فى الارتفاع والانخفاض أى أنها مستوية تماماً رأسياً وأفقياً . [القاموس القويم ١/ ٣٠] .

فالطريق من القاهرة إلى الإسكندرية غير الطريق بين القرى والنُّجوع .

ومعنى : ﴿لَنَاكِبُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [المؤمنون] يعنى : منحرفون عن الطريق ، ولهم حَظٌّ فى الاعوجاج وعدم الاستقامة ؛ لذلك يقول لك مَنْ يريد الصدق (تعال دوغرى) يعنى : من الطريق المستقيم الذى لا اعوجاجَ فيه ولا مراوغةَ .

لكن ، ما الذى جعلهم يتنكّبون الطريق المستقيم الذى يُنظِّم لهم حركة الحياة ، ويجعلها تتساند لا تتعاند ، ويعود مجهود الفرد على الباقين ؟ لماذا يحرِمون أنفسهم من مزايا هذا الطريق ؟

قالوا : لأنهم مكذبون بالآخرة ، ولو لم يكونوا مكذبين بالآخرة لآمنوا واتبعوا منهج الله ؛ لأنهم سيئولون إلى الله أيلولةً ، تعطى المحسن جزاءه وتعطى المسىء جزاءه . فالذى أفسد هؤلاء أنهم اتبعوا أهواءهم ، وظنوا أن الدنيا هى الغاية وهى نهاية المطاف ، وغفلوا عن الآخرة ، وأنها دار النعيم الحقيقى الذى لا يفوتُك ولا تفوته .

كما قال عنها الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [العنكبوت] يعنى : الحياة الحقيقية .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾﴾

يعنى : لو حدث هذا لعادوا إلى ما كانوا عليه ، كما قال سبحانه فى موضع آخر : ﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ .. ﴿١٢﴾﴾ [يونس]

وليْتَه اكتفى عند هذا الحدِّ ، إنما يتعدّى هذا ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا .. ﴿٨﴾﴾ [الزمر] يقول كما قال قارون : ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي .. ﴿٧٨﴾﴾ [القصص] يعنى : هذا بمجهودى وتعبى ، وقد كلمت فلاناً ، وفعلت كذا وكذا .

لذلك كان طبيعياً أن يقول له ربه : ما دُمْتَ قد أوتيتَهُ على علم عندك ، فاحفظه بعلم عندك قال تعالى : ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ .. ﴿٨١﴾﴾ [القصص]

فأين الآن علْمك ؟ وأىُّ علم هذا الذى لا يستطيع أن يحتفظ بما أتى به ؟ ومعلوم أن استنباط الشىء أصعب من حفْظه وصيانته .

ومعنى ﴿لَّلَجُّوا .. ﴿٧٥﴾﴾ [المؤمنون] تمادوا ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ .. ﴿٧٥﴾﴾ [المؤمنون] والطغيان : مجاوزة الحدِّ ؛ لأن الله تعالى جعل لكل شىء فى الوجود حَدًّا مرسوماً لا ينقص ولا يزيد ، فإن اتبعتَ هذا الحدّ الذى رسمه الله لك استقمتَ واستقامتْ حركة حياتك بلا منازع ، ولو طغى الشىء أفسد حركة الحياة ، حتى لو كان الماء الذى جعل الله منه كل شىء حىٍّ ، لو طغى يُغرق ويُدمّر بعد أنْ كان سر الحياة حال اعتداله . ومنه قوله سبحانه : ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ[1] ﴿١١﴾﴾ [الحاقة]

ويقال لمن جاوز الحدَّ : طاغية بتاء التأنيث الدالة على المبالغة ، فإنْ تجاوز هذه أيضاً نقول : طاغوت .

ثم تأتى نتيجة التمادى فى الطغيان ﴿يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [المؤمنون] يعنى : يتحيرون ويَعْمَوْن عن الرُّشْد والصواب ، فلا يُميّزون بين خير وشر .

---

(١) الجارية : السفينة . جرت السفينة جرياً : سارت [لسان العرب ـ مادة : جرا] .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾﴾

استكان فلان لا تقال إلا لمَنْ كان مُتحركاً حركةً شريرة ، ثم هدأ وسكن ، نقول : فلان (انكَنّ) أو استكان وأصلها (كوْن) فالمعنى : طلب وجوداً جديداً غير الوجود الذى كان عليه ، أو حالاً غير الحال الذى كان عليه أولاً ، فقبل أنْ يستكين ويخضع كان لا بُدَّ مُتمرِّداً على ربه .

والوجود نوعان : وجود أولى مطلق ، ووجود ثَانٍ بعد الوجود الأولى ، كما نقول مثلاً : وُلد زيد يعنى وُجد زيد وجوداً أولياً ، إنما على أىِّ هيئة وُجد ؟ جميلاً ، قبيحاً .. هذه تحتاج إلى وجود آخر ، تقول : كان زيدٌ هكذا فعل وفاعل لا يحتاج إلى إخبار آخر لأنها للوجود الأول ، لكن حين نقول : كان زيد مجتهداً ، فهذا هو الوجود الثانى وهو الاجتهاد ، وهو وجود ناتج عن الوجود الأول .

فكان الأولى هى كان التامة التى وردتْ فى قوله تعالى : ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ .. ﴿٢٨٠﴾﴾ [البقرة] أى : وُجد ذو عُسْرة ،

---

(١) سبب نزول الآية : قال ابن عباس : نزلت فى قصة ثُمامة بن أثَال لما أسرته السرية وأسلم وخلَّى رسول الله ﷺ سبيله ، حال بين مكة وبين الميرة وقال : والله لا يأتيكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها رسول الله ﷺ ، وأخذ الله قريشاً بالقحط والجوع حتى أكلوا الميتة والكلاب والعِلْهز . قيل : وما العلهز ؟ قال : كانوا يأخذون الصوف والوبر ، فيبلونه بالدم ثم يشوونه ويأكلونه . فقال له أبو سفيان : أنشدك الله والرحم أليس تزعم أن الله بعثك رحمة للعالمين ؟ قال : بلى . قال : فوالله ما أراك إلا قتلت الآباء بالسيف ، وقتلت الأبناء بالجوع ، فنزل قوله ﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِى طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [المؤمنون] أورده القرطبى فى تفسيره (٦/٤٦٧٧) والواحدى فى أسباب النزول (ص ١٧٩) .

ولا تحتاج فى هذه الحالة إلى خبر .

ونقول : تمنّى فلان على الله أنْ يُوجَد له ولد ، فكان محمد ، يعنى : وُجِد . أما كان الناقصة فتحتاج إلى خبر ؛ لأن (كان) فِعْل يدل على زمان الماضى ، والفعل لا بُدَّ أنْ يدل على زمن وحدث ؛ لذلك لا بُدَّ لها من الخبر الذى يعطى الحدث تقول : كان زيد مجتهداً ، فجاء الخبر ليكمل الفعل الناقص ، فكأنك قلتَ : زيد مجتهد .

ومعنى ﴿فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ .. (٧٦)﴾ [المؤمنون] أن خضوعهم واستكانتهم لم تكُنْ لأنفسهم ولا للناس ، إنما استكانة لله بأخْذ أوامره بمنتهى الخضوع وبمنتهى الطاعة ، لكنهم ما فعلوا وما استكانوا ، لا فى حال الرحمة وكَشْف الضر ، ولا فى حال الأَخْذ والعذاب ، وكان عليهم أن يعلموا أن الله غيَّر حاله معهم ، ومقتضى ذلك أن يُغيِّروا هم أيضاً حالهم مع الله ، فيستكينوا لربهم ويخضعوا لأوامره .

﴿وَمَا يَتَضَرَّعُونَ (٧٦)﴾ [المؤمنون] الضراعة : هى الدعاء والذلّة والخضوع لمن أخذ بيدك فى شىء ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿فَلَوْلا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا .. (٤٣)﴾ [الأنعام] يعنى : لجئوا إلى الله وتوجَهوا إليه بالدعاء والاستغاثة .

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (٧٧)﴾

لقد فشلتْ معهم كل المحاولات ، فما أجدَتْ معهم الرحمة واستمروا على غَلْوائهم ، وما أجدى معهم العذاب وما استكانوا بعد أن أخذهم الله به ، إذن : لم يَبْقَ لهم حجة ولا أملٌ فى النجاة ، ففتح الله

عليهم ﴿بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ .. (٧٧)﴾ [المؤمنون] يعنى : أصابتهم محنة كأنهم من وراء باب مُغْلق تفاجئهم ﴿إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (٧٧)﴾ [المؤمنون] آيسون من النجاة مُتحسِّرون على ما فاتهم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ (٧٨)﴾

الحق - سبحانه وتعالى - يقول : خلقتُ عبادى من عدم ، وأمددتهم بأقوات الحياة ومقوماتها من عدم ، ثم جعلتُ لهم منهجاً ينظم حركة حياتهم ويصُون بنيتهم ، لأن صاحب الصنعة أعلم بصنعته ، وأعلم بما يصلحها ، ويعرف غايتها التى خلقها من أجلها ، فالذى صنع الثلاجة مثلاً هل صنعها أولاً ثم قال لنا : انظروا فى أىِّ شىء تفيدكم هذه الآلة ؟ لا ، إنما قبل أن يصنعها حدّد مهمتها ، والغاية منها ، وكذلك خلق الله ، ولله المثل الأعلى .

والذى خلق وحَدَّد الغاية أعلم بقانون الصيانة الذى يحمى صنعته من الفساد ، ويجعلها تؤدى مهمتها على أكمل وجه ، فإنْ خالفت قانون الصيانة الذى وضعه لك ربك تفسد حياتك وتتعطّل عن أداء مهمتك التى خلقت لها ، وهى عبادة الله وحده لا شريك له : ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦)﴾ [الذاريات]

لذلك أمركم إن اختلفتم فى شىء أنْ تردوه إلى الله وإلى الرسول ، كما ترد الآلة إلى صانعها العالم بطبيعتها وبمواطن الخلل فيها ، ونستنبط من هذه المسألة : إذا رأيتَ خللاً فى الكون أو فساداً

فى ناحية من نواحيه ، وإذا رأيت عورة من العورات قد ظهرتْ فاعلم أنْ حُكْماً لله قد عُطِّل .

فمثلاً إنْ رأيتَ فقيراً جائعاً عارياً فإما أنه قادر على العمل لكنه قعد عن السعى وخالف قوله تعالى : ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾ [الملك] أو : أن القادرين العاملين حرموه حقّه الذى جعله الله له فى أموالهم ، وخالفوا قوله تعالى : ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾﴾ [الذاريات]

لذلك ، فالحق ـ سبحانه وتعالى ـ يُجرى على عباده من المقادير ما يحفظ لهم توازن الحياة ويسُدُّ حاجة المحتاجين ، كما نرى مثلاً أحد الأثرياء يترك بلده ، وينتقل إلى بلد آخر يضع فيها أمواله وثرواته ، وليس هناك سبب لهذه النقلة إلا أنها خاطر سلَّطه الله عليه ليحفظ به توزيع المال فى المجتمع ، ولو حسبتها لوجدتَ أن هذا المكان زادت فيه حصيلة الزكاة عن حاجة المحتاجين ، فانتقل إلى بلد آخر قلَّت فيه الأموال عن حاجة الفقراء والمحتاجين .

وبعد ذلك لم يتركك ربك ، بل عرض لك الآيات التى تلفتك إليه ، وتُحنِّنك إلى التعرُّف عليه ، وهى إما آيات كونية عجيبة تدل على قدرة الله تعالى ، أو معجزات تثبت صدْق الأنبياء فى البلاغ عن الله ؛ لأن الله تعالى لا يخاطب عباده كل واحد بمفرده ، إنما يرسل رسولاً ليُبلِّغهم ثم يُؤيِّده بالمعجزة الدالة على صدْقه فى البلاغ .

فحين تنظر فى آيات الكون وتستدل بها على وجود خالق قادر لكنك لا تعرف مَنْ هو هذا الخالق يأتى الرسول ليقول لك : إنه الله ، وقد ضربنا لذلك مثلاً ـ ولله المثل الأعلى : هَبْ أن أحداً دَقَّ الباب ونحن جلوس بالداخل فما الذى يحدث ؟ نتفق نحن جميعاً على أن

طارقاً بالباب . لكن مَنْ هو ؟ لا أحد يعلم .

فالاتفاق هنا فى التعقُّل ، وأن هناك قوةً خلف الباب تدقّه ، لكن مَنْ هو ؟ وماذا يريد ؟ لا بُدَّ لمعرفة هذه المسائل من بلاغ عن هذه القوة ، وإياك أنْ تقول بالظن : هذا فلان وأنا أقول هذا فلان ، إنما علينا أن ننتظر البلاغ منه لنعرف مَنْ هو ، وما عليك إلا أنْ تقول : مَنْ بالباب وسوف يخبرك هو عن نفسه ، وعن سبب مجيئه ، وماذا يريد . ثم بعد ذلك تأتى الآيات التى تحمل منهج الله ، وتخبرك أنه يريد منك كذا وكذا .

الشاهد : أن هذه الآيات كلها تحتاج إلى وسائل لإدراكها ، تحتاج إلى سمع وبصر لنراها ونسمعها ، ثم تحتاج إلى عقل لنفكر فيها ونتأملها ؛ لذلك يقول سبحانه : ﴿وَهُوَ الَّذِى أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ .. (٧٨)﴾ [المؤمنون]

السمع والبصر من الحواس التى سماها العلماء احتياطاً الحواس الخمس الظاهرة أى : أن هناك حواسَّ أخرى لم يكتشفوها ، وفعلاً اكتشفها العلم بعد ذلك كحاسة العضل التى تميز بها الثقل ، وحاسة البين التى تميز بها الغليظ من الرقيق فى الثياب مثلاً ، فهذه الأشياء لا تستطيع التعرّف عليها بالحواسِّ الخمس المعروفة .

وعُمْدة الحواس : السمع والبصر ؛ لأنه إذا جاءنى رسول يُبلِّغنى عن الله لا بُدَّ أن أسمع منه ، فإنْ كنتَ مؤمناً بإله فقد اكتفيتَ بحاسة السمع ، وإنْ كنتَ غير مؤمن تحتاج إلى بصر لتبصر به آياته الدالة على وجوده وقدرته ، وتستدل بالصَّنْعة على الصانع ، وبالخَلْقة على الخالق ، وتقف على ما فى كوْن الله من الدقة والإحكام والهندسة والإبداع .

وهذه مهمة العقل بعد أن تحولت المسموعات والمرئيات إلى قضايا ومبادىء عقلية تحكم حياتك ، كما لو رأيتَ النار بعينك ثم لمستها بيدك فأحرقتك فتكوَّنت لديك قضية عقلية مُؤدّاها أن النار لها خاصية الإحراق فلا تلمسها بعد ذلك ، وهذه تراها حتى فى الطفل الصغير حينما يعجبه قرن الشطة مثلاً فيقضمه فيشعر بحرارته وألمه .

فإذا رآه بعد ذلك يقول (أوف) ، فهذه اللفظة بالنسبة للطفل قضية عقلية تكوَّنَتْ لديه نتيجة تجربة استقرتْ فى فؤاده ، وأخذها مبدأً يسير عليه فى كل حياته ، وهكذا من المحسّات ومن تجارب الحياة تتكوَّن لديك قضايا عقلية تستفيد بها فيما بعد .

إذن : من وسائل الإدراك تتكوَّن المبادىء والقضايا التى يأخذها العقل ، ويفاضل بينها حتى ينتهى إلى قضية ومبدأ يستقر فى القلب ونُسمِّيها عقيدة يعنى : شىء معقود عليه لا ينحلّ .

وحين تتأمل حديث القرآن عن الحواس تجده يُرتِّبها دائماً هذا الترتيب : السمع والبصر والفؤاد لأنها عُمْدة الحواس ، فالشمُّ مثلاً والتذوق واللمس لا نحتاج إليه إلا قليلاً ، أما السمع والبصر فعليهما تقوم مسألة الدعوة : السمع لسماع البلاغ ، والبصر لنرى آيات الله الدالة على قدرته تعالى .

وقد أثبت العلم الحديث هذا الترتيب للسمع والبصر والفؤاد مما يدلُّ على أنه ترتيب من خالق عن حكمة وعلم وقدرة ، بحيث لا يأتى واحد منها قبل الآخر ، كما أثبت علماء وظائف الأعضاء صدْق هذا الترتيب ، فأوّل أداة تؤدى مهمتها فى الإنسان هى الأذن ثم العين ، وتعمل من ثلاثة إلى عشرة أيام من الولادة ، ثم من السمع والبصر

توجد القضايا التى يعمل فيها العقل .

إذن : فهذا ترتيب خَلْقى وتكويني . كما أن السمع وهو أول حاسّة تؤدى مهمتها فى الإنسان هو أيضاً الإدراك الوحيد الذى يصاحب الإنسان فى كل أطواره ، فالأذن تسمع مثلاً حتى فى حالة النوم على خلاف العين ؛ ذلك لأن بالسمع يتم الاستدعاء ، لذلك تظل تؤدى مهمتها حتى فى حال النوم .

كما أن العين لا ترى فى الظلام ولها غطاء طبيعى ومغاليق تحجب الرؤية ، وليست الأذن كذلك ، فالصوت إذا خرج تسمعه جميع الآذان ، أما المرئىّ فقد يوجد معك فى نفس المكان ولا تراه وقد يراه غيرك ، إذن : فالمسموع واحد والمرائى متعددة ، لذلك قال سبحانه : ﴿السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ .. (٧٨)﴾ [المؤمنون]

فليس لك خيار فى السمع ، لكن لك خيار فى الرؤية ، فالمبصرات تتعدد بتعدُّد الأبصار ، لكن السمع لا يتعدد بتعدُّد الأسماع .

لذلك من إعجازات البيان القرآنى فى قصة أهل الكهف أن الله تعالى ضرب على آذانهم فى الكهف ليناموا ولا تزعجهم الأصوات فى هذه الصحراء الدويّة ، ولو بقى لهم السمع كشأن الخَلْق جميعاً لما استقر لهم قَرَار طوال هذه الفترة الطويلة ، ولأفزعتهم الأصوات .

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا (١١)﴾ [الكهف]

كذلك من آيات الإعجاز فى القرآن الكريم أن جميع الآيات التى ذكرتْ السمع والبصر ذكرتْه بهذا الترتيب : السمع والأبصار ، إلا فى آية واحدة فى موقف القيامة قالوا : ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا .. (١٢)﴾ [السجدة]

فقدَّم البصر على السمع ؛ لأن فى القيامة تفجؤهم المرائى أولاً قبل أنْ تفجأهم الأصوات ، وهذه من مظاهر الدقة فى الأداء القرآنى المعجز .

وكأن الحق سبحانه يقول : لا عُذْر لك عندى فقد أعطيتُك سمعاً لتسمع البلاغ عنى من الرسول ، وأعطيتُك عَيْناً لتلتفت إلى آيات الكون ، وأعطيتُك فؤاداً تفكر به ، وتنتهى إلى حصيلة إيمانية تدلُّك على وجود الخالق عز وجل .

إذن : ما أخذتُك على غِرَّة ، ولا خدعتُك فى شىء ، إنما خلقتُك من عدم ، وأمددتُك من عُدم ، ورتبتُ لك منافذ الإدراك ترتيباً منطقياً تكوينياً ، فأىُّ عذر لك بعد ذلك .. وإياكم بعد هذا كله أنْ تشغلكم الأهواء ، وتصرْفكم عن البلاغ الذى جاءكم على لسان رسولنا .

والمتأمل فى تركيب كل من الأذن والعين يجد فيهما آيات ومعجزات للخالق - عز وجل - ما يزال العلماء لم يصلوا رغم تقدُّم العلوم إلى أسرارها وكُنْهها .

ثم يقول سبحانه فى ختام الآية : ﴿قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [المؤمنون] لأن هذه نِعَم وآلاء وآيات لله ، كان ينبغى أن تشكر حَقَّ الشكر .

البعض يقول فى معنى ﴿قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [المؤمنون] أنه تعالى عبَّر عن عدم الشُّكْر بالقلة ، وهذا الفهم لا يستقيم هنا ؛ لأن الله تعالى أثبت لعباده شكراً لكنه قليل ، وربك - عز وجل - يريد شكراً دائماً يصاحب كل نعمة ينعم بها عليك ، فساعة ترى الأعمى الذى

حُرِم نعمة البصر يتخبَّط فى الطريق تقول الحمد لله ، تقولها هكذا بالفطرة ؛ لأنك تعيش وتتقلب فى نعَم الله ، لكن لا تتذكرها إلا حين ترى مَنْ حُرِم منها .

لذلك ، إنْ أردتَ أنْ تدوم لك النعمة فاعقلها بذِكْر الله المنعم قُلْ عند النعمة ، أو عند رؤية ما يعجبك فى أهل أو مال : ما شاء الله لا قوة إلا بالله ، ألاَ ترى أن الله تعالى جعل الحسد لينبهنا : إنْ أردتَ صيانة النعمة فلا تنسَ المنعمَ ؛ لأنه وحده القادر على حِفْظها وصيانتها ، كما نشترى الآن آلة ، ونتفق مع صانعها على صيانتها صيانةً دورية مقابل أجر معين .

كذلك إنْ قُلْتَ عند النعمة : ما شاء الله لا قوة إلا بالله ، فلن ترى فيها سوءً أبداً ، لأنك أيقظتَ بـ « ما شاء الله لا قوة إلا بالله » قانونَ صيانتها ، وجعلتَ حفظها إلى مَنْ صنعها . ولا يُصاب الإنسان فى النعمة إلا إذا غفل عن المنعِم وترك الشُّكْر عليها .

وأذكر أنه كان فى قريتنا رجل من أهل الفهم عن الله ، وكان يملك ثلث فدان يزرعه المزروعات التقليدية ، وفى أحد الأعوام زرعه قطناً ، فجاءت عليه الدودة وكادت تهلكه ، فكلَّمه والدى فى مسألة الدودة هذه فقال له : يا عم متولى لا تقلق فأنا أؤدى صيانتها يعنى : أُخرِج منها الزكاة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾﴾

﴿ذَرَأَكُمْ .. ﴿٧٩﴾﴾ [المؤمنون] بثكم ونشركم فى أنحاء الأرض لتعمر كلها ، وتعجب حين ترى أناساً متشبثين بالجبال والصحراء

القفر الجرداء ، ولا يرضون بها بديلاً ، ويتحملون فى سبيل البقاء بها العَنَت والمشقة ، حتى إنك لتقول : لماذا لا يتركون هذا المكان إلى مكان خصب .

وقد رأينا مثل هؤلاء الذين صبروا على أقدار الله فى بلادهم ، رأيناهم فى اليمن بعد أن أغرقها سيل العرم ، وكانت تُسمَّى « اليمن السعيد » ورأيناهم فى السعودية وفى الكويت ، وحكى لنا أهل هذه البلاد ما كانوا فيه من الضيق وقسوة الحياة ، ثم جاءتهم عاقبة صبرهم ، وجعل الله ـ سبحانه وتعالى ـ هذه الجبال وهذه الصحراوات أغنى بلاد الدنيا ؛ لأنهم رَضُوا فى الأولى بقضاء الله ، فأبدلهم بصبرهم على لأواء الصحراء نعيماً ، لو حُرِم منه المنعّمون فى الدنيا لماتوا من البرد .

ذلك لأن الخالق ـ عز وجل ـ نثر خيراته فى كل أنحاء الأرض بالتساوى ، فكل قطعة طولية من الأرض فيها من الخيرات مثل ما فى القطعة الأخرى ، وفى يوم من الأيام كان أصحاب الزرع هم أصحاب المال وأصحاب السيادة ، ثم تغيرت هذه الصورة بظهور خَيْرات أخرى غير الزراعة ، فالخيرات ـ إذن ـ مطمورة فى أنحاء الأرض ، لكن لها أوان تظهر فيه .

إذن : فبَثُّ الخليقة ونشْرُها فى أنحاء الأرض له حكمة أرادها الخالق عز وجل .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٧٩) ﴾ [المؤمنون] يعنى : لا تفهموا أنكم بنشركم فى الأرض وتفريقكم فيها أنكم تفلتون منا ، أو أننا لا نقدر على جمعكم مرة أخرى ، فكما نشرناكم لحكمة نجمعكم لحكمة لا يخرج من أيدينا أحد .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾

﴿ يُحْيِي وَيُمِيتُ .. ﴿٨٠﴾ ﴾ [المؤمنون] فعْلان لا بُدَّ أن ينشآ بعد وجود الحياة ووجود الموت ، فالخالق ـ عز وجل ـ يُوجِد الحياة أولاً ، ويوجد الموت ، ثم يجرى حدثاً منهما على ما يريده .

والحياة سبقتْ الموت فى كل الآيات ، إلا فى آية واحدة فى سورة تبارك : ﴿ الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ .. ﴿٢﴾ ﴾ [الملك] وعلَّة ذلك أن الله تعالى يعطى للإنسان بالحياة إرادةً تُنشئ الحركة فى كل أجهزته ، ولك أن تتأمل : ما الذى تفعله إنْ أردتَ أن تقوم من مكانك ؟ ماذا تفعل إنْ أردتَ تحريك يدك أو قدمك ؟ إنها مجرد إرادة وتتحرك أعضاؤك دون أن تدرى أو تُجهد نفسك للقيام بهذه الحركات ، ودون أن تباشر أى شىء .

إذن : بمجرد إرادتك تنفعل لك الجوارح وأنت مخلوق لربك ، فإذا كان المخلوق يفعل ما يريد بلا معالجة ، فكيف نستبعد هذا فى حقِّه ـ سبحانه وتعالى ـ ونكذب أنه يقول للشىء : كُنْ فيكون ، مع أننا نفعل ما نريد بجوارحنا بمجرد الإرادة ، ودون أن نأمرها بشىء أو نقول شيئاً ، والله سبحانه وتعالى يقول للشىء : كُنْ فيكون ، وأنت تفعل دون أن تقول .

وقد قدَّم الحق سبحانه الموتَ فى هذه الآية : ﴿ الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ

وَالْحَيَاةَ .. (٢) ﴾ [الملك] ؛ لأن الحياة ستُورث الإنسانَ غروراً فى سيطرة إرادته على جوارحه فيطغى ، فأراد ربه - عز وجل - أن يُنبهه : تذكّر أننى أميتُ ؛ ليستقبل الحياة ومعها نقيضها ، فيستقيم فى حركة الحياة .

وصفة الخَلْق والإماتة صفات لله قديمة قبل أنْ يخلق شيئاً أو يميت شيئاً ؛ لأنها صفات ثابتة لله قبل أنْ يباشر متعلقات هذه الصفات كما قلنا ، ولله المثل الأعلى : الشاعر حين يقول قصيدة قالها لأنه شاعر ولا نقول : إنه شاعر لأنه قال هذه القصيدة ، فلولا صفة الشعر فيه ما قال .

وكما أن الحياة مخلوقة ، فالموت كذلك مخلوق ، وقد يقول قائل : إذا أطلقتَ رصاصة على شخص أردَتْهُ قتيلاً فقد خلقتَ الموت . نقول : الحمد لله أنك لم تدَّع الإحياء واكتفيتَ بالموت ، لكن فَرْق بين الموت والقتل ، القتل نَقْض للبِنْية يتبعه إزهاق للروح ، أما الموت فتخرج الروح أولاً دون نَقْض للبنية .

لذلك يقول سبحانه : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ .. (١٤٤) ﴾ [آل عمران]

والنمرود الذى حَاجَّ إبراهيم - عليه السلام - فى ربه أمر بقتل واحد وتَرْك الآخر ، وادَّعى أنه أحيا هذا ، وأمات هذا ، وكانت منه هذه الأعمال سفسطة لا معنى لها ، ولو كان على حَقٍّ لأمرَ بإحياء هذا الذى قتله ؛ لذلك قطع عليه إبراهيم - عليه السلام - هذا الطريق ونقله إلى مجال آخر لا يستطيع المراوغة فيه .

إذن : هَدْم البِنْية يتبعه خروج الروح ؛ لأن للروح مواصفات

خاصة ، بحيث لا تحل إلا فى بنية سليمة ، وقد أوضحنا هذه المسألة ـ ولله المثل الأعلى ـ بلمبة الكهرباء ، فقوة الكهرباء كامنة فى الأسلاك لا نرى نورها إلا إذا وضعنا اللمبة مكانها ، ويكون لها مواصفات بحيث لا تضىء إلا إذا توفرتْ لها هذه الصفات ، فإنْ كُسِرَت ينطفىء نورها .

ثم يقول تعالى : ﴿وَلَهُ اخْتِلافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ .. ﴿٨٠﴾﴾ [المؤمنون] الليل يحل بغياب الشمس وحلول الظُّلْمة التى تمنع رؤية الأشياء ، وقديماً كانوا يظنون أن الرؤية تتم حين يقع شعاع من العين على المرئى ، ثم جاء العالم المسلم الحسن بن الهيثم ، فأثبت خطأ هذه النظرية ، وقرر أن الرؤية تتم حين يقع شعاع من المرئىّ على العين فتراه ، بدليل أنك لا ترى الشىء إنْ كان فى الظلام .

وظُلْمة الليل تنبهنا إلى أهمية الضوء الذى لا بُدَّ منه لنهتدى إلى حركة الحياة ، والإنسان يواجه خطورة إنْ سار فى الظلام ؛ لأنه إمَّا أن يصطدم بأضعف منه فيحطمه ، أو بأقوى منه فيؤلمه ويؤذيه .

إذن : لا بُدَّ من وجود النور لتتم به حركة الحياة والسَّعْى فى مناكب الأرض ، وكذلك لا بُدَّ من الظُّلْمة التى تمنع الإشعاع عن الجسم ، فيستريح من عناء العمل ، وقد أثبت العلم الحديث خطر الإشعاعات على صحة الإنسان .

لذلك يقول تعالى : ﴿وَلَهُ اخْتِلافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ .. ﴿٨٠﴾﴾ [المؤمنون] فجعلهما يختلفان ويتعاقبان ليؤدى كل منهما وظيفته فى الكون ، يقول تعالى : ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾﴾ [الليل] وطالما أن لكل منهما مهمته ، فإياك أن تقلب الليل إلى نهار ، أو النهار إلى ليل ؛ لأنك بذلك تخالف الطبيعة التى خلقك الله عليها ، وانظر إلى هؤلاء

الذين يسلكون هذا المسلك فيسهرون الليل حتى الفجر ، وينامون النهار حتى المغرب ، وكم أحدثوا من فساد فى حركة الحياة ، فالتلميذ ينام فى الدرس ، والعامل ينام ويُقصِّر فى أداء عمله .

والنبى ﷺ يُنبِّهنا إلى هذه المسألة فى قوله : « ... أطفئوا المصابيح إذا رقدتم »[1] لأن الجسم لا يأخذ راحته ، ولا يهدأ إلا فى الظلمة ، فيصبح الإنسان قوياً مستريحاً نشيطاً ، واقرأ قول الله تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا (١٠) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا (١١)﴾ [النبأ]

ومن دقَّة الأداء القرآنى أن يراعى هؤلاء الذين يعملون ليلاً ، وتقتضى طَبيعة أعمالهم السَّهَر ، مثل رجال الشرطة وعمال المخابز وغيرهم ، فيقول تعالى : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ .. (٢٣)﴾ [الروم] فالليل هو الأصل ، والنهار لمثل هؤلاء الذين يخدمون المجتمع ليلاً ؛ لذلك عليهم أن يجعلوا من النهار ليلاً صناعياً ، فيغلقوا النوافذ وينامو فى مكان هادىء ؛ ليأخذ الجسم حظه من الراحة والهدوء .

إذن : الليل والنهار ليسا ضدّيْن ، إنما هما خَلْقان متكاملان لا متعاندان ، وهما كالذكَر والأنثَى ، يُكمل كل منهما الآخر ، لا كما يدَّعى البعض أنهما ضدان متقابلان ؛ لذلك بعد أن أقسم الحق سبحانه بالليل إذا يغشى ، وبالنهار إذا تجلَّى ، قال : ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ (٣) إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ (٤)﴾ [الليل] فالليل والنهار كالذكر والأنثى لكل منهما مهمة فى حركة الحياة .

واختلاف الليل والنهار من حيث الضوء والظُّلْمة والطول والقصَر وفى اختلاف الأماكن ، فالليل لا ينتظم الكون كله ، وكذلك النهار ،

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٦٢٤) وأحمد فى مسنده (٣/٣٨٨) من حديث جابر ابن عبد الله ، واللفظ للبخارى .

فحين يكون عندك لَيْل فهو عند غيرك نهار ، يقول تعالى : ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ .. (١٣)﴾ [فاطر]

وينتج عن هذا تعدُّد المشارق والمغارب بتعدُّد الأماكن بحيث كل مشرق يقابله مغرب ، وكل مغرب يقابله مَشْرق ، لدرجة أنهم قالوا : ينشأ ليل ونهار فى كل واحد على مليون من الثانية .

وينشأ عن هذا كما قلنا استدامة ذِكْر الله على مدى الوقت كله ، بحيث لا ينتهى الأذان ، ولا تنتهى الصلاة فى الكون لحظة واحدة ، فأنت تصلى المغرب ، وغيرك يصلى العشاء .. وهكذا . إذن : فالحق سبحانه يريد أن يكون مذكوراً فى كل الكون بجميع أوقات الصلاة فى كل وقت .

حتى إن أحد الصوفية وأهل المعرفة يقول مخاطباً الزمن : يا زمن وفيك كل الزمن . يعنى : يا ظهر وفيك عصر ومغرب وعشاء وفجر ، لكن عند غيرى .

ومن اختلاف الليل والنهار ينشأ أيضاً الصيف الحار والشتاء البارد ، والحق سبحانه وتعالى كلف العبيد كلهم تكليفاً واحداً كالحج مثلاً ، وربط العبادات كلها بالزمن الهجرى ، فالصيف والشتاء يدوران فى الزمن ، ويتضح هذا إذا قارنت بين التوقيت الهجرى والميلادى ، وبذلك مَنْ لم يناسبه الحج فى الصيف حَجَّ فى الشتاء ؛ لأن اختلاف التوقيت القمرى يُلون السنة كلها بكل الأجواء .

لذلك قالوا : إن ليلة القدر تدور فى العام كله ؛ لأن السابع والعشرين من رمضان يوافق مرة أول يناير ، ومرة يوافق الثانى ، ومرة يوافق الثالث ، وهكذا .

ومن اختلاف الليل والنهار أنهما خلْفة ، كما قال تعالى :

﴿وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا (٦٢)﴾ [الفرقان]

فنحن نرى الليل يخلُف النهار ، والنهار يخلُف الليل ، لكن احكم القضية فى كل أطوار زمنها ، فما دام الحق ـ سبحانه وتعالى ـ جعل الليل والنهار خلْفة ، فلا بُدَّ أن يكون ذلك من بداية خلقهما ، فلو وُجِد الليل أولاً ثم وُجِد النهار ، فلا يكون الليل خلْفة ؛ لأنه لم يسبقه شىء ، فهذا يعنى أنهما خُلقا معاً ، فلما دار الزمن خلف بعضهما الآخر ، وهذا لا ينشأ إلا إذا كانت الأرض مُكوَّرة ، بحيث يجتمع فيها الليل والنهار فى وقت واحد ، فالذى واجه الشمس كان نهاراً ، والذى واجه الظلمة كان ليلاً .

ثم يقول سبحانه : ﴿أَفَلا تَعْقِلُونَ (٨٠)﴾ [المؤمنون] لأن هذه المسائل كان يجب أن تعقلوها خاصة ، وقد كانت اختلافات الأوقات مَبْنية على التعقل ، أما الآن فهى مَبْنية على النقل ، حيث تقاربت المسافات ، وصِرْنا نعرف فارق التوقيت بيننا وبين جميع أنحاء العالم بالتحديد .

كذلك كان الناس فى الماضى ينكرون نظرية كروية الأرض ، حتى بعد أن التقطوا لها صوراً أظهرت كرويتها وجدنا من مفكرينا من ينكر ذلك . ونقول : لماذا نقف هذا الموقف من نظريات ثابتة قد سبق قرآنُنَا إلى هذا القول ؟ ولماذا نعطى الآخرين فكرة أن ديننا يغفل هذه المسائل ، مع أنه قد سبق كل هذه الاكتشافات ؟

ولو تأملتَ قوله تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِى مَدَّ الأَرْضَ .. (٣)﴾ [الرعد] لوجدت فيه الدليل القاطع على صِدْق هذه النظرية ؛ لأن الأرض الممدودة هى التى لا تنتهى إلى حافة ، وهذا لا يتأتّى إلا إذا كانت

الأرض كروية بحيث تسير فيها ، لا تجد لها نهاية حتى تصل إلى الموضع الذى منه بدأت ، ولو كانت الأرض على أى شكل آخر غير الكروى مثل المربع أو المستطيل لكان لها نهاية . لكن لم تتوفر لنا فى الماضى الآلات التى تُوضِّح هذه الحقيقة وتُظهرها .

إذن : الحق سبحانه فى قوله : ﴿أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [المؤمنون] ينبهنا إلى ضرورة إعمال العقول فى المسائل الكونية ؛ لأنها ستوفر علينا الكثير فى الطريق إلى الله عز وجل ، ولماذا يُعمل الإنسان عقله ويتفنّن مثلاً فى ارتكاب الجرائم فَيُرتب لها ويُخطط ؟ لكن الله تعالى يكون له بالمرصاد فيُوقعه فى مَزْلَق ، فيترك وراءه منفذاً لإثبات جريمته ، وثغرة تُوصِّل إليه ؛ لذلك يقول رجال القضاء : ليست هناك جريمة كاملة ، وهذه مهمة القاضى أو المحقق الذى يحاور المجرم ليصل إلى هذه الثغرة .

وكأن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ يقول : لقد استخدمتَ عقلك فيما لا ينبغى ، وسخَّرْته لشهوات نفسك ، فلا بُدَّ أن أوقعك فى مزلق ينكشف فيه أمرك ، فإنْ سترتها عليك مرة فإياك أنْ تتمادى ، أو تظنّ أنك أفلتَّ بعقلك وترتيبك وإلاَّ أخذتُك ولو بجريمة لم تفعلها ؛ لأنك لا تستطيع أن تُرتِّب بعقلك على الله ، وعدالته سبحانه فوق كل ترتيب .

كما لو فُضِح إنسان بأمر هو منه برىء ، ولحقه الأذى والضرر بسبب هذه الإدانة الكاذبة ، فتأتى عدالة السماء فيستر الله عليه فضيحة فعلها جزاءً لما قد أصابه فى الأولى ، وهذه مسألة لا يفعلها إلا رب .

والحق ـ سبحانه وتعالى ـ حينما يُنبِّه العقل ويثيره : تفكّر ، تدبّر ، تعقّل ، ليدرك الأشياء الكونية من حوله ، فهذا دليل على أنه

سبحانه واثق من صَنْعته وإبداعه لكونه ؛ لذلك يثير العقول للبحث وللتأمل فى هذه الصنعة .

وهذه المسألة نلاحظها فيمَنْ يعرض صَنْعته من البشر ، فالذى يتقن صَنْعته يعرضها ويدعوك إلى اختبارها والتأكد من جودتها على خلاف الصنعة الرديئة التى يلفّها لك صانعها ، ويصرفك عن تأملها حتى لا تكشف عيبها .

فحين ينبهك ربك إلى التأمل فى صَنْعته فعليك أنْ تدرك المغزى من هذه الإثارة لتصل إلى مراده تعالى لك .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ ﴾

أى : لم يتعظوا بكل هذه الآيات ، بل قالوا مثلما قال الأولون :

﴿ قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

وسواء أكان هذا قولهم أو قول سابقيهم من الأولين ، فقد كان الشك عند الذين عاصروا الدعوة المحمدية فى مسألة البعث من الموت ، وكل كلامهم يؤدى إلى ذلك ، فهم تعجبوا من حدوث هذا الأمر .

ولذلك قال قائلهم : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ﴾ [يس]

﴿ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾

أتظنون أن الله تعالى إذا وعدكم بالموت ثم بالبعث أن هذا سيكون فى الدنيا ؟ لذلك تقولون : وُعِدْنا بهذا من قبل ولم يحدث ، وقد مات منّا كثيرون ولم يعودوا ولم يُبعَثُوا ، فَمَنْ قال لكم إنكم ستموتون اليوم وتُبعثون غداً ؟

البعث لا يكون إلا بعد أن يموت جميع الخَلْق ، ثم يُبعثوا كلهم مرة واحدة .

إذن : هذا الكلام منهم مجرد سفسطة وجدل لا معنى له .

وكلمة ﴿وُعِدْنَا .. (٨٣)﴾ [المؤمنون] يعنى بالبعث ، والوعد عادة يكون بالخير، كما أن الوعيد يكون بالشر ، كما جاء فى قول الشاعر :

وإنِّى إذَا أَوْعدتُه أَوْ وَعدتُه لَمخلِفُ إيعَادِى ومُنجِزُ موْعِدى

يعنى : هو رجل كريم يترك الشر الذى توعّد به ، ويفعل الخير ألذى وعد به ، وإن قال العلماء : قد يستعمل هذا مكان هذا .

لكن ، هل الوعد للكفار بالبعث وما يتبعه من عذاب وعقاب يُعَدُّ وَعْداً ؟ قالوا : نعم يعد هذا الشر وهذا العذاب الذى ينتظر وَعْداً بالخير لأنه يُنبههم ويلفتهم إلى خطورته حتى لا يقعوا فيه إذن : هو خير لهم الآن حيث يُحذِّرهم كما تحذر ولدك من الرسوب إنْ أهمل فى دروسه .

ومن ذلك أيضاً فى هذه المسألة ما أشرنا إليه من تكرار قوله تعالى : ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٣)﴾ [الرحمن] فى سورة الرحمن ، وأنها جاءت بعد ذكْر نعم الله على سبيل التوبيخ لمَنْ أنكر هذه النعم أو كذَّب بها ، وتكررت مع كل نعمة تأكيداً لهذا التوبيخ ، لكن العجيب أن تذكر هذه الآية حتى بعد النقم أيضاً ، كما فى قوله تعالى :

﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلا تَنتَصِرَانِ (٣٥) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٦)﴾ [الرحمن]

وهل فى النار والشُّواظ نعمة ؟ نقول : نعم فيها نعمة ؛ لأنها نصيحة لك قبل أن تقع فى هذا المصير وتحذير لك فى وقت التدارك حتى تراجع نفسك .

وقولهم : ﴿إِنْ هَـٰذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ (٨٣)﴾ [المؤمنون] ﴿إِنْ هَـٰذَا.. (٨٣)﴾ [المؤمنون] يعنى : ما هذا . وأساطير : جمع أسطورة مثل : أعاجيب وأعجوبة ، وهناك مَنْ يقول : إن أساطير جمع سطر أسطار أساطير مثل شكل وأشكال ، فهى جَمْع للجمع . وسواء أكانت جَمْع أسطورة أو جمع سطر ، فالمعنى لا يختلف ؛ لأن الشىء المسطور قد يعتبره الناس خرافة وكلاماً لا معنى له .

والأساطير هى الكلام المكذوب الذى لا أصلَ له ، فلا يُسمَّى الكلام أسطورة إلا إذا جاء وقته ولم يحدث ، فلَكَ أن تقول أساطير إنما البعث الذى تقولون عنه ﴿أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ (٨٣)﴾ [المؤمنون] لم يأت وقته بعد ، فلم يمت جميع الخَلْق حتى يُبعثوا ، فقد أخطأتم التوقيت وظننتم أنكم فى الدنيا تموتون وتبعثون هكذا على رؤوس الأشهاد ، والناس ما زالت فى سعة الدنيا .

إذن : ليس البعث كما تقولون ، بل هو حق ، ولكنكم لم تضعوا له الكلمة المناسبة ؛ لذلك يوجه إليهم هذه الأسئلة التقريرية التى تقيم عليهم الحجة :

﴿قُل لِّمَنِ الأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٤)﴾

ويأتى فى السؤال بإن الشرطية الدالة على الشك فى كونهم يعلمون .

﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾﴾

فما دُمْتم أقررتم بأن الأرض ومَنْ فيها لله ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [المؤمنون] يعنى : ما الذى صرفكم عن مالك الأرض وخالقها ؟

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾﴾

نلحظ أنهم لم يجادلوا فى هذه المسألة ، ولم يقولوا مثلاً إنها سماء واحدة هى التى نراها ، مما يدل على أنها أمر غير منكور عندهم ، ولا بُدَّ أن الأنبياء السابقين قد أخبروهم خبر السماء ، وأنها سبع سموات ، وأصبحت عندهم قضية عقلية يعرفونها ، وإلا كان بوُسْعهم الاعتراض ، حيث لا يرون إلا سماءً واحدة . إذن : لم يجادلوا فى هذا الموضوع .

وقوله تعالى : ﴿وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾﴾ [المؤمنون] العرش مخلوق عظيم لا يعلم كُنْهه إلا الله الذى قال فيه ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ .. ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف] وقال ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ .. ﴿٧﴾﴾ [هود]

والعرش لم يَرَهُ أحد ، إنما أخبر عنه ربه الذى خلقه ، فقال : لى كذا ولى كذا ، ويكفى أن الله تعالى وصفه بأنه عظيم . وفى هذه أيضاً لم يجادلوا رسول الله ولم يقولوا إننا لم نَرَ العرش ، مما يدل على أن عندهم حصيلة من تراث الأنبياء السابقين انتقلت إليهم فطرة من فطر التكوين البشرى فى السماع من الموجودين .

وقد وصف العرش بأنه عظيم عند البشر أيضاً ، ففى قصة سليمان وملكة سبأ قال الهدهد : ﴿ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) ﴾ [النمل] لأن العرش رمزية لاستقرار الملْك واستتباب الأمر للْمَلِك الذى لا ينازعه فى مُلْكه أحد ، ولا يناوشه عليه عدو ؛ لذلك أول ما قال سليمان ـ عليه السلام ـ فى أمرها قال : ﴿ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا .. (٣٨) ﴾ [النمل] وكأنه يريد أن يسلب منها أولاً رمز العظمة والأمن والأمان والاستقرار فى الملك .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٨٧) ﴾

فما دام الأمر كذلك وما دُمْتم تعترفون بأن لله مُلْكَ السموات والأرض ، وله العرش العظيم ، فلماذا لا تتقون هذا الإله ؟ لماذا تتمردون على منهجه ؟ إن هذا الكون كله بما فيه خُلِق لخدمتك ، أفلا يلفتك هذا إلى الصانع المنعم .

لذلك يقول تعالى فى الحديث القدسى : « يا ابْن آدم ، خلقت الأشياء كلها من أجلك ، وخلقتُك من أجلى ، فلا تنشغل بما هو لك عما أنت له »[1] يعنى : لا تُلْهك النعمة عن المنعم . وعلى العبد أن ينظر أولاً إلى خالقه ومالكه ، فيؤدى حقه ، ثم ينظر إلى ما يملك هو .

ومعنى : ﴿ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٨٧) ﴾ [المؤمنون] الاتقاء : أن تجعل بينك وبين صفات الجلال من الله وقاية ، وسبق أن قُلْنا : من عجيب آيات القرآن أن تقول مرة (اتقوا الله) ومرة (اتقوا النار) ، والمعنى لا تعارضَ فيه كما يظنه البعض ، بل المعنى واحد ؛ لأن النار جُنْد

---

(١) أورد ابن كثير فى تفسيره (٤/٢٣٨) : « ورد فى بعض الكتب الإلهية : يقول الله تعالى : ابن آدم خلقتك لعبادتى فلا تلعب ، وتكفلت برزقك فلا تتعب ، فاطلبنى تجدنى ، فإن وجدتنى وجدت كل شىء ، وإن فتك فاتك كل شىء ، وأنا أحبّ إليك من كل شىء » .

من جنود الله ومن صفات جلاله ، فالمراد : اتقوا عذاب الله ، واتقوا صفات القهر والجبروت بأن تجعل بينك وبينها وقاية .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ قُلْ مَنْ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾

معنى ﴿ بِيَدِهِ .. ﴿٨٨﴾ ﴾ [المؤمنون] تدل على التمكّن من الشىء ، كما تقول : هذا الأمر في يدى يعنى فى مُكْنتى وتصرفى ، أقلبه كيف أشاء ﴿ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ .. ﴿٨٨﴾ ﴾ [المؤمنون] مادة ملك منها مِلْك ، ومنها مُلْك ، ومنها ملكوت .

الملْك ما تملكه أنت ، حتى لو لم يكن عندك إلا ثوب واحد فهو ملْك ، أمّا مُلْك فيعنى أنْ تملك مَنْ يملك ، وهذا يكون ظاهراً . أما المَلكوت فالأشياء المخلوقة التى لا تقع عليها حواسُّك ، ولا يمكن أن تعلم عنها شيئاً إلا بإخبار خالقها ، والإنسان لا يرى كل ما فى الكون ، بل إن فى نفسه وذاته أشياءً لا يعرفها ، فهذا كله من عالم الملكوت .

بل إن الإنسان لا يرى حتى المُلْك الظاهر المحسّ ؛ لأنه لا يرى منه إلا على قَدْر مَدِّ بصره ، وما خرج عن هذا النطاق لا يراه ، وإن كان يراه غيره ، ويمكن أن يدخل هذا المُلك الذى لا تراه فى دائرة الملكوت بمعناه الواسع .

إذن : الملكوت يُطلق على الأشياء المحجوبة التى لا يراها أحد ، أو على الأشياء التى يراه واحد دون الآخر .

والإنسان إذا تعمَّق فى عبادة الله وفى طاعته يفيض عليه من التجليات ، ويعطيه من هذا الملكوت عطاءً مباشراً ، كما قال : ﴿مِّن لَّدُنَّا .. (٦٧)﴾ [النساء]

ألا ترى إبراهيم عليه السلام قال عنه ربه : ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِى وَفَّىٰ (٣٧)﴾ [النجم] وقال عنه : ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ .. (١٢٤)﴾ [البقرة] يعنى : يؤدى ما لله بدقة وعلى الوجه الأكمل ؛ لذلك يأتمنه ربه على أن يكون إماماً للناس ﴿قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا .. (١٢٤)﴾ [البقرة]

فلما أحسن إبراهيمُ ما بينه وبين ربه وبلغ هذه المنزلة قال عنه ربه : ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ..(٧٥)﴾[الأنعام]

لأنه أحسن فى الأولى فرقى إلى أعلى منها . كما لو دخل رجل بيتك وشاهد ما عندك من نعيم ، ففرح لما أنت فيه ، وقال : ما شاء الله تبارك الله ، ودعا لك بالزيادة ، فلما رأيت منه ذلك قلت له إذن : تعالى أريك ما هو أعظم .

كذلك العبد الصالح الذى عبد الله وتقرَّب إليه بمنهج موسى عليهما السلام ، فلما استقام على هذا المنهج وتعمَّق فى عبادة الله وطاعته أعطاه الله من علمه اللدنىّ دون واسطة ودون رسول ، حتى كان هو مُعلِّماً لموسى عليه السلام .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ .. (٨٨)﴾ [المؤمنون] يجير : تقول : استجار بفلان فأجاره يعنى : استغاث به فأغاثه ، ومنه قوله تعالى : ﴿وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ .. (٤٨)﴾ [الأنفال] والإنسان لا يستجير بغيره إلا إذا ضعُفَتْ قوته عن حمايته ، فيلجأ إلى قوى يحميه ويدافع عنه .

إذن : هذه المسألة لها ثلاثة عناصر : مجير ، وهو الذى يقبل أن يغيثك ويحتضنك ويدافع عنك . ومُجَار : وهو الضعيف الذى يطلب الحماية . ومُجَار عليه : وهو القوى الذى يريد أن يبطش . ومن المعروف أن رسول الله ﷺ فى رحلته إلى الطائف وبعد أنْ فعلوا به ﷺ ما فعلوا استجار ، ودخل فى حمى كافر .

فالحق - سبحانه وتعالى - يجير مَن استجار به ، ويغيث مَن استغاثه لكن ﴿لا يُجَارُ عَلَيْهِ .. (٨٨)﴾ [المؤمنون] لأن الذى يجيرك إنما يجيرك من مساوٍ له فى القوة ، فيستطيع أن يمنعك منه ، ويحميك من بطشه ، فَمَنْ ذا الذى يحميك من الله ؟ ومَنْ يجيرك إنْ كان الله هو طالبك ؟!

لذلك يقول سبحانه فى مسألة ابن نوح : ﴿قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ .. (٤٣)﴾ [هود] فالله - عز وجل - يجير على كل شىء ، ومن أصبح وأمسى فى جوار ربه فلا خوف عليه .

وتلحظ هنا العلاقة بين صَدْر هذه الآية وعَجُزها : فالله تعالى بيده وفى قبضته سبحانه كل شىء ، والأمر كله إليه ، فإياك أنْ تظن أنك تفلت من قبضته بالنعمة التى أعطاك ؛ لأنه سبحانه قادر أن يسلبك إياها ، وساعتها لن يجيرك أحد ، ولن يغيثك من الله مغيث ، ولن يعصمك من الله عاصم .

ثم اقرأ قوله تعالى : ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦)﴾ [آل عمران]

وهنا أيضاً يقول سبحانه : ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٨)﴾ [المؤمنون] إنْ كان عندكم علم بهذه المسألة ووصلت إليكم وعاينتموها .

ثم يقول الحق سبحانه عنهم :

﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ (٨٩) ﴾ (١)

ففى هذه أيضاً يقولون « لله » ؛ لأنه واقع ملموس لا يُنكَر ، وطالما أن الأمر كذلك ﴿ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ (٨٩) ﴾ [المؤمنون] كيف تسحرون أو أسُحِرتم عن هذا الواقع وصُرِفتم عنه إلى هذا الكلام الباطل ؟

هذه قضايا ثلاث جاءت على صورة سؤال لتدينهم بوضوح العقيدة فى الوجود الأعلى ، وبوضوح البينات فى إعجاز البلاغ عن الله ، وبوضوح الآيات فى آيات المنهج ، وقد أراد الحق سبحانه أن يأتى الكلام منهم وبإقرارهم هم على أنفسهم ؛ ليكون حجة وشهادة حَقٍّ عليهم .

ومعلوم أن الإقرار سيد الأدلة ؛ لذلك سألهم : ﴿ قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا .. (٨٤) ﴾ [المؤمنون]

﴿ وَقُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٨٦) ﴾ [المؤمنون]

﴿ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ .. (٨٨) ﴾ [المؤمنون]

وهم يقولون فى هذا كله (لله) إذن : فماذا بقى لكم ؟ ما الذى منعكم أن تتقوا الذى تؤمنون بأنه المالك للأرض وللسماء وبيده كل شىء ؟ إنه مجرد استكبار وعناد وغطرسة ، وإلا فماذا تعنى كلمة (الله) التى تنطقون بها ؟

إنكم تعرفون الله ، وتعرفون مدلول هذه الكلمة ؛ لأن مدلول الكلمة سابق على وجودها فى لغة البشر ، فاللغة عادة ألفاظ توضع لمعانٍ

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٦/٤٦٧٩) : « أى : فكيف تُخدعون وتُصرفون عن طاعته وتوحيده . أو : كيف يخيل إليكم أن لا تشركوا به ما لا يضر ولا ينفع » .

تدل عليها ، فالمعنى يُوجَد أولاً ، ثم نضع له اللفظ الدالّ عليه ، وما دام أن لفظ (الله) يدور على ألسنتكم ولا بُدَّ أنكم تعرفون مدلوله ، وهو قضية لغوية انتهيتم منها ، وإلا فالأمر العدمى لا اسم له . فالتليفزيون مثلاً : ما اسمه قبل أن يخترع ؟ لم يكن له اسم ؛ لأنه لم يكُنْ له معنى ، فلما وُجِد وُضِع له الاسم .

وحيث دارت الألسنة بكلمة الله فمعنى ذلك أنه تعالى موجود قبل وجود الاسم ، فالمسألة ـ إذن ـ حجة عليكم .

لذلك عرض الحق ـ سبحانه وتعالى ـ هذه القضايا فى صورة سؤال لينتزع منهم الإقرار بها ، كما لو أنكر شخص جميلك فيه ، فإنْ قلتَ له على سبيل الإخبار : لقد قدمتُ لك كذا وكذا ، والخبر يحتمل الصِّدْق ويحتمل الكذب وله أن يعترف أو ينكر .

أما حين تقول له : ألم أُقدِّم لك كذا وكذا ؟ على سبيل الاستفهام ، فإنه لا يملك إلا الاعتراف ، وينطق لك بالحق وبالواقع ، وتصل بإقراره إلى مَا لا تؤديه الشهادة أو البينة عليه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾

يعنى : دعونى أخبركم عن أمرهم ، ولماذا أنكروا الحق ولم ينطقوا به ، إنهم ينكرون الحق لأنهم كاذبون ويريدون أنْ يُثبتوا أن ما هم عليه أمر طبيعى ، لماذا ؟ لأنهم مستفيدون من الانحراف ومن الباطل ؛ لذلك يقفون فى وجه الرسالة التى جاءت لتعديل الميزان والقضاء على الانحراف والباطل ، ويلجئون إلى تكذيبها وصَرْف الناس عنها ليظلوا ينتفعون هم بالباطل .

لذلك تأمل : لـمـاذا يُكذِّب الناس ؟ يُكذِّبون لأنهـم ينتـفـعـون من الكذب ، ويتعبهم الصدق ، ويُضيِّق عليهم الخناق .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (٩١) ﴾

يا ليت الأمر وقف بهم عند مـجرد عدم الإيمان بالله ، إنمـا تعداه إلى أن وصفـوا الله تعالى بمـا لا يليق من الصفـات ، وما دام أن الله تعـالى ينفى عن نفسـه تعالى اتخـاذ الولد ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ .. (٩١) ﴾ [المـؤمنون] فـلا بد أنهم قـالوا : اتخـذ الله ولداً ، فـتـرقـوا فى فجورهم وطغيانهم ، وتجرأوا حتى على مقام العزة .

ونقـول أولاً : مـا الولد ؟ الولد مـا ينجـبه الإنسـان من ذكـر أو أنثى ، وقد سمعنا هؤلاء يقـولون : عيسى ابن الله ، والعزير ابن الله ، وقالوا عن المـلائكة : بنات الله ، وقد قـال تعالى : ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ .. (٩١) ﴾ [المؤمنون] ليشمل البنين والبنات .

ومعنى ﴿اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ .. (٩١) ﴾ [المؤمنون] أن الله تعالى كان موجوداً ، ثم اتخذ له ولداً ، فـاتخاذ الولد إذن حادث ، وهذا يعنى أنه قد مـرت فترة لم يتخـذ الله له فيها ولداً ، لذلك نسـأل : ما الذى زاد فى مُلْك الله بوجود الولد ؟ هل أصبحت السموات ثمانية ؟ هل زاد فى الكون شمس أخرى أو قمر ؟ الكون كمـا خلقه الله تعالى ، وجعل فيه

ضرورياته وأصوله وفروعه لم يزد فيه شىء . إذن : فاتخاذ الولد عَبَثٌ لم يحدث منه شىء .

ويقولون : اتخذ الله الولد ليُؤْنس خَلْقه بوجود ولده وشىء من رائحته بين الخلق ، قالوا هذا فى مؤتمر (نيقية) ، كأنه عندهم يقوم مقام الألوهية . لكن كم كانت مدة بقائه بينكم ؟ لقد أقام المسيح فى الأرض بضعاً وثلاثين سنة قبل أن يُرْفع ، فكيف يحرم من هذا الأنس مَنْ سبقوا ميلاده عليه السلام ؟ وكيف يُحْرم منه مَنْ أتوا بعده ؟

أليس فى هذا ما يتعارض وعدالة الربوبية ؛ لأن الخَلْق جميعاً خَلْق الله ، وهم عنده سواء ؟

ومنهم مَنْ يقول : إنه جاء ليرفع الخطيئة ، لكن الخطيئة ما زالت فى الأرض بعدما فعل ما فعل . إذن : فكلها حُجَج واهية .

ولو ناقشنا هذه المسألة مناقشةً منطقيةً فلسفيةً : لماذا يتخذ الإنسانُ الولَد ؟ يتخذ الإنسانُ الولدَ لأنه يحب الحياة ، وموته يختصر هذه الحياة ، فيريد الولد ليكون امتداداً لحياته ، ويضمن به بقاء الذكْر جيلاً من بعده ، فإنْ جاء للولد ولد ضمن جيلين ؛ لذلك يقولون « أعزّ من الولْد ولْد الولد » . لكن أى ذكْر هذا الذى يتمسَّكون به ؟ إن الذكر الحقيقى ما تخلفه من بعدك من عمل صالح يسبقك عند الله .

والحق ـ سبحانه وتعالى ـ لا يحتاج إلى ذِكْر من بعده تعالى ؛ لأنه باقٍ لا يموت ، فهذه المسألة إذن ممنوعة فى حقِّه تَعالى .

وقد يُتخذ الولد ليكون سنداً وعَوْناً لأبيه حين يكبر وتضعف قواه ؛ لذلك يقولون : خير الزواج الزواج المبكر ؛ لأنه يساعدك على إنجاب أب يعولك فى طفولة شيخوختك ؛ لأنك تنجب طفلاً وأنت

صغير ، فيعاصرك أكبر مدة من الزمن ، وتطول به قُرّة عينك على خلاف مَنْ ينجب على كبَر ؛ لذلك قال : أب يعولك فى طفولة شيخوختك ولم يقل ابناً لأنك فى هذه الحال تحتاج إلى حنان الأب .

وهذه أيضاً ممتنعة فى حقه تعالى ؛ لأنه سبحانه القوى ، الذى لا يحتاج إلى معين ، ولا إلى عزوة .

مسألة أخرى : أن الإنسان يحب الولد ؛ لأنه بَعْضٌ منه ، وهو سبب فى وجوده ، فيحب أن يكون له ولد من صُلْبه ، وهذا فرع من حُبِّه للتملُّك ، فالإنسان أول ما يحب يحب أن تكون له أرض ، ثم يحب أن يزرعها ويأكل من خيراتها ، ثم يحب أن تكون له حيوانات يشرب لبنها ويستفيد منها ، ثم إنْ تَمَّ له هذا كله يتطلع إلى الولد ، وكأنه تدرَّج من حب الجماد إلى النبات ، إلى الحيوان ، إلى الإنسان .

وهذه المسألة أيضاً لا تجوز فى حقه تعالى ، فإنْ أحببتَ الولد ليكون جزءاً منك ومن صُلْبك تعتز به وببُنوته ، فالخَلْق جميعاً عيال الله وأولاده ، فكيف يحتاج إلى الولد بعد ذلك ؟

إذن : كلها حجج ومسائل باطلة ؛ لذلك رَدَّ الله عليهم ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ .. (٩١)﴾ [المؤمنون] وأتى بمنْ الدالة على العموم ، يعنى : ما اتخذ الله شيئاً من بداية مَا يُقال له ولد ، ولو كان حتى مُتبنًّى ، كما تقول : ليس عندى مال ، فتنفى أن يكون عندك مال يُعْتد به أو ذو قيمة ، لكن هذا لا يمنع أن يكون عندك عدة جنيهات أو قروش . فإنْ قلت : ما عندى من مال ، فقد نفيتَ أنْ يكون عندك أقلّ ما يُقَال له مال .

ونردّ بهذه المسألة على مَنْ يقول أن (من) هنا زائدة ؛ لأن كلام الله دقيق لا زيادة فيه ، الزيادة فى كلام البشر ، والحق سبحانه مُنزَّه عن هذه المسألة .

ثم يرتقى بنا الحق سبحانه فى الردِّ عليهم فيقول : ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَـٰهٍ .. (٩١)﴾ [المؤمنون] يعنى : معبود بحق أو بغير حق ؛ لذلك سمّى الأصنام آلهة ، لكن كلمة الله انصرفت إلى المعبود بحق سبحانه وتعالى ، فنفى الحق سبحانه الشركاء معه فى العبادة ، كما جاء فى موضع آخر : ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا .. (٢٢)﴾ [الأنبياء]

يعنى : لو كان فيهما آلهة الله خارج منها لَفَسدت السماء والأرض ، وكذلك لو كان فيهما آلهة مع الله لَفسدتَا أيضاً ؛ لأن إلا هنا ليست استثنائية ، إنما هى اسم بمعنى غير ، وقد ظهر إعرابها على لفظ الجلالة بعدها (الله) .

ومسألة تعدُّد الآلهة لو تأملتها لَبانَ لك بطلانها ، فإنْ كان مع الله آلهة لاقتسموا هذا الكون فيما بينهم ، وجعلوه قطاعات ، يأخذ كل منهم قطاعاً فيه ، فواحد للأرض ، وآخر للسماء ، وثالث لما بين الأرض والسماء وهكذا .

ولكن ، هل يستغنى قطاع من الكون عن الآخر ؟ أتستغنى الأرض عن السماء ؟ إذن : سيحدث تضارب لا يستقيم معه حال الكون .

كذلك نقول : الإله الذى أخذ الأرض مثلاً ، لماذا لم يأخذ السماء ؟ لا بُدَّ أنه أخذ الأرض بقُوَّته ، وترك السماء لعجزه ، ولا يصلح إلهاً مَنْ وُصف بهذه الصفة ، فإن قالوا : إنهم جميعاً أقوياء يستطيع كل واحد منهم أن يخلق الخَلْق بمفرده نقول : إذن ما فائدة الآخرين ؟

ثم يقول سبحانه : ﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ .. (٩١)﴾ [المؤمنون] يعنى : لو استقل كل منهم بقطاع من الكون دون الآخر لَفَسدتْ الأمور ، كما رأينا فى دنيا البشر أن يحاول أحد

الملوك أنْ يستقلّ بقطاع من الأرض لا حَقَّ له فيه ، ورأينا ما أحدثه من فساد فى الأرض ، هذا مثال لقوله تعالى : ﴿وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ .. (٩١)﴾ [المؤمنون] وهى صورة من صور الفساد .

لذلك يعالج الحق سبحانه هذه القضية ويعلنها على الملأ : ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ .. (١٨)﴾ [آل عمران]

فليس هذا كلامنا ، وليست هذه شهادتنا ، بل كلام الله وشهادته سبحانه لنفسه ، لكن هل علم هؤلاء الآلهة بهذه الشهادة ؟ إنْ علموا بهذه الشهادة فسكوتهم عليها وعدم اعتراضهم عَجْز ، وإن لم يدروا فَهُم غافلون نائمون ، ففى كلتا الحالتين لا يصحّ أن يكونوا آلهة .

وفى موضع آخر يردّ عليهم الحق سبحانه : ﴿لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا .. (٤٢)﴾ [الإسراء] يعنى فى هذه الحالة ﴿لاَّبْتَغَوْاْ إِلَى ذِى الْعَرْشِ سَبِيلاً (٤٢)﴾ [الإسراء] يعنى : ذهبوا يبحثون عن الإله الذى أخذ منهم الكون ، وتعدَّى على سلطانهم ، إما ليجابهوه ويحاكموه ، وإما ليتقربوا إليه .

لذلك سيقول عن الذين تدَّعون أنهم آلهة من دون الله : ﴿يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ .. (٥٧)﴾ [الإسراء] يعنى : عيسى والعزير والملائكة الذين قلتم إنهم بنات الله ، هؤلاء جميعاً يتوسلون إلى الله ويتقربون إليه ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ .. (٥٧)﴾ [الإسراء]

وفى موضع آخر يقول تعالى : ﴿لَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ .. (١٧٢)﴾ [النساء]

إنهم لا يستنكفون عن عبوديتهم لله ، بل يعتزون بهذه العبودية ،

ويُغضبهم ويسوؤهم أن نقول عنهم آلهة ، أو نعطيهم من التقديس أكبر مما يستحقون ؛ ذلك لأن ولاءهم وعصبيتهم لله تعالى أكبر من ولائهم وعصبيتهم لأنفسهم .

لذلك ، فإن هذه الأشياء التى يتخذونها آلهة من دون الله هى أول مَنْ يلعنهم ، فالأحجار التى عبدوها من دون الله ـ مع أن كلمة العبادة هنا خطأ ونقولها تجاوزاً ؛ لأن العبادة طاعة العابد لأمر المعبود ، وانتهاؤُه بنهيه ، والأحجار ليس لها أوامر وليس لها نَوَاه ـ هذه الأحجار أعبد منهم لله ، وأعرف منهم بالله ؛ لذلك تكرههم الحجارة وتلعنهم ، وتتحول عليهم فى القيامة ناراً تَحْرقهم .

اقرأ هذا الحوار الذى يتنافس فيه غار حراء الذى شهد بداية الوحى وأنس فيه رسول الله ﷺ بأول آيات القرآن ، وغار ثور الذى احتمى فيه رسول الله عند الهجرة ، وكلاهما أحجار ، يقول الشاعر[1] :

كَمْ حَسَدْنَا حِرَاءَ حِينَ تَرى ... الرُّوحَ أميناً يغْذُوكَ بالأنْوارِ
فَحِراءُ وثَوْرُ صَارَا سَوَاءً ... بهما اشْفع لدولةِ الأحجارِ
عَبدُونا ونَحْن أَعْبَدُ لله ... مِنَ القائمين بالأسْحَارِ
تَخذُوا صَمْتنَا علينا دليلاً ... فغدَوْنا لهم وَقُودَ النارِ
قد تجنَّوا جَهْلاً كما قد تجنَّوْه ... علَى ابْن مريم والحَوارى
للمُغَالى جزاؤه والمغَالَى ... فيه تُنجيه رحمةُ الغَفَارِ

لذلك يقول تعالى لعيسى عليه السلام : ﴿أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ .. (١١٦)﴾ [المائدة]

(١) من شعر فضيلة الشيخ الشعراوى رحمه الله .

فيقول عيسى : ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ (١١٦)﴾ [المائدة]

نعم ، الله تعالى يعلم ما قال عبده ونبيه عيسى ، لكن يريد أنْ يقر عليهم بأنه كاره لقولهم هذه الكلمة .

والنبى ﷺ حينما هُزِم الرومان من الفرس حزن لهزيمة الرومان، لماذا ؟ لأنهم أهل كتاب يعرفون الله ، ويعرفون البلاغ عن الله ، وإنْ كانوا كافرين به ، أما الفُرْس فكانوا مَجُوساً يعبدون النار ؛ لذلك يُطمئنه ربه بقوله : ﴿الٓمٓ (١) غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ اللَّهِ .. (٥)﴾ [الروم]

فإنْ كانوا لا يؤمنون بمحمد ، فهم يؤمنون بربٍّ محمد ، فالعصبية ـ إذن ـ لله أكبر من العصبية للرسول المبلّغ عن الله .

ثم يقول سبحانه : ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (٩١)﴾ [المؤمنون] يصفون بمعنى : يكذبون ، لكن عبَّر عنه بالوصف كأن المعنى : إنْ أردت أنْ تعرف الكذب فاسمع إلى كلامهم فهو الوصف الدقيق له ، وقال فى موضع آخر : ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ .. (٦٢)﴾ [النحل] فكلامهم هو الكذب بعينه ، وهو أصدق وَصْف له ؛ لأن الكذب ما خالف الواقع ، وهم لا يقولون إلا ما خالف الواقع .

كما لو سألت : ما الحماقة ؟ فأقول لك : انظر إلى تصرفات فلان ، يعنى : هى الوصف الصادق للحماقة ، والترجمة الواضحة لها ، وكأنه بلغ من الوصف مَبْلَغاً يُجسِّم لك المعنى الذى تريده .

ومعنى : ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ .. (٩١)﴾ [المؤمنون] تنزه ، وهى مصدر وُجِد قبل أنْ يُوجَد المسيح ، فهى صفة لله تعالى أزلية ، حيث ثبت تنزيه الله قبل أن يخلق الخَلْق ، فلما خلق الله السماء والأرض سبَّحت لله : ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. (١)﴾ [الحديد] ولم ينقطع التسبيح بعد ذلك ، قال الحق سبحانه : ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ .. (١)﴾ [الجمعة]

وما دام الكل يُسبّح لله ، وما زال مُسبِّحاً ، فسبِّح أنت يا محمد : ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى (١)﴾ [الأعلى]

فكيف يكون الكون كله مُسبِّحاً ، ولا تُسبِّح أنت ، وأنت سيد هذا الكون ؟

ثم يقول الحق سبحانه عن ذاته العلية :

﴿عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٩٢)﴾

العلم : إدراك قضية أو نسبة واقعة مجزوم بها وعليها دليل ، ولا يصل إلى العلم إلا بهذه الشروط ، فإنْ كانت القضية مجزوماً بها وواقعة ، لكن لا تستطيع أن تُدلِّل عليها كالطفل حين يقول : الله أحد ، فهذا تقليد كما يُقلِّد الولدُ أباه أو مُعلمه ، فهو يُقلِّد غيره فى هذه المسألة إلى أنْ يوجد عنده اجتهاد فيها ويستطيع هو أن يُدلِّل عليها .

فإنْ كانت القضية مجزوماً بها وليست واقعة ، فهذا هو الجهل ، فليس الجهل كما يظن البعض ألاَّ تعلم ، إنما الجهل أن تجزم بقضية مناقضة للواقع .

لذلك تجد الجاهل أشقّ وأتعب لأهل الدعوة وللمعلمين من الخالى الذهن الذى لا يعرف شيئاً ، ليست لديه قضية بدايةً ، فهذا ينتظر منك أن تُعلِّمه ، أمّا الجاهل فيحتاج إلى أن تُخرِج من ذِهْنه القضية

الخاطئة أولاً ، ثم تضع مكانها الصواب .

والغيب : المراد به الغيب المطلق يعنى : ما غاب عنك وعن غيرك ، فنحن الآن مشهد لمن حضر مجلسنا هذا ، إنما نحن غيب لمن غاب عنه ، وهذا غيْب مُقيد ، ومنه الكهرباء والجاذبية وغيرهما ؛ لأن هذه الأشياء كانت غَيْباً عَمَّنْ قبلنا مع أنها كانت موجودة ، فلما توصلنا إلى مقدماتها ظهرت لنَا وصارت مشهداً ؛ لذلك قال تعالى : ﴿وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ .. (٢٥٥)﴾ [البقرة]

فأثبت الإحاطة للناس لكن بشرط مشيئته تعالى ، فإنْ شاء أطلعهم على الغيب ، وأوصلهم إلى معرفته حين يأتى أجل ميلاده وظهوره .

إذن : المعلوم لغيرك وغَيْب عنك ليس غيباً ، وكذلك الغيب عنك وله مقدمات تُوصِّل إليه ليس غيباً ، إنما الغيب هو الغيب المطلق الذى غاب عنك وعن غيرك ، والذى قال الله تعالى عنه : ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ .. (٢٧)﴾ [الجن]

والشهادة : يعنى المشهود ، لكن ما دام الحق سبحانه يعلم الغيب ، فمنْ باب أَوْلَى يعلم المشهود ، فلماذا ذكر الشهادة هنا ؟ قالوا : المعنَى : يعلم الغيب الذى غيِّب عنى ، ويعلم الشهادة لغيرى .

ومن ناحية أخرى : ما دام أن الله تعالى غيْب مستتر عنا ، وهناك كوْن ظاهر ، فربما ظن البعض أن المستتر الغيب لا يعلم إلا الغيب ، فأراد ـ سبحانه وتعالى ـ أن يؤكد على هذه المسألة ، فهو سبحانه غيب ، لكن يعلم الغيب والشهادة .

ونرى من الناس مَنْ يحاول أن يهتك ستار الغيب ، ويجتهد فى أن يكشف ما استتر عنه ، فيذهب إلى العرافين والمنجِّمين وأمثالهم ، وهو لا يدرى أن الغيب من أعظم نِعَم الله على خَلْقه ، فالغيب هو علة

إعمار الكون ، وبه يتم التعامل بين الناس ، ذلك لأن الإنسان ابن أغيار ، كثير التقلُّب ، ولو علم كل منا وكُشِف له ما عند أخيه لتقاطع الناس ، وما انتفع بعضهم ببعض .

لذلك يقولون : لو تكاشفتم ما تدافنتم . يعنى : لو كُشِف لك عما فى قلب أخيك لَضننْتَ عليه حتى بدفنه بعد موته .

إذن : فجَعْل هذه المسائل غَيْباً مستوراً يُحنِّن القلوب ، ويثرى الخير بين الناس ، فينتفع كل منهم بالآخر ، وإلا لو علمتَ لواحد سيئة ، وعرفتَ موقفه العدائى منك لكرهتَ حتى الخير الذى يأتيك من ناحيته ، ولتحرك قلبك نحوه بالحقد والغل ، وما انتفعتَ بما فيه من حسنات .

لذلك ، نقول لمن يبحث عن غيْب الآخرين : إنْ أردتَ أن تعرف غَيْب غيرك ، فاسمح له أن يعرف غَيْبك ، ولن تسمح له بذلك ، إذن : فدَعْ الأمر كما أراده الله ، ولا تبحث عن غَيْب الآخرين حتى تستقيمَ دفّة الحياة .

وربك دائماً يلفتك إلى النظر إلى المقابل ، ففى الحديث القدسى : « يا ابن آدم ، دعوت على مَنْ ظلمك ، ودعا عليك مَنْ ظلمته ، فإنْ شئت أجبناك وأجبنا عليك ، وإن شئت تركتكما إلى الآخرة فيسعكما عفوى »[(١)] .

فالحق ـ تبارك وتعالى ـ يريد أنْ يُصفِّى نفوس الخَلْق ، وأن يقف الناس عند حدود ما أطلعك الله عليه ، ولا تبحث عن المستور

---

(١) أورده الإمام أبو حامد الغزالى (٣/١٨٣) من قول يزيد بن ميسرة : إن ظللت تدعو على من ظلمك فإن الله تعالى يقول : إن آخر يدعو عليك بأنك ظلمته فإن شئت استجبنا لك وأجبنا عليك ، وإن شئت أخرتكما إلى يوم القيامة فيسعكما عفوى .

حتى لا تتعب نفسك ، حتى تواجه مشاكل الحياة بنفسٍ صافية راضية عنك وعن الناس .

ثم يقول تعالى : ﴿فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [المؤمنون] لأن ما تشركونهم مع الله لا يعلمون شيئاً من هذا كله ، لا غَيْباً ولا شهادة ؛ لذلك لا ينفعك إنْ عبدتْه ، ولا يضرك إنْ لم تعبده .

ثم يقول الحق سبحانه لرسوله ﷺ :

﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٩٤﴾﴾

﴿قُل .. ﴿٩٣﴾﴾ [المؤمنون] أمر من الله تعالى لرسوله ﷺ ﴿رَّبِّ .. ﴿٩٣﴾﴾ [المؤمنون] منادى حُذِفَتْ منه أداة النداء يعنى : يا رب ﴿إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [المؤمنون] يعنى : من العذاب ﴿رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٩٤﴾﴾ [المؤمنون] أى : إن قدَّرتَ أن تعذبهم فى حياتى فلا تُعذِّبهم وأنا فيهم .

وهذا من رقة قلبه ﷺ ، وحين اشتد به إيذاء الكفار وعنادهم فى أول الدعوة أرسل الله إليه الملائكة تعرض عليه الانتقام من قومه المكذِّبين به ، لكنه يأبى ذلك ويقول : « اللهم اهْدِ قومى فإنهم لا يعلمون»[1] ويقول : « لعلَّ الله يُخرِج من أصلابهم مَنْ يقول :

(١) أخرج ابن أبى شيبة وأحمد فى الزهد وأبو نعيم وابن عساكر من طريق مجاهد عن عبيد ابن عمير قال : إن كان نوح ليضربه قومه حتى يغمى عليه ، ثم يفيق فيقول : اهد قومى فإنهم لا يعلمون . وقال شقيق : قال عبد الله : لقد رأيت النبى ﷺ وهو يمسح الدم عن وجهه وهو يحكى نبياً من الأنبياء ، وهو يقول : اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون . [أورده السيوطى فى الدر المنثور ٣/٤٨١] . وانظر كتاب الزهد لأحمد بن حنبل (٢٧٨ ، ٢٨٠) .

لا إله إلا الله .

كما أن موقفه يوم فتح مكة واضح ومعروف ؛ ذلك لأنه ﷺ أُرسِل رحمة للعالمين .

لكن ، هل قال الرسول ودعا بهذا الدعاء لأنه يعتقد أن الله يجعله معهم حين ينزل بهم العذاب ؟ نقول : لا ؛ لأنه لم يقُلْ هذه الجملة من نفسه ، إنما أمره الله بها ، ولم يكُنْ رسول الله ليعتقد هذا الاعتقاد ، إذن : المسألة وَحْى من الله لا بُدَّ أن يُبلِّغه ، وأن يقولها كما قالها الله ؛ لأن مدلولها رحمة به فى ألاَّ يرى مَنْ يعذب ، أو من باب قوله تعالى :

﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً .. (٢٥) ﴾ [الأنفال]

وهذا الدعاء الذى دعا به رسول الله يدفع عنه أىَّ خاطر يطرأ عليه ، ويطمئنه أن هذا الأمر لن يحدث .

وقوله : ﴿ إِمَّا تُرِيَنِّى .. (٩٣) ﴾ [المؤمنون] عبارة عن (إنْ) و (مَا) وهما يدلان على معنى الشرطية والزمنية ، فكأنه قال : قُلْ ساعةَ أن ينزل بهم العذاب : ربِّ لا تجعلنى فى القوم الظالمين .

---

(١) أخرج البخارى فى صحيحه (٣٢٣١) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٧٩٥) كتاب الجهاد من حديث عائشة رضى الله عنها أنها قالت للنبى ﷺ : هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد ؟ قال : لقد لقيت من قومك ما لقيت ، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة إذ عرضت نفسى على ابن عبد ياليل بن عبد كُلال فلم يُجبنى إلى ما أردت فانطلقت وأنا مهوم على وجهى فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب ، فرفعت رأسى فإذا أنا بسحابة قد أظلتنى فنظرت فإذا فيها جبريل ، فنادانى فقال : إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك ، وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم ، فنادانى ملك الجبال فسلم علىّ ثم قال : يا محمد فقال : ذلك فيما شئت ، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين فقال النبى ﷺ : بل أرجو أن يُخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يُشرك به شيئاً .

﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ ﴿٩٥﴾﴾

أى : أننا قادرون على أن نُريك شيئاً مما وعدناهم به من العذاب ، لكنه ليس عذابَ الاستئصال ؛ لأن الله تعالى أكرم أمتك - حتى الكافر منها - بأن عافاها من هذا العذاب ، لأنه يأتى على الكافرين فلا يُبقِى منهم أحداً ، ويمنع أن يكون من ذريتهم مؤمن بالله . فهَبْ أن عذاب الاستئصال نزل بهم فى بدر مثلاً ، أكُنَّا نرى المؤمنين منهم ومن ذرياتهم بعد بدر ؟

إذن : لا يكون عذاب الاستئصال إلا إذا علِم الله تعالى أنه لا فائدة منهم ، ولا حتى من ذريتهم من بعدهم ، كما حدث مع قوم نوح ، ألاَ ترى نوحاً عليه السلام يقول عنهم : ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾ [نوح]

ولا يمكن أن يقول نوح هذا الكلام ، أو يحكم على قومه هذا الحكم إلا بوحْيٍ من الله ؛ لأنه لا يستطيع أن يحكم على هذه القضية الكونية التى لا يعلمها إلا المكوِّن الأعلى سبحانه ، فنحن نرى عُتَاة الكفر ورؤوس الضلال ، ثم يؤمنون بعد ذلك كله ويبلُون فى الإسلام بلاءً حَسَناً .

وانظر إلى عكرمة وخالد وعمرو بن العاص ، وكم تألَّم المؤمنون وحَزِنوا لأنهم أفلتوا من القتل ، لكن لله تعالى تدبير آخر ، وكأنه يدخرهم لخدمة الإسلام وحماية الدعوة .

فعكرمة بن أبى جهل يُظهِر شجاعة نادرة فى موقعة اليرموك حتى يُطعَن طعنةَ الموت ، ويستند إلى عمر ويقول وهو يجود بروحه فى سبيل الله : أهذه ميتة تُرضِى عنى الله ورسوله ؟ هذا فى يوم

الخندمة[١] الذى قال فيه الشاعر[٢] :

إنَّك لَوْ شَاهَدت يَوْمَ الخنْدَمه
إذْ فَرَّ صَفْوانُ وفَرَّ عكْرمَه
ولحقتْنَا بالسُّيوف المسْلمه
يَفْلقْنَ كُلَّ سَاعد وجُمْجُمَه
ضَرْباً فَلاَ تُسْمَعُ إلاّ غَمْغَمَه
لَهُمْ نَهيتٌ[٣] حَوْلَهُ وحَمْحَمَه
لَمْ تنْطقى باللَّوْمِ أدْنى كلمَه[٤]

أما عمرو بن العاص وخالد بن الوليد فقد كان من أمرهما ما نعرف جميعاً .

﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾

﴿ ادْفَعْ .. ﴿٩٦﴾ ﴾ [المؤمنون] تدل على المدافعة يعنى : أمامك خصم

---

(١) قال ابن الأثير : هو جبل معروف عند مكة . قال ابن بَرِّى : كانت به وقعة يوم فتح مكة ، ومنه يوم الخندمة ، وكان لقيهم خالد بن الوليد ، فهزم المشركين وقتلهم . [لسان العرب ـ مادة : خندم] .

(٢) جاء فى لسان العرب : أن هذا الرجز نسبه ابن السيد البطليوسى فى المثلث للراعش الهذلى ، وذكر ابن برى أنه حماس بن قيس بن خالد الكنانى . وقيل : إن هذا الرجز لهريم ابن الحطيم .

(٣) النهيت : الصياح . وقيل : هو الصوت من الصدر عند المشقة . [لسان العرب ـ مادة : نهت] .

(٤) أورد ابن منظور هذه الأبيات فى [لسان العرب ـ مادة : خندم] من قول الراعش الهذلى لامرأته وكانت لامته على انهزامه فقال هذه الأبيات . وكان قد قال قبل ذلك :

إنْ يُقبلُوا اليَوْمَ فَمَا بى علَّهْ
هَذَا سلاحٌ كَاملٌ وَ ألَهْ
وذُو غرَارَيْنِ سَرِيعُ السَّلَّهْ

يهاجمك ، يريد أن يؤذيك ، وعليك أن تدفعه عنك ، لكن دَفْع بالتى هى أحسن أى : بالطريقة أو الحال التى هى أحسن ، فإنْ أخذك بالشدة فقابلْه باللين ، فهذه هى الطريقة التى تجمع الناس على دعوتك وتؤلِّفهم من حولك .

كما جاء فى قوله تعالى : ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ .. (١٥٩)﴾ [آل عمران]

فإنْ أردتَ أن تعطفهم نحوك فادفع بالتى هى أحسن ، ومن ذلك الموقف الذى حدث من رسول الله يوم الفتح ، يوم أنْ مكّنه ربه من رقاب أعدائه ، ووقف أمامهم يقول : يا معشر قريش ، ما تظنون أنِّى فاعل بكم ؟ قالوا : خيراً ، أخ كريم وابْنُ أخ كريم ، قال :« اذهبوا فأنتم الطلقاء »[1] .

ونلحظ أنهم كلموه بما يستميل قلبه ويعطفه نحوهم ، وذكَّروه بأواصر القرابة والرحم ، وحدَّثوه بما يُحنِّن قلبه ، ولقّنوه ما ينتفعون هم به : أخ كريم وابن أخ كريم ، ولم يقولوا مثلاً : أنت قائد منتصر تستطيع أن تفعل بنا ما تشاء .

وفعلاً كان من هؤلاء ومن ذرياتهم نصراء للإسلام وأعوان لدعوة رسول الله .

وقصة فضالة[2] الذى كان يبغض رسول الله ، حتى قال قبل الفتح : والله ما أحد أبغض إلىَّ من محمد ، وقد زاد غيظه من رسول

---

(١) قال ابن إسحاق : حدثنى بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ قام فى خطابه على باب الكعبة فقال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، إلى أن قال : ما ترون أنى فاعل فيكم ؟ قالوا : خيراً ، أخ كريم ، وابن أخ كريم . قال : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » [راجع : السيرة النبوية لابن هشام ٤/٤١٢] .

(٢) هو : فضالة بن عمير بن الملوح الليثى (الإصابة ت ٦٩٨٨) .

الله حينما رآه يدخل مكة ويُحطِّم الأصنام ، فأراد أنْ يشقَّ الصفوف إليه ليقتله ، وبعدها قال : « فو الله ، ما وَضعتُ يدى عليه حتى كان أحب خَلْق الله إلىَّ »(١) .

لكن ماذا ندفع ؟ ندفع (السيئة) . ونلحظ هنا أن ربنا ـ تبارك وتعالى ـ يدعونا أن ندفع السيئة بالتى هى أحسن ، لا بالحسن ؛ لأن السيئة يقابلها الحسنة ، إنما ربك يريد أن يرتقى بك فى هذا المجال ، فيقول لك : ادفع السيئة بالأحسن .

وفى موضع آخر يعطينا ثمرة هذا التصرُّف الإيمانى : ﴿ فَإِذَا الَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِىٌّ حَمِيمٌ (٣٤) ﴾ [فصلت] ولو تأملتَ معنى هذه الآية لوجدتَ أن المجازاة من الله ، وليست ممَّنْ عاملْتَه هذه المعاملة ؛ لأن الله تعالى يقول : ﴿ كَأَنَّهُ .. (٣٤) ﴾ [فصلت] ولم يقل : يصبح لك ولياً حميماً .

ذلك لأنك حين تدفع بالتى هى أحسن يخجل منك صاحبك ، ويندم على إساءته لك ، ويحاول أنْ يُعوِّضك عنها فيما بعد ، وألاَّ يعود إلى مثلها مرة أخرى ، لكنه مع كل هذا لا يُسمَّى ولياً حميماً ، إنما هو ولى وحميم ؛ لأنه كان سبباً فى أنْ يأخذك ربك إلى جانبه ، ويتولاك ويدافع عنك .

لذلك لما شتم أحدهم الحسن البصرى وسبَّه فى أحد المجالس ، وكان فى وقت رُطَب البلح أرسل الحسن إليه طبقاً من الرُّطَب وقال

---

(١) ذكر ابن عبد البر فى كتاب الدرر فى السير له أن النبى ﷺ مر به يوم الفتح وهو عازم على الفتك به فقال له : ما كنت تحدث به نفسك ؟ قال : لا شىء كنت أذكر الله تعالى . فضحك رسول الله ﷺ وقال : أستغفر الله لك . ثم وضع يده على صدره . قال : فكان فضالة يقول : والله ما رفع يده عن صدرى حتى ما أجد على ظهر الأرض أحب إلىَّ منه . ذكره ابن حجر العسقلانى فى الإصابة (ترجمة ٦٩٨٨) .

لخادمه : اذهب به إلى فلان وقُلْ له : لم يجد سيدى أثمن من هذا يهديه إليك ، وقد بلغه أنك أهديت إليه حسناتك بالأمس ، وهى بلا شك أعظم من هديتى تلك[1] .

إذن : من الغباء أن نتناول الآخرين بالهَمْز واللمز والطعن والغيبة ؛ فإنك بهذا الفعل كأنك أهديتَ لعدوك حسناتك ، وأعطيتَ أعظم ما تملك لأبغض الناس إليك .

ألاَ ترى موقف الأب حين يقسو على ولده ، فيستسلم له الولد ويخضع ، أو يظلمه أخوه فيتحمل ظُلْمه ولا يقابله بالمثل ، ساعتها يحنو الأب على ولده ، ويزداد عطفاً عليه ، ويحرص على ترضيته ، كذلك يعامل الحق ـ تبارك وتعالى ـ العباد فيما بينهم من معاملات ـ ولله المثل الأعلى . لذلك قلنا : لو علم الظالم ما أعده الله للمظلوم من الجزاء لَضنَّ عليه بالظلم ؛ لأنه سيظلمه من ناحية ، ويُرضيه الله من ناحية أخرى .

ويقال : إنه كان عند أحد الملوك رجل يُنفِّس فيه الملك عن نفسه ، فإنْ غضب استدعى هذا الرجل وراح يشتم فيه ويسبُّه أمام الناس حتى يهدأ ، فإذا أراد أن ينصرف الرجل أخذه على انفراد وأعطاه كيساً من المال ، وفى أحد الأيام احتاج هذا الرجل إلى مال ليقضى أمراً عنده ، فحاول أنْ يتمحّك ليصل إلى الملك ، ثم قال له : ألستَ فى حاجة لأنْ تشتمنى اليوم ؟

فمسألتنا بهذا الشكل ، إذن : ما عليك إلا أنْ تدفع بالتى هى

---

(١) ذكره أبو حامد الغزالى (٣/١٥٤) أن رجلاً قال للحسن : إن فلاناً قد اغتابك فبعث إليه رطباً على طبق وقال : قد بلغنى أنك أهديت إلىَّ من حسناتك ، فأردت أن أكافئك عليها فاعذرنى فإنى لا أقدر أن أكافئك على التمام .

أحسن ، فإنْ صادفتَ من صاحبك مودة وصفاءً ، وإلا فجزاءُ الله لك أوسع ، وعطاؤه أعظم ، وما أجمل قول الشاعر[1] حين عبَّر عن هذا المعنى :

يا مَنْ تُضَايِقه الفِعَال مِنَ التى ومِنَ الذى
ادْفَعْ فدَيْتُكَ بالتى حَتَّى تَرَى فَإذَا الذى

يعنى : إن أردتَ الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم ؛ فاعمل بالتى هى أحسن .

ثم يقول سبحانه : ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ (٩٦)﴾[المؤمنون] معناه : أنت يا محمد تأخذ بحقك من هؤلاء إذا كنا نحن لا نعرف ما يفعلونه بك ، لكن الحال أننا نعرفه جيداً ونحصيه عليهم ، وقد أعددنا لهم الجزاء المناسب ، فدَعْ هذه المسألة لنا ولا تشغل نفسك بها .

وكأن الحق ـ تبارك وتعالى ـ يريد أن يُنزِّه ذات رسوله ﷺ من انفعالات الغضب ، وألاّ ينشغل حتى بمجرد الانفعال ؛ لأنه حين يتعرّض لك شخص بسيئة تريد أن تجمع نفسك لترد عليه ، وخصوصاً إذا كان هذا الرد مخالفاً لطبْعِك الحسنْ وخُلُقك الجميل ، فكأنه يكلفك شيئاً فوق طاقتك .

فالله تعالى يريد أن يرحم نبيه وأن يريحه : دَعْكَ منهم ، وفوِّض أمرهم إلينا ، فنحن أعلم بما يصفون أى : بما يكذبون فى حقك .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ (٩٧)﴾

لماذا جاءتْ الاستعاذة من همزات الشياطين بعد هذه المسألة ؟ قالوا : لأن الشيطان يريد أن يتدخل ، ويُظهِر لك أنه معك ، وأنه

---

(١) الشيخ رحمه الله وعفا عنه .

يَغَار عليك ، فيحرضك عليهم ويُغريك بهم ، ويدفعك إلى الانتقام منهم والتسلُّط عليهم .

وهمزات : جمع هَمْزة ، وهى النزْغة أو النخسة يثير بها الشيطان الإنسان ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ .. (٢٠٠) ﴾ [الأعراف]

﴿ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ (٩٨) ﴾

يعنى : إنْ دخل عليك الشيطان بهَمْزه ووسوسته فقل : أعوذ بالله من همزات الشياطين ، بل وأزيد من ذلك الزم جانب الحَيْطة معه ، فقُلْ : أعوذ بالله أن يحضرون مجرد حضور ، وإن لم يهمزوا لى ، فأنا لا أريدهم فى مَحْضرى ، ولا أريد أن أجالسهم .

﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) ﴾

ذلك لمجرد أن تحضره سكرات الموت ويُوقن أنه ميّت تتكشف له الحقائق ويرى ما لا نراه نحن ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (٢٢) ﴾ [ق]

فيتمنى الإنسان أن يرجع إلى الدنيا وهو ما يزال يحتضر ، لماذا ؟ لأنه رأى الحقيقة التى كان ينكرها ويُكذِّب بها ، والذين يشاهدون حال الموتى ساعة الاحتضار يروْنَ منهم إشارات تدلّ على أنهم يروْنَ أشياء لا نراها نحن ، كُلٌّ حَسْب حاله وخاتمته .

وأذكر حين مات أبى ، وكان على صدرى ساعتها أنه قال لى : يا أمين ـ وهذا اسمى فى بلدى ـ كيف تبنى كل هذه القصور ولا تخبرنى بها ؟

والجنود الذين صاحوا فى المعركة : هُبِّى يا رياح الجنة . لا بُدَّ

أنهم رأوها وشَمُّوا رائحتها ، وإلا ما الذى جعلهم يتلهّفون للموت ، ويشتاقون للشهادة إلا أنهم يرون حالاً ينتظرهم أفضل مما هم فيه .

ومن هؤلاء الصحابى الجليل الذى حدَّثه رسول الله ﷺ عن أجر الشهداء عند الله ، وكان فى يده تمرات أو فى فمه يمضغها ، فقال : يا رسول الله ، أليس بينى وبين الجنة إلا أن أدخل هذه المعركة فأُقتل فى سبيل الله ؟ قال : نعم ، فألقى التمرة من فمه ومضى إلى المعركة[1] .

كأنه استكثر أن يقعد عن طلب الجنة مدة مَضْغ هذه التمرات . فإلى هذه الدرجة بلغ يقينُ هؤلاء الرجال فى الله وفى رسول الله .

ونلحظ فى هذه الآية : ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ .. (٩٩)﴾ [المؤمنون] هكذا بصيغة المفرد ﴿قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩)﴾ [المؤمنون] جاء بالجمع على سبيل التعظيم ، ولم يقل : ربِّ ارجعنى ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩)﴾ [الحجر]

فهنا الحق ـ تبارك وتعالى ـ يُعظِّم ذاته ، لكن هذا يُعظِّم الله الآن ، وهو فى حال الاحتضار ، وقد كان كافراً به ، وهو فى سَعَة الدنيا وبحبوحة العيش .

أو : أنه كرر الطلب : أرجعنى أرجعنى أرجعنى ، فجمعها الله تعالى . أو : أنه استغاث بالله فقال : ربِّ ثم خاطب الملائكة : ارجعون إلى الدنيا .

لكن ، لماذا الرجوع ؟

---

(١) وذلك أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ يوم أحد فقال له : أرأيت إن قُتلْت فأين أنا ؟ قال : فى الجنة . فألقى تمرات فى يده ، ثم قاتل حتى قُتل . أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٠٤٦) ومسلم (١٨٩٩) فى صحيحه من حديث جابر بن عبد الله .

﴿لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾

أى : أننى تركتُ كثيراً من أعمال الخير ، فلعلِّى إنْ رجعتُ بعد أنْ عاينتُ الحقيقة أستدرك ما فاتنى من الصالحات ، أو لعلِّى أعمل صالحاً فيما تركتُ ، لأننى ضننْتُ بمالى وبمجهودى وفَضْلى على الناس ، وكنزْتُ المال الكثير ، وتركتُه خلفى ثم أُحاسب أنا عليه ، فإنْ عُدت قدمته وأنفقته فيما يدخر لى ليوم القيامة .

ثم تأتى الإجابة : ﴿كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا .. ﴿١٠٠﴾﴾ [المؤمنون] أى : قوله : ارجعون لعلِّى أعمل صالحاً فيما تركت ، إنها مجرد كلمة لا واقع لها ، كلمة يقولها وقت الضيق والشدة ، فالله تعالى لن يرجعهم ، ولو أرجعهم ما فعلوا ؛ لذلك نفاها بقوله (كلا) التى ترد على قضايا تريد إثباتها ، ويريد الله تعالى نفيها كما ورد فى سورة الفجر :

﴿فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴿١٦﴾﴾ [الفجر]

فيرد الحق سبحانه : (كلا) لا أنت صادق ولا هو ، فليس المال والغِنَى وكثرة العَرض دليل كرامة ، ولا الفقر دليل إهانة ، فكلتا القضيتين خطأ ، بدليل أنك إذا أعطاك الله المال ، ثم لا تؤدى فيه حَقَّ الله وحَقَّ العباد ، ولا يعينك على أداء ما فُرض عليك صار المال وبالاً عليك وإهانة لا كرامة . ما جدوى المال إنْ دخلتَ فى قوله تعالى : ﴿كَلاَّ بَل لاَّ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴿١٧﴾﴾ [الفجر] ؟ ساعتها سيكون مالك حُجَّة عليك .

كذلك الحال مع مَنْ يظن أن الفقر إهانةٌ ، فإنْ سلب الله منك المال الذى يُطغيك فقد أكرمك ، وإنْ كنت لا تدرى بهذا الإكرام .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٠٠)﴾ [المؤمنون] أى : كيف يتمنوْنَ الرجوع وبينهم وبينه برزَخ يمنعهم العودة إلى الدنيا ؛ لذلك تُسمَّى الفترة بين الحياة الدنيا والآخرة بالحياة البرزخية ، فليست من الدنيا ، وليست من الآخرة .

وفى موضع آخر يُصوِّر الحق سبحانه هذا الموقف بقوله : ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ .. (٢٨)﴾ [الأنعام] أى : لو رددناهم من الآخرة لعادوا لما كانوا عليه من معصية الله ، وإنْ كانت هذه قضية عقلية ففى واقعهم ما يثبت صدْق هذه القضية ، واقرأ فيهم قول الله تعالى : ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ .. (٨٣)﴾ [الإسراء] فأخذ نعمة الله وتقلَّب فيها ، ثم تنصَّل من طاعة الله .

ويقول تعالى فى هذا المعنى أيضاً : ﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ .. (١٢)﴾ [يونس]

إذن : المسألة اضطرارات ، كلما اضطروا دَعَوا الله ولجئوا إليه ، وتوسَّلوا ، فخذوا من واقع حياتهم ما يدل على صِدْق حكمى عليهم لو عادوا من الآخرة .

والبرزخ : هو الحاجز بين شيئين ، وهذا الحاجز يأخذ قوته من صاحب بنائه ، فإنْ كان هذا الحاجز من صناعته ـ سبحانه وتعالى ـ فلن ينفذ منه أحد .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿مَرَجَ[1] الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَّ يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾﴾ [الرحمن] وما داما يلتقيان ، فما فائدة البرزخ هنا ؟

قالوا : نعم يلتقيان ، ولا يبغى أحدهما على الآخر ؛ لأن المسألة ليست سَدّاً أو بناءً هندسياً ، إنما برزخ خاصٌّ لا يقدر عليه إلا طلاقة القدرة الإلهية التى خرقتْ النواميس ، فجعلتْ الماءَ السائلَ جبلاً ، بعد أن ضربه موسى بعصاه ، فصار كل فِرْق كالطود العظيم ، طلاقة القدرة التى فجرت الحجر عيوناً .

إذن : المسألة ليست (ميكانيكا) كما يظن البعض . والبرزخ بين الماء المالح والماء العَذْب آية من آيات الله شاخصة أمامنا ، يمكننا جميعاً أنْ نتأكد من صحة هذه الظاهرة .

لكن هذا البرزخ من أمامهم ، فلماذا قال تعالى : ﴿وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [المؤمنون]

قالوا : لأن اللفظ الواحد يُطلق فى اللغة وله معَانٍ عدَّة واللفظ واحد ؛ لذلك يُسمُّونه المشترك ، فمثلاً كلمة عَيْن تطلَق على العين الباصرة ، وعلى عين الماء ، وعلى الجاسوس ، وتُقال للذهب وللفضة ، وللرجل البارز فى قومه ، والسياق هو الذى يُحدِّد المعنى المراد ؛ لذلك على السامع أن تكون عنده يقظة ليردّ اللفظ إلى المعنى المناسب لسياقه .

وكذلك كلمة (النجم) فتعنى الكوكب فى السماء ، وتعنى كذلك مَا لا ساقَ له من النبات ، وهو العُشْب الذى ترعاه البهائم ، ومنه قول الشاعر :

---

(١) مرج البحرين . أى : أرسلهما أو أطلقهما يجريان وهما يلتقيان عند مصبّ النهر . [القاموس القويم ٢/٢٢١] .

أُرَاعِى النجْمَ فى سَيْرى إليكُمُ ويرعَاهُ مِنَ البَيْدا جَوَادِىَ

فكلمة (وراء) تُطلَق ويُراد بها معانٍ عدة ، قد تكون متقابلة يُعيِّنها السياق ، فتأتى وراء بمعنى (بَعْد) كما فى قوله تعالى : ﴿وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ (٧١)﴾ [هود] وتأتى بمعنى (غَيْر) كما فى قوله تعالى : ﴿فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٧)﴾ [المؤمنون]

وتأتى بمعنى (أمام) كما فى قوله تعالى : ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا (٧٩)﴾ [الكهف] فالملك كان أمامهم ينتظر كل سفينة قادمة . وكذلك فى قوله تعالى : ﴿مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ (١٦)﴾ [إبراهيم]

فقوله تعالى : ﴿وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٠٠)﴾ [المؤمنون] أى : من أمامهم .

ثم يقول الحق سبحانه .

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ (١٠١)﴾

الصُّور : البُوق الذى ينفخ فيه إسرافيل ، والمراد هنا النفخة الثانية للبعث .

والأنساب : جمع نَسَب ، وهو الالتقاء فى أصل مباشر ، كالتقاء الابن بالأب ، أو الأب بالابن ، أو التقاء بواسطة كالعمومة والخؤولة . والنسب هو أول لُحمة فى الكون تربط بين الناس فى مصالح مشتركة ، وهو الالتقاء الضرورى الذى يوجد لكل الناس ، فقد لا يكون لك أصدقاء ولا أصحاب ولا زملاء عمل ، لكن لا بُدَّ أن يكون لك نَسَب وقرابة وأهل .

فحين ينفى الحق ـ سبحانه وتعالى ـ النسب يقول : ﴿فَلا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ .. (١٠١)﴾ [المؤمنون] فليس النفى لوجود النسب ، فإذا نُفخ فى الصور منعت البُنوَّة من الأبوة ، أو الأبوة من البنوة . إنما النسب موجود حقيقة ، لكن لأن النسب المعروف فيه التعاون على الخير والتآزر فى دفع الشر ، فالنفى هنا لهذه المنفعة فى هذا اليوم بالذات حيث لا ينفع أحد أحداً ، فالنسب موجود لكن دون نفع ، فالنفع من أمور الدنيا أن يُوجد قوى وضعيف ، فالقوى يُعين الضعيف ، ويفيض عليه ، أمّا فى هذا الموقف فالكل ضعيف .

كما قال تعالى : ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٣٧)﴾ [عبس]

ويقول : ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (٣٨)﴾ [المدثر]

لذلك حينما حدَّثَ رسول الله ﷺ أننا سنُحشر يوم القيامة حُفَاة عُراة تعجبت السيدة عائشة ، واستحيتْ من هذا الموقف ، فأخبرها رسول الله أن الأمر ليس كذلك ، فهذا موقف ينشغل كُلٌّ بنفسه ، والحال أصعب من أن ينظر أحد لأحد[1] .

إذن : النفى لنفع الأنساب ، لا للأنساب نفسها .

وإنْ كان نفع الأنساب يمتنع لهول الآخرة فقد يتسامى الإنسان فيمنع نفعه حتى فى الدنيا عن ذوى قرابته إنْ كانوا غير مؤمنين ، وقد ضربها الله مثلاً فى قصة نوح ـ عليه السلام ـ وولده ، وخاطبه

---

(١) عن عائشة قالت : قال النبى ﷺ : يبعث الله الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلاً . فقالت عائشة : يا رسول الله فكيف بالعورات ؟ قال : لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه . أخرجه أحمد فى مسنده (٦/٩٠) والنسائى فى سننه (٤/١١٤) . والحاكم فى مستدركه (٤/٥٦٤) وقال : صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه .

ربه : ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ .. (٤٦)﴾ [هود] فامتنع النسب حتى فى الدنيا ، فالبنوة ليست بُنوة الدم واللحم ، البنوة - خاصة عند الأنبياء - بنوة عمل واتباع .

وإذا تأملتَ تاريخ المسلمين الأوائل لوجدتهم يعتزُّون بالإسلام ، لا بالأنساب ، فالدين والعقيدة هما اللُّحْمة ، وهما الرابطة القوية التى تربط الإنسان بغيره ، وإنْ كان أدنى منه فى مقاييس الحياة .

قرأنا فى قصة بدر أن مصعب بن عمير[١] - رضوان الله عليه - وكان فتى قريش المدلل ، وأغنى أغنيائها ، يلبس أفخر الثياب ويعيش ألين عيشة ، فلما أُشرب قلبه الإيمان زهد فى كل هذا النعيم ، وحُرم من خير أهله ، ثم هاجر إلى المدينة ، وهناك رآه رسول الله ﷺ يلبس جلد شاة فقال : « انظروا ماذا فعل الإيمان بأخيكم »[٢] .

وفى المعركة ، رأى مصعب أخاه أبا عزيز[٣] أسيراً فى يد واحد من الأنصار هو الصحابى أبو اليَسَر[٤] فقال له مصعب : اشدد على

---

(١) هو : مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف ، أبو محمد ، هاجر إلى الحبشة الهجرة الأولى والثانية ، وبعثه ﷺ إلى المدينة يُعلِّم مسلميها الفقه ويقرئهم القرآن ثم قدم على رسول الله ﷺ مع السبعين الذين وافوه فى العقبة الثانية ، وكان مصعب رقيق البشرة ، ليس بالطويل ولا بالقصير ، توفى فى غزوة أحد . [صفة الصفوة ١/٢٠٥ ، ٢٠٦] .

(٢) عن عمر بن الخطاب قال : نظر النبى ﷺ إلى مصعب بن عمير مقبلاً وعليه إهاب (جلد) كبش قد تنطّق به ، فقال النبى ﷺ : انظروا إلى هذا الرجل الذى قد نور الله قلبه ، لقد رأيته بين أبوين يغذوانه بأطيب الطعام والشراب ، فدعاه حب الله ورسوله إلى ما ترون . أورده ابن الجوزى فى صفة الصفوة (١/٢٠٦) . وأخرجه أبو نعيم فى الحلية (١/١٠٨) قال العراقى فى تخريجه لأحاديث الإحياء (٤/٢٩٥) إسناده حسن .

(٣) هو زرارة بن عمير أخو مصعب بن عمير . له صحبة وسماع من النبى ﷺ ، واتفق أهل المغازى على أنه أسر يوم بدر . انظر الإصابة لابن حجر (ترجمة ٧٥٣ الكنى) .

(٤) اسمه كعب بن عمرو الأنصارى ، شهد العقبة وبدراً وله فيها آثار كثيرة وهو الذى أسر العباس بن عبد المطلب . كان قصيراً عظيم البطن ، مات بالمدينة عام ٥٥ هجرية . [الإصابة ترجمة ١٢٤٣] . وقد ضبط الحافظ ابن حجر كنيته (أبو اليَسَر) فقال (٥/٣٠٧) : « بفتح التحتانية باثنتين والمهملة » . وقال (٧/٢١٨) « بفتحتين » .

أسيرك ـ يعنى : إياك أن يفلت منك ـ فإن أُمَّه غنية ، وستفديه بمال كثير ، فنظر أبو عزيز إلى مصعب وقال : أهذه وصاتك بأخيك ؟ فقال : هذا أخى دونك .

إذن : فلا أنسابَ بينهم ، حتى فى الدنيا قبل الآخرة .

وفى غزوة أحد استُشهد مصعب بن عمير ، ولم يجدوا ما يكفنونه فيه إلا ثوباً قَصيراً ، إنْ غطى رأسه انكشفتْ رِجْلاه ، وإنْ غطّى رِجْلَيْه انكشفت رأسه ، فقال النبى ﷺ : « غطوا رأسه ، واجعلوا على رِجْلَيْه من الإذخر »[1] .

والسيدة أم حبيبة بنت أبى سفيان لما أسلمتْ وهاجرت مع زوجها إلى الحبشة ، لكن اتهمها البعض بأنها هاجرت لا من أجل دينها ، ولكن من أجل زوجها ، فيشاء الله تعالى أن يُظهر براءتها ، فيتنصَّر زوجها عبيد الله بن جحش هناك وتظل هى على الإيمان ، ولَما علم رسول الله ﷺ بأمرها أراد أن يعوضها فخطبها لنفسه ، ولم ينتظر إلى أن تجىء ليعقد عليها ، فوكّل النجاشى ملك الحبشة ليعقد له عليها[2] .

وبعد زواجها من رسول الله ﷺ أراد أبوها أبو سفيان زيارتها ، وكانت تمهِّد فراش رسول الله ، فلما أراد أبو سفيان أن يجلس عليه نَحَّتْهُ جانباً ، ومنعتْه أن يجلس ـ وهو كافر ـ على فراش رسول الله ،

---

(١) متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (١٢٧٦) ، ومسلم فى صحيحه (٩٤٠) من حديث خباب بن الأرت رضى الله عنه .

(٢) قال ابن الجوزى فى صفة الصفوة (٣١/٢) : « بعث رسول الله ﷺ عمرو بن أمية الضمرى إلى النجاشى ملك الحبشة ليخطبها عليه فزوّجها إياه وأصدق عنه النجاشى أربعمائة دينار وبعث بها إلى شرحبيل بن حسنة . وقيل : وكّلت خالد بن سعيد بن العاص فزوّجها ، وذلك سنة سبع من الهجرة » .

فقال: أَضَنًّا بالفراش علىَّ ؟ فقالت : نعم[١] .

إذن : نَفْع الأنساب يمتنع فى الدنيا قبل امتناعه فى الآخرة ، لكن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ تفضّل بأن أبقى مطلوبات النسب فى الدنيا ودعانا إلى الحفاظ عليها حتى مع الكافرين ؛ لأنه سبحانه وَسِع الكافر ، فعلى المؤمن أن يسعه من باب أَوْلَى ، فإنْ رأيت الكافر فى شدة وقدرت أن تُعينه فَأعنْه .

واقرأ فى هذا قوله تعالى : ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا .. ﴿١٥﴾﴾ [لقمان]

فهما كافران ، بل ويريدانك كافراً ، ومع ذلك احفظ لهما حَقَّ النسب ، ولا تقطع الصلة بهما .

ويُرْوَى أن إبراهيم ـ عليه السلام ـ وقد أعطاه الله الخُلَّة ، وقال عنه : ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴿٣٧﴾﴾ [النجم] وابتلاه بكلمات فأتمهُنَّ ، مرَّ عليه عابر سبيل بليل ، فقبل أن يُدخله ويُضيفه سأله عن ديانته ، فأخبره أنه غير مؤمن ، فأعرض عنه إبراهيم ـ عليه السلام ـ وتركه ينصرف ، فأوحى الله إليه : يا إبراهيم وسعْتُ عبدى وهو كافر بى ، وتريده أن يغير دينه لضيافة ليلة ؟ فأسرع إبراهيم خلف الرجل حتى لحق به ، وأخبره بما كان من عتاب ربه له فى شأنه ، فقال الرجل : نعْم الرب الذى يعاتب أحبابه فى أمر أعدائه ، وشهد أن لا إله إلا الله وأن إبراهيم رسول الله .

---

(١) أورده ابن الجوزى فى صفة الصفوة (٢/٣٣) « أن أبا سفيان قال لابنته أم حبيبة بعد أن طوت فراش رسول الله ﷺ : يا بنية ، أرغبت بهذا الفراش عنى أم بى عنه ؟ فقالت : بل هو فراش رسول الله ﷺ وأنت امرؤ نجس مشرك . فقال : يا بنية لقد أصابك بعدى شر » ومعلوم أن أبا سفيان أسلم فيما بعد فى فتح مكة .

ويرتقى أهل المعرفة بالنسب ، فيرونَ أنه يتعدَّى الارتباط بسبب وجودك ، وهو الأب أو الأم ، فالنسب وإن كان ميلاد شىء من شىء ، أو تفرُّع شىء من شىء ، فهناك نسب أعلى ، لا لمَنْ أوجدك بسبب ، وإنما لمن أوجدك بلا سبب الوجود الأول ، فكان عليك أن تراعى هذا النسب أولاً الذى أوجدك من عدم ، وإنْ أثبت حقاً للوالدين ؛ لأنهما سبب وجودك . فكيف بالموجد الأعلى ؟

وقوله تعالى : ﴿وَلَا يَتَسَاءَلُونَ (١٠١)﴾ [المؤمنون] سأل : تقتضى سائلاً ومسئولاً ، أمّا الفعل (تساءل) فيدل على المفاعلة يعنى : كل منهما سائل مرة ، ومسئول أخرى ، كما تقول : شارك محمد عمرًا ، وقاتل .. الخ .

وقد اعترض على هذه الآية بعض المستشرقين الذين يحبون أن يتوركوا على كتاب الله ، قائلين : إن المسلمين ينظرون إلى كتاب الله بمهابة وتقديس يمنعهم ويحجب عقولهم عن تعقُّل ما فيه ، لماذا وقد قال تعالى عن القرآن : ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا (٨٢)﴾ [النساء] ؟

يقول هؤلاء : إن القرآن نفى التساؤل فى هذه الآية ، وأثبته فى قوله تعالى : ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٥)﴾ [الطور] فى الحوار بين الكفار .

وهناك تساؤل بين المؤمنين والكافرين : ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (٣٨) إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ (٣٩) فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ (٤٠) عَنِ الْمُجْرِمِينَ (٤١) مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (٤٢) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (٤٣) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ (٤٤) وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ (٤٥) وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ (٤٦)﴾ [المدثر]

ومرة يكون التساؤل بين المؤمنين بعضهم وبعض : ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٥) قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ (٢٦) فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ (٢٧) إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ (٢٨) ﴾ [الطور]

إذن : كيف بعد ذلك ينفى التساؤل ؟ ويقول : ﴿ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ (١٠١) ﴾ [المؤمنون]

وهذا التضارب الذى يروْنَه تضارب ظاهرى ؛ لأن هناك فرقاً بين أن تسمع عن شىء وبين أن تُفاجأ به وأنت غير مؤمن ، لقد قالوا : ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٣٧) ﴾ [المؤمنون]

فحين فُوجئوا بالنفخ فى الصُّور ، وداهمتهم القيامة التى كانوا يُكذِّبون بها بُهتوا ودُهشُوا ، وخرست ألسنتهم عن الكلام من شدة دهشتهم ، وكيف وما كانوا ينكرونه ماثل أمامهم فجأة ، ثم يتدرجون من هذه الحالة إلى أن يأخذوه أمراً واقعاً لا مَفرَّ منه ، فيبدأون بالكلام ويسأل بعضهم بعضاً عَمَّا هم فيه وعَمَّا نزل بهم .

إذن : فالسؤال له زمن ، ونَفْى السؤال له زمن ؛ لذلك يقولون فى مثل هذه المسألة أن الجهة مُنفكَّة ، فإذا رأيتَ شيئاً واحداً أُثبتَ مرة ، ونُفى أخرى من قائل واحد منسوب إلى الحكمة وعدم التضارب ، فاعلَم أن الجهة مُنفكّة .

ومثل هذا الموقف من أهل الاستشراق وقفوه أيضاً فى سؤال أهل المعاصى ، حيث يقول تعالى فى إثبات سؤالهم : ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ (٢٤) ﴾ [الصافات] ويقول فى نفى سؤالهم ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ (٣٩) ﴾ [الرحمن] فكيف يثبت الفعل وينفيه ، والفاعل واحد ؟

وهذا الاعتـراض منهم ناشىء عن عدم فَـهْم للغة القـرآن والملَـكة العـربية ، أو لأنهم يريدون مـجـرد الاستـدراك على كتـاب الله وإثارة الشكوك حـوله . لكـن رُبَّ ضـارَّة نافـعـة ، فـقـد حـرّكت شكوكـهم ومآخذهم علماء المسلمـين للتصدِّى لهم ، وللرد على أباطيلهم وكشف نواياهم ، فمـثلنا كمثل الذى يستـعد لملاقـاة المرض بالطُّعْم المناسب الذى يعطى للجسم مناعة وحصانة ضد هذا المرض .

وسـيدنا عـمـر ـ رضى الله عنه ـ وكـان القـرآن ينطق على وَفْق ما يريد ، يرى الناس يُقـبِّلون الحجر الأسود ، فـتوقع أن يتكلم الناس فى هذه المـسألة ، وكيف أن الدين يـنهاهم عن عبـادة الأصنام وهى حجارة ويأمـرهم بتقبيل الحجر ، وكـان رضى الله عنه يُقبّله ويقول : « والله إنى لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا أنى رأيت رسول الله يُقبّلك ما قبَّلتك »[1] .

فلفت الناس إلى أصل التشريع وأن الحجـرية لا عبادةَ لها عندنا ، لكن عندنا النبى ﷺ وهو مُشرِّع لنا وواجب علينـا اتباعه ، وهكذا كان ردّ عمر على مَنْ أثاروا هذه الفتنة .

ولما تكـلم عمر فى غـلاء المهـور وكان مُلْهـماً يوافق قـولُه قولَ القرآن الكريم ، وقفتْ له امرأة وراجعـته وقالت له : اخطأتَ يا عمر ، كيفَ تنهى عن الغلاء فى المهور ، والله تعالى يقول : ﴿وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا .. (٢٠)﴾ [النساء]

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (١٥٩٧) ، ومسلم فى صحيحه (١٢٧٠) من حديث عمر ابن الخطاب رضى الله عنه . قـال الطبرى : « إنمـا قال ذلك عـمر لأن الناس كانوا حـديثى عهد بعـبادة الأصنام فخشى عمـر أن يظن الجهال أن استلام الحـجر من باب تعظيم بعض الأحجار كـما كانت العرب تفـعل فى الجاهلية فأراد عـمر أن يعلم الناس أن استـلامه اتباع لفعل رسول الله ﷺ لا لأن الحجر ينفع ويضر بذاته كما كانت الجاهلية تعتقده فى الأوثان» أورده ابن حجر فى الفتح (٣/٤٦٣) .

فأجاز أن يكون المهر قنطاراً من ذهب ، عندها قال عمر بجلالة قدره : « أصابت امرأة وأخطأ عمر »[1] ليبين أنه لا كبيرَ أمام شرع الله .

إذن : هذه مسائل مرسومة ولها أصل ، يجب أن تُعلم لنردّ بها حين نسأل في أمور ديننا .

نعود إلى مسألة سؤال أهل المعصية ، حيث نفاه القرآن مرة وأثبته أخرى . ونقول : جاء القرآن بأسلوب العرب وطريقتهم ، والسؤال في الأسلوب العربي إما سؤال ممَّنْ يجهل ويريد المعرفة ، كما يسأل التلميذ مُعلِّمه ، أو يسأل العالم الجاهل لا ليعلم منه ، ولكن ليقرره بما يريد .

فإذا نفى الله تعالى السؤال ، فلا تظنوا أنه يسألكم ليعرف منكم ، إنما يسألكم لتقروا ؛ لذلك قال سبحانه : ﴿ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ ﴾ [الإسراء]

إذن : إثبات السؤال له معنى ، ونَفْيه له معنى ، فإذا نفى فقد نفى سؤال العلم من جهتهم ، وإذا أثبت فقد أثبت سؤال الإقرار من جهتهم ؛ لتكون الحجة ألزم ؛ لأن الإقرار سيد الأدلة .

وقد أوضحنا هذه المسألة بمثال : التلميذ المهمل الذى يتظاهر أمام أبيه بالمذاكرة ، فيفتح كتابه ويهزّ رأسه كأنه يقرأ ، فإذا ما سأله والده لم يجده حصَّل شيئاً ، فيقول له : ذاكرت وما ذاكرت .

---

(١) أورده ابن كثير في تفسيره (١/٤٦٧) بلفظ « امرأة أصابت ورجل أخطأ » أخرجه الزبير بن بكار . قال ابن كثير : فيه انقطاع . وأورده أيضاً بنحوه وعزاه لأبى يعلى . قال ابن كثير : إسناده جيد قوى .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى مخاطباً رسوله ﷺ : ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ .. ﴿١٧﴾﴾ [الأنفال] هكذا نَفْى وإثبات فى آية واحدة لفاعل واحد ، لأن رسول الله ﷺ أخذ فعلاً حَفْنة من الحصى ورَمَى بها نحو الأعداء[1] ، لكن هل فى قدرته أن يُوصّل هذه الحفنة إلى أعين الأعداء جميعاً ؟ فالعمل والرمى للرسول ، والنتيجة والغاية لله عز وجل .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾

ثقُلَتْ وخفَّتْ هنا للحسنات. يعنى: كانت حسناته كثيرة أو كانت قليلة .

ويمكن أن نقول : ثقلت موازينه بالسيئات يعنى : كثُرَتْ الحسنات ، لكن القرآن تكلم من ناحية أن العمدة فى الأمر الحسنات .

والميزان يقوم على كفَّتين فى أحدهما الموزون ، وفى الأخرى الموزون به ، وللوزن ثلاث صور عقلية : أن يخفّ الموزون ، أو يخف الموزون به ، أو يستويا ، وقد ذكرت الآية حالتين : خفت

---

(١) عن على بن أبى طلحة عن ابن عباس رضى الله عنهما : « رفع رسول الله ﷺ يديه يعنى يوم بدر فقال : يا رب إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد فى الأرض أبداً ، فقال له جبريل : خذ قبضة من التراب فارم بها فى وجوههم ، فأخذ قبضة من التراب فرمى بها فى وجوههم فما من المشركين أحد إلا أصاب عينيه ومنخريه وفمه تراب من تلك القبضة فولوا مدبرين » أخرجه أبو نعيم (ص ٤٠٤) والبيهقى (٣/٧٩) كلاهما فى دلائل النبوة ، وذكره ابن كثير فى تفسيره (٢/٢٩٤) .

موازينه ، وثقلت موازينه ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ (٦) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ (٧) وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ (٨) فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ (٩) وَمَا أَدْرَاكَ مَاهِيَهْ (١٠) نَارٌ حَامِيَةٌ (١١)﴾ [القارعة]

أما حالة التساوى فقد جاءت لها إشارة رمزية فى سورة الأعراف :

﴿وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ (٤٦) وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤٧)﴾ [الأعراف]

فمَنْ غلبت حسناته ذهب إلى الجنة ، ومَنْ غلبت سيئاته ذهب إلى النار ؛ وبقى أهل الأعراف بين الجنة والنار ؛ لأنهم تساوت عندهم كفَّتا الميزان ، فلا هو من أهل الجنة ، ولا هو من أهل النار ، فهم على الأعراف ، وهو السُّور بين الجنة والنار ينظرون إلى هؤلاء وإلى هؤلاء .

ثم يقول تعالى فى شأنهم : ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ (٤٦)﴾ [الأعراف] ؛ لأن رحمة الله سبقتْ غضبه ، وعفوه سبق عقابه .

ومعنى ثقلت موازينه وخفت موازينه يدل على أن الأعمال تصبح ولها كثافة وجِرْم يعطى ثقلاً ، أو أن الله تعالى يخلق فى كل عمل له كتلة ، فحسنةُ كذا بكذا ، والمراد من الميزان دقَّة الفَصْل والحساب .

ونلحظ فى الآية : ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ .. (١٠٢)﴾ [المؤمنون] بالجمع ولم يقل : ميزانه ، لماذا ؟ قالوا : لأنه يمكن أن يكون لكل جهة عمل ميزان خاص ، فللصلاة ميزان ، وللمال ميزان ، وللحج ميزان .. إلخ ثم تُجمع له كل هذه الموازين .

وقوله : ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَـئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ .. (١٠٣)﴾ [المؤمنون] لأنهم أخذوا لها القليل العاجل ، وفوَّتوا عليها الكثير الآجل ، وسارعوا إلى متعة فانية ، وتركوا متعة باقية ؛ لأن الدنيا

أجلها محدود ؛ والزمن فيها مظنون، والخير فيها على قَدْر إمكانات أهلها .

أما الآخرة فزمنها مُتيقّن ، وأجلها ممدود خالد ، والخير فيها على قَدْر إمكانات المنعم عَزَّ وجَلَّ ، فلو قارنتَ هذا بذاك لتبيّن لك مدى ما خَسِروا ، لذلك تكون النتيجة أنهم ﴿فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (١٠٣)﴾ [المؤمنون]

ثم يعطينا الحق سبحانه صورة تُبشِّع الجزاء فى جهنم ، وتُصوِّر أهوالها ، وذلك رحمة بنا لنرتدع من قريب ، ونعمل جاهدين على أن ننجى أنفسنا من هذا المصير ، وننفر من هذه العاقبة البشعة ، كما يقول الشرع بداية : سنقطع يد السارق ، فهو لا يريد أن يقطع أيدى الناس ، إنما يريد أن يمنعهم ويحذرهم هذه العاقبة .

ومن ذلك قوله تعالى فى مسألة القصاص : ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَـٰأُولِي الأَلْبَابِ .. (١٧٩)﴾ [البقرة]

وقد هُوجم القصَاص كثيراً من أعداء الإسلام ، إذ يقولون : يكفى أن قُتل واحد من المجتمع ، فكيف نقتل الآخر ؟ والقرآن لم يضع القصَاص ليقتل الاثنين ، إنما وضعه ليمنع القتل ، وليستبقى القاتل والقتيل أحياء ، فحين يعرف القاتل أنه سيُقتل قصاصاً يمتنع ويرتدع ، فإن امتنع عن القتل فقد أحيينا القاتل والقتيل ، وقد عبَّروا عن هذا المعنى فقالوا : القتل أنفى للقتل .

يقول تعالى فى تبشيع جهنم :

﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ (١٠٤)﴾

اللفْح : أن تمسَّ النار بحرارتها الشىء فتشويه ، ومثله النَّفْح[1]

---

(١) قال الزجاج : تلفح وتنفح بمعنى واحد إلا أن النفح أعظم تأثيراً منه . قال أبو منصور : ومما يؤيد قوله قوله تعالى : ﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ .. (٤٦)﴾ [الأنبياء] [لسان العرب ـ مادة : لفح] .

﴿وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ (١٠٤)﴾ [المؤمنون] كلمة « كالح » نقولها حتى فى العامية : فلان كالح الوجه . يعنى : تغيّر وجهه تغيُّراً ينكر لا تستريح له ، وضربوا للوجه الكالح مثالاً برأس الخروف المشوية التى غيَّرت النار ملامحها ، فأصبحت مُشوَّهة كالحة تلتصق الشَّفَة العليا بجبهته ، والسفلى بصدره ، فتظهر أسنانه فى شكل منفر .

بعد ذلك يخاطبهم الحق سبحانه خطاباً يُلقى اللوم عليه ويُحملهم مسئولية ما وصلوا إليه ، فلم يعذبهم ربهم ابتداءً ، إنما عذبهم بعد أن أنذرهم ، وأرسل إليهم رسولاً يحمل منهجاً يبين ثواب الطائع وعقاب العاصى ، ونبَّههم إلى كل شىء ، ومع ذلك عصَوْا وكذَّبوا ، ولم يستأنفوا عملاً جديداً على وَفْق ما أمر الله . إذن : فهُم المقصرون .

﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٠٥)﴾

يعنى : أنتم السبب فيما أنتم فيه من العذاب ، فليس للناس على الله حجة بعد الرسل ، وليس لأحد عذر بعد البلاغ ، لذلك حينما يدخل أهل النار النارَ يخاطبهم ربهم : ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ .. (٧١)﴾ [الزمر]

فالآية تثبت أنهم هم المذنبون أمام نفوسهم : ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٨)﴾ [النحل] فلم نفاجئهم بعقوبة على شىء لم نُبصِّرهم به ، إنما أرسلنا إليهم رسولاً يأمرهم وينهاهم ويُبشِّرهم وينذرهم .

والإنذار بالشر قبل أن يقع نعمة من النعم ، كما قلنا فى سورة الرحمن عن قوله تعالى : ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ (٣٥) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٦)﴾ [الرحمن] وهل النار

والشواظ نعمة ؟ نعم نعمة ؛ لأننا نحذرك منها قبل وقوعها ، وأنت ما زِلْتَ فى سعة الدنيا ، وأمامك فرصة الاستدراك .

والآيات ـ كما قلنا ـ تُطلَق على الآيات الكونية التى تلفت الناس إلى وجود الخالق الأعلى الذى أنشأ هذا الكون بهذه الهندسة البديعة ، وتُطلَق على المعجزات التى تثبت صدْق الرسول فى البلاغ عن الله ، وتُطلَق على الآيات الحاملة للأحكام وهى آيات القرآن .

وقد جئناكم بكل هذه الآيات تُتْلَى عليكم وتسمعونها وترونها ، ومع ذلك كذَّبْتم ، ومعنى ﴿ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ .. (١٠٥) ﴾ [المؤمنون] أننا نبهناكم إليها ، ولفتْنَا أنظاركم إلى تأملها ، حتى لا تقولوا : غفلنا عنها .

﴿ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ (١٠٦) ﴾

﴿ شِقْوَتُنَا .. (١٠٦) ﴾ [المؤمنون] أى : الشقاوة[1] وهى الألم الذى يملك كل ملكات النفس لا يترك منها جانباً ، يقولون : فلان شقى يعنى مُضيَّق عليه ومُتعَب فى كل أمور حياته ، لا يرى راحة فى شىء منها .

وكأنهم بقولهم : ﴿ غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا .. (١٠٦) ﴾ [المؤمنون] يريدون أن يُبعدوا المسألة عن أنفسهم ويُلْقون بها عند الله تعالى ، يقولون : يا ربِّ لقد كتبتَ علينا الشقوة من الأزل ، فلا ذنبَ لنا ، وكيف نسعد نحن أنفسنا ؟ يقولون : لو شاء ربنا ما فعلنا ذلك .

ونقول لهم : لقد كتب الله عليكم أزلاً ؛ لأنه سبحانه علم أنكم ستختارون هذا .

﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ (١٠٧) ﴾

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٦/٤٦٨٧) : « قراءة أهل المدينة وأبى عمرو وعاصم « شقوتنا » وقرأ الكوفيون إلا عاصماً « شقاوتنا » » .

فوصفوا أنفسهم بالظلم ، كما قال سبحانه عنهم فى آية أخرى : ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٢٨)﴾ [الأنعام]

فيقول الحق سبحانه :

﴿قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ (١٠٨)﴾

﴿اخْسَئُوا (١٠٨)﴾ [المؤمنون] كلمة بليغة فى الزجر تعنى : السكوت مع الذلّة والهوان ؛ لذلك يقولونها للكلاب ، وقد تقول لصاحبك : اسكت على سبيل التكريم له ، كما لو حدَّثك عن فضلك عليه ، وأنك قدَّمْتَ له كذا وكذا فتقول له : اسكت اسكت ، تريد له العزة ، وألاَّ يقف أمامك موقف الضعف والذلة .

والخسوء من معانيها أنك تضعف عن تحمُّل الشىء ، كما فى قوله تعالى : ﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ (٤)﴾ [الملك] يعنى : ضعيف عن تحمُّل الضوء .

وفى قوله سبحانه : ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (٦٥)﴾ [البقرة] يعنى : مطرودون مُبْعدون عن سُمو الإنسانية وعزّتها ؛ لذلك نرى القردة مفضوحى السَّوْءة ، خفيفى الحركة بما لا يتناسب وكرامة الإنسان .

إذن : ليس المراد أنهم أصبحوا قردة ، إنما كونوا على هيئة القردة ؛ لذلك نراهم حتى الآن لا يهتمون بمسألة العرْض وانكشاف العورة .

إذن : المعنى ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ (١٠٨)﴾ [المؤمنون] اسكتوا سكوتاً بذلّة وهَوَان ، ويكفى ما صنعتموه بالمؤمنين بى ؛ فيقول الحق سبحانه :

﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾

والمراد هنا الضعاف من المؤمنين أمثال عمار وبلال وخباب بن الأرت[1]، وكانوا يقولون هذا الكلام ، وهو كلام طيب لا يرد ، بل يجب أن يُسمع ، وأن يُحتذَى به ، ويُؤخَذ قدوة .

﴿فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾﴾

تكلمنا عن هذه المسألة فى قوله تعالى :

﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٣٠) وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ[2] (٣١) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ (٣٢) وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ (٣٣) فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٣٤) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ (٣٥) هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦)﴾ [المطففين]

إذن : اتخذ الكفار ضعاف المؤمنين محلَّ سخرية واستهزاء ، وبالغوا فى ذلك ، حتى لم يَعُدْ لهم شُغل غير هذا ، وحتى شغلهم الاستهزاء والسخرية عن التفكّر والتأمل فلم يَبْقَ عندهم طاقة فكرية

---

(١) قاله مجاهد فيما نقله عنه القرطبى فى تفسيره (٦/٤٦٨٨) .

(٢) فكهين : أى يغتابون الناس ويتناولون منهم ويتندرون بهم ، والفكه : الذى يُحدِّث أصحابه ويضحكهم . [لسان العرب ـ مادة : فكه]

تفكر فيما آمن به هؤلاء ، وهذا معنى : ﴿حَتَّىٰ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى .. (١١٠)﴾ [المؤمنون] أى : شغلكم الاستهزاء بالمؤمنين عن الإيمان بمَنْ خلقكم وخلقهم .

ويا ليت الأمر توقّف عند هذا الحد من السخرية ، إنما تعداه إلى أن يضحكوا من أهل الإيمان ، ويُضحكوا أهلهم ﴿وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ (١١٠)﴾ [المؤمنون] وفى الآية الأخرى : ﴿وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ (٣١)﴾ [المطففين] وسخرية أهل الباطل من أهل الحق موجودة فى كل زمان ، وحتى الآن نرى مَنْ يسخرون من أهل الاستقامة والدين والورع ويتندَّرون بهم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ (١١١)﴾

لما صبر أهل الإيمان على الاستهزاء والسخرية عوَّضهم الله تكريماً ونعيماً ، وهذه مسألة يجب ألاَّ يغفل عنها المؤمن حين يسخر منه أعداؤه ، عليه أن يتذكر عطاء ربه وجزاء صبره ، وإنْ كان الساخر منك عبداً له قدرته المحدودة ، فالمكرِّم لك ربك بقدرة لا حدودَ لها ، ولك أن تقارن إذن بين مشقة الصبر على أذاهم ، ولذة النعيم الذى تجده بعد ذلك جزاء صبرك .

﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (١١٢)﴾

لبث : مكث وأقام ، فالمعنى : ما عدد السنين التى ظللتموها فى الأرض ، لكن لماذا هذا السؤال ؟

قالوا : لأن الذى شغلكم عن دين يضمن لكم ميعاداً خالداً ، ونعيماً باقياً هو الدنيا التى صرفتكم بزينتها وزخرفها وشهواتها

- وعلى فرض أنكم تمتعتم بهذا فى الدنيا - فهل يُقارن بما أُعِدَّ للمؤمنين فى الآخرة من النعيم المقيم الذى لا يفوتهم ولا يفوتونه ؟

والقيامة حين تقوم ستقوم على قوم ماتوا فى ساعتها ، فيكون لبثهم قريباً ، وعلى أناس ماتوا من أيام آدم فيكون لبثهم طويلاً ، إذن : فاللبث فى الأرض مقول بالتشكيك كما يقولون ، لكن هل يدرك الأموات المدة التى لبثوها فى الأرض ؟ معلوم أنهم لا يدركون الزمن؛ لأن إدراك الزمن إنما يتأتَّى بمشاهدة الأحداث ، فالميت لا يشعر بالزمن ؛ لأنه لا يعيش أحداثاً ، كالنائم لا يدرى المدة التى نامها ، وكُلُّ مَنْ سُئِلَ هذا السؤال قال ﴿يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ .. (٢٥٩)﴾ [البقرة]

قالها العُزَير الذى أماته الله مائة عام ثم بعثه ، وقالها أهل الكهف الذين أنامهم الله ثلاثمائة سنة وتسعاً ؛ لأن هذه هى أطول مدة يمكن أن يتخيلها الإنسان لنومه ، ولا يستطيع النائم تحديد ذلك بدقة ؛ لأن الزمن ابْنُ الحدث ، فإن انعدم الحدث انعدم الزمن .

لذلك يقول تعالى عَمَّنْ ماتوا حتى من أيام آدم عليه السلام : ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا (٤٦)﴾ [النازعات]

وكذلك يقول هؤلاء أيضاً فى الإجابة على هذا السؤال :

﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْئَلِ الْعَادِّينَ (١١٣)﴾

أى : أصحاب العدِّ الذين يمكنهم العدُّ والحساب ؛ لأننا لم نكن فى وعينا لنعُد كما لبثنا ، والمراد بالعادِّين هم الملائكة الذين يعدُّون الأيام ويحسبونها[1] .

---

(١) ذكر القرطبى فى تفسيره (٦/ ٤٦٩٠) فى معنى (العادِّين) قولين :
- الحُسَّاب الذين يعرفون ذلك . قاله قتادة .
- الملائكة الذين كانوا معنا فى الدنيا . قاله مجاهد .

﴿ قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ ﴾

إنْ : بمعنى ما ، يعنى : ما لبثتم إلا قليلاً ، فمهما قدَّرْتم من طول الحياة حتى مَنْ مات منذ أيام آدم عليه السلام ، فسيكون قليلاً بالمقارنة بالزمن الذى ينتظركم فى الجزاء الأخروى ، فما لبثتموه فى الدنيا لا يُقَاس بعذاب الآخرة الممتد الباقى ، هذا ﴿لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾﴾ [المؤمنون] تعلمون طول ما تصيرون إليه من العذاب الخالد المقيم .

﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ ﴾

(حسبتم) ظننتم يعنى : ماذا كنتم تظنون فى خَلْقنا لكم ؟ كما قال فى موضع آخر : ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾﴾ [العنكبوت] وكلمة ﴿عَبَثًا .. ﴿١١٥﴾﴾ [المؤمنون] العَبَث هو الفعل الذى لا غايةَ له ولا فائدةَ منه ، كما تقول : فيم تعبث ؟ لمن يفعل فِعْلاً لا جدوى منه ، وغير العبث نقول : الجد ونقول : اللعب واللهو ، كلها أفعال فى حركات الحياة . لكن الجد : هو أن تعمل العمل لغاية مرسومة .

أما اللعب فهو أن تعمل عملاً هو فى واقع الأمر لا غايةَ له الآن إلا دُرْبتك أنت على الحركة وشُغْل ملكاتك حتى لا تتوجه إلى فساد شىء أو الإضرار بشىء ، كما تشترى لولدك لعبة يلهو بها ، وينشغل بها عن الأشياء القيِّمة فى المنزل ، والتى إنْ لعب بها حطّمها ، فأنت

تصرف حركاته إلى شىء لتمنعه عن أشياء ضارة ، أو تُعلِّمه باللعب شيئاً يفيده فيما بعد ، كالسباحة أو ركوب الخيل .

واللهو كاللعب فى أنه يكون لغاية قد تأتى بعد ، أو لغاية تنفى ضرراً ، إلا أن اللعب حين تزاوله لا يشغلك عن مطلوب ، أما اللهو فهو الذى يشغلك عن مطلوب ، فمثلاً الطفل دون السابعة يلعب فى أوقات الصلاة ، فيُسمّى فعله لعباً ، فإنْ كان فى العاشرة يُسمَّى فِعْله لَهْواً ؛ لأنه شغله عن الصلاة ، وهى واجبة عليه .

واللعب يُدربك على أشياء قد تحتاجها وقت الجد فتكون سهلة عليك ، أما العبث فلا فائدةَ منه ، لذلك قال سبحانه : ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا .. (١١٥)﴾ [المؤمنون] فنفى أن يكون الخَلْق عبثاً بلا غاية ؛ لأن الله تعالى خلق الخَلْق لغاية مرسومة ، ووضع لهم منهجاً يحدد هذه الغاية ، ولا يضع المنهج للخَلْق إلا الخالق .

كما قلنا سابقاً : إن الصانع الذى صنع هذا الميكروفون لم يصنعه ثم طلب منا أن نبحث له عن مهمة ، إنما قبْل أنْ يصنعه حدد له مهمته والغاية منه ، وهى أن ينقل الصوت لمسافات بعيدة ، إذن : فالغاية مرسومة بدايةً وقبل العمل .

فالذى يحدد الغاية هو الصانع المبدع للشىء ، وهو أيضاً الذى يحدد صلاح الصنعة لغايتها ، ويحدد قانون صيانتها لتؤدى مهمتها على أكمل وجه ، وأنت أيها الإنسان صنعة الله فَدَعْهُ يحدد لك غايتك ، ويضع لك منهج حياتك وقانون صيانتك ، بافعل كذا ولا تفعل كذا .

إذن : فساد الدنيا يأتى من أن الصنعة تريد أن تأخذ حق الصانع فى تحديد الغاية ، وفى تحديد المنهج ، وقانون الصيانة ، وليس من مهمتها ذلك ، والخالق حينما يحدد لك الغاية يضع لك المنهج الذى

يُعينك على غـايتك ، إنما أنت : متى تستطيع أن تدرك الأشـياء لتضع غاية أو تضع قانون الصيانة ؟

إنك لا يمكن أن تبلغ هذا الـمبلغ قـبل سنِّ العـشرين على أحـسن تقـدير ، فـمَنْ - إذن - يضع لك غـايتك وقانـون صيـانتك قـبل هذه السنِّ ؟ لا أحدَ غير خالقك عز وجل ، ولن يستقيم الحال إلا إذا تركنا الصَّنْعة للصانع غايةً ومنهجاً وصيانة .

وكيف تظن أن الله تعالى خلقك عَبثاً ، وهو الذى استدعاك للوجود وأعدَّ لك مُقوِّمـات حياتك وضرورياتها ، وحثَّك بإعـمال عقلك فى هذه المقومات لتستطيع أن تُرفِّه بالطاقـة والقدرة المخلوقة لله تعالى لتُسعِدَ نفسك وتُرفِّه حياتك .

وقـد كنا فى الماضى نجلـس على ضوء المـسرجـة ، والآن على أضواء النيون والكريستال ، ومهمـا ترفهت حياتك وتوفرت لك وسائل الراحة فـلا تنْسَ أنها عطَاء من الله فى المادة وفى الطاقـة وفى العقل المفكر ، كلها مخلوقة لله عَز وجل ، لا تملك أنت منها شيئاً ، بدليل أن الله إذا سلبك العقل لَصِرت مجنوناً ، ولو سلبك الطاقة والقدرة لصرتَ ضَعيفاً لا تستطيع مجـرد التنفس ، فهذه نِعَمٌ موهوبة لك ليست ذاتية فيك .

إذن : عليك أن تـتـأمل فى خـالقك عـز وجل ، ومـا وهبك من مقـومات الحياة ، لتـعلم أن هذا الخَلْق لا يمكن أن يكون عبـثاً ، ولابد أن له غاية رسمـها الخالق سبحـانه ، وأنت فى ذاتك تحاول أن تضع لك غاية فى جزئية ما من الغاية الكبرى التى خلقك الله لها .

ألاَ ترى الولد الصغيـر كيف تعتنى به وتُعلِّمه وتنفـق عليه مرحلة بعد الأخرى ، حتى يصل إلى الجامعة ، وتتعلق أنت بأمل كبير فى أن

يكون لولدك هذا مكانة فى المجتمع ومنزلة بين الناس ؟ هذه العملية فى حد ذاتها غاية ، لكن بعد أن يحصل على الوظيفة المرموقة والمكانة والمنزلة ينتهى الأمر بالموت .

إذن : لا بُدَّ من وجود غاية أخرى أعظم من هذه ، غاية لا يدركها الفناء ، وليس لها بعد ، هذه الغاية الكبرى هى لقاء الله وملاقاة الجزاء ، إما إلى الجنة وإما إلى النار .

وعلينا أن نأخذ كل مسائل الحياة وجزئياتها فى ضوء هذه الحقيقة ، أننا لم نُخلَق عَبَثاً ، بل لغاية مرادة لله ، ولها أسباب توصل إليها .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ (١١٥)﴾ [المؤمنون] (تُرجَعون) يعنى : رَغْماً عنكم ، ودون إرادتكم ، كأن شيئاً ما يسوقهم ، كما فى قوله تعالى : ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا (١٣)﴾ [الطور] يعنى : يُدفعون إليها ، ويُضربون على أقفائهم ، ويُساقون سَوْقَ الدواب .

﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ (١١٦)﴾

﴿فَتَعَالَى .. (١١٦)﴾ [المؤمنون] تنزَّه وتقدَّس ، وكلمة العلو تعنى علو المنزلة . نقول : علا فلان على فلان ، أما حين نقول : تعالى الله ، فالمراد العلو الأعلى ، وإن وهب علواً للغير فهو عُلو الدانى ، وعلو المتغير ، بدليل أنه تعالى يُعليك ، وإنْ شاء سلبك ، فالعلو ليس ذاتياً فيك .

وكلمة الملك نعرفها فيمَنْ يملك قطعة من الأرض بمَنْ فيها ويحكم وله رعية ، ومن هذه المادة : المالك . ويُطلَق على أىٍّ مالك لأىِّ شىء ، ولو لم يكن لديه إلا الثوب الذى يلبسه فهو مالك ، أما : المَلِك فهو مَنْ يملك الذين يملكون ، فله ملك على المالكين ، وهذا المَلِك لم يأخذ مُلْكه بذاته ، إنما بإيتاء الله له .

لذلك يقول تعالى : ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ .. (٢٦)﴾ [آل عمران]

فلو كان مُلْك هؤلاء الملوك ذاتياً ما نُزِع منهم ، ألاَ ترى الملك من ملوك الدنيا يقوى ويستتب له الأمر ، ويكون له صولجان وبَطْش وفَتْك .. إلخ ، ومع كل هذا لا يستطيع الاحتفاظ بملكه ؟ وفى لحظة ينهار هذا الملْك ولو على يد جندى من جنوده ، بل وربما تلفظه بلاده ، ولا تقبل حتى أنْ يُدفن بها ، وتتطوع له بعض الدول ، وتقبل أنْ تُوارى رفاته بأرضها ، فأىُّ ملك هذا ؟

وهذه آية من الآيات نراها فى كل عصر ـ وكأنها قائمة ـ دليلاً على صدق الآية : ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ .. (٢٦)﴾ [آل عمران] إذن : إنْ ملكك الله فاعلم أنه مُلْك موهوب ، مهما استتب لك فلا تضمن بقاءه ؛ لأنَّ الله تعالى ملَّكك لغاية ، ولا يملك الغاية إلا هو سبحانه .

لذلك كان الحق ـ سبحانه وتعالى ـ ﴿الْمَلِكُ الْحَقُّ .. (١١٦)﴾ [المؤمنون] يعنى : الذى لا يزحزحه أحد عن مُلْكه ، أو يسلبه منه ، وهو الذى يتصرّف فى مُلْكه كيف يشاء لا ينازعه فيه أحد ، وإنْ أعطى من باطن مُلْكه تعالى مُلْكاً لأحد ، فيظل فى يده سبحانه زمام هذا الملْك ، إنْ شاء بسطه ، وإنْ شاء سلبه ونزعه . فهو وحده الملك

الحق ، أما غيره فمُلْكهم موهوب مسلوب ، وإنْ ملَّك سبحانه أناساً أَمْرَ أناس فى الدنيا يأتى يوم القيامة فيقول : ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ..(١٦)﴾ [غافر]

وتلحظ أن كلمة ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ .. (٢٦)﴾ [آل عمران] سهلة على خلاف ﴿تَنزِعُ الْمُلْكَ .. (٢٦)﴾ [آل عمران] ، ففى النزع دليل على المشقة والمعاناة ؛ لأن صاحب الملْك يحاول أن يتمسك به ويتشبَّث وينازع ، لكن أينازع الله ؟

فقوله سبحانه : ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ .. (١١٦)﴾ [المؤمنون] المراد : تعالى عن أن يكون خَلْقكم عَبَثاً ، وتعالى عن أنْ تشردوا من قبضته ، أو تخرجوا عن نفوذه ، أو تستقلُّوا بخَلْقكم عن سيطرته ، وتعالى أن تُفلتوا من عقابه أو تمتنعوا عنه ؛ لأنه لا إله غيره : ﴿لاإِلَـهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ (١١٦)﴾ [المؤمنون]

فالحق تبارك وتعالى يحكم فى إطار : ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤)﴾ [الإخلاص]

فإذا قال لك شيئاً فاعلم أنه لا إله غيره يعارضه .

والعرش : رمز لاستتباب الأمر للمالك ؛ لأنه ينشغل بتدبير مُلْكه والقضاء على المناوئين له وتأديب أعدائه ، فإذا ما استتبّ له ذلك جلس على عرشه ، إذن : الجلوس على العرش يعنى استقرارَ الأمور واستتباب أمر الملك ؛ لذلك فإن الحق سبحانه بعد أن خلق الخَلْق استوى على العرش .

والعرش يفيد أيضاً السيطرة والتحكم ، وعَرْش الله عرش كريم ؛

لأنه تعالى عليك لا ليُذلّك ويهينك ، وإنما تعالى عليك ليعاليك إليه ويعطيك من فضله . كما سبق أنْ قُلْنا : إن من مصلحتنا أن يكون الله تعالى مُتكبِّراً ، ومن عظمة الحق سبحانه أن يكون له الكبرياء ، فساعة يعلم الجميع أن الكبرياء لله وحده لا يتكبر أحد على أحد .

يقول الحق سبحانه : ﴿وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣٧)﴾ [الجاثية]

لذلك يقولون فى الأمثال : (اللى ملوش كبير يشترى له كبير) يعنى : ليعيش فى ظله ، فالحق - تبارك وتعالى - يتعالى لصالح خَلْقه .

ومن ذلك ما قُلْناه فى مسألة العبودية ، وأنها مكروهة ثقيلة إنْ كانت للبشر ؛ لأن السيد يأخذ خير عبده ، إنما هى محبوبة إنْ كانت لله تعالى ؛ لأن العبودية لله يأخذ العبد خير ربه .

فإنْ كانت عروش الدنيا للسيطرة والتحكُّم فى مصائر الناس وامتصاص دمائهم وأخْذ خيراتهم ، فعرش ربك عَرْش كريم ، والكريم فى كل شىء أشرف غاياته ، اقرأ قوله تعالى : ﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٢٥) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٢٦)﴾ [الدخان]

وحين يوصينا بالوالدين ، يقول سبحانه : ﴿وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيماً (٢٣)﴾ [الإسراء]

فالعرش الكريم أشرف غايات الملْك ؛ لأن الملْك ليس تسلُّطاً وقَهْراً ، إنما هو مُلْك لصالح الناس ، والحق - تبارك وتعالى - حينما خلق الحياة وزَّع فيها أسباب الفضل ، ولكنه جعل فيها القوىّ القادر ، وجعل فيها الضعيف العاجز ، ثم أمر القوى أنْ يأخذ بيد الضعيف ،

وأنْ يعوله ، فالكرم استطراق نفع القوى للضعيف ، فكل خَصْلة من خصال الخير توصف بالكرم .

إذن : إياك أن تفهم أن عرش ربك للسيطرة والعُلو والجبروت ؛ لأنه عرش كريم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾﴾

﴿يَدْعُ مَعَ اللَّهِ .. ﴿١١٧﴾﴾ [المؤمنون] يعنى : يعبد مع الله ، والعبادة طاعة المعبود فى أمره ونَهْيه ، لكن كيف تدعو إلهاً ، لا ينفعك ولا يضرُّك ، ولا برهانَ عندك على ألوهيته ؟ لذلك هدده سبحانه وتوعّده بقوله : ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ .. ﴿١١٧﴾﴾ [المؤمنون] أى : ربه الحق ﴿إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [المؤمنون]

وعجيبٌ أن تبدأ السورة بقوله تعالى : ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾﴾ [المؤمنون] وتنتهى بقوله : ﴿إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [المؤمنون] أى : بنقيض ما بدأتْ به ، وعليك أنت أنْ تتأمل ما بين هذين القوسين ، وما دامت المسألة مسألة إيمان يفلح أهله ، وكفر لا يفلح أهله ، فتمسَّكوا بربكم ، والتزموا منهجه فى (افعل) و (لا تفعل) .

وإنْ غلبتكم النفس على شىء من الذنوب فتذكَّروا :

﴿وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾﴾

إنْ هفوتم هفوة فإياكم أن تنسُوا هذه الحقيقة ، والجئوا إلى ربكم فإنه غفار شرع لكم التوبة لتتوبوا ، والاستغفار لتستغفروا ، وهو سبحانه أرحم بكم من الوالدة بولدها ، وهو خير الراحمين .

والمعنى ﴿اغْفِرْ .. (١١٨)﴾ [المؤمنون] أى : الذنوب السابقة الماضية ﴿وَارْحَمْ .. (١١٨)﴾ [المؤمنون] أى : ارحمنا أن نقع فى الذنوب فيما بعد ، واعصمنا فى مستقبل حياتنا من الزلل . إذن : تمسَّك بربك وبمنهج ربك فى كل حال ، لا يصرفك عنه صارف .

سُورَةُ النُّورِ

سورة النور[1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾ ﴾

اسمها سورة (النور)[2]، وإذا استقرأنا موضوع المُسمَّى أو المُعْنون له بسورة (النور) تجد النور شائعاً فى كل أعطافها - لا أقول آياتها ولا أقول كلماتها - ولكن النور شائع فى كل حروفها ، لماذا ؟

قالوا : لأن النور من الألفاظ التى يدل عليها نطقها ويعرفها أكثر من أىّ تعريف آخر ، فالناس تعرف النور بمجرد نُطْق هذه الكلمة ، والنور لا يُعرَّف إلا بحقيقة ما يؤديه ، وهو ما تتضح به المرئيات ، وتتجلى به الكائنات ، فلولا هذا النور ما كنا نرى شيئاً .

إذن : يُعرف النور بخاصيته ، وهو الذى يجعل لك قدرة على أن

---

(١) سورة النور ، هى السورة رقم ٢٤ فى ترتيب المصحف الشريف ، وتقع فى الجزء الثامن عشر من المصحف ، وهى سورة مدنية بالإجماع ، قاله القرطبى فى تفسيره (٦/٤٦٩٣) ، نزلت بعد سورة النصر وقبل سورة الحج ، وهى السورة رقم ١٧ فى ترتيب النزول بالمدينة ، راجع « الإتقان فى علوم القرآن » للسيوطى (١/٢٧) . وعدد آياتها ٦٤ آية .

(٢) قال القرطبى فى تفسيره (٦/٤٦٩٣) : « مقصود هذه السورة ذكر أحكام العفاف والستر . وكتب عمر رضى الله عنه إلى أهل الكوفة : علِّموا نساءكم سورة النور » .

ترى المرئيات ، بدليل أنها إنْ كانت فى ظلمة لا تراها . إذن : فالنور لا يُرَى ، ولكن نرى به الأشياء ، فالله تعالى نور السموات والأرض يُنوِّرهما لنا ، لكن لا نراه سبحانه .

لكن ، هل كل الأشياء مرائى ؟ أليس منها المسموع والمشموم والمتذوّق ؟ قالوا : نعم ، لكن الدليل الأول على كل هذه وفعل الحوادث هى المرئيات ؟ لأن كل أدلة الكون مرئية نراها أولاً ، ثم حين تسمع ، وحين تشم ، وحين تلمس ، وحين تميز الثقيل من الخفيف ، أو القريب من البعيد . فهذا كله فرع ما يوجد فيك ، بعد ما تؤمن أن الله الذى أوجدك هو الذى أوجد لك كل شىء ، فإذا ما نظرت إلى النور وجدتَ النور أمراً حسياً ترى به الأشياء .

وكانوا فى الماضى يعتقدون أن الإنسان يبصر الأشياء بشعاع يخرج من العين ، فيسقط على الشىء فتراه ، إلى أن جاء العالم الإسلامى الحسن بن الهيثم ، وأبطل هذه النظرية وقال : إن الشعاع يأتى من المرئى إلى العين فتراه ، وليس العكس ، واستدل على ذلك بأن الشىء إنْ كان فى الظلام لا نراه ، ونحن فى النور ، فلو أن الشعاع يخرج منك لرأيته .

وفى ضوء هذه النظرية فهمنا قوله تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً .. (١٢)﴾ [الإسراء] فهى مُبْصِرة ؛ لأن الشعاع يأتى من هناك ، فكأنها هى التى ترى .

لكن ، ما نَفْع هذا النور الحسىّ للإنسان الخليفة فى الأرض ؟ أنت حين ترى الأشياء تتعامل معها تعاملاً يعطيك خيرها ويكفّ عنك شرها ، ولو لم تَرَ الأشياء ما أمكنك التعامل معها ، وإلا فكيف تسير فى مكان مظلم فيه ما يؤذيك مثل الثعابين أو زجاج متكسر ؟

إذن : لا تستطيع أن تهتدى إلى مواضع قدمك ، وتأخذ خير الأشياء ، وتتجنب شرها إلا بالنور الحسىِّ ، كذلك إنْ سِرْت فى ظُلْمة وعلى غير هُدىً ، فلا بُدَّ أن تصطدم بأقوى منك فيحطمك ، أو بأضعف منك فتحطمه .

لذلك سمَّى الحق - تبارك وتعالى - المنهج الذى يهديك فى دروب الحياة نوراً .

والناس حين لا يوجد النور الربانى الإلهى يصنعون لأنفسهم أنواراً على قَدْر إمكاناتهم وبيئاتهم بداية من المسرجة ولمبة الجاز ، وكان الناس يتفاوتون حتى فى هذه - حتى عصر الكهرباء والفلوروسنت والنيون وخلافه من وسائل الإضاءة التى يتفاوت فيها الناس تفاوتاً كبيراً ، هذا فى الليل ، فإذا ما أشرقتْ الشمس أطفأ الجميع أنوارهم ومصابيحهم ، لماذا ؟ لأن مصباح الله قد ظهر واستوى فيه الجميع لا يتميز فيه أحد عن أحد .

وكذلك النور المعنوى نور المنهج الذى يهديك إنْ كان لله فيه توجيه ، فأطفىء مصابيح توجيه البشر لا يصح أن تستضىء بنورٍ ونورُ ربك موجود ، بل عليك أن تبادر وتأخذ ما تقدر عليه من نور ربك ، فكما أخذتَ نور الله الحسىّ فألغيتَ به كل الأنوار ، فخُذْ نور الله فى القيم ، خُذْ نُور الله فى الأخلاق وفى المعاملات وفى السلوك يغنيك هذا عن أىٍّ نور من أنوار البشر ومناهجهم .

ألاَ ترى النمرود كيف بُهتَ حينما قطع عليه إبراهيم - عليه السلام - جدله وألجأه إلى الحجة التى لا يستطيع الفكاك منها ، حين قال له : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ .. (٢٥٨) ﴾ [البقرة]

والحق - تبارك وتعالى - يفيض من أنواره وصفات كماله على خَلْقه الذين جعلهم خلفاء له سبحانه فى الأرض ، فقال : ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً .. ﴿٣٠﴾﴾ [البقرة] والخليفة فى الأرض ليس جيلاً واحداً خلقه الله واستخلفه فى الأرض إلى قيام الساعة ، إنما الخليفة أجيال وأنسال تتوالى ، يموت واحد ويُولَد آخر فى حلقات موصولة الأنسال لا الذوات .

والخليفة لا ينجح فى خلافته إلا إذا سار فيها على وَفْق مراد مَن استخلفه ، وآفة الناس فى خلافتهم لله فى الأرض أنْ يعتبروا أنفسهم أُصَلاء لا خلفاء ، فالخليفة فى ذهْنه دائماً هذه الخلافة ؛ لذلك يلتفت إلى الأصل ، وينظر ماذا يريد منه مَن استخلفه .

والحق - تبارك وتعالى - جعل له خليفة فى الأرض لتظهر عليه سمات قدرته تعالى وصفات كماله ، فالله تعالى قادر ، الله عالم ، الله حكيم ، الله غنىّ ، الله رحيم ، الله غفور .. الخ وهو سبحانه يعطى من صفاته ويفيض منها على خَلْقه وخليفته فى أرضه بعضاً من هذه الصفات ، فيعطيك من قدرته قدرة ، ومن رحمته رحمةً ، ومن غنائه غنىً ، لكن تظل الصفة فى يده تعالى إنْ شاء سلبها ، ألاَ ترى القوى قد يصير ضعيفاً ، والغنى قد يصير فقيراً ؟

ذلك لنعلم أن هذه الصفات ليست ذاتية فينا ، وأن هذه الهبات ليست أصلاً عندنا ، إنما هى فيْض من فيض الله وهبةٌ من هباته سبحانه ، لذلك علينا أن نستعملها وَفْق مراده تعالى ، فإنْ أعطاك ربُّك القدرة فإنما أفاض بها عليك لتفيض أنت بها على غيرك ، أعطاك العلم لتنثره على الناس ، أعطاك الغنى لترعى حق الفقير .

إذن : ما دام أن الله تعالى أفاض عليك من صفات الكمال واحتفظ

هو سبحانه بملكية هذه الصفات ، فإنْ شاء سلبها منك ، فعليك أن تستغل الفرصة وتنتهز وجود هذه الخَصْلة عندك ، فتُثمِّرها فيما أراده الله منك قبل أنْ تُسلَب ، حتى إذا سُلِبَتْ منك نالتك من غيرك .

فتصدَّق وأنت غنى لتنال صدقة الآخرين إنْ أصابك الفقر ، وأكرم اليتيم لتجد مَنْ يُكرم يتيمك من بعدك ، فإنْ قابلتَ أحداث الحياة بهذه النظرة اطمأنَّ قلبك ، وأمنْتَ من حوادث الزمن ، واستقبلتَ الأحداث بالرضا ، وكيف تهتم وأنت فى مجتمع يرعاك كما رعيته ، ويحملك كما حملته ، ويتعاون معك كما تعاونتَ معه ؟

وصدق الله تعالى حين قال : ﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا ﴿٩﴾ ﴾ [النساء]

إذن : الحق - تبارك وتعالى - يريد من خليفته فى أرضه أن يكون جِماعاً لصفات الكمال التى تسعد الخَلْقَ بآثار الخالق فيهم ، وهذه هى الخلافة الحقة .

وسورة النور جاءت لتحمل نور المعنويات ، نور القيم ، نور التعامل ، نور الأخلاق ، نور الإدارة والتصرف ، وما دام أن الله تعالى وضع لنا هذا النور فلا يصح للبشر أنْ يضعوا لأنفسهم قوانين أخرىَ ؛ لأنه كما قال سبحانه : ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ ﴾ [النور] فلو لم تكُنْ هذه الشمس ما استطاع أحد أنْ يصنع لنفسه نوراً أبداً .

فالحق - تبارك وتعالى - يريد لخليفته فى أرضه أن يكون طاهراً شريفاً كريماً عزيزاً ؛ لذلك وضع له من القوانين ما يكفل له هذه الغاية ، وأول هذه القوانين وأهمها قانون التقاء الرجل والمرأة التقاء سليماً فى وضح النهار ؛ لينتج عن هذا اللقاء نَسْل طاهر جدير

بخلافة الله فى أرضه ؛ لذلك أول ما تكلم الحق سبحانه فى هذه السورة تكلَّم عن مسألة الزنى .

والعجيب أن تأتى هذه السورة بعد سورة (المؤمنون) التى قال الله فى أولها ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾﴾ [المؤمنون] ثم ذكر من هؤلاء المؤمنين المفلحين ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾﴾ [المؤمنون] وهنا قال : ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي .. ﴿٢﴾﴾ [النور] فجاء بالمقابل للذين هم لفروجهم حافظون .

نفهم من هذا أنه لا يلتقى رجل وامرأة إلا على نور من الله وهدى من شريعته الحكيمة ؛ لأنه عز وجلَّ هو خالق الإنسان ، وهو أعلم بما يُصلحه ، وهو خالق ذرّاته ، ويعلم كيف تنسجم هذه الذرات بعضها البعض ، وهو سبحانه خالق ملَكات النفس ، ويعلم كيف تتعايش هذه الملكات ولا تتنافر .

إذن : طبيعى إنْ أردتَ أن تنشىء خليفة فى الكون على غير مراد الله وعلى غير مواصفات الحق ، لا بُدَّ أنْ يضطرب الكون وتتصارع فيه ملَكات النفس ، وماذا تنتظر من هذا الخليفة إنْ جاء فى الظلام ؟ ساعتها تظهر أمراض النسل من وأْد الأولاد وقتلهم حتى فى بطون الأمهات ، وقد يتشكّك الرجل فى ولده ، فيبغضه ويهمله ويتركه للتشرد.

إذن : لن تستقيم هذه المسألة إلا حين يأتى الخليفة وَفْق مواصفات ربه ، وأنْ يلتقى الزوجان على ما شرع الله فى وضح النهار ، لا أن يندس كل منهما على الآخر فى ظلمة الإثم ، فيحدث المحظور الذى تختلط به الأنساب ، ويتفكك رباط المجتمع .

إن من أقسى تجارب الحياة على المرء أن يشكَّ فى نِسْبة ولده إليه ، وأن تعتصره هذه الفكرة ، فيهمل ولده وفلذة كبده ، وينفق هنا

وهناك ويحرمه على خلاف النسْل الطاهر ، حيث يتلهف الأب لولده ، ويجوع ليشبع ، ويتعرّى ليلبس .

فالحق سبحانه يريد النسل المحضون بالأبوين فى أُبوة صحيحة شرعية وأمومة صحيحة شرعية اجتمعا على نور الله .

ولك أنْ تُجرى مقارنة بين امرأة حملتْ سفاحاً وأخرى حملتْ حَمْلاً شرعياً طاهراً ، ستجد الأولى تحمله على مضض وكُرْه ، وتودّ أنْ تتخلَّص منه وهو جنين فى بطنها ، فإنْ تحاملتْ على نفسها إلى حين ولادته تخلَّصتْ منه فى ليلتها ولو بإلقائه على قارعة الطريق .

أما صاحبة الحمل الشرعى فتتلهف على الولد ، وإنْ تأخر بعض الوقت صارت قلقة تدور بين الأطباء ، فإنْ أكرمها الله بالحمل طارت به فرحاً وفخراً ، وحافظت عليه فى مَشْيها وحركاتها ونومها وقيامها إلى حين الوضع ، فتتحمل آلامه راضيةً ثم تحتضنه وتُرضِعه وتعيش حياتها فى خدمته ورعايته .

فالله يريد أن يأتى خليفته فى أرضه من إخصاب طاهر على أعْيُنِ الناس جميعاً وفى نور الله المعنوى ، يريد للزوج أن يأتى من الباب فى ضوء هذا النور ، لا أن يتلصص فى الظلام من باب الخدم .

لذلك يتوعد الحق - سبحانه وتعالى - مَنْ يخالف هذا المنهج ويريد أن يُفسد شرف الخلافة التى يريدها الله طاهرة ، ويُدنِّس النسل ، ويُوغِر الصدور بالأحقاد والعداوات ، ويزرع الشك فى نفوس الخَلْق ، وجرائم العرض لا يقتصر ضررها على العداوات الشخصية إنما تتعدى هذه إلى الإضرار بالمجتمع كله .

وانظر إلى الإيدز الذى يهدد المجتمعات الآن ، وهو ناتج عن

الالتقاء غير الشرعى ، وخطر الإيدز لا يقتصر على طرفيه إنما يتعدّاهما إلى الغير ، إذن : من صالح المجتمع كله أن نقيم حدَّ الزنا حتى لا يستشرى هذا الداء .

ونعجب من هؤلاء الذين يهاجمون شَرْع الله فى مسألة الحدود حين تقضى برَجْم الزانى المحْصَن حتى الموت ، ألاَ يعلم هؤلاء أننا نُضحِّى بواحد لنحفظ سلامة الملايين فى صحة وعافية ؟ ألاَ يروْنَ ما يحدث مثلاً فى وباء الطاعون الذى أعجز العلماء حتى الآن ، ولم يجدوا له علاجاً ، وكيف أن الشرع أمرنا إنْ نزل الطاعون بأرض ألاَّ نذهب إليها ، وأمر مَنْ فيها ألاَّ يخرجوا منها ، لماذا ؟ لنحصر هذا الوباء حتى لا يستشرى بين الناس .

كذلك الحال فى مسألة الزنا ؛ لأن الزانى لا يقتصر شرُّه عليه وحده ، إنما يتعدّى شرُّه إلى المجتمع كله ، مع مراعاة أن الشرع فرَّق بين الزانى المحصن وغير المحصن ، وكذلك الزانية ، ففى حالة الإحصان تتعدد الماءات فى المكان الواحد ، لذلك سُئلنا فى سان فرانسيسكو : لماذا أبحتم تعدُّد الزوجات ، ولم تبيحوا تعدُّد الأزواج ؟ هذا منهم على سبيل قياس الرجل على المرأة : لماذا لا تتزوج المرأة وتجمع بين أربعة رجال ؟

قلت : اسألوهم ، أليس عندهم أماكن يستريح فيها الشباب جنسياً - يعنى بيوت للدعارة - قالوا : نعم فى بعض الولايات ، قلت : فبماذا احتطتم لصحة المجتمع وسلامته ؟ قالوا : نُجرِى عليهم كشفاً دورياً كل أسبوع ، قلت : وهل هذا الكشف الدورى يستوعب الجميع ؟ أم أنه مجرد (ششن) وعينات عشوائية .

إذن : من الممكن أن يتسرّب المرض بين هؤلاء الشباب ، وهَبْ

أنك أجريتَ على إحداهن الكشف يوم الأحد مثلاً ، وفى يوم الاثنين جاءها المرض ، فإلى كم واحد سينتقل المرض إلى أنْ يأتى الأحد القادم ؟ فهذه مسألة لا تستطيع السيطرة فيها على الداء .

ثم أتُجرون هذه الفحوصات على المتزوجين والمتزوجات ؟ وهل اكتشفتم بينهم مثل هذه الأمراض ؟ قالوا : لا لم يحدث أن اكتشفنا هذا بين المتزوجين . قلت : إذن كان عليكم أنْ تنتبهوا إلى سبب هذه الداءات ، وأنها تأتى من تعدُّد ماءات الرجال فى المكان الواحد ؛ لأن لكل ماء سياله وله ميكروبات تتصارع ، إن اجتمعت فى المكان الواحد فينشأ منها المرض .

لكن حين يكون للزوجة زوج واحد ، فلن نرى مثل هذه الداءات فى المجتمع ، ومن هنا يأتى دور الوازع الدينى ، فإن فُقد الوازع الدينى فلا بُدَّ من الوازع الحسىّ ليزجر مثل هؤلاء ويُوقِفهم عند حدود الله رَغْماً عنهم ، حتى وإنْ لم يكونوا يؤمنون بها .

إذن : هذه أقضية ومشاكل وداءات حدثتْ للناس بقدر ما أحدثوا من الفجور ، وبقدر ما انتهكوا من حُرُمات الله ، وانظر مثلاً لمن يُضطرّ للسفر إلى مثل هذه البلاد ، كم يكون حَذِراً مُفزَّعاً حين يقيم مثلاً فى فندق ، فيأخذ أدواته الشخصية ، ويخاف أن يستعمل أشياء غيره ، ويحرص على نظافة المكان وتغيير الفراش قبل أن ينام عليه .. الخ كل هذه الاحتياطات .

فالشرع حين يأمر بقتل الزانى أو الزانية إنما فعل ذلك ليسْلَمَ المجتمع بأسْره ، وكثيراً ما نواجه مثل هذه الاعتراضات من أصحاب الرحمة الحمقاء والشعارات الجوفاء ، أهُمْ أرحم بالخَلْق من الخالق ؟ ألاَ يروْن للزلزال أو لحوادث السيارات والطائرات التى تحصد الآلاف

من الأرواح ؟ فلماذا هذه الضجة حين نبتر العضو المريض من المجتمع ؟

قوله تعالى : ﴿ سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا .. ① ﴾ [النور] السورة : مأخوذة من سور البيت ، وهى طائفة من نجوم القرآن أو آياته محوطة ببداية ونهاية ، تحمل أحكاماً وقد تكون طويلة كسورة البقرة ، أو قصيرة كالإخلاص والكوثر ، فليس للسورة كمية مخصوصة ؛ لأنها توقيفية .

﴿ أَنزَلْنَاهَا .. ① ﴾ [النور] نفهم من أنزل أن الإنزال من أعلى إلى مَنْ هو أدنى منه ، كما يكتب الموظف مثلاً يريد التظلُّم لرئيسه : أرفع إليك كذا وكذا ، فيقول الأعلى : وأنا أنزلت القرار الفلانى ، فالأدنى يرفع للأعلى ، والأعلى يُنزِل للأدنى .

لذلك يقول تعالى : (أنزلنا) حتى للشىء الذى لا ينزل من السماء ، كما قال سبحانه : ﴿ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ .. ㉕ ﴾ [الحديد] فالحديد وإنْ كان مصدره الأرض ، إلا أنه لا يكون إلا بقدرة الأعلى سبحانه .

﴿ وَفَرَضْنَاهَا .. ① ﴾ [النور] الشىء المفروض يعنى الواجب أن يُعمل ؛ لأن المشرِّع قاله وحكم به وقدَّره ، ومنه قوله سبحانه : ﴿ فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ .. ㉗㉗ ﴾ [البقرة] أى : نصف ما قدَّرتم ، إذن : كل شىء له حُكْم فى الشرع ، فإن الله تعالى مُقدِّره تقديراً حكيماً على قَدْره .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ .. ① ﴾ [النور] الآيات الواضحات ، وتُطلق الآيات - كما قلنا - على الآيات الكونية التى تلفت أنظارنا إلى قدرة الله وبديع صُنْعه ، وتُطلق على المعجزات التى تثبت صِدْق الرسل ، وتُطلق على آيات القرآن الحاملة للأحكام .

وفى هذه السورة كثير من الأحكام إلى أن قال فيها الحق سبحانه : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. (٣٥) ﴾ [النور] وقال : ﴿ نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ .. (٣٥) ﴾ [النور] فطالما أنكم أخذتُم نور الدنيا ، وأقررتُم أنه الأحسن ، وأنه إذا ظهر ألغى جميع أنواركم ، فكذلك خذوا نور التشريع واعملوا به واعلموا أنه نور على نور .

إذن : لديكم من الله نوران : نور حسى ونور معنوى .

﴿ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١) ﴾ [النور] بعد أنْ قال سبحانه أنزلت كذا وكذا أراد أنْ يُلهب المشاعر لتُستقبل آياته الاستقبال الحسن ، وتُطبَّق أحكامه التطبيق الأمثل يقول : أنزلتُ إليكم كذا لعلكم تذكرون ، ففيها حَثٌّ وإلهابٌ لنستفيد بتشريع الحق للخَلْق .

ثم يتحدث الحق سبحانه عن أول قضية فيما فرضه على عباده :

﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ (٢) ﴾

قلنا : إن الحق سبحانه تناول هذه المسألة حرصاً على سلامة النشء ، وطهارة هذا الإنسان الذى جعله الله خليفة له فى الأرض ، وحين نتأمل السياق القرآنى فى هذه الآية نجد أن كلمة الزانى تدل على كُلٍّ من الأنثى والذكر ، ففى اللغة الاسم الموصول : الذى للمفرد المذكر ، والتى للمفردة المؤنثة ، واللذان للمثنى المذكر ، واللتان للمثنى المؤنث ، والذين لجمع الذكور ، واللائى لجمع الإناث .

لكن هناك أسماء تدل على كل هذه الصيغ مثل : مَنْ ، ما ، ال .

تقول : جاء مَنْ أكرمنى ، وجاءت من أكرمتنى ، وجاء من أكرمونى .

فكذلك (ال) فى (الزانى) تدل على المؤنث وعلى المذكر ، لكن الحق سبحانه ذكرهما صراحةً ليُزيلَ ما قد يحدث عند البعض من خلاف : أيهما السبب فى هذه الجريمة ، هذا الخلاف الذى وقع فيه حتى الأئمة والفقهاء ، فهناك مَنْ يقول : الزانى واطئ وفاعل ، والمرأة موطوءة ، فالفعل للرجل لا للمرأة ، فهو وحده الذى يتحمل هذه التبعة .

لذلك الإمام الشافعى رضى الله عنه يحكى أن رجلاً ذهب للنبى ﷺ وقال : يا رسول الله وطئت امرأتى فى رمضان . فقال له النبى ﷺ : « كَفِّر » (١)

وأخذ الشافعى من هذا الحديث أن الكفارة إنما تكون على الرجل دون المرأة ، وإلا لقال له الرسول : كَفِّرا .

لكن يجب أن نفرق بين وطىء وجامع : الوَطْءُ فعل الرجل حتى وإن كانت الزوجة كارهة رافضة ، أمَّا الجماع فهو حال الرضا والقبول من الطرفين ، وفى هذه الحالة تكون الكفارة عليهما معاً ؛ لذلك صرَّح الحق تبارك وتعالى بالزانى والزانية ليزيل هذه الشُّبهة وهذا الخلاف .

وأرى فى هذه المسألة أن الذى استفتى رسولَ الله هو الرجلُ ، ولو كانت المرأة لقال لها أيضاً : كفِّرى ، فالحكم خاصٌّ بمن استفتى .

والمتأمل فى آيات الحدود يجد مثلاً فى حَدِّ السرقة قوله تعالى

---

(١) عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : احترقت قال رسول الله ﷺ : لم ؟ قال : وطئت امرأتى فى رمضان نهاراً . قال : « تصدق . تصدق » قال : ما عندى شىء . فأمره أن يجلس ، فجاءه عرقان فيهما طعام . فأمره رسول الله ﷺ أن يتصدّق به . أخرجه مسلم فى صحيحه (١١١٢) .

﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ .. (٣٨)﴾ [المائدة] فبدأ بالمذكر ، أما فى حَدِّ الزنا فقال : ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي .. (٢)﴾ [النور] فبدأ بالمؤنث ، لماذا الاختلاف فى التعبير القرآنى ؟

قالوا : لأن دور المرأة فى مسألة الزنا أعظم ومدخلها أوسع ، فهى التى تغرى الرجل وتثيره وتهيج عواطفه ؛ لذلك أمر الحق - تبارك وتعالى - الرجال بغَضِّ البصر وأمر النساء بعدم إبداء الزينة ، ذلك ليسُدَّ نوافذ هذه الجريمة ويمنع أسبابها .

أما فى حالة السرقة فعادةً يكون عبْءُ النفقة ومُؤْنة الحياة على كاهل الرجل ، فهو المكلف بها ؛ لذلك يسرق الرجل ، أمَّا المرأة فالعادة أنها فى البيت تستقبل ، وليس من مهمتها توفير تكاليف الحياة ، لكن لا مانعَ مع ذلك أن تسرق المرأة أيضاً ؛ لذلك بدأ فى السرقة بالرجل .

إذن : بمقارنة آيات القرآن تجد الكلام موزوناً دقيقاً غاية الدقة ، لكل كلمة ولكل حرف عطاؤه ، فهو كلام رب حكيم ، ولو كانت المسألة مجرد تقنين عادى ما التفتَ إلى مثل هذه المسائل .

ثم يأتى الحد الرادع لهذه الجريمة ﴿فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ .. (٢)﴾ [النور] اجلدوا : أمر ، لكن لمن ؟ لم يقُل أيها الحاكم أو القاضى ؛ لأن الأمر هنا للأمة كلها ، فأمر إقامة الحدود منوط بالأمة كلها ، لكن أتنهض الأمة بأسْرها وتعدّدها بفعل واحد فى كل مكان ؟

قالوا : الأمة مثل النائب العام للوالى ، عليه أن يختار مَنْ يراه أهلاً للولاية لينفذ له ما يريد ، ومَنْ ولَّى قاضياً فقد قضى ، وما دام الأمر كذلك فإياك أنْ تُولِّى القضاء مَنْ لا يصلح للقضاء ؛ لأن التبعة - إذن - ستكون عليك إنْ ظلم أو جار ، فالواو والألف فى

﴿فَاجْلِدُوا..(٢)﴾ [النور] تدل على معانٍ كبيرة ، فالأمة فى مجموعها لا تستطيع أن تجلد كل زانٍ أو زانية ، لكن حين تولى إمامها بالبيعة ، وحين تختاره ليقيم حدود الله ، فكأنها هى التى أقامتْ الحدود وهى التى نفذت .

لذلك النبى ﷺ يقول : « مَنْ ولّى أحداً أمراً وفى الناس خير منه لا يشم رائحة الجنة »(١)

لماذا ؟ لأنك حين تُولِّى أمور الناس مَنْ لا يصلح لها فى وجود مَنْ يصلح إنما تُشيع الفساد فى المجتمع ، ولا تظن أنك تستطيع أن تخفى شيئاً عن أعيُن الناس ، فلهم من الوعى والانتباه ما يُفرِّقون به بين الكفء وغيره ، وإنْ سكتوا وتغافلوا فإنهم يتساءلون من ورائك : لماذا ولّى هذا ، وترك مَنْ هو أكفأ منه ، لابُدَّ أن له مؤهلات أخرى ، دخل بها من الباب الخلفى ، ولماذا لا نفعل مثله ؟ عندها تسود الفوضى وتضيع الحقوق وينتشر الإحباط والتكاسل والخمول ، ويحدث خلل فى المجتمع وتتعطل المصالح .

ومع هذا كله لا نستطيع أن نلوم الوالى حين يختار مَنْ لا يصلح قبل أن نلوم أنفسنا أولاً ، فنحن الذين اخترناه ودلَّسْنَا فى البيعة له ، فسلّطه الله علينا ليُدلِّس هو أيضاً فى اختياره ، أمّا لو أدى كل منا واجبه فى اختيار مَنْ يصلح ما وصل إلى مراتب القيادة مَنْ يدلس على الناس ، وبذلك تستقيم الأمور ، ويتقرب الإنسان للولاية بالعمل وبالجد والإخلاص والأمانة والصدق والتفانى فى خدمة المجتمع .

---

(١) عن أبى بكر رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « من ولى من أمر المسلمين شيئاً فأمّر عليهم أحداً محاباة فعليه لعنة الله لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً حتى يدخله جهنم » أخرجه أحمد فى مسنده (١/٦) .

ومن رحمة الله تعالى بالخَلْق أنْ يقذف الإخلاص وحُبّ العمل ويزرع الرحمة بالخلق فى بعض القلوب ؛ لذلك ترى فى كل مصلحة أو فى كل مكتب موظفاً متواضعاً يحبّ الناس ويحرص على قضاء مصالحهم ، تراه يرتدى نظارة سميكة يرى من خلالها بصعوبة ، وهو دائماً مُنكبٌّ على الأوراق والملفات ، ويقصده الخَلْق لقضاء مصالحهم : يا فلان أفندى ، أعطنى كذا ، واكتب لى كذا ، وقد وسَّع الله صَدْره للناس فلا يرد أحداً .

هذه المسائل كلها نفهمها من الواو والألف فى ﴿فَاجْلِدُوا .. (٢)﴾ [النور] أما الجَلْد فهو الضرب ، نقول : جلَده : يعنى ضرب جِلْدَه ، ورأسه : يعنى ضرب رأسه ، وظهَره : ضرب ظهره . والجلد ضَرْبٌ بكيفية خاصة ، بحيث لا يقطع لحماً ولا يكسر عظماً ؛ لأن الضربة حسب قوتها وحسب الآلة المستخدمة فى الضرب ، فمن الضرب ما يكسر العظم ولا يقطع الجلد ، ومنه ما يقطع الجلد ولا يكسر العظم ، ومنه ما يؤلم دون هذا أو ذاك .

ثم يقول سبحانه :﴿وَلا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ اللَّهِ .. (٢)﴾ [النور] تحذير من الرحمة الحمقاء ، الرحمة فى غير محلها ، وعلى حدِّ قول الشاعر :

فَقَسَا لِيزدْجِرُوا ومَنْ يَكُ حَازِماً فَلْيَقْسُ أحْيَاناً على مَنْ يَرحَمُ

فالرأفة لا تكون فى حدود الله ، ارأفوا بهم فى مسائلكم الخاصة فيما بينكم ، وعجيب أن تدعوا الرأفة فى مسائل الحدود وأنتم من ناحية أخرى تضربون وتسرقون أموال الناس ، وتنتهكون حرماتهم ، وتثيرون بينهم الفتنة والحروب ، فأين الرأفة إذن ؟

إذن : لا مجالَ للرحمة وللرأفة فى حدود الله ، فلسنا أرحم بالخَلْق

من الخالق ، وما وُضِعَتْ الحدود حباً فى تعذيب الناس ، إنما وُضِعَتْ وشُدِّد عليها لتمنع الوقوع فى الجريمة التى تستوجب الحد ، فقَطْعَ يد واحدة تمنع قَطْع آلاف الأيدى .

والذين يتهمون الإسلام بالقسوة والبشاعة فى تطبيق الحدود أنَسُوا ما فعلوه فى هيروشيما ، وما زالت آثاره حتى الآن ؟ أنسوا الحروب التى يشعلونها فى أنحاء العالم ، والتى تحصد آلاف الأرواح ؟ أهى الرحمة الحمقاء التى لا معنى لها ؟ أم هى الكراهية لحدود الله ؟

ونذكر فى الماضى أنه كان يخرج مع فوج الحجيج قوة حماية وحراسة من الجيش ، تحمى الحجيج من قطاع الطرق ، وكانوا يُسَمُّون بعثة الحج هذه (المحمل) ، فلما أقامت السعودية حكم الله وطبَّقَتْ الحدود أمَّنَتْ الطرق ، واستغنى الناس عن هذه الحراسات مع اتساعها وتشعُّب طرقها ووعورتها بين الجبال والوديان والصحارى الشاسعة التى لا يمكن أن تحكمها أو تحرسها عَيْن بشر ، لا بُدَّ لها من تقنين الخالق عزوجل .

ومع ذلك حين أحْصَوا الأيدى التى قُطِعَتْ وجدوها قليلة جداً ، وأغلبها من خارج المملكة - وأذكر أننى قلت مرة فى خطبة عرفة : ارجعوا إلى حكامكم وقولوا لهم : اقطعوا يد السارق ، فالذى لا يقطع يد السارق فى نيته أن يسرق ؛ لذلك يخاف على يده ، فحين تذكر له مسألة قَطْع يد السارق ترتجف يده . والذين يعارضون حدود الله هم أنفسهم يسيرون على مبدأ أن هلاك الثُّلث جائز لإصلاح الثلثين ، لكن تقف حدود الله غُصَّة فى حلوقهم .

والجلْد مائة جلدة يخصّ الزانى غير المحْصَن يعنى غير المتزوج ، أمَّا المتزوج فله حكم آخر لم يأت فى كتاب الله ، إنما أتى فى سنة

رسول الله ﷺ ؛ ذلك لأن القرآن الكريم ليس كتابَ منهج فقط ، إنما كتابَ منهج ومعجزة ومعه أصول ، من هذه الأصول أنه قال فى آية من آياته : إننا وكلنا رسول الله فى أنْ يُشرِّع للناس .

والحكم الذى يؤخذ من القول عُرْضة لأن نتمحك فيه ونقف أمامه نُقلّب ألفاظه أو نؤوله ، أمّا إنْ أُخذ الحكم من فعل المشرع ، فليس فيه شكٌّ أو تمحُّك ، وليس قابلاً للتأويل لأنه فعل ، وقد فعل الرسول ورجم الزانى والزانية المحصنين فى قصة ماعز والغامدية ، لأنه مفوض من الله .

ولا بد أن نفرق بين الحدَّيْن ، ففى حَدِّ الأمة إنْ زنت يقول تعالى: ﴿فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ .. (٢٥)﴾ [النساء] البعض فَهِم من الآية أنها تشمل حدَّىْ الرَّجْم والجَلْد ، فقالوا : فى الجلد يمكن أن تجلد خمسين جلدة ، لكن كيف نجزئ الرجم ؟ وما دام الرجم لا يُجَزَّأ فليس عليها رجم .

ولو تأمل هؤلاء نصَّ الآية لخرجوا من هذا الخلاف ، فالحق سبحانه وتعالى لم يقل ﴿فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ .. (٢٥)﴾ [النساء] وسكت ، إنما قال ﴿مِنَ الْعَذَابِ .. (٢٥)﴾ [النساء] فخصَّ بذلك حدَّ الجلد ؛ لأن العذاب إيلام حَىٍّ ، أمَّا الرجم فهو إزهاق حياة ، فهما متقابلان .

ألاَ ترى قول القرآن فى قصة سليمان عليه السلام والهدهد : ﴿لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ .. (٢١)﴾ [النمل] فالعذاب غير الذبح .

إذن : تجزئة الحد فى الجَلْد فقط ، أمّا الرَّجم فلا يُجزَّأ ، فإنْ زنتِ الأَمَة المحصنة رُجِمَتْ .

وقوله تعالى : ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ .. ﴿٢﴾﴾ [النور] هذا كلام مُوجِع ، وإهاجة لجماعة المؤمنين ، فهذا هو الحكم ، وهذا هو الحدُّ قد شرعه الله ، فإن كنتم مؤمنين بالله وبالحساب والعقاب فطبِّقوا شَرْع الله ، وإلاَّ فراجعوا إيمانكم بالله وباليوم الآخر لأننا نشكُّ فى صِدْق هذا الإيمان .

وكأن الحق - تبارك وتعالى - يهيجنا ويثيرنا على أهل هذه الجريمة ، لنأخذ على أيديهم ونُخوِّفهم بما شرع الله من الحدود .

فالمعنى : إنْ كنتم تؤمنون بالله إلهاً حكيماً مشرعاً ، خلق خَلْقاً ، ويريد أن يحمى خَلْقه ويُطهره ليكون أهلاً لخلافته فى الأرض الخلافة الحقة ، فاتركوا الخالق يتصرف فى كونه وفى خَلْقه على مراده عَزَّ وجَلَّ ، فالخَلْق ليس خَلْقكم لتتدخلوا فيه .

ثم يقول تعالى : ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾﴾ [النور] فالأمر لا يقف عند حدِّ التعذيب والجَلْد ، إنما لا بُدَّ أن يشهد هذا العذاب جماعة من المؤمنين ، والطائفة هم الجماعة وأقلها أربعة لماذا ؟ قالوا : لأن النفس قد تتحمّل الإهانة إنْ كانت سِراً لا يطَّلع عليها أحد ، فلا يؤلمه أنْ تُعذِّبه أشدَّ العذاب بينك وبينه ، إنما لا يتحمل أن تشتمه أمام الناس . إذن : فمشاهدة الحدِّ إهانة لصاحبه ، وهى أيضاً زَجْر للمشاهد ، ونموذج عمليٌّ رادع .

لذلك يقولون : الحدود زواجر وجوابر ، زواجر لمن شاهدها أى : تزجره عن ارتكاب ما يستوجب هذا الحدَّ ، وجوابر لصاحب الحد تجبر ذنبه وتُسقِط عنه عقوبة الآخرة ، فلا يمكن أن يستوى مَنْ أقر

وأقيم عليه الحد بمَنْ لم يقر ، ولأن الزنا لم يثبت بشهود أبداً ، وإنما بإقرار ، وهذا دليل على أن الحكم صحيح فى ذهْنه ، ويرى أن فضوح الدنيا وعذابها أهونُ من فضوح الآخرة وعذابها ، إلا لما أقر على نفسه .

فالمسألة يقين وإيمان ثابت بالقيامة وبالبعث والحساب ، والعقوبة اليوم أهون ، وإنْ كان الزنا يثبت بالشهود فلربما دلَّسُوا ، لذلك النبى ﷺ كان يأتيه الرجل مُقراً بالزنا فيقول له : « لعلك قبَّلْتَ ، لعلك غمزْتَ ، لعلك لمسْت »[1] يعنى : لم تصل إلى الحد الذى يسمى زنا ، يريد رسول الله ﷺ أن يدرأ الحدَّ بالشبهة .[2]

ولهذا المبدأ الإسلامى السمح إنْ أخذتَ الزانى وذهبت ترجمه فآلمه الحجر فحاول الفرار يأمرنا الشرع ألاَّ نتبعه وألاَّ نلاحقه ، لماذا ؟ لأنه اعتبر أن فراره من الحد كأنه رجوع عن الإقرار .[3]

---

(١) أخرج البخارى فى صحيحه (٦٨٢٤) ، وأحمد فى مسنده (١/٢٣٨ ، ٢٥٥ ، ٢٧٠ ، ٢٨٩ ، ٣٢٥) عن ابن عباس قال : لما أتى ماعز بن مالك النبى ﷺ قال له : لعلك قبَّلت أو غمزت أو نظرت ؟ قال : لا يا رسول الله . قال : أنِكْتها ؟ ـ لا يكنى ـ قال : فعند ذلك أمر برجمه » .

(٢) عن عائشة رضى الله عنها قالت قال رسول الله ﷺ : « ادرأوا الحدود عن المسلمين ما استطعتم ، فإن كان له مخرج فخلوا سبيله ، فإن الإمام لأن يخطىء فى العفو خير له من أن يخطىء فى العقوبة » أخرجه الترمذى فى سننه (١٤٢٤) ، والحاكم فى مستدركه (٤/٣٨٤) ، والدارقطنى فى سننه (٣/٨٤) قال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه .

(٣) أخرج الإمام أحمد فى مسنده (٢/٤٥٠) والترمذى فى سننه (١٤٢٨) أن ماعزاً لما وجد مسّ الحجارة يشتد فر ، حتى مر برجل معه لحى جمل (عظم حنكه) فضربه به وضربه الناس حتى مات ، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فقال : « هلا تركتموه » قال الترمذى : هذا حديث حسن .

يقول الحق سبحانه[1] :

﴿ ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ ﴾

﴿ الزَّانِى لا يَنكِحُ إِلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً .. ﴿٣﴾ ﴾ [النور] لأن الزواج يقوم على التكافؤ ، حتى لا يستعلى أحد الزوجين على الآخر ، والزانى فيه خِسَّة ، فلا يليق به إلا خسيسة مثله يعنى : زانية ، أو أخس وهى المشركة ؛ لأن الشرك أخسُّ من الزنا ، لأن الزنا مخالفة أمر توجيهى من الله ، أمّا الشرك فهو كفر بالله ؛ لذلك فالمشركة أخبث من الزانية . وما نقوله فى زواج الزانى نقوله فى زواج الزانية ﴿ وَالزَّانِيَةُ لا يَنكِحُهَا إِلاَّ زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ .. ﴿٣﴾ ﴾ [النور]

وهنا يعترض البعض : كيف إنْ كانت الزانية مسلمة : أينكحها مشرك ؟ قالوا : التقابل هنا غرضه التهويل والتفظيع فقط لا الإباحة ؛ لأن المسلمة لا يجوز أن تتزوج مشركاً أبداً ، فالآية توبيخ لها :

---

(١) **سبب نزول الآية** : ورد فى سبب نزول هذه الآية عدة روايات ، منها :

- أخرج أحمد فى مسنده (٢/١٥٩ ، ٢٢٢) عن عبد الله بن عمر أن رجلاً من المؤمنين استأذن رسول الله ﷺ فى امرأة يقال لها أم مهزول كانت تسافح وتشترط له أن تنفق عليه فاستأذن رسول الله ﷺ أو ذكر له أمرها . فقرأ عليه رسول الله ﷺ هذه الآية . وأخرجه كذلك الواحدى فى أسباب النزول (ص ١٨٠) .

- أخرج الترمذى فى سننه (٣١٧٧) وأبو داود فى سننه (٢٠٥١) عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : كان رجل يقال له مرثد بن أبى مرثد وكان رجلاً يحمل الأسارى من مكة حتى يأتى بهم المدينة وكانت امرأة بغى بمكة يقال لها عناق وكانت صديقة له وأنه قال لرسول الله ﷺ : أنكح عناقاً ، أنكح عناقاً ؟ فأمسك رسول الله ﷺ فلم يرد علىّ شيئاً حتى نزلت الآية ، فقال رسول الله ﷺ : « يا مرثد ، الزانى لا ينكح إلا زانية أو مشركة فلا تنكحها » .

يا خسيسة ، لا يليق بك إلا خسيس مثلك أو أخسّ .

وأرى أن النص محتمل لانفكاك الجهة ؛ لأن التى زنتْ تدور بين أمرين : إما أنها أقبلتْ على الزنا وهى تعلم أنه مُحرَّم ، فتكون عاصية باقية على إسلامها ، أو أنها ردَّت حكم الزنا واعترضت عليه فتكون مشركة ، وفى هذه الحالة يستقيم لنا فهم الآية .

ثم يقول تعالى : ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾ [النور] فهذا سبب طُهْر الأنسال أن يُحرِّم الله تعالى الزنا ، فيأتى الخليفة طاهر النسل والعنصر ، محضوناً بأب وأم ، مضموماً بدفء العائلة ، لا يتحملون عليه نسمة الهواء ؛ لأنه جاء من وعاء طيب طاهر نظيف .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾﴾

الرمى : قذف شىء بشىء ، والمحصنات : جمع مُحْصنة من الإحصان ، وهو الحفظ ، ومنه قولنا : فلان عنده حصانة برلمانية مثلاً . يعنى : تكفّل القانون بحفظه ؛ لذلك إنْ أرادوا محاسبته أو مقاضاته يرفعون عنه الحصانة أولاً ، ومنه أيضاً كلمة الحصن وهو الشىء المنيع الذى يحمى مَنْ بداخله .

يقول تعالى : ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنْ بَأْسِكُمْ ۖ ﴿٨٠﴾﴾ [الأنبياء] يعنى : الدروع التى تحمى الإنسان وتحفظه فى الحرب .

والمحصنات : تُطلَق على المتزوجة ، لأنها حصَّنَتْ نفسها بالزواج أن تميل إلى الفاحشة ، وتطلق أيضاً على الحرة ، لأنهم فى الماضى كانت الإماء هُنَّ اللائى يدعين لمسألة البغاء ، إنما لا تقدم عليها الحرائر أبداً .

لذلك فإن السيدة هنداً[1] التى نُسيِّدها الآن بعد إسلامها ، وهى التى لاكتْ كبد سيدنا حمزة فى غزوة أحد ، لكن لا عليها الآن ؛ لأن الإسلام يجُبُّ ما قبله . لما سمعت السيدة هند رسول الله ﷺ ينهى النساء عن الزنا قالت : أو تزنى حُرَّة[2] ؟ لأن الزنا انتشر قبل الإسلام بين البغايا من الإماء ، حتى كانت لهن رايات يرفعْنها على بيوتهن ليُعرفْنَ بها .

والمعنى : يرمون المحصنات بما ينافى الإحصان ، والمراد الزنا ﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً .. ﴿٤﴾﴾ [النور] وهذا يُسمَّى حدَّ القذف ، أن ترمى حُرّة بالزنا وتتهمها بها ، ففى هذه الحالة عليك أنْ تأتى بأربعة شهداء يشهدون على ما رميْتها به ، فإن لم تفعل يُقام عليك أنت حَدُّ القذف ثمانين جلدة ، ثم لا ينتهى الأمر عند الجلْد ، إنما لا تُقبل منك شهادة بعد ذلك أبداً .

﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا .. ﴿٤﴾﴾ [النور] لماذا ؟ لأنه لم يَعُدْ أهلاً لها ؛ لأنه فاسق ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾﴾ [النور] والفاسق لا شهادةَ له ، وهكذا جمع الشارع الحكيم على القاذف حَدَّ الجلْد ، ثم

---

(١) هى : هند بنت عتبة بن ربيعة أم معاوية بن أبى سفيان ، وهى زوجة أبى سفيان بن حرب ، وهى التى لاكت كبد حمزة عم رسول الله ﷺ فى غزوة أحد بعد أن قتله وحشى بتدبير منها .

(٢) أورده ابن كثير فى تفسيره (٣٥٣/٤) فى تفسير آية ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ .. ﴿١٢﴾﴾ [الممتحنة] وفيه أنها قالت : يا رسول الله وهل تزنى امرأة حرة ؟ قال : « لا والله ما تزنى الحرة » .

أسقط اعتباره من المجتمع بسقوط شهادته ، ثم وصفه بعد ذلك بالفسق ، فهو فى مجتمعه ساقط الاعتبار ساقط الكرامة .

هذا كله ليزجر كل مَنْ تسوِّل له نفسه الخوْضَ فى أعراض الحرائر واتهام النساء الطاهرات ؛ لذلك عبَّر عن القَذْف بالرمى ؛ لأنه غالباً ما يكون عن عجلة وعدم بينة ، فالحق ـ تبارك وتعالى ـ يريد أن يحفظ مجتمع الإيمان من أن تشيع فيه الفاحشة ، أو مجرد ذكرها والحديث عنها .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥ ﴾

اختلف العلماء فى معنى الاستثناء هنا : أهو استثناء من الفِسْق ؟ أم استثناء من عدم قبول الشهادة ؟

ذكرنا أن مشروعية التوبة منَّة وتكرُّم من الحق ـ تبارك وتعالى ـ لأنه لو لم تشرع التوبة كان مَنْ يقع فى معصية مرة ، ولا تُقبل منه توبة يتجرأ على المعصية ويكثر منها ، ولم لا ؟ فلا دافعَ له للإقلاع .

إذن : حين يشرع الله التوبة إنما يحمى المجتمع من الفاقدين الذين باعوا أنفسهم ، وفقدوا الأمل فى النجاة . فمشروعية التوبة كَرَم ، وقبولها كرم آخر ، لذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا .. ﴿١١٨﴾ ﴾ [التوبة] أى : شرع لهم التوبة ليتوبوا فيقبل منهم .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَصْلَحُوا .. ﴿٥﴾ ﴾ [النور] تدل على أن مَنْ وقعتْ منه سيئة عليه أن يتبعها بحسنة ، وقد ورد فى الحديث الشريف :

« وأتبع السيئةَ الحسنةَ تَمْحُها ....»[١] لذلك تجد الذين أسرفوا على أنفسهم فى ناحية ما ، حينما يكبرون ويُحبّون التوبة تراهم شغوفين بحُبِّ الخير وعمل الطاعات ، يريدون أن يُكفِّروا بها ما سبق من السيئات ، على خلاف مَنْ حافظ على نفسه ، ونأى بها عن المعاصى ، فتراه بارداً من ناحيتها يفعل الخير على قَدْر طاقته .

وكأن الحق ـ تبارك وتعالى ـ يُحذِّر عباده : يا عبادى احذروا : مَنْ أخذ منى شيئاً خلْسة أو ترك لى حكماً ، أو تجرأ علىَّ بمعصية سيتعب فيما بعد ، ويلاقى الأمَّرين ؛ لأن السيئة ستظل وراءه تطارده وتُجهده لأغفرها له ، وسيحتاج لكثير من الحسنات وأفعال الخير ليجبر بها تقصيره فى حَقِّ ربه .

ثم يقول الحق سبحانه[٢] :

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٥/١٥٣ ، ١٥٨) والترمذى فى سننه (١٩٨٧) والدارمى فى سننه (٢/٣٢٣) من حديث أبى ذر رضى الله عنه قال قال ﷺ : « اتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن » . واللفظ للترمذى .

(٢) سبب نزول الآية : عن ابن عباس قال : لما نزلت : ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً .. ﴿٤﴾﴾ [النور] قال سعد بن عبادة وهو سيد الأنصار : أهكذا أنزلت يا رسول الله ؟ فقال ﷺ : ألا تسمعوا يا معشر الأنصار إلى ما يقول سيدكم ؟ قالوا : يا رسول الله إنه رجل غيور ، والله ما تزوج امرأة قط إلا بكراً ، وما طلق امرأة قط فاجترأ رجل منا على أن يتزوجها من شدة غيرته . فقال سعد : والله يا رسول الله إنى لأعلم أنها حق وأنها من عند الله ، ولكن قد تعجبت أن لو وجدت لكاع قد تفخذها رجل لم يكن لى أن أهيجه ولا أحركه حتى آتى بأربعة شهداء ، فوالله إنى لا آتى بهم حتى يقضى حاجته ، فما لبثوا إلا يسيراً حتى جاء هلال بن أمية من أرضه عشياً فوجد عند أهله رجلاً فرأى بعينه وسمع بأذنه فلم يهيجه حتى أصبح وغدا على رسول الله ﷺ فأخبره بما كان ، فكره رسول الله ما جاء به واشتد عليه فقال سعد بن عبادة : الآن يضرب رسول الله ﷺ هلال بن أمية ويبطل شهادته فى المسلمين . فقال هلال : والله إنى لأرجو أن يجعل الله لى منها مخرجاً . فنزلت آية ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ .. ﴿٦﴾﴾ [النور] فقال رسول الله ﷺ : أبشر يا هلال ، فقد جعل الله لك فرجاً ومخرجاً . فقال : قد كنت أرجو ذاك من ربى . وذكر باقى الحديث . أخرجه الواحدى فى أسباب النزول (ص ١٨٠ ، ١٨١) .

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ۝٦ وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ۝٧﴾

بعد أن تكلم الحق ـ تبارك وتعالى ـ عن الذين يرمون المحصنات ، وبيّن حكم القذف ، أراد أنْ يُبيِّن حكم الرمى إنْ كان من الزوج لزوجته ؛ لأن الأمر هنا مختلف ، وربما يكون بينهما أولاد منه أو من غيره ، فعليه أن يكون مُؤدباً بأدب الشرع ، ولا يجرح الأولاد برمى أمهم ولا ذنب لهم .

لذلك شرع الحق ـ سبحانه وتعالى ـ فى هذه الحالة حكماً خاصاً بها هو الملاعنة ، وقد سُمِّيت هذه الآية آية اللعان .

ويُرْوَى أن هلال بن أمية ذهب إلى رسول الله ﷺ وقال له : يا رسول الله إنى رأيتُ فلاناً على بطن زوجتى ، فإنْ تركتُه لآتى بأربعة شهداء لقضى حاجته وانصرف ، وإنْ قتلتُه فقد اعتديْتُ عليه[1] .

إذن : ما حَلّ هذا اللغز ؟

وينبغى أن نعلم أن الله تعالى لا ينزل التشريع والحكم بدايةً ، إنما يترك فى الكون من أقضية الحياة وأحداثها ما يحتاج لهذا الحكم ، بحيث ينزل الحكم فيصادف الحاجة إليه ، كما يقولون : موقع الماء من ذى الغُلَّة الصَّادى ، يعنى : حين ينزل الحكم يكون له موضع فيتلقفه الناس ، ويشعرون أنه نزل من أجلهم بعد أنْ كانوا

---

(١) لفظ الحديث عند الإمام أحمد فى مسنده (١/٢٣٨) من حديث ابن عباس رضى الله عنهما أن هلال بن أمية ـ وهو أحد الثلاثة الذين تيب عليهم ـ جاء من أرضه عشاء فوجد عند أهله رجلاً فرأى بعينيه وسمع بأذنيه فلم يهيجه حتى أصبح فغدا على رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، إنى جئت أهلى عشاء فوجدت عندها رجلاً فرأيت بعينى وسمعت بأذنى » الحديث .

يستشرفون لحكم فى مسألة لم يأت فيها حكم .

وقد شرع الله تعالى حكم الملاعنة أو اللعان خاصة ، لهذه الحالة التى يلاحظ فيها الزوج شيئاً على أهله ، وقد يضع يده عليه ، لكن لا يستطيع أنْ يأتى عليه بشهود ليثبت هذه الحالة ؛ لذلك جعله الشارع الحكيم يقوم وحده بهذه الشهادة ، ويكررها أربع مرات بدل الشهداء الأربع .

يقول : أشهد الله أننى صادق فيما رميتُ به امرأتى ، يقولها أربع مرات ، وفى الخامسة يقول : ولعنة الله علىَّ إنْ كنتُ كاذباً ، وهكذا ينتهى دور الزوج فى الملاعنة .

﴿ وَيَدْرَؤُا عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٨﴾ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٩﴾ ﴾

(يَدْرَأ) أى : يدفع العذاب عن الزوجة أن تشهد هى الأخرى أربع شهادات بالله ، تقول : أشهد الله أنه كاذب فيما رمانى به ، وفى الخامسة تقول : غضب الله علىَّ إنْ كان هو من الصادقين . فإن امتنعت الزوجة عن هذه الشهادة فقد ثبت عليها الزنا ، وإنْ حلفتْ فقد تعادلا ، ولم يَعُدْ كل منهما صالحاً للآخر ، وعندها يُفرِّق الشرع بينهما تفريقاً نهائياً لا عودةَ بعده ، ولا تحل له أبداً[1] .

---

(١) وقد وردت الرواية بأن امرأة هلال بن أمية والتى رماها بالزنا مع شريك بن سحماء شهدت أربع شهادات أنها لم تفعل ، فلما كانت الشهادة الخامسة سكتت سكتة حتى ظنوا أنها ستعترف ثم قالت : لا أفضح قومى سائر اليوم فمضت على القول ففرّق رسول الله ﷺ بينهما وقال : « انظروا ، فإن جاءت به جعداً حمش الساقين . فهو لشريك بن سحماء ، وإن جاءت به أبيض سبطاً قصير العينين فهو لهلال بن أمية » . فجاءت به جعداً حمش الساقين . أى : تحقق وثبت كذب المرأة وثبت صدق هلال ، فقال ﷺ : « لولا ما نزل فيهما من كتاب الله لكان لى ولها شأن » ذكره ابن كثير فى تفسيره (٣/٢٦٨) .

هذا التشريع فَضْل من الله ؛ لأنه أنهى هذه المسألة على خير ما تنتهى عليه ؛ لذلك يقول سبحانه بعدها :

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾ (١)

أى : لولا هذا لَفُضِحتم ولتفاقمت بينكم العداوة ، لكن عصمكم فضل الله فى هذا التشريع الحكيم المناسب لهذه الحالة .

والقذف جريمة بشعة فى حَقِّ المجتمع كله ، تشيع فيه الفاحشة وتتقطع الأواصر ، هذا إنْ كان للمحصنات البعيدات ، وهو أعظم إنْ كان للزوجة ، لكن ما بالك إنْ وقع مثل هذا القول على أم ليست أماً لواحد ، إنما هى أم لجميع المؤمنين ، هى أم المؤمنين السيدة عائشة ـ رضى الله عنها وأرضاها ـ فكانت مناسبة أن يذكر السياق ما كان من قَذْف السيدة عائشة ، والذى سُمِّى بحادثة الإفك ؛ لماذا ؟

لأن الله تعالى يريد أن يُعطينا الأُسْوة فى النبوة نفسها ، ويريد أنْ يُسلِّى عائشة صاحبة النسب العريق وأم المؤمنين ، وقد قيل فيها ما قيل ؛ لذلك ستظل السيدة عائشة أُسْوة لكل شريفة تُرْمَى فى عِرْضها ، ويحاول أعداؤها تشويه صورتها ، نقول لها : لا عليك ، فقد قَالوا مثل هذا فى عائشة .

وتقوم آيات الإفك دليلاً على صدق رسول الله ﷺ ـ فى البلاغ

---

(١) تكررت ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ ..﴿١٠﴾﴾ [النور] أربع مرات فى هذه السورة . قال أبو يحى زكريا الأنصارى فى (فتح الرحمن بكشف ما يلتبس فى القرآن) ص ٢٨٥ : « كرره لاختلاف الأجوبة فيه . إذ جواب الأول محذوف تقديره : لفضحكم . وجواب الثانى قوله ﴿لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾﴾ [النور]. وجواب الثالث محذوف تقديره : لعجَّل لكم العذاب . وجواب الرابع ﴿مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا ﴿٢١﴾﴾ [النور]

عن ربه ، فذكر أنهم يرمون المحصنات ، ويرمون زوجاتهم ، والأفظع من ذلك أنْ يرموا زوجة النبى وأم المؤمنين ، فيقول سبحانه :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ (١) لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ (٢) كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾

الإفك : لدينا نسَب ثلاث للأحداث : نسبة ذهنية ، ونسبة كلامية حين تتكلم ، ونسبة خارجية . فحين أقول : محمد مجتهد . هذه قضية ذهنية ، فإنْ نطقتَ بها فهى نسبة كلامية ، فهل هناك شخص اسمه محمد ومجتهد ، هذه نسبة خارجية ، فإنْ وافقت النسبةُ الكلامية النسبةَ الخارجية ، فالكلام صِدْق ، وإنْ خالفت فالكلام كذب .

فالصدق أنْ تطابق النسبةُ الكلاميةُ الواقعَ ، والكذب ألاَّ تطابق النسبةُ الكلاميةُ الواقعَ ، والكذب قد يكون غير مُتعمد ، وقد يكون مُتعمداً ، فإنْ كان مُتعمداً فهو الإفك ، وإن كان غير متعمد كأنْ أخبره شخص أن محمداً مجتهد وهو غير ذلك ، فالخبر كاذب ، لكن المخبر ليس كاذباً .

فالإفك ـ إذن ـ تعمُّد الكذب ، ويعطى ضد الحكم ، كأن تقول : محمد مجتهد . وأنت تعلم أنه مهمل ؛ لذلك كان الإفكُ أفظعَ أنواع الكذب ؛ لأنه يقلب الحقائق ويختلق واقعاً مضاداً لما لم يحدث .

---

(١) العصبة : الجماعة المترابطة [القاموس القويم ٢/٢٢] قال فى [لسان العرب – مادة : عصب] « العصبة : جماعة ما بين العشرة إلى الأربعين » .

(٢) قال ابن كثير فى تفسيره (٣/٢٧٢) : « الأكثرون على أن المراد بذلك إنما هو عبد الله ابن أبى بن سلول قبحه الله ولعنه وهو الذى تقدم النص عليه فى الحديث وقال ذلك جماعة وغير واحد . وقيل : المراد به حسان بن ثابت وهو قول غريب » .

يقول تعالى : ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾﴾ [النجم] وهى القُرَى التى جعل الله عاليها سافلها ، وكذلك الإفك يُغيِّر الواقع ، ويقلبه رأساً على عَقِب .

والعصبة : الجماعة التى ترتبط حركتها لتحقيق غاية متحدة ، ومن ذلك نقول : عصابة مخدرات ، عصابة سرقات ، يعنى : جماعة اتفقوا على تنفيذ حَدَث لغاية واحدة ، ومنه قوله تعالى فى سورة يوسف : ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ .. ﴿١٤﴾﴾ [يوسف]

وما دام أهلُ الإفْك عصبةً فلا بُدَّ أن لهم غاية واحدة فى التشويه والتبشيع ، وكان رئيسهم عبد الله بن أُبىّ بن سلول ، وهو شيخ المنافقين ، ومعذور فى أن يكون كذلك ، ففى اليوم الذى دخل فيه رسول الله ﷺ المدينة كانوا يصنعون لعبد الله بن أُبىٍّ تاجاً ليُنصِّبوه مَلِكاً على المدينة[1] ، فلما فُوجِىء برسول الله واجتماع الناس عليه وانفضاضهم من حوله بقيت هذه فى نفسه .

لذلك فهو القائل : ﴿لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ .. ﴿٨﴾﴾ [المنافقون] يقصد أنه الأعزُّ ، فردَّ عليه الحق - تبارك وتعالى - صدقت ، لكن العزة ستكون لله وللرسول وللمؤمنين ، وعليه فالخارج منها أنت .

وهو أيضاً القائل : ﴿لا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا .. ﴿٧﴾﴾ [المنافقون] والعجيب أنه يعترف أن محمداً رسول الله ،

---

(١) ذكره ابن هشام فى السيرة النبوية (٢/٥٨٤) « أن قومه كانوا قد نظموا له الخرز ليتوجوه ثم يملّكوه عليهم ، فجاءهم الله تعالى برسوله ﷺ وهم على ذلك ، فلما انصرف قومه عنه إلى الإسلام ضغن ، ورأى أن رسول الله ﷺ قد استلبه ملكاً فلما رأى قومه قد أبوا إلا الإسلام دخل فيه كارهاً مصراً على نفاق وضغن » .

ويقولها علانية ، ومع ذلك ينكرها بأعماله وتصرفاته ، ويحدث تشويشاً فى الفكر وفى أداء العبارة .

وما دام أن الحق سبحانه سمَّى هذه الحادثة فى حَقٍّ أم المؤمنين عائشة إفكاً فلا بُدَّ أنهم قلَبوا الحقائق وقالوا ما يناقض الواقع .

والقصة حدثت فى غزوة بنى المصطلق ، وكان ﷺ إذا أراد غزوة أجرى قرعة بين زوجاته : مَنْ تخرج منهن معه . وهذا ما تقتضيه عدالته ﷺ ، وفى هذه الغزوة أقرع بينهن فخرج السهم لعائشة فخرجتْ معه ، وبعد الغزوة وأثناء الاستعداد للعودة قالت السيدة عائشة : ذهبتُ لأقضى حاجتى فى الخلاء ، ثم رجعت إلى هَوْدَجِى ألتمس عِقْداً لى من (جَزْع ظَفَار)[1] وهو نوع نفيس .

فلما عادت السيدة عائشة وجدت القوم قد ذهبوا ، ولم تجد هَوْدجها فقالت فى نفسها لا بُدَّ أنهم سيفتقدوننى وسيعودون . لكن كيف حمل القوم هودج عائشة ولم تكُنْ فيه ؟ قالوا : لأن النساء كُنَّ خِفَافاً لم يثقلن ، وكانت عائشة نحيفة ، لذلك حمل الرجال هَوْدجها دون أن يشعروا أنها ليست بداخله . ثم نامت السيدة عائشة فى موضع هودجها تنتظر مَنْ يأتيها ، وكان من عادة القوم أن يتأخر أحدهم بعد الرحيل ليتفقد المكان ويُعقب عليه ، علَّه يجد شيئاً نسيه القوم أو شخصاً تخلَّف عن الرَّكْب .

---

(١) الجَزْع والجِزْع : نوع من الخرز اليمانىّ ، وهو الذى فيه بياض وسواد تُشبَّه به الأعين ، وظَفار : قريةٌ من قرى حِمير منسوبة إلى ظفار أسد مدينة باليمن [لسان العرب ـ مادتا : جزع ، ظفر] .

وكـان هذا المعـقِّب هو صـفوان بن المـعطل[١] ، فلمـا رأى شبحَ إنسـان نائم فاقـترب منه ، فـإذا هى عائشـة رضى الله عنها ، فـأناخ ناقته بجوارها ، وأدار وجهه حتى ركبتْ وسار بها دون أن ينظر إليها وعَفَّ نفسه ، بدليل أن القـرآن سمَّى ما قـالوه إفْكاً يعنى : مناقـضاً للواقع ، فصفوان لم يفعل إلا نقيض ما قالوا .

ولمـا قَدِم صـفـوان يقود ناقـتـه بعائشـة رآه بعض أهل النفـاق فاتهمـوهما ، وقالوا فى حقـهما مَا لا يليق بأم المـؤمنين ، وقد تولّى هذه الحملة رَأْسُ النفاق فى المدينة عبد الله بن أُبىٍّ ومِسْطح بن أُثَاثة ، وحسان بن ثابت ، وحمنة بنت جحش امرأة طلحة بن عبيد الله وأخت زينب بنت جحش ، فروَّجوا هذا الاتهام وأذاعوه بين الناس .

ثم يقول سبحانه : ﴿لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ .. (١١)﴾ [النور] لكن ما الخـير فى هذا الكلام وفى إذاعـته ؟ قـالوا : لأن القرآن حين تُتَّهم عائشة وتنزل براءتها من فوق سبع سموات فى قرآن يُتْلَى ويُتعبَّد به إلى يوم القيامـة ، وحين يُفضَح قوم على لسان القرآن ، لا بُدَّ أن يعتبر الآخرون ، ويخافوا إنْ فـعلوا مخالفة أنْ يفتضح أمرهم ؛ لذلك جاء هذا الموقف درساً عملياً لمجتمع الإيمان .

نعم ، أصبحت هذه الحـادثة خيراً ؛ لأنها نوع من التـأييد لرسول الله ولدعـوته ، فـالحق ـ تبـارك وتعالى ـ يُـؤيِّد رسوله فـى الأشيـاء المسرَّة ليقطع أمل أعدائه فى الانتصار عليه ، ولو بالتدليس ، وبالمكر ولو بالإسرار والكَيْـد الخفى ، ففى ذروة عداء قـريش لرسول الله كان

---

(١) هو : صفوان بن المعطل بن رحضة السلمى الذكـوانى ، أبو عمرو : صحابى شهد الخندق والمشاهد كلهـا ، وحضر فتح دمشق ، واستـشهد بأرمينية . وقيل : فى سـميساط . روى عن النبى ﷺ حديثين . توفى عام ١٩ هـ (الأعلام للزركلى ٣/٢٠٦) . وقال الحاكم فى مستدركه (٣/٥١٨) « مات بشمشاط سنة ستين وقبره هناك » .

إيمان الناس به يزداد يوماً بعد يوم .

وقد ائتمروا عليه وكادوا له ليلاً ليلة الهجرة ، فلم يفلحوا ، فحاولوا أن يسحروه ، وفعلاً صنعوا له سحراً ، ووضعوه فى بئر ذروان فى مُشْط ومشاطة ، فأخبره بذلك جبريل عليه السلام ، فبعث رسول الله ﷺ علياً فجاء به[1] .

إذن : عجزوا فى المواجهة ، وعجزوا فى التبييت والكيد ، وعجزوا حتى فى استخدام الجن والاستعانة به ، وهنا أيضاً عجزوا فى تشويه صورة النبوة والنَّيْل من سمعتها ، وكأن الحق سبحانه يقول لأعدائه : اقطعوا الأمل فلن تنالوا من محمد أبداً ، ومن هنا كانت حادثة الإفك خيراً لجماعة المؤمنين .

ومع ذلك ، لم يجرؤ أحد أن يخبر السيدة عائشة بما يقوله المنافقون فى حقها ، لكن تغيَّر لها رسول الله ﷺ ، فلم يَعُدْ يداعبها كعادته ، وكان يدخل عليها فيقول : « كيف تيكم » وقد لاحظت عائشة هذا التغيُّر لكن لا تعرف له سبباً إلى أنْ تصادف أنْ سارت هى وأم مِسْطح أحد هؤلاء المنافقين ، فعثرتْ فقالت : تعس مِسْطح فنهرتها عائشة : كيف تدعو على ابنها ، فقالت : إنك لا تدرين ما يقول ؟ عندها ذهبتْ السيدة عائشة إلى أمها وسألتها عَمَّا يقوله الناس فأخبرتها .

---

(١) حديث متفق عليه أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٢٦٨) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢١٨٩) كتاب السلام أن رسول الله ﷺ قال : « جاءنى رجلان فقعد أحدهما عند رأسى والآخر عند رجلىَّ فقال الذى عند رأسى للذى عند رجلىَّ ، أو الذى عند رجلىَّ للذى عند رأسى : ما وجع الرجل ؟ قال : مطبوب . قال : من طبه ؟ قال : لبيد بن الأعصم . قال : فى أى شىء ؟ قال : فى مشط ومشاطة . قال : وجُفٍّ طلعة ذكر . قال . فأين هو ؟ قال : فى بئر ذى ذروان » .

لذلك لما نزلت براءة عائشة فى القرآن قال لها أبو بكر : قومى فاشكرى رسول الله ، فقالت : بل أشكر الله الذى برّأنى[١] .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ .. (١١)﴾ [النور]

عادةً ما يستخدم الفعل (كَسَبَ) المجرد فى الخير ، والفعل اكتسب المزيد الدال على الافتعال فى الشر ، لماذا ؟ قالوا : لأن فعْل الخير يتمشى وطبيعة النفس ، وينسجم مع ذراتها وتكوينها ، فالذى يُقدم على عمل الخير لا يقاوم شيئاً فى نفسه ، ولا يعارض ملكَة من ملَكَاته ، أو عادة من العادات .

وهذه نلاحظها حتى فى الحيوانات ، ألاَ ترى القطة : إنْ وضعتَ لها قطعة لحم تجلس بجوارك وتأكلها ، وإنْ أخذتْها منك خَطْفاً تفرّ بها هاربة وتأكلها بعيداً عنك . إذن : فى ذاتية الإنسان وفى تكوينه - وحتى فى الحيوان - ما يُعرف به الخير والشر ، والصواب والخطأ .

وأنت إذا نظرتَ إلى ابنتك أو زوجتك تكون طبيعياً مطمئناً ؛ لأن ملَكَات نفسك معك موافقة لك لا تعارضك فى هذا الفعل ، فإنْ حاولتَ النظر إلى ما لا يحلّ لك تختلس النظرة وتسرقها ، وتحاول سترها حتى لا يلحظها أحد ، وقد ترتبك ويتغير لونك ، لماذا ؟ لأنك تفعل شيئاً غير طبيعى ، لا حَقَّ لك فيه ، فتعارضك ملكَاتُ نفسك ، وذراتُ تكوينك . فالأمر الطبيعى تستجيب له النفس تلقائياً ، أمّا الخطأ والشر فيحتاج إلى افتعال ، لذلك عبَّر عن المكر والتبييت والكيد بـ (اكتسب) الدال على الافتعال .

---

(١) قصة حادثة الإفك وردت بطولها فى صحيح البخارى (حديث ٤٧٥٠) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٧٧٠) ، وأحمد فى مسنده (٦ / ٥٩ ، ٦٠) من حديث عائشة رضى الله عنها .

وقوله تبارك تعالى : ﴿وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [النور]

تولَّى كبر الشيء : يعنى قام به وله حَظٌّ وافر فيه ، أو نقول : هو ضالع فيه ، والمقصود هنا عبد الله بن أُبىّ الذى قاد هذه الحملة ، وتولّى القيام بها وترويجها ﴿لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [النور] أى : يناسب هذه الجريمة .

﴿لَّوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَٰذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾﴾

يُوجِّهنا الحق ـ تبارك وتعالى ـ إلى ما ينبغى أن يكون فى مثل هذه الفتنة من ثقة المؤمنين بأنفسهم وبإيمانهم ، وأنْ يظنوا بأنفسهم خيراً وينأوا بأنفسهم عن مثل هذه الاتهامات التى لا تليق بمجتمع المؤمنين ، فكان على أول أُذن تسمع هذا الكلام على أول لسان ينطق به أن يرفضه ؛ لأن الله تعالى ما كان ليُدلس على رسوله وصَفْوته من خَلْقه ، فيجعل زوجته محلَّ شكٍّ واتهام فضلاً عن رَمْيها بهذه الجريمة البشعة .

﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَٰذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾﴾ [النور] كان من المنتظر قبل أن تنزل المناعة فى القرآن أن تأتى من نفوس المؤمنين أنفسهم ، فيردون هذا الكلام .

و (لولا) أداة للحضِّ والحثِّ ، وقال : ﴿الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ .. ﴿١٢﴾﴾ [النور] لأنه جال فى هذه الفتنة رجال ونساء ، والقرآن لا يحثهم على ظنِّ الخير برسول الله أو بزوجته ، وإنما ظن الخير بأنفسهم

هم ؛ لأن هذه المسألة لا تليق بالمؤمنين ، فما بالك بزوجة نبى الله ورسوله ﷺ ؟

﴿ وَقَالُوا .. (١٢) ﴾ [النور] أى : قبل أن ينزل القرآن ببراءتها ﴿ هَـٰذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ (١٢) ﴾ [النور] يعنى : كذب متعمد واضح بيِّن لأنه فى حق مَنْ ؟ فى حق أم المؤمنين التى طهَّرها الله واختارها زوجة لرسوله ﷺ .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ لَّوْلَا جَاءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَـٰئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٣) ﴾

وسبق أنْ ذكرت الآيات حُكْم القذف ، وأن على مَنْ يرمى المحصنة بهذه التهمة عليه أن يأتى بأربعة شهداء ليثبت صدْق ما قال ، فإنْ لم يأتِ بهم فهو كاذب عند الله ، ويجب أنْ يُقام عليه حَدُّ القذف .

ثم يقول تعالى :

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٤) ﴾

﴿ أَفَضْتُمْ .. (١٤) ﴾ [النور] أن تندفع إلى الشىء اندفاعاً تقصد فيه السرعة ، ومعنى السرعة أن يأخذ الحدث الكبير زمناً أقلَّ مما يتصوّر له ، كالمسافة تمشيها فى دقيقتين ، فتسرع لتقطعها فى دقيقة واحدة ، فكأنهم أسرعوا فى هذا الكلام لما سمعوه ، كما يقولون : خبَّ فيها ووضع .

لكن ، لماذا تفضَّل الله عليهم ورحمهم ، فلم يمسَّهم العذاب ، ولم يُجازهم على افترائهم على أم المؤمنين ؟

قالوا : لأن الحق ـ تبارك وتعالى ـ أراد من هذه المسألة العبرة والعظة ، وجعلها للمؤمنين وسيلةَ إيضاح ، فليس المراد أن يُنزل الله بهم العذاب ، إنما أن يُعلمهم ويعطيهم درساً فى حِفْظ أعراض المؤمنين .

﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ ﴾

انظر إلى بلاغة الأداء القرآنى فى التعبير عن السرعة فى إفشاء هذا الكلام وإذاعته دون وَعْى ودون تفكير ، فمعلوم أن تلقِّى الأخبار يكون بالأُذن لا بالألسنة ، لكن من سرعة تناقل هذا الكلام فكأنهم يتلقونه بألسنتهم ، كأن مرحلة السماع بالأذن قد ألغيت ، فبمجرد أن سمعوا قالوا .

﴿ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ ﴿١٥﴾ ﴾ [النور]

﴿ بِأَفْوَاهِكُم .. ﴿١٥﴾ ﴾ [النور] يعنى : مجرد كلام تتناقله الأفواه ، دون أنْ يُدقِّقوا فيه ؛ لذلك قال بعدها ﴿ مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ .. ﴿١٥﴾ ﴾ [النور] وهذا الكلام ليس هيناً كما تظنون ، إنما هو عظيم عند الله ؛ لأنه تناول عِرْض مؤمن ، وللمؤمن حُرْمته ، فما بالك إنْ كان ذلك فى حَقِّ رسول الله ؟

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾﴾

هذا ما كان يجب أن تقابلوا به هذا الخبر ، أنْ تقولوا لا يجوز لنا ولا يليق بنا أن نتناقل مثل هذا الكلام . وكلمة ﴿سُبْحَانَكَ .. ﴿١٦﴾﴾ [النور] تقال عند التعجُّب من حدوث شيء . والمعنى : سبحان الله نُنزِّهه ونُجله ونُعليه أن يسمح بمثل هذا الكذب الشنيع فى حقِّ رسوله ﷺ ، فهذا كلام لا يصح أن نتكلم به ولو حتى بالنفى ، فإنْ كان الكلام بالإثبات جريمةً فالكلام بالنفى فيه مَظنة أن هذا قد يحدث.

كما لو قلت : الوَرِع فلان ، أو الشيخ فلان لا يشرب الخمر ، فكأنه رغم النفى جعلته مظنة ذلك ، فلا يصح أن ينسب إليه السوء ولو بالنفى ، فذلك ذَمٌّ فى حقِّه لا مدح .

كذلك التحدث بهذه التهمة لا يليق بأم المؤمنين ، ولو حتى بالنفى ، ومعنى ﴿بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾﴾ [النور] كذب يبهت سامعه ، ويُدهشه لفظاعته ، وشناعته . فنحن نأنف أن نقول هذا الكلام ، ولو كنا مُنكرين له .

﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾﴾

الوعظ : أن تأتى لقمة الأشياء فتعظ بها ، كالرجل حينما يشعر بنهايته يحاول أنْ يعظَ أولاده ويُوصيهم ، لكن لا يُوصيهم بكُلِّ أمور الحياة ، إنما بالأمور الهامة التى تمثل القمة فى أمور الحياة . ووعظ

الحق ـ تبارك وتعالى ـ لعباده من لُطفه تعالى ورحمته ، يعظكم ؛ لأنه عزيز عليه أنْ يؤاخذكم بذنوبكم .

وتذييل الآية بهذا الشرط : ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾﴾ [النور] حثٌّ وإهاجة لجماعة المؤمنين ، لينتهوا عن مثل هذا الكلام ، وألاَّ يقعوا فيه مرة أخرى ، وكأنه تعالى يقول لهم : إنْ عُدْتُم لمثل هذا فراجعوا إيمانكم ؛ لأن إيمانكم ساعتها سيكون إيماناً ناقصاً مشكوكاً فيه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ[1] فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾

﴿يُحِبُّونَ .. ﴿١٩﴾﴾ [النور] الحب عمل قلبى ، والكلام عمل لسانى ، وترجمة عملية لما فى القلب ، فالمعنى : الذين يحبون هذا ولو لم يتكلَّموا به ؛ لأن لهذه المسألة مراحل تبدأ بالحب وهو عمل القلب ، ثم التحدث ، ثم السماع دون إنكار .

ولفظاعة هذه الجريمة ذكر الحق سبحانه المرحلة الأولى منها ، وهى مجرد عمل القلب الذى لم يتحول إلى نزوع وعمل وكلام إذن : المسألة خطيرة .

والبعض يظن أن إشاعة الفاحشة فضيحة للمتهم وحده ، نعم هى للمتهم ، لكن قد تنتهى بحياته ، وقد تنتهى ببراءته ، لكن المصيبة

(١) الفاحشة : الفعلة القبيحة . والفواحش : الأمور القبيحة المنكرة [القاموس القويم ٧٣/٢] .

أنها ستكون أُسْوة سيئة فى المجتمع .

وهذا توجيه من الحق ـ سبحانه وتعالى ـ إلى قضية عامة وقاعدة يجب أن تُرَاعى ، وهى : حين تسمع خبراً يخدش الحياءَ أو يتناول الأعراض أو يخدش حكماً من أحكام الله ، فإياك أنْ تشيعه فى الناس ؛ لأن الإشاعة إيجاد أُسْوة سلوكية عند السامع لمن يريد أن يفعل ، فيقول فى نفسه : فلان فعل كذا ، وفلان فعل كذا ، ويتجرأ هو أيضاً على مثل هذا الفعل ، لذلك توعد الله تعالى مَنْ يشيع الفاحشة وينشرها ويذيعها بين الناس ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ .. (١٩)﴾ [النور]

والحق ـ تبارك وتعالى ـ لم يعصم أحداً من المعصية وعمل السيئة ، لكن الأَسْوء من السيئة إشاعتها بين الناس ، وقد تكون الإشاعة فى حق رجل محترم مُهَاب فى مجتمعه مسموع الكلمة وله مكانة ، فإنْ سمعت فى حقِّه مَا لاَ يليق فلربما زهّدك ما سمعتَ فى هذا الشخص ، وزهَّدك فى حسناته وإيجابياته فكأنك حرمتَ المجتمع من حسنات هذا الرجل .

وهذه المسألة هى التعليل الذى يستر الله به غَيْب الخَلْق عن الخَلْق ، إذن : سَتْر غيب الناس عن الناس نعمة كبيرة تُثرى الخير فى المجتمع وتُنميه ، ويجعلك تتعامل مع الآخرين ، وتنتفع بهم على علاَّتهم ، وصدق الشاعر الذى قال :

فَخُذْ بِعلْمى ولاَ تركَنْ إلىَ عَملِى ... وَاجْنِ الثمارَ وخَلِّ العُودَ للنَّارِ

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٢٠)﴾

انظر كم فضل من الله تعالى تفضّل به على عباده فى هذه الحادثة ، ففى كل مرحلة من مراحل هذه القضية يقول سبحانه : ﴿ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ .. ﴿٢٠﴾ ﴾ [النور] وهذا دليل على أن ما حدث كان للمؤمنين نعمة وخير ، وإنْ ظنوه غير ذلك .

لكن أين جواب لولا ؟ الجواب يُفهَم من السياق وتقديره : لَفُضِحْتُم ولَهلكتم ، وحصل لكم كذا وكذا ، ولك أنْ تُقدِّره كما تشاء . وما منع عنكم هذا كله إلا فضل الله ورحمته .

وفى موضع آخر يوضح الحق سبحانه منزلة هذا الفضل : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [يونس] فالحق ـ سبحانه وتعالى ـ شرع منهجاً ويجب مَنْ يعمل به ، لكن فرحة العبد لا تتم بمجرد العمل ، وإنما بفضل الله ورحمته فى تقبُّل هذا العمل . إذن : ففضْل الله هو القاسم المشترك فى كل تقصير من الخَلْق فى منهج الخالق عز وجل .

وبعد هذه الحادثة كان لا بُدَّ أنْ يقول تعالى :

﴿ ۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ ﴾

---

(١) زكا : طهر وصلح فهو زكى وهى زكية . [القاموس القويم ١/٢٨٧] قال القرطبى فى تفسيره (٦/٤٧٤٢) : « أى : ما اهتدى ولا أسلم ولا عرف رشداً » على قراءة (زَكَى) أما على قراءة (زكَّى) : « أى أن تزكيته لكم وتطهيره وهدايته إنما هى بفضله لا بأعمالكم » .

كأن الشيطان له خطوات متعددة ليست خطوة واحدة ، وقد أثبت الله عداوته لبنى آدم ، وهى عداوة مُسبَّبة ليست كلاماً نظرياً ، إنما هو عدو بواقعة ثابتة ، حيث امتنع عن السجود لآدم ، وعصى أمر الله له ، بل وأبدى ما فى نفسه وقال : ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ (١٢)﴾ [الأعراف]

وقال : ﴿أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا (٦١)﴾ [الإسراء] وهكذا علّل امتناعه بأنه خير ، وكأن عداوته لآدم عداوة حسد لمركزه ومكانته عند ربه .

والحق ـ تبارك وتعالى ـ حينما يخبرنا بعداوة الشيطان من خلال امتناعه عن السجود ، إنما يحذرنا منه ، ويُنبِّهنا إلى خطره ويُربِّى فينا المناعة من الشيطان ؛ لأن عداوته لنا عداوة مركزة ، ليست عداوة يمارسها هكذا كيفما اتفق ، إنما هى عداوة لها منهج ولها خطة .

فأول هذه الخطة أنه عرف كيف يقسم ، فدخل على الإنسان من باب عزة الله عن خَلْقه ، فقال : ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢)﴾ [ص]

فلو أرادنا ربنا ـ عز وجل ـ مؤمنين ما كان للشيطان علينا سبيل ، إنما تركنا سبحانه للاختيار ، فدخل علينا الشيطان من هذا الباب ؛ لذلك قال بعدها : ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٤٠)﴾ [الحجر] فمَن اتصف بهذه الصفة فليس للشيطان إليه سبيل .

إذن : مسألة العداوة هذه ليست بين الحق سبحانه وبين الشيطان ، إنما بين الشيطان وبنى آدم .

فقوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا .. (٢١)﴾ [النور] نداء : يا من آمنتم بإله كأنه يقول : تَنبَّهوا إلى شرف إيمانكم به ، وابتعدوا عما يُضعف هذا الإيمان ، أو يفُتُّ فى عَضُد المؤمنين بأىِّ وسيلة ، وتأكّدوا أن الشيطان له خطوات متعددة .

﴿لا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ .. (٢١)﴾ [النور] فإنْ وسوس لك من جهة ، فتأبَّيْتَ عليه ووجد عندك صلابةً فى هذه الناحية وجَّهك إلى ناحية أخرى ، وزيّن لك من باب آخر ، وهكذا يظل بك عدوك إلى أنْ يُوقعك ، فهو يعلم أن لكل إنسان نقطة ضَعْف فى تكوينه ، فيظل يحاوره إلى أنْ يصل إلى هذه النقطة .

والشيطان : هو المتمرد العاصى من الجن ، فالجن مقابل الإنس ، فمنهم الطائع والعاصى ، والعاصى منهم هو الشيطان ، وعلى قمتهم إبليس ؛ لذلك يقول تعالى فى سورة الكهف : ﴿إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ .. (٥٠)﴾ [الكهف]

وسبق أن ذكرنا أنك تستطيع أن تُفرِّق بين المعصية من قبل النفس والمعصية من قبل الشيطان ، فالنفس تُلح عليك فى معصية بعينها لا تتعدّاها إلى غيرها ، أما الشيطان فإنه يريدك عاصياً على أىِّ وجه من الوجوه ، فإن امتنعت عليه فى معصية جرَّك إلى معصية أخرى أيّاً كانت .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ .. (٢١)﴾ [النور] ولك أنْ تسأل : أين جواب (مَنْ) الشرطية هنا ؟ قالوا : حُذف الجواب لأنه يُفهم من السياق ، ودَلَّ عليه بذكر علَّته والمسبّب له ، وتستطيع أن تُقدِّر الجواب : مَنْ يتبع خطوات الشيطان يُذقْه ربه عذاب السعير ؛ لأن الشيطان لا يأمر إلا بالفحشاء والمنكر ، فمَنْ يتبع خطواته ، فليس له إلا العذاب ، فقام المسبّب مقام جواب الشرط .

والكلام ليس كلام بشر ، إنما هو كلام رَبِّ العالمين . وأسلوب القرآن أسلوب راقٍ يحتاج إلى فكر واعٍ يلتقط المعانى ، وليس مجرد كلام وحَشْو .

ألاَ ترى بلاغة الإيجاز فى قوله تعالى من سورة النمل : ﴿ اذْهَب بِّكِتَابِي هَـٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ (٢٨) ﴾ [النمل]

ثم يقول تعالى بعدها : ﴿ قَالَتْ يَـٰأَيُّهَا الْمَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (٢٩) ﴾ [النمل]

وتأمل ما بين هذيْن الحدثيْن من أحداث حُذفت للعلم بها ، فوعى القارىء ونباهته لا تحتاج أن نقول له فذهب الهدهد .. وو إلخ فهذه أحداث يُرتِّبها العقل تلقائياً .

وقد أوضح الشيطانُ نفسه هذه الخطوات وأعلنها ، وبيَّن طرقه فى الإغواء ، ألم يقل : ﴿ لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ﴾ [الأعراف] فلا حاجةَ للشيطان بأصحاب الصراط المعوج لأنهم أتباعه ، فالشيطان لا يذهب إلى الخمارة مثلاً ، إنما يذهب إلى المسجد ليُفسد على المصلين صلاتهم ، لذلك البعض ينزعج من الوساوس التى تنتابه فى صلاته ، وهى فى الحقيقة ظاهرة صحية فى الإيمان ، ولولا أنك فى طاعة وعبادة ما وسوس لك .

لكن مصيبتنا أن الشيطان يعطينا فقط طرف الخيط ، فنسير نحن خَلْفه (نكُرّ فى الخيط كَرّاً) ولو أننا ساعة ما وسوس لنا الشيطان استعذْنا بالله من الشيطان الرجيم ، كما أمرنا ربنا تبارك وتعالى : ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ .. (٢٠٠) ﴾ [الأعراف]

إذن : إياك أنْ تقبل منه طرف الخيط ؛ لأنك لو قَبِلْته فلن تقدر عليه بعد ذلك .

ومن خطوات الشيطان أيضاً قوله : ﴿ ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ .. (١٧) ﴾ [الأعراف]

إذن : للشيطان فى إغواء الإنسان منهج وخُطّة مرسومة ، فهو يأتى الإنسان من جهاته الأربع : من أمامه ، ومن خلفه ، وعن يمينه ، وعن شماله . لكن لم يذكر شيئاً عن أعلى وأسفل ؛ لأن الأولى تشير إلى عُلُوِّ الربوبية ، والأخرى إلى ذُلِّ العبودية ، حين ترفع يديك إلى أعلى بالدعاء ، وحين تضع جبهتك على الأرض فى سجودك ؛ لذلك لا يأتيك عدوك من هاتين الناحيتين .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَـٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ .. (٢١) ﴾ [النور]

قلنا : إن فضل الجزاء يتناوبه أمران : جزاء بالعدل حين تأخذ ما تستحقه ، وجزاء بالفضل حينما يعطيك ربك فوق ما تستحق ؛ لذلك ينبغى أن نقول فى الدعاء : اللهم عاملنا بالفضل لا بالعدل ؛ وبالإحسان لا بالميزان ، وبالجبر لا بالحساب . فإنْ عاملنا ربنا ـ عز وجل ـ بالعدل لَضِعْنا جميعاً .

لكن ، فى أىِّ شىء ظهر هذا الفضل ؟ ظهر فضل الله على هذه الأمة فى أنه تعالى لم يُعذِّبها بالاستئصال ، كما أخذ الأمم السابقة ، وظهر فَضْل الله على هذه الأمة فى أنه تعالى أعطاها المناعة قبل أن تتعرَّض للحَدث ، وحذرنا قديماً من الشيطان قبل أن نقع فى المعصية ، وقبل أن تفاجئنا الأحداث ، فقال سبحانه : ﴿ فَقُلْنَا يَـٰآدَمُ إِنَّ هَـٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ .. (١١٧) ﴾ [طه] وإلا لغرق الإنسان فى دوامة المعاصى .

لأن التنبيه للخطر قبل وقوعه يُربِّى المناعة فى النفس ، فلم يتركنا ربنا ـ عز وجل ـ فى غفلة إلى أنْ نقعَ فى المعصية ، كما نُحصِّن نحن أنفسنا ضد الأمراض لنأخذ المناعة اللازمة لمقاومتها .

وقوله تعالى : ﴿مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا .. ﴿٢١﴾﴾ [النور] (زكَى) تطهَّر وتنقّى وصفُّى ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾ [النور] وقال : ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾ [النور] لأنه تعالى سبق أنْ قال : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا .. ﴿١٩﴾﴾ [النور] ذلك فى ختام حادثة الإفك التى هزَّتْ المجتمع الإسلامى فى قمته ، فمسَّتْ رسول الله ﷺ وصاحبه الصِّدِّيق وزوجته أم المؤمنين عائشة وجماعة من الصحابة .

لذلك قال تعالى (وَاللَّهُ سَمِيعٌ) لما قيل (عَلِيمٌ) [النور : ٢١] بما تُكِنُّه القلوب من حُبٍّ لإشاعة الفاحشة .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَٰكِينَ وَالْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ[2] وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾

تورط فى حادثة الإفك جماعة من أفاضل الصحابة ممن طُبِع على الخير ، لكنه فُتِن بما قيل وانساقَ خلف مَنْ روَّجوا لهذه الإشاعة ،

---

(١) **سبب نزول الآية** : قال القرطبى فى تفسيره (٦/٤٧٤٢) : « المشهور من الروايات أن هذه الآيات نزلت فى قصة أبى بكر بن أبى قحافة ومسطح بن أثاثة ، وذلك أنه كان ابن بنت خالته وكان من المهاجرين البدريين المساكين وكان أبو بكر ينفق عليه ، فلما كان أمر الإفك وقال مسطح فى عائشة ابنة أبى بكر ما قال حلف أبو بكر ألا ينفق عليه ولا ينفعه بنافعة أبداً » .

(٢) يأتل : معناه يحلف . وقالت فرقة : معناه يقصر . [القرطبى ٦/٤٧٤٣] .

وكان من هؤلاء مسطح بن أثاثة ابن خالة أبى بكر الصديق ، وكان أبو بكر ينفق عليه ويرعاه لفقره ، فلما قال فى عائشة ما قال وخاض فى حقها أقسم أبو بكر ألاّ ينفق عليه ، وقد كان يعيش وأهله فى سَعَة أبى بكر وفضله ؛ لأن هذه الفتنة جعلتْ بعض أهل الخير يضِنُّ به .

وهذا نموذج لمن ينكر الجميل ولا يُقدِّر صنائع المعروف ، وهذا الفعل يُزهِّد الناس فى الخير ، ويصرفهم عن عمل المعروف ، والله تعالى يريد أنْ يُصحِّح لنا هذه المسألة ، فهذه نظرة لا تتفق وطبيعةَ الإيمان ؛ لأن الذى يعصى الله فيك لا تكافئه إلا بأنْ تطيع الله فيه .

وحين تترك مَنْ أساء إليك لعقاب الله وتعفُو عنه أنت ، فإنما تركتَه للعقاب الأقوى ؛ لأنك إنْ عاقبته عاقبته بقدرتك وطاقتك ، وإنْ تركتَ عقابه لله عاقبه بقدْر طاقته تعالى وقدرته .

إذن : العافى أقسى قَلْباً من المنتقم ، وسبق أنْ مثّلنا لذلك بالأخ حين يعتدى على أخيه الأصغر ، فيأتى الأب فيجد صغيره مهاناً مظلوماً ، فيأخذه فى حضنه ، ويحاول إرضاءه وتعويضه عَمَّا لَحِقه من ظلم أخيه ، كذلك الحال فى هذه المسألة ولله المثل الأعلى .

ومن هنا يجب عليك أن تُسَرَّ بمَنْ جعل الله فى جانبك ، وتُحسن إليه ، لا أنْ تَرُدّ له الإساءة بمثلها .

إذن : نزلت هذه الآية فى مسطح بن أثاثة حين أقسم أبو بكر ألاَّ ينفق عليه وعلى أهله ، وأنْ يمنع عنه عطاءه وبِرّه ، نزلت لتصحح للصِّديق هذه النظرة وتُوجِّه انتباهه إلى جانب الخير الباقى عند الله لا عند الناس .

فقال تعالى : ﴿ وَلا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ .. (٢٢) ﴾ [النور]

﴿ يَأْتَلِ .. (٢٢) ﴾ [النور] ائتلى مثل اعتلى تماماً ، ومنها تألّى يعنى : حلف وأقسم ، يوجه الحق - تبارك وتعالى - الصِّديق أبا بكر ، ويذكر لفظ ﴿ أُوْلُوا .. (٢٢) ﴾ [النور] الدال على الجماعة لتعظيمه لما له من فضل ومنزلة فى الإسلام ، ففى كل ناحية له فضل ؛ لذلك أعطاه وصفيْن مثل ما أعطى للنبى ﷺ ، فقال للصِّديق : ﴿ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا .. (٢٢) ﴾ [النور] وقال للنبى ﷺ : ﴿ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ .. (١٣) ﴾ [المائدة]

كذلك ، ألاَ ترى الصِّدِّيق ثانىَ اثنينِ فى الغار ، وثانى اثنين فى أمور كثيرة ، فهو ثانى اثنين فى الهجرة ، وثانى اثنين فى قبول دعوة الإسلام الأولى ؛ لذلك صدق سيدنا رسول الله ﷺ حين قال عن الصِّديق : « كنت أنا وأبو بكر فى الجاهلية كفرسى رهان » . يعنى : فى التسابق فى الخير « فسبقته إلى النبوة فاتبعنى ، ولو سبقنى إليها لاتبعته »[1] .

ولما كان لأبى بكر أفضال كثيرة فى زوايا متعددة لم يخاطبه بصيغة المفرد ، إنما بصيغة الجمع تكريماً وتعظيماً .

ألاَ ترى الصِّديق مع ما عُرِف عنه من الحلم ورقة القلب لما انتقل رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى وحدثتْ مسألة الردّة يقف ويقول : « والله لو منعونى عقال بعير كانوا يؤدُّونها لرسول الله لجالدتهم

---

(١) عن أبى سعيد الخدرى قال قال رسول الله ﷺ : « إن أمنَّ الناس علىَّ فى صحبته وماله أبو بكر ، ولو كنت متخذاً خليلاً غير ربى لاتخذت أبا بكر ، ولكن أخوة الإسلام ومودته ، لا يبقين فى المسجد باب إلا سُدَّ ، إلا باب أبى بكر » أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٦٥٤) .

بالسيف ، لو لم أجد إلا الذر »[١] .

هذا موقف الصِّديق رقيق القلب ، ليِّن الجانب ، صاحب الرحمة والحنان ، الذى تقول عنه ابنته « إنه رجل بكّاء[٢] » يعنى : كثير البكاء . فى حين يعارضه فى أمر الحرب عمر مع ما عُرِف عنه من الشدة والقسوة على الكفار . لكن هذا التناقض فى موقف كل منهما يقوم دليلاً على أن الإسلام ليس طَبْعاً غالباً على المسلم إنما موقف يعود المسلم إليه ، فموقف الردة هو الذى جعل من الصِّدِّيق أسداً شجاعاً قاسىَ القلب ، ولو أن عمر فى مكانه من المسئولية وفعل كما فعل الصِّدِّيق لقالوا : شِدّة أَلِفها الناس من عمر .

فكأن الإسلام لا يريد أن يطبع المسلم على طبْع خاص يظل عليه ، إنما الموقف هو الذى يطبعك إيمانياً ، وهذا ما ذكرناه فى قوله تعالى : ﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ .. (٢٩)﴾ [الفتح]

فالمسلم ليس مفطوراً لا على الشدة وحدها ، ولا على الرحمة وحدها ، إنما عليه أنْ يتصرَّف فى كل موقف بما يناسبه على ضوء ما شرع الله .

فقوله تعالى : ﴿أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ .. (٢٢)﴾ [النور] يقول للصِّديق : أنت رجل فاضل صِدِّيق ، وعندك سعة فلا تعطى ولا تُؤثر

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٧٢٨٤ ، ٧٢٨٥) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٠) كتاب الإيمان من حديث أبى هريرة بلفظ : « والله لأقاتلن من فرَّق بين الصلاة والزكاة ، فإن الزكاة حق المال ، والله لو منعونى عقالاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعه » .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٧٦) كتاب الصلاة عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : « وكان أبو بكر رجلاً بكاء لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن » .

على نفسك من ضيق ، ولا يليق بالفاضل أن يقطع صلته ورحمه لمثل هذا الخطأ الذى وقع فيه مسْطح ، خاصة أنه أخذ جزاءه كما شرع الله ، وعُوقِبَ بحدِّ القذف ثمانين جلْدة ، وليس لك أن تعاقبه بعد ذلك .

ومن سماحة الإسلام أن مَنْ وقع فى حَدٍّ وعُوقِب به لا يجوز لأحد أنْ يُعيِّره بذنبه ؛ لأنه تاب وأناب وطهّره الله منه بالحدِّ ، وانتهت المسألة ، وليس لأحد أن يدخل بين العبد وربه .

فكأن الحق ـ تبارك وتعالى ـ يقول : ارجع إلى فضلك يا أبا بكر ، وعُدْ أنت إلى سعتك ، وكُنْ موصولَ المروءة ، ولا تقطع رحمك ، يريد ـ سبحانه وتعالى ـ أنْ يُصفِّى ما فى النفوس من آثار هذه الفتنة التى زلزلتْ المجتمع المؤمن فى المدينة .

ولا يليق بذى الفضل والسَّعَة أنْ يعامل الناس بالعدل ، فصحيح أن مسْطح كان يستحق هذه القطيعة وهذا الحرمان ، إنما هذا الجزاء لا يليق بالصِّدِّيق صاحب الفضل والسَّعَة .

ولو أجريتَ إحصاءً للمؤمنين بإله وللكافرين فى الكون ، ستعلم أن المؤمنين قلَّة والكافرين كثرة ، فهل قال الله تعالى لجنود خيره فى الكون : أعطوا مَنْ آمن ، واتركوا مَنْ كفر ؟ وكأن الحق ـ تبارك وتعالى ـ يعطينا مَثَلاً فى ذاته عز وجل ، فكما أنه يعطى مَنْ كفر به ويرزقه ، بل ربما كان أحسن حالاً مِمَّنْ آمن ، فأنت كذلك لا تمنع عطاءك عَمَّنْ أساء إليك .

لذلك يقول سبحانه فى آية أخرى :

﴿ وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٢٤) ﴾ [البقرة]

فإنْ كنت باراً بأحد وبدر منه شيء فلا تحلف بالله أنك لا تبرُّه ، فقد تهدأ ثورتك عليه ، وتريد أنْ تبرَّه ، وتتحجج بحلفك ، إذن : لا تجعلوا الله عُرْضة لحلف يمنعكم من المعروف .

ثم يقول سبحانه : ﴿أَن يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ .. (٢٢)﴾ [النور] صحيح أن مسْطح من ذوى قُرْبى أبى بكر ومن المساكين ، لكن يعطيه الله نيشاناً آخر ، فلم يخرجه مَا قال من وصف المهاجر ، ولم يخرجه ذنبه من هذا الشرف العظيم .

فمن فضل الله تعالى على عباده أن السيئة لا تُحبط الحسنة ، إنما الحسنة بعد السيئة تحبطها ، كما قال عز وجل : ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ .. (١١٤)﴾ [هود]

فرغم ما وقع فيه مسْطح ، فقد أبقاه الله فى العَتْب على أبى بكر ، وتحنين قلبه ، وأبقاه فى المهاجرين .

﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا .. (٢٢)﴾ [النور] العفو : ترك العقوبة على الذنب ، لكن قد تعفو عن المذنب ثم تُؤنبه ، وتمنّ عليه بعفوْك ، وتُذكِّره دائماً أنه لا يستحق منك هذا العفو ؛ لذلك يحثنا ربنا ـ تبارك وتعالى ـ على الصفح بعد العفو ، والصفح : تَرْك المنِّ وعدم ذكر الزلة لصاحبها حتى تصبح العقوبة عنده أهونَ من عفوك عنه .

ذلك لأن الحق سبحانه حينما يُشرِّع للبشر ما يُنظِّم العلاقات بينهم يراعى جميع مَلَكات النفس ، لا يقتصر على الملكات العالية فحسب ، إنما لكل الملكات التى تنتظم الخَلْق جميعاً ، وليأخذ كل منَّا على قَدْر إيمانه وامتثاله لأمر ربه

وفى ذلك يقول سبحانه : ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ (١٢٦)﴾ [النحل]

ولو تأملنا حقيقة المثْلية فى رَدِّ الإساءة لوجدناها صعبة فى تقديرها ، فإنْ ضربكَ شخصٌ ضربة ، أعندك القدرة التى تردُّ بها هذه الضربة بمثلها تماماً بنفس الطريقة ، وبنفس القوة ، وبنفس الألم ، بحيث لا تكون أنت مُعْتدياً ؟ إنك لو تأملتَ هذه المثلية لفضَّلْتَ العفو بدل الدخول فى متاهات أخرى .

وسبق أن ذكرنا قصة المرابى الذى اشترط على المدين إنْ تأخر فى السداد أن يقطع رطلاً من لحمه ، ولما تأخر الرجل فى السداد خاصمه عند القاضى ، وأخبره بما كان بينهما من شرط ، وكان القاضى ذكياً فقال للمرابى : خُذ السكين واقطع رطلاً من لحمه ، لكن إنْ زاد أخذناه منك ، وإنْ نقص أخذناه منك ، فتراجع المرابى لأنه لا يستطيع تقدير هذه المسألة .

فإن انصرفنا عن المعاقبة بالمثل وَسِعَنا العفو ، وانتهت المسألة على خير ما يكون .

وفى مرتبة أخرى يقول سبحانه : ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤)﴾ [آل عمران]

فالحق - تبارك وتعالى - يجعل لنا مراتب فى رَدِّ السيئة ، فالعقاب بالمثل مرتبة ، وكَظْم الغيظ مرتبة ، والعفو مرتبة ، والصفح مرتبة ، وأعْلى ذلك كله مرتبة الإحسان إلى مَنْ أساء إليك ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤)﴾ [آل عمران]

ثم يجعل الحق سبحانه من نفسه أُسْوة لعباده فيقول : ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ .. (٢٢)﴾ [النور] فكما تحب أن يغفر الله لك ذنبك ، فلماذا لا تغفر أنت لمَنْ أساء إليك ؟ وكأن ربنا - عز وجل - يريد أن يُصلح ما بيننا ؛ لذلك لما نزلتْ هذه الآية فى شأن أبى بكر

قال : أحب يا رب ، أحب يا رب ، أحب يا رب[1] .

ومعنى ﴿أَلَا .. ﴿٢٢﴾﴾ [النور] أداة للحضِّ وللحثِّ على هذا الخُلُق الطيب ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [النور] فمن تخلَّق بأخلاق الله تعالى فليكُنْ له غفران ، وليكن لديه رحمة ، ومَنْ منّا لا يريد أن يتصف ببعض صفات الله ، فيتصف بأنه غفور ورحيم ؟

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ[2] الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾

نلحظ أن الآيات تحدثتْ عن حَدِّ القذف وما كان من حادثة الإفك ، ثم ذكرت آية العتاب لأبى بكر فى مسألة الرزق ، ثم عاد السياق إلى القضية الأساسية : قضية القذف ، فلماذا دخلتْ مسألة الرزق فى هذا الموضوع ؟

قالوا : لأن كل معركة فيها خصومة قد يكون لها آثار تتعلق بالرزق ، والرزق تكفَّل الله به لعباده ؛ لأنه سبحانه هو الذى استدعاهم إلى الوجود ، سواء المؤمن أو الكافر ، وحين تعطى المحتاج فإنما أنت مناول عن الله ، ويد الله الممدودة بأسباب الله .

والحق تبارك وتعالى يحترم ملكية الإنسان مع أنه سبحانه رازقه

---

(١) ذكر ابن كثير فى تفسيره (٣/٢٧٦) أن أبا بكر الصديق رضى الله عنه قال : بلى والله إنّا نحب أن تغفر لنا يا ربنا . ثم رجع إلى مسطح ما كان يصله من النفقة وقال : لا أنزعها منه أبداً ، فى مقابلة ما كان قال ، والله لا أنفعه بنافعة أبداً .

(٢) المحصنة : التى أحصنها زوجها . والمحصنات : العفائف من النساء . [لسان العرب - مادة : حصن] .

ومعطيه ، لكن طالما أعطاه صار العطاء ملْكاً لـه ، فإنْ حثَّه على النفقة بعـد ذلك يأخذها منه قَـرْضـاً ؛ لذلك يقول سـبحـانه : ﴿مَن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا .. (٢٤٥)﴾ [البقرة]

فإنْ أنفق المـوسر على المعـسر جعله الله قَرْضـاً ، وتولّى سداده بنفسه ؛ ذلك لأن الله تعالى لا يرجع فى هِبَته ، فطالما أعطاك الرزق ، فلا يأخذه منك إلا قَرْضاً .

لذلك يقول تعالى : ﴿هَـأَنتُمْ هَـؤُلاء تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ .. (٣٨)﴾ [محمد]

وفي موضع آخر يـقول عن الأموال : ﴿إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ[1] تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ (٣٧)﴾ [محمد] لأن الإنسان تعب فى جمع المال وعَرق فى سـبيله ، وأصبح عـزيزاً عليه ؛ لذلك يبخل به ، فـأخذه الله منه قَرْضاً مردوداً بزيادة ، وكان الـرزق والمال بهذه الأهمية لأنه أول مَنَاط لعـمارة الـخليفـة فى الأرض ؛ لذلك ترك الحـديث عن القـضيـة الأساسية هنا ، وذكر هذه الآية التى تتعلَّق بالرزق .

ومن ذلك أيضـاً قـوله تعـالى : ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطَىٰ .. (٢٣٨)﴾ [البـقرة] وقـد ذُكِرَتْ وسط مـسائـل تتعلق بالعـدَّة والكفـارة ، وعِدَّة المـتوفَّى عنهـا زوجهـا ، فمـا علاقـة الصلاة بهـذه المسائل ؟

قالوا : لأن النزاعـات التى تحدث غـالباً ما تُغـيِّر النفس البـشرية وتثير حفيظتها ، فإذا ما قمتَ للوضوء والصلاة تهدأ نفسك وتطمئن .

---

(١) أحفاه : ألح عليه فى السؤال أو طالبـه بقوة وإلحاح . قال تعالى : ﴿إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا .. (٣٧)﴾ [محمـد] أى : إن يجهدكم بطلبـها ويلح عليكم تبخلوا . [القامـوس القويم ١٦٣/١] .

وتستقبل مسائل الخلاف هذه بشىء من القبول والرضا .

نعود إلى قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلاتِ .. (٢٣)﴾ [النور] المحصنة : لها إطلاقات ثلاث ، فهى المتزوجة لأن الإحصان : الحفْظ وكأنها حفظتْ نفسها بالزواج ، أو هى العفيفة ، وإنْ لم تتزوج فهى مُحْصَنَة فى ذاتها ، والمحصنة هى أيضاً الحرة ؛ لأن عملية البغَاء والزنا كانت خاصة بالإماء .

و ﴿الْغَافِلاتِ .. (٢٣)﴾ [النور] : جمع غافلة ، وهى التى لا تدرى بمثل هذه المسائل ، وليس فى بالها شىء عن هذه العملية ، ومن ذلك ما ورد فى الحديث الشريف أن رسول الله ﷺ سأل بريرة خادمة السيدة عائشة : « ما تقولين فى عائشة يا بريرة ؟ » فقالت : تعجن العجين ثم تنام بجانبه فتأتى الدواجن فتأكله وهى لا تدرى[1] . وهذا كناية عن الغفلة لأنها ما زالت صغيرة لم تنضج نُضْج المراهقة ومع نُضْج المراهقة نُضْج اليقين والإيمان .

وتلحظ هذه الغفلة فى البنت الصغيرة حين تقول لها : أتتزوجين فلاناً ؟ تقول : لا أنا أتزوج فلاناً ، ذلك لأنها لا تدرى معنى العلاقة الزوجية ، إنما حينما تكبر وتفهم مثل هذه الأمور فإنْ ذكرتَ لها الزواج تستحى وتخزى أن تتحدث فيه ؛ لأنها عرفتْ ما معنى الزواج .

لذلك لما أمرنا الشرع باستئذان البنت للزواج جعل إذنها سكوتها ، فإن سكتتْ فهذا إذْن منها ، ودليل على فهمها لهذه العلاقة ، إنما إنْ

---

(١) قطعة من حديث طويل عن حادثة الإفك أخرجه البخارى فى صحيحه (٥/٢٦٩ - ٢٧٢ - بشرح فتح البارى) عن عائشة رضى الله عنها وفيه « أن على بن أبى طالب قال : يا رسول الله ، لم يضيق الله عليك ، والنساء سواها كثير ، وسل الجارية تصدقك . فدعا رسول الله ﷺ بريرة فقال : يا بريرة هل رأيت فيها شيئاً يريبك ؟ فقال بريرة : لا والذى بعثك بالحق ، إن رأيت منها أمراً أغمصه عليها قط أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن العجين فتأتى الداجن فتأكله » .

قالت : نعم أتزوجه لأنه جميل و .. و .. ، فهذا يعنى أنها لم تفهم بعد معنى الزواج .

إذن : الغافلة حتى عن مسائل الزواج والعلاقات الزوجية ، ولا تدرى شيئاً عن مثل هذه الأمور كيف تفكر فى الزنا ؟

ثم يذكر ربنا ـ تبارك وتعالى ـ جزاء هذه الجريمة : ﴿لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٢٣)﴾ [النور]

وإن كانت الغافلة هى التى ليس فى بالها مثل هذه الأمور ، ولا تدرى شيئاً حتى عن الزواج والعلاقات الزوجية بين الرجل والمرأة ، فيكيف نقول : إنها تفكر فى هذه الجريمة ؟

واللعْن : هو الطرد والإبعاد من رحمة الله ، وأيضاً الطرد والإبعاد عن حظيرة المؤمنين ؛ لأن القاذف حكمه أنْ يُقام عليه الحدُّ ، ثم تسقط شهادته ، ويسقط اعتباره فى المجتمع الذى يعيش فيه ، فجمع الله عليه الخزى فى الدنيا بالحدِّ وإسقاط الاعتبار ، إلى جانب عذاب الآخرة ، فاللعن فى الدنيا لا يعفيه من عذاب الآخرة .

وقلنا : إن العذاب : إيلام حَىٍّ ، وقد يُوصَف العذاب مرة بأليم ، ومرة بمهين ، ومرة بعظيم[1] ، هذه الأوصاف تدور بين العذاب

---

(١) – ورد وصف العذاب بالأليم فى ٧٢ موضعاً فى القرآن منها : ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (١٠)﴾ [البقرة] ، ﴿وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٣١)﴾ [الإنسان] .

– وورد وصف العذاب بأنه مهين فى ١٤ موضعاً ، منها : ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ (٩٠)﴾ [البقرة] ، ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا (٥٧)﴾ [الأحزاب] .

– وورد وصف العذاب بالعظيم فى ٢٢ موضعاً ، منها : ﴿وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٧)﴾ [البقرة] ، ﴿وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا (٩٣)﴾ [النساء] .

وبالإضافة لهذا فقد وصف الحق سبحانه العذاب بأوصاف أخرى ، منها :

– عذاب شديد : ٢١ مرة .
– عذاب مقيم : ٥ مرات
– عذاب الخلد : مرتان.
– عذاب الخزى : مرتان
– عذاب غليظ : ٤ مرات.
– عذاب قريب : مرة واحدة
– عذاب غير مردود : مرة واحدة.
– عذاب السعير : ٤ مرات وغيرها .

والمعذِّب ، فمن الناس مَنْ لا يؤلمه الجَلْد ، لكن يهينه ، فهو فى حقه عذاب مهين لكرامته ، أما العذاب العظيم فهو فوق ما يتصوَّره المتصوِّر ؛ لأن العذاب إيلام من مُعذِّب لمعذَّب ، والمعذِّب فى الدنيا يُعذِّب بأيدى البشر وعلى قَدْر طاقته ، أمّا العذاب فى الآخرة فهو بجبروت الله وقَهْر الله ؛ لذلك يوُصَف بأنه عظيم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

نعلم جميعاً أن اللسان هو الذى يتكلم ، فماذا أضافت الآية : ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ .. ﴿٢٤﴾ ﴾ [النور]

قالوا : فى الدنيا يتكلم اللسان وينطق ، لكن المتكلم فى الحقيقة أنت ؛ لأنه مَا تحرَّك إلا بمرادك له ، فاللسان آلة خاضعة لإرادتك ، إذن : فهو مجرد آلة ، أمَّا فى الآخرة فسوف ينطق اللسان على غير مراد صاحبه ؛ لأن صاحبه ليس له مراد الآن .

ولتقريب هذه المسألة : ألاَ ترى كيف يخرس الرجل اللبيب المتكلم ، ويُمسك لسانه بعد طلاقته ، بسبب مرض أو نحوه ، فلا يستطيع بعدها الكلام ، وهو ما يزال فى سَعَة الدنيا . فما الذى حدث ؟ مجرد أن تعطلتْ عنده آلة الكلام ، فهكذا الأمر فى الآخرة تتعطل إرادتك وسيطرتك على جوارحك كلها ، فتنطق وتتحرك ، لا بإرادتك ، إنما بإرادة الله وقدرته .

فالمعنى ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ .. ﴿٢٤﴾ ﴾ [النور] أى : شهادة ونطقاً على مراد الله ، لا على مراد أصحابها .

ولمَ نستبعد نُطْق اللسان على هذه الصورة ، وقد قال تعالى : ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس] وقد جعل فيك أنت أيها الإنسان نموذجاً يؤكد صدْق هذه القضية . فَقُلْ لى : ماذا تفعل إنْ أردتَ أن تقوم الآن من مكان ؟ مجرد إرادة القيام ترى نفسك قد قُمْتَ دون أن تفكر فى شىء ، ودون أن تستجمع قواك وفكرك وعضلاتك ، إنما تقوم تلقائياً دون أن تدرى حتى كيفية هذا القيام ، وأىّ عضلات تحركت لآدائه .

ولك أنْ تقارن هذه الحركة التلقائية السَّلِسة بحركة الحفار أو الأوناش الكبيرة ، وكيف أن السائق أمامه عدد كبير من العِصىِّ والأذرع ، لكل حركة فى الآلة ذراع معينة .

فإذا كان لك هذه السيطرة وهذا التحكم فى نفسك وفى أعضائك ، فكيف تستبعد أن يكون لربك ـ عز وجل ـ هذه السيطرة على خَلْقه فى الآخرة ؟

إذن : فاللسان محلّ القول ، وهو طَوْع إرادتك. فى الدنيا ، أمّا فى الآخرة فقد شُلَّتْ هذه الإرادة ودخلتْ فى قوله تعالى : ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾﴾ [غافر]

ثم يقول سبحانه : ﴿وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [النور] وهذه جوارح لم يكُنْ لها نُطْق فى الدنيا ، لكنها ستنطق اليوم . ويحاول العلماء تقريب هذه المسألة فيقولون : إن الجارحة حين تعمل أىَّ عمل يلتقط لها صورة تسجل ما عملتْ ، فنُطْقها يوم القيامة أن تظهر هذه الصورة التى التقطت .

والأقرب من هذا كله أن نقول : إنها تنطق حقيقة ، كما قال تعالى حكايةً عن الجوارح : ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ

الَّذِى أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢١) ﴾ [فصلت]

ومعنى : ﴿الَّذِى أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ أن لكل شىء فى الكون نُطْقاً يناسبه ، كما نطقت النملة وقالت : ﴿يَـٰأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَـٰكِنَكُمْ .. (١٨) ﴾ [النمل] ونطق الهدهد ، فقال : ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَأٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ (٢٢) ﴾ [النمل]

وقد قال تعالى عن نُطْق هذه الأشياء : ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَـٰكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. (٤٤) ﴾ [الإسراء]

لكن ، إنْ أراد الله لك أن تفقه نُطْقهم فقَّهك كما فقَّه سليمان عليه السلام ، حين فهم عن النملة : ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا .. (١٩) ﴾ [النمل] كما فَهِم عن الهدهد ، وخاطبه فى قضية العقيدة .

وإنْ كان النطق عادةً يفهم عن طريق الصوت ، فلكل خَلْق نُطْقه الذى يفهمه جنسه ؛ لذلك نسمع الآن مع تقدُّم العلوم عن لُغة للأسماك ، ولغة للنحل ... إلخ .

وسبق أنْ قلنا : إن الذين قالوا من معجزات النبى ﷺ أن الحصى سبّح فى يده ، نقول : عليكم أن تُعدِّلوا هذه العبارة ، قولوا : سمع رسول الله ﷺ تسبيح الحصى فى يده ، وإلاَّ فالحصى مُسبِّح فى يده ﷺ ، كما هو مُسبِّح فى يد أبى جهل .

ولو سألتَ هذه الجوارح : لم شهدتِ علىَّ وأنت التى فعلت ؟ لقالت لك : فعلنا لأننا كنا على مرادك مقهورين لك ، إنما يوم ننحلّ عن إرادتك ونخرج عن قهرك ، فلن نقول إلا الحق .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴿٢٥﴾ ﴾

قوله : ﴿ يَوْمَئِذٍ .. ﴿٢٥﴾ ﴾ [النور] أى : يوم أنْ تحدث هذه الشهادة ، وهو يوم القيامة ﴿ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ .. ﴿٢٥﴾ ﴾ [النور] الدين : يُطلَق على منهج الله لهداية الخَلْق ، ويُطلق على يوم القيامة ، ويُطلَق على الجزاء .

فالمعنى : يوفيهم الجزاء الذى يستحقونه ﴿ الْحَقَّ .. ﴿٢٥﴾ ﴾ [النور] أى : العدل الذى لا ظلمَ فيه ولا تغيير ، فليس الجزاء جُزَافاً ، إنما جزاء بالحق ؛ لأنه لم يحدث منهم توبة ، ولا تجديد إيمان ؛ لذلك لا بُدَّ أنْ يقع بهم ما حذرناهم منه وأخبرناهم به من العقاب ، وليس هناك إله آخر يُغيِّر هذا الحكم أو يؤخره عنهم .

لذلك بعد أنْ قال تعالى : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ[1] وَتَبَّ ﴿١﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَامْرَأَتُهُ[2] حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾ ﴾ [المسد]

قال بعدها : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾ ﴾ [الإخلاص]

---

(١) أبو لهب : هو عبد العزى بن عبد المطلب بن هاشم ، قرشى ، عمّ رسول الله ﷺ من أشد الناس عداوة للمسلمين ، كان غنياً عتياً ، كبر عليه أن يتبع ديناً جاء به ابن أخيه ، فآذى أنصاره ، وحرض عليهم وقاتلهم ، كان أحمر الوجه مشرقاً ، فلقب فى الجاهلية بأبى لهب ، مات بعد وقعة بدر بأيام عام ٢ هـ . [الأعلام للزركلى ٤/١٢] .

(٢) هى : أم جميل ، واسمها أروى بنت حرب بن أمية وهى أخت أبى سفيان ، وكانت عوناً لزوجها أبى لهب على كفره وجحوده وعناده ، فلهذا تكون يوم القيامة عوناً عليه فى عذابه فى نار جهنم ، فتحمل الحطب فتلقى على زوجها ليزداد على ما هو فيه . [قاله ابن كثير فى تفسيره ٤/٥٦٤] .

يعنى : ليس هناك إله آخر يُغيِّر هذا الكلام ، فما قُلْته سيحدث لا محالةَ .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴿٢٥﴾ ﴾ [النور] و ﴿ الْحَقُّ .. ﴿٢٥﴾ ﴾ [النور] هو الشىء الثابت الذى لا يتغير ، فكلُّ ما عدا الله تعالى مُتغير ، إذن : فالله بكل صفات الكمال فيه سبحانه لا تغييرَ فيه ، لذلك يقولون : إن الله تعالى لا يتغير من أجلنا ، ولكن يجب أنْ نتغير نحن من أجل الله ، كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ .. ﴿١١﴾ ﴾ [الرعد]

فالله هو الحقُّ الثابت ، هذا بالبراهين العقلية وبالواقع ، وقد عرفنا الكثير من البراهين العقلية ، أما الواقع فإلى الآن لم يظهر مَنْ يقول أنا الله ويدَّعى هذا الكون لنفسه ، وصاحب الدعوى تثبت له إنْ لم يَقُمْ عليها معارض ومعنى ﴿ الْمُبِينُ ﴿٢٥﴾ ﴾ [النور] الواضح الظاهر الذى تشمل أحقيتُه الوجودَ كله .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ ۖ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ ۚ أُولَٰئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾ ﴾

قلنا فى تفسير ﴿ الزَّانِي لا يَنكِحُ إِلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لا يَنكِحُهَا إِلاَّ زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ .. ﴿٣﴾ ﴾ [النور] أن الزواج يقوم على التكافؤ ، حتى لا يستعلى طرف على الآخر ، ومن هذا التكافؤ قوله تعالى : ﴿ الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ .. ﴿٢٦﴾ ﴾ [النور]

ثم يقول سبحانه : ﴿أُوْلَـٰئِكَ .. ﴿٢٦﴾﴾ [النور] أى : الذين دارتْ عليهم حادثة الإفك ، وخاض الناس فى حقهم ، وهما عائشة وصفوان ﴿مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ .. ﴿٢٦﴾﴾ [النور] أى : مما يُقَال عنهم ، بدليل هذا التكافؤ الذى ذكرتْه الآية ، فمن أطيبُ من رسول الله ﷺ ؟ وكما ذكرنا أن الله تعالى ما كان ليُدلِّس على رسوله ﷺ ويجعل من زوجاته مَنْ تحوم حولها الشبهات .

إذن : فلا بُدَّ أن تكون عائشة طَيِّبةً طِيبةً تكافى وتناسب طِيبة رسول الله ؛ لذلك برَّأها الله مما يقول المفترون .

وقوله : ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾ [النور] مغفرة نزلتْ من السماء قبل القيامة ، ورزق كريم ، صحيح أن الرزق كله من الله بكرم ، لكن هنا يراد الرزق المعنوى للكرامة وللمنزلة وللسمو ، لا الرزق الحسىّ الذى يقيم قِوام البدن من أكل وشرب وخلافه .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ (١) وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾﴾

كلمة بيت : نفهم منها أنه ما أعدّ للبيتوتة ، حيث يأوى إليه الإنسان آخر النهار ويرتاح فيه من عناء اليوم ، ويُسمَّى أيضاً الدار ؛ لأنها تدور على مكان خاص بك ؛ لذلك كانوا فى الماضى لا يسكنون إلا فى بيوت خاصة مستقلة لا شركة فيها مثل العمارات الآن ،

---

(١) أى : حتى تطلبوا الأُنْس والألفة والرضا ، أو حتى تستشعروا الأُنْس وتعلموه . [القاموس القويم ١/٣٧] .

يقولون : بيت من بابه . حيث لا يدخل ولا يخرج عليك أحد ، وكان السَّكَن بهذه الطريقة عصْمةً من الريبة ؛ لأنه بيتك الخاص بأهلك وحدهم لا يشاركهم فيه أحد .

لكن هناك أمور تقتضى أنْ يدخل الناس على الناس ؛ لذلك تكلم الحق - تبارك وتعالى - هنا عن آداب الاستئذان وعن المبادىء والنظم التى تنظم هذه المسألة ؛ لأن ولوج البيوت بغير هذه الآداب ، ودون مراعاة لهذه النظم يُسبِّب أموراً تدعو إلى الرِّيبة والشك ؛ لذلك فى الفلاحين حتى الآن : إذا رأوا شخصاً غريباً يدخل حارة[1] لا علاقة له بها لا بُدَّ أن يسأل : لماذا دخل هنا ؟

إذن : فشرْع الله لا يحرم المجتمع من التلاقى ، إنما يضع لهذا التلاقى حدوداً وآداباً تنفى الرّيْب والشبهة التى يمكن أنْ تأتى فى مثل هذه المسائل .

لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى فى آداب الاستئذان : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا .. (٢٧) ﴾ [النور]

﴿ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا .. (٢٧) ﴾ [النور] من الأُنْس والاطمئنان ، فحين تجلس وأهلك فى بيتك ، وأقبل عليك غريب لا تعرفه ، إذا لم يُقدِّم لك ما تأنس به من الحديث أو الاستئذان لا بُدَّ أن تحدث منه وَحْشة ونفور إذن : على المستأذن أن يحدث من الصوت ما يأنس به صاحب الدار ، كما نقول : يا أهل الله ، أو نطرق الباب ، أو نتحدث مع الولد الصغير ليخبر مَنْ بالبيت .

ذلك لأن للبيوت حرمتها ، وكل بيت له خصوصياته التى لا يحب

---

(١) الحارة : كل محلَّة دنت منازلهم فهم أهل حارة . [قاله ابن منظور فى لسان العرب - مادة : حير] .

صاحب البيت أن يطّلع عليها أحد ، إما كرامةً لصاحب البيت ، وإما كرامة للزائر نفسه ، فالاستئذان يجعل الجميع يتحاشى ما يؤذيه .

لذلك قال تعالى بعدها : ﴿ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ .. (٢٧) ﴾ [النور]

أى : خير للجميع ، للزائر وللمزور ، فالاستئذان يمنع أن يتجسس أحد على أحد ، يمنع أن ينظر أحد إلى شىء يؤذيه ، وهَبْ أن أبا الزوجة أراد زيارتها ودخل عليها فجأة فوجدها فى شجار مع زوجها ، فلربما اطلع على أمور لا ترضيه ، فيتفاقم الخلاف .

ثم تختم الآية بقوله تعالى : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٢٧) ﴾ [النور] يعنى : احذروا أن تغفلوا هذه الآداب ، أو تتهاونوا فيها ، كمَنْ يقولون : نحن أهلٌ أو أقارب لا تكليفَ بيننا ؛ لأن الله تعالى الذى شرع لكم هذه الآداب أعلَمُ بما فى نفوسكم ، وأعلم بما يُصلِحكم .

بل ويتعدى هذا الأدب الإسلامى من الغريب إلى صاحب البيت نفسه ، ففى الحديث الشريف « نهى أن يطرق المسافر أهله بليل »[1] إنما عليه أن يخبرهم بقدومه حتى لا يفاجئهم وحتى يستعد كل منهما لملاقاة الآخر .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨) ﴾

---

(١) عن جابر بن عبد الله قال ، قال رسول الله ﷺ : « إذا أطال أحدكم الغيبة فلا يطرق أهله ليلاً » . أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٢٤٤) ومسلم فى صحيحه (١٥٢٨/٣) كتاب الإمارة .

فإذا استأذنتَ على بيت ليس فيه أحد ، فلا تدخل ؛ لأنك جئتَ للمكين لا للمكانَ ، إلا إذا كنتَ تريد الدخول لتتلصص على الناس وتتجسَّس عليهم .

وقوله تعالى : ﴿حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ .. ﴿٢٨﴾﴾ [النور] كيف والدار ليس فيها أحد ؟

ربما كان صاحب الدار خارجها ، فلما رآك تستأذن نادى عليك من بعيد : تفضل . فلا بُدَّ أنْ يأذن لك صاحب الدار أو مَنْ ينوب عنه فى الإذن ؛ لأنه لا يأذن إلا وقد أمِن خُلو الطريق مما يؤذيك ، أو مما يؤذى أهل البيت .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ .. ﴿٢٨﴾﴾ [النور]

لأنك إنْ تمسكت بالدخول بعد أنْ قال لك : ارجع فقد أثرت الريبة فى نفسه ، فعليك أن تمتثل وتحترم رغبة صاحب الشأن ، فهذا هو الأزكى والأفضل ، ألاَ ترى قول رسول الله ﷺ : « دَعْ ما يريبك إلى ما لا يريبك »[1] .

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [النور] أى : عالم سبحانه بدخائل النفوس ووساوس الصدور ، فإنْ قال لك صاحب الدار ارجع فوقفتَ أمام الباب ولم تنصرف ، فإنك تثير حولك الظنون والأوهام ، وربك - عز وجل - يريد أنْ يحميك من الظنون ودخائل النفوس .

ثم يقول الحق سبحانه :

---

(١) أخرجه أبو داود الطيالسى فى مسنده (١١٧٨) ، والإمام أحمد فى مسنده (١/٢٠٠) والترمذى فى سننه (٢٥١٨) وقال : حديث حسن صحيح ، من حديث الحسن بن على رضى الله عنهما ، وتمامه : « فإن الصدق طمأنينة ، وإن الكذب ريبة » .

﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾﴾

سأل الصِّديق أبو بكر رضى الله عنه رسول الله ﷺ : يا رسول الله نحن قوم أهل تجارة ، نذهب إلى بلاد ليس لنا فيها بيوت ولا أهل ، ونضطر لأن ننزل فى أماكن (عامة كالفنادق) نضع فيها متاعنا ونبيت بها ، فنزلت هذه الآية[1] .

و ﴿جُنَاحٌ .. ﴿٢٩﴾﴾ [النور] يعنى : إثم أو حرج ، وهذه خاصة بالأماكن العامة التى لا يسكنها أحد بعينه ، والمكان العام له قوانين فى الدخول غير قوانين البيوت والأماكن الخاصة ، فهل تستأذن فى دخول الفندق أو المحل التجارى أو الحمام ... إلخ ، هذه أماكن لا حرجَ عليك فى دخولها دون استئذان .

فمعنى ﴿غَيْرَ مَسْكُونَةٍ .. ﴿٢٩﴾﴾ [النور] أى : لقوم مخصوصين ﴿فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ .. ﴿٢٩﴾﴾ [النور] كأن تنام فيها وتأكل وتشرب وتضع حاجياتك ، فالمتاع هنا ليس على إطلاقه إنما مقيد بما أحلَّه الله وأمر به ، فلا يدخل فى المتاع المحرمات .

لذلك قال بعدها : ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [النور] يعنى : فى تحديد الاستمتاع ، فلا تأخذه على إطلاقه فتُدخل فيه

---

(١) أخرج ابن أبى حاتم عن مقاتل بن حيان قال : لما نزلت آية الاستئذان فى البيوت ، قال أبو بكر : يا رسول الله ، فكيف بتجار قريش الذين يختلفون (أى : يتنقلون ويترددون) بين مكة والمدينة والشام ، ولهم بيوت معلومة على الطريق ، فكيف يستأذنون ويسلمون وليس فيها سكان ؟ فنزلت ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ .. ﴿٢٩﴾﴾ [النور] . أورده السيوطى فى أسباب النزول (ص ١٢٧ ـ طبعة دار التحرير للطبع والنشر ١٩٦٣م) .

الحرامَ ، وإلا فالبغايا كثيراً ما يرتادون مثل هذه الأماكن ؛ لذلك يُحصِّنك ربك ، ويعطيك المناعة اللازمة لحمايتك .

ثم يقول رب العزة سبحانه :

﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

تحدثت سورة النور من أولها عن مسألة الزنا والقذف والإحصان ، وحذرتْ من اتباع خطوات الشيطان التى تؤدى إلى هذه الجريمة ، وتحدثت عن التكافؤ فى الزواج ، وأن الزانى للزانية ، والزانية للزانى ، والخبيثون للخبيثات والطيبون للطيبات .

وهذا منهج متكامل يضمن سلامة المجتمع والخليفة لله فى أرضه ، فالله تعالى يريد مجتمعاً تضىء فيه القيم السامية ، مجتمعاً يخلو من وسائل (العكننة) والمخالفة والشَّحْناء والبغضاء ، فلو أننا طبَّقنا منهج الله الذى ارتضاه لنا لارتاح الجميع فى ظله .

ومسألة غَضِّ البصر التى يأمرنا بها ربنا ـ عز وجل ـ فى هذه الآية هى صمام الأمان الذى يحمينا من الانزلاق فى هذه الجرائم البشعة ، ويسد الطريق دونها ؛ لذلك قال تعالى : ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ .. ﴿٣٠﴾ ﴾ [النور]

وقلنا : إن للإنسان وسائل إدراكات متعددة ، وكل جهاز إدراك له مناط : فالأذن تسمع الصوت ، والأنف يشم الرائحة ، واللسان للكلام ، ولذوْق المطعومات ، والعين لرؤية المرئيات ، لكن أفتن شىء يصيب الإنسان من ناحية الجنس هى حاسَّة البصر ؛ لذلك وضع

الشارع الحكيم المناعة اللازمة فى طرفى الرؤية فى العين الباصرة وفى الشىء المبصر ، فأمر المؤمنين بغضِّ أبصارهم ، وأمر المؤمنات بعدم إبداء الزينة ، وهكذا جعل المناعة فى كلا الطرفين .

وحين تتأمل مسألة غَضِّ البصر تجدها من حيث القسمة العقلية تدور حول أربع حالات : **الأولى** : أن يغضَّ هو بصره ولا تبدى هى زينتها ، فخطّ الفتنة مقطوع من المرسل ومن المستقبل ، **الثانية** : أن يغضَّ هو بصره وأن تبدى هى زينتها ، **الثالثة** : أن ينظر هو ولا تبدى هى زينتها . وليس هناك خطر على المجتمع أو فتنة فى هذه الحالات الثلاث فإذا توفر جانب انعدم الآخر . إنما الخطر فى القسمة **الرابعة** : وهى أن ينظر هو ولا يغضّ بصره ، وأنْ تتزين هى وتُبدى زينتها ، ففى هذه الحالة فقط يكون الخطر .

إذن : فالحق - تبارك وتعالى - حرَّم حالة واحدة من أربع حالات ؛ ذلك لأن المحرّمات هى الأقل دائماً ، وهذا من رحمة الله بنا ، بدليل قوله تعالى : ﴿ **قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ** .. (١٥١) ﴾ [الأنعام] فالمحرمات هى المحصورة المعدودة ، أمّا المحللات فهى فوق الحصر والعَدِّ ، فالأصل فى الأشياء أنها حلال ، وإذا أراد الحق سبحانه تحريم شىء نَصَّ عليه ، فانظر إلى هذه المعاملة الطيبة من ربك عز وجل .

وكما أمر الرجل بغضِّ بصره ، كذلك أُمِرَتْ المرأة بغضِّ بصرها ، لأن اللَّفْتة قد تكون أيضاً للرجل ذى الوسامة و .. و فإنْ كان حظ المرأة فى رجل تتقحمه العين ، فلربما نظرتْ إلى غيره ، فكما يُقال فى الرجال يُقال فى النساء .

هذا الاحتياط وهذه الحدود التى وضعها الله عز وجل وألزمنا بها

إنما هى لمنع هذه الجريمة البشعة التى بُدِئَتْ بها هذه السورة ؛ لأن النظر أول وسائل الزنا ، وهو البريد لما بعده ، ألاَ ترى شوقى رحمه الله حين تكلم عن مراحل الغَزَل يقول :

نَظْرَةٌ فابتسَامَةٌ فسَلاَمٌ فكَلامٌ فموعِدٌ فلِقَاءٌ

فالأمر بغَضِّ البصر ليسدَّ منافذ فساد الأعراض ، ومَنْع أسباب تلوث النسل ؛ ليأتى الخليفة لله فى الأرض طاهراً فى مجتمع طاهر نظيف شريف لا يتعالى فيه أحد على أحد ، بأن له نسباً وشرفاً ، والآخر لا نسبَ له .

ذلك ليطمئن كل إنسان على أن مَنْ يليه فى الخلافة من أبناء أو أحفاد إنما جاءوا من طريق شرعىٍّ شريف ، فيجتهد كل إنسان فى أن يُنشِّىء أطفاله تنشئةً فيها شفقة ، فيها حنان ورحمة ؛ لأنه واثق أنه ولده ، ليس مدسوساً عليه ، وأغلب الظن أن الذين يُهملون أطفالهم ولا يُراعون مصالحهم يشكُّون فى نسبهم إليهم .

ولا يصل المجتمع إلى هذا الطُّهْر إلا إذا ضمنتَ له الصيانة الكافية ، لئلا تشرد منه غرائز الجنس ، فيعتدى كل نظر على مَا لا يحلّ له ؛ لأن النظر بريد إلى القلوب ، والقلوب بريد إلى الجنس ، فلا يعفّ الفرج إلا بعفاف النظر .

ونلحظ فى قوله تعالى : ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ .. ﴿٣٠﴾﴾ [النور] دقة بلاغ الرسول عن ربه ـ عز وجل ـ وأمانته فى نقل العبارة كما أُنزلَتْ عليه ، ففى هذه الآية كان يكفى أن يقول رسول الله : غُضُّوا أبصَاركم ، لكنه التزم بنص ما أُنزل عليه ؛ لأن القرآن لم ينزل للأحكام فقط ، وإنما القرآن هو كلام الله المنزّل على رسوله والذى يُتعبَّد بتلاوته ، فلا بُدَّ أنْ يُبلّغه الرسول كما جاءه من ربه .

لذلك قال فى البلاغ عن الله (قُلْ) وفى الفعل (يَغضُّوا) دلالةً على ملحظية (قل) ، فالفعل (يغضوا) مضارع لم تسبقه أداة جزم ، ومع ذلك حُذفت منه النون ، ذلك لأنه جعل (قُلْ) ملحظية فى الأسلوب .

والمعنى : إنْ تقُل لهم غُضُّوا أبصاركم يغضُّوا ، فالفعل - إذن - مجزوم فى جواب الأمر (قُلْ) .

إذن ﴿ قُل .. ﴿٣٠﴾ ﴾ [النور] تدل على أمانة الرسول فى البلاغ ، وعلى أن القرآن ما نزل للأحكام فحسب ، إنما هو أيضاً كلام الله المعجز ؛ لذلك نحافظ عليه وعلى كل لفظة فيه ، وكأن رسول الله ﷺ يقول : ما أتيتُ لكم بشىء من عندى ، ومهمتى أن أبلغكم ما قاله الله لى .

وقوله : ﴿ لِّلْمُؤْمِنِينَ .. ﴿٣٠﴾ ﴾ [النور] فما داموا مؤمنين بإله حكيم ، وقد دخلوا حظيرة الإيمان باختيارهم لم يُرغمهم عليه أحد ، فلا بُدَّ أنْ يلتزموا بما أمرهم ربهم به وينفذوه بمجرد سماعه .

والغَضُّ : النقصان ، يقال : فلان يغُضُّ من قَدْر فلان يعنى : ينقصه ، فكيف يكون النقصان فى البصر ؟ أينظر بعين واحدة ؟ قالوا : البصر له مهمة ، وبه تتجلى المرائى ، والعين مجالها حر ترى كل ما أمامها سواء أكان حلالاً لها أو مُحرّماً عليها .

فنقص البصر يعنى : قَصْره على ما أحل ، وكفّه عما حُرم ، فالنقص نقص فى المرائى وفى مجال البصر ، فلا تعطى له الحرية المطلقة فينظر إلى كل شىء ، إنما تُوقفه عند أوامر الله فيما يُرى وفيما لا يُرى .

و ﴿ مِنْ .. ﴿٣٠﴾ ﴾ [النور] فى قوله تعالى : ﴿ مِنْ أَبْصَارِهِمْ .. ﴿٣٠﴾ ﴾ [النور] البعض يرى أنها للتبعيض كما تقول : كُلْ من هذا الطعام يعنى : بعضاً منه ، فالمعنى : يغضُّوا بعض البصر ؛ لأن بَعضه حلال لا أغض عنه بصرى ، وبعضه محرم لا أنظر إليه .

أو : أن ﴿مِنْ .. ﴿٣٠﴾﴾ [النور] هنا لتأكيد العموم فى أدنى مراحله ، وسبق أن تكلمنا عن (منْ) بهذا المعنى ، ونحن كلما توغلنا فى التفسير لا بُدّ أن تقابلنا أشياء ذكَرناها سابقاً ، ونحيل القارىء عليها .

قلنا : فرق بين قولك : ما عندى مال ، وقولك : ما عندى من مال . ما عندى مال ، يحتمل أن يكون عندك مال قليل لا يُعْتدّ به ، لكن ما عندى من مال نفى لجنس المأل مهما قَلَّ ، فمِنْ تعنى بدايةَ ما يقال له مال .

فالمعنى هنا : ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ .. ﴿٣٠﴾﴾ [النور] يعنى : بداية مَا يُقال له بصر ، ولو لمحة خاطفة ، ناهيك عن التأمل وإدامة البصر .

وقلنا : إن الشرع لا يتدخل فى الخواطر القلبية والهواجس ، إنما يتدخل فى الأعمال النزوعية التى يترتب عليها فعل ، قلنا : لو مررتَ ببستان فرأيتَ به وردة جميلة ، فأعجبت بها وسُرِرْت وانبسطتْ لها أسارير نفسك ، كل هذا مباح لك لا حرجَ عليك فيه ، فإنْ تعدَّى الأمر ذلك فمددتَ إليها يدك لتقطفها ، هنا يتدخل الشرع يقول لك : قِفْ ، فليس هذا من حقك لأنها ليستْ لك .

هذه قاعدة عامة فى جميع الأعمال لا يستثنى منها إلا النظر وحده ، وكأن ربنا ـ عز وجل ـ يستسمحنا فيه ، هذه المسألة من أجلنا ولصالحنا نحن ولراحتنا ، بل قل رحمة بنا وشفقة علينا من عواقب النظر وما يُخلِّفه فى النفس من عذابات ومواجيد .

ففى نظر الرجل إلى المرأة لا نقول له : انظر كما تحب واعشق كما شئت ، فإن نزعْتَ إلى ضمة أو قبلة قلنا لك : حرام . لماذا ؟ لأن الأمر هنا مختلف تماماً ، فعلاقة الرجل بالمرأة لها مراحل لا تنفصل إحداها عن الأخرى أبداً .

فساعة تنظر إلى المرأة هذا إدراك ، فإنْ أعجبتْك وانبسطتْ لها أساريرك ، فهذا وجدان ، لا بُدَّ أن يترك فى تكوينك تفاعلاً كيماوياً لا يهدأ ، إلا بأن تنزع فإنْ طاوعْتَ نفسك فى النزوع فقد اعتديتَ ، وإنْ كبتَّ فى داخلك هذه المشاعر أصابتْك بعُقد نفسية ودعتْك إلى أن تبحث عن وسيلة أخرى للنزوع ؛ لذلك رحمك ربك من بداية الأمر ودعاك إلى مَنْع الإدراك بغضِّ البصر .

لذلك بعد أن أمرنا سبحانه بغضِّ البصر قال : ﴿ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ .. ﴿٣٠﴾ ﴾ [النور] لأنك لا تملك أن تفصل النزوع عن الوجدان ، ولا الوجدان عن الإدراك ، وإنْ أمكن ذلك فى الأمور الأخرى ، فحين نمنعك عن قطف الوردة التى أعجبتْك لا يترك هذا المنع فى نفسك أثراً ولا وَجْداً ، على خلاف ما يحدث إنْ مُنعتَ عن امرأة أعجبتك ، وهيَّجك الوجدان إليها .

وحفْظ الفروج يكون بأن نقصرها على ما أحلَّه الله وشرعه فلا أنيله لغَير مُحلَّل له ، سواء كان من الرجل أو من المرأة ، أو : أحفظه وأصونه أن يُرى ؛ لأن رؤيته تهيج إلى الشر وإلى الفتنة .

﴿ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ .. ﴿٣٠﴾ ﴾ [النور] يعنى : أطهر وأسلم وأدْعَى لراحة النفس ؛ لأنه إما أن ينزع فيرتكب محرماً ، ويلج فى أعراض الناس ، وإما ألا ينزع فيُكدِّر نفسه ويُؤلمها بالصبر على مَا لا تطيق .

ثم يقول سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [النور] فهو سبحانه خالق هذه النفس البشرية ، وواضع مسألة الشهوة والغريزة الجنسية التى هى أقوى الغرائز ليربط بها بين الرجل والمرأة ، وليحقق بها عملية النسل وبقاء الاستخلاف فى الأرض ، ولو لم تربط هذه العلاقة بالشهوة الملّحة لزهَدَ الكثيرون فى الزواج وفى الإنجاب وما يترتب عليه من تبعات .

ألاَ ترى المرأة وما تعانيه من آلام ومتاعب فى مرحلة الحمل ، وأنها ترى الموت عند الولادة ، حتى إنها لتقسم أنها لا تعود ، لكن بعد أن ترى وليدها وتنسى آلامها سرعان ما يعاودها الحنين للإنجاب مرة أخرى ، إنها الغريزة التى زرعها الله فى النفس البشرية لدوام بقائها .

وللبعض نظرة فلسفية للغرائز ، خاصة غريزة الجنس ، حيث جعلها الله تعالى أقوى الغرائز ، وربطها بلذة أكثر أثراً من لذة الطعام والشراب والشَّمِّ والسماع .. إلخ فهى لذة تستوعب كل جوارح الإنسان وملكاته ، وما ذلك إلا حِرْصاً على بقاء النوع ودواماً للخلافة فى الأرض .

ثم يقول الحق سبحانه لرسوله :

﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ (١) أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ (٢) مِنَ

---

(١) البعل : الزوج والزوجة فهو مصدر سمى به بلفظه فلا يؤنث ، والجمع : بعول [القاموس القويم ١/٧٦] .

(٢) غير أولى الإربة : أى : غير أولى الحاجة . والإربة الحاجة . والجمع مآرب أى حوائج . قال القرطبى فى تفسيره (٦/٤٧٧١) : « اختلف الناس فى معناه ، فقيل : هو الأحمق الذى لا حاجة به إلى النساء . وقيل : الأبله . وقيل : الرجل يتبع القوم فيأكل معهم ويرتفق بهم وهو ضعيف لا يشتهى النساء » ثم قال : « وهذا الاختلاف كله متقارب المعنى ، ويجتمع فيمن لا فهم له ولا همة ينتبه بها إلى أمر النساء » .

ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾

ذكر هنا المقابل ، فأمر النساء بما أمر به الرجال ، ثم زاد هنا مسألة الزينة . والزينة : هى الأمر الزائد عن الحد فى الفطرية ؛ لذلك يقولون للمرأة الجميلة بطبيعتها والتى لا تحتاج إلى أن تتزين : غانية[1] يعنى : غنيت بجمالها عن التزيُّن فلا تحتاج إلى كحل فى عينيها ، ولا أحمر فى خدَّيْها ، لا تحتاج أن تستر قُلْبها[2] بأسورة ، ولا صدرها بعقد .. إلخ .

فإنْ كانت المرأة دون هذا المستوى احتاجتْ لشىء من الزينة ، لكن العجيب أنهن يُبالغْنَ فى هذه الزينة حتى تصبح كاللافتة النيون على كشك خشبى مائل ، فترى مُسنَّات يضعْنَ هذا الألوان وهذه المساحيق ، فيَظْهَرن فى صورة لا تليق ؛ لأنه جمال مُصْطنع وزينة متكلفة يسمونها تطرية ، وفيها قال المتنبى ، وهو يصف جمال المرأة البدوية وجمال الحضرية :

حُسْن الحضارة مَجْلوبٌ بتطْرِيةٍ ... وفى البَدَاوة حُسْنٌ غير مَجْلُوب[3]

ومن رحمة الله بالنساء أن قال بعد ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ .. ﴿٣١﴾﴾ [النور] قال : ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا .. ﴿٣١﴾﴾ [النور] يعنى : الأشياء

---

(١) الغانية : الجارية الحسناء ، ذات زوج كانت أو غير ذات زوج ، سميت غانية لأنها غنيت بحسنها عن الزينة . [لسان العرب ـ مادة : غنى] .

(٢) القُلْب : سوار المرأة . والقُلْب من الأسورة : ما كان قلداً واحداً . [لسان العرب – مادة : قلب] .

(٣) الحضارة : الإقامة فى الحضر . والحضر : خلاف البادية ، وهى المدن والقرى والريف . سميت بذلك لأن أهلها حضروا الأمصار ومساكن الديار التى يكون لهم بها قرار . [لسان العرب ـ مادة : حضر] .

الضرورية ، فالمرأة تحتاج لأنْ تمشى فى الشارع ، فتظهر عينيها وربما فيها كحل مثلاً ، وتظهر يدها وفيها خاتم أو حناء ، فلا مانع أن تُظهر مثل هذه الزينة الضرورية .

لكن لا يظهر منها القُرْط مثلاً ؛ لأن الخمار يستره ولا (الديكولتيه) أو العقد أو الأسورة أو الدُّمْلُك ولا الخلخال ، فهذه زينة لا ينبغى أن تظهر . إذن : فالشارع أباح الزينة الطبيعية شريطةَ أن تكون فى حدود ، وأن تقصر على مَنْ جُعلَتْ من أجله .

ونلحظ فى قوله تعالى : ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا .. (٣١)﴾ [النور] المراد تغطية الزينة ، فالجارحة التى تحتها من باب أَوْلَى ، فالزينة تُغطِّى الجارحة ، وقد أمر الله بستْر الزينة ، فالجارحة من باب أَوْلَى .

وقوله تعالى : ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ .. (٣١)﴾ [النور]

الخُمر : جمع خِمَار ، وهو غطاء الرأس الذى يُسْدل ليستر الرقبة والصدر . الجيوب : جميع جيب ، وهو الفتحة العليا للثوب ويسمونها (القَبَّة) والمراد أن يستر الخمارُ فتحةَ الثوب ومنطقة الصدر ، فلا يظهر منها شىء .

والعجيب أن النساء تركْنَ هذا الواجب ، بل ومن المفارقات أنهن يلبسْنَ القلادة ويُعلِّقن بها المصحف الشريف ، إنه تناقض عجيب يدل على عدم الوعى وعدم الدراية بشرع الله مُنزل هذا المصحف .

وتأمل دقة التعبير القرآنى فى قوله تعالى ﴿وَلْيَضْرِبْنَ .. (٣١)﴾ [النور] والضرب هو : الوَقْع بشدة ، فليس المراد أنْ تضع المرأة الطرحة على رأسها وتتركها هكذا للهواء ، إنما عليها أنْ تُحكِمها على رأسها وصدرها وتربطها بإحكام .

لذلك لما نزلت هذه الآية قالت السيدة عائشة : رحم الله نساء المهاجرات ، لما نزلت الآية لم يكُنْ عندهم خُمر ، فعمدْن إلى المروط فشقوها وصنعوا منها الخُمُر (١) .

إذن : راعَى الشارع الحكيم زيَّ المرأة من أعلى ، فقال : ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ .. (٣١) ﴾ [النور] ومن الأدنى فقال : ﴿ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ .. (٥٩) ﴾ [الأحزاب]

ثم يقول تعالى : ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ .. (٣١) ﴾ [النور] أي : أزواجهن ؛ لأن الزينة جُعلَتْ من أجلهم ﴿ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ .. (٣١) ﴾ [النور] أبو الزوج ، إلا أنْ يخاف منه الفتنة ، فلا تبدى الزوجة زينتها أمامه .

ومعنى ﴿ أَوْ نِسَائِهِنَّ .. (٣١) ﴾ [النور] أي : النساء اللائى يعملْنَ معها فى البيت كالوصيفات والخادمات ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ .. (٣١) ﴾ [النور] والمراد هنا أيضاً ملْك اليمين من النساء دون الرجال .

ويشترط فى هؤلاء النساء أن يكُنَّ مسلمات ، فإنْ كُنَّ كافرات كهؤلاء اللائى يستقدمونهن من دول أخرى ، فلا يجوز للمرأة أن تُبدى زينتها أمامهن ، وأن تعتبرهن فى هذه المسألة كالرجال ، لأنهن غير مسلمات وغير مؤتمنات على المسلمة ، وربما ذهبت فوصفتْ ما رأتْ من سيدتها للرجل الكافر فينشغل بها .

ومن العلماء مَنْ يرى أن ملْك اليمين لا يخصُّ النساء فقط ، إنما الرجال أيضاً ، فللمرأة أنْ تُبدى زينتها أمامهم ، قالوا : لأن هناك استقبالاً عاطفياً وامتناعاً عاطفياً فى النفس البشرية ، فالخادم فى

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٧٥٨ ، ٤٧٥٩) من حديث عائشة رضى الله عنها . والمرُوط جمع مِرْط وهو كساء يؤتزر به وتتلفع به المرأة .

القَصْر لا ينظر إلى سيدته ولا إلى بناتها ؛ لأنه لا يتسامى إلى هذه المرتبة ، إلا إذا شجَّعْنَهُ ، وفتحْنَ له الباب ، وهذه مسألة أخرى .

وقوله تعالى : ﴿أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ .. (٣١)﴾ [النور] أى : التابعين للبيت ، والذين يعيشون على فضلاته ، فتكون حياة التابع من حياة متبوعه ، فليس عنده بيت يأويه ؛ لذلك ينام فى أىِّ مكان ، وليس عنده طعام ؛ لذلك يُطعمه الناس وهكذا ، فهو ضائع لا هدفَ له ولا استقلاليةَ لحياته ، وترى مثل هؤلاء يأكلون فضلات الموائد ويلبسون الخِرَق وينامون ولو على الأرصفة .

مثل (الأهبل) أو المعتوه الذى يعطف الناس عليه ، وليس له مطمع فى النساء ، ولا يفهم هذه المسألة ، فلا يُخاف منه على النساء ؛ لأنه لا حاجةَ له فيهن ؛ ولا يتسامى لأنْ ينظر إلى أهل البيت .

ومعنى : ﴿غَيْرِ أُوْلِي الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ .. (٣١)﴾ [النور] يعنى : كأن يكون كبير السِّنِّ واهن القوى ، لا قدرةَ له على هذه المسائل ، أو يكون مجبوباً[1] ، مقطوع المتاع ، ولا خطرَ من مثل هؤلاء على النساء .

وقوله تعالى : ﴿أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ .. (٣١)﴾ [النور]

نلحظ هنا أن الطفل مفرد ، لكن وُصف بالجمع ﴿الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ .. (٣١)﴾ [النور] لماذا ؟ قالوا : هذه سمَة من سمات اللغة ، وهى الدقة فى التعبير ، حيث تستخدم اللفظ المفرد للدلالة على المثنى وعلى الجمع .

---

(١) الجَبُّ : القطع . والمجبوب : الخصىُّ الذى قد استؤصل ذكره وخُصْياه . فهو مقطوع الذكر . [لسان العرب ـ مادة : جبب] .

كما نقول : هذا قاضٍ عَدْلٌ ، وهذان قاضيان عَدْل ، وهؤلاء قضاة عَدْل ، ولم نقل : عدلان وعدول ، فإذا وحِّد الوصف فى الجميع بدون هوى كان الوصف كالشىء الواحد ، فالقاضى لا يحكم بمزاجه وهواه ، والآخر بمزاجه وهواه ، إنما الجميع يصدرون عن قانون واحد وميزان واحد . إذن : فالعدل واحد لا يُقَال بالتشكيك ، وليس لكل واحد منهم عدل خاص به ، العَدْل واحد .

كذلك الحال فى ﴿الطِّفْلِ .. (٣١)﴾ [النور] مع أن المراد الأطفال ، لكن قال (الطفل) لأن غرائزه مشتركة مع الكل ، وليس له هَوىً ، فكل الأطفال ـ إذن ـ كأنهم طفل واحد حيث لم يتكوّن لكل منهم فكْره الخاص به ، الجميع يحب اللهو واللعب ، ولا شىءَ وراء ذلك ، فالجمعية هنا غير واضحة لوجود التوحيد فى الغرائز وفى الميول .

بدليل أنه إذا كَبر الأطفال وانتقلوا إلى مرحلة البلوغ وتكوَّن لديهم هَوىً وفكْر وميْل يقول القرآن عنهم : ﴿وَإِذَا بَلَغَ الأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ .. (٥٩)﴾ [النور] فنظر هنا إلى الجمع لعدم وجود التوحُّد فى مرحلة الطفولة المبكرة .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (٢٤)﴾ [الذاريات] فوصف ضيف وهى مفرد بالجمع (مكرمين) ؛ ذلك لأن ضَيْف تدل أيضاً على الجمع ، فالضيف من انضاف على البيت وله حَقٌّ والتزامات لا بُدَّ أن يقدمها المضيف ، مما يزيد على حاجة البيت ، والضيف فى هذه الالتزامات واحد ، سواء كان مفرداً أو جماعة ؛ لذلك دَلَّ بالمفرد على الجمع .

وقوله تعالى : ﴿الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ.. (٣١)﴾ [النور] يظهر على كذا : لها معنيان فى اللغة : **الأول** : بمعنى يعلم كما فى

قوله تعالى : ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ .. ﴿٢٠﴾﴾ [الكهف] يعنى : إنْ عَلِموا بكم وعرفوا مكانكم .

والثانى : بمعنى يعلو ويغلب ويقهر ، كما فى قوله تعالى : ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ ﴿٩٧﴾﴾ [الكهف] أى : السد الذى بناه ذو القرنين ، فالمعنى : ما استطاعوا أنْ يعلوه ويرتفعوا عليه .

وهنا ﴿لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ .. ﴿٣١﴾﴾ [النور] يعنى : يعرفونها ويستبينونها ، أو يقدرون على مطلوباتها ، فليس لهم عِلْم أو دراية بهذه المسائل .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ .. ﴿٣١﴾﴾ [النور]

الحق - تبارك وتعالى - يكشف ألاعيب النساء وحِيَلهنّ فى جَذْب الأنظار ، فإذا لم يلفتْك إليها النظر لفتَك الصوت الذى تحدثه بمشيتها كأنها تقول لك : يا بجم اسمع ، يا للى ما نتاش شايف اسمع ، وفى الماضى كُنَّ يلبسْنَ الخلخال الذى يُحدث صوتاً أثناء المشى ، والآن يجعلْنَ فى أسفل الحذاء ما يُحدث مثل هذا الصوت أثناء المشى ، وأول مَنِ استخدم هذه الحيل الراقصات ليجذبن إليهن الأنظار .

ومعلوم أن طريقة مَشْى المرأة تُبدى الكثير من زينتها التى لا يراها الناس ، وتُسبِّب كثيراً من الفتنة ؛ لذلك يقول تعالى بعدها وفى ختام هذه المسائل : ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾ [النور]

لم يَقُل الحق تبارك وتعالى : يا مَنْ أذنبتم بهذه الذنوب التى سبق الحديث عنها ، إنما قال ﴿جَمِيعًا .. ﴿٣١﴾﴾ [النور] فحثَّ الجميع على

التوبة ؛ ليدل على أن كل ابن آدم خطاء ، ومهما كان المسلم مُتمسكاً ملتزماً فلا يأمن أنْ تفوته هفوة هنا أو هناك ، والله - عز وجل - الخالق والأعلم بمَنْ خلق ؛ لذلك فتح لهم باب التوبة وحثَّهم عليها ، وقال لهم : ما عليكم إلا أنْ تتوبوا ، وعلىَّ أنا الباقى .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ ﴾

بعد أن تكلم الحق - سبحانه وتعالى - عن مسألة حفْظ الفروج ودعا إلى الحفاظ على طهارة الأنساب ، أراد أنْ يتكلم عن هؤلاء الرجال أو النساء الذين لم يتيسَّر لهم أمر الزواج ؛ ذلك ليعالج الموضوع من شتى نواحيه ؛ لأن المشرِّع لا بُدَّ أن يستولى بالتشريع على كُلِّ ثغرات الحياة فلا يعالج جانباً ويترك الآخر .

و ﴿الأَيَامَىٰ .. ﴿٣٢﴾﴾ [النور] جمع أيِّم ، والأيِّم من الرجال مَنْ لا زوجةَ له ، والأيِّم من النساء مَنْ لا زوجَ لها .

ونلحظ أن الأمر فى ﴿أَنكِحُوا .. ﴿٣٢﴾﴾ [النور] جاء هكذا بهمزة القَطْع ، مع أن الأمر للواحد (انكح) بهمزة الوصل ، ذلك لأن الأمر هنا (أنكحوا) ليس للمفرد الذى سينكح الأيِّم ، إنما لغيره أنْ يُنكحه ، والمراد أمر أولياء الأمور ومَنْ عندهم رجال ليس لهم زوجات ، أو نساء ليس لَهُنَّ أزواج : عَجِّلوا بزواج هؤلاء ، ويسِّروا لهم هذه المسألة ، ولا تتشددوا فى نفقات الزواج حتى تُعفُّوا أبناءكم وبناتكم ، وإذا لم تعينوهم فلا أقلَّ من عدم التشدد والمغالاة .

وفى الحديث الشريف : « إذا جاءكم مَنْ ترضون دينه وخلقه فزوِّجوه ، إلاَّ تفعلوا تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير »[(١)] .

ومع ذلك فى مجتمعاتنا الكثير من العادات والتقاليد التى تعرقل زواج الشباب أخطرها المغالاة فى المهور وفى النفقات والنظر إلى المظاهر .. إلخ وكأن الحق ـ تبارك وتعالى ـ يقول لأولياء الأمور : يسِّروا للشباب أمور الالتقاء الحلال ومهِّدوا لهم سبيل الإعفاف .

وقد أعطانا القرآن نموذجاً لما ينبغى أن يكون عليه ولىُّ الأمر ، فقال تعالى عن سيدنا شعيب عليه السلام : ﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ .. (٢٧)﴾ [القصص] ذلك لأن موسى ـ عليه السلام ـ سيكون أجيراً عنده ، وربما لا يتسامى إلى أن يطلب يد ابنته ؛ لذلك عرضها عليه وخطبه لها وشجَّعه على الإقبال على زواجها ، فأزال عنه حياء التردد ، وهكذا يجب أن يكون أبو الفتاة إنْ وجد لابنته كفؤاً ، فلا يتردد فى إعفافها .

وقوله تعالى : ﴿وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ .. (٣٢)﴾ [النور]

وقوله ﷺ : « تُنكح المرأة لأربع : لمالها ، وجمالها ، وحسبها ودينها ، فاظفر بذات الدين ، تربتك يداك »[(٢)] .

ولما سُئِل الحسن ـ رضى الله عنه ـ عن مسألة الزواج قال لوالد

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه (١٠٨٤) من حديث أبى هريرة بلفظ « إذا خطب إليكم مَنْ ترضوْن دينه وخلقه فزوجوه ، إلا تفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد عريض » . وأخرجه ابن ماجة فى سننه (١٩٦٧) بلفظ « إذا أتاكم » وقد رجح الترمذى أنه مرسل من رواية الليث بن سعد .

(٢) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٠٩٠) ، ومسلم فى صحيحه (١٤٦٦) كتاب الرضاع من حديث أبى هريرة رضى الله عنه . قال القرطبى فيما نقله عنه ابن حجر فى فتح البارى (١٣٦/٩) : « معنى الحديث أن هذه الخصال الأربع هى التى يُرغب فى نكاح المرأة لأجلها ، فهو خبر عما فى الوجود من ذلك ، لا أنه وقع الأمر بذلك ، بل ظاهره إباحة النكاح لقصد كل من ذلك ، لكن قصد الدين أوْلَى » .

الفتاة الذى جاء يستشيره : زوِّجها مَنْ تأمنه على دينه ، فإنْ أحبَّ ابنتك أكرمها ، وإن كرهها لم يظلمها . وماذا يريد الإنسان فى زوج ابنته أكثر من هذا ؟

فالدين والخُلق والقيم السامية هى الأساس الذى يُبنى عليه الاختيار ، أما المال فهو شىء ثانوى وعَرَض زائل ؛ لذلك يقول تعالى:﴿ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٣٢) ﴾[النور]

فالفقر قد يكون سبباً فى عدم الإقبال على البنت ، أو عدم إقبال أهل البنت على الزوج ، لكن كيف يتخلى الله عنَّا ونحن نتقيه ونقصد الإعفاف والطهر ؟ لا يمكن أن يضن الله على زوجيْن التقيا على هذه القيم واجتمعا على هذه الآداب ، ومَنْ يدريك لعل الرزق يأتى للاثنين معاً ، ويكون اجتماعهما فى هذه الرابطة الشرعية هو باب الرزق الذى يفتح للوجهين معاً ؟

﴿ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٣٢) ﴾ [النور] فعطاء الله دائم لا ينقطع ؛ لأن خزائنه لا تنفد ولا تنقص ، والإنسان يُمسك عن الإنفاق ؛ لأنه يخاف الفقر ، أمّا الحق ـ تبارك وتعالى ـ فيعطى العطَاء الواسع ؛ لأن ما عنده لا ينفد .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۗ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣٣) ﴾

فى حالة إذا لم ننكح الأيامى ، ولم نُعنهم على الزواج ، ولم يقدروا هم على القيام بنفقاته يصف لهم الحق - سبحانه وتعالى - العلاج المناسب ، وهو الاستعفاف ، وقد طلب الله تعالى من المجتمع الإسلامى سواء - تمثَّل فى أولياء الأمور أو فى المجتمع العام - أن ينهض بمسألة الأيامى ، وأنْ يعينهم على الزواج ، فإنْ لم يقُمْ المجتمع بدوره ، ولم يكُنْ لهؤلاء الأيامى قدرة ذاتية على الزواج ، فليستعفف كل منهم حتى يغنيهم الله ، مما يدل على أن التشريع يبنى أحكامه ، ويُراعى كل الأحوال ، سواء أطاعوا جميعاً أو عَصَوْا جميعاً .

وقوله تعالى : ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ .. ﴿٣٣﴾﴾ [النور] يعنى : يحاول العفاف ويطلبه ويبحث عن أسبابه ، يجاهد أن يكون عفيفاً ، وأول أسباب العفاف أن يغضَّ بصره حين يرى ، فلا يوجد له مُهيِّج ومثير ، فإنْ وجد فى نفسه فُتوة وقوة فعلية أن يُلجمها ويُضعفها بالوسائل الشرعية كما قال النبى ﷺ : « يا معشر الشبابَ مَنِ استطاع منكم الباءة - يعنى : نفقات الحياة الزوجية - فليتزوج ، ومن لم يجد فعليه بالصوم فإنه له وجاء[1] »[2] .

والصوم يعمل على انكسار هذه الشهوة ويُهدِّىء من شراسة الغريزة ؛ ذلك لأنه يأكل فقط ما يقيم أوْدَه ، ولا يبقى فى بدنه ما يثير الشهوة ، كما جاء فى الحديث الشريف : « بحسْب ابن آدم لقيمات يُقِمْنَ صلْبه ... »[3] .

---

(١) الوجاء : هو أن تُضرب الخصيتان ضربة شديدة تذهب شهوة الجماع وينزل منزلة الخصى . وقال ابن منظور فى [اللسان - مادة : وجأ] : أراد أن الصوم يقطع النكاح كما يقطعه الوجاء .

(٢) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٠٦٥) ، ومسلم فى صحيحه (١٤٠٠) من حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه .

(٣) أخرجه أحمد فى مسنده (١٣٢/٤) ، والترمذى فى سننه (٢٣٨٠) من حديث المقدام ابن معدى كرب وتمامه : « ما ملأ آدمى وعاء شراً من بطن ، بحسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه ، فإن كان لا محالة فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفَسه » .

أو : أن يُفرِّغ الشاب نفسه للعمل النافع المفيد الذى يشغله ويستنفد جَهْده وطاقته ، التى إن لم تصرف فى الخير صرفت فى الشر ، وبالعمل يثبت الشاب ذاته ، ويثق بنفسه ، ويكتسب الحلال الذى يُشجِّعه مع الأيام على الزواج وتحمُّل مسئولياته .

لذلك قال تعالى : ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ .. (٣٣)﴾ [النور] ولم يقُلْ : وليعف ، فالمعنى ليسلك سبيل الإعفاف لنفسه وليسْعَ إليه ، بأن يمنع المهيِّج بالنظر ويُهدىء شراسة الغريزة بالصوم ، أو بالعمل فيشغل وقته ويعود آخر النهار متعباً يريد أن ينام ليقوم فى الصباح لعمله نشيطاً ، وهكذا لا يجد فرصة لشىء مما يغضب الله .

ومعنى : ﴿الَّذِينَ لا يَجِدُونَ نِكَاحًا .. (٣٣)﴾ [النور] أى : بذواتهم قدرة أو بمجتمعهم معونة .

وقوله تعالى : ﴿حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ .. (٣٣)﴾ [النور] يدل على أن الاستعفاف وسيلة من وسائل الغنى ؛ لأن الاستعفاف إنما نشأ من إرادة التقوى ، وقد قال تعالى فى قضية قرآنية : ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ (٣)﴾ [الطلاق] فمن هذا الباب يأتيه غِنَى الله .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِى آتَاكُمْ .. (٣٣)﴾ [النور]

الكتاب : معروف أنه اجتماع عدة أشياء مكتوبة فى ورق ، والمراد هنا المكاتبة ، وهى أن تكتب عَقْداً بينك وبين العبد المملوك ، تشترط فيه أن يعمل لك كذا وكذا بعدها يكون حراً ، إنْ أدَّى ما ذكر فى عَقْد المكاتبة .

﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا .. (٣٣)﴾ [النور] يعنى : إنْ كانت حريتهم ستؤدى إلى خير كأنْ ترفع عنهم ذِلَّة العبودية ، وتجعلهم ينشطون فى الحياة نشاطاً يناسب مواهبهم .

لذلك جعل الحق ـ سبحانه وتعالى ـ هذه المكاتبة مَصْرفاً من مصارف الزكاة ، فقال تعالى : ﴿وَفِي الرِّقَابِ .. (١٧٧)﴾ [البقرة] يعنى : المماليك الذين نريد أنْ نفكَّ رقابهم من أَسْر العبودية وذُلِّها بالعتق ، وإنْ كان مال الزكاة يُدفع للفقراء وللمساكين .. إلخ ففى الرقاب يدفع المال للسيد ليعتق عبده .

كما جعل الإسلام عِتْق الرقاب كفارةً لبعض الذنوب بين العبد وبين ربه ؛ ذلك لأن الله تعالى يريد أن يُنهى هذه المسألة .

﴿وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ .. (٣٣)﴾ [النور]

الحق ـ تبارك وتعالى ـ هو الرازق ، والمال فى الحقيقة مال الله ، لكن إنْ ملّكك وطلب منك أن تعطى أخاك الفقير يحترم ملكيتك ، ولا يعود سبحانه فى هبَته لك ؛ لذلك يأخذ منك الصدقة على أنها قَرْض لا يردُّه الفقير ، إنما يتولى ربك عز وجل رَدَّه ، فيقول : ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا .. (٢٤٥)﴾ [البقرة] ولم يَقُلْ سبحانه : يقرض فلاناً ، وإنما يُقرض الله لأنه تعالى هو الخالق ، ومن حق عبده الذى استدعاه للوجود أَنْ يرزقه ويتكفّل له بقُوته .

واحترام الملكية يجعل الإنسان مطمئناً على آثار حركة حياته وثمرة جهده ، وأنها ستعود عليه ، وإلاّ فما الداعى للعمل ولبذل المجهود إنْ ضاعت ثمرته وحُرِم منها صاحبها ؟ عندها ستتعطل مصالح كثيرة وسيعمل الفرد على قَدْر حاجته فحسب ، فلا يفيض عنه شىء للصدقة .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣٣)﴾ [النور]

يُقَال للمملوك : فتى ، وللمملوكة : فتاة ، فقد نهى النبى ﷺ أن يقول الرجل : عبدى[١] وأَمَتى إنما يقول : فتاى وفتاتى ، فهذه التسمية أكرم لهؤلاء وأرفع ، فالفتى من الفُتوّة والقوة كأنك تقول : هذا قوتى الذى يساعدنى ويعيننى على مسائل الحياة ، فالنبى ﷺ يريد أن يرفع من شأنهم .

ومن هؤلاء جماعة المماليك الذين حكموا مصر فى يوم من الأيام ، وكانوا من أبناء الملوك والسلاطين والأعيان .

والبغاء ظاهرة جاء الإسلام فوجدها منتشرة ، فكان الرجل الذى يملك مجموعة من الإماء ينصب لهُنّ راية تدل عليهن ، ويأتيهن الشباب ويقبض هو الثمن ، ومن هؤلاء عبد الله بن أبىّ بن سلول رأس النفاق ، وكان عنده (مسيكة ، ومعاذة) وفيه نزلت هذه الآية[٢].

وتأويل الآية : لا تُكرهوا الإماء على البغاء ، وقد كُنَّ يبكين ، ويرفضْنَ هذا الفعل ، وكُنَّ يؤذيْنَ ويتعرضْنَ للغمز واللمز ، ويتجرأ

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لا يقل أحدكم : أطعم ربك ، وضِّىء ربك . وليقل : سيدى مولاى . ولا يقل أحدكم : عبدى ، أمتى ، وليقل : فتاى وفتاتى وغلامى » أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٥٥٢) ، ومسلم فى صحيحه (٢٢٤٩) كتاب الألفاظ من الأدب .

(٢) قال الزهرى : كانت جارية لعبد الله بن أبى بن سلول يقال لها معاذة يُكرهها على الزنا ، فلما جاء الإسلام نزلت ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ .. (٣٣)﴾ [النور] . أخرجه البزار فى مسنده (أورده ابن كثير فى تفسيره ٢٨٨/٣) وعن جابر قال : نزلت فى أمة لعبد الله بن أبى بن سلول يقال لها مسيكة ، كان يكرهها على الفجور وكانت لا بأس بها فتأبى فأنزل الله هذه الآية ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ .. (٣٣)﴾ [النور] قاله الأعمش .

عليهن الناس ، وكان من هؤلاء الإماء بنات ذوات أصول طيبة شريفة ، لكن ساقتهن الأقدار إلى السَّبْى فى الحروب أو خلافه ، فى حين أن الحرة العفيفة تسير لا يتعرض لها أحد بسوء .

ومعنى : ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا .. (٣٣)﴾ [النور] يتكلم القرآن هنا عن الواقع بحيث إنْ لم يُرِدْنَ تحصُّناً فلا تُكرهوهُنَّ ﴿لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. (٣٣)﴾ [النور] طلباً للقليل من المال الزائل ﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣٣)﴾ [النور] لأنهن فى حالة الإكراه على البغاء يفقدنَ شرط الاختيار ، فلا يتحملن ذنب هذه الجريمة ، عملاً بالحديث النبوى الشريف : « رُفِع عن أمتى : الخطأ والنسيان وما استُكرِهوا عليه »[(١)] .

لذلك يُطمئن الحق ـ تبارك وتعالى ـ هؤلاء اللاتى يُرِدْنَ التحصُّن والعفاف ، لكن يكرههن سيدهن على البغاء ، ويُرغمهن بأىِّ وسيلة : اطمئنن فلا ذنبَ لَكُنَّ فى هذه الحالة ، وسوف يُغفر لَكُنَّ والله غفور رحيم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَمَثَلاً مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (٣٤)﴾

المعنى : لا عذر لكم ؛ لأن الله تعالى قد أنزل إليكم الآيات الواضحة التى تضمن لكم شرف الحياة وطهارتها ونقاء نسل الخليفة

---

(١) أخرج معناه ابن ماجة فى سننه (٢٠٤٥) والدارقطنى فى سننه (٤/ ١٧٠) والحاكم فى المستدرك (٢/ ١٩٨) وصححه على شرط الشيخين عن ابن عباس بلفظ : « إن الله تجاوز عن أمتى : الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » وانظر كشف الخفاء (١/ ٥٢٢) .

لله فى الأرض ، وهذه الآيات ما تركتْ شيئاً من أقضية الحياة إلا تناولتْه وأنزلتْ الحكم فيه ، وقد نلتمس لكم العذر لو أن فى حياتكم مسألة أو قضية ما لم يتناولها التشريع ولم ينظمها .

لذلك يقول سيدنا الإمام على ـ رضى الله عنه ـ عن القرآن : فيه حكم ما بينكم ، وخبر ما قبلكم ، ونبأ ما بعدكم ، هو الفَصْل ليس بالهَزْل ، مَنْ تركه من جبار قصمه الله ، ومَن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله[1] .

ولا يزال الزمان يُثبِت صدْق هذه المقولة ، وانظر هنا وهناك لتجد مصارع الآراء والمذاهب والأحزاب والدول التى قامت لتناقض الإسلام ، سواء كانت رأسمالية شرسة أو شيوعية شرسة . إلخ . كلها انهارت على مَرْأىً ومَسْمع من الجميع .

نعم ، مَنْ تركه من جبار قصمه الله ، ومَن ابتغى الهدى فى غيره أضلَّه الله ، لأنه خالقك ، وهو أعلم بما يُصلحك ، فلا يليق بك ـ إذن ـ أن تأخذ خَلْق الله لك ثم تتكبر عليه وتضع لنفسك قانوناً من عندك أنت .

وسبق أنْ قُلْنا : إن الآيات تطلق على ثلاثة إطلاقات : الآيات الكونية التى تلفتك إلى الصانع المبدع عز وجل ، وعلى المعجزات التى تأتى لتثبت صدْق الرسول فى البلاغ عن الله ، وتُطلق على الآيات الحاملة للأحكام وهى آيات القرآن الكريم ، وفى القرآن هذا كله .

وقوله تعالى : ﴿وَمَثَلاً مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (٣٤)﴾ [النور]

---

(١) ذكره ابن كثير فى تفسيره (٣/٢٨٩) .

أى : جعلنا لكم موعظة وعبرة بالأمم السابقة عليكم ، والتى بلغت شأوها فى الحضارة ، ومع ذلك لم تملك مُقوِّمات البقاء ، ولم تصنع لنفسها المناعة التى تصونها فانهارت ، ولم يبق منهم إلا آثار كالتى نراها الآن لقدماء المصريين ، وقد بلغوا من الحضارة منزلةً أدهشت العالم المتقدم الحديث ، فيأتون الآن متعجبين : كيف فعل قدماء المصريين هذه الحضارة ؟

وكان أعظم من حضارة الفراعنة حضارة عاد التى قال الله عنها : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (٨)﴾ [الفجر] يعنى : ليس لها مثيل فى الدنيا ﴿وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (١٠) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (١٤)﴾ [الفجر] يعنى : لن يفلت من المخالفين أحد ، ولن ينجو من عذاب الله كافر .

والمثَل كذلك فى مسألة الزنا وقَذْف المحصنات العفيفات ، كحادثة الإفك التى سبق الكلام عنها ، وأنها كانت مَثَلاً وعبرةً ، كذلك كانت قصة السيدة مريم مثلاً وقد اتهمها قومها ، وقالوا : ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا (٢٨)﴾ [مريم]

وكذلك كانت قصة يوسف عليه السلام وامرأة العزيز ، وكلها مسائل تتعلق بالشرف ، ولم تَخْلُ من رَمْى العفيفات المحصنات ، أو العفيف الطاهر يوسف بن يعقوب عليهما السلام .

وهذه الآيات مبينات للوجود الأعلى فى آيات الكون ، مُبينات لصِدْق المبلِّغ عن الله فى المعجزات ، مُبيِّنات للأحكام التى تنظم حركة

الحياة فى آيات القرآن ، ثم أريناهم عاقبة الأمم السابقة سواء مَنْ أقبل منهم على الله بالطاعة ، أو مَنْ أعرض عنه بالمعصية ، ولا يستفيد من هذه المواعظ والعِبَر إلا المتقون الذين يخافون الله وتثمر فيهم الموعظة .

﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ ﴾

قلنا : فإن الله تعالى أعطانا النور الحسىَّ الذى نرى به مرائى الأشياء ، وجعله وسيلة للنور المعنوى ، وقلنا : إن الدنيا حينما تظلم ينير كل منَّا لنفسه على حسب قدراته وإمكاناته فى الإضاءة ، فإذا ما طلعتْ الشمس وأنار الله الكون أطفأ كل منَّا نوره ؛ لأن نور الله كافٍ ، فكما أن نور الله كافٍ فى الحسيات فنوره أيضاً كافٍ فى المعنويات .

فإذا شرع الله حكماً معنوياً يُنظِّم حركة الحياة ، فإياكم أن تعارضوه بشىء من عندكم ، فكما أطفأتم المصابيح الحسية أمام مصباحه فأطفئوا مصابيحكم المعنوية كذلك أمام أحكامه تعالى وأوامره ، والأمر واضح فى الآيات الكونية .

﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. (٣٥) ﴾ [النور] كما نقول ولله المثل الأعلى : فلان نوَّر البيت ، فالآية لا تُعرِّف الله لنا ، إنما تُعرِّفنا أثره تعالى فينا ، فهو سبحانه مُنوِّر السموات والأرض ، وهما أوسع شيء نتصوره ، بحيث يكون كل شيء فيهما واضحاً غيرَ خفيّ .

ثم يضرب لنا ربنا ـ عز وجل ـ مثلاً توضيحياً لنوره ، فيقول : ﴿ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ .. (٣٥) ﴾ [النور] أى : مثَلُ تنويره للسموات وللأرض ﴿ كَمِشْكَاةٍ .. (٣٥) ﴾ [النور] وهى الطاقة التى كانوا يجعلونها قديماً فى الجدار ، وهى فجوة غير نافذة يضعون فيها المصباح أو المِسْرجة ، فتحجز هذه الفجوة الضوء وتجمعه فى ناحية فيصير قوياً ، ولا يصنع ظِلاً أمام مسار الضوء .

والمصباح : إناء صغير يُوضَع فيه زيت أو جاز فيما بعد ، وفى وسطه فتيل يمتصّ من الزيت فيظل مشتعلاً ، فإنْ ظلَّ الفتيل فى الهواء تلاعبَ به وبدَّد ضوءه وسبَّب دخاناً ؛ لأنه يأخذ من الهواء أكثر من حاجة الاحتراق ؛ لذلك جعلوا على الفتيل حاجزاً من الزجاج ليمنع عنه الهواء ، فيأتى الضوء منه صافياً لا دخانَ فيه ، وكانوا يسمونه (الهباب) .

وهكذا تطور المصباح إلى لمبة وصعد نوره وزادت كفاءته ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ الْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ .. (٣٥) ﴾ [النور] لكنها ليست زجاجة عادية ، إنما زجاجة ﴿ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ .. (٣٥) ﴾ [النور] يعنى : كوكب من الدُّرِّ ، والدُّر ينير بنفسه .

كذلك زَيْتها ليس زيتاً عادياً ، إنما زيت زيتونة مباركة.

يقول الحق سبحانه : ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ .. (٣٥)﴾ [النور]

يعنى : شجرة زيتون لا شرقية ولا غربية ، يعنى : لا شرقية لأنها غربية ، ولا غربية لأنها شرقية ، فهى إذن شرقية غربية على حَدٍّ سواء ، لكن كيف ذلك ؟

قالوا : لأن الشجرة الزيتونة حينما تكون فى الشرق يكون الغرب مظلماً ، وحينما تكون فى الغرب يكون الشرق مظلماً ، إذن : يطرأ عليها نور وظلمة ، إنما هذه لا هى شرقية ولا هى غربية ، إنما شرقية غربية لا يحجز شىء عنها الضوء .

وهذا يؤثر فى زيتها ، فتراه من صفائه ولمعانه ﴿يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ .. (٣٥)﴾ [النور] ، وتعطى الشجرة الضوء القوى الذى يناسب بنوتها للشمس ، فإن كانت الشمس هى التى تنير الدنيا ، فالشجرة الزيتونة هى ابنتها ، ومنها تستمد نورها ، بحيث لا يغيب عنها ضوء الشمس .

إذن : مَثَلُ تنوير الله للسموات وللأرض مثل هذه الصورة مكتملة كما وصفنا ، وانظر إلى مشكاة فيها مصباح بهذه المواصفات ، أيكون بها موضع مظلم ؟ فالسموات والأرض على سعتهما كمثل هذه المشكاة ، والمثل هنا ليس لنور الله ، إنما لتنويره للسموات وللأرض ، أما نوره تعالى فشىء آخر فوق أنْ يُوصَف . وما المثَل هنا إلا لتقريب المسألة إلى الأذهان .

وسبق أنْ ذكرنا قصة أبى تمام حين وصف الخليفة ومدحه بأبرز الصفات عند العرب ، فقال :

إِقْدَامُ عَمْرٍو فِى سَمَاحَةِ حَاتِمٍ فِى حِلْمِ أحنفَ فِى ذَكَاءِ إِيَاسِ

فجمع للخليفة كل هذه الصفات ومدحه بأشهر الخصال عند العرب ؛ لذلك قام إليه أحد الحاقدين وقال معترضاً عليه : كيف تشبه الخليفة بصعاليك العرب ؟ فالأمير فوق مَنْ وصفتَ .

فأكمل أبو تمام على البديهة وبنفس الوزن والقافية :

لاَ تُنكروا ضَرْبِى لَهُ مَنْ دُونَهُ مثَلاً شَـــرُوداً فـى النَّـدَى والبَـاسِ
فَاللهُ قَـدْ ضـربَ الأقـــلَّ لنُـوره مَثَـلاً مـــن المشْـكَاة والنِّبـــراسِ

فالله ـ تبارك وتعالى ـ هو نور السموات والأرض أى : مُنوِّرهما ، وهذا أمر واضح جداً حينما تنظر إلى نور الشمس ساعة يظهر يجلو الكون ، بحيث لا يظهر معه نور آخر ، وتتلاشى أنوار الكواكب الأخرى والنجوم رغم وجودها مع الشمس فى وقت واحد ، لكن يغلب على نورها نور الشمس ، على حدِّ قول الشاعر فى المدح :

كأنكَ شَمْسٌ والملُوكُ كَواكبٌ إذَا ظَهَرتْ لَمْ يَبْدُ منهُنّ كوكَبُ

ثم يقول سبحانه : ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ .. ﴿٣٥﴾﴾ [النور] فلم يتركنا الحق ـ سبحانه وتعالى ـ فى النور الحسىِّ فقط ، إنما أرسل إلينا نوراً آخر على يد الرسل هو نور المنهج الذى ينظم لنا حركة الحياة ، كأنه تعالى يقول لنا : بعثت إليكم نوراً على نور ، نور حسِّى ، ونور قيمى معنوى ، وإذا شهدتم أنتم بأن نورى الحسىّ ينير لكم السموات والأرض ، وإذا ظهر تلاشت أمامه كل أنواركم ، فاعلموا أن نور منهجى كذلك يطغَى على كل مناهجكم ، وليس لكم أن تأخذوا بمناهج البشر فى وجود منهج الله .

وقوله تعالى : ﴿يَهْدِى اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ .. ﴿٣٥﴾﴾ [النور] أى : لنوره المعنوى نور المنهج ونور التكاليف ، والكفار لم يهتدوا إلى هذا النور ، وإن اهتدوا إلى النور الحسىِّ فى الشمس والقمر وانتفعوا به ، وأطفأوا لهَ مصابيحهم ، لكن لم يكُنْ لهم حظ فى النور المعنوى ، حيث أغلقوا دونه عيونهم وقلوبهم وأسماعهم فلم ينتفعوا به .

وكان عليهم أن يفهموا أن نور الله المعنوى مثْلُ نوره الحسى لا يمكن الاستغناء عنه ، لذلك جاء فى أثر على بن أَبى طالب : « من تركه من جبَّار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله » .

والعجيب أن العبد كلما توغل فى الهداية ازداد نوراً على نور ، كما قال سبحانه : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا .. (٢٩) ﴾ [الأنفال]

وقال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ (١٧) ﴾[محمد]

ثم يقول تعالى : ﴿ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَـٰلَ لِلنَّاسِ .. (٣٥) ﴾ [النور] يعني : للعبرة والعظة مثل المثل السابق لنوره تعالى ﴿ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ (٣٥) ﴾ [النور]

﴿ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ (٣٦) ﴾

بدأت الآية بالجار والمجرور ﴿ فِى بُيُوتٍ .. (٣٦) ﴾ [النور] ولا بُدَّ أن نبحث له عن متعلق ، فالمعنى : هذا النور الذى سبق الحديث عنه فى بيوت أذن الله أن تُرفع . والبيت : هو ما أُعدَّ للبيتوتة ، بل لمعيشة الحياة الثابتة ، وإليه يأوى الإنسان بعد عناء اليوم وطوافه فى مناكب الأرض ، والبيت على أية صورة هو مكان الإنسان الخاص الذى يعزله عن المجتمع العام ، ويجعل له خصوصية فى ذاته ، وإلا فالإنسان لا يرضى أن يعيش فى ساحة عامة مع غيره من الناس .

وهذه الخصوصية فى البيوت يتفاوت فيها الناس وتتسامى حسْب إمكاناتهم ، وكل إنسان يريد أنْ يتحيّز إلى مكان خاص به ؛ لأن التحيّز أمر مطلوب فى النفس البشرية : الأسرة تريد أن تتحيز عن المجتمع العام ، والأفراد داخل الأسرة يريدون أن يتحيزوا أيضاً ، كل إلى حجرة تخصه ، وكذلك الأمر فى اللباس ، ذلك لأن لكل واحد منا

مساتير بينه وبين نفسه ، لا يحب أن يطلع عليها أحد .

وقد اتخذ الله له بيتاً فى الأرض ، هو أول بيت وُضع للناس ، كما قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا .. (٩٦)﴾ [آل عمران]

وهذا هو بيت الله باختيار الله ، ثم تعددتْ بيوت الله التى اختارها خَلْق الله ، فكما اتخذتم لأنفسكم بيوتاً اتخذ الله لنفسه بيوتاً ﴿أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ .. (٣٦)﴾ [النور] وأنتم جميعاً عباد الله وعيال الله ، وسوف تجدون الراحة فى بيته تعالى كما تجدون الراحة فى بيوتكم ، مع الفارق بين الراحة فى بيتك والراحة فى بيت الله .

الراحة فى بيوتكم راحة حسِّية بدنية فى صالون مريح أو مطبخ ملىء بالطعام ، أمّا فى بيت الله فالراحة معنوية قيمية ؛ لأن ربك ـ عز وجل ـ غيْبٌ فيريحك أيضاً بالغيب .

لذلك كان النبى ﷺ كلما حزبه أمر يقوم إلى الصلاة[1] ليُلقى بأحماله على ربه . وماذا تقول فى صنعة تُعرض على صانعها مرة واحدة كل يوم ، أيبقى بها عطل أو فساد ؟ فما بالك إنْ عُرِضَتْ على صانعها خمس مرات فى اليوم والليلة ؟

فربُّكَ يدعوك إلى بيته ليريحك ، وليحمل عنك همومك ، ويصلح ما فسد فيك ، ويفتح لك أبواب الفرج . إذن : فنور على نور هذه لا تكون إلا فى بيوت الله التى أَذِن سبحانه أن تُرفعَ بالذكر وبالطاعات وترفع عما يحل فى الأماكن الأخرى وتعظم .

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٥/٣٨٨) وأبو داود فى سننه (١٣١٩) من حديث حذيفة بن اليمان رضى الله عنه .

فالبيوت كلها لها مستوى واحد ، لكن ترفع بيوت عن بيوت وتُعلَّى وقد رُفِعَتْ بيوت الله بالطاعة والعبادة ، فالمسجد مكان للعبادة لا يُعصَى الله فيه أبداً على خلاف البيوت والأماكن الأخرى ، فعظّم الله بيوته أن يُعْصَى فيها ، وعظّم روادها أن يشتغلوا فيها بسفاسف الأمور الحياتية الدنيوية ، فعليك أن تترك الدنيا على باب المسجد كما تترك الحذاء .

لذلك نهى الإسلام أن نعقد صفقة فى بيت الله ، أو حتى ننشد فيه الضالة ؛ لأن الصفقة التى تُعقَد فى بيت الله خاسرة بائرة ، والضالة التى ينشدها صاحبها فيه لا تُردُّ عليه ، وقد أمرنا رسول الله ﷺ أن نقول لمن يفعل هذا بالمسجد : « لا ردها الله عليك »[(١)] .

وإنْ جعل الله الأرض كلها لأمة محمد ﷺ مسجداً وطهوراً ، لكن فَرْقٌ بين الصلاة فى المسجد والصلاة فى أىِّ مكان آخر ، المسجد خُصِّص للعبادة ، ولا نذكر فيه إلا الله ، أمّا الأماكن الأخرى فتصلح للصلاة ، وأيضاً لمزاولة أمور الدنيا .

وإلا ، فكيف تعيش كل وقتك لأمور الدنيا على مدار اليوم والليلة ، ثم تستكثر على ربك هذه الدقائق التى تؤدى فيها فَرْض الله عليك فتجرجر الدنيا معك حتى فى بيت الله ؟ ألا تعلم أن بيوت الله ما جُعلت إلا لعبادة الله ؟ لا بد للمؤمن أن يترك دُنْياه خارج المسجد ، وأن ينوى الاعتكاف على عبادة ربه والمداومة على ذِكْره فى بيته ، فلا يليق بك أن تكون فى بيت الله وتنشغل بغيره .

فإن التزمتَ بآداب المسجد تلقيتَ من ربك نوراً على نور ، وزال

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال ﷺ : « إذا رأيتم من يبيع أو يبتاع فى المسجد فقولوا : لا أربح الله تجارتك ، وإذا رأيتم من ينشد ضالة فقولوا : لا ردها الله عليك » أخرجه النسائى فى عمل اليوم والليلة (ص ٧٣) والدارمى فى سننه (١/٣٢٦) والترمذى فى سننه (١٣٢١) وقال : حسن غريب .

عن كاهلك الهمّ والغم وحلَّت مشاكلك من حيث لا تحتسب .

إذن : فالحق ـ تبارك وتعالى ـ جعل فى الفطرة الإيمانية أن تؤمن بإله ، فالإيمان أمر فطرى مهما حاول الإنسان إنكاره ، فالكافر الذى ينكر وجود الله ساعة يتعرَّض لأزمة لا منجاةَ منها بأسباب البشر تجده تلقائياً يتوجه إلى الله يقول : يا رب ، لا يمكن أن يكذبَ على نفسه فى هذه الحالة أو يُسلم نفسه ويبيعها رخيصة .

وفى ذلك يقول تعالى : ﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ[1] نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا .. (٨)﴾ [الزمر]

ومن دقة الأداء القرآنى فى هذه المسألة قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ .. (٩)﴾ [الجمعة]

فذكر طرفاً واحداً من عملية التجارة وهو البيع ، ولم يقل : والشراء ، قالوا : لأنه حين يُمنع البيع يُمنع الشراء فى الوقت نفسه ؛ ولأن الإنسان يحرص على البيع لكن قد يشترى وهو كاره ، فشهوة الإنسان متعلقة بالبيع لا بالشراء ، لأن الشراء يحتاج منه إلى مال على خلاف البيع الذى يجلب له المال .

إذن : قوله تعالى : ﴿وَذَرُوا الْبَيْعَ .. (٩)﴾ [الجمعة] إنما ذكر قمة حركة الحياة وخلاصتها ، فكل حركات الحياة من تجارة أو زراعة أو صناعة تنتهى إلى مسألة البيع ؛ لذلك يحزن البائع إذا لم يَبِعْ ، أما المشترى فيقول حين لا يجد الشىء أو يجد المحل مُغلَقاً : بركة يا جامع .

---

(١) خوَّله كذا : ملّكَه إياه متفضّلاً عليه بغير عوض . [القاموس القويم ١/ ٢١٤] .

ثم إذا انتهتْ الصلاة يعيدنا من جديد إلى حركة الحياة : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ .. (١٠) ﴾ [الجمعة]

كأنك ذهبتَ للمسجد لتأخذ شحنة إيمانية تعينك وتسيطر على كُلِّ حواسك فى حركتك فى التجارة ، وفى الإنتاج ، وفى الاستهلاك ، وفى كل ما ينفعك ويُنمى حياتك . وحين يأمرك ربك أن تفرغ لأداء الصلاة لا يريد من هذا الفراغ أن يُعطّل لك حركة الحياة ، إنما ليعطيك الوقود اللازم لتصبح حركة حياتك على وَفْق ما أراده الله . وما أشبه هذا الوقت الذى نختزله من مصالح دنيانا فى عبادة الله بشحن بطارية الكهرباء ، فحين تذهب بالبطارية إلى جهاز الشحن لا نقول : إنك عطلت البطارية إنما زدتَ من صلاحيتها لأداء مهمتها وأخْذ خيرها .

فأنت تذهب إلى بيت الله بنور الإيمان ، وبنور الاستجابة لنداء : الله أكبر ، فتخرج بأنوار متعددة من فيوضات الله ؛ لذلك ضرب لنا الحق - تبارك وتعالى - مثلاً لهذا النور بالمصباح الذى يتنامى نوره ويتصاعد ؛ لأنه فى زجاجة تزيد من ضوئه ؛ لأنها مثل كوكب دُرىٍّ والنور يتصاعد ؛ لأنها بزيت زيتونة ، ويتصاعد لأنها شرقية وغربية فى آن واحد ، إذن : عندنا ألوان متعددة فى المثل ، فكذلك النور فى بيوت الله .

لذلك قال بعض العارفين : أهل الأرض ينظرون فى السماء نجوماً متلألئة ، والملائكة فى السماء ينظرون نجوماً متلألئة من بيوت الله ، ولا عجبَ فى ذلك لأنها أنوار الله تتلألأ وتتدفق فى بيته وفى مسجده ، وكيف نستبعد ذلك ونحن نرى نور الشمس كيف يفعل حينما ينعكس على سطح القمر فيُلقى إلينا بالضوء الذى نراه ؟ والشمس والقمر أثر من آثار نور الله الذى يَسْطع فى بيوت الله ، ألاَ يعطينا ذلك الإشعاع الذى يفوق إشعاع البدور ؟

ثم يقول تعالى : ﴿ يُسَبِّحُ[١] لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ (٣٦) ﴾ [النور] فالمساجد جُعِلَتْ لتسبيح الله ؛ لذلك كان بعض الصالحين إذا نزل بلداً يتحيل أن ينزلها في غير وقت الصلاة ، ثم يذهب إلى المسجد فإنْ وجده عامراً في غير وقت الصلاة بالمسبحين علم أن هؤلاء ملتزمون بمنهج الله ، حيث يجلسون قبل وقت الصلاة يُسبِّحون الله وينتظرون الصلاة ، وإنْ وجد الحال غير ذلك انصرف عنها وعلم أنها بلد لا خيرَ فيها[٢] .

والغُدوُّ : يعني الصباح ، والآصال : يعني المساء ، فهي لا تخلو أبداً من ذكْر الله وتسبيحه ، وقد وصف هؤلاء الذين يعمرون بيوت الله بالذكر والتسبيح بأنهم :

﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ[٣] (٣٧) ﴾

قلنا : إن التجارة هي قمة حركة الحياة ؛ لأنها واسطة بين منتج زارع أو صانع وبين مستهلك ، وهي تقتضي البيع والشراء ، وهما قمة التبادلات ، وهؤلاء الرجال لم تُلْههمْ التجارة عن ذكْر الله لأنهم عرفوا ما في الزمن المستقطع للصلاة مَنَ بركة تنثر في الزمن الباقي .

---

(١) هناك قراءة أخرى « يُسبَّح » قرأها عبد الله بن عامر وعاصم في رواية أبي بكر عنه والحسن . بفتح الباء على ما لم يُسمَّ فاعله . ذكره القرطبي في تفسيره (٦/٤٨١٢) .

(٢) ذكر القرطبي في تفسيره (٦/٤٨١٢) : « رأى سالم بن عبد الله أهل الأسواق وهم مقبلون إلى الصلاة ، فقال : هؤلاء الذين أراد الله بقوله ﴿ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ .. (٣٧) ﴾ [النور] ثم قال : « اختلف العلماء في وصف الله تعالى المسبحين . فقيل : هم المراقبون أمر الله ، الطالبون رضاءه ، الذين لا يشغلهم عن الصلاة وذكر الله شيء من أمور الدنيا » .

(٣) كناية عن الحيرة والفزع الشديد والبحث عن موضع للفرار من أهوال يوم القيامة . [القاموس القويم ٢/١٢٩] . وقيل : تتقلب القلوب بين الطمع في النجاة والخوف من الهلاك ، والأبصار تنظر من أي ناحية يعطون كتبهم وإلى أي ناحية يؤخذ بهم [تفسير القرطبي ٦/٤٨١٧] .

أو نقول : إن التجارة لم تُلْههم عن ذكْر الله فى ذاتها ، فهُمْ حالَ تجارتهم لا يغفلون عن ذكر الله ، وقد كنا فى الصِّغَر نسمع فى الأسواق بين البائع والمشترى ، يقول أحدهما للآخر : وحِّد الله ، صلِّ على النبى ، مدَّح النبى ، بالصلاة على النبى ، كل هذه العبارات انقرضت الآن من الأسواق والتعاملات التجارية وحَلَّ محلَّها قيم وعبارات أخرى تعتمد على العَرْض والإعلان ، بل الغش والتدليس . ولم نَعُدْ نسمع هذه العبارات ، حتى إذا لم يتم البيع كنت تسمع البائع يقول : كسبنا الصلاة على النبى ، فهى فى حَدِّ ذاتها مكسب حتى لو لم يتم البيع .

﴿ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ .. (٣٧) ﴾ [النور] الصلاة لأنها تأخذ وقتاً من العمل ، وكثيراً ما ينشغل المرء بعمله وتجارته عن إقامة الصلاة ظاناً أنها ستُضيِّع عليه الوقت ، وتُفوِّت عليه مصالح كثيرة ، وكذلك ينظر إلى الزكاة على أنها تنقص من ماله ، وهذه نظرة خاطئة حمقاء ؛ لأن الفلاح الذى يُخرِج من مخزنه أردباً من القمح ليزرع به أرضه : الأحمق يقول : المخزن نقص أردباً ، أما العاقل فيثق أن هذا الأردب سيتضاعف عند الحصاد أضعافاً مضاعفة .

أو : أن الله تعالى يفيض عليه من أنواره ، فيبارك له فى وقته ، وينجز من الأعمال فى الوقت المتبقى ما لا ينجزه تارك الصلاة ، أو : يرزقه بصفقة رابحة تأتيه فى دقائق ، ومن حيث لا يحتسب ، والبركة كما قلنا قد تكون سلْباً وقد تكون إيجاباً ، وهذه كلها أنوار وتجليات يفيض الله بها على الملتزم بمنهجه .

ثم يقول سبحانه فى صفات هؤلاء الرجال : ﴿ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ (٣٧) ﴾ [النور] ذلك لأنهم يتاجرون لهدف أسمى

وأخلد ، فأهل الدنيا إنما يتاجرون لصيانة دنياهم ، أمّا هؤلاء فيتاجرون مع الله تجارة لن تبور ، تجارة تصون الدنيا وتصون الآخرة .

وإذا قِسْتَ زمن دنياك بزمن أُخْراك لوجدته هباء لا قيمةَ له ، كما أنه زمن مظنون لعمر مظنون ، لا تدرى متى يفاجئك فيه الموت ، أمّا الآخرة فحياة يقينية باقية دائمة ، وفى الدنيا يفوتك النعيم مهما حَلاَ وطال ، أما الآخرة فنعيمها دائم لا ينقطع .

إذن : فَهُمْ يعملون للآخرة ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ (٣٧)﴾ [النور] واليوم فى ذاته لا يُخاف منه ، وإنما يُخَاف ما فيه ، كما يقول الطالب : خِفْت يوم الامتحان ، واليوم يوم عادى لا يخاف منه ، إنما يُخاف مما سيحدث فى هذا اليوم ، فالمراد : يخافون عذاب هذا اليوم .

ومعنى ﴿تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ (٣٧)﴾ [النور] يعنى : رجفة القلب واضطراب حركته ، وما ينتابه من خفقان شديد ، ونحن نرى ما يصيب القلوب من ذلك لمجرد أحداث الدنيا ، فما بالك بهوْل الآخرة ، وما يحدث من اضطراب فى القلب ؟

كذلك تضطرب الأبصار وتتقلَّب هنا وهناك ؛ لأنها حين ترى الفزع الذى يخيفها تتقلب ، تنظر هنا وتنظر هنا علَّها ترى ما يُطمئنها أو يُخفِّف عنها ما تجد ، لكن هيهات فلن ترى إلا فزعاً آخر أشدّ وأنكى .

لذلك ينتهى الموقف إلى : ﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ .. (٤٣)﴾ [القلم] ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ (٨) أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ (٩)﴾ [النازعات] يعنى : ذليلة منكسرة حيث لا مفرَّ ولا مَنْجى ، ولن يجد فى هذا اليوم راحة إلا مَنْ قدم له العمل الصالح كالتلميذ المجتهد الواثق من نفسه ومعلوماته،

يتلهف إلى ورقة الأسئلة ، أما الآخر فيقف حائراً لا يدرى .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾ ﴾

أى : فى هذا اليوم يجزيهم الله أحسن ما عملوا ، ما شاء الله على رحمة الله !! لكن كيف بأسوأ ما عملوا ؟ هذه دَعُوها لرحمة الله ولمغفرته ﴿ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ .. ﴿٣٨﴾ ﴾ [النور] لأن الله تعالى لا يعاملنا فى الحسنات بالعدل ، ولا يجازينا عليها بالقسطاس المستقيم وعلى قَدْر ما نستحق ، إنما يزيدنا من فضله .

لذلك ورد فى الدعاء : اللهم عاملنا بالفضل لا بالعدل ، وبالإحسان لا بالميزان . فليس لنا نجاة إلا بهذا ، كما يقول سبحانه : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [يونس]

﴿ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾ ﴾ [النور] والرزق : كُلُّ ما يُنتفع به ، وكل معنى فيه فوقية لك هو رزق ، فالصحة رزق ، والعلم رزق ، والحلم رزق ، والشجاعة رزق .. إلخ .

والبعض يظن أن الرزق يعنى المال ، وهذا خطأ ؛ لأن الرزق مجموعُ أمور كثيرة ، فإنْ كان رزقُك علماً فعلِّم الجاهل ، وإنْ كان رزقك قوةً فأعِن الضعيف ، وإنْ كان رزقك حلْماً فاصبر على السَّفيه ، وإن كان رزقكَ صنعة تجيدها ، فاصنع لآخرَ لا يجيد شيئاً .

وإذن : هذا كله رزق ، وما دام ربك - عز وجل - يرزقك بغير حساب ، ويفيض عليك من فضله فأعْطِ المحتاجين ، وارزق أنت أيضاً

المعدمين ، واعلم أنك مُنَاول عن الله ، والرزق فى الأصل من الله وقد تكفّل لعباده به ، وما أنت إلا يد الله الممدودة بالعطاء ، واعلم أنك ما دُمْتَ واسطة فى العطاء ، فأنت تعطى من خزائن لا تنفد ، فلا تضنّ ولا تبخل ، فما عندكم ينفد وما عند الله بَاقٍ .

والحساب : أنْ تحسب ثمرة الأفعال : هذه تعطى كذا ، وهذا ينتج كذا ، يعنى ميزانية ودراسة جدوى ، أمّا عطاء الله فيأتيك دون هذه الحسابات ، فأنت تحسب ؛ لأن وراءك مَنْ سيحاسبك ، أمّا ربك عز وجل فلا يحاسبه أحد ؛ لذلك يعطيك بلا عمل ودون أسباب ، ويعطيك بلا مُقدِّمات ، ويعطيك وأنت لا تستحق ، ألاَ ترى مَنْ تتعثر قدمه فيجد تحتها كنزاً ؟

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿٣٩﴾ ﴾

الحق - تبارك وتعالى - يريد أنْ يلفت أنظار مَنْ شغلتهم الدنيا بحركتها ونشاطها عن المراد بالآخرة ، فيصنعون صنائع معروف كثيرة ، لكن لم يُخلصوا فيها النية لله ، والأصل فى عمل الخير أنْ يكون من الله ولله ، وسوف يُواجَه هؤلاء بهذه الحقيقة فيقال لأحدهم كما جاء فى الحديث : « عملت ليقال وقد قيل »[1] .

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٩٠٥) وأحمد فى مسنده (٣٢٢/٢) والنسائى فى سننه (٢٣/٦ ، ٢٤) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه وفيه : « إن أول الناس يُقْضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتى به فعرفه نعمه فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : قاتلت فيك حتى استشهدت . قال : كذبت ولكنك قاتلت لأن يقال جرىء فقد قيل . ثم أُمِر به فسُحِب على وجهه حتى أُلقِى فى النار » الحديث .

لقد مدحوك وأثنَوْا عليك ، وأقاموا لك التماثيل وخلَّدوا ذكْراك ؛ لذلك رسم لهم القرآن هذه الصورة : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا .. (٣٩) ﴾ [النور]

﴿ أَعْمَالُهُمْ .. (٣٩) ﴾ [النور] أى : التى يظنونها خيراً ، وينتظرون ثوابها ، والسراب : ما يظهر فى الصحراء وقت الظهيرة ، كأنه ماء وليس كذلك . وهذه الظاهرة نتيجة انكسار الضوء ، و « قِيعة » : جمع قاع وهى الأرض المستوية مثل جار وجيرة .

وأسند الفعل ﴿ يَحْسَبُهُ .. (٣٩) ﴾ [النور] إلى الظمآن ؛ لأنه فى حاجة للماء ، وربما لو لم يكُنْ ظمآناً لما التفتَ إلى هذه الظاهرة ، فلظمئه يجرى خلف الماء ، لكنه لا يجد شيئاً ، وليت الأمر ينتهى عند خيبة المسعى إنما ﴿ وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ .. (٣٩) ﴾ [النور] فُوجىء بإله لم يكُنْ على باله حينما فعل الخير ، إله لم يؤمن به ، والآن فقط يتنبه ، ويصحو من غَفْلته ، ويُفَاجأ بضياع عمله .

إذن : تجتمع عليه مصيبتان : مصيبة الظمأ الذى لم يجد له رِيّاً ، ومصيبة العذاب الذى ينتظره ، كما قال الشاعر[1] :

كَما أبرقَتْ قَوْماً عِطَاشاً غَمَامَةٌ ... فَلَمَّا رأوْهَا أَقْشَعَتْ وتَجلَّتِ[2]

وسبق أن ضربنا مثلاً لهذه المسألة بالسجين الذى بلغ منه العطش مبلغاً ، فطلب الماء ، فأتاه الحارس به حتى إذا جعله عند فيه

---

(١) هو : كثير بن عبد الرحمن أبو صخر الخزاعى ، يقال له « كثير عزة » وهى عزة بنت جميل الضمرية ، كان عفيفاً فى حبه لها ، شاعر متيم مشهور ، من أهل المدينة أكثر إقامته بمصر ، كان مفرط القصر دميماً فى نفسه شمم وترفع . توفى عام (١٠٥ هـ) الأعلام للزركلى (٥/٢١٩) .

(٢) ديوان كثير (ص ٢٠٧) وأورده شهاب الدين الحلبى (ت ٧٢٥ هـ) فى « حسن التوسل إلى صناعة الترسل » ص ١٢١ . وأقشعت الغمامة : انكشفت وذهبت .

واستشرف المسكين للارتواء أراق الحارسُ الكوبَ ، ويُسمُّون ذلك : يأْسٌ بعد إطْماع .

لذلك الحق ـ تبارك وتعالى ـ يعطينا فى الكون أمثلة تُزهِّد الناس فى العمل للناس من أجل الناس ، فالعمل للناس لا بُدَّ أنْ يكون من أجل الله . وفى الواقع تصادف مَنْ ينكر الجميل ويتنكر لك بعد أنْ أحسنْتَ إليه ، وما ذلك إلا لأنك عملتَ من أجله ، فوجدت الجزاء العادل لتتأدب بعدها ولا تعمل من أجل الناس ، ولو فعلتَ ما فعلتَ من أجل الله لوجدتَ الجزاء والثواب من الله قبل أنْ تنتهى من مباشرة هذا الفعل .

وفى موضع آخر يُشبِّه الحق سبحانه الذى ينفق ماله رياء الناس بالحجر الأملس الذى لا ينتفع بالماء ، فلا ينبت شيئاً : ﴿كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ[1] عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ[2] فَتَرَكَهُ صَلْدًا[3] لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٢٦٤)﴾ [البقرة]

وقوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩)﴾ [النور] فإياك أنْ تستبعد الموت أو البعث ، فالزمن بعد الموت وإلى أن تقوم الساعة زمنٌ لا يُحسَب لأنه يمرُّ عليك دون أن تشعر به ، كما قال سبحانه : ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا (٤٦)﴾ [النازعات]

والله تعالى أخفى الموت أسباباً وميعاداً ؛ لأن الإبهام قد يكون غاية البيان ، وبإبهام الموت تظل ذاكراً له عاملاً للآخرة ؛ لأنك تتوقعه

---

(١) الصفوان : الحجر الأملس الذى لا يصلح للزراعة . [القاموس القويم ١ / ٣٨٠] .
(٢) الوابل : المطر الكثير القطر . والوبيل : الثقيل الغليظ جداً . [لسان العرب ـ مادة : وبل] .
(٣) الصلد : الحجر الصلب الأملس فلا يصلح لإنبات نبات . [القاموس القويم ١/٣٨١] .

فى أى لحظة ، فهو دائماً على بالك ، ومَنْ يدريك لعلَّك إنْ خفضْتَ طرْفك لا ترفعه ، وعلى هذا فالحساب قريب وسريع ؛ لذلك قالوا : مَنْ مات فقد قامت قيامته[1] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ ﴾

هذا مَثَل آخر توضيحى لأعمال الذين كفروا ، والبحر اللجى : الواسع الكبير الذى تتلاطم فيه الأمواج ، بعضها فوق بعض ، وفوق هذا كله سحاب إذن : فالظلام مُطبق ؛ لأنه طبقات متتالية ، وفى أعماق بعيدة ، وقد بلغتْ هذه الظلمة حداً لا يرى الإنسان معها حتى يده التى هى جزء منه ، فما بالك بالأشياء الأخرى ؟

وقوله : ﴿ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا .. ﴿٤٠﴾ ﴾ [النور] أى : لم يقرب من أنْ يراها ، وإذا نفى القُرْب من أن يرى فقد نفى الرؤية من باب أَوْلَى ؛ ذلك لأنه ليس له نور من الله يرى به ويهتدى ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ ﴾ [النور] فكما أنه لم ينتفع بالنور ، ولم يَرَ حتى يده ، كذلك لا ينتفع بشىء من عمله .

---

(١) ذكره العجلونى فى كشف الخفاء (حديث رقم ٢٦١٨) عن أنس بن مالك رضى الله عنه وتمامه : « أكثروا ذكر الموت ، فإنكم إن ذكرتموه فى غنىً كدّره عليكم ، وإن ذكرتموه فى ضيق وسّعه عليكم ، الموت القيامة ، فمن مات قامت قيامته » . وأخرجه الديلمى فى مسند الفردوس (حديث ١١١٧) عن أنس رفعه بلفظ « إذا مات أحدكم فقد قامت قيامته فاعبدوا الله كأنكم ترونه واستغفروه كل ساعة » .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ (١) كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (٤١) ﴾

يريد الحق ـ سبحانه وتعالى ـ أن يلفتنا إلى ما يدلّ على وحدة الخالق الأعلى ، وكمال قيوميته ، وكمال قدرته ، وذُكرَتْ هذه الآية بعد عدة أوامر ونواه ، وكأن ربك ـ عز وجل ـ يريد أنْ يُطمئنك على أن هذا الكون الذى خُلقه من أجلك وقبل أن تُولد ، بل ، وقبل أن يخلق الله آدم أعدَّ له هذا الكون ، وجعله فى استقباله بسمائه وأرضه وشمسه وقمره ومائه وهوائه ، يقول لك ربك : اطمئن فلن يخرج شىء من هذا الكون عن خدمتك فهو مُسخَّر لك ، ولن يأتى يوم يتمرّد فيه ، أو يعصى أوامر الله :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ.. (٤١) ﴾ [النور]

﴿ أَلَمْ تَرَ.. (٤١) ﴾ [النور] يعني : ألم تعلم ، كما فى قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) ﴾ [الفيل] ومعلوم أن النبى ﷺ وُلد عام الفيل ، ولم يَرَ هذه الحادثة ، فلماذا لم يخاطبه ربُّه بألم تعلم ويريح الناس الذين يتشكّكون فى الألفاظ ؟

قالوا : ليدلّك على أن ما يخبرك الله به ـ غيباً عنك ـ أوثقُ مما تخبرك به عينُك مشهداً لك ؛ لأن مصدر علمك هو الله ، ألاَ ترى أن النظر قد يصيبه مرض فتختل رؤيته ، كمن عنده عمى ألوان أو قِصَر

---

(١) صافات : مصطفات الأجنحة فى الهواء ، فهن باسطات الأجنحة . وقال سفيان : للطير صلاة ليس فيها ركوع ولا سجود . وقيل : إن ضربها بأجنحتها صلاة ، وإن أصواتها تسبيح . حكاه النقاش . [تفسير القرطبى ٦/٤٨٢٤] .

نظر .. إلخ إذن : فالنظر نفسه وهو أوثق شيء لديك قد يكذب عليك .

والتسبيح : هو التنزيه ، والتنزيه أن ترتفع بالمنزّه عن مستوى ما يمكن أنْ يجولَ بخاطرك : فالله تعالى له وجود ، وأنت لك وجود ، لكن وجودَ الله ليس كوجودك ، الله له ذات وصفات ، لكن ليست كذاتك وصفاتك .. إلخ .

إذن : نزِّه ذات الله تعالى عن الذوات التى تعرفها ؛ لأنها ذوات وُهبَتْ الوجود ، أما ذات الله فغير موهوبة ، ذات الله ذاتية ، كذلك لك فِعْل ، ولله تعالى فِعْل .

وقد ذكرنا فى قوله تعالى : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا .. (١) ﴾ [الإسراء]

إن الذين اعترضوا على هذا الفعل اعترضوا بغباء ، فلم يُفرِّقوا بين فِعْل الله وفِعْل العبد ، فرسول الله ﷺ لم يقل : سريْتُ من مكة إلى بيت المقدس . إنما قال : أُسْرِى بى .

فالاعتراض على هذا فيه مغالطة ، فإنْ كنتم تضربون إليها أكباد الإبل شهراً ؛ فذلك لأن سَيْركم خاضع لقدرتكم وإمكاناتكم ، أمّا الله تعالى فيقول للشيء : كُنْ فيكون ، فلا يحتاج فى فِعْله سبحانه إلى زمن . فمن الأدب ألاَّ تقارن فِعْل الله بفعلك ، ومن الأدب أنْ تُنزِّه الله عن كل مَا يخطر لك ببال ، نزِّه الله ذاتاً ، ونزِّهه صفاتاً ، ونزهه أفعالاً .

ألا ترى أن (سبحان) مصدر للتسبيح ، يدل على أن تنزيه الله ثابت له سبحانه قبل أن يخلق مَنْ ينزهه ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ .. (١٨) ﴾ [آل عمران] فشهد الحق ـ تبارك وتعالى ـ لنفسه قبل أنْ تشهدوا ، وقبل أن تشهد الملائكة ، فهذه هى

شـهادة الذات للذات . وقـبل أن يخلق الله الإنسـان المـسبِّح سـبَّح لله السموات والأرض ساعة خلقهما سبحانه وتعالى .

وحين تتـتبع ألفاظ التسـبيح فى القرآن الكريم تجدهـا جاءت مرة بصيغة الماضى ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. ﴿١﴾﴾ [الحديد] فهل سـبّحَتْ السموات والأرض مـرة واحدة ، فقالت : سبـحان الله ثم سكتَتْ عن التسبيح ؟ لا إنما سبَّحَتْ فى الماضى ، ولا تزال تُسبِّح فى الحاضر : ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ .. ﴿١﴾﴾ [الجمعة]

وما دام أن الكون كله سبَّح لله ، وما يزال يُسبِّح فلم يَبْقَ إلا أنت يا ابن آدم : ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ﴿١﴾﴾ [الأعلى] يعنى : اسـتح أن يكون الكون كله مُـسبِّـحاً وأنت غـيـر مُسـبِّح ، فصِلْ أنت تسـبيـحك بتسبيح كل هذه المخلوقات .

وعجـيب أن نسـمع من يقول أن (مَنْ) فى الآية للعـاقل ، فـهو الذى يُسبِّح أمّـا السموات والأرض فـلا دخلَ لهما فى هذه المـسألة ، ونقول : لا دخلَ لها فى تصورك أنت ، أمّا الحقـيقة فإنها مثلك تُسبِّح كما قال تعالى : ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ .. ﴿٤١﴾﴾ [النور]

وقال : ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ .. ﴿١٣﴾﴾ [الرعد] فليس لك بعد كلام الله كلام .

وآخر يقول لك : التسبيح هنا ليس على الحـقيقة ، إنما هو تسبيح دلالة وحـال ، لا مـقـال ، يعنى : هذه المـخلوقـات تدلُّ بحـالهـا على تسبيح الله وتنزيهه ، وأنه واحد لا شريك له ، على حد قول الشاعر :

وَفِى كُلِّ شَىء لَهُ آيَةٌ تدُلُّ على أنَّه الوَاحِدُ

وهذا القول مردود بقوله تعالى : ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَـكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. (٤٤)﴾ [الإسراء]

إذن : فهذه المخلوقات تُسبِّح على الحقيقة ولها لسان ولغة ، لكنك لا تفهم عنها ولا تفقه لغاتها ، وهل فهمتَ أنت كل لغات بنى جنسك حتى تفهم لغات المخلوقات الأخرى ؟ إن العربى إذا لم يتعلم الإنجليزية مثلاً لا يستطيع أن يفهم منها شيئاً ، وهى لغة منطوقة مكتوبة ، ولها ألفاظ وكلمات وتراكيب مثل العربية .

إذن : لا تقُلْ تسبيحَ حال ، هو تسبيح مقال ، لكنك لا تفهمه ، وكل شىء له مقال ويعرف مقاله ، بدليل أن الله تعالى إنْ شاء أطلع بعض أهل الاصطفاء على هذه اللغات ، ففهمها كما فهم سليمان عليه السلام عن النملة ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا .. (١٩)﴾ [النمل] وسمع كلام الهدهد وفهم عنه ما يقول عن ملكة سبأ .

ونقول لأصحاب هذا الرأى : تأملوا الخلية المسدَّسة التى يصنعها النحل وما فيها من هندسة تتحدى أساطين الهندسة والمقاييس أن يصنعوا مثلها ، تأمَّلوا عش الطائر وكيف ينسج عيدان القش ، ويُدخل بعضها فى بعض ، ويجعل للعُشِّ حافَّة تحمى الصغار ، فإذا وضعْتَ يدك فى العُشِّ وهو من القَشِّ وجدتَ له ملمسَ الحرير ، تأملوا خيوط العنكبوت وكيف يصطاد بها فرائسه ؟

لقد شاهدت فيلماً مصوراً يُسجِّل صراعاً بين دب وثور ، الدب رأى قرون الثور طويلة حادة ، وعلم أنها وسيلة الثور التى ستقضى عليه ، فما كان منه إلا أن هجم على الثور وأمسك قَرْنَيْه بيديه ، وظل ينهش رأس الثور بأسنانه حتى أثخنه جراحاً حتى سقط فراح يأكله .

إذن : كيف نستبعد أن يكون لهذه المخلوقات لغات تُسبِّح الله بها

لا يعرفها إلا بنو جنسها ، أو مَنْ أفاض الله عليه بعلمها ؟

ثم ألم يتعلَّم الإنسان من الغراب كيف يدفن الموتى لما قَتَل قابيلُ هابيلَ ؟ كما يقول سبحانه : ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ .. (٣١)﴾ [المائدة] وكأن ربنا - عز وجل - يُعلِّمنا الأدب وعدم الغرور .

وقرأنا أن بعض الباحثين والدارسين لحياة النمل وجدوا أنه يُكوِّن مملكة متكاملة بلغت القمة فى النظام والتعاون ، فقد لاحظوا مجموعة تمرُّ هنا وهناك ، حتى وجدتْ قطعة من طعام فتركوها وانصرفوا ، حيث أتوا ، ثم جاءت بعدهم كوكبة من النمل التفتْ حول هذه القطعة وحملتْها إلى العُشِّ ، ثم قام الباحث بوضع قطعة أخرى ضِعْف الأولى ، فإذا بمجموعة الاستكشاف (أو الناضورجية) تمر عليها وتذهب دون أنْ تحاول حَمْلها ، وبعدها جاء جماعة من النمل ضِعْف الجماعة الأولى ، فكأن النمل يعرف الحجم والوزن والكتلة ويُجيد تقديرها .

وفى إحدى المرات لاحظ الباحث فتاتاً أبيض أمام عُشِّ النمل ، فلما فحصه وجده من جنين الحبة الذى يُكوِّن النبتة ، وقد اهتدى النمل إلى فصل هذا الجنين حتى لا تُنبت الحبة فتهدم عليهم العُشّ ، لهذا الحد علَم النمل قانون صيانته ، وعلم كيف يحمى نفسه ، وهو من أصغر المَخلوقات ، أبعد هذا كله نستبعد أن يكون للنمل أو لغيره لُغته الخاصة ؟

ثم يقول سبحانه : ﴿وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ .. (٤١)﴾ [النور] فلماذا خَصَّ الطير بالذكْر مع أنها داخلة فى ﴿مَن فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. (٤١)﴾ [النور]

قالوا : خَصَّها لأن لها خصوصية أخرى وعجيبة ، يجب أن نلتفت إليها ؛ لأن الله تعالى يريد أنْ يجعل الطير مثلاً ونموذجاً لشىء أعظم ، فالطير كائن له وزن وثقل ، يخضع لقانون الجاذبية التى تجذب للأرض كُلَّ ثقل يعلَقُ فى الهواء .

لكن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ يخرق هذا القانون للطير حين يصُفُّ أجنحته فى الهواء ، يظل مُعلّقاً لا يسقط : ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ الرَّحْمَـٰنُ .. (١٩)﴾ [الملك]

وكأن الخالق ـ عز وجل يقول : خُذُوا من الطير المشاهد نموذجاً ووسيلة إيضاح ، فإذا قلتُ لكم : ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ .. (٦٥)﴾ [الحج] فَصدِّقوا وآمنوا أن الله يُمسك السماء ، بل : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ .. (٤١)﴾ [فاطر]

فخُذْ من المشهد الذى تدركه دليلاً على ما لا تدركه .

لكن ، مَن الفاعل فى ﴿عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ .. (٤١)﴾ [النور] ؟

يمكن أن يكون الفاعل الطير وكل ما فى الوجود ، وأحسن منه أن نقول : علم الله صلاتها وتسبيحها ؛ لأنه سبحانه خالقها وهاديها إلى هذا التسبيح[1] . إذن : فكل ما فى الوجود يعلم صلاته ويعلم تسبيحه ، كما تعلم أنت المنهج ، لكنه استقام على منهجه لأنه مُسخّر وانحرفت أنت لأنك مُخيَّر .

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٦/٤٨٢٤) : « يجوز أن يكون المعنى : كل قد علم الله صلاته وتسبيحه ، أى : علم صلاة المصلى وتسبيح المسبّح ؛ ولهذا قال : ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (٤١)﴾ [النور] أى : لا يخفى عليه طاعتهم ولا تسبيحهم . وقد قيل : المعنى : قد علم كل مُصلٍّ ومسبِّح صلاة نفسه وتسبيحه الذى كلفه » .

فإنْ أردتَ أنْ تستقيمَ أمور حياتك فطبِّق منهج الله كما جاءك ؛ لذلك لا تجد فى الكون خللاً أبداً إلا فى منطقة الاختيار عند الإنسان ، كل شىء لا دخْلَ للإنسان فيه يسير منتظماً ، فالشمس لم تعترض فى يوم من الأيام ولم تتخلف ، كذلك القمر والنجوم والهواء ، إنها منضبطة غاية الانضباط ، حتى إن الناس يضبطون عليها حساباتهم ومواعيدهم واتجاهاتهم .

لذلك يقول تعالى : ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥﴾ [الرحمن] يعنى : بحساب دقيق ، وما كان للشمس أنْ تضبط الوقت إلا إذا كانت هى فى ذاتها منضبطة .

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ۝٤١﴾ [النور] أى : لقيوميته تعالى على خَلْقه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ۝٤٢﴾

يريد ربك ـ عز وجل ـ أنْ يُطمئنك أن الذى كلّفك بما كلَّفك به يضمن لك مُقوِّمات حياتك ، فلن ينقطع عنك الهواء فى يوم من الأيام ، ولن تتأبَّى عليك الشمس أو القمر أو الأرض ؛ لأنها ملْك لله ، لا يشاركه سبحانه فى ملكيتها أحد يمنعها عنك ، فاطمئن إلى أنها ستؤدى مهمتها فى خدمتك إلى يوم القيامة ، ولا تشغل نفسك بها ، فقد ضمنها الله .

ثم يقول رب العزة سبحانه :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ (١) يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا (٢) بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ (٤٣) ﴾

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ .. (٤٣) ﴾ [النور] يعنى : ألم تعلم ، وقد وقفنا مع تطور العلم على كيفية تكوُّن المطر بين التبخير والتكثيف الذى يُكوِّن السحاب ، وقلنا سابقاً : إن مُسطح الماء على الأرض ثلاثة أرباع اليابسة حتى تكفى هذه المساحة البخر اللازم لتكوّن المطر ، ونحن نُجرى مثل هذه العملية فى تقطير الماء حين نغلى الماء ونستقبل البخار على سطح بارد ، فتحدث له عملية التكثيف .

وقد أوضحنا هذه العملية بكوب الماء حين تتركه ممتلئاً وتسافر مثلاً ، فحين تعود تجد الكوب قد نقص قليلاً ، أما إذا أرقْتَهُ على الأرض ، فإنه يجفُّ سريعاً ، وقبل أن تغادر المكان ، لماذا ؟ لأنك وسَّعْتَ مساحة البَخْر .

ومعنى ﴿ يُزْجِي سَحَابًا .. (٤٣) ﴾ [النور] أى : يرسله برِفْق ومَهَل ؛ لذلك لما وصف الشاعر مَشْى الفتاة قال :

كَأَنَّ مِشْيَتَها مِنْ بيْتِ جَارَتِها ... مَرُّ السَّحابَةِ لاَ رَيْثٌ (٣) ولاَ عَجَلُ

---

(١) الودق : المطر ، شديده وهيِّنه . [لسان العرب ـ مادة : ودق] .

(٢) السنا : ضوء النار والبرق . قال أبو زيد : سنا البرق ضوؤه من غير أن ترى البرق أو ترى مخرجه فى موضعه ، فإنما يكون السنا بالليل دون النهار ، وربما كان فى غير سحاب [لسان العرب ـ مادة : سنا] .

(٣) الريث : الإبطاء . راث يريث : أبطأ . وتريث فلان علينا . أى : أبطأ . [لسان العرب ـ مادة : ريث] .

﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ .. (٤٣)﴾ [النور] أى : يجمع بعضه على بعض ، وحين يُجمع الشىء بعضه على بعض لا بُدَّ أن يبقى بينه فاصل ، فلا يلتحم بغيره التحاماً تاماً ، ولولا هذه الفواصل بين قِطَع السحاب ، ولولا هذه الفتوق ما نزل الوَدَق من خلاله .

ولو شاء سبحانه لجعل السحاب قطعة واحدة ، ولكنه سبحانه يؤلف بينه ويُجمِّعه بعضه على بعض دون أنْ يُوحِّده تكويناً ، فيحدث بذلك فراغاً بين قطع السحاب . أرأيتَ حين نلصق الورق بالصمغ مثلاً فمهما وضعت عليه من ثقل لا بُدَّ أن يبقى بينه فراغات ؛ لأنه ليس ذاتاً واحدة .

وعملية تفريغ الهواء هذه تلاحظها حين تضع كوباً مبلولاً وتتركه لفترة ، فيتبخر الماء من تحته ويخرج الهواء ، فإذا أردْتَ رفعه وجدته صعباً لماذا ؟ لتفريغ الهواء من تحت قاعدة الكوب ، وفى هؤلاء الذين يعالجون الآلام الناتجة عن البرد ، فيضعون الكوب مقلوباً على مكان الألم ، ثم يُشعِلُون بداخله قطعةً من القماش مثلاً لتحرق الهواء بداخل الكوب .

وبذلك نمنع الخلل فى التقاء الكوب بالجسم ، وهذه المسألة هى سرُّ عظمة قدماء المصريين فى البناء ، حيث تتماسك الحجارة دون وجود (مونة) تربط بينها .

إذن : وجود الهواء بين الشيئين يُحدث خللاً بينهما ، ولولا هذا الخلل فى السحاب ما نزل منه الماء ، والمطر آية عظيمة من آيات الله لا نشعر بها ، ولك أنْ تتصور كم يُكلِّفنا كوب الماء المقطّر حين نُعِدُّه فى المعمل ، فما بالك بالمطر الذى يسقى الأرض كلها ؟

ثم يقول تعالى : ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا .. (٤٣)﴾ [النور] يعنى : مُكدَّساً

بعضه على بعض ، وفي آية أخرى : ﴿ وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ (٤٤) ﴾ [الطور] متراكم بعضه على بعض ﴿ فَتَرَى الْوَدْقَ .. (٤٣) ﴾ [النور] أى : المطر : ﴿ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ .. (٤٣) ﴾ [النور] أى : من خلال هذه الفجوات والفواصل التى تفصل بين السُّحُب .

وهذا الماء الذى ينزل من السماء فيُحيى به الله الأرض قد يأتى نقمةً وعذاباً ، كما قال سبحانه : ﴿ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ .. (٤٣) ﴾ [النور] ولنا فى أهل مأرب الذين أغرقهم الله عبرةٌ وعظة .

ولو تأملتَ لوجدتَ الماء والنار عدويْن متقابلين يصعب مقاومتهما ؛ لذلك كان العرب إلى عهد قريب يخافون الماء لما عاينوه من غرق بعد انهيار سدِّ مأرب ؛ لذلك آثروا أنْ يعيشوا فى الصحراء بعيداً عن الماء .

وبالماء نجَّى الله تعالى موسى ـ عليه السلام ـ وأغرق عدوه فرعون ، ففعل سبحانه الشىء وضده بالشىء الواحد .

وقوله تعالى : ﴿ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ (٤٣) ﴾ [النور] أى : الضوء الشديد الذى يُحدثه السحاب يكاد أن يخطف الأبصار ، وفي البرق تتولد النار من الماء ؛ لذلك حينما يقول تعالى : ﴿ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ[1] (٦) ﴾ [التكوير] فصدِّق هذه الآية الغيبية ؛ لأنك شاهدتَ نموذجاً لها فى مسألة البرق .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ (٤٤) ﴾

(١) أى : امتلأت ماءً ، أو امتلأت ناراً يوم القيامة . [القاموس القويم ١/٣٠٣] .

فالليل والنهار آيتان يتتابعان لكن دون رتابة ، فالليل قد يأخذ من النهار ، والنهار يأخذ من الليل ، وقد يستويان فى الزمن تماماً . ومن تقليب الليل والنهار ما يعتريهما من حَرٍّ أو برد أو نور وظلمة .

إذن : فالمسألة ليست ميكانيكية رتيبة ، إنما هى قيومية الله تعالى وقدرته فى تصريف الأمور على مراده تعالى ؛ لذلك يقول تعالى بعدها : ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٤٤﴾﴾ [النور]

العبرة والعَبرة والعبور والتعبير كلها من مادة واحدة ، نقول : هذا مكَان العبور يعنى الانتقال من جهة إلى جهة أخرى ، وفلان عبَّر عن كذا ، يعنى : نقل الكلام النفسى إلى كلام باللسان ، والعبرة أنْ ننظرَ فى الشىء ونعتبر ، ثم ننتقل منه إلى غيره ، وكذلك العَبْرة لأنها حزن أسال شيئاً ، فنزل من عينى الدمع .

والعبرة هنا لمن ؟ ﴿لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٤٤﴾﴾ [النور] والمراد : الأبصار الواعية لا الأبصار التى تدرك فقط ، والإنسان له إدراكات بوسائلها ، وله عقل يستقبل المدركات ويغربلها ، ويخلُص منها إلى قضايا ، ومن الناس مَنْ يبصر لكنه لا يرى شيئاً ولا يصل من رؤيته إلى شىء ، ومنهم أصحاب النظر الواعى المدقِّق ، فالذى اكتشف قوة البخار رأى القِدْر وهى تغلى وتفور فيرتفع عليها الغطاء ، وهذا منظر نراه جميعاً الرَجل والمرأة ، والكبير والصغير ، لكن لم يصل أحد إلى مثل ما وصل إليه .

إذن : المراد الأبصار التى تنقل المبصر إلى العقل ليُحلِّله ويستنبط ما فيه من أسباب ، لعله يستفيد منها بشىء ينفعه ، والله تعالى قد خلق فى الكون ظواهرَ وآيات لو تأملها الإنسان ونظر إليها بتعقُّل وتبصُّر لاستنبطَ منها مَا يُثرى حَياته ويرتقى بها .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ ﴾

الدابة : كلّ ما يدبُّ على الأرض ، سواء أكان إنساناً أو أنعاماً أو وحشاً ، فكُلُّ ما له دبيب على الأرض خلقه الله من ماء حتى النملة لها على الأرض دبيب .

وكل شىء يضخم قابل لأنْ يُصغَّر ، وقد يُضخَّم تضخيماً لدرجة أنك لا تستطيع أن تدرك كُنْهه ، وقد يَصْغُر تصغيراً حتى لا تكاد تراه ، وتحتاج فى رؤيته إلى مُكبِّر ، ومن عجائب الخَلْق أن النملة أو الناموسة فيها كل أجهزة الحياة ومُقوِّماتها ، وفيها حياة كحياة الفيل الضخم ، ومن عظمة الخالق سبحانه أن يخلق الشىء الضخم الذى يفوق الإدراك لضخامته ، ويخلق الشىء الضئيل الذى يفوق الإدراك لضآلته .

ألاَ ترى أن ساعة (بج بن) أخذتْ شهرتها لضخامة حجمها ، ثم جاء بعد ذلك مَنْ صنع الساعة فى حجم فصِّ الخاتم ، وفيها نفس الآلات التى فى ساعة (بج بن) ، كذلك خلق الله من الماء الفيل الضخم ، وخلق الناموسة التى تؤرق الفيل رغم صِغَرها .. سبحان الخالق .

ولما كان الماء هو الأصل فى خلْقة كل شىء حىٍّ وجدنا العلماء يقتلون حتى الميكروب الصغير الدقيق بأنْ يحجبوا عنه المائية فيموت ، ومن ذلك مداواة الجروح بالعسل ؛ لأنه يمتص المائية أو يحجبها ، فلا يجد الميكروب وسطاً مائياً يعيش فيه

وهذه الخلْقة ليست على شكل واحد ولا وتيرة واحدة فى قوالب ثابتة ، إنما هى ألوان وأشكال ﴿فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ .. ﴿٤٥﴾﴾ [النور]

والمشى : هو انتقال الموصوف بالمشى من حَيِّز مكانى إلى حَيِّز مكانى آخر ، والناس تفهم أن المشى ما كان بالقدمين ، لكن يُوضِّح لنا سبحانه أن المشْى أنواع : فمن الدوابِّ مَنْ يمشى على بطنه ، ومنهم مَنْ يمشى على رِجْلَيْن ، ومنهم مَنْ يمشى على أربع[1] .

وربنا - سبحانه وتعالى - بسط لنا هذه المسألة بَسْطاً يتناسب وإعجاز القرآن وإيجازه ، فلم يذكر مثلاً أن من الدواب مَنْ له أربع وأربعون مثلاً ، وفى تنوع طُرق المشى فى الدواب عجائب تدلنا على قدرته تعالى وبديع خَلْقه .

لذلك قال بعدها : ﴿يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ .. ﴿٤٥﴾﴾ [النور] لأن الآية لم تستقْص كل ألوان المشى ، إنما تعطينا نماذج ، وتحت ﴿يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ .. ﴿٤٥﴾﴾ [النور] تندرج مثلاً (أُم أربعة وأربعين) وغيرها من الدواب ، والآية دليل على طلاقة قدرته سبحانه .

وكما سخر الله الإنسان لخدمة الإنسان ، كذلك سخَّر الحيوان لخدمة الحيوان ليُوفِّر له مُقوِّمات حياته ، ألاَ ترى الطير يقتات على فضلات الطعام بين أسنان التمساح مثلاً فينظفها له ، إذن : فما فى

---

(١) قال النقاش : إنما اكتفى فى القول بذكر ما يمشى على أربع عن ذكر ما يمشى على أكثر ؛ لأن جميع الحيوان إنما اعتماده على أربع ، وهى قوام مشيه ، وكثرة الأرجل فى بعضه زيادة فى خلقته ، لا يحتاج ذلك الحيوان فى مشيه إلى جميعها . وقال ابن عطية : والظاهر أن تلك الأرجل الكثيرة ليست باطلاً ، بل هى محتاج إليها فى تنقل الحيوان ، وهى كلها تتحرك فى تصرفه . [تفسير القرطبى ٦/٤٨٢٩] .

فم التمساح من الخمائر والبكتيريا هى مخزن قوت لهذه الطيور ، ويحدث بينها توافق وانسجام وتعاون ، حتى إن الطير إنْ رأى الصياد الذى يريد أن يصطاد التمساح فإنها تُحدِث صوتاً لتنبه التمساح حتى ينجو .

ومن المشْى أيضاً السَّعْى بين الناس بالنميمة ، كما قال تعالى : ﴿ هَمَّازٍ[1] مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ (١١) ﴾ [القلم]

وبعد أن أعطانا الحق - تبارك وتعالى - الأدلة على أن الملْك له وحده ، وأن كل شىء يُسبِّح بحمده تعالى وإليه تُرجَع الأمور ، وأنه تعالى خلق كُلَّ دابة من ماء ، قال سبحانه :

﴿ لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٤٦) ﴾

يعنى : مَنْ ملك هذا الملْك وحده ، وخلق لكم هذه العجائب أنزل لكم آيات بينات تحمل إليكم الأحكام ، فكما فعل لكم الجميل ، ووفر لكم ما يخدمكم فى الكون ، سمائه وأرضه ، فأدُّوا أنتم ما عليكم نحو منهجه وأحكامه ، واتبعوا هذه الآيات البينات .

ومعنى ﴿ مُّبَيِّنَٰتٍ .. (٤٦) ﴾ [النور] أى : لاستقامة حركة الحياة ؛ لأن حركة الحياة تحتاج لأنْ يتحرك الجميع ويؤدى كُلٌّ مهمته حتى تتساند الحركات ولا تتعاند ، فالذى يُتعب الدنيا أن تبنى وغيرك يهدم .

إذن : لا بُدَّ من ضابط قيمى يضبط كل الحركات ويحثّ كل

---

(١) الهماز : صيغة مبالغة . والهُمَزة : كثير الهمز واللمز والغمز واغتياب الناس وعيبهم . وقيل « الهمز » فى القفا والسر ، و « اللمز » عيب فى الوجه فى العلانية . [القاموس القويم ٢/٣٠٧] .

صانع أنْ يتقن صَنْعته ويُخلص فيها ، والإنسان غالباً لا يحسن إلا زاوية واحدة فى حياته ، هى حرفته وتخصصه ، وربما لا يحسنها لنفسه ؛ لأنه لا يتقاضى عليها أجراً ، لذلك يقولون (باب النجار مخلع) أما إنْ عمل للآخرين فإنه يُحسن عمله ويتقن صنعته ، وكذلك يتقن الناس لك ما فى أيديهم ، فتستقيم الأمور ، فأحْسن ما فى يدك للناس ، يحسنْ لك الناسُ ما فى أيديهم .

وقوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٤٦) ﴾[النور]

ولقائل أنْ يسأل : وما ذنب مَنْ لم يدخل فى هذه المشيئة فلم يَهْتد ؟ وسبق أن قلنا : إن الهداية نوعان : هداية الدلالة وهداية المعونة على الدلالة .

فالله تعالى يهدى الجميع هداية الدلالة ، ويبين للكل أسباب الخير وسُبل النجاة وطريق الفلاح والأسلوب الأمثل فى إدارة حركة الحياة ، فمَنْ سمع كلام الله ووثق فى توجيهه وأطاع فى هداية الدلالة أعانه بهداية المعونة .

فساعة تسمع : ﴿ وَاللَّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (١٠٨) ﴾ [المائدة]

﴿ وَاللَّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٢٥٨) ﴾ [البقرة]

فاعلم أنهم امتنعوا عن هداية الدلالة فامتنعت عنهم هداية المعونة ، لا هداية الدلالة والإرشاد والبيان .

وقلنا : إن كلمة ﴿ أَنزَلْنَا .. (٤٦) ﴾ [النور] تشعر باحترام الشىء المنزّل ؛ لأن الإنزال لا يكون إلا من العُلُو إلى الأدنى ، فكأن ربك – عز وجل – حين يكلفك يقول لك : أريد أن أرتفع بك من مستوى الأرض إلى عُلو السماء ؛ لذلك يقول تعالى فى موضع آخر : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ .. (١٥١) ﴾ [الأنعام]

أى : لا تضعوا لأنفسكم القوانين ، ولا تسيروا خلف آرائكم وأفكاركم ، إنما تعالوا إلى الله وخذوا منه سبحانه منهج حياتكم ، فهو الذى خلقكم ، وخلق لكم هذه الحياة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾

وفى آية أخرى يقول سبحانه : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا (٦١) ﴾ [النساء]

وهؤلاء هم المنافقون ، وخَيْبة المنافق أنه متضارب الملكات النفسية ؛ ذلك لأن للإنسان ملَكات متعددة تتساند حال الاستقامة ، وتتعاند حال المعصية ، فالإنسان تراه طبيعياً حين ينظر إلى ابنته أو زوجته ، لأن ملَكاته منسجمة مع هذا الفعل ، أما حين ينظر إلى محارم الغير فتراه يختلس النظرة ، يخاف أنْ يراه أحد يتلصّص ويحتاط ؛ لأن ملَكاته مضطربة غير منسجمة مع هذا الفعل .

لذلك يقولون : الاستقامة استسامة[1] ، فملكات النفس بطبيعتها متساندة لا تتعارض أبداً ، لكن المنافق فضلاً عن كذبه ، فهو متضارب الملَكات في نفسه ؛ لأن القلب كافر واللسان مؤمن .

لذلك فكرامة الإنسان تكون بينه وبين نفسه قبل أن تكون بينه وبين الناس ، فقد يصنع الإنسان أمام الناس صنائع خير تُعجب الآخرين ، لكنه يعلم من نفسه الشر ، فهو وإن كسب ثقة المجتمع من حوله ، إلا أنه خسر رأى نفسه فى نفسه ، وإذا خسر الإنسان نفسه

(١) من تقلد الوسام وآثر الحسن والجمال فالاستسامة طلب الحسن والجمال .

فلن يُعوِّضه عنها شيء حتى إنْ كسب العالم كله ؛ لأن المجتمع لا يكون معك طول الوقت ، أمّا نفسك فملازمة لك كل الوقت لا تنفك عنها ، فأنا كبير أمام الناس ما دُمْت معهم ، أمّا حين أختلى بنفسى أجدها حقيرة : فعلتْ كذا ، وفعلت كذا .

إذن : أنت حكمتَ أنّ رأى الناس أنفَسُ من رأيك ، ولو كان لرأيك عندك قيمة لحاولت أن يكون رأيك فى نفسك صحيحاً ، لكن أنت تريد أن يكون رأى الناس فيك صحيحاً ، وإنْ كان رأيك عند نفسك غير ذلك .

ويقول تعالى فى هؤلاء : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيدًا ﴿٦٠﴾﴾ [النساء]

فقد حكم عليهم أنهم يزعمون ، والزعم مطيّة الكذب ، والدليل على أنهم يزعمون أنهم يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت ، ولو كانوا مؤمنين بما أُنزل إليك وما أُنزل من قبلك ما تحاكموا إلى الطاغوت ، وهكذا فضحوا هم أنفسهم ، فالثانية فضحتْ الأولى .

لذلك قالوا : إن الكافر أحسن منهم ؛ لأنه منسجم الملَكات : قلبه موافق للسانه ، قلبه كافر ولسانه كذلك ، ومن هنا كان المنافقون فى الدَّرْك الأسفل من النار .

والحق - تبارك وتعالى - يعطينا صورة ونموذجاً يحذرنا ألاَّ نحكم على القول وحده ، فيقول تعالى عن المنافقين : ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿١﴾﴾ [المنافقون]

وهذه المقولة ﴿إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ .. ﴿١﴾﴾ [المنافقون] مقولة صادقة ، لكن القرآن يُكذِّبهم فى أنهم شَهدوا بها .

وقد نزلتْ هذه الآية[1] فى أحد المنافقين أظن أنه بشر[2]، وكانت له خصومة مع يهودى ، فطلب اليهودى أن يتحاكما عند رسول الله ﷺ ، وطلب المنافق أنْ يتحاكما عند كعب بن الأشرف ، لكن رَدَّ اليهودى حكومة كعب لما يعلمه من تزييفه وعدم أمانته - والإنسان وإن كان فى نفسه مُزِّيفاً إلا أنه يحب أنْ يحتكم فى أمره إلى الأمين العادل - وفعلاً تغلّب اليهودى وذهبا إلى رسول الله فحكم لليهودى . وفى هذا دلالة على أن اليهودى كان ذكياً فَطِناً ، يعرف الحق ويعرف مكانة رسول الله ﷺ .

لكن المنافق لم يَرْضَ حكم رسول الله ، وانتهى بهما الأمر إلى عمر رضى الله عنه وقَصَّا عليه ما كان ، ولما علم أن المنافق رَدَّ حكم

---

(١) يقصد الآيتين التاليتين من سورة النور آية ٤٨ ، ٤٩ .

(٢) هذه القصة وردت فى سبب نزول آية أخرى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ .. ﴿٦٠﴾﴾ [النساء] . أوردها الواحدى فى أسباب النزول (ص ٩٢) عن ابن عباس قال : « نزلت - أى آية سورة النساء - فى رجل من المنافقين كان بينه وبين يهودى خصومة ، فقال اليهودى : انطلق بنا إلى محمد . وقال المنافق : بل نأتى كعب بن الأشرف وهو الذى سماه الله تعالى الطاغوت ، فأبى اليهودى إلا أن يخاصمه إلى رسول الله ﷺ ، فلما رأى المنافق ذلك أتى معه إلى رسول الله ﷺ ، فاختصما إليه ، فقضى رسول الله ﷺ لليهودى ، فلما خرجا من عنده لزمه المنافق وقال : ننطلق إلى عمر بن الخطاب ، فأقبلا إلى عمر . فقال اليهودى : اختصمنا أنا وهذا إلى محمد فقضى عليه فلم يرض بقضائه : وزعم أنه مخاصم إليك وتعلق بى فجئت إليك معه . فقال عمر للمنافق : أكذلك ؟ قال : نعم . فقال لهما : رويداً حتى أخرج إليكما . فدخل عمر وأخذ السيف فاشتمل عليه ، ثم خرج إليهما وضرب به المنافق حتى برد . وقال : هكذا أقضى لمن لم يرض بقضاء الله وقضاء رسوله ، وهرب اليهودى ونزلت هذه الآية . وقال جبريل : إن عمر فرق بين الحق والباطل ، فسُمِّى الفاروق » .

وقد أوردها أيضاً فى أسباب النزول (ص ١٨٨) وكذا أوردها القرطبى فى تفسيره (٦/٤٨٣١) .

رسول الله قام عمر وجاء بالسيف يُشْهره في وجه المنافق وهو يقول : مَنْ لم يَرْضَ بقضاء رسول الله فذلك قضائى فيه .

إذن : فهؤلاء يقولون : ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا .. (٤٧)﴾ [النور] كلام جميل وأكثر الله من خيركم ، لكن هذا قول فقط لا يسانده تطبيق عملى ، والإيمان يقتضى أن تجىء الأعمال على وَفْق منطوق الإيمان .

فهذا منهم مجرد كلام ، أما التطبيق : ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ .. (٤٧)﴾ [النور] والتولِّى : الانصراف عن شىء كان موجوداً إلى شىء مناقض ﴿وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (٤٧)﴾ [النور] فما داموا قد تولوا فهم لم يطيعوا ولم يؤمنوا .

﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ (٤٨) وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (٤٩)﴾

المراد ما كان من أمر بشر واليهودى ، وقد أعرضا عن حكم الله ورسوله ، وإنْ كان إعراض المنافق واضحاً فالآية لا تريد تبرئة ساحة اليهودى ، لأنه ما رضى بحكم الله إلا لأنه واثق أن الحق له وواثق أن رسول الله ﷺ لن يحكم إلا بالحق ، حتى وإنْ كان ليهودى ، وإذن : ما أذعن لحكم الله ورسوله محبةً فيه أو إيماناً به ، إنما لمصلحته الشخصية ، لذلك يقول تعالى بعدها :

﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٥٠)﴾ (١)

---

(١) الحيف : الميل فى الحكم والجور فيه . حاف يحيف : جار وظلم . [القاموس القويم ١/١٨١] .

والمرض : خروج الشيء عن استقامة سلامته ، فكل عضو من أعضائك له سلامة : العين لها سلامة ، والأذن لها سلامة .. الخ والعجيب أن تعيش بالجارحة لا تدرى بها طالما هى سليمة صحيحة ، فإذا أصابها مرض تنبهتَ إليها ، وأحسست بنعمة الله عليك فيها حال سلامتها .

﴿ أَمِ ارْتَابُوا .. ﴿٥٠﴾ ﴾ [النور] يعنى : شكُّوا فى رسول الله ﴿ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ .. ﴿٥٠﴾ ﴾ [النور] يعنى : يجور ويظلم ﴿ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [النور] أى : لأنفسهم أولاً ، وذلك منتهى الحُمْق أن يظلم الإنسان نفسه ، لو ظلم غيره لَقُلْنا : خير يجلبه لنفسه ، لكن ما الخير فى ظلم الإنسان لنفسه ؟ ومَنْ ظلم نفسه لا تَلُمْه إن ظَلَم الآخرين .

والحق - تبارك وتعالى - حينما يعاقب الظالم ، فذلك لمصلحته حتى لا يتمادى فى ظُلْمه ، ويجرُّ على نفسه جزاء شر بعد أن كان الحق سبحانه يُمنّيه بجزاء خير .

ثم يأتى السياق بالمقابل :

﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ ﴾

فما دُمْت قد آمنتَ ، والإيمان لا يكون إلا عن رغبة واختيار لا يجبرك أحد عليه ، فعليك أن تحترم اختيار نفسك بأنْ تطيعَ هذا الاختيار ، وإلا سفَّهتَ رأيك واختيارك ، لذلك كان حال المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله أن يقولوا : سمعنا وأطعنا .

ولو تأملتَ الكون من حولك لوجدتَهُ يسير على هذه القاعدة ، فما دون الإنسان فى كَوْن الله مُسيَّر لا مُخيَّر ، وإنْ كان الأصل أنه خُيِّر

أولاً ، فاختار أن يكون مُسيّراً من البداية ، وأراح نفسه ، كما قال سبحانه :

﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا .. (٧٢)﴾ [الأحزاب]

وتصدير الآية الكريمة بـ (إنما) يدل على أنها سبقها مقابل ، هذا المقابل على النقيض لما يجيء بعدها ، فالمنافقون أعرضوا وردُّوا حكم الله ورسوله ، والمؤمنون قالوا سمعنا وأطعنا ، كما تقول : فلان كسول إنما أخوه مُجِدٌّ . فقول المنافقين أنهم لا يقبلون حكم الله ورسوله ، أمّا المؤمنون فيقبلون حكْم الله ورسوله .

ومعنى ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا .. (٥١)﴾ [النور] يعنى : سمعنا سمعاً واعياً يليه إجابة وطاعة ، لا مجرد أنْ يصل الصوت إلى أذن السامع دون أن يُؤثر فيه شيء .

ويقول تعالى فى موضع آخر : ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ .. (٨٣)﴾ [المائدة]

فالسمع له وظيفة ، وهو هنا بمعنى : أجَبْنا يا رب ، وصممنا على الإجابة ، وهذا وعد كلامى يتبعه تنفيذ وطاعة . مثل قولنا فى الصلاة : سمع الله لمن حمده ، يعنى : أجاب الله مَنْ حمده .

﴿وَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥١)﴾ [النور] المفلحون : الفائزون الذين بلغوا درجة الفلاح ، ومن العجيب أن يستخدم الحق سبحانه كلمة الفلاح ، وهى من فلاحة الأرض ؛ لأن الفلاحة فى الأرض هى أصل الاقتيات ، وكل مَنْ أتقن فلاحة أرضه جاءت عليه بالثمرة الطيبة ، وزاد خيره ، وتضاعف محصوله ، حتى إن حبة القمح تعطى سبعمائة حبة ، فإذا كانت الأرض وهى مخلوقة لله تعالى تعطى من يزرعها كل

هذا العطاء ، فما بالك بخالق الأرض كيف يكون عطاؤه ؟

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾

كان سيدنا الشيخ موسى شريف - رحمه الله ورضى الله عنه - يدرس لنا التفسير ، فلما جاءت هذه الآية قال : اسمعوا ، هذه برقية من الله تعالى : ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [النور] فلم تَدَع هذه الآية حُكْماً من أحكام الإسلام إلا جاءتْ به فى هذه البرقية الموجزة التى جمعتْ المنهج كله[1].

ومعنى ﴿ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ .. ﴿٥٢﴾ ﴾ [النور] آمن بالله وأطاعه وصدَّق رسوله ﴿ وَيَخْشَ اللَّهَ .. ﴿٥٢﴾ ﴾ [النور] أى : يخافه لما سبق من الذنوب ﴿ وَيَتَّقْهِ . ﴿٥٢﴾ ﴾ [النور] فى الباقى من عمره ﴿ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [النور] وهكذا جمعتْ الآيةُ المعانىَ الكثيرة فى اللفظ القليل الموجز .

ومعلوم أن التعبير الموجز أصعب من الإطناب والتطويل ، وسبق أنْ ذكرنا قصة الخطيب الإنجليزى المشهور حين قالوا له : إذا طُلب

---

(١) ذكر القرطبى فى تفسيره (٤٨٣٣/٦) أن عمر بينما هو قائم فى مسجد النبى ﷺ وإذا رجل من دهاقين الروم على رأسه وهو يقول : أنا أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله . فقال له عمر : ما شأنك ؟ قال : أسلمت لله . قال : هل لهذا سبب ؟ قال : نعم إنى قرأت التوراة والزبور والإنجيل وكثيراً من كتب الأنبياء ، فسمعت أسيراً يقرأ آية من القرآن جمع فيها كل ما فى الكتب المتقدمة ، فعلمت أنه من عند الله فأسلمت . قال : ما هذه الآية ؟ قال : قوله تعالى ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ ﴾ فى الفرائض ﴿ وَرَسُولَهُ ﴾ فى السنن ﴿ وَيَخْشَ اللَّهَ ﴾ فيما مضى من عمره ﴿ وَيَتَّقْهِ ﴾ فيما بقى من عمره ﴿ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ والفائز من نجا من النار وأدخل الجنة . فقال عمر : قال النبى ﷺ : « أوتيتُ جوامع الكلم » .

منك إعداد خطاب تلقيه فى ربع ساعة فى كم تُعدّه ؟ قال : فى أسبوع ، قالوا : فإنْ كان فى نصف ساعة ؟ قال : أُعدُّه فى ثلاثة أيام ، قالوا : فإذا كان فى ساعة ؟ قال : أُعدّه فى يومين ، قالوا : فإنْ كان فى ثلاث ساعات ؟ قال : أُعده الآن .

وقالوا : إن سعد باشا زغلول رحمه الله أرسل من فرنسا خطاباً لصديق فى أربع صفحات قال فيه : أما بعد ، فإنى أعتذر إليك عن الإطناب (الإطالة) ؛ لأنه لا وقت عندى للإيجاز .

وبعد أنْ تحدّث القرآن عن قَوْل المنافقين وعن ما يقابله من قول المؤمنين وما ترتب عليه من حكم ﴿فَأُوْلَـٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [النور] ذلك لأن ذكْر المقابل يُظهر المقابل ، كما قالوا : والضد يظهر حُسْنَه الضِّدُّ . بعدها عاد إلى الحديث عن النفاق والمنافقين ، فقال سبحانه :

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُل لَّا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾

القَسَم : هو اليمين والحلف ، والإنسان يُقسم ليؤكد المقسَم عليه يريد أن يطمئن المخاطب على أن المقسَم عليه حَقٌّ ، وهؤلاء لم يقسموا بالله سراً فى أنفسهم ، إنما ﴿جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ .. ﴿٥٣﴾﴾ [النور] يعنى : بَالَغوا وأتَوْا بمنتهى الجهد فى القسم ، فلم يقل أحدهم : وحياة أمى أو أبى ، إنما أقسموا بالله ، وليس هناك قَسَم أبلغ من هذا القسم ، لذلك يقول النبى ﷺ : « مَنْ كان حالفاً فليحلف بالله ، أو ليصمت »[1]

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٦٧٩ ، ٣٨٣٦ ، ٦١٠٨) وكذا مسلم فى صحيحه (١٦٤٦) كتاب الأيمان من حديث عبد الله بن مسعود ، وفى لفظ مسلم أن ابن مسعود أدرك عمر بن الخطاب فى ركب وعمر يحلف بأبيه فناداهم رسول الله ﷺ « ألا إن الله عز وجل ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم ، فمن كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت » .

فلما أقسموا بالله للرسول أنْ يخرجوا من بيوتهم وأولادهم وأموالهم إلى الجهاد مع رسول الله فضح الله سرائرهم ، وكشف سترهم ، وأبان عن زيف نواياهم ، كما قال فى آية أخرى : ﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِى تَقُولُ .. (٨١) ﴾ [النساء]

وتأمل دقَّة الأداء القرآنى فى : ﴿ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ .. (٨١) ﴾ [النساء] وهذا احتياط ؛ لأن منهم أُنَاساً يراود الإيمان قلوبهم ويفكرون فى أنْ يُخلِصوا إيمانهم ونواياهم لله تعالى ، ويعودوا إلى الإسلام الصحيح .

والقرآن يفضح أمر هؤلاء الذين يُقسمون عن غير صدْق فى القَسَم ، كمن تعوَّد كثرة الحَلف والحنْث فيه ؛ لذلك ينهاهم عن هذا الحَلف : ﴿ قُل لاَّ تُقْسِمُوا .. (٥٣) ﴾ [النور] ولا يمكن أن ينهى المتكلمُ المخَاطبَ عن القسم خصوصاً إذا أقسم على خير ، لكن هؤلاء حانثون فى قَسَمهم ، فهو كعدمه ، فهم يُقسمون باللسان ، ويخالفون بالوجدان .

وقوله تعالى : ﴿ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ .. (٥٣) ﴾ [النور] يُشعر بتوبيخهم ، كأنه يقول لهم : طاعتكم معروفة لدينا ولها سوابق واضحة ، فهى طاعة باللسان فحسب ، ثم يؤكد هذا المعنى فيقول : ﴿ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (٥٣) ﴾ [النور] والذى يؤكد هذه الخبرة أنه يفضح قلوبهم ويفضح نواياهم .

والعجيب أنهم لا يعتبرون بالأحداث السابقة ، ولا يتعظون بها ، وقد سبق لهم أنه كان يجلس أحدهم يُحدِّث نفسه الحديث فيفضح الله ما فى نفسه ويخبر به رسول الله ، فيبلغهم بما يدور فى نفوسهم ، كما جاء فى قول الله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ .. (٨) ﴾ [المجادلة]

ومع ذلك لم يعتبروا ولم يعترفوا لرسول الله بأنه مُؤيَّد من الله ، وأنه تعالى لن يتخلى عن رسوله ، ولن يدعه لهم يخادعونه ويغشُّونه ، وهذه سوابق تكررتْ منهم مرات عدّة ، ومع ذلك لم ينتهوا عما هم فيه من النفاق ، ولم يُخلِصوا الإيمان لله .

وبعد هذا كله يوصى الحق تبارك وتعالى نبيه ﷺ أن يُبقِى عليهم ، وألاَّ يرمى (طوبتهم) لعل وعسى ، فيقول عز وجل :

﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٥٤﴾ ﴾

وكأنه تعالى لا يريد أنْ يُغلق الباب دونهم ، فيعطيهم الفرصة : جَدِّدوا طاعة لله ، وجَدِّدوا طاعة لرسوله ، واستدركوا الأمر ؛ ذلك لأنهم عباده وخَلْقه .

وكما ورد فى الحديث الشريف : « لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم وقع على بعيره وقد أضله فى فلاة .. »(١)

ونلحظ فى هذه الآية تكرار الأمر أطيعوا ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ .. ﴿٥٤﴾﴾ [النور] وفى آيات أخرى يأتى الأمر مرة واحدة ، كما فى الآية السابقة : ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ .. ﴿٥٢﴾﴾ [النور] ، وفى : ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ..﴿٢٠﴾﴾ [الأنفال] وفى ﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ .. ﴿٨٠﴾﴾ [النساء] أى : أن طاعتهما واحدة .

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٣٠٨ ، ٦٣٠٩) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٧٤٤) من حديث عبد الله بن مسعود . والفلاة : الصحراء الواسعة التى فُليت عن الزرع والإنبات .

قالوا : لأن القرآن ليس كتابَ أحكام فحسب كالكتب السابقة ، إنما هو كتاب إعجاز ، والأصل فيه أنه مُعْجز ، ومع ذلك أدخل فيه بعض الأصول والأحكام ، وترك البعض الآخر لبيان الرسول وتوضيحه فى الحديث الشريف ، وجعل له ﷺ حقاً فى التشريع بنصِّ القرآن : ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا .. (٧)﴾ [الحشر]

والقرآن حين يُورد الأحكام يوردها إجمالاً ثم يُفصِّلها رسول الله ﷺ ، فالصلاة مثلاً أمر بها الحق - تبارك وتعالى - وفرضها ، لكن تفصيلها جاء فى السنة النبوية المطهرة ، فإنْ أردتَ التفصيل فانظر فى السنة .

كالذى يقول : إذا غاب الموظف عن عمله خمسة عشر يوماً يُفصَل ، مع أن الدستور لم ينص على هذا ، نقول : لكن فى الدستور مادة خاصة بالموظفين تنظم مثل هذه الأمور ، وتضع لهم اللوائح المنظِّمة للعمل .

وذكرنا أن الشيخ محمد عبده سأله بعض المستشرقين : تقولون فى القرآن ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ .. (٣٨)﴾ [الأنعام] فهات لى من القرآن : كم رغيفاً فى إردب القمح ؟ فما كان من الشيخ إلا أن أرسل لأحد الخبازين وسأله هذا السؤال فأجابه : فى الإردب كذا رغيف . فاعترض السائل : أريد من القرآن .

فردَّ الشيخ : هذا من القرآن ؛ لأنه يقول : ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٤٣)﴾ [النحل]

فالأمر الذى يصدر فيه حكم من الله وحكم من رسول الله ، كالصلاة مثلاً : ﴿إِنَّ الصَّلاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا (١٠٣)﴾ [النساء]

وفى الحديث : « الصلاة عماد الدين »[(١)]

ففى مثل هذه المسألة نقول : أطيعوا الله والرسول ؛ لأنهما متواردان على أمر واحد ، فجاء الأمر بالطاعة واحداً .

أما فى مسائل عدد الركعات وما يُقَال فى كل ركعة وكوْنها سراً أو جهراً ، كلها مسائل بيَّنها رسول الله . إذن : فهناك طاعة لله فى إجمال التشريع أن الصلاة مفروضة ، وهناك طاعة خاصة بالرسول فى تفصيل هذا التشريع ، لذلك يأتى الأمر مرتين ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ .. (٥٤)﴾ [النور]

كما نلحظ فى القرآن : ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ..(٥٦)﴾[النور] هكذا فحسب .

قالوا : هذه فى المسائل التى لم يَرِدْ فيها تشريع ونَصٌّ ، فالرسول فى هذه الحالة هو المشرِّع ، وهذه من مميزات النبى ﷺ عن جميع الرسل ، فقد جاءوا جميعاً لاستقبال التشريع وتبليغه للناس ، وكان ﷺ هو الوحيد الذى فُوِّض من الله فى التشريع .

ثم يقول تعالى : ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ .. (٥٤)﴾ [النور] لأنه تعالى أعلم بحِرْص النبى على هداية القوم ، وكيف أنه يجهد نفسه فى دعوتهم ، كما خاطبه فى موضع آخر : ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣)﴾ [الشعراء] وكأن الحق - تبارك وتعالى - يقول لنبيه : قُلْ لهم وادْعُهم مرة ثانية لتريح نفسك ﴿قُلْ

---

(١) تمام الحديث : « من أقامها فقد أقام الدين ، ومن تركها فقد هدم الدين » قال الحافظ العراقى فى تخريجه لأحاديث الإحياء (١٤٧/١) : « رواه البيهقى فى الشّعب بسند ضعّفه من حديث عمر » وقال الملا على القارى فى « الأسرار المرفوعة » (حديث ٥٧٨) : « قال ابن الصلاح فى « مشكل الوسيط » : « إنه غير معروف » . وذكره السيوطى فى الدرر المنتثرة (ح ٢٧٩) .

أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ .. ﴿٥٤﴾ [النور] وإنْ كنت غير مكلَّف بالتكرار ، فما عليك إلا البلاغ مرة واحدة .

ومعنى : ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ .. ﴿٥٤﴾ [النور] أى : من الله تعالى ، فالرسول حُمِّل الدعوة والبلاغ ، وأنتم حُمِّلْتم الطاعة والأداء ، فعليكم أن تُؤدُّوا ما كلَّفكم الله به .

﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا .. ﴿٥٤﴾ [النور] نلحظ أن المفعول فى ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ .. ﴿٥٤﴾ [النور] مفرد ، فلم يقل : تطيعوهما ، لتناسب صدر الآية ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ .. ﴿٥٤﴾ [النور] ذلك لأن الطاعة هنا غير منقسمة ، بل هى طاعة واحدة .

وقوله : ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ .. ﴿٥٤﴾ [النور] تكليفاً من الله ﴿إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ ﴿٥٤﴾ [النور] المحيط بكل تفصيلات المنهج التشريعى لتنظيم حركة الحياة .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

---

(١) **سبب نزول الآية** : مكث رسول الله ﷺ بمكة عشر سنين بعدما أوحى الله إليه خائفاً هو وأصحابه يدعون إلى الله سبحانه سراً وعلانية ، ثم أمر بالهجرة إلى المدينة وكانوا بها خائفين ، يصبحون فى السلاح ويمسون فى السلاح . فقال رجل من أصحابه : يا رسول الله ما يأتى علينا يوم نأمن فيه ونضع فيه السلاح ، فقال رسول الله ﷺ : لن تلبثوا إلا يسيراً حتى يجلس الرجل منكم فى الملأ العظيم محتبياً ليست فيهم حديدة ، وأنزل الله تعالى : ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ .. ﴿٥٥﴾ [النور] إلى آخر الآية ، فأظهر الله تعالى نبيه على جزيرة العرب ، فوضعوا السلاح وأمنوا ثم قبض الله تعالى نبيه فكانوا آمنين كذلك فى إمارة أبى بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم حتى وقعوا فيما وقعوا فيه وكفروا النعمة فأدخل الله عليهم الخوف وغيَّروا فغيَّر الله بهم . رواه الربيع ابن أنس عن أبى العالية . أورده الواحدى فى أسباب النزول (ص ١٨٨) ، وابن كثير فى تفسيره (٣/٣٠١) ، والقرطبى فى تفسيره (٦/٤٨٣٥) .

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾

فى أول الحديث عن سورة النور قلنا : إنها سُمِّيَتْ بالنور ؛ لأنها تبين للناس النور الحسىّ فى الكون ، وتقيس عليه النور المعنوى فى القيم ، وما دُمْنا نطفىء أنوارنا الحسية حين يظهر نور الله فى الشمس ، يجب كذلك أن نطفىء أنوارنا المعنوية حين يأتينا شرع من الله .

فليس لأحد رأىٌ مع شرع الله ؛ ذلك لأن الخالق - عز وجل - يريد لخليفته فى الأرض أن يكون فى نور حسِّىٍّ ومعنوى ، ثم ضمن له مقومات بقاء حياته بالطعام والشراب شريطةَ أنْ يكون من حلال حتى تبنى خلاياه وتتكون من الحلال فيَسلم له جهاز الاستقبال عن الله وجهاز الإرسال إنْ أراد الدعاء .

وفى الحديث الشريف : « أيها الناس ، إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً ، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين ، فقال : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَـٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾ [المؤمنون] وقال : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ .. ﴿١٧٢﴾ ﴾ [البقرة] ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء يا رب ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغُذِّى

بالحرام فأنَّى يُستجاب لذلك ؟»[١] .

فهذه أجهزة مُعطَّلة خَربة أشبه ما تكون بالراديو الذى لا يحسن استقبال ما تذيعه محطات الإذاعة ، فالإرسال قائم يستقبله غيره ، أما هو فجهاز استقباله غير سليم .

فإذا ضمنتَ سلامة تكوينك بلقمة الحلال ضمن الله لك إجابة الدعاء ، وفى الحديث يقول النبى ﷺ لسعد بن أبى وقاص رضى الله عنه : « أطِبْ مَطْعمك تكُنْ مُسْتجاب الدعوة »[٢] .

ثم ضمن الله للإنسان مُقوِّمات بقاء نوعه بالزواج لاستمرار الذرية لتستمر الخلافة فى الأرض طاهرة نظيفة ، ثم تحدثتْ السورة مُحذِّرة إياكم أنْ تجترئوا على أعراض الناس ، أو ترْمُوا المحصنات ، أو تدخلوا البيوت دون استئذان ، حتى لا تطّلعوا على عورات الناس .. إلخ .

فالحق ـ سبحانه وتعالى ـ يريد سلامة المجتمع وسلامة الخلافة فى الأرض ، وكل هذه الأحكام والمعانى تصبُّ فى هذه الآية :

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ.. (٥٥) ﴾ [النور] فمَنْ فعل ذلك كان أهْلاً للخلافة عن الله ، إنها معركة ابتلاءات وتمحيص تُبيِّن الغثَّ[٣] من السَّمين ، ألاَ ترى المسلمين

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٠١٥) كتاب الزكاة ، وأحمد فى مسنده (٣٢٨/٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

(٢) أورده الهيثمى فى مجمع الزوائد (٢٩١/١٠) من حديث ابن عباس قال : تليت عند رسول الله ﷺ ﴿ يَـأَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلالاً طَيِّبًا..(١٦٨) ﴾ [البقرة] فقال سعد : يا رسول الله ادع الله أن يجعلنى مستجاب الدعوة ، فقال ﷺ : « يا سعد ، أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة ، والذى نفس محمد بيده ، إن العبد يقذف اللقمة الحرام فى جوفه ما يتقبل منه العمل أربعين يوماً ، وأيما عبد نبت لحمه من سحت فالنار أولى به » . قال الهيثمى : « رواه الطبرانى فى الصغير وفيه من لم أعرفهم »

(٣) الغث : الردىء من كل شىء . ولحم غَثٌّ : مهزول . [لسان العرب ـ مادة : غثث] .

الأوائل كيف كانوا يُعذَّبون ويُضطهدون ، ولا يجرؤ أحد على حمايتهم حتى اضطروا للهجرة إلى الحبشة وإلى المدينة ، وقد قال تعالى : ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ (٢)﴾ [العنكبوت]

وهؤلاء الصحابة هم الذين حملوا للدنيا مشاعلَ الهداية ، وساحوا بدعوة الله فى أنحاء الأرض ، فلا بُدَّ أن يُربوا هذه التربية القاسية ، وأن يُمتحنوا كل هذا الامتحان ، وهم يعلمون جيداً ثمن هذه التضحية وينتظرون ثوابها من الله ، فأهل الحق يدفعون الثمن أولاً ، أما أهل المبادىء الباطلة فيقبضون الثمن أولاً قبل أنْ يتحركوا فى اتجاه مبادئهم . وهذا الابتلاء الذى عاشه المسلمون الأوائل هو من تنقية الخليفة ليكون أهْلاً لها .

لذلك قال سبحانه : ﴿وَعَدَ اللَّهُ .. (٥٥)﴾ [النور] والوَعْد : بشارة بخير لم يَأْتِ زمنُه بعد ، حتى يستعد الناس بالوسيلة له ، وضدّه الوعيد أو الإنذار بشرٍّ لم يأتِ زمنه بعد ، لتكون هناك فرصة للاحتياط وتلافى الوقوع فى أسبابه .

وما دام الوعد من الله تعالى فهو صدْق ، كما قال سبحانه : ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً (١٢٢)﴾ [النساء] وقال سبحانه : ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ (١١١)﴾ [التوبة]

والذى يفسد على الناس وعودهم ، ويجرُّ عليهم عدم الوفاء أن الإنسان مُتغيِّر بطَبْعه مُتقلِّب ، فقد يَعِد إنساناً بخير ثم يتغير قلبه عليه فلا يفى له بما وعد ، وقد يأتى زمنَ الوفاء فلا يقدر عليه ، أمَّا الحق - تبارك وتعالى - فلا يتغير أبداً ، وهو سبحانه قادر على الوفاء بما وعد به ، فليست هناك قوة أخرى تمنعه ، فهو سبحانه واحد لا إله غيره ؛ لذلك فوَعْده تعالى ناجز .

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ..(٥٥) ﴾ [النور] قلنا : إن الإيمان الذى يقوم على صفاء الينبوع والعقيدة ليس مطلوباً لذاته ، إنما لا بُدَّ أن تكون له ثمرة ، وأن يُرى أثره طاعة وتنفيذاً لأوامر الله ، فطالما آمنتَ بالله فنفِّذ ما يأمرك به ، وهناك من الناس مَنْ يفعل الخير ، لكن ليس من منطلق إيمانى مثل المنافقين الذين قال الله فيهم : ﴿ قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا.. (١٤) ﴾ [الحجرات] فَردَّ الله عليهم : ﴿ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَـكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا..(١٤) ﴾ [الحجرات] يعنى : خضعنا للأوامر ، لكن عن غير إيمان ، إذن : فقيمة الإيمان أن تُنفِّذ مطلوبه .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿ وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣) ﴾ [العصر]

فبماذا وعد الله الذين آمنوا ؟ ﴿ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ..(٥٥) ﴾ [النور] وهذه ليست جديدة ، فقد سبقهم أسلافهم الأوائل ﴿ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ..(٥٥) ﴾ [النور] ، فاستخلاف الذين آمنوا ليس بدْعاً ، إنما هو أمر مُشاهد فى مواكب الرسل والنبوة ومُشاهد فى المسلمين الأوائل من الصحابة الذين أُوذُوا وعُذِّبوا واضطهدوا وأُخْرِجوا من ديارهم وأولادهم وأموالهم ولم يُؤمَروا بردِّ العدوان .

حتى إن رسول الله ﷺ حينما قدم المدينة فى جَمْع من صحابته استقبله الأنصار بالحفاوة ، واحتضنوا هؤلاء المهاجرين ، وفعلوا معهم نموذجاً من الإيثار ليس له مثيل فى تاريخ البشرية ، وهل هناك إيثار أعظم من أنْ يعرض الأنصارى زوجاته على المهاجر يقول : اختر إحداهما أُطلِّقها لك ، إلى هذه الدرجة فعل الإيمان بنفوس الأنصار .

ولما رأى كفار قريش ما صنعه الأنصار مع المهاجرين توقَّدوا ناراً : كيف يعيش المهاجرون فى المدينة هذه العيشة الهنية وتكتلوا جميعاً ضد هذا الدين ليضربوه عن قَوْس واحدة ، وتآمروا على القدوة ليقضوا على هذا الدين الوليد الذى يشكل أعظم الخطر عليهم .

حتى إن الأمر قد بلغ بالمهاجرين والأنصار أنهم لا يبيتون إلا بالسلاح ، ولا يصبحون إلا بالسلاح مخافةَ أنْ ينقضَّ عليهم أعداؤهم ، حتى إن أحد الصحابة يقول لإخوانه : أترونَ أنَّا نعيش حتى نأمن ونطمئن ولا نبيت فى السلاح ونصبح فيه ، ولا نخشى إلا الله ؟ يعنى : أهناك أمل فى هذه الغاية ؟

وآخر يذهب إلى رسول الله ﷺ يقول : يا رسول الله أبد الدهر نحن خائفون ؟ ألاَ يأتينا يوم نضع فيه السلاح ونبيت آمنين ؟

فيقول النبى ﷺ بلسان الواثق من وعد ربه ، وليس كلاماً قد يُكذَّب فيما بعد : « لا تصبرون إلا يسيراً ، حتى يجلس الرجل منكم فى الملأ العظيم مُحْتبياً ليست فيه حديدة »[1] يعنى : فى الملأ الواسع ، والاحتباء جلسة المستريح الهانىء ، والحديدة كناية عن السلاح .

وقد قال ﷺ : « إن الله زوى لى الأرض ، فرأيت مشارقها ومغاربها ، وسيبلغ مُلْك أمتى ما زُوِىَ لى منها »[2] .

ومعنى « إن الله زوى لى الأرض » معلوم أن للإنسان مجالَ رؤية يلتقى فيه إلى نهاية الأفق ، أمّا الأرض ذاتها فواسعة ، فُزوِيَتْ الأرض لرسول الله يعنىَ : جُمعت فى زاوية ، فصار ينظر إليها كلها .

---

(١) أورده ابن كثير فى تفسيره (٣/٣٠١) سبباً فى نزول الآية مروياً عن أبى العالية .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٨٨٩) كتاب الفتن ، وأحمد فى مسنده (٥/٢٧٨ ، ٢٨٤) من حديث ثوبان رضى الله عنه .

إذن : فهم فى هذه المرحلة يشتهون الأمن وهدوء البال ، وقد قال تعالى عنهم فى هذه الفترة : ﴿وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ .. (٢١٤)﴾ [البقرة].

وفى غمرة هذه الشدة وقمة هذا الضيق يُنزل تعالى على رسوله : ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥)﴾ [القمر] حتى إن الصحابة ليتعجبون ، يقول عمر رضى الله عنه : أىُّ جمع هذا ؟ وقد نزلت الآية وهم فى مكة فى أشد الخوف لا يستطيعون حماية أنفسهم .

لكن بعد بدر وبعد أنْ رأى ما نزل بالكفار قال : صدق الله ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥)﴾ [القمر]

ثم ينزل الله تعالى على رسوله ﷺ بعض الآيات التى تُطمئن المؤمنين وتصبرهم : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ..(٤١)﴾ [الرعد]

فاطمئنوا ، فكل يوم ننقص من أرض الكفر ، ونزيد فى أرض الإيمان ، فالمقدِّمات فى صالحكم ، ثم يأتى فتح مكة ويدخلها النبى ﷺ فى موكب مهيب مُطْأطِئاً رأسه ، تواضعاً لمن أدخله ، مُظهِراً ذِلة العبودية لله .

حتى إن أبا سفيان لما رأى رسول الله ﷺ فى هذا الموكب يقول للعباس : لقد أصبح مُلْك ابن أخيك عظيماً ، فيقول العباس : إنها النبوة يا أبا سفيان[1] ، يعنى : المسألة ليست مُلْكاً إنما هى بشائر

---

(١) أورده ابن هشام فى السيرة النبوية (٤/٤٠٤) أن جيوش المسلمين عُرضت على أبى سفيان فى فتح مكة وهو مع العباس عم رسول الله ﷺ ، فقال : ما لأحد بهؤلاء قبَلٌ ولا طاقة ، والله يا أبا الفضل ، لقد أصبح مُلْك ابن أخيك الغداة عظيماً ، قال : قلت يا أبا سفيان ، إنها النبوة . قال : فنعم إذن .

النصر لدين الله وظهوره على معقل الأصنام والأوثان فى مكة .

ثم يذهب إلى خيبر معقل أهل الكتاب من بنى قَيْنُقَاع وبنى النضير وبنى قريظة وينتصر عليهم ، ثم تسقط فى يده البحرين ومجوس هَجَر ، ويدفعون الجزية .

بعد ذلك يرسل ﷺ كُتبه إلى الملوك والرؤساء يدعوهم إلى الإسلام ، فيرسل إلى النجاشى ملك الحبشة ، وإلى المقوقس ، وإلى هرقل ، وإلى كسرى ، وتأتيه الهدايا من كُلٍّ هؤلاء .

ويستمر المدُّ الإسلامى والوفاء بوعد الله تعالى لخليفة رسول الله ، فإنْ كان المد الإسلامى قد شمل الجزيرة العربية على عهد رسول الله ، فإنه تعدّاها إلى شتى أنحاء العالم فى عهد الخلفاء الراشدين ، حتى ساد الإسلامُ العالمَ كله ، وأظهره الله على أكبر حضارتين فى ذلك الوقت : حضارة فارس فى الشرق ، وحضارة الروم فى الغرب فى وقت واحد ، ويتحقق وعد الله للذين آمنوا بأنْ يستخلفهم فى الأرض .

وبعد وفاة رسول الله ﷺ تتحقق النبوءات التى أخبر بها ، ومنها ما كان من أمر سراقة بن مالك الذى خرج خلف رسول الله فى رحلة الهجرة يريد طلبه والفوز بجائزة قريش ، وبعد أنْ تاب سُرَاقة وعاد إلى الجادة كان الصحابة يعجبون لدقة ساعديْه ويصفونهما بما يدعو إلى الضحك فكان ﷺ يقول عن ساعدى سراقة : « كيف بهما فى سوارى كسرى ؟ »[1]

---

(١) أخرج البيهقى فى دلائل النبوة (٦/ ٣٢٥) أن عمر بن الخطاب أتى بفروة كسرى فوضعت بين يديه وفى القوم سراقة بن مالك قال : فألقى إليه سوارى كسرى بن هرمز فجعلهما فى يديه فبلغا منكبيه ، فلما رآهما فى يَدَىْ سراقة قال : الحمد لله ، سوارا كسرى بن هرمز فى يد سُراقة ابن مالك بن جُعْشم أعرابى من بنى مدلج وذكر الحديث . قال الشافعى ـ رحمه الله : وإنما ألبسهما سراقة لأن النبى ﷺ قال لسراقة ونظر إلى ذراعيه : « كأنى بك قد لبست سِوارىْ كسرى » .

ويفتح المسلمون بعد ذلك مُلْك كسرى ، ويكون سِوَارا كسرى من نصيب سُرَاقة ، فيلبسهما ، ويراهما الناس فى يديه .

هذه كلها بشائر ومقدمات لوعد الله يراها المؤمنون فى أنفسهم ، لا فيمن يأتى بعد ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ.. ﴿٥٥﴾﴾ [النور] يعنى : المسألة لن تطول .

كذلك أم حرام بنت ملحان[1] التى خرجت فى غزوة ذات الصوارى وركبت البحر ذكرت أن رسول الله ﷺ كان ينام هناك ثم يصحو وهو يضحك ، فقالت له : ما يُضحكك يا رسول الله ؟ قال : « أناس من أمتى يركبون زَبَد هذا البحر ، ملوك على الأسرَّة أو كالملوك على الأَسِرّة » فقال : ادْعُ الله أن أكون منهم ، فدعا لها فاستجاب الله دعاءه ، وخرجتْ فى الغزوة ، ولما ركبوا البحر الأبيض أرادت أنْ تخرج فماتت[2] .

إذن : فالبشارة فى هذه الآية ليست بشارة لفظية ، إنما هى بشارة واقعية لها واقع يؤيدها ، قد حدث فعلاً .

لكن ، ما المراد بالأرض فى ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ..﴿٥٥﴾﴾ [النور] ؟ إذا جاءت الأرض هكذا مُفْردةً غير مضافة لشىء فتعنى كل الأرض ، كما فى قوله تعالى : ﴿وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا

---

(١) أخت أم سليم ، أسلمت وبايعت رسول الله ﷺ ، وكان يقيل فى بيتها وتزوجها عبادة بن الصامت . قال هشام بن الغاز : قبر أم حرام بقبرس ، وهم يقولون : هذا قبر المرأة الصالحة . « المؤمنات الصالحات لتقى الدين الحصنى توفى ٨٢٩ هـ . ص ٥٣ ، ٥٤ ـ دار البشير تحقيق عادل أبو المعاطى » .

(٢) أخرجه أبو نعيم فى حلية الأولياء (٦١/٢) بهذا اللفظ ، وأخرجه البخارى فى صحيحه (١٠٢/٦ ـ فتح البارى) وأبو نعيم فى الحلية (٦٢/٢) بلفظ : « أول جيش من أمتى يغزون البحر قد أوجبوا » قالت أم حرام : أنا منهم ؟ قال : « أنت منهم » .

الأَرْضَ.. (١٠٤) ﴾ [الإسراء] يعنى : تقطّعوا فى كل أنحائها ، ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ.. (١٠٤) ﴾ [الإسراء] الذى وعد الله به ﴿ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا (١٠٤) ﴾ [الإسراء] يعنى : جمعناكم من الأراضى كلها ، وهذا هو الأمل القوى الذى نعيش عليه ، وننتظر من الله أنْ يتحقق .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِى ارْتَضَىٰ لَهُمْ .. (٥٥) ﴾ [النور] ففوق الاستخلاف فى الأرض يُمكِّن الله لهم الدين ، ومعنى تمكين الدين : سيطرته على حركة الحياة ، فلا يصدر من أمور الحياة أمر إلا فى ضوئه وعلى هَدْيه ، لا يكون ديناً مُعطّلاً كما نُعطِّله نحن اليوم ، تمكين الدين يعنى توظيفه وقيامه بدوره فى حركة الحياة تنظيماً وصيانة .

وقوله سبحانه : ﴿ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا .. (٥٥) ﴾ [النور] وهم الذين قالوا : نبيت فى السلاح ، ونصبح فى السلاح ، فيبدلهم الله بعد هذا الخوف أَمْناً ، فإذا ما حدث ذلك فعليهم أنْ يحافظوا على الخلافة هذه ، وأنْ يقوموا بحقها ﴿ يَعْبُدُونَنِى لا يُشْرِكُونَ بِى شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٥٥) ﴾ [النور]

ومعنى ﴿ كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ .. (٥٥) ﴾ [النور] يعنى : بعد أن استخلفه الله ، ومكّن له الدين وأمَّنه وأزال عنه أسباب الخوف .

وفَرْق بين تمكين الإسلام وتمكين مَنْ يُنسب إلى الإسلام ، فالبعض يدَّعى الإسلام ، ويركب موجته حتى يحكم ويستتب له الأمر وتنتهى المسألة ، لا .. لأن التمكين ليس لك أيها الحاكم ، إنما التمكين لدين الله .

﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾

دائماً ما يقرن القرآن بين هذيْن الركنين ، وتأتى الزكاة بعد الصلاة ؛ ذلك لأن الصلاة هى الركن الوحيد الذى فُرض من الله مباشرة ، أما بقية الأركان فقد فُرِضَتْ بالوحى ، وضربنا لذلك مثلاً ، ولله تعالى المثَل الأعلى بالرئيس الذى يُكلِّف مرؤوسيه بتأشيرة أو بالتليفون ، فإنْ كان الأمر مُهماً استدعى الموظف المختص إلى مكتبه وكلَّفه بهذا الأمر مباشرة لأهميته .

فكذلك الحق ـ تبارك وتعالى ـ أمر بكل التكاليف الشرعية بالوحى ، إلا الصلاة فقد فرضها على رسول الله بعد أن استدعاه إلى رحلة المعراج فكلّفه بها مشافهةً دون واسطة ، ولما يعلمه الله تعالى من محبة النبى ﷺ لأمته قال له : أنا فرضتُ عليك الصلاة بالقرب ، وكذلك أجعلها للمصلى فى الأرض بالقرب ، فإنْ دخل المسجد وجدنى .

وإنْ كانت أركان الإسلام خمسةً ، فإن الشهادة والصلاة هما الركنان الدائمان اللذان لا ينحلان عن المؤمن بحال من الأحوال ، فقد لا تتوفر لك شروط الصوم أو الزكاة أو الحج فلا تجب عليك ، كما أن الصلاة هى الفريضة المكررة على مدار اليوم والليلة خمس مرات ، وبها يتم إعلان الولاء لله دائماً ، وقد وزَّعها الحق سبحانه على الزمن ليظل المؤمن على صلة دائمة بربه كلما شغلتْه الدنيا وجد (الله أكبر) تناديه .

وانظر إلى عظمة الخالق ـ عز وجل ـ حين يطلب من صنعته أن

تقابله وتُعرض عليه كل يوم خمس مرات ، وهو سبحانه الذى يطلب هذا اللقاء ويفرضه عليك لمصلحتك أنت ، ولك أن تتصور صنعة تُعرض على صانعها كل يوم خمس مرات أيصيبها عَطَب ؟

وربك هو الذي يناديك ويدعوك للقائه ويقول : « لاَ أملّ حتّى تملُّوا »[1] ومن رحمته بك ومحبته لك تركَ لك حرية اختيار الزمان والمكان ، وترك لك حرية إنهاء المقابلة متى تشاء ، فإنْ أردتَ أنْ تظلّ فى بيته وفي معيته فعلي الرَّحْب والسَّعَة .

ولأهمية الصلاة ومكانتها فى الإسلام اجتمع فيها كل أركان الإسلام ، ففى الصلاة تتكرر الشهادة : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، وفى الصلاة زكاة ؛ لأن الزكاة فرع العمل ، والعمل فرع الوقت ، والصلاة تأخذ الوقت نفسه ، وفيها صيام حيث تمتنع فى الصلاة عما تمتنع عنه فى الصوم بل وأكثر ، وفيها حج لأنك تتجه فى صلاتك إلى الكعبة .

إذن : فالصلاة نائبة عن جميع الأركان فى الاستبقاء ، لذلك كانت هي عمود الدين ، والتى لا تسقط عن المؤمن بحال من الأحوال حتى إنْ لم يستطع الصلاة قائماً صلى جالساً أو مضطجعاً ، ولو أن يشير بأصبعه أو بطرفه أو حتي يخطرها على باله ؛ ذلك لاستدامة الولاء بالعبودية لله المعبود .

والصلاة تحفظ القيم ، فتُسوِّى بين الناس ، فيقف الغنى والفقير والرئيس والمرؤوس في صَفٍّ واحد ، الكل يجلس حَسْب قدومه ،

---

(١) عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ كان يقول : « خذوا من العمل ما تطيقون ، فإن الله لا يمل حتى تملوا » . أخرجه البخارى فى صحيحه (١٩٧٠) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٧٨٢) كتاب صلاة المسافرين .

وهذا يُحدث استطراقاً غبودياً فى المجتمع ، ففى الصلاة مجال يستوى فيه الجميع .

وإنْ كانت الصلاة قوامَ القيم ، فالزكاة قوام المادة لمنْ ليستْ له قدرة على الكسب والعمل . إذن : لدينا قوانين للحياة ، ولاستدامة الخلافة على الأرض قوام القيم فى الصلاة ، وقوام المادة فى الزكاة .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٥٦)﴾ [النور] وهنا فى الصلاة والزكاة خَصَّ الرسول بالإطاعة ؛ لأنه صاحب البيان والتفصيل لما أجمله الحق سبحانه فى فرضية الصلاة والزكاة ، حيث تفصيل كل منهما فى السُّنة المطهرة ، فقال : ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ .. (٥٦)﴾ [النور]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٥٧)﴾

يعود السياق للحديث عن الكافرين : ﴿لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ .. (٥٧)﴾ [النور] يعنى : لا تظنن ، والشىء المعجز هو الذى يثبت العجز للمقابل ، نقول : عملنا شيئاً مُعْجزاً لفلان يعنى : لا يستطيع الإتيان بمثله .

فإياك أنْ تظن أن الكافرين مهما علَتْ مراتبهم ومهما استشرى طغيانهم يُفْلتون من عقاب الله ، فلن يثبتوا له سبحانه العجز عنهم أبداً ، ولن يُعجزوه ، إنما يُملى لهم سبحانه ويمهلهم حتى إذا أخذهم ، أخذهم أَخْذ عزيز مقتدر ، وهو سبحانه مُدرِكهم لا محالةَ .

وجاء على لسان الجن : ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا (١٢)﴾ [الجن]

ونلحظ فى قوله تعالى : ﴿وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ .. (٥٧)﴾ [النور] أنها عطفتْ هذه الجملة على سابقتها ، وهى منفية ﴿لَا تَحْسَبَنَّ .. (٥٧)﴾ [النور] فهل يعنى هذا أن معناها : ولا تحسبن مأواهم النار ؟ قالوا : لا ، إنما المعنى : ولا تحسبن الذين كفروا معجزين فى الأرض لأن مأواهم النار .

﴿وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٥٧)﴾ [النور] أى : المرجع والمآب .

ثم ينتقل السياق إلى سلوك يمسُّ المجتمع من داخله والأسرة فى أدقِّ خصوصياتها ، بعد أنْ ذكر فى أول السورة الأحكام الخاصة بالمجتمع الخارجى ، فيقول سبحانه :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ (١) ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِّن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٨)﴾

تُعلِّمنا هذه الآية آداب الاستئذان داخل الأسرة المكوَّنة من الأبويْن والأبناء ، ثم الأتباع مثل الخدم وغيرهم ، والحق ـ تبارك وتعالى ـ

---

(١) حلم الصبى يحلم حُلماً : بلغ مبلغ الرجال . [القاموس القويم ١/١٦٩] .

يريد أن يُنشِّىءَ هذه الأسرة على أفضل ما يكون ، ويخصّ بالنداء هنا الذين آمنوا ، يعنى : يا من آمنتم بى رباً حكيماً مُشرِّعاً لكم حريصاً على مصلحتكم استمعوا إلى هذا الأدب : ﴿لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلاثَ مَرَّاتٍ .. (٥٨)﴾ [النور]

معلوم أن طلب المتكلم من المخاطب يأتى على صورتين : فعل الأمر وفعل المضارع المقترن بلام الأمر ، فقوله تعالى : ﴿لِيَسْتَأْذِنكُمُ .. (٥٨)﴾ [النور] يعنى : علِّموا هؤلاء أن يستأذنوا عليكم ، مثل : ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ نِكَاحًا .. (٣٣)﴾ [النور] يعنى : استعفوا ، لأن اللام هنا لام الأمر ، ومثل : ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ .. (٧)﴾ [الطلاق]

وهذا الأدب تكليف من الله تعالى يُكلِّف به كل مؤمن داخل الأسرة ، وإنْ كان الأمر هنا لغير المأمور ، فالمأمور بالاستئذان هم ملْك اليمين والأطفال الصغار ، فأمر الله الكبارَ أن يُعلِّموا الصغار ، كما ورد فى الحديث الشريف : « مروا أولادكم بالصلاة لسبع ، واضربوهم عليها لعشر »[(١)] .

فلم يُكلَّف بهذا الصغار إنما كُلِّف الكبار ؛ لأن الأطفال لم يبلغوا بَعْد مبلغ التكليف من ربهم ، إنما بلغوا مبلغ التكليف عندكم أنتم ، لذلك أنت الذى تأمر وأنت الذى تتابع وتعاقب[(٢)] .

وأُمُرْ الصغير بالصلاة أو بالاستئذان لِتُربى فيه الدربة والتعود

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٢/١٨٧) وأبو داود فى سننه (٤٩٥) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص . واللفظ لأحمد .

(٢) قال الشيخ أبو يحيى زكريا الأنصارى فى كتابه « فتح الرحمن بكشف ما يلتبس فى القرآن » ص ٢٨٩ : « إن قلت : كيف أمر الله تعالى بالاستئذان لهم ، مع أنهم غير مكلفين ؟ قلت : الأمر فى الحقيقة لأوليائهم ليؤدِّبوهم » .

على أمر قد يشقُّ عليه حال كِبَره ، إنما إنْ عوَّدته عليها الآن فإنها تسهل عليهم عند سِنِّ التكليف ، وتتحول العادة فى حقه إلى عبادة يسير عليها .

وشرع الله لنا آداب الاستئذان ؛ لأن للإنسان ظاهراً يراه الناس جميعاً ويكثر ظاهره للخاصة من أهله فى أمور لا يُظهرها على الآخرين ، إذن : فَرُقْعة الأهل والملاصقين لك أوسع ، وهناك ضوابط اجتماعية للمجتمع العام ، وضوابط اجتماعية للمجتمع الخاص وهو الأسرة ، وحرية المرء فى أسرته أوسع من حريته فى المجتمع العام ، فإنْ كان فى حجرته الخاصة كانت حريته أوسعَ من حريته مع الأسرة .

فلا بُدَّ إذن من ضوابط تحمى هذه الخصوصيات ، وتُنظِّم علاقات الأفراد فى الأسرة الواحدة ، كما سبقت ضوابط تُنظِّم علاقات الأفراد خارج الأسرة .

ومعنى : ﴿ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ .. (٥٨) ﴾ [النور] هم العبيد الذين يقومون على خدمة بعض الناس وليس الأجير,لأن الأجير حر يستطيع أن يتركك فى أى وقت ، أمَّا العبد فليس كذلك ؛ لأنه مملوك الرقبة لا حريةَ له ، فالمملوكية راجحة فى هؤلاء ، وللسيد السيطرة والمهابة فلا يستطيع أن يُفلت منه .

﴿ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ .. (٥٨) ﴾ [النور] هم الأطفال الصغار الذين لم يبلغوا مبْلَغ التكليف ، ويقضون المصالح ؛ فتراهم فى البيت يدخلون ويخرجون دون ضابط ، فهل نتركهم هكذا يطَّلِعون على خصوصياتنا ؟

وللخدم فى البيت طبيعة تقتضى أن يدخلوا علينا ويخرجوا ،

وكذلك الصغار ، إلا فى أوقات ثلاثة لا يُسْمح لهم فيها بالدخول إلا بعد الاستئذان : ﴿مِّن قَبْلِ صَلاةِ الْفَجْرِ .. (٥٨)﴾ [النور] لأنه وقت متصل بالنوم ، والإنسان فى النوم يكون حُرَّ الحركة واللباس ﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ .. (٥٨)﴾ [النور] وهو وقت القيلولة ، وهى وقت راحة يتخفّف فيها المرء من ملابسه ﴿وَمِن بَعْدِ صَلاةِ الْعِشَاءِ .. (٥٨)﴾ [النور] وبعد العشاء النوم . هذه أوقات ثلاثة ، لا ينبغى لأحد أن يدخل عليك فيها إلا بإذنك .

وانظر إلى هذا التحفّظ الذى يوفره لك ربك - عز وجل - حتى لا تُقيِّد حريتك فى أمورك الشخصية ومسائلك الخاصة ، وكأن هذه الأوقات ملْكٌ لك أيها المؤمن تأخذ فيها راحتك وتتمتع بخصوصياتك ، والاستئذان يعطيك الفرصة لتتهيأ لمقابلة المستأذن .

أما فى بقية الأوقات فالكل يستأذن عليك حتى الزوجة .

وسبب نزول هذه الآية أن رسول الله ﷺ أراد سيدنا عمر فى أمر من الأمور ، فأرسل إليه غلاماً[1] من الأنصار ، فلما ذهب الغلام دفع الباب ونادى : يا عمر . فلم يرد ؛ لأنه كان نائماً ، فخرج الغلام وجلس فى الخارج ودَقَّ الباب فلم يستيقظ عمر ، فماذا يفعل الغلام ؟

رفع الغلام يديه إلى السماء وقال : يا رب أيقظه . ثم دفع الباب ودخل عليه ، وكان عمر نائماً على وضع لا يصح أن يراه عليه أحد ، واستيقظ عمر ولحظ أن الغلام قد رآه على هذا الوضع ، فلما ذهب إلى النبى ﷺ قال : يا رسول الله نريد أن يستأذن علينا أبناؤنا

---

(١) هو : مدلج الأنصارى . ذكره ابن حجر العسقلانى فى « تمييز الصحابة » (ترجمة رقم ٧٨٥٢) وذكر هذا الحديث وقال : « أخرجه ابن منده من طريق السدى الصغير عن الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس » ذكره ثم قال : « وفيه أن النبى ﷺ قال للغلام « أنت ممن يلج الجنة » .

ونساؤنا ومواليننا وخدمنا ، فقد حدث من الغلام كيت وكيت ، فنزلت هذه الآية[١] .

ويُسَمِّى الله تعالى هذه الأوقات الثلاثة عورة : ﴿ثَلاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ.. (٥٨)﴾ [النور] والعورة : هى ما يحب الإنسان ألاّ يراها أحد ، أو يراه عليها ؛ لأنها نوع من الخلل والخصوصية ، والله لا يريد أنْ يراك أحد على شىء تكرهه .

لذلك يقولون لمن به خَلَل فى عينه مثلاً : أعور ، والعرب تقول للكلمة القبيحة : عوراء[٢] ، كما قال الشاعر :

وعَوْراء جاءتْ من أخٍ فردَدْتُها ... بِسالمةِ العَيْنيْنِ طَالبةً عُذْراً[٣]

يعنى : كلمة قبيحة لم أردّ عليها بمثلها ، إنما بسالمة لا عين واحدة ، بل بسالمة العينين الاثنين .

ثم يقول سبحانه : ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ .. (٥٨)﴾ [النور] يعنى : بعد هذه الأوقات : لا إثمَ ولا حرجَ عليكم ، ولا على المماليك ، أو الصغار أنْ يدخلوا عليكم ، ففى غير هذه الأوقات يجلس المرء مُسْتعداً لممارسة حياته العادية ، ولا مانع لديه من استقبال الخَدَم أو الأطفال الصغار دون استئذان ؛ لأن طبيعة المعيشة فى البيوت لا تستغنى عن دخول هؤلاء وخروجهم باستمرار .

لذلك قال تعالى بعدها : ﴿طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ ..

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٦/٤٨٤٠) : « قال مقاتل : نزلت فى أسماء بنت مرثد ، دخل عليها غلام لها كبير ، فاشتكت إلى رسول الله ﷺ ، فنزلت هذه الآية . وقيل : سبب نزولها دخول مُدلج على عمر » .

(٢) قال أبو الهيثم : يقال للكلمة القبيحة عوراء ، وللكلمة الحسناء : عيناء . وقال الليث : العوراء الكلمة التى تهوى فى غير عقل ولا رشد . [لسان العرب ـ مادة : عور] .

(٣) ذكره ابن منظور فى لسان العرب ـ مادة عور . ولم يذكر اسم الشاعر .

﴿٥٨﴾ [النور] يعنى : حركتهم فى البيت دائمة ، دخولاً وخروجاً ، فكيف نُقيِّدها فى غير هذه الأوقات ؟

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ .. ﴿٥٨﴾﴾ [النور] أى : بياناً واضحاً ، حتى لا يحدث فى المجتمع تناقضات فيما بعد ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ .. ﴿٥٨﴾﴾ [النور] بكل ما يُصلح الخلافة فى الأرض ﴿حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾﴾ [النور] فى تشريعاته وأوامره ، لا يضع الحكم إلا بحكمة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾﴾

الطفل حين كان طفلاً لم يبلغ الحُلُم كان يدخل دون استئذان فى غير هذه الأوقات ، فإنْ بلغ الحُلُم فعليه أنْ يستأذن ، لا نقول : إنه تعوَّد الاستئذان فى هذه الأوقات فقط ، لا ، إنما عليه أنْ يستأذن فى جميع الأوقات فقد شَبَّ وكَبِر ، وانتهتْ بالنسبة له هذه الحالة .

وبلوغ الحلم أن ينضج الإنسان نُضْجاً يجعله صالحاً لإنجاب مثله ، فهذه علامة اكتمال تكوينه ، وهذا لا يتأتّى إلا باستكمال الغريزة الجنسية التى هى سَبَب النَّسْل والإنجاب ، ومثّلْنا ذلك بالثمرة التى لا تحلو إلا بعد نُضْجها ، فإنْ تركتَها بعد النضج سقطتْ من نفسها ، وهذه آية من آيات الله لبقاء النوع ، فلو أكلنا الثمرة قبل نُضْجها لا تنبت بذرتها وينقرض نوعها ، فمن حكمة الله فى الخَلْق ألاَّ تحلو الثمرة إلا بعد النُّضْج .

كذلك الولد حين يبلغ يصبح صالحاً للإنجاب ، ونقول له : انتهتْ الرخصة التى منحها لك الشرع ، وعليك أن تستأذن فى جميع الأوقات .

لذلك يقول تعالى فى موضع آخر : ﴿أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ .. (٣١)﴾ [النور]

وجاء بالطفل بصيغة المفرد ؛ لأن الأطفال فى هذه السِّنِّ لم تتكوّن لديهم الغريزة ، وليست لهم هذه الميول أو المآرب ، فكأنهم واحد ، أمّا بعد البلوغ وتكوُّن الميول الغريزية قال : ﴿الأَطْفَالُ .. (٥٩)﴾ [النور] لأن لكل منهم بعد البلوغ ميوله وشخصيته وشطحاته .

وقوله : ﴿كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ .. (٥٩)﴾ [النور] أى : من الكبار الذين يستأذنون فى كل الأوقات ﴿كَذَٰلِكَ .. (٥٩)﴾ [النور] أى : مثل ما بينَّا فى الاستئذان الأول ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ .. (٥٩)﴾ [النور] لأنه سبحانه ﴿عَلِيمٌ .. (٥٩)﴾ [النور] بما يُصلحكم ﴿حَكِيمٌ (٥٩)﴾ [النور] لا يُشرِّع لكم إلا بحكمة .

ثم يقول سبحانه :

﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٦٠)﴾

نعلم أن الشارع الحكيم وضع للمرأة المسلمة قواعد تسير عليها فى زِيِّها وسلوكها ومِشْيتها ، حمايةً لها وصيانةً للمجتمع من الفتنة ،

وحتى لا يطمع فيها أصحاب النفوس المريضة ، فجعل لها حجاباً يسترها يُخفى زينتها لا يكون شفافاً ولا واصفاً ، وقال : ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلابِيبِهِنَّ .. (٥٩)﴾ [الأحزاب]

لكن القواعد من النساء والكبيرات منهن لَهُنَّ حكم آخر .

والقواعد : جمع قاعد لا قاعدة ، قاعدة تدل على الجلوس ، أمّا القاعد ذكراً أو أنثى فهو الذى قعد عن دورة الحياة ، ولم يَعُدْ له مهمة الإنجاب ، ومثل هؤلاء لم يَعُدْ فيهنَّ إرْبة ولا مطمع ؛ لذلك لا مانعَ أن يتخفَّفْنَ بعض الشىء من اللباس الذى فُرِض عليهن حال وجود الفتنة ، ولها أن تضع (طرحتها) مثلاً .

لكن هذه مسألة مقولة بالتشكيك : نسبية يعنى : فمن النساء مَنْ ينقطع حَيْضها ويدركها الكِبَر ، لكن ما يزال فيها جمال وفتنة ؛ لذلك ربنا ـ تبارك وتعالى ـ وضع لنا الحكم الاحتياطى ﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ .. (٦٠)﴾ [النور] ثم يدلُّهُن على ما هو خير من ذلك ﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ .. (٦٠)﴾ [النور]

والمقصود بوَضْع الثياب : التخفّف بعض الشىء من الثياب الخارجية شريطة ﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ .. (٦٠)﴾ [النور] فلا يجوز للمرأة أن تضع ثيابها أَخْذاً بهذه الرخصة ، ثم تضع الزينة وتتبرج . ونخشى أن نُعلِّم النساء هذا الحكم فلا يأخذْنَ به حتى لا نقول عنهن : إنهن قواعد !!

وتعجب حين ترى المرأة عندما تبلغ هذه السِّنَّ فتجدها وَرِعة فى ملبسها ، وَرِعة فى مظهرها ، وَرِعة فى سلوكها ، فتزداد جمالاً وتزداد بهاءً وآسرية ، على خلاف التى لا تحترم سِنّها فتضع على

وجهها المساحيق والألوان فتبدو مَسْخاً مُشوَّهاً .

ومعنى ﴿يَسْتَعْفِفْنَ .. (٦٠)﴾ [النور] أى : يحتفظْنَ بملابسهن لا يضعْنَ منها شيئاً ، فهذا أدْعى للعفة .

﴿لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِن بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٦١)﴾

قوله تعالى : ﴿لَيْسَ عَلَى الأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ .. (٦١)﴾ [النور] الحرج : هو الضيق ، كما جاء فى قوله سبحانه : ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ .. (١٢٥)﴾ [الأنعام]

أو الحرج بمعنى : الإثم ، فالحرج المرفوع عن هؤلاء هو الضِّيق

أو الإثم الذى يتعلق بالحكم الآتى فى مسألة الأكل ، بدليل أنه يقول ﴿وَلا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ .. (٦١)﴾ [النور]

والأعمى يتحرَّج أنْ يأكل مع الناس ؛ لأنه لا يرى طعامه ، وربما امتدتْ يده إلى أطيب الطعام فيأكله ويترك أدناه ، والأعرج يحتاج إلى راحة خاصة فى جلْسته ، وربما ضايق بذلك الآخرين ، والمريض قد يتأفف منه الناس . فرفَع الله تعالى عن عباده هذا الحرج ، وقال : ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا .. (٦١)﴾ [النور]

فيصح أن تأكلوا معاً ؛ لأن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ يريد أنْ يجعل التكامل فى الذوات لا فى الأعراض ، وأيضاً أنك إنْ رأيتَ شاباً مَؤوفاً[1] يعنى به آفة ، ثم تعامله معاملة خاصة فربما جرحْتَ شعوره ، حتى إنْ كان ما به أمراً خَلْقياً من الله لا يتأباه ، والبعض يتأبى أن يخلقه الله على هيئة لا يرضاها .

لذلك كانوا فى الريف نسمعهم يقولون : اللى يعطى العمى حقه فهو مبصر ، لماذا ؟ لأنه رضى بهذا الابتلاء ، وتعامل مع الناس على أنه كذلك ، فطلب منهم المساعدة ؛ لذلك ترى الناس جميعاً يتسابقون إلى مساعدته والأخْذ بيده ، فإنْ كان قد فقد عيناً فقد عوَّضه الله بها ألف عَيْن ، أما الذى يتأبّى ويرفض الاعتراف بعجزه ويرتدى نظارة سوداء ليخفى بها عاهته فإنه يسير مُتعسِّراً يتخبّط لا يساعده أحد .

وكأن الحق ـ تبارك وتعالى ـ يريد لأصحاب هذه الآفات أن يتوافقوا مع المجتمع ، لا يأخذون منه موقفاً ، ولا يأخذ المجتمع

---

(١) مؤوف : أصابته آفة . والآفة : العاهة . وآفت البلاد : صارت فيها آفة . [لسان العرب ـ مادة : أوف] .

منهم موقفاً[١] ؛ لذلك يعطف على ﴿لَيْسَ عَلَى الأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ .. (٦١)﴾ [النور] ثم يقول سبحانه ﴿وَلا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ .. (٦١)﴾ [النور] يعنى : هم مثلكم تماماً ، فلا حرجَ بينكم فى شىء .

﴿أَن تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ .. (٦١)﴾ [النور] إلخ .

وكان فى الأنصار قزازة[٢] ، إذا جلس فى بيت لا يأكل منه إلا إذا أذنَ له صاحب البيت ، وقد يسافر الرجل منهم ويترك التابع عنده فى البيت دون أنْ يأذنَ له فى الأكل من طعام بيته ويعود ، فيجد الطعام كما هو ، أو يجده قد فسد دون أنْ يأكل منه التابع شيئاً ، فأراد الحق سبحانه أنْ يرفع هذا الحرج عن الناس ، فقال :

﴿لَيْسَ عَلَى الأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ .. (٦١)﴾ [النور] إلى آخر هذه المعطوفات .

ولقائل أنْ يقول : وأىّ حرج فى أنْ يأكل المرء من بيته ؟ وهل كان يخطر على البال أنْ تجد حَرَجاً ، وأنت تأكل من بيتك ؟

قالوا : لو حاولتَ استقصاء هؤلاء الأقارب المذكورين فى الآية لتبيّن لك الجواب ، فقد ذكرتْ الآية آباءكم وأمهاتكم وإخوانكم وأخواتكم وأعمامكم وعماتكم وأخوالكم وخالاتكم ، ولم تذكر شيئاً عن الأبناء وهم فى مقدمة هذا الترتيب ، لماذا ؟

---

(١) قال ابن عباس : لما أنزل الله تبارك وتعالى ﴿وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ .. (١٨٨)﴾ [البقرة] تحرّج المسلمون عن مؤاكلة المرضى والزمنى والعرج وقالوا : الطعام أفضل الأموال ، وقد نهى الله تعالى عن أكل المال بالباطل ، والأعمى لا يبصر موضع الطعام الطيب ، والمريض لا يستوفى الطعام . فانزل الله تعالى هذه الآية ﴿لَيْسَ عَلَى الأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ .. (٦١)﴾ [النور] [أورده الواحدى فى أسباب النزول ص ١٨٩] .

(٢) القزازة : الحياء . قزَّتْ نفسى عن الشىء : أبَتْه وعَافتْه . وتقزز الرجل من الشىء : لم يطعمه ولم يشربه بإرادة . [لسان العرب ـ مادة : قزز] .

قالوا : لأن بيوت الأبناء هى بيوت الآباء ، وحين تأكل من بيت ولدك كأنك تأكل من بيتك ، على اعتبار أن الولد وما ملكتْ يداه ملْك لأبيه ، إذن : لك أن تضع مكان ﴿بُيُوتِكُمْ .. (٦١)﴾ [النور] بيوت أبنائكم . ذلك لأن الحق - تبارك وتعالى - لم يُرِدْ أنْ يجعل للأبناء بيوتاً مع الآباء ، لأنهما شىء واحد .

إذن : لا حرجَ عليك أن تأكل من بيت ابنك أو أبيك أو أمك أو أخيك أو أختك أو عمك أو عمتك أو خالك أو خالتك ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ .. (٦١)﴾ [النور] يعنى : يعطيك صاحب البيت مفتاح بيته[1] ، وفى هذا إذْنٌ لك بالتصرُّف والأكل من طعامه إنْ أردتَ .

﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ .. (٦١)﴾ [النور] وتلحظ فى هذه أنها الوحيدة التى وردتْ بصيغة المفرد فى هذه الآية ، فقبلها : بيوتكم ، آبائكم ، أمهاتكم .. إلخ إلا فى الصديق فقال ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ .. (٦١)﴾ [النور] ولم يقل : أصدقائكم .

ذلك لأن كلمة صديق مثل كلمة عدو تستعمل للجميع بصيغة المفرد ، كما فى قوله تعالى : ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي .. (٧٧)﴾ [الشعراء]

لأنهم حتى إنْ كانوا جماعة لا بُدَّ أنْ يكونوا على قلب رجل واحد ، وإلا ما كانوا أصدقاء ، وكذلك فى حالة العداوة نقول عدو ، وهم جمع ؛ لأن الأعداء تجمعهم الكراهية ، فكأنهم واحد .

---

(١) عن سعيد بن المسيب أنه كان يقول فى هذه الآية : أنزلت فى أُناس كانوا إذا خرجوا مع النبى ﷺ وضعوا مفاتيح بيوتهم عند الأعمى والأعرج والمريض وعند أقاربهم ، وكانوا يأمرونهم أن يأكلوا مما فى بيوتهم إذا احتاجوا إلى ذلك ، وكانوا يتقون أن يأكلوا منها ويقولون : نخشى أن لا تكون أنفسهم بذلك طيبة ، فأنزل الله تعالى هذه الآية . [أورده الواحدى فى أسباب النزول ص ١٩٠] .

ثم يقول سبحانه : ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا .. (٦١)﴾ [النور] ﴿جَمِيعًا .. (٦١)﴾ [النور] سوياً بعضكم مع بعض ، ﴿أَوْ أَشْتَاتًا .. (٦١)﴾ [النور] متفرقين ، كُلٌّ وحده .

وقوله تعالى : ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ[1] تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً .. (٦١)﴾ [النور] على أنفكسم ، لأنك حين تُسلِّم على غيرك كأنك تُسلِّم على نفسك ، لأن غيرك هو أيضاً سيسلم عليك ، ذلك لأن الإسلام يريد أن يجعل المجتمع الإيمانى وحدة متماسكة ، فحين تقول لغيرك : السلام عليكم سيردّ : وعليكم السلام . فكأنك تُسلِّم على نفسك .

أو : أن المعنى : إنْ دخلتم بيوتاً ليس فيها أحد فسلِّموا على أنفسكم ، وإذا دخلوا المسجد قالوا : السلام على رسول الله وعلينا من ربنا ، قالوا : تُسمع الملائكة وهى ترد .

وقوله تعالى : ﴿تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً .. (٦١)﴾ [النور] وفى آية أخرى يقول سبحانه : ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا .. (٨٦)﴾ [النساء]

والتحية فوق أنها من عند الله فقد وصفها بأنها ﴿مُبَارَكَةً .. (٦١)﴾ [النور] والشىء المبارك : الذى يعطى فوق ما ينتظر منه ﴿كَذَٰلِكَ .. (٦١)﴾ [النور] أى : كما بيَّن لكم الأحكام السابقة يُبيِّن لكم ﴿الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٦١)﴾ [النور]

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٦/٤٨٥٧) : « الأوجه أن يقال : إن هذا عام فى دخول كل بيت ، فإن كان فيه ساكن مسلم يقول : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . وإن لم يكن فيه ساكن يقول : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين . وإن كان فى البيت من ليس بمسلم قال : السلام على من اتبع الهدى أو السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين » .

أى : أن الذى كلّفكم بهذه الأحكام رَبٌّ يحب الخير لكم ، وهو غنىٌّ عن هذه ، إنما يأمركم بأشياء ليعود نَفْعها عليكم ، فإنْ أطعتموه فيما أمركم به انتفعتُم بأوامره فى الدنيا ، ثم ينتظركم جزاؤه وثوابه فى الآخرة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٦٢) ﴾ (١)

المؤمن : مَنْ آمن بإله وآمن بالرسول المبلّغ عن الإله ، وما دُمْتَ قد آمنتَ بالرسول المبلِّغ عن الله فلا بُدَّ أن تكون حركتك خاضعةً لأوامره ، ويجب أن تكون ذاتك له ، فإذا رأى الرسول أمراً جامعاً يجمع المسلمين فى خَطْب أو حدث أو حرب ، ثم يدعوكم إلى التشاور ليُدلى كل منكم برأيه وتجربته ، ويُوسِّع مساحة الشورى فى المجتمع لَيأتى الحكم صحيحاً سليماً موافقاً للمصلحة العامة .

فالمؤمن الحق إذا دُعى إلى مثل هذا الأمر الجامع ، لا يقوم من مجلسه حتى يستأذن رسول الله ﷺ ، وليس إلزاماً أنْ يأذن له رسول الله ﷺ ؛ لأن أمر المسلمين الجامع لهم قد يكون أهمّ من الأمر الذى يشغلك ، وتريد أن تقوم من أجله ، وتترك مجلس رسول الله ﷺ .

---

(١) اختلف فى الأمر الجامع ما هو ؟ فقيل : المراد به ما للإمام من حاجة إلى جمع الناس فيه لإذاعة مصلحة ، من إقامة سنة فى الدين أو لترهيب عدو باجتماعهم ، وللحروب . وقال مكحول والزهرى : الجمعة من الأمر الجامع . [تفسير القرطبى ٦/٤٨٥٨] .

وقوله تعالى :: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُوْلَـٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ .. (٦٢)﴾ [النور] فالاستئذان هنا من علامات الإيمان ، لا يقوم خِلْسة (وينسلت) من المجلس ، لا يشعر به أحد ، لا بُدَّ من أنْ يستأذن رسول الله حتى لا يُفوت مصلحة على المؤمنين ، ولربما كان له رأْىٌ ينتفع به .

والرسول إنما يستشير أصحابه ليستنير برأيهم وتجاربهم ، فحين يدعوهم إلى أمر جامع يجب أن يُفهم هذا الأمر على نطاق منزلة الرسول من بلاغه عن الله للأمة ، فإذا دعا نفر نفراً للتشاور ، فإنما يتشاوران فى أمر شخصى يخصُّ صاحبه ، لكن حين يدعوهم رسول الله لا يدعو لخصوصية واحدة ، وإنما لخصوصية أمة ، شاء الله أن تكون خير أمة أُخْرِجَتْ للناس ، وسوف يستفيد الفرد أيضاً من هذه الدعوة ، وربما كانت استفادته من الاستجابة للدعوة العامة التى تنتظم كل الناس خَيْراً من استفادته من دعوته الخاصة ، فيجب أنْ يُقدِّر المدعو هذا الفارق .

ومع وجود هذا الفارق لم يَحرِم اللهُ بعضَ الناس الذين لهم مشاغل أنْ يستأذنوا فيها رسول الله وينصرفوا ؛ لذا شرع لهم الاستئذان ، لكن يجب أنْ يضعوا هذا الفارق فى بالهم ، وأنْ يذكروا أنهم انصرفوا لبعض شأنهم ، والرسول قائم فى أمر لشئون الدنيا كلها إلى أنْ تقوم الساعة .

فكأنه إنْ شارك فى هذا الاجتماع فسيستفيد كفرد ، وستستفيد أمته : المعاصرون منهم والآتُون إلى أنْ تقومَ الساعة ، فإنْ فضّل شأنه الخاص على هذه الشئون فقد أساء ، وفعل مَا لا يليق بمؤمن ؛ لذلك أُمر رسول الله أنْ يأذنَ لمنْ يشاء ، ثم يستغفر له اللهَ .

يقول سبحانه : ﴿فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ..(٦٢)﴾ [النور] فالأمر متروك لرسول الله يُقدِّره حَسْب مصلحة المسلمين العامة ، فَلَهُ أن يأذنَ أو لا يأذنَ .

إذن : لا بُدَّ من استئذان رسول الله ﷺ فيأذن لمَنْ يشاء منهم ممَّنْ يرى أن فى الباقين عوَضاً عنه وعن رأيه ، فإنِ استأذن صاحب رأى يستفيد منه المسلمونَ لم يأذن له .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ..(٦٢)﴾ [النور] ، وكأن مسألة الاستئذان والقيام من مجلس رسول الله ﷺ أمر لا يريده الله تعالى .

حتى إن استأذنتَ لأمر يهمك ، وحتى إنْ أَذِن لك رسول الله ، فالأفضل ألاَّ تستأذن ؛ لأن الرسول ﷺ حين يدعو لأمر جامع يُهمّ جماعة المسلمين ، يجب ألاَّ ينشغل أحد عَمَّا دُعى إليه ، وألاَّ يُقدِّم على مصلحة المسلمين ومجلس رسول الله شيئاً آخَر ، ففى الأمر الجامع ينبغى أنْ يُكتّل الجميع مواهبهم وخواطرهم فى الموضوع ، وساعة تستأذن لأمر يخصُّك فأنت منشغل عن الجماعة شارد عنهم .

فحين تنشغل بأمرك الخاص عن أمر المسلمين العام ، فهذه مسألة تحتاج إلى استغفار لك من رسول الله ، فالرسول يأذن لك ، ثم يستغفر لك الله .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٣)﴾

قوله سبحانه : ﴿لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا .. (٦٣)﴾ [النور] فأنتم يدعو بعضكم بعضاً فى مسألة خاصة ، لكن الرسول يدعوكم لمسألة عامة تتعلق بحركة حياة الناس جميعاً إلى أنْ تقوم الساعة .

أو : أن الدعاء هنا بمعنى النداء يعنى : يناديكم الرسول أو تنادونه ؛ لأن لنداء الرسول ﷺ آداباً يجب مراعاتها ، فهو ليس كأحدكم تنادونه : يا محمد ، وقد عاب القرآن على جماعة لم يلتزموا أدب النداء مع رسول الله ، فقال : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ (٤)﴾ [الحجرات]

فأساءوا حين قالوا : يا محمد ، ولو قالوا حتى : يا أيها الرسول فقد أساءوا ؛ لأنه لا يصحّ أنْ يتعجّلوا رسول الله ، ويجب أنْ يتركوه على راحته ، إنْ وجد فراغاً للقائهم خرج إليهم ، إذن : أساءوا من وجهين .

ولا يليق أن نناديه ﷺ باسمه : يا محمد . لأن الجامع بين الرسول وأمته ليس أنه محمد ، إنما الجامع أنه رسول الله ، فلا بُدَّ أن نناديه بهذا الوصف . ولِمَ لا وربه عز وجل وهو خالقه ومصطفيه قد ميّزه عن سائر إخوانه من الرسل ، ومن أولى العزم ، فناداهم بأسمائهم :

﴿يَـآدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ .. (٣٥)﴾ [البقرة]

وقال : ﴿يَـنُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِّنَّا .. (٤٨)﴾ [هود]

وقال : ﴿يَـإِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّءْيَا .. (١٠٥)﴾ [الصافات]

وقال : ﴿يَـمُوسَىٰ إِنِّى أَنَا اللَّهُ .. (٣٠)﴾ [القصص]

وقال : ﴿يَـعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ .. (١١٦)﴾ [المائدة]

وقال : ﴿يَـدَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِى الأَرْضِ .. (٢٦)﴾ [ص]

لكن لم يُنَاد رسولَ الله ﷺ باسمه أبداً ، إنما يناديه بـ «يـأيها الرسول ، يـأيها النبى . فإذا كان الحق - تبارك وتعالى - لم يجعل دعاءه للرسول كدعائه لباقى رسله ، أفندعوه نحن باسمه ؟ ينبغى أن نقول : يا أيها الرسول ، يا أيها النبى ، يا رسول الله ، يا نبى الله ، فهذا هو الوصف اللائق المشرِّف .

وكما نُميِّز دعاء رسول الله حين نناديه ، كذلك حين ينادينا نحن يجب أن نُقدِّر هذا النداء ، ونعلم أن هذا النداء لخير عام يعود نفعه على الجميع .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٣)﴾ [النور]

لا شكَّ أن الذين يستأذنون رسول الله فيهم إيمان ، فيُراعون مجلس رسول الله ، ولا يقومون إلا بإذنه ، لكن هناك آخرون يقومون دون استئذان : ﴿يَتَسَلَّلُونَ .. (٦٣)﴾ [النور] والتسلل : هو الخروج بتدريج وخُفْية كأنْ يتزحزح من مكان لآخر حتى يخرج ، أو يُوهمك أنه يريد الكلام مع شخص آخر ليقوم فينسلتُ من المجلس خُفْية ، وهذا معنى ﴿يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا .. (٦٣)﴾ [النور] يلوذ بآخر ليخرج بسببه .

ويحذر الله هؤلاء : ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ .. (٦٣)﴾ [النور] والتحذير إنذار بالعاقبة السيئة التى تترتب على الانسحاب من مجلس رسول الله ، كأنه يقول لهم : قارنوا بين انسحابكم من مجلس الرسول وبين ما ينتظركم من العقاب عليه .

وقال : ﴿يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ .. (٦٣)﴾ [النور] لا يخالفون أمره ، فجعل فى المخالفة معنى الإعراض ، لا مجرد المخالفة ، فالمعنى : يُعرِضون عنه .

والأمر : يُراد به فعل الأمر أو النهى أو الموضوع الذى نحن بصدده يعنى : ليس طلباً ، وهذا المعنى هو المراد هنا : أى الموضوع الذى نبحثه ونتحدث فيه ، فانظروا ماذا قال رسول الله ولا تخالفوه ولا تعارضوه ؛ لأنه وإنْ كان بشراً مثلكم إلا أنه يُوحَى إليه .

لذلك يحدد الرسول ﷺ مركزه كبشر وكرسول ، فيقول : « يَرِدُ علىَّ - يعنى من الحق الأعلى - فأقول : أنا لست كأحدكم ، ويُؤخَذ منى فأقول : ما أنا إلا بشر مثلكم » .

لذلك كان الصحابة يفهمون هذه المسألة ، ويتأدبون فيها مع رسول الله ، ويسألونه فى الأمر : أهو من عند الله قد نزل فيه وَحْى ، أم هو الرأى والمشورة ؟ فإنْ كان الأمر فيه وَحْىٌ من الله فلا كلامَ لأحد مع كلام الله ، وإنْ كان لم يرد فيه من الله شىء أدْلَى كُلٌّ منهم برأيه ومشورته .

وهذا حدث فعلاً فى غزوة بدر حين نزل رسول الله ﷺ منزلاً رأى بعض الصحابة أن غيره خير منه ، فسألوا رسول الله : أهذا منزل أنزلكَهُ الله ، أم هو الرأىُ والمشورة ؟ فقال : « بل هو الرأى والمشورة »[1] فأخبروه أنه غير مناسب ، وأن المكان المناسب كذا وكذا .

---

(١) قال الحباب بن المنذر بن الجموح : يا رسول الله ، أرأيت هذا المنزل ، أمنزلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟ قال : بل هو الرأى والحرب والمكيدة . فقال : يا رسول الله ، فإن هذا ليس بمنزل ، فانهض بالناس حتى نأتى أدنى ماء من القوم فننزله » الحديث . أورده ابن هشام فى السيرة النبوية (٢/٦٢٠) نقلاً عن ابن إسحاق .

وقوله تعالى : ﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ .. (٦٣)﴾ [النور] أى : فى الدنيا ﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٣)﴾ [النور] أى : فى الآخرة ، فإنْ أفلتوا من فتنة الدنيا فلنْ يُفلتوا من عذاب الآخرة .

ثم تختم السورة بقوله تعالى :

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ (٦٤)﴾

ألا : أداة تنبيه لشىء مهم بعدها ، والتنبيه يأتى لأن الكلام سفارة بين المتكلم والمخاطب ، المتكلم عادة يُعد كلامه ، ولديْه أُنْسٌ بما سيقول ، لكن المخاطب قد لا يكون خالى الذِّهْن فيفاجئه القول ، وربما شغله ذلك عن الكلام ، فيضيع منه بعضه .

والحق - تبارك وتعالى - يريد ألاَّ يضيع منك حرف واحد من كلامه ، فينبهك بكلمة هى فى الواقع لا معنى لها فى ذاتها ، إلا أنها تنبهك وتُذهِب ما عندك من دهشة أو غفلة ، فتعى ما يُقال لك ، وهذا أسلوب عربى عرفته العرب ، وتحدثتْ به قبل نزول القرآن .

ويقول الشاعر[1] الجاهلى يخاطب المرأة التى تناوله الكأس :

أَلاَ هُبِّى بِصَحْنِكِ فَاصْبِحِينَا ... وَلاَ تُبْقِى خُمُورَ الأَنْدَرِينَا[2]

---

(١) هو : عمرو بن كلثوم ، من بنى تغلب ، أبو الأسود ، شاعر جاهلى ، من الطبقة الأولى ، ولد فى شمال جزيرة العرب فى بلاد ربيعة ، ساد قومه تغلب وهو فتى وعمر طويلاً ، توفى ٤٠ ق . هـ ، وهو الذى قتل الملك عمرو بن هند ، مات فى الجزيرة الفراتية . [الأعلام للزركلى ٥/ ٨٤] .

(٢) البيت من معلقة عمرو بن كلثوم . والصحن : القدح العظيم . والأندرون : قرى بالشام . قال الزوزنى فى شرحه (ص ١٦٥) : « ألا استيقظى من نومك أيتها الساقية واسقينى الصبوح بقدحك العظيم ولا تدخرى خمر هذه القرى » .

يريد أن ينبهها إلى الكلام المفيد الذى يأتى بعد .

وبعد ألا التنبيهية يقول سبحانه : ﴿إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ.. (٦٤)﴾ [النور]

والسموات والأرض ظرف فيهما كل شىء فى الكون العُلْوى والسُّفْلى ، فلله ما فى السموات وما فى الأرض أى : المظروف فيهما ، فما بال الظرف نفسه ؟ قالوا : هو أيضاً لله ، كما جاء فى آية أخرى : ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. (٤٢)﴾ [النور] إذن : فالظرف والمظروف مِلْك له سبحانه .

وعادةً ما يكون الظرف أقلَّ قيمةً من المظروف فيه ، فما بداخل الخزينة مثلاً أثمن منها ، وما بداخل الكيس أثمن منه ، وكذلك عظمة السموات والأرض بما فيهما من مخلوقات . لذلك إياك أنْ تجعل المصحف الشريف ظرفاً لشىء مهم عندك فتحفظه فى المصحف ؛ لأنه لا شىء أغلى ولا أثمن من كتاب الله ، فلا يليق أن تجعله حافظةً لنقودك ، أو لأوراقك المهمة ؛ لأن المحفوظ عادة أثمن من المحفوظ فيه .

وفى الآية : ﴿أَلا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. (٦٤)﴾ [النور] أسلوب قصر بتقديم الجار والمجرور ، فكلُّ ما فى السموات ، وكل ما فى الأرض مِلْكٌ لله وحده ، لا يشاركه فيه أحد ، وعلى كثرة المفترين فى الألوهية والفرعونية لم يَدَّعِ أحد منهم أن له مُلْكَ شىء منها .

حتى إن النمرود الذى جادل أبانا إبراهيم عليه السلام وقال : أنا أُحى وأميت لمَّا قال له إبراهيم : ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ .. (٢٥٨)﴾ [البقرة] لم يستطع فِعْل شىء وبُهِت وانتهت المسألة .

ومُلْكه تعالى لم يقتصر على الخَلْق ، فخَلَق الأشياء ثم تركها تؤدى مهمتها وحدها ، إنما خلقها وله تعالى قيومية على ما خلق ، وتصرّف فى كل شىء ، فلا تظن الكون من حولك يخدُمك آلياً ، إنما هو خاضع لإرادة الله وتصرّفه سبحانه .

فالماء الذى ينساب لك من الأمطار والأنهار قد يُمنع عنك ويصيب أرضك الجفاف ، أو يزيد عن حَدِّه ، فيصبح سيولاً تغرق وتدمر ، إذن : المسألة ليست رتابة خَلْق ، وليست المخلوقات آلاتٍ (ميكانيكية) ، إنما لله الملْك والقيومية والتصرُّف فى كل ما خلق .

ثم يقول سبحانه : ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ .. (٦٤)﴾ [النور] لفهم هذه الآية لا بُدَّ أن نعلم أن علاقة الحق - تبارك وتعالى - بالأحداث ليستْ كعلاقتنا نحن ، فنحن نعلم من علم النحو أن الأفعال ماضٍ ، وهو ما وقع بالفعل قبل أن تتكلم به مثل : جاء محمد ، ومضارع وهو إما للحال مثل : يأكل محمد . أو للاستقبال مثل : سيأكل محمد .

أما بالنسبة لله تعالى ، فالأحداث سواء كلها مَاضٍ وواقع ، وقد تكلمنا فى هذه المسألة فى قوله تعالى : ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ .. (١)﴾ [النحل]

ومعلوم أن الاستعجال يكون للأمر الذى لم يأْتِ بَعْد ، والقيامة لم تأت بعد لكن عبَّر عنها بالماضى (أتى) لأنه سبحانه لا يعوقه ولا يُخرَجه شىء عن مراده ، فكأنها أتتْ بالفعل ، إذن : ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ .. (١)﴾ [النحل] ليست منطقية مع كلامك أنت ، إنما هى منطقية مع كلام الله .

كذلك فى قوله تعالى : ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ .. (٦٤)﴾ [النور] فقد : للتحقيق ، ويعلم بالنسبة لله تعالى تعنى علِم ، لكنه بالنسبة لك

أنت يعلم . إذن : فهناك طرف منك وطرف من الحق سبحانه ، فبالنسبة للتحقيق جاء بقد ، وبالنسبة للاستقبال جاء بيعلم .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٦٤)﴾ [النور] وجاء فى آية أخرى : ﴿وَمَا يَعْزُبُ[1] عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٦١)﴾ [يونس]

فإياك أن تفهم أن نظر الله ورؤيته سبحانه للأبعاض المختلفة فى الأماكن المختلفة رؤية جزئية ، تتجه إلى شىء فلا ترى الآخر ، إنما هى رؤية شاملة ، كأن لكل شىء رؤية وحده ، وهذا واضح فى قوله تعالى : ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ .. (٣٣)﴾ [الرعد]

فسبحانه لا يشغله سَمْع عن سمع ، ولا بَصَر عن بصر ، فبصره سبحانه محيط ، واطلاعه دقيق ؛ لذلك يأتى جزاؤه حقاً يناسب دقّة اطلاعه ، فإياك إذن أن تغفل هذه الحقيقة ، فربُّك قائم عليك ، ناظر إليك ، لا تَخْفى عليه منك خافية .

فيا مَنْ تتسلل لواذاً احذر ، فلا شىء أهمّ من مجلس مع رسول الله ﷺ ، ورسول الله نفسه كان حريصاً أن يرى أصحابه فى مجلسه باستمرار ، والله تعالى يوصيه بذلك فيقول له : ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ .. (٢٨)﴾ [الكهف]

وكان بعض أصحابه يُصلِّى خلفه ، فكان عندما يسلم ينصرف الرجل مسرعاً فيراه ﷺ فى أول الصلاة ، ولا يراه فى آخرها ،

---

(١) عزب الأمر يعزب : بَعُدَ وغاب وصعب مطلبه . أى : لا يغيب ولا يبعد عنه أى شىء فهو يعلم الصغير والكبير من الأمور والأشياء . [القاموس القويم ٢/١٨] .

فاستوقفه فى إحدى الصلوات وقال له : « أزهداً فينا » ؟ وكأنه يعزّ على رسول الله أن يجد أحد أصحابه لا يتواجد مع حضرته ، أو يَزْهَد فى مجلسه ، فيُحرم من الخيرات والتجليات التى تتنزل على مجلس رسول الله ، ويُحرَم من إشعاعات بصيرته وبصره إليه .

لذلك أُحرِج الرجل ، وأخذ يوضح لرسول الله ﷺ ما يدفعه كل صلاة إلى الإسراع بالانصراف ، وأن هذا منه ليس زهداً فى حضرة رسول الله ومجلس رسول الله ، فقال : يا رسول الله إن لى امرأة بالبيت تنتظر ردائى هذا لتصلى فيه .

يعنى : ليس لديه فى بيته إلا ثوبٌ واحد ، فدعا له النبى ﷺ بالخير ، فلما عاد لزوجته سألته عن سبب غيابه ، فقصَّ عليها ما كان من أمر رسول الله ، وأنه استوقفه وحكى لها ما دار بينهما ، فقالت لزوجها : أتشكو ربك لمحمد ؟

ولما سألوها بعد ذلك قالت : « غاب عنى مقدار مائة تسبيحة » فانظر إلى ساعتها التى تضبط عليها وقتها .

سُورَةُ الفُرْقَانِ

بعد أن خُتِمَتْ سورة النور بهذه الآية التى تبين مالله تعالى من مُلْك وقَهْر وجبروت ، وبينَتْ أن العودة إليه والرجوع يوم القيامة للحساب ، بدأتْ سورة الفرقان تُبيِّن أن هذا الملْك ليس مُلْك استعباد ، إنما مُلْك رحمة ، نظمت لكم الحياة لتعيشوا فيها على هُدىً ونور ، فقال تعالى :

سورة الفرقان (١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ﴾

﴿ تَبَارَكَ .. ﴿١﴾ ﴾ [الفرقان] مادة الباء والراء والكاف عادةً تدلُّ على البركة ، وهى أن يعطيك الشىء من الخير فوق ما تظن فيه ويزيد عن تقديرك ، كما لو رأيتَ طعام الثلاثة يكفى العشرة ، فتقول : إن هذا الطعام مُبَاركٌ أو فيه بركة .

---

(١) سورة مكية كلها فى قول الجمهور . وقال ابن عباس وقتادة : إلا ثلاث آيات منها نزلت بالمدينة ، وهى قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَـٰهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ .. ﴿٦٨﴾ ﴾ [الفرقان] إلى قوله : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ ﴾ [الفرقان] وقال الضحاك : هى مدنية ، وفيها آيات مكية . [تفسير القرطبى ٦/٤٨٦٣] وسورة الفرقان عدد آياتها ٧٧ آية ، وهى السورة رقم (٢٥) فى ترتيب سور المصحف ، أما فى ترتيب النزول فهى السورة رقم (٤١) نزلت بعد سورة يس ، وقبل سورة الملائكة (سورة فاطر) .

ومن معانى تبارك : تعالى قَدْره و﴿تَبَارَكَ ..(١)﴾ [الفرقان] تنزّه عن شبه ما سواه ، وتبارك : عَظُم خَيْره وعطاؤه . وهذه الثلاثة تجدها مُكمِّلة لبعضها .

ومن العجيب أن هذا اللفظ ﴿تَبَارَكَ ..(١)﴾ [الفرقان] مُعجز فى رَسْمه ومُعْجز فى اشتقاقه ، فلو تتبعتَ القرآن لوجدتَ أن هذه الكلمة وردتْ فى القرآن تسْع مرات : سبْع منها بالألف ﴿تَبَارَكَ ..(١)﴾ [الفرقان] ومرتان بدون الألف[1] ، فلماذا لم تُكتب بالألف فى الجميع ، أو بدونها فى الجميع ؟ ذلك ليدلُّك على أن رَسْم القرآن رَسْم توقيفىّ ، ليس أمراً (ميكانيكياً) ، كما فى قوله تعالى فى أول سورة العلق : ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ (١)﴾ [العلق] فرَسْم كلمة اسم هنا بالألف ، وفى باقى القرآن بدون الألف .

إذن : فالقرآن ليس عادياً فى رَسْمه وكتابته ، وليس عادياً فى قراءته ، فأنت تقرأ فى أى كتاب آخر على أىِّ حال كنتَ ، إلا فى القرآن لا بُدَّ أن تكون على وضوء وتدخل عليه بطُهْر .. الخ ما نعلم من آداب تلاوة القرآن .

ومن حيث الاشتقاق نعلم أن الفعل يُشتَقُّ منه الماضى والمضارع والأمر واسم الفاعل .. الخ ، لكن ﴿تَبَارَكَ ..(١)﴾ [الفرقان] لم يذكر منها القرآن إلا هذه الصيغة ، وكأنه يريد أنْ يخصَّها بتنزيه الله تعالى ، مثلها مثل كلمة سبحان ؛ لذلك على كثرة ما مرَّ فى التاريخ من الجبابرة أرغموا الناس على مدحهم والخضوع لهم ، لكن ما رأينا واحداً مهما كان مجرماً فى الدين يقول لأحد هؤلاء : سبحانك .

---

(١) - وردت ﴿ تبارك ﴾ فى سبعة مواضع بالألف : (الأعراف : ٥٤) ، (المؤمنون ١٤) ، (الفرقان ١ ، ١٠ ، ٦١) ، (غافر ٦٤) ، (الزخرف ٨٥) .

- وردت مرتين بدون الألف ﴿تبـرك﴾ : (الرحمن : ٧٨) ، (الملك : ١) قال السيوطى فى (الإتقان فى علوم القرآن) (٢/١٨٨) : « تبارك : فعل لا يُستعمل إلا بلفظ الماضى ، ولا يستعمل إلا لله » .

لذلك نقول فى تسبيح الله : سبحانك ، ولا تُقال إلا لك . مهما اجترأ الملاحدة فإنهم لا ينطقونها لغير الله .

إذن : ﴿تَبَارَكَ ..(١)﴾ [الفرقان] تدور حول معَانٍ ثلاثة : تعالى قَدْره ، وتنزَّه عن مشابهة ما سواه ، وعَظُم خَيْرهً وعطاؤه ، ومَنْ تعاظُم خَيْره سبحانه أنه لا مثيل له : فى قَدْره ، ولا فى ذاته ، ولا فى صفاته ، ولا فى فعله . وهذا كله من مصلحتنا نحن ، فلا كبيرَ إلا الله ، ولا جبارَ إلا الله ، ولا غنىَّ إلا الله .

وسُمِّى القرآن فرقاناً ؛ لأنه يُفرِّق بين الحق والباطل ، وقد نزل القرآن ليُخرِج الناسَ من الظلمات إلى النور ، فيسير الناس على هُدىً وعلى بصيرة ، فالقرآن إذن فَرَق لهم مواضع الخير عن مواضع العطب ، فالفرقان سائر فى كل جهات الدين ، ففى الدين قمة هى الحق ـ تبارك وتعالى ـ ومُبلِّغ عن القمة هو الرسول ﷺ ، ومُرْسَل إليه هم المؤمنون ، فجاء القرآن ليفرُقَ بين الحق والباطل فى هذه الثلاثة .

ففى القمة ، وُجد مَنْ ينكر وجود إله خالق لهذا الكون ، وآخرون يقولون بوجود آلهة مَتعددة ، وكلاهما على طرفى نقيض للآخر ، ليس هناك سيال فكر يجمعهم ، فجاء القرآن ليفرق بين الحق والباطل فى هذه المسألة ، ويقول : الأمر وسط بين ما قُلْتم : فالإله موجود ، لكنه إله واحد لا شريكَ له ، ففرقَ فى مسألة القمة .

كذلك فَرق فى مسألة الرسول وهو بشر من قومه ، فلما اعترض بعضهم عليه وحسدوه على هذه المكانة وهو واحد منهم أيَّده الله بالمعجزة التى تُؤيده وتُظهر صدْقه فى البلاغ عن الله ، وكانت معجزته ﷺ فى شىء نبغ فيه القوم ، وهى الفصاحة والبلاغة والبيان ، والعرب أهل بيان ، وهذه بضاعتهم الرائجة وتحدَّاهم بهذه المعجزة فلم يستطيعوا .

وكذلك فَرَق فى مسألة الخَلْق من حيث مُقوِّمات حياتهم ، فبيَّن لهم الحلال والحرام ، وفى استبقاء النوع بيَّن لهم الحلال ، وشرع لهم الزواج ، ونهاهم عن الزنا ليحفظ سلالة الخليفة لله فى الأرض .

إذن : فَرق القرآن فى كل شىء : فى الإله ، وفى الرسول ، وفى قِوَام حياة المرسَل إليهم ، وما دام قد فَرقَ فى كل هذه المسائل فلا يوجد لفظ أفضل من أن نُسمِّيه « الفرقان » .

ولا شكَّ أن الألفاظ التى ينطق بها الحق ـ تبارك وتعالى ـ لها إشعاعات ، وفى طياتها معَانٍ يعلمها أهل النظر والبصيرة ممَّنْ فتح الله عليهم ، وما أشبهها بفصوص الماس ! والذى جعل الماس ثميناً أن به فى كل ذرة من ذراته تكسرات إشعاعية ليست فى شىء غيره ، فمن أىِّ ناحية نظرتَ إليه قابلك شعاع معكوس يعطى بريقاً ولمعاناً يتلألأ من كل نواحيه ، وكذلك ألفاظ القرآن الكريم .

ومن معانى الفرقان التى قال بها بعض العلماء أنه نزل مُفَرَّقاً ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ .. (١٠٦)﴾ [الإسراء] يعنى : أنزلناه مُفرَّقاً لم ينزل مرة واحدة كالكتب السابقة عليه ، وللحق ـ تبارك وتعالى ـ حكمة فى إنزال القرآن مُفرقاً ، حيث يعطى الفرصة لكل نَجْم ينزل من القرآن أنْ يستوعبه الناس ؛ لأنه يرتبط بحادثة معينة ، كذلك ليحدث التدرّج المطلوب فى التشريعات .

يقول تعالى : ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً (١٠٦)﴾ [الإسراء]

لقد كان المسلمون الأوائل فى فترة نزول القرآن كثيرى الأسئلة ، يستفسرون من رسول الله عن مسائل الدين ، كما قال تعالى :

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ .. (١٨٩) ﴾ [البقرة] ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ .. (٢١٩) ﴾ [البقرة] ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ .. (١) ﴾ [الأنفال] فكان النجم من القرآن ينزل ليُجيب عليهم ويُشرِّع لهم ، وما كان يتأتَّى ذلك لو نزل القرآن جملة واحدة .

وكلمة : ﴿ نَزَّلَ الْفُرْقَانَ .. (١) ﴾ [الفرقان] تؤيد هذا المعنى وتسانده ؛ لأن نزّل تفيد تكرار الفعل غير « أنزل » التى تفيد تعدِّى الفعل مرة واحدة .

وقوله تعالى : ﴿ عَلَىٰ عَبْدِهِ .. (١) ﴾ [الفرقان] كأن حيثية التنزيل عليه هى العبودية لله تعالى ، فهو العبد المأمون أن ينزل القرآن عليه . وسبق أن قلنا : إن العبودية لفظ بغيض إن استُعمل فى غير جانب الحق سبحانه ، أمّا العبودية لله فهى عزٌّ وشرف ولفظ محبوب فى عبودية الخَلْق للخالق ؛ لأن العبودية للبشر يأخذ السيد خير عبده ، أمّا العبودية لله فيأخذ العبد خير سيده .

لذلك جعل الله تعالى العبودية له سبحانه حيثيةً للارتقاء السماوى فى رحلة الإسراء ، فقال :﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ ..(١) ﴾ [الإسراء] فالرِّفْعة هنا جاءتْ من العبودية لله .

ثم يقول سبحانه : ﴿ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً (١) ﴾ [الفرقان] العالمين : جمع عَالَم ، والعَالَم ما سوى الله تعالى ، ومن العوالم : عالم الملائكة ، عالم الإنس ، وعالم الجن ، وعالم الحيوان ، وعالم النبات ، وعالم الجماد ، إلا أن بعض هذه العوالم لم يَأْتها بشير ولا نذير ؛ لأنها ليست مُخيَّرة ، والبشارة والنذارة لا تكون إلا للمخيّر .

يقول تعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن

يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً (٧٢) ﴾ [الأحزاب]

فإنْ عزلْتَ من هذه العوالم مَنْ ليس له اختيار ، فيتبقى منها : الجنّ والإنس ، وإليهما أُرسل الرسول ﷺ بشيراً ونذيراً ، لكن لماذا قال هنا ﴿ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً (١) ﴾ [الفرقان] ولم يقل : بشيراً ونذيراً ؟

قالوا : لأنه سبحانه سيتكلم هنا عن الذين خاضوا فى الألوهية ، وهؤلاء تناسبهم النِّذَارة لا البشارة ؛ لذلك قال فى الآية بعدها :

﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا (٢) ﴾

فى آخر سورة النور قال سبحانه : ﴿ أَلا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ .. (٦٤) ﴾ [النور] فذكر ملكية المظروف ، وهنا قال : ﴿ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ .. (٢) ﴾ [الفرقان] فذكر مِلْكية الظرف أى : السماوات والأرض .

ثم تكلّم سبحانه فى مسألة القمة التى تجرّأوا عليها ، فقال : ﴿ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ ..(٢) ﴾ [الفرقان]

وسبق أنْ تكلمنا كثيراً عن مسألة اتخاذ الولد والحكمة منها ، فالناس تحب الولد ، إما ليكون امتداداً للذكْر ، وإما ليساند والده حالَ ضَعْفه ، وإما للكثرة ، والحق ـ تبارك وتعالى ـ هو الحىُّ الباقى الذى لا يموت ، ولا يحتاج لمن يُخلِّد ذِكْراه ، وهو القوىُّ الذى لا يحتاج لغيره ، فلِمَ إذنْ يتخذ ولداً ؟

وقوله : ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ .. (٢) ﴾ [الفرقان] وهذا أمر

يؤيده الواقع ؛ لأن الله تعالى أول ما شَهد شَهد لنفسه ، فقال سبحانه : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ .. (١٨) ﴾[آل عمران]

أى : لما خلقتُ الملائكة شهدوا لله تعالى ، ثم شهد أولو العلم بالاستدلال ، فشهادة الحق سبحانه لنفسه شهادة الذات للذات ، والملائكة شهدتْ شهادةَ المشاهدة ، ونحن شهدنا شهادةَ الاستدلال والبرهان .

والحق ـ تبارك وتعالى ـ يُعطينا الدليل على صدْق هذه الشهادة ، فيقول تعالى : ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَـهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ .. (٩١) ﴾ [المؤمنون]

وقال سبحانه : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لاَّبْتَغَوْا إِلَى ذِى الْعَرْشِ سَبِيلاً (٤٢) ﴾ [الإسراء]

وهذا هو التفصيل المنطقى العاقل الذى نردُّ به على هؤلاء ، فلو كان مع الله تعالى آلهة أخرى لَذهبَ كل منهم بجزء من الكون ، وجعله إقطاعية خاصة به ، وعَلاَ كل منهم على الآخر وحاربه ، ولو كان معه سبحانه آلهة أخرى لاجتمعوا على هذا الذى أخذ الملْك منهم ليحاكموه أو ليتوسَّلوا إليه .

وقلنا : إن الدَّعْوى تثبُتُ لصاحبها إذا لم يَدَّعهَا أحد غيره لنفسه ، وهذه المسألة لم يدَّعها أحد ، فهى ـ إذن ـ ثَابتة لله تعالى إلى أنْ يُوجَد مَنْ يدَّعى هذا الخَلْق لنفسه .

وسبق أنْ مثَّلْنا لذلك بجماعة فى مجلس فَقَد أحدهم محفظته فيه ، ولما انصرفوا وجدها صاحب البيت ، فسألهم عنها ، فلم يدَّعها أحد منهم ، ثم اتصل به أحدهم يقول : إنها لى ، فلا شكّ أنها لَه حتى يوجد مُدَّعٍ آخر ، فنفصل بينهما .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً (٢) ﴾ [الفرقان] فخَلْق الله تعالى ليس خَلْقاً كما اتفق ، إنما خَلْقه سبحانه بقَدَر وحساب وحكمة ، فيخلق الشيء على قَدْر مهمته التى يُؤدِّيها ؛ لذلك قال فى موضع آخر : ﴿ الَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ (٢) وَالَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ (٣) ﴾ [الأعلى]

﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا (٣) ﴾

أى : أتوْا بآلهة غير الله ، هذه الآلهة بإقرارهم وبشهادتهم وواقعهم لا تخلق شيئاً ، ويا ليتها فقط لا تخلق شيئاً ، ولكن هى أنفسها مخلوقة ، فاجتمع فيها الأمران .

وهذه من الآيات التى وقف عندها المستشرقون وقالوا : إن فيها شبهة تناقض ؛ لأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قال : ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ﴾[المؤمنون] فأثبت أن معه آخرين لهم صفة الخَلْق ، بدليل أنه جمعهم معه ، وهو سبحانه أحسنهم . وفى موضع آخر يقول سبحانه :﴿ وَرَسُولاً إِلَىٰ بَنِى إِسْرَائِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّى أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللَّهِ .. (٤٩) ﴾ [آل عمران]

وللردِّ على هؤلاء نقول : تعالوْا أولاً نفهم معنى الخَلْق ، الخَلْق : إيجاد لمعدوم ، كما مثَّلْنا سابقاً بصناعة كوب الزجاج من صَهْر بعض المواد ، فالكوب كان معدوماً وهو أوجده ، لكن من شىء موجود ، كما أن الكوب يجمد على حالته ، لكن الحق سبحانه وتعالى يُوجِد من معدوم : معدوماً من معدوم ، ويُوجده على هيئة فيها حياة ونمو

وتكاثر من ذاته ، كما قال سبحانه : ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٤٩)﴾ [الذاريات]

والذين يصنعون الآن الورد الصناعى ، ويحاولون جاهدين مُضَاهاة الورد الطبيعى الذى خلقه ، فيضعون عليه رائحة الورد ليتوفر لها الشكل والرائحة ، ثم ترى الوردة الصناعية زاهية لا تذبُل ، لكن العظمة فى الوردة الطبيعية أنها تذبل ؛ لأن ذُبولها يدلُّ على أن بها حياة .

لذلك سمَّى اللهُ الإنسانَ خالقاً ، فأنصفه واحترم إيجاده للمعدوم ، لكنه سبحانه أحسنُ الخالقين ، ووَجْه الحُسْن أن الله تعالى خلق من لا شىء ، وأنت خلقتَ من موجود ، الله خلق خَلْقاً فيه حياة ونمو وتكاثر ، وأنت خلقتَ شيئاً جامداً على حالته الأولى ، ومع ذلك أنصفك ربك .

ففى قوله تعالى : ﴿أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ .. (٤٩)﴾[آل عمران] معلوم أنه فى مقدور كل إنسان أنْ يُصوِّر من الطين طَيْراً ، ويُصمِّمه على شكله ، لكن أيُقال له : إنه خلق بهذا التصوير طَيْراً ؟ وهل العظمة فى تصويره على هيئة الطير ؟ العظمة فى أنْ تبعثَ فيه الحياة ، وهذه لا تكون إلا من عند الله ؛ لذلك قال عيسى عليه السلام : ﴿فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللَّهِ .. (٤٩)﴾ [آل عمران]

فإنْ سلَّمْنا أنهم يخلقون شيئاً فهم فى ذات الوقت مخلوقون ، والأدْهَى من هذا أن الذى يتخذونه إلهاً لا يستطيع حتى أن يحمى نفسه أو يقيمها ، إنْ أطاحتْ به الريح ، وإنْ كُسر ذراع الإله أخذوه ليُرمموه ، الإله فى يد العامل ليصلحه !! شىء عجيب وعقليات حمقاء .

لذلك يقول تعالى عن آلهتهم : ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣)﴾ [الحج]

ثم يقول سبحانه :﴿ وَلا يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا ..(٣) ﴾ [الفرقان] يعنى : لا تنفعهم إنْ عبدوها ، ولا تضرّهم إنْ كفروا بها ﴿ وَلا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلا حَيَاةً وَلا نُشُورًا (٣) ﴾ [الفرقان] أى : موتاً أو حياة لغيرهم ، فهم لا يملكون شيئاً من هذا كله ، لأنه من صفات الإله الحق الذى يُحيى ويُميت ، ثم ينشر الناس فى الآخرة . إذن : للإنسان مراحل متعددة ، فبعد أنْ كان عَدَماً أوجده الله ، ثم يطرأ عليه الموت فيموت ، ثم يبعثه الله ، ويُحييه حياة الآخرة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا (٤) ﴾

بعد أن تكلم الفرقان وفرّق فى مسألة القمة والألوهية واتخاذ الولد والشركاء ، وبيَّن الإله الحق من الإله الباطل ، أراد سبحانه أنْ يتكلّم عن الفرقان فى الرسالة ، فيحكى ما قاله الكفار عن القرآن ﴿ إِنْ هَـٰذَا .. (٤) ﴾ [الفرقان] يعنى : ما هذا - أى القرآن - الذى يقوله محمد ﴿ إِلاَّ إِفْكٌ (٤) ﴾ [الفرقان] الإفك : تعمُّد الكذب الذى يقلب الحقائق ، وسبق أن قُلْنا : إن النسبة الكلامية إنْ وافقت الواقع فهى صِدْق ، وإنْ خالفتْه فهى كذب .

والإفْك قَلْب للواقع يجعل الموجود غير موجود ، وغير الموجود موجوداً ، كما جاء فى حادثة الإفك حين اتهموا عائشة أم المؤمنين بما يخالف الواقع ، فالواقع أن صفوان[1] أناخ لها ناقته حتى ركبت

---

(١) هو : صفوان بن المعطل بن رحضة السلمى الذكوانى ، أبو عمرو : صحابى ، شهد الخندق والمشاهد كلها ، وحضر فتح دمشق ، واستشهد بأرمينية عام ١٩ هـ . [الأعلام للزركلى ٢٠٦/٣] .

دون أن ينظر إليها ، وهذا يدل على مُنْتهى العِفَّة والصيانة ، وهُم بالإفك جعلوا الطُّهْر والعفة عُهْراً .

ومن العجيب أن هؤلاء الذين اتهموا القرآن بأنه إفك هم أنفسهم الذين قالوا عنه :

﴿ لَوْلا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) ﴾ [الزخرف]

فهم يعترفون بالقرآن ويشهدون له ، لكن يُتعبهم ويُنغِّص عليهم أن يُنزل على محمد بالذات ، فلو نزل ـ فرضاً ـ على غير محمد لآمنوا به .

ومن حُمْقهم أن يقولوا :﴿ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢) ﴾ [الأنفال]

والمنطق أن يقولوا فاهْدنا إليه ، لكنه العناد والمكابرة .

وقوله : ﴿ افْتَرَاهُ ..(٤) ﴾ [الفرقان] أى : ادعاه ، وعجيب أمر هؤلاء ، يتهمون القرآن بأنه إفك مُفْترى ، فلماذا لا يفترون هم أيضاً مِثْله ، وهم أمة بلاغة وبيان ؟!

وفى موضع آخر يقول تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ (١٠٣) ﴾ [النحل]

وقديماً قالوا : إنْ كنتَ كذوباً فكُنْ ذكوراً ، وإلا فكيف تتهمون محمداً أن رجلاً أعجمياً يُعلِّمه القرآن ، والقرآن عربى ؟

وقوله تعالى : ﴿ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ .. (٤) ﴾ [الفرقان] الذى قال هذه المقولة هو النضر بن الحارث ، ولما قالها رددها بعده آخرون أمثال : عدَّاس ، ويسَّار ، وأبى فكيهة الرومى ، والقرآن يرد على كل هذه الاتهامات : ﴿ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا (٤) ﴾ [الفرقان] أى : حكموا به

والظلم هو : الحكم بغير الحق ، والزّور هو : عُدَّة الحكم ودليله . والظلم يأتى بعد الزور ، لأن القاضى يستمع أولاً إلى الشهادة ، ثم يُرتِّب عليها الحكم ، فإن كانت الشهادةُ شهادةَ زور كان الحكم حينئذ ظلماً .

لكن الحق ـ تبارك وتعالى ـ يقول ﴿ ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ ﴾ [الفرقان] وهذا دليل على أن الحكم جاء منهم مُسبقاً ، ثم التمسوا له دليلاً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ ﴾

الأساطير : جمع أسطورة ، مثل : أعاجيب جمع أعجوبة ، وأحاديث جمع أُحْدوثة ، والبكرة أول النهار ، والأصيل آخره ، والمعنى أنهم قالوا عن القرآن : إنه حكايات وأساطير السابقين ﴿ اكْتَتَبَهَا .. ﴿٥﴾ ﴾ [الفرقان] يعنى : أمر بكتابتها . وهذا من ترددهم واضطراب أقوالهم ، فالنبى ﷺ أُميٌّ لا يقرأ ولا يكتب ، وقولهم : ﴿ فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ ﴾ [الفرقان] أى : باستمرار ليُكرِّرها ويحفظها .

ويردُّ القرآن عليهم :

﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾ ﴾

﴿ أَنزَلَهُ .. ﴿٦﴾ ﴾ [الفرقان] أى : القرآن مرة واحدة من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا ﴿ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ .. ﴿٦﴾ ﴾ [الفرقان] فلا تظن أنك بمجرد خَلْقك قدرْتَ أن تكشف أسرار الله فى

كونه ، إنما ستظل إلى قيام الساعة تقف على سر ، وتقف عند سر آخر .

لماذا ؟ لأن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ يريد أن يبطل هذه المدعيات ، ويأتى بأشياء غيبية لم تكن تخطر على بال المعاصرين لمحمد ، ثم تتضح هذه الأشياء على مَرِّ القرون ، مع أن القرآن نزل فى أُمة أمية ، والرسول الذى نزل عليه القرآن رجل أمى ، ومع ذلك يكشف لنا القرآن كل يوم عن آية جديدة من آيات الله .

كما قال سبحانه : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ .. (٥٣) ﴾ [فصلت]

والحق ـ تبارك وتعالى ـ يكشف لرسوله ﷺ شيئاً من الغيبيات ، ليراها المعاصرون له ليلقم الكفارَ الذين اتهموه حجراً ، فيكشف بعض الأسرار كما حدث فى بدر حيث وقف النبى ﷺ فى ساحة المعركة بعد أن عرف أن مكة ألقتْ بفلذات أكبادها وسادتها فى المعركة ، وقف يشير بعصاه إلى مصارع الكفار ، ويقول « هذا مصرع أبى جهل ، وهذا مصرع عتبة بن ربيعة .. »[1] .. الخ يخطط على الأرض مصارع القوم .

ومَن الذى يستطيع أن يحكم مسبقاً فى معركة فيها كَرٌّ وفَرٌّ ، وضَرْب وانتقال وحركة ، ثم يقول : سيموت فلان فى هذا المكان .

والوليد بن المغيرة والذى قال عنه القرآن[2] ﴿ سَنَسِمُهُ عَلَى

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٧٧٩) ، وأحمد فى مسنده (٣/٢١٩ ، ٢٥٨) من حديث أنس بن مالك . قال : فما ماط أحدهم عن موضع يد رسول الله ﷺ . قال النووى « فما ماط » أى فما تباعد .

(٢) قال ابن حجر فى الفتح (٨/٦٦٢) : « اختُلف فى الذى نزلت فيه ، فقيل هو الوليد بن المغيرة وذكره يحى بن سلام فى تفسيره . وقيل : الأسود بن عبد يغوث ذكره سنيد بن داود فى تفسيره . وقيل : الأخنس بن شريق وذكره السهيلى عن القتيبى ، وحكى هذين القولين الطبرى » .

الْخُرْطُومِ(١٦) ﴾ [القلم] يعنى : ستأتيه ضربة على أنفه تَسِمُه بسِمَة تلازمه ، وبعد المعركة يتفقده القوم فيجدونه كذلك .

هذه كلها أسرار من أسرار الكون يخبر بها الحق ـ تبارك وتعالى ـ رسوله ﷺ ، والرسول يخبر بها أمته فى غير مظنَّة العلم بها .

ومن ذلك ما يُروى من أن ابنتى رسول الله ﷺ قد تزوجتا من ولدين لأبى لهب ، فلما حدثت العداوة بينه وبين رسول الله أمر ولديْه بتطليق ابنتى رسول الله ، وبعدها رأى أحد الولدين رسول الله ماشياً ، فبصق ناحيته ، ورأى رسول الله ذلك فقال له : « أكلك كلب[1] من كلاب الله »[2]. فقال أبو لهب بعد أن علم بهذه الدعوة : أخاف على ولدى من دعوة محمد .

وعجيب أنْ يخاف هذا الكافر من دعوة رسول الله ، وهو الذى يتهمه بالسحر وبالكذب ويكفر به وبدعوته .

ولما خرج هذا الولد فى رحلة التجارة إلى الشام أوصى به القوم أن يحرسوه ، ويجعلوا حوله سياجاً من بضائعهم يحميه خشية أن تنفذ فيه دعوة محمد ، وهذا منه كلام غير منطقى ، فهو يعلم صدق النبى ﷺ وأنه مُرْسَل من عند الله ، لكن يمنعه من الإيمان حقده على رسول الله وتكبّره على الحق.

---

(١) الكلب : كل سبع عقور ، ومنه الأسد ، قال ابن سيده : غلب الكلب على هذا النوع النابح . وقد يكون التكليب واقعاً على الفهد وسباع الطير . [لسان العرب ـ مادة : كلب] . وانظر فتح البارى (٤/٣٩) .

(٢) وذلك أن عتيبة بن أبى لهب حين فارق أم كلثوم بنت رسول الله ﷺ جاء النبى وقال : كفرت بدينك ، وفارقت ابنتك ، لا تحبنى ولا أحبك ، ثم تسلط على رسول الله ﷺ فشق قميصه ، فقال ﷺ : « أما إنى أسأل الله أن يسلط عليه كلبه » أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٢/٣٣٨ ، ٣٣٩) ، وأورده الهيثمى فى مجمع الزوائد (٦/١٩) وعزاه للطبرانى مرسلاً وقال : « فيه زهير بن العلاء وهو ضعيف » وقد أخرجه الحاكم فى مستدركه (٢/٥٣٩) من حديث أبى عقرب وصححه ، وحسَّنه ابن حجر فى الفتح (٤/٣٩) .

وخرج الولد فى رحلة التجارة ورغم احتياطهم فى حمايته هجم عليه سبع فى إحدى الليالى واختطفه من بين أصحابه ، فتعجبوا لأن رسول الله قال « كلب من كلاب الله » وهذا أسد ليس كلباً . قال أهل العلم : ما دام أن رسول الله نسب الكلب إلى الله ، فكلب الله لا يكون إلا أسداً .

فالمعنى : قل يا محمد فى الرد عليهم ولإبطال دعاواهم : ﴿ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. ﴿٦﴾ ﴾ [الفرقان] وسوف يفضحكم ويُبطل افتراءكم على رسول الله من قولكم إفك وكذب وافتراء وأساطير الأولين ، وسوف يُخْزِيكم أمام أعْينِ الناس جميعاً .

وعلى عهد رسول الله قامتْ معركة بين الفُرْس والروم غُلبت فيها الروم ، فحزن رسول الله لهزيمة الروم ؛ لأنهم أهل كتاب يؤمنون بالله وبالرسل ، أما الفرس فكانوا كفاراً لا يؤمنون بالله ويعبدون النار وغيرها . فمع أنهما يتفقان فى تكذيبهم لرسول الله ، إلا أن إيمان الروم بالله جعل رسول الله يتعصب لهم مع أنهم كافرون به ، فعصبية رسول الله لا تكون إلا لربه عز وجل .

فلما حزن رسول الله لذلك أنزل الله تعالى عليه :﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ ﴿٥﴾ ﴾ [الروم]

فأىُّ عقل يستطيع أنْ يحكم على معركة ستحدث بعد عدة سنوات ؟ لو أن المعركة ستحدث غداً لأمكن التنبؤ بنتيجتها ، بناءً على حساب العَدد والعُدة والإمكانات العسكرية ، لكن مَنْ يحكم على معركة ستدور رحاها بعد سبع سنين ؟ ومَنْ يجرؤ أن يقولها قرآناً يُتْلَى ويُتعبَّد به إلى يوم القيامة . فلو أن هذه المدة مرَّت ولم يحدث ما أخبر به رسول الله لكفَر به مَنْ آمن وانفضَّ عنه مَنْ حوله .

إذن : ما قالها رسول الله قرآناً يُتْلَى ويُتعبَّد به إلا وهو واثق من صدْق ما يخبر به ؛ لأن الذى يخبره ربه - عز وجل - الذى يعلم السرَّ فى السموات والأرض ؛ لذلك قال هنا الحق سبحانه وتعالى : ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِى يَعْلَمُ السِّرَّ فِى السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. ﴿٦﴾ ﴾ [الفرقان]

ومن العجيب أن ينتصر الروم على الفُرْس فى نفس اليوم الذى انتصر فيه الإيمان على الكفر فى غزوة بدر ، هذا اليوم الذى قال الله تعالى عنه :﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ ..﴿٥﴾ ﴾ [الروم]

وما دام أن الذى أنزل القرآن هو سبحانه الذى يعلم السِّر فى السماوات والأرض ، فلن يحدث تضارب أبداً بين منطوق القرآن ومنطوق الأكوان ؛ لأن خالقهما واحد - سبحانه وتعالى - فمن أين يأتى الاختلاف أو التضارب ؟

ثم يقول سبحانه : ﴿ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً ﴿٦﴾ ﴾ [الفرقان] فما مناسبة الحديث عن المغفرة والرحمة هنا ؟ قالوا : لأن الله - تبارك وتعالى - يريد أن يترك لهؤلاء القوم الذين يقرعهم مجالاً للتوبة وطريقاً للعودة إليه - عز وجل - وإلى ساحة الإيمان .

لذلك يقول النبى ﷺ لمن أشار عليه بقتل الكفار : « لعلَّ الله يُخرِج من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً »[1]

وكان الصحابة يألمون أشد الألم إنْ أفلتَ أحد رءوس الكفر من

---

(١) أخرج البخارى فى صحيحه (٣٢٣١ ، ٧٣٨٩) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٧٩٥) من حديث عائشة رضى الله عنها أن جبريل عليه السلام قال للنبى ﷺ : إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك ، وقد بعث الله إليه ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم ، فنادانى ملك الجبال فسلم علىّ ثم قال : يا محمد إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين ، فقال ﷺ : « بل أرجو أن يُخرِج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به » .

القتل فى المعركة ، كما حدث مع خالد بن الوليد وعمرو بن العاص قبل إسلامهما ، وهم لا يدرون أن الله تعالى كان يدَّخرهم للإسلام فيما بعد .

فقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾ ﴾ [الفرقان] حتى لا يقطع سبيل العودة إلى الإيمان بمحمد على مَنْ كان كافراً به ، فيقول لهم : على رغم ما حدث منكم . إنْ عُدْتم إلى الجادة وإلى حظيرة الإيمان ففى انتظاركم مغفرة الله ورحمته .

والحق - تبارك وتعالى - يُبيِّن لنا هذه المسألة حتى فى النزوع العاطفى عند الخَلْق ، فهند بنت عتبة[١] التى أغرتْ وَحْشيّاً[٢] بقتل حمزة عم رسول الله وأسد الله وأسد رسوله ، ولم تكتف بهذا ، بل مثَّلتْ به بعد مقتله ، ولاكَتْ[٣] كبده رضى الله عنه ، ومع ذلك بعد أنْ أسلمتْ وبايعتْ النبى ﷺ نُسيت لها هذه الفعلة وكأنها لم تكُنْ .

ولما قال أحدهم لعمر بن الخطاب : هذا قاتل أخيك (يشير إليه) والمراد زيد بن الخطاب[٤] ، فما كان من عمر إلا أن قال : وماذا أفعل به وقد هداه الله للإسلام ؟

---

(١) هى : هند بنت عتبة بن ربيعة القرشية ، والدة معاوية بن أبى سفيان ، شهدت أحداً فى جانب المشركين وفعلت ما فعلت بحمزة ، وقد أسلمت يوم الفتح ، ماتت فى خلافة عثمان . (الإصابة فى تمييز الصحابة ٨/٢٠٦) .

(٢) هو : وحشى بن حرب الحبشى مولى بنى نوفل ، وهو قاتل حمزة عم رسول الله ﷺ قتله يوم أحد ، وقد أمره النبى ﷺ أن يغيب وجهه عنه ، وقد شارك فى حروب الردة فى قتل مسيلمة وقد شهد موقعة اليرموك ثم سكن حمص ومات بها ، وقد عاش إلى خلافة عثمان . (الإصابة ترجمة ٩١١٠) .

(٣) لاك : مضغ . وهو مضغ الشىء الصلب تديره فى فمك . واللوْكُ : إدارة الشىء فى الفم . [لسان العرب - مادة : لوك] .

(٤) هو : زيد بن الخطاب بن نفيل العدوى ، أخو عمر بن الخطاب لأبيه ، أمه أسماء بنت وهب من بنى أسد ، أما أم عمر فهى حنتمة بنت هاشم المخزومية ، وكان زيد أكبر سناً من عمر وأسلم قبله وشهد بدراً والمشاهد واستشهد باليمامة . [تمييز الصحابة ٣/٢٧] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا (٧) ﴾

عجيب أمر هؤلاء المعاندين : يعترضون على رسول الله أنْ يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق لكسْب العيش ، فهل سبق لهم أنْ رأَوْا نبياً لا يأكل الطعام ، ولا يمشى فى الأسواق ؟ ولو أن الأمر كذلك لكان لاعتراضهم معنى ، إذن : قولهم ﴿ مَا لِهَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ .. (٧) ﴾ [الفرقان] قولٌ بلا حجة من الواقع ، ليستدركوا بهذه المسألة على رسول الله .

فماذا يريدون ؟

قالوا : ﴿ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا (٧) ﴾ [الفرقان] صحيح أن الملَك لا يأكل ، لكن معنى ﴿ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ .. (٧) ﴾ [الفرقان] يعنى : يسانده ، وفى هذه الحالة لن يُغيِّر من الأمر شيئاً ، وسيظل كلام محمد هو هو لا يتغير . إذن : لن يضيف الملَك جديداً إلى الرسالة .. وعليه ، فكلامهم هذا سفسطة وجَدَلٌ لا معنى له .

وكلمة ﴿ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا (٧) ﴾ [الفرقان] لم يقولوا بشيراً ، مما يدل على اللدَد واللجاج ، وأنهم لن يؤمنوا ؛ لذلك لن يفارقهم الإنذار .

﴿ أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا (٨) ﴾

تلحظ أنهم يتنزلون فى لَدَدهم وجَدَلهم ، فبعد أنْ طلبوا ملَكاً يقولون ﴿أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ ﴿٨﴾﴾ [الفرقان] أى : ينزل عليه ليعيش منه﴿ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ﴿٨﴾﴾ [الفرقان] أى : بستان ﴿ وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُوراً ﴿٨﴾﴾ [الفرقان]

والمسحور هو الذى ذهب السِّحْر بعقله ، والعقل هو الذى يختار بين البدائل ويُرتِّب التصرُّفات ، ففاقد العقل لا يمكن أن يكونَ منطقياً فى تصرفاته ولا فى كلامه ، ومحمد ﷺ ليس كذلك ، فأنتم تعرفون خُلقه وأمانته ، وتُسمُّونه « الصادق الأمين » وتعترفون بسلامة تصرفاته وحكمته ، كيف تقولون عنه مجنون ؟

لذلك يقول تعالى رداً عليهم :﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [القلم]

والخُلُق يسوى تصرُّفات الإنسان فيجعلها مُسْعدة غير مفسدة ، فكيف - إذن - يكون ذو الخُلق مجنوناً ؟ إذن : ليس محمد مسحوراً .

وفى موضع آخر قالوا : ساحر ، وعلى فرض أنه ﷺ ساحر ، فلماذا لم يسحركم كما سَحَر المؤمنين به ؟ إنه لَجَج الباطل وتخبّطه واضطرابه فى المجابهة . ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً ﴿٩﴾ ﴾

﴿ انظُرْ..﴿٩﴾﴾ [الفرقان] خطاب لإيناس رسول الله وتطمينه ﴿ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ ..﴿٩﴾﴾ [الفرقان] أى : اتهموك بشتّى التهم فقالوا ساحر . وقالوا : مسحور . وقالوا : شاعر . وقالوا : كاهن ﴿ فَضَلُّوا

فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً ﴿٩﴾ ﴾ [الفرقان] لأنهم يقولون كذباً وهُرَاءً وتناقضاً فى القول .

﴿ فَضَلُّوا..﴿٩﴾ ﴾ [الفرقان] أى : عن المثل الذى يصدُق فيك ليصرف عنك المؤمنين بك ، ويجعل الذين لم يؤمنوا يُصرُّون على كفرهم ، فلم يصادفوا ولو مثلاً واحداً ، فقالوا : ساحر وكذبوا وقالوا : مسحور وكذبوا ﴿ فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً ﴿٩﴾ ﴾ [الفرقان] أى : إلى ذلك .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾ ﴾

﴿ تَبَارَكَ ..﴿١٠﴾ ﴾ [الفرقان] كما قلنا : تنزّه وعَظُم خيره ؛ لأن الكلام هنا أيضاً فيه عطاء مُتمثِّل فى الخير الذى ساقه الله تعالى لرسوله ﷺ ، فعطاؤه سبحانه دائم لا ينقطع ، بحيث لا يقف خير عند عطائه ، بل يظل عطاؤه خيراً موصولاً ، فإذا أعطاك اليوم عرفتَ أن ما عنده فى الغد خير مما أعطاك بالأمس .

---

(١) **سبب نزول الآية** : قال ابن عباس : لما عيَّر المشركون رسول الله ﷺ بالفاقة قالوا : ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق حزن رسول الله ﷺ فنزل جبريل من عند ربه معزياً له ، فقال : السلام عليك يا رسول الله ، رب العزة يقرئك السلام ويقول لك : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ .. ﴿٢٠﴾ ﴾ [الفرقان] وقال جبريل : أبشر يا محمد ، هذا رضوان خازن الجنة قد أتاك بالرضا من ربك ، فأقبل رضوان حتى سلم ثم قال : يا محمد رب العزة يقرئك السلام ، ومعه سفط من نور يتلألأ ويقول لك ربك : هذه مفاتيح خزائن الدنيا مع ما لا ينتقص لك مما عنده فى الآخرة مثل جناح بعوضة ، فقال : يا رضوان ، لا حاجة لى فيها ، الفقر أحب إلىّ وأن أكون عبداً صابراً شكوراً . بتصرف واختصار [من أسباب النزول للواحدى النيسابورى ص ١٩٠ ، ١٩١] ، و [تفسير القرطبى ٦/٤٨٦٩] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ ﴾

يُضرب السياق عن الكلام السابق ، ويعود إلى مسألة تكذيبهم وعدم الإيمان بمحمد ﷺ ؛ لأن الإيمان ليس فى مصلحتهم ، فالإيمان يقتضى حساباً وجزاءً ، وهم يريدون التمادى فى باطلهم والاستمرار فى لَغْوهم واستهتارهم ومعاصيهم ؛ لذلك يُكذِّبون أنفسهم ويخدعونها ليظلوا على ما هم عليه .

ولذلك ترى الذين يُسرفون على أنفسهم فى الدنيا من الماديين والملاحدة والفلاسفة يتمنون أنْ تكون قضية الدين قضيةً فاسدة كاذبة ، فينكرونها بكل ما لديْهم من قوة ، فالدين عندهم أمر غير معقول ؛ لأنهم لو أقروا به فمصيبتهم كبيرة .

ومعنى : ﴿أَعْتَدْنَا .. ﴿١١﴾﴾ [الفرقان] هيّأنا وأعددْنا لهم سعيراً ؛ لأن عدم إيمانهم بالساعة هو الذى جَرَّ عليهم العذاب ، ولو أنهم آمنوا بها وبلقاء الله وبالحساب وبالجزاء لاهتَدوْا ، واعتدلوا على الجادة ، ولَنجَوْا من هذا السعير .

والسعير : اسم للنار المسعورة التى تلتهم كل ما أمامها ، كما نقول : كَلْب مسعور ، ثم يقول سبحانه فى وصفها :

﴿ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ ﴾

يريد الحق ـ تبارك وتعالى ـ أن يُشخِّص لنا النار ، فهى ترى أهلها من بعيد ، وتتحرّش بهم تريد من غَيْظها أنْ تَثِبَ عليهم قبل أنْ يصلوا إليها .

والتغيُّظ : ألم وجدانى فى النفس يجعل الإنسان يضيق بما يجد ،

ومن ذلك نسمع مَنْ يقول : (أنا ح أطق من جنابى) ، يعنى : نتيجة ما بداخله من الغيظ لا يتسع له جوفه ، وما دام الغيظ فوق تحمُّل النفس وسِعَتها فلا بُدَّ أن يشعر الإنسان بالضيق ، وأنه يكاد ينفجر .

لذلك يقول تعالى عن النار فى موضع آخر :﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ ﴾[الملك] تميّز يعنى : تكاد أبعاضها تنفصل بعضها عن بعض .

لكن ، لماذا تميَّز النار من الغيظ ؟ قالوا : لأن الكون كله مُسبِّح لله حامد شاكر لربه ؛ لذلك يُسَرُّ بالطائع ويحبه ، ويكره العاصى ، ألاَ ترى أن الوجود كله قد فرح لمولد النبى ﷺ ، فرح لمولده الجمادُ والنباتُ والحيوانُ واستبشر ، لأنه ﷺ جاء ليعيد للإنسان انسجامه مع الكون المخلوق له ، ويعدل الميزان .

ومع ذلك نرى من البشر العقلاء أصحاب الاختيار مَنْ يكفر ، لذلك تغتاظ النار من هؤلاء الذين شذُّوا عن منظومة التسبيح والتحميد ورَضُوا لأنفسهم أن يكونوا أدْنى من الجماد والنبات والحيوان ، ومن ذلك يقولون : نَبَا بهم المكان من كفرهم ، يعنى الأماكن من الأرض تُنكرهم وتتضايق من وجودهم عليها ، كما تفرح الأرض بالطائع وتحييه ؛ لأنه منسجم معها ، المكان والمكين ينتظمان فى منظومة التسبيح والطاعة .

لذلك يُنبِّهنا إلى هذه المسألة الإمام على ـ رضى الله عنه ـ فيقول : إذا مات المؤمن بكى عليه موضعان : موضع فى السماء ، وموضع فى الأرض . أما فى الأرض فموضع مُصلاَّه ؛ لأنه حُرِم من صلاته ، وأما موضعه فى السماء فمصعد عمله الطيب[1] .

---

(١) ذكره ابن كثير فى تفسيره (١٤٢/٤) وعزاه لابن أبى حاتم أن علياً قال : « إنه ليس من عبد إلا له مصلى فى الأرض ومصعد عمله من السماء ، وإن آل فرعون لم يكن لهم عمل صالح فى الأرض ولا عمل يصعد فى السماء » . وعن أنس بن مالك عن النبى ﷺ قال : « ما من عبد إلا وله فى السماء بابان : باب يخرج منه رزقه ، وباب يدخل منه عمله وكلامه ، فإذا مات فقداه وبكيا عليه » قال الهيثمى فى المجمع « رواه أبو يعلى ، وفيه موسى بن عبيدة الربذى ، وهو ضعيف » .

والحق - تبارك وتعالى - يُظهر لنا هذه الصورة فى قوله سبحانه : ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ [ق]

فالنار تتشوّق لأهلها كالذى يأكل ولا يشبع ، فمهما أُلْقِى فيها من العصاة تقول : ﴿ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ [ق]

ومعنى ﴿ زَفِيراً..﴿١٢﴾ ﴾ [الفرقان] النفَس الخارج . وفى موضع آخر يقول تعالى : ﴿ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ﴿٧﴾ ﴾[الملك] فذكر أن لها شهيقاً وزفيراً ، وهى فى المكان الضيق .

﴿ وَإِذَآ أُلْقُواْ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا[1] مُّقَرَّنِينَ[2] دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ ﴾

فجمع الله عليهم من العذاب ألواناً حتى يقول الواحد منهم لمجرد أن يرى العذاب :﴿ يَـٰلَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا ﴿٤٠﴾ ﴾[النبأ] وهنا يدعو بالويل والثبور ، يقول : يا ويلاه يا ثبوراه يعنى : يا هلاكى تعالَ احضر ، فهذا أوانك لتُخلِّصنى مما أنا فيه من العذاب ، فلن يُنجينى من العذاب إلا الهلاك ؛ لذلك يقولون : أشدّ من الموت الذى يطلب الموت على حدِّ قول الشاعر :

كَفَى بِكَ دَاءً أَنْ تَرَى الموْتَ شَافِياً وَحَسْبُ المنَايَا أَنْ يكُنَّ أَمَانِيَا[3]

ولك أن تتصور بشاعة العذاب الذى يجعل صاحبه يتمنى الموت ، ويدعو به لنفسه .

---

(١) قال عبد الله بن مسعود : إن جهنم لتضيق على الكافر كتضييق الزج على الرمح . ذكره ابن المبارك فى رقائقه (٢٩٩ - زوائد الزهد) وأورده القرطبى فى تفسيره (٦/٤٨٧١) .

(٢) مقرنين : مُكتَّفين . قاله أبو صالح . وقيل : مصفَّدين قد قرنت أيديهم إلى أعناقهم فى الأغلال . وقيل : قُرنوا مع الشياطين ، أى : قُرِن كل واحد منهم إلى شيطانه . [أورد هذه الأقوال القرطبى فى تفسيره (٦/٤٨٧١)] .

(٣) البيت للمتنبى (ديوانه ٤/٢٨١) وذكره شهاب الدين محمود الحلبى فى « صناعة الترسل » (ص ٢٥٢) فى شواهد حُسْن الابتداءات .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ لَّا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾ ﴾

يُوبِّخهم الحق - سبحانه وتعالى - ويُبكِّتهم : يا خيبتكم ويا ضياعكم ، لن ينفعكم أنْ تدعوا ثُبوراً واحداً ، بل ادعوا ثُبوراً وثبوراً وثبوراً ؛ لأنها مسألة لن تنتهى ، فسوف يُسْلمكم العذاب إلى عذاب ، حتى ينادوا : ﴿ يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [الزخرف] وهو عذاب متجدد : ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ .. ﴿٥٦﴾ ﴾ [النساء]

ثم يذكر الحق سبحانه المقابل ليكون ذلك أنْكَى لأهل الشر وأغْيظ لهم ، فيذكر بعد العذاب الثوابَ على الخير وعظَم الجزاء على الطاعة ، ومثل هذه المقابلات كثيرة فى كتاب الله ، كما فى قوله تعالى :﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ ﴾ [الانفطار]

ويقول سبحانه : ﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [التوبة]

وهنا بعد أنْ ذكر النار وما لها من شهيق وزفير ، يقول سبحانه :

﴿ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ ﴾

﴿ قُلْ ﴿١٥﴾ ﴾ [الفرقان] أمْر لرسول الله بأن يقول ، والمقول له هم الذين اعترضوا على نبوته ﷺ باعتراضات واهية من المعاصرين له ،

وكانوا يتخبّطون فى هذه المسائل تخبُّط مَنْ لا يعرف فيها حقيقة ، وإنما غرضه فقط أنْ يتعرّض لرسول الله فى أمر دعوته ، والتعرُّض لأىِّ نبىٍّ فى أمر دعوته من المعاصرين له أمر طبيعى ؛ لأن الرسل إنما يجيئون حين يستشرى الفساد .

وسبق أنْ قُلْنا : إن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ جعل فى كل نفس ملكةً تجعل الإنسان يفعل شيئاً ، ثم تأتى ملكة أخرى فيه لتلومه على ذلك ، حينئذ تكون المناعة فى ذات الإنسان ويُسمُّونها النفس اللوَّامة ، لكن قد تنطمس فيه هذه الملكة ، فتتعاون كل ملَكاته على الشر ، بحيث تكون النفس بكل ملَكاتها أمّارة بالسوء ، وهى أمَّارة بصيغة المبالغة لا آمرة أى : أنها أخذتْ هذا الأمر حِرْفةً لها .

كما لو رأيت رجلاً يَنْجُر فى قطعة من الخشب تقول له : ناجر ، فإنِ اتخذها حرفةً له ، لا يعمل إلا هى ، تقول له : نجار ، ومثله : خائط وخيّاط . فالمعنى : أمّارة يعنى : لم يَعُدْ لها عمل فى أن تردع عن الشر ، بل دائماً تُقوِّى نوازع الشر فى النفس ، وتتأصل فيها حتى تصير لها حرفة .

فماذا يكون الموقف إذن ؟

لا بُدَّ أنْ يجعل الحق سبحانه فى نفوس قوم آخرين ملَكة الخير ليواجهوا أصحاب هذه الأنفس الأمّارة بالسوء ، يواجهونهم بالنصح والإرشاد والموعظة ، ويصرفونهم عن الشر إلى الخير . فإذا ما فسد المجتمع كله ، لا نفسٌ مانعة ، ولا مجتمعٌ مانع ، فلا بُدَّ أنْ تتدخّل السماء برسول جديد .

ومن رحمة الله بالعالم أنه سبحانه ضمن لأمة محمد ﷺ أن تكون فيها النفس اللوامة ، وضمن لها أنْ يظل مجتمعها آمراً بالمعروف ،

ناهياً عن المنكر ؛ لـذلك لا حاجةَ لرسول بعـد رسول الله ﷺ . إذن : فالمناعة موجودة فى أمـة الإسلام ، ولو لم تكُنْ هذه المناعة موجودة فى النفس أولاً ، وفى المجـتمع ثانياً لتـدخلتْ السماء بعـد رسول الله برسول جديد ومعجزة جديدة ليعيد الخَلْق إلى رُشْدهم .

ولا شكَّ أن فى المجتمع طائفةً تنتفع بهذا الفساد ، ويعيشون فى ترف فى ظله ، فطبيعى ـ إذن ـ أنْ يدافعوا عنه ، وطبيعى أنْ يتصدَّوْا لدعـوة الرسول التى جـاءتْ لتعـدل ميزان الـمجتـمع ، وأنْ يقفـوا له بالمرصاد ؛ لأنه يهدِّد هذه النفعية ويقضى على مصلحتهم .

وإنْ كان الرسل السـابقون قد تعرَّضـوا لمثل هذا الاضطهاد ، فـقد تعرّض رسول الله ﷺ لأضعاف مـا تعرَّضوا له ؛ لأن اضطهاده ﷺ جاء مناسباً لضـخامة مهمتـه ، فقد جاءتْ الرسل قبله ، كُلٌّ إلى أمتـه خاصة فى زمن محـدد ، أمّا رسـالته ﷺ فقـد جاءت للناس كـافة ، تعمُّ كل الزمان وكل المكان إلى أن تقوم الساعة ، فـلا بُدَّ إذن أن تكون مهمته أصعب .

وهؤلاء الكبـراء الذين ينتفـعون بالفـساد فى المـجتـمع يظنون أن رسـول الله إذا لُوِّح له بالمـال والنعـيم يمكن أن يتنازل عن دعـوته ، ويتـرك لهم الساحـة ؛ لذلك اجتـمع صناديد قريش علـى رسول الله ، يُلوِّحون له بالمـال والجاه والسلطان ، ليصدُّوه عن الدعـوة ويصرفوه عنهـا ، هؤلاء الذين سمـاهم أستـاذنا الشيخ مـوسى : دستـة الشر ، وكـانوا اثنا عـشـر رجـلاً ، مـنهم : أبو البـخـتـري[1] ، وأبو جـهل ، وأبو سـفيـان ، والأسود بن المطلب ، وأمـية بن خلف ، والعـاص بن وائل ، وعتبـة بن ربيعة ، ومُنبِّه بـن الحجاج ، والوليد بن المـغيرة ،

(١) أبو البختـرى : اسمه العاص بن هشـام بن الحارث . قاله ابن إسحـاق . وقال ابن هشام : هو العاص بن هاشم . [السيرة النبوية ١/ ٢٦٤] .

والنضر بن الحارث ، وشيبة بن ربيعة ، ونُبيه بن الحجاج[١] .

لقد ذهب هؤلاء[٢] إلى سيدنا رسول الله يقولون : « نحن وفد قومك إليك ، جئنا لنقدِّم المعذرة حتى لا يلومنا أحد بعد ذلك ، فإنْ كنتَ تريد مالاً جمعنا لك الأموال ، وإنْ كنتَ تريد شرفاً سوَّدناك علينا ، وإن كنت تريد مُلْكاً ملّكناكَ علينا » .

وفَرْق بين المال والشرف : المال أن يكون الإنسان غنياً ، لكن ربما لا شرفَ له ، ولا مكانةَ بين الناس ، وهناك مَنْ له شرف وسيادة ، وليس له مال .

ونلحظ أنهم ارتقوْا فى مساومة رسول الله من المال إلى الشرف والسيادة ، ثم إلى الملْك . فماذا كان موقفه ﷺ ؟ كان موقفه هو الموقف الذى مهَّد الله له به ، حينما عرض عليه جبريل عليه السلام أن يجعل الله له جبال مكة ذهباً ، فقال ﷺ : « بل أشبع يوماً فأشكر ، وأجوع ثلاثة أيام فأتضرع »[٣] .

---

(١) ذكر ابن هشام فى السيرة النبوية (١/٢٦٤) أنهم تسعة نفر ، واستثنى ممن ذكرهم الشيخ : أمية بن خلف ، النضر بن الحارث .

هذا الوفد ذهبوا إلى أبى طالب وقالوا : يا أبا طالب ، إن ابن أخيك قد سبّ آلهتنا ، وعاب ديننا ، وسفَّه أحلامنا ، وضلَّل آباءنا ، فإما أن تكفّه عنا ، وإما أن تخلّى بيننا وبينه ، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه ، فنكفيكه فقال لهم أبو طالب قولاً رفيقاً ، وردهم رداً جميلاً ، فانصرفوا عنه ، ذكره ابن هشام فى السيرة النبوية (١/٢٦٥) وانظر موقفاً آخر (١/٢٩٥) .

(٢) هو : الوليد بن المغيرة فى واقعة أخرى أنه قال لرسول الله ﷺ : يا بن أخى إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً ، وإن كنت تريد به شرفاً سوّدناك علينا ، حتى لا نقطع أمراً دونك ، وإن كنت تريد به مُلْكاً ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذى يأتيك رئياً تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نُبرئك منه . [سيرة ابن هشام ١/٢٩٣ ، ٢٩٤] باختصار .

(٣) عن أبى أمامة قال النبى ﷺ : « عرض علىّ ربى ليجعل لى بطحاء مكة ذهباً ، قلت : لا يا رب ولكن أشبع يوماً وأجوع يوماً وقال ثلاثاً أو نحو هذا ، فإذا جعت تضرعت إليك وذكرتك ، وإذا شبعت شكرتك وحمدتك . أخرجه الترمذى فى سننه (٢٣٤٧) ، وأحمد فى مسنده (٥/٢٥٤) . قال الترمذى : حديث حسن .

وفى موقف آخر ، قال له جبريل : يُخيِّرك ربك أن تكون نبياً ملكاً ، أو نبياً عبداً ؟ فقال : « بل نبياً عبداً »[(١)]

والنبى مالك منهج السماء ، والملك الذى يملك السيطرة بحيث لا يستطيع أحد أن يقف فى وجهه ، مثل سليمان عليه السلام ، حيث آتاه الله مُلْكاً لا ينبغى لأحد من بعده ، ومع ذلك لم يكن هذا الملْك هو المطلوب فى ذاته ، بدليل أن سليمان ـ عليه السلام ـ مع ما أوتيه من الملْك كان لا يأكل إلا الخوشكار يعنى : الخبز الأسمر غير النقى (الردَّة) فى حين يأكل عبيده ومواليه الدقيق الفاخر النقى[(٢)]، فلم يكن سليمان يريد الملْك لذاته ، إنما ليقْوَى به على دعوته ، فلا يعارضه فيها أحد .

لذلك ، لما أرسلتْ إليه ملكة سبأ بهدية لتستميله بها وتَصْرفه عما يريد رَدّ عليها : ﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ (٣٦)﴾ [النمل]

لذلك جاءته صاغرة تقول :﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٤)﴾ [النمل]

إذن : مسألة المال هذه عُرِضَتْ على رسول الله قبل أن يقترحها كفار مكة ، فإذا كان ﷺ قد رفضه ممَّنْ يملكه ، فكيف يقبله ممَّنْ لا يملك شيئاً ؟ لذلك قال لهم : والله ما بى حاجة إلى ما تقولون ،

---

(١) أخرجه ابن المبارك فى الزهد (ص ٢٦٥) ، والطبرانى فى المعجم الكبير (١٠٦٨٦) ، قال الهيثمى فى مجمع الزوائد (٩/ ٢٠) : « فيه بقية بن الوليد وهو مدلس » . وعزاه للطبرانى فى الأوسط وقال (١٠/ ٣١٥) : « فيه سعدان بن الوليد ولم أعرفه ، وبقية رجاله رجال الصحيح » .

(٢) أخرج أحمد فى الزهد (ص ١٤١ طبعة دار الكتاب العربى ـ بيروت) عن عطاء رضى الله عنه قال : كان سليمان عليه السلام يعمل الخوص بيده ، ويأكل خبز الشعير ، ويطعم بنى إسرائيل الحوارى . وأورده السيوطى فى الدر المنثور (٧/ ١٨٩) فى تفسير آية ٣٥ ـ سورة ص . والحوارى هو الدقيق الأبيض النقى .

فلست طالب مال ، ولا مُلْك ، ولا شرف ، إنما أنا رسول الله أُرسلْتُ إليكم ، ومعى كتاب فيه منهجكم ، وأمرنى ربى أن أكون لكم بشيراً ونذيراً ، فإنْ جئتم على ما أحب فقد ضمنتم حظّ الدنيا والآخرة ، وإنْ رددتُمْ عليَّ قولى فإننى سأصبر إلى أن يحكم الله بيننا ، وهو خير الحاكمين[(١)] .

فلجئوا إلى عم النبى ﷺ ، لعله يستطيع أن يستميله ، فلما كلَّمه عمه قال قولته المشهورة : « والله لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى يسارى ، على أن أترك هذا الأمر ما تركتُه حتى يُظهِره الله أو أهلك دونه »[(٢)]

﴿ أَذَٰلِكَ ﴿١٥﴾ ﴾ [الفرقان] أى : ما أنتم فيه الآن من العذاب خير ، أم جنة الخلد التى وُعد المتقون ؟ احكموا أنتم فى هذه المسألة وسنرضى بحكمكم ، إنها إغاظة لأهل النار ، حيث جمع الله عليهم مقاساة العذاب مع النظر إلى أهل الجنة وما هم فيه من النعيم ، ولو كانت الأُولى وحدها لكانت كافية ، إنما هو فى العذاب ويأتيه أهل الجنة ليُبكّتوه : انظر ما فاتك من النعيم !!

وفيها أيضاً تقريع لهم ، فليس هناك وجه للمقارنة بين الجنة والنار ، فأنت مثلاً لا تقول : العسل خير أم الخل ؛ لأنه أمر معروف بداهة .

وسبق أنْ تكلّمنا عن الصراط ، ولماذا ضُرِب على مَتْن جهنم ، والجميع يمرون عليه ؛ لأن الله ـ تبارك وتعالى ـ يريد أنْ يجعل لك

---

(١) ذكره ابن هشام فى السيرة النبوية بنحو هذا (١/٢٩٦) .

(٢) أورده ابن هشام فى السيرة النبوية (١/٢٦٦) معزواً لابن إسحاق ، أن قريشاً قالوا لأبى طالب : يا أبا طالب ، إن لك سناً وشرفاً ومنزلة فينا ، وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا ، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وعيب آلهتنا حتى تكفه عنا ، أو ننازله وإياك فى ذلك ، حتى يهلك أحد الفريقين . فقال رسول الله ﷺ لعمه أبى طالب هذه المقالة .

من مرائى النار التى تمرُّ عليها فوق الصراط نعمة أخرى تُذكِّرك بالنجاة من النار قبل أنْ تباشر نعيم الجنة .

لذلك لا يمتن الله علينا بدخول الجنة فحسب ، إنما أيضاً بالنجاة من النار ، فيقول سبحانه : ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ..(١٨٥)﴾ [آل عمران]

فالحق - سبحانه وتعالى - يذكر لنا النار ، وأن من صفاتها كذا وكذا ، أما فى الآخرة فسوف نراها رأى العين ، كما قال سبحانه : ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ (٧)﴾[التكاثر] وذلك حين تكون على الصراط ، فتحمد الله على الإسلام الذى أنجاك من النار ، وأدخلك الجنة ، فكل نعمة منها أعظم من الأخرى .

وفى قوله تعالى : ﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ .. (١٥)﴾[الفرقان] كلمة خير فى اللغة تدور على معنيين : خير يقابله شَرٌّ ، وخير يقابله خير أعظم منه . كما جاء فى الحديث الشريف : « المؤمن القوى خير وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفى كُلٍّ خير »[1] فكلاهما فيه خير ، وإن زاد الخير فى المؤمن القوى ، وعادة ما تأتى (من) فى هذا الأسلوب : هذا خير من هذا .

أما الخير الذى يقابله شر ، فمثل قوله تعالى : ﴿أُوْلَـٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ (٧)﴾ [البينة]

والجنة كما نستعملها فى استعمالات الدنيا : هى المكان المليء بالأشجار والمزروعات التى تستر السائر فيها ، أو تستر صاحبها أنْ ينتقلَ منها إلى خارجها ؛ لأن بها كل متطلبات حياته ، بحيث يستغنى بها عن غيرها ، لذلك أردفها الحق - تبارك وتعالى - بقوله : ﴿الْخُلْدِ.. (١٥)﴾ [الفرقان]

---

(١) أخرجه أحمد بن حنبل فى مسنده (٢/٣٦٦ ، ٣٧٠) ومسلم فى صحيحه (٢٦٦٤) وابن ماجة فى سننه (٧٩) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

إذن : فالجنة التى تراها فى الدنيا مهما بلغت فليست هى جنة الخلد ؛ لأنها لابد إلى زوال ، فعُمرها من عُمْر دُنْياها ، كأنه سبحانه يقول لكل صاحب جنة فى الدنيا : لا تغترْ بجنتك ؛ لأنها ستؤول إلى زوال ، وأشدّ الغم لصاحب السرور أنْ يتيقن زواله ، كما قال الشاعر :

أَشَدُّ الغَمِّ عِنْدى فِى سُرُورٍ تَيَقَّنَ عَنْهُ صَاحِبُه انْتِقَالاَ

لذلك يُطمئن الله تعالى عباده المؤمنين بأن الجنة التى وعدهم بها هى جنة الخلد والبقاء ، حيث لا يفنى نعيمها ، ولا يُنغّص سرورها ، فلذّاتها دائمة ، لا مقطوعة ولا ممنوعة .

وقوله تعالى : ﴿ الَّتِى وُعِدَ الْمُتَّقُونَ (١٥) ﴾ [الفرقان] الوعد هنا من الله تعالى الذى يملك كل أسباب الوفاء ، والوَعْد بشارة بخير قبل مجيئه لتستعد لأن تكون من أهله ، ويقابله الإنذار ، وهو التهديد بشرٍّ قبل مجيئه لتتلافاه ، وتجتنب أسباب الوقوع فيه .

وكلمة (مُتَّق) الأصل فيها مَنْ جعل بينه وبين الشر وقاية ، كما يقول سبحانه : ﴿ فَاتَّقُوا النَّارَ (٢٤) ﴾ [البقرة] يعنى : اجعلوا بينكم وبينها وقاية .

ومن العجيب أن يقول سبحانه : ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ (١٩٤) ﴾ [البقرة] ويقول ﴿ فَاتَّقُوا النَّارَ (٢٤) ﴾ [البقرة] والمعنى : اجعلوا بينكم وبين صفات جلاله القهرية وقايةً ؛ لأنكم لا تتحمّلون صفات قَهْره ، والنار جُنْد من جنود الله فى صفات جلاله ، فكأنه تعالى قال : اتقوا جنود صفات الجلال من الله .

وقوله تعالى : ﴿ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً .. (١٥) ﴾ [الفرقان] أى : جزاءً لما قدَّموا ، وهذا المعنى واضح فى قوله تعالى : ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِى الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (٢٤) ﴾ [الحاقة] فهذا تعليلُ ما هم فيه من النعيم : أنهم كثيراً ما تَعبُوا ، واضطهدوا وعُذِّبوا ، وجزاء من عُذِّب فى ديننا أن نُسعده الآن فى الآخرة .

﴿وَمَصِيراً (١٥)﴾ [الفرقان] أى : يصيرون إليه ، إذن : لا تنظر إلى ما أنت فيه الآن ، لكن انظر إلى ما تصير إليه حَتْماً ، وتأمل وجودك فى الدنيا ، وأنه موقوت مظنون ، ووجودك فى الآخرة وأنه باقٍ دائم لا ينتهى ، لذلك يقولون : إياك أنْ تدخل مدخلاً لا تعرف كيفية الخروج منه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْداً مَّسْئُولاً (١٦)﴾

فى الآية السابقة قال سبحانه : ﴿جَنَّةُ الْخُلْدِ .. (١٥)﴾ [الفرقان] وهنا يقول ﴿خَالِدِينَ .. (١٦)﴾ [الفرقان] وهذه من المواضع التى يرى فيها السطحيون تكراراً فى كلام الله ، مع أن الفرق واضح بينهما ، فالخُلْد الأول للجنة ، أما الثانى فلأهلها ، بحيث لا تزول عنهم ولا يزولون هم عنها .

وقوله : ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ .. (١٦)﴾ [الفرقان] كأن امتياز الجنة أن يكون للذى دخلها ما يشاء ، وفى هذه المسألة بَحْث يجب أن نتنبه إليه ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ .. (١٦)﴾ [الفرقان] يعنى : إذا دخلتَ الجنة فلك فيها ما تشاء . إذن : لك فيها مشيئة من النعيم ، ولا تشاء إلا ما تعرف من النعيم المحدود ، أما الجنة ففيها ما لا عَيْن رأتْ ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

وهذا الوعد لا يتحقق للمؤمن إلا فى الجنة ، أما فى الدنيا فلا أحدَ ينال كل ما يشاء ـ حتى الأنبياء ـ ألاَ ترى أن نوحاً عليه السلام طلب من ربه نجاة ولده . فقال : ﴿إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي .. (٤٥)﴾ [هود] فلم يُجَبْ إلى ما يشاء .

ومحمد ﷺ ـ رغم كل المحاولات ـ لم يتمكن من هداية عمه أبى طالب ، وهذا لا يكون إلا فى الدنيا ، لذلك فاعلم أن الله تعالى حين يحجب عنك ما تشاء فى الدنيا إنما ليدخره لك كما يشاء فى الآخرة ، مع أن الكثيرين يظنون هذا حرماناً ، وحاشا لله تعالى أن يحرم عبده .

وفى قوله : ﴿ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ .. (١٦) ﴾ [الفرقان] عطاءات أخرى ، لكن ربك يعطيك على قَدْر معرفتك بالنعيم ، ويجعل عليك (كنترولاً) فأنت تطلب وربُّكَ يعطيك ، ويدخر لك ما هو أفضل مما أعطاك .

والمشيئة فى الأخرى ستكون بنفسيات وملَكات أخرى غير نفسيات وملَكات مشيئات الدنيا ، إنها فى الآخرة نفوس صفائية خالصة لا تشتهى غير الخير ، على خلاف ما نرى فى الدنيا من ملَكات تشتهى السوء ، لأن الملَكات هنا محكومة بحكم الجبر فى أشياء والاختيار فى أشياء : الجبر فى الأشياء التى لا تستطيع أن تتزحزح عنها كالمرض والموت مثلاً ، أما الاختيار ففى المسائل الأخرى .

ثم يقول سبحانه : ﴿ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولاً (١٦) ﴾ [الفرقان] الوعد ـ كما قلنا ـ البشارة بخير قبل أوانه . وبعض العلماء يرى أن وعداً هنا بمعنى حق ، لكن هل لأحد حق عند الله ؟

وفى موضع آخر يُسمِّيه تعالى جزاءً ، فهل هو وعد أم جزاء ؟ نقول : حينما شرع الحق سبحانه الوعد صار جزاءً ؛ لأن الحق ـ تبارك وتعالى ـ لا يرجع فى وعده ، ولا يحول شيء دون تحقيقه .

وكلمة ﴿ مَّسْئُولاً (١٦) ﴾ [الفرقان] مَن السائل هنا ؟ قالوا : الله تعالى علَّمنا أن نسأله ، واقرأ قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ .. (١٩٤) ﴾ [آل عمران] فقد سألناها نحن .

وكذلك سألتها الملائكة ، كما جاء فى قوله سبحانه على لسان الملائكة : ﴿ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ .. ﴿٨﴾ ﴾ [غافر]

فالجنة - إذن - مسئولة من أصحاب الشأن ، ومسئولة من الملائكة الذين يستغفرون لنا[1] .

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴿١٧﴾ ﴾

قوله : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ .. ﴿١٧﴾ ﴾ [الفرقان] الحشر : جَمْع الناس أجمعين من لَدُنْ آدم - عليه السلام - وإلى أنْ تقومَ الساعة فى مكان واحد ، ولغاية واحدة ، وإذا كنا الآن نضجّ من الزحام ونشكو من ضيق الأرض بأهلها ، ونحن فى جيل واحد ، فما بالك بموقف يجمع فيه كل الخلائق من آدم إلى قيام الساعة ؟

والعبادة : أن يطيع العابدُ أوامرَ معبوده ، فينبغى أن ننظر فى كل مَنَ له أمر نطيعه : أهو أمر من ذاته ؟ أم أمر مُبلَّغ من أعلى منه : رسول أو إله ؟ فإنْ كان الأمر من ذاته فعليك أن تنظر أهو مُبَاح أم يتعارض مع نصٍّ شرعى ؟ فإنْ كان مباحاً فلا بأسَ فى إطاعته ، أما إنْ كان مخالفاً للشرع فإنْ أطعْتَه فكأنك تعبده من دون الله .

---

(١) أخرج ابن أبى حاتم والبيهقى من طريق سعيد بن هلال عن محمد بن كعب القرظى فى قوله ﴿ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولًا ﴿١٦﴾ ﴾ [الفرقان] قال : إن الملائكة تسأل لهم ذلك فى قولهم ﴿ وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ .. ﴿٨﴾ ﴾ [غافر] قال سعيد : وسمعت أبا حازم يقول : إذا كان يوم القيامة قال المؤمنون : ربنا عملنا لك بالذى أمرتنا ، فانجز لنا ما وعدتنا ، فذلك قوله ﴿ وَعْدًا مَّسْئُولًا ﴿١٦﴾ ﴾ [الفرقان] . أورده السيوطى فى الدر المنثور (٦/٢٤١) .

إذن : حينما يأمرك الآمر بالصلاة أو الزكاة أو الصوم فأنت قبل أن تطيعه أطعتَ مَنْ حَمَّله هذه الأمانة ، والذين يطيعون مَنْ يأمرونهم بأشياء مخالفة لمنهج الله عبدوهم من دون الله ، وجعلوهم آلهة مُطاعين ، كما قال سبحانه فى الشياطين : ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ .. (١٢١)﴾ [الأنعام] وآخرون عبدوا الطاغوت ، أو عبدوا الشمس ، أو القمر ، أو النجوم ، أو الأصنام والجماد .

ومعلوم أن عبادة هذه الجمادات عبادة باطلة خاطئة ، فالعبادة إطاعة أمر ، وهل للجمادات أمر لأحد ؟ إنما العبادة إنْ صَحَّتْ بهذا المعنى فتكون لمَنْ يملك أمراً أو سلطة زمنية من الرهبان ، أو من الشياطين ، أو الملائكة ، أو من عيسى عليه السلام حيث قال البعض بألوهيته أو العزير الخ . ودخلت الجمادات مع هؤلاء على سبيل العموم .

لذلك يقول تعالى : ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ .. (١٧)﴾ [الفرقان] يعنى : يجمع العابد على الضلال والمعبود على الضلال فى مكان واحد معاً ، لماذا ؟ لأن العابد إذا وجد نفسه فى العذاب ربما انتظر معبوده أنْ ينقذه من العذاب ، لكن ها هو يسبقه إلى النار ويقطع عنه كلَّ أمل فى النجاة .

وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَـٰؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ (١٧)﴾ [الفرقان]

والخطاب هنا مُوجَّه لمن يعقل منهم ، ولا مانعَ أن يكون للجميع ، فنحن نتحدث عن القانون الذى نعرفه ، وقد بيَّن لنا الحق ـ تبارك وتعالى ـ أن لكل شىء لغةً ، فلماذا نستبعد أن يكون الخطاب هنا للعاقل ولغير العاقل ، بدليل قوله تعالى : ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ

بِحَمْدِهِ وَلَـٰكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. (٤٤) ﴾ [الإسراء]

وقد قال سليمان عليه السلام وهو ممَّن فقه التسبيح : ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِي[1] أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ .. (١٥) ﴾ [الأحقاف] لما سمع النملة تُحذِّر قومها : ﴿ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ .. (١٨) ﴾ [النمل] فتبسَّم سليمان ـ عليه السلام ـ لما سمع من النملة وسمَّاه قَوْلاً ، وفى هذا رَدٌّ على مَنْ يقول : إن التسبيح هنا من النملة تسبيحُ حال ، لا تسبيح مقال .

وهو قوْل مخالف لنصِّ القرآن الذى قال : ﴿ وَلَـٰكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. (٤٤) ﴾ [الإسراء] فقد حكم الحق سبحانه بأنك لا تفقه هذا التسبيح ، فإن قُلْتَ : هو تسبيح دلالة فقد فقهته ، وقد حكم سبحانه بعدم فقْهك له إلا إذا عرّفك الله تعالى ، وأطلعك على لغات هذه المخلوقات .

ولماذا نستبعد هذه المسألة والعلم الحديث يُقرِّر الآن أن لكل أمة من أمم الموجودات لغتها الخاصة ، وألسْنَا نتحدث الآن فيما بيننا بلغة غير منطوقة ، وهى لغة الإشارات التى يتفاهم بها البحارة مثلاً ؟

فالحق ـ سبحانه وتعالى ـ يسأل المُعبودين : ﴿ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَـٰؤُلاءِ .. (١٧) ﴾ [الفرقان] والله يعلم إنْ كانوا أضلُّوهم أم لا ؛ لذلك أجاب عيسى ـ عليه السلام ـ على مثل هذا السؤال فى قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَـٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي .. (١١٦) ﴾ [المائدة]

وسؤال الله للمعبودين تقريع للعابدين أمام مَنْ عبدوهم ، ولو أن

---

(١) أوزعه أن يفعل كذا : دفعه وحثَّه وأغراه ، أو ألهمه وأرشده ، قال تعالى : ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ .. (١٥) ﴾ [الأحقاف] أى : ألهمنى شكرك وادفعنى إليه وحبِّبْه إلىَّ [القاموس القويم ٢/٣٣٤] .

عبادتهم بحقٍّ لكان المعبودون دافعوا عن هؤلاء أمام الله ؛ لذلك أجاب عيسى عليه السلام : ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ .. (١١٧)﴾ [المائدة]

أما الآخرون فقالوا : ما أضللناهم ، بل هم ضلُّوا السبيل .

وكلمة ﴿عِبَادِي .. (١٧)﴾ [الفرقان] سبق أن قلنا إن (عبد) تُجمع على (عباد) و (عبيد) ، وعبد يعنى أنه خاضع لأمر السيد ، وليس له تصرُّف من ذاته ، إنْ نظرتَ هذه النظرة فكل خَلْق الله عبيد ؛ لأن هناك أشياء لا يخرجون فيها عن مراد الله تعالى كميلاده على شكل خاص أو مرضه أو وفاته .

لذلك نقول للذين أَلِفُوا مخالفة أوامر الله والتمرد عليه سبحانه : قد تتمردون على الإيمان به فتكفروا ، وقد تتمردون على الإيمان برسوله فتكذِّبوا ، وقد تتمردون على حُكْم من الأحكام فتخالفوه .

إذن : لكم جَرْأة على المخالفة وإلْف للتمرد ، وما دام لك دُرْبة على ذلك ، فعليك أنْ تتمرد أيضاً عند المرض وتقول : لن أمرض وتتمرّد على الموت فلا تموت ، لكن هيهات ، فهذه مسائل ، الكل فيها عبيد لله مقهورون لإرادته سبحانه ، المؤمن والكافر ، والطائع والعاصى .

وهناك أمور أخرى جعلها الله بالاختيار ، فالذين سبقتْ لهم من الله الحسنى ، وأُلْهموا التوفيق يتنازلون عن اختيارهم لاختيار ربهم ومراده ، فيكونون عبيداً لله فى كل الأمور القهريات وغير القهريات ، وهؤلاء هم الذين يستحقون أن يكونوا عباداً لله .

فالعباد ـ إذن ـ يشتركون مع العبيد فى القهريات ، ويتميزون عنهم بتنازلهم عن مرادهم لمراد ربهم ، وعن اختيارهم لاختياره عزَّ وجلَّ ؛ لذلك سمّاهم عباداً ، كما جاء فى قوله سبحانه :

﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا[1] وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا (٦٣) ﴾ [الفرقان]

والاستفهام فى قوله سبحانه : ﴿ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي .. (١٧) ﴾ [الفرقان] يقول فيه بعض غير المؤهَّلين للفَهْم عن الله : أما كان يقول : أأضللتم عبادى ؟ ونقول لهؤلاء : ليس لديكم الملكَة اللغوية لفَهْم القرآن ، فأنت تستفهم عن الفعل إذا لم يكن موجوداً أمامك ، تقول : أبنيتَ البيت الذى أخبرتنى أنك ستبنيه ؟ فيخبرك : بنيتُه أو لم أبْنه ، أمَّا حين تقول : أبنيتَ هذا البيت ؟ فالسؤال ليس عن البناء ، إنما عن فاعله ، أنت أم غيرك ؟ لأن البناء قائم أمامك .

إذن : فَرْقٌ بين السؤال عن الحَدث ، والسؤال عن فاعل الحدث ، والضلال هنا موجود فعلاً ، فالسؤال عن الفاعل ﴿ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ (١٧) ﴾ [الفرقان]

وسمَّاهم عباداً هنا مع أنهم ضالون ؛ لأن الكلام فى الآخرة ، حيث لم يَعُدْ لأحد اختيار ، الاختيار كان فى الدنيا وعليه ميَّزنا بين العبيد والعباد ، أما فى الآخرة فالجميع عبيد والجميع عباد ، فقد زال ما يُميِّزهم ؛ لأنهم جميعاً مقهورون لا اختيارَ لأحد منهم .

﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا (١٨) ﴾

---

(١) المشى هوناً : بالسكينة والوقار . قاله عكرمة ومجاهد فيما نقله عنهما ابن منظور فى [لسان العرب ـ مادة : هون] .

كلمة (سبحان) أى : تنزيهاً لله تعالى فى ذاته عن مشابهة الذوات ، وتنزيهاً لله تعالى فى صفاته وأفعاله عن مشابهة الصفات والأفعال ، فلله سَمْع ولك سمع ، ولله وجود ولك وجود ، ولله حياة ولك حياة ، لكن أحياتك كحياة الله ؟ الله جبار وأنت قد تكون جباراً ، الله غنى وأنت قد تكون غنياً ، فهل غِنَاك كغِنَى الله ؟ ولله تعالى فِعْل ولك فعل ، فهل فِعْلك كفِعْل الله ؟

إذن : هناك فَرْق بين الصفات الذاتية والصفات الموهوبة التى يقبضها واهبها إنْ شاء .

وقد تُقال سبحان الله ويُقصَد بها التعجب ، فحين تسمع كلاماً عجيباً تقول : سبحان الله يعنى : أنا أنزه أن يكون هذا الكلام حدث .

لذلك يقولون هنا : ﴿ سُبْحَانَكَ .. (١٨) ﴾ [الفرقان] يعنى : عجيبة أننا نضل ، كيف ونحن نعبدك نجعل الآخرين يعبدوننا ، والمعنى : أن هذا لا يصح منَّا ، كيف ونحن ندعو الناس إلى عبادتك ، وليس من المعقول أننا ندعوهم إلى عبادتك ونتحوّل نحن لكى يعبدونا : ﴿ سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ .. (١٨) ﴾ [الفرقان]

فأنت وليُّنا الذى نتقرّب إليه ، وقد بعثْتنا لمهمة من المهمات ، ولابُدَّ أن صواب اختيارك لنا يمنعنا أن نفعل هذا ، وإلا ما كُنا أمناء على هذه المهمة . فسبحانك : تنزيهاً لك أن تختار مَنْ ليس جديراً بالمهمة ، فيأخذ الأمر منك لنفسه .

ومعنى : ﴿ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا .. (١٨) ﴾ [الفرقان] نفى الانبغاء ، نقول : ما ينبغى لفلان أن يفعل كذا ، كما قال تعالى فى حق رسوله ﷺ : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ .. (٦٩) ﴾ [يس] والشعر مَلَكَة وموهبة بيان أدائية ، وكان العرب يتفاضلون بهذه الموهبة ، وإنْ

نبغ فيهم شاعر افتخروا به ورفع من شأنهم ، ولقد توفرت لرسول الله هذه الملَكة .

ولو كان ﷺ شاعراً لكان شاعراً مُبْدعاً ، لكنه ﷺ ما ينبغى له ذلك ؛ لأن الشعر مبنىٌّ على التخيُّل ؛ لذلك أبعده الله عن الشعر حتى لا يظن القوم أن ما يأتى به محمد من القرآن تخيلات شاعر ، فلم تكُنْ طبيعة رسول الله جامدة لا تصلح للشعر ، إنما كان ﷺ ذا إحساس مُرْهَفٍ ، ولو قُدِّر له أنْ يكون شاعراً لكان عظيماً .

وقد قال الحق سبحانه وتعالى عن الشعراء :

﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (٢٢٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لاَ يَفْعَلُونَ (٢٢٦) ﴾ [الشعراء]

وقالوا عن الشعر : أعْذبه أكذبُه ، لذلك لم يدخل رسول الله طِوَال حياته هذا المجال .

إذن : فقولهم ﴿ سُبْحَانَكَ .. (١٨) ﴾ [الفرقان] ردٌّ على ﴿ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَـٰؤُلاَءِ .. (١٧) ﴾ [الفرقان] ثم يذكر الدليل على ﴿ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ (١٧) ﴾ [الفرقان] فى قوله : ﴿ وَلَـٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا (١٨) ﴾ [الفرقان] فلما متَّعتهم يا ربّ أترفهم النعيم ، وشغلتْهم النعمة عن المنعِم ، فانحرفوا عن الجادَّة .

والآية تنبه المؤمن ألاّ يَأْسَى على نعيم فاته ، فربما فتنك هذا النعيم وصرفك عن المنعِم عزَّ وجل ، فمن الخير ـ إذن ـ أنْ يمنعه الله عنك ؛ لأنك لا تضمن نفسك حال النعمة .

وقوله تعالى :﴿ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ .. (١٨) ﴾ [الفرقان] أى : نسُوا المُنْعِم ، وحَقُّ النعمة ألاَّ تُنَسِى المنعم ؛ لذلك سبق أنْ قُلْنا : إن

الصحيح إنْ كان فى نعمة العافية من المنعم سبحانه ، فالمريض الذى حُرِم منها ليس فى نعمة المنعِم ، إنما فى صحبته ومعيته .

ومن هنا لما مرض أحد العارفين بالله كان يغضب إذا دُعِى له بالشفاء ، ويقول لعائده : لا تقطع عليَّ أُنْسى بربى .

وجاء فى الحديث القدسى : « يا ابن آدم ، مرضتُ فلم تَعُدْنى ، قال : وكيف أعودُكَ وأنت ربُّ العالمين ، قال : أما علمتَ أن عبدى فلاناً مرض فلم تَعُدْهُ ، أما إنك لو عُدته لوجدتنى عنده »(١)

إذن : حينما يعلم المريض أنه فى معية الله يستحى أن يجزع ومعنى ﴿قَوْمًا بُورًا ﴿١٨﴾﴾ [الفرقان] البُور : الهلاك ، ومنه أرض بُور ، وهى التى لا تُنبت .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾﴾

بعد أن سألهم الحق ـ تبارك وتعالى ـ وهو أعلم بهم : ﴿أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰؤُلَاءِ .. ﴿١٧﴾﴾ [الفرقان] وأجابوا : ﴿وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴿١٨﴾﴾ [الفرقان] وقد هزَّهم هذا السؤال هزَّة عنيفة أراد سبحانه أنْ يُبرئهم فقال ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ .. ﴿١٩﴾﴾ [الفرقان] يعنى : أنا أعرف أنكم قلتم الحق ، لكنهم كذَّبوكم بما تقولون ﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا .. ﴿١٩﴾﴾ [الفرقان]

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٥٦٩) كتاب البر والصلة ـ من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

فالتفت إليهم . والصرف : أن تدفع بذاتك عن ذاتك الشر إنْ تعرّض به أحد لك ، والنصر : إذا لم تستطع أنت أنْ تدفع عن نفسك فيأتى مَنْ يدفع عنك .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾﴾ [الفرقان] وقد يسأل سائل : لماذا يخاطب الحق سبحانه أولياءه بهذا العنف ؟ قالوا : فى الواقع ليس هذا العنف نَهْراً لأولياء الله ، إنما زجر ولَفْتُ نظر للآخرين ، فإذا كان الحق سبحانه يخاطب أهل طاعته بهذا العنف ، فما بالك بأعدائه والخارجين على منهجه ؟

إنهم حين يسمعون هذا الخطاب لا بُدَّ أن يقولوا : مع أن الله اصطفاهم وقرّبهم لم يمنعه ذلك أنْ يُوجِّههم إلى الحق وينهرهم .

ألم يقل سبحانه عن حبيبه ونبيه محمد ﷺ : ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ[1] ﴿٤٦﴾﴾ [الحاقة] فالحق - تبارك وتعالى - يتحدث عن نبيه بهذه الطريقة ليخيف الآخرين ويرهبهم .

والظلم : أخْذُ حقِّ الغير ، وما دام أن الله تعالى حرَّم ذلك ، فهذا يعنى أن الله يريد أنْ يتمتع كل واحد بثمرة مجهوده ؛ لأن أمور الحياة لا تستقيم إنْ أخذ الإنسان ثمرةَ غيره ، وتعوَّد أن يعيش على دماء الآخرين وعَرقهم ؛ لذلك نرى فى المجتمع بعض المجرمين والمنحرفين (الفاقدين) الذين يعيشون على عَرق الآخرين وهم لا يعرقون .

---

(١) الوتين : عرْق فى القلب إذا قُطع مات صاحبه وهو الشريان الرئيسى الهام الذى يغذى الجسم بالدم النقى الخارج منَ القلب ، قال تعالى : ﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الحاقة] أى : أمتناه عاجلاً وأهلكناه سريعاً إذا خالف أمرنا أى مخالفة . [القاموس القويم ٢/٣١٩] .

وحين يُؤخَذ الحق من صاحبه ، ثم لا يجد مَنْ ينصفه ، ويعيد له حقه المسلوب يميل إلى الكسل ويزهَد فى العمل وبذْل المجهود ، ومعلوم أن العمل لا تعود ثمرته على صاحبه فحسب ، وإنما على الآخرين حيث يُيسِّر للناس مصالحهم ، ويُسهِم بحركته فى حركة المجتمع .

وسبق أن قلنا : إن الفرْق بين المؤمن وغيره فى العمل أن الكافر يعمل لنفسه ، أمّا المؤمن فيعمل لما يكفيه ، ويجهد ليساعد الآخرين ؛ لذلك عليك أن تعمل على قَدْر طاقتك لا على قَدْر حاجتك ، فحاجتك تتوفر لك مما أتيته بطاقتك ، ثم يكون الباقى عندك لمن لا يقدر على العمل وليس لديه طاقة .

والمعركة التى تدور بين الكفار والمؤمنين وعلى رأسهم الرسل ، اللهُ تعالى يفصل فيها ، يقول : لا يستطيع أحد من خَلْقى أن يظلمنى ، لأن المظلوم فيه نقطة ضعف ، والظالم فيه نقطة قوة ؛ لذلك يقول سبحانه : ﴿ وَمَا ظَلَمُونَا .. (٥٧) ﴾ [البقرة] أى : لا يقدر أحد على ذلك ﴿ وَلَـٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٥٧) ﴾ [البقرة] ، فظُلْمهم لأنفسهم ، لا للمؤمنين .

فالحق - تبارك وتعالى - يغَارُ على عبده أن يظلم نفسه ؛ لأن للإنسان ملكات متعددة : ملكة الاشتهاء العاجل وملكة التأنِّى الآجل . فالتلميذ المجتهد اختار الراحة الآجلة ، والكسول اختار الراحة العاجلة ، فكلاهما مُحبٌّ لنفسه يسعى إلى راحتها ، لكن فَرْق بين حُبٍّ واعٍ ، وحُبٍّ أحمق ، فالأول يتحمل المشاق لينال فى نهاية الأمر أعلى المراتب ، والآخر تستهويه الراحة العاجلة ، وسرعان ما يجد نفسه صُعْلوكاً فى المجتمع ، فمتعة الأول أبقى وأطول ، ومتعة الآخر سريعة منتهية .

هذه قاعدة عامة تُقال فى عمل الدنيا ، وتُقال فى عمل الآخرة ، فالحق ـ تبارك وتعالى ـ خلق الإنسان ويحب منه ألاَّ تظلم ملكَة فى النفس ملكةً أخرى ، وألا تظلم ملكة العجلة ملكة التأنِّى ؛ لأن ملكة العجلة تأخذ خيراً عاجلاً منتهياً ، أما ملكة التأنى فتنال الخير الآجل الباقى غير المنتهى .

إذن : فالله تعالى يريد لصنعته ، سواء المؤمن أو الكافر ألاّ يظلم نفسه ؛ لأن الله كرَّمه وخلق الكون كله لخدمته وسخَّره من أجله ؛ لذلك يقول له : إنك لا تستطيع أن تظلمنى ولا تظلم المؤمنين ، إنما تظلم نفسك ، فربٌّ يعاقب الإنسان على أنه ظلم نفسه فهو نِعْم الربّ .

لذلك جاء فى الحديث القدسى : « يا ابن آدم ، أنا لك مُحبٌّ ـ بدليل أننى أعاقبك إذا ظلمتَ نفسك ـ فبحقِّى عليك كُنْ لى مُحباً »[1] .

وحين يُضخِّم الحق ـ سبحانه وتعالى ـ العقوبة : ﴿وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾﴾ [الفرقان] إنما ليُنفِّر عباده منها ، ويبتعد بهم عن أسبابها ، فلا تقع .

وكثيراً ما يعترض أعداء الإسلام على قوله تعالى : ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ..﴿٢٥٦﴾﴾ [البقرة] يقولون : فلماذا تقتلون مَنْ يرتدّ عن الإسلام ؟ وهؤلاء لا يَدْرُون أن هذا الحكم نضعه عقبةً فى طريق كل مَنْ يريد الإيمان ، وتنبيه له حتى يفكر جيداً فيما هو مُقبل عليه إن اختار الإسلام ، فلا يدخله إلا بعد رضاً واقتناع تام ، وحين يعلم هذا الحكم يحتاطُ للأمر فيدخل عليه بمَحْض اختياره وتعقّله .

فالإسلام لا يريد كثرة مُتسرِّعة ، إنما يريد ترويّاً وتعقّلاً وتدبراً ،

---

(١) أورده الإمام أبو حامد الغزالى فى « إحياء علوم الدين » (٤/٢٩٦) قال : « فى بعض الكتب : عبدى أنا وحقِّك لك محب ، فبحقى عليك كن لى محباً » .

وهذا يُحسب للإسلام لا عليه ، فهو سلعة غالية يثق صاحبها فى جَوْدتها ، كما تذهب إلى تاجر القماش مثلاً ، فيعرض عليك بضاعته ويُظهر لك جودتها ويختبرها أمامك ، لماذا ؟ لأنه واثق من جودة بضاعته .

ومن ذلك ما خُتِمَتْ به كثير من آيات الذكر الحكيم مثل : تفكَّرون ، تعقلون ، تذكَّرون . وهذا دليل على أنك لو تعقلتَ ، لو تدبرتَ ، لو تذكرتَ لاهتديت إلى ما جاء به القرآن .

إذن : فقوله تعالى : ﴿وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾﴾ [الفرقان] كان الذى يؤخذ على القرآن ، أو على الحق سبحانه أن الظالم حين يظلم هو يُعاقب لنفسه حيث أُخذ منه شىء ، لكن الحق سبحانه ما أُخذ منه شىء ، إنما هو سبحانه بصفات الكمال فيه سبحانه خلقكم ، فما ظلمتم إلا أنفسكم .

ثم يقول الحق سبحانه عن رسله وأنبيائه :

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾﴾

سبق أن تكلمنا فى قوله تعالى : ﴿وَقَالُوا مَا لِهَـٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ .. ﴿٧﴾﴾ [الفرقان] وهذه صفة كل الرسل ، وليس محمد بِدْعاً فى ذلك ، وإذا كان أكْل الطعام يقدح فى كونه ﷺ رسولاً ، وكانوا يريدون رسولاً لا يأكل الطعام ، فنقول : بالله إذا كان أكْل الطعام منعه عندكم أن يكون رسولاً ، فكيف تقولون لمن أكل

الطعام أنه إله ؟ كيف وأنتم ما رضيتم به رسولاً ؟

وقد جعل الحق ـ تبارك وتعالى ـ الرسل يأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق ؛ لأن الرسول يجب أن يكون قدوة وأُسْوة فى كل شىء للخَلْق ، ولذلك كان رسول الله على أقلِّ حالات الكون المادية من ناحية أمور الدنيا من أَكْل وشُرْب ولباس ، ذلك ليكون أُسْوة للناس ، وكذلك نجده ﷺ حريصاً على أن يكون أهل بيته مثله ، لذلك لم يجعل لهم نصيباً فى الزكاة التى يأخذها أمثالهم من الفقراء .

ويقول ﷺ : « إنَّا معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة »[1] .

ومَنْ كان عليه دَيْن من المسلمين تحمّله عنه رسول الله ، وهذا كله إنْ دلَّ فإنما يدل على أنه ﷺ واثق من جزاء أُخْراه ، فلا يُحبّ أن يناله منه شىء فى الدنيا .

لذلك قُلْنا : لو نظرتَ فى مبادىء الحق ومبادىء الباطل أمامك فى الدنيا لوجدتَ أن مبدأ الباطل يدفع ثمنه أولاً ، فمثلاً لكى تكون شيوعياً لا بُدَّ أن تأخذ الثمن أولاً ، أما مبدأ الحق فأنت تدفع الثمن مُقدّماً : تتعب وتُظلم وتُعذَّب وتجوع وتتشرد ، وتخرج من أهلك ومن مالك ، ثم تنتظر الجزاء فى الآخرة . وبهذا المقياس تستطيع أنْ تُفرِّق بين الحق والباطل .

وقوله تعالى : ﴿ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ .. (٢٠) ﴾ [الفرقان] أى : يرتادونها لقضاء مصالحهم وشراء حاجياتهم ، دليلٌ على تواضعهم وعدم تكبُّرهم على مثل هذه الأعمال ؛ لذلك كان سيدنا رسول الله

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٢/٤٦٣) بلفظ : « إنا معشر الأنبياء لا نورث ما تركت بعد مؤنة عاملى ونفقة نسائى صدقة » من حديث أبى هريرة . وأخرجه البخارى فى صحيحه (٤٠٣٣) كتاب المغازى من حديث عمر بن الخطاب ، وكذا مسلم فى صحيحه ـ كتاب الجهاد .

يحمل حاجته بنفسه ، فإنْ عرض عليه أحدُ صحابته أنْ يحملها عنه يقول ﷺ : « صاحب الشيء أحقُّ بحمله »(١) .

ومعنى : ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ .. (٢٠)﴾ [الفرقان] فأيّ بعض فتنة لأيِّ بعض ؟ كما في قوله تعالى : ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ .. (٣٢)﴾ [الزخرف] أيُّ بعض مرفوع ، وأيّ بعض مرفوع عليه ؟

نلاحظ في مثل هذه المسائل أن الناس لا تنظر إلا إلى زاوية واحدة : أن هذا غنيٌّ وهذا فقير ، لكنهم لو أخذوا في المفاضلة بكل جوانب النفس الإنسانية لوجدوا أن في كل إنسان موهبةً خَصّه الله بها ، فكلٌّ منّا عنده مَيْزةٌ ليست عند أخيه ؛ ذلك ليتكاتف الناس ويتكامل الخَلْق ؛ لأن العالم لو كان نسخة واحدة مكررة ما احتاجَ أحدٌ لأحد ، وما سأل أحد عن أحد ، أمّا حين تتعدد المواهب فيكون عندك ما ليس عندي ، فيترابط المجتمع ترابط الحاجة لا ترابط التفضل .

ولو تصورنا الناس جميعاً تخرجوا في الجُامعة وأصبحوا (دكاترة) فمَنْ يكنس الشارع ؟ ساعتها سيتطوع أحدنا يوماً لهذه المهمة ، إذن : تصبح الحاجة بنت تطوُّع وتفضُّل ، والتفضُّل لا يُلزِم أحداً بعمل ، فقد تتعطل المصالح . أمّا حين تدعوك الحاجة فأنت الذي تُسرع إلى العمل وتبحث عنه .

ألاَ ترى أصحاب المهن الشاقة يخرجون في الصباح يبحثون عن

---

(١) أورده الهيثمي في مجمع الزوائد (١٢٢/٥) من حديث أبي هريرة وقال : « رواه أبو يعلى والطبراني في الأوسط وفيه يوسف بن زياد البصري وهو ضعيف » . قال العجلوني في كشف الخفاء (٢٥/٢) : « ذكره القاضي عياض في الشفاء بدون عَزْو وهو ضعيف ، بل بالغ ابن الجوزي فعدّه في الموضوعات » وخطّأه الملا على القاري في « الأسرار المرفوعة » (حديث ٥٥٣) .

عمل ، ويغضب الواحد منهم إذا لم يجد فرصة عمل فى يومه مع ما سيتحمله من آلام ومشاق ، لماذا ؟ إنها الحاجة .

فالعامل الذى يعمل فى المجارى مثلاً ويتحمَّل أذاها هو فى قدرته على نفسه ورضاه بقدَر الله فيه أفضل منِّى أنا فى هذه المسألة ، لأننى لا أقدر على هذا العمل وهو يقدر ، ولو ترك الله مثل هذه الأعمال للتفضّل ما أقدم عليها أحد ، إذن : التسخيرات من الحق سبحانه وتعالى لحكمة .

ومثل هذه الأعمال الشاقة أو التى تؤذى العامل يعدُّها البعض أعمالاً حقيرة ، وهذا خطأ ، فأىُّ عمل يُصلح المجتمع لا يُعَدُّ حقيراً ، فلا يوجد عمل حقير أبداً ، وإنما يوجد عامل حقير .

فمعنى : ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً .. (٢٠) ﴾ [الفرقان] كل بعض منا فتنة للآخر ، فالغنىُّ فتنةٌ للفقير ، والفقير فتنة للغنى .. إلخ فحين يتعالى الغنى على الفقير ويستذلّه فالفقير هنا فتنة للغنى ، وحين يحقد الفقير على الغنى ويحسده ، فالغنىّ هنا فتنة للفقير ، وهكذا الصحيح فتنة للمريض ، والرسل فتنة لمن كذّبوهم ، والكفار فتنة للرسل .

والناس يفرون من الفتنة فى ذاتها ، وهذا لا يصح ؛ لأن الفتنة تعنى الاختبار ، فالذى ينبغى أن نفر منه نتيجة الفتنة ، لا الفتنة ذاتها ، فالامتحان فتنة للطلاب ، مَنْ ينجح فالفتنة له خَيْر ومَنْ يخفق فالفتنة فى حَقِّه شَرٌّ . إذن : الفتنة فى ذاتها غير مذمومة .

لذلك تُؤخَذ الفتنة من فتنة الذهب حين يُصْهر ، ومعلوم أن الذهَب أفضل المعادن ، وإنْ وُجد ما هو أنفس منه ، لماذا ؟ لأن من مَيْزاته أنه لا يتأكسد ولا يتفاعل مع غيره ، وهو كذلك سهل السَّبْك ؛ لذلك

يقولون : المعدن النفيس كالأخيار بَطِىءٌ كَسْره ، سريع جَبْره . فمثلاً حين يتكسر الذهب يسهل إعادته وتصنيعه على خلاف الزجاج مثلاً .

إذن : الفتنة اختبار ، الماهر مَنْ يفوز فيه ، فإنْ كان غنياً كان شاكراً مُؤدِّياً لحقِّ الغنى مُتواضعاً يبحث عن الفقراء ويعطف عليهم ، والفقير هو العاجز عن الكسب ، لا الفقير الذى احترف البلطجة وأكْل أموال الناس بالباطل .

ولما كانت الفتنة تقتضى صَبْراً من المفتون ، قال سبحانه : ﴿ أَتَصْبِرُونَ .. ﴿٢٠﴾ ﴾ [الفرقان] فكل فتنة تحتاج إلى صبر ، فهل تصبرون عليها ؟

ولأهمية الصبر يقول تعالى فى سورة العصر : ﴿ وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ ﴾ [العصر] يعنى : مُطلَق الإنسان فى خُسْر لا ينجيه منه إلاّ أنْ يتصف بهذه الصفات : ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾ ﴾ [العصر]

وتُختم الآية بقوله سبحانه : ﴿ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً ﴿٢٠﴾ ﴾ [الفرقان] لينبهنا الحق سبحانه أن كل حركة من حركاتكم فى الفتنة مُبْصَرة لنا ، وبصرنا للأعمال ليس لمجرد العلم ، إنما لنُرتِّب على الأعمال جزاءً على وَفْقها .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾

واللقاء : يعنى البعث ، وقد آمنا بالله غَـيْباً ، وفى الآخرة نؤمن به تعالى مَشْهداً ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ .. (١٦)﴾ [غافر] حتى مَنْ لم يؤمن فى الدنيا سيؤمن فى الآخرة .

لذلك يقـول سبحـانه فى موضـع آخر : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩)﴾ [النور]

ويا ليتـه جاء فلم يجـد عمله ، المصـيبة أنـه وجد عمله كـاملاً ، ووجد الله تعـالى يحاسـبه ويُجـازيه ، ولم يكن هذا كله على باله فى الدنيا ؛ لذلك يُفَاجأ به الآن .

وقوله : ﴿لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا .. (٢١)﴾ [الفرقان] يعنى : لا ينتظرونه ولا يؤمنون به ؛ لذلك لم يسـتـعدوا له ، لمـاذا ؟ لأنهم آثروا عـافيـة العاجلة على عـافية الآجلة ، ورأوْا أمامهم شـهواتٍ ومُتَعـاً لم يصبروا عليها ، وغفلوا عن الغاية الأخيرة .

مـا هو اللقـاء ؟ اللقـاء يعنى الوَصْل والمـقـابلة ، لكن كـيف يتم الوَصْل والمقابلة بين الحق ـ تبارك وتعالى ـ وبين الخَلْق ـ وهذه من المسائل التى كَثُر فيها الجدال ، وحـدثت فيها ضجّة شككتْ المسلمين فى كثير من القضايا .

قالوا : اللقـاء يقتضى أن يكون الله تعـالى مُجسّمـاً وهذا ممنوع ، وقال آخـرون : ليس بالضـرورة أن يكون اللقاء وَصْـلاً ، فقـد يكون مـجردَ الرؤيـة ؛ لأن رؤية العَيْن للـرب ليست لقـاء ، وهذا قـول أهل السنة .

أما المعتـزلة فقد نفَوْا حتى الرؤية ، فقـال : لا يلقونه وَصْلاً ولا

رؤية ، لأن الرائى يحدد المرئى ، وهذا مُحَال على الله عز وجل .

ونقول للمعتزلة : أنتم تأخذون المسائل بالنسبة لله ، كما تأخذونها بالنسبة لمخلوقات الله ، لماذا لا تأخذون كل شىء بالنسبة لله تعالى فى إطار ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ .. (١١)﴾ [الشورى] فإذا كان لكم ببعض لقاء يقتضى الوَصْل ، فلله تعالى لقاء لا يقتضى الوصل ، وإذا كانت الرؤية تحدد فلله تعالى رؤية لا تحدد . إن لك سَمْعاً ولله سمع ، أسمعُك كسمع الله عز وجل ؟ إذن : لماذا تريد أن يكون لقاء الله كلقائك يقتضى تجسُّداً ، أو رؤيته كرؤيتك ؟

لذلك فى قصة رؤية موسى عليه السلام لربه عز وجل ، ماذا قال موسى ؟ قال : ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ .. (١٤٣)﴾ [الأعراف] فطلب من ربه أن يُريه لأنه لا يستطيع ذلك بذاته ، ولا يصلح لهذه الرؤية ، إلا أن يُريه الله ويطلعه ، فالمسألة ليست من جهة المرئىّ ، إنما من جهة الرائى . لكن هل قرَّعه الله على طلبه هذا وقال عنه : استكبر وعتا عُتُواً كبيراً كما قال هنا ؟ لا إنما قال له : ﴿لَن تَرَانِي .. (١٤٣)﴾ [الأعراف] ولم يقُلْ سبحانه : لن أُرَى ، وفرْق بين العبارتين .

فقوله : ﴿لَن تَرَانِي..(١٤٣)﴾ [الأعراف] المنع هنا ليس من المرئىّ بل المنع من الرائى ؛ لذلك أعطاه ربه عز وجل الدليل : ﴿وَلَـٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي .. (١٤٣)﴾ [الأعراف] يعنى : أأنت أقوى أم الجبل؟ ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا .. (١٤٣)﴾ [الأعراف]

ولاحظ : ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ .. (١٤٣)﴾ [الأعراف] كلمة تجلى أى : أن الله تعالى يتجلى على بعض خَلْقه ، لكن أيصبرون على هذا التجلى ؟ وليس الجبل أكرم عند الله من الإنسان الذى سخّر اللهُ له الجبل وكلّ شىء فى الوجود .

إذن : فالإنسان هو الأكرم ، لكن تكوينه وطبيعته لا تصلح لهذه الرؤية ، وليس لديه الاستعداد لتلقّى الأنوار الإلهية ؛ ذلك لأن الله تعالى خلقه للأرض . أما فى الآخرة فالأمر مختلف ؛ لذلك سيُعدِّل الله هذا الخلق بحيث تتغير حقائقه ويمكنه أن يرى ، وإذا كان موسى ـ عليه السلام ـ قد صُعق لرؤية المتجلَّى عليه وهو الجبل ، فكيف به إذا رأى المتجلِّى عز وجل ؟

لذلك ، كان من نعمة الله تعالى على عباده فى الآخرة : ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣)﴾ [القيامة]

وقال عن الكفار : ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ (١٥)﴾ [المطففين] إذن : ما يُميِّز المؤمنين عن الكافرين أنهم لا يُحجبون عن رؤية ربهم عز وجل بعد أنْ تغيَّر تكوينهم الأخْروى ، فأصبحوا قادرين على رؤية ما لم يَرَوْه فى الدنيا . وإذا كان البشر الآن بتقدّم العلم يصنعون لضعاف البصر ما يُزِيد من بصرهم ورؤيتهم ، فلماذا نستبعد هذا بالنسبة لله تعالى ؟

لذلك ، تجد المسرفين على أنفسهم يُجادلونك بما يريحهم ، فتراهم يُنكِرون البعث ، ويُبعدون هذه الفكرة عن أنفسهم ؛ لأنهم يعلمون سوء عاقبتهم إنْ أيقنُوا بالبعث واعترفوا به .

ومن المسرفين على أنفسهم حتى مؤمنون بإله ، يقول أحدهم : ما دام أن الله تعالى قدَّر علىَّ المعصية ، فلماذا يُحاسبنى عليها ؟ ونعجب لأنهم لم يذكروا المقابل ولم يقولوا : ما دام قد قدَّر علينا الطاعة ، فلماذا يثيبنا عليها ؟ إذن : لم يقفوا الوقفة العقلية السليمة ؛ لأن الأولى ستجرُّ عليهم الشر فذكروها ، أما الأخرى فخير يُسَاق إليهم ؛ لذلك غفلوا عن ذِكْرها .

وقولهم : ﴿لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا .. (٢١)﴾ [الفرقان]
وهذا يدلّ على تكبُّرهم واعتراضهم على كَوْن الرسول بَشَراً ، وفى موضع آخر قالوا : ﴿أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا .. (٦)﴾ [التغابن]

إذن : كل ما يغيظهم أن يكون الرسول بشراً ، وهذا الاستدراك يدلُّ على غبائهم ، فلو جاء الرسول ملَكاً ما صَحَّ أن يكون لهم قدوة ، وما جاء الرسول إلا ليكون قُدْوةً ومُعلِّماً للمنهج وأُسْوة سلوك ، ولو جاء ملَكاً لأمكنه نعم أنْ يُعلِّمنا منهج الله ، لكن لا يصح أنْ يكون لنا أُسْوة سلوك ، فلو أمرك بشىء وهو ملَك لكان لك أنْ تعترض عليه تقول : أنت ملَكٌ تقدر على ذلك ، أمَّا أنا فبشر لا أقدر عليه .

فالحق سبحانه يقول : لاحظوا أن للرسل مهمتين : مهمةَ البلاغ ، ومهمة الأُسْوة السلوكية ، فلو أنهم كانوا من غير طبيعة البشر لتأتّى لهم البلاغ ، لكن لا يتأتى لهم أن يكونوا قُدْوة ونموذجاً يُحتذى .

ولو جاء الرسول ملَكاً على حقيقته ما رأيتموه ، ولاحتجتم له على صورة بشرية ، وساعتها لن تعرفوا أهو ملَك أم بشر ، إذن ، لا بُدَّ أن تعود المسألة إلى أن يكون بشراً ، لذلك يقول سبحانه : ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ (٩)﴾ [الأنعام]

ومسألة نزول الملائكة مع الرسول من الاقتراحات التى اقترحها الكفار على رسول الله ليطلبها من ربه ، وهذا يعنى أنهم يريدون دليلَ تصديق على نبوة محمد ﷺ ، وسبق أنْ جاءهم رسول الله بمعجزة من جنس ما نبغُوا فيه وعجزوا أنْ يُجَاروه فيها ، ليثبت أن ذلك جاء من عند ربهم القوى ، ومعنى هذه المعجزة أنها تقوم مقام قوله : صدق عبدى فى كل ما يُبلِّغ عنى . وما دامت المعجزة قد جاءتْ بتصديق الرسول ، فهل هناك معجزة أَوْلَى من معجزة ؟

لقد كانت معجزة القرآن كافيةً لتقوم دليلاً على صدْق الرسول فى البلاغ عن الله ، وأيضاً جاءكم بغيبيّات لا يمكن أن يطلع عليها إنسان ، لا فى القديم الذى حدث قبل أنْ يُولَد ، ولا فى الحديث الذى سيكون بعد أنْ يُولد .

إذن : فدليل صدق الرسول قائم ، فما الذى دعاكم إلى اقتراح معجزات أخرى ؟

وقولهم : ﴿أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا .. (٢١)﴾ [الفرقان] والله ، لو كان إله يُرَى لكم ما صَحَّ أن يكون إلهاً ؛ لأن المرئى مُحَاطٌ بحدقة الرائى ، وما دام أحاط به فهو - إذن - محدود ، ومحدوديته تنافى ألوهيته .

وإلاَّ فالمعانى التى تختلج بها النفس الإنسانية مثل الحق والعدل الذى يتحدث عنه الناس وينشدونه ويتعصَّبون له ، ويتهافتون عليه لحلِّ مشاكلهم وتيسير حياتهم : أتدرك هذه المعانى وأمثالها بالحواس ؟ كيف تطلب أن تدرك خالقها عز وجل بالحواسّ ؟

لذلك يختم الحق سبحانه هذه المسألة بقوله : ﴿لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا (٢١)﴾ [الفرقان] استكبر وتكبَّر : حاول أن يجعل نفسه فوق قَدْره ، وكلُّ إنسان منّا له قَدْر محدود .

ومن هنا جاء القول المأثور : « رَحِمَ الله امرءً عرف قدر نفسه » . فلماذا إذن يتكبّر الإنسان ؟ لو أنك إنسان سوىّ فإنك تسعد حين نمنع عنك مَنْ يسرقك ، أو ينظر إلى محارمك أو يعتدى عليك ، فلماذا تغضب حينما نمنعك عن مثل هذا ؟

النظرة العقلية أن تقارن بين مَا لك ومَا عليك ، لقد منعنا يدك - وهى واحدة - أنْ تسرق ، ومقابل ذلك منعنا عنك جميع أيدى الناس

أن تسرق منك ، منعنا عينك أن تمتد إلى محارم الآخرين ، ومنعنا جميع الأَعْيُن أنْ تمتدّ إلى محارمك ، فلماذا إذن تفرح لهذه وتغضب من هذه ؟ كان يجب عليك أن تحكم بنفس المنطق ، فإنْ أحببتَ ما كان لك وكرهتَ ما كان لغيرك فقد جانبتَ الصواب وخالفتَ العدالة .

ومن استكبارهم مواجهتهم لرسول الله فى بداية دعوته وقولهم : ﴿لَوْلا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١)﴾ [الزخرف] إذن : القرآن لا غبارَ عليه ، وهذا حكم واقعى منهم ؛ لأنهم أمة بلاغة وفصاحة ، والقرآن فى أَرْقَى مراتب الفصاحة والبيان ، إنما الذى وقف فى حُلُوقهم أن يكون الرسول رجلاً من عامة الناس ، يريدونه عظيماً فى نظرهم ، حتى إذا ما اتبعوه كان له حيثية تدعو إلى اتباعه .

إذن : الاستكبار أن تستكبر أن تكون تابعاً لمنْ تراه دونك ، ونحن ننكر هذا ؛ لأنك لم تَرَ محمداً ﷺ قبل أن يقوم بالرسالة أنه دونك ، بل كنت تضعه فى المكان الأعلى ، وتُسمِّيه الصادق الأمين ، فمتى إذن جعلْتَه دونك ؟ إنها الهبة التى وهبه الله ، إنها الرسالة التى جعلتك تأخذ منه ما كنتَ تعطيه قبل أن يكون رسولاً .

وهل سبق لكم أنْ سمعتم عن رسول جاء معه ربه عَزَّ وجَلَّ يقول لقومه : هذا رسولى ؟ وما دام أن الله تعالى سيواجهكم هذه المواجهة فلا داعىَ إذن للرسول ؛ لأن الله تعالى سيخاطبكم بالتكليف مباشرة وتنتهى المسألة . ومعلوم أن هذا الأمر لم يحدث ، فأنتم تطلبون شيئاً لم تسمعوا به ، وهذا دليل على تلكؤكم واستكباركم عن قبول الإيمان فجئتم بشىء مستحيل .

إذن : المسألة من الكفار تلكؤٌ وعناد واستكبار عن قبول الحق الواضح ، وقد سبق أن اقترحوا مثل هذه الآيات والمعجزات ، فلما

أجابهم الله كذّبوا ، مع أن الآيات والمعجزات ليست باقتراح المرسل إليهم ، إنما تفضُّل من الله تعالى واهب هذه الرسالة .

والاستكبار مادته الكاف والباء والراء . وتأتى بمعان عدَّة : تقول كَبَرَ يكْبَر أى : فى عمره وحجمه ، وكَبُر يكبُر أى : عَظُم فى ذاته ، ومنها قوله تعالى : ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ .. (٥)﴾ [الكهف]

وتكبَّر : أظهر صفة الكبرياء للناس ، واستكبر : إذا لم يكُنْ عنده مؤهلات الكِبر ، ومع ذلك يطلب أن يكون كبيراً .

فالمعنى ﴿اسْتَكْبَرُوا .. (٢١)﴾ [الفرقان] ليس فى حقيقة تكوينهم إنما ﴿اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ .. (٢١)﴾ [الفرقان] فى أنهم يتبعُون الرسول ، أى : أنها كبيرة عليهم أن يكونوا تابعين لرجل يروْنَ غِيره أغنى منه أو أحسن منه (على زعمهم) .

ونرى مثلاً أحد الفتوات الذى يخضع له الجميع إذا ما رأى مَنْ هو أقوى منه انكمشَ أمامه وتواضع ؛ لأنه يستكبر بلا رصيد وبشىء ليس ذاتياً فيه .. إذن : المتكبر بلا رصيد غافل عن كبرياء ربه ، ولو استشعر كبرياء الله عَزَّ وجَل لاستحَى أنْ يتكبّر .

لذلك نرى أهل الطاعة والمعرفة دائماً منكسرين ، لماذا ؟ لأنهم دائماً مستشعرون كبرياءَ الله ، والإنسان (لا يتفرعن) إلا إذا رأى الجميع دونه ، وليس هناك مَنْ هو أكبر منه . فينبغى ألا يَتكبَّر الإنسان إلا بشىء ذاتى فيه لا يُسلَب منه ، فإن استكبرت بغنَاك فربما افتقرتَ ، وإن استكبرتَ بقوتك فرُبّما أصابك المرض ، وإن استكبرتَ بعلمك لا تأمنَ أن يُسلبَ منك لكى لا يعلم من بعد علم شيئاً .

ومن لُطْف الله بالخَلْق ورحمته بهم أنْ يكون له وحده الكبرياء ،

وله وحده سبحانه التكبُّر والعظمة ، ويعلنها الحق تبارك وتعالى : « الكبرياء ردائى ، والعظمة إزارى ، فمن نازعنى واحداً منهما أدخلته جهنم »(١) .

والحق - تبارك وتعالى - لا يجعلها جبروتاً على خَلْقه ، إنما يجعلها لهم رحمة ؛ لأن الخَلْق منهم الأقوياء والفُتوات والأغنياء .. حين يعلمون أن لله تعالى الكبرياء المطلق يعرف كل منهم قدره (ويرعى مساوى) ، فالله هو المتكبر الوحيد ، ونحن جميعاً سواء .

لذلك يقول أهل الريف (اللى ملوش كبير يشترى له كبير) وحين يكون فى البلد كبير يخاف منه الجميع لا يجرؤ أحد أنْ يعتدىَ على أحد فى وجوده ، إنما إنْ فُقد هذا الكبير فإن القوى يأكل الضعيف . إذن : فالكبرياء من صفات الجَلال لله تعالى أنْ جعلها الله لنفع الخَلْق .

ولو تصورنا التكبر ممَّنْ يملك مؤهلاته ، كأن يكون قوياً ، أو يكون غنياً .. إلخ فلا نتصور الكَبر من الضعيف أو من الفقير ؛ لذلك جاء فى الحديث : « أبغض ثلاثاً وبغضى لثلاث أشد ، أبغض الغنى المتكبر وبُغْضى للفقير المتكبر أشدّ ، وأبغض الفقير البخيل وبغضى للغنى البخيل أشدّ ، وأبغض الشاب العاصى وبغضى للشيخ العاصى أشد »(٢).

وقوله تعالى ﴿وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الفرقان] عتوا : بالغوا فى الظلم والتحدى وتجاوزوا الحدود ، وكأن هذا غير كافٍ فى وصفهم ،

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٢/٣٧٦ ، ٤١٤ ، ٤٢٧ ، ٤٤٢) وأبو داود فى سننه (٤٠٩٠) وابن ماجة فى سننه (٤١٧٤) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

(٢) عن أبى ذر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله يحب ثلاثة ويبغض ثلاثة ، يبغض الشيخ الزانى والفقير المختال والمكثر البخيل ، ويحب ثلاثة : رجل كان فى كتيبة فكمن حتى يحميهم حتى قتل أو فتح الله عليه ، ورجل كان فى قوم فأدلجوا فنزلوا من آخر الليل .. » الحديث أخرجه أحمد فى مسنده ، وابن حبان . ذكره المتقى الهندى فى منتخب الكنز (٦/٣٨٧) .

فأكّد العُتُو بالمصدر (عتواً) ثم وصف المصدر أيضاً ﴿عُتُوًّا كَبِيرًا (٢١)﴾ [الفرقان] لماذا كل هذه المبالغة فى التعبير ؟ قالوا : لأنهم ما عَتَوْا بعضهم على بعض ، إنما يتعاتون على رسول الله ، بل وعلى الله عز وجل ؛ لذلك استحقُّوا هذا الوصف وهذه المبالغة .

والعاتى الذى بلغ فى الظُّلم الحدَّ مثل الطاغوت الذى إنْ خاف الناس منه انتفش ، وتمادى وازداد قوة .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا (٨)﴾ [مريم] ومعلوم أن الكِبَر ضعف ، كما قال سبحانه : ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً .. (٥٤)﴾ [الروم] فكيف - إذن - يصف الكبر بأنه عَات ؟ قالوا : العاتى هو القوى الجبار الذى لا يقدر أحد على صدِّه أو رَفْع رأسه أمامه ، وكذلك الكِبَر على ضَعْفه ، إلا أنه لا توجد قوة تطغى عليه فتمنعه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا (٢٢)﴾

يتحدث الحق - تبارك وتعالى - عن هؤلاء الذين اقترحوا على رسول الله الآيات وطلبوا أن تنزل معه الملائكة فيرونها ، وتشهد لهم بصدقه ﷺ ، فيقول لهم سبحانه : أنتم تشتهون أنْ تروْا الملائكة ، فسوف تروْنها لكن فى موقف آخر ، ليس موقف البُشْريات والخيرات ، إنما فى موقف الخزى والندامة والعذاب :

﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلائِكَةَ لا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ .. (٢٢)﴾ [الفرقان]

فسوف ترونهم رؤيا الفزع والخوف عندما يأتون لقبْض أرواحكم ، أو ستروْنَهم يوم القيامة يوم يُبشِّرونكم بالعذاب .

يوم يستقبلون المؤمنين : ﴿بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ .. (١٢)﴾ [الحديد] فيستشرف الكفار لسماع هذه الكلمة لكن هيهات ﴿لا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ .. (٢٢)﴾ [الفرقان] فيمنعون عنهم هذه الكلمة المحبّبة التى ينتظرونها ، ويقابلونهم بكلمة أخرى تناسبهم .

يقولون لهم : ﴿حِجْرًا مَّحْجُورًا (٢٢)﴾ [الفرقان] والحِجْر : المنع ، ومنه : نحجر على فلان يعنى : نمنعه من التصرُّف . وقديماً كانوا يقولون فى دفع الشر : حِجْراً محجوراً يعنى : منعاً ، ومثل ذلك ما نسمعهم يقولون إذا ذُكِر الجن : حابس حابس يعنى : ابتعد عنى لا تقربنى .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا (٢٣)﴾

حين تنظر فى غير المؤمنين تجد من بينهم أهلاً للخير وعمل المعروف ، ومنهم أصحاب ملَكات طيِّبة ، كالذين اجتمعوا فى حلف الفضول لنصْرة المظلوم ، وكأهل الكرم وإطعام الطعام ، ومنهم مَنْ كانت له قدْر عظيمة استظلّ رسول الله فى ظلها يوم حر قائظ ، وهذا يعنى أنها كانت كبيرة واسعة منصوبة وثابتة كالبناء ، كان يُطْعم منها الفقراء والمساكين ، وحتى الطير والوحوش ، وما زِلْنا حتى الآن

نضرب المثل فى الكرم بحاتم الطائى . وكان منهم مَنْ يصل الرحم ويغيث الملهوف .. الخ .

لكن هؤلاء وأمثالهم عملوا لجاه الدنيا ، ولم يكُنْ فى بالهم إله يبتغون مرضاته ، والعامل يأخذ أجْره ممَّنْ عمل له ، كما جاء فى الحديث القدسى : « فعلت ليقال ، وقد قيل »(١) .

والحق - تبارك وتعالى - يُوضِّح هذه المسألة فى قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩) ﴾ [النور]

وقال تعالى أيضاً : ﴿ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ .. (١٨) ﴾ [إبراهيم]

فقد عمل هؤلاء أعمالَ خير كثيرة ، لكن لم يكُنْ فى بالهم الله ، إنما عملوا للإنسانية وللشهرة وليُقال عنهم ؛ لذلك نراهم فى رفاهية من العيش وسَعة مُمتَّعين بألوان النعيم ، لماذا ؟ لأنهم أخذوا الأسباب المخلوقة لله تعالى ، ونفّذوها بدقة ، والله - تبارك وتعالى - لا يحرم عبده ثمرةَ مجهوده ، وإنْ كان كافراً ، فإنْ ترك العبدُ الأسبابَ وتكاسل حرَمه الله وإنْ كان مؤمناً . وفَرْق بين عطاءات الربوبية التى تشمل المؤمن والكافر والطائع والعاصى ، وبين عطاءات الألوهية .

فمن الكفار مَنْ أحسن الأَخْذ بالأسباب ، فاخترعوا أشياء نفعتْ الإنسانية ، وأدوية عالجتْ كثيراً من الأمراض . ولا بُدَّ أن يكون لهم

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٣٢٢/٢) ، ومسلم فى صحيحه (١٩٠٥) والنسائى فى سننه (٢٣/٦ ، ٢٤) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتى به فعرفه نعمه فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : قاتلت فيك حتى استشهدت . قال : كذبت ولكنك قاتلت لأن يُقال جرىء فقد قيل ، ثم أمر به فسُحب على وجهه حتى أُلقى فى النار » الحديث بطوله .

جزاء على هذا الخير ، وجزاؤهم أخذوه فى الدنيا ذكْراً وتكريماً وتخليداً لذكْراهم ، وصُنعت لهم التماثيل وأُعْطوا النياشين ، وأُلِّفتْ فى سيرتهم الكتب ، كأن الله تعالى لم يجحدهم عملهم ، ولم يبخسهم حقهم .

ألاَ ترى أن أبا لهب الذى وقف من رسول الله موقفَ العداء حتى نزل فيه قوله تعالى : ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ (١) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (٢)﴾ [المسد] ومع ذلك يُخفِّف الله عنه العذاب ؛ لأنه أعتقَ جاريته ثويبة حينما بشَّرته بميلاد محمد بن عبد الله ؛ لأنه فرح بهذه البُشْرى وأسعده هذا الخبر(١) .

ومن العجيب أن هؤلاء يقفون عند صناعات البشر التى لا تعدو أن تكون تَرَفاً فى الحياة ، فيُؤرِّخون لها ولأصحابها ، وينسون خالق الضروريات التى أعانتهم على الترقِّى فى كماليات الحياة وترفها .

وكلمة ﴿هَبَاءً .. (٢٣)﴾ [الفرقان] : الأشياء تتبين للإنسان ، إما لأن حجمها كبير أو لأنها قريبة ، فإنْ كانت صغيرة الحجم عزَّتْ رؤيتها ، فمثلاً يمكنك رؤية طائر أو عصفور إنْ طار أمامك أو حتى دبور أو نحلة ، لكن لو طارتْ أمامك بعوضة لا تستطيع رؤيتها .

إذن : الشىء يختفى عن النظر لأنه صغير التكوين ، لا تستطيع العين إدراكه ؛ لذلك اخترعوا المجاهر والتليسكوب .

وقد يكون الشىء بعيداً عنك فلا تراه لبُعده عن مخروطية

---

(١) قال الحافظ ابن حجر فى « الإصابة فى تمييز الصحابة » (٣٦/٨) : « قال ابن سعد : أخبرنا الواقدى عن غير واحد من أهل العلم قالوا : كانت ثويبة مرضعة رسول الله ﷺ يصلها وهو بمكة وكانت خديجة تكرمها وهى على ملك أبى لهب وسألته أن يبيعها لها فامتنع فلما هاجر رسول الله ﷺ أعتقها أبو لهب وكان رسول الله ﷺ يبعث إليها بصلة وبكسوة حتى جاء الخبر أنها ماتت سنة سبع مرجعه من خيبر » .

الضـوء ؛ لأن الضوء يـبدأ من نقطة ، ثم يـتسع تدريجـيـاً على شكل مخروط ، كـما لو نظرتَ من ثُقْب الباب الذى قُطْره سنتـيمتر فـيمكن رؤية مساحة أوسع منه بكثير .

إذن : إنْ أردتَ أن ترى الصغير تُكبِّره ، وإنْ أردتَ أنْ ترى البعيد تُقرِّبه .

والهباء : هـو الذرّات التى تراها فى المخروط الضوئى حـين ينفذ إلى حجرتك ، ولا تراها بالعين المجرّدة لدقّتها ، وهذا الهباء الذى تراه فى الضوء ﴿هَبَاءً مَّنثُورًا (٢٣)﴾ [الفرقان] يعنى : لا تستطيع أنْ تجمِّعه ؛ لأنه منتشر وغيـر ثابت ، فمهما أوقفتَ حركـة الهواء تجدْه فى الضوء يتحرك لصِغَر حجمه .

فـإنْ قلتَ : نراهم الآن يصنعـون (فـلاترَ) لحـجز هذا الـهبـاء فتُجمّعه وتُنقِّى الهواء منه ، وهى علـى شكل مَسامّ أسفنجية يعلَق بها الهباء ، فيمكن تجميعه .

نقول : حتى مع وجـود هذه الفلاتر ، فإنها تجـمع على قَدْر دقّة المـسامّ ، وتحـجـز على قَدْرها ، وعـلى فَرْض أنك جـمـعتَـه فى هذا الفلتر ، ثم أفرغته وقُلْت لى : هذا هـو الهباء ، نقول لك : أتستطيع أنْ ترد كل ذرة منها إلى أصلها الذى طارتْ منه ؟

﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا (٢٤)﴾

بعـد أن وصف الحـق ـ تبـارك وتعـالى ـ مـا يؤول إلـيـه عـمل الكافرين أراد سبحانه أنْ يُحـدِّثنا عن جزاء المؤمنين على عادة القرآن فى ذكـر المتـقابلات التى يظهـر كل منهـا الآخر ، وهذه الطريقـة فى

التعبير كثيرة فى كتاب الله منها : ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً .. (٨٢)﴾ [التوبة]

ومنها أيضاً قول الحق سبحانه : ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (١٤)﴾ [الانفطار]

وهكذا ، ينقلك القرآن من الشىء إلى ضدّه لتميز بينهما ، فالمؤمن فى النعيم ينظر إلى النار وحَرِّها ، فيحمد الله الذى نجاه منها ، وهذه نعمة أخرى أعظم من الأولى . والكافر حين ينظر إلى نعيم الجنة يتحسَّر ويعلم عاقبةَ الكفر الذى حرمه من هذا النعيم ، فيكون هذا أبلغَ فى النكاية وأشد فى العذاب ؛ لذلك قالوا : وبضدِّها تتميز الأشياء .

وقوله سبحانه : ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلاً (٢٤)﴾ [الفرقان] صاحب الشىء : المرافق له عن حُبٍّ ، فكأن الجنةَ تعشَق أهلها وهم يعشقونها ، فقد نشأت بينهما محبة وصُحْبة ، فكما تحب أنت المكان يحبك المكان ، وأيضاً كما تبغضه يبغضك . ومنه قولهم : نَبَا به المكان يعنى : كَرِهه المكان .

وكلمة ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ .. (٢٤)﴾ [الفرقان] تدل أيضاً على الملكية ؛ لأنهم لن يخرجوا منها ، وهى لن تزول ولن تنتهى .

وكلمة ﴿خَيْرٌ .. (٢٤)﴾ [الفرقان] قلنا : إنها تُستعمل استعمالين : خير يقابله شرّ ، كما فى قوله تعالى : ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨)﴾ [الزلزلة] وقوله تعالى : ﴿أُوْلَـئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ (٧)﴾ [البينة] .... ﴿أُوْلَـئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ (٦)﴾ [البينة]

وهناك أيضاً خير يقابله خير ، لكن أقلّ منه ، كما لو قلت : هذا خير من هذا ، وكما فى الحديث الشريف : « المؤمن القوى خير

وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفى كل خير »[١] .

وفى بعض الأساليب لا نكتفى بصيغة (خير) للتمييز بين شيئين ، فنقول بصيغة أفعل التفضيل : هذا أَخْير من هذا .

وكلمة ﴿ مُّسْتَقَرًّا .. (٢٤) ﴾ [الفرقان] المستقر : المكان الذى تستقر أنت فيه ، والإنسان لا يُؤْثِر الاستقرار فى مكان عن مكان آخر ، إلا إذا كان المكان الذى استقر فيه أكثرَ راحةً لنفسه من غيره ، كما نترك الغرفة مثلاً فى الحرِّ ، ونجلس فى الحديقة أو الشُّرْفة .

ومن ذلك نقول : إذا ضاقتْ بك أرض فاتركها إلى غيرها ، على حَدِّ قوله تعالى : ﴿ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا[٢] كَثِيرًا .. (١٠٠) ﴾ [النساء]

ويقول الشاعر :

لَعَمْرُكَ مَا ضَاقَتْ بلاَدٌ بأهْلِهَا ... وَلكِنَّ أخْلاقَ الرجَالِ تَضِيقُ

ومعنى ﴿ وَأَحْسَنُ مَقِيلاً (٢٤) ﴾ [الفرقان] المقيل : هو المكان الذى كانت تقضى فيه العرب وقت القيلولة ، وهى ساعة الظهيرة حين تشتدّ حرارة الشمس ، ونسميها فى العامية (القيالة) ويقولون لمن لا يستريح فى هذه الساعة : العفاريت مقيِّلة !!

لكن أفِى الجنة قيلولة وليس فيها حَرٌّ ، ولا برد ، ولا زمهرير ؟

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٢/٣٦٦ ، ٣٧٠) ، ومسلم فى صحيحه (٢٦٦٤) وابن ماجة فى سننه (٧٩) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

(٢) أى : يجد مكاناً متسعاً يراغم فيه القوم الذين راغموه واضطروه إلى الهجرة ، أو يجد مكاناً يصلح لمراغمة أعدائه أو اتقاء شره . [القاموس القويم ١/٢٧٠] .

قالوا : القيلولة تعنى محلّ فراغ الإنسان لخاصة نفسه ، ألا ترى أن الحق ـ تبارك وتعالى ـ حينما ذكر أوقات الاستئذان فى سورة النور جعل منها هذا الوقت ، فقال سبحانه : ﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ .. (٥٨)﴾ [النور] فأمر الصغار أن يستأذنوا علينا فى هذا الوقت ؛ لأنه من أوقات العورة .

إذن : المستقر شىء ، والمقيل للراحة النفسية الشخصية شىء آخر ، لأنك قد تستقر فى مكان ومعك غيرك ، أمَّا المقيل فمكان خاصّ بك ، إذن : لك فى الجنة مكانان : عام وخاص ؛ لذلك قالوا فى قول الله تعالى : ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (٤٦)﴾ [الرحمن] قالوا : جنة عامة وجنة خاصة ، كما يكون لك مكان لاستقبال الضيوف ، ومكان لخاصّة نفسك وأهلك .

ويقول الحق سبحانه :

﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنزِيلًا (٢٥)﴾

وقد سبق منهم أنْ طلبوا من الله أنْ ينزل عليهم ملائكة ، فها هى الملائكة تنزل عليهم كما يريدون ، لكن فى غير مسرّة لكم ، ولا إجابة لسؤال منكم .

والسماء : هى السقف المرفوع فوقنا المحفوظ الذى ننظر إليه ، فلا نرى فيه فطوراً[1] ولا شروخاً ، ولك أن تنظر إلى السماء حال صفائها ، وسوف تراها ملساء لا نتوءَ فيها ، ولا اعوجاج على اتساعها هذا وقيامها هكذا بلا عَمَد .

---

(١) الفطور : الشقوق والصدوع . وتفطّر الشىء : تشقّق . والفَطْر : الشق وجمعه فطور . [لسان العرب ـ مادة : فطر] .

لذلك يدعوك الحق - تبارك وتعالى - إلى النظر والتأمل ، يقول لك : لن نغشك .. انظر فى السماء وتأمل : ﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ (٤)﴾ [الملك]

والسماء التى تراها فوقك على هذه القوة والتماسك لا يُمسكها فوقك إلا الله ، كما يقول سبحانه : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ .. (٤١)﴾ [فاطر]

ويقول تعالى : ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ .. (٦٥)﴾ [الحج] إذن : هناك إذْن للسماء أن تقع على الأرض ، وأنْ تتشقق وتتبدل ، كما قال سبحانه : ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ .. (٤٨)﴾ [إبراهيم]

ويقول تعالى عن تشقُّق السماء فى الآخرة : ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ (١) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٢)﴾ [الانشقاق]

معنى : ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا .. (٢)﴾ [الانشقاق] يعنى : استمعتْ وأطاعتْ بمجرد الاستماع .

وهنا يقول تعالى : ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ .. (٢٥)﴾ [الفرقان] أى : تنشقّ وينزل من الشقوق الغمام ، وقد ذُكر الغمام أيضاً فى قوله تعالى : ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلائِكَةُ .. (٢١٠)﴾ [البقرة]

وقوله تعالى : ﴿وَنُزِّلَ الْمَلائِكَةُ تَنزِيلاً (٢٥)﴾ [الفرقان] يدل على قوة النزول ليباشروا عملية الفصل فى موقف القيامة .

﴿ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ ﴾

إنْ كانت الدنيا يُملِّك اللهُ فيها بعض خَلْقه بعض خَلْقه ، كما قال سبحانه : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ .. ﴿٢٦﴾ ﴾ [آل عمران] وقلنا : فَرْق بين المِلْك والمُلْك : المِلْك كل ما تملك ولو كان حتى ثوبك الذى ترتديه فهو ملك ، أمّا المُلْك فهو أن تملك مَنْ يملك ، وهذا يعطيه الله تعالى ، ويهبه لمن يشاء من باطن مُلْكه تعالى ، كما أعطاه للذى حاجّ خليلَه إبراهيم عليه السلام : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ[1] إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ .. ﴿٢٥٨﴾ ﴾ [البقرة]

هذا فى الدنيا ، أما فى الآخرة فلا ملْك ولا مُلْك لأحد ، فقد سلب هذا كله ، والملْك اليوم لله وحده : ﴿ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ﴾ [غافر]

إذن : فما فى يدك من مُلْك الدنيا مُلْك غير مستقر ، سرعان ما يُسلَب منك ؛ لذلك يقول أحد العارفين للخليفة : لو دام الملْك لغيرك ما وصل إليك . فالمسألة ليست ذاتيةً فيك ، فمُلْكك من باطن مُلْك الله تعالى صاحب الملك ، وهو الملك الحق ، فمُلْكه تعالى ثابت مستقر ، لا ينتقل ولا يزول .

وإن انتقلتْ الملكية فى الدنيا من شخص لآخر فإنها تُجمَع يوم القيامة فى يده تعالى ، وتجمّع الملْك والسلطة فى يد واحدة إنْ كانت ممقوتة عندنا فى الدنيا ، حيث نَدَره الاحتكار والدكتاتورية التى تجعل

---

(١) حاجّه : نازعه الحجة فهى مفاعلة من الجانبين ، أى : قدّم كل منهما حجته ليغلب بها الآخر . [القاموس القويم ١/١٤٣] .

السلطة والقهر فى يد واحدة ، إنْ كانت هذه مذمومة فى البشر فهى محمودة عند الله تعالى ؛ لأنها تتركز فى الدنيا فى يد واحد صاحب هوى .

أما فى الآخرة فهى فى يده تعالى ، فالرحمة فى الدنيا أن يوزع الملْك والسلطان ، والرحمة فى الآخرة أن تُجمع فى يده تعالى : ﴿ الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَـٰنِ .. (٢٦) ﴾ [الفرقان] إذن : اجتماع الملْك يوم القيامة لله تعالى من مظاهر الرحمة بنا ، فلا تأخذها على أنها احتكار أو جبروت ؛ لأنها فى يد الرحمن الرحيم .

وكأن الحق ـ تبارك وتعالى ـ يُطمئنك : لا تقلق ، فالملْك يوم القيامة ليس لأحد تخاف أن تقع تحت سطوته ، إنما الملك يومئذ الحق للرحمن .

والحق : الشىء الثابت الذى لا يتغير ، وما دام ثابتاً لا يتغير فهو لا يتناقض ولا يتعارض ، فالرجل إذا كلّمك بكلام له واقع فى الحياة وطلبتَ منه أن يعيده لك أعاده ألف مرة ، دون أن يُغيّر منه شيئاً ، لماذا ؟ لأنه يقول من خلال ما يستوحى من الحقيقة التى شاهدها ، أمّا إنْ كان كاذباً فإنه لا يستوحى شيئاً ؛ لذلك لا بُدَّ أن يختلف قوله فى كل مرة عن الأخرى ؛ لذلك قالوا : إنْ كنتَ كذوباً فكُنْ ذكوراً .

ومن رحمانيته تعالى أن يقول سبحانه : ﴿ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا (٢٦) ﴾ [الفرقان] فينبهنا إلى الخطر قبل الوقوع فيه ، وهذه رحمة بنا أن ينصحنا ربنا ويعدل لنا ، وإلا لو فاجأنا بالعقوبة لكان الأمر صعباً .

فإن ذكرت المقابل تقول إنه يسير على المؤمنين ، فاحرص أيها الإنسان أن تكون من الميسّر لهم لا من المعسّر عليهم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾﴾

هذه عدّة أيام ذكرتها هذه الآيات : ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلائِكَةَ لا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ .. ﴿٢٢﴾﴾ [الفرقان] ، ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ .. ﴿٢٥﴾﴾ [الفرقان] ، ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ .. ﴿٢٦﴾﴾ [الفرقان] ، ﴿يَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ .. ﴿٢٧﴾﴾ [الفرقان] فيوم القيامة جامع لهذا كله .

وقلنا : إن الظالم : الذى يأخذ حَقَّ غيره ، والحق - تبارك وتعالى - يُوضِّح هذا الظلم بقوله تعالى : ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [البقرة]

لأنهم لا يقدرون على ظُلْم الله تعالى ، ولا على ظُلْم النبى ﷺ ، فكلمة الله ورسوله هى العُلْيا ، وسينتصر دين الله فى نهاية المطاف . ومع ذلك يعاقبهم الله تعالى على ظلمهم لأنفسهم ، فنِعْم الإله إله يفعل هذا مع مَنْ عصاه .

والكافر حتى فى مظهرية ظُلْمه للغير يظلم نفسه ؛ لأنه يضعها فى موضع المسئولية عن هذه المظالم . إذن : لو حقَّق الإنسان الظلم لوجده لا يعود إلا على الظالم نفسه .

وحين يرى الظالمُ عاقبةَ ظُلْمه ، ويعاين جزاء فعْله يعضُّ على يديْه ندماً وحَسْرة . والعَضُّ : انطباق الفكيْن الأعلى والأسفل على شىء ، وللعضِّ مراحل تتناسب مع المُفْزع الذى يُلجىء الإنسانَ له ، وفى موضع آخر يقول سبحانه : ﴿وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ .. ﴿١١٩﴾﴾ [آل عمران]

والأنامل : أطراف الأصابع وعَضُّها من الغيظ عادة معروفة حينما يتعرّض الإنسان لموقف يصعُب عليه التصرف فيه فيعضُّ على أنامله عَضاً يناسب الموقف والحدث ، فإنْ كان الحدث أعظمَ ناسبه أنْ يعضّ يده لا مجرد أصابعه ، فإنْ عظم عَضَّ على يديْه معاً كما يحدث لهم فى الآية التى معنا : ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ .. (٢٧)﴾ [الفرقان] لأنه فى موقف حسرة وندم على الفرصة التى فاتته ولن تعود ، والخطأ الذى لا يمكن تداركه ؛ لذلك يُعذِّب نفسه قبل أن يأتيه العذاب .

فيعضُّ على يديْه معاً ، فكأن الأمر المُفْزِع الذى يعاينه بلغ الغاية ؛ لذلك عضَّ على يديه ليبلغ الغاية فى المعضوض ، وهو العاضّ والمعضوض ، ولا يُعذِّب نفسه بهذه الطريقة إلا مَنْ يئس من النجاة .

ثم يُبيِّن علة ذلك : ﴿يَقُولُ يَـٰلَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً (٢٧)﴾ [الفرقان] وإنْ كانت هذه الآية قد نزلت فى حدث مخصوص وفى شخص بعينه ، فإنها تعمّ كل مَنْ فعل هذا ، فالعبرة ـ كما يقولون ـ بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، فهذا جزاء كل ظالم حَادَ عن الجادة .

وهذه الآية نزلت فى حدث خاص باثنين[1] : عقبة بن أبى معيط ، وكان رجلاً كريماً يُطعم الطعام ، وقد دعا مرة رسول الله ﷺ إلى طعامه ، لكن رسول الله اعتذر له وقال : لا أستطيع أن أحضر طعامك إلا أنْ تشهد أن : لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، فلما شهد

---

(١) أورده الواحدى النيسابورى فى أسباب النزول (ص ١٩١) قال ابن كثير فى تفسيره (٣/٣١٧) : « سواء كان سبب نزولها فى عقبة بن أبى معيط أو غيره من الأشقياء فإنها عامة فى كل ظالم » .

الرجل الشهادتين زاره رسول الله وأكل من طعامه ، فأغضب ذلك أمية ابن خلف صاحب عقبة فقال له : لقد صبوتَ يا عقبة ، فقال عقبة : والله ما قلتُ ذلك إلا لأننى أحببتُ أن يأكلَ محمد عندى كما يأكل الناس ، فقال أمية : فلا يبرئك منى إلا أنْ تذهب إلى محمد فى دار الندوة فتطأ عنقه وتبصق .. إلخ ، وفعل عقبة ما أشار عليه به صاحبه[1] فنزلت الآية : ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾﴾ [الفرقان] والمراد بالسبيل قوله : لا إله إلا الله محمد رسول الله .

ثم يقول :

﴿يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾﴾

الويل : الهلاك ، فهو يدعو الهلاك ويناديه أنْ يحلّ به ، والإنسان لا يطلب الهلاك لنفسه إلا إذا تعرّض لعذاب أشدّ من الهلاك ، كما قال أحدهم :

* أَشَدُّ من السّقم الذى يُذهِب السّقما *

وقول الشاعر :

كَفَى بِكَ دَاءً أنْ تَرَى الموْتَ شَافِياً وحَسْبُ المنَايَا أنْ يكُنَّ أمَانِيَا[2]

فلما كانت المسألةُ أكبر منه وفوق احتماله نادى يا ويلتى احضرى ، فهذا أوانك لتُخلِّصينى مما أنا فيه من العذاب .

---

(١) قال الضحاك : لما بزق عقبة فى وجه رسول الله ﷺ عاد بزاقه فى وجهه فتشعب شعبتين ، فأحرق خديه ، وكان أثر ذلك فيه حتى الموت . نقله الواحدى فى أسباب النزول (ص ١٩٢) .

(٢) البيت بيت مشهور للمتنبى (ديوانه ٤/٢٨١) وأورده شهاب الدين محمود الحلبى فى كتاب « حسن التوسل إلى صناعة الترسل » (٢٥٢) فى فصل « حسن الابتداءات » .

وقوله ﴿لَيْتَنِي .. ﴿٢٨﴾﴾ [الفرقان] تَمَنٍّ ، والتمنّى طلب أمر محبوب لا سبيلَ إلى حصوله ، كما قال الشاعر فى التمنى :

لَيْتَ الكَواكِبَ تَدْنُو لِى فَأَنظِمَهَا عُقودَ مَدْحٍ فَمَا أَرْضَى لكُمْ كَلِمِى

وهذا أمر لا يمكن أنْ يُنال .

وآخر يقول :

فيا لَيْتَ الشَّبابَ يَعُودُ يَوْماً فَأُخبِرَه بِمَا فعَلَ المشيبُ

فقصارى ما يعطيه أسلوب التمنى أنه يدلّ على أمر محبوب ، كنت أحب أن يحدث ، لكن أيحدث بالفعل ؟ لا .

وكلمة (فلان) تقولها كناية عن شخص لا تحب حتى ذكْر اسمه ، فعقبة (ابن أبى مُعيط) لم يقل : ليتنى لم أتخذ أمية (بن خلف) خليلاً إنما قال (فلاناً) لأنه كاره له يبغض حتى ذكر اسمه .

والخليل : من الخُلَّة والمخالَّة يعنى : الصداقة المتداخلة المتبادلة وفى ذلك يقول الشاعر :

وَلَمَّا التقَيْنَا قَرَّبَ الشَّوْقُ جَهْده خَلِيلَيْنِ ذَابَا لَوْعَةً وعِتَابَا

كأنَّ خَلِيلاً فى خِلاَلِ خَلِيلِه تَسرَّب أَثْنَاءَ العِنَاقِ وغَابَا

ثم يذكر علة ذلك :

﴿لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾

﴿خَذُولاً ﴿٢٩﴾﴾ [الفرقان] صيغة مبالغة من الخذلان ، نقول : خاذل وخذول ، ومعنى خذلك أى : تخلّى عنك فى الأمر بعد أنْ مدَّ لك حبالَ الأمل ، فإذا ما جاء وقت الحاجة إليه تخلّى عنك وتركك ، كذلك

الشيطان يفعل بأوليائه ، كما جاء فى آيات أخرى : ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (١٦)﴾ [الحشر] وفى آية أخرى : ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ .. (٤٨)﴾ [الأنفال]

وفى موضع آخر يقول لأتباعه : ﴿مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ(١) وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ .. (٢٢)﴾ [إبراهيم]

فحين يقولون له : لقد أغويتنا وأضللْتنا يقول لهم : ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ .. (٢٢)﴾ [إبراهيم] لا سلطانَ حجة أقنعكم به ولا سلطان قهر أحملكم به وأقهركم على طاعتى ، بل كنتم على (تشويرة) : ﴿إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي .. (٢٢)﴾ [إبراهيم]

ثم يقول الحق سبحانه عن رسوله محمد ﷺ :

﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا (٣٠)﴾

القوم : قوْم الرجل : أهله وعشيرته والمقيمون معه ويجمعهم : إما أرض ، وإما دين . وسُمُّوا قَوْماً لأنهم هم الذين يقومون على أمر الأشياء ، فهم الرجال خاصة ؛ لأن النساء المفروض فيهن السكن والقرار فى البيوت .

والحق - تبارك وتعالى - يوضح لنا هذا الفرق فى قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا

---

(١) المصرخ : المغيث المنقذ من يستصرخه . واستصرخه : استغاث به . والصريخ : الاستغاثة والمستغيث والمغيث . [القاموس القويم ١/٣٧٣] .

نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ .. ﴿١١﴾ ﴾ [الحجرات] إذن : فالقوم هم الرجال خاصة .

ومن ذلك أيضاً قول الشاعر(١) :

وَمَا أدرى ولَسْتُ إخَالُ أدْرِى أَقَوْمٌ آلُ حِصْنٍ أَمْ نِسَاءُ(٢)

وقوله تعالى : ﴿إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ ﴾ [الفرقان] أضاف القوم إليه - ﷺ - لأنه منهم يعرفونه ويعرفون أَصْلَه ، وقد شهدوا له بالصدق والأمانة ومكارم الأخلاق قبل أن يُبعثَ ، وكان عندهم مؤتمناً على نفائس أموالهم ؛ لذلك خاطبهم الحق تبارك وتعالى بقوله : ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [التوبة]

إذن : فالرسول ليس بعيداً عنكم ، ولا مجهولاً لكم ، فمَنْ لم يؤمن به كرسول ينبغى أنْ يؤمن به كأسْوة وقدوة سلوك لسابق تاريخه فيكم .

لذلك نرى أن سيدنا أبا بكر ما انتظر من رسول الله دعوةً ، ولا أنْ يقرأ له قرآناً ، أو يُظهر له معجزة ، إنما آمن وصدَّق بمجرد أن قال رسول الله ، فما دام قد قال فقد صدق ، ليس بمعجزة رآها أبو بكر ، إنما برصيده القديم فى معرفة رسول الله فى سلوكه وخُلُقه ، فما كان رسول الله ﷺ ليَدع الكذب على الخَلْق ، ويكذب على الخالق .

---

(١) الشاعر هو : زهير بن أبى سلمى ، حكيم الشعراء فى الجاهلية ، كان أبوه وخاله وأخته سلمى وابناه كعب وبجير وأخته الخنساء شعراء ، ولد فى بلاد « مزينة » بنواحى المدينة ، من أشهر شعره معلقته ، توفى عام ١٣ ق. هـ . [الأعلام للزركلى ٣/٥٢] .

(٢) ديوان زهير بن أبى سلمى ٧٣ ، وحسن التوسل صفحة ٢٣١ .

وكذلك السيدة خديجة : هل انتظرت من رسول الله ما يُثبت نبوته ؟ إنها بمجرد أن قال رسول الله صدَّقتْ به ، ووقفت بجانبه وثبَّتته وهدَّأتْ من روعه ، وقالت له : « والله لا يُسلمك الله أبداً ، إنك لتصِلُ الرحم ، وتحمل الكَلَّ[1] ، وتعين على نوائب الدهر »[2] .

ومعنى : ﴿مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾﴾ [الفرقان] من الهجر وهو قَطْع الصلة ، فإنْ كانت من جانب واحد فهى هَجْر ، وإن كانت من الجانبين فهى (هاجراً) . والمعنى : أنهم هجروا القرآن ، وقطعوا الصلة بينهم وبينه ، وهذا يعنى أنهم انقطعوا عن الألوهية وانقطعوا عن الرسالة المحمدية ، فلم يأخذوا أدلة اليقين العقدية ، وانقطعوا عن الرسالة المحمدية حينما كذَّبوا بها ، وانقطعوا عن الأحكام حينما عَصَوْها ، وبذلك اتخذوا هذا القرآن مهجوراً فى كل هذه المسائل : العقائد والعبادات والتصديق بالرسول .

مع أن العرب لو فهموا قوله تعالى : ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ .. ﴿٤٤﴾﴾ [الزخرف] لمجّدوا القرآن وتمسَّكوا به ، فهو الذى عصمهم وعصم لغتهم ، وأعْلَى ذِكْرهم بين الأمم ، ولو أن كل أمة من الأمم المعاصرة أخذتْ لهجتها الخاصة الوطنية ، وجعلت منها لغةً لتلاشت العربية كلغة .

وفى كثير من بلدان الوطن العربى لو حدَّثوك بلهجتهم الخاصة لا تفهم منها شيئاً ، ولولا أن الفُصْحى لغة القرآن تربط بين هذه اللهجات لأصبحتْ كلٌّ منها لغةً خاصة ، كما حدث فى اللغات اللاتينية

---

(١) تحمل الكَل : أى تعين المثقل ومنه الإنفاق على الضعيف واليتيم والعيال انظر شرح النووى على مسلم (٢/٥٦١) ، وفتح البارى للعسقلانى (١/٢٤) .

(٢) حديث متفق عليه ، أخرجه البخارى فى صحيحه (٣) وستة مواضع أخرى من صحيحه ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٦٠) من حديث عائشة رضى الله عنها .

التى تولدت منها الفرنسية والإيطالية والألمانية والإنجليزية ، ولكل منها أسسها وقواعدها الخاصة بها ، وكانت فى الأصل لغة واحدة ، إلا أنها لا رابطَ لها من كتاب مقدس .

فالحق - تبارك وتعالى - يُنبِّههم إلى أن القرآن فيه ذِكْرهم وشرفهم وعزتهم ، وفيه شهرتهم وصيتهم ، فالقرآن جعل العرب على كل لسان ، ولولاه لذابوا بين الأمم كما ذابتْ قبلهم أمم وحضارات لم يسمع عنها أحد .

لذلك يقول لهم النبى ﷺ : « إنْ تؤمنوا بما جئت به يكُنْ حظكم فى الدنيا والآخرة ، وإن تردوا علىَّ قولى صبرتُ حتى يحكم الله بينى وبينكم»(١) .

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾ ﴾

وإذا لم يكُنْ للرسول أعداء ، فلماذا جاء ؟ لو انتظرنا من الجميع ساعةَ يأتى الرسول أنْ يُصدقوه ويؤمنوا به إذن : فلماذا جاء الرسول ؟ لا يأتى الرسول إلا إذا طَمَّ الفساد وعَمّ ، كما أننا لا نأتى بالطبيب إلا إذا حدث مرض أو وباء .

وهؤلاء القوم كانت لهم سيادة ومكانة ، وقد جاء الإسلام ليُسوّى بين الناس ، ويسلب هؤلاء سيادتهم ، فلا بُدَّ أن يقفوا منه موقف العداء ، وهذا العداء هو حيثية وجود الرسول فيهم . وليس النبى ﷺ

---

(١) ذكره ابن هشام فى السيرة النبوية (١/٢٩٦) ضمن حديث وفد كفار قريش إلى رسول الله ﷺ .

بِدْعاً فى ذلك ، فما من نبى إلا وكان له أعداء ، مع أن الأنبياء السابقين كان النبى منهم فى فترة زمنية محدودة وفى مكان محدود .

أما رسالة محمد ﷺ فكانت رسالة عامة فى الزمان وفى المكان ، ولا بُدَّ أنْ يتناسب العداء - إذن - مع انتشار الرسالة وعمومها فى الزمان والمكان إلى قيام الساعة وعلى النبى ﷺ أن يُوطِّن نفسه على ذلك .

وكلمة (عدو) من الكلمات التى تُطلق مفردة ، وتشمل المثنى والجمع ، ومن ذلك قوله تعالى على لسان سيدنا إبراهيم : ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٧٧)﴾ [الشعراء]

وفى سورة الكهف : ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ .. (٥٠)﴾ [الكهف] ولم يقل : أعداء .

وفى بعض الآيات تأتى بصيغة الجمع كما فى قوله تعالى : ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ .. (١٠٣)﴾ [آل عمران] فلو كانت قضية لغوية لجاءتْ بصيغة المفرد فى كل الآيات .

لكن لماذا عدلَ القرآن هنا عن صيغة المفرد إلى صيغة الجمع ؟

قالوا : إنْ كانت العداوة من المفرد والمثنى والجمع عداوة واحدة قال (عدو) بصيغة المفرد لاتحاد سبب العداوة ، فإنْ كانت العداوات مختلفة : هذا يعاديك لشرفك ، وهذا يعاديك لعلمك ، وهذا يعاديك لمالك ، فتعددت أسباب العداوة قال (أعداء) أما فى مسألة الإيمان واليقين بالنسبة للكافرين فالعداوة واحدة ، لكن فى أمور الدنيا العداوات متعددة : هذا يعاديك لكذا ، وهذا يعاديك لكذا ؛ لأنه مخالف لهواه .

وحينما تحدثنا عن قوله تعالى : ﴿ وَلَا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِن بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ .. (٦١) ﴾ [النور] كلها بصيغة الجمع إلا فى قوله تعالى : ﴿ أَوْ صَدِيقِكُمْ .. (٦١) ﴾ [النور] بصيغة المفرد ، لماذا ؟ لأن صداقة المؤمنين ينبغى ألاَّ تكون إلا لمعنى واحد ، هو الحب لله ، وفى الله ، لا ينبغى أن يكون لك صديق لكذا وصديق لكذا .

وفى ذلك يقول النبى ﷺ : « ثلاث من كُنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأنْ يحبَّ المرءَ لا يُحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يُقذف فى النار »[(١)] .

فإذا كان أصدقاؤك يحبونك لله ، فهم جميعاً كصديق واحد .

وقوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ ..(٣١) ﴾ [الفرقان] يعنى : كأعدائك الذين اتخذوا القرآن مهجوراً ، والذين وقفوا منك موقف التعنت والإيذاء والسخرية .

﴿ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ..(٣١) ﴾ [الفرقان] أى : الذين يُجرمون يعنى : يرتكبون الجرائم ، وهى المعاصى والذنوب حَسْب مدلولاتها .

الحق - تبارك وتعالى - حينما يكشف لرسوله ﷺ حقيقة أعدائه ، وأنهم كثيرون ، وأنهم مجرمون إنما ليوَطِّن نفسه على ذلك ، فلا يُفَاجأ به ، ويتحمل أذاهم إنْ أصابوه بسوء . وهذه المسألة كالمصلْ والتحصين الذى يعطونه للناس لمواجهة المرض قبل حدوثه ، فالحق سبحانه يعطى رسوله المناعة اللازمة لمواجهة أعداء الدعوة .

---

(١) حديث متفق عليه ، أخرجه البخارى فى صحيحه (١٦) وكذا مسلم فى صحيحه (٤٣) كلاهما فى كتاب الإيمان من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه .

لذلك نجد « تشرشل » القائد البريطانى الذى ساس الحرب العالمية الثانية كان يواجه جنوده بالحقائق أفظع مما هى فى الواقع ليُوطِّن شعبه على قوة التحمل ، وعلى التصدِّى للصعوبات الشديدة ، ومهما واجههم من مصاعب قال لهم ما زال هناك المزيد منها ، حتى إذا ما حدث ذلك كانوا على استعداد له .

وقوله تعالى : ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾﴾ [الفرقان] أى : أن الله تعالى سيهديك إلى الطريق الذى بمقتضاه تنتصر على هؤلاء جميعاً . وسبق أن ذكرنا عن الفاروق عمر ـ رضى الله عنه ـ أنه حينما نزل قوله تعالى : ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ [القمر] قال : أىُّ جمع هذا ؟ يعنى تعجب كيف سنهزم هؤلاء ونحن الآن عاجزون حتى عن حماية أنفسنا ؟ ولا نبيت إلا فى السلاح ، ولا نصبح إلا فى السلاح نخاف أن يتخطفنا الناس ، فلما وقعتْ بدر وهُزم المشركون وحُصدت أرواح صناديدهم قال : صدق الله : ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ [القمر][1] .

كيف حدث هذا ؟ حدث من هداية الله لرسوله ﷺ إلى أسباب النصر ، والحق ـ تبارك وتعالى ـ ينصر بالشىء وينصر بضده ، وقد اجتمع فى بدر سادات قريش وأقوياؤها وأغنياؤها وصناديد الكفر بها ، حتى قال رسول الله ﷺ : « هذه مكة ، قد ألقت إليكم أفلاذ[2] كبدها»[3] ،

---

(١) أورد ابن كثير فى تفسيره وعزاه لابن أبى حاتم (٢٦٦/٤) عن عكرمة قال : « لما نزلت : ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ [القمر] قال عمر : أىّ جمع يهزم ؟ أى : أى جمع يُغلب ؟ قال عمر : فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ يثب فى الدرع وهو يقول : « سيهزم الجمع ويولون الدبر » فعرفت تأويلها يومئذ » .

(٢) الفِلْذة : القطعة من الكبد واللحم والمال والذهب والفضة . والجمع أفلاذ . وفى حديث بدرَ : « هذه مكة قد رمتكم بأفلاذ كبدها » أراد صميم قريش ولبابها وأشرافها ، كما يقال : فلان قلب عشيرته ؛ لأن الكبد من أشرف الأعضاء » [لسان العرب ـ مادة : فلذ] .

(٣) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٤٣/٣) ، وأورده ابن هشام فى السيرة النبوية (٦١٧/٢) عن عروة بن الزبير .

وقد خرجوا جميعاً على حال الاستعداد للحرب ، أما المؤمنون فقد كانوا قِلَّة مستضعفين على غير استعداد للحرب ، ومع ذلك نصرهم الله .

والحق سبحانه يُطمئن رسوله ﷺ والمؤمنين معه : ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ .. (٢٤٩)﴾ [البقرة]

وقال تعالى : ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣)﴾ [الصافات]

وقال تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا .. (٤١)﴾ [الرعد] أى : ننقص من أرض الكفر ، ونزيد فى أرض الإيمان ، والحق سبحانه أخبرنا بقضايا ، يجب أن تُوجَد أحداث فى الحياة والواقع خادمةً لتصديق هذه القضايا .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا (٣٢)﴾

هذا أيضاً أحد الأمور التى يتعلقون بها كى لا يؤمنوا ، وكيف يطلبون أن ينزل القرآن جملةً واحدة ، وهم لا يطيقون منه آية واحدة ؟ لكنه الجدل والسفسطة والإفلاس فى الحجة ، فاعتراضهم على نزول القرآن مُنَجّماً[1]

إذن : لا غضاضة عندهم فى القرآن ، وعَيْبه فى نظرهم أنه نزل على محمد بالذات ، وأنه ينزل مُنجّماً لا جملة واحدة ، وكأن طاقة الإيمان عندهم تناسب نزول القرآن جملة واحدة !!

---

(١) مُنجماً : أى : مُفرّقاً مقطعاً على حسب الأحداث وأسباب نزول الآيات آية آية . قال ابن كثير فى تفسيره (٣/٣١٨) : « روى النسائى بإسناده عن ابن عباس قال : أُنزل القرآن جملة واحدة إلى سماء الدنيا فى ليلة القدر ، ثم نزل بعد ذلك فى عشرين سنة » .

ثم يقول سبحانه : ﴿كَذَٰلِكَ .. (٣٢)﴾ [الفرقان] يعنى : أنزلناه كذلك مُنجّماً حَسْب الأحوال ، والحكمة من ذلك ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ .. (٣٢)﴾ [الفرقان] لأنك ستتعرض على مدى ثلاث وعشرين سنة لمواقف تزلزل ، فكلما تعرضْتَ لموقف من هذه المواقف نزل القرآن تسليةً لك وتثبيتاً وَصلةً بالسماء لا تنقطع . ولو نزل القرآن مرة واحدة لكان التثبيت مرة واحدة ، ثم تأتى بقية الأحداث بدون تثبيت ، ولا شكَّ أن الصلة بالسماء تُقوِّى المنهج وتُقوِّى الإيمان .

كما أن القرآن لو نزل مرة واحدة ، كيف يتسنى لهم أنْ يسألوا عما سألوا عنه مما حكاه القرآن : يسألونك عن كذا ، يسألونك عن كذا .. إلخ . إذن : نزوله مُنجّماً اقتضاء لحكمة الحق سبحانه ليُعدِّدَ مواقف تثبيتك ، لتعدد مواقف الإيذاء لك .

ومعنى : ﴿وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً (٣٢)﴾ [الفرقان] أى : أنزلناه مُنجّماً حَسْب الأحوال ، فكلما نزل نجم تمكنتم من حفْظه وتكراره فى الصلاة .

﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا (٣٣)﴾

المَثَل مثل قولهم : ﴿لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً.. (٣٢)﴾ [الفرقان] أو قولهم : ﴿لَوْلا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١)﴾ [الزخرف] والمثل : الأشياء العجيبة التى طلبوها .

ولو أجابهم الله لما قالوا لأنكروا قولهم وتنصّلوا منه ، كما قال تعالى عن اليهود : ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا .. (١٤٢)﴾ [البقرة] ومع ذلك قالوا ما حكاه القرآن عنهم . أمَا كان فيهم رجل يتنبه لقوْل القرآن ، فيحذرهم من هذا القول ليُوقِع

رسول الله فى حرج ، ويُظهر القرآن على أنه كذب ، ويقول كلاماً يخالف الحقيقة ، وعندها ، لهم أنْ يقولوا : لقد قال القرآن كذا وكذا ولم يحدث منا هذا ؟

﴿ ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾ ﴾

﴿ الَّذِينَ .. ﴿٣٤﴾ ﴾ [الفرقان] إجمال لأشخاص معروفين بذواتهم ، وقفوا من الرسول موقف العداء ، ومنهم مَنْ سبق أن قال : ﴿ يَٰلَيْتَنِى اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [الفرقان]

والحشر : الجمع للحساب ، لكن سيُحشَرون على وجوههم ؛ لذلك لما نزلت هذه الآية سألوا رسول الله : كيف يُمشُون على وجوههم ، قال ﷺ : « الذى أمشاهم على أرجلهم ، قادر أن يُمشيهم على وجوههم »[1] .

فالذى يمشى على وجهه كالذى يمشى على بطنه ، ولعله يُجَر جراً ، سواء أكان على وجهه أو على أى شىء آخر ، ثم إن الإنسان لا ينبغى له أن يسأل عن أمور هى مناط القدرة المطلقة .

والحق ـ تبارك وتعالى ـ يُوضِّح هذه المسألة فى قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى

(١) عن أنس بن مالك أن رجلاً قال : يا نبى الله يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة ؟ قال : « أليس الذى أمشاه على الرِّجْلين فى الدنيا قادراً على أن يُمشيه على وجهه يوم القيامة » . أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٧٦٠ ، ٦٥٢٣) وكذا مسلم فى صحيحه (٢٨٠٦) كتاب صفات المنافقين .

عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤٥) ﴾ [النور]

إذن : المشْى لا ينحصر فى الحالات التى نعرفها فقط ، إنما هى طلاقة القدرة التى تفعل ما تشاء .

لكن ، لماذا لم يذكر القرآن أسماء هؤلاء الأشخاص الظالمين المعاندين للإسلام ؟ قالوا : هذا من باب إرخاء العنَان للخَصْم ، وكلمة (العنان) تأتى بكسر العين وفتحها ، واللغويون يقولون : هى على وزن ما هى بمعناه ، فإن قصدتَ بها عَنان السماء فهى على وزن سَحَاب ، وإن أردتَ بها عِنان الفرس ، فهى على وزن لِجَام .

وراكب الدابة إنْ أرخى لها العنان تركها تسير كما تشاء ، كذلك الحق - تبارك وتعالى - يُرخى للخصم العنان ليقول كل ما عنده ، وليأخذه إلى جانبه ، لا بما يكره ، بل بما يحب . وقد علَّم الله تعالى رسوله ﷺ كيف يردُّ عليهم ويجادلهم الجدلَ الهادىء بالتى هى أحسن ، فحين قالوا عنه مفتر ، وعن القرآن مُفترىً ومكذوب ردّ عليهم : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ .. (٣٨) ﴾ [يونس]

ثم يترقَّى فى جدالهم : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ (٣٥) ﴾ [هود] وفى آية أخرى يرد عليهم : ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٢٤) ﴾ [سبأ]

وهل النبى ﷺ لا يعرف مَنْ على الهدى ومَنْ على الضلال ؟ لا شكَّ أنه إرخاء العنان للخصم ، يقول لهم : أنا وأنتم على طَرَفى نقيض : أنا أقول بإلهٍ واحد وأنتم تُكذِّبون قولى ، فأنا متناقض معكم فى هذه القضية ، والقضية لا بُدَّ أن تأتى على شكل واحد ، فإمَّا أنا على الهدى ، وإمّا أنتم ، وأنا لا أدّعى الحق لنفسى .

إذن : المطلوب أنْ تُعملوا عقولكم لتُميِّزوا مَنْ منّا على الهدى ومَنْ منّا على الضلال ، وكأن رسول الله يرتضى حكومتهم فى هذه المسألة ، وما ترك لهم رسول الله الحكمَ إلا وهو واثق أنهم لو تجردوا من الهوى لعرفوا أن الحق معه ، وأنه على الهدى ، وأنهم على الضلال .

إذن : عندما تكلم القرآن عن كفار قريش الذين تعنتوا فى اقتراحاتهم ، وعاندوا وآذوا رسول الله بكل أنواع الإيذاء ، ومع ذلك حينما تكلم عنهم جاء بأسلوب عام فقال : (الذين) ولم يقل هؤلاء ، بل جاء بالقضية العامة ولم يُواجههم بالجزاء مما يدلّ على التلطف فى أمر الدعوة ، وهذا نوع من استمالة الخَصْم لنقطع منه شراسة العداء والعناد .

لذلك يخاطب الحق ـ تبارك وتعالى ـ رسوله ﷺ : ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ .. (١٥٩)﴾ [آل عمران] كأنك لم تَلِنْ لهم بطبْعك ؛ لأن عنادهم وأذاهم كان سيُرغم طبْعك على أن تكون قاسياً معهم ولكن رحمة الله شملتْك فلِنْتَ لهم ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ .. (١٥٩)﴾ [آل عمران]

هذا يعنى أن الداعية لا بُدَّ أن يكون رَحْب الصدر ، رَحْب الساحة ، ذلك لأنه يُخرج أهل الضلال عما ألفوه إلى شىء يكرهونه ، فلا تُخرجهم من ذلك بأسلوب يكرهونه ، فتجمع عليهم شدتين ، إنما تلطَّفْ معهم ، كما قال عز وجل لموسى وهارون عندما أمرهما بدعوة فرعون : ﴿فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ (٤٤)﴾ [طه]

لأن الذى بلغ من عناده أنْ يتكبّر لا على المخلوقين أمثاله ، إنما يتكبّر على الخالق فيدّعى الألوهية لا بُدَّ أنْ تأتيه بأسلوب ليِّن لطيف .

وفى آية أخرى يُعلِّم الحق سبحانه رسوله ﷺ كيف يجادل المشركين ، فيقول سبحانه : ﴿قُل لاَّ تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا .. (٢٥)﴾ [سبأ]

وهل يُتصوَّر الإجرام من رسول الله ؟! وفى المقابل : ﴿وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٢٥)﴾ [سبأ] مع أن منطق الجدل هنا أن يقول : ولا نُسأل عما تُجرمون ، لكنه نسب الإجرام لنفسه ، ولم يذكره فى حَقِّ الآخرين ، فهل هناك تلطُّفٌ وترقيق للقلوب فوق هذا ؟

الحق - تبارك وتعالى - يعرض لكل هذه المسائل ليثبت أن رسوله ﷺ كان حريصاً على إيمان قومه ، وأنه لم يدّخِرْ وُسْعاً فى سبيل هدايتهم وجَذْبهم إليه ؛ لدرجة أنه حمّل نفسه فوق ما يطلبه الله منه ، حتى قال له ربه : ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا (٦)﴾ [الكهف]

وقال : ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣)﴾ [الشعراء]

يعنى : مُهلكٌ نفسك من أجل هدايتهم ، وما عليك إلا البلاغ ، ولا يقول له ربه هذا الكلام إلا إذا كان قد عَلِم منه حِرْصاً ورغبة أكيدة فى هداية قومه .

ومعنى : ﴿أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا (٣٤)﴾ [الفرقان] قوله تعالى ﴿شَرٌّ .. (٣٤)﴾ [الفرقان] ولم يقُلْ أشر ؛ لأن معناها : أن الجهة الثانية فيها شر ، وهذا أيضاً من إرخاء العِنان للخصم .

ثم يحدثنا الحق سبحانه عن أقوام الرسل السابقين :

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا (١) (٣٥)﴾

---

(١) الوزير : المعين والمساعد . قال فى [لسان العرب - مادة : وزر] : « الوزير فى اللغة اشتقاقه من الوَزَر ، والوزر : الحبل الذى يعتصم به ليُنجى من الهلاك ، وكذلك وزير الخليفة معناه الذى يعتمد على رأيه فى أموره ويلتجىء إليه » .

سبق قول الحق تبارك وتعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ .. (٣١)﴾ [الفرقان] فلا بُدَّ أن يكون لكل نبى أعداء ؛ لأنه جاء ليعدل ميزان المكارم الذى تحكم فيه ناس مُستبدون فى شراسة، وأهلُ فساد سيُحْرمون من ثمرة هذا الفساد ، فطبيعى أنْ يقفوا فى وجه الدعوة .

لذلك يضرب الحق سبحانه لرسوله ﷺ بعض الأمثال من موكب الرسالات ، فيقول : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا (٣٥)﴾ [الفرقان]

كأن الحق سبحانه يقول لرسوله : لقد تعرضتَ لمشقة دعوة أُنَاس لا يؤمنون بالإله ، أمّا موسى فقد تعرض لدعوة مَن ادعى أنه إله ، إذن : هناك مَنْ تحمل كثيراً من المشقات فى سبيل الدعوة ، لدرجة أن موسى عليه السلام رأى نفسه لن يستطيع القيام بهذه المهمة وحده .

فنراه وهو النبى الرسول الذى اختاره الله ـ يقول : ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي .. (٣٤)﴾ [القصص] وهذا يعنى أن موسى ـ عليه السلام ـ يعلم مدى المشقة ، وحجم المهمة التى سيقوم بها .

فالرسالات السابقة كان الرسول يُبعَث إلى أمته المحدودة فى الزمان وفى المكان ، ومع ذلك لاقوا المشقات ، أما أنت يا محمد فقد أُرسلتَ برسالة عامة فى الزمان وفى المكان إلى أنْ تقوم الساعة ، فلا بُدَّ أن تكون متاعبك مثل متاعب مَنْ سبقوك جميعاً .

﴿فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا (٣٦)﴾

الخطاب فى ﴿اذْهَبَا .. (٣٦)﴾ [الفرقان] للرسول موسى ، وللوزير هارون وقال : ﴿إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا .. (٣٦)﴾ [الفرقان] مع أن فيهم مَن ادعى الألوهية استمراراً لإرخاء العنَان للخَصْم ، فقد كذّب فرعون بأن من آيات الله أن يؤمن بإله واحد .

ثم كانت النهاية ﴿فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا (٣٦)﴾ [الفرقان] لأنهم وقفوا من موسى وهارون موقفَ العداء ، وقامت بينهما معركة تدخل فيها الحق سبحانه ، ودمرهم تدميراً ، كأن الحق سبحانه يقول لرسوله : اطمئن فإنْ حادوا عن جادة الحق وأبَوْا أنْ يأتوك طائعين ، فسوف تكون نهايتهم كنهاية هؤلاء .

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا (٣٧)﴾

ذكر الحق - تبارك وتعالى - نوحاً بعد موسى عليهما السلام ؛ لأن كلاً منهما تميَّز فى دعوته بشىء ، وتحمَّل كل منهما ألواناً من المشقة ، فموسى واجه مَن ادعى الألوهية ، ونوح أخذ سُلْطة زمنية واسعة انتظمتْ كل الموجودين على الأرض فى وقته - ولا يعنى هذا أنه - عليه السلام - أُرسل إلى الناس كلهم ، إنما كان قومه هم الموجودون على الأرض فى هذا الوقت - فقد لَبِثَ فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً .

واقرأ قصته - عليه السلام - فى سورة نوح لتقف على مدى معاناته فى دعوة قومه طوال هذه الفترة ، ومع ذلك ما آمن معه إلا قليل ، وكانت الغَلَبة له فى النهاية .

وأيضاً لأنه ـ عليه السلام ـ تعرّض لأمر يتعلق بالبنوة ، بُنوّة فى المنهج ، وبُنوة فى النسب ، فقد كان ابنه ـ نسباً ـ كافراً ، ولم يتمكن من هدايته ، ولما قال لربه عز وجل ﴿إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي .. (٤٥)﴾ [هود] قال له : ﴿يَـٰنُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ .. (٤٦)﴾ [هود]

فجعل حيثية النفى ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ .. (٤٦)﴾ [هود] فالنسب هنا عمل وطاعة ، فكأن البنوة للأنبياء بنوة عمل ، لا بنوة نسب ، فابنك الحق مَنْ سار على منهجك ، وإنْ لم يكُنْ من دمك .

مسألة أخرى نلحظها فى الجمع بين موسى ونوح عليهما السلام فى مقام تسلية رسول الله ﷺ ، فهما يشتركان فى ظاهرة كونية تستحق التأمل والنظر ، فكل مظاهر الكون التى أمامنا لو حققنا فى كل مظهر من مظاهرها بعقل وتُؤدَة ويقين لأمكَننا أن نستنبط منها ما يُثرى حياتنا ويُترِفها ويُسعدها .

لذلك الحق ـ تبارك وتعالى ـ ينعى على الذين يُعرضون عن النظر فى آياته ، فيقول : ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥)﴾ [يوسف]

وسبق أن قلنا : إن كل المخترعات التى رفَّهتْ حياة الناس وأسعدتهم ، وقلّلت مجهوداتهم ، وقصّرت الوقت عليهم ، كانت نتيجة الملاحظة والتأمل فى مظاهر الكون كالذى اخترع العجلة والبخار .. إلخ .

وهنا نلاحظ أن العلاقة بين موسى ونوح ـ عليهما السلام ـ أن الله تعالى يُهلك ويُنجى بالشىء الواحد ، فالماء الذى نجَّى موسى هو الماء الذى أغرق فرعون ، والماء الذى نجَّى نوحاً هو الماء الذى أغرق

الكافرين من قومه . فهذا تسلية لرسول الله ﷺ ، فالله تعالى إنْ أراد الإنجاء يُنجِّى ، وإنْ أراد الإهلاك يُهلِك ، ولو بالشىء الواحد .

ألاَ ترى أن أصحاب موسى حينما رأوا البحر من أمامهم ، وفرعون من خلفهم قالوا ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١)﴾ [الشعراء] فهذه حقيقة وقضية كونية مَنْ يملك ردّها ؟ إنما ردها موسى فقال (كَلاَّ) لن نُدرَك ، قالها بملء فيه ، لا ببشريته ، إنما بالربوبية التى يثق فى أنها لن تسلمه ، ﴿قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢)﴾ [الشعراء]

وكذلك كانت مسألة نوح عليه السلام ، لكن بطريقة أخرى ، هى السفينة ، وفكرة السفينة لم تكُنْ موجودة قبل نوح عليه السلام ، ألم يصادف واحد شجرة مُلْقاة فى الماء تطفو على سطحه ، ففكّر فى ظاهرة الطفو هذه ، وكيف أن الشجرة لم تغطس فى الماء ؛ لقد كان النجارون الماهرون يقيسون كثافة الخشب بأن يُلْقوه فى الماء ، ثم ينظروا مقدار الغاطس منه فى الماء ، وعليه يعرفون كثافته .

هذه الظاهرة التى تنبه لها أرشميدس وبنَى عليها نظرية الأجسام الطافية والماء المُزَاح ، وتوصّل من خلالها إلى النقائض ، فبها تطفو الأشياء أو تغوص فى الماء ، إنْ زادت الكثافة يثقل الشىء ويغوص فى الماء ، وإنْ قلَّتْ الكثافة يطفو .

وتلاحظ ذلك إذا رميتَ قطعة نقود مثلاً ، فإنها تغطس فى الماء ، فإنْ طرقتَها حتى جعلتها واسعةَ الرقعة رقيقة ، فإنها تطفو مع أن الكتلة واحدة ، نعم الكتلة واحدة ، لكن الماء المُزَاح فى الحالة الثانية أكثر ، فيساعد على طفْوها .

وقد أراد الحق ـ تبارك وتعالى ـ أن يُنبِّه الإنسان إلى هذه الظواهر ، ويهديه إلى صناعة السفن التى تحمله فى الماء ؛ لأن ثلاثة

أرباع الكرة الأرضية مياه ، وقد جعل الله لك وسائل مواصلات فى الربع ، ألاَ يجعل لك مواصلات فى الثلاثة أرباع ؛ فتأخذ خيرات البحر ، كما أخذت خيرات البَرِّ ؟

وتأمل أسلوب القرآن : ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ .. (٣٧)﴾ [الفرقان] ومعلوم أنهم كذَّبوا رسولهم نوحاً لا جميع الرسل ، قالوا : لأن النبوة لا تأتى بمتعارضات ، إنما تأتى بأمور مُتفق عليها ؛ لذلك جعل تكذيبَ رسول واحد كتكذيب جميع الرسل .

ثم ذكر عاقبة ذلك : ﴿أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً .. (٣٧)﴾ [الفرقان] وكلمة ﴿أَغْرَقْنَاهُمْ .. (٣٧)﴾ [الفرقان] تعنى : أن الذى أغرق المكذبين نَجَّى المؤمنين ، وإغراق المكذبين أول عملية تردُّ على سخريتهم من نوح ، حينما مرُّوا عليه وهو يصنع السفينة : ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (٣٨)﴾ [هود]

ولم يكن الغرق نهاية الجزاء ، إنما هو بدايته ، فهناك العذاب الذى ينتظرهم فى الآخرة : ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا (٣٧)﴾ [الفرقان] وهكذا جمع الله عليهم الغرق فى الدنيا والحرق فى الآخرة .

ثم يضرب الحق ـ تبارك وتعالى ـ لرسوله مثلاً آخر :

﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾﴾

إنها نماذج من المتاعب التى لاقاها الرسل من أممهم ، كما قال فى موضع آخر : ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا .. (٦٥)﴾ [الأعراف] . ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا .. (٧٣)﴾ [الأعراف]

وكانت النهاية أن نصر الله أولياءه ورسله ، ودحر خصومهم والمكذِّبين بهم ، كل ذلك ليقول لرسوله ﷺ : يا محمد لست بدعاً من الرسل ، فإنْ وقف منك قومك موقفَ العناد والتكذيب ، فكُنْ على يقين وعلى ثقة من نصر الله لك كما قال :

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) ﴾ [الصافات]

إنها قضية يطلقها الحق ـ تبارك وتعالى ـ لا للتأريخ فقط ، ولكن لتربية النفس البشرية ، فإنْ أردتَ الغلبة فكُنْ فى جند الله وتحت حزبه ، ولن تُهزَم أبداً ، إلا إذا اختلّتْ فيك هذه الجندية ، ولا تنْسَ أن أول شىء فى هذه الجندية الطاعة والانضباط ، فإذا هُزِمْتَ فى معركة فعليك أن تنظر عن أىٍّ منهما تخليْتَ .

لذلك رأينا فى غزوة أحد أن مخالفة الرماة لأمر رسول الله قائد المعركة كانت هى سبب الهزيمة[1] ، وماذا لو انتصروا مع مخالفتهم لأمر الرسول ؟ لو انتصروا لَفهموا أنه ليس من الضرورى الطاعة والانقياد لأمر رسول الله . إذن : هذا دليل على وجوب الطاعة ، وألاَّ يخرجوا عن جندية الإيمان أبداً خضوعاً وطاعة ، ولا تقولوا : إن الرسول بيننا فهو يُربيكم ؛ لأنه لن يخلد فيكم .

---

(١) أمَّر رسول الله ﷺ على الرماة عبد الله بن جبير ، والرماة خمسون رجلاً ، فقال له ﷺ : « أنضح عنا الخيل بالنبل لا يأتوننا من خلفنا إن كانت لنا أو علينا فاثبت مكانك لا نؤتين من قبلك » [دلائل النبوة ٣/٢٢٧] وفى رواية أخرى (٣/٢٢٩) : أن النبى ﷺ قال لهم : « إذا رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم هذا حتى أرسل إليكم وإن رأيتمونا هزمنا القوم وأوطأناهم فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم . ثم لاحت لهم الغنائم ، فقال الرماة : الغنيمة ، ظهر أصحابكم فما تنظرون ؟ قال عبد الله بن جبير : أنسيتم ما قال لكم رسول الله ﷺ ؟ فقالوا : لنأتين الناس فلنصيبن من الغنيمة ، فأتوهم فصرفت وجوههم ، فأقبلوا منهزمين » .

وقوله تعالى : ﴿وَأَصْحَابَ الرَّسِّ .. (٣٨)﴾ [الفرقان] الرسّ : هو البئر أو الحفرة ، وكانت فى اليمامة ، ويُسمُّونها الأخدود ، وقد ورد ذكرها فى سورة البروج .

وقد قال سبحانه هنا : ﴿وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا (٣٨)﴾ [الفرقان] لم يُرِد الحق سبحانه أنْ يُعدِّد كل الأمم السابقة ، واكتفى بذكْر نماذج منها ، وفى مواضع أخرى يجمعهم جملةً ، فيقول تعالى : ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا[1] وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا .. (٤٠)﴾ [العنكبوت]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا (٣٩)﴾

﴿وَكُلًّا .. (٣٩)﴾ [الفرقان] أى : كُلٌّ من المتقدمين ﴿ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ .. (٣٩)﴾ [الفرقان] يَعنى : لم أدع رسولاً إلا وجئتُ له بالعبرة برسول قبله ، أقول له : انظر فيمَنْ سبقك كيف كذَّبه قومه ؟ وكيف عاندوه ووقفوا منه هذا الموقف ، ومع ذلك كانت له الغلبة عليهم ؛ ذلك ليأخذ كُلُّ نبى شحنةَ مناعة وطاقة يصمد بها أمام شدائد الدعوة ، فلا يلين ، ولا ييأس ، ولْيكُنْ على يقين أن النهاية له وفى صالحه .

﴿وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا (٣٩)﴾ [الفرقان] أى : أهلكنا ودمرنا كل من كذَّب الرسل بأنواع مختلفة ومتعددة من ألوان العذاب ، فعوقب بعضهم بالصيحة أو الخسف أو الإغراق أو بالريح الصرصر العاتية .

---

(١) حصبه : قذفه بالحصى . والحاصب : إعصار شديد يقذفكم بالحصى فيهلككم والرياح العاصفة تفعل أكثر من ذلك . [القاموس القويم ١/١٥٦] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا (٤٠)﴾ (١)

هذه المشاهد لم تكن مجرد تاريخ يحكيه القرآن ، إنما مشاهد ومَرَاءٍ رآها كفار مكة فى رحلة الصيف يمرون على هذه الديار ، كما قال سبحانه فى موضع آخر : ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٣٨)﴾ [الصافات] إذن : فهذا التاريخ له واقع يسانده ، وآثار تدل عليه .

والقرية التى أُمطرتْ مطر السَّوْء هى سدوم قرية قوم لوط ﴿أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا .. (٤٠)﴾ [الفرقان] ألم يشاهدوها فى أسفارهم .

﴿بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا (٤٠)﴾ [الفرقان] كلمة (بَلْ) للإضراب ، فهى تنفى ما قبلها ، وتُثبت ما بعدها ، فالمعنى : أنهم مَرُّوا عليها وشاهدوها ، ويَعْرفونها تمام المعرفة ، لكنهم لا يرجُونَ نُشُوراً يعنى : لا ينتظرون البعث ، ولا يؤمنون به ، ولا يعترفون بالوقوف بين يدى الله للحساب ، ألم يقولوا : ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٨٢)﴾ [المؤمنون]

وعجيبٌ ألاَّ يؤمنَ هؤلاء بالبعْث والحساب ، وهم أنفسهم كانوا إذا رأَوْا ظالماً وقفوا فى وجهه ومنعوه من الظلم ، كما كان فى حِلْف

---

(١) المقصود بهم مشركو قريش ، فقد كانوا فى الصيف يمرون على قرية قوم لوط فى رحلتهم إلى الشام فى الصيف .

الفضول مثلاً ، فيأخذون الظالم ويعاقبونه حتى يرجع عن ظُلْمه ، ثم يردُّون للمظلوم حقَّه ، لكن ألم ينظروا فى حال الظالمين الذين مرُّوا فى الدنيا دون عقاب ، ودون قصاص ؟ أليس من العدل أن تكون لهم دَارٌ أخرى يُحاسبون فيها ؟

لذلك كنا نردُّ على الشيوعيين بهذه المسألة ، نقول لهم : لقد عذبتُمْ أعداءكم من الإقطاعيين والرأسماليين ، وانتقمتُم منهم فما بال الذين سبقوكم ولم تدركوهم ؟ أليس من العدل أنْ تعترفوا بيوم جامع يُحاسب فيه هؤلاء ؟

ولما قال القائل : لن يموت ظلوم حتى ينتقم الله منه ، قالوا له : إن فلاناً الظالم قد مات ، ولم نَرَ فيه شيئاً ، فقال : إن وراء هذه الدار داراً يُجازى فيها المحسن بإحسانه ، والمسىء بإساءته .

وبعد أن عرض الحق ـ تبارك وتعالى ـ بعض النماذج من موكب النبوات تسليةً لرسوله ﷺ يُبيِّن أن الأمر مع هؤلاء الكفار لن يتوقف عند العنَاد والتعنّت بمطالب سخيفة ، إنما يتعدَّى ذلك إلى محاولة الاستهزاء به والسخرية منه ، فقال سبحانه :

﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ ﴾

(إنْ) نافية بمعنى : ما يتخذونك إلا هُزُواً ، ثم ذكر صيغة الاستهزاء : ﴿ أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ ﴾ [الفرقان] وفى موضع آخر قالوا : ﴿ أَهَٰذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ .. ﴿٣٦﴾ ﴾ [الأنبياء] كأنه ﷺ دون هذه المنزلة ، وما دام الرسول فى نظرهم دون هذه المنزلة

فإنهم يريدون شخصاً على مستوى المنزلة ، كما قالوا : ﴿لَوْلا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١)﴾ [الزخرف]

ومعنى هذا أنهم مؤمنون بضرورة وجود إله ورسول ومنهج ، وكل اعتراضهم أن تكون الرسالة فى محمد بالذات .

ثم يتناقضون مع أنفسهم ، فيقولون :

﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا (٤٢)﴾

فكيف تستهزئون به وترَوْنه دون مستوى الرسالة ، ثم تقولون إنه كاد أنْ يُضلكم عن آلهتكم يعنى : قَرُبَ أنْ يُضلّكم عن آلهتكم ، مع ما أنتم عليه من التعنّت والعناد ؟ هذا دليل وشهادة لرسول الله أنه قويٌّ وأنه على مستوى الرسالة ، وأنه لم يدخر وُسْعاً فى دعوتكم ، حتى كاد أنْ يصرفكم عن آلهتكم .

والدليل على أنهم كانوا يخافون من تأثير رسول الله عليهم قولهم لأتباعهم إذا رأوهم يستمعون للقرآن : ﴿لا تَسْمَعُوا لِهَـٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (٢٦)﴾ [فصلت] إذن : يريدون أنْ يُشوِّشوا على القرآن لما يعلمون من تأثيره فى النفوس ، وهم أمة فصاحة وبلاغة ، فإنْ سمعوا القرآن فلا بُدَّ أن يُؤثِّر فى قلوبهم ويجذبهم إليه .

ألا ترى قصة إسلام عمر - رضى الله عنه - وكيف كان قبل الإسلام شديداً جباراً ؟ فلما تهيأت له الفرصة فاستمع للقرآن وصادف منه ملكةً سليمة وفطرة نقية ، حيث أعاده حادث ضَرْبه

لأخته وشَجِّه لها ، أعاده إلى سلامة الفطرة والطويّة ، فلما سمع منها القرآن وصادف منه قلباً نقياً وفطرة سليمة تأثر به ، فأسرع إلى رسول الله يعلن إسلامه .

إذن : فقولكم : ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا .. (٤٢)﴾ [الفرقان] دليل على أنه كُفْء للمهمة التى بعث بها ، وهذا يناقض قولكم سخريةً منه واستهزاءً : ﴿أَهَـٰذَا الَّذِى بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً (٤١)﴾ [الفرقان]

وقولهم : ﴿لَوْلا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا .. (٤٢)﴾ [الفرقان] يدل على أنه ﷺ فعل معهم أفعالاً اقتضتْ منهم أنْ يصبروا[1] على الضلال ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً (٤٢)﴾ [الفرقان] سيعرفون ذلك ، لكن بعد فوات الأوان ، وبعد ألاَّ تنفعهم هذه المعرفة .

﴿أَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا (٤٣)﴾

الحق - تبارك وتعالى - يضع لرسوله ﷺ قضية ، هى أن الدين إنما جاء ليعصم الناس من أهواء الناس ، فلكُلِّ نفس بشرية هَوىً ، وكل إنسان يعجبه هواه ، وما دام الأمر كذلك فلن ينقاد لغيره ؛ لأن غيره أيضاً له هوىً ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَـٰوَاتُ وَالأَرْضُ .. (٧١)﴾ [المؤمنون]

لكن ، لماذا تختلف الأهواء ؟ قالوا : لأن طبيعة الحياة تتطلب أن تكون الأهواءُ مختلفةً ؛ لأن مجالات الحياة متعددة ، فهذا هواه فى كذا ، وهذا هواه فى كذا . فترى الصَّديقَيْن يلازم أحدهما الآخر ، ويشاركه طعامه وشرابه ، فلا يفرقهما شىء ، فإذا ما ذهبا لشراء

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٤٩١١/٧) : « أى : حبسنا أنفسنا على عبادتها » .

شىء ما تباينتْ أهواؤهما ، كما أن هوىً مختلفاً يخدم هوىً مختلفاً ، فالذين اختلفوا مثلاً فى تصميم الأشياء يخدمون اختلاف الأذواق والأهواء ، لذلك يقولون : خلاف هو عَيْن الوفاق ، ووفاق هو عَيْن الخلاف .

وقد ضربنا لذلك مثلاً بسيطاً : هَبْ أنك دخلتَ مطعماً ، وأنت تفضل مثلاً ورك الدجاجة وغيرك كذلك يفضله ، وصادف أن فى المطعم (وركاً) واحداً ، فلا شكَّ أنكما ستختلفان عليه . إذن : اتفقتما فى الأول لتختلفا فى الآخر ، لكن إن اختلفتْ رغباتكما ، فسوف ينتج عن هذا الاختلاف اتفاقٌ فى النهاية ، فأنت ستأخذ الورك ، وغيرك سيأخذ الصدر ، فهذا ـ إذن ـ خلاف يؤدى إلى وفاق ، ووفاق يؤدى إلى خلاف .

هنا يقول الحق سبحانه : ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَـٰهَهُ هَوَاهُ .. (٤٣)﴾ [الفرقان] الهَوَى . أن تكون هناك قضية ظاهرٌ فيها وَجْه الحق ، إلا أنك تميلُ عنه وأنت تعرفه ، لا أنك تجهله .

لذلك يقول العلماء : آفةُ الرأْى الهوى . فالرأى قد يكون صائباً ، لكن يميل به الهوى حيث يريد الإنسان ، وقلنا : لا أدلّ على ذلك من أن الرجل منهم كان يسير فيجد حجراً أجمل من حَجره الذى يعبده ، فيلْقى الإله الذى يعبده ليأخذ هذا الذى هو أجمل منه فيتخذه إلهاً ، إذن : هواه فى جمال الحجر غلب أنه إله .

وقد وقف المستشرقون عند قوله تعالى فى حَقِّ النبى ﷺ : ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣)﴾ [النجم]

يقولون : كيف يحكم الله بأن رسوله لم ينطق عن الهوى ، وقد عدَّل الله له بعض ما نطق به ، مثل قوله تعالى : ﴿يَـٰأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ

تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ .. (١) ﴾ [التحريم]

وقال تعالى : ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ .. (٤٣) ﴾ [التوبة]

ولا بُدَّ أن نُحدِّد مفهوم الهوى أولاً : أنت مدرك أن لديه قضيتين : الحق واضح فى إحداهما ، إلا أن هواه يميل إلى غير الحق . إنه ﷺ نطق لأنه لم تكن هناك قضية واقعة ، وهو يعرف وجه الحق فيها ، فهو - إذن - لم يَسِرْ على الهوى ، إنما على ما انتهى إليه اجتهاده .

ألاَ ترى قوله تعالى لرسوله ﷺ فى مسألة تبنِّيه لزيد بن حارثة ﴿ ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ .. (٥) ﴾ [الأحزاب] فمعنى أن نسبته لأبيه أقسط أن رسول الله لم يكُنْ جائراً ، فما فعله قِسْط ، لكن فِعْل الله أقسط منه .

فالحق - تبارك وتعالى - لم يُخطِّىء رسوله ﷺ ، وسمّى فعْله عدلاً ، وهو عَدْل بشرى يناسب ما كان من تمسُّك زيد برسول الله ، وتفضيله له على أهله ، فلم يجد رسول الله أفضلَ من أنْ يتبنَّاه مكافأةً له .

ثم يقول سبحانه : ﴿ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً (٤٣) ﴾ [الفرقان] وكيلاً يتولَّى توجيهه ، ليترك هواه ويتبع الحق ، كما قال سبحانه فى موضع آخر : ﴿ لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ (٢٢) ﴾ [الغاشية] وقال : ﴿ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٩٩) ﴾ [يونس] وقال : ﴿ إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاغُ .. (٤٨) ﴾ [الشورى]

فالذى اتبع هواه حتى جعله إلهاً له لا يمكن أنْ تحمله على أنْ

يعدل عن هواه ؛ لأن الأهواء مختلفة ، فالبعض يريد أنْ يتمتع بجهد غيره ، فيضع يده فى جيوب الآخرين ليسرقهم ، لكن أيسرُّه أن يفعل الناسُ معه مثلَ فعْله معهم ؟ إذن : هوى صادمَ هوى ، فأيُّهما يغلب ؟ يغلب مَنْ يحكم بلا هوى ، لا لك ولا عليك ، وقضية الحق فى ذاتها لا توجد إلا من الله تعالى .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾ ﴾

﴿ يَسْمَعُونَ .. ﴿٤٤﴾ ﴾ [الفرقان] أى : سماع تعقُّل وتدبُّر ، فلو سَمعُوا وعَقلوا ما وصلتْ بهم المسائل إلى هذا الحدِّ ﴿ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ .. ﴿٤٤﴾ ﴾ [الفرقان] مع أن الأنعام مُسخَّرة وتُؤدِّى مهمتها ولم تمتنع عن شىء خُلقَتْ له ، فقد شبَّههم الله بالأنعام ؛ لأن الأنعام لا يُطلب منها أن تَسمع الهداية لأنها مُسخَّرة ، والذى يُطلب منه السماع والهداية هو المخيَّر بين أن يفعل أو لا يفعل .

كأن الحق سبحانه يقول : أتظن أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ؟ وكلمة ﴿ أَكْثَرَهُمْ .. ﴿٤٤﴾ ﴾ [الفرقان] تدل على أن بعضهم يسمع ويعقل ، وهذا من قانون الاحتمال ، فكثير من كفار قريش ناصبوا رسول الله العداء ، وانتهى الأمر بهم إلى أنْ أسلموا وحَسُن إسلامهم ، إذن : كان فيهم مَنْ يسمع ، ومَنْ يفكر ويعقل ؛ لذلك قال ﴿ أَكْثَرَهُمْ .. ﴿٤٤﴾ ﴾ [الفرقان] ليحمى هذا الحكم ، وليحتاط لما سيقع من إيمان هؤلاء البعض ، هذا دِقَّة فى تحرِّى الحقيقة .

وسبق أنْ ذكرنا ما كان من أسف المؤمنين حين يفوتهم قَتْل أحد صناديد الكفر فى المعركة ، فكانوا يألمون لذلك أشدَّ الألم ، وهم لا يدرون أن حكمة الله كانت تدخرهم للإيمان فيما بعد ، ومنهم خالد ابن الوليد الذى أصبح بعد ذلك سيف الله المسلول .

والأنعام قُلْنا : لا دخلَ لها فى مسألة الهداية أو الضلال ؛ لأنها مُسخَّرة لا اختيارَ لها ؛ لذلك ضرب الله بها المثل لليهود : ﴿كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا .. (٥)﴾ [الجمعة] فالحمار مهمته أنْ يحمل فحسب ، أمّا أنت أيها اليهودى فمهمتك أن تحمل وتطبق ، الحمار لا يطبق ؛ لأنه لم يُطلب منه ذلك ، مع أن الحيوان يعرف صاحبه ويعرف طعامه ومكان شرابه ، ويعرف طريقه ومكان مبيته ، حتى أن أحدهم مات على ظهر جواده ، فسار به الجواد إلى بيته .

إذن : فالأنعام تفهم وتعقل فى حدود المهمة التى خلقها الله لها ، ولا تُقصِّر فى مهمتها ، أما المهمة الدينية فتعلمها فى باطن الأمر ، لكن لا يُطلَب منها شىء الآن ؛ لأنها انتهتْ من هذه المسألة أولاً ، كما قال سبحانه وتعالى :

﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً (٧٢)﴾ [الأحزاب]

فاختاروا أن يكونوا مُسيَّرين بالغريزة محكومين بها ، إذن : فلهم اختيار ، لكن نفّذوا اختيارهم جملةً واحدة من أول الأمر .

خُذْ مثلاً الهدهد وهو من المملوكات التى سخّرها الله لسليمان ـ عليه السلام ـ يقول له : ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (٢٢)﴾ [النمل] أىُّ ديمقراطية هذه التى تمتَّع بها الهدهد مع سليمان .؟! إذن : فحتى الحيوانات تعرف هذه القضية ، وإنْ لم يُطلَب

منها شيء ، والحيوانات لا يمكن أنْ تفعل شيئاً إلا إذا كان منوطاً بغرائزها وفى مقدورها .

وسبق أنْ ضربنا مثلاً بالحمار ، إذا أردتَ منه أن يقفز فوق جدول ماء فإنه ينظر إليه ، فإنْ كان فى مقدوره قفزَ ، وإنْ كان فوق مقدوره تراجَع ، ولا يمكن أنْ يُقدم مهما ضربته ؛ لأنه علم بغريزته أنه فوق إمكاناته ، أما الإنسان فقد يُقدم على مثل هذا دون حساب للإمكانات ، فيُوقع نفسه فيما لا تُحمد عقباه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ﴾

الحق ـ سبحانه وتعالى ـ وهو خالق الآيات فى الكون يُنبِّه إليها الخَلْق ، وكان من المفروض ممَّن يرى الآيات أنْ يتنبه إليها بدون أنْ يُنبه ، فإذا رأى عجيبة من عجائب الكون تأملها ، وسبق أنْ ضربنا لذلك مثلاً بمَن انقطعت به السُّبل فى صحراء شاسعة ، ليس بها أنيس ولا حياة ، وقد بلغ به الجهد حتى نام ، فلما استيقظ وجد مائدة عليها أطايب الطعام أو الشراب ، بالله قبل أنْ تمتدَّ يده إلى الطعام ، أليس من المفروض أنْ يفكر فى هذا الطعام ، مَنْ أتى به ؟ وأعدَّه على هذه الصورة ؟

إذن : فى الكون آياتٌ كان يجب أنْ تشدَّ انتباهك لتبحث فيها وفى آثار وجودها وكلها آيات عالية عنّا وفوق إمكاناتنا : الشمس والقمر ، الهواء والمطر .. إلخ . ومع ذلك لم يتركك الله ؛ لأن تتنبه أنت ، بل نبَّهك ولفتَك وجذب انتباهك لهذه ولهذه .

وهنا ، الحق ـ تبارك وتعالى ـ يعرض الآيات والكونيات التى يراها الإنسان برتابة كل يوم ، يراها الفيلسوف كما يراها راعى الشاة ، يراها الكبير كما يراها الصغير كل يوم على نظام واحد ، لا يكاد يلتفت إليها .

يقول سبحانه : ﴿أَلَمْ تَرَ .. (٤٥)﴾ [الفرقان] أى : ألم تعلم ، أو ألم تنظر إلى صَنْعة ربك ﴿كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ[1] سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً (٤٥)﴾ [الفرقان] نعم نرى الظل ، فما هو ؟ الظل أنْ يَحْجب شىء كثيف على الأرض ـ مثل جبل أو بناء أو شجرة أو نحوه ـ ضوءَ الشمس ، فتظهر منطقة الظل فى المكان المُشْمس ، فالمسألة ـ إذن ـ متعلقة بالشمس ، وبالأرض التى نعيش عليها .

وقد علمنا أن الأرض كرة تواجه الشمس ، فالجهة المواجهة منها للشمس تكون مُضَاءة ، والأخرى تكون ظلاماً لا نقول ـ ظلاً ، فما الفرق بين الظلِّ والظلام ؟ قالوا : إذا كان الحاجبُ لضوء الشمس من نفس الأرض فهى ظُلْمة ، وإنْ كان الحاجب شيئاً على الأرض فهو ظل .

والظل نراه فى كل وقت ، وقد ورد فى عدة مواضع من كتاب الله ، فقال سبحانه : ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلالٍ وَعُيُونٍ (٤١)﴾ [المرسلات]

وقال : ﴿لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلاًّ ظَلِيلاً (٥٧)﴾ [النساء]

وقال : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلالُهُ .. (٤٨)﴾ [النحل]

ينبهنا ربنا ـ تبارك وتعالى ـ إلى مهمة أخرى من مهام الظل ، وهى أنه يحمينا من وَخْزة الشمس وحرارتها ، ويرتقى الإنسان فى استخدام الظل فيجعله كما قال تعالى ﴿ظِلاًّ ظَلِيلاً (٥٧)﴾ [النساء] أى :

---

(١) أى : دائماً مستقراً لا تنسخه الشمس . قاله القرطبى فى تفسيره (٧/٤٩١٤) .

أن الظل نفسه مُظلِّل ، فيجعلون الخيمة مثلاً لها سقفان منفصلان حتى لا يتأثر داخلُ الخيمة بالحرارة خارجها .

لذلك تجد ظل الشجرة ألطفَ من ظلِّ الحائط مثلاً أو المظلة ؛ لأن أوراق الشجرة يُظلِّل بعضها بعضاً ، فالظل يأتيك من مُظلل آخر ، فتشعر تحت ظل الشجرة وكأنك فى (تكييف) ؛ لأن الأوراق تَحجب عنك حرارة الشمس ، فى حين تسمح بمرور الهواء ، كما قال الشاعر فى وصف دوحة :

يصدُّ الشمسَ أنَّى وَاجَهتْنَا فَيحْجُبُها وَيَأْذَنُ لِلنَّسِيمِ

وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا[1] الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ .. (١٧١) ﴾[الأعراف]

وحين تتأمل هذه الظاهرة ساعةَ طلوع الشمس ترى الشىء الكثيف الذى يحجب ضوء الشمس يطول ظلُّه إلى نهاية الأفق ، ثم يأخذ فى القصر كلما ارتفعتْ الشمس إلى أنْ يصير فى زوال ، ثم ينعكس الظلَ مع ميل الشمس ناحية الغرب فيطول إلى نهاية الأفق .

والحق ـ تبارك وتعالى ـ يريد منا أن نلاحظ هذه الظاهرة ، وأنْ نتأملها ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ .. (٤٥) ﴾ [الفرقان] أى : ساعة طلوع الشمس ﴿ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا .. (٤٥) ﴾ [الفرقان] لأن مشيئة الله تستطيع أن تخلق الشىء ونقيضه ، فإنْ شاءَ مَدَّ الظل ، وإنْ شاء أمسكه .

---

(١) نتقه نتقاً : رفعه من مكانه وحرَّكه وجذبه . [القاموس القويم ٢/٢٥٢] . قال ابن عباس : رفعته الملائكة فوق رؤوسهم . وذكر سنيد بن داود فى تفسيره أن الله أوحى إلى الجبل فانقلع فارتفع فى السماء حتى إذا كان بين رؤوسهم وبين السماء قال لهم موسى : ألا ترون ما يقول ربى عز وجل ، لئن لم تقبلوا التوراة بما فيها لأرمينكم بهذا الخيط . [تفسير ابن كثير ٢/٢٦١] .

ولكنه يتغير : ينقص فى أول النهار ، ويزيد فى آخره وكل ما يقبل الزيادة يقبل النقص ، والنقص أو الزيادة حركة ، وللحركة نوعان : حركة قَفْزية كحركة عقرب الدقائق فى الساعة ، فهو يتحرك بحركة قفزية ، وهى أنْ يمرَّ على المتحرك وقت ساكن ثم يتحرك ، إنما أتدرك ذلك فى حركة عقرب الساعات ؟ لا ؛ لأنه يسير بحركة انسيابية ، بحيث توزع أجزاء الحركة على أجزاء الزمن .

ومثَّلْنا هذه الحركة بنمو الطفل الصغير الذى لا تدرك حركة نموه حالَ نظرك له منذ ولادته ، إنما إنْ غبْتَ عنه فترة أمكنك أنْ تلاحظ أنه يكبر ويتغير شكله ؛ لأن نموه مُوزَّع على فترات الزمن ، لا يكبر هكذا مرة واحدة . فهى مجموعات كبَر تجمعتْ فى أوقات متعددة ، وليس لديك المقياس الدقيق الذى تلاحظَ به كبر الطفل فى فترة قصيرة .

وإذا كنا نستطيع إجراء هذه الحركة فى الساعات مثلاً ، فالحق - تبارك وتعالى - يُحدثها فى حركة الظل وينسبها لعظمها إلى نفسه تعالى ؛ لأن الظل لا يسير بحركة ميكانيكية كالتى تراها فى الساعة إنما يسير بقدرة الله .

والحق سبحانه يلفتنا إلى هذه الظاهرة ، لا لأنها مجرد ظاهرة كونية نراها ونتعجب منها ، إنما لأننا سنستغلها وننتفع بها فى أشياء كثيرة .

فقدماء المصريين أقاموا المسلات ليضبطوا بها الزمن عن طريق الظل ، وصنع العرب المسلمون المزْولة لضبط الوقت مع حركة الشمس ، ونرى الفلاح البسيط الآن ينظر إلى ظل شىء ويقول لك : الساعة الآن كذا ؛ لأنه تعوَّد أن يقيس الوقت بالظل ، مع أن مثل هذا التقدير يكون غير دقيق ؛ لأن للشمس مطالعَ متعددة على مرِّ أيام العام ؛ لذلك فى أحد معابد الفراعنة معبد به ٣٦٥ طاقة ، تدخل الشمس كل يوم واحدة منها .

إذن : أفادنا الظل فى المسلات والمزاول ، ومنها انتقل المسلمون إلى عمل الساعات ، وأولها الساعة الدقاقة التى كانت تعمل بالماء ، وقد أهدوْا شارلمان ملك فرنسا واحدة منها فقال : إن فيها شيطاناً ، هكذا كان المسلمون الأوائل .

وقوله تعالى : ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً (٤٥)﴾ [الفرقان] أى : أن الضوء هو الذى يدل على الظلِّ .

﴿ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا (٤٦)﴾

الحق - تبارك وتعالى - يُبيِّن الحركة البطيئة للظل فيقول : ﴿قَبْضًا يَسِيراً (٤٦)﴾ [الفرقان] لا تدركه أنت أبداً ؛ لأن فى كل لحظة من لحظات الزمن حركة فلا يخلو الوقت مهما قَلَّ من الحركة ، لكن ليس لديك المقياس الذى تدرك به بُطْءَ هذه الحركة .

وقوله : ﴿قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا .. (٤٦)﴾ [الفرقان] دليل على أن المسألة ليست ميكانيكا ، إنما هى بقيومية الله تعالى ؛ لذلك فكأن الحق سبحانه يقول : يا عبادى ناموا ملْءَ جفونكم ، فربُّكم قيُّوم على مصالحكم لا ينام .

وأهل المعرفة يستنبطون من ظاهرة الظل أسراراً ، فيرونَ أن ظلَّ الأشياء الشاهقة المتعالية يخضع لله تعالى ، ويسجد على الأرض ، رغم أنه مُتعال شامخ ، كما جاء فى قوله سبحانه : ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ (١٥)﴾ [الرعد]

وقال سبحانه : ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ .. (٤١)﴾ [النور] فللظل حركة بطيئة لا يعلمها إلا الله ؛ لأنك لا تدرك مدى صغَرها ؛ لذلك قُلْنا فى الهباء : إنه نهاية ما يمكن أن يكون من التفتيت المنظور .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ ﴾

﴿ اللَّيْلَ .. ﴿٤٧﴾ ﴾ [الفرقان] يعنى : الظلْمة لا الظل ، فالظلمة هى التى منعتْ النور ، وإياك أن تظن أن الظلمة ضد النور ، وتحاول أنت أن تنسخ الظلمة بنور من عندك ، وهذه آفة الحضارة الآن أنْ جعلتَ الليل نهاراً .

وقد تنبه العلماء أخيراً إلى مدى ضرر الأشعة على صحة الإنسان ، لذلك جاء فى الحديث الشريف : « أطفئوا المصابيح إذا رقدتم »[1] فالشعاع له عمل وقت حركتك ، لكن ساعة نومك وراحتك ليس له مهمة ، بل هو ضار فى هذا الوقت .

والحق - تبارك وتعالى - يمتنُّ علينا بالليل والنهار ، فيقول : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا[2] إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [القصص]

إذن : فلليل مهمة ، وللنهار مهمة يُوضِّحها هنا الحق سبحانه بقوله : ﴿ وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا .. ﴿٤٧﴾ ﴾ [الفرقان] أى : ساتراً ،

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٦٢٤) ، وأحمد فى مسنده (٣/٣٨٨) عن جابر بن عبد الله واللفظ للبخارى .

(٢) السرمد : الدائم الذى لا ينقطع . والسرمد : دوام الزمان من ليل أو نهار . [لسان العرب - مادة : سرمد] .

كما أن اللباس يستر الجسم ، والنوم ردع ذاتى يقهر الكائن الحى ، وليس ردعاً اختيارياً .

لذلك تلاحظ أنك إنْ أردت أنْ تنامَ فى غير وقت النوم تتعب وترهق ، أمّا إنْ أتاك النوم فتسكن وتهدأ ، ومن هنا قالوا : النوم ضيف ثقيل إنْ طلبته أَعْنَتكَ ، وإنْ طلبك أراحك .

لذلك ساعة يطلبك النوم تنام ملْء جفونك ، ولو على الحصى يغلبك النوم فتنام ، وكأن النوم يقولَ لك : اهمد واسترح ، فلم تَعُدْ صالحاً للحركة ، أما مَنْ غالب هذه الطبيعة فأخذ مثلاً حبوباً تساعده على السهر ، فإنْ سهر ليلة نام بعدها ليلتين ، كما أن الذى يغالب النوم تأتى حركته مضطربة غير متوازنة .

فعليك - إذن - أن تخضع لهذه الطبيعة التى خلقك الله عليها وتستسلم للنوم إنْ ألحَّ عليك ، ولا تكابر لتقوم فى الصباح نشيطاً وتستأنف حركة حياتك قوياً صالحاً للعمل وللعطاء .

وللصوفية فى النوم مَلْحظ دقيق يُبْنَى على أن الكون كله غير المختار مُسبِّح لربه ، كما قال تعالى : ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ .. (٤١)﴾ [النور] وعليه ، فذرات الكافر فى ذاتها مؤمنة ، يؤلمها ويغيظها أن صاحبها عَاص أو كافر فتطيعه ، وهى كارهة لفعله بدليل أنها ستشهد عليه يوم القيامة ، فإنْ كانت مُسخَّرة لمراداته فى الدنيا فإنها ستتحرر من هذه الإرادة فى الآخرة .

فاللسان مُسخَّر لصاحبه ، إنْ شاء نطق به الشهادتين ، وإنْ شاء نطق به كلمة الكفر ؛ لأنه مقهور لإرادته ، أما فى القيامة فلا إرادة إلا للحق تبارك وتعالى .

وفى النوم ترتاح هذه الجوارح وهذه الذرات من سيئات صاحبها ومن ذنوبه ، تستريح من نكده وإكراهه لها على معصية الله . فالنوم

رَدْع طاقىّ ، فلم يَعُد الإنسان صالحاً للحركة ، ولا للتعايش السالم مع جوارحه ، لقد كثُرتْ ذنوبه ومعاصيه حتى ضاقتْ بها الجوارح ، فيأتى النوم ليريحها .

وهذه الظاهرة نشاهدها مثلاً فى موسم الحج ، يقول لك الحاج : يكفينى أنْ أنامَ فى اليوم ساعة أو ساعتين لماذا ؟ لأن السيئات فى هذا المكان قليلة ، فجوارحك فى راحة وانسجام معك فلا تحملك على النوم ، أمّا العاصى فلا يكفيه أن ينام عشر ساعات ؛ لأن جوارحه وأعضاءه مُتْعَبة متضايقة من أفعاله .

وهذه نُفسِّر بها أن رسول الله ﷺ كانت تنام عيناه ولا ينام قلبه[1] ذلك لأن جوارحه ﷺ تصحبه خير صُحْبة ، فهى فى طاعة دائمة مستمرة ، فكيف تحمله على أنْ ينام ؟

والخالق ـ عز وجل ـ يعامل الناس على المعنى العام ، فالنفوس دائماً ميَّالة للشر جانحة للسوء ؛ لذلك تتعب الطاقة وتتعب الجوارح ، وكأن الله تعالى يريد إحداث هُدْنة للتعايش بينك وبين جوارحك ، نَمْ لتصبح نشيطاً .

ومعنى ﴿وَالنَّوْمَ سُبَاتًا .. (٤٧)﴾ [الفرقان] السَّبْت أى : القطْع . فمعنى ﴿سُبَاتًا .. (٤٧)﴾ [الفرقان] يعنى : قاطعاً للحركة ، لا انقطاعاً نهائياً ، إنما انقطاعاً مُسْتأنفاً لحركة أفضل ، وبدن أقوى وأصحّ ، فالذى يقضى ليله ساهراً يقوم من نومه مُتْعباً مُضطرباً ، على خلاف مَنْ جعل وقت النوم للنوم ؛ لأن الخالق عز وجل جعل نومك بالليل على قَدْر ما تتحرك بالنهار ، فإنْ أردتَ حركة مُتزنة نشيطة وقوية فنَمْ على مقدار هذه الحركة .

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٥٦٩) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٧٣٨) كتاب صلاة المسافرين . أن رسول الله ﷺ قال : « يا عائشة ، إن عينىَّ تنامان ، ولا ينام قلبى » .

وقوله تعالى : ﴿وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا (٤٧)﴾ [الفرقان] النشور مثل الشُّكور : ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُورًا (٩)﴾ [الإنسان] أى : شكر ، وكذلك النشور أى نشر ، والنشر يعنى الانطلاق فى الأرض بالحركة ، كما فى قوله تعالى : ﴿فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ .. (١٠)﴾ [الجمعة]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا (٤٨)﴾

قلنا : إن الرياح إذا جاءت هكذا بصيغة الجمع دلَّتْ على الخير ، وإنْ جاءتْ مفردة فهى آتية بالشر ، وإذا نظرتَ إلى الجبال العالية وإلى ناطحات السحاب تقول : ما الذى يقيم هذه المبانى العالية ، فلا تميل ؟ الذى يمسكها هو الهواء الذى يحيط بها من كل ناحية ، ولو فرَّغْتَ الهواء من أحد نواحيها تنهار فوراً .

إذن : فالريح من هنا ، ومن هنا ، ومن هنا ، فهى رياح متعددة تُصلِح ولا تُفسد ، وتُحدث هذا التوازن الذى نراه فى الكون ، أمّا الريح التى تأتى من ناحية واحدة فهى مدمرة مهلكة ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ[1] عَاتِيَةٍ (٦)﴾ [الحاقة]

وقال الحق سبحانه وتعالى : ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤)﴾ [الأحقاف]

ومعنى ﴿بُشْرًا .. (٤٨)﴾ [الفرقان] بسكون الشين ، مع أنها فى

(١) الريح الصرصر : شديدة البرد . وقيل : شديدة الصوت . [لسان العرب ـ مادة : صرر] .

الأصل بُشُراً مثل رُسُل ، فلما خُفِّفَتْ صارت بُشْراً ، والبُشْرى هى الإخبار بما يسرُّ قبل زمنه ، فلا تقول يبشرْ إلا فى الخير ، وكان العربى ساعة تمر عليه الرياح يعرف كم بينه وبين المطر ، فيحكم على مجىء المطر بحركة الرياح الطرية التى تداعب خدّه .

وقوله سبحانه : ﴿بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ .. (٤٨)﴾ [الفرقان] يقال : بين يديك يعنى : أمامك . والمراد هنا المطر الذى يسبق رحمة الله .

ثم يقول تعالى : ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا (٤٨)﴾ [الفرقان] السماء لها معنى لُغوى ، ومعنى شرعى . فهى لغةً : كل ما علاك ، وشرعاً : هى هذه السماء العالية والتى تتكون من سبع سموات ، لكن أينزل المطر من السماء أم من جهة السماء ؟

المطر ينزل من الغمام من جهة السماء ، والغمام أصله من الأرض نتيجة عملية البخر الذى يتجمع فى طبقات الجو ، كما قال سبحانه :

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي(١) سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ(٢) يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ .. (٤٣)﴾ [النور]

إذن : فرحمة الله هى الماء الذى خلق الله منه كلّ شىء حىٍّ .

---

(١) أزجى الشىء : يسوقه برفق ، فيزجى سحاباً : أى يسوقه إلى حيث يشاء . [القاموس القويم ١/٢٨٤ ، تفسير القرطبى ٦/٤٨٢٥] .

(٢) فى الودق قولان :

الأول : أنه البرق . قاله أبو الأشهب العقيلى .

الثانى : أنه المطر . قاله الجمهور . [تفسير القرطبى ٦/٤٨٢٦] وقد ذكر السيوطى القولين أيضاً فى [الدر المنثور ٦/٢١١] الأول عن أبى بجيلة وعزاه لابن أبى حاتم ، والثانى عن الضحاك ومجاهد . عند ابن أبى حاتم وابن أبى شيبة .

وقوله تعالى : ﴿مَاءً طَهُورًا (٤٨)﴾ [الفرقان] الطَّهُور : الماء الطاهر فى ذاته ، المطهِّر لغيره ، فالماء الذى تتوضأ به طاهر ومطهر ، أما بعد أنْ تتوضأ به فهو طاهر فى ذاته غير مُطهِّر لغيره ، وماء السماء طاهر ومُطهر ؛ لأنه مُصفّى مُقطّر ، والماء المقطر أنقى ماءٍ .

بالإضافة إلى أن الماء قوَام الحياة ، منه نشرب ونسقى الزرع والحيوان والطير ، فالماء يعطيك الحياة ويعطيك الطهارة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿لِّنُحْيِيَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا (٤٩)﴾

قوله تعالى : ﴿بَلْدَةً مَّيْتًا .. (٤٩)﴾ [الفرقان] أى : أرض بلدة مَيْت ، وفرْق بين ميْت ومَيِّت : الميْت هو الذى مات بالفعل ، والمَيِّت هو الذى يؤول أمره إلى الموت ، وإنْ كان ما يزال على قيد الحياة ، ومن ذلك قوله تعالى مخاطباً نبيه ﷺ : ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ (٣٠)﴾ [الزمر]

والأرض الميْتة هى الجرداء الخالية من النبات ، فإذا نزل عليها الماء أحياها بالنبات ، كما فى قوله سبحانه : ﴿وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٥)﴾ [الحج]

وقوله تعالى : ﴿وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا (٤٩)﴾ [الفرقان] يُقال سقاه وأسقاه : أسقاه : أعدَّ له ما يستقى منه ، وإنْ لم يشرب الآن ، لكن سقاه يعنى : ناوله ما يشربه ، ومن ذلك قوله سبحانه : ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا (٢١)﴾ [الإنسان]

أمّا فى المطر فيقول سبحانه : ﴿فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ .. (٢٢)﴾ [الحجر] أى : أعددناه لِسُقْياكم إنْ أردتم السُّقْيا .

ومعنى ﴿وَأَنَاسِيَّ .. ﴿٤٩﴾﴾ [الفرقان] جمع إنسان ، وأصلها أناسين ، وخُفِّفَتْ إلى أناسىّ .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾﴾ (١)

التصريف : التحويل والتغيير ، والمعنى حَوّلناه من هنا إلى هنا . ومع كل هذه العبر والآيات ﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾﴾ [الفرقان] فالكافرون بآيات الله كثير لا يلتفتون إلى آيات الله ، حتى بعد أنْ تقدَّم العلم وتقدَّمتْ الحضارة الإنسانية ، ووقف الناس على كثير من الآيات .

فالحق - تبارك وتعالى - يُصرِّف المطر إلى بلاد بغزارة ، فإنْ شاء أصابها الجفاف والجدب حتى تموت مزروعاتهم وحيواناتهم . إذنْ : ليست المسألة بيئة باردة أو كثيرة الأمطار ، إنما المسألة مرادات خالق ، ومرادات حق .

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾﴾

يريد الحق - تبارك وتعالى - أن يمتنّ على رسوله ﷺ منَّةً ،

---

(١) « قال عكرمة : يعنى الذين يقولون : مطرنا بنوء كذا وكذا ، وهذا الذى قاله عكرمة كما صح فى الحديث المخرّج فى صحيح مسلم عن رسول الله ﷺ أنه قال لأصحابه يوماً على إثر سماء أصابتهم من الليل : أتدرون ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « أصبح من عبادى مؤمن بى وكافر ، فأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذاك مؤمن بى كافر بالكوكب ، وأما من قال مطرنا بنوء كذا وكذا فذاك كافر بى مؤمن بالكوكب » . [تفسير ابن كثير ٣/٣٢١] .

فيقـول له : المسألة ليست قلةَ رسل عندنا حـتى نرسل رسولاً للناس كافة وللزمن كله ، ونحن نستطيع أن نُخفِّف عنك ونبعث فى كل قرية رسولاً يُخفِّف عنك عبء الرسالة ، لكنّا نريد لك أنْ تنال شرف الجهاد وشرف المكافحة ، فجمعناها كلها لك إلى أنْ تقوم الساعة .

ونستفيد من هذه المسألة أن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ حين يَهَبُ الطاقـات لا يعنى هذا أن الطاقـة هى التى تحكم قـدرته فى الأمـر أن يبعث فى كل قرية رسولاً ، إنما يـقدر أن يرسل رسولاً ويعطيه طاقة تتحمل هذا كله .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ ﴾

أى : ما دُمْنا قد جـمعنا لك كل القرى ، وحمّلناك الرسـالة العامَة فى كل الزمان وفى كل المكان ، فعليك أن تقف الموقف المناسب لهذه المهمة ﴿ فَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ .. ﴿٥٢﴾ ﴾ [الفرقان] إنْ لوَّحُوا لك بالملك أو بالمال أو بالجـاه والشرف ، واعلم أن ما أعده الله لك ومـا ادخره لك فوق هذا كله .

وحين يقـول سبحـانه لرسوله ﷺ ﴿ فَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ .. ﴿٥٢﴾ ﴾ [الفرقان] فإنه يعذره أمامهم ، فالرسول ينفذ أوامر الله .

وَنَهْى الرسول عن طاعة الكافرين لا يعنى أنه ﷺ يـطيعهم ، فهذه كقوله تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا .. ﴿١٣٦﴾ ﴾ [النساء] فكيف يطلب الإيمان ممَّنْ ناداهم بالإيمان ؟ إنه تحـصيل حاصل . قالوا : المعنى : أنت آمنتَ قـبل أن أقـول لك هذه الكلمـة ، وأقولهـا لك الآن لتُـواصل

إيماناً جديداً بالإيمان الأول ، وإياك أنْ ينحلّ عنك الإيمان . إذن : إذا طُلِب الموجود فالمراد استدامة الوجود .

وقوله تعالى : ﴿وَجَاهِدْهُم بِهِ .. (٥٢)﴾ [الفرقان] أى : بما جاءك من القرآن ﴿جِهَادًا كَبِيرًا (٥٢)﴾ [الفرقان] واعلم أنك غالب بأمر الله عليهم ، ولا تقُلْ : إن هناك تيارَ إشراك وكفر وإيمان ، وسوف أعطيك مثلاً كونياً فى أهم شىء فى حياتك ، وهو الماء :

﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا (٥٣)﴾ (١) (٢)

تأتى هذه الآية استمراراً لذكْر بعض آيات الله فى الكون التى تلفت نظر المكابرين المعاندين لرسول الله ، وسبق أنْ ذكر سبحانه : الظل والليل والرياح .. الخ إذن : كلما ذكر عنادهم يأتى بآية كونية ليلفتهم إلى أنهم غفلوا عن آيات الله ، وجدالهم مع رسول الله يدل على أنهم لم يلتفتوا إلى شىء من هذا ؛ لذلك ذكر آية كونية من آيات الله المرئية للجميع ومكررة ، وعليها الدليل القائم إلى يوم القيامة ، فقال تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ .. (٥٣)﴾ [الفرقان]

المَرْج : المرعى المباح ، أو الكلأ العام الذى يسوم فيه الراعى ماشيته تمرح كيف تشاء.

فمعنى ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ .. (٥٣)﴾ [الفرقان] أى : جعل العَذْب والمالح يسيران ، كُلٌّ كما يشاء ، لذلك تجد البحار والمحيطات المالحة التى تمثل

---

(١) مرج : أرسلهما وأفاض أحدهما فى الآخر . قاله مجاهد . وقال ابن عرفة : أى خلطهما فهما يلتقيان . وقال الأزهرى : مرج البحرين . خلَّى بينهما . [تفسير القرطبى٧/٤٩٣٤] .

(٢) الأجاج : الملح الشديد الملوحة . أجَّ الماء : اشتدت ملوحته . [القاموس القويم ١/ ٧] .

ثلاثة أرباع اليابسة ليس لها شكل هندسى منتظم ، بل تجده تعاريج والتواءات ، وانظر مثلاً إلى خليج المكسيك أو خليج العقبة ، وكأن الماء يسير على (هواه) ودون نظام ، فلا يشكل مستطيلاً أو مربعاً أو دائرة .

وكذلك الأنهار التى تولدتْ من الأمطار على أعلى الجبال ، فتراها حين تتجمع وتسير تسير كما تشاء ، ملتوية ومُتعرِّجة ؛ لأن الماء يشقُّ مجراه فى الأماكن السهلة ، فإنْ صادفته عقبة بسيطة ينحرف هنا أو هناك ، ليكمل مساره ، وانظر إلى التواء النيل مثلاً عند (قنا) .

إذن : الماء عَذْبٌ أو مالح يسير على هواه ، وليست المسألة (ميكانيكا) ، وليست منتظمة كالتى يشقُّها الإنسان ، فتأتى مستقيمة .

ونلحظ هذه الظاهرة مثلاً حينما يقضى الإنسان حاجته فى الخلاء ، فينزل البول يشقّ له مجرىً فى المكان الذى لا يعوقه ، فإنْ صادفته حصاة مثلاً انحرف عنها كأنه يختار مساره على هواه .

والبحر يقال عادة للمالح وللعذب على سبيل التغليب ، كما نقول الشمسان للشمس والقمر .

ومرْج البحرين آية كونية تدل على قدرة الله ، فالماء مع ما عُرف عنه من خاصية الاستطراق ـ يعنى : يسير إلى المناطق المنخفضة ، يسير المالح والعذب معاً دون أن يختلط أحدهما بالآخر ، ولو اختلطا لَفَسدا جميعاً ؛ لأن العَذْب إنْ خالطه المالح أصبح غيْرَ صالح للشرب ، وإنْ خالط المالح العذب فسد المالح ، وقد خلقه الله على درجة معينة من الملوحة بحيث تُصلحه فلا يفسد ، وتحفظه أن يكون آسناً .

فالماء العذب حين تحصره فى مكان يأسن[1] ويتغير ، أمّا البحر

---

(١) أسن الماء يأسن : تغيرت رائحته فهو آسن . [القاموس القويم ١/ ٢٠] .

فقد أعدَّه الله ليكون مخزن الماء فى الكون ومصدر البَخْر الذى تتكون منه الأنهار ؛ لذلك حفظه ، وجعل بينه وبين الماء العذب تعايشاً سِلْمياً ، لا يبغى أحدهما على الآخر رغم تجاورهما .

وقوله تعالى : ﴿هَـٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ .. (٥٣)﴾ [الفرقان] أى : مُفرِط فى العذوبة مستساغ ، ومن هذه الكلمة سَمَّوْا نهر الفرات لعذوبة مائه ، فلَيس المراد بالفرات أن الماء كماء نهر الفرات ؛ لأن الكلمة وُضِعت أولاً ، ثم سُمِّىَ بها النهر ، ذلك لأن القرآن هو كلام الله الأزلى .

﴿وَهَـٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ .. (٥٣)﴾ [الفرقان] أى : شديد الملوحة ، ومع ذلك تعيش فيه الأسماك والحيوانات المائية ، وتتغذى عليه كما تتغذى على الماء العَذْب ، كما قال سبحانه : ﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا .. (١٢)﴾ [فاطر]

ثم يقول سبحانه : ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا (٥٣)﴾ [الفرقان] البرزخ : شىء بين شيئين ، وأصل كلمة برزخ : اليابسة التى تفصل بين ماءين ، فإن كان الماء بين يابستين فهو خليج .

﴿وَحِجْرًا مَّحْجُورًا (٥٣)﴾ [الفرقان] الحِجْر : هو المانع الذى يمنع العَذْب والمالح أنْ يختلطا ، والحِجْر نفسه محجور ، مبالغة فى المنع من اختلاط الماءيْن ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا (٤٥)﴾ [الإسراء]

ومثل قوله تعالى : ﴿ظِلاًّ ظَلِيلاً (٥٧)﴾ [النساء]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾﴾

وفى آية عامة عن الماء ، قال تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ .. ﴿٣٠﴾﴾ [الأنبياء] يعنى : كل شىء فيه حياة فهو من الماء ، لا أن الماء داخل فى كل شىء ، فالمعنى : ﴿كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ .. ﴿٣٠﴾﴾ [الأنبياء] أى : كل شىء موصوف بأنه حى ، فالماء - إذن - دليل الحياة ؛ لذلك إذا أراد العلماء أن يقضوا على الميكروبات أو الفيروسات جعلوا لها دواءً يفصل عنها المائيةَ فتموت .

والإنسان الذى كرَّمه الله تعالى وجعله أعلى الأجناس ، خلقه الله من الماء ، ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا .. ﴿٥٤﴾﴾ [الفرقان] وفى موضع آخر قال سبحانه : ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ[1] ﴿٧﴾﴾ [الطارق] وهو ماء له خصوصية ، وهو المنىُّ الذى قال الله فيه : ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾﴾ [القيامة]

والبشر أى : الإنس ﴿فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا .. ﴿٥٤﴾﴾ [الفرقان] فمن الماء خلق الله البشر ، وهم قسمان : ذكور وإناث ، فكلمة (نَسَباً) تعنى : الذكورة (وَصِهْراً) تعنى : الأنوثة ؛ لأن النسب يعنى انتقال الأدنى من الأعلى بذكورة ، فيظل الإنسان فلان بن فلان بن فلان..الخ .

---

(١) الترائب : عظام الصدر . [القاموس القويم ١/٩٩] . قال ابن عباس : هذه الترائب . ووضع يده على صدره . وعنه أيضاً : تربية المرأة موضع القلادة . [تفسير ابن كثير ٤/٤٩٨] .

فالنسب يأتى من ناحية الذكورة ، أما الأنوثة فلا يأتى نسب ، إنما مصاهرة ، حينما يتزوج رجل ابنتى ، أو أتزوج ابنته ، يُسمُّونه صِهْرا .

لذلك قال الشاعر :

وَإِنَّما أُمَّهَاتُ القَوْمِ أَوْعِيَة مُسْتَحدثَات ولِلأَحْسَابِ آبَاءُ

فمن عظمة الخالق ـ عز وجل ـ أن خلق من الماء هذيْن الشيئين ، كما قال فى موضع آخر : ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ (٣٩)﴾ [القيامة]، وقد توصَّل العلماء مُؤخّراً إلى أن بويضة الأنثى لا دَخْلَ لها فى نوع الجنين ، وما هى إلا حاضنة للميكروب الذَّكَرى الآتى من منىّ الرجل .

وهذا معنى قوله تعالى : ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ (٣٨) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ (٣٩)﴾ [القيامة]

فالذكَر والأنثى كلاهما من المنىّ ، والذى يُطلق عليه العلماء الآن (الإكس ، والإكس واى) فالحيوان المنوىّ يخرج من الرجل ، منه ما هو خاص بالذكورة ، ومنه ما هو خاص بالأنوثة ، ثم تتم عملية انتخاب للأقوى الذى يستطيع تلقيح البويضة .

وهذه الظاهرة واضحة فى النحل ، حيث تضع الملكة البيض ، ولا يُخصِّبها إلا الأقوى من الذكور ، لذلك تطير الملِكة على ارتفاعات عالية ، لماذا ؟ لتنتخب الأقوى من الذكور .

كذلك الميكروب ينزل من الرجل ، والأقوى منه هو الذى يستطيع أن يسبق إلى بويضة المرأة ، فإنْ سبق الخاص بالذكورة كان ذكراً ، وإنْ سبق الخاص بالأنوثة كان أنثى ، والحق سبحانه قال : ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ (٣)﴾ [الأعلى]

وبهذه الآية الكونية فى خَلْق الإنسان نرد على الذين يحلو لهم أن يقولوا : إن الإنسان خُلق صُدْفة ، فإذا كان الإنسان ذكراً وأنثى بينهما مواصفات مشتركة وأجهزة ومُقوِّمات واحدة ، إلا أن الذكَر يختلف فى الجهاز التناسلى وكذلك الأنثى ، فهل يُردّ هذا إلى الصدفة ؟

ومعلوم أن الصُّدْفة من أعدائها الاتفاق ، فإذا جاء الذكَر صدفة ، وجاءت الأنثى كذلك صدفة ، فهل من الصدفة أن يلتقيا على طريقة خاصة ، فيثمر هذا اللقاء أيضاً ذكورة وأنوثة ؟! إذن: المسألة ليست مصادفةً ، إنما هى غاية مقصودة للخالق عزوجل .

ثم يقول سبحانه فى ختام الآية ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيراً (٥٤)﴾ [الفرقان] وذكر سبحانه القدرة هنا ؛ لأن هذه مسألة دقيقة لا تحدث إلا بقدرة الله تعالى .

وقد فَطن العرب حتى قبل نزول القرآن إلى هذه العملية بالفطرة ، فهذه زوجةَ أبى حمزة تعاتبه ؛ لأنه تركها وتزوج من أخرى ، لأنها لم تَلِدْ له ذَكَراً ، فتقول :

مَا لأَبِى حَمْزَةَ لاَ يَأْتِينَا ... غَضْبَان أَلاَّ نَلِدَ البَنِينَا
تَاللَّه مَا ذَلكَ فى أَيْدِينَا ... فَنَحْنُ كَالأَرْضِ لِغَارِسِينَا
نُعطِى لَهُمْ مِثْلَ الذى أُعْطِينَا

وهذه المسألة التى فَطِن إليها العربى القديم لم يعرفها العلم إلا فى القرن العشرين .

وبعد هذه الآية الكونية يعود ـ سبحانه وتعالى ـ إلى خطابهم مرة أخرى لعل قلوبهم ترقّ ، فالحق ـ تبارك وتعالى ـ يتعهدهم مرة بالنُّصح ، ومرة بإظهار آياته تعالى فى الكون .

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾ ﴾

يعنى : أيليق بهم بعد أنْ أوضحنا لهم كلَّ هذه الآيات أنْ يلتفتوا إلى غير الله ، ويقصدوه بالعبادة ؟

وقوله تعالى : ﴿ مَا لا يَنفَعُهُمْ وَلا يَضُرُّهُمْ .. ﴿٥٥﴾ ﴾ [الفرقان] البعض يرى أن هذه الآلهة نعم لا تنفع لكنها تضر ، نقول لهم : هى لا تنفع ، ولا تضر ، أمَّا الذى يضر فهو الإله الحق الذى انصرفوا عنه إلى عبادة غيره ، والمعنى هنا : ﴿ مَا لا يَنفَعُهُمْ .. ﴿٥٥﴾ ﴾ [الفرقان] إنْ عبدوه ﴿ وَلا يَضُرُّهُمْ ﴿٥٥﴾ ﴾ [الفرقان] إنْ كفروا به وتركوه .

والقرآن يُسمِّى فعلهم مع هذه الآلهة عبادة ، وهم أنفسهم يقولون : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ .. ﴿٣﴾ ﴾ [الزمر]

إذن : أثبتوا لهم عبادة ، والعبادة طاعة العابد للمعبود فيما يأمر به ، وفيما ينهى عنه ، فما الذى أمرتْهم به الأصنام ؟ وما الذى نهتْهم عنه ؟ فكلمة عبادة هنا خطأ ، وهم ما عبدوا هذه الآلهة إلا لأنها لا أوامر لها ولا التزام معها ، فتديّنهم تديّن (فنطزية) .

وما أسهلَ أن تعبد إلهاً لا يأمرك ولا ينهاك ، والذى يكرهونه فى التديُّن الحقيقى أنه التزام وتكليف : افعل كذا ، ولا تفعل كذا .

لذلك ترى المسرفين على أنفسهم من خَلْق الله يتمنى كلٌّ منهم أن يكون هذا الدين كذباً ، لماذا ؟ ليسيروا على هواهم ، ويعملوا ما يحلو لهم . كذلك رأينا الدجالين الذين ادَّعَوْا النبوة بداية من

مسيلمة وسجاح[١] ، كيف كانوا يجذبون الناسَ إليهم ؟ كانوا يجذبونهم بتخفيف الأوامر وتبسيط الدين ، ولما شقَّتْ الزكاة على البعض أسقطوها من حسابهم ، وأعفَوْا الناس منها .. إلخ .

ولكل زمان دجالون يناسبون العصر الذى يعيشون فيه ، وفى عصرنا الحاضر دجالون يُخفِّفون عنك الدين ويُطوِّعونه لأهواء الناس ورغباتهم ، فلا مانع عندهم من الاختلاط ، ولا بأس فى أن ترتدى المرأة من اللباس ما تشاء .. إلى آخر هذه المسائل .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾﴾ [الفرقان]

الظهير : هو المعين ، كما ورد فى قوله سبحانه وتعالى : ﴿ ..وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾﴾ [التحريم]

وكانوا فى الماضى يحملون الأحمال على الظَّهْر قبل اختراع آلات الحمل ، وحتى الآن نرى (الشيالين) يحملون الأثقال على ظهورهم ، ويخيطون لهم (ظهرية) يرتدونها على ظهورهم ؛ لتحميهم ساعة حَمْل الأثقال ، وإذا أراد أحدهم معاونة الآخر يقول له : أعطنى ظهرك ، فكان الظهر إذن بهذا المعنى .

---

(١) هى : سجاح بنت الحارث بن سويد التميمية ، من بنى يربوع ، أم صادر ، كانت شاعرة أديبة عارفة بالأخبار ، ادعت النبوة بعد وفاة النبى ﷺ وكانت فى بنى تغلب بالجزيرة ، وتبعها جمع من عشيرتها ، فأقبلت تريد غزو أبى بكر ، فالتقت بمسيلمة وتزوج بها ، ثم انصرفت راجعة إلى أخوالها بالجزيرة ، ثم بلغها مقتل مسيلمة ، فأسلمت وهاجرت إلى البصرة وتوفيت فيها ، وصلى عليها سمرة بن جندب والى البصرة لمعاوية . توفيت ٥٥هـ (الأعلام للزركلى ٣/٧٨) .

والظهر أيضاً يقتضي العلو ، ومنه قوله تعالى عن السد الذى بناه ذو القرنين : ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ﴿٩٧﴾﴾ [الكهف] يعنى : ما استطاعوا اعتلاءه .

لكن ، كيف يكون الكافر ظهيراً على الله ؟ قالوا : لأنه يفعل المعصية ، ويتخذ أُسْوة فيها يُقلده الناس ، ولو كان طائعاً لكان أُسْوة خير ونموذجَ صلاحٍ ، فالكافر أسوة شر ، وأسوة فساد ، وهو شيطان الإنس الذى يوازى شيطان الجن الذى عصى ربه ، ورفض السجود لآدم .

وتوعَّد ذريته حين قال : ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [الحجر]

وكلٌّ من شياطين الجن وشياطين الإنس يستعين بالنفس فيُسلِّطها على صاحبها حتى تُوقعه ، فالإنسان حينما يستمع لنداء الشيطان ، سواء شيطان الإنس أو شيطان الجن ويطيعه بعمل المخالفة ، فإنه يُعينه على الله ، والمعنى الصحيح : على معصيةِ الله .

كما أن الظهير يُطلق على مَنْ جعلْتَه وراء ظهرك ، لا تأبه به ، ولا تلتفت إليه ، ومنه قول العرب : (لا تجعلنَّ حاجتى منك بظهر) يعنى : اجعلها أمام عينيك لا تطوها وراء ظهرك[1] .

إذن : فكلاَ المعنيين جائز : ظهيراً أى : مُعيناً ، كأن الحق - تبارك وتعالى - يقول لنبيه ﷺ : اعلم يا محمد أن الكافر ظهير على الله ، فقفْ له بالمرصاد ، وجاهده ما استطعتَ ، فكأنه تعالى يُحمِّس

---

(١) قال ابن منظور فى لسان العرب - مادة : ظهر « يُقال للشىء الذى لا يُعنى به : قد جعلت هذا الأمر بظهر ، ورميته بظهر . وقولهم : لا تجعل حاجتى بظهر أى : لا تنسها . ومنه قوله تعالى : ﴿وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا .. ﴿٩٢﴾﴾ [هود] وهو استهانتك بحاجة الرجل . وجعلنى بظهر أى : طرحنى » .

رسوله ليقف هذا الموقف ، ويُشجِّعه ليكون من عدوه على حَذَر وعلى يقظة .

أو : ظهيراً لا يُؤبه له ، وهذا طمأنة لرسول الله ، فالكافر هَيِّن على الله ، فلا يهمك كيدهم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ ﴾

صحيح أن الله تعالى قال لرسوله ﷺ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا النَّبِىُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ..﴿٧٣﴾ ﴾ [التوبة] لكن لا يعنى هذا أن يهلك رسول الله نفسه فى دعوتهم ، ويألم أشد الألم لعدم إيمانهم ؛ لأن مهمة الرسول البلاغ ، وقد أسف رسول الله لحال قومه حتى خاطبه ربه بقوله : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَـٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ ﴾ [الكهف]

وما أمره الله بجهاد الكفار والمنافقين إلا ليحفزه ، فلا يترك جُهْداً إلا بذله معهم ، وإلاّ فأنت عندى مُبشِّر ومُنذر ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا..﴿٥٦﴾ ﴾ [الفرقان] أى : بالخير قبل أوانه ليتلفت الناس إلى وسائله ﴿ وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ ﴾ [الفرقان] أى : بالشر قبل أوانه ليحذره الناس ، ويجتنبوا أسبابه ووسائله .

ثم يوجه رب العزة نبيه ورسوله ﷺ :

﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ ﴾

فى آية أخرى يقول تعالى : ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [الطور]

يعنى : غير قادرين على دَفْع الثمن ؛ لأنهم بخلاء وعندهم كزازة[1] ؟ أو لا يريدون أنْ يُخرِجوا من جيوبهم شيئاً تنتفع أنت به ؟ مع أنك لم تسألْهم أجراً ، فهل يعنى ذلك أن النبى كان من المفروض أن يسألهم أجراً ؟

قالوا : نعم ؛ لأنه إذا قدَّم إنسانٌ لإنسان شيئاً نافعاً ، فعليه أن يدفع له أجراً بمقتضى التبادل والمعاوضة ، وكأنه ﷺ يقول لهم : لقد قدَّمتُ إليكم جميلاً يفترض أن لى عليه أجراً ، لكنى لا أريد منكم أجراً ، والمسألة من عندى تفضُّل .

وما هو الأجر ؟ الأجر : جُعْلٌ يقابل عملاً ، والثمن : جعل يقابل تملُّكاً ، وقيمة هذا الجُعْل تختلف باختلاف مشقة العمل ، وطُول زمنه ، ومهارة العامل فيما يقتضيه العمل ومخاطر ما يقتضيه العمل .

فكل مسألة من هذه ترفع من قيمة الأجر ، فحين تسافر مثلاً تحتاج إلى (شيَّال) يحمل لك الحقائب ، فتعطيه الأجر الذى يتناسب ومجهوده ، فإن استأجرت سيارة وسرْتَ بها مسافة فلا بُدَّ أن الأجر سيزيد ؛ لأنه أخَذ مجهوداً ووقتاً أكثر ، فإن احتجتَ مثلاً سباكاً ليصلح لك شيئاً فسوف ترى ما فى هذا العمل من المشقة ، ولا تبخل عليه بأكثر من سابقيه .

وربما كان العمل فى نظرك بسيطاً لا يستغرق وقتاً ، لكنه يحتاج إلى مهارة ، هذه المهارة ليست وليدة اللحظة ، ولكنها مجهود ونتيجة

---

(١) الكَزّ : الذى لا ينبسط . ووجه كزٌّ : قبيح . ورجل كز : قليل الخير . والكزازة : اليُبْس والانقباض . [لسان العرب ـ مادة : كزز] .

عوامل من التعلُّم والخبرة حتى وصل صاحبها إلى هذه المهارة .

فالمهندس مثلاً الذى يُصمِّم لك منزلك فى ساعة أو ساعتين ، ومع ذلك يطلب مبلغاً كبيراً ، لماذا ؟ لأنه لا يتقاضى أجراً على هذا الوقت ، إنما على سنوات طويلة من الدراسة والمجهود والتحصيل ، حتى وصل إلى هذه المهارة .

إذن : كل أجر يُقدَّر بما يقابله من عمل ، ويتناسب مع ما يقتضيه العمل من وقت ومجهود ومشقة ومخاطرة ومهارة .. إلخ .

وإذا كان الأمر كذلك فانظروا إلى عمل الرسول وإلى مدى إفادتكم من رسالته ، انظروا إلى المنهج الذى جاءكم به ، وكيف أنه يريحكم مع أنفسكم ، ويريحكم مع المجتمع ، ويريحكم مع ربكم عز وجل ، ويريحكم من شرور أنفسكم ، ومن شرور الناس جميعاً .

إذن : للرسول عمل كبير ومجهود عظيم ، لو قدَّرْتَ له أجراً لكان كذلك عظيماً . إن الإنسان إذا أجَّر مثلاً حارساً يحرسه بالليل ، كم يدفع له ؟ فالنبى يأتيك بمنهج يحرسك ويحميك فى نفسك وفى مالك وفى عِرْضك وفى كل ما تملك ، ولا يحميك من فئة معينة إنما يحميك من الناس أجمعين .

بل إن حماية منهج الله لك لا تقتصر على الدنيا ، إنما تتعدَّى إلى الآخرة ، فتحميك فيها حماية ممتدة لا نهايةَ لها ، فإنْ قدَّرْت لهذه الحماية أجراً ، فكم يكون ؟

إنما أنا أقول لك : لا أريد أجراً ، لا كراهيةً فى الأجر ، بل لأنك أنت أيها الإنسان لا تستطيع تقدير هذا العمل أو تقييم الأجر عليه ، أمَّا الذى يُقدِّر ذلك فهو ربِّى الذى بعثنى ، وأنت أيها العبد مهما قدَّمْتَ لى من أجر على ذلك فهو قليل .

وحكينا قصة الرجل الطيب الذى قابلناه فى الجزائر ، يقف على الطريق يُلوِّح لسيارة تحمله ، فوقفنا وفتحنا له الباب ليركب معنا ، وقبل أن يركب قال : بكَمْ ؟ يعنى : الأجرة . فقال له صاحبى : لله ، فقال الرجل : إذن فهى غالية جداً . هذا هو المعنى فى قوله تعالى : ﴿ إِنْ أَجْرِىَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ.. (٢٩) ﴾ [هود]

وفى موضع آخر يقول سبحانه : ﴿إِنْ أَجْرِىَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٧٢) ﴾ [يونس] فما العلاقة بين الأجر وبين ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٧٢) ﴾ [يونس] ؟

كأن المسلم ينبغى عليه أن يعمل العمل ، لا لمن يعمل له ، ولكن يعمله لله ليأخذ عليه الأجر الذى يناسب هذا العمل من يده تعالى ، إنما إنْ أخذه من صاحبه فهو كالذى « فعل ليقال وقد قيل » وانتهتْ المسألة ، وربما حتى لا يُشكر على عمله .

لذلك وردتْ هذه العبارة على ألسنة كل الرسل : ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ..(١٠٩) ﴾ [الشعراء] وليس هناك آية طلب فيها الأجر الظاهر إلا هذه الآية التى نحن بصددها : ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلاَّ مَن شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً (٥٧) ﴾ [الفرقان]

وقوله تعالى : ﴿إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِى الْقُرْبَىٰ..(٢٣) ﴾ [الشورى]

ومعنى : ﴿ إِلاَّ مَن شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً (٥٧) ﴾ [الفرقان] أى : سبيلاً للمثوبة ، وسبيلاً للأجر من جهاد فى سبيل الله ، أو صدقة على الفقراء .. إلخ .

وقوله : ﴿إِلاَّ مَن شَاءَ..(٥٧) ﴾ [الفرقان] تدل على التخيير فى دَفْع الأجر ، فالرسول لا يأخذ إلا طواعية ، والأجر : ﴿أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً (٥٧) ﴾ [الفرقان] من الجهاد والعمل الصالح ، فكأن أجر الرسول

العمل للغير ، لتأخذ أنت الأجر من الله ، فالرسول لا يأخذ شيئاً لنفسه .

ونلحظ فى آيات الأَجْر أنها جاءت مرة ﴿أَجْرًا ..(٩٠)﴾ [الأنعام] ومرة[1] ﴿مِنْ أَجْرٍ ..(٥٧)﴾ [الفرقان] والبعض يرى أن (من) هنا زائدة ، وهذا لا يُقال فى كلام الله ، عَيْب أن نتهم كلام الله بأن فيه زيادة ، فكلُّ حرف فيه له معناه .

وسبق أن ضربنا لمنْ هذه مثلاً بقولنا : ما عندى مال ، وما عندى من مال . فالأولى نفَتْ أنْ يكون عندك مالٌ يُعتدُّ به ، لكن قد يكون عندك القليل منه ، أما القول الثانى فيعنى نَفْى المال مطلقاً بدايةً ممَّا يقال له مال ، إذن : فأيّهما أبلغ فى النفى ؟ فمِنْ هنا تفيد العموم .

لذلك يقول تعالى : ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ..(٧٢)﴾ [المؤمنون] لماذا ؟ لأنه سيعطيك ويُكافئك علىٰ قَدْره هو ، وبما يناسب جُودَه تعالى وكرمه الذى لا ينفد ، أما الإنسان فسيعطيك على قَدْره وفى حدود إمكاناته المحدودة .

ملْحظ آخر فى هذه المسألة فى سورة الشعراء ، وهى أحفَلُ السُّور بذِكْر مسألة الأجر ، حيث تعرَّضَتْ لموكب الرسل ، فذكرت ثمانية هم : موسى وهارون وإبراهيم ونوح وهود وصالح ولوط وشعيب .

---

(١) - وردت (أَجْراً) فى ٦ آيات : (الأنعام : ٩٠) ، (هود : ٥١) ، (يس : ٢١) ، (الشورى : ٢٣) ، (الطور : ٤٠) ، (القلم : ٤٦) .
- ووردت (من أجر) فى ١٠ آيات : (يونس : ٧٢) ، (يوسف : ١٠٤) ، (الفرقان: ٥٧) ، (الشعراء ، ١٠٩ ، ١٢٧ ، ١٤٥ ، ١٦٤ ، ١٨٠) ، (سبأ : ٤٧) ، (ص : ٨٦) .

تلحظ أن كل هؤلاء الرسل[١] قالوا : ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ [الشعراء] عدا إبراهيم وموسى عليهما السلام لم يقولا هذه الكلمة ، لماذا ؟

قالوا : لأنك حين تطلب أجراً على عمل قمتَ به لا يكون هناك ما يُوجب عليك أنْ تعمل له مجاناً ، فأنت لا تتقاضى أجراً إنْ عملتَ مثلاً مجاملةً لصديق ، وكذلك إبراهيم ـ عليه السلام ـ أول ما دعا إلى الإيمان دعا عمه آزر ، ومثل هذا لا يطلب منه أجراً ، وموسى عليه السلام أول ما دعا دعا فرعون الذى احتضنه وربَّاه فى بيته ، ولو طلب منه أجراً لقال له : أىّ أجر وقد ربَّيتك[٢] وو .. إلخ .

الآية الأخرى فى الاستثناء هى قوله تعالى : ﴿قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ..﴿٢٣﴾﴾[الشورى] فكأن المودة فى القربى أجر لرسول الله ﷺ على رسالته ، لكن أىُّ قُرْبى : قُرْبى النبى أم قُرْباكم ؟

لا شكَّ أن النبى الذى يجعل حُبَّ القريب للقريب ورعايته له هو أجره ، يعنى بالقُرْبى قُرْبى المسلمين جميعاً ، كما قال عنه ربُّه عزَّ وجلَّ : ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ..﴿٦﴾﴾ [الأحزاب]

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ ۚ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾﴾

---

(١) – قالها نوح فى : (يونس : ٧٢) ، (هود : ٢٩) ، (الشعراء : ١٠٩) .
– وقالها هود فى : (هود : ٥١) ، (الشعراء : ١٢٧) .
– وقالها صالح فى : (الشعراء : ١٤٥) .
– وقالها لوط فى : (الشعراء : ١٦٤) .
– وقالها شعيب فى : (الشعراء : ١٨٠) .

(٢) ورغم أن موسى عليه السلام لم يطلب منه أجراً ، لا مالاً وملكاً ولا غيره إلا أن فرعون امتن عليه بأنه الذى رباه ، فقال : ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾﴾ [الشعراء] .

الحق ـ تبارك وتعالى ـ يُطمئن رسوله ﷺ : يا محمد لا تهتم بكثرة الكفار ومكرهم بك وتعاونهم مع شياطين الإنس والجن ؛ لأن هؤلاء سيتساقطون ويموتون ، إما بأيديكم ، أو بعذاب من عند الله ، وعلى فَرْض أنهم عاشوا فلن تغلب قوتُهم وحِيلُهم قوة الله تعالى ومكره ، وإنْ توكلوا على أصنام لا تضر ولا تنفع ، فتوكل أنت على الله : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ.. (٥٨) ﴾ [الفرقان]

والعاقل لا يتوكل إلا على مَنْ يثق به ويضمن معاونته ، وأنه سيوافقك فى كل ما تريد ، لكن ما جدوى أنْ تتوكل على أحد ليقضى لك مصلحة ، وفى الصباح تسمع خبر موته ؟

وكأن الحق ـ تبارك وتعالى ـ يريد أن ينصِّح خَلْقه : إنْ أردتَ أنْ تتوكل فتوكل على مَنْ ينفعك ولا يتركك ، على مَنْ يظل على العهد معك لا يتخلى عنك ، على مَنْ لا يُعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء . هذه هى الفِطْنة .

لكن ما جدوى أن تتوكل على مَنْ ليس فيه حياة ؟ وعلى فرض أن فيه حياةً دائمة فلا تضمن ألاَّ يتغير قلبه عليك .

﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ ..(٥٨) ﴾ [الفرقان] سبِّح يعنى : نزِّه ، والتنزيه تضعه فى إطار ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ.. (١١) ﴾ [الشورى] فلله وجود ، ولك وجود ، لكن وجوده تعالى ليس كوجودك ، ولله صفة ولك نفس الصفة ، لكن صفته تعالى ليست كصفتك ، ولله تعالى فعل ، ولك فعل ، لكن فعله تعالى ليس كفعلك .

إذن : نزِّه الله فى ذاته ، وفى صفاته ، وفى أفعاله عن مشابهة الخَلْق ، وما دام الحق سبحانه مُنزَّهاً فى ذاته ، وفى صفاته ، وفى أفعاله ، فأنت تتوكّل على إله لا تطرأ عليه عوامل التغيير أبداً .

وهذا التنزيه لله تعالى ، وهذه العظمة والكبرياء له سبحانه فى صالحك أنت أيها الإنسان ، من صالحك ألاَّ يوجد لله شبيه ، لا فى وجوده ، ولا فى بقائه ، ولا فى تصرُّفه ، من صالحك أن يعرف كل إنسان أن هناك مَنْ هو أعلى منه ، وأن الخَلْق جميعاً محكومون بقانون الله ، فهذا يضمن لك أن تعيش معهم آمناً ، إذن : من الخير لنا أن يكون الإله ليس كمثله شىء ، وأن يكون سبحانه عالياً فوق كل شىء .

ويجب عليك حين تُنزه الله تعالى ألاَّ تُنزِّهه تنزيهاً مُجرّداً ، إنما تنزيهاً مقروناً بالحمد ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ ..(٥٨)﴾ [الفرقان] فتحمده على أنه واحد لا شريك له ، ولا مثيلَ له ، وليس كمثله شىء ، ففى ظل هذه العقيدة لا يستطيع القوىُّ أن يطغى على الضعيف ، ولا الغنى على الفقير .. إلخ .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً (٥٨)﴾ [الفرقان] نقول : كفاك فلان . يعنى : لا تحتاج لغيره . كقولنا : حَسْبُك الله يعنى : كافيك عن الاحتياج لغيره ؛ لأنه يعطيك كُلَّ ما تحتاج إليه ، ويمنع عنك الشر ، وإنْ كنت تظنه خيراً لك .

وكأن الحق ـ تبارك وتعالى ـ يقيم لك (كنترولاً) يضبط حياتك ويضمن لك السلامة ، لذلك حين تدعو الله فلا يستجيب لك ، لا تظن أن الله تعالى موظفٌ عندك ، لا بُدَّ أن يُجيبك لما تريد ، إنما هو ربك ومتولٍّ أمرَك ، فيختار لك ما يصلح لك ، ويُقدِّم لك الجميل وإن كنت تراه غير ذلك .

وقد ضربنا لهذه المسألة مثلاً بالأم التى تكثر الدعاء على ولدها ، فكيف بها إذا استجابَ الله لها ؟ إذن : من رحمة الله بها أنْ يردَّ

دعاءها ، ويمنع إجابتها ، فمنع الإجابة هنا إجابة .

﴿ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ﴾ [الفرقان] المعنى : إذا توكلتَ على الحيِّ الذى لا يموت ، فآثار هذا التوكل أنْ يحميك من ذنوب العباد ، فهو وحده الذى يعلم ذنوبهم ، ويعلم حتى ما يدور فى أنفسهم .

ألم يقُل الحق لرسوله ﷺ : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٨﴾ ﴾ [المجادلة]

فما زال القَوْلُ فى أنفسهم لم يخرج ، ومع ذلك أخبره الله به ، وكأن الحق سبحانه يُطمئن رسوله : مهما تآمروا عليك ، ومهما دبّروا لك ، ومهما تكاتف ضدك جنودُ الإنس والجن ، فاطمئنْ لأن ربك عليم بالذنوب التى قد لا تدركها أنت ، ولا حيلةَ عندك لردِّها ، فيكفيك أن يعلم اللهُ ذنوبَ أعدائك .

﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الأنفال]

والخبير : الذى يعلم خبايا الأمور ، حتى فى مسائل الدنيا الهامة نقول : نستدعى لها الخبير ؛ لأن المختص العادى لا يقدر عليها .

وفى موضع آخر يقول تعالى : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ [الملك]

ثم ينقلنا الحق ـ تبارك وتعالى ـ إلى آية كونية ، تنضاف إلى الآيات السابقة ، والهدف من ذكر المزيد من الآيات الكونية أنه لعلَّها تصادف رقَّة قلب واستمالة مواجيد ، فتعطف الخَلْق إلى الخالق ، وتُلفت الأنظار إليه سبحانه .

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ ﴾

البعض يظن أن خَلْق السموات والأرض شىء سهل ، وأعظم منه خَلْق الإنسان ، لكن الحق ـ تبارك وتعالى ـ يقول : ﴿ لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ .. ﴿٥٧﴾ ﴾ [غافر]

فالإنسان يخلقه الله ، وقد يموت بعد يوم ، أو بعد مائة عام ، وقد تصيبه فى حياته الأمراض ، أمّا السموات والأرض ، فقد خلقها الله تعالى بهندسة دقيقة ، وقوانين لا تتخلف ولا تختل مع ما يمرُّ عليها من أزمنة ، وكأن الحق سبحانه يقول للإنسان : إن السموات والأرض هذه خلْقتى وصَنْعتى ، لو تدبرتَ فيها وتأملتَها لوجدتَها أعظم من خَلْقك أنت .

وقوله تعالى : ﴿ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ .. ﴿٥٩﴾ ﴾ [الفرقان] سبق أنْ تكلَّمنا فى هذه المسألة وقلنا : إن جمهرة آيات القرآن تدل على أن الخَلْق تمَّ فى مدة ستة أيام إلا سورة واحدة تُشعِر آياتها أن الخلق فى ثمانية أيام ، وهى سورة فصلت :

حيث يقول فيها الحق سبحانه وتعالى : ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ[1] فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي

---

(١) الدخان : يُطلق على ما يرتفع فوق النار من غازات لم يتم احتراقها ، وقد يطلق على البخار وما يشبهه من الغازات المتصاعدة ، والمقصود أن مواد النجوم كانت فى حالة غازية كالدخان ثم خلق منها السماوات [القاموس القويم ١/ ٢٢٤] .

كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (١٢)﴾ [فصلت]

وجملة هذه ثمانية أيام ، وكل مُجْمل يخضع للتفصيل إلا تفصيل العدد فيرجع للمجمل ، كيف ؟

الحق سبحانه يتكلم هنا عن خَلْق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ، ثم تكلَّم عن خَلْق الأرض فى يومين ، وجعل فيها رواسى من فوقها ، وبارك فيها وقدَّر فيها أقواتها فى أربعة أيام ، فالأربعة الأيام هذه تكملة لخلْق الأرض فهى تكملة لليومين ، كأنه قال فى تتمة أربعة أيام ، فالأرض فى يومين والباقى أكمل الأربعة . كما تقول : سِرْتُ إلى طنطا فى ساعة ، وإلى الأسكندرية فى ساعتين أى يدخل فيهما الساعة الأولى إلى طنطا ، فاليومان من الأربعة الأيام .

لكن ، كيف نُقدِّر هذا اليوم ؟ الله يخاطبنا باليوم الذى نعرفه ونعرف مدلوله ، فالمعنى : فى ستة أيام من أيامكم التى تعرفونها . وإلاَّ لو كان المراد يوماً لا نعرفه نحن ، فسيكون لا معنى له ؛ لأننا لا نفهمه .

ولقائل أن يقول : كيف يستغرق الخَلْق كل هذه المدة والحق ـ تبارك وتعالى ـ يخلق بكُنْ ، وكن لا تحتاج وقتاً ؟ قالوا : فَرْق بين عملية الخَلْق وما يحتاجه المخلوق فى ذاته .

فأنت مثلاً ، إنْ أردتَ أنْ تصنع كوباً من الزبادى تحضر اللبن مثلاً وتضع عليه خميرة الزبادى المعروفة المأخوذة من زبادى دسم سبق صُنْعه ، وتضعه فى درجة حرارة معينة ، بعد هذه العملية تكون قد صنعت الزبادى فعلاً ، لكن هل يمكنك أن تأكل منه فَوْر الانتهاء

من صناعته ؟ لا ، بل لا بُدَّ أن تتركه عدة ساعات لتتفاعل عناصره ، فهل تقول : أنا صنعت الزبادى فى عدة ساعات مثلاً ؟

كذلك ، حين تذهب إلى (الترزى) لتفصيل ثَوْب مثلاً يقول لك : موعدنا بعد شهر ، فهل تستغرق خياطة الثوب شهراً ؟ لا ، إنما مدته عنده شهر .

فالحق ـ تبارك وتعالى ـ يفعل ويخلق دون معالجة ، وبالتالى دون زمن ؛ لأنه سبحانه يقول للشىء : كُنْ فيكون .

وقوله سبحانه : ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ .. (٥٩)﴾ [الفرقان] سبق أن تكلمنا فى هذه المسألة . فاستوى تعنى : صعد وارتفع وعلا وجلس ، ونحن نُنزِّه الله تعالى عن استواءٍ يشابه استواء خَلْقه .

والاستواء هنا رمزية لتمام الأمر بما نعرفه فى عادة الملوك فى الجلوس على كرسى العرش ، حين يتم لهم الأمر ويستتبّ .

و ﴿الرَّحْمَـٰنُ .. (٥٩)﴾ [الفرقان] دليل على أن مسألة الخَلْق كلها تدور فى إطار الرحمانية ﴿فَاسْئَلْ بِهِ خَبِيرًا (٥٩)﴾ [الفرقان] لأنه سبحانه خلق السموات والأرض وخلقنا ، ومع ذلك لا نعرف : كيف تم هذا الخَلْق ؟ ولن نستطيع أن نقف على تفصيل هذا الخَلْق ، إلا إذا أطلعنَا الخالق عليه ، وإلاَّ فهذا أمر لم نشاهده ، فكيف نحوض فيه ، كمن يقول : إن الأرض كانت قطعةً من الشمس ، ثم انفصلتْ عنها مع دوران الشمس .. إلخ هذه الأقوال .

لذلك الحق ـ تبارك وتعالى ـ يُحذِّرنا من سماع مثل هذه النظريات ؛ لأن مسألة الخَلْق لا تخضع للعلم التجريبى أبداً ، فيقول

سبحانه : ﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا[1] (٥١) ﴾ [الكهف]

إذن : سيوجد فى الكون مُضلون يقولون للناس مثل هذه الأقوال فى الخَلْق ، ويدَّعُون بها أنهم علماء يعرفون ما لا يعرفه الناس ، فاحذروهم فما شاهدوا عملية الخَلْق ، وما كانوا مساعدين لله تعالى ، فيطلعوا على تفاصيل الخَلْق .

لذلك تقوم هذه الأقوال فى خَلْق الإنسان وخَلْق السماء والأرض دليلاً على صدْق هذه الآية ، فما موقف هذه الآية - إذن - إذا لم تقل هذه الأقوال ؟

ومثال ذلك الذين يحلو لهم التعصب للقرآن الكريم ضد الحديث النبوى يقول لك أحدهم : حدِّثنى عن القرآن ، سبحان الله ، أتتعصّب للقرآن ضد الرسول الذى بلَّغك القرآن ، وما عرفتَ القرآن إلا من طريقه ؟ يعنى (الواد ربَّانىّ) لا يعترف إلا بالقرآن . ونقول لمثل هذا الذى يهاجم الحديث النبوى : أنت صليتَ المغرب ثلاث ركعات ، فأين هذا من القرآن ؟

لذلك يقول النبى ﷺ : « يُوشك الرجل يتكىء على أريكته يُحدَّث بحديثى فيقول : بينى وبينكم كتاب الله ، فما وجدنا فيه حلالاً استحللناه ، وما كان حراماً حرَّمْناه ، وإن ما حرّم رسول الله كما حرّم الله »[2] .

---

(١) أى : أعواناً مساعدين . وقال تعالى : ﴿ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ .. (٣٥) ﴾ [القصص] أى : سنقويك به على سبيل المجاز المرسل ، فتقوية العضد تقوية للإنسان كله . [القاموس القويم ١/٢٤] .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٤/١٣٢) ، والترمذى فى سننه (٢٦٦٤) وابن ماجة فى سننه (١٢) ، والدارقطنى (٤/٢٨٦) فى سننه ، واللفظ للدارقطنى .

لمـاذا ؟ لأنِّي أقـول لكم من باطن قَـوْل الله تعـالى : ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا.. (٧)﴾ [الحشر]

بالله ، لو لم يُوجَـد الآن مَنْ يقـول بهذا القـول ، فـماذا سـيكون موقف هذا الحديث ؟ وكيف لنا أن نفهمه ؟ لقد فضحهم هذا الحديث ، وأبان ما عندهم مـن غباء ، فـقد كان بإمكانهم بـعد أنْ عرفـوا حديث رسـول الله أنْ يُمسكوا عـن التعـصب للقـرآن ضد الحـديث النبـوى ، فيكون الحديث ساعتها غير ذى معنى لكن هيهات .

نعـود إلى مـوضوعنا ، ونحن بـصدد الكلام عن خَلْـق السمـوات وخَلْق الأرض ، واسـتـواء الحق ـ تبـارك وتعـالى ـ عـلى العـرش ، وهاتان المسـألتان لا تسـأل فيهـما إلا الله ﴿فَاسْئَلْ بِهِ خَبِيرًا (٥٩)﴾ [الفرقان] لأنه وحده الذى يعلم خبايا الأمور ، وهذه أمور لم يطّلع عليها أحد فيخبرك بها .

وكلمة : (سأل) الإنسان لا يسأل عن شىء إلا إذا كان يجهله ، والسـؤال له مراحل : فـقد تجـهل الشىء ولا تهـتم به ، ولا تريد أن تعرفـه ، فأنت واحد من ضـمن الذين لا يعرفون ، وقـد تجهل الشىء لكن تهـتم به ، فتـسأل عنه لاهتـمامك به ، فـمرَّة نقـول : اسأل به . ومرة نقول : اسأل عنه .

والمعنى : اسأل اهتـماماً به ، أى : بسبب اهتـمامك به اسأل عنه خبيراً ليعطيك ويخبرك بما تريد ، فهو وحده الذى يعرف خبايا الأمور ودقائقـها ، وعنده خبـر خَلْق السموات وخَلْق الأرض ، ويعلم مـسألة الاسـتواء على العـرش ؛ لذلك إنْ سألتَ عـن هاتين المسـألتين ، فـلا تسأل إلا خبيراً .

والذين قالوا فى قـوله تعالى : ﴿فَاسْئَلْ بِهِ خَبِيرًا (٥٩)﴾ [الفرقان]

أى : ممَّنْ يعلم الكلام عن الله من أهل الكتاب نقول : لا بأسَ ؛ لأنه سيؤول إلى الله تعالى فى النهاية .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ (٦٠) ﴾

نلحظ أن الحق ـ تبارك وتعالى ـ حينما ذكر الصفة الملزمة لأنْ تخضع له سبحانه لم يَقُلْ مثلاً : اسجدوا لله ، إنما ﴿ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَٰنِ .. (٦٠) ﴾ [الفرقان] وأتى بالصفة التى تُعدِّى رحمانيته إليك ، فكان من الواجب أنْ تطيع ، وأن تخضع له . كما قُلْنا سابقاً : اجعل طاعتك لمن لا تستغنى عنه ، واجعل خضوعك لمن لا تخرج عن مُلْكه .

﴿ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَٰنُ .. (٦٠) ﴾ [الفرقان] كأنهم لا يعرفون هذه الكلمة ، إنهم لا يعرفون إلا رحمٰن اليمامة .

وقولهم : ﴿ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا .. (٦٠) ﴾ [الفرقان] دليل على أن الامتناع عن السجود ليس للذات المسجود لها ، بل لمن أمر بالسجود ، كما سبق وأنْ قالوا : ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) ﴾ [الزخرف] فكأنهم إنْ أمرهم الله بالسجود لسجدوا ، لكن كيف يأتى الأمر من الرسول خاصة ؟ وما مَيْزته عليهم حتى يأمرهم ؛ لذلك قال بعدها : ﴿ وَزَادَهُمْ نُفُورًا (٦٠) ﴾ [الفرقان] والنفور : الانفكاك عن الشىء بكُرْه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا (١) وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا (٦١) ﴾

---

(١) البروج : مواقع النجوم بالسماء ومنازلها . [القاموس القويم ١/٦١] .

يعود السياق مرة أخرى لذِكْر آية كونية ؛ لأن الحق - تبارك وتعالى - يراوح بين آية تطلب منهم شيئاً ، وأخرى تلفتهم إلى قدرة الله وعظمته ، وهذا يدل على مدى تعنتهم ولجاجتهم وعنادهم ، وحرص الحق - سبحانه وتعالى - على لَفْتهم إليه ، والأخْذ بأيديهم إلى ساحته تعالى .

ولو شاء سبحانه لَسرَد الآيات الكونية مرة واحدة ، وآيات التكذيب مرة واحدة ، ولكن يُزاوج - سبحانه وتعالى - بين هذه وهذه لتكون العبرة أنفذ إلى قلوب المؤمنين .

قلنا : ﴿تَبَارَكَ .. (٦١)﴾ [الفرقان] يعنى : تنزّه ، وعَلاَ قدره ، وعَظُم خيره وبركته . والبروج : جمع بُرْج ، وهو الحصن الحصين العالى الذى لا يقتحمه أحد ، والآن يُطلقونها على المبانى العالية يقولون : برج المعادى ، برج النيل .. الخ ، ومنه قوله تعالى : ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ (١)﴾ [البروج]

وقوله سبحانه : ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ .. (٧٨)﴾ [النساء]

والبروج : منازل فى السماء يحسب الناسُ بها الأوقات ، ويربطون بينها وبين الحظوظ ، فترى الواحد منهم أول ما يفتح جريدة الصباح ينظر فى باب « حظك اليوم » ، وقد دلَّتْ الآيات على أن هذه البروج جعلها الله لتُسهِّل على الناس أمور الحساب .

كما قال سبحانه : ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥)﴾ [الرحمن]

وقال تعالى : ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا .. (٩٦)﴾ [الأنعام]

يعنى : بها تُحسب المواقيت ، فالشمس تعطيك المواقيت اليومية والليلية ، والقمر يدلُّك على أول كل شهر ؛ لأنه يظهر على جِرْم معين ، وكيفية مخصوصة تُوضّح لك أول الشهر ومنتصفه وآخره ، ثم تعطيك الشمس بالظل حساب جزئيات الزمن .

ومعلوم أن فى السماء اثنىْ عَشَر بُرْجاً جمعها الناظم فى قوله :

حَمَلَ الثَّوْرُ جَوْزَةَ السَّرطَانِ ... وَرَعَى اللَيْثُ سُنْبُلَ الميزَانِ
عَقْرَبَ القَوْس جَدْى دَلْو ... وحُوت مَا عَرفنَا مِن أُمَّة السُّرْيَانِ

فهى : الحمَل ، والثور ، والجوزاء ، والسرطان ، والأسد ، والسنبلة ، والميزان ، والعقرب ، والقوس ، والجدى ، والدلو ، والحوت . فأوّلها الحَمل ، وآخرها الحوت ، وكلُّ بُرْج يبدأ من يوم ٢١ فى الشهر وينتهى يوم ٢٠ .

ثم يقول تعالى : ﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا (٦١)﴾ [الفرقان] السراج هو المصباح الذى نشعله ليعطى حرارة وضوءاً ذاتياً ، والمراد هنا الشمس ؛ لأن ضوءَها ذاتىٌّ منها ، وكذلك حرارتها ، على خلاف القمر الذى يضىء بواسطة الأشعة المنعكسة على سطحه ، فإضاءته غير ذاتية ؛ لذلك يقولون عن ضوء القمر : الضوء الحليم ؛ لأنه ضوء بلا حرارة .

والعجيب أن سطح القمر ـ كما وجدوه ـ حجارة ، ولما أخذوا منه حجراً ليُجروا عليه بحوثهم فهلْ قَلَّ ضوء القمر ؟ لا لأن دائرته الكاملة هى التى تعكس إلينا ضوء الشمس وحين تأخذ منه حجراً يعكس لك ما تحته أشعة الشمس .

وفى موضع آخر ، يوضح الحق سبحانه هذه المسألة ، فيقول

تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا .. ﴿٥﴾﴾ [يونس] فالضياء هو الذى يأتى من الكوكب ذاتياً ، والنور هو انعكاس الضوء على جسم آخر ، فهو غير ذاتى .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾

عرفنا أن الليل : غياب الشمس عن نصف الكرة الأرضية ، والنهار مواجهة الشمس للنصف الآخر ، والليل والنهار متعاقبان ﴿خِلْفَةً ﴿٦٢﴾﴾ [الفرقان] يأتى الليل ثم يعقبه النهار ، كل منهما خَلْف الآخر ، وهذه المسألة واضحة لنا الآن ، لكن كيف كانت البداية عندما خلق الله تعالى الخَلْق الأول ، فساعتها ، هل كانت الشمس مواجهة للأرض أم غائبة عنها ؟

إنْ كان الحق سبحانه خلق الشمس مواجهةً للأرض ، فالنهار هو الأول ، ثم تغيب الشمس ، ويأتى الليل ليخلف النهار ، أما النهار فلم يُسبق بليْل . وكذلك إنْ كانت الشمس عند الخَلْق غير مواجهة للأرض ، فالليل هو الأول ، ولا يسبقه نهار ، وفى كلتا الحالتين يكون أحدهما ليس خِلْفة للآخر ، ونحن نريد أن تصدُقَ الآية على كليْهما .

إذن : لابد أنهما خِلْفة منذ الخَلْق الأول ؛ ذلك لأن الأرض ـ كما عرفنا ولم يَعُدْ لدينا شكَ فى هذه المسألة ـ كروية ، والحق ـ تبارك وتعالى ـ حينما خلق الشمس والقمر الخَلق الأول كان المواجه منها للشمس نهاراً ، والمواجه منها للقمر ليلاً ، ثم تدور حركة الكون ، فيخلف أحدهما الآخر منذ البداية .

وهذه النظرية لا تستقيم إلا إذا قُلْنا بكروية الأرض ، وهذه يؤيدها قوله تعالى : ﴿وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ..(٤٠)﴾ [يس]

والمعنى أيضاً : ولا النهار سابق الليل ، لكن ذكر الليلَ ؛ لأنهم كانوا يعتقدون أن الليل خُلِق أولاً ، لماذا ؟ لأن الزمن عندهم يثبت بليله ، كما يحدث مثلاً فى الصوم ، فهل تصوم أولاً فى النهار ثم ترى الهلال بالليل ؟ إنما ترى الهلال بالليل أولاً ، فكأن رمضان يبدأ يومه بليله .

وما دام الأمر كذلك فالليل سابقُ النهار عندهم ، وهذه قضية يعتقدونها ومُسلَّمة عندهم ، وجاء القرآن وخاطبهم على أساس هذا الاعتقاد : أنتم تعتقدون أن الليلَ سابقُ النهارِ يعنى : النهار لا يسبق الليل ، نعم لكن : اعلموا أيضاً أن الليل لا يسبق النهار . إذن : المحصلة : لا الليلُ سابقُ النهار ، ولا النهار سابق الليل .

ولو قلنا بأن الأرض مسطوحة لَمَا استقام لنا هذا القول .

لكن أىّ ليل ؟ وأىّ نهار ؟ نهارى أنا ، أم نهار المقابل لى ؟ وكل واحد على مليون من الثانية يولد نهار ويبدأ ليل ؛ لأن الشمس حين تغيب عنى تشرق على آخرين ، والظهر عندى يوافقه عصر أو مغرب أو عشاء عند آخرين .

إذن : كل الزمن فيه الزمن ، وهذا الاختلاف فى المواقيت يعنى أن نغمة الأذان (الله أكبر) شائعة فى كل الزمن ، فالله تعالى معبود بكل وقت وفى كل زمن ، فأنت تقول : الله أكبر وغيرك يقول : أشهد أن لا إله إلا الله .. وهكذا .

وإنْ كان الحق ـ تبارك وتعالى ـ خلق الليل للسُّبات وللراحة ،

والنهار للسعى وللعمل ، فهذه الجمهرة العامة لكنها قضية غير ثابتة ، حيث يوجد من مصالح الناس ما يتعارض وهذه المسألة ، فمن الناس مَنْ تقتضى طبيعة عمله أن يعمل بالليل كالخبازين والحراس والممرضين .. إلخ .

فهؤلاء يُسمح لهم بالعمل بالليل والراحة بالنهار ، ولو لم يكُنْ لهؤلاء منفذ لقلنا : إن هذا الكلام متناقض مع كونيات الخَلْق ؛ لذلك يقول - سبحانه وتعالى - فى آية أخرى : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ.. (٢٣)﴾ [الروم] فتراعى هذه الآية ظروف هؤلاء الذين يضطرون للعمل ليلاً ، وللراحة نهاراً .

وقوله تعالى : ﴿لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا (٦٢)﴾ [الفرقان] يعنى : يا مَنْ شغله نهار عمله عن ذكر ربه انتهزْ فرصة الليل ، ويا مَنْ شغله نوم الليل عن ذِكْر ربه انتهز فرصة النهار ، وذلك كقول النبى ﷺ : « إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسىء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسىء الليل »[(١)] .

فمَنْ فاته شىء فى ليله فليتداركه فى نهاره ، ومَنْ فاته شىء فى نهاره فليتداركه فى ليله ، وإذا كان الله تعالى يبسط يده بالليل ويبسط يده بالنهار ، وهما مستمران ، فمعنى ذلك أن يده تعالى مبسوطة دائماً .

ومعنى ﴿يَذَّكَّرَ..(٦٢)﴾ [الفرقان] يتمعّن ويتأمل فى آيات الله ، فى الليل وفى النهار ، كأنه يريد أن يصطاد لله نعماً يشكره عليها ، على خلاف الغافل الذى لا يلتفت إلى شىء من هذا ، فمن فضل الله علينا

---

(١) أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه (٢٧٥٩) من حديث أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه ، وكذا أحمد فى مسنده (٤/٣٩٥ ، ٤٠٤) .

أن يُنبِّهنا إلى هذه النعم ، ويلفت نظرنا إليها ؛ لأننا أهل غفلة .

وقوله : ﴿أَوْ أَرَادَ شُكُورًا (٦٢)﴾ [الفرقان] أى : شكراً ، فهى صيغة مبالغة فى الشكر .

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ(١) قَالُوا سَلَامًا (٦٣)﴾

يعطينا الحق ـ تبارك وتعالى ـ صورة للعبودية الحقة ، ونموذجاً للذين اتبعوا المنهج ، كأنه ـ سبحانه وتعالى ـ يقول لنا : دَعْكُم من الذين أعرضوا عن منهج الله وكذَّبوا رسوله ، وانظروا إلى أوصاف عبادى الذين آمنوا بى ، ونفَّذوا أحكامى ، وصدَّقوا رسولى .

نقول : عباد وعبيد . والتحقيق أن (عبيد) جمع لعبد ، وأن (عباد) جمع لعابد مثل : رجال جمع راجل : ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا .. (٢٧)﴾ [الحج] إذن : عبيد غير عِبَاد .

وسبق أن تحدثنا عن الفَرْق بين العبيد والعباد ، فكلنا عبيد لله تعالى : المؤمن والكافر ، والطائع والعاصى ، فما دام يطرأ عليه فى حياته ما لا يستطيع أنْ يدفعه مع أنه يكرهه فهو مقهور ، فالعبد الكافر الذى تمرَّد على الإيمان بالله ، وتمرَّد على تصديق الرسول ، وتمرد على أحكام الله فلم يعمل بها .

فهل بعد أن أَلِفَ التمرد يستطيع أن يتمرد على المرض إنْ أصابه ؟ أو يستطيع التمرد على الموت إنْ حلّ بساحته ؟ إذن : فأنت

---

(١) الجهل : الطيش والسَّفه والتعدى بغير حق . والجهل أيضاً : ضد العلم وهو الخلو من المعرفة . ويتحدد معنى الجهل بما يناسب المقام . والمقصود بالجاهلين هنا : السفهاء . [القاموس القويم ١/١٣٤] .

عبد رغماً عنك ، وكلنا عبيد فيما نحن مقهورون عليه ، ثم لنا بعد ذلك مساحة من الاختيار .

أما المؤمن فقد خرج عن اختياره الذى منحه الله فى أن يؤمن أو يكفر ، وتنازل عنه لمراد ربه ، فاستحق أن يكون من عباد الله ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ ..(٦٣)﴾ [الفرقان] فنحن وإنْ كنا عبيداً فنحن سادة ؛ لأننا عبيد الرحمن ؛ لذلك كانت حيثية تكريم الله لرسوله ﷺ فى الإسراء هى عبوديته لله تعالى ، حيث قال : ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ..(١)﴾ [الإسراء] ، فالعبودية هى علة الارتقاء .

فلما أخلص رسول الله العبودية لله نال هذا القُرْب الذى لم يسبقه إليه بشر .

لذلك وصف الملائكة بأنهم ﴿عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ (٢٦)﴾[الأنبياء] وباستقراء الآيات لم نجد سوى آية واحدة تخالف فى ظاهر الأمر هذا المعنى الذى قُلْناه فى معنى العباد ، وهى قوله تعالى فى الكلام عن الآخرة : ﴿أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰؤُلَاءِ..(١٧)﴾ [الفرقان]

فقال للضالين (عبادى) وهى لا تُقال إلا للطائعين ، لماذا ؟ قالوا : لأن فى القيامة لا اختيارَ لأحد ، فالجميع فى القيامة عباد ، حيث انتفى الاختيار الذى يُميِّزهم .

والعلماء يقولون : إن العباد تُؤخَذ منها العبادية ، وأن العبيد تُؤخَذ منها العبودية : العبادية فى العباد أن يطيع العابد أمر الله ، وينتهى عن نواهيه طمعاً فى ثوابه فى الآخرة ، وخوفاً من عقابه فيها ، إذن : جاءت العبادية لأخذ ثواب الآخرة وتجنّب عقابها .

أما العبودية فلا تنظر إلى الآخرة ، إنما إلى أن الله تعالى تقدّم

بإحسانه على عبيده إيجاداً من عدم ، وإمداداً من عُدْم ، وتربية وتسخيراً للكون ، فالله يستحق بما قدّم من إحسان أن يُطاع بصرف النظر عن الجزاء فى الآخرة ثواباً أو عقاباً .

أما العبودة فهى : ألاَّ ينظر العبد إلى ما قدَّم من إحسان ، ولا ما أخّر من ثواب وعقاب ، وإنما ينظر إلى أن جلال الله يستحق أنْ يُطاع ، وإنْ لم يسبق له الإحسان ، وإنْ لم يأتِ بعد ذلك ثواب وعقاب .

وإن كانت العبودية مكروهة فى البشر كما قال أحد الساسة[1] : متى استعبدتم الناس ، وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟ ذلك لأن العبودية للبشر يأخذ السيد خيْر عبده ، أما العبودية لله تعالى فعزٌّ وشرف ، حيث يأخذ العبد خَيْر سيده ، فهى عبودية سيادة ، لا عبودية قهر .

فحين تؤمن بالله يعطيك الله الزمام : يقول لك : إنْ أردت أنْ أذكرك فاذكرنى ، وفى الحديث القدسى : « مَنْ ذكرنى فى نفسه ذكرتُه فى نفسى ، ومَنْ ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منهم »[2] .

وإنْ كان ـ سبحانه وتعالى ـ يستدعيك إلى خَمْس صلوات فى اليوم والليلة ، فما ذلك إلا لتأنسَ بربك ، لكن أنت حر تأتيه فى أىِّ وقت تشاء من غير موعد ، وأنت تستطيع أن تحدد بَدْءَ المقابلة

---

(١) هو : أحمد عرابى بن محمد عرابى ، زعيم مصرى ، ممن تركت لهم الحوادث ذكراً فى تاريخ مصر الحديث ، ولد فى قرية « هرية رزنة » (عام ١٨٤١ م) من قرى الزقازيق بمصر ، جاور فى الأزهر سنتين ، ثم انتظم فى الجيش سنة (١٨٥٥م) وكان عمره ١٤ عاماً حتى بلغ رتبة « أميرالاى » فى أيام الخديوى توفيق . توفى ١٩١١ م عن ٧٠ عاماً . انظر (الأعلام للزركلى ١٦٨/١) .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٢٥١/٢ ، ٣٥٤ ، ٤٠٥) ، والبخارى فى صحيحه (٧٤٠٥ ، ٧٥٠٥ ، ٧٥٣٧) والترمذى فى سننه (٣٦٠٣) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه . قال الترمذى : حديث حسن صحيح . وقد شرح الشيخ الشعراوى رحمه الله هذا الحديث القدسى فى سلسلة « الأحاديث القدسية » (١٧/١-٢٥) بتحقيقنا .

ونهايتها وموضوعها .. إلخ ، فزمام الأمر فى يدك .

وقد تعلم سيدنا رسول الله خُلق الله ، فكان إذا وضع يده فى يد أحد الصحابة يُسلِّم عليه لا ينزع يده منه حتى يكون هو الذى ينزع يده من يد رسول الله[1] ، وهذا أدب من أدب الحق ـ تبارك وتعالى ـ إذن : فالعبودية لله تعالى عبودية لرحمن ، لا عبودية لجبار .

وأول ما نلحظ فى هذه الآية أنه تعالى أضاف العباد إلى الرحمن ، حتى لا نظن أن العبودية لله ذلَّة ، وأن القرآن كلام رب وُضِع بميزان ، ثم يذكر ـ سبحانه وتعالَى ـ صفات هؤلاء العباد ، صفاتهم فى ذواتهم ، وصفاتهم مع مجتمعهم ، وصفاتهم مع ربهم ، وصفاتهم فى الارتقاء بالمجتمع إلى الطُّهر والنقاء .

أما فى ذواتهم ، فالإنسان له حالتان هما محلُّ الاهتمام : إما قاعد ، وإما سائر ، ونُخرِج حالة النوم لأنه وقت سكون ، أما حال القعود فالحركة محدودة فى ذاته ، والمهم حال الحركة والمشى ، وهذا هو الحال الذى ينبغى الالتفات إليه .

لذلك يوضح لنا ربنا ـ عز وجل ـ كيف نمشى فيقول : ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَـٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا .. (٦٣)﴾ [الفرقان]

يعنى : برفق وفى سكينة ، وبلين دون اختيال ، أو تكبُّر ، أو غطرسة ، لماذا ؟ لأن المشى هو الذى سيُعرِّضك لمقابلة مجتمعات متعددة ، وهذا الأدب الربانى فى المشى يُحدِث فى المجتمع استطراقاً إنسانياً يُسوِّى بين الجميع .

---

(١) أخرج أبو الشيخ الأصبهانى فى كتابه « أخلاق النبى ﷺ وآدابه » – ص ٣٦ طبعة الدار المصرية اللبنانية ١٩٩٣ « عن أنس بن مالك قال : كان ﷺ إذا صافح رجلاً لم ينزع يدع من يده حتى يكون الرجل هو الذى ينزع يده ، ولا يصرف وجهه عنه حتى يكون هو الذى يصرف » .

وفى موضع آخر يقول تعالى فى هذه المسألة : ﴿وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا.. (١٨)﴾ [لقمان] ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً (٣٧)﴾ [الإسراء]

وتصعير الخدِّ أنْ تُميله كِبْراً وبَطَراً وأصله (الصعر) مرض فى البعير يصيب عنقه فيسير مَائلاً ، ومَنْ أراد أن يسير مُتكبِّراً مختالاً فليتكبر بشىء ذاتى فيه ، وهل لديك شىء ذاتى تستطيع أن تضمنه لنفسك أو تحتفظ به ؟

إنْ كنتَ غنياً فقد تفتقر ، وإنْ كنتَ قوياً صحيحاً قد يصيبك المرض فيُقعدك ، وإنْ كنتَ عزيزاً اليوم فقد تذلّ غداً . إذن : فكل دواعى التكبُّر ليستَ ذاتية عندك ، إنما هى موهوبة من الله ، فعلامَ التكبُّر إذن ؟!

لذلك يقولون فى المثل (اللى يخرز يخرز على وركه) إنما يخرز على ورك غيره ؟! وأصل هذا المثل أن صانع السروج كان يأتى بالصبى الذى يعمل تحت يده ، ويجعله يمدّ رِجْله ، ويضع السرج على وركه ، ثم يأخذ فى خياطته ، فرآه أحدهم فرَقَّ قلبه للصبى فقال للرجل : إنه ضعيف لا يتحمل هذا ، فإنْ أردتَ فاجعله على وركك أنت . كذلك الحال هنا ، مَنْ أراد أن يتكبّر فليتكبّر بشىء ذاتى فيه ، لا بشىء موهوب له .

والمتكبِّر شخص ضُرب الحجاب على قلبه ، فلم يلتفت إلى ربه الأعلى ، ويرى أنه أفضل من خَلْق الله جميعاً ، ولو استحضر كبرياء ربه لاستحى أن يتكبر على خَلْق الله ، فتكبُّره دليل على غفلته عن هذه المسألة .

لذلك يقول الناظم :

فَدَعْ كُلَّ طاغِيَةٍ للزمَان فَإِنَّ الزمَانَ يُقيم الصَّعَرْ

يعنى : سيرَى من الزمان ما يُقوِّم اعوجاجه ، ويُرغِم أنفه .

ومعنى ﴿مَرَحًا..(١٨)﴾ [لقمان] المرح : الفرح ببطر . والبطر : أنْ تأخذ النعمة وتنسى المنعم ، وتتنعّم بها ، وتعصى مَنْ وهبك إياها ، إذن : المنهىّ عنه الفرح المصاحب للبطر ، وإنكار فضل المنعم ، أما الفرح المصاحب للشكر فمحمود ، كما قال تعالى : ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا..(٥٨)﴾ [يونس]

وفي موضع آخر يُعلِّمنا أدب المشى ، فيقول : ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ.. (١٩)﴾ [لقمان]

وقالوا : إن المراد بالمشى الهَوْن ، هو الذى يسير فيه الإنسان على سجيته دون افتعال للعظمة أو الكِبْر ، لكن دون انكسار وذلّة ، وسيدنا عمر ـ رضى الله عنه ـ حينما رأى رجلاً يسير متماوتاً ضربه ، ونهاه عن الانكسار والتماوت فى المشية ، وهكذا فمِشْية المؤمن وَسَط ، لا متكبر ولا متماوت متهالك .

ثم تتحدث الآية بعد ذلك عن صفات عباد الرحمن وعلاقتهم بالناس : ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا..(٦٣)﴾[الفرقان] والجاهل : هو السَّفيه الذى لا يزن الكلام ، ولا يضع الكلمة فى موضعها ، ولا يدرك مقاييس الأمور ، لا فى الخَلْق ولا فى الأدب .

وسبق أن فرَّقْنا بين الجاهل والأمىّ : الأمىّ هو خالى الذهن ، ليس عنده معلومة يؤمن بها ، وهذا من السهل إقناعه بالصواب . أما الجاهل فعنده معلومة مخالفة للواقع ؛ لذلك يأخذ منك مجهوداً فى إقناعه ؛ لأنه يحتاج أولاً لأن تُخرِج من ذهنه الخطأ ، ثم تُدخِل فى قلبه الصواب .

والمعنى : إذا خاطبك الجاهل ، فحذار أن تكون مثله فى الردِّ عليه فتَسْفَه عليه كما سَفِهَ عليك ، بل قرِّعه بأدب وقُلْ ﴿سَلَامًا (٦٣)﴾ [الفرقان] لتُشعِره بالفرق بينكما .

والحق - تبارك وتعالى - يُوضِّح فى آية أخرى ثمرة هذا الأدب ، فيقول : ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤)﴾ [فصلت]

وما أجملَ ما قاله الإمام الشافعى[١] فى هذا المعنى :

إذَا نَطَقَ السَّفِيهُ فَلا تُجِبْهُ ... فَخَيْرٌ مِنْ إجَابتِهِ السُّكُوتُ[٢]
فَإِنْ كَلَّمْتَهُ فرجتَ عَنْهُ ... وَإِنْ خَلَّيْتَهُ كَمَدًا يمُوتُ

فإن اشتد السفيه سفاهة ، وطغى عليك وتجبر ، فلا بُدَّ لك من رَدِّ العدوانَ بمثله ؛ لأنك حلُمتَ عليه ، فلم يتواضع لك ، وظنَّ حلْمك ضعفاً ، وهنا عليك أن تُريه الفرق بين الضعف وكرم الخُلُق ، كالشاعر[٣] الذى قال :

صَفَحْنَا عَنْ بنى ذُهْلٍ ... وَقُلْنَا القَوْمُ إخْوَانُ
عَسَى الأيَّامُ أنْ يُرْ ... جِعْنَ قَوْماً كالذى كَانُوا
فَلَما صرَّح الشَّرُّ فَأمْ ... سَى وَهْوَ عُرْيَانُ
ولم يَبقَ سِوَى العُدْوا ... نِ دِنَّاهُمْ كَمَا دَانُوا
مشَيْنا مَشْيَة الليْثِ ... غَدَا والليثُ غَضْبَانُ

---

(١) هو : محمد بن إدريس الشافعى المطلبى ، أبو عبد الله ، أحد الأئمة الأربعة ، صاحب المذهب الشافعى ، وإليه نسبة الشافعية ، ولد فى غزة بفلسطين (عام ١٥٠ هـ) . زار بغداد مرتين ، وقصد مصر سنة ١٩٩ هـ فتوفى بها (عام ٢٠٤ هـ) عن ٥٤ عاماً ، وقبره معروف بالقاهرة . [الأعلام للزركلى ٦/٢٦] .

(٢) هذا البيت ذكره أبو الحسن الماوردى فى « أدب الدنيا والدين » (ص ٢٢٦) ، ولكن عزاه لعمرو ابن على . وانظر : ديوان الإمام الشافعى - طبعة مكتبة ابن سينا ١٩٨٨ ص ٣٨ ، فقد ورد فيه هذان البيتان .

(٣) هو : شهل بن شيبان بن زمَّان الحنفى ، الشهير بالفنْد الزِّمَّانى ، من بنى بكر بن وائل ، شاعر جاهلى ، كان سيد بكر فى زمانه ، وفارسها وهو من أهل اليمامة . شهد حرب بكر وتغلب وقد ناهز عمره المئة . توفى نحو ٧٠ ق هـ . وسُمِّى الفند لعظم خِلْقته . (الأعلام ٣/١٧٩) .

بضَرْب فيه توهينٌ وتخضيعٌ وإقْرانُ
وطَعْن كفم الزِّق[1] غدا والزِّق مَلآنُ
وفى الشرِّ نجاةٌ حين لاَ يُنجيك إحْسَانُ
وبعْضُ الحِلْم عِنْد الجهْل للذِّلّة إذْعَانُ

وللإمام على كرَّم الله وجهه :

إذَا كُنْتُ مُحتاجاً إلى الحِلْم إنّنى إلى الجَهْل فى بَعْض الأحَايين أحْوَجُ
ولِي فَرسٌ للحِلْم بالحِلْم مُلجَمٌ ولِى فَرَسٌ للجَهْل بالجهْل مُسْرَجُ
فَمَنْ رَامَ تَقْويمى فَإنِّى مُقوِّمٌ ومَنْ رَامَ تَعْويجى فَإنِّى مُعوِّجُ

ومعنى : ﴿قَالُوا سَلامًا (٦٣)﴾ [الفرقان] قالوا : المراد هنا سلام المتاركة ، لا سلام الأمان الذى نقوله فى التحية (السلام عليكم) فحين تتعرَّض لمن يؤذيك بالقول ، ويتعدى عليك باللسان تقول له سلام يعنى : سلام المتاركة .

وبعض العلماء يرى أن كلمة ﴿قَالُوا سَلامًا (٦٣)﴾ [الفرقان] هنا تعنى المعنيين : سلام المتاركة ، وسلام التحية والأمان ، فحين تحلُم على السَّفيه فلا تُجَاريه تقول له : لو تماديتُ معك سأوذيك ، وأفعل بك كذا وكذا ، فأنت بذلك خرجتَ من سلام المتاركة إلى سلام التحية والأمان .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ (٥٥)﴾ [القصص]

ألم يقُلْ إبراهيم ـ عليه السلام ـ لعمه آزر لما أصرَّ على كُفْره :

---

(١) الزق : السقاء . وهو كل وعاء اتخذ لشراب ونحوه . وهو من الجلد . [لسان العرب ـ مادة : زقق] .

﴿ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي.. (٤٧) ﴾ [مريم]

والمعنى : لو وقفتُ أمامك لربما اعتديتُ عليك ، وتفاقمتْ بيننا المشكلة .

وبعد أن تناولتْ الآيات حال عباد الرحمن فى ذواتهم ، وحالهم مع الناس ، تتحدث الآن عن حالهم مع ربهم :

﴿ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (٦٤) ﴾

والبيتوتة تكون بالليل ، حين يأوى الإنسان إلى بيته بعد عناء اليوم وسَعْيه ، وبعد أن تقلَّب فى ألوان شتَّى من نِعَم الله عليه ، فحين يأوى إلى مبيته يتذكر نِعَم الله التى تجلَّتْ عليه فى ذلك اليوم ، وهى نِعَم ليست ذاتية فيه ، إنما موهوبة له من الله ؛ لذلك يتوجّه إليه سبحانه بالشكر عليها ، فيبيت لله ساجداً وقائماً .

كما قال سبحانه : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ.. (٩) ﴾ [الزمر]

وقال سبحانه : ﴿ كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) وَبِالأَسْحَارِ[1] هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) ﴾ [الذاريات]

لكن ، أيطلبُ اللهُ تعالى منَّا ألاَّ نهجعَ بالليل ، وقد قال فى آية أخرى : ﴿ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا (٩) ﴾ [النبأ]

قالوا : ليس المراد قيام الليل كله ، إنما جزء منه حين تجد عندك النشاط للعبادة ، كما قال الحق سبحانه وتعالى فى خطاب النبى ﷺ :

---

(١) الأسحار : جمع سَحَر ، وهو الجزء الأخير من الليل إلى مطلع الفجر . [القاموس القويم ١/٣٠٥] .

﴿قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً (٢) نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً (٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً (٤)﴾ [المزمل]

حتى قال ابن عباس : مَنْ صلّى بعد العشاء ركعتين فأكثر كان كَمَنْ بَاتَ لله ساجداً وقائماً[1] ، فربُّك يريد منك أن تذكره قبل أن تنام ، وأن تتأمل نِعَمه عليك فتشكره عليها .

وذكر سبحانه حالتى السجود والقيام ﴿سُجَّدًا وَقِيَامًا (٦٤)﴾ [الفرقان] لأن بعض الناس يصعُب عليهم أنْ يسجدوا ، وآخرين يسهل عليهم السجود ، ويصعب عليهم القيام ، فذكَر الله سبحانه الحالتين ليعدل فيهما .

﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (٦٥)﴾

هذا القول يناسب عباد الرحمن الذين يُفعلون الخيرات ، طمعاً فى الثواب ، وخوفاً من العقاب ، فهم الذين يقولون ﴿رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (٦٥)﴾ [الفرقان] كلمة (غرام) نقولها بمعنى الحب والهُيَام والعشق ، ومعناها : اللزوم ، أى لازم لهم لا ينفك عنهم فى النار أبداً ؛ لأن العاقبة إما جنة أبداً ، أو نار أبداً .

فمعنى ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (٦٥)﴾ [الفرقان] أى : لازماً دائماً ، ليس مرة واحدة وتنتهى المسألة .

ومنه كلمة (الغريم) ، وهو الذى يلازم المدين ليأخذ منه دَيْنه .

---

(١) عن ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ عن النبى ﷺ قال : « مَنْ صلى العشاء الآخرة فى جماعة ، وصلى أربع ركعات قبل أن يخرج من المسجد كان كعدل ليلة القدر » أورده المنذرى فى « الترغيب والترهيب » (١/٢٠٥) وعزاه للطبرانى فى « المعجم الكبير » .

وكلمة ﴿اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ .. (٦٥)﴾ [الفرقان] كأنهم متصورون أن جهنم ستسعى إليهم ، وأن بينها وبينهم لدداً ، بدليل أنها ستقول : ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ (٣٠)﴾ [ق]

ثم تذكر الآيات سبب هذه المقولة :

﴿إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٦٦)﴾

ساء الشىء أى : قَبُحَ ، وضده حَسُنَ ؛ لذلك قال تعالى عن الجنة فى مقابل هذه الآية : ﴿حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٧٦)﴾ [الفرقان] وهكذا السوء يلازمه القُبْح ، والحُسْن يلازمه الحُسْن .

وقال : ﴿مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٦٦)﴾ [الفرقان] حتى لا يظنوا أن النار فترة وتنتهى ، ثم يخرجون منها ، فهى مستقرهم الدائم ، ومُقامهم الذى لا يفارقونه .

أو أن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ أراد بهذا نوعين من الناس : مؤمن أسرف فى بعض السيئات ولم يتُبْ ، أو لم يتقبل الله منه توبته ، فهو فى النار لحين ، والمستقر هنا بمعنى المكان المؤقت ، أما المقام فهو الطويل .

إذن : النار ساءتْ مستقراً لمن أسرف على نفسه ولم يتُبْ ، أو لم يتقبل الله توبته ، إنما ليست إقامة دائمة ، والمقام يكون للخالدين فيها أبداً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَالَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا (٦٧)﴾

الإسراف : تبديد ما تملك فيما عنه غَنَاء ، فلا نقول (مسرف) مثلاً للذى يأكل ليحفظ حياته ؛ لذلك يقول سيدنا عمر ـ رضى الله

عنه ـ لولده عاصم[١]: كُلْ نصف بطنك ، ولا تطرح ثوباً إلا إذا استخلقْتَه[٢] ، ولا تجعل كل رزقك فى بطنك وعلى جسدك[٣] .

والإسراف أن تنفق فى غير حلٍّ ، فلا سرف فى حلٍّ ، حتى إنْ أسرف الإنسان فى شىء من الترف المباح ، فإنه يؤدى لنفسه بعض الكماليات ، فى حين يؤدى للمجتمع أشياء ضرورية ، فالذى لا يرتدى الثوب إلا (مكْوياً) كان بإمكانه أن يرتديه دون كَىٍّ ، فكَىُّ الثوب فى حقه نوع من الترف ، لكنه ضرورة بالنسبة (للمكوجى) حيث يسَّر له أكل العيش .

والذى يستقل سيارة أجرة وهو قادر على السير ، أو يجلس على (القهوة) كل يوم ليمسح حذاءه وهو قادر على أن يمسحه بنفسه ، هذه كلها ألوان من الترف بالنسبة لك ، لكنها ضرورة لغيرك ، فلا يُسمَّى هذا إسرافاً.

وقوله تعالى : ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾ [الفرقان] أى : بين الإسراف والتقتير ﴿قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾ [الفرقان] يعنى : وسطاً أى : أن الإنفاق وسط بين طرفين ، وقوام الشىء : ما به يقوم ، والحياة كلها تقوم على عملية التوسُّط بين الإسراف والتقتير .

---

(١) هو : عاصم بن عمر بن الخطاب القرشى العدوى : شاعر ، كان من أحسن الناس خلقاً ، وكان طويلاً جسيماً ، وهو جد عمر بن عبد العزيز لأمه . ولد ٦ هـ ، وتوفى بالربذة عام ٧٠ هـ عن ٦٥ عاماً . (الأعلام للزركلى ٣/٢٤٨) .

(٢) خَلُق الثوب خُلوقاً : بَلِىَ . وشىء خَلَق : بَال . [لسان العرب ـ مادة : خلق] . ومقصود عمر رضى الله عنه أن لا يطرح ابنه ثوباً إلا إذا أصبح قديماً بالياً .

(٣) ذكره القرطبى فى تفسيره (٧/٤٩٥١) ، وفيه « ولا تكن من قوم يجعلون ما رزقهم الله فى بطونهم وعلى ظهورهم » وقد كان عمر بن الخطاب قدوة لابنه فى هذا ، فقد أخرج أبو نعيم فى الحلية (١/٥٣) أن الحسن البصرى قال : خطب عمر بن الخطاب وهو خليفة وعليه إزار فيه ثنتى عشرة رقعة .

وأذكر ونحن تلاميذ كانوا يُعلِّموننا نظرية الروافع ، وكيف نُوسِّط مركزاً على عصا من الخشب ، بحيث يتساوى الذراعان ، ويكونان سواء ، لا تميل إحداهما بالأخرى ، وإذا أرادتْ إحداهما أن تميل قاومتْها الأخرى ، كأنها تقول لها : نحن هنا . فإذا ما علقتَ ثِقَلاً بأحد الذراعين لزمك أن تطيل الأخرى لتقاوم هذا الثقل .

ويروى أن عبد الملك بن مروان[1] لما أراد أن يُزوِّج ابنته فاطمة من عمر بن عبد العزيز اختبره بهذا السؤال ليعرف ميزانه فى الحياة : يا عمر ، ما نفقتك ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، نفقتى حسنة بين سيئتين[2]، ثم تلا هذه الآية : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا (٦٧) ﴾ [الفرقان]

فعلم الخليفة أن زوج ابنته يسير سَيْراً يضمن له ولزوجته مُقوّمات الحياة ، ويضمن كذلك المقومات العليا للنفس وللمجتمع .

وسبق أن ذكرنا أن الإنسان الذى ينفق كل دَخْله لا يستطيع أن يرتقى بحياته وحياة أولاده ؛ لأنه أسرف فى الإنفاق ، ولم يدخر شيئاً ليبنى مثلاً بيتاً ، أو يشترى سيارة .. الخ .

ومصيبة المجتمع أعظم فى حال التقتير ، فمصلحة المجتمع أنْ تُنفق ، وأن تدخر ، كما قال سبحانه : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ .. (٢٩) ﴾ [الإسراء]

---

(١) هو : أبو الوليد الأموى ، من أعاظم الخلفاء ودهاتهم ، ولد فى المدينة ٢٦ هـ ونشأ بها فقيهاً واسع العلم متعبداً ، استعمله معاوية على المدينة وهو ابن ١٦ سنة ، عُرِّبت فى أيامه الدواوين ، وضبطت الحروف بالنقط والحركات وهو أول من صك الدنانير فى الإسلام ونقش بالعربية عليها . توفى ٨٦ هـ عن ٦١ عاماً . (الأعلام ٤/١٦٥) .

(٢) ذكره القرطبى فى تفسيره (٧/٤٩٥١) .

وهكذا جعل الله لنا ميزاناً بين الإسراف والتقتير ؛ ذلك لأن المال قِوَام الحياة ، والذى يُقتِّر يُقتِّر على نفسه وعلى الناس ، فليست له مطلوبات يشتريها ، ويشارك بها فى حركة الحياة ، وينتفع بها غيره ، فهذه السلع وهذه الصناعات وهؤلاء العمال ، وأهل الحِرَف من أين يرتزقون إذن وليس هناك استهلاك ورواج لسلعهم ؟لا شكَّ أن التقتير يُحدِث كساداً ، ويُحدِث بطالة ، وهما من أشد الأمراض فتكاً بالمجتمع .

ولو نظرتَ إلى رغيف العيش ، وهو أبسط ضروريات الحياة ، كم وراءه من عمال وصُنَّاع وزُرَّاع ومهندسين ومطاحن ومخازن ومصانع وأفران ، وهَبْ أنك أحجمت مثلاً عنه ، ماذا يحدث ؟

إذن : ربك يريدك أن تنفق شيئاً ، وتدخر شيئاً يتيح لك تحقيق ارتقاءات حياتك وطموحاتها ؛ لذلك خُتِمتْ الآية السابقة بقوله تعالى : ﴿فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا (٢٩)﴾ [الإسراء]

ملومَ النفس لما بددتَ من أموال لم ينتفع بها عيالك ، ومحسوراً حينما ترى غيرك ارتقى فى حياته وأنت لم تفعل شيئاً . إذن : فالإنسان ملومٌ إنْ أسرف ، محسورٌ إنْ قتّر ، والقوام فى التوسُّط بين الأمرين ، وبالحسنة بين السيئتين ، كما قال عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ، ولذلك قالوا : خير الأمور الوسط .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

---

(١) **سبب نزول الآية** : عن عبد الله بن مسعود قال : سئل رسول الله ﷺ : أى الذنب أكبر ؟ قال : أن تجعل لله نداً وهو خلقك . قال : ثم أى ؟ قال : أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك . قال : ثم أى ؟ قال : أن تزانى حليلة جارك . قال عبد الله : وأنزل الله تصديق ذلك : ﴿وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَـٰهًا آخَرَ .. (٦٨)﴾ [الفرقان] . أورده ابن كثير فى تفسيره (٣/٣٢٦) ، والقرطبى فى تفسيره (٧/٤٩٥٢) ، والواحدى فى أسباب النزول (ص ١٩٢) . والحديث فى الصحيحين البخارى ومسلم وأصحاب السنن .

﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) ﴾

وهنا قد يسأل سائل : أبعد كل هذه الصفات لعباد الرحمن ننفى عنهم هذه الصفة ﴿ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَـهًا آخَرَ .. (٦٨) ﴾ [الفرقان] وهم مَا اتصفوا بالصفات السابقة إلا لأنهم مؤمنون بالإله الواحد سبحانه ؟ قالوا : هذه المسألة عقيدة وأساس لا بُدَّ للقرآن أن يكررها ، ويهتم بالتأكيد عليها .

ومعنى : ﴿ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَـهًا آخَرَ .. (٦٨) ﴾ [الفرقان] أى : لا يدعون أصحاب الأسباب لمسبِّباتهم ، وهذا هو الشرك الخفىّ . ومنه قولهم : توكلتُ على الله وعليك . فنقول له ، انتبه ليس علىَّ شىء ، الأمر كله على الله . فقُلْ : توكلت على الله . وإنْ أردتَ فقُلْ : ثُمَّ عليك[1].

ونسمع آخر يقول للأمر الهام : هذا علىَّ ، والباقى على الله ، فجعل الأصل المهم لنفسه ، وأسند الباقى لله ، أيليق هذا والمسألة كلها أصلها وفروعها على الله ؟

إذن : يمكن أن تكون هذه الآية للمفتونين فى الأسباب الذين ينتظرون منها العطاء ، وينسوْنَ المسبِّب سبحانه ، وهذا هو الشرك الخفى .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ .. (٦٨) ﴾ [الفرقان] سبق أنْ تحدثنا عن الفرق بين الموت والقتل ، وقلنا :

---

(١) أخرج ابن ماجة فى سننه (٢١١٧) من حديث ابن عباس رضى الله عنهما قال قال ﷺ : « إذا حلف أحدكم فلا يقل : ما شاء الله وشئت ، ولكن ليقل : ما شاء الله ثم شئت » .

إن كليهما تذهب به الحياة ، لكن فى الموت تذهب الحياة أولاً ، ثم تُنقض البنية بعد ذلك ، أما فى حالة القتل فتُنقض البنية أولاً ، ثم يتبعها خروج الروح . فالموت - إذن - بيد الله عز وجل ، أما القتل فقد يكون بيد البشر .

وهنا نَهْى صريح عن هذه الجريمة ؛ لأنه « ملعون مَنْ يهدم بنيان الله » ويقضى على الحياة التى وهبها الله تعالى لعباده .

وقوله تعالى : ﴿إِلاَّ بِالْحَقِّ .. (٦٨)﴾ [الفرقان] أى : حق يبيح القتل كرَجْم الزانى حتى الموت ، وكالقصاص من القاتل ، وكقتْل المرتد عن دينه ، فإنْ قتلْنا هؤلاء فقتلُهم بناء على حَقٍّ استوجب قتلهم .

فإن قال قائل : فأين حرية الدين إذن ؟ نقول : أنت حر فى أن تؤمن أو لا تؤمن ، لكن اعلم أولاً أنك إنْ ارتددتَ عن إيمانك قتلناك ، فإياك أنْ تدخل فى ديننا إلا بعد اقتناع تام حتى لا تُعرِّض نفسك لهذه العاقبة .

وهذا الشرط يمثِّل عقبة وحاجزاً أمام مَنْ أراد الإيمان ويجعله يُفكِّر ملياً قبل أنْ ينطق بكلمة الإيمان ويحتاط لنفسه ، إذن : فربُّكَ عز وجل يُنبِّهك أولاً ، ويشترط عليك ، وليس لأحد بعد ذلك أن يقول : أين حرية الدين ؟

وقوله تعالى :﴿وَلاَ يَزْنُونَ .. (٦٨)﴾ [الفرقان] تحدثنا عن هذه المسألة فى أول سورة النور وقلنا : إن الإنسان الذى كرَّمه الله وجعله خليفةً له فى أرضه أراد له الطُّهْر والكرامة ، وأنْ يسكن الدنيا على مقتضى قانون الله ، فلا يُدخل فى عنصر الخلافة شيئاً يخالف هذا القانون ؛ لأن الله تعالى يريد أن يبنى المجتمع المؤمن على الطُّهْر ويبنيه على عناية المربِّى بالمربَّى .

لذلك تجد الرجل يعتنى بولده مطْعماً ومشرباً وملبساً ويفديه بنفسه ، لماذا ؟ لأنه ولده من صُلْبه ومحسوب عليه ، أمّا إنْ شكَّ فى نسب ولده إليه فإنه يُهمله ، وربما فكّر فى الخلاص منه ، وإنْ رُبِّى مثل هذا رُبِّى لقيطاً لا أصلَ له ، وهذا لا يصلح لخلافة الله فى أرضه ، ولا لأن يحمل هذا الشرف .

وهذا يدل على أن الفطرة السليمة تأبى أنْ يوجد فى كون الله شخص غير منسوب لأبيه الحق ، من هنا نهى الإسلام عن الزنا ، وجعل من صفات عباد الرحمن أنهم لا يزنون .

﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) ﴾ [الفرقان] أثاماً مثل : نكالاً وَزْناً ومعنىً ، والآثام : عقوبة الإثم والجزاء عليه .

﴿ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا (٦٩) ﴾

كيف نفهم مضاعفة العذاب فى هذه الآية مع قوله تعالى فى آية أخرى :﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا .. (٤٠) ﴾ [الشورى]

ويقول سبحانه : ﴿ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَىٰ إِلاَّ مِثْلَهَا وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (١٦٠) ﴾ [الأنعام]

الحقيقة لا يُوجد تناقض بين آيات القرآن الكريم ، فالذى يرتكب هذه الفعْلة يكون أسْوة فى المجتمع تُجرِّىء الغير على ارتكاب هذه الجريمة ؛ لذلك عليه وزْره كفاعل أولاً ، وعليه وِزْر مَن اقتدى به .

كما جاء فى قوله تعالى حكايةً عن الكافرين : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا

عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الزخرف] إذن : فوجود الآباء كقدوة للشر يزيد من شرِّ الأبناء ، فكأنهم شركاء فيه .

لذلك يقول تعالى فى موضع آخر : ﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ .. ﴿٢٥﴾ ﴾ [النحل]

وقال : ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ .. ﴿١٣﴾ ﴾ [العنكبوت]

فالوِزْر الأول لضلالهم فى ذاته ، والوِزْر الآخر ؛ لأنهم أضلّوا غيرهم ، هذا هو المراد بمضاعفة العذاب .

وقوله تعالى : ﴿ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ ﴾ [الفرقان] معنى (مُهَاناً) : حينما وصف القرآن العذاب وصفه مرةً بأنه أليم ، ومرةً عظيم ، ومرة مُهين . فالذى ينظر إلى إيلام الجوارح يقول : هذا عذاب أليم ؛ لأنه يُؤلم كل جارحة فيه ، فالعذاب أمر حسىّ ، أما الإهانة فأمر معنوى ، ومن الناس مَنْ تؤلمه كلمة تنال من كرامته ، ومنهم مَنْ يُضرب فلا يؤثر فيه .

والخالق ـ عز وجل ـ خلق الناس وعلم أزلاً أنهم أبناء أغيار ، ليس معصوماً منهم إلا الرسل ، إذن : فالسيئة مُحْتملة منهم .

ومن تمام رحمته تعالى بربوبيته أنْ فتح باب التوبة لعباده ، لمن أسرف منهم على نفسه فى شىء ؛ لأن صاحب السيئة إنْ يئس من المغفرة استشرى خطره وزاد فساده ، لكن إنْ فتحتَ له باب التوبة والمغفرة عاد إلى الجادة ، واستقام على الطاعة ، وفى هذا رحمة بالمجتمع كله .

يقول تعالى :

﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾

فربُّكم كريم ورحيم ، إنْ تُبتْم تاب عليكم وقَبِلكم ، فإنْ قدَّمْتُم العمل الصالح واشتدّ ندمكم على ما فات منكم من معصية يُبدِّل سيئاتكم حسنات.

وللتوبة أمران : مشروعيتها من الله أولاً ، وقبولها من صاحبها ثانياً ، فتشريعها فَضْل ، وقبولها فَضْل آخر ؛ لذلك يقول سبحانه : ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا .. ﴿١١٨﴾﴾ [التوبة] والمعنى : تاب عليهم بأنْ شرَّع لهم التوبة حتى لا يستحُوا من الرجوع إلى الله .

وقوله تعالى : ﴿إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا .. ﴿٧٠﴾﴾ [الفرقان] تاب وآمن لمن عمل معصية تُخرجه عن الإيمان ، فالعاصى لم يقارف المعصية إلا فى غفلة عن إيمانه ، كما جاء فى الحديث الشريف : « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن »[1].

ولو استحضر العاصى جلالَ ربه ما عصاه ، ولتضخمتْ عنده المعصية فانصرف عنها ، وما دام قد غاب عنه إيمانه فلا بُدَّ له من تجديده ، ثم بعد ذلك يُوظِّف هذا الإيمان فى العمل الصالح .

﴿إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا .. ﴿٧٠﴾﴾ [الفرقان] فالجزاء

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٤٧٥) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٥٧) كتاب الإيمان من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

﴿فَأُولَـٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ .. ﴿٧٠﴾﴾ [الفرقان] وليس المراد أن السيئة تُبدَّل فتصير حسنة مباشرة ، إنما يرفع العبد السيئة ويحل محلها التوبة ، وبعد التوبة يضع الله له الحسنة .

وقد أطمعتْ رحمة الله ومغفرته بعض الناس ، حتى قال الشاعر :

مَوْلاَى إنِّى قَدْ عصيتُكَ عَامداً ... لأراكَ أجملَ ما تكُون غَفُوراً
وَلَقَدْ جنيْتُ مِنَ الذُّنُوبِ كبَارَهَا ... ضَنّاً بعفْوِك أنْ يكُونَ صَغِيراً

حتى وصل الحال ببعضهم أنْ يستكثر من السيئة طمعاً فى أن تُبدَّل حسنات ، لكن مَنْ يضمن له أن يعيش إلى أنْ يتوب ، أو أنه إنْ تاب قَبِل الله منه ؟

والعلة النفسية التى تكلَّم عنها العلماء فى هذه المسألة أن الذى ابتعد عن المعصية فلم يقع فى شراكها لم يدرك لذة الشهوة ، فلا تَأْتى على باله ، أمّا مَنْ خاض فيها ، وذاق لذتها ، وأسرف فيها على نفسه فيعانى كثيراً حينما يحجز نفسه وينأى بها عن معصية الله ، فهذه المعاناة هى التى جعلتْ له هذه المنزلة .

﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾﴾

معنى ﴿يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾﴾ [الفرقان] يعنى : توبة نصوحاً ، لا عودة بعدها إلى المعصية ، لا يرجع فى توبته كالمستهزئ بربه ، يقول : أفعل كذا ثم أتوب . وكلمة ﴿مَتَابًا ﴿٧١﴾﴾ [الفرقان] تعنى : العزم ساعةَ أنْ يتوبَ ألاَّ يعود ، والخطر فى أن يُقدم العبد على الذنب لوجود التوبة ، فقد يُقبض فى حال المعصية ، وقبل أنْ يُمكنه التوبة[1] .

---

(١) قال القفال : يحتمل أن تكون الآية الأولى فيمن تاب من المشركين ، ولهذا قال ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ .. ﴿٧٠﴾﴾ [الفرقان] ثم عطف عليه من تاب من المسلمين وأتبع توبته عملاً صالحاً ، فله حكم التائبين أيضاً . [تفسير القرطبى ٧/٤٩٥٦] .

ثم تذكر الآيات خصلة أخرى من خصال عباد الرحمن :

﴿ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا (٧٢) ﴾

الزُّور : الشيء الكذب ، ويُزوِّر فى الشهادة . أى : يُثبت الحق لغير صاحبه ، لكن نلاحظ أن الآية لم تقُلْ : والذين لا يشهدون بالزور ، مما يدلّ على أن للآية معنى أوسع من النطق بقول الزور فى مجال التقاضى ، حيث تقول عند القاضى : فلان فعلْ وهو لم يفعل .

فللشهادة معنى آخر : أى : لا يحضرون الزور ، والزور كلُّ مَا خالف الحق ، ومنه قوله تعالى فى شهر رمضان : ﴿ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ .. (١٨٥) ﴾ [البقرة]

فمعنى ﴿ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ .. (٧٢) ﴾ [الفرقان] أى : لا يحضرون الباطل فى أىّ لون من ألوانه قولاً أو فعلاً أو إقراراً ، وكل ما خالف الحق .

لذلك يقول الحق سبحانه فى موضع آخر : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ (٥٥) ﴾ [القصص]

ويقول سبحانه : ﴿ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٦٨) ﴾ [الأنعام]

وقال تعالى : ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ .. (١٤٠) ﴾ [النساء]

ومعلوم أن قَوْل الزور والشهادة بغير حق تقلب الحقائق وتضرُّ بالمجتمع ؛ لأنك حين تشهد بالزُّور تأخذ الحق من صاحبه وتعطيه لغيره ، وهذا يؤدى إلى تعطل حركة الحياة ، وتجعل الإنسان لا يأمن على ثمار تعبه وعرقه ، فيحجم الناس عن السعى والعمل ما دامت المسألة زوراً فى النهاية .

لذلك قال النبى ﷺ : « ألا أُنبئكم بأكبر الكبائر ؟ الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين ، وشهادة الزور ، وكان رسول الله ﷺ متكئاً فجلس ، فما زال يكررها حتى قلنا : ليته سكت »(١)

لماذا ؟ لأن شهادة الزُّور تهدم كُلَّ قضايا الحق فى المجتمع .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا (٧٢) ﴾ [الفرقان] اللغو : هو الذى يجب فى عُرْف العاقل أنْ يُلْغى ويُتْرك ، وهو الهُرَاء الذى لا فائدة منه ؛ لذلك قال فيمن يتركه ﴿ مَرُّوا كِرَامًا (٧٢) ﴾ [الفرقان] والكرام يقابلها اللئام ، فكأن المعنى : لا تدخل مع اللئام مجالَ اللغو والكلام الباطل الذى يُصادِم الحق ليصرف الناس عنه .

ومن ذلك ما حكاه القرآن عن الكفار ليصرفوا الناس عن الاستماع لآيات الذكر : ﴿ لا تَسْمَعُوا لِهَـٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ .. (٢٦) ﴾ [فصلت]

يعنى : شوِّشوا عليه حتى لا يتمكّن الناس من سماعه ، وهذه شهادة منهم بأنهم لو تركوا آذان الناس على طبيعتها وسجيتها فسمعت القرآن ، فلا بُدَّ أن ينفعلوا به ، وأن يؤمنوا به ، ولو لم يكُنْ للقرآن أثر فى النفوس ما قالوا هذه المقولة .

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٨٧) كتاب الإيمان ، وأحمد فى مسنده (٥/٣٧) ، والترمذى فى سننه (٣٠١٩) من حديث أبى بكرة نفيع بن الحارث ، قال الترمذى : هذا حديث حسن غريب صحيح .

وقولهم : ﴿وَالْغَوْا فِيهِ .. (٢٦)﴾ [فصلت] يعنى : وإنْ سمعتموه يُقرأ فالْغوْا فيه ، وشوِّشوا عليه ، حتى لا يصل إلى الآذان ، لماذا ؟ ألم يؤمن سيدنا عمر لما سمع آيات منه فى بيت أخته فاطمة ؟ لكن لماذا أثّر القرآن فى عمر هذه المرة بالذات ، وقد سمعه كثيراً فلم يتأثر به ؟

قالوا : لأن اللجج والعناد يجعل الإنسان يسمع غير سامع ، أما سماع عمر هذه المرة ، فكان بعد أن ضرب أخته فشجَّها ، وسال منها الدم ، فحرّك فيه عاطفة الأخوة وحنانها ، ونفض عنه الكبرياء والعناد واللجاج ، فصادف القرآنُ منه نفساً صافية ، وقلباً خالياً من اللدد للإسلام فأسلم .

ألاَ ترى الكفار يقول بعضهم لبعض عند سماع القرآن ـ كما حكاه القرآن : ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا .. (١٦)﴾ [محمد]

يعنى : ما معنى ما يقول ، أو : ما الجديد الذى جاء به ، وهذا على وجه التعجُّب منهم . فيردّ القرآن : ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى .. (٤٤)﴾ [فصلت]

إذن : فالقرآن واحد ، لكن المُسْتقبِل له مختلف : هذا استقبله بنفس صافية راضية ، وهذا استقبله بلَدد[1] وقلب مُغْلق ، فكأنه لم يسمع ، فالمسألة مسألة فعْل وقابل للفعْل ، وسبق أن مثَّلنا لذلك بمَنْ ينفخ فى يده أيام البرد والشتاء بقصد التدفئة ، وينفخ فى كوب الشاى مثلاً بقصد التبريد ، فالفعل واحد ، لكن المستقبِل مختلف .

---

(١) اللدد : الخصومة الشديدة والألد : الشديد الخصومة الجَدِل . [لسان العرب ـ مادة : لدد] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا (٧٣) ﴾

قوله تعالى ﴿ ذُكِّرُوا .. (٧٣) ﴾ [الفرقان] لا تُقال إلا إذا كان المقابل لك الذى تذكره عنده إلْفٌ بالذكْر ، وعنده علْم به ، والآيات التى تُذكِّر بها لها قدوم أول ، ولها قدوم ثان : القدوم الأول : هو الإعلان الأول بها ، والقدوم الثانى : حين تنسى نُذكّرك بها .

وسبق أنْ قُلْنا : إن الآيات تُطلَق على معَانٍ ثلاثة : إمّا آيات كونية تُلفت النظر إلى قدرة الله تعالى ، وأنه صانع حكيم .. الخ ، وإمّا آيات معجزات جاءت لتأييد الرسل وإثبات صدْقهم فى البلاغ عن الله ، وإمّا آيات الذكْر الحكيم ، والتى تُسمَّى حاملة الأحكام ، وهى تُنبِّه من الغفلة ، وتُذكِّر الناس .

فالمعنى ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ .. (٧٣) ﴾ [الفرقان] أى : فى القرآن الكريم : ﴿ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا (٧٣) ﴾ [الفرقان] لم يخروا : الخرّ : هو السقوط بلا نظام وبلا ترتيب .

كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ .. (٢٦) ﴾ [النحل] فالسقف إنْ خَرّ يخرّ بلا نظام وبلا ترتيب .

ومنه قوله تعالى فى صفات المؤمنين : ﴿ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً (١٠٨) وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ .. (١٠٩) ﴾ [الإسراء] لأنهم يخرّون بانفعال قَسْرىّ ، ينشأ من سماع القرآن .

إذن : حين يُذكَّرون بآيات الله لم يخرّوا عليها صُمّاً وعمياناً ، إنما يخِرُّون وهم مُصغون تمام الإصغاء ، ومبصرون تمام الإبصار .

ثم يقول الحق سبحانه عنهم :

﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا (٧٤) ﴾

هذه صفة أخرى من صفات عباد الرحمن ، يطلبون فيها أمرين ﴿ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ .. (٧٤) ﴾ [الفرقان] والذرية لا تأتى إلا بعد الزواج ؛ لذلك جاء الدعاء للأزواج ، ثم للذرية .

وكلمة ﴿ قُرَّةَ .. (٧٤) ﴾ [الفرقان] تُستعمل بمعنيين ، وفى اللغة شىء يسمونه (عامل اشتقاق) يعنى : يشتق اللفظ من معنى عام ، وقد يختلف معناه ، لكن فى النهاية يلتقيان على معنى واحد .

وكلمة (قُرَّة) تأتى بمعنى اللزوم والثبات ، من قَرَّ فى المكان يعنى : لزمه وثبت فيه ، وتأتى بمعنى السرور ؛ والقُرُّ يعنى أيضاً : شدة البرودة ، كما جاء فى قول الشاعر :

أَوْقِدْ فَإِنَّ اللَّيْلَ لَيْلُ قُرِّ ... والريحَ يَا غُلامُ ريحُ صُرِّ
عَلَّ أنْ يَرى نَارك مَنْ يمرُّ ... إنْ جلبتْ ضَيْفاً فأنتَ حُرّ

فالقُر : البرد ، والقرور : السُّكون ، والعين الباردة : دليل السرور ، والعين الساخنة دليل الحزن والألم ، على حَدِّ قول الشاعر :

فَأَمَّا قُلوبُ العَاشقينَ فأُسخنَتْ ... وأمَّا قُلوبُ العَازلين[1] فقرَّت

---

(١) عزل الشىء يعزله فاعتزله : نحّاه جانباً فتنحَّى . [لسان العرب ـ مادة : عزل] أى : أنهم عزلوا قلوبهم عن العشق والحب والوصال فاستراحت واستقرت قلوبهم .

لذلك يكنُون ببرودة العين عن السرور ، وبسخونتها عن الحزن ، يقولون : رزقنى الله ولداً قرَّتْ به عينى ، ويقولون : أسخن الله عين فلان يعنى : أصابه بحُزْن تغلى منه عينه .

ولأن العين جوهرة غالية فى جسم الإنسان فقد أحاطها الخالق - عز وجل - بعناية خاصة ، وحفظ لها فى الجسم حرارةً مناسبة تختلف عن حرارة الجسم التى تعتدل عند ٣٧°، فلو أخذتْ العينُ هذه الدرجة لانفجرتْ.

ومن عجيب قدرة الله تعالى أن تكون حرارة العين تسع درجات ، وحرارة الكبد أربعين ، وهما فى جسم واحد .

فالمعنى ﴿قُرَّةَ أَعْيُنٍ .. (٧٤)﴾ [الفرقان] يعنى : اجعل لنا من أزواجنا ما نُسَرُّ به ، كما جاء فى الحديث الشريف عن صفات الزوجة الصالحة : « ما استفاد المؤمن بعد تقوى الله خيراً له من زوجة صالحة : إنْ أمرها أطاعته ، وإن نظر إليها سرَّته ، وإن أقسم عليها أبرَّته ، وإن غاب عنها نصحته فى نفسها وماله »[1]

وهَبْ لنا من ذرياتنا أولاداً ملتزمين بمنهج الله ، لا يحيدون عنه ، ولا يُكلِّفوننا فوق ما نطيق فى قول أو فعل ؛ لأن الولد إنْ جاء على خلاف هذه الصورة كان مصيبة كبرى لوالديه ، بدليل أن الرجل قد يسرف على نفسه بأنواع المعاصى ، وقد يُقصِّر فى حق الله ، لكن يحزن إنْ فعل ولده مثل فِعْله .

---

(١) أخرجه ابن ماجة فى سننه (١٨٥٧) من حديث أبى أمامة رضى الله عنه ، قال البوصيرى فى زوائده : « فى إسناده على بن يزيد . قال البخارى : منكر الحديث . وعثمان ابن أبى العاتكة مختلف فيه . والحديث رواه النسائى من حديث أبى هريرة وسكت عليه . وله شاهد من حديث ابن عمر » .

فالأب قد لا يصلى ، لكن يحثُّ ولده على الصلاة ، ويفرح له إنْ صلى واستقام ، لماذا ؟ لأنه يريد أن يرى وأن يُعوِّض ما فاته من الخير والجمال فى ابنه ، ولا يحب الإنسان أن يرى غيره أحسن منه إلا ولده ؛ لأنه امتداده وعوَضه فيما فات .

وإنْ أخذنا ﴿قُرَّةَ أَعْيُنٍ .. (٧٤)﴾ [الفرقان] على أنها بمعنى الاستقرار والثبات ، فالمعنى أن تكون الزوجة على خُلُق وأدب وجمال ، بحيث تُرضِى الزوج ، فلا تمتد عينه إلى غيرها ، وتسكن عندها لأنها استوفت كل الشروط ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ .. (٨٨)﴾ [الحجر]

وكذلك إنْ وجد صفات الخير والأدب والجمال فى أولاد بحيث لا تمتد عينه إلى أكثر من ذلك ؛ لأنه يرى فى أولاده كُلَّ تطلعاته ، وكل ما يتمناه ، فلا يتطلع إلى غيرهم ؛ لذلك حين يمدحون . يقولون : فلان لم يَعُدْ عنده تطلعات ، لماذا ؟ لأنه حقَّق كل ما يريد .

ويقولون فى المدح أيضاً : فلان هذا قَيْد النظر ، يعنى : حين تراه تسكن عنده عينك ، ولا تتحول عنه لجماله وكمال صفاته .

والولد حين يكون على هذه الصورة ، يريح والديه فى الدنيا وفى الآخرة ؛ لأنه ولد صالح لا ينقطع برّه بوالديه لموتهما ، إنما يظل باراً بهما حتى بعد الموت فيدعو لهما . وفى الآخرة يجمعهم الله جميعاً فى مستقر رحمته : ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ .. (٢١)﴾ [الطور]

وهكذا كله فى الأزواج وفى الأولاد هبة ومنحة من الله .

ونلحظ أن بعض الأزواج يعيشون مع أزواجهم على مَضَض ، وربما على كُرْه تحملهم عليه ظروف الحياة والأولاد واستقرار الأسرة ، فإنْ قلتَ للزوج : إن زوجتك ستكون معك فى الجنة يقول : كيف ، حتى فى الآخرة ؟! وهو لا يعلم أن الله تعالى سيُطهِّرها من الصفات التى كرهها منها فى الدنيا .

قال سبحانه : ﴿ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ [1] .. (١٥) ﴾ [آل عمران]

ويقول سبحانه : ﴿ إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ (٥٥) هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلالٍ عَلَى الأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ (٥٦) ﴾ [يس]

وقوله تعالى : ﴿ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا (٧٤) ﴾ [الفرقان] نلحظ أن الدعوة هنا جماعية ، ومع ذلك لم يقُلْ أئمة ، وذكر إماماً بصيغة المفرد ، فلماذا ؟

قالوا : لأنه تعالى يُنبِّهنا إلى أنّ الإمام هو الذى يسير على وَفْق منهج الله ولا يحيد عنه ؛ لذلك إنْ تعددتْ الأئمة فهُمْ جميعاً فى حُكْم إمام واحد ؛ لأنهم يصدرون عن رب واحد ، وعن منهج واحد لا تحكمهم الأهواء فتُفرِّقهم كالأمراء مثلاً . فجمعهم فى القول من كل منهم على حدة ووحدهم فى الإمامة.

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (١/٣٥٢) : « أى مطهرة من الدنس والخبث والأذى والحيض والنفاس وغير ذلك مما يعترى نساء الدنيا » . ونقل ابن منظور فى لسان العرب (مادة : طهر) قول أبى إسحاق فى معنى هذه الكلمة فى الآية : « معناه أنهن لا يحتجن إلى ما يحتاج إليه نساء أهل الدنيا بعد الأكل والشرب ، ولا يحضن ولا يحتجن إلى ما يُتطهر به ، وهن مع ذلك طاهرات طهارة الأخلاق والعفة ، فمطهرة تجمع الطهارة كلها لأن مطهرة أبلغ فى الكلام من طاهرة » .

ثم يقول الحق سبحانه عن جزاء عباد الرحمن :

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ[1] بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةٗ وَسَلَٰمًا ٧٥﴾

﴿أُوْلَـٰئِكَ .. ٧٥﴾ [الفرقان] خبر عن عباد الرحمن الذين تقدمتْ أوصافهم ، فجزاؤهم ﴿يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ .. ٧٥﴾ [الفرقان] وجاءت الغرفة مفردةً مع أنهم متعددون ، يحتاج كل منهم إلى غرفة خاصة به .

قالوا ؛ لأن الغرفة هنا معناها المكان العالي الذى يشتمل على غرفات ، كما قال تعالى : ﴿ إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُوْلَـٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ ٣٧﴾ [سبأ]

وهذا الجزاء نتيجة ﴿بِمَا صَبَرُوا .. ٧٥﴾ [الفرقان] صبروا على مشاقِّ الطاعات ، وقد أوضح النبى ﷺ هذه المسألة بقوله : « حُفَّتْ الجنة بالمكاره ، وحُفَّتْ النار بالشهوات »[2].

فالجنة تستلزم أن أصبر على مشاقِّ الطاعات ، وأن أُقدِّر الجزاء على العمل ، وأستحضره فى الآخرة ، فإنْ ضِقْتَ بالطاعات وكذَّبْتَ بجزاء الآخرة ، فلِمَ العمل إذن ؟

ومثَّلْنا لذلك بالتلميذ الذى يجدّ ويجتهد فى دروسه ، لأنه يستحضر يوم الامتحان ونتيجته ، وكيف سيكون موقفه فى هذا اليوم ، إذن : لو استحضر الإنسانُ الثوابَ على الطاعة لَسهُلَتْ عليه وهانتْ عليه متاعبها ، ولو استحضر عاقبة المعصية وما ينتظره من جزائها لابتعد عنها .

---

(١) الغرفة : الدرجة الرفيعة ، وهى أعلى منازل الجنة وأفضلها ، كما أن الغرفة أعلى مساكن الدنيا . حكاه ابن شجرة . وقال الضحاك : الغرفة الجنة . [ذكره القرطبى ٧/٤٩٦١] .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٣/١٥٣ ، ٢٥٤) ، ومسلم فى صحيحه (٢٨٢٢) ، والترمذى فى سننه (٢٥٥٩) من حديث أنس رضى الله عنه .

فالتكاليف الشرعية تستلزم الصبر ، كما قال تعالى : ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ (٤٥)﴾ [البقرة]

فالحق ـ تبارك وتعالى ـ يريد منّا ألاَّ نعزل التكاليف عن جزائها ، بل ضَعِ الجزاء نُصْب عينيك قبل أنْ تُقدم على العمل .

لذلك النبى ﷺ يسأل أحد صحابته : « كيف أصبحتَ يا حارثة[1] » فيقول : أصبحتُ مؤمناً حقاً ، فقال : « إنَّ لكل حقّ حقيقة ، فما حقيقة إيمانك » ؟

قال : عزفتْ نفسى عن الدنيا ، حتى استوى عندى ذهبها ومدرها[2] ، وكأنى أنظر إلى أهل الجنة فى الجنة يُنعَّمون ، وإلى أهل النار فى النار يُعذَّبون .

فالمسألة ـ إذن ـ فى نظرهم لم تكُنْ غيباً ، إنما مشاهدة ، كأنهم يرونها من شدة يقينهم بها ؛ لذلك قال له النبى ﷺ : « عرفتَ فالزم »[3]

والإمام على ـ كرَّم الله وجهه ـ يقول : لو كُشف عنى الحجاب ما ازددتُ يقيناً . لماذا ؟ لأنه بلغ من اليقين فى الغيب إلى حَدِّ العلم والمشاهدة .

ثم يقول تعالى : ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلاماً (٧٥)﴾ [الفرقان]

التحية : أن نقول له : إننا نُحيِّيك يعنى : نريد حياتك بأُنْسك بنَا ، والسلام : الأمان والرحمة ، لكن ممَّنْ يكون السلام ؟ ورَدُّ السلام فى

---

(١) هو : الحارث بن مالك الأنصارى . انظر ترجمته فى كتاب « الإصابة فى تمييز الصحابة ـ ١٤٧٥) لابن حجر العسقلانى ، وقد ذكر روايات كثيرة لحديثه هذا .

(٢) المدر : قطع الطين اليابس . [لسان العرب ـ مادة : مدر] .

(٣) أورده الهيثمى فى مجمع الزوائد (١/٥٧) وعزاه للطبرانى فى الكبير ، وقال : « فيه ابن لهيعة وفيه من يحتاج إلى الكشف عنه » .

القرآن الكريم بمعان ثلاثة : سلام من الله ، كما فى قوله تعالى : ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ (٥٨)﴾ [يس]

وسلام من الملائكة :﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلَامٌ عَلَيْكُم ..(٢٤)﴾ [الرعد]

وسلام من أهل الأعراف ، وهم قوم استوتْ حسناتهم وسيئاتهم ، فلم يدخلوا الجنة ، ولم يدخلوا النار ، وهؤلاء يقولون : ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ (٤٦)﴾ [الأعراف]

إذن : فعباد الرحمن يُلَقَّوْن فى الجنة سلاماً من الله ، وسلاماً من الملائكة ، وسلاماً من أهل الأعراف .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿خَالِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٧٦)﴾

وسبق أنْ قال تعالى عن النار ﴿سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٦٦)﴾ [الفرقان] لأنها قبيحة ، ومقابلها هنا ﴿حَسُنَتْ .. (٧٦)﴾ [الفرقان] والمستقر : مكان الإقامة العابرة غير الدائمة ، والمقام : مكان الإقامة الدائمة ، ومعلوم أن مَنْ يدخل الجنة يقيم فيها إقامة أبدية دائمة ، أما مَنْ يدخل النار فقد يخرج منها ، إنْ كان مؤمناً . فكيف قال عن كل منهما : مُستقراً ومُقَاماً ؟

قالوا : لأنهم ساعةَ يأتيهم نعيم وجزاء نقول لهم : ليس هذا هو النعيم الدائم ، فالمستقر فى نعمة واحدة ، إنما المقام فى نِعَم أخرى كثيرة مُترقية مُستعلية ، لدرجة أن الكمالات فى عطاء الله لا تتناهى .

ثم يُنهى الحق سبحانه سورة الفرقان بقوله تعالى :

﴿ قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾ ﴾

بعد أن تحدث الحق ـ تبارك وتعالى ـ عن عباد الرحمن ، وذكر أوصافهم وجزاءهم توجّه إلى الآخرين الذين لم يتصفوا بهذه الصفات ، ولن ينالهم شيء من هذا النعيم ، يقول لهم : إياكم أنْ تظنوا أن الله تعالى سيبالى بكم ، أو يهتم ، أو يكون فى معونتكم ؛ لأن الله تعالى لا يبالى إلا بعباده الذين عبدوه حَقَّ العبادة ، وأطاعوه حَقَّ الطاعة ، وأنتم خالفتُمْ الأصل الأصيل من إيجاد الخَلْق ، ولم تحققوا معنى الاستخلاف فى الأرض الذى خلقكم الله تعالى من أجله .

فكما أنكم انصرفتم عن منهج الله ولم تَعْبئوا به ولم تعبدوه ، ولم يكُنْ على بالكم ، فكذلك لا يعبأ الله بكم ، ولن تكونوا على ذِكْر منه سبحانه ، وسوف يهملكم .

وقوله تعالى : ﴿ لَوْلا دُعَاؤُكُمْ .. ﴿٧٧﴾ ﴾ [الفرقان] يعنى : لولا عبادتكم ، حيث إنها لم تقع ﴿ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ .. ﴿٧٧﴾ ﴾ [الفرقان] أى : بالأصل الأصيل ، وهو أنكم مخلوقون للعبادة ﴿ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾ ﴾ [الفرقان] كما لازمتم أنتم الكفر بى ولم تعبدونى وأصررتُم على الكفر ، كذلك يكون الجزاء من جنس العمل لِزاماً لكم ، فلا يُفارقكم أبداً .

سُورَةُ الشُّعَرَاءِ

سورة الشعراء[1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ طسٓمٓ ١ ﴾

﴿ طسٓمٓ ١ ﴾ [الشعراء]

سبق أن تكلمنا عن الحروف المقطعة فى أوائل السور ، وقلنا : فَرْق بين اسم الحرف ومُسمّى الحرف ، مُسمّى الباء مثلاً : بَا أو بُو أو بِى أو إبْ فى حالة السكون ، إنما اسمها : باءٌ مفتوحة ، أو مضمومة ، أو ساكنة ، لكن حين تنطق هذا الحرف فى كَتَب ـ مثلاً ـ تقول : كَتَبَ فتنطق مُسمَّى الحرف لا اسمه .

وقُلْنا : فى هذه المسألة معانٍ كثيرة ، أيسرها : أن القرآن ، وهو كلام الله المعجز مُنزَّل من حروف مثل حروفكم التى تتكلمون

---

(١) سورة الشعراء هى السورة رقم (٢٦) فى ترتيب المصحف الشريف ، عدد آياتها ٢٢٧ آية ، وهى سورة مكية فى قول الجمهور ، وهى السورة رقم ٤٦ فى ترتيب النزول نزلت بعد سورة الواقعة وقبل سورة النمل [انظر : الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى ١/٢٧] . وقد استثنى ابن عباس وقتادة أربع آيات منها نزلت بالمدينة من قوله ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ٢٢٤﴾ [الشعراء] إلى آخر السورة . [ذكره القرطبى فى تفسيره ٧/٤٩٦٥] .

بـهـا ، وكلمات مـثل التى فى لغـتكم ، لكن مـا الذى جعـله متـميـزاً بالإعـجاز عن كـلامكم ؟ نقول : لأنه كـلام الله ، هذا هو الفَرْق ، أمّـا الحروف فواحدة .

ولو تأملتَ لوجدتَ أن الحروف المقطعة فى أوائل السور مجموعها أربعة عشر حرفاً[1] ، هى نصف الحروف الهجـائية ، مرة يأتى حرف واحد ، ومرة حرفان ، ومرة ثلاثة أحرف ، ومرة أربعة أحرف ، ومرة خـمسـة أحـرف . وهذا يدلُّنا على أن القـرآن مُعْـجِـز ، مع أنه بنفس حروفكم ، وبنفس كلماتكم .

وسبق أن ضربنا لتوضيح هـذه المسألة مثلاً : هَبْ أنك أردت أن تختبر جماعة فى إجادة النسج مثلاً ، فأعطيت أحدهم صوفاً ، وللثانى حريراً ، وللثـالث قطناً ، وللرابع كتـاناً ، فهل تسـتطيع أن تحكم على دقَّـة نَسْج كل منهم وأيهـمـا أرقّ وأجـمل ؟ بالطبع لا تسـتطيع ؛ لأن الحـرير أنعم وأرقّ من القطن ، والقطن أرقّ من الـصوف ، والصـوف أرقّ من الكتـان ، فإنْ أردتَ تمـييـز الدقة والمـهارة فى هذه الصنـعة فعليك أنْ تُوحِّد النوع .

إذن : سرّ الإعـجاز فى القـرآن أن تكون مـادته ومادة غيـره من الكلام واحدة ، حـروفاً وكلمات ؛ لذلك كـثيراً ما يقـول الحق ـ تبارك وتعالى ـ بعد الحروف المقطعة :

---

(١) هذه الحروف الأربعة عـشرة يجمعهـا قولنا : نص حكيم قاطع له سر . قال الزمـخشرى : هذه الحروف الأربعـة عشرة مـشتملة على أصناف أجناس الحـروف يعنى : من المهمـوسة والمـجـهورة ، ومن الرخـوة والشـديدة ، ومن المطبـقـة والمـفتـوحـة ، ومن المـستـعليـة والمنخفـضة ، ومن حروف القلقلة ، فسـبحان الذى دقت فى كل شىء حكمتـه . [قاله ابن كثير فى تفسيره ١/٣٧] .

﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ ﴾

أى : أن الكتاب المبين مُكوَّن من مثل هذه الحروف ، ولله تعالى معَانٍ أخرى ، فيها مرادات له سبحانه ، لعلّ الزمن يكشف لنا عنها .. والقرآن كلام الله ، وصفاته لا تتناهى فى الكمال ، فإن استطعتَ أن تصف الأشياء ، هذا كذا ، وهذا كذا فهذه طاقة البشر والعقل البشرى . أمّا آيات الله فى كتابه المبين فهى الآيات الفاصلة التى لها بَدْء ولها نهاية ، وتتكوّن منها سور القرآن .

ومعنى ﴿ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ ﴾ [الشعراء] الواضح المحيط بكل شىء ، كما قال سبحانه فى آية أخرى : ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِى الْكِتَابِ مِن شَىْءٍ .. ﴿٣٨﴾ ﴾ [الأنعام]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ ﴾

هذه هى التسلية لرسول الله ﷺ ؛ لأنه حمّل نفسه فى تبليغ الرسالة فوق ما يُطيق ، وفوق ما يطلبه الله منه حرْصاً منه على هداية الناس ، وإرجاعهم إلى منهج الله ؛ ليستحقوا الخلافة فى الأرض ، ولأن من شروط الإيمان أن تحب لأخيك ما تحب لنفسك[1] .

والحق ـ تبارك وتعالى ـ يُسلِّى رسوله ﷺ ، كما قال له فى سورة الكهف : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ ﴾ [الكهف]

---

(١) عن أنس بن مالك قال قال رسول الله ﷺ : « والذى نفسى بيده ، لا يؤمن عبد حتى يحب لجاره ـ أو قال : لأخيه ـ ما يحب لنفسه » . حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (١٣) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٤٥) كتاب الإيمان .

كأنْ ترى ولدك يُرهق نفسه فى المذاكرة ، فتشفق عليه أنْ يُهلك نفسه ، فأنت تعتب عليه لصالحه ، كذلك الحق ـ تبارك وتعالى ـ يعتب على رسوله شفقةً وخوفاً عليه أنْ يُهلك نفسه .

ومعنى ﴿بَاخِعٌ .. (٣)﴾ [الشعراء] البخع : الذَّبْح الذى لا يقتصر على قَطْع المرىء والودجين[1] ، إنما يبالغ فيه حتى يفصل الفقرات ، ويخرج النخاع من بينها ، والمعنى : تحزن حزناً عميقاً يستولى على نفسك حتى تهلك ، وهذا يدل على المشقة التى كان يعانيها الرسول ﷺ من تكذيب قومه له .

وفى موضع آخر ، يقول سبحانه لرسوله ﷺ : ﴿فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ .. (٨)﴾ [فاطر] فهذا أمر نهائى واضح ، ونَهْى صريح ، بعد أنْ لفتَ نظره بالإنكار ، فقال : ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ .. (٣)﴾ [الشعراء]

وقد نبّه الله تعالى رسوله فى عدّة مواضع حتى لا يُحمِّل نفسه فوق طاقتها ، فقال الحق سبحانه وتعالى : ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ (٤٠)﴾ [الرعد]

وقال : ﴿لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ (٢٢)﴾ [الغاشية]

وقال : ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ .. (٤٥)﴾ [ق]

فالحق ـ تبارك وتعالى ـ يقول لرسوله : يسِّر على نفسك ، ولا تُكلِّفها تكليفاً شاقاً مُضْنياً ، والعتاب هنا لصالح الرسول ، لا عليه .

---

(١) الودجان : عرقان متصلان من الرأس إلى السَّحْر . والجمع أوداج . وهى عروق تكتنف الحلقوم فإذا فُصِد وَدَّج . [لسان العرب ـ مادة : ودج] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴿٤﴾ ﴾

والآية هنا ليست آيةَ إقناع للعقول ، إنما آية تُرْغمهم وتُخضع رقابهم ، وتُخضع البنية والقالب ، وهذا ليس كلاماً نظرياً يُقال للمكذبين ، إنما حقائق وقعتْ بالفعل فى بنى إسرائيل . واقرأ إنْ شئت قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ .. (١٧١) ﴾ [الأعراف]

فأخذوا ما آتيناهم بقوة ، لماذا ؟ بالآية التى أرغمتهم وأخضعتْ قوالبهم ، لكن الحق ـ تبارك وتعالى ـ كما قلنا ـ لا يريد بالإيمان أنْ يُخضع القوالب ، إنما يريد أن يُخضع القلوب باليقين والاتباع .

فلو شاء ربك لآمن مَنْ فى الأرض كلهم جميعاً ، لا يتخلف منهم أحد ، بدليل أنه سبحانه خلق الملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يؤمرون ، وبدليل أنه سبحانه بعث رسلاً وعصمهم ، ولم يجعل للشيطان سبيلاً عليهم ، وبدليل أن الشيطان بعد أن تعهّد أن يُغوى بنى آدم ليكونوا معه سواء فى المعصية قال له : ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ .. (٤٢) ﴾ [الحجر]

والشيطان نفسه يقول : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣) ﴾ [ص]

إذن : لو أراد سبحانه لجعلَ الناس جميعاً مؤمنين وما عَزَّ عليه ذلك ، لكنه أراد سبحانه أن يكون الإيمان باختيار المؤمن ، فيأتى ربه طواعية مختاراً .

حتى فى أمور الدنيا وأهلها ، قد ترى جباراً يضرب الناس ، ويُخضعهم لأمره ونهيه ، فيطيعونه طاعةَ قوالب ، إنما أيستطيع أنْ يُخضِع بجبروته قلوبهم ؟!

وقال : ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴿٤﴾﴾ [الشعراء] خَصَّ الأعناق ؛ لأنها مظهر الخضوع ، فأول الخضوع أنْ تلوى الأعناق ، أو الأعناق تُطلَق عند العرب على وجوه القوم وأعيانهم ؛ لذلك يقولون فى التهديد : هذه مسألة تضيع فيها رقاب .

والمراد : الرقاب الكبيرة ذات الشأن ، لا رقاب لمامة القوم ، والضعفاء ، أو العاجزين . ومثلها كلمة صدوْر القوم يعنى : أعيانهم والمقدَّمين منهم الذين يملأون العيون .

والمعنى : فأنت لا تُخضِع الناس ؛ لأنى لو أردتُ أنْ أُخضعهم لأخضعتُهم ؛ لذلك يقول تعالى فى آية أخرى : ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾[يونس]

فإذا كان ربك لا يُكرِه الناسَ على الإيمان ، أفتُكرههم أنت ؟ ولماذا الإكراه فى دين الله ؟ إن الحق ـ تبارك وتعالى ـ يوالى تنزيل القرآن عليهم ـ آية بعد آية ـ فلعل نجماً من نجومه يصادف فراغاً ، وقلباً صافياً من الموجدة على رسول الله فيؤمن .

لكن هيهات لمثل هؤلاء الذين طُبعوا على اللدد والعناد والجحود أن يؤمنوا ؛ لذلك يقول الله عنهم : ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا .. ﴿١٤﴾﴾ [النمل]

وقال عنهم :

﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ۝٥﴾

قوله ﴿مُحْدَثٍ .. ۝٥﴾ [الشعراء] يعنى : جديد على أذهانهم ؛ لأننا لا نلفتهم بآية واحدة ، بل بآيات الواحدة تلو الأخرى : ﴿إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ۝٥﴾ [الشعراء]

فكلما جاءتهم آية كذَّبوها ، وهذا دليل على اللدد والعداوة التى لا تفارق قلوبهم لرسول الله ﷺ ، بحيث لا يصادف نجم من القرآن قلوباً خالية ، فكأن عداوتهم لك يا محمد منعتْهم من الإيمان بالقرآن ، فهم مستعدون للإيمان بالقرآن إنْ جاء من غيرك .

أليسوا هم القائلين : ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ۝٣١﴾ [الزخرف]

إذن : فاللدَد والخصومة ليستْ فى منهج الله ، إنما فى شخص رسول الله ؛ لذلك ربُّك يُعزِّيك ويحرص عليك : ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ .. ۝٣٣﴾ [الأنعام] مرة ساحر ، ومرة مجنون .. إلخ . انظر إلى التسلية : ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ ..۝٣٣﴾ [الأنعام] فأنت عندهم صادق وأمين ﴿وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ۝٣٣﴾ [الأنعام]

وقوله تعالى : ﴿إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ۝٥﴾ [الشعراء] أى : فى غباء ولَدَد ، وهل هناك أشدّ لَدَداً من قولهم : ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣٢﴾ [الأنفال]

بدل أن يقولوا : اهدنا إليه !!

﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦﴾ ﴾

أى : كلما جاءهم ذكْر من الرحمن ، وآية من آياته أصرُّوا على تكذيبها ﴿ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [الشعراء]

كما جاء فى آيات أخرى : ﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ[1] يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾ ﴾ [الشعراء]

وقال : ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴿٨٨﴾ ﴾ [ص]

يعنى : غداً تعلمون عاقبة تكذيبكم ، فآيات الله تسير أمامكم ، فكلُّ يوم يزداد المؤمنون بمحمد ، ويتناقص عدد الكافرين ، كل يوم تزداد أرض الإيمان ، وتتراجع أرض الكفر .

ألم يقُل الحق سبحانه وتعالى لهم : ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا .. ﴿٤٤﴾ ﴾ [الأنبياء]

فهذه - إذن - مقدمات تروْنها بأعينكم ، وكان ينبغى عليكم أن تأخذوا منها عبرةً وعظة ، فبوادر نجاح الدعوة وظهور الدين واضحة، هذا معنى : ﴿ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [الشعراء]

فليتهم اقتصروا على التكذيب والإصرار عليه ، إنما تعدّى الأمر منهم إلى الاستهزاء بالرسل وبكلام الله ، ألم يقولوا على سبيل الاستهزاء : ﴿ أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ ﴾ [الفرقان]

---

(١) المنقلب : مصدر ميمى بمعنى الانقلاب . والانقلاب إلى الله : المصير إليه والتحول . والمنقلب : مصير العباد إلى الآخرة . [لسان العرب - مادة : قلب] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ ﴾

لَمَّا لم يفلح الذكر المُحْدث والآيات المتجددة مع هؤلاء المعاندين فلم يَرْعَوُوا . ردَّهم الله تعالى إلى الآيات الكونية الظاهرة لهم والتى سبقتهم فى الوجود ، آيات فى السماء : الشمس والقمر والنجوم ، وآيات فى الأرض : البحار والقفار والجبال والنبات والحيوان .

وكلها آيات كونية لم يدَّعها أحد منهم ، بل جاء الإنسان إلى الوجود وطرأ عليها ، وقد سبقتْه هذه الآيات التى يراها : الكبير والصغير ، والرجل والمرأة ، والعاقل وغير العاقل ، ألاَ ينظرون فيها نظرةَ اعتبار ، فيسألون عن مبدعها ؟

ضربنا لذلك مثلاً بالإنسان الذى انقطعتْ به السُّبُل فى صحراء جرداء حتى أشرف على الهلاك ، فأخذته سِنَة فنام ، ولما استيقظ وجد فى هذا المكان المنقطع مائدةً ، عليها أطايب الطعام والشراب ، ألا ينبغى عليه قبل أنْ تمتدَّ يده إلى هذا الطعام أن يسأل نفسه من الذى أعده له ؟

كذلك الإنسان طرأ على كوْن مُعَدٍّ لاستقباله ، وعلى وجود لا تتناوله قدرته ، ولا سلطانَ له عليه ، فهو لا يتناول الشمس مثلاً ليُوقِدها ولم يدَّعِ هذه الآيات الكونية أحد ، ألاَ يدلّ ذلك على الخالق ـ عز وجل ـ ويُوجِب علينا الإيمان به ؟

لذلك يقول سبحانه ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ .. (٢٥)﴾ [لقمان]

وقال : ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ .. (٨٧)﴾ [الزخرف]

ولو تأمل الإنسان فى (اللمبة) الصغيرة التى تضىء غرفة ، ولها عمر افتراضى لا يتعدَّى عدة أشهر وهى عُرْضَة للكسر وللأعطال ، ومع ذلك تكاتف فى صناعتها فريق من المهندسين والعمال والفنيين ، وكثير من الآلات والعدَد ، ومع ذلك نُؤرِّخ لمخترع المصباح ، ونعرف تاريخه ، وكيفية صنعه .. إلخ . نعرف مخترع (التليفون والراديو) و ..

أليس من الأَوْلَى أن ننظر ونتأمل فى خَلْق الشمس ، هذا الكوكب العظيم الذى يضىء الدنيا كلها ، دون وقود ، أو قطعة غيار ، أو عُطْل طِوَال هذه المدَد المتعاقبة ؟

فإذا ما جاء رسول ، وقطع على الناس هذه الغفلة ، وقال لهم : ألاَ أُنبِّئكم بمَنْ خلق كل هذا ؟ إنه الله . كان يجب عليهم أنْ يُعيروه آذانهم ويؤمنوا .

هنا يقول تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الأَرْضِ .. (٧)﴾ [الشعراء] وهى آية ظاهرة أمام أعينهم ، يروْنَها هامدة جرداء مُقْفرة ، فإذا نزل عليها الماء أحياها الله بالنبات ، ألم ينظروا إلى الجبال والصحراء بعد نزول المطر ، وكيف تكتسى ثوباً بديعاً من النبات بعد فَصْل الشتاء .

ألم يسألوا أنفسهم : مَنْ نقل هذه البذور وبذرها فى الجبال ؛ لذلك يقول سبحانه فى موضع آخر : ﴿وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٥)﴾ [الحج]

وقوله تعالى هنا : ﴿كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۝٧﴾ [الشعراء] كم : خبرية تفيد الكثرة ، جاءت بصيغة الاستفهام للتقرير ، كما تقول لصاحبك : كم أحسنتُ إليك ، بدل أنْ تُعدِّد مظاهر إحسانك إليه ، فتسأله لأنك واثق أن الإجابة فى صالحك ، فالكلام بالإخبار دَعْوى منك ، لكن الإجابة على سؤال إقرار منه . فالمعنى : أن نبات الأرض كثير يفوق الحصر .

والزوج : الصنف ، والزوج أيضاً الذكر أو الأنثى ، والبعض من العامة يظن أن الزوج يعنى الاثنين وهذا خطأ ، فالزوج واحد معه مثله ، كما فى قوله سبحانه : ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝١٤٣ وَمِنَ الإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ .. ۝١٤٤﴾ [الأنعام]

فهذه أربعة أصناف ، فيها ثمانية أزواج ، فالزوج فرد واحد معه مثله ، فلا تقول زوج أحدية . بل زَوْجَا أحدية . والحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ ۝٤٥﴾ [النجم]

وكذلك النبات لا بُدَّ فيه من ذكورة وأنوثة ، وإنْ كانت غير واضحة فيه كله كما هى واضحة مثلاً فى النخل ، ففيه ذكر نُلقِّح منه الأنثى لتثمر ، وكذلك شجرة الجميز منها ذكر وأنثى . لكن لم نَرَ ذكورة وأنوثة فى الجوافة مثلاً أو فى الليمون ، لماذا ؟

قالوا : مرة توجد الذكورة والأنوثة فى الشىء الواحد كعود الذرة مثلاً ، قبل أنْ يُخرِج ثمرته تخرج سنبلة فى أعلاه تحمل لقاح الذكورة ، وحينما يهزها الريح يقع اللقاح على شُرَابة (كوز) الذرة ، وتتم عملية التلقيح . وقد تكون الذكورة والأنوثة فى شىء لا تعرفه أنت كالمانجو والتفاح مثلاً ، فلم نعلم لها ذكراً وأنثى .

لكن الحق تعالى قال : ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ .. (٢٢) ﴾ [الحجر]

وقال : ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ .. (٤٩) ﴾ [الذاريات]

ثم وصف الزوج بأنه ﴿ كَرِيمٍ (٧) ﴾ [الشعراء] فماذا يعنى الكرم هنا ؟ قالوا : لأنك إذا أخذتَ الثمرة الواحدة ونظرتَ وتأملتَ فيها لوجدتَ لها صفات متعددة ونعَماً كثيرة ، كما قال سبحانه : ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا .. (٣٤) ﴾ [إبراهيم] وهى نعمة واحدة بصيغة المفرد ولم يقل نعم الله .

قالوا : لأن الحق - عزّ وجلَّ - يريد أن يلفتنا إلى أن كل نعمة واحدة لو استقصيتَ عناصرها وتكوينها لوجدتَ فى طياتها نِعَماً لا تُعَدُّ ولا تُحْصَى .

فمعنى ﴿ كَرِيمٍ (٧) ﴾ [الشعراء] يعنى : كثير العطاء وكثير الخيرات.

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (٨) ﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ .. (٨) ﴾ [الشعراء] أى : فى آية الإنبات ، وكل زوج كريم يخرج من الأرض ﴿ لَآيَةً .. (٨) ﴾ [الشعراء] شىء عجيب ودلالة واضحة على مُكوِّن حكيم يعمل الشىء بقصد ونظام ، ينبغى أن تلفتنا إلى قدرة الخالق - عز وجل - .

﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (٨) ﴾ [الشعراء] يعنى : مع كل هذه الآيات لم يؤمنوا ، إلا القليل منهم كما قال تعالى فى آية أخرى : ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥) ﴾ [يوسف] مع أنك لو تأملتَ آية واحدة لكانت كافية لأنْ تلفتك إلى الله .

وَفِى كُلِّ شَىءٍ لَهُ آيَةٌ تَدلُّ عَلَى أَنَّه الوَاحِدُ

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩﴾ ﴾

جاء الحق تبارك وتعالى هنا بصفة ﴿ الْعَزِيزُ .. ﴿٩﴾ ﴾ [الشعراء] بعد أن قال ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ ﴾ [الشعراء] لنعلم أن الذين كفروا لم يكفروا رَغْماً عن الله ، إنما كفروا بما أودع الله فيهم من الاختيار .

فهو سبحانه الذى أعانهم عليه لَمَّا أحبوه وأصروا عليه ؛ لأنه تعالى ربُّهم ، بدليل أنه تعالى لو تركهم مجبرين مرغمين ما فعلوا شيئاً يخالف منهج الله أبداً ، وبدليل أنهم مجبرون الآن على أشياء ومقهورون فى حياتهم فى مسائل كثيرة ، ومع ذلك لا يستطيع أحد منهم أن يخرج على شىء من ذلك .

فمع إلْفهم العناد والتمرد على منهج الله ، أيستطيع أحدهم أنْ يتأبَّى على المرض ، أو على الموت ، أو على الأقدار التى تنزل به ؟ أيختار أحد منهم يوم مولده مثلاً ، أو يوم وفاته ؟ أيختار طوله أو قوته أو ذكاءه ؟

لكن لما أعطاهم الله الصلاحية والاختيار اختاروا الكفر ، فأعانهم الله على ما أحبُّوا ، وختم على قلوبهم حتى لا يخرج منها كفر ، ولا يدخلها إيمان .

وكلمة ﴿ الْعَزِيزُ .. ﴿٩﴾ ﴾ [الشعراء] تعنى : الذى لا يُغلَب ولا يُقْهر ، لكن هذه الصفة لا تكفى فى حقِّه تعالى ؛ لأنها تفيد المساواة للمقابل ، فلا بُدَّ أنْ نزيد عليها أنه سبحانه هو الغالب أيضاً .

لذلك يقول سبحانه وتعالى : ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ .. (٢١)﴾ [يوسف] فالله تعالى عزيز يَغْلِب ولا يُغْلَب .

ومثال ذلك قوله تعالى : ﴿يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ .. (١٤)﴾ [الأنعام]

وقوله تعالى : ﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ .. (٨٨)﴾ [المؤمنون]

ثم يذكر سبحانه بعدها صفة الرحمة ، فهو سبحانه مع عزته رحيم ، إنه تعالى رحيم حين يَغْلب ، ألم يتابع لهم الآيات ويَدْعُهم إلى النظر والتأمل ، لعلَّهم يثوبون إلى رُشْدهم فيؤمنوا ؟ فلما أصرُّوا على الكفر أمهلهم ، ولم يأخذهم بعذاب الاستئصال ، كما أخذ الأمم الأخرى حين كذَّبتْ رسلها .

كان الرسل قبل محمد ﷺ يُبلِّغون الدعوة ، ويُظهرون المعجزة ، فمَنْ لم يؤمن بعد ذلك يعاقبه الله ، كما قال سبحانه : ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا .. (٤٠)﴾ [العنكبوت]

أمَّا أمة محمد ﷺ فقد قال تعالى فى شأنها : ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣)﴾ [الأنفال]

وقال هنا : ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٩)﴾ [الشعراء] فالحق ـ تبارك وتعالى ـ فى كل هذه الآيات يُسلِّى رسوله ﷺ ، ويعطيه عبرةً من الرسل الذين سبقوه ، فليس محمد بِدْعاً[1] فى ذلك ، ألم يقل

---

(١) بدْع : بديع أو عجيب . يُقال : فلان بدْع فى الأمر . أى : أول مَنْ فعله . قال تعالى : ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ .. (٩)﴾ [الأحقاف] أى : ما كنت غريباً ولا عجيباً ولا كنت على غير مثال سابق ، فأنا مثل الرسل السابقين . [القاموس القويم ١/٥٧] .

له ربه : ﴿يَـٰحَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (٣٠)﴾ [يس] فالمسألة ـ إذن ـ قديمة ـ قدم الرسالات .

لذلك ، يأخذنا السياق بعد ذلك إلى موكب النبوات ، فيذكر الحق سبحانه لرسوله ﷺ طرفاً من قصة نبى الله موسى :

﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ (١٠)﴾

الحق ـ تبارك وتعالى ـ يقصُّ على رسوله قصص الأنبياء ، وهو أحسن القصص لحكمة : ﴿وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ .. (١٢٠)﴾ [هود]

لأن رسول الله ﷺ مرَّ بمعارك كثيرة مع الكفر ، فكان يحتاج إلى تثبيت مستمر كلما تعرض لشدة ؛ لذلك تكرر القصص القرآنى لرسول الله على مدى عمر الدعوة ، والقصص القرآنى لا يراد به التأريخ لحياة الرسل السابقين ، إنما إعطاء النبى محمد ﷺ عبرةً وعظة بمَنْ سبقه من إخوانه الرسل ؛ لذلك كانت القصة تأتى فى عدة مواضع ، وفى كل موضع لقطة معينة تناسب الحدث الذى نزلت فيه .

وهنا يقول سبحانه : ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ .. (١٠)﴾ [الشعراء] يعنى : اذكر يا محمد ، إذ نادى ربك موسى أى : دعاه . لكن لماذا بدأ بقصة موسى عليه السلام بالذات ؟

قالوا : لأن كفار مكة كفروا بك أنت ، فلا تحزن ؛ لأن غيرهم كان أفظع منهم ، حيث ادعى الألوهية ، وقال : ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى .. (٣٨)﴾ [القصص]

والسياق هنا لم يذكر : أين ناداه ربه ، ولا متى ناداه ، وبدأ الحوار معه مباشرة ، لكن فى مواضع أخرى جاء تفصيل هذا كله .

ثم يأتى الأمر المباشر من الله تعالى لنبيه موسى : ﴿أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠)﴾ [الشعراء] أى : الذين ظلموا أنفسهم ، بأنْ جعلوا لله تعالى شريكاً ، والشرك قِمَّة الظلم ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣)﴾ [لقمان]

ولم يُبيِّن القرآن مَنْ هم هؤلاء الظالمون ؛ لأنهم معروفون مشهورون ، فهم فى مجال الشرك أغنياء عن التعريف ، بحيث إذا قلنا ﴿الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠)﴾ [الشعراء] انصرف الذِّهْن إليهم ، إلى فرعون وقومه ؛ لأنه الوحيد الذى تجرّأ على ادعاء الألوهية ، وبعد أنْ ذكرهم بالوصف يُعيِّنهم :

﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ (١١)﴾

أى : قُلْ لهم يا موسى ألا تتقون ربكم ؟ واعرض عليهم هذا العرض ؛ لأن الطلب يأتى مرة بالأمر الصريح : افعل كذا ، ومرة يتحنّن إليك بأسلوب العرض ، ألا تفعل كذا ؟ على سبيل الاستفهام والعرض والحضِّ .

والمعنى : ألا يتقون الله فى ظلمهم لأنفسهم باتخاذهم مع الله شريكاً ولا إله غيره ، وظلموا بنى إسرائيل فى أنهم يُذبِّحونَ أبناءهم ويستحيُون نساءهم .

لكن ، لماذا تكلم عن قوم فرعون أولاً ، ولم يعرض عليه هو أولاً ، وهو رأس الفساد فى القوم ؟

ويجيب على هذا السؤال المثل القائل (يا فرعون ماذا فرعنك ؟ قال : لأننى لم أجد أحداً يردنى) فلو وقف له قومه وردَعوه لارتدع ، لكنهم تركوه ، بل ساروا فى رَكْبه إلى أنْ صار طاغية ، وأعانوه حتى أصبح طاغوتاً .

فقال موسى :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ ﴾

لما دعا الحق ـ تبارك وتعالى ـ نبيه موسى ـ عليه السلام ـ لأنْ يذهب إلى قوم فرعون لم يبادر بالذهاب ، إنما أبدى لربه هواجس نفسه وخلجاتها ؛ لأنه يعلم مُقدَّماً مشقة هذه المهمة ، فقد عاش مع فرعون ويعلم طبيعته ، فقال : ﴿ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ ﴾ [الشعراء] وكيف لمن يدّعى الألوهية أنْ يسمع لرسول ؟

ويُرْوَى أنه فى عهد الخليفة المأمون[1] ادَّعَى أحدهم النبوة ، فحبسوه ، ثم ادعاها آخر فقال : اجمعوا بينهما حتى يواجه أحدهما الآخر ، فلما حضرا قالوا : يا هذا إن هذا الرجل يدَّعى النبوة ، فقال : كذب ، أنا لم أُرسِل أحداً . وهكذا جعل من نفسه إلهاً بعد أن كان نبياً .

ويواصل موسى الحديث عن مخاوفه :

﴿ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ ﴿١٣﴾ ﴾

يضيق صدرى ساعةَ يكذّبوننى ، وضيق الصدر ينتج عنه أن أتلجلج وأتعصب ، فلا أستطيع أن أتكلم الكلام المُقْنِع ؛ ذلك لأننى

---

(١) هو : عبد الله بن هارون الرشيد ، أبو العباس ، سابع الخلفاء من بنى العباس فى العراق ، وأحد أعاظم الملوك ، ولد عام ١٧٠ هـ اهتم بترجمة كتب الفلسفة إلى العربية . وأطلق حرية الكلام للباحثين وأهل الجدل والفلسفة ، لولا المحنة بخلق القرآن فى السنة الأخيرة من حياته ، توفى عام ٢١٨ هـ عن ٤٨ عاماً . (الأعلام ٤/١٤٢) .

سأشاهد باطلاً واضحاً يُجابه حقاً واضحاً ، ولا بُدَّ أنْ يضيق صدرى بذلك ، خاصة وأن لموسى عليه السلام سابقة فى مسألة الكلام .

لذلك قال : ﴿ فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَـٰرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ [الشعراء] وفي آية أخرى : ﴿ وَأَخِي هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا[1] يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ ﴾ [القصص]

يعنى : مساعداً لى يتكلم بدلاً عنى ، إنْ عجز لسانى عن الكلام ، وهذا يدل على حرصه ـ عليه السلام ـ على تبليغ دعوة ربه إلى فرعون وقومه .

وعليه ، فقد كان موسى وهارون كلاهما رسول ، إلا أن القرآن قال مرة عنهما : ﴿ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ ﴾ [الشعراء] بصيغة المفرد ، وقال مرة أخرى : ﴿ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ.. ﴿٤٧﴾ ﴾ [طه] بصيغة المثنى .

الرسول : هو المرسَل من شخص لآخر ، سواء كان واحداً أو مُثَنى أو جمعاً .

ومعلوم أن الإنسان يحتاج لاستبقاء حياته طعاماً وشراباً ، وقبل ذلك وأهمّ منه يحتاج لاستبقاء نفسه ، ألاَ تراه يصبر على الطعام ، ويصبر على الشراب ، لكنه لا يصبر بحال على الهواء ، فإنْ حُبِس عنه شهيق أو زفير فارق الحياة ؟

وسبق أن قلنا : إن من رحمة الله تعالى بنا أنْ يُملِّك الطعام كثيراً ، وقليلاً ما يُملِّك الماء ، لكن الهواء لا يُملّكه الله لأحد ، لماذا ؟ لأنه لو ملَّك عدوك الهواء فمنعه عنك ، فسوف تموت قبل أنْ يرضى عنك ، بالإضافة إلى أن الهواء هو العنصر الأساسى فى الحياة ، وعليه تقوم حركتها .

---

(١) رداه : قوّاه وأعانه . والرِّدْء : المعين والناصر . [القاموس القويم ١/ ٢٦٠] .

ونلحظ أن الإنسان إذا صعد مكاناً عالياً (ينهج) ، وتزداد ضربات قلبه وحركة تنفسه ، لماذا ؟ لأن الحركة تحتاج لكثير من الهواء ، فإنْ قَلَّ الهواء يضيق الصدر ؛ لأنه يكفى فقط لاستبقاء الحياة ، لكنه لا يكفى الحركة الخارجية للإنسان .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ[1] فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ ﴾

وليت المسألة تقف بين نبى الله موسى وبين قومه عند مسألة الكلام ، إنما لهم عنده ثَأْرٌ قديم ؛ لأنه قتل منهم واحداً ، وإنْ كان عَنْ غير قصد ، كما قال تعالى فى آية أخرى : ﴿ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ .. ﴿١٥﴾ ﴾ [القصص] فأخاف أنْ يقتلونى به .

فيقول الحق سبحانه لموسى وهارون :

﴿ قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ ﴾

(كَلاَّ) تفيد نَفْى ما قبلها ، وقبلها مسائل ثلاث : ﴿ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ ﴾ [الشعراء] ، ﴿ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي .. ﴿١٣﴾ ﴾ [الشعراء] ، ﴿ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ ﴾ [الشعراء] فعلى أىٍّ منها ينصَبُّ هذا النفى ؟

النفى هنا يتوجَّه إلى ما يتعلق بموسى ـ عليه السلام ـ لا بما يتعلق بالقوم من تكذيبهم إياه ، يقول له ربه : اطمئن ، فلن يحدث شىء من هذا كله . ولا ينصبُّ النفى على تكذيبهم له ؛ لأنه سيُكذَّب ؛

---

(١) الذنب هنا قتل القبطى واسمه فاثور . قال قتادة : أراد القبطى أن يسخر الإسرائيلى ليحمل حطباً لمطبخ فرعون فأبى عليه ، فاستغاث بموسى . ﴿ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ .. ﴿١٥﴾ ﴾ [القصص] أى : دفعه بكفه . فعل موسى عليه السلام ذلك وهو لا يريد قتله ، إنما قصد دفعه فكانت فيه نفسه . [تفسير القرطبى ٧/٥١٤٦ ، ٥١٤٧] .

لذلك نرى دقة الأداء القرآنى حيث جاءت ﴿أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ (١٢)﴾ [الشعراء] فى نهاية الآية ، وبعدها كلام جديد ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِى .. (١٣)﴾ [الشعراء] وهو المقصود بالنفى .

وقد بيَّنَتْ سورة الفجر معنى (كلا) بوضوح فى قوله تعالى : ﴿فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّى أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ[1] رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّى أَهَانَنِ (١٦)﴾ [الفجر]

فيقول تعالى بعدها رداً عليها ﴿كَلاَّ .. (١٧)﴾ [الفجر] يعنى : ليس الإعطاء دليلَ إكرام ، ولا المنعُ دليلَ إهانة ، إنما المراد الابتلاء بالنعمة وبالنقمة .

وكيف يكون الأمر كما تظنون ، وقد أعطاكم الله فبخلتُم ، وأحببتم المال حُبّا جماً ، فلم تنفقوا منه على اليتيم أو المسكين ، بل تنافستُم فى جَمْعه حتى أكلتم الميراث ، وأخذتم أموال الناس .

إذن : فالمال الذى أكرمكم الله به لم يكُنْ نعمة لكم ؛ لأنكم جعلتموه نقمة ووبالاً ، حين أُعطيتم فمنعتم .

وكلمة (كَلاَّ) هذه أصبح لها تاريخ مع موسى - عليه السلام - فقد تعلَّمها من ربه ، ووعى درسها جيداً ، فلما حُوصر هو وأتباعه بين البحر من أمامهم ، وفرعون وجنوده من خلفهم ، حتى أيقن أتباعه أنهم مُدْركون هالكون ، قالها موسى عليه السلام بملء فيه ﴿قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ (٦٢)﴾ [الشعراء]

وقوله تعالى : ﴿فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا .. (١٥)﴾ [الشعراء] الآيات هنا يُقصَد بها المعجزات الدالة على صِدْقهما فى البلاغ عن الله ، وهى هنا العصا

---

(١) قَدَر الله الرزق : جعله ضيقاً على قدر الحاجة لا يزيد عن ضرورة الحياة . [القاموس القويم ٢/١٠٢] .

﴿إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الشعراء] كما قال لهما فى موضع آخر : ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ [طه]

فمرّة يأتى بالسمع فقط ، ومرّة بالسمع والرؤية ، لماذا ؟ لأن موقفه مع فرعون فى المقام الأول سيكون جدلاً ونقاشاً ، وهذا يناسبه السمع ، وبعد ذلك ستحدث مقامات فى (فعل) و (عمل) فى مسألة السحر وإلقاء العصا ، وهذا يحتاج إلى سمع وإلى بصر ؛ لأن الإيذاء قد يكون من السمع فقط فى أول اللقاء ، وقد يكون من السمع والعين فيما بعد .

﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾﴾

وسبق أن قال سبحانه : ﴿أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ .. ﴿١١﴾﴾ [الشعراء] فذكر قومَ فرعون أولاً ؛ لأنهم سبب فرعنته ، حين سمعوا كلامه وأعانوه عليه ، وهنا يُذكِّره ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ .. ﴿١٦﴾﴾ [الشعراء] لأنه حين يُهزَم فرعون يُهزَم قومه الذين أيَّدوه ، فالكلام هنا مع قمة الكفر مع فرعون .

﴿فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الشعراء] إنَّا : جمع يُقَال للمثنى ، ومع ذلك جاءت رسول بصيغة الإفراد ، ولم يقُل : رسُولا ؛ لأن الرسول واسطة بين المرسِل والمرسَل إليه ، سواء أكان مفرداً أو مُثَنى أو جمعاً .

وكلمة ﴿إِنَّا .. ﴿١٦﴾﴾ [الشعراء] سيقولها موسى وهارون فى نَفَس واحد ؟ لا ، إنما سيتكلم المقدَّم منهما ، وينصت الآخر ، فيكون كمنْ يُؤمِّن على كلام صاحبه . ألاَ ترى القرآن الكريم حينما عرض قضية موسى وقومه يوضح أن فرعون علا فى الأرض واستكبر .. إلخ .

حتى دعا عليهم : ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٨٨)﴾ [يونس]

هذا كلام موسى ـ عليه السلام ـ فردّ الله عليه : ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا .. (٨٩)﴾ [يونس] بالمثنى مع أن المتكلم واحد . قالوا[1] : لأن موسى كان يدعو ، وهارون يُؤمِّن على دعائه ، والمؤمِّن أحد الداعيين ، وشريك فى الدعوة .

فما مطلوبك يا رسول رب العالمين ؟

﴿أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ (١٧)﴾

فالأصل فى لقاء موسى بفرعون أن ينقذ بنى إسرائيل من العذاب ، ثم يُبلِّغهم منهج الله ، ويأخذ بأيديهم إليه ، وجاءت دعوة فرعون للإيمان ونقاشه فى ادعائه الألوهية تابعة لهذا الأصل .

وفى موضع آخر : ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ .. (٤٧)﴾ [طه]

إذن : فتلوين الأساليب فى القصص القرآنى يشرح لقطات مختلفة من القصة ، ويُوضِّح بعض جوانبها ، وإنْ بدا هذا تكراراً فى المعنى الإجمالى ، وهذا واضح فى قوله تعالى فى أول قصة موسى عليه السلام : ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا .. (٨)﴾ [القصص]

وفى آية أخرى يقول تعالى على لسان امرأة فرعون : ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ

---

(١) أخرج أبو الشيخ عن أبى هريرة قال : كان موسى إذا دعا أمَّن هارون على دعائه يقول : آمين . وأخرج أيضاً عن ابن عباس : دعا موسى وأمَّن هارون . وقاله عكرمة أيضاً فيما أخرجه عنه عبد الرزاق وابن جرير وأبو الشيخ . [نقل السيوطى هذه الآثار فى الدر المنثور ٤/٣٨٥] .

لِّي وَلَكَ .. ﴿٩﴾ ﴾ [القصص] وكأن الله تعالى يقول : ستأخذونه ليكون قُرَّة عين لكم ، إنما هو سيكون عدواً .

والله تعالى يقول : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ[1] بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ .. ﴿٢٤﴾ ﴾ [الأنفال] ففرعون فى حين كان يقتل الأطفال من بنى إسرائيل ، ويستحيي البنات ، جاءه هذا الطفل بهذه الطريقة اللافتة للنظر ، فكان عليهم أنْ يفهموا أن مَنْ أُلقى فى التابوت وفى اليمِّ بافتعال ، هو بهدف نجاته من القتل ، فلو كان فرعون إلهاً ، فكيف مرّت عليه هذه الحيلة وجازتْ عليه ؟

وهذا يدل على أن الله تعالى إذا أراد إنفاذ أمر سلب من ذوى العقول عقولهم ، وحال بين المرء وقلبه ، ويدل على غباء قومه ؛ لأنهم لو تأملوا هذه المسألة لظهر لهم كذب فرعون فى ادعائه الألوهية .

فكان ردّ فرعون على موسى عليه السلام :

﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ ﴾

يريد فرعون أنْ يُذكِّر موسى بما كان من أمر تربيته فى بيته لعدة سنوات ، حتى شَبَّ وكبر ، وكأنه يُوبِّخه كيف يقف منه هذا الموقف العدائى بعدما كان منه .

﴿ وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ ﴾ [الشعراء] ويقال : إن موسى لبث فى بيت فرعون حتى سنِّ الثامنة عشرة ، أو سنِّ الثلاثين ، فالمعنى أنه ربَّاه ولبث معه أيضاً عدة سنوات .

---

(١) أى : أن الله يملك أن يصرف قلب الإنسان ويغيّر نيته كما يريد ، فالمرء لا يملك قلبه وإنما الله هو الذى يملكه .

والمتأمل فى هذه الحجة التى يظنها فرعون لصالحه يجد أنها ضده ، وأنها تكشف عن غبائه ، فلو كان إلهاً كما يدعى لعرف أن هلاكه سيكون على يدى هذا الطفل الذى ضَمَّه إليه ورعاه .

﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾﴾

والمراد بالفَعْلة قتل موسى عليه السلام للرجل الذى وكزه فمات ﴿وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾﴾ [الشعراء] يصح من الكافرين بألوهية فرعون ، أو من الجاحدين لنعمنا عليك وتربيتنا لك[1] .

لذلك العقلاء يروْنَ أن الإنسان حين يربى الأولاد ويراهم كما يحب ، فليعلم أنه توفيق وعناية من الله تعالى ، بدليل أن الأبناء يُربَّون فى بيئة واحدة ، وربما كانا توأميْن ، ومع ذلك ترى أحدهما صالحاً والآخر طالحاً ، فالمسألة عناية إلهية عليا ، وقد التقط أحد الشعراء هذا المعنى فقال :

إِذَا لَمْ تُصَادِفْ فى بَنِيكَ عِنَايَةً ... فقَدْ كذَبَ الراجى وخَابَ المؤَمَّلُ
فمُوسى الذِى رَبَّاهُ جِبْرِيلُ كَافِرٌ ... ومُوسَى الذى رَبَّاهُ فِرْعَونُ مُرْسَلُ

والمراد موسى السامرى صاحب العجل ، وقد وضعته أمه فى صحراء وماتت ، فأرسل الله إليه جبريل عليه السلام يرعاه ويُربِّيه . ولا تأتى هذه المفارقات إلا بعناية الله سبحانه .

---

(١) ورد فى تفسير هذه الكلمة ﴿وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾﴾ [الشعراء] عدة أقوال :
- أى : فى قتلك القبطى ، إذ هو نفس لا يحل قتله . قاله الضحاك .
- أى : بنعمتى التى كانت لنا عليك من التربية والإحسان إليك . قاله ابن زيد .
- فى أنِّى إلهك . قاله الحسن .
- من الكافرين بالله ، لأنك كنت معنا على ديننا هذا الذى تعيبه قاله السدى .
أورد القرطبى هذه الأقوال فى تفسيره (٤٩٧٣/٧) .

﴿ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ ﴾

يقول موسى عليه السلام : أنا لا أنكر أننى قتلتُ ، لكننى قتلتُ وأنا من الضالين . يعنى : الجاهلين بما يترتب على عملية القتل ، وما كنت أعتقدُ أبداً أن هذه الوكْزة ستقضى على الرجل .

فكلمة ﴿ الضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الشعراء] هنا لا تعنى عدم الهدى ، فمن هذا المعنى للضلال قولهم : ضَلَّ الطريق ، وهو لم يتعمد أن يضل ، إنما تاه رَغْماً عنه .

ومنه قوله تعالى فى الشهادة : ﴿ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَىٰ .. ﴿٢٨٢﴾ ﴾ [البقرة]

وقوله تعالى مخاطباً نبيه ﷺ : ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ ﴾ [الضحى] أى : متحيراً بين الباطل الذى يمارسه قومه ، وبين الحق الذى لا يجد له بينة .

﴿ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ ﴾ (١)

﴿ حُكْمًا .. ﴿٢١﴾ ﴾ [الشعراء] أى : فى أنْ أضع الأشياء فى مواضعها ، وجاءت هذه الكلمة بعد ﴿ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الشعراء] كأنه يقول : أنا وكزتُ الرجل ، هذا صحيح ، فمات ، وهذا خطأ غير مقصود وإننى مظلوم فيه ؛ لأن الله قد أعطانى حكماً وقدرة لأضع الأشياء فى محلها .

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٤٩٧٣/٧) : « كان بين خروج موسى عليه السلام حين قتل القبطى وبين رجوعه نبياً أحد عشر عاماً غير أشهر » .

ليس هذا فحسب ، إنما أيضاً :

﴿ وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٢١) ﴾ [الشعراء]

﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ (٢٢) ﴾

يعنى : ما منَّ به فرعون على موسى من قوله :

﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (١٨) وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ .. (١٩) ﴾ [الشعراء]

كأنه يقول له : أتمُنُّ عليَّ بهذه الأشياء ، وتذكر هذه الحسنة ، وهى لا تساوى شيئاً لو قارنتَها بما حدث منك من استعباد بنى إسرائيل وتذبيح أبنائهم[1] واستحياء نسائهم ، وتسخيرهم فى خدمتك .

وقتل الذّكْران واستحياء الإناث ، لا يعنى الرأفة بهن ، إنما يعنى لَهُنَّ الذلة والهوان ، حيث لا تجد المرأة من محارمها مَنْ يحميها أو يدافع عنها ، فتبقى بعد الرجال فى هوان وذِلَّة فى خدمة فرعون .

ثم يقول الحق سبحانه : [2]

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٣) ﴾

يعنى : مسألة جديدة هذه التى جئتَ بها يا موسى ، فمن رَبُّ العالمين الذى تتحدث عنه ؟

---

(١) قال الضحاك : إن الكلام خرج مخرج التبكيت ، والتبكيت يكون باستفهام وبغير استفهام ، والمعنى : لو لم تقتل بنى إسرائيل لربانى أبواى ، فأىُّ نعمة لك علىَّ ، فأنت تمنُّ علىَّ بما لا يجب أن تمن به . نقله القرطبى فى تفسيره (٧/٤٩٧٤) .

(٢) استفهمه بـ « ما » استفهاماً عن مجهول من الأشياء . قال مكى وغيره : كما يستفهم عن الأجناس فلذلك استفهم بـ « ما » . وقد ورد استفهام بـ « من » فى موضع آخر ، ويشبه أنها مواطن . [قاله القرطبي فى تفسيره ٧/٤٩٧٦] .

﴿ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾

لأن السماوات بما فيها من كواكب ونجوم وشمس وقمر وأفلاك وأبراج ، والأرض وما فيها من بحار وأنهار وجبال وقفَار ونبات وحيوان وإنسان . قد وُجِدتْ قبل أن توجد أنت أيها الإله الفرعون !!

إذن : رَدَّ عليه بشىء ثبت فى الكون قبل مجيئه ، وقبل مولده . وكأن المعنى المراد لموسى عليه السلام : أخبرنى يا فرعون ، يا مَنْ تدعى الألوهية ، ما الذى زاد فى الكون بألوهيتك له ؟ وإنْ كان هذا الكون كله بسمائه وأرضه لله رب العالمين ، فماذا فعلتَ أنت ؟

ولم يقتصر على السماوات والأرض ، وإنما ﴿ وَمَا بَيْنَهُمَا .. ﴿٢٤﴾ ﴾ [الشعراء] أى : من هواء وطير يَسْبح فى الفضاء ، وكانوا لا يعرفون ما نعرفه الآن من أسرار الهواء ، وانتقال الصوت والصورة من خلاله ، ففى جَوِّ السماء فيما بين السماء والأرض من الأسرار ما يستحق التأمل .

ثم يتلطف معهم فيقول : ﴿ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الشعراء] يعنى : إنْ كنتم موقنين بأن هذه الأشياء لم يخلقها إلا الله .

ثم يقول الحق سبحانه ذاكراً جدال فرعون ، فقال :

﴿ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

يقول فرعون لمن حوله من أتباعه الذين أقروا له بالألوهية : ألا تستمعون لما يقول ؟ يعنى : موسى عليه السلام . وهذه الكلمة لا يقولها فرعون إلا إذا أحسَّ من قومه ارتياحاً لما قاله موسى من

نَفْى الربوبية والألوهية عن فرعون ونسبتها لله تعالى ، خالق السموات والأرض .

وكان فرعون ينتظر من قومه أنْ يتصدَّوْا لما يقوله موسى ، فينهروه ويُسْكتوه ، لكن لم يحدث شىء من هذا ، مما يدل على أنهم كانوا يتمنوْنَ أن ينتصر موسى ، وأن ينحدر فرعون ؛ لأنه كبت حرياتهم وآراءهم ، كما كانوا يعرفون كذبه وينتظرون الخلاص منه .

بدليل ما حكاه القرآن عن الرجل المؤمن[1] الذى كان يكتم إيمانه من آل فرعون ، وبدليل الذين أتوا فيما بعد وحَسَّنوا له مسألة السحرة وهم يريدون أن يُهزَم .

وقبل أنْ يردَّ أحد من قوم فرعون بادرهم موسى عليه السلام :

﴿ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾

هنا ينقل موسى عليه السلام فرعونَ من الجو الكونى المحيط به فى السماء والأرض وما بينهما إلى ذات نفسه ، يقول له : إنَّ لك آباء قبل أنْ تُولد ، وقبل أن تدعى الألوهية ، فمن كان ربهم ؟

فلما ضَيَّق موسى عليه السلام الخناق على فرعون ، أراد أنْ يخرج من هذا الجدل وهذه المناظرة الخاسرة فقال محاولاً إنقاذ موقفه :

﴿ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ ﴾

---

(١) قال تعالى : ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّىَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِى يَعِدُكُمْ .. ﴿٢٨﴾ ﴾ [غافر] وما بعدها من آيات .

وهذه العبارة من فرعون تفضح المتكلِّم بها ، فقد شهد لموسى بأنه رسول ، وخانه لفظه من حيث لا يدرى .

﴿ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

يرد موسى عليه السلام بحجة أخرى ، لكن يختمها هذه المرة بقوله ﴿ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الشعراء] وقد قال فى سابقتها ﴿ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الشعراء] كأنه يقول لفرعون : ما دام قد وصل بك الأمر لأنْ تتهمنى بالجنون فلن أقول إنْ كنتم موقنين ، إنما إنْ كنتم تعقلون ، فجاء بمقابل الجنون .

فيُنهى فرعون هذا النقاش ، ويأتى بخلاصة الأمر كما يرى ، فيقول :

﴿ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ (١) ﴿٢٩﴾ ﴾

وهذا من فرعون إفلاس فى الحجة ، ولو كان عنده رَدٌّ لما يقوله موسى لردّ عليه ، ولَقرع الحجة بالحجة ، لكنه تقوَّى على خَصْمه بأن هدده بالسجن والإبعاد ، وكان المسجون عندهم يظل فى السجن حتى الموت .

ولم يُراع فرعون فى هذه المسألة الناس من حوله ، أن يكتشفوا هذا الإفلاس ، وهذا الحمق فى رَدِّه .

---

(١) قال ﴿ لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الشعراء] ولم يقل : لأسجننك ، مع أنه أخصر منه . لم ؟ قال أبو يحى زكريا الأنصارى فى كتابه « فتح الرحمن بكشف ما يلتبس فى القرآن » ص ٢٩٩ . « لإرادة تعريف العهد ، أى : لأجعلنك ممن عُرفت حالهم فى سجنى ، وكان إذا سجن إنساناً طرحه فى هوة عميقة مظلمة ، لا يُبصر فيها ولا يسمع » .

ويُؤخِّر موسى عليه السلام ما معه من الآيات ، ويستمر فى الجدل وإظهار الحجة :

﴿ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ ﴾

يعنى : إذا لم تقتنع بكل الحجج السابقة ، فهل لو جئتك بآية واضحة دالة على صدق رسالتى ، أتجعلنى أيضاً من المسجونين ؟

﴿ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣١﴾ ﴾

انظر إلى تعارض فرعون مع نفسه ، فكان عليه ساعةَ أنْ يسمع من موسى هذا الكلام أنْ يُصر على سجنه ، لكن الحق - تبارك وتعالى - يريد أنْ يُظهر حجته ، فيجعل فرعون هو الذى يطلبها بنفسه ﴿ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [الشعراء] وما كان لموسى أنْ يأتى بآية إلا أنْ يطلبها منه فرعون .

﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ ﴾

إلقاء العصا له فى القرآن ثلاث مراحل : الأولى : هى التى واكبتْ اختيار الله لموسى ليكون رسولاً ، حين قال له : ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿١٧﴾ ﴾ [طه] وقلنا : إن موسى عليه السلام أطال فى إجابة هذا السؤال لحرصه على إطالة مدة الأُنْس بالله - عز وجل - فقال : ﴿ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ[1] بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ ﴾ [طه]

---

(١) هش الشجر يهشه : ضربه بعصاً ليسقط ورقه لتأكله الماشية . والمعنى أى : أسقط بعصاى أوراق الأشجار على غنمى لتأكلها [القاموس القويم ٢/٣٠٣] .

فالعصا فى نظر موسى ـ عليه السلام ـ عود من الخشب قريب عهد بأصله ، كغصن فى شجرة ، لكنها عند الله لها قصة أخرى :

﴿قَالَ أَلْقِهَا يَـٰمُوسَىٰ (١٩) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ (٢٠)﴾ [طه]

وما صارت العصا عصاً إلا بعد أنْ قُطعت من شجرتها ، وفقدت الحياة النباتية ، وتحولت إلى جماد ، فلو عادت إلى أصلها وصارت شجرةً من جديد لكان الأمر معقولاً ، لكنها تجاوزتْ مرتبة النباتية ، وتحولت إلى الحيوانية ، وهى المرتبة الأعلى ؛ لذلك فزع منها موسى وخاف فطمأنه ربه :

﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ (٢١)﴾ [طه]

وكانت هذه المرة بمثابة تدريب لموسى عليه السلام ؛ ليألف العصا على هذه الحالة ، وكأن الله تعالى أراد لموسى أنْ يُجرى هذه التجربة أمامه ، ليكون على ثقة من صدْق هذه الآية ، فإذا ما جاء لقاء فرعون ألقاها دون خوف ، وهو واثق من نجاحه فى هذه الجولة .

إذن : كان الإلقاء الثانى للعصا أمام فرعون وخاصته ، ثم كان الإلقاء للمرة الثالثة أمام السحرة .

ومعنى ﴿ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (٣٢)﴾ [الشعراء] يعنى : بيِّن الثعبانية ، فيه حياة وحركة ، وقال ﴿ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (٣٢)﴾ [الشعراء] يعنى : واضح للجميع ؛ لأنهم كانوا يُجيدون هذه المسألة ويُخيِّلون للناس مثل هذه الأشياء ، ويجعلونها تسعى وتتحرك ، ولم تكن عصا موسى كذلك ، إنما كانت ثعباناً مبيناً واضحاً وحقيقياً لا يشكّ فى حقيقته أحد .

والمتتبع للقطات المختلفة لهذه الحادثة فى القرآن الكريم يجد

السياق يُسمِّيها مرة ثعباناً ، ومرة حية ، ومرة جاناً[١] ، لماذا ؟ قالوا : لأنها جمعت كل هذه الصفات : فهى فى خفة حركتها كأنها جان ، وفى شكلها المرعب كأنها حية ، وفى التلوِّى كأنها ثعبان . والجان : فرخ الحية .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾

هنا يتكلم عن نزع اليد ؛ لأنه قال فى آية أخرى : ﴿ اسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ[٢] تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ .. ﴿٣٢﴾ ﴾ [القصص]

وهكذا تتكامل لقطات القصة الواحدة ، والتى يظنها البعض تكراراً ، وليست هى كذلك .

﴿ وَنَزَعَ .. ﴿٣٣﴾ ﴾ [الشعراء] يعنى : أخرج يده ﴿ فَإِذَا هِىَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الشعراء] مع أن موسى عليه السلام كان آدم اللون يعنى فيه سُمْرة ، ومع ذلك خرجتْ يده بُيضاء ، لها شعاع وبريق يأخذ بالأبصار .

وبمقارنة هذه الآية بآية سورة القصص نجد أنه حذف من آية سورة الشعراء الجيب ، وهو فتحة الثوب من أعلى ، لا الجيب المتعارف عليه ، والذى نضع فيه النقود مثلاً ، وكانوا فى الماضى

---

(١) وصفها بأنها : - ثعبان فى آيتين : (الأعراف ١٠٧) ، (الشعراء ٣٢) .
- حية فى آية واحدة : (طه ٢٠) .
- جان فى آيتين : (النمل ١٠) ، (القصص ٣١) .

(٢) جيب القميص : ما يفتح منه على الصدر . أى : من أعلى الثوب وجمعه جيوب . [القاموس القويم ١/١٣٨] . فكانت يده تخرج تتلألأ كأنها قطعة قمر فى لمعان البرق ، من غير برص . وهو مرض جلدى .

يجعلون الجيب بداخل ملابس الإنسان ، ليكون فى مأمن ، فإذا أراد الإنسان شيئاً فيه مَدَّ يده من خلال الفتحة العليا للثوب ، فسُمِّيتْ جيباً .

﴿ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾

الملأ : هم علْية القوم ، الذين يملأون العيون ، ويتصدَّرون المجالس ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الشعراء] فاتهمه بالسحر ليخرج من ورطته وقال : ساحر لأن موسى لم يمارس هذه المسألة إلا مرة واحدة هى التى أجراها أمام فرعون ، لكن الملأ على علم بالسحر وإلْف له ، وعندهم سحارون كثيرون .

وفَرْق بين ساحر وسحَّار : ساحر لمن مارس هذه العملية مرة واحدة ، إنما سحَّار مبالغة تدل على أنها أصبحت حِرْفته ، مثل ناجر ونجّار ، وخائط وخيّاط .

و ﴿ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الشعراء] أى : بسحره .

﴿ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

هنا يستعدى فرعون قومه على موسى ، ويُحذرهم أنه سيفسد العامة والدهماء ، وتكون له الأغلبية ، وتكون له شيعة يناصرونه عليكم حتى يُخرِجكم من أرضكم ، وهذا أقلّ ما يُنتظر منه ، يريد أن يهيج عليه الملأ من قومه ؛ ليكونوا أعداء له يقفون فى صَفِّ فرعون .

وعجيب أنْ يقول الفرعون الإله ﴿ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الشعراء] فهذه هى الألوهية الكاذبة التى انحدرتْ إلى مرتبة العبيد ، ومتى يأخذ

الإله رأى عبيده ، ويطلب منهم المعونة والمشورة ؟ ولو كان إلهاً بحق لكان عنده الحل ولديه الردّ .

فلما نزل فرعون من منزلة الألوهية ، وطلب الاستعانة بالملأ من قومه التفتوا إلى كذبه ، ووجدوا الفرصة مواتية للخلاص منه ، مما يدل على أن أكثرهم وجمهرتهم كانوا يجارونه على مضض ، وينتظرون لحظة الخلاص من قَهْره وكذبه ؛ لذلك قالوا :

﴿ قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ وَٱبۡعَثۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ (٣٦) ﴾

﴿ أَرْجِهْ .. (٣٦) ﴾ [الشعراء] من الإرجاء وهو التأخير ، أى : أخّره وأخاه لمدة ﴿ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٣٦) ﴾ [الشعراء] ابعث رسلك يجمعون السَّحارين من أنحاء البلاد ، ليقابلوا بسحرهم موسى وهارون . والمدائن : جمع مدينة .

﴿ يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٖ (٣٧) ﴾

وقال ﴿ سَحَّارٍ .. (٣٧) ﴾ [الشعراء] بصيغة المبالغة ﴿ عَلِيمٍ (٣٧) ﴾ [الشعراء] أى : بفنون السِّحْر وألاعيب السَّحَرة .

﴿ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ (٣٨) ﴾

الميقات : أى الوقت المعلوم ، وفى آية أخرى : ﴿ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ .. (٥٩) ﴾ [طه] وكان يوماً مشهوداً عندهم ، ترتدى فيه الفتيات أبهى حُلَلها ، وكان يوم عيد يختارون فيه عروس النيل التى سيُلْقونها فيه ، فحدد اليوم ، ثم لم يترك اليوم على إطلاقه ، إنما حدد من اليوم وقت الضحى[1] ﴿ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى (٥٩) ﴾ [طه]

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٣/١٥٦) : « أى : ضحوة من النهار ليكون أظهر وأجلى وأبين وأوضح » .

وفى لقطة أخرى حدد المكان ، فقال : ﴿مَكَانًا سُوًى (٥٨)﴾ [طه] يعنى : فيه سوائية ، إما باستواء المكان حتى يتمكّن الجميع من رؤية هذه المباراة السحرية ، بحيث تكون فى ساحة مستوية الأرض ، أو يكون مكاناً سواسية متوسطاً بين المدائن التى سيجمع منها السحرة ، بحيث لا يكون متطرفاً ، يشقّ على بعضهم حضوره .

وهكذا تتكاتف اللقطات المختلفة لترسم الصورة الكاملة للقصة .

ونرى فى هذه المشورة حرْصَ الملأ على إتمام هذا اللقاء ، وأن يكون على رؤوس الأشهاد ، لأنهم يعلمون أنها ستكون لصالح موسى ، وسوف يفضح هذا اللقاءُ كذبَ فرعون فى ادعائه الألوهية .

﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ (٣٩) لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ (٤٠)﴾

أى : أخذوا يدعُون الناس ، وكأنهم فى حملة دعاية وتأييد ، إما لموسى من أنصاره الكارهين لفرعون فى الخفاء ، وإما لفرعون ، فكان هؤلاء وهؤلاء حريصين على حضور هذه المباراة .

إننا نشاهد الجمع الغفير من الجماهير يتجمع لمشاهدة مباراة فى كرة القدم مثلاً ، فما بالك بمباراة بين سحرة مَنْ يدَّعى الألوهية وموسى الذى جاء برسالة جديدة يقول : إن له إلهاً غير هذا الإله ؟ إنه حَدَثٌ هزَّ الدنيا كلها ، وجذب الجميع لمشاهدته .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (٤١)﴾

فانظر إلى مسيرة الإله فرعون فى رعيته ، فالإله الحق يُطْعِم ولا يُطْعم ، ويجير ولا يُجَار عليه ، الإله الحق يُعطى ولا يأخذ ، ولما اجتمع السحرة وهم أبطال هذه المباراة ، ويعلمون مدى حاجة فرعون إليهم فى هذا الموقف ؛ لذلك بادروا بالاتفاق معه والاشتراط عليه : إنْ كنت تُسخِّر الناس فى خدمتك دون أجر ، فهذه المسألة تختلف ، ولن تمر هكذا دون أجر .

وهذا دليل على معرفتهم بفرعون ، وأنه رجل (أَكَلْتى) ، لذلك اشترطوا عليه أجراً إنْ كانوا هم الغالبين ، ولا ندرى فربما جاء آخر يهدد هذه الألوهية ، فنحن ندخركم لمثل هذا الموقف .

﴿ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾

هنا يتنازل فرعون عن تعاليه وكبريائه ويذعن لشروط سَحرته ، بل ويزيدهم فوق ما طلبوا ﴿ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الشعراء] فسوف تكونون من خاصتنا ، نستعين بكم فى مثل هذه الأمور ، ولا نستغنى عنكم ؛ لأنكم الذين حافظتم على باطل ألوهيتنا .

﴿ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾

هنا كلام محذوف ، نعرفه من سياق القصة ؛ لأن الآية السابقة كان الكلام ما يزال بين فرعون والسحرة ، والقرآن يحذف بعض الأحداث اعتماداً على فطْنة السامع أو القارىء ، كما قلنا فى قصة الهدهد مع سيدنا سليمان ، حيث قال له : ﴿ اذْهَب بِّكِتَابِي هَـٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [النمل]

ثم قال بعدها : ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (٢٩)﴾ [النمل] وحذف ما بين هذين الحدثيْن مما نعلمه نحن من السياق .(١)

وقوله : ﴿أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ (٤٣)﴾ [الشعراء] هذه هى الغاية التى انتهى إليها بعد المحاورة مع السحرة .

﴿فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ (٤٤)﴾

فكانت العصىّ والحبال هى آلات سحرهم ﴿وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ (٤٤)﴾ [الشعراء] بعزة فرعون : هذا قسمهم ، وما أخيبه من قسم ؛ لأن فرعون لا يُغلَب ولا يُقهر فى نظرهم ، وسبق أن أوضحنا أن العزة تعنى عدم القهر وعدم الغلبة ، لكن عزة فرعون عزة كاذبة وأنفة وكبرياء بلا رصيد من حق ، وعزة بالإثم كالتى قال الله عنها : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ .. (٢٠٦)﴾ [البقرة]

وقال تعالى : ﴿صٓ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ (١) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ (٢)﴾ [ص] أى : عزة بإثم ، وعزة بباطل .

ومنه أيضاً قوله تعالى عن المنافقين : ﴿لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ .. (٨)﴾ [المنافقون] فصدّق القرآن على قولهم

---

(١) تعنى بكرمه : ما رأته من عجيب أمره كون طائر جاء به فألقاه إليها ثم تولى عنها أدباً وهذا أمر لا يقدر عليه أحد من الملوك . [تفسير ابن كثير ٣/٣٦١] ، وقال القرطبى فى تفسيره (٧/٥٠٧٤) : « وصفته بذلك لما تضمن من لين القول والموعظة فى الدعاء إلى عبادة الله عز وجل وحسن الاستعطاف من غير أن يتضمن سباً ولا لعناً ولا ما يغير النفس ، ومن غير كلام نازل ولا مستغلق على عادة الرسل فى الدعاء إلى الله » .

بأن الأعـزَّ سيُخـرج الأذلّ ، لكن ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ .. (٨)﴾ [المنافقون]

وما دام الأمر كذلك فأنتم الأذلّة ، وأنتم الخارجون ، وقد كان .

ويقال : إن أدوات سـحرهم وهى العِصىّ والحـبال كانت مُجـوفة وقد ملئوها بالزئبـق ، فلما ألقوها فى ضوء الشمس وحـرارتها أخذتْ تتلاعب ، كأنها تتحرك ، وهذا من حيل السَّحَرة وألاعيبهم التى تُخيِّل للأعين وهى غير حقيقية ، فحقيقة الشىء ثابتة ، أمّا المسحور فيخيل إليه أنها تتحرك .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (٤٥)﴾

ولم يَأْت إلقاء مـوسى عليه السلام لعـصاه مباشـرة بعد أن ألقى السحرة ، إنما هنا أحـداث ذُكرتْ فى آيات أخرى ، وفى لقطات أخرى للقصة ، يقول تعالى : ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ (٦٦)﴾ [طه]

﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ (٦٧) قُلْنَا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الأَعْلَىٰ (٦٨) وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا .. (٦٩)﴾ [طه]

هكذا كانت الصـورة ، فلما خاف موسى ثبَّـته ربه ، وأيّده بالحق وبالحجة ، وتابعه فيما يفـعل لحظةً بلحظة ؛ ليوجهه وليُعدِّل سلوكه ، ويشدّ على قلبه ، وما كان الحق ـ تبـارك وتعالى ـ ليرسله ثم يتخلى عنه ، وقـد قـال له ربه قـبل ذلك : ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي (٣٩)﴾ [طه] وقال : ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ (٤٦)﴾ [طه] فالحق سبحانه يعطى نبيه موسى الأوامر ، ويعطيه الحجة لتنفيذها ، ثم يتابعه بعنايته ورعايته .

ومن ذلك قوله تعالى لنبيه نوح : ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا .. (٣٧)﴾ [هود]

فحينما تجمع هذه اللقطات تجدها تستوعب الحدث ، ويُكمّل بعضها بعضاً ، وهذا يظنه البعض تكراراً ، وليس هو كذلك .

إذن : جاء إلقاء موسى لعصاه بعد توجيه جديد من الله أثناء المعركة : ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ .. (٦٩)﴾ [طه] وهنا : ﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (٤٥)﴾ [الشعراء] ومعنى ﴿تَلْقَفُ.. (٤٥)﴾ [الشعراء] تبتلع وتلتهم فى سرعة وقوة ، أما السرعة واختصار الزمن والقوة ، فتدل على الأخذ بشدة وعُنْف ، وفى هذا دليل على أنه خاض المعركة بقوة ، فلم تضعف قوته لما رأى من ألاعيب السَّحَرة .

ومعنى ﴿مَا يَأْفِكُونَ (٤٥)﴾ [الشعراء] من الإفك يعنى : قلْب الحقائق ؛ لذلك سَمَّوْا الكذب إفْكاً ؛ لأنه يقلب الحقيقة ويُغير الواقع .

ومنها ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ (٥٣)﴾ [النجم] وهى القرى[1] الظالمة التى أهلكها الله ، فجعل عاليها سافلها .

وسبق أن أوضحنا أن الكذب وقَلْب الحقائق يأتى من أنك حين تتكلم ، فللكلام نِسَبٌ ثلاث : نسبة فى الذِّهْن ، ونسبة على اللسان ، ونسبة فى الواقع . فإنْ طابقتْ النسبةُ الكلامية الواقع ، فأنت صادق ، وإنْ خالفتْه فأنت كاذب .

---

(١) يعنى : مدائن قوم لوط قلبها عليهم فجعل عاليها سافلها وأمطر عليها حجارة من سجيل منضود . قال قتادة : كان فى مدائن قوم لوط أربعة آلاف ألف إنسان (يعنى ٤ ملايين) فانضرم عليهم الوادى شيئاً من نار ونفط وقطران كفم الأتون . [تفسير ابن كثير ٤/٢٥٩] .

وسَمَّى ما يفعله السحرة إفكاً ؛ لأنهم يُغـيِّرون الحقيقة ، ويُخيِّلون للناس غيرها .

﴿ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (٤٦) ﴾

لم يقُل الحق سبحانه : فسجد السحرة ، إنما ﴿ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (٤٦) ﴾ [الشعراء] والإلقاء يدل على سرعة الاستجابة ، وأن السجود تَمَّ منهم دون تفكير ؛ لأنه أمر فوق إرادتهم ، وكأن جلال الموقف وهيبته وروعة ما رأَوْا ألقاهم على الأرض ساجدين لله ، صاحب هذه الآية الباهرة ؛ لذلك لم يقولوا عندها آمنَّا بربِّ موسى وهارون ، إنما قالوا :

﴿ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٤٧) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ (٤٨) ﴾

وحين نتأمل ردَّ فعْل السحرة هنا نجد أنهم خرُّوا لله ساجدين أولاً ، ثم أعلنوا إيمانهم ثانياً ، ومعلوم أن الإيمان يسبق العمل ، وأن السجود لا يتأتى إلا بعد إيمان ، فكيف ذلك ؟

قالوا : هناك فَرْق بين وقوع الإيمان ، وبين أنْ تخبر أنت عن الإيمان ، فالمتأخر منهم ليس الإيمان بل الإخبار به ؛ لأنهم ما سجدوا إلا عن إيمان واثق ينجلى معه كل شكٍّ ، إيمان خطف ألبابهم وألقاهم على الأرض ساجدين لله ، حتى لم يمهلهم إلى أنْ يعلنوا عنه ، لقد أعادهم إلى الفطرة الإيمانية فى النفس البشرية ، والمسائل الفطرية لا علاجَ للفكر فيها .

وكأن سائلاً سألهم : لـمَ تسجدون ؟ قالوا : ﴿آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٧) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ (٤٨)﴾ [الشعراء]

وقالوا : ربّ موسى وهارون بعد رب العالمين ، ليقطعوا الطريق على فرعون وأتباعه أن يقول مثلاً : أنا رب العالمين ، فأزالوا هذا اللبْس بقولهم ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ (٤٨)﴾ [الشعراء]

ومثال ذلك قول بلقيس عندما رأت عرشها عند سليمان ـ عليه السلام ـ لم تقل : أسلمت لسليمان ، إنما قالت : ﴿أَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٤)﴾ [النمل] فأنا وأنت مسلمان لإله واحد هو الله رب العالمين ، وهكذا يكون إسلام الملوك ، وحتى لا يظن أحد أنها إنما خضعتْ لسليمان ؛ لذلك احتاطتْ فى لفظها لتزيل هذا الشك .

﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَـٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (٤٩)﴾

إذن : فهو لا يشك فى أن ما رآه السحرة موجب للإيمان ، ولا يُشَكّك فى ذلك ، لكن المسألة كلها ﴿قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ .. (٤٩)﴾ [الشعراء] فما يزال حريصاً على ألوهيته وجبروته ، حتى بعد أن كُشِف أمره وظهر كذبه ، وآمن الملأ بالإله الحق .

ثم أراد أنْ يبرر موقفه بين دهماء العامة حتى لا يقول أحد : إنه هزم وضاعت هيبته ، فقال : ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِى عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ .. (٤٩)﴾ [الشعراء] فى حين أن القوم يعلمون أن موسى عليه السلام لم يجلس طيلة عمره إلى ساحر ، لكن فرعون يأخذها ذريعة ، لينقذ ما يمكن إنقاذه من مركزه الذى تهدّم ، وألوهيته التى ضاعت .

ثم يُهدِّدهم بأسلوب ينمّ عن اضطرابه ، وأنه فقد توازنه ، واختلّ حتى فى تعبيره ، حيث يقول ﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ .. (٤٩)﴾ [الشعراء] وسوف تدل على المستقبل مع أنه لم يُؤخّر تهديده لهم بدليل أنه قال بعدها : ﴿لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (٤٩)﴾ [الشعراء] ﴿مِّنْ خِلافٍ .. (٤٩)﴾ [الشعراء] يعنى : اليد اليمنى مع الرِّجْل اليُسْرى ، أو اليد اليسرى مع الرِّجْل اليمنى .

وقوله : ﴿وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ .. (٤٩)﴾ [الشعراء] أوضحه فى آية أخرى : ﴿وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ .. (٧١)﴾ [طه]

فماذا كان جواب المؤمنين برب العالمين ؟

﴿قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ (٥٠)﴾

أى : لا ضررَ علينا إنْ قتلتنا ؛ لأن مصير الجميع إلى الموت ، لكن إنْ كانت نهايتنا على يديك فسوف نسعد نحن بلقاء ربنا ، وتَشْقى أنت بجزاء ربك . كالطاغية الذى قال لعدوه : لأقتلنك فضحك ، فقال له : أتسخر منى وتضحك ؟ قال : وكيف لا أضحك من أمر تفعله بى يُسعدنى الله به ، وتشقى به أنت ؟

إذن : لا ضررَ علينا إنْ قُتلْنا ؛ لأننا سنرجع إلى الله ربنا ، وسنخرج من ألوهية باطلة إلى لقاء الألوهية الحقة ، فكأنك فعلتَ فينا جميلاً ، وأسديتَ لنا معروفاً إذْ أسرعتَ بنا إلى هذا اللقاء ، وما تظنه فى حقنا شَرٌّ هو عين الخير ، لذلك فَهِم الشاعر هذا المعنى ، فقال عنه :

وَلَسْتُ أُبَالِى حِينَ أُقْتَلُ مُسْلِماً ... عَلَى أىِّ جَنْبٍ كانَ فى اللهِ مَصْرعى

يعنى : ما دُمْتُ قد مُتُّ فى سبيل الإسلام ، فلا يُهم بعد ذلك ، ولا أبالى أىّ موتة هى .

والمؤمنون هنا حريصون على أمرين : الأول : نَفْى الضرر ؛ لأن دَرْء المفسدة مُقدَّم على جَلْب المصلحة ، والثانى : التأكيد على النفع الذى سينالونه من هذا القتل .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ ﴾

لأنك أكرهتنا على السحر ، وحملْتنا على الكذب ، ومكثنا عمراً نعتقد أنك إله ، فلعلَّ مبادرتنا إلى الإيمان وكوْننا أولَ المؤمنين يشفع لنا عند ربنا ، فيغفر لنا خطايانا ، وفى موضع آخر : ﴿ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ .. ﴿٧٣﴾ ﴾ [طه]

فذكر هناك مسألة الإكراه ، وذكر هنا العلة : ﴿ أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ ﴾ [الشعراء]

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ (١)

قلنا : الوحى لغةً : إعلام بخفاء ، وشرعاً : إعلام من الله لرسول من رسله بمنهج خير لخَلْقه .

---

(١) سرى يسرى : سار ليلاً . وأسرى به : جعله يسرى أو حمله على السير ليلاً . [القاموس القويم ٣١٢/١] . قال ابن كثير فى تفسيره (٣٣٥/٣) : « كان خروجه بهم فيما ذكره غير واحد من المفسرين وقت طلوع القمر ، وذكر مجاهد رحمه الله أنه كُسِف القمر تلك الليلة فالله أعلم » .

ومن الوحى المطلق قوله تعالى : ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِى مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا .. (٦٨)﴾ [النحل]

وقوله سبحانه : ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ .. (١٢١)﴾ [الأنعام]

وقوله تعالى : ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ .. (٧)﴾[القصص]

فالوحى العام إذن لا نسأل عن الموحِى ، أو الموحَى إليه ، أو موضوع الوحى ، فقد يكون الوحى من الشيطان ، والموحَى إليه قد يكون الأرض أو الملائكة أو الحيوان ، على خلاف الوحى الشرعى ، فهو محدد ومعلوم .

لقد قام فرعون بحملة دعاية لهذه المعركة مع موسى ـ عليه السلام ـ وحشد الناس لمشاهدة هذه المباراة ، وهذا دليل على أنه قدَّر أنه سيغلِب ، لكن خيَّب الله ظنه ، وكانت الجولة لمصلحة موسى عليه السلام ، فآمن السحرة بالله تعالى رب موسى وهارون ، فأخذ يهددهم ويتوعدهم ، وهو يعلم أنَّ ما رأوْه من الآيات الباهرات يستوجب الإيمان .

ومع ذلك لما غُلِب فرعون وضاعتْ هيبته وجباريته وقاهريته سكت جمهور الناس ، فلم ينادوا بسقوطه ، واكتفوا بسماع أخبار موسى ، وظل هذا الوضع لمدة طويلة من الزمن حدث فيها الآيات التسع التى أنزلها الله ببنى إسرائيل .

ومن غباء فرعون أن ينصرف عن موسى بعد أن أصبح له أتباع وأنصار ، ولم يحاول التخلص منه حتى لا يزداد أتباعه وتقوى

شوكته ، فكأن مسألة الآيات التسع التى أرسلها الله عليهم قد هَدَّتْ كيانه وشغلته عن التفكير فى أمر موسى عليه السلام .

وهكذا استشرى أمر موسى وأصبحت له أغلبية وشعبية ، حتى إن الأقباط[1] أتباع فرعون كانوا يعطفون على أمر موسى وقومه ؛ لذلك استعاروا من القبط حُلىَّ النساء قبل الخروج مع موسى ، ومن هذه الحلى صنع السامرى العجل الذى عبدوه فيما بعد .

وهنا يقول تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ (٥٢) ﴾ [الشعراء] وقبل ذلك نبَّهه ربه للخروج بعد أن قتل الرجل : ﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ (٢٠) ﴾ [القصص]

أما الآن ، فالمؤامرة عليه وعلى مَنْ معه من المؤمنين .

ومعنى ﴿ أَسْرِ .. (٥٢) ﴾ [الشعراء] الإسراء : المشى ليلاً ﴿ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ (٥٢) ﴾ [الشعراء] يعنى : سيتبعكم جنود فرعون ويسيرون خلفكم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٥٣) إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ[2] قَلِيلُونَ (٥٤) وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ (٥٥) ﴾

---

(١) القبط : جيل بمصر . وقيل : هم أهل مصر وبُنْكها (أصلها) ورجل قبطى . والقُبْطيّة : ثياب كتان بيض رقاق تُعمل بمصر وهى منسوبة إلى القبط . [لسان العرب ـ مادة : قبط] فالقبط هم أهل مصر من قبل موسى عليه السلام ومن قبل أن تدخل مصر فى المسيحية ، فالقبط جنس ليس مرتبطاً بالديانة .

(٢) الشرذمة : الجماعة القليلة من الناس [لسان العرب ـ مادة : شرذم] . قال القرطبى فى تفسيره (٧/٤٩٧٩) : « روى أن بنى إسرائيل كانوا ستمائة ألف وسبعين ألفاً والله أعلم بصحته » .

الفاء هنا للتعقيب ، فوَحْى الله لموسى أن يَسْرى ببنى إسرئيل تَمَّ قبل أن يبعثَ فرعون فى المدائن حاشرين ، وكأن الله تعالى يحتاط لنبيه موسى ليخرج قبل أن يهيج فرعونُ الناسَ ، ويجمعهم ضد موسى ويُجرى لهم ما نسميه نحن الآن (غسيل مخ) ، أو يعلن على موسى وقومه حرب الأعصاب التى تؤثر على خروجهم .

و ﴿ حَاشِرِينَ (٥٣) ﴾ [الشعراء] من الحشر أى : الجمع ، لكن جمع هذه المرة للجنود لا للسحرة ، لأنهم هُزِموا فى مُباراة السحرة ، فأرادوا أنْ يستخدموا سلاحاً آخر هو سلاحَ الجبروت والتسلُّط والحرب العسكرية ، فإنْ فشلت الأولى فلعلّ الأخرى تفلح ، لكن الحق ـ تبارك وتعالى ـ أخبر نبيه موسى بما يُدبَّر له وأمره بالخروج ببنى إسرائيل .

وقَوْل فرعون عن أتباع موسى : ﴿ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (٥٤) ﴾ [الشعراء] يريد أن يُهوِّن من شأنهم ويُغرى قومه بهم ، ويُشجِّعهم على مواجهتهم ، لكن مع ذلك يُحذِّرهم من خطرهم ، فيقول ﴿ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ (٥٥) ﴾ [الشعراء] فأعِدُّوا لهم العدة ، ولا تستهينوا بأمرهم .

﴿ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ (٥٦) ﴾

يعنى : لا بُدَّ أن نأخذ حذرنا ونحتاط للأمر.

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ (٥٧) وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٥٨) ﴾ (١)

---

(١) عن عبد الله بن عمرو قال : كانت الجنات بحافتى النيل فى الشقتين جميعاً من أسوان إلى رشيد ، وبين الجنات زروع . [تفسير القرطبى ٧/٤٩٨] .

أى : لم ينفعه احتياطه ، ولم يُجْدِ حذره ، فلا يمنع حَذَر من قَدَر ﴿فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ .. (٥٧)﴾ [الشعراء] أى : بساتين وحدائق ﴿وَعُيُونٍ (٥٧)﴾ [الشعراء] أى : عيون تجرى بالماء ﴿وَكُنُوزٍ .. (٥٨)﴾ [الشعراء] كانت عندهم ﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٥٨)﴾ [الشعراء] يعنى : عيشة مُتْرفة فى سَعَةٍ ورَغَدٍ من الحياة ، وخَدَم وحَشَم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ (٥٩)﴾

﴿كَذَٰلِكَ .. (٥٩)﴾ [الشعراء] أى : الأمر كما أقول لكم وكما وصفتُ ﴿وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (٥٩)﴾ [الشعراء] أى : أورثنا هذا النعيم من بعدهم لبنى إسرائيل ، وهنا قد يسأل سائل : كيف وقد ترك بنو إسرائيل مصر وخرجوا منها ، ولم يأخذوا شيئاً من هذا النعيم ؟

قالوا : المعنى أورثهم الله أرضاً مثلها ، قد وعدهم بها فى الشام[1] .

﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ (٦٠)﴾

أى : عند الشروق ، وعادةً ما تكون الغارة على الجيش عند الصباح ، ومن ذلك قوله تعالى :

﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ (١٧٧)﴾ [الصافات]

وعادةً ما يقوم الإنسان من النوم كسولاً غير نشيط ، فكيف بمَنْ هذه حاله إن التقى بعدوه ؟

---

(١) قال القرطبى فى تفسير هذه الآية (٧/ ٤٩٨٤) : « يريد أن جميع ما ذكره الله تعالى من الجنات والعيون والكنوز والمقام الكريم أورثه الله بنى إسرائيل . قال الحسن وغيره : رجع بنو إسرائيل إلى مصر بعد هلاك فرعون وقومه . وقيل : أراد بالوراثة هنا ما استعاروه من حلى آل فرعون بأمر الله تعالى » .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ ﴾

معنى ﴿ تَرَاءَى الْجَمْعَانِ .. ﴿٦١﴾ ﴾ [الشعراء] أى : صار كل منهما يرى الآخر ، وحدثتْ بينهما المواجهة ، وعندها ﴿ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [الشعراء] فالحال أن البحر من أمامهم وجنود فرعون من خلفهم ، فلا مناصَ ولا مهرب ، لكن موسى ـ عليه السلام ـ وقد سبق أن تعلم كلمة (كلا) من ربه تعالى ، حينما قال : ﴿ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ ﴾ [الشعراء] فردّ عليه ربه : ﴿ كَلَّا ﴿٦٢﴾ ﴾ [الشعراء] عندها تعلَّمها موسى ، وعرف كيف ومتى يقولها قَوْلَةَ الواثق بها .

﴿ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ ﴾

لكن كيف يقول موسى عليه السلام هذه الكلمة (كلا) بملء فيه ، والأمر بقانون الماديات أنه عُرْضة لأنْ يُدْرَك قبل أن يكملها ؟

والإجابة فى بقية الآية : ﴿ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ ﴾ [الشعراء] فلم يقُلْ موسى : كَلاّ اعتماداً على قوته واحتياطه للأمر ، إنما قالها اعتماداً على ربه الذى يكلؤه بعينه ، ويحرسه بعنايته .

فالواقع أننى لا أعرف ماذا أفعل ، ولا كيف أتصرف ، لكن الشىء الذى أثق منه ﴿ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ ﴾ [الشعراء] لذلك يأتى الفرج والخلاص من هذا المأزق مباشرة :

﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ ﴾

ذلك لأن البحر هو عائقهم من أمامهم ، والبحر مياه لها قانونها الخاص من الاستطراق والسيولة ، فلما ضرب موسى بعصاه البحر انفلق وانحصر الماء على الجانبين ، كل فِرْقٍ ـ أى : كل جانب ـ كالطوْد يعنى الجبل العظيم .

لكن بعد أن صار الماء إلى ضدِّه وتجمّد كالجبل ، وصنع بين الجبلين طريقاً ، أليس فى قاع البحر بعد انحسار الماء طين ورواسب وأوحال وطمى يغوص فيها الإنسان ؟

إننا نشاهد الإنسان لا يكاد يستطيع أن ينقل قدماً إذا سار فى وحل إلى ركبتيه مثلاً ، فما بالك بوحْل البحر ؟

لذلك قال له ربه : ﴿لاَّ تَخَافُ دَرَكًا وَلا تَخْشَىٰ (٧٧)﴾ [طه]

فالذى جعل لك الماء جبلاً ، سيجعل لك الطريق يابساً .

والحق ـ تبارك وتعالى ـ لم يُبيِّن لنا فى انفلاق البحر ، إلى كَمْ فلقة انفلق ، لكن العلماء يقولون : إنه انفلق إلى اثنتى عشرة فلقة بعدد الأسباط[1] ، بحيث يمر كل سَبْط من طريق .

وفى لقطة أخرى من القصة أراد موسى ـ عليه السلام ـ أنْ يضرب البحر مرة أخرى ليعود إلى طبيعته ، فيسُدُّ الطريق فى وجه فرعون وجنوده على حَدِّ تفكيره كبشر ، لكن الحق ـ تبارك وتعالى ـ نهاه عن ذلك : ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلاً إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ (٢٣) وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا[2] إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ (٢٤)﴾ [الدخان]

---

(١) قاله ابن عباس فيما نقله عنه ابن كثير فى تفسيره (٣/٣٣٦) ، وأورده السيوطى فى الدر المنثور (٦/٣٠٣ ، ٣٠٤) ضمن أثر طويل عزاه لابن عبد الحكم فى « فتوح مصر » من طريق الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس .

(٢) أى : اترك البحر ساكنة أمواجه ليغتروا فينزلوا فيه ، أو كن ساكن النفس هادئاً مطمئناً إلى النجاة . [القاموس القويم ١/٢٧٩ بتصرف]

اتركه على حاله ليُغرى الطريق اليابس فرعون وجنوده ، لذلك قال سبحانه :

﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ ﴿٦٤﴾﴾

أى : قرّبناهم من منتصف البحر ، ثم أطبقه الله عليهم حين أمر الماء أن يعود إلى سيولته وقانون استطراقه ، وهكذا يُنجِّى الله ويُهلك بالشىء الواحد و ﴿الآخَرِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [الشعراء] يعنى : قوم فرعون ، و ﴿ثَمَّ .. ﴿٦٤﴾﴾ [الشعراء] أى : هناك وسط البحر .

وللعصا مع موسى ـ عليه السلام ـ تاريخ طويل منذ أن سأله ربه ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿١٧﴾﴾ [طه] فأخبر بما يعرفه عنها ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي .. ﴿١٨﴾﴾ [طه]

وقوله ﴿أَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي .. ﴿١٨﴾﴾ [طه] لا تعنى كما يظن البعض أنها مجرد الإشارة بها إلى الغنم أو ضربها ، فأهشُّ تعنى أضرب بها أوراقَ الشجر لتتساقط ، فتأكلها الأغنام الصغار التى لا تطول أوراقَ الشجر ، أو الكبار التى أكلتْ ما طالته أعناقها وتحتاج المزيد .

ولما وجد موسى نفسه قد أطال فى هذا المقام قال ﴿وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾ [طه] كأنْ أدافع بها عن نفسى ليلاً ، إنْ تعرَّض لى كلب أو ذئب مثلاً ، أو أغرسها فى الأرض وأُلقى عليها بثوبى لأستظلَّ به وقت القيلولة ، أو أجعلها على كتفى وأُعلِّق عليها متاعى حين أسير .. إلخ .

هذه مهمة العصا كما يراها موسى ـ عليه السلام ـ لكن للعصا مهمة أخرى لا يعلمها ، فهى حُجّته وآية من الآيات التى أعطاه الله ،

فبها انتصر فى معركة الحجة مع السَّحَرة ، وبها انتصر فى معركة السلاح حين ضرب بها البحر فانفلق .

ومن العجيب فى أمر العصا أن يضرب بها البحر ، فيصير جبلاً ، ويضرب بها الحجر فينفجر بالماء ، وهذه آيات باهرات لا يقدر عليها إلا الله عز وجل .

لذلك جعلوا عصا موسى حجةً ودليلاً وعَلَماً على الانتصار فى كل شىء ، فلما كان الخصيب[1] والياً على مصر ، وتمرد عليه بعض قُطَّاع الطرق ، وكانت لديه القوة التى قهرهم بها ، لذلك قال :

فَإِنْ يَكُ بَاقٍ إِفْكُ فِرْعَوْنَ فِيكُمْ ... فَإِنَّ عَصَا مُوسَى بِكَفٍّ خَصِيبِ

وفى هذا المعنى يقول شاعر آخر :

إِذَا جَاءَ مُوسَى وَأَلْقَى العَصَا ... فَقَدْ بَطُلَ السِّحْرُ والسَّاحِرُ

إذن : صارتْ عصا موسى عليه السلام مثَلاً وعَلَماً للغَلَبة فى أىِّ مجال من مجالات الحياة .

﴿ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾

فقد حُسِمتْ هذه المعركة لصالح موسى ومَنْ معه دون إراقة دماء ، ودون خسارة جندى واحد ، فى حين أن المعارك على فرض الانتصار فيها لا بُدَّ أن تكون لها نسبة خسائر فى الأرواح وفى العَتَاد ، أما هذه فلا .

﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾

---

(١) جاء فى لسان العرب ـ مادة : خصب : « الخصيب لقب رجل من العرب» .

أى : بنفس السبب الذى أنجى الله به موسى وقومَه أهلك فرعون وقومه ؛ لأنه وحده سبحانه القادر على أن يُنجِى ، وأنْ يُهلِك بالشىء الواحد .

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾

قوله سبحانه ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ .. ﴿٦٧﴾ ﴾ [الشعراء] أى : فيما حدث ﴿ لَآيَةً .. ﴿٦٧﴾ ﴾ [الشعراء] وهى الأمر العجيب الذى يخرج عن المألوف وعن العادة ، فيثير إعجاب الناس، ويستوجب الالتفات إليه والنظر فيه، والآية تُقنع العقل بأن الله هو مُجْريها على يَدَىْ موسى ، وتدل على صِدْق رسالته وبلاغه عن الله ، وإلا فهى مسألة فوق طاقة البشر .

ومع ذلك ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [الشعراء] أى : أن المحصلة النهائية للذين آمنوا كانوا هم القلة[1] مع هذه الآيات ، حتى الذين آمنوا مع موسى عليه السلام واتبعوه وأنجاهم الله من آل فرعون ومن الغرق ، سرعان ما تراجعوا وانتكسوا ، كما يحكى القرآن عنهم :

﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ .. ﴿١٣٨﴾ ﴾ [الأعراف]

سبحان الله ، لقد كفروا بالله ، وما تزال أقدامهم مُبتلَّة من عبور البحر ، وما زالوا فى نَشوة النصر وفرحة الغلبة !!

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾ ﴾

أى : بعد ما مَرّ من حيثيات فإن الله تعالى هو العزيز ، أى : الذى

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٤٩٨٦/٧) : « لأنه لم يؤمن من قوم فرعون إلا مؤمن آل فرعون واسمه حزقيل ، وابنته آسية امرأة فرعون ، ومريم بنت ذا موسى العجوز التى دلّتْ على قبر يوسف الصِّديق عليه السلام » .

لا يُغلَب ولا يُقهَر ، إنما هو الغالب وهو القاهر ، فهو سبحانه يغلب ولا يُغلب ، ويُطعِم ولا يُطعَم ، ويُجير ولا يُجار عليه . ومع عزته سبحانه وقوته بحيث يغلب ولا يُغلب هو أيضاً ﴿الرَّحِيمُ (٦٨)﴾ [الشعراء] لأنه رب الخَلْق أجمعين ، يرحمهم إنْ تابوا ، ويقبلُهم إنْ رجعوا إلى ساحته ، كما جاء فى الحديث الشريف :

« لله أفرح بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة ، فانفلتت منه ، وعليها طعامه وشرابه ، فأيس منها فأتى شجرة فاضطجع فى ظلها ، قد أيس من راحلته ، فبينما هو كذلك إذ هو بها قائمة عنده فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح : اللهم أنت عبدى وأنا ربك ، أخطأ من شدة الفرح »[1] .

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (٦٩)﴾

جاءت هذه الآية بعد الانتهاء فى إيجاز مُبسّط لقصة موسى عليه السلام مع فرعون ، وخُتمت بقوله تعالى : ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (٦٧) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٦٨)﴾ [الشعراء]

ثم تكلم الحق سبحانه عن نبيه إبراهيم عليه السلام ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (٦٩)﴾ [الشعراء] مما يدل على أن المسألة فى القرآن ليست سَرْداً للتاريخ ، فإبراهيم كان قبل موسى ، ولو أردنا التأريخ لجاءت قصة إبراهيم أولاً ، إنما الهدف من القصص فى القرآن التقاط مواضع العِبْرة والعظَة واتخاذ الأُسْوة من تاريخ الرسل ، ليُثبِّت الله بها فؤاد رسوله ﷺ حينما يواجه الأحداث الشاقة والعصيبة .

والمتأمل فى رسالة موسى ورسالة إبراهيم عليهما السلام

---

(١) أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه (٢٧٤٧) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه .

يجد أن موسى جاء ليعالج مسألةً هى قمة العقيدة ، ويواجه مَنِ ادّعى الألوهية وقال : إنى إله من دون الله ، أما إبراهيم فقد عالج مسألة الشرك مع الله وعبادة الأصنام ، فعندهم طَرَف من إيمان ، بدليل أنهم إذا ضيّقنا عليهم الخناق قالوا : ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ .. (٣)﴾ [الزمر]

لذلك كانت قصة موسى أَوْلَى بالتقديم هنا .

ومعنى : ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ .. (٦٩)﴾ [الشعراء] أى : اقرأ ، أو وضِّح ، أو عبِّر ، ونقول للقراءة (تلاوة) لأنه لا يُتلَى إلا المكتوب المعلوم المفهوم ﴿عَلَيْهِمْ .. (٦٩)﴾ [الشعراء] على أمة الدعوة كلها ، أَمْ على المكذبين خاصة ؟

قالوا : على المكذِّبين خاصة ؛ لأن المصدِّقين برسول الله لا يحتاجون هذه التلاوة ، وإنْ تُلِيَتْ عليهم فإنما التلاوة للتذكرة أو لعلم التاريخ . إذن : المراد هنا المكذِّبون المنكرون ليعلموا أن نهاية كل رسل الله فى دعوتهم النصر والغلبة ، وأن نهاية المكذبين المخالفين الهزيمة والاندحار .

فكأن القرآن يقول لهم : لا تغتروا بقوتكم ، ولا بجاهكم ، ولا تنخدعوا بسيادتكم على العرب ، ومعلوم أن مكانة قريش بين العرب إنما أخذوها من خدمة بيت الله الحرام ، وما أَمِنُوا فى طرق تجارتهم إلاَّ بقداسة بيت الله وحُرْمته .

ولولا البيت ما كان لقريش كل هذه المكانة ، بدليل قوله تعالى : ﴿لإِيلافِ قُرَيْشٍ (١) إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (٢)﴾ [قريش]

ولو انهدم البيت فى قصة الفيل ما كان لقريش سيادة ولا سيطرة

على الجزيرة العربية ، وما دام أن الله تعالى فعل معهم هذا ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَـٰذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ (٤)﴾ [قريش]

ومعنى ﴿نَبَأَ .. (٦٩)﴾ [الشعراء] أى : الخبر الهام الذى يجب أنْ يُقال ، ويجب أنْ يُنصتَ له ، وأنْ تُؤخَذ منه عِبْرة وعِظة ، فلا يُقال (نبأ) للخبر العادى الذى لا يُؤبَهُ له .

ولو تتبعتَ كلمة (نبأ) فى القرآن لوجدتها لا تُقَال إلا للأمر الهام ، كما فى قوله تعالى : ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (١) عَنِ النَّبَأِ الْعَظِيمِ (٢)﴾ [النبأ]

وقوله تعالى فى قصة سليمان عليه السلام والهدهد : ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (٢٢)﴾ [النمل]

إذن : ﴿نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (٦٩)﴾ [الشعراء] يعنى : الخبر الهام عنه ، وإبراهيم هو أبو الأنبياء الذى مدحه ربه مدحاً عظيماً فى مواضع عدة من القرآن ، فقال الحق سبحانه عنه : ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا[1] لِّلَّهِ حَنِيفًا .. (١٢٠)﴾ [النحل]

والأمة لا تُطلَق إلا على جماعة تنتسب إلى شىء خاص ، ويجمعهم مكان وزمان وحال . كذلك رسول الله ﷺ ، فقد أضفى الله عليه كمالات من صفات كماله لا يستطيع بشر أن يتحملها .

لذلك جاء فى الحديث الشريف : « الخير فِىَّ وفى أمتى إلى يوم القيامة »[2] .

---

(١) القنوت : الطاعة . وقال تعالى ﴿كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ (٢٦)﴾ [الروم] أى : خاضعون معترفون بألوهيته مطيعون [القاموس القويم ٢/١٣٤] .

(٢) قال العجلونى فى كشف الخفاء (١/٤٧٦) : « قال فى المقاصد : قال شيخنا : لا أعرفه ، ولكن معناه صحيح ، يعنى فى حديث : لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق إلى أن تقوم الساعة . وقال ابن حجر المكى فى الفتاوى الحديثية : لم يرد بهذا اللفظ » .

الخير فيَّ حصراً ، الخير على عمومه ، وفى كل جوانب شخصيته : داعيةً وأباً وزوجاً .. الخ وخصال الخير من شجاعة ، وحِلْم ، وعِلْم ، وكرم .. إلخ . وكذلك الخير فى أمتى منثورٌ بين أفرادها ، يأخذ كل منهم من الخير بطرف ، وله منه نصيب ، لكن لا أحدَ يستطيع أن يجمع الكمال المحمدى أبداً ، ولا أن يتصف به .

كذلك كان سيدنا إبراهيم عليه السلام (أمة) ؛ لأن خصال الخير تُوزَّع على أفراد الأمة : هذا ذكى ، وهذا حليم ، وهذا عالم ، وهذا حكيم .. الخ أما إبراهيم ـ عليه السلام ـ فقد جمع من الخير ما فى أمة بأكملها ، وهذا ليس كلاماً يُقَال فى مدح نبى الله إبراهيم ، إنما من واقع حياته العملية .

واقرأ إنْ شئتَ قوله تعالى عن إبراهيم : ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا .. (١٢٤)﴾ [البقرة]

وحَسْب إبراهيم ـ عليه السلام ـ من الخير هذه الدعوة : ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ .. (١٢٩)﴾ [البقرة]

فكان محمد ﷺ دعوة أبيه إبراهيم .

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾﴾

فأول دعوته كانت لأبيه ، وأقرب الناس إليه لا للغريب ، والدعوة التى توجه أولاً للقريب لا بُدَّ أنها دعوة حَقٍّ ودعوة خير ؛ لأن الإنسان يحب الخير أولاً لنفسه ، ثم لأقرب الناس إليه ، ولو كانت فى خيريتها شكٌّ لقصد بها الغرباء والأباعد عنه .

والمراد بأبيه هو (آزر) الذى ورد ذكره فى موضع آخر .

وسؤاله لأبيه وقومه ﴿مَا تَعْبُدُونَ (٧٠)﴾ [الشعراء] سؤال استهجان واستنكار ، وسؤال استدلال ليظهر لهم بطلان هذه العبادة ؛ لأن العبادة أنْ يطيعَ العابدُ المعبودَ فيما أمر وفيما نهى ، فالذين يعبدون الأصنام بماذا أمرتهم وعمَّ نهتهم ؟

إذن : فهى آلهة دون منهج ، وما أسهلَ أن يعبد الإنسان مثل هذا الإله الذى لا يأمره بشىء ، ولا ينهاه عن شىء ، وكذلك هى آلهة دون جزاء ودون حساب ؛ لأنها لا تثيب مَنْ أطاعها ، ولا تعاقب مَنْ عصاها .

إذن : فكلمة عبادة هنا خطأ ، ومع ذلك يُسمِّيها الناس آلهة ، لماذا ؟ لأن الإله الحق له أوامر لا بُدَّ أن تُنفّذ ، وإنْ كانت شاقة على النفس ، وله نواه لا بُدَّ أن تترك وإنْ كانت النفس تشتهيها ، فهى عبادة شاقة ، أما عبادة الأصنام فما أسهلها ، فليس عندها أمْر ولا نَهْى ، وليس عندها منهج يُنظِّم لهم حركة الحياة ؛ لذلك تمسَّك هؤلاء بعبادة الأصنام ، وسمَّوْها آلهة ، وهذا خبل واضح .

كما أن الإنسان فى مجال العبادة إذا عزَّتْ عليه أسباب الحياة وأعْيَتْه الحيل ، أو خرجت عن طاقته ، عندها يجد له رباً يلجأ إليه ، ويستعين به فيقول : يا رب . فماذا عن عابد الأصنام إذا تعرَّض لمثل هذه المسائل ؟ هل يتوجه إليها بالدعاء ؟ وهَبْ أنه يدعو إنساناً مثله يمكن أنْ يسمعهَ أيستجيبُ له ؟

لذلك يقول سبحانه : ﴿قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (٧١) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (٧٣)﴾ [الشعراء]

إذن : فعبادة غير الله حُمْق وغباء .

لكن هذا البحث من إبراهيم ، وهذا الجدل مع أبيه وقومه ، أكان بعد الرسالة أم قبلها ؟ قالوا : إن إبراهيم ـ عليه السلام ـ كان ناضجاً مُتفتِّحاً منذ صغَره ، وكان مُنكراً لهذه العبادة قبل أن يُرسَل ، لذلك قال الله عنه : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ (٥١) ﴾ [الأنبياء]

وكذلك كان نبينا محمد ﷺ قبل بعثته كارهاً للأصنام ، معترضاً على عبادتها ، يتعجب حين يرى قومه يعبدونها ، وقد رأى ﷺ أحد الآلهة وقد كُسر ذراعه فاستعانوا بمَنْ يُصلح ذراع الإله ، فضحك رسول الله ﷺ وتعجَّب لما يرى : العابد يصلح المعبود ؟ بعدها اعتزلهم رسول الله ، ولجأ إلى الغار يفكر فى الإله الحق والمعبود الحق .

فكأن أىَّ دين يأمر الله به لو تفكَّر فيه الإنسان برشد لانتهى إلى الحق بدون رسول ؛ لأن دين الله هو دين الفطرة السليمة ، فإنْ توفَّرت لدى الإنسان هذه الفطرة اهتدى بها إلى الحق .

بدليل ما كان يحدث من عمر ـ رضى الله عنه ـ وكان يُحدث رسول الله بالأمر ، فتتنزل به الآيات من عند الله ، وقد وافقتْ الآيات رأيه فى أكثر من موقف[1] ، وقد أقرَّ رسول الله ﷺ ذلك ليبين لنا أن العقل السليم والفطرة المستقيمة يمكن أنْ ينتهيا إلى قضايا الدين دون رسول .

---

(١) من هذه المواقف أنه لما كان يوم بدر قال ﷺ : ما تقولون فى هؤلاء الأسرى ؟ فقال أبو بكر : يا رسول الله قومك وأهلك استبقهم واستتبهم لعل الله أن يتوب عليهم . وقال عمر : يا رسول الله كذَّبوك وأخرجوك فقدمهم فاضرب أعناقهم . فأخذ رسول الله ﷺ برأى أبى بكر بالفداء ، ولكن نزل قول الله ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٧) ﴾ [الأنفال] . انظر تفسير ابن كثير (٢/٣٢٥) .

وتستطيع أنت أنْ تعرض أىَّ قضية من قضايا الدين على العقل السليم ، وسوف تجد أنها طيبة وجميلة توافق الذَّوْق السليم والتفكير السوىّ ، فالكذب مثلاً خُلُق يأباه العقل ويأباه الدين ، وكذلك الرشوة ؛ لأنك بها تأخذ ما ليس لك ، وقد يُسلَّط عليك رَاشٍ ، فيأخذ منك حقك ، كما أخذتَ أنت حقوق الناس .

ولو تأمل العقل مثلاً تحريم النظر إلى المحرمات ، لوجد أن الدين قيَّد نظرك وأنت فرد ، وقيَّد من أجلك نظر الناس جميعاً ، فكما طلب منك طلب لك ، وكذلك الأمر فى تحريم السرقة والقتل .. إلخ .

وقد سُئِلْنا فى إحدى الرحلات عن قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ .. (٣٣) ﴾ [التوبة] ومرة يقول: ﴿ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٣٣) ﴾ [التوبة] ومرة يقول : ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٣٢) ﴾ [التوبة]

يقولون : وبعد أربعة عشر قرناً ، والمسلمون فى الكون أقلية ، ولم يظهر الدين على الدين كله ، فكيف ـ إذن ـ نفهم هذه الآية ؟

فقلتُ للسائل : لو فهمتَ الآية السابقة لعرفتَ الجواب : ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٣٢) ﴾ [التوبة]

فالمعنى : أن الدين سيظهر فى وجود الأديان الأخرى ، وليس المراد أن هذه الأديان ستزول ، ولن يكون لها وجود ، بل هى موجودة ، لكن يظهر عليها الإسلام ظهور حجة ، بدليل ما نراه من هجمات على الإسلام وأحكامه وتشريعاته ، كما فى مسألة الطلاق مثلاً ، أو مسألة تعدُّد الزوجات وغيرها . وبعد ذلك تُلجئهم الحياة الاجتماعية إلى هذه التشريعات ، ولا يجدون غيرها لحل مشاكلهم .

ولما قامت الثورة الشيوعية فى روسيا سنة ١٩١٧ أول ما شرَّعوا منعوا الربا الذى كان جائزاً عندهم ، لقد منعوا الربا مع أنهم غير مسلمين ، لكن مصالحهم فى ذلك ، فهذه وأمثالها غلبة لدين الله وظهور له على كل الأديان .

وليس معنى ﴿ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ .. (٣٣) ﴾ [التوبة] أن يصير الناس جميعاً مؤمنين ، لا ، إنما يظل كُلٌّ على دينه وعلى شركه أو كفره ، لكن لا يجد حلاً لقضاياه إلا فى الإسلام ، وهذا أوقع فى ظهور الدين .

ثم يقول الحق سبحانه عن قوم إبراهيم فى ردِّهم على إبراهيم عليه السلام :

﴿ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (٧١) ﴾

إذن : شهد شاهد من أهلها ، وقالوا بأنفسهم ﴿ نَعْبُدُ أَصْنَامًا .. (٧١) ﴾ [الشعراء] والعبادة طاعة ، فماذا قالت لهم الأصنام ؟ وبماذا أمرتهم ؟ طبعاً ، ليس عندهم جواب .

وليت الأمر يقف عند العبادة ، إنما ﴿ فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (٧١) ﴾ [الشعراء] أى : قائمين على عبادته ليلَ نهار ، نعم ولكم حق ؛ لأنها آلهة دون تكليف ، وعبادة بلا مشقة وبلا التزام ، إنها بلطجة تأخذون فيها حظَّ أنفسكم ، وتفعلون معها ما تريدون .

لكن ، كيف جادلهم إبراهيم عليه السلام ؟ وبم رَدَّ عليهم ؟

﴿ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (٧٣) ﴾

فالأصنام لا تسمع مَنْ توجّه إليها بالدعاء ، ولا تنفع مَنْ عبدها ، ولا تضر مَنْ كفر بها ؛ لذلك لم يجدوا رداً ، وحاروا جواباً ، ولم يجدوا حُجّة إلا أنْ قالوا :

﴿ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾

إذن : أنتم لم تُحكِّموا عقولكم في هذه المسألة ، كما قالوا في موضع آخر : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الزخرف]

ونقول لهم : ومتى ظللتم على تقليد آبائكم فيما يفعلون ؟ إنكم لو أقمتُم على تقليد الآباء ما ارتقيتم في حياتكم أبداً ، فلماذا إذن تحرصون على التقليد في هذه المسألة بالذات دون غيرها .

﴿ قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾
أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾
فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾

يقول إبراهيم عليه السلام : لا تلقوا بالمسألة على الآباء ، ولا تُعلِّقوا عليهم أخطاءكم ، ثم يعلنها صريحة متحدية كأنه يقول لهم : الحمرة في خيلكم اركبوها .

﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي .. ﴿٧٧﴾ ﴾ [الشعراء] وكلمة عدو جاءت مفردة مع أنها مسبوقة بضمير جمع وتعود على جمع ﴿ فَإِنَّهُمْ .. ﴿٧٧﴾ ﴾ [الشعراء] ومع ذلك لم يقل : أعداء لي . قالوا : لأن العداوة في أمر الدين واحدة على خلاف العداوة في أمر الدنيا ؛ لأنها متعددة الأسباب ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ .. ﴿١٠٣﴾ ﴾ [آل عمران]

فجاءت : ﴿ أَعْدَاءً .. ﴿١٠٣﴾ ﴾ [آل عمران] هنا جمع ؛ لأنها تعود على

عداوة الدنيا ، وهى متعددة الأسباب ، أمّا العداوة فى الدين فواحدة على قلب رجل واحد .

ومن ذلك ما قلناه فى سورة النور عند قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَى الأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِن بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ .. (٦١) ﴾ [النور]

كلها بصيغة الجمع إلا فى ﴿ صَدِيقِكُمْ .. (٦١) ﴾ [النور] جاءت بصيغة المفرد ؛ لأن الصداقة الحقة هى ما كانت لله غير متعددة الأغراض ، فهى إذن لا تتعدد .

وفى إعلان إبراهيم لعداوته لهذه الأصنام تحدٍّ لهم : فها أنا ذا أعلن عداوتى لهم ، فإنْ كانوا يقدرون على مضرّتى فليفعلوا . وبعد أن أعلن إبراهيم ـ عليه السلام ـ عداوته للأصنام نجحت دعوته ، وظل إبراهيم هو إبراهيم لم يُصِبْه شىء .

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) ﴾

كأن الحق ـ تبارك وتعالى ـ يقول لهم : يا أغبياء ، اعلموا أن للعبادة أسباباً وحيثيات . ويوضح إبراهيم عليه السلام حيثيات عبادة ربه ـ عزَّ وجل ـ فيقول : ﴿ الَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) ﴾ [الشعراء] أى : خلقنى من عدم ، وأمدَّنى من عُدْم ، وجعل لى قانون صيانة يحفظ حياتى ، ويضمن سلامتى حين كلَّفنى بشرعه : افعل كذا ولا تفعل كذا ، وهو سبحانه لا ينتفع بشىء من هذا ، بل النفع يعود علينا نحن ، وهل فعلتْ الأصنام لكم شيئاً من هذا ؟ إذن : فهو وحده المستحق للعبادة .

وقوله سبحانه ﴿فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾﴾ [الشعراء] أى : بقانون الصيانة الذى يشبه (الكتالوج) الذى يجعله البشر لصناعاتهم ؛ ليضمنوا سلامتها وأداءها لمهمتها على أكمل وجه ، ولا بُدَّ أن يحدِّد لها المهمة قبل أنْ يَشرَع فى صناعتها ، وهل رأينا آلةً صنعها صاحبها ، ثم قال لنا : انظروا فى أىِّ شىء تستخدم هذه ، (بوتاجاز) أو ثلاجة مثلاً ؟

فإذا ما حدث خلل فى هذه الآلة ، فعليك بالنظر فى هذا (الكتالوج) أو أن تذهب بها إلى المهندس المختص بها ؛ لذلك إذا أردتَ أن تأخذ قانون صيانتك ، فلا تأخذه إلا من صانعك وخالقك ـ عز وجل ـ ولا يجوز أن يخلق الله تعالى وتضع أنت لخلْقة الله قانون صيانتها ، فهذا مثْل : أن تقول للجزار مثلاً : اعمل لى قانون صيانة (التليفزيون) .

ثم يذكر بعد ذلك مُقوِّمات استبقاء الحياة ، فيقول : ﴿وَالَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾﴾ [الشعراء]

ونقف هنا عند الضمير المنفصل (هو) الذى جاء للتوكيد ، والتوكيد لا يأتى ابتداءً ، إنما يكون على درجات الإنكار ، وقد أكّد الحق ـ تبارك وتعالى ـ نسبة الهداية والإطعام والسُّقْيا والشفاء إليه تعالى ؛ لأن هذه المسائل الأربع قد يدعيها غيره تعالى ، وقد يظن البعض أن الطبيب هو الشافى أو أن الأب مثلاً هو الرازق ؛ لأنه الجالب له والمناول .

والهداية قد يدّعيها واضعو القوانين من البشر ، وقد رأينا الشيوعية والرأسمالية والوجودية والبعثية وغيرها ، وكلها تدّعى أنها لصالح البشر ، وأنها طريق هدايتهم ؛ لذلك أكد الله تعالى لنفسه هذه المسألة ﴿الَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾﴾ [الشعراء] فالهداية لا تكون إلا من الله ، وفى شِرْعته تعالى .

وقد تسأل فى قوله تعالى : ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾﴾ [الشعراء] ولماذا نذهب إلى الطبيب إذن ؟ نقول : الطبيب يعالج ، وهو سبب للشفاء ، أمّا الشفاء فمن الله ، بدليل أن الطبيب ربما يمرض ، ويعجز هو عن شفاء نفسه ، وقد يعطى المريض حقنة ويكون فيها حَتْفه .

وحين نُعرب : ﴿مَرِضْتُ .. ﴿٨٠﴾﴾ [الشعراء] نقول : مرض فعل ماضٍ والتاء فاعل ، فهل أنا الذى فعلتُ المرض ؟ وهذا مثْل أن تقول : ماتَ فلان ، ففلان فاعل مع أنه لم يحدث الموت ؛ لذلك يجب أن نتنبه إلى أن الفاعل يعنى مَنْ فعل الفعل ، أو اتصف به ، والفاعل هنا لم يفعل الفعل وإنما اتصف به . وقال ﴿مَرِضْتُ .. ﴿٨٠﴾﴾ [الشعراء] تأدباً مع الله تعالى ، فلم يقل : أمرضنى ونسب المرض الظاهر إلى نفسه .

أما فى المسائل التى لا يدَّعيها أحد ، فتأتى بالفعل دون توكيد ، كما فى الآية بعدها :

﴿وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾﴾

فلم يقُلْ هنا : هو يميتنى أو هو يُحيينى ؛ لأن الحياة والموت بيده تعالى لا يدَّعيها أحد ، فإنْ قُلْتَ : وماذا عن قتْل الإنسان لغيره ألاَ يُعَدُّ موتاً ؟ وقد سبق أنْ أوضحنا الفرق بين الموت والقتل ، بدليل قوله تعالى : ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ .. ﴿١٤٤﴾﴾ [آل عمران]

فالموت أن تخرج الروح ، والجسم سليم الأجزاء كامل الأعضاء ، وبعد خروج الروح تُنقض البنية ، أما القتل فيكون بنقْض البنية نَقْضاً يترتب عليه خروج الروح .

إذن : الموت لم يدَّعه أحدٌ لنفسه ، ولما ادعاه النمرود جادله إبراهيم ـ عليه السلام ـ في ذلك ، وكشف زيف هذا الادعاء ، كما قال تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِى حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِى رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّىَ الَّذِى يُحْيِى وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِى وَأُمِيتُ .. (٢٥٨)﴾[البقرة]

ولم يفعل إلا أنْ جاء برجل فأمر بقتله ، ثم عفا عنه ؛ لذلك رأى إبراهيم عليه السلام أنْ يقطع عليه هذا الطريق ، فقال : ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِى بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِى كَفَرَ .. (٢٥٨)﴾ [البقرة]

وهكذا أنهى هذه السفسطة ، وكشف حقيقة هذا المكابر المعاند .

وتأمل حرف العطف ﴿يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١)﴾ [الشعراء] و(ثم) تفيد العطف مع التراخي ، ولم يقل : ويحيين ؛ لأن الواو تفيد مُطلَق العطف ، وبين الموت والإحياء الآخر مسافة طويلة ، ألا ترى قوله تعالى : ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ (٢١) ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ (٢٢)﴾ [عبس]

﴿وَالَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى(١) يَوْمَ الدِّينِ (٨٢)﴾

عجيب أن يصدر هذا الدعاء من إبراهيم ، وما أدراك ما إبراهيم ؟

إنه أبو الأنبياء الذى وصفه ربه بأنه أمة قانتاً لله ، ولم يكن من المشركين ، إبراهيم الذى ابتلاه ربه بكلمات فأتمهن ، ومع هذا كله

---

(١) قرأ الحسن وابن أبى إسحاق « خطاياى » وقال : ليست خطيئة واحدة . قال مجاهد : يعنى بخطيئته قوله ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَـٰذَا .. (٦٣)﴾ [الأنبياء] ، وقوله ﴿إِنِّى سَقِيمٌ (٨٩)﴾ [الصافات] وقوله : إن سارة أخته . زاد الحسن وقوله للكوكب ﴿هَـٰذَا رَبِّى .. (٧٧)﴾ [الأنعام] وقال الزجاج : الأنبياء بشر فيجوز أن تقع منهم الخطيئة ، نعم لا تجوز عليهم الكبائر لأنهم معصومون عنها . [تفسير القرطبى ٧/٤٩٩١] .

يقول : ﴿أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (٨٢)﴾ [الشعراء]

إنه أدب عَالٍ مع الله وهضم لعمله ؛ لأن الإنسان مهما قدَّم من الخير فهو دونَ ما يستحق الله تعالى من العبادة ؛ لذلك كان طلب المغفرة من الطمع .

ويجب أن ننظر هنا : متى دعا إبراهيم ربه ومتى تضرع إليه ؟ بعد أن ذكر حيثيات الألوهية ، واعترف لله بالنعم السابقة وأقرَّ بها ، فقد خلقه من عدم ، وأمدَّه من عُدْم ، ووفّر له كل مقومات الحياة .

وإقرار العبد بنعم الله عليه يقضى على كبرياء نفسه ، ويُصفِّى روحه وأجهزته ، فيصير أهلاً لمناجاة الله ، وأهلاً للدعاء ، فإن اعترفتَ لله بالنعم السابقة أجابك فيما تطلب من النعم اللاحقة ، على خلاف مَنْ لا يذكر لله نعمة ، ولا يقرّ له سبحانه بسابقة خير ، فكيف يقبل منه دعاء ؟ وبأىِّ وجه يطلب من الله المزيد ؟

إذن : لا تَدْعُ ربك إلا بعد صفاء نفس وإخلاص عبودية ؛ لذلك ورد فى حديث رسول الله ﷺ : « مَنْ عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم »[1] .

ويقول سبحانه : ﴿إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا .. (٢٩)﴾ [الأنفال] يقول لك ربك : أنت مأمون على ما علمتَ ، عامل به ، فخُذ المزيد من هدايتى ونورى وتوفيقى ، خُذ المزيد لما عندك من رصيد إيمانى وصفاء روحى ، جعلك أهلاً للمناجاة والدعاء .

فإبراهيم ـ عليه السلام ـ وهو أبو الأنبياء لم يجترىء على الدعاء

---

(١) أخرجه أبو نعيم فى حلية الأولياء (١٠/١٥) من حديث أنس رضى الله عنه ، ضعَّفه الشوكانى فى « الفوائد المجموعة » (ص ٢٨٦) .

بشىء آت إلا بعد أنْ ذكر لله النعم السابقة ، وشكره عليها ، فوافق قوله تعالى : ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ .. ﴿٧﴾﴾ [إبراهيم]

لذلك فإن أهل المعرفة يقولون : إن العبد مهما اجتهد فى الدعاء ، فإنه يدعو بالخير على حسْب فهمه ومنطقه وبمقدار علمه ولو أنه ذكر النعيم الأول لله تعالى ، وأقرّ له بالفضل ، ثم ترك المسألة له تعالى يعطيه ويختار له لكان خيراً له ؛ لأن ربه عز وجل يعطيه على حَسْب قدرته تعالى وحكمته .

وهذا المعنى واضح فى الحديث القدسى : « مَنْ شغله ذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين »[1] .

فعطاء الله لا شكَّ أوسع ، واختياره لعبده أفضل من اختيار العبد لنفسه ، كما لو ذهبتَ فى رحلة مثلاً وقلت لولدك : ماذا تريد أنْ أُحضر لك من البلد الفلانى ؟ فإنْ قال : أريد كذا وكذا فقد ضيّق على نفسه، وإنْ ترك لك الاختيار جاء اختيارك له خيراً من اختياره لنفسه .

﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾﴾

نلحظ أنه لم يدْعُ بشىء من الدنيا ، ومعنى ﴿حُكْمًا .. ﴿٨٣﴾﴾ [الشعراء] فرق بين الحكم والحكمة : الحكمة أن تضع الشىء فى موضعه ، أما الحكم فأنْ تعلم الخير أولاً ، ثم تعمل بما علمت ثانياً .

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه (٢٩٢٦) من حديث أبى سعيد الخدرى وقال : هذا حديث حسن غريب ، وكذا أخرجه أبو نعيم فى الحلية (١٠٦/٥) ، وكذا الدارمى فى سننه (٤٤١/٢) بلفظ « من شغله قراءة القرآن عن مسألتى وذكرى أعطيته أفضل ثواب السائلين ، وفضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه » قال ابن حجر فى فتح البارى (٦٦/٩) : « رجاله ثقات إلا عطية العوفى ففيه ضعف » . وقد شرح فضيلة الشيخ الشعراوى رحمه الله هذا الحديث مفصلاً فى كتاب « الأحاديث القدسية » (٤٩١/١ - ٥١٤) .

وقال فى دعائه : ﴿هَبْ لِي .. (٨٣)﴾ [الشعراء] لأن الهبة عطاء دون مقابل ، فكأنه قال : يا رب أنا لا أستحق ، فاجعلها لى هبةً من عندك ﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (٨٣)﴾ [الشعراء] أى : ألحقنى بهم فى العمل والأُسْوة لأنالَ بعدها الجزاء ، وليس المراد : ألحقنى بهم فى الجزاء ، إنما فى العمل .

وقد أجابه الله تعالى فى هذه الدعوة ، فقال سبحانه : ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ .. (٧٥)﴾ [الأنعام]

والملكوت : المخلوقات غير المحسّة ، أطلعه الله عليها ؛ لأنه عمل بما علم من الملك المحسّ ، وكذلك قال : ﴿وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٣٠)﴾ [البقرة] فأجابه فى الدعوة الأخرى .

﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ (٨٤)﴾

نعرف أن اللسان وسيلة التعبير ، ومعنى ﴿لِسَانَ صِدْقٍ .. (٨٤)﴾ [الشعراء] يعنى : ذكراً حسناً يذكر بحق ، ويذكر بصدق ، لا كما نفعل الآن حين نقيم ذكرى لأحد الأشخاص ، فنظل نكيل له المدائح ونُثنى عليه بالصِّدْق وبالكذب ، وبما فعل وبما لم يفعل ، فهذا ذكر ، لكنه ذكر غير صادق ومخالف للحقيقة وللواقع .

وسبق أن أوضحنا أن الصدق هو الكلام المطابق للواقع ، وقد ورد هذا المعنى فى الأمهات الخمس فى القرآن الكريم ، فى قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ .. (٨٠)﴾ [الإسراء]

يعنى : أدخلنى بصدق ـ لا بغشٍّ يعنى ـ مدخلاً أستطيع منه الخروج ، وكذلك أخرجنى مُخرج صدق .

وفى قوله تعالى : ﴿فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ (٥٥)﴾ [القمر]

وفى قوله تعالى : ﴿وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِى كَانُوا يُوعَدُونَ (١٦)﴾ [الأحقاف] هذه المواضع الخمس لكلمة الصدق[1] .

ومعنى : ﴿فِى الآخِرِينَ (٨٤)﴾ [الشعراء] يعنى : يتعدى الذِّكْر الحسن مدة حياتى إلى مَنْ بعدى ، فاجعل لى لسان صدق فى المعاصرين ، وفيمن يأتى بعدى أترك أثراً طيباً يُذكَر من بعدى ؛ لأن لى نصيباً من الخير والثواب فى كل مَن اقتدى بى ، وجعلنى أُسْوة .

وقد أجابه الله فى هذه ، فقال سبحانه : ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى الآخِرِينَ (١٠٨) سَلامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (١٠٩)﴾ [الصافات]

﴿وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ (٨٥)﴾

بعد أن دعا لأمر فى الدنيا ، ثم لأمر بعد موته دعا لنفسه بجنة النعيم الدائم فى الآخرة ، ولا شك أن ربه ـ عز وجل ـ قد أجابه إلى هذه ، فهو من ورثة جنة النعيم ، بدليل قوله تعالى : ﴿وَإِنَّهُ فِى الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٣٠)﴾ [البقرة]

---

(١) تحقيق الأمر أن كلمة الصدق وردت فى القرآن عشر مرات :
١ - لسان صدق : مرتان (مريم : ٥٠) ، (الشعراء : ٨٤) .
٢ - مدخل صدق : مرة واحدة (الإسراء : ٨٠) .
٣ - مخرج صدق : مرة واحدة (الإسراء : ٨٠)
٤ - وعد الصدق : مرة واحدة (الأحقاف : ١٦) .
٥ - مقعد صدق : مرة واحدة (القمر : ٥٥) .
وبالإضافة إلى هذا :
- قدم صدق : مرة واحدة (يونس : ٢) .
- مبوأ صدق : مرة واحدة (يونس : ٩٣) .
- الصدق : مرتان (الزمر : ٣٢) ، (الزمر : ٣٣) والله تعالى أعلى وأعلم .

وكلمة ميراث الجنة وردتْ فى القرآن أيضاً فى قوله تعالى :

﴿ أُوْلَـٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾ ﴾

[المؤمنون]

والميراث أنْ تأخذ ملكاً من آخر بعد موته ، فكيف تكون الجنة ميراثاً ؟

قال العلماء : إن الخالق ـ عز وجل ـ لم يخلق الجنة على قدر أهلها وكذلك النار ، إنما خلق الجنة تتسع للناس جميعاً ، إنْ آمنوا ، وخلق النار تتسع للناس جميعاً إنْ كفروا ؛ ذلك لأنه سبحانه خلق الخَلْق مختارين ، مَنْ شاء فليؤمن ، ومَنْ شاء فليكفر . وعليه ، فميراث الجنة يعنى أنْ يرث المؤمنون أماكن الذين كفروا فى الجنة ، يتقاسمونها فيما بينهم .

والوارث يرث مال غيره وثمرة سعيه ، لكن لا يسأل عنها ، إنما يأخذها طيبة حتى إنْ جمعها صاحبها من الحرام ، إلا إنْ أراد الوارث أن يبرىء ذمة المورِّث ، فيردّ المظالم إلى أهلها .

إذن : الوارث يأخذ الميراث دون مقابل فكأنه هبة ، وعلى هذا المعنى يكون المراد بميراث الجنة أن الله تعالى أعطى عباده الطائعين الجنة هبةً منه سبحانه ، وتفضّلاً عليهم ، وليس بعملهم ، فالجنة جاءتهم كما يأتى الميراث لأهله دون تعب منهم ودون سَعْى .

وهذا تصديق لقول رسول الله ﷺ فى الحديث النبوى : « لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا ، إلا أن يتغمدنى[1] الله برحمته »[2] .

---

(١) تغمَّده الله برحمته : أدخله فيها وغمره بها . قال أبو عبيد : قوله « يتغمدنى » : يُلبسنى ويتغشّانى ويسترنى . [لسان العرب ـ مادة : غمد] .

(٢) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٤٦٣) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٨١٦) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

قالوا : فالجنة ميراث ؛ لأن الأصل أنك لا تُجازَى على الخير الذى قدمته ؛ لأنه تكليف من الله تعالى يعود خيره عليك فى الدنيا ، حيث تستقيم به حياتك وتسعد بها ، وما دام التكليف فى صالحك ، فكيف تأخذ أجراً عليه ؟ كالوالد حين يحثّ ولده على المذاكرة والجد فى دروسه ، فهذا يعود نفعه على الولد ، لا على الوالد .

وكأن ربك - عز وجل - يقول لك : ما دُمْتَ قد احترمتَ تكليفى لك ، وأطعتنى فيما ينفعك أنت ، ولا يعود علىَّ منه شىء ، فحين أعطيك الجنة أعطيك بفضلى وهبَة منى ، أو أننا نأخذ الجنة بالعمل ، والمنازل بالفضل .

إذن : لا غِنَى لأحد منّا عن فَضْل الله .

لذلك يقول سبحانه : ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [يونس]

هذا هو المعنى المراد بميراث الجنة ، وينبغى ألاَّ تعوِّل على عملك وطاعتك واجتهادك فى العبادة ، واعلم أن النجاة لا تكون إلا برحمة الله وفضل منه سبحانه .

ثم ترك الدعاء لذاته وانتقل لمن رباه فقال :

﴿وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٨٦﴾﴾

لم ينْسَ إبراهيم - عليه السلام - فى دعائه أن يدعو لمن رباه ؛ لأن الحق - تبارك وتعالى - هو الخالق ، إنما جعل الوالدين هما السبب المباشر فى الخَلْق والإيجاد ؛ لذلك جعلهما أصحاب الفضل والأحق بالطاعة بعده تعالى ، لكن قد ينجب الوالدان ويهملان ولدهما فيربيه غيرهما ؛ لذلك يأخذ المنزلة الثالثة ، فعندنا ربوبية خَلَقَت من عدم ، وأبوة جاءت بأسباب الإيجاد ، وأبوة أخرى ربّت واعتنتْ .

وهذا المعنى واضح فى قوله سبحانه : ﴿وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً (٢٤)﴾ [الإسراء] فحيثية الدعاء بالرحمة هنا ، لا لأنهما أبوان وهما سبب الإيجاد ، إنما لأنهما ربَّيانى صغيراً ، إذن : لو ربّانى غير والدىَّ لأخذوا هذه المنزلة واستحقوا منى هذا الدعاء .

لكن لم يُستجَبْ لإبراهيم عليه السلام فى هذه ، لأنه سأل الله لأبيه قبل أن يعرف أنه عدو لله ، يقول تعالى : ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ .. (١١٤)﴾ [التوبة]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ (٨٧)﴾ (١)

بأىِّ شىء يكون الخزى فى الآخرة ؟ الخزى يكون حين يعاتبك ربك يوم القيامة على رؤوس الأشهاد على ما فَرَط منك من تقصير ؛ لذلك الحساب اليسير ما كان بين العبد وربه ، وقد أُجيب إبراهيم عليه السلام فى هذه الدعوة بقوله تعالى : ﴿وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٣٠)﴾ [البقرة]

﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩)﴾

---

(١) أخرج البخارى فى صحيحه والنسائى عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قترة وغبرة فيقول له إبراهيم : ألم أقل لك لا تعصينى ؟ فيقول أبوه : فاليوم لا أعصيك فيقول إبراهيم : رب إنك وعدتنى أن لا تخزينى يوم يبعثون ، فأىُّ خزى أخزى من أبى الأبعد ؟ فيقول الله : إنى حرمت الجنة على الكافرين . ثم يقال : يا إبراهيم ما تحت رجليك ؟ فإذا هو بذيخ متلطخ فيؤخذ بقوائمه فيلقى فى النار » . أورده السيوطى فى الدر المنثور (٦/٣٠٧) .

قوله : ﴿يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ (٨٨)﴾ [الشعراء] فأتى بالمسألة التى تشغل الناس جميعاً ، فكل إنسان يريد أن يكون غنياً صاحب مال وأولاد وعِزْوة ، ومَنْ حُرِم واحدة منهما حَزن وألم أشدّ الألم . .

والحق تبارك وتعالى يقول : ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. (٤٦)﴾ [الكهف]

ويقول سبحانه : ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ .. (١٤)﴾ [آل عمران]

نعم ، هى زينة الحياة الدنيا . ومعنى الزينة : الحُسْن غير الذاتى ، فالحُسْن قد يكون ذاتياً فى الجوهر كالمرأة التى تكون جميلة بطبيعتها التى خلقها الله عليها ، دون أنْ تتكلّف الجمال ، أو الزينة الظاهرة من مساحيق أو ذهب أو خلافه ، لذلك سمَّوْها فى اللغة (الغانية) وهى التى استغنتْ بجمالها الطبيعى الذاتى عن أنْ تتزيّن بأىِّ شىء آخر .

وقوله : ﴿إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩)﴾ [الشعراء] يعنى : مع أن المال والبنين زينة الحياة الدنيا ، فهذا لا يمنع نفعهما لصاحبهما إنْ أحسن التصرُّف فى ماله ، فأنفقه فى الخير ، وأحسن تربية أولاده التربية الصالحة ، لكن هذه أيضاً لا تصفو له ولا تستقيم إلا إذا ﴿أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩)﴾ [الشعراء]

يعنى : توفّر له الإخلاص فى هذا كله ، وإلاَّ فالرياء يُحبط العمل ، ويجعله هباءً منثوراً ، إنْ كنتَ تفعل الخير فى الدنيا ولا تؤمن بالله ولا تُنزهه سبحانه عن الشريك ، فلن ينفعك عملك ، ولن يكون لك منه نصيب فى ثواب الآخرة .

كما قال تعالى : ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا (٢٣)﴾ [الفرقان]

وفى الحديث القدسى : « ... فعلت ليقال وقد قيل ... »[(١)] .

فعلتَ ليُقام لك حفل تكريم وقد أقيم لك ، فعلتَ لتأخذ نيشاناً وقد أخذتَه ، فعلتَ ليُكتب اسمك على باب المسجد وقد كُتِب ، إذن : انتهت المسألة .

فقوله تعالى : ﴿يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ (٨٨)﴾ [الشعراء] لا ينفى نفع المال والبنين ، فهى نافعة شريطة أنْ تأتى اللهَ بقلب سليم ، والسلامة هنا تعنى : أن يظلّ الشىء على حاله وعلى صلاحه الذى خلقه الله عليه لا يصيبه عطب فى ذاته ، فيؤدى مهمته كما ينبغى .

فكأن السلامة تُوجد أولاً ، ونحن الذين نُفسِد هذه السلامة .

ومن ذلك قوله تعالى :

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَـكِن لاَّ يَشْعُرُونَ (١٢)﴾ [البقرة]

لذلك لو تأمّل الناس فيما يُتعبهم فى الحياة لوجدوا أنه ثمرة إفسادهم فى الكون المنظم الذى خلقه الله على مقتضى حكمته تعالى ، بدليل أن كل حركة فى الكون لا يتدخل فيها الإنسان تراها مُستقيمة منتظمة لا تتخلف ، فإنْ تدخَّل الإنسان وُجِد الفساد ووُجِد الظلم للغير ، حتى للنبات وللجماد وللحيوان ، وقد نهانا الشارع الحكيم عن هذا كله .

هذا إنْ تدخّل الإنسان فى الكون على غير مقتضى منهج ربه ، فإنْ تدخَّل على هَدْى من منهج الله استقامتْ الأمور وتحققتْ السلامة .

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٩٠٥) ، وأحمد فى مسنده (٢/٣٢٢) والترمذى فى سننه (٢٣٨٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه . قال الترمذى : حديث حسن غريب . وهو حديث طويل شرحه الشيخ رحمه الله فى « الأحاديث القدسية » (١/١٣٥ - ١٥١) .

ألا ترى قوله تعالى فى سورة الرحمن :

﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥) وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (٦) وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧) ﴾ [الرحمن]

لذلك تجد كل شىء فى الكون موزوناً بقدر وبحكمة : الشمس والقمر والنجوم والهواء والماء .. الخ وكل عناصر الكون هذه تسير مستقيمة فى منظومة الكون المتكاملة ، لماذا ؟ لأنه لا دَخْلَ للإنسان فيها .

فمعنى القلب السليم : القلب الذى لا يعمُر إلا بما أراد الله أنْ يعمُرَ به ، وقد ورد فى الحديث القدسى : « ما وسعتنى أرضى ولا سمائى ، ولكن وسعنى قلب عبدى المؤمن »[(١)] .

إذن : لا تزحم قلبك بما يَشْغَله من أمور الدنيا ، واجعله خالياً لله مُنْشغلاً به ، فهذه هى سلامة القلب ؛ لأن القلب مفطور على هذا ، مطبوع عليه .. ساعة خلقه الله خلقه صافياً سليماً من المشاغل ؛ لذلك يقول سبحانه : ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ .. (٧٨) ﴾ [النحل] لماذا ؟ ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨) ﴾ [النحل]

إذن : لا تأخذ المال والبنين منفصليْن عن سلامة القلب ؛ لأن ربك يقول : ﴿ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً (٤٦) ﴾ [الكهف]

---

(١) قال الملا على القارى فى « الأسرار المرفوعة فى الأخبار الموضوعة » (ص ٢٠٦) دار الكتب العلمية بيروت : « ذكره فى الإحياء ، وقال العراقى : لم أر له أصلاً . وقال ابن تيمية : هو مذكور فى الإسرائيليات وليس له إسناد معروف عن النبى ﷺ : وفى « الذيل » وهو كما قال . ومعناه : وسع قلبُه الإيمان بى وبمحبتى ، وإلا فالقول بالحلول كفر . وقال الزركشى : وضعه الملاحدة » . وانظر : كشف الخفاء ٢/٢٧٣ والدرر المنتثرة للسيوطى ص ٣٦٦ .

وفى آية : ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ .. (١٤)﴾ [آل عمران] ختمها الحق سبحانه بقوله : ﴿ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ(١٤)﴾ [آل عمران]

ومن سلامة القلب أن يخلو من الشرك ، وأن يخلو من النفاق ؛ لأن المنافق يؤمن بلسانه ، ولا يؤمن بقلبه ، فقلبه لا يوافق لسانه ؛ لذلك هو غير سليم القلب ، فكان أشد إثماً من الكافر ، وجعله الله فى الدَّرْك الأسفل من النار .

المنافق أشد تعذيباً من الكافر ؛ لأن الكافر مع كُفْره هو منطقىّ مع نفسه ، حيث كفر بقلبه وبلسانه ، ونطق بما يعتقده ، أما المنافق فقد غشَّنا وحُسب علينا ظاهراً ، ومنهم مَنْ كان يصلى خلف رسول الله ﷺ فى الصف الأول ، وهو فى حقيقة الأمر من الطابور الخامس داخل صفوف المسلمين .

وكذلك الرياء ينافى سلامة القلب ، فالمرائى يعمل للناس ولا يعمل لله ، ونعجب حين نرى مَنْ يُقدِّم الجميل رياءً وسُمْعة ، ثم يتهم مَنْ أسدى إليه الجميل بأنه ناكر للجميل ، نقول له : لماذا تتهمه وقد سبقته فأنكرتَ جميل الله ، حيث لم تجعله على بالك حين فعلتَ الخير .

إذن : فهذا جزاؤك جزاءً وفاقاً ، لأنك ما فعلتَ الخير لله ، إنما فعلته للعبد فانتظر منه الجزاء . وصَفْقَة المرائى خاسرة ، وتجارته بائرة ؛ لأنه حين يعطى رياءً يستفيد منه الآخذ ويخرج هو صُفْر اليدين ، كما قال سبحانه : ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا .. (٢٦٤)﴾ [البقرة]

وبعد ذلك ترى الناس تكره المرائى ، ويُنكرون جميله فى بناء مسجد أو مستشفى أو مدرسة مثلاً ، ولو عمل ذلك لله لأبقى الله

ذِكْره بين الناس ، فحفظوا جميله ، وأثنَوْا عليه بالخير .

ويُرْوى أن السيدة فاطمة الزهراء دخل عليها سيدنا رسول الله ﷺ فوجدها تجلو درهماً فى يدها ، فلما سألها عنه قالت : لأنّى قد نويتُ أنْ أتصدّق به ، فقال لها : تصدَّقى به وهو على حاله ، فقالت : أنا أعلم أنه يقع فى يد الله قبل أن يقع فى يد الفقير ، والله طيب لا يقبل إلا طيباً .

ثم يذكر الحق ـ تبارك وتعالى ـ نتيجة سلامة القلب وثمرة الإخلاص فى العمل ، فيقول :

﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ (٩٠)﴾

﴿أُزْلِفَتِ .. (٩٠)﴾ [الشعراء] يعنى : قرِّبت ، لكن كيف تقرب منهم وهم بداخلها ؟ قالوا : تُقرَّب منهم قبل أن يدخلوها ، وهم ما زالوا فى شدة الموقف وهول القيامة والحساب ، فتُقرَّب منهم الجنة ليطمئنوا بها ، ويهون عليهم هذا الموقف الصعب .

وفى آية أخرى : ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ (٣١)﴾ [ق] يعنى : يروْنها عياناً ، ويعرفون أنها النعيم الذى ينتظرهم ، وسوف يباشرونه عن قريب ، كما لو دُعيتَ إلى مائدة أحد العظماء ، وقد أُعدَّتْ على أتمِّ وجه ، فإن من النعيم أن تمر بها وتشاهد ما عليها من أطايب الطعام قبل أن يحين وقت الاجتماع عليه .

﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ (٩١)﴾

وهذه لمن أتى الله بقلب غير سليم ، قلب خالطه شرك أو نفاق أو رياء ، وفى آية أخرى يقول تعالى : ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا .. (٧١)﴾ [مريم]

والورود لا يعنى دخول النار ، إنما رؤيتها والمرور بها ؛ لأن الصراط مضروب على مَتْن جهنم ، فالورود شىء والدخول شىء آخر ، ومن ذلك قوله تعالى فى قصة موسى عليه السلام : ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ (٢٣)﴾ [القصص] مع أن موسى ـ عليه السلام ـ ورد الماء يعنى : مكان الماء ، ولم يشرب منه .

والحكمة من ورود النار بهذا المعنى أنْ يعرف المؤمن فَضْل الإيمان عليه ، وأنه سبب نجاته من هذه النار التى يراها ، وهذه أعظم نعمة عليه ؛ لذلك يقول سبحانه : ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ .. (١٨٥)﴾ [آل عمران]

ومعنى ﴿لِلْغَاوِينَ (٩١)﴾ [الشعراء] جمع غَاوٍ ، وهو إما أنْ يكون غاوياً فى نفسه ، أو أغوى غيره ، فتطلق على الغاوى ، وعلى الذى يُغوِى غيره .

﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٩٢) مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ (٩٣)﴾

قوله تعالى : ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٩٢)﴾ [الشعراء] أرونا مَنْ أشركتموهم مع الله ، أين هم الآن ؟

وفى موضع آخر : ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ (٢٣) وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ (٢٤) مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ (٢٥)﴾ [الصافات]

لقد ضلوا عنكم ، وتركوكم ، بل وتبرأوا منكم : ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ (١٦٦)﴾ [البقرة]

ثم يأتى الذين اتبعوا فيقولون : ﴿رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ

وَالإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الأَسْفَلِينَ (٢٩) ﴾ [فصلت]

نعم ، إنها معركة ؛ لأن الله تعالى قال : ﴿ الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ (٦٧) ﴾ [الزخرف]

وقوله تعالى : ﴿ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ (٩٣) ﴾ [الشعراء] يعنى : لا يستطيعون نصركم ، أو الدفاع عنكم ، ولا حتى نَصْر أنفسهم ، فإنْ كان نصرهم لأنفسهم ممنوعاً فلغيرهم من باب أَوْلَى ، ففى الآية تقريع لهم ولمن عبدوهم من دون الله ، وتحقير لشأنهم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ (٩٤) ﴾

الفعل كَبْكب ، يعنى : كبّوا مرة بعد أخرى على وجوههم ، فهى تعنى تكرار الكَبِّ ، فكلما قام كُبَّ على وجهه مرة أخرى ، وهى على وزن فعللة الدال على التكرار كما تقول : زقزقة العصافير ، ونقنقة الضفادع . والمراد هنا الأصنام تكبّ على وجوهها ، وتسبق مَنْ عبدها إلى النار ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ[1] جَهَنَّمَ .. (٩٨) ﴾ [الأنبياء]

وقال : ﴿ هُمْ وَالْغَاوُونَ (٩٤) ﴾ [الشعراء] فالغاوون يسبقون مَنْ أغْوَوْهم وأضلوهم ؛ ليقطع أمل التابعين لهم فى النجاة ، فلو دخل التابعون أولاً لقالوا : سيأتى منْ عبدناهم لينقذونا ، لكن يجدونهم أمامهم قد سبقوهم ، كما قال تعالى عن فرعون : ﴿ يَقْدُمُ[2] قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ .. (٩٨) ﴾ [هود]

---

(١) الحصب : كل ما يُلْقى فى النار لتسعّر به . [القاموس القويم ١/١٥٥] .

(٢) أى : يقودهم ويسير أمامهم إلى جهنم . [القاموس القويم ٢/١٠٥] .

﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾﴾

ولإبليس جنودٌ من الجن ، وجنود من الإنس ، سيجتمعون جميعاً فى النار .

﴿قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾

هذه لقطة من ساحة القيامة ، حيث يختصم أهل الضلال مع مَنْ أضلوهم ، ويُلْقِى كل منهم بالتبعة على الآخر .

وهذه الخصومة وردتْ فى قوله تعالى على لسان الشيطان : ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم .. ﴿٢٢﴾﴾ [إبراهيم] والمعنى : لم يكُنْ لى عليكم سلطانُ قَهْر أحملكم به على طاعتى ، ولا سلطان حجة أقنعكم به .

ثم يعترف أهل الضلال بضلالهم ويقسمون ﴿تَاللَّهِ .. ﴿٩٧﴾﴾ [الشعراء] يعنى : والله ﴿إِن كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾﴾ [الشعراء] يعنى : ظاهر ومحيط بنا من كل ناحية ، فأين كانت عقولنا ﴿إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الشعراء] أى : فى الحب ، وفى الطاعة ، وفى العبادة .

كما قال سبحانه : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ .. ﴿١٦٥﴾﴾ [البقرة]

﴿وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾﴾

يعنى : يا رب أرنا هؤلاء المجرمين ، ومكِّنا منهم لننتقم لأنفسنا ،

ونجعلهم تحت أقدامنا ، وهكذا أخرجوا كل سُمِّهم فى هؤلاء المجرمين ، وألقوا عليهم بتبعة ما هم فيه .

﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾

الشافع من الشَّفْع أى : الاثنين ، والشافع هو الذى يضمُّ صوته إلى صوتك فى أمر لا تستطيع أن تناله بذاتك ، فيتوسط لك عند مَنْ لديه هذا الأمر ، والشفاعة فى الآخرة لا تكون إلا لمن أذن الله له ، يقول تعالى : ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ .. ﴿٢٨﴾﴾ [الأنبياء]

ويقول سبحانه :

﴿مَن ذَا الَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ .. ﴿٢٥٥﴾﴾ [البقرة]

إذن : ليس كل أحد صالحاً للشفاعة مُعداً لها ، وكذلك فى الشفاعة فى الدنيا فلا يشفع لك إلا صاحب منزلة ومكانة ، وله عند الناس أيَاد تحملهم على احترامه وقبول وساطته ، فهى شفاعة مدفوعة الثمن ، فللشافع رصيد من الجميل وسوابق الخير تزيد عما يطلب للمشفوع له .

لذلك نرى فى الريف مثلاً رجلاً له جاه ومنزلة بين الناس ، فيحكم فى النزاعات ويفصل فى الدم ، فحين يتدخّل بين خصمين ترى الجميع ينصاع له ويذعن لحكومته .

ومن ذلك ما عرفناه فى الشرع من شركة الوجوه[1] ، ومعلوم أن

---

(١) قال موفق الدين ابن قدامة (ت ٦٣٠ هـ) فى كتابه « المغنى » (١٢٢/٥) : « أما شركة الوجوه فهو أن يشترك اثنان فيما يشتريان بجاههما وثقة التجار بهما من غير أن يكون لهما رأس مال ، على أن ما اشتريا بينهما نصفين أو أثلاثاً أو أرباعاً أو نحو ذلك ويبيعان ذلك ، فما قسم الله تعالى فهو بينهما فهى جائزة » .

الشركة تحتاج إلى مال أو عمل ، لكن قد يوجد شخص ليس لديه مال ولا يستطيع العمل ، لكن يتمتع بوجاهة ومنزلة بين الناس ، فنأخذه شريكاً معنا بما لديه من هذه الميزة .

والحقيقة أن وجاهته ومنزلته بين الناس قُوِّمت بالمال ؛ لأنه ما نالها من فراغ ، إنما جاءت نتيجة جَهْد وعمل ومجاملات للناس ، احترموه لأجلها ، فلما زال عنه المال وأنفقه فى الخير بَقِى له رصيد من الحب والمكانة بين الناس .. ومن ذلك أيضاً شراء العلامة التجارية .

ومعنى ﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ (١٠١)﴾ [الشعراء] فرْق بين الشافع والصديق ، فالشافع لا بُدَّ أن تطلب منه أن يشفع لك ، أما الصديق وخاصة الحميم لا ينتظر أن تطلب منه ، إنما يبادرك بالمساعدة ، ووصف الصديق بأنه حميم ؛ لأن الصداقة وحدها فى هذا الموقف لا تنفع حيث كل إنسان مشغول بنفسه .

فإذا لم تكُنْ الصداقة داخلة فى الحميمية ، فلن يسأل صديق عن صديقه ، كما قال تعالى : ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٣٧)﴾ [عبس]

وقد أثارت مسألة الشفاعة لغطاً كثيراً من المستشرقين الذين يريدون تصيّد المآخذ على القرآن الكريم ، فجاء أحدهم يقول : تقولون إن القرآن معجزة فى البلاغة ، ونحن نرى فيه المعنى الواحد يأتى فى أسلوبين ، فإنْ كان الأول بليغاً فالآخر غير بليغ ، وإنْ كان الثانى بليغاً فالأول غير بليغ ، ثم يقول عن مثل هذه الآيات : إنها تكرار لا فائدة منه .

ونقول له : أنت تنظر إلى المعنى فى إجماله ، وليس لديك الملكة العربية التى تستقبل بها كلام الله ، ولو كانت عندك هذه الملكة لما اتهمتَ القرآن ، فكل آية مما تظنه تكراراً إنما هى تأسيس فى مكانها لا تصلح إلا له .

والآيتان محل الكلام عن الشفاعة فى سورة البقرة ، وهما متفقتان فى الصدر مختلفتان فى العَجُز ، أحدهما :

﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا .. (٤٨) ﴾ [البقرة]

والأخرى :

﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا .. (١٢٣) ﴾ [البقرة]

إذن : فصدْر الآيتين متفق ، أما عَجُز الأولى : ﴿ وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ .. (٤٨) ﴾ [البقرة]

وعَجُز الأخرى : ﴿ وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ .. (١٢٣) ﴾ [البقرة] فهما مختلفتان .

وحين تتأمل صَدْرَىْ الآيتين الذى تظنه واحداً فى الآيتين تجد أنه مختلف أيضاً ، نعم هو مُتحد فى ظاهره ، لكن حين تتأمله تجد أن الضمير فيهما : إما يعود على الشافع ، وإما يعود على المشفوع له ، فإنْ عاد الضمير على المشفوع له نقول له : لا نأخذ منك عدلاً ، ولا تنفعك شفاعة ، وإنْ عاد الضمير على الشافع نقول له : لا نقبل منك شفاعة ـ ونُقدِّم الشفاعة أولاً ـ ولا نأخذ منك عدلاً .

إذن : ليس فى الآيتين تكرار كما تظنون ، فكلٌّ منهما يحمل معنى لا تؤديه الآية الأخرى .

وقد أوضحنا هذه المسألة أيضاً فى قوله تعالى : ﴿ وَلا تَقْتُلُوا

أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ .. (٣١) ﴾ [الإسراء]

والأخرى : ﴿ وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ .. (١٥١) ﴾ [الأنعام]

فصدْرا الآيتين مختلف ، وكذلك العَجُز مختلف ، فعَجُز الأولى : ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ..(٣١) ﴾ [الإسراء]

وعَجُز الأخرى : ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ..(١٥١) ﴾ [الأنعام]

وحين نتأمل الآيتين نجد أن لكل منهما معناها الخاص بها ، وليس فيهما تكرار كما يظن البعض .

ففى الآية الأولى : ﴿ وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ .. (٣١) ﴾ [الإسراء] إذن : فالفقر غير موجود ، والأب يخاف أن يأتى الفقر بسبب الأولاد ، فهو مشغول برزق الولد ، لا برزقه هو ؛ لأنه غنى غير محتاج ؛ لذلك قدَّم الأولاد فى عَجُز الآية ، كأنه يقول للأب : اطمئن فسوف نرزق هؤلاء الأولاد أولاً ، وسوف تُرزَق أنت أيضاً معهم .

أما فى الآية الأخرى : ﴿ وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ .. (١٥١) ﴾ [الأنعام] فالفقر فى هذه الحالة موجود فعلاً ، وشُغل الأب برزق نفسه أَوْلى من شغله برزق ولده ؛ لذلك قال فى عَجُز الآية : ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ .. (١٥١) ﴾ [الأنعام] فقدَّمهم على الأولاد .

إذن : لكل آية معناها الذى لا تؤديه عنها الآية الأخرى .

ثم يقول الحق سبحانه عنهم أنهم قالوا :

﴿ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٢) ﴾

معنى : ﴿ كَرَّةً .. (١٠٢) ﴾ [الشعراء] أى : عودة إلى الدنيا ورجعة ﴿ فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٢) ﴾ [الشعراء] أى : نستأنف حياة جديدة ،

فنؤمن بالله ونطيعه ، ونستقيم على منهجه ، ولا نقف هذا الموقف .

وفى آيات أخرى شرحت هذه المسألة ، يقول تعالى : ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٠٠)﴾ [المؤمنون]

يعنى ﴿كَلَّا .. (١٠٠)﴾ [المؤمنون] لن يعودوا مرة أخرى ، وما هى إلا كلمة يقولونها بألسنتهم يريدون النجاة بها ، لكن هيهات فبينهم وبين الدنيا برزخٌ يعزلهم عنها ، ويمنعهم العودة إليها ، وسوف يظل هذا البرزخ إلى يوم يُبعثون .

وفى آية أخرى حول هذا المعنى يُرقِّى الحق - تبارك وتعالى - المسألة من موقف الموت إلى موقف القيامة ، فيقول سبحانه : ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٧)﴾ [الأنعام]

وهذا كَذِب منهم وقَوْل باللسان لا يوافقه العمل ؛ لذلك ردَّ الحق - تبارك وتعالى - عليهم بقوله : ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٢٨)﴾ [الأنعام]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٠٣)﴾

الآية : هى الأمر العجيب الملفت للنظر ، وما كان ينبغى أنْ يمرَّ على العقول بدون تأمّل واعتبار ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٠٣)﴾ [الشعراء] رغم أن هذه الآيات ظاهرة واضحة ، ومع ذلك كان أكثرهم غير مؤمنين .

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾

أى : مع كونهم لم يؤمن أكثرهم ، فالله تعالى هو العزيز الذى لا يُغلَب ، إنما يغلِب ، ومع عِزّته تعالى فهو رحيم بعباده يفتح باب التوبة لمن تاب .

ثم ينتقل السياق القرآنى من قصة سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ إلى قصة أخرى من ركْب الأنبياء ومواكب الرسل هى قصة نوح عليه السلام :

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾﴾

القوم : هم الرجال خاصة ، وسُمُّوا قوماً ؛ لأنهم هم الذين يقومون بأهم الأشياء ، ويقابل القوم النساء ، كما جاء شرح هذا المعنى فى قوله سبحانه : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ . . ﴿١١﴾﴾ [الحجرات]

فالرجال هم القوم ؛ لأنهم يقومون بأهم الأمور ، وعليهم مدار حركة الحياة ، والنساء يستقبلْنَ ثمار هذه الحركة ، فينفقونها بأمانة ويُوجِّهونها التوجيه السليم .

والشاعر العربى أوضح هذا المعنى بقوله :

وَمَا أَدْرِى ولستُ إخَالُ أدْرِى أَقومٌ آلُ حِصْنٍ أَمْ نِسَاءُ[1]

ونفهم أيضاً هذه القوامة للرجل من قَوْل الله تعالى حينما وعظ

---

(١) هو قول زهير بن أبى سلمى ، شاعر جاهلى . قال ابن الأثير : القوم فى الأصل مصدر قام ثم غلب على الرجال دون النساء ، ولذلك قابلهن به ، وسموا بذلك لأنهم قوّامون على النساء بالأمور التى ليس للنساء أن يقمن بها . وقال الجوهرى : ربما دخل النساء فيه على سبيل التبع لأن قوم كل نبى رجال ونساء . [لسان العرب ـ مادة : قوم] .

آدم وحذَّره من الشيطان : ﴿إِنَّ هَـٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ .. (١١٧)﴾ [طه] وحسب القاعدة نقول : فتشقيا .

لكن الحق ـ تبارك وتعالى ـ يقول : ﴿فَتَشْقَىٰ (١١٧)﴾ [طه] أنت يا آدم وحدك فى حركة الحياة ، فالرجل يتحمل هذه المشقة ويكرم المرأة أن تُهَان أو تشقى ، لكن ماذا نفعل وهى تريد أن تُشقِى نفسها ؟!

ونلحظ أن الآية تقول : ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ (١٠٥)﴾ [الشعراء] كيف وهم ما كذّبوا إلا رسولهم نوحاً عليه السلام ؟ وكانوا مؤمنين قبله بآدم وإبراهيم مثلاً .

قالوا : لأن الرسل عن الله إنما جاءوا فى أصول ثابتة فى العقيدة وفى الأخلاق لا تتغير فى أى دين ؛ لذلك فمن كذَّب رسوله فكأنه كذَّب كل الرسل ، ألاَ ترى أن من أقوال المؤمنين أن يقولوا :

﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٨٤)﴾ [آل عمران]

وقال تعالى : ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ .. (٢٨٥)﴾ [البقرة]

فإنْ قُلْتَ : فماذا عن اختلاف المناهج والشرائع من نبى لآخر ؟ نقول : هذه اختلافات فى مسائل تقتضيها تطورات المجتمعات ، وهى فرعيات لا تتصل بأصل العقائد والأخلاق الكريمة .

لذلك نجد هذه لازمة فى كُلِّ مواكب الرسالات ، يقول : المرسلِين ، المرسلَين ؛ لأن الذى يُكذِّب رسوله فيما اتفق فيه الأجيال

من عقائد وأخلاق ، فكأنه كذّب جميع المرسلين .

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾﴾

وقوله تعالى : ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلا تَتَّقُونَ (١٠٦)﴾ [الشعراء] يريد أن يُحنِّن قلوبهم عليه بكلمة ﴿أَخُوهُمْ .. (١٠٦)﴾ [الشعراء] التى تعنى أنه منهم وقريب الصِّلة بهم ، ليس أجنبياً عنهم ، فهم يعرفون أصله ونشأته ، ويعلمون صفاته وأخلاقه .

لذلك لما بُعث النبى ﷺ وأبلغ الناس برسالته بادر إلى الإيمان به أقرب الناس إليه ، وهى السيدة خديجة دون أنْ تسمع منه آية واحدة ، وكذلك الصِّديق أبو بكر وغيرهما من المؤمنين الأوائل ، لماذا ؟

لأنهم بَنَوْا على تاريخه السابق ، واعتمدوا على سيرته فيهم قبل الرسالة ، فعلموا أن الذى لا يكذب على الناس مستحيل أن يكذب على رب الناس .

والسيدة خديجة رضوان الله عليها تعتبر أول فقيهة ، وأول عالمة أصول فى الإسلام ، حينما جاءها رسول الله ﷺ يشكو ما يعانى ، ويخشى أن يكون ما يأتيه من الوحى رئياً من الجن أو توهمات تفسد عليه عقله وتفكيره ، قالت له - انظر إلى العظمة - « والله إنك لتصل الرحم ، وتَقْرى الضيف ، وتحمل الكَلَّ ، وتُعين على نوائب الدهر ، والله لا يخزيك الله أبداً »[1] .

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٣) وستة مواضع أخرى من صحيحه ، وأخرجه أيضاً مسلم فى صحيحه (١٦٠) من حديث عائشة رضى الله عنها . ومعنى « تحمل الكل » أى : تعين المثقل ومنه الإنفاق على الضعيف واليتيم والعيال . و « تكسب المعدوم » أى : تستفيد المال المعدوم وقد كان النبى ﷺ محظوظاً فى تجارته . « تقرى الضيف » أى : تطعمه طعام الأضياف . و « نوائب الحق » حادثات الأيام . انظر : شرح النووى على مسلم (٢/٥٦١) وفتح البارى للعسقلانى (١/١٢٤) .

ولما علم الصِّدِّيق بحادثة الإسراء والمعراج بادر بالتصديق ، ولم يتردد ، ولما سُئل عن ذلك قال : إننا نصدقه فى الأمر يأتى من السماء فكيف لا نصدقه فى هذه ، فإنْ كان قال فقد صدق .

إذن : فمقياس الصدق لديه أن يقول رسول الله ؛ لذلك استحق الصِّديق هذا اللقب عن جدارة ، حتى إن رسول الله ﷺ ليقول فى حقه : « كنتُ أنا وأبو بكر فى الجاهلية كفرسى رهان - يعنى : فى خصال الخير - فسبقتُه إلى النبوة فاتبعنى ، ولو سبقنى لاتبعته » .

هذه كلها معانٍ نفهمها من قوله تعالى : ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ .. (١٠٦)﴾ [الشعراء]

وهذا معنى قوله تعالى : ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ .. (١٢٨)﴾ [التوبة] فهذه من حكمة الله فى الرسل ، وعجيب أن يقول أهل العناد من القوم : نريد ملكاً رسولاً ، وأن يقفوا من رسول الله موقف العداء ، وكان يجب عليهم على الأقل أن يُمكِّنوه من دعوته ، ويُمكِّنوا عقولهم من أنْ تفهم لا أن تدخل فى الأمر على هوى سابق .

فالذى يتعب الناس فى استقبال الحق أن تكون قلوبهم مشغولة بباطل ، والحق لا يجتمع مع الباطل ولا يضمهما محلٌّ واحد ؛ لذلك إذا أردت أن تبحث فى مسألة ، فعليك أنْ تُخرِج من قلبك الباطل أولاً ، ثم حكِّم عقلك فى الأمر ، واستفتِ قلبك فما سمح به فأدخله .

وهذه نراها حتى فى الماديات ، فالحيز الواحد لا يسع شيئين أبداً ، يقولون : عدم تداخل ، كما لو ملأت قارورة بالماء مثلاً ، فقبل أن يدخل الماء لا بُدَّ أنْ يخرج الهواء ، فنراه على شكل فقاعات .

لذلك يقول تعالى : ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَـٰوَاتُ وَالأَرْضُ .. (٧١)﴾ [المؤمنون]

ولك أن تلاحظ مثلاً زجاجة (الكولونيا) ذات الثُّقْب الضيق إذا وضعْتها فى الماء ، لا يمكن أن يدخلها الماء ، لماذا ؟ لأن ثقبها ضيق ، لا يسمح بخروج الهواء أو دخول الماء .

ولأمر ما سُمِّى الهوى من الهواء ، فكما أن الهواء الذى نُحسُّه لو أتى من ناحية واحدة لمبنى أو جبل مثلاً لانهدم إلى الناحية الأخرى ، لماذا ؟ لأن الهواء هو الذى يتولّى حفْظ توازن هذه المبانى العالية وناطحات السحاب التى نراها ، يحفظ توازنها حين يحيط بها من كل جهاتها ، فإنْ فرّغتَ الهواء من إحدى الجهات انهدم المبنى فى نفس هذه الجهة .

والهواء من القوى العظيمة التى يستخدمها الإنسان ويُحوِّلها إلى طاقة ، وانظر مثلاً إلى قوة تفريغ الهواء وما تُحدثه من هزة عنيفة ، أو إلى الحاويات والشاحنات العملاقة التى تسير على الهواء فى عجلاتها ، وكذلك الهوى إنْ كان فى الباطل كان قوياً ومدمراً ، ومن هذا المعنى سُمِّى السقوط هويّا ، تقول : هَوَى الشىء يعنى : سقط .

وقوله : ﴿أَلا تَتَّقُونَ (١٠٦)﴾ [الشعراء] هذه الكلمة جاءت على لسان كل الرسل أو يقولها الرسول أوَّلَ ما يبعث ، ومعناها : اتقوا الله و (ألاَ) أداة للحضِّ والحثِّ على الفعل . كما تقول للولد المهمل : ألاَ تذاكر أو هَلاَّ تذاكر .

وحين نحلل أسلوب الحضِّ أو الحثِّ نجد أنه يأتى على صورة التعجب من نفى الفعل ، كما تقول للولد الذى لا يصلى وتريد أن تحثَّه على الصلاة : ألا تصلى ؟ استفهام بالنفى وعندها يستحى الولد أن يقولها ، لكن حين تستفهم بالإثبات : أتصلى ؟ يقولها بفخر : نعم .

إذن : معنى الحثِّ : تعجُّب من ترْك الفعل وإنكار يحمل معنى الأمر .

فمعنى : ﴿أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [الشعراء] أُنكر عليكم ألاَّ تكونوا متقين ، والمراد : أطلب منكم أن تكونوا متقين ، وما دُمْت قد أنكرت النفى فلا بُدَّ أنك تريد الإثبات .

﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾﴾

وقوله تعالى : ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾﴾ [الشعراء] فإنْ كانت عندكم غفلة فقد رَحِم الله غفلتكم ، ونبّهكم برسول أمين يَعظكم ويعلّمكم ويُبلّغكم منهج الله ، وهو أمين لن يغشَّكم فى شىء حتى لا تقولوا : إنَّا كنَّا غافلين .

وما دُمْت أنا مرسلاً من الله إليكم ، وأميناً عليكم وعلى دعوتى ، فاسمعوا منى ؛ لذلك كرَّر الأمر بالتقوى :

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾﴾

وكأنه يتصالح معهم ، فيُخفف من أسلوب النُّصْح ، ويأتى بالأمر صريحاً بعد أن أتى به فى صورة إنكار ألاَّ يكونوا متقين . وثمرة التقوى طاعة الأوامر واجتناب النواهى ، وهذه لا نعرفها إلا من الرسول حامل المنهج ومُبلِّغ الدعوة والأمين عليها .

وقد ترددتْ هذه الآية على ألسنة كثير من رسل[1] الله : ﴿إِنِّي

---

(١) وردت هذه الآية ٦ مرات ، خمس منها فى سورة الشعراء : (آية ١٠٧ فى حق نوح) (آية ١٢٥ فى حق هود) ، (آية ١٤٣ فى حق صالح) ، (آية ١٦٢ فى حق لوط) ، (آية ١٧٨ فى حق شعيب) ، والآية السادسة فى سورة الدخان (آية ١٨ فى حق موسى) .

لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [الشعراء]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾

هذه العبارة ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ .. ﴿١٠٩﴾ ﴾ [الشعراء] لم نسمعها على لسان إبراهيم عليه السلام ، ولا على لسان موسى عليه السلام ، فأول مَنْ قالها نوح عليه السلام ، وكوْنك تقول لآخر : أنا لا أسألك أجْراً على هذا العمل ، فهذا يعنى أنك تستحق أجراً على هذا العمل ، وأنت غير زاهد فى الأجر ، إنما إنْ أخذته من المنتفع بعملك ، فسوف يُقوِّمه لك بمقاييسه البشرية ؛ لذلك من الأفضل أن تأخذ أجرك من الله .

فكأن نوحاً عليه السلام يقول : أنتم أيها البشر لا تستطيعون أن تُقوِّموا ما أقوم به من أجلكم ؛ لأننى جئتكم بمنهج هداية يُسعدكم فى الدنيا ، ويُنجيكم فى الآخرة ، وأنتم لن تُقوِّموا هذا العمل ، وأجرى فيه على الله ؛ لأنكم تُعطون على قَدْر إمكاناتكم وعلمكم .

وسبق أنْ حكيْنَا لكم قصة الرجل الذى قابلناه فى الجزائر ، وكان رجلاً تبدو عليه علامات الصلاح ، وقد أشار لنا لنقف بسيارتنا ونحمله معنا ، فلما توقفنا ليركب معنا مالَ إلى السائق ، وقال (على كم) يعنى : الأجرة فقال له الرجل ، وكان المحافظ : نُوصلك لله ، فقال (غلِّتها يا شيخ) . نعم ، إنْ كان الأجر على الله فهو غَالٍ .

وفى آية أخرى يقول تعالى : ﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الطور]

ثم يقول : ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٩)﴾ [الشعراء] إنْ هنا بمعنى ما النافية ؛ لأنه تعالى القادر على أن يُكافئنى على دعوتى ، فهو الذى أرسلنى بها ، وهو سبحانه رب العالمين الذى تبرع بالخَلْق من عدم ، وبالإمداد من عدم ، وخلق لى ولكم الأرزاق ، وهذا كله لصالحكم ؛ لأنه سبحانه لا ينتفع من هذا بشىء .

والربوبية تقتضى عناية ، وتقتضى نفقة وخلقاً وإمداداً ، فصاحب كل هذه الأفضال والنعم هو الذى يعطينى أجرى .

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١١٠)﴾

بعد أن بيَّن لهم كرم الربوبية فى مسألة الأجر على الدعوة وأعطاهم ما يشجعهم على التقوى وعلى الطاعة ؛ لأنهم سينتفعون برسالة الرسول دون أجر منهم . ومعنى ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١١٠)﴾ [الشعراء] أى : ليست لى طاعة ذاتية ، إنما أطيعونى ؛ لأنى رسول من قِبَل الله تعالى .

ثم يقول الحق سبحانه حاكياً ردَّهم على نوح عليه السلام :

﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ (١١١)﴾

الأَرْذَلُونَ : جمع أرذل ، وهو الردىء من الشىء . ورُذَال الفاكهة : المعطوب منها وما نسميه (نقاضة) والاستفهام هنا للتعجب : كيف نؤمن لك ونحن السادة ، والمؤمنون بك هم الأرذلون ؟

يقصدون الفقراء وأصحاب الحِرَف والذين لا يُؤْبَه بهم ، وهؤلاء عادة هم جنود الرسالة ؛ لأنهم هم المطحونون من المجتمع الفاسد ، وطبيعى أن يتلقفوا مَنْ يعدل ميزان المجتمع .

وفى آية أخرى : ﴿مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا .. (٢٧)﴾ [هود]

وقولهم : ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ .. (١١١)﴾ [الشعراء] دليل على عدم فهمهم لحقيقة الإيمان ؛ لأنه لم يقُلْ لهم : آمنوا بى ، إنما آمنوا بالله .

أو : أن المعنى ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ .. (١١١)﴾ [الشعراء] أى : نُصدِّقك فمن معانى آمن أى : صدَّق ، كما فى قوله تعالى : ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ .. (٨٣)﴾ [يونس] أى : صَدَّق به ، وآمن تكون بمعنى صَدَّق إذا جاءت بعدها اللام ، فإنْ جاء بعدها الباء فهى بمعنى الإيمان[1] .

﴿قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ[2] (١١٢) إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ (١١٣)﴾

يعنى : ما دام الحساب على ربى وهم يريدون الإيمان ، فلا بُدَّ أنْ يأخذوا جزاءهم وافياً ﴿لَوْ تَشْعُرُونَ[3] (١١٣)﴾ [الشعراء]

---

(١) قال تعالى ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (٣٣)﴾ [الزمر] وقال : ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ (٦)﴾ [الليل] .

(٢) أى : لم أُكلَّف العلم بأعمالهم ، إنما كُلِّفت أن أدعوهم إلى الإيمان ، والاعتبار بالإيمان لا بالحرف والصنائع ، وكأنهم قالوا : إنما اتبعك هؤلاء الضعفاء طمعاً فى العزة والمال ، فقال : إنى لم أقف على باطن أمرهم وإنما إلىَّ ظاهرهم . [تفسير القرطبى ٧/٥٠٠٠] .

(٣) قال القرطبى فى تفسيره (٧/٥٠٠٠) : « قراءة العامة « تشعرون » بالتاء على المخاطبة للكافر وهو الظاهر . وقرأ ابن أبى عبلة ومحمد بن السميقع « لو يشعرون » بالياء كأنه خبر عن الكفار وترك الخطاب لهم » .

﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾﴾

وقد طلبوا منه أن يطرد هؤلاء المؤمنين من مجلسه ليُجلسهم هم ، وفى آية أخرى قال سبحانه لنبيه محمد ﷺ : ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [الأنعام]

﴿إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾﴾

فمَنْ يسمع إنذارى ، ويسمع بشارتى ، ويأتى مجلسى ، فعلى عينى أرافقه . فالله ما أرسلنى لأخص ذوى الغنى دون الفقراء بمجلسى ، إنما أرسلنى لأبلغكم ما أرسلت به ، فمن أطاعنى فذلك السعيد عند الله ، وإن كان فقيراً .

﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾﴾ (١)

وهكذا أعلنوا الحرب على نبى الله نوح ، يقولون : لا فائدةَ من تحذيرك ، وما زِلْتَ مُصِراً على دعوتك ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ .. ﴿١١٦﴾﴾ [الشعراء] عما تدعيه من الرسالة ، وما تقول به من تقوى الله وطاعته ، وما تفعله من تقريب الأرذلين إلى مجلسك ، لتكوِّن جمهوراً من صغار الناس .

---

(١) الرجم : القتل . وأصله الرمى بالحجارة . والرجم : اللعن والشتم والسب . [لسان العرب ـ مادة : رجم] . قال الثمالى : كل مرجومين فى القرآن فهو القتل إلا فى سورة مريم ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ .. ﴿٤٦﴾﴾ [مريم] أى : لأسبنك . وقيل : (من المرجومين) من المشتومين قاله السدى . [تفسير القرطبى ٧/٥٠٠١] .

﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ (١١٦)﴾ [الشعراء] أى : إذا لم تنته فسوف نرجمك ، إنه تهديد صريح للرسول الذى جاءهم من عند الله يدعوهم إلى الخير فى الدنيا والآخرة .

كما قال سبحانه : ﴿يَـأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ .. (٢٤)﴾ [الأنفال]

وهذا التهديد منهم لرسول الله يدلُّ على أنهم كانوا أقوياء ، وأصحابَ جاه وبطْشٍ .

﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ (١١٧) فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١١٨)﴾

تأمل هنا أدب نوح ـ عليه السلام ـ حين يشكو قومه إلى الله ويرفع إليه ما حدث منهم ، كل ما قاله ﴿إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ (١١٧)﴾ [الشعراء] ولم يذكر شيئاً عن التهديد له بالرجم ، وإعلان الحرب على دعوته ، لماذا ؟ لأن ما يهمه فى المقام الأول أن يُصدِّقه قومه ، فهذا هو الأصل فى دعوته .

وقوله : ﴿فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا .. (١١٨)﴾ [الشعراء] الفتح فى الشىء إما : حسياً وإما معنوياً ، فمثلاً الباب المغلَق بقُفْل نقول : نفتح الباب : أى نزيل أغلاقه .

فإنْ كان الشىء مربوطاً نزيل الأشكال ونفكّ الأربطة .

ومن ذلك قوله تعالى فى قصة يوسف : ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ .. (٦٥)﴾ [يوسف] أى : أزالوا الرباط عن متاعهم ، هذا هو الفتح الحسِّىّ .

أما الفتح المعنوى فنُزيل الأغلاق والأشكال المعنوية ليأتى الخير وتأتى البركة ، كما فى قوله سبحانه : ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ .. (٩٦)﴾ [الأعراف]

وفى آية أخرى : ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ .. (٢)﴾ [فاطر]

والخير الذى يفتح الله به على الناس قد يكون خيراً مادياً ، وقد يكون علْماً ، كما فى قوله تعالى : ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ .. (٧٦)﴾ [البقرة]

أى : من العلم فى التوراة ، يخافون أن يأخذه المؤمنون ، ويجعلوه حجة على أهل التوراة إذا ما كان لهم الفتح والغَلَبة ، فمعنى : ﴿بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ .. (٧٦)﴾ [البقرة] أى : بما علَّمكم من علم لم يعلموه هم .

وقد يكون الفتح بمعنى الحكم ، مثل قوله سبحانه : ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ (٨٩)﴾ [الأعراف]

ويكون الفتح بمعنى النصر ، كما فى قوله تعالى : ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١)﴾ [النصر]

ثم يقول نوح عليه السلام : ﴿وَنَجِّنِي .. (١١٨)﴾ [الشعراء] من كيدهم وما يُهدِّدوننى به من الرَّجْم ﴿وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١١٨)﴾ [الشعراء] لأن الإيذاء قد يتعدّاه إلى المؤمنين معه ، وتأتى الإجابة سريعة :

﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١١٩)﴾

وقد وردتْ قصة السفينة فى الأعراف ، وفى هود ، ولنوح عليه السلام سورة خاصة هى سورة نوح مثل سورة محمد ؛ ذلك لأن له فى تاريخ الرسالات ألف سنة إلا خمسين عاماً ، ويستحق أنْ يخصَّه الله تعالى بسورة باسمه .

لذلك عندما يكرر أحد الناس لك الكلام ، ويُعيده عليك ، تقول له (هيَّه سورة) ، فكلام العامة والأُميين له أَصْلٌ من استعمال اللغة .

وفى موضع آخر ذكر الحق ـ تبارك وتعالى ـ قصة صُنْع السفينة فى قوله تعالى : ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ.. (٣٨)﴾ [هود] وهذا دليل على أنها كانت أول سفينة يصنعها الإنسان ، وقد صنع نوح سفينته بأمر الله ووحيه وتحت عينه تعالى ، وفى رعايته : ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا .. (٣٧)﴾ [هود]

وما كان الله تعالى ليُكلِّفه بصُنْع السفينة ثم يتركه ، إنما تابعه ، حتى إذا ما حدث خطأ نبَّهه إليه من البداية ، كما قال تعالى لسيدنا موسى : ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي (٣٩)﴾ [طه]

وبمثل هذه الآيات نردُّ على الذين يقولون : إن الله تعالى زاول سلطانه فى مُلْكه مرة واحدة فخلق الخَلْق ، ثم ترك القوانين تسيره ، ولو كان الأمر كذلك لوجدنا العالم كله يسير بحركة (ميكانيكية) ، لكن ظواهر الكون وما فيه من معجزات تدلُّ على قيوميته تعالى على خَلْقه.

لذلك يقول لهم : ناموا ملء جفونكم ، فإن لكم ربّاً لا ينام ، كيف لا وأنت إذا استأجرتَ حارساً لمنزلك مثلاً تنام مطمئناً اعتماداً على أنه يَقظ ؟ وكيف إذا حرسك ربُّك عز وجل الذى لا تأخذه سِنَة ولا نَوْمٌ ؟ وأَلاَ يدلُّ ذلك على قيوميته تعَالى ؟

هذه القيومية التى تنقضُ العزائم ، وتفسَخ القوانين ، قيومية تقول للنار كونى برداً وسلاماً فتكون ، وتقول للماء : تجمَّد حتى تكون جبلاً فيتجمد ، تقول للحجر : انفلق فينفلق .. ولو كان الأمر (ميكانيكياً) كما يقولون لما حدث هذا ، ولما تخلَّف قانون واحد من قوانين الكون .

والمشحون : الذى امتلأ ، ولم يَبْقَ به مكان خَال ، فكانت السفينة مشحونة بما حمل فيها ، لأنها صُنعَتْ بحساب دقيق ، لا يتسع إلا لمن كُلِّف نوح بحملهم فى سفينته ، وكانوا ثمانين رجلاً وثمانين امرأة[1] ومن كل حيوان زوجين اثنين .

والفلك المشحون يُطلَق ويُراد به الواحدة ، ويُطلَق ويراد به الجماعة كما فى قوله سبحانه : ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم..(٢٢)﴾ [يونس]

﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ (١٢٠)﴾

وهم الكافرون الذين لم يركبوا معه ، و ﴿بَعْدُ .. (١٢٠)﴾ [الشعراء] أى : بعد ما ركب من ركب ، وبعد ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ (١١) وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (١٢)﴾ [القمر]

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٢١)﴾

والآية : الأمر العجيب الذى يجب الالتفات إليه والاعتبار به ، لكن مَنْ سيعتبر بعد أنْ غرق الباقون ؟ سيعتبر بهذه الآية المؤمنون الذين ركبوا السفينة حين يروْنَ نتيجة التكذيب ، ومصير المكذِّبين الكافرين .

---

(١) عن ابن عباس : كانوا ثمانين نفساً منهم نساؤهم . وعن كعب الأحبار : كانوا اثنين وسبعين نفساً . وقيل : كانوا عشرة . [قاله ابن كثير فى تفسيره ٢/٤٤٥] .

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾﴾

أى : ورغم كُفْرهم وتكذيبهم ، ورغم أنه ما كان أكثرهم مؤمنين ، فالله تعالى هو العزيز الذى يَغْلب ولا يُغْلَب ، وهو سبحانه الرحيم بعباده الذى يتوب على مَنْ تاب منهم .

ثم ينتقل السياق إلى قصة أخرى فى موكب الأمم المكذِّبة :

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾﴾

وقال هنا أيضاً ﴿الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [الشعراء] لأن تكذيب رسول واحد تكذيبٌ لكل الرسل ؛ لأنهم جميعاً جاءوا بقواعد وأصول واحدة فى العقائد وفى الأخلاق .

وعاد : اسم للقبيلة ، وكانت القبائل تُنسَب إلى الأب الأكبر فيها ، ولصاحب الشهرة والنباهة بين قومه ، فعاد هو أبو هذه القبيلة ، وقد يُطلَق عليهم بنو فلان أو آل فلان ، ثم يذكر لنا قصتهم ، ومتى كان منهم هذا التكذيب :

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾﴾

قلنا : إن (ألاَ) للحثِّ والحضِّ ، وحين يُنكِّر النفى ﴿أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ [الشعراء] فإنه يريد الإثبات فكأنه قال : اتقوا . وقال ﴿أَخُوهُمْ .. ﴿١٢٤﴾﴾ [الشعراء] ليرقق قلوبهم ويُحنِّنهم إليه ، وليعرفوا أنه واحد منهم ليس غريباً عنهم ، فهو أخوهم ، والأخ من دأبه النُّصْح والشفقة والرحمة ، وهذا إيناس للخَلْق .

﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾﴾

وهذه المقولة لازمة من لوازم الرسُل فى دعوتهم ، سبق أنْ قالها نوح عليه السلام .

﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾﴾

قلنا : إن هذه العبارة أول مَنْ قالها نوح ـ عليه السلام ـ ثم سيقولها الأنبياء من بعده . لكن : لماذا لم يقل هذه العبارة إبراهيم ؟ ولم يقُلْها موسى ؟

قالوا : لأن إبراهيم ـ عليه السلام ـ أول ما دعا دعا عمه آزر ، فكيف يطلب منه أجْراً ؟ وكذلك موسى ـ عليه السلام ـ أول دعوته دعا فرعون الذى ربَّاه فى بيته ، وله عليه فضل وجميل ، فكيف يطلب منه أجراً ، وقد قال له : ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾﴾ [الشعراء]

لذلك لم تأت هذه المقولة على لسان أحد منهما .

وقال : ﴿إِنْ أَجْرِىَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٧﴾﴾ [الشعراء] لأن الربَّ هو الذى يتولَّى الخَلْق بالبذْل والعطايا والإمداد . وقلنا : إن عدم أخذ الأجر ليس زُهْداً فيه ، إنما طمعاً فى أنْ يأخذ أجره من الله ، لا من الناس .

ثم يتوجّه إليهم ليُصحِّح بعض المسائل الخاصة بهم :

﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾﴾

وهذه خصوصية من خصوصيات قوم هود ، والرِّيع : هو المكان المرتفع ، لذلك بعض الناس يقولون : كم رِيع بنائك ؟ يعنى : ارتفاعه

كم متراً ، فكأن الارتفاع يُثمِّن البقعة ، ويُطلق الريع على الارتفاع فى كل شىء[١] .

وكلمة ﴿آيَةً .. (١٢٨)﴾ [الشعراء] بعد ﴿أَتَبْنُونَ .. (١٢٨)﴾ [الشعراء] تعنى : القصور العالية التى تعتبر آيةً فى الإبداع وجمال العمارة والزخرفة والفخامة والاتساع والرِّفْعة فى العُلُو .

وقال ﴿تَعْبَثُونَ (١٢٨)﴾ [الشعراء] لأنهم لن يخلُدوا فى هذه القصور ، ومع ذلك يُشيِّدونها لتبقى أجيالاً من بعدهم ، فعدّ هذا عبثاً منهم ؛ لأن الإنسان يكفيه أقلّ بناء ليأويه فترة حياته .

أو ﴿تَعْبَثُونَ (١٢٨)﴾ [الشعراء] لأنهم كانوا يجلسون فى شُرفات هذه القصور يصدُّون الناس ، ويصرفونهم عن هود وسماع كلامه ودعوته التى تَلْفِتهم إلى منهج الحق .

ونحن لم نَرَ حضارة عاد ، ولم نَرَ آثارهم ، كما رأينا مثلاً آثار الفراعنة فى مصر ؛ لأن حضارة عاد طمرتْها الرمال ، وكانوا بالجزيرة العربية فى منطقة تُسمَّى الآن بالرَّبْع الخالى ؛ لأنها منطقة من الرمال الناعمة التى يصعب السير أو المعيشة بها ، لكن لكى نعرف هذه الحضارة نقرأ قوله تعالى فى سورة الفجر :

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى الْبِلادِ (٨)﴾ [الفجر]

---

(١) فى كلمة الريع أقوال :

- ما ارتفع من الأرض فى قول ابن عباس وغيره .
- الريع : الطريق ، قاله قتادة والضحاك والكلبى ومقاتل والسدى ، وابن عباس أيضاً .
- الريع : الفج بين الجبلين . قاله مجاهد .
- الريع : بنيان الحمام ، دليله « تعبثون » أى : تلعبون ، أى : تبنون بكل مكان مرتفع آية علماً تلعبون بها على معنى أبنية الحمام وبروجها . [تفسير القرطبى ٥٠٠٢/٧ ، ٥٠٠٣] .

وما دامت لم يُخلَق مثلها فى البلاد ، فهى أعظم من حضارة الفراعنة التى نشاهدها الآن ، ويفد إليها الناس من كل أنحاء العالم ليشاهدوا الأهرام مثلاً ، وقد بنيت لتكون مجرد مقابر ، ومع تقدُّم العلم فى عصر الحضارة والتكنولوجيا ، ما زال هذا البناء مُحيِّراً للعلماء ، لم يستطيعوا حتى الآن معرفةَ الكثير من أسراره .

ومن هذه الأسرار التى اهتدَوْا إليها حديثاً كيفية بناء أحجار الأهرام دون ملاط[1] مع ضخامتها ، وقد توصَّلوا إلى أنها بُنيَتْ بطريقة تفريغ الهواء مما بين الأحجار ، وهذه النظرية تستطيع ملاحظتها حين تضع كوباً مُبلّلاً بالماء على المنضدة مثلاً ، ثم تتركه فترةً حتى يتبخر الماء من تحته ، فإذا أردتَ أن ترفعه من مكانه تجده قد لصق بالمنضدة .

وليس عجيباً أنْ تختفى حضارةٌ ، كانت أعظم حضارات الدنيا تحت طبقات الرمال ، فالرمال حين تثور تبتلع كل ما أمامها ، حتى إنها طمرتْ قبيلة كاملة بجمالها ورجالها ، وهذه هبة واحدة ، فما بالك بثورة الرمال ، وما تسفوه الريح طوال آلاف السنين ؟

وأنا واثق من أنهم إذا ما نبشوا هذه الرمال وأزاحوها لوجدوا تحتها أرضاً خصبة وآثاراً عظيمة ، كما نرى الاكتشافات الأثرية الآن كلها تحت الأرض ، وفى فيينا أثناء حفر أحد خطوط المجارى هناك وجدوا آثاراً لقصور ملوك سابقين .

وطالما أن الله تعالى قال عن عاد : ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ(١٢٨)﴾ [الشعراء] فلا بُدَّ أن هناك قصوراً ومبانىَ مطمورة تحت هذه الرمال .

---

(١) ملط الحائط : طلاه . والملاط : الطين الذى يُجعل بين سافَى البناء ويُملط به الحائط . [لسان العرب ـ مادة : ملط] .

﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾﴾

المصانع تُطلَق على موارد الماء ، وتطلق على الحصون ، لماذا ؟

قالوا : لأن الحصون لا تُبنَى للإيواء فقط ؛ لأن الإيواء يمنع الإنسان من هوام الحياة العادية ، أمّا الحصون فتمنعه أيضاً من الأعداء الشرسين الذين يتربصون به ، فكأنهم جعلوها صنعة مثمرة ، لماذا ؟

﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ [الشعراء] يعنى : أتبنون هذه الحصون هذا البناء القوى المسلح تريدون الخلود ؟ وهل أنتم مُخلَّدون فى الحياة ؟ إن فترة مُكْث الإنسان فى الدنيا يسيرة لا تحتاج كل هذا التحصين ، فهى كظلِّ شجرة ، سرعان ما يزول .

﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾﴾

والبَطْش : الأخْذُ بشدة وبعنف ، يقول تعالى : ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾﴾ [البروج] ويقول : ﴿أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾﴾ [القمر]

لأن الأَخْذ يأخذ صُوراً متعددة : تأخذه بلين وبعطف وشفقة ، أو تأخذه بعنف .

ثم يزيدهم صفة أخرى تؤكد بَطْشهم ﴿بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ [الشعراء]

لأنك قد تأخذ عدوك بعنف ، لكن بعد ذلك يرقُّ له قلبك ، فترحم ذِلَّته لك ، فتُهوِّن عليه وترحمه ، لكن هؤلاء جبارون لا ترقّ قلوبهم .

وهذه الصفات الثلاثة السابقة لقوم هود : ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ [الشعراء]

هذه الصفات تخدم صفة التعالى ، وتسعى إلى الوصول إليه وكأنهم يريدون صفة العُلُو التى تُقرِّبهم من الألوهية ؛ لأنه لا أحدَ أعلى من الحق سبحانه ، ثم يريدون أيضاً استدامة هذه الصفة واستبقاء الألوهية : ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩)﴾ [الشعراء]

وفى صفة البَطش الشديد والجبارية يريدون التفرُّد على الغير ، والقرآن يقول : ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى الأَرْضِ وَلا فَسَادًا .. (٨٣)﴾ [القصص]

فإنْ كنتَ تريد أداء الخدمة المنوطة بك فى الحياة ، فعليك أنْ تؤديها ، لا للتّعالى ؛ لأنك حينئذ ستأخذ حظك من العُلُو والغَلَبة فى دار الدنيا وتنتهى المسألة ، أمّا إنْ فعلتَ وفى بالك ربُّك ، وفى بالك أنْ تُيسِّر للناس مصالح الحياة ، فإنك تُرقِّى عملك وتُثمِّره ، ويظل لك أجره ، طالما وجد العمل ينتفع الناس به إلى أنْ تقوم الساعة ، وهذا أعظم تصعيد لعمل الإنسان .

ولم يفعل قوم عاد شيئاً من هذا ، إنما طلبوا العُلُو فى الأرض ، وبطشوا فيها جبارين ، لكن أيتركهم ربهم عز وجل يستمرون على هذه الحال ؟

إن من رحمة الله تعالى بعباده أنْ يُذكِّرهم كلما نَسُوا ، ويُوقظهم كلما غفلوا ، فيرسل لهم الرسل المتوالين ؛ لأن الناس كثيراً ما تغفل عن العهد القديم الذى أخذوه على أنفسهم : ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣)﴾ [الأعراف]

وقلنا : إن الحق ـ تبارك وتعالى ـ يضع المناعة فى خليفته فى

الأرض ، ويعطيه المنهج الذى يصلحه ، لكنه قد يغفل عن هذا المنهج أو تغلبه نفسه ، فينحرف عنه ، والإنسان بطبيعته يحمل مناعةً من الحق ضد الباطل وضد الشر ، فإنْ فسدَتْ فيه هذه المناعة فعلى الآخر أن يُذكِّره ويُوقظ فيه دواعي الخير . ومن هنا كان قوله تعالى : ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣) ﴾ [العصر]

فإنْ وجدتَ أخاك على باطل فخُذْ بيده إلى الحق .

ومعنى ﴿ وَتَوَاصَوْا .. (٣) ﴾ [العصر] أى : تبادلوا التوصية ، فكل منكم عُرْضة للغفلة ، وعُرْضة للانحراف عن المنهج ، فإنْ غفلتُ أنا توصينى ، وإنْ غفلتَ أنت أوصيك ، وهذه المناعة ليست فى الذات الآن ، إنما فى المجتمع المؤمن ، فمنْ رأى فيه اعوجاجاً قوَّمه .

لكن ما الحال إنْ فسدت المناعة فى الفرد وفسدَتْ فى المجتمع ، فصار الناس لا يعرفون معروفاً ، ولا يُنكِرون منكراً ، كما قال تعالى عن بنى إسرائيل :

﴿ كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ .. (٧٩) ﴾ [المائدة]

وعندها لا بد أن يرسل رب العزة سبحانه برسول جديد ، ومعجزة جديدة تُوقِظ الناس ، وتعيدهم إلى جادة ربهم .

ومن شرف أمة محمد ﷺ أن الله تعالى جعل المناعة فى ذات نفوسها ، فجعلهم الله توابين ، إنْ فعل أحدهم الذنب تاب ورجع ، وإنْ لم يرجع وتمادى رَدَّه المجتمع الإيمانى وذكَّره .

وهذه الصفة ملازمة لهذه الأمة إلى قيام الساعة ، كما ورد فى الحديث : « الخير فىَّ وفى أمتى إلى يوم القيامة »[1] .

---

(١) قال العجلونى فى كشف الخفاء (١/٤٧٦) : « قال (السخاوى) فى المقاصد (الحسنة) : قال شيخنا (ابن حجر العسقلانى) : لا أعرفه ، ولكن معناه صحيح . يعنى فى حديث : لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق إلى أن تقوم الساعة . وقال ابن حجر المكى فى الفتاوى الحديثية : لم يرد بهذا اللفظ » .

لذلك لن يأتى فيها رسول بعد رسول الله ﷺ ؛ لأن المناعة ملازمة لها فى الذات ، وفى النفس اللوامة ، وفى المجتمع الإيمانى الذى لا يُعدم فيه الخير أبداً .

لذلك يقول سبحانه : ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ .. (١١٠)﴾ [آل عمران]

وهذه صفة تفردتْ بها هذه الأمة عن باقى الأمم ؛ لذلك يقول هود ـ عليه السلام ـ مُذكّراً لقومه ومُوقظاً لهم :

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٣١)﴾

أى : أن ربكم ـ عز وجل ـ لم يتركك على ما أنتم عليه من الضلال تعبثون بالآيات ، وتتخذون مصانع تطلبون الخلود ، وأنكم بطشتم جبارين ، وها هو يدعوكم : ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٣١)﴾ [الشعراء] فتقوى الله تعالى وطاعته كفيلة أنْ تُذهب ماضيكم وتمحو ذنوبكم ، بل وتُبدِّله خيراً وصلاحاً ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ .. (١١٤)﴾ [هود]

وأنا حين أُوصيكم بتقوى الله وطاعته ، لا أوصيكم بهذا لصالحى أنا ، فلا أقول لكم : اتقونى أو أطيعونى ولن أنتفع من طاعتكم بشىء . كذلك الحق ـ تبارك وتعالى ـ غنى عنكم وعن طاعتكم ؛ لأن له سبحانه صفات الكمال المطلق قبل أن يخلق الخَلْق ، فهو سبحانه متصف بالخَلْق قبل أن يخلق ، وبالقدرة قبل أن يُوجَد المقدور عليه .. إلخ .

إذن : فوجودكم لم يَزِدْ شيئاً فى صفاته تعالى ، وما كانت الرسالات إلا لمصلحتكم أنتم ، فإذا لم تطيعوا أوامر الله ، وتأخذوا منهجه ، لأنه يفيدكم فأطيعوه جزاءَ ما أنعم عليكم من نعَم لا تُعدُّ ولا تُحصَى ، فالإنسان طرأ على كون أُعِدَّ لاستقباله وهُيِّىء لمعيشته ،

وخلق له الكون كله : سماءً ، فيها الشمس والقمر والنجوم والسحاب والمطر ، وأرضاً فيها الخصب والماء والهواء . هذا كله قبل أن تُوجَد أنت ، فطاعتك لله ـ إذن ـ ليست تفضُّلاً منك ، إنما جزاء ما قدَّم لك من نِعَم .

وعجيب أن ترى هذه المخلوقات التى جُعِلَتْ لخدمتك أطول عمراً منك ، فالإنسان قد يموت يوم مولده ، وقد يعيش عدة أيام أو عدة سنوات ، أمّا الشمس مثلاً فعمرها ملايين السنين ، وهى تخدمك دون سلطان لك عليها ، ودون أن تتدخل أنت فى حركتها .

ثم يقول تعالى :

﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾

لم تعدد الآية ما أمدنا الله به ، وتركتْ لنا أن نُعدِّده نحن ؛ لأننا نعرفه جيداً ونعيشه ، وندركه بكل حواسِّنا ومداركنا ، فما من آلة عندك إلا وتحت إدراكها نعمة لله ، بل عدة نِعَم ، فالعين ترى المناظر ، والأذن تسمع الأصوات ، والأنف يشم الروائح ، واليد تبطش .. إلخ .

﴿أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [الشعراء] فقولوا أنتم واشهدوا على أنفسكم وعَدِّدوا نِعَم ربكم عليكم .

﴿أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾﴾

المراد بالأنعام : الضأن والماعز والإبل والبقر ، ثمانية أزواج .

﴿وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾﴾

فإنْ قلت : فنحن نمرُّ بديارهم ، فلا نرى إلا خلاءً تسفُو فيه الرياح ، نعم لقد كانت لهم جنات وعيون هى الآن تحت أطباق التراب ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا[1] (٩٨)﴾ [مريم]

﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ (١٣٥)﴾

أى : أن تقوى الله وطاعته لا تعدُّ شكراً على نعمه فحسب ، إنما أيضاً تكون لكم وقاية من عذاب الآخرة ، فلا تظنوا أنكم أخذتُم نعَم الله ، ثم بإمكانكم الانفلات منه أو الهرب من لقائه ، فلقاؤه حق لا مفرَّ منه ، ولا مهرب ، فإنْ لم تَخَفْ السابق من النعم ، فخَفِ اللاحق من النِّقَم .

فماذا كان ردّهم على مقالة نبيِّهم وموعظته لهم ؟

﴿قَالُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَوَعَظۡتَ أَمۡ لَمۡ تَكُن مِّنَ ٱلۡوَٰعِظِينَ (١٣٦)﴾

وقولهم ﴿أَوَعَظْتَ.. (١٣٦)﴾ [الشعراء] دليل على أن الحق لا بُدَّ أن يظهر ، ولو على ألسنة المكابرين ، ولا يكون الوعظ إلا لمَنْ علم حكماً ، ثم تركه ، فيأتى الواعظ ليُذكِّره به ، فهو ـ إذن ـ مرحلة ثانية بعد التعليم ، فهذا القول منهم اعتراف ودليل أنهم علموا المطلوب منهم ، ثم غفلوا عنه .

وهؤلاء يقولون لنبيهم ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ (١٣٦)﴾ [الشعراء] يعنى : أرح نفسك ، فسواء علينا وعظُك وعدم وعظِك ، ونلحظ أنهم قالوا : ﴿أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ (١٣٦)﴾ [الشعراء]

---

(١) الركز : الصوت الخفى . [القاموس القويم ١/٢٧٥] . والركز : صوت الإنسان تسمعه من بعيد نحو : ركز الصائد إذا ناجى كلابه . [لسان العرب ـ مادة : ركز] .

ولم يقولوا مثلاً : سواء علينا أوعظتَ أم لم تَعِظْ ؛ لأن نفى الوَعْظ يُثبت له القدرة عليه .

إنما ﴿لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ (١٣٦)﴾ [الشعراء] يعنى : امتنع منك الوعظ نهائياً ، وكأنهم لا يريدون مسألة الوعظ هذه أبداً ، حتى فى المستقبل لن يسمعوا له .

﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ (١٣٧)﴾

إنْ : بمعنى ما النافية ، يعنى : ما هذا الذى جئتَ به إلا ﴿خُلُقُ..(١٣٧)﴾ [الشعراء] الأولين يعنى : عادة مَنْ سبقوك واختلاقهم ، يقصدون الرسل السابقين ، كما قالوا : ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ (٦٨)﴾ [النمل]

وقالوا : ﴿مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ (١٥)﴾ [يس]

فوصفوا نبيهم ، ومَنْ سبقوه من الرسل بالكذب والاختلاق وإيجاد شىء لم يكن موجوداً .

والخُلُق : صفة ترسخ فى النفس تصدر عنها الأفعال بيُسْر وسهولة ، والصفات التى يكتسبها الإنسان لا تعطى مهارة من أول الأمر ، بل تعطى مهارة بعد الدُّرْبة عليها ، فتصير عند صاحبها كالحركة الآلية لا تحتاج منه إلى مجهود أو معاناة .

وسبق أن ضربنا مثلاً بالصبى الذى يتعلم مثلاً الحياكة ، وكم يعانى ويضربه معلمه فى سبيل تعلُّم لضم الخيط فى الإبرة ، حتى إذا ما تعلمها الصبى وأجادها تراه فعل ذلك تلقائياً ، ودون مجهود وربما وهو مُغْمض العينين .

وأنت حينما تتعلم قيادة السيارة مثلاً لأول مرة ، كم تعانى وتقع فى أخطاء وأخطار ؟ لكن بعد التدريب والدُّرْبة تستطيع قيادتها بمهارة ، وكأنها مسألة آلية ، وكذلك الخُلُق المعنوى ، مثل هذه الدُّرْبة والآلية فى الماديات .

إذن : ﴿ خُلُقُ الأَوَّلِينَ (١٣٧) ﴾ [الشعراء] يعنى : دعوى ادعوْهَا جميعاً ـ أى : الرسل .

وفى قراءة أخرى[1] تُوجه للمرسل إليهم بفتح الخاء وسكون اللام (خَلْق) أى : اختلاق والمعنى : نحن كمن سبقونا من الأمم لا نختلف عنهم : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ (٢٣) ﴾ [الزخرف]

وهؤلاء السابقون قالوا : ﴿ مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ .. (٢٤) ﴾ [الجاثية]

فهذه الصفة أصبحت عندنا ثابتة متأصِّلة فى النفس ، فلا تحاول زحزحتنا عنها ، فالمراد : نحن مثل السابقين لا نؤمن بمسألة البعث ، فأرح نفسك ، فلن يجدىَ معنا وعْظُك .

﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (١٣٨) ﴾

يقولونها صريحة رداً على قوله : ﴿ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣٥) ﴾ [الشعراء]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٣٩) ﴾

---

(١) هى قراءة ابن كثير وأبى عمرو والكسائى . وقال الهروى : أى اختلاقهم وكذبهم . والعرب تقول : حدثنا فلان بأحاديث الخَلْق أى بالخرافات والأحاديث المفتعلة . [تفسير القرطبى ٥٠٠٥/٧] .

وكانت السماء قبل محمد ﷺ تجعل الرسول يُدلى بمعجزته ، أو يقول بمنهجه ، لكن لا تطلب منه أن يُؤدِّب المعاندين والمعارضين له إنما تتولّى السماء عنه هذه المهمة فتُوقِع بالمكذبين عذابَ الاستئصال .

وقد أُمِنَتْ أمة محمد ﷺ من عذاب الاستئصال ، فمَنْ كفر برسالة محمد ﷺ لا يأخذه الله كما أخذ المكذِّبين من الأمم السابقة ، إنما يقول سبحانه : ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ .. (١٤)﴾ [التوبة]

وكلمة ﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ .. (١٣٩)﴾ [الشعراء] كلمة صادقة ، لها دليل فى الوجود نراه شاخصاً ، كما يقول سبحانه : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (٨)﴾ [الفجر]

نعم ، كانت لهم حضارة بلغتْ القمة ، ولم يكُنْ لها مثيل ، ومع هذا كله ما استطاعت أنْ تصون نفسها ، وأخذها الله أَخْذ عزيز مقتدر.

قال تعالى : ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٣٨)﴾ [الصافات]

وقال : ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا .. (٥٢)﴾ [النمل]

أى : أنها شاخصة أمامكم تروْنها وتمرُّون عليها ، وأنتم لم تبلغوا مبلغَ هذه الحضارة ، فإذا كانت حضارتهم لم تمنعهم من أَخْذ الله العزيز المقتدر ، فينبغى عليكم أنْ تتنبهوا إلى أنكم أضعف منهم ، وأن ما حاق بالكافرين وما نزل بالمكذِّبين ليس ببعيد عن أمثالهم من الأمم الأخرى .

لذلك تجد الحضارات التى تُتوَارث فى الكون كلها آلتْ إلى زوال ،

ولم نجد منها حضارة بقيتْ من البداية إلى النهاية ، ولو بُنِيَتْ هذه الحضارات على قيم ثابتة لكان فيها المناعة ضد الزوال .

وقوله تعالى : ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً .. (١٣٩)﴾ [الشعراء] أى : فى إهلاك هذه الحضارة لأمر عظيم ، يُلفت الأنظار ، ويدعو للتأمل : ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٣٩)﴾ [الشعراء]

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٤٠)﴾

قال ﴿رَبَّكَ .. (١٤٠)﴾ [الشعراء] ولم يقُلْ ربهم ؛ لأن منزلة المربِّى تعظم فى التربية بمقدار كمال المربَّى ، فكأنه تعالى يقول : أنا ربُّك الذى أكملت تربيتك على أحسن حال ، فَمنْ أراد أنْ يرى قدرة الربوبية فليرها فى تربيتك أنت ، والمربَّى يبلغ القمة فى التربية إنْ كان مَنْ ربَّاه عظيماً .

لذلك يقول ﷺ : « أدَّبنى ربى فأحسن تأديبى »[1] .

إذن : فمن عظمة الحق ـ تبارك وتعالى ـ أنْ يُعطى نموذجاً لدقّة تربيته تعالى ولعظمة تكوينه ، ولما يصنعه على عَيْنه تعالى بمحمد ﷺ ، فكأنه ﷺ أكرمُ مخلوق مُربَّى فى الأرض ؛ لذلك قال ﴿رَبَّكَ .. (١٤٠)﴾ [الشعراء] ولم يقل : ربهم مع أن الكلام ما يزال مُتعلقاً بهم .

وقوله تعالى : ﴿لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٤٠)﴾ [الشعراء] العزيز قلنا : هو الذى يَغْلب ولا يُغْلَب ، لكن لا تظن أن فى هذه الصفة جبروتاً ؛ لأنه تعالى أيضاً رحيم ، ومن عظمة الأسلوب القرآنى أن يجمع بين هاتين الصفتين : عزيز ورحيم وكأنه يشير لنا إلى مبدأ إسلامى يُربِّى

---

(١) قال العجلونى فى كشف الخفاء (١/٧٢) : « قال ابن تيمية : لا يُعرف له إسناد ثابت ، لكن قال (السيوطى) فى الدرر : صححه أبو الفضل بن ناصر . وقال (السيوطى) فى اللآلىء : معناه صحيح لكن لم يأت من طريق صحيح » .

الإسلام عليه أتباعه ، ألا وهو الاعتدال فلا تطغى عليك خصلة أو طبْع أو خُلُق ، والزم الوسط ؛ لأن كل طبْع فى الإنسان له مهمة .

وتأمل قول الله تعالى فى صفات المؤمنين :

﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ .. (٥٤)﴾ [المائدة]

فالمسلم ليس مجبولاً على الذلّة ولا على العزة ، إنما الموقف هو الذى يجعله ذليلاً ، أو يجعله عزيزاً ، فالمؤمن يتصف بالذلّة والخضوع للمؤمنين ، ويتصف بالعزّة على الكافرين .

ومن ذلك أيضاً : ﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ .. (٢٩)﴾ [الفتح]

ومعلوم أن الرحمة فى غير موضعها ضَعْف وخَوَر ، فمثلاً الوالد الذى يرفض أن يُجرى لولده جراحة خطرة فيها نجاته وسلامته خوفاً عليه ، نقول له : إنها رحمة حمقاء وعطف فى غير محلّه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ (١٤١)﴾

بعد أن ذكر طرفاً من قصة إبراهيم وموسى ونوح وهود عليهم السلام ذكر قصة ثمود قوم صالح عليه السلام ، وقد تكررتْ هذه اللقطات فى عدة مواضع من كتاب الله ؛ ذلك لأن القرآن فى علاجه لا يعالج أمةً واحدة فى بيئة واحدة بخُلق واحد ، إنما يعالج عالماً مختلف البيئات ومختلف الداءات ومختلف المواهب والميول .

فلا بُدَّ أن يجمع الله له الرسل كلهم ، ليأخذ من كل واحد منهم لقطة ؛ لأنه سيكون منهجاً للناس جميعاً فى كُلِّ زمان وفى كُلِّ مكان ،

أمّا هؤلاء الرسل الذين جمعهم الله فى سياق واحد فلم يكونوا للناس كافة ، إنما كل واحد منهم لأمة بعينها ، ولقابل واحد فى زمن مخصوص ، ومكان مخصوص .

لقد بُعث محمد ﷺ ليكون رسولاً يجمع الدنيا كلها على نظام واحد ، وخُلق واحد ، ومنهج واحد ، مع تباين بيئاتهم ، وتباين داءاتهم ومواهبهم . إذن : لا بُدَّ أن يذكر الحق - تبارك وتعالى - لرسوله ﷺ طرفاً من سيرة كل نبى سبقه .

لذلك قال سبحانه : ﴿ وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ .. (١٢٠) ﴾ [هود]

ورسول الله ﷺ لم يكُنْ فى حاجة لأن يُثبِّت الله فؤاده مرة واحدة ، إنما كلّما تعرّض لموقف احتاج إلى تثبيت ، فيُثبّته الله ، يقول له : تذكّر ما كان من أمر إبراهيم ، وما كان من أمر نوح وهود ... إلخ فكان تكرار القصص لتكرار التثبيت ، فالقصة فى القرآن وإنْ كانت فى مجموعها مكررة ، إنما لقطاتها مختلفة تؤدى كُلٌّ منها معنى لا تؤديه الأخرى .

وهنا يقول سبحانه كما قال عن الأمم السابقة : ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ (١٤١) ﴾ [الشعراء] لأن الرسل جميعاً إنما جاءوا بعقيدة واحدة ، لا يختلف فيها رسول عن الآخر ، وصدروا من مصدر واحد ، هو الحق تبارك وتعالى ، ولا يختلف الرسل إلا فى المسائل الاجتماعية والبيئية التى تناسب كلاً منهم .

لذلك يقول تعالى : ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ .. (١٦٣) ﴾ [النساء]

وقال تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِى أَوْحَيْنَا

إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ ولا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ .. (١٣) ﴾ [الشورى]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٤٢) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٤٣) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٤٤) ﴾

قال هنا أيضاً : ﴿ أَخُوهُمْ .. (١٤٢) ﴾ [الشعراء] ليرقِّق قلوبهم ويُحنِّنها على نبيهم ﴿ أَلَا تَتَّقُونَ (١٤٢) ﴾ [الشعراء] قلنا : إنها استفهام إنكارى . تعنى : اتقوا الله ، ففيها حَثٌّ وحَضٌّ على التقوى ، فحين تُنكر النفى ، فإنك تريد الإثبات .

ولما كانت التقوى تقتضى وجود منهج نتقى الله به ، قال : ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٤٣) ﴾ [الشعراء] وما دُمْتُ أنا رسُول أمين لن أغشّكم ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٤٤) ﴾ [الشعراء] وكرر الأمر بالتقوى مرة أخرى ، وقرنها بالطاعة .

﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٤٥) ﴾

فكأن العمل الذى أقدمه من أجلكم ـ فى عُرْف العقلاء ـ يستحق أجراً ، فالعامل الذى يعمل لكم شيئاً جزئياً من مسائل الدنيا يزول وينتهى يأخذ أجراً عليه ، أما أنا فأقدّم لكم عملاً يتعدَّى الدنيا إلى الآخرة ، ويمدّ حياتك بالسعادة فى الدنيا والآخرة ، فأجْرى ـ إذن ـ كبير ؛ لذلك لا أطلبه منكم إنما من الله .

﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ ﴿١٤٦﴾﴾

يريد أن يُوبِّخهم : أتظنون أنكم ستخلُدون فى هذا النعيم ، وأنتم آمنون ، أو أنكم تأخذون نِعَم الله ، ثم تفرُّون من حسابه ، كما قال سبحانه :

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [المؤمنون]

فمَنْ ظن ذلك فهو مخطىء قاصر الفهم ؛ لأن الأشياء التى تخدمك فى الحياة لا تخدمك بقدرة منك عليها ، فأنت لا تقدر على الشمس فتأمرها أنْ تشرق كل يوم ، ولا تقدر على السحاب أن ينزل المطر ، ولا تقدر على الأرض أن تعطيها الخصوبة لتنبت ، ولا تقدر على الهواء الذى تتنفسه .. إلخ وهذه من مُقوِّمات حياتك التى لا تستطيع البقاء بدونها .

وكان من الواجب عليك أن تتأمل وتفكر : مَن الذى سخرَّها لك ، وأقدرك عليها ؟ كالرجل الذى انقطع فى الصحراء وفقد دابته وعليها طعامه وشرابه حتى أشرف على الهلاك ، ثم أخذته سِنَة أفاق منها على مائدة عليها أطايب الطعام والشراب ، بالله ، أليس عليه قبل أنْ تمتد يده إليها أنْ يسأل نفسه : مَنْ أعدّ لى هذه المائدة فى هذا المكان ؟

كذلك أنت طرأتَ على هذا الكون وقد أُعدَّ لك فيه كل هذا الخير ، فكان عليك أن تنظر فيه ، وفيمَنْ أعدّه لك . فإذا جاءك رسول من عند الله ليحلَّ لك هذا اللغز ، ويخبرك بأن الذى فعل كل هذا هو الله ، وأن من صفات كماله كذا وكذا ، فعليك أن تُصدِّقه .

لأنه إما أن يكون صادقاً يهديك إلى حَلِّ لغز حار فيه عقلك ، وإما هو كاذب ـ والعياذ بالله وحاشا لله أن يكذب رسول الله على الله

ـ فإن صاحب هذا الخلق عليه أن يقوم ويدافع عن خَلْقه .

ويقول : هذا الرسول مُدَّعٍ وكاذب ، وهذا الخَلْق لى . فإذا لم يقُمْ للخَلْق مُدَّعٍ فقد ثبتتْ القضية لله تعالى إلى أنْ يظهر مَنْ يدَّعيها لنفسه .

﴿ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ ﴾

وقوله تعالى : ﴿ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ ﴾ [الشعراء] امتداد للآية السابقة ، يعنى : لا تظنوا أن هذا يدوم لكم . و (جنات) : جمع جنة ، وهى المكان الملىء بالخيرات ، وكل ما يحتاجه الإنسان ، أو هى المكان الذى إنْ سار فيه الإنسان سترتْه الأشجار ؛ لأن جنَّ يعنى ستر . كما فى قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ .. ﴿٧٦﴾ ﴾ [الأنعام] أى : ستره .

ومنه الجنون . ويعنى : سَتْر العقل . وكذلك الجنة ، فهى تستر عن الوجود كله ، وتُغنيك عن الخروج منها إلى غيرها ، ففيها كل ما تتطلبه نفسك ، وكل ما تحتاجه فى حياتك .

ومن ذلك ما نسميه الآن (قصراً) لأن فيه كل ما تحتاجه بحيث يقصرك عن المجتمع البعيد .

وقال بعدها : ﴿ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ ﴾ [الشعراء] لأن الجنة تحتاج دائماً إلى الماء ، فقال ﴿ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ ﴾ [الشعراء] ليضمن بقاءها .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ ﴾

النخل من الزروع ، لكن خصَّ النخل بالذِّكْر ، لأن رسول الله ﷺ اهتم به ، وشبَّهه بالمؤمن فى الحديث : « إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها »[1] قال الراوى : فوقع الناس فى شجر البوادى ،

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦١ ، ٩ مواضع أخرى) وكذا مسلم فى صحيحه (٢٨١١) كتاب صفات المنافقين ، وأحمد فى مسنده (٦١/٢ ، ١٢٣) من حديث عبد الله بن عمر ـ رضى الله عنهما .

ولم يهتدوا إليها ، فلما خرج عمر وابنه عبد الله قال : يا أبى ، لقد وقع فى ظنى أنها النخلة ؛ لأنها مثل المؤمن. كل ما فيه خير .

نعم لو تأملتَ النخلة لوجدتَ أن كل شىء فيها نافع ، وله مهمة ، وينتفع الزارع به ، ولا يُلْقَى منها شىء مهما كان بسيطاً . فالجذوع تُصنع منها السوارى والأعمدة ، وتُسقف بها البيوت قبل ظهور الخرسانة ، ومن الجريد يصنعون الأقفاص ، والجزء المفلطح من الجريدة ويسمى (القحف) والذى لا يصلح للأقفاص كانوا يجعلونه على شكل معين ، فيصير (مقشّة) يكنسون بها المنازل .

ومن الليف يصنعون الحبال ، ويجعلونه فى تنجيد الكراسى وغيرها ، حتى الأشواك التى تراها فى جريد النخل خلقه الله لحكمة وبقدَرٍ ؛ لأنها تحمى النخلة من الفئران أثناء إثمارها ، والليف الذى ينمو بين أصول الجريد جعله الله حماية للنخلة ، وهى فى طور النمو ، وما تزال غَضَّة طرية ، فلا يحمى بعضها على بعض .

إذن : هى شجرة خيِّرة كالمؤمن ، وقد تم أخيراً فى أحد البحوث أن أخذوا الجزء الذى يسمى بالقحف ، وجعلوه فى تربة مناسبة ، فأنبتوا منه نخلة جديدة .

لذلك لما قال ابن عمر : إنها النخلة . ذهب عمر إلى رسول الله ، وحكى له مقالة ولده ، فقال ﷺ : « صدق ولدك » فقال عمر : (فوالله ما يسرنى أن فَطِن ولدى إليها أن لى حمر النعم)[1] .

---

(١) قال ابن عمر لأبيه عمر : ذكرت ذلك لعمر ، قال : « لأن تكون قلت : هى النخلة ، أحبّ إلىّ من كذا وكذا » وهو لفظ مسلم ، وفى رواية عند أحمد (١٢٣/٢) أن عمر قال لابنه : « يا بنى ، ما منعك أن تتكلم ، فو الله لأن تكون قلت ذلك أحب إلىّ من أن يكون لى كذا وكذا » .

والذين يزرعون النخيل يروْنَ فيه آيات وعجائب دالّة على قدرة الله تعالى .

ومعنى ﴿طَلْعُهَا هَضِيمٌ (١٤٨)﴾ [الشعراء] الطَّلْع : هو الكوز الذى تخرج منه الشماريخ فى الأُنْثى ويخرج منه المادة المخصبة فى الذكر ، والتى قال الله عنها : ﴿قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ .. (٩٩)﴾ [الأنعام]

وفى الذَّكر يخرج من الكوز المادة المخصِّبة للنخلة ، وللقِنْوان أو الشماريخ أطوار فى النمو يُسمُّونه (الخلا) ، فيظل ينمو ويكبر إلى أنْ يصل إلى نهايته حَداً حيث يجمد على هذه الحالة ، ويكتمل نموه الحجمى ، ثم تبدأ مرحلة اللون .

يقولون (عفَّر) النخل : يعنى شاب خضرته حمرة أو صفرة[1] . فإذا اكتمل احمرار الأحمر واصفرار الأصفر ، يسمى (بُسْر) ثم يتحول البُسْر إلى (الرطب) حيث تلين ثمرته وتنفصل قشْرته ، فإنْ كان الجو جافاً فإنَّ الرُّطَب يَيْبس ، ويتحول إلى (التمر) حيث تتبخَّر مائيته ، وتتماسك قشْرته ، وتلتصق به .

ومعنى ﴿هَضِيمٌ (١٤٨)﴾ [الشعراء] يعنى : غَضٌّ ورَطْب طرىٌّ ، وهذا يدل على خصوبة الأرض ، ومنه هضم الطعام حتى يصير ليِّناً مُسْتساغاً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ (١٤٩)﴾[2]

---

(١) العَفار : تلقيح النخل وإصلاحه ، وعفَّر النخل : فرغ من تلقيحه . [لسان العرب ـ مادة : عفر] .

(٢) هذه الكلمة فيها قراءتان :

- فرهين : بغير ألف ، قراءة ابن كثير وأبى عمرو ونافع .
- فارهين . بألف . وهى قراءة الباقين . قاله القرطبى فى تفسيره (٧/٥٠٠٩) . قال أبو عبيد وغيره : وهما بمعنى واحد . وقال الفراء : معنى فارهين : حاذقين . والفره : النشيط الأشر . والفراهة : النشاط . [انظر لسان العرب ـ مادة : فره] .

وحين تذهب إلى مدائن صالح تجد البيوت منحوتةً فى الجبال كما ينحتون الآن الأنفاق مثلاً ، لا يبنونها كما نبنى بيوتنا ، ومعنى ﴿فَارِهِينَ (١٤٩)﴾ [الشعراء] الفاره : النشط القوى ظاهر الموهبة ، يقولون : فلان فاره فى كذا يعني ؛ ماهر فيه ، نشط فى ممارسته .

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٥٠) وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (١٥١)﴾

المسرف : هو الذى يتجاوز الحدّ ، وتجاوز الحدِّ له مراحل ؛ لأن الله تعالى أحلَّ أشياء ، وحرّم أشياء ، وجعل لكل منهما حدوداً مرسومة ، فالسَّرَف فيما شرع الله أن تتجاوز الحلال ، فتُدخل فيه الحرام .

أو : يأتى الإسراف فى الكَسْب فيدخل فى كَسْبه الحرام . وقد يُلزم الإنسان نفسه بالحلال فى الكسب ، لكن يأتى الإسراف فى الإنفاق فينفق فيما حرَّمه الله . إذن : يأتى الإسراف فى صور ثلاثة : إما فى الأصل ، وإما فى الكسب ، وإما فى الإنفاق .

ونلحظ أن الحق ـ تبارك وتعالى ـ حينما يكلمنا عن الحلال ، يقول سبحانه : ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا .. (٢٢٩)﴾ [البقرة]

أما فى المحرمات فيقول سبحانه : ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوهَا .. (١٨٧)﴾ [البقرة] أى : ابتعد عنها ؛ لأنك لا تأمن الوقوع فيها ، ومَنْ حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه . فلم يقل الحق سبحانه مثلاً : لا تُصلُّوا وأنتم سكارى . إنما قال : ﴿لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ .. (٤٣)﴾ [النساء]

والمعنى : خُذ الحلال كله ، لكن لا تتعداه إلى المحرَّم ، أما المحرَّم فاحذر مجردَ الاقتراب منه ؛ لأن له دواعى ستجذبك إليه .

ونقف عند قوله تعالى : ﴿وَلا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (١٥١)﴾ [الشعراء] حيث لم يقل : ولا تسرفوا ، وكأن ربنا ـ عزّ وجلّ ـ يريد

أنْ يُوقظ غفلتنا ويُنبِّهنا ويُحذِّرنا من دعاة الباطل الذين يُزيِّنون لنا الإسرافَ فى أمور حياتنا ، ويُهوِّنون علينا الحرام يقولون : لا بأس فى هذا ، ولا مانع من هذا ، وهذا ليس بحرام . ربنا يعطينا المناعة اللازمة ضد هؤلاء حتى لا ننساق لضلالاتهم .

لذلك جاء فى الحديث الشريف : « استفت قلبك ، واستفت نفسك ، وإنْ أفتوك ، وإنْ أفتوك ، وإنْ أفتوك »[1] .

وفى هذا دليل على أنه سيأتى أناس يُفتون بغير علم ، ويُزيِّنون للناس الباطل ، ويُقنعونهم به . والفتوى من الفُتوة والقوة ، ومنه قوله تعالى : ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (٦٠)﴾ [الأنبياء]

وقوله تعالى : ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى (١٣)﴾ [الكهف]

كذلك الفتوى تعنى : القوة فى أمر الدين والتمكُّن من مسائله وقضاياه ، وإنْ كانت القوة المادية فى أمر الدنيا لها حَدٌّ تنتهى عنده فإنّ القوة فى أمر الدين لا تنتهى إلى حَدٍّ ، لأن الدين أمدُه واسع ، وبحره لا ساحلَ له . والقوة نعرفها فى أى ناحية من النواحى ، لكن قوة القوى هى القوة فى أمر الدين .

نقول : فلان فتىٌّ يعنى : قوىٌّ بذاته ، وأفتاه فلان أى : أعطاه القوة ، كأنه كان ضعيفاً فى حُكم من أحكام الشرع ، فذهب إلى المفتى فأفتاه يعنى : أعطاه فتوة فى أمر الدين . مثل قولنا : غَنِىَ فلان أى : بذاته ، وأغناه أى : غيره ، كما يقول سبحانه : ﴿وَمَا نَقَمُوا إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ .. (٧٤)﴾ [التوبة]

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٤/٢٢٧، ٢٢٨) والدارمى فى سننه (٢/٢٤٦) من حديث وابصة بن معبد الأسدى ، وتمامه أن رسول الله ﷺ قال : « يا وابصة ، استفت نفسك ، البر ما اطمأن إليه القلب ، واطمأنت إليه النفس ، والإثم ما حاك فى النفس وتردد فى الصدر ، وإن أفتاك الناس . قال سفيان : وأفتوك » .

إذن : فمهمة المفتى أن يُقوِّى عقيدتى ، لا أن يسرف لى فى أمر من أمور الدين ، أو يُهوِّن علىَّ ما حرّم الله فيُجرِّئنى عليه . وعلى المفتى أن يتحرَّى الدقة فى فتواه خاصة فى المسائل الخلافية التى يقول البعض بحلِّها ، والبعض بحرمتها ، يقف عند هذه المسائل وينظر فيها رأى الإسلام المتمثل فى الحديث الشريف :

« الحلال بيِّن ، والحرام بيِّن ، وبينهما أمور مُشْتبهات ، فمن ترك ما شُبِّه له ـ لا من فعل ما شُبِّه له يعنى على الأقل نترك ما فيه شبهة ـ فقد استبرأ لدينه ـ إن كان متديناً ـ وعِرْضه ـ إن لم يكُنْ متديناً »[1] .

إذن : مَنْ لم يقف هذا الموقف ويترك ما فيه شبهة لم يستبرىء لدينه ولا لعرْضه . ومَنْ لم يُفْتِ على هذا الأساس من العلماء فإنما يُضعِف أمرَ الدين لا يُقوِّيه ، وبدلَ أن نقول : أفتاه . نقول : أضعفه .

﴿ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ ﴾

فوصف المسرفين بأنهم مفسدون فى الأرض غير مصلحين ، كأن الأرض خلقها الخالق ـ عز وجل ـ على هيئة الصلاح فى كل شىء ، لكن يفسدها الإنسان بتدخّله فى أمورها ؛ لذلك سبق أن قلنا : إنك لو نظرتَ إلى الكون من حولك لوجدته على أحسن حال ، وفى منتهى الاستقامة ، طالما لا تتناوله يد الإنسان ، فإنْ تدخّل الإنسان فى شىء ظهرتْ فيه علامات الفساد .

ولا يعنى هذا ألاَّ يتدخل الإنسان فى الكون ، لا إنما يتدخل على

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٠٥١) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير .

منهج مَنْ خلَقَ فيزيد الصالح صلاحاً ، أو على الأقل يتركه على صلاحه لا يفسده ، فإن تدخَّل على غير هذا المنهج فلا بُدَّ له أن يفسد .

فحين تمر مثلاً ببئر ماء يشرب منه الناس ، فإما أنْ تُصلح من حاله وتزيده ميزة وتُيسِّر استخدامه على الناس ، كأن تبنى له حافّة ، أو تجعل عليه آلة رَفْع تساعد الناس ، أو على الأقل تتركه على حاله لا تفسده ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ (٢٠٥)﴾ [البقرة]

أما هؤلاء القوم فلم يكتَف القرآن بوصفهم بالفساد وحسب ، إنما أيضاً هم ﴿وَلَا يُصْلِحُونَ (١٥٢)﴾ [الشعراء] ذلك لأن الإنسان قد يُفسد فى شىء ، ويُصلح فى شىء ، إنما هؤلاء دأبهم الفساد ، ولا يأتى منهم الصلاح أبداً .

ونكبة الوجود من الذين يصنعون أشياء يروْنها فى ظاهرها صلاحاً ، وهى عَيْن الفساد ؛ لأنهم لم يأخذوها بكل تقنيناتها القيمية ، وانظر مثلاً إلى المبيدات الحشرية التى ابتكروها وقالوا : إنها فتح علمى ، وسيكون لها دور كبير فى القضاء على دودة القطن وآفات الزرع ، وبمرور الزمن أصبحت هذه المبيدات وبالاً على البشرية كلها ، حيث تسمَّم الزرع وتسمَّم الحيوان ، وبالتالى الإنسان ، حتى الماء والتُّرْبة والطيور ، لدرجة أنك تستطيع القول أنها أفسدت الطبيعة التى خلقها الله .

وفى هؤلاء قال تعالى :

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤)﴾ [الكهف]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾

﴿ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الشعراء] جمع مُسحَّر ، وهى صيغة مبالغة تدلُّ على وقوع السحر عليه أكثر من مرة ، نقول : مسحور يعنى : مرة واحدة ومُسَحَّر يعنى عدة مرات ، ومن ذلك قوله تعالى عن ملأ فرعون أنهم قالوا له : ﴿وَابْعَثْ فِى الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾ [الشعراء]

ولم يقل : بكل ساحر ، إنما سحَّار يعنى : هذه مهنته ، وكما تقول : ناجر ونجار ، وخائط وخياط .

وإنْ كان بعضهم قال عن نبيهم : ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُوراً ﴿٤٧﴾﴾ [الإسراء] فهؤلاء يقولون لنبيهم ﴿إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الشعراء] وعجيب أمر أهل الباطل ؛ لأنهم يتخبطون فى هجومهم على الأنبياء ، فمرَّة يقولون : ساحر . ومرة يقولون : مسحور ، كيف والساحر لا يكون مسحوراً ؛ لأنه على الأقل يستطيع أن يحمى نفسه من السحر . قالوا : بل المراد بالمسحور اختلاط عقله ، حتى إنه لا يدرى ما يقول .

ثم إن نبيكم صالحاً ـ عليه السلام ـ إنْ كان مسحوراً فمَنْ سحره ؟ أنتم أم أتباعه ؟ إنْ كان سحره منكم فأنتم تقدرون على كَفِّ سحركم عنه ، حتى يعود إلى طبيعته ، وترونه على حقيقته ، وإنْ كان من أتباعه ، لا بُدَّ أنهم سيحاولون أنْ يعينوه على مهمته ، لا أن يُقعدوه عنها .

إذن : فقولهم لنبيهم : ﴿إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الشعراء]

يريدون أن يخلُصُوا إلى عدم اتباعه هو بالذات ، فهم يريدون تديُّناً على حسب أهوائهم ، يريدون عبادة إله لا تكليفَ له ولا منهج . كالذين يعبدون الأصنام وهم سعداء بهذه العبادة ، لماذا ؟

لأن آلهتهم لا تأمرهم بشيء ولا تنهاهم عن شيء . لذلك ، فكل الدجالين ومُدَّعُو النبوة رأيناهم يُخفِّفون التكاليف عن أتباعهم ، فقديماً أسقطوا عن الناس الزكاة ، وحديثاً أباحوا لهم الاختلاط ، فلا مانع لديهم من الالتقاء بالمرأة والجلوس معها ومخاطبتها والخُلْوة بها والرقص معها ، وماذا فى ذلك ونحن فى القرن الحادى والعشرين ؟

فإنْ قالوا : ساحر ، نردُّ عليهم : نعم هو ساحر ، قد سحر مَنْ آمنوا به ، فلماذا لم يسحركم أنتم وتنتهى هذه المسألة ؟ إذن : هذه تُهَم لا تستقيم ، لا هو ساحر ، ولا هو مسحور ، إنه مجرد كذب وافتراء على أنبياء الله ، وعلى دعاة الخير فى كل زمان ومكان .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ ﴾

وقولهم : ﴿ مَا أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٥٤﴾ ﴾ [الشعراء] إذن : فوجه اعتراضهم أن يكون النبى بَشَراً ، كما قال سبحانه فى آية أخرى : ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلاَّ أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَراً رَّسُولاً ﴿٩٤﴾ ﴾ [الإسراء]

ولو بعث الله لهم ملَكاً لجاءهم على صورة بشر ، وستظل الشُّبْهة قائمة ، فمن يدريكم أن هذا البشر أصله ملَك ؟ ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا

لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ (٩) ﴾ [الأنعام]

فالمعنى : ما دام أن الرسول بشر ، لا يمتاز علينا فى شىء فنريد منه أنْ يأتينا بآية يعنى : معجزة تُثبت لنا صِدْقه فى البلاغ عن ربه ﴿ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٥٤) ﴾ [الشعراء]

ونلحظ أن الحق ـ تبارك وتعالى ـ ينتهز فرصة طَلَبهم لآية ومعجزة ، فأسرع إليهم بما طلبوا ، ليقيم عليهم الحُجة ، فقال بعدها :

﴿ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (١٥٥) ﴾

هذا إجابة لهم ؛ لأنهم طلبوا من نبيهم أنْ يُخرِج لهم من الصخرة[1] ناقة تلد سَقْباً لا يكون صغيراً كولد الناقة ، إنما تلد سَقْباً فى نفس حجمها ، فأجابهم ﴿ قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ .. (١٥٥) ﴾ [الشعراء] يعنى : يوم تشرب فيه ، لا يشاركها فى شُرْبها شىء من مواشيكم .

﴿ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (١٥٥) ﴾ [الشعراء] أى : تشربون فيه أنتم ، وكانت الناقة تشرب من الماء فى يومها ما تشربه كلّ مواشيهم فى يومهم ، وهذه معجزة فى حَدِّ ذاتها .

---

(١) كانوا هم الذين سألوا صالحاً أن يأتيهم بآية واقترحوا عليه بأن تخرج لهم من صخرة صماء عيَّنوها بأنفسهم وهى صخرة منفردة فى ناحية الحجر يقال لها الكاتبة ، فطلبوا منه أن تخرج لهم منها ناقة عشراء تمخض ، فأخذ عليهم صالح العهود والمواثيق لئن أجابهم الله إلى سؤالهم وأجابهم إلى طلبهم ليؤمنن به وليتبعنه ، فلما أعطوه على ذلك عهودهم ومواثيقهم قام صالح إلى صلاته ودعا الله فتحركت تلك الصخرة ثم انصدعت عن ناقة جوفاء وبراء يتحرك جنينها بين جنبيها . [تفسير ابن كثير ٢/٢٢٨] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾﴾

يخبر الحق سبحانه رسوله بما سيكون ، وأن القوم لن يتركوا هذه الآية ، إنما سيتعرضون لها بالإيذاء ، فقال : ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ .. ﴿١٥٦﴾﴾ [الشعراء] لكنهم تعدَّوْا مجرد الإيذاء والإساءة فعقروها .

ثم يتوعدهم : ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾﴾ [الشعراء]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾﴾

قال(عقروها) بصيغة الجمع ، فهل اشتركتْ كل القبيلة فى عَقْرها ؟ لا بل عقرها واحد منهم ، هو قدار بن سالف[1] ، لكن وافقه الجميع على ذلك ، وساعدوه[2] ، وارتضوا هذا الفعل ، فكأنهم فعلوا جميعاً ؛ لأنه استشارهم فوافقوا .

﴿فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الشعراء] وقال العلماء : الندم مقدمة التوبة.

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾﴾

---

(١) كان رجلاً أحمر أزرق قصيراً ، يزعمون أنه كان ولد زنية ، وأنه لم يكن من أبيه الذى ينسب إليه ، وهو سالف ، وإنما هو من رجل يقال له ضيان ، ولكن ولد على فراش سالف . [ابن كثير فى تفسيره ٢/٢٢٨] .

(٢) انطلق قدار بن سالف ومصدع بن مهرج فاستغووه غواة من ثمود ، فاتبعهما سبعة نَفَر ، فصاروا تسعة رهط ، وهم الذين قال الله تعالى فيهم ﴿وَكَانَ فِى الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [النمل] .

فإنْ قُلْتَ : كيف يأخذهم العذاب وقد ندموا ، والندم من مقدمات التوبة ؟

نعم ، الندم من مقدمات التوبة ، لكن توبة هؤلاء من التوبة التى قال الله عنها : ﴿ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ .. (١٨) ﴾ [النساء]

إذن : ندموا وتابوا فى غير أوان التوبة ، أو : أنهم أصبحوا نادمين لا ندمَ توبة من الذنب ، إنما نادمون ؛ لأنهم يخافون العذاب الذى هددهم الله به إنْ فعلوا .

ثم تُختم هذه القصة بهذا التذييل الذى عرفناه من قبل مع أمم أخرى مُكذِّبة :

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٥٩) ﴾

عزيز : يَغلِب ولا يُغْلَب ، ومع ذلك هو رحيم فى غَلَبه .

ثم ينتقل الحق سبحانه إلى قصة أخرى من مواكب الأنبياء والرسل :

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ (١٦٠) ﴾ (١)

﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٦١) ﴾

فقال هنا أيضاً ﴿ أَخُوهُمْ .. (١٦١) ﴾ [الشعراء] لأنه منهم ليس غريباً

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٣/٣٤٤) : « هو لوط بن هاران بن آزر ، وهو ابن أخى إبراهيم الخليل عليه السلام ، وكان الله تعالى قد بعثه إلى أمة عظيمة فى حياة إبراهيم عليه السلام ، وكانوا يسكنون سدوم وأعمالها ، التى أهلكها الله بها وجعل مكانها بحيرة منتنة خبيثة وهى مشهورة ببلاد الغور بناحية حيال بيت المقدس بينها وبين بلاد الكرك والشوبك » .

عنهم ، وليُحنِّن قلوبهم عليه ﴿أَلَا تَتَّقُونَ (١٦١)﴾ [الشعراء] إنكار لعدم التقوى ، وإنكار النفى يطلب الإثبات فكأنه قال : اتقوا الله .

﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٦٢) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٦٣) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٤)﴾

وهكذا كانت مقالة لوط عليه السلام كما قال إخوانه السابقون من الرسل ؛ لأنهم يصدُرون جميعاً عن مصدر واحد .

ثم يخصُّ الحق سبحانه قوم لوط لما اشتُهروا به وكان سبباً فى إهلاكهم :

﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (١٦٥)﴾

فكأنها مسألة وخصلة تفردوا بها دون العالم كله .

لذلك قال فى موضع آخر : ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ (٨٠)﴾ [الأعراف]

أى : أن هذه المسألة لم تحدث من قبل لأنها عملية مستقذرة ؛ لأن الرجل إنما يأتى الرجل فى محل القذارة ، ولكنهم فعلوها ، فوَصْفه لها بأنها لم يأتها أحد من العالمين جعلها مسألة فظيعة للغاية .

﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ (١٦٦)﴾

يعنى : كان عندكم مندوحة عن هذه الفعْلة النكراء بما خلق الله لكم من أزواجكم من النساء ، فتصرفون هذه الغريزة فى محلها ، ولا تنقلونها إلى الغير .

أو ﴿ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم .. (١٦٦) ﴾ [الشعراء] أى : أنهم كانوا يباشرون هذه المسألة أيضاً مع النساء فى غير محلٍّ الاستنبات ، فقوله تعالى : ﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ .. (٢٢٣) ﴾ [البقرة]

البعض يظنها على عمومها وأن ﴿ أَنَّىٰ شِئْتُمْ .. (٢٢٣) ﴾ [البقرة] تعطيهم الحرية فى هذه المسألة ، إنما الآية محددة بمكان الحَرْث واستنبات الولد ، وهذا محله الأمام لا الخلف .

لذلك قال بعدها : ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ (١٦٦) ﴾ [الشعراء] والعادى هو الذى شُرع له شىء يقضى فيه إربته ، فتجاوزه إلى شىء آخر حرَّمه الشرع .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ (١٦٧) ﴾

أى : إن لم تنته عن ملامنا ومعارضتنا فيما نفعله من هذه العملية ﴿ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ (١٦٧) ﴾ [الشعراء] كما قالوا فى آية أخرى : ﴿ أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ .. (٥٦) ﴾ [النمل] أى : لا مكان لهم بيننا ، لكن لماذا ؟ ﴿ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٥٦) ﴾ [النمل] سبحان الله جريمتهم أنهم يتطهرون ، ولا مكان للطُّهْر بين هؤلاء القوم الأراذل .

ثم يقول الحق سبحانه عن لوط :

﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾﴾

وفرْقٌ بين كونى لا أعمل العمل ، وكوْنى أكره مَنْ يعمله ، فالمعنى : أنا لا أعمل هذا العمل ، إنما أيضاً أكره مَنْ يعمله ، وهذا مبالغة فى إنكاره عليهم .

ثم يقول لوط :

﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٧١﴾﴾

لم يملك لوط عليه السلام أمام عناد قومه وإصرارهم على هذه الفاحشة إلا أنْ يدعو ربَّه بالنجاة له ولأهله ، فأجابه الله تعالى ﴿إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٧١﴾﴾ [الشعراء]

والمراد : امرأته التى قال الله فى حقها : ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ .. ﴿١٠﴾﴾ [التحريم]

فجعلها الله ـ عز وجل ـ مثالاً للكفر والعياذ بالله ؛ لذلك لم تكُنْ من الناجين ، ولم تشملها دعوة لوط عليه السلام ، وكانت من الغابرين[1] . يعنى : الهالكين .

﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾﴾

﴿الْآخَرِينَ ﴿١٧٢﴾﴾ [الشعراء] أى : الذين لم يؤمنوا بدعوته ، ولم

---

(١) عن قتادة قال : غبرت فى عذاب الله . أى : بقيت [تفسير القرطبى ٥٠١٣/٧] .

ينتهوا عن هذه الفاحشة ، ثم بيَّن نوعية هذا التدمير ، فقال ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ (١٧٣)﴾ [الشعراء] ولما كان المطر من أسباب الخير وعلامات الرحمة ، حيث ينزل الماء من السماء ، فيُحيي الأرض بعد موتها ، وصف الله هذا المطر بأنه ﴿فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ (١٧٣)﴾ [الشعراء] فهو ليس مطرَ خَيْر ورحمة ، إنما مطر عذاب ونقمة .

كما جاء في آية أخرى : ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَـٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا .. (٢٥)﴾ [الأحقاف]

وهذا يُسمُّونه (يأس بعد إطماع) ، وهو أبلغ في العذاب والإيلام ، حين تستشرف للخير فيُفاجئك الشر ، وسبق أنْ أوضحنا هذه المسألة بالسجين الذي يطلب من الحارس شَرْبة ماء ، ليروى بها عطشه ، فلو حرمه الحارس من البداية لكانَ الأمر هيِّناً لكنه يحضر له كوب الماء ، حتى إذا جعله على فيه أراقه على الأرض ، فهذا أشد وأنكَى ؛ لأنه حرمه بعد أن أطمعه ، وهذا عذاب آخر فوق عذاب العطش .

وفي لقطة أخرى بيَّن ماهية هذا المطر ، فقال : ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ (٨٢) مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ (٨٣)﴾ [هود]

فالحجارة من ﴿سِجِّيلٍ .. (٨٢)﴾ [هود] أي : طين حُرق حتى تحجَّر وهي ﴿مُسَوَّمَةً .. (٨٣)﴾ [هود] يعني : مُعلَّمة بأسماء أصحابها ، تنزل عليهم بانتظام ، كل حجر منها على صاحبه .

وبجمع اللقطات المتفرقة تتبين معالم القصة كاملة .

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٧٤) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٧٥)﴾

وتُختم القصة بنفس الآيات التى خُتِمتْ بها القصص السابقة من قصص المكذِّبين المعاندين .

ثم ينقلنا الحق سبحانه إلى قوم آخرين كذبوا رسولهم شعيباً :

﴿ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ ﴾ (١)

الأيكة : هى المكان الخصْب الذى بلغ من خصوبته أنْ تلتفّ أشجاره ، وتتشابك أغصانها ، وقال هنا أيضاً ﴿ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ ﴾ [الشعراء] مع أنهم ما كذَّبوا إلا رسولهم ؛ لأن تكذيب رسول واحد كتكذيب كُلِّ الرسل ؛ لأنهم جميعاً جاءوا بمنهج واحد فى العقيدة والأخلاق .

﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ﴾ (٢)

---

(١) ذهب ابن كثير فى تفسيره (٣/٣٤٥) أن أصحاب الأيكة ، وأصحاب الرس ، وأهل مدين أمة واحدة بُعث لها رسول واحد هو شعيب عليه السلام ، قال : « من الناس من لم يفطن لهذه النكتة ، فظن أن أصحاب الأيكة غير أهل مدين فزعم أن شعيباً بعثه الله إلى أمتين ومنهم من قال ثلاث أمم » ثم قال « والصحيح أنهم أمة واحدة وُصفوا فى كل مقام بشىء ، ولهذا وعظ هؤلاء وأمرهم بوفاء المكيال والميزان كما فى قصة مدين سواء بسواء ، فدلّ ذلك على أنهما أمة واحدة » .

(٢) قال ابن كثير فى تفسيره (٣/٣٤٥) : « إنما لم يقل ههنا أخوهم شعيب لأنهم نسبوا إلى عبادة الأيكة وهى شجرة .. فقطع نسب الأخوة بينهم للمعنى الذى نسبوا إليه وإن كان أخاهم نسباً » أما رأى القرطبى فهو مبنى على أن أصحاب الأيكة غير أهل مدين ، فليسوا أمة واحدة ، فقال : « لم يقل أخوهم شعيب ، لأنه لم يكن أخاً لأصحاب الأيكة فى النسب » [تفسير القرطبى ٧/٥٠١٥] .

نلحظ اختلاف الأسلوب هنا ، مما يدل على دِقَّة الأداء القرآنى ، فلم يقل : أخوهم شعيب ، كما قال فى نوح وهود وصالح ولوط ، ذلك لأن شعيباً عليه السلام لم يكن من أصحاب الأيكة ، إنما كان غريباً عنهم .

وباقى الآيات متفقة تماماً مع مَنْ سبقه من إخوانه الرسل ؛ لأن الوحدة فى المنهج العقدى أنتجتْ الوحدة فى علاج المنهج ؛ لذلك قرأنا هذه الآيات عند كل الرسل الذين سبق ذكرهم .

ثم يأخذ فى تفصيل الأمر الخاص بهم ؛ لأن كل أمة من الأمم التى جاءها رسول من عند الله إنما جاء ليعالج داءً خاصاً تفشَّى بها ، وكانت الأمم من قبل منعزلةً ، بعضها عن بعض ، ولا يوجد بينها وسائل اتصال تنقل هذه الداءات من أمة لأخرى .

فهؤلاء قوم عاد ، وكان داءَهم التفاخُرُ بالبناء والتعالى على الناس ، فجاء هود ـ عليه السلام ـ ليقول لهم :

﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩) وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (١٣٠)﴾ [الشعراء]

وثمود كان داءهم الغفلةُ والانصراف بالنعمة عن المُنْعِم ، فجاء صالح ـ عليه السلام ـ يقول لهم : ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ (١٤٦) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٤٧) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ (١٤٨) وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ (١٤٩)﴾ [الشعراء]

أما قوم لوط ـ عليه السلام ـ فقد تفرَّدوا بفاحشة لم يسبقهم إليها أحد من العالمين ، وهى إتيان الذكْران ، فجاء لوط ـ عليه السلام ـ ليمنعهم ويدعوهم إلى التوبة والإقلاع :

﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (١٦٥) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ (١٦٦)﴾ [الشعراء]

أما أصحاب الأيكة ، فكان داءهم أنْ يُطفِّفوا المكيال والميزان ، فجاء شعيب ـ عليه السلام ـ ليقول لهم :

﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ (١٨١) وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ (١٨٢)﴾

الكيل : آلة تُقدّر بها الأشياء التى تُكال ، ووحدته : كَيْلة أو قَدح أو أردب . والميزان كذلك : آلة يُقدَّر بها ما يُوزَن .

ومعنى ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ (١٨١)﴾ [الشعراء] المخسر : هو الذى يتسبب فى خسارة الطرف الآخر فى مسألة الكيل ، بأن يأخذ بالزيادة ، وإنْ أعطى يُعطِى بالنقصان . وفى الوزن قال ﴿بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ .. (١٨٢)﴾ [الشعراء]

والقسطاس : يعنى العدل المطلق فى قدرة البشر وإمكاناتهم فى تحرِّى الدّقّة فى الوزن ، مع مراعاة اختلاف الموزونات ، فوزن الذهب غير وزن التفاح مثلاً ، غير وزن العدس أو السمسم ، فعليك أنْ تتحرّى الدقة قَدْر إمكانك ، لتحقق هذا القسطاس المستقيم .

لكن ، لماذا خصَّ الكيل والوزن من وسائل التقدير والتقييم ، ولم يذكر مثلاً القياس فى المساحات والمسافات بالمتر أو بالذراع ؟

قالوا : لأن الناس قديماً ـ وكانت أمماً بدائية ـ لا تتعامل فيما يُقاس ، فلا يشترون القماش مثلاً ؛ لأنه كان يُغزل ، تغزله النساء

ويغزله الرجال ، ولم يكُنْ أحد يغزل لأحد أو يبيع له ، فهذه صورة حضارية رأيناها فيما بعد .

وقديماً ، كان الناس يتعاملون بالتبادل والمقايضة ، وفى هذه الحالة لا يوجد بائع على حدَة ولا مُشْتر على حدَة ، فلا يتفرد البائع بالبيع ، والمشترى بالشراء ، إلا فى حالَة مبادلةَ السلعة بثمن ، كما قال تعالى : ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ .. ﴿٢٠﴾ ﴾ [يوسف] أى : باعوه .

أما فى حالة المقايضة ، فأنت تأخذ القمح تأكله ، وأنا آخذ التمر آكله ، فالانتفاع هنا انتفاع مباشر بالسلعة ، فإنْ قدَّرْتَ أن كل واحد فى الصفقة بائع ومشتر . تقول : شرَى وباع . وإنْ قدَّرْت الأثمان التى لا ينتفع بها انتفاعاً مباشراً كالذهب والفضة ، أو أى معدن آخر ، وهذه الأشياء لا تؤكل فهى ثمن ، أمّا الأشياء الأخرى فصالحة أنْ تكون سلعة ، وصالحة لأنْ تكون ثمناً .

وقد أفرد القرآن الكريم سورة مخصوصة لمسألة الكيل والميزان هى « سورة المطففين » ، يقول سبحانه : ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [المطففين]

نقول : كال له يعنى : أعطاه ، واكتال عليه يعنى : أخذ منه . فإن أخذ أخذ وافياً ، وإنْ أعطى أعطى بالنقص والخسارة . والقرآن لا ينعى عليه أن يستوفى حقّه ، لكن ينعى عليه أن ينقص من حَقِّ الآخرين ، ولو شيئاً يسيراً .

فمعنى (المطففين) من الشىء الطفيف اليسير ، فإذا كان الويل لمن يظلم فى الشىء الطفيف ، فما بال مَنْ يظلم فى الكل ؟

فاللوم هنا لمَنْ يجمع بين هذين الأمرين : يأخذ بالزيادة ويُعطى بالنقص ، أما مَنْ يعطى بالزيادة فلا بأس ، وجزاؤه على الله ، وهو من المحسنين الذين قال الله فيهم : ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ .. (٩١)﴾ [التوبة]

ومع تطور المجتمعات بدأ الناس يهتمُّون بقياس دقة آلات الكيل والوزن والقياس ، فَوُجدت هيئات متخصصة فى معايرتها والتفتيش عليها ومتابعة دقّتها ؛ لأنها مع مرور الزمن عُرْضة للنقص أو الزيادة ، فمثلاً سنجة الحديد ـ التى نزن بها قد تزيد إنْ كانت فى مكان بحيث تتراكم عليها الزيوت والتراب ، وقد تنقص بالحركة مع مرور الوقت ، كما تنقص مثلاً أكرة الباب من كثرة الاستعمال ، فتراها لامعة ، ولمعانها دليل النقص ، وإنْ كان يسيراً .

وفى فرنسا ، نموذج لليارده وللمتر من معدن لا يتآكل ، جُعِلَتْ كمرجعٍ يُقاس عليه ، وتُضبط عليه آلات القياس .

ورأينا الآن آلات دقيقة جداً للوزن وللقياس ، تضمن لك منتهى الدقة ، خاصة فى وَزن الأشياء الثمينة ؛ لذلك نراهم يضعون الميزان الدقيق فى صندوق من الزجاج ، حتى لا تُؤثِّر فيه حركة الهواء من حوله .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (١) (١٨٣)﴾

البخس : النقص ، ومعنى ﴿أَشْيَاءَهُمْ .. (١٨٣)﴾ [الشعراء] حقوقهم

(١) عَثَا عثواً : أفسد أشد الإفساد . [القاموس القويم ٢/٧] .

إذن ، فالنقص من حَقِّ الغير ذنب ، وقد يكون البخس بأخْذ الشىء كله غَصْباً ، أو بالتصرف فيه دون أمر صاحبه ، أو على وجه لا يرضاه .

وهذا كله داخل فى ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ .. (١٨٣)﴾ [الشعراء] كل ما ينقص الحق بأخذه بإنقاص . أو غَصْب أو تصرّف على غير إرادة صاحبه فهو بَخْسٌ للشىء .

فكل ما ثبت أنه حق لغيرك إياك أنْ تعتدى عليه ، فالزكاة مثلاً حينما يقول ربك - عَزَّ وجَلَّ - : ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ (٢٤) لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (٢٥)﴾ [المعارج]

فما دام قد قيَّده الشرع ، فلا تبخس أنت حَقَّ الفقير ، لأنك حين تتأمل هذا الحق المعلوم الذى جعله الله من مالك للفقير ، تجد أنه وُضِع بحكمة تُراعِى مدى حركة المموِّل ، وما بذل من جهد ونفقات فى سبيل تنمية ماله ، حتى وجبتْ فيه الزكاة .

فكلما زادتْ حركتك قَلَّ مقدار الزكاة فى مالك ، فمثلاً الأرض التى تُسْقى بماء المطر فيها العُشْر ، والتى تُسْقى بآلة ونفقات فيها نصف العشر ، وفى عروض التجارة وتحتاج إلى حركة أكثر قال رُبْع العُشْر ، ذلك لأن الشارع الحكيم يريد للناس الحركة والسعى وتثمير الأموال ، حتى لا يأتى مَنْ يقول : كيف أسعى ويأخذ غيرى ثمرة سعيى ؟

والشارع حين كفل هذا الحق للفقراء ، فإنما يحمى به الفقراء والأغنياء على حَدٍّ سواء . وقد حدَّد الشارع هذا الحق ، حتى لا تزهد فى العطاء ، خاصة فى الزكاة .

إن منهج الله يريد أنْ يُصوِّب حركة الحياة من الأحياء ، يريد ألاَّ يجرى دم فى جسد إلا بخروج عَرق من هذا الجسد ، وألا يدخل دم

فى جسد من عـرق سواه ، وإلاَّ فسد المجـتمع ، وضَنَّ كل قادر على الحركة بحركـته ؛ لأنه لا يطمئن إلى ثمار حركتـه أنها لا تعود عليه ، أو أن غيره سيغتصبها منه بأىٍّ لون من ألوان الاغتصاب .

عندها يفـسد المـجتـمع ؛ لأن القوى القـادر سيـزهد فى الحـركة فيقعد ، والآخذ سيتـعوَّد البطالة والكسل والخمول ، ولماذا يعمل وما يجرى فى عـروقه من دمـاء من عمل غـيره ، وبمرور الوقـت يصعب عليه العمل ، وتثـقُل عليه الحركة ، فيركَنُ إلى ما نُسـمِّيه (بلطجى) فى الحياة ، يعيش عالة على غيره .

إذن : الحق ـ تبـارك وتعـالى ـ يريد أن يُطمـئِن كل إنسـان على حركـته فى الحياة وثمـرة سَعْيه ، فـلا يتلصص أحد على ثمرة حـياة الآخر ؛ لأنه إنْ كـان عاجـزاً عن الحركـة فقـد ضمن له ربُّه حـقاً فى حـركة الآخـرين تأتيـه إلى باب بيـته ، سـواء أكـانت زكاةً أم كـانت صدقة ؛ وبذلك تسلَم حركة الحياة للجميع .

لذلك أراد ـ سبـحانه وتعالى ـ أن يُعطـينا الموازين الدقيـقة التى تحفظ سلامة التعـامل بين الناس : فإنْ كلْتَ لغيرك فوفِّ الكيل ، وإنْ وزنتَ فوَفِّ الميزان ، واجعله بالقسطاس المستقيم ، ولا تبخس الناس حقوقهم بأى صورة من الصور .

ولا يقتـصر الأمـر على هذه المسـائل فحـسب ، إنما هى نـماذج للتعامل ، تستطيع القياس عليها فى كل أمور الـحياة فيما يُقَاس وفيما يُعَدُّ ، فى الأعمال وفى الصناعات .. إلخ .

إذن : فاحذر أنْ تتلصَّص على حقوق الآخـرين ، أو أن تبخسها ، بأىٍّ نوع من أنواع التسلُّط : غَصْـباً أو اختطافاً أو سرقةً أو اخـتلاساً أو رِشْوة .. إلخ .

وقلنا : إن السرقة أن تأخذ شيئاً من حرْزه فى غير وجود صاحبه ، والخطف يكون صاحب الشىء موجوداً ، لكنك تأخذه خَطْفاً وتفرّ به قبل أن يُمسك بك ، فإنْ أمسك بك فغالبْتَه وأخذتها رَغماً عنه فهى غَصْب ، أما الاختلاس فأنْ تأخذ من مالٍ أنت مؤتمَنٌ عليه ، ما لا يحقّ لك أخْذه .

فإذا علم كُلُّ متحرك فى الحياة أن ثمرة حركته تعود عليه ، وعلم كل غير متحرك أنه يموت جوعاً إنْ لم يعمل وهو قادر دبَّتْ الحركة فى كل الأحياء ، وهذا ما يريده الله تعالى لخليفته فى الأرض خاصة ، وقد خلق لنا سبحانه العقل الذى نفكر به ، والطاقة التى نعمل بها ، والمادة التى نستعين بها ، فكلُّ ما علينا أن نُوظّف هذه الإمكانات التى خلقها الله توظيفاً مثمراً .

ثم إنْ كانت الزكاة كحقٍّ معلومة محددة ، فهناك حَقٌّ آخر غير مُحدَّد ، فى قوله سبحانه : ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾﴾ [الذاريات] ولم يقل (معلوم) ؛ لأن المراد هنا الصدقة المطلقة ، وقد تركها الحق ـ تبارك وتعالى ـ ولم يُقيِّدها ليترك الباب مفتوحاً أمام أريحية المعطى ، ومدى كرمه وإحسانه ؛ لذلك جاءت هذه الآية فى سياق الحديث عن صفات المحسنين :

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ[1] ﴿١٧﴾ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾﴾ [الذاريات]

ولأن الحق هنا تفضُّل وزيادة تركه الشارع الحكيم دون تحديد .

وعجيب أن نرى أصحاب الأموال حين يُخرِج أحدهم رُبْع العشر

---

(١) الهجوع : النوم ليلاً . والتهجاع : النومة الخفيفة . [لسان العرب ـ مادة : هجع] .

مثلاً من ماله ، لا ينظر إلى ما تبقَّى له من رأس المال ، وهى نسبة ٩٧,٥٪ ، وينظر إلى حَقِّ الفقير وهو يسير ٢,٥٪ .

فنراه يحتال عليه فيُؤثِر به أقاربه أو معارفه ، أو يضعه بحيث يعفيه من حق آخر ، كالذى يعطى زكاته للخادمة مثلاً ، ليُرضى أمها حتى لا تأخذها من يده ، ومنهم مَنْ يضع أموال الزكاة فى بناء مسجد أو مدرسة أو مستشفى ؛ وهذا كله لا يجوز ؛ لأن مال الزكاة حَقٌّ للمستحقين المعروفين نصاً فى كتاب الله ، ولا يصح أنْ يُوجَّه مال الزكاة لشىء ينتفع به الغنى أبداً .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (١٨٣)﴾ [الشعراء] عثا : أى أفسد . فالمعنى : لا تُفسدوا فى الأرض ، فلماذا كرَّر الإفساد مرة أخرى فقال ﴿مُفْسِدِينَ (١٨٣)﴾ [الشعراء] ؟ قالوا : المراد : لا تعثَوْا فى الأرض حالةَ كونِكم مفسدين ، أو فى نيتكم الإفساد .

وليس فى الآية تكرار ؛ لأنه فرَّق بين إفساد شىء وأنت لا تقصد إفساده ، إنما حركتك فى الحياة أفسدتْه ، وبين أنْ تُفسد عن قصد وعَمْد للإفساد ، حتى لا نمنع العقول أن تفكر وتُجرِّب لتصلَ إلى الأفضل ، وتُثرى حركة الحياة ، فما دُمْتَ قد قصدتَ الصلاح ، فلا عليك إنْ أخطأتَ ؛ لأن ربك ـ عَزَّ وجَلَّ ـ يتولى تصحيح هذا الخطأ ، بل ويُعوِّضك عنه ، فمَنِ اجتهد فأخطأ فله أجر ، ومَنِ اجتهد فأصاب فله أجران[1]

---

(١) عن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ قال : « إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران ، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر » أخرجه البخارى فى صحيحه (٧٣٥٢) ، ومسلم فى صحيحه (١٧١٦) كتاب الأقضية .

إذن : المعنى : لا تُفسِدوا فى الأرض وأنتم تقصدون الإفساد ، لكن فكيف نُفسِد الأرض ؟ إن إفساد الأرض يعنى إفسادَ المتحرك عليها ؛ لأن الأرض خُلِقَتْ للإنسان﴿ وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ (١٠) ﴾[الرحمن]

وقد خلقها الله تعالى على هيئة الصلاح ، والإنسان هو الذى يُفسِدها ، بدليل أنك لا تجد الفساد إلا فيما للإنسان دَخْل فيه ، أما مَا لا تطوله يده ، فيظل على صلاحه ، وعلى استقامته وسلامته .

والإنسان الذى خلقه الله وجعله خليفة له فى أرضه طُلب منه عمارة هذه الأرض وزيادة صلاحها ، تحقيقاً لقول ربه عَزَّ وجَلَّ : ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ[1] فِيهَا .. (٦١) ﴾ [هود]

ولا يصلح أن نستعمر الأرض وهى خراب ، فإذا ما كَثُر النسل لا يقابل زيادة فى استثمار الأرض ، فتحدث الأزمات ، ولو أن استثمار الأرض وإصلاحها سار مع زيادة النسل فى خطين متوازيين لما شعر الناس بالحاجة والضيق ، ولما أحاطت بهم الأزمات .

والآن حين تسير فى الطريق الصحراوى مثلاً تجد المزارع فى الصحراء ، وتجد القرى الجديدة تحولت فيها الأرض الجرداء إلى خضرة ونماء ، فأين كانت هذه الثورة ؟ لقد كنا كُسالى وفى غفلة حتى عَضَّنا الجوع ، وضاقتْ بنا الأرض الخضراء فى الوادى والدلتا .

وإذا لم يُصلِح الإنسان فى الأرض فلا أقلَّ من أنْ يتركها على حالها الذى خلقها الله عليه . لكن رأينا الإنسان يُفسد الماء ويُلوثه

---

(١) أى : أذن لكم فى عمارتها واستخراج قوتكم منها وجعلكم عُمَّارها . وأعمره المكان واستعمره فيه : جعله يعمره . [لسان العرب ـ مادة : عمر] .

حين يصرف فيه مُخلَّفاته ويُفسد الهواء بعادم السيارات والمصانع ، ويُفسد التربة بالكيماويات والمبيدات ، وكل هذا الإفساد خروج عن الطبيعة الصافية التى خلقها الله لنا ؛ ذلك لأننا نظرنا إلى النفع العاجل ، وأغفلنا الضرر الآجل .

لقد خلق الله لنا وسائل الركوب والانتقال ، وجعلها آمنة لا ضررَ منها : ﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً .. ﴿٨﴾ ﴾ [النحل]

وقال : ﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ..﴿٧﴾ ﴾ [النحل] نعم ، وسائل النقل الحديث أسرع ، وأراحتْ هذه المواشى ، لكنها أتعبتْ الإنسان الذى خلق الله الكون كله لراحته . فترى الرجل يركب سيارته وكل هَمَّه أنْ يُسرِع بها دون أنْ يهتم بضبطها وصيانتها ، فينطلق بها مُخلِّفاً سحابة من الدخان السَّام الذى يؤذى الناس ، أما هو فغير مكترث بشىء ؛ لأن الدخان خلفه لا يشعر به .

لكن ، احذر جيداً ، إن ربك ـ عز وجل ـ قيوم لا يغفل ولا ينام ، وكما تدين تُدان فى نفسك ، أو فى أولادك .

كذلك قبل أن نركب السيارات ونُسرِع بها يجب أنْ نُمهِّد لها الطرق حتى لا تثير الغبار فى وجوه الناس ، وتؤذى تنفسهم ، بل وتؤذى الزرع أيضاً ، كل هذه وُجوه للإفساد فى الأرض ؛ لأننا ندرس عاجلَ النفع ولا ندرس آجل الضرر .

وعليك حين تجتهد أنْ تجتهد بمقدِّمات سليمة ، لتصل إلى النتائج السليمة ، ولا تكُنْ من المفسدين فى الأرض .

ومن الإفساد فى الأرض قَطْع الطريق ، وهو أن المتلصِّص يقيم فى مكانه يرصُد ضحيته إلى أن تمر به ، والإغارة وهى أنْ يذهب المغير إلى المغَار عليه فى مَأْمنه ، فيسلبه ماله .

ومن الإفساد فى الأرض الرِّشْوة ، وهى من أنكَى النكبات التى بُلِى بها المجتمع ، وهى تُولِّد التسيّب وعدم الانضباط ، فحين ترى غيرك يستغلك ، ويستحلّ مالك دون حق ، تعامله وتعامل غيره نفس المعاملة ، فتصير الأمور فى الأجهزة والمصالح إلى فوضى لا يعلم مداها إلا الله .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ ﴾ (١)

فإياك أن تظن أن الله تعالى خلقنا عبثاً ، أو يتركنا هملاً ، إنما خلقنا لمهمة فى الكون ، وجعلنا جميعاً عبيداً بالنسبة له سواء ، فلم يُحَابِ منا أحداً على أحد ، وليس عنده سبحانه مراكز قوى ؛ لذلك لم يتخذ صاحبة ولا ولداً .

ولأننا جميعاً أمامه سبحانه سواء وهو خالقنا ، فقد تكفّل لنا بالرزق ورعاية المصالح ، فَمن ابتلاه الله بالعجز عن الحركة فتحركْتَ أنت لقضاء مصالحه ، لا بُدَّ أن ينظر الله إليك بعين البركة والمضاعفة .

فالمعوَّق والفقير بحقٍّ ـ لا الذى يتخذها مهنة وحرفة يرتزق بها ـ هذا الفقير وهذا المعوَّق هم خَلْق الله وأهل بلائه ، فحين تعطيه من

---

(١) قال مجاهد : الجبلة هى الخليقة . وجُبِل فلان على كذا أى خُلِق . قال الهروى : هو الجمع ذو العدد الكثير من الناس . [تفسير القرطبى ٥٠١٦/٧] .

ثمرة حركتك أنت ، وتذهب إليه وهو مطمئن فى بيته ، أنت بهذا العمل إنما تستتر على الله بلاءه ، وتكون يد الله التى يرزق بها هؤلاء ، وعندها لا بُدَّ أن يحبك الفقير ، وأنْ يدعو لك بالخير والبركة والزيادة والأَجْر والعافية والثواب ، ويعلم أن الله خلقه ولم يُسلمه .

أمّا إنْ ضَنَّ الغنىُّ الواجد على الفقير المعدَم ، وتخلى عن أهل البلاء ، فلا بُدَّ أنْ يسخط الفقير على الغنى ، بل يسخط على الله - والعياذ بالله - لأنه ما ذنبه أن يكون فقيراً ، وغيره غنىٌّ فى مجتمع لا يرحم .

وعجيب أن نرى مُبتلىً يُظهر بلواه للناس ، بل ويستغلها فى ابتزازهم ، فيُظهر لهم إعاقته ، كأنه يشكو الخالق للخَلْق ، ولو أنه ستر على الله بلاءه وعلم أنه نعمة أنعم الله بها عليه لَسخَّر الله له عافية غير المبتلى ، ولجاءه رزقه على باب بيته ، فلو رَضِى أهل البلاء لأعطاهم الله على قَدْر ما ابتلاهم .

فمعنى : ﴿ وَاتَّقُوا الَّذِى خَلَقَكُمْ .. (١٨٤) ﴾ [الشعراء] أى : احذروا جبروته ؛ لأنه خلقكم ، وضمن لكم الأرزاق ، وضمن لكم قضاء الحاجات ، حتى العاجز عن الحركة سخَّر له القادر ، وجعل للغنى شرطاً فى إيمانه أنْ يُعطى جزءاً من سَعْيه للفقير ، ويُوصِّله إليه وهو مطمئن .

ومعنى : ﴿ وَالْجِبِلَّةَ الأَوَّلِينَ (١٨٤) ﴾ [الشعراء] الجبلة من الجبَل ، وكان له دور فى حياة العربى ، وعليه تدور الكثير من تعبيراتهم ، ففيه صفات الفخامة والعظمة والرسوخ والثبات ، فاشتقوا من الجبل (الجبلّة) وتعنى الملازمة والثبات على الشىء .

ومن ذلك نقول : فلان مجبول على الخير يعنى : ملازم له لا يفارقه ، وفلان كالجبل لا تزحزحه الأحداث ، والعامة تقول : فلان

جِبلَّة يعنى : ثقيل على النفس ، وقد يزيد فيقول : (مال جبلّتك وارمة) مبالغة فى الوصف .

حتى أن بعض الشعراء يمدح ممدوحه بأنه ثابت كالجبل ، حتى بعد موته ، فيقول عن ممدوحه وقد حملوه فى نعشه :

مَا كنتُ أَحْسَبُ قَبْل نَعْشِكَ أنْ أَرَى رَضْوى[1] علَى أيدى الرجَالِ يَسِير

ورَضْوى جبل اشْتُهر بين العرب بضخامته .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلاًّ كَثِيراً .. (٦٢) ﴾ [يس]

ومعنى : ﴿ والْجِبِلَّةَ الأَوَّلِينَ (١٨٤) ﴾ [الشعراء] أى : الناس السابقين الذين جُبِلوا على العناد وتكذيب الرسُل ، فالله خلقكم وخلقهم ، وقد رأيتُم ما فعل الله بهم لما كذَّبوا رسُله ، لقد كتب الله النصر لرسله والهزيمة لمن كذّبهم ، فهؤلاء الذين سبقوكم من الأمم جُبِلوا على التكذيب ، وكانوا ثابتين عليه لم يُزحزحهم عن التكذيب شىء ، فاحذروا أن تكونوا مثلهم فينزل بكم ما نزل بهم . فماذا كان ردّهم ؟

﴿ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ (١٨٥) ﴾

قلنا : إن مُسحَّر : أى سحّره غيره ، وهى صيغة مبالغة للدلالة على حدوث السحر ووقوعه عليه أكثر من مرة ، فلو سُحِر مرة واحدة لَقُلْنا : مسحور والمعنى : أنك مختَلُّ العقل والتفكير ، مجنون ، لن نسمع لك .

﴿ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ (١٨٦) ﴾

---

(١) رضوى : جبل بالمدينة . [لسان العرب ـ مادة : رضى] .

وما دُمْت أنت بشراً مثلنا ، ولم تتميز عنَّا بشىء ، فكيف تكون رسولاً ؟ ثم ﴿وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (١٨٦)﴾ [الشعراء] أى : وما نظنك إلا كذاباً ، كالذين سبقوك .

﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٨٧)﴾ (١)

أى : إنْ كنتَ صادقاً ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ .. (١٨٧)﴾ [الشعراء] يطلبون العذاب ويستعجلونه ، كما قال سبحانه فى آية أخرى : ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا(٢) عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٢)﴾ [الأحقاف]

ومن العجيب حين ينزل بهم العذاب يقولون انظرنا ، كيف وأنتم الذين استعجلتم العذاب ؟

ومعنى ﴿كِسَفًا .. (١٨٧)﴾ [الشعراء] مفردها كِسْفة ، مثل قِطَع وقطعة ، وقد وردتْ هذه الكلمة على ألسنة كثير من المكذِّبين ، وقالها الكفار للنبى محمد ﷺ : ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا (٩٢)﴾ [الإسراء]

---

(١) أى : جانباً من السماء وقطعة منها ، فننظر إليه . قال الجوهرى : الكسفة القطعة من الشىء [تفسير القرطبى ٥٠١٦/٧] .

(٢) أى : أجئتنا لتصرفنا وتصدنا . والأفَّاك : الذى يأفك الناس أى : يصدهم عن الحق بباطله . [لسان العرب ـ مادة : أفك] .

وقالوا ﴿ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢) ﴾ [الأنفال]

وكان عليهم أن يقولوا : اللهم إنْ كان هذا هو الحقّ من عندك فاهْدِنا إليه ، وهذا يدلُّك على حُمْقهم وعنادهم .

﴿ قَالَ رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨٨) ﴾

فهو سبحانه العليم بكم : إنْ كنتم أهلاً للتوبة والندم والأمل ، أنْ تتوبوا فلن يصيبكم العذاب ، أو كنتم مُصرِّين على العصيان والتكذيب ، فسوف يصيبكم عذاب الهلاك والاستئصال ، فأنا لن أحكمَ عليكم بشىء ؛ لأننى بشر مثلكم لا أعرف ما فى نياتكم ؛ لذلك سأكلُ أمركم إلى ربكم - عز وجل - الذى يعلم أمرى وأمركم ، وسِرِّى وسرَّكم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٨٩) ﴾

فكيف يُكذِّبونه ، وهو لم ينسب الأمر لنفسه ، ووكلهم إلى ربهم إذن : فهم لا يُكذِّبونه إنما يُكذِّبون الله ؛ لذلك يأتى الجزاء : ﴿ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ .. (١٨٩) ﴾ [الشعراء]

وهو عذاب يوم مشهود ، حيث سلط الله عليهم الحرارة الشديدة سبعة أيام ، عاشوها فى قيظ شديد ، وقد حجز الله عنهم الريح إلا بمقدار ما يُبقى رَمَق الحياة فيهم ، حتى اشتد عليهم الأمر وحميَتْ من تحتهم الرمال ، فراحوا يلتمسون شيئاً يُروِّح عنهم ، فرأوا غمامة

قادمة فى جو السماء فاستشرفوا لها وظنوها تخفف عنهم حرارة الشمس ، وتُروِّح عن نفوسهم ، فلما استظلُّوا بها ينتظرون الراحة والطمأنينة عاجلتهم بالنار تسقط عليهم كالمطر .

على حَدِّ قوْل الشاعر :

كَمَا أمطَرتْ يَوْماً ظماءً غمامةٌ فلمَّا رَأَوْهَا أقشعَتْ وتجلَّت[1]

ويا ليت هذه السحابة أقشعت وتركتهم على حالهم ، إنما قذفتهم بالنار والحُمَم من فوقهم ، فزادتهم عذاباً على عذابهم .

كما قال سبحانه فى آية أخرى :

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا[2] مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَـٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ .. (٢٥)﴾ [الأحقاف]

لذلك وصف الله عذاب هذا اليوم بأنه ﴿إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٨٩)﴾ [الشعراء] فما وَجْه عظمته وهو عذاب ؟ قالوا : لأنه جاء بعد استبشار واسترواح وأمل فى الراحة ، ففاجأهم ما زادهم عذاباً ، وهذا ما نسميه « يأس بعد إطماع » وهو أنكَى فى التعذيب وأشقّ على النفوس .

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٩٠)﴾

قوله سبحانه : ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ .. (١٩٠)﴾ [الشعراء] أى : فما حدثتكم به ﴿لَآيَةً .. (١٩٠)﴾ [الشعراء] يعنى : عبرة ، وسُمِّيَتْ كذلك لأنها تعبر

---

(١) انقشع السحاب وتقشَّع : ذهب عن وجه السماء . وانقشع الغيم وتقشَّع وقشعته الريح ، أى : كشفته فانقشع . [لسان العرب ـ مادة : قشع] .

(٢) العارض : السحابة إذا كانت فى ناحية من السماء ، والعارض يكون أبيض اللون . [لسان العرب ـ مادة : عرض] .

بصاحبها من حال إلى حال ، فإنْ كان مُكذباً آمن وصدق ، وإن كان معانداً لاَنَ للحق وأطاع .

وما قصصتُه عليكم من مواكب الرسل وأقوامهم ، وهذا الموكب يضم سبعة من رسل الله مع أممهم : موسى ، وإبراهيم ، ونوح ، وهود ، وصالح ، ولوط ، وشعيب عليهم جميعاً وعلى نبينا السلام ، وقد مضى هذا الموكب على سنة لله ثابتة لا تتخلف ، هى : أن ينصر الله ـ عز وجل ـ رسله والمؤمنين معهم ، ويخذل الكافرين المكذِّبين .

فلتأخذوا يا آل محمد من هذا الموكب عبرة ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً .. (١٩٠)﴾ [الشعراء] يعنى عبرةً لكم ، وسُمِّيتْ عبرة ؛ لأنها تعبر بصاحبها من حال إلى حال ، فإنْ كان مُكذِّباً آمن وصدَّق ، وإنْ كان معانداً لاَنَ للحق وأطاع ، وقد رأيتم أننا لم نُسْلِم رسولاً من رسلنا للمكذبين به ، وكانت سنتنا فى الرسل أن ننصرهم .

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢)﴾ [الصافات]

وقال : ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣)﴾ [الصافات]

ومن العبرة نقول : عبر الطريق يعنى : انتقل من جانب إلى جانب ، والعبرة هنا أن ننتقل من التكذيب واللدَد والجحود والكبرياء إلى الإيمان والتصديق والطاعة ، حتى العَبرة (الدَّمْعة) مأخوذة من هذا المعنى .

وفى قوله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٩٠)﴾ [الشعراء] حماية واحتراس حتى لا نهضم حق القلَّة التى آمنت[1] .

---

(١) قيل : آمن بشعيب من الفئتين (أهل مدين ، أصحاب الأيكة) تسعمائة نفر . [نقله القرطبى فى تفسيره ٥٠١٨/٧] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾ ﴾

ربك : الرب هو المتولِّى الرعاية والتربية . وبهذه الخاتمة خُتمتْ جميع القصص السابقة ، ومع ما حدث منهم من تكذيب تُختم بهذه الخاتمة الدَّالة على العزة والرحمة .

ثم ينتقل السياق إلى خاتم المرسلين سيدنا محمد ﷺ بعد أنْ قدَّم لنا العبرة والعظة فى موكب الرسل السابقين ، فيقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ ﴾

﴿ وَإِنَّهُ .. ﴿١٩٢﴾ ﴾ [الشعراء] على أىِّ شىء يعود هذا الضمير ؟ المفروض أن يسبقه مرجع يرجع إليه هذا الضمير وهو لم يُسبَق بشىء . تقول : جاءنى رجل فأكرمتُه فيعود ضمير الغائب فى أكرمته على (رجل)

وكما فى قوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ﴾ [الإخلاص] فالضمير هنا يعود على لفظ الجلالة ، مع أنه متأخر عنه ، ذلك لاستحضار عظمته تعالى فى النفس فلا تغيب .

كذلك ﴿ إِنَّهُ .. ﴿١٩٢﴾ ﴾ [الشعراء] أى : القرآن الكريم وعرفناه من قوله سبحانه : ﴿ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ ﴾ [الشعراء] وقُدِّم الضمير على مرجعه لشهرته وعدم انصراف الذِّهْن إلا إليه ، فحين تقول ﴿ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ﴾ [الإخلاص] لا ينصرف إلا إلى الله ، ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ ﴾ [الشعراء] لا ينصرف إلا إلى القرآن الكريم[1] .

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٣/٣٤٧) : « (وَإِنَّهُ) أى القرآن الذى تقدم ذكره فى أول السورة فى قوله ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ .. ﴿٥﴾ ﴾ [الشعراء] » .

وقال ﴿لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢)﴾ [الشعراء]

أى : أنه كلام الله لم أقلْهُ من عندى ، خاصة وأن رسول الله ﷺ لم يسبق له أنْ وقف خطيباً فى قومه ، ولم يُعرف عنه قبل الرسالة أنه خطيب أو صاحب قَوْل .

إذن : فهو بمقاييس الدنيا دونكم فى هذه المسألة ، فإذا كان ما جاء به من عنده فلماذا لم تأتُوا بمثله ؟ وأنتم أصحاب تجربة فى القول والخطابة فى عكاظ وذى المجاز وذى المجنة ، فإن كان محمد قد افترى القرآن فأنتم أقدر على الافتراء ؛ لأنكم أهل دُرْبة فى هذه المسألة .

و ﴿الْعَالَمِينَ (١٩٢)﴾ [الشعراء] : كل ما سوى الله عزَّ وجلَّ ؛ لذلك كان ﷺ رحمة للعالمين للإنس وللجن وللملائكة وغيرها من العوالم .

لذلك لما نزلت : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٠٧)﴾ [الأنبياء] سأل سيدنا رسول الله جبريل عليه السلام : « أما لك من هذه الرحمة شىء يا أخى يا جبريل ؟» فقال : نعم ، كنت أخشى سوء العاقبة كإبليس ، فلما أنزل الله عليك قوله : ﴿ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى الْعَرْشِ مَكِينٍ (٢٠)﴾ [التكوير] أمنْتُ العاقبة ، فتلك هى الرحمة التى نالتنى .

وليس القرآن وحده تنزيلَ رب العالمين ، إنما كل الكتب السابقة السماوية كانت تنزيلَ رب العالمين ، لكن الفرق بين القرآن والكتب السابقة أنها كانت تأتى بمنهج الرسول فقط ، ثم تكون له معجزة فى أمر آخر تثبت صِدْقه فى البلاغ عن الله .

فموسى عليه السلام كان كتابه التوراة ، ومعجزته العصا ، وعيسى عليه السلام كان كتابه الإنجيل ، ومعجزته إبراء الأكمه والأبرص بإذن الله ، أما محمد ﷺ فكان كتابه ومنهجه القرآن ومعجزته أيضاً ، فالمعجزة هى عَيْن المنهج . فلماذا ؟

قالوا : لأن القرآن جاء منهجاً للناس كافّةً فى الزمان وفى المكان فلا بد - إذن - أن يكون المنهج هو عَيْن المعجزة ، والمعجزة هى عَيْن المنهج ، وما دام الأمر كذلك فلا يصنع هذه المعجزة إلا الله ، فهو تنزيل رب العالمين .

أما الكتب السابقة فقد كانت لأمة بعينها فى فترة محددة من الزمن ، وقد نزلتْ هذه الكتب بمعناها لا بنصِّها ؛ لذلك عيسى - عليه السلام - يقول : « سأجعل كلامى فى فمه »[1] أى : أن كلام الله سيكون فى فم الرسول بنصِّه ومعناه من عند الله ، وما دام بنصِّه من عند الله فهو تنزيل رب العالمين .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ ﴾

كان من الممكن أن يكون الوحى من عند الله إلهاماً أو نَفْثاً فى الرَّوْع ؛ لذلك قال تعالى بعدها : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ ﴾ [الشعراء] إذن : الأمر ليس نَفْثاً فى رَوْع رسول الله بحكم ما ، إنما يأتيه روح القُدُس وأمين الوحى يقول له : قال الله كذا وكذا .

---

(١) أصل هذه البشارة برسول الله ﷺ فى التوراة (العهد القديم) المنزّل على موسى : « أقيم لهم نبياً من وسط إخوتهم مثلك وأجعل كلامى فى فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به ، ويكون أن الإنسان الذى لا يسمع لكلامى الذى يتكلم به باسمى أنا أطالبه » [سفر التثنية - الأصحاح ١٨ - عدد ١٨ ، ١٩] . قال رحمت الله الهندى فى « إظهار الحق » ص ٥١٠ « هو إشارة إلى أن ذلك النبى سينزل عليه الكتاب ، وإلى أنه سيكون أمياً حافظاً للكلام » .

لذلك لم يثبت القرآن إلا بطريق الوحى ، بواسطة جبريل عليه السلام ، فيأتيه الملَك ؛ ولذلك علامات يعرفها ويحسّها ، ويتفصّد جبينه منه عرقاً ، ثم يُسرِّى عنه ، وهذه كلها علامات حضور الملَك ومباشرته لرسول الله ، هذا هو الوحى ، أمَّا مجرد الإلهام أو النَّفْث فى الرَّوْع فلا يثبت به وَحْى .

لذلك كان جلساء رسول الله يعرفونه ساعة يأتيه الوحى ، وكانوا يسمعون فوق رأسه ﷺ كدوىّ النحل[1] أثناء نزول القرآن عليه ، وكان الأمر يثقل على رسول الله ، حتى إنه إنْ أسند فَخذه على أحد الصحابة أثناء الوحى يشعر الصحابى بثقلها كأنها جبلَ[2] ، وإذا نزل الوحى ورسول الله على دابته يثقل عليها حتى تنخّ به[3] ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ۝٥﴾ [المزمل]

ولم تهدأ مشقَّة الوحى على رسول الله إلا بعد أنْ فتَر عنه الوحى ، وانقطع فترة حتى تشوَّق له رسول الله ﷺ وانتظره ، وبعدها نزل عليه قوله تعالى : ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾ [الشرح]

---

(١) عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه كان يقول : « كان إذا نزل على رسول الله ﷺ الوحى يُسمع عند وجهه دوىّ كدوىِّ النحل » . أخرجه أحمد فى مسنده (١/٣٤) .

(٢) ذكر البخارى فى صحيحه ـ كتاب الصلاة ، باب ما يذكر فى الفخذ (١٢) قول زيد بن ثابت كاتب الوحى رضى الله عنه موقوفاً عليه : أنزل الله على رسوله ﷺ وفخذه على فخذى ، فثقلت علىَّ حتى خفت أن تُرضَّ فخذى (فتح البارى ١/٤٧٨) . وقال ابن حجر : هو طرف من حديث موصول عند البخارى فى تفسير سورة النساء فى نزول قوله تعالى : ﴿لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ .. ۝٩٥﴾ [النساء] (أخرجه البخارى فى صحيحه ـ ٤٥٩٢) .

(٣) عن أسماء بنت يزيد قالت : « إنى لآخذة بزمام العضباء ناقة رسول الله إذ أنزلت عليه (سورة) المائدة كلها ، فكادت من ثقلها تدق بعضد الناقة » أخرجه أحمد فى مسنده (٦/٤٥٥) .

ونزلت عليه : ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝٤﴾ [الضحى]

يعنى : سيعاودك الوحى فى سهولة ودون مشقَّة ، ولن تتعب فى تلقيه ، كما كنتَ تعانى من قبل .

وقوله تعالى ﴿نَزَلَ .. ۝١٩٣﴾ [الشعراء] تفيد العلو ، وأن القرآن نزل من أعلى من عند الله ، ليس من وضع بشر يخطىء ويصيب ويجهل المصلحة ، كما نرى فى القوانين الوضعية التى تُعدَّل كل يوم ، ولا تتناسب ومقتضيات التطور ، والتى يظهر عُوَارها يوماً بعد يوم .

ولأن القرآن نزل من أعلى فيجب علينا أن نستقبله استقبالَ الواثقِ فيه المطمئن به ، لا نعانده ، ولا نتكبر عليه ؛ لأنك تتكبر على مساوٍ لك ، أمّا ما جاءك من أعلى فيلزمك الانقياد له ، عن اقتناع .

وفى الريف نسمعهم يقولون (اللى الشرع يقطع صباعه ميخرش دم) لماذا ؟ لأنه قُطِع بأمر الأعلى منك ، بأمر الله ، لا بأمر واحد مثلك .

وحين نتأمل قوله تعالى فى التشريع لحكم من الأحكام : ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ .. ۝١٥١﴾ [الأنعام]

كلمة (تعالوا) تعنى : اتركوا حضيض تشريع الأرض ، وأَقْبلوا على رِفْعة تشريع السماء ، فتعالوا أىْ : تعلَّوا وارتفعوا ، لا تهبطوا إلى مستوى الأرض ، وإلا تعبتُم وعضَّتكم الأحداث ؛ لأن الذى يُشرِّع لكم بشر أمثالكم وإنْ كانوا حتى حَسَنى النية ، فهم لا يعلمون حقائق الأمور ، فإنْ أصابوا فى شىء أخطأوا فى أشياء ، وسوف تُضطرون

لتغيير هذه التشريعات وتعديلها . إذن : فالأسلم لكم أنْ تأخذوا من الأعلى ؛ لأنه سبحانه العليم بما يُصلحكم .

إذن : ﴿نَزَلَ .. (١٩٣)﴾ [الشعراء] تفيد أنه من الأعلى من مصدر الخير ، حتى الحديد وهو من نعَم الله ، لما تكلم عنه قال سبحانه : ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ .. (٢٥)﴾ [الحديد]

ولم يَقُلْ مثلاً : أنزلنا الألماظ أو الألماس ، أو غيره من المعادن النفيسة ، لماذا ؟ لأن الحديد أداة من أدوات نُصْرة الدعوة وإعلاء كلمة الله .

وسُمِّى جبريل ـ عليه السلام ـ الروح ؛ لأن الروح بها الحياة ، والملائكة أحياء لكن ليس لهم مادة ، فكأنهم أرواح مطلقة ، أما البشر فمادة فيها روح .

كما أن كلمة الروح استُعملَتْ عدة استعمالات منها ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي .. (٨٥)﴾ [الإسراء] والمراد الروح التى نحيا بها .

وسُمِّى القرآن رُوحاً : ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا .. (٥٢)﴾ [الشورى] إذن : فالقرآن روح ، والملَك الذى نزل به روح ، فإنْ قلتَ : فما حاجتى إلى الروح وفىَّ روح ؟

نقول لك : هذه الروح التى تحيا بها مادتك ، والتى تفارقك حين تموت وتنتهى المسألة ، أمّا الروح التى تأتيك فى القرآن فهى روح باقية خالدة ، إنها منهج الله الذى يعطيك الحياة الأبدية التى لا تنتهى .

لذلك ، فالروح التى تحيا بها المادة للمؤمن وللكافر على حَدٍّ

سواء ، أمّا الروح التى تأتيك من كتاب الله وفى منهجه ، فهى للمؤمن خاصة ، وهى باقية ، وبها تستأنف حياة جديدة خالدة بعد حياة المادة الفانية .

واقرأ إن شئت قوله تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ .. (٢٤) ﴾ [الأنفال]

كيف وها نحن أحياء ؟ نعم ، نحن أحياء بالروح الأولى روح المادة الفانية ، أمَّا رسول الله فهو يدعونا للحياة الباقية ، وكأنه ـ عز وجل ـ يشير إلى أن هذه الحياة التى نحياها ليست هى الحياة الحقيقية ؛ لأنها ستنتهى ، وهناك حياة أخرى باقية دائمة .

حتى مجرد قولنا نحن أحياء فيه تجاوز ؛ لأن الأحياء هم الذين لا يموتون ، وهذه الحياة لا تأتى إلا بمنهج الله ، وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٦٤) ﴾ [العنكبوت] فالحيوان مبالغة فى الحياة ، أى : الحياة الحقيقية ، أما حياة المادة فأىّ حياة هذه التى يموت فيها المرء يوم مولده ، أو حتى بعد مائة عام ؟!

ثم يَصف الحق ـ سبحانه وتعالى ـ الروح بأنه ﴿ الأَمِينُ (١٩٣) ﴾ [الشعراء] أى : على الوحى ، القرآن ـ إذن ـ مَصُون عند الله ، مصون عند الروح الأمين الذى نزل به ، مَصُون عند النبى الأمين الذى نزل عليه .

لذلك يقول سبحانه : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ (٤٤) لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ[1] (٤٦) فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (٤٧) ﴾ [الحاقة]

---

(١) الوتين : عرْق فى القلب إذا قُطع مات صاحبه ، وهو الشريان الرئيسى الهام الذى يغذى الجسم بالدم النقى الخارج من القلب ، قال تعالى : ﴿ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) ﴾ [الحاقة] أى : أمتناه عاجلاً وأهلكناه سريعاً إذا خالف أمرنا أىّ مخالفة . [القاموس القويم ٢/٣١٩] .

وقال تعالى : ﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ[1] (٢٤) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ (٢٥)﴾ [التكوير]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (١٩٤)﴾

نزل القرآن على أذن رسول الله ، أم على قلبه ؟ الأذن هى : أداة السمع ، لكن قال تعالى ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ .. (١٩٤)﴾ [الشعراء] لأن الأذن وسيلة عبور للقلب ، لأنه محلُّ التلقِّى ، وهو (دينامو) الحركة فى جسم الإنسان ، فبالدم الذى يضخُّه فى أعضاء الجسم وأجهزته تتولَّد الطاقات والقدرة على الحركة وأداء الوظائف .

لذلك نرى المريض مثلاً يأخذ الدواء عن طريق الفم ، فيدور الدواء دورة الطعام ، ويُمتصُّ ببطء ، فإنْ أردتَ سرعة وصول الدواء للجسم تعطيه حقنة فى العضل ، لكن الأسرع من هذا أن تعطيه حقنة فى الوريد ، فتختلط بالدم مباشرة ، وتُحدث أثرها فى الجسم بسرعة ، فالدم هو وسيلة الحياة فى النفس البشرية .

إذن : فالقلب هو محلُّ الاعتبار والتأمل ، وليس لسماع الأذن قيمة إذا لم يَعِ القلب ما تسمع الأذن ؛ لذلك يقول سبحانه فى موضع آخر : ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ .. (٩٧)﴾ [البقرة]

فالمعنى : نزَّله على قلبك مباشرة ، كأنه لم يمرّ بالأذن ؛ لأن الله الله تعالى اصطفى لذلك رسولاً صنعه على عينه ، وأزال عنه العقبات البشرية التى تعوق هذه المباشرة ، فكأن قلبه ﷺ أصبح منتبهاً لتلقّى

---

(١) الضنين : البخيل . فهو سبحانه لا يكتم غيباً عن رسول الله ، بل يبلغه كل ما أوحاه الله إليه من خبر السماء [القاموس القويم ١/٣٩٦] .

كلام الله ؛ لأنه مصنوع على عَيْن الله ، أما الذين سمعوا كلام الله بآذانهم فلم يتجاوبوا معه ، فكانت قلوبهم مغلقة قاسية فلم تفهم .

والقلب محل التكاليف ، ومُستقرّ العقائد ، وإليه تنتهى مُحصِّلة وسائل الإدراك كلها ، فالعيْن ترى ، والأذن تسمع ، والأنف يشمّ ، والأيدى تلمس .. ثم يُعرض هذا كله على العقل ليختار بين البدائل ، فإذا اختار العقل واطمأن إلى قضية ينقلها إلى القلب لتستقر به ؛ لذلك نسميها عقيدة يعنى : أمْر عقد القلب عليه ، فلم يَعُدْ يطفو إلى العقل ليبحث من جديد ، لقد ترسَّخ فى القلب ، وأصبح عقيدة ثابتة .

وفى آيات كثيرة نجد المعوّل والنظر إلى القلب ، يقول تعالى : ﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَـٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ..(٣٧)﴾ [الحج]

وفى آية أخرى يُبيِّن أن التقوى محلُّها القلب : ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ (٣٢)﴾ [الحج]

وفى الشهادة يقول تعالى : ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ .. (٢٨٣)﴾ [البقرة] مع أن الشهادة باللسان ، لا بالقلب .

لذلك يقول النبى ﷺ فى الحديث الذى رواه النعمان بن بشير : « ألا إن فى الجسد مُضْغة ، إذا صلُحتْ صلُحَ الجسد كله ، وإذا فسدتْ فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب »[(١)] .

ويُحدِّثنا صحابة النبى ﷺ أنه كان ينزل عليه الوحى بآيات كثيرة بما يوازى رُبْعين أو ثلاثة أرباع مرة واحدة ، فإذا ما سُرِّى عنه ﷺ قال : اكتبوا ، ثم يقرؤها عليهم مع وَضْع كل آية فى مكانها من

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٠٥١) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٥٩٩) ، وأحمد فى مسنده (٤/ ٢٧٠ ، ٢٧٤) من حديث النعمان بن بشير ، وأوله : « إن الحلال بيِّن ، وإن الحرام بيِّن » .

سورتها ، ثم يقرؤها ﷺ فى الصلاة ، فتكون هى هى كما أملاها عليهم ؛ ذلك لأن القرآن باشر قلبه لا أذنه .

وكان ﷺ لحرْصه على حفظ القرآن يُردِّده خلف جبريل ويكرره حتى لا ينساه ، فأنزل الله عليه[1] : ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنسَىٰ (٦)﴾ [الأعلى]

وقال فى موضع آخر : ﴿وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا (١١٤)﴾ [طه]

وقال تعالى : ﴿لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١٧) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ (١٩)﴾ [القيامة]

ومن عجيب أمر القرآن أنك لا تجد شخصاً يُلقى كلمة لمدة خمس دقائق مثلاً ، ثم يعيدها عليك كما قالها نَصّاً ، أمّا النبى ﷺ فكانت تُلْقَى عليه السورة ، فيعيدها كما هى ، ذلك من قوله تعالى : ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنسَىٰ (٦)﴾ [الأعلى]

وقوله سبحانه : ﴿لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (١٩٤)﴾ [الشعراء] المنذر : الذى يُحذِّر من الشر قبل وقوعه ليحتاط السامع فلا يقع فى دواعى الشر ، ولا يكون الإنذار ساعةَ وقوع الشر ، لأنه فى هذه الحالة لا يُجْدى ، وكذلك البشارة بالخير تكون قبل حدوثه لتحثَّ السامع على الخير ، وتحفزه إليه .

ويقول سبحانه فى آية أخرى : ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ .. (٦)﴾ [يس]

---

(١) عن ابن عباس قال : كان النبى ﷺ إذا أتاه جبريل بالوحى لم يفرغ حتى يزمل من الوحى يتكلم النبى ﷺ بأوله مخافة أن يُغْشى عليه ، فقال له جبريل ، لم تفعل ذلك ؟ قال : مخافة أن أنسى . فأنزل الله عز وجل ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنسَىٰ (٦)﴾ [الأعلى] . أخرجه الطبرانى فى معجمه الكبير (١٢٦٤٩) وأورده الهيثمى فى مجمع الزوائد (١٣٦/٧) وقال « فيه جويبر وهو ضعيف » وكذا ضعَّفه السيوطى فى أسباب النزول (ص ٢٩٦) .

فكما أنـذر الرسلُ السابقـون أقوامهم ، أنْذِر أنت قـومك ، وانضمّ إلى موكب الرسالات .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ ﴾

وقوله تعالى : ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ ﴾ [الشعراء] فإنْ كان القرآن قد نزل على قلبك ، فكيف يسـمعونه ؟ وكيف يكتبـونه ؟ ويحفظونه ؟ يأتى هنا دَوْر اللسـان العربـى الذى يُخرِج القـرآن إلى الناس . إذن : فمنطق رسول الله بعد نزوله على القلب ، ويُؤخِّر اللسان ؛ لأنه وسيلة الحفظ والصيانة والقراءة .

ومعنى ﴿ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ ﴾ [الشـعراء] أى : واضح ظاهر ، محـيط بكل أقـضيـة الحيـاة ، لكن يأتى مَنْ يقـول : إنْ كـان القرآن نزل بلسـان عربى ، فما بـال الكلمات غير العربية التى نطق بهـا ؟ فكلمة قسطاس رومية[1] ، وآمين حبشية ، وسجيل فارسية[2] .

ونقـول : معـنى اللسان العـربى مـا نطق به العـرب ، ودار على ألسنتـهم ؛ لأنه أصبح من لغتـهم وصار عـربياً ، وإنْ كـان من لغات أخرى ، والمـراد أنه لم يَأْتِ بكلام جديد لم تعـرفه العرب ، فـقبل أنْ ينزل القرآن كانت هذه الكلمةَ شائعة فى اللسان العربى .

ونزل القرآن باللسان العربى خاصةً ؛ لأن العرب هم أمة استقبال

---

(١) أخرج الفريابى عن مجاهد ، قال : القـسطاس : العدل بالرومية . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيـد بن جبير قال : القسطـاس بلغة الروم : الميزان [الإتقان فى علوم القـرآن للسيوطى ٢/١١٥] .

(٢) أخرج الفريابى عن مجاهد ، قال : سجيل بالفارسية . أولها حجارة وآخرها طين . [الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى ٢/١١٢] .

الدعوة وحاملوها إلى باقى الأمم ، فلا بُدَّ أنْ يفهموا عن القرآن . فإنْ قُلْتَ : فالأمم الأخرى غير العربية مخاطبةٌ أيضاً بهذا القرآن العربى ، فكيف يستقبلونه ويفهمون عنه ؟ نقول : مَنْ سمعه من العرب عليه أن يُبلغه بلسان القوم الذين يدعوهم ، وهذه مهمتنا نحن العرب تجاه كتاب الله .

﴿ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ ﴾

الضمير فى ﴿ إِنَّهُ .. ﴿١٩٦﴾ ﴾ [الشعراء] يصح أنْ يعود على القرآن كسابقه ، ويصح أنْ يعود على رسول الله ، ومعنى ﴿ زُبُرِ .. ﴿١٩٦﴾ ﴾ [الشعراء] جمع زبور يعنى : مكتوب مسطور ، ولو أن العقول التى عارضتْ رسول الله ، وأنكرتْ عليه رسالته ، وأنكرتْ عليه معجزته فَطنوا إلى الرسالات السابقة عليه مباشرة ، وهى : اليهودية والنصرانية فى التوراة والإنجيل لوجبَ عليهم أنْ يُصدِّقوه ؛ لأنه مذكور فى كتب الأولين .

كما قال سبحانه فى موضع آخر : ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ ﴾ [الأعلى]

فالمبادىء العامة من العقائد والأخلاق والعدل الإلهى وقصص الأنبياء كلها أمور ثابتة فى كل الكتب وعند جميع الأنبياء ، ولا يتغير الأ الأحكام من كتاب لآخر ، لتناسب العصر والأوان الذى جاءتْ فيه .

وحين تقرأ قوله تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ .. ﴿١٣﴾ ﴾ [الشورى]

تقول : ولماذا ـ إذن ـ نزل القرآن ؟ ولماذا لم يَقُل وصَّينا به محمداً ؟

قالوا : لأن الأحكام ستتغير ؛ لتناسب كل العصور التى نزل

القرآن لهدايتها ، ولكل الأماكن ، ولتناسب عمومية الإسلام .

لذلك رُوى عن عبد الله بن سلام[١] وآخر اسمه ابن يامين ، وكانوا من أهل الكتاب ، وشهد كلاهما أنه رأى ذكر محمد ﷺ فى التوراة ، وفى الإنجيل . والقرآن يقول عنهم : ﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ .. (١٤٦)﴾ [البقرة]

ولما سمعها ابن سلام قال : ربنا تساهل معنا فى هذه المسألة ، فوالله إنى لأعرفه كمعرفتى لولدى ، ومعرفتى لمحمد أشد[٢] .

ويقول تعالى فى هذا المعنى : ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ .. (١٥٧)﴾ [الأعراف]

ويقول سبحانه على لسان عيسى عليه السلام حين يقف خطيباً فى قومه : ﴿وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ .. (٦)﴾[الصف]

إذن : ﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الأَوَّلِينَ (١٩٦)﴾ [الشعراء] أى : محمد ﷺ أو هو القرآن الكريم ، فكلاهما صحيح ؛ لأن صفة رسول الله ﷺ موجودة فى هذه الكتب ، أو القرآن فى عموم مبادئه فى العقائد والأخلاق والبعث وسير الأنبياء .

فكان الواجب على الذين جاءهم القرآن أنْ يؤمنوا به ، خاصة وأن رسول الله كان أمياً لم يجلس إلى معلم ، وتاريخه فى ذلك معروف لهم ، حيث لم يسبق له أن قرأ أو كتب شيئاً .

---

(١) هو : عبد الله بن سلام بن الحارث الإسرائيلى ، أبو يوسف ، صحابى أسلم عند قدوم النبى ﷺ المدينة ، وكان اسمه الحصين ، فسماه رسول الله ﷺ عبد الله ، وشهد مع عمر فتح بيت المقدس ، أقام بالمدينة إلى أن توفى عام ٤٣ هـ (الأعلام للزركلى ٤/٩٠) .

(٢) قال ابن كثير فى تفسيره (١/١٩٤) : « قال القرطبى : يُروى عن عمر أنه قال لعبد الله ابن سلام : أتعرف محمداً كما تعرف ولدك ؟ قال : نعم وأكثر ، نزل الأمين من السماء على الأمين فى الأرض بنعته فعرفته ، وإنى لا أدرى ما كان من أمه » .

والقرآن يؤكد هذه المسألة ، فيقول تعالى مخاطباً نبيه محمداً ﷺ :

﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ (٤٨) ﴾ [العنكبوت]

﴿ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا[1] فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (٤٥) ﴾ [القصص]

﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ .. (٤٤) ﴾ [القصص]

﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ .. (٤٤) ﴾ [آل عمران]

فكل هذه الآيات وغيرها دليل على أنه ﷺ لا علْمَ له بها إلا بواسطة الوَحْى المباشر فى القرآن الكريم ، وكان على القوم أن يؤمنوا به أول ما سمعوه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ[2] بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٩٧) ﴾

آية : أى دليلاً وعلامةً على أن القرآن من عند الله ؛ لأن علماء بنى إسرائيل كانوا يستفتحون به على الذين كفروا ، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ، أو لم يقولوا للأوْس والخزرج فى المدينة : لقد أطلَّ زمان نبىٍّ يأتى سنتبعه ونقتلكم به أيها المشركون قَتْل عاد وإرم[3] ، ومع ذلك لما بُعث النبى ﷺ أنكروه وكفروا به ، وهم يعرفون أنه حق ، لماذا ؟

---

(١) ثوى بالمكان : حلَّه وأقام فيه واستقر به . والمعنى : ما كنت مقيماً عندهم . [القاموس القويم ١/١١٣] .

(٢) أخرج ابن سعد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن عطية العوفى : كانوا خمسة : أسد ، وأسيد ، وابن يامين ، وثعلبة ، وعبد الله بن سلام . [أورده السيوطى فى الدر المنثور ٦/٣٢٣] .

(٣) عن أشياخ من الأنصار قالوا : كنا قد علوناهم قهراً دهراً فى الجاهلية ونحن أهل شرك وهم أهل كتاب وهم يقولون : إن نبياً سيُبعث الآن نتبعه قد أظل زمانه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم ، فلما بعث الله رسوله من قريش واتبعناه كفروا به . ذكره ابن كثير فى تفسيره (١/١٢٤) نقلاً عن ابن إسحاق .

قالوا : لأنهم تنبَّهوا إلى أنه سيسلبهم القيادة ، وكانوا فى المدينة أهل علم ، وأهل كتاب ، وأهل بصر ، وأهل حروب .. إلخ . وليلةَ هاجر النبى ﷺ إلى المدينة كانوا يستعدون لتتويج عبد الله بن أُبىٍّ ملكاً عليها ، فلما جاءها النبى ﷺ أفسد عليهم هذه المسألة ؛ لذلك حسدوه على هذه المكانة ، فقد أخذ منهم السُّلْطة الزمنية والتى كانت لهم .

وقال ﴿عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٩٧)﴾ [الشعراء] لأنهم كانوا يعرفون صِدْق رسول الله ، ولأنه ﷺ جاء بأشياء لا يعرفها إلا هم ، وقد اشتهر منهم خمسة ، هم : عبد الله بن سلام ، وأسد ، وأسيد ، وثعلبة ، وابن يامين .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ (١٩٨) فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ (١٩٩)﴾

لقد أنزلنا القرآن بلسان عربى على أمة عربية ، ولو أنزلناه على الأعاجم ما فهموه[(١)] .

وقال الحق وسبحانه وتعالى فى موضع آخر : ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ (٤٤)﴾ [فصلت]

---

(١) قال قتادة : يقول : لو نزلنا هذا القرآن على بعض الأعجمين لكانت العرب أشد الناس فيه ، لا يفهمونه ولا يدرون ما هو ؟ أخرجه عبد بن حميد وابن أبى حاتم .
- وقال قتادة أيضاً : لو أنزله الله عجمياً لكانوا أخسر الناس به لأنهم لا يعرفون العجمية . أخرجه عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير . [ذكرهما السيوطى فى الدر المنثور ٣٢٣/٦] .

لماذا ؟ لأن المستقبل مقفول ، فإنْ أردتَ استقبال أىٍّ قضية فعليك أنْ تُخرِج من قلبك أىّ قضية أخرى معارضة لها ، ثم بعد ذلك لك أنْ تدرس القضيتين ، فما وافق الحق فأدخلْه .

لذلك يقول تعالى : ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ .. (٤)﴾ [الأحزاب] فهو قلب واحد ، لذلك أخرج منه كل قضية سابقة ، وها هو القرآن واحد ، وقائله واحد ، ومُبلِّغه واحد ، ولسانه عربى .

يقول تعالى فى وصفهم حالَ سماع القرآن : ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ[1] إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ (١٢٧)﴾ [التوبة] أى : يريدون التسلُّل والخروج .

ويقول تعالى فى آية أخرى : ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا .. (١٢٤)﴾ [التوبة] أى : ماذا أفادتكم ؟ وماذا زادتْ فى إيمانكم ؟

ويقول سبحانه : ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا[2] لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (١٦)﴾ [محمد] يعنى : ما الجديد الذى جاء به ؟

ويقول عن الذين آمنوا : ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧)﴾ [محمد]

---

(١) قال ابن عباس فيما أخرجه ابن جرير وابن أبى حاتم : هم المنافقون . (أورده السيوطى فى الدر المنثور ٤/٣٢٦) .

(٢) عن ابن جريج قال : كان المؤمنون والمنافقون يجتمعون إلى النبى ﷺ فيستمع المؤمنون منه ما يقول ويعونه ، ويسمعه المنافقون فلا يعونه ، فإذا خرجوا سألوا المؤمنين : ماذا قال آنفاً ؟ فنزلت ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ .. (١٦)﴾ [محمد] . ذكره السيوطى فى الدر المنثور (٧/٤٦٦) وعزاه لابن المنذر .

و ﴿الأَعْجَمِينَ (١٩٨)﴾ [الشعراء] جمع : أعجمى ، والأعجم هو الذى لا يُحسِن الكلام العربى ، وإنْ كان ينطق به ، والعجمىّ ضد العربىّ والعجم غير العرب . فالمعنى ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ ..(١٩٨)﴾ [الشعراء] أى : القرآن العربى على بعض الأعجمين ما فهمه ، وقال ﴿بَعْضِ .. (١٩٨)﴾ [الشعراء] لمراعاة الاحتمال ، فمن العجم مَنْ تعلَّم العربية وأجادها ويستطيع فَهْم القرآن .

وقوله تعالى : ﴿فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ (١٩٩)﴾ [الشعراء] لأنهم لم يفهموا منه شيئاً ، فكذلك أنتم مثل هؤلاء العجم فى تلقِّى واستقبال كلام الله ، لم تفهموا منه شيئاً .

ذلك لأنهم أحبوا الكفر والعناد وأصرُّوا عليه ، واستراحتْ إليه قلوبهم حتى عَشقوه ، فأعانهم الله عليه ، وختم على قلوبهم ، فلا يدخلها إيمانٌ ، ولَا يخرج منها كفر .

﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ (٢٠٠) لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ (٢٠١) فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٢٠٢)﴾

معنى ﴿سَلَكْنَاهُ .. (٢٠٠)﴾ [الشعراء] أدخلناه فى قلوب المجرمين ، كأنهم عجم لا يفهمون منه شيئاً ، لذلك ﴿لا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ (٢٠١)﴾ [الشعراء] وما داموا لن يؤمنوا به حتى يروا العذاب الأليم فلن يُقبلَ منهم إيمان .

ومعنى ﴿بَغْتَةً .. (٢٠٢)﴾ [الشعراء] أى : فجأة ، ومن حيث لا يشعرون .

لذلك لما نزل القرآن وآمن برسول الله بعض الصحابة اضْطهد رسول الله وصحابته ، وأوذوا حتى صاروا لا يأمنون على أنفسهم من بَطْش الكفار ، حتى كانوا يبيتون فى السلاح ، ويستيقظون فى السلاح ، لا يجدون مَنْ يحميه .

وفى هذه الحالة نزل قوله تعالى : ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥)﴾ [القمر] فتعجب عمر رضى الله عنه : أىُّ جمع هذا الذى سيُهزم ، والمسلمون على هذه الحال ؟ فلما شهد بدراً وما كان فيها من قتْل المشركين ونُصْرة دين الله ، قال : نعم صدق الله ، سيُهزم الجمع ويُولُّون الدبر[1] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ (٢٠٣) أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (٢٠٤)﴾

أى : انظرونا وتمهَّلوا علينا ، وأخِّروا عنَّا العذاب ، سبحان الله ألم تستعجلوه[2] ؟ وهذه طبيعة أهل العناد والكفر إنْ تركناهم طلبوا أنْ ينزل عليهم ، وإنْ نزل بهم العذاب قالوا : انظرونا وتمهَّلوا علينا .

---

(١) أورده ابن كثير فى تفسيره (٤/٢٦٦) وعزاه لابن أبى حاتم عن عكرمة قال : « لما نزلت ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥)﴾ [القمر] قال عمر : أىّ جمع يُهزم ؟ أى أىّ جمع يُغلب ؟ قال عمر : فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ يثب فى الدرع وهو يقول : « سيُهزم الجمع ويولون الدبر » فعرفت تأويلها يومئذ .

(٢) يقول تعالى عنهم : ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ (١٦)﴾ [ص] أى : عجِّل لنا العذاب . وقال تعالى : ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (٥٣) يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (٥٤)﴾ [العنكبوت] .

ثم يقول رب العزة سبحانه :

﴿ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ (٢٠٥) ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ (٢٠٦) مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ (٢٠٧) ﴾ (١)

﴿ أَفَرَأَيْتَ .. (٢٠٥) ﴾ [الشعراء] يعنى : أخبرنى ﴿ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ (٢٠٥) ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ (٢٠٦) ﴾ [الشعراء] ومع طول المدة، إلا أن الغاية واحدة(٢) ﴿ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ (٢٠٧) ﴾ [الشعراء]

﴿ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ (٢٠٨) ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ (٢٠٩) ﴾

كما قال سبحانه فى آية أخرى : ﴿ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ (١٣١) ﴾ [الأنعام] ، فقد جاءهم رسول يُعلِّمهم وينذرهم ؛ ليقيم عليهم الحجة ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً (١٥) ﴾ [الإسراء]

هذا كله ﴿ ذِكْرَىٰ .. (٢٠٩) ﴾ [الشعراء] تعنى : نذكره لنُوقظ غفلتكم ﴿ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ (٢٠٩) ﴾ [الشعراء] فأنتم الذين فعلتم هذا بأنفسكم ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٨) ﴾ [النحل]

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٥٠٢١/٧) : « المراد أهل مكة فى قول الضحاك وغيره » .

(٢) أى : لو أخرناهم وأنظرناهم وأملينا لهم برهة من الدهر وحيناً من الزمان وإن طال ثم جاءهم أمر الله ، أىّ شىء يجدى عنهم ما كانوا فيه من النعيم [تفسير ابن كثير ٣٤٨/٣].

ثم يقول الحق سبحانه عن القرآن :

﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾﴾

لأنهم قالوا : إنما تنزَّلت الشياطين على محمد بالقرآن ، وكانوا يقولون ذلك لكل شاعر ماهر بشعره عندهم ، فلكل شاعر شيطان يُمليه الشِّعْر ، وعندهم وادٍ يُسمَّى وادى « عبقر » هو وادى الجن ، فيقولون : فلان عبقرى أى : موصول بالجن فى هذا الوادى .

لكن ، كيف والكتاب الذى نزل على محمد عدو للشياطين ، يلعنهم فى كل مناسبة ، ويُحذِّر أتباعه منهم : ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ..﴿٢٦٨﴾﴾ [البقرة] ويقول الحق سبحانه : ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿٦﴾﴾ [فاطر]

فكيف - إذن - يمده الشيطان ويُمليه عليه ، وهو عدوه ؟ ولماذا لم يأتكم وأنتم أحباؤه ؟ هذه واحدة .

الأخرى : ﴿وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾﴾ [الشعراء] إن الله جعل القرآن مُعْجزاً ومنهجاً ، والمعجزة لا يتسلَّط عليها إنس ولا جن فيفسدها ، لذلك قال سبحانه : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر]

أما الكتب السابقة فقد طلبتْ من المؤمنين بها أنْ يحفظوها ، وفَرْق بين الحفظ منى ، وطلب الحفظ منكم ؛ لأن الطلب تكليف وهو عُرْضة لأنْ يُطاع ولأنْ يُعصَى ، وقد جربنا حفظ البشر فلم يحافظوا على كتبهم السابقة ؛ لذلك تولّى الحق - سبحانه وتعالى - حِفْظ قرآنه

بنفسه ، ولم يكِلْه إلى أحد من خَلْقه .

لذلك تجد فى هذا المجال كثيراً من العجائب والمفارقات ، فمع تقدُّم الزمن وطغيان الحضارات المعادية للإسلام ، والتى تُمطرنا كل يوم بوابل من الانحرافات والخروج عن تعاليم الدين ، ومنّا مَنْ ينساق خلفهم ، وهذا كله ينقص من الأحكام المطبّقة من الإسلام .

لكن مع هذا كله تجد القرآن يزداد توثيقاً ، ويزداد حفظاً ، ويتبارى حتى غير المسلمين فى حفْظ كتاب الله وتوثيقه ، والتجديد فى طباعته ، حتى رأينا مصحفاً فى ورقة واحدة ، ومصحفاً فى حجم عقلة الإصبع ، ويفخر بعضهم الآن بأنه يملك أصغر مصحف فى العالم .. إلخ بصرف النظر عن دوافعهم مِنْ وراء هذا .

المهم أن الله تعالى يُسخِّر حتى أعداء القرآن لحفْظ القرآن ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ وَمَا هِيَ إِلاَّ ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾﴾ [المدثر]

أليس من وسائل نَشْر القرآن والمحافظة عليه آلات التسجيل وآلات تكبير الصوت التى تنشر كلام الله فى كل مكان ؟ ولم يَلْق شىءٌ من الكتب السابقة مثل هذه العناية .

إذن : فالعناية بالقرآن كنصٍّ لا تتناسب مع النقص فى أحكامه وانصراف أهله عنها ، وكأن الله - عز وجل - يقول لنا : سأحفظ هذا النصَّ بغير المؤمنين به ، وسأجعلهم يُوثِّقونه ويهتمون به ؛ ليكون ذلك حجة عليكم .

لذلك كان عند الألمان قبل الحرب العالمية خزانة بها أدراج ، فى كل درج منها آية من القرآن ، يُحفظ به كل ما كُتب عن هذه الآية بدايةً من تفسير ابن عباس إلى وقتها ، وهذا دليل على أنهم مُسخَّرون بقوة خفية لا يقدر عليها إلا الله عز وجل ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر]

وسبق أن قلنا : إن بعض النساء يَسِرْنَ فى الشوارع كاشفات عن صدورهن ، ومع ذلك تتحلَّى بمصحف على صدرها ، وليتها تستر صدرها ولا تُعلِّق المصحف .

فكيف تقولون تنزلت به الشياطين ، وقد جاء القرآن ليعلن لأهله عداءه لهم والحذر منهم ؟ كيف والشياطين لا تتنزل إلا على كل كفَّار أثيم ، وأنتم أَوْلَى بأن تتنزَّل عليكم ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ .. (١٢١)﴾ [الأنعام]

ومعنى : ﴿وَمَا يَسْتَطِيعُونَ (٢١١)﴾ [الشعراء] أن هذه المسألة فوق قدراتهم ؛ لأن الحق تبارك وتعالى قال :

﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ (٢١٢)﴾

وقد شرح الحق سبحانه هذا المعنى فى قوله تعالى : ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا (٨) وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ[1] فَمَن يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا (٩)﴾ [الجن]

وبعد ذلك يتكلم عن استقبال المنهج من الرسول ومن آله وأتباعه ، ومن المؤمنين جميعاً :

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال ﷺ : « إذا قضى الله الأمر فى السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خُضْعاناً لقوله كأنه سلسلة على صفوان ، فإذا فُزِّع عن قلوبهم قالوا : ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الحق وهو العلى الكبير ، فيسمعها مسترق السمع ، ومسترق السمع هكذا بعضه فوق بعض - ووصف سفيان بكفه فحرفها وبدَّد بين أصابعه - فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته ، ثم يلقيها الآخر إلى من تحته ، حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن ، فربما أدرك الشهاب قبل أن يلقيها ، وربما ألقاها قبل أن يدركه فيكذب معها مائة كذبة » . أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٧٠١ ، ٤٨٠٠) وابن ماجة فى سننه (١٩٤) .

﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾﴾

خاطب الحق ـ تبارك وتعالى ـ نبيه محمداً ﷺ بقوله : ﴿فَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَـهًا آخَرَ .. ﴿٢١٣﴾﴾ [الشعراء] فهل كان ﷺ مظنة أن يدعو مع الله إلهاً آخر ؟ قالوا : لا ، إنما المراد ابتداء توجيه ، وابتداء تكليف ، كأنه يقول له : اجعل عندك مبدءًا ، أنك لا تتخذ مع الله إلهاً آخر ، لا أن الرسول اتخذ إلهاً ، فجاء الوحى لينهاه ، إنما هو بداية تشريع وتكليف ، وإذا كان العظيم المرسَل ﷺ يتوعده الله إنْ أراد أن يتخذ إلهاً آخر ، فما بالك بمَنْ هو دونه ؟

فساعةَ يسمع الناس هذا الخطاب مُوجّهاً إلى النبى المرسَل إليهم ، فلا بُدَّ أنْ يصغوا إليه ، ويحذروا ما فيه من تحذير ، كما لو وجَّه رئيس الدولة أمراً إلى رئيس الوزراء مثلاً ـ ولله المثل الأعلى ـ وحذَّره من عاقبة مخالفته ، فلا شكَّ أن مَنْ دونه من الموظفين سيكون أطوع منه لهذا الأمر .

﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾

وهكذا نقل الأمر من رسول الله إلى أهله وعشيرته الأقربين ، ذلك ليطمئن الآخرون من قومه ، فهو يأمرهم بأمر ليس بنجْوة عنه ، فأول ما ألزم به ألزم نفسه ثم عشيرته ، وهذا أدْعى للطاعة وللقبول ، فأنت تردُّ أمرى إذا كنتُ آمرك به ولا أفعله ، لكنى آمرك وأسبقك إلى الفعل .

لذلك سيدنا عمر ـ رضى الله عنه ـ وكان على المنبر يخطب فى الناس ، ويقول : أيها الناس ، اسمعوا وأطيعوا ، فقام أعرابى وقال : لا سمعَ لك ولا طاعة ، انظر إلى هذه الجرأة على مَنْ ؟ على عمر وهو على المنبر ـ فقال له عمر : ولِمَ ؟

قال : لأن ثيابك أطول من ثيابنا ـ وكان القماش يُوزَّع بين المسلمين بالتساوى لا فَرْقَ بين طويل وقصير ـ فقال عمر لابنه عبد الله : قُم يا عبد الله لتُرِى الناس ، فقام عبد الله فقال : إن أبى رجل طوَال ـ مبالغة فى الطول ـ وثوبه فى المسلمين لم يكْفه ، فأعطيته ثوبى فوصله بثوبه ، وها أنذا بمُرقَّعتى بينكم ، عندها قال الأعرابى : إذنْ نسمع ونطيع[1] .

لكن أين القدوة فى دوائرنا ومصالحنا الحكومية الآن ؟ وأين هو رئيس المصلحة الذى يحضر ، ويجلس على مكتبه فى الثامنة صباحاً ليكون قدوة لمرؤوسيه ؟ وإن من أشد ما ابتُلينا به أن نفقد القدوة فى الرؤساء والمسئولين . لذلك أول ما وُجِّه التشريع والتكليف وُجِّه إلى رسول الله ، وإلى أقرب الناس إليه وهم عشيرته الأقربون ؛ لأن الفساد يأتى أول ما يأتى من دوائر القُرْبى والحاشية التى تحيط بالإنسان ، وقد يكون الرئيس أو الحاكم بخير ، لكن حاشيته هى سبب الفساد ، حيث تستغل اسمه فى فسادها أو تُضلِّله وتُعمِّى عليه الحقائق .. إلخ .

لذلك كان سيدنا عمر ـ رضى الله عنه ـ ساعة يريد أن يُقرِّر شيئاً للأمة ، ويعلم أنه قَاس عليهم يجمع أهله أولاً ويقول لهم : لقد شاء الله أن أقرر كذا وكذاً ، فمَنْ خالفنى منكم فى شىء من هذا جعلته نكالاً لعامة المسلمين ، وهكذا يضمن أهْله وأقاربه أولاً ، ويبدأ بهم تنفيذ ما أراده للمسلمين .

---

(١) عن الحسن ، قال : خطب عمر الناس وهو خليفة وعليه إزار فيه ثنتا عشرة رقعة . وعن أنس قال : كان بين كتفى عمر ثلاث رقاع . [أورده ابن الجوزى فى صفة الصفوة ١/١٤٧] .

وتأمل ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (٢١٤)﴾ [الشعراء] والإنذار كما ذكرنا التحذير من الشرِّ قبل أوانه ، فلم يقُلْ : بشِّر عشيرتك ، كأنه يقول له : إياك أنْ يأخذك به لين ورأْفة ، أو عطف لقرابتهم لك ، بل بهم فابدأ .

وقد امتثل رسول الله ﷺ لهذا التوجيه ، فكان ﷺ يقول لقرابته : « يا عباس يا عم رسول الله ، يا صفية عمة رسول الله ، يا فاطمة بنت محمد ، اعملوا فإنى لا أغنى عنكم من الله شيئاً ، ولا يأتينى الناس بأعمالهم ، وتأتونى بأنسابكم »[(١)] .

وفى الوقت الذى يدعوه إلى إنذار عشيرته الأقربين يقول فى مقابلها :

﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢١٥)﴾

بعد أن أمره بالشدة على أهله وقرابته يأمره باللين ، وخَفْض الجناح لباقى المؤمنين به ، وخَفْض الجناح كناية عن اللُّطْف واللين فى المعاملة ، وقَد أُخذ هذا المعنى من الطائر حين يحنو على فراخه ، ويضمهم بجناحه .

وخَفْض الجناح دليل الحنان ، لا الذلّة والانكسار ، وفى المقابل نقول (فلان فارد أجنحته) إذا تكبَّر وتجبَّر ، وتقول (فلان مجنح لى) إذا عصا أوامرك .

وفى موضع آخر : ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ (٨٨)﴾ [الحجر]

---

(١) عن أبى هريرة قال : قام رسول الله ﷺ حين أنزل الله عز وجل ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (٢١٤)﴾ [الشعراء] قال : يا معشر قريش ـ أو كلمة نحوها ـ اشتروا أنفسكم ، لا أغنى عنكم من الله شيئاً . يا بنى عبد مناف لا أغنى عنكم من الله شيئاً ، يا عباس بن عبد المطلب لا أغنى عنك من الله شيئاً ، يا صفية عمة رسول الله لا أغنى عنك من الله شيئاً ، ويا فاطمة بنت محمد سلينى ما شئت من مالى لا أغنى عنك من الله شيئاً » أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٧٥٣) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٠٦) .

وقال فى حَقِّ الوالدين : ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ .. (٢٤)﴾ [الإسراء] فلا نقول : كُنْ ذليلاً لهم ، إنما كُنْ رحيماً بهم ، حَنُوناً عليهم ، ففى هذا عِزّك ونجاتك .

﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ (٢١٦)﴾

فإنْ عصاك الأقارب فلا تتردد فى أنْ تعلنها ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ (٢١٦)﴾ [الشعراء] وعندها لا تراعى فيهم حَقَّ الرحم ، ولا حَقّ القُرْبى ، لأنه لا حَقَّ لهم ؛ لذلك قال ﴿فَقُلْ .. (٢١٦)﴾ [الشعراء] ولم يقل تبرأ منهم ؛ لأنه قد يتبرأ منهم فيما بينه وبينهم .

لكن الحق ـ تبارك وتعالى ـ يريد أنْ يعلنها رسول الله على الملأ ليعلمها الجميع ، وربنا يُعلِّمنا هنا درساً حتى لا نحابى أحداً ، أو نجامله لقرابته ، أو لمكانته حتى تستقيم أمور الحياة .

والذى يُفسد حياتنا وينشر فيها الفوضى واللامبالاة أنْ ننافق ونجامل الرؤساء والمسئولين ، ونُغطِّى على تجاوزاتهم ، ونأخذهم بالهوادة والرحمة ، وهذا كله يهدم معنويات المجتمع ، ويدعو للفوضى والتهاون .

لذلك يعلمنا الإسلام أنْ نعلنها صراحة ﴿فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ (٢١٦)﴾ [الشعراء] وليأخذ القانون مجراه ، وليتساوى أمامه الجميع ، ولو عرف المخالف أنه سيكون عبرة لغيره لارتدع .

لذلك يُقال عن عمر رضى الله عنه أنه حكم الدنيا كلها ، والحقيقة أنه حكم نفسه أولاً ، فحكمتْ له الدنيا ، وكذلك مَنْ أراد أنْ يحكم الدنيا فى كل زمان ومكان عليه أنْ يحكم نفسه ، فلا يجرؤ أحد من أتباعه أن يخالفه ، وساعة أن يراه الناس قدوة ينصاعون له بالسمع والطاعة .

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾﴾

فقد تقول : إنْ فعلتَ هذا قلَّ أنصارى وتفرَّق الأتباع والحاشية من حولى ، نقول لك : إياك أنْ تظنَّ أنهم يجلبون لك نفعاً ، أو يدفعون عنك ضراً ، فالأمر كله بيده تعالى وبأمره ، فخيرٌ لك أنْ تراعى الله ، وأن تتوكل عليه .

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾﴾ [الشعراء] العزيز الذى يَغْلِب ولا يُغلب ، ويَقْهر ولا يُقهر ، ومع ذلك فهو سبحانه رحيم بك وبهم . وصفة الرحمة هنا تنفى ما يظنه البعض أن العزة هنا تقتضى الجبروت أو القهر أو الظلم ، فهو سبحانه فى عِزَّته رحيم ، لأن عزة العزيز على المتكبِّر رحمة بالمتكبَّر عليه .

وكأن الحق - سبحانه وتعالى - يُعلِّم خليفته فى أرضه خاصة أُولى الأمر منهم ، يُعلِّمه أن يكون أريباً ناصحاً ، يقول له : إياك أنْ تتوكّل على عبد مثلك إذا عجزتَ عن العمل ؛ لأنه عاجز مثلك ، وما دام الأمر كذلك فتوكَّل على العزيز الرحيم ، فعِزَّته ورحمته لك أنت .

﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴿٢١٩﴾﴾ (١)

أى : توكل على الذى يحبك ، ويُقدِّر عملك وعبادتك حين تقوم ، والمعنى تقوم له سبحانه بالليل والناس نيام ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴿٢١٩﴾﴾ [الشعراء] ونفهم من ذلك أنه يصح أن تقوم وحدك بالليل .

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٣/٣٥٢) : « أى : هو معتن بك » وأورد أقوالاً منها :

« - أى : حين تقوم إلى الصلاة . قاله ابن عباس .
- يرى قيامه وركوعه وسجوده . قاله عكرمة .
- يراك إذا صليت وحدك . قاله الحسن البصرى .
- يراك حين تقوم من فراشك أو مجلسك . قاله الضحاك .
- يراك قائماً وجالساً وعلى حالاتك . قاله قتادة » .

وقوله ﴿الَّذِى يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨)﴾ [الشعراء] يرى حالك فى هذا القيام ، وما أنت عليه من الفرح ، وسرعة الاستجابة لنداء الله فى قوله : الله أكبر ، يراك حين تقوم على حالة انشراح القلب والإقبال على الله والنشاط للعبادة ، لا على حال الكسل والتراخى .

وإنْ أقبلتَ على الله أعطاك من الفُيوضات ما يُعوِّضك مكاسب الدنيا وتجارتها ، إنْ تركتها لإجابة النداء ؛ لذلك كان شعار الأذان الذى ارتضاه رسول الله ﷺ (الله أكبر) أى : أكبر من أىِّ شىء غيره ، فإنْ كنتَ فى نوم ، فالله أكبر من النوم ، وإنْ كنتَ فى تجارة ، فالله أكبر من التجارة ، وإنْ كنتَ فى عمل فالله أكبر من العمل.. إلخ .

وعجيب أن نرى مَنْ يُقدِّم العمل على الصلاة بحجة امتداد الوقت ، وإمكانية الصلاة بعد انتهاء العمل ، وهذه حجة واهية ؛ لأن ربك حين يناديك (الله أكبر) يريدك أنْ تستجيب على الفور لا على التراخى ، وإلا كيف تسمى الاستجابة للنداء إذا تأخرت عن وقتها ؟ فطول الوقت خاصة بين الصبح والظهر وبين العشاء والصبح لا يعنى أنْ تصلى فى طول هذا الوقت ؛ لأن النداء يقتضى الإسراع والاستجابة .

ولنا ملحظ فى (الله أكبر) فأكبر أفعل تفضيل تدلُّ على المبالغة ودون أكبر نقول : كبير ، وكأنها إشارة إلى أن العمل والسعى ليس شيئاً هيناً أو تافهاً ، إنما هو كبير ، ينبغى الاهتمام به ؛ لأنه عَصَب الحياة ، ولا تستقيم الأمور فى عمارة الأرض إلا به .

لكن ، إنْ كان العمل كبيراً فالله أكبر ، فربُّك - عز وجل - لا يُزهِّدك فى العمل ، ولا يُزهِّدك فى الدنيا ؛ لأنه خالقها على هذه الصورة وجاعل للعمل فيها دوراً ، وإنْ شئتَ فاقرأ : ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ

الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ .. (١٠) ﴾ [الجمعة]

وقال فى موضع آخر : ﴿ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا .. (٧٧) ﴾ [القصص] لأن حركة الحياة هى التى تُعينك على أداء الصلاة وعلى عبادة الله ، فبها تقتات ، وبها تتقوَّى ، وبها تستر عورتك ، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب . ومع هذا فدعوة الله لك أَوْلَى بالتقديم ، وأَوْلَى بالإجابة ؛ لأن الذى خلقك وخلقها ناداك (الله أكبر) .

و ﴿ تَقَلُّبَكَ .. (٢١٩) ﴾ [الشعراء] تعنى[1] : القعود والقيام والركوع والسجود ، فربُّك يراك فى كل هذه الأحوال ، ويرى سرورك بمقامك بين يديه ، فإذا ما توكلتَ عليه فأنت تستحق أن يكون ربُّك عزيزاً رحيماً من أجلك .

أو : أن المعنى ﴿ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ (٢١٩) ﴾ [الشعراء] أنه ﷺ كان يرى صحابته وهم يُصلُّون خلفه ، فيرى مَنْ خلفه ، كما يرى مَنْ أمامه ، وكانت هذه من خصائصه ﷺ[2] .

لذلك كان يُحذِّرهم أنْ يسبقوه فى الصلاة فى ركوع أو سجود ، أو قيام أو قعود . ويحذرهم أنْ يفعلوا فى الصلاة خلفه ما لا يصح من المصلى اعتماداً على أنه ﷺ لا يراهم .

---

(١) قال مجاهد وقتادة : وتقلبك فى المصلين . وقال ابن عباس : أى فى أصلاب الآباء آدم ونوح وإبراهيم حتى أخرجه نبياً . ذكرهما القرطبى فى تفسيره (٧/٥٠٢٤) .

(٢) عن أبى هريرة قال : صلى بنا رسول الله ﷺ يوماً ، ثم انصرف فقال : « يا فلان ألا تحسن صلاتك ؟ ألا ينظر المصلى إذا صلى كيف يصلى ؟ فإنما يصلى لنفسه ، إنى والله لأبصر من ورائى كما أبصر مَنْ بين يدىَّ » . أخرجه مسلم فى صحيحه (٤٢٣) ، والنسائى فى سننه (٢/١١٩) .

﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ ﴾

السميع لما يقال ، العليم بما يجول فى الخواطر .

﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ ﴾

وقد سبق أن قالوا عن القرآن تنزلت به الشياطين ، فيردُّ عليهم : تعالوا أخبركم على مَنْ تتنزل الشياطين ، وأصحح لكم هذه المعلومات الخاطئة : صحيح أن الشياطين تتنزل ، لكن لا تتنزل على محمد ؛ لأنه عدوها ، إنما تتنزل على أوليائها .

قال الحق سبحانه : ﴿ وَإِنَّ الشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَـٰٓئِهِمْ لِيُجَـٰدِلُوكُمْ .. ﴿١٢١﴾ ﴾ [الأنعام]

﴿ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ ﴾ [الشعراء] فهذا الذى يناسب الشياطين ويرضيهم ، والجن قسمان : فمنه الصالح وغير الصالح[1] وهذا الذى يسمونه الشياطين .

وكلمة ﴿ أَفَّاكٍ .. ﴿٢٢٢﴾ ﴾ [الشعراء] مبالغة فى الإفك أى : قلب الحقائق . وكان هؤلاء يخطفون الأخبار فيقولون شيئاً قد يصادف الصدق ، ثم يجعلون معه كثيراً من الكذب .

﴿ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَـٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ ﴾

السمع مصدر وآلته الأذن ، فالمراد يلقون الأذن للسمع ، كما فى

---

(١) قال تعالى عن الجن أنهم قالوا : ﴿ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّـٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ ﴾ [الجن] .

قوله تعالى : ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ (٣٧)﴾ [ق]

يعنى : ألقى سمعه كى يستمع كمنْ يحرص على السماع من خفيض الصوت ، فيميل نحوه ليسمع منه . وقال ﴿وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ (٢٢٣)﴾ [الشعراء] لأن بعضهم والقلة منهم قد يصدق ليُغلِّف كذبه ، ويُغطى عليه ، فأنت تأخذ من صدْقه هذه المرة دليلاً على أنه صادق ، وهو يخلط الخبر الصادق بأخبار كثيرة كاذبة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (٢٢٤)﴾

الشعراء : جمع شاعر ، وهو مَنْ يقول الشعر ، وهو الكلام الموزون المُقفَّى ، وقد اتهم الكفار رسول الله ﷺ بأنه شاعر ، وردَّ عليهم القرآن الكريم فى عدة مواضع ، منها قوله تعالى : ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ (٤١)﴾ [الحاقة]

وعجيب من كفار مكة ، وهم العرب أهل اللسان والبلاغة والبيان ، وأهل الخبرة فى الكلام الموزون المُقفَّى ، بحيث كانوا يجعلون للشعر أسواقاً فى ذى المجاز وذى المجنَّة وعكاظ ، ويُعلِّقون أجود أشعارهم على أستار الكعبة ، ومع ذلك لا يستطيعون التمييز بين الشعر وأسلوب القرآن الكريم .

إذن : هم يعرفون الفَرْق ، لكن يقصدون بقولهم كما حكاه القرآن : ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ (٣٠)﴾ [الطور] يقصدون بالشعر الكلام العَذْب الذى يستميل النفس ، ويُؤثِّر فى الوجدان ، ولو كان نثراً . وهذه ينادى بها الآن أصحاب الشعر الحر ؛ لأنهم

يقولون شعراً ، لكنه غير موزون ، وغير مُقفًّى .

ومعنى ﴿الْغَاوُونَ (٢٢٤)﴾ [الشعراء] جمع غاوٍ . وهو الضال ، وهؤلاء يتبعون الشعراء . لأنهم يؤيدون مذهبهم فى الحياة بما يقولون من أشعار ؛ ولأنهم لا يحكم منطقهم مبدأ ولا خُلُق ، بل هواهم هو الذى يحكم المبدأ والخلق ، فإنْ أحبُّوا مدحوا ، وإنْ كرِهوا ذَمُّوا .

والدليل على ذلك :

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ (٢٢٦)﴾

الضمير فى ﴿أَنَّهُمْ .. (٢٢٥)﴾ [الشعراء] يعود على الشعراء ، والوادى : هو المنخفض بين جبلين ، وكان محل السير ومحل نمو الأشجار والبساتين واستقرار المياه .

﴿يَهِيمُونَ (٢٢٥)﴾ [الشعراء] نقول : فلان هَامَ على وجهه أى : سار على غير هدى ، وبدون هدف أو مقصد ، فالمعنى ﴿فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (٢٢٥)﴾ [الشعراء] أن هذه حال الشعراء ، لأنهم أهل كلام وخيال يمدحك أحدهم إنْ طمع فى خيرك ، فإنْ لم تُعطه كال لك الذم وتفنَّن فى النَّيل منك ، فليس له وادٍ معين يسير فيه ، أو مبدأ يلتزم به ، كالهائم على وجهه فى كل وَادٍ .

فالمتنبى[1] وهو من أعظم شعراء العصر العباسى ويُضرب به المثل فى الحكمة والبلاغة ، من أشهر شعره قوله :

---

(١) هو : أحمد بن الحسين الكندى ، أبو الطيب المتنبى ، ولد بالكوفة فى محلة تسمى « كندة » عام ٣٠٣ هـ ، ونشأ بالشام ، ثم تنقل فى البادية يطلب الأدب وعلم العربية وأيام الناس ، ادعى النبوة فى بادية السماوة (بين الكوفة والشام) ، ثم تاب ورجع عن دعواه ، مدح سيف الدولة بن حمدان وكافوراً ثم هجاه لأنه لم يُولِّه ، [انظر الأعلام للزركلى ١/١١٥] .

فَالخَيْل والليْلُ والبَيْدَاءُ تَعْرِفُنى والسَّيْفُ والرُّمح والقِرْطَاسُ والقَلَم

فلما كان فى إحدى رحلاته خرج عليه قُطَّاع الطرق ، فلما أراد أن يفرَّ قال له خادمه : ألست القائل :

فَالخَيْل والليْلُ والبَيْدَاءُ تَعْرِفُنى والسَّيْفُ والرُّمح والقِرْطَاسُ والقَلَم

فاستحى أنْ يفرَّ ، وثبت أمامهم حتى قتلوه[1] ، فقال قبل أنْ يموت : ما قتلنى إلا هذا العبد ، واشتهر هذا البيت فى الأدب العربى بأنه البيت الذى قتل صاحبه .

ولما جاء المتنبى إلى مصر مدح حاكمها كافور الإخشيدى[2] طمعاً فيه ، وكان كافور رجلاً أسود ؛ لذلك كَنَّوْه بأبى المِسْك ، ولما مدحه المتنبى حالَ الرضا قال فيه :

* أَبَا كُلِّ طِيبٍ لاَ أَبَا المِسْك وَحْدَهُ *

وفى قصيدة أخرى يقول :

قَضَى اللهُ يَا كافُورُ أنَّكَ أَوَّلٌ وليْسَ بقَاضٍ أَنْ يُرَى لَكَ ثَانِ

فلما لم يُعْطه كافور طلبه ، وساءتْ العلاقة بينهما ، قال يهجوه :

أُريك الرضا لو أَخْفَت النفسُ خافيَا ومَا أَنَا عَنْ نفسى وَلاَ عنْكَ رَاضيا

أَمَيْناً[3] وإخْلاَفَاً وغَدْراً وخسَّةً وجُبْنا أشخصاً لُحْتَ لى أَمْ مَخَازِيا

وتُعجِبُنى رِجْلاَكَ فى النَّعْلِ إننى رأيتُكَ ذَا نَعْلٍ وإنْ كُنْتَ حَافيا

---

(١) قُتل المتنبى هو وابنه وغلامه بالنعمانية عام ٣٥٤ هـ حيث عرض له فاتك بن أبى جهل الأسدى فى الطريق بجماعة من أصحابه ، ومع المتنبى جماعة أيضاً ، فاقتتل الفريقان ، فقُتل المتنبى بالقرب من دير العاقول (فى الجانب الغربى من سواد بغداد) وفاتك هذا هو خال ضبة بن يزيد الأسدى العينى ، الذى هجاه المتنبى بقصيدته البائية المعروفة [الأعلام للزركلى ١/١١٥] .

(٢) كافور بن عبد الله الإخشيدى ، أبو المسْك ، أمير مشهور ، كان عبداً حبشياً اشتراه الإخشيدى ملك مصر (سنة ٣١٢ هـ) فنُسب إليه ، وأعتقه فترقى عنده . وما زالت همته تصعد به حتى ملك مصر (سنة ٣٥٥ هـ) وقد ولد (عام ٢٩٢ هـ) ، وتوفى بالقاهرة ٣٥٧ هـ عن ٦٥ عاماً [الأعلام للزركلى ٥/٢١٦] .

(٣) المَيْنُ : الكذب .

ومثْلُكَ يُؤتَى منْ بِلاَد بَعيدَة ... ليُضحكَ ربَّات الحدَاد البَوَاكيَا
ولَوْلاَ فُضُول النَاسِ جِئْتُك مَادِحاً ... بمَا كنتُ فى نَفْسِى به لَكَ هَاجِيَا

وقد يكون الشاعر بخيلاً ، ولكنه يمدح الكرم والكريم ، ويرفعه إلى عنان السماء :

متَّى تَأْته تَعشُو[1] إلى ضَوْء نَاره ... تَجِدْ خَيْر نَارٍ عِنْدهَا خَيْرُ موقِدِ[2]

والحطيئة[3] مع ما عُرِف عنه من البخل يمدح أحدهم ، ويصفه بالكرم النادر ، لدرجة أنْ جعله يهمُّ بذبح ولده لضيفه ؛ لأنه لم يجد ما يذبحه ، وينظم الحطيئة فى الكرم هذه القصيدة أو القصة الشعرية التى تُعَدُّ من عيون الشعر العربى ، ومع ذلك لم يأخذ مما يقول عبرةً ، وظلَّ على إمساكه وبُخْله .

يقول الحطيئة فى وصف الكريم :

وَطَاوٍ ثَلاثاً عَاصِبِ البَطْنِ مُرْمِل ... بِبَيْدَاءَ لم يَعرِف بها ساكِن رَسْما[4]
أَخِى جَفْوةٍ فيه مِنَ الأُنْس وَحْشَةٌ ... يرى البُؤْسَ فيها مِنْ شراسَته نُعْما
وأَفْرَدَ فى شِعْبٍ عَجُوزاً إزَاءَهَا ... ثلاثَةَ أشْباح تَخَالهوا بُهْما

---

(١) أعشو : أنظر . يقال : عشوت إلى النار إذا أحددت نظرك إليها . قاله أبو على القالى فى الأمالى (١٤٩/١) . وقال ابن منظور فى اللسان فى معنى البيت « أى متى تأته لا تتبين ناره من ضعف بصرك » .

(٢) أورده أبو على القالى فى « الأمالى » (١٤٩/١) . وكذا ابن منظور فى [لسان العرب - مادة : عشا] . وعزاه للحطيئة . وكذا أورده أبو الفرج الأصفهانى فى « الأغانى » (٢٣٧/١) .

(٣) هو : جرول بن أوس بن مالك ، وهو مُخضرم ، أدرك الجاهلية والإسلام ، أسلم ثم ارتد ، لُقِّب بالحطيئة لقصره وقربه من الأرض ، كان ذا شر وسفه ، كان ينتمى إلى كل واحدة من قبائل العرب إذا غضب على الأخرى . [الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى ٢٢٢/١] .

(٤) الطاوى : الجائع . مُرمل : قد اختلط طعامه بالرمل . الرسم : الأثر .

حُفاةً عُراةً ما اغتذَوْا خُبْز ملَّة[١] ... ولاَ عَـرفُوا للبُـرِّ مُذْ خُلقُـوا طَعْما
رأى شَبَحاً وَسْط الظَّلام فَرَاعَه[٢] ... فلمَّـا رأى ضَيْـفاً تَشـمَّر واهْتَما
فقَـالَ ابنُـه لمـا رآهُ بحيْـرةٍ ... أيَا أَبَـت اذْبحْـنى ويَسِّر لَهُ طُعْما
وَلاَ تعتذر بالعُدْم على الذى طَرا ... يظـنُّ لَنَا مالاً فَيُوسِـعُنا ذَمّـا
فَبَيْنَا هُما عَنَّتْ على البُعْـد عَـانَةٌ ... قَد انتظمتْ من خَلْف مسْحلها نَظْما[٣]
عطَاشاً تريد الماءَ فانسابَ نحوها ... علَـى أنَّه منْـها إلـى دَمها أظْمَا
فَأمْهلَها حتَّى تـروَّتْ عطَاشُـها ... وأرسـلَ فيهَا منْ كنَانـته سَهْما
فخرَّتْ نَحُوصٌ ذَات جحش سَمينةٌ ... قَد اكتنزتْ لَحْماً وقد طبّقَتْ شَحْما[٤]
فَيَا بشْرَهُ إذْ جرَّهَا نحـو قَومه ... ويَا بشْرهُمْ لما رأوْا كَلْمها يَدْمَا[٥]
وَبَاتُوا كراماً قَدْ قَضَـوْا حَـقَّ ضَيْفهمْ ... ومَا غَرمُوا غُرْمـاً وقَدْ غَنموا غُنْما
وَبَاتَ أَبُوهـم من بَشَاشَـته أباً ... لضَيْفهـمُ والأم منْ بشْـرها أُمَّـا

وصدق الله العظيم : ﴿أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ (٢٢٦)﴾ [الشعراء] يصفون الكرم وهم بخلاء ، والشجاعة وهم جبناء ... إلخ .

وفى مرة ، اجتمع عند النبى ﷺ اثنان من الشعراء : الزبرقان بن بدر ، وقيس بن عاصم ، وعمرو بن الأهتم فقال أحدهم عبارتين فى مدح أحد الحاضرين بأنه سيد القبيلة . فغضب الممدوح ورأى أن هذا

---

(١) خبز ملة : هو الخبز يوضع فى الرماد الحار الذى يُحمى ليُدفن فيه الخبز لينضج .
(٢) راعه : أخافه وأفزعه .
(٣) عنَّت : ظهرت . عانة : العنون من الدواب : من حُمُر الوحش . المسحل : قائد القطيع .
(٤) نحوص : سمينة ممتلئة . طبقت شحماً : امتلأت شحماً ولحماً .
(٥) الكَلْم : الجرح . يدما : ينزف دماً . [راجع لسان العرب] .

قليل فى حقِّـه ، فقال : والله يا رسول الله ، إنه ليـعلم منى فوق الذى قـال - يعنى : لم يُوفِّنى حـقى - فقـال الشـاعر : أمـا والله وقد قـال ما قال ، فإنه لضيق العطية ، أحمق الأب ، لئيم العم والخال . سبحان الله فى أول المجلس كان سيد قبيلته ، والآن هو ضيق العطية ، أحمق الأب ، لئيم العم والخال !!

ثم قال : والله يـا رسول الله ما كـذبتُ فى الأولى ، ولقـد صدقتُ فى الثـانيـة - يعنى : أنا مـصيب فى القـولين - لكنى رضـيت فـقلت أحسنَ مـا علمت ، وغضبت فقلت أسـوأ ما علمتُ . عندها قال سـيدنا رسول الله « إن من البيان لسحراً »[1] .

ثم يستثنى الحق سبحانه من هؤلاء الغاوين :

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾ ﴾

كان بعض شعراء المشركين أمثال عبد الله بن الزبعرى ، ومسافح

---

(١) أخـرج هذا الحديث بهـذه القـصة البـيهـقى فى دلائل النبـوة (٥/٣١٦) بإسنادين الأول منقطع عن محـمد بن الزبير الحنظلى ، والثانى مـوصولاً من حديث ابن عبـاس قال : جلس إلى رسول الله ﷺ قيس بن عاصم والزبرقـان بن بدر وعمرو بن الأهتم التميميـون ، ففخر الزبرقان ، فقال : يا رسول الله أنا سيد تميم والمطاع فيهم والمجاب أمنعهم من الظلم وآخذ لهم بحقوقـهم ، وهذا يعلم ذلك يعنى عمرو بن الأهتم ، فقال عـمرو بن الأهتم : إنه لشديد العارضة ، مانـع لجانبه ، مطاع فى أذنيه ، فقال الزبرقـان بن بدر : والله يا رسول الله لقد علم منى غير ما قال ، وما منعه أن يتكلم إلا الحسد ، فقال عمرو بن الأهتم : أنا أحسدك ، فوالله إنك لئيم الخال ، حديث المال ، أحمق الولد ، مضيع فى العشيرة ، والله يا رسول الله لقد صدقت فيما قلت أولاً ، وما كـذبت فيما قلت آخراً ، ولكنى رجل إذا رضيت قلت أحسن ما علمت ، وإذا غـضبت قلت أقبح مـا وجدت ، ولقد صدقـت فى الأولى والأخرى جميـعاً ، فقال النبى ﷺ : إن من البيان سحراً ، إن من البيان سحراً .

الجمحى يهجون رسول الله ﷺ ويذمونه ، فيلتف الضالون الغاوون من حولهم ، يشجعونهم ويستزيدونهم من هجاء رسول الله ، وفى هؤلاء نزل قوله تعالى : ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (٢٢٤)﴾ [الشعراء] فأسرع إلى سيدنا رسول الله شعراءُ الإسلام : عبد الله بن رواحة وكعب بن زهير ، وكعب بن مالك ، وحسان بن ثابت ، فقالوا : أنحن من هؤلاء يا رسول الله ؟ فقرأ عليهم رسول الله هذه الآية :

﴿إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ .. (٢٢٧)﴾ [الشعراء]

فاستثنى الحق ـ تبارك وتعالى ـ من الشعراء مَنْ توفَّرت فيه هذه الخصال الأربع ﴿إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا .. (٢٢٧)﴾ [الشعراء] أى : ذكروا الله فى أشعارهم ؛ لينبهوا الناس إلى مواجيد الدين ومواعظ الإيمان ، فيلتفتون إليها ، ثم ينتصرون لرسول الله من الذين هَجَوْه .

وكان هؤلاء الثلاثة ينتصرون للإسلام ولرسول الله ، فكلما هجاه الكفار ردُّوا عليهم ، وأبطلوا حُججهم ، ودافعوا عن رسول الله ، حتى أنه ﷺ نَصَبَ منبراً[1] لحسان بن ثابت ، وكان يقول له : « قل وروح القدس معك ، اهجهم وجبريل معك »[2]

وقال لكعب بن مالك[3] : « اهجهم ، فإن كلامك أشدُّ عليهم من

---

(١) أخرج الحاكم فى مستدركه (٣/٤٨٧) عن عائشة رضى الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ يضع لحسان منبراً فى المسجد يقوم عليه قائماً يفاخر عن رسول الله ﷺ ، ويقول ﷺ : « إن الله يؤيد حسان بن ثابت بروح القدس ما نافح أو فاخر عن رسول الله ﷺ » وكذا أخرجه أبو داود فى سننه (٥٠٠٥) .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٢١٣ ، ٦١٥٣) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٤٨٦) كتاب فضائل الصحابة من حديث البراء بن عازب .

(٣) هو : كعب بن مالك بن عمرو الأنصارى السلمى الخزرجى ، صحابى من أكابر الشعراء من أهل المدينة ، اشتهر فى الجاهلية ، وكان فى الإسلام من شعراء النبى ﷺ ، عمى فى آخر عمره ، وعاش ٧٧ سنة ، توفى ٥٠ هـ . (كتاب الأعلام للزركلى) .

رَشْق النِّبال »[1] كما سمح لهم بإلقاء الشعر فى المسجد ؛ لأنهم دخلوا فى هذا الاستثناء ، فهم من الذين آمنوا ، وعملوا الصالحات ، وذكروا الله كثيراً ، وهم الذين ينتصرون للإسلام ويُمجِّدون رسول الله ، ويدافعون عنه ، ويردُّون عنه ألسنة الكفار .

ومعنى : ﴿وَانتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا .. (٢٢٧)﴾ [الشعراء] أنهم لم يكونوا سفهاء ، ولم يبدأوا الكفار بالهجاء ، إنما ينتصرون لأنفسهم ، ويدفعون ما وقع على الإسلام من ظلم الكافرين ؛ لذلك لما هجا أبو سفيان رسول الله ﷺ ، قال أحدهم[2] رداً عليهم :

أَتَهْجُوهُ وَلَسْتَ لَهُ بِكُفْءٍ ... فَشَرُّكُما لخيركما الفِدَاءُ
فَإِنَّ أَبِى وَوَالِده وعِرْضِى ... لِعِرْضِ مُحمدٍ منكمْ وِقَاءُ

وقوله تعالى : ﴿مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا .. (٢٢٧)﴾ [الشعراء] ظُلِموا مِمَّنْ ؟ من الذين وقفوا من الدين ومن الرسول موقفَ العداء ، وتعرَّضوا لرسول الله وللمؤمنين به بالإيذاء والكيد ، ظُلِموا من الذين عزلوا رسول الله ، وآله فى الشِّعْب حتى أكلوا أوراق الشجر ، من الذين تآمروا على قتله ﷺ إلى أنْ هاجر .

ومن رحمته تعالى وحكمته أنْ أباح للمظلوم أنْ ينتصر لنفسه ، وأنْ يُنفِّس عنها ما يعانيه من وطأة الظلم ، حتى لا تُكبتَ بداخله هذه المشاعر ، ولا بُدَّ لها أن تنفجر ، فقال سبحانه : ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ (١٢٦)﴾ [النحل]

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٤٩٠) كتاب فضائل الصحابة .

(٢) هو حسان بن ثابت ، كما جاء فى صحيح مسلم (٢٤٩٠) كتاب فضائل الصحابة ، وفيه أن أبياته كالتالى :

هَجَوْتَ مُحمداً فَأَجبْتُ عَنْهُ ... وعِنْد الله فى ذَاكَ الجزَاءُ
هَجَوْتَ مُحمداً بَرّاً حَنِيفاً ... رَسُولَ الله شيمتُه الوَفَاءُ
فَإِنَّ أَبِى وَوَالِده وَعِرْضِى ... لِعِرْضِ مُحمدٍ منكُمْ وِقَاءُ

وانظر أيضاً دلائل النبوة للبيهقى (٥/٤٨ ، ٤٩) .

وقال تعالى : ﴿لا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ .. (١٤٨)﴾ [النساء]

فأباح للمظلوم أن يُعبِّر عن نفسه ، وأن يرفض الظلم ، ولا عليه إنْ جهر بكلمة تُخفِّف عنه ما يشعر به من ظلم .

ثم تختم السورة بقوله تعالى : ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ (٢٢٧)﴾ [الشعراء] يعنى : غداً سيعلمون مرجعهم ونهايتهم كيف تكون ؟ والمنقلب هو المرجع والمآب ، والمصير الذى ينتظرهم .

فالحق ـ تبارك وتعالى ـ يتوعدهم بما يؤذيهم ، وبما يسوؤهم ، فلن تنتهى المسألة بانتصار المسلمين عليهم ، إنما ينتظرهم جزاء آخر فى الآخرة .

كما قال سبحانه فى موضع آخر : ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ .. (٤٧)﴾ [الطور]

لذلك أبهم الله تعالى هذا المنقلب ، وإبهامه للتعظيم والتهويل ، وقد بلغ من العظَم أنه لا يُوصف ولا تؤدى العبارة مؤداه ، كما أبهم العذاب فى قولهَ تعالى : ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ (٧٨)﴾ [طه]

يعنى : شىء عظيم لا يُقَال ، والإبهام هنا أبلغ ؛ لأن العقل يذهب فى تصوّره كل مذهب ، وعلى كل كيفية .

والمنقلب أو المرجع لا يُمدح فى ذاته ، ولا يُذمُّ فى ذاته ، فإن انتهى إلى السوء فهو مُنقلب سىء ، وإن انتهى إلى خير فهو مُنقلَب حسن ، فالذى نحن بصدده من مُنقلَب الكافرين المعاندين لرسول الله منقلب سىء يُذَم .

أما مُنْقلَب سحرة فرعون مثلاً حين قال لهم : ﴿آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ

آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِى عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ .. (٧١) ﴾ [طه]

فماذا قالوا ؟ ﴿ قَالُوا لا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ (٥٠) ﴾ [الشعراء] فهذا مُنقلَب حَسَن يُمدح ويُحمد .

وقد يظن المرء أن مُنقلَبه مُنقلَب خير ، وأنه سينتهى إلى ما يُفرِح ، وهو واهم مخدوع فى عمله ينتظر الخير ، والله تعالى يُعِد له منقلباً آخر ، كالذى أعطاه الله الجنتين من أعناب وحففهما بنخل ، وجعل بينهما زرعاً ، فلما غرَّته نعمة الدنيا ظنَّ أن له مثلها ، أو خيراً منها فى الآخرة ، فقال : ﴿ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لأَجِدَنَّ خَيْراً مِّنْهَا مُنقَلَبًا (٣٦) ﴾ [الكهف]

والانقلاب والمرجع إلى الله - عز وجل - إنما يفرح به مَنْ آمن بالله وعمل صالحاً ؛ لأنه يعلم أنه سيصير إلى جزاء من الحق - سبحانه وتعالى - مؤكد ؛ لذلك الحق - تبارك وتعالى - يُعلِّمنا حين نركب الدواب التى تحملنا ﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ .. (٧) ﴾ [النحل]

علَّمنا أن نذكره سبحانه : ﴿ وَالَّذِى خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ (١٢) لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَـٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ (١٣) وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ (١٤) ﴾ [الزخرف]

إذن : فالدوابّ وما يحلّ محلّها الآن من وسائل المواصلات من أعظم نِعَم الله علينا ، ولولا أن الله سخَّرها لنا ما كان لنا قدرة عليها ، ولا طاقة بتسخيرها ؛ لذلك نقول ﴿ وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ (١٣) ﴾ [الزخرف]

أى : لا نستطيع ترويضه ، فالصبى الصغير نراه يقود الجمل الضخم ، ويُنيخه ويُحمّله الأثقال وهو طائع منقاد ، لكنه يفزع إنْ رأى ثعباناً صغيراً ، لماذا ؟ لأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ سخَّر لنا الجمل وذلَّله ، ولم يُسخِّر لنا الثعبان .

وصدق الله العظيم إذ يقول سبحانه : ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (٧١) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (٧٢)﴾ [يس]

ولكن ما علاقة قولنا : ﴿سُبْحَانَ الَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَـٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ (١٣)﴾ [الزخرف] بقولنا : ﴿وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ (١٤)﴾ [الزخرف]

قالوا : لأننا سننقلب إلى الله فى الآخرة ، وسنُسأل عن هذا النعيم ، فإنْ شكرنا ربنا على هذه النعمة فقد أدَّيْنا حقها ، ومَنْ شكر الله على نعمة فى الدنيا لا يسأل عنها فى الآخرة ؛ لأنه أدَّى حقَّها .

وقال سبحانه : ﴿وَسَيَعْلَمُ .. (٢٢٧)﴾ [الشعراء] بالسين الدالة على الاستقبال ، لكنها لا تعنى طول الزمن كما يظن البعض ؛ لأن الله تعالى أخفى الموت ميعاداً ، وأخفاه سبباً ومكاناً ، وهذا الإبهام للموت هو عَيْن البيان ، لأنك فى هذه الحالة ستنتظره وتتوقعه فى كل وقت ، ولو علم الإنسانُ موعد موته لقال : أفعل ما أريد ثم أتوب قبل أن أموت .

إذن : الوقت الذى تقتضيه السين هنا لا يطول ، فقد يفاجئك الموت ، وليس بعد الموت عمل أو توبة ، واقرأ قوله تعالى : ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا (٤٦)﴾ [النازعات]

وقلنا : إن فى الآية ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ (٢٢٧)﴾

[الشعراء] تهديداً ووعيداً ، الحق ـ تبارك وتعالى ـ حين يُضخّم الوعيد إنما يريد الرحمة بخَلْقه ، وهو مُحبٌّ لهم ، فيهددهم الآن ليَسلموا غداً ، ويُنبِّههم ليعودوا إليه ، فينالوا جَزاءه ورحمته .

وكأنه ـ تبارك وتعالى ـ يريد من وراء هذا التهديد أن يُوزِّع رحمته لا جبروته ، كما تقسو على ولدك ليذاكر وتهدده ليجتهد . إذن : فالوعد بالخير خير ، والوعيد بالشر أيضاً خير ، فكل ما يأتيك من ربك ، فاعلم أنه خير لك ، حتى وإنْ كان تهديداً ووعيداً .

وهكذا قدمتْ لنا سورة الشعراء نموذجاً من تسلية الحق ـ تبارك وتعالى ـ لنبيه محمد ﷺ والتخفيف عنه ما يلاقى من حزن وألم على حال قومه وعدم إيمانهم ، وعرضَتْ عليه ﷺ موكب الرسل ، وكيف أن الله أيَّدهم ونصرهم وهزم أعداءهم ودحرهم .

ثم سلاَّه ربه بأنْ رَدَّ على الكفار فى افتراءاتهم ، وأبطل حججهم ، وأبان زَيْف قضاياهم ، ثم تختم هذه التسلية ببيان أن للظالمين عاقبة سيئة تنتظرهم وأبهم هذه العاقبة ﴿أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ (٢٢٧)﴾ [الشعراء] ليضخمها .

والشىء إذا حُدِّد إنما يأتى على لَوْن واحد ، وإنْ أُبهِم كان أبلغ ؛ لأن النفس تذهب فى تصوُّره كل مذْهب ، كما لو تأخّر مسافر عن موعد عودته فنجلس ننتظره فى قلق تسرَح بنا الظنون فى سبب تأخره ، وفى احتمالات ما يمكن أنْ يحدث ، وتتوارد على خواطرنا الأوهام ، وكل وهم يَرِد فى نفسك بألم ولذعة ، فى حين أن الواقع شىء واحد .

سُورَةُ النَّمْلِ

سورة النمل[1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ ﴾

تكلمنا كثيراً على هذه الحروف المقطَّعة فى أوائل السور ، وهنا (طس) وهما حرفان من حروف المعجم ، وهى تُنطق هكذا (طاء) و (سين) لأنها أسماء حروف ، وفَرْق بين اسم الحرف ومُسمَّاه ، فكلٌّ من الأمى والمتعلم يتكلم بحروف يقول مثلاً : كتب محمد الدرس . فإنْ طلبتَ من الأمى أن يتهجى هذه الحروف لا يستطيع لأنه لا يعرف اسم الحرف ، وإنْ كان ينطق بمُسمَّاه ، أمّا المتعلم فيقول : كاف تاء باء .

ورسول الله ﷺ كان أمياً لا يعرف أسماء الحروف ، فهى إذن من

---

(١) سورة النمل هى السورة رقم (٢٧) فى ترتيب المصحف الشريف ، وعدد آياتها ٩٣ آية ، وهى سورة مكية ، قاله ابن عباس فيما أورده السيوطى فى (الدر المنثور ٦/٣٤٠) وعزاه لابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقى فى الدلائل . وقد ذكر القرطبى فى تفسيره (٧/٥٠٣٥) الإجماع على أنها مكية كلها ، وقد نزلت بعد سورة الشعراء كما هى فى ترتيب المصحف ، وقبل سورة القصص كذلك . انظر : الإتقان فى علوم القرآن (١/٢٧) .

الله ؛ لذلك كانت مسألة توقيفية ، فالحروف (الـم) نطقنا بها فى أول البقرة بأسماء الحروف (ألف) (لام) (ميم) ، أما فى أول الانشراح فقلنا ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١﴾ [الشرح] بمسميات الحروف نفسها ، فنقول : أَلَم .

و ﴿تِلْكَ .. ۝١﴾ [النمل] اسم إشارة للآيات الآتية خلال هذه السورة ، وقُلْنا : إن الآيات لها مَعَان متعددة ، فقد تعنى الآيات الكونية : كالشمس والقمر ، ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ .. ۝٣٧﴾ [فصلت]

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا .. ۝٢١﴾ [الروم] وهذه الآيات الكونية هى التى تلفتنا إلى عظمة الخالق ـ عزَّ وجلّ ـ وقدرته .

والآيات بمعنى المعجزات المصاحبة للرسل ، والتى تثبت صدْق بلاغهم عن الله ، والآيات بمعنى آيات القرآن الحاملة للأحكام ، وهى المرادة هنا ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ۝١﴾ [النمل]

وسبق أنْ قال تعالى : ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ ۝١﴾ [الحجر] فمرة يقول ﴿وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ ۝١﴾ [الحجر] ومرة ﴿وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ۝١﴾ [النمل] ويأتى بالكتاب ويعطف عليه القرآن ، أو يأتى بالقرآن ويعطف عليه الكتاب ، مع أنهما شىء واحد ، فكيف إذن يعطف الشىء على نفسه ؟

قالوا : إذا عطف الشىء على نفسه ، فاعلم أنه لزيادة وَصْف الشىء ، تقول : جاءنى زيد الشاعر والخطيب والتاجر ، فلكلٍّ صفة منها إضافة فى ناحية من نواحى الموصوف ، فهو القرآن لأنه يُقرأ فى الصدور ، وهو نفسه الكتاب لأنه مكتوب فى السطور ، وهما معاً

نُسمِّيهم مرة القرآن ومرة الكتاب ، أمّا الوصف فيجعل المغايرة موجودة .

ومعنى ﴿مُّبِينٍ ۝١﴾ [النمل] بيِّن واضح ومحيط بكل شىء من أقضية الحياة وحركتها من أوامر ونواهٍ ، كما قال سبحانه : ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ .. ۝٣٨﴾ [الأنعام]

وسبق أنْ حكينا ما حدث مع الإمام محمد عبده[1] - رحمه الله - حينما كان فى فرنسا ، وسأله أحد المستشرقين : تقولون إن القرآن أحاط بكل شىء ، فكم رغيفاً فى إردبّ القمح ؟ فدعا الإمام الخباز وسأله فقال : كذا وكذا ، فقال المستشرق : أُريدها من القرآن ، قال الإمام : القرآن قال لنا : ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ۝٧﴾ [الأنبياء]

فهو كما قال تعالى : ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ .. ۝٣٨﴾ [الأنعام]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢﴾

الهدى : يأتى بمعنيين : بمعنى الدلالة على طريق الخير ، وبمعنى المعونة ، فمن ناحية الدلالة هو هُدىً للمؤمن وللكافر على حَدٍّ سواء ؛ لأنه دلَّ الجميع وأرشدهم ، ثم تأتى هداية المعونة على حسب اتباعك لهداية الدلالة .

---

(١) هو : الشيخ محمد عبده بن حسن خير الله من آل التركمانى ، مفتى الديار المصرية ، ومن كبار رجال الإصلاح والتجديد فى الإسلام ، ولد فى قرية شنرا من قرى الغربية بمصر (١٨٤٩ م) نشأ فى محلة نصر بالبحيرة ، تولى منصب القضاء وتوفى بالإسكندرية (١٩٠٥) عن ٥٦ عاماً ، ودفن بالقاهرة . له مؤلفات كثيرة . [الأعلام للزركلى ٦/٢٥٢].

فمَنْ أطاع الله وآمن به وأخذ بدلالته ، فكأن الحق سبحانه يقول له : أنت استأمنتنى على حركة حياتك وأطعتنى فى أمرى ونهيي ، فسوف أخفف عنك وأُهوِّن عليك أمر العبادة وأُعينك عليها ، وهذه هى هداية المعونة التى قال الله عنها : ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧)﴾ [محمد]

وكذلك الكافر الذى لم يأخذ بهداية الدلالة والإرشاد ، واختار لنفسه طريقاً آخر يُعينه الله عليه ، ويُيسِّر له ما سعى إليه من الكفر ؛ لذلك يختم الله على قلوب الكافرين حتى لا يدخلها إيمان ولا يخرج منها كفر .

لكن الهداية هنا : أهى هداية دلالة ، أم هداية معونة ؟

نقول : هى هداية معونة ، بدليل قوله تعالى بعدها ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ (٢)﴾ [النمل] فما كانوا مؤمنين إلا لأنهم مهديون ، والبُشْرى لا تكون إلا للمؤمنين ، إذن : هى معونة للمؤمنين بأنْ يزيدهم هدايةً إلى الطريق السَّوىّ ، وإلى جنات النعيم ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٨)﴾ [التحريم]

ولو أن الهداية هنا بمعنى الدلالة التى تأتى للمؤمن والكافر لكانتْ بشرى وإنذاراً ، لكن الآية ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ (٢)﴾ [النمل] فتعيَّن أن يكون المعنى هداية المعونة وهداية البشرى .

﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٣)﴾

المؤمنون هم أصحاب عقيدة الإيمان ، وهو أن تؤمن بقضية الحق الواحد الإله المختار الفاعل الذى له صفات الكمال ، تؤمن بها حتى

تصير عقيدة فى نفسك ثابتة لا تتزعزع ، والإيمان اعتقاد بالقلب ، وقَوْل باللسان ، وعمل بالجوارح ، فلا يكفى النطق باللسان ، إنما لابد من أداء تكاليف الإيمان ومطلوباته ، وقمتها إقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة وصَوْم رمضان ، والحج .

فالصلاة دعوة من الله لخَلْقه ، دعوة من الصانع للمصنوع ، فربُّك يستدعيك إلى حضرته ، وكيف بالصَّنْعة إذا عُرِضَتْ على صانعها كل يوم خمس مرات ، ومع ذلك نرى مَنْ يُقدِّم العمل على الصلاة ، وإذا سمع النداء قال عندى أعمال ومشاغل ، إياك أنْ تظن أن الصلاة تعطيل للمصالح ، أو إضاعة للوقت ؛ لأنك فى حركة حياتك مع نِعَم الله وفى الصلاة مع الله .

ونقيس هذه المسألةَ ـ ولله المثل الأعلى ـ لو أن أباك ناداك فلم تُجبه ، ماذا يفعل بك ؟ فلا يكُنْ ربُّك أهونَ عليك من أبيك ، ربك يناديك : الله أكبر يعنى : أكبر من العمل ، وأكبر من كل شىء يشغلك عن تلبية ندائه .

وفى الصلاة نأخذ شحنة إيمانية تُقوِّينا على حركة حياتنا ، كما لو ذهبتَ ببطارية السيارة مثلاً لجهاز الشحن أتقول : إنك عطلتَ البطارية ؟

ولو حسبنا الوقت الذى تستغرقه الصلوات الخمس لوجدناه لا يتعدّى ساعة من الأربع والعشرين ساعة ، فلا تضن على نفسك بها لتلتقى بربك ، وتقف بين يديه ، وتعرض نفسك عليه ، فيصلح فيك ما أفسدته حركة الحياة ويعطيك المدد والعون والشحنة الإيمانية التى تدفعك إلى حركة منسجمة مع الحياة والكون من حولك .

وإنْ كان مهندس الآلة يُصلحها بشىء مادى ، فربُّك ـ عز وجل ـ

غَيْب ، فيصلحك بالغيب ، ومن حيث لا تدرى أنت ، لذلك كانت الصلاة فى قمة مطلوبات الإيمان .

فإنْ كانت الصلاة لإصلاح النفس ، فالزكاة لإصلاح المال ؛ لذلك تجد دائماً أن الصلاة مقرونة بالزكاة فى معظم الآيات ، وإنْ كان المال نتيجة العمل ، والعمل فرع الوقت ، فإن الصلاة تأخذ الوقت ، والزكاة تأخذ نتيجة الوقت ، الزكاة تأخذ ٢,٥٪ أمّا الصلاة فتأخذ الوقت نفسه يعنى بنسبة ١٠٠٪ .

ومع ذلك لا نقول : إن الصلاة أضاعتْ الوقت ، لأن الشحنة التى تأخذها فى الصلاة تجعلك تنجز العمل الذى يستغرق عدة ساعات فى نصف ساعة ، فتعطيك بركة فى الوقت .

وسبق أن قلنا : إن نداء الله أكبر يعنى : أن لقاء الله أكبر من أى شىء يشغلك مهما رأيته كبيراً ؛ لأنه سبحانه واهب البركة ، وواهب الطاقة ، وإنْ كان العمل والسَّعْى فى مناكب الأرض مطلوباً ، لكن الصلاة فى وقتها أَوْلَى .

وحين نتأمل أطول الأوقات بين كل صلاتين نجد أنها من الصبح حتى الظهر ، وهو الوقت المناسب للعمل ، ومن العشاء حتى الصبح ، وهو الوقت المناسب للنوم ، وهكذا تُنظِّم لنا الصلاة حياتنا ، فمِنْ صلاة الصبح إلى صلاة الظهر سبع ساعات هى ساعات العمل .

لو أن الأمة الإسلامية تمسَّكتْ بشرعها ومنهج ربها ، وبعد هذه الساعات السبع التى تقضيها فى عملك ، أنت حر بعد صلاة الظهر ، أمّا التخصيص الذى طرأ على حركة الحياة فقد اقتضى أنْ يأتى صلاة الظهر بل والعصر والناس ما يزالون فى أعمالهم .

أما الذين يُؤخرون الصلاة عن وقتها بحجة امتداد الوقت بين الصلاتين ، نعم الوقت ممتدٌّ ، لكن لا يجوز لك تأخير الصلاة ، ولبيان هذه المسألة نقول : هَبْ أن غنياً مستطيعٌ للحج ، ولم يحج متى يأثم ؟

يأثم إذا ما غَرَّه طول الأمل ، ثم عاجله الموت قبل أنْ يحجَّ ، فإنْ أمهله العمر حتى يحج ، فقد سقط عنه هذا الفرض ، لكن مَنْ يضمن له البقاء إلى أنْ يؤدى هذه الفريضة .

لذلك ورد فى الحديث : « حُجُّوا قبل ألاَّ تَحجُّوا »[(١)] .

كذلك الحال فى وقت الصلاة ، فهو ممتد ، لكن مَنْ يضمن لك امتداده ؛ لذلك تارك الصلاة يأثم فى آخر لحظة من حياته ، فإنْ ظلَّ إلى أنْ يصلى فلا شىء عليه .

إذن : لا تتعلَّل بطول الوقت ؛ لأن طول الوقت جعله الله لحكمة ، لا لنأخذه ذريعة لتأخير الصلاة عن وقتها ، طول الوقت بين الصلوات جُعِل للنائم كى يستيقظ ، أو للناسى كى يتذكّر .

ثم يقول سبحانه ﴿وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ③﴾ [النمل]

فالآية جمعتْ أمر المؤمن كله ، بداية من العقيدة والإيمان بالله ، ثم الصلاة ، فالزكاة وهما المطلبان العمليان بين إيمانين : الإيمان الأول بالله ، والآخر أنْ يؤمن بالآخرة وبالجزاء والمرجع والمصير .

وقوله ﴿يُوقِنُونَ ③﴾ [النمل] الإيقان : الحكم بثبات الشىء بدون توهُّم شكٍّ ؛ لذلك قلنا : إن العلم أنْ تعرف قضية واقعة وتقول ، إنها صدق وتُدلِّل عليها .

---

(١) أخرجه الحاكم فى « مستدركه على الصحيحين » (١/٤٤٨) من حديث الحارث بن سويد رضى الله عنه .

وقلنا : إن اليقين درجات : علم اليقين ، وعين اليقين ، وحقُّ اليقين ، فمثلاً حين أقول لك : إننى رأيتُ فى أحد البلاد أصبع الموز نصف متر ، وأن تثق فىَّ ولا تكذبنى ، فهذا علم يقين ، فإنْ رأيته ، فهذا عَيْن اليقين ، فإن أخذته وذهبتَ تقطعه مثلاً ، وتوزعه على الحاضرين فهذا حقُّ اليقين . وهذه الدرجة لا يمكن أن يتسرَّب إليها شكٌّ .

لذلك لما سأل النبى ﷺ الصحابى الحارث بن مالك الأنصارى : « كيف أصبحتَ » ؟ قال : أصبحتُ بالله مؤمناً حقاً ، قال « فإنّ لكل حَقٍّ حقيقة ، فما حقيقة إيمانك ؟» قال : عزفَتْ نفسى عن الدنيا ، فاستوى عندى ذهبها ومدرها[1] ، وكأنِّى أنظر إلى أهل الجنة فى الجنة يُنعَّمون ، وإلى أهل النار فى النار يُعذَّبون ، فقال له النبى ﷺ : « عرفت فالزم »[2] .

والإمام على ـ رضى الله عنه ـ يعطينا صفة اليقين فى قوله : لو كُشِف عنى الحجاب ما ازددتُ يقيناً ؛ لأنى صدقت بما قال الله ، وليست عينى أصدق عندى من الله .

ومن هذا اليقين ما ذكرنا فى قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ①﴾ [الفيل] مع أن النبى ﷺ وُلد فى هذا العام ، فلم يَرَ هذه الحادثة ، فالمعنى : ألم تعلم ، وعدل عن (تعلم) إلى (ترى) ليقول للنبى ﷺ أن إخبار الله لك أقوى صِدْقاً من رؤية عينيك .

---

(١) السدر : قطع الطين اليابس ، وهو الطين المتماسك . [لسان العرب ـ مادة : مدر] .

(٢) أورده الهيثمى فى مجمع الزوائد (٥٧/١) وعزاه للطبرانى فى المعجم الكبير وقال : « فيه ابن لهيعة وفيه من يحتاج إلى الكشف عنه » .

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾﴾

هؤلاء فى مقابل الذين آمنوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة ؛ لأن الحق ـ تبارك وتعالى ـ يعرض الشىء ومقابله لنُجرى نحن مقارنة بين المتقابلات ، وفى هؤلاء يقول تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ .. ﴿٤﴾﴾ [النمل]

ولم يَنْفِ عنهم إقامة الصلاة أو إيتاء الزكاة ، لماذا ؟ لأنهم أصلاً لا يؤمنون بالله ، ولا بالبعث والحساب ، ولو علموا أنهم سيرجعون إلى الله لآمنوا به ، ولَقدَّموا العمل الصالح .

ومعنى ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ .. ﴿٤﴾﴾ [النمل] أن الذين لا يؤمنون بالله ، ولا يؤمنون بالآخرة ، ولا يُؤدُّون مطلوبات الإيمان لا عُذْرَ لهم ؛ لأننا حينما عرضنا الإيمان ومطلوباته عرضناه عَرْضاً جيداً مُستميلاً مُشوِّقاً وزيَّناه لكم .

فالصلاة لقاء بينك وبين ربك يعبر عن دوام الولاء ، ويعطيك شحنة إيمانية ، والزكاة تُؤمِّنك حين ضعفك وعدم قدرتك ، فنأخذ منك وأنت غنى لنعطيك إنْ حَلَّ بك الفقر ، ولما نهيناك عن الكذب نهينا الناس جميعاً أن يكذبوا عليك ، ولما حذَّرناك من الرشوة قلنا للآخرين : لا تأكلوا ماله دون وَجْه حقٍّ .. إلخ .

وهكذا شرحنا التكاليف وبيَّنا الحكمة منها ، وحبَّبناها إليكم .

أو : يكون المعنى : زيّنّا لهم أعمالهم التى يعملونها ، فلما علم الله عشْقهم للضلال وللانحراف ختم على قلوبهم ، يقول تعالى : ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا .. ﴿٨﴾﴾ [فاطر]

لكن مَنِ الذى زيَّن لهم : ﴿فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ .. (٦٣)﴾ [النحل] فالتزيين يأتى مرة من الشيطان ، ومرة مجهول الفاعل ، ومرة زيَّن الله لهم .

ومن تزيين الله قوله تعالى فى شأن فرعون : ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ.. (٨٨)﴾ [يونس] فلما أعطاهم الله النعمة فُتنوا بها .

وإبليس خلقه الله ، وجعل له ذرية تتسلَّط على الناس ، وتُغْويهم ، وما ذلك إلا للاختبار ليرى مَنْ سيقف على هذه الأبواب ، إذن : الحق - تبارك وتعالى - لم يجعل حواجز عن المعصية ، وجعل لكم دوافع على الطاعة ، فالمسألة منك أنتَ ، فإنْ رأيتُك مِلْتَ إلى شىء وأحببته أعنْتُكَ عليه .

والذى يموت له عزيز ، أو المرأة التى يموت ولدها ، فتظل حزينة عليه تُكدِّر حياتها وحياة مَنْ حولها - ويا ليت هذا يفيد أو يُعيد الميت - ونقول لمن يستقبل قضاء الله بهذا السُّخْط : إن ربك حين يعلم أنك أَلِفْتَ الحزن وعشقْته وهو رب ، فلا بُدَّ أن يعطيك مطلوبك ، ويفتح عَليك كل يوم باباً من أبوابه .

إذن : ينبغى على مَنْ يتعرَّض لمثل هذا البلاء أنْ يستقبله بالرضا ، وأنْ يغلق باب الحزن ، ولا يتركه مواربا .

ومن التزيين قوله سبحانه : ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ (٢٠)﴾ [الشورى]

ومعنى ﴿يَعْمَهُونَ (٤)﴾ [النمل] يتحيرون ويضطربون ، لا يعرفون أين يذهبون ؟

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٥﴾ ﴾

أى : العذاب السىء ، وهذا فى الآخرة ، فبالإضافة إلى ما حدث لهم من تقتيل فى بدر ، وهزيمة كسرتْ شوكتهم فلم ينته الأمر عند هذا الحد ، إنما هناك خسارة أخرى فى الآخرة ﴿ وَهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ ﴿٥﴾ ﴾ [النمل]

والأخسر مبالغة فى الخسران ، فلم يَقُلْ : خاسر إنما أخسر ؛ لأنه خسر النعيم ؛ لأنه لم يُقدِّم صالحاً فى الدنيا ، وليته ظل بلا نعيم وتُركَ فى حاله ، إنما يأتيه العذاب الذى يسوؤه ؛ لذلك قال تعالى ﴿ هُمُ الأَخْسَرُونَ ﴿٥﴾ ﴾ [النمل] لأنهم لم يدخلوا الجنة ، وهذه خسارة ، ثم هم فى النار ، وهذه خسارة أخرى .

﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾ ﴾

يعنى : هذه المسائل والقضايا إنما تأتيك من الله الحكيم الذى يضع الشىء فى نصابه وفى محله ، فإنْ أثاب المحسن أو عاقب المسىء ، فكلٌّ فى محلّه ، وهو سبحانه العليم بما يضع من الجزاءات على الحسنة وعلى السيئة .

ويقصُّ علينا الحق سبحانه قصة موسى عليه السلام :

﴿ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ ﴾

ما زِلْنا قريبى عَهْد بذكر طرف من قصة موسى - عليه السلام -

فى سورة الشعراء ، وهنا يعود السياق إليه مرة أخرى ، لماذا ؟ لأن دعوة موسى ـ عليه السلام ـ أخذت حيِّزاً كبيراً من القرآن الكريم ، ذلك لأنهم أتعبوا أنبياءهم وعاندوهم حتى كَثُر الكلام عنهم .

وعجيب أنهم يفخرون بكثرة أنبيائهم ، وهم لا يعلمون أنها تُحسب عليهم لا لهم ، فالنبى لا يأتى إلا عند شقْوة أصحابه ، وبنو إسرائيل كانوا من الضلال والعناد بحيث لا يكفيهم رسول واحد ، بل يلزمهم (كونسلتو) من الأنبياء ، فهم يعتبرونها مفخرة ، وهى مَنْقصة ومذمّة .

أما تكرار قصة بنى إسرائيل وموسى ـ عليه السلام ـ كثيراً فى القرآن ، فلأن القرآن لا يروى (حدوتة) و ، لا يذكر أحداثاً للتأريخ لها ، إنما يأتى من القصة بما يناسب موطن العبرة والتثبيت لفؤاد رسول الله : ﴿ وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ .. (١٢٠) ﴾ [هود]

لأن رسول الله ﷺ تعرَّض فى رحلة الدعوة لكثير من المصاعب والمشاقّ ، ويحتاج لتسلية[1] وتثبيت ، فيأتى له ربُّه بلقطة معينة ، ولكن لا يُورد القصة كاملة ، وهذا ليس عَجْزاً ـ وحاشا لله ـ عن إيراد القصة كاملة مرة واحدة .

وقد أورد سبحانه قصة يوسف ـ عليه السلام ـ كاملة من الألف إلى الياء فى صورة قصة محبوكة على أتمِّ ما يكون الفن القصصى ، ومع ذلك لم يأْتِ لسيدنا يوسف عليه السلام ذِكْر ـ فى غير هذه القصة ـ إلا فى موضعين :

---

(١) سلأنى من همى تسلية وأسلانى ، أى : كشفه عنى . وانسلى عنى الهم وتسلَّى بمعنىً . أى : انكشف . وقال أبو زيد : معنى سلوت إذا نسى ذكره وذهل عنه . [لسان العرب ـ مادة : سلى] .

أحدهما : فى سورة الأنعام : ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ .. (٨٤)﴾ [الأنعام]

والآخر فى سورة غافر : ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا .. (٣٤)﴾ [غافر]

إذن : ورود القصة فى لقطات مختلفة متفرقة ليس عَجْزاً عن إيرادها مُسْتوفاة كاملة فى سياق واحد ، ولو فعل ذلك لكان التثبيت مرة واحدة .

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا .. (٧)﴾ [النمل] ، وفى موضع آخر يقول : ﴿قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا .. (٢٩)﴾ [القصص] وفى هذه الآية إضافة جديدة ليست فى الأولى .

أما قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ[1] وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا .. (٢٩)﴾ [القصص] أى : آنس فى ذاته ، أمّا فى الآيتين السابقتين فيخبر بأنه آنسَ ناراً ، إذن : كل آية فى موقف ، وليس فى الأمر تكرار ، كما يتوهّم البعض .

فموسى ـ عليه السلام ـ يسير بأهله فى هذا الطريق الوَعْر ويحلّ عليه الظلام ، ولا يكاد يرى الطريق فيقول لزوجته : ﴿إِنِّي آنَسْتُ

(١) أى الأجل الذى ضربه له شعيب لقاء إنكاحه ابنته ، عندما قال : ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ .. (٢٧)﴾ [القصص] . قال ابن كثير فى تفسيره (٣/٣٨٧) : « قضى موسى أتم الأجلين وأوفاهما وأبرهما وأكملهما وأنقاهما » .

نَارًا .. ﴿٧﴾ [النمل] يعنى : سأذهب لأقتبسَ منها ، ليهتدوا بها ، أو ليستدفئوا بها .

وطبيعى أنْ تعارضه زوجته : كيف تتركنى فى هذا المكان المُوحِش وحدى ، فيقول لها ﴿امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا .. ﴿٢٩﴾﴾ [القصص] يعنى : ابقىْ هنا مستريحة ، وأنا الذى سأذهب ، فلربما تعرَّضت لمخاطر فكُونى أنت بعيداً عنها ، إذن : هى مواقف جديدة استدعاها الحال ، ليست تكراراً .

كذلك نجد اختلافاً طبيعياً فى قوله : ﴿لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ .. ﴿٢٩﴾﴾ [القصص] وقوله : ﴿سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ .. ﴿٧﴾﴾ [النمل]

فالأولى ﴿لَّعَلِّي .. ﴿٢٩﴾﴾ [القصص] فيها رجاء ؛ لأنه مُقبل على شىء يشكُّ فيه ، وغير متأكد منه ، وهو فى هذه الحالة صادق مع خواطر نفسه أمام شىء غائب عنه ، فلما تأكد قال ﴿سَآتِيكُم .. ﴿٧﴾﴾ [النمل] على وجه اليقين[1] .

وفى هذه المسألة قال مرة : ﴿لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ .. ﴿٢٩﴾﴾ [القصص] وهنا قال : ﴿سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ[2] ﴿٧﴾﴾ [النمل]

ذلك لأنه لا يدرى حينما يصل إلى النار ، أيجدها مشتعلة لها

---

(١) ذكر أبو يحى زكريا الأنصارى فى كتابه « فتح الرحمن بكشف ما يلتبس فى القرآن » ص (٣٠٥) : « فإن قلت : كيف قال هنا : ﴿سَآتِيكُم .. ﴿٧﴾﴾ [النمل] ، وفى ﴿لَّعَلِّي آتِيكُم.. ﴿٢٩﴾﴾ [القصص] ، وأحدها قطع ، والآخر ترجٍّ ، والقضية واحدة ؟ قلت : قد يقول الراجى إذا قوى رجاؤه : سأفعل كذا ، وسيكون كذا ، مع تجويزه عدم الجزم » .

(٢) أى : لعلكم تستدفئون من البرد ، يقال : اصطلى يصطلى إذا استدفأ . [تفسير القرطبى ٥٠٣٨/٧] قال الزجاج : جاء فى التفسير أنهم كانوا فى شتاء ؛ فلذلك احتاج إلى الاصطلاء . وصلَّى يده بالنار : سخَّنها . [لسان العرب ـ مادة : صلى] .

لسان يقتبس منه شعلةً ، أم يجدها قد هدأتْ ولم يَبْقَ منها إلا جذوة ، وهى القطعة المتوهجة مثل الفحم مثلاً ، فكلٌّ تكرار هنا له موضع ، وله معنى ، ويضيف شيئاً جديداً إلى سياق القصة ، فهو تكامل فى اللقطات تأتى متفرقة حَسْب المراد من العبرة والتثبيت .

ومعنى ﴿لأَهْلِهِ .. (٧)﴾ [النمل] قالوا : إنها تعنى جماعة بدليل قوله لهم ﴿امْكُثُوا .. (٢٩)﴾ [القصص] فكانت زوجته ، ومعه أيضاً بعض الرُّعْيان أو الخدم . والإنسان منا يحتاج لأشياء كثيرة تقتضى التعدّد : فهذا يطبخ الطعام ، وهذا للنظافة ، وهذا لِكَيِّ الملابس .. إلخ .

لكن هناك شىء واحد لا يستطيع أحد أنْ يقضيَه لك إلا زوجتك ، هى النسْل والمعاشرة الزوجية ، كما يمكن للزوجة وحدها أن تقوم لك بكل هذه الأعمال ، إذن : فهى تُغْنى عن الأهل كلهم ، ونستطيع أن نقول : إنه لم يكُنْ معه إلا زوجته .

وهذه شائعة فى لغتنا : يقول الرجل : الجماعة أو جماعتى أو أهلى ويقصد زوجته ، وفى هذا تقدير من الزوج لمكانة زوجته .

ومعنى ﴿آنَسْتُ .. (٧)﴾ [النمل] آنس : يعنى شعر وأحسَّ بشىء يُؤنسه ويُطمئنه ، وضده التوجس : أى شعر وأحسَّ بشىء يخيفه ، ومنه قوله تعالى فى شأن موسى أيضاً : ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ (٦٧) قُلْنَا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الأَعْلَىٰ (٦٨)﴾ [طه]

﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٨)﴾

أى : جاء النار فـ ﴿نُودِىَ .. ﴿٨﴾﴾ [النمل] النداء : طلب إقبال ، كما تقول : يا فلان ، فيأتيك فتقول له ما تريد . فالنداء مثلاً فى قوله تعالى : ﴿يَـٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾﴾ [طه] نداء ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ .. ﴿١٤﴾﴾ [طه] خطاب وإخبار .

لكن ما معنى ﴿نُودِىَ أَن بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا .. ﴿٨﴾﴾ [النمل] ولم يقُلْ : يا موسى فليس هنا نداء ، قالوا : مجرد الخطاب هنا يُراد به النداء ؛ لأنه ما دام يخاطبهُ فكأنه يناديه ، ومثال ذلك قوله سبحانه : ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَـٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا .. ﴿٤٤﴾﴾ [الأعراف]

فذكر الخطاب مباشرة دون نداء ؛ لأن النداء هنا مُقدَّر معلوم من سياق الكلام ، ومنه أيضاً : ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَـٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَـٰهُمْ قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [الأعراف]

ومنه أيضاً : ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى .. ﴿٢٤﴾﴾ [مريم] فجعل الخطاب نفسه هو النداء .

وقوله : ﴿أَن بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا .. ﴿٨﴾﴾ [النمل] كلمة بُورك لا تناسب النار ؛ لأن النار تحرق ، وما دام قال ﴿بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ .. ﴿٨﴾﴾ [النمل] فلا بُدَّ أن مَنْ فى النار خَلْق لا يُحرق ، ولا تؤثر فيه النار ، فمَنْ هم الذين لا تؤثر فيهم النار ، هم الملائكة[1] .

وقد رأى موسى ـ عليه السلام ـ مشهداً عجيباً ، رأى النار تشتعل فى فرعٍ من الشجرة ، فالنار تزداد ، والفرع يزداد خُضْرة ،

---

(١) أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله تعالى ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَن بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ .. ﴿٨﴾﴾ [النمل] يعنى تبارك وتعالى نفسه ، كان نور رب العالمين فى الشجرة ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا .. ﴿٨﴾﴾ [النمل] . يعنى الملائكة . أورده السيوطى فى (الدر المنثور ٦/٣٤١) .

فلا النار تحرق الخضرة ولا رطوبة الخضرة ومائيتها تطفىء النار[١] ، فمَنْ يقدر على هذه المسألة ؟ لذلك قال بعدها : ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨﴾﴾ [النمل]

ففى مثل هذا الموقف إياك أنْ تقول : كيف ، بل نزِّه الله عن تصرفاتك أنت ، فهذا عجيب لا يُتصوَّر بالنسبة لك ، أمّا عند الله فأمر يسير .

وقد رأينا مثل هذه المعجزة فى قصة إبراهيم ـ عليه السلام ـ حين نجَّاه ربه من النار ، ولم يكُنْ المقصود من هذه الحادثة نجاة إبراهيم فقط ، فلو أن الله أراد نجاته فحسب لَمَا أمكنهم منه ، أو لأطفأ النار التى أوقدوها بسحابة ممطرة ، أسباب كثيرة كانت مُمكِنة لنجاة سيدنا إبراهيم .

لكن الله تعالى أرادهم أنْ يُمسكوا به ، وأنْ يُلْقوه فى النار ، وهى على حال اشتعالها وتوهّجها ، ثم يُلْقونه فى النار بأنفسهم ، وهم يروْنَ هذا كله عَيَاناً ، ثم لا تؤذيه النار ، كأنه يقول لهم : أنا أريد أن أنجيه من النار ، رغم قوة أسبابكم فى إحراقه ، فأنا خالق النار ومعطيها خاصية الإحراق ، وهى مُؤتمرةٌ بأمرى أقول لها : كُونى بَرْداً وسلاماً تكون ، فالمسألة ليست ناموساً وقاعدة تحكم الكونَ ، إنماَ هى قيوميتى على خَلْقى .

إذن : ما رآه موسى ـ عليه السلام ـ من النار التى تشتعل فى خضرة الشجرة أمر عجيب عندكم ، وليس عجيباً عند مَنْ له طلاقة القدرة التى تخرق النواميس .

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٣/٣٥٦) : « فلما أتاها ورأى منظراً هائلاً عظيماً حيث انتهى إليها والنار تضطرم فى شجرة خضراء .لا تزداد النار إلا توقداً ، ولا تزداد الشجرة إلا خضرة ونضرة ، ثم رفع رأسه فإذا نورها متصل بعنان السماء . قال ابن عباس وغيره : لم تكن ناراً ، وإنما كانت نوراً يتوهج » .

وبناء الفعل ﴿بُورِكَ .. ﴿٨﴾﴾ [النمل] للمجهول تعنى : أن الله تعالى هو الذى يبارك ، فهذه مسألة لا يقدر عليها إلا الله ﴿مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا .. ﴿٨﴾﴾ [النمل] يجوز أن يكون الملائكة ، أو : بُورِكت الشجرة ذاتها لأنها لا تُحرق ، أو النار لأنها لا تنطفىء فهى مُباركة .

وفي موضع آخر يُوسِّع دائرة البركة ، فيقول سبحانه : ﴿فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ[1] الشَّجَرَةِ .. ﴿٣٠﴾﴾ [القصص]

ثم يخاطب الحق سبحانه موسى :

﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾﴾

جاء هنا النداء على حقيقته بأداة ومنادى ﴿إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ .. ﴿٩﴾﴾ [النمل] هذا هو الأصل ، وما دُمْتُ أنا الله فلا تتعجَّب مما ترى ، وساعةَ تسمع مَنْ يُكلِّمك دون أن ترى متكلماً من جنسك ، فلا تتعجب ولا تندهش .

﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾﴾

ونلحظ أن هنا تفاصيلَ وأحداث لم تذكرها الآية هنا ، وذُكرَت فى موضع آخر فى قوله تعالى : ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾ [طه]

والأدب يقتضى أن يأتى الجواب على قَدْر السؤال ، لكن موسى -

---

(١) أى : من ناحية الشجرة . وقيل : كانت شجرة العُليق . وقيل : سمرة ، وقيل : عوسج ، ومنها كانت عصا موسى ، ذكره الزمخشرى . والعوسج إذا عظم يقال له الغرقد . [القرطبى فى تفسيره ٥١٦٨/٧] .

عليه السلام ـ أراد أنْ يطيل أمد الأُنْس بالله والبقاء فى حضرته تعالى ، ولما أحسَّ موسى أنه أطال فى هذا المقام أجمل ، فقال ﴿وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾ [طه] فللعصا مهام أخرى كثيرة فى حياته .

وهنا يقول سبحانه : ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ .. ﴿١٠﴾﴾ [النمل] يعنى : إنْ كانت العصا بالنسبة لك بهذه البساطة ، وهذه مهمتها عندك فلها عندى مهمة أخرى ، فانظر إلى مهمتها عندى ، وإلى ما لا تعرفه عنها .

﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ .. ﴿١٠﴾﴾ [النمل] فلمّا ألقى موسى عصاه وجدها ﴿تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ .. ﴿١٠﴾﴾ [النمل] يعنى : حية تسعى وتتحرك ، والعجيب أنها لم تتحول إلى شىء من جنسها ، فالعصا عود من خشب ، كان فرعاً فى شجرة ، فجنسه النبات ولما قُطعت وجفَّتْ صارت جماداً ، فلو عادت إلى النباتية يعنى : إلى الجنس القريب منها واخضرتْ لكانت عجيبة .

أمّا الحق ـ تبارك وتعالى ـ فقد نقلها إلى جنس آخر إلى الحيوانية ، وهذه قفزة كبيرة تدعو إلى الدهشة بل والخوف ، خاصة وهى ﴿تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ .. ﴿١٠﴾﴾ [النمل] أى : تتحرك حركة سريعة هنا وهناك .

وطبيعى فى نفسية موسى حين يرى العصا التى فى يده على هذه الصورة أنْ يخاف ويضطرب ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾﴾ [طه]

ومعنى ﴿الأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾﴾ [طه] إشارة إلى أنه تعالى يُعده لمهمة كبرى ، وأن لهذه العصا دوراً مع الخصوم ، وسوف ينتصر عليهم ، ويكون هو الأعلى .

وحين تتتبع اللقطات المختلفة لهذه القصة تجدها مرة (جان) ومرة (حية) ومرة (ثعبان) ، وهى كلها حالات للشىء الواحد ، فالجان فَرْخ الثعبان ، وله مِن خفة الحركة ما ليس للثعبان ، والحية هى الثعبان الضخم .

وقوله تعالى ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا .. ﴿١٠﴾﴾ [النمل] يعنى : انصرف عنها وأعطاها ظهره ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ .. ﴿١٠﴾﴾ [النمل] نقول : فلان يُعقِّب يعنى : يدور على عَقِبه ويرجع ، والمعنى أنه انصرف عنها ولم يرجع إليها ؛ لذلك ناداه ربه سبحانه وتعالى : ﴿يَـٰمُوسَىٰ لا تَخَفْ إِنِّي لا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾﴾ [النمل]

ونلحظ هنا نداءين اثنين يذكر فيهما ، المنادى موسى ـ عليه السلام ـ وكأنهما تعويض للنداء السابق الذى نُودِى فيه بالخبر ﴿أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا .. ﴿٨﴾﴾ [النمل]

وعلَّة عدم الخوف ﴿لا تَخَفْ .. ﴿١٠﴾﴾ [النمل] ليعلمه أنه سيُضطر إلى معركة ، فليكُنْ ثابتَ الجأْش لا يخاف لأنّه لا يحارب شخصاً بمفرده ، إنما جمعاً من السَّحرة جُمعوا من كل أنحاء البلاد ، وسبق أنْ قال له : ﴿إِنَّكَ أَنتَ الأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾﴾ [طه] حتى لا تُرهبه هذه الكثرة .

وهنا قال ﴿إِنِّي لا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾﴾ [النمل] والمعنى : لا تخفْ ، لأنى أنا الذى أرسلتُك ، وأنا الذى أتولّى حمايتك وتأييدك ، كما قال الحق سبحانه فى موضع آخر :

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصافات]

فأنت معذور فى الخوف ، ، إنْ كنتَ بعيداً عنى ، فكيف وأنت فى جوارى وأنا معك ، وها أنذا أخاطبك ؟

وكان إلقاء العصا من موسى هـذه المرة مجرد تجربة (بروفة) ليألـف هذه المسألـة ويأنس إليهـا ، وتحدث له دُرْبة ورياضـة ، فإذا ما أجرى هذه العملية أمام فرعون والسحرة أجراها بثقة وثبات ويقين من إمكانية انقلاب العصا إلى حية .

وبعد ذلك يأتى بآية تثبت منطقة التكليف فى البشر حتى الرسل ، والرسل أيضـاً مُكلَّفـون ، وكل مُكلَّف يصح أنْ يطيع أو أن يعـصى ، لكن الرسلَ معـصومون من المـعصيـة ، أما موسى عليـه السلام فله حادثة مخصـوصة حين وكَز الرجل فسقط ميـتاً ، فقال : ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ (١٤)﴾ [الشعراء]

وفى موضع آخر يُحدِّد هذا الذنب : ﴿قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ (٣٣)﴾ [القصص]

ونضع هذه القصة أمامنا لنفهم :

﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١١)﴾

إذن : فـالاسـتـثناء هنا من قـولـه تعـالى ﴿إِنِّي لا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ (١٠)﴾ [النمل] استثنى من ذلك ﴿إِلاَّ مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ .. (١١)﴾ [النمل]

وكأنه ـ عـز وجل ـ يُعرِّض بهذه الحـادثة الخاصة بمـوسى عليه السلام : ﴿إِلاَّ مَن ظَلَمَ .. (١١)﴾ [النمل] أى : حين قتَل القبطى[1] ، لكن

---

(١) القبطى هو المصرى من أهل البلد التابع لفرعون وليس المـقصود به النصرانى المسيحى ، فموسى قبل عيسى بأجيال كثيرة ، وبينهما أنبياء ورسل كثيرون .

موسى ـ عليه السلام ـ اعترف بذنبه واستغفر ربه ، فقال : ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ .. (١٦) ﴾ [القصص]

ولا كلامَ لأحد بعد مغفرة الله عز وجل للمذنب[1] ؛ لأنه بعد أنْ ظلم ﴿ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ .. (١١) ﴾ [النمل] يعنى : عمل عملاً حسناً بعد الذنب الذى ارتكبه ﴿ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١١) ﴾ [النمل]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (١٢) ﴾

هذه آية أخرى ومعجزة جديدة ، قال عنها فى موضع آخر : ﴿ اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ .. (٣٢) ﴾ [القصص]

فما الفرق بين : أدْخِل يدك ، واسلُك يدك ؟ قالوا : لأنه ساعة يُدخِل يده فى جيبه يعنى : فى فتحة القميص ، إنْ كانت فتحة القميص مفتوحة أدخل يده بسهولة فيُسمّى (إدخال) .

فإن كانت مغلقة (فيها أزرار مثلاً) احتاج أنْ يسلك يده يعنى : يُدخلها برفق ويُوسِّع لها مكاناً ، نقول : سلك الشىء يعنى : أدخله بلُطْف ورِفْق ، ومنه السلك الرفيع حين تُدخِله فى شىء .

وساعةَ نسمع كلمة الجيب نجد أن لها معنىً عرفياً بين الناس ، ومعنى لُغوياً : فمعناها فى اللغة فتحة القميص العليا ، والتى تكون للرقبة ، وهى فى المعنى العُرْفى فتحة بداخل الثوب يضع فيها

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٥٠٤٣/٧) : « إذا أحدث المقرب حدثاً فهو وإن غفر له ذلك الحدث فأثر ذلك الحدث باق ، وما دام الأثر والتهمة قائمة فالخوف كائن لا خوف العقوبة ولكن خوف العظمة ، والمتّهم عند السلطان يجد للتهمة حزازة تؤديه إلى أن يكدر عليه صفاء الثقة ، وموسى عليه السلام قد كان منه الحدث فى ذلك الفرعونى ، ثم استغفر وأقر بالظلم على نفسه ، ثم غفر له » .

الإنسان نقوده ، يقولون (جيب) والعوام لهم عُذْر فى ذلك ؛ لأنهم اضطروا إلى حِفْظ نقودهم داخل الثياب ، حتى لا تكون ظاهرة ، وربما سرقها منهم النشالون والأشقياء .

ولا يزال الفلاحون فى الريف يجعلون الجيب فى (السديرى) الداخلى ؛ لذلك سمعنا الحاوى مثلاً يقول ـ ليُحنِّن الناس عليه ـ بارك الله فيمَنْ يضع يده فى جيبه ـ يعنى : بارك الله فى الذى يعطينى جنيهاً .

وقوله تعالى ﴿تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ .. (١٢)﴾ [النمل] أى : وأخرجها تخرج بيضاء ناصعة مُنوِّرة ، ومعلوم أن موسى ـ عليه السلام ـ كان آدمَ اللون يعنى : أسمر ، فحين يروْنَ لونه تغيّر إلى البياض ، فربما قالوا : إن ذلك مرضٌ كالبرص مثلاً .

لذلك أزال الله هذا الظنَّ بقوله : ﴿مِنْ غَيْرِ سُوءٍ .. (١٢)﴾ [النمل] من غير مرض ﴿فِى تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ .. (١٢)﴾ [النمل] ليعلم موسى ـ عليه السلام ـ أن هذه الآية واحدة من تسع آيات أخرى يُثبِّته الله بها أمام عدوه فرعون وقومه .

وهذه التسع هى : العصا ولها مهمتان : أن تتحول إلى حية أمام السحرة ، وأنْ يضرب بها البحر أمام جيشه ، حينما يهاجمه فرعون وجنوده .

ثم اليد ، واثنتان هما الجدب ، ونقص الثمرات فى قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ .. (١٣٠)﴾ [الأعراف]

ثم : الطوفان ، والجراد ، والقُمَّل[1] ، والضفادع ، والدَّم . هذه

---

(١) القُمَّل : حشرات صغيرة تؤذى الزرع وتضايق الناس . [القاموس القويم ٢/١٣٤] . قال ابن منظور ـ فى اللسان ـ مادة : قمل « القمل : صغار الذر والدَّبى . وقيل : هو الدَّبى الذى لا أجنحة له . وقال ابن السكيت : القُمَّل شىء يقع فى الزرع ليس بجراد فيأكل السنبلة وهى غضة قبل أن تخرج فيطول الزرع ولا سنبل له . قال الأزهرى : وهذا هو الصحيح » .

تسع آيات . تُثبِّت موسى أمام فرعون وقومه . فهل أُرسل موسى ـ عليه السلام ـ إلى فرعون خاصة ؟ لا ، إنما أُرسل إلى بنى إسرائيل ، لكنه أراد أنْ يُقنع فرعون بأنه مُرْسَل من عند الله حتى لا يحول بينه وبينهم ، وجاءت مسألة دعوة فرعون إلى الإيمان بالله عَرَضاً فى أحداث القصة ، فليست هى أساسَ دعوة موسى عليه السلام .

ومعنى ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿١٢﴾﴾ [النمل] إشارةً إلى أن الإنسان وإنْ كان كافراً خارجاً عن طاعة الله إلا أنَّ أصله من أصلاب مؤمنة ، والمراد الإيمان الأول فى آدم عليه السلام ، وفى ذريته من بعده ، لكنهم فسقوا أى : خرجوا من غشاء التكليف الذى يُغلِّف حركة حياتهم ، كما نقول : فسقت الرطبة : يعنى خرجت من غلافها ، كذلك فَسَق الإنسان أى : خرج عن حيِّز التكليف الصائن له .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً[1] قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾﴾

الآيات : المعجزات التى تُثبت صدْق الرسول ، والآيات تكون مُبْصَرة بصيغة اسم المفعول ، لكن كيفَ تكون هى المبصرة بصيغة اسم الفاعل ، وهذه المسألة عرفناها أخيراً ، فكانوا منذ القدم عند اليونان والحضارات القديمة يظنون أن رؤية العين للأشياء تحدث من شعاع يخرج من العين إلى الشىء المرئى ، إلى أن جاء العالم المسلم الحسن بن الهيثم ليثبت خطأ هذه النظرية ويقول بعكسها .

---

(١) مبصرة : أى : واضحة بينة ظاهرة . [تفسير ابن كثير ٣/٣٥٧] . وقال الجوهرى : مبصرة : أى : مضيئة . وقال أبو إسحاق : معنى مبصرة تُبصِّرهم أى تبين لهم . وقال الأخفش : إنها تُبصِّرهم أى تجعلهم بُصراء . [لسان العرب ـ مادة : بصر] .

فالرؤية تتم بخروج شعاع من الشىء المرئىّ إلى العين ، بدليل أننا لا نرى الشىء إنْ كان فى الظلام ، وأنت فى النور ، فإنْ كان الشىء فى النور وأنت فى الظلام تراه .

إذن : فكأن الآيات نفسها هى المبصرة ؛ لأنها هى التى ترسل الأشعة التى تسبب الرؤية . أو : أن الآيات من الوضوح كأنها تُلِحّ على الناس أنْ يروْا وأنْ يتأملوا ، فكأنها أبصرُ منهم للحقائق .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ ﴾

﴿ وَجَحَدُوا .. ﴿١٤﴾ ﴾ [النمل] أى : باللسان ﴿ بِهَا .. ﴿١٤﴾ ﴾ [النمل] بالآيات ﴿ وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ .. ﴿١٤﴾ ﴾ [النمل] أى : إيماناً بها ، إذن : المسألة عناد ولَدَد فى الخصومة ؛ لذلك قال تعالى بعدها ﴿ ظُلْمًا وَعُلُوًّا .. ﴿١٤﴾ ﴾ [النمل] أى : استكباراً عن الحق ﴿ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [النمل] وترْك عاقبتهم مبهمة لتعظيم شأنها وتهويلها .

ثم يترك قصة موسى مع فرعون وما كان من أمرهما لمناسبة أخرى تحتاج إلى تثبيت آخر ، وينتقل إلى قصة أخرى فى موكب الأنبياء ، فيها هى الأخرى مواطن للعِبْرة وللتثبيت :

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ ﴾

وتسأل : لقد أعطى الله داود وسليمان - عليهما السلام - نعَماً كثيرة غير العلم ، ألاَن لداود الحديد ، وأعطى سليمان مُلْكاً لا ينبغى لأحد من بعده ، وسخَّر له الريح والجن ، وعلَّمه منطق الطير .. إلخ ومع ذلك لم يمتنّ عليهما إلا بالعلم وهو منهج الدين ؟

قالوا : لأن العلم هو النعمة الحقيقية التى يجب أن يفرح بها المؤمن ، لا الملْك ولا المال ، ولا الدنيا كلها ، فلم يُعتد بشىء من هذا كله ؛ لذلك حمد الله على أن آتاه الله العلم ؛ لأنه النعمة التى يحتاج إليها كل الخَلْق ، أما المُلْك أو الجاه أو تسخير الكون لخدمته ، فيمكن للإنسان الاستغناء عنها .

والإمام على - كرم الله وجهه - حينما نُفى أبو ذر ؛ لأنه كان يتكلم عن المال وخطره والأبنية ومسائل الدنيا ، فنَفَوْه إلى الربذة حتى لا يثير فتنة ، لكنه قبل أن يذهب مرَّ بالإمام على كى يتوسط له ليعفوا عنه ، لكن الإمام علياً - رضى الله عنه - أراد ألاَّ يتدخل فى هذه المسألة حتى لا يقال : إن علياً سلَّط أبا ذر على معارضة أهل الدنيا ومهاجمتهم ، فقال له : يا أبا ذر إنك قد غضبتَ لله فارْجُ مَنْ غضبتَ له ، فإن القوم خافوك على دُنْياهم ومُلكهم ، وخِفْتهم أنت على دينك فاهرب بما خِفْتَهم عليه - يعنى : اهرب بدينك - واترك ما خافوك عليه ، فما أحوجهم إلى ما منعتهم ، وما أغناك عمَّا منعوك[1] .

---

(١) أورد ابن الجوزى فى صفة الصفوة (١/٣٠٣) : « روى البخارى فى أفراده من حديث زيد بن وهب قال : مررت بالربذة فقلت لأبى ذر : ما أنزلك هنا ؟ قال : كنت بالشام فاختلفت أنا ومعاوية فى هذه الآية ﴿الَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ..﴿٣٤﴾﴾ [التوبة] ، فقال : نزلت فى أهل الكتاب . فقلت : فينا وفيهم . فكتب يشكونى إلى عثمان . فكتب عثمان : أقْدم المدينة فقدمتُ فكثر الناس علىّ كأنهم لم يروْنى قبل ذلك ، فذكر ذلك لعثمان فقال : إن شئت تنحَّيْتَ فكنت قريباً ، فذلك الذى أنزلنى هذا المنزل » فهذه الواقعة كانت فى زمن خلافة عثمان بن عفان ، وقد توفى أبو ذر فى زمن عثمان . وهذا لا يمنع أن يكون أبو ذر قد استشار على بن أبى طالب إذ لم يكن خليفة .

هكذا أزال الإمام هذا الإشكال ، وأظهر أهمية العلم ومنهج الله بحيث لا يستغنى عنه المسلم بحال من الأحوال ، ولا يعيش بدونه ، وبه ينال حياة أخرى رفيعة باقية ، فى حين يستطيع الإنسان أن يعيش بدون المال وبدون الملك .

ولذلك يبعث خليفة المسلمين إلى سيدنا جعفر الصادق : يا ابن بنت محمد ﷺ ما لك لا تغشانا كما يغشانا الناس ؟ أى : تأتينا وتجالسنا وتسمر معنا ، فقال : ليس عندى من الدنيا ما أخافك عليه ـ يعنى : ليس عندى مال تصادره ـ وليس عندك من الآخرة ما أرجوك له . وهذا نفس المنطق الذى تكلم به الإمام على .

وقوله تعالى : ﴿وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾﴾ [النمل] فالحمد هنا على نعمة العلم وحفْظ منهج الله ، وفى الآية مظهر من مظاهر أدب النبوة ، حيث قالا ﴿فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾﴾ [النمل] فكأن هناك مَنْ هم أفضل منّا ، وليس التفضيل حَجْراً علينا ، وهذا من تواضعهما عليهما السلام .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾

قوله سبحانه ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ .. ﴿١٦﴾﴾ [النمل] أى : بقيتْ فيه النبوة وحمل المنهج ، لا الملك لأن الأنبياء لا تورث كما جاء فى الحديث الشريف : « نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة»[1]

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٠٣٣) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٧٥٧) من حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه . أن رسول الله ﷺ قال : « لا نُورث ما تركناه صدقة » .

وهذا يدل على أن سليمان جاء بعد داود ، وقد ورث عنه النبوة مع أنهما متعاصران ، بدليل قوله تعالى فى موضع آخر : ﴿ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ[1] فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ (٧٨) ﴾ [الأنبياء]

إذن : كان سليمان مع داود فى هذه الحكومة وفى العلم ، لكن الحق سبحانه جعل العلم منازل ، بدليل أنه قال : ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ .. (٧٩) ﴾ [الأنبياء] مع أن أباه موجود ، وحكم فى القضية بأن يأخذ صاحبُ الزرع الغنم التى أكلت .

فلما خرجوا من عند داود سألهم سليمان عن حكم أبيه ، فأخبروه بما قال ، فقال سليمان : بل يأخذ صاحب الزرع الغنم ينتفع بها ، ويأخذ صاحب الغنم الزرع يصلحه حتى يعود كما كان ، وعندها يأخذ صاحب الغنم غنمه ، وصاحب الزرع زرعه[2] .

والحق ـ تبارك وتعالى ـ يعطينا هذا المثل مع نبى وأبيه ، لا مع نبيين مختلفين بعيدين ، وفى هذا إشارة إلى أن حقّ الأبوة على سليمان لم يمنعه من مخالفة أبيه فى الحكم ؛ لأن الله تعالى قال عنهما ﴿ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا .. (٧٩) ﴾ [الأنبياء] فكلٌّ منهما يحكم على مقتضى علمه الذى منحه الله .

ومن هذه الحادثة أخذنا مشروعية الاستئناف والنقض فى أحكام المحاكم ، فقاضى الاستئناف حينما يُعدِّل فى حكم القاضى الابتدائى لا يُعَدُّ هذا طعْناً فيه ، إنما كل منهما حكم بناءً على علمه ، وعلى

---

(١) نفشت الغنم : انتشرت فى المرعى بغير راعٍ ولا ضابط . [القاموس القويم ٢/٢٧٩] قال ابن منظور فى [اللسان ـ مادة : نفش] : « نفشت الإبل والغنم : انتشرت ليلاً فرعت ، ولا يكون ذلك بالنهار ، وخصَّ بعضهم به دخول الغنم فى الزرع » .

(٢) ذكره ابن كثير فى تفسيره (٣/١٨٦) عن ابن عباس .

ما توفّر له من أدلة ووقائع ، وربما فطِن القاضى الثانى لما لم يفطِنْ له القاضى الأول .

إذن : ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ .. (١٦) ﴾ [النمل] لا تعنى أنه جاء بعده ، إنما هما متعاصران ، وورثه فى العلم والنبوة والحكمة ، لا فى الملْك والمال ؛ لأن الله تعالى يريد أن يكون الرسول بعيداً فى رسالته وتبليغه عن الله عن أىِّ نفع يجىء له ، أو لذريته .

لذلك كان الفقراء من أهل النبى ﷺ لا يأخذون من زكاة المؤمنين ، لكن أين هذا التشريع الحكيم مما يحدث الآن من الحكام والرؤساء والمسئولين ممَّنْ يوالون أقاربهم ، وينهبون البلاد من أجلهم ؟

﴿ وَقَالَ يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ .. (١٦) ﴾ [النمل] فالطير له منطق ولغة ؛ لأنه كما قال تعالى : ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِى الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم .. (٣٨) ﴾ [الأنعام] والآن ومع تقدُّم العلم يتحدث العلماء عن لغة للنمل ، ولغة للنحل ، ولغة للسمك .. إلخ .

وهذه المخلوقات تتفاهم بلغاتها بدقَّة تفاهم غريزى ، لكننا لا نفهم هذا المنطق ، والحق ـ تبارك وتعالى ـ يُعلِّمنا : ﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَـٰكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. (٤٤) ﴾ [الإسراء] فإنْ قلتَ كمَنْ قالوا : هو تسبيح دلالة لا منطقَ ومقال ، نقول : طالما أن الله تعالى قال ﴿ وَلَـٰكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. (٤٤) ﴾ [الإسراء] فلا بُدَّ أنه مقال وكلام ، ولكن أنت لا تفهمه .

وعلماء اللغة يقولون : إن النطق خاصٌّ بالإنسان ، أما ما تُحدثه الحيوانات والطيور فأصوات تُحدثها فى كل وقت ، مثل مواء القطة ، ونُباح الكلب ، وخُوَار البقر ونقيق الضفادع ، لكن هذه الأصوات لها معنى (فنونوة) القطة حين تجوع غير (نونوتها) حين تخاف .

إذن : فهى تُعبِّر ، لكننا لا نعرف هذه التعبيرات ، كيف ونحن البشر لا يعرف بعضنا لغات بعض ؛ لأننا لم نتعلمها ، واللغة ضرورة اجتماعية نتواضع عليها أى : نتفق أن هذا اللفظ يعنى كذا ، فإذا نطقتَ به أفهمك ، وإن نطقتُ به تفهمنى .

واللغة بنت الاستماع ، فاللفظ الذى تسمعه تستطيع نُطْقه ، والذى لم تسمعه لا تستطيع نُطْقه ، حتى لو كان لفظاً عربياً من لغتك ، ولا تعرف أيضاً معناه ، فلو قلت لك : (إنما الحيزبون والدردبيس والطخا والنخالح والعصلبيص) فلا شكَّ أنك لا تعرف لهذا معنى ؛ لأننا لم نتواضع على معناه .

والطفل الذى نشأ فى بيئة عربية يتكلم العربية ؛ لأنه سمعها ولا يتكلم الإنجليزية مثلاً ؛ لأنه لم يسمعها ، ولو وضعتَ نفس الطفل فى بيئة إنجليزية لتكلم الإنجليزية ؛ لأن اللغة لا ترتبط بجنس ولا دم ، اللغة سماع .

ومعنى ﴿ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ .. ﴿١٦﴾ ﴾ [النمل] أى : من النِّعَم على الإطلاق ، وبعد قليل سنسمع نفس هذه العبارة يقولها الهدهد عن ملكة سبأ ﴿ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ .. ﴿٢٣﴾ ﴾ [النمل] إذن : فهى مثله فيما يناسب أمثالها من الملوك لا فى النبوة وحَمْل المنهج ﴿ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾ ﴾ [النمل] الفضل المحيط بكل الفضائل .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَـٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

حُشِروا : جُمِعوا من كل مكان ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَابْعَثْ فِي

الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٣٦﴾ [الشعراء] والحشْر : جَمْع الناس للحساب يوم القيامة .

وسُمِّى الجمع حَشْراً ؛ لأنك تجمع الناس من أماكن متفرقة فى مكان واحد ، حتى يضيق بهم ويزدحم ، وهذا معنى الحشْر المتعارف عليه عندنا ، نقول : نحشرهم على بعض .

ومعنى ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ [النمل] يعنى : يُمنعون ، ومنه قوله « إن الله ليزع بالسُّلْطان ما لا يزع بالقرآن » يعنى : أن السلطان والقوة والبطش تمنع ما لا يستطيع القرآن منعه ؛ ذلك لأنهم يستبعدون القيامة والعذاب ، أمّا السلطان فرادع حاضر الآن .

لكن ، ممَّ يمنعون وهم فى موقف الحشر أمام سليمان ؟ قالوا[1] : يُمنعون أن يسبق بعضهم بعضاً إلى سليمان ، إنما نمنعهم حتى يأتى المتأخر منهم ، ويدخلون جميعاً عليه مرة واحدة ، وفى ذلك إحداثُ توازنٍ بين الرعية كلها .

وقد حدَّثونا أن النبى ﷺ كان من صفاته إذا جلس فى مجلس توزعَتْ نظراته وعينه على كل الجالسين حتى يُسوِّى بينهم ، ولا ينظر لأحد أكثر من الآخر[2] ، ولا يُميز أحداً منهم على أحد ، حتى لا يظن أحدهم أن النبى فضَّله على غيره .

وكان ﷺ لا يُقرِّب إلا أهل الفضل والتقوى الذى يُعرف منهم أنهم لا يستغلون هذه المكانة لنيل سلطة بين الناس ؛ ولذلك كان ﷺ

---

(١) قاله ابن عباس بنحوه : جعل على كل صنف منهم وزعة ترد أولاها على أخراها لئلا يتقدموا فى المسير كما تصنع الملوك . أورده السيوطى فى الدر المنثور (٦/٣٤٧) وعزاه لابن جرير الطبرى .

(٢) من أدب النبوة أن رسول الله ﷺ لم يكن أحد يأخذ بيده فينزع يده حتى يكون الرجل هو الذى يرسله ولم يكن يرى ركبتيه أو ركبته خارجاً عن ركبة جليسه ، ولم يكن أحد يصافحه إلا أقبل عليه بوجهه ثم لم يصرفه عنه حتى يفرغ من كلامه . رواه البزار والطبرانى فى الأوسط وإسناد الطبرانى حسن . مجمع الزوائد للهيثمى (٩/١٥).

لا يُوطِّن الأماكن وينهى عن ذلك[1] على خلاف ما نراه الآن من بعض المصلِّين الذين يضعون سجادة مثلاً فى الصف الأول يشغلون بها المكان ، ثم يذهب ويقضى حاجاته ، ويعود وقد امتلأ المسجد فيتخطّى رقاب الناس ليصل إلى مكان فى المقدمة ، وهو ليس مكانه عند الله .

فالله تعالى قد وزَّع الأماكن على حَسْب الورود ، فإتيانك إلى بيت الله أولاً يعطيك ثواب الصف الأول ، وإنْ صليت فى الصفِّ الأخير ، وعدم توطين الأماكن ينشر الأُلْفة بين الناس ، ويزيل الفوارق ويساعد على التعارف ، فكل صلاة أنت بجانب شخص جديد تتعرف عليه وتعرف أحواله .

وهذا معنى ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٧)﴾ [النمل] يمنع السابق أنْ يسبق حتى يأتى اللاحق ، ليكونوا سواسية فى الدخول على نبى الله سليمان عليه السلام .

لكن فى ضوء هذا المعنى لمادة (وزع) كيف نفهم قوله تعالى :

﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ .. (١٩)﴾ [النمل]

أوزعنى هنا يعنى : أقْدِرنى وامنعنى من الغفلة عن نعمتك ، لأظلَّ شاكراً لك .

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ (١٨)﴾

---

(١) أخرج أحمد فى مسنده (٤٤٧/٥) ، وابن ماجه فى سننه (١٤٢٩) ، وأبو داود فى سننه (٨٦٢) من حديث عبد الرحمن بن شبل قال : « نهى رسول الله ﷺ عن نقرة الغراب ، وافتراش السبع ، وأن يوطن الرجل المكان فى المسجد كما يوطن البعير » أما الإمام أحمد فقد أخرجه من حديث أبى سلمة الأنصارى .

الضمير فى ﴿أَتَوْا .. ﴿١٨﴾﴾ [النمل] يعود على جنود سليمان من الإنس والجن والطير ، أى : جاءوا جميعاً صفّاً واحداً ومرُّوا ﴿عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ .. ﴿١٨﴾﴾ [النمل] يعنى : قرية النمل[1] ، وقوله ﴿عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ .. ﴿١٨﴾﴾ [النمل] يدلُّ على أنهم جاءوا من أعلى الجبل ، أو أنهم قطعوا الوادى كله ، كما نقول : فلان أتى على الطعام كله .

عندها ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَـٰأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَـٰكِنَكُمْ .. ﴿١٨﴾﴾ [النمل] لماذا هذا التحذير ؟ ﴿لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ .. ﴿١٨﴾﴾ [النمل] ثم احتاطتْ النملة للأمر ، فقالت ﴿وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [النمل] فما كان سليمان وجنوده ليُحطِّموا بيوت النمل عن قَصْد منهم .

والمعنى : حالة كونهم لا يشعرون بكم ، وهذا من عدالة حكمها ومعرفتها بسليمان ، وأنه ليس جباراً ولا عاتياً . إذن : فالنملة رأتْ عن بُعْد ، ونطقتْ عن حق ، وحكمتْ بعدل ، لهذا كله تبسَّم سليمان ضاحكاً .

وواضح فى هذا القول ما تتميز به مملكة النمل من نظام يعرف فيه كُلٌّ مهمته ، ويؤديها على أكمل وجه ، فهذه النملة لا بُدَّ أنها كانت تقوم بمهمة الحراسة وتقف فى الدَّرَك ، ترقب الجو من حولها ، وكأنها جندى الدورية اليقظ .

وسبق أن قُلْنا : لو أنك جلستَ فى مكان ، وتركتَ فيه بعض فضلات الطعام مثلاً أو الحلوى لرأيتَ بعض النمل يدور حولها دون أنْ يقربها ، ثم انصرفوا عنها ، وبعد مدة ترى جماعة منهم جاءت وحملت هذه القطعة ، وكأن الجماعة الأولى أفراد الاستطلاع الذين

---

(١) قال قتادة : ذُكر لنا أنه وادٍ بأرض الشام . وقال كعب : هو بالطائف . (قاله القرطبى فى تفسيره ٧/٥٠٥١) وقال فى موضع آخر : « قال كعب : مرَّ سليمان عليه السلام بوادى السدير من أودية الطائف » .

يكتشفون أماكن الطعام ، ويُقدِّرون كم نملة تستطيع حمل هذا الشىء.

بدليل أنك لو ضاعفتَ القطعة الملقاة لرأيتَ عدد النمل الذى جاء لحملها قد تضاعف هو أيضاً . ولو قتلتَ النمل الأول الذى جاء للاستطلاع تلاحظ أن النمل امتنع عن هذا المكان ، لماذا ؟ لأن النملة التى نجتْ من القتل ذهبت إلى مملكتها ، وحذَّرتهم من هذا المكان .

وفى مملكة النمل عجائب وآيات ، سبحان خالقها ، وسبحان مَنْ هداها إلى هذه الهندسة المحكومة بالغريزة .

ومن عجائب النمل أنك ترى فى عُشِّ النمل الحبوب مفلوقة إلى نصفين حتى لا تنبت ، وتهدم عليهم عُشَّهم ، لكن حبَّة الكُسْبرة مثلاً تنبت حتى لو انفلقتْ نصفين ، حيث ينبت كل نصف على حِدَة ، لذلك لاحظوا أن النمل يفلق هذه الحبة بالذات إلى أربعة أقسام .

كما لاحظ المهتمون بدراسة النمل وجود حبات بيضاء صغيرة مثل رأس الدبوس أمام أعشاش النمل ، وبفحصها تبيَّن أنها زريعة النبات التى تحمل خلايا الإنبات أخرجوها كى لا تنبت .

وصدق الله العظيم : ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم .. (٣٨)﴾ [الأنعام]

وقد سمَّى الله تعالى ما قالت النملة قولاً ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ .. (١٨)﴾ [النمل] ولا بُدَّ أن هذا التحذير ﴿ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ .. (١٨)﴾ [النمل] جاء قبل أنْ يأتى سليمان وجنوده ، وهم على مشارف الوادى .

وكلمة ﴿مَسَاكِنَكُمْ .. (١٨)﴾ [النمل] تدل على أن لهم بُيوتاً ومساكنَ ، ومجالَ معيشة ، وكسْبَ أرزاق ، كما نقول (بيلقّطوا رزقهم) من هنا ومن هناك ؛ لذلك تجده يتتبع مواضع الطعام

والفضلات ، ويدخل إليها من أضيق الأماكن ، لكن نرى مثلاً محلات الحلوى مليئة بالسكر الذى يعشقه النمل ، ومع ذلك لا نجد فى هذه المحلات نملة واحدة ، لماذا ؟ لما تتبَّعوا هذه الظاهرة بالدراسة وجدوا أن النمل لا يدخل المكان إذا كان به سِمْسم ، وهذه من عجائب النمل أيضاً .

وقوله تعالى : ﴿لا يَحْطِمَنَّكُمْ .. (١٨)﴾ [النمل] الحَطْم هو التكسير ، ومنه قوله سبحانه عن النار : ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ (٥)﴾ [الهمزة] لأنها تحطم ما يُلْقى فيها .

﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ (١٩)﴾

تبسَّم سليمان ـ عليه السلام ـ بالبسمة التى تتصل بالضحك ، لماذا ؟ لأنه سمعها قبل أنْ يصل إليها ، ولأنها رأتْ قبل أن يأتى المرئى ، وقد تكلم البعض فى هذه المسألة فقالُوا : إن الريح نقلتْ إليه مقالة النملة ، وهو ما يزال بعيداً عنها ، وهذا الكلام يُقبل لو أن المسألة (ميكانيكا) إنما هى عمل رب وقدرة خالق مُنعِم ينعم بما يشاء .

ونطق قائلاً ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي .. (١٩)﴾ [النمل] أى : امنعنى أنْ أغفل ، أو أنْ أنسى هذه النِّعم ، فأظل شاكراً حامداً لك على الدوام ؛ لأن هذه النعَم فاقتْ ما أنعمت به على عامة الخَلْق ، وفوق ما أنعمتُ به على إخوانى من الأنبياء السابقين ، وعلى كل ملوك الدنيا ؛ لأنه عليه السلام جمع بين الملْك والنُّبوة ، وإنْ كان سيدنا رسول الله ﷺ

عرض عليه الملْك فرفضه ، وآثر أن يكون عبداً رسولاً .

لذلك وجب على كل صاحب نعمة أنْ يستقبلها بحمد الله وشكْره ، وسبق أنْ قُلْنا فى قوله تعالى : ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ (٨)﴾ [التكاثر] أن حق النعمة أن تحمد المنعم عليها ، فلا تُسأل عنها يوم القيامة .

وما أشبه الحمد على النعمة بما يُسمُّونه عندنا فى الريف (الرقوبة) ، وهى بيضة تضعها ربَّة المنزل فى مكان أمين يصلح عُشًّا يبيض فيه الدجاج ، فإذا رأتْ الدجاجة هذه البيضة جاءتْ فباضتْ عليها ، وهكذا شكر الله وحمده على النعم هو النواة التى يتجمع عليها المزيد من نِعَم الله .

وقد شُرح هذا المعنى فى قوله سبحانه : ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ.. (٧)﴾ [إبراهيم] ألاَ ترى أن مَنْ علم علماً فعمل به أورثه الله علم ما لم يعلم ؟ لماذا ؟ لأنه ما دام عمل بعلمه ، فهو مُؤْتمن على العلم ؛ لذلك يزيده الله منه ويفتح له مغاليقه ، على خلاف مَنْ علَم علماً ولم يعمل به ، فإنَّ الله يسلبه نور العلم ، فيغلق عليه ، وتصدأ ذاكرته ، وينسى ما تعلَّمه .

والحق ـ تبارك وتعالى ـ يقول : ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ..(١٢)﴾ [لقمان] أى : تعود عليه ثمرة شُكْره ؛ لأنه إنْ شكر الله بالحمد شكره الله بالزيادة ؛ لذلك من أسمائه تعالى (الشكور) .

وقوله : ﴿عَلَيَّ .. (١٩)﴾ [النمل] هذه خصوصية ﴿وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ .. (١٩)﴾ [النمل] لأنه ورث عنهما الملْك والنبوة ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ .. (١٩)﴾ [النمل] وهذا ثمن النعمة أن أؤدى خدمات الصلاح فى المجتمع لأكون مُؤْتمناً على النعمة أهْلاً للمزيد منها .

والحق ـ تبارك وتعالى ـ يريد منَّا أنْ نُوسِّع دائرة الصلاح ودائرة المعروف في المجتمع ، ألاَ ترى إلى قوله سبحانه : ﴿ مَن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً .. (٢٤٥) ﴾ [البقرة]

فسمَّى الخير الذى تقدمه قَرْضاً ، مع أنه سبحانه واهب كل النِّعم ، وذلك ليُحنِّن قلوب العباد بعضهم على بعض ؛ لأنه تعالى خالقهم ، وهو سبحانه المتكفِّل برزقهم .

ثم يقول : ﴿ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ (١٩) ﴾ [النمل] وذكر الرحمة والفضل ؛ لأنهما وسيلة النجاة ، وبهما ندخل الجنة ، وبدونهما لن ينجو أحد ، واقرأ قول رسول الله ﷺ : « لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله . قالوا : ولا أنت يا رسول الله ﷺ ؟ قال : ولا أنا إلا أنْ يتغمّدنى الله برحمته »[1] .

ويقول سبحانه فى هذا المعنى : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا .. (٥٨) ﴾ [يونس] فالمؤمن الحق لا يفرح بعمله ، إنما يفرح إنْ نال فَضْلَ الله ورحمته ، كأنه يقول لربه : لن أتكل يا رب على عملى ، بل فضلك ورحمتك هما المتكل ، لأننى لو قارنتُ العبادة التى كلفتنى بها بما أسديْتَ إلىَّ من نعَم وآلاء لَقصُرَتْ عبادتى عن أداء حقِّك علىَّ ، فإنْ أكرمتنى بالجنة فبفضلك .

والبعض يقولون : كيف يعاملنا ربنا بالفضل والزيادة ، ويُحرِّم علينا التعامل بالربا ؟ أليست الحسنة عنده بعشرة أمثالها أو يزيد ؟ نقول : نعم ، لكن الزيادة هنا منه سبحانه وتعالى وليستْ من مُساو ، إنها زيادة ربٍّ لعبيد .

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٤٦٣) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٨١٦) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

وقوله ﴿فِى عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴿١٩﴾﴾ [النمل] دليل على تواضع سيدنا سليمان ـ عليه السلام ـ فمع مكانته ومنزلته يطلب أنْ يُدخله الله فى الصالحين ، وأن يجعله فى زمرتهم ، فلم يجعل لنفسه مَيْزةً ولا صدارة ولا ادَّعى خيرية على غيره من عباد الله ، مع ما أعطاه الله من الملْك الذى لا ينبغى لأحد من بعده .

وأعطاه النبوة وحمَّله المنهج ، فلم يُورثه شىء من هذا غروراً ولا تعالياً ، وها هو يطلب من ربه أن يكون ضمن عباده الصالحين ، كما نقول (زقنى مع الجماعة دول) ، حين تكون السيارة مثلاً كاملة العدد ، وليس لى مقعد أجلس عليه .

مَنْ يقول هذا الكلام ؟ إنه سليمان بن داود ـ عليهما السلام ـ الذى آتاه الله مُلْكاً ، لا ينبغى لأحد من بعده ، ومع ذلك كان يُؤثر عبيده وجنوده على نفسه ، وكان يأكل (الردة) من الدقيق ، ويترك النقى منه لرعيته .

إذن : لم ينتفع من هذا الملْك بشىء ، ولم يصنع لنفسه شيئاً من مظاهر هذا الملك ، إنما صنعه له ربه لأنه كان فى عَوْن عباد الله ، فكان الله فى عَوْنه ، وأنت حين تُعين أخاك تُعينه بقدرتك وإمكاناتك المحدودة ، أما معونة الله تعالى فتأتى على قَدْر قوته تعالى ، وقدرته وإمكاناته التى لا حدودَ لها ، إذن : فأنت الرابح فى هذه الصفقة .

﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾﴾

مادة : فقد الفاء والقاف والدال ، وكل ما يُشتقّ منها تأتى بمعنى ضاع منه الشىء ، ومنه قوله تعالى فى قصة إخوة يوسف : ﴿قَالُوا

وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ (٧١) ﴾ [يوسف] ، فإنْ جاءت بصيغة (تفقَّد) بالتضعيف دلَّتْ على أن الشيء موجود وأنا أبحث عنه في مظانّه .

فمعنى ﴿ تَفَقَّدَ الطَّيْرَ .. (٢٠) ﴾ [النمل] أن الرئيس أو المهيمن على شيء لا بُدَّ له من متابعته ، وسليمان ـ عليه السلام ـ ساعةَ جلس فى مجلس العلم أو مجلس القضاء نظر للحاضرين من مملكته ، كأنه القائد يستعرض جنوده ، وفى هذا إشارة إلى أنه ـ عليه السلام ـ مع أن هذا ملكه ومُسخَّر له ومُنقَاد لأمره ، إلا أنه لم يتركه هَمَلاً دون متابعة .

لكن ، لماذا تفقَّد الطير بالذات ؟ قالوا : لأنه أراد أنْ يقوم برحلة فى الصحراء ، والهدهد هو الخبير بهذه المسألة ؛ لأنه يعلم مجاهلها ، ويرى حتى الماء فى باطن الأرض[1] ، يقولون : كما يرى أحدكم الزيت فى وعائه .

لذلك نرى أن من مميزات الهدهد أن الله تعالى جعل له منقاراً طويلاً ؛ لأنه لا يأكل مما على سطح الأرض ، إنما ينبش بمنقاره ليُخرج طعامه من تحت الأرض .

ألاَ تراه حين كلَّم سليمان فى دقائق العقيدة والإيمان بالله يقول عن أهل سبأ : ﴿ أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِى يُخْرِجُ الْخَبْءَ[2] فِى السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. (٢٥) ﴾ [النمل] فاختار هذه المسألة بالذات ؛ لأنه الخبير بها ورزقه منها .

ولما لم يجد الهدهد فى الحاضرين قال ﴿ فَقَالَ مَا لِىَ لا أَرَى

---

(١) أخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عن قتادة رضى الله عنه فى الآية قال : ذُكر لنا أن سليمان أراد أن يأخذ مفازة فدعا بالهدهد وكان سيد الهداهد ليعلم مسافة الماء ، وكان قد أعطى من البصر بذلك شيئاً لم يُعْطه شيء من الطير ، لقد ذكر لنا : أنه كان يبصر الماء فى الأرض كما يبصر أحدكم الخيال من وراء الزجاجة ، أورده السيوطى فى الدر المنثور (٦/٣٤٩) .

(٢) الخبأ : الشيء المخبوء . والخبء كل ما غاب ، وكل شيء غائب مستور . [لسان العرب ـ مادة : خبأ] .

الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ (٢٠)﴾ [النمل] فساعةَ يستفهم الإنسان عن شىء يعلم حقيقته ، فإنه لا يقصد الاستفهام ، إنما هو يستبعد أنْ يتخلَّف الهدهد عن مجلسه .

لذلك قال ﴿مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ .. (٢٠)﴾ [النمل] يعنى : ربما هو موجود ، لكنِّى لا أراه لعلّة عندى أنا ، فلما دَقّق النظر وتأكد من خُلوِّ مكانه بين الطيور ، قال ﴿أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ (٢٠)﴾ [النمل] إذن : لا بد من معاقبته :

﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٢١)﴾

ومعاقبة المخالف أمر ضرورى ؛ لأن أىَّ مخالفة لا تُقابل بالجزاء المناسب لا بُدَّ أن تثمر مخالفات أخرى متعددة أعظم منها ، فحين نرى موظفاً مُقصِّراً فى عمله لا يحاسبه أحد ، فسوف نكون مثله ، وتنتشر بيننا الفوضى والتكاسل واللامبالاة ، وتحدث الطَّامة حينما يُثاب المقصر ويُرَقى مَنْ لا يستحق .

لذلك توعَّد سليمان الهدهد : ﴿لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ .. (٢١)﴾ [النمل]

وقد تكلَّم العلماء فى كيفية تعذيب الهدهد ، فقالوا : بنتف ريشه الجميل الذى يزهو به بين الطيور ، حتى يصير لحماً ثم يُسلط عليه النمل فيلدغه[1] ، أو بجعْله مع غير بنى جنسه ، فلا يجد لها إلفاً

---

(١) قال ابن عباس : قوله ﴿لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا .. (٢١)﴾ [النمل] يعنى : نتف ريشه . وقال عبد الله بن شداد : نتف ريشه وتشميسه . قال ابن كثير فى تفسيره (٣/٣٦٠) : « وكذا قال غير واحد من السلف ؛ إنه نتف ريشه وتركه مُلْقىً يأكله الذر والنمل » .

ولا مشابهاً له فى حركته ونظامه ، أو : أنْ يُكلِّفه بخدمة أقرانه من الهداهد التى لم تخالف ، أو : أجمعه مع أضداده ، وبعض الطيور إذا اجتمعتْ تنافرتْ وتشاجرتْ ، ونتف بعضها ريش بعض ؛ لأنهم أضداد ؛ لذلك قالوا : أضيق من السجن عِشْرة الأضداد .

والشاعر[1] يقول :

وَمِنْ نكَدِ الدُّنْيا علىَ المرْءِ أنْ يرى عَدُواً لَهُ مَا مِنْ صَدَاقَتِه بُدُّ

ثم رقَّى الأمر من العذاب الشديد إلى الذبح ، وهذه المسألة أثار حولها المتمردون على منهج الله والذين يريدون أنْ يُعدِّلوا على الله أحكامه ، أثاروا إشكالاً حول قوله تعالى فى حَدِّ الزنا : ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ .. (٢) ﴾ [النور] أما الرَّجْم فلم يَرِدْ فيه شىء ، فمن أين أتيتم به ؟

نقول : أتينا به أيضاً من كتاب الله ، حيث قال سبحانه فى جَلْد الأَمَة إنْ زنتْ وهى غير محْصنة : ﴿ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ .. (٢٥) ﴾ [النساء] فقالوا : وكيف نُنصِّف حدَّ الرجم ؟ وهذا القول منهم دليل على عدم فهمهم لأحكام الله .

فالمعنى ﴿ فَعَلَيْهِنَّ .. (٢٥) ﴾ [النساء] أى : على الإماء الجوارى ﴿ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ .. (٢٥) ﴾ [النساء] الحرائر ، ولم يسكت إنما خصص التنصيف هنا بالجَلْد ، فقال : ﴿ مِنَ الْعَذَابِ .. (٢٥) ﴾ [النساء] فتجلد الأَمَة خمسين جلدة ، وهذا التخصيص يدلُّ على أن هناك عقوبة أخرى لا تُنصف هى الرجْم .

---

(١) الشاعر هو : أبو الطيب المتنبى أحمد بن الحسين ، شاعر حكيم ، وأحد مفاخر الأدب العربى ، ولد بالكوفة (٣٠٣ هـ) ، ونشأ بالشام وتنبأ فى بادية السماوة ، ثم تاب ورجع عن دعواه . قُتل ٣٥٤ هـ ، بأن عرض له فاتك بن أبى جهل الأسدى . [الأعلام للزركلى ١/١١٥] .

وينتهى تهديد سليمان للهدهد بقوله ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٢١)﴾ [النمل] أى : حجة واضحة تبرر غيابه ، فنفهم من الآية أن المرؤوس يجوز له أنْ يتصرف برأيه ، دون أن يأخذ الإذن من رئيسه إنْ رأى مصلحة للجماعة لا تستدعى التأخير .

وعلى الرئيس عندها أن يُقدِّر لمرؤوسيه اجتهاده ، ويلتمس له عذراً ، فلعله عنده حجة أحمده عليها بل وأكافئه ؛ لأن وقت فراغه منى كان فى مصلحة عامة ، كما نقول فى العامية (الغايب حجته معاه)

إذن : المرؤوس إنْ رأى خيراً يخدم الفكر العام ، ووجد أن فرصته ضيقة يسمح له بالتصرف دون إذن ، وفى الحرب العالمية الأولى تصرّف أحد القادة الألمان تصرُّفاً يخالف القواعد الحربية ، لكنه كان سبباً فى النصر ؛ لذلك أعطوه وسام النصر ولم ينسُوا أنْ يُعاقبوه على مخالفة القواعد والقانون .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (٢٢)﴾

معنى ﴿فَمَكَثَ .. (٢٢)﴾ [النمل] أقام واستقر ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ .. (٢٢)﴾ [النمل] مدة يسيرة ، فلم يتأخر كثيراً ؛ لأنه يعلم أنه تخلّف عن مجلس سليمان ، وذهب بدون إذنه ؛ لذلك تعجَّل العودة ، وما إنْ وصل إليه إلا وبادره ﴿فَقَالَ .. (٢٢)﴾ [النمل] بالفاء الدالة على التعقيب ؛ لأنه رأى سليمان غاضباً مُتحفِّزاً لمعاقبته .

لذلك بادره قبل أنْ ينطق ، وقبل أنْ ينهره ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ.. (٢٢)﴾ [النمل] أى : عرفتُ ما لم تعرف ـ هذا الكلام مُوجَّه إلى سليمان الذى ملَك الدنيا كلها ، وسخَّر الله له كل شىء ؛ لذلك ذُهل سليمان من مقالة الهدهد وتشوَّق إلى ما عنده من أخبار لا يعرفها هو .

ثم يستمر الهدهد : ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَأٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ (٢٢)﴾ [النمل]

أولاً : نقف عند جمال التعبير فى سبأ ونبأ ، فبينهما جناس ناقص ، وهو من المحسّنات البديعية فى لغتنا ، ويعطى للعبارة نغمة جميلة تتوافق مع المعنى المراد ، والجناس أن تتفق الكلمتان فى الحروف ، وتختلفا فى المعنى ، كما فى قول الشاعر

رَحَلْتُ عَنِ الدِّيَارِ لكُم أَسِيرُ وَقَلْبى فى محبتكُمْ أَسير

وقَوْل الآخر :

لَمْ يَقْضِ مِنْ حقِّكم علَىَّ بَعْضَ الذى يَجِبُ
قَلْبٌ متَى مَا جَرَت ذِكْرَاكُمُ يَجِبُ

ومن الجناس التام فى القرآن الكريم : ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ .. (٥٥)﴾ [الروم]

فالتعبير القرآنى ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَأٍ بِنَبَأٍ .. (٢٢)﴾ [النمل] تعبير جميل لفظاً ، دقيق مَعنىً ، ألاَ تراه لو قال (وجئتك من سبأ بخبر) لاختلَّ اللفظ والمعنى معاً ؛ لأن الخبر يُرَاد به مُطْلق الخبر ، أمّا النبأ فلا تُقال إلا للخبر العجيب الهام الملفت للنظر ، كما فى قوله تعالى : ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (١) عَنِ النَّبَأِ الْعَظِيمِ (٢)﴾ [النبأ]

والجناس لا يكون جميلاً مؤثراً إلا إذا جاء طبيعياً غير مُتكلّف ،

ومثال ذلك هذا الجناس الناقص فى قوله تعالى : ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ (١) ﴾ [الهمزة] فقد ورد اللفظ المناسب مُعبِّراً عن المعنى المراد دون تكلّف ، فالهُمَزة هو الذى يعيب بالقول . واللمزة : الذى يعيب بالفعل ، فالقرآن لا يتصيَّد لفظاً ليُحدث جناساً ، إنما يأتى الجناس فيه طبيعياً يقتضيه المعنى .

ومن ذلك فى الحديث الشريف : « الخيْل معقود بنواصيها الخير »(٢) فبيْن الخيل والخير جناس ناقص ، مُحسِّناً للفظ ، مؤدّياً للمعنى .

وقد يأتى المحسِّن البديعى مُضطرباً مُتكلَّفاً ، يتصيده صاحبه ، كقول أحدهم ينحت الكلام نحتاً فيأتى بسجع ركيك : فى أثناء ما كنا نسير نزل المطر كأفواه القرَب ، فوقع رجل كان يحمل العنب .

ومعنى ﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ.. (٢٢) ﴾ [النمل] الإحاطة : إدراك المعلوم من كل جوانبه ، ومنه البحر المحيط لاتساعه ، ويقول سبحانه : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا (١٢٦) ﴾ [النساء] ومنه : الحائط يجعلونه حول البستان ليحميه ويُحدِّده ، ومنه : يحتاط للأمر .

ومحيط الدائرة الذى يحيط بالمركز من كل ناحية إحاطة مستوية بأنصاف الأقطار .

لكن أيُعَدُّ قول الهدهد لسليمان ﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ.. (٢٢) ﴾ [النمل] نقصاً فى سليمان عليه السلام ؟ لا ، إنما يُعَدُّ تكريماً له ؛ لأن

---

(١) الهمزة : كثير الهمز واللمز والغمز واغتياب الناس وعَيْبهم . [القاموس القويم ٢/٣٠٧] . وقيل : الهمز واللمز معناهما واحد . وقيل : الهمز فى القفا والسر . واللمز : عيب فى الوجه فى العلانية .

(٢) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٨٤٩ ، ٢٨٥٠ ، ٢٨٥٢) من حديث ابن عمر وعروة بن الجعد وعروة البارقى ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٨٧٣) من حديث عروة البارقى ، ونحوه عن عروة بن الجعد .

ربه ـ عز وجل ـ سخَّر له مَنْ يخدمه ، وفَرْق بين أن تفعل أنت الشىء وبين أن يُفعل لك ، فحين يفعل لك ، فهذه زيادة سيادة ، وعُلُو مكانة .

كما أن الله تعالى يُعلِّمنا ألاَّ نكتم مواهب التابعين ، وأن نعطى لهم الفرصة ، ونُفسح لهم المجال ليُخرجوا مواهبهم ، وأن يقول كل منهم ما عنده حتى لو لم نكُنْ نعرفها ؛ لأنها خدمة لى .

أليس من الكرامة أن يُحضر سليمان عرش بلقيس وهو فى مكانه ﴿قَالَ الَّذِى عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ .. (٤٠)﴾ [النمل]

ونلحظ أن الهدهد لم يُعرِّف سبأ ما هى ، وهذا دليل على أن سليمان ـ عليه السلام ـ يعرف سبأ ، وما فيها من ملك ، إنما لا يعرف أنه بهذه الفخامة وهذه العظمة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣)﴾

وقوله ﴿تَمْلِكُهُمْ .. (٢٣)﴾ [النمل] يعنى : تحكمهم امرأة ، ورأينا نساءً كثيرات نابهات حكمْن الدول فى وجود الرجال .

ثم يذكر من صفاتها ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ ..(٢٣)﴾ [النمل] وكأنها إشارة إلى ما سبق أنْ قاله سليمان عليه السلام ﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ.. (١٦)﴾ [النمل] فهى كذلك أُوتيتْ من كل شىء بالنسبة لأقرانها ، وإلا فسليمان أُوتى من الملْك ومن النبوة ما لم تُؤْتهُ ملكة سبأ .

﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣)﴾ [النمل] العرش مكان جلوس الملك ، وكان العرش عادةً يتوافق مع عظمة الملك ، فمثلاً (شيخ الغفر) أو العمدة

أو المحافظ .. إلخ لكل منهم كرسيٌّ يجلس عليه يناسب مكانته ، إذن: العرش هو جِلْسة المتمكّن الذى يتولّى تَدبير الأمور .

ووصْف العرش بأنه عظيم مع أن هذا الوصف لعرش الله تعالى ، فكيف ؟ قالوا : عظيم بالنسبة لأمثالها من الملوك ، أمّا عرْش الله فعظيم بالنسبة لكل الخَلْق عظمةً مُطْلقة .

هكذا حدَّث الهدهُد سليمانَ فيما يخصُّ ملكة سبأ من حيث الملك الذى تشبه فيه سليمان كملك ، ثم يُحدِّثه بعد ذلك عن مسألة تتعلق بالنبوة والإيمان بالله ، وهذه المسألة التى غار عليها سليمان ، وثار من أجلها :

﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

ذلك لأنه لما طاف حول قصر بلقيس وجد فيه كُوَّة تدخل منها الشمس ، كما نرى فى معابد الفراعنة ، ففى أحد هذه المعابد طاقات بعدد أيام السنة ، بحيث تدخل الشمس فى كل يوم من واحدة بعينها لا تدخل من الأخرى . وكذلك كان عند بلقيس مثل هذه الكُوَّة تدخل منها الشمس فتتنبه لها وتستقبلها .

لذلك لما ذهب إليها بكتاب سليمان وقف على هذه الكُوَّة وسدَّها بجناحه ، فلم تدخل الشمس فى موعدها كما اعتادت الملكة ، فقامت حتى وصلتْ إلى هذه الكُوَّة فرمى عندها الكتاب[1] .

---

(١) ذكر نحوه السيوطى فى « الدر المنثور فى التفسير بالمأثور » (٦/٣٥٣) عن قتادة وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم .

فالهدهد ـ إذن ـ مؤمن عارف بقضية العقيدة والإيمان بالله يَغَار عليها ويستنكر مخالفتها ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ.. (٢٤)﴾ [النمل] فهو يعرف أن الله هو المعبود بحقٍّ ، بل ويعلم أيضاً قضية الشيطان ، وأنه سبب الانصراف عن عبادة الله .

﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ (٢٤)﴾ [النمل] فالقضية عنده كاملة بكل تفاصيلها ، ولا تتعجب من مقالة الهدهد واقرأ : ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَـٰكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. (٤٤)﴾ [الإسراء]

إنها موعظة بليغة من واعظ مُتمكِّن يفهم عن الله ، ويعلم منهجه ويدعو إليه ، بل ويعزّ عليه ويحزّ فى نفسه أن ينصرف العباد عن الله المنْعِم :

﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (٢٥)﴾

﴿أَلاَّ .. (٢٥)﴾ [النمل] مكوَّنة من أنْ ، لا ، وعند إدغامهما تُقلَبُ النون لاَماً فتصير : ألاَّ ، فالمعنى : وزيَّن لهم الشيطان أعمالهم ، لماذا ؟ لألاَّ يسْجدوا ، فهنا حرف جر محذوف كما تقول : عجبتُ من أن يَقْدم علينا فلان ، أو عجبت أن يقدم علينا فلان .

وفى قراءة أخرى[1] : (ألاَ) للحثِّ والحضِّ[2] .

---

(١) هى قراءة الزهرى والكسائى وغيرهما ، بمعنى : ألا يا هؤلاء اسجدوا [ذكره القرطبى فى تفسيره ٥٠٦٨/٧] قال الكسائى : ما كنت أسمع الأشياخ يقرءونها إلا بالتخفيف على نية الأمر .

(٢) قال الزمخشرى : فإن قلت : أسجدة التلاوة واجبة فى القراءتين جميعاً أم فى إحداهما ؟ قلت : هى واجبة فيهما جميعاً ؛ لأن مواضع السجدة إما أمر بها ، أو مدح لمن أتى بها ، أو ذم لمن تركها ، وإحدى القراءتين أمر بالسجود ، والأخرى ذم للتارك . [ذكره القرطبى فى تفسيره ٥٠٦٩/٧] .

وقلنا : إنه اختار هذه الصفة بالذات ﴿الَّذِى يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِى السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. (٢٥)﴾ [النمل] لأنه خبير فى هذه المسألة ، حيث يرى الماء فى باطن الأرض ، كما يرى أحدكم الزيت فى إنائه .

والمراد بالخبْء فى السموات : المطر ، والخبْء فى الأرض : النبات ، ومنهما تأتى مُقوِّمات الحياة ، فمن ماء المطر وخصوبة الأرض يأتى النبات ، وعلى النبات يتغذَّى الحيوان ، ويتغذّى الإنسان .

بل إن الحق سبحانه ﴿يَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (٢٥)﴾ [النمل] ، كما قال فى آية أخرى : ﴿وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى الأَرْضِ وَلا فِى السَّمَاءِ (٣٨)﴾ [إبراهيم] ، وفى آية أخرى يقول سبحانه: ﴿قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ..(٢٩)﴾ [آل عمران]

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ (٢٦)﴾

لما تكلّم عن عرش بلقيس قال ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣)﴾ [النمل] يعنى : بالنسبة لأمثالها من الملوك ولأهل زمانها . فإذا عُرِّف ﴿الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٢٦)﴾ [النمل] فإنه لا ينصرف إلا إلى عرشه تعالى ، فله العظمة المطلقة عند كل الخَلْق .

﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ (٢٧)﴾

﴿قَالَ سَنَنظُرُ .. (٢٧)﴾ [النمل] والنظر محلُّه العين ، لكن هل يُعرف الصدق والكذب بالعين ؟ لا ، فالكلمة انتقلت من النظر بالعين إلى العلم بالحجة ، فهى بمعنى نعلم ، ونقول : هذا الأمر فيه نظر يعنى : يحتاج إلى دراسة وتمحيص .

وفى الآية مظهر من مظاهر أدب سليمان ـ عليه السلام ـ وتلطُّفه مع رعيته[١] ، فهو السيد المطاع ، ومع ذلك يقول للهدهد : ﴿أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٧)﴾ [النمل] والصِّدْق يقابله الكذب ، لكن سليمان ـ عليه السلام ـ يأبى عليه أدب النبوة أن يتهم أحد جنوده بالكذب فقال : ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٧)﴾ [النمل]

يعنى : حتى لو وقع منك الكذب فلست فذاً فيه ، فكثير من الخَلْق يكذبون ، أو : من الكاذبين مَيْلاً لهم وقُرْباً منهم ، مما يدلُّ على أنه بإلهاماته كنبى يعرف أنه صادق ، إنما ما دام الأمر محلَّ نظر فلا بُدَّ أن نتأكد ، ولن أجامل جندياً من جنودى .

﴿اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ (٢٨)﴾ (٢)

هذا هو النظر الذى ارتآه سليمان ليتأكد من صدْق الهدهد : أنْ يرسله بكتاب منه إلى هؤلاء القوم ، وهنا مظهر من مظاهر الإيجاز البليغ فى القرآن الكريم ، فبعد أن قال سليمان ﴿سَنَنظُرُ .. (٢٧)﴾ [النمل] قال ﴿اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا .. (٢٨)﴾ [النمل]

فهل كان الكتاب مُعَدّاً وجاهزاً ؟ لا ، إنما التقدير : قال سننظر

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٥٠٧١/٧) : « فى قوله ﴿أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٧)﴾ [النمل] دليل على أن الإمام يجب عليه أن يقبل عذر رعيته ، ويدرأ العقوبة عنهم فى ظاهر أحوالهم بباطن أعذارهم ؛ لأن سليمان لم يعاقب الهدهد حين اعتذر إليه ، وإنما صار صدق الهدهد عذراً لأنه أخبر بما يقتضى الجهاد » .

(٢) قال وهب (بن منبه) وابن زيد : كانت لها كوة مستقبلة مطلع الشمس فإذا طلعت سجدت ، فسدَّها الهدهد بجناحه ، فارتفعت الشمس ولم تعلم ، فلما استبطأت الشمس قامت تنظر فرمى الصحيفة إليها ، فلما رأت الخاتم ارتعدت وخضعت ؛ لأن ملك سليمان عليه السلام كان فى خاتمه ، فقرأته فجمعت الملأ من قومها فخاطبتهم بما يأتى بعد . ذكره القرطبى فى تفسيره (٥٠٧٣/٧) .

أصدقتَ أم كنت من الكاذبين ، فكتب إليها كتاباً فيه كذا وكذا ثم قال للهدهد : ﴿اذْهَب بِّكِتَابِي هَـٰذَا .. ﴿٢٨﴾﴾ [النمل] وقد حُذف هذا للعلم به من سياق القصة .

وقوله : ﴿ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ .. ﴿٢٨﴾﴾ [النمل] يعنى : ابتعدْ قليلاً ، وحاول أنْ تعرف ﴿مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [النمل] يعنى : يراجع بعضهم بعضاً ، ويتناقشون فيما فى الكتاب ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾﴾ [طه]

والسياق يقتضى أن نقول : فذهب الهدهد بالكتاب ، وألقاه عند بلقيس فقرأتْه واستشارتْ فيه أتباعها وخاصتها ، ثم قالت :

﴿قَالَتْ يَـٰأَيُّهَا الْمَلَؤُا إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَـٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾

نلحظ هنا سرعة جواب الأمر ﴿اذْهَب.. ﴿٢٨﴾﴾ [النمل] فبعده مباشرة قالت ملكة سبأ : ﴿قَالَتْ يَـٰأَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾ [النمل] وهذا يدل على أن أوامر سليمان كانت محوطة بالتنفيذ العاجل ؛ لذلك حذف السياق كل التفاصيل بين الأمر ﴿اذْهَب.. ﴿٢٨﴾﴾ [النمل] والجواب ﴿قَالَتْ .. ﴿٢٩﴾﴾ [النمل] هكذا على وجه السرعة .

ومعنى ﴿الْمَلَأُ .. ﴿٢٩﴾﴾ [النمل] هم أعيان القوم وأشرافهم والمستشارون والخاصة ﴿إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾ [النمل] فوصفتْ الكتاب بأنه كريم[1] إما لأنها سمعتْ عن سليمان ـ عليه

---

(١) وقد ورد فى معنى كريم هنا أقوال وآثار ، منها :

- حسن ما فيه : قاله قتادة ، فيما أخرجه عنه عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم .
- مختوم : قاله ابن عباس فيما أخرجه عنه ابن مردويه . [أوردهما السيوطى فى الدر المنثور ٦/٣٥٣] .

السلام ـ وعظمة مُلْكه ، أو : لأن الكتاب سُطِّر على ورق رَاقٍ وبخط جميل ، وبعد ذلك هو ممهور بخاتمه الرسمى ، مما يدل على أنه كتاب هام ينبغى دراسته وأَخْذ الرأى فيه[1] .

﴿ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ ﴾

إذن : فهى تعرف سليمان ، وتعرف نُبوّته وصفاته ، وأنه يكاتبهم باسْم الله ويَصْدُر فى دعوتهم عن أوامر الله ، وكان مجمل الكتاب بعد بسم الله الرحمن الرحيم :

﴿ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾

إنها برقية موجزة فى أبلغ ما يكون الإيجاز ﴿ أَلاَّ تَعْلُوا عَلَىَّ .. ﴿٣١﴾ ﴾ [النمل] العلو هنا بمعنى الغطرسة والزَّهْو الذى يعتاده الملوك خاصة ، وهى مثْله ، ملكة لها عَرْش عظيم ، وأُوتيتْ من كل شىء وكونه يخاطبها بهذه اللهجة المختصرة البعيدة عن النقاش والجدال ، هذا أمر يحتاج منها إلى نظر وإلى أَنَاة .

لذلك بعد أن أخبرتْ مستشاريها بأمر الكتاب ، وما ورد فيه طلبتْ منهم الرأى والمشورة :

﴿ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ ﴾

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٧/٥٠٧٤) : « وصفته بأنه كريم ، لما تضمن من لين القول والموعظة فى الدعاء إلى عبادة الله عز وجل وحسن الاستعطاف والاستلطاف من غير أن يتضمن سباً ولا لعناً ، ولا ما يغير النفس ، ومن غير كلام نازل ولا مستغلق ، على عادة الرسل فى الدعاء إلى الله عز وجل » .

سبق أن تكلمنا فى معنى الفتوى ، وأنها من الفُتوة أى : القوة ، وهى مثل : غَنِىَ فلان أى : صار غنياً بذاته ، وأغناه غيره أمدَّه بالغنى ، كذلك أفتاه يعنى : أعطاه قوة فى الحكم والحجة .

وقالت : ﴿فِي أَمْرِي .. (٣٢)﴾ [النمل] مع أن الأمر خاصٌّ بالدولة كلها ، لا بها وحدها ؛ لأنها رمز للدولة وللملْك ، وإنْ تعرض لها سليمان فسوف يُخدش مُلْكها أولاً ، ويُنال من هيبتها قبل رعيتها .

﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ (٣٢)﴾ [النمل] يعنى : لا أَبُتُّ فى أمر إلا فى حضوركم ، وبعد استشارتكم . وهذا يدل على أنها كانت تأخذ بمبدأ الشورى رغم ما كان لها من الملْك والسيطرة والهيمنة .

فردّ عليها الملأ من قومها :

﴿قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ (٣٣)﴾ (١)

يعنى : نحن أصحاب قوة فى أجسامنا ، وأصحاب شجاعة وبأس أى جيوش فيها عَدَد وعُدة ﴿وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ .. (٣٣)﴾ [النمل] أى : إنْ رأيتِ الحرب ، فنحن على أُهْبة الاستعداد ، فهم يعرضون عليها رأيهم دون أنْ يُلزموها به ، فهو رأْى سياسى لا رأى حربى ، فهى صاحبة قرار الحرب إنْ أرادتْ ﴿فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ (٣٣)﴾ [النمل] يعنى : نحن على استعداد للسِّلْم وللحرب ، وننتظر أمرك .

---

(١) قال قتادة : ذُكر لنا أنه كان أولو مشورتها ثلاثمائة واثنى عشر رجلاً ، كل رجل منهم على عشرة آلاف من الرجال . أخرجه عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم . أورده السيوطى فى الدر المنثور (٣٥٧/٦) ، والقرطبى فى تفسيره (٥٠٧٧/٧) .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٣٤) ﴾

وتعرض بلقيس رأيها ﴿ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا .. (٣٤) ﴾ [النمل] ، ذلك لأنهم يريدون مُلْكاً ، فينهبون كل ما يمرُّون به بل ويُخربون ويفسدون لماذا ؟ لأنهم ساعةَ يصل الملك المغير لا يضمن النصر ؛ لذلك يُخرِّب كل شيء ، حتى إذا ما عرفَ أنه انتصر ، وأن الأمور قد استقرتْ له يحافظ على الأشياء ولا يُخربها .

﴿ وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً .. (٣٤) ﴾ [النمل] لأن الملْك يقوم على أنقاض مُلْك قديم ، فيكون أصحاب العزة والسيادة هم أول مَنْ يُبدأ بهم ؛ لأن الأمر أُخذ من أيديهم ، وسوف يسعَوْن لاستعادته ، ولا بُدَّ أنْ يكون عندهم غَيْظ ولَدَد فى الخصومة .

أما قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٣٤) ﴾ [النمل] فللعلماء فيه كلام : قالوا[1] إنه من كلام بلقيس ، وكأنه تذييل لكلامها السابق ، لكن ماذا يضيف ﴿ وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٣٤) ﴾ [النمل] بعد أن قالت ﴿ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً .. (٣٤) ﴾ [النمل]

فالرأى الصواب أن هذه العبارة من الحق[2] - سبحانه وتعالى - ليُصدِّق على كلامها ، وأنها أصابت فى رأيها ، فكذلك يفعل الملوك إذا

---

(١) قاله ابن شجرة فيما نقله عنه القرطبى فى تفسيره (٥٠٧٨/٧) وقال : « قيل : هو من قول بلقيس تأكيداً للمعنى الذى أرادته » .

(٢) قاله ابن عباس ، قال : هو من قول الله عز وجل معرفاً لمحمد ﷺ وأمته بذلك ومخبراً به . نقله القرطبى فى تفسيره (٥٠٧٨/٧) ، وذكر نحوه السيوطى فى « الدر المنثور » (٣٥٧/٦) وعزاه لابن أبى حاتم .

دخلوا قرية ، مما يدل على أن الحق سبحانه رب الخلْق أجمعين ، إذا سمع من عبد من عبيده كلمة حق يؤيده فيها ، لا يتعصب ضده ، ولا يهضمه حقه .

﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾ (١)

بعد أنْ ترك لها المستشارون الأمر والتدبير أخذتْ تُعمل عقلها ، وتستخدم فطنتها وخبرتها بحياة الملوك ، فقالت : إنْ كان سليمان ملكاً فسوف يطمع فى خيرنا ، وإنْ كان نبياً فلن يهتم بشىء منه ، فقررتْ أنْ تُرسل له هدية تناسب مكانته كملك ومكانتها هى أيضاً ، لتثبت له أنها على جانب كبير من الثراء والغنى .

ولا بد أنها كانت ثمينة لتستميل الملك ، أو كما نقول (تلوحه أو تلويه) .

﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [النمل] فإنْ كان ملكاً قَبِلها ، وعرفنا أن علاجه فى بعض الخراج والأموال تُساق إليه كل عام ، وإنْ كان نبياً فلن يقبل منها شيئاً ، وهذا رأى جميل من بلقيس يدل على فطْنتها وذكائها وحصافتها ، حيث جنَّبتْ قومها ويلات الحرب والمواجهة .

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٧/٥٠٨١) : « كان النبى ﷺ يقبل الهدية ويثيب عليها ولا يقبل الصدقة ، وكذلك كان سليمان عليه السلام وسائر الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين ، وإنما جعلت بلقيس قبول الهدية أو ردها علامة على ما فى نفسها ، على ما ذكرناه من كون سليمان ملكاً أو نبياً ، لأنه قال لها فى كتابه ﴿أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ [النمل] وهذا لا تُقبل فيه فدية ، ولا يؤخذ عنه هدية » .

﴿ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

أى : فلما جاء رسول بلقيس إلى سليمان بالهدية ﴿ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم .. ﴿٣٦﴾ ﴾ [النمل] فأىُّ هدية هذه ، وأنا أملك مُلْكاً لا ينبغى لأحد من بعدى[1] ؟ ﴿ بَلْ .. ﴿٣٦﴾ ﴾ [النمل] يعنى : اضرب عن الكلام السابق ﴿ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾[النمل]

أضاف الهدية إليهم ، لا إليه هو ، والإضافة تأتى إما بمعنى اللام مثل : قلم زيد يعنى لزيد ، أو : بمعنى مِن مثل : إردب قمح يعنى : من قمح ، أو : بمعنى فى مثل : مكر الليل يعنى : فى الليل .

فقوله ﴿ بِهَدِيَّتِكُمْ .. ﴿٣٦﴾ ﴾ [النمل] إما أن يكون المراد : هدية لكم . أى : فأنتم تفرحون إنْ جاءتكم هدية من أحد ، أو لأننى سأردُّها إليكم فتفرحوا بردِّها كمَنْ يقول (بركة يا جامع) أو : هدية منكم . أى : أنكم تفرحون إنْ أهديتم لى هدية فقبلتُها منكم .

فهذه معانٍ ثلاثة لقوله : ﴿ بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [النمل]

﴿ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾

نذكر أن الملكة قالت ﴿ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [النمل] فكأنه يستشعر نصَّ ما قالت ، وينطق عن إشراقات النبوة فيه ،

---

(١) أى : فما أعطانى من الإسلام والملْك والنبوة خير مما أعطاكم ، فلا أفرح بالمال . (قاله القرطبى فى تفسيره ٧/٥٠٨٤) .

فيقول ﴿ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لاَّ قِبَلَ لَهُم بِهَا .. (٣٧)﴾ [النمل]

وهكذا دخلتْ المسألة فى طَوْر المواجهة ؛ لأن كلامنا كلامُ النبوة التى لا تقبل المساومة ، لا كلام الملك الذى يسعى لحطام الدنيا .

﴿وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ (٣٧)﴾ [النمل] وكأنه يكشف لهم عن قَوْل ملكتهم : ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً..(٣٤)﴾ [النمل] وهذه أيضاً من إشراقات النبوة .

ومعنى ﴿لاَّ قِبَلَ لَهُم بِهَا .. (٣٧)﴾ [النمل] تقول : لا قِبَل لى بكذا . يعنى : لا أستطيع مقابلته ، وأنا أضعف من أنْ أقابله ، أو لا طاقة لى به ﴿وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً .. (٣٧)﴾ [النمل] لأنه سيسلب مُلْكهم ، فبعد أنْ كانوا ملوكاً صاروا عبيداً . ثم يزيد فى حدّته عليهم ﴿وَهُمْ صَاغِرُونَ (٣٧)﴾ [النمل] لأنهم قد يقبلون حالة العبودية وعيشة الرعية ، فزاد ﴿وَهُمْ صَاغِرُونَ (٣٧)﴾ [النمل] لأن الصَّغَار لا يكون إلا بالقَتْل والأَسْر .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَؤُا أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣٨)﴾

الملأ : أشراف القوم وسادتهم وأصحاب الرأى فيهم ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣٨)﴾ [النمل] هنا أيضاً مظهر من إشراقات النبوة عند سليمان ، فهو يعلم ما سيحدث عندهم حينما تعود إليهم هديتهم ، وأنهم سيسارعون إلى الإسلام ، فردُّ الهدية يعنى أننا أصحاب كلمة ورسالة ومبدأ ندافع عنه لا أصحاب مصلحة .

ولما علم أنهم سيأتون مسلمين طلب من جنوده أنْ يأتوه بعرشها ، وحدَّد زمن الإتيان بهذا العرش ﴿قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣٨)﴾ [النمل]

إذن : لا بُدَّ من الذهاب إلى مملكة سبأ وفكِّ العرش ، وحَمْله إلى مملكة سليمان ، ثم إعادة تركيبه عنده ، وهذه مهمة بالطبع فوق قدرة البشر ؛ لذلك لم يتكلم منهم أحد ، حتى الجن العادى لم يعرض على سليمان استعداده للقيام بهذه المهمة :

﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (٣٩)﴾

والجن فى القدرة والمهارة مثل الإنس ، منهم القوى الماهر ، ومنهم العَيِىّ الذى لا يجيد شيئاً . نقول (لبخة) وكلمة عفريت من تعفير التراب ، وكانوا حينما يتسابقون فى العَدْو بالخيل أو غيرها ، فمَنْ يسبق منهم يُثير الغبار فى وجه الآخر فيُعطّله عن السَّبْق . فقالوا : عفريت يعنى عفَّر من وراءه . أو : المعنى أنه يُعفِّر وجه مَنْ عارضه بالتراب فسُمِّى عفريتاً .

إذن : فالعفريت هو الخبيث الماكر من الجنّ ، وصاحب القوة الخارقة فيهم ، وهو الذى تعرَّض لهذه المهمة ، وقال ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ .. (٣٩)﴾ [النمل]

وهذا كلام مُجْمل ؛ لأن مقام سليمان بين رعيته للحكم أو

---

(١) العفريت : هو النافذ فى الأمر المبالغ فيه مع خبث ودهاء . [لسان العرب – مادة : عفر] .

(٢) قال السدى وغيره : كان سليمان يجلس للقضاء والحكومات وللطعام من أول النهار إلى أن تزول الشمس . [تفسير ابن كثير ٣/٣٦٣] .

للمدارسة سوف يستغرق وقتاً : ساعة أو ساعتين مثلاً ، وقد تعهَّد العفريت أنْ يأتى بالعرش فى هذا الوقت يعنى : لن يُؤخِّره إلى جلسة أخرى .

وقوله : ﴿ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (٣٩) ﴾ [النمل] يدل على أن هذا العفريت يعلم فخامة هذا العرش وضخامته ، وأنه شىء نفيس يستحق الاعتناء به ، خاصة فى عملية نقله ؛ لذلك قال من ناحية كبره وضخامته « فأنا عليه قوى » قادر على حَمْله ، ومن ناحية نفاسته وفخامته ، فأنا عليه أمين لن أُبدِّد منه شيئاً .

ثم تكلَّم آخر لم يُحدِّده القرآن إلا بالوصف[1] :

﴿ قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ (٤٠) ﴾

الطرف : الجِفْن الأعلى للعين .

تكلم العلماء فى هذه الآية : أولاً : قالوا ﴿ الْكِتَابِ .. (٤٠) ﴾ [النمل] يُراد به اللوح المحفوظ ، يُعلم الله تعالى بعض خَلْقه أسراراً من اللوح

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٧/٥٠٨٧) : « أكثر المفسرين على أن الذى عنده علم من الكتاب آصف بن برخيا وهو من بنى إسرائيل ، وكان صدِّيقاً يحفظ اسم الله الأعظم الذى إذا سئل به أعطى ، وإذا دُعى به أجاب » . وانظر (تفسير ابن كثير ٣/ ٣٦٤) ، (والدر المنثور للسيوطى ٦/٣٦٠) .

المحفوظ ، أما الذى عنده علم من الكتاب فقالوا[١] : هو آصف بن برخيا ، وكان رجلاً صالحاً أطلعه الله على أسرار الكون .

وقال آخرون[٢] : بل هو سليمان عليه السلام ، لما قال له العفريت ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ.. (٣٩)﴾ [النمل] قال هو : ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ .. (٤٠)﴾ [النمل] لأنه لو كان شخصاً آخر لكان له تفوُّق على سليمان فى معرفة الكتاب .

لكن رَدُّوا عليهم بأن من عظمة سليمان أنْ يعلمَ أحد رعيته هذا العلم ، فمَنْ عنده علم من الكتاب بحيث يأتى بالعرش قبل طَرْفة عين هو خادم فى مملكة سليمان ومُسخر له ، كما أن المزايا لا تقتضى الأفضلية ، وليس شَرْطاً فى الملك أنْ يعرف كل شىء ، وإلا لَقُلْنا للملك : تَعَال أصلح لنا دورة المياه .

أما نحن فنميل إلى أنه سليمان عليه السلام .

وفَرْق كبير فى القدرات بين مَنْ يأتى بالعرش قبل أن يقوم الملك من مجلسه ، وبين مَنْ يأتى به فى طَرْفة عين ، ونَقْل العرش من مملكة بلقيس إلى مملكة سليمان يحتاج إلى وقت وإلى قوة .

والزمن يتناسب مع القوة تناسباً عكسياً : فكلما زادت القوة قَلَّ الزمن ، فمثلاً حين تُكلِّف الطفل الصغير بنقل شىء من مكانه إلى مكان ما ، فإنه يذهب إليه ببُطْء ويحمله ببُطء حتى يضعه فى مكانه ، أما الرجل فبيده وفى سرعة ينقله ، وهذه المسألة نلاحظها فى وسائل

---

(١) قاله ابن عباس ، ويزيد بن رومان ، وقتادة . انظر تفسير ابن كثير (٣/٣٦٤) وقاله الحسن أيضاً (الدر المنثور ٦/٣٦٠) .

(٢) قال ابن عطية : قالت فرقة هو سليمان عليه السلام . نقله القرطبى فى تفسيره (٧/٥٠٨٧) ولكنه قال قبله : « لا يصح فى سياق الكلام مثل هذا التأويل » .

المواصلات ، ففرْق بين السفر بالسيارة ، والسفر بالطائرة ، والسفر بالصاروخ مثلاً .

وهذه تكلّمنا عنها فى قصة « الإسراء والمعراج » فقد أُسْرِى برسول الله ﷺ بهذه السرعة ؛ لأن الله تعالى أَسْرى به ، ونقله من مكان إلى مكان ؛ لذلك جاءت الرحلة فى سرعة فوق تصوُّر البشر .

وما دام الزمن يتناسب مع القوة ، فلا تنسب الحدث إلى رسول الله ، إنما إلى الله ، إلى قوة القوى التى لا تحتاج إلى زمن أصلاً ، فإنْ قلتَ : فلماذا استغرقتْ الرحلة ليلةً وأخذت وقتاً ؟ نقول : لأنه ﷺ مرَّ بأشياء ، ورأى أشياء ، وقال ، وسأل ، وسمع ، فهو الذى شغل هذا الوقت ، أمّا الإسراء نفسه فلا زمنَ له .

لذلك قبل أن يخبرنا الحق ـ تبارك وتعالى ـ بهذه الحادثة العجيبة قال : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ .. ﴿١﴾ ﴾ [الإسراء] أى : نزِّهه عن مشابهة غيره ، كذلك مسألة نَقْل العرش فى طرْفة عين لا بُدَّ أن مَنْ فعلها فعلها بعون من الله وبعلم أطلعه الله عليه ، فنقله بكُنْ التى لا تحتاج وقتاً ولا قوة ، وما دام الأمر بإرادة الله وقوته وإلهامه فلا نقول إلا : آمين .

وفى قوله للجن : ﴿ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ .. ﴿٤٠﴾ ﴾ [النمل] تحدٍّ لعفريت الجن ، حتى لا يظن أنه أقوى من الإنسان ، فإنْ أراد الله منحنى من القوة ما أتفوّق عليك به ، بل وأُسخِّرك بها لخدمتى .

ومن ذلك قوله سبحانه عن تسخير الجن : ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ[1] وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ .. ﴿١٣﴾ ﴾ [سبأ]

---

(١) الجفان : جمع جَفْنة ، وهى القصعة الكبيرة جداً . والجوابُ جمع جابية ، وهى الحوض الذى يُجبى فيه الماء . وقال ابن عباس : أى كالجوبة من الأرض . وقال العوفى عنه : كالحياض. وكذا قال مجاهد والحسن وقتادة والضحاك وغيرهم . [تفسير ابن كثير٣/٥٢٨] .

وليعلموا أنهم جهلاء ، ظلُّوا يعملون لسليمان وهو ميت ومُتكىء على عصاه أمامهم ، وهم مرعوبون خائفون منه .

والتحدى قد يكون بالعُلُوِّ ، وقد يكون بالدُّنُو ، كالذى قال لصاحبه : أنا دارس باريس دراسة دقيقة ، وأستطيع أنْ أركب معك السيارة وأقول لك : أين نحن منها ، وأمام أىّ محل ، وأنا مُغْمض العينين ، فقال الآخر : وأنا أستطيع أن أخبرك بذلك بدون أن أُغمِض عَيْنىّ .

وقوله : ﴿فَلَمَّا رَآهُ .. ﴿٤٠﴾﴾ [النمل] أى : العرش ﴿مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَـٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى .. ﴿٤٠﴾﴾ [النمل] إما لأنه أقدره على الإتيان به بنفسه ، أو سخّر له مَنْ عنده علم من الكتاب ، فأتاه به ، فهذه أو ذاك فضل من الله .

﴿لِيَبْلُوَنِى .. ﴿٤٠﴾﴾ [النمل] يختبرنى ﴿أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ .. ﴿٤٠﴾﴾ [النمل] يعنى : أشكر الله فأُوفَّق فى هذا الاُختبار ؟ أم أكفر بنعمة الله فأخفق فيه ؟ لأن الاختبار إنما يكون بنتيجته .

والشكر بأن ينسب النعمة إلى المنعم وألاَّ يلهيه جمال النعمة عن جلال واهبها ومُسْديها ، فيقول مثلاً : إنما أوتيته على علم عندى .

وقوله : ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ .. ﴿٤٠﴾﴾ [النمل] أى : أن الله تعالى لا يزيده شُكْرنا شيئاً ، فله ـ سبحانه وتعالى ـ صفات الكمال المطلق قبل أنْ يشكره أحد ، فمَنْ يشكر فإنما يعود عليه ، وهو ثمرة شُكْره .

﴿وَمَن كَفَرَ .. ﴿٤٠﴾﴾ [النمل] يعنى : جحد النعمة ولم يشكر المنعم ﴿فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ .. ﴿٤٠﴾﴾ [النمل] أى : عن شكره ﴿كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [النمل]

أى : يعطى عبده رغم ما كان منه من جحود وكفر بالنعمة ؛ لأن نعمه تعالى كثيرة لا تُعَدُّ ، وهذا من حلمه تعالى ورأفته بخَلْقه .

لذلك لما نتأمل قوله تعالى : ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا .. (٣٤)﴾ [إبراهيم] وقد تكررت هذه العبارة بنصِّها فى آيتين من كتاب الله ، مما جعل البعض يرى فيها تكراراً لا فائدة منه ، لكن لو نظرنا إلى عَجُز كل منهما لوجدناه مختلفاً :

فالأولى تُختتم بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ(٣٤)﴾ [إبراهيم]

والأخرى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٨)﴾ [النحل]

إذن : فهما متكاملتان ، لكلٍّ منهما معناها الخاص ، فالأولى تبين ظلم الإنسان حين يكفر بنعمة الله عليه ويجحدها ، وتضيف الأخرى أن الله تعالى مع ذلك غفور لعبده رحيم به .

كما نلحظ فى الآية : ﴿وَإِن تَعُدُّوا .. (٣٤)﴾ [إبراهيم] استخدم (إنْ) الدالة على الشك ؛ لأن أحداً لا يجرؤ على عَدِّ نعَم الله فى الكون ، فهى فوق الحصر ؛ لذلك لم يُقْدم على هذه المسألةَ أحد ، مع أنهم بوسائلهم الحديثة أحصُوا كلَ شىء إلا نعم الله لم يتصَدَّ لإحصائها أحد فى معهد أو جامعة ممن تخصصت فى الإحصاء .

وهذا دليل على أنها مقطوع بالعجز عنها ، كما لم نجد مثلاً مَنْ تصدّى لإحصاء عدد الرمل فى الصحراء . كما نقف عند قوله سبحانه : ﴿نِعْمَتَ اللَّهِ .. (٣٤)﴾ [إبراهيم] ولم يقُلْ : نعَم الله ، فالعجز عن الإحصاء أمام نعمة واحدة ؛ لأن تحتها نِعَم كثيرة لو تتبعتها لوجدتها فوق الحصر .

ثم لما جاءته بلقيس أراد أن يُجرى لها اختبارَ عقلٍ ، واختبارَ إيمان :

﴿ قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ (٤١) ﴾ (١)

قوله : ﴿ نَكِّرُوا .. (٤١) ﴾ [النمل] ضده عرِّفوا ؛ لأنه جاء بالعرش على هيئته كما كان عندها فى سبأ ، ولو رأتْه على حالته الأولى لقالتْ هو هو ، ولم يظهر له ذكاؤها ؛ لذلك قال ﴿ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا .. (٤١) ﴾ [النمل] يعنى : غيّروا بعض معالمه ، ومنه شخص متنكر حين يُغيِّر ملامحه وزيّه حتى لا يعرفه مَنْ حوله .

﴿ نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ (٤١) ﴾ [النمل] تهتدى إيماناً إلى الإسلام ، أو تهتدى عقلياً إلى الجواب فى مسألة العرش .

﴿ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ (٤٢) ﴾

جاء السؤال بهذه الصيغة ﴿ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ .. (٤٢) ﴾ [النمل] ليُعمِّى عليها أمر العرش ، وليختبر دقة ملاحظتها ، فلو قال لها : أهذا عرشك ؟ لكان إيحاءً لها بالجواب إنما ﴿ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ .. (٤٢) ﴾ [النمل] كأنه يقول : ليس هذا عرشك ، فلما نظرتْ إليه إجمالاً عرفتْ أنه عرشها ، فلما رأتْ ما فيه من تغيير وتنكير ظنتْ أنه غيره ؛ لذلك اختارتْ جواباً دبلوماسياً يحتمل هذه وهذه ، فقالت ﴿ كَأَنَّهُ هُوَ .. (٤٢) ﴾

---

(١) قال ابن عباس : نزع منه فصوصه ومرافقه . وقال مجاهد : أُمر به فغُيِّر ما كان فيه أحمر جُعل أصفر ، وما كان أصفر جُعل أحمر ، وما كان أخضر جُعل أحمر غيّر كل شىء عن حاله . وقال عكرمة : زادوا فيه ونقصوا . وقال قتادة : جعل أسفله أعلاه ومقدمه مؤخره وزادوا فيه ونقصوا . [تفسير ابن كثير ٣/٣٦٤] .

[النمل] وعندها فهم سليمان أنها على قَدْر كبير من الذكاء والفِطْنة وحصافة الرأى .

وكذلك كلام السَّاسَة والدبلوماسيين تجده كلاماً يصلح لكل الاحتمالات ولأىٍّ واقع بعده ، فإذا جاء الأمر على خلاف ما قال لك يسبقك بالقول : ألم أَقُلْ لك كذا وكذا .

ومن ذلك ما قاله معاوية بن أبى سفيان للأحنف بن قيس[1] : يا أحنف لماذا لا تسبّ علياً على المنبر كما يسبّه الناس ؟ فقال الأحنف : اعفنى يا أمير المؤمنين ، فقال معاوية : عزمتُ عليك إلاَّ فعلْتَ ، فقال : أما وقد عزمت علىَّ فسأصعد المنبر ، ولكنى سأقول للناس : إن أمير المؤمنين معاوية أمرنى أنْ ألعنَ علياً ، فقولوا معى : لعنه الله . عندها قال معاوية : لا يا أحنفُ ، لا تقل شيئاً .

لماذا ؟ لأن اللعن فى هذه الحالة سيعود على مَنْ ؟ على معاوية أو علَى علىّ ؟

وتُحكَى قصة الخيّاط الأعور الذى خاط لأحد الشعراء جُبَّة ، فجاءت وأحَد الكُمَّيْن أطول من الآخر ، فلم يستطع لبسها ، فلما سألوه عن عدم لُبْس الجبة الجديدة أخبرهم بما حدث من الخياط فقالوا : أُهْجه ، فقال :

قُلْتُ شِعْراً لَيْس يُدْرَى ... أَمديحٌ أَمْ هِجَاءُ
خَاطَ لِى عَمْرو قُباء ... لَيْتَ عينيه سَوَاءُ

فالكلام يحتمل المعنيين : الدعاء له ، والدعاء عليه . هذا هو الرد الدبلوماسى الذى يهرب به صاحبه من المواجهة .

---

(١) هو : أبو بحر ، سيد تميم ، وأحد العظماء الدهاة الفصحاء ، يُضرب به المثل فى الحلْم ، وُلد فى البصرة (٣ ق هـ) ، وأدرك النبى ﷺ ولم يره ، شهد الفتوح فى خراسان ، واعتزل الفتنة يوم الجمل ، ثم شهد صفين مع على . توفى بالكوفة عام (٧٢ هـ) عن ٦٩ عاماً . [الأعلام للزركلى ١/٢٧٦] .

وكذلك قالتْ بلقيس جواباً دبلوماسياً ﴿كَأَنَّهُ هُوَ .. (٤٢)﴾ [النمل] أما ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ (٤٢)﴾ [النمل] فيحتمل أنْ يكون امتداداً لقوْل بلقيس ، يعنى : أوتينا العلم من قبل هذه الحادثة ، وعرفنا أنك نبىّ لما رددتَ إلينا الهدية ، وقلت ما قلت ، فلم نكُنْ فى حاجة إلى مثل هذه الحادثة لنعلم نُبوّتك .

ويُحتمل أنها من كلام سليمان عليه السلام .

﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ (٤٣)﴾ (١)

المعنى : صدَّها ما فعل سليمان من أحداث ، وما أظهر لها من آيات ، صدَّها عن الكفر الذى ألِفَتْه ﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ (٤٣)﴾ [النمل] فصدَّها سليمان بما فعل عما كانت تعبد من دون الله .

﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٤٤)﴾ (٢) (٣)

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٣/٣٦٥) : « هذا من تمام كلام سليمان عليه السلام فى قول مجاهد وسعيد بن جبير ، أى قال سليمان ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ (٤٢)﴾ [النمل] وهى كانت قد صدَّها أى منعها من عبادة الله وحده ﴿مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ (٤٣)﴾ [النمل] » .

(٢) أى : حسبته ماء . ولُجة الماء : معظمه ، وخصَّ بعضهم به معظم البحر [بتصرف من تفسير القرطبى ٧/٥٠٩٢ ، اللسان ـ مادة : لجج] .

(٣) الصرح : قال الزجاج : الصرح فى اللغة : القصر والصَّحْن . يُقال : هذه صرحة الدار وقارعتها أى : ساحتها وعرصتها . وقال بعض المفسرين : الصَّرْح : بلاط اتخذ لها من قوارير . والصرح : الأرض المملسَّة . [لسان العرب ـ مادة : صرح] والقوارير : جمع قارورة ، وهى لا تكون إلا من الزجاج .

الصَّرْح : إما أن يكون القصر المشيد الفخم ، وإما أن يكون البهو الكبير الذى يجلس فيه الملوك مثل : إيوان كسرى مثلاً ، فلما دخلتْ ﴿حَسِبَتْهُ لُجَّةً .. (٤٤)﴾ [النمل] ظنَّته ماءً ، والإنسان إذا رأى أمامه ماءً أو بَلَلاً يرفع ثيابه بعملية آلية قَسْرية حتى لا يصيبه البَلَل ؛ لذلك كشفتْ بلقيس عن ساقيها يعنى : رفعتْ ذَيْل ثوبها .

وهنا نبَّهها سليمان ﴿إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ .. (٤٤)﴾ [النمل] يعنى : ادخلى لا تخافى بللاً ، فهذا ليس لُجةَ ماء ، إنما صَرْح ممرد من قوارير يعنى : مبنىٌّ من الزجاج والبللور أو الكريستال ، بحيث يتموج الماء من تحته بما فيه من أسماك .

﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي .. (٤٤)﴾ [النمل] بالكفر أولاً ، وبظنِّ السوء فى سليمان ، وأنه يريد أنْ يُغرقنى فى لجة الماء ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٤)﴾ [النمل] ويبدو أنها لم تنطق بكلمة الإسلام صريحة إلا هذه المرة ، وأن القول السابق ﴿وَكُنَّا مُسْلِمِينَ (٤٢)﴾ [النمل] كان من كلام سليمان عليه السلام .

وقولها ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ .. (٤٤)﴾ [النمل] مثل قول سَحَرة فرعون لما رأوا المعجزة : ﴿آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ (٧٠)﴾ [طه] لأن الإيمان إنما يكون بالله والرسول دال على الله ، لذلك قالت : ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ .. (٤٤)﴾ [النمل] ولم تقُلْ : أسلمتُ لسليمان ، نعم لقد دانتْ له ، واقتنعتْ بنبوته ، لكن كبرياء الملك فيها جعلها لا تخضع له ، وتعلن إسلامها لله مع سليمان ؛ لأنه السبب فى ذلك ، وكأنها تقول له : لا تظن أنِّى أسلمتُ لك ، إنما أسلمتُ معك ، إذن : أنا وأنت سواء ، لا يتعالى أحد منا على الآخر ، فكلانا عبد لله .

وقد دخل هذه القصة بعض الإسرائيليات ، منها أن سليمان - عليه السلام - جعل الصرح على هذه الصورة لتكشف بلقيس عن ساقيها ؛ لأنه بلغه أنها مُشْعرة الساقين ، إلى غير هذا من الافتراءات التى لا تليق بمقام النبوة[1] .

ثم يأتى بنا الحق سبحانه إلى نبى آخر فى موكب الأنبياء :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾

مرَّتْ بنا قصة نبى الله صالح - عليه السلام - مع قومه ثمود فى سورة الشعراء ، وأُعيد ذكرها هنا ؛ لأن القرآن يقصُّ على رسول الله من موكب الأنبياء ما يُثبِّت به فؤاده ، كلّما تعرض لأحداث تُزلزل الفؤاد ، يعطيه الله النَّجْم من القرآن بما يناسب الظروف التى يمرُّ بها ، وهذا ليس تكراراً للأحداث ، إنما توزيع للقطات ، بحيث إذا تجمعتْ تكاملتْ فى بناء القصة .

وقوله سبحانه ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا .. ﴿٤٥﴾ ﴾ [النمل] لا بُدَّ أنه أُرسل بشىء ما هو ؟ ﴿ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ .. ﴿٤٥﴾ ﴾ [النمل] لذلك سُمِّيت (أنْ) التفسيرية ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ .. ﴿٧﴾ ﴾ [القصص] ماذا ؟ ﴿ أَنْ أَرْضِعِيهِ .. ﴿٧﴾ ﴾ [القصص]

وقد يأتى التفسير بجملة ، كما فى : ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ ..

---

(١) أورد ابن كثير فى تفسيره (٣/٣٦٥) هذه القصة ، وعزاه لمحمد بن كعب القرظى وابن عباس ومجاهد وعكرمة والسدى وابن جريج . وقد ذكرها الدكتور محمد أبو شهبة فى كتابه « الإسرائيليات والموضوعات فى كتب التفسير » (ص ٣٤٨) .

(١٢٠) ﴾ [طه] بأى شىء ؟ ﴿ قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ (١٢٠) ﴾ [طه]

فشرح الوسوسة وهى شىء عام بقوله : ﴿ قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ .. (١٢٠) ﴾ [طه] فرسالتنا إلى ثمود ملخصها ومؤداها ﴿ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ .. (٤٥) ﴾ [النمل]

والعبادة كما ذكرنا أن نطيع الله بفعل ما أمر ، وبترْك ما نهى عنه وزَجر ، أما ما لم يردْ فيه أمر ولا نَهْى فهو من المباحات إنْ شئتَ فعلتها ، وإنْ شئت تركتها ، وإذا ما استعرضنا حركة الأحياء والخلفاء فى الأرض وجدنا أن ٥٪ من حركتهم تدخّل فيها الشارع بافعل ولا تفعل ، أما الباقى فهو مُباح .

إذن : فالتكليف منُوط بأشياء يجب أنْ تفعلها ؛ لأن فيها صلاحَ مجتمعك ، أو أشياء يجب أن تتركها ؛ لأن فيها فساد مجتمعك .

فماذا كانت النتيجة ؟

﴿ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ (٤٥) ﴾ [النمل]

والاختصام أنْ يقف فريق منهم ضد الآخر ، والمراد أن فريقاً منهم عبدوا الله وأطاعوا ، والفريق الآخر عارض وكفر بالله .

وقد وقف عند هذه الآية بعض الذين يحبون أنْ يتهجَّموا على الإسلام وعلى أسلوب القرآن ، وهم يفتقدون الملكة العربية التى تساعدهم على فَهْم كلام الله ، وإنْ تعلَّموها فنفوسهم غير صافية لاستقبال كلام الله ، وفيهم خُبْث وسُوء نية .

واعتراضهم أن ﴿ فَرِيقَانِ .. (٤٥) ﴾ [النمل] مثنى و ﴿ يَخْتَصِمُونَ (٤٥) ﴾ [النمل] دالة على الجمع ، فلماذا لم يَقُلْ : يختصمان ؟ وهذه لغة القرآن فى مواضع عدة .

ومنها قوله تعالى : ﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا .. (٩) ﴾ [الحجرات]

والقياس يقتضى أن يقول : اقتتلتا . لكن حين نتدبَّر المعنى نجد أن الطائفة جماعة مقابل جماعة أخرى ، فإنْ حدث قتالٌ حمل كُلٌّ منهم السلاح ، لا أن تتقدم الطائفة بسيف واحد ، فهم فى حال القتال جماعة .

لذلك قال (اقتتلوا) بصيغة الجمع ، أما فى البداية وعند تقرير القتال فلكُلِّ طائفة منهما رأْىٌ واحد يعبر عنه قائدها ، إذن : فهما فى هذه الحالة مثنى .

كما أن الطائفة وإنْ كانت مفردة لفظاً إلا أنها لا تُطلَق إلا على جماعة ، فيقف كل واحد من الجماعة بسيفه فى مواجهة آخر من الطائفة الأخرى .

وهنا أيضاً ﴿ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ .. (٤٥) ﴾ [النمل] أى : مؤمنون وكافرون ﴿ يَخْتَصِمُونَ (٤٥) ﴾ [النمل] لأن كل فرد فى هذه الجماعة يقف فى مواجهة فرد من الجماعة الأخرى .

وفى موضع آخر ، شرح لنا الحق ـ تبارك وتعالى ـ هذه المسألة ، فقال سبحانه : ﴿ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ (١٩) يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ (٢٠) وَلَهُم مَّقَامِعُ[1] مِنْ

---

(١) المقامع : جمع مقْمعة ، وهى خشبة أو حديدة يُقمع بها الحيوان ليُذلَّ ويطيع . وقوله ﴿ وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ (٢١) ﴾ [الحج] أى : يُضربون بها ، كلما أرادوا الخروج من النار أعيدوا فيها بالضرب بالمقامع إذلالاً لهم . [القاموس القويم ٢/١٣٤] .

حَدِيدٍ (٢١) كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (٢٢)﴾ [الحج]

أما الفريق الآخر : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٢٣) وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَىٰ صِرَاطِ الْحَمِيدِ (٢٤)﴾ [الحج]

فبيَّن لنا الحق ـ سبحانه ـ كل فريق منهما ، وبيَّن مصيره وجزاءه .

ونلحظ هنا ﴿فَإِذَا .. (٤٥)﴾ [النمل] يسمُّونها الفجائية ، ويُمثِّلون لها بقولهم : خرجتُ فإذا أسَدٌ بالباب ، والمعنى : أنك فُوجِئْت بشىء لم تكُنْ تتوقعه ، كذلك حدث من الكافرين من قوم ثمود حين قال لهم نبيهم ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ .. (٤٥)﴾ [النمل] لكن يفاجئوننا بأنهم فريقان : مؤمنون وكافرون .

ومنطق العقل والحق والفطرة السليمة يقتضى أنْ يستقبلوا هذا الأمر بالطاعة والتسليم ، ولا يختلفوا فيه هذا الاختلاف : فريق فى الجنة وفريق فى السعير ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (١٤)﴾ [الانفطار]

وقالوا : إن الله تعالى لا يرسل الرسل إلا على فساد فى المجتمع ، الخالق عز وجل خلق فى الإنسان النفس اللوامة التى تردُّه إلى رُشْده وتنهاه ، والنفس المطمئنة التى اطمأنتْ بالإيمان ، وأمنت الله على الحكم فى افعل ولا تفعل ، والنفس الأمَّارة بالسوء ، وهى التى لا تعرف معروفاً ، ولا تنكر مُنكَراً ، ولا تدعو صاحبها إلا إلى السوء .

والله ـ عزَّ وجلَّ ـ رب ، ومن عادة الرب أنْ يتعهّد المربَّى ليؤدى

غايتـه على الوجه الأكمل ، أرأيتم أباً يُربِّى أبناءه إلا لغـاية ؟ وما دام هو سبـحانه ربى فلا يأمـرنى إلا لصالحى ، وصالح مـجتمـعى ، فلا شىء من طاعتنا يعـود عليه بالنفع ولا شىء من معاصيـنا يعود عليه بالضرر ؛ لأنه سبحانه خلق الكون كله بصفات الكمال المطلق . إذن : كانت الفطرة السليمة تقتضى استقبال أوامر الله بالقبول والتسليم .

وهذه الخـصومـة تجمـع المؤمنين فى جـهـة ؛ لأنهم اتفقـوا على الإيمان . والكافـرين فى جهـة ؛ لأنهم اتفقـوا على الكفر . لكن يمـتاز المؤمنون بأن يظل وفـاقهم إلى نهاية العمر ، بل وعـند لقاء الله تعالى فى الجنة ؛ لأنهم اتفـقـوا فى الدنيا فى خـطة العمل وفى الآخـرة فى غاية الجزاء ، كما يقول تعالى : ﴿الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ (٦٧)﴾ [الزخرف]

أما الكفـار فسوف تقـوم بينهم الخصـومات يوم القيـامة ، ويلعن بعـضهم بعـضاً ، ويتـبرَّأ بعـضهم من بعض ، والقـرآن حين يُـصوِّر تخاصم أهل النار يقول بعد أنْ ذكر نعيم أهل الجنة :

﴿هَـٰذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ (٥٥) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ (٥٦) هَـٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ[1] وَغَسَّاقٌ (٥٧) وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ (٥٨) هَـٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ (٥٩) قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ (٦٠) قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَـٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا

(١) الحمـيم من ألفاظ الأضداد ، يكون الـماء البارد ، ويكون المـاء الحار . والحمـيم : العَرق . [لسان العرب ـ مادة : حمم] والغسـاق : ما يغسق ويسيل من جلود أهل النار وصديدهم من قيح ونحوه . [اللسان ـ مادة : غسق] .

ضِعْفًا فِى النَّارِ (٦١) وَقَالُوا مَا لَنَا لا نَرَىٰ رِجَالاً كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الأَشْرَارِ (٦٢) أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الأَبْصَارُ (٦٣) إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ (٦٤) ﴾ [ص]

إذن : فالخصومة فى الدنيا بين مؤمن وكافر ، أما فى الآخرة فبين الكافرين بعضهم البعض ، بين الذين أَضلُّوا والذين أُضِلُّوا ، بين الذين اتَّبعُوا ، والذين اتُّبِعوا . (١)

﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٤٦) ﴾

لما ذُكرت قصة ثمود فى الشعراء ، لم تذكر شيئاً عن استعجال السيئة ، فما هى السيئة التى استعجلوها وربهم عز وجل يلومهم عليها ؟ هى قولهم: ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧٠) ﴾ [الأعراف]

وعجيب أَمْر هؤلاء القوم ، ماذا يفعلون لو نزل بهم ؟ قالوا معاً : حينما تأتينا السيئة نستغفر ونتوب يظنون أن الاستغفار والتوبة تُقبل منهم فى هذا الوقت .

والحق ـ تبارك وتعالى ـ يقول : ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١٧) وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ وَلا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٨) ﴾ [النساء]

---

(١) قال مجاهد : بالعذاب قبل الرحمة ، وقال القرطبى : المعنى : لم تؤخرون الإيمان الذى يجلب إليكم الثواب ، وتقدمون الكفر الذى يُوجب العقاب ؟ [تفسير القرطبى ٥٠٩٧/٧] .

فلماذا تستعجلون السيئة والعذاب ، وكان عليكم أن تستعجلوا الحسنة ، واستعجالكم السيئة يحول بينكم وبين الحسنة ؛ لأنها لن تُقبل منكم ﴿لَوْلا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٤٦)﴾ [النمل]

﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ (٤٧)﴾

اطيَّر : استعمل الطير ، وهذه عملية كانوا يلجئون إليها عند قضاء مصالحهم أو عند سفرهم مثلاً ، فكان الواحد منهم يُمسك بالطائر ثم يرسله ، فإنْ طار ناحية اليمين تفاءل وأقبل على العمل ، وإنْ طار ناحية الشمال تشاءم ، وامتنع عما هو قادم عليه ، يُسمُّونها السانحات والبارحات[1] . فالمعنى : تشاءمنا منك ، وممَّنْ اتبعك .

﴿قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ .. (٤٧)﴾ [النمل] يعنى : قضاء مقضىٌّ عليكم ، وليس للطير دَخْل فى أقداركم ، وما يجرى عليكم من أحكام ، فكيف تأخذون من حركته مُنطلقاً لحركتكم ؟ إنما طائركم وما يُقدَّر لكم من عند الله قضاء يقضيه .

وفى آية يس : ﴿قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ .. (١٩)﴾ [يس] يعنى : تشاؤمكم هو كفركم الذى تمسكتم به .

لكن ، لماذا جاء التشاؤم هنا ، ونبيهم يدعوهم إلى الله ؟ قالوا : لأنه بمجرد أنْ جاءهم عارضوه ، فأصابهم قحْط شديد ، وضنَّتْ عليهم السماء بالمطر فقالوا : هو الذى جَرَّ علينا القَحْط والخراب .

---

(١) السانح : ما أتاك عن يمينك من ظبى أو طائر أو غير ذلك . والبارح : ما أتاك من ذلك عن يسارك [لسان العرب ـ مادة : سنح] .

وقوله : ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [النمل] الفتنة : إما بمعنى الاختبار والابتلاء ، وإما بمعنى فتنة الذهب فى النار .

﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ (١) يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾﴾

وهذه المسألة أيضاً لقطة جديدة من القصة لم تُذكَر فى الشعراء ، وهكذا كل القَصَص القرآنى لو تدبَّره الإنسان لوجده لقطات متفرقة ، كلٌّ منها يضيف جديداً ، ويعالج أمراً يناسب النجْم القرآنى الذى نزل فيه لتثبيت رسول الله ﷺ .

والرَّهْط : اسم جمع ، لا واحدَ له من لفظه ، ويدل على العدد من الثلاثة إلى العشرة ، فمعنى ﴿تِسْعَةُ رَهْطٍ .. ﴿٤٨﴾﴾ [النمل] كأنهم كانوا قبائل أو أسراً أو فصائل ، قبيلة فلان وقبيلة فلان .. إلخ .

﴿يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ .. ﴿٤٨﴾﴾ [النمل] فلماذا قال بعدها : ﴿وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [النمل] ؟ قالوا : لأن الإنسان قد يُفسد فى شىء ، ويُصلح فى آخر ، كالذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً ، وهؤلاء عسى الله أنْ يتوبَ عليهم .

أما هؤلاء القوم ، فكانوا أهل فساد مَحْض لا يعرفون الصلاح ، فإنْ رأوْه عمدوا إليه فأفسدوه ، فكأنهم مُصرُّون على الإفساد ، وللإفساد قوم ينتفعون به ، لذلك يدافعون عنه ويعارضون فى سبيله أهل الإصلاح والخير ؛ لأنهم يُعطِّلون عليهم هذه المنفعة .

---

(١) ذكر ابن عباس أسماء هؤلاء التسعة ، فقال : كان أسماؤهم زعمى وزعيم وهرمى وهريم وداب وهواب ورياب وسيطع ، وقدار بن سالف عاقر الناقة . (نقله السيوطى فى الدر المنثور ٦/ ٣٧٠) .

وقلنا : إن صاحب الدين والخلق والمبادىء فى أىِّ مصلحة تراه مكروهاً من هذه الفئة التى تنتفع من الفساد ، يهاجمونه ويتتبعونه بالهَمْز واللمز ، يقولون : حنبلى ، وربما يهزأون به .. إلخ ؛ لذلك لم يقف فى وجه الرسل إلا هذه الطائفة المنتفعة بالفساد .

﴿ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾

﴿ قَالُوا .. ﴿٤٩﴾ ﴾ [النمل] أى : الرهط ﴿ تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ .. ﴿٤٩﴾ ﴾ [النمل] انظر إلى هذه البجاحة وقلة العقل وتفاهة التفكير : إنهم يتعاهدون ويُقسمون بالله أنْ يقتلوا رسول الله ، وهذا دليل غبائهم ، وكأن الحق ـ تبارك وتعالى ـ يجعل لهم منافذ يظهر منها حُمْقهم وقِلّة عقولهم .

ومعنى ﴿ لَنُبَيِّتَنَّهُ .. ﴿٤٩﴾ ﴾ [النمل] نُبيِّته : نجعله ينام بالليل ، والبيتوتة أن ينقطع الإنسان عن الحركة حالَ نومه ، ثم يعاود الحركة بالاستيقاظ فى الصباح ، لكن هؤلاء يريدون أنْ يُبيِّتوه بيتوتة لا قيامَ منها . والمعنى : نقتله .

فإذا ما جاء أولياء الدم يطالبوننا بدمه ﴿ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ .. ﴿٤٩﴾ ﴾ [النمل] أى : ولىّ الدم من عُصْبته ورحمه ﴿ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [النمل] أى : ما شهدنا مقتل أهله ، فمن باب أَوْلَى ما شهدنا مقْتله ، ولا نعرف عنه شيئاً .

هذا ما دبره القوم لنبى الله صالح ـ عليه السلام ـ يظنون أن الله يُسْلِم رسوله ، أو يُمكِّنهم من قتله ، فحاكوا هذه المؤامرة ولم يفتهم تجهيز الدفاع عن أنفسهم حين المساءلة ، هذا مكرهم وتدبيرهم .

﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾

معنى ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا .. ﴿٥٠﴾﴾ [النمل] أى : ما دبّروه لقتل نبى الله ورسوله إليهم ﴿وَمَكَرْنَا مَكْرًا .. ﴿٥٠﴾﴾ [النمل] وفَرْق بين مكر الله عز وجل ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [آل عمران] وبين مكْر الكافرين ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ .. ﴿٤٣﴾﴾ [فاطر]

إذن : حين تمكر بخير ، فلا يُعَدُّ مكْراً ، إنما إبطال لمكْر العدو ، فلا يجوز لك أنْ تتركه يُدبِّر لك ويمكُر بك ، وأنت لا تتحرك ؛ لذلك قال تعالى ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنفال] لأنهم يمكرون بشرٍّ ، ونحن نمكر لدفع هذا الشر لِنُصْرة رسولنا ، ونجاته من تدبيركم .

والمكْر : مأخوذ من قولهم : شجرة ممكورة ، وهذا فى الشجر رفيع السَّاق المتسلق حين تلتفُّ سيقانه وأغصانه ، بعضها على بعض ، فلا تستطيع أن تُميِّزها من بعضها ، فكُلٌّ منها ممكور فى الآخر مستترٍ فيه ، وكذلك المكر أن تصنع شيئاً تداريه عن الخصم .

وقوله تعالى : ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [النمل] أى : أنه مكْر محبوك ومحكم ، بحيث لا يدرى به الممكور به ، وإلا لا يكون مكْراً .

وحين نتأمل : ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ .. ﴿٤٣﴾﴾ [فاطر] و ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [آل عمران] نعلم أن المكر لا يُمدح ولا يُذَمُّ لذاته ، إنما بالغاية من ورائه ، كما فى قوله تعالى عن الظن : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ .. ﴿١٢﴾﴾ [الحجرات] فالظن منه الخيِّر ومنه السيىء .

ونسمع الآن تعبيراً جديداً يعبر عما يدور فى المجتمع من انتشار المكر وسوء الظن ، يقولون : الصراحة مكر القرن العشرين ، فالذى يمكر بالناس يظن أنهم جميعاً ماكرون فلا يصدق كلامهم ، ويحتاط له حتى إنْ كان صدقاً ، فأصبح المكر وسوء الظن هو القاعدة ، فإنْ صارحتَ الماكر لا يُصدقك ويقول فى نفسه : إنه يُعمى علىَّ أو يُضلِّلنى .

﴿ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ ﴾

أى : تأمل ما حاق بهم لما مكروا بنبى الله ، واتفقوا على التبييت له وقَتْله ، يُرْوى أنهم لما دخلوا عليه أُلْقى على كل واحد منهم حجر لا يدرى من أين أتاه ، فهلكوا جميعاً ، فقد سخَّر الله له ملائكة تولَّتْ حمايته والدفاع عنه[1] .

أو : أن الله تعالى صنع له حيلة خرج بها وذهب إلى حضرموت ، وهناك مات عليه السلام ، فَسُمِّيت حضرموت[2] . وآخرون قالوا : بل ذهبوا ينتظرونه فى سفح جبل ، واستتروا خلف صخرة ليُوقِعوا به فسقطت عليهم الصخرة فماتوا جميعاً .

المهم ، أن الله دمرهم بأىِّ وسيلة من هذه ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ .. ﴿٣١﴾ ﴾ [المدثر] لقد أرادوا أنْ يقتلوه وأهلَه ، فأهلكهم الله .

---

(١) قال ابن عباس : أرسل الله تعالى الملائكة تلك الليلة ، فامتلأت بهم دار صالح ، فأتى التسعة دار صالح شاهرين سيوفهم ، فقتلتهم الملائكة رضخاً بالحجارة ، فيرون الحجارة ولا يرون من يرميها . [تفسير القرطبى ٧/٥١٠٠] .

(٢) قال القرطبى فى تفسيره (٧/٥١٠٢) : « خرج صالح بمن آمن معه إلى حضرموت ، فلما دخلها مات صالح ، فسميت حضرموت » .

﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٖ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً .. ﴿٥٢﴾ ﴾ [النمل] دليل على أن الله أهلكهم فلم يُبْقِ منهم أحداً ، وتُركَتْ بيوتهم خاوية بسبب ظلمهم ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً .. ﴿٥٢﴾ ﴾ [النمل] عبرة وعظة ﴿ لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [النمل]

وفى مقابل إهلاك الكافرين :

﴿ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ (١)

فمن آمن واتقى من قوم صالح نجّاه الله عز وجل من العذاب الذى نزل بقومهم قوم ثمود .

انتهى الكلام هنا عن قصة ثمود ، وحين نقارن الأحداث هنا بما ورد فى سورة الشعراء نجد أحداثاً جديدة لم تُذكَر هناك ، كما لم يذكر هنا شيئاً عن قصة الناقة التى وردتْ هناك ، مما يدلُّ على تكامل لقطات القصة فى السور المختلفة .

ثم يقصُّ علينا طرفاً من قصة نبى آخر ، وهو لوط عليه السلام :

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾

---

(١) قيل : آمن بصالح قدر أربعة آلاف رجل ، أما الباقون فقد خرج بأبدانهم - فى قول مقاتل وغيره - خُرَّاج مثل الحمص ، وكان فى اليوم الأول أحمر ، ثم صار من الغد أصفر ، ثم صار فى الثالث أسود .

(لُوطاً) جاءت منصوبة على أنها مفعول به ، والتقدير : أرسلنا لوطاً ، كما قال سبحانه : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ .. (٤٥)﴾ [النمل]

وقوله تعالى : ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ (٥٤)﴾ [النمل] فذكر الداء الذى استشرى فيهم . وفى سورة الشعراء قال سبحانه ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ (٨٠)﴾ [الأعراف] وهنا قال : ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ (٥٤)﴾ [النمل] أى : تتعالمون بها وتتجاهرون بها ، فدلَّ على أنهم أجمعوا عليها وارتضوْهَا ، وأنه لم يَعُدْ عندهم حياء من ممارستها .

أو : يكون المعنى : وأنتم تبصرون ما حَلَّ بأصحاب الفساد قبلكم من أقضية الله عليهم .

﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (٥٥)﴾

هذا بيان وتفصيل للداء وللفاحشة التى انتشرت بينهم ، ومعنى : ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (٥٥)﴾ [النمل] الآية فى ظاهرها أنها تتعارض مع ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ (٥٤)﴾ [النمل] لكن المعنى ﴿تَجْهَلُونَ (٥٥)﴾ [النمل] الجهل هنا ليس هو ضد العلم ، إنما الجهل بمعنى السَّفه .

والبعض يظن أن الجهل ألاَّ تعلم ، لا إنما الأمية هى ألاَّ تعلم ، أمَّا الجهل فأنْ تعلم قضية مخالفة للواقع ؛ لذلك الأميُّ أسهل فى الإقناع ؛ لأنه خالى الذِّهْن ، أمّا الجاهل فلديه قضية خاطئة ، فيستدعى الأمر أن تنزع منه قضية الباطل ، ثم تُدخِل قضية الحق ، فالجهل - إذن - أشقُّ على الدعاة من الأمية .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾

عجيبٌ أمر هؤلاء ، فعلَّة الإخراج عندهم وحيثيته ﴿ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [النمل] سبحان الله ، ومتى كان الطُّهْر ذنباً وجريمة تستوجب أنْ يخرج صاحبها من بلده ؟ إنها نغمة نسمعها دائماً من أهل الباطل فى كل زمان ومكان حينما يهاجمون أهل الحق ، ويَسْعَوْن لإبعادهم من الساحة لتخلو لباطلهم .

ومن عَدْل الله تعالى أن يظهر فى منطقهم دليل إدانتهم وخُبْث طباعهم ، فكلمة ﴿ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [النمل] التى نطقوا بها تعنى : أنهم أنفسهم أنجاسٌ تزعجهم الطهارة ، وما أحلَّ الله من الطيبات ، وكأن الله تعالى يجعل فى كلامهم منافذ لإدانتهم ، وليحكموا بها على أنفسهم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾

أى : من المُهْلَكين مع قومها ، فقد كانت تدل قومها على ضيفان لوط ؛ ليأتوا إليهم ليفعلوا معهم الفاحشة ، لذلك أصابها من العذاب مثلما أصاب قومها .

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾﴾

أى : قَبُح هذا المطر ، وإنْ أبهم المطر هنا فقد وضَّحه الحق - تبارك وتعالى - فى آيات أخرى فقال : من طين ، ومن سجِّيل ، وهو الطين إذا حُرِق ، فصار فخَّاراً ؛ وهذه الحجارة منظمة مُسوَّمة[1] صنعها الله لهم بحساب دقيق ، فلكُلٍّ واحد منهم حَجَره المسمَّى باسمه ، والذى لا يُخطِئه إلى غيره .

﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ۗ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾﴾

نعرف أن الله تعالى يُحمد على النعمة ؛ لكن هناك ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ .. ﴿٥٩﴾﴾ [النمل] جاءت بعد نقمة وعذاب وأخْذ للمكذِّبين . قالوا[2] : الخطاب هنا مُوجَّه لرسول الله ﷺ ، وفيه إشارة إلى أن جُنْد الله هم الغالبون ، وأن العاقبة لهم ليطمئن رسول الله ، كما أن تطهير الكون من المفسدين فيه ، وحين تستريح منهم البلاد والعباد ، هذه نعمة تستوجب ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ .. ﴿٥٩﴾﴾ [النمل]

وفى إهلاك الكافرين والمكذِّبين عبرة ودرسٌ لغيرهم ، حتى لا يتورطوا فى أسباب الهلاك ، وهذه نعمة أخرى تستحق الحمد .

لذلك أمرنا ربنا - تبارك وتعالى - أن نحمده إنْ رأينا خيراً نزل

---

(١) سوَّم الشىء : علَّمه بعلامة . والسُّومة : العلامة والسيمة والسِّيماء بكسر السين : العلامة . [القاموس القويم ١/٣٣٧] .

(٢) قاله ابن عباس ، وسفيان الثورى فيما نقله عنهما السيوطى فى الدر المنثور (٦/٣٧٠) وقال النحاس : هذا أَوْلَى ، لأن القرآن مُنزَّل على النبى ﷺ ، وكل ما فيه فهو مخاطب به عليه السلام إلا ما لا يصح معناه إلا لغيره . [نقله القرطبى فى تفسيره ٧/٥١٠٣] .

بالأخيار ، أو شراً حَلَّ بالأشرار . فالمعنى ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ .. (٥٩)﴾ [النمل] أن الرسل انتصروا وغلبوا ، وأن المفسدين انهزموا واندحروا .

ألاَ ترى قَوْلَ أهل الجنة : ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ (٧٣) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ[1] مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ .. (٧٤)﴾ [الزمر]

كذلك حين نرى الشرير الذى شاع شرُّه وكثُرَ فساده حين ينزل به ما يستحق من عقاب الله نقول جميعاً ساعةَ نسمع خبره : الحمد لله ، هكذا بعملية لا شعورية عند الجميع أنْ تلهج ألسنتُهم بالحمد عند نزول النعمة على أصحابها ، والنقمة على مَنْ يستحقها .

ويقول تعالى عن أهل الشر والفساد : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ (٤٢) فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٤٣) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ (٤٤) فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٥)﴾ [الأنعام]

فبعد أنْ قطع الله دابر الظالمين قال : الحمد لله رب العالمين ، ونلحظ هنا الفرق بين فتح لك ، وفتح عليك ؛ فتح لك يعنى : فتح فى صالحك ، ومنه : ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا (١)﴾ [الفتح]

أما فتح عليهم يعنى : بالسوء نكايةً فيهم ، فمعنى ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ .. (٤٤)﴾ [الأنعام]

أعطاهم الخير ليهلكهم به ، وهم فى حال نعمة ومكانة ، حتى إذا أخذهم الله كان أَخْذه أليماً شديداً .

---

(١) بوأه : أسكنه ، وبوأه فى الأرض : مكَّن له فيها . وتبوأت المنزل : اتخذته سكناً . [القاموس القويم ١/٨٨] .

وفى قصة نوح عليه السلام : ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢٨)﴾ [المؤمنون]

فحَمْد الله هنا على أمرين : الحمد لله لأنه أغرق الكافرين الظالمين وخلَّصنا منهم ، والحمد لله لأنه نجَّى المؤمنين .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى .. (٥٩)﴾ [النمل] وهم المؤمنون الذين نصرهم الله ، وجعل العاقبة لهم ، والسلام عليهم بعدما لاقوه من عَنَت الكفار وعنادهم ، فالحمد لله الذى أهلك المفسدين ، وأتى بالسلام على المهتدين .

ثم يطرح الحق سبحانه قضية ، ويأتى بها فى صورة سؤال واستفهام ؛ لتكون أبلغ فى النفس من مجرد الإخبار بها : ﴿آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ (٥٩)﴾ [النمل]

ولو أن الآية قالت : قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى لأن الله خير وما يشركون به شرٌّ لكان الكلامُ خبراً ، والخبر فى ذاته وبصرف النظر عن قائله يحتمل الصدق أو الكذب .

أمَّا حين تُعرض هذه القضية فى صورة الاستفهام ، فقد جعلتَ مخاطبك هو الذى ينطق بها ، كما لو أنكر أحد الأصدقاء جميلَك وأياديك عليه ، فبدل أن تخبر أنت : فعلتُ لك كذا وكذا تدَعْه هو الذى يُخبر فتقول : ألم أفعل لك كذا وكذا ؟ ولا يقول هذا إلا واثقٌ ومعتقدٌ أن الإجابة ستكون فى صالحه .

فالمعنى : ﴿آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ (٥٩)﴾ [النمل] قولوا لنا أنتم ونحن نرتضى حكمكم بعدما رأيتُم وسمعتم من هذه القصة : آالله خير أم الذين أشركوا به خير ؟ ولابد أن تأتى الإجابة : الله خير ؛ لذلك

لما نزلت هذه الآية انفعل لها رسول الله ﷺ وأسرع بالجواب : « بل الله خير وأبقى وأجلُّ وأكرم »[(١)] .

مما يدل على أن الانفعال بالقرآن واجب ونقصد الانفعال بمعانيه ، لا الانفعال بالصوت والنغمات كالذى نسمعه من هؤلاء (الذكِّيرة) الذين يُشجِّعون المقرئين بالصياح والضجيج الذى لا يتناسب وجلال الآيات ، وهم مع ذلك لا يفهمون المعانى ولا يتأثرون بها ، لدرجة أن منهم مَنْ يسمع آيات العذاب فيقول بأعلى صوته : اللهم زِدْنا .

وقد كان الكتبة من الصحابة ينفعلون بالآيات معنىً ، حتى إن أحدهم ليكمل الآية ويختمها بما يناسبها قبل أن تُملَى عليه ، لماذا ؟ لأنهم فهموا عن الله وتأثروا بالمعنى ، مما يدل على أن القرآن جاء موافقاً للفطرة السليمة ، ومن هذا التوافق قول أحد الصحابة[(٢)] ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ﴾[المؤمنون] فنزل بها القرآن كما قالها .

والنبى ﷺ يقول عن سورة الرحمن « لقد قرأتُ سورة الرحمن على إخوانكم الجن ، فكانوا أحسن استجابة منكم ، فكانوا كلما قلت ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٣) ﴾ [الرحمن]

قالوا : لا بشىء من نعمائك ربنا نكذب فلكَ الحمد[(٣)] .

إذن : حين نسمع كلام الله علينا أن ننفعل به ، وأنْ نتجاوبَ معه

---

(١) أورده القرطبى فى تفسيره (٧/٥١٠٥) أن النبى ﷺ كان إذا قرأ هذه الآية يقول : « بل الله خير وأبقى ، وأجل وأكرم » ، وذكره السيوطى فى الدر المنثور (٦/٣٧٠) وعزاه لعبد بن حميد عن قتادة « أنه كان إذا قرأ » ولم يذكر رفعه للنبى ﷺ .

(٢) هو : عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، قال : وافقت ربى ووافقنى فى أربع ، نزلت هذه الآية ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ (١٢) ﴾ [المؤمنون] ، قلت أنا : فتبارك الله أحسن الخالقين ، فنزلت ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ﴾ [المؤمنون] ذكره ابن كثير فى تفسيره (٣/٢٤١) وعزاه لابن أبى حاتم .

(٣) أورده السيوطى فى « الدر المنثور » (٧/٦٩٠) وعزاه للترمذى وابن المنذر وأبى الشيخ فى العظمة والحاكم وابن مردويه والبيهقى فى الدلائل عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه .

تجاوباً واعياً ، فعند آية التسبيح نُسبِّح ، وعند آية الحمد نحمد الله ، وعند آية الدعاء نقول : آمين ، هذه مواجيد انفعالية لسماع القرآن والتجاوب معه ، لا أنْ نسمعه أو نهذه كهذ[1] الشِّعْر .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾

﴿ أَمَّنْ .. ﴿٦٠﴾ ﴾ [النمل] هذا استفهام آخر ، وكأن الحق - تبارك وتعالى - بعد أن كتب الهزيمة على الكافرين والنصر للمؤمنين أراد أنْ يُربِّب فى النفس الإيمان بالله ، وأن تأخذ من نصر الله تعالى للمؤمنين خميرة إيمانية ، ومواجيد جديدة تظل شحنة قوية تدفعهم بحيث يكونون هم أنفسهم على استعداد للتصدى لأعداء الدعوة والمناهضين لها .

يقول سبحانه :

﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَـٰهٌ مَّعَ اللَّهِ .. ﴿٦٠﴾ ﴾ [النمل]

إذن : المسألة لا تقف عند معركة انتصر فيها المؤمنون على الكافرين ، فهناك فى خلق الله ما هو أعظم من ذلك ، فلو سألتَهم : مَنْ خلق السموات والأرض يقولون : الله ولئن سألتهم : مَنْ خلقهم يقولون : الله ، فهذه مسائل لا يستطيعون إنكارها ، فكأن الحق -

---

(١) الهذ (بالذال) : سرعة القراءة . وفى حديث ابن عباس قال له رجل : قرأت المفصّل الليلة، فقال : أهذاً كهذ الشعر ؟ أراد أتهذ القرآن هذاً فتسرع فيه كما تسرع فى قراءة الشعر . [لسان العرب - مادة : هذذ] .

تبارك وتعالى - يقول لهم : آلله الذى خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء .. أم ما تشركون ؟

وما دام أن الله تعالى ادَّعى مسألة الخَلْق لنفسه سبحانه ، ولم يَقُمْ لهذه الدعوى منازع ، فقد ثبتتْ له سبحانه إلى أنْ يدَّعيها غيره ﴿ أَإِلَـٰهٌ مَّعَ اللَّهِ.. (٦٠) ﴾ [النمل] فإنْ كان هناك إله آخر خلق الخَلْق فأين هو : إما أنه لم يَدْرِ بهذه الدعوى ، أو دَرَى بها وجَبُن عن المواجهة ، وفى كلتا الحالتين لا يصلح إلهاً ، وإلا فليأتِ هو الآخر بخَلْق ومعجزات أعظم مما رأينا .

فإذا قال الله تعالى أنا الله ، ولا إله غيرى ، والخَلْق كله بسمائه وأرضه صنعتى ، ولم يوجد معارض ، فقد ثبتت له القضية ؛ لذلك يقول سبحانه : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ..(١٨) ﴾ [آل عمران]

فقضية الوحدانية شهد الله أولاً بها لنفسه ، ثم شهد بها الملائكة وأولو العلم من الخَلْق .

ويقول سبحانه فى تأكيد هذا المعنى : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لاَّبْتَغَوْا إِلَى ذِى الْعَرْشِ سَبِيلاً (٤٢) ﴾ [الإسراء]

أى : لاجتمع هؤلاء الآلهة ، وثاروا على الإله الذى أخذ منهم مُلْكهم ، وادعاه لنفسه ، أو لذهبوا إليه ليتقرَّبوا منه ويتودّدوا إليه .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً (٦٠) ﴾[النمل] السماء : كلُّ ما علاك فأظلَّك ، والماء معروف أنه ينزل من السحاب وهو مما علانا ، أو أن الإنزال يعنى إرادة الكون ، وإرادة الكون فى كل كائن تكون من السماء ، ألاَ ترى قوله تعالى :﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ (٢٥) ﴾ [الحديد]

وقوله تعالى:﴿ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ..(٢٥) ﴾ [الحديد]
ومعلوم أن الحديد يأتى من الأرض ، لكن إرادة كونه تأتى من السماء .

ثم يقول سبحانه : ﴿ فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ .. (٦٠) ﴾[النمل] للماء فوائد كثيرة فى حياتنا ، بل هو قوام الحياة ؛ لذلك اقتصرتْ الآية على ذكْر الحدائق ؛ لأنها قوام حياة الإنسان فى الأكل والشرب .

فإنْ قُلْتَ : نحن نعتبر الآن الحدائق الجميلة من باب الكماليات ، وليس بها مُقوِّمات حياتنا . نقول : نعم هى كذلك الآن ، لكن فى الماضى كانوا يسمون كل أرض زراعية محوطة بسور : حديقة ، أو حائط .

وقال ﴿ ذَاتَ بَهْجَةٍ .. (٦٠) ﴾ [النمل] مع أنك لو نظرتَ إلى القمح مثلاً وهو عَصَب القوت لوجدته أقل جمالاً من الورد والياسمين والفُل مثلاً ، وكأن ربك - عز وجل - يقول لك : لقد تكفلتُ لك بالكماليات وبالجماليات ، فمن باب أوْلَى أوفر لك الضروريات .

والحق - تبارك وتعالى - يريد أن يرتقى بذوْق عباده وبمشاعرهم ، واقرأ مثلاً قوله تعالى :﴿ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ[1] .. (٩٩) ﴾ [الأنعام] يعنى : قبل أن تأكل من هذه الثمار تأمل فى جمالها ومنظرها البديع ، وكأنها دعوة للرقى بالذوق العام والتأمل فى بديع صُنْع الله .

ألاَ ترى أن الله تعالى أباح لك النظر إلى كل الثمار لتشاهد جمالها ، ولم يُبِح لك الأكل إلاّ مما تملك ؟ لذلك قال : ﴿ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ .. (٩٩) ﴾ [الأنعام] فإنْ لم تكونوا تملكونه ، فكفاكم التمتُّع بالنظر إليه .

ومن هذا الارتقاء الجمالى قوله تعالى بعد أنْ حدَّثنا عن الضروريات فى الأنعام :﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ (٦) ﴾ [النحل]

---

(١) أينع الثمر يينع : أدرك ونضج وحان قطافه . [القاموس القويم ٢/٣٧٣] .

وقال :﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ..(٨) ﴾ [النحل]

فأعطانا ربنا – عز وجل – ضروريات الحياة ، وأعطانا كمالياتها وجمالياتها . وتأمل دقة الأسلوب فى ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ..(٦٠) ﴾ [النمل] فالضمير فى ﴿ خَلَقَ ﴾ ضمير الغائب (هو) يعود على الله عز وجل ، وكذلك فى (وَأَنزَلَ) أما فى (فَأَنْبَتْنَا) فقد عدل عن ضمير الغائب إلى ضمير المتكلم (نحن) الدال على التعظيم ، فلماذا ؟

قالوا : لأن نعمَ الله فيها أشياء لا دخْل للإنسان فيها كالخَلْق وإنزال المطر ، ومثل هذه المسائل لا شبهةَ لاشتراك الإنسان فيها ، وهناك أشياء للإنسان دَخْلٌ فيها كالزرع والإنبات ، فهو الذى يحرث ويزرع ويسقى .. الخ مما يُوحِى بأن الإنسان هو الذى يُنبت النبات ، فأراد سبحانه أنْ يُزيل هذا التوهم ، فنسب الإنبات صراحة إليه – عز وجل – ليزيل هذه الشبهة .

وربك – سبحانه وتعالى – يحترم فعْلَك ، ويذكر لك سَعْيك ، فيقول : ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (٦٤) ﴾ [الواقعة] نعم لك عمل وسعى فى هذه المسألة ، لكنك استخدمتَ الأرض المخلوقة لله ، وآلة الحديد المخلوقة لله ، والبذور المخلوقة لله ، والماء المخلوق لله ، أما مسألة الإنبات نفسها فلا دَخْلَ لك بها ، فلا تَقُلْ زرعت ؛ لأننا نحن الزارعون حقيقة ، لكن قُلْ : حرثتُ وسقيتُ .

لذلك تجد الرد فى آخر الآية نافياً لأىِّ شبهة فى أن لك دَخْلاً فى مسألة الزرع :﴿ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا .. (٦٥) ﴾ [الواقعة] وأكّد الفعل بلام التوكيد لينفى هذه الشبهة .

على خلاف الكلام عن الماء ، حيث لا شبهة لك فيه ، فيأتى نفس الفعل ، لكن بدون لام التوكيد :﴿ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِى تَشْرَبُونَ (٦٨) أَأَنتُمْ

أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا[1] فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [الواقعة]

ومعنى : ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [النمل] العدل معلوم أنه صفة مدح فساعةَ تسمع ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [النمل] قد تظن أنها صفة طيبة فيهم ، لكن لابُدَّ فى مثل هذا اللفظ من تدقيق ؛ لأنه يحمل معانى كثيرة . نقول : عدلَ فى كذا يعنى : أنصف ، وعدل إلى كذا يعنى : مال إليه ، وعدل عن كذا : يعنى : تركه وانصرف عنه ، وعدل بكذا ، يعنى : سوَّى .

فالمعنى هنا ﴿ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [النمل] عنه ، ويا ليتهم يعدلون عنه فحسب ، إنما يعدلون عنه إلى غيره ، ويسوّون به غيره ، كما قال سبحانه فى موضع آخر : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ ﴾ [الأنعام]

أى : يسوُّونه سبحانه بغيره .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ ﴾

لما تكلم الحق سبحانه فى الآية السابقة عن السموات والأرض أتى بأشياء مشتركة بينهما ، فالسماء ينزل منها الماء ، والأرض تستقبل الماء ، وتنبت لنا الحدائق ذات البهجة .

---

(١) الأجاج : الملح الشديد الملوحة . أج الماء يؤج : اشتدت ملوحته . [القاموس القويم١/٧] .

أما فى هذه الآية ، فالكلام عن الأرض ، لذلك ذكر لنا مسائل من خصوصيات الأرض ، ﴿أَمَّن جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا .. (٦١)﴾ [النمل] معنى : قراراً أى استقراراً ، حيث خلقها سبحانه على هيئة مريحة تصلح لأنْ يستقرَّ عليها الإنسان .

﴿وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَارًا (٦١)﴾ [النمل]. الماء ينزل من السماء وينتفع به مَنْ سقط عليه مباشرة ، أما ما ينزل على الجبال فيتجمع فى الوديان وتُصنع له السدود لينتفع الناس به عند القحط ، ومن ماء المطر ما ينساب فى مَجَارٍ تُسمَّى الأنهار .

وتستطيع أنْ تُفرِّق بين النهر والقناة الصناعية ، فالنهر ينساب الماء فيه من أعالى الجبال ، ومن أماكن متفرقة تتتبع المنخفضات والسهل من الأرض الذى يستطيع الماء أنْ يشقَّ مجراه فيه فتراه ملتوياً متعرجاً ، يدور حول الجبال أو الصخور ليشقَّ مجراه .

أما القناة الصناعية ، فتراها على هيئة الاستقامة ، إلا إذا اعترض طريق حفرها مثلاً أحد أصحاب النفوذ ، فيحملهم على تغيير المسار والانحراف به ليتفادى المرور بأرضه .

وتستطيع أنْ تلاحظ هذه الظاهرة إذا تبولْتَ فى أرض رملية ونظرتَ إلى مجرى البول ، فتراه يسير متعرجاً حسب طبيعة الأرض التى يمرُّ بها .

﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ (٦١)﴾ [النمل] الرواسى : هى الجبال الثابتة الراسية ، وفى موضع آخر بيَّن سبحانه الحكمة من هذه الجبال فقال : ﴿وَأَلْقَىٰ فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ (١٥)﴾ [النحل]

فالحكمة من خَلْق الجبال تثبيت الأرض حتى لا تضطرب ،

ولو أنها خُلِقَتْ على هيئة الثبات والاستقرار لما احتاجتْ إلى الجبال ، إذن : هى مخلوقة على هيئة الحركة ، ولا بُدَّ لها من مُثقِّلات .

ولا تقتصر الحكمة من خَلْق الجبال على تثبيت الأرض ، إنما لها مهمة أخرى فى قوله تعالى : ﴿وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا (٣٢) مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ (٣٣)﴾ [النازعات]

فكيف تكون الجبال متاعاً للإنسان وللحيوان ؟

نعم ، هى متاع ؛ لأنها مخزن مياه ، حينما ينقطع المطر نجد المياه التى تساقطت على الجبال ، إما فى الأنهار ، وإما فى الشلالات ، وخلف السدود بين الوديان ، أو فى العيون والآبار مما امتصته الأرض .

وكما أن الجبال هى مخازن للمياه ، هى أيضاً مخازن للخصوبة التى تمدُّ الأرض الزراعية عاماً بعد عام بقدر ، بحيث تستمر خصوبة الأرض ، وسبق أنْ تكلمنا عن ظاهرة التعرية التى تُفتِّت الطبقة العليا من الصخور ، فتنزل إلى الوديان مع ماء المطر ، وتختلط بالتربة الزراعية فتزيد من خصوبتها .

ولولا صلابة الجبال وتماسك صخورها لتفتتتْ فى عدة سنوات ، ولفقدنا مصدر الخصوبة بعد ذلك ، فهذه الظاهرة من علامات رحمة الله بخَلْقه ؛ لأنها تتناسب مع الزيادة السكانية بحيث كلما زاد السكان زادتْ الرقعة الخصبة الصالحة للزراعة .

وسبق أنْ قُلْنا : إنك حين تتأمل وضع الجبال مع الوديان تجد أن الجبل مُثلث قاعدته إلى أسفل ، وقمته إلى أعلى ، أما الوديان فعلى عكس الجبال ، فهى مثلث قاعدته إلى أعلى وقمته إلى أسفل ، وهكذا

نرى أن كل زيادة من طَمْى الجبل والغرْين[1] الذى يتفتت منه يزيد فى مساحة الوادى ، فتزداد الرقعة الخصبة كل عام مع زيادة السكان .

لذلك يقول تعالى عن الجبال : ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا .. (١٠)﴾ [فصلت]

فجعل الجبال الرواسى هى مخازن القوت من طعام وشراب ، ولك أن تتأمل نيل مصر وواديه ، كيف تكوَّن من الطمى الذى حملتْه المياه من أعالى الجبال فى إفريقيا ، ليُكَوِّن هذه المنطقة الخصْبة فى مصر .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا (٦١)﴾ [النمل]

البحرين : أى العَذْب والمالح لأن الماء : منه العَذْب ، ومنه المالح ، ومن قدرته تعالى وحكمته أنْ يحجز بينهما ، وإنْ كان الماء المالح هو مصدر الماء العَذْب ، لذلك جعل الله تعالى مساحة السطح للماء المالح ثلاثة أرباع الكرة الأرضية ، وكلما اتسع سطح الماء اتسع البَخْر الذى يكوِّن السحاب ، بحيث يسقط المطر الكافى لمعيشة أهل الأرض .

وما أجملَ قول الشاعر المادح :

أهدى لمجلسه الكريم وإنَّما ... أهدى لَهُ مَا حُزْتَ مَن نَعْمائه
كَالبَحْرِ يُمطِرهُ السَّحابُ ومَا لَهُ ... فَضْلٌ عليْه لأنَّه مِنْ مَائه

ولكى تعلم فضل الله علينا فى إنزال المطر وتوفير الماء العَذْب ،

---

(١) الغرين : الطين الذى يحمله السيل فيبقى على وجه الأرض رطباً أو يابساً . وقال الأصمعى : الغرين أن يجىء السيل فيثبت على الأرض ، فإذا جَفَّ رأيت الطين رقيقاً على وجه الأرض قد تشقق . [لسان العرب ـ مادة : غرن] .

انظر إلى التكلفة والمشقة التى تعانيها لتقطير عدة سنتيمترات من الماء ، فى حين أنك لا تدرى بعملية التقطير الواسعة التى تسقى البلاد والعباد فى كل أنحاء الدنيا .

وقد مثَّلْنا لمسألة اتساع رقعة البَحْر بكوب الماء إذا أرقْتَه على الأرض ، فإنه يجفُّ فى عدة دقائق ، أمّا لو تركت الماء فى الكوب لعدة أيام ، فإنه لا ينقص منه إلا القليل .

ومن الماء العَذْب ما سلكه الله تعالى ينابيع فى الأرض ليخرجه الإنسان إذا أعوزه الماء على السطح ، أو سلكه ينابيع فى الأرض بمعنى أن يسير العَذْب بجوار المالح ، لا يختلط أحدهما بالآخر مع ما عُرِف عن الماء من خاصية الاستطراق .

وهذه من عجائب قدرة الله الخالق ، فمنْ قَعْر البحر المالح تخرج عيون الماء العَذْب ؛ لأن لكل منهما طريقاً ومسلكاً وشعيرات يسير فيها بحيث لا يبغى أحدهما على الآخر ، كما قال تعالى :

﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَّ يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾﴾ [الرحمن]

وكما أن الماء العَذْب يتسرب إلى باطن الأرض ليكوِّن الآبار والعيون ، فكذلك الماء المالح يتسرب فى باطن الأرض ليكوِّن من تفاعلاته الأحجار الكريمة ، كالمرمر ، والمعادن كالحديد والمنجنيز والجرانيت .. الخ

وبعد أن ذكر لنا هذه الآيات الخاصة بالأرض جاء بهذا الاستفهام ﴿أَإِلَـٰهٌ مَّعَ اللَّهِ .. ﴿٦٠﴾﴾ [النمل] يعنى خلق هذه الأشياء ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ .. ﴿٦١﴾﴾ [النمل] والذين لا يعلمون أعلمناهم ، وقطعنا حُجَّتهم بعدم العلم .

ولو نظرنا إلى الأرض لوجدنا فيها آيات أخرى غير أنها مُستقرٌّ وسكَنٌ ، فالأرض كثيفة ، وفيها غبرة ليست صافية البياض ؛ ذلك لأن الله تعالى يريد لها أنْ تستقبل حرارة الشمس وضوءها ليستفيد منها النبات ، ولو أن الأرض كانت شفافة تعكس الضوء والحرارة لما استفاد منها النبات ؛ لذلك نجد بعض المشروعات تنمو فى الصيف ، وأخرى فى الشتاء .

ولما أجرَوْا بعض التجارب على النبات ، فوضعوه فى مكان مظلم ، ثم جعلوا ثُقْباً فى ناحية بحيث يدخل الضوء وجدوا أن النَّبْتة بما أودع الخالق فيها من غريزة تتجه ناحية الضوء لتأخذ حظها من النور والدفء ، فسبحان الذى خلق فسوّى ، والذى قدَّر فهدى .

ومن آيات الله فى خَلْق الأرض أنْ جعلها على هيئة الحركة والدوران ، لتأخذ كل مناطقها حظها من الحرارة ومن البرودة ، ويتنوع فيها المناخ بين صيف وشتاء ، وخريف وربيع ، إنها أدوار تتطلبها مُقوِّمات الحياة .

لذلك تجد علماء النبات يُقسِّمون المناطق الزراعية على الأرض يقولون : هذا حزام القمح مثلاً ، وهذا حزام الموز ، وهذا حزام البطاطس ، فتجد كل حزام منها يصلح لنوع خاص من المزروعات يناسب سكان هذه المنطقة وبيئتها وجوّها .

لذلك نجد أن كل نوع من المزروعات فى مكانه المناسب لا تصيبه الآفات ، أمّا حين يُنقل إلى مكان غير مكانه ، وبيئة غير بيئته لا بُدَّ أنْ يُصاب .

وفى الأرض خاصية أخرى تتعلق بالإنسان تعلقاً مباشراً ، فمن خصائص الأرض وهى من الطين الذى خُلِق منه الإنسان ، فهى فى

الحقيقة أمه الأولى - فإذا مات لا يسعه إلا أحضان أمه حين يتخلى عنه أقرب الناس إليه ، وألصق الناس به ، عندها تستقبله الأم وتحتويه وتستر عليه كُلَّ ما يسوؤه .

ومن خصائص الأرض أنها تمتص فضلات الإنسان والحيوان ومخلَّفاته وتُحوِّلها بقدرة الله إلى مُخصِّب تزدهر به المزروعات ، ويزيد به المحصول ، وفى الريف يحملون رَوَثَ الحيوانات ذا الرائحة الكريهة إلى الحقول ، فإذا به ينبت فيه الوردة الجميلة الذكية التى يتشوَّق الإنسان لرائحتها .

إنها عجائب فى الخَلْق ، لا يقدر عليها إلا الله عز وجل ، أتذكرون المثل الذى يقول : (فلان يعمل من الفسيخ شربات) هكذا قدرة الله التى تخلق الأضداد .

ألاَ تروْن أن أفضل الفاكهة نأكلها الآن من الجبل الأصفر بمصر وهى تُرْوى بماء المجارى .

وبعد أنْ حدَّثنا الحق - تبارك وتعالى - عن هذه المظاهر العامة التى يحتاجها كل الخلق فى السماء والأرض والجبال والمطر .. الخ يُحدِّثنا سبحانه عن مسائل خاصة يحتاجها إنسان دون آخر ، وفى وقت دون آخر ، فيقول سبحانه :

﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ (١)

(يجيب) الإجابة هى تحقيق المطلوب لداعيه ، والمضطر : هو

---

(١) قال ابن عباس : هو ذو الضرورة المجهود . وقال السدى : الذى لا حول له ولا قوة . وقال ذو النون : هو الذى قطع العلائق عما دون الله . [ذكرها القرطبى فى تفسيره (٧ / ٥١٠٧)] .

الذى استنفد الأسباب ، وأخذ بها فلم تُجْدِ معه ، فليس أمامه إلا أنْ يترك الأسباب إلى المسبِّب سبحانه فيلجأ إليه ؛ ذلك لأن الخالق - عز وجل - قبل أنْ يخلق الإنسان خلق له مُقوِّمات حياته وضرورياتها وسخَّرها لخدمته .

لذلك جاء فى الحديث القدسى : « يا ابن آدم خلقت الأشياء كلها من أجلك ، وخلقتك من أجلى فلا تنشغل بما هو لك عما أنت له »

ثم خلق الله لك الطاقة التى تستطيع أن تُسخِّر بها هذه الأشياء وضمن لك القوت الضرورى من ماء ونبات ، فإنْ أردتَ أنْ تُرفِّه حياتك فتحرك فى الحياة بالأسباب المخلوقة لله ، وبالطاقة الفاعلة فيك ، وفكِّر كيف ترتقى وتُثْرِى حركة الحياة من حولك .

فالماء الذى ينساب فى داخل البيت حين تفتح الصنبور ، والضوء الذى ينبعث بمجرد أن تضغط على زر الكهرباء ، والسيارة التى تنقلك فى بضع دقائق .. كلها ارتقاءات فى حركة حياة الناس لما أعملوا عقولهم فيما أعطاهم الله من مادة وعقل وفكر وأسباب ، وهذه كلها يد الله الممدودة لعباده ، والتى لا ينبغى لنا ردّها .

فإذا ما حاولتَ ولم تفلح ، ولم تثمر معك الأسباب ، فعليك أنْ تلجأ مباشرة إلى المسبِّب سبحانه ، لأنه خالقك والمتكفِّل بك .

واقرأ قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا .. (١٢) ﴾ [يونس] ويا ليته ساعةَ دعا ربه ولجأ إليه فاستجاب له يجعل له عند ربه رَجْعة ، ويتوقع أنْ يصيبه الضُّر مرة أخرى ؛ لكن إنْ كشف الله عنه سرعان ما يعود كما كان .

﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢) ﴾ [يونس]

﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ ﴿٦٢﴾﴾ [النمل] فالمضطر إذن لابدَّ أنْ يُجيبه الله ، فمَنْ قال : دعوتُ فلم يُستجب لى . فاعلم أنه غير مضطر ، فليست كل ضائقة تمرُّ بالعبد تُعَدُّ من قبيل الاضطرار ، كالذى يدعو الله أن يسكن فى مسكن أفضل مما هو فيه ، أو براتب ودَخْل أوفر مما يأخذه .. الخ ، كلها مسائل لا اضطرارَ فيها ، وربما علم الله أنها الأفضل لك ، ولو زادك عن هذا القدر طغيتَ وتكبرتَ .

كما قال الحق سبحانه وتعالى :﴿كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ﴿٦﴾ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ﴿٧﴾﴾ [العلق]

فلقد طلبتَ الخير من وجهة نظرك ، وربُّك يعلم أنه لا خيرَ فيه ﴿وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً ﴿١١﴾﴾ [الإسراء]

فربُّك يُصحِّح لك هذا الخطأ فى فهمك للمسائل فيقول لك : سأحقق لك الخير ، لكن بطريقة أخرى أنسب من هذه ، فلو أجبتُك إلى ما تريد لحدث مَا لا تُحمد عقباه ، وكأن الله - عز وجل - وهو ربُّنا والمتولِّى أمرنا يجعل على دعائنا (كنترول) ولو كان الله سبحانه موظفاً يلبى لكل منّا طلبه ما استحق أن يكون إلهاً - حاشا لله .

فالإنسان من طبيعته العجلة والتسرع ، فلا بُدَّ للرب أن يتدخل فى أقدار عبده بما يصلحه ، وأنْ يختار له ما يناسبه ؛ لأنه سبحانه الأعلم بعواقب الأشياء وبوقتها المناسب ، ولكل شىء عنده تعالى موعد وميلاد .

واقرأ قول الله تعالى : ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ..﴿١١﴾﴾ [يونس]

ألاَ ترى بعض الأمهات تحب الواحدة ولدها وتشفق عليه ، فإنْ عصاها فى شىء أو ضايقها تقول رافعةً يديها إلى السماء (إلهى أشرب

نارك) أو (إلهى أعمى ولا أشوفك) فكيف لو أجاب الله هذه الحمقاء ؟

إذن : من رحمته تعالى بنا أنْ يختار لنا ما يُصلِحنا من الدعاء ، ويُعافينا من الحمق والعجلة .

وقوله تعالى : ﴿وَيَكْشِفُ السُّوءَ (٦٢)﴾ [النمل] فكما أنه لا يجيب المضطر إلا الله لا يكشف السوء إلا الله ، ولو كان هناك إله آخر يجيب المضطر ويكشف السوء لتوجَّه الناسُ إليه بالدعاء ، لكن حينما يُصاب المرء لا يقول إلا يا رب ، ولا يجد غير الله يلجأ إليه لأنه لن يغشَّ نفسه فى حال الضائقة أو المصيبة التى ألمت به .

وقد مثَّلنا لذلك ـ ولله المثل الأعلى ـ بحلاق الصحة فى الماضى ، وكان يقوم بعمل الطبيب الآن ، فلما أنشئت كلية الطب وتخرَّجَ فيها أحد أبناء القرية اتجهتْ الأنظار إليه ، فكان الحلاق يذمُّ فى الطب والأطباء ، وأنهم لا خبرةَ لديهم لتبقى له مكانته بين أهل القرية ، لكن لما مرض ابن الحلاق ماذا فعل ؟ إنْ غشَّ الناس فلن يغشَّ نفسه : أخذ الولد فى ظلام الليل ولفّه فى البطانية ، وذهب به إلى (الدكتور) الجديد .

لذلك يقول كل مضطر وكل مَنْ أصابه سوء : يا رب يا رب حتى غير المؤمن لا بُدَّ أن يقولها ، ولا بُدَّ أنْ يتجه بعينه وقلبه إلى السماء إلى الإله الحق ، فالوقت جدّ لا مساومة فيه .

ويقول تعالى بعدها : ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ .. (٦٢)﴾ [النمل] أى : يخلفُ بعضكم بعضاً فيها ، كما قال : ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ .. (٥٥)﴾ [النور]

فهل يملك هذه المسائل إلا الله : ﴿أَإِلَـٰهٌ مَّعَ اللَّهِ (٦٢)﴾ [النمل] والاستفهام هنا ينكر وجودَ إله غير الله يفعل هذا ﴿قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ (٦٢)﴾ [النمل] يعنى : لو تفكرتُم وتذكرتُم لعرفتم أنه لا إله إلا الله .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾

هذه أيضاً من الأمور الخاصة التى تخصُّ بعض الناس دون بعض ، وكانت قبل تقدُّم العلم ، حيث كانت النجوم هى العلامات التى يهتدى بها الملاحون فى البحر والمسافرون فى البر ﴿وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾﴾ [النحل]

وقد برع فى علوم الفلك والنجوم وفى علوم البحار علماء من العرب وضَعُوا أُسساً لهذه العلوم ، لا عن علم عندهم ، إنما عن مشاهدة لظواهر الكون ، وتوفيق وهداية من الله عز وجل .

وحين نتأمل ارتقاءات الإنسان فى الحياة نجد أنها نتيجة مشاهدة حدثتْ صدفة ، أو حتى بطريق الخطأ ، وإلا فكيف اهتدى الإنسان إلى تخمير العجين ليخرج الخبز على هذه الصورة وبهذا الطعم ؟ لذلك يُسمُّون العجين : فطير وهو المبلط الذى لم يتخمر ، وخمير وهو الذى تخمَّر وارتفع قليلاً وتخلّله الهواء .

وقد نقلوا هذا المعنى للرأى ، يقولون : فلان رأيه فطير يعنى : سطحى متعجل ، وفكرة مختمرة يعنى : مدروسة بتأنٍّ ، ومنه الفِطْرة يعنى الشىء حين يكون على طبيعته .

وربما اكتشفتْ إحدى النساء مسألة الخمير هذه نتيجة خطأ أو مصادفة حين عجنتْ العجين ، وتأخرت فى خَبْزه حتى خمر ، فلما

خبزته جاء على هذه الصورة المحببة إلينا ، كذلك الأمر فى اكتشاف البنسلين مثلاً ، والغواصات والبخار والعجلة .. الخ

وتأمل مثلاً : لماذا نطبخ الملوخية ولا نطبخ النعناع ، إنها - إذن - هداية الله الذى خلق فسوَّى ، والذى قدَّر فهدى .

الحديد تعلمنا طَرْقه بعد إدخاله النار ليلين ؛ لأن الله تعالى علمها لنبيه داود عليه السلام حين قال ﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ﴿١٠﴾﴾ [سبأ]

إذن : كثير من اكتشافات الكون وارتقاءاته تأتى بهداية الله ، وكلما مرَّ الزمن تكشفتْ لنا أسرار الكون ، كلّ فى ميعاده وميلاده الذى أراده الله ، إما أنْ يستنبطه الناس بمقدمات إذا جاء ميلاده ، وإلا فيأتى ولو مصادفة .

واقرأ إن شئت قوله تعالى :﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ .. ﴿٢٥٥﴾﴾ [البقرة] فحين يشاء الله يكشف لك الأشياء ، ويُيسر لك أسبابها ، فإذا لم تنتبه لها أراكها مصادفة ، ومن وسائل إعلام الله لخَلْقه مثلاً أهل البوادى ، ترى الواحد منهم متكئاً ينظر إلى السماء ويقول لك : السماء ستمطر بعد كم من الساعات ، وليس فى السماء سحاب ولا غَيْمٌ يدل على المطر ، لكنه عرفها بالاستقراء والتجربة .

ومن هذه الهداية الإلهية أن ترى البهائم العجماوات وهى تأكل بالغريزة ، تأكل الحشيش الجاف ، ولا تأكل مثلاً النعناع الأخضر ، أو الريحان مع أن رائحته جميلة ، لماذا ؟

لأنه جُعِل للرائحة الطيبة ، لكن طعمه غير طيب ، وإذا أكل الحيوان وشبع لا يمكن أن يأكل بعدها أبداً على خلاف الإنسان الذى يأكل حتى التخمة ، ثم الحلو والبارد والساخن ، ويقولون (أَرِهَا

الألوان تريك الأركان) . أى : أرِ معدتك ألوان الطعام وأصنافه ، تريك الأركان الخالية فيها .

لذلك تجد رائحة رَوَث الحيوان أقلّ كراهية من رائحة فضلات الإنسان ؛ لأنها تأكل بالغريزة التى خلقها الله فيها ، ونحن نأكل بالشهوة ، وبلا نظام نلتزم به .

وقوله تعالى : ﴿وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا ..(٦٣)﴾ [النمل] أى :مُبشِّرات بالمطر ﴿بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ .. (٦٣)﴾ والمطر مظهر من مظاهر رحمة الله ﴿أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ.. (٦٣)﴾ [النمل] أى : لا إله إلا الله يهديكم فى ظلمات البر والبحر ، ولا إله إلا الله يرسل الرياح تبشركم بالمطر ﴿تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٣)﴾ [النمل] تنزَّه أن يكون له فى كَوْنه شريك .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (٦٤)﴾

مسألة الخَلْق هذه لا يستطيعون إنكارها ، وقد سألهم الله :﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ .. (٨٧)﴾ [الزخرف]

وفى موضع آخر : ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ .. (٢٥)﴾ [لقمان]

لأنهم لا يملكون إنكارها ، وإنْ أنكروها فالردّ جاهز : على مَنْ خلق أولاً أن يُرينا شيئاً جديداً من خَلْقه .

ومعنى ﴿يَبْدَأُ الْخَلْقَ(٦٤)﴾[النمل] يعنى : الخلْق الأول من العدم ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ (٦٤)﴾[النمل] لأن الذى خلقنا من عدم كتب علينا الموت ، وأخبرنا

بالغيب أننا سنُبعث يوم القيامة ، وسيعاد هذا الخَلْق مرة أخرى ، فالذين لم يملكوا إنكار الخلق أنكروا البعث ، فقالوا كما حكى القرآن : ﴿ قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ۝١ بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَـٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ۝٢ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ۝٣ ﴾ [ق]

فاستبعدوا البعث بعد الموت ، وتحلّل الأجساد فى التراب . وهذه القضية خَاضَ فيها الفلاسفة بكلام طويل ، وللردِّ عليهم نقول : أنتم فى القوانين الوضعية تجعلون الثواب لمن أحسن ، والعقوبة لمن قصَّر ، وتُجرِّمون بعض الأعمال بعينها ، وتضعون لها العقوبة المناسبة ، وفى القانون : لا عقوبةَ إلا بتجريم ، ولا تجريمَ إلا بنصٍّ ، ولا نصَّ إلا بإعلام .

ولم نَرَ فى القانون الوضعى جريمة تُركت بلا عقوبة ، فإذا كان البشر يضعون لمجتمعاتهم هذه القوانين التى تنظم حياتهم ، أليس رب البشر أوْلَى بقانون الثواب والعقاب ؟ وإذا كنتَ لا ترضى لنفسك أنْ يفلتَ المجرم من العقاب ، فكيف ترضى ذلك لله ؟

ثم ألا تعلم أن كثيراً من المجرمين يرتكبون جرائمهم فى غفلة من القانون ، أو يُعمُّون على العدالة ويهربون من العقاب ، ويُفلتون من القوانين الوضعية فى الدنيا ، ولو تركنا هؤلاء بلا عقاب أيضاً فى الآخرة فهم إذن الفائزون ، وسوف نشجع بذلك كل منحرف خارج عن القانون .

أما إنْ علم أن له رباً قيوماً عليه ، وإنْ عمَّى على قضاء الأرض فلن يُعمِّى على قضاء السماء ، وإنْ أفلتَ من عقاب الدنيا فلن يُفلِتَ أبداً من عقاب الآخرة – إنْ علم ذلك استقام .

لكن ، ما وجه استبعادهم للبعث ﴿ ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ۝٣ ﴾ [ق]

يقولون : هَبْ أن إنساناً مات ودُفن وتحلّل جسده إلى عناصر امتصتها الأرض ، ثم غُرِسَت شجرة فى هذا المكان وتغذتْ على هذه العناصر ، وأكل من ثمارها عدة أشخاص ، وانتقلت جزئيات الميت إلى الثمار ثم إلى من أكل منها ، فحين يُبعث الخَلْق يوم القيامة فلأيِّهما تكون هذه الجزئيات : للأول أم للثانى ؟ إذا بعثتها للأول كانت نقصاً فى الثانى ، وإنْ بعثتها للثانى كانت نقصاً فى الأول .

وهذا الكلام منهم على سبيل أن الشخص مادة فقط ، لكن التشخيصات مادة و معنى . وهَبْ أن شخصاً بديناً يزن مثلاً مائة كيلو أصابه مرض أهزله حتى قَلَّ وزنه إلى خمسين كيلو مثلاً ، ثم عُولج وتحسنت صحته حتى عاد كحالته الأولى . فهل الجزئيات التى نقصت من وزنه هى نفسها التى دخلتْ فيه بالصحة والتغذية ؟ بالطبع لا ، أتغيرتْ شخصيته بهذا النقص ، أو بهذه الزيادة ؟ لا ، بل هو هو .

إذن : للشخص جزئيات مختلفة التكوين ، وله معنى وروح ، ساعةَ تتجمع هذه الأشياء يأتى الشخص المراد .

لذلك يقول تعالى رداً على هؤلاء المتفلسفين : ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ﴿٤﴾﴾ [ق]

فلماذا تستبعدون الإعادة بعد الموت وقد أقررتُم بالخَلْق الأول واعترفتم بأن الله هو الخالق ، وأليست الإعادة من موجود أهونَ من الخَلْق بدايةً من العدم ؟ ثم إن الإعادة تحتاج إلى قدرة على الإبراز وإلى علم .

أما العلم ، فالحق ـ تبارك وتعالى ـ يقول : ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ

الأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ﴿٤﴾ [ق] يعنى : يعلم وزنك ، ويعلم جزئياتك ، لا يغيب منها ذرة واحدة[1] .

أما القدرة ، فقد آمنتُم بها حين أقررتُم بقدرته تعالى على الخَلْق من عدم ، والإعادة أهون من الإنشاء الأول ﴿وَهُوَ الَّذِى يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ .. ﴿٢٧﴾﴾ [الروم]

وإنْ كان الخالق - عز وجل - لا يُقَال فى حقه هيِّن وأهْون ، لكنها بعُرْفكم أنتم ، وبما يُقرِّب المسألة إلى أذهانكم .

وفى القدرة أيضاً يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ .. ﴿١٥﴾﴾ [ق]

ثم يقول سبحانه : ﴿وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ..﴿٦٤﴾﴾[النمل]

الرزق : كلُّ ما يُنتفع به ، وهو إما من السماء وإما من الأرض ، وإما من التقائهما حين ينزل الماء من السماء ، ويختلط بتربة الأرض فيخرج النبات .

﴿أَإِلَـٰهٌ مَّعَ اللَّهِ .. ﴿٦٤﴾﴾ [النمل] يكرر نفس الاستفهام السابق لتأكيد أنه لا إله إلا الله يأتيكم بهذه النعم .

﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [النمل] أى : هاتوا الدليل على وجود إله آخر يقول : أنا الذى بدأتُ الخَلْق ، وأنا الذى أرزق من السماء والأرض ، فإذا لم يأتِ مَنْ يقول هذا فقد ثبتتْ الدعوة لصاحبها حيث لم يَقُم معارض - ودَعْك من مسألة الإعادة هذه ،

---

(١) قال ابن عباس : قوله تعالى : ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ .. ﴿٤﴾﴾ [ق] : ما تاكل الأرض من لحومهم وأشعارهم وعظامهم . وقال قتادة : يعنى الموتى تاكلهم الأرض إذا ماتوا [الدر المنثور فى التفسير بالمأثور للسيوطى ٧/ ٥٩٠] .

يكفى أن يدعى الخَلْق ؛ لأن القادر على الخَلْق قادر على الإعادة ، فلا يستحيل على الذى خلق من عدم أنْ يُعيد من موجود .

لكن ، ما مناسبة الكلام عن الرزق من السماء والأرض بعد مسألة الإعادة ؟ لا بُدَّ أن تكون هناك علاقة بينهما ، فللرزق الذى يأتى عن طريق التقاء ماء السماء بتربة الأرض وهو النبات دورة مثل دورة الإنسان وإعادة كإعادته ، حيث يتغذى الإنسان على نبات الأرض ، ويأخذ منه حاجته من الطاقة والغذاء ، وما تبقى منه يخرج على صورة فضلات تتحلل فى الأرض ، حتى ما تبقَّى منها فى جسم الإنسان يتحلل بعد موته إلى عناصر الأرض .

فالوردة مثلاً بعد نضارتها وطراوتها وجمالها حين تُقطف تجفّ ويتبخر ماؤها ، وكذلك اللون والرائحة فى الأثير الجوى ، وما تبقى منها من مادة جافة تتحلل فى التربة ، فإذا ما زرعنا وردة أخرى ، فإنها تتغذى على ما فى التربة من عناصر ، وما فى الأثير الجوى من لون ورائحة .

إذن : فعناصر التكوين فى الكون لم تَزِدْ ولم تنقص منذ خلق الله الخَلْق ، ولدورة النبات فى الطبيعة بدء ونهاية وإعادة أشبه ما تكون بخَلْق الإنسان ، ثم موته ، ثم إعادته يوم القيامة .

وكأن الحق ـ تبارك وتعالى ـ يعطينا الدليل على الإعادة بما نراه من دورة النبات ، دليلاً بما نراه على الغيب الذى لا نراه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾

كما قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ .. (٥٩)﴾ [الأنعام]

والغيب : كلّ ما غاب عن إدراكك وحسِّك ، لكن مرة يكون الغيب غيباً إضافياً يغيب عنك ، ولا يغيب عن غيرك ، فأنا لا أعرف مثلاً ما فى جيوبكم لكن أنتم تعرفون ، والذى سُرِق منه شىء وأخفاه السارق ، فالمسروق منه لا يعلم أين هو ، لكن السارق يعلم .

وإما يكون الغيب غيْباً مطلقاً ، وهو ما غاب عنّا جميعاً وهو قسمان : قسم يغيب عنا جميعاً ، لكن قد نكتشفه ككل الاكتشافات التى اهتدى إليها البشر . وهذه يكون لها مقدمات تُوصِّل إليها ، وهذا غيب نصف إضافى ؛ لأنه غيب اليوم ، لكن نراه مشهداً بعد ذلك ، فلا يكون غيباً .

ومثال ذلك : تمرين الهندسة الذى نعطيه للأولاد بمقدِّمات ومعطيات ، يُعملون فيها عقولهم حتى يتوصلوا إلى الحل المطلوب ، وهذا النوع يقول الله عنه : ﴿وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ..(٢٥٥)﴾ [البقرة]

فإذا شاء الله وجاء ميلاد هذا الغيب أطلعهم الله تعالى على المقدمات التى توصِّل إليه ، إما بالبحث ، وإما حتى مصادفة ، وهذا يؤكده قوله تعالى : ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ .. (٥٣)﴾ [فصلت]

ومن الغيب المطلق غَيْب حقيقى ، لا يطلع عليه ولا يعلمه إلا الله فقد استقل سبحانه وتفرَّد بمعرفته . وهذا الغيب يقول تعالى عنه : ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ .. (٢٧)﴾ [الجن]

ومن هذا الغيب المطلق قضية القيامة ﴿قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ.. (٦٥)﴾ [النمل] فالقيامة لا يعلم وقتها إلا الله سبحانه ، إلا أنه جعل لها مُقدِّمات وعلامات تدلّ عليها وتُنبىء بقُرْبها .

قال عنها : ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا .. (١٥)﴾ [طه] البعض[1] يظن أن ﴿أُخْفِيهَا .. (١٥)﴾ [طه] يعنى : أداريها وأسترها ، لكن المعنى ليس كذلك ﴿أُخْفِيهَا .. (١٥)﴾ [طه] يعنى : أزيل خفاءها[2] ، ففرْق بين خَفَى الشىء وأخفاه : خَفَى الشىء عنى : ستره وداراه ، أما أخفاه فيعنى : أظهره ، وهذه تُسمَّى همزة الإزالة ، مثل : أعجم الشىء يعنى : أزال عُجْمته . ومنه المعجم الذى يُوضِّح معانى المفردات .

وكما تكون الإزالة بالهمزة تكون بالتضعيف . نقول : مرض فلان يعنى : أصابه المرض ، ومرَّض فلاناً يعنى : عالجه وأزال مرضه ، ومنه : قشَّر البرتقالة : يعنى أزال قشرها .

فالمعنى ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا .. (١٥)﴾ [طه] أى : أكاد أُظهِرها ، ألاَ ترى أن للساعة علامات كبرى وعلامات صغرى ، نرى بعضها الآن ، وتتكشف لنا مع الأيام علامة بعد أخرى .

لكن يظل للقيامة وقتها الذى لا يعلمه إلا الله ؛ لذلك يقول عنها : ﴿لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ .. (١٨٧)﴾ [الأعراف]

والنبى ﷺ يفتخر بأنه لا يعلم موعدها ، فيقول حين سُئِل عنها :

---

(١) قاله ابن عباس فيما رواه عنه ابن أبى حاتم وأورده السيوطى فى الدر المنثور (٥/٥٦٣) قال : لا أظهر عليها أحداً غيرى .

(٢) أخرج ابن أبى حاتم وابن الأنبارى عن ورقاء قال : أقرأنيها سعيد بن جبير (أكَادُ أخْفِيها) [بفتح الألف] . يقول : أظهرها . [الدر المنثور للسيوطى ٥/٥٦٣] .

« ما المسئول عنها بأعلم من السائل »[١] .

فشَرَفٌ لرسول الله ألاَّ يعلم شيئاً استأثر الله بعلمه ، والقيامة غَيْبٌ مطلق لم يُعْطِ الله مفاتحه لأحد حتى الرسل .

وقد يُكرِم الله تعالى بعض خَلْقه ، ويُطلعه على شىء من الغيب ، ومن ذلك الغيبيات التى أخبر بها النبى ﷺ دون أن يكون لها مُقدِّمات توصِّل إليها ، فلا بُدَّ أنها أتته فى وحى القرآن ، كما فى قوله تعالى : ﴿الٓمٓ (١) غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي بِضْعِ سِنِينَ .. (٤)﴾ [الروم]

وكان الروم أقرب إلى الله ؛ لأنهم أهل كتاب ، وكان الفرس كفاراً يعبدون النار ، لذلك كان رسول الله ﷺ وصحابته يتمنوْن انتصار الروم على الفرس ، فنزل الوحى على رسول الله يخبره ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ (٢)﴾ [الروم] لكنهم فى النهاية ﴿سَيَغْلِبُونَ (٣)﴾ [الروم] ولولا أن الله تعالى حدد غلبهم ﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ .. (٤)﴾ [الروم] لكان انتصارهم دائماً ، لكن مَنْ يستطيع تحديد مصير معركة بين قوتين عُظْميين بعد بضع سنين إلا الله ؟

ولأن انتصار الروم يُفرح المؤمنين بالله ، قال سبحانه : ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ اللَّهِ .. (٥)﴾ [الروم]

وتشاء قدرة الله أنْ يأتىَ انتصار الروم على الفرس فى نفس

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه مسلم فى صحيحه (٨) ، وكذا البخارى فى صحيحه (٥٠) من حديث عمر بن الخطاب أن جبريل عليه السلام جاء رسول الله ﷺ فى صورة رجل يسأله ، ومما سأله قال : « أخبرنى عن الساعة . . قال : ما المسئول عنها بأعلم من السائل . قال : فأخبرنى عن أماراتها قال : أن تلد الأمة ربتها ، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء ، يتطاولون فى البنيان . ثم قال رسول الله ﷺ لعمر : يا عمر ، أتدرى من السائل ؟ قلت : الله ورسوله أعلم . قال : فإنه جبريل ، أتاكم يعلمكم دينكم » .

اليوم الذى انتصر فيه المؤمنون على الكافرين فى بدر[١] .

ومن الغيب الذى يفيض الله به على عبد من عباده ما حدث من الصِّديق أبى بكر - رضى الله عنه - وقد أعطى ابنته عائشة - رضى الله عنها - مالاً ، فلما حضرتْه الوفاة قال لها : هاتى ما عندك من المال ، إنما هما أخواك وأختاك : أخواك هما محمد وعبد الرحمن ، وأختاك : لا نعلم أن لعائشة أختاً غير أسماء ، فمن هى الأخرى[٢] ؟

كان الصِّديق قد تزوج من ابنة خالته[٣] وكانت حاملاً ، لكن الحق - تبارك وتعالى - تجلى عليه وألهمه أنها ستُنجب بنتاً تنضم إلى عائشة وأسماء[٤] .

وقوله تعالى : ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [النمل] أى : كما

---

(١) عن أبى سعيد الخدرى قال : لما كان يوم بدر ظهرت الروم على فارس ، فأعجب المؤمنون بظهور الروم على فارس . أخرجه الواحدى فى أسباب النزول ص ١٩٧ .

(٢) هى : أم كلثوم بنت أبى بكر الصديق التيمية ، تابعية ، أمها حبيبة بنت خارجة وضعتها بعد موت أبى بكر . روى عنها جابر بن عبد الله الأنصارى . [الإصابة ٨/٢٧٦] .

(٣) هى : حبيبة بنت خارجة بن زيد الخزرجية ، زوج أبى بكر الصديق ووالدة أم كلثوم ابنته التى مات أبو بكر وهى حامل بها فقال : ذو بطن بنت خارجة ما أظنها إلا أنثى فكان كذلك . تزوجت إساف بن عتبة بن عمرو بعد وفاة أبى بكر . انظر الإصابة فى تمييز الصحابة (٨/٤٨) .

(٤) تزوج أبو بكر الصديق عدة نساء :

- أم رومان بنت عامر بن عويمر الكنانية ، وأنجب منها : عائشة ، عبد الرحمن . اسمها زينب بنت عبيد : كانت زوجة للحارث بن سخبرة أو لعبد الله بن الحارث وولدت له الطفيل ثم مات عنها وتزوجها حليفه أبو بكر الصديق . ماتت فى حياة النبى ﷺ [الإصابة ٨/٢٣٢] .
- حبيبة بنت خارجة ، وأنجب منها : أم كلثوم ، وتزوجت بعده .
- قتيلة بنت عبد العزى قرشية من بنى عامر بن لؤى ، وهى والدة أسماء ، وعبد الله . قال ابن حجر العسقلانى فى الإصابة (٨/١٦٩) : « إن كانت عاشت إلى الفتح فالظاهر أنها أسلمت » .

أننا لا نشعر بالموت ولا نعرف ميعاده ، كذلك لا نشعر بالبعث ، ولا متى سنُبعث .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ (٦٦) ﴾

معنى ﴿ ادَّارَكَ .. (٦٦) ﴾ [النمل] أى : تدارك ، يعنى : توالى وتتابع الحديث عنها عند كل الرسل ، ومنه قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا .. (٣٨) ﴾ [الأعراف] يعنى : جُمِع بعضهم على بعض .

إذن : تتابع الإعلام بالآخرة عند كل رسل الله ، فما منهم إلا وقد دعا إلى الإيمان بالله وباليوم الآخر ، وأتى بالدليل عليه .

ومع متابعة التذكير بالآخرة قال الله عنهم ﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا .. (٦٦) ﴾ [النمل] أى : من الآخرة ، فلماذا ؟ يقول تعالى : ﴿ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ (٦٦) ﴾ [النمل] أى : عميتْ أبصارهم وبصائرهم عنها ، فلم يهتدوا ، ولو تفتحتْ عيونهم وقلوبهم لآمنوا بها .

يقول تعالى : ﴿ فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَـٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (٤٦) ﴾ [الحج]

إذن : هناك شىء موجود بالفعل ، لكنى أغفلته ، أو تغافلت عنه بإرادتى ، فآيات البعث والقيامة موجودة ومُتداركة ، لكن الناس عَمُوا عنها فلم يَرَوْها .

ومعنى ﴿ عَمُونَ (٦٦) ﴾ [النمل] جمع عَمٍ ، وهو الذى عميتْ بصيرته عن دلائل القيامة الواضحة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾

يريدون أنْ يستدلوا بعدم بعث الآباء على عدم بَعْثهم ، لكن مَنْ قال لهم : إن الآخرة ستأتى مع الدنيا ، وما سُمِّيت الآخرة إلا لأنها تأتى آخراً بعد انقضاء الدنيا .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾

أى : من لدن آدم ـ عليه السلام ـ والناس يموتون والأنبياء تذكر بهذا اليوم الآخر ، لكنه لم يحدث ﴿إِنْ هَـٰذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [النمل] أى : كذب وافتراء ونسج خيال كما فى أساطير السابقين ، لكن ما الدافع لهم لأنْ يتهموا الرسل فى بلاغهم عن الله هذا الاتهام ؟

قالوا : لأن نفس المرء عزيزة عليه ، وكل مُسْرف على نفسه فى المعاصى يريد أنْ يُؤمِّن نفسه ، وأنْ يريحها ، وليس له راحة إلا أنْ يقول هذا الكلام كذب ، أو يتمنى أن يكون كذباً ، ولو اعترف بالقيامة وبالبعث والحساب فمصيبته عظيمة ، فليس فى جُعْبته إلا كفر بالله وعصيان لأوامره ، فكيف إذن يعترف بالبعث ؟ فطبيعى أن يؤنس نفسه بتكذيب ما أخبر به الرسول .

لذلك نجد من هؤلاء مَنْ يقول فى القدر : إذا كان الله قد كتب علىَّ المعصية ، فلماذا يُعذِّبنى بها ؟ والمنطق يقتضى أن يكملوا

الصورة فيقولون : وإذا كتب علىَّ الطاعة ، فلماذا يثيبنى عليها ؟ فلماذا ذكرتُم الشر وأغفلتم الخير ؟

إذن : هؤلاء يريدون المنفذ الذى ينجون منه ويهربون به من عاقبة أعمالهم .

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (٦٩) ﴾

يدعوهم الله تعالى إلى السير فى مناكب الأرض للنظر وللتأمل لا فيمن بُعث ، لأن البعث لم يأتِ بَعْد ، ولكن للنظر فى عاقبة المجرمين الذين كذَّبوا رسلهم فيما أتَوا به ، وكيف أن الله هزمهم ودحرهم وكتب النصر للرسل .

والبعث مما جاء به الرسل ، فمَنْ كذَّب الرسل كذَّب بالبعث مع أنه واقع لا شكَّ فيه ، لكن الحق ـ تبارك وتعالى ـ يُخفيه لوقته ، كما قال سبحانه : ﴿ لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ .. (١٨٧) ﴾ [الأعراف]

ثم يُسلِّى الله تعالى رسوله ﷺ ليُخفِّف عنه ألم ما يلاقى فى سبيل الدعوة ، فيقول تعالى :

﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ (٧٠) ﴾

وقد خاطب الحق سبحانه رسوله بقوله : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَـٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا (٦) ﴾ [الكهف]

والمعنى : مُهلِك نفسَك من الحزن ، والبخع كما قلنا : المبالغة فى

الذبح بحيث توصله إلى البخاع[1] . والحق - تبارك وتعالى - يوضح أن مهمة الرسول البلاغ عن الله فقط ، ولا عليه آمن مَنْ آمن ، أو كفر مَنْ كفر ، إنما حب النبى ﷺ لأمته وحرْصه على نجاتها جعلاه يحزن ويألم إنْ شرد منه واحد من أمته ، ألم يقُلْ عنه ربه : ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٢٨)﴾ [التوبة]

ثم يقول الحق سبحانه عنهم :

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٧١)﴾

يقول المكذبون بالبعث ﴿مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ .. (٧١)﴾ [النمل] أى : بالبعث ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٧١)﴾ [النمل] فى أن هناك بَعْثاً .

وسمَّوْا إخبار الله لهم بالبعث وَعْداً ، مع أنه فى حقهم وعيد ، وفَرْق بين وَعَد وأوعد : وَعَد للخير وأوعد للشر ، لكن الله تعالى يطمس على ألسنتهم ، وهم أهل الفصاحة فيقولون ﴿مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ .. (٧١)﴾ [النمل] وهو بالنسبة لهم وعيد ، لأن إيعاد المخالف لك بشرٍّ وَعْد لك بخير .

وكأن الحق - تبارك وتعالى - يقول : لقد وعدنا بأمرين : وعدنا رسلنا بالتأييد والنصرة ، ووعدنا العالم كله بالبعث ، فإذا كنا صادقين فى الأولى وهى مُشَاهدة لكم ومُحسَّة فخذوها مقدمة ودليلاً على صدْقنا فى الأخرى ، وقد عاينتُم أن جميع الرسل انتصروا على

---

(١) قال الزمخشرى : هو من بخع الذبيحة إذا بالغ في ذبحها وهو أن يقطع عظم رقبتها ويبلغ بالذبح البخاع ، بالباء ، وهو العرق الذى فى الصُّلْب ، والنخع ، بالنون ، دون ذلك ، وهو أن يبلغ بالذبيحة النخاع ، وهو الخيط الأبيض الذى يجرى فى الرقبة . قال ابن الأثير : هكذا ذكره الزمخشرى فى الكشاف وفى كتاب الفائق فى غريب الحديث ولم أجده لغيره . [لسان العرب - مادة : بخع] .

مُكذِّبيهم ، إما بعذاب الاستئصال ، وإما بعذاب الهزيمة والانكسار .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾

كلمة ﴿ عَسَىٰ .. ﴿٧٢﴾ ﴾ [النمل] تفيد الرجاء ، لكنها من الله تفيد التحقيق ، فلو قُلْت مثلاً : عسى أن يعطيك فلان ، لكَان الرجاء ضعيفاً ، وأقوى منه لو قُلْت : عسى أن أعطيك لأنى لا أملك فلاناً ، لكن أملك نفسى ، وأقوى من ذلك أن أقول : عسى أن يُعطيك الله لأن أسبابى أنا قد لا تمكِّنى من الوفاء ، أما إنْ قال الله تعالى عسى ، فهى قمة التأكيد والتحقيق فى الرجاء ، وهى أعلى مراتبه وأبلغها .

ومعنى ﴿ رَدِفَ لَكُم .. ﴿٧٢﴾ ﴾ [النمل] أى : تبعكم وجاء بعدكم من أردفه إذا أركبه خلفه على الدابة ، فهو خلفه مباشرة ، وفعلاً أصابهم ما يستعجلون ، فلم يمرّ طويلاً حتى حاقت بهم الهزيمة في بدر[1] ، فصدَقْنا فى الأولى حين قلنا : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [القمر] وقد عاينتُم ذلك ، فخذوه دليلاً على الغَيْب الذى أخبرناكم به .

ثم يقول رب العزة سبحانه :

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾

فمن فضله تعالى عليكم أنْ يُؤخِّر القيامة لعل الناس يرعوون ،

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٧/٥١١٤) : « ﴿ بَعْضُ الَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [النمل] ، من العذاب ، فكان ذلك يوم بدر . وقيل : عذاب القبر » .

وإلا لفاجأتهم من أول تكذيب ، وهذا يبين أن الله تعالى يُمهل الخَلْق ليزداد فيهم أهل الهدى والإيمان ، ألاَ ترى أن المؤمنين برسول الله لم يأتُوا جميعاً مرة واحدة فى وقت واحد ، إنما على فترات زمنية واسعة .

لذلك قلنا : إن المسلمين الأوائل كانوا فى معاركهم مع الكفر يألمون إنْ فاتهم قَتْل واحد من رؤوس الكفر وقادته مثل عكرمة وعمرو وخالد وغيرهم ، ولو أطلعهم الله على الغيب لَعلموا أن الله تعالى نجَّاهم من أيديهم ليدخرهم فيما بَعْد لنُصْرة الإسلامَ ، وليكونوا قادة من قادته ، وسيوفاً من سيوفه المشْهَرة فى وجوه الكافرين .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ (٧٣) ﴾ [النمل] دليل على أن البعض منهم يشكر .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٤) ﴾

ولك أنْ تقول فى هذه الآية : إذا كان الله تعالى يعلم ما تُكنُّ صدورهم وما تخفيه ، فمن باب أوْلَى يعلم ما يُعلنون ، فلماذا قال بعدها : ﴿ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٤) ﴾ [النمل] ؟

نقول : لأن ما فى الصدور غَيْب والله غَيْب ، وقد يقول قائل : ما دام أن الله غيْب فلا يعلم إلا الغيب . فنردّ عليه بأن الله تعالى يعلم الغيب ويعلم العلن .

﴿ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ (١) فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٧٥) ﴾

---

(١) قال الحسن : الغائبة هنا القيامة . وقيل : ما غاب عنهم من عذاب السماء والأرض ، حكاه النقاش . وقال ابن شجرة : الغائبة هنا جميع ما أخفى الله تعالى عن خلقه وغيبه عنهم . وهذا عام . [ذكره القرطبى فى تفسيره (٧/٥١١٥)] .

معنى ﴿غَائِبَةٍ .. (٧٥)﴾ [النمل] يعنى : الشىء الغائب ، ولحقتْ به التاء الدالة على المبالغة ، كما نقول فى المبالغة : راوٍ وراوية ، ونسَّاب ونسَّابة ، وعالم وعلامة ، كذلك غائب وغائبة ، مبالغة فى خفائها .

و (مِنْ) هنا يرى البعض أنها زائدة ، لكن كلمة زائدة لا تليق بأسلوب القرآن الكريم وفصاحته ، ونُنزِّه كلام الله عن الحشو واللغو الذى لا معنى له ، والبعض تأدب مع القرآن فقال (من) هنا صلة ، لكن صلة لأى شىء ؟

إذن : لابد أن لها معنى لكى نوضحه نقول : إذا أردتَ أنْ تنفى وجود مال معك تقول : ما عندى مال ، وهذا يعنى أنه لا مالَ معك يُعتَدّ به ، ولا يمنع أن يكون معك مثلاً عدة قروش لا يقال لها مال ، فإن أردتَ نفى المال على سبيل تأصيل العموم فى النفس تقول : ما عندى من مال ، يعنى بداية ممَّا يُقال له مال مهما صَغُر ، فمنْ هنا إذن ليست زائدةً ولا صلةً ، إنما هى للغاية وتأصيل العموم فى النفى .

فالمعنى ﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٧٥)﴾ [النمل] أن الله تعالى يحيط علمه أزلاً بكل شىء ، مهما كان صغيراً لا يُعتدُّ به ، واقرأ قوله تعالى :

﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٥٩)﴾ [الأنعام]

كما أن قدرته تعالى لا تقف عند حد العلم إنما ويسجله ﴿إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٧٥)﴾ [النمل] أى فى أُمِّ الكتاب الذى سجَّل الله فيه كل أحداث الكون ، فإذا ما جاءتْ الأحداث نراها مُوافقة لما سجّله الله عنها

أَزَلاً ، فمثلاً لما ذكر الحق ـ تبارك وتعالى ـ وسائل النقل والمواصلات في زمن نزول القرآن قال : ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ (٨)﴾ [النحل]

فلولا تذييل الآية بقوله تعالى : ﴿وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ (٨)﴾ [النحل] لكان فيها مأخذ على القرآن ، وإلاَّ فأين السيارة والطائرة والصاروخ في وسائل المواصلات ؟

إذن : نستطيع الآن أنْ نُدخِل كل الوسائل الحديثة تحت ﴿وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ (٨)﴾ [النحل]

وسبق أن قلنا : إن من عظمة الحق ـ سبحانه وتعالى ـ ألاَّ يُعلم بشيء لا اختيار للعبد فيه ، إنما بما له فيه اختيار ويفضحه باختياره ، كما حدث في مسألة تحويل القبلة : ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا .. (١٤٢)﴾ [البقرة]

فيعلنها الله تعالى صراحة ، ويُسمِّيهم سفهاء ؛ لأنهم يعادون الله ويعادون رسول الله ، وبعد هذه الخصومة وهذا التجريح قالوا فعلاً ما حكاه القرآن عنهم .

ولم نَرَ منهم عاقلاً يتأمل هذه الآية ، ويقول : ما دام أن القرآن حكى عنا هذا فلن نقوله ، وفي هذه الحالة يجوز لهم أنْ يتهموا القرآن وينالوا من صدْقه ومن مكانة رسول الله ، لكن لم يحدث وقالوا فعلاً بعد نزول الآية : ﴿مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا .. (١٤٢)﴾ [البقرة] يعني : تركوا التوجه إلى بيت المقدس وتوجهوا إلى مكة ، قالوه مع ما لهم من عقل واختيار .

وهذه المسألة حدثتْ أيضاً في شأن أبي لهب لما قال الله عنه :

﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣﴾ [المسد]

لأنه قالها لرسول الله ﷺ لما جمعهم ليبلغهم دعوة الله ، فقال له : تباً لك ألهذا جمعتنا[1] . وأبو لهب عم رسول الله ، كحمزة والعباس ولم يكن رسول الله يدرى مستقبل عمه ، فلعله يؤمن كما آمن حمزة وصار أسد رسول الله ، وكما آمن العباس بن عبد المطلب .

فلما نزلت ﴿تَبَّتْ يَدَا .. ۝١﴾ [المسد] كان بإمكانه أنْ يُكذِّبها وأن يؤمن فينطق بالشهادتين ولو نفاقاً ، فله على ذلك قدرة ، وله فيه اختيار ، لكنه لم يفعل .

إذن : من عظمة كلام الله ومن وجوه الإعجاز فيه أنْ يحكم حكماً على مختار كافر به ، وهو قرآن يُتْلَى علانيةً على رؤوس الأشهاد ، ومع ذلك لا يستطيع التصدِّى له ، ويبقى القرآن حُجَّة الله على كل كافر ومعاند .

ولما نتأمل قوله تعالى : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر] نرى أن الحق سبحانه أنزل القرآن وتولَّى حفظه بنفسه - سبحانه وتعالى - ولم يُوكله إلى أحد ، مع أن فى القرآن أشياء وأحداثاً لم توجد بعد ، فكأن الله تعالى يحفظها على نفسه ويُسجِّلها

---

(١) عن ابن عباس قال : لما نزلت ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ۝٢١٤﴾ [الشعراء] خرج رسول الله ﷺ حتى صعد الصفا (جبل بمكة) فاجتمعوا إليه ، قال : أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً تخرج بسفح هذا الجبل أكنتم مُصدقى ؟ قالوا : ما جربنا عليك كذباً . قال : فإنى نذير لكم بين يدَىْ عذاب شديد . قال أبو لهب : تباً لك أما جمعتنا إلا لهذا ؟ فنزلت هذه السورة ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١﴾ [المسد] .» أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٢/١٨١) وأحمد فى مسنده (١/٣٠٧) ومسلم فى صحيحه - كتاب الإيمان (حديث ٣٥٥) ، والبخارى فى صحيحه أيضاً (٨/٧٣٦ - فتح البارى) .

ويعلنها ، لماذا ؟ لأنها ستحدث لا محالة .

فالحق سبحانه لا يخشى واقع الأشياء ألاَّ تطاوعه ؛ لأنه مالكها ، ألاَ ترى أن الإنسان يحفظ (الكمبيالة) التى له ، ولا يهتم بالتى عليه ؟ أما ربُّنا عز وجل فيحفظ لنا الأشياء وهى عليه سبحانه وتعالى .

واقرأ إن شئت : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) ﴾ [القمر] فالله يُسجِّلها على نفسه ويحفظها ؛ لأنه القادر على الإنفاذ ، وفعلاً هُزِم الجمع وولَّوْا الأدبار وصدق الله .

﴿ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٧٦) ﴾

فَرْق بين أن تخاطب خالىَ الذهن ، وأنْ تخاطب مَنْ لديه فكرة مُسْبقة ، فخالى الذهن يقبل منك ، أما صاحب الفكرة المسْبقة فيعارضك ، كذلك جاء من الكفار ومن أهل الكتاب من يعارض كتاب الله وينكر ما جاء به ، ومع أنهم أعداء الإسلام وكارهون له لكنْ إنْ سألتَهم عما أخبر به القرآن يقولون : نعم نعرف هذا من كتبنا ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٨٩) ﴾ [البقرة]

لذلك سيدنا عبد الله بن سلام[1] عندما نظر إلى رسول الله علم أنه الرسول الحق ، فمالتْ نفسه إلى الإسلام وقال : والله إنِّى لأعرف

---

(١) هو أبو يوسف عبد الله بن سلام بن الحارث من ذرية يوسف النبى عليه السلام ، كان من بنى قينقاع ، كان اسمه الحصين فسماه النبى ﷺ عبد الله ، أسلم أول ما قدم النبى ﷺ المدينة ، وقيل : تأخر إسلامه إلى سنة ثمان . كان أعلم بنى إسرائيل ومن سادتهم . توفى بالمدينة عام ٤٣ للهجرة . [الإصابة فى تمييز الصحابة ٤/٨١] .

محمداً كمعرفتي بابني ، ومعرفتي بمحمد أشد ، وصدق الله حين قال عنهم : ﴿ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ .. (١٤٦) ﴾ [البقرة]

علم عبد الله أن الإسلام هو الطريق الذى يُوصِّله إلى الله والذى ينبغى لكل عاقل أنْ يتبعه ، فلما أراد أنْ يُسلم أحب أنْ يكسب الجولة بإعلان إسلامه وفضيحة المنافقين والكفار وأهل الكتاب ، فقال : يا رسول الله لقد استشرفَتْ نفسى للإسلام ، وأخاف إنْ أسلمتُ أن يذمَّنى اليهود ويفعلوا بى كذا وكذا ، فاسألهم عنِّى قبل أنْ أُسلِم ، فسألهم رسول الله فقالوا : هو حَبْرنا وابن حَبْرنا ..

وكالوا له الثناء والمديح ، عندها قال عبد الله : أما وقد قلتم ما قلتم ، فأشهد ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فقالوا : بل هو شرُّنا وابن شرِّنا . وكالوا له عبارات السب والشتم[1] .

ثم يصف الحق سبحانه القرآن فيقول :

﴿ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٧٧) ﴾

معنى ﴿ لَهُدًى .. (٧٧) ﴾ [النمل] أى : هداية دلالة وإرشاد ، وهذه للمؤمن وللكافر ﴿ وَرَحْمَةٌ (٧٧) ﴾ [النمل] للمؤمنين فقط . كما قال سبحانه : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ .. (٨٢) ﴾ [الإسراء] وفَرْق بين الشفاء والرحمة ؛ لأن العطف هنا يقتضى المغايرة . الشفاء : من الداء الذى جاء القرآن ليعالجه ، والرحمة ألاَّ يعاودك هذا الداء مرة أخرى .

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٨/١٦٥ ـ فتح البارى) والبيهقى فى دلائل النبوة (٢/٥٢٧ ـ ٥٢٩) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه . وفى بعض ألفاظ الحديث أنهم قالوا أولاً : « ذاك سيدنا وابن سيدنا وأعلمنا وابن أعلمنا » وفى لفظ آخر : « خيرنا وابن خيرنا وسيدنا وابن سيدنا » .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾﴾

قوله تعالى ﴿الْعَزِيزُ .. ﴿٧٨﴾﴾ [النمل] أى : الذى يقهر ولا يُقهر ، ويغلب ولا يُغْلب ، ويجير ولا يُجَار عليه ، وهو مع ذلك فى عزته ﴿الْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾﴾ [النمل] فقد يكون عزيزاً لا يُغلب ، لكن لا علم عنده ، فالحق سبحانه عزيز عليم يضع العزة فى مكانها ، ويضع الذلة فى مكانها .

كما قال سبحانه : ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ .. ﴿٢٦﴾﴾ [آل عمران]

وقد وقف العلماء عند قوله تعالى عن نفسه : ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ .. ﴿٢٦﴾﴾ [آل عمران] فاجتهد بعضهم فقال : التقدير : بيدك الخير والشر ، وهذا التقدير يدل على عدم فهْم لمعنى الآية فما عند الله خير فى كل الأحوال ؛ لأن إيتاء الملْك لمن ينصف فى الرعية خير ، ونزع الملْك ممَّنْ يطغى به ويظلم خير أيضاً ؛ لأن الله سلب منه أداة الطغيان حتى لا يتمادى ، ففى كلٍّ خير .

وما دام من صفاته تعالى أنه عزيز عليم حكيم رحيم ذو فضل ، فاطمئن أيها المؤمن بالله ، وتوكل على الله .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴿٧٩﴾﴾

والتوكل : أن تستضعف نفسك فى شىء تحاول أن تقضيه بقوة فلا تجدها عندك ، والتوكل الحق لا يكون إلا على الله الحى الذى لا يموت ، أما إن توكلْتَ على بشر مثلك فقد يُفاجِئه الموت قبل أنْ يقضى لك حاجتك .

وقال ﴿إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴿٧٩﴾﴾ [النمل] أى : أنك تتوكل على الله وأنت على الحق وعلى الطاعة له عز وجل ، لا على معصيته ، وما دُمْتَ تتوكل على الله وأنت على حال الطاعة فلا بُدَّ أن يكون نصيرَك ومعينَك .

ثم يُسلِّى الحق سبحانه رسوله ﷺ ويُعزيه كى لا يألم على مَنْ شردوا منه فلم يؤمنوا :

﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾﴾ (١)

والمعنى : لا تحزن يا محمد ، ولا تُهلك نفسك على هؤلاء الذين لم يؤمنوا من قومك ، فما عليك إلا البلاغ . والبلاغ كلام له أداة

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٥١١٧/٧) : « قد عورضت هذه الآية بقصة بدر وبالسلام على القبور ، وبما روى فى ذلك من أن الأرواح تكون على شفير القبور فى أوقات ، وبأن الميت يسمع قرع النعال إذا انصرفوا عنه إلى غير ذلك ، فلو لم يسمع الميت لم يُسلَّم عليه » وقال أيضاً فى التذكرة له (ص ١٦٤) : « لا تعارض بينهما لأنه جائز أن يكونوا يسمعون فى وقت ما أو فى حال ما ، فإن تخصيص العموم ممكن وصحيح إذا وجد المخصص ، وقد وجد هنا » . أو أن المراد نفى الإسماع النافع لهم .

استقبال فى السامع هى الأذن ، فإذا تعطلَتْ هذه الأداة لن يسمعوا ، وهؤلاء القوم تعطلَتْ عندهم أداة السمع ، فهم كالموتى والذين أصابهم الصمم ، فآيات الله الكونية كثيرة من حولهم ، لكن لا يروْن ولا يسمعون .

وليت الأمر يقف بهم عند حَدِّ الصمم ، إنما يُولُّون مدبرين من سماع الدعوة ، وهذه مبالغة منهم فى الانصراف عن دعوة الحق ؛ لأنهم إنْ جلسوا فلن يسمعوا ، فما بالك إذا ولَّوْا مدبرين يجرُون بعيداً ، وكأن الواحد منهم يخاف أن يزول عنه الصمم وتلتقط أذنه نداء الله ، فيستميله النداء ، وعندها تكون مصيبته كبيرة ـ على حَدِّ زعمهم .

وهذا دليل على أنهم يعلمون أنه الحق ، وأنهم لو صَغَوْا إليه لاتبعوه ، ألم يقولوا : ﴿ لا تَسْمَعُوا لِهَـٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ .. (٢٦) ﴾[فصلت]

ذلك لأن للقرآن جلالاً وجمالاً يأسرُ الألباب ؛ لذلك نَهَوْا عن سماعه ، ودَعَوْا إلى التشويش عليه ، حتى لا ينفذ إلى القلوب .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا أَنتَ بِهَـٰدِي الْعُمْيِ عَن ضَلَـٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ (٨١) ﴾

فرْق بين سماع قالة الحق أو قضية الصدق ، وأنت خالى الذِّهْن ، وبين أن تسمعها وأنت مشغول بنقيضها ، فلكى يُثمر السماع ينبغى أنْ تستقبل الدعوة بذهن خَالٍ ثم تبحث بعقلك الدعوة وما يناقضها ، فما انجذبتَ إليه واطمأنتْ إليه نفسك فأدخله .

وهذه يُسمُّونها ـ حتى فى الماديات ـ نظرية الحيز أى : أن الحيز

الواحد لا يتسع لشيئين فى الوقت نفسه . وسبق أنْ مثَّلْنا لذلك بالقارورة حين تملؤها بالماء لا بُدَّ أنْ يخرج منها الهواء أولاً على شكل فقاعات ؛ لأن الماء أكثفُ من الهواء .

ومعنى : ﴿إِن تُسْمِعُ إِلاَّ مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ (٨١)﴾ [النمل] ولقائل أن يقول : ما دام تُسمِع مَنْ يؤمن بآياتنا ، فما فائدة السماع وهو مؤمن ؟ نقول : الآيات ثلاثة ، مترتبة بعضها على بعض ، فأولها : الآيات الكونية العقدية التى تشاهدها فى الكون وتستدلّ بها على وجود إله خالق قادر فتسأل : مَنْ هذا الإله الخالق فيأتى دور الرسول الذى يُبيِّن لك ويحلّ لك هذا اللغز ، ولا بُدَّ له من آيات تدل على صدْقه فى البلاغ عن الله هى المعجزة ، فإنْ غفلنا عن الآيات الكونية ذكرنا بها الرسول ، فقال : ومن آياته كذا وكذا .

فإذا آمنتَ بالآيات الكونية وبآيات المعجزات ، فعليك أنْ تؤمن بآيات الأحكام التى جاءتْ بها معجزة النبى ﷺ .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ (٨٢)﴾

كلمة ﴿وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ .. (٨٢)﴾ [النمل] أى : سقط كأنه وبطبيعته يسقط لا يحتاج لمَنْ يُجبره على السقوط . والسقوط ﴿عَلَيْهِمْ .. (٨٢)﴾ [النمل] كما فى قوله تعالى ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ .. (٢٦)﴾ [النحل]

والوقوع هنا يدل على أنهم سيتعرّضون لشدائد ومتاعب ، وبتتبع هذه المادة (وقع) فى القرآن نجد أنها جاءت كلها فى الشدائد إلا

فى موضع واحد[١] هو قوله تعالى : ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ .. (١٠٠)﴾ [النساء]

وما داموا لم يسمعوا للآيات ، ولم يقبلوها ، ولم يلتفتوا إلى منهج الله وصمُّوا عنه آذانهم ، فلم يسمعوا كلام أمثالهم من البشر فسوف نُخرج لهم دابة تكلمهم .

﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ .. (٨٢)﴾ [النمل] وانظر إلى هذه الإهانة وهذا التوبيخ : أنتم لم تسمعوا كلام أمثالكم من البشر ، ولم تفهموا مَنْ يخاطبكم بلغتكم ، فاسمعوا الآن من الأدنى ، وافهموا عنها ، وفسِّروا قولها .

لكن ماذا ستقول الدابة لهم ؟ وما نوع كلامها ؟ : ﴿أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لا يُوقِنُونَ (٨٢)﴾ [النمل] أى : بآياتنا السابقة لا يؤمنون ، وها أنا ذا أُكلِّمهم ، وعلى الماهر فيهم أن يقول لى : كيف أكلمه .

وقد اختلف الناس فى هذه الدابة[٢] ، وفى شكلها وأوصافها ، وكيف

---

(١) وردت لفظة (وقع) فى القرآن ٧ مرات :

- ٥ منها ، بمعنى وقوع العذاب والشدة ونزولها : (الأعراف : ٧١ ، ١٣٤) ، (يونس ٥١) ، (النمل : ٨٢ ، ٨٥) .
- موضعان : أحدهما ، ما ذكره فضيلة الشيخ . (النساء ١٠٠) . والثانى ، قوله تعالى : ﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٨)﴾ [الأعراف] ، أى : ثبت الحق .

(٢) قال القرطبى فى تفسيره (٥١١٩/٧) : « اختلف فى تعيين هذه الدابة وصفتها ومن أين تخرج اختلافاً كثيراً .

الأول : أنه فصيل ناقة صالح . وهو أصحها والله أعلم ، لما ذكره أبو داود الطيالسى فى مسنده عن حذيفة .

الثانى : روى أنها دابة مزغبة شعراء ، ذات قوائم طولها ستون ذراعاً .

الثالث : يقال إنها الجساسة ، وهو قول عبد الله بن عمر .

الرابع : وروى عن ابن عمر أنها على خلقة الآدميين ، وهى فى السحاب وقوائمها فى الأرض .

الخامس : وروى أنها جمعت من خلق كل حيوان .

قال القرطبى : قد رفع الإشكال فى هذه الدابة ما ذكرناه من حديث حذيفة فليعتمد عليه » أى : أنها فصيل ناقة صالح .

يأتى القول من غير مألوف القول وهو الدابة ؟ لكن ما دام أن الله تعالى أخبر بها فهى حقٌّ ، لا ينبغى معارضته ، وعلينا أن نأخذ وقوع ما حدَّث به القرآن قبل أن يكون دليلاً على صِدْقه فيما يحدِّث به فيما يكون .

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾

الفوج : هم الجماعة والزمرة من الناس . وأول مَنْ يُجمع فى هذا الموقف هم العتاة والجبابرة الذين تولَّوْا تكذيب آيات الله ، يحشرهم الله أولاً أمام العامة يتقدمونهم ويسبقونهم إلى النار ، كما قال سبحانه عن فرعون : ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ .. ﴿٩٨﴾ ﴾ [هود]

فكما تقدَّمهم فى الضلال فى الدنيا يتقدمهم إلى النار فى الآخرة ، وحين يرى الضالون إمامهم فى الضلال يقدمهم ينقطع أملهم فى النجاة ، فربما تعلَّقوا به فى هذا الموقف ينتظرونه أنْ يُخلِّصهم ، لكن كيف وهو يسبقهم إلى هذا المصير ؟

ومعنى ﴿ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [النمل] قلنا فى معنى ﴿ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [النمل] أى : يُمنعون ، والمراد يمنعون أن يسبق أولهم آخرهم[1] بحيث يدخلون جميعاً ، فالحق ـ تبارك وتعالى ـ يجمع أولهم على آخرهم (ليشرفوا) سوياً فى النار : التابع والمتبوع كلهم سواء فى الذلة والمهانة ، فربما حاول أحد العتاة أو الجبابرة أن يسبق حتى لا يراه تابعوه ، فيفتضح أمره ، فيؤخره الله ليفضحه على رؤوس الأشهاد .

---

(١) هذا قول قتادة فيما نقله القرطبى فى تفسيره (٥١٢٣/٧) وقول مجاهد فيما أورده السيوطى فى الدر المنثور (٣٨٤/٦) وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم . وهناك قول آخر : أى يساقون . قاله ابن زيد . وقال القرطبى : أى يُدفعون ويُساقون إلى موضع الحساب .

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾

فى سورة الأعراف يُورِد الحق ـ تبارك وتعالى ـ مذكرة تفصيلية لهذا الموقف ، ولهذا الحوار الذى يدور فى عَرَصات القيامة ، فيقول تعالى :

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ (٣٧) قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ (٣٨) وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ (٣٩) ﴾ [الأعراف]

﴿ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾

قوله ﴿ وَوَقَعَ .. (٨٥) ﴾ [النمل] أى : وجب لهم العذاب ﴿ بِمَا ظَلَمُوا .. (٨٥) ﴾ [النمل] وكأنه شىء محسوس يسقط على رؤوسهم ﴿ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ (٨٥) ﴾ [النمل] فقد خرستْ ألسنتهم من هَوْل ما رأوْا ، فلا يجدون كلاماً ينطقون به .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾

ينتقل السياق من الكلام عن الآخرة إلى آية كونية ، وهذه سمة من سمات أسلوب القرآن الكريم ، حيث يراوح بين الدعوة إلى الإيمان وبين بيان الآيات الكونية ، فبعد أن حدثنا عن الآخرة ذكر هذه الآية الكونية ، وكأنه يقول : لا عُذْر لمن يُكذِّب بآيات الله ؛ لأن الآيات موجودة مشاهدة .

لذلك قال : ﴿أَلَمْ يَرَوْا .. (٨٦)﴾ [النمل] أى : ألم يعلموا ويشاهدوا ﴿أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ .. (٨٦)﴾ [النمل] أى : للنوم وللراحة ﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا .. (٨٦)﴾ [النمل] أى : بما فيه من الأشعة والضوء الذى يُسبب الرؤيا .

وسبق أنْ بيَّنا دور العالم المسلم ابن الهيثم فى تصحيح نظرية رؤية الأشياء ، وكانوا يعتقدون أن الشىء يُرى إذا خرج الشعاع من العين إليه ، والصحيح أن الشعاع يخرج من الشىء المرئى إلى العين ، فكأن الشعاع هو الذى يُبصر ، فهو سبب الرؤيا ، ولولاه لا نرى الأشياء .

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٨٦)﴾ [النمل] فربك ـ عزّ وجلّ ـ نظَّم لك حركة حياتك بليل تسكن فيه ، وتخلد للراحة ونهار تسعى فيه وتبتغى من فضل الله كما قال تعالى : ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٣)﴾ [القصص]

ولن تستقيم لنا حركة الحياة إلا إذا سرْنا على هذا النظام الذى ارتضاه الله لنا ، فإنْ قلبَ الناس هذه الطبيعة فسهروا حتى الفجر ، فلا بُدَّ أنْ يلاقوا عاقبة هذه المخالفة فى حركة حياتهم : تكاسلاً وتراخياً وقلة فى الإنتاج .. إلخ .

والحق ـ تبارك وتعالى ـ يشرح لنا هذه القضية فى موضع آخر :

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا[١] إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٧٢)﴾ [القصص]

ففى الكلام عن الليل قال : ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ (٧١)﴾ [القصص] وعن النهار قال : ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٧٢)﴾ [القصص] لماذا ؟ قالوا : لأن حاسة الإدراك فى الليل هى السمع ، وفى النهار البصر . وفى هذا إشارة إلى طبيعة كل منهما حتى لا نُغيِّرها نحن ، فنسهر الليل ، وننام النهار .

وفى قوله تعالى ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ .. (٧٣)﴾ [القصص] ما يسميه العلماء باللف والنشر[٢] ، أى : لفَّ المحكوم عليه وهو الليل والنهار معاً ، ثم نشر حكم كل منهما على وجه الترتيب : لتسكنوا فيه وهى تقابل الليل ، ولتبتغوا من فضله ، وهى تقابل النهار .

إذن : بعد أنْ استدل الحق ـ تبارك وتعالى ـ بالموجود فعلاً من آيتى الليل والنهار أراد أنْ يستدل بعدمهما فى ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا .. (٧١)﴾ [القصص] و ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا .. (٧٢)﴾ [القصص]

---

(١) السرمد : الزمن الطويل أو الدائم . [القاموس القويم ١/٣١٢] .

(٢) اللف والنشر : هو أن يُذكر شيئان أو أشياء ، إما تفصيلاً بالنص على كل واحد أو إجمالاً ، بأن يؤتى بلفظ يشتمل على متعدد ، ثم يذكر أشياء على عدد ذلك ، كل واحد يرجع إلى واحد من المتقدم ، ويفوَّض إلى عقل السامع رد كل واحد إلى ما يليق به ، ومثال الإجمالى قوله تعالى : ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ .. (١١١)﴾ [البقرة] أى : وقالت اليهود : لن يدخل الجنة إلا اليهود . وقالت النصارى : لن يدخل الجنة إلا النصارى . [راجع تفصيل هذا فى البرهان فى علوم القرآن للسيوطى ٣/٢٨٠] .

ثم يعود السياق مرة أخرى إلى الحديث عن القيامة :

﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ[1] وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ (٨٧) ﴾

وكأن الله تعالى يقول لى : التفتْ إلى العبرة فى الآيات الكونية ، حيث ستنفعك فى يوم آت هو يوم القيامة ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ .. (٨٧) ﴾ [النمل] وهو البوق ﴿ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ .. (٨٧) ﴾ [النمل] والفزع : الخوف الشديد الذى يأخذ كلَّ مَنْ فى السموات ، وكل مَنْ فى الأرض ﴿ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ .. (٨٧) ﴾ [النمل] قالوا : هم الملائكة : إسرافيل الذى ينفخ فى الصور ، وجبريل ، وميكائيل ، وعزرائيل[2] .

لذلك لما تكلم سيدنا رسول الله ﷺ عن مسألة الصعق هذه قال : « فأفيق من الصعقة فأجد أخى موسى ماسكاً بالعرش »[3] ذلك لأن موسى عليه السلام صعق فى الدنيا مرة حين تجلَّى ربه للجبل ، كما حكى القرآن : ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا .. (١٤٣) ﴾ [الأعراف]

---

(١) عن أبى هريرة فى قوله ﴿ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ .. (٨٧) ﴾ [النمل] قال : هم الشهداء . أورده السيوطى فى الدر المنثور (٦/ ٣٨٤) وعزاه لسعيد بن منصور وابن جرير الطبرى . قال القرطبى فى تفسيره (٧/ ٥١٢٦) : « وهو قول سعيد ابن جبير أنهم الشهداء متقلدو السيوف حول العرش ، وحديث أبى هريرة صححه القاضى أبو بكر بن العربى فليعول عليه ، لأنه نص فى التعيين وغيره اجتهاد ، والله أعلم » .

(٢) قاله مقاتل ، وفيما أورده عنه القرطبى فى تفسيره (٧/ ٥١٢٦) .

(٣) أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٣٩٨) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٣٧٤) بنحوه من حديث أبى سعيد الخدرى عن النبى ﷺ قال : « الناس يُصعقون يوم القيامة فأكون أول من يُفيق ، فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش ، فلا أدرى أفاق قبلى أم جُوزى بصعقة الطور » .

وما كان الله تعالى ليجمع على نبيه موسى عليه السلام صعقتين ، لذلك لم يُصعَق صعقة الآخرة .

وقوله سبحانه : ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ (٨٧)﴾ [النمل] أى : صاغرين أذلاء ، لا يتأبى على الله منهم أحد ، حيث لا قدرةَ له على ذلك ؛ لأن القيامة أنهتْ الاختيار الذى كان لهم فى الدنيا ، وبه ملّكهم الله شيئاً من الملْك : ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ .. (٢٦)﴾ [آل عمران]

فأعطى الله تعالى طرفاً من الملْك ، ووهبه لبعض عباده فى دنيا الأسباب والاختيار ، أمَّا فى الآخرة فالملْك لله تعالى وحده ، لا ينازعه فيه أحد : ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦)﴾ [غافر]

فى القيامة يُنزع منك كلّ شىء تملكه وكلّ قدرة لك على ما تملك حتى جوارحك لا قدرةَ لك عليها ، ولا إرادةَ لتنفعل لك ، هى تبع إرادتك فى الدنيا ، وبها ترى وتسمع وتمشى وتبطش ، أمَّا فى الآخرة فقد سُلبت منك هذه الإرادة ، بدليل أنها ستشهد عليك ، وتُحاجّك يوم القيامة .

ثم ينتقل السياق بنا مرة أخرى إلى آية كونية :

﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ (٨٨)﴾

قوله تعالى ﴿تَحْسَبُهَا جَامِدَةً .. (٨٨)﴾ [النمل] أى : تظنها ثابتة ، وتحكم عليها بعدم الحركة ؛ لذلك نسميها الرواسى والأوتاد ﴿وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ .. (٨٨)﴾ [النمل] أى : ليس الأمر كما تظن ؛ لأنها

تتحرك وتمر كما يمرّ السحاب ، لكنك لا تشعر بهذه الحركة ولا تلاحظها لأنك تتحرك معها بنفس حركتها .

وهَبْ أننا فى هذا المجلس ، أنتم أمامى وأنا أمامكم ، وكان هذا المسجد على رحاية أو عجلة تدور بنا ، أيتغير وضعنا وموقعنا بالنسبة لبعضنا ؟

إذن : لا تستطيع أن تلاحظ هذه الحركة إلا إذا كنتَ أنت خارج الشىء المتحرك ، ألاَ ترى أنك حين تركب القطار مثلاً ترى أن أعمدة التليفون هى التى تجرى وأنت ثابت .

ولأن هذه الظاهرة عجيبة سيقف عندها الخَلْق يزيل الله عنهم هذا العجب ، فيقول ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِى أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ .. ﴿٨٨﴾﴾ [النمل] يعنى : لا تتعجب ، فالمسألة من صُنع الله وهندسته وبديع خَلْقه ، واختار هنا من صفاته تعالى : ﴿الَّذِى أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ .. ﴿٨٨﴾﴾ [النمل] يعنى : كل خَلْق عنده بحساب دقيق مُتقَن .

البعض[1] فهم الآية على أن مرَّ السحاب سيكون فى الآخرة ، واستدل بقوله تعالى : ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ ﴿٥﴾﴾ [القارعة]

وقد جانبه الصواب لأن معنى ﴿كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ ﴿٥﴾﴾ [القارعة] أنها ستتفتت وتتناثر ، لا أنها تمر ، وتسير هذه واحدة ، والأخرى أن الكلام هنا مبنىٌّ على الظن ﴿تَحْسَبُهَا جَامِدَةً .. ﴿٨٨﴾﴾ [النمل] وليس فى القيامة ظن ؛ لأنها إذا قامتْ فكلُّ أحداثها مُتيقنةٌ .

ثم إن السحاب لا يتحرك بذاته ، وليس له موتور يُحرِّكه ، إنما يُحرِّكه الهواء ، كذلك الجبال حركتها ليست ذاتيةً فيها ، فلم نَرَ جبلاً

---

(١) قال القشيرى : وهذا يوم القيامة . [نقله القرطبى فى تفسيره ٧ / ٥١٢٧] .

تحرَّك من مكانه ، فحركة الجبال تابعة لحركة الأرض ؛ لأنها أوتاد عليها ، فحركة الوتد تابعة للموتود فيه .

لذلك لما تكلم الحق ـ سبحانه وتعالى ـ عن الجبال قال : ﴿وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ[1] بِكُمْ .. (١٥)﴾ [النحل]

ولو خُلقتْ الأرض على هيئة السُّكون ما احتاجتْ لما يُثبِّتها ، فلا بُدَّ أنها مخلوقة على هيئة الحركة .

فى الماضى وقبل تطور العلم كانوا يعتقدون فى المنجِّمين وعلماء الفلك الكفرة أنهم يعلمون الغيب ، أما الآن وقد توصَّل العلماء إلى قوانين حركة الأرض وحركة الكواكب الأخرى فى المجموعة الشمسية واستطاعوا حساب ذلك كله بدقة مكّنتهم من معرفة ظاهرة الخسوف والكسوف مثلاً ونوع كل منهما ووقته وفعلاً تحدث الظاهرة فى نفس الوقت الذى حددوه لا تتخلف .

واستطاعوا بحساب هذه الحركة أنْ يصعدوا إلى سطح القمر ، وأن يُطلقوا مركبات الفضاء ويُسيِّروها بدقة حتى إنَّ إحداها تلتحم بالأخرى فى الفضاء الخارجى .

كل هذه الظواهر لو لم تكن مبنية على حقائق مُتيقَّنة لأدتْ إلى نتائج خاطئة وتخلفتْ .

ومن الأدلة التى تثبت صحة ما نميل إليه فى معنى حركة الجبال ، أن قوله تعالى ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ .. (٨٨)﴾ [النمل] امتنان من الله تعالى بصنعته، والله لا يمتنُّ بصنعته يوم القيامة ، إنما

---

(١) ماد يميد : تحرّك واهتزَّ . أى : لئلا تميد وتضطرب فالجبال العالية توازن البحار العميقة . [القاموس القويم ٢/٢٤٦] .

الامتنان علينا الآن ونحن فى الدنيا[١]

﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا[٢] وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾﴾

لهذه الآية صلة لطيفة بما قبلها : فكما أن الآيات الكونية التى أخبر بها الحق - تبارك وتعالى - حقيقة واقعة ، وتأكدتَ أنت من صدْقها حيث شاهدتها بنفسك وأدركتها بحواسك ، فكما أخبرناك بهذه الآيات نُخبرك الآن بحقيقة أخرى ينبغى أن تصدقها ، وأن تأخذ من صدْق ما شاهدتَ دليلاً على صدْق ما غاب عنك ، فربُّك يُخبرك بأنه ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا .. ﴿٨٩﴾﴾ [النمل]

الحسنة : فعل الانفعال فيه يكون لمطلوب الله فى العبادة ، فإن فعلتَ الفعل على مراد الله تعالى كانت لك حسنة ، والحسنة عند الله بعشر أمثالها ، وتضاعف إلى سبعمائة ضِعْف على مقدار طاقة الفاعل من الإخلاص والتجرُّد لله فى فعله .

والمعنى : ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ .. ﴿٨٩﴾﴾ [النمل] أى : فى الدنيا ﴿فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا .. ﴿٨٩﴾﴾ [النمل] أى : ناشىء عنها فى الآخرة .

ونسمع من البعض مَنْ يقول : إذا كان قولنا : لا إله إلا الله

---

(١) قال الماوردى فى تفسير الآية : أنها ضَرْب للمثل ، وفيما ضُرب له ثلاثة أقوال :
أحدها : أنه مثَّل ضربه الله تعالى للدنيا يظن الناظر إليها أنها واقفة كالجبال ، وهى آخذة بحظها من الزوال كالسحاب ، قاله سهل بن عبد الله .
الثانى : أنه مثل ضربه الله للإيمان تحسبه ثابتاً فى القلب وعمله صاعد إلى السماء .
الثالث : أنه مثل ضربه الله للنفس عند خروج الروح والروح تسير إلى العرش . [نقله القرطبى فى تفسيره ٥١٢٨/٧] .

(٢) قال ابن عباس ومجاهد : أى وصل إليه الخير منها . وليس « خير » للتفضيل . قال عكرمة وابن جريج : أما أن يكون له خير منها يعنى من الإيمان فلا ، فإنه ليس شىء خيراً ممن قال لا إله إلا الله ولكن له منها خير . [تفسير القرطبى ٥١٢٩/٧] .

حسنة فالثواب عليها خَيْر منها . وهذا القول ناتج عن فَهْم غير دقيق لمعنى الآية ؛ لأن الله تعالى الذى أُقر بـه فى الشهادة هو الذى يهبنى هذا الثـواب ، فـمَنْ جاء بالحسنة له خـيـر ناشىء من هذه الحسنة ومُسبّب عنها . كما لو قلت : مأمـور المركز خير من وزير الداخلية : أى خَيْر جاءنا من ناحيته ، ووصل إلينا من طرفه ، أليس هو صاحب قرار تعيينه ؟

ومن ذلك ما يقـوله أصحاب الطريق والمـجاذيب يقولون : محـمد خـيـر من ربه ، وفى مـثل هـذه الأقـوال لعب بأفكـار الناس وإثارة لمشـاعرهم ، وربما تعرض للإيذاء ، فكـيف يقول هذه الكلمة ومحـمد مُرْسَل من عند الله ؟ وحين تُمعن النظر فى العبـارة تجدها صحيحة ، فمراد الرجل أن محمداً خير جاءنا من عند الله .

أو : يكون المعنى ﴿فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا .. (٨٩)﴾ [النمل] أن الجزاء على الحـسنة خيـر من الحسنة ؛ لأنك تفـعل الحسنـة فعْلاً مـوقوتـاً ، أمّا خيرها والثواب عليها ، فسيظل لك خالداً بلا نهاية .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٠)﴾ (١)

معنى ﴿فَكُبَّتْ .. (٩٠)﴾ [النمل] ألقيت بعنـف ، وخصّ الوجوه مع أن الأعضاء كلها ستكبُّ ؛ لأنه أشرفها وأكرمها عند صاحبها ، والوجه

---

(١) أى : بالشرك . قـاله ابن عباس والنخعى وأبو هريرة ومـجاهد وقيس بن سعـد والحسن . قال القـرطبى فى تفسـيره (٧/ ٥١٣٠) : « وهو إجـماع من أهل التأويل فى أن الـحسنة لا إله إلا الله ، وأن السيئة الشرك فى هذه الآية » .

موضع العزة والشموخ ، فالحق - تبارك وتعالى - يريد لهم الذلَّة والمهانة ، وفى موضع آخر يُبيِّن أن كل الأعضاء ستكبُّ فى النار ، فيقول تعالى : ﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿٩٤﴾﴾ [الشعراء]

وليس هذا المصير ظلماً لهم ، ولا افتراءً عليهم ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [النمل] وكما يقول سبحانه : ﴿لا ظُلْمَ الْيَوْمَ .. ﴿١٧﴾﴾ [غافر] فلم نجامل صاحب الحسنة ، ولم نظلم صاحب السيئة .

﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾﴾

فما دام أن الله تعالى أعطانا هذه المعلومات التى تلفتنا إلى قدرته فى آياته الكونية ، وذكَّرنا بالآخرة ، وما فيها من الثواب والعقاب ، فما عليك إلا أنْ تلتزم (عرفت فالزم) واعلم أن مَنْ أبلغك منهج الله سيسبقك إلى الالتزام به ، فالشرع كما أمرك أمرنى .

﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ .. ﴿٩١﴾﴾ [النمل] فإنْ طلبتُ منكم شيئاً من التكاليف فقد طالبتُ نفسى به أولاً ؛ لأننى واثق بصدق تبليغى عن الله ؛ لذلك ألزمتُ نفسى به .

والعبادة كما قلنا : طاعة العابد للمعبود فيما أمر وفيما نهى ؛ لأن ربك خلقك من عَدَم ، وأمدك من عُدْم ، ونظّم لك حركة حياتك ، فإنْ كلَّفك فاعلم أن التكليف من أجلك ولصالحك ؛ لأنه رب مُتولٍّ لتربيتك ، فإنْ تركك بلا منهج ، وبلا افعل ولا تفعل ، كانت التربية ناقصة .

إذن : من تمام الربوبية أن يوجهنى ربى كما نُوجِّه نحن أولادنا الصغار ونُربِّيهم ، ومن تمام الربوبية أن توجد هذه الأوامر وهذه

النواهى لمصلحة المربَّى ، وما دام أن ربك قد وضعها لك فلا بُدَّ أن تطيعه .

لذلك نلحظ فى هذه الآية ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَـٰذِهِ الْبَلْدَةِ .. (٩١)﴾ [النمل] ولم يقُلْ : أُمرت أن أطيع الله ؛ لأن الألوهية تكليف ، أمّا الربوبية فعطاء وتربية ، فالآية تُبيِّن حيثية سماعك للحكم من الله ، وهى أنه تعالى يُربِّيك بهذه الأوامر وبهذه النواهى ، وسوف تعود عليك ثمرة هذه التربية .

لذلك ، الصِّديق أبو بكر حينما حدثوه عن الإسراء والمعراج لم يُمرِّر المسألة على عقله ، ولم يفكر فى مدى صدْقها ، إنما قال عن رسول الله : « إنْ كان قال فقد صدق »[1] فالميزان عنده أن يقول رسول الله ، ثم يُعلِّل لذلك فيقول : إنى لأُصدِّقه فى الخبر يأتى من السماء ، فكيف لا أُصدِّقه فى هذه .

وقال تعالى : ﴿رَبَّ هَـٰذِهِ الْبَلْدَةِ .. (٩١)﴾ [النمل] أى : مكة وخصّها بالذكْر ؛ لأن فيها بيته ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا .. (٩٦)﴾ [آل عمران] ثم يذكر سبحانه وتعالى من صفات مكة ﴿الَّذِى حَرَّمَهَا .. (٩١)﴾ [النمل] فهى مُحرَّمة يحرم فيها القتال ، وهذه وسيلة لحماية العالم من فساد الحروب وفساد الخلاف الذى يُفضى بكل فريق لأنْ تأخذه العزة ، فلا يجد حلاً إلا فى السيف .

---

(١) أخرج البيهقى فى دلائل النبوة (٢ / ٣٦١) من حديث عائشة أنها قالت : « لما أُسْرِى بالنبى ﷺ إلى المسجد الأقصى أصبح يتحدث الناس بذلك فارتد ناس ممن كانوا آمنوا به وصدَّقوه وسعوا بذلك إلى أبى بكر فقالوا : هل لك فى صاحبك يزعم أنه أسرى به فى الليل إلى بيت المقدس قال أو قال ذلك ؟ قالوا : نعم . قال : لئن كان قال ذلك لقد صدق . قالوا : وتصدقه أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس وجاء قبل أن يصبح ، قال : نعم ، إنى لأصدقه بما هو أبعد من ذلك ، أصدقه بخبر السماء فى غدوة أو روحة ، فلذلك سُمِّى أبو بكر الصديق » .

وكأن الحق ـ تبارك وتعالى ـ يعطى لخَلْقه فرصة للمداراة وعُذْراً يستترون خلفه ، فلا ينساقون خلف غرورهم ، فحين تمنعهم من الحروب حُرْمة المكان فى الحرم ، وحُرْمة الزمان فى الأشهر الحرم ـ لأن كل فعل لا بُدَّ له من زمان ومكان ـ حين يمنعهم الشرع عن القتال فإن لأحدهم أن يقول : لم أمتنع عن ضعف . ولولا أن الله منعنى لفعلْتُ وفعلْتُ ، ويستتر خلف ما شرَّع الله من منع القتال ، إلى أنْ يذوق حلاوة السلام فتلين نفسه ، وتتوق للمراجعة .

ولحرمة مكة كان الرجل يلاقى فيها قاتل أبيه ، فلا يتعرَّض له احتراماً لحرمة البيت ، وقد اتسعتْ هذه الحرمة لتشمل أجناساً أخرى ، فلا يُعضد[1] شجرها ، ولا يُصاد صَيْدها .

ثم يقول تعالى : ﴿وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ .. (٩١)﴾ [النمل] لأن الله تعالى حين يصطفى من الملائكة رسلاً ، ومن الناس رسلاً ، ويصطفى من الأرض أمكنة ، ومن الزمان ، يريد أن يشيع الاصطفاء فى كل شىء .

فالحق ـ تبارك وتعالى ـ لا يُحَابى أحداً ، فحين يرسل رسولاً يُبلِّغ رسالته للناس كافة ، فيعود نفعه على الجميع ، وكذلك فى تحريم المكان أو الزمان يعود نفعه على الجميع ؛ لذلك عطف على ﴿الَّذِى حَرَّمَهَا .. (٩١)﴾ [النمل] فقال ﴿كُلُّ شَيْءٍ .. (٩١)﴾ [النمل] فالتحريم جُعل من أجل هؤلاء .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩١)﴾ [النمل] أى : المنفذين لمنهج الله يعنى : لا أعتقد عقائد أخبر بها ولا أُنفِّذها ، وقد قرن الله تعالى بين الإيمان والعمل الصالح ؛ لأن فائدة الإيمان أنْ

---

(١) عضد الشجر يعضده ، فهو معضود : قطعه بالمعضد . والعضيد : ما قُطع من الشجر أى يضربونه ليسقط ورقه فيتخذوه علفاً لإبلهم . [لسان العرب ـ مادة : عضد] .

تعملَ به ، كما قال تعالى : ﴿ وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ .. ۝٣ ﴾ [العصر]

فالله تعالى يريد أن يُعدِّى الإيمان والأحكام إلى أن تكون سلوكاً عملياً فى حركة الحياة .

﴿ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۝٩٢ ﴾

أنت حين تقرأ القرآن فى الحقيقة لا تقرأ إنما تسمع ربنا يتكلم ، ومعنى ﴿ وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ .. ۝٩٢ ﴾ [النمل] يعنى : استدم أُنْسك بالكتاب الذى كُلِّفت به ، ليدل على أنك من عشْقك للتكليف ، عشقتَ المكلّف ، فأحببتَ سماعه ، وتلاوة القرآن فى ذاتها لذة ومتعة .

فأنا سآخذ من تلاوته لذةً ، وأستديم البلاغ بالقرآن للناس ، وبعد ذلك أنا نموذج أمام أمتى ، كما قال سبحانه : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ .. ۝٢١ ﴾ [الأحزاب]

يعنى : شىء يُقتدى به ، وما دام أن الرسول قدوة ، فكل مقام للرسول غير الرسالة مَنْ سار على قدم الرسول يأخذ منه ، وكذلك مكان كل إنسان فى التقوى ، على قَدْر اعتباره واقتدائه بالأُسْوة ، أما الرسالة فدَعْك منها ؛ لأنك لن تأخذها .

ومعنى ﴿ اهْتَدَىٰ .. ۝٩٢ ﴾ [النمل] أى : وصلتْه الدلالة واقتنع بها ﴿ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِ .. ۝٩٢ ﴾ [النمل] لأن الله سيعطيه المعونة ، ويزيده هداية وتوفيقاً ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ۝١٧ ﴾ [محمد]

إذن : فالهداية والتقوى لا تنفع المشرِّع ، إنما تنفع العبد الذى اهتدى.

ثم يذكر المقابل ﴿وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ (٩٢)﴾ [النمل]
أنا لا يعنينى إلا أننى من المنذرين ، وأنت إنما تضلّ على نفسك ، وتتحمل عاقبة ضلالك .

وبعد أنْ أتممتَ ما خاطبك ربك به بأنْ تعبدَ ربَّ هذه البلدة وكنتَ من المسلمين ، وبعد أنْ تلوتَ القرآن ، واستدمت الأُنْس واللذَّة بسماع الله يتكلم ، ثم بلَّغته للناس ، فإذا فعلتَ كل هذا احمد الله الذى وفَّقك إليه :

﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٩٣)﴾

أى : الحمد لله على نعمه وعلى ما هدانا ، والحمد لله الذى لا يُعذِّب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه ، والإنذار إليه .

والله سيريكم آياته فى أنفسكم وفى غيركم ، فتعرفون دلائل قدرته سبحانه ووحدانيته فى أنفسكم ، وفى السماوات والأرض .

﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٩٣)﴾ [النمل]

بل هو شهيد على كل شىء .

سُورَةُ القَصَصِ

سورة القصص[1]

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ طسم ﴿١﴾ ﴾

الحروف المقطعة فى بدايات سور القرآن مرة يأتى حرف واحد مثل (ق ، ن) أو حرفان مثل (طس ، حم) أو ثلاثة أحرف مثل (الم ، طسم) أو أربعة مثل (المر) أو خمسة مثل (حمعسق ، كهيعص) وكل منها له مفتاح وأسرار لم يفتح علينا بعد لمعرفته وما قلنا فى معنى هذه الحروف مجرد محاولات على الطريق .

﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ ﴾

---

(١) سورة القصص هى السورة رقم (٢٨) فى ترتيب المصحف الشريف ، وعدد آياتها ٨٨ آية . وهى سورة مكية كلها فى قول الحسن وعكرمة وعطاء . قال ابن عباس وقتادة : إلا آية نزلت بين مكة والمدينة . وقال ابن سلام : بالجحفة فى وقت هجرة رسول الله ﷺ إلى المدينة ، وهى قوله عز وجل : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ .. ﴿٨٥﴾ ﴾ [القصص] [راجع تفسير القرطبى ٥١٣٣/٧] . نزلت هذه السورة بعد سورة النمل (كما هى فى ترتيبها فى المصحف) وقبل سورة الإسراء . [الإتقان فى علوم القرآن ٢٧/١] .

يعنى : ما يأتى فى هذه السورة آيات الكتاب المبين .

﴿ نَتْلُوا عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ ﴾

أى : نقص عليك ﴿ مِن نَّبَأِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ .. ﴿٣﴾ ﴾ [القصص] والنبأ : الخبر الهام الذى يجب الالتفات إليه ، وهل هناك أهم من إرسال موسى ـ عليه السلام ـ إلى مَن ادعى الألوهية ؟ لذلك أفرد لهما هذه السورة ، فلم يَرِدْ فيها ذكْر آخر إلا لقارون ؛ لأنها تعالج مسألة القمة ، مسألة التوحيد ، وتردّ علىَ مَنِ ادّعى الألوهية ، ونازع الله تعالى فى صفاته .

وقوله ﴿ بِالْحَقِّ .. ﴿٣﴾ ﴾ [القصص] لأن تلاوته وقصصه حق ، كما فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ .. ﴿٦٢﴾ ﴾ [آل عمران]

والقصص مأخوذ من قصِّ الأثر وتتبّعه ، وقد اشتُهر به بعض العرب قديماً ، ومهروا فيه حتى إنهم ليعرفون أثر الرجل من أثر المرأة .. إلخ ، وقد اشتُهرت عندهم قصة الرجل الذى فقد جمله ، وقابل أحد القصاصين ، وسأله عنه فقال : جملك أبتر[1] الذَّنَب ؟ قال : نعم ، قال : أعور ؟ قال : نعم ، قال : أعرج ؟ عندها لم يشكّ صاحب الجمل أن هذا الرجل هو الذى أخذ جمله ، فأمسك به وقاضاه .

وفى مجلس القضاء ، قال الرجل : والله ما أخذتُ جملك ، لكنى رأيتُ الجمل يبعثر بَعْره خلفه ، أما هذا فيضع بَعْره مرة واحدة ،

---

(١) الأبتر : المقطوع الذَّنَب (الذيل) من أى موضع كان من جميع الدواب . والبتر : استئصال الشىء قطعاً . [لسان العرب ـ مادة : بتر] .

فعرفتُ أنه مقطوع الذنب ، ورأيت أحد أخفافه لا يؤثر فى الرمل فعرفتُ أنه أعرج ، ورأيته يأكل من ناحية ويترك الأخرى فعرفتُ أنه أعور .

والحق ـ تبارك وتعالى ـ حين يقصُّ علينا يقصُّ الواقع ، فقَصص القرآن لا يعرف الخيال كقصص البشر ؛ لذلك يسميه القصص الحق ، وأحسن القصص ، لأنه يروى الواقع طِبْق الأصل .

﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي(١) نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ ﴾

معنى ﴿ عَلَا .. ﴿٤﴾ ﴾ [القصص] من العلو أى : استعلى ، والمستعلَى عليه هم رعيته ، بل علا على وزرائه والخاصة من رعيته ، وعلا حتى على الله ـ عز وجل ـ فادَّعى الألوهية ، وهذا منتهى الاستعلاء ، ومنتهى الطغيان والتكبُّر ، وما دامت عنده هذه الصفات وهو بشر وله هوىً فلا بُدَّ أنْ يستخدمها فى إذلال رعيته .

﴿ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا .. ﴿٤﴾ ﴾ [القصص] جمع شيعة ، وهى الطائفة التى لها استقلالها الخاص ، والمفروض فى المُمَلَّك أنْ يُسوِّى بين رعيته ، فلا تأخذ طبقة أو جماعة حظوة عن الأخرى ، أما فرعون فقد جعل الناس طوائف ، ثم يسلِّط بعضها على بعض ، ويُسخِّر بعضها لبعض .

---

(١) استحياه : استبقاه حياً ولم يقتله ، ومعنى ﴿ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ .. ﴿٤٩﴾ ﴾ [البقرة] أى : أنهم يقتلون الذكور فقط ويتركون البنات والنساء على قيد الحياة . [القاموس القويم ١/١٨٣] .

ولا شكَّ أن جَعْل الأمة الواحدة عدة طوائف له مَلْحظ عند الفاعل ، فمن مصلحته أن يزرع الخلاف بين هذه الطوائف ويشغل بعضها ببعض ، فلا تستقر بينهم الأمور ، ولا يتفرغون للتفكير فيما يقلقه ويهزّ عرشه من تحته ، فيظل هو مطلوباً من الجميع .

والقبط كانوا هم سكان مصر والجنس الأساسى بها ، ثم لما جاءها يوسف ـ عليه السلام ـ واستقرَّ به الأمر حتى صار على خزائنها ، ثم جاء إخوته لأخْذ أقواتهم من مصر ، ثم استقروا بها وتناسلوا إلا أنهم احتفظوا بهويتهم فلم يذوبوا فى المجتمع القبطى .

وبالمناسبة يخطىء الكثيرون فيظنون أن القبطىَّ يعنى النصرانى وهذا خطأ ، فالقبطى يعنى المصرى كجنس أساسى فى مصر ، لكن لما استعمرت الدولةُ الرومانية مصرَ كان مع قدوم المسيحية فأطلقوا على القبطى (مسيحى) .

لكن ، ما السبب فى أن فرعون جعل الناس طوائف ، تستعبد كلٌّ منها الأخرى ؟ قالوا : لأن بنى إسرائيل كانوا فى خدمة المستعمر الذى أزاح حكم الفراعنة ، وهم ملوك الرعاة ، فلما طُرِد ملوك الرعاة من مصر كان طبيعياً فيمَنْ يحكم مصر أن يضطهد بنى إسرائيل ؛ لأنهم كانوا موالين لأعدائه ، ويسيرون فى ركابهم ، ومن هنا جاء اضطهاد فرعون لبنى إسرائيل .

والقرآن الكريم حينما يتحدث عن ملوك مصر فى القديم وفى الحديث يُسمِّيهم فراعنة ، كما فى قوله تعالى : ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِى الأَوْتَادِ ﴿١٠﴾﴾ [الفجر]

وهنا فى قصة موسى ـ عليه السلام ـ قال أيضاً : فرعون . أما فى قصة يوسف عليه السلام فلم يأْتِ ذكْر للفراعنة ، إنما قال ﴿الْمَلِكُ .. (٤٣)﴾ [يوسف] وهذه من مظاهر الإعجاز فى القرآن الكريم ؛ لأن الحكم فى مصر أيام يوسف كان لملوك الرعاة ، ولم يكُنْ للفراعنة ، حيث كانوا يحكمون مصر قبله وبعده لما استردوا مُلْكهم من ملوك الرُّعاة ؛ لذلك فى عهد يوسف بالذات قال ﴿الْمَلِكُ .. (٥٠)﴾ [يوسف] فلم يكُنْ للفرعون وجود فى عصر يوسف .

فمعنى ﴿يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ .. (٤)﴾ [القصص] يعنى : تستبد طائفة الأقباط ، وهم سكان مصر الأصليون بطائفة بنى إسرائيل لينتقموا منهم جزاءَ موالاتهم لأعدائهم .

وأول دليل على بطلان ألوهية فرعون أن يجعل أمته شيَعاً ، لأن المألوهين ينبغى أن يكونوا جميعاً عند الإله سواء ؛ لذلك يقول تعالى فى الحديث عن موكب النبوات : ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ .. (١٥٩)﴾ [الأنعام]

ذلك لأن دين الله واحد ، وأوامره واحدة للجميع ، فلو كنتم مُتمسِّكين بالدين الحق لجعلتُم الناس جميعاً شيعة واحدة ، لا يكون لبعضهم سلطة زمنية على الآخرين ، فإذا رأيت فى الأمة هذه التفرقة وهذا التحزُّب فاعلم أنهم جميعاً مدينون ؛ لأن الإسلام ـ كما قُلْنا ـ فى صفائه كالماء الذى لا طعمَ له ، ولا لون ، ولا رائحة .

وهذا الماء يحبه الجميع ولا بُدَّ لهم منه لاستبقاء حياتهم ، أما أن نُلوِّن هذا الماء بما نحب ، فأنت تحب البرتقال ، وأنا أحب المانجو . وهذا يحب الليمون .. إلخ إذن : تدخلتْ الأهواء ، وتفرَّق الدين الذى أراده الله مجتمعاً .

لذلك يقول رسول الله ﷺ : « ستفترق أمتى بِضْع وستون ، أو بضع وسبعون فرقة ، كلُّهم فى النار إلا ما أنا عليه وأصحابى »[(١)] .

فشيعة الإسلام إذن واحدة ، أما أن نرى على الساحة عشرات الفرَق والشِّيَع والجماعات ، فأيّها يتبع المسلم ؟ إذن : ما داموا قد فرَّقوا دينهم ، وكانوا شِيعاً فلستَ منهم فى شىء .

ثم يُفسِّر الحق سبحانه هذا الاستضعاف ﴿يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ .. ﴿٤﴾﴾ [القصص] فيقول ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ .. ﴿٤﴾﴾ [القصص] وقلنا : إن الإفساد أن تأتى على الصالح بذاته فتفسده ، فمن الفساد ـ إذن ـ قتْل الذُّكْران واستحياء النساء ؛ لأن حياة الناس لا تقوم إلا باستبقاء النوع ، فقتل الذّكْران يمنع استبقاء النوع ، واختار قَتْل الذكْران ؛ لأنهم مصدر الشر بالنسبة له ، أمّا النساء فلا شوكة لهُنَّ ، ولا خوفَ منهن ؛ لذلك استبقاهُنَّ للخدمة وللاستذلال .

وحين نتتبع هذه الآية نجد أنها جاءت فى مواضع ثلاثة من كتاب الله ، لكل منها أسلوب خاص ، ففى الآية الأولى يقول تعالى : ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ .. ﴿٤٩﴾﴾ [البقرة]

وفى موضع آخر : ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ .. ﴿١٤١﴾﴾ [الأعراف] وهاتان الآيتان على لسان الحق تبارك وتعالى .

أما الأخرى فحكاية من الله على لسان موسى ـ عليه السلام ـ حين يُعدِّد نِعَم الله تعالى على بنى إسرائيل ، فيقول :

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه (٢٦٤١) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ قال : « إن بنى إسرائيل تفرقت على ثنتين وسبعين ملة ، وتفترق أمتى على ثلاث وسبعين ملة ، كلهم فى النار إلا ملة واحدة ، قالوا : ومن هى يا رسول الله ؟ قال : ما أنا عليه وأصحابى » .

﴿ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ .. (٦) ﴾ [إبراهيم]

فالواو فى ﴿ وَيُذَبِّحُونَ .. (٦) ﴾ [إبراهيم] لم ترد فى الكلام على لسان الله تعالى ، إنما وردتْ فى كلام موسى ؛ لأنه فى موقف تَعداد نعَم الله على قومه وقصده ؛ لأن يُضخِّم نعم الله عليهم ويُذكِّرهم بكل النعم ، فعطف على ﴿ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ .. (٦) ﴾ [إبراهيم] قوله ﴿ وَيُذَبِّحُونَ .. (٦) ﴾ [إبراهيم]

لكن حين يتكلَّم الله تعالى فلا يمتنُّ إلا بالشىء الأصيل ، وهو قتْل الأولاد واستحياء النساء ؛ لأن الحق ـ تبارك وتعالى ـ لا يمتنّ بالصغيرة ، إنما يمتنُّ بالشىء العظيم ، فتذبيح الأبناء واستحياء النساء هو نفسه سوء العذاب .

وقوله مرة ﴿ يُذَبِّحُونَ .. (٤٩) ﴾ [البقرة] ومرة ﴿ يُقَتِّلُونَ .. (١٤١) ﴾ [الأعراف] لأن قتل الذّكْران أخذ أكثر من صورة ، فمرَّة يُذبِّحونهم ومرة يخنقونهم .

ومعنى ﴿ يَسُومُونَكُمْ .. (١٤١) ﴾ [الأعراف] من السَّوْم ، وهو أنْ تطلب الماشية المرعى ، فنتركها تطلبه فى الخلاء ، وتلتقط رزقها بنفسها لا نقدمه نحن لها ، وتسمى هذه سائمة ، أما التى نربطها ونُقدِّم لها غذاءها فلا تُسمَّى سائمة .

فالمعنى ﴿ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ .. (١٤١) ﴾ [الأعراف] يعنى : يطلبون لكم سوء العذاب ، وما داموا كذلك فلا بُدَّ أنْ يتفنَّنوا لكم فيه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (٥) ﴾

فلن يدوم لفرعون هذا الظلم ؛ لأن الله تعالى كتب ألاّ يفلح ظَلُوم ، وألاَّ يموت ظلوم ، حتى ينتقم للمظلوم منه ، ويُريه فيه عاقبة ظلمه ، حتى إن المظلوم ربما رحم الظالم ، وحَسْبك من حادث بامرىء ترى حاسديه بالأمس ، راحمين له اليوم .

وهنا تُطالعنا غضبة الحق ـ تبارك وتعالى ـ للمؤمنين ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ .. ۝٥﴾ [القصص] والمنة : عطاء مُعوّض ، وبدون مجهود من معطى المنة ، كأنها هبَة من الحق سبحانه ، وغضبة لأوليائه وأهل طاعته ؛ لأن الحق ـ تبارك وتعالى ـ كما قال الإمام على : إن الله لا يُسلم الحق ، ولكن يتركه ليبلو غَيْرة الناس عليه ، فإذا لم يغاروا عليه غَارَ هو عليه .

والحق ـ تبارك وتعالى ـ حينما يغَارُ على الذين استُضعفوا لا يرفع عنهم الظلم فحسب ، وإنما أيضاً ﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً .. ۝٥﴾ [القصص] أئمة فى الدين وفى القيم ، وأئمة فى سياسة الأمور والملك ﴿وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ۝٥﴾[القصص] أى : يرثون مَنْ ظلمهم ، ويكونون سادةً عليهم وأئمةً لهم ، فانظر على كم مرحلة تأتى غيرة الله لأهل الحق .

ولولا أن فرعون ـ الذى قوى على المستضعفين وأذلَّهم ـ تأبَّى على الله ورفض الانقياد لشملته رحمة الله ، ولعاشَ هو ورعيته سواء .

لذلك أهل الثورات الذين جاءوا للقضاء على أصحاب الفساد وإنصاف شعوبهم ممَّنْ ظلمهم ، كان عليهم بعد أنْ يقضوا على الفساد ، وبعد أن يمنعوا المفسد أن يُفسد ، ويحققوا العدالة فى المجتمع ، كان عليهم أنْ يضموا الجميع إلى أحضانهم ورعايتهم ، ويعيش الجميع بعد تعديل الأوضاع سواسية فى مجتمعهم ، وبذلك نأمن الثورة المضادة .

ثم يقول تعالى استكمالاً لمنَّته :

﴿ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾

قوله تعالى ﴿ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ .. ﴿٦﴾ ﴾ [القصص] نعرف أن الأرض مكان يحدث فيه الحدَث ، لأن كل حَدَث يحتاج إلى زمان وإلى مكان ، فالمعنى : نجعل الأرض مكاناً لممكَّن فيها ، والتمكين يعنى : يتصرف فيها تسلطاً ، ويأخذ خيرها .

وقد شرح الحق سبحانه لنا التمكين فى عدة مواضع من القرآن ، ففى قصة يوسف عليه السلام : ﴿ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ ﴾ [يوسف] مكين يعنى : لك عندنا مكانة ومركز ثابت لا ينالُك أحد بشىء ، ومنها قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ .. ﴿٢١﴾ ﴾ [يوسف] يعنى : أعطيناه سلطة يأخذ بها خير المكان ، ثم يُصرِّف هذا الخير للآخرين .

وقوله تعالى : ﴿ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [القصص] وهامان هو وزير فرعون ، ولابد أنه كان لكل منهما جنود خاصة غير جنود الدولة عامة ، كما نقول الآن : الحرس الجمهورى ، والحرس الملكى ، والجيش .

أو : أن هامان يصنع من باطن فرعون ، فالملك لا يزاول أموره إلا بواسطة وزرائه ، وفى هذه الحالة يأخذ الجنود الأوامر من هامان . أو : أن هامان كان له سلطة ومركز قوة لا تقل أهمية عن سلطة فرعون ، وربما رفع رأسه وتطاول على فرعون فى وقت من الأوقات .

وقد رأينا هذا عندنا فى مصر ـ لذلك يقولون فى المثل الريفى المعروف : تقول لمن يحاول خداعك (على هامان) ؟ يعنى : أنا لا تنطلى علىَّ هذه الحيل .

والضمير فى ﴿مِنْهُم .. ٦﴾ [القصص] يعود على المستضعفين ﴿مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ٦﴾ [القصص] أى : سنريهم الشىء الذى يخافون منه ، والمراد النبوءة التى جاءتهم ، إما عن طريق الكهنة ، أو عن طريق الرُّؤْيا ، حيث رأى فرعون ناراً تأتى من بيت المقدس ، وتتسلط على القِبْط فى مصر ، لكنها لا تؤذى بنى إسرائيل ، فلما عبَّروا له هذه الرؤيا قال : لا بد أنه سيأتى من هذه البلد من يسلب منى مُلْكى[1] .

ويُرْوى أن الكهنة أخبروه أنه سيُولد فى هذه السنة مولود يكون ذهاب مُلْكك على يديه .

فسوف يرى فرعون وقومه هذه المسألة بأعينهم ويباشرونها بأنفسهم ، وسيقع هذا الذى يخافون منه ؛ لذلك أمر فرعون بقتْل الذكْران من بنى إسرائيل ليحتاط لأمره ، ويُبقِى على مُلْكه ، لكن هذا الاحتياط لم يُغنِ عنه شيئاً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ٧ ﴾

---

(١) قاله السدى فيما أخرجه ابن جرير الطبرى وابن أبى حاتم ، ذكره السيوطى فى الدر المنثور (٦/٣٨٩) .

عجيب أمر فرعون، فبعد أن أمر بقتل الأولاد من بنى إسرائيل يأتيه فى البحر تابوت به طفل رضيع ، فلا يخطر على باله أن أهله ألقوه فى البحر لينجو من فرعون ، فكيف فاتتْه هذه المسألة وهو إله ؟ لم يعرفها بألوهيته ، ولا عرفها حتى بذكائه وفِطْنته .

وإذا كان الكهنة أخبروه بأن ذهاب مُلْكه على يد وليد من هؤلاء الأولاد ، وإذا كانت هذه النبوءة صحيحة فلا بُدَّ أن الولد سينجو من القتل ويكبر ، ويقضى على مُلْك فرعون ، وما دام الأمر كذلك فسوف يقتل فرعون الأولاد غير الذى سيكون ذهاب مُلْكه على يديه .

وتشاء إرادة الله أنْ يتربَّى موسى فى قصر فرعون ، وأنْ تأتى إليه أمه السيدة الفقيرة لتعيش معه عيشة الترف والثراء[1] ، ويصير موسى بقدرة الله قُرَّة عَيْن للملكة ، فانظر إلى هذا التغفيل ، تغفيل عقل وطمس على بصيرة فرعون الذى ادَّعى الألوهية .

وبذلك نفهم قول الله تعالى : ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ .. (٢٤)﴾ [الأنفال] فقلبه يُغطِّى على بصيرته ويُعمِّيها .

وقوله تعالى لأم موسى : ﴿أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ .. (٧)﴾ [القصص] فمَنْ منَ النساء تقبل إنْ خافت على ولدها أنْ تُلقيه فى اليم ؟ مَنْ ترضى أنْ تُنجيه من موت مظنون إلى موت محقق ؟ وقد جعل الحق سبحانه عاطفة الأمومة تتلاشى أمام وارد الرحمن الذى أتاها ، والذى لا يؤثر فيه وارد الشيطان .

---

(١) ذكر ابن كثير فى تفسيره (٣/٣٨١ ، ٣٨٢) : « استدعت آسية امرأة الملك أم موسى وأحسنت إليها وأعطتها عطاء جزيلاً وهى لا تعرف أنها أمه فى الحقيقة ولكن لكونه وافق ثديها ، ثم سألتها آسية أن تقيم عندها فترضعه فأبت عليها وقالت : إن لى بعلاً وأولاداً ولا أقدر على المقام عندك ، ولكن إن أحببت أن أرضعه فى بيتى فعلت ، فأجابتها امرأة فرعون إلى ذلك وأجرت عليها النفقة والصلات والكساوى والإحسان الجزيل ، فرجعت أم موسى بولدها راضية مرضية قد أبدلها الله بعد خوفها أمناً فى عز وجاه ورزق دارّ » .

ثم يهيىء الحق سبحانه كذلك امرأة فرعون ليتم هذا التدبير الإلهى لموسى فتقول ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ .. ⑨﴾ [القصص]

فيرد عليها فرعون : بل لك أنت وحدك ، وكأنه يستشعر ما سيحدث ، ولكن إرادة الله لا بُدَّ نافذة ولا بُدَّ أن يأخذ القدر مجراه لا يمنعه شىء ؛ لأن الله تعالى إذا أراد شيئاً فلا رادّ لإرادته .

فمع ما علمه فرعون من أمر الرؤيا أو النبوءة رُبّى الوليد فى بيته ، ولا يخلو الأمر أيضاً من سيطرة المرأة على الرجل فى مثل هذا الموقف .

لذلك النبى ﷺ حينما قُرئت هذه الآية قال : « والذى يُحلف به ، لو قال فرعون كما قالت امرأته ـ قرة عين لى ولك ـ لهداه الله كما هداها »[1] . إنما ردَّ الخير الذى ساقه الله إليه ؛ لذلك أسلمتْ زوجته وماتت على الإيمان .

وهى التى قالت : ﴿رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ⑪﴾ [التحريم] أما هو فمات على كفره شرَّ ميتة .

وسبق أنْ تكلّمنا فى وحى الله لأم موسى ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ .. ⑦﴾ [القصص] وقلنا : إن الوحى فى عموم اللغة : إعلام بطريق خفى دون أن تبحث عن الموحِى ، أو الموحَى إليه ، أو الموحَى به . أما الوَحْى الشرعى فإعلام من الله تعالى لرسوله بمنهج لخَلْقه .

---

(١) أورده السيوطى فى الدر المنثور (٥/٥٦٩) عن ابن عباس وعزاه لابن أبى عمر العدنى فى مسنده وعبد بن حميد والنسائى وأبى يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه ، وفيه أن رسول الله ﷺ قال : « والذى يُحلف به ، لو أقر فرعون بأن يكون قرة عين له ، كما قالت امرأته لهداه الله به ، كما هدى به امرأته ولكن الله عز وجل حرمه ذلك » .

فالله تعالى يوحى للملائكة : ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا .. (١٢)﴾ [الأنفال]

ويُوحى إلى الرسل : ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ..(١٦٣)﴾ [النساء]

ويُوحى للمؤمنين الصادقين فى خدمة رسول : ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي .. (١١١)﴾ [المائدة]

يوحى إلى النحل ، بل وإلى الجماد : ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا (١) وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا (٢) وَقَالَ الإِنسَانُ مَا لَهَا (٣) يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا (٤) بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا (٥)﴾ [الزلزلة]

وقد يكون الإعلام والوحى من الشيطان : ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ .. (١٢١)﴾ [الأنعام]

ويكون من الضالين : ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا.. (١١٢)﴾ [الأنعام]

فالوَحْى إلى أم موسى كان وَحْياً من المرتبة الرابعة بطريق النَّفْث فى الروع ، أو الإلهام ، أو برؤيا ، أو بملَك يُكلِّمها ، هذا كله يصح .

وهذا الوحى من الله ، وموضوعه ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ .. (٧)﴾ [القصص] وهذا أمر ﴿وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي .. (٧)﴾ [القصص] نهى ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧)﴾ [القصص] وهذه بشارة فى خبرين . فهذه الآية إذن جمعتْ لأم موسى أمرين ، ونهيين ، وبشارتين فى إيجاز بليغ مُعْجز .

ومعنى ﴿أَرْضِعِيهِ .. ⑦﴾ [القصص] يعنى : مدة أمانك عليه ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ .. ⑦﴾ [القصص] ولم يقل من أىٍّ شىء ليدلّ على أىٍّ مخوف تخشاه على وليدها ﴿فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ .. ⑦﴾ [القصص] ويراعى الحق سبحانه مشاعر الأم وقلَقها على ولدها ، خاصة إذا ألقتْه فى البحر فيطمئنها ﴿وَلَا تَخَافِي .. ⑦﴾ [القصص] لأن الله سيُيسِّر له تربية خيراً من تربيتك فى ظل بيت الغنَى والملْك .

﴿وَلَا تَحْزَنِي .. ⑦﴾ [القصص] أى : لفراقه ؛ لأن هذا الفراق سيُعوِّضك ، ويُعوِّض الدنيا كلها خيراً ، حين يقضى على هذا الطاغية ، ويأتى بمنهج الله الذى يحكم خَلْق الله فى الأرض .

ثم اعلمى بعد هذا أن الله رادُّه إليك ، بل وجاعله من المرسلين ، إذن : أنا الذى أحفظه ، ليس من أجلك فحسب ، إنما أيضاً لأن له مهمة عندى .

يقولون : ظلت أم موسى تُرضعه فى بيتها طالما كانت آمنة عليه من أعين فرعون ، إلى أنْ جاءها أحد العسس يفتش البيت فخافت على الولد فلفته فى خرقة ودسته فى فجوة بجوارها ، كانت هذه الفجوة هى الفُرْن ، ألقتْه فيه وهو مسجور[1] دون أن تشعر - يعنى من شدة خوفها عليه - حتى إذا ما انصرف العَسَس ذهبت إليه ، فإذا به سالماً لم يُصِبْه سوء . وكأن الله تعالى يريد لها أنْ تطمئن على حِفْظ الله له ، وأن وعده الحق .

وقد وردت مسألة وحى الله لأم موسى فى كتاب الله مرتين مما دعا السطحيين من المستشرقين إلى اتهام القرآن بالتكرار الذى

---

(١) سجر التنور يسجره : أوقده وأحماه ، وقيل : أشبع وقوده . [لسان العرب - مادة : سجر] .

لا فائدةَ منه ، وذكروا قوله تعالى : ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ (٣٨) أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي (٣٩)﴾ [طه]

لكن فَرْق بين الوحى الأول والوحى الآخر : الوحى الأول خاص بالرضاعة فى مدة الأمان ، أما الآخر فبعد أنْ خافت عليه أوحى إليها لتقذفه فى اليم .

وتأمل ﴿أَنِ اقْذِفِيهِ .. (٣٩)﴾ [طه] والقذف إلقاء بقوة ، لا أنْ تضعه بحنان ورفق ؛ لأن عناية الله ستحفظه على أى حال ﴿فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ .. (٣٩)﴾ [طه] وهذا أمر من الله تعالى لليمِّ أن يخرج الوليد سالماً إلى الساحل ؛ لذلك لم يأت فى هذا الوحى ذِكْر لعملية الرضاعة .

فكأن الوحى الأول جاء تمهيداً لما سيحدث ؛ لتستعد الأم نفسياً لهذا العمل ، ثم جاء الوحى الثانى للممارسة والتنفيذ ، كما تُحدِّث جارك ، وتُحذِّره من اللصوص وتنصحه أنْ يحتاط لهذا الأمر ، فإذا ما دخل الليل حدث فعلاً ما حذّرتَهُ منه فَرُحْت تنادى عليه ليسرع إليهم ويضربهم .

لذلك يختلف أسلوب الكلام فى الوحى الأول ، فيأتى رتيباً مطمئناً : ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧)﴾ [القصص] هكذا فى نبرة هادئة لأن المقام مقام نصح وتمهيد ، لا مقام أحداث وتنفيذ .

أما الوحى الثانى فيأتى فى سرعة ، وبنبرة حادة : ﴿أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ .. (٣٩)﴾ [طه] فالعَجلة فى اللفظ تدلُّ على أن المقام مقام مباشرة للحدث فعلاً .

وفى الأولى قال ﴿فَأَلْقِيهِ .. ﴿٧﴾﴾ [القصص] ، أما فى الثانية فقال ﴿فَاقْذِفِيهِ .. ﴿٣٩﴾﴾ [طه] والأم لا تقذف وليدها ، بل تضعه بحنان وشفقة ، لكن الوقت هنا ضيِّق لا يتسع لممارسة الحنان والشفقة .

والأمر لليمِّ بأن يلقى التابوت بالساحل له حكمة ؛ لأن العمق موضع للحيوانات البحرية المتوحشة التى يُخاف منها ، أمَّا بالقُرْب من الساحل فلا يوجد إلا صغار الأسماك التى لا خطورة منها ، وكذلك ليكون على مَرْأى العين ، فيطمئن عليه أهله ، ويراه مَنْ ينقذه ليصل إلى البيت الذى قُدِّر له أنْ يتربّى فيه .

وفعلاً ، وصل التابوت إلى الساحل ، وكان فرعون وزوجته آسية وابنته على الشاطىء ، فلما أُخرِج لهم التابوت وجدوا فيه الطفل الرضيع ، وكان موسى عليه السلام أسمر اللون ، مُجعَّد الشعر ، كبير الأنف ، يعنى لم يكُنْ ـ عليه السلام ـ جميلاً تنجذب إليه الأنظار ويفرح به مَنْ يراه .

لذلك يمتنُّ الله عليه بقوله : ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى .. ﴿٣٩﴾﴾ [طه] أى : ليس بذاتك أن يحبك مَنْ يراك إنما بمحبة الله[1] ، لذلك ساعة رأته آسية أحبَّته وانشرح صدرها برؤيته ، فتمسَّكت به رغم معارضة فرعون لذلك .

كما أن ابنة فرعون ، وكانت فتاة مبروصة أصابها البرص[2] ،

---

(١) وقد ذكر القرطبى فى تفسيره (٧/٥١٣٧) أن « بعض القوابل الموكلات بحبالى بنى إسرائيل مصافية لها ، فقالت (لها أم موسى) : لينفعنى حبك اليوم ، فعالجتها ، فلما وقع إلى الأرض هالها نور بين عينيه ، وارتعش كل مفصل منها ، ودخل حبه قلبها ، ثم قالت : ما جئتك إلا لأقتل مولودك وأخبر فرعون ، ولكنى وجدت لابنك حباً ما وجدت مثله قط ، فاحفظيه » .

(٢) البرص : مرض جلدى يُحدث بُقعاً بيضاء فى الجلد تُشوّهه ، وهو من أعراض مرض الجذام الكثيرة . [القاموس القويم ١/٦٤] .

ورأت فى الرؤيا أن شفاءها سيكون بشىء يخرج من البحر ، فتأخذ من ريقه ، وتدهن موضع البرص فيشفى ، فلما رأتْ موسى تذكرتْ رؤياها ، فأخذت من ريقه ودهنتْ جلدها ، فشُفِيت فى الحال فتشبثتْ به هى أيضاً .

فاجتمع لموسى محبة الزوجة ، ومحبة البنت ، وهما بالذات أصحاب الكلمة المسموعة لدى فرعون ، بحيث لا يرد لهما طلباً .

وفى انصياع فرعون لرغبة زوجته وابنته وضعفه أمامهما رغم ما يعلم من أمر الطفل دليلٌ على أن الزوجة والأولاد هما نقطة الضعف عند الرجل ، ووسيلة السيطرة على شهامته وحزمه ، والضغط على مراداته .

لذلك يطمئننا الحق - تبارك وتعالى - على نفسه ، فيقول سبحانه وتعالى ﴿مَا اتَخَّذَ صَاحِبَةً وَلا وَلَدًا ۝٣﴾ [الجن]

ذلك لأن الصاحبة غالباً ما تستميل زوجها بوسيلة أو بأخرى ، أما الولد فيدعو الأب إلى الجبْن والخضوع ، والحق - تبارك وتعالى - لا يوجد لديه مراكز قوى ، تضغط عليه فى أى شىء ، فهو سبحانه مُنزَّه عن كل نقص .

وحكوا فى دعابات أبى نواس أن أحدهم وسَّطه ليشفع له عند الخليفة هارون الرشيد ، فشفع له أبو نواس ، لكن الخليفة لم يُجِبْه إلى طلبه ، وانتظر الرجل دون جدوى ، ففكر فى وساطة أخرى ، واستشفع بآخر عند زبيدة زوجة الرشيد ، فلما كلَّمته أسرع إلى إجابة الرجل ، وهنا غضب أبو نواس وعاتب صاحبه الرشيد ، لكنه لم يهتم به ، فقال له اسمع إذن :

ليسَ الشَّفِيعُ الذِى يأتِيكَ مُؤتزراً مثْلَ الشَّفِيع الذِى يأتِيكَ عُرْيانا

ولهذه العناية الإلهية بموسى عليه السلام نلحظ أنه لما قال له ربه ﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (٢٤)﴾ [طه] خاف موسى من هذه المهمة ، وكان اسم فرعون فى هذا الوقت يُلقى الرعب فى النفوس ، حتى أن موسى وهارون قالا ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ[1] عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ (٤٥)﴾ [طه]

لذلك طلب موسى من ربه ما يُعينه على القيام بمهمته : ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (٢٥) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (٢٦) وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي (٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي (٢٨) وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي (٢٩) هَارُونَ أَخِي (٣٠) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (٣١) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (٣٢) كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (٣٣) وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا (٣٤) إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا (٣٥)﴾ [طه] فماذا قال له ربه ؟ ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ (٣٦) وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ (٣٧)﴾ [طه]

أى : أُوتيت كل مسئولك ومطلوبك .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ (٨)﴾

اللَّقطُ واللُّقطة : أن تجد شيئاً بدون طلب له ، ومنه اللقيط ، وهو الطفل الرضيع تجده فى الطريق دون قَصْد منك ، أو بحث . وكذلك كان الأمر مع التابوت ، فقد جاء آلَ فرعون وهم جلوس لم يَسْعَوْا

(١) فرط على القوم : ظلمهم وجاوز الحد فى الحكم . قال تعالى عن موسى وهارون ﴿إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ (٤٥)﴾ [طه] يظلمنا فرعون ويتعدَّى علينا . [القاموس القويم ٢/٧٧] .

إليه ، ولم يطلبوه ، فما أنْ رأوه أخذوه ، لكن ما علة التقاطه ؟

الزوجة قالت ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ .. ﴿٩﴾﴾ [القصص] وقالت فى حيثية أخرى : ﴿عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا .. ﴿٩﴾﴾ [القصص] فلم يكن لهم بنون ، فأرادوه أخاً للبنت ، وأرادته البنت صيدلية علاج ، لكن هل ظلتْ هذه العلة قائمة ووجدت فعلاً ؟

لا ، إنما التقطوه لتقدير آخر ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا .. ﴿٨﴾﴾ [القصص] لا ليكون قرة عين ، فاللام هنا فى ﴿لِيَكُونَ .. ﴿٨﴾﴾ [القصص] لام العاقبة يعنى : كان يفكر لشىء ، فجاءت العاقبة بشىء آخر .

وفى هذا إشارة وبيان لغباء فرعون والطمس على بصيرته وهو الإله !! فبعد أنْ حذَّره الكهنة ، وبعد الرُّؤْيا التى رآها وعلْمه بخطورة هذا المولود على مُلْكه وعلى حياته يرضى أنْ يُربِّيه فى بيته ، وهذا دليل صدْق قوله تعالى : ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ .. ﴿٢٤﴾﴾ [الأنفال]

ومعنى ﴿حَزَنًا .. ﴿٨﴾﴾ [القصص] يعنى حُزْن مثل : عَدَم وعُدْم ، وسَقَم وسُقْم ، وبَخَل وبُخْل ، فالمعنى يأتى بالصيغتين .

وقول الحق سبحانه : ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴿٨﴾﴾ [القصص]

هم خاطئون ؛ لأن تصرفاتهم لا تتناسب مع ما عرفوه من أمر الوليد ، فلم يُقدِّروا المسائل ، ولم يستنبطوا العواقب ، وكان عليهم أن يشكُّوا فى أمر طفل جاء على هذه الحالة ، فلا بُدَّ أن أهله قصدوا نجاته من يد فرعون .

﴿ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ ﴾

معنى ﴿ قُرَّتُ عَيْنٍ .. ﴿٩﴾ ﴾ [القصص] مادة قرَّ تقول : قرَّ بالمكان يعنى : أقام وثبت به ، ومنه قرور يعنى : ثبات ، وتأتى قرَّ بمعنى البرد الشديد ، ومنه قول الشاعر :

أَوْقِدْ فإنَّ الليْلَ لَيْلٌ قُرٌّ والرِّيحُ يَا غُلاَمُ رِيحٌ صرّ
إنْ جلبْتَ ضَيْفاً فأنتَ حُرّ

إذن : قرة العين إما بمعنى ثباتها وعدم حركتها ، وثبات العين واستقرارها إما يكون ثباتاً حسياً ، أو معنوياً ، والثبات المعنوى : أنْ تستقر العين على منظر أو شىء بحيث تكتفى وتقنع به ، ويغنيها عن التطلُّع لغيره .

ومنه قولهم : فلان ليس له تطلعات أخرى ، يعنى اكتفى بما عنده ، ومنه ما قال تعالى مخاطباً نبيه محمداً ﷺ : ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ .. ﴿١٣١﴾ ﴾ [طه]

لذلك يُسمُّون الشىء الجميل الذى يجذب النظر ، فلا ينظر إلى غيره (قيد النظر) يقول الشاعر :

سَمَّرْتُ عَيْنى فى القَمَرِ فَنَالَ منِّى مَنْ نَظَر
يَا ليْتَ لائمى عذر فحُسْنه قَيْد النَّظرْ

أما الثبات الحسى فيعنى : ثبات العين فى ذاتها بحيث لا ترى ، ومنه قول المرأة للخليفة : أقرَّ الله عينك ، وأتم عليك نعمتك . تُوهِم

أنها تدعو له ، وهى فى الحقيقة تدعو عليه تقصد : أقرَّ الله عينك .

يعنى : سكَّنها وجمدها بالعمى ، وأتمَّ عليك نعمتك . وتمام الشىء بداية نقصه على حَدِّ قول الشاعر :

إذَا تَمَّ شَىء بَدَا نَقْصُه ترقَّبْ زَوَالاً إذاَ قِيلَ تَمّ

أما القرُّ بمعنى البرد ، فمن المعلوم عن الحرارة أن من طبيعتها الاستطراق والانتشار فى المكان ، لكن حكمة الله خرقتْ هذه القاعدة فى حرارة جسم الإنسان ، حيث جعل لكل عضو فيه حرارته الخاصة ، فالجلد الخارجى تقف حرارته الطبيعية عند ٣٧° ، فى حين أن الكبد مثلاً لا يؤدى مهمته إلا عند ٤٠° .

أما العين فإذا زادتْ حرارتها عن ٩° تنصهر ، ويفقد الإنسان البصر ، والعجيب أنهما عضوان فى جسم واحد ، فهى آية من آيات الله فى الخلق ، لذلك حين ندعو لشخص نقول له : أقرَّ الله عينك يعنى : جعلها باردة سالمة ، ألاَ ترى أن الإنسان إذا غَضِب تسخنُ عينه ويحمرّ وجهه ؟

فالمعنى هنا ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ۖ ﴿٩﴾﴾ [القصص] يعنى يكون نعمة ومتعة لنا ، نفرح به ونقنع ، فلا ننظر إلى غيره .

وفى موضع آخر يشرح لنا الحق سبحانه قُرَّة العين : ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ.. ﴿١٩﴾﴾ [الأحزاب]

فهؤلاء تدور أعينهم هنا وهناك كما نقول نحن : (فلان عينه لايجة) يعنى : لا تهدأ ، إما من خوف ، أو من قلق ، أو من اضطراب ، وهذا كله ينافى قُرَّة العين .

وقولها بعد ذلك ﴿لا تَقْتُلُوهُ.. ⑨﴾[القصص] تعنى : أنهم فعلاً هَمُّوا بقتله ، ففى بالهم إذن أن هلاك فرعون على يدى هذا الطفل ، وهم على يقين من ذلك .

﴿عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ⑨﴾[القصص] يعنى : لا يشعرون بنفعه لهم أو عدم نفعه ، وهل سيكون لهم ولداً أم عدواً ؟

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ⑩﴾ (١)

الفؤاد : هو القلب ، لكن لا يُسمى القلب فؤاداً إلا إذا كانت فيه قضايا تحكم حركتك ، فالمعنى : أصبح فؤاد أم موسى ﴿فَارِغًا..⑩﴾

---

(١) جاء فى تأويل هذه الكلمة عدة تأويلات منها :

- أى : خالياً من ذكر كل شىء فى الدنيا إلا من ذكر موسى . قاله ابن مسعود وابن عباس والحسن ومجاهد وعكرمة وقتادة والضحاك وغيرهم .
- أى : فارغاً من الوحى إذ أوحى إليها حين أمرت أن تلقيه فى البحر ﴿وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي.. ⑦﴾ [القصص] والعهد الذى عهده إليها أن يرده ويجعله من المرسلين . قاله الحسن وابن إسحاق وابن زيد .
- أى : فارغاً من الغم والحزن لعلمها أنه لم يغرق . قاله أبو عبيدة والأخفش .
- أى : ذهب عقلها . قاله مالك . والمعنى أنها حين سمعت بوقوعه فى يد فرعون طار عقلها من فرط الجزع والدهش .

قال النحاس : أصح هذه الأقوال الأول ، والذين قالوه أعلم بكتاب الله عز وجل ، فإذا كان فارغاً من كل شىء إلا من ذكر موسى فهو فارغ من الوحى ، وقول أبى عبيدة : فارغاً من الغم غلط قبيح ، لأن بعده ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا .. ⑩﴾ [القصص] . [تفسير القرطبى ٥١٤١/٧] .

[القصص] أى : لا شىء فيه مما يضبط السلوك ، فحين ذهبتْ لترمى بالطفل وتذكرت فراقه وما سيتعرض له من أخطار كادت مشاعر الأمومة عندها أن تكشف سرَّها ، وكادت أنْ تسرقها هذه العاطفة .

﴿ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِ .. ﴿١٠﴾ ﴾ [القصص] يعنى : تكشف أمره ﴿ لَوْلا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا ﴿١٠﴾ ﴾ [القصص]

وسبق أنْ قُلْنا : إن الإنسان يدرك الأشياء بآلات الإدراك عنده ، ثم يتحول هذا الإدراك إلى وجدان وعاطفة ، ثم إلى نزوع وعمل ، ومثَّلْنا لذلك بالوردة التى تراها بعينيك ، ثم تعجب بها ، ثم تنزع إلى قطفها ، وعند النزوع تواجهك قضايا فى الفؤاد تقول لك : لا يحق لك ذلك ، فربما رفض صاحب البستان أو قاضاك ، فالوردة ليست ملْكاً لك .

وكذلك أم موسى ، كان فؤادها فارغاً من القضية التى تُطمئنها على وليدها ، بحيث لا تُفشى عواطفها هذا السر .

ومعنى ﴿ رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا .. ﴿١٠﴾ ﴾ [القصص] أى : ثبَّتْناها ليكون الأمر عندها عقيدة راسخة لا تطفو على سطح العاطفة ، ومن ذلك قوله تعالى عن أهل الكهف :﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴿١٤﴾ ﴾ [الكهف]

إذن : الربْط على القلب معناه الاحتفاظ بالقضايا التى تتدخل فى النزوع ، فإنْ كان لا يصح أن تفعل فلا تفعل ، وإنْ كان يصح أنْ تفعل فافعل ، فهذه القضايا الراسخة هى التى تضبط التصرفات ، وكان فؤاد أم موسى فارغاً منها .

لذلك نقول لمن يتكلم بالكلام الفارغ الذى لا معنى له : دَعْكَ من هذا الكلام الفارغ – أى : الذى لا معنى له ولا فائدةَ منه ، ومن ذلك قولهم : فلان عقله فارغ يعنى : من القضايا النافعة . وإلا فليس هناك شىء فارغ تماماً ، لابُدَّ أن يكون فيه شىء ، حتى لو كان الهواء .

ومنه قولـه تعالى :﴿ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ.. ﴿٤٣﴾ ﴾ [إبراهيم] ويقولون فى العامية : (فلان معندوش ولا الهوا) ذلك لأن الهواء آخر ما يمكن أن يفرغ منه الشىء .

ومعنى : ﴿ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِ .. ﴿١٠﴾ ﴾ [القصص] يعنى : قاربت من فراغ فؤادها أن تقول إنه ولدى[1] ﴿ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ [القصص] لأن الإيمـان هو الذى يجلب لك النفع ، ويمنعك من الضـار ، وإنْ كان فـيه شهـوة عاجلة لك ، فـمنعهـا إيمانُها من شـهوة الأمـومة فى هذا المـوقف ، ومن ممـارسة العطف والحـنان الطبيـعيـين فى الأم ؛ لأن هذه شهوة عاجلة يتبعها ضرر كبير ، فإنْ أحسُّوا أنه ولدها قتلوه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ[2] فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ﴾

قُصِّيه : يعنى : تتبعى أثره ، وراقبى سيره إلى أين ذهب ؟ وماذا فُعِل به ؟ وحين سـمعت الأخت هذا الأمر سارعتْ إلى التـنفيذ ؛ لذلك استخدم الفاء الدالة على التعقيب وسرعة الاستجابة ﴿ فَبَصُرَتْ بِهِ ﴿١١﴾ ﴾ [القصص] ولم يقُلْ : فقـصَّته ؛ لأن البـصر وإنْ كان بـمعنى الرؤية إلا أنه يدل على العناية والاهتمام بالمرئى .

---

(١) قال ابن عباس : أى تصـيح عند إلقائه : وا ابناه . وقال السدى : كادت تقول لما حـملته لإرضاعه وحضانته : هو ابنى . وقيل : إنه لما شب سمعت الـناس يقولون موسى ابن فرعون ، فشق عليها وضاق صدرها ، وكادت تقول : هو ابنى . [تفسير القرطبى ٥١٤٢/٧] .

(٢) القصُّ : اتباع الأثـر . ويقال : خرج فـلان قصصـاً فى أثر فلان وذلك إذا اقـتص أثره . [لسان العرب ـ مادة : قصص] .

ومعنى : ﴿ عَن جُنُبٍ .. (١١) ﴾ [القصص] من ناحية بحيث لا يراها أحد ، ولا يشعر بتتبعها له ، واهتمامها به . ومن ذلك ما حكاه القرآن من قول السامرى :﴿ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ .. (٩٦) ﴾ [طه] أى : رأى من حيث لا يطَّلِع أحد عليه .

ونلحظ هنا أن أخت موسى أخذتْ الأمر من أمها ﴿ قُصِّيهِ .. (١١) ﴾ [القصص] فقط ولم تلفت نظرها إلى هذا الاحتياط ﴿ عَن جُنُبٍ .. (١١) ﴾ [القصص] مما يدلُّ على ذكاء الفتاة وقيامها بمهمتها على أكمل وجه ، وإن لم تُكلَّف بذلك ، وهذا من حكمة المرسَل الحريص على أداء رسالته على وجهها الصحيح .

وما أجملَ ما قاله الشاعر فى هذا المعنى :

إذَا كُنْتَ فى حَاجَةٍ مُرْسِلاً فأرسِلْ حكيماً ولاَ تُوصِهْ

وقوله تعالى : ﴿ عَن جُنُبٍ .. (١١) ﴾ [القصص] يظن البعض أن جنب يعنى قريب منى ، وهذا غير صحيح ؛ لأن معنى الجنب ألاَّ تكون فى مواجهتى ، لذلك يقول تعالى :﴿ وَالْجَارِ ذِى الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ .. (٣٦) ﴾ [النساء] إذن : الجار الجنب مقابل الجار القريب ، فمعناه الجار البعيد .

فكأن الفتاة حين ذهبت لتتبع سَيْر التابوت أخذت مكاناً بعيداً منه ، حتى لا يفطن أحد إلى متابعتها له .

ومن ذلك قولنا : (فلان تجنّبنى ، أو فلان واخد جنب منى) أى : يبتعد عنى ، إذن : البعض يفهم هذه الكلمة على عكس مدلولها .

ألاَ ترى لقول إبراهيم عليه السلام : ﴿ وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ .. (٣٥) ﴾ [إبراهيم] وقوله تعالى : ﴿ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ (٣٠) ﴾ [الحج] فالاجتناب يعنى : الابتعاد .

وفى تحريم الخمر قال تعالى :﴿ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ[1] رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ .. (٩٠) ﴾ [المائدة] فطلع علينا مَنْ يقول : هذا ليس نصاً فى التحريم ، لأنه لم يقُلْ حرَّمْت عليكم ، فهى مجرد موعظة ونصيحة .

ونقول : لو فهمت معنى ﴿ فَاجْتَنِبُوهُ .. (٩٠) ﴾ [المائدة] لعلمتَ أنها أقوى فى التحريم من حرمت عليكم ؛ لأن معنى حرَّمْت عليكم الخمر يعنى : لا تشربوها ، أما ﴿ فَاجْتَنِبُوهُ .. (٩٠) ﴾ [المائدة] يعنى : ابتعدوا عنها كلية شُرْباً أو بَيْعاً ، أو شراء ، أو نقلاً ، أو حتى الجلوس فى مجالسها .

ثم تتحدث الآيات بعد ذلك عن تمهيدات الأقدار للأقدار ، فتقول :

﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ (١٢) ﴾

التحريم هنا لا يعنى التحريم بالنسبة للمكلَّف : هذا حلال وهذا حرام ، إنما ﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ .. (١٢) ﴾ [القصص] يعنى : منعناه أنْ يرضع من المرضعات اللائى يأتونَ بهن لتتقلب عليه المراضع واحدة بعد الأخرى ، إلى أن تأتيه أمه .

و ﴿ الْمَرَاضِعَ .. (١٢) ﴾ [القصص] جمع مُرضِع ، ونقول أيضاً : مرضعة ، ولكل من اللفظين مدلول ، على خلاف ما يظنه البعض أنهما بمعنى واحد .

---

(١) الأزلام : جمع زَلَم : وهى قطعة من الخشب تشبه السهم يقترعون بها ، فيقسمون بها الذبائح ، يُكتب على كل زلم عدد الأنصباء يأخذه من المقامرين مَنْ يخرج له وهو نوع من الميسر المحرّم شرعاً . [القاموس القويم ١/٢٨٩] .

واقرأ أول سورة الحج : ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ.. (٢)﴾ [الحج]

المرضِع : التى من شأنها أنْ تُرضع ، وصالحة لهذه العملية ، لكن المرضعة التى تُرضع الآن فعلاً ، وعلى حِجْرها طفل يلتقم ثديها ، وفى موقف القيامة ستذهل هذه عن طفلها من هَوْل ما ترى ، إذن : فالتى تذهل هى المرضعة لا المرضع .

والضمير فى ﴿فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ .. (١٢)﴾ [القصص] يعود على أخت موسى ؛ لأنها ما زالت فى مهمة تتبُّع الولد ، وقد سمعها هامان تقول ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ (١٢)﴾ [القصص] فقال لها : لابدَّ أنك من أهل هذا الولد ؟ وتعرفين قصَّته ، فقالت : بل ناصحون للملك مخلصون له[1] . وفعلاً وافقوها على ما نصحتْ به ؛ لأنهم معذورون ، فالولد يأبى الرضاعة من الأخريات .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣)﴾

وسبق أنْ وعدها الله :﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ.. (٧)﴾ [القصص] وها هو أوانُ تحقيق الوعد الأول ، وهو بُشْرى بتحقُّق الوعد الثانى ﴿وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧)﴾ [القصص] لكن هذا فى مستقبل الأيام ، وسوف يتحقق أيضاً .

---

(١) قال ابن عباس : فلما قالت ذلك أخذوها وشكُّوا فى أمرها وقالوا لها : وما يدريك بنصحهم له وشفقتهم عليه ؟ فقالت لهم : نصحهم له وشفقتهم عليه رغبتهم فى سرور الملك ورجاء منفعتهم [تفسير ابن كثير ٣/٣٨١] .

وقوله سبحانه : ﴿ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ .. (١٣) ﴾ [القصص] يدل على أن الأسباب فى يد المسبب سبحانه ، فنحن الذين رددناه ، لا أخته ولا فرعون ؛ لأننا نُسيِّر الأمور على وَفْق مرادنا ، ونُمهّد لها الطريق حتى أننا نحول بين المرء وقلبه ، لينفذ قضاؤنا فيه .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣) ﴾ [القصص] يعنى : لا يعلمون أن وَعْد الله حق .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٤) ﴾

الأشُدّ : يعنى القوة واكتمال النمو ، وقد حدّدوا لذلك سنَّ الثامنة عشرة إلى العشرين ﴿ وَاسْتَوَىٰ .. (١٤) ﴾ [القصص] الاستواء هو بلوغُ العقلِ مرحلةَ النضج الفكرى ، فلما اكتملت لموسى - عليه السلام - قوة الجسم ونُضْج العقل ﴿ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٤) ﴾ [القصص]

ثم يقصُّ الحق سبحانه ، فيقول :

﴿ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ ۖ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ۖ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ (١٥) ﴾

أراد موسى - عليه السلام - أن يدخل القرية على حين غفلة من أهلها ، لأن بنى إسرائيل كانوا مُضطهدين ، وكان القبط فى بعض المدن ذاتَ الكثافة العددية منهم يُحرِّمون على بنى إسرائيل دخول قراهم ؛ لذلك اختار موسى وقت غفلة الناس ، لكنه لم يدخل فى الليل لأنه لا يهتدى إلى الطريق ، فقيل : دخلها وقت القيلولة والناس فى بيوتهم[1] .

﴿ فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَـٰذَا مِن شِيعَتِهِ .. ﴿١٥﴾ ﴾ [القصص] يعنى : من بنى إسرائيل ﴿ وَهَـٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ .. ﴿١٥﴾ ﴾ [القصص] يعنى : الأقباط ﴿ فَاسْتَغَاثَهُ .. ﴿١٥﴾ ﴾ [القصص] أى : طلب منه العَوْن والنجدة ﴿ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ .. ﴿١٥﴾ ﴾ [القصص] يعنى : ضربه بجُمْع يديه ، فجاءت نهاية القبطى وأجله مع هذه الضربة ، لا أنه مات بها ، وكثيراً ما تحدُث هذه المسألة فى شجار مثلاً بين شخصين ، فيضرب أحدهما الآخر فيقع ميتاً ، وبتشريح جثته يتبين أنه مات بسبب آخر .

ومثال ذلك : حين تكلِّف شخصاً بقضاء حاجة لك ، أو تُوسِّطه فى أمر ما ، فيدخل عند المسئولين ويسعى إلى أنْ يقضى لك حاجتك فتقول : « فلان قضالى كذا وكذا » وهو فى الحقيقة ما قضى فى الأرض إلا بعد أن قضى الله فى السماء .

لكن الله تعالى أراد أنْ يُكرم الواسطة ، فجعل قضاءها موافقاً لقضائه سبحانه ، فنقول فى هذه الحالة : قضى الله المصلحة معه لا به .

كان القبط - كما قُلْنا - يكرهون بنى إسرائيل ويُعذِّبونهم ، فلما

---

(١) قاله سعيد بن جبير وقتادة . وقاله ابن عباس أيضاً ، وفى رواية عنه : هو بين العشاء والعتمة . [تفسير القرطبى ٥١٤٦/٧] .

قتلَ موسى القبطى زاد غضبهم وكراهيتهم لبنى إسرائيل ؛ لذلك أحسَّ موسى أن هذا العمل من الشيطان ، ليزيد هذه العداوة﴿ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ (١٥) ﴾ [القصص]

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٦) ﴾

يُعلمنا موسى - عليه السلام - أن الإنسان ساعة يقترف الذنب ، ويعتقد أنه أذنب لا يكابر ، إنما ينبغى عليه أنْ يعترف بذنبه وظلمه لنفسه ، ثم يبادر بالتوبة والاستغفار ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي .. (١٦) ﴾ [القصص] يعنى : يا ربّ حكْمك هو الحقّ ، وأنا الظالم المعترف بظلمه .

ومن هنا كان الفَرْق بين معصية آدم عليه السلام ومعصية إبليس : آدم عصى واعترف بذنبه وأقرَّ به ، فقال﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا .. (٢٣) ﴾[الأعراف] فقبل الله منه وغفر له . أما إبليس فعلَّل عدم سجوده : ﴿ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا (٦١) ﴾[الإسراء] وقال :﴿ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ (٧٦) ﴾[ص] فردَّ الحكم على الله .

لذلك نقول لمن يُفتى بغير ما شرع الله فيُحلِّل الحرام لسبب ما ، نقول له : احذر أنْ تردَّ على الله حكمه ؛ لأنك إنْ فعلتَ فأنت كإبليس حين ردَّ على الله حُكمه ، لكن افْتِ بالحكم الصحيح ، ثم تعلَّل بأن الظروف لا تساعد على تطبيقه ، فعلى الأقل تحتفظ بإيمانك ، والمعصية تمحوها التوبة والاستغفار ، أما الكفر فلا حيلةَ معه .

فلما استغفر موسى ربه غفر له ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٦) ﴾[القصص] يُعرف الذنب ، ثم يغفره رحمة بنا ؛ لأن الإنسان حين تصيبه غفلة

فيقع فى المعصيـة إذا لم يجد باباً للتوبة وللرجوع يئس وفقد الأمل ، وتمادى فى معصيته ونسميه (فاقد) عنده سُعار للجريمة ، ولا مانع لديه من ارتكاب كل الذنوب .

إذن : فمشروعية التوبة والاستغفار تعطى المؤمن أملاً فى أنه لن يُطرَدَ من رحـمة الله ، لأن رحـمـة الله واسعـة تسَع كل ذنوبه مـهمـا كثُرتْ .

لذلك يقول تـعالى فى مشـروعيـة التوبة ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا .. (١١٨) ﴾ [التوبة] والمـعنى : شرع لهم التـوبة ، وحثَّـهم عليهـا ليتـوبوا بالفعل فيقبل منهم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ (١٧) ﴾ (١)

قـوله : ﴿ بِمَـا أَنْعَـمْتَ عَلَيَّ .. (١٧) ﴾ [القـصص] يعنى : بالمـغـفـرة وعذرتنى وتُبْت علىَّ ﴿ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِّلْمُجْرِمِينَ (١٧) ﴾ [القصص] أى : عهد الله علىَّ ألاَّ أكون مُعيناً للمجرمين (٢) .

ثم يقول الحق سبحانه :

---

(١) أى : من المعرفـة والحكمة والتوحيـد . قاله القرطبى فى تفسـيره (٥١٤٨/٧) وقال ابن كثير فى تفسيره (٣٨٢/٣) : « أى بما جعلت لى من الجاه والعز والنعمة » .

(٢) أراد بمظاهرة المجرمين إما صحبة فرعون وانتظامه فى جملته ، وتكثير سواده ، حين كان يركب بركوبه كالولد مع الوالد ، وكان يُسمَّى ابن فرعون ، وإما بمظاهرة من أدت مظاهرته إلى الجرم والإثم كـمظاهرة الإسرائيلى المـؤدية إلى قتل الذى لم يحل له قـتله . [القرطبى فى تفسيره ٥١٤٨/٧] .

﴿ فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِي ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ ﴾

أى : بعد أن قتل موسى القبطىَّ صار خائفاً منهم ﴿ يَتَرَقَّبُ .. ﴿١٨﴾ ﴾ [القصص]

ينظر فى وجوه الناس ، يرقب انفعالاتهم نحوه ، فربما جاءوا ليأخذوه[1] ، كما يقولون : يكاد المريب أنْ يقول : خذونى ، فلو جلس قوم فى مكان ، ثم فاجأهم رجال الشرطة تراهم مطمئنين لا يخافون من شىء ، أما المجرم فيفر هارباً .

ومن ذلك ما يقوله أهل الريف : (اللى على راسه بطحة يحسس عليها)

وهو على هذه الحال من الخوف والترقُّب إذ بالإسرائيلى الذى استغاث به بالأمس ﴿ يَسْتَصْرِخُهُ .. ﴿١٨﴾ ﴾[القصص] استصرخ يعنى : صرخ ، ونادى على مَنْ يُخلِّصه ، وهو انفعال للاستنجاد للخلاص من مأزق ، ومن ذلك قوله تعالى حكاية عن إبليس﴿ مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ .. ﴿٢٢﴾ ﴾ [إبراهيم]

وسبق أنْ تكلَّمنا فى همزة الإزالة نقول : صرخ فلان يعنى استنجد بأحد فأصرخه يعنى : أزال سبب صراخه ، فمعنى الآية : أنا لا أزيل صراخكم ، ولا أنتم تزيلون صراخى .

عندها قال موسى عليه السلام لصاحبه الذى أوقعه فى هذه

---

(١) قال سعيد بن جبير : يتلفت من الخوف . وقيل : ينتظر الطلب ، وينتظر ما يتحدث الناس به . [تفسير القرطبى ٧/٥١٥٠] وانظر الدر المنثور للسيوطى (٦/٤٠٠) .

الورطة بالأمس ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾﴾[القصص] تريد أنْ تُغـويَنى بأنْ أفعل كما فعلت بالأمس ، وما كـان موسى - عليه السلام - ليقع فى نفس الخطأ الذى وقع فيه ، فلا يُلْدَغ المؤمن من جُحْر مرتين[1] .

﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ[2] يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾

قوله تعالى :﴿ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا ..﴿١٩﴾﴾[القصص] يعنى : أن موسى حَنَّ مـرة أخرى للذى من شـيعتـه وهو الإسرائيلى وناصره ، ولكن الرجل القبطى هذه المـرة واجهه ﴿أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالأَمْسِ.. ﴿١٩﴾﴾[القصص] فهـو يعرف ما حـدث من موسى ، وما داموا قد عـرفوا أنه القاتل ، فلا بُدَّ لهم أنْ يطلبوه ، وأن ينـتقموا منه .

وقوله تعالى :﴿ إِن تُرِيدُ إِلاَّ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى الأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾[القصص] إنْ هنا نافـية يعنى : مـا تريد إلا أن تكون جباراً فى الأرض ، فقد قتلتَ نفساً بالأمس ، وتريد أنْ تقتلنى اليوم .

إذن : عـرفـوا أن موسـى هو القـاتل ، وهناك ولا بُدَّ مَنْ يسـعى

---

(١) نص حديث لرسـول الله ﷺ ، أخرجه البخارى فـى صحيحه (٦١٣٣) ، وكـذا مسلم فى صحيحه (٢٩٩٨) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

(٢) القائل هنا هو : الإسرائيلى الذى من شيعة موسى والذى كان قد استصرخه بالأمس . قال سعيد بن جبير : أراد موسى أن يبطش بالقبطى فتوهم الإسرائيلى أنه يريده ، لأنه أغلظ له فى القول ، فقال : ﴿أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالأَمْسِ .. ﴿١٩﴾﴾[القصص] فسمع القبطى الكلام فأفشاه . [تفسير القرطبى ٥١٥١/٧] .

للإمساك به ، وفى هذا الموقف لحقه الرجل المؤمن :

﴿ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾

هو الرجل المؤمن من آل فرعون ، جاء لينصح موسى بالخروج والهرب قبل أنْ يُمسكوا به فيقتلوه[1] .

﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ ﴾

لأنهم يضطهدوننا ويعذبوننا من غير ما جريرة ، فما بالك بعد أنْ وجدوا فرصة وذريعة ليزدادوا ظلماً لنا ؟

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ ﴾

معنى ﴿ تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ .. ﴿٢٢﴾ ﴾ [القصص] يعنى : ناحيتها ، وأراد أنْ يهرب من مصر كلها ، ولم يكُنْ يقصد مدين بالذات ، إنما سار فى طريق صادف أنْ يؤدى إلى مدين بلد شعيب عليه السلام .

ولو كانت مَدْينُ مقصودة له لما قال بعد توجهه : ﴿ عَسَىٰ رَبِّى أَن يَهْدِيَنِى سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ ﴾ [القصص] فموسى حينما خرج من مصر خائفاً

---

(١) قال أكثر أهل التفسير : هذا الرجل هو حزقيل بن صبورا مؤمن آل فرعون ، وكان ابن عم فرعون ، ذكره الثعلبى . وقيل : طالوت ذكره السهيلى . وقال المهدوى عن قتادة : اسمه شمعون مؤمن آل فرعون [تفسير القرطبى ٥١٥٢/٧] .

يريد الهرب لم يفكر فى وجهة معينة ، فالذى يُهمه أنْ يخرج من هذه البلدة ، وينجو بنفسه .

﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ (١) قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ ﴾

عرض القرآن الكريم هذه القصة فى إيجاز بليغ ، ومع إيجازها فقد أوضحتْ مهمة المرأة فى مجتمعها ، ودور الرجل بالنسبة للمرأة ، والضرورة التى تُلجىء المرأة للخروج للعمل .

معنى ﴿ وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ .. ﴿٢٣﴾ ﴾ [القصص] يعنى : جاء عند الماء ، ولا يقتضى الورود أن يكون شَرِب منه . والورود بهذا المعنى حلَّ لنا الإشكال فى قوله تعالى : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا .. ﴿٧١﴾ ﴾ [مريم] فليس المعنى دخول النار ، ومباشرة حَرِّها ، إنما ذاهبون إليها ، ونراها جميعنا ـ إذن : وردْنا العَيْن . يعنى : جئنا عندها ورأيناها ، لكن الشرب منها ، شىء آخر .

﴿ وَجَدَ عَلَيْهِ .. ﴿٢٣﴾ ﴾ [القصص] أى : على الماء ﴿ أُمَّةً .. ﴿٢٣﴾ ﴾ [القصص] جماعة ﴿ يَسْقُونَ .. ﴿٢٣﴾ ﴾ [القصص] أى : مواشيهم ﴿ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ .. ﴿٢٣﴾ ﴾ [القصص] يعنى : بعيداً عن الماء ﴿ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ .. ﴿٢٣﴾ ﴾ [القصص] أى : تكفّان الغنم وتمنعانها من الشُّرْب لكثرة

---

(١) أى : تسوقان أغنامهما ، أو تدفعان الغنم عن التفرق أو عن الزحام . [القاموس القويم ١/٢٤٧] .

الزحام على الماء ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا..(٢٣)﴾[القصص] أى : ما شأنكما ؟

وفى الاستفهام هنا معنى التعجُّب يعنى : لماذا تمنعان الغنم أنْ تشربَ ، وما أتيتُما إلا للسُّقْيا ؟

﴿قَالَتَا لا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (٢٣)﴾ [القصص]

وقولهما ﴿حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ .. (٢٣)﴾ [القصص] يعنى : ينصرفوا عن الماء ، فصدر مقابل ورد ، فالآتى للماء : وارد ، والمنصرف عنه : صادر . نقول : صدر يَصْدُر أى : بذاته ، وأصدر يُصْدر أى : غيره .

فالمعنى : لا نَسْقى حتى يسقى الناس وينصرفوا . و ﴿الرِّعَاءُ .. (٢٣)﴾ [القصص] جمع رَاعٍ . ثم يذكران العلَّة فى خروجهما لسقْى الغنم ومباشرة عمل الرجال ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (٢٣)﴾ [القصص]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (٢٤)﴾

معنا ـ إذن ـ فى هذه القصة أحكام ثلاثة ﴿لا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ..(٢٣)﴾ [القصص] أعطَتْ حكماً و ﴿أَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (٢٣)﴾ [القصص] أعطتْ حُكْماً و ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا .. (٢٤)﴾ [القصص] أعطت حكماً ثالثاً .

وهذه الأحكام الثلاثة تُنظم للمجتمع المسلم مسألة عمل المرأة ، وما يجب علينا حينما تُضطر المرأة للعمل ، فمن **الحكم الأول** نعلم أن سَقْى الأنعام من عمل الرجال ، ومن **الحكم الثانى** نعلم أن المرأة لا تخرج للعمل إلا للضرورة ، ولا تؤدى مهمة الرجل إلا إذا عجز الرجل عن أداء هذه المهمة ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (٢٣)﴾ [القصص]

أما **الحكم الثالث** فيعلم المجتمع المسلم أو حتى الإنسانى إذا رأى المرأة قد خرجت للعمل فلابد أنه ليس لها رجل يقوم بهذه المهمة ، فعليه أن يساعدها وأنْ يُيسِّر لها مهمتها .

وأذكر أننى حينما سافرت إلى السعودية سنة ١٩٥٠ ركبتُ مع أحد الزملاء سيارته ، وفى الطريق رأيته نزل من سيارته ، وذهب إلى أحد المنازل ، وكان أمامه طاولة من الخشب مُغطَّاة بقطعة من القماش ، فأخذها ووضعها فى السيارة ، ثم سِرْنا فسألتُه عما يفعل ، فقال : من عاداتنا إذا رأيتُ مثل هذه الطاولة على باب البيت ، فهى تعنى أن صاحب البيت غير موجود ، وأن ربة البيت قد أعدَّتْ العجين ، وتريد مَنْ يخبزه فإذا مَرَّ أحدنا أخذه فخبزه ، ثم أعاد الطاولة إلى مكانها .

وفى قوله تعالى : ﴿لا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ .. (٢٣)﴾ [القصص] إشارة إلى أن المرأة إذا اضطرتْ للخروج للعمل ، وتوفرتْ لها هذه الضرورة عليها أنْ تأخذَ الضرورة بقدرها ، فلا تختلط بالرجال ، وأنْ تعزل نفسها عن مزاحمتهم والاحتكاك بهم ، وليس معنى أن الضرورة أخرجتْ المرأة لتقوم بعمل الرجال أنها أصبحتْ مثلهم ، فتبيح لنفسها الاختلاط بهم .

وقوله تعالى : ﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (٢٤)﴾ [القصص] فكان موسى ـ عليه السلام ـ طوال رحلته إلى مَدْين مسافراً بلا زاد حتى أجهده الجوع ، وأصابه الهزال حتى صار جِلْداً على عظم ، وأكل من بقل الأرض[1] ، وبعد أن سقى

---

(١) قال ابن عباس : سار موسى من مصر إلى مدين ليس له طعام إلا البقل وورق الشجر وكان حافياً ، فما وصل إلى مدين حتى سقطت نعل قدميه وجلس فى الظل وهو صفوة الله من خلقه وإن بطنه للاصق بظهره من الجوع وإن خضرة البقل لتُرى من داخل جوفه وإنه لمحتاج إلى شق تمرة . [تفسير ابن كثير ٣/٣٨٣] .

للمرأتين تولَّى إلى ظلٍّ شجرة ليستريح ، وعندها لَهَج بهذا الدعاء ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (٢٤)﴾ [القصص]

كأن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ يريد من الضعيف أنْ يتجه إلى المعونة ، وحين يتجه إليها فلن يفعل هو ، إنما سيفعل الله له ؛ لذلك نلحظ أن موسى فى ندائه قال ﴿رَبِّ .. (٢٤)﴾ [القصص] واختار صفة الربوبية ، ولم يقُلْ يا الله ؛ لأن الألوهية تقتضى معبوداً ، له أوامر ونواه ، أمّا الرب فهو المتولِّى للتربية والرعاية ، فقال : يا رب أنا عبدكَ ، وقد جئتَ بى إلى هذا الكون ، وأنا جائع أريد أن آكل .

ومعنى ﴿أَنزَلْتَ .. (٢٤)﴾ [القصص] أن الخير منك فى الحقيقة ، وإنْ جاءنى على يد عبد مثلى ؛ ذلك لأنك حين تُسلسل أىَّ خير فى الدنيا لا بُدَّ أن ينتهى إلى الله المنعم الأول ، وضربنا لذلك مثلاً برغيف العيش الذى تأكله ، بدايته نبتَة لولا عناية الله ما نبتتْ .

لذلك يقولون فى (الحمد لله) صيغة العموم فى العموم ، حتى إنْ حمدتَ إنساناً على جميل أسداه إليك ، فأنت فى الحقيقة تحمد الله حيث ينتهى إليه كُلُّ جميل .

إذن : فحمْد الناس من باطن حمد الله ، والحمد بكل صوره وبكل توجهاته ، حتى ولو كانت الأسباب عائدة على الله تعالى ، حتى يقول بعضهم : لا تحمد الله حتى تحمد الناس[1] .

ذلك لأن أزِمّة الأمور بيده تعالى ، وإنْ جعل الأسباب فى أيدينا ، وهو سبحانه القادر وحده على تعطيل الأسباب ، وأذكر أن بعض

---

(١) أخرج أحمد فى مسنده (٢/٢٥٨) ، والترمذى فى سننه (١٩٥٤) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « من لا يشكر الناس لا يشكر الله » قال الترمذى : « هذا حديث حسن صحيح » .

الدول (باكستان) أعلنت عن وفرة عندهم فى محصول القمح ، وأنها ستكفيهم وتفيض عنهم للتصدير ، وقبل أنْ ينضج المحصول أصابته جائحة فأهلكته . فاختلفت كل حساباتهم ، حتى استوردوا القمح فى هذا العام .

هذا معنى ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (٢٤)﴾ [القصص] فالخير منك يا رب ، وإنْ سُقْته إلىَّ على يد عبد من عبيدك ، وفقرى لا يكون إلا إليك ، وسؤالى لا يكون إلا لك .

ولم يكَدْ موسى - عليه السلام - ينتهى من مناجاته لربه حتى جاءه الفرج :

﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ[1] قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢٥)﴾

قوله : ﴿إِحْدَاهُمَا .. (٢٥)﴾ [القصص] أى : إحدى المرأتين ﴿تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ .. (٢٥)﴾ [القصص] يعني : : مُستحية فى مجيئها ، مُستحية فى مِشْيتها ﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا .. (٢٥)﴾ [القصص]

لما جاءتْه هذه الدعوة لم يتردد فى قبولها ، وانتهز هذه الفرصة ،

---

(١) قال عمرو بن ميمون : لم تكن سلفعاً من النساء ، خراجة ولاجة . وقيل : جاءته ساترة وجهها بكُم درعها ، قاله عمر بن الخطاب . [تفسير القرطبى ٥١٥٧/٧] . والمرأة السلفع : السليطة الجريئة . والسلفعة : البذية الفحاشة القليلة الحياء . [لسان العرب - مادة : سلفع] .

فهو يعلم أنها استجابة سريعة من ربه حين دعاه ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (٢٤)﴾ [القصص] وهى سبب من الأسباب يَمدُّه الله له ، وما كان له أنْ يردَّ أسباب الله ، فلم يتأبَّ ، ولم يرفض دعوة الأب .

ولم يذكر لنا السياق هنا كيف سار موسى والفتاة إلى أبيها ، لكن يُرْوَى أنهما سارا فى وقت تهبُّ فيه الرياح من خلفها ، وكانت الفتاة فى الأمام لتدلّه على الطريق ، فلما ضمَّ الهواء ملابسها ، فوصفت عجيزتها ، قال لها : يا هذه ، سيرى خلفى ودُلِّينى على الطريق[1] .

وهذا أدب آخر من آداب النبوة .

﴿فَلَمَّا جَاءَهُ .. (٢٥)﴾ [القصص] أى : سيدنا شعيب عليه السلام ﴿وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ .. (٢٥)﴾ [القصص] أى : ما كان بينه وبين القبطى ﴿قَالَ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢٥)﴾ [القصص] يعنى : طمأنه وهدَّأ من رَوْعه .

﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ (٢٦)﴾

وهذا حكم رابع نستفيده من هذه الآيات ، نأخذه من قول الفتاة ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ .. (٢٦)﴾ [القصص]

وفى قولها دليل على أنها لم تعشق الخروج للعمل ، إنما تطلب مَنْ يقوم به بدلاً عنها ؛ لتقرَّ فى بيتها .

ثم تذكر البنت حيثيات هذا العرض الذى عرضته على أبيها ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ (٢٦)﴾ [القصص] وهذان شرطان لابُدَّ

---

(١) أورده السيوطى فى الدر المنثور (٦/٤٠٥) وعزاه للفريابى وابن أبى شيبة فى المصنف وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وصححه عن عمر بن الخطاب .

منهما فى الأجير : قوة على العمل ، وأمانة فى الأداء . وقد تسأل : ومن أين عرفتْ البنت أنه قوى أمين ؟

قالوا : لأنه لما ذهب ليسقى لهما لم يزاحم الناس ، وإنما مال إلى ناحية أخرى وجد بها عُشْباً عرف أنه لا ينبت إلا عند ماء ، وفى هذا المكان أزاح حجراً كبيراً لا يقدر على إزاحته إلا عدة رجال ، ثم سقى لهما من تحت هذا الحجر ، وعرفتْ أنه أمين حينما رفض أن تسير أمامه ، حتى لا تظهر له مفاتن جسمها .

ويأتى دور الأب ، وما ينبغى له من الحزم فى مثل هذه المواقف ، فالرجل سيكون أجيراً عنده ، وفى بيته بنتان ، سيتردد عليهما ذهاباً وإياباً ، ليلَ نهار ، والحكمة تقتضى إيجاد علاقة شرعية لوجوده فى بيته ؛ لذلك رأى أن يُزوِّجه إحداهما ليخلقَ وَضْعاً ، يستريح فيه الجميع :

﴿ قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ (١)

فى الأمثال نقول : (اخطب لبنتك ولا تخطب لابنك) ذلك لأن

---

(١) تزوج موسى عليه السلام الصغرى منهما ، فعن أبى هريرة قال ، قال ﷺ : « قال لى جبريل : يا محمد ، إن سألك اليهود أىّ الأجلين قضى موسى ؟ فقل : أوفاهما ، وإن سألوك أيهما تزوج ؟ فقل : الصغرى منهما » أورده السيوطى فى الدر المنثور (٦/٤١٠) وعزاه لابن مردويه . وأورد نحوه أيضاً من حديث أبى ذر وعزاه للبزار وابن أبى حاتم والطبرانى فى الأوسط وابن مردويه بسند ضعيف .

كبرياء الأب يمنعه أنْ يعرض ابنته على شاب فيه كلُّ صفات الزوج الصالح - وإنْ كان القلة يفعلون ذلك - وهذه الحكمة من الأب فى أمر زواج ابنته تحلُّ لنا إشكالات كثيرة ، فكثيراً ما نجد الشاب سوىً الدين ، سوىً الأخلاق ، لكن مركزه الاجتماعى - كما نقول - دون مستوى البنت وأهلها ، فيتهيب أنْ يتقدّم لها فيُرفض .

وفى هذه الحالة على الأب أنْ يُجَرِّىء الشاب على التقدم ، وأن يُلمح له بالقبول إن تقدَّم لابنته ، كأن يقول له : لماذا لم تتزوج يا ولد حتى الآن ، وألف بنت تتمناك ؟ أو غير ذلك من عبارات التشجيع .

أما أن نرتقى إلى مستوى التصريح كسيدنا شعيب ﴿إِنِّى أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَىَّ هَاتَيْنِ .. (٢٧)﴾ [القصص] فهذا شىء آخر ، وأدب عَالٍ من العارض ، ومن المعروض عليه ، وفى مجتمعاتنا كثير من الشباب والفتيات ينتظرون هذه الجرأة وهذا التشجيع من أولياء أمور البنات .

ألاَ ترى أن الله تعالى أباح لنا أن نُعرِّض بالزواج لمن تُوفِّى عنها زوجها ، قال تعالى : ﴿وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ.. (٢٣٥)﴾ [البقرة] ولا تخفى علينا عبارات التلميح التى تلفت نظر المرأة للزواج .

وقوله : ﴿عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَانِىَ حِجَجٍ .. (٢٧)﴾ [القصص] أى : تكون أجيراً عندى ثمانى سنوات ، وهذا مَهْر الفتاة ، أراد به أن يُغلى من قيمة ابنته ، حتى لا يقول زوجها : إنها رخيصة ، أو أن أباها رماها عليه .

﴿فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِى إِن

شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٢٧) ﴾ [القصص] يعنى : حينما تعايشنى ستجدنى طيبَ المعاملة ، وستعلم أنك مُوفّق فى هذا النسب ، بل وستزيد هذه المدة محبة فى البقاء معنا .

فأجاب موسى عليه السلام :

﴿ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ ۖ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (٢٨) ﴾

أى : أنا بالخيار ، أقضى ثمانية ، أم عشرة ﴿ فَلا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (٢٨) ﴾ [القصص]

وقد أخذ العلماء حُكْماً جديداً من هذه الآية ، وهو أن المطلوب عند عقد الزواج تسمية المهر ، ولا يشترط قبضه عند العقد ، فلَك أنْ تُؤجله كله وتجعله مُؤخّراً ، أو تُؤجل بعضه ، وتدفع بعضه .

والمهر ثمن بُضْع المرأة ، بحيث إذا ماتت ذهب إلى تركتها ، وإذا مات الزوج يُؤخَذ من تركته ، بدليل أن شعيباً عليه السلام استأجر موسى ثمانى أو عشر سنين ، وجعلها مهراً لابنته .

ونلحظ أن السياق هنا لم يذكر شيئاً عن الطعام ، مع أن موسى عليه السلام كان جائعاً ودعا ربه : ﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (٢٤) ﴾ [القصص]

لكن يروى أهل السير أن شعيباً عليه السلام قدّم لموسى طعاماً ، وطلب منه أن يأكل ، فقال : أستغفر الله ، يعنى : أنْ آكل من طعام. كأنه مقابل ما سقى للبنتين الغنم ؛ لذلك قال : إنَّا أهل بيت لا نبيع عمل الآخرة بملء الأرض ذهباً ، فقال شعيب : كُلْ ، فإنَّا أهل بيت

نطعم الطعام ونقرى الضيف ، قال : الآن نأكل[1]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الأَجَلَ .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [القصص] أى : الذى اتفق عليه مع شعيب عليه السلام ﴿ وَسَارَ بِأَهْلِهِ .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [القصص] قلنا : إن الأهل تُطلق على الزوجة ، وفى لغتنا العامية نقول : معى أهلى أو الجماعة ونقصد الزوجة ؛ ذلك لأن الزوجة تقضى لزوجها من المصالح ما لا يقدر عليه إلا جماعة ، بل وتزيد على الجماعة بشىء خاص لا يؤديه عنها غيرها ، وهو مسألة المعاشرة ؛ لذلك حلَّتْ محلَّ جماعة .

ومعنى ﴿ آنَسَ .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [القصص] يعنى : أبصر ورأى أو أحسَّ بشىء من الأُنْس ، ﴿ الطُّورِ .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [القصص] اسم الجبل ﴿ قَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [القصص] انتظروا ﴿ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [القصص] يخبرها بوجود النار ، وهذا يعنى أنها لم تَرَها كما رآها هو .

وهذا دليل على أنها ليست ناراً مادية يُوقدها بشر ، وإلا لاستوى أهله معه فى رؤيتها ، فهذا ـ إذن ـ أمر خاص به ﴿ لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [القصص] يعنى : رجاءَ أنْ أجد مَنْ يخبرنا عن الطريق ، ويهدينا إلى أين نتوجه ﴿ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [القصص]

---

(١) أورده السيوطى فى الدر المنثور (٦/٤٠٧) عن أبى حازم وعزاه لابن عساكر . بنحوه .

﴿قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (٢٩)﴾ [القصص]

الجذوة : قطعة من نار متوهجة ليس لها لَهَب ، ومعنى تصطلون أى : تستدفئون بها ، وفى موضع آخر قال ﴿بِشِهَابٍ قَبَسٍ ..(٧)﴾ [النمل] يعنى : شعلة لها لسان ولهب ، فمأربهم - إذن - على هذه الحال أمران : مَنْ يخبرهم بالطريق حيث تاهَتْ بهم الخُطَى فى مكان لا يعرفونه ، ثم جذوة نار يستدفئون بها من البرد .

وفى موضع آخر[1] لهذه القصة لم يذكر قوله تعالى : ﴿امْكُثُوا..(٢٩)﴾ [القصص] وهذا من المآخذ التى يأخذها السطحيون على أسلوب القرآن ، لكن بتأمل الموقف نرى أنه أخذ صورة المحاورة بين موسى وأهله .

فزوجة وزوجها ضَمَّهما الظلام فى مكان موحش ، لا يعرفون به شيئاً ، ولا يهتدون إلى طريق ، والجو شديد البرودة ، فمن الطبيعى حين يقول لها : إنى رأيت ناراً سأذهب لأقتبس منها أن تقول له : كيف تتركنى وحدى فى هذا المكان ؟ فربما تضلّ أنت أو أضلّ أنا ، فيقول لها ﴿امْكُثُوا .. (٢٩)﴾ [القصص] إذن : لابُدَّ أن هذه العبارة تكررتْ على صيغتين كما حكاها القرآن الكريم .

كذلك فى : ﴿سَآتِيكُم .. (٧)﴾ [النمل] وفى مرة أخرى ﴿لَّعَلِّي آتِيكُم .. (٢٩)﴾ [القصص] قالوا : لأنه لما رأى النار قال ﴿سَآتِيكُم .. (٧)﴾ [النمل] على وجه اليقين ، لكن لما راجع نفسه ، فربما طفئت قبل أن يصل إليها استدرك ، فقال ﴿لَّعَلِّي آتِيكُم .. (٢٩)﴾ [القصص] على سبيل رجاء غير المتيقن .

---

(١) وذلك في سورة النمل . قال تعالى : ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (٧)﴾ [النمل]

﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾

وكأن الحق ـ تبارك وتعالى ـ يريد أنْ يعطينا خريطة تفصيلية للمكان ، فهناك مَنْ قال : من جانب الطور ، والجانب الأيمن من الطور . وهنا: ﴿ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الأَيْمَنِ فِى الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ . . ﴿٣٠﴾ ﴾[القصص]

ومضمون النداء : ﴿ أَن يَـٰمُوسَىٰ إِنِّى أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [القصص] سمع موسى هذا النداء يأتيه من كل نواحيه ، وينساب فى كل اتجاه ؛ لأن الله تعالى لا تحيزه جهة ؛ لذلك لا تقُلْ : من أين يأتى الصوت ؟ وليس له إلْفٌ بأن يخاطبه الرب ـ تبارك وتعالى .

ومع النداء يرى النار تشتعل فى فرع من الشجرة ، النار تزداد اشتعالاً ، والشجرة تزداد خضرة ، فلا النار تحرق الشجرة بحرارتها ، ولا الشجرة تُطفىء النار برطوبتها[1] . فهى ـ إذن ـ مسألة عجيبة يحَارُ فيها الفكر ، فَهل يستقبل كُلَّ هذه العجائب بسهولة أم لا بُدَّ له من مراجعة ؟

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾ ﴾

---

(١) أخرجه ابن أبى حاتم عن أبى بكر الثقفى قال : أتى موسى عليه السلام الشجرة ليلاً وهى خضراء والنار تتردد فيها ، فذهب يتناول النار فمالت عنه فذعر وفزع .. (أورده السيوطى فى الدر المنثور ٦/٤١٣) .

وفى موضع آخر يسأله ربه ليُؤنسه : ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ (١٧) ﴾ [طه] وقُلْنا : إن موسى ـ عليه السلام ـ أطال فى هذا الموقف ليطيل مُدَّة الأُنْس بربه ، فلما أحسَّ أنه أسرف وأطال قال : ﴿ وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ (١٨) ﴾ [طه] فأطنب أولاً ليزداد أُنْسه بربه ، ثم أوجز ليظل أدبه مع ربه .

أما هنا فيأتى الأمر مباشرة ليُوظِّف العصا : ﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ .. (٣١) ﴾ [القصص]

وقوله : ﴿ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ .. (٣١) ﴾ [القصص] لأنه رأى عجيبة أخرى أعجب مما سبق فلو سلَّمنا باشتعال النار فى خُضْرة الشجرة ، فكيف نُسلِّم بانقلاب العصا جاناً يسعى ويتحرك ؟

وكان من الممكن أنْ تنقلبَ العصا الجافة إلى شجرة خضراء من جنس العصا ، وتكون أيضاً معجزة ، أما أنْ تتحول إلى جنس آخر ، وتتعدَّى النباتية إلى الحيوانية والحيوانية المتحركة المخيفة ، فهذا شىء عجيب غير مألوف .

وهنا كلام محذوف ؛ لأن القرآن الكريم مبنىٌّ على الإيجاز ، فالتقدير : فألقى موسى عصاه ﴿ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا .. (٣١) ﴾ [القصص] ذلك ليترك للعقل فرصة الاستنباط ، ويُحرِّك الذِّهْن لمتابعة الأحداث .

والجانُّ : قُلْنا هو فرخ الحية ، وقد صُوِّرَتْ العصا فى هذه القصة بأنها : جانٌّ ، وثعبان ، وحية . وهى صور ثلاثة للشىء الواحد ، فهى فى خِفَّتها جانٌّ ، وفى طولها ثعبان ، وفى غِلَظها حية .

ومعنى ﴿ وَلَّىٰ مُدْبِرًا .. (٣١) ﴾ [القصص] يعنى : انصرف خائفاً ،

﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ ..(٣١)﴾ [القصص] لم يلتفت إلى الوراء ، فناداه ربه : ﴿يَا مُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ .. (٣١)﴾ [القصص] يعنى : ارجع ولا تخَفْ من شىء ، ثم يعطيه القضية التى يجب أن تصاحبه فى كل تحركاته فى دعوته ﴿إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ (٣١)﴾ [القصص] فلم يقل ارجع فسوف أؤمنك فى هذا الموقف إنما ﴿إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ (٣١)﴾ [القصص]

يعنى : هى قضية مستمرة ملازمة لك ؛ لأنك فى مَعيّة الله ، ومَنْ كان فى معية الله لا يخاف ، وإلا لو خِفْتَ الآن ، فماذا ستفعل أمام فرعون ؟

وهكذا يعطى الحق ـ سبحانه وتعالى ـ لموسى ـ عليه السلام ـ دُرْبة معه سبحانه ، ودُرْبة حتى يواجه فرعون وسَحرته والملأ جميعاً دون خوف ولا وَجَل ، وليكون على ثقة من نصر الله وتأييده فى جولته الأخيرة أمام فرعون .

وقد انتفع موسى ـ عليه السلام ـ بكل هذه المواقف ، وتعلَّم من هذه العجائب التى رآها فزادتْه ثقةً وثباتاً ؛ لذلك لما كاد فرعون أنْ يلحقَ بجنوده موسى وقومه ، وقالوا : ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١)﴾ [الشعراء] استعاد موسى عليه السلام قضية ﴿إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ (٣١)﴾ [القصص] فقال بملء فيه : ﴿قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢)﴾ [الشعراء]

فحيثية الثقة عند موسى ـ عليه السلام ـ هى معيّة الله له ، قالها موسى ، ويمكن أنْ تكذب فى وقتها حالاً ، فهاهم البحر من أمامهم ، وفرعون من خلفهم ، لكنها ثقة مَنْ أمَّنه الله ، وجعله فى معيَّته وحِفْظه .

وهذا الأمن قد كفله الله تعالى لجميع أنبيائه ورسله ، فقال تعالى ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣)﴾ [الصافات]

وقال : ﴿ يَـٰمُوسَىٰ لا تَخَفْ إِنِّي لا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ (١٠) ﴾[النمل]

وقد قُصَّ هذا كله على نبينا محمد ﷺ ، فانتفع به ووثق فى نصر الله ، فلما قال له الصِّديق وهما فى الغار : يا رسول الله ، لو نظر أحدهم تحت قدميْه لرآنَا ، قال ﷺ : « يا أبا بكر ، ما ظنُّك باثنين ، الله ثالثهما »[1] .

وحكى القرآن قوله ﷺ لصاحبه : ﴿ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا .. (٤٠) ﴾ [التوبة] وما دُمْنا فى معيَّة مَنْ لا تدركه الأبصار ، فلن تدركنا الأبصار .

ثم ينقل الحق - تبارك - وتعالى - موسى عليه السلام إلى آية أخرى تضاف إلى معجزاته :

﴿ اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٣٢) ﴾

معنى ﴿ اسْلُكْ يَدَكَ .. (٣٢) ﴾ [القصص] يعنى : أدخلها ﴿ فِي جَيْبِكَ .. (٣٢) ﴾ [القصص] الجيب : فتحة الثوب من أعلى ، وسَمَّوْها جَيْباً ؛ لأنهم كانوا يجعلون الجيوب مكان حفْظ الأموال فى داخل الثياب حتى لا تُسرق ، فكان الواحد يُدخِل يده فى قبَّة الثوب لتصل إلى جيبه .

---

(١) متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٦٦٣) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٣٨١) من حديث أبى بكر الصديق رضى الله عنه .

ونلحظ هنا دقة الأداء القرآنى ﴿تَخْرُجْ بَيْضَاءَ .. (٣٢)﴾ [القصص] ولم يقُلْ بصيغة الأمر : وأخرجها كما قال ﴿اسْلُكْ يَدَكَ .. (٣٢)﴾ [القصص] وكأن العملية عملية آلية منضبطة بدقة ، فبمجرد أن يُدخلها تخرج هى بيضاء ، فكأن إرادته على جوارحه كانت فى الإدخال ، أما فى الإخراج فهى لقدرة الله .

وكلمة ﴿بَيْضَاءَ .. (٣٢)﴾ [القصص] أى : مُنوّرة دون مرض ، والبياض لا بُدّ أن يكون عجيباً فى موسى - عليه السلام - لأنه كان أسمر اللون ؛ لذلك قال ﴿مِنْ غَيْرِ سُوءٍ .. (٣٢)﴾ [القصص] حتى لا يظنوا به بَرصاً مثلاً ، فهو بياض طبيعى مُعْجز .

وقوله تعالى : ﴿وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ .. (٣٢)﴾ [القصص] الجناحان فى الطائر كاليدين فى الإنسان ، وإذا أراد الإنسان أن يعوم مثلاً يفعل كما يفعل الطائر حين يطير ، فالمعنى : اضمُمْ إليك يديك يذهب عنك الخوف .

وهذه العملية يُصدِّقها الواقع ، فنرى المرأة حين ترى ولدها مثلاً يسىء التصرف تضرب صَدْرها وتولول ، وسيدنا ابن عباس يقول : كل من خاف يجب عليه أن يضرب صدره بيديه ليذهب عنه ما يلاقى[1] ، ولك أن تُجرِّبها لتعلم صِدْق هذا الكلام .

ومعنى ﴿فَذَانِكَ .. (٣٢)﴾ [القصص] ذا : اسم إشارة للمفرد ونقول : ذان اسم إشارة للمثنى ، والكاف للخطاب ، والمراد : الإشارة لمعجزتى العصا واليد ﴿بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ .. (٣٢)﴾ [القصص] أى ربك الحق ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ .. (٣٢)﴾ [القصص] الرب الباطل ، ولا يمكن

---

(١) أورده القرطبى فى تفسيره (٧/٥١٧٠) قال : « قال ابن عباس : ليس من أحد يدخله رعب بعد موسى عليه السلام ، ثم يدخل يده فيضعها على صدره إلا ذهب عنه الرعب » .

أنْ يجتمع الحق والباطل ، لا بد للباطل أنْ يزهق ؛ لأنه ضعيف لا يصمد أمام قوة الحق ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ .. (١٨)﴾ [الأنبياء]

والبرهان : هو الحجة والدليل على صدْق المبرهَن عليه ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ .. (٣٢)﴾ [القصص] ، لأن فرعون ادَّعى الألوهية ، وملؤه استخفهم فأطاعوه ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٣٢)﴾ [القصص] أى : جميعاً فرعون والملأ ﴿فَاسِقِينَ (٣٢)﴾ [القصص] أى : خارجين عن الطاعة من قولنا فسقت الرُّطَبَة يعنى : خرجتْ من قشرتها .

والمراد هنا الحجاب الدينى الذى يُغلِّف الإنسان ، ويحميه ويعصمه أنْ يتأثر بعوامل المعصية ، فإذا انسلخ من هذا الثوب ، ونزع هذا الحجاب ، وتمرَّد على المنهج تكشفتْ عورته ، وبانتْ سَوْءَته .

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (٣٣)﴾

فما زال موسى ـ عليه السلام ـ خائفاً من مسألة قتْل القبطىِّ ؛ لذلك يطلب من ربه أنْ يؤيده ، ويعينه بأخيه .

﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (٣٤)﴾

معنى الرِّدْء : المعين ، وعرفنا من قصة موسى ـ عليه السلام ـ وهو صغير فى بيت فرعون أنه أصابته لَثْغة فى لسانه ، فكان ثقيل النطق لا ينطلق لسانه ؛ لذلك أراد أنْ يستعين بفصاحة أخيه هارون ليؤيده ، ويُظهر حجته ، ويُزيل عنه الشبهات .

وكان بإمكان موسى أن يطلب من ربه أن يستعين بأخيه هارون ، فيكون هارون من باطن موسى ، لكنه أحب لأخيه أنْ يشاركه في رسالته ، وأن ينال هذا الفضل وهذه الرِّفْعة ، فقال : ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي.. (٣٤)﴾ [القصص] يعني : : معيناً لي حتى لا يُكذِّبني الناس ، فيكون رسولاً مِثْلي بتكليف من الله .

لذلك نرى الآيات تتحدث عن هارون على أنه رسول شريك لموسى في رسالته ، يقول تعالى في شأنهما : ﴿اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (٤٣) فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ (٤٤)﴾ [طه]

فإذا نظرنا إلى وحدة الرسالة فَهُما رسول واحد ، وهذا واضح في قوله تعالى :

﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦)﴾ [الشعراء]

وجاء في قول فرعون : ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (٢٧)﴾ [الشعراء] بصيغة المفرد . كما لو بعث رئيس الجمهورية رسالة مع اثنين أو ثلاثة إلى نظيره في دولة أخرى ، نُسمِّي هؤلاء جميعاً (رسول) ؛ لأن رسالتهم واحدة ، فإذا نظرتَ إلى وحدة الرسالة من المرسِل إلى المرسَل إليه فهما واحد ، وإذا نظرتَ إلى كلٍّ على حِدَة فهما رسولان .

وقد ورد أيضاً : ﴿إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ .. (٤٧)﴾ [طه] فخاطبهم مرة بالمفرد ، ومرة بالمثنى .

لذلك لما دعا موسى ـ عليه السلام ـ على قوم فرعون لما غرَّتهم الأموال ، وفتنتهم زينة الحياة الدنيا قال ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ (٨٨)﴾ [يونس]

المتكلِّم هنا موسى وحده ، ومع ذلك قال تعالى : ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا .. (٨٩)﴾ [يونس] فنظر إلى أنهما رسول واحد ، فموسى يدعو وهارون يُؤمِّن على دعائه[1] ، والمؤمِّن أحد الدَّاعيَيْن .

﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ (٣٥)﴾

أجابه ربه : ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ .. (٣٥)﴾ [القصص] لأن موسى قال فى موضع آخر : ﴿اشْدُدْ بِهِ أَزْرِى[2] (٣١) وَأَشْرِكْهُ فِى أَمْرِى (٣٢)﴾ [طه] وقوله تعالى ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ .. (٣٥)﴾ [القصص] تعبير بليغ يناسب المطلوب من موسى ؛ لأن الإنسان يزاول أغلب أعماله أو كلها تقريباً بيديه ، والعضلة الفاعلة فى الحمل والحركة هى العَضُد .

لذلك حين نمدح شخصاً بالقوة نقول : فلان هذا (عضل) ، وحين يصاب الإنسان والعياذ بالله بمرض ضمور العضلات تجده هزيلاً لا يقدر على فعْل شىء ، فالمعنى : سنُقوِّيك بقوة مادية .

﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا .. (٣٥)﴾ [القصص] هذه هى القوة المعنوية ، وهى قوة الحجة والمنطق والدليل ، فجمع لهما : القوة المادية ، والقوة المعنوية .

لذلك قال بعدها ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا .. (٣٥)﴾ [القصص] أى :

---

(١) عن عكرمة رضى الله عنه قال : كان موسى عليه السلام يدعو ويؤمِّن هارون عليه السلام ، فذلك قوله تعالى : ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا .. (٨٩)﴾ [يونس] أورده السيوطى فى الدر المنثور (٤/ ٣٨٥) وعزاه لعبد الرزاق وابن جرير وأبى الشيخ .

(٢) الأزْر : القوة . وآزره : قوَّاه . [القاموس القويم ١/ ١٨] .

نُنجيكم منهم ، لكن معركة الحق والباطل لا تنتهى بنجاة أهل الحق ، إنما لا بُدَّ من نُصْرتهم على أهل الباطل ، وفَرْق بين رجل يهاجمه عدوه فيغلق دونه الباب ، وتنتهى المسألة عند هذا الحد ، وبين مَنْ يجرؤ على عدوه ويغالبه حتى ينتصر عليه ، فيكون قد منع الضرر عن نفسه ، وألحق الضرر بعدوه .

وهذا هو المراد بقوله تعالى ﴿أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ (٣٥)﴾ [القصص] وهكذا أزال الله عنهم سلبية الضرر ، ومنحهم إيجابية الغلبة .

ونلحظ توسط كلمة ﴿بِآيَاتِنَا .. (٣٥)﴾ [القصص] بين العبارتين : ﴿فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا .. (٣٥)﴾ [القصص] و ﴿أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ (٣٥)﴾ [القصص] فهى إذن سبب فيهما : فبآياتنا ومعجزاتنا الباهرات ننجيكم ، وبآياتنا ومعجزاتنا ننصركم ، فهى كلمة واحدة تخدم المعنيين ، وهذا من وجوه بلاغة القرآن الكريم .

ومن عجائب ألفاظ القرآن كلمة (النجم) فى قوله تعالى : ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥) وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (٦)﴾ [الرحمن] فجاءت النجم بين الشمس والقمر ، وهما آيتان سماويتان ، والشجر وهو من نبات الأرض ؛ لذلك صلحت النجم بمعنى نجم السماء ، أو النجم بمعنى النبات الصغير الذى لا ساقَ له ، مثل العُشْب الذى ترعاه الماشية فى الصحراء[1] .

لذلك قال الشاعر :

أُرَاعِى النَّجْمَ فى سَيْرى إليكُمُ ... وَيرْعَاهُ مِنَ البَيْدا جَوَادِىَ

---

(١) قال أبو إسحاق : قد قيل إن النجم يُراد به النجوم ، قال : وجائز أن يكون النجم ههنا ما نبت على وجه الأرض وما طلع من نجوم السماء . ويُقال لكل ما طلع : قد نجم . [لسان العرب – مادة : نجم] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّفۡتَرٗى وَمَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ .. ﴿٣٦﴾ ﴾ [القصص] أى : بمعجزاتنا واضحات باهرات ، فلما بُهِتوا أمام آيات الله ، وحاروا كيف يخرجون من هذا المأزق ، فقد جاءهم موسى ليهدم عرش الألوهية الباطلة عند فرعون ، ولم يملكوا إلا أنْ قالوا ﴿ مَا هَـٰذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [القصص]

لذلك يُعلِّم الحق ـ تبارك وتعالى ـ موسى عليه السلام مُحَاجَّة هؤلاء ، فكأنه قال له : أنت مُقبل على أُنَاس متمسكين بالباطل ، حريصين عليه ، منتفعين من ورائه ، ولا بُدَّ أنْ يغضبوا إنْ قضيتَ على باطلهم ، وصرفتهم عنه إلى الحق ، فقد أَلِفُوا الباطل ، فإنْ أخرجتَهم مما أَلِفوا إلى ما لا يألفون فلا بُدَّ لك من اللين وألاَّ تُهيِّجهم حين تجمع عليهم قسوة تَرْك ما أَلِفوه مع قسوة الدعوة إلى ما لم يألفوه .

ويكفى أنك ستسلبهم سلطان الألوهية الذى عاشوا فى ظله ، فإنْ زِدْتَ فى القسوة عليهم ولّدْتَ عندهم لدداً وعنادًا فى الخصومة .

لذلك قال تعالى : ﴿ فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا .. ﴿٤٤﴾ ﴾ [طه] يعنى : اعذروه فيما يلاقى حين تُسلَب منه ألوهيته ، ويصير واحداً من الرعية .

وإنْ قابلوك هم بالقسوة حين قالوا : ﴿مَا هَـٰذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ (٣٦)﴾ [القصص] فقابلهم أنت باللين .

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِ وَمَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ ۖ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٣٧)﴾

وتأمل هنا اللين وأدب الجدل عند موسى ـ عليه السلام ـ فلم يرد عليهم بالقسوة التى سمعها منهم ولم يتهمهم كما اتهموه ، إنما ردّ بهذا الأسلوب اللَّبق ، وبهذا الإيحاء : ﴿رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِ وَمَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ .. (٣٧)﴾ [القصص] ولم يقُلْ : إنى جئت بالهدى .

ثم قال : ﴿إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٣٧)﴾ [القصص] سواء كنا نحن أم أنتم ، ولم يقُلْ أنتم الظالمون . لقد أطلق القضية ، وترك للعقول أنْ تميز .

ومعنى ﴿عَاقِبَةُ الدَّارِ .. (٣٧)﴾ [القصص] الدار يعنى : الدنيا . وعاقبتها تعنى : الآخرة .

وهذا الأدب النبوى فى الجدل والحوار رأيناه فى سيرة سيدنا رسول الله ﷺ مع كفار مكة والمعاندين له ، وقد خاطبه ربه : ﴿وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ .. (٤٦)﴾ [العنكبوت]

والعلَّة أنك ستُخرجهم من الباطل الذى أحبوه وألفوه إلى الحق الذى يكرهون ، فلا تجمع عليهم شدتين ، لذلك فى أشد ما كان إيذاء الكفار لرسول الله ﷺ كان يقول : « اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون »[1] .

---

(١) أورده السيوطى فى الدر المنثور (٣/١١٧) عند قوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ .. (٦٧)﴾ [المائدة] وعزاه لابن عباس (أخرجه ابن مردويه والضياء فى المختارة) وأورده أيضاً (٣/٤٨١) عن عبد الله بن مسعود : لقد رأيت النبى ﷺ وهو يمسح الدم عن وجهه وهو يحكى نبياً من الأنبياء وهو يقول : اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون » أخرجه ابن أبى شيبة وأحمد فى الزهد وأبو نعيم وابن عساكر .

ورحم الله شوقى الذى صاغ هذه المسألة فى عبارة موجزة فقال : (النُّصْح ثقيل فلا ترسله جبلاً ، ولا تجعله جدلاً) فنُصْحك معناه أنك تقول لمن أمامك : أنت على خطأ وأنا على صواب . فلكى يسمع لك لا بُدَّ أنْ تستميله أولاً إليك ليقبل منك ، ولا تجرح مشاعره فيزداد عناداً ومكابرة ، وما أشبه صاحب الخطأ بالمريض الذى يحتاج لمن يأخذ بيده ، ويأسو[1] مرضه .

وقد مثَّلوا لذلك بشخص يغرق ، وصاحبه على الشاطىء يلومه على نزوله البحر ، وهو لا يجيد السباحة ، فقال له : (آسِ ثم انصح) انقذنى أولاً وأدركنى ، ثم قُلْ ما شئتَ .

وقال آخر : الحقائق مُرَّة ، فاستعيروا لها خِفَّة البيان .

أما إنْ يئس الناصح من استجابة المنصوح كما فى قصة نبى الله نوح عليه السلام ، والذى ظل يدعو قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً ، فالأمر يختلف . فالنبى صبر على قومه علَّهم يثوبون إلى رشدهم ، أو لعلهم ينجبون الذرية الصالحة التى تقبل ما رفضه الآباء .

فما أطولَ صبر نوح على قومه ، وما أعظمَ أدبه فى الحوار معهم وهو يقول لهم وقد اتهموه بالكذب والافتراء : ﴿ **قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ** (٣٥) ﴾ [هود]

فنسب الإجرام إلى نفسه ليُسوِّى نفسه بهم لعلَّه يستميل قلوبهم ، لكن ، لما كان فى علم الله تعالى أنهم لن يؤمنوا ، ولا فائدة منهم ، ولا من أجيالهم المتعاقبة ، وبعد أنْ قضى نوح فى دعوتهم هذا العمر المديد أمره الله أن يدعو عليهم ، حيث لا أملَ فى هدايتهم ، فقال :

---

(١) الأسَا : المداواة والعلاج . والإساء : الدواء بعينه . [لسان العرب ـ مادة : أسا] .

﴿رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً[1] (٢٦) إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِراً كَفَّاراً (٢٧)﴾ [نوح]

ومحمد ﷺ يقول في محاورته مع كفار مكة : ﴿لاَّ تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٢٥)﴾ [سبأ]

سبحان الله ما هذا التواضع ، وهذا الأدب الجم في استمالة القوم ، ينسب الإجرام إلى نفسه وهو رسول الله ، وحينما يتكلم عنهم يقول ﴿تَعْمَلُونَ (٢٥)﴾ [سبأ] فيُسمِّي إجرامهم وإيذاءهم وكفرهم عملاً . ولو قال كما قال أخوه نوح لكان تواضعاً منه ﷺ .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا[2] لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ (٣٨)﴾

خشي فرعون من كلام موسى على قومه ، وتصوَّر أنه سيحدث لهم كما نقول (غسيل مخ) فأراد أن يُذكِّرهم بألوهيته ، وأنه لم يتأثر بما سمع من موسى ﴿يَٰٓأَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى .. (٣٨)﴾ [القصص] يعني : إياكم أنْ تصدّقوا كلام موسى ، فأنا إلهكم ، وليس لكم إله غيري .

---

(١) ديَّار : أحد . يقال : ما بالدار ديَّار . أي : ما بها أحد . [لسان العرب ـ مادة : دير] .

(٢) الصرح : القصر العالي . [القاموس القويم ٣٧٣/١] وقال ابن منظور في [لسان العرب ـ مادة : صرح] : « الصرح بيت واحد يُبْنى منفرداً ضخماً طويلاً في السماء ، وقيل : هو كل بناء عالٍ مرتفع » .

ثم يؤكد هذه الألوهية فيقول لهامان وزيره : ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَـٰهَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ ..(٣٨)﴾ [القصص] وفى موضع آخر قال : ﴿يَـٰهَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ (٣٦) أَسْبَابَ السَّمَـٰوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ .. (٣٧)﴾ [غافر]

وكأنه يريد أن يُرضى قومه ، فها هو يريد أنْ يبحث عن الإله الذى يدَّعيه موسى ، وكأنه إنْ بنى صرحاً واعتلاه سيرى رب موسى ، لكن هل بنى له هامان هذا الصرح ؟ لم يَبْن له شيئاً ، مما يدل على أن المسألة هَزْل فى هَزْل ، وضحك على القوم الذين استخفّهم ولعب بعقولهم .

وإلا ، فما حاجتهم لحرق الطين ليصير هذه القوالب الحمراء التى نراها ونبنى بها الآن وعندهم الحجارة والجرانيت التى بنَوْا بها الأهرامات وصنعوا منها التماثيل ؟ وعملية حَرْق الطين تحتاج إلى كثير من الوقت والجهد ، إذن : المسألة كسب الوقت من الخَصْم ، وتخدير الملأ من قومه .

وقوله : ﴿لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ .. (٣٨)﴾ [القصص] وقبل أنْ يصل إلى حكم فيرى إله موسى أو لا يراه ، يبادر بالحكم على موسى ﴿وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٣٨)﴾ [القصص] ؛ ليصرف ملأه عن كلام موسى .

﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ (٣٩)﴾

أى : تكبروا دون حق ، وبغير مبررات للكِبْر ، فليس لديهم هذه المبررات ؛ لأن الإنسان يتكبَّر حين تكون عظمته ذاتية فيه ، أمّا العظمة المخلوقة لك من الغير فلا تتكبر بها ، مَنْ يتكبر يتكبَّر بشىء ذاتى فيه ، كما يقولون (اللى يخرز يخرز على وركه) .

وكذلك فى دواعى الكِبْر الأخرى : الغِنَى ، القوة ، الجاه ، والسلطان ... إلخ .

لذلك يكره الله تعالى المتكبرين ، ويقول فى الحديث القدسى :

« الكبرياء ردائى ، والعظمة إزارى ، فمن نازعنى واحداً منهما أدخلته جهنم »[1] .

والكبرياء والعظمة صفة جلال وجمال لله تعالى تجعل الجميع أمام كبرياء الله سواء ، فلا يتكبَّر أحد على أحد (ونرعى جميعاً مساوى) فى ظل كبرياء الله الذى يحمى تواضعنا ، فلو تكبَّر أحدنا على الآخر لَتكبَّر بشىء موهوب له ، ليس ذاتياً فيه ؛ لذلك ينتصر الله لمن تكبَّرت عليه ، ويجعله أعلى منك . وعندنا فى الأرياف يقولون : (اللى يرمى أخاه بعيب لن يموت حتى يراه فى نفسه) .

والمتكبّر فى الحقيقة ناقصُ الإيمان ؛ لأنه لا يتكبَّر إلا حين يرى الناس جميعاً دونه ، ولو أنه استحضر كبرياء خالقه لاستحيا أنْ يتكبَّر أمامه ، وهكذا كان استكبار فرعون وجنوده فى الأرض بغير حق .

أما إنْ كان الاستكبار من أجل حماية الضعيف ليعيش فى ظلاله

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٢/٣٧٦ ، ٤١٤) ، وابن ماجة فى سننه (٤١٧٤) ، وأبو داود فى سننه (٤٠٩٠) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

فهو استكبار بحق ؛ لذلك نقول حين يصف الحق - تبارك وتعالى - نفسه بأنه العظيم المتكبّر نقول : هذا حق . لأنه حماية لنا جميعاً من أنْ يتكبَّر بعضنا على بعض .

وقوله تعالى : ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لا يُرْجَعُونَ (٣٩)﴾ [القصص] فاستكبارهم فى الأرض جاء نتيجة ظنهم بأنهم لن يرجعوا إلى الله ، وأنه تعالى خلقهم ورزقهم ، ثم تفلَّتوا منه ، ولن يعودوا إليه ، لكن هيهات ، لا بُدَّ - كما نقول - لهم رَجْعة .

﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (٤٠)﴾ (١)

كأن الحق سبحانه لم يُمهلهم إلى أن يعودوا إليه يوم القيامة ، إنما عاجلهم بالعذاب فى الدنيا قبل عذاب الآخرة ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ .. (٤٠)﴾ [القصص] أى : جميعاً فى قبضة واحدة ، التابع والمتبوع ﴿فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ .. (٤٠)﴾ [القصص] ألقينا بهم فى البحر ، وهذا الأخذ الذى يشمل الجميع فى قبضة واحدة يدلُّ على قدرة الآخذ ، وهذه مسألة لا يقدر عليها إلا الله القوى العزيز .

كما قال سبحانه : ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (١٠٢)﴾ [هود]

---

(١) أى : طرحناهم فى البحر المالح . قال قتادة : بحر من وراء مصر يُقال له : إساف أغرقهم الله فيه . وقال وهب والسدى : المكان الذى أغرقهم الله فيه بناحية القلزم يقال له بطن مريرة ، وهو إلى اليوم غضبان . وقال مقاتل : يعنى نهر النيل وهذا ضعيف والمشهور الأول . [تفسير القرطبى ٥١٧٥/٧] والقلزم هى مدينة السويس حالياً ، وبحر القلزم : هو البحر الأحمر .

ولم يُوصَف أَخْذ الإنسان بالقوة إلا في قوله تعالى[1] يحثُّنا على أنْ نأخذ مناهج الخير بقوة : ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ .. (٩٣)﴾ [البقرة]

ثم يقول سبحانه : ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (٤٠)﴾ [القصص]

أى : نهايتهم وقد جاءت عجيبة من عجائب الزمن وآية من آيات الله ، فالبحر والماء جُنْد من جنود الله ، تنصر الحق وتهزم الباطل ، وقد ذكرنا كيف أنجى الله موسى - عليه السلام - وأهلك فرعون بالشىء الواحد حين أمر الله موسى أنْ يضرب بعصاه البحر ، فصار كل فِرْق كالطود العظيم .

فلما أنْ جازه موسى وقومه إلى الناحية الأخرى أراد أنْ يضرب البحر مرة أخرى ؛ ليعود الماء إلى سيولته واستطراقه فيُصحِّح الله له ويأمره أنْ يدَعَهُ على حاله ، فالحق - تبارك - وتعالى - يتابع نبيه موسى خُطْوة بخطوة كما قال له : ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ (٤٦)﴾ [طه]

وحاشا لله أن يُكلِّفه بأمر ثم يتركه ، ولما رأى فرعون الطريق اليابس أمامه عبر بجنوده ، فأطبقه الله عليهم ، فصاروا آية وعبرة ، كما قال سبحانه : ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً .. (٩٢)﴾ [يونس]

وتأمَّلْ قدرة الله التى أنجَتْ موسى من الغرق ، وقد ألقتْه أمه بيديها فى الماء ، وأغرقتْ فرعون .

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ (٤١)﴾

---

(١) وكذلك فى قوله تعالى : ﴿يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ .. (١٢)﴾ [مريم] . يقول صاحب ظلال القرآن (٤/٢٣٠٤) : « قد ورث يحى أباه زكريا ، ونودى ليحمل العبء وينهض بالأمانة فى قوة وعزم ، لا يضعف ولا يتهاون ولا يتراجع عن تكاليف الوراثة » .

أئمة : جمع إمام ، وهو مَنْ يُؤتَم به ، والمأموم أسيرُ إمامه ، فلو كنا فى الصلاة لا نركع حتى يركع ، ولا نرفع حتى يرفع ، فمتابعتنا له واجبة ، فإنْ أخطأ وجب على المأموم أنْ يُنبِّهه وأن يُذكِّره يقول له : سبحان الله ، تنبه لخطأ عندك ، إذن : نحن مأمومون له فى الحق فقط ، فإنْ أخطأ عدَّلْنا له .

والإمام أُسْوة وقدوة للمأمومين فى الخير ومنهج الحق ، كما قال تعالى فى حَقِّ نبيه إبراهيم عليه السلام : ﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا .. (١٢٤) ﴾ [البقرة]

وعندها أراد إبراهيم عليه السلام أنْ تظلَّ الإمامة فى ذريته من بعده ، فقال ﴿ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي .. (١٢٤) ﴾ [البقرة] فصحَّح الله له وأعلمه أن الإمامة لا تكون إلا فى أهل الخير ﴿ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (١٢٤) ﴾ [البقرة]

لذلك لما دعا نوح ـ عليه السلام ـ ربه : ﴿ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي .. (٤٥) ﴾ [هود] صحح الله له ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ .. (٤٦) ﴾ [هود]

إذن : أهلية النبوة وأهلية الإمامة عمل وسلوك لا قرابة ولا نَسَب .

وقد تكون الإمامة فى الشر ، كهذه التى نتحدث عنها : ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ .. (٤١) ﴾ [القصص] فهم أُسْوة سيئة وقدوة للشر ، وقد جاء فى الحديث الشريف : « من سَنَّ سُنَّة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة ، ومَنْ سنَّ سُنَّة سيئة فعليه وزرها ووزر مَنْ عمل بها إلى يوم القيامة »[1] .

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٤/٣٦١) ، وابن ماجة فى سننه (٢٠٣) من حديث جرير ابن عبد الله رضى الله عنه .

ويقول تعالى فى أصحاب القدوة السيئة : ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ .. (٢٥)﴾ [النحل]

فكان فرعون وملؤه أسوة فى الشر ، وأسوة فى الضلال والإرهاب والجبروت ، وكذلك سيكونون فى الآخرة أئمة وقادة ، لكن إلى النار ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لا يُنصَرُونَ (٤١)﴾ [القصص]

﴿وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ (٤٢)﴾

قوله تعالى : ﴿وَأَتْبَعْنَاهُمْ .. (٤٢)﴾ [القصص] يعنى : جعلنا من خلفهم ﴿فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً .. (٤٢)﴾ [القصص] فكل مَنْ ذكرهم فى الدنيا يقول : لعنهم الله ، فعليهم لعنة دائمة باقية ما بقيتْ الدنيا ، وهذا اللعْن والطرد من رحمة الله ليس جزاء أعمالهم ، إنما هو مقدمة لعذاب بَاقٍ وخالد فى الآخرة ، كما قال تعالى : ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ .. (٤٧)﴾ [الطور]

﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ (٤٢)﴾ [القصص] مادة : قبح ، تقول للشرير : قبَّحك الله ، أى : طردك وأبعدك عن الخير . ولها استعمال آخر : تقول : قَبَحْتُ الدُّمل أى : فتحته ونكأته قبل نُضْجه فيخرج منه الدم مع الصديد ويشوه مكانه .

وسبق أنْ قُلْنا : إن الدُّمَّل إذا تركته للصيدلية الربانية فى جسمك حتى يندمل بمناعة الجسم ومقاومته تجده لا يترك أثراً ، أما إنْ تدخلت فيه بالأدوية والجراحة ، فلا بُدَّ أنْ يترك أثراً ، ويُشوِّه المكان .

ويكون المعنى إذن : ﴿هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ (٤٢)﴾ [القصص] أى : الذين تشوَّهَتْ وجوههم بعد نعومة الجلد ونضارته ، وقد عبَّر القرآن عن هذا التشويه بصور مختلفة .

يقول تعالى : ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤٠) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (٤١)﴾ [عبس]

ويقول سبحانه ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ .. (١٠٦)﴾[آل عمران]

ويقول : ﴿وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا (١٠٢)﴾ [طه]

ومعلوم أن زُرْقة الجسم لا تأتى إلا نتيجة ضربات شديدة وكدَمات تُحدث تفاعلات ضارة تحت الجلد ، فتُسبِّب زُرْقته ، وكذلك زُرْقة العين ، ومن أمراض العيون المياه الزرقاء ، وهى أخطر من البيضاء .

لذلك يقول الشاعر :

وَلِلْبخيلِ عَلَى أَمْوالِه عِلَلٌ ... زُرْق العُيونِ عَلَيْها أَوْجُه سُودُ

لأنه حريص على أموالَه ولا يريد إنفاقها .

ويُستخدم اللون الأزرق للتبشيع والتخويف ، وقد كانوا فى العصور الوسطى يَطْلُون وجوه الجنود باللون الأزرق لإخافة الأعداء وإرهابهم ، وتعارف الناس أنه لَوْن الشيطان ؛ لذلك نقول فى لغتنا العامية : (العفاريت الزرق) ونقول فى الذم : (فلان نابه أزرق) .

ويقول الشاعر[1] :

أَيَقْتُلُنِى والمُشْرَفِىُّ[2] مُضاجِعِى ... ومَسْنُونَة زُرْقٌ كأنْيابِ أَغْوالِ[3]

---

(١) الشاعر : هو امرؤ القيس .

(٢) السيوف المشرفية منسوبة إلى قرىً من أرض اليمن ، وقيل : من أرض العرب تدنو من الريف . [لسان العرب ـ مادة : شرف] .

(٣) قال الجاحظ فى كتابه (الحيوان) (٦/١٥٨) تحقيق عبد السلام هارون : « الأغوال : اسم لكل شىء الجن يعرض للمسافرين ويتلوّن فى ضروب من الصور والثياب ذكراً كان أو أنثى إلا أن أكثر كلامهم على أنه أنثى » . والبيت فى ديوان امرىء القيس ٣٣ ، والكامل للمبرد (٢/٧٩) ، وحسن التوسل إلى صناعة الترسل لشهاب الدين محمود الحلبى ـ ص ١١٢ .

أما السواد فيُقصد به الوجه المشوّه المنفِّر ، وإلا فالسواد لا يُذَم فى ذاته كلون ، وكثيراً ما نرى صاحب البشرة السوداء يُشع جاذبية وبشاشة ، بحيث لا تزهد فى النظر إليه ، ومعلوم أن الحُسْن لا لونَ له .

والله تعالى يَهَبُ الحُسْن والبشاشة ويُشعّهما فى جميع الصور . وقد ترى للون الأسود فى بعض الوجوه أَسْراً وإشراقاً ، وترى صاحب اللون الأبيض كالحاً ، لا حيوية فيه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الأُولَىٰ .. ﴿٤٣﴾ ﴾ [القصص] قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم ، يعنى : أن موسى - عليه السلام - جاء بَرْزخاً وواسطة بين رسل كذَّبتهم أممهم ، فأخذهم الله بالعذاب ، ولم يقاتل الرسل قبل موسى ، إنما كان الرسول منهم يُبلِّغ الرسالة ويُظهر الحجة ، وكانوا هم يقترحون الآيات ، فإنْ أجابهم الله وكذَّبوا أوقع الله بهم العذاب .

كما قال سبحانه :

﴿ فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ

الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا[1] وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٠)﴾ [العنكبوت]

وهذا كله عذاب استئصال ، لا يُبقِى من المكذبين أحداً .

ثم جاء موسى ـ عليه السلام ـ برزخاً بين عذاب الاستئصال من الله تعالى للمكذِّبين دون تدخُّل من الرسل فى مسألة العذاب ، وبين رسالة محمد ﷺ ، حيث أمره الله بقتال الكفار والمكذّبين دون أن ينزل بهم عذاب الاستئصال ، ذلك لأن رسالته عامة فى الزمان وفى المكان إلى أن تقوم الساعة ، وهو ﷺ مأمون على حياة الخَلْق أجمعين .

لذلك يقول تعالى فى مسألة القتال فى عهد موسى عليه السلام : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلأِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ .. (٢٤٦)﴾ [البقرة] إنما فى عهده وعصره ﴿إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ .. (٢٤٦)﴾ [البقرة]

---

(١) عدَّد الله هنا أربعة أنواع من العذاب :
- ﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا (٤٠)﴾ [العنكبوت] هم : قوم عاد . أرسل الله عليهم ريحاً عاتية حملت عليهم حصباء الأرض ، فألقتْها عليهم واقتلعتهم من الأرض .
- ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ (٤٠)﴾ [العنكبوت] هم : قوم ثمود . جاءتهم صيحة أخمدت الأصوات منهم والحركات .
- ﴿وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ (٤٠)﴾ [العنكبوت] هو : قارون ، خسف الله به وبداره الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة .
- ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا (٤٠)﴾ [العنكبوت] هو فرعون ووزيره هامان وجنودهما عن آخرهم .
[تفسير ابن كثير ٣/٤١٣] .

وقد ورد أن سيدنا رسول الله ﷺ قال « ما عذَّب الله قوماً ، ولا قرناً ، ولا أمة ، ولا أهلَ قرية منذ أنزل الله التوراة على موسى»[١]

كأن عذاب الاستئصال انتهى بنزول التوراة ، ولم يستثْن من ذلك إلا قرية واحدة هى (أيلة) التى بين مدين والأردن .

والحق - تبارك وتعالى - يعطينا أول تجربة لمهمة ، وتدخّل الرسل فى قصة موسى عليه السلام .

ورُوِى عن أبى أمامة أنه قال : وإنى لتحت رَحْل رسول الله - يعنى : ممسكاً برحْل ناقة الرسول - يوم الفتح ، فسمعته يقول كلاماً حسناً جميلاً ، وقال فيما قال : « أيُّما رجل من أهل الكتاب يؤمن بى فلَهُ أجران - أى : أجر إيمانه بموسى ، أو بعيسى ، وأجر إيمانه بى - له ما لنا وعليه ما علينا »[٢] .

وهذا يعنى أن القتال لم يكُنْ قد كُتب عليهم .

وقوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ .. (٤٣)﴾ [القصص] أى : التوراة ﴿مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الأُولَىٰ .. (٤٣)﴾ [القصص] أى : بدون تدخُّل الأنبياء ﴿بَصَائِرَ لِلنَّاسِ .. (٤٣)﴾ [القصص] أى : آتيناه الكتاب ليكون نوراً يهديهم ، وبصيرة ترشدهم ، وتُنير قلوبهم ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً .. (٤٣)﴾ [القصص] هدى إلى طريق الخير ورحمة تعصم

---

(١) أخرجه الحاكم فى مستدركه (٤٠٨/٤) من حديث أبى سعيد الخدرى بلفظ : « ما أهلك الله قوماً ولا قرناً ولا أمة ولا أهل قرية منذ أنزل التوراة على وجه الأرض بعذاب من السماء غير أهل القرية التى مسخت قردة » وقال : صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه . وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد (٨٨/٧) « رواه البزار موقوفاً ومرفوعاً ، ورجالهما رجال الصحيح » .

(٢) أخرجه ابن ماجة فى سننه (١٩٥٦) ، وسعيد بن منصور فى سننه (٩١٣) من حديث أبى موسى الأشعرى ، ولفظه : « ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين ، رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه ثم أدركه النبى ﷺ فآمن به ، ثم اتبعه فله أجران » .

المجتمع من فساد المناهج الباطلة ، وتعصمهم أن يكونوا من أهل النار ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٤٣)﴾ [القصص]

والتذكر يعنى : أنه كان لديك قضية ، ثم نسيتها فاحتجْتَ لمن يُذكرك بها ، فهى ليست جديدة عليك ، هذه القضية هى الفطرة :

﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا .. (٣٠)﴾ [الروم]

لكن هذه الفطرة السليمة تنتابها شهوات النفس ورغباتها ، وتطرأ عليها الغفلة والنسيان ؛ لذلك يذكِّر الحق سبحانه الناس بما غفلوا عنه من منهج الحق ، إذن : فى الفطرة السليمة المركوزة فى كل نفس مُقوِّمات الإيمان والهداية ، لولا غفلة الإنسان .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ (٤٤)﴾

قوله : ﴿بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ .. (٤٤)﴾ [القصص] أى : الجانب الغربى من البقعة المباركة من الشجرة ، وهو المكان الذى كلَّم الله فيه موسى وأرسله ﴿إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الأَمْرَ .. (٤٤)﴾ [القصص] يعنى : أمرناه به أمراً مقطوعاً به ، وهو الرسالة .

﴿وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٤٤)﴾ [القصص]

ولك أنْ تسأل : إذا لم يكُنْ رسول الله ﷺ شاهداً لهذه الأحداث ، فمَنْ أخبره بها ؟ نقول : أخبره الله تعالى ، فإنْ قُلْت فربما أخبره بها شخص آخر ، أو قرأها فى كتب السابقين .

نقول : لقد شهد له قومه بأنه أُميٌّ ، لا يقرأ ولا يكتب ، ولم يُعْلَم عنه أنه جلس فى يوم من الأيام إلى مُعَلِّم ، كذلك كانوا يعرفون سيرته فى حياته وسفرياته ورحلاته ، ولم يكُنْ فيها شىء من هذه الأحداث .

لذلك لما اتهموا رسول الله أنه جلس إلى معلم ، وقالوا : كما حكى القرآن : ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ .. (١٠٣)﴾ [النحل] ردَّ القرآن عليهم فى بساطة : ﴿لِّسَانُ الَّذِى يُلْحِدُونَ[1] إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ (١٠٣)﴾ [النحل]

وكانوا يقصدون بذلك حدادين روميين[2] تردد عليهما رسول الله . وكذلك كانت الأمة التى بُعِث فيها رسول الله أمة أمية ، فممَّن تعلَّم إذن ؟

وإذا كانت الأمية صفة مذمومة ننفر منها ، حتى أن أحد سطحيى الفهم يقول : لا تقولوا لرسول الله أميٌّ ونقول : إن كانت الأمية مَذمَّة ، فهى ميزة فى حق رسول الله ﷺ ؛ لأن الأمى يعنى المنسوب إلى الأم وما يزال على طبيعته لا يعرف شيئاً .

واقرأ قوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا .. (٧٨)﴾ [النحل] ونقول فى المثل (فلان زى ما ولدتْه أمه) يعنى : لا يعرف شيئاً ، وهذه مذمة فى عامة البشر ؛ لأنه لم يتعلم ممَّنْ حوله ، ولم يستفِدْ من خبرات الحياة .

---

(١) ألحد إلى الشىء : أشار إليه . ومعناه : أى : لسان الذى يشيرون إليه أعجمى لأنهم كانوا يقولون : إن الرسول يعلمه رجل أعجمى . [القاموس القويم ٢/١٨٩] .

(٢) قال عبيد الله بن مسلم : كان لنا غلامان روميان يقرآن كتاباً لهما بلسانهما ، فكان النبى ﷺ يمر بهما فيقوم فيسمع منهما فقال المشركون : يتعلم منهما فأنزل الله هذه الآية . أورده ابن كثير فى تفسيره (٢/٥٨٧) .

أما الأمـية عند رسول الله فشـرف ؛ لأن قصارى المـتعلِّم فى أىِّ أمة من الأمم أنْ يأخذ بطرف من العلم من أمثـاله من البشر ، فيكون مـديناً له بهـذا العلم ، أمَّـا رسـول الله فقـد تعلم مـن العليم الأعلى ، فلم يتأثر فى علمه بأحد ، وليس لأحد فضل عليه ولا منة .

لذلك تعجب الدنيا كلها من أمة العرب ، هذه الأمـة الأمية المتبدية التى لا يجـمعـها قـانون ، إنما لكـل قبـيلة فيـها قـانونها الخـاص ، يعجبون : كيف سادتْ هذه الأمـةُ العالمَ ، وغزتْ حضارتهم الدنيا فى نصف قرن من الزمان .

ولو أن العرب أمـة حضـارة لقالوا عن الإسلام قـفزة حـضارية ، كما قالوا بعـد انتصارنا فى أكتوبر ، وبعد أنْ رأى رجالنا أشـياء غير عادية تقاتل معهم ، حـتى أنهم لم يشكُّوا فى أنها تأييد من الله تعالى لجيش بدأ الـمعركـة بصيحـة الله أكبـر ، لكن ثالث أيام المعـركة طلع علينا فى جـرائدنا من يقـول : إنه نصر حـضارى ، وفى نفس اليـوم فُتِحت الثغرة فى (الدفرسوار) .

وعـجـيب أمـر هؤلاء من أبناء جلـدتنا : لمـاذا تردُّون فـضل الله وتنكرون تأييـده لكم ؟ وماذا يضـايقكم فى نصـر جاء بمـدد من عند الله ؟ ألم تقرأوا : ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ .. (٣١)﴾ [المدثر] وبعد أن فُـتحت الثـغـرة ماذا قـدمـتم لسـدِّها ، تعالوا بفكـركم الحضـارى وأخرجونا من هذا المأزق .

وإذا ثَقُلَ على هؤلاء الاعـتـراف بجنود الله بين صـفوفـهم ، أليس المهندس الذى اهتدى إلى فكرة استـخدام ضغط الماء فى فتح الطريق فى (بارليف) لينفذ منه الجنود ، أليس من جنود الله ؟

لقد أخذتْ منَّا هذه الفكرة كثيراً من الوقت والجهد دون فائدة ، إلى أن جاء هذا الرجل الذى نوَّر الله بصيرته وهداه إلى هذه العملية التى لم تَأْتِ اعتباطاً ، إنما نتيجة إيمان بالله وقُرْب منه سبحانه وتضرُّع إليه ، فجزاه الله عن مصر وعن الإسلام خيراً .

ومن العجيب ، بعد نهاية الحرب أنْ يُجروا للحرب بروفة تمثيلية ، فلم يستطيعوا اجتياز خط بارليف ، وهم فى حال أمْن وسلام .

نعود إلى قضية الأمية ونقول لمن ينادى بمحو الأمية عند الناس بأن يعلمهم من علم البشر : ليتكم قُلْتُم نمحو الأمية عندهم لنعلمهم عن الله .

إذن : فقوله تعالى : ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٤٤)﴾ [القصص] يعنى : ما رأى محمد هذه الأحداث ولا حضرها ، ومنه قوله تعالى عن شهر رمضان : ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ .. (١٨٥)﴾ [البقرة] يعنى : حضره .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَلَٰكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (٤٥)﴾

أهل مدين هم قوم شعيب عليه السلام ، وكان لهم شُغُل بالقراءة ، لذلك قال تعالى لنبيه محمد ﷺ : ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا .. (٤٥)﴾ [القصص] أى : مقيماً ﴿فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا .. (٤٥)﴾ [القصص] أى : تلاوة المتعلم كما يتلو التلميذ على أستاذه ليُصحِّح له

﴿وَلَـٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (٤٥)﴾ [القصص] أى : أن الرسالات كلها منا : مَنْ كان يقرأ ، ومن كان أمياً .

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَـٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٤٦)﴾

قوله تعالى : ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا .. (٤٦)﴾ [القصص] أى : موسى عليه السلام ﴿وَلَـٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ .. (٤٦)﴾ [القصص] أى : أنك يا محمد ما شهدت هذه الأحداث ، إنما جاءتْك بالفضل من الله ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٤٦)﴾ [القصص] يتذكَّرون ما غفلوا عنه من الفطرة السليمة التى فطر الله الناس عليها .

وكلمة (وما كنت) فى مواضع عدة فى القرآن تدل على أن رسول الله جاء بأخبار لم يقرأها فى كتاب ، ولم يسمعها من مُعلِّم ؛ لأنه لا يقرأ ، ولم يُعرف عنه أنه جلس إلى مُعلِّم ، وأهل الكتاب هم الذين يعرفون صدْق هذه الأخبار ؛ لأنها ذُكرت فى كتبهم ، لذلك قال القرآن عنهم : ﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ .. (٢٠)﴾ [الأنعام]

ويقول سبحانه ﴿إِنَّ هَـٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ (١٨) صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ (١٩)﴾ [الأعلى]

ومن علامات النبوة أن يخرق الحق سبحانه لنبيه ﷺ حُجُب الغيب ، والشىء يغيب عنك إما لأنه ماض ، ولا وسيلةَ لك إليه ، وهذا هو حجاب الزمن الماضى ، وهو لا يُعرف إلا بواسطة القراءة فى

كتاب أو التعلم من مُعلِّم ، وقد نفى الله تعالى هذا بالنسبة لرسوله ﷺ ، وإما أن يكون الحجابُ حجابَ الزمن المستقبل والأحداث التى لم تأْتِ بعْد ، ولا يستطيع أن يخبرك بها إلا الذى يعلمها أزَلاً .

لذلك يقول تعالى لنبيه ﷺ : ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنسَىٰ (٦) ﴾ [الأعلى] فكان النجم من القرآن ينزل على رسول الله فلما يُسرى عنه يُمليه على أصحابه ، كل آية فى مكانها وترتيبها من السورة[1] ، ثم يقرؤها بعد ذلك كما أُنزِلت ، وكما أملاها .

وسبق أنْ قُلْنا : تستطيع أن تتحدَّى أىَّ شخص بأن يتكلم مثلاً لمدة ثُلث الساعة ، ثم يعيد ما قال ، ولن يستطيع ، أما المسألة مع سيدنا رسول الله فتختلف ؛ لأنها من الله تعالى ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنسَىٰ (٦) ﴾ [الأعلى]

وقلنا : إن سيدنا رسول الله ﷺ فى أول نزول القرآن عليه كان يُردد الآية خلف جبريل عليه السلام مخافة أن ينساها ، فإنْ قال جبريل : ﴿ وَالضُّحَىٰ (١) ﴾ [الضحى] قال رسول الله ﴿ وَالضُّحَىٰ (١) ﴾ [الضحى] وهكذا ، فأنزل الله عليه : ﴿ لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١٧) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (١٨) ﴾ [القيامة]

وقال سبحانه : ﴿ وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ .. (١١٤) ﴾ [طه]

أى : أرح نفسك يا محمد ، ولا تخْشَ النسيان ، وانتظر حتى تنتهى الآيات ، وسوف تعيدها كما هى ، لا تَنْسى منها حرفاً واحداً .

---

(١) قال عثمان بن عفان : كان رسول الله ﷺ تنزل عليه السور ذوات العدد فكان إذا نزل عليه الشىء دعا بعض من كان يكتب فيقول : ضعوا هؤلاء الآيات فى السورة التى يذكر فيها كذا وكذا . أورده السيوطى فى (الإتقان فى علوم القرآن ١/١٧٢) .

ومن كشف حُجُب الغيب المستقبل قوله تعالى : ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً .. (٨)﴾ [النحل] ولو انتهتْ الآية إلى هذا الحدِّ لقالوا : ذكر القرآن البدائيات ، ولم يذكر شيئاً عن السيارة والصاروخ .. إلخ .

لكن الحق ـ تبارك وتعالى ـ يكمل الآية ﴿وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ (٨)﴾ [النحل] ليجعل فى القرآن رصيداً لكل ما يستجد من وسائل المواصلات والانتقال إلى يوم القيامة .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿سُبْحَانَ الَّذِى خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ (٣٦)﴾ [يس] فكلُّ شىء فى الوجود قائم على الزوجين ذكورةً وأنوثة حتى الجمادات التى لا نرى فيها حياة .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿الٓمٓ (١) غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِى أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِى بِضْعِ سِنِينَ.. (٤)﴾ [الروم]

فمَنْ يستطيع أن يحكم على نتيجة معركة بعد سبع سنين ؟ وبعد ذلك يُصدِّقه الله ، وتنتصر الروم ، وكانوا أهل كتاب على الفرس ، وكانوا يعبدون النار ؛ لذلك قال سبحانه : ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ اللَّهِ .. (٥)﴾ [الروم]

ولما تشوَّق الصحابة لأداء العمرة ونزل على رسول الله قوله تعالى : ﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا (٢٧)﴾ [الفتح]

فخرج بهم رسول الله حتى بلغوا الحديبية على بُعْد ٢٢ كيلو من مكة تعرَّضَتْ لهم قريش ، ومنعتهم من العمرة ، واشترطوا عليهم العودة فى العام المقبل ، وقد كتبوا وثيقة تعاهدوا فيها ، فلما أملى رسول الله على الكاتب : هذا ما تعاهد عليه محمد رسول الله ، قام عمرو بن سهيل فقال : لو كنا نعلم أنك رسول الله ما حاربناك ولا رددناك ، إنما اكتب : هذا ما تعاهد عليه محمد بن عبد الله .

وعندها ثار صحابة رسول الله وغضبوا حتى راجعوا رسول الله فقال عمر : يا رسول الله ألسْنا على الحق ؟ قال : بلى ، قال : أليسوا على الباطل ؟ قال : بلى قال : فَلِمَ نعطى الدَّنية فى ديننا ، فقال الصِّديق : الزم غَرْزَهُ يا عمر ، يعنى قف عند حدِّك - إنه رسول الله[1] .

ولما أصر على بن أبى طالب أن يكتب محمد رسول الله نظر إليه رسول الله ، وقال : « يا على ستُسام مثلها فتقبل »[2] ومرَّتْ الأيام والسنون ، وقُبض رسول الله ، ثم أبو بكر ، ثم عمر ، ثم عثمان ، فلما تولّى علىٌّ الخلافة وحدثت الفتنة بينه وبين معاوية ، وقامت بينهما حرب الجمل ثم صفِّين حتى اضطر علىّ لأنْ يكتب مع معاوية وثيقة لإنهاء القتال أملى علىّ : هذا ما تعاهد عليه على بن أبى طالب أمير المؤمنين ، فقالوا له : لو أنك أمير المؤمنين ما حاربناك ، فاسترجع علىٌّ قول رسول الله : « ستُسام مثلها فتقبل » .

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٤/٣٢٥ ، ٣٣٠) ضمن حديث طويل فى صلح الحديبية من حديث المسور بن مخرمة الزهرى ومروان بن الحكم .

(٢) وقد استشهد على بن أبى طالب بهذا فى محاجته للخوارج الذين خرجوا عليه وعتبوا عليه أنه كاتب معاوية فكتب على بن أبى طالب مجرداً من كونه أمير المؤمنين فقال : « قد جاءنا سهيل بن عمرو ونحن مع رسول الله ﷺ بالحديبية حين صالح قومه قريشاً فكتب رسول الله ﷺ بسم الله الرحمن الرحيم ، فقال سهيل : لا أكتب بسم الله الرحمن الرحيم، قال : كيف تكتب ؟ قال : اكتب باسمك اللهم ، فقال رسول الله ﷺ : اكتب فكتب ، فقال : اكتب هذا ما صالح عليه محمد رسول الله ، فقال : لو أعلم أنك رسول الله لم أخالفك ، فكتب : هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله قريشاً » . (البداية والنهاية لابن كثير ٧ /٢٩١) .

إذن : خرق الله لرسوله حجاب الزمن الماضى ، والزمن المستقبل ، فماذا عن الزمن الحاضر ؟ وكيف يكون خرق الحجاب فيه ؟ هذا فى مثل قوله تعالى : ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ .. (٨)﴾ [المجادلة] فأطلعه الله على ما فى نفوس القوم .

وفى غزوة مؤتة ، وهى الغزوة الوحيدة التى لم يحضرها رسول الله ﷺ ، ومع ذلك سُمِّيت غزوة ـ لأن الغزوة لا تُقَال إلا للمعركة التى حضرها رسول الله ، أما فى مؤتة فقد حضرها وشاهدها وهو فى المدينة ، حيث كشف الله له حجاب الحاضر ، فصار يخبر أصحابه فى المدينة بما يجرى فى مؤتة وكأنها رأْىُ العين .

ويومها تولى القيادة جماعة من كبار الصحابة : زيد بن حارثة ، وابن رواحة ، وجعفر بن أبى طالب ، وخالد بن الوليد ، فكان ﷺ يقول : قُتل فلان وسقطت الراية ، فأخذها فلان وقُتل وحملها فلان .. إلخ فلما عَادوا من الغزوة أخبروا بنفس ما أخبر به رسول الله ﷺ[(١)] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ (٤٧)﴾

المعنى : لولا أن تصيبهم مصيبة بما قدَّمَتْ أيديهم لَعذَّبناهم فاحتجوا قائلين : ﴿رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِن

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٢٦٢) من حديث أنس رضى الله عنه أن النبى ﷺ نعى زيداً وجعفراً وابن رواحة للناس قبل أن يأتيهم خبرهم فقال : أخذ الراية زيدٌ فأصيب ثم أخذ جعفر فأصيب ، ثم أخذ ابن رواحة فأصيب ـ وعيناه تذرفان ـ حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم » .

الْمُؤْمِنِينَ (٤٧) ﴾ [القصص] فلو عذَّبهم الله دون أن يرسل إليهم رسولاً لكانت حجة لهم .

وسبق أنْ قُلْنا : إنه لا عقوبة إلا بتجريم ، ولا تجريم إلا بنصٍّ ولا نصَّ إلا بإعلام ، لذلك تُنشَر الأحكام فى الوقائع الرسمية ليعرفها الجميع ، فتلزمهم الحجة ، ولا يُعْذَر أحد بالجهل بالقانون ، ولا يُعفى من العقاب .

إذن : قطع الله عليهم الحجة ، حين بعث إليهم رسول الله بمنهج الحق الذى يدلهم على الخير والثواب عليه فى الجنة ، ويحذرهم من الشر والعقاب عليه فى النار ﴿ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ.. (١٦٥) ﴾ [النساء]

إذن : الحكمة من إرسال الرسول إقامة الحجة على المرسَل إليهم مجرد إقامة الحجة ؛ لأن قضايا الدين قضايا حقٍّ فطرى يهتدى إليها العقل السليم بفطرته ؛ لذلك وقف المستشرقون طويلاً عند شخصية عمر ـ رضى الله عنه ـ .

يقولون : تذكرون عمر فى كل شىء : فى العدل تقولون عمر ، وفى القوة تقولون عمر ، وفى وجود رسول الله تقولون نزل القرآن موافقاً لكلام عمر ، أليس عندكم إلا عمر ؟

وكأن الحق ـ تبارك وتعالى ـ يدلُّنا بشخصية عمر إلى أنه سبحانه لم يُكلِّفنا بقضايا تنفر منها الفطرة ، إنما بقضايا تقبلها فطرتنا السليمة ، وتهتدى إليها بطبيعتها السوية الخالية من الهوى ، وهذا عمر لم يكُنْ نبياً ولا رسولاً ، لكن كان يصل إلى الحق بما فيه من فطرة إيمانية وعقلية سالمة من الأهواء ، حتى وصلت به الفطرة السليمة إلى أنْ ينطق القرآن بنفس ما نطق به .

وكلمة ﴿لَوْلا .. (٤٧)﴾ [القصص] تأتى بأحد معنيين : إنْ دخلتْ على الجملة الاسمية فهى حرف امتناع لوجود ، كما لو قلت : لولا زيد عندك لَزرتُكَ ، فامتنعتْ الزيارة لوجود زيد . ومن هذه قوله تعالى : ﴿وَلَوْلا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ .. (٤٧)﴾ [القصص] والتقدير : لولا إصابتهم .

فإنْ دخلتْ (لولا) على الجملة الفعلية أفادتْ الحثَّ والحضَّ ، كما تقول لولدك : لولا ذاكرتَ دروسك ، وكذلك لولا الثانية فى الآية ﴿فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧)﴾ [القصص]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ (٤٨)﴾ (١)

قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا .. (٤٨)﴾ [القصص] أى : الرسول الذى طلبوه ﴿قَالُوا لَوْلا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ .. (٤٨)﴾ [القصص] سبحان الله ، إنْ كنتَ كذوباً فكُنْ ذَكُوراً ، لقد طلبتم مجرد

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٧/٥١٨١) : فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : موسى ومحمد عليهما السلام . وهذا قول مشركى العرب . وبه قال ابن عباس والحسن.

الثانى : موسى وهارون . وهذا قول اليهود لهما فى ابتداء الرسالة . وبه قال سعيد بن جبير ومجاهد وابن زيد .

الثالث : عيسى ومحمد ﷺ . وهذا قول اليهود اليوم . وبه قال قتادة . وقيل : أو لم يكفر جميع اليهود بما أوتى موسى فى التوراة من ذكر المسيح ، وذكر الإنجيل والقرآن ، فرأوا موسى ومحمداً ساحرين والكتابين سحرين .

الرسول ولم تطلبوا معه معجزة معينة فقلتم : ﴿رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً .. (٤٧)﴾ [القصص] والآن تطلبون آيات حِسِّية كالتى أرسل بها موسى من قبل .

والمتأمل يجد أن الآيات قبل محمد ﷺ كانت آيات حسِّية كونية ، مثل سفينة نوح عليه السلام ، وناقة صالح عليه السلام ، وعصا موسى عليه السلام ، وإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله بالنسبة لسيدنا عيسى عليه السلام . وهذه كلها معجزات حسية تنتهى بانتهاء وقتها ، فهى مناسبة للرسل المحدودى الزمن ، والمحدودى المكان .

أما الرسول الذى أُرسِلَ للناس كافَّة فى الزمان وفى المكان ، فلا تناسبه الآية الحسِّية الوقتية ؛ لأنها ستكون معجزة لزمانها ، وتظل العصور فيما بعد بلا معجزة ؛ لذلك جاء الحق ـ تبارك وتعالى ـ على يد محمد ﷺ بمعجزة باقية خالدة محفوظة بحِفْظ الله إلى يوم القيامة .

وقلنا : إن الرسل قبل محمد ﷺ كان الرسول يأتى بمعجزة تثبت صِدْق بلاغه عن الله ، ومعه كتاب يحمل منهجه ، فالكتاب غير المعجزة ، أما محمد ﷺ فجاءت معجزته هى عَيْن الكتاب والمنهج الذى أُرسِل به ليظل الدليل على صِدْقه باقياً مع المنهج الذى يطالب الناس به ، وإلى أن تقوم الساعة نظل نقول : محمد رسول الله وهذه معجزته .

أمَّا إخوانه من الرسل السابقين فنقول فلان ، وكانت معجزته كذا على سبيل الإخبار ، والخبر يحتمل الصِّدْق ويحتمل الكذب .

وقد صدَّقنا بهذه المعجزات كلها ؛ لأن الله أخبرنا بها فى القرآن الكريم ، فللقرآن الذى جاء معجزة ومنهجاً الفضل فى إبقاء هذه المعجزات ؛ لأنه أخبر بها وخلَّد ذكرها .

ثم يرد الله عليهم : ﴿أَوَ لَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ .. (٤٨)﴾ [القصص] ثم يحكى ما قالوا عن معجزة موسى ، وعن معجزة محمد ﴿قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا .. (٤٨)﴾ [القصص] أى : أن موسى جاء بسحر ، ومحمد جاء بسحر آخر ، وقد ﴿تَظَاهَرَا .. (٤٨)﴾ [القصص] علينا يعنى : تعاونا ، وهى مأخوذة من الظهر كأنك قُلْت : أعطنى ظهرك مع ظهرى لنحمل الحِمْل معاً ، والظهْر محلُّ الحمل .

والرد على هذا الاتهام يسير ، فمعجزة موسى وإنْ كانت من جنس السحر إلا أنها ليست سحْراً ، فالسحر يُخيِّل لك أن الحبال حية تسعى ، أمّا ما فعله موسى فكان قلب العصا إلى حية حقيقية تسعى وتبتلع سحرهم ، لذلك أُلقى السحرة ساجدين ؛ لأنهم رأوا معجزة ليستْ من جنس ما نبغوا فيه فآمنوا من فورهم .

أما الذين قالوا عن محمد ﷺ : إنه ساحر فالردُّ عليهم بسيط : فلماذا لم يسحركم أنتم أيضاً كما سحر المؤمنين به ؟

ثم يؤكدون كفرهم بكل من الرسولين : موسى ومحمد : ﴿وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ (٤٨)﴾ [القصص]

﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٤٩)﴾

معنى ﴿قُلْ .. (٤٩)﴾ [القصص] أى : فى الردّ عليهم ﴿فَأْتُوا بِكِتَابٍ

مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا .. ﴿٤٩﴾ [القصص] أى : أهدى من التوراة التى جاء بها موسى ، وأهدى من القرآن الذى جاء به محمد ما دام أنهما لم يُعجباكم ﴿أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [القصص] يعنى : لو جئتُم به لاتبعته .

وهذا يعنى منهجين : منهج حقٍّ جاء به محمد ، ومنهج باطل يُصرون هم عليه ، وهذا التحدى من سيدنا رسول الله للكفار يعنى أنه لا يوجد كتاب أهدى مما جاء به ، لا عند القوم ، ولا عند مَنْ سيأتى من بعدهم ، وحين يُقر لهم رسول الله بإمكانية وجود كتاب أهْدى من كتابه يطمعهم فى طلبه ، فإذا طلبوه لم يجدوا كتاباً أهدى منه ، فيعرفوا هم الحقيقة التى لم ينطق بها رسول الله . وهل يستطيع بشر أن يضع للناس منهجاً أهدى من منهج الله ؟

إذن : يقول لهم : ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [القصص] وهو يعلم أنهم غير صادقين ، لأن الله تعالى جعل محمداً ﷺ خاتَم الرسل ، فلن يأتى رُسُل بعده ، بحيث يأتى الرسول فتستدركوا عليه فيأتى آخر بكتاب جديد ، وأنتم لن تستطيعوا أنْ تأتوا بكتاب من عند أنفسكم ؛ لأن كل مُقنّن سيأتى بالمنهج الذى يخدم مذهبه ، ويُرضى هواه .

لذلك نقول : ينبغى فى المقنِّن ويُشترط فيه :

أولاً : أن يكون على علم واسع ، بحيث لا يُسْتدرك عليه فيما بعد ، وهذه لا تتوفر فى أحد من البشر ، بدليل أن القوانين التى وُضعت فى الماضى لم تَعُدْ صالحة الآن ينادى الناس كثيراً بتعديلها ، حيثَ طرأتْ عليهم مسائل جديدة غابتْ عن ذهْن المشرِّع الأول ، فلما جدَّتْ هذه المسائل أتعبت البشر بالتجربة ، فطالبوا بتعديلها .

ثانياً : يشترط فى المشرِّع ألاَّ يكون له هوى فيما يُشرِّع للناس ،

ونحن نرى الرأسماليين والشيوعيين وغيرهم كُلٌّ يشرع بما يخدم مذهبه وطريقته فى الحياة ؛ لذلك يجب ألاّ يُسند التشريع للناس لأحد منهم ؛ لأنه لا يخلو من هوى .

ثالثاً : يُشتَرط فيه ألاَّ يكون منتفعاً بشىء مما يشرع .

وإذا اقتضتْ مسائل الحياة وتنظيماتها أنْ نُقنّن لها ، فلا يُقنِّن لنا من البشر إلا أصحاب العقل الناضج والفكر المستقيم ، بحيث يتوفر لهم نُضْج التقنين ، لكن إلى أنْ يوجد عندهم نضج التقنين أىّ منهج يسيرون عليه ؟

فإنْ حدثتْ فجوة فى التشريع عاش الناس بلا قانون ، وإلاَّ فما الذى قنَّنَ لأول مُقنِّن ؟ الذى قنّن لأول مُقنِّن هو الذى خلق أول مَن خُلق .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥٠) ﴾

وهذا يعنى أن الله تعالى لم يطاوعهم إلى ما أرادوا ، فلم يَأْتِهم بكتاب آخر ، لكن كيف كان سيأتيهم هذا الكتاب ؟ يجيب الحق - تبارك وتعالى - على هذا السؤال بقوله تعالى : ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) ﴾ [الزخرف]

إذن : الكلام عندهم ليس فى الكتاب ، إنما فيمن أُنزِل عليه

الكتاب ، وهذا معنى : ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ .. ﴿٥٠﴾ ﴾ [القصص]

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ .. ﴿٥٠﴾ ﴾ [القصص] يعنى لا أضل ﴿ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ .. ﴿٥٠﴾ ﴾ [القصص] أى : اتبع هوى نفسه ، أما إنْ وافق هواه هوى المشرِّع ، فهذا أمر محمود أوضحه رسول الله فى الحديث الشريف : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به »[(١)] .

فنحن فى هذه الحالة لا نتبع الهوى إنما نتبع الشرع ؛ لذلك يقول أحد الصالحين الذين أفنوا عمرهم فى الطاعة والعبادة : اللهم إنِّى أخشى ألاَّ تثيبنى على طاعتى ؛ لأنك أمرتنا أنْ نحارب شهوات أنفسنا ، وقد أصبحت أحب الطاعة حتى صارت شهوة عندى .

وأضلُّ الضلال أن يتبع الإنسان هواه ؛ لأن الأهواء متضاربة فى الخَلْق تضارب الغايات ، لذلك المتقابلات فى الأحداث موجودة فى الكون .

وقد عبَّر المتنبى[(٢)] عن هذا التضارب ، فقال :

أَرَى كُلَّنَا يَبْغِى الحياةَ لنفسهِ ... حَرِيصاً عَلَيها مُسْتهاماً بها صبَّا
فحبُّ الجبانِ النفسَ أوردَهُ التقى ... وحُبُّ الشجاعِ النفسَ أوردَهُ الحَرْبَا

فنحن جميعاً نحب الحياة ونحرص عليها ، لكن تختلف وسائلنا ، فالجبان لحبه للحياة يهرب من الحرب ، والشجاع يُلقى بنفسه فى معمعتها مع أنه مُحِبٌّ للحياة ، لكنه محب لحياة أخرى أبقى ، هى حياة الشهيد .

---

(١) أخرجه ابن أبى عاصم فى كتاب « السنة » (١/١٢) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ، وأورده ابن رجب الحنبلى فى « جامع العلوم والحكم » . (ص ٤٦٠) وضعَّفه .

(٢) أبو الطيب المتنبى هو : أحمد بن الحسين الكندى ، الشاعر الحكيم ، وأحد مفاخر الأدب العربى ، له الأمثال السائرة والحكم البالغة ، ولد بالكوفة عام ٣٠٣ هـ فى محلة تسمى « كندة » ونشأ بالشام ، تنبأ فى بادية السماوة ، وقُتِل عام ٣٥٤ هـ على يد جماعة خرجوا عليه بالطريق . [الأعلام للزركلى ١/١١٥] .

وآخر يقول :

كُلُّ مَنْ فى الوُجودِ يطلبُ صَيْداً غـير أنَّ الشِّـباكَ مُختلفَـات

فالرجل الذى يتصدق بما معه رغم حاجته إليه ، لكنه رأى مَنْ هو أحوج منه ، وفيه قال تعالى : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ .. (٩) ﴾ [الحشر]

نقول : هذا آثر الفقير على نفسه ، لكنه من ناحية أخرى يبغى الأجر ويطمع فى عَشْرة أمثال ما أنفق ، بل يطمع فى الجنة ، إذن : المسألة فيها نفعية ، فالدين عند المحققين أنانية ، لكنها أنانية رفيعة راقية ، ليست أنانية حمقاء ، الدين يرتقى بصاحبه ، ويجعله إيجابياً نافعاً للآخرين ، ولا عليه بعد ذلك أن يطلب النفع لنفسه .

فالشرع حين يقول لك : لا تسرق . وحين يأمرك بغضٍّ بصرك ، وغير ذلك من أوامر الشرع ، فإنما يُقيِّد حريتك وأنت واحد ، لكن يُقيِّد من أجلك حريات الآخرين جميعاً ، فقد أعطاك أكثر مما أخذ منك ، فإذا نظرتَ إلى ما أخذ منك باتباعك للمنهج الإلهى فلا تَنْسَ ما أعطاك .

لذلك حين نتأمل النبى ﷺ وهو يعالج داءات النفوس حينما أتاه شاب من الأعراب الذين آمنوا ، يشتكى إليه ضَعْفه أمام النساء ، وقلة صبره على هذه الشهوة ، حتى قال له : يا رسول الله ائذن لى فى الزنا ، ومع ذلك لم ينهره رسول الله ﷺ ، بل علم أنه أمام مريض يحتاج إلى مَنْ يعالجه ، ويستل من نفسه هذه الثورة الجامحة ، خاصة وقد صارح رسول الله بما يعانى فكان صادقاً مع نفسه لم يدلس عليها .

لذلك أدناه رسول الله ، وقال له : يا أخا العرب ، أتحب ذلك

لأمك ؟ أتحب ذلك لزوجتك ؟ أتحب ذلك لأختك ؟ أتحب ذلك لابنتك ؟ والشاب فى كل هذا يقول : لا يا رسول الله جُعِلْتُ فداك .

عندها قال ﷺ : « كذلك الناس يا أخا العرب لا يحبون ذلك لأمهاتهم ولا لزوجاتهم ولا لأخواتهم ولا لبناتهم »[(١)] .

فانصرف الشاب وهو يقول : والله ما شىء أبغض إلىَّ من الزنا بعدما سمعتُ من رسول الله ، وكلما هَمَّتْ بى شهوة ذكرتُ قول رسول الله فى أمى ، وزوجتى ، وأختى ، وابنتى .

فالذى يُجرِّىء الناس على المعصية والولوع بها عدم استحضار العقوبة وعدم النظر فى العواقب ، وكذلك يزهدون فى الطاعة لعدم استحضار الثواب عليها .

وسبق أن قلنا لطلاب الجامعة : هَبُوا أن فتى عنده شَرَه جنسى ، فهو شرهٌ منطلق يريد أنْ يقضى شهوته فى الحرام ، ونريد له أن يتوب فقلنا له : سنوفر لك كل ما تريد على أنْ تُلقى بنفسك فى هذا (الفرن) بعد أن تُنهى ليلتك كما تحب ، ماذا يصنع ؟

ثم يقول تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥٠)﴾ [القصص] وفى مواضع أخرى : ﴿لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (١٠٨)﴾ [المائدة] ، ﴿لا يَهْدِى الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٢٦٤)﴾ [البقرة] ، وكلها دلَّتْ على أن الله لا يصنع عدم الهداية لأحد إلا بسبق شىء منه ، والمراد بالهداية هنا ـ أى : هداية الإيمان والتقوى ـ وإلاَّ فقد هدى الله الجميع هداية الدلالة والإرشاد فلم يأخذ بها هؤلاء فحُرِموا هداية الإيمان .

---

(١) عن أبى أمامة أن رجلاً أتى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ائذن لى فى الزنا ، فهمَّ من كان قرب النبى ﷺ أن يتناولوه. فقال النبى ﷺ : دعوه . ثم قال له النبى ﷺ : أتحب أن يفعل هذا بأختك ؟ قال : لا ، قال : فابنتك ؟ قال : لا . فلم يزل يقول فبكذا فبكذا ، كل ذلك يقول : لا ، فقال النبى ﷺ : فاكره ما كره الله وأحب لأخيك ما تحب لنفسك . أورده المتقى الهندى فى منتخب الكنز (٢/٣٩٧) وعزاه لابن جرير الطبرى .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾﴾

كلمة ﴿وَصَّلْنَا .. ﴿٥١﴾﴾ [القصص] تُشعر بأشياء ، انفصل بعضها عن بعض ، ونريد أنْ نُوصِّلها ، فقوله تعالى ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾﴾ [القصص] أى : وصَّلنا لهم الرسالات ، فكلما انقضى عهد رسول وكفر الناس أتاهم الله برسالة أخرى ليظلَّ الخَلْق مُتصلين بهدى الخالق وبمنهجه ، أو : أن الأمر خاصٌّ برسول الله ﷺ ، والمعنى وصَّلنا له الآيات ، فكلما نزل عليه نجم من القرآن وصَّلنا بنجم آخر حسب الأحداث .

لذلك كانت هذه المسألة من الشبهات التى أثارها خصوم رسول الله ، حين قالوا كما حكى عنهم القرآن ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً .. ﴿٣٢﴾﴾ [الفرقان] فردَّ عليهم القرآن ليبين لهم حكمة نزوله مُنجَّماً : ﴿كَذَلِكَ .. ﴿٣٢﴾﴾ [الفرقان] أى : أنزلناه كذلك مُنجَّماً ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ﴿٣٢﴾﴾ [الفرقان]

فلو نزل القرآن جملة واحدة لكان التثبيت لرسول الله مرة واحدة ، وهو محتاج إلى تثبيت مستمر مع الأحداث التى سيتعرَّض لها ، فيوصل الله له الآيات ليظل على ذُكْر من سماع كلام ربه كلما اشتدتْ به الأحداث ، فيأتيه النجم من القرآن ليُسلِّيه ، ويُسرِّى عنه ما يلاقى من خصومه .

وحكمة أخرى فى قوله : ﴿وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ﴿٣٢﴾﴾ [الفرقان] فكلما نزل قسْط من القرآن سَهُلَ عليهم حفظه وترتيبه والعمل به ، كما أن المؤمنين المأمورين بهذا المنهج ستستجدّ عليهم قضايا ، وسوف يسألون فيها رسول الله ، فكيف سيكون الجواب عليها إنْ نزل القرآن جملة واحدة ؟

لا بُدَّ أن يتأخر الجواب إلى أنْ يطرأ السؤال ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً (٣٣)﴾ [الفرقان]

وقد ورد الفعل يسألونك فى القرآن عدة مرات فى سور شتى ، فكيف تتأتى لنا الإجابة لو جاء القرآن كما تقولون جملةً واحدة ، ثم سبحان الله هل أطقتموه مُنجَّماً حتى تطلبوه جملة واحدة ؟

ثم تختم الآية بحكمة أخرى : ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٥١)﴾ [القصص] فكلما نزل نجم من القرآن ذكَّرهم بما غفلوا عنه من منهج الله .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ (٥٢)﴾

كأن الحق - تبارك وتعالى - يقول لنبيه محمد ﷺ : سأجعل خصومك من أهل الكتاب هم الذين يشهدون بصدْقك ؛ لأنهم يعرفونك كما يعرفون أبناءهم ، وما جاء فى كتابك ذُكر فى كتبهم وذكرت صورتك وأوصافك عندهم .

لذلك تجد آيات كثيرة من كتاب الله تُعوِّل على أهل الكتاب فى معرفة الحق الذى جاء به القرآن ، يقول تعالى : ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ (٤٣)﴾ [الرعد]

فهم أيضاً شهداء على صدق رسول الله بما عندهم من الكتب السابقة فاسألوهم .

ويقول تعالى : ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (١٦) وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ (١٧) إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَىٰ (١٨) صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ (١٩)﴾ [الأعلى]

ويقول سبحانه : ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ .. (١٩٩) ﴾ [آل عمران]

وإلا ، فلماذا أسلم عبد الله بن سلام وغيره من علماء اليهود ؟

إذن : أهل الكتاب الصادقون مع أنفسهم ومع كتبهم لا بُدَّ أنْ يؤمنوا برسالة محمد ﷺ ، أما الذين لم يؤمنوا فحجبتهم السلطة الزمنية والحرص على السيادة التى كانت لهم قبل الإسلام ، سيادةً فى العلم ، وفى الحرب ، وفى الثروة .

وكان من هؤلاء عبد الله بن أُبَىٍّ ، وكان أهل المدينة يستعدون لتنصيبه مَلِكاً عليهم ، فلما هاجر سيدنا رسول الله إليها أفسد عليهم ما يريدون ، ونزع منهم هذه السيادة ، والسلطة الزمنية حينما تتدخل تعنى أن يشترك هوى الناس فيستخدمون مرادات الله لخدمة أهوائهم ، لا لخدمة مرادات الله .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ (٥٣) ﴾

هؤلاء المؤمنون من أهل الكتاب إذا يُتْلَى عليهم القرآن قالوا : آمنا به ، وشَهِدوا له أنه الحق من عند الله ، وأنهم لم يزدادوا بسماع آياته

---

(١) **سبب نزول الآية :** قال قتادة : أنها نزلت فى عبد الله بن سلام وتميم الدارى والجارود العبدى وسلمان الفارسى ، أسلموا فنزلت فيهم هذه الآية . [تفسير القرطبى ٥١٨٣/٧] وقال القرطبى : ويدخل فيه من أسلم من علماء النصارى ، وهم أربعون رجلاً ، قدموا مع جعفر بن أبى طالب المدينة ، اثنان وثلاثون رجلاً من الحبشة ، وثمانية نفر أقبلوا من الشام وكانوا أئمة النصارى ، منهم بحيراء الراهب وأبرهة والأشرف وعامر وأيمن وإدريس ونافع . كذا سماهم الماوردى .

إيماناً ، فهم كانوا من قبله مسلمين ، فقد آمنوا أولاً بكتبهم ، وآمنوا كذلك بالقرآن .

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾

الحق ـ سبحانه وتعالى ـ يريد أنْ يُعلِّمنا أن الذى يريد ديناً حقاً لا بُدَّ أن ينظر إلى دين يأتى بعده بمعجزة ، لأنه إذا كان قد آمن حين جاء عيسى بأنه جاء بعد موسى ـ عليه السلام ـ فلا يستبعد عقلاً أنْ يجىء بعد عيسى رسول ، فوجب عليه أنْ يبحث فى الدين الجديد ، وأنْ ينظر أدلة تبرر له إيمانه بهذا الدين .

هذا إذا كان الدين الأول لم يتبدَّل ، فإذا كان الدين الأول قد تبدَّل ، فالمسألة واضحة ؛ لأن التبديل يُحدث فجوة عند مَنْ يريد ديناً ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ .. ﴿١٥٧﴾ ﴾ [الأعراف]

آمنوا به ؛ لأنهم وجدوا نَعْته ، ووجدوا العقائد التى لا تتغير موجودة فى كتابه ، وهو أُمىٌّ لم يعرف شيئاً من هذا ، فأخذوا من أميته دليلاً على صدْقه .

فقوله تعالى ﴿ أُوْلَٰئِكَ .. ﴿٥٤﴾ ﴾ [القصص] أى : أهل الكتاب الذين يؤمنون بالقرآن وهم خاشعون لله ، والذين سبق وصفهم ﴿ أُوْلَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا .. ﴿٥٤﴾ ﴾ [القصص] أجر لإيمانهم برسلهم ، وأجر لإيمانهم بمحمد ﷺ .

لذلك جاء فى الحديث الشريف : « ثلاثة يُؤْتَوْن أجرهم مرتين :

رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه ثم آمن بى ، وعبد مملوك أدى حق الله وأدى حق أوليائه ، ورجل عنده أَمَة - جارية - فأدَّبها فأحسن تأديبها ، فأعتقها بعد ذلك ، ثم تزوجها »[1] .

وهؤلاء الذين آمنوا برسلهم ، ثم آمنوا برسول الله استحقوا هذه المنزلة ، ونالوا هذين الأجرين لأنهم تعرضوا للإيذاء ممَّنْ لم يؤمن فى الإيمان الأول ، ثم تعرَّضوا للإيذاء فى الإيمان الثانى ، فصبروا على الإيذاءين ، وهذه هى حيثية ﴿يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا .. (٥٤)﴾ [القصص]

وكما أن الله تعالى يُؤتى أهلَ الكتاب الذين آمنوا بمحمد أجرهم مرتين ، كذلك يُؤتى بعض المسلمين أجرهم مرتين ، ومنهم - كما بيَّن سيدنا رسول الله : « عبد مملوك أدى حق الله ، وأدَّى حق أوليائه ، ورجل عنده أَمَةٌ ... » .

ولا يُحرم هذا الأجر الدين الذى باشر الإسلام ، وأتى قبله ، وهو المسيحية ، فلهم ذلك أيضاً ؛ لذلك يقول تعالى :

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ .. (٢٥)﴾ [الحديد]

وأهم هذه المنافع ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ .. (٢٥)﴾ [الحديد] وذكر الحديد ، لأن منه سيصنع سلاح الحرب .

إذن : أنزل الله القرآن لمهمة ، وأنزل الحديد لمهمة أخرى ؛ لذلك يقول الشاعر :

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٩٧) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٥٤) كتاب الإيمان من حديث أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه بنحوه .

فَمَا هُوَ إلاَّ الوَحْىُ أَوْ حَدٌّ مُرْهَف يُقيم ظباه[١] أَخْدَعَىْ[٢] كلِّ مائلِ

فَهَـذا دَوَاءُ الـدَّاء من كُلِّ عَاقِلٍ وذَاك دَوَاءُ الـدَّاء من كُلِّ جاهلِ

ولى أنا شخصياً ذكريات ومواقف مع هذه الآية ﴿أُولَـٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا .. (٥٤)﴾ [القصص] وقد كنا فى بلد بها بعض من إخواننا المسيحيين ، وكان من بينهم رجل ذو عقل وفكر ، كان دائماً يُواسى المسلمين ، ويحضر مآتمهم ويستمع للقرآن ، وكانت تعلَق بذهنه بعض الآيات ، فجاءنى مرة يقول : سمعت المقرىء يقرأ : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٠٧)﴾ [الأنبياء]

فألسْنا من العالمين ؟ قلت له : نعم أُرسل محمد رحمة للعالمين جميعاً ، فمَنْ آمن به نالته رحمته ، ومَنْ لم يؤمن به حُرم منها ، ومع ذلك لو نظرتَ فى القرآن نظرة إمعان وتبصُّر تجد أنه رحم غير المؤمن ، قال : كيف ؟ فقرأتُ له قوله تعالى : ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ .. (١٠٥)﴾ [النساء] ولم يقل بين المؤمنين ﴿بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيماً (١٠٥)﴾ [النساء]

فمن رحمة الرسول بغير المؤمنين أنْ يُنصف المظلوم منهم ، وأنْ يردَّ عليه حقَّه ، ثم ﴿وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً (١٠٦)﴾ [النساء] لأن الله لا يحب الخوَّان الأثيم ولو كان مسلماً .

ثم ذكرتُ له سبب نزول هذه الآية[٣] وهى قصة الدرع الذى أودعه اليهودى زيد بن السمين أمانة عند طعمة بن أبيرق المسلم ،

---

(١) الظبة : حدّ السيف والسنان والنصل والخنجر وما إلى ذلك . [لسان العرب ـ مادة : ظبا] .

(٢) الأخدعان : عرقان فى جانبى العنق قد خفيا وبطنا . وقال اللحيانى : هما عرقان فى الرقبة. [لسان العرب ـ مادة : خدع] .

(٣) أورده الواحدى فى أسباب النزول (ص ١٠٣) ـ طبعة المكتبة الثقافية بيروت .

وكان الدرع قد سُرِق من قتادة بن النعمان ، فلما افتقده قتادة ذهب يبحث عنه ، وكان قد وضعه فى كيس من الدقيق ، فتتبع أثر الدقيق حتى ذهب إلى بيت زيد بن السمين اليهودى فاتهمه بسرقته ، وأذاع أمره بين الناس ، فقصَّ اليهودى ما كان من أمر طُعْمة بن أبيرق ، وأنه أودع الدرع عنده على سبيل الأمانة ؛ لأنه يخشى عليه أنْ يُسرق من بيته .

وهنا أحب المسلمون تبرئة صاحبهم ؛ لأنه حديث عهد بإسلام ، وكيف ستكون صورتهم لو شاع بين الناس أن أحدهم يسرق ، ومالوا إلى إدانة اليهودى ، وفعلاً عرضوا وجهة نظرهم هذه على رسول الله ليرى فيه حلاً يُخرجه من هذا المأزق ، مع أنهم لا يستبعدون أنْ يسرق ابن أبيرق[1] .

وجلس رسول الله يفكر فى هذا الأمر ، لكن سرعان ما نزل عليه الوحى ، فيقول له : هذه المسألة لا تحتاج إلى تفكير ولا بحث : ﴿ **إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا (١٠٥)** ﴾ [النساء]

فأدانت الآية ابن أبيرق ، ودلَّتْ على أن هذه ليست الحادثة الأولى فى حقِّه ، ووصفتْه بأنه خوّان أى : كثير الخيانة وبرَّأتْ اليهودى ، وصححتْ وجهة نظر المسلمين الذين يخافون من فضيحة المسلم بالسرقة ، وغفلوا عن الأثر السىء لو قلبوا الحقائق ، وأدانوا اليهودى .

---

(١) قال ابن حجر العسقلانى فى كتاب « الإصابة فى تمييز الصحابة » (٣/٢٨٥) (ترجمة ٤٢٣٨) : « ذكره أبو إسحق المستلمى فى الصحابة وقال : شهد المشاهد كلها إلا بدراً .. وقد تُكلِّم فى إيمان طعمة » .

فالآية وإنْ أدانت المسلم ، إلا أنها رفعتْ شأن الإسلام فى نظر الجميع : المسلم واليهودى وكل من عاصر هذه القصة بل وكل من قرأ هذه الآية ، ولو انحاز رسول الله وتعصَّب للمسلم لاهتزتْ صورة الإسلام فى نظر الجميع . ولو حدث هذا ماذا سيكون موقف اليهود الذين يراودهم الإسلام ، وقد أسلموا فعلاً بعد ما حدث ؟

وما أشبهَ هذه المسألة بشاهد الزور الذى يسقط أول ما يسقط من نظر صاحبه الذى شهد لصالحه ، حتى قالوا : مَنْ جعلك موضعاً للنقيصة فقد سقطت من نظره ، وإنْ أعَنْتَه على أمره ، فشاهد الزور يرتفع رأسُك على الخصم بشهادته ، وتطأ قدمُك على كرامته .

وقوله تعالى : ﴿ وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ .. (٥٤) ﴾ [القصص] هذه أيضاً من خصالهم أن يدفعوا السيئة بالحسنة ، فمن صفاتهم العفو والصفح كما قال تعالى : ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (٤٣) ﴾ [الشورى] ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٥٤) ﴾ [القصص] النفقة الواجبة على نفسه وعلى آله ، والنفقة الواجبة للفقراء وهى الزكاة ، ثم نفقة المروءات للمساكين وأهل الخصاصة .

﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ (٥٥) ﴾

هذه صفة أخرى من صفات المؤمنين ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ .. (٥٥) ﴾ [القصص] واللغو : هو الكلام الذى لا فائدةَ منه ، فلا ينفعك إنْ سمعتَه ، ولا يضرك عدم سماعه ، وينبغى على العاقل أنْ يتركه ، فهو حقيق أنْ يُترك وأنْ يُلْغى .

ولذلك كان من صفات عباد الرحمن : ﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا (٧٢) ﴾ [الفرقان] أى : لا يلتفتون إليه .

وسبب نزول هذه الآية[1] : لما استقبل رسول الله ﷺ رُسُل النجاشى وكانوا جماعة من القساوسة ، فلما جلسوا أسمعهم سورة (يس) ، فتأثروا بها حتى بكَوْا جميعاً ، ثم آمنوا برسول الله ، ولما انصرفوا تعرَّض لهم أبو جهل ونهرهم وقال : خيَّبكم الله من رَكْب - وهم الجماعة يأتون فى مهمة - أرسلكم من خلفى - يعنى : النجاشى - لتعلموا له أخبار الرجل ، فسمعتموه فبكيتُم وأسلمتُم ، والله ما رأينا رَكْباً أحمق منكم ، فما كان منهم إلا أنْ أعرضوا عنه .

هذا معنى قول الحق سبحانه : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ .. (٥٥) ﴾ [القصص]

وهؤلاء مرُّوا باللغو مرورَ الكرام ، وأعرضوا عنه ، فلم يلتفتوا إليه ، وزادوا على ذلك أنهم لم يسكتوا على اللغو إنما قالوا : ﴿ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ (٥٥) ﴾ [القصص] لنا أعمالنا الخيِّرة التى يجب أنْ نُقبل عليها ، ولكم أعمالكم الباطلة التى ينبغى أنْ تُترك ، فكلٌّ منَّا له شأْن يشغله .

﴿ سَلامٌ عَلَيْكُمْ .. (٥٥) ﴾ [القصص]والسلام إما سلام تحية كما هو شائع بيننا ، وإما سلام للمتاركة كما لو دخلتَ مع صاحبك فى جدل ، فلما رأيتَ أنه سيطول وربما تعدَّيْتَ عليه فتقول له تاركاً : سلام عليكم . تعنى : إننى ليس لدىَّ ما أقوله لمفارقتك إلا هذه الكلمة .

ومن ذلك ما دار بين الخليل إبراهيم - عليه وعلى نبينا الصلاة

---

(١) قاله سعيد بن جبير فيما أورده عنه ابن كثير فى تفسيره (٣/٣٩٣) وقاله عروة بن الزبير فيما نقله القرطبى فى تفسيره (٧/٥١٨٣) وعزا ابن كثير القصة لمحمد بن إسحاق فى السيرة .

والسلام - وبين عمِّه ، فبعد أنْ ناقشه ولم يَصل معه إلى نتيجة قال له :﴿ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي .. (٤٧) ﴾ [مريم]

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (٥٦) ﴾

هذا خطاب لسيدنا رسول الله ، خاصٌّ بدعوته لعمه أبى طالب الذى ظلَّ على دين قومه ، ولكنه كان يحمى رسول الله حماية عصبية قربى وأهل ، لا محبة فى الإسلام ، ولله تعالى حكمة فى أنْ يظلَّ أبو طالب على الكفر ؛ لأنه بذلك كسب قريشاً ونال احترامهم ، حيث أعجبهم عدم إيمانه بمحمد وعدم مجاملته له ، وأعجبهم أن يظل على دين الآباء ، فاحترموا حمايته لابن أخيه ، وهذا منع عن رسول الله إيذاءهم ، وحمى الدعوة من كثير من الاعتداءات عليها .

لذلك كان رسول الله ﷺ حريصاً على أنْ يردَّ له هذا الجميل ، وردُّ رسول الله للجميل لا يكون بعرَض من الدنيا ، إنما بشىء باقٍ خالد ، فلما حضرت أبا طالب الوفاة قال له رسول الله ﷺ : « يا عم ، قُلْ لا إله إلا الله كلمة أشفع لك بها عند الله يوم القيامة »

---

(١) سبب نزول الآية : قال أبو إسحاق الزجاج : أجمع المفسرون أنها نزلت فى أبى طالب . ذكره الواحدى فى أسباب النزول (ص ١٩٤) .

وقاله ابن عباس (أخرجه ابن مردويه) ، وابن عمر (أخرجه سعيد بن منصور وعبد بن حميد وأبو داود فى القدر) ، وقتادة (أخرجه عبد بن حميد) أورد كل هذه الأقوال السيوطى فى الدر المنثور (٦/٤٢٩) .

فقال : يا ابن أخى ، لولا أن قريشاً تُعيِّرنى بهذه الواقعة ، ويقولون ما آمن إلا جزعاً من الموت لأقررت عينك بها[(١)] .

لكن يُرْوى أنه بعدما انتقل أبو طالب ، جاء العباس إلى رسول الله ﷺ وقال له : يا محمد ، إن الكلمة التى طلبتَ من عمِّك أنْ يقولها قالها قبل أن يموت وأنا أشهد بها .

ونلاحظ هنا دقة الأداء من العباس ، حيث لم يقُلْ : إن هذه الكلمة لا إله إلا الله ، بل سماها (الكلمة) لماذا ؟ لأنه لم يكن قد أسلم بعد .

وسبق أنْ تكلَّمنا فى معنى الهداية ﴿ إِنَّكَ لا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ .. (٥٦) ﴾ [القصص] وقلنا : إنها تأتى بأحد معنيين : بمعنى الإرشاد والدلالة ، وبمعنى المعونة لمن يؤمن بالدلالة ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧) ﴾ [محمد] أى : سمعوا الدلالة وأطاعوها ، فزادهم الله هدايةً أخرى ، هى هداية الإيمان والمعونة .

يقول تعالى فى هذه المسألة : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ (١٧) ﴾ [فصلت] يعنى : دللناهم ﴿ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ (١٧) ﴾ [فصلت] ؛ لذلك حُرِموا هداية المعونة .

إذن : الهداية المنفية عن سيدنا رسول الله ﴿ إِنَّكَ لا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ .. (٥٦) ﴾ [القصص] هى هداية المعونة والتوفيق للإيمان ؛ لأنه ﷺ هدى الجميع هدايةَ الدلالة والإرشاد ، وكان مما قال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) ﴾ [الصف]

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٥) كتاب الإيمان ، والبيهقى فى دلائل النبوة (٢/٣٤٤) ، والواحدى فى « أسباب النزول » ص ١٩٤ من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

فهداية الدلالة صدرت أولاً عن الله تعالى ، ثم بالبلاغ من رسوله ﷺ ثانياً .

ثم يقول الحق سبحانه[١] :

﴿ وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾

وهذه المقولة ﴿ إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا .. ﴿٥٧﴾ ﴾ [القصص] قالها الحارث بن عثمان بن نوفل بن عبد مناف ، فقد ذهب إلى سيدنا رسول الله ، وقال : إننا نعلم أنك جئتَ بالحق ، ولكن نخاف إنْ آمنا بك واتبعنا هواك أنْ نُتخطّف من أرضنا ، ولابُدَّ أنه كان يتكلم بلسان قومه الذين ائتمروا على هذا القول .

والخطْف : هو الأخْذ بشدة وسرعة .

إذن : فهم يُقرُّون للرسول بأنه جاء بالحق ، وأنه على الهدى ، لكن علة امتناعهم أنْ يُتخطفوا ، وكان عليهم أنْ يقارنوا بعقولهم بين أن يكونوا مع رسول الله على الحق وعلى الهدى ويُتخطَّفوا ، وبين أنْ يظلُّوا على كفرهم .

فقصارى ما يصيبهم إنْ اتبعوا رسول الله أن يتخطفهم الناس فى

---

(١) **سبب نزول الآية** : قال الواحدى فى أسباب النزول (ص ١٩٤) : « نزلت فى الحارث بن عثمان بن عبد مناف ، وذلك أنه قال للنبى ﷺ : إنّا لنعلم أن الذى تقول حقّ ، ولكن يمنعنا من اتباعك أن العرب تخطفنا من أرضنا لإجماعهم على خلافنا ولا طاقة لنا بهم ، فأنزل الله تعالى هذه الآية .. قاله ابن عباس فيما أورده عنه القرطبى فى تفسيره (٥١٨٦/٧) .

أموالهم أو فى أنفسهم - على فرض أن هذا صحيح - قصارى ما يصيبهم خسارة عَرَضٍ فانٍ من الدنيا لو استمر لك لتمتعتَ به مدة بقائك فيها ، وهذا الخير الذى سيفوتك من الدنيا محدود على مقتضى قوة البشر ، ولا يضيرك هذا إنْ كنتَ من أهل الآخرة حيث ستذهب إلى خير بَاقٍ دائم ، خير يناسب قدرة المنعم سبحانه .

أما إنْ ظلُّوا على كفرهم ، فمتاع قليل فى الدنيا الفانية ، ولا نصيبَ لهم فى الآخرة الباقية . إذن : فأىُّ الطريق أهدى ؟ إن المقارنة العقلية ترجح طريق الهدى واتباع الحق الذى جاء به رسول الله ، هذه واحدة .

ثم مَنْ قال إنكم إن اتبعتم الهدى مع رسول الله تُتخطَّفوا وتُضطهدوا ؟ لذلك يرد الله عليهم : قُلْ لهم يا محمد : كذبتم ، فلن يتخطفكم أحد بسبب إسلامكم :﴿ أَوَ لَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٥٧) ﴾ [القصص]

فقد أنعم الله عليكم وأنتم كافرون مشركون به ، تعبدون الأصنام فى جاهلية ، ومكَّن لكم حياة آمنة فى رحاب بيته الحرام ، ووفّر لكم رَغَد العيش وأنتم بوادٍ غير ذى زرع حيث يُجْبى إليه الثمرات من كل مكان ، فالذى صنع معكم هذا الصنيع أيترككم ويتخلى عنكم بعد أنْ آمنتم به ، واهتديتم إلى الحق ؟ كيف يكون منكم هذا القياس ؟

ومعنى : ﴿ أَوَ لَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ .. (٥٧) ﴾ [القصص] استفهام للتقرير ، فاسألهم وسوف يعترفون هم أن الله مكَّن لهم حرماً آمناً يُجبَى إليه ثمرات كل شىء ، فالحق سبحانه يريد أنْ يثبت هذه القضية بإقرارهم بها .

ومعنى ﴿ نُمَكِّن لَّهُمْ .. (٥٧) ﴾ [القصص] نجعلهم مكينين فيه ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ .. (٢١) ﴾ [يوسف] والتمكين

يدل على الثبات ؛ لأن ظرف المكان ثابت على خلاف ظرف الزمان .

وقال : ﴿ حَرَمًا آمِنًا .. (٥٧) ﴾ [القصص] مع أن الأمن لمن فى المكان ، لكن أراد سبحانه أن يُؤمِّن نفس المكان ، فيكون كل ما فيه آمناً ، حتى القاتل لا يُقتصّ منه فى الحرم ، والحيوان لا يُثار فيه ولا يُصَاد ، والنبات لا يُعضد حتى الحجر فى هذا المكان آمن ، ألاَ تراهم يرجمون حجراً فى رمى الجمرات فى حين يُكرِّمون الحجر الأسود ويُقبّلونه .

وحينما نتأمل الحرم منذ أيام الخليل إبراهيم - عليه السلام - نجد أن له خطة ، وأن الحق سبحانه يُعدُّه ليكون حرماً آمناً ، فلما جاءه إبراهيم قال : ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ .. (٣٧) ﴾ [إبراهيم]

هذا يعنى أن المكان ليس به من مقومات الحياة إلا الهواء ، لأن نفى الزرع يعنى عدم وجود الماء ؛ لذلك اعترضت السيدة هاجر على هذا المكان القفر ، فلما علمتْ أنه اختيار الله لهم قالت : إذن لن يضيعنا[1] .

وقد رأتْ بنفسها أن الله لم يُضيِّعهم ، فلما احتاجت الماء لترضع وليدها وسعتْ فى طلبه بين الصفا والمروة سبعة أشواط على قَدْر ما أطاقتْ لم تجد الماء فى سَعْيها ، ولو أنها وجدته لكان سعيها سبباً إنما أراد الله أنْ يُصدِّقها فى كلمتها ، وأن يثبت لها أنه سبحانه لن يُضيّعهم من غير أسباب لتتأكد أن كلمتها حق ، ثم شاءتْ قدرة الله أن

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٣٦٤) من حديث ابن عباس من حديث طويل ، وفيه أن إبراهيم جاء بهاجر وابنها إسماعيل - وهى ترضعه - حتى وضعها عند البيت عند دوحة فوق زمزم فى أعلى المسجد ، وليس بمكة يومئذ أحد ، وليس بها ماء فوضعهما هنالك ، ووضع عندهما جراباً فيه تمر وسقاء فيه ماء ، ثم قفَّى إبراهيم منطلقاً ، فتبعته أم إسماعيل فقالت : يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادى الذى ليس فيه إنس ولا شيء ، فقالت له ذلك مراراً ، وجعل لا يلتفت إليها . فقالت له : آلله أمرك بهذا ؟ قال : نعم . قالت : إذن لا يُضيِّعنا » .

يخرج الماء من تحت قدم الوليد ، وهو يضرب بقدمه الأرض ، ويبكى من شدة الجوع والعطش ، وانبجستْ زمزم .

ولما أسكن إبراهيم أهله فى هذا المكان المقْفر أراده لهم سكناً دائماً ، لا مجرد استراحة من عناء السفر ؛ لذلك قال :﴿ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِى إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ .. (٣٧) ﴾ [إبراهيم]

وكأنه - عليه السلام - يريد أن يطمئن على إقامة أهله فى هذا المكان ، وأن يكون البيت مُصلًّى لله ، لا تنقطع فيه الصلاة ، وهذا هو الفرق بين بيت الله باختيار الله وبيت الله باختيار عباد الله .

فالبيت الذى نبنيه لله تعالى قد يُغلق حتى فى أوقات الفروض ، أما بيت الله الذى اتخذه لنفسه فلا يخلو من الطواف والصلاة فى أىِّ وقت من ليل أو نهار ، ولا ينقطع منه الطواف إلا لصلاة مكتوبة ، فإذا قُضيتْ الصلاة رأيتهم يُهرعون إلى الطواف .

وقد رأيت الحرم فى إحدى السنوات وقد دهمه سيل جارف حتى ملأ ساحته ، ودخل الماء الكعبة وغطَّى الحجر الأسود ، فكان الناس يطوفون سباحة ، ورأينا أناساً يغطسون عند الحجر ليُقبِّلوه ، وكأن الحق - سبحانه وتعالى - يريد أن يظلَّ الطواف حول بيته لا ينقطع على أىِّ حال .

كذلك نفهم من قوله تعالى ﴿ تَهْوِى إِلَيْهِمْ .. (٣٧) ﴾ [إبراهيم]

من الفعل هَوَى يهوى ، يعنى : سقط ؛ لأن الذى يسقط لا إرادةَ له فى عدم السقوط ، كذلك مَنْ يأتى بيت الله أو يجلب إليه الخيرات يجد دافعاً يدفعه كأنه لا إرادة له .

كما نفهم منها معنى آخر ، فكل تكاليف الحق سبحانه ربما

تكاسل الناس فى أدائها ، فمنّا مَنْ لا يصلى أو لا يُزكِّى . إلا الحج حيث قال الله فيه :﴿ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً .. (٢٧) ﴾ [الحج] فمجرد أن تؤذن يأتوك .

لذلك نجد من غير القادرين على نفقات الحج من يجوع ويُمسك على أهله ليوفِّر تكاليف الحج ، فهو - إذن - الفريضة الوحيدة التى يتهافت عليها مَنْ لم تطلب منه .

ونلحظ أن إبراهيم - عليه السلام - دعا بالأمن للحرم مرتين : مرة فى قوله : ﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا آمِنًا .. (١٢٦) ﴾ [البقرة] يعنى : اجعل هذا المكان بلداً آمناً ، كأىِّ بلد آمن لا تُقام إلا فى مكان يُؤَمِّنون فيه كل مُقوِّمات الحياة ، فأىّ بلد لا تُبنى حتى من الكافر إلا إذا كان آمناً فيها ، فالطلب الأول أنْ يتحول هذا المكان الخالى إلى بلد آمن ، كما يأمن كل بلد حين ينشأ ، وهذا أمن عام .

ثم يدعو مرة أخرى ﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا .. (٣٥) ﴾ [إبراهيم] بعد أن أصبحتْ مكة بلداً آمناً يطلب لها مزيداً من الأمن ، وهذا أمن خاص ، حيث جعلها بلداً حراماً ، يأمن فيها الإنسان والحيوان والنبات ، بل والجماد .

وقد وقف البعض عند قوله تعالى :

﴿ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا .. (٩٧) ﴾ [آل عمران]

وقالوا : أين هذا الأمن ، وقد حدث فى الحرم الاعتداء والقتل وترويع الآمنين ، كما حدث فى أيام القرامطة لما دخلوا الحرم ، وقتلوا الناس فيه ، وأخذوا الحجر ، وفى العصر الحديث نعرف حكاية جهيمان ، وما حدث فيها من قَتْل فى الحرم .

وهذه الآية : ﴿ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا .. (٩٧) ﴾ [آل عمران] جملة خبرية غرضها الأمر والحثّ ، كأنه تعالى قال : أمِّنوا من دخل الحرم . وهذه ليست قضية كونية ، إنما قضية شرعية ، وفَرْق بين القضيتين : الكونية لابُدَّ أن تحدث ، أما الشرعية فأمر ينفذه البعض ، ويخرج عليه البعض ، فمَنْ أطاع الأمر الشرعى لله وأراد أنْ يجعل أمر الله صادقاً يُؤمِّن أهل الحرم ، ومَنْ أراد أنْ يكذِّب ربه يهيج الناس ويروعهم فيه .

ومن الآيات التى كثيراً ما يُسأل عنها فى هذا الصدد قوله تعالى: ﴿ الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ .. (٢٦) ﴾ [النور] يقولون : كثيراً ما يتزوج خبيث من طيبة ، أو طيبة من خبيث ، فالواقع لا يتفق مع الآية . نقول أيضاً هنا : هذه قضية شرعية تحمل أمراً قد يُطاع وقد يُعْصَى ، وليست قضية كونية لا بُدَّ أنْ تأتى كما أخبر الله تعالى بها ، ولا يتخلّف مدلولها .

فالمعنى فى الآية : إن زوجتُم فزوِّجوا الخبيث للخبيثة ، والطيب للطيبة ؛ ليتحقق التكافؤ بين الزوجين ويحدث بينهما الوفاق ، حتى إنْ عيَّر الخبيث زوجته كانت مثله تستطيع أنْ تردّ عليه ، لابُدَّ من وجود التكافؤ حتى فى (القباحة) ، وإلا فكيف تفعل الطيبة مع الخبيث ، أو الخبيث مع الطيبة ؟

إذن : فالآية وأمثالها قضية شرعية فى صيغة الخبر ، وإنْ كانت تعنى الأمر ، كما تقول عن الميت : رحمه الله بصيغة الماضى ، وأنت لا تدرى رحمه الله ، أو لم يرحمه ، إذن : لا بُدَّ أن المعنى دعاء : فليرحمه الله ، قلتها أنت بصيغة الماضى ، رجاء أن تكون له الرحمة .

نعود إلى قوله تعالى ﴿ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا .. (٥٧) ﴾ [القصص]

ونلحظ هذا التمكين وهذا الأمن فى قصة الفيل ، حيث جاء أبرهة ليهدم الكعبة ، ويتقدّم الجيش فيل ضخم يقال له محمود ، فلما قالوا فى أذنه (ابْرُكْ محمود وارجع راشداً)[1] يعنى : انفد بجلدك (فإنك ببلد الله الحرام) فبركَ الفيل واستجاب .

ثم جاءت معركة الطير الأبابيل ، ترميهم بحجارة من سجيل ، فجعلهم كعصف مأكول . هذا كله من الأمن الذى جعله الله لقريش سكان حرمه ؛ لتظل الكعبة مسكونة بهم ، وما داموا هم سكان الحرم والناس تأتيهم من كل الأنحاء للحج كل عام ، فسوف يظل لهم الأمن بين القبائل ، ولا يجرؤ أحد على الاعتداء عليهم ، أو التعرُّض لقوافلهم فى رحلة الشتاء والصيف ، وأىُّ أمن ، وأىُّ مهابة بعد هذا ؟

ومع الحجيج يُجلب الطعام وتُجلب الأرزاق ، وصدق الله العظيم : ﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ (١) إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (٢) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ (٤) ﴾ [قريش]

وكيف بعد هذا الأمن والأمان يخاف مَنْ يؤمن بمحمد أنْ يُتخطَّف من أرضه ؟ إنها مقولة لا مدلولَ لها .

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ (٥٨) ﴾

---

(١) أورده ابن هشام فى السيرة النبوية (١/٥٢) ، والذى قال للفيل : ابرك . هو نفيل بن حبيب الخثعمى . وفيه « أنهم ضربوا الفيل ليقوم فأبى ، فضربوه فى رأسه بالطبرزين ليقوم فأبى ، فأدخلوا محاجن (المحجن : عصا مُعقَّفة الرأس) لهم فى مراقّه فبزغوه بها ليقوم فأبى ، فوجهوه راجعاً إلى اليمن ، فقام يهرول ، ووجهوه إلى الشام ففعل مثل ذلك ، ووجهوه إلى المشرق ففعل مثل ذلك ، ووجهوه إلى مكة فبرك » .

كلمة ﴿وَكَمْ (٥٨)﴾ [القصص] كم هنا خبرية تفيد الكثرة ، كأنك تركتَ الجواب ليدل بنفسه على الكثرة ، كما تقول لمن ينكر جميلك ، ولا تريد أنْ تُعدد أياديك عليه : كم أحسنتُ إليك ، يعنى : أنا لن أُعدِّد ، وسوف أرضى بما تقوله أنت .لأنك واثق أن الإجابة سوف تكون فى صالحك ، وعندها لا يملك إلا أن يقول : نعم هى كثيرة . فكم هنا تعنى الكثرة ، وينطق بها المخاطب لتكون حجة عليه .

ومعنى : ﴿مِن قَرْيَةٍ (٥٨)﴾ [القصص] من للعموم أى : من بداية ما يُقال له قرية ﴿بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا (٥٨)﴾ [القصص] البطر : أن تنسى شُكْر المُنعم على نعمه ، أى : أنه سبحانه لم يرد ذكره على بالك وأنت تتقلَّب فى نِعَمه ، أو يكون البطر باستخدام النعمة فى معصية المنعم عز وجل .

ومن البطر أن يتعالى المرء على النعمة ، أو يستقلها ويراها أقلّ من مستواه ، كالولد الذى تأتى له أمه مثلاً بطبق العدس فيتبرَّم به ، وربما لا يأكل ، فتقول الأم كما نقول فى العامية : أنت (بتتبطر) على نعمة ربنا ؟ كلمة فى لغتنا العامية لكن لها أصل فى الفصحى .

إذن : من البطر أنْ تتجبَّر ، أو تتكبر ، أو تتعالى على نعمة الله ، فلا ترضى بها ، وتطلب أعلى منها .

ومعنى ﴿مَعِيشَتَهَا (٥٨)﴾ [القصص] أى : أسباب معيشتها ﴿فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنْ بَعْدِهِمْ إِلاَّ قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ (٥٨)﴾ [القصص] فما داموا قد بطروا نعمة الله فلا بُدَّ أن يسلبها من أيديهم ، وإنْ سُلبتْ نعم الله من بلد هلكوا ، أو رحلوا عنها ﴿إِلاَّ قَلِيلاً (٥٨)﴾ [القصص] هم الذين يقيمون بعد هلاك ديارهم .

﴿وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ (٥٨)﴾ [القصص] نرثهم لأنهم لم يتركوا مَنْ

يرثهم ، وإذا تُرِك مكان بلا خليفة يرثه آل ميراثه إلى الله تعالى .

وفى آية أخرى يعالج الحق سبحانه هذه القضية بصورة أوسع ، يقول تعالى : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ .. (١١٢) ﴾[النحل] يعنى : بطرت بنعمه تعالى : ﴿ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ .. (١١٢) ﴾ [النحل]

ومعنى الكفر بالله : سَتْر وجود الله ، والسَّتْر يقتضى مستوراً ، فكأن الأصل أن الله تعالى موجود ، لكن الكافر يستر هذا الوجود ، وهكذا يكون الكفر نفسه دليلاً على الإيمان ، فالإيمان هو الأصل والكفر طارىء عليه .

ومثال ذلك قولنا : إن الباطل جُنْدى من جنود الحق ، فحين يستشرى الباطل يذوق الناس مرارته ، ويكتوون بناره ، فيعودون إلى الحق وإلى الصواب ، ويطلبون فيه المخرج حين تعضُّهم الأحداث .

وكذلك نقول بنفس المنطق : الألم أول جنود الشفاء ؛ لذلك نجد أن أخطر الأمراض هو المرض الذى يتلصص على المريض دون أنْ يُشعره بأىِّ ألم ، فلا يدرى به إلا وقد استفحل أمره ، وتفاقم خطره وعزَّ علاجه ، لذلك نسميه - والعياذ بالله - المرض الخبيث .

ففى قوله تعالى : ﴿ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ .. (١١٢) ﴾ [النحل]

دليل على وجود النعم ، ومع ذلك كفروا بها أى : ستروها ، إما بعدم البحث فى أسبابها ، والتكاسل عن استخراجها ، أو ستروها عن المستحق لها وضنُّوا بها على العاجز الذى لا يستطيع الكسب ؛ لذلك يسلبهم الله هذه النعم ويحرمهم منها رغم قدرتهم .

وهناك أشياء لو ظلت موجودة لأعطتْ رتابة ، ربما فهموا منها أن هذه الأشياء إنما تأتيهم تلقائياً بطبيعة الأشياء ، وحين يسلب الله منهم

نعمه ويقطع هذه الرتابة ، فإنما ليفهموا أن الرتابة فى التكليفات تُضعِف الحكمة من التكليف ، كيف ؟

نقول : الحق ـ تبارك وتعالى ـ حرَّم علينا أشياء وأحلَّ لنا أشياء ، فمثلاً حرَّم الله علينا الخمر حتى أصبحنا لا نشربها ولا حتى تخطر ببالنا ، فأصبحت عادة رتيبة عندنا ، والله تعالى يريد أنْ يُديم على الإنسان تكليفَ العبادة ، حتى لا يعتادها فيفعلها بالعادة ، فيكسر هذه العادة مثلاً فى صوم رمضان .

ويُحرِّم عليك ما كان حلالاً لك طوال العام ، وقد اعتدْتَ عليه ، فيأتى رمضان وتكليف الصيام ليُحرِّم عليك الطعام الذى كنت تأكله بالأمس ، ذلك لتظل حرارة العبادة موجودةً تُشوِّق العبد إليها ، وتُعوِّده الانضباط فى أداء التكاليف .

ثم يذكر العقاب على الكفر بنعمة الله ﴿ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ .. (١١٢) ﴾ [النحل] والجوع له مظهران : أنْ تطلبه البطن فى أول الأمر ، فإنْ زاد الجوع ضعُفَتْ الجوارح ، وتألمتْ الأعضاء كلها ، وذاقتْ ألم الجوع ، والله تعالى يريد أنْ يُرينا إحاطة هذا الألم ، فشبَّهه باللباس الذى يحيط بالجسم كله ، ويلفّه من كل نواحيه .

وهذه سُنَّة الله فى القُرى الظالمة ، كما قال سبحانه :

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ (٥٩) ﴾

إذن : لابُدَّ أن نُعْلِم بالمنهج ، ويأتى رسول يقول : افعل كذا ،

ولا تفعل كذا ، حتى إذا حَلَّ العذاب بالكافرين يكون بالعدْل ، وبعد إلزامهم الحجة ، لا أنْ نتركَ الناس يذنبون ، ثم نقول لهم : هذا حرام.

وسبق أنْ قُلْنا ما قاله القانون : لا عقوبة إلا بتجريم ، ولا تجريم إلا بنصٍّ ، ولا نصَّ إلا بإعلام . وما كان الله ليهلك قرية ظلماً ، إنما عقوبةً لهم على ما فعلوا .

والقرية لها تسلسل فنقول : (نَجْع) وهو المكان الذى تسكنه أسرة واحدة ، و (كَفْر) لعدة أسر ، ثم (قرية) ثم (أم القرى) وهى الحضر أو العاصمة ، وقد نزل القرآن فى أمة مُتبدية ، تعيش على الترحال ، وتقيم فى الخيام تتنقل بها بين منابت الكلأ ، فقالوا (أم القرى) للمكان الذى تجد به القرى ، وتتوفر فيه من مقومات الحياة مَا لا يوجد فى النجوع والكفور والقرى الصغيرة ، كما يعيش الآن أهل الريف على قضاء حوائجهم من (البندر) ، كأنّ أُمّ القرى لها حنان ، يشمل صغار البلاد حولها .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾

معنى : ﴿ مِّن شَيْءٍ .. ﴿٦٠﴾ ﴾ [القصص] من أىِّ شىء من مُقوِّمات الحياة ، ومن كمالياتها ﴿ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا .. ﴿٦٠﴾ ﴾ [القصص] فمهما بلغ هذا من السُّمو ، فإنه متاع عمره قليل ، كما قال سبحانه : ﴿ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ ﴿٧٧﴾ ﴾ [النساء]

لذلك طلبنا منكم ألاَّ تنشغلوا بهذا المتاع ، وألاَّ تجعلوه غايةً ، لأن

بقاءك فيها مظنون ، ومتاعك فيها على قَدْر نشاطك وحركتك .

وسبق أنْ قلنا : إن آفة النعيم فى الدنيا أنه إما أن يتركك أو تتركه ، وأن عمرك فى الدنيا ليس هو عمر الدنيا ، إنما مدة بقائك أنت فيها ، ومهما بلغتَ من الدنيا فلا بُدَّ من الموت .

لذلك يدلُّنا ربنا ـ عَزَّ وجَلَّ ـ على حياة أخرى باقية مُتيقَّنة لا يفارقك نعيمها ولا تفارقه .

﴿ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ أَفَلا تَعْقِلُونَ (٦٠) ﴾ [القصص]

﴿ خَيْرٌ .. (٦٠) ﴾ [القصص] لأن النعيم فيها ليس على قَدْر نشاطك ، إنما على قَدْر قدرة الله وعطائه وكرمه ، ﴿ وَأَبْقَىٰ .. (٦٠) ﴾ [القصص] لأنه دائم لا ينقطع . فلو قارن العاقل بين متاع الدنيا ومتاع الآخرة لاختار الآخرة .

لذلك ، فإن الصحابى الذى حدَّثه رسول الله ﷺ عن أجر الشهيد ، وتيقَّن أنه ليس بينه وبين الجنة إلا أنْ يُقتل فى سبيل الله ، وكان فى يده تمرات يأكلها فألقاها[1] ، ورأى أن مدة شغله بمضغها طويلة ؛ لأنها تحول بينه وبين هذه الغاية ، ألقاها وأسرع إلى الجهاد لينال الشهادة . لماذا ؟ لأنه أجرى مقارنة بين متاع الدنيا ومتاع الآخرة .

والحق ـ سبحانه وتعالى ـ حين يُجرى هذه المقارنة بين الكفار وبين المؤمنين يقول : ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ .. (٥٢) ﴾

---

(١) عن جابر بن عبد الله قال قال رجل للنبى ﷺ يوم أُحُد : أرأيت إن قُتلت فأين أنا ؟ قال : فى الجنة . فألقى تمرات فى يده ، ثم قاتل حتى قُتل أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٠٤٦) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٨٩٩) فى كتاب الإمارة . قال ابن حجر فى فتح البارى : « لم أقف على اسم الرجل ، وزعم ابن بشكوال أنه عمير بن الحُمام ، وسبقه إلى ذلك الخطيب . لكن وقع التصريح فى حديث أنس (عند مسلم) أن ذلك كان يوم بدر .. فالذى يظهر أنهما قصتان وقعتا لرجلين والله أعلم » .

[التوبة] إما أن ننتصر عليكم ونُذلكم ، ونأخذ خيراتكم ، وإما ننال الشهادة فنذهب إلى خير مما تركنا ﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا .. (٥٢)﴾ [التوبة]

إذن : لا تتربصون بنا إلا خيراً ، ولا نتربّص بكم إلا شراً .

وفى موضع آخر قال سبحانه : ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (١٦) وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ (١٧)﴾ [الأعلى] لذلك ذيَّل الآية هنا بقوله تعالى : ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٦٠)﴾ [القصص] لأن العقل لو قارن بين الدنيا والآخرة لا بُدَّ أنْ يختار الآخرة .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (٦١)﴾

تُعد هذه الآية شرحاً وتأكيداً لما قبلها ، والوعد : بشارة بخير ، وإذا بشَّرك مُساوٍ لك بخير أتى خيره على قدر إمكاناته ، وربما حالت الأسباب دون الوفاء بوعده ، فإنْ كان الوعد من الله جاء الوفاء على قدر إمكاناته تعالى فى العطاء ، ثم إنَّ وعده تعالى لا يتخلف ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ .. (١١١)﴾ [التوبة]

---

(١) **سبب نزول الآية :** عن مجاهد قال : نزلت فى على وحمزة وأبى جهل . وقال السدى : نزلت فى عمار والوليد بن المغيرة . وقيل : نزلت فى النبى ﷺ وأبى جهل . [أورده الواحدى فى أسباب النزول ص ١٩٤] قال القرطبى فى تفسيره (٧/٥١٩٠) : « قال القشيرى : الصحيح أنها نزلت فى المؤمن والكافر على التعميم . وقال الثعلبى : وبالجملة فإنها نزلت فى كل كافر مُتّع فى الدنيا بالعافية والغنى وله فى الآخرة النار ، وفى كل مؤمن صبر على بلاء الدنيا ثقة بوعد الله وله فى الآخرة الجنة » .

لذلك قال ﴿وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لاقِيهِ .. (٦١)﴾ [القصص] أى : حتماً ﴿كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. (٦١)﴾ [القصص] وهو لا محالة زائل ﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (٦١)﴾ [القصص] أى : للعذاب .

وهذه الكلمة ﴿الْمُحْضَرِينَ (٦١)﴾ [القصص] لا تستعمل فى القرآن إلا للعذاب ، وربما الذى وضع كلمة (مُحضر) قصد هذا المعنى ؛ لأن المحضر لا يأتى أبداً بخير .

ويقول تعالى فى موضع آخر : ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٥٨)﴾ [الصافات]

وقال تعالى : ﴿وَلَوْلا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (٥٧)﴾[الصافات]

ثم يقول سبحانه مُؤكِّداً هذا الإحضار يوم القيامة حتى لا يظن الكافر أن بإمكانه الهرب :

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٦٢)﴾

والسؤال هنا للذين أشركوا ، لا لمن أُشرك بهم ، وكلمة ﴿وَيَوْمَ .. (٦٢)﴾ [القصص] منصوبة على الظرفية ، لا بُدَّ أن نُقدِّر لها فعلاً يناسبها ، فالتقدير : واذكر يوم يناديهم ، والأمر لرسول الله ﷺ ، لكن لمن يذكره رسول الله ؟ يذكره للكافرين بهذا اليوم يوم القيامة .

والآية تعطينا لقطة من لقطات هذا اليوم الذى هو يوم الواقعة التى لا واقعةَ بعدها ، ويوم الحاقَّة أى الثابتة التى لا تَزَحْزُحَ عنها ، ويوم الصَّاخة أى : التى تصخّ الآذان التى انصرفتْ عنها فى الدنيا ، ويوم الطامة التى تطمُّ ، ويوم الدين ، أى : الذى ينفع فيه الدين .

والحق سبحانه يذكر هذه اللقطة لأمرين :

الأول : أن رسول الله ﷺ عُودِى وأُوذِى وهزِىء به وسُخِر منه ، واجتمعت عليه كل وسائل النكال من خصومه فبيَّتوا له بمكر ، وصنعوا له سحراً .. إلخ .

وحين تجد دعوة تُقابل بهذه الشراسة ، فاعلم أنها ما قُوبلت هذه المقابلة إلا لأنها ستهدم فساداً ينتفع به قوم ترهبهم كلمة الإصلاح ؛ لأنها تصيبهم فى مصالحهم وفى شهواتهم وفى جاههم وعنجهيتهم وطغيانهم ، فطبيعى أن يقفوا فى وجهها .

لذلك نجد كثيراً من الغربيين يعرفون عظمة الإسلام من شراسة عداوة خصومه ، يقولون : لو لم يكُنْ هذا الدين ضد فسادهم ما ائتمروا عليه ، ولو كان أمراً هيِّناً لتركوه للزمن يمحوه ، لكنهم أيقنوا أنه الحق الذى سيُذهِب باطلهم ، ويقضى على طغيانهم .

فالحق سبحانه يأمر رسوله ﷺ أنْ يذكر ذلك اليوم يذكره لنفسه ، ويذكره لقومه ليعتبروا ، فربما إذا سمعوا ما فى هذا اليوم من القسوة والخزى والنكال ربما راجعوا أنفسهم فتابوا إلى الله .

إذن : ليس حظ الله تعالى من هذا العمل أنْ يُرهبهم إنما ليحذرهم ، لئلا يقع منهم الكفر الذى يُوقِفهم هذا الموقف ، كما تُبشِّع لولدك عاقبة الإهمال ، وتُحذِّره من الرسوب لينفر من أسبابه ، ويبحث عن أسباب النجاح .

يقول تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ .. (٦٢) ﴾ [القصص] وقد ناداهم فى الدنيا : يا أيها الناس ، يا بنى آدم فصمُّوا آذانهم ، وأعرضوا عن نداء الله ، واليوم يناديهم نداءً لا يملكون أنْ يصمُّوا آذانهم عنه ؛ لأنه

﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦)﴾ [غافر] فكأن الحق يُذكِّرهم بهذا اليوم ، لعلهم يرعوون ، ولعلهم يرجعون .

الأمر الثانى : أن الآية جاءت تسليةً لسيدنا رسول الله يقول له ربه : لا تيأس مما يصنعون معك ، ولا يحزنك كيدهم وعنادهم ؛ لأننى سأصنع بهم كيت وكيت . وأنت تستطيع أن تدرك سرَّ هذا الإيعاز النفسى فى نفس المضطهد وفى نفس المظلوم حين يشكو لك ولدك أن أخاه ضربه أو أهانه فتقول أنت لتُرضيه : انتظر سوف أفعل به كذا وكذا ، فترى الولد ينبهر بهذه العقوبة المسموعة ويسعد بها ، وكذلك حين يسمع رسول الله العقوبة التى تنال أعداءه على ما حدث منهم يسعد بها ، وتُسرِّى عن نفسه ما يلاقى .

ومضمون النداء ﴿أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٦٢)﴾ [القصص] فلم يقُلْ شركائى ويسكت ، إنما وصفهم ﴿الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٦٢)﴾ [القصص] لأنه سبحانه واحد لا شريك له ، وهؤلاء شركاء فى زعمهم فقط ، والزعم كما يقولون : مطية الكذب ؛ لذلك لن يجدوا جواباً لهذا السؤال ﴿أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٦٢)﴾ [القصص]

ولو كان أمامهم شركاء لقالوا : ها هم الذين أضلُّونا ، فأذقْهم يا رب العذاب ضِعْفين ، لكنهم لم يجيبوا فهذا دليل على أنهم غير موجودين ، لقد وقف هؤلاء المشركون حائرين ، لا يدرون جواباً كما قال تعالى : ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الأَنبَاءُ .. (٦٦)﴾ [القصص]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ (٦٣)﴾

والكلام هنا للشركاء الذين أضلوا المشركين وأغووْهم ، ومعنى ﴿حَقَّ عَلَيْهِمُ .. (٦٣)﴾ [القصص] أى : ثبت ووقع ، فهو أمر لا محالة منه ، ولم يعد هناك مجال لزحزحته عنهم ، كما قال سبحانه فى موضع آخر : ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ (٣١)﴾ [الصافات]

وقال الحق سبحانه وتعالى :

﴿وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لا يَنطِقُونَ (٨٥)﴾ [النمل]

لكن ، ما هو القول الذى وقع وثبت لهم وحَقَّ عليهم ؟ القول : أن كلَّ واحد له مكان عندى فى الجنة على فَرْض أنكم جميعاً آمنتم ، وكل واحد له مكان فى النار على فَرْض أنكم جميعاً كفرتم .

وماذا قالوا ؟ قالوا : ﴿رَبَّنَا هَـٰؤُلاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا .. (٦٣)﴾ [القصص] سبحان الله الآن تقولون ربنا وتعترفون بربوبيته تعالى ، كما قال تعالى فى شأن فرعون : ﴿آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٩١)﴾ [يونس]

الآن تعترفون بعد أنْ سُلب منكم الاختيار ، ولم تعُد لكم إرادة حتى على جوارحكم وأبعاضكم ، فيدُكَ التى كنت تبطش بها ، ورجْلك التى كنت تسعى بها ولسانك .. كلها خرجت عن إرادتك وطَوْع أمرك ؛ لأنها الآن طَوْعٌ لأمر الله ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤)﴾ [النور]

ومعنى ﴿هَـٰؤُلاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا .. (٦٣)﴾ [القصص] أى : المشركين ﴿أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا .. (٦٣)﴾ [القصص] أى : لنكون سواء ، هذه علَّة غوايتهم ، أن يكونوا فى الخُسْران سواء ، وإلا فأهل الباطل يسعون جاهدين للإيقاع بأهل الحق ليشاركوهم باطلهم ، وليكونوا أمثالهم .

وهذه المسألة تعطينا السيال النفسى لكل منحرف حين يرى ملتزماً مستقيماً ، لا يشاركه فساده وانحرافه ، فيعزّ عليه أنْ يكون فى الهاوية وحده ، ولماذا يمتاز عنه الآخرون ؟ واقرأ قوله تعالى :

﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً .. (٨٩)﴾ [النساء]

ألا ترى أهل الباطل والفساد والفجور يهزءُون من أهل الحق ويسخرون منهم ، ليُزهدوهم فى الخير والصلاح ، وليغروهم بما هم فيه ، حتى أصبح الإنسان الملتزم بدينه وشرع ربه لا يسلَم من ألسنتهم ، كما يقول تعالى :

﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٣٠)﴾ [المطففين]

وليت الأمر ينتهى عند الغَمْز واللمز ، إنما يتمادى هؤلاء ، فيجعلون من سخريتهم بأهل الإيمان والطاعة مادةً للمسامرة والتسلية ﴿وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ (٣١)﴾ [المطففين] يعنى : فرحين مسرورين بما نالوه من أهل الطاعة ، مما يدلّ على أنهم جميعاً تُسعدهم هذه المسألة وتُرضى شيئاً فى نفوسهم المريضة الحاقدة .

لكن المؤمن من طبيعته يحب أنْ يُكرم ، وأنْ ينأى بنفسه عن مجاراة هؤلاء ، لذلك يتولَّى ربه ـ عز وجل ـ الدفاع عنه يقول له : لا تحزن فسوف نقتصُّ لك ، ونسخر منهم ، ونجعلهم أضحوكة فى يوم باقٍ لا ينتهى فيه عذابهم :

﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٣٤) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ (٣٥) هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦)﴾ [المطففين]

وكأن الحق ـ تبارك وتعالى ـ يسترضى عباده المؤمنين : أيعجبكم

ما آلوا إليه ؟ أقَدرْنا أن نجازيهم على ما اقترفوه فى حقكم ؟ نعم يا رب ، فسخرية الكفار من أهل الإيمان فى دار الباطل الفانية انقلبت سخرية منهم فى دار الحق الباقية ، وهى سخرية دائمة لا نهاية لها .

إذن : ﴿أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا .. (٦٣)﴾ [القصص] يعنى : حتى نكون سواء ، لا يكون أحدنا أحسن من الآخر ، ومن هذا المنطلق أغوى إبليسُ آدمَ ، لأنه لما طغى وطُرد من رحمة الله ، ومن الصفائية التى كان ينعَم بها مع الملائكة . أراد أنْ يأخذ آدم بل وذريته إلى هذا المصير ، فقد حَزَّ فى نفسه أن يلاقى هذا المصير وحده ، فى حين ينعَم آدم وذريته برحمة الله ورضوانه .

لذلك نجد إبليس ـ لعنه الله ـ لا يكتفى بأن تُغوى ذريته ذريةَ آدم ، إنما يطلب من الله أنْ يُنظره إلى يوم البعث ليباشر بنفسه هذه الغواية ، فهو (المعلم) الكبير ، وكأنه يحذر أن إمكانات ذريته فى الغواية قد لا ترضيه ؛ لذلك يتولى بنفسه هذه المهمة فيقول : ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦)﴾ [الأعراف]

والبعض يفهم قوله تعالى : ﴿قَالَ أَنظِرْنِي[1] إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤) قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (١٥)﴾ [الأعراف] أن الله تعالى أجاب إبليس إلى ما طلب ، لكن ﴿إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (١٥)﴾ [الأعراف] ليست إجابةً ، إنما تقرير لشىء حادث بالفعل قبل أن يطلب ، فالمعنى أن سؤالك ليس له معنى ؛ لأنك من المنظرين فعلاً ، لماذا ؟ قالوا : لأن الله تعالى يريد أنْ يظلَّ إبليس الذى أغوى آدم وأخرجه من الجنة باقياً أمام ذريته ليُذكِّرهم دائماً : هذا الذى أغوى أباكم آدم .

---

(١) أنظره : أخّره وأمهله وتأنَّى عليه . وقوله : ﴿قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤)﴾ [الأعراف] أى : أمهلنى وأخِّر حسابى وعقابى إلى يوم القيامة . [القاموس القويم ٢/٢٧٣] .

وقولهم : ﴿رَبَّنَا هَـٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا .. (٦٣)﴾ [القصص] لنا وقفة مع ﴿هَـٰؤُلَاءِ .. (٦٣)﴾ [القصص] وهى اسم إشارة للجمع بنوعيه ، تقول : هؤلاء الرجال ، وهؤلاء النساء ، وهى عبارة عن : الهاء للتنبيه ، وأولاء اسم إشارة ، وكذلك فى هذا ، هذه ، هذان ، هاتان . فالهاء فيها للتنبيه لتنبه السامع أنك ستتكلم ليعطيك سمعه ، ويهتم بما تقول ، فلا يفوته من كلامك شىء .

هذا حين تخاطب مثلك لأنه يحتاج إلى تنبيه ، أما إذا خاطبتَ ربك - عز وجل - فمن سوء الأدب أنْ تستخدم فى خطابه أداة التنبيه ، كما استخدمها المشركون ، فما داموا قد قالوا ﴿رَبَّنَا .. (٦٣)﴾ [القصص] فليس من الأدب أن يقولوا ﴿هَـٰؤُلَاءِ .. (٦٣)﴾ [القصص] أيُنبِّهون الله عز وجل ؟

لذلك نلحظ هذا الأدب فى خطاب نبى الله موسى - عليه السلام - فيما حكاه عنه القرآن : ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَـٰمُوسَىٰ (٨٣) قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ (٨٤)﴾ [طه] فقال (أولاء) بدون هاء التنبيه تأدُّباً مع ربه عَزَّ وجَلَّ .

ونلحظ أنك لا تجد خطاباً من الكفار إلا باستخدام هؤلاء : ﴿رَبَّنَا هَـٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا .. (٣٨)﴾ [الأعراف] ﴿رَبَّنَا هَـٰؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا .. (٨٦)﴾ [النحل] أما المؤمن فلا يليق به أبداً أن يُنبِّه الله تعالى ، بل ولا تصدر من مؤمن لمؤمن لأنه دائماً منتبه .

ثم يقولون : ﴿تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ (٦٣)﴾ [القصص] الآن ينكُصون كما قالوا من قبل ﴿رَبَّنَا .. (٦٣)﴾ [القصص] يقولون الآن ﴿تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ .. (٦٣)﴾ [القصص] لكن هيهات تنفعهم هذه البراءة ، لقد انتهى وقتها ، ومضى زمن التكليف والاختيار ، والآن وقت الحساب

وسلْب الإرادة والاختيار ، وما أشبههم بفرعون حين قال الله له : ﴿آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٩١)﴾ [يونس]

وقولهم : ﴿مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ (٦٣)﴾ [القصص] يقول الشركاء : ما كان معنا قوة قهر نحملكم بها على عبادتنا ، ولا قوة سلطان أو حجة نقنعكم بها ، إنما كنتم فى انتظار إشارة منا ، كما قال كبيرهم إبليس : ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم .. (٢٢)﴾ [إبراهيم]

إذن : فهؤلاء المشركون كانوا يعبدون أنفسهم وذواتهم ؛ لأن الشركاء كانوا أصناماً أو غيرها ، وليس لهم منهج يتكلَّمون به ، ويدْعُون الناس إلى عبادتهم به ، وإلا فماذا قالت الأصنام أو الشمس أو النجوم لمن عبدها ؟ بِمَ أمرتهم ، وعمَّ نهتْهم ؟

إذن : هو إله بلا منهج وبلا تكاليف ، وهذا ما يريده المشركون ؛ لأن الذى يُتعب الناس فى قضية الإيمان بالألوهية ما تقتضيه من تكاليف ، وما تفرضه من أمر أو نهى يحول بين النفس البشرية وما تشتهى ، ويُوقفها عند حدود لا تتعداها .

إذن : ﴿مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ (٦٣)﴾ [القصص] بل يعبدون ذواتهم ، ويعبدون شهواتهم ورغباتهم ، وما أسهلَ أن يعبد الإنسان آلهة لا تلزمه بشىء ، فيسير فى حياته على هواه ، وهذه هى التى روجَتْ لعبادة هذه الآلهة .

لذلك فإن الحق سبحانه يريد أنْ يلزم الإنسان حجة أن نفسه هى الوسيلة الأولى لشهواته ، وإلا فلو أن المسألة كلها وسوسة شيطان ، فمَنْ أغوى إبليس بالعصيان أولاً على حَدِّ قَوْل الشاعر :

* إبليسُ لما عَصى مَنْ كان وسْوَسَهُ ؟ *

إذن : فهى كبرياء النفس ورغباتها ، وليس للشيطان إلا أنْ يُلوِّح لها فتقع ؛ لذلك جاء فى الحديث الشريف : « إذا أقبل رمضان فُتحت أبواب الجنة ، وغُلِّقت أبواب النار ، وسُلْسلت الشياطين »[(١)] .

وما دامت الشياطين سُلسلت ، فليس لها حركة مع الإنس ؛ لأن الله تعالى يعلم منّا أنَّا نُعلِّق كل معاصينا على الشيطان ، فكأنه سبحانه يقول : ها هى الشياطين صُفِّدت وسُلْسلت ، فمَنْ أغواكم وزيَّن لكم حال سلْسلتها ؟ إذن : هى نفسك التى توسوس لك ؛ لذلك نقول : كل معصية تقع فى رمضان ليس للشيطان فيها نصيب ، إنما هى شهوة النفس .

وسبق أنْ بيَّنا كيف نُفرِّق بين المعصية متى تكون من الشيطان ؟ ومتى تكون شهوة نفس ؟ إنْ كانت المعصية تُوقفك عندها لا تتزحزح عنها إلى غيرها ، فاعلم أنها من نفسك ، أما إنْ عزَّتْ عليك معصية ففكَّرْتَ فى غيرها ، فهى من الشيطان ؛ لأنه والعياذ بالله يريدك عاصياً على أى وجه ، وبأىِّ طريقة فينقلك إلى معصية أخرى يستطيع أنْ يُوقعك فيها ، على خلاف شهوة النفس ، فهى تريد شيئاً بذاته لا تريد غيره .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقِيلَ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٢/٢٨١) ، والنسائى فى سننه (٤/١٢٨) من حديث أبى هريرة عن رسول الله ﷺ قال : « إذا دخل رمضان فتحت أبواب الرحمة ، وغلقت أبواب جهنم ، وسلسلت الشياطين » .

وسبق أن ناداهم ﴿أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٦٢)﴾ [القصص] أى : فى زعمكم ؛ لأنه سبحانه ليس له شركاء ، وهنا يقول لهم ﴿ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ (٦٤)﴾ [القصص] ولم يقُلْ شركائى ، مع أنهم اتخذوهم شركاء لله .

فمعنى ﴿شُرَكَاءَكُمْ .. (٦٤)﴾ [القصص] أفى دعوى الألوهية ؟ لا ، لأنهم تابعون لهم ، إذن : فما معنى ﴿شُرَكَاءَكُمْ .. (٦٤)﴾ [القصص] ؟ قالوا : الإضافة تأتى بمعَانٍ ثلاثة : إما بمعنى (من) مثل : أردب قمح أى : من قمح ، أو بمعنى (فى) مثل : مكر الليل أى : مكر فى الليل ، أو : بمعنى (لام) الملكية مثل : قلم زيد أى : قلم لزيد .

فالمعنى هنا ﴿شُرَكَاءَكُمْ .. (٦٤)﴾ [القصص] أى : من جنسكم أو فيكم يعنى : لا يتميز عنكم بشىء ، والإله لا بُدَّ أن يكون من جنس أعلى ، فإنْ كان من جنسكم ، فهو مُسَاوٍ لكم ، لا يصلح أن تتخذوه إلهاً .

ومعنى ﴿ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ .. (٦٤)﴾ [القصص] يعنى : نادوهم لينصروكم ، ويشفعوا لكم ، كما قلتم : ﴿هَـٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ .. (١٨)﴾ [يونس]

وقلتم : ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ .. (٣)﴾ [الزمر]

إذن : فنادوهم ليُقربوكم من الله ، وليشفعوا لكم ، والذى يقوم بهذه المهمة لا بُدَّ أنْ يكون له منزلة عند الله يضمنها ، وهل يضمن هؤلاء الشركاء منزلة عند الله ؟ كيف وهم لا يضمنونها لأنفسهم ؟

﴿فَدَعَوْهُمْ .. (٦٤)﴾ [القصص] يا شركاءنا ، يا مَنْ قُلْتم لنا كذا وكذا أدركونا ﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ .. (٦٤)﴾ [القصص] لأنهم مشغولون

بأنفسهم ﴿وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ (٦٤)﴾ [القصص] يعنى : لو كانوا يهتدون بهَدْى الله ، وهَدْى رسوله ، ويروْن العذاب الذى أنذرهم به حقيقة وواقعاً لا يتخلفون عنه لَمَا حدث لهم هذا ، ولما واجهوا هذه العاقبة .

أو : أنهم لما رأوا العذاب حقيقة فى الآخرة تمنَّوا لو أنهم كانوا مهتدين .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ (٦٥) فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ (٦٦)﴾

قال هنا أيضاً ﴿يُنَادِيهِمْ .. (٦٥)﴾ [القصص] فما الغرض من كل هذه النداءات ؟ إنها للتقريع وللتوبيخ وللسخرية منهم ، وممَّنْ عبدوهم واتبعوهم من دون الله ، ومضمون النداء : ﴿مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ (٦٥)﴾ [القصص] والإجابة : موافقة المطلوب من الطالب ، فماذا كانت إجابتكم لهم بعد أن آمنتم بإله ، أأخذتُم بما جاءوا به من أحكام ؟ أعلمتم منهم علماً يقينياً حقاً ؟

وهذا الاستفهام للتعجيز ؛ لأنهم إنْ حاولوا الإجابة فلن يجدوا إجابة فيخزون ويخجلون ؛ لذلك يقول بعدها ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنبَاءُ .. (٦٦)﴾ [القصص] أى : خفيَتْ عليهم الحجج والأعذار وعموا عنها فلم يروْهَا ﴿فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ (٦٦)﴾ [القصص] لا يملكون إلا السكوت كما قالوا : جواب ما يكره السكوت ، وكما قال سبحانه : ﴿وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا (١٠)﴾ [المعارج]

وهؤلاء لا يتساءلون ؛ لأنهم فى الجهل سواء ، وفى الضلال شركاء ، وكل منهم مشغول بنفسه ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٣٧)﴾[عبس]

وكما سُئِل المشركون ﴿مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ (٦٥)﴾ [القصص] فى موضع آخر يسأل الرسل : ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ .. (١٠٩)﴾ [المائدة] أى : فيما علمتم من العلم ، وأوله : علم اليقين الأعلى ، وثانيها : علم الأحكام ، فبماذا أجابكم الناس ؟

وتأمل هنا أدب الرسل ومدى فهمهم فى مقام الجواب لله ، وهم يعلمون تماماً بماذا أجاب أقوامهم ، وأن منهم مَنْ آمن بهم ، وتفانى فى خدمة دعوتهم وضحّى واستشهد ، ومنهم مَنْ كفر وعاند ، ومع ذلك يقولون : ﴿قَالُوا لا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ (١٠٩)﴾ [المائدة]

فكيف يقولون ﴿لا عِلْمَ لَنَا .. (١٠٩)﴾ [المائدة] وهم يعلمون ؟ قالوا : لأنهم غير واثقين أن مَنْ آمن آمن عن عقيدة أم لا ، فهم يأخذون بظواهر الناس ، أما بواطنهم فلا يعلمها إلا الله ، كأنهم يقولون : أنت يا ربنا تسأل عن إجابة الحق لا عن إجابة النفاق ، وإجابة الحق نحن لا نعرفها ، وأنت سبحانك علاَّم الغيوب .

إذن : جعلوا الحق ـ تبارك وتعالى ـ هو السُّلْطة التشريعية ، والسلطة القضائية ، والسلطة التنفيذية فى محكمة العدل الإلهى التى سيُعلن فيها على رؤوس الأشهاد ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ .. (١٦)﴾ [غافر]

والسؤال عند العرب يُطلق ، إما للمعرفة حيث تسأل لتعرف ، كما يسأل التلميذ أستاذه ، أو يكون السؤال للإقرار بما تعرف ، كما يسأل

الأستاذ تلميذه ليقرّ على نفسه ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُسْأَلُ عَن ذَنْبِهِ إِنسٌ وَلا جَانٌّ (٣٩)﴾ [الرحمن] أى : سؤالَ علم ؛ لأننا نعلم .

وقوله تعالى : ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ (٢٤)﴾[الصافات] أى : سؤال إقرار منهم ، وإنْ كان كلامى يوم القيامة حجة ، لأنه لا مردَّ له ، لكن مع ذلك نسألهم ليقروا هم ، وليشهدوا على أنفسهم .

والحق ـ تبارك وتعالى ـ يدلُّك على أنه تعالى يُبشِّع مظاهر يوم القيامة على الكافرين ، لا لأنه كاره لهم ، بل يريدهم أنْ يستحضروا هذه الصورة البشعة لعلهم يرعوون ويتوبون ؛ لذلك يفتح لهم باب التوبة لأنه رب ورحيم .

لذلك جاء فى الحديث القدسى : « قالت الأرض : يا رب إئذن لى أنْ أخسف بابن آدم فقد طَعِم خيرك ومنع شكرك . وقالت الجبال : يا رب إئذن لى أنْ أخرَّ على ابن آدم فقد طَعِم خيرك ومنع شكرك . وقالت البحار : يا ربِ إئذن لى أنْ أغرِق ابن آدم فقد طَعِم خيرك ومنع شكرك . فقال تعالى : دعونى وخلقى لو خلقتموهم لرحمتموهم ، دعوهم فإنْ تابوا إلىَّ فأنا حبيبهم ، وإنْ لم يتوبوا فأنا طبيبهم»[(١)] .

أعالجهم بالترغيب مرة ، وبالترهيب أخرى ، أشوِّقهم إلى الجنة ، وأخوِّفهم من النار ، وأفتح باب التوبة ، وفتْح باب التوبة ليس رحمة من الله للتائب فقط ، ولكن رحمة لكل مَنْ يشقى بعصيان غير التائب .

---

(١) أخرج أحمد فى مسنده (٤٣/١) من حديث عمر بن الخطاب أن رسول الله ﷺ قال : « ليس من ليلة إلا والبحر يشرف فيها ثلاث مرات ، يستأذن الله عز وجل أن ينفضخ عليهم ، فيكفه الله عز وجل » ضعَّف إسناده الشيخ أحمد شاكر فى تحقيقه للمسند (٢٨٦/١) .

ولو أُغلِق باب التوبة فى وجه العاصى ليئس وتحول إلى (فاقد) يشقى به المجتمع طوال حياته ، إذن : ففتْح باب التوبة رحمة بالتائب ، ورحمة بمجتمعه ، بل وبالإنسانية كلها ، رحمة بالعاصى وبمَنِ اكتوى بنار المعصية .

﴿ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾

لماذا استخدم هنا (عسى) الدالة على الرجاء بعد أنْ قال ﴿ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا .. ﴿٦٧﴾ ﴾ [القصص] ولم يقل : يكون من المفلحين فيقطع لهم بالفلاح ؟

قالوا : لأنه ربما تاب ، لكن عسى أن يستمر على توبته ليستديم الفلاح أو نقول أن (عسى) من الله تدل على التحقيق ، وسبق أنْ قُلْنا : إن الرجاءات على درجات : فالرجاء فى المتكلم أقوى من الرجاء فى الغائب ، فإنْ كان الرجاء فى الله فهو أقوى الرجاءات كلها .

لذلك يقول سبحانه فى خطابه لنبيه محمد ﷺ : ﴿ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ ﴾ [الإسراء] فأىُّ رجاء أقوى من الرجاء فى الله ؟

إذن : (عسى) رجاء حين تصدر ممن لا يملك إنفاذ المرجو ، وتحقيق حين تصدر ممَّنْ يملك إنفاذ المرجو ، وهو الحق سبحانه وتعالى .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾

كنا ننتظر أنْ يُخبرنا السياق بما سيقع على المشركين من العذاب ، لكن تأتى الآية ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ .. ﴿٦٨﴾ ﴾ [القصص] وكأن الحق سبحانه يقول : أنا الذى أعرف أين المصلحة ، وأعرف كيف أُريحكم من شرِّهم ، فدعونى أخلق ما أشاء ، وأختار ما أشاء ، فأنا الرب المتعهد للمربى بالتربية التى تُوصله إلى المهمة منه .

والمربَّى قسمان : إما مؤمن وإما كافر ، ولا بُدَّ أنْ يشقى المؤمن بفعل الكافر ، وأنْ يمتد هذا الشقاء إنْ بقى الكافر على كفره ؛ لذلك شَرعتُ له التوبة ، وقَبلْتُ منه الرجوع ، وهذا أول ما يريح المؤمنين .

ومعنى : ﴿ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ .. ﴿٦٨﴾ ﴾ [القصص] يعنى : لا خيارَ لكم ، فدعونى لأختار لكم ، ثم نفِّذوا ما أختاره أنا .

أو : أن هذه الآية ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ .. ﴿٦٨﴾ ﴾ [القصص] قيلت للردِّ على قولهم : ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾ [الزخرف] . يقصدون الوليد بن المغيرة أو عروة بن مسعود الثقفى ، فردَّ الله عليهم : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ .. ﴿٣٢﴾ ﴾ [الزخرف]

فكيف يطمعون فى أنْ يختاروا هم وسائل الرحمة ، ونحن الذين

قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ، فجعلنا هذا غنياً ، وهذا فقيراً ، وهذا قوياً ، وهذا ضعيفاً ، فمسائل الدنيا أنا متمكن منهم فيها ، فهل يريدون أنْ يتحكموا فى مسائل الآخرة وفى رحمة الله يوجِّهونها حسب اختيارهم ؟!!

﴿مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ .. (٦٨)﴾ [القصص] أى : الاختيار فى مثل هذه المسائل .

ويجوز ﴿مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ .. (٦٨)﴾ [القصص] أى : المؤمنون ما كان لهم أنْ يعترضوا على قبول توبة الله على المشركين الذين آذوهم ، يقولون : لماذا تقبل منهم التوبة وقد فعلوا بنا كذا وكذا ، وقد كنا نود أن نراهم يتقلبون فى العذاب ؟

والحق تبارك وتعالى يختار ما يشاء ، ويفعل ما يريد ، وحين يقبل التوبة من المشرك لا يرحمه وحده ، ولكن يرحمكم أنتم أيضاً حين يُريحكم من شرِّه .

وقوله : ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٨)﴾ [القصص] أى : تعالى الله وتنزَّه عما يريدون من أنْ يُنزلوا الحق سبحانه على مرادات أصحاب الأهواء من البشر ، ولو أن الحق سبحانه نزل على مرادات أصحاب الأهواء من البشر - وأهواؤهم مختلفة - لفسدتْ حياتهم جميعاً .

ألا ترى أن البشر مختلفون جميعاً فى الرغبات والأهواء ، بل وفى مسائل الحياة كلها ، فترى الجماعة منهم فى سنٍّ واحدة ، وفى مركز اجتماعى واحد ، فإذا توجَّهوا لشراء سلعة مثلاً اختار كل منهم نوعاً ولوناً مختلفاً عن الآخر .

﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾﴾

ما تُكنُّ صدورهم أى : السر ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾﴾ [طه] والسر : ما تركتَه فى نفسك محبوساً ، وأسررْتَه عن الخَلْق لا يعرفه إلا أنت ، أو السر : ما أسررتَ به إلى الغير ، وساعتها لن يبقى سِراً ، وإذا ضاق صدرك بأمرك ، فصدر غيرك أضيق .

وإذا كان الحق سبحانه يمتنُّ علينا بأن علمه واسع يعلم السر ، فهو يعلم الجهر من باب أَوْلَى ؛ لأن الجهر يشترك فيه جميع الناس ويعرفونه . أما الأخفى من السر ، فلأنه سبحانه يعلم ما تُسِره فى نفسك قبل أنْ يوجد فى صدرك ، وهو وحده الذى يعلم الأشياء قبل أن توجد .

ولك أن تسأل : إذا كان من صفاته تعالى أنه يعلم السر وما هو أخفى من السر ، فماذا عن الجهر وهو شىء معلوم للجميع ؟ وهذه المسألة استوقفتْ بعض المستشرقين وأتباعهم من المسلمين (المنحلين) الذين يجارونهم .

وحين نستقرىء آيات القرآن نجد أن الله تعالى سوَّى فى علمه تعالى بين السر والجهر ، فقال سبحانه ﴿سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ .. ﴿١٠﴾﴾ [الرعد]

وقال سبحانه : ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ .. ﴿١٣﴾﴾ [الملك]

والآية التى معنا : ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [القصص] وفى هذه الآيات قدّم السر على الجهر ، أما فى قوله تعالى :

﴿سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنسَىٰ (٦) إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ (٧)﴾ [الأعلى]

وقال سبحانه : ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ (١١٠)﴾ [الأنبياء] فقدَّم العلم بالجهر على العلم بالسرِّ ، ولا يقدم الجهر إلا إذا كان له ملحظية خفاء عن السر ، وهذه الملحظية غفل عنها السطحيون ، فأخطأوا فى فهم الآية .

فأنت مثلاً لو أسررتَ فى نفسك شيئاً ، فربما ظهر فى سقطات لسانك أو على ملامح وجهك ، وربما خانك التعبير فدلَّ على ما أسررْته ، ألم يقل الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ .. (٣٠)﴾ [محمد]

إذن : هناك قرائن وعلامات نعرف بها السر ، أما الجهر وهو من الجماعة ليس جهراً واحداً ؛ لأنه مقابل بالجمع : ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ (١١٠)﴾ [الأنبياء] فالمعنى : ويعلم ما تجهرون وما تكتمون .

ولك أن تتابع مظاهرة لجمع غفير من الناس ، يهتف كل منهم هتافاً ، أتستطيع أن تميز بين هذه الهتافات ، وأنْ تُرجع كلاً منها إلى صاحبها ؟ هذا هو اللغز فى الجهر والملحظ الذى فاتهم تدبُّره ، لذلك امتنَّ الله علينا بعلمه للجهر من القول الذى لا نعلمه نحن مهما أوتينا من آلات فَرْز الأصوات وتمييزها .

لذلك يقولون : لا تستطيع أنْ تُحدِّد جريمة فى جمهور من الناس ؛ لأن الأصوات والأفعال مختلطة ، يستتر كلٌّ منها فى الآخر كما يقولون : الفرد بالجمع يُعْصَم .

ويقولون : الجماهير ببغائية ، كما قال شوقى فى مصرع كليوباترا ، لما انهزموا فى يوم (أكتيوما) وأشاعوا أنهم انتصروا ، لكن هذه الحيلة لا تنطلى على العقلاء من القوم ، فيقول أحدهم للآخر عن غوغائية الجماهير :

اسْمع الشَّعْبَ دُيُونُ ... كَيْفَ يُوحُون إليْه
مَلأ الجوَّ هتافاً ... بحَيَاتىْ قَاتليْه
أثَّر البهتانُ فيه ... وَانْطلى الزُّور عليْه
يَا لَهُ مِنْ ببغاء ... عقلُه فى أُذُنَيْه

إذن : فَعلْم الجهر هنا مَيْزة تستحق أنْ يمتنَّ الله بها ، كما يمتنُّ سبحانه بعلم السر .

وقال سبحانه ﴿ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ .. ﴿٦٩﴾ ﴾ [القصص] ليُطمئن رسول الله ؛ لأنه سبحانه ربه ، والمتولى لتربيته والعناية به ، يقول له : لا تحزن مما يقولون ، فأنا أعلم سرَّهم وجهرهم ، فإنْ كنتَ لا تعرف ما يقولون فأنا أعرفه ، وسوف أخبرك به ، ألم يقل سبحانه لنبيه ﷺ : ﴿ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ .. ﴿٨﴾ ﴾ [المجادلة]

فأخبره ربه بما يدور حتى فى النفوس ، كأنه سبحانه يقول لرسوله : إياك أن تظن أننى سأؤاخذهم بما عرفتَ من أفعالهم فحسب ، بل بما لا تعلم مما فعلوه ، ليطمئن رسول الله أنه سبحانه يُحصى عليهم كل شىء .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾

الله : هو المعبود بحقٍّ ، وله صفات الكمال كلها ، وهو سبحانه ﴿لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ .. ﴿٧٠﴾﴾ [القصص] وما دام هو وحده سبحانه ، فلا أحدَ يفتن عليه ، أو يستدرك عليه بشىء ، وسبق أن قال لهم : هاتوا شركاءكم لنفصل فى مسألة العبادة علانية و (نفاصل) : من صاحب هذه السلعة : أى يوم القيامة .

ومعنى ﴿الأُولَىٰ .. ﴿٧٠﴾﴾ [القصص] أى : الخَلْق الذى خلقه الله ، والكون الذى أعدَّه لاستقبال خليفته فى الأرض : الشمس والقمر والنجوم والشجر والجبال والماء والهواء والأرض ، فقبل أنْ يأتى الإنسان أعدَّ الله الكونَ لاستقباله .

لذلك حينما يتكلم الحق سبحانه عن آدم لا يقول : إنه أول الخَلْق ، إنما أول بنى آدم ، فقد سبقه فى الخلق عوالم كثيرة ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴿١﴾﴾ [الإنسان] أى : لم يكن له وجود .

وإعداد الكون لاستقبال الإنسان جميل يستوجب الحمد والثناء ، فقد خلق الله لك الكون كله ، ثم جعلك تنتفع به مع عدم قدرتك عليه أو وصولك إليه ، فالشمس تخدمك ، وأنت لا تقدر عليها ولا تملكها ، وهى تعمل لك دون صيانة منك ، ودون أن تحتاج قطعة غيار ، وكذلك الكون كله يسير فى خدمتك وقضاء مصالحك ، وهذا كله يستحق الحمد .

وبعد أنْ خلقك الله فى كون أُعدّ لخدمتك تركك ترتع فيه ، ذرة فى ظهر أبيك ، ونطفة فى بطن أمكَ إلى أنْ تخرج للوجود ، فيضمك حضنها ، ولا يكلفك إلا حين تبلغ مبلغ الرجال وسِنّ الرشد ، ومنحك العقل والنضج لتصبح قادراً على إنجاب مثلك ، وهذه علامة النضج

النهائى فى تكوينك كالثمرة لا تخرج مثلها إلا بعد نُضْجها واستوائها .

لذلك نجد من حكمة الله تعالى ألاَّ يعطى الثمرة حلاوتها إلا بعد نُضْج بذرتها ، بحيث حين تزرعها بعد أكْلها تنبت مثلها ، ولو أُكلت قبل نُضْجها لما أنبتت بذرتها ، ولانْقرض هذا النوع ؛ لذلك ترى الثمرة الناضجة إذا لم تقطفها سقطت لك على الأرض لتقول لك : أنا جاهزة .

لذلك نلحظ عندنا فى الريف شجرة التوت أو شجرة المشمش مثلاً يسقط الثمر الناضج على الأرض ، ثم ينبت نباتاً جديداً ، يحفظ النوع ، ولو سقطت الثمار غير ناضجة لما أنبتت .

وكذلك الإنسان لا ينجب مثله إلا بعد نُضْجه ، وعندها يُكلِّفه الله ويسأله ويحاسبه . إذن : على الإنسان أنْ يسترجع فضل الله عليه حتى قبل أنْ يستدعيه إلى الوجود ، وأنْ يثق أن الذى يُكلِّفه الآن ويأمره وينهاه هو ربُّه وخالقه ومُربِّيه ، ولن يكلِّفه إلا بما يُصلحه ، فعليه أنْ يسمع ، وأنْ يطيع .

وقوله تعالى : ﴿وَالآخِرَةِ .. (٧٠)﴾ [القصص] يعني : له الحمد فى القيامة ، كما قال سبحانه : ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠)﴾ [يونس] فيحمد الله فى الآخرة ؛ لأنه كان يمتعنى فى الدنيا إلى أمد ، ويمتعنى فى الدنيا على قَدْر إمكاناتى ، أما فى الآخرة فيعطينى بلا أمد ، وعلى قَدْر إمكاناته هو سبحانه ، فحين نرى هذا النعيم لا نملك إلا أنْ نقول : الحمد لله ، وهكذا اجتمع لله تعالى الحمد فى الأولى ، والحمد فى الآخرة .

وقوله تعالى : ﴿وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٧٠)﴾ [القصص] لأن الآخرة ما كانت إلا للحكم وللفصل فى الخصومات ، حيث يعرف كلٌّ

ما له وما عليه ، فلا تظن أن الذين آذوْك وظلموك سيُفلتون من قبضتنا .

﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٧٠) ﴾ [القصص] أى : للحساب ، وفى قراءة (تَرْجعون) لأنهم سيرجعون إلينا ويأتوننا بأنفسهم ، كأنهم مضبوطون على ذلك ، كالمنبه تضبطه على الزمن ، كذلك هم إذا جاء موعدهم جاءونا من تلقاء أنفسهم ، دون أن يسوقهم أحد .

وعلى قراءة ﴿ تُرْجَعُونَ (٧٠) ﴾ [القصص] إياكم أن تظنوا أنكم بإمكانكم أن تتأبَّوْا علينا ، كما تأبَّيتُم على رسُلنا فى الدنيا ؛ لأن الداعى فى الدنيا كان يأخذكم بالرفق واللين ، أما داعى الآخرة فيجمعكم قَسْراً ورَغْماً عنكم ، ولا تستطيعون منه فكاكاً ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ[1] إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا (١٣) ﴾ [الطور]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا[2] إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٧٢) ﴾

---

(١) يُدعون : أى يُدفعون دفعاً عنيفاً بقهر وقسوة . [القاموس القويم ١/٢٢٨] .

(٢) السرمد : دوام الزمان من ليل أو نهار . وليل سرمد : طويل . قال الزجاج : السرمد الدائم فى اللغة . والسرمد : الدائم الذى لا ينقطع . [لسان العرب ـ مادة : سرمد] .

يُعدِّد الحق ـ تبارك وتعالى ـ نعمه على عبيده فى شيئين يتعلقان بحركة الحياة وسكونها ، فالحركة تأتى بالخير للناس ، والسكون يأتى بالراحة للمتعَب من الحركة ، والإنسان بطبيعته لا يستطيع أنْ يعطى ويتعب إلا بعد راحة ، والذى يتحدَّى هذه الطبيعة فيسهر الليل ويعمل بالنهار لا بُدَّ أنْ ينقطع ، وأن تُنهَك قواه فلا يستمر .

لذلك يقول تعالى : ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ (١) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ (٢) وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ (٣) إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ (٤)﴾ [الليل]

فكلٌّ من الليل والنهار له مهمة ، وكذلك الرجل والمرأة ، فإياكم أنْ تخلطوا هذه المهام ، وإلا فسدت الحياة وأتعبتكم الأحداث ، فقبل الكهرباء ودخول (التليفزيون والفيديو) المنازل كان يومنا يبدأ فى نشاط مع صلاة الفجر ، لأننا كنا ننام بعد صلاة العشاء ، أما الآن فالحال كما ترى . كنا نستقبل يومنا بحركة سليمة نشطة ؛ لأننا نستقبل الليل بسكون سليم وهدوء تام .

والحق سبحانه فى معرض تعداد نعمه علينا يقول ﴿أَرَأَيْتُمْ .. (٧١)﴾ [القصص] يعنى : أخبرونى ماذا تفعلون ﴿إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ .. (٧١)﴾ [القصص] يعنى : طوال حياتكم ﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ .. (٧١)﴾ [القصص] والسرمد : الدائم المستمر .

وقال ﴿بِضِيَاءٍ .. (٧١)﴾ [القصص] ولم يقل بنور ؛ لأن النور قد يأتى من النجوم ، وقد يأتى من القمر ، أمّا الضياء وهو نور وأشعة وحرارة ، فلا يأتى إلا من الشمس .

لذلك يقول سبحانه : ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا .. (٥)﴾ [يونس]

وقال : ﴿مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ .. (٧١)﴾ [القصص] ولم يقُلْ : مَنْ يأتيكم بضياء ليلفت نظرنا إلى أن هذه المسألة لا يقدر عليها إلا إله ، ولا إله إلا الله ، وفى الضياء تبصرون الأشياء ، وتسيرون على هُدىً ، فتؤدون حركات حياتكم دون اصطدام أو اضطراب ، وبالضياء أعايش الأشياء فى سلامة لى ولها ، وإلاَّ لو سرْنا فى الظلام لتحطمنا أو حطّمنا ما حولنا ؛ لأنك حين تسير فى الظَلام إمّا أنْ تحطم ما هو أقل منك ، أو يحطمك ما هو أقوى منك .

وكما يكون الضياء فى الماديات يكون كذلك له دور فى المعنويات ، وضياء المعنويات القيم التى تحكم حركة الحياة وتعدلها ، وتحميك أنْ تُحطِّم مَنْ هو أضعف منكَ ، أو أنْ يُحطمك الأقوى منك ؛ لذلك كان منطقياً أن يقول تعالى : ﴿هُوَ الَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ .. (٤٣)﴾ [الأحزاب]

والمراد : من ظلمات المعانى إلى نور القيم ، لا ظلمات المادة لأننى لا أستغنى عنه لراحتى ، فله مهمة عندى لا تقلّ عن مهمة النور لذلك يقول تعالى فى وصفه لنوره عز وجل ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ .. (٣٥)﴾ [النور]

نور مادى تُبصرون به الأشياء من حولكم ، فلا تتخبطون بها ، فتسلَم حركتكم ، وهذا النور المادى يشترك فيه المؤمن والكافر ، وينتفع به المطيع والعاصى ، فلم يضنّ به على أحد من خَلْقه . أما النور المعنوى نور الهداية ونور اليقين والقيم ، فهذا يرسله الله على يدَىْ رسُله ، فإذا أخذ المؤمن النورين انتفع بهما فى الدنيا ، وامتد نفعه بهما إلى يوم القيامة ؛ لذلك قال بعدها :

﴿يَهْدِى اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ .. (٣٥)﴾ [النور]

ولأن الآية الكريمة بدأت بقُلْ ، فمن المناسب أنْ تختم بقوله تعالى : ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ (٧١)﴾ [القصص] يعنى : اسمعوا ما أقول لكم وتدبروه .

ثم يمتنُّ الله تعالى بالآية المقابلة لليل ، وهى آية النهار : ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ .. (٧٢)﴾ [القصص] يعني : دائم لا نهايةَ له ﴿مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٧٢)﴾ [القصص]

تلحظ أن هاتين الآيتين على نَسَق واحد ، لكن تذييلهما مختلف ، مما يدلُّ على بلاغة وإعجاز القرآن ، فلكلٍّ معنىً ما يناسبه ، ففى آية الليل قال ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ (٧١)﴾ [القصص] وفى آية النهار قال ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٧٢)﴾ [القصص] ذلك لأن العين لا عملَ لها فى الليل إنما للأذن ، فأنت تسمع دون أنْ ترى ، وبالأذن يتمُّ الاستدعاء .

أما فى النهار وفى وجود الضوء ، فالعمل للعين حيث تبصر ، فهو إذن ختام حكيم للآيات يضع المعنى فيما يناسبه .

ثم يُجمل الله تعالى هاتين الآيتين فى قوله سبحانه :

﴿وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٣)﴾

بعد أنْ فصَّل الله تعالى القولَ فى الليل والنهار كلّ على حدة جمعهما ؛ لأنهما معاً مظهر من مظاهر رحمة الله ، وفى الآية ملمح بلاغى يسمونه « اللف والنشر » ، فبعد أن جمع الله تعالى الليل والنهار أخبر عنهما بقوله : ﴿لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ .. (٧٣)﴾ [القصص] ثقةً منه تعالى بفطْنة السامع ، وأنه سيردُّ كلاً منهما إلى ما يناسبه ، فالليل يقابل ﴿لِتَسْكُنُوا فِيهِ .. (٧٣)﴾ [القصص] ، والنهار يقابل ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ .. (٧٣)﴾ [القصص]

فاللفُّ أى : جَمْع المحكوم عليه معاً فى جانب والحكم فى جانب آخر ، والنشْر : ردّ كلٍّ حكم إلى صاحبه .

وضربنا لذلك مثلاً بقول التيمورية :

قَلْبى وجَفْنى واللسَانُ وخَالِقى رَاضٍ وبَاكٍ شَاكِرٌ وغَفُور

فجمعتْ المحكوم عليه فى الشطر الأول والحكم فى الشطر الثانى ، وعليك أنْ تعيد كلَّ حكم إلى صاحبه .

والليل والنهار آيتان متكاملتان ، وبهما تنتظم حركة الحياة ؛ لأنك إنْ لم ترتح لا تقوى على العمل ؛ لأن لك طاقة ، وفى جسمك مُولِّدات للطاقة ، فساعةَ تتعب تجد أن أعضاءك تراخَتْ وأُجهدَتْ ، وهذا إنذار لك ، تُنبِّهك جوارحك أنك لم تَعُدْ صالحاً للحركة ، ولا بُدَّ لك من الراحة لتستعيد نشاطك من جديد .

والراحة تكون بقدر التعب ، فربما ترتاح حين تقف مثلاً فى حالة السير ، فإنْ لم يُرحْك الوقوف تجلس أو تضطجع ، فإنْ زاد التعب غلبك النوم ، وهو الرَّدْع الذاتى الذى يكبح جماح صاحبه إنْ تمرد على الطبيعة التى خلقها الله فيه .

ومن عجب أن البعض يخرج عن هذه الطبيعة ، فيأخذ مُنشِّطات حتى لا يغلبه النوم ، ويأخذ مُهدِّئات لينام ، ولو أسلم نفسه لطبيعتها ، فنام حينما يحضره النوم ، وعمل حينما يجد فى نفسه نشاطاً للعمل لأراحَ نفسه من كثير من المتاعب .

لذلك يقولون : النوم ضيف إنْ طلبك أراحك ، وإنْ طلبته أَعْنتك ، وحتى الآن ، ومع تقدُّم العلوم لم يصلوا إلى سرِّ النوم ، وكيف يأخذ الإنسان فى هدوء ولُطْف دون أنْ يشعر ماهيتَه ، وأتحدى أن يعرف أحد منا كيف ينام .

لذلك جعل الله النوم آية من آياته تعالى ، مثل الليل والنهار والشمس والقمر ، فقال سبحانه : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ..﴾ (٢٣) [الروم]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾

تقدمت المناداة قبل ذلك مرتين ومع ذلك لا يوجد تكرار لهذا المعنى ؛ لأن كلَّ نداء منها له مقصوده الخاص ، فالنداء فى الأولى خاص بمَنْ أشركوهم مع الله وما قالوه أمام الله تعالى : ﴿ رَبَّنَا هَـٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا .. ﴿٦٣﴾ ﴾ [القصص]

أما الثانية ، فالنداء فيها للمشركين ﴿ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾[القصص]

أما هنا ، فيهتم النداء بمسألة الشهادة عليهم . إذن : فكلمة (أين) و (شركائى) و (الذين كنتم تزعمون) قَدْر مشترك بين الآيات الثلاثة ، لكن المطلوب فى كل قَدْر غير المطلوب فى القَدْر الآخر ، فليس فى الأمر تكرار ، إنما توكيد فى الكل[1] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٧/٥١٩٦) : « المناداة هنا ليست من الله ، لأن الله تعالى لا يكلم الكافر لقوله تعالى ﴿ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .. ﴿١٧٤﴾ ﴾ [البقرة] لكنه تعالى يأمر مَنْ يوبخهم ويُبكِّتهم ، ويقيم الحجة عليهم فى مقام الحساب . وقيل : يحتمل أن يكون من الله وقوله ﴿ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .. ﴿١٧٤﴾ ﴾ [البقرة] حين يُقال لهم ﴿ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [المؤمنون] .

أى : أخرجنا من كل أمة نبيّها ، وأحضرناه ليكون شاهداً عليها ﴿فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ .. (٧٥)﴾ [القصص] أرونا شركاءكم الذين اتخذتموهم من دون الله ، أين هم ليدافعوا عنكم ؟ لكن هيهات ، فقد ضلُّوا عنهم ، وهربوا منهم .

﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لا يَتَسَاءَلُونَ (٦٦)﴾ [القصص]

إذن : غاب شركاؤكم ، وغاب شهودكم ، لكن شهودنا موجودون ﴿وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً .. (٧٥)﴾ [القصص] يشهد أنه بلَّغهم منهج الله فإنْ قُلْتم : لقد أغوانا الشيطان وأغوانا المضلون من الإنس ، نردّ عليكم بأننا ما تركناكم لإغوائهم ، فيكون لكم عذر ، إنما أرسلنا إليكم رسلاً لهدايتكم ، وقد بلّغكم الرسل .

وفى موضع آخر يقول تعالى : ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَـٰؤُلاءِ شَهِيداً (٤١)﴾ [النساء]

فماذا يكون موقفهم يوم تشهد أنت عليهم بأنك بلَّغت ، وأعذرتَ فى البلاغ ، وأنك اضطهدت منهم ، وأوذيت ، وقد ضلَّ عنهم شركاؤهم ، ولم يجدوا مَنْ يشهد لهم أو يدافع عنهم ؟ عندها تسقط أعذارهم وتكون المحكمة قد (تنوَّرت) .

ثم يقول تعالى : ﴿فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ .. (٧٥)﴾ [القصص] أى : قولوا : إن رسلنا لم يُبلِّغوكم منهجنا ، وهاتوا حجة تدفع عنكم ، فلما تحيَّروا وأُسقط فى أيديهم حيث غاب شهداؤهم وحضر الشهداء عليهم ﴿فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ .. (٧٥)﴾ [القصص]

وفوجئوا كما قال تعالى عنهم : ﴿وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ .. (٣٩)﴾ [النور]

وقال : ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا .. (٤٩)﴾ [الكهف]

فوجئوا بما لم يُصدِّقوا به ولم يؤمنوا به ، لكن ما وجه هذه المفاجأة ، وقد أخبرناهم بها فى الدنيا وأعطيناهم مناعة كان من الواجب أنْ يأخذوا بها ، وأنْ يستعدوا لهذا الموقف ، فالعاقل حين تُحذره من وعورة الطريق الذى سيسلكه وما فيه من مخاطر وأهوال ينبغى عليه أنْ ينصرفَ عنه ، إنْ كان الناصح له صادقاً ، ولا عليه حين يحتاط لنفسه أنْ يكون ناصحه كاذباً ، على حَدِّ قول الشاعر :

زَعَم المنجِّمُ والطبيبُ كلاهُما ... لا تُبعَثُ الأجسَادُ قُلْتُ إليكُما
إن صَحَّ قولكُمَا فلستُ بخاسرٍ ... أَوْ صَحَّ قَوْلى فالخسَار عليكُما

وما عليك إنْ حملتَ بندقية فى هذا الطريق المخوف ، ثم لم تجد شيئاً يخيفك ؟ إذن : أنتم إنْ لم تخسروا فلن تكسبوا شيئاً ، ونحن إنْ لم نكسب لن نخسر .

وقوله : ﴿وَضَلَّ عَنْهُم .. (٧٥)﴾ [القصص] أى : غاب ﴿مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٧٥)﴾ [القصص] من ادّعاء الشركاء .

بعد أن أعطانا الحق ـ تبارك وتعالى ـ لقطة من لقطات يوم القيامة ، والقيامة لا تخيف إلا مَنْ يؤمن بها ، أما مَنْ لا يؤمن بالآخرة والقيامة فلا بُدَّ له من رادع آخر ؛ لأن الحق سبحانه يريد أنْ يحمى صلاح الكون وحركة الحياة .

ولو اقتصر الجزاء على القيامة لعربد غير المؤمنين واستشرى فسادهم ، ولَشقى الناس بهم ، والله تعالى يريد أنْ يحمى حركة الحياة من المفسدين من غير المؤمنين بالآخرة ، فيجعل لهم عذاباً فى الدنيا قبل عذاب الآخرة .

يقول تعالى : ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ .. (٤٧)﴾ [الطور]

يعنى : قبل عذاب الآخرة .

فالذى يقع للكفار فى الدنيا رَدْع لكل ظالم يحاول أنْ يعتدى ، وأنْ يقف فى وجه الحق ؛ لذلك يعطينا ربنا ـ عز وجل ـ صورة لهذا العذاب الدنيوى للمفسدين فى الأرض ، فيقول سبحانه :

﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ(١) فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ(٢) بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦) ﴾

فلم يتكلم عن قارون وجزائه فى الآخرة ، إنما يجعله مثَلاً وعِبرة واضحة فى الدنيا لكل مَنْ لم يؤمن بيوم القيامة لعلَّه يرتدع .

والنبى ﷺ اضطهده كفار قريش ، ووقفوا فى وجه دعوته ، وآذوْا صحابته ، حتى أصبحوا غير قادرين على حماية أنفسهم ، ومع ذلك ينزل القرآن على رسول الله يقول : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) ﴾ [القمر]

فيتعجب عمر رضى الله عنه : أىُّ جمع هذا ؟ فنحن غير قادرين على حماية أنفسنا ، فلما وقعتْ بدر وانهزم الكفار وقُتِلوا . قال

---

(١) قال ابن عباس : كان ابن عمه ، وهكذا قال إبراهيم النخعى وعبد الله بن الحارث بن نوفل وسماك بن حرب وقتادة ومالك بن دينار وابن جريج وغيرهم أنه كان ابن عم موسى عليه السلام . وزعم ابن إسحاق أن قارون كان عم موسى بن عمران . [قاله ابن كثير فى تفسيره ٣/٣٩٨] .

(٢) ناء الرجل بالحِمْل : نهض به متثاقلاً فى جهد ومشقة . أى : تثقل عليهم وتجهدهم وهذا كناية عن كثرة كنوز قارون . [القاموس القويم ٢/٢٩٠] .

عمر[1] : نعم صدق الله ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) ﴾ [القمر]

لذلك يقولون : لا يموت ظالم فى الدنيا حتى ينتقم الله منه ، ويرى فيه المظلوم يوماً يشفى غليله ، ولما مات ظلوم فى الشام ولم يَرَ الناس فيه ما يدل على انتقام الله منه تعجّبوا وقال أحدهم : لا بُدَّ أن الله انتقم منه دون أن نشعر ، فإنْ أفلتَ من عذاب الدنيا ، فوراء هذه الدار دار أخرى يعاقب فيها المحسن بإحسانه والمسىء بإساءته ، وعَدْل الله - عز وجل - يقتضى هذه المحاسبة .

والحق - تبارك وتعالى - يجعل من قارون عبرةً لكل مَنْ لا يؤمن بالآخرة ليخاف من عذاب الله ، ويحذر عقابه ، والعبرة هنا بمَنْ ؟ بقارون رأس من رؤوس القوم ، وأغنى أغنيائهم ، والفتوة فيهم ، فحين يأخذه الله يكون فى أَخْذه عبرة لمن دونه .

وحدَّثونا أن صديقاً لنا كان يعمل بجمرك الأسكندرية ، فتجمّع عليه بعض زملائه من الفتوات الذين يريدون فَرْضَ سيطرتهم على الآخرين ، فما كان منه إلا أنْ أخذ كبيرهم ، فألقاه فى الأرض ، وعندها تفرَّق الآخرون وانصرفوا عنه .

ومن هذا المنطلق أخذ الله تعالى قارون ، وهو الفتوة ، ورمز الغنى والجاه بين قومه ، فقال تعالى : ﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ .. (٧٦) ﴾ [القصص] إذن : حينما نتأمل حياة موسى عليه السلام نجده قد مُنِى بصناديد الكفر ، فقد واجه فرعون الذى ادَّعى الألوهية ، وواجه هامان ، ثم موسى السامرى الذى خانه فى قومه فى غيبته ، فدعاهم إلى عبادة العجل .

---

(١) أورد ابن كثير في تفسيره (٤/٢٦٦) وعزاه لابن أبى حاتم عن عكرمة قال : « لما نزلت : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) ﴾ [القمر] قال عمر : أىّ جمع يهزم ؟ أى : أىّ جمع يُغلب ؟ قال عمر : فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ يثب فى الدرع وهو يقول « سيُهزم الجمع ويولون الدبر » فعرفت تأويلها يومئذ » .

ومُنى من قومه بقارون ، ومعنى : من قومه ، إما لأنه كان من رحمه من بنى إسرائيل ، أو من قومه يعنى : الذين يعيشون معه . والقرآن لم يتعرض لهذه المسألة بأكثر من هذا ، لكن المفسرين يقولون : إنه ابن عمه . فهو : قارون بن يصهر بن قاهث بن لاوى ابن يعقوب و موسى هو ابن عمران بن قاهث بن لاوى بن يعقوب .

وللمؤرخين كلام فى العداوة بين موسى وقارون ، قالوا : حينما سأل موسى عليه السلام ربه أنْ يشدَّ عضده بأخيه هارون ، أجابه سبحانه ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَـٰمُوسَىٰ (٣٦)﴾ [طه] وليست هذه أول مرة بل ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ (٣٧)﴾ [طه] وأرسل الله معه أخاه هارون ؛ لأنه أفصح من موسى لساناً ، وجعلهما شريكين فى الرسالة ، وخاطبهما معاً ﴿اذْهَبَا .. (٤٣)﴾ [طه] ليؤكد أنَّ الرسالة ليست من باطن موسى .

وإنْ رأيت الخطاب فى القرآن لموسى بمفرده ، فاعلم أن هارون مُلاحَظ فيه ، ومن ذلك لما دعا موسى على قوم فرعون ، فقال : ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ (٨٨)﴾ [يونس]

فالذى دعا موسى ، ومع ذلك لما أجابه ربه قال : ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا .. (٨٩)﴾ [يونس] وهذا دليل على أن هارون لم يكن رسولاً من باطن موسى ، إنما من الحق سبحانه ، وأيضاً دليل على أن المؤمِّن على الدعاء كالداعى ، فكان موسى يدعو وهارون يقول : آمين .

ولما ذهب موسى لميقات ربه قال لأخيه ﴿اخْلُفْنِى فِى قَوْمِى .. (١٤٢)﴾ [الأعراف] وفى غيبة موسى حدثتْ مسألة العجل ، وغضب

موسى من أخيه هارون ، فلما هدأتْ بينهما الأمور حدث تخصيص فى رسالة كل منهما ، فأعطى هارون (الحبورة) والحَبْر : هو العالم الذى يُعَد مرجعاً ، كما أُعطِى (القربان) أى : التقرب إلى الله .

وعندها غضب قارون ؛ لأنه خرج من هذه المسألة صُفْر اليدين ، وامتاز عنه أولاد عمومته بالرسالة والمنزلة ، رغم ما كان عنده من أموال كثيرة .

ثم إن موسى ـ عليه السلام ـ طلب من قارون زكاة ماله ، دينار فى كل ألف دينار ، ودرهم فى كل ألف درهم ، فرفض قارون وامتنع ، بل وألَّبَ الناس ضد موسى ـ عليه السلام[1] .

ثم دبَّر له فضيحة ؛ ليصرف الناس عنه ، حيث أغرى امرأة بغياً فأعطاها طِسْتاً مليئاً بالذهب ، على أن تدَّعى على موسى وتتهمه ، فجاء موسى عليه السلام ليخطب فى الناس ، ويُبيِّن لهم الأحكام فقال : مَنْ يسرق نقطع يده ، ومَنْ يزنى نجلده إن كان غير محصن ، ونرجمه إنْ كان محصناً ، فقام له قارون وقال : فإن كنتَ أنت يا موسى ؟ فقال : وإنْ كنتُ أنا .

وهنا قامت المرأة البغىُّ وقالت : هو راودنى عن نفسى ، فقال لها : والذى فلق البحر لَتقُولنّ الصدق فارتعدتْ المرأة ، واعترفت بما دبَّره قارون ، فانفضح أمره وبدأت العداوة بينه وبين موسى عليه السلام .

وبدأ قارون فى البَغْى والطغيان حتى أخذه الله ، وقال فى

---

(١) أخرج ابن أبى شيبة فى المصنف وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه عن ابن عباس أن موسى عليه السلام قال لقارون : إن الله أمرنى أن آخذ الزكاة ، فأبى فقال : إن موسى عليه السلام يريد أن يأكل أموالكم ، جاءكم بالصلاة ، وجاءكم بأشياء فاحتملتموها ، فتحملوه أن تعطوه أموالكم ؟ قالوا : لا نحتمل ، فما ترى ، فقال لهم : أرى أن أرسل إلى بغى من بغايا بنى إسرائيل ، فنرسلها إليه فترميه بأنه أرادها على نفسها . [أورده السيوطى فى الدر المنثور ٦/٤٣٦] .

حـقـه هذه الآيات : ﴿إِنَّ قَـارُونَ كَـانَ مِن قَـوْمِ مُـوسَىٰ فَـبَـغَىٰ عَلَيْـهِمْ .. (٧٦)﴾ [القصص]

والبغى : تجاوز الحدّ فى الظلم ، خـاصة وقد كان عنده من المال ما يُعينه على الظلم ، وما يُسخِّر به الناس لخدمة أهدافه ، وكأنه يمثل مركز قـوة بين قومه ، والبغى إما بـالاستيلاء على حقـوق الغير ، أو باحتقارهم وازدرائهم ، وإما بالبطر .

ثم يذكر حيثـية هذا البغى : ﴿وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ .. (٧٦)﴾ [القصص]

كلمة (مـفاتح) كما فى قـوله تعالى : ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ .. (٥٩)﴾ [الأنعام]

ولو قلنا : مفاتح جمع ، فما مفـردها ؟ لا تقُلْ مفتاح ؛ لأن مفتاح جمـعها مـفاتيح ، أما مـفاتح ، فـمفردها (مَـفْتح)[1] وهى آلة الفتح كالمـفتـاح ، وهى على وزن (مبـرد) فالمـعنى : أن مفاتيـح خزائنه لو حملتْها عصبـة تنوء بها ، وهذه كناية عن كثرة أمواله ، نقول : ناء به الحمْل ، أو ناء بالحمل ، إذا ثقُل عليه ، ونحن لا نـميز الخفيف من الثقيلَ بالعين أو اللمس أو الشم إنما لا بُدَّ من حمله للإحساس بوزنه.

وقلنا : إن هذه الحاسة هى حاسة العَضَل ، فـالحمْل الثقيل يُجهد العضلة ، فتـشعر بالثقل ، على خلاف لو حـملتَ شيئاً خفـيفاً لا تكاد تشـعر بوزنه لخـفّتـه ، ولو حـاولتَ أنْ تجمع أوزاناً فى حـيز ضـيق كحقيبة (هاندباج) فإن الثقل يفضحك ؛ لأنك تنوء به .

والعُصْـبة : هم القوم الذين يتـعصَّبـون لمبدأ من المـبادىء بدون

(١) المـفتح : الخـزانة . قال الأزهـرى : كل خزانة كـانت لصنف من الأشـياء ، فـهى مَفْـتح ، والمفتح : الكنز . قيل : هى الكنوز والخزائن ، قال الزجاج : روى أن مفاتحه خزائنه . قال الأزهرى : والأشبـه فى التفـسيـر أن مفـاتحه خـزائن ماله ، والله أعلم بمـا أراد . [لسـان العرب ـ مادة : فتح] .

هَوىً بينهم ، ومنه قول إخوة يوسف : ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ .. (٨)﴾ [يوسف]

إنها كلمة حق خرجت من أفواههم دون قصد منهم ؛ لأنهم فعلاً كانوا قوةً متعصبين بعضهم لبعض فى مواجهة يوسف وأخيه ، وكانا صغيرين لا قوةَ لهما ولا شوكة ، وكانوا جميعاً من أم واحدة ، ويوسف وأخوه من أم أخرى[1] ، فطبيعى أن يميل قلب يعقوب عليه السلام مع الضعيف .

وقالوا : العصبة من الثلاثة إلى العشرة ، وقد حددهم القرآن بقوله : ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا .. (٤)﴾ [يوسف] وهم إخوته ومنهم بنيامين ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ .. (٤)﴾ [يوسف] أى : أباه وأمه . فمن هاتين الآيتين نستطيع تحديد العصبة .

وبهذا التفكير الذى يقوم على ضم الآيات بعضها إلى بعض حَلَّ الإمام على ـ رضى الله عنه ـ مسألة تُعدُّ معضلة عند البعض ، حيث جاءه مَنْ يقول له : تزوجتُ امرأة وولدتْ بعد ستة أشهر ، ومعلوم أن المرأة تلد لتسعة أشهر ، فلا بُدَّ أنها حملت قبل أنْ تتزوج .

فقال الإمام على : أقل الحمل ستة أشهر ، فقال السائل : ومن أين تأخذها يا أبا الحسن ؟ قال : نأخذها من قوله تعالى : ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا .. (١٥)﴾[الأحقاف] وفى آية أخرى قال سبحانه : ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ .. (٢٣٣)﴾ [البقرة]

يعنى : أربعة وعشرين شهراً ، وبطرح الأربعة والعشرين شهراً من الثلاثين يكون الناتج ستة أشهر ، هى أقل مدة للحمل . وهكذا

---

(١) تزوج يعقوب أولاً ليئة بنت لابان ، ثم تزوج أختها الصغرى راحيل ، جمع بينهما ، لأنه كان مباحاً فى شريعتهم وقد ولدت له ليئة ٦ بنين (رأوبين ، شمعون ، لاوى ، يهوذا ، يسَّاكر ، زبولون) وبنتاً واحدة (دينة) . وولدت له راحيل ولدين : يوسف وبنيامين . وولدت له سريته « بلهة » ولدين : دان ، ونفتالى . وولدت له سريته « زلفة » ولدين : جاد ، وأشير . ذلك ما ذكرته التوراة فى [سفر التكوين : الأصحاح ٣٥ : ٢٣ – ٢٦] .

تتكاتف آيات القرآن ، ويكمل بعضها بعضاً ، ومن الخطأ أن نأخذ كل آية على حدة ، ونفصلها عن غيرها فى ذات الموضوع .

ثم يقول سبحانه : ﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦)﴾ [القصص] والنهى هنا عن الفرح المحظور ، فالفرح : انبساط النفس لأمر يسرُّ الإنسان ، وفَرْق بين أمر يسرُّك ؛ لأنه يُمتعك ، وأمر يسرُّك لأنه ينفعك ، فالمتعة غير المنفعة .

فمثلاً ، مريض السكر قد يأكل المواد السكرية لأنها تُحدث له متعة ، مع أنها مضرة بالنسبة له ، إذن : فالفرح ينبغى أن يكون بالشىء النافع ، لأن الله تعالى لم يجعل المتعة إلا فى النافع .

فحينما يقولون له ﴿لا تَفْرَحْ .. (٧٦)﴾ [القصص] أى : فرح المتعة ، وإنما الفرح بالشىء النافع ، ولو لم تكن فيه متعة كالذى يتناول الدواء المر الذى يعود عليه بالشفاء ، لذلك يقول تعالى : ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا .. (٥٨)﴾ [يونس]

ويقول تعالى : ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ اللَّهِ .. (٥)﴾ [الروم] فسماه الله فرحاً ؛ لأنه فرح بشىء نافع ؛ لأن انتصار الدعوة يعنى أن مبدءك الذى آمنتَ به ، وحاربت من أجله سيسيطر وسيعود عليك وعلى العالم بالنفع .

ومن فرح المتعة المحظور ما حكاه القرآن : ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ .. (٨١)﴾ [التوبة] هذا هو فرح المتعة ؛ لأنهم كارهون لرسول الله ، رافضون للخروج معه ، ويسرُّهم قعودهم ، وتركه يخرج للقتال وحده .

فقوله تعالى : ﴿لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦)﴾ [القصص]

أى : فرح المتعة الذى لا ينظر إلى مَغبّة الأشياء وعواقبها ، فشارب الخمر يشربها لما لها من متعة مؤقتة ، لكن يتبعها ضرر بالغ ، ونسمع الآن مَنْ يقول عن الرقص مثلاً : إنه فن جميل وفن رَاقٍ ؛ لأنه يجد فيه متعة ما ، لكن شرط الفن الجميل الراقى أن يظل جميلاً ، لكن أنْ ينقلب بعد ذلك إلى قُبْح ويُورِث قبحاً ، كما يحدث فى الرقص ، فلا يُعَدُّ جميلاً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾

معنى ﴿ وَابْتَغِ .. (٧٧) ﴾ [القصص] أى : اطلب ﴿ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ .. (٧٧) ﴾ [القصص] بما أنعم عليك من الرزق ﴿ الدَّارَ الآخِرَةَ .. (٧٧) ﴾ [القصص] لأنك إن ابتغيتَ برزق الله لك الحياة الدنيا ، فسوف يَفْنى معك فى الدنيا ، لكن إنْ نقلتَهُ للآخرة لأبقيتَ عليه نعيماً دائماً لا يزول .

وحين تحب نعيم الدنيا وتحتضنه وتتشبث به ، فاعلم أن دنياك لن تمهلك ، فإما أنْ تفوت هذا النعيمَ بالموت ، أو يفوتك هو حين تفتقر . إذن : إن كنت عاشقاً ومُحباً للمال ولبقائه فى حَوْزتك ، فانقله إلى الدار الباقية ، ليظل فى حضنك دائماً نعيماً باقياً لا يفارقك ، فسارع إذن واجعله يسبقك إلى الآخرة .

وفى الحديث الشريف لما سأل رسول الله ﷺ أم المؤمنين عائشة

عن الشاة التى أُهديَتْ له قالت بعد أن تصدقت بها : ذهبتْ إلا كتفها ، فقال ﷺ : « بل بقيتْ إلا كتفها »[١] .

ويقول ﷺ : « ليس لك من مالك إلا ما أكلتَ فأفنيتَ ، أو لبستَ فأبليتَ ، أو تصدقْتَ فأبقيْتَ »[٢] .

لذلك كان أولو العزم حين يدخل على أحدهم سائل يسأله ، يقول له : مرحباً بمَنْ جاء يحمل زادى إلى الآخرة بغير أجرة .

والإمام على - رضى الله عنه - جاءه رجل يسأله : أأنا من أهل الدنيا ، أم من أهل الآخرة ؟ فقال : جواب هذا السؤال ليس عندى ، بل عندك أنت ، وأنت الحكم فى هذه المسألة . فإنْ دخل عليك مَنْ تعودت أنه يعطيك ، ودخل عليك مَنْ تعودت أنْ يأخذ منك ، فإنْ كنتَ تبشُّ لمن يعطى ، فأنت من أهل الدنيا ، وإنْ كنتَ تبشُّ لمَنْ يسألك ويأخذ منك ، فأنت من أهل الآخرة ، لأن الإنسان يحب من يعمر له ما يحب ، فإنْ كنتَ محباً للدنيا فيسعدك مَنْ يعطيك ، وإنْ كنتَ محباً للآخرة فيسعدك مَنْ يأخذ منك .

وإذا كان ربنا - عز وجل - يوصينا بأن نبتغى الآخرة ، فهذا لا يعنى أن نترك الدنيا : ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا .. (٧٧)﴾ [القصص] لكن هذه الآية يأخذها البعض دليلاً على الانغماس فى الدنيا ومتعها .

وحين نتأمل ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا .. (٧٧)﴾ [القصص] نفهم

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٦/٥٠) والترمذى فى سننه (٢٤٧٠) من حديث عائشة رضى الله عنها . قال الترمذى « حديث صحيح » .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٤/٢٤ ، ٢٦) ، ومسلم فى صحيحه (٢٩٥٨) ، والترمذى فى سننه (٢٣٤٢) وصححه .

أن العاقل كان يجب عليه أنْ ينظر إلى الدنيا على أنها لا تستحق الاهتمام ، لكن ربه لفته إليها ليأخذ بشىء منها تقتضيه حركة حياته . فالمعنى : كان ينبغى علىَّ أنْ أنساها فذكَّرنى الله بها .

ولأهل المعرفة فى هذه المسألة ملْمح دقيق : يقولون : نصيبك من الشىء ما ينالك منه ، لا عن مفارقة إنما عن ملازمة ودوام ، وعلى هذا فنصيبك من الدنيا هو الحسنة التى تبقى لك ، وتظل معك ، وتصحبك بعد الدنيا إلى الآخرة ، فكأن نصيبك من الدنيا يصُبُّ فى نصيبك من الآخرة ، فتخدم دنياك آخرتك .

أو : يكون المعنى موجهاً للبخيل الممسك على نفسه ، فيُذكِّره ربه ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا .. (٧٧)﴾ [القصص] يعنى : خُذْ منها القَدْر الذى يعينك على أمر الآخرة . لذلك قالوا عن الدنيا : هى أهم من أن تُنْسى ـ لأنها الوسيلة إلى الآخرة ـ وأتفه من أن تكون غاية ؛ لأن بعدها غاية أخرى أبقى وأدوم[1] .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ .. (٧٧)﴾ [القصص] الحق سبحانه يريد أنْ يتخلَّق خَلْقه بخُلُقه ، كما جاء فى الأثر « تخلقوا بأخلاق الله ».

فكما أحسن الله إليك أحسِنْ إلى الناس ، وكما تحب أنْ يغفر الله

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٧/٥٢٠١) : « قوله تعالى : ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا .. (٧٧)﴾ [القصص] اختلف فيه .

فقال ابن عباس والجمهور : لا تضيع عمرك فى ألا تعمل عملاً صالحاً فى دنياك ، إذ الآخرة إنما يُعمل لها ، فنصيب الإنسان عمره وعمله الصالح فيها ، فالكلام على هذا التأويل شدة فى الموعظة .

– وقال الحسن وقتادة : معناه لا تُضيع حظك من دنياك فى تمتعك بالحلال وطلبك إياه ، ونظرك لعاقبة دنياك . فالكلام على هذا التأويل فيه بعض الرفق به وإصلاح الأمر الذى يشتهيه ، وهذا مما يجب استعماله مع الموعوظ خشية النبوة من الشدة ، قاله ابن عطية » .

لك ، اغفر لغيرك إساءته ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ .. (٢٢)﴾ [النور]

وما دام ربك يعطيك ، فعليك أنْ تعطى دون مخافة الفقر ؛ لأن الله تعالى هو الذى استدعاك للوجود ؛ لذلك تكفَّل بنفقتك وتربيتك ورعايتك . لذلك حين ترى العاجز عن الكسب ـ وقد جعله ربه على هذه الحال لحكمة ـ حين يمد يده إليك ، فاعلم أنه يمدُّها لله ، وأنك مناول عن الله تعالى .

ونلحظ هذا المعنى فى قوله تعالى : ﴿مَن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا .. (١١)﴾ [الحديد]

فسمَّى الصدقة قرضاً لله ، لماذا ؟ لأن هذا العبد عبدى ، مسئول منى أن أرزقه ، وقد ابتليتُه لحكمة عندى ـ حتى لا يظنّ أحد أن المسألة ذاتية فيه ، فيعتبر به غيره ـ فمَنْ إذن يقرضنى لأسُدَّ حاجة أخيكم ؟

وقال تعالى : ﴿يُقْرِضُ اللَّهَ .. (١١)﴾ [الحديد] مع أنه سبحانه الواهب ؛ لأنه أراد أن يحترم ملكيتك ، وأن يحترم انتفاعك وسَعْيك .. كما لو أراد والد أنْ يُجرِى لأحد أبنائه عملية جراحية مثلاً وهو فقير وإخوته أغنياء ، فيقول لأولاده : اقرضونى من أموالكم لأجرى الجراحة لأخيكم ، وسوف أردُّ عليكم هذا القرض .

وفى الحديث الشريف أن سيدنا رسول الله ﷺ دخل على ابنته فاطمة ـ رضوان الله عليها ـ فوجدها تجلو درهماً فسألها : ماذا تصنعين به » ؟ قالت : أجلوه ، قال : « لِمَ » ؟ قالت : لأنى نويت أن أتصدق به ، وأعلم أنه يقع فى يد الله قبل أن يقع فى يد الفقير .

إذن : فالمال مال الله ، وأنت مناول عن الله تعالى .

وقد وقف بعض المستشرقين عند هذه المسألة ؛ لأنهم يقرأون الآيات والأحاديث مجرد قراءة سطحية غير واعية ، فيتوهمون أنها متضاربة . فقالوا هنا : الله تعالى يقول : ﴿مَن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ .. (١١)﴾ [الحديد]

وقال فى موضع آخر : ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا .. (١٦٠)﴾ [الأنعام] وفى الحديث الشريف : « مكتوب على باب الجنة : الصدقة بعشر أمثالها ، والقرض بثمانية عشر »[(١)] .

فظاهر الحديث يختلف مع الآية الكريمة ـ هذا فى نظرهم ـ لأنهم لا يملكون الملَكة العربية فى استقبال البيان القرآنى . وبتأمل الآيات والأحاديث نجد اتفاقهما على أن الحسنة أو الصدقة بعشر أمثالها ، فالخلاف ـ ظاهراً ـ فى قوله تعالى : ﴿فَيُضَاعِفَهُ لَهُ .. (١١)﴾ [الحديد] وقول النبى ﷺ : « والقرض بثمانية عشر » .

وليس بينهما اختلاف ، فساعة تصدَّق الإنسان بدرهم مثلاً أعطاه الله عشرة منها الدرهم الذى تصدَّق به ، فكأنه أعطاه تسعة ، فحين تُضَاعف التسعة ، تصبح ثمانية عشرة .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِى الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٧٧)﴾ [القصص] والفساد يأتى من الخروج عن منهج الله ،

---

(١) عن أبى أمامة عن رسول الله ﷺ قال : « دخل رجل الجنة فرأى على بابها مكتوباً الصدقة بعشرة أمثالها ، والقرض بثمانية عشر » . أورده الهيثمى فى مجمع الزوائد (٤/١٢٦) وعزاه للطبرانى فى المعجم الكبير وقال : « فيه عتبة بن حميد وثقه ابن حبان وغيره وفيه ضعف » .

وعن أنس بن مالك قال قال رسول الله ﷺ : « رأيت ليلة أُسرى بى مكتوباً على باب الجنة : الصدقة بعشر أمثالها ، والقرض ثمانية عشر ، فقلت لجبريل : ما للقرض أفضل من الصدقة ؟ قال : لأن السائل يسأل وعنده ، والمستقرض لا يستقرض إلا من حاجة » أخرجه أبو نعيم فى الحلية (٨/٣٣٣) .

فإنْ غيَّرت فيه فقد أفسدتَ ، فالفساد كما يكون فى المادة يكون فى المنهج ، وفى المعنويات ، يقول سبحانه : ﴿وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا .. (٥٦)﴾ [الأعراف]

فالحق سبحانه خلق كل شىء على هيئة الصلاح لإسعاد خلقه ، فلا تعمد إليه أنت فتفسده ، ومن هذا الصلاح المنهج ، بل المنهج وهو قوام الحياة المعنويةِ ـ أَوْلَى من قِوام الحياة المادية .

إذن : فلتكُنْ مؤدباً مع الكون من حولك ، فإذا لم تستطع أنْ تزيده حُسْناً فلا أقلَّ من أنْ تدعه كما هو دون أنْ تفسده ، وضربنا لذلك مثلاً ببئر الماء قد تعمد إليه فتطمسه ، وقد تبنى حوله سوراً يحميه .

هذه مسائل خمْس توجَّه بها قوم قارون لنصحه بها ، منها الأمر ، ومنها النهى ، ولا بُدَّ أنهم وجدوا منه ما يناقضها ، لا بُدَّ أنهم وجدوه بَطِراً أَشِراً[1] مغروراً بماله ، فقالوا له : ﴿لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦)﴾ [القصص]

ووجدوه قد نسى نصيبه من الدنيا فلَم يتزود منها للآخرة ، فقالوا له ﴿وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا .. (٧٧)﴾ [القصص] ، ووجدوه يضنُّ على نفسه فلا ينفق فى الخير ، فقالوا له : ﴿وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ .. (٧٧)﴾ [القصص] يعنى : عَدِّ نعمتك إلى الغير ، كما تعدَّت نعمة الله إليك .. وهكذا ما أمروه أمراً ، ولا نهوْهُ نهياً إلا وهو مخالف له ، وإلا لَمَا أمروه ولَمَا نهوْهُ .

---

(١) الأشَر : البطر . وقيل : هو أشد البطر . والبطر : الطغيان فى النعمة ، فهو بَطِر : لم يشكرها . [لسان العرب ـ مادتا : أشر ـ بطر] .

ثم يقول قارون رداً على هذه المسائل الخمس التى توجَّه بها قومه إليه :

﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾

لكن ما وجه هذا الردّ ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِى .. ﴿٧٨﴾ ﴾ [القصص] على المطلوبات الخمسة التى طلبوها منه ؟ كأنه يقول لهم : لا دخلَ لكم بهذه الأمور ؛ لأن الذى أعطانى المال علم أننى أهْلٌ له ، وأننى أستحقه ؛ لذلك ائتمننى عليه ، ولستُ فى حاجة لنصيحتكم .

أو يكون المعنى ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِى .. ﴿٧٨﴾ ﴾ [القصص] يعنى : بمجهودى ومزاولة الأعمال التى تُغل علىَّ هذا المال ، وكان قارون مشهوراً بحُسْن الصوت فى قراءة التوراة ، وكان حافظاً لها . وكان حسن الصورة ، وعلى درجة عالية بمعرفة أحكام التوراة .

فعجيب أن يكون عنده كل هذا العلم ويقول ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِى .. ﴿٧٨﴾ ﴾ [القصص] ولا يعلم أن الله قد أهلك من قبله قروناً كانوا أشدَّ منه قوة ، وأكثر منه مالاً وعدداً .

﴿ أَوَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا .. ﴿٧٨﴾ ﴾ [القصص] فكيف فاتتْه هذه المسألة مع علْمه بالتوراة ؟

ومعنى ﴿ أَوَ لَمْ يَعْلَمْ .. ﴿٧٨﴾ ﴾ [القصص] أى : من ضمن ما علم ﴿ مِنَ الْقُرُونِ .. ﴿٧٨﴾ ﴾ [القصص] أناس كانوا أكثر منه مالاً ، وقد

أخذهم الله وهم أمم لا أفراد ، وكلمة ﴿ جَمْعًا .. (٧٨) ﴾ [القصص] يجوز أن تكون مصدراً يعنى : جمع المال ، أو : اسم للجماعة أى : له عُصْبة .

وبعد ذلك قال سبحانه : ﴿ وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ (٧٨) ﴾ [القصص] وعلامة أنهم لا يُسألون أن الله تعالى يأخذهم دون إنذار يأخذهم على غِرَّة ، فلن يقول لقارون : أنت فعلت كذا وكذا ، وسأفعل بك كذا وكذا ، وأخسف بك وبدارك الأرض ، فأفعالك معلومة لك ، والحيثيات السابقة كفيلة بأنْ يُفاجئك العذاب .

وهكذا يتوقع أنْ يأتيه الخَسْف والعذاب فى أىِّ وقت ، إذن : لن نسألهم ، ولن نُجرى معهم تحقيقاً كتحقيق النيابة أو (البوليس) ، حيث لا فائدة من سؤالهم ، وليس لهم عندنا إلا العقاب .

وبعد هذا كله وبعد أنْ نصحه قومه ما يزال قارون متغطرساً بَطِراً لَم يَرْعَو ولم يرتدع ، بل ظل فَرِحاً باغياً مفسداً ، ويحكى عنه القرآن :

﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٧٩) ﴾

قلنا : إن قارون كان بطبيعة الحال غنياً وجيهاً ، حَسَن الصوت والصورة ، كثير العدد ، كثير المال ، فكيف لو أضفت إلى هذا كله أن يخرج فى زينته وفى موكب عظيم ، وفى أبهة ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِى زِينَتِهِ .. (٧٩) ﴾ [القصص]

وللعلماء كلام كثير[1] فى هذه الزينة التى خرج فيها قارون ، فقد كان فيها ألف جارية من صفاتهن كذا وكذا ، وألف فرس .. إلخ ، حتى أن الناس انبهروا به وبزينته ، بل وانقسموا بسببه قسمين : جماعة فُتنوا به ، وأخذهم بريق النعمة والزينة والزهو وترف الحياة ، ومدُّوا أعينهم إلى ما هو فيه من متعة الدنيا .

وفى هؤلاء يقول تعالى : ﴿قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٧٩)﴾ [القصص] وقد خاطب الحق - تبارك وتعالى - نبيه محمداً ﷺ بقوله : ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. (١٣١)﴾ [طه]

والمعنى : لا تنظر إلى ما فى يد غيرك ، واحترم قدر الله فى خَلْق الله ، واعلم أنك إنْ فرحتَ بالنعمة عند غيرك أتاك خيرها يطرق بابك وخدمتْك كأنها عندك ، وإنْ كرهتها وحسدته عليها تأبَّت عليك ، وحُرِمْت نفعها ؛ لأن النعمة أعشق لصاحبها من عشقه لها ، فكيف تأتيه وهو كاره لها عند غيره ؟

لذلك من صفات المؤمن أن يحب الخير عند أخيه كما يحبه لنفسه . وحين لا تحب النعمة عند غيرك ، فما ذنبه هو ؟ فكأنك تعترض على قدر الله فيه ، وما دُمْتَ قد تأبيت واعترضت على قدر المنعم ، فلا بُدَّ أن يحرمك منها .

لذلك يقول سبحانه فى موضع آخر : ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ

---

(١) قال قتادة : خرج على أربعة آلاف دابة عليهم ثياب حمر ، منها ألف بغل أبيض عليها قطف حمر . [أخرجه عبد بن حميد وابن أبى حاتم] - قال ابن جريج : خرج على بغلة شهباء عليها الأرجوان ، ومعه ثلثمائة جارية على البغال الشهب عليهن الثياب الحمر . [أخرجه ابن المنذر وابن أبى حاتم] . أورد السيوطى هذه الآثار وغيرها فى [الدر المنثور فى التفسير بالمأثور ٦/٤٤١] .

بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ .. (٣٢) ﴾ [النساء]

لأن لكل منكم مهمة ودوراً فى الحياة ، ولكل منكم مواهبه وميزاته التى يمتاز بها عن الآخرين ، ولا بُدَّ أن يكون فيك خصال أحسن ممن تحسده ، لكنك غافل عنها غير متنبه لها .

وسبق أن قلنا : إن الحق سبحانه قد وزَّع أسباب فَضْله على خَلْقه ؛ لأننا جميعاً أمام الله سواء ، وهو سبحانه لم يتخذ صاحبة ولا ولداً ؛ لذلك قلنا : إن مجموع مواهب كل فرد تساوى مجموع مواهب الآخر ، فقد تزيد أنت عنى فى خصلة ، وأزيد عنك فى أخرى ، فهذا يمتاز بالذكاء ، وهذا بالصحة ، وهذا بالعلم ، وهذا بالحِلْم ... إلخ .

لأن حركة الحياة تتطلب كل هذه الإمكانيات ، فبها تتكامل الحياة ، وليس من الممكن أن تتوفر كل هذه المزايا لشخص واحد يقوم بكل الأعمال ، بل إنْ تميزْتَ فى عملك ، وأتقنتَ مهمتك فلك الشكر .

ومن العجيب ألاَّ تنتفع أنت بنبوغك ، فى حين ينتفع به غيرك ، ومن ذلك قولهم مثلاً (باب النجار مخلع) ، فلماذا لا يصنع باباً لنفسه ، وهو نجار ؟ قالوا : لأنه الباب الوحيد الذى لا يتقاضى عليه أجراً .

إذن : حينما تجد غيرك مُتفوِّقاً فى شىء فلا تحقد عليه ؛ لأن تفوقه سيعود عليك ، وضربنا لذلك مثلاً بشىء بسيط : حين تمسك المقصَّ بيدك اليمنى لتقصَّ أظافر اليد اليسرى تجد أن اليد اليمنى ـ لأنها مرنة سهلة الحركة ـ تقصُّ أظافر اليسرى بدقة ، أما حين تقصُّ اليسرى أظافر اليمنى فإنها لا تعطيك نفس المهارة التى كانت لليمنى . إذن : فحُسْن اليمنى تعدَّى لليُسْرى ونفعها .

وهكذا إذا رأيتَ أخاك قد تفوَّق فى شىء أو أحسن فى صُنْعه فاحمد الله ؛ لأن حُسْنه وتفوقه سيعود عليك ، وقد لا يعود عليه هو ، فلا تحسده ، ولا تحقد عليه ، بل ادْعُ له بالمزيد ؛ لأنك ستنتفع به فى يوم من الأيام .

لكن ماذا قال أهل الدنيا الذين بُهروا بزينة قارون ؟ قالوا : ﴿ يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِىَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٧٩) ﴾ [القصص] يعنى: كما نقول نحن (حظه بمب) ؛ لأن هؤلاء لا يعنيهم إلا أمر الدنيا ومُتعها وزُخْرفها ، أما أهل العلم وأهل المعرفة فلهم رأْىٌ مخالف ، ونظرة أبعد للأمور ؛ لذلك رَدُّوا عليهم :

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ (٨٠) ﴾

فما كان الحق ـ تبارك وتعالى ـ ليترك أهل الدنيا وأهل الباطل يُشكِّكون الناس فى قَدَر الله ، ويتمردون على قسمته حتى الكفر والزندقة ، والله سبحانه لا يُخلِى الناس من أهل الحق الذين يُعدِّلون ميزان حركة الحياة :

إنَّ الذى جَعَلَ الحقيقةَ عَلْقَماً ... لم يخْلُ من أَهْل الحقيقة جيلا

وما دام أن الله تعالى قال فى الجماعة الأولى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا .. (٧٩) ﴾ [القصص] فهم لا يرونَ غيرها ، ولا يطمحون لأبعد منها ، وقال فى الأخرى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ .. (٨٠) ﴾ [القصص] فهذا يعنى : أن أهل الدنيا (سطحيون) ، لم يكن عندهم

علم ينفعهم ؛ لذلك وقعوا فى هذا المأزق الذى نجا منه أهل العلم ، حينما أجروا مقارنة بين الطمع فى الدنيا والطمع فى الآخرة .

كما قلنا سابقاً : إن عمر الدنيا بالنسبة لك : لا تقُلْ من آدم إلى قيام الساعة ؛ فعمرك أنت فيها عمر موقوت ، لا بُدَّ أنْ يفنى . إذن : العاقل مَنْ يختار الباقية على الفانية ، لذلك أهل الدنيا قالوا ﴿يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِىَ قَارُونُ .. (٧٩)﴾ [القصص]

أما أهل العلم والمعرفة فردُّوا عليهم : ﴿وَيْلَكُمْ .. (٨٠)﴾ [القصص] أى : الويل لكم بسبب هذا التفكير السطحى ، وتمنِّى ما عند قارون الويل والهلاك لكم بما حسدتُم الناس ، وبما حقدتُم عليهم ، وباعتراضكم على أقدار الله فى خَلْقه .

فأنتم تستحقون الهلاك بهذا ؛ لذلك قال الله عنهم فى موضع آخر : ﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٦) يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. (٧)﴾ [الروم]

يعنى : لا يعرفون حقيقة الأشياء ، ولو عرفوا ما قالوا هذا الكلام ، وما تمنَّوْا هذه الأمنية .

ثم يلفت أهل العلم والمعرفة أنظار أهل الدنيا ، ويُوجِّهونهم الوجهة الصحيحة : ﴿ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا .. (٨٠)﴾ [القصص] أى : ثواب الله خير من الدنيا ، ومما عند قارون ، وكيف تتمنون ما عنده ، وقد شجبتم تصرفاته ، ونهيتموه عنها ، ولم ترضَوْها ؟

ومعنى : ﴿وَلا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ (٨٠)﴾ [القصص] أى : يُلقّى الإيمان والعمل الصالح والهداية ، ليُقبِلَ على عمل الآخرة ، ويُفضلها

عن الدنيا ، أى : يُلقّى قضية العلم بالحقائق ، ولا تخدعه ظواهر الأشياء . هذه لا يجدها ولا يُوفّق إليها إلا الصابرون ، كما قال سبحانه فى آية أخرى : ﴿ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٣٥) ﴾ [فصلت]

والصبر : احتمال ما يؤذى فى الظاهر ، لكنه يُنعّم فى الباطن . وله مراحل ، فالله تعالى كلَّفنا بطاعات فيها أوامر ، وكلَّفنا أنْ نبتعد عن معاص ، وفيها نواهٍ ، وأنزل علينا أقداراً قد لا تستطيبها نفوسنا ، فهذه مراحلُ ثلاث .

فالطاعات ثقيلة وشاقة على النفس ؛ لذلك يقول تعالى عن الصلاة : ﴿ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ (٤٥) ﴾ [البقرة] فهناك دَواعٍ شتَّى تصرفك عن الصلاة ، وتحاول أنْ تُقعدك عنها ، فتجد عند قيامك للصلاة كسلاً وتثاقلاً .

واقرأ قوله تعالى عن الصلاة مخاطباً نبيه ﷺ : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا .. (١٣٢) ﴾ [طه] وهذا دليل على أنها صعبة وشاقَّة على النفس ، لكن إذا تعودتْ عليها ، وألفتها النفس صارتْ أحبَّ الأشياء إليك ، وأخفّها على نفسك ، بل وقرَّة عَيْن لك .

والنبى ﷺ يُعلِّمنا هذا الدرس فى قوله لمؤذنه بلال : « أرحنا بها يا بلال »[1] لا أرحنا منها تلك المقالة التى يقولها لسان حالنا الآن .

ويقول أيضاً ﷺ : « وجُعلَت قرة عينى فى الصلاة »[2] وخصَّ

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٥/٣٦٤) ، وأبو داود فى سننه (٤٩٨٥) عن رجل من الصحابة .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٣/١٢٨ ، ١٩٩ ، ٢٨٥) والنسائى فى سننه (٧/٦١) والحاكم فى مستدركه (٢/١٦٠) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه . قال الحاكم : صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبى ، وتمامه : « حبِّب إلىَّ من الدنيا : النساء والطيب ، وجُعِلت قرة عينى فى الصلاة » .

الصلاة بالذات من بين سائر العبادات ؛ لأنها تتكرر فى اليوم خمس مرات ، فهى ملازمة للمؤمن يعايشها على مدى يومه وليلته بخلاف الأركان الأخرى ، فمنها ما هو مرة واحدة فى العام ، أو مرة واحدة فى العمر كله .

هذا هو النوع الأول من الصبر ، وهو الصبر على مشقة الطاعة .

الثانى : الصبر عن شهوة المعصية ، ولا تنْسَ أنه أول صبر تصادفه فى حياتك أنْ تصبر على نفسك ؛ لذلك يقول الشاعر[1] :

إذَا رُمْتَ أنْ تَسْتَقرِضَ المالَ مُنفقاً ... عَلَى شَهَوَاتِ النفْسِ فى زَمَنِ العُسْرِ
فَسَلِ نفسكَ الإنفاقَ من كَنْزِ صَبْرِها ... عليْكَ وإنْظَاراً إلى سَاعةِ اليُسْرِ
فإنْ فعلتْ كنتَ الغنىَّ وإنْ أبتْ ... فكل مَنُوعٍ بعدها واسِعُ العُذْرِ

فبدل أن تقترض لقضاء شهوة نفس عاجلة ، فأوْلَى بك أن تصبر إلى أن تجد سعة وتيسيراً ، فصبرك على نفسك أهون من صبر الناس عليك ، وإنْ لم تسعْكَ نفسك ، فلا عُذْر لأحد بعد ذلك إنْ منعك .

الثالث : صَبر على الأقدار المؤلمة التى لا تفطن أنت إلى الحكمة منها ، فالأقدار ما دامتْ من حكيم ، ومُجريها عليك ربٌّ ، إذن لا بُدَّ أن لها حكمة فيك ، فخُذ القضية القدرية بحكمة مُجريها عليك ، فهو سبحانه ربك ، وليس عدوك ، وأنت عبده وصنعته ، ألم تقرأ قول الرسول فى الحديث الشريف : « الخلق كلهم عيال الله ، فأحبُّهم إليه أرأفهم بعياله »[2] .

---

(١) من شعر الشيخ رحمه الله .

(٢) أخرج نحوه من حديث عبد الله بن مسعود أبو نعيم فى الحلية (٤/٢٣٧) وابن الجوزى بإسناده فى « العلل المتناهية » (٢/٥١٩) وضعَّفه . وأورده العجلونى فى كشف الخفاء (١/٤٥٧) .

إذن : حين تجرى عليك الأقدار المؤلمة ، فيكفيك للصبر عليها أنْ تعلم أنها حكمة الله ، ويكفيك أن مُجريها عليك ربك ، فإنْ جاءت الأقدار المؤلمة بسبب تقصيرك ، فلا تلومنَّ إلا نفسك ، كالطالب الذى يُهمل دروسه ويتكاسل ، فيفشل فى الامتحان ، فالفشل نتيجة إهماله وتكاسله .

أما الذى يذاكر ويجدّ ويُبكِّر إلى الامتحان مُسْتبشراً فتصدمه سيارة مثلاً فى الطريق ، تمنعه من أداء امتحانه ، فهذا هو القدر المؤلم الذى له حكمة ، وربما داخله شىء من الغرور ، وعوَّل على مذاكرته ، ونسى توفيق الله له ، فأراد الله أنْ يُلقّنه هذا الدرس ليعلمه أن الأمر فى النهاية بيد الله وبمعونته ، وأنه الخاسر إنْ لم تصادفه هذه المعونة ، على حَدِّ قول الشاعر :

إذَا لم يكُنْ عَوْنٌ مِنَ اللهِ للفتَى فَأوَّلُ مَا يَجْنى عليْهِ اجتهادُهُ

فعليك إذن أنْ تنظر إنْ كانت المصيبة نتيجة لما قدمت ، فلا تلومنَّ إلا نفسك ، فإنْ كنتَ قد أخذتَ بالأسباب ، واستوفيتَ ما طُلب منك ، ثم أصابتْك المصيبة ، فاعلم أن لله فيها حكمة ، وعليك أنْ تحترم حكمة الله وقدره فى خَلْقه .

وباعتبار آخر ، يمكن أن نقسم المصائب إلى قسمين : قسم لك فيه غريم ، كأن يعتدى عليك غيرك بضرب أو قتل أو نحوه ، وقسم ليس لك فيه غريم كالموت والمرض مثلاً .

وقد أعطانا الحق ـ سبحانه وتعالى ـ حكماً فى كل منهما ، ففى النوع الأول حيث لا غريمَ لك ، يقول تعالى على لسان لقمان وهو يوصى ولده :

﴿ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٧) ﴾ [لقمان]

ويقول فيما لك فيه غريم : ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ .. (٤٣)﴾ [الشورى] فما دام قد ذكر المغفرة ودعاك إليها ، فلا بُدَّ أن أمامك غريماً ، ينبغى أنْ تصبر عليه ، وأن تغفر له ، والغريم يهيجنى إلى المعصية وإلى الانتقام ، فكلما رأيته أتميَّز غيظاً ، فالصبر فى هذه الحالة أشدّ ويحتاج إلى عزيمة قوية .

لذلك قال سبحانه : ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ(٤٣)﴾ [الشورى] ولم يقل كما فى الأولى : ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٧)﴾ [لقمان] إنما بصيغة التأكيد باللام (لَمِنْ) .

ويُعلِّمنا ربنا ـ تبارك وتعالى ـ كيف نعالج غَيْظ النفوس أمام الغريم ، فيقول سبحانه : ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤)﴾ [آل عمران]

هذه مراحل ثلاث ، تتدرج بك حسب ما عندك من استعداد للخير وقدرة على التسامح ، فأولها : أن تكظم غيظك ، وهذا يعنى أن الغيظ موجود ، لكنك تكتمه فى نفسك ، فإن ارتقيتَ عفوتَ بأن تُخرج الغيظ والغلَّ من نفسك ، كأن شيئاً لم يحدث ، فإن ارتقيتَ إلى المرتبة الأعلى أحسنتَ ؛ لأن الله تعالى يحب المحسنين ، والإحسان أن تقدم الخير وتبادر به مَنْ أساء إليك ، فتجعله رداً على إساءته .

ولا شكَّ أن هذه المراحل تحتاج إلى مجاهدة ، فهى قاسية على النفس ، وقلما تجد مَنْ يعمل بها ؛ لذلك ما جعلها الله على وجه الإلزام ، إنما ندب إليها وحثّ عليها ، فإنْ أخذتَ بأُولاَها فلا شىء عليك ؛ لأن الله تعالى أباح لك أن ترد الإساءة بمثلها ، فإنْ كظمتَ غيظك فأنت على خير ، وإن اخترتَ لنفسك الرقى فى طاعة ربك ، فنِعْم الرجل أنت ، ويكفيك ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤)﴾ [آل عمران]

ويكفيك أن المسىء بإساءته إليك جعل الله فى جانبك ، فهو مع إساءته إليك يستحق مكافأة منك ، كما قال أحد العارفين : ألا أُحسن لمن جعل الله فى جانبى ؟

وضربنا لذلك مثلاً بالوالد حين يجد أن أحد الأولاد اعتدى على الآخر ، فيميل ناحية المُعْتَدى عليه ويتودَّد إليه ، ويحاول إرضاءه ، حتى إن المعتدى ليغتاظ ويندم على أنه أساء إلى أخيه ، كذلك الحق - تبارك وتعالى - إن اعتدى بعض خَلْقه على بعض يحتضن المظلوم ، وينصره على مَنْ ظلمَه .

ثم يُفاجأ قارون بالعقاب الذى يستحقه :

﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ ﴾

والخسف : أن تنشقَّ الأرض فتبتلع ما عليها ، كالذى يقول (يا أرض انشقى وابلعينى) ، والخسف كان به وبداره التى فيها كنوزه وخزائنه وما يملك ﴿فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ .. ﴿٨١﴾﴾ [القصص] ، فما نفعه مال ، ولا دافع عنه أهل ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾﴾ [القصص] أى : بذاته . فلم تكُنْ له عُصْبة تحميه ، ولا استطاع هو حماية نفسه ، فمَنْ يدفع عذاب الله إن حلَّ ، ومَنْ يمنعه وينقذه إنْ خُسفت به الأرض ؟!

وهنا ينبغى أن نتساءل : كيف الآن حال مَنْ اغتروا به ، وفُتنوا بماله وزينته ؟

يقول الحق سبحانه :

﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (٨٢)﴾

لقد كانوا بالأمس يقولون ﴿يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ .. (٧٩)﴾ [القصص] ، لكن اليوم وبعد أن عاينوا ما حاق به من عذاب الله وبأسه الذى لا يُردُّ عن القوم الكافرين - اليوم يثوبون إلى رُشْدهم ويقولون : ﴿وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ .. (٨٢)﴾ [القصص]

كلمة (وَىْ) اسم فعل مثل : أُفٍّ وهيهات ، وتدل على الندم والتحسُّر على ما حدث منك ، فهى تنديد وتَخْطِيءٌ للفعل ، وقد تُقال (وَىْ) للتعجب . فقولهم (وى) ندماً على ما كان منهم من تمنى النعمة التى تنعَّم بها قارون وتخطيئاً لأنفسهم ، بعد أنْ شاهدوا الخَسْف به وبداره ، وهم يندمون الآن ويُخطِّئون أنفسهم ؛ لأن لله تعالى فى رزقه حكمة وقدراً .

﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ .. (٨٢)﴾ [القصص] أى : يقبض ويُضيق ، وليس بسْط الرزق دليلَ كرامة ، ولا تضييقه دليلَ إهانة ، بدليل أن الله بسط الرزق لقارون ، ثم أخذه أَخْذ عزيز مقتدر .

وقد تعرضتْ سورة الفجر لهذه المسألة فى قوله تعالى : ﴿فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦)﴾ [الفجر]

فالأول اعتبر الرزق الواسع دليل الكرامة ، والآخر اعتبر التضييق دليلَ إهانة ، فردَّ الحق سبحانه عليهما ليُصحح هذه النظرة فقال : ﴿ كَلاَّ .. (١٧) ﴾ [الفجر] يعنى : أنتما خاطئان ، فلا سعةَ الرزق دليلُ كرامة ، ولا تضييقه دليلُ إهانة ، وإلا فكيف يكون إيتاء المال دليلَ كرامة ، وأنا أعطى بعض الناس المال ، فلا يُؤدُّون حقَّ الله فيه ؟

﴿ كَلاَّ بَل لاَّ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ (١٧) وَلا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ (١٨) وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَّمًّا (١٩) وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا (٢٠) ﴾ [الفجر]

إذن : فأىُّ كرامة فى مال يكون وبالاً على صاحبه ، وابتلاء لا يُوفَّق فيه ، فلو سُلب هذا المال من صاحبه لكان خيراً له ، فما أشبهَ هذا المال بالسلاح فى يد الذى لا يُحسِن استعماله ، فربما قتل نفسه به .

وقوله تعالى : ﴿ لَوْلا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا .. (٨٢) ﴾ [القصص] لأنهم بالأمس تمنَّوْا مكانه ، أما الآن فيعترفون بأن الله مَنَّ عليهم حين نجاهم من هذا المصير ، ثم يقولون ﴿ وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (٨٢) ﴾ [القصص] تعجُّب من أنه لا يفلح الكافرون عند الله تعالى .

وبعد ذلك يأتى الحق سبحانه بقضية عامة ليفصل فى هذه المسألة :

﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (٨٣) ﴾

لأنه لا يصح أنْ يعلو الإنسان على بنى جنسه ، ولا على بيئته إلا بشىء ذاتى فيه ، فلا يصح أنْ يعلوَ بقوته ؛ لأنه قد يمرض ، فيصير إلى الضعف ، ولا بماله لأنه قد يُسلب منه .

إذن : إياك أن تعلو على غيرك بشىء موهوب لك ، إنْ أردتَ فبشىء ذاتى فيك ، وليس فيك شىء ذاتى ، فلست أفضلَ من أحد حتى تعلو عليه ، كما أن الدنيا أغيار ، وربما انتقل ما عندك إليهم ، فهل يسرُّك إنْ صار غيرك غنياً أو قوياً أنْ يتعالى عليك ؟

ثم أنت لا تستطيع العلو إلا بالاعتماد على قوة أعلى منك تسندك ، وجرِّب بنفسك وحاول أن تقفز إلى أعلى كلاعب السيرك ، ثم أمسك نفسك فى هذا العلو ، وطبعاً لن تستطيع ، لماذا ؟ لأنه لا ذاتية لك فى العُلو .

وما دام الأمر كذلك ، فإياك أنْ تعلو ؛ لأنك بعلوِّك تُحْفظُ الآخرين ؛ فإنْ حصل لك العكس شمتوا فيك ، وأيضاً لأن الإنسان لا يعلو فى بيئة ولا فى مكان إلا إذا رأى كل مَنْ حوله دونه ، وحين ترى أن كل الناس دونك فأنت لم تتنبه إلى أسرار فَضْل الله فى خَلْقه .

ولو تأملتَ لوجدتَ فى كل منهم خصلة ليست عندك ، ولو قدَّرت أن الناس جميعاً عيالُ الله وخَلْقه ، وليس منا مَنْ بينه وبين الله نسب أو قرابة ونحن جميعاً عنده تعالى سواء ، وقد وزّع المواهب بيننا جميعاً بالتساوى ، وبالتالى لا يمتاز أحد على أحد ، فلم التعالى إذن ؟ ولِمَ الكبر ؟

وأيضاً الذى يتعالى لا يتعالى إلا فى غفلة منه عن ملاحظة كبرياء ربه ، وإلا فالذى يستحضر عظمة ربه وكبرياءه لا بُدَّ له أنْ يتواضع ، وأنْ يتضاءل أمام كبريائه تعالى ، وأنْ يستحى أن يتكبر على خَلْقه .

والنبى ﷺ يُعلِّمنا كيف نحترم الآخرين ؟ وكيف نتواضع لهم ؟

فلما دخل عليه الصحابى الجليل عدى بن حاتم[1] قام عن كرامة مجلسه له ، يعنى : إن كانْ جالساً على (وسادة مثلاً) يقوم عنها ، ويعطيها لصاحبه ليجلس هو عليها .

وهكذا يحرص رسول الله ﷺ على المساواة فى المجلس ؛ لذلك قال عدى بن حاتم لرسول الله ﷺ : أشهد أنك لا تريد عُلُواً فى الأرض ، وأشهد ألا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وأسلم .

وعجيب ما نراه مثلاً فى مساجدنا ، وهى بيوت الله وأَوْلَى الأماكن بهذه المساواة ، فتراهم إذا دخل أحد أصحاب النفوذ يفرشون له مُصلّى ليصلى عليها ، مع أن المسجد مفروش ، وعلى أعلى مستوى من النظافة ، فلماذا هذا التمييز ؟

ومع ذلك نجد منهم مَنْ يزيح هذه المصلَّى جانباً ، ويصلى كما يصلى بقية الناس ، وأظن أن الذى يقبل أنْ تُوضع له هذه المصلى أظنه يبتغى علواً فى الأرض .

والحق سبحانه يريد للإنسان أن يعيش سوىَّ الحركة فى أسوياء لتظل القلوب متآلفة ، لا يداخلها ضغن ، وإذا خلَتْ القلوب من الضِّغن وَسِع الناسَ جميعاً رغيفُ عيش واحد .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (٨٣) ﴾ [القصص] أى : العاقبة الخيِّرة ، والعاقبة الحسنة فى النعيم المقيم الدائم للمتقين .

ثم يقول الحق سبحانه :

---

(١) هو : ابن حاتم الطائى المشهور بالكرم . أسلم عدى فى سنة تسع وقيل سنة عشر وكان نصرانياً قبل ذلك ، وثبت على إسلامه عند ارتداد بعض العرب بعد وفاة الرسول ﷺ ، شهد فتوح العراق ثم سكن الكوفة وشهد صفين مع على ومات بعد الستين هجرية [الإصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر (ترجمة رقم ٥٤٦٧)] .

﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾

قلنا : إن كلمة (خير) تُطلق ويُراد بها ما يقابل الشر ، كما فى قوله تعالى : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾ ﴾ [الزلزلة]

وتُطلق ويُراد بها الأحسن فى الخير ، تقول : هذا خير من هذا ، فكلاهما فيه خير ، ومنه قول رسول الله ﷺ : « المؤمن القوى خير وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفى كُلٍّ خير »[1] فهى بمعنى التفضيل ، أى : أخير منها ، ومن ذلك قول الشاعر :

زَيْدٌ خِيارُ النَّاسِ وابْنُ الأَخْيَرِ

فجاء بصيغة التفضيل على الأصل . وتقول : هذا حَسَن ، وذلك أحسن .

فالمعنى هنا : ﴿ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا .. ﴿٨٤﴾ ﴾ [القصص] أى : خير يجيئه من طريقها ، أو إذا عمل خيراً أعطاه الله أخير منه وأحسَن ، والمراد أن الحسنةَ بعشر أمثالها .

والحق سبحانه يعطينا صورة توضيحية لهذه المسألة ، فيقول سبحانه : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ﴾ [البقرة]

---

(١) أخرجه أحمد بن حنبل فى مسنده (٢/٣٦٦ ، ٣٧٠) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٦٦٤) ، وابن ماجة فى سننه (٧٩) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

فقوله تعالى : ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ .. (٨٤)﴾ [القصص] قضية عقدية ، تثبت وتُقرِّر الثواب للمطيع ، والعقاب للعاصى ، ومعنى ﴿جَاءَ بِالْحَسَنَةِ .. (٨٤)﴾ [القصص] أى : أتى بها حدثاً لم يكُنْ موجوداً ، فحين تفعل أنت الحسنة فقد أوجدتَها بما خلق الله فيك من قدرة على الطاعة وطاقة لفعل الخير .

أو المعنى : جاء بالحسنة إلى الله أخيراً لينال ثوابها ، ولا مانع أن تتجمع له هذه المجيئات كلها ليُقبل بها على الله ، فيجازيه بها فى الآخرة .

لكن ، هل ثواب الحسنة مقصور فقط على الآخرة ، أم أن الدين بقضاياه جاء لسعادة الدنيا وسعادة الآخرة ؟ فما دام الدين لسعادة الدارين فللحسنة أثر أيضاً فى الدنيا ، لكن مجموعها يكون لك فى الآخرة .

وهذه الآية جاءت بعد الحديث عن قارون ، وبعد أن نصحه قومه ، وجاء فى نصحهم : ﴿وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ .. (٧٧)﴾ [القصص] إذن : فطلبهم أن يُحسن كما أحسن الله إليه جاء فى مجال ذكر الحسنة ، والحسنة أهى الشىء الذى يستطيبه الإنسان ؟ لا ، لأن الإنسان قد يستطيب الشىء ثم يجلب عليه المضرة ، وقد يكره الشىء ولا يستطيبه ، ويأتى له بالنفع .

فمن إذن الذى يحدد الحسنة والسيئة ؟ ما دام الناس مختلفين فى هذه المسألة ، فلا يحددها إلا الله تعالى ، الذى خلق الناس ، ويعلم ما يُصلحهم ، وهو سبحانه الذى يعلم خصائص الأشياء ، ويعلم ما يترتب عليها من آثار ، أما الإنسان فقد خلقه الله صالحاً للخير ، وصالحاً للشر ، يعمل الحسن ، ويعمل القبيح ، وربما اختلطت عليه المسائل .

لذلك يقولون فى تعريف الحسنة : هى ما حسَّنه الشرع ، لا ما حسَّنْتها أنت ، فنحن مثلاً نستسيغ بعض الأطعمة ، ونجد فيها متعة ولذة ، مع أنها مُضرة ، فى حين نأنف مثلاً من أكل الطعام المسلوق ، مع أنه أفيد وأنفع ؛ لذلك يقول تعالى فى صفة الطعام : ﴿فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا ﴿٤﴾﴾ [النساء] لأن الطعام قد يكون هنيئاً تجد له متعة ، لكنه غير مرىء ويُسبِّب لك المتاعب بعد ذلك .

الحق سبحانه يقول هنا : ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا .. ﴿٨٤﴾﴾ [القصص] فالحسنة خير ، لكن الثوابَ عليها خيرٌ منها أى : أخير ؛ لأنه عطاء دائم باقٍ لا ينقطع ، أو خير يأتيك بسببها . كما يقول أصحاب الألغاز واللعبِ بالكلمات : محمد خير من ربه ، والمعنى : خير يصلنا من الله ، ولا داعى لمثل هذه الألغاز طالما تحتمل معنى غير مقبول .

ثم يقول سبحانه : ﴿مَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ .. ﴿٨٤﴾﴾ [القصص] لم يقُل الحق سبحانه : فله أشر منها ، قياساً على الحسنة فنضاعف السيئة كما ضاعفنا الحسنة ، وهذه المسألة مظهر من مظاهر رحمة الله بخَلْقه ، هذه الرحمة التى تتعدَّى حتى إلى العُصَاة من خَلْقه .

لذلك قال ﴿فَلا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [القصص] أى : على قَدْرها دون زيادة .

واقرأ إنْ شئتَ قوله تعالى فى سورة (عم) : ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ[1] أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا[2] ﴿٣٤﴾ لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلا كِذَّابًا ﴿٣٥﴾ جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾﴾ [النبأ]

---

(١) الكواعب الأتراب : أى فتيات ناضجات متماثلات فى السن . وكعب الثدى : برز ونهد . يُقال للفتاة : كاعب . أى : ذات ثدى بارز . [القاموس القويم ٢/١٦٤] .

(٢) الكأس الدهاق : الممتلئة المتتابعة على شاربيها . وقوله تعالى ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾﴾ [النبأ] أى : هى الامتلاء الدائم ، وهذا كناية عن النعيم الدائم . [القاموس القويم ١/٢٣٤] .

فحساباً هنا لا تعنى أن الجزاء بحساب على قدر العمل ، إنما تعنى كافيهم فى كل ناحية من نواحى الخير ، ومنه قولنا : حسبى الله يعنى : كافينى .

وفى المقابل يقول سبحانه فى السيئة : ﴿جَزَاءً وِفَاقًا (٢٦)﴾ [النبأ] أى : على قدرها موافقاً لها .

إذن : فربنا - عز وجل - يعاملنا بالفضل لا بالعدل ؛ ليغرى الناس بفعل الحسنة ، وأنت حين تفعل الحسنة فأنت واحد تُقدِّم حسنتك إلى كل الناس ، وفى المقابل يعود عليك أثر حسنات الجماهير كلها ، فينالك من كل واحد منهم حسنة ، وكأنه (أوكازيون) حسنات يعود عليك أنت .

ثم يقول الحق سبحانه لنبيه :

﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ مَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٨٥)﴾

معنى فرض : ألزم وأوجب وحتَّم . وأصل الفَرْض الحزّ والقطع ، كما تقطع شيئاً بالسكين مثلاً تُسمّى فرضاً ؛ لأنها خرجتْ عن طبيعة تكوينها ، كذلك القرآن يُخرج النفس عن طبيعة مُشْتهاها ، ويقطع عليها مشيئتها ، ويردّها إلى مشيئة الله ؛ لذلك يقول سبحانه فى أول سورة النور : ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا .. (١)﴾ [النور]

يعنى : حتَّمناها وألزمنا بها ، والإلزام يعنى ردّ النفس إلى ما يريده خالقها منها ، بصرْف النظر عما تشتهيه هى ، فقد يأمرها بما تكره ، وينهاها عما تحب . إذن : يقطع سيال النفس ؛ لأنها عادة

ما تكون أمَّارة بالسوء ، تنظر إلى العاجل ، ولا تهتم بالآجل ولا تعمل له حساباً .

فالقرآن منهج الله بافعل ولا تفعل ، هو الذى يكبح جماح النفس ، ويُحدِّد لها مجال مشيئتها ؛ لأن الخالق - عز وجل - خلق النفس ، وجعل مشيئتها صالحة لعمل الخير ، ولعمل الشر .

وسبق أن تكلمنا عن الفرق بين عباد وعبيد وقلنا : إن الخَلْق جميعاً عبيد لله ، المؤمن منهم والكافر ، وإنْ تأبَّى الكافر على الله فى الإيمان ، فهو مقهور له تعالى فى مسائل أخرى ، كالمرض والموت وغيره ، ثم أعطانا الله تعالى مجالاً للاختيار ، ليثيب من يُثيب بحق ، ويُعذِّب مَنْ يُعذب بحق .

والعاقل حينما يرى أنه مقهور لله فى قدريات لا يستطيع منها فكاكاً ، وليس له فيها تصرف ، فيتنازل عن مراده ، وعن اختياره لمراد ربه واختيار ربه ، ويرضى أنْ يكون مُسيَّراً فى كل شىء ، وهنا يتحولون من عبيد إلى عباد .

فالعباد إذن هم الذين يخرجون عن اختياراتهم الممنوحة لهم من الله إلى مراد الله فى الحكم ، وبهذا المنطق يكون الجميع فى الآخرة عباداً ؛ لأنه لا اختيار لهم ، ويستوى فى ذلك المؤمن والكافر ، يوم يقول سبحانه : ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦)﴾ [غافر]

وسُمِّى إنزال القرآن فَرْضاً لما فى القرآن من تكاليف ، وهى عادةً ما تكون شاقة على النفس ، ألاَ ترى قوله تعالى عن الصلاة ، وهى أم العبادات : ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ (٤٥)﴾ [البقرة]

فلا يعرف منزلتها ومكانتها إلا خاشع ؛ لذلك كان النبى ﷺ يقول

لبلال : « أرحنا بها يا بلال »[١] ويقول : « وجُعِلَتْ قرة عينى فى الصلاة »[٢] ؛ لأنه ﷺ أحبها وعشقها ، حتى صارت قُرَّة عينه ، ومُنْتهى راحته .

إذن : أول ما يفرض التكليف لا بُدَّ أن يكون شاقاً ؛ لذلك يحتاج إلى صلابة إيمان وجلَد يقين ، بحيث تثق فى أن العمل الشاق عليك الآن سيجلب لك الخير والسعادة الباقية الدائمة فى الآخرة .

ويقول تعالى عن القتال : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ .. (٢١٦) ﴾ [البقرة] فلا شكَّ أنه مكروه للنفس ، لكن إن استحضرتَ الجزاء ، وعرفتَ أنه : إما النصر ، وإما الشهادة ، فإنه يحلو لك حتى تعشقه ، وتبادر أنت إليه ، كالصحابى فى بدر بعد أن سمع ما للشهيد من الأجر وكان فى فمه تمرة يمضغها فقال : « أليس بينى وبين الجنة إلا أنْ أقاتل فأُقتل » ؟ ثم ألقى التمرة وأسرع إلى ساحة القتال[٣] .

لذلك الحق سبحانه يُضخم الجزاءات فى نفس المؤمن ؛ ليقبل على العمل بحب وشهوة . ومن هنا يقول بعض العارفين الذين عشقوا الخير حتى أصبح شهوةَ نفْس عندهم : أخشى ألاَّ يُثيبنى الله على الطاعة ، لماذا ؟ يقول : لأننى أصبحتُ أشتهيها ، أى : كما يشتهى أهل المعصية المعصية .

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٥/٣٦٤) ، أبو داود فى سننه (٤٩٨٥) عن رجل من الصحابة .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٣/١٢٨) ، والنسائى فى سننه (٧/٦١) ، والحاكم فى مستدركه (٢/١٦٠) من حديث أنس رضى الله عنه . قال الحاكم : صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبى .

(٣) أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٠٤٦) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٨٩٩) فى كتاب الإمارة من حديث جابر بن عبد الله رضى الله عنه .

وحين يصل الإيمان بصاحبه إلى درجة أنه يعشق الطاعة ، فقد أصبح ربانياً يثق فيما عند الله من الجزاء .

وكان النبى ﷺ يقوم الليل حتى تورمَتْ قدماه ، فلما سألتْه السيدة عائشة : ألم يغفر لك ربك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال : « أفلا أكون عبداً شكوراً »[1] ؟

ومعنى : ﴿لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ .. (٨٥)﴾ [القصص] يعنى : يجازيك أفضل الجزاء ، ونزلتْ هذه الآية لما اضطهد أهلُ مكة رسولَ الله وآذوْه ، حتى اضطروه للذهاب إلى الطائف ليبحث فيها عن نصير ، لكنهم لم يكونوا أقلَّ قسوة من أهل مكة ، فعزَّ على رسول الله النصير فيها ، وعاد منكسراً حزيناً لم يجد مَنْ يدخل فى جواره ، إلى أن أجاره مطعم بن عدى .

وتأمل حين يكون رسول الله بجلالة قدره لا يجد مَنْ يناصره ، أو يُدخله فى جواره ، أما الصحابة فلم تكُنْ لهم شوكة بعد ، ولا قوة لحماية رسول الله ، وفى هذه الفترة لاقوا المشاق فى سبيل الدعوة ، فحاصرهم الكفار فى شِعْب أبى طالب ، وفرضوا عليهم المقاطعة التامة حتى عزلوهم عن الناس ، ومنعوا عنهم الطعام والشراب ، والبيع والشراء ، حتى الزواج ، وحتى اضطروا إلى أكل المخلَّفات وأوراق الشجر .

لذلك أمرهم الله بالهجرة ، والهجرة تكون إلى دار أمن ، أو إلى دار إيمان ، إلى دار أمن كالهجرة إلى الحبشة حيث قال لهم رسول الله ﷺ مُبيِّناً حيثية الهجرة إليها : « إن فيها ملكاً لا يُظلم عنده

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٨٣٧) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٨٢٠) من حديث عائشة رضى الله عنها . وعند البخارى زيادة : « فلما كثر لحمه صلى جالساً ، فإذا أراد أن يركع قام ، فقرأ ثم ركع » .

أحد »[١] يعنى : النجاشى ملك الحبشة ، وفعلاً صدق فيه قول رسول الله ، فلما أرسلتْ قريش فى إثرهم مَنْ يكلم النجاشى فى طلبهم وإعادتهم إلى مكة ، رفض أن يسلمهم ، وأن يُمكِّن قريشاً منهم ، مع أن هدايا قريش كانت عظيمة ، والإغراء كان كبيراً .

وهذا يدل على عظمة رسول الله ، وعلى فكره الواسع ، وعلى دراسة الخريطة من حوله ، ومعرفة مَنْ يصلح لهجرة صحابته إليه ، فاختياره ملك الحبشة لا يأتى إلا إما بإلهام من الله ، أو بذكاء كبير ، وهو رجل أمى فى أمة أمية ، ولو لم يذهب وفد قريش فى طلب المهاجرين ما ظهر لنا الدليل على صدق مقولة رسول الله .

ونتيجة « لا يظلم عنده أحد » فقد شرَّفه الله بالإسلام فأسلم ووكَّله رسول الله فى أن يُزوِّجه من السيدة أم حبيبة بنت أبى سفيان ، وكانت رضى الله عنها من المهاجرين الأوائل إلى الحبشة مع زوجها الذى تنصَّر هناك ، وبقيتْ هى على دينها وتمسكتْ بعقيدتها .

وفى هذا دليل أولاً : على مدى ما كان يلاقيه المؤمنون من إيذاء الكافرين ، ثانياً : دليل على الطاعة الواعية للزوج ، فقد آثرت الخروج مع زوجها لا عشْقاً له ، ولا هياماً به ، إنما فراراً معه بدينها ؛ لذلك لما تنصَّر لم تتردد فى تركه ؛ لذلك طلبها رسول الله لنفسه ، ثم لما مات النجاشى صلى عليه رسول الله وترحَّم عليه . هذه هى هجرة الإيمان إلى دار الأمن .

---

(١) أورده ابن هشام فى السيرة النبوية (١/٣٢١) : « قال ابن إسحاق : فلما رأى رسول الله ﷺ ما يصيب أصحابه من البلاء ، وما هو فيه من العافية ، وأنه لا يقدر على أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء . قال لهم : لو خرجتم إلى أرض الحبشة ، فإن بها ملكاً لا يُظلم عنده أحد ، وهى أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه » .

ثم كانت الهجرة بعد ذلك إلى دار الإيمان ، إلى المدينة ، بعد بيعة العقبة الأولى والثانية ، وبعد أن وجد رسول الله أنصاراً يتحملون معه أعباء الدعوة ، وقد ضرب الأنصار فى المدينة أروع مَثَل فى التضحية التى ليس لها مثيل فى تاريخ البشرية .

ذلك أن الرجل أغير ما يكون على زوجته ، فلا يضنّ على غيره بما يملك ، فتعطينى سيارتك أركبها ، أو بيتك أسكن فيه ، أو ثوبك ألبسه ، وأتقمَّش به ، أما الزوجة فتظل مصونة لا يجرؤ أحد على النظر إليها .

لكن كان للأنصار فى هذه المسألة نظرة أخرى حيث أشركوا إخوانهم المهاجرين فى كل شىء حتى فى زوجاتهم ، فقد راعوا فيهم خروجهم من أهلهم وبلادهم ، وراعوا غربتهم وما لهم من إرْبة وحاجة للنساء .

فكان الواحد منهم يقول لأخيه : انظر إلى زوجاتى ، فأيتهنّ أعجبتك أُطلِّقها ، وتتزوجها أنت ، هذه تضحية لا نجد لها مثيلاً فى تاريخ الناس حتى عند الكفرة .

ثم أُمر رسول الله ﷺ بالهجرة إلى المدينة ، فخرج خُفْية فى حين خرج عمر مثلاً جهراً وعلانية ، حتى إنه وقف ينادى فى أهل مكة بأعلى صوته يتحدى أهلها عند خروجه : مَنْ أراد أنْ تثكله أمه ، أو يُيتم ولده ، أو تُرمِّل زوجته فليلْقنى خلف هذا الوادى .

أما رسول الله فقد خرج خُفْية ، وهذه المسألة يقف عندها البعض أو تَخْفى عليه الحكمة منها ، فرسول الله ﷺ كان دائماً أُسْوة للضعيف ، أما القوى فلا يحتاج إلى حماية أحد ، ولا عليه إنْ خرج علانية ؛ لذلك لا يستحى أحد أن يتخفى كما تخفى رسول الله .

ثم إنك حين تتأمل : نعم خرج رسول الله خُفْية لكنها خُفْية التحدى ، فقد خرج من بين فتيانهم المتربصين به ، وعفَّر وجوههم بالتراب ، وهو يقول « شاهت الوجوه »[(١)] .

ومع ذلك لم يمنعه تأييد الله له أنْ يأخذ بأسباب النجاة ، فخالف الطريق ؛ لأن كفار مكة كانوا يعرفون أن وجهته المدينة لما عقد بيعة العقبة مع الأنصار ؛ لذلك ترصدوا له على طريقها ، وأرسلوا العيون للبحث عنه ، وجعلوا جُعْلاً لمن يأتيهم به ﷺ .

والمتأمل فى حادث الهجرة يجد أنها خطة محكمة تراعى كل جوانب الموقف ، كأن الله تعالى يريد أنْ يُعلِّمنا فى شخص رسول الله ﷺ ألاَّ نهمل الأسباب ، وألاَّ نتصادم مع الواقع ما دُمْنا قادرين على ذلك .

فلما خرج رسول الله ﷺ من مكة وهى بلده ، وأحب البلاد إلى قلبه قال : « اللهم إنك أخرجتنى من أحب البلاد إلىَّ ، فأسكنِّى أحب البلاد إليك »[(٢)] .

لذلك إنْ كانت مكةُ محبوبةً لرسول الله ، فالمدينة محبوبة لله ؛ لذلك بعد أن خرج رسول الله من مكة وقارب المدينة حَنَّ قلبه إلى مكة ، فطمأنه ربه بهذه الآية : ﴿ **إِنَّ الَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ** .. (٨٥) ﴾ [القصص]

---

(١) ورد قول رسول الله ﷺ هذا فى حديث الهجرة عن ابن عباس عند أحمد فى مسنده (٣٦٨/١) وكذلك فى غزوة حنين فى صحيح مسلم (١٧٧٧) من حديث إياس بن سلمة عن أبيه ، وأحمد فى مسنده (٢٨٦/١) والدارمى فى سننه (٢١٩/٢) من حديث أبى عبد الرحمن الفهرى .

(٢) أخرجه الحاكم فى مستدركه (٣/٣) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، وقال : هذا حديث رواته مدنيون من بيت أبى سعيد المقبرى ، قال الذهبى : « لكنه موضوع ، فقد ثبت أن أحب البلاد إلى الله مكة ، وسعد بن سعيد المقبرى ليس بثقة » .

فالذى فرض عليك مشقة التكاليف ، وحمَّلك مشاق الدعوة والإقناع بها ، وتنفيذ أحكامها . هو الذى سيردُّك إلى بلدك ردَّ نصر ، وردّ فتح ، وما أشبهَ ردِّ رسول الله إلى بلده بردِّ موسى عليه السلام إلى أمه فى قوله تعالى لأم موسى : ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ .. (٧)﴾ [القصص] ليس رَدّاً عادياً ، إنما ﴿وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧)﴾ [القصص]

إذن : سيُردُّ إليك ولدك ، لكن سيُرد رسولاً منتصراً . وكما صدق الله فى ردِّ موسى يصدق فى ردِّ محمد .

ومعنى ﴿مَعَادٍ .. (٨٥)﴾ [القصص] ليس هو الموعد كما يظن البعض ، إنما يراد به المكان الذى تعود إليه بعد أنْ تفارقه ، فالمعنى : سنردُّك إلى المكان الذى تحنُّ إليه ، ويتعلق به قلبك .

أو : نردك إلى (معاد) أى : إلينا ، كما قال تعالى : ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٧٧)﴾ [غافر] ولا مانع من إرادة المعنيين معاً .

ثم يقول سبحانه : ﴿قُل رَّبِّى أَعْلَمُ مَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٨٥)﴾ [القصص] الحق تبارك وتعالى يعلِّم رسوله محمداً ﷺ الجدل العفيف ، لا الجدل العنيف ، يُعلِّمه كيف يردُّ على ما قالوا عن الذى يؤمن به (صبأ فلان) يعنى : خرج عن دين آبائه وهم يعتقدون أنه الحق ، فكأن الذى يؤمن فى نظرهم خرج من الحق إلى الباطل .

إذن : فهذه عقول تحتاج إلى سياسة وجدل ، كما قال سبحانه : ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ .. (١٢٥)﴾ [النحل] ؛ لأن الجدل العنيف يزيد خصمك عناداً ولجاجة ، أمّا الجدل العفيف فيستميل القلوب ويعطفها نحوك ؛ لذلك يرد رسول الله بقوله : ﴿قُل رَّبِّى أَعْلَمُ مَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٨٥)﴾ [القصص] أى : جاء بالهدى من عند الله

وهو النبى ﷺ : ﴿ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٨٥) ﴾ [القصص]

ثم يعطى الحق ـ تبارك وتعالى ـ لنبيه ﷺ دليلاً من واقع حياته ؛ ليطمئن على أنه مُؤيَّد من ربه ، وأنه سبحانه سيفى له بما وعد ، ولن يتخلى عنه ، وكيف يختاره للرسالة ، ثم يتخلى عنه ؟

﴿ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ (٨٦) ﴾

يعنى : إذا كنت تتعجب ، أو تستبعد أنْ نردَّك إلى بلدك ؛ لأن الكفار يقفون لك بالمرصاد ، حتى أصبحت لا تُصدِّق أنْ تعود إليها ، فانظر إلى أصل الرسالة معك : هل كنت تفكر أو يتسامى طموحك إلى أنْ تكون رسولاً ؟ إنه أمر لم يكُنْ فى بالك ، ومع ذلك أعطاك الله إياه واختارك له ، فالذى أعطاك الرسالة ولم تكُنْ فى بالك كيف يحرمك من أمر أنت تحبه وتشتاق إليه ؟

إذن : تقوم هذه الآية مقامَ الدليل والبرهان على صدْق ﴿ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ .. (٨٥) ﴾ [القصص] وفى موضع آخر يؤكد الحق سبحانه هذا المعنى ، فيقول سبحانه : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِى مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِ مَن نَّشَاءُ .. (٥٢) ﴾ [الشورى] فالذى أعطاك الرسالة لا يعجز أن يحقق لك ما تريد .

وقوله تعالى : ﴿ إِلاَّ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ .. (٨٦) ﴾ [القصص] هذا استثناء يسمونه استثناء منقطعاً .

والمعنى : ما كنت ترجو أن يُلْقى إليك الكتاب إنما ألقيناه ، وما ألقيناه إليك إلا رحمة لك من ربك .

وما دام هؤلاء الكفار عاندوك وأخرجوك ، فإياك أنْ تلين لهم ﴿فَلا تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِّلْكَافِرِينَ (٨٦)﴾ [القصص] أى : معيناً لهم مسانداً ، وكانوا قد اقترحوا على رسول الله أن يعبد آلهتهم سنة ، ويعبدون إلهه سنة[١] ، فحذره الله أنْ يُعينهم على ضلالهم ، أو يجاريهم فى باطلهم ، لذلك كان النبى ﷺ لا يناصر ظالماً أو مجرماً ، حتى إن كان من أتباعه .

وسبق أن ذكرنا فى تأويل قوله تعالى : ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيماً (١٠٥)﴾ [النساء] قصة اليهودى زيد بن السمين لما جاءه المسلم طُعْمة بن أبيريق ، وأودع عنده درْعاً له ، وكان هذا الدرع مسروقاً من آخر اسمه قتادة بن النعمان ، فلما افتقده قتادة بحث عنه حتى وجده فى بيت اليهودى ، وكان السارق قد وضعه فى كيس للدقيق ، فدلَّ أثر الدقيق على مكان الدرع فاتهموا اليهودى بالسرقة ، ولما عرفوا حقيقة الموقف أشفقوا أن ينتصر اليهودى على المسلم ، خاصة وهم حديثو عهد بالإسلام ، حريصون على ألاّ تُشوه صورته .

لذلك شرحوا لرسول الله هذه المسألة ، لعله يجد لها مخرجاً ، فأدار رسول الله المسألة فى رأسه قبل أنْ يأخذ فيها حُكْماً ؛ وعندها نزل[٢] الوحى على رسول الله : ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ

---

(١) عن ابن عباس أن قريشاً دعت رسول الله ﷺ إلى أن يعطوه مالاً فيكون أغنى رجل بمكة ويزوّجوه ما أراد من النساء ، فقالوا : هذا لك يا محمد وكُف عن شتم آلهتنا ولا تذكر آلهتنا بسوء . فإن لم تفعل فإنا نعرض عليك خصلة واحدة ولك فيها صلاح . قال : ما هى ؟ قالوا : تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة . قال : حتى أنظر ما يأتينى من ربى ، فجاء الوحى من عند الله ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢)﴾ [الكافرون] . أورده السيوطى فى الدر المنثور (٨/٦٥٤) وعزاه لابن جرير الطبرى وابن أبى حاتم والطبرانى .

(٢) أورده الواحدى النيسابورى فى « أسباب النزول » (ص ١٠٣) ، وقال : « هذا قول جماعة من المفسرين » .

بَيْنَ النَّاسِ .. (١٠٥) ﴾ [النساء] أى : جميع الناس ، المؤمن والكافر ﴿ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا (١٠٥) ﴾ [النساء] أى : تخاصم من أجلهم ولصالحهم ﴿ وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (١٠٦) ﴾ [النساء] أى : مما خطر ببالك فى هذه المسألة .

وفى بعض الآيات نجد فى ظاهرها قسوة على رسول الله وشدة مثل : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ (٤٤) لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) ﴾ [الحاقة]

وكل ما يكون فى القرآن من هذا القبيل لا يُقصد به سيدنا رسول الله ﷺ ، إنما الحق سبحانه يريد أن يعطى للأمة نموذجاً يلفت أنظارهم ، وكأنه تعالى يقول لنا : انتبهوا فإذا كان الخطاب لرسول الله بهذه الطريقة ، فكيف يكون الخطاب لكم ؟

كأن يكون عندك خادم يعبث بالأشياء حوله ، فتُوجِّه الكلام أنت إلى ولدك : والله لو عبثتَ بشىء لأفعلنَّ بك كذا وكذا ، فتوجِّه الزجر إلى الولد ، وأنت تقصد الخادم ، على حَدِّ المثل القائل (إياك أعنى واسمعى يا جارة) .

لذلك يقول بعض العارفين :

مَا كَانَ فى القُرآن مِنْ نِذَارةٍ إلى النبىِّ صَاحبِ البشَارةِ
فكُنْ لَبِيباً وافْهَمِ الإشَارةَ إيّاك أعنى واسْمعِى يَا جَارة

يعنى : اسمعوا يا أمة محمد ، كيف أخاطبه ، وأُوجِّه إليه النذارة ، مع أنه البشير .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾

قوله تعالى ﴿ وَلا يَصُدُّنَّكَ .. ﴿٨٧﴾ ﴾ [القصص] أى :لا يصرفنك ولا يمنعنَّك المشركون ﴿ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ .. ﴿٨٧﴾ ﴾ [القصص] أى : قراءتها وتبليغها للناس ، وقوله : ﴿ وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [القصص] هذا أيضاً داخل فى (إياك أعنى واسمعى يا جارة) لأن رسول الله أبعد ما يكون عن الشرك ، وليس مظنة له .

﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَـهًا آخَرَ .. ﴿٨٨﴾ ﴾ [القصص] كسابقتها ؛ لأن رسول الله ﷺ ليس مظنة أن يدعو مع الله إلهاً آخر ﴿ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ .. ﴿٨٨﴾ ﴾ [القصص] أى : لا معبودَ بحق إلا هو .

ولو كان معه سبحانه وتعالى آلهة أخرى لواجهوه : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَى ذِى الْعَرْشِ سَبِيلاً ﴿٤٢﴾ ﴾ [الإسراء] أى : سَعَوْا إليه لينازعوه الألوهية ، أو ليتقرَّبوا إليه .

﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ .. ﴿٨٨﴾ ﴾ [القصص] الوجه فى عُرْفنا ما به المواجهة فى الإنسان ، وكل شىء يصف به الحق سبحانه نفسه علينا أنْ نصفه سبحانه به ، بناءً على وصفه فى إطار قوله سبحانه ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ .. ﴿١١﴾ ﴾ [الشورى]

فالحق سبحانه له وجه ، لكن ليس ككل الوجوه ، وهكذا فى كل الصفات التى يشترك فيها الحق سبحانه مع الخَلْق ، وأنت آمنتَ بوجود الله ، وأن وجوده ذاتى ، ليس كوجودك أنت .

وقوله : ﴿كُلُّ شَيْءٍ .. (٨٨)﴾ [القصص] كلمة شىء يقولون : إنها جنس الأجناس يعنى : أى موجود طرأ عليه الوجود يسمى (شىء) مهما كان تافهاً ضئيلاً . وقد تكلم العلماء فى : أيطلق على الله تعالى أنه شىء لأنه موجود ؟

قالوا : ننظر فى أصل الكلمة (شىء) من شاء شيئاً ، فالشىء شاءه غيره ، فأوجده ؛ لذلك لا يقال لله تعالى شىء ؛ لأنه سبحانه ما شاءه أحد ، بل هو سبحانه موجود بذاته .

وفي آية أخرى يقول تعالى فى عمومية الشىء : ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ .. (٤٤)﴾ [الإسراء] يعنى : كل ما يُقال له شىء موجود سبق وجوده عدم ، إلا يسبح بحمد الله ، البعض قال : هو تسبيح دلالة على موجدها ، وليس تسبيح مقالة حقيقية ، لكن قوله سبحانه ﴿وَلَـٰكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. (٤٤)﴾ [الإسراء] يدل على أنه تسبيح حقيقى ، فكل شىء يُسبِّح بلغته وبما يناسبه .

وقد أثبت الله تعالى منطقاً للطير وتسبيحاً للجبال ، ولو فهمتَ لغة هذه الأشياء لأمكنك أنْ تعرف تسبيحها ، لكن كيف نطمع فى معرفة لغات الحجر والشجر ، ونحن لا نفهم لغات بعضنا ، فإذا لم تكن تعرف مثلاً الإنجليزية ، أتعرف ماذا يقول المتحدث بها لو سبّح بها الله وهو بشر مثلك يتكلَّم بنفس طريقتك وبنفس الأصوات ؟

لذلك يقولون فى معجزاته ﷺ : سبَّح الحصى فى يده ، والصواب أن نقول : سمع رسول الله تسبيح الحصى فى يده ، وإلاَّ فالحصى

يُسبِّح فى يدِ رسـول الله ، ويُسبِّح فى يد أبى جـهل . ومن ذلك أيضاً حنين الجـذع لرسول الله ﷺ . ثم ألم يقل الحق سـبحـانه : ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ .. (٦٨)﴾ [النحل]

ألم يَقُلْ عن الأرض : ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَـا (٥)﴾ [الزلزلة] ؟ ألم يُثبت للنملة كلاماً ؟ ألم يكلم الهدهد سليـمانَ عليه السلام ، وفهم منه سليمانُ ؟

إذن : لكل جنس من المخلوقات لغته التى يفهمها أفراده عن بعض ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ .. (٤١)﴾[النور] وإنْ شاء الله أطلع بعض خَلْقه على هذه اللغات ، وأفهمه إياها .

ومعنى ﴿هَالِكٌ.. (٨٨)﴾ [القصص] البعض يظن أن الهـلاكَ خاصٌّ بما فـيه روح كالإنسـان والحيـوان ، لكن لو وقفنا عند قـوله تعالى : ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ .. (٤٢)﴾ [الأنفال]

إذن : فـالهلاك يقـابله الحـيـاة ، فكل شـىء يهلك كـانت له حيـاة تناسـبـه ، وإنْ كنا لا نفـهم إلا حـياتـنا نحن ، والتى تذهب بخـروج الروح .

ومعنى : ﴿إِلَّا وَجْهَهُ .. (٨٨)﴾ [القصص] أى : إلا ذاته تعالى ، ولم يقُلْ : إلا هو ؛ لأنه تعالى ليس شـيئاً ، وللوجه هنا معنى آخـر ، كما نقـول : فـعلتُ ذلك ابتـغـاءَ وجـه الله يعنـى : فـعلت والله فى بالى ، فالمعنى : كل شـىء هالك ، إلا ما كان لوجه الله ، فلا يهلك أبداً ؛ لأنه يبقى لك وتنال خيره فى الدنيا وثوابه فى الآخرة .

ثم يقول سبحانه : ﴿لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٨)﴾ [القصص] أى : له الحكم فى الآخرة يوم يقول ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ .. (١٦)﴾ [غافر] لكن

لماذا خصَّ الملك يوم القيامة ، وهو سبحانه له المُلْك الدائم فى الدنيا وفى الآخرة ؟ قالوا : لأن هناك مُلْكاً فى الدنيا ، يُملِّكه لخَلْقه ، كما قال سبحانه فى النمرود : ﴿أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ .. (٢٥٨)﴾ [البقرة] وقال سبحانه : ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ .. (٢٦)﴾ [آل عمران]

إذن : فالملْك مُلْك الله ، وهو سبحانه الذى يُملِّك خَلْقه فى الدنيا دنيا الأسباب ، لكن فى الآخرة تُنزع الملكية من أىِّ أحد إلا لله وحده . حتى إرادة الإنسان على جوارحه تُسلَب منه ، فتشهد عليه بما كان منه فى الدنيا .

وإنْ أردتَ أن تعرف الآن صدْق هذه المسألة فانظر إلى الأمور القدرية التى تجرى عليك ، كالمرَض وكالموت وغيرها ، هل تستطيع أنْ تتأبى عليها ؟

ثم يقول سبحانه : ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٨)﴾ [القصص] أى : للحساب فى الآخرة ؛ لأن الله تعالى لم يخلقنا عَبثاً ، ولن يتركنا هملاً ، بل لابد من الرجوع إليه ليحاسب كلاً منكم على ما قدَّم ، وما دُمْتم قد عرفتم ذلك ، فعليكم أن تحترموا المرجع إلى الله ، وتنظروا ماذا طلب منكم .

والمتتبع لهذا الفعل فى القرآن يجد أنه جاء مرة مبنياً للمجهول (تُرجعون) وهو للكافر الذى تأبَّى على الله ، فنقول له : ستُرجع إلى الله ، وتُقذف فى النار غَصباً عنك ، ورَغْماً عن أنفك ، فإنْ تأبَّيْتَ على الله فى الدنيا ، فلن تتأبَّى عليه فى الآخرة ، ويأتى مبنياً للمعلوم (ترجعُون) وهو للمؤمن الذى يشتاق لثواب الآخرة فيتهافت بنفسه ويُقبل عليه .

سُورَةُ العَنكَبُوتِ

سورة العنكبوت[1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾

سبق أنْ تكلمنا كثيراً عن الحروف المقطعة فى بدايات سور القرآن ، كلما تكررت هذه الظاهرة نتكلم عن مجالات الأذهان فى فهمها ، وما دام الحق سبحانه يُكررها فعلينا أيضاً أن نُكرِّر الحديث عنها ، ولماذا ينثر الله هذه الظاهرة فى سور القرآن ؟ لتظل دائماً على البال .

---

(١) سورة العنكبوت هى السورة رقم ٢٩ فى ترتيب المصحف الشريف ، وعدد آياتها ٦٩ آية ، اختُلف فى كونها مكية أم مدنية ، قال الحسن وعكرمة وعطاء وجابر : مكية كلها . وقال ابن عباس وقتادة فى أحد قوليهما : مدنية كلها ، وفى القول الآخر لهما وهو قول يحى بن سلام أنها مكية إلا عشر آيات من أولها ، فإنها نزلت بالمدينة فى شأن من كان من المسلمين بمكة . وقال على بن أبى طالب : نزلت بين مكة والمدينة . [تفسير القرطبى ٥٢١١/٧] . نزلت بعد سورة الروم وقبل سورة المطففين ، وهى السورة رقم ٨٤ فى ترتيب نزول سور القرآن . [انظر : الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى ٢٧/١] .

وقلنا : إن القرآن الكريم مبنىٌّ فى كل آياته وسوره على الوَصْل ، لا على الوقف ، اقرأ : ﴿ مُدْهَامَّتَانِ (٦٤) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٥) فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ[1] (٦٦) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٧) ﴾ [الرحمن]

فلم يقل ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٧) ﴾ [الرحمن] ويقف ، إنما وصل : ﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ (٦٦) ﴾ [الرحمن] لأن القرآن موصول ، لا فصلَ أبداً بين آياته ؛ لذلك ليس فى القرآن من وقف واجب ، إنما لك أن تقف لضيق النفَس ، لكن حينما تعيد تعيد بالوصل .

وكذلك القرآن مبنىٌّ على الوَصْل فى السور ، فحين تنتهى سورة لا تنتهى على سكون ، فلم يَقُلْ - سبحانه وتعالى - وإليه ترجعونْ بسكون النون ، إنما (تُرْجَعُونَ بسْمِ الله الرَّحْمنِ الرَّحيمِ) ليبدأ سورة أخرى موصولة .

فهذه إذن سمة عامة فى آيات القرآن وسُوره إلا فى الحروف المقطَّعة فى أوائل السور ، فهى مبنية على الوقف ألفْ لامْ ميمْ هكذا بالسكون ولم يقل : ألفٌ لامٌ ميمٌ على الوَصْل ، لماذا ؟ لأنها حروف مُقطَّعة ، قد يظنها البعض كلمة واحدة ، ففصَل بينها بالوقف .

لذلك يقول ﷺ : « لا أقول الم حرف . ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف »[2] وليؤكد هذا المعنى جعلها على الوقف ، كل حرف على حدة .

---

(١) نضخت البئر : ارتفع ماؤها وجاش وفار . أى : يخرج ماؤهما غزيراً . ونضاخة : صيغة مبالغة تدل على الكثرة . [القاموس القويم ٢/ ٢٧٠] .

(٢) عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله ﷺ : « من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة ، والحسنة بعشر أمثالها ، لا أقول ألم حرف ، ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف » أخرجه الترمذى فى سننه (٢٩١٠) وقال : « حديث حسن صحيح » .

وتكلمنا على هذه الحروف وقلنا : إنها خامات القرآن ، فمن مثل هذه الحروف يُنسَج كلام الله ، وقلنا : إنك إنْ أردتَ أن تُميِّز مهارة النسْج عند بعض العمال مثلاً لا تعطى أحدهم قطناً ، والآخر صوفاً ، والآخر حريراً مثلاً ؛ لأنك لا تستطيع التمييز بينهم ، لأن الخامات مختلفة ، فالحرير بطبيعته سيكون أنعم وأرقَّ . فإنْ أردتَ معرفة المهارة فوحِّد المادة الخام عند الجميع .

فكأن الحق - تبارك وتعالى - يقول لنا : إن القرآن مُعْجز ، بدليل أنكم تملكون نفس حروفه ، ومع ذلك عجزتُمْ عن معارضته ، فقد استخدم القرآن نفس حروفكم ، ونفس كلماتكم وألفاظكم ، وجاء بها فى صورة بليغة ، عَزَّ عليكم الإتيان بمثلها .

إذن : اختلف أسلوب القرآن ؛ لأن الله تعالى هو الذى يتكلم . فمعنى (الم) هذه نفس حروفكم فأتوا بمثلها .

أو : (الم) تحمل معنى من المعانى ؛ لأن ألف لام ميم أسماء حروف ، وأسماء الحروف لا يعرفها إلا المتعلم ، فالأُميُّ يقول (كتب) لكن لا يعرف أسماء حروفها ، وتقول للولد الصغير فى المدرسة : تهجَّ كتب فيقول لك (كاف فتحة كَ) و (تاء فتحة تَ) و (باء فتحة بَ) .

إذن : لا يعرف أسماء الحروف إلا المتعلم ، وسيدنا رسول الله ﷺ كان أمياً ، فمن أين نطق بأسماء الحروف الم ، طه ، يس ، ق .. إلخ . إذن : لا بُدَّ أن ربه علّمه ولقّنه هذه الحروف ، ومن هنا جاءت أهمية التلقين والتلقّى فى تعلُّم القرآن ، وإلا فكيف يُفرِّق المتعلم بين (الم) هنا وبين ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١﴾ [الشرح] فينطق الأولى

على الوقْف ، والأخرى على الوَصْل ، ينطق الأولى بأسماء الحروف ، والثانية بمُسمَّياتها ؟

وتحمل (الم) أيضاً معنى التنبيه للسامع ، فالقرآن نزل بأسلوب العرب ولغتهم ، فلا بُدَّ أن تتوفر له خصائص العربية والعربية الراقية، فلو قرأنا مثلاً فى الشعر الجاهلى نجد عمرو بن كلثوم[1] يقول :

أَلاَ هُبِّى بصَحْنِكِ فَاصْبِحينَا ولاَ تُبقِى خمور الأندرينا

نسأل : ماذا أفادت (أَلاَ) هنا ، والمعنى يصح بدونها ؟ (ألا) لها معنى عند العربى ؛ لأنها تنبهه إنْ كان غافلاً حتى لا يفوته شىء من كلام مُحدِّثه ، حينما يُفَاجأ به ، كما تنادى أنت الآن مَنْ لا تعرفه فتقول : (اسمع يا ....) كأنك تقول له : تنبه لأننى سأكلمك .

والتنبيه جاء فى اللغة من أن المتكلم يتكلَّم برغبته فى أى وقت ، أما السامع فقد يكون غافلاً غير مُنتبه ، أو ليس عنده استعداد لأنْ يسمعَ ، فيحتاج لمن يُنبِّهه ليفهم ما يُقال له ، إنما لو فاجأتَه بالمراد ، فربما فاته منه شىء قبل أنْ يتنبه لك .

وكذلك فى (الم) حروف للتنبيه ، على أنه سيأتى كلام نفيس اسمعه جيداً ، إياك أنْ يضيع منك حرف واحد منه . كما يصح أنْ يكون لهذه الحروف معانٍ أخرى ، يفهمها غيرنا ممَّنْ فتح الله عليهم . فهى - إذن - معين لا ينضب ، يأخذ منه كُلٌّ على قَدْره .

---

(١) هو : عمرو بن كلثوم بن مالك ، من بنى تغلب ، أبو الأسود ، شاعر جاهلى ، من الطبقة الأولى ، ولد فى بلاد ربيعة فى شمال جزيرة العرب ، ساد قومه تغلب وهو فتى ، وعمّر طويلاً ومات فى الجزيرة الفراتية نحو ٤٠ ق هـ . [الأعلام للزركلى ٥/ ٨٤] ، والبيت من معلقته .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ ﴾ (١)

الفعل (حسِب) بالكسر فى الماضى ، وبالفتح فى المضارع (يحسَب) يعنى : ظن . أما : (حسَب) والمضارع (يحسِب) بالكسر أى : عَدَّ .

فالمعنى : ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ .. ﴿٢﴾ ﴾ [العنكبوت] أى : ظنوا . والهمزة للاستفهام ، وهى تفيد نفى هذا الظن وإنكاره ، لأنهم حَسِبوا وظنوا أنْ يتركهم الله دون فتنة وتمحيص واختبار .

والحق سبحانه يريد أن يحمل أولو العزم رسالة الإسلام ؛ لأن الإسلام لا يتصدَّى لحمل دعوته إلا أقوياءُ الإيمان الذين يقدرون على حمل مشاق الدعوة وأمانة تبليغها .

والإيمان ليس كلمة تُقال ، إنما مسئولية كبرى ، هذه المسئولية هى التى منعتْ كفار مكة أنْ يؤمنوا ؛ لأنهم يعلمون أن كلمة لا إله إلا الله ليست مجرد كلمة وإلا لَقَالوها ، إنما هى منهج حياة له متطلبات . إنها تعنى : لا مُطَاعَ إلا الله ، ولا معبودَ بحقٍّ إلا الله ، وهم لا يريدون

---

(١) سبب نزول الآية : قال ابن عباس وغيره : يريد بالناس فى الآية قوماً من المؤمنين كانوا بمكة ، وكان الكفار من قريش يؤذونهم ويعذبونهم على الإسلام ، كسلمة بن هشام ، وعياش ابن أبى ربيعة ، والوليد بن الوليد ، وعمار بن ياسر ، وياسر أبوه وسمية أمه وعدة من بنى مخزوم وغيرهم . قال مجاهد وغيره : فنزلت هذه الآية مسلية ومعلمة أن هذه هى سيرة الله فى عباده اختباراً للمؤمنين وفتنة . قال ابن عطية : وهذه الآية وإن كانت نزلت بهذا السبب أو ما فى معناه من الأقوال فهى باقية فى أمة محمد ﷺ موجود حكمها بقية الدهر . [ذكره القرطبى فى تفسيره ٥٢١٢/٧] وانظر أيضاً [أسباب النزول للواحدى ص ١٩٥] .

هذه المسألة لتظل لهم مكانتهم وسلطتهم الزمنية .

لذلك يقول سبحانه هنا ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا .. (٢)﴾ [العنكبوت] فالإيمان ليس قَوْلاً فحسب ؛ لأن القول قد يكون صدْقاً ، وقد يكون كذباً ، فلا بُدَّ بعد القول من الاختبار وتمحيص الإيمان ﴿وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ (٢)﴾ [العنكبوت] فإنْ صبر على الابتلاءات وعلى المحن فهو صادق الإيمان .

ويؤكد سبحانه هذا المعنى فى آية أخرى : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ .. (١١)﴾ [الحج]

وقد محَّص الله السابقين الأولين من المؤمنين بآيات وخوارق تخالف الناموس الكونى ، فكان المؤمن يُصدِّق بها ، ويؤمن بصدْق الرسول الذى جاء بها ، أما المتردد المتحيِّر فيُكذِّب بها ، ويراها غير معقولة .

ومن ذلك ما كان من الصِّدِّيق أبى بكر فى حادثة الإسراء والمعراج ، فلمَّا حدَّثوه بما قال رسول الله ﷺ قال : « إنْ كان قال فقد صدق »[1] فى حين ارتد البعض وكذَّبوا ، وكأن الحق - تبارك وتعالى - يريد من هذه الخوارق - التى يقف أمامها العقل - أنْ يُميِّز

---

(١) قالت عائشة رضى الله عنها : لما أسرى بالنبى ﷺ إلى المسجد الأقصى أصبح يتحدث الناس بذلك ، فارتد ناس ممن كانوا آمنوا به وصدقوه وسعوا بذلك إلى أبى بكر فقالوا : هل لك إلى صاحبك يزعم أنه أسرى به الليلة إلى بيت المقدس . قال : أو قال ذلك ؟ قالوا: نعم قال : لئن كان قال ذلك لقد صدق . قالوا : أو تصدقه أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس وجاء قبل أن يصبح ؟ قال : نعم إنى لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك ، أصدقه بخبر السماء فى غدوة أو روحة ؛ فلذلك سُمِّى أبو بكر الصديق . أخرجه الحاكم فى مستدركه (٣/٦٢) وصححه وأقره الذهبى .

بين الناس ليحمل أمر الدعوة أشداءُ الإيمان والعقيدة ، ومَنْ لديهم يقين بصِدْق الرسول فى البلاغ عن ربه .

وسبق أنْ بيّنا غباء مَنْ كَذَّب بحادثة الإسراء والمعراج من كفار مكة الذين قالوا لرسول الله : أتدَّعى أنك أتيت بيت المقدس فى ليلة ونحن نضرب إليها أكباد الإبل شهراً[1] ؟ وأنهم غفلوا أو تغافلوا عن نص الآية : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ .. ﴿١﴾ ﴾ [الإسراء] فلم يقل محمد : إنى سريت بنفسى إنما أُسْرى بى .

وقلنا للرد عليهم : لو جاءك رجل يقول لك : لقد صعدتُ بولدى الرضيع قمة إفرست مثلاً ، أتقول له : كيف يصعد الرضيع قمة إفرست ؟

وسبق أنْ تكلَّمنا فى قضية ينبغى أن تظل فى أذهانكم جميعاً ، وهى أن كل فعل يأخذ نصيبه من الزمن على قَدْر قوة فاعله ، فالوزن الذى ينقله الطفل الصغير فى عدة مرات تحمله أنت فى يد واحدة . فالزمن يتناسب مع القوة تناسباً عكسياً فكلما زادت القوة قلَّ الزمن ، فالذى يذهب مثلاً إلى الأسكندرية على حمار غير الذى يذهب فى سيارة أو على مَتْن طائرة . وهكذا .

إذن : قِسْ على قدر قوة الفاعل ، فإنْ كان الإسراء بقوة الله تعالى ، وهى قوة القوى فلا زمن ، وهذه مسألة يقف عندها العقل ، ولا يقبلها إلا بالإيمان .

إذن : فالحق سبحانه يُمحِّصكم ويبتليكم ؛ لأنه يريدكم لمهمة

---

(١) ذكره ابن هشام فى السيرة النبوية (١/٣٩٨) : « فقال أكثر الناس : هذا والله الإمْر البين ، والله إن العير لتُطرد شهراً من مكة إلى الشام مدبرة وشهراً مقبلة ، أفيذهب ذلك محمد فى ليلة واحدة ، ويرجع إلى مكة » .

عظيمة ، لا يصلح لها إلا الصنديد[١] القوى فى إيمانه ويقينه .

لذلك يقول سبحانه فى أكثر من موضع : ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥)﴾ [البقرة]

وقال : ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَا أَخْبَارَكُمْ (٣١)﴾ [محمد]

وقال : ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ.. (١٤٢)﴾ [آل عمران]

فهذه الابتلاءات كالامتحان الذى نُجريه للتلاميذ لنعرف مقدرة كل منهم ، والمهمة التى يصلح للقيام بها ، ومعلوم أن الابتلاءات لا تُذَمُّ لذاتها ، إنما لنتائجها المترتبة عليها ، فما جُعلَتْ الابتلاءات إلا لمعرفة النتائج ، وتمييز الأصلح للمهمة التى نُدب إليها .

ومعنى ﴿يُفْتَنُونَ (٢)﴾ [العنكبوت] يُختبرون . مأخوذة من فتنة الذهب ، حين نصهره فى النار ؛ لنُخرج ما فيه من خَبَث ، ونُصفِّى معدنه الأصلح ، فيما يناسب مهمته .

ومن ذلك ما ضربه الله لنا مثلاً للحق وللباطل فى قوله تعالى : ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ (١٧)﴾ [الرعد]

---

(١) الصنديد : السيد الشريف . وكل عظيم غالب : صنديد . [لسان العرب ـ مادة : صند] .

فالفتنة ما كانت إلا لنعرف الصادق فى القَوْلة الإيمانية والكاذب فيها : الصادق سيصبر ويتحمل ، والكاذب سينكر ويتردد .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ ﴾

الحق - سبحانه وتعالى - يُسلِّى السابقين من أمة محمد الذين عُذِّبوا وأوذوا ، وضُربوا بالسياط تحت حَرِّ الشمس ، ووُضعت الحجارة الثقال على بطونهم ، والذين جاعوا حتى أكلوا الميتة وأوراق الشجر يُسلِّيهم : لَسْتم بدعاً فى هذه الابتلاءات فاصمدوا لها كما صمد السابقون من المؤمنين .

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ .. ﴿٣﴾ ﴾ [العنكبوت] فانظر مثلاً إلى ابتلاء بنى إسرائيل مع فرعون ، إذن فابتلاؤكم أهون وأخفّ ، وفيه رحمة من الله بكم وأنتم أيسر منهم ﴿ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿٣﴾ ﴾ [العنكبوت]

ولك أن تقول : ألم يكُن الله تعالى يعلم حقيقتهم قبل أنْ يبتليهم ؟ بلى ، يعلم سبحانه حقيقةَ عباده ، وليس الهدف من اختبارهم العلم بحقيقتهم ، إنما الهدف أنْ يُقر العبد بما عُلِم عنه .

ومثال ذلك - ولله المثل الأعلى - حينما نقول للمدرس مثلاً : اعْطنا نتيجة هؤلاء التلاميذ ، فليس فى الوقت سعة للامتحان فيقول منَ واقع خبرته بهم : هذا ناجح ، وهذا راسب ، وهذا الأول ، وهذا كذا . عندها يقوم الراسب ويقول : لو اختبرتنى لكنت ناجحاً ، ولو اختبره معلِّمه لرسب فعلاً . إذن : فربنا - عز وجل - يختبر

عباده ليُقر كل منهم بما عُلم عنه .

﴿ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿٣﴾ ﴾ [العنكبوت] علْم ظهور وإقرار من صاحب الشأن نفسه ، بحيث لا يستطيع إنكاراً ، حيث سيشهد هو على نفسه حين تشهد عليه جوارحه .

﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا[1] سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾ ﴾

هنا أيضاً ﴿ حَسِبَ .. ﴿٤﴾ ﴾ [العنكبوت] أى : ظن الذين يعملون السيئات ﴿ أَن يَسْبِقُونَا .. ﴿٤﴾ ﴾ [العنكبوت] أى : يُفلتوا من عقابنا ، تقول : سبق فلان فلاناً يعنى : أفلت منه وهو يطارده ، فالمعنى أنهم لن يستطيعوا الإفلات من العذاب أو الهرب منه ، وإنْ كانوا يعتقدون ذلك أو يظنونه ، فبئس هذا الظن .

﴿ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [العنكبوت] أى : قَبُح حكمهم وبَطُل ، وحين نحكم على ظنهم وعلى حكمهم بالبطلان فإنما نثبت قضيتنا ، وهى أنهم لن يُفْلِتوا من عقابنا .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ مَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٥﴾ ﴾

---

(١) قال ابن عباس : يريد الوليد بن المغيرة وأبا جهل والأسود والعاص بن هشام وشيبة وعتبة والوليد بن عتبة وعقبة بن أبى معيط وغيرهم . [أورده القرطبى فى تفسيره ٧/ ٥٢١٥] .

معنى ﴿يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ .. (٥)﴾ [العنكبوت] يعنى : يؤمن به وينتظره ويعمل من أجله ، يؤمن بأن الله الذى خلقه وأعدَّ له هذا الكون ليحيا حياته الطيبة ، وأنه سبحانه بعد ذلك سيُعيده ويحاسبه ؛ لذلك إنْ لم يعبده ويطعْه شُكْراً له على ما وهب ، فليعبده خوفاً منه أنْ يناله بسوء فى الآخرة .

وأهل المعرفة يروْنَ فرقاً بين مَنْ يرجو الثواب ويرجو رحمة الله ، ومن يرجو لقاء الله لذات اللقاء ، لا خوفاً من نار ، ولا طمعاً فى جنة ؛ لذلك تقول رابعة العدوية[1] :

كُلُّهم يَعْبدُونَ مِنْ خَوْفِ نَارٍ ... ويروْنَ النجاةَ حَظًّا جَزِيلاً
أَوْ بِأَنْ يَسْكُنُوا الجِنانَ فيحظَوْا ... بقُصُورٍ ويَشْرَبُوا سَلْسَبِيلا
لَيْسَ لى بالجنَانِ والنَّارِ حَظٌّ ... أنَا لاَ أبتغى بحبى بَديلا

أى : أحبك يا رب ، لأنك تُحَبُّ لذاتك ، لا خوفاً من نارك ، ولا طمعاً فى جنتك ، وهى أيضاً القائلة : اللهم إنْ كنتَ تعلم أنى أحبك طمعاً فى جنتك فاحرمنى منها ، وإنْ كنتَ تعلم أنِّى أعبدك خوفاً من نارك فاحرقنى بها .

ويقول تعالى فى سورة الكهف : ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (١١٠)﴾ [الكهف] ولو كانت الجنة لأن لقاء الله أعظم ، وهو الذى يُرْجى لذاته .

والحق سبحانه يؤكد هذه المسألة بأكثر من مؤكد : ﴿فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لآتٍ .. (٥)﴾ [العنكبوت] فأكَّده بإن واللام وصيغة اسم الفاعل الدالة

---

(١) هى : رابعة بنت إسماعيل العدوية ، أم الخير ، مولاة آل عتيك ، البصرية . صالحة مشهورة من أهل البصرة ومولدها بها ، لها أخبار فى العبادة والنُّسُك ، توفيت بالقدس عام ١٣٥ هـ [الأعلام للزركلى ٣/١٠] .

على تحقُّق الفعل ، كما قال سبحانه ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ (٨٨)﴾ [القصص] ولم يقل : سيهلك ، وقوله سبحانه مخاطباً نبيه محمداً ﷺ : ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ (٣٠)﴾ [الزمر]

يخاطبهم بهذه الصيغة وهم ما يزالون أحياءً ؛ لأن الميِّت : مَنْ يؤول أمره وإن طال عمره إلى الموت ، أما مَنْ مات فعلاً فيُسمَّى (مَيْت) .

وأنت حينما تحكم على شيء مستقبل تقول : يأتى أو سيأتى ، وتقول لمن تتوعده : سأفعل بك كذا وكذا ، فأنت جازفتَ وتكلمتَ بشيء لا تملك عنصراً من عناصره ، فلا تضمن مثلاً أنْ تعيش لغد ، وإنْ عشتَ لا تضمن أن يعيش هو ، وإنْ عاش ربما يتغير فكرك ناحيته ، أو فقدتَ القدرة على تنفيذ ما تكلمت به كأنْ يصيبك مرض أو يُلِم بك حدث .

لكن حينما يتكلم مَنْ يملك أزِمّة الأمور كلها ، ويعلم سبحانه أنه لن يفلت أحد منه ، فحين يحكم ، فليس للزمن اعتبار فى فعله ، لذلك لم يقل سبحانه : إن أجل الله سيأتى ، بل ﴿لآتٍ .. (٥)﴾ [العنكبوت] على وجه التحقيق .

وسبق أنْ ذكرنا فى هذا الصدد قوله تعالى عن القيامة : ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ ..(١)﴾ [النحل] وقد وقف السطحيون أمام هذه الآية يقولون : وهل يستعجل الإنسان إلا ما لم يَأْتِ بَعْد ؟ لأنهم لا يفهمون مراد الله ، وليست لديهم مَلَكة العربية ، فالله تعالى يحكم على المستقبل ، وكأنه ماضٍ أى مُحقّق ؛ لأنه تعالى لا يمنعه عن مراده مانع ، ولا يحول دونه حائل .

ولفظ الأجل جاء فى القرآن فى مواضع كثيرة ، منها : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ (٣٤) ﴾ [الأعراف]

وفى الآية التى معنا ﴿ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لآتٍ .. (٥) ﴾ [العنكبوت]

والأجلان مختلفان بالنسبة للحضور الحياتى للإنسان ، فالأجل الأول يُنهى الحياة الدنيا ، والأجل الآخر يُعيد الحياة فى الآخرة للقاء الله عز وجل ، إذن : فالأجلان مرتبطان .

والحق ـ سبحانه وتعالى ـ حينما يعرض لنا قضية غيبية يُؤنسنا فيها بشىء حسىٍّ معلوم لنا ، حتى يستطيع العقل أن ينفذ من الحسىِّ إلى الغيبى غير المشاهد . وأنت ترى أن أعمار بنى آدم فى هذه الحياة تتفاوت : فواحد تغيض به الأرحام ، فلا يخرج للحياة ، وواحد يتنفس زفيراً واحداً ويموت .. إلخ .

وفى كل لحظة من لحظات الزمن نعاين الموت ، مَنْ يموت بعد نفَس واحد ، ومَنْ يموت بعد المائة عام . إذن : فلا رتابة فى انقضاء الأجل ، لا فى سنٍّ ولا فى سبب : فهذا يموت بالمرض ، وهذا بالغرق ، وهذا يموت على فراشه .

لذلك يقول الشاعر :

فَلا تحسَبِ السُّقْم كأسَ الممات ... وإنْ كانَ سُقْماً شَديد الأَثَر
فَرُبَّ عليلٍ تراهُ اسْتفاقَ ... ورُبَّ سَليمٍ تَرَاهُ احتُضرْ

وقال آخر :

وَقَدْ ذَهَبَ الممتلِى صحةً ... وصَحَّ السَّقِيمُ فَلَمْ يذْهب

وتجد السبب الجامع فى الوباءات التى تعترى الناس ، فيموت

واحد ويعيش آخر ، فليس فى الموت رتابة ، والحق - سبحانه وتعالى - حينما يقول : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ (٣٤) ﴾ [الأعراف] نجد واقع الحياة يؤكد هذا ، فلا وحدةَ فى عمر ، ولا وحدةَ فى سبب .

والصدق فى الأجل الأول المشاهد لنا يدعونا إلى تصديق الأجل الآخر ، وأن أجل الله لآت ، فالأجل الذى أنهى الحياة بالاختلاف هو الذى يأتى بالحياة بالاتفاق ، فبنفخة واحدة سنقوم جميعاً أحياءً للحساب ، فإن اختلفنا فى الأولى فسوف نتفق فى الآخرة ؛ لأن الأرواح عند الله من لَدُنْ آدم عليه السلام وحتى تقوم الساعة ، وبنفخة واحدة يقوم الجميع .

وسبق أن قُلْنا : إن الأزمان ثلاثة : حاضر نشهده ، وماضٍ غائب عنا لا نعرف ما كان فيه ، ومستقبل لا نعرف ما يكون فيه . والحق سبحانه يعطى لنا فى الوجود المشاهد دليلَ الصدق فى غير المشاهد ، فنحن مثلاً لا نعرف كيف خلقنا الخَلْق الأول إلا من خلال ما أخبرنا الله به من أن أصْل الإنسان تراب اختلط بالماء حتى صار طيناً ، ثم حمأ مسنوناً ، ثم صلصالاً كالفخار .. إلخ .

ثم جعل نسل الإنسان من نطفة تتحول إلى علقة ، ثم إلى مضغة ، ثم إلى عظام ، ثم تُكْسى العظام لحماً . وإنْ كان العلم الحديث أرانا النطفة والعلقة والمضغة ، وأرانا كيف يتكوَّن الجنين ، فيبقى الخَلْق الأول من تراب غيباً لا يعلمه أحد .

ولا تُصدِّق من يقول : إنى أعلمه ؛ لأن الله تعالى حذرنا من هؤلاء المضلين فى قوله : ﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ

أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا (٥١) ﴾ [الكهف]

فلا علمَ لهم بخَلْق الإنسان ، ولا علمَ لهم بخَلْق ظواهر الكون ، فلا تسمع لهم ، وخُذْ معلوماتك من كتاب ربك الذى خلق سبحانه ، ويقوم وجود المضلين الذين يقولون : إن الأرض قطعة من الشمس انفصلتْ عنها ، أو أن الإنسان أصله قرد - يقوم وجودهم ، وتقوم نظرياتهم دليلاً على صدق الحق سبحانه فيما أخبر .

وإلا ، فكيف نُصدِّق نظرية ترقِّى القرد إلى إنسان ؟ ولماذا ترقّى قرد (دارون) ولم تترقَّ باقى القرود ؟

وإذا كان المؤمن مُصدِّقاً بقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٢٩) ﴾ [الحجر] لأنه آمن بالله ، وآمن بما جاء به رسول الله ، فكيف بمَنْ لا يؤمن ولا يُصدِّق ؟ لذلك يُؤنس الحق سبحانه هذه العقول المستشرفة لمعرفة حقائق الأشياء يُؤنسها بما تشاهد : فإنْ كنتَ لا تُصدِّق مسألة الخَلْق فأنت بلا شكٍّ تشاهد مسألة الموت وتعاينه كل يوم ، والموت نَقْضٌ للحياة ، ونَقْض الشىء يأتى عكْس بنائه .

والخالق - عز وجل - أخبر أن الروح هى آخر شىء فى بناء الإنسان ، لذلك هى أول شىء يُنقَض فيه عند الموت ، إذن : مشهدك فى كيف تموت ، يؤكد لك صدْق الله فى كيف جئت ؟

وأجل الآخرة أمر لا بُدَّ منه ليُثاب المطيع ويُعَاقب العاصى ، ألاَ ترى إلى النظم الاجتماعية حتى عند غير المؤمنين تأخذ بهذا المبدأ

لاستقامة حركة الحياة ؟ فما بالك بمنهج الله تعالى فى خَلْقه ، أيترك الظالم والمجرم يُفلت من العقاب فى الآخرة بعد أنْ أفلت من عقاب الدنيا ؟

وكنا نردُّ بهذا المنطق على الشيوعيين : لقد عاقبتُم مَنْ طالته أيديكم من المجرمين ، فكيف بمَنْ ماتوا ولم تعاقبوهم ، أليستِ الآخرةُ تحلّ لكم هذا المأزق ؟

ثم تُختَم الآية بقوله تعالى : ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝٥﴾ [العنكبوت] ألاَ ترى أنه تعالى لو قال : العليم فقط لشملَ المسموعَ أيضاً ؛ لأن العلم يحيط بكل المدركات ؟ فلماذا قال ﴿السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝٥﴾ [العنكبوت] ؟

قالوا : لأن اللغة العربية حينما تكلمتْ عن العمل والفعل والقول قسَّمت الجوارح أقساماً : فاللسان له القول ، وبقية الجوارح لها الفعل ، وهما جميعاً عمل ، فالقول عمل اللسان ، والفعل عمل بقية الجوارح ، فكأن اللسان أخذ شطر العمل ، وبقية الجوارح أخذت الشطر الآخر .

وباللسان معرفة إيمانك ، حين تقول : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، وهى أشرف ما يعمل الإنسان ، وبه بلاغ الرسول عن الله لخَلْقه ، إذن : فأفعال الجوارح الشرعية ناشئة من اللسان ومن السماع ؛ لذلك جعل القول وهو عمل اللسان شطر العمل كله .

ولأهمية القول قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ ۝٢﴾ [الصف] فكل فعل ناشىء عن انصياع لقول أو سماع لقول ؛ لذلك ختم سبحانه هذه الآية بقوله : ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝٥﴾ [العنكبوت]

﴿ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ ﴾

وكلمة ﴿ جَاهَدَ .. ﴿٦﴾ ﴾ [العنكبوت] تناسب النجاح فى الابتلاء ، والجهاد : بذْل الجهد فى إنفاذ المراد ، ومنه اجتهد فلان فى كذا يعنى : عمل أقصى ما فى وُسْعه من الجدِّ والاجتهاد فى أن يستنبط الحكم .

والجهاد له مجالان : مجال فى النفس يجاهدها ليقْوَى بمجاهدة نفسه على مجاهدة عدوه .

وجاهد : مفاعلة ، كأن الشىء الذى تريده صعب ، يحتاج إلى جهد منك ومحاولة ، والمفاعلة تكون من الجانبين : منك ومن الشىء الذى يقابلك ، وأول ميادين الجهاد النفس البشرية ؛ لأن ربك خلق فيك غرائز وعواطف لمهمة تؤديها ، ثم يأتى منهج السماء ليكبح هذه الغرائز ويُرقِّيها ، حتى لا تنطلق معها إلى ما لا يُباح .

فحب الاستطلاع مثلاً غريزة محمودة فى البحث العلمى والاكتشافات النافعة ، أمّا إنْ تحوّل إلى تجسُّس وتتبع لعورات الناس فهو حرام ؛ الأكل والشرب غريزة لتقتات به ، وتتولد عندك القدرة على العمل ، فإنْ تحوَّل إلى نهم وشراهة فقد خرجت بالغريزة عن مرادها والهدف منها .

وعجيب أمر الناس فى تناول الطعام ، فالسيارة مثلاً لا نعطيها خليطاً من الوقود ، إنما هو نوع واحد ، أما الإنسان فلا تكفيه عدة أصناف ، كل منها لها تفاعل فى الجسم ، حينما تتجمع هذه التفاعلات تضر أكثر مما تنفع .

إذن : هذه الغرائز تحتاج منك إلى مجاهدة ؛ لتظل فى حَدِّ الاعتدال ، عملاً بالأثر : « نحن قوم لا نأكل حتى نجوع ، وإذا أكلنا لا نشبع ، ولا نشرب حتى نظمأ ، وإذا شربنا لا نقنع » .

ولو عملنا بهذا الحديث لَقضيْنا على القنبلة الذرية للاقتصاد فى بلادنا ، وكم تحلو لك اللقمة بعد الجوع مهما كانت بسيطة وغير مكلِّفة ؛ لذلك يقولون : نعم الإدام الجوع ، ثم إذا أكلتَ لا تملأ المعدة ، ودع كما قال رسول الله ﷺ : « فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنفَسه »[1] .

وبهذا المنهج الغذائى الحكيم نضمن بنية سليمة وعافية لا يخالطها مرض .

فالغرائز خلقها الله فيك لمهمة ، فعليك أنْ تقف بها عند مهمتك . ومثل الغرائز العواطف من حب وكُرْه وشفقة وحُزْن .. إلخ ، وهذه ليس لها قانون إلا أنْ تقفَ بها عند حدود العاطفة لا تتعداها إلى النزوع ، فأحبب مَنْ شئتَ وأبغض مَنْ شئتَ ، لكن لا تتعدَّ ولا تُرتِّب على العاطفة حكماً .

وقد ذكرنا لهذه المسألة مثالاً بسيدنا عمر ـ رضى الله عنه ـ وكان له أخٌ اسمه زيد قُتل ، ثم أسلم قاتله ، فكان عمر كلما رآه يقول له : ازْوِ عنى وجهك ـ يعنى : أنا لا أحبك ـ فيقول : أو عدم حبك لى يمنعنى حقاً من حقوقى ؟ قال : لا ، قال : إنما يبكى على الحب

---

(١) عن المقدام بن معد يكرب سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما ملأ آدمى وعاء شراً من بطن ، حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه ، فإن غلب الآدمى نفسه فثلث للطعام ، وثلث للشراب ، وثلث للنفَس » أخرجه الترمذى فى سننه (٢٣٨٠) وابن ماجة فى سننه (٣٣٤٩) وأحمد فى مسنده (١٣٢/٤) والحاكم فى مستدركه (٣٣١/٤) .

النساء . يعنى : الحب والكره مسائل يهتم بها النساء ، والمهم العمل ، وما يترتب على هذه العواطف .

ومن المجاهدة مجاهدة مَنْ سُلِّط عليك من جبار أو نحوه ، تجاهده وتصبر على إيذائه ، فحبُّك للحق يجعلك تصبر عليه ، يقول تعالى ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَا أَخْبَارَكُمْ (٣١) ﴾ [محمد]

كل هذه بلاءات تحتاج إلى مجاهدة ، فإنْ كان لك غريم فإنْ قدرتَ أن تدفع أذاه بالتى هى أحسن فافعل ، وإنْ أردت أنْ تعاقب فعاقب بالمثل ، وهذه مسألة صعبة ؛ لأنك لا تستطيع تقدير المثلية أو ضبطها ، بحيث لا تتعدى ، فمثلاً لو ضربك خصمك ضربةً ، أتستطيع أنْ تردَّ عليه بمثلها دون زيادة ؟

إذن : فلا تُدخل نفسك فى هذه المتاهة ، وأَوْلَى بك أنْ تأخذ بقوله تعالى ﴿ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ.. (١٣٤) ﴾ [آل عمران] وتنتهى المسألة .

فإذا كانت المصيبة لا غريمَ لك فيها ، كالمرض والموت وغيرهما من القدريات التى يُجريها الله عليك ، فقُلْ إن ربى أراد بى خيراً ، فبها تُكفّر الذنوب والسيئات وبها أنال أجر الصابرين ، وربما أننى غفلت عن ربى أو غرَّتنى النعمة ، فابتلانى الله ليلفتنى إليه ويُذكِّرنى به .

ومن المجاهدة مجاهدة النفس فى تلقِّى المنهج بافعل ولا تفعل ، والتكليف عادةً ما يكون شاقاً على النفس يحتاج إلى مجاهدة ، وإياك أنْ تنقلَ مدلول افعل فى لا تفعل ، أو تنقل مدلول لا تفعل فى افعل . وحين تستقصى (افعل ولا تفعل) فى منهج الله تجده يأخذ نسبة سبعة بالمائة من حركاتك فى الحياة ، والباقى مباحات ، لك الحرية تفعلها أو تتركها .

وقد يتعرض الإنسان المستقيم للاستهزاء والسخرية حتى ممَّن هو على دينه ، لأن المنحرف دائماً يشعر بنقص فيتضاءل ويصغر أمام نفسه ، ويحاول أن يجر الآخرين إلى نفس مستواه حتى يتساوى الجميع ، وإلا فكيف تكون أنت مهتدياً مستقيماً وهو عاص ضالٌّ ؛ لذلك تراه يسخر منك ويُهوِّن من شأنك ، لماذا ؟ ليُزهِّدك فى الطاعة ، فتصير مثله .

واقرأ إنْ شئتَ قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٣٠) وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ (٣١) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَـٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ (٣٢) وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ (٣٣) فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٣٤) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ (٣٥) هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦)﴾ [المطففين]

ولا شكَّ أن مثل هذا يحتاج منك إلى صبر على أذاه ، ومجاهدة للنفس حتى لا تقع فى الفخِّ الذى ينصبه لك .

وقد تأتيك الوسوسة من الشيطان فيُزيِّن لك الشر ، ويُحبِّب إليك المعصية ، وعندها تذكر قول الله تعالى : ﴿يَـٰبَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا .. (٢٧)﴾ [الأعراف]

فعليك - إذن - أن تتذكّر العداوة الأولى بين أبيك آدم وبين الشيطان لتكون منه على حذر ، وسبق أن أوضحنا كيف نفرق بين المعصية التى تأتى من النفس ، والتى تأتى من وسوسة الشيطان ، فالنفس تقف بك عند معصية بعينها لا تريد غيرها ، أما الشيطان فإنْ تأبيتَ عليه فى ناحية نقلك إلى أخرى ، المهم عنده أنْ يُوقعك على أى حال . إذن : أعداؤك كثيرون ، يحتاجون منك إلى قوة إرادة وإلى مجاهدة .

ومجىء هذه الآية التى تذكر الجهاد بعد قوله تعالى ﴿فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٥)﴾ [العنكبوت] يطلب من الإنسان الذى يعتقد أن أجلَ الله بلقاء الآخرة آتٍ ، وذلك أمر لا شكَّ فيه - يطلب منه أنْ يستعدَّ لهذا اللقاء .

وقال تعالى : ﴿فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (٦)﴾ [العنكبوت] لأن الإنسان طرأ على كون مُهيأ لاستقباله بسمائه وأرضه وشمسه وقمره ومائه وهوائه ، فكل ما فى الكون خادم لك ، ولن تزيد أنت فى مُلْك الله شيئاً ، وكل سَعْيك وفكرك لترف حياتك أنت ، فحين تفعل الخير فلن يستفيدَ منه إلا أنت وربك غنى عن عطائك .

فإنْ جاهدتَ فإنما تجاهد لنفسك ، كما لو امتنَّ عليك خادمك بالخدمة فتقول له : بل خدمتَ نفسك وخدمتَ عيالك حينما خدمتَ لتوفر لك ولهم أسباب العيش ، وأنا الذى تعبتُ وعرقتُ لأوفر لك المال الذى تأخذه .

وكذلك الحق سبحانه يقول لنا ﴿وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ .. (٦)﴾ [العنكبوت] أى : حينما يطبق المنهج ويسير على هُداه ، والحق سبحانه يؤكد هذه القضية فى آيات عديدة ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (٤٦)﴾ [فصلت]

ويقول الحق سبحانه : ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا .. (٧)﴾ [الإسراء]

ويقول سبحانه: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ .. (٢٨٦)﴾ [البقرة]

إذن : المسألة منك وإليك ، ولا دخلَ لنا فيها إلا حرْصنا على صلاح الخَلْق وسلامتهم ، كصاحب الصَّنْعة الذى يريد لصنعته أن

تكون على خير وجه وأكمله ، لذلك أفيضُ عليه من قدراتى قدرة ، ومن علمى علماً ، ومن بَسْطى بَسْطاً ، ومن جبروتى جبروتاً ، وأعطيه من صفاتى .

لذلك قال بعض العارفين : « تخلقوا بأخلاق الله » .

لأن العون فى وهب الصفات ومجال الصفات فى الفعل ليس فى أنْ أفعل لك ، إنما فى أنْ أعينك لتفعل أنت ، فالواحد منا حينما يرى عاجزاً لا يستطيع حَمْل متاعه ، ماذا يفعل ؟ يحمله عنه ، أى : يُعدِّى إليه أثر قوته ، إنما يظل العاجز عاجزاً والضعيف ضعيفاً كلما أراد شيئاً احتاج لمن يقوم له به .

أما الحق ـ سبحانه وتعالى ـ فيفيض عليك من قوته ، ويهبُ لك من قدرته وغنَاه لتفعل أنت بنفسك ؛ لذلك مَنْ يتخلق بأخلاق الله يقول : لا تعْطِ الفقير سمكة ، إنما علِّمه كيف يصطاد ، حتى لا يحتاج لك فى كل الأوقات ، أفِضْ عليه ما يُديم له الانتفاع به .

إذن : الحق سبحانه يهَبُ القادرين القدرةَ ، ويهَبُ الأغنياء الغنَى ، والعلماءَ العلمَ والحكماءَ الحكمةَ . وهذه من مظاهر عظمته تعالَى ألاَّ يُعدِّى أثر الصفة إلى عباده ، إنما يُعدِّى بعض الصفة إليهم ، لتكون ذاتية فيهم .

بل ويعطى سبحانه ما هو أكثر من ذلك ، يعطيك الإرادة التى تفعل بها لمجرد أن تفكر فى الفعل ، بالله ماذا تفعل لكى تقوم من مكانك ؟ ماذا تفعل حينما تريد أنْ تحمل شيئاً أو تحرك عضواً من أعضائك ؟ هل أمرتها أمراً ؟ هل قلت لها افعلى كذا وكذا ؟

حين تنظر إلى (البلدوزر) مثلاً أو (الونش) كيف يتحرك ،

وكيف أن لكل حركة فيه زراً يحركها وعمليات آلية معقدة ، تأمل فى نفسك حين تريد أن تقوم مثلاً بمجرد أن تفكر فى القيام ، تجد نفسك قائماً ، مرادك أنت فى الأعضاء أن تفعل وتنفعل لك .

إذن ، حينما يقول لك ربك : ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٨٢)﴾ [يس] فصدِّقه ؛ لأنك شاهدتها فى نفسك وفى أعضائك ، فما بالك بربك ـ عز وجل ـ أيعجز أن يفعل ما تفعله أنت ؟ ماذا تفعل إنْ أردتَ أنْ تنام أو تبطش بيدك ؟

لا شىء غير الإرادة فى داخلك ؛ لأن ربك خلع عليك من قدرته ، وأعطاك شيئاً من قوله (كُنْ) ، وقدرة من قدرته ، لكن لم يشأ أنْ يجعلها ذاتية فيك حتى لا تغترّ بها .

لذلك إنْ أراد سبحانه سلَبَها منك لقوله تعالى : ﴿كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ (٧)﴾ [العلق] فتأتى لتحرك ذراعك مثلاً فلا يطاوعك ، لقد شُلَّ ويأبى عليك بعد أنْ كان طَوْع إرادتك ، ذلك لتعلم أنه هِبَة من الله ، إنْ شاء أخذها فهى ليست ذاتية فيك .

فالمجاهدة تشمل ميادين عديدة ، مجاهدة الغرائز والعواطف ، ومجاهدة مشقة المنهج فى افعل ولا تفعل ، ومجاهدة شياطين الإنس والجن ، ومجاهدة خصوم الإسلام الذين يريدون أنْ يُطفئوا نور الله .

وروى البخارى أن خباب بن الأرتّ دخل على سيدنا رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، إننا فى شدة ، ألاَ تستنصر لنا ؟ ألاَ تدعو لنا ؟ فقال ﷺ : إنه كان الرجل فيمن قبلكم تُحفر له الحفرة ، فيُوضع فيها ، ثم يُؤتَى بالمنشار فيُقَدُّ نصفين ، ثم يُمشَطُ لحمه عن عظمه بأمشاط الحديد ، فلا يصرفه ذلك عن دين الله » .

ثم يطمئنه رسول الله على أن هذه الفترة ـ فترة الابتلاء ـ لن تطول ، فيقول : « والله لَيُتمنَّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخشى إلا اللهَ والذئبَ على غنمه »[(١)] .

والنبى ﷺ وهو خاتم النبيين ، يدخل عليه سيدنا أبو سعيد الخدرى فيجد رسول الله ﷺ يشتكى حرارة الحمى ، فوضع يده على اللحاف الذى يلتحف به سيدنا رسول الله ، فيُحسّ حرارته من تحت اللحاف ، فقال له : يا رسول الله ، إنها لشديدة عليك ؟ فقال ﷺ : « يا أبا سعيد ، إنه يُضعَّف لنا البلاء كما يُضعَّف لنا الجزاء »[(٢)] .

ذلك ليثبت أن البلاء لا يكون فقط من الأعداء ، إنما قد يكون من الله تعالى ، لماذا ؟ لأن الله يباهى ملائكته بخَلْقه الطائعين المخبتين الصابرين ، فيقولون : كيف لا يحبونك ويقبلون على طاعتك ، وقد أنعمتَ عليهم بكذا وبكذا ؟ ويذكرون حيثيات هذه الطاعة ، فيقول تعالى : وأسلب كل ذلك منهم ويحبوننى ، أى : يحبوننى لذاتى .

ثم تختم هذه الآية بقوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (٦)﴾ [العنكبوت] لأن ميادين الجهاد هذه لا يعود منها شىء إلى الله تعالى ، ولا تزيد فى مُلكه شيئاً ، إنما يستفيد منها العبد ؛ لأنه سبحانه الغنى عن طاعة الطائعين وعبادة المتعبدين ، ليس غنياً عنهم وفقط ، إنما هو سبحانه الذى يُغنيهم ويُفيض عليهم من فَضْله ومن غِناه .

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٨٥٢) ، وأحمد فى مسنده (٦/٣٩٥) من حديث الخباب بن الأرتّ .

(٢) أخرجه ابن ماجة فى سننه (٤٠٢٤) من حديث أبى سعيد الخدرى قال : دخلت على النبى ﷺ وهو يوعك ، فوضعت يدى عليه ، فوجدت حره بين يدىَّ فوق اللحاف . فقلت : يا رسول الله ما أشدها عليك . قال : « إنا كذلك يُضعَّف لنا البلاء ويضعف لنا الأجر » .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ ﴾

يذكر لنا ـ سبحانه وتعالى ـ النتائج ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا .. ﴿٧﴾ ﴾ [العنكبوت] أى : بالله رباً ، له كل صفات الكمال المطلق ، وله طلاقة القدرة ، وله طلاقة الإرادة ، وهو المهيمن ، وهو الحاكم .. إلخ .

ثم ﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ .. ﴿٧﴾ ﴾ [العنكبوت] لأن العمل الصالح نتيجة للإيمان ، وثمرة من ثمراته ، والصالح : هو الشىء يظلُّ على طريقة الحُسْن فيه فلا يتغير ، فقد أقبلت على عالم خلقه الله لك على هيئة الصلاح فلا تفسده ، وهذا أضعف الإيمان أنْ تُبقِى الصالح على صلاحه ، فإن أردتَ الارتقاء ، فزدْه صلاحاً .

يقول تعالى ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِى الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [البقرة]

فقد أعدَّ الله لنا الأرض صالحة بكل نواميسها وقوانينها ، ألاَ ترى المناطق التى لا ينزل بها المطر يُعوِّضها الله عنه بالمياه الجوفية فى باطن الأرض ، فماء المطر الزائد يسلكه الله ينابيع فى الأرض ، ويجعله مخزوناً لوقت الحاجة إليه ، وتخزين الماء العذب فى باطن الأرض حتى لا تُبخِّره الشمس ، يقول تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا[1] فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الملك]

وضربنا مثلاً لترك الصالح على صلاحه ببئر الماء الذى يشرب

---

(١) غار الماء : ذهب فى الأرض . [القاموس القويم ٢/٦٣] .

منه أهل الصحراء ، فقد نرمى فيه القاذورات التى تُفسد ماءه ، وقد نرى مَنْ يُهيل فيه التراب فيطمسه ، وهذا كله من إفساد الصالح ، وربما يأتى مَنْ يبنى حوله سوراً يحميه ، أو يجعل عليه آلة رَفْع ترفع الماء وتُريح الناس الذين يردونه ، فإذا لم تكُنْ من هؤلاء فلا أقلَّ من أن تدعه على حاله .

فالصالح إذن : كل عمل وفكر يزيد صلاحَ المجتمع فى حركات الحياة كلها ، وإياك أن تقول إن هناك عملاً أشرف من عمل ، فكل عمل مهما رأيته هيِّناً ـ ما دام يؤدى خدمة للمجتمع ، ويُقدِّم الخير للناس فهو عمل شريف ، فقيمة الأعمال هى قيمة العامل الذى يُحسنها وينفع الناس بها ، يعنى : ليس هناك عمل أفضل من عمل ، إنما هناك عامل أفضل من عامل ؛ لذلك يقولون : قيمة كل امرىء مَا يُحسنه .

وسبق أن ضربتُ لذلك مثلاً ، وما أزال أضربه ، مع أنه من أُنَاس غير مسلمين : كان نقيب العمال فى فرنسا يطالب بحقوق العمال ويدافع عنهم ويُوفِّر لهم المزايا ، فلما تولى الوزارة قالوا له : أعطنا الآن الحقوق التى كنتَ تطالب بها لنا ، وربما كان يطالب لعماله بما تضيق به إمكانات وميزانيات الوزارة ، أما الآن فقد أصبح هو وزيراً ، وفى إحدى المرات تطاول عليه أحد العمال وقال : لا تنْسَ أنك كنت فى يوم من الأيام ماسحَ أحذية ، فقال : نعم ، لكننى كنت أتقنها .

ثم يذكر الحق سبحانه جزاء الإيمان والعمل الصالح : ﴿لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ .. (٧)﴾ [العنكبوت] وهنا تتجلى العظمة الإلهية ، حيث بدأ بتكفير السيئات وقدَّمها على إعطاء الحسنات .

لأن التخلية قبل التحلية ، والقاعدة تقول : إن دَرْءَ المفسدة مُقدَّم

على جَلْب المصلحة ، فهَبْ أن واحداً يريد أنْ يرميك مثلاً بحجر ، وآخر يريد أنْ يرمى لك تفاحة ، فأيهما تستقبل أولاً ؟ لا شكَّ أنك ستدفع أذى الحجر عن نفسك أولاً .

والخالق ـ عز وجل ـ يعلم طبيعة عباده وما يحدث منهم من غفلة وانصراف عن المنهج يُوقِعهم فى المعصية ، وما دام أن الشرع يُعرِّف لنا الجرائم ويُقنِّن العقوبة عليها ، فهذا إذنٌ منه بأنها ستحدث .

لذلك يقول تعالى لعباده : اطمئنوا ، فسوف أطهركم من هذه الذنوب أولاً قبل أنْ أعطيكم الحسنات ، ذلك لأن الإنسان بطبعه أميل إلى السيئة منه إلى الحسنة ، فيقول سبحانه ﴿لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ .. (٧)﴾ [العنكبوت]

بل وأكثر من ذلك ، ففى آية أخرى يقول سبحانه : ﴿إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَـئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٧٠)﴾ [الفرقان] فأىُّ كرم بعد أنْ يُبدِّل الله السيئةَ حسنةً ، فلا يقف الأمر عند مجرد تكفيرها ، فكأنه (أوكازيون) للمغفرة ، ما عليك إلا أنْ تغتنمه .

وفى موضع آخر يقول سبحانه : ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ .. (١١٤)﴾ [هود] وفى الحديث الشريف : « .. وأتبع السيئةَ الحسنةَ تمحها »[١] .

ثم يذكر سبحانه الحسنة بعد ذلك : ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِى كَانُوا

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٥/٢٢٨ ، ٢٣٦) ، وأبو نعيم فى حلية الأولياء (٤/٣٧٦) من حديث معاذ بن جبل ، وتمامه : « اتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحُها ، وخالق الناس بخلق حسن » .

يَعْمَلُونَ (٧) ﴾ [العنكبوت] قلنا : إن الحق سبحانه إذا أراد أنْ يعطى الفقير يقترض له من إخوانه الأغنياء ﴿ مَن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا .. (٢٤٥) ﴾ [البقرة]

مع أنه سبحانه واهب كل النعم يحترم ملكية عباده ، ويحترم مجهوداتهم وعرقهم ، فاحترم العمل واحترم ثمرة العمل ، كما يعامل الوالد أولاده ، فيأخذ من الغنى لمساعدة الفقير على أنْ يعيد إليه ماله حين مَيْسرة ، فكما أنك لا ترجع فى هبتك ، كذلك ربُّك ـ عز وجل ـ لا يرجع فى هبته .

وأذكر ونحن فى أمريكا سألنا أحد المستشرقين يقول : هناك تعارض بين قول القرآن : ﴿ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا .. (١٦٠) ﴾ [الأنعام] وبين قول النبى ﷺ : « مكتوب على باب الجنة : الصدقة بعشر أمثالها والقرض بثمانية عشر »[(١)] .

فشاء الله أن يلهم بكلمتين للردِّ عليه ، حتى لا يكون للكافرين على المؤمنين سبيل . فقلت للمترجم : نعم الحسنة بعشر أمثالها حين تتصدَّق ، لكن فى القرض مثلاً لو تصدَّق بدولار فهو عند الله بعشرة دولارات ، لكن يعود عليك دولارك مرة أخرى ، فكأن لك تسعة دولارات ، فحين تضاعف تصير ثمانية عشر .

وبعد ذلك ينتقل الحق سبحانه إلى الدائرة الأولى فى تكوين المجتمع ، وهى دائرة الأسرة المكوَّنة من : الأب ، والأم ، والأولاد ،

---

(١) عن أبى أمامة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « دخل رجل الجنة فرأى مكتوباً على بابها : الصدقة بعشر أمثالها ، والقرض بثمانية عشر » رواه الطبرانى والبيهقى كلاهما من رواية عتبة بن حميد (الترغيب والترهيب للمنذرى ٢/٣٤) .

فأراد سبحانه أن يُصلح اللبنة الأولى ليصلح المجتمع كله ، فقال تبارك وتعالى[١] :

﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾

الوالدان يخدمان الابن حتى يكبر ، ويصير هو إلى القوة فى حين يصيران هما إلى الضعف ، وإلى الحاجة لمن يخدمهما ، وحين ننظر فى حال الغربيين مثلاً وكيف أن الأبناء يتركون الآباء دون رعاية ، وربما أودعوهم دار المسنين فى حالة برِّهم بهم ، وفى الغالب يتركونهم دون حتى السؤال عنهم ؛ لذلك تتجلى لنا عظمة الإسلام وحكمة منهج الله فى مجتمع المسلمين .

لذلك قال أحد الحكماء : الزواج المبكر خير طريقة - لا لإنجاب طفل - إنما لإنجاب أب لك يعولك فى طفولة شيخوختك . لذلك أراد الحق سبحانه أن يبنى الأسرة على لبنات سليمة ، تضمن سلامة المجتمع المؤمن ، فقال سبحانه : ﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا .. ﴿٨﴾ ﴾ [العنكبوت] ، وفى موضع آخر قال سبحانه فى نفس الوصية ﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا .. ﴿١٥﴾ ﴾ [الأحقاف]

---

(١) سبب نزول الآية : قال المفسرون : نزلت فى سعد بن أبى وقاص ، وذلك أنه لما أسلم قالت له أمه جميلة : يا سعد بلغنى أنك صبوت . فوالله لا يظلنى سقف بيت من الضح والريح ، ولا آكل ولا أشرب حتى تكفر بمحمد ، وترجع إلى ما كنت عليه ، وكان أحبّ ولدها إليها ، فأبى سعد فصبرت هى ثلاثة أيام لم تأكل ، ولم تشرب ، ولم تستظل بظلٍّ حتى خشى عليها ، فأتى سعد النبى ﷺ وشكا ذلك إليه ، فأنزل الله هذه الآية والتى فى لقمان والأحقاف . [أسباب النزول للواحدى ص ١٩٥].

وفَرْق بين المعنيين : ﴿حُسْنًا .. (٨)﴾ [العنكبوت] أى : أوصيك بأنْ تعملَ لهم الحُسْن ذاته ، كما تقول : فلان عادل ، وفلان عَدْل ، فوصَّى بالحسْن ذاته . أما فى ﴿إِحْسَانًا .. (١٥)﴾ [الأحقاف] فوصية بالإحسان إليهما .

لكن ، لماذا وصَّى هنا بالحُسْن ذاته ، ووصَّى هناك بالإحسان ؟

قالوا : وصَّى بالحسن ذاته فى الآية التى تذكر اللدد الإيمانى ، حيث قال : ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا .. (٨)﴾ [العنكبوت] والكفر يستوجب العداوة والقطيعة ، ويدعو إلى الخصومة ، فأكَّد على ضرورة تقديم الحسن إليهما ؛ لا مجرد الإحسان ؛ لأن الأمر يحتاج إلى قوة تكليف .

أما حين لا يكون منهما كفر ، فيكفى فى برِّهما الإحسان إليهما ؛ لذلك يقول سبحانه : ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِى الدُّنْيَا مَعْرُوفًا .. (١٥)﴾ [لقمان]

والحق سبحانه حين يُوصى بالوالدين ، وهما السبب المباشر فى الوجود إنما ليجعلهما وسيلةَ إيضاح لأصل الوجود ، فكما أوصاك بسبب وجودك المباشر وهما الوالدان ، فكذلك ومن باب أَوْلى يوصيك بمَنْ وهب لك أصل هذا الوجود .

فكأن الحق سبحانه يُؤنس عباده بهذه الوصية ، ويلفت أنظارهم إلى ما يجب عليهم نحو واهب الوجود الأصلى وما يستحقه من العبادة ومن الطاعة ؛ لأنه سبحانه الخالق الحقيقى ، أما الوالدان فهما وجود سببى .

هذا إيناس بالإيمان ، بيَّنه تعالى فى قوله : ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا .. (٣٦)﴾ [النساء] لأنهما سبب الوجود الجزئى ، والله تعالى سبب الوجود الكلى .

وهذا أيضاً من المواضع التى وقف عندها المستشرقون ، يبغُونَ فيها مَطْعناً ، ويظنون بها تعارضاً بين آيات القرآن فى قوله تعالى : ﴿ وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا .. (١٥) ﴾ [لقمان] وفى موضع آخر : ﴿ لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ .. (٢٢) ﴾ [المجادلة]

وهذا التعارض لا يوجد إلا فى عقول هؤلاء ؛ لأنهم لا يفهمون لغة القرآن ، ولا يفرقون بين الودِّ والمعروف : الودّ مَيْل القلب ، وينشأ عن هذا الميل فعْل الخير ، فيمن تميل إليه ، أمّا المعروف فتصنعه مع مَنْ تحب ومَنْ لا تحب ، فهو استبقاء حياة .

وهنا يقول سبحانه : ﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٨) ﴾ [العنكبوت] يعنى : تذكَّر هذا الحكم ، فسوف أسألك عنه يوم القيامة ، ففى موضع آخر ﴿ وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٥) ﴾ [لقمان]

فكُفْر الوالدين لا يعنى السماحَ لك بإهانتهما أو إهمالهما ، فاحذر ذلك ؛ لأنك ستُسأل عنه أمام الله : أصنعتَ معهما المعروف أم لا ؟

وحيثيات الوصية بالوالدين : الأب والأم ذُكرت فى الآية الأخرى : ﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا .. (١٥) ﴾ [الأحقاف] نلحظ أن الحيثيات كلها للأم ، ولم يذكر حيثية واحدة للأب إلا فى قوله تعالى : ﴿ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (٢٤) ﴾ [الإسراء] وهذه تكون فى الآخرة .

قالوا : ذكْر الحيثيات كلها للأم ؛ لأن متاعب الأم كانت حال الصِّغَر ، والطفل ليس لديه الوعى الذى يعرف به فَضْل أمه وتحمُّلها المشاق من أجله ، وحين يكبر وتتكوَّن لديه الإدراكات يجد أنَّ الأب هو الذى يقضى له كل ما يحتاج إليه .

إذن : فحيثيات الأب معلومة مشاهدة ، أمّا حيثيات الأم فتحتاج إلى بيان .

يقول الحق سبحانه :

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدۡخِلَنَّهُمۡ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ ٩ ﴾

فقدّم الإيمان ، لأنه الأصل ، ثم العمل الصالح ، وكأن الدخول فى الصالحين مسألة كبيرة ، وهى كذلك ، ويكفى أنها مُتَمنى حتى الأنبياء أنفسهم .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصۡرٞ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمۡۚ أَوَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٠ ﴾

---

(١) أخرج ابن أبى حاتم عن السدى فى قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ .. ١٠ ﴾ [العنكبوت] قال : كان أناس من المؤمنين آمنوا وهاجروا ، فلحقهم أبو سفيان ، فرد بعضهم إلى مكة فعذبهم فافتتنوا ، فأنزل الله فيهم هذا . [الدر المنثور ٦/٤٥٣] ، القرطبى فى [تفسيره ٧/٥٢١٨] : « وقيل : نزلت فى عياش بن أبى ربيعة ، أسلم وهاجر ، ثم أوذى وضُرِب فارتد . وإنما عذبه أبو جهل والحارث ، وكانا أخويه لأمه » .

قوله تعالى : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ .. (١٠)﴾ [العنكبوت] دليل على القول باللسان ، وعدم الصبر على الابتلاء ، فالقول هنا لا يؤيده العمل ، ولمثل هؤلاء يقول تعالى : ﴿يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (٢)﴾ [الصف]

ويقول تعالى فى صفات المنافقين : ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (١)﴾ [المنافقون] فالله تعالى لا يُكذِّبهم فى أن محمداً رسول الله ، إنما فى شهادتهم أنه رسول الله ؛ لأن الشهادة لا بُدَّ لها أنْ يواطىء القلب اللسان ، وهذه لا تتوفر لهم .

ومعنى : ﴿فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ .. (١٠)﴾ [العنكبوت] أى : بسبب الإيمان بالله ، فلم يفعل شيئاً يؤذى من أجله ، إلا أنه آمن ﴿جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ .. (١٠)﴾ [العنكبوت] فتنة الناس أى : تعذيبهم له على إيمانه كعذاب الله .

إذن : خاف عذاب الناس وسوَّاه بعذاب الله الذى يحيق به إنْ كفر ، وهذا غباء فى المساواة بين العذابين ؛ لأن عذابَ الناس سينتهى ولو بموت المؤذى المعذِّب ، أما عذاب الله فى الآخرة فباقٍ لا ينتهى ، والناس تُعذَّب بمقدار طاقتها ، والله سبحانه يُعذب بمقدار طاقته تعالى وقدرته ، إذن : فالقياس هنا قياس خاطىء .

وإنْ كانت هذه الآية قد نزلت فى عياش بن أبى ربيعة[1] ، فالقاعدة الأصولية تقول : إن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص

---

(١) قال ابن حجر فى كتابه « الإصابة فى تمييز الصحابة » (ترجمة رقم ٦١١٨) : « يلقب ذا الرمحين ، ابن عم خالد بن الوليد بن المغيرة ، كان من السابقين الأولين وهاجر الهجرتين ثم خدعه أبو جهل إلى أن رجعوه من المدينة إلى مكة فحبسوه ، وكان النبى ﷺ يدعو له فى القنوت . مات عام ١٥ هـ بالشام فى خلافة عمر ، وقيل : استشهد باليمامة . وقيل : باليرموك » .

السبب ، وكان عياش بن أبى ربيعة أخا عمرو بن هشام (أبو جهل) والحارث بن هشام من الأم التى هى أسماء[١] .

فلما أنْ أسلم عياش ثم هاجر إلى المدينة فحزنت أمه أسماء ، وقالت : لا يظلنى سقف ، ولا أطعم طعاماً ، ولا أشرب شراباً ، ولا أغتسل حتى يعود عياش إلى دين آبائه[٢] ، وظلت على هذه الحال التى وصفتْ ثلاثة أيام حتى عضَّها الجوع ، فرجعت .

وكان ولداها الحارث وأبو جهل قد انطلقا إلى المدينة ليُقنعا عياشاً بالعودة لاسترضاء أمه ، وظلا يُغريانه ويُرقّقان قلبه عليها ، فوافق عياش على الذهاب إلى أمه ، لكنه رفض الردة عن الإسلام ، فلما خرج الثلاثة من المدينة قاصدين مكة أوثقوه فى الطريق ، وضربه أبو جهل مائة جلدة ، والحارث مائة جلدة .

لكن كان أبو جهل أرأف به من الحارث ؛ لذلك أقسم عياش بالله لئن أدركه يوماً ليقتلنه حتى إنْ كان خارجاً من الحرم ، وبعد أن

---

(١) هى : أسماء بنت مخربة . ويقال : بنت عمرو بن مخربة بن جندل ، ذكر البلاذرى عن أبى عبيدة معمر بن المثنى : قدم هشام بن المغيرة نجران فرأى أسماء بنت مخربة فأعجبته فتزوجها وحملها إلى مكة فولدت له أبا جهل والحارث ، ثم مات ، فتزوجها عبد الله بن أبى ربيعة بن المغيرة فولدت له عياشاً ، فكان أخا أبى جهل والحارث لأمهما . وقال : قال محمد بن سعد : إنها ماتت كافرة قبل أن يهاجر ابنها عياش إلى المدينة . ويقال : إنها أسلمت وأدركت خلافة عمر ، وذلك أثبت» (الإصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر ٨/١٠) .

(٢) أورد الواحدى النيسابورى هذه القصة فى (أسباب النزول ص ٩٧) . فى سبب نزول قوله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلاَّ خَطَئًا .. ﴿٩٢﴾﴾ [النساء] وفيه أن أبا جهل والحارث بن هشام خرجا يطلبان أخاهما لأمهما عياشاً ، فأتوه وهو فى الأطم (حصن بالمدينة مبنى بالحجارة) ، فقالا له : انزل فإن أمك لم يؤوها سقف بيت بعدك ، وقد حلفت لا تأكل طعاماً ولا شراباً حتى ترجع إليها ، ولك الله علينا أن لا نكرهك على شىء ولا نحول بينك وبين دينك ، فلما ذكرا له جزع أمه وأوثقا له ، نزل إليهم فأخرجوه من المدينة وأوثقوه بنسع وجلده كل واحد منهم مائة جلدة » .

استرضى عياش أمه عاد إلى المدينة ، فقابل أخاه الحارث[1] عند قباء ، ولم يكن يعلم أنه قد أسلم فعاجله ونفّذ ما توعده به فقتله ، ووصل خبره إلى رسول الله ﷺ ونزلت الآية : ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلاَّ خَطَئًا .. (٩٢)﴾ [النساء]

ونزلت : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ .. (١٠)﴾ [العنكبوت] أى : أراد أنْ يفرّ من عذاب الناس فكفر ، ولم يُرد أن يفرّ من عذاب الله ويؤمن .

وقوله تعالى : ﴿وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ .. (١٠)﴾ [العنكبوت] أى : اجعلوا لنا سهماً فى المغنم ﴿أَوَ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ (١٠)﴾ [العنكبوت] فالله سبحانه يعلم ما يدور فى صدورهم وما يتمنونه لنا ؛ ولذلك يقول سبحانه عنهم : ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً (٤٧)﴾ [التوبة]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ (١١)﴾

نعم ، الحق سبحانه يعلم حال عباده حتى قبل أنْ يخلقوا ، ويعلم ماذا سيحدث لهم ، إنما هناك فَرْق بين علم مُسْبق على الحدث ، وعلْم بعد أنْ يقع الحدث نفسه ؛ لأنه سبحانه لو قال : سأفعل بهم كذا

---

(١) تحقيق هذا الأمر : أن عياشاً لم يقتل الحارث أخاه ، بل قتل الحارث بن يزيد بن أنيسة وكان مع أخويه أبى جهل والحارث عندما أوثقاه وضرباه . قال ابن حجر فى « الإصابة » فى ترجمته (١٥٠٤) : « كان يؤذيهم بمكة وهو كافر ، فلما هاجر الصحابة أسلم الحارث ولم يعلموا بإسلامه وأقبل مهاجراً ، حتى إذا كان بظاهر الحرة لقيه عياش بن أبى ربيعة فظنه على شركه فعلاه بالسيف حتى قتله ، فنزلت هذه الآية » . وانظر أسباب النزول للواحدى (ص ٩٧) ، وابن كثير فى تفسيره (١/ ٥٣٤) .

وكذا ؛ لأنى أعلم ما يحدث منهم لقالوا : لا والله ما كان سيحدث منا شىء ؛ لذلك يتركهم حتى يحدث منهم الفعل .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

وهذا لَوْن من ألوان الإيذاء أن يقول الذين كفروا للذين آمنوا ﴿ اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا .. ﴿١٢﴾ ﴾ [العنكبوت] أى : ما نحن عليه من دين الآباء والأجداد ، وما نحن عليه من عبادة الأصنام والأوثان ، فنحن نعبد آلهة لا تكاليفَ لها ولا مطلوبات ، وأنتم تعبدون إلهاً له منهج ، وله مطلوبات بافعل كذا ولا تفعل كذا .

فالمعنى : ﴿ اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا .. ﴿١٢﴾ ﴾ [العنكبوت] خُذوا الحكم منا ﴿ وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ .. ﴿١٢﴾ ﴾ [العنكبوت] يعنى : اعملوا على مسئوليتنا ، وإنْ كانت عليكم خطايا سنحملها عنكم ، وانظر هنا إلى غباء الكافر فقد آمن هو نفسه أن هذه خطيئة ، ومع ذلك يتعرَّض لحملها ، لكن كيف يحملها ؟ وكيف يكون هو المسئول عنها أمام الله ـ عز وجل ـ حين يحاسبنى ربى عليها ويعاتبنى على اتباعى له ؟ وهل للكافر شفاعة أو قوة يدافع بها عنى فى الآخرة ؟

لذلك يقول تعالى بعدها : ﴿ وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [العنكبوت] ويؤكد لنا سبحانه كذبهم أيضاً فى قوله تعالى: ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ .. ﴿١٦٦﴾ ﴾ [البقرة]

ويقول التابعون : ﴿رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلاَّنَا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الأَسْفَلِينَ (٢٩)﴾ [فصلت]

فالمودة التى كانت بينهم فى الدنيا تحولتْ إلى عداوة ؛ لأنهم اجتمعوا فى الدنيا على الضلال ، فتفرقوا فى الآخرة ، كما قال سبحانه : ﴿الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ (٦٧)﴾ [الزخرف] فالمتقى ساعة يرى المتقى فى الآخرة يشكره ، ويعترف له بالجميل ؛ لأنه أخذ على يديه فى الدنيا ، ومنعه من أسباب الهلاك ، فيحبه ويثنى عليه ، وربما اعتبره عدوه فى الدنيا . أما أهل الضلال فيلعن بعضهم بعضاً ، ويتبرأ بعضهم من بعض .

إذن : فغباء الكفار بيّن فى قولهم : ﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ .. (١٢)﴾ [العنكبوت] ، كما هو بيِّن فى قولهم ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢)﴾ [الأنفال]

وكما هو بيِّن فى قولهم : ﴿لا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ .. (٧)﴾ [المنافقون] فهم يعرفون أنه رسول الله ، ومع ذلك يمنعون الناس من الإنفاق على الفقراء الذين عنده ، إنه غباء حتى فى المواجهة .

﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (١٣)﴾

وفى موضع آخر : ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلا سَاءَ مَا يَزِرُونَ (٢٥)﴾ [النحل] . فالأثقال هى الأوزار ، فسيحملون أثقالاً على أثقالهم ، وأوزاراً على أوزارهم ، فالأثقال الأولى بسبب ضلالهم ، والأثقال الأخرى بسبب إضلالهم

للغير[1] ﴿ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (١٣) ﴾ [العنكبوت]
والافتراء : تعمُّد الكذب .

وبعد أن تكلم الحق سبحانه عن المقدمات فى عمومها ، أراد أنْ يتكلَّم عنها فى خصوص الرسالات ، فقال سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ (١٤) ﴾ [2]

يقول العلماء : إن نوحاً ـ عليه السلام ـ هو أول رسل الله إلى البشر ، أما مَنْ سبقه مثل آدم وإدريس عليهما السلام ، فكانوا أنبياء أوحى الله إليهم بشرع يعملون به ، فيكونون نموذجاً إيمانياً ، وقدوة سلوك طيب ، يُقلِّدهم مَنْ رآهم ، لكن لا يُعَدُّ كافراً مَنْ لم يقتَدِ بهم ، أما إنِ اقتدى بهم ثم نكث عن سبيلهم فهو كافر .

لذلك نُفرِّق بين النبى والرسول ، بأن النبى أُوحِى إليه بشرع يعمل به ولم يُؤْمر بتبليغه ، أما الرسول فقد أُوحى إليه بشرع وأُمر بتبليغه فكلٌّ منهما مرسل ، لذلك يقول تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ .. (٥٢) ﴾ [الحج]

---

(١) أخرج ابن أبى شيبة فى المصنف وابن المنذر عن ابن الحنفية رضى الله عنه قال : كان أبو جهل وصناديد قريش يتلقون الناس إذا جاءوا إلى النبى ﷺ يسلمون ، يقولون : إنه يحرم الخمر ، ويحرم الزنا ، ويحرم ما كانت تصنع العرب ، فارجعوا فنحن نحمل أوزاركم فنزلت هذه الآية ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ .. (١٣) ﴾ [العنكبوت] [أورده السيوطى فى الدر المنثور ٦/٤٥٤] .

(٢) أخرج ابن أبى الدنيا فى كتاب « ذم الدنيا » (ص ٨٨ مكتبة القرآن) عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : جاء ملك الموت إلى نوح عليه السلام . فقال : يا أطول النبيين عمراً ، كيف وجدت الدنيا ولذتها ؟ قال : كرجل دخل بيتاً له بابان ، فوقف وسط الباب هنيهة ، ثم خرج من الباب الآخر . وأورده السيوطى فى « الدر المنثور » (٦/٤٥٦) .

إذن : فالنبى أيضاً مُرسَل ، لكنه مُرسَل لذاته .

لكن لماذا كان هذا قبل نوح بالذات ؟ قالوا : لأن الرقعة الإنسانية كانت ضيقة قبل نوح ، وكان الناس حديثى عهد ، لم تنتشر بينهم الانحرافات ، فلما اتسعت الرقعة ، وتداخلت أمور الحياة احتاجت الخليقة لأنْ يرسل الله إليهم الرسل .

والحق سبحانه يأتى بهذه اللقطة الموجزة من قصة نوح ـ عليه السلام ـ مع أن له سورة مفردة ، وله لقطات كثيرة منثورة فى الكتاب العزيز ، لكن هذه اللقطة تأتى لنا بالبداية والنهاية فقط وكأنها برقية (تلغرافية) فى مسألة نوح :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ .. (١٤) ﴾ [العنكبوت]

إذن : الرسول جاء من القوم ، وهذا يعنى أنهم يعرفونه قبل أن يكون رسولاً ، ويُجرِّبون سلوكه وحركته فى الحياة ، ويعرفون خُلقه ، ويعرفون كل تصرفاته ، فليس الرسول بعيداً عنهم أو مجهولاً لهم .

لذلك كان رسول الله ﷺ حينما جهر بالدعوة آمن به الذين يعرفونه عن قُرْب دون أنْ يسألوه عن معجزة تؤيده ، بل بمجرد أنْ قال أنا رسول الله آمنوا به وصدَّقوه واتبعوه .

فسيدنا أبو بكر ، هل سمع من رسول الله قبل أن يؤمن به ؟ لا ، إنما بمجرد أن قالوا له : إن صاحبك تنبأ قال : آمنت به[1] ، لماذا ؟ لأنه يعرف له سوابق يبنى عليها إيمانه بصاحبه ، فما كان محمد ليكون صاحب خُلق عظيم مع الناس ، ثم يكذب على الله .

---

(١) أورد البيهقى فى دلائل النبوة (٢/ ١٦٤) أن رسول الله ﷺ قال : « ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت له عنه كبوة وتردد ونظر ، إلا أبا بكر ما عتَّم منه حين ذكرته وما تردد فيه » وعزاه لابن إسحاق .

إذن : ففى كَوْن الرسول من قومه إيناسٌ للخَلْق ؛ لذلك لما قالوا : لا نؤمن إلا إذا جاءنا الرسول ملكاً ردَّ عليهم : أأنتم ملائكة حتى ينزل عليكم ملَك ؟

﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولاً (٩٥)﴾ [الإسراء]

ولو فُرض أننا أرسلناه ملَكاً أهم يروْن الملائكة ؟ لا يروْنَها ، فكيف إذن يُبلِّغ الملَك الناس ؟ لا بُدَّ أنْ يأتيهم فى صورة بشر ، ولو أتاهم فى صورة بشر لقالوا نريد ملكاً .

وقوله عز وجل : ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَامًا .. (١٤)﴾ [العنكبوت] هذا العدد من الممكن أن يؤدى لمعانٍ كثيرة ، فلم يقُلْ : فلبث فيهم تسعمائة وخمسين عاماً[1] . وفى الأعداد فى القرآن أسرار كثيرة ، واقرأ مثلاً : ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً .. (١٤٢)﴾ [الأعراف]

وفى آية سورة البقرة قال الحق سبحانه : ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً .. (٥١)﴾ [البقرة]

ففى سورة البقرة إجمال ، وفى آية الأعراف تفصيل . والحكمة فى هذا أن موسى عليه السلام ما إن ذهب لميقات ربه حتى عبد قومه العجل فى مدة الثلاثين ليلة .

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٥٢٢٢/٧) : فإن قيل : فلم قال ﴿أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَامًا .. (١٤)﴾ [العنكبوت] ولم يقل : تسعمائة وخمسين عاماً ، ففيه جوابان :
أحدهما : أن المقصود به تكثير العدد ، فكان ذكره الألف أكثر فى اللفظ ، وأكثر فى العدد .
الثانى : ما رُوى أنه أُعطى من العمر ألف سنة ، فوهب من عمره خمسين سنة لبعض ولده ، فلما حضرته الوفاة رجع فى استكمال الألف ، فذكر الله تعالى ذلك تنبيهاً على أن النقيصة كانت من جهته » .

ولم يشأ الله أن يترك موسى ليعود لقومه بعد الثلاثين ليلة ، بل أتمها بعشر أُخر ، حتى لا يعود موسى ويرى ما فعله قومه ، فكأن العشْرَ زادتْ على الثلاثين ليلة ، ليعطيك الصورة الأخيرة الموجودة فى سورة البقرة .

فالمسألة في منتهى الدقة ، ولو لم يأْت بالاستثناء فى قوله : ﴿ إِلاَّ خَمْسِينَ عَامًا .. (١٤) ﴾ [العنكبوت] فربما يظن السامع أن المسألة تقريبية ، لكن التقريب فى عَدِّ البشر ، أما فى حساب الحق سبحانه فهو منتهى الدقة ، كما لو سُئلت مثلاً عن الساعة ، فتقول : الساعة العاشرة إلا دقيقة ونصفاً ، يعنى : منتهى ما فى استطاعتك من حساب الوقت .

فإن قلتَ : فلماذا هذه اللقطة السريعة من قصة نوح عليه السلام ؟ نقول : هى لتسلية رسول الله ﷺ ؛ لأن قومه وقفوا منه موقف العداء والمكابرة والتكذيب ، وآذوْا أصحابه ، وضيَّقوا الخنَاق على دعوته ، وقد طالتْ هذه المسألة حتى أخذت ثلاث عشرة سنةً من عمر الدعوة ، فسلاَّه ربه : اصبر يا محمد ، فقد صبر زميل لك فى الدعوة ألف سنة إلا خمسين عاماً ، يعنى مدة المشقة التى تحملتها ما زالت بسيطة هيِّنة ، وقد تحمَّل أولو العزم من الرسل أكثر من ذلك .

ونلحظ هنا ﴿ أَلْفَ سَنَةٍ .. (١٤) ﴾ [العنكبوت] ثم استثنى منها ﴿ إِلاَّ خَمْسِينَ عَامًا .. (١٤) ﴾ [العنكبوت] ولم يقُلْ خمسين سنة ، فاستثنى الأعوام من السنين ، ليدلَّك على أن السنة تعنى أىَّ عام ، ويُرفَع الخلاف ؛ لأن البعض يقول : إن السنة هى التى تبدأ من أول المحرم إلى آخر ذى الحجة ، فى حين أن السنة ليس من الضرورى أنْ تبدأ بالمحرم وتنتهى بذى الحجة ، إنما تبدأ فى أى وقت وتنتهى فى مثله بعد عام كامل .

فحين نقول : فلان عمره مثلاً عشرون سنة ، أى : من يوم مولده إلى مثله عشرين مرة ، وكذلك العام . إذن : السنة والعام والحجة ، كلها سواء أردتَ الحساب بالسنة الشمسية ، أو القمرية ، أو غيرها كما تحب .

ومعلوم أن التوقيتات عندنا توقيتات هلالية بالشهر العربى ؛ لأن الشمس لا يُعرف من حركتها إلا اليوم ، إنما لا نعرف منها الشهر ، الشهر نعرفه بحركة القمر حين يُولَد الهلال ، وبالشهر نحسب السنة التى هى اثنا عشر شهراً قمرياً وتزيد أحد عشر يوماً فى السنة الشمسية .

وكأن الحق سبحانه أراد أنْ يُعْلمنا أن السنة هى العام ، لا فَرْق بينهما ، ولا داعىَ للجاج فى هذه المسألة .

ثم يذكر سبحانه نهاية هؤلاء القوم الذين كذّبوا : ﴿ فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ (١٤) ﴾ [العنكبوت] فالعلة فى أخذهم ، لا لأنهم أعداء ، بل لأنهم ظالمون لأنفسهم بالكفر ، وهكذا تنتهى القصة أو اللقطة فى آية واحدة الغرض منها تسلية النبى ﷺ ، إنْ أبطأ نَصْره على الكفار .

وكلمة ﴿ فَأَخَذَهُمُ .. (١٤) ﴾ [العنكبوت] الأَخْذ فيه دليل على الشدة وقوة التناول ، لكن بعنف أو بغير عنف ؟ إنْ كان الأخذ لخصْم فهو أخْذ بعنف وشدة ، وإنْ كان لغير خَصْم كان بلطف .

والطوفان : أن يزيد الماء عن الحاجة الرتيبة للناس ، فبعد أنْ كان وسيلة حياة ، ومنه كل شىء حى يصبح وسيلة موت وهلاك ، وكأن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ يريد أنْ يلفت أنظارنا إلى المتقابلات فى الخَلْق حتى لا نظنَّ أن الخَلْق يسير برتابة .

فسيدنا موسى ـ عليه السلام ـ ضرب البحر بالعصا ، فتجمَّد فيه

الماء حتى صار كالجبل ، وضرب بها الحجر فانبجس منه الماء .

إنها طلاقة القدرة التى لا تعتمد على الأسباب ، فالمسبِّب هو الله سبحانه يفعل ما يشاء ، فليست الأشياء بأسبابها ، إنما بمراد المسبِّب فيها ؛ لذلك يقول أحمد شوقى فى قصيدة النيل :

مِنْ أىِّ عَهْدٍ فى القُرَى تتدفقُ ... وبأىِّ كفٍّ فِى المدائنِ تُغْدِقُ

ومِنَ السماءِ نزلْتَ أم على ... الجِنَان جداولاً تترقرقُ

إلى أنْ يقول :

الماء تَسْكُبه فَيُصبح عَسْجَداً[1] ... والأرضُ تُغرِقُها فيحيَا المغْرَقُ

والمأخوذ هنا هم المكذِّبون لنوح ـ عليه السلام ـ الذين ظلموا أنفسهم لما كذَّبوا رسولهم ، ولم يستمعوا للهدى ، ثم يُنجِّى الله نوحاً ـ عليه السلام ـ بالسفينة التى قال الله عنها فى سورة هود : ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا .. (٤١)﴾ [هود]

وقد أمره الله بصناعة السفينة : ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ (٣٧)﴾ [هود] فكان نوح ـ عليه السلام ـ على علم بعاقبة المكذِّبين الظالمين من قومه ، واحتفظ بها فى نفسه ، وهو يصنع السفينة كما أمره ربه .

لكن ، أكانت السفينة شيئاً معروفاً لهؤلاء القوم ، ولها مثال سابق لديهم ؟ لا ، لم يكونوا يعرفون السفن ، بدليل أنهم تعجَّبوا من فعْل نوح ، وسخروا منه وهو يصنعها ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ .. (٣٨)﴾ [هود] فكان يردُّ عليهم فى نفسه : ﴿إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا

---

(١) العسجد : الذهب . وقيل : هو اسم جامع للجوهر كله من الدر والياقوت [لسان العرب ـ مادة : عسجد] .

نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (٣٨) ﴾ [هود] فهو يعلم عاقبتهم وما يُبيِّته الله لهم .

والحق سبحانه يعطينا هذه اللقطة من قصة نوح ـ عليه السلام ـ لكى نجول فى كل اللقطات ، ونستحضر مواطن العبرة فيها ، وفى قصة نوح مسائل كثيرة نستفيدها ، فقد كان القوم يعبدون الأصنام : وداً ، وسواعاً ، ويغوث ، ويعوق ، ونسراً ، ومنها نعلم أن ودادة الأنبياء ودادة قيم ومنهج ، وودادة أعمال واقتداء ، وأن أنسابهم أنساب تقوى وورع .

فنبوّة نوح لم تمنع ولده الضالّ من الغرق ، حتى بعد أنْ دعا الله : ﴿ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ .. (٤٥) ﴾ [هود] فيعطيه الله الحكم فى هذه المسألة ، ويُصحِّح له : ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ .. (٤٦) ﴾ [هود]

وليس معنى ذلك أن أمه أتتْ به من الحرام والعياذ بالله ؛ لأن الله تعالى ما كان ليُدلِّس على نبى من أنبيائه ، إنما هى كانت من الخائنين ، وخيانتها أنها كانت تفشى أسراره لخصومه ، وتخبرهم خبره ؛ لذلك يقول تعالى عنها فى سورة التحريم : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ .. (١٠) ﴾ [التحريم]

ويُبيِّن الحق سبحانه العلة فى قوله : ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ .. (٤٦) ﴾ [هود] بقوله ﴿ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ .. (٤٦) ﴾ [هود] حتى لا تذهب بنا الظنون فى زوجة نبى الله ، فالعلة أنه عمل غير صالح ، وبنوة الأنبياء بُنوَّة عمل ، لا بُنوَّة نَسَب .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ (١) ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾ ﴾

أى : فأنجينا نوحاً عليه السلام ﴿ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ .. ﴿١٥﴾ ﴾ [العنكبوت] هم الذين يركبون معه فيها ، فهم أصحابها ، وقد صُنعت من أجلهم ، لم يصنعها نوح لذاته ، إنما صنعها لقومه الذين تعجَّبوا من صناعته لها وسَخِروا منه واستهزأوا به ، فهم أصحابها فى الحقيقة ، مَنْ آمن منهم ركب فيها ، ومَنْ كفر أبى وأعرض ، فكانت نهايته الغرق .

ونفهم من هذه القضية أن الحق سبحانه حينما يطلب من المؤمن شيئاً يعطيه لمَنْ لا يجد ذلك الشىء ، سواء كان علْماً أو مالاً أو قدرة .. إلخ افهم أنها حق له ، وليستْ تفضلاً عليه ، فلما صنع نوح السفينة جعلها الله من حق القوم فقال ﴿ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ .. ﴿١٥﴾ ﴾ [العنكبوت] فهى حقٌّ لهم ، فليس المراد منها أن يصنعها مثلاً ، ويُؤجرها لهم ، لا بل هو يصنعها من أجلهم .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ فِى أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ [المعارج] وقد ورد هذا الحق فى المال مرتين فى القرآن الكريم ، مرة ﴿ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ [المعارج] ، ومرة أخرى ﴿ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ ﴾ [الذاريات] دون أن يحدد مقداره ، ودون أنْ يُوصف بالمعلومية .

وقد سمَّاهما الله حقاً ، فالمعلوم هو الزكاة الواجبة فى مقام

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٥٢٢٣/٧) : « الهاء والألف فى « جعلناها » للسفينة ، أو للعقوبة ، أو للنجاة ، ثلاثة أقوال » .

الإيمان ، وغير المعلوم هى الصدقة ؛ لأنها لا تخضع لمقدار معين ، بل هى حَسْب أريحية المؤمن وحُبه للطاعات ، ودخوله فى مقام الإحسان الذى قال الله فيه : ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩)﴾ [الذاريات]

وهذه الزيادة فى العبادات دليل على عشْق التكليف وحُبِّ الطاعة والثقة بأن الله تعالى ما كلَّفنا إلا بأقلّ مما يستحق سبحانه من العبادة ؛ لذلك يقول العلماء : إياك أنْ تنتقل إلى هذا المقام وتُلزم به نفسك ، أو تجعله نَذْراً ؛ لأنك إنْ فعلتَ صار فى حقك فرضاً لا تستطيع أنْ تُنقص منه .

إنما اجعله لنشاطك ومقدرتك ؛ لأنك إنْ تعوّدت على منهج وألزمت نفسك به ثم تراجعت ، فكأنك تقول كلمة لا ينبغى أنْ تُقال ، فكأنك ـ والعياذ بالله ـ جربت وُدّك لله فلم تجده ـ والعياذ بالله ـ أهلَ وُدٍّ فتركته .

إذن : فقوله سبحانه ﴿وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ .. (١٥)﴾ [العنكبوت] يدلنا على أنها صُنِعَتْ بأمر الله من أجلهم ، وبفراغ نوح من صناعتها كانت حقاً لهم ، لا مِلْكاً له عليه السلام .

لكن كيف نفهم ﴿وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ .. (١٥)﴾ [العنكبوت] وقد حمل فيها نوح ـ عليه السلام ـ من كُلٍّ زوجين اثنين ؟ قالوا : الزوجان من غير البشر ليس لهما صُحْبة ؛ لأنهما مملوكان لأصحاب الصُّحْبة .

وقوله سبحانه : ﴿وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٥)﴾ [العنكبوت] أى : أمراً

عجيباً لم يسبق له مثيل فى حياة الناس ، فقد صنعها نوح ـ عليه السلام ـ بوحى من ربه على غير مثال سابق ، فوجه كَوْنها آية أن الله تعالى أعلمه وعلّمه صناعتها ؛ لأن لها مهمة إيمانية عنده ، فبها نجاة المؤمنين وغَرَق الكافرين ، وهذه الآية ﴿لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٥﴾﴾ [العنكبوت] جميعاً .

ثم يذكر الحق سبحانه إبراهيم عليه السلام ، فيقول :

﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾﴾

الواو هنا لعطف الجمل ، فالآية ـ معطوفة على ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا .. ﴿١٤﴾﴾ [العنكبوت] إذن : فنوح وإبراهيم واقعتان مفعولاً به للفعل أرسلنا[1] ، وللسائل أنْ يسأل : لماذا لم تُنوَّن إبراهيم كما نُوِّنت نوح ؟ لم تُنوَّن كلمة إبراهيم ؛ لأنها اسم ممنوع من الصرف ـ أى من التنوين ـ لأنه اسم أعجمى .

ونلحظ فى هذه المسألة أن جميع أسماء الأنبياء أسماء أعجمية تُمنع من الصرف ، ما عدا الأسماء التى تبدأ بهذه الحروف (صن شمله) وهى على الترتيب : صالح ، نوح ، شعيب ، محمد ، لوط ، هود . فهذه الأسماء مصروفة مُنوَّنة ، عليهم جميعاً الصلاة والسلام .

والمعنى : ﴿وَإِبْرَاهِيمَ .. ﴿١٦﴾﴾ [العنكبوت] يعنى : واذكر إبراهيم

---

(١) سبب نصب كلمة إبراهيم فى الآية له ثلاثة أقوال ذكرها القرطبى فى تفسيره (٧/٥٢٢٤):
- قال الكسائى : منصوب بـ « أنجينا » يعنى أنه معطوف على الهاء .
- وأجاز الكسائى أن يكون معطوفاً على نوح ، والمعنى : وأرسلنا إبراهيم .
- وقول ثالث : أن يكون منصوباً بمعنى : واذكر إبراهيم .

﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ .. (١٦)﴾ [العنكبوت] وقلنا : العبادة أنْ يطيع العابدُ المعبودَ فى أوامره ونواهيه ، إذن : لو جاء مَنْ يدَّعى الألوهية ، وليس له أمر نؤديه ، أو نهى نمتنع عنه فلا يصلح إلهاً .

لذلك كذب الذين قالوا : ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ .. (٣)﴾ [الزمر] لأنهم ما عبدوا الأصنام إلا لأنها ليست لها أوامر ولا نواه ، فألوهيتهم (منظرية) بلا تكليف ، فأول الأدلة على بطلان عبادة هذه الآلهة المدَّعاة أنها آلهة بلا منهج .

ثم عطف الأمر ﴿وَاتَّقُوهُ .. (١٦)﴾ [العنكبوت] على ﴿اعْبُدُوا .. (١٦)﴾ [العنكبوت] والتقوى من معانيها أنْ تطيع الأوامر ، وتجتنب النواهى ، فهى مرادفة للعبادة ، لكن إنْ عطفت على العبادة فتعنى : نفِّذوا الأمر لتتقوا غضب الله ، اجعلوا بينكم وبين صفات الجلال وقاية .

وسبق أنْ قلنا : إن لله تعالى صفات جلال : كالقهار ، الجبار ، المنتقم ، المذلّ .. إلخ . وصفات جمال : كالغفار ، الرحمن ، الرحيم ، التواب . وبالتقوى تنال متعلقات صفات الجمال ، وتمنع نفسك وتحميها من متعلقات صفات الجلال .

وقوله تعالى : ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١٦)﴾ [العنكبوت] ذلكم : أى ما تقدَّم من الأمر بالعبادة والتقوى خير لكم ، فإنْ لم تعلموا هذه القضية فلا خيرَ فى علمكم ، كما قال تعالى : ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٦) يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. (٧)﴾ [الروم]

فالعلم الحقيقى هو العلم بقضايا الآخرة ، العلم بالأحكام وبالمنهج الذى يعطيك الخير الحقيقى طويل الأمد على خلاف علم الدنيا فإنْ نلتَ منه خيراً ، فهو خير موقوت بعمرك فيها .

وسبق أنْ قُلْنا : إن العلم هو إدراك قضية كونية تستطيع أن تدلل عليها ، وهذا يشمل كل معلومة فى الحياة . أى : العلم المادى التجريبى وآثار هذا العلم فى الدنيا ، أما العلم السامى الأعلى فأنْ تعلم المراد من الله لك ، وهذا للآخرة .

واقرأ فى ذلك مثلاً قوله تعالى :

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ(١) بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ(٢) سُودٌ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ (٢٨)﴾ [فاطر]

فذكر سبحانه علم النبات والجماد و ﴿مِنَ النَّاسِ.. (٢٨)﴾ [فاطر] أى : علم الإنسانيات ﴿وَالدَّوَابِّ .. (٢٨)﴾ [فاطر] علم الحيوان ، وهكذا جمع كل الأنواع والأجناس ، ثم قال سبحانه : ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ .. (٢٨)﴾ [فاطر] مع أنه سبحانه لم يذكر هنا أىَّ حكم شرعى .

إذن : المراد هنا العلماء الذين يستنبطون قضية يقينية فى الوجود ، كهذه الاكتشافات التى تخدم حركة الحياة ، وتدلُّ الناس على قدرة الله ، وبديع صُنْعه تعالى ، وتُذكِّرهم به سبحانه .

وتأمل فى نفسك مثلاً وَضْع القصبة الهوائية بجوار البلعوم ، وكيف أنك لو شرقت بنصف حبة أرز لا تستريح إلا بإخراجها ،

---

(١) الجُدَّة من الجبل : القطعة منه . والجدَّة من الشىء : الجزء منه يخالف لونه لون سائره . قال تعالى : ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (٢٧)﴾ [فاطر] أى : من الجبال أجزاء ذات ألوان مختلفة . [القاموس القويم ١/١١٨] .

(٢) الغرابيب : جمع غربيب ، وهو الشديد السواد . [القاموس القويم ٢/٥٠] .

وتأمل وَضْع اللهاة وكيف تعمل تلقائياً دون قَصْد منك أو تحكم فيها .

تأمل الأهداب فى القصبة الهوائية ، وكيف أنها تتحرك لأعلى تُخرِج ما يدخل من الطعام لو اختلَّ توازن اللهاة ، فلم تُحكِم سدَّ القصبة الهوائية أثناءَ البلع .

تأمل حين تكون جالساً مطمئناً لا يقلقك شىء ، ثم فى لحظة تجد نفسك محتاجاً لدورة المياه ، ماذا حدث ؟ ذلك لأن فى مجرى الأمعاء ما يشبه (السقاطة) التى تُخرج الفضلات بقدر ، فإذا زادتْ عما يمكن لك تحمله ، فلا بُدَّ من قضاء الحاجة والتخلص من هذه الفضلات الزائدة .

تأمل الأنف وما فيه من شعيرات فى مدخل الهواء ومُخَاط بالداخل ، وأنها جُعلت هكذا لحكمة ، فالشعيرات تحجز ما يعلَق بالهواء من الغبار ، ثم يلتقط المخاطُ الغبارَ الدقيق الذى لا يعلق بالشعيرات ليدخل الهواء الرئتين نقياً صافياً ، تأمل الأذن من الخارج وما فيها من تعاريج مختلفة الاتجاهات ، لتصدَّ الهواء ، وتمنعه من مواجهة فتحة الأذن .

والآيات فى جسم الإنسان كثيرة وفوق الحَصْر ، ولا سبيلَ إلى معرفتها إلا باستنباط العلماء لها ، وكشفهم عنها ، وهذا من نشاطات الذهن البشرى ، أما العلم الذى يخرج عن نطاق الذِّهْن البشرى فهو نازل من أعلى ، وهو قانون الصيانة الذى جعله الخالق سبحانه لحماية الخَلْق ، فالذى يأخذ بالعلم الدنيوى التجريبى فقط يُحرَم من الخير الباقى ؛ لأن قصارى ما يعطيك علم المادة فى البشر أنْ يُرفه حياتك المادية ، أمّا علم الآخرة فيُرفِّه حياتك الدنيا ويبقى لك فى الآخرة .

إذن : فقوله تعالى : ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ .. (١٦)﴾ [العنكبوت] أى : قانون الصيانة الربانى بافعل كذا ولا تفعل كذا ، وإياك أنْ تنقل مدلول (افعل) فى (لا تفعل) أو مدلول (لا تفعل) فى (افعل) ، وقد شبَّهنا هذا القانون (بالكتالوج) الذى يجعله الصانع لحماية الصنعة المادية لتؤدى مهمتها على أكمل وجه ، كذلك منهج الله بالنسبة للخَلْق ، فإنْ لم تعلموا هذه القضية فلن ينفعكم علم بعد ذلك .

يقول سبحانه : ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ (٢٠)﴾[الشورى]

إذن : فالخير الباقى هو الخير فى الآخرة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١٧)﴾

قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ .. (١٧)﴾ [العنكبوت] أى : على حَدِّ زعمهم ، وعلى حَدِّ قولهم : ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ .. (٣)﴾ [الزمر] ، وإلا فلا عبادة لهذه الآلهة ، حيث لا أمر عندهم ولا نهى ولا منهج ، فعبادتهم إذن باطلة .

وهم يعبدون الأوثان من دون الله فإنْ ضُيِّق عليهم الخنَاق قالوا : ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ .. (٣)﴾ [الزمر] فهم بذلك مشركون ، ومن لم يَقُلْ بهذا القول فهو كافر .

والوثن : ما نُصِب للتقديس من حجر ، أياً كان نوعه : حجر جيرى ، أو جرانيت ، أو مرمر . أو كان من معدن : ذهب أو فضة أو نحاس .. إلخ أو من خشب ، وقد كان البعض منهم يصنعه من (العجوة) ، فإنْ جاع أكله ، وقد حكَى هذا على سبيل التعجُّب سيدنا عمر رضى الله عنه .

وبأىِّ عقل أو منطق أنْ تذهب إلى الجبل وتستحسن منه حجراً فتنحته على صورة معينة ، ثم تتخذه إلهاً تعبده من دون الله ، وهو صَنْعة يدك ، وإنْ أطاحتْ به الريح أقمتَه ، وإنْ كسرته رُحْت تُصلح ما تكسَّر منه وتُرمِّمه ، فأىُّ عقل يمكن أن يقبل هذا العمل ؟

لذلك يخاطبهم القرآن : ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ (٩٥)﴾ [الصافات] وكلما تقدَّم العالم تلاشتْ منه هذه الظاهرة ؛ لأنها مسألة لم تَعُدْ تناسب العقل بأية حال .

ومعنى ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا .. (١٧)﴾ [العنكبوت] أى : توجدون ، والإيجاد يكون من عدم ، فهم يُوجدون من عدم ، لكن أيُوجدون صدْقاً ؟ أم يُوجدون كذباً ؟ إنهم يُوجدون ﴿إِفْكًا .. (١٧)﴾ [العنكبوت] والإفك تعمُّد الكذب الذى يقلب الحقائق ، ومن ذلك قوله سبحانه : ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ (٥٣)﴾ [النجم] أى : القرى التى كفأها الله على نفسها .

وسبق أن أوضحنا أن الحقيقة هى القضية الصادقة التى توافق الواقع ، فلو قُلْت مثلاً : محمد كريم ، فلا بُدَّ أن هناك شخصاً اسمه محمد وله صفة الكرم ، فإن اختلف الواقع فلم يوجد محمد أو وُجد ولم تتوفر له صفة الكرم ، فالقضية كاذبة لأنها مخالفة للواقع ، هذا هو الإفك .

فالحق سبحانه لا يعيب عليهم الخَلْق ؛ لأنه أثبت للعباد خَلْقاً ، فقال سبحانه : ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ﴾ [المؤمنون]

والفَرْق أنك تخلق من موجود ، أما الحق سبحانه فيخلق من العدم ، فأنت تُوجِد الثوب من القطن مثلاً ، وكوبَ الزجاج من الرمل ، والمحراثَ من الحديد .. إلخ فأوجدتَ معدوماً عن موجود سابق ، أما الخالق سبحانه فأوجد معدوماً عن لا موجود .

وسبق أنْ أوضحنا أن صَنْعة البشر تجمد على حالها ، فالسكين مثلاً يظل سكيناً لا يكبر ، حتى يصير ساطوراً مثلاً ، والكوب لا يلد لنا أكواباً أخرى . لكن خلْقة الله سبحانه لها صفة النمو والحياة والتكاثر .. إلخ ؛ لذلك أنصفك الله فوصفك بأنك خالق ، لكن هو سبحانه أحسن الخالقين .

إذن : الحق سبحانه لا يعيب على هؤلاء أنهم يخلقون ، إنما يعيب عليهم أنْ يخلقوا إفْكاً وكذباً .

ثم يقول سبحانه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ .. (١٧) ﴾ [العنكبوت] فى موضع آخر بيَّن لهم الحق سبحانه أنهم يعبدون آلهة لا تضر ولا تنفع ، وهنا يذكر مسألة مهمة هى استبقاء الحياة للإنسان بالقُوت الذى نسميه الرزق ، فهذه الآلهة التى تعبدونها من دون الله لا تملك لكم رزقاً ، ولو امتنع عنكم المطر وأجدبت الأرض لمتُّم من الجوع .

إذن : كان عليكم أنْ تتأملوا : من أين تأتى مقومات حياتكم ، ومَنْ صاحب الفضل فيها ، فتتوجَّهون إليه بالعبادة والطاعة ، كما نقول فى المثل (اللى ياكل لقمتى يسمع كلمتى) إنما أُطعمك وتسمع لغيرى ؟!!

والرزق هو الشُّغل الشاغل عند الناس ، ففى أول الأمر كلنا يجتهد لنأكل ونشرب ونعيش ، فلما تتحسَّن الأمور نرغب فى التخزين للمستقبل ، فالموظف مثلاً يدخر لشهر ، والزارع يدخر للعام كله .

ومن أعاجيب هذه المسألة أنك تجد الإنسان والفأر والنمل هم الوحيدون بين مخلوقات الله التى تدخر للمستقبل ، أما بقية الحيوانات فتأخذ حاجتها من الطعام فقط ، وتترك الباقى دون أنْ تهتمَّ بهذه المسألة ، أو تُشغَل برزق غد أبداً ، لا يأكل أكثر من طاقته ، ولا يدخر شيئاً لغده .

لذلك يُذكِّر الله عباده بمسألة الرزق لأهميتها فى حياتهم ، ومن عجيب أمر الرزق أنه أعرَفُ بمكانك وعنوانك ، منك بمكانه وعنوانه ، فإنْ قُسِم لك الرزق جاءك يطرق عليك الباب ، وإنْ حُرمت منه أعياك طلبه .

ومن أوضح الأمثلة على أن الرزق مقسوم مقدَّر من الله لكل منا أن المرأة حين تحمل يمتنع عنها الحيض الذى كان يأتيها بشكل دوريٍّ قبل الحمل ، فأين ذهب هذا الدم ؟ هذا الدم هو رزق الجنين فى بطن أمه لا يأخذه ولا يستفيد به غيره حتى الأم .

فإنْ قُدِّر الجنين تحول هذا الدم إلى غذاء له خاصة ، فإنْ لم يُقدَّر للأم أنْ تحمل نزل منها هذا الدم على صورة كريهة ، لا بُدّ من التخلص منه ؛ لأنه ضار بالأم إنْ بقى لا بُدَّ من نزوله ، لأنه ليس رزقها هى ، بل رزق ولدها فى أحشائها ، ولو لم يكُنْ هذا الدم رِزْقاً للجنين لكانت الأم تضعف كلما تكرَّرت لها عملية نزول الدم بهذه الصورة الدورية . إذن : لكل منا رِزْق لا يأخذه غيره .

لذلك يقول أحد الصالحين : عجبتُ لابن آدم يسعى فيما ضُمِن له ويترك ما طُلِب منه .

فربك قد ضمن لك رزقك فانظر إلى ما طُلِب منك ، واشغل نفسك بمراد الله فيك ؛ لذلك نتعجب من هؤلاء المتسولين الذين كنا نراهم مثلاً فى مواسم الحج ، وشرُّهم مَنْ يعرضون عاهاتهم وعاهات أبنائهم على الناس يتسولون بها ، وكأنهم يشتكون الخالق للخَلْق ، ويتبرَّمون بقضاء الله ، والله تعالى لا يحب أن يشكوه عبده لخلقه .

والنبى ﷺ يقول : « إذا بليتم فاستتروا »[1] ووالله لو ستر أصحاب البلاء بلاءهم ، وقعدوا فى بيوتهم لَساقَ الله إليهم أرزاقهم إلى أبوابهم .

إذن : الرزق مضمون من الله ؛ لذلك يمتنُّ به على عباده وينفيه عن هذه الآلهة الباطلة ﴿لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ .. (١٧)﴾ [العنكبوت] ثم يقول سبحانه ﴿وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١٧)﴾ [العنكبوت] فإنْ لم تعبدوه لأنه يرزقكم ويطعمكم ، فاعبدوه لأن مرجعكم إليه ووقوفكم بين يديه .

وكان يكفى أن نعمه عليكم مُقدَّمة على تكليفه لكم ، لقد تركك تربع فى نعمه دون أنْ يُكلِّفك شيئاً ، إلى أنْ بلغتَ سِنَّ الرشد ، وهى سِنُّ النُّضْج والبلوغ والقدرة على إنجاب مثلك ، ثم بعد ذلك تقابل

---

(١) تمام هذا الحديث : « إذا بُليتم بالمعاصى فاستتروا » أورده العجلونى فى كشف الخفاء (١/٨٧) (حديث ٢١١) وقال : رواه البيهقى والحاكم عن ابن عمر . والحديث الأَوْلَى بالاستشهاد هنا هو ما أخرجه الحاكم فى مستدركه (١/٣٤٩) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « قال الله تعالى : إذا ابتليت عبدى المؤمن ولم يشْكُنى إلى عواده أطلقته من إسارى ثم أبدلته لحماً خيراً من لحمه ودماً خيراً من دمه ثم يستأنف العمل » . وصححه الحاكم على شرط الشيخين ، وأقره الذهبى ، والله تعالىٰ أعلى وأعلم .

تكليفه لك بالجحود ؟ إن عبادة الله وطاعته لو لم تكن إلا شُكْراً له سبحانه على ما قدَّمه لك لكانت واجبة عليك .

وقوله تعالى : ﴿وَاشْكُرُوا لَهُ .. (١٧)﴾ [العنكبوت] لأن ربكم عز وجل يريد أن يزيدكم ، فجعل الشكر على النعمة مفتاحاً لهذه الزيادة ، فقال سبحانه : ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ .. (٧)﴾ [إبراهيم] فربُّك ينتظر منك كلمة الشكر ، مجرد أن تستقبل النعمة بقولك الحمد لله فقد وجبت لك الزيادة .

حتى أن بعض العارفين يرى أن الحمد لا يكون على نِعَم الله التى لا تُعَدُّ ولا تُحصى فحسب ، إنما يكون الحمد لله على أنه لا إله إلا الله ، وإلا لو كان هناك إله آخر لَحرْنا بينهما أيهما نتبع ، فالوحدانية من أعظم نعم الواحد سبحانه التى تستوجب الشكر .

وقد أعطانا الحق سبحانه مثلاً لهذه المسألة بقوله سبحانه : ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ .. (٢٩)﴾ [الزمر] يعنى : مملوك لشركاء مختلفين ، وليتهم متفقون ﴿وَرَجُلاً سَلَمًا لِّرَجُلٍ .. (٢٩)﴾ [الزمر] أى : ملْك لسيد واحد ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً .. (٢٩)﴾ [الزمر] فكذلك الموحِّد للّه ، والمشرك به .

ولذلك يقول بعض الصالحين فى قوله تعالى : ﴿يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ .. (١٧٢)﴾ [البقرة] فاللص الذى يأكل من الحرام يأكل رزقه ، فهو رزقه لكنه من الحرام ، ولو صبر على السرقة لأكله من الحلال ولساقه الله إليه .

فالمعنى أن الله خلقكم ورزقكم ، ولا يعنى هذا أنْ تُفلتوا منه ، فإنْ لم تُراعوا الجميل السابق فخافوا مما هو آتٍ .

﴿وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾﴾

قوله تعالى : ﴿وَإِن تُكَذِّبُوا .. ﴿١٨﴾﴾ [العنكبوت] أى : ما قلنا لكم وما جاءكم به رسولنا ؛ لأن تصديقه سيُدخلكم مدخل التكليف ، ويحملكم مشقة المنهج ، وسيُضيِّق عليكم منطقة الاختيار ، والحق سبحانه قد شرَّفك حين أعطاك حرية الاختيار ، فى حين أن الكون كله لا اختيارَ له ؛ لأنه تنازل عن اختياره لاختيار ربه .

كما قال سبحانه : ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً ﴿٧٢﴾﴾ [الأحزاب]

فالكون كله مسخر يؤدى مهمته ، كما يقول سبحانه : ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ .. ﴿٤٤﴾﴾ [الإسراء]

وقال سبحانه : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ .. ﴿١٨﴾﴾ [الحج] فالقاعدة عامة ، لا استثناء فيها ، إلا عند الإنسان ، فمنهم الطائع ومنهم العاصى .

فالمعنى : ﴿وَإِن تُكَذِّبُوا .. ﴿١٨﴾﴾ [العنكبوت] فلستم بدعاً فى التكذيب ﴿فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ .. ﴿١٨﴾﴾ [العنكبوت] لكن يجب عليكم أن تتنبهوا إلى ما صنع بالأمم المكذِّبة ، وكيف كانت عاقبتهم ، فاحذروا أنْ يُصيبكم ما أصابهم ، هذه هى المسألة التى ينبغى عليكم التنبُّه لها .

وهنا وقف بعض المتمحكين يقول : كيف يقول القرآن فى خطاب قوم إبراهيم ﴿ وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ .. (١٨) ﴾ [العنكبوت] مع أنه لم يسبقهم إلا أمة واحدة هى أمة نوح عليه السلام ؟ يظنون أنهم وجدوا مأخذاً على القرآن .

ونقول : نعم ، كانت أمة نوح هى أمة الرسالة المقصودة بالإيمان ، لكن جاء قبلها آدم وشيث وإدريس ، وكانوا جميعاً فى أمم سابقة على إبراهيم ، أو نقول : لأن مدة بقاء نوح فى قومه طالت حتى أخذت ألف سنة من عمر الزمان ، وهذه الفترة تشمل قُرَابة العشرة أجيال ، والجيل ـ كما قالوا ـ مائة سنة ، كل منها أمة بذاتها .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ (١٨) ﴾ [العنكبوت] فمهمته مجرد البلاغ . يؤمن به مَنْ يؤمن ، ويكفر مَنْ يكفر ، الرسول لن نعطيه مكافأة أو عمولة على كل مَنْ يؤمن به ، فإياكم أنْ تظنوا أنكم بكفركم تُقلِّلون من مكافأة النبى ـ خاصة وقد كانوا كارهين له ـ فالمعنى : علىَّ البلاغ فحسب ، وقد بلَّغت فسآخذ جزائى وأجرى من ربى ، فأنتم لا تكيدوننى بكفركم ، بل تكيدون أنفسكم .

لذلك كان نبينا محمد ﷺ يحزن أشد الحزن ، ويألم إنْ تفلَّت من يده واحد من أمته فكفر ، حتى خاطبه ربه : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَـكِنَّ اللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَاءُ .. (٢٧٢) ﴾ [البقرة]

وخاطبه بقوله : ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣) ﴾[الشعراء]

وحين نزل عليه ﷺ : ﴿ وَالضُّحَىٰ (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣) وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأُولَىٰ (٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ (٥) ﴾ [الضحى] انتهز النبى هذه الفرصة ودعا ربه : إذن

لا أرضى وواحد من أمتى فى النار[١] ؛ ذلك لأنه ﷺ مُحبٌّ لأمته ، حريص عليهم ، رؤوف رحيم بهم : ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ[٢] حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٢٨)﴾ [التوبة]

ووصف الحق سبحانه البلاغ بأنه مبين . أى : واضح ظاهر ؛ لأن من البلاغ ما يكون مجرد عرض للمسألة دون تأكيد وإظهار للحجة التى تؤيد البلاغ .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (١٩)﴾

الخطاب هنا مُوجَّه إلى أمة محمد ﷺ : هؤلاء الذين كذبوا من قبل ، وأنتم الذين تكذبون الآن ، فأين عقولكم ؟ لو استعملتم عقولكم فى تأمل الكون الذى تعيشون فيه ، والذى طرأتُم عليه ، وقد أُعِدَّ لكم بكل مُقوِّمات حياتكم .

﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ .. (١٩)﴾ [العنكبوت] ويرى هنا بمعنى يعلم ، كما فى قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١)﴾ [الفيل] أى : ألم تعلم ؛ لأن رسول الله لم يَرَ حادثة الفيل ، وعدل عن (تعلم) إلى (ترى) ليلفت أنظارنا إلى أن إخبار الله

---

(١) أخرج الخطيب فى « تلخيص المتشابه » عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : لا يرضى محمد ، وواحد من أمته فى النار . وأخرج البيهقى فى « شعب الإيمان » عن ابن عباس أيضاً أنه قال : رضاه أن تدخل أمته الجنة كلهم . انظر الدر المنثور للسيوطى (٥٤٢/٨).

(٢) العنت : المشقة . أى : أحبوا وتمنوا دوام عنتكم ودوام المشقات عليكم . [القاموس القويم ٣٨/٢] .

تعالى لرسوله ﷺ أوثق له من رؤيته بعينه .

ومن ذلك قول الصِّدِّيق أبى بكر لما سمع بحادث الإسراء والمعراج قال : « إنْ كان قال فقد صدق » .

والهمزة فى ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا .. (١٩)﴾ [العنكبوت] استفهام للتقرير ، كما تقول لولدك : ألم تَرَ إلى فلان الذى أهمل دروسه ، تريد أنْ تنكر عليه أنْ يُهمل هو أيضاً ، فتقرره بعاقبة الإهمال ، وتدعه ينطقه بلسانه ، فيقول لك : الذى أهمل دروسه رَسَب .

وكما تقول لمَنْ أنكر جميلك : ألم أُحسِن إليك بكذا وكذا ، فيُقِر بها هو بدل أنْ تعددها له أنت ، فهذا أبلغ فى الاعتراف .

فساعة يأتى بعد الهمزة نَفْى يسمونه استفهاماً إنكارياً ، تنكر ما هم عليه ، وتريد أن تقررهم بما يقابله . والنفى بعد الإنكار نفى للنفى ، ونفى النفى إثبات .

فالمعنى : أيكذبون ولم يَرَوْا ما حدث للأمم المكذِّبة من قبل ؟ أيكذبون ولم يَروْا آيات الله ، وقدرته شائعة فى الوجود كله ؟ لقد كان عليهم أن ينظروا نظرة اعتبار ليعلموا مَنْ خلق هذا الخَلْق ، وإنك لو سألتهم : مَنْ خلق هذا الكون لا يجدون جواباً ، ولا يملكون إلا أنْ يقولوا : الله ، كما حكى القرآن : ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ .. (٢٥)﴾ [لقمان]

لكن ، كيف يُقِرُّون بهذه الحقيقة ويعترفون بها ، مع أنهم كافرون بالله ؟ قالوا : لأنها مسألة أظهر مَن أنْ ينكرها منكر ، فكل صاحب صنعة مهما كانت ضئيلة يفخر بها وينسبها إلى نفسه ، بل وينسب إلى نفسه ما لم يصنع ، فما بالك بكَوْن أُعِدَّ بهذه الدقة وبهذه

العظمة ، ولم يدعه أحد لنفسه ؟ والدعْوى تثبت لصاحبها ما لم يَقُمْ لها معارض .

لذلك قلنا : إن الحق سبحانه قبل أن يقول لا إله إلا أنا ، وقبل أن يطلبها منا شهد بها لنفسه تعالى : ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ .. (١٨)﴾ [آل عمران] ؛ لأن هذه الشهادة هى التى ستجعله يقول للشىء : كُنْ فيكون ، ولو لم يكُنْ يؤمن بأنه إله ما قالها .

والحق سبحانه يقول : ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ.. (١٩)﴾ [العنكبوت] كيف ونحن لم نَر الإعادة ، فضلاً عن رؤيتنا للبدء ؟

قالوا : نرى البدء والإعادة فى مظاهر الوجود من حولنا ، فنراها فى الزرع مثلاً ، وكيف أن الله تعالى يُحيى الأرض بالنبات ، ثم يأتى وقت الحصاد فيحصد ويتناثر منه الحَبّ أو البذور التى تعيد الدورة من جديد . والوردة تجد فيها رطوبة ونضارة وألواناً بديعة ورائحة زكية ، فإذا قُطفَتْ تبخَّر منها الماء ، فجفَّتْ وتفتتت ، وذهبت رائحتها فى الجو ، ثم تخلفها وردة أخرى جديدة ، وهكذا .

انظر مثلاً إلى دورة الماء فى الكون : هل زادتْ كمية الماء التى خلقها الله فى الكون حين أعدَّه لحياة الإنسان منذ خلق آدم وحواء ؟ الماء هو هو حتى الآن ، مع ما حدث من زيادة فى عدد السكان ؛ لأن عناصر الكون هى هى منذ خلقها الله ، لكن لها دورة تسير فيها بين بَدْء وإعادة .

واقرأ إن شئت قوله تعالى : ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا .. (١٠)﴾ [فصلت]

فكأن قوت العالم من الزرع وغيره مُعَدٌّ منذ بَدْء الخليقة ، وإلى أنْ تقوم الساعة لا يزيد ، لكنه يدور فى دورة طبيعية .

ثم يقول سبحانه : ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (١٩)﴾ [العنكبوت] أيهما : الخَلْق أم الإعادة ؟ أما الخلق فقد أقرُّوا به ، ولا جدالَ فيه ، إذن : فالكلام عن الإعادة ، وهل الذى خلق من عدم يعجز عن إعادة ما خلق ؟ الخَلْق الأول من عدم ، أما الإعادة فمن موجود ، فأيهما أهون فى عُرْفكم وحسب منطقكم ؟

لذلك يقول سبحانه : ﴿وَهُوَ الَّذِى يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ .. (٢٧)﴾ [الروم] مع أن الحق سبحانه لا يُقال فى حقِّه : هذا هيِّن ، وهذا أهون ؛ لكنه سبحانه يخاطبنا بما تفهمه عقولنا .

ثم يخاطب الحق سبحانه محمداً ﷺ :

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠)﴾

السير : الانتقال من مكان إلى مكان ، لكن نحن نسير فى الأرض أم على الأرض ؟ الحقيقة أننا كما قال سبحانه ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ .. (٢٠)﴾ [العنكبوت] أى : نسير فيها ؛ لأن الغلاف الجوى المحيط بالأرض من الأرض ، فبدونه لا تستقيم الحياة عليها ، إذن : حين تسير تسير فى الأرض فهى تحتك ، وغلافها الجوى فوقك ، فكأنك بداخلها .

والعلة فى السير ﴿فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ .. (٢٠)﴾ [العنكبوت]

وفى آية أخرى ﴿ثُمَّ انظُرُوا .. (١١)﴾ [الأنعام] ؛ لأن السير من أرض لأخرى له دافعان : إما للسياحة والتأمل والاعتبار ، وإما للتجارة والاستثمار ، إنْ ضاق رزقك فى بلادك . فقوله : ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا .. (٢٠)﴾ [العنكبوت] أى : نظر اعتبار وتأمل .

أما فى ﴿ثُمَّ انظُرُوا .. (١١)﴾ [الأنعام] فثم تفيد العطف والتراخى ، كأنه سبحانه يقول لنا : سيروا فى الأرض للاستثمار ، ثم انظروا نظرة التأمل والاعتبار ، ولا مانع من الجمع بين الغرضين .

وتذكرون أن الحق سبحانه قال فى السورة السابقة (القصص) : ﴿إِنَّ الَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ .. (٨٥)﴾ [القصص] والمراد بذلك الهجرة ، وفى هذه السورة تأتى : ﴿يَـٰعِبَادِىَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِى وَاسِعَةٌ فَإِيَّـٰىَ فَاعْبُدُونِ (٥٦)﴾ [العنكبوت]

والمعنى : إن ضاق رزقك فى مكان فاطلبه فى مكان آخر ، أو : إنْ لم تكُنْ الآيات الظاهرة لك كافية لتشبع عندك الرغبة فى الاعتبار والتأمل فسرْ فى الأرض ، فسوف تجد فيها كثيراً من الآيات والعِبَر فى اختلافَ الأجناس والبيئات والثمار والأجواء .. إلخ .

لذلك يقول سبحانه :

﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا .. (٩٧)﴾ [النساء]

فالأرض كلها لله لا حدودَ فيها ، ولا فواصلَ بينها ، فلما قسَّمها الناس وجعلوا لها حدوداً تمنع الحركة فيها حدثت كثير من الإشكالات ، وصَعُبَ على الناس التنقل للسياحة أو لطلب الرزق إنْ ضاق بأحد رزقه .

وها هى السودان بجوارنا بها مساحات شاسعة من الأراضى الخِصْبة التى إنْ زُرِعت سدَّتْ حاجة العالم العربى كله ، أنستطيع

الذهاب لزراعتها ؟ ساعتها سيقولون : جاءوا ليستعمرونا .

لذلك لما أتيح لى التحدث فى هيئة الأمم قلت : إنه لا يمكن أنْ تُحلَّ قضايا العالم الراهنة إلا إذا طبَّقنا مبدأ الخالق - عز وجل - وعُدْنا إلى منهجه الذى وضعه لتنظيم حياتنا ، وكيف نضع بيننا هذه الحدود الحديدية والأسلاك الشائكة ، وربنا يقول : ﴿ وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ (١٠) ﴾ [الرحمن]

فالأرض كلُّ الأرض للأنام كل الأنام[1] ، ويوم نحقق هذا المبدأ فلن يضيق الرزق بأحد ، لأنه إنْ ضاقَ بك هنا طلبته هناك ؛ لذلك أكثر الشكوى فى عالم اليوم إمَّا من أرض بلا رجال ، أو من رجال بلا أرض ، فلماذا لا نُحدث التكامل الذى أراده الله فى كونه ؟

إذن : فالسير هنا مترتب عليه الاعتبار ﴿ كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ .. (٢٠) ﴾ [العنكبوت] وما دُمْنا قد آمنا بأن الله تعالى هو الخالق بداية ، فإعادة الخَلْق أهون ، كما قال سبحانه : ﴿ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ .. (١٥) ﴾ [ق] فيشكُّوا فى الخَلْق الآخر ؟ لذلك يؤكد الخالق سبحانه هذه القدرة بقوله :

﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠) ﴾ [العنكبوت]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ (٢١) ﴾

لماذا بدأ الحق سبحانه هنا بذكر العذاب ؟ فى حين قدَّم المغفرة

---

(١) الأنام : ما ظهر على الأرض من جميع الخلق . وقال المفسرون : هم الجن والإنس . [لسان العرب - مادة : أنم] .

فى آية أخرى : ﴿ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ .. ﴿١٨﴾ ﴾ [المائدة]

قالوا : لأن الكلام هنا عن المكذّبين المعرضين وعن الكافرين ، فناسب أنْ يبدأ معهم بذكر العذاب ﴿ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ .. ﴿٢١﴾ ﴾ [العنكبوت] فإنْ قُلْت : فلماذا يذكر الرحمة مع الكافرين بعد أنْ هدَّدهم بالعذاب ؟ نقول : لأنه رب يهدد عباده أولاً بالعذاب ليرتدعوا وليؤمنوا ، ثم يُلوِّح لهم برحمته سبحانه ليُرغِّبهم فى طاعته ويلفتهم إلى الإيمان به .

وقد صَحَّ فى الحديث القدسى : « رحمتى سبقت غضبى »[1] ففى الوقت الذى يُهدِّد فيه بالعذاب يُلوِّح لعباده حتى الكافرين بأن رحمته تعالى سبقتْ غضبه .

وقوله سبحانه : ﴿ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [العنكبوت] أى : تُرجعون ، وجاء بصيغة تقلبون الدالة على الغَصْب والانقياد عُنْوة ليقول لهم : مهما بلغ بكم الطغيان والجبروت والتعالى بنعم الله ، فلا بُدَّ لكم من الرجوع إليه ، والمثول بين يديْه ، فتذكَّروا هذه المسألة جيداً ، حيث لا مهربَ لكم منها ؛ لذلك كان مناسباً أنْ يقول بعدها :

﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ ﴾

(معجزين) : جمع معجز ، وهو الذى يُعجز غيره ، تقول : أعجزتُ فلاناً يعنى : جعلته عاجزاً ، والمعنى أنكم لن تفلتوا من الله ،

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « لما قضى الله الخلق كتب فى كتابه ، فهو عنده فوق العرش : إن رحمتى غلبت غضبى » أخرجه البخارى فى صحيحه (٣١٩٤ ، ٧٤٠٤ ، ٧٤٢٢) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٧٥١) كتاب التوبة .

ولن تتأبَّوْا عليه ، حين يريدكم للوقوف بين يديه ، بل تأتون صاغرين .

ونلحظ هنا أن الحق سبحانه قال : ﴿وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ .. (٢٢)﴾ [العنكبوت] ولم يقل مثلاً : لن تعجزونى حين أطلبكم ؛ لأن نفىَ الفعل غير نفى الوصف ، فحين تقول مثلاً : أنت لا تخيط لى ثوباً ، فهذا يعنى أنه يستطيع أنْ يخيط لك ثوباً لكنه لا يريد ، فالقدرة موجودة لكن ينقصها الرضا بمزاولة الفعل ، إنما حين تقول : أنت لستَ بخائط فقد نفيتَ عنه أصل المسألة .

لذلك لم ينْفِ عنهم الفعل حتى لا نتوهم إمكانية حدوثه منهم ، فالهرب والإفلات من لقاء الله فى الآخرة أمر غير وارد على الذِّهْن أصلاً ، إنما نفى عنهم الوصف من أساسه ﴿وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ .. (٢٢)﴾ [العنكبوت]

ثم يقول سبحانه : ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ (٢٢)﴾ [العنكبوت] حتى لا يقول قائل : إنْ كانوا هم غير معجزين ، فقد يكون وراءهم مَنْ يُعجز الله ، أو وراءهم مَنْ يشفع لهم ، أو يدافع عنهم ، فنفى هذه أيضاً لأنه سبحانه لا يُعجزه أحد ، ولا يُعجزه شىء .

لذلك خاطبهم بقوله : ﴿مَا لَكُمْ لا تَنَاصَرُونَ (٢٥)﴾ [الصافات] أين الفتوات الأقوياء ينصرونكم ؟

فنفى عنهم الولى ، ونفى عنهم النصير ؛ لأن هناك فَرْقاً بينهما : الولىّ هو الذى يقرب منك بمودة وحُبٍّ ، وهذا يستطيع أنْ ينصرك لكن بالحُسْنى وبالسياسة ، ويشفع لك إن احتجتَ إلى شفاعته ، أمّا النصير فهو الذى ينصرك بالقوة و (الفتونة) .

وهكذا نفى عنهم القدرة على الإعجاز ، ونفى عنهم الولى والنصير ، لكن ذكر ﴿مِّن دُونِ اللَّهِ .. (٢٢)﴾ [العنكبوت] يعنى : من الممكن أن يكون لهم ولىٌّ ونصير من الله تعالى ، فإنْ أرادوا الولى الحق والنصير الحق فليؤمنوا بى ، فأنا وليُّهم وأنا نصيرهم .

وكأنه سبحانه يقول لهم : إنْ تُبْتم ورجعتم عما كنتم فيه من الكفر واعتذرتم عما كان منكم ، فأنا وليُّكم وأنا نصيركم .

وفى موضع آخر قال : ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ (٢٥)﴾ [العنكبوت] ولم يقل من دون الله ؛ لأن الموقف فى الآخرة ، والآخرة لا توبةَ فيها ولا اعتذار ولا رجوع ، فقوله ﴿مِّن دُونِ اللَّهِ .. (٢٢)﴾ [العنكبوت] لا تكون إلا فى الدنيا .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٣)﴾

فإنْ أصرَّ الكافر على كُفْره وعبادته للأصنام التى لا تنفع ولا تضر ، ولم تُجْدِ معه موعظة ولا تذكير فلا ملجأ له ولا منفذ له إلى رحمة الله ؛ لأنه عبد أولياء لا ينفعونه بشىء وكفر بى ، فليس له مَنْ يحميه منى ، ولا مَنْ ينصره من الأصنام التى عبدها ، فليس له إلا اليأس .

واليأس : قَطْع الرجاء من الأمر ، وقد قطع رجاء الكافرين ؛ لأنهم عبدوا ما لا ينفع ولا يضر ، وكفروا بمَنْ بيده النفع ، وبيده الضُّر .

وقلنا : إن المراد بآيات الله إما الآيات الكونية التى تُثبت قدرة الله ، وتلفت إلى حكمة الخالق ـ عز وجل ـ كالليل والنهار والشمس والقمر . أو آيات المعجزات التى تصاحب الرسل ؛ ليؤيدهم الله بها ويُظهِر صِدْقهم فى البلاغ عن الله ؛ فكفروا بآيات القرآن الحاملة للأحكام .

وقد كفر هؤلاء بكل هذه الآيات ، فلم يُصدِّقوا منها شيئاً ، وما داموا قد كفروا بهذه الآيات ، وكفروا أيضاً بلقاء الله فى الآخرة ؛ فرحمة الله بعيدة عنهم ، وهم يائسون منها .

لذلك كانت عاقبتهم ﴿ وَأُوْلَـٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٣) ﴾ [العنكبوت]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٢٤) ﴾

كنا ننتظر منهم جواباً منطقياً ، بعد أنْ دعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، وبيَّن لهم بطلان عبادة آلهتهم ، وأنها لا تضر ولا تنفع ، كان عليهم أن يجادلوه ، وأن يدافعوا عن آلهتهم ، وأن يُظهِروا حجتهم فى عبادتهم .

إنما يأتى جوابهم دالاً على إفلاسهم ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ .. (٢٤) ﴾ [العنكبوت] أهذا جواب على ما قيل لكم ؟ إنه مجرد هروب من المواجهة ، وإفلاس فى الحجة ، إنه جواب مَنْ لم يجد جواباً ، وليس لديه إلا التهديد والتلويح بالقوة وبالبطش ، فهذه لغة مَنْ لا حجة عنده .

لكن ، لماذا سمَّاه القرآن جواباً ؟ قالوا : لأنهم لو لم يتكلموا بهذا الكلام لقيل عنهم أنهم لم يلتفتوا إلى كلام نبيهم ولم يأبهوا به ، وأن كلامه لا وزنَ له ، ولا يُرَد عليه ، فإنْ كان كلامهم لا يُعَد جواباً فهو فى صورة الجواب ، وإنْ كان جواباً فاسداً .

وقولهم : ﴿اقْتُلُوهُ .. (٢٤)﴾ [العنكبوت] نعلم أن القتل هو هدم البنية هدماً يتبعه خروج الروح لأنها لا تجد بنية سليمة تسكنها ، أما الموت فتخرج الروح أولاً ، ثم تهدم البنية حين تتحلل فى التراب ، إذن : فهما سواء فى أنهما هلاك .

وسبق أن أوضحنا هذه المسألة بلمبة الكهرباء التى تضىء ، فالكهرباء لا توجد فى اللمبة ، إنما فى شىء خارج عنها ، لكن يظهر أثر الكهرباء فى اللمبة إنْ كانت سليمة صالحة لاستقبال التيار ، فإنْ كسرتها فلا تجد فيها أثراً للكهرباء ولا تضىء ، وقد تمنع عنها الكهرباء وهى سليمة .

ثم قالوا ﴿أَوْ حَرِّقُوهُ .. (٢٤)﴾ [العنكبوت] وهل التحريق بعد القتل يُعَد ارتقاءً فى العقوبة ؟ لا شكَّ أن القتل أبلغ من التحريق ، فقد يُحرق شخص ، وتتم نجدته وإسعافه فلا يموت ، فالقتل تأكيد للموت ، أمَّا التحريق فلا يعنى بالضرورة الموت ، فلماذا لم يقولوا فقط اقتلوه وتنتهى المسألة ، أو يُصعدوا العقوبة فيقولوا : حرِّقوه أو اقتلوه ؟

إنهم بدأوا بأقصى ما عندهم من عقوبة لشدة حَنَقهم عليه فقالوا ﴿اقْتُلُوهُ .. (٢٤)﴾ [العنكبوت] ثم تراءى لهم رأى آخر : ولماذا لا نحرقه بالنار ، فربما يعود ويرجع عن دعوته حينما يجد ألم التحريق ، وهذا

يُعَد كسباً لهم ، وتُحسَب الجولة لصالحهم .

لكن مَن الذى قال ﴿ اقْتُلُوهُ .. (٢٤) ﴾ [العنكبوت] ؟ من الآمر بالقتل ، ومَن المأمور ؟ لقد اتفقوا جميعاً على قتله ، فالآمر والمأمور سواء ، وهذا واضح من الآية : ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ .. (٢٤) ﴾ [العنكبوت] فالقوم جميعاً تواطئوا على هذه المسألة . أو أن الآمر هم رؤساء القوم وكبارهم الذين يأتمر الناس بأمرهم ، أما التنفيذ فمهمة الأتباع .

ونحن نرى ثورة الجمهور وانفعاله حينما تقع جريمة مثلاً ، فالكل يغضب ويقول : اقتلوه ، اسجنوه ، فكلهم قائل ، وكلهم مقول له .

ثم يقول سبحانه ﴿ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ .. (٢٤) ﴾ [العنكبوت] وهنا يعترض الفلاسفة : كيف والنار من طبيعتها الإحراق ؟ كيف يتخلف هذا القانون ؟ لكن كيف تكون معجزة إنْ لم تأْتِ على هذه الصورة ؟

إن الحق سبحانه خلق الخَلْق وجعل فيه نواميس تفعل فعلها وتؤدى مهمتها تلقائياً ، فالأرض مثلاً حينما تحرثها ، وتلقى فيها الحَبَّ ، ثم ترويها ، الناموس أن تنبت ، وحتى لا يظن ظانٌّ أن الكون إنما يسير على وَفْق هذه النواميس ، لا وَفْقَ قدرة الله نجد أنه سبحانه يخرق هذه النواميس ليثبت لنا قيوميته على خَلْقه وطلاقة قدرته فيه .

لذلك إن لم يكُنْ لك رزق فى حرثك هذا ، فلا ينبت النبات ، أو ينبت ثم تصيبه آفة أو إعصار فيُهلكه قبل استوائه . إذن : فالمسألة قيومية لله تعالى وليست (ميكانيكا) .

وقد خرق الله نواميس الكون لموسى ـ عليه السلام ـ حينما ضرب البحر ، فصار كل فِرْق كالطَّوْد العظيم ، وتحولت سيولة الماء

إلى جبل صلب . وخرق نواميس الكون لإبراهيم حينما قال للنار : ﴿قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰٓ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾ [الأنبياء]

وخرق النواميس ليثبت الإعجاز ، وليثبت أن يد الله تعالى لا تزال مسيطرة على مُلْكه سبحانه ، لا أنه خلق النواميس وتركها تعمل فى الكون دون تدخُّل منه سبحانه كما يقول الفلاسفة ، فالحق سبحانه خلق النواميس لتفعل ، ولكن قيوميته تعالى وقدرته تُعطِّل النواميس .

﴿فَأَنجَاهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [العنكبوت] ونذكر فى قصة السفينة أن الله تعالى قال عنها : ﴿وَجَعَلْنَـٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٥﴾﴾ [العنكبوت] آية وهنا قال ﴿لَءَايَـٰتٍ.. ﴿٢٤﴾﴾ [العنكبوت] وهناك قال ﴿لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٥﴾﴾ [العنكبوت] وهنا قال : ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [العنكبوت] فالاختلاف إذن بين السياقين فى أمرين :

قال فى السفينة ﴿ءَايَةً.. ﴿١٥﴾﴾ [العنكبوت] لأن العجيب فى أمر السفينة ليس فى صناعتها ، فمَنْ رآها يمكن أنْ يصنع مثلها ، إنما الآية فيها أن الله تعالى أعلمه بها قبل الحاجة إليها ، ثم منع عنها الزوابع والأعاصير أن تلعب بها وتُغرق ركابها .

أمّا فى مسألة الإحراق فعجائب كثيرة وآيات شتى ، فكانَ من الممكن ألاَّ يمكنهم الله منه ، وكان من الممكن بعد أن أمسكوا به وألقوه فى النار أنْ يُنزل الله مطراً يطفىء نارهم وينجو إبراهيم ، أو يسخر له من القوم أهل رأفة ورحمة ينقذونه من الإلقاء فى النار .

لكن لم يحدث شىء من هذا ، حيث أمكنهم الله منه حتى ألقوه فى

النار وهى مشتعلة ، وهو مُوثق بالحبال ، ومع ذلك لم تُصِبه النار بسوء ، وظهرتْ الآيات بينات واضحات أمام أعين الجميع .

الأمر الآخر : قال هناك ﴿لِّلْعَالَمِينَ (١٥)﴾ [العنكبوت] لأن السفينة حينما رستْ ونجا ركابها ظلَّتْ السفينة باقية فى مكانها يراها الناس جميعاً ويتأملونها ، فقد كان لها أثر باقٍ قائم مُشَاهد .

أمّا فى مسألة إبراهيم ـ عليه السلام ـ فقال ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٢٤)﴾ [العنكبوت] لأن نجاة إبراهيم ـ عليه السلام ـ كانت عبرة لمن شاهدها فقط ، ونحن نؤمن بها لأن الله أخبرنا بها ، ونحن مؤمنون بالله ، فهى آيات للمؤمنين بالله لا للعالمين .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ (٢٥)﴾

المعنى : إنْ كنتم لم تؤمنوا بالآيات الكونية الدالة على قدرة الله ، ولم تؤمنوا بالمعجزة التى رأيتموها حين نجانى ربى من النار ، وكان عليكم أنْ تؤمنوا بأنه لا يقدر على ذلك إلا الله ، فلماذا إصراركم على الكفر ؟

فلا بُدَّ أنكم كفرتم بالله وعبدتم الأصنام ، لا لأنكم مقتنعون

بعبادتها ، ولا لأنها تستحق العبادة ، إنما عبدتموها ﴿مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. (٢٥)﴾ [العنكبوت] يعنى : نفاقاً ينافق به بعضكم بعضاً ومجاملة ؛ لأنكم رأيتم رؤوس القوم فيكم يعبدونها فقلَّدتموهم دون اقتناع منكم بما تعبدون ، أو مودةً لآبائكم الأولين ، وسَيْراً على نهجهم ، كما حكى القرآن : ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ (٢٣)﴾ [الزخرف]

وفى آية أخرى ﴿قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا .. (١٠٤)﴾ [المائدة]

لكن هذه المودة وهذه المجاملة وهذا النفاق عمرها (الحياة الدنيا) فحسب ، وفى الآخرة ستتقطع بينكم هذه المودات : ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ .. (٦٧)﴾ [الزخرف] يعنى : ستنقلب هذه المودة وهذه المجاملة إلى عداوة ، بل وإلى معركة حكاها القرآن : ﴿رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا .. (٢٩)﴾ [فصلت]

وقال : ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ (١٦٦)﴾ [البقرة]

ويقرر هنا أيضاً هذه الحقيقة : ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ (٢٥)﴾ [العنكبوت] ذلك لأن المقدمات التى سبقتْ كانت تقتضى أنْ يؤمنوا ، فما كان منهم إلا الإصرار على الكفر .

وفى الوقت الذى تنقلب فيه مودة الكافرين عداوةً تنقلب عداوة المؤمنين الذين تعاونوا على الطاعة إلى حُبٍّ ومودة ، فيقول المؤمن

لأخيه الذى جَرَّه إلى الطاعة وحمله عليها ـ على كُرْه منه وضيق ـ جزاك الله خيراً لقد أنقذتنى .

ولا ينتهى الأمر عند هذه العقوبة التى يُوقعونها بأنفسهم من التبرؤ واللعن ، بل ينصرفون إلى عقوبة أشدّ ﴿ وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ (٢٥) ﴾ [العنكبوت] ونلحظ هنا أن الحق سبحانه لم يقُلْ : وما لكم من دون الله ؛ لأن الكلام فى الآخرة حيث لا توبةَ لهم ولا رجوعَ ، فقد انتفى أن يكون لهم ولى أو نصير من الله .

كذلك لا ناصرَ لهم من أوليائهم الذين عبدوهم من دون الله حيث يطلبون النُّصْرة من أحجار وأصنام ، لا تنطق ولا تجيب .

وهكذا تنتهى هذه اللقطة السريعة من قصة سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ وله تاريخ طويل ، وهو شيخ المرسلين وأبو الأنبياء ، وإنْ أردتَ أن تحكى قصته لأخذتْ منك وقتاً طويلاً ، ويكفى أن الله تعالى قال عنه : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً [1] .. (١٢٠) ﴾ [النحل]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (٢٦) ﴾

أى : أن قوم إبراهيم ـ عليه السلام ـ ظلوا على كفرهم ، والذى آمن به لوط ـ عليه السلام ـ وكان ابن أخيه ، وكانوا فى العراق ، ثم سينتقلون بعد ذلك إلى الشام .

وكلمة ﴿ فَآمَنَ لَهُ .. (٢٦) ﴾ [العنكبوت] حين نتتبع كلمة آمن فى

---

(١) الأمة : الرجل الجامع للخير ، والأمة : الرجل المنفرد بدينه لا يشركه فيه أحد . [لسان العرب ـ مادة : أمم] .

القرآن الكريم نجد أنها تدور حول الأمن والطمأنينة والراحة والهدوء ، لكنها تختلف فى المدلولات حسب اختلاف موقعها الإعرابى ، فهنا ﴿ فَآمَنَ لَهُ .. (٢٦) ﴾ [العنكبوت] وهل يؤمن لوط لإبراهيم ؟ والإيمان كما نقول يؤمن بالله فما دام السياق ﴿ فَآمَنَ لَهُ .. (٢٦) ﴾ [العنكبوت] فلا بُد أن المعنى مختلف ، ولا يقصد هنا الإيمان بالله .

ومعنى (آمن) هنا كما فى قوله تعالى عن قريش : ﴿ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ (٤) ﴾ [قريش] فالفعل هنا مُتعدٍّ ، فالذى آمن الله ، آمن قريشاً من الخوف . وكذلك فى قوله تعالى : ﴿ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ .. (٦٤) ﴾ [يوسف] ومعنى ﴿ فَآمَنَ لَهُ .. (٢٦) ﴾ [العنكبوت] أى : صدقه .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ (١٧) ﴾ [يوسف] أى : بمصدِّق ، أما آمنت بالله : اعتقدت وجوده بصفات الكمال المطلق فيه سبحانه .

ولوط لا يصدق بإبراهيم ، إلا إذا كان مؤمناً بإله أرسله ، فكأنه آمن بالله ثم صدَّقه فيما جاء به وقصة لوط عليه السلام لها موضع آخر فُصِّلَت فيه ، إنما جاء ذكره هنا ؛ لأنه حصيلة الصفقة الجدلية والجهادية بين إبراهيم وقومه ، فبعد أنْ دعاهم إلى الله ما آمن له إلا لوط ابن أخيه .

وأذكر أن الشيخ موسى ـ رحمة الله عليه ـ وكان يُدرس لنا التفسير ، وجاءت قصة لوط عليه السلام فقلت له : لماذا ننسب رذيلة قوم لوط إليه فنقول : لوطى[1] . وما جاء لوط إلا ليحارب هذه الرذيلة ويقضى عليها ؟

---

(١) جاء فى : [لسان العرب ـ مادة : لَوَط] « لاط الرجل لواطاً ولاوط أى : عمل عمل قوم لوط . وقال الليث : لوط كان نبياً بعثه الله إلى قومه فكذبوه وأحدثوا ما أحدثوا فاشتق الناس من اسمه فعلاً لمن فَعَل فِعْل قومه » .

فقال الشيخ : فماذا نقول عنها إذن ؟ قلت : إن اللغة العربية واسعة الاشتقاق ، فمثلاً عند النسب إلى عبد الأشهل قالوا : أشهلى ، ولعبد العزيز قالوا : عبدزى ، ولبختنصر قالوا : بختى ، والآن نقول فى النسب إلى دار العلوم دَرْعمى .. إلخ فلماذا لا نتبع هذه الطريقة ؟ فنأخذ القاف المفتوحة ، والواو الساكنة من قوم ، ونأخذ الطاء من لوط ، ثم ياء النسب فنقول (قوْطى) ونُجنِّب نبى الله لوطاً عليه السلام أن ننسب إليه ما لا يليق أن يُنسب إليه .

وقد حضرت احتفالاً لتكريم طه حسين ، فكان مما قلته فى تكريمه : (لك فى العلم مبدأ طَحْسَنى) ؛ لأنه كثيراً ما نجد بين العلماء اسم طه ، واسم حسين .

إذن : فقوله تعالى ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ .. (٢٦)﴾ [العنكبوت] جاءت جملة اعتراضية فى قصة إبراهيم عليه السلام ؛ لأنه المحصلة النهائية لدعوة إبراهيم فى قومه ؛ لذلك يعود السياق مرة أخرى إلى إبراهيم ﴿وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي .. (٢٦)﴾ [العنكبوت] أى : منصرف عن هذا المكان ؛ لأنه غير صالح لاستتباب الدعوة .

ومادة هجر وما يُشتق منها تدلُّ على ترْك شىء إلى شىء آخر ، لكن هَجَرَ تعنى أن سبب الهَجْر منك وبرغبتك ، إنما هاجر فيها مفاعلة مثل شارك وقاتل ، والنبى ﷺ لم يهجر مكة ، إنما هاجر منها إلى المدينة .

وهذا يعنى أنه لم يهاجر برغبته ، إنما آذاه قومه واضطروه للخروج من بلده ، إذن : فلهم دَخْل فى الهجرة ، وهم طرف ثَانٍ فيها .

لذلك يقول المتنبى :

إذَا ترحّلْتَ عَنْ قومٍ وقَدْ قَدَرُوا ... ألاَّ تُفارِقَهُم فالرَّاحِلُونَ هُمُو

ومن دقة الأداء القرآنى فى هذه المسألة أنْ يسمى نقلة رسول الله من مكة إلى المدينة هجرة من الثلاثى ، ولا يقول مهاجرة ؛ لأنه ساعة يهاجر يكره المكان الذى تركه ، لكن هنا قال فى الفعل : هاجر . وفى الاسم قال : هجرة ولم يقل مهاجرة .

وسبق أنْ ذكرنا أن هجرة المؤمنين الأولى إلى الحبشة كانت هجرة لدار أمن فحسب ، لا دار إيمان ، لأن رسول الله ﷺ حينما وجَّههم إلى الحبشة بالذات قال : « لأن فيها ملكاً لا يُظْلم عنده أحد »[(١)].

وكأنه ﷺ بُسطت له خريطة الأرض كلها ، فاختار منها هذه البقعة ؛ لأنه قد تَبيَّن له أنها دار أمن لمن آمن من صحابته ، أمّا الهجرة إلى المدينة فكانت هجرةً إلى دار إيمان ، بدليل ما رأيناه من مواقف الأنصار مع المهاجرين .

وهنا يقول إبراهيم عليه السلام : ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي .. (٢٦)﴾ [العنكبوت] فالمكان إذن غير مقصود له ، إنما وجهة ربى هى المقصودة ، وإلا فلَكَ أن تقول : كيف تهاجر إلى ربك ، وربك فى كل مكان هنا وهناك ؟

فالمعنى : مهاجر امتثالاً لأمر ربى ومتوجه وجهة هو آمر بها ؛ لأنه من الممكن أن تنتقل من مكان إلى مكان بأمر رئيسك مثلاً ، وقد كانت لك رغبة فى الانتقال إلى هذا المكان فترحب بالموضوع ؛ لأنه

---

(١) عن أم سلمة أنها قالت : « لما ضاقت علينا مكة ، وأوذى أصحاب رسول الله ﷺ وفتنوا ورأوا ما يصيبهم من البلاء والفتنة فى دينهم ، وأن رسول الله ﷺ لا يستطيع دفع ذلك عنهم ، وكان ﷺ فى منعة من قومه ومن عمه ، لا يصل إليه شىء مما يكره مما ينال أصحابه ، فقال لهم ﷺ : « إن بأرض الحبشة ملكاً لا يُظلم أحد عنده ، فالحقوا ببلاده حتى يجعل الله لكم فرجاً ومخرجاً مما أنتم فيه » حديث طويل ، أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٢/٣٠١) وأورده ابن هشام فى السيرة بنحوه (١/٣٢١) .

حقق رغبة فى نفسك ، فأنت ـ إذن ـ لا تذهب لأمر صدر لك ، إنما لرغبة عندك .

لذلك جاء فى الحديث : « فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومَنْ كانت هجرته لدنيا يصيبها ، أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه »[(١)] .

فالمعنى ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي .. (٢٦)﴾ [العنكبوت] يعنى : ليس الانتقال على رغبتى وحَسْب هواى ، إنما حسب الوجهة التى يُوجِّهنى إليها ربى . وأذكر أنه كان لهذه المسألة واقع فى تاريخنا ، وكنا جماعة من سبعين رجلاً ، وقد صدر منا أمر لا يناسب رئيسنا ، فأصدر قراراً بنقلنا جميعاً وشتَّتنا من أماكننا ، فذهبنا عند التنفيذ نستعطفه علَّه يرجع فى قراره ، لكنه صمم عليه ، وقال : كيف أكون رئيساً ولا أستطيع إنفاذ أمرى على المرؤوسين ؟

فقال له أحدنا وكان جريئاً : سنذهب إلى حيث شئتَ ، لكن اعلموا أنكم لن تذهبوا بنا إلى مكان ليس فيه الله .

وكانت هذه هى كلمة الحق التى هزَّتْ الرجل ، وأعادت إليه صوابه ، فالحق له صَوْلة ، وفعلاً سارت الأمور كما نريد ، وتنازل الرئيس عن قراره .

فمعنى : ﴿مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي .. (٢٦)﴾ [العنكبوت] أن ربى هو الذى يُوجِّهنى ، وهو سبحانه فى كل مكان . يؤيد ذلك قوله سبحانه : ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ .. (١١٥)﴾ [البقرة] وكأن الحق سبحانه يقول لنا : اعلموا أننى ما وجَّهتكم فى صلاتكم إلى الكعبة إلا لأؤكد هذا

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (١) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٩٠٧) من حديث عمر بن الخطاب . وأوله « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء ما نوى » .

المعنى ؛ لأنك تتجه إليها من أى مكان كنت ، ومن أية جهة فحيثما توجهتَ فهى قبلتُك .

ثم يقول : ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٦) ﴾ [العنكبوت] اختار الخليل إبراهيم ـ عليه السلام ـ من صفات ربه ﴿ الْعَزِيزُ .. (٢٦) ﴾ [العنكبوت] أى : الذى لا يُغلب وهو يَغْلب . وهذه الصفة تناسب ما كان من محاولة إحراقه ، وكأنه يقول للقوم : أنا ذاهب إلى حضن مَنْ لا يُغْلب .

و ﴿ الْحَكِيمُ (٢٦) ﴾ [العنكبوت] أى : فى تصرفاته ، فلا بُدَّ أنه سبحانه سينقلنى إلى مكان يناسب دعوتى ، وأناس يستحقون هذه الدعوة بما لديهم من آذان صاغية للحق ، وقلوب وأفئدة متشوقة إليه ، وتنتظر كلمة الحق التى أعرضتم أنتم عنها .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ (٢٧) ﴾

وجاء وقت الجزاء لينال إبراهيم ـ عليه السلام ـ من ربه جزاء صبره على الابتلاء ، وثباته على الإيمان ، ألم يقُلْ لجبريل لما جاءه يعرض عليه المساعدة وهو فى طريقه إلى النار : يا إبراهيم ، ألك حاجة ؟ فيقول إبراهيم : أما إليك فلا[1] . لذلك يجازيه ربه ، ويخرق

(١) أخرج ابن جرير عن معتمر بن سليمان التيمى عن بعض أصحابه قال : جاء جبريل إلى إبراهيم وهو يوثق ليلقى فى النار قال : يا إبراهيم ، ألك حاجة ؟ قال : أما إليك فلا . [أورده السيوطى فى الدر المنثور ٥/٦٤١] .

له النواميس ، ويواليه بالنعم والآلاء ، حتى مدحه سبحانه بقوله :

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا[1] لِّلَّهِ .. (١٢٠) ﴾ [النحل]

وكان عليه السلام رجلاً خاملاً فى القوم ، بدليل قولهم عنه لما حَطّم أصنامهم : ﴿ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (٦٠) ﴾ [الأنبياء] فهو غير مشهور بينهم ، مُهْمَل الذكر ، لا يعرفه أحد ، فلما والى الله والاه وقال : لأجعلنك خليل الله وشيخ المرسلين ولأُجرينَّ ذكْرك ، بعد أنْ كنت مغموراً على كل لسان ، وها نحن نذكره عليه السلام فى التشهد فى كل صلاة .

واقرأ قول إبراهيم فى دعائه لربه ؛ ليؤكد هذا المعنى : ﴿ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ (٨٤) ﴾ [الشعراء] وكأنه يقول : يا رب إن قومى يستقلوننى ، فاجعل لى ذِكْراً عندك .

ومعلوم أن للتناسل والتكاثر نواميسَ ، فلما أنْ أنجبت السيدة هاجر إسماعيل ـ عليه السلام ـ غضبت الحرة سارة : كيف تنجب هاجر وهى الأَمَة وتتميز عليها[2] ، لكن كيف السبيل إلى الإنجاب وسِنُّها تسعون سنة ، وسِنّ إبراهيم حينئذٍ مائة ؟

قانون الطبيعة ونواميس الخَلْق تقول لا إنجاب فى هذه السن ، لكن سأخرق لك القانون ، وأجعلك تُنجب هبة من عندى ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ

---

(١) القنوت : الطاعة والدعاء . [القاموس القويم ٢/١٣٤] . وقال ابن سيده : القانت : القائم بجميع أمر الله تعالى . وقال ابن منظور : القنوت الخشوع والإقرار بالعبودية والقيام بالطاعة التى ليس معها معصية [لسان العرب ـ مادة : قنت] .

(٢) ذكرت التوراة هذا : « رأت سارة ابن هاجر المصرية الذى ولدته لإبراهيم يمزح . فقالت لإبراهيم : أطرد هذه الجارية وابنها لأن ابن هذه الجارية لا يرث مع ابنى إسحاق . فقبح الكلام جداً فى عينى إبراهيم لسبب ابنه . فقال الله لإبراهيم : لا يقبح فى عينيك من أجل الغلام ومن أجل جاريتك . فى كل ما تقول لك سارة اسمع لقولها لأنه بإسحاق يُدْعى لك نسل . وابن الجارية أيضاً سأجعله أمة لأنه نسلك » [سفر التكوين ٢١ : ٩ – ١٣] .

إِسْحَاقَ .. ﴿٢٧﴾ [العنكبوت] ثم ﴿وَيَعْقُوبَ .. ﴿٢٧﴾﴾ [العنكبوت]

وفى آية أخرى قال : ﴿وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً .. ﴿٧٢﴾﴾ [الأنبياء]

أى : زيادة ، لأنه صبر على ذَبْح إسماعيل ، فقال له ربه : ارفع يدك فقد أديتَ ما عليك ، ونجحت فى الامتحان ، فسوف أفديه لك ، بل وأهبك أخاً له ، وسأعطيك من ذريته يعقوب .

وسأجعلهم فَضْلاً عن ذلك رسلاً ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ .. ﴿٢٧﴾﴾ [العنكبوت] لذلك حين نستقرىء موكب الأنبياء نجد جمهرتهم من ذرية إبراهيم عليه السلام كل من جاء بعده من ذريته[1] .

والذرية المذكورة هنا يُرَاد بها إسحق ويعقوب ، وهما المُوهَبان من سارة ، أمّا إسماعيل فجاء بالقانون العام الطبيعى الذى يشترك فيه إبراهيم وغيره .

وكأن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ فى هذه المسألة يُدلِّل على طلاقة القدرة بأسباب تظهر فيها قدرة المسبِّب ، فيقول لإبراهيم : إن كان قومك قد كفروا بك ولم يؤمنوا ، فسأهبُكَ ذرية ليست مؤمنة مهدية فحسب ، إنما هادية للناس جميعاً .

وإذا كانت ذرية إسحق ويعقوب قد أخذتْ أربعة آلاف سنة من موكب النبوات ، فقد جاء من ذرية إسماعيل خاتم الأنبياء وإمام المتقين محمد ﷺ ، وستظل رسالته باقية خالدة إلى يوم القيامة ،

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٥٢٢٩/٧) : « فلم يبعث الله نبياً بعد إبراهيم إلا من صلبه ، ووحد الكتاب ، لأنه أراد المصدر كالنبوة ، والمراد التوراة والإنجيل والفرقان ، فهو عبارة عن الجمع ، فالتوراة أنزلت على موسى من ولد إبراهيم ، والإنجيل على عيسى من ولده ، والفرقان على محمد من ولده ﷺ » .

فالرسل من ذرية إسحق كانوا متفرقين فى الأمم ، ولهم أزمنة محددة ، أما رسالة محمد فعامة للزمان وللمكان ، لا معقِّبَ له برسول بعده إلى يوم القيامة .

وقوله تعالى : ﴿وَالْكِتَابَ .. (٢٧)﴾ [العنكبوت] أى : الكتب التى نزلتْ على الأنبياء من ذريته ، وهى : القرآن والإنجيل والتوراة والزبور .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا .. (٢٧)﴾ [العنكبوت] قالوا : إنه كان خامل الذِّكْر فنبغ شأنه وعلا ذكْره ، وكان فقيراً ، فأغناه الله حتى حدَّث المحدِّثون عنه فى السِّيَر أنه كان يملك من الماشية ما يسأم الإنسان أنْ يَعدَّها ، وكان له من كلاب الحراسة اثنا عشر كلباً .. إلخ وهذا أجره فى الدنيا فقط[1] .

﴿وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (٢٧)﴾ [العنكبوت] يعنى : لن نقول له أذهبتَ طيباتك فى حياتك الدنيا ، بل هو فى الآخرة من الصالحين ، وهذا مُتمنَّى الأنبياء . إذن : فأجْره فى الدنيا لم يُنقص من أجره فى الآخرة .

لكن ، لماذا وصف الله نبيه إبراهيم فى الآخرة بأنه من الصالحين ؟ قالوا : لأن إبراهيم أُثر عنه ثلاث كلمات يسميها المتصيِّدون للأخطاء ، ثلاث كذبات أو ذنوب : الأولى قوله لملك مصر

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٣/٤١١) ما يقرب من هذا دون تفصيل ، فقال : « كان له فى الدنيا الرزق الواسع الهنى ، والمنزل الرحب ، والمورد العذب ، والزوجة الحسنة الصالحة ، والثناء الجميل ، والذكر الحسن ، وكل أحد يحبه ويتولاه » . أما القرطبى فقال فى تفسيره (٧/٥٢٢٩) : « يعنى : اجتماع أهل الملل عليه ، قاله عكرمة » . وقال ابن عباس : « إن الله رضَّى أهل الأديان بدينه ، فليس من أهل دين إلا وهم يتولون إبراهيم ويرضون به » وفى قول آخر عنه « الولد الصالح والثناء » . ذكرهما السيوطى فى الدر المنثور (٦/٤٥٩) .

لما سأله عن سارة قال : أختى ، والثانية لما قال لقومه حينما دَعَوْه للخروج معهم لعيدهم : إنى سقيم[(١)] . والثالثة قوله : ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَـٰذَا .. (٦٣)﴾ [الأنبياء] أى : عندما حطَّم الأصنام .

ويقول هؤلاء المتصيدون : إنها أقوال منافية لعصمة الأنبياء . لكن ما قولكم إنْ كان صاحب الأمر والحكم شهد له بالصلاح فى الآخرة ؟

ثم إن المتأمل فى هذه الأقوال يجدها من قبيل المعاريض التى قال عنها النبى ﷺ : « إن فى المعاريض لمندوحة عن الكذب »[(٢)] فقوله عن سارة : إنها أختى ، هى فعلاً أخته فى الإيمان ، وربما لو قال زوجتى لقتله الملك ليتزوجها هو .

أما قوله ﴿إِنِّى سَقِيمٌ (٨٩)﴾ [الصافات] فهو اعتذار عن مشهد كافر لا ينبغى للمؤمن حضوره ، كما أن السُّقْم يكون للبدن ، ويكون للقلب فيحتمل أن يكون قصده سقيم القلب لما يراه من كفر القوم .

وقوله ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَـٰذَا .. (٦٣)﴾ [الأنبياء] أراد به إظهار الحجة وإقامة الدليل على بطلان عبادة الأصنام ، فأراد أنْ يُنطقهم هم بما يريد أن يقوله ؛ ليقررهم بأنها أصنام لا تضر ولا تنفع ولا تتحرك .

---

(١) أخرج ابن أبى حاتم عن زيد بن أسلم رضى الله عنه قال : أرسل إليه ملكهم فقال : إن غداً عيدنا فاخرج . قال : فنظر إلى نجم ، فقال : إن ذا النجم لم يطلع قط إلا طلع بسقم لى فتولوا عنه مدبرين . [الدر المنثور فى التفسير بالمأثور ٧/١٠٠] .

(٢) أخرجه ابن عدى فى « الكامل فى ضعفاء الرجال » (٣/٩٦) من حديث عمران بن حصين ، وفيه داود بن الزبرقان .قال البخارى : مقارب الحديث . وقال النسائى : ليس بثقة ، قال ابن عدى : هو فى جملة الضعفاء الذين يُكتب حديثهم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾

هنا ينتقل السياق من قصة إبراهيم لقصة ابن أخيه لوط ، ونلحظ أن القرآن فى الكلام عن نوح وإبراهيم ولوط بدأ الحديث بذكره أولاً ، وعادة القرآن حينما يتكلم عن الرسل يذكر القوم أولاً ، كما قال تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا .. ﴿٦٥﴾ ﴾ [الأعراف] ، ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا .. ﴿٧٣﴾ ﴾ [الأعراف] ، ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا .. ﴿٨٥﴾ ﴾ [الأعراف]

قالوا : لأن قوم نوح ، وقوم إبراهيم ، وقوم لوط لم يكُنْ لهم اسم معروف ، فذكر أنبياءهم أولاً ، أمَّا عاد وثمود ومدين فأسماء لأناس معروفين ، ولهم قرى معروفة ، فالأصل أن القوم هم المقصودون بالرسالة والهداية ؛ لذلك يُذكَرون أولاً فهم الأصل فى الرسالة ، أما الرسول فليستْ الرسالة وظيفة يجعلها الله لواحد من الناس .

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [العنكبوت] وسمى خسيسة قومه فاحشة ؛ لذلك قال العلماء فى عقوبتها : يصير عليها ما يصير على الفاحشة من الجزاء ؛ لأن الحق سبحانه سمى الزنا فاحشة فقال ﴿ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً .. ﴿٢٢﴾ ﴾ [النساء] والزنا شُرِع له الرجم ، وكذلك يكون جزاء مَنْ يفعل فِعْلة قوم لوط الرجم .

وقوله : ﴿ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [العنكبوت]

لا يعنى هذا أن أحداً لم يفعلها قبلهم ، لكنها إنْ فُعِلت فهى فردية ، ليست وباءً منتشراً كما فى هؤلاء .

﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

قوله : ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [العنكبوت] دلالة على انحراف الغريزة الجنسية عندهم ، والغريزة الجنسية جعلها الله فى الإنسان لبقاء النوع ، فالحكمة منها التناسل ، والتناسل لا يكون إلا بين ذكر وأنثى ، حيث تستقبل الأُنثى الحيوان المنوى الذكَرى الذى تحتضنه البويضة الأنثوية ، وتعلق فى جدار الرحم وتكوّن الجنين ؛ لذلك سمَّى الله تعالى المرأة حَرْثاً ؛ لأنها مكان الاستنبات ، وشَرْط فى إتيان المرأة أن يكون فى مكان الاستنبات .

لذلك ، فالجماعة الذين كانوا ينادون بتشريع للمرأة يسمح للرجل بأن يأتيها كيفما يشاء ، احتجوا بقوله تعالى : ﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ .. ﴿٢٢٣﴾ ﴾ [البقرة]

ونقول لهؤلاء : لقد أخطأتم فى فَهْم الآية ، فالحَرْث هو الزرع المستنبت من الأرض ، فمعنى ﴿ أَنَّىٰ شِئْتُمْ .. ﴿٢٢٣﴾ ﴾ [البقرة] أى : أنهم حرث ، إذن : فاحتجاجهم باطل ، وبطلانه يأتى من عدم فهمهم لمعنى الحرث ، وعليه يكون المعنى ائتوهن على أىِّ وجه من الوجوه شريطة أن يكون فى مكان الحَرْث .

ولحكمة ربط الحق سبحانه بقاء النوع بالغريزة الجنسية ، وجعل لها لذة ومتعة تفوق أيَّ لذة أخرى فى الحياة ، فمثلاً أنت ترى المنظر الجميل فتُسَرُّ به عينك ، وتسمع الصوت العَذْب فتسعد به أذنك .. إلخ فكل منافذ الإدراك لديك لها أشياء تمتعها .

لكن بأيِّ هذه الحواس تُدْرَك اللذة الجنسية ؟ وأيّ ملكة فيك تُسَرُّ منها ؟ كلُّ الحواس وكُلُّ الملكات تستمتع بها ؛ لذلك لا يستطيع الإنسان مقاومتها ، حتى قالوا : إنها اللحظة الوحيدة التى يمكن للإنسان فيها أنْ يغفل عن ربه ؛ لذلك أمرنا بعدها بالاغتسال .

ولولا أن الخالق - عز وجل - ربط مسألة بقاء النوع بهذه اللذة لَزهد فيها كثير من الناس ، لما لها من تبعات ومسئوليات ومشاكل ، لا بُدَّ منها فى تربية الأولاد .

وسبق أن ذكرنا الحكمة القائلة : « جَدَع الحلال أنفَ الغيرة » فالرجل يغَار على ابنته مثلاً ، ولا يقبل مجرد نظر الغرباء إليها ، ويثور إذا تعرَّض لها أحد ، فإذا جاءه الشاب يطرق بابه ليخطب ابنته رحَّب به ، واستقبله أهل البيت بالزغاريد وعلى الرَّحْب والسعة ، فسقوا (الشربات) وأقاموا الزينات ، فما الفرق بين الحالين ؟ فى الأولى كان دمه يغلى ، والآن تنزل كلمات الله فى عقد القران على قلبه بَرْداً وسلاماً .

أما خسيسة قوم لوط ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ .. (٢٩)﴾ [العنكبوت] فهى انحراف عن الطبيعة السَّوية لا بقاءَ فيها للنوع ، ومثلها إتيان المرأة فى غير مكان الحرث .

وقوله تعالى : ﴿وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ .. (٢٩)﴾ [العنكبوت] أى : تقطعون الطريق على بقاء النوع ؛ لأن الزنا وإنْ جاء بالولد فإنه لا يُوفر له

البقاء الكريم الشريف فى المجتمع . فالحق سبحانه جعل لبقاء النوع طريقاً واحداً ، فلا تسلك غير هذا الطريق ، لا مع رجل ولا مع امرأة .

والسبيل كلمة مطلقة وتعنى الطريق ، سواء كان الطريق المادى أى : الشارع الذى نمشى فيه أو : المعنوى وهو الطريقة التى نسير عليها ، ومنها قوله تعالى : ﴿قُلْ هَـٰذِهِ سَبِيلِي .. (١٠٨)﴾ [يوسف] أى : طريقى ومنهجى ؛ لذلك السبيل القيمى سبيل واحد ، حتى لا نتصادم ولا نتخاصم فى حركة الحياة المعنوية ، أمّا السبيل المادى فمتعدد حتى لا نتزاحم فى حركة الحياة المادية .

والسبيل المادى (الطريق) الذى نسير فيه يُعَدُّ سمة الحضارة فى أى أُمة ، ونذكر أن هتلر قبل أن يدخل الحرب سنةَ ١٩٣٩ جعل كل همِّه فى إنشاء شبكة من الطرق ؛ لأن حركة الحرب غير العادية تحتاج إلى طرق إضافية أيام الحرب ، ومن ذلك مثلاً الطريق الذى يُسمُّونه طريق المعاهدة ، أى معاهدة سنة ١٩٣٦ .

إذن : كلما وُجدت حركة زائدة احتاجت إلى طرق إضافية ، وهذه الطرق تتناسب والمكان الذى تنشأ فيه ، فالطرق فى المدن نُسمِّيها شوارع وفى الخلاء نسميها طرقاً تناسب المساحة داخل المبانى ، ومنها تتفرع الحارات ، وهى أقل منها ، ومن الحارة تتفرع العَطْفة ، وهى أقل من الحارة ، وكلما ازدحمتْ البلاد لجأ الناس إلى توسيع نظام الحركة لتيسير مصالح الناس .

كما نرى فى القاهرة مثلاً من أنفاق وكَبَارٍ ، حتى لا تُعاق الحركة ، وحتى نوفر للناس انسيابية فيها .

والأنفاق أنسب للجمال فى المدن ، والكبارى أجمل فى الفضاء ، حيث ترى مع ارتفاع الكبارى آفاقاً أوسع ومناظر أجمل ، أما إنْ حدث

عكس ذلك فأُنشئت الكبارى داخل الشوارع فإنها تُقلِّل من جمال المكان وتُحوِّل الشارع إلى أشبه ما يكون بعنابر الورش ، كما أنها تؤذى سكان العمارات المجاورة لها .

وعلى الدولة أن تراعى هذه الأمور عند التخطيط ، ألم نقرأ قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ (٢٠) ﴾ [عبس] لا بُدَّ أن نُيسِّر السبل للسالكين ؛ لأن معايش الناس وحركتهم تعتمد على الحركة فى هذه الطرق .

فقوله تعالى : ﴿ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ .. (٢٩) ﴾ [العنكبوت] فكان من قوم لوط قُطَّاع طرق كالذين يخرجون على الناس فى أسفارهم وحركتهم ، فيأخذون أموالهم وينهبون ما معهم ، وإنْ تأبوا عليهم قتلوهم . وبعد أن قطعوا السبيل على الناس قطعوا السبيل على بقاء النوع[1] .

يقول سبحانه فى حقهم : ﴿ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ .. (٢٩) ﴾ [العنكبوت] فكانوا لا يتورعون عن فِعْل القبيح وقوله فيجلسون فى الطرقات يستهزئون بالمارة ويؤذونهم كالذين يجلسون الآن على المقاهى ويتسكعون فى الطرق ويؤذون خَلْق الله ، ويتجاهرون بالقبيح من القول والفعل ، فلا يسْلَم من إيذائهم أحد .

لذلك يعلمنا النبى ﷺ آداب الطريق ، فيقول لمن سأله :

---

(١) قيل فى معنى ﴿ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ .. (٢٩) ﴾ [العنكبوت] ثلاثة أقوال :
- كانوا قطاع الطريق . قاله ابن زيد .
- كانوا يأخذون الناس من الطرق لقضاء الفاحشة . حكاه ابن شجرة .
- إنه قطع النسل بالعدول عن النساء إلى الرجال . قاله وهب بن منبه . أى : استغنوا بالرجال عن النساء .

قال القرطبى فى تفسيره (٧/ ٥٢٣٠) بعد ذكر هذه الأقوال : « ولعلَّ الجميع كان فيهم ، فكانوا يقطعون الطريق لأخذ الأموال والفاحشة ، ويستغنون عن النساء بذلك » .

وما حَقُّ الطريق يا رسول الله ؟ قال : « غَضُّ البصر ، وكَفُّ الأذى ، وردُّ السلام»[١] .

وقد انتشر بين قوم لوط سوء الأخلاق ، بحيث لا ينهى بعضهم بعضاً ، كما قال سبحانه عن اليهود أنهم : ﴿كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ.. (٧٩)﴾ [المائدة]

والنادى : مكان تجمُّع القوم ، ومنه قوله تعالى : ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ (١٧)﴾ [العلق] أى : مكان تجمُّع رؤوس القوم وكبارهم ، كما نرى الآن : نادى كذا ، ونادى كذا . والنادى وهو مكان عام يُعَدُّ المرحلة الأخيرة لانضباط السلوك الذى يجب أن يكون فى المجتمع ، فأنت مثلاً لك حجرة فى بيتك خاصة بك ، ولك فيها انضباط خاص بنفسك ، وكذلك فى صالة البيت لك انضباط أوسع ، وفى الشارع لك انضباط أوسع .

والانضباط يتناسب مع الواقع الذى تعيشه ، فحين تكون مثلاً بين أناس لا يعرفونك لا يكون انضباطك بنفس الدرجة التى تحرص عليها بين مَنْ تعرفهم كالموظف فى مكتبه ، والطالب فى مدرسته .

إذن : فهؤلاء القوم قطعوا السبيل فى بقاء النوع ، حيث أتوا غير مَأْتىٍّ وانحرفوا عن الفطرة السَّوية ، وقطعوا السبيل المادى ، فأخافوا الناس وروَّعوهم ونهبوا أموالهم ، وأخذوهم من الطرق بغرض هذه الفعْلة النكراء ، ثم كانوا يتبجحون بأفعالهم هذه ، ويجاهرون بها فى أنديتهم وأماكن تجمعاتهم .

فبماذا أجابه القوم ؟

---

(١) حديث متفق عليه ، أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٤٦٥) ، (٦٢٢٩) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢١٢١) كتاب السلام ، وأحمد فى مسنده (٣/٣٦ ، ٤٧) من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه .

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٩)﴾ [العنكبوت] أى : من الصادقين فى أنك مُبلِّغ عن الله ، فنحن من العاصين ، وأرنا العذاب الذى تتوعدنا به ، وقولهم ﴿ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ .. (٢٩)﴾ [العنكبوت] مع أن العذاب شىء مؤلم ، ولا يطلب أحد إيلام نفسه ، فهذا دليل على عدم فهمهم لهذا الكلام ، وأنهم غير متأكدين من صدقه ، وإلا لو وَثِقوا بصدقه ما طلبوا العذاب .

وفى موضع آخر ، حكى القرآن عنهم : ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٥٦)﴾ [النمل]

إذن : حدث منهم موقفان وجوابان : الأول ﴿ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ .. (٢٩)﴾ [العنكبوت] فلما لم يُجبهم إلى هذا الطلب الأحمق ، وظل يتابع دعوته لهم ، فلم ييأس منهم لجأوا إلى حيلة أخرى ، فقالوا ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ .. (٥٦)﴾ [النمل] والعلة ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٥٦)﴾ [النمل] لأن الطُّهْر فى نظر هؤلاء عيب ، والاستقامة جريمة ، وهذا دليل على فساد عقولهم ، وفساد قياسهم فى الحكم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ (٣٠)﴾

وفَرْق بين الفاسد فى ذاته والمفسد لغيره ، فيا ليتهم كانوا فاسدين فى أنفسهم ، إنما كانوا فاسدين مفسدين ، يتعدَّى فسادهم إلى غيرهم .

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ (٣١)﴾

جاء هنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ فى سياق قصة لوط ، كما جاء لوط فى سياق قصة إبراهيم . ومعنى ﴿رُسُلُنَا .. (٣١)﴾ [العنكبوت] أى : من الملائكة ؛ لأن الله تعالى قال : ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ .. (٧٥)﴾ [الحج]

وقد جاءت الملائكة لإبراهيم بالبشرى ، ولم يذكر مضمون البُشْرى هنا ، وهو البشارة بإسحق ويعقوب وذرية صالحة منهما ، وجاءته بإنذار بأن الله سيُهلك أهل هذه القرية ، وبالبشرى والإنذار يحدث التوازن ؛ لأننا نُبشِّر إبراهيم بذرية صالحة مُصْلحة فى الكون ، ونهلك أهل القرية الذين انحرفوا عن منهج الله .

وتلحظ فى الآية أنها لم تذكر العلة فى البُشْرى فلم تقل لأنه كان مؤمناً ومجاهداً وعادلاً ، إنما ذكرت العلة فى إهلاك أهل القرية ﴿إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ (٣١)﴾ [العنكبوت] لماذا ؟ لأن المتفضّل لا يمنُّ بفضله على أنه عمل بمقابل ، لكن المعذب يبين سبب العذاب .

فماذا كان الانفعال الأولىّ عند إبراهيم ـ عليه السلام ـ ساعةَ سمع البُشْرى والإنذار ؟ لم يسأل عن البشرى ، مع أنه كان متلهفاً عليها ، إنما شغلته مسألة إهلاك القرية ، وفيها ابن أخيه لوط . لذلك قال :

﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ(١) كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٣٢)﴾

---

(١) قال الضحاك : كانت تسمى هيشفع . ومُسخت حجراً . قاله الضحاك فيما أخرجه ابن جرير الطبرى . [ذكره السيوطى فى الدر المنثور ٧/١٢٠] .

فلم يستشرف إبراهيم للبشرى ، واهتم بمسألة إهلاك قرية قوم لوط ؛ لأن فيها لوطاً مما يدلُّ على أن الإنسان لا يشغله الخير لنفسه عن الشر لغيره ، وهنا ردَّ الملائكة ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا .. (٣٢)﴾ [العنكبوت] فهذه مسألة لا تخفى علينا .

ثم يُطمئنونه على ابن أخيه ﴿لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ .. (٣٢)﴾ [العنكبوت] وأهله : تشمل كل الأهل ؛ لذلك استثنوا منهم ﴿إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٣٢)﴾ [العنكبوت]

والغابرون : جمع غابر ، ولها استعمالان فى اللغة : نقول : الزمان الغابر أى الماضى ، وغابر بمعنى باق أيضاً ، فهى إذن تحمل المعنى وضده ؛ ذلك لأنهم جاءوا لإهلاك هذه القرية ، وامرأة لوط باقية لتهلك معهم ، وتذهب مع مَنْ سيذهبون بالإهلاك ، فهى إذن باقية فى العذاب . فجاءت الكلمة ﴿مِنَ الْغَابِرِينَ (٣٢)﴾ [العنكبوت] لتؤدى هذين المعنيين .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُواْ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ (٣٣)﴾

شهد إبراهيم هذا الموقف مع لوط ، وعلم سبب حضورهم إليه ، لكن لماذا سىء بهم ، مع أنهم رسل الله ملائكة جاءوه على أحسن صورة ؟ قالوا : لأن الملَك يأتى على أجمل صورة ، حتى إذا أردنا أن نمدح شخصاً بالجمال نقول : مثل الملاك ، ومن ذلك قول النسوة

لامرأة العزيز عن يوسف عليه السلام : ﴿مَا هَـٰذَا بَشَرًا إِنْ هَـٰذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ (٣١)﴾ [يوسف]

فلما رآهم لوط على هذه الصورة خاف عليهم ، بدل أنْ يفرح بمرآهم الجميل ؛ لأن قومه قوم سوء وأهل رذيلة ، ولا بُدَّ أنْ ينالوا ضيوفه بسوء ؛ لذلك ﴿سِيءَ بِهِمْ .. (٣٣)﴾ [العنكبوت] أى : أصابه السوء بسببهم ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا .. (٣٣)﴾ [العنكبوت] الذرع هو طول الذراعين ، فنقول : فلان باعُه طويل . يعنى : يتناول الأشياء بسهولة ؛ لأن يده طويلة ، فالمعنى : ضاق بهم ذَرْعاً . يعنى : لم يتسع جهده لحمايتهم من القوم .

ونلحظ هنا اختلاف السياق بين الآيتين : ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ .. (٣١)﴾ [العنكبوت] أما فى لوط فقال : ﴿وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا .. (٣٣)﴾ [العنكبوت] لأنهم تأخروا بعض الشىء عند إبراهيم عليه السلام .

فلما أن أصابه السوء بمرآهم ، بدل أنْ يسعد بهم ، وخاف عليهم طمأنوه ﴿وَقَالُوا لا تَخَفْ وَلا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلاَّ امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٣٣)﴾ [العنكبوت] لا تخَفْ علينا من هؤلاء الأراذل ، فلسنا بشراً ، إنما نحن ملائكة ما جئْنا إلا لنريحك منهم ، ونقطع جذور هذه الفعْلة الخبيثة ، وسوف ننجيك وأهلك من العذاب النازل بهم .

ثم يستثنون من أهله ﴿إِلاَّ امْرَأَتَكَ .. (٣٣)﴾ [العنكبوت] فكثيراً ما ضايقته ، وأفشتْ أسراره ، ودلَّتْ القوم على ضيوفه ﴿كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٣٣)﴾ [العنكبوت] الباقين فى العذاب .

لكن ، ما الطريقة التى ستقضون بها على هؤلاء القوم ؟

﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ[1] رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾﴾

الرجز : العذاب ينزل عليهم من السماء ، والحجارة التى يمطرهم الله بها ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [العنكبوت] أى : بسبب فِسْقهم وخروجهم عن منهج الله .

﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾﴾

لأن هذا العذاب استأصلهم ، وقضى عليهم ، وجعلهم عبرة لكل عاقل متأمل وآية فى الكون لكل عابر بها ، كما قال سبحانه : ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾﴾ [الصافات] إذن : فالعبرة باقية بأهل سَدُوم كلما مر الناس بقُراهم .

لذلك قال الله عنها ﴿آيَةً بَيِّنَةً .. ﴿٣٥﴾﴾ [العنكبوت] الآية : الشىء العجيب الذى يدعو للتأمل ﴿بَيِّنَةً .. ﴿٣٥﴾﴾ [العنكبوت] واضحة كدليل باقٍ ، وظاهر لا يخفى على أحد ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [العنكبوت] يعنى : يبحثون ويتأملون بسبب ما حاق بهذه القرى ، وما نزل بها من عذاب الله .

---

(١) هى قرية سدوم قرية قوم لوط . على الطريق بين المدينة المنورة والشام . أخرجه عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة . [ذكره السيوطى فى الدر المنثور ١٢٠/٧] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾﴾

مدين : اسم من أسماء أولاد إبراهيم عليه السلام ، وسُمِّيت باسمه القبيلة ؛ لأنهم كانوا عادة ما يُسمُّون القوم باسم أبرز أشخاصها ، فانتقل الاسم من الشخص إلى القبيلة ، ثم إلى المكان ، بدليل قوله تعالى فى موضع آخر : ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ .. ﴿٢٣﴾﴾ [القصص] فصارت مدين عَلَماً على البقعة ، وقالوا : إنها من الطور إلى الفرات[1] .

هذه برقية موجزة لقصة مدين وأخيهم شعيب ، وقد ذُكرت أيضاً فى قصة موسى عليه السلام . وقال ﴿أَخَاهُمْ .. ﴿٣٦﴾﴾ [العنكبوت] ليدلّك أن الله تعالى حين يصطفى للرسالة يصطفى مَنْ له وُدٌّ بالقوم ، ولهم معرفة به وبأخلاقه وسيرته ، ولهم به تجربة سابقة ، فهو عندهم مُصْلِح غير مُفْسد ، حتى إذا ما بلَّغهم عن الله صدَّقوه ، وكانت له مُقدِّمات تُيسِّر له سبيل الهداية .

وقوله : ﴿فَقَالَ يَٰقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ .. ﴿٣٦﴾﴾ [العنكبوت] كلمة ﴿يَٰقَوْمِ﴾ [العنكبوت] : القوم لا تُقال إلا للرجال ؛ لأنهم هم الذين يقومون لمهمات الأمور ، ويتحملون المشاق ؛ لذلك يقول تعالى :

---

(١) قال محمد بن إسحاق : هم من سلالة مدين بن إبراهيم ، وشعيب هو ابن ميكيل بن يشجر . قال : واسمه بالسريانية يثرون . قلت : مدين تطلق على القبيلة وعلى المدينة ، وهى التى بقرب معان من طريق الحجاز . [تفسير ابن كثير ٢/٢٣١] .

﴿يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ .. (١١)﴾ [الحجرات] فأطلق القوم ، وهم الرجال فى مقابل النساء .

والعبادة : قلنا : طاعة الأمر والنهى ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ .. (٣٦)﴾ [العنكبوت] أطيعوه فيما أمر ، وانتهوا عما نهى عنه ما دُمْتم قد آمنتم به إلهاً خالقاً ، فلا بُدَّ أنْ تسمعوا كلامه فيما ينصحكم به من توجيه بافعل ولا تفعل .

وتعلم أنه سبحانه بصفات الكمال أوجدك وأوجد لك الأشياء ، فأنت بعبادتك له لا تضيف إليه صفة جديدة ، فهو إله قبل أن توجد أنت ، وخالق بكمال القدرة قبل أنْ توجد ، وخلق لك الكون قبل أنْ توجد .

ثم بعد ذلك تعصاه وتكفر به ، فلا يحرمك خيره ، ولا يمنع عنك نعمه . إذن : فهو سبحانه يستحق منك العبادة والطاعة ؛ لأن طاعته تعود عليك أنت بالخير .

لذلك سبق أنْ قُلْنَا إن كلمة (العبودية) كلمة مذمومة تشمئز منها النفس ، إنْ كانت عبودية للبشر ؛ لأن عبودية البشر للبشر يأخذ فيها السيد خير عبده ، لكن عبودية البشر لله تعالى يأخذ العبد خير سيده ، فالعبودية لله عزٌّ وقوة ومنَعة وللبشر ذُلٌّ وهوان ؛ لذلك نرى كل المصلحين يحاربون العبودية للبشر ، ويدعون العبيد إلى التحرر .

فأوَّل شىء أمر به شعيب قومه ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ .. (٣٦)﴾ [العنكبوت] كذلك قال إبراهيم لقومه ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ .. (١٦)﴾ [العنكبوت] ، لكن لوطاً عليه السلام لم يأمر قومه بعبادة الله ، إنما اهتم بمسألة الفاحشة التى استشرتْ فيهم ، مع أن كل الرسل جاءوا للأمر بعبادة الله .

ونقول فى هذه المسألة : لم يأمر لوط قومه بعبادة الله ؛ لأنه كان من شيعة إبراهيم عليه السلام ومؤمناً بديانته ، بدليل قوله تعالى : ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ .. (٢٦)﴾ [العنكبوت] فهو تابع له ؛ لذلك ينفذ التعاليم التى جاء بها إبراهيم ، فلم يأمر بالعبادة لأن إبراهيم أمر القوم بها ، لكنه تحمَّل مسألة أخرى ، وخصَّه الله بمهمة جديدة ، هى إخراج قومه من ممارسة الفاحشة التى انتشرت بينهم .

وقوله تعالى : ﴿وَارْجُوا الْيَوْمَ الآخِرَ .. (٣٦)﴾ [العنكبوت] فلا بُدَّ أن اليوم الآخر لم يكُنْ فى بالهم ، ولم يحسبوا له حساباً ، كأنهم سيفلتون من الله ، ولن يرجعوا إليه ؛ لذلك يُذكِّرهم بهذا اليوم ، ويحثُّهم على العمل من أجله .

وكيف لا نعمل حساباً لليوم الآخر ؟ ونحن فى الدنيا نعامل أنفسنا بنفس منطق اليوم الآخر ؟ فأنت مثلاً تتعب وتشقى فى زراعة الأرض ، وتتحمل مشاق الحرْث والبَذْر والسقى .. إلخ طوال العام ، لكن حين تجمع زرعك يوم الحصاد ، ويوم تملأ به مخازنك تنسى أيام التعب والمشقة ، وساعتها يندم الكسول الذى قعد عن العمل والسعى ، يوم الحصاد سترى أن أردب القمح الذى أخذتَه من المخزن وظننتَ أنه نقص من حسابك قد عاد إليك عشرة أرادبّ ، فأخْذُك لم يقلل إنما زاد .

وكذلك اليوم الآخر نفهمه بهذا المنطق ، فنتحمل مشاقّ العبادة والطاعات فى الدنيا لننال النعيم الباقى فى الآخرة ؛ لأن نعيم الدنيا مهما كان ، يُنغصه عليك أمران : إما أنْ تفوته أنت بالموت ، أو يفوتك هو بالفقر .

أما فى الآخرة فلا يفوتك نعيمها ولا تفوته . إذن : فالأَوْلى بك أنْ

تزرع للآخرة ، وأن تعمل لها ألف حساب ، فإنْ كان فى العبادة مشقة ، وللإيمان تَبعات ، فانظروا إلى عظَم الجزاء ، وإذا استحضرتَ الثواب على الطاعة هانتْ عليك مشقة الطاعة ، وإذا استفظعتَ العقاب على المعصية ، زهدتَ فيها ونأيْتَ عنها .

إذن : الذى يجعل الإنسانَ يتمادى فى المعصية أنه لا يستحضر العقاب عليها ، ويزهد فى الطاعة ؛ لأنه لا يستحضر ثوابها .

لذلك يقول النبى ﷺ : « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن »[1] والمعنى : لو استحضر الإيمان ما فعل ، إنما غفل عن إيمانه فوقع فى المعصية .

ومَن استحضر ثواب الطاعة وجد لها حلاوة فى نفسه ، كما قال النبى ﷺ عن الصلاة : « أرحنا بها يا بلال »[2] .

وقوله : ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٣٦)﴾ [العنكبوت] العثو : الفساد المستور والفساد يقال للظاهر ، فالمعنى : لا تعثَوا فى الأرض عثواً ، فالمفعول المطلق بمعنى الفعل ، فقوله تعالى ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٣٦)﴾ [العنكبوت] كما نقول : اجلس قعوداً .

والفاء فى قوله ﴿فَقَالَ يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ .. (٣٦)﴾ [العنكبوت] تدل على أنها تعطف هذا الكلام على كلام سابق ، والتقدير : وأرسلنا إلى مدين أخاهم شعيباً فقال : يا قوم إنى رسول الله إليكم ، ثم ذكر المطلوب منهم ﴿فَقَالَ يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ .. (٣٦)﴾ [العنكبوت] والجمع بين

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٤٧٥) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٥٧) كتاب الإيمان ، من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٥/٣٦٤) ، وأبو داود فى سننه (٤٩٨٥) عن رجل من الصحابة .

عبادة الله ورجاء اليوم الآخر يعنى : لا تفصلوا العبادة عن غايتها والثواب عليها ، ولا تفصلوا المعصية عن عقابها .

وقوله : ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٣٦)﴾ [العنكبوت] فلا أقول لكم : أصلحوا فلا أقلَّ من أن تتركوا الصالح على صلاحه لا تفسدوه ؛ لأن الخالق ـ عز وجل ـ أعدَّ لنا الكون على هيئة الصلاح ، وعلينا أنْ نُبقيه على صلاحه .

فالنيل مثلاً هبة من هِبَات الخالق ، وشُريان للحياة يجرى بالماء الزلال ، وتذكرون يوم كان الفيضان يأتى بالطمى فترى الماء مثل الطحينة تماماً ، وكذا نملأ منه (الزير) ، وبعد قليل يترسب الطمى آخذاً معه كل الشوائب ، ويبقى الماء صافياً زلالاً . أما الآن فقد أصابه التلوث وفسَد ماؤه بما يُلْقى فيه من مُخلَّفات ، وأصبحنا نحن أول مَنْ يعانى آثار هذا التلوث .

لذلك أصبح ساكن المدن مهما توفرت له سُبُل الحضارة لا يرتاح إلا إذا خرج من المدينة إلى أحضان الطبيعة البكْر التى ظلتْ على طبيعتها كما خلقها الله ، لا ضوضاء ، ولا ملوثات ، ولا كهرباء ، ولا مدنية .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ (١) فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٣٧)﴾

---

(١) الرجفة فى القرآن : كل عذاب أخذ قوماً ، فهى رجفة وصيحة وصاعقة . قاله الليث . وقال ابن الأنبارى : الرجفة معها تحريك الأرض . ورجفت الأرض وأرجفت إذا تزلزلت . [لسان العرب ـ مادة : رجف] .

فلماذا يُكذِّب الناس دعوة الخير ؟

قالوا : لا يُكذِّب دعوة الخير إلا المستفيدون من الشر ؛ لأن الخير سيقطع عليهم الطريق ، ويسحب منهم مكانتهم وسلطتهم وسيادتهم ، فكل الذين عارضوا رسل الله كانوا أكابر القوم ورؤساءهم ، وقد ألفوا السيادة والعظمة ، واعتادوا أن يكون الناس عبيداً لهم ، فكيف إذن يُفسحون الطريق للرسل ليأخذوا منهم هذه المكانة ؟

وإلا ، فلماذا كان عبد الله بن أُبَيٍّ يكره رسول الله ﷺ ؟ لأنه يوم وصل رسول الله إلى المدينة كانوا يُعدُّون التاج لعبد الله بن أبى ، لينصبوه مَلِكاً على المدينة ، فلما جاءها رسول الله شغلوا بهذا الحدث الكبير ، وانصرفوا عن هذه المسألة .

لكن ، ماذا قال شعيب لقومه حتى يُكذِّبوه ؟ لقد قال لهم أمرين هما : ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الآخِرَ .. (٣٦)﴾ [العنكبوت] ونهى واحد فى ﴿وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٣٦)﴾ [العنكبوت] ومعلوم أن الأمر والنهى قوْل لا يحتمل الصِّدْق ، ولا يحتمل الكذب ؛ لأنه إنشاء وليس خبراً ، لأنه ما معنى الكذب ؟ الكذب أن تقول لشىء وقع أنه لم يقع ، أو لشىء لم يقع أنه وقع ، وهذا يسمونه خبراً .

فإنْ وافق كلامك الواقعَ فهو صدْق ، وإنْ خالف الواقع فهو كذب ، إذن : كيف نحكم على ما لم تقعَ له نسبة أنه صدْق أو كذب ؟ حينما تقول مثلاً : قفْ . هل نقول لك إنك كاذب ؟ لا ، لأن واقع الإنشاء لا يأتى إلا بعد أنْ تتكلم ، لذلك قسَّموا الكلام العربى إلى خبر وإنشاء .

ولكى نبسط هذه المسألة على المتعلم نقول : المتكلم حين يتكلم يأتى بنسبة اسمها نسبة كلامية ، قبل أن يتكلم بها جالتْ فى ذهنه ،

فقبل أن أقول : زيد مجتهد دارتْ فى ذهنى هذه المسألة ، وكان فى الواقع يوجد شخص اسمه زيد وهو مجتهد فعلاً .

إذن : عندنا نسبة ذهنية ، ونسبة كلامية ، ونسبة واقعية ، فإنْ وُجدت النسبة الواقعية قبل الذهنية والكلامية ، فالكلام هنا خبر يُوصَف بالصدق أو يُوصَف بالكذب .

إذن : النسبة الواقعية لا تأتى نتيجة النسبة الكلامية ، إنما حين تقول : قف فتأتى النسبة الواقعية نتيجة النسبة الكلامية ، وما دامت النسبة الواقعية تأخرتْ عن الكلامية ، فلا يُوصَف القول إذن لا بصدْق ولا بكذب .

ونعود إلى قول نبى الله شعيب نجده عبارة عن أمرين : ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الآخِرَ .. (٣٦)﴾ [العنكبوت] ونهى واحد : ﴿وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٣٦)﴾ [العنكبوت] والأمر والنهى من الإنشاء الذى لا يُوصَف بالصِّدْق ولا بالكذب ، فكيف إذن يُكذِّبونه ؟

فأول إشكال : ﴿فَكَذَّبُوهُ .. (٣٧)﴾ [العنكبوت] ومنشأ هذا الإشكال عدم وجود الملَكَة العربية التى يفهمون بها كلام الله . فالحق سبحانه قال هنا ﴿فَكَذَّبُوهُ .. (٣٧)﴾ [العنكبوت] لأنه أمرهم بعبادة الله وهو رسول من عند الله فيأمرهم بعبادته ؛ لأن عبادته تعالى واجبة عليهم ، وما أمرهم إلا ليُؤدُّوا الواجب عليهم ، واليوم الآخر كائن لا محالة فارجوه ، والإفساد فى الأرض مُحرم .

إذن : فالمعنى يحمل معنى الخبر ، فالأمران هنا ، والنهى أمر واجب فكذَّبوه لعلّة الأمرين ، ولعلَّة النهى .

ومعنى ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ .. (٣٦)﴾ [العنكبوت] خصُّوه سبحانه بالعبادة ،

وهى الطاعة فى الأمر والانتهاء عن المنهى عنه ، وهذه العبادة مطلوبة من الكل ، وهى شريعة كل الأنبياء والرسل : ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ .. (١٣)﴾ [الشورى]

إذن : فمسألة العبادة والإيمان باليوم الآخر من القضايا العامة التى لا تختلف فيها الرسالات ، أما الشرائع : افعل كذا ، ولا تفعل كذا فتختلف من نبى لآخر .

ومعنى ﴿وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ .. (٣٦)﴾ [العنكبوت] أى : اعملوا ما يناسب رجاءكم لليوم الآخر ، وأنت لماذا تحب اليوم الآخر ، ولماذا ترجوه ؟ لا يحبه ولا يرجوه إلا مَنْ عمل عملاً صالحاً فينتظره لينال جزاء عمله وثواب سَعْيه ، وإلا لو كانت الأخرى لقال : وخافوا اليوم الآخر .

إذن : الرجاء معناه : اعملوا ما يُؤهّلكم لأنْ ترجُوا اليوم الآخر ، والإنسان لا يرجو إلا النافع له . وهنا لك أنْ تسأل : هل إذا آمن الإنسان ونفَّذ أحكام ربه أمراً ونهياً ، فجزاؤهم فى الآخرة رجاء يرجوه أم حَقٌّ له ؟ المفروض أن يقول للطائعين : ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون ، فهى واجبة له ومن حَقِّه ، فكيف يسميه القرآن رجاءً وهو واقع ؟

قالوا : لأن جزاءنا فى الجنة فَضْلٌ من الله ، لأنه سبحانه خلقنا وخلق لنا ، وأمدَّنا بالطاقات والنعم قبل أنْ يُكلِّفنا شيئاً ، فحين تعبد الله حقَّ العبادة فإنك لا تقضى ثمن جميله عليك ، ولا توفيه سبحانه ما يستحق ، فإذا أثابك فى الآخرة فبمحْض فَضْله وكرمه .

لذلك قال سبحانه : ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ

خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٥٨) ﴾ [يونس]

كما لو أنكَ استخدمتَ أجيراً بمائة جنيه مثلاً فى الشهر ، وقبل أن يعمل لك شيئاً أعطيته أجره فهل يطلب منك أجراً آخر ؟ فلو جئتَ فى آخر الشهر وأعطيته عشرة جنيهات ، فهى فَضْل منك وتكرُّم .

لذلك قال ﴿ وَارْجُوا الْيَوْمَ الآخِرَ .. (٣٦) ﴾ [العنكبوت] لأن الجزاء فى الآخرة عند التحقيق والتعقُّل محض فَضْل من الله ؛ لذلك يقول النبى ﷺ : « لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمَّدنى الله برحمته »[1] .

والنهى فى : ﴿ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٣٦) ﴾ [العنكبوت] أى : لا تفسدوا فساداً ظاهراً ، أو : لا تعملوا أعمالاً هى فى ظنكم نافعة وهى ضارة ، تذكرون زمان كان القطن هو المحصول الرئيسى فى مصر ومصدر الدَّخْل ، وكانت تهدده دودة القطن فنقاومه مقاومة يدوية ، إلى أنْ خرج علينا الأمريكان بالمبيدات ، واستخدمنا مادة اسمها (دى دى تى) فقضتْ على الدودة فى بادىء الأمر ، وظنَّ الفلاح أن هذه المشكلة قد حُلّت .

لكن بعد سنوات تعودتْ الدودة على هذه المادة ، وأصبح عندها حصانة ، وكأن (الدى دى تى) أصبح (كيفاً) عندها ، وبدأنا نحن نعانى الأمرَّين من آثار هذه المبيدات فى الماء ، وفى التربة ، وفى الزراعة ، وفى صحة الإنسان والحيوان . إذن : ينبغى النظر فى العواقب قبل البدء فى الشىء ، وأنْ يُقاسَ الضرر والنفع .

كذلك الحال عندما اخترعوا السيارات ، وقالوا : إنها ستريح الناس

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٤٦٣) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٨١٦) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

فى أسفارهم وفى حمل أمتعتهم ، وبعد ما توصل العالم إليه من ثورة فى وسائل النقل لو قارنا نفعها بضررها لوجدنا أن ضررها أكبر لما تُسبِّبه من تلوث ، ولو عُدْنا إلى الوسائل البدائية ، واستخدمنا الدواب لكان أفضل .

وأذكر عندما جئنا إلى مصر سنة ١٩٣٦ ـ ١٩٣٨ وجدنا فى الميادين العامة مواقفَ للحمير ، مثل مواقف السيارات الآن ، وكانت هى الوسيلة الوحيدة للانتقال ، ويكفى أن رَوَثَ الحمار يُخصِّب الأرض ، أمّا عوادم السيارات فتسبب أخطر الأمراض وتؤدى للموت .

فماذا بعد أنْ كذَّب قومُ شعيب نبيهم ؟

كانت سنة الله فى الأنبياء قبل محمد ﷺ أن يُبلِّغ الرسول رسالة ربه ، لكن لا يُؤمر بحمل السيف ضد الكفار ، إنما إنْ كذّبوا بالآيات عاقبهم رب العزة سبحانه ، وتُحسم المسألة بهلاك المكذِّبين .

وكوْن الحق ـ تبارك وتعالى ـ لا يأمر الناسَ بقتال الكفار هذا أمر منطقى ، والدليل رأيناه فى بنى إسرائيل لما طلبوا من الله أنْ يفرض عليهم القتال ، فقال : ﴿هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ .. (٢٤٦)﴾ [البقرة]

ولم يُؤْمر بالقتال لنشر الدعوة إلا رسول الله ﷺ ؛ لأنه ﷺ ومَنْ آمن معه مأمونون على هذا ، ولأنه ﷺ آخر الرسل والأنبياء ، فلا بُدَّ أن يستوفى كل الشروط .

ونتيجة التكذيب ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٣٧)﴾ [العنكبوت] وهذا عقاب الله ؛ لأنه كان سبحانه يتولّى المكذِّب . وفى

(الحجر) وفى (هود) قال (الصيحة)[1] وحتى لا تتهم الآيات بالتضارب نقول : الصيحة : صوت شديد مزعج ، وهذا الصوت لا نسمعه إلا بتذبذب الهواء بشدة ، ولو كان تذبذب الهواء بلطف ما سميت صيحة .

إذن : الصيحة تخلخل فى الهواء بشدة ؛ لا بد أنْ ينتج عنه رجفة أى : هزة شديدة كالتى تهدم البيوت والعمارات نتيجة قنبلة مثلاً ، فالصيحة وُجدت أولاً ، تبعتها الرجفة ، لكن القرآن مرة يذكر الأصل فيقول (الصيحة) ومرة يذكر النتيجة فيقول (الرجفة) .

﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [العنكبوت] قال (فَأَصْبَحُوا) ولم يقُلْ مثلاً : فصاروا ليُحدِّد وَقْت أخذهم بالصباح ، والعادة أن تكون الإغارة وقت الصباح قبل أن يستعد خَصْمك لملاقاتك ، فما يزال فى أعقاب النوم خاملاً ، وإلى الآن يفضل رجال الحرب والقادة أن تبدأ الحرب فى الصباح ، حيث يُفَاجأ بها العدو .

وقد أصبح هذا الوقت قضية عامة ، تُعَدُّ مخالفتها من قبيل المكْر والخدعة فى الحرب ، كما خالفها قادتنا فى حرب أكتوبر ٧٣ ، حيث فاجأوا عدوهم فى وقت الظهيرة ، وقد تمت لهم المفاجأة ، وأخذوا عدوهم على غِرَّة ؛ لأنهم غيَّروا الوقت المعتاد ، وهو الصبح .

إذن : على الإنسان ألاَّ يتخذ فى أموره قضية رتيبة ، بل يُخضِع أموره لما يناسبها .

ومن الطرائف : حرص الرجل على أنْ يوقظ ولده مبكراً ليذهب

---

(١) وردت كلمة (الصيحة) كعذاب فى حق :
- قوم ثمود . (سورة هود ـ آية : ٦٧) . (سورة القمر ـ آية : ٣١) .
- قوم لوط . (سورة الحجر ـ آية ٧٣) .
- قوم شعيب . (سورة هود ـ آية ٩٤) .

إلى عمله ، ويقضى مصالحه ، فقال له الوالد : ابن فلان استيقظ مبكراً ، فوجد محفظة بها مائة جنيه ، فقال الولد ـ وكان كسولاً لا يريد أن يستيقظ مبكراً : هذه المحفظة وقعتْ من واحد استيقظ قبله .

ومعنى ﴿ جَاثِمِينَ (٣٧) ﴾ [العنكبوت] يعنى : هامدين بلا حراك .

ثم تنتقل بنا الآيات إلى لقطات أخرى موجزة من مواكب الرسالات ، وكأنها برقيات :

﴿ وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ (٣٨) ﴾

نلحظ فى هذه البرقيات السريعة أنها تذكر المقدمة ، ثم النهاية مباشرة ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَ[1] .. (٣٨) ﴾ [العنكبوت] هذه المقدمة ﴿ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ .. (٣٨) ﴾ [العنكبوت] هذا موجز لما نزل بهم ، وكأن الحق سبحانه يقول لنا : لن أحكى لكم ما حاق بهم ؛ لأنكم تشاهدون ديارهم ، وتمرون عليها ليل نهار ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٣٨) ﴾ [الصافات]

والآن مع الثورة العلمية استطاعوا تصوير ما فى باطن الأرض ، وظهرت كثير من الآثار لهذه القرى عاد وثمود والأحقاف[1] ، واقرأ

---

(١) عاد قوم هود عليه السلام كانوا يسكنون الأحقاف وهى قريبة من حضرموت بلاد اليمن ، وثمود قوم صالح كانوا يسكنون الحجر قريباً من وادى القرى ، وكانت العرب تعرف مساكنهما جيداً وتمر عليها كثيراً . [تفسير ابن كثير ٣/٤١٣] .

قوله سبحانه وتعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧)﴾ [الفجر]

وطبيعى الآن أن نجد آثار السابقين تحت التراب ، ولا بُدَّ أن نحفر لنصل إليها ؛ لأن عوامل التعرية طمرتها بمرور الزمن ، ولِمَ لا والواحد منّا لو غاب عن بيته شهراً يعود فيجد التراب يغطى أسطح الأشياء ، مع أنه أغلق الأبواب والنوافذ ، ولك أن تحسب نسبة التراب هذه على مدى آلاف السنين فى أماكن مكشوفة .

وحكَوْا أن الزوابع والعواصف الرملية فى رمال الأحقاف مثلاً كانت تغطى قافلة بأكملها ، إذن : كيف ننتظر أن تكون آثار هذه القرى باقية على سطح الأرض ؟ والآن نشاهد فى الطرق الصحراوية مثلاً إذا هبَّتْ عاصفة واحدة فإنها تغطى الطرق بحيث تعوق حركة المرور إلى أنْ تُزَاح عنها هذه الطبقة من الرمال .

إذن : علينا أن نقول : نعم يا رب رأينا مساكنهم ومررنا بها - ولو من خلال الصور الحديثة التى التقطت لهذه القرى ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ .. (٣٨)﴾ [العنكبوت] يعنى : أغواهم بالكفر ، وأقنعهم أنه الأسلوب السليم والأمثل فى حركة الحياة ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ .. (٣٨)﴾ [العنكبوت] فما دام قد زيَّن لهم سبيل الشيطان فلا بُدَّ أنْ يصدَّهم عن سبيل الإيمان ﴿وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ (٣٨)﴾ [العنكبوت] يعنى : لم نأخذهم على غِرَّة .

لأن المبدأ الذى اختاره الله تعالى لخلقه ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً (١٥)﴾ [الإسراء] رسولاً يُبيِّن لهم وينذرهم ، ويحذرهم عاقبة الكفر ؛ لذلك لم يأخذهم الله تعالى إلا بعد أنْ أرسل إليهم رسولاً فكذَّبوه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾

ما زالت الآيات تُحدِّثنا عن مواكب الرسالات ، لكنها تتكلم عن المكذِّبين عاداً وثمود ، وهنا ﴿وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ .. ﴿٣٩﴾﴾ [العنكبوت] والدليل على قوله سبحانه فى الآية السابقة ﴿وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [العنكبوت] قوله تعالى هنا ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ .. ﴿٣٩﴾﴾ [العنكبوت] أى : بالأمور الواضحة التى لا تدع مجالاً للشك فى صدْق الحق سبحانه ، وفى صِدْق الرسول فى البلاغ عن الله .

﴿فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ .. ﴿٣٩﴾﴾ [العنكبوت] استكبر : يعنى افتعل الكِبْر ، فلم يقُلْ تكبَّر ، إنما استكبر كأنه فى ذاته ما كان ينبغى له أنْ يستكبر ؛ لأن الذى يتكبّر يتكبَّر بشىء ذاتى فيه ، إنما بشىء موهوب ؟ لأنه قد يسلب منه ، فكيف يتكبَّر به ؟

لذلك نقول للمتكبِّر أنه غفلت عينه عن مَرْأى ربه فى آثار خَلْقه ، فلو كان ربه فى باله لاستحى أنْ يتكبّر .

فالإنسان لو أنه يلحظ كبرياء ربه لَصَغُر فى نفسه ، ولاستحى أن يتكبَّر ، كما أن المتكبر بقوته وعافيته غبى ؛ لأنه لم ينظر فى حال الضعيف الذى يتعالى عليه ، فلربما يفوقه فى شىء آخر ، أو عنده عبقرية فى أمر أهم من الفتوة والقوة ، ثم ألم ينظر هذا الفتوة أنها مسألة عَرَضية ، انتقلتْ إليه من غيره ، وسوف تنتقل منه إلى غيره .

إذن : فقارون وفرعون وهامان لما جاءهم موسى بآيات الله الواضحات استكبروا فى الأرض ، وأنفوا أن يتبعوا لا بطبيعتهم وطبيعة وجود ذلك فيهم ، إنما افتعالاً بغير حق ﴿وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ (٣٩)﴾ [العنكبوت] فنفى عنهم أن يكونوا سابقين ، كما قال سبحانه : ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٦٠)﴾ [الواقعة]

والسبق لا يُمدح ولا يُذم فى ذاته ، لكن بنتيجته : إلى أىِّ شىء سبق ؟ كما نسمع الآن يقولون : فلان رجعى ، والرجعية لا تُذَم فى ذاتها ، وربما كان الإنسان مُسْرفاً على نفسه ، ثم رجع إلى منهج ربه ، فنعْم هذه الرجعية ، فالسبق لا يُذَم لذاته ، واقرأ إنْ شئت قوله تعالى : ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ .. (١٣٣)﴾ [آل عمران] أى : سابقوا .

والمعنى هنا ﴿وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ (٣٩)﴾ [العنكبوت] أن هناك مضمارَ سباق ، فمن سبق قالوا : أحرز قَصَبَ السبق ، فإنْ كان مضمار السباق هذا فى الآخرة أيسبقنا أحد ليفلتَ منْ أخْذنا له ؟ إنهم لن يسبقونا ، ولن يُفلِتوا من قبضتنا ، ولن يُعجِزوا قدرتنا على إدراكهم .

ويقول الحق سبحانه :

﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا (١) وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٠)﴾

---

(١) الحصب : كل ما يُلقى فى النار لتسعر به . فالحاصب : إعصار شديد يقذفكم بالحصى فيهلككم والرياح العاصفة تفعل أكثر من ذلك . [القاموس القويم ١/١٥٥] .

الكلام هنا عن المكذِّبين والكافرين الذين سبق ذكرهم : قوم عاد ، وثمود ، ومدين ، وقوم لوط ، وقارون ، وفرعون ، وهامان ، فكان من المناسب أنْ يذكر الحق سبحانه تعليقاً يشمل كُلَّ هؤلاء لأنهم طائفة واحدة . فقال : ﴿فَكُلاًّ .. (٤٠)﴾ [العنكبوت] أى : كل مَنْ سبق ذكرهم من المكذِّبين فالتنوين فى ﴿فَكُلاًّ .. (٤٠)﴾ [العنكبوت] عوض عن كل من تقدَّم ذكرهم ، كالتنوين فى : ﴿وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ (٨٤)﴾ [الواقعة] فهو عِوَض عن جملة ﴿فَلَوْلا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ (٨٣)﴾ [الواقعة]

وقوله سبحانه ﴿أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ.. (٤٠)﴾ [العنكبوت] والأخذ يناسب قوة الآخذ وقدرته ؛ لذلك يقول سبحانه عن أَخْذه للمكذِّبين ﴿أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ (٤٢)﴾ [القمر] فالعزيز : الذى يغلب ولا يُغلب ، والمقتدر أى : القادر على الأَخْذ ، بحيث لا يمتنع منه أحد ؛ فهو عزيز .

والأخذ هنا بسبب الذنوب ﴿بِذَنْبِهِ .. (٤٠)﴾ [العنكبوت] ليس ظلماً ولا جبروتاً ولا جزافاً ، إنما جزاءً بذنوبهم وعدلاً ؛ ولذلك يأتى فى تذييل الآية :

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٠)﴾ [العنكبوت]

ثم يُفصِّل الحق سبحانه وتعالى وسائل أَخْذه لهؤلاء المكذبين : ﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا .. (٤٠)﴾ [العنكبوت] الحاصب : هو الحصَى الصِّغار ترمى لا لتجرح ، ولكن يُحْمى عليها لتكوى وتلسع حين يرميهم بها الريح ، ولم يقُلْ هنا : أرسلنا عليهم ناراً مثلاً ؛ لأن النار ربما إنْ أحرقته يموت وينقطع ألمه ، لكن رَمْيهم بالحجارة المحمية تلسعهم وتُديم آلامهم . كما نسمعهم يقولون : سأحرقه لكن على نار باردة ؛ ذلك ليطيل أمد إيلامه .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ .. ﴿٤٠﴾﴾ [العنكبوت] وهو الصوت الشديد الذى تتزلزل منه الأرض ، وهم ثمود ﴿وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ .. ﴿٤٠﴾﴾ [العنكبوت] أى : قارون ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا .. ﴿٤٠﴾﴾ [العنكبوت] وهم قوم نوح ، وفرعون .

هذه وسائل أربعة لإهلاك المكذِّبين : النار فى الحصباء ، والهواء فى الصيحة ، والتراب فى الخسف ، ثم الماء فى الإغراق ، ورحم الله الفخر الرازى[1] حين قال فى هذه الآية أنها جمعت العناصر التى بها وجود الإنسان والعناصر الأساسية أربعة : الماء والنار والتراب والهواء . وكانوا يقولون عنها فى الماضى العناصر الأربعة ، لكن العلم فرَّق بعد ذلك بين العنصر والمادة .

فالمادة تتحلَّل إلى عناصر ، أمّا العنصر فلا يتحلل لأقل منه ، فهو عبارة عن ذرات متكررة لا يأتى منها شىء آخر ، فالهواء مادة يمكن أنْ نُحلِّله إلى أكسجين و .... إلخ وكذلك الماء مادة تتكوَّن من عدة عناصر وذرات إلى أن جاء (مندليف) ووضع جدولاً للعناصر ، وجعل لكل منها رقماً أسماها الأرقام الذرية ، فهذا العنصر مثلاً رقم واحد يعنى : يتكون من ذرة واحدة ، وهذا رقم اثنين يعنى يتكون من ذرتين .. إلخ إلى أنْ وصل إلى رقم ٩٣ ، لكن وجد فى وسط هذه الأرقام أرقاماً ناقصة اكتشفها العلماء فيما بعد .

فمثلاً ، جاءت مدام كورى ، واكتشفت عنصر الراديوم ، فوجدوا

---

(١) هو : محمد بن عمر ، أبو عبد الله ، فخر الدين الرازى ، الإمام المفسر ، أوحد زمانه فى المعقول والمنقول وعلوم الأوائل ، وهو قرشى النسب ، أصله من طبرستان ، ومولده فى الرىّ (٥٤٤ هـ) وإليها نسبته . ويقال له « ابن خطيب الرىّ » ، تُوفِّى فى هراة عام (٦٠٦ هـ) عن ٦٢ عاماً . من كتبه « مفاتيح الغيب » ، « محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين » (الأعلام للزركلى ٣١٣/٦) .

فعلاً أن رقمه من الأرقام الناقصة فى جدول (مندليف) ، فوضعوه فى موضعه ، وهذا يدل على أن الكون مخلوق بعناصر مرتبة وصلت مع التقدم العلمى الآن إلى ١٠٥ عناصر .

ولما حلَّل العلماء عناصر التربة المخصبة التى نأكل منها المزروعات وجدوها ١٦ عنصراً ، تبدأ بالأكسجين كأعلى نسبة ، وتنتهى بالمنجنيز كأقل نسبة ، لأنها لم تصل إلى الواحد من الألف . فلما حلَّلوا عناصر جسم الإنسان وجدوا نفس هذه العناصر الستة عشرة .

وكأن الحق - سبحانه وتعالى - أقام حتى الكفار ليثبتوا الدليل على صدْقه تعالى فى خَلْق الإنسان من طين ، لنعلم أن الحق سبحانه حينما يريد أنْ يُظهِر سِراً من أسرار كونه يأتى به ولو على أيدى الكفار .

وأول مَنْ قال بالعناصر الأربعة التى يتكون منها الكون فيلسوف اليونان أرسطو الذى توفى سنة ٣٨٤ قبل الميلاد ، وعلى أساس هذه العناصر الأربع كانوا يحسبون النجم ، فمثلاً عن الزواج يحسبون نجم الزوج والزوجة حسب هذه العناصر ، فوجدوا نجم الزوج هواءً ، ونجم الزوجة ناراً ، فقالوا (هيجعلوها حريقة) ، وفى مرة أخرى وجدوا الزوجة مائية والزوج ترابياً فقالوا (هيعملوها معجنة) .

ومعلوم أن الحق سبحانه لطلاقة قدرته تعالى يجعل عناصر البقاء هى نفسها عناصر الفناء ، وهو سبحانه القادر على أنْ يُنجى ويُهلك بالشىء الواحد ، كما أهلك فرعون بالماء ، وأنجى موسى - عليه السلام - بالماء .

كذلك حين نتأمل هذه العناصر الأربعة نجدها عناصر تكوين

الإنسان ، حيث خلقه الله من ماء وتراب فكان طيناً ، ثم جفَّ بالحرارة حتى صار صلصالاً كالفخار ، ثم هو بعد ذلك يتنفس الهواء ، فبنفس هذه العناصر التى كان منها الخَلْق يكون بها الهلاك .

والحق ـ سبحانه وتعالى ـ يريد من خَلْقه أنْ يُقبلوا على الكون فى كل مظاهره وآياته بيقظة ليستنبطوا ما فيه من مواطن العبر والأسرار ؛ لذلك نجد أن كل الاكتشافات جاءت ، نتيجة دِقَّة الملاحظة لظواهر الكون .

ويلفتنا ربنا إلى أهمية العلم التجريبى ، فيقول : ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥) ﴾ [يوسف] فينبغى إذن أن نتأمل فيما نرى وما توصَّل الإنسان إلى عصر البخار وإلى قانون الطَّفْو عند أرشميدس ، وما توصل إلى الكهرباء والجاذبية والبنسلين إلا بالتأمل الدقيق لظواهر الأشياء . لذلك فالملاحظة هى أساس كل علم تجريبى أولاً ، ثم التجريب ثانياً ، ثم إعادة التجريب لتخرج النتيجة العلمية .

والهواء سبب أساسى فى حياة الإنسان ، وبه يحدث التوازن فى الكون ، لكن إنْ أراد الحق سبحانه جعله زوبعة أو إعصاراً مدمراً . وسبق أن قلنا : إنك تصبر على الطعام شهراً ، وعلى الماء عشرة أيام ، لكن لا تصبر على الهواء إلا بمقدار شهيق وزفير ، فالهواء إذن أهم سبب من أسباب بقاء الحياة ؛ لذلك نسمعهم يقولون فى شدة الكيد : (والله لأكتم أنفاسه) لأنها السبيل المباشر إلى الموت ؛ لذلك فالهواء عامل أساسى فى وسائل الإهلاك المذكورة .

وبالهواء تحفظ الأشياء توازنها ، فالجبال العالية والعمارات الشاهقة ما قامت بقوة المسلحات والخرسانات ، إنما بتوازن الهواء ، بدليل أنك

لو فرَّغْتَ جانباً منها من الهواء لانهارتْ فى هذا الجانب فوراً .

وبهذه النظرية يحدث الدمار بالقنابل ؛ لأنها تعتمد على نظرية تفريغ الهواء وما يسمونه مفاعل القبض ومفاعل البسط ، فما قامتْ الأشياء من حولك إلا لأن الهواء يحيط بها من كل جهاتها .

وقلنا : إن القرآن الكريم حينما يحدثنا عن الهواء يحدثنا عنه بدقة الخالق الخبير ، فكل ريح مفردة جاءت للتدمير والإهلاك ، وكل ريح بصيغة الجمع للنماء والخير والإعمار ، واقرأ إن شئت قوله تعالى : ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ .. (٢٢) ﴾ [الحجر]

وقوله سبحانه ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ [1] عَاتِيَةٍ (٦) ﴾ [الحاقة] لأنها ريح واحدة تهبُّ من جهة واحدة فتدمر .

ثم تُختم الآية بهذه الحقيقة : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٠) ﴾ [العنكبوت] لأن الخالق ـ عز وجل ـ كرَّم الإنسان ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ .. (٧٠) ﴾ [الإسراء] كرَّمه من بين جميع المخلوقات بالعقل والاختيار ، فإذا نظرتَ فى الكون واستقرأتَ أجناس الوجود لوجدتَ الإنسان سيد هذا الكون كله .

فالأجناس فى الكون مرتبة : الإنسان ودونه مرتبة الحيوان ، ثم النبات ، ثم الجماد ، فالجماد إذا أخذ ظاهرة من ظواهر فَضْل الحق عليه من النمو يصير نباتاً ، وإذا أخذ النبات ظاهرة من ظواهر فيض الحق على الخَلْق فأعطاه مثلاً الإحساس يصير حيواناً ، فإذا تجلى عليه الحق سبحانه بفضله وأعطاه نعمة العقل يصير إنساناً .

---

(١) الريح الصرصر : شديدة البرد . وقيل : شديدة الصوت . وقال الأزهرى : شديدة البرد جداً . [لسان العرب ـ مادة : صرر] .

لكن هل النبات حين يأخذ خاصية النمو فَفُضِّل عن الجماد يخرج عن الجمادية ؟ لا إنما تظل فيه الجمادية بدليل أنه إذا امتنع عنه النمو يعود جماداً كالحجر ، وكذلك الحيوان أخذ ظاهرة الحسِّ وتميَّز بها عن النبات ، لكن تظل فيه النباتية حيث ينمو ويكبر .

والإنسان وهو سيد الكون الذى كرَّمه ربه بالعقل تظل فيه الجمادية بدليل أثر الجاذبية عليه ، فإذا ألقى بنفسه من مكان عالٍ لا يستطيع أن يمسك نفسه فى الهواء ، وكذلك تظل فيه النباتية والحيوانية . ففيه إذن كل خصائص الأجناس الأخرى دونه ، ويزيد عليهم بالعقل .

لذلك لا يكلّفه الله إلا بعد أنْ ينضج عقله ويبلغ ، وبشرط أن يسلم من العطب فى عقله كالجنون مثلاً ، وأن يكون مختاراً فالمكره لا تكليفَ عليه ؛ لأنه غير مختار .

والإنسان الذى كرَّمه ربه بالعقل والاختيار ، وفضَّله على كل أجناس الوجود لا يليق به أن يخضع أو يعبد إلا أعلى منه درجة ، أما أنْ يتدنى فيعبد ما هو أقل منه رتبة ، فهذا شىء عجيب لا يليق به ، فالعابد لا بُدَّ أنْ يكون أدنى درجةً من المعبود ، وأنت بالحكم أعلى درجةً مما تحتك من الحيوان والنبات والجماد ، فكيف تجعله يتصرف فيك ، مع أنه من تصرفاتك أنت حين تُوجِده نَحْتاً ، وتقيمه فى المكان الذى تريده وإن انكسر تصلحه ؟!!

إذن : كرَّمك ربك ، وأهنْتَ نفسك ، ورضيت لها بالدونية ، جعلك سيداً وجعلت نفسك عبداً لأحقر المخلوقات ؛ لذلك يقول تعالى فى

الحديث القدسى « يا ابن آدم ، خلقتُك من أجلى ، وخلقتُ الكون كله من أجلك ، فلا تشتغل بما هو لك عما أنت له »[(١)] .

إذن : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ .. (٤٠) ﴾ [العنكبوت] أى : لا ينبغى لله تعالى أنْ يظلمهم ، فساعةَ تسمع ما كان لك أنْ تفعل كذا ، فالمعنى أنك تقدر على هذا ، لكن لا يصح منك ، فالحق سبحانه ينفى الظلم عن نفسه ، لا لأنه لا يقدر عليه ، إنما لأنه لا ينبغى له أنْ يظلم ؛ لأن الظلم يعنى أن تأخذ حقَّ الغير ، والله سبحانه مالك كل شىء ، فلماذا يظلم إذن .

ومثال ذلك نَفْى انبغاء قول الشعر من رسول الله ﷺ كما قال سبحانه : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ .. (٦٩) ﴾ [يس] فالنبى ﷺ كان يستطيع أن يقول شعراً ، فلديه كل أدواته ، لكن لا ينبغى للرسول أن يكون شاعراً ؛ لأنهم كذابون ، وفى كل واد يهيمون ، ففَرْق بين انبغاء الشىء ووجوده فعلاً .

ويؤكد هذا المعنى قوله تعالى : ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (٤٦) ﴾ [فصلت] بصيغة المبالغة ظلام ، ولم يقل ظالم ، لماذا ؟ لأن الله تعالى إنْ أباح لنفسه سبحانه الظلم ، فسيأتى على قَدْر قوته تعالى ، فلا يقال له ظالم إنما ظلاَّم ـ وتعالى الله عن هذا عُلُواً كبيراً .

ولما تكلمنا عن المبالغة وصيغها قلنا : إن المبالغة قد تكون فى الحدث ذاته ، كأن تأكل فى الوجبة الواحدة رغيفاً ، ويأكل غيرك خمسة مثلاً ، أو تكون فى تكرار الحدث ، فأنت تأكل ثلاث وجبات ، وغيرك يأكل ستاً ، فنقول : فلان آكل ، وفلان أكُول أو أكال ، فالمبالغة نشأتْ إما من تضخيم الحدث ذاته ، أو من تكراره .

---

(١) أخرج أحمد فى مسنده (٢/٣٥٨) عن أبى هريرة رفعه : « قال الله : ابن آدم ، تفرغ لعبادتى أملأ صدرك غنىً ، وأسُدُّ فقرك ، وإلا تفعل ملأت صدرك شغلاً ، ولم أسدّ فقرك » .
وقال ابن كثير فى تفسيره (٤/٢٣٨) : « ورد فى بعض الكتب الإلهية : يقول الله تعالى : ابن آدم خلقتك لعبادتى فلا تلعب ، وتكفلت برزقك فلا تتعب ، فاطلبنى تجدنى ، فإن وجدتنى وجدت كل شىء ، وإن فُتُّك فاتك كل شىء ، وأنا أحبُّ إليك من كل شىء » .

ففى قوله تعالى : ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (٤٦)﴾ [فصلت] لم يقل للعبد ، إذن : تعدُّد الناس يقتضى تعدُّد الظلم - إن تُصور - فجاء هنا بصيغة المبالغة (ظَلَّام) .

وهناك قضية لغوية فى مسألة المبالغة تقول : إن نَفْى المبالغة لا ينفى الأصل ، وإثبات الأصل لا يثبت المبالغة ، فحين نقول مثلاً : فلان أكول ، فهو آكل من باب أَوْلَى ، وحين نقول : فلان آكل ، فلا يعنى هذا أنه أكول . فنَفْى المبالغة فى ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (٤٦)﴾ [فصلت] لا ينفى الأصل (ظالم) ، وحاشا لله تعالى أن يكون ظالماً .

وقوله تعالى : ﴿وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٠)﴾ [العنكبوت] وظلمهم لأنفسهم جاء من تدنّيهم وإهانتهم لأنفسهم بالكفر بعد أنْ كرّمهم الله ، وكان عليهم أنْ يُصعِّدوا هذا التكريم ، لا أن يُهينوا أنفسهم بعبادة الأدنى منهم .

وبعد أن حدثتنا الآيات عن الكافرين الذين اتخذوا الشركاء مع الله ، وعن المكذِّبين للرسل وما كان من عقابهم ، تعطينا مثلاً يُقرِّب لنا هذه الحقائق ، فيقول سبحانه :

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ (٤١)﴾

كلمة (مَثَلُ) وردت بمشتقاتها فى القرآن الكريم مرات عدة ، ومادة الميم والثاء واللام جاءت لتعبر عن معنى يجب أنْ نعرفه ، فإذا

قيل (مِثْل) بسكون الثاء ، فمعناها التشبيه ، لكن تشبيه مفرد بمفرد .

كما فى قوله تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ .. (١١)﴾ [الشورى] وقوله تعالى : ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا .. (٤٠)﴾ [الشورى]

أما (مَثَل) بالفتح ، فتعنى تشبيه قصة أو متعدّد بمتعدّد ، كما فى قوله تعالى : ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ .. (٤٥)﴾ [الكهف]

فالحق - سبحانه وتعالى - لا يُشبِّه شيئاً بشىء إنما يُشبه صورة متكاملة بصورة أخرى : فالحياة الدنيا فى وجودها وزهرتها وزخرفها وخضرتها ومتاعها ، ثم انتهائها بعد ذلك إلى زوال مثل الماء حين ينزل من السماء فيختلط بتربة الأرض ، فينبت النبات المزهر الجميل ، والذى سرعان ما يتحول إلى حطام .

لذلك اعترض بعض المتمحكين على أسلوب القرآن فى قول الحق سبحانه وتعالى عن موسى عليه السلام : ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ .. (٥٩)﴾ [آل عمران]

ووجه اعتراضه أن (مَثَل) جاءت تُشبه مفرداً بمفرد ، وهو عيسى بآدم عليهما السلام ، ونحن نقول : إنها تشبه صورة متكاملة بأخرى ونقول : هذا الاعتراض ناتج عن عدم فهم المعنى المراد من الآية ، فالحق سبحانه لا يُشبِّه عيسى بآدم كأشخاص ، إنما يُشبِّه قصة خَلْق آدم بقصة خلق عيسى ، فآدم خُلِق من غير أب ، وكذلك عيسى خُلِق من غير أب .

والمعنى : إنْ كنتم قد عجبتم من أن عيسى خُلِق بدون أب ، فكان

ينبغى عليكم أنْ تعجبُوا أكثر من خَلْق آدم ؛ لأنه جاء بلا أب وبلا أم ، وإذا كنتم اتخذتم عيسى إلهاً ؛ لأنه جاء بلا أب ، فالقياس إذنْ يقتضى أن تكون الفتنة فى آدم لا فى عيسى .

والمسألة أن الله تعالى شاء أن يعلن خلْقه عن طلاقة قدرته فى أنه لا يخلق بشكل مخصوص ، إنما يخلق كما يشاء سبحانه من أب وأم ، أو من دون أب ، ومن دون أم ، ويخلق من أب فقط ، أو من أم فقط .

إذن : هذه المسألة لا تخضع للأسباب ، إنما لإرادة المسبِّب سبحانه ، فإذا أراد قال للشىء : كُنْ فيكون . وقد يجتمع الزوجان ، ويكتب عليهما العقم ، فلا ينجبان ، وقد يصلح الله العقيم فتلد ، ويُصلح العجوز فتنجب - والأدلة على ذلك واضحة - إذن : فطلاقة القدرة فى هذه المسألة تستوعب كل الصور ، بحيث لا يحدها حدٌّ .

والحق سبحانه حين يضرب لنا الأمثال يريد بذلك أنْ يُبيِّن لنا الشىء الغامض بشىء واضح ، والمبهم بشىء بيِّن ، والمجمل بشىء مُفصَّل ، وقد جرى القرآن فى ذلك على عادة العرب ، حيث استخدموا الأمثال فى البيان والتوضيح .

ويُحكَى أن أحدهم ، وكان صاحب سمعة طيبة وسيرة حسنة بين الناس ، فحسده آخر ، وأراد أنْ يلصق به تهمة تُشوِّه صورته ، وتذهب بمكانته بين الناس فاتهمه بالتردد على أرملة حسناء ، وقد رآه الناس فعلاً يذهب إلى بيتها ، فتخرج له امرأة فيعطيها شيئاً معه .

ولما تحقق الناس من المسألة وجدوها عجوزاً لها أولاد صغار وهم فقراء ، وهذا الرجل يعطف عليهم ويفيض عليهم مما رزقه الله ، فلما عرفوا ذلك عن الرجل عظَّموه ، ورفعوا من شأنه ، وزاد فى نظرهم مجداً وفضلاً .

وقد أخذ الشاعر هذا المعنى وعبَّر عنه قائلاً مستخدماً المثل :

وإذَا أَرادَ اللهُ نَشْرَ فَضِيلةٍ طُوِيَتْ أَتَــاحَ لَهَــا لِسَــانَ حَسُــود
لَوْلاَ اشْتِعالُ النارِ فيما جَاورَتْ مَا كان يعرف طِيب عَرْفِ العُودِ

والعود نوع من البخور ، طيب الرائحة ، لا تنتشر رائحته إلا حين يُحرَق .

ومن مشتقاتها أيضاً (مَثُلَة) كما فى قوله تعالى : ﴿وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلاتُ .. (٦)﴾ [الرعد] وهى العقوبات التى حاقتْ بالأمم المكذِّبة ، حتى جعلتها عبرةً لغيرها .

فإذا اشتهر المثَل انتشر على الألسنة ، وضربه الناس مثلاً كما اشتهر حاتم الطائى بالكرم والجود حتى صار مضرب المثل فيه ، وقد تشتهر بيننا عبارة موجزة ، فتصير مثلاً يضرب فى مناسبها كما نقول للتلميذ الذى يهمل طوال العام ، ثم يجتهد ليلة الامتحان (قبل الرماء تملأ الكنائن) مع الاحتفاظ بنص المثل فى كل مناسبة ، وإن لم يكُنْ هناك رمى ولا كنائن .

كما أن المثَل يقال كما هو دون تغيير ، سواء أكان للمفرد ، أم المثنى ، أم الجمع المذكر ، أو للمؤنث . كذلك نقول (ماذا وراءك يا عصامِ) بالكسر ؛ لأنها قيلت فى أصل المثَل لامرأة .

يقول الحق سبحانه : ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا .. (٤١)﴾ [العنكبوت]

فهذا مثل فى قمة العقيدة ، ضربه الله لنا للتوضيح وللبيان ، ولتقريب المسائل إلى عقولنا ، وإياك أن تقول للمثل الذى ضربه الله

لك : ماذا أراد الله بهذا ؟ لأن الله تعالى قال : ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا .. (٢٦)﴾ [البقرة]

فالبعض يرى أن البعوضة هذه شيء تافه ، فكيف يجعله الله مثلاً ؟ والتحقيق أن البعوضة خَلْق من خَلْق الله ، فيها من العجائب والأسرار ما يدعوك للتأمل والنظر ، وليست شيئاً تافهاً كما تظن ، بل يكفيك فَخْراً أنْ تصل إلى سرِّ العظمة فيها .

ففى هذا المخلوق الضئيل كل مُقوِّمات الحياة والإدراك ، فهل تعرف فيها موضع العقل وموضع جهازها الدموى .. إلخ وفضلاً عن الذباب والناموس وصغار المخلوقات ألا ترى الميكروبات التى لا تراها بعينك المجردة ومع ذلك يصيبك وأنت القوى بما يؤرقك وينغص عليك .

إذن : لا تقُلْ لماذا يضرب الله الأمثال بهذه الأشياء لأن الله ﴿لا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا .. (٢٦)﴾ [البقرة] ما فوقها أى : فى الصِّغَر والاستدلال . أى : ما دونها صغَراً ؛ لأن عظمة الخلق كما تكون بالشيء الأكثر ضخامة تكون كذلك بالشيء الأقلّ حجماً الأكثر دِقَّة .

لو نظرتَ مثلاً إلى ساعة (بج بن) وهى أضخم وأشهر ساعة فى العالم ، وعليها يضبط العالم الوقت لوجدتَها شيئاً ضخماً من حيث الحجم ليراها القادم من بعيد ، ويستطيع قراءتها ، فدلَّتْ على عظمة الصَّنْعة ومهارة المهندسين الذين قاموا ببنائها ، فعظمتها فى ضخامتها وفخامتها ، فإذا نظرتَ إلى نفس الساعة التى جعلوها فى فصِّ الخاتم لوجدتَ فيها أيضاً عظمة ومهارة جاءت من دِقَّة الصنعة فى صِغَر الحجم .

كذلك الراديو أول ما ظهر كان فى حجم (النورج) ، والآن أصبح صغيراً فى حجم الجيب .

ومن مخلوقات الله ما دق ؛ لدرجة أنك لا تستطيع إدراكه بحواسك ، والعجيب أن يطلب الإنسان أنْ يرى الله جهرة ، وهو لا يستطيع أنْ يرى آثار خَلْقه وصَنْعته . فأنت لا ترى الجن ، ولا ترى الميكروب والجراثيم ، ولا ترى حتى روحك التى بين جنبيك والتى بها حياتُك ، لا يرى هذه الأشياء ولا يدركها بوسائل الإدراك الأخرى ، فمن عظمته تعالى أنه يدرك الأبصار ، ولا تدركه الأبصار .

نعود إلى المثَل الذى ضربه الله لنا : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ .. (٤١) ﴾ [العنكبوت] أى : شركاء وشفعاء ﴿ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ .. (٤١) ﴾ [العنكبوت] هذا المخلوق الضعيف الذى ينسج خيوطه بهذه الدقة التى نراها ، والذى نسج خيوطه على الغار فى هجرة رسول الله ﷺ ، واشترك مع الحمامة فى التعمية على الكفار .

﴿ اتَّخَذَتْ بَيْتًا .. (٤١) ﴾ [العنكبوت] أى : من هذه الخيوط الواهية ﴿ وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ .. (٤١) ﴾ [العنكبوت] فخطأ العنكبوت ليس فى اتخاذ البيت ، إنما فى اتخاذ هذه الخيوط الواهية بيتاً له وهبّة ريح كافية للإطاحة بها ، ويشترط فى البيت أن يكون حصيناً يحمى صاحبه ، وأن تكون له أبواب ونوافذ وحوائط .. إلخ . أما لو اتخذها شبكة لصيد فرائسه لكان أنسب ، وكذلك الكفار اتخذوا من الأصنام آلهة ، ولو اتخذوها دلالة على قدرة الحق فى الخَلْق لكان أنسب وأجْدى .

وكما أن بيت العنكبوت تهدمه هَبَّة ريح وتُقطعه وأنت مثلاً تنظف بيتك ، وربما تقتل العنكبوت نفسه ، فكذلك طبْق الأصل يفعل الله بأعمال الكافرين : ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا (٢٣) ﴾ [الفرقان]

وكذلك يضرب لهم مثلاً آخر : ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ .. (١٨)﴾ [إبراهيم]

ومعنى : ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٤١)﴾ [العنكبوت] أى : حقيقة الأشياء ، فشبكة العنكبوت لا تصلح بيتاً ، ولكن تصلح مصيدةً للحشرات ، وكذلك الأصنام والأحجار لا تنفع لأنْ تكون آلهة تُعبد ، إنما لأنْ تكون دلالة على قدرة الخالق ـ عز وجل ـ فلو فكَّروا فيها وفى أسرار خَلْقها لاهتدوا من خلالها للإيمان .

فهى ـ إذن ـ دليلُ قدرة لو كانوا يعلمون ، فالجبل هذا الصخر الذى تنحتون منه أصنامكم هو أول خادم لكم ، ولمن هو أدْنى منكم من الحيوان والنبات ، وسبق أن قلنا : إن الجماد يخدم النبات ، ويخدم الحيوان ، وهم جميعاً فى خدمة الإنسان .

إذن : فالجماد خادم الخدامين ، ومع ذلك جعلتموه إلهاً ، فانظروا إذن إلى هذه النقلة ، وإلى خسَّة فكركم ، وسوء طباعكم حيث جعلتم أدنى الأشياء وأحقرها أعلى الأشياء وأشرفها ـ أى : فى زعمكم .

فكيف وقد ميَّزك الله على كل الأجناس ؟ لقد كان ينبغى منك أن تبحث عن شىء أعلى منك يناسب عبادتك له ، وساعتها لن تجد إلا الله تتخذه إلهاً .

بل واقرأ إنْ شئْتَ عن الجماد قوله تعالى : ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا .. (١٠)﴾ [فصلت] أى : فى الأرض ﴿وَرَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ (١٠)﴾ [فصلت]

فكأن الجبال الصَّماء الراسية هى مخازن القوت للناس على مَرِّ

الزمان ، فمنها تتفتت الصخور ، ويتكوَّن الطمى الذى يحمله إلينا الماء فى أيام الفيضانات ، ومنها تتكون الطبقة المخصبة فى السهول والوديان ، فتكون مصدر خصْب ونماء دائم ومتجدد لا ينقطع . وتذكرون أيام الفيضان وما كان يحمله نيل مصر إلينا من خير متجدد كل عام ، وكيف أن الماء كان يأتينا أشبه ما يكون بالطحينة من كثرة ما به من الطمى .

فياليت عُبَّاد الأصنام الذين نحتوا الصخور أصناماً تأملوا هذه الآيات الدالة على قدرة الخالق سبحانه بدل أن يعبدوها من دون الله .

وفى موضع آخر يضرب لنا الحق سبحانه مثلاً فى قمة العقيدة أيضاً ، فيقول سبحانه :

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٢٩) ﴾ [الزمر]

ففَرْق بين عبد مملوك لسيد واحد يتلقَّى منه وحده الأمر والنهى ، وبين عبد مملوك لعدة شركاء ، وليتهم متفقون ، لكن ﴿ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ .. (٢٩) ﴾ [الزمر] مختلفون لكلٍّ أوامر ، ولكلٍّ منهم مطالب ، فكيف إذن يُرضيهم ؟ وكيف يقوم بحقوقهم وهم يتجاذبونه ؟

فالذى يعبد الله وحده لا شريك له كالعبد لسيد واحد ، والذين يعبدون الأصنام كالعبد فيه شركاء متشاكسون . إذن : فالحق سبحانه يضرب الأمثال للناس فى الحقائق ليُبيِّنها لهم بياناً واضحاً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (٤٢) ﴾

يقول سبحانه : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ .. (٤٢)﴾ [العنكبوت] لأنهم حين ضُيِّق عليهم الخناق قالوا : نحن لا نعبد الأصنام ، إنما نعبد الكواكب التى تُسيِّر هذه الأصنام أو الملائكة ، فردَّ الله عليهم : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ .. (٤٢)﴾ [العنكبوت] وقوله هنا ﴿مِن شَيْءٍ .. (٤٢)﴾ [العنكبوت] للتقليل ، كأنَّ ما يدعونه من دونه لا يُعَد شيئاً ، أو هو أتفه من أن يكون شيئاً ، أو يعلم سبحانه ما يدعون من دونه من أى شىء .

أو أن (شىء) من قولنا : شاء يشاء شيئاً ، فالشىء ما يُراد من الغير أنْ يفعله ، والذى شاء هو الله تعالى ، وكأنهم يعبدون الشىء ويتركون خالقه ، وهو الأحقُّ بالعبادة سبحانه . فماذا جرى لكم ؟! تعبدون المخلوق وتتركون الخالق ، وبعد أن كرمكم الله تهينون أنفسكم ، وترضون لها الدون ، حيث تعبدون ما هو أقلّ منكم مرتبةً فى الخَلْق ، والأصنام جمادات ، وهى أدنى أجناس الوجود .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٤٢)﴾ [العنكبوت] العزيز الذى يَغْلب ، ولا يُغلب ، وهو الحكيم فى كُلِّ ما قضى وأمر .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ (٤٣)﴾

فمَنْ يسمع المثل من الله تعالى ثم لا يعقله فليس بعالم ؛ لذلك ليسوا علماء الذين اعترضوا على قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا .. (٢٦)﴾ [البقرة] حيث استقلُّوا

البعوضة ، ورأوها لا تستحق أنْ تُضرب مثلاً .

ونقول لهم : أنتم لستم عاقلين ولا عالمين بدقة المثل ، واقرأوا : ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ .. (٧٣)﴾ [الحج] بل وأكثر من ذلك ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ .. (٧٣)﴾ [الحج]

دَعْك من مسألة الخَلْق ، وتعالَ إلى أبسط شيء فى حركة حياتنا إذا وقع الذباب على طعامك ، فأخذ منه شيئاً أتستطيع أن تسترده منه مهما أُوتيتَ من القوة والجبروت ؟

إذن : فالذبابة ليست شيئاً تافهاً كما تظنون ، بل وأقلّ منها الناموس (والميكروب) وغيره مما لا يُرَى بالعين المجردة مخلوقات لله ، فيها أسرار تدلُّ على قدرته تعالى .

كما قال سبحانه : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا .. (٢٦)﴾ [البقرة] أى : ما فوقها فى الصِّغَر ، ولك أن تتأمل البعوضة ، وهى أقلّ حجماً من الذباب ، وكيف أن لها خرطوماً دقيقاً ينفذ من الجلد ، ويمتصّ الدم الذى لا تستطيع أنت إخراجه إلا بصعوبة ، (والميكروب) الذى لا تراه بعينك المجردة ومع ذلك يتسلل إلى الجسم فيمرضه ، ويهدّ كيانه ، وربما انتهى به إلى الموت .

إذن : ففى هذه المخلوقات الحقيرة فى نظرك عبر وآيات ، لكن لا يعقلها إلا العالمون ، ومعظم هذه الآيات والأسرار اكتشفها غير مؤمنين بالله ، فكان منهم مَنْ عقلها فآمن ، ومَنْ لم يعقلها فظلَّ على كفره مع أنه أَوْلَى الناس بالإيمان بالله ؛ لأن لديه من العلم ما يكتشف به أسرار الخالق فى الخَلْق . لذلك جاء فى الأثر : « العالم الحق هو

الذى يعلم مَنْ خلقه ، ولِمَ خلقه » .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾

أراد الحق سبحانه أن يبرهن لنا على طلاقة قدرته تعالى ، فقال : ﴿ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ .. ﴿٤٤﴾ ﴾ [العنكبوت] والخَلْق : إيجاد المعدوم ، لكن لغرض مخصوص ، ولمهمة يؤديها ، فإنْ خلقت شيئاً هكذا كما اتفق دون هدف منه فلا يُعَد خلقاً .

ومسألة الخَلْق هذه هى الوحيدة التى أقرَّ الكفار بها لله تعالى ، فلما سألهم : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ .. ﴿٢٥﴾ ﴾ [لقمان] فلماذا أقرُّوا بهذه بالذات ؟ ولماذا ألجمتهم ؟

هذا ليس عجيباً منهم ؛ لأننا نشاهد كل مَنْ يأتى بجديد فى الكون حريصاً على أنْ ينسبه لنفسه ، وعلى أنْ يُبيِّن للناس مجهوداته وخبراته ، وأنه اخترع كذا أو اكتشف كذا ، كالذى اكتشف الكهرباء أو اخترع (التليفون أو التليفزيون) .

ما زِلْنا حتى الآن نذكر أن قانون الطفو لأرشميدس ، وقانون الجاذبية لنيوتن ، والناس تسجل الآن براءات الاختراع حتى لا يسرق أحد مجهودات أحد ، ولتحفظ لأصحاب التفوق العقلى والعبقرى ثمرة عبقريتهم .

وكذلك كان العرب قديماً يذكرون لصاحب الفضل فَضْله ، حتى

إنهم يقولون : فلان أول مَنْ قال مثلاً : أما بعد[١] . وفلان أول من فعل كذا .

إذن : فنحن نعرف الأوائل فى كل المجالات ، وننسب كل صنعة وكل اختراع واكتشاف إلى صاحبه ، بل ونُخلِّد ذكراه ، ونقيم له تمثالاً .. إلخ .

إذن : فما بالك بالخالق الأعظم سبحانه الذى خلق السموات والأرض وما فيهما ومَنْ فيهما ، أليس من حقه أن يعلن عن نفسه ؟ أليس من حقه على عباده أن يعترفوا له بالخَلْق ؟ خاصة وأن خَلْق السموات والأرض لم يدَّعه أحد لنفسه ، ولم ينازع الحق فيه منازع ، ثم جاءنا رسول من عند الله تعالى يخبرنا بهذه الحقيقة ، فلم يوجد معارض لها ، والقضية تثبُت لصاحبها إلى أنْ يوجد معارض .

وقد مثَّلنا لهذه المسألة ـ ولله المثل الأعلى ـ بجماعة جلسوا فى مجلس ، فلما انفضَّ جمعهم وجد صاحب البيت محفظة نقود لواحد منهم ، فسألهم : لمن هذه المحفظة ؟ فقالوا جميعاً : ليست لى إلا واحد منهم قال : هى محفظتى ، فهل يشكُّ صاحب البيت أنها لمن ادَّعاها ؟

ولك أنْ تسأل : ما دام الحق سألهم ﴿مَّنْ خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ .. (٢٥)﴾ [لقمان] فقالوا (الله) فلماذا يذكر الله هذه القضية ؟ قالوا : الحق ـ تبارك وتعالى ـ لا يريد بهذه الآية أن يخبرنا أنه خالق السموات والأرض ، إنما يريد أن يخبرنا أن خَلْق السموات والأرض

---

(١) عن أبى موسى الأشعرى قال : « أول من قال أما بعد داود النبى عليه السلام . قال : وهو « فصل الخطاب » أخرجه ابن أبى عاصم فى الأوائل (حديث ١٩١) والطبرانى فى الأوائل (٤٠) . وعزاه السيوطى فى الوسائل (١١٧) لابن أبى حاتم والديلمى عن أبى موسى .

بالحق ، والحق : الشىء الثابت الذى لا يتغير مع الحكمة المترتبة على كل شىء فى الوجود ، فإذا نظرنا إلى خَلْق السموات والأرض لوجدناه ثابتاً لم يتغير شىء فيه .

لذلك يقول سبحانه : ﴿لَخَلْقُ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ.. (٥٧)﴾ [غافر]

فالسموات والأرض خَلْق هائل عظيم ، بحيث لو قارنته بخَلْق الإنسان لكان خَلْق الإنسان أهون . وانظر مثلاً فى عمر السموات والأرض وفى عمر الإنسان : أطول أعمار البشر التى نعلمها حتى الآن عمر نوح عليه السلام ، وبعد هذا العمر الذى نراه طويلاً انتهى إلى الموت ، فعمر الإنسان معلوم يكون سنة واحدة ، أو ألف سنة لكن لا بُدَّ أن يموت .

أما السموات والأرض وما فيها من مخلوقات إنما خُلقت لخدمة الإنسان ، فالخادم عمره أطول من المخدوم ، فالشمس مثلاً خلقها الله تعالى من ملايين السنين ، ومازالت كما هى لم تتغير ، ولم تتخلف عن مهمتها ، وكذلك القمر : ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥)﴾ [الرحمن]

أى : بحساب دقيق ؛ لذلك يقولون : سيحدث كسوف مثلاً أو خسوف يوم كذا الساعة كذا ، وفى نفس الوقت يحدث فعلاً كسوف للشمس أو خسوف للقمر مما يدلّ على أنهما خُلقا بحساب بديع دقيق ، ويكفى أننا نضبط على الشمس مثلاً ساعاتنا ، ومع ما عُرف عن الشمس والقمر من كِبَر حجمهما ، فإنهما يسيران فى مسارات وأفلاك دون صدام ، كما قال تعالى : ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٣٣)﴾ [الأنبياء]

هذا كله من معنى خَلْق السموات والأرض بالحق . أى : بنظام

ثابت دقيق منضبط لا يتغير ولا يتخلف فى كُلِّ مظاهره ، فأنت أيها الإنسان يمكن أنْ تتغير ؛ لأن الله جعل لك اختياراً فتستطيع أن تطيع أو أن تعصى ، تؤمن أو والعياذ بالله تكفر ، لكن خَلْق السموات والأرض جاء على هيئة القهر والتسخير ، وإن كانت مختارة بالقانون العام والاختيار الأول ، حيث قال تعالى : ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً (٧٢)﴾ [الأحزاب]

إذن : خُيِّرت فاختارت ألاَّ تختار ، وخرجت عن مرادها لمراد ربها .

ثم يقول سبحانه : ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ (٤٤)﴾ [العنكبوت] لماذا قال (للمؤمنين) مع أنها آية للناس جميعاً ؟ وسبق أنْ خاطب الله الكافرين ﴿مَّنْ خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ .. (٢٥)﴾ [لقمان] فلماذا خصَّ هنا المؤمنين دون الكافرين ؟

قالوا : هناك فَرْق بين خَلْق السموات والأرض ، وبين كَوْنها مخلوقة بالحق ، فالجميع يؤمن بأنها مخلوقة ، لكن المؤمنين فقط هم الذين يعرفون أنها مخلوقة بالحق .

يقول الحق سبحانه :

﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ
وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ
عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ
أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾

بعد أن ذكر الله تعالى بعض مواكب الرسل فى إبراهيم وفى موسى ونوح وصالح وهود ولوط وفى شعيب ، ثم تكلَّم سبحانه عن الذين كذبوا هؤلاء الرسل ﴿فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ .. (٤٠)﴾ [العنكبوت] أراد سبحانه أن يُسلِّى رسوله ﷺ بأن لا يزعجه ، ولا يرهقه ، أو يتعب نفسه موقف الكافرين به الذين يصدون عن سبيل الله ، ويقفون من الدعوة موقف العداء .

فقال له مُسلِّياً : ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ .. (٤٥)﴾ [العنكبوت] يعنى : لِمَ تحزن يا محمد ومعك الأُنْس كله ، الأُنْس الذى لا ينقضى ، وهو كتاب الله ومعجزته التى أنزلها إليك ، فاشتغل به ، فمع كل تلاوة له ستجد سكناً إلى ربك .

وإذا كان هؤلاء الذين عاصروك لم يؤمنوا به ، ولم يلتفتوا إلى مواطن الإعجاز فيه فداوم أنت على تلاوته عَلَّ الله يأتى من هؤلاء بذرية تصفو قلوبهم لاستقبال إرسال السماء ، فيؤمنون بما جحده هؤلاء ، والأمر بالتلاوة لبقاء المعجزة .

﴿اتْلُ .. (٤٥)﴾ [العنكبوت] اقرأ ولا تعجز ولا تيأس ، فالقرآن سلوة لنفسك ؛ لأن الذى يرسل رسولاً من البشر بشىء أو فى أمر من الأمور ، ثم يكذب يرجع إلى مَنْ أرسله ، فما دام قومك قد كذَّبوك ، فارجع إلىَّ بأن تستمع إلى كتابى الذى أنزلتُه معجزة لك تؤيدك ، وانتظر قوماً يأتون يسمعون منك كلام الله ، فيصادف منهم قلوباً صافية ، فيؤمنون به .

وفَرْق بين الفاعل والقابل ، والقرآن يُوضِّح هذه المسألة ، فمن الناس مَنْ إذا سمعوا القرآن تخشع له قلوبهم ، وتقشعر جلودهم ، ومنهم مَنْ إذا سمعوه قالوا على سبيل الاستهزاء ﴿مَاذَا قَالَ آنِفًا ..

(١٦) ﴾ [محمد] تهويناً من شأن القرآن ، ومن شأن رسول الله .

ثم يقرر القرآن هذه الحقيقة : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ[1] وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى .. (٤٤) ﴾ [فصلت]

إذن : فالقرآن واحد ، لكن المستقبل للقرآن مختلف ، فالعبرة فى صفاء الاستقبال لأن الإرسال واحد ، وهل تتهم الإذاعة إنْ كان جهاز (الراديو) عندك معطلاً ، لا يستقبل إرسالها ؟

كذلك مَنْ أراد أن يستقبل إرسال السماء فعليه أنْ يُعِد الأذن الواعية والقلب الصافى غير المشوش بما يخالف إرسال السماء ، عليك أنْ تُخرِج ما فى نفسك أولاً من أضداد للقرآن ، ثم تستقبل كلام الله وتنفعل به .

وسبق أنْ مثَّلْنا لاختلاف المنفعل للفعل بمَنْ ينفخ فى يده وقت البرد بقصد التدفئة ، وبمَنْ ينفخ بنفَسه فى الشاى مثلاً ليبرده ، فهذه للحرارة ، وهذه للبرودة ، الفعل واحد ، لكن المنفعل مختلف .

فقوله تعالى : ﴿ اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ .. (٤٥) ﴾ [العنكبوت] هذه هى مَيْزة معجزتك يا محمد أنك تستطيع أنْ تكرِّرها فى كل وقت ، وأن تتلوها كما تشاء ، وأن يتلوها بعدك مَنْ سمعها ، وستظل تتردد إلى يوم القيامة .

أما معجزات الرسل السابقين فكانت خاصة بمَنْ شاهد المعجزة ، فإذا مات مَنْ شهدها فلا يعرفها أحد بعدهم حتى لو كان معاصراً لها ولم يَرَهَا ، فالذين عاصروا مثلاً انقلاب عصا موسى حية ولم يشاهدوا هذا الموقف ، ماذا عندهم من هذه المعجزة ؟ لا شىء إلا أننا

---

(١) الوقر : ثقل فى السمع أو صمم . [القاموس القويم ٢/٣٥٠] .

نُصدِّقها ونؤمن بها ؛ لأن القرآن أخبرنا بها .

إذن : فمعجزات السابقين تأتى كلقطة واحدة أشبه ما تكون بعود الكبريت الذى يشتعل مرة واحدة ، رآها مَنْ رآها وتنتهى المسألة ، ولكن القرآن حدثنا بكل معجزات الرسل السابقين فانظر إذن ما أصاب الرسل جميعاً من خيرات سيدنا رسول الله ، وكيف خلَّد القرآن ذكرهم ، وامتدت معجزاتهم بامتداد معجزته .

فكأن القرآن أسدى الجميل إلى كل الرسل ، وإلى كل المعجزات ؛ لذلك قال تعالى عن القرآن : ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا[1] عَلَيْهِ .. (٤٨)﴾ [المائدة]

ثم يقول سبحانه : ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ .. (٤٥)﴾ [العنكبوت] ومعلوم أن اتْلُ : التلاوة قَوْل من فعل اللسان و ﴿وَأَقِمِ .. (٤٥)﴾ [العنكبوت] من فعل الجوارح ، والإنسان له جوارح متعددة اشتهر منها خمس هى : العين للإبصار ، والأذن للسمع ، والأنف للشم ، واللسان للتذوق ، والأنامل للَّمس .

فقالوا على سبيل الاحتياط : الجوارح الخمسة الظاهرة وقد ظهر فعلاً مع تقدُّم العلوم اكتشفوا فى الإنسان حواسَّ أخرى ووسائلَ إدراك لم تُعرف من قبل ، كحاسة العضل التى تزن بها ثقل الأشياء ، وإلا فبأىِّ حاسة من حواسِّك الخمسة تعرف الثقل قبل أن ترفع الشىء من على الأرض ؟

وكحاسة البَيْن ، والتى بها تستطيع أنْ تُميِّز بين سُمْك الأشياء

---

(١) المهيمن : الرقيب المسيطر ، والقرآن مهيمن على الكتب السابقة ، أى رقيب عليها وحافظ لما فيها من الحق ، ومسيطر عليها يبين ما فيها من الحق وما أدخله الناس عليها من الباطل . [القاموس القويم ٢/٣٠٨] .

بين أناملك ، فحين تذهب مثلاً إلى تاجر الأقمشة ، فتتناول القماش بين أناملك و (تفركه) برفق ، فتستطيع أن تعرف أن هذا أَسْمَك من هذا .

ومن عجيب الأمر فى مسألة الجوارح أن يأخذ اللسان شطر الجوارح كلها ، ففعل الحواس الخمسة يسمى عملاً ، والعمل ينقسم : إما قول ، وإما فعل . فكل تحريك لجارحة لتؤدى مهمة يسمى عملاً ، لكن عمل اللسان يسمى قولاً ، أما من بقية الجوارح فيسمى فعلاً .

فأخذ اللسان هذه المكانة ؛ لأن به الإنذار من الحق ، وبه التبشير ، وبه البلاغ من الرسول ؛ لذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [الصف]

ولم يقل : ما لا تعملون . لأن القول يقابله الفعل ، وهُما معاً عمل ، والعمل بنية القلب .

لكن ، لماذا اختار الصلاة من بين أعمال الجوارح ؟ قالوا : لأنها قمة العمل كما سماها النبى ﷺ : « الصلاة عماد الدين »[1] وبها نُفرِّق بين المؤمن والكافر . ويبقى السؤال : لماذا أخذتْ الصلاة هذه المكانة من بين أركان الإسلام ؟

ونحب أنْ نشير هنا إلى أن خصوم الإسلام وبعض أهله الذين يخافون من بعثه أنْ يقضى على سلطتهم وطُغْيانهم وجبروتهم يريدون حَصْر الإسلام فى أركانه الخمسة ، فإنْ قُلْت بهذه المقولة

---

(١) قال الحافظ العراقى فى تخريجه للإحياء (١/١٤٧) : « رواه البيهقى فى الشُّعَب بسند ضعفه من حديث عمر » . وقال الملا على القارى فى « الأسرار المرفوعة » (حديث ٥٧٨) : « قال ابن الصلاح فى مشكل الوسيط : إنه غير معروف وقال النووى فى التنقيح : إنه منكر باطل . لكن رواه الديلمى عن على كما ذكره السيوطى فى الدرر المنتثرة (حديث ٢٧٩) .

لا يتعرضون لك ، وأنت حر فى إطار أركان الإسلام هذه ، لكن إياك أن تقول : إن الإسلام جاء ليُنظِّم حركة الحياة ؛ لأن حظهم فى حَصْر الإسلام فى أركانه فقط .

وما فَهم هؤلاء أن الأركان ليست هى كل الإسلام ، إنما هى أُسُسه وقواعده التى يقوم عليها بناؤه ، لكنهم يريدون أنْ يعزلوا الإسلام عن حركة الحياة . فنقول لهم : نعم ، هذه أركان الإسلام ، أمَّا الإسلام فيشمل كل شىء فى حياتنا ، بدايةً من قمة العقيدة فى قولنا : لا إله إلا الله محمد رسول الله إلى إماطة الأذى عن الطريق ؛ لأن الإسلام دين يستوعب كل أقضية الحياة ، كيف لا وهو يُعلِّمنا أبسط الأشياء فى حياتنا .

ألاَ تراه يهتم بأحكام قضاء الحاجة ودخول الخلاء ، وما يتعلق به من آداب وأحكام ؟ ألاَ ترى أن صاحب الحِسْبة[1] المكلَّف بمراقبة الأسواق ، وتنفيذ أحكام منهج الله فى الأَرض إذا رأى جزاراً ينفخ ذبيحته بفمه يقوم بإعدام هذه الذبيحة ؛ لأن الهواء المستخدم فى نفخها هواء غير صحى ، فهو زفير مُحمَّل بثانى أكسيد الكربون ، وقد يحمل غازات أخرى ضارة لا بُدَّ أنْ تنتقل إلى لحم الذبيحة ؟

كما أن من مهمته أن يمر بالحلاقين ، ويتفقد مدى نظافتهم وسلامتهم من الأمراض ، وإذا اشتم من أحدهم رائحة ثوم أو بصل مثلاً أمره بإغلاق محله ، وعدم العمل فى هذا اليوم حتى لا يتأذَّى الناس برائحته .

---

(١) شرح الإمام أبو حامد الغزالى فى كتابه « إحياء علوم الدين » الحسبة وكل ما يتعلق بها من أركانها الأربعة « المحتسب ، والمحتسب عليه ، والمحتسب فيه ، ونفس الاحتساب » وما يتعلق بكل منها من شروط ، ودرجات الاحتساب ، ثم آداب المحتسب من العلم والورع . وحسن الخلق . وذلك بتفصيل فليرجع إليه فى « كتاب الأمر بالمعروف » من « إحياء علوم الدين » .

فأىُّ شرع هذا الذى يحافظ على سلامة الناس ومشاعرهم إلى هذا الحدِّ ؟ إنه دين الله ومنهجه الذى لا يغادر صغيرة ولا كبيرة فى حركة الحياة إلا ووضع لها أحكاماً وآداباً . أمثْل هذا الشرع يُعزل عن حركة الحياة ويُقيّد وينحصر فى مسائل العبادات وحدها ؟

إنك حين تنظر إلى متاعب العالم المتخلف الآن ـ دَعْك من العالم المتقدم ـ ستجد أن متاعبه اقتصادية ، ولو تقصيْتَ الأسباب لوجدتها تعود إلى التخلى عن منهج الله وتعطيل أحكامه ، ووالله لو أنهم أخذوا فى أزمتهم الاقتصادية بقول النبى ﷺ : « نحن قوم لا نأكل حتى نجوع ، وإذا أكلنا لا نشبع »(١) .

لو عملوا بهذا وتأدَّبوا بأدب رسولهم لخرجوا من هذه الأزمة ، وتقلَّبوا فى رَغَد من العيش ، إنك لو تحليْتَ بهذا الأدب فى مسألة الطعام والشراب لكفتْك اللقمة واللقمتان ، وأشهى الطعام ما كان بعد جوع مهما كان بسيطاً .

أما الآن ، فنرى الناس يلجئون إلى المشهِّيات قبل الطعام ، وإلى المهضِمات بعده ، لماذا ؟ لأنهم خالفوا هَدْى رسولهم ﷺ ، فهم يأكلون على شِبَع ، ويأكلون بعد الشِّبَع .

والحق ـ تبارك وتعالى ـ يقول : ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا .. (٣١) ﴾ [الأعراف] وأُثِر عن العرب الذين عاشوا فى شظف من العيش : نِعْم الإدام الجوع . نعم إنه (الغموس) الحقيقى ، والمشهِّى الأول .

---

(١) عن المقدام بن معد يكرب قال النبى ﷺ : « ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطن ، بحسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه ، فإن كان لا محالة فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنفسه » أخرجه أحمد فى مسنده (١٣٢/٤) ، والترمذى فى سننه (٢٣٨٠) ، وابن ماجة فى سننه (٣٣٤٩) .

نعود إلى مكانة الصلاة بين العبادات ، ولماذا كانت هى عماد الدين ، ومعنى : « الصلاة عماد الدين »[١] و « بُنِى الإسلام على خمس »[٢] أن الدين أشياء أخرى ، وهذه هى أُسُسه وقواعده ، وحين نتتبع هذه القواعد نجد أن الركن الأول ، وهو أشهد ألاّ إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله يمكن أن أقولها ولو مرة واحدة ، أما الزكاة فلا تجب مثلاً على الفقير فلا يزكى ، وكذلك المريض لا يصوم ، والمسافر والحائض .. إلخ ، وكذلك الحج غير واجب إلا على المستطيع .

إذن : ما هو الركن الثابت الذى يلازم كل مسلم ، ولا يسقط عنه بحال ؟ إنها الصلاة ؛ لذلك أخذتْ مساحة كبيرة من الوقت على مدى اليوم والليلة ، وبها يكون إعلان الولاء الدائم لله تعالى ، وبها تفرق بين المؤمن وغير المؤمن ، فإنْ رأيتَ شخصاً مثلاً لا يصوم أو لا يزكى أو لا يحج ، فلك أنْ تقول ربما يكون من أصحاب الأعذار ، ومن غير القادرين ، لكن حين ترى شخصاً لا يُصلِّى ، وقد تكرَّر منه ذلك فإنك لا بُدَّ شاكّ فى إسلامه .

لذلك استحقت الصلاة هذه المكانة بين سائر العبادات منذ بدايات التشريع ، ألا ترى أن كل فرائض الدين شُرعت بالوحى إلا الصلاة ، فقد شُرعت بالخطاب المباشر من الله تعالى لنبيه محمد ﷺ فى رحلة المعراج .

---

(١) قال العجلونى فى كشف الخفاء (٢/٣٩) : « رواه البيهقى فى الشعب بسند ضعيف من حديث عكرمة عن عمر مرفوعاً . ولم يقف عليه ابن الصلاح فقال فى مشكل الوسيط : إنه غير معروف » .

(٢) حديث متفق عليه ، أخرجه البخارى فى صحيحه (٨) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٦) من حديث ابن عمر رضى الله عنهما .

وسبق أنْ مثَّلْنا لذلك ، ولله المثل الأعلى ، برئيس العمل الذى يُصدر أوامره بوسائل مختلفة حَسْب أهمية المأمور به ، فقد يكتفى بأن (يُؤشر) على ورقة ، وقد يُوصى بها ، أو يطلب الـ ـظف المختص فيُحدِّثه (بالتليفون) ، فإنْ كان الأمر هاماً استدعاه ش ـاً إلى مكتبه وكلَّفه بما يريد .

وكان هذا الاستدعاء تشريفاً لسيدنا رسول الله بقرب المرسَل من المرسِل ، فأراد الحق ـ سبحانه وتعالى ـ ألاَّ يحرم أمة محمد فضل أسبغه على محمد فكأنه قال : مَنْ أراد من عبادى أنْ يقرب مد كما قرب محمد فكان قاب قوسين أو أدنى فليُصلِّ .

ومعنى ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ .. (٤٥)﴾ [العنكبوت] إقامة الشىء : أداؤه على الوجه الأكمل الذى يؤدى غايته ، فالصلاة المطلوبة هى الصلاة المستوفاة الشروط والتى تقيمها كما يريدها مُشرِّعها ﴿إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ .. (٤٥)﴾ [العنكبوت]

والصلاة إذا استوفتْ شروطها نهتْ صاحبها عن الفحشاء والمنكر ، فإذا رأيتَ صلاة لا تنهى صاحبها عن الفحشاء والمنكر ، فاعلم أنها ناقصة عما أراده الله لإقامتها ، وعلى قَدْر النقص تكون ثمرة الصلاة فى سلوك صاحبها ، وكأن وقوعك فى بعض الفحشاء وفى بعض المنكر يُعَدُّ مؤشراً دقيقاً لمدى إتقانك لصلاتك وحرصك على تمامها وإقامتها .

ومعنى ﴿إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ .. (٤٥)﴾ [العنكبوت] واضح فى قول النبى ﷺ لما قيل له : يا رسول الله ، إن فلاناً

يصلى ، لكن صلاته لا تنهاه عن الفحشاء والمنكر ، فقال : « دعوه ، فإن صلاته تنهاه »[١] .

فالمعنى هنا أن الأمر ليس أمراً كونياً ثابتاً لا يتخلف ، بل هو أمر تشريعى عُرْضة لأنْ يُطاعَ ، وعُرْضة لأنْ يُعصى ، فلو كان الأمر كونياً ما جرؤ صاحب صلاة على الفحشاء والمنكر ، ومثال ذلك أن أقول مثلاً لأولادى قبل أن أموت : يا أولادى ، هذا بيت يكرم مَنْ يدخله . كلام على سبيل الخبر ولم أقل : أكرموا مَنْ يدخله ، فالذى يحترم وصيتى منهم يكرم مَنْ يدخل بيتى من بعدى ، والذى لا يحترم الوصية لا يُكرم مَنْ يدخله . أما لو قلت : أكرموا مَنْ يدخل هذا البيت فقد ألزمتَ الجميع بالإكرام .

وأوضح من هذا قوله تعالى فى شأن المسجد الحرام : ﴿ومَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا .. (٩٧)﴾ [آل عمران] فلما حدث أن اقتحمه بعض أصحاب الأهواء ، وأطلقوا النار فى ساحاته ، وقتلوا فيه الآمنين قامتْ ضجة كبيرة تُشكِّك فى هذه الآية : كيف يحدث هذا والله يقول ﴿ومَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا .. (٩٧)﴾ [آل عمران] فأقاموا هذه الأحداث دليلاً على كذب الآية والعياذ بالله .

وهذا المسلك منهم يأتى عن عدم فهم لمعنى الأمر الكونى والأمر التشريعى ، فقوله تعالى : ﴿ومَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا .. (٩٧)﴾ [آل عمران] أمر تشريعى قابلٌ لأنْ يُطاع ، ولأنْ يُعصى ، كأن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ قال : أمِّنُوا مَنْ دخل البيت ، فبعض الناس امتثل للأمر ، فأمَّن مَنْ فى البيت الحرام ، وبعضهم عصى فروَّع الناس ، وقتلهم

---

(١) عن أبى هريرة قال : جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : إن فلاناً يصلى بالليل ، فإذا أصبح سرق . قال « إنه سينهاه ما تقول » أخرجه أحمد فى مسنده (٢/٤٤٧) والبزار (١/٣٤٦ ـ كشف الأستار) وابن حبان (ص ١٦٧ – موارد الظمآن) قال الهيثمى فى المجمع (٢/٢٥٨) : « رجاله رجال الصحيح » .

فى ساحته . ولو كان أمراً كونياً ما تخلَّف أبداً كما لم تتخلف الشمس مثلاً يوماً من الأيام .

وكذلك الأمر فى ﴿إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ .. (٤٥)﴾ [العنكبوت] فالصلاة تشريع من الله ، فإذا كان الله تعالى هو المشرِّع ، وقال : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِى الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ .. (٩٠)﴾ [النحل] الله عز وجل نهانا ، لكن هل انتهينا جميعاً ؟

إذن : نقول : الصلاة فى ذاتها لا تنهاك ، لأن هذا أمر شرعىٌّ .

والبعض يرى أن المعنى ﴿إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ .. (٤٥)﴾ [العنكبوت] يعنى : لا يوجد معها فحشاء ولا منكر ، وهذا أيضاً صحيح ؛ لأننى حين أدخل فى الصلاة بتكبيرة الإحرام فإن هذه التكبيرة تحرم علىَّ كل ما كان حلالاً لى قبل الصلاة ، ففى الصلاة مثلاً لا آكل ولا أشرب ولا أتحرك ، مع أن هذه المسائل كانت حلالاً قبل الصلاة ، فما بالك بما كان حراماً عليك أصلاً قبل الصلاة ؟ إذن : فهو حرام من باب أَوْلَى .

فالصلاة بهذا المعنى تمنعك من الفحشاء والمنكر فى وقتها ؛ لأن تكبيرة الإحرام (الله أكبر) تعنى أن الله أكبر من كل شىء فى الوجود حتى من شهوات النفس ونزواتها ، وإلاَّ فكيف تقيم نفسك بين يدى ربك ، ثم تخالف منهجه ؟ فالصلاة بهذا المعنى تنهى على حقيقتها عن الفحشاء والمنكر .

ومعنى (الفَحْشَاء) كل ما يُسْتفحش من الأقوال والأفعال (والمنكَر) كل شىء يُنكره الطبع السليم ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ .. (٤٥)﴾ [العنكبوت] ذكر : مصدر ، والمصدر يُضاف للفاعل مثل : أعجبنى ضَرْب الأمير لزيد ، ويُضاف للمفعول مثل : أعجبنى ضَرْب زيد من

الأمير ، فحين تقول ذكر الله يصح أن يكون المعنى : ذِكْر صادر من الله ، أو ذِكْر صادر من العبد لله .

فإنْ قلتَ : ذكْر صادر من الله ، أى للمصلِّى ، فحين يصلى الإنسان ، ويذكر الله بالكبرياء فى قوله الله أكبر ويُنزِّهه بقول سبحان الله ، ويسجد له سبحانه ويخضع ، فقد فعلتَ إذن فعْلاً ذكرتَ الله فيه ذكْراً بالقول وبالفعل ، والله تعالى يجازيك بذكرك له بأن يذكرك ، فالذكر ذكر من الله لمن ذكره فى صلاته .

ولا شكَّ أن ذكر الله لك أكبر ، وأعظم من ذِكْرك له سبحانه ؛ لأنك ذكرتَ الله منذ بلوغك إلى أن تموت ، أما هو سبحانه فسيعطيك بذكرك له منازل عالية لا نهايةَ لها فى يوم لا تموت فيه ولا تنقطع عنك نعَمه وآلاؤه ، فالمعنى : ولذكر الله لك بالثواب والرحمة أكبر من ذِكْرك له بالطاعة[1] . هذا على معنى أن الذكر صادر من الله للعبد .

المعنى الآخر أن يكون الذكْر صادراً من العبد لله ، يعنى : ولذكْر الله خارج الصلاة أكبر من ذكْر الله فى الصلاة ، كيف ؟ قالوا : لأنك فى الصلاة تُعِد نفسك لها بالوضوء ، وتتهيأ لها لتكون فى حضرة ربك بعد تكبيرة الإحرام ، فإذا ما انتهتْ الصلاة وخرجتَ منها إلى حركة الحياة فذكْرك لله وأنت بعيد عن حضرته وأنت مشغول بحركة حياتك أعظم وأكبر من ذِكْرك فى الحضرة .

ومثال ذلك - ولله تعالى المثل الأعلى - مَنْ يمدح الأمير ويُثنى عليه فى حضرته ، ومَنْ يمدحه فى غيبته ، فأيُّهما أحلى ، وأيُّهما أبلغ وأصدق فى الذكْر ؟

---

(١) قال معناه ابن مسعود وابن عباس وأبو الدرداء وأبو قرة وسلمان والحسن ، وهو اختيار الطبرى . قاله القرطبى فى تفسيره (٥٢٣٩/٧) .

واقرأ فى ذلك قوله تعالى عن صلاة الجمعة :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ .. (٩) ﴾ [الجمعة]

يعنى : ذكْر الله فى الصلاة ، ولا تظنوا أن الذكْر قاصر على الصلاة فقط إنما : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِى الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠) ﴾ [الجمعة] فيجب ألاَّ يغيب ذكْر الله عن بالك أبداً ؛ لأن ذِكْرك لربك خارج الصلاة أكبر من ذِكْرك له سبحانه فى الصلاة .

ورُوِى عن عطاء بن السائب أن ابن عباس سأل عبد الله بن ربيعة : ما تقول فى قوله تعالى : ﴿ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ .. (٤٥) ﴾ [العنكبوت] ؟ فقال : قراءة القرآن حَسَن ، والصلاة حسن ، وتسبيح الله حسن ، وتحميده حسن ، وتكبيره حسن ، والتهليل له حسن . لكن أحسن من ذلك أن يكون ذِكْر الله عند طروق المعصية على الإنسان ، فيذكر ربه ، فيمتنع عن معصيته .

فماذا قال ابن عباس ـ مع أن هذا القول مخالف لقوله فى الآية ـ؟ قال : عجيب والله[1] ، فأعجب بقول ابن ربيعة ، وبارك فهمه للآية ، ولم ينكر عليه اجتهاده ؛ لأن الإنسانَ طبيعى أن يذكر الله فى حال الطاعة ، فهو متهيىء للذكْر ، أما أنْ يذكره حال المعصية فيرتدع

---

(١) أورده ابن جرير الطبرى فى تفسيره ، وكذا ابن كثير فى تفسيره (٣/٤١٥) قال عبد الله ابن ربيعة : قال لى ابن عباس : هل تدرى ما قوله تعالى ﴿ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ .. (٤٥) ﴾ [العنكبوت] ؟ قلت : التسبيح والتحميد والتكبير فى الصلاة وقراءة القرآن ونحو ذلك . قال : لقد قلت قولاً عجيباً ، وما هو كذلك ، ولكنه إنما يقول : ذكر الله إياكم عندما أمر به أو نهى عنه إذا ذكرتموه أكبر من ذكركم إياه » . قال السيوطى فى الدر المنثور (٦/٤٦٦) : أخرجه الفريابى وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وصححه والبيهقى فى شعب الإيمان .

عنها ، فهذا أقْوى وأبلغ ، وهذا أكبر كما قال سبحانه ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ .. (٤٥)﴾ [العنكبوت]

لذلك جاء فى الحديث الشريف : « سبعة يظلهم الله فى ظلِّه ، يوم لا ظلَّ إلا ظله - ومنهم : ورجل دَعَتْه امرأة ذات منصب وجمال فقال : إنى أخاف الله »[1] هذا هو ذكْر الله الأكبر ؛ لأن الدواعى دواعى معصية ، فيحتاج الأمر إلى مجاهدة تُحوِّل المعصية إلى طاعة .

أما قول ابن عباس فى ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ .. (٤٥)﴾ [العنكبوت] أن ذكْر ربكم لكم بالثواب والرحمة أكبر من ذكْركم له بالطاعة . وحيثيات هذا القول أن ربك - عز وجل - لم يُكلِّفك إلا بعد سنِّ البلوغ ، وتركك تربَع فى نعمه خمسة عشر عاماً دون أنْ يُكلفك ، ثم يُوالى عليك نعَمه ، ولا يقطع عنك مدده حتى لو انصرفتَ عن منهجه ، بل حتى لو كفرتَ به لا يقبض عنك يد عطائه ونعمه .

إذن : فذكْر الله لك بالخَلْق من عدم ، والإمداد من عُدم ، وموالاة نعَمه عليك أكبر من ذكْرك له بالطاعة ، وقد ذكرك سبحانه قبل أنْ يُكلِّفك أن تذكره . كما أن ذكركم له سبحانه بالطاعة فى الدنيا موقوت ، أما ذكْره لكم بالثواب والجزاء والرحمة فى الآخرة فممتد لا ينقطع أبداً .

ثم تختم الآية بقوله سبحانه : ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ (٤٥)﴾ [العنكبوت] هذه الكلمة نأخذها على أنها بشارة للمؤمن ، ونذارة للكافر ، كما تقول للتلاميذ يوم الامتحان : سينجح المجتهد منكم ، فهى بشارة

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٠٣١) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، ضمن حديث : « سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله : الإمام العادل ، وشاب نشأ فى عبادة الله ، ورجل قلبه معلق فى المساجد ، ورجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال ، فقال : إنى أخاف الله ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم يمينه ما تنفق شماله ، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه » .

للمجتهد ، وإنذار للمهمل ، فالجملة واحدة ، والإنسان هو الذى يضع نفسه فى أيهما يشاء .

ثم يقول الحق سبحانه[١] :

﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾

الحق ـ تبارك وتعالى ـ يُعلِّمنا كيف نجادل أهل الكتاب ، وقبل أن نتكلم عن ألوان الجدل فى القرآن الكريم نقول : ما معنى الجدل ؟

الجدل : مأخوذ من الجَدْل ، وهو فَتْل الشىء ليشتد بعد أنْ كان ليناً كما نفتل حبالنا فى الريف ، فالقطن أو الصوف مثلاً يكون منتفشاً يأخذ حيزاً واسعاً ، فإذا أردْنا أن نأخذ منه خيطاً جمعنا بعض الشعيرات ليُقوِّى بعضها بعضاً بلفِّها حول بعضها ، وبجَدْل الخيوط نصنع الحبال لتكون أقوى ، وعلى قَدْر الغاية التى يُراد لها الحبل تكون قوته .

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٧/ ٥٣٤٠) :

« اختلف العلماء فى قوله تعالى ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ .. ﴿٤٦﴾﴾ [العنكبوت]

– فقال مجاهد : هى محكمة ، فيجوز مجادلة أهل الكتاب بالتى هى أحسن على معنى الدعاء لهم إلى الله عز وجل ، والتنبيه على حججه وآياته ، رجاء إجابتهم إلى الإيمان ، لا على طريق الإغلاظ والمخاشنة .

– وقيل : هذه الآية منسوخة بآية القتال قوله تعالى ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ .. ﴿٢٩﴾﴾ [التوبة] » .

ثم قال القرطبى : « قول مجاهد حسن ؛ لأن أحكام الله عز وجل لا يُقال فيها إنها منسوخة إلا بخبر يقطع العذر ، أو حجة من معقول . واختار هذا القول ابن العربى » .

ومن الجدل أُخِذ الجدال والجدَل والمجادلة ، وفى معناها : الحوار والحجاج والمناظرة ، ومعناه أن يوجد فريقان لكل منهما مذهب يؤيده ويدافع عنه ليفتن الآخر أى : ليلفته عن مذهبه إلى مذهبه هو .

فإذا كان المقصود هو الحق فى الجدال أو الحِجَاج أو المناظرة فهذا الاسم يكفى ، لكن إنْ دخل الجدال إلى مِراء أو لجاجة ، فليس القصد هو الحق ، إنما أنْ يتغلَّب أحد الفريقين على الآخر ، والجدل فى هذه الحالة له أسماء متعددة ، منها قوله تعالى : ﴿لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ .. (٧٥)﴾ [المؤمنون]

لكن إذا فَتَلْنا الشىء المنفوش حتى صار مُضْمراً ، وأخذ من الضمر قوة ، أأنت تجعل فى الجدل خَصْمك قوياً ؟ إنك تحاول أنْ تُقوِّى نفسك فى مواجهته . قالوا : حين أنهاه عن الباطل وأعطفه ناحية الحق ، فإنه يقوى يقينه فى شىء ينفعه ، وكأنه كان منتفشاً آخذاً حيِّزاً أكبر من حجمه بالباطل الذى كان عليه ، فأنا قوّيته بالحق . وفى العامية نقول (فلان منفوخ على الفاضى) أو نقول (فلان نافش ريشه) كأنه أخذ حيزاً أكبر من حجمه .

لذلك نلحظ أن التغلب فى الجدل لا يكون لمجرد الجدل ، إنما تغلُّبك لحق ينفع الغير ويُقويه ويردّه إلى حجمه الطبيعى .

أو : أن الجدل مأخوذ من الجدال وهى الأرض ، كأن يطرح القوى الضعيف أرضاً فى صراع مثلاً .

والجدال يكون بين شخصين ، لكل منهما رأيه الذى يألفه ويحبه ويقتنع به ، فحين تجادله تريد أنْ تُخرِجه عن رأيه الذى يألف إلى

رأيك الذى لا يألفه ولم يعتده ، فأنت تجمع عليه أمرين : أنْ تُخرجه عما أَلِف واعتاد إلى ما لم يألف ، فلا يكُنْ ذلك بأسلوب يكرهه حتى لا تجمع عليه شدتين .

فعليك إذن باللين والاستمالة برفق ؛ لأن النصح ثقيل كما قال شوقى رحمه الله : فلا تجعله جبلاً ، ولا ترسله جَدَلاً ، وعادة ما يُظهِر الناصح أنه أفضل من المنصوح . ويقولون : الحقائق مرة ، فاستعيروا لها خِفَّة البيان ؛ لأنك تُخرِج خَصْمك عما أَلِف ، فلا تخرجه عما ألف بما يكرَه ، بل بما يحب .

والإنسان قد يُعبِّر عن الحقيقة الواحدة تعبيراً يُكره ، ويُعبِّر عنها تعبيراً يُحب وترتاح إليه ، كالملك الذى رأى فى منامه أن كل أسنانه قد سقطتْ ، فطلب مَنْ يُعبِّر له ما رأى ، فجاءه المعبِّر واستمع منه ، ثم قال : معنى هذه الرؤيا يا مولاى أن أهلك جميعاً سيموتون ، فتشاءم من هذا التعبير ولم يُعجبه ، فأرسلوا إلى آخر فقال : هذا يعنى أنك ستكون أطولَ أهل بيتك عُمراً ، فَسُرَّ الملك بقوله . فهنا المعنى واحد ، لكن أسلوب العرض مختلف .

ودخل رجل على آخر ، فوجده يبكى فقال : ما يُبكيك ؟ قال : أُخِذْتُ ظلماً ، فتعجب وقال : فكيف بك إذا أُخِذْتَ عدلاً ؟ أكنت تضحك . والمعنى أن مَنْ أُخذ ظلماً لا ينبغى له أن يحزن ؛ لأنه لم يفعل شيئاً يشينه ، والأَوْلَى بالبكاء من أُخذ عدلاً وبحقٍّ .

ورجل قُتِل له عزيز فجلس يصرخ ويولول ، فدخل عليه صاحبه مُواسياً فقال له الرجل : إن ابنى قُتِل ظلماً ، فقال صاحبه : الحمد لله الذى جعل منك المقتول ، ولم يجعل منك القاتل .

إذن : سلامة المنطق وخِفَّة البيان أمر مهم ، وعلى المجادل أن

يراعى بيانه ، وأن يتحين الفرصة المناسبة ، فلا تجادل خصمك وهو غضبان منك أو وأنت غضبان منه . قالوا : مَرَّ رجل فوجد صبياً يغرق فى البحر ، فلم ينتظر حتى يخلع ثيابه ، وألقى بنفسه وأنقذ الصبى ، ثم أخذ يضربه ويلطمه ، والولد يقول : شكراً لك بارك الله فيك ، لماذا ؟ لأنه قسا عليه بعد أنْ أنقذه ، لكن ما الحال لو وقف على البَرِّ ، وكال له الشتائم وعنَّفه ، لماذا ينزل البحر وهو لا يعرف العوم ؟ لذلك يقول الحكماء : آسِ ثم انصح .

لذلك يُعلِّمنا ربنا ـ عز وجل ـ أصول الجدل وآدابه ؛ لأنه يريد أن يُخرج بهذا الجدل أناساً من الكفر إلى الإيمان ، ومن الجحود إلى اليقين ، وهذا لا يتأتّى إلا باللطف واللين ، كما قال سبحانه : ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ .. (١٢٥)﴾ [النحل]

ويُعلِّمنا سبحانه أن للجدل مراتبَ بحسب حالة الخَصم ، فالذى ينكر وجود الله له جدل مخصوص ، والذى يؤمن بوجود الله ويقول : إن معه شريكاً . له جدل آخر ، ومَنْ يؤمن بالله ويقول سأتبع نبيِّ ولن أتبعك له جدل آخر وبشكل خاص ، والمختلفون معك من أهل ملَّتك لهم جدل يليق بحالهم .

إذن : للجدل مراتب نلحظها فى أسلوب القرآن ، فبم جادل الذين لا يؤمنون بوجود إله ؟ قال : ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بَل لاَّ يُوقِنُونَ (٣٦)﴾ [الطور]

فأتى لهم بمسألة الخَلْق الظاهرة التى لم يدَّعها أحد ، ولا يجرؤ أحد على إنكارها ، حتى المشركون والملاحدة ؛ لأن أتفه الأشياء فى صناعاتهم يعرفون صانعها ، ويُقرُّون له بصنعته ، ولو كانت كوباً من زجاج أو حتى قلم رصاص ، لا بُدَّ أن لكل صنعة صانعاً يناسبها .

أليس مَنْ خلق السموات والأرض والشمس والقمر .. إلخ أَوْلَى بأن يعترفوا له سبحانه بالخَلْق ؟ وهم أنفسهم مخلوقون ولم يقولوا إنَّا خلقنا أنفسنا ، ولم يقولوا خلقنا غيرنا ، فمَنْ خلقهم إذن ؟

وقلنا : إن الدَّعْوى تثبت لصاحبها ما لم يَقُم لها معارض ، والحق - سبحانه وتعالى - قال علانية ، وعلى لسان رسله ، وفى قرآن يُتْلَى إلى يوم القيامة ، وأسمع الجميع : أنا خالق هذا الكون . فإنْ قال معاند : فَمَنْ خلق الله ؟ نقول : الذى خلقه عليه أن يعلن عن نفسه .

والحق سبحانه شهد لنفسه أنه لا إله إلا هو ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ .. (١٨)﴾ [آل عمران] ولم يقُلْ أحد أنا الإله : إذن : الذين ينكرون الخالق لا حَقَّ لهم . هذا فى جدال الملاحدة الذين ينكرون وجود الله .

أما الذين يؤمنون بوجود الله ، لكن يتخذون معه سبحانه شركاء ، فنجادلهم على النحو التالى : شركاؤكم مع الله غَيْب أم شهادة ؟ إنْ قالوا : غَيْب فإن الله تعالى شهد لنفسه بالوَحْدانية . وقال : أنا واحد لا شريكَ لى ، فأين كان شركاؤكم ؟

لماذا لم يدافعوا عن ألوهيتهم مع الله ؟ إما لأنهم ما دروا بهذا الإعلان ، وإما أنهم دَرَوا وعجزوا عن المُواجهة ، وفى كلتا الحالتين تنتفى عنهم صفة الألوهية ، فأىُّ إله هذا الذى لا يدرى بما يدور حوله ، أو يجبن عن مواجهة خَصْمه ؟

فإنْ قالوا : شركاؤنا الأصنام والأشجار والكواكب وغيرها ، فهذه من صُنْع أيديهم ، فكيف يعبدونها ، ثم هى آلهة لا منهجَ لها ولا تكاليفَ ، وإلا فبماذا أمرتهم وعَمَّ نهتْهم ؟ إذن : عبادتهم لها باطلة .

ثم نسأل الذين يتخذون مع الله شركاء : أهؤلاء الذين تشركونهم

مع الله يتواردون على الأشياء بقدرة واحدة ، أم يتناوبون عليها ، كل منهم يقدر على شىء معين ؟

إنْ كانوا يزاولون الأشياء بقدرة واحدة ، فواحد منهم يكفى والباقون لا فائدة منهم ، وإنْ كانوا يتناوبون على الأشياء ، فكلٌّ منهم قادر على شىء عاجز عن الشىء الآخر ، والإله لا يكون عاجزاً .

وقد رَدَّ الحق سبحانه على هؤلاء بقوله تعالى : ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَى ذِى الْعَرْشِ سَبِيلاً (٤٢)﴾ [الإسراء] أى : لَذهبوا إليه إما ليُعنِّفوه ويُصفّوا حساباتهم معه ، وكيف أخذ الأمر لنفسه ، وإما ليتوددوا إليه ويعاونوه .

وفى موضع آخر : ﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ .. (٩١)﴾ [المؤمنون]

وبعد أنْ بيَّنَّا جدال الملاحدة الذين ينكرون وجود الإله وجدال أهل الشرك نجادل أهل الكتاب ، وهم ألطفُ من سابقيهم ؛ لأنهم مؤمنون بإله وأنه الخالق ، ومؤمنون بالبلاغ عن الله ، ومؤمنون بالكتب التى نزلت ، والخلاف بيننا وبينهم أنهم لا يؤمنون برسالة محمد ﷺ فى حين نؤمن نحن برسلهم وكتبهم ، وهذه أول مَيْزة تميَّز بها الإسلام على الأديان الأخرى .

ونقول لهؤلاء : لقد آمنت برسولك ، وقد سبقه رسل ، فلماذا تنكر أن يأتى رسول بعده ؟ ثم هل جاء الرسول بعد رسولك ليناقضه فى أصول الأشياء ؟ إنهم جميعاً متفقون على أصول العقيدة والأخلاق ، متفقون على أنهم عباد لله متحابون ، فلماذا تختلفون أنتم ؟

فربنا ـ تبارك وتعالى ـ يُعلِّمنا ﴿وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ .. (٤٦)﴾ [العنكبوت] لأنهم ليسوا ملاحدة ولا مشركين ، فهُمْ

مـؤمنون بإلهكم وبالرسل وبـالكتب ، غـاية ما هنـالك أنهم لا يؤمنون برسولكم .

لذلك يعترض بعض الناس : كيف يبـيح الإسلام أنْ يتزوج المسلم من كتابية ، ولا يبيح للمسلمة أن تتـزوج كتابياً ؟ نقول : لأن أصل القوَامة فى الزواج للرجل ، والزوج المؤمن حـين يتزوج كتـابية مؤمن برسولـهـا ، أما الزوج الكتابى فغير مؤمن برسول المؤمنة ، فالفَرْق بينهما كبير .

ومعنى : ﴿ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ .. (٤٦) ﴾ [العنكبوت] أن فى الجدال حسناً وأحسـن ، وقد سبق الجدال الحسن فى قـوله تعالى : ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٢٤) ﴾ [سبأ] ونوح عليـه السلام يتلطف فى جدال قومه ، فيقول : ﴿ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ (٣٥) ﴾ [هود]

فينسب الافتراء إلى نفسه ، ويتهم نفسه بالإجرام إنِ افترى ، فإنْ لم يكُنْ هو المفتر ، وهو المجرم فَهُمْ .

ونبينا محمد ﷺ يقول فى جدال قومه : ﴿ قُل لاَّ تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٢٥) ﴾ [سبأ] فيذكر ﷺ الجريمة فى حقه هو ولا يذكرها فى حَقِّ المعاندين المكذِّبين ، فأىُّ أدب فى الدعوة أرفع من هذا الأدب ؟

إذن : جادِل غير المؤمنين بالحسن ، وجادل أهل الكتاب بالتى هى أحسن ، لما يمتازون به عن غيرهم من ميزة الإيمان بالله . فإنْ تعدَّوْا وظلمـوا أنفسهم فى مسـألة القمـة الإيمـانيـة ، فادعـوا أن لله ولداً أو غيره ، فإنـهم بذلك يدخلون فى صفوف سابقيهم من المـشركين ، فإنْ كنا مأمـورين بأن نجادلهم بالتى هى أحسن وقـالوا بهذا القول ، فعلينـا أن نجادلهم بما يقـابل الأحسن ، نجـادلهم إما بالحـسن ، وإما بغير الحسن أى : بالسيف .

لكن ، هل يفرض السيف عقائد ؟ السيف لا يأخذ من الناس إلا قوالبهم .

أمّا القلوب فلا يخضعها إلا الإيمان ، والله تعالى لا يريد قوالب ، إنما يريد قلوباً .

واقرأ قوله تعالى فى سورة الشعراء : ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣) إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ (٤) ﴾ [الشعراء] فإنْ أراد سبحانه قَهْر القوالب والقلوب على الخضوع ، بحيث لا يستطيع أحد أنْ يتأبَّى على الإيمان ما وُجد كافر ، وما كفر الكافر إلا لما أعطاه الله من منطقة الاختيار ؛ فالحق سبحانه يريد منّا قلوباً تحبه سبحانه وتعبده ؛ لأنه سبحانه يستحق أنْ يُعبد .

إذن : الذين يخرجون عن نطاق الكتابية بتجاوزهم الحدَّ ، وقولهم أن عيسى ابن الله ، أو أن الله ثالث ثلاثة ، إنما يدخلون فى نطاق الشرك والكفر ، ولن نقول لهؤلاء : اتبعوا رسولنا ، وإنما اتبعوا رسولكم ، والكتاب الذى جاءكم به من عند الله ، وسوف تجدون فيه البشارة بمحمد ﴿ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ .. (١٥٧) ﴾ [الأعراف]

إذن : فحين تكفر فأنت لا تكفر بمحمد ولا بالقرآن ، إنما تكفر أولاً بكتابك أنت ؛ لذلك يعلمنا الحق سبحانه : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ .. (١٧) ﴾ [المائدة] وقال أيضاً : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ .. (٧٣) ﴾ [المائدة]

أى : لا تعاملوهم على أنهم كتابيون ، ولما سُئلْنا فى الخارج من أبنائنا الذين يرغبون فى الزواج من أجنبيات ، فكنت أقول للواحد منهم : سلْها أولاً : ماذا تقول فى عيسى ، فإنْ قالت هو رسول الله فتزوجها وأنت مطمئن ؛ لأنها كتابية ، وإن قالت : ابْن الله ، فعاملها على أنها كافرة ومشركة .

هذا فى معنى قوله تعالى : ﴿إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ .. (٤٦)﴾ [العنكبوت] ونحن لا نحمل السيف فى وجه هؤلاء ؛ لأن السيف ما جاء إلا ليحمى اختيار المختار ، فلى أنْ أعرض دينى ، وأنْ أُعلنه وأشرحه ، فإنْ منعونى من هذه فلهم السيف ، وإنْ تركونى أعلن عن دينى فهم أحرار ، يؤمنون أو لا يؤمنون .

إنْ آمنوا فأهلاً وسهلاً ، وإنْ لم يؤمنوا فهم أهل ذمة ، لهم ما لنا وعليهم ما علينا ، ويدفعون الجزية نظير ما يتمتعون به فى بلادنا ، ونظير حمايتنا لهم ، وما نُقدِّمه لهم من خدمات ، وإلا فكيف نفرض على المؤمنين الزكاة ونترك هؤلاء لا يقدمون شيئاً ؟

لذلك نرى الكثيرين من أعداء الإسلام يعترضون على مسألة دَفْع الجزية ، ويروْنَ أن الإسلام فُرِض بقوة السيف ، وهذا قول يناقض بعضه بعضاً ، فما فرضنا عليكم الجزية إلا لأننا تركناكم تعيشون معنا على دينكم ، ولو أرغمناكم على الإسلام ما كان عليكم جزية .

والحق ـ تبارك وتعالى ـ يقول : ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ .. (٢٥٦)﴾ [البقرة] لأننى لا أُكرهك على شىء إلا إذا كنتَ ضعيف الحجة ، وما دام أن الرشْد بيِّن والغىّ بيِّن ، فلا داعىَ للإكراه إذن .

لكن البعض يفهم هذه الآية فهماً خاطئاً فحين تقول له : صلِّ . يقول لك ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ .. (٢٥٦)﴾ [البقرة] ونقول له : لم تفهم المراد ، فلا إكراه فى أصل الدين فى أنْ تؤمن أو لا تؤمن ، فأنت فى هذه حُرٌّ ، أمّا إذا آمنتَ وأعلنتَ أنه لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فليس لك أن تكسر حَدّاً من حدود الإسلام ، وفَرْق بين « لا إكراه فى الدين » و « لا إكراه فى التدين » .

ومن حكمة الإسلام أن يعلن حكم الردة لمن أراد أنْ يؤمن ، نقول له قف قبل أن تدخل الإسلام ، اعلم أنك إنْ تراجعت عنه وارتددتَ قتلناك ، وهذا الحكْم يضع العقبة أمام الراغب فى الإسلام حتى يفكر أولاً ، ولا يقدم عليه إلا على بصيرة وبينة .

وإذا قيل ﴿أَهْلَ الْكِتَابِ.. (٤٦)﴾ [العنكبوت] أى : الكتاب المنزَّل من الله ، وقد علَّم الله تعالى رسوله ﷺ أنْ يجادل المشركين بقوله : ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٤٣)﴾ [النحل] فعلم الرسول أن يرجع إلى أهل الكتاب ، وأنْ يأخذ بشهادتهم ، وفى موضع آخر علَّمه أن يقول لمن امتنع عن الإيمان :

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ (٤٣)﴾ [الرعد]

إذن : فرسولنا يستشهد بكم ، لما عندكم من البينات الواضحة والدلائل على صدقه . حتى قال عبد الله بن سلام[1] : لقد عرفته حين رأيته كمعرفتى لابنى ، ومعرفتى لمحمد أشد[2] ، ولم لا يعرفونه وقد ذُكر فى كتبهم باسمه ووصفه : ﴿الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ .. (١٥٧)﴾ [الأعراف]

ثم ألم يحدث منكم أنكم كنتم تستفتحون به على المشركين فى

---

(١) هو : عبد الله بن سلام بن الحارث الإسرائيلى ، أبو يوسف : صحابى ، أسلم عند قدوم النبى ﷺ المدينة ، وكان اسمه « الحصين » فسماه ﷺ عبد الله ، شهد مع عمر فتح بيت المقدس ، لما كانت الفتنة بين على ومعاوية اتخذ سيفاً من خشب واعتزلها ، وأقام بالمدينة إلى أن مات عام ٤٣ هـ . [الأعلام للزركلى ٤/٩٠] .

(٢) يُروى عن عمر أنه قال لعبد الله بن سلام : أتعرف محمداً كما تعرف ولدك ؟ قال : نعم وأكثر ، نزل الأمين من السماء على الأمين فى الأرض بنعته فعرفته ، وإنى لا أدرى ما كان من أمه » . ذكره ابن كثير فى تفسيره (١/١٩٤) .

المدينة ، وتقولون : لقد أطلَّ زمان نبى يُبعث فى مكة ، فنتبعه ونقتلكم به قَتْل عاد وإرم[١] ؟ فلما جاءكم النبى الذى تعرفون أنكرتموه وكفرتم به : ﴿ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ .. (٨٩) ﴾ [البقرة]

كيف يستشهد الله على صدق رسوله بكم وبكتبكم ثم تكذبون ؟ قالوا : كذَّبوا لما لهم من سلطة زمنية يخافون عليها ، ورأوا أن الإسلام سيسلبهم إياها .

وكلمة ﴿ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ .. (٤٦) ﴾ [العنكبوت] وردت فى القرآن ، لكن فى غير الجدل فى الدين ، وردت فى كل شىء يُوجب جدلاً بين أُناس ؛ وذلك فى قوله سبحانه : ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) ﴾ [فصلت]

وقد جاءنى رجل يذكر هذه الآية ، وما يترتب على الإحسان ، يقول : عملتُ بالآية فلم أجد الولى الحميم ؟ قلت له : كوْنك تحمل هذا الأمر فى رأسك دليل على أنك لم تدفع بالتى هى أحسن ؛ لأن الله تعالى لا يقرر قضية قرآنية ، ويُكذِّبها واقع الحياة ، فإنْ دفعتَ بالتى هى أحسن بحقٍّ لا بُدَّ وأنْ تجد خَصْمك كأنه ولىٌّ حميم .

لذلك يقول أحد العارفين[٢] :

يَا مَنْ تُضَايِقه الفِعَالُ مِنَ التى وَمِنَ الذى
ادْفَعْ فديْتُكَ بالتى حتَّى تَرى فإذَا الذى

---

(١) عن أشياخ من الأنصار قالوا : كنا قد علوناهم قهراً دهراً فى الجاهلية ونحن أهل شرك وهم أهل كتاب وهم يقولون : إن نبياً سيبعث الآن نتبعه قد أطل زمانه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم ، فلما بعث الله رسوله من قريش واتبعناه كفروا به . ذكره ابن كثير فى تفسيره (١/١٢٤) نقلاً عن ابن إسحاق .

(٢) من شعر الشيخ رضى الله عنه .

والمعنى : من التى تسىء إليك ، أو الذى يسىء إليك ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ .. (٣٤)﴾ [فصلت] حتى ترى ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤)﴾ [فصلت]

وأذكر أنه جاءنى شاب يقول : إن عمى مُوسر ، وأنا فقير ، وهو يتركنى ويتمتع بماله غيرى ، فقلت له : بالله أتحب النعمة عند عمك ؟ فسكت ، قلت له : إذن أنت لا تحبها عنده ، لكن اعلم أن النعمة تحب صاحبها أكثر من حُبِّ صاحبها لها ؛ لذلك لا تذهب إلى كارهها عند صاحبها .

فما عليك إلا أنْ تثوب إلى الحق ، وأنْ تتخلص مما تجد فى قلبك لعمك ، وثقْ بأن الله هو الرزاق ، وإنْ أردتَ نعمة رأيتها عند أحد فأحببها عنده ، وسوف تأتيك إلى بابك ، لأنك حين تكره النعمة عند غيرك تعترض على قدر الله .

بعد هذا الحوار مع الرجل - والله يشهد - دَقَّ جرس الباب ، فإذا به يقول لى : أما دريتَ بما حدث ؟ قلت : ماذا ؟ قال : جاءنى عمى قبل الفجر بساعة ، فلما أنْ فتحت له الباب انهال علىَّ ضَرْباً وشَتْماً يقول : لماذا تتركنى للأجانب يأكلون مالى وأنت موجود ؟ ثم أعطانى المفاتيح وقال : من الصباح تباشر عملى بنفسك . فقلت له : لقد أحببتها عند عمك ، فجاءت تطرق بابك .

وقوله سبحانه ﴿إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ .. (٤٦)﴾ [العنكبوت] أى : ظلموا أنفسهم بالشرك ؛ لأن الله تعالى قال : ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣)﴾ [لقمان] تظلم نفسك لا تظلم الله ؛ لأن الظالم يكون أقوى من المظلوم . وجعل الشرك ظلماً عظيماً لأنه ذنبٌ لا يغفر : ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ .. (١١٦)﴾ [النساء]

فالشرك ظلم عظيم عليك نفسك ، أما الذنوب دون الشرك فلها مخرج ، وقد تنفكّ عنها إما بالتوبة وإما برحمة الله ومغفرته .

ثم يُعلِّمنا الحق - تبارك وتعالى - التى هى أحسن فى الردِّ على الذين ظلموا منهم : ﴿وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِى أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَـٰهُنَا وَإِلَـٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٤٦)﴾ [العنكبوت]

يعنى : فعلامَ الاختلاف ، ما دام أن الإله واحد ، وما دام أن كتابكم يذكر الرسول الذى يأتى بعد رسولكم ، وقد سبق رسولكم رسل ، فكان يجب عليكم أن تؤمنوا به ، وأنْ تُصدِّقوه .

جاءت امرأة تشتكى أن زوجها لم يُوفِ بما وعدها به ، وقد اشترطتْ عليه قبل الزواج ألاَّ يذهب إلى زوجته الأولى ، فقُلْت لها : يعنى أنت الثانية وقد رضيت به وهو متزوج ؟ قالت : نعم ، قلت : فلماذا رضيتِ به ؟ قالت : أعجبنى وأعجبته ، قلت : فلا مانع إذن أنْ تعجبه أخرى فيتزوجها ، وتقول له : إياك أنْ تذهب إلى الثانية ، فهل هذا يعجبك ؟ إذن : فاحترمى حقَّ الأولى فيه ، لتحترم الثالثة حقك فيه ، فقامت وانصرفت .

وقال : ﴿وَإِلَـٰهُنَا وَإِلَـٰهُكُمْ وَاحِدٌ .. (٤٦)﴾ [العنكبوت] لأن الكلام هنا للذين ظلموا وقالوا بالتعدد .

وهنا قال تعالى ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٤٦)﴾ [العنكبوت] ولم يقل مثلاً : ونحن به مؤمنون ، لماذا ؟ لأن الإيمان عقيدة قلبية أنْ تؤمن بإله ، أمّا الإيمان فليس كلاماً ، الإيمان أن تثق به ، وأنْ تأمنه على أنْ يُشرِّع لك ، وأنْ تُسلم له الأمر فى « افعل كذا » « ولا تفعل كذا » ، وهناك أناس ليسوا بمؤمنين بقلوبهم ، ومع ذلك يعملون عمل المسلمين ، إنهم المنافقون .

لذلك يقول تعالى : ﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَـٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ .. (١٤)﴾ [الحجرات]

إذن : فَرْق بين إيمان وإسلام ، فقد يتوفر أحدهما دون الآخر ؛ لذلك قال سبحانه ﴿وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ .. (٣)﴾ [العصر] فقال هنا : ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٤٦)﴾ [العنكبوت] يعنى : مُنفِّذين لتعاليم ديننا .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ ۚ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ۖ وَمِنْ هَٰؤُلَاءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ (٤٧)﴾

قوله تعالى ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ .. (٤٧)﴾ [العنكبوت] أى : كما أنزلنا كتباً على مَنْ سبقك أنزلنا إليك كتاباً يحمل منهجاً ، والكتب السماوية قسمان : قسم يحمل منهج الرسول فى (افعل كذا) و (لا تفعل كذا) ، وذلك شركة فى كل الكتب التى أُنزِلَتْ على الرسل ، وكتاب واحد هو القرآن ، هو الذى جاء بالمنهج والمعجزة معاً .

فكلُّ الرسل قبل محمد ﷺ كان للواحد منهم كتاب فيه منهج ومعجزة منفصلة عن المنهج ، فموسى عليه السلام كان كتابه التوراة ، ومعجزته العصا ، وعيسى عليه السلام كان كتابه الإنجيل ، ومعجزته إحياء الموتى بإذن الله .

أما رسول الله ﷺ ، فكتابه القرآن ومعجزته القرآن ، فانظر كيف

التقت المعجزة بالمنهج لتظل لصيقة به ؛ لأن زمن رسالة محمد ممتدٌّ إلى قيام الساعة ، فلا بُدَّ أنْ تظل المعجزة موجودة ليقول الناس محمد رسول الله ، وهذه معجزته .

فى حين لا نستطيع مثلاً أن نقول : هذا عيسى رسول الله وهذه معجزته ؛ لأنها ليست باقية ، ولم نعرفها إلا من خلال إخبار القرآن بها ، وهذا يُوضِّح لنا فَضْل القرآن على الرسل وعلى معجزاتهم ، حيث ثبتها عند كل مَنْ لم يَرهَا ، فكل مَنْ آمن بالقرآن آمن بها .

لكن ، أكُلُّ رسول يأتى بمعجزة ؟ المعجزة لا تأتى إلا لمن تحدَّاه ، واتهمه بالكذب ، فتأتى المعجزة لتثبت صدْقه فى البلاغ عن ربه ؛ لذلك نجد مثلاً أن سيدنا شيثاً وإدريس وشَعيباً ليست لهم معجزات .

وأبو بكر ـ رضى الله عنه ـ والسيدة خديجة أم المؤمنين هل كانا فى حاجة إلى معجزة ليؤمنا برسول الله ؟ أبداً ، فبمجرد أنْ قال : أنا رسول الله آمنوا به ، فما الداعى للمعجزة إذن ؟

إذن : تميَّز ﷺ على إخوانه الرسل بأن كتابه هو عَيْن معجزته . وسبق أنْ قلنا : إن الحق ـ تبارك وتعالى ـ يجعل المعجزة من جنس ما نبغ فيه القوم ، فلو تحداهم بشىء لا علْم لهم به لقالوا : نحن لا نعلم هذا ، فكيف تتحدَّانا به ؟ والعرب كانوا أهل فصاحة وبيان ، وكانوا يقيمون للقوْل أسواقاً ومناسبات ، فتحداهم بفصاحة القرآن وبلاغته أنْ يأتوا بمثله ، ثم بعشر سُور ، ثم بسورة واحدة ، فما استطاعوا ، والقرآن كلام من جنس كلامهم ، وبنفس حروفهم وكلماتهم ، إلا أن المتكلم بالقرآن هو الله تعالى ؛ لذلك لا يأتى أحد بمثله .

والقرآن أيضاً كتاب يهيمن على كل الكتب السابقة عليه ، يُبقى منها ما يشاء من الأحكام ، ويُنهى ما يشاء . أما العقائد فهى ثابتة لا نسخَ فيها ، وأيضاً لا نسخَ فى القصص والأخبار .

والنسْخ لا يتأتى إلا فى التشريع بالأحكام افعل ولا تفعل ، ذلك لأن التشريع يأتى مناسباً لأدواء البيئات المختلفة .

لذلك كان بعض الرسل يتعاصرون كإبراهيم ولوط ، وموسى وشعيب ، عليهم السلام ، ولكل منهم رسالته ؛ لأنه متوجه إلى مكان بعينه ليعالج فيه داءً من الداءات ، فى زمن انقطعت فيه سُبُل الالتقاء بين البيئات المختلفة ، فالجماعة فى مكان ربما لا يَدْرون بغيرهم فى بيئة مجاورة .

أما محمد ﷺ فقد جاء ـ كما يعلم ربه أزَلاً ـ على موعد مع التقاء البيئات وتداخُل الحضارات ، فالحدث يتم فى آخر الدنيا ، فنعلم به ، بل ، ونشاهده فى التوِّ واللحظة ، وكأنه فى بلادنا . إذن : فالداءات ستتحد أيضاً ، وما دامت داءات الأمم المختلفة قد اتحدتْ فيكفى لها رسول واحد يعالجها ، ويكون رسولاً لكل البشر .

ثم يقول سبحانه : ﴿ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ .. (٤٧) ﴾ [العنكبوت] أى : من قبلك ﴿ يُؤْمِنُونَ بِهِ .. (٤٧) ﴾ [العنكبوت] لأنه لا سلطة زمنية تعزلهم عن الكتاب الجديد ، فينظرون فى أوصاف النبى الجديد التى وردتْ فى كتبهم ثم يطابقونها على أوصاف رسول الله ؛ لذلك لما بلغ سلمان الفارسى[1] أن بمكة نبياً جديداً ، ذهب إلى سيدنا رسول الله ،

---

(١) سلمان الفارسى ، صحابى ، من مقدميهم ، أصله من مجوس أصبهان ، عاش عمراً طويلاً ، قرأ كتب فارس والروم واليهود ، وقصد بلاد العرب ، وسمع كلام النبى ﷺ ، أظهر إسلامه ، وهو الذى دل المسلمين على حفر الخندق فى غزوة الأحزاب ، توفى ٣٦ هـ بالمدائن وكان أميراً عليها . [الأعلام للزركلى ٣/١١٢] .

وأخذ يتأمله وينظر إليه بإمعان ، فوجد فيه علامتين مما ذكرتْ الكتب السابقة ، وهما أنه ﷺ يقبل الهدية ، ولا يقبل الصدقة ، فراح ينظر هنا وهناك لعله يرى الثالثة ، ففطن إليه رسول الله بما آتاه الله من فطْنة النبوة التى أودعها الله فيه ، وقال : لعلك تريد هذا ، وكشف له عَن خاتم النبوة ، وهو العلامة الثالثة[1] .

ومن لباقة سيدنا عبد الله بن سلام ، وقد ذهب إلى سيدنا رسول الله وهو - ابن سلام - على يهوديته - فقال : يا رسول الله ، إن اليهود قوم بُهْت - يعنى يُكثرون الجدال دون جدوى - وأخشى إنْ أعلنتُ إسلامى أن يسبونى ، وأن يظلمونى ، ويقولوا فىَّ فُحْشاً ، فأريد يا رسول الله إنْ جاءوك أنْ تسألهم عنى ، فإذا قالوا ما قالوا أعلنتُ إسلامى ، فلما جاء جماعة من اليهود إلى رسول الله سألهم : ما تقولون فى عبد الله بن سلام ؟ قالوا : شيخنا وحَبْرنا وسيدنا .. إلخ فقال عبد الله : أما وقد قالوا فىَّ ما قالوا : يا رسول الله ، فإنى أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنك رسول الله . فقالوا لتوِّهم : بل أنت شرنا وابن شرنا ، ونالوا منه ، فقال عبد الله : ألم أَقُلْ لك يا رسول الله أنهم قوم بُهْت[2] ؟

وقوله سبحانه ﴿وَمِنْ هَـٰؤُلَاءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِ .. (٤٧)﴾ [العنكبوت] أى : من كفار مكة مَنْ سيأتى بعد هؤلاء ، فيؤمن بالقرآن ﴿وَمَا يَجْحَدُ

---

(١) ذكر البيهقى قصة إسلام سلمان الفارسى فى كتاب دلائل النبوة فى ١٨ صفحة (١/٨٢-١٠٠) وفيه أنه عندما قابل رسول الله ﷺ ورأى أنه يأكل الهدية ولا يقبل الصدقة دار خلف رسول الله ، يقول سلمان : « ففطن لى النبى ﷺ فأرخى ثوبه ، فإذا الخاتم فى ناحية كتفه الأيسر فتبينته ، ثم درت حتى جلست بين يديه فقلت : أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله » .

(٢) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٢/٥٢٦ - ٥٢٩) ، والبخارى فى صحيحه (٣٩١١) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه .

بِآيَاتِنَا إِلاَّ الْكَافِرُونَ (٤٧)﴾ [العنكبوت] الجحد : إنكار متعمد ؛ لأن من الإنكار ما يكون عن جهل مثلاً ، والجحد يأتى من أن النِّسب إما نفى ، وإما إثبات ، فإنْ قال اللسان نسبة إيجاب ، وفى القلب سَلْب أو قال سلب وفى القلب إيجاب ، فهذا ما نُسمِّيه الجحود .

لذلك يُفرِّق القرآن بين صيغة اللفظ ووجدانيات اللفظ فى النفس ، واقرأ مثلاً قول الله تعالى : ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ .. (١)﴾ [المنافقون] وهذا منهم كلام طيب وجميل ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ .. (١)﴾ [المنافقون] أى : أنه كلام وافق علم الله ، لكن ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (١)﴾ [المنافقون] فكيف يحكم الحق عليهم بالكذب ، وقد قالوا ما وافق علم الله ؟

نقول : كلام الله يحتاج إلى تدبُّر لمعناه ، فالحق يحكم عليهم بأنهم كاذبون ، لا فى قولهم : إنك لرسول الله ، فهذه حق ، بل فى شهادتهم ؛ لأنها شهادة باللسان لا يوافقها اعتقاد القلب ، فالمشهود به حق ، لكن الشهادة كذب .

لكن ، لماذا خَصَّ الكافرين فى مسألة الجحود ؟ قالوا : لأن غير الكافر عنده يقظة وجدان ، فلا يجرؤ على هذه الكلمة ؛ لأنه يعلم أن الله تعالى لا يأخذ الناس بذنوبهم الآن ، إنما يُؤجِّلها لهم ليوم الحساب ، فهذه المسألة تحجزهم عن الجحود .

﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ (٤٨)﴾

قوله : ﴿تَتْلُوا .. (٤٨)﴾ [العنكبوت] أى : تقرأ ، واختار تتلو لأنك

لا تقرأ إلا ما سمعت ، فكأن قراءتك لما سمعت تجعل قولك تالياً لما سمعتَ ، نقول : يتلوه يعنى : يأتى بعده ﴿وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ .. (٤٨)﴾ [العنكبوت] يعنى : الكتابة .

وفَرْق بين أنْ تقرأ ، وبين أنْ تكتب ، فقد تقرأ لأنك تحفظ ، وتحفظ نتيجة السماع ، كإخواننا الذين ابتلاهم الله بكفٍّ نظرهم ويقرأون ، إنما يقرأون ما سمعوه ؛ لأن السمع كما قلنا أول حاسة تؤدى مهمتها فى الإنسان ، فمن الممكن أن تحفظ ما سمعت ، أما أن تكتبه فهذا شىء آخر .

والكلام هنا لون من ألوان الجدل والإقناع لكفار قريش الذين يُكذِّبون رسول الله ، ولوْن من ألوان التسلية لرسول الله ، كأنه يقول سبحانه لرسوله : اطمئن . فتكذيب هؤلاء لك افتراء عليك ؛ لأنك ما تلوْتَ قبله كتاباً ولا كتبته بيمينك ، وهم يعرفون سيرتك فيهم .

كما قال سبحانه فى موضع آخر : ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٦)﴾ [يونس]

أربعون سنة قضاها رسول الله بين قومه قبل البعثة ، ما جرَّبوا عليه قراءة ولا كتابة ولا خطبة ، ولا نمَّق قصيدة ، فكيف تُكذِّبونه الآن ؟

فإنْ قالوا : كانت عبقرية عند محمد أجَّلها حتى سنِّ الأربعين . نقول : العبقرية عادة مَا تأتى فى أواخر العقد الثانى من العمر فى السابعة عشرة ، أو الثامنة عشرة ، ومَنْ ضمن لمحمد البقاء حتى سنِّ الأربعين ، وهو يرى مصارع أهله ، جده وأبيه وأمه ؟

لو كان عندك شىء من القراءة أو الكتابة لكان لهم عذر ،

ولكان فى الأمر شبهة تدعو إلى الارتياب فى أمرك ، كما قالوا : ﴿أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (٥)﴾ [الفرقان]

وقالوا : ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ .. (١٠٣)﴾ [النحل] فردَّ القرآن عليهم[1] ﴿لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ (١٠٣)﴾ [النحل]

وقالوا : ساحر . وقالوا : شاعر . وقالوا : مجنون . وكلها افتراءات وأباطيل واهية يسهل الردُّ عليها : فإنْ كان ساحراً ، فلماذا لم يسحركم أنتم أيضاً وتنتهى المسألة ؟ وإنْ كان شاعراً فهل جرَّبتم عليه أنْ قال شعراً قبل بعثته ؟

وإنْ قُلْتم مجنون ، فالجنون فَقْد العقل ، بحيث لا يستطيع الإنسان أنْ يختار بين البدائل ، فهل جرَّبتم على محمد شيئاً من ذلك ؟ وكيف يكون المجنون على خُلُق عظيم بشهادتكم أنتم أنه الصادق الأمين ، فعنده انضباط فى الملكات وفى التصرفات ، فكيف تتهمونه بالجنون ؟

وكلمة ﴿مِن قَبْلِهِ .. (٤٨)﴾ [العنكبوت] لها عجائب فى كتاب الله منها هذه الآية : ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ .. (٤٨)﴾ [العنكبوت] فيقول بعض العارفين (من قبله) : أى من قبل نزول القرآن عليك ، وهذا القول ﴿مِن قَبْلِهِ .. (٤٨)﴾ [العنكبوت] يدل على أنه من الجائز أن يكون رسول الله ﷺ قد علم كيف يقرأ وكيف

---

(١) عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : كان رسول الله ﷺ يُعلِّم قيناً بمكة اسمه بلعام ، وكان عجمى اللسان ، فكان المشركون يرون رسول الله ﷺ يدخل عليه ويخرج من عنده ، فقالوا : إنما يعلمه بلعام ، فأنزل الله : ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ .. (١٠٣)﴾ [النحل] . أورده السيوطى فى الدر المنثور (٥/١٦٧) وعزاه لابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه بسند ضعيف .

يكتب بعد نـزول القرآن عليه ، حـتى لا يكون فى أمتـه من هو أحسن حالاً منه فى أى شىء ، أو فى خصلة من خصال الخير[(١)] .

ثم تأمل قولـه تعالى : ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ .. (٩١)﴾ [البقرة] بالله لو جاءت هذه الآية بدون كلمـة (مِنْ قَبْلُ) ألاَ يدخل فى روع رسول الله أنهم ربما يجـترئون عليـه فيقتلوه ، فيـتهيب منهم ، أو يدخل فى نفوسهم هم ، فيجترئون عليه كما قتلوا الأنبياء من قبل ؛ لذلك جاءتْ الآية لتقرر أن هذا كـان فى الماضى ، أما الآن فلن يحدث شىء من هذا أبداً ، ولن يُمكِّنكم الله من نبيه .

وكلمة ﴿وَمَا كُنتَ .. (٤٨)﴾ [العنكبوت] تكررت كثيراً فى كتاب الله ، ويُسمُّـونها (مـاكُنَّات القرآن) وفـيهـا دليل على أن القـرآن خرق كل الحجب فى الزمن الماضى ، والحاضر ، والمستقبل .

كما فى قوله تعالى : ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الأَمْرَ .. (٤٤)﴾ [القصص]

وقوله تـعالى : ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا .. (٤٥)﴾ [القصص]

وقـوله تعـالى : ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ .. (٤٤)﴾ [آل عمران]

وهنا : ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ .. (٤٨)﴾ [العنكبوت]

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٥٢٤١/٧) : « ذكر النقـاش فى تفسير هذه الآية عن الشعبى أنه قال : ما مات النبى ﷺ حتى كتب . وأسند أيضاً حديث أبى كبشة السلولى ، مضمنه : أنه ﷺ قرأ صحيفة لعيينة بن حصن وأخبر بمعناها . قال ابن عطية : وهذا كله ضعيف » . ثم قال (٥٢٤٣/٧) : « الصحـيح فى الباب أنه ما كتب ولا حرفاً واحـداً ، وإنما أمر من يكتب ، وكذلك ما قرأ ولا تهجى » .

لذلك وصفه ربه - عز وجل - بأنه ﴿الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ .. (١٥٧)﴾ [الأعراف] وإياك أن تظن أن الأمية عَيْب فى رسول الله ، فإنْ كانت عيباً فى غيره ، فهى فيه شرف ؛ لأن معنى أمى يعنى على فطرته كما ولدتْه أمه ، لم يتعلم شيئاً من أحد ، وكذلك رسول الله لم يتعلَّم من الخَلْق ، إنما تعلم من الخالق فعلَتْ مرتبةُ علمه عن الخَلْق .

ومن ذلك المكانة التى أخذها الإمام على - رضى الله عنه - فى العلم والإفتاء حتى قال عنه عمر رضى الله عنه - مع ما عُرف عن عمر من سداد الرأى حتى إن القرآن لينزلُ موافقاً لرأيه ، ومُؤيّداً لقوله - يقول عمر : بئس المقام بأرض ليس فيها أبو الحسن[1] . لماذا ؟

لأنه كان صاحب حجة ومنطق وصاحب بلاغة ، ألم يراجع الفاروقَ فى مسألة المرأة التى ولدتْ لستة أشهر من زواجها ، وعمر[2] يريد أنْ يقيم عليها الحد ؛ لأن الشائع أن مدة الحمل تسعة أشهر فتسرَّع البعض وقالوا : إنها سُبق إليها ، لكن يكون للإمام على رأى آخر ، فيقول لعمر : لكن الله يقول غير هذا ، فيقول عمر : وما ذاك ؟ قال : ألم يقُل الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ .. (٢٣٣)﴾ [البقرة] قال : بلى .

قال : ألم يقل : ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْراً .. (١٥)﴾ [الأحقاف]

---

(١) أخرج الحاكم فى مستدركه (٤٥٧/١) ، والبيهقى فى شعب الإيمان عن أبى سعيد الخدرى قال : « حججنا مع عمر رضى الله عنه ، فلما دخل الطواف استقبل الحجر فقال : إنى أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع » وهو حديث طويل وفيه أن عمر رضى الله عنه قال : « أعوذ بالله تعالى أن أعيش فى قوم لست فيهم يا أبا الحسن » .

(٢) ذكر الجصاص فى أحكام القرآن (٥١٧/٣) أن هذا حدث فى زمان عثمان بن عفان ولكن يبدو أنهما حادثتان وقعتا فى عهد كل من عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان ، فقد ذكر ابن قدامة المقدسى فى كتابه « المغنى » (١١٥/٩) أنه كان فى عهد عمر واستشهد بما رواه الأثرم بإسناده عن أبى الأسود وذكر القصة .

وبطرح العامين من ثلاثين شهراً يكون الباقى ستة أشهر ، فإذا ولدتْ المرأة لستة أشهر ، فهذا أمر طبيعى لا ارتيابَ فيه[١] .

وفى يوم دخل حذيفة على عمر رضى الله عنهما ـ فسأله عمر : كيف أصبحتَ يا حذيفة ؟ فقال حذيفة : يا أمير المؤمنين ، أصبحت أحب الفتنة ، وأكره الحق ، وأُصلِّى بغير وضوء ، ولى فى الأرض ما ليس لله فى السماء .

فغضب عمر ، وهَمَّ أن يضربه بدرة فى يده ، وعندها دخل علىٌّ فوجد عمر مُغْضباً فقال : مالى أراك مغضباً يا أمير المؤمنين ؟ فقصَّ عليه ما كان من أمر حذيفة ، فقال على :

نعم يا أمير المؤمنين يحب الفتنة ؛ لأن الله تعالى قال : ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ .. (١٥)﴾ [التغابن]

ويكره الحق أى : الموت فهو حقّ لكنا نكرهه ، ويُصلِّى على النبى بغير وضوء ، وله فى الأرض ولد وزوجة ، وليس ذلك لله فى السماء . فقال عمر قولته المشهورة : بئس المقام بأرض ليس فيها أبو الحسن .

---

(١) عن معمر بن عبد الله الجهنى قال : تزوج رجل منا امرأة من جهينة فولدت له لتمام ستة أشهر فانطلق زوجها إلى عثمان فذكر ذلك له فبعث إليها فلما قامت لتلبس ثيابها بكت أختها فقالت : وما يبكيك ؟ فو الله ما التبس بى أحد من خلق الله تعالى غيره قط ، فيقضى الله سبحانه فيما شاء ، فلما أتى بها عثمان أمر برجمها فبلغ ذلك علياً فأتاه فقال له : ما تصنع ؟ قال : ولدت تماماً لستة أشهر ، وهل يكون ذلك ؟ فقال له على رضى الله عنه : أما تقرأ القرآن ؟ قال : بلى . قال : أما سمعت الله عز وجل يقول ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا .. (١٥)﴾ [الأحقاف] وقال ﴿حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ .. (٢٣٣)﴾ [البقرة] فلم نجده بقى إلا ستة أشهر . فقال عثمان : والله ما فطنت بهذا ، علىٌّ بالمرأة ، فوجدوها قد فُرِغ منها . أورده ابن كثير فى تفسيره (٤/١٥٧) .

فلماذا تميَّز عليٌّ بهذه الميزة من العِلْم والفقه والحجة ؟ لأنه تربَّى فى حِجرْ النبوة فاستقى من نَبْعها ، وترعرع فى أحضان العلوم الإسلامية منذ نعومة أظافره ، ولم يعرف شيئاً من معلومات الجاهلية ، فلما تتفاعل عنده العلوم الإسلامية لا تَلِد إلا حقاً .

ثم يقول سبحانه ﴿إِذًا .. (٤٨)﴾ [العنكبوت] يعنى : لو حصل منك قراءة أو كتابة ﴿لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ (٤٨)﴾ [العنكبوت] أى : لكَان لهم عُذْر ووجهة نظر فى الارتياب ، والارتياب لا يعنى مجرد الشك ، إنما شك باتهام أى : يتهمون رسول الله بأنه كان على عِلْم بالقراءة والكتابة ؛ لذلك وصفهم بأنهم مبطلون فى اتهامهم له ﷺ .

﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ (٤٩)﴾

﴿بَلْ .. (٤٩)﴾ [العنكبوت] حرف يفيد الإضراب عما قبله ، وتأكيد ما بعده ﴿هُوَ﴾ أى : القرآن ﴿آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ .. (٤٩)﴾ [العنكبوت] وقال ﴿فِي صُدُورِ .. (٤٩)﴾ [العنكبوت] ولم يقل مثلاً : فى ذاكرتهم ؛ لأن الأذن تستقبل الكلام وتعرضه على العقل ، فإنْ قبله يستقر فى القلب وفى الصدر ، وفيه يتحول إلى عقيدة وإلى يقين لا يقبل الشكَّ ولا يتزحزح .

لذلك يقول تعالى عن القرآن : ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ .. (١٩٤)﴾ [الشعراء] فقال ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ .. (١٩٤)﴾ [الشعراء] أى :

مباشرة استقر فى قلبه ، ولم يقُلْ على أذنك .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ (١) قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ ﴾

أى : بعد أنْ جاءهم القرآن وبعد أنْ أعجزهم يطلبون آيات أخرى ، وسبق أنْ قلنا : إن الحق سبحانه كان إذا اقترح القومُ آيةً من رسولهم فأجابهم إلى ما طلبوا ، فإنْ كذبوا بعدها أخذهم أخْذ عزيز مقتدر .

واقرأ مثلاً قوله سبحانه : ﴿ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا .. ﴿٥٩﴾ ﴾ [الإسراء] فلما كذَّبوا بالآية التى طلبوها أهلكهم الله ؛ لأن المسألة إذن ليست مسألة آيات وإقناع ، إنما هى الإصرار على الكفر ، إذن : فطلب الإنزال لآية خاصة باقتراحهم ليس مانعاً لهم أنْ يكفروا أيضاً برسول الله .

لذلك يقول سبحانه : ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ .. ﴿٥٩﴾ ﴾ [الإسراء] أى : التى اقترحوها ﴿ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ .. ﴿٥٩﴾ ﴾ [الإسراء] وحين تنزل الآية ويُكذِّبون بها تنزل بهم عقوبة السماء ، لكن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ قطع العهد لرسوله محمد ﷺ ألاَّ يُعذِّب أمته وهو فيهم ، كما قال سبحانه : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأنفال]

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٥٢٤٥/٧) : « قرأ ابن كثير وأبو بكر وحمزة والكسائى « آية » بالتوحيد . وجمع الباقون ، وهو اختيار أبى عبيد ، لقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ .. ﴿٥٠﴾ ﴾ [العنكبوت] .

فهذا هو السبب المانع من أنْ تأتى الآية المقترحة ، ثم إن الآيات المقترحة آيات كونية تأتى وتذهب ، كما تشعل عود الثقاب مرة واحدة ، ثم ينطفئ ، رآه مَنْ رآه ، وأصبح خبراً لمن لم يَرَه .

وكلمة ﴿لَوْلا .. (٥٠)﴾ [العنكبوت] تستخدم فى لغة العرب استخدامين : إنْ دخلتْ على الجملة الاسمية مثل : لولا زيد عندك لَزرتُك ، وهى هنا حرف امتناع لوجود ، فقد امتنعتْ الزيارة لوجود زيد . وإنْ دخلتْ على الجملة الفعلية مثل : لولا تذاكر دروسك ، فهى للحضِّ وللحثِّ على الفعل .

فقولهم ﴿لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ .. (٥٠)﴾ [العنكبوت] كأن الآية التى جاءتهم من عند الله لا يعترفون بها ، ثم يناقضون أنفسهم حينما يقولون :

﴿لَوْلا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١)﴾ [الزخرف]

إذن : أنتم معترفون بالقرآن ، مقتنعون به ، لكن ما يقف فى حلوقكم أن ينزل على محمد من بين الناس جميعاً . ثم نراهم يناقضون أنفسهم فى هذه أيضاً ، ويعترفون من حيث لا يشعرون بأن محمداً رسول الله حينما قالوا :

﴿لا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا .. (٧)﴾ [المنافقون]

فما دُمْتم تعرفون أنه رسول الله ، فلماذا تُعادونه ؟ إذن : فالبديهة الفطرية تكذِّبهم ، ينطق الحق على ألسنتهم على حين غفلة منهم .

ويرد الحق ـ تبارك وتعالى ـ عليهم : ﴿قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللَّهِ .. (٥٠)﴾ [العنكبوت] فهى عند الله ، ليست عندى ، وليست بالطلب حسب أهوائكم ﴿إِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٥٠)﴾ [العنكبوت] أى : هذه مهمتى ، واختار

الإنذار مع أنه ﷺ بشير ونذير ، لكن خَصَّهم هنا بالإنذار ؛ لأنهم أهل لِجَاج ، وأهل باطل وجحود ، فيناسبهم كلمة الإنذار دون البشارة .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ ﴾

والاستفهام هنا للتعجُّب وللإنكار ، يعنى : كيف لا يكفيهم القرآن ولا يقنعهم وهو أعظم الآيات ، وقد أعجزهم أنْ يأتوا ولو بآية من آياته ، وجاءهم بالكثير من العبر والعجائب ؟ إذن : هم يريدون أنْ يتمحّكوا ، وألا يؤمنوا ، وإلا لو أنهم طلاب حَقٍّ باحثون عن الهداية لكفاهم من القرآن آية واحدة ليؤمنوا به .

وقوله تعالى : ﴿ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ .. ﴿٥١﴾ ﴾ [العنكبوت] لأن رسول الله ﷺ كان ينزل عليه الوحى بعدة آيات ، وقد يطول إلى رُبْعين أو ثلاثة أرباع ، فلما أن يسرى عنه يتلو ما نزل عليه على صحابته ليكتبوه ، يتلوه كما أُنزل عليه ، فيكتبه الكتبة ، ويحفظه مَنْ يحفظه منهم ، وكانوا أمة رواية وأمة حفظ .

ثم يأتى وقت الصلاة فيصلى بهم رسول الله بما نزل عليه من

---

(١) سبب نزول الآية : « قيل إن سبب نزول هذه الآيات ما رواه ابن عيينة .. قال : أتى النبى ﷺ بكتف فيه كتاب فقال : « كفى بقوم ضلالة أن يرغبوا عما جاء به نبيهم إلى ما جاء به غير نبيهم ، أو كتاب غير كتابهم » فأنزل الله تعالى : ﴿ أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ .. ﴿٥١﴾ ﴾ [العنكبوت] » ذكره القرطبى فى تفسيره (٧/٥٢٤٥) .

الآيات ، يُعيدها كما أملاها ، وهذه هبة ربانية منحها لرسوله ﷺ ، وخاطبه بقوله : ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنسَىٰ (٦) ﴾ [الأعلى]

وإلا ، فلَك أن تتحدى أكثر الناس حفْظاً أنْ يُعيد عليك خطبة أو كلمة ألقاها على مدى نصف ساعة مثلاً ، ثم يعيدها عليك كما قالها فى المرة الأولى .

ثم يقول سبحانه : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ .. (٥١) ﴾ [العنكبوت] لكن لمن ﴿ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥١) ﴾ [العنكبوت] ؛ لأن القرآن لا يثمر إلا فيمن يُحسن استقباله ويؤمن به ، أما غير المؤمنين فهو فى آذانهم وَقْر وهو عليهم عمى ، لا يفقهونه ولا يتدبرونه ؛ لأنهم يستقبلونه لا بصفاء نفس ، وإنما ببُغْض وكراهية استقبال ، فلا ينالون نوره ولا بركته ولا هدايته .

لذلك يقول تعالى فى الذين يُحسنون استقبال كلام الله : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ .. (٤٤) ﴾ [فصلت]

أما الذين يجحدونه ولا يُحسنون استقباله ، فيقول عنهم : ﴿ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى .. (٤٤) ﴾ [فصلت]

وسبق أنْ قلنا : إن الفعل واحد ، لكن المستقبل مختلف ، ومثَّلْنا لذلك بمن ينفخ فى يده ليُدفئها فى البرد ، ومَنْ ينفخ فى الشاى ليُبرده ، وأنت أيضاً تنفخ فى الشمعة لتطفئها ، وتنفخ فى النار لتشعلها .

وفى موضع آخر يقول تعالى : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ .. (٨٢) ﴾ [الإسراء] ، ففرْق بين الشفاء والرحمة ، الشفاء يعنى : أنه كانت هناك علة ، فبرأت ، لكن الرحمة ألاَّ تعاودك

العلة ، ولا يأتيك الداء مرة أخرى ، فالقرآن نزل ليعالج الداءات النفسية ، يعالجها بالقراءة ويُحصِّنك ضدها فلا تصيبك ، وإنْ وقعتَ فى شىء من هذه الداءات فاقرأ ما جاء فيها من القرآن ، فإنها تبرأ بإذن الله ، إذن : الشفاء يعالج الداء إنْ وقع فى غفلة من سلوك النفس.

ولو طبقنا قضايا القرآن فى نفوسنا لنالتنا هذه الرحمة ، فالإنسان بدن وقيم ومعانٍ وأخلاق ، هذه المعانى فى الإنسان يسمونها النفسيات ، فقد يكون سليم البنية والجسم لكنه سقيم النفس ؛ لذلك نجد بين تخصصات الطب الطب النفسى ، وكل مريض لا يجدون لمرضه سبباً عضوياً يُشخِّصونه على أنه مرض نفسى ، وحين تسأل الطبيب النفسى تجد أن كل ما عنده عقاقير تهدىء المريض أو تهدّه فينام حتى لا يفكر فى شىء ، وهل هذا هو العلاج ؟

ولو تأملنا كتاب ربنا لوجدنا فيه العلاجيْن : العضوى والنفسى ، فسلامة الجسم فى أن الله تعالى أحلّ لك أشياء ، وحرَّم عليك أشياء ، وما عليك إلا أنْ تستقيم على منهج ربك فتسلم من داءات الجسد ، فإنْ كنتَ من هؤلاء الذين يحبون الأكل من الحلال لكنهم يبالغون فيه إلى حَدِّ التُّخمة ، فاقرأ فى القرآن : ﴿ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [الأعراف]

ثم تجد فى السنة النبوية مُذكِّرة تفسيرية لهذه الآية : « بحسب ابن آدم لُقيْمات يُقمْنَ صلْبه ، فإنْ كان ولا بُدَّ : فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنَفسه »[1] .

---

(١) عن المقدام بن معدى كرب قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما ملأ آدمى وعاء شراً من بطن ، بحسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه ، فإن كان لا محالة فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنفسه » أخرجه الترمذى فى سننه (٢٣٨٠) ، وابن ماجه فى سننه (٣٣٤٩) .

فالأصل أن يأكل الإنسان ليعيش ، لا أن يعيش ليأكل . وبعض السطحيين يقولون : ما معنى « ثلث لنفَسه » ، وهل النفَس فى المعدة ؟ والآن ، ومع تطور العلوم عرفنا أن تُخمة البطن تضغط على الحجاب الحاجز وتضيق مجال الرئة فينتج عن ذلك ضيق فى التنفس .

أما الناحية النفسية ، فالمرض النفسى ناتج إما عن انقباض الجوارح عن طبيعة تكوينها ، أو انبساطها عن طبيعة تكوينها ، كالبيضة مثلاً لها حجم معين فإنْ ضيَّقْتَ هذا الحجم أو بسطته تنكسر .

وهذا أيضاً أساس الداء فى النفس البشرية ؛ لأن ملكات النفس ينبغى أنْ تظل فى حالة توازن واستواء ، وتجد هذا التوازن فى منهج ربك ـ عز وجل ـ حيث يقول سبحانه : ﴿لِكَيْلا تَأْسَوْاْ[1] عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ .. (٢٣)﴾ [الحديد]

فمعنى ﴿لِكَيْلا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ .. (٢٣)﴾ [الحديد] الانقباض ﴿وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ .. (٢٣)﴾ [الحديد] الانبساط . وكلاهما مذموم منهىٌّ عنه ، لكن مَن ذا الذى لا يأسى على ما فات ، ولا يفرح بما هو آتٍ؟

لذلك نجد البُلَداء الذين لا تَهزهم الأحداث بصحة قوية ؛ لأنهم لا يهتمون للخطوب ، حتى أن الشعراء لم يَفُتْهم هذا المعنى ، حيث يقول أحدهم[2] :

وَفى البَلادة مَا فى العَزْم منْ جلَد ... إنَّ البليد قوىُّ النفْس عَاتيها
فَاسْأل أُولى العَزْم إنْ خارتْ عزائمهمْ ... عَن البَلادة هَلْ مَادتْ رَوَاسيهَا ؟

فالذى تظنه بلادة هو عزم قوىٌّ فى استقبال الأحداث والصمود لها .

---

(١) أسيت عليه أسىً : حزنت . والأسى : الحزن . وأسيت لفلان : حزنت له . [لسان العرب ـ مادة : أسى] .

(٢) من شعر الشيخ رضوان الله عليه .

إذن : الرحمة فى منهج الله إن التزمنا به نأمن من الأدواء ، مادية كانت أم معنوية .

﴿ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾

(قُلْ) أى : للمنكرين لك ﴿ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا .. ﴿٥٢﴾ ﴾ [العنكبوت] أى : حسبى أن يشهد الله لى بأنِّى بلّغْتُ ، فشهادتكم عندى لا تنفع ، كما أنه لا ينفعنى إيمانكم ، ولا يضرنى كفركم ، فأجرى آخذه من ربى على مجرد البلاغ وقد بلَّغْتُ ، وشهد الله لى بذلك .

وفى موضع آخر يقول سبحانه : ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ .. ﴿٤٣﴾ ﴾ [الرعد] أى : أنكم لم تكتفوا بالآيات ، ولم تؤمنوا بها ، لكنى أكتفى برب هذه الآيات شهيداً بينى وبينكم ، إذن : هناك خصومة فى البلاغ بين محمد ﷺ وقومه الذين يُكذِّبونه فى البلاغ عن ربه .

فلا بُدَّ إذن من فَصْل فى هذه الخصومة ، وإذا ما نظرنا إلى قضايا الخَلْق فى الخصومات وجدنا إمَّا أنْ يُقر المتهم ، وإما أن يشهد شاهد حَقٍّ لا شاهد زور ، ثم يعرض الأمر على القاضى ليحكم بالشهادة أو البينة .

ولا بُدَّ فى القاضى ألاّ يكون صاحب هوى ، ثم يأتى دور تنفيذ الحكم ، وهى السلطة التنفيذية ، وهذه أيضاً ينبغى ألاَّ يكون لها

هوى ، فتنفذ الحكم على حقيقته ، فكأن الخصومات عند البشر تمرُّ بمراحل متعددة ، وقد تتميع الحقائق إذا لم تتوفر الشروط اللازمة لهذه الأطراف ، فلو شهد الشاهد زوراً أو مال القاضى أو المنفِّذ للحكم ودلَّس فى التنفيذ لانقلبت المسائل .

أما فى حكومة الحق ـ سبحانه وتعالى ـ فى الخصومة بين محمد وقومه ، فكفى به سبحانه حاكماً وقاضياً ومُنفِّذاً ، لماذا ؟ لأنه سبحانه : ﴿ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. (٥٢) ﴾ [العنكبوت]

فلا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء ، يعلم السر وأَخْفى ، فأىُّ شهادة إذن أعدل من شهادته ؟ وهو سبحانه قاضٍ عادل يحكم بالحق ؛ لأنه ليس له سبحانه هوىً يميل به إلى الباطل ، وهو سبحانه لا يُبدل فى تنفيذ الأحكام ؛ لأنه يُنفّذ حكمه هو سبحانه .

إذن : مَن الفائز فى حكومة قاضيها الحق ـ تبارك وتعالى ـ وأطراف الخصومة فيها محمد وقومه ؟ فاز رسول الله فى أن يكون الله هو الشهيد ، وخسر الكافرون حين كفروا به ، ولم تكْفِهم البينة التى جاءتهم فى القرآن الكريم .

وعِلْم الله للغيب ليس علاجاً ومذاكرة ليعلم ، إنما تأتى الأمور بتوقيت منه قديم أزلاً ، والعالم يظهر على وَفْق ما يراه أزلاً ؛ لذلك يقول سبحانه : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٨٢) ﴾ [يس]

أى : يقول للشىء ، فكأنه موجود فعلاً ينتظر الأمر من الله بالظهور للناس ، فقوله (كُنْ) للظهور فقط ، أما مسألة الخَلْق فمنتهية أزلاً ، و (الماكيت) موجود ، فالحق سبحانه يعلم غَيْب السموات والأرض ، أما نحن فلا نعلم حتى غَيْب أنفسنا .

ويقول سبحانه : ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧﴾ [طه] فهل هناك أخفى من السر ؟ قالوا : السر ما تُسِرُّه فى نفسك ، والأخفى منه أنْ يعلمه سبحانه قبل أن يكون فى نفسك .

وقد وقف البعض عند قوله تعالى : ﴿يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ۝٢٩﴾ [النور] وقوله سبحانه : ﴿يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ۝١١٠﴾ [الأنبياء]

يقولون : ما وجه امتنان الله بعلم الجهر من القول ، وبعِلْم ما نُبدى ، فهذا شىء غير مستور يعرفه الجميع ؟

ونقول : افهم عن الله مراده ، فالمعنى لم يقُلْ سبحانه : أعلم ما تبدى أنت ، ولا ما تجهر به أنت ، إنما ما تبدون كلكم ، وما تجهرون به كلكم ، ولتوضيح هذه المسألة تصوَّر مظاهرة من عدة مئات أو عدة آلاف تختلط بينهم الهتافات والأصوات وتتداخل الكلمات ، بحيث لا تستطيع أن تميز صوت هذا من صوت ذاك .

لكن الحق سبحانه يستطيع تمييز هذه الأصوات ، وإعادة كل منها إلى صاحبه ؛ لذلك نرى فى المظاهرات أن كل إنسان يستطيع أن يقول ما يشاء ، ويهتف بما لا يجرؤ أن يهتف به منفرداً ؛ لأن صوته سيختلط مع الأصوات ، ويستتر فيها فلا يعرف مصدره ، وهكذا يكون علم الجَهْر أقوى من علم الغَيْب .

فإنْ قلت : إن بعض العلماء باكتشافاتهم وبحوثهم توصلوا إلى معرفة أسرار كانت مستترة فى الكون ، كالكهرباء والذرة وغيرها ، فهُمْ بذلك يعلمون الغيب . نقول : نعم ، علموا شيئاً كان مستوراً فى الكون ، لكن علموه بمقدمات خلقها الله ويسَّرها لهم ، فأخذوا هذه المقدمات وتوصَّلوا بها إلى اكتشافاتهم ، كما يحلّ ولدك مثلاً تمرين الهندسة ، فيستعين بالمعطيات .

إذن ؛ فهو فى حقيقة الأمر ليس غيباً ، بل هو شىء موجود ، لكن له ميلاد ووقت يظهر فيه ، فإنْ جاء وقته يسَّر الله لخَلْقه الوصول إليه ، إما بالبحث واستخدام المقدمات ، فإذا صادف ميلاد السر بحث الخلق يُقال : إنهم أحاطوا علْماً ببعض غيب الله .

ويقول تعالى : ﴿وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ .. (٢٥٥)﴾[البقرة] أى : شاء أنْ يُولد ، فإنْ جاء ميلاد السر ، ولم يتوصَّلوا إليه ببحوثهم ، ولم يقفوا على مقدماته كشفه الله لهم ولو مصادفة ، وقد اكتشفوا كثيراً من أسرار الكون مصادفة .

فالغيب الحقيقى : هو الذى ليس له مقدمات تُوصِّل إليه ، ولا يعلمه أحد إلا الله ، والذى قال الله عنه : ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ .. (٢٧)﴾ [الجن] فالرسول - إذن - لا يعلم الغيب ، إنما عُلِّم الغيب .

ثم يقول تعالى : ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ .. (٥٢)﴾ [العنكبوت] أى : بعبادة ما دون الله من الأصنام والأوثان ﴿وَكَفَرُوا بِاللَّهِ .. (٥٢)﴾ [العنكبوت] الخالق واجب الوجود ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٥٢)﴾ [العنكبوت] لأن كفر الخَلْق بالخالق لا يؤثر فى ذاته سبحانه ، ولا فى صفات الكمال فيه ، لأنه سبحانه بصفات الكمال خلقهم ، فله سبحانه صفات الكمال ، آمنوا أم كفروا .

لكن فَرْق بين مَنْ يؤمن ومَنْ يكفر ، فالإنسان بطبعه حريص على الحياة متمسك بها ، حتى إنه إنْ أصابه مرض طلب العلاج ليصون حياته وهو يخاف الموت ، ويرى مصارع الناس من حوله ، وكيف سبقه أجداده ولم يخلد منهم أحد ، ويرى أن الموت يأتى بلا أسباب ؛ حتى قيل : والموت من غير سبب هو السبب .

إذن : فالموت حقيقة واقعة ، لكن يشكُّ الناس فيها ولا

يتصورونها لأنفسهم لأنهم يكرهونها ؛ لذلك يقال فى الأثر : ما رأيتُ يقيناً أشبه بالشكِّ من يقين الناس بالموت .

وليقين الإنسان فى الموت نراه يحب البقاء فى ولده ، وفى ولد ولده ليبقى ذكْره أطول فترة ممكنة ، وما دام الأمر كذلك ، فلماذا لا تؤمن بالله فيورثك الإيمانُ حياةً خالدة باقية لا نهايةَ لها ، لا تفارقها ولا تفارقك ، وهى حياة الآخرة . إذن : فمَنِ الخاسرون ؟ الخاسرون هم الكافرون الذى قصروا حياتهم على عمرهم فى الدنيا .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٣) ﴾

عجيب أنْ يطلب الإنسان لنفسه العذاب ، وأن يستعجله إنْ أبطأ عليه ، إذن : ما طلبه هؤلاء إلا لاعتقادهم أنه غير واقع بهم ، وإلا لو وَثِقُوا من وقوعه ما طلبوه .

﴿ وَلَوْلا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ .. (٥٣) ﴾ [العنكبوت] لأن كل شىء عند الله بميقات وأجل ، والأجل يختلف باختلاف أصحابه وهو أجل الناس وأعمارهم ، وهى آجال متفرقة فيهم ، لكن هناك أجل يجمعهم جميعاً ، ويتفقون فيه ، وهو أجل الساعة .

فقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ (٣٤) ﴾ [الأعراف] أى : بآجالهم المتفرقة . أمّا أجل القيامة فأجل واحد مُسمّى عنده تعالى ، ومن عجيب الفَرْق بين الأجلين أن الآجال المتفرقة فى الدنيا تنهى حياة ، أمّا أجل الآخرة فتبدأ به الحياة .

والمعنى ﴿وَلَوْلا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ .. (٥٣)﴾ [العنكبوت] أن المسألة ليست على هواهم ورغباتهم ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ .. (٣٧)﴾ [الأنبياء] ويقول : ﴿سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلا تَسْتَعْجِلُونِ (٣٧)﴾ [الأنبياء]

لذلك لما عقد النبى ﷺ صلح الحديبية بينه وبين كفار مكة ، ورضى أنْ يعود بأصحابه دون أداء فريضة العمرة غضب الصحابة وعلى وعمر ، ولم يعجبهم هذا الصلح ، وكادوا يخالفون رسول الله غيرةً منهم على دينهم ، حتى أن النبى ﷺ دخل على أم سلمة رضى الله عنها وقال : « هلك المسلمون »[1] قالت : ولم يا رسول الله ؟ قال : « أمرتهم فلم يمتثلوا » فقالت : يا رسول الله اعذرهم ، فهم مكروبون ، جاءوا على شَوْقٍ لبيت الله ، وكانوا على مقربة منه هكذا ، ثم يُمنعون ويُصدُّون ، اعذرهم يا رسول الله ، ولكن امْضِ فاصنع ما أمرك الله به ودَعْهم ، فإنْ هم رأوْكَ فعلتَ فعلوا ، وعلموا أن ذلك عزيمة .

وفعلاً ذهب رسول الله ، وتحلّل من عمرته ، ففعل القوم مثله ، ونجحت مشورة السيدة أم سلمة ، وأنقذت الموقف .

ثم بيَّن الله لهم الحكمة فى العودة هذا العام دون قتال ، ففى مكة

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٤/٣٢٦) ضمن حديث صلح الحديبية الطويل من حديث المسور بن مخرمة الزهرى ومروان بن الحكم أن رسول الله ﷺ قال : يأيها الناس انحروا واحلقوا فما قام أحد ثم عاد بمثلها فما قام رجل حتى عاد بمثلها فما قام رجل فرجع رسول الله ﷺ فدخل على أم سلمة فقال : يا أم سلمة ما شأن الناس ؟ قالت : يا رسول الله قد دخلهم ما قد رأيت فلا تكلمن منهم إنساناً واعمد إلى هديك حيث كان فانحره واحلق ، فلو قد فعلت ذلك فعل الناس ذلك فخرج رسول الله لا يكلم أحداً حتى أتى هديه فنحره ثم جلس فحلق فقام الناس ينحرون ويحلقون » .

إخوان لكم آمنوا ، ويكتمون إيمانهم ، فإنْ دخلتم عليهم مكة فسوف تقتلونهم دون علم بإيمانهم .

وكان عمر ـ رضى الله عنه ـ كعادته شديداً فى الحق ، فقال : يا رسول الله ، ألسنا على الحق ؟ قال ﷺ « بلى » قال : أليسوا على الباطل ؟ قال ﷺ « بلى » قال : فلِمَ نُعطى الدنية فى ديننا ؟ فقال أبو بكر : الزم غَرْزك يا عمر[1] .. يعنى قف عند حدِّك وحجِّم نفسك ، ثم قال بعدها ليبرر هذه المعاهدة : ما كان فتح فى الإسلام أعظمَ من فتح الحديبية ـ لا فتح مكة .

لماذا ؟ لأن الحديبية انتزعت من الكفار الاعترافَ بمحمد ، وقد كانوا معارضين له غير معترفين بدعوته ، والآن يكاتبونه معاهدة ويتفقون معه على رأى ، ثم إنها أعطت رسول الله فرصة للتفرغ لأمر الدعوة ونشرها فى ربوع الجزيرة العربية ، لكن فى وقتها لم يتسع ظنُّ الناس لما بين محمد وربه ، والعباد عادةً ما يعجلون ، والله ـ عز وجل ـ لا يعجل بعجلة العباد حتى تبلغ الأمور ما أراد سبحانه .

ثم يقول تعالى : ﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (٥٣)﴾ [العنكبوت] يعنى : فجأة ، وليس حسب رغبتهم ﴿وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (٥٣)﴾ [العنكبوت] لا يشعرون ساعتها أم لا يشعرون الآن أنها حق ، وأنها واقعة لأجل مسمى ؟

المراد لا يشعرون الآن أنها آتية ، وأن لها أجلاً مُسمى ، وسوف تباغتهم بأهوالها ، فكان عليهم أن يعلموا هذه من الآن ، وأن يؤمنوا

---

(١) أخرج نحوه مسلم فى صحيحه (١٧٨٥) كتاب الجهاد ، والبخارى فى صحيحه (٤٨٤٤) فى تفسير سورة الفتح من حديث سهل بن حنيف رضى الله عنه .

بهـا . إذن : فليس المراد أنهم لا يشـعرون بالبـغتـة ؛ لأن شعـورهم بالبغتة ساعتها لا ينفعهم بشىء .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾

أى : قُلْ لهم إنْ كنتم تستعجلون العـذاب فهو آتٍ لا محالة ، وإنْ كنتم فى شوق إليه فجهنم فى انتـظاركم ، بل ستمتلىء منكم وتقول : هل من مزيد ؟ والعذاب يتناسب وقدرة المعذِّب قوة وضعفاً ، وإحاطة وشمولاً ، فإذا كان المعـذِّب هو الله ـ عز وجل ـ فعذابه لا يُعذِّبه أحد من العالمين .

ومعنى ﴿ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ [العنكبوت] الإحاطة أن تـشمل الشىء من جـميع جـهاته ، فـالجـهات أربع : شـمال وجنوب وشـرق وغرب ، وبين الجهـات الأصلية جهات فـرعية ، وبين الجهات الفـرعية أيضاً جهات فرعية ، والإحاطة هى التى تشمل كل هذه الجهات .

ومن ذلك قـوله تعـالى : ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [الكهف] يعنى : من كل جهاتهم .

ومن عجيب أمر النار فى الآخرة أن النار فى الدنيا يمكن أنْ تُعذِّب شخـصاً بنار تحوطه لا يسـتطيع أنْ يُفلت منها ، لكن النار بطبـيعتـها تعلو ؛ لأن اللهب يتجه إلى أعلى ، أما إنْ كانت تحت قدمك فيمكنك أنْ تدوسها بقدمك ، كما تطفىء مثـلاً (عُقْب) السيجارة ، فحين تدوسه

---

(١) سبب نزول الآية : قال القرطبى فى تفسيره (٥٢٤٧/٧) : « قيل : نزلت فى عبد الله بن أبى أمية وأصحابه من المشركين حين قالوا ﴿ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا .. ﴿٩٢﴾ ﴾ [الإسراء] .

تمنع عنه الأكسوجين ، فتنطفىء النار فيه ، أما فى نار الآخرة فتأتيهم من كل جهاتهم :

﴿ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾

وفى موضع آخر يقول سبحانه : ﴿ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ﴿١٦﴾ ﴾ [الزمر]

وهاتان الجهتان لا تأتى منهما النار فى الدنيا ؛ لأن النار بطبيعتها تصعد إلى أعلى ، وإنْ كانت تحت القدم تنطفىء . إذن : هذا ترقٍّ فى العذاب ، حيث لا يقتصر على الإحاطة من جميع جهاته ، إنما يأتيهم أيضاً من فوقهم ومن تحتهم .

لكن قد يتجلَّد المعذَّب للعذاب ، ويتماسك حتى لا تشمت فيه ، وهذا يأتيه عذاب من نوع آخر ، عذاب يُهينه ويُذلُّه ، ويُقال له : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الدخان] لذلك وصف العذاب ، بأنه : مهين ، وأليم ، وعظيم ، وشديد .

وقوله تعالى ﴿ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [العنكبوت] لم يقل : ذوقوا النار ، إنما ذوقوا ما عملتم ، كأن العمل نفسه سيكون هو النار التى تحرقهم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾

بعد أنْ تحدَّث الحق سبحانه عن الكفار والمكذِّبين أراد أنْ يُحدث توازناً فى السياق ، فحدَّثنا هنا عن المؤمنين ليكون أنكَى للكافرين ، حين تردف الحديث عنهم ، وعما يقع لهم من العذاب بما سينال المؤمنين من النعيم ، فتكون لهم حسرة شديدة ، فلو لم يأخذ المؤمنون هذا النعيم لكانَ الأمر أهونَ عليهم .

وقوله تعالى : ﴿يَـٰعِبَادِىَ .. ﴿٥٦﴾﴾ [العنكبوت] سبق أن قُلْنا : إن الخَلْق جميعاً عبيد لله ، وعبيد الله قسمان : مؤمن وكافر ، وكل منهما جعله الله مختاراً : المؤمن تنازل عن اختياره لاختيار ربه ، وفضَّل مراده سبحانه على مراد نفسه ، فصار عبداً فى كل شىء حتى فى الاختيار ، فلما فعلوا ذلك استحقوا أن يكونوا عبيداً وعباداً لله .

أما الكافر فتأبَّى على مراد ربه ، واختار الكفر على الإيمان ، والمعصية على الطاعة ، ونسى أنه عبد لله مقهور فى أشياء لا يستطيع أن يختار فيها ، وكأن الله يقول له : أنت أيها الكافر تمردْتَ على ربك ، وتأبَّيْتَ على منهجه فى (افعل) و (لا تفعل) ، واعتدْتَ التمرد على الله . فلماذا لا تتمرد عليه فيما يُجريه عليك من أقدار ، لماذا لا تتأبَّى على المرض أو على الموت ؟ إذن : فأنت فى قبضة ربك لا تستطيع الانفلات منها .

وعليه ، فالمؤمن والكافر سواء فى العبودية لله ، لكن الفرْق فى العبادية حيث جاء المؤمن مختاراً راضياً بمراد الله ، وفَرْق بين عبد يُطيعك وأنت تجرُّه فى سلسلة ، وعبد يخدمك وهو طليق حُرٌّ . وهكذا المؤمن جاء إلى الإيمان بالله مختاراً مع إمكانية أنْ يكفر ، وهذه هى العبودية والعبادية معاً .

ومعنى ﴿إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ .. ﴿٥٦﴾﴾ [العنكبوت] يخاطبهم ربهم هذا

الخطاب وهم فى الأرض وفى سعتها ، ليلفت أنظارهم إلى أنهم سيُضطهدون ويُعذَّبون ، وسيقع عليهم إيذاء وإيلام ، فيقول لهم : إياكم أن تَصْرِفكم هذه القسوة ، إياكم أنْ تتراجعوا عن دعوتكم ، فإذا لم يناسبكم هذا المكان فاذهبوا إلى مكان آخر فأرضى واسعة فلا تُضيِّقوها على أنفسكم .

لذلك يقول سيدنا رسول الله ﷺ : « الأرض لله ، والعباد كلهم لله ، فإنْ أبصرتَ خيراً فأقِمْ حيث يكون »[1] .

فالذى نعانى منه الآن هو هذه الحدود وهذه القيود التى وضعناها فى جغرافية أرض الله ، فضيَّقنا على أنفسنا ما وسَّعه الله لنا ، فأرْضُ الله الواسعة ليست فيها تأشيرات دخول ولا جوازات سفر ولا (بلاك لست) .

لذلك قلنا مرة فى الأمم المتحدة : إنكم إنْ سعيتُم لتطبيق مبدأ واحد من مبادىء القرآن فلن يوجد شر فى الأرض ، ألا وهو قوله تعالى : ﴿ وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ ﴿١٠﴾ ﴾ [الرحمن]

والمعنى : الأرض كل الأرض للأنام كل الأنام ، فإنْ ضاق رزقك فى مكان فاطلبه فى مكان آخر ، وإلا فالذى يُتعِب الناس الآن أن توجد أرض بلا رجال ، أو رجال بلا أرض ، وها هى السودان مثلاً بجوارنا ، فيها أجود الأراضى لا تجد مَنْ يزرعها ، لماذا ؟ للقيود التى وضعناها وضيَّقنا بها على أنفسنا .

---

(١) عن الزبير بن العوام قال قال ﷺ : « البلاد بلاد الله ، والعباد عباد الله ، فحيثما أصبت خيراً فأقم » أخرجه أحمد فى مسنده (١٦٦/١) ، وأورده العجلونى فى كشف الخفاء (٣٤٢/١) بلفظ « فأى موضع رأيت فيه رفقاً فأقم » وقال : « رواه الطبرانى عن الزبير بسند ضعيف ، وعزاه النجم أيضاً لأحمد والطبرانى عن الزبير بسند ضعيف » .

وصدق الشاعر حين قال :

لَعْمرُكَ مَا ضَاقَتْ بِلادٌ بأهْلِها ولكنَّ أخْلاقَ الرجَالِ تَضِيقُ

ثم يقول سبحانه ﴿فَإِيَّاىَ فَاعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [العنكبوت] فإنْ أخذنا بمبدأ الهجرة فلا بُدَّ أن نعلم أن للهجرة شروطاً أولها : أنْ تهاجر إلى مكان يحفظ عليك إيمانك ولا ينقصه ، وانظر قبل أنْ تخرج من بلدك هل ستتمكن فى المهجر من أداء أمور دينك كما أوجبها الله عليك ؟ فإنْ كان ذلك فلا مانع ، وإلا فلا هجرةَ لمكان يُخرِجنى من دائرة الإيمان ، أو يحول بينى وبين أداء أوامر دينى .

وهل يُرضيك أنْ تعيش لتجمع الأموال فى بلاد الكفر ، وأنْ تدخل عليك ابنتك مثلاً وفى يدها شاب لا تعرف عنه شيئاً قد فُرِض عليك فَرْضاً ، فقد عرفته على طريقة القوم ، ساعتها لن ينفعك كل ما جمعت ، ولن يصلح ما جُرِح من كرامتك .

وسبق أن أوضحنا أن الهجرة قد تكون إلى دار أَمْن فقط ، حيث تأمن فيها على دينك ، وتأمن ألاَّ يفتنك عنه أحد ، ومن ذلك الهجرة التى أمر بها رسول الله إلى الحبشة ، وهى ليست أرْضَ إيمان ، بل أرض أَمْن .

وقد عَلَّل رسول الله ﷺ أمره بالهجرة إليها بقوله : « إن فيها مَلِكاً لا يُظْلَم عنده أحد »[1] وقد تبيَّن بعد الهجرة إليها صِدْق رسول الله ،

---

(١) عن أم سلمة أنها قالت : « لما ضاقت علينا مكة ، وأوذى أصحاب رسول الله ﷺ وفتنوا ورأوا ما يصيبهم من البلاء والفتنة فى دينهم ، وأن رسول الله ﷺ لا يستطيع دفع ذلك عنهم ، وكان رسول الله فى منعة من قومه ومن عمه ، لا يصل إليه شيء مما يكره مما ينال أصحابه ، فقال لهم رسول الله ﷺ : « إن بأرض الحبشة ملكاً لا يظلم أحد عنده ، فالحقوا ببلاده حتى يجعل الله لكم فرجاً ومخرجاً مما أنتم فيه » حديث طويل أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٢/٣٠١) وأورده ابن هشام فى السيرة بنحوه (١/٣٢١) .

وكأنه على علم تام بالبيئة المحيطة به وبأحوال أهلها .

لذلك لم يأمرهم مثلاً بالهجرة إلى أطراف الجزيرة العربية ؛ لأنها كانت خاضعة لقريش بما لها من سيادة على الكعبة ، فلا يستطيع أحد أنْ يحمى مَنْ تطلبه قريش ، حتى الذين هاجروا بدينهم إلى الحبشة لم يَسْلَموا من قريش ، فقد أرسلتْ إلى النجاشى مَنْ[1] يكلمه فى شأنهم ، وحملوا إليه الهدايا المغرية ليسلمهم المهاجرين من المؤمنين بمحمد ، لكن لم تفلح هذه الحيلة مع الملك العادل الذى راود الإيمانُ قلبه ، فأحب المؤمنين ودافع عنهم ورفض إعادتهم ويقال : إنه آمن بعد ذلك ، ولما مات صلَّى عليه رسول الله[2] .

أما الهجرة إلى المدينة بعد الهجرة إلى الحبشة فكان لدار أَمْن وإيمان معاً ، حيث تأمن فيها على دينك ، وتتمكّن فيها من نشره والدعوة إليه ، وتجد بها إخواناً مؤمنين يُواسُونك بأموالهم ، وبكل ما يملكون ، وقد ضرب الأنصار فى مدينة رسول الله أروع مثل فى التاريخ فى المواساة ، فالأنصارى كان يرى أخاه المهاجر ترك أهله فى مكة ، وله إرْبة وحاجة للنساء ، فيُطلِّق له إحدى زوجاته ليتزوجها ، فانظر ماذا فعل الإيمان بالأنصار .

---

(١) هو : عمرو بن العاص ، أبو عبد الله ، فاتح مصر وأحد عظماء العرب ودهاتهم وأولى الرأى والحزم والمكيدة فيهم ، كان فى الجاهلية من الأشداء على الإسلام ، أسلم فى هدنة الحديبية . ولد ٥٠ ق. هـ ، وتوفى ٤٣ هـ بالقاهرة عن ٩٣ عاماً (الأعلام للزركلى ٥/٧٩) . وذكر ابن هشام فى السيرة النبوية (١/٣٦٠) « أن قريشاً أرسلت عمرو بن العاص وعبد الله بن أبى ربيعة للنجاشى ليوقعوا بين المهاجرين والنجاشى ليسلمهم إليه ، وقال عمرو : والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى عبد » .

(٢) عن عمران بن حصين أن رسول الله ﷺ قال : « إن أخاكم النجاشى قد مات فقوموا فصلوا عليه ، قال : فقمنا فصففنا عليه كما يصف على الميت ، وصلينا عليه كما يصلى على الميت » أخرجه أحمد فى مسنده (٤/٤٣٩ ، ٤٤٦) والترمذى فى سننه (١٠٣٩) وصححه ، والنسائى فى سننه (٤/٧٠) .

وفى قوله سبحانه ﴿فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ (٥٦)﴾ [العنكبوت] أسلوب يُسمُّونه أسلوب قَصْر ، مثل قوله تعالى : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥)﴾ [الفاتحة]

وفَرْق بين أنْ نقول : نعبدك . و (إياك نعبد) : نعبدك لا تمنع أنْ نعبد غيرك ، أمّا (إيَّاك نَعْبد) فتقصر العبادة على الله - عز وجل - ، ولا تتجاوزه إلى غيره .

فالمعنى - إذن : إنْ كنت ستهاجر فلتكُن هجرتك لله ، وقد فسَّرها النبى ﷺ فى الحديث الشريف : « فَمَنْ كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومَنْ كانت هجرته لدنيا يصيبها ، أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه »[(١)] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (٥٧)﴾

يعنى : إنْ كنتم ستقولون - وقد قالوا بالفعل - ليس لنا فى المدينة دار ولا عقار ، وليس لنا فيها مصادر رزق[(٢)] ، وكيف نترك أولادنا وبيئتنا التى نعيش فيها ، فاعلموا أنكم ولا بُدَّ مفارقون هذا كله ، فإنْ لم تُفارقوها وأنتم أحياء فسوف تفارقونها بالموت ؛ لأن ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ .. (٥٧)﴾ [العنكبوت]

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (١) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٩٠٧) كتاب الإمارة (١٥٥) من حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

(٢) ذكر القرطبى فى تفسيره (٧/٥٢٥٠) عن ابن عباس أن النبى ﷺ قال للمؤمنين بمكة حين أذاهم المشركون « اخرجوا إلى المدينة وهاجروا ولا تجاوروا الظلمة » قالوا : ليس لنا بها دار ولا عقار ولا من يطعمنا ولا من يسقينا . فنزلت ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لاَّ تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ.. (٦٠)﴾ [العنكبوت] .

ومَنْ يدريكم لعلكم تعودون إلى بلدكم مرة أخرى ، كما قال الله لرسوله : ﴿إِنَّ الَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ..(٨٥)﴾[القصص]

وعلى فَرْض أنكم لن تعودوا إليها فلن يُضيركم شىء ؛ لأنكم لا بُدَّ مفارقوها بالموت . وكأن الحق ـ تبارك وتعالى ـ يخفف عنهم ما يلاقونه من مفارقة الأهل والوطن والمال والأولاد .

كما أننا نلحظ فى قوله سبحانه ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ .. (٥٧)﴾ [العنكبوت] بعد ﴿إِنَّ أَرْضِى وَاسِعَةٌ .. (٥٦)﴾ [العنكبوت] أن الخواطر التى يمكن أن تطرأ على النفس البشرية حين يُشرِّع الله أمراً يهيج هذه الخواطر مثل ﴿إِنَّ أَرْضِى وَاسِعَةٌ .. (٥٦)﴾ [العنكبوت] وما تثيره فى النفس من حب الجمع والتملّك يجعل لك مع الأمر ما يهبِّط هذه الخواطر .

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ .. (٥٧)﴾ [العنكبوت] حتى لا نطمعَ فى حطام الدنيا ، ويُلهينا إغراء المال والهجرة لجمعه ، فالنهاية بعد ذلك كله الموت ، وفقدان كل ما جمعت .

وهذه القضية واضحة فى قوله سبحانه : ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا .. (٢٨)﴾ [التوبة]

فلما أراد الله تعالى أن يُنهى وجود المشركين فى البيت الحرام علم سبحانه أن المسلمين سيحسبون النتيجة المادية لمنع المشركين من دخول الحرم ، وأنها ستؤثر على تجارتهم وأرزاقهم فى مواسم التجارة والحج .

لذلك قال بعدها مباشرة : ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً[1] فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن

(١) العيلة : الفقر . والعَيِّل : الفقير . يقال : عال يعيل عيلة إذا افتقر . [لسان العرب ـ مادة : عيل] .

فَضْلِه .. (٢٨) ﴾ [التوبة] فساعةَ يقرأونها فى التشريع يعلمون أن الله اطَّلع على ما فى نفوسهم ، وجاءهم بالردِّ عليه حتى لا يتكلموا به ، وهذا يعنى أن التشريع يأتى ليعالج كل خواطر النفس ، فلا ينزعك من شىء تخافه إلا ومع التشريع ما يُذهِب هذه المخاوف .

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ (٥٨) ﴾

هذه فى مقابل : ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (٥٤) يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ .. (٥٥) ﴾ [العنكبوت] وذكر المقابل لزيادة الكآبة بالكافرين ، كما يقول سبحانه : ﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (١٤) ﴾ [الانفطار]

فجَمْع المتقابلين يزيد من فَرْحة المؤمن ، ويزيد من حَسْرة الكافر .

ومعنى ﴿ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا .. (٥٨) ﴾ [العنكبوت] أى : نُنزلهم ونُمكِّنهم منها ، كما جاء فى قوله تعالى مخاطباً رسوله ﷺ : ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ .. (١٢١) ﴾ [آل عمران] يعنى : تُنزلهم أماكنهم .

والجنة تُطلق على الأرض ذات الخضرة والأشجار والأزهار فى الدنيا ، كما جاء فى قوله سبحانه : ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ .. (٢٦٦) ﴾ [البقرة]

وقوله سبحانه : ﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ .. (١٧) ﴾ [القلم]

وقوله سبحانه : ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ .. (٣٢) ﴾ [الكهف]

فإذا كانت جنة الدنيا على هذه الصورة من الخصْب والنماء والجمال ، وفيها أسباب القُوت والترف ، إذا كان ذلك فى دنيا الأسباب التى نراها ، فما بالك بما أعدَّه الله لخَلْقه فى الآخرة ؟

ومن عجائب الجنة أنها ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ .. (٥٨)﴾ [العنكبوت] ونحن نعرف أن أنهار الدنيا تجرى خلالها عبر الشُّطآن التى تحجز الماء ، أمّا فى الجنة فتجرى أنهارها بلا شُطآن .

لذلك لما كنا نسافر إلى بلاد المدنية والتقدّم ، ونرى زخارف الحياة وترفها كنتُ أقول لمن معى : خذوا من هذا النعيم عظَة ، فهو ما أعدَّه البشر للبشر ، فما بالكم بما أعدَّه ربُّ البشر للبشر ؟

فإذا رأيتَ نعيماً عند أحد فلا تحقد عليه ، بل ازْدَدْ به يقيناً فى الله تعالى ، وأن ما عنده أعظم من هذا . ألاَ ترى أن الحق - تبارك وتعالى - حينما يخبرنا عن الجنة يقول : ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِى وُعِدَ الْمُتَّقُونَ .. (١٥)﴾ [محمد] فيجعلها مثلاً ؛ لأن ألفاظ اللغة لا تؤدى المعانى التى فى الجنة ولا تَصِفها .

لذلك يقول النبى ﷺ : « فيها ما لا عَيْن رأت ، ولا أذن سمعتْ ، ولا خطر على قلب بشر »[1] فكل ما جاء فيها ليس وصفاً لها إنما مجرد مثَل لها ، ومع ذلك لما أعطانا المثل للجنة صفّى المثل من شوائبه ، فقال : ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ[2] وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ

---

(١) عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ : « قال الله : أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، فاقرأوا إن شئتم ﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ .. (١٧)﴾ [السجدة] » أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٢٤٤ ، ٧٤٩٨) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٨٢٤) كتاب الإيمان .

(٢) أسن الماء يأسن : تغيرت رائحته ، فهو آسن . [القاموس القويم ١/٢٠] قال فى التهذيب : هو الذى لا يشربه أحد من نتنه . [ذكره ابن منظور فى لسان العرب - مادة : أسن] .

طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى .. (١٥)﴾ [محمد] ويكفى أن تعلم أن نعيم الجنة يأتى مناسباً لقدرة وإمكانيات المنعم سبحانه .

وقوله سبحانه ﴿خَالِدِينَ فِيهَا .. (٥٨)﴾ [العنكبوت] لأن النعيم مهما كان واسعاً ، ومهما تعددتْ ألوانه ، فيُنغِّصه ويُؤرِّق صاحبه أنْ يزول إما بالموت وإما بالفقر ، أما نعيم الجنة فدائم لا يزول ولا ينقطع ، فلا يفوتك ولا تفوته ، كما قال سبحانه : ﴿لا مَقْطُوعَةٍ وَلا مَمْنُوعَةٍ (٣٣)﴾ [الواقعة] لا يُكدِّرها شىء .

إذن : فالرابح مَنْ آثر الآخرة على الدنيا ؛ لأن نعيم الدنيا مآله إلى زوال ، ولا تقُلْ : إن عمر الدنيا كم مليون سنة ، إنما عمرها مدة بقائك أنت فيها ، وإلا فماذا تستفيد من عمر غيرك ؟

ثم إنك تتمتع فى الدنيا على قدر إمكاناتك ومجهوداتك ، فنعيم الدنيا بالأسباب ، لكن نعيم الآخرة بالمسبِّب سبحانه ، لذلك ترى نعيماً صافياً لا يُنغِّصه شىء ، فأنت ربما تأكل الأكْلة فى الدنيا فتسبِّب لك المتاعب والمضايقات ، كالمغص والانتفاخ ، علاوة على ما تكرهه أثناء قضاء الحاجة للتخلُّص من فضلات هذه الأكلة .

أما فى الآخرة فقد أعدَّ الله لك الطعام على قَدْر الحاجة ، بحيث لا تكون له فضلات ، لأنه طُهى بكُنْ من الله تعالى .

لذلك سُئل أحد علماء المسلمين : تقولون : إن الجنة تأكلون فيها ، ولا تتغوطون ، فكيف ذلك ؟ فقال : ولم التعجب ، ألاَ ترونَ الجنين فى بطن أمه يتغذى وينمو ولا يتغوط ؛ لأن الله تعالى يعطيه غذاءه على قدر حاجته للنمو ، فلا يبقى منه فضلات ، ولو تغوَّط فى مشيمته لمات فى بطن أمه .

وقوله تعالى : ﴿نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (٥٨)﴾ [العنكبوت] نعم ، نعْم هذا الأجر ؛ لأنك مكثْتَ إلى سِنِّ التكليف تربْعَ فى نعم الله دون أنْ يُكلِّفك بشىء ، ثم يعطيك على مدة التكليف أجراً لا ينقطع ، ولا نهاية له ، فأىُّ أجر أسْخى من هذا ؟ ويكفى أن الذى يقرِّر هذه الحقيقة هو الله ، فهو سبحانه القائل : ﴿نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (٥٨)﴾ [العنكبوت]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٥٩)﴾

فهذه من صفات العاملين ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا .. (٥٩)﴾ [العنكبوت] فلا تظن أن العمل ما كان فى بحبوحة العيش وترَف الحياة ؛ فالعامل الحق هو الذى يصبر ، وكلمة ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا .. (٥٩)﴾ [العنكبوت] تدل على أنه سيتعرَّض للابتلاء ، كما قال سبحانه : ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ (٢)﴾ [العنكبوت]

فالذين اضطهدوا وعُذِّبوا حتى اضطروا للهجرة بدينهم صبروا ، لكن هناك ما هو أكبر من الصبر ؛ لأن خَصْمك من الجائز أنْ يصبر عليك ، فيحتاج الأمر إلى المصابرة ؛ لذلك قال سبحانه ﴿اصْبِرُوا وَصَابِرُوا .. (٢٠٠)﴾ [آل عمران] ومعنى : صابره . يعنى : تنافس معه فى الصبر .

والصبر يكون على آفات الحياة لتتحملها ، ويكون على مشقة التكاليف ، وعلى إغراء المعصية ، يقولون : صبر على الطاعة ، وصبر عن المعصية ، وصدق الشاعر حين قال :

وكُنْ رجلاً كالضِّرس يرسُو مكَانَهُ ليَمْضُغَ لاَ يَعْنيه حُلْو ولاَ مُرّ

فالمعنى ﴿ الَّذِينَ صَبَرُوا .. (٥٩) ﴾ [العنكبوت] على الإيذاء ﴿ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٥٩) ﴾ [العنكبوت] أى : فى الرزق ، وكان المهاجرون عند هجرتهم يهتمون لأمر الرزق يقولون : ليس لنا هناك دار ولا عقار ولا.. إلخ . فأراد سبحانه أنْ يُطمئِن قلوبهم على مسألة الرزق ، فقال ﴿ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٥٩) ﴾ [العنكبوت]

فالذى خلقك لا بُدَّ أنْ يخلق لك رزقك ، ومن عجيب أمر الرزق أن رزقك ليس هو ما تملك إنما ما تنتفع به حقيقة ، فقد تملك شيئاً ويُسرق منك ، وقد يُطهى لك الطعام ، ولا تأكله ، بل أدقّ من ذلك قد تأكله ولا يصل إلى معدتك ، وربما يصل إلى المعدة وَتقيئه ، وأكثر من ذلك قد يتمثل الغذاء إلى دم ثم ينزف منك فى جُرْح أو لدغة بعوضة أو غير ذلك ؛ لأن هذا ليس من رزقك أنت ، بل رزق لمخلوق آخر .

إنك تعجب حينما ترى التمساح مثلاً على ضخامته وخوف الناس منه ، ومع ذلك تراه بعد أنْ يأكل يخرج إلى اليابسة ، حيث يفتح فمه لصغار الطيور ، فتتولى تنظيف ما بين أسنانه من فضلات الطعام ، وترى بينهما انسجاماً تاماً وتعاوناً إيجابياً ، فحين يتعرض التمساح مثلاً لهجمة الصياد يُحدِث الطير صوتاً معيناً يفهمه التمساح فيسرع بالهرب .

فانظر من أين ينال هذا الطير قوته ؟ وأين خبأ الله له رزقه ؟ لذلك يقولون (اللى شَقُّه خلق لقُّه) .

وسبق أن ضربنا مثلاً على خصوصية الرزق بالجنين فى بطن أمه ، فحينما تحمل الأم بالجنين يتحول الدم إلى غذاء للطفل ، فإنْ لم تحمل نزل هذا الدم ليرمى به دون أنْ تستفيد منه الأم ، لماذا ؟ لأنه رِزْق الجنين ، وليس رزقها هى .

لذلك نجد الآية بعدها تقول[١] :

﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾ ﴾

يريد سبحانه أنْ يُطمئن خَلْقه على أرزاقهم ، فيقول ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ .. ﴿٦٠﴾ ﴾ [العنكبوت] كأيٍّ لها مَعَانٍ متعددة ، مثل كم الخبرية حين تقول لمن ينكر جميلك : كم أحسنتُ إليك ؟ يعنى : كثيراً جداً ، كذلك فى ﴿ وَكَأَيِّن .. ﴿٦٠﴾ ﴾ [العنكبوت] أى : كثير كما فى ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ .. ﴿١٤٦﴾ ﴾ [آل عمران]

والدابة : هى التى تدبّ على الأرض ، والمراد كل حيٍّ ذى حركة ، وقد تقول : فالنمل ـ مثلاً ـ لا نسمع له دبَّة على الأرض أيُعَدُّ من الدابة ؟ نعم فله دبَّة على الأرض ، لكنك لا تسمعها ، فالذى خلقها يسمع دبيبها ؛ لأن الذى يقبل الصغر يقبل الكبر ، لكن ليس عندك أنت آلة السماع .

بدليل أن الذى يعانى من ضعف السمع مثلاً ينصحه الطبيب

---

(١) **سبب نزول الآية :** عن ابن عمر قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ حتى دخل بعض حيطان الأنصار ، فجعل يلقط من التمر ويأكل ، فقال : يا بن عمر ما لك لا تأكل ؟ فقلت : لا أشتهيه يا رسول الله . فقال : لكنى أشتهيه وهذه صبيحة رابعة ما ذُقْت طعاماً ولو شئت لدعوت ربى فأعطانى مثل مُلْك كسرى وقيصر ، فكيف بك يا ابن عمر إذا بقيت فى قوم يخبئون رزق سنتهم ويُضعف اليقين ؟ قال : فو الله ما برحنا حتى نزلت ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾ ﴾ [العنكبوت] . أخرجه الواحدى النيسابورى فى أسباب النزول (ص ١٩٦) قال القرطبى فى تفسيره (٧/ ٥٢٥٠) : « هذا ضعيف ، يضعفه أنه عليه السلام كان يدخر لأهله قوت سنتهم ، اتفق البخارى عليه ومسلم ، وكان الصحابة يفعلون ذلك وهم القدوة ، وأهل اليقين والأئمة من بعدهم من المتقين المتوكلين » .

بتركيب سماعة للأذن فيسمع ، وكذلك فى النظارة للبصر ، إذن : فكل شىء له أثر مرئى أو مسموع ، لكن المهم فى الآلة التى تسمع أو ترى ؛ لذلك يقولون إنْ أرادوا المبالغة : فلان يسمع دَبّة النملة .

ومعنى ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لاَّ تَحْمِلُ رِزْقَهَا .. (٦٠)﴾ [العنكبوت] ليست كلّ الدواب تحمل رزقها ، فكثير منها لا تحمل رزقاً ، ومع ذلك تأكل وتعيش ، ويحتمل أن يكون المعنى : لأنها لا تقدر على حمله ، أو تقدر على حمله ولكنها لا تفعل ، فمثلاً القمل والبراغيث التى تكثر مع الإهمال فى النظافة الشخصية أتحمل رزقاً ؟ والناموسة التى تتغذى مع ضَعْفها على دم الإنسان الفتوة المتجبر ، الميكروب الذى يفتك بالإنسان .. إلخ هذه أشياء لا تحمل رزقها .

أما الحمار مثلاً فهو مع قدرته على الحمل لا يحمل رزقه ؛ لذلك تراه إنْ شبع لا يدخر شيئاً ، وربما يدوس الأكل الباقى ، أو يبول عليه ، وكذلك كل الحيوانات حتى أنهم يقولون : لا يعرف الادخار من المخلوقات إلا الإنسان والفأر والنمل .

وقد جعل الله الادخار فى هؤلاء لحكمة ولبيان طلاقة قدرته تعالى ، وأن الادخار عند هذه المخلوقات ليس قُصوراً من الخالق سبحانه فى أن يجعل بعض الدوابّ لا تحمل رزقها ، بل يخلق لها وسائل تعجز أنت عنها .

ولك أن تتأمل قرى النمل وما فيها من عجائب ، فقد لاحظ الباحثون فى هذا المجال أنك لو تركتَ بقايا طعام مثلاً تأتى نملة وتحوم حوله ثم تنصرف وترسل إليه عدداً من النمل يستطيع حمل هذه القطعة ، ولو ضاعفت وزن هذه القطعة لتضاعف عدد النمل .

إذن : فهى مملكة فى غاية التنظيم والدقة والتخصص ، والأعجب من ذلك أنهم لاحظوا على النمل أنها تُخرِج فُتاتاً أبيض صغيراً أمام الأعشاش ، فلما فحصوه وجدوه الزريعة التى تُسبِّب الإنبات فى الحبة حتى لا تنبت ، فتهدم عليهم العُشَّ ، فسبحان الذى خلق فسوَّى ، والذى قدَّر فهدى .

وأعجب من ذلك ، وجدوا النمل يفلق حبة الكسبرة إلى أربعة أقسام ، لأن نصف حبة الكسبرة يمكنه أنْ يَنبت منفرداً ، فقسموا النصف .

إذن : فكثير من الدواب لا تحمل رزقها ﴿اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ .. (٦٠)﴾ [العنكبوت] فذكر الدواب أولاً فى مجال الرزق ثم عطف عليها ﴿وَإِيَّاكُمْ .. (٦٠)﴾ [العنكبوت] فنحن معطوفون فى الرزق على الدواب ، مع أن الإنسان هو الأصل ، وهو المكرّم ، والعالم كله خُلِق من أجله ولخدمته ، ومع ذلك لم يقُلْ سبحانه : نحن نرزقكم وإياهم ، لماذا ؟ قالوا : لأنك تظن أنها لا تستطيع أن تحمل أو تُدبِّر رزقها ، ولا تتصرف فيه ، فلفت نظرك إلى أننا سنرزقها قبلك .

وقد وقف المستشرقون الذين يأخذون القرآن بغير الملكة العربية يعترضون على قوله تعالى : ﴿وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ .. (٣١)﴾ [الإسراء]

وقوله سبحانه : ﴿وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ .. (١٥١)﴾ [الأنعام]

يقولون : أيّهما أبلغ من الأخرى ، وإن كانت إحداهما بليغة ، فالأخرى غير بليغة .

وهذا الاعتراض ناتج عن ظنهم أن الآيتين بمعنى واحد ، وهما مختلفتان ، فالأولى ﴿وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ .. (٣١)﴾ [الإسراء] فالفقر هنا غير موجود وهم يخافونه . أما فى : ﴿وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ .. (١٥١)﴾ [الأنعام] فالفقر موجود فعلاً . فهما مختلفتان فى الصَّدْر ، وكذلك مختلفتان فى العَجُز .

ففى الأولى قال : ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ .. (٣١)﴾ [الإسراء] لأن الفقر غير موجود ، وأنت غير مشغول برزقك ، فبدأ بالأولاد ، أمّا فى الثانية فقال : ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ .. (١٥١)﴾ [الأنعام] وقدم الآباء ؛ لأن الفقر موجود ، والإنسان مشغول أولاً برزق نفسه قبل رزق أولاده .

إذن : فلكل آية معنى وانسجام بين صَدْرها وعَجُزها ، المهم أن تتدبر لغة القرآن ، وتفهم عن الله مراده .

وقوله سبحانه : ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦٠)﴾ [العنكبوت] واختار هنا السميع العليم ؛ لأن الحق سبحانه له قيُّومية على خَلْقه ، فلم يخلقهم ثم يتركهم للنواميس ، إنما خلق الخَلْق وهو سبحانه قائم عليه بقيوميته تعالى ؛ لذلك يقول فى بيان عنايته بصنعته ﴿لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ .. (٢٥٥)﴾ [البقرة] يعنى : يا عبادى ناموا مِلْءَ جفونكم ؛ لأن ربكم لا ينام .

ومناسبة السميع هنا ؛ أن الجوع إذا هَزَّ إنساناً ربما يصيح صيحة ، أو يُحدِث شيئاً يدل على أنه جائع ، فكأنه يقول : لم أجعلكم كذلك .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٦١)﴾

يقول تعالى للذين لا تكفيهم آية القرآن التى نزلت على رسول الله ، ويطلبون منه آيات أخرى ، يقول لهم : لقد جعل الله لكم الآيات فى الكون قبل أنْ يرسل الرسل ، آيات دالة على الإعجاز فى السماوات وفى الأرض ، فهل منكم مَنْ يستطيع أنْ يخلق شيئاً منها مهما صَغُر ؟

إن خلق السماوات والأرض معجزة كونية لا تنتهى ، فلماذا تطلبون المزيد من الآيات ، وما جعلها الله إلا لبيان صِدْق الرسل فى البلاغ عن الله ليؤمن الناس بهم .

لذلك يقول سبحانه فى الرد عليهم : ﴿هَـٰذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ .. (١١)﴾ [لقمان] فخلْق السماوات والأرض والشمس والقمر إعجاز للدنيا كلها ، وخصوصاً الكفرة فيها .

ومسألة الخَلْق هذه من الوضوح بحيث لا يستطيع أحد إنكارها ـ كما سبق أنْ أوضحنا ـ لذلك يقولون هنا فى إجابة السؤال ﴿لَيَقُولُنَّ اللَّهُ .. (٦١)﴾ [العنكبوت] وهذا الاعتراف منهم يستوجب من المؤمن أنْ يحمد الله عليه ، فيقول : الحمد لله أن اعترفوا بهذه الحقيقة بأنفسهم ، الحمد لله الذى أنطقهم بكلمة الحق ، وأظهر الحجة التى تبطل كفرهم .

وقوله تعالى ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٦١)﴾ [العنكبوت] أى : كيف بعد هذا الاعتراف ينصرفون عن الله ، وينصرفون عن الحق ؟

﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾

﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ ..(٦٢)﴾ [العنكبوت] : يُوسِّعه ، ﴿وَيَقْدِرُ .. (٦٢)﴾ [العنكبوت] يعنى يضيق ، وآفة الناس فى هذه المسألة أنهم لا يفسرون الرزق إلا بالمال ، والرزق فى الواقع كل ما ينتفع به الإنسان ، فالعلم رزق ، والحلم رزق ، والجبروت رزق ، والاستكانة رزق ، وإتقان الصَّنْعة رزق .. إلخ .

والله سبحانه يُوسِّع الرزق لمَنْ يشاء ، ويُضيِّقه على مَنْ يشاء ، فالذى ضُيِّق عليه يحتاج لمن بسط له ، وكذلك يبسط الرزق فى شىء ويُضيِّقه فى شىء آخر ، فهذا بسط له فى العقل مثلاً ، وضيق عليه فى المال .

فكأن الحق - سبحانه وتعالى - نثر مواهب الملكات بين خَلْقه ، لم يجمعها كلها فى واحد ، وسبق أن أوضحنا أن مجموع الملكات عند الجميع متساوية فى النهاية ، فَمنْ بُسط له فى شىء ضُيِّق عليه فى آخر ؛ ليظل المجتمع مربوطاً برباط الاحتياج ، ولا يستغنى الناس بعضهم عن بعض ، وحتى تتكامل المواهب بين الناس ، فتتساند لا تتعاند .

إذن : فالحق - سبحانه وتعالى - حين يبسط الرزق لعبد ، ويَقْدره على آخر ، لا يعنى هذا أنه يحب الأول ويكره الآخر ، ولو نظرتَ إلى كل جوانب الرزق وزوايا العطاء لوجدتها متساوية .

وحين نتأمل قوله سبحانه : ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا

بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ .. (٣٢)﴾ [الزخرف] فأىُّ بعض مرفوع ؟ وأىُّ بعض مرفوع عليه ؟ الكل مرفوع فى جهة اختصاصه ، ومرفوع عليه فى غير جهة اختصاصه ، إذن : فالجميع سواء .

وسبق أنْ ضربنا مثلاً لهذه القضية . وقلنا : إن العظيم الذى يسكن القصر يحتاج إلى العامل البسيط الذى يُصلح له دورة المياه ، وينقذه من الرائحة الكريهة التى يتأفف منها ، فيسعى هو إليه ويبحث عنه ، وربما ذهب إليه فى محل عمله وأحضره بسيارته الفارهة ، بل ويرجوه إنْ كان مشغولاً .

ففى هذه الحالة ، ترى العامل مرفوعاً على الباشا العظيم ، فلا يظهر الرفع إلا فى وقت الحاجة للمرفوع .

وأيضاً لو لم يكُنْ بين الناس غنى وفقير ، مَنْ سيقضى لنا المصالح فى الحقل ، وفى المصنع ، وفى السوق .. إلخ لا بُدَّ أنْ تُبنى هذه المسائل على الاحتياج ، لا على التفضُّل . إذن : إنْ أردت أن تقارن بين الخَلْق فلا تحقِرنَّ أحداً ؛ لأنه قد يفضل عليك فى موهبة ما ، فتحتاج أنت إليه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (٦٣)﴾

وهنا أيضاً قالوا ﴿الله﴾ لأن إنزال المطر من السماء وإحياء الأرض به بعد موتها آية كونية واضحة لم يدَّعِها أحد ، فهى ثابتة لله

تعالى ، لا يُنكرها أحد حتى الكافرون ، فلئن سألتهم هذا السؤال ﴿لَيَقُولُنَّ اللَّهُ .. (٦٣)﴾ [العنكبوت] لذلك يأمرنا الحق سبحانه بأن نقول بعد هذا الإقرار ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ .. (٦٣)﴾ [العنكبوت] الذى أنطقهم بالحق ، وأقام عليهم الحجة ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ (٦٣)﴾ [العنكبوت] لأنهم أقرُّوا بآيات الله فى خَلْق الكون ، ومع ذلك كفروا به .

﴿وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٦٤)﴾

الحياة : نعرفها بأنها ما يكون فى الإنسان الأعلى فى الوجود من حسٍّ وحركة ، فإذا انتهى حسُّه وحركته لم تَعُدْ له حياة ، وهذه الحياة موصوفة هنا بأوصافَ ثلاثة : دنيا ولهو ولعب ، كلمة دنيا تدل على أن مقابلها عُلْيا فساعة تسمع هذا الوصف « الحياة الدنيا » فاعلم أن هذا الوصف ما جاء إلا ليميزها عن حياة أخرى ، تشترك معها فى أنها حياة لله إلا أنها حياة عليا ، هذه الحياة العُلْيا هى التى قال عنها ربنا ـ تبارك وتعالى ـ « الدار الآخرة » .

وإنْ كنا قد عرَّفنا الحياة الدنيا بأنها الحسُّ والحركة فى الإنسان ، فالواقع عند التقنين أن لكل شىء فى الوجود حياةً تُناسب مهمته ، بدليل قوله تعالى حين يُنهى هذه الحياة : ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ .. (٨٨)﴾ [القصص]

فما يُقال له شىء لا بُدَّ أنْ يطرأ عليه الهلاك ، والهلاك تقابله الحياة ، بدليل قوله سبحانه : ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ .. (٤٢)﴾ [الأنفال]

فالحياة ضد الهلاك ، إلا أنك تعرف الحياة عندك بالحس والحركة ،

وكذلك الحياة فى كل شىء بحسبه ، حتى فى الجماد حياة نلحظها فى أن الجبل يتكون من أصناف كثيرة من الحجارة ، ترتقى مع الزمن من حجارة إلى أشياء أخرى أعلى من الحجارة وأثمن ، وما دامت يطرأ عليها هذا التغيير فلا بُدَّ أن فيها حياةً وتفاعلاً لا ندركه نحن .

إذن : فكل شىء له حياة ، لكن الآفة أننا نريد حياة كالتى فينا نحن ، وأذكر ونحن فى مراحل التعليم قالوا لنا : هناك شىء اسمه المغناطيس ، وعملية اسمها المغنطة ، فحين تُمغنط قطعة من الحديد تُكسبها قدرة على جَذْب قطعة أخرى وفى اتجاه معين ، إذن : فى الحديد حياة وحركة وتفاعل ، لكن ليس عندك الآلة التى تدرك بها هذه الحركة ، وفيها ذرات داخلية لا تُدرَك بالعين المجردة تم تعديلها بالمغنطة إلى جهة معينة .

واقرأ قوله تعالى : ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِى أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ .. (٢١)﴾ [فصلت] فللجوارح نفسها حياة ، ولها كلام ومنطق ، لكن لا ندركه نحن ؛ لأن حياتها ليست كحياتنا . إنك لو تتبعتَ مثلاً طبقاً أو كوباً من البلاستيك لوجدته تغيَّر لونه مع مرور الزمن ، وتغيُّر اللون فيه يدل على وجود حياة وحركة بين ذراته ، ولو لم تكُنْ فيه حياة لكان جامداً مثل الزجاج ، لا يطرأ عليه تغيُّر اللون .

والحق - تبارك وتعالى - يصف الدار الآخرة بأنها ﴿الْحَيَوَانُ .. (٦٤)﴾ [العنكبوت] وفرْق بين الحياة والحيوان ، الحياة هى هذه التى نحياها فى الدنيا يحياها الأفراد ، ويحياها النبات ، ثم تؤول إلى الموت والفناء ، أمّا الحيوان فيعنى الحياة الأرقى فى الآخرة ؛ لأنها حياة باقية حياة حقيقية .

والحق ـ سبحانه وتعالى ـ أعطانا صورة للحياة الدنيا ، الحياة المادية فى قوله تعالى عن آدم ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي .. (٢٩)﴾ [الحجر] فمن الطين خَلَق آدم ، وسوَّاه ونفخ فيه من روحه تعالى ، فدبَّتْ فيه الحياة المادية .

لكن هناك حياة أخرى أسمى من هذه يقول الله عنها : ﴿يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ .. (٢٤)﴾ [الأنفال] فكيف يخاطبهم بذلك وهم أحياء ؟ لا بُدَّ أن المراد حياة أخرى غير هذه الحياة المادية ، المراد حياة الروح والقيم والمنهج الذى يأتى به رسول الله .

لذلك سمَّى المنهج روحاً ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا .. (٥٢)﴾[الشورى] وسمَّى الملَك الذى نزل به روحاً : ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣)﴾ [الشعراء]

إذن : ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ .. (٦٤)﴾ [العنكبوت] أى : الحياة الحقيقية التى لا تفوتها ولا تفوتك ، ولا يفارقك نعيمها ، ولا يُنغِّصه عليك شىء ، كما أن التنعُّم فى الدنيا على قَدْر إمكاناتك وأسبابك ، أمّا فى الآخرة فالنعيم على قَدْر إمكانات المنعم سبحانه وتعالى .

ثم يأتى وَصْف الدنيا بأنها لَهْو ولَعب ، وهما حركتان من حركات جوارح الإنسان ، لكنها حركة لا مَقصدَ لها إلا الحركة فى ذاتها دون هدف منها ؛ لذلك نقول لمن يعمل عملاً لا فائدةَ منه « عبث » .

إذن : اللهو واللعب عبث ، لكن يختلفان من ناحية أخرى ، فاللعب حركة لا فائدة منها ، لكنه لا يصرفك عن واجب يعطى فائدة ، كالولد حين يلعب ، فاللعب لا يصرفه عن شىء إذن : فاللعب لمن لم يبلغ ، أمّا البالغ المكلف فاللعب فى حقِّه يسمى لَهْواً ، لأنه كُلِّف فترك ما كُلِّف به

إلى ما لم يكلّف به ، ولَهَا عن الواجب ، ومنه : لَهْو الحديث[١] .

فقوله تعالى ﴿وَمَا هَـٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ .. (٦٤)﴾ [العنكبوت] أى : إنْ جُرِّدت عن الحياة الأخرى حياة القيم التى تأتى باتباع المنهج .

وقوله : ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٦٤)﴾ [العنكبوت] يُحتمل أن تكون الجملة هنا امتناعية يعنى : امتنع علمهم بها ، أو تكون تمنياً يعنى : يا ليتهم يعلمون هذه الحقيقة ، حقيقة الدنيا وحقيقة الآخرة ؛ لأنهم لو علموها لأقبلوا على منهج ربهم لينالوا كُلَّ هذا العطاء الممتدّ ، ولَسلكوا طريق الإيمان بدل طريق الكفر ، فكأن المعنى أنهم لم يعرفوا .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ (٦٥)﴾

ينقلنا السياق هنا من الكلام عن حقيقة كل من الدنيا والآخرة إلى الحديث عن الفُلْك ، فما العلاقة بينهما ؟

المتكلم هنا هو الله تعالى ، وواضع كل شىء فى موضعه ، ولا يغيب عنك أنه لا بُدَّ أنْ تتدبر كلام الله لتفهم مراده ، فالله لا يريدنا مُقبلين على ظاهر القرآن فحسب ، إنما أنْ نتعمق فى فهمه وتأمله ،

---

(١) يقول تعالى : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ .. (٦)﴾ [لقمان] . أخرج الفريابى وابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ .. (٦)﴾ [لقمان] قال : باطل الحديث . وهو الغناء ونحوه ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ .. (٦)﴾ [لقمان] قال : قراءة القرآن وذكر الله . نزلت فى رجل من قريش اشترى جارية مغنية . [أورده السيوطى فى الدر المنثور ٦/٥٠٤] . وفى خبر آخر عنه أنه النضر بن الحارث .

وننظر فى معطياته الحقيقية : ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ .. (٨٢)﴾ [النساء]

والعلاقة هنا أن الآية السابقة جاءتْ لتقرر أن الدنيا دار لهو ولعب لا فائدة منها إذا ما بَعُدت عن منهج الله ، ولم تحسب حساباً لحياة أخرى هى الحياة الحقيقية وهى الحيوان ، فكان على العاقل أنْ يحرص على الآخرة ، وأنْ يعمل لها باتباع منهج الله فى الدنيا .

إذن : فالدنيا ليست غاية ، بل هى وسيلة ، وأنت أيها الذى أعرضتَ عن منهج ربك جعلتَ الدنيا غايتك ، والدنيا إنْ كانت هى الغاية فما أتفهها من غاية ، إنما اجعلها وسيلة للآخرة ومزرعة لدار الحيوان . وكذلك الحال فى الفُلْك ، فهى وسيلة تُوصِّلك إلى هدف ، وإلى غاية ، وليست هى غاية فى حَدِّ ذاتها .

﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ .. (٦٥)﴾ [العنكبوت] والفلك : السفينة ، وتُطلق على المفرد وعلى الجمع ، فيقول تعالى : ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ .. (٣٨)﴾ [هود] وقوله ﴿دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ .. (٢٢)﴾ [يونس] واضح من السياق أنها ليستْ دعوة الحمد ، كأن يقولوا مثلاً ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَـٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ (١٣)﴾ [الزخرف] بل هى دعوة الاضطرار بعد أنْ تعرَّضوا لشدة وعطب لا تنجيهم منها أسبابهم ، بدليل قوله تعالى بعدها : ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ (٦٥)﴾ [العنكبوت]

فهذه تعطينا أنهم ركبوا فى السفينة ، فلما تعرَّضوا للعطب ، وضاقتْ بهم أسبابهم دعوا الله مخلصين له الدين[1] .

---

(١) ذكر محمد بن إسحاق عن عكرمة بن أبى جهل أنه لما فتح رسول الله ﷺ مكة ذهب فاراً منها ، فلما ركب فى البحر ليذهب إلى الحبشة اضطربت بهم السفينة فقال أهلها : يا قوم أخلصوا لربكم الدعاء ، فإنه لا ينجى هنا إلا هو . فقال عكرمة : والله لئن كان لا ينجى فى البحر غيره ، فإنه لا ينجى فى البر أيضاً غيره ، اللهم لك علىَّ عهد ، لئن خرجت لأذهبن فلأضعن يدى فى يد محمد فلأجدنه رءوفاً رحيماً ، فكان كذلك . [أورده ابن كثير فى تفسيره ٣/٤٢١) .

وفى لقطة أخرى يقول القرآن : ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٢٢)﴾ [يونس]

فمعنى ﴿أُحِيطَ بِهِمْ .. (٢٢)﴾ [يونس] أى : لا يوجد لهم مفر ولا مهرب ولا مفزع يفزعون إليه إلا أنْ يتوجهوا إلى الله بدعاء خالص ويقين إيمان فى أنهم لا ملجأ لهم إلا الله ، وقد كانوا فى أول الرحلة فرحين بمركبهم مسرورين به ، وساعتها لم يكُن الله فى بالهم ، إنما لما ضاقت بهم الحيل عادوا إلى الحق ، فالوقت لا يحتمل المراوغة .

لأن الإنسان عادةً لا يخدع نفسه ، فحتى الكافر حين تضيق به أسباب النجاة يلجأ بالفطرة إلى الله الحق ، وينسى آلهته ومعبوداته من دون الله ؛ لأنه لا يسلم نفسه أبداً ، ولا يتمادى حينئذ فى كذبة الآلهة والأصنام .

لذلك : ﴿دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ .. (٦٥)﴾ [العنكبوت] دعوة خالصة بيقين ثابت فى الإله الحق ، دعوة لا تشوبها شائبة شرك ، لا ظاهر ولا خفى ، فلا ينفع فى هذا الوقت إلا الله المعبود بحقٍّ .

وسبق أنْ أوضحنا هذه المسألة بمثَل من حياتنا الواقعية ، قلنا : إن حلاق الصحة كان يقوم بدور الطبيبً فى القرية ، وله بين الناس نفس مكانة الطبيب فى وقت لم يكُنْ هناك أطباء ، فلما خرَّجَتْ كلية الطب أطباء وانتشروا فى القرى كان الحلاق أول المهاجمين للطبيب ؛ لأنه يزاحمه فى رزقه ، ويصرف الناس عنه ؛ لذلك كان يذم فى الطبيب ويُشكِّك فى خبرته وقدراته .

لكن لما مرض ابنه ، وارتفعت درجة حرارته ، وخاف عليه قال لزوجته: انتظرى إلى ظلام الليل لأذهب به إلى الطبيب ـ يعنى : فى غفلة الناس .

فالإنسان بطبعه لا يخدع نفسه ، ولا يسلمها إذا جدَّ الجد ، وفيه فطرة إيمانية إذا ما صفيتها فى الذات البشرية لا تجد فى النهاية إلا قوة واحدة هى قوة الله .

حتى الملاحدة حين تضيق بهم الأسباب يقولون : يا رب ، يا الله . يقولونها من تلقاء أنفسهم ، دون مرور بالعقل الذى أنكروا به وجود الله . وهذا يعنى أن الفطرة الإيمانية قد تحجبها الأغيار البشرية وتلغيها ، فإذا ما نامت الأغيار البشرية وتلاشتْ لحدثٍ من الأحداث ظهرتْ الفطرة الإيمانية على السطح تلهمك بلا شعور .

لذلك نلحظ فى قوله سبحانه : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا .. (١٧٢) ﴾ [الأعراف] شهدوا لأنهم ما يزالون فى عالم الذر ، لا تتحكم فيهم الأغيار البشرية﴿ أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ .. (١٧٣) ﴾[الأعراف]

والله خلق الإنسان خليفة له فى الأرض ، وسخر له كل هذا الكون ، فإنْ ظلَّ متمسكاً بهذا المنهج ، ووقف عند حد الخلافة يفوز ، أما إنْ ظن أنه أصيل فى الكون يخيب ويخسر ، لكن الله الذى خلقه يعلم الأغيار فيه وهو خَلْقه وصنعته ؛ لذلك وجهه : أنت خليفتى فى أرضى ، وعليك أن تنظر إلى ما طُلب منك فتؤديه ، وإلا فسدت حياتك وتصادمت مع الآخرين ؛ لأنكَ لست وحدك فيها ، ولكى تنسجم مع غيرك لا بُدَّ أن تسير وَفْق منهجى ، وفى دائرة قوانين من استخلفك .

ثم يُنبِّهه من ناحية أخرى : يقول أنت أيها الإنسان ، اعلم أن الأسباب ستستجيب لك ، فإياك أن تظن أن لك قدرةً عليها ، أو أن لك جاهاً وعظمة ، فتنسى أنك خليفة ؛ لذلك يقول سبحانه : ﴿ كَلَّا إِنَّ

الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ (٧) ﴾ [العلق] احذر حين تتم لك الأمور وتطاوعك الأسباب ﴿ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ (٨) ﴾ [العلق] فسوف يقابلك من الأحداث ما لا تستطيع أسبابك أنْ تدفعَها ، ولن تجد مرجعاً إلا إليَّ .

وكيف يطغى الإنسان وقد أعطاه الله فيضاً من فيض كماله ، أعطاه قدرة من قدرته ، وعلماً من علمه .. إلخ فإذا نظرتَ نظرة بسيطة فى فيوضات الله عليك لوجدتها كثيرة ، بالله ماذا تفعل إنْ أردتَ أن تقوم من مكانك ، أو أن تُحرِّك يدك أو رِجْلك ؟ لا شىء ، بمجرد أن تريد تنفعل لك أعضاؤك ، وتطاوعك من حيث لا تدرى .

وسبق أنْ قارنّا بين حركة الإنسان وحركة الحفار مثلاً ، وكيف أنه يحتاج إلى عمليات مُعقدة ، فكل حركة منه لها زرّ خاص يؤديها ، فماذا تفعل أنت إنْ أردتَ أنْ تؤدى مثل هذه الحركات ؟

إنك بمجرد الإرادة ينفعل لك العضو ، وكأن فيك فيضاً من قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٨٢) ﴾ [يس] فإذا كنتَ أنت تفعل بمجرد أن تريد ، فلماذا لا تصدق هذا فى حقِّ الله تبارك وتعالى ؟

لكن هذه الحركة وانفعال الأعضاء لك ليس ذاتياً فيك ، ويستطيع خالقك أنْ يسلبها منك ، فتريد أن ترفع يدك فلا تستطيع ، فأنت تحت قيوميته تعالى ، فلم يُعطكَ من صفاته ، ثم يتركك . . فربنا سبحانه يحذرنا : إذا استغنيتَ ستَطغى ؛ فتنبَّه أن إلى ربك الرُّجْعى .

ثم يلفت نظرنا من الآن إلى قضية أخرى قبل أنْ نتعرض للمخاطر: ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ .. (١٠٧) ﴾ [يونس] فلا تتعب نفسك ، وتذهب هنا أو هناك ؛ لأنه ﴿ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ .. (١٠٧) ﴾ [يونس]

هذه نصيحتى لك ؛ لأنك صنعتى ، وأنا أحب أن تكون صنعتى

على أرقى مِا تكون من الكمال ، فإذا مسَّك ضر لا تقدر على دَفْعه بأسبابك ، فعليك بباب ربك .

هذه ثلاث قضايا أو نصائح نقدمها لك قبل أنْ تحلَّ بك الأحداث والمصائب : إن استغنيت ستطغى ، وأن إلى ربك الرجعى ، وإذا مسَّك ضر ، ولا حيلةَ لك فى دفعه بأسبابك ، فليس لك إلا الله تفزع إليه ، والإله الذى يُنبِّهنا إلى المخاطر لنتلافاها إله رحيم .

إذن : فأنتم تحبون الحياة ، ولما نزلتْ بكم الأحداث والخطوب فى السفينة خفْتم الموت ، ودعوتُم الله بالنجاة ، فأنتم حريصون على الحياة الدنيا ، فلماذا لا تؤمنون بالله فتنالون حياة أخرى أبْقى وأدوم ؟ والطريق إليها بالإيمان واليقين ، وبمنهج الله فى (افعل) و (لا تفعل) .

هذه قضية ذكرها القرآن ، أمَّا واقع الحياة فقد أكدها ، وجاءت الأحداث وَفْق ما قال . القضية : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ .. (١٢) ﴾ [يونس] الإنسان يعنى مُطْلق الإنسان : المؤمن والكافر ﴿ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا .. (١٢) ﴾ [يونس] يعنى : فى كل الأحوال ، فلما جاءه الخطر وأصابه الضر دعا الله على أىِّ حال كان .

وهذه الأحوال تمثل مراحل راحات النفس ، فمثلاً حين تسير وأنت تحمل شيئاً ، فحين تتعب أولاً تضع عنك هذا الحمْل ، ثم تتوقف عن السير لتستريح ، فإنْ كان التعب أشد تقعد ، وإلا تضطجع على جنبك .

فأنت فى وضع الوقوف تحمل ثقل الجسم كله على القدمين فتكون الراحة أقل ، أمّا فى حالة القعود يُوزع ثقل الجسم على الوركين والمقعدة ، وفى الاضطجاع يُوزع نصف الجسم على نصفه فتكون الراحة أكبر ، وفى ضوء هذا نفهم أن الله يستجيب لك حين تدعوه قائماً ، أو قاعداً ، أو على جنبك .

وعجيب أمر الإنسان إذا نجَّاه الله مما يخاف وكشف عنه الضر عاد مرة أخرى ظالماً لنفسه : ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ .. (١٢)﴾ [يونس]

وفى لقطة أخرى يقول تعالى فى هذه المسألة : ﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ .. (٨)﴾ [الزمر] أىُّ ضر ﴿دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ .. (٨)﴾ [الزمر] ويا ليته نسى وسكت إنما ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا .. (٨)﴾ [الزمر] فقال : الفضل لفلان ، وقد استغثت بفلان ، ولجأت إلى فلان .

نلحظ أن الكلام فى هذه الآيات عن الإنسان المفرد ، والإنسان حين يتضرع إلى الله لا يطلع عليه أحد ، فالأمر بينه وبين ربه ، لكن الحق سبحانه يريد أن يفضح الناس ببعض ، فيقول فى موضع آخر : ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ .. (٦٧)﴾ [الإسراء]

فذكر الجماعة ليفضحهم أمام بعض ؛ لأن الإنسان يستر على نفسه ، فالحكمة من الجمع هنا أن رؤية الناس قد تكون مانعة من الشر ، فمثلاً فى موسم الحج ترى أكابر القوم وأوسطهم وأدناهم سواسية فى الطواف ، ويقف الواحد منهم يبكى عند الملتزم ، وحين يراك صاحب المنصب أو المركز وهو مَنْ هو فى بلده ساعة يعرف أنك رأيته وهو يبكى فى هذا الموقف تراه يتواضع لك ، ولا يتعالى عليك بعدها .

فالحق سبحانه حين يُحذِّرنا من العودة إلى المعصية بعد أنْ يكشف عنّا الضر إنما يعطينا المصل الواقى بصورة تحدث فى الواقع ، وكأنه تعالى يقول لنا : خذوا بالكم ، واعلموا أنكم مفضوحون

بكتاب الله فيما تُحدثون من أحداث فى حياتكم ، فكل منكم ينبغى أنْ يعلم أنه مراقب من الأزل ومكتوبة عليه خواطره ؛ لأن معنى القرآن الحق أنه لا يتغير ، وإذا قال الله فيه شيئاً فلا بُدَّ أنْ يحدث كما أخبر الله به .

﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٦٦)﴾

واللام فى ﴿لِيَكْفُرُوا .. (٦٦)﴾ [العنكبوت] ليست لام التعليل ؛ لأن الكفر لم يكُنْ مقصداً لهم ، وحين عادوا بعد أن نجاهم الله إنما عادوا إلى أصلهم[1] ، فاللام هنا لام الأمر[2] كما لو قلت : قم يا زيد وليقم عمرو ، وعلامة لام الأمر أن تكون ساكنة ، وهى هنا مكسورة لأنها فى بداية الكلام ، حيث لا يُبدأ بساكن ، ولو وضعنا قبلها حرفاً لتبيَّن سكونها .

ومثالها فى قوله تعالى : ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ (٢٩)﴾ [الحج]

وقوله سبحانه : ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ .. (٧)﴾ [الطلاق]

والدليل على أنها لام الأمر سكون اللام بعدها فى قراءة من

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٣/٤٢١) : « هذه اللام يسميها كثير من أهل العربية والتفسير وعلماء الأصول لام العاقبة لأنهم لا يقصدون ذلك ، ولا شك أنها كذلك بالنسبة إليهم ، وأما بالنسبة إلى تقدير الله عليهم ذلك وتقييضه إياهم لذلك فهى لام التعليل » .

(٢) قال جمال الدين بن هشام الأنصارى فى مغنى اللبيب (١/١٨٦) طبعة عيسى البابى الحلبى : « وأما ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا .. (٦٦)﴾ [العنكبوت] فيُحتمل اللامان ، منه التعليل فيكون ما بعدهما منصوباً ، والتهديد فيكون مجزوماً ، ويتعين الثانى فى اللام الثانية فى قراءة من سكَّنها ، فيترجح بذلك أن تكون اللام الأولى كذلك ، ويؤيده أن بعدهما ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٦٦)﴾ [العنكبوت] » .

سكنها ، وفى ﴿وَلِيَتَمَتَّعُوا..(٦٦)﴾ [العنكبوت] وقوله سبحانه : ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٦٦)﴾ [العنكبوت] فرْق فى الاستقبال بين السين وسوف ، فلو قال : فسيعلمون لَدلَّتْ على التهديد فى المستقبل القريب ، وأنه سيحل بهم العذاب فى الدنيا ، أمّا « سوف » فتدلّ على المستقبل البعيد ، فتشمل التهديد فى الدنيا وفى الآخرة فهى تستغرق الزمن كله ؛ لأن المسلمين فى بادىء الأمر كانوا مستضعفين ، لا يستطيعون حماية أنفسهم ، وذهبوا إلى النبى ﷺ يطلبون منه أن يستنصر الله لهم فلو قال حينئذ فى تهديد الكفار « فسيعلمون » لم تكن مناسبة ، إنما أعطى الأمد الأوسع للتهديد ، فقال : ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٦٦)﴾ [العنكبوت]

لذلك تجد الدقة فى أَخْذ العهد من الأنصار للرسول ﷺ ، ومن الرسول للأنصار ، فلما قابلوا رسول الله قالوا : خُذْ لنفسك . قال : تحموننى مما تحمون منه أنفسكم وأعراضكم وأموالكم .

فقالوا : فما لنا إنْ فعلنا ؟ كان من الممكن أن يقول لهم : ستملكون الأرض أو ستنتشر دعوة الله بكم وتنتصرون على عدوكم ، لكن هذه الوعود قد يراها بعضهم ، ويموت بعضهم قبل أنْ تتحقق ، فلا يرى منها شيئاً ؛ لذلك ذكر لهم جزاءً يستوى فيه الجميع مَنْ يعيش منهم ، ومَنْ يموت ، فقال : « لكم الجنة »[1] .

وأيضاً حين يصرفهم عن دنيا الناس إلى أمر يكون فى الدنيا أيضاً ،

---

(١) عن أبى مسعود البدرى قال : « انطلق النبى ﷺ ومعه العباس عمه إلى السبعين من الأنصار عند العقبة تحت الشجرة فقال : ليتكلم متكلمكم ولا يطيل الخطبة ، فإن عليكم من المشركين عيناً وإن يعلموا بكم يفضحوكم فقال قائلهم وهو أبو أمامة : سل يا محمد لربك ما شئت ، ثم سل لنفسك ولأصحابك ما شئتُ ثم أخبرنا ما لنا من الثواب على الله عز وجل وعليكم إذا فعلنا ذلك فقال : أسألكم لربى عز وجل أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً وأسألكم لنفسى ولأصحابى أن تؤونا وتنصرونا وتمنعونا مما منعتم منه أنفسكم قالوا : فما لنا إذا فعلنا ذلك ؟ قال : لكم الجنة . قالوا : فلك ذلك . أخرجه أحمد فى مسنده (٤/ ١٢٠) .

فهى صفقة خاسرة ، إنما أراد أنْ يصرفهم عن دنيا الناس إلى شىء أعظم مما فى دنيا الناس ، وليس هناك أعظم من دنيا الناس إلا الجنة .

والصحابى الذى أخبره النبى ﷺ بأن الجنة جزاء الشهيد ، وكان يمضغ تمرة فى فمه فقال : يا رسول الله ، أليس بينى وبين الجنة إلا أنْ أُقتل فى سبيل الله ؟ قال : بلى ، فألقى التمرات وبادر إلى ساحة القتال يستعجل هذا الجزاء[1] .

إذن : فسوف صالحة للزمن المستقبل كله ، أمّا السين فللقريب ؛ لذلك يستخدمها القرآن فى مسائل الدنيا ، كما فى قوله تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ .. (٥٣) ﴾ [فصلت]

وهذه الرؤية ممتدة من زمن رسول الله ، وإلى أنْ تقوم الساعة ، فكل يوم يجدُّ فى ظواهر الكون أمور تدل على قدرة الله تعالى ، فمستقبل أسرار الله فى كونه لا تنتهى أبداً إلا بالسر الأعظم فى الآخرة ، ففى زمن رسول الله قال ﴿ سَنُرِيهِمْ .. (٥٣) ﴾ [فصلت] وستظل كذلك ﴿ سَنُرِيهِمْ .. (٥٣) ﴾ [فصلت] إلى أنْ تقوم الساعة .

ونلحظ أن المصاحف ما زال فى رسمها كلام حتى الآن ، فهنا ﴿ وَلِيَتَمَتَّعُوا .. (٦٦) ﴾ [العنكبوت] تجد تحت اللام كسرة ، مع أنها ساكنة ، وهذا يعنى أن كتاب الله غالب ، وليس هناك محصٍ له .

وأذكر أن سيدنا الشيخ عبد الباقى[2] رضى الله عنه وجزاه الله عمَّا

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٨٩٩) ، وكذا البخارى فى صحيحه (٤٠٤٦) من حديث جابر رضى الله عنه : أن رجلاً قال للنبى ﷺ يوم أحد » الحديث . قال ابن حجر العسقلانى فى الفتح (٣٥٤/٧) : « لم أقف على اسمه » .

(٢) هو محمد فؤاد عبد الباقى ، ولد فى قرية بالقليوبية بمصر عام ١٨٨٢م ، ونشأ فى القاهرة ، ودرّس فى بعض مدارسها ، ثم عمل مترجماً عن الفرنسية فى البنك الزراعى (١٩٠٥ - ١٩٣٣) وانقطع إلى التأليف . توفى بالقاهرة عام ١٩٦٨م عن ٨٦ عاماً . [الأعلام للزركلى ٣٣٣/٦] .

قدَّم للإسلام خير الجزاء ـ أعدَّ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم وحاول أن يحصى ألفاظه لا سيما لفظ الجلالة (الله) الذى من أجله أعدَّ هذا الكتاب ، ومع ذلك نسى لفظ الجلالة فى البسملة ، وبدأ من ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٢﴾ [الفاتحة] ؛ لذلك نقص العدد عنده واحداً[1] . وما ذلك إلا لأن كتاب الله أعظم وأكبر من أنْ يُحاط به .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ۝٦٧﴾

(رأى) قلنا : تأتى بصرية ، وتأتى بمعنى عَلِم ، ومنه قولنا فى الجدال مثلاً أرى فى الموضوع الفلانى كذا وكذا ، ويقولون : (ولِرأىَ الرؤْيا انْمِ ما لِعَلِمَا) ، وتجد فى أساليب القرآن كلاماً عن الرؤيا المخاطب بها غير راء للموضوع ، كما فى قوله سبحانه مخاطباً النبى ﷺ : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝١﴾ [الفيل]

ومعلوم أن النبى لم يَرَ ما حدث من أمر الفيل ؛ لأنه وُلد فى هذا العام فرأى هنا بمعنى علم ، لكن لماذا عدل عن (ألم تعلم) إلى (ألم تر) ؟ قالوا : لأن المتكلم هنا هو الله تعالى ، فكأنه يقول لنبيه ﷺ : إذا أخبرتُك بشىء ، فإن إخبارى لك به أصدق من رؤيتك .

يقول سبحانه : ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ .. ۝٦٧﴾ [العنكبوت] فالحرم آمِن رغم ما حدث له من ترويع

---

(١) أورد محمد فؤاد عبد الباقى (١١٢٥) موضعاً فى القرآن ذكر فيه لفظ الجلالة مجروراً مبتدئاً بقوله تعالى ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٢﴾ [الفاتحة]

قبل الإسلام حين فزّعه أبرهة ، وفى العصر الحديث لما فزَّعه (جهيمان) ، وعلى مَرِّ العصور حدثتْ تجاوزات فى الحرم تتناقض فى ظاهرها مع هذا الأمن .

ونقول : كلمة ﴿حَرَمًا آمِنًا .. (٦٧)﴾ [العنكبوت] فى القرآن بالنسبة للكعبة فيها ثلاثة إطلاقات : فالذين يعيشون فيه وقت نزول هذه الآيات يروْنَ أنه حرم آمن ، وهذا الأمن موهوب لهم منذ دعوة سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ .

فحين دعا ربه : ﴿رَبَّنَا إِنِّى أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ .. (٣٧)﴾ [إبراهيم] كان مكاناً خالياً ، لا حياةَ فيه وغير مسكون ، ومعنى ذلك أنه لم تكُنْ به مُقوِّمات الحياة ، فالإنسان لا يبنى ولا يستقر إلا حيث يجد مكاناً يأمن فيه على نفسه ، ويتوفر له فيه كل مُقوِّمات حياته .

لذلك دعا إبراهيم ربه أنْ يجعل هذا المكان بلداً آمناً يعنى يصلح لأنْ يكون بلداً ، فقال : ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا (١٢٦)﴾ [البقرة]

وبلد هنا نكرة تعنى : أىّ بلد لمؤمنين أو لكافرين ، فلما استجاب الله له ، وجعلها بلداً كأىِّ بلد تتوفر له مُقوِّمات الحياة دعا مرة أخرى : ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا ..(٣٥)﴾ [إبراهيم] أى : هذه التى صارت بلداً أريد لها مَيْزة على كل البلاد ، وأمناً أزيد من أمن أىّ بلد آخر ، أمناً خاصاً بها ، لا الأمن العام الذى تشترك فيه كل البلاد ، لماذا ؟ لأن فيها بيتك .

لذلك يرى فيها الإنسان قاتلَ أبيه ، ولا يتعرَّض له حتى يخرج ، فالجانى مؤمَّن إنْ دخل الحرم ، لكن يُضيق عليه أسباب الحياة حتى يخرج ، حتى لا يجترىء الناس على بيت الله ويفسدون أمنه ، ومن هذا

الأمن الخاص ألاَّ يصاد فيه ، ولا يُعْضَد شجره ، ولا يُروَّع ساكنه .

وكأن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ يقول للمشركين : لماذا لا تؤمنون بهذا الدين الذى جعل لكم بلداً آمناً ، فى حين يُتخطّف الناس من حولكم ؟ لماذا لا تحترمون وجودكم فى هذا الأمن الذى وهبه الله لكم .

وعجيب منهم أن يقولوا كما حكى القرآن عنهم : ﴿ وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا .. (٥٧) ﴾ [القصص] كيف وقد حَمَيناكم أيام كنتم مشركين تعبدون الأصنام ، أنترككم بعد أنْ تؤمنوا مع رسول الله .

وقصة هذا الأمن أولها فى حادثة الفيل ، لما جاء أبرهةُ ليهدم بيت الله ويُحوِّل الناس إلى بيت بناه باليمن ، فردَّ الله كيدهم ، وجعلهم كعصف[1] مأكول ، وحين نقرأ هذه السورة على الوَصْل بما بعدها تتبين لنا العلَّة من هذا الأمن ، ومن هذه الحماية ، اقرأ :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣) تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ (٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ (٥) ﴾ [الفيل] لماذا ؟ ﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ (١) إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (٢) ﴾ [قريش]

فالعلة فى أن جعلهم الله كعصف مأكول ﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ (١) ﴾ [قريش] لأن اللام فى (لإيلاَف) للتعليل ، وهى فى بداية كلام . فالعلة فى أن الله لم يُمكِّن الأعداء من هدم البيت لتظلّ لقريش مهابتها ومكانتها بين العرب ، ومهابتها مرتبطة بالبيت الذى يقصده الناس من كل مكان .

---

(١) العصف المأكول : التبن أو ورق الشجر الذى أصابه مرض الأكال فتآكلت منه أجزاء . [القاموس القويم ٢/٢٣] .

وهذه المكانة تُؤمِّن تجارة قريش فى رحلة الشتاء إلى اليمن ، ورحلة الصيف إلى الشام ، لا يتعرَّض لهم أحد بسوء ، وكيف يجترىء أحد عليهم أو يتعرّض لتجارتهم وهم حُماة البيت ؟

فمعنى ﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ (١) ﴾ [قريش] أن الله أهلك أبرهة وجنوده ولم يُمكِّنهم من البيت لتظل لقريش ، وليُديم الله عليها أنْ يُؤْلَفوا وأنْ يُحبُّوا من الناس جميعاً ، ويواصلوا رحلاتهم التجارية الآمنة .

لذلك يقول تعالى بعدها ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَـٰذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِى أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ (٤) ﴾ [قريش] فكان من الواجب عليهم أن يعبدوا رب البيت الذى وهبهم هذه النعم ، فما هم فيه من أمن وأمان وطعام وشراب ليس بقوتهم ، إنما بجوارهم لبيت الله ، ولبيت الله قداسته عند العرب ، فلا يجرؤ أحد منهم على الاعتداء على تجارة قريش .

فقولهم لرسول الله : ﴿ إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا .. (٥٧) ﴾ [القصص] حجة لله عليهم ، ففى الوقت الذى يُتخطّف الناس فيه من حولهم كانوا هم فى أمان ، فهى حجة عليهم .

ثم إن الشرط هنا ﴿ إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ .. (٥٧) ﴾ [القصص] غير مناسب للجواب ﴿ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا .. (٥٧) ﴾ [القصص] فما دمتم قلتم عن الدين الذى جاءكم به محمد أنه هدى - يعنى هدى لله - فكان يجب عليكم أنْ تؤمنوا به لو تأكد لديكم أنه هدى ، وإلا فأنتم كاذبون فى هذا القول ، ولمَ لا وأنتم تُكذِّبون القرآن وتقولون عنه افتراء وكذب وسحر ، والآن تقولون عنه هدى ، وهذا تناقض عجيب .

ألم يقولوا ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) ﴾ [الزخرف] ومعنى هذا أن القرآن لا غبارَ عليه ، لكن آفته أنه نزل على هذا الرجل بالذات .

وقوله تعالى ﴿أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ .. (٦٧)﴾ [العنكبوت] أى : بالأصنام ﴿وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ (٦٧)﴾ [العنكبوت] قال ﴿وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ .. (٦٧)﴾ [العنكبوت] ولم يقل مثلاً : وبعبادة الله ، أو بالإيمان بالله يكفرون ؛ لأن إيمانهم لو لم يكُنْ له سبب إلا نعَم الله عليهم أنْ يُطعمهم من جوع ، ويُؤمنهم من خوف لكان واجباً عليهم أنْ يؤمنوا به .

والباطل مقابل الحق ، وهو زَهُوق لا دوامَ له ، فسرعان ما يفسد وينتهى ، فإنْ قلتَ ما دام أن الباطل زهوق وسينتهى ، فما الداعى للمعركة بين حَقٍّ وباطل ؟

نقول : لولا عضة الباطل للمجتمع لما استشرفَ الناس للحق ينقذهم ، فالباطل نفسه جُنْد من جنود الحق ، كما أن الكفر جُنْد من جنود الإيمان ، فلولا الكفر وما يفعله الكافرون بالناس لما اشتاق الناس للإيمان ، الذى يُوفِّر لهم الأمن والطمأنينة والراحة والمساواة .

كما أن معنى كَفَرَ يعنى ستر الإله الواجب الوجود ، والسَّتْر يحتاج إلى مستور ، فما هو المستور بالكفر ؟ المستور بالكفر الإيمان ، فكلمة كفر نفسها دليلُ وجودِ الإيمان .

وسبق أن قلنا : إن الإنسان قد يكره بعض الأشياء ، وهى لمصلحته ولحكمة خلقها الله ، ومثَّلْنا لذلك بالألم الذى يتوجّع منه الإنسان ، وهو فى الحقيقة تنبيه له واستنهاض ليعلم سبب هذا الألم ويتنبه ، فيدفع المرض عن نفسه ، ويطلب له الدواء .

فالألم بهذا المعنى جُنْد من جنود العافية ، وإلاَّ فأفتكُ الأمراض بالبشر ما ليس له ألم يُنبّه إليه ، فيظل كامناً فى الجسم حتى يستفحل أمره ، وتعزّ مداواته ؛ لذلك يصفونه بالمرض الخبيث ؛ لأنه يتلصَّص فى الجسم دون أنْ يظهر له أثر يدل عليه .

فالحق - سبحانه وتعالى - خلق الألم لحكمة ؛ ليُنبِّهك أن فى موضع الألم عطباً ، وأن الجارحة التى تألم غير صالحة لأداء مهمتها ؛ لذلك يقولون فى تعريف العافية : العافية ألاَّ تشعر بأعضائك ، لك أسنان تأكل بها ، لكن لا تدرى بها ، وربما لا تتذكر هذه النعمة إلا إذا أصابها عَطَب فآلمتك .

إذن : حين تعلم جارحتك وتتألم ، فاعلم أنها غير طبيعية ، وأنها لا تؤدى مهمتها كما ينبغى ، فعليك أنْ تبادر بعلاجها .

وأيضاً حين يزدهر الباطل ، وتكون له صَوْلة ، فإنما ذلك ليُشعرك بحلاوة الحق ، فتستشرف له وتتمناه . لذلك انتشر الإسلام فى البلاد التى فيها أغلبية إسلامية ، لا بالسيف كما يحلو للبعض أن يقول ، إنما انتشر برؤية الناس لمبادئه وسماحته .

ففى بلاد فارس والروم ذاق الناسُ هناك كثيراً من المتاعب من دياناتهم ومن قوانينهم ، فلما سمعوا عن الإسلام ومبادئه وسماحة تعاليمه أقبلوا عليه .

فلولا أن الباطل عضَّهم لما لجأوا للإيمان ، فالإسلام انتشر انتشاراً عظيماً فى نصف قرن من الزمان ، ولم يكن هذا نتيجة الاندفاع الإيمانى ليدخل الناس فى الإسلام ، إنما لجذْب الضلال للإيمان ، فكأن الإسلام مدفوع بأمرين : أهله الحريصون على انتشاره ، وباطل يجذب الناس إليه .

والحق - سبحانه وتعالى - يعطينا مثلاً للحق وللباطل فى قوله تعالى : ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ

اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ [الرعد]

فالزبَد : هو القشّ والفُتات الذى يحمله الماء ، فيكون طبقة على سطح الماء ، ثم يزيحه الهواء إلى الجوانب ، ويظل الماء بعده صافياً ، فالزبَد مثَلٌ للباطل ؛ لأنه يعلو على سطح الماء ، لكن إياك أن تظن أنه ذو شأن ، أو أن عُلوه سيدوم ؛ لأنه غثاء لا قيمة له ، وسرعان ما يزول ويبقى الماء النافع ، وكما يتكون الزبَد على سطح الماء كذلك يتكوَّن عند صَهْر المعادن ، فحين يصهر الصائغ مثلاً الذهب أو الفضة يخرج المعدن الأصيل تاركاً على الوجه الخبَث الذى خالطه .

لذلك يقول بعض العارفين : إن الله تعالى لا يترك الحق ، ولا يُسلْمه أبداً للباطل ، إنما يتركه لحين ليبلو غيرة الناس عليه ، فإذا لم يغاروا على الحق غار هو سبحانه عليه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ ۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾﴾

هذا استفهام يريد منه الحق ـ سبحانه وتعالى ـ قضية يُقرها المقابل ، فلم يوردها بصيغة الخبر : لا أظلم ؛ لأن الخبر فى ذاته يحتمل الصدق أو الكذب ، فجاء بصيغة الاستفهام لتنطق أنت بالقضية ، كما تقول لمن ينكر معروفك : مَنْ أعطاك هذا الثوب ؟ فلا يملك إلا أنْ يعترف بفضلك ، لكن إنْ قلت له إخباراً : أنا أعطيتُك هذا الثوب ، فالخبر يحتمل الصدق ويحتمل الكذب ، وربما ينكر فيقول : لا لم تعطنى شيئاً .

إذن : إيراد الكلام بأسلوب الاستفهام أقوى فى تقرير واقع من أسلوب الخبر ؛ لأن الخبر يأتى من المتكلم ، أمّا الإقرار فمن السامع ، وأنت لا تُلقِى بالاستفهام إلا وأنت واثق أن الجواب سيأتى على وَفْق ما تريد .

فمعنى ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ .. (٦٨)﴾ [العنكبوت] لا أحد أظلم ، والظلم : نَقْل الحق من صاحبه إلى غيره ، والظلم قد يكون كبيراً وعظيماً ، وهو الظلم فى القمة فى العقيدة ، كما قال سبحانه : ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣)﴾ [لقمان]

وقد يكون الظلم بسيطاً هيِّناً ، فالذى افترى على الله الكذب ، لا أحدَ أظلم منه ؛ لأنه لو افترى على مثله لكان أمره هيناً ، لكنه افترى على مَنْ ؟ على الله ، فكان ظلمه عظيماً ، ومن الحمق أن تفترى على الله ؛ لأنه سبحانه أقوى منك يستطيع أن يُدلل ، وأنْ يبرهن على كذبك ، ويستطيع أن يدحرك ، وأن يُوقفك عند حدِّك ، فمَنِ اجترأ على هذا النوع من الظلم فإنما ظلم نفسه .

وقلنا : إن الافتراء كذب ، لكنه متعمد ؛ لأن الإنسان قد يكذب حين يخبر على مقتضى علمه ، إنما الواقع خلاف ما يعلم ، لذلك عرَّف العلماء الصدق والكذب فقالوا : الصدق أنْ يطابق الكلامُ الواقعَ ، والكذب أن يخالف الكلامُ الواقعَ ، فلو قلتُ خبراً على مقتضى علمى ، ولم أقصد مخالفة الواقع ، فإن خالف كلامى الواقع فالخبر كاذب ، لكن المخبر ليس بكاذب .

وقوله سبحانه : ﴿أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ .. (٦٨)﴾ [العنكبوت] فيا ليته افترى على الله كذباً ابتداءً ، إنما صعَّد كذبه إلى مرحلة أخرى فعمد إلى أمر صِدْق وحقٍّ فكذَّبه . ثم يقرر جزاء هذا التكذيب بأسلوب

الاستفهام أيضاً ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ (٦٨)﴾ [العنكبوت] يعنى : أضاقتْ عنهم النار ، فليس بها أمكنة لهؤلاء ؟ بلى بها أمكنة لهم ، بدليل أنها ستقول وهى تتشوق إليهم حين تسأل : ﴿هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ (٣٠)﴾ [ق]

وكأن الحق سبحانه يقول : لماذا يفترى هؤلاء على الله الكذب ؟ ولماذا يُكذِّبون الحق ؟ اعلموا أن جهنم ليس بها أماكن لهم ؟ فالاستفهام فى ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ (٦٨)﴾ [العنكبوت] استفهام إنكارى يُنكر أن يظن المكذبون الكافرون أنه لا مكان لهم فى جهنم .

فالحق سبحانه فى إرادته أزلاً أن يخلق الخَلْق من لَدُن آدم - عليه السلام - وإلى أنْ تقوم الساعة ، وأنْ يعطيهم الاختيار ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ .. (٢٩)﴾ [الكهف] وقدر أن يؤمنوا جميعاً فأعدَّ لهم أماكنهم فى الجنة ، وقدر أن يكفروا جميعاً فأعدَّ لهم أماكنهم فى النار .

فإذا كان يوم القيامة يدخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النارَ ، يورث الله المؤمنين فى الجنة أماكن الكافرين فيها فيتقاسمونها بينهم ، وكذلك يتقاسم أهل النار أماكن المؤمنين فى النار بالرد ، فمَنْ كان له فى النار مكان واحد يصير له مكانان .

كما أن الاستفهام ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ (٦٨)﴾ [العنكبوت] يجعل السامع يشاركك الكلام ، وفيه معنى التقريع والتوبيخ ، كما فى قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٣٠) وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ (٣١) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَـٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ (٣٢) وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ (٣٣) فَالْيَوْمَ

الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٣٤) عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ (٣٥) هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦) ﴾ [المطففين]

يلتفت الله إلى المؤمنين الذين استُهزىء بهم فى الدنيا : هل قدرنا أنْ نجازى هؤلاء الكافرين ، ونردّ إليكم حقوقكم - وفى هذا إيناسٌ للمؤمنين وتقريعٌ للكافرين - فيقولون : نعم يا رب ، نعم يا رب ، نعم يا رب ، فالحق سبحانه يريد أنْ يحرش المؤمنين بهم ، فلا يلينون لهم ، ولا يعطفون عليهم ، لأنهم طَغَوْا وتكبَّروا ، وعرضتْ عليهم الحجج والأدلة فكذَّبوها وأصرُّوا على عنادهم ، فبالغوا فى الظلم .

﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (٦٩) ﴾

نقول : جَهدَ فلان يجهد أى أتعب نفسه واجتهد : ألح فى الاجتهاد وجاهد غيره ، فجاهد تدل على المفاعلة والمشاركة ، وهى لا تتم إلا بين طرفيْن ، وفى هذه الصيغة (المفاعلة) نغلب الفاعلية فى أحدهما ، والمفعولية فى الآخر ، مع أنهما شركاء فى الفعل ، فكلٌّ منهما فاعل فى مرة ، ومفعول فى أخرى ، كأنك تقول : شارك زيدٌ عمراً ، وشارك عمرو زيداً . أو : أن الذى له ضِلْع أقوى فى الشركة يكون فاعلاً والآخر مفعولاً .

وبعد أن بيَّن الحق سبحانه أن مثوى الكافرين المكذِّبين فى جهنم وحرَّش المؤمنين بهم ، وما داموا قد ظَلموا هذا الظلم العظيم لا بُدَّ أن يوجد تأديب لهم ، هذا التأديب لا لإرغامهم على الإيمان ، ﴿ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ .. (٢٩) ﴾ [الكهف] إنما التأديب أن نجهر

بدعوتنا ، وأن نعلى كلمة الحق ، فمن شاء فليؤمن ، ومَنْ شاء فليظل على حاله ، إذن : فالآية تبين موقف المؤمنين أمام هؤلاء المكذبين :

﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا[1] فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا .. (٦٩) ﴾ [العنكبوت]

معنى (جاهدوا فينا) أى : من أجلنا ولنصرة ديننا ، والخصومات التى نجاهدها فى الله كثيرة : خصومة فى مسألة القمة الإيمانية ووجود الإله الواحد كالملاحدة الذين يقولون بعدم وجود إله فى الكون ، وهؤلاء لهم جهاد ، وأهل الشرك الذين يقرون بوجود الله لكن يدَّعُون أن له شريكاً ، وهؤلاء لهم جهاد آخر .

فجهاد الملاحدة بالمنطق وبالحجة ليقولوا هم بأنفسهم بوجود إله واحد ، ونقول لهم : هل وُجِد مَن ادعى أنه خلق ذاته أو خلق غيره ؟ بل تأملوا فى أتفه الأشياء التى تستخدمونها فى حياتكم : هذا الكوب الزجاجى وهو ترف ليس من ضروريات الحياة هل تقولون : إنه وُجِد هكذا دون صانع ؟ إذن : كيف وُجِد ؟ هل لدينا شجرة مثلاً تطرح لنَا هذه الأكواب ؟

إذن : هى صنعة لها صانع ، استخدم العقل الذى منحه الله إياه ، وأعمله فى المواد التى جعلها الله فى الكون ، واستنبط منها هذه المادة (الزجاج) .

مصباح الكهرباء الذى اخترعه (إديسون) كم أخذ منه من جهد وبحث ودراسة ، ثم يحتاج فى صناعته إلى معامل ومهندسين وصيانة ، ومع ذلك حصاة صغيرة تكسره فينطفىء ، وقد أخذ

---

(١) قال أبو سليمان الدارانى : ليس الجهاد فى الآية قتال الكفار فقط ، بل هو نصر الدين ، والرد على المبطلين ، وقمع الظالمين ، وعُظْمه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ومنه مجاهدة النفوس فى طاعة الله ، وهو الجهاد الأكبر . [نقله القرطبى فى تفسيره ٥٢٥٥/٧] .

(أديسون) كثيراً من الشهرة وخلَّدنا ذكراه ، وما زالت البشرية تذكر له فضله .

أفلا ينظرون فى الشمس التى تنير الدنيا كلها منذ خلقها الله وإلى قيام الساعة دون أنْ تحتاج إلى صيانة ، أو إلى قطعة غيار ؟ وهل يستطيع أحد أن يتناولها ليصلحها ؟ وهل تأبَّتْ الشمس عن الطلوع فى يوم من الأيام ، وما تزال تمدكم بالحرارة والأشعة والدفء والنور ؟

أتعرف مَنْ صنع المصباح ، ولا تعرف مَنْ صنع الشمس ؟ لقد فكرتم فى أتفه الأشياء وعرفتم مَنْ صنعها ، وأرَّخْتُم لهم ، وخلدتم ذكراهم ، ألم يكن أَوْلَى بكم التفكُّر فى عظمة خلق الله والإيمان به ؟

ثم قُلْ لى أيها الملحد : إذا غشيك ظلام الليل ، كيف تضيئه ؟ قالوا : كل إنسان يضىء ظلام ليله على حَسْب قدرته ، ففى الليل ترى الإضاءات مختلفة ، هذا يجلس فى ضوء شمعة ، وهذا فى ضوء لمبة جاز ، وهذا فى ضوء لمبة كهرباء ، وآخر فى ضوء لمبة نيون ، فالأضواء فى الليل متباينة تدل على إمكانات أصحابها ، فإذا ما طلعتْ الشمس ، وأضاء المصباح الربانى أطفئت كل هذه الأضواء ، ولم يَعُدْ لها أثر مع مصباح الخالق الأعظم سبحانه .

أليس فى هذا إشارة إلى أنه إذا جاءنا حكم من عند الله ينبغى أنْ نطرح أحكامنا جميعاً لنستضىء بحكم الله ؟ أليس فى صدق المحسوس دليل على صدق المعنويات ؟

وأنت يا مَنْ تدّعى أن لله شريكاً فى مُلكه : مَن الذى قال إن لله شريكاً ؟ لقد قلتها أنت من عند نفسك ؛ لأن الله تعالى حين قال : أنا إله واحد لا شريك لى لم يعارضه أحد ، ولم يدَّعِ أحد أنه شريك لله .

فهذا دليل على أن الشريك غير موجود ، أو أنه موجود ولم يَدْرِ ، أو درى ولم يقدر على المواجهة ، وفى كلتا الحالتين لا يصلح أن يكون إلهاً .

ثم على فرض أنه موجود ، ما منهجه ؟ بماذا أمرك وعَمَّ نهاك ؟ ماذا أعدَّ لك من النعيم إنْ عبدته ؟ وماذا أعد لك من العذاب إنْ كفرتَ به ؟ إذن : فهذا الإله المزعوم إله بلا منهج ، فعبادته باطلة .

أما هؤلاء الذين يؤمنون بدين سماوى ولا يؤمنون بالرسول ﷺ فنقول لهم : يكفى من جوانب العظمة فى شخصية محمد بن عبد الله أنه لا يتعصب لنفسه ؛ لأن قلبه مع كل مَنْ يؤمن بالله حتى وإنْ كفر به ، محمد يحب كل مَنْ آمن بربه ، وإنْ كفر بمحمد ، إنه يتعصب لربه حتى فيمن كذبه .

ثم أنتم يا أصحاب الديانات اليهودية أو المسيحية الذين عاصرتم ظهور الإسلام فأنكرتموه ، مع أن دينكم جاء بعد دين ، ورسولكم جاء بعد رسول سابق ، فلماذا لما جاءكم محمد كذَّبتموه وكفرتم به ؟ لماذا أبْحتم أنْ يأتى عيسى بعد موسى عليهما السلام ، وأنكرتُم أنْ يأتى بعد عيسى محمد ؟

إذن : لكل خصومة فى دين الله جدل خاص ومنطق للمناقشة نقوم به فى ضوء : ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا .. (٦٩)﴾ [العنكبوت] وعليك أن تنظر أولاً ما موقع الجهاد الذى تقوم به ، فجهاد الملاحدة بأسلوب ، وجهاد المشركين بأسلوب ، وجهاد أهل الكتاب بأسلوب ، وجهاد المسلم للمسلم كذلك له منطق إنْ دبَّ بينهما الخلاف ، مع أن الله تعالى قال : ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ .. (١٥٩)﴾ [الأنعام]

فساعةَ ترى كلاً منهما فى طرف ، بحيث لا تستطيع أن تتبع أحدهما ، فاعلم أنهما على باطل ؛ لأن الإسلام شىء واحد سبق أنْ شبَّهناه بالماء الأبيض الصافى الذى لم يخالطه لون ولا رائحة ولا طعم ، فإنْ لوَّنته الأهواء وتحزَّب الناس فيه كما يُلوِّنون العصائر فقد جانبهم الصواب وأخطأوا الدين الصحيح .

لأن ما جاء فيه حكم صريح من عند الله اتفقنا عليه ، وما تركه الله لاجتهادنا فينبغى على كُلٍّ منا أن يحترم اجتهاد الآخر ، وأن يقول : رأيى صواب يحتمل الخطأ ، ورأى غيرى خطأ يحتمل الصواب ، وبهذا المنطق تتعايش الآراء .

والحق - سبحانه وتعالى - يعطينا المثل على ذلك ، فما أراده سبحانه فى المنهج مُحكماً يأتى محكماً فى قول واحد لا خلاف فيه ، وضربنا مثلاً لذلك بآية الوضوء : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ .. (٦) ﴾ [المائدة]

فلم يحدد الوجه ؛ لأنه لا خلاف فى تحديده بين الناس ، إنما حدد الأيدى لأنها محل خلاف . إذن : فالقضايا التى تُثار بين المسلمين ينبغى أن يكون لها جدل خاص فى هذا الإطار دون تعصُّب ، فما جاءك مُحْكماً لا مجالَ فيه لرأى التزم به الجميع ، وما تُرك بلا تنصيص لا يحتمل الخلاف ، فليذهب كل واحد إلى ما يحتمله النص .

فالباء فى لغتنا مثلاً تأتى للتبعيض ، أو للاستعانة ، أو للإلصاق ، فإنْ أخذتَ بمعنىً فلا تحجر على غيرك أنْ يأخذ بمعنى آخر .

فإنِ استعر القتال بين طائفتين من المسلمين ، فيجب أن تكون

هناك طائفة معتدلة تتولى أمر الإصلاح ، كما قال سبحانه :

﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٩) ﴾ [الحجرات]

نلحظ أن الله تعالى سماهم مؤمنين ، ومعنى ذلك أن الإيمان لا يمنع أن نختلف ، وهذا الإيمان الذى لا يمنع أن نختلف هو الذى يُوجب علينا أن يكون منا طائفة معتدلة على الحياد لا تميل هنا أو هناك ، تقوم بدوْر الإصلاح وبدوْر الردع للباغى المعتدى حتى يفيىء إلى الجادة وإلى أمر الله .

فإنْ فاءت فلا نترك الأمور تُخيّم عليها ظلال النصر لفريق ، والهزيمة لفريق آخر ، إنما نصلح بينهما ، ونزيل ما فى النفوس من غلٍّ وشحناء ، فقد تنازل القوى عن كبريائه لما ضربنا على يده ، وقوّى الضعيف بوقوفنا إلى جانبه ، فحدث شىء من التوازن وتعادلتْ الفئتان ، فليعُدْ الجميع إلى حظيرة الأمن والسلام .

بقى لنا أن نتحدث عن جهاد آخر أهم ، هو جهاد النفس البشرية ؛ لأن النبى ﷺ لما عاد من إحدى الغزوات قال : « رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر »[1] فوصف جهاد النفس بأنه الجهاد الأكبر ، لماذا ؟ لأنك فى ساحة القتال تجاهد عدواً ظاهراً ، يتضح لك عدده وأساليبه ، أمّا إنْ كان عدوك من نفسك ومن داخلك ، فإنه يعزّ عليك جهاده ، فأنت تحب أنْ تحقق لنفسك شهواتها ، وأنْ تطاوعها فى أهوائها ونزواتها ، وهى فى هذا كله تُلِح عليك وتتسرَّب من خلالك .

---

(١) أخرجه الخطيب البغدادى فى « تاريخ بغداد » (١٣/٤٩٣) .

فعليك أنْ تقف فى جهاد النفس موقفاً تقارن فيه بين شهوات النفس العاجلة وما تُورثك إياه من حسرة آجلة باقية ، وما تضيعه عليك من ثواب ربك فى جنة فيها من النعيم ، ما لا عَيْن رأتْ ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

ضع ربك ونفسك فى هذه المقابلة وتبصّر ، واعلم أن لربك سوابقَ معك ، سوابق خير أعدّها لك قبل أن توجد ، فالذى أعدَّ لك كل هذا الكون ، وجعله لخدمتك لا شكَّ مأمون عليك ، وأنت عبده وصنعته ، وهل رأيت صانعاً يعمد إلى صنعته فيحطمها ؟

أما إن رأيت النجار مثلاً يمسك (بالفارة) وينحت فى قطعة الخشب ، فاعلم أنه يُصلحها لأداء مهمتها ، وأذكر قصة الطفل (أيمن) الذى جاء أمه يبكى ؛ لأن الخادمة تضرب السجادة ، فأخذتْه أمه وأرتْه التراب الذى يتساقط من السجادة فى كل ضربة من ضربات الخادمة ، ففهم الطفل على قدر عقله .

وكذلك الحق سبحانه حين يبتلى خَلْقه ، فإنما يبتليهم لا كَيْداً فيهم ، بل إصلاحاً لهم . ألم نسمع كثيراً أماً تقول لوحيدها (إلهى أشرب نارك) ؟ بالله ما حالها لو استجاب الله لها ؟ وهى فى الحقيقة لا تكره وحيدها وفلذة كبدها ، إنما تكره فيه الخصلة التى أغضبتها منه .

وكذلك الحق ـ سبحانه وتعالى ـ لا يكره عبده ، إنما يكره فيه الخصال السيئة فيريد أنْ يُطهِّره منها بالبلاء حتى يعود نقياً كيوم ولدته أمه ، فأحسن أيها الإنسان ظنك بربك .

إذن : نقول : إن من أعظم الجهاد جهادك لنفسك ، لأنها تُلِح عليك أنْ تُشبع رغباتها ، كما أنها عُرْضة لإغراء الهوى ووسوسة الشيطان

الذى يُزيِّن لها كل سوء ، ويُحبِّب إليها كل منكر .

وسبق أنْ بيَّنا : كيف نُفرِّق بين تزيين الشيطان وتزيين النفس ؛ لأن للنفس مدخلاً فى المعصية بدليل قول النبى ﷺ : « إذا جاء رمضان فُتحت أبواب الجنة ، وغُلِّقتْ أبواب النار ، وصُفِّدت الشياطين »[(١)] .

فلو كانت الذنوب كلها بسبب الشيطان لم نجد من يذنب فى رمضان ، إنما هناك كثير من الذنوب تُرتكب فى رمضان ، وهذا يعنى أنها من تزيين النفس ، وكأن الحق سبحانه أراد أنْ يكشف ابن آدم : ها أنا قد صفَّدْت الشياطين ومع ذلك تذنبون .

فإنْ أردتَ أنْ تعرف هل المعصية من النفس أم من الشيطان ، فإن النفس تقف بك عند معصية بعينها لا تريد سواها ، ولا تنتقل بك إلى غيرها ، وتظل تُلح عليك إلى أنْ تُوقعك فيها ، أما الشيطان فإنه يريدك عاصياً بأية صورة وعلى أية حال ، فإنْ تأبَّيْتَ عليه نقلك إلى معصية أخرى .

وعلى العاقل أن يتأمل ، فالمعصية تعطيك لذة عاجلة ومتعة فانية ، لا تليق أبداً بهذا الإنسان الذى كرَّمه الله ، وجعله خليفة له فى الأرض ، وسيداً لهذا الكون ، والكون كله بأرضه وسمائه خادم له ، فهل يُعقل أنْ يكون الخادم أطول عمراً من المخدوم ؟

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٢/٣٥٧) والبخارى فى صحيحه (١٨٩٩) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٠٧٩) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه : قال ابن حجر فى الفتح(٤/١١٤): « قال القاضى عياض : يحتمل أنه على ظاهره وحقيقته وأن ذلك كله علامة للملائكة لدخول الشهر وتعظيم حرمته ولمنع الشياطين من أذى المؤمنين ، ويحتمل أن يكون إشارة إلى كثرة الثواب والعفو ، وأن الشياطين يقل إغواؤهم فيصيرون كالمصفدين » .

إنك تموت بعد عام أو بعد مائة عام ، فى حين أن الشمس التى تخدمك تعمر ملايين السنين : إذن : لا بُدَّ أن لك حياة أخرى أبقى وأدوم من حياة خادمك ، فإنْ كنتَ الآن فى حياة تُوصَف بأنها دنيا ، فهذا يعنى أنها تقابلها حياة أخرى تُوصَف بأنها عليا ، وهى حياتك فى الآخرة ، حيث لا موتَ فيها أبداً .

والقرآن الكريم حينما يُحدِّثنا عن الجهاد يقول مرة : ﴿ وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ .. (٤١) ﴾ [التوبة] ويقول : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا .. (٦٩) ﴾ [العنكبوت]

الجهاد فى سبيل الله أى فى الطريق إلى الله لإثبات الإيمان بالإله الواحد ، وصدق البلاغ من الرسول المؤيَّد بالمعجزة وبالمنهج ، فإذا وضح لك السبيل فآمنتَ بالله الواحد الأحد قال لك : اجعل كل حركة حياتك فى إطار ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا .. (٦٩) ﴾ [العنكبوت] يعنى : من أجلنا مخلصين لله لا ينظرون إلى غيره .

والإنسان مهما تحرَّى الإخلاص فى عمله ، وقصد به وجه الله لا يأمن أن يخالطه شىء من رياء أو سمعة ، حتى أن المعصوم محمداً ﷺ ليقول : « اللهم إنى أستغفرك من كل عمل أردتُ به وجهك ، فخالطنى فيه ما ليس لك »[1] .

وهذا معنى (جاهدوا فينا) أن يكون العمل كله لله خالصاً ، وإلاَّ فما الفَرْق بين المؤمن والكافر ، وكلاهما يعمل ويسعى فى الدنيا

---

(١) ذكره ابن رجب الحنبلى فى كتابه « جامع العلوم والحكم » (ص ٢٧) من دعاء مطرف ابن عبد الله أنه كان يقول : اللهم إنى أستغفرك مما تبت إليك منه ، ثم عدت فيه ، وأستغفرك مما جعلته لك على نفسى ثم لم أفِ لك به ، وأستغفرك مما زعمت أنى أردت به وجهك فخالط قلبى منه ما قد علمت .

لكسب لقمة العيش له ولأولاده ، فهما فى السعى سواء ، فما مزية المؤمن إذن ؟

الميزة أن الكافر يعمل على قَدْر حاجته فحسب ، أمّا المؤمن فيعمل على قدر طاقته ، فيأخذ ما يكفيه ويعود بالفضل على مَنْ لا طاقةَ عنده للعمل ، ففى نيته أن يعمل له وللمحتاج غير القادر .

ونمثل لذلك بالبقال الذى فتح الله عليه ، فباع كثيراً فى أول النهار وأخذ كفايته ، ثم أغلق محله فلم ينظر إلى الذين يعاملونه على الشهر ، ويأخذون حاجتهم لأجَلٍ ، ولم ينظر إلى ربة البيت التى تنتظر عودة زوجها لتشترى ما يلزمها ، فقد نظر إلى حظ نفسه ، ونسى حظ الآخرين .

واقرأ إنْ شئت قوله تعالى : ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (٤)﴾ [المؤمنون] ولم يقل مُؤدُّون إنما : فاعلون من أجل الزكاة أى : يعملون على قَدْر طاقتهم ، لا على قدْر حاجتهم . فالذين يعملون فى إطار ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا .. (٦٩)﴾ [العنكبوت] لا يغيب الله أبداً عن بالهم .

ولكى نفقه هذه المسألة انظر إلى عمل أو جميل قدَّمته لغير وجه الله ترى أن صاحبه أنكره ، بل ربما لا ينالك منه إلا الذمّ ، وساعتها لا تلومنّ إلا نفسك ؛ لأنك أخطأت التوجه ، وقد عملت للناس فخُذْ أجرك منهم ، إنما إنْ عملتَ لوجه الله فثِقْ أن جميلك محفوظ عند الله وعند الناس .

والحق - سبحانه وتعالى - حينما أعطى للإنسان الاختيار فى أن يؤمن أو أنْ يكفر يلفت بهذا أنظارنا أنه إذا صنعتَ جميلاً فى إنسان ،

ثم أنكر جميلك وكفر به ، فلا تحزن ؛ لأن الناس فعلوا ذلك مع الله - عز وجل - فقد خلقهم ورزقهم ثم كفروا به .

ثم يأتى جزاء الجهاد فى ذات الله : ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا .. (٦٩)﴾ [العنكبوت] أى : ندلّهم على الطرق الموصِّلة إلينا ، كأن الطريق إلى الله ليس واحداً ، إنما سبل شتى ؛ لذلك لا تحقرنَّ من الطاعة شيئاً مهما كان يسيراً ، فإن الله تعالى غفر لرجل سقى كلباً يلهث من العطش[1] ، ولا تحقرن من المعصية شيئاً ، فإن الله أدخل امرأة النار لأنها حبست قطة[2] ، ولا تحتقرن عبداً مهما كان ، فإن الله تعالى أخفى أسراره فى خَلْقه ؛ فرُبَّ أشعث أغبر ذى طمرين لو أقسم على الله لأبرّه .

فإذا علمتَ من نفسك ميزة على الآخرين فانظر فيم يمتازون به عنك ، ودَعْك من نظرة تُورثك كبراً ، واستعلاء على الخَلْق ، فإنْ كنت أفضل فى شىء فأنت مفضول فى أشياء كثيرة ، وسبق أن قلنا : إن الله نثر المواهب بين الخَلْق ليظلوا ملتحمين بحاجة بعضهم إلى بعض .

فقوله تعالى ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا .. (٦٩)﴾ [العنكبوت] أى : السبل الموصِّلة لنعيم الآخرة ، سبل الارتقاء فى اليقين الإيمانى الذى قال الله عنه : ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم .. (١٢)﴾ [الحديد]

---

(١) عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال : « بينما رجل يمشى بطريق اشتد عليه العطش ، فوجد بئراً فنزل بها فشرب ، ثم خرج فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش ، فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذى كان بلغ بى ، فنزل البئر فملأ خُفَّه ثم أمسكه بفيه فسقى الكلب ، فشكر الله له فغفر له ، قالوا : يا رسول الله وإن لنا فى البهائم أجراً ؟ فقال : فى كل ذات كبد رطبة أجر » أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٠٠٩) .

(٢) عن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال : « دخلت امرأة النار فى هرة ربطتها فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض » أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٣١٨) قال ابن حجر فى الفتح (٣٥٧/٦) : « المراد (بخشاش الأرض) هوام الأرض وحشراتها من فأرة ونحوها » .

ويقول سيدنا عمر بن عبد العزيز : ما قصَّر بنا فى علم ما جهلناه ، إلا تقصيرنا فى العمل بما علمناه[١] فالذى جعلنا لا نعرف أسرار الله أننا قصرنا فى العمل بما أمرنا به ، إذن : فلماذا يعطينا ونحن لا نعمل بما أخذنا من قبل ، لكن حين تعمل بما علمتَ ، فأنت مأمون على منهج الله ، فلا يحرمك المزيد ، كما قال سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧) ﴾ [محمد]

وقوله تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا .. (٢٩) ﴾ [الأنفال] والفرقان من أسماء القرآن ، فحين تتقى الله على مقتضاه ، وبمدلول منهجه فى القرآن يمنحك فرقاناً آخر ونوراً آخر تبصر به حقائق الأشياء ، وتهتدى به إلى الحكم الصحيح ، هذا النور الذى وهبه الله للإمام على - رضى الله عنه - حينما دخل على عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - فوجده يريد أنْ يقيم الحَدَّ على زوجة ولدتْ لستة أشهر ، والشائع أن فترة الحمل تسعة أشهر ، فقال لعمر : لكن الله قال غير ذلك يا أمير المؤمنين ، قال عمر : وماذا قال يا على ؟

قال على : قال الله تعالى : ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ .. (٢٣٣) ﴾ [البقرة] يعنى : أربعة وعشرون شهراً .

وقال فى موضع آخر : ﴿ وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا .. (١٥) ﴾ [الأحقاف] وبطرح العددين يكون الباقى ستة أشهر ، وهى أقل مدة للحمل .

---

(١) ذكره القرطبى فى تفسيره (٥٢٥٥/٧) ، وتمامه : « ولو عملنا ببعض ما علمنا لأورثنا علماً لا تقوم به أبداننا » .

هذا هو الفرقان الذى يمنحه الله للمؤمنين الذين عملوا بما علموا ؛ لذلك كان عمر بن الخطاب وما أدراك ما عمر ؟ عمر الذى كان ينزل الوحى على وَفْق رأيه ، كان يقول : بئس المقام بأرض ليس فيها أبو الحسن .

ومعلوم أن علياً ـ رضى الله عنه ـ تربَّى فى حِجْر رسول الله ، وشرب من معينه ، فكل معلوماته إسلامية ، وله فى الحق حجة ومنطق . فمثلاً فى موقعة صفِّين التى دارتْ بين على ومعاوية كان عمار بن ياسر فى صفوف علي ، فقتله جنود معاوية ، فتذكر الصحابة قول رسول الله لعمار « وَيْح عمار ، تقتله الفئة الباغية »[1] فعلموا أنها فئة معاوية .

فأخذ الصحابة يتركون صفوف معاوية إلى صفوف على ، فأسرع عمرو بن العاص وكان فى جيش معاوية ، فقال له : يا أمير المؤمنين فَشَتْ فاشيةٌ فى الجيش ، إنْ هى استمرت فلن يبقى معنا أحد ، قال : وما هى ؟ قال : تَذَكَّر الناس قول رسول الله « ويح عمار تقتله الفئة الباغية » قال معاوية : فأفْشِ فيهم ، إنما قتله مَنْ أخرجه للقتال ـ أى على ـ فلما بلغ علياً هذه المقالة قال بما عنده من الفرقان والحجة : إذن قولوا له مَنْ قتل حمزة بن عبد المطلب ؟

فمن عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم ، ومثَّلْنا لذلك قلنا : هب أن لك ولداً متعثراً غير مُوفَّق فى حياته العملية ، فنصحك إخوانك بأنْ تعطيه فرصة ، وتجربه ولو بمشروع صغير فى حدود مائة

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٣/٩١) ، والبخارى فى صحيحه (١/٥٤١) ، والبيهقى فى دلائل النبوة (٢/٥٤٦) من حديث أبى سعيد الخدرى . وويح كلمة ترحُّم وتوجُّع . تُقال لمن تنزل به بلية . [لسان العرب ـ مادة : ويح] .

جنيه ، فلما فعلتَ بدَّد الولد هذا المبلغ ولم ينتفع به ، أتجرؤ على منحه مبلغاً آخر ؟ وإنما لو ثمَّر هذا المبلغ ونماه لأعطيته أضعافاً .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (٦٩)﴾ [العنكبوت] الإحسان من الإنسان أن يعبد الله كأنه يراه ، فإن لم يكن يراه فإنه يراه ، والإحسان فى الأداء أن تزيد عما فرض الله عليك ، لكن من جنس ما فرض ، فإذا أنت أحسنتَ أحسن الله إليك بأنْ يزيدك إشراقاً ، ويزيدك نورانية ، ويُخفِّف عنك أعباء الطاعة ، ويُقبِّح فى نفسك المعاصى .

لذلك بلغت محبة أحد العارفين للطاعة حتى قال : اللهم إنى أخاف ألاّ تثيبنى على طاعتى ؛ لأننى أصبحتُ أشتهيها . يعنى : لو لم تكن هناك جنة ولا نار لفعلتُ الطاعة ؛ لأنها أصبحتْ بالنسبة لى شهوةَ نفس ، وقد أمرتنا يا ربّ أن نخالف شهوة النفس لذلك أخاف ألاَّ تثيبنى عليها ، ولمثل هذا نقول :

﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (٦٩)﴾ [العنكبوت]

كلمة (مع) تفيد المعية ، والمعية فى أعراف البشر أنْ يلتقى شىء بشىء ، لكن إذا كانت المعية مع الله فافهم أنها معية أخرى غير التى تعرفها مع زميلك أو صديقك ، خُذْها فى إطار ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ (١١)﴾ [الشورى] فلك وجود ولله وجود ، لكن أوجودك كوجود الله ؟ الله يعلم أننا نسجل الآن فى مسجد أبى بكر الصديق ، لكن هل علْمنا كعلْمه تعالى ؟ الله يعلم هذا قبل أن ينشأ المسجد ، وقبل أنْ نُولد نحن .

لذلك يضرب الله لنا مثلاً فيقول : ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ (٢١)﴾ [الذاريات] هذا مَثَل للرد على الذين يطلبون رؤية الله عز وجل

وهو غَيْب ، مثَل للذين قالوا لنبيهم[1] ﴿أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً .. (١٥٣)﴾[النساء]

لكن كيف يرونه والعظمة فى الإله ألاَّ يُرى ، ولا تدركه الحواس ، والحق سبحانه يعطينا الدليل فى أنفسنا ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ (٢١)﴾ [الذاريات] فتأمل فى أقرب شىء إليك فى نفسك ، لا فى الآفاق من حولك ، أليست فيك روح تُحرِّك جسمك ، وبها تحيا وتنفعل أعضاؤك ، بدليل إذا خرجتْ منك هذه الروح تصير جثة هامدة ؟ أرأيت هذه الروح وهى بين جنبيك ؟ أأدركتها بأىِّ حاسة من حواسك ؟

إذن : هى معك ، لكن ليست تحت إدراكك ، وهى خَلْق بسيط من خَلْق الله ، فكيف تتطلع إلى أن ترى الخالق سبحانه وأنت لا تقدر على رؤية المخلوق ؟ لكن إن قُلْت : فرؤية المؤمنين لله فى الآخرة ؟ ففى الآخرة يخلقنى الله خَلْقاً آخر أستطيع أن أراه سبحانه ، حيث سيكون للخَلْق معايير أخرى ، ألستَ تأكل وتشرب فى الآخرة ، ومع ذلك لا تتغوَّط فى الجنة ؟

لذلك لما سأل حاكم الروم أحد علماء المسلمين : كيف تأكلون وتشربون فى الجنة ولا تتغوطون ؟ فقال له : وما العجيب فى ذلك ؟ ألم تر إلى الطفل فى بطن أمه يتغذى وينمو وهو لا يتغوط ، ولو تغوَّط فى مشيمته لاحترق .

ثم سأله : وتقولون إن نعيم الجنة تأخذون منه ولا ينتهى ولا ينقص ؟ فقال : هَبْ أن لك مصباحاً ، وجاءت الدنيا كلها ، وقبستْ من مصباحك ناراً ، أينقص منه شىء ؟

---

(١) قال تعالى : ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً .. (١٥٣)﴾ [النساء] . فهم اليهود سألوا نبيهم موسى عليه السلام ، فكان جزاءهم ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ .. (١٥٣)﴾ [النساء] .

فسأله : فأين تذهب الأرواح التى كانت فينا بعد أن نموت ؟ فقال : تذهب حيث كانت قبل أنْ تسكن فينا .

هذه مسائل ونماذج للتوفيق والهداية للحق فى إطار : ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا .. (٦٩)﴾ [العنكبوت] وهى فَيْض مما قال الله فيه : ﴿إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا .. (٢٩)﴾ [الأنفال]

سُورَةُ الرُّومِ

سورة الروم[1]

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الٓمٓ ١﴾

﴿الٓمٓ ١﴾ [الروم] سبق أن تكلمنا كثيراً عن الحروف المقطعة فى بدايات السور ، ولا أريد إعادة ما قُلْته ، لكن أريد من العلماء أنْ يلتفتوا إلى هذه المسألة لفتة إشراقية تُرينا جميعاً ، وتكشف لنا الحكمة والأسرار فى هذه الحروف .

وقلنا : إن هذه الحروف (الم) بنيت على الوقف ، كل حرف منها على حِدَة ، مع أن القرآن فى مجمله مبنى على الوصل فى آياته وفى سوره ، فآخر حرف فى السورة موصول بأول حرف فى التى تليها - فهنا نقول : (وَإِنَّ اللهَ لَمعَ المحْسِنينَ بسْمِ اللهِ الرحْمنِ الرحيمِ ...) .

---

(١) سورة الروم ، هى السورة رقم (٣٠) فى ترتيب المصحف الشريف ، عدد آياتها (٦٠) آية، قال القرطبى فى تفسيره (٥٢٥٧/٧) : « سورة الروم مكية كلها من غير خلاف » نزلت قبل سورة العنكبوت وبعد سورة الانشقاق ، فهى السورة رقم (٨٣) فى ترتيب نزول القرآن . (الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى ٢٧/١) .

بل أعجب من هذا ، نجد أن آخر سورة الناس مبنيٌّ على الوصل بأول الفاتحة ، فنقول : (.... مِنَ الجِنَّةِ والنَّاسِ بسْمِ اللهِ الرحْمَنِ الرَّحيمِ الْحَمدُ لله رَبِّ العَالمين) .

فالقرآن إذن موصول ، لا انقطاعَ فيه . فلماذا بُنيت الحروف المقطعة فى أوائل السور على الوقْف ، لماذا لا نقول : ألفٌ لامٌ ميمٌ ؟ قالوا : لأن الله تعالى لم يشأ أنْ يجعلها كلمة واحدة ، فجاءت على القطع ، ويؤنسنا قول رسول الله ﷺ : « لا أقول الم حرف ، ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف »[1] . فنريد وننتظر من يدركه الله ليكون من المحسنين ، ويدلُّنا على ما فى هذه الحروف من سرٍّ يُوقف عنده ، ولا يُوصل بغيره .

قال الحق سبحانه[2] :

﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢﴾

كلمة ﴿غُلِبَتِ .. ۝٢﴾ [الروم] تدل على وجود معركة غلب فريقٌ ،

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه (٢٩١٠) من حديث عبد الله بن مسعود . قال الترمذى : « هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه » . وأخرجه الطبرانى فى معجمه الكبير (٧٦/١٨) من حديث عوف بن مالك الأشجعى ، قال الهيثمى فى المجمع (١٦٣/٧) : « فيه موسى بن عبيد الربذى وهو ضعيف » .

(٢) **سبب نزول الآيات :** بعث كسرى جيشاً إلى الروم واستعمل عليهم رجلاً يسمى شهريران ، فسار إلى الروم بأهل فارس وظهر عليهم ، فقتلهم وخرَّب مدائنهم وقطع زيتونهم ، وكان قيصر بعث رجلاً يدعى يحنس فالتقى مع شهريران بأذرعات وبصرى وهى أدنى الشام إلى أرض العرب ، فغلب فارس الروم ، وبلغ ذلك النبى ﷺ وأصحابه بمكة فشق ذلك عليهم وكان النبى ﷺ يكره أن يظهر الأميون من أهل المجوس على أهل الكتاب من الروم ، وفرح كفار مكة وشمتوا ، فلقوا أصحاب النبى ﷺ فقالوا : إنكم أهل كتاب والنصارى أهل كتاب ونحن أميون ، وقد ظهر إخواننا من أهل فارس على إخوانكم من الروم ، وإنكم إن قاتلتمونا لنظهرن عليكم ، فأنزل الله تعالى : ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ الرُّومُ ۝٢ فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ .....﴾ [الروم] إلى آخر الآيات .

وغُلب فريق ، فالذى غُلب هنا الروم ، وكانوا أهل كتاب ومقرهم الشام وعراق العرب ، فالعراق منها قسم ناحية العرب ، وقسم ناحية فارس ، والروم نسبة إلى روم بن عيصو بن إسحاق[1] بن إبراهيم .

﴿ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ[2] وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ٣ ﴾

قوله ﴿أَدْنَى .. ٣﴾ [الروم] يعنى : أقرب لأرض العرب ، كما فى ﴿إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ .. ٤٢﴾ [الأنفال] فالعُدْوة الدنيا أى : القريبة من المدينة ، والقُصْوى البعيدة عنها . فالمعنى ﴿فِي أَدْنَى الأَرْضِ .. ٣﴾ [الروم] أقرب أرض للجزيرة العربية .

وفى قوله سبحانه : ﴿وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ٣﴾ [الروم]

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٣/٤٢٤) : « الروم من سلالة العيص بن إسحاق بن إبراهيم وهم أبناء عم بنى إسرائيل ويقال لهم بنو الأصفر ، وكانوا على دين اليونان ، واليونان من سلالة يافث بن نوح ، أبناء عم الترك وكانوا يعبدون الكواكب السيارة السبعة ويقال لها المتحيرة ويصلون إلى القطب الشمالى وهم الذين أسسوا دمشق وبنوا معبدها وفيه محاريب إلى جهة الشمال فكان الروم على دينهم إلى بعد مبعث المسيح بنحو من ثلثمائة سنة » .

(٢) الأرض هنا هى أرض الشام . وأدنى الأرض فيها ثلاثة أقوال :
- أذرعات : وهى ما بين بلاد العرب والشام . قاله عكرمة .
- الجزيرة : وهى موضع بين العراق والشام . قاله مجاهد .
- الأردن وفلسطين : قاله مقاتل .

قال ابن عطية :
- إن كانت الوقعة بأذرعات فهى من أدنى الأرض بالقياس إلى مكة .
- وإن كانت الوقعة بالجزيرة فهى أدنى بالقياس إلى أرض كسرى .
- وإن كانت بالأردن فهى أدنى أرض الروم . [تفسير القرطبى ٧/٥٢٦٠] .

بشرى للمسلمين ، فالفرس قوم كانوا يعبدون النار ، أما الروم فأهل كتاب ، إذن : فالخلاف بيننا وبين الفرس فى القمة الإلهية ، أمَّا الخلاف بيننا وبين الروم ففى القمة الرسالية ، فَهُم أقرب إلينا ؛ لأنهم يؤمنون بإلهنا ، وإنْ كانوا لا يؤمنون برسولنا .

وهذا من عظمة الإسلام ، فالذى يؤمن بالإله أقرب إلى نفوسنا من الذى لا يؤمن بالإله ؛ لأنه على الأقل موصول بالسماء ؛ لذلك لما غُلبت الروم فرح كفار قريش وحزن المؤمنون ، وفرح كفار قريش لأن فى هزيمة الروم دليلاً على أن محمداً وأصحابه سينهزمون كأصحابهم .

وكلمة ﴿غَلَبِهِمْ .. ﴿٣﴾﴾ [الروم] مصدر يُضاف للفاعل مرة ، ويُضاف للمفعول مرة أخرى ، تقول : أعجبنى ضَرْبُ الأمير مذنباً ، فأضفت المصدر للفاعل . وتقول : أعجبنى ضَرْب المذنب فأضفتَ المصدر للمفعول ، وكذلك هنا ﴿غَلَبِهِمْ .. ﴿٣﴾﴾ [الروم] مصدر أضيف إلى المفعول .

لكن لماذا قال سبحانه : ﴿سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾﴾ [الروم] وجاء بالسين الدالة على الاستقبال ، ثم قال بعدها ﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ ﴿٤﴾﴾ [الروم] وهى أيضاً دالة على الاستقبال ؟ قالوا : لأن الغلبة لا تأتى فجأة ، إنما لا بُدَّ لها من إعداد طويل وأَخْذ بأسباب النصر ، وتجهيز القوة اللازمة له ، فكأنهم فى مدة البضع سنين يُعدون للنصر ، فكلما أعدوا عُدَّة أخذوا جزءاً من النصر ، فالنصر إذن لا يأتى فى بضع سنين ، إنما من عمل دائم على مدى بضع سنين .

فهتلر مثلاً لما انهزم فى الحرب العالمية ، وتألَّبتْ عليه كل الدول ، جاء فى عام ١٩٣٩ وهدد العالم كله بالحرب ، فهل سقطت

عليه القوة التى يـهدد بها فجأة ؟ لا ، بل ظل عـدة سنوات يُعد العدة ويُجهِّـز الجيش والأسلحـة والطرق إلى أنْ توفرتْ له القـوة التى يهدد بها .

﴿ فِي بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾ ﴾

أثارت فرحة الكفار حفيظة المؤمنين ، إلى أنْ نزلت ﴿ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ .. ﴿٤﴾ ﴾ [الروم] ففـرح المؤمنون حـتى قال أبو بكر : والله لا يـسرُّ الله هؤلاء ، وسينصر الرومَ على فارس بعد ثلاث سنين .

لأن كلمة بضع تـعنى من الثلاثة إلى العشـرة ، فأخـذها الصِّدِّيق على أدنى مدلولاتها ، لماذا ؟ لأنه الصِّديق ، والحق ـ سبحانه وتعالى ـ لا يُحـمِّل المؤمنين مـشـقة الصـبر مـدة التـسع سنين ، وهذه من الصديقية التى تميز بها أبو بكر رضى الله عنه .

لذلك قـال أبو بـكر لأُبىٍّ بن خلف : والله لا يقـرّ الله عـيـونكم ـ يعنى : بما فـرحتم به من انتصـار الكفار ـ وقد أخـبرنا الله بذلك فى مدة بضـع سنين ، فـقال أُبىٌّ : أتراهننى ؟ قـال : أراهنك على كذا من القـلائص ـ والقلوص هى الناقة الـتى تركب ـ فى ثلاث سنين عشـر قلائص إن انتصرت الروم ، وأعطيك مثلها إن انتصرت فارس .

فلـما ذهـب أبـو بـكر إلى رسـول الله ، وأخـبره بمـا كان قـال : « يا أبا بكر زِدْه فى الـخطر ومـادِّه » ، يعنى زِدْ فى عـدد النوق من

عشرة إلى مائة وزده فى مدة من ثلاث سنين إلى تسع ، وفعلاً ذهب الصِّديق لأبىٍّ وعرض عليه الأمر ، فوافق فى الرهان على مائة ناقة[١] .

فلما اشتدّ الأذى من المشركين ، وخرج الصِّدِّيق مهاجراً[٢] رآه أُبىٌّ بن خلف فقال : إلى أين يا أبا فصيل ؟ وكانوا يغمزون الصِّدِّيق بهذه الكلمة ، فبدل أن يقولوا : يا أبا بكر . والبكْر هو الجمل القوى يقولون : يا أبا فصيل والفصيل هو الجمل الصغير ـ فقال الصِّديق : مهاجر ، فقال : وأين الرهان الذى بيننا ؟ فقال : إن كان لك يكفلنى فيه ولدى عبد الرحمن ، فلما جاءت موقعة بدر رأى عبد الرحمن أُبياً فقال له : إلى أين ؟ فقال : إلى بدر ، فقال : وأين الرهان إنْ قتلْتَ ؟ فقال : يعطيك ولدى .

وفى بدر[٣] أصيب أُبىٌّ بجرح من رسول الله مات فيه ، وقدَّم

---

(١) أخرجه ابن جرير الطبرى وابن أبى حاتم والبيهقى عن قتادة ، ولفظه . أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه وعلى رأسهم أبو بكر : « ألم تكونوا أحقاء أن تؤجلوا أجلاً دون العشر ؟ فإن البضع ما بين الثلاث إلى العشر » فزايدوهم ومادّوهم فى الأجل ، فأظهر الله الروم على فارس عند رأس السبع من قمارهم الأول . [ذكره السيوطى فى الدر المنثور ٤٨٢/٦] .

(٢) كان أبو بكر الصديق كثيراً ما يستأذن رسول الله ﷺ فى الهجرة ، فيقول له رسول الله ﷺ : لا تعجل لعل الله يجعل لك صاحباً ، فيطمع أبو بكر أن يكونه . قاله ابن هشام فى السيرة النبوية (٤٨٠/٢) كان هذا فى الهجرة إلى المدينة ، ولكن ثبت فى السيرة النبوية (٣٧٢/١) أن أبا بكر الصديق لما ضاقت عليه مكة وأصابه فيها الأذى ، استأذن رسول الله ﷺ فى الهجرة فأذن له ، فخرج أبو بكر مهاجراً ، حتى إذا سار من مكة يوماً أو يومين لقيه ابن الدُّغُنة ، وهو يومئذ سيد الأحابيش فقال ابن الدغنة : أين يا أبا بكر ؟ قال : أخرجنى قومى وآذونى وضيقوا علىَّ . ثم أدخله فى جواره ورجع أبو بكر إلى مكة .

(٣) أُبىّ بن خلف قُتل فى غزوة أحد ، وليس فى غزوة بدر ، وقُتل بيد رسول الله ﷺ [ذكره البيهقى فى دلائل النبوة (٢١٢/٣)] ، أما الذى قُتل فى غزوة بدر فهو أمية بن خلف قتله بلال (السيرة النبوية لابن هشام ٦٣٢/٢) .

ولده الجُعْل لعبد الرحمن ، فذهبوا به إلى رسول الله ﷺ فقال : « تصدقوا به »[(١)] .

وهنا وقفة إعجازية إيمانية عقدية : سبق أنْ تكلمنا عن الغيب وعن المشهد . وقلنا : إن الغيب أنواع : غيب له مقدمات تُوصِّل إليه ، كما تعطى التلميذ تمريناً هندسياً ، وكالأسرار الكونية التى يتوصَّل إليها العلماء ويكتشفونها من معطيات الكون ، كالذى اكتشف الآلة البخارية ، وأرشميدس لما اكتشف قانون الأجسام الطافية .. إلخ ولا يقال لهؤلاء : إنهم علموا غيباً ، إنما أخذوا مقدمات موجودة واستنبطوا منها معدوماً .

أمّا الغيب المطلق فهو الذى ليس له مقدمات تُوصِّل إليه ، فهو غيب عن كل الناس ، وفيه يقول تعالى : ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ .. (٢٧)﴾ [الجن]

ومن الغيب ما يغيب عنك ، لكن لا يغيب عن غيرك ، كالشىء الذى يُسرق منك ، فهو غيب عنك لأنك لا تعرف مكانه ، وليس غيباً عَمَّنْ سرقه منك .

وآفة الإنسان أنه لا يستغل المقدمات للبحث فى أسرار الكون ليرتقى فى الكونيات ، إنما يستغلها لمعرفة غيب الآخرين ، ونقول له : إن كنت تريد أن تعلم غيب الآخرين ، فاسمح لهم أنْ يعلموا غيبك ، وأعتقد أن أحداً لا يرضى ذلك .

إذن : سَتْر الغيب عن الخَلْق نعمة كبرى لله تعالى ؛ لأنه سبحانه

---

(١) التصدُّق بالرهان بعدما جاء رسول الله ﷺ أورده السيوطى فى الدر المنثور (٦/٤٨٠) وعزاه لأبى يعلى وابن أبى حاتم وابن مردويه وابن عساكر عن البراء بن عازب أن أبا بكر هو الذى حمله إلى رسول الله فقال : « هذا السحت تصدق به » ولم يرد فيه ذكر لعبد الرحمن بن أبى بكر . فالله تعالى أعلم .

رب الناس جميعاً ، ويريد سبحانه أن ينتفع خَلْقه بخَلْقه ، ألا ترى أنك إنْ علمتَ فى إنسان سيئة واحدة تزهدك فى كل حسناته ، وتجعلك تكرهه ، وتكره كل حسنة من حسناته ، فستر الله عنك غَيْب الآخرين لتنتفع بحسناتهم .

والغيب حجزه الله عنا ، إما بحجاب الزمن الماضى ، أو الزمن المستقبل ، أو بحجاب المكان ، فأنت لا تعرف أحداث الماضى قبل أنْ تُولد إلى أنْ يأتى مَنْ تثق به ، فيخبرك بما حدث فى الماضى ، وكذلك لا تعرف ما سيحدث فى المستقبل ، أما حاجز المكان فأنت لا تعرف ما يوجد فى مكان آخر غير مكانك ، وقد يكون الشىء فى مكانك ، لكن له مكين فلا تطلع عليه .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ .. ﴿٨﴾ ﴾ [المجادلة]

فمَن الذى أخبر رسول الله بما فى نفوسهم ؟ لقد خرق الله له حجاب المكان ، وأخبره بما يدور فى نفوس القوم ، وأخبرهم رسول الله به ، أمَا كان هذا كافياً لأن يؤمنوا بالله الذى أخرج مكنون صدورهم ؟ إذن : المسألة عندهم عناد ولجاجة وإنكار .

وكذلك ما كان من رسول الله فى غزوة مؤتة[1] التى دارتْ على أرض الأردن ورسول الله ﷺ بالمدينة ـ ونعلم أن أهل السيرة لا يطلقون اسم الغزوة إلا على التى حضرها رسول الله ، وكل حدث

---

(١) كانت فى جمادى الأولى سنة ثمان ، وكان سببها أن رسول الله ﷺ بعث الحرث بن عمير الأزدى أحد بنى لهب بكتابه إلى الشام إلى ملك الروم أو بصرى فعرض له شرحبيل بن عمرو الغسانى فأوثقه رباطاً ثم قدمه فضرب عنقه ولم يُقتل لرسول الله ﷺ رسول غيره فاشتد ذلك عليه حين بلغه الخبر فبعث البعث واستعمل عليه زيد بن حارثة » زاد المعاد لابن القيم (٢/١٥٥) .

حربى لم يحضره رسول الله نسميه سرية إلا مؤتة هى التى انفردتْ بهذه التسمية ، فلماذا مع أن رسول الله لم يشهدها ؟

قالوا : بل شهدها رسول الله وهو بالمدينة ، بما كشف الله له من حجاب المكان وأطلعه على ما يدور هناك حتى كان يخبر صحابته بما يدور فى الحرب كأنه يراها ، فيقول : أخذ الراية فلان فقُتل ، فأخذها فلان فقُتل ، فلما جاءهم الخبر وجدوا الأمر كما أخبر به سيدنا رسول الله[1] .

كما خَرق له حجاب الماضى ، فأخبره بحوادث فى الأمم السابقة كما فى قوله سبحانه : ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ .. (٤٤)﴾ [القصص] ، ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا .. (٤٥)﴾ [القصص]

كما خرق له ﷺ حجاب المستقبل ، كما فى هذه الآية التى نحن بصدد الحديث عنها : ﴿وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي بِضْعِ سِنِينَ.. (٤)﴾ [الروم] فأرونى أىّ قوة (كمبيوتر) فى الدنيا تُنبئنا بنتيجة معركة ستحدث بعد ثلاث إلى تسع سنين .

فمحمد ﷺ ، وهو النبى الأمى المقيم فى جزيرة العرب ولا يعرف شيئاً عن قوة الروم أو قوة الفرس ـ يخبرنا بهذه النتيجة ؛ لأن الذى يعلم الأشياء على وَفْق ما تكون هو الذى أخبره ، وكون محمد ﷺ يعلنها ويتحدَّى بها فى قرآن يُتْلَى إلى يوم القيامة دليل على تصديقه بمنطق الله له ، وأنه واثق من حدوث ما أخبر به .

---

(١) عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن النبى ﷺ نعى زيداً وجعفراً وابن رواحة للناس قبل أن يأتيهم خبرهم فقال : أخذ الراية زيد فأصيب ، ثم أخذ جعفر فأصيب ، ثم أخذ ابن رواحة فأصيب ـ وعيناه تذرفان ـ حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم » . أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٢٦٢) .

ولهذه الثقة سُمِّى الصِّديق صدّيقاً ، فحين أخبروه بمقالة رسول الله عن الإسراء ما كان منه إلا أنْ قال : إنْ كان قال فقد صدق[1] . ورسول الله ﷺ يخبر بهذه النتيجة ، ويراهن المشركين عليها ، ويتمسك بها ، وما ذاك إلا لثقته فى صدق هذا البلاغ ، وأنه لا يمكن أبداً أنْ يتخلف .

وقوله تعالى ﴿لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ .. ④﴾ [الروم] يعنى : إياكم أنْ تفهموا أن انتصار الفرس على الروم أو انتصار الروم على الفرس خارج عن مرادات الله ، فلله الأمر من قبل الغلب ، ولله الأمر من بعد الغلب .

فحين غَلبت الروم لله الأمر ، وحين انتصرت الفرس لله الأمر ؛ لأن الحق سبحانه يهيج أصحاب الخير بأن يُغلِّب أصحاب الشر ، ويُحرِّك حميتهم ويُوقظ بأعدائهم مشاعرهم ، ويُنبِّههم إلى أن الأعداء لا ينبغى أن يكونوا أحسن منهم .

إذن : فنصر المكروه لله على المحبوب لله جاء بتوقيت من الله ؛ لذلك إياك أن تحزن حين تجد لك عدواً ، فالأحمق هو الذى يحزن لذلك ، والعاقل هو الذى يرى لعدوه فَضْلاً عليه ، فالعدو يُذكِّرنى دائماً بأن أكون قوياً مستعداً ، يُذكِّرنى بأن أكون مستقيماً حتى لا يجد عدوى منى فرصة أو نقيصة . العدو يجعلك تُجنِّد كل ملكاتك للخير لتكون أفضل منه ؛ لذلك يقول الشاعر :

عداىَ لَهُمْ فَضْلٌ علىَّ ومِنَّةٌ ... فَعِنْدى لهُم شُكْرٌ على نَفْعهم ليَا
فَهُمْ كَدَواءٍ والشِّفاء بمُرِّهِ ... فَلا أَبْعَد الرحمنُ عنِّى الأعَادِيَا

---

(١) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٢/٣٦١) ، وكذا الحاكم فى مستدركه (٣/٦٢، ٦٣) من حديث عائشة رضى الله عنها ، وقال : « صحيح الإسناد ولم يخرجاه » .

وهُم بحثُوا عَنْ زَلَّتى فَاجْتنبتُها وهُمْ نافسُونى فاكتسبْتُ المعَاليَا

إذن : لله الأمر من قبل ومن بعد ، وله الحكمة فى أنْ ينتصر الباطل ، ألاَ ترى غزوة أحد ، وكيف هُزِم المسلمون لما خالفوا أمر رسول الله وتركوا مواقعهم طمعاً فى مغنم ، انهزموا فى أول الأمر ، مع أن رسول الله معهم ؛ لأن سنة الله فى كونه تقضى بالهزيمة حين نخالف أمر رسول الله ، وكيف يكون الحال لو انتصر المسلمون مع مخالفتهم لأمر رسولهم ؟ لو انتصروا لفقد أمر الرسول مصداقيته ، ولما أطاعوا له أمراً بعد ذلك .

وفى يوم حنين : ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ .. (٢٥) ﴾ [التوبة] حتى إن أبا بكر نفسه ليقول : لن نُغلب اليوم عن قلّة[1] ، فلما نظروا إلى قوتهم ونسُوا تأييد الله هُزِموا فى بداية الأمر ، ثم يحنّ الله عليهم ، وتتداركهم رحمته تعالى ، فينصرهم فى النهاية .

إذن : فلله الأمر من قبل ومن بعد ، فإياك أن تظن أن انتصار الباطل جاء غصْباً عن إرادة الله ، أو خارجاً عن مراده ، إنما أراده الله وقصده لحكمة .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ اللَّهِ .. (٥) ﴾ [الروم] أىّ نصر الذى يفرح به المؤمنون ؟ أيفرحون لانتصار الروم على الفرس ؟ قالوا : بل الفرح هنا دوائر متشابكة ومتعالية ، فهم أولاً يفرحون لانتصار أهل دين وأهل كتاب على كفار وملاحدة ، ويفرحون أن بشرى رسول الله تحققتْ ، ويفرحون لأنهم آمنوا

---

(١) أخرج البيهقى فى الدلائل (١٢٣/٥) عن الربيع بن أنس أن رجلاً قال يوم حنين : لن نغلب من قلة ، وكانوا اثنى عشر ألفاً فشق ذلك على رسول الله ﷺ فأنزل الله ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ .. (٢٥) ﴾ [التوبة] وأورده السيوطى فى أسباب النزول (ص ١٣٨) .

برسول الله ، وصدَّقوه قبل أن ينطق بهذه البشرى .

إنهم يفرحون لأنهم أصابوا الحق ، فكلما جاءت آية فرح كل منهم بنفسه ؛ لأنه كان محقاً حينما آمن بالإله الواحد الذى يعلم الأمور على وفق ما ستكون واتبع رسوله ﷺ . إذن : لا تقصر هذه الفرحة على شىء واحد ، إنما عَدِّها إلى أمور كثيرة متداخلة .

كما أن اليوم الذى انتصر فيه الروم صادف اليوم الذى انتصر فيه المسلمون فى بدر[1] .

وقوله تعالى ﴿يَنصُرُ مَن يَشَاءُ .. ۝٥﴾ [الروم] الفرس أو الروم ، ما دام أن له الأمر من قبل ومن بعد ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝٥﴾ [الروم] الحق سبحانه وصف نفسه بهاتين الصفتين : العزيز الرحيم ، مع أن العزيز هو الذى يغلب ولا يُغْلب ، فقاهريته سبحانه عالية فى هذه الصفة ـ ومع ذلك أتبعها بصفة الرحمة ليُحدث فى نفس المؤمن هذا التوازن بين صفتى القهر والغلبة وبين صفة الرحمة .

كما أننا نفهم من صفة العزة هنا أنه لا يحدث شىء إلا بمراده تعالى ، فحين ينتصر طرف وينهزم طرف آخر حتى لو انتصر الباطل لا يتم ذلك إلا لمراده تعالى ؛ لأن الله تعالى لا يُبقى الباطل ولا يُعلى الكفر إلا ليظهر الحق ، فحين يُعَضُّ الناس بالباطل ، ويشقَوْن بالكفر يفزعون إلى الإيمان ويتمسكون به .

واقرأ قوله تعالى : ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ

---

(١) عن أبى سعيد الخدرى قال : لما كان يوم بدر ظهرت الروم على فارس فأعجب ذلك المؤمنين فنزلت ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ الرُّومُ ۝٢﴾ [الروم] إلى قوله ﴿يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ اللَّهِ..۝٦﴾ [الروم] قال : ففرح المؤمنون بظهور الروم على فارس . أخرجه الترمذى فى سننه (٣١٩٢) وقال : « هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه » .

الْعُلْيَا .. (٤٠) ﴾ [التوبة] ولم يقل : وجعل كلمة الله هى العليا ؛ لأنها ليستْ جَعْلاً لأن الجَعْل تحويل شىء إلى شىء ، أما كلمة الله فهى العليا بداية ودائماً ، وإنْ علت كلمة الباطل إلى حين .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ ﴾

الوعد : هو الإخبار بما يسرُّ قبل أنْ يكون ﴿ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ .. (٦) ﴾ [الروم] وفرْقٌ بين وعد الله ووعد الناس ؛ لأنك قد تعد إنساناً بخير ، وتحول الأسباب بينك وبين إنفاذ ما وعدتَ به ، كأن يتغير رأيك أو تضعف إمكاناتك ، أو يتغير السبب الذى كنتَ ستفعل من أجله .

إذن : أنت لا تملك عناصر الوفاء وأسبابه ، أمّا وعد الحق سبحانه وتعالى فوعد محقق ، حيث لا توجد قوة تُخرجه عما وعد ، وهو سبحانه لا يُعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، فما دام الوعد وعدَ الله فثقْ أنه محقق .

لذلك يُعلِّمنا الحق سبحانه : ﴿ وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا (٢٣) إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ .. (٢٤) ﴾ [الكهف] والمعنى : اجعل لنفسك مَخرَجاً من الكذب إنْ حالت الأسباب بينك وبين ما وعدتَ به ، بأن تجعل أمرك تحت مشيئة ربك ، لا مشيئتك ، لأنك لا تملك من عناصر إتمام الفعل شيئاً .

إذن : أدركْ نفسك ، وقُلْ إنْ شاء الله ، حتى إذا حالتْ الأسباب

بينك وبين ما أردتَ قلت : شِئْت ، ولكن الله تعالى لم يشأ .

والله تعالى لا يُخلف وعده ؛ لأنه سبحانه يعلم الأشياء على وَفْق ما تكون ، ولا توجد قوة تُحوِّله عن مراده ، وليس له شريك يراجعه ، أو يُخرجه عن مراده .

وإنْ شئت فاقرأ : ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (٢) سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (٣) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ (٥)﴾ [المسد]

ألم يكُنْ من الممكن وقتها أنْ يُسلم أبو لهب كما أسلم حمزة وعمر وخالد وعكرمة وغيرهم ؟ أليست له حرية الاختيار كهؤلاء ؟ بل ألم يسمع هذه السورة ؟ ومع هذا كله كفر وأصرَّ على كفره ، ولم ينطق بكلمة الإيمان ، ولو حتى للكيد لرسول الله فيقول فى نادى قريش ولو نفاقاً : قال محمد كذا وأنا أشهد ألا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله . أليس هذا دليلاً على غبائه ؟

إذن : ما دام أن القرآن أخبر فلا بُدَّ أن يتم الأمر على وَفْق ما أخبر به .

ونلحظ هنا أن كلمة الوعد تعنى البشارة بالخير القادم فى المستقبل والكلام هنا عن فريقين : فريق منتصر يفرح بالنصر ، وفريق منهزم يحزن للهزيمة ، فكيف يستقيم الوعد فى حقِّه ؟ فالفرح للمؤمن غَمٌّ لغير المؤمن .

ولتوضيح هذه المسألة نذكر أن المستشرقين وقفوا عند قوله تعالى من سورة الرحمن : ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ (١٤) وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ (١٥) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٦)﴾ [الرحمن]

وقالوا : هذا الكلام معقول بالخلق من نعم الله ، لكن ماذا عن قوله : ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلا تَنتَصِرَانِ (٣٥) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٦) ﴾ [الرحمن] فأىُّ نعمة فى النار وفى الشواظ[1] ؟

وفات هؤلاء أنه من النعمة أن ننبهك إلى الخطر قبل أنْ تقع فيه ، ونحذرك من عاقبة الكفر لتنتهى عنه كالوالد الذى يقول لولده : إنْ أهملتَ دروسك ستفشل ، وساعتها سأفعل بك كذا وكذا .

إذن : فذكْر النار والعذاب نعمة لكل من خالف منهج الحق ، فلعله حين يسمع الإنذار يعود ويرعوى .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٦) ﴾ [الروم] نفى عنهم العلم أى : ببواطن الأمور وحقيقتها .

ثم أخبر عنهم :

﴿ يَعْلَمُونَ ظَـٰهِرًا مِّنَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَـٰفِلُونَ (٧) ﴾

إذا رأيت فعلاً نُفى مرة ، وأُثبت مرة أخرى ، فاعلم أن الجهة منفكة ، فهم لا يعلمون بواطن الأمور ، إنما يعلمون ظواهرها ، وليتهم يعلمون ظواهر كل شىء ، إنما ظواهر الدنيا فحسب ، ولا يعلمون بواطنها ، فما بالك بالآخرة ؟

حين تتأمل أمور الدنيا والقوانين الوضعية التى وضعها البشر ، ثم رجعوا عنها بعد حين ، تجد أننا لا نعلم من الدنيا إلا الظاهر ، فمثلاً قانون الإصلاح الزراعى الذى نعمل به منذ عام ١٩٥٢ ، وكنا

---

(١) الشواظ : القطعة من اللهب ليس فيها دخان . [القاموس القويم ١/٣٦١] .

مُتحمِّسين له نُمجِّده ولا نسمح بالمساس به يناقشونه اليوم ، ويطلبون إعادة النظر فيه ، بل إلغاءه ؛ لأنه لم يَعُدْ صالحاً للتطبيق فى هذا العصر ، روسيا التى تبنتْ النظام الشيوعى ودافعتْ عنه بكل قوة هى التى نقضتْ هذا النظام وأسقطته .

ما أسقطته أمريكا مثلاً ، ولو أسقطته أمريكا لانتقلت إليها قوة الشيوعية وغطرستها ؛ لذلك يقولون : ما اندحرت الشيوعية إنما انتحرت على أيدى أصحابها . ومن الممكن أن ينتحر هؤلاء كما انتحرتْ نُظمهم فأوْلَى بهم أنْ يستقيموا لله ، وأن يُخلِصوا للناس .

إذن : لا نعرف من الدنيا إلا ظواهر الأشياء ، ولا نعرف حقيقتها ، كما نشقى الآن بسبب المبيدات الحشرية التى ظننا أنها ستُريحنا وتُوفر علينا الجهد والوقت فى المقاومة اليدوية ؟

كم يشقى العالم اليوم من استخدام السيارات مثلاً من تلوث فى البيئة وقتْل للأرواح كل يوم ، ولك أن تقارن بين وسائل المواصلات فى الماضى ووسائل المواصلات اليوم ، فإن كان للوسائل الحديثة نفع عاجل ، فلها ضرر آجل ، ويكفى أن عادم المخلوق لله يصلح الأرض ، وعادم المخلوق للبشر يفسدها ، لماذا ؟ لأننا نعلم ظواهر الأشياء . ولو علم الذى اكتشف السولار مثلاً حقيقته لما استخدمه فيما نستخدمه نحن فيه الآن .

هذا عن علْمنا بأمور الدنيا ، أمّا الآخرة فنحن فى غفلة عنها ؛ لذلك يقول سيِّدنا الحسن : أعجب للرجل يمسك الدينار بأنامله فيعرف وزنه ، و (يرنه) فيعرف زيوفه من جيده ، ولا يحسن الصلاة[1] .

---

(١) أخرجه ابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه (فى تفاسيرهم) عن الحسن قال : ليبلغ من حذق أحدهم بأمر دنياه أنه يقلب الدرهم على ظفره ، فيخبرك بوزنه ، وما يحسن يصلى . [أورده السيوطى فى الدر المنثور ٦/ ٤٨٤] .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ .. ﴿١٧﴾﴾ [الأنفال] فنفى الرمى ، وأثبته فى آية واحدة ؛ لأن الجهة منفكة ، فالإثبات لشىء ، والنفى لشىء آخر . وسبق أنْ مثَّلْنا لذلك بالتلميذ الذى تجبره على المذاكرة فيفتح الكتاب ويُقلِّب صفحاته ويهزّ رأسه ، كأنه يقرأ ، فإذا ما اختبرته فيما قرأ تجده لم يفهم شيئاً ، فتقول له : ذاكرتَ وما ذاكرتَ ؛ لأنه فعل فعْل المذاكرة ، ومع ذلك هو فى الحقيقة لم يذاكر ؛ لأنه لم يُحصِّل شَيئاً مما ذاكره .

كذلك رسول الله ﷺ رمى حين أخذ حفنة من الحصى ورمى بها ناحية جيش الكفار ، لكن ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ .. ﴿١٧﴾﴾ [الأنفال] هذه الحفنة ؛ لأن قدرتك البشرية لا توصل هذه الرمية إلى كل الجيش ، فهذه إذن قدرة الله .

ونلحظ فى قوله تعالى : ﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾﴾ [الروم] أنه استثنى من عدم العلم فئة قليلة ، فلماذا استثنى هذه الفئة مع أننا نُغيِّر النظم الدنيوية والقوانين على الجميع ؟ قالوا : لأنه حين وُضعت هذه القوانين وشُرعت هذه النظم كانت هناك فئة ترفضها ولا تقرها ، لذلك لم يتهم الكل بعدم العلم .

والظاهر الذى يعلمونه من الحياة الدنيا فيه مُتَع وملاذ وشهوات ، البعض يعطى لنفسه فيها الحرية المطلقة ، وينسى عاقبة ذلك فى الآخرة ؛ لذلك فإن أهل الريف يقولون فيمن لا يحسب حساباً للعواقب : (الديب بلع منجل ، فيقول الآخر : ساعة خراه تسمع عواه)

واقرأ قوله تعالى :

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴿١٤﴾﴾ [آل عمران]

فذكر الناس متاع الحياة الدنيا ونسُوا الباقيات الصالحات فى الآخرة ، والعاقل هو الذى يستطيع أنْ يُوازن بينهما ، وسبق أنْ قُلْنا عن الدنيا بالنسبة لك : هى مدة بقائك فيها ، هى عمرك أنت لا عمر الدنيا كلها ، كما أن عمرك فيها محدود مظنون لا بُدَّ أن ينتهى بالموت .

أما الآخرة فدار باقية دائمة ، دار نعيم لا ينتهى ، ولا يفوتك بحال ، فلماذا تشغلك الفانية عن الباقية ؟ لماذا ترضى لنفسك بصفقة خاسرة ؟

لذلك لما سُئِل الإمام على : أريد أن أعرف أنا من أهل الدنيا أم من أهل الآخرة ؟ فقال : لم يدع الله الجوابَ لى ، إنما الجواب عندك أنت ، فإنْ دخل عليك اثنان : واحد جاء بهدية ، والآخر جاء يسألك عطية ، فإنْ كنت تهشُّ لصاحب الهدية فأنت من أهل الدنيا ، وإنْ كنت تهشُّ لمن يطلب العطية فأنت من أهل الآخرة .

لماذا ؟ لأن الإنسان يحب مَنْ يُعمِّر ما يحب ، فإنْ كنتَ تحب الآخرة فإنك تحب بالتالى مَنْ يعمرها لك ، وإنْ كنتَ تحب الدنيا فإنك تحب مَنْ يعمرها لك ؛ لذلك كان أحد الصالحين إنْ جاءه سائل يطرق بابه يهشُّ فى وجهه ، ويبَشُّ ويقول : مرحباً بمَنْ جاء يحمل زادى إلى الآخرة بغير أجرة .

لكن ، لماذا أعاد الضمير فى ﴿وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ (٧)﴾ [الروم] لماذا لم يقل : وهم عن الآخرة غافلون ؟

لو قال الحق سبحانه وهم عن الآخرة غافلون لَفُهِم أن الغفلة مسيطرة عليهم ، وليست هناك أدلة تُوقظهم ، إنما ﴿وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ

هُمْ غَافِلُونَ ﴿٧﴾ [الروم] يعنى : الغفلة واقعة منهم أنفسهم ، وإلاَّ فالأدلة واضحة ، لكن ما جدوى الأدلة مع قوم هم غافلون .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴿٨﴾ ﴾

المعنى : أن يكون ذلك منهم : لا يعلمون إلا ظاهراً من الحياة الدنيا ، ويغفلون عن الآخرة ، ولم يتفكروا فى أنفسهم ، فيأتى لهم بالدليل مرة فى أنفسهم ، ومرة فى السموات والأرض .

الدليل فى الأنفس يقول لك : فكِّر فى نفسك . أى : اجعلها موضوع تفكيرك ، وتأمل ما فيها من أسرار دالة على قدرة الخالق عز وجل ، فإلى الآن ومع ما توصَّل إليه العلم ما زال فى الإنسان أسرار لم تُكتشف بعد .

تأمل فى مقومات حياتك : الأكل والشرب والتنفس ، وكيف أنك تصبر على الطعام حتى شهر ، تتغذى من المخزون فى جسمك ، وتصبر على الماء من ثلاثة إلى عشرة أيام على مقدار ما فى جسمك من مائية ، لكنك لا تصبر على الهواء إلا بمقدار شهيق وزفير .

لذلك من حكمته تعالى حين أمَّن للبشر هذه المقوِّمات أنْ جعل مدة صبرك على الطعام أطول ، لأن طعامك قد يحتكره غيرك ، فتحتاج إلى طلبه والسَّعْى إليه ، أما الماء فمدة الصبر عليه أقل ، لذلك جعل الحق سبحانه احتكار الماء قليلاً .

أما الهواء الذى لا تصبر عليه إلا بمقدار شهيق وزفير ، فمن حكمة الله تعالى ألاَّ يُملَّك لأحد أبداً ، وإلا لو احتكر الناسُ الهواء لما استقامتْ الحياة ، فلو منعك صاحب الهواء هواءه لمتَّ قبل أنْ يرضى عنك .

تأمل فى نفسك حين تأكل الطعام ، وفيك مدخلان متجاوران : القصبة الهوائية ، وهى مجرى الهواء للرئتين ، والبلعوم وهو مجرى الطعام للمعدة ، تأمل ما يحدث لك إنْ دخلتْ حبة أرز واحدة فى القصبة الهوائية ، فبلا شعور تشرَق بها ، وتظل تقاومها حتى تخرج ، وتأمل حركة لسان المزمار حين يسد القصبة الهوائية أثناء البلع ، هذه الحركة التلقائية التى لا دخلَ لك فيها ، ولا قدرة لك عليها بذاتك.

تأمل وضع المعدة ، وكيف أن الله جعل لها فتحة يُسمونها فتحة الفؤاد ، هى التى تُغلق المعدة بإحكام بعد الطعام ، حتى لا تؤذيك رائحته بأنْ تتسرب عصارة المعدة إلى الفم فتؤلمك ، فمن أصابه خلل فى إغلاق هذه الفتحة تجد رائحة فمه كريهة يسمونه (أبخر) .

كذلك تأمل فى عملية إخراج الطعام وكيف تكون طبيعياً مستريحاً ؟ وفجأة تحتاج إلى الحمام وإلى قضاء الحاجة ، ماذا حدث ؟ والأمر كذلك فى شربة الماء ، ذلك لأن لجسمك طاقة تحمُّل فى الأمعاء وفى المثانة ، ففى لحظة يزيد الحمل عن الطاقة ، فتشعر بالحاجة إلى الإخراج .

وهذا مجال لا حصرَ له مهما تقدمتْ العلوم ، ومهما بحثنا فى أنفسنا ، ويكفى أن نقرأ : ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ (٢١)﴾ [الذاريات] فدعانا ربنا إلى البحث فى أنفسنا قبل البحث فيما حولنا من آيات السماء والأرض ؛ لأن أنظارنا قد تقصر عن رؤية ما فى السموات والأرض من آيات ، أما نفسى فهى أقرب دليل منك وأقوى دليل عليك .

﴿أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم .. (٨)﴾ [الروم] أى : فكِّروا فى أنفسكم بعيداً عن ضجيج الناس وجدالهم ومِرائهم ، فحين تجادل

الناس تجد لجاجة وحرصاً على الظهور ، ولو بالباطل ، إنما حينما تكون مع نفسك تسألها وتتأمل فيها ، فلا مُهيج ولا مُعاند ، لا تخجل أنْ ينتصر عليك خَصْمك ، ولا تطمع فى مكانة أو منزلة ؛ لذلك تصل بالنظر فى نفسك إلى الحقيقة .

لذلك يخاطب القرآن النبى ﷺ بقوله : ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ .. (٤٦)﴾ [سبأ] يعنى : يا مَنْ تفكِّرون فى صدق هذا الرسول ، وتتهمونه بالكذب والافتراء والسحر .. الخ أريد منكم شيئاً واحداً ﴿أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ..(٤٦)﴾ [سبأ] أى : مثنى مثنى ، أو منفردين ، كلٌّ على حدة ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (٤٦)﴾ [سبأ]

إذن : الطريق إلى الحقيقة لا يكون بالمجادلة الجماهيرية ، إنما بتأمل الإنسان مع نفسه ، أو مع مثله ، فمع الجماعة تتحرك فى النفس الرغبة فى العُلُو والانتصار ؛ لذلك حين تناقش العاقل يقول لك (حسيبك تراجع نفسك) يعنى : تفكَّر وحدك بحيث لا تُحرج من أحد ، فتكون أقرب للموضوعية وللوصول إلى الحق .

وبعد أنْ أمرنا ربنا بالتفكّر فى أنفسنا يلفتنا إلى التأمل فيما حولنا من السموات والأرض ﴿مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى .. (٨)﴾ [الروم]

وهناك آية أخرى تقدم التفكُّر فى السماء والأرض على التفكّر فى النفس ، هى قوله تعالى : ﴿لَخَلْقُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ.. (٥٧)﴾ [غافر]

لماذا ؟ لأن الإنسان قد يموت قبل أنْ يُولد ، ويموت بعد عدة سنوات ، أو حتى بعد مئات السنين ، أما السموات والأرض بما فيهما

من أرض وسماء وشمس وقمر .. إلخ فهى كما هى منذ خلقها الله لم تتغير ، وهى تؤدى مهمتها دون تخلُّف ، ودون صيانة ، ودون أعطال ، فهى بحقٍّ أعظم من خَلْق الناس وأكبر .

إذن : الآيات والأدلة فى أنفسكم وفى السموات والأرض ، لكن أيهما الآية الأقوى ؟ قالوا : ما دامت السموات والأرض أكبر من خَلْق الناس فهى الأقوى ، فإن لم تقنع بها فانظر فى نفسك ؛ لذلك يقول العلماء بالمفيد والمستفيد ، المفيد هو الله ـ عز وجل ـ فحينما يضرب لى مثلاً يضرب لى بالأقوى ، فإنْ لم أُطِقْه يأتى لى بالأقل ، والمستفيد هو الذى ينتقل من الأقل للأكبر .

ومعنى ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا .. (٨)﴾ [الروم] أى : من الكواكب والأفلاك والنجوم التى نشاهدها فى جَوِّ السماء ، وكانوا فى الماضى لما أرادوا أنْ يُقرِّبوا أمور الدين لعقول الناس يقولون : الكواكب السبعة هى السموات السبع ، ووقع فيها علماء كبار ، لكن الحقيقة أن هذه الكواكب السبعة كلها دون السماء الدنيا ، واقرأ قول الله تعالى : ﴿وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ .. (١٢)﴾ [فصلت]

فأين السماء من الكواكب التى نشاهدها ؟! أتعلم كم ثانية ضوئية بينك وبين الشمس ، أو بينك وبين القمر ؟ بيننا وبين الشمس ثمانى دقائق ضوئية ، وبيننا وبين المرأة المسلسلة مائة سنة ضوئية ، وبيننا وبين المجرة مليون سنة ضوئية .

ولك أن تضرب مليون سنة فى ٣٦٥ يوماً ، وتضرب الناتج فى ٢٤ ساعة ، وتضرب الناتج فى ستين دقيقة ، ثم فى ستين ثانية ، ثم تضرب الناتج من ذلك فى ٣٠٠ ألف كيلو ، ثم تأمل الرقم الذى وصلتَ إليه .

وما أسكتَ القائلين بأن الكواكب السبعة هى السموات السبع إلا أن العلماء اكتشفوا بعدها كوكباً جديداً حول الشمس ، وبعد سنوات اكتشفوا آخر . كذلك حين صعد رواد الفضاء إلى سطح القمر أسرع هؤلاء (الفلاحسة) يقولون : لقد سبق القرآن ، وأخبر بهذا فى قوله تعالى :

﴿ يَـٰمَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا لا تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ (٣٣) ﴾ [الرحمن]

وقالوا : إن السلطان هو سلطان العلم الذى مكّننا من اعتلاء سطح القمر ، وعجيب أن يقول هذا الكلام علماء كبار ، فأين القمر من السماء ؟ القمر ما هو إلا ضاحية من ضواحى الأرض كمصر الجديدة بالنسبة للقاهرة ، ثم إنْ كان السلطان هنا هو سلطان العلم ، فماذا تقولون فى قوله تعالى بعدها : ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلا تَنتَصِرَانِ (٣٥) ﴾ [الرحمن]

لقد حدث هذا التخبط نتيجة الخلط بين علوم الدين والشريعة ، وبين علوم الكونيات ، وهذه آفة علماء الدين أنْ يتدخلوا فيما لا علمَ لهم به ، فالكونيات يُؤخَذ منها الدليل على عظمة الصانع وقدرته سبحانه ، إنما لا يُؤخذ منها حكم شرعى .

ورأينا من هؤلاء مَنْ ينكر كروية الأرض ، وأنها تدور حول الشمس ، ومنهم مَنْ ظن أن علماء الكونيات ـ مع أنهم كفرة ـ يعلمون الغيب لأنهم توصّلوا بحسابات دقيّقة لحركة الأرض إلى موعد الخسوف والكسوف ، وجاء الواقع وَفْق ما أخبروا به بالضبط .

وهذه المسألة ـ كما سبق أنْ قُلْنا ـ ليست من الغيب المطلق ، بل من الغيب الذى أعطانا الله المقدمات التى توصل إليه ، وقد توصّل

العلماء إليه بالبحث ودراسة معطيات الكون ، ونفهم هذا فى ضوء قوله تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ .. (٥٣) ﴾ [فصلت]

وهذه أيضاً من الآيات التى تُقدّم فيها أدلة السماوات والأرض على أدلة النفس . إذن : فالكونيات تُبنَى على علوم ودراسات ، لا دخلَ للدين بها ، الدين جاء ليقول لك : افعل كذا ، ولا تفعل كذا ، ثم ترك الكونيات إلى أنْ تتسع العقول لفهمها .

وقوله سبحانه : ﴿ إِلاَّ بِالْحَقِّ .. (٨) ﴾ [الروم] لأن السماوات والأرض وما بينهما من الكواكب والأفلاك تسير على نظام ثابت لا يتخلف ، والحق هو الشىء الثابت الذى لا يتغير أبداً ، وتأمل حركة الكواكب والأفلاك تجد أنها تسير وَفْق نظام دقيق منضبط تماماً .

فالشمس لم تتخلف يوماً فتقول مثلاً : لن أطلع اليوم على هؤلاء الناس ؛ لأنهم ظالمون ، لأن لها قانوناً تسير به ، وهى مخلوقة بحق ثابت لا يتغير ، وما دامتْ هذه الكونيات خلقت بحق وبشىء ثابت فلك أن ترتب عليها حساباتك وتضبط بها وقتك ، وأنت لا تضبط وقتك على ساعة إلا إذا كانت هى فى ذاتها منضبطة .

لذلك يقول سبحانه : ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥) ﴾ [الرحمن] أى : مخلوقة بحساب ؛ ولأنه سبحانه خلقها بحساب جعلها آلة للحساب ، فقال : ﴿ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٣٩) لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٤٠) ﴾ [يس]

ويقول سبحانه : ﴿ وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ..

(٥) ﴾ [يونس] وهل تعلمون بالقمر عدد السنين والحساب ، إلا إذا كان هو مخلوقاً بحساب ؟

ومع ذلك ، ومع أن الكون خلقه الله بالحق الثابت إياك أن تظن أن ثباته دائم باقٍ ؛ لأن الله تعالى خلقه على هيئة الثبات لأجل ﴿ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى .. (٨) ﴾ [الروم] فبعد أن ينقضى هذا الأجل الذى أجَّلَه الله تُكوِّر الشمس وتنكدر النجوم ، وتُبدَّل الأرض غير الأرض والسماوات ، فالأمر ليس مجرد أنْ يتغير الشىء الثابت ، إنما يزول وينتهى .

ثم يقول سبحانه ﴿ وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ (٨) ﴾ [الروم] كنا نجادل الشيوعيين نقول لهم : لقد بالغتم فى تعذيب مخالفيكم من الإقطاعيين والرأسماليين ، وتعديتم فى عقابهم ، قالوا : لأنهم ظلموا وأفسدوا فى المجتمع ، فقلنا لهم : فما بال الذين ظَلموا قبل هؤلاء وماتوا ولم ينالوا ما يستحقون من العقاب ؟ أليس من العدل أن تقولوا بدار أخرى يُعاقبون فيها على ما اقترفوه ؟

ألا يلفتكم هذا إلى ضرورة القيامة ، ووجوب الإيمان بها ؟ فمن أفلت من أيديكم فى الدنيا عاقبه الله تعالى فى الآخرة ، ثم أنتم ترونَ مبدأ الثواب والعقاب فى كل شىء ، فالذى أطلق لنفسه العَنان فى الدنيا ، وسار فيها على هواه ، وعَاثَ فى الأرض فساداً ، ولم تنلْه يد العدالة فهو الفائز إنْ لم تكُنْ له دار أخرى يُحاسَب فيها .

إذن : فالإيمان بالآخرة وبلقاء الله ضرورة يقتضيها المنطق السليم ، ومع ذلك يكفر بها كثير من الناس ﴿ وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ (٨) ﴾ [الروم]

فالمؤمن يجب أن يكون على ثقة بهذا اللقاء ؛ لأن قوانين الأرض إنما تَحْمى من ظاهر المنكر ، وأما باطن المنكر فلا يعلمه إلا الله ، فلا بُدَّ من فترة يُعاقَب فيها أصحاب باطن المنكر .

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾

المعنى : أيكفرون بلقاء ربهم ولم يسيروا فى الأرض ، فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ـ خُذْ فقط أمور الدنيا ، فهى كافية لمن اعتبر بها ـ فهؤلاء لم يسيروا فى الدنيا ، ولم ينظروا فيها بعين الاعتبار بمَنْ سبقهم من الأمم المكذِّبة ، ولم يتعظوا بما وقع فى الدنيا فضلاً عما سيقع فى الآخرة .

فإنْ كُنَّا صدَّقنا ما وقع للمكذِّبين فى الدنيا وشاهدناه بأعيننا ، فينبغى أن نُصدِّق ما أخبر به الله عن الآخرة ؛ لأنك إنْ أردتَ أنْ تعلم ما تجهل فخُذْ له وسيلة مما تعلم . إذن : سيروا فى الأرض ، وانظروا بعين الاعتبار لمصير الذين كذَّبوا ، وماذا فعل الله بهم ؟

والسَّيْر : قَطْع المسافات من مكان إلى مكان ﴿أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ .. ﴿٩﴾﴾ [الروم] لكن أنسير فى الأرض أم على الأرض ؟ هذا

من دقة الأداء القرآنى ، ومظهر من مظاهر إعجازه ، فالظاهر أننا نسير على الأرض ، لكن التحقيق أننا نسير فى الأرض ؛ لأن الذى خلقنا وخلق الأرض قال : ﴿ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴿١٨﴾ ﴾ [سبأ]

ذلك لأن الأرض ليست هى مجرد اليابسة التى تحمل الماء ، والتى نعيش عليها ، إنما الأرض تشمل كل ما يحيط بها من الغلاف الجوى ؛ لأنها بدونه لا تصلح للعيش عليها ، إذن : فغلاف الأرض من الأرض ، فحين نسير لا نسير على الأرض إنما فى الأرض .

والسير فى الأرض نظر له الدين من ناحيتين : سير يُعَدُّ سياحة للاعتبار ، وسيْر يُعَدُّ سياحة للاستثمار ، فالسير للاعتبار أن تتأمل الآيات فى الأرض التى تمر بها ، فالجزيرة العربية مثلاً صحراء وجبال يندر فيها الزرع ، فإنْ ذهبتَ إلى أسبانيا مثلاً تجدها بلاداً خضراء لا تكاد ترى سطح الأرض من كثرة النباتات بها .

وفى كل منهما خيرات ؛ لأن الخالق سبحانه وزَّع أسباب الفضل على الكون كله ، وترى أن هذه الأرض الجرداء القاحلة والتى كانت يشقُّ على الناس العيش بها لما صبر عليها أهلها أعطاهم الله خيرها من باطن الأرض ، فأصبحت تمد أعظم الدول وأرقاها بالوقود الذى لا يُسْتغنى عنه يوماً واحداً فى هذه البلاد ، وحينما قطعناه عنهم فى عام ١٩٧٣ ضجُّوا وكاد البرد يقتلهم .

حين تسير فى الأرض وتنظر بعين الاعتبار تجد أنها مثل (البطيخة) ، لو أخذتَ منها قطاعاً طولياً فإنه يتساوى مع باقى القطاعات ، كذلك الأرض وزَّع الله بها الخيرات على اختلاف ألوانها ، فمجموع الخير فى كل قطاع من الأرض يساوى مجموع الخيرات فى القطاعات الأخرى .

الجبال التى هجرناها فى الماضى وقُلْنا إنها جَدْب وقفر لا حياةَ فيها ، هى الآن مخازن للثروات وللخيرات قد اتجهت إليها الأنظار لإعمارها والاستفادة منها ، وانظر مثلاً إلى ما يحدث من نهضة عمرانية فى سيناء .

إذن : فالخالق سبحانه وزَّع الخيرات على الأرض ، كما وزَّع المواهب على الخَلْق ليظل الجميع مرتبطاً بعضه ببعض برباط الحاجة لا يستغنى الناس بعضهم عن بعض ، ولا البلاد بعضها عن بعض ، وهنا لفتة إيمانية : أن الخلق كلهم عباد الله وصنعته ، والبلاد كلها أرض الله وملكه ، وليس لله ولد ، وليس بينه وبين أحد من عباده قرابة ، فالجميع عنده سواء ، لذلك سبق أن قلنا : لا ينبغى لك أنْ تحقد على صاحب الخير أو تحسده ؛ لأن خيره سيعود عليك حتماً .

ومعنى ﴿الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ .. (٩)﴾ [الروم] أى : الأمم التى كذَّبَتْ الرسل ، وفى آية أخرى يوضح سبحانه عاقبة هؤلاء المكذبين : ﴿فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٠)﴾ [العنكبوت]

ويخاطبُ سبحانه كفار قريش : ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٣٨)﴾ [الصافات]

أى : فى أسفاركم ورحلات تجارتكم تروْنَ مدائن صالح وغيرها من القرى التى أصابها العذاب ما زالت شاخصة لكل ذى عينين .

ويقول سبحانه : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ (٨)﴾ [الفجر] وكانوا فى رمال

الأحقاف ﴿وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (١٠)﴾ [الفجر] وهى الأهرامات ﴿الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣)﴾ [الفجر]

لقد كان لكل هؤلاء حضارات ما زالت حتى الآن تبهر أرقى حضارات اليوم ، فيأتون إليها ليتأملوا ما فيها من أسرار وعجائب ، ومع ذلك لم تستطع هذه الحضارات أنْ تحمى نفسها من الدمار والزوال ، وما استطاعت أنْ تمنع نفسها من عذاب الله حين حَلَّ بها ، إذن : لكم فى هؤلاء عِبْرة .

وكأن الحق سبحانه فى قوله : ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ .. (٩)﴾ [الروم] يقول لكفار قريش : أنتم يا مشركى قريش أقلّ الأمم ، لا قوةَ لكم ، ولا مال ولا حضارة ولا عمارة ، فمن اليسير علينا أن نأخذكم كما أخذنا مَنْ هم أقوى منكم ، إنما سبق أنْ أخذتم العهد فى قوله سبحانه : ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣)﴾ [الأنفال]

لذلك يقول بعدها : ﴿كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا .. (٩)﴾ [الروم] فالأمم المكذِّبة التى أخذها الله وجعلها لكم عبرة كانت أقوى منكم ، وأخصب أرضاً ، لذلك أثاروا الأرض . أى : حرثوها للزراعة وللإعمار ، وأنتم بواد غير ذى زرع ، والحرث يُطلَق على الزرع كما فى قوله سبحانه : ﴿وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ .. (٢٠٥)﴾ [البقرة]

ذلك لأن الأرض لا تنبت النبات الجيد إلا إذا أثارها الفلاح ، وقلَّبها ليتخلل الهواء تربتها ، فتجود عليه وتؤدى مهمتها كما ينبغى ، أما إنْ تركتها هامدة متماسكة التربة والذرات ، فإنها تمسك النبات

ولا تعطى فرصة للجذور البسيطة لأنْ تمتد فى التربة ، خاصة فى بداية الإنبات .

وفى موضع آخر يقول ـ سبحانه وتعالى ـ عن النبات : ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (٦٤)﴾ [الواقعة]

وفى قصة البقرة مع بنى إسرائيل لما تلكئوا فى ذبحها وطلبوا أوصافها ، قال لهم الحق سبحانه : ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ وَلا تَسْقِي الْحَرْثَ .. (٧١)﴾ [البقرة]

يعنى : بقرة مُرفهة غير سهلة الانقياد ، فلا تُستخدم ، لا فى حَرْث الأرض وإثارتها ، ولا فى سَقْيها بعد أنْ تُحرَث ؛ لذلك تجد أن الفلاح الواعى لا بُدَّ أن يثير الأرض ويُقلِّب تربتها قبل الزراعة ، ويتركها فترة ليتخللها الهواء والشمس ، ففى هذا إحياء للتربة وتجديد لنشاطها ، كما يقولون أيضاً : قبل أن تزرع ما تحتاج إليه انزع ما لا تحتاج إليه .

إذن : فهؤلاء القوم كانت لهم زروع وثمار تمتعوا بها وجمعوا خيراتها .

ومعنى ﴿عَمَرُوهَا .. (٩)﴾ [الروم] أى : بما يسَّر الله لهم من الطاقات والإمكانات ، وأعملوا فيها الموهبة التى جعلها الله فيهم ، فاستخرجوا من الأرض خيراتها ، كما قال سبحانه : ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا .. (٦١)﴾ [هود]

وإعمار الأرض يكون بكل مظهر من مظاهر الرقى والحياة ، إما بالزرع أو الغَرْس ، وإما بالبناء ، وإما بشقِّ الأنهار والمصارف وإقامة الطرق وغير ذلك مما ينفع الناس ، ونُفرِّق هنا بين الزرع والغَرْس :

فالزرع ما تزرعه ثم تحصده مرة واحدة كالقمح مثلاً ، أما الغرس فما تغرسُه ويظل فترة طويلة يُدر عليك ، فمحصوله مُتجدِّد كحدائق الفاكهة ، والزرع يكون ببذْر الحبِّ ، أمّا الغرس فنبتة سبق إعدادها تُغرس .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ .. ﴿٩﴾ ﴾ [الروم] فبعد أنْ أعطاهم مُقوِّمات الحياة وإمكانات المادة وطاقاتها ، وبعد أنْ جَنَوْا ثمارها لم يتركهم للمادة إنما أعطاهم إمكانات القيم والدين ، فأرسل لهم الرسل ﴿ بِالْبَيِّنَاتِ .. ﴿٩﴾ ﴾ [الروم] أى : الآيات الواضحات الدالة على صِدْق الرسول فى البلاغ عن ربه وهذه التى نسميها المعجزات .

وسبق أنْ ذكرنا أن كلمة الآيات تُطلَق على معانٍ ثلاثة : آيات كونية دالة على قدرة الصانع سبحانه كالشمس والقمر ، وآيات تُؤيِّد الرسل وتُثبت صِدْقهم فى البلاغ عن الله وهى المعجزات ، وآيات القرآن التى تحمل الأحكام والمنهج ، وكلها أمور واضحة بينة .

وقوله تعالى : ﴿ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الروم] نعم ، ما ظلمهم الله ؛ لأنه سبحانه أمدهم بمقوِّمات الحياة وإمكانات المادة ، ثم أمدهم بمقومات الروح والقيم ، فإنْ حادوا بعد ذلك عن منهجه سبحانه فما ظلموا إلا أنفسهم .

ثم نقول : كيف يتأتَّى الظلم من الله تعالى ؟ الظلم يقع نعم من الإنسان لأخيه الإنسان ؛ لأنه يحقد عليه ، ويريد أنْ يتمتع بما فى يده ، فالظالم يأخذ حقَّ المظلوم الذى لا قدرةَ له على حماية حقه . فكيف إذن نتصور الظلم من الله ـ عز وجل ـ وهو سبحانه مالك كل شىء ، وغنى عن كل شىء ؟ إذن : ما ظلمهم الله ، ولكن ظلموا أنفسهم حينما حادوا عن طريق الله ومنهجه .

﴿ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ ﴾

الإساءة ضدها الإحسان ، وسبق أن قلنا : إن الإحسان : أن تترك الصالح على صلاحه ، أو أن تزيده صلاحاً ، ومثَّلْنا لذلك ببئر الماء الذى يشرب منه الناس ، فواحد يأتى إليه فيردمه أو يُلوث ماءه ، وآخر يبنى حوله سياجاً يحميه أو يجعل له آلة تُخرج الماء وتُريح الناس ، فهذا أحسن وذاك أساء ، فإذا لم تكُنْ محسناً فلا أقلَّ من أنْ تكفَّ إساءتك ، وتدع الحال على ما هو عليه .

والحق - سبحانه وتعالى - خلق الكون على هيئة الصلاح ، ولو تركناه كما خلقه ربه لَظلَّ على صلاحه ، إذاً لا يأتى الفساد إلا من تدخُّل الإنسان ؛ لذلك يقول سبحانه ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَـٰكِن لاَّ يَشْعُرُونَ (١٢) ﴾ [البقرة]

وينبغى على الإنسان أنْ يأخذ من ظواهر الكون ما يفيده ، أذكر أننا حينما سافرنا إلى مكة سنة ١٩٥٠ كنا ننتظر السَّقاء الذى يأتى لنا بقربة الماء ، ويأخذ أجرة حملها ، وكنا نضعها فى (البزان) وهو مثل (الزير) عندنا ، فإذا أراد أحدنا أن يتوضأ يأخذ من الماء كوزاً واحداً ويقول : نويت نية الاغتراف ، ولا يزيد فى وضوئه عن هذا الكوز ؛ لأننا نشترى الماء ، أما الآن فالواحد منا لا تكفيه (صفيحة) لكى يتوضأ من حنفية الماء . وفى ترشيد استعمال الماء ترشيد أيضاً للصرف الصحى وللمياه الجوفية التى تضر بالمبانى وبالتربة الزراعية .

لذلك يحذرنا النبى ﷺ من الإسراف فى استعمال الماء حتى لو كنَّا على نهر جارٍ[(١)] .

فمعنى الذين أساءوا : أى الذى جاء إلى الصالح فأفسده أو أنشأ إفساداً جديداً ، وطبيعى أن تكون عاقبته من جنس فعْله ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا السُّوأَىٰ .. (١٠)﴾ [الروم] والسُّوأى : مؤنث سىء مثل : حسن للمذكر ، وحُسْنى للمؤنث . وأصغر وصُغْرى ، فهى أفعل تفضيل من السُّوء .

ثم يقول سبحانه : ﴿ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ (١٠)﴾ [الروم] فالأمر لم يقف عند حَدِّ التكذيب بالآيات ، إنما تعدَّى التكذيب إلى الاستهزاء ، فما فلسفة أهل الاستهزاء حينما يستهزئون بالآخرين ؟ كثيراً ما نلاحظ أن التلميذ الفاشل يستهزىء بالمجتهد ، والمنحرف يستهزىء بالمستقيم ، لماذا ؟

لأن حظ الفاشل أنْ يزهد المجتهد فى اجتهاده ، وحظ المنحرف أن يصير المستقيم منحرفاً مثله ، ومن هنا نسمع عبارات السخرية من الآخرين كما حكاها القرآن :

﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٣٠) وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ (٣١) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ (٣٢)﴾ [المطففين]

لكن لا تتعجل ، وانتظر عاقبة ذلك حينما يأخذ هؤلاء المؤمنون أماكنهم فى الجنة ، ويجلسون على سُرُرها وأرائكها : ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ

---

(١) عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ مرَّ بسعد وهو يتوضأ . فقال : ما هذا السرف ؟ فقال : أفى الوضوء إسراف ؟ قال : نعم وإن كنت على نهر جار . أخرجه أحمد فى مسنده (٢/٢٢١) ، وابن ماجه فى سننه (٤٢٥) .

آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٣٤) عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ (٣٥) هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦) ﴾ [المطففين]

والخطاب هنا للمؤمنين الذين تحملوا السخرية والاستهزاء فى الدنيا : أقدرنا أنْ نجازيهم على ما فعلوه بكم ؟

إذن : فلسفة الاستهزاء أن الإنسان لم يقدر على نفسه ليحملها على الفضائل ، فيغيظه كل صاحب فضيلة ، ويؤلمه أنْ يرى مستقيماً ينعم بعزِّ الطاعة ، وهو فى حمئة المعصية ؛ لذلك يسخر منه لعله ينصرف عما هو فيه من الطاعة والاستقامة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ ﴾

هل بدأ الله الخلق بالفعل ، أم ما زال يبدأ الخلق ؟ الأسلوب هنا أسلوب ربٍّ يتكلم ، فهو سبحانه بدأ الخَلْق أصوله أولاً ، وما يزال خالقاً سبحانه ، وما دام هو الذى خلق بَدْءاً ، فهو الذى يعيد ﴿ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ .. (١١) ﴾ [الروم]

وفى أعراف البشر أن إعادة الشىء أهون من ابتدائه ؛ لأن الابتداء يكون من عدم ، أمّا الإعادة فمن موجود ، لذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ وَهُوَ الَّذِى يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ .. (٢٧) ﴾ [الروم] أى : بمقاييسكم وعلى قَدْر فَهْمكم ، لكن فى الحقيقة ليس هناك هَيِّن وأهون فى حقه تعالى ؛ لأنه سبحانه لا يفعل بمزاولة الأشياء وعلاجها ، إنما بكُنْ فيكون ، لكن يخاطبنا سبحانه على قَدْر عقولنا .

فالحق سبحانه بدأ الخلق وما يزال سبحانه يخلق ، وانظر مثلاً

إلى الزرع تحصده وتأخذ منه التقاوى للعام القادم ، وهكذا فى دورة مستمرة بين بَدْء وإعادة ﴿ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ .. (١١) ﴾ [الروم]

وسبق أنْ ضربنا مثلاً بالوردة الغضَّة الطرية بما فيها من جمال فى المنظر والرائحة ، فإذا ما قُطفتْ جفَّتْ ، لأن المائية التى بها تبخرتْ ، وكذلك رائحتها ولونها انتشر فى الأثير ، ثم يتفتت الباقى ويصير تراباً ، فإذا ما زرعتَ وردة جديدة أخذت من المائية التى تبخرت ومن اللون ومن الرائحة التى فى الجو .

وهكذا تبدأ دورة وتنتهى أخرى ؛ لأن مُقوِّمات الحياة التى خلقها الله هى هى فى الكون ، لا تزيد ولا تنقص ، فالماء فى الكون كما هو منذ خلقه الله : هَبْ أنك شربت طوال حياتك عشرين طناً من الماء ، هل تحمل معك هذا الماء الآن ؟ لا إنما تَمَّ إخراجه على هيئة عرق وبول ومخاط وصماخ أذن .. الخ ، وهذا كله تبخَّر ليبدأ دورة جديدة .

ثم يقول سبحانه : ﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١١) ﴾ [الروم] نلحظ أن الكلام هنا عن الخَلْق ﴿ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ .. (١١) ﴾ [الروم] لكن انتقل السياق من المفرد إلى الجمع ﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١١) ﴾ [الروم] ولم يقل يرجع أى : الخلْق ، فلماذا ؟

قالوا : لأن الناس جميعاً لا يختلفون فى بَدْء الخلق ولا فى إعادته ، لكن يختلفون فى الرجوع إلى الله ، فهذا مؤمن ، وهذا كافر ، هذا طائع ، وهذا عاصٍ ، وهذا بين بين ، ففى حال الرجوع إلى الله ستفترق هذه الوحدة إلى طريقين : طريق للسعداء ، وطريق للأشقياء ، لذلك لزم صيغة الإفراد فى البَدْء وفى الإعادة ، وانتقل إلى

الجمع فى الرجوع إلى الله لاختلافهم فى الرجوع .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

معنى ﴿ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [الروم] أى : يسكتون سُكوتَ اليائس الذى لا يجد حجة ، فينقطع لا يدرى ما يقول ولا يجد مَنْ يدافع عنه ، حتى قادتهم وكبراؤهم قد سبقوهم إلى العذاب ، فلم يعُدْ لهم أمل فى النجاة ، كما قال تعالى : ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .. ﴿٩٨﴾ ﴾ [هود] ، ومن ذلك سُمِّى (إبليس) ؛ لأنه يئس من رحمة الله .

وفى موضع آخر يقول الحق سبحانه : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الأنعام]

أى : لما نسوا منهج الله أراد سبحانه أن يعاقبهم فى الدنيا ، وحين يعاقبهم الله فى الدنيا لا يأخذهم على حالهم إنما يُرخى لهم العَنان ، ويُزيد لهم فى الخيرات ، ويُوسِّع عليهم مُتَع الدنيا وزخارفها ، حتى إذا أخذهم على هذه الحال كان أَخْذه أليماً ، وكانت سقطتهم من أعلى .

كما أنك مثلاً لا تُوقِع عدوك من على الحصيرة ، إنما ترفعه إلى أعلى ليكون الانتقام أبلغ ، أمّا إنْ أخذهم على حال الضِّيق والفقر ، فالمسألة إذن هيِّنة ، وما أقرب الفقر من العذاب !

ولنا ملحظ فى قوله تعالى ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ .. (٤٤)﴾ [الأنعام] فمادة فتح إنْ أراد الحق سبحانه الفتح لصالح المفتوح عليه يقول ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا (١)﴾ [الفتح] وإن أراد الفتح لغير صالحه يقول ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ.. (٤٤)﴾ [الأنعام] والفرق بيِّن بين المعنيين ، لأن اللام هنا للملك ﴿فَتَحْنَا لَكَ .. (١)﴾ [الفتح] إنما على ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ ..(٤٤)﴾ [الأنعام] فتعنى ضدهم وفى غير صالحهم ، كما نقول فى المحاسبة : له وعليه ، له فى المكسب وعليه فى الخسارة .

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَـٰٓؤُا۟ وَكَانُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ كَـٰفِرِينَ (١٣)﴾

نعم ، لم يجدوا من شركائهم مَنْ يشفع لهم ؛ لأن الشركاء قد تبرأوا منهم ، كما قال سبحانه : ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ (١٦٦)﴾ [البقرة]

وكذلك يقول التابعون : ﴿رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلاَّنَا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الأَسْفَلِينَ (٢٩)﴾ [فصلت]

وما أشبه هذين : التابع والمتبوع بتلميذين فاشلين تعوَّدا على اللعب وتضييع الوقت ، وشغَل كل منهما صاحبه عن دروسه ، وأغواه بالتسكّع فى الطرقات ، إلى أنْ داهمهما الامتحان وفاجأتهما الحقيقة المرّة ، فراح كل منهما يلعن الآخر ويسبُّه ، ويلقى عليه بالمسئولية .

إذن : ساعة الجد تنهار كل هذه الصلات الواهية ، وتتقطع كل الحبال التى تربط أهل الباطل فى الدنيا ﴿وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ (١٣)﴾ [الروم] ولِمَ لا وقد تكشفتْ الحقائق ، وظهر زيفهم وبان ضلالهم ؟

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

أى : الذين اجتمعوا فى الدنيا على الشر وعلى الضلال يتفرقون يوم القيامة ، ويصيرون أعداءً وخصوماً بعد أنْ كانوا أخلاء ، فيمتاز المؤمنون فى ناحية والكافرون فى ناحية ، حتى العصاة من المؤمنين الذين لهم رائحة من الطاعة لا يتركهم المؤمنون ، إنما يشفعون لهم ويأخذونهم فى صفوفهم .

والتنوين فى ﴿ يَوْمَئِذٍ .. ﴿١٤﴾ ﴾ [الروم] بدل من جملة ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ .. ﴿١٤﴾ ﴾ [الروم] أى : يوم تقوم الساعة يتفرقون .

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ ﴾

ما دام الخلق سيمتازون يوم القيامة ويتفرقون ، فلا بُدَّ أن نرى هذه القسمة : الذين آمنوا والذين كفروا ، وها هى الآيات تُرينا هذا التفصيل : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ .. ﴿١٥﴾ ﴾ [الروم] فما جزاؤهم ﴿ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [الروم] الروضة : هى المكان الملىء بالخضرة والأنهار والأشجار والنضارة ، وكانت هذه عادة نادرة عند العرب ؛ لأنهم أهل صحراء تقلُّ فى بلادهم الحدائق والرياض .

لذلك ، فالرياض والبساتين عندهم شىء عظيم ونعمة كبيرة . ومعنى ﴿ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [الروم] من الحبور[1] ، وهو الفرحة حينما

---

(١) قال الضحاك وابن عباس : يُكرمون . وقيل : ينعمون . قاله مجاهد وقتادة . والحبرة عند العرب : السرور والفرح . ذكره الماوردى . وقال الأوزاعى : إذا أخذ أهل الجنة فى السماع لم تبق شجرة فى الجنة إلا وردَّتْ الغناء بالتسبيح والتقديس . [تفسير القرطبى ٥٢٦٨/٧] .

يظهر عليك أثر النعمة ، هذا عن المؤمنين ، فماذا عن الكافرين ؟

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ (١٦)﴾ (١)

المحضر بالفتح : الذى يحضره غيره ، ولا تُقَال إلا فى الشر ، وفيها ما يدلُّ على الإدانة ، وإلا لحضر هو بنفسه ، ونحن نفزع لسماع هذه الكلمة ؛ لأن المحضر لا يأتيك إلا لشر ، كذلك حال الكفار والمكذِّبين يوم القيامة تجرُّهم الملائكة ، وتجبرهم ، وتسوقهم للحضور رَغْماً عنهم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ (١٧)﴾

هنا تتجلى عظمة الإيمان ، وتتجلى محبة الله تعالى لخَلْقه ، حيث يدعوهم إليه فى كل أوقات اليوم والليلة ، فى الصباح وفى المساء ، فى العشية والظهيرة .

والحق سبحانه حين يطلب من عباده أن يؤمنوا به ، إنما لحبه لهم ، وحرصه عليهم ليعطيهم ، ويفيض عليهم من آلائه ، وإلا فهو سبحانه بصفات الكمال والجلال غنىٌّ عنهم ، فإيمان المؤمنين لا يزيد

---

(١) محضرون : مقيمون . وقيل : مجموعون . وقيل : مُعذَّبون . وقيل : نازلون . والمعنى متقارب . [تفسير القرطبى ٧/٥٢٦٩] .

فى مُلْكه سبحانه شيئاً ، كذلك كُفْر الكافرين لا ينقص من مُلكه سبحانه شيئاً .

إذن : المسألة أنه سبحانه يريد أنْ يبرَّ صنعته ، ويُكرم خَلْقه وعباده ؛ لذلك يستدعيهم إلى حضرته ، وقرَّبنا هذه المسألة بمثل ـ ولله تعالى المثل الأعلى ـ ، قلنا : إذا أردتَ أنْ تقابل أحد العظماء ، أو أصحاب المراكز العليا ، فدون هذا اللقاء مشاقّ لا بُدَّ أنْ تتجشمها .

لا بُدَّ أن يُؤْذَن لك أولاً فى اللقاء ، ثم يُحدَّد لك الزمان والمكان ، بل ومدة اللقاء وموضوعه ، وربما الكلمات التى ستقولها ، ثم هو الذى يُنهى اللقاء ، لا أنت .

هذا إنْ أردتَ لقاء الخَلْق ، فما بالك بلقاء الخالق عز وجل ؟ يكفى أنه سبحانه يستدعيك بنفسه إلى حضرته ، ويجعل ذلك فرضاً وحتماً عليك ، ويطلبك قبل أنْ تطلبه ، ويذكرك قبل أن تذكره ، لا مرة واحدة ، إنما خمس مرات فى اليوم والليلة ، فإذا لبَّيْتَ طلبه أفاض عليك من رحمته ، ومن نعمه ، ومن تجلياته ، وما بالك بصنعة تُعرَض على صانعها خمس مرات كل يوم ، أيصيبها عطب ؟

ثم يترك لك ربك كل تفاصيل هذه المقابلة ، فتختار أنت الزمان والمكان والموضوع ، فإنْ أردتَ أنْ تطيل أمد المقابلة ، فإن ربك لا يملّ حتى تمل ؛ لذلك فإن أهل المعرفة الذين عرفوا لله تعالى قَدْره ، وعرفوا عطاءه ، وعرفوا عاقبة اللجوء إليه سبحانه يقولون :

حَسْبُ نفسى عِزّاً بأنِّى عَبْدٌ ... يَحْتَفِى بى بلاَ مَواعيدَ رَبّ
هُوَ فى قُدْسِهِ الأَعزِّ ولكن ... أنا ألقى كيفما وأين أحب

والعبودية كلمة مكروهة عند البشر ؛ لأن العبودية للبشر ذُلٌّ

ومهانة ، حيث يأخذ السيد خير عبده ، أمّا العبودية لله فهى قمة العزِّ كله ، وفيها يأخذ العبد خير سيده ؛ لذلك امتنّ الله تعالى على رسوله ﷺ بهذه العبودية فى قوله سبحانه : ﴿سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ .. (١)﴾ [الإسراء]

وكلمة ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ .. (١٧)﴾ [الروم] هى فى ذاتها عبادة وتسبيح لله تعنى : أُنزِّه الله عن أنْ يكون مثله شىء ؛ لذلك يقول أهل المعرفة : كل ما يخطر ببالك فالله غير ذلك ؛ لأنه سبحانه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ .. (١١)﴾ [الشورى]

فالله سبحانه مُنزَّه فى ذاته ، مُنزَّه فى صفاته ، مُنزَّه فى أفعاله ، فإنْ وجدنا صفة مشتركة بين الخَلْق والخالق سبحانه نفهمها فى إطار ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ .. (١١)﴾ [الشورى]

وقلنا : إنك لو استقرأتَ مادة سبح ومشتقاتها فى كتاب الله تجد فى أول الإسراء : ﴿سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ .. (١)﴾ [الإسراء] وفى أول سورة الحديد : ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. (١)﴾ [الحديد] ثم ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ..(١)﴾ [الجمعة]

فكأن الله تعالى مُسبَّح أزلاً قبل أنْ يخلق مَنْ يُسبِّحه ، فالتسبيح ثابت لله أولاً ، وبعد ذلك سبَّحَتْ له السماوات والأرض ، ولم ينقطع تسبيحها ، إنما ما زالت مُسبِّحة لله .

فإذا كان التسبيح ثابتاً لله تعالى قبل أنْ يخلق مَنْ يُسبِّحه ، وحين خلق السماوات والأرض سبَّحتْ له السماوات والأرض وما زالت ، فعليك أنت أيها الإنسان ألاَّ تشذَّ عن هذه القاعدة ، وألاَّ تتخلف عن هذه المنظومة الكونية ، وأن تكون أنت كذلك مُسبِّحاً ؛ لذلك جاء فى القرآن : ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى (١)﴾ [الأعلى]

فاستح أنت أيها الإنسان ، فكل شيء في الوجود مُسبِّح ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَـٰكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. (٤٤)﴾ [الإسراء]

لكن أراد بعض العلماء أنْ يُقرِّب تسبيح الجمادات التى لا يسمع لها صوتاً ولا حسّاً ، فقال : إن تسبيحها تسبيح دلالة على الله . ونقول : إنْ كانَ تسبيحَ دلالة كما تقول فقد فهمته ، والله يقول ﴿وَلَـٰكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. (٤٤)﴾ [الإسراء]

إذن : ففهْمُك له غير حقيقى ، وما دام أن الله أخبر أنها تُسبِّح فهى تسبِّح على الحقيقة بلغة لا نعرفها نحن ، ولِمَ لا والله قد أعطانا أمثلة لأشياء غير ناطقة سبَّحتْ ؟ ألم يقُلْ عن الجبال أنها تُسبِّح مع داود عليه السلام : ﴿يَـٰجِبَالُ أَوِّبِي[1] مَعَهُ وَالطَّيْرَ .. (١٠)﴾ [سبأ] ألم يُثبت للنملة وللهدهد كلاماً ومنطقاً ؟ وقال فى عموم الكائنات : ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاَتَهُ وَتَسْبِيحَهُ .. (٤١)﴾ [النور]

إذن : فالتسبيح لله تعالى من كل الكائنات ، والحق سبحانه يعطينا المثَل فى ذواتنا : فأنت إذا لم تكُنْ تعرف الإنجليزية مثلاً ، أتفهم مَنْ يتكلم بها ؟ وهى لغة لها أصوات وحروف تُنطق ، وتسمعها بنفس الطريقة التى تتكلم أنت بها .

لذلك تأتى كلمة (سبحان الله) فى الأشياء التى يجب أنْ تُنزه الله فيها ، واقرأ إنْ شئتْ قوله تعالى فى الإسراء : ﴿سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ .. (١)﴾ [الإسراء] كأنه سبحانه يقول لنا : نزِّهوا الله عن مشابهة البشر ، وعن قوانين البشر فى هذه المسألة ، إياك أنْ تقول : كيف ذهب محمد من مكة إلى بيت المقدس ، ثم يصعد إلى السماء ، ويعود فى ليلة واحدة .

---

(١) أوِّبى : ردِّدى الذكر والتسبيح مع داود . [القاموس القويم ١/٤٢] .

فبقانون البشر يصعُب عليك فَهْم هذه المسألة ، وهذا ما فعله كفار مكة حيث قالوا : كيف ونحن نضرب إليها أكباد الإبل شهراً[(١)] ، وتدَّعى أنك أتيتها فى ليلة ؟ فقاسوا المسألة والمسافات على قدرتهم هم ، فاستبعدوا ذلك وكذَّبوه .

ولو تأملوا الآية ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ .. (١) ﴾ [الإسراء] وهم أهل اللغة لَعرفوا أن الإسراء لم يكُنْ بقوة محمد ، فلم يقُلْ أسريتُ ، ولكن قال « أُسرِى بى » ، فلا دخلَ له فى هذه المسألة وقانونه فيها مُلْغى ، إنما أسرَى بقانون مَنْ أسرى به .

إذن : عليك أن تُنزه الله عن قوانينك فى الزمان وفى المسافة ، وإنْ أردتَ أن تُقرب هذه المسألة للعقل ، فالمسافة تحتاج إلى زمن يتناسب مع الوسيلة التى ستقطع بها المسافة ، فالذى يسير غير الذى يركب دابةً ، غير الذى يركب سيارة أو طائرة أو صاروخاً وهكذا .

فإذا كان فى قوانين البشر : إذا زادت القوة قَلَّ الزمن ، فكيف لو نسَبْتَ القوة إلى الله عز وجل ؟ عندها نقول : لا زمن فإنْ قُلْتَ : إن ألغينا الزمن مع قوة الله وقدرته تعالى ، فلماذا ذكر الزمن هنا وقُدِّر بليلة ؟

قالوا : لأن الرحلة لم تقتصر على الذهاب والعودة ، إنما تعرَّض فيها النبى ﷺ لَمَراء كثيرة ، وقابل هناك بعض الأنبياء ، وتحدَّث معهم ، فهذه الأحداث لرسول الله هى التى استغرقتْ الزمن ، أمّا الرحلة فلم تستغرق وقتاً .

---

(١) أورد ابن هشام فى السيرة النبوية (١/٣٩٨) « أن أكثر الناس فى قريش قالوا : هذا والله الإمْر البين ، والله إن العير لتُطرد شهراً من مكة إلى الشام مدبرة ، وشهراً مقبلة ، أفيذهب ذلك محمد فى ليلة واحدة ويرجع إلى مكة » .

كذلك جاءت كلمة (سبحان) فى قوله تعالى : ﴿سُبْحَانَ الَّذِى خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ (٣٦)﴾ [يس] لماذا ؟ لأن مسألة الخَلْق من المسائل التى يقف عندها العقل ، وينبغى أنْ نُنزِّه الله عن أنْ يشاركه فيها أحد .

ولما نزلت هذه الآية كان الناس يعرفون الزوجية فى النبات لأنهم كانوا يُلقِّحون النخل ، ويعرفونها فى الإنسان ؛ لأنهم يتزوجون وينجبون ، وكذلك يعرفونها فى الحيوان ، هذه حدود العقل فى مسألة الزوجية .

لكن الآية لم تقتصر على ذلك ، إنما قال سبحانه ﴿وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ (٣٦)﴾ [يس] لأن المستقبل سيكشف لهم عن أشياء أخرى تقوم على نظرية الزوجية ، وقد عرفنا نحن هذه النظرية فى الكهرباء مثلاً حيث (السالب) و (الموجب) ، وفى الذرات حيث (الإلكترونات) ، و (البروتونات) .. الخ .

إذن : ساعةَ تسمع كلمة التسبيح فاعلم أنك ستستقبل حدثاً فريداً ، ليس كأحداث البشر ، ولا يخضع لقوانينهم .

ثم يقول سبحانه :

﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ (١٨)﴾

نلحظ أن قوله تعالى ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ .. (١٨)﴾ [الروم] فصلَتْ بين الأزمنة المذكورة ، فجعلت ﴿تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ (١٧)﴾ [الروم] فى ناحية ، و ﴿وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ (١٨)﴾ [الروم] فى ناحية ، مع أنها جميعاً أوقات وأزمنة فى اليوم والليلة ، لماذا ؟

قالوا : لأنه سبحانه يريد أنْ يُشعرنا أن له الحمد ، ويجب أنْ

تحمده على أنه مُنزَّه عن المثيل ؛ لأنها فى مصلحتك أنت ، وأنت الجانى لثمار هذا التنزيه ، فإنْ أرادك بخير فلا مثيلَ له سبحانه يمنعه عنك ، وله وحده الكبرياء الذى يحميك أن يتكبر أحد عليك ، وله وحده تخضع وتسجد ، لا تسجد لغيره ، فسجودك لوجه ربك يكفيك كل الأوجه ، كما قال الشاعر :

فَالسُّجُودُ الذِى تَجْتويهِ[1] فيه مِنْ أُلُوفِ السُّجُودِ نَجَاةُ

إذن : من مصلحتك أن يكون الله تعالى هو الواحد الذى لا مثيلَ له ، والقوى الذى لا يوجد أقوى منه ، والمتكبِّر بحقٍّ ؛ لأن كبرياءه يحمى الضعيف أنْ يتكبّر عليه القوى ، يجب أنْ تحمد الله الذى تعبَّدنا بالسجود له وحده ، وبالخضوع له وحده ؛ لأنه أنجاك بالسجود له أنْ تسجد لكل قوى عنك ، وهذا من عظمته تعالى ورحمته بخَلْقه ؛ لذلك تستوجب الحمد .

لذلك نقول فى العامية (اللى ملوش كبير يشترى له كبير) لماذا ؟ لأنه لا يعيش عزيزاً مُكرّماً إلا إذا كان له كبير يحميه ، ويدافع عنه ، كذلك أنت لا تكون عزيزاً إلا فى عبوديتك لله .

والخَلْق جميعاً بالنسبة لله تعالى سواء ، فليس له سبحانه من عباده ولد ولا قريب ، فلا مؤثرات تؤثر عليه ، فيحابى أحداً على أحد . فنحن جميعاً شركة فى الله ؛ لذلك يقول سبحانه ﴿مَا اتَخَّذَ صَاحِبَةً وَلا وَلَدًا ۝٣﴾ [الجن] أى : لا شىء يؤثر عليه سبحانه .

وقال بعد التسبيح ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ .. ۝١٨﴾ [الروم] لأن التسبيح

---

(١) الاجتواء : عدم موافقة الشىء للإنسان فتحدث كراهية له ، ومنها اجتويت البلد إذا كرهت المقام فيه ، وإن كنت فى نعمة . [لسان العرب ـ مادة : جوى] .

ينبغى أنْ يُتبَع بالحمد فتقول : سبحان الله والحمد لله ، أى : الحمد لله على أننى سبَّحت مسبَّحاً .

وحين نتأمل هذه الأوقات التى أمرنا الله فيها بالتسبيح ، وهى المساء والصباح والعشى ، وهى من العصر إلى المغرب . ثم الظهيرة نجد أنها أوقات عامة سارية فى كَوْن الله لا تنقطع أبداً ، فأىّ صباح وأىّ مساء ؟ صباحى أنا ؟ أم صباح الآخرين ؟ مسائى أم مساء غيرى فى أقصى أطراف المعمورة ؟

إن المتأمل فى دورة الوقت يجد أن كل لحظة فيه لا تخلو من صباح ومساء ، وعشية وظهيرة ، وهذا يعنى أن الله تعالى مُسبَّح معبود فى كل لحظة من لحظات الزمن .

وفى ضوء هذا نفهم قول الرسول ﷺ : « إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مُسىء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسىء الليل »[1] فالكون لا يخلو فى لحظة واحدة من ليل أو نهار ، وهذا يعنى أن يد الله سبحانه مبسوطة دائماً لا تُقبَض : ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ .. (٦٤)﴾ [المائدة]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ (١٩)﴾

أولاً : ما مناسبة الحديث عن البعث ، وإخراج الحىِّ من الميت ، وإخراج الميت من الحىِّ بعد الحديث عن تسبيح الله وتحميده ؟ قالوا :

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٧٥٩) من حديث أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه .

لأنه تكلَّم عن المساء والصباح ، وفيهما شبه بالحياة والموت ، ففى المساء يحلُّ الظلام ، ويسكُن الخَلْق وينامون ، فهو وقت للهدوء والاستقرار ، والنوم الذى هو صورة من صور الموت ؛ لذلك نسميه الموت الأصغر ، وفى الصباح وقت الحركة والعمل والسعى على المعاش ، ففيه إذن حياة ، كما يقول سبحانه : ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا (١٠) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا (١١)﴾ [النبأ]

ويُمثَّل الموت والبعث بالنوم والاستيقاظ منه ، كما جاء فى بعض المواعظ : « لتموتُن كما تنامون ، ولتُبعثُنَّ كما تستيقظون » .

وما دُمْنا قد شاهدنا الحالَيْن ، وعاينّا النوم واليقظة ، فلنأخذ منهما دليلاً على البعث بعد الموت ، وإنْ أخبرنا القرآن بذلك ، فعلينا أنْ نُصدِّق ، وأنْ نأخذ من المشاهد دليلاً على الغَيْب ، وهذا ما جاءتْ به الآية :

﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ .. (١٩)﴾ [الروم]

وقوله تعالى هنا (الحى والميت) أى : فى نظرنا نحن وعلى حَدِّ علْمنا وفَهمنا للأمور ، وإلا فكُلُّ شىء فى الوجود له حياة تناسبه ، ولا يوجد موت حقيقى إلا فى الآخرة التى قال الله فيها : ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ .. (٨٨)﴾ [القصص]

فضدُّ الحياة الهلاك بدليل قوله تعالى : ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ .. (٤٢)﴾ [الأنفال]

وما دام كلُّ شىء هالكاً إلا وجهه تعالى ، فكل شىء بالتالى حَىٌّ ، لكنه حى بحياة تناسبه . وأذكر أنهم كانوا يُعلِّموننا كيفية عمل

المغناطيس وانتقال المغناطيسية من قطعة مُمغنطة إلى قطعة أخرى بالدَّلْك فى اتجاه واحد ، وفعلاً شاهدنا أن قطعة الحديد تكتسب المغناطيسية .

وتستطيع أنْ تجذب إليها قطعة أخرى ، أليس هذا مظهراً من مظاهر الحياة ؟ أليست هذه حركة فى الجماد الذى نراه نحن جماداً لا حياةَ فيه ، وهو يؤثر ويتأثر بغيره ، وفيه ذرات تتحرك بنظام ثابت ولها قانون .

إذن : نقول لكل شىء موجود حياته الخاصة به ، وإنْ كُنَّا لا ندركها ؛ لأننا نفهم أن الحياة فى الأحياء فحسب ، إنما هى فى كل شىء وكَوْنك لا تفقه حياة هذه الأشياء ، فهذه مسألة أخرى .

لذلك سيدنا سليمان ـ عليه السلام ـ لما سمع كلام النملة ، وكيف أنها تفهم وتقف ديدباناً لقبيلتها ، وتفهم حركة الجيش وعاقبة الوقوف فى طريقه ، فتحذر جماعتها ادخلوا مساكنكم ، وكيف كانت واعية ، وعادلة فى قولها .

﴿ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (١٨) ﴾ [النمل] فهى تعلم أن الجيش لو حطَّم النمل ، فهذا عن غير مقصد منهم ، وعندها أحسَّ سليمان بنعمة الله عليه بأنْ يعلم ما لا يعلمه غيره من الناس ، فقال ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِي[1] أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ .. (١٩) ﴾ [النمل]

فمعنى ﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ .. (١٩) ﴾ [الروم] أى : فى عُرْفنا نحن ، وعلى قَدْر فَهْمنا للحياة وللموت ، والبعض يقول : يعنى يُخرِج

---

(١) معنى أوزعنى : ألهمنى وأوْلِعْنى به . وتأويله فى اللغة : كُفَّنى عن الأشياء إلا عن شكر نعمتك ، وكُفَّنى عما يباعدنى عنك . [لسان العرب ـ مادة : وزع] .

البيضة من الدجاجة ، ويُخرِج الدجاجة من البيضة ، وهذا الكلام لا يستقيم مع منطق العقل ، وهل كل بيضة بالضرورة تُخرِج دجاجة ؟ لا بل لا بُدَّ أنْ تكون بيضة مُخصَّبة . إذن : لا تقُلْ البيضة والدجاجة ، ولكن قُلْ يُخرِج الحى من الميت من كل شىء موجود .

ثم يقول سبحانه ﴿وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ .. (١٩)﴾ [الروم] وفى موضع آخر يقول تعالى : ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ .. (٩٥)﴾ [الأنعام] فأتى باسم الفاعل (مُخْرِج) بدلاً من الفعل المضارع .

لذلك وقف عندها المشككون فى أسلوب القرآن ، يقولون : إنْ كانت إحداهما بليغةً ، فالأخرى غير بليغة ، وهذا منهم نتيجة طبيعية لعدم فَهْمهم للغة القرآن ، وليستْ لديهم الملَكة العربية التى تستقبل كلام الله .

وهنا نقول : إن الذى يتكلم ربٌّ يعطى لكل لفظة وزنها ، ويضع كل كلمة فى موضعها الذى لا تُؤدِّيه كلمة أخرى .

فقوله تعالى ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ .. (١٩)﴾ [الروم] هذه فى مصلحة مَنْ ؟ فى مصلحتنا نحن ؛ لأن الإنسان بطَبْعه يحب الحياة ، وربما استعلى بها ، واغترَّ بهذا الاستعلاء ، كما قال ربنا : ﴿كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ (٧)﴾ [العلق]

لذلك يُذكِّره ربه تعالى بالمقابل : فأنا كما أُخرِج الحىَّ من الميت أُخرِج الميت من الحىِّ فانتبه ، وإياك أنْ تَتعالى أو تتكبَّر ، وافهم أن الحياة موهوبة لك من ربك يمكن أنْ يسلبها منك فى أىِّ لحظة .

وعبَّر عن هذا المعنى مرة بالفعل المضارع (يُخرِج) الدالّ على

الاستمرار والتجدُّد ، ومرة باسم الفاعل (مُخرِج) الدال على ثبوت الصفة وملازمتها للموصوف ، لا مجرد حدث عارض .

لذلك تأمل قول الله تعالى : ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً .. (٢)﴾ [الملك] وفى نظرنا أن الحياة تسبق الموت ، لكن الحق سبحانه يريد أن يقتل فى الإنسان صفة الاغترار بالحياة ، فجعله يستقبل الحياة بما يناقضها ، فقال ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ .. (٢)﴾ [الملك] فقدَّم الموت على الحياة ، فقبل أنْ تفكر فى الحياة تذكّر الموت حتى لا تغترّ بها ولا تَطْغى .

ويتجلى هذا المعنى أيضاً فى سورة الواقعة : ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ (٥٨) أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ (٥٩) نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٦٠)﴾ [الواقعة]

يعنى : خذوا بالكم ، وافهموا أننى واهب الحياة ، وأستطيع أنْ أسلبها فلا تغترَّ بها ولا (تتفرعن) ، وكأن الحق سبحانه يريد أنْ يَدُكَّ فى الإنسان صفة الكبرياء والتعالى ، فيُحدث هذه المقابلة دائماً بين ذِكْر الموت وذِكْر الحياة فى آيات القرآن الكريم .

ثم ألاَ ترى أن الخالق سبحانه لم يجعل للموت سبباً من أسباب العمر والسنين ، فواحد يموت قبل أنْ يُولَد ، وواحد يموت بعد يوم أو بعد شهر ، وآخر يموت بعد عدة أعوام ، وآخر بعد مائة عام .

إذن : مسألة لا ضابط لها إلا أقدار الله وأجله الذى أجَّله سبحانه ، وفى هذا إشارة للإنسان : احذر فقد تُسْلَب منك الحياة التى ينشأ منها غرورك فى أىِّ لحظة ، ودون أنْ تدرى ودون سابق إنذار أو مقدمات ، فاستقِمْ إذن على منهج ربك ، ولا تجترىء على

المعصية ؛ لأنك قد تموت قبل أنْ تتدارك نفسَك بالتوبة .

لذلك يقولون : إن الحق سبحانه حين أبهم وقت الموت بيَّنه بالإبهام غايةَ البيان ، كيف ؟ قالوا : لأنه سبحانه لو حدَّد لك موعد الموت لكنتَ تستعد له قبل أوانه ، إنما حين أبهمه جعلك تستعدّ له كل لحظة من لحظات حياتك .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَيُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا .. (١٩) ﴾ [الروم] وفي موضع آخر : ﴿ وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٥) ﴾ [الحج]

فالأرض كانت ميتة هامدة جامدة جرداء ، لا أثَر فيها لحياة ، فلما نزل عليها الماء وسقاها المطر تحركتْ وأنبتتْ من كل زوج بهيج ، فهى نموذج حيٌّ مُشَاهد للخَلْق وللحياة .

وفي آية أخرى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً .. (٦٣) ﴾ [الحج] فهل اخضرتْ الأرضُ ساعةَ نزل عليها المطر ؟ لا ، إنما بعد فترة ، كأنه سبحانه يقول لك : لاحظ الحدث ساعة يوجد ، واستحضر صورته ، فبعد نزول الماء ترى الأرض تخضرّ تدريجياً ، وإنْ لم تبذر فيها شيئاً ، ففيها بذور شتَّى حملتْها الرياح ، ثم استقرتْ في التربة ولو لسنوات طوال تظل صالحة للإنبات تنتظر الماء لتؤدى مهمتها .

والذى عاش فى الصحراء يشاهد هذه الظاهرة ، وقد رأيناها فى عرفة بعد أنْ نزل عليها المطر ، وعُدْنا بعد عدة أيام ، فإذا الأرض تكتسى باللون الأخضر . لذلك إياك أن تظن أن كل زرع زرعه الإنسان ، وإلاَّ فمنْ أين جاءت أول بذرة زرعها الإنسان . إذن : هناك زراعات لا دخلَ للإنسان بها .

ولنقرأ قصة مريم عليها السلام : ﴿يَـٰمَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ (٤٢)﴾ [آل عمران] فالاصطفاء الأول لم يقُلْ على مَنْ . فالمعنى : اصطفاكِ على الخَلْق جميعاً ، بأن طَهَّركِ وجعلك صالحة تقية قوَّامة ... الخ .

أما الاصطفاء الآخر فليس على الخَلْق جميعاً ، إنما على النساء ؛ لأنها تفردتْ عن نساء العالمين بأنْ تلدَ بغير ذكورة .

والشاهد الذى نريده هنا أن يوسف النجار لما لاحظ على مريم علامات الحمل وهو يعلم مَنْ هى مريم ، وأنها لم تفارق المحراب طوال عمرها ، فلم يردْ على ذهْنه المعنى الثانى ، ويريد أن يستفهم عَمَّا يراه ، فسألها بأدب : يا مريم ، أتوجد شجرة بدون بذرة ؟ فقالت وقد لقَّنها الحق سبحانه : نعم ، الشجرة التى أنبتت أول بذرة .

إذن : الحق سبحانه يمتنُّ علينا بالشىء ، ثم يُذكِّرنا بقدرته تعالى على سلْبه ، وعلى نقيضه حتى لا نغترَّ به ، ليس فى مسألة الموت والحياة فحسب ، إنما فى الزرع وفى الماء وفى النار ، واقرأ قوله تعالى :

﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ (٥٨) أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ (٥٩) نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٦٠) عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦١) وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ (٦٢) أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (٦٤) لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (٦٥) إِنَّا لَمُغْرَمُونَ (٦٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٦٧) أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (٦٨) أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ (٦٩) لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ (٧٠) أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ (٧١) أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ (٧٢)﴾ [الواقعة]

ونلحظ فى الأداء القرآنى فى هذه الآيات الدقة فى استخدام لام التوكيد فى ﴿لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا.. (٦٥)﴾ [الواقعة] فى الحديث عن الزرع ؛ لأن للإنسان دوراً فيه ، حيث يحرث ويغرس ويسقى ، وربما ظَنَّ لنفسه قدرة عليه .

لكن لما تحدَّث عن الماء ذكر فى نقضه ﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا.. (٧٠)﴾ [الواقعة] بدون توكيد ، لماذا ؟ لأن الماء لا دخلَ لأحد فيه ، ولا يدعيه أحد ، فلا أنت بخرتَ الماء ، ولا أنت أنزلتَ المطر ، لذلك قال ﴿جَعَلْنَاهُ.. (٧٠)﴾ [الواقعة] بدون توكيد .

أما عند ذكْر النار كنعمة من نعَم الله لم يذكر ما ينقضها ، فقال : ﴿أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ (٧٢)﴾ [الواقعة] ولم يقُلْ مثلاً : لو نشاء لأطفأناها ، تُرى لماذا ؟ قالوا : لتظل النارُ ماثلة أمامنا على حال اشتعالها لا تخمد أبداً ، وكأن الحق - سبحانه وتعالى - يُلوِّح بها لكل عَاصٍ علَّه يعود إلى الجادّة .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ (١٩)﴾ [الروم] كذلك : إشارة إلى ما سبق ذكْره من إحياء الأرض بعد موتها ، كمثْل ذلك تُخرجون وتُبعثون ، فمَنْ أنكر البعث فلينظر عملية إحياء الأرض الجامدة بالنبات بعد نزول المطر عليها .

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ (٢٠)﴾

الكلام هنا عن بَدْء الخلق ، قال تعالى ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم.. (٢٠)﴾ [الروم] بصيغة الجمع ، والمراد آدم ثم حواء ، ثم بثَّ الله منهما

رجالاً كثيراً ونساء ، فالعالم اليوم الذى يُعَدُّ بالمليارات حين تعود به إلى الماضى لا بُدَّ أنْ تعود إلى اثنين هما آدم وحواء ، فلما التقيا نشأ منهما النسل ، لكن هل نشأ النسل من أبعاض ميتة خرجتْ من آدم ، أم من أبعاض حيّة هى الحيوانات المنوية ؟

لو أن الحيوان المنوىَّ كان ميتاً لما حدث الإنجاب . إذن : جاء أولاد آدم من ميكروب أبيهم آدم ، وانتشروا فى الأرض وأنجبوا ، وكل منهم يحمل ذرة من أبيه الأول آدم عليه السلام . وبالتالى فكُلٌّ منّا فيه ذرة حية من عهد آدم ، وحتى الآن لم يطرأ عليها فناء أبداً ، وهذا هو عَالَم الذَّرِّ الذى شهد خَلْق الله لآدم ، إنها أبعاضنا التى شهدتْ هذا العهد الأول بين الخَلْق والخالق سبحانه :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) ﴾ [الأعراف]

إذن : فى كل منّا الآن وحتى قيام الساعة ذرةٌ حيَّة من أبيه آدم ، هذه الذرة الحية هى التى شهدتْ هذا العهد ، وهى التى تمثل الفطرة الإيمانية فى كل نفس بشرية ، لكن هذه الفطرة قد تُطمس أو تُغلَّف بالغفلة والمعاصى .. الخ .

والحق - سبحانه وتعالى - أخبرنا أنه يخلق الأشياء ويُوجدها بكُنْ ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٨٢) ﴾ [يس] إلا الإنسان ، فقد بلغ من تكريمه أنْ سوَّاه ربه بيده ، وجعله خليفة له فى الأرض ، وتجلَّى عليه بصفات من صفاته ، فأعطاه من قدرته قدرةً ، ومن علْمه علْماً ، ومن حكمته حكمة ، ومن غِنَاه غِنىً .

وربنا سبحانه حينما يخلقنا هذا الخَلْق يريد منَّا أنْ نستعمل هذه الصفات التى وهبها لنا ، كما يستعملها هو سبحانه ، فالله تعالى بقدرته خلق لنا ما ينفعنا ، فعليك أنت بما وهبك الله من القدرة أنْ تعمل ما ينفع ، والله بحكمته رتَّبَ الأشياء ، فعليك بما لديْك من حكمة أنْ تُرتِّب الأشياء .. وهكذا .

ونشير إلى أن القدرة تختلف ، فقدرة تفعل لك ، وقدرة عُلْيا تجعلك تفعل بنفسك ، هَبْ أنك قابلتَ رجلاً ضعيفاً لا يَقْوَى على حَمْل متاعه مثلاً ، فتحمله أنت له ، فأنت إذن عدَّيْتَ إليه أثرَ قوتك ، إنما ظلَّ هو ضعيفاً .

أما الحق ـ تبارك وتعالى ـ فلا يُعدِّى أثر قوته إلى عبده فحسب ، إنما يُعدِّى له القدرة ذاتها ، فيُقوِّى الضعيف ؛ فيحمل متاعه بنفسه .

إذن : أعظم تكريم للإنسان أنْ يقول الخالق سبحانه : إننى خلقتُه بيدى فى قوله سبحانه لإبليس :

﴿ قَالَ يَـٰإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ .. (٧٥) ﴾ [ص]

ثم لك أيها الإنسان بعد هذا التكريم أنْ تكون كريماً على نفسك كما كرَّمك الله ، ولك أنْ تنزل بها إلى الحضيض ، فنفسك حيث تجعلها أنت .

يقول تعالى : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (٤) ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ (٥) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ .. (٦) ﴾ [التين]
فانظر لنفسك منزلة من المنزلتين .

وكلمة ﴿ مِّن تُرَابٍ .. (٢٠) ﴾ [الروم] أى : الأصل الذى خُلق منه آدم ، والتراب مع الماء يصير طيناً ، فإنْ تعطَّن وتغيَّرَتْ رائحته فهو حمأ

مسنون ، فإنْ جَفَّ فهو صلصال كالفخار ، إذن : هذه هى العناصر التى وردت ومراحل خَلْقِ الإنسان ، وكلها مُسمَّيات للتراب ، وحالات طرأتْ عليه .

فإنْ جاء مَنْ يقول فى مسألة الخَلْق بغير هذا فلا نُصدّقه ؛ لأن الذى خلق الإنسان أخبرنا كيف خلقه ، أما هؤلاء فلم يشهدوا من خَلْق الإنسان شيئاً ، وهم فى نظر الدين مُضللون ، يجب الحذر من أفكارهم ؛ لأن الله تعالى يقول فى شأنهم :

﴿ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا (٥١) ﴾ [الكهف]

وبالله لو لم يَخُضْ العلماء فى مسألة الخلق خلق الإنسان وخلق الشمس والقمر والأرض ... الخ . لو لم نسمع بنظرية داروين أكانت تصدُق هذه الآية ؟ وإلا لقالوا : أين المضللون الذين تكلَّم القرآن عنهم ؟ فهم إذن قالوا وطلعوا علينا بنظرياتهم ، يريدون أنْ يُكذِّبوا دين الله ، وأنْ يُشكِّكوا فيه ، وإذا بهم يقومون جميعاً دليلاً على صِدْقه من حيث لا يشعرون .

وعلى شاكلة هؤلاء الذين نسمعهم الآن ينكرون أحاديث النبى ﷺ ويُشككون فى صحتها ، هذه فى الحقيقة ظاهرة طبيعية جاءت لتثبت صدق رسول الله ؛ لأنه ﷺ لم يغفل هذه المسألة ، إنما أخبر عنها ونبهنا إليها ، وأعطانا المناعة اللازمة ـ الثلاثى الذى نسمع عنه من رجال الصحة .

يقول ﷺ : « يوشك رجل من أمتى يتكىء على أريكته يُحدَّث بالحديث عنى فيقول : بيننا وبينكم كتاب الله ، فما وجدنا فيه من حلال حللناه ، وما وجدنا فيه من حرام حرمناه ، ألاَ وإنَّ ما حرم رسول الله مثل ما حرم الله »[1] .

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (١٣٢/٤) والترمذى فى سننه (٢٦٦٤) وابن ماجة فى سننه (١٢) والدارقطنى فى سننه (٢٨٦/٤) من حديث المقدام بن معديكرب رضى الله عنه .

لمـاذا ؟ لأن الله تعالى أعطاه تفـويضاً فى أنْ يُشـرِّع لأمتـه ، فقـال تعالى : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا .. (٧) ﴾ [الحشر] فللرسول إيتاء ، وللرسول أمر ونهى يجب أنْ يُطاع بطاعتنا لله .

وتعـالَ لمن ينكر السنـة ويقول : عـلينا بالقـرآن ـ عندمـا يصلى المغـرب مثـلاً واسأله : كم ركعـة صليتَ المغـرب ؟ سيـقول : ثلاث ركعـات ، فمن أين علـم أن المغرب ثـلاث ركعات ؟ أمن الـقرآن الذى يتعصَّـب له ، أم من السنة التى يُنكرها . إذن : كيف يتعبـد على قول رسول الله ثم ينكره ؟!

إذن : فالحق ـ سبحانه وتعالى ـ بيَّن مراحل خَلْق الإنسان من تراب ، صار طيناً ، ثم صار حمأ مسنوناً ، ثم صلصـالاً كالفخار ، ثم نفخ فيه الله من روحه ، ونحن لم نشاهد هذه المـسألة ، إنما أخبرنا بها ، ومـن رحمته تعالى بخَلْقه ، ولكى لا تحـار عقولهم حينما تبحـث هذه العملية يعطينا فى الكون المشَاهد لنا شواهد تُوضِّح لنا الغيب الذى لم نشاهده .

ففى أعرافنا أن هَدْم الشىء أو نَقْض البناء يأتى على عكس البناء، فما بُنى أولاً يُـهْدَم آخراً ، وما بُنى آخراً يُهـدَم أولاً ، وأنت لم تشاهد عملية الخَلْق ، لكن شاهدتَ عملية الموت ، والموت نَقْض للحياة .

ولك أنْ تتأملَ الإنسان حينما يموت ، فأول نَقْض لبنيته أنْ تخرج منه الروح ، وكانت آخر شىء فى بنائه ، ثم يتصلّب الجسد ويتجمد ، كما كان فى مرحلة الصلصالية ، ثم يتعـفَّن وتتغير رائحته ، كما كان فى مرحلة الحمأ المسنون ، ثم تمتص الأرض ما فيه من مائية ليصير إلى التـراب كـما بـدأه خالقـه من تراب ، إذن : صـدق الله تعـالى فى المشهد حين بيَّن لنا الموت ، فصدَّقنا ما قاله فى الحياة .

وكمـا أن التراب والطين همـا أصل الإنسان فـهمـا أيضاً مـصدر

الخصْب والنماء ، ومخازن للقوت وهما مُقوِّم من مُقوِّمات حياتنا ؛ لذلك لما تكلم القرآن عن التراب قال سبحانه : ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا .. (١٠)﴾ [فصلت] يعنى : فى الجبال لأنها أقرب مذكور أو فى الأرض عموماً ؛ لأن الرواسى فى الأرض ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا .. (١٠)﴾ [فصلت]

فالقوت يأتينا من طينة الأرض ، ومن التراب الذى يتفتت من الجبال مُكوِّناً الطمى أو الغرْيَن الذى يحمله إلينا ماء المطر ، فالأرض هى أمنا الحقيقية ، منها خُلِقْنا ، ومنها مُقوِّمات حياتنا .

وعجيب أن نرى من العلماء غير المؤمنين مَنْ يثبت صدْق القرآن فى مسألة خَلْق الإنسان من طين حين حلَّلوا عناصر الأرض فوجدوها ستة عشر عنصراً هى نفسها التى وجدوها فى جسم الإنسان ، وكأن الحق سبحانه يُجنِّد مَنْ يثبت صدْق آياته ولو من الكفار .

وصدق الله العظيم حين قال : ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِى الآفَاقِ وَفِى أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ .. (٥٣)﴾ [فصلت] . وفى القرآن آيات تدلّ على معادلات لو بحثها (الكمبيوتر) الآن لا بُدَّ أنْ نؤمن بأن هذا الكلام من عند الله وأنه صدْق .

تأمل ظاهرة اللغة ، وكيف نتكلم ونتفاهم ، فأنت إذا لم تتعلم الإنجليزية مثلاً لا تفهمها ؛ وكذلك هو لا يفهم العربية . لماذا ؟ لأن اللغة وليدة المحاكاة ، فما تسمعه الأذن يحكيه اللسان ، وهى ظاهرة اجتماعية ، فلو عاش الإنسان وحده لما احتاج للغة ؛ لأنه سيفعل ما يطرأ على باله وفقط .

أمّا حين يعيش فى جماعة فلا بُدَّ له أن يتفاهم معهم ، يأخذ

منهم ويأخذون منه ، يسمع منهم ويسمعون منه ، حتى الأخرس لا بُدَّ له من لغة يتفاهم بها مع مَنْ حوله ، ويستخدم فعلاً لغة الإشارة ، وقد أقدره الله على فهمها .

والله سبحانه يُبقى للإنسان المتكلم دلالات الإشارة فى النفس الناطقة ، فمثلاً لو اضطررت للكلام وفى فمك طعام ، فإنك تشير لولدك أو لخادمك مثلاً ويفهم عنك ويفعل ما تريد .

إذن : فينا نحن الأسوياء بقايا خَرس نستعمله ، حينما لا يسعفنا النطق إذن : التفاهم أمر ضرورى ، واللغة وليدة المحاكاة ؛ لذلك نقول للولد الصغير : لا تخرج إلى الشارع ، لماذا ؟ حتى لا تسمع أذنه كلاماً قبيحاً فيحكيه هو .

إذن : كيف تعلمتُ اللغة ؟ تعلمتها من أبى ومن المحيط بى ، وتعلمها أبى من أبيه ، ومن المحيطين به ، وهكذا . ولك أن تسلسل هذه المسألة كما سلسلنا التكاثر فى الإنسان ، وسوف نعود بالتالى إلى أبينا آدم عليه السلام ، وعندها نقول : ومَنْ علَّم آدم اللغة ؟ يردُّ علينا القرآن : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا .. (٣١) ﴾ [البقرة] هذا كلام منطقى استقرائى يدلُّ دلالة قاطعة على صدْق آيات القرآن .

وقوله سبحانه : ﴿ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ (٢٠) ﴾ [الروم] ثم : أى بعد أنْ خلقنا الله من تراب تكاثر الخَلْق وتزايدوا بسرعة ؛ لأن السياق استعمل هنا (إذا) الفجائية الدالة على الفجأة ، والتى يُمثِّلون لها بقولهم : خرجتُ فإذا أسدٌ بالباب ، يعنى : فاجأنى ، فالمعنى أنكم تتزايدون وتنتشرون فى الأرض بسرعة ، ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) ﴾

قلنا : إن الآية هى الشىء العجيب الذى يقف عنده العقل مندهشاً دهشةً تُورث إعجاباً ، وإعجاباً يُورث يقيناً بحكمة الخالق . من هذه الآيات العجيبة الباهرة ﴿أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا .. (٢١)﴾ [الروم] يعنى : من جنسكم ونوعكم .

فلم يشأ سبحانه أنْ يحدث التكاثر مثلاً بين إنسان وبقرة ، لا إنما إنسان مع إنسان ، يختلف معه فقط فى النوع ، هذا ذكر وهذه أنثى ، والاختلاف فى النوع اختلاف تكامل ، لا اختلاف تعاند وتصادم ، فالمرأة للرقّة والليونة والحنان ، والرجل للقوة والخشونة ، فهى تفرح بقوته ورجولته ، وهو يفرح بنعومتها وأنوثتها ، فيحدث التكامل الذى أراده الله وقصده للتكاثر فى بنى الإنسان .

وعجيب أنْ يرى البعض أن الذكورة نقيض الأنوثة ، ويثيرون بينهما الخلاف المفتعل الذى لا معنى له ، فالذكورة والأنوثة ضرورتان متكاملتان كتكامل الليل والنهار ، وهما آيتان يستقبلهما الناس جميعاً ، هل نُجرى مقارنة بين الليل والنهار .. أيهما أفضل ؟ لذلك تأمل دقة الأداء القرآنى حينما جمع بين الليل والنهار ، وبين الذكر والأنثى ، وتدبّر هذا المعنى الدقيق :

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ (١) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ (٢) وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ (٣) إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ (٤)﴾ [الليل] أى : مختلف ، فلكُلٍّ منكما مهمته ، كما أن الليل للراحة ، والسكون والنهار للسعى والعمل ، وبتكامل سَعْيكما ينشأ التكامل الأعلى .

فلا داعى إذن لأنْ أطلب المساواة بالمرأة ، ولا أنْ تطلب المرأة المساواة بالرجل ، لقد صُدعت رءوسنا من هؤلاء المنادين بهذه المساواة المزعومة ، والتى لا معنى لها بعد قوله تعالى ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ (٤)﴾ [الليل]

وعجيب أن نسمع من يقول ـ من الرجال ـ ينبغى للمرأة أن تحتل مكان الرجل ، وأنْ تؤدى ما يؤديه . ونقول : لا تستطيع أن تُحمِّل المرأة مهمة الرجل إلا إذا حمَّلْتَ الرجل مهمة المرأة ، فيحمل كما تحمل ، ويلد كما تلد ، ويُرضِع كما تُرضِع ، فدعونا من شعارات (البلطجية) الذين يهرفون بما لا يعرفون .

ومثل هذا قوله تعالى : ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ .. (١٢٨)﴾ [التوبة] أى : من جنسكم وبشريتكم ، فهو نفس لها كل طاقات البشر ، ليكون لكم أسوة ، ولو جاء الرسول ملَكاً لما تحققتْ فيه الأسوة ، ولَقُلْتم هذا ملَك ، ونحن لا نقدر على ما يقدر هو عليه . أو ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ .. (١٢٨)﴾ [التوبة] يعنى : من العرب ومن قريش .

والبعض[1] يرى أن ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ .. (١٢٨)﴾ [التوبة] يعنى : خَلْق حواء من ضلع آدم ، فهى من أنفسنا يعنى : قطعة منا ، لكن الكلام هنا ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ .. (١٢٨)﴾ [التوبة] مخاطب به الذكر والأنثى معاً ، كما أن الأزواج تُطلق عليهما أيضاً ، على الرجل وعلى المرأة ، والبعض يفهم أن الزوج يعنى اثنين ، لكن الزوج مفرد معه مثله ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ .. (٣)﴾ [الرعد]

وفى الماضى كنا نعتقد أن نوع الجنين إنما يتحدد من ماء الرجل وماء المرأة ، لكن القرآن يقول غير ذلك : ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ (٣٧)﴾ [القيامة] فماء المرأة لا دخلَ له فى نوع الجنين ، ذكراً كان أم أنثى ، الذكورة والأنوثة يحددها ماء الرجل .

---

(١) قاله قتادة . المراد حواء خلقها الله من ضلع من أضلاع آدم . ذكره القرطبى فى تفسيره (٥٢٧٢/٧) ، وعزاه السيوطى فى الدر المنثور (٤٩٠/٦) لعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة . وأخذ به ابن كثير فى تفسيره (٤٢٩/٣) .

وهذا ما أثبته العلم الحديث ، وعلى هذا نقول ﴿ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا .. (٢١) ﴾ [الروم] يعنى : من ذكور الأزواج[1] ، خلق منك ميكروباً هو (الإكس أو الإكس واى) كما اصطلح عليه العلم الحديث ، وهو يعنى الذكورة والأنوثة .

وسبق أنْ ذكرنا فى هذه المسألة قصة أبى حمزة الرجل العربى الذى تزوج على امرأته ؛ لأنها لا تنجب البنين ، وهجرها لهذا السبب فقالت بما لديها من سليقة عربية ، وقَوْلُها دليل على علم العرب قديماً بهذه الحقيقة التى أثبتها العلم مؤخراً ، قالت :

مَا لأبى حَمْزَةَ لاَ يأْتينَا ... غَضْبَان ألاَّ نَلِدَ البَنِينَا
تَاللَّه مَا ذَلكَ فى أَيْدينَا ... ونحن كالأرْضِ لِزَارِعِينا
نُعطى لَهُمْ مثْل الذى أُعْطينَا

والحق سبحانه بهذا يريد أن يقول : إننى أريد خليفة متكاثراً ليعمر هذه الأرض الواسعة ، فإذا رأيتَ مكاناً قد ضاق بأهله فاعلم أن هناك مكاناً آخر خالياً ، فالمسألة سوء توزيع لخَلْق الله على أرض الله .

لذلك يقولون : إن سبب الأزمات أن يوجد رجال بلا أرض ، وأرض بلا رجال ، وضربنا مثلاً لذلك بأرض السودان الخصبة التى لا تجد مَنْ يزرعها ، ولو زُرِعَتْ لكفَت العالم العربى كله ، فى حين نعيش نحن فى الوادى والدلتا حتى ضاقتْ بنا ، فإنْ فكرت فى الهجرة إلى هذه الأماكن الخالية واجهتْك مشاكل الحدود التى قيدوا الناس بها ، وما أنزل الله بها من سلطان .

---

(١) أخذ بهذا الرأى القرطبى فى تفسيره (٥٢٧٣/٧) ، فقال : « ﴿ مِّنْ أَنفُسِكُمْ .. (٢١) ﴾ [الروم] . أى : من نطف الرجال ومن جنسكم » وذكر قول قتادة بصيغة التمريض (بالميم) « قيل » . قال الشيخ أحمد شاكر فى كتابه « الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث » لابن كثير ـ ص ٣٤ ـ مطبعة صبيح : « صيغة الجزم ، قال ، وروى ، وجاء ، وعن » وصيغة التمريض (بالميم) نحو ، « قيل ، ورُوى عن ، ويُروى ، ويُذكر » ونحوها .

لذلك لما أُتيح لنا الحديث فى الأمم المتحدة قلت لهم : آية واحدة فى كتاب الله لو عملتم بها لَحلَّتْ لكم المشاكل الاقتصادية فى العالم كله ، يقول تعالى : ﴿وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ (١٠)﴾ [الرحمن] فالأرض كل الأرض للأنام ، كل الأنام على الإطلاق .

واقرأ قوله تعالى فى هذه المسألة : ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا .. (٩٧)﴾ [النساء] إذن : لا تعارض منهج الله وقدره فى أحكامه ، ثم تشكو الفساد والضيق والأزمات ، إنك لو استقرأتَ ظواهر الكون لما وجدتَ فساداً أبداً إلا فيما تتناوله يد الإنسان على غير القانون والمنهج الذى وضعه خالق هذا الكون سبحانه ، أما ما لا تتناوله يد الإنسان فتراه منضبطاً لا يختل ولا يتخلف .

إذن : المشاكل والأزمات إنما تنشأ حينما نسير فى كون الله على غير هدى الله وبغير منهجه ؛ لذلك تسمع مَنْ يقول : العيشة ضَنْك ، فلا يقفز إلى ذهنك عند سماع هذه الكلمة إلا مشكلة الفقر ، لكن الضنك أوسع من ذلك بكثير ، فقد يوجد الغِنَى والترف ورَغَد العيش ، وترى الناس مع ذلك فى ضنك شديد .

فانظر مثلاً إلى السويد ، وهى من أغنى دول العالم ، ومع ذلك يكثر بها الجنون والشذوذ والعقد النفسية ، ويكثر بها الانتحار نتيجة الضيق الذى يعانونه ، مع أنهم أغنى وأعلى فى مستوى دخل الفرد .

فالمسألة ـ إذن ـ ليست حالة اقتصادية ، إنما مسألة منهج لله تعالى غير مُطبَّق وغير معمول به ، وصدق الله : ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤)﴾ [طه]

لذلك لو عِشْنا بمنهج الله لوجدنا لذة العيش ولو مع الفقر .

وقوله تعالى : ﴿لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا.. (٢١)﴾ [الروم] هذه هى العلة الأصيلة فى الزواج ، أى : يسكن الزوجان أحدهما للآخر ، والسكن لا يكون إلا عن حركة ، كذلك فالرجل طوال يومه فى حركة العمل والسعى على المعاش يكدح ويتعب ، فيريد آخر النهار أن يسكن إلى مَنْ يريحه ويواسيه ، فلا يجد غير زوجته عندها السَّكَن والحنان والعطف والرقة ، وفى هذا السكَن يرتاح ويستعيد نشاطه للعمل فى غد .

لكن تصور إنْ عاد الرجل مُتْعباً فلم يجد هذا السكن ، بل وجد زوجته ومحلّ سكنه وراحته تزيده تعباً ، وتكدِّر عليه صَفْوه . إذن : ينبغى للمرأة أنْ تعلم معنى السَّكَن هنا ، وأن تؤدى مهمتها لتستقيم أمور الحياة .

ثم إن الأمر لا يقتصر على السَّكَن إنما ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً.. (٢١)﴾ [الروم] المودة هى الحب المتبادل فى (مشوار) الحياة وشراكتها ، فهو يكدح ويُوفر لوازم العيش ، وهى تكدح لتدبر أمور البيت وتربية الأولاد ؛ لأن الله يقول ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ (٤)﴾ [الليل] هذا فى إطار من الحب والحنان المتبادل .

أما الرحمة فتأتى فى مؤخرة هذه الصفات : سكن ومودة ورحمة ، ذلك لأن البشر عامة أبناء أغيار ، وكثيراً ما تتغير أحوالهم ، فالقوى قد يصير إلى الضعف ، والغنى قد يصير إلى فقر ، والمرأة الجميلة تُغيِّرها الأيام أو يهدّها المرض ... الخ .

لذلك يلفت القرآن أنظارنا إلى أن هذه المرحلة التى ربما فقدتم فيها السكن ، وفقدتُم المودة ، فإن الرحمة تسعكما ، فليرحم الزوج زوجته إنْ قَصُرت إمكاناتها للقيام بواجبها ، ولترحم الزوجة زوجها إنْ أقعده المرض أو أصابه الفقر .. الخ .

وكثير من كبار السن من الذين يتقون الله ويراعون هذه التعاليم يعيشون حياتهم الزوجية على هذا المبدأ مبدأ الرحمة ، لذلك حينما يُلمِّحون للمرأة التى أقعد المرض زوجها تقول : (أنا آكله لحم وأرميه عظم ؟) .

هذه هى المرأة ذات الدين التى تعيدنا إلى حديث رسول الله فى اختيار الزوجة : « تُنكح المرأة لأربع : لمالها ، ولحسبها ، ولجمالها ـ وهذه كلها أغيار ـ ولدينها ، فاظفر بذات الدين تربت يداك »[(١)] . فأنت وهى أبناء أغيار ، لا يثبت أحد منكما على حاله ، فيجب أنْ تردا إلى شىء ثابت ومنهج محايد لا هوى له ، يميل به إلى أحدكما ، منهج أنتما فيه سواء ، ولن تجدوا ذلك إلا فى دين الله .

لذلك يحذرنا النبى ﷺ : « إذا جاءكم مَنْ ترضون دينه وخُلقه فزوِّجوه ، إلا تفعلوا تكُنْ فتنة فى الأرض وفساد كبير »[(٢)] .

وإياك حين تكبر زوجتك أن تقول إنها لم تعد تملأ نظرى ، أو كذا وكذا ، لأن الزوجة ما جعلها الله إلا سكناً لك وأنثى ووعاءً ، فإذا هاجتْ غرائزك بطبيعتها تجد مصرفاً ، كما قال النبى ﷺ : « إذا رأى أحدكم امرأة فأعجبته ـ أى : تعجبه وتحرّك فى نفسه نوازع ـ فليأْتِ أهله ، فإنْ البُضْع واحد »[(٣)] .

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٢/٤٢٨) ، وأبو داود فى سننه (٢٠٤٧) ، وابن ماجة فى سننه (١٨٥٨) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

(٢) أخرجه الترمذى فى سننه (١٠٨٤) ، وابن ماجة فى سننه (١٩٦٧) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه . قال البوصيرى فى الزوائد : « الحديث قد أخرجه الترمذى ورجح إرساله . ثم أخرجه من حديث أبى حاتم المزنىّ ، وقال فيه : إنه حسن » .

(٣) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٣/٣٣٠ ، ٣٤١ ، ٣٤٨ ، ٣٩٥) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٤٠٣) من حديث جابر رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ رأى امرأة فأتى امرأته زينب ، فقضى حاجته ، ثم خرج إلى أصحابه فقال : « إن المرأة تقبل فى صورة شيطان ، وتدبر فى صورة شيطان ، فإذا أبصر أحدكم امرأة فليأت أهله ، فإن ذلك يرد ما فى نفسه » .

وكلما طبَّق الزوجان المقاييس الدينية ، وتحلَّيا بآداب الدين وجد كل منهما فى الآخر ما يعجبه ، فإنْ ذهب الجمال الظاهرى مع الزمن فسيبقى جمال الروح ووقارها ، سيبقى فى المرأة جمال الطبع والسلوك ، وكلما تذكرتَ إخلاصها لك وتفانيها فى خدمتك وحرْصها على معاشك ورعايتها لحرمة بيتك كلّما تمسكْت بها ، وازددتَ حباً لها .

وكذلك الحال بالنسبة للزوجة ، فلكل مرحلة من العمر جاذبيتها وجمالها الذى يُعوِّضنا ما فات .

ولما كان من طبيعة المرأة أنْ يظهر عليها علامات الكبَر أكثر من الرجل ؛ لذلك كان على الرجل أنْ يراعى هذه المسألة ، فلما سأل أحدهم الحسن : لقد تقدم رجل يخطب ابنتى وصفَته كيت وكيت ، قال : لا تنكحها إلا رجلاً مؤمناً ، إنْ أحبها أكرمها ، وإنْ كرهها لم يظلمها .

ثم يقول سبحانه : ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢١)﴾ [الروم] يتفكرون فى هذه المسائل وفى هذه المراحل التى تمرُّ بالحياة الزوجية ، وكيف أن الله تعالى جعل لنا الأزواج من أنفسنا ، وليستْ من جنس آخر ، وكيف بنى هذه العلاقة على السَّكَن والحب والمودة ، ثم فى مرحلة الكبَر على الرحمة التى يجب أنْ يتعايش بها الزوجان طيلة حياتهما معاً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ (٢٢)﴾

فى خَلْق السموات والأرض آيات أظهرها لنا كما قال فى موضع آخر إنها تقوم على غير عمد : ﴿خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا .. ﴿١٠﴾﴾ [لقمان]

فالسماء التى تروْنها على امتداد الأفق تقوم بغير أعمدة[1] ، ولكم أنْ تسيروا فى الأرض ، وأنْ تبحثوا عن هذه العُمد فلن تروْا شيئاً . أو ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا .. ﴿١٠﴾﴾ [لقمان] يعنى : هى موجودة لكن لا ترونها[2] .

والمنطق يقتضى أن الشىء العالى لا بُدَّ له إما من عُمُد تحمله من أسفل ، أو قوة تُمسكه من أعلى ؛ لذلك ينبغى أنْ نجمع بين الآيات لتكتمل لدينا هذه الصورة ، فالحق سبحانه يقول فى موضع آخر : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا .. ﴿٤١﴾﴾ [فاطر]

إذن : ليست للسماء أعمدة ، إنما يمسكها خالقها - عز وجل - من أعلى ، فلا تقع على الأرض إلا بإذنه ، ولا تتعجب من هذه المسألة ، فقد أعطانا الله تعالى مثالاً مُشَاهداً فى قوله سبحانه : ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ اللَّهُ .. ﴿٧٩﴾﴾ [النحل]

فإنْ قُلْت : يمسكها فى جو السماء حركة الجناحين ورفرفتها التى تحدث مقاومة للهواء ، فترتفع به ، وتمسك نفسها فى الجو ، نقول :

---

(١) قال الحسن وقتادة : ليس لها عمد مرئية ولا غير مرئية . [تفسير ابن كثير ٤٤٢/٣] وقال (٤٩٩/٢) : « قال إياس بن معاوية : السماء على الأرض مثل القبة يعنى : بلا عمد ، وكذا روى عن قتادة ، وهذا هو اللائق بالسياق والظاهر من قوله تعالى : ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ .. ﴿٦٥﴾﴾ [الحج] » .

(٢) قاله ابن عباس وعكرمة ومجاهد : لها عمد لا ترونها . (نقله ابن كثير فى تفسيره ٤٤٢/٣) وقال (٤٩٩/٢) : « روى عن ابن عباس ومجاهد والحسن وقتادة وغير واحد أنهم قالوا : لها عمد ولكن لا تُرى » .

وتُمسك أيضـاً فى جو السماء بـدون حركة الجناحين ، واقـرأ إنْ شئتَ قوله تعالى : ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ .. (١٩)﴾[الملك]

فترى الطير فى السماء مادّاً جناحيه ثابتاً بدون حركة ، ومع ذلك لا يقع على الأرض ولا يُمسكه فى جَوِّ السماء إذن إلا قدرة الله .

إذن : خُذْ مما تشاهد دليـلاً على صدْق ما لا تشاهد ؛ لذلك يقول سبـحانه : ﴿لَخَلْقُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَـرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ .. (٥٧)﴾ [غافر] مع أنها خُلِقت لخدمة الإنسان .

فمع أنك أيهـا الإنسان مظهر من مظاهر قـدرة الله ، وفيك انطوى العالم الأكبر ، إلا أن عمرك محدود لا يُعَدُّ شيئاً إذا قِيسَ بعمر الأرض والسماء والشمس والقمر .. الخ .

ثم يعـود السـياق هـنا إلى آية من آيـات الله فى الإنسـان : ﴿وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ .. (٢٢)﴾ [الروم] اللسان يُطلَق على اللغة كما قـال تعالى ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ (١٩٥)﴾ [الشعراء] وقال : ﴿لِّسَانُ الَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ (١٠٣)﴾ [النحل]

ويُطلَق أيضاً على هذه الجارحة المعروفة ، وإنما أُطلق اللسان على اللغـة ؛ لأن أغلبهـا يعتـمد على الـلسان وعلى النطق ، مع أن اللسـان يُمثِّل جزءاً بسيطاً فى عملية النطق ، حيث يشترك معه فى النطق الفم والأسنان والشفتان والأحبال الصـوتية .. الخ ، لكن اللسان هو العمدة فى هذه العملية . إذن : فاختلاف الألسنة يعنى اختلاف اللغات .

وسبق أنْ قُلْنا : إن اللغـة ظاهرة اجتماعـية يكتسبهـا الإنسان من البيئـة المحيطة به ، وحين نسلسلهـا لا بُدَّ أنْ نصلَ بها إلى أبينا آدم عليـه السلام ، وقلنا : إن الله تعـالى هو الذى علَّمه اللغـة حين علَّـمه

الأسماء كلها ، ثم يتخذ آدم وذريته من بعده هذه الأسماء ليتفاهموا بها ، وليضيفوا إليها أسماء جديدة .

لذلك نرى أولادنا مثلاً حينما نريد أنْ نُعلِّمهم ونُرقِّيهم نُعلِّمهم أولاً أسماء الأشياء قبل أنْ يتعلموا الأفعال ؛ لأن الاسم أظهر ، ألاَ ترى أن الفِعْل والحدث يدل عليه باسم ، فكلمة (فِعْل) هى ذاتها اسم .

لكن ، كيف ينشأ اختلاف اللغات ؟ لو تأملنا مثلاً اللغة العربية نجدها لغة واحدةً ، لكن بيئاتها متعددة : هذا مصرى ، وهذا سودانى ، وهذا سورى ، مغربى ، عراقى ... الخ نشترك جميعاً فى لغة واحدة ، لكن لكل بيئة لهجة خاصة قد لا تُفهَم فى البيئة الأخرى ، أما إذا تحدَّثنا جميعاً باللغة العربية لغة القرآن تفاهم الجميع بها .

أما اختلاف اللغات فينشأ عن انعزال البيئات بعضها عن بعض ، هذا الانعزال يؤدى إلى وجود لغة جديدة ، فمثلاً الإنجليزية والفرنسية والألمانية و ... الخ ترجع جميعها إلى أصل واحد هو اللغة اللاتينية ، فلما انعزلتْ البيئات أرادتْ كل منها أن يكون لها استقلالية ذاتية بلغة خاصة بها مستقلة بألفاظها وقواعدها .

أو ﴿ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ .. (٢٢) ﴾ [الروم] يعنى : اختلاف ما ينشأ عن اللسان وغيره من آلات الكلام من أصوات مختلفة ، كما نرى الآن فى آخر صيحات علم الأصوات أنْ يجدوا للصوت بصمة تختلف من شخص لآخر كبصمة الأصابع ، بل بصمة الصوت أوضح دلالة من بصمة اليد .

ورأينا لذلك خزائن تُضْبط على بصمة صوت صاحبها ، فساعة يُصدر لها صوتاً تفتح له .

ومن العجيب والمدهش فى مجال الصوت أن المصوِّتات كثيرة

منها : الجماد كحفيف الشجر وخرير الماء ، ومنها : الحيوان ، نقول : نقيق الضفادع وصهيل الخيل ، ونهيق الحمار ، وثُغَاء الشاة ، ورُغَاء الإبل .. الخ لكن بالله أسألك : لو سمعتَ صوت حمار ينهق ، أتستطيع أن تقول هذا حمار فلان ؟ لا ، لأن كل الأصوات من كُلِّ الأجناس خلا الإنسان صوتها واحد لا يميزه شيء .

أما فى الإنسان ، فلكُلٍّ منّا صوته المميز فى نبرته وحدّته واستعلائه أو استفاله ، أو فى رقته أو فى تضخيمه .. الخ . فلَماذا إذن تميَّز صوت الإنسان بهذه الميزة عن باقى الأصوات ؟

قالوا : لأن الجماد والحيوان ليس لهما مسئوليات ينبغى أنْ تُضبط وأنْ تُحدَّد كما للإنسان ، وإلا كيف نُميز المجرم حين يرتكب جريمته ونحن لا نعرف اسمه ، ولا نعرف شيئاً من أوصافه ؟ وحتى لو عرفنا أوصافه فإنها لا تدلُّنا عليه دلالة قاطعة تُحدِّد المسئولية ويترتب عليها الجزاء .

وقال سبحانه بعدها ﴿وَأَلْوَانِكُمْ.. (٢٢)﴾ [الروم] فاختلاف الألسنة والألوان ليحدث هذا التميُّز بين الناس ، ولأن الإنسان هو المسئول خلق اللهُ فيه اختلافَ الألسنة والألوان ؛ لنستدل عليه بشكله : بطوله أو قِصَره أو ملابسه ... الخ .

وفى ذلك ما يضبط سلوك الإنسان ويُقوِّمه حين يعلم أنه لن يفلت بفِعْلته ، ولا بُدَّ أنْ يدل عليه شيء من هذه المميزات .

لذلك نرى رجال البحث الجنائى ينظمون خطة للبحث عن المجرم قد تطول ، لماذا ؟ لأنهم يريدون أنْ يُضيِّقوا دائرة البحث فيُخرجون منها مَنْ لا تنطبق عليه مواصفاتهم ، وما يزالون يُضيِّقون الدائرة حتى يصلوا للجانى .

والحق - تبارك وتعالى - يقول : ﴿يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن

ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا .. (١٣) ﴾ [الحجرات]

فالتميُّز والتعارف أمر ضرورى لاستقامة حركة الحياة ، ألاَ ترى الرجل يضع لكل ولد من أولاده اسماً يُميِّزه ، فإن عشق اسم محمد مثلاً ، وأحب أن يسمى كل أولاده محمداً لا بد أن يميزه ، فهذا محمد الكبير ، وهذا محمد الصغير ، وهذا الأوسط .. الخ .

إذن : لا بُدَّ أن يتميز الخَلْق لنستطيع تحديد المسئوليات .

ثم يقول سبحانه : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ .. (٢٢) ﴾ [الروم] أى : فى الخَلْق على هذه الهيئة الحكيمة المحكمة ﴿ لَآيَاتٍ .. (٢٢) ﴾ [الروم] لنعتبر بها ، فالخالق سبحانه إنْ وحَّد الصفات فدليل على الحكمة ، وإن اختلفت فدليل على طلاقة القدرة . وانظر مثلاً إلى الصانع الذى يصنع أكواب الزجاج ، تراه يأخذ عجينة الزجاج ويصبُّها فى قالب فتخرج جميعها على شكل واحد ، أما الخباز مثلاً فيأخذ العجينة ويجعلها رغيفاً فلا ترى رغيفاً مثل الآخر .

أمَّا الخالق ـ عز وجل ـ فيخلق بحكمة وبطلاقة قدرة ، ويخلق سبحانه ما يشاء ، غير محكوم بقالب معين .

وقوله ﴿ لِّلْعَالِمِينَ .. (٢٢) ﴾ [الروم] أى : الذين يبحثون فى الأشياء ، ولا يقفون عند ظواهرها ، إنما يتغلغلون فى بطونها ، ويَسْبرون أغوارها للوصول إلى حقيقتها .

لذلك يلوم علينا ربنا عز وجل : ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥) ﴾ [يوسف] فلا يليق بأصحاب العقول أن يغفلوا عن هذه الآيات ، إنما يتأملونها ليستنبطوا منها ما ينفعهم فى مستقبل حياتهم ، كما نرى فى المخترعات والاكتشافات الحديثة التى خدمتْ البشرية ، كالذى اخترع عصر

البخار ، والذى اخترع العجلة ، والذى اكتشف الكهرباء والجاذبية والبنسلين .. الخ . إذن : نمر على آيات الله فى الكون بيقظة ، وكل العلوم التجريبية نتيجة لهذه اليقظة .

والعَالمون : جمع عالم ، وكانت تطلق فى الماضى على مَنْ يعرف الحلال والحرام ، لكن هى أوسع من ذلك ، فالعالم : كل مَنْ يعلم قضية كونية أو شرعية ، ويُسمَّى هذا « عالم بالكونيات » وهذا عالم بالشرع ، وإنْ شئتَ فاقرأ :

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ .. (٢٨)﴾ [فاطر]

فذكر سبحانه النبات ، ثم الجماد ، ثم الناس ، ثم الحيوان .

ثم يقول سبحانه : ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ .. (٢٨)﴾ [فاطر] على إطلاقها فلم يُحدِّد أى علماء : علماء النبات ، أو الحيوان ، أو الجمادات ، أو علماء الشرع ، إذن : العَالِم كل مَنْ يعلم حقيقة فى الكون وجودية أو شرعية من عند الله .

لكن ، لماذا أطلقوا العالم على العالِم بالشرع خاصة ؟ قالوا : لأنه أول العلوم المفيدة التى عرفوها ؛ لذلك رأينا من آداب العلم فى الإسلام ألاَّ يُدخل علماء الشرع أنفسهم فى الكونيات ، وألاَّ يُدخل علماء الكونيات أنفسهم فى علوم الشرع .

والذى أحدث الاضطراب بين هذه التخصصات أن يقول مثلاً علماء الكونيات بأن الأرض تدور حول الشمس ، فيقوم من علماء الدين مَنْ يقول : هذا مخالف للدين ـ هكذا عن غير دراسة ، سبحان الله ، لماذا تُقحِم نفسك فيما لا تعلم ؟ وماذا يضيرك كعالم بالشرع أن تكون

الأرض كرة تدور أو لا تدور ؟ ما الحرام الذى زاد بدوران الأرض وما الحلال الذى انتقص ؟ كذلك الحال لما صعد الإنسان إلى القمر ، اعترض على ذلك بعض رجال الدين .

كذلك نسمع مَنْ لا علْم له بالشرع يعترض على بعض مسائل الشرع يقول : هذه لا يقبلها العقل . إذن : آفة العلم أن يقحم العالم نفسه فيما لا يعلم ، ولو التزم كلٌّ بما يعلم لارتاح الجميع ، وتركت كل ساحة لأهلها .

وعجيب أن يستشهد رجال الدين على عدم كروية الأرض بقوله تعالى : ﴿وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا .. (١٩)﴾ [الحجر] ولو تأملوا معنى ﴿مَدَدْنَاهَا .. (١٩)﴾ [الحجر] لما اعترضوا ؛ لأن معنى مددناها يعنى : كلما سرْتُ فى الأرض وجدتها ممتدة لا تنتهى حتى تعود إلى النقطة التى بدأت منها ، وهذا يعنى أنها كرة لا نهاية لها ، ولو كانت مُسطحة أو مُثلثة مثلاً لكان لها نهاية .

إذن : نقول للعلماء عموماً : لا تُدخلوا أنوفكم فيما لا علْم لكم به ، ودَعُوا المجال لأصحابه ، عملاً بقولَه تعالى : ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ .. (٦٠)﴾ [البقرة]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٢٣)﴾

كذلك من الآيات العجيبة الدالة على قدرة الله ﴿مَنَامُكُم .. (٢٣)﴾ [الروم] فحتى الآن لم يكشف علماء وظائف الأعضاء والتشريح عن سرٍّ

النوم ، ولم يعرفوا - رغم ما قاموا به من تجارب - ما هو النوم . لكن هو ظاهرة موجودة وغالبة لا يقاومها أحد مهما أُوتِى من القوة ، ومهما حاول السهر دون أنْ ينام ، لا بُدَّ أن يغلبه النوم فينام ، ولو على الحصى والقتاد ، ينام وهو واقف وهو يحمل شيئاً لا بُدَّ أنْ ينام على أية حالة .

وفلسفة النوم ، لا أن نعرف كيف ننام ، إنما أن نعرف لماذا ننام ؟ قالوا : لأن الإنسان مُكوَّن من طاقات وأجهزة لكل منها مهمة ، فالعين للرؤية ، والأذن للسمع .. الخ ، فساعة تُجهد أجهزة الجسم تصل بك إلى مرحلة ليستْ قادرة عندها على العمل ، فتحتاج أنت - بدون شعورك وبأمر غريزى - إلى أن ترتاح كأنها تقول لك كفى لم تَعُد صالحاً للعمل ولا للحركة فنم .

ومن عجيب أمر النوم أنه لا يأتى بالاستدعاء ؛ لأنك قد تستدعى النوم بشتى الطرق فلا يطاوعك ولا تنام ، فإنْ جاءك هو غلبك على أىِّ حال كنتَ ، ورغم الضوضاء والأصوات المزعجة تنام . لذلك يقول الرجل العربى : النوم طيف إنْ طلبتَه أعْنَتَك ، وإنْ طلبك أراحك .

ولأهل المعرفة نظرة ومعنى كونى جميل فى النوم ، يقولون فى قوله تعالى : ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ .. (٤٤)﴾ [الإسراء] فكل ما فى الوجود يُسبِّح حتى أبعاض الكافر وأعضاؤه مُسبحة ، إنما إرادته هى الكافرة ، وتظل هذه الأبعاض خاضعة لإرادة صاحبها إلى أنْ تنفكّ عن هذه الإرادة يوم القيامة ، فتشهد عليه بما كان منه ، وبما أجبرها عليه من معصية الله .

وسبق أنْ مثَّلْنَا لذلك بقائد الكتيبة حين يطيعه جنوده ولو فى

الخطأ ؛ لأن طاعته واجبة إلى أنْ يعودوا إلى القائد الأعلى فيتظلمون عنده ، ويخبرونه بما كان من قائدهم .

وذكرنا أن أحد قواد الحرب العالمية أراد أنْ يستخدم خدعة يتفوق بها على عدوه ، رغم أنها تخالف قانون الحرب عندهم ، فلما أفلحتْ خُطّته وانتصر على عدوه كرَّموه على اجتهاده ، لكن لم يَفُتهم أنْ يعاقبوه على مخالفته للقوانين العسكرية ، وإنْ كان عقاباً صُورياً لتظل للقانون مهابته .

كذلك أبعاض الكافر تخضع له في الدنيا ، وتشهد عليه يوم القيامة : ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤)﴾ [النور]

مع أن هذه الجوارح هى التى نطقتْ بكلمة الكفر ، وهى التى سرقتْ .. الخ ؛ لأن الله أخضعها لإرادة صاحبها ، أما يوم القيامة فلا إرادةَ له على جوارحه : ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِى أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ .. (٢١)﴾ [فصلت] لذلك يُطمئننا الحق سبحانه بقوله : ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦)﴾ [غافر]

فإذا ما نام الكافر ارتاحتْ منه أبعاضه وجوارحه ، ارتاحتْ من مرادات الشر عنده ؛ لذلك يُحدِّثنا إخواننا الذين يحجُّون بيت الله يقولون : هناك النوم فيه بركة ، ويكفينى أقلّ وقت لأرتاح ، لماذا ؟ لأن فكرك فى الحج مشغول بطاعة الله ، ووقتك كله للعبادة ، فجوارحك فى راحة واطمئنان لم ترهقها المعصية ؛ لذلك يكفيها أقل وقت من النوم لترتاح .

وفى ضوء هذا الفهم نفهم قول النبى ﷺ : « تنام عينى ولا ينام

قلبى »[1] لأنه ﷺ حياته كلها للطاعة ، فجوارحه مستريحة ، فيكفيه من النوم مجرد الإغفاءة .

وفى العامية يقول أهل الريف : نوم الظالم عبادة ، لماذا ؟ لأنه مدة نومه لا يأمر جوارحه بشرٍّ ، ولا يُرغمها على معصية فتستريح منه أبعاضه ، ويستريح الناس والدنيا من شره ، وأىّ عبادة أعظم من هذه ؟

ونلحظ فى هذه الآية ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ .. (٢٣)﴾ [الروم] فجعل الليل والنهار محلاً للنوم ، ولابتغاء الرزق ، وفى آية أخرى : ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ (٧٣)﴾ [القصص] فجمعهما معاً ، ثم ذكر تفصيل ذلك على الترتيب ﴿لِتَسْكُنُوا فِيهِ (٧٣)﴾ [القصص] أى : فى الليل ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ (٧٣)﴾ [القصص] أى : فى النهار .

وهذا أسلوب يُعرف فى اللغة باللفِّ والنشر ، وهو أنْ تذكر عدة أشياء محكوماً عليها ، ثم تذكر بعدها الحكمَ عليها جملةً ، وتتركه لذكاء السامع ليُرجِع كل حكم إلى المحكوم عليه المناسب .

ومن ذلك قول الشاعر :

قَلْبى وجَفْنِى واللسَان وخَالِقى ... رَاضٍ وبَاكٍ شَاكِرٍ وغَفُور

فجمع المحكوم عليه فى ناحية ، ثم الحكم فى ناحية ، فجَمْع المحكوم عليه يسمى لَفّاً ، وجَمْع الحكم يُسمى نَشْراً .

---

(١) حديث متفق عليه من حديث عائشة رضى الله عنها ، أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٥٦٩) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٧٣٨) أن عائشة سئلت : كيف كانت صلاة رسول الله ﷺ فى رمضان ؟ قالت : ما كان يزيد فى رمضان ولا غيره على إحدى عشرة ركعة : يصلى أربع ركعات فلا تسأل عن حسنهن وطولهن ، ثم أربعاً فلا تسأل عن حسنهن وطولهن ، ثم يصلى ثلاثاً . فقلت : يا رسول الله تنام قبل أن توتر ؟ قال : تنام عينى ، ولا ينام قلبى » .

وهاتان الآيتان من الآيات التى وقف أمامها العلماء ، ولا نستطيع أنْ نخرج منهما بحكم إلا بالجمع بين الآيات ، لا أن نفهم كل آية على حدة ، فنلحظ هنا فى الآية التى معنا ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ .. (٢٣)﴾ [الروم] أن الله تعالى جعل كلاً من الليل والنهار محلاً للنوم ، ومحلاً للسعى .

وفى الآية الأخرى : ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ (٧٣)﴾[القصص] ثم قال ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ (٧٣)﴾ [القصص] ولم يقل (فيه) ويجب هنا أنْ نتنبه ، فهذه آية كونية أن يكون الليل للنوم والسكون والراحة ، والنهار للعمل وللحركة ، فلا مانع أن نعمل بالليل أيضاً ، فبعض الأعمال لا تكون إلا بليل ، كالحراس ورجال الأمن والعسس والخبازين فى المخابز وغيرهم ، وسكن هؤلاء يكون بالنهار ، وبهذا الفهم تتكامل الآيات فى الموضوع الواحد .

إذن : فقوله تعالى : ﴿وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ .. (٢٣)﴾ [الروم] يعنى : طلب الرزق والسَّعْى إليه يكون فى النهار ويكون فى الليل ، لكن جمهرة الناس يبتغونه بالنهار ويسكنون بالليل ، والقلة على عكس ذلك .

فإنْ قلتَ : هذا عندنا حيث يتساوى الليل والنهار ، فما بالك بالبلاد التى يستمر ليلها مثلاً ثلاثة أشهر ، ونهارها كذلك ، نريد أن نفسر الآية على هذا الأساس ، هل يعملون ثلاثة أشهر وينامون ثلاثة أشهر ؟ أم يجعلون من أشهر الليل ليلاً ونهاراً ، ومن أشهر النهار أيضاً ليلاً ونهاراً ؟ لا مانع من ذلك ؛ لأن الإنسان لا يخلو من ليل للراحة ، ونهار للعمل أو العكس ، فكل من الليل والنهار ظرف للعمل أو للراحة .

لذلك ، فالحق ـ تبارك وتعالى ـ يمتنُّ علينا بتعاقُب الليل والنهار ، فيقول سبحانه : ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (٧١)﴾ [القصص] وذيَّل

الآية بأفلا تسمعون ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٧٢)﴾ [القصص] وذيَّل هذه بأفلا تبصرون ، لماذا ؟

قالوا : لأن النهار محلُّ الرؤية والبصر ، أما الليل فلا بصرَ فيه ، فيناسبه السمع ، والأذن هى الوسيلة التى تؤدى مهمتها فى الليل عندما لا تتوفر الرؤية .

وفى موضع آخر : ﴿وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا (٦٢)﴾ [الفرقان] فالليل يخلُف النهار ، والنهار يخلُف الليل ، هذا فى الزمن العادى الذى نعيشه ، أما فى بدْء الخَلْق فأيهما كان أولاً ، ثم خلفه الآخر ؟

فإنْ قلت : إن الليل جاء أولاً ، فالنهار بعده خلْفة له ، لكن الليل فى هذه الحالة لا يكون خلفة لشىء ، والنص السابق يوضح أن كلاً منهما خِلْفة للآخر ، إذن : فما حَلُّ هذا اللغز ؟

مفتاح هذه المسألة يكمن فى كروية الأرض ، ولو أن رسول الله ﷺ أخبر فى بداية البعثة بهذه الحقيقة لما صدَّقوه ، كيف ونحن نرى مَنْ ينكر هذه الحقيقة حتى الآن .

والحق ـ سبحانه وتعالى ـ لا يترك قضية كونية كهذه دون أنْ يمسَّها ولو بلُطْف وخفة ، حتى إذا ارتقت العقول تنبهتْ إليها ، فلو أن الأرض مسطوحة وخلق الله تعالى الشمس فى مواجهة الأرض لاستطعنا أنْ نقول : إن النهار جاء أولاً ، ثم عندما تغيب الشمس يأتى الليل ، أما إنْ كانت البداية خلْق الأرض غير مواجهة للشمس ، فالليل فى هذه الحالة أولاً ، ثم يعقبه النهار ، هذا على اعتبار أن الأرض مسطوحة .

وما دام أن الخالق ـ عز وجل ـ أخبر أن الليل والنهار كل منهما

خلْفة للآخر ، فلا بُدَّ أنه سبحانه خلق الأرض على هيئة بحيث يوجد الليل ويوجد النهار معاً ، فإذا ما دارت دورة الكون خلف كل منهما الآخر ، ولا يتأتّى ذلك إلا إذا كانتْ الأرض مُكوَّرة ، فما واجه الشمسَ منها صار نهاراً ، وما لم يواجه الشمس صار ليلاً .

لذلك يقول سبحانه في آية أخرى : ﴿لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٤٠)﴾ [يس]

فالحق سبحانه ينفى هنا أنْ يسبقَ الليلُ النهارَ ، فلماذا ؟

قالوا : يعتقدون أن الليلَ سابقُ النهار ، ألاَ تراهم يلتمسون أول رمضان بليله لا بنهاره ؟ وما داموا يعتقدون أن الليل سابق النهار ، فالمقابل عندهم أن النهار لا يسبق الليل ، هذه قضية أقرَّها الحق سبحانه ؛ لذلك لم يعدل فيها شيئاً إنما نفى الأولى ﴿وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ..(٤٠)﴾ [يس]

إذن : نفى ما كانوا يعتقدونه ﴿وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ .. (٤٠)﴾ [يس] وصدَّق على ما كانوا يعتقدونه من أن النهار لا يسبق الليل . فنشأ عن هذه المسألة : لا الليل سابق النهار ، ولا النهار سابق الليل ، وهذا لا يتأتّى إلا إذا وُجدا في وقت واحد ، فما واجه الشمسَ كان نهاراً ، وما لم يواجه الشمس كان ليلاً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْيِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٤)﴾

نلحظ فى تذييل الآيات مرة يقول سبحانه ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢١)﴾ [الروم] ومرة ﴿لِّلْعَالِمِينَ (٢٢)﴾ [الروم] ومرة ﴿لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٢٣)﴾ [الروم] أو ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٤)﴾ [الروم] فتختلف الأدوات الباحثة فى الآيات .

والبعض يظن أن العقل آلة يُعملها فى كل شىء ، فالعقل هو الذى يُصدِّق أو لا يُصدِّق ، والحقيقة أنك تستعمل العقل فى مسألة الدين مرة واحدة تُغنيك عن استعماله بعد ذلك ، فأنت تستعمل العقل فى أنْ تؤمن أو لا تؤمن ، فإنْ هداك العقل إلى أن الكون له إله قادر حكيم خالق لا إله إلا هو ووثقتَ بهذه القضية ، فإنها لا تطرأ على تفكيرك مرة أخرى ، ولا يبحثها العقل بعد ذلك ، ثم إنك فى القضايا الفرعية تسير فيها على وَفْق قضية الإيمان الأولى فلا تحتاج فيها للعقل .

لذلك العقلاء يقولون : العقل كالمطية توصلك إلى حضرة السلطان ، لكن لا تدخل معك عليه ، وهكذا العقل أوصلك إلى الإيمان ثم انتهى دوره ، فإذا ما سمعتَ قال الله فأنت واثق من صِدْق القول دون أنْ تُعمل فيه العقلَ .

وحين يقول سبحانه : يعقلون يتفكرون يعلمون ، حين يدعوك للتدبُّر والعظَة إنما ينبه فيك أدوات المعارضة لتتأكد ، والعقل هنا مهمته النظرَ فى البدائل وفى المقدمات والنتائج .

كما لو ذهبتَ مثلاً لتاجر القماش فيعرض عليك بضاعته : فهذا صوف أصلى ، وهذا قطن خالص ، ولا يكتفى بذلك إنما يُريك جودة بضاعته ، فيأخذ (فتلة) من الصوف ، و (فتلة) من القطن ، ويشعل النار فى كل منهما لترى بنفسك ، فالصوف لا ترعى فيه النار على خلاف القطن .

إذن : هو الذى يُنبِّه فيك وسائل النقد ، ولا يفعل ذلك إلا وهو واثق من جودة بضاعته ، أما الآخر الذى لا يثق فى جودة بضاعته

فإنه يلجأ إلى ألاعيب وحيل يغرى بها المشترى ليغُرّه .

كذلك الخالق - عز وجل - يُنبِّهنا إلى البحث والتأمل فى آياته فيقول : تفكَّروا تدبَّروا ، تعقَّلوا ، كونوا علماء واعين لما يدور حولكم ، وهذا دليل على أننا لو بحثنا هذه الآيات لتوصَّلْنا إلى مطلوبه سبحانه ، وهو الإيمان .

والبرق : ظاهرة من ظواهر فصل الشتاء ، حيث نسمع صوتاً مُدوِّياً نسميه الرعد ، بعد أن نرى ضوءاً شديداً يلمع فى الجو نسميه (برق) ، وهو عامل من عوامل كهربة الجو التى توصَّل إليها العلم الحديث ، لكن قبل ذلك كان الناس عندما يروْن البرق لا يفهمون منه إلا أحد أمرين : إما أنْ يأتى بصاعقة تحرقهم ، أو ينزل عليهم المطر ، فيخافون من الصاعقة ويرجون المطر .

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً .. (٢٤)﴾ [الروم] ليظل العبد دائماً مع ربه بين الخوف والرجاء .

لكن أكُلّ الناس يرجون المطر ؟ هَبْ أنك مسافر أو مقيم فى بادية ليس لك كنٌّ تكنُّ فيه ، ولا مأوى يأويك من المطر ، فهذا لا يرجو المطر ولا ينتظره ، لذلك من رحمته تعالى أن يغلب انفعال الطمع فى الماء الذى به تحيا الأرض بالنبات .

﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا .. (٢٤)﴾ [الروم]

وكلمة السماء لها مدلولان : مدلولٌ غالب ، وهى السموات السبع ، ومدلول لُغوى ، وهى كل ما علاَّك فأظلَّك ، وهذا هو المعنى المراد هنا ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً .. (٢٤)﴾ [الروم] لأن المطر إنما ينزل من السحاب ، فالسماء هنا تعنى : كل ما علاك فأظلَّك .

ولو تأملتَ الماء الذى ينزل من السماء لوجدتَّه من سحاب متراكم ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ .. (٤٣)﴾ [النور]

وسبق أنْ تحدَّثنا عن كيفية تكوُّن السُّحُب ، وأنها نتيجة لبخر الماء ، لذلك من حكمته تعالى أنْ جعل ثلاثة أرباع الأرض ماءً والربع يابسة ، ذلك لتتسع رقعة بَخْر الماء ، فكأن الثلاثة الأرباع جعلت لخدمة الرُّبْع ، وليكفى ماء المطر سكان اليابسة .

وبيَّنا أهمية اتساع مسطح الماء فى عملية البخر ، بأنك حين تترك مثلاً كوباً من الماء على المنضدة لمدة طويلة يظل كما هو ، ولو نَقُص منه الماء لكان قليلاً ، أمّا لو سكبتَ ماء الكوب على أرض الغرفة مثلاً فإنه يجفّ فى عدة دقائق لماذا ؟ لأن مسطح الماء اتسع فكَثُر الماء المتبخِّر .

ومثَّلْنا لتكوُّن السُّحُب بعملية التقطير التى نُجريها فى الصيدليات لنحصل منها على الماء النقى المعقم ، وهذه تقوم على نظرية استقبال بخار الماء من الماء المغلى ، ثم تمريره على سطح بارد فيتكثف البخار مُكوِّناً الماء الصافى ، إذن : فأنت حينما تستقبل ماء المطر إنما تستقبل ماءً مقطراً فى غاية الصفاء والنقاء ، دون أن تشعر أنت بهذه العملية ، ودون أن نُكلِّفك فيها شيئاً .

وتأمل هذه الهندسة الكونية العجيبة التى ينشأ عنها المطر ، فحرارة الشمس على سطح الأرض تُبخِّر الماء بالحرارة ، وفى طبقات الجو العليا تنخفض الحرارة فيحدث تكثُّف للماء ويتكوَّن السحاب ، ومن العجيب أننا كلما ارتفعنا ٣٠ متراً عن الأرض تقل الحرارة درجة ، مع أننا نقترب من الشمس ؛ ذلك لأن الشمس لا تُسخِّن

الجو ، إنما تُسخِّن سطح الأرض ، وهو بدوره يعطى الحرارة للجو ؛ لذلك كلما بَعُدنا عن الأرض قلَّتْ درجة الحرارة .

ومن حكمة الله أنْ جعل ماء الأرض الذى يتبخر منه الماء العَذْب جعله مالحاً ؛ لأن ملوحته تحفظه أنْ يأسن ، أو يعطن ، أو تتغير رائحته ، تحفظه أن تنمو به الطفيليات الضارة ، وليظلّ على صلاحه ؛ لأنه مخزن للماء العذب الذى يروى بعذوبته الأرض .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

السماء هنا بمعنى السموات السبع التى تقوم بلا عَمَد ، وقلنا : إن الشىء الذى يعلوك إما أنْ يُحمل على أعمدة ، وإما أنْ يُشدَّ إلى أعلى ، مثل الكبارى المعلقة مثلاً ، وكذلك السماء سقف مرفوع لا نرى له أعمدة . إذن : لا تبقى إلا الوسيلة الأخرى ، وهى أن الله تعالى ﴿ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ .. (٦٥) ﴾ [الحج] فهى قائمة بأمره .

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ .. (٢٥) ﴾ [الروم] لا يهتز لها نظام أبداً ، ولا تجد فيها فروجاً ، لأنها محْكَمة البناء ، وانظر إليها حين صفاء السماء وخُلوِّها من السحب تجدها ملساء ذات لون واحد على اتساعها ، أيستطيع أحد من رجال الدهانات أن يطلى لنا مثل هذه المساحة بلون واحد لا يختلف ؟

وإذا أخذنا السماء على أنها كُلُّ ما علاك فأظلَّك ، فانظر إلى

الشمس والقمر والنجوم والكواكب ، وكيف أنها تقوم بأمر الله خالقها على نظام دقيق لا اختلالَ فيه ، فلم نَر مثلاً كوكباً اصطدم بآخر ، ولا شيئاً منها خرج عن مساره .

وصدق الله تعالى ﴿ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٣٣) ﴾ [الأنبياء] فلكل منها سرعة ، ولكل منها مداره الخاص ونظام بحسبان ؛ ذلك لأنها تقوم بأمر الله وقدرته تعالى فهى منضبطة تؤدى مهمتها دون خلل ، ودون تخلّف .

فمعنى ﴿ تَقُومَ.. (٢٥) ﴾ [الروم] يعنى : تظل قائمة على حالها دون فساد ، وهو فعل مضارع دالٌّ على استمرار . وحين تتأمل : قبل أن يخترع الإنسان المجاهر والميكروسكوبات لم نكن نرى من المجموعة الشمسية غير الشمس ، فلما اخترعوا المجهر رأينا الكواكب الأخرى التى تدور حولها .

والعجيب أنها لا تدور فى دوائر متساوية ، إنما فى شكل إهليلى ، يتسع من ناحية ، ويضيق من ناحية ، وهذه الكواكب لها دورة حول الشمس ، ودورة أخرى حول نفسها . فالأرض مثلاً لها مدار حول الشمس ينشأ عنه الفصول الأربعة ، ولها دورة حول نفسها ينشأ عنها الليل والنهار ، وكل هذه الحركة المركبة تتم بنظام دقيق محكم منضبط غاية الانضباط .

وهذه الكواكب تتفاوت فى قُرْبها أو بُعْدها عن الشمس ، فأقربها من الشمس عطارد ، ثم الزهرة ، ثم الأرض ، ثم المشترى ، ثم المريخ ، ثم زحل ، ثم أورانوس ، ثم نبتون ، ثم أبعدها عن الشمس بلوتو . ولكل منها مداره الخاص حول الشمس وتسمى (عام) ، ودورة حول نفسه تسمى (يوم) .

وعجيب أن يوم الزهرة ، وهو ثانى كوكب من الشمس يُقدَّر بـ ٢٤٤ يوماً من أيام الأرض ، فى حين أن العام بالنسبة لها يُقدَّر بـ ٢٢٥ يوماً من أيام الأرض ، فالعام أقل من اليوم ، كيف ؟ قالوا : لأن هذه دورة مستقلة ، وهذه دورة مستقلة ، فهى سريعة فى دورانها حول الشمس ، وبطيئة فى دورانها حول نفسها .

ولو علمتَ أن فى الفضاء وفى كون الله الواسع مليون مجموعة مثل مجموعتنا الشمسية فى (سكة التبَّانة) ، وهذا كله فى المجرة التى نعرفها ـ لو علمت ذلك لتبيَّن لك عظَم هذا الكون الذى لا نعرف عنه إلا القليل ؛ لذلك حين تقرأ : ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ (٤٧)﴾ [الذاريات] فاعلم أنها مسألة لا نهايةَ لها ولا حدودَ فى علمنا وفى عقولنا ، لكن لها نهاية عند الله .

ولا أدلَّ على انضباط حركة هذه الكونيات من انضباط موعد الكسوف أو الخسوف الذى يحسبه العلماء فيأتى منضبطاً تماماً ، وهم يبنون حساباتهم على حركة الكواكب ودورانها ؛ لذلك نقول لمن يكابر حتى الآن ويقول بعدم دوران الأرض : عليك أن تعترف إذن أن هؤلاء الذين يتنبأون بالكسوف والخسوف يعلمون الغيب . فالأقرب ـ إذن ـ أن نقول : إنها لله الذى خلقها على هذه الهيئة من الانضباط والدقة ، فاجعلها لله بدل أنْ تجعلها للعلماء .

ثم يقول سبحانه : ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الأَرْضِ .. (٢٥)﴾ [الروم] معنى ﴿دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الأَرْضِ .. (٢٥)﴾ [الروم] المراد النفخة الثانية ، فالأولى التى يقول الله عنها : ﴿إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ (٢٩)﴾ [يس] والثانية يقول فيها : ﴿إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ (٥٣)﴾ [يس]

فالأولى للموت الكلى ، والثانية للبعث الكلى ، ولو نظرتَ إلى هاتين النفختين وما جعل الله فيهما من أسرار تلتقى بما فى الحياة الدنيا من أسرار لوجدتَ عجباً .

فكل لحظة من لحظات الزمن يحدث فيها ميلاد ، ويحدث فيها موت ، فنحن مختلفون فى مواليدنا وفى آجالنا ، أما فى الآخرة فالأمر على الاتفاق ، فالذين اختلفوا في المواليد سيتفقون فى البعث ﴿إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ (٥٣)﴾ [يس]

والذين اختلفوا في الموت سيتفقون فى الخمود : ﴿إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ (٢٩)﴾ [يس] فالميلاد يقابله البعث ، والموت يقابله الخمود . إذن : اختلاف هذه يعالج اتفاق هذه ، واتفاق هذه يعالج اختلاف هذه ؛ لذلك يقول : ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ .. (٩)﴾ [التغابن]

والنفخة الثانية يؤديها إسرافيل بأمر الله ؛ لأن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ يزاول أشياء بذاته ، ولا نعلم منها إلا أنه سبحانه وتعالى خلق الإنسان وسوَّاه بيده ، كما قال سبحانه : ﴿يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ .. (٧٥)﴾ [ص] أما غير ذلك فهو سبحانه يزاول الأشياء بواسطة خَلْقه فى كل مسائل الكونيات .

تأمل مثلاً : ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا .. (٤٢)﴾ [الزمر] فالمتوفِّى هنا الله عز وجل ، وفى موضع آخر : ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ .. (١١)﴾ [السجدة] فنقلها إلى ملَك الموت ، وفى موضع آخر : ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا .. (٦١)﴾ [الأنعام] فنقلها إلى رسل الموت من الملائكة ، وهم جنود لملَك الموت .

وبيان ذلك أنه سبحانه نسب الموت لنفسه أولاً ؛ لأنه صاحب الأمر الأعلى فيه ، فيأمر به ملَك الموت ، وملَك الموت بدوره يأمر جنوده ، إذن : فمردُّها إلى الله .

ثم يقول سبحانه : ﴿إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ (٢٥)﴾ [الروم] أى : حين يسمع الموتى هذه الصيحة يهبُّون جميعاً أحياء ، فإذا هنا الفجائية الدالة على الفجأة ، وهذا هو الفارق بين ميلاد الدنيا وميلاد الآخرة ، ميلاد الدنيا لم يكُنْ فجأة ، بل على مهل ، فالمرأة قبل أنْ تلد نشاهد حملها عدة أشهر ، وتعانى هى آلام الحمل عدة أشهر ، فلا فجأة إذن.

﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ (٢٦)﴾

نعرف أن (مَنْ) للعاقل ، ولنا أن نسأل : لماذا خصَّ العاقل مع أن كل ما فى الكون خاضع لله طائع مُسبِّح يدخل فى دائرة القنوت لله ؟ قالوا : لأن التمرد لا يأتى إلا من ناحية العقل ؛ لذلك بدأ الله به ، أما الجماد الذى لا عقلَ له ، فأمره يسير حيث لا يتأبَّى منه شىء على الله ، لا الجماد ولا الحيوان ولا النبات .

تأمل مثلاً الحمار تُحمِّله القاذورات فيحمل ، فإذا رقَّيْته وجعلته مطية للركوب لا يعترض ، لا عصى فى الأولى ، ولا عصى فى الأخرى ؛ لأنه مُذلَّل لك بتذليل الله ، ما ذلَّلته لك بعقلك ولا بقوتك ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (٧١) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (٧٢)﴾ [يس]

وضربنا لذلك مثلاً بالجمل لما ذلَّله الله لك استطاع الغلام الصغير أنْ يقوده ويُنيخه ويركبه ويحمله ، أما الثعبان الصغير فيُخيفك رغم صِغَره ؛ لأن الله لم يُذلله لك .

ونقف هنا عند قوله تعالى ﴿مَن فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ..(٢٦)﴾ [الروم] فمن فى السموات نعم هم قانتون لله أى : خاضعون له سبحانه ، مطيعون لإرادته لأنهم ملائكة مُكرَّمون ﴿لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٦)﴾ [التحريم]

﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ (٢٠)﴾ [الأنبياء]

فما بال أهل الأرض ، وفيهم ملاحدة وكفار ليسوا قانتين ، فكيف إذن نفهم ﴿كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ (٢٦)﴾ [الروم]

قالوا : لأنهم لما تمرَّدوا على الله وكفروا به ، أو تمرَّدوا على حكمه فعصَوْه لم يتمردوا بذواتهم ، إنما بما خلق الله فيهم من اختيار ، ولو أرادهم سبحانه مقهورين ما شذَّ واحد منهم عن مراد ربه ، والله عز وجل لا يريد أنْ يحكم الإنسان بقهر القدرة ، إنما يريد لعبده أنْ يأتيه طواعية مختاراً ، بإمكانه أن يكفر ومع ذلك آمن ، وبإمكانه أن يعصى ومع ذلك أطاع .

فلو أرادهم الله مؤمنين ما وجدوا إلى الكفر سبيلاً ، ولعصمهم كما عصم الأنبياء ، ربك يريدك مؤمناً عن محبة وإخلاص لا عن قهر وغلبة ؛ لذلك قال إبليس فى جداله : ﴿فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣)﴾ [ص]

فلا قدرة له على عباد الله المخلصين ، الذين اختارهم الله لنفسه ، ولا سلطانَ له عليهم ، فإبليس إذن ليس فى معركة مع ربه ، إنما فى معركة مع الإنسان . وفى موضع آخر قال تعالى : ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ .. (٤٢)﴾ [الحجر]

ولما عشق هؤلاء المتمرِّدون على الله التمرد ، وأحبوه زادهم الله

منه وأعانهم عليه ؛ لأنه سبحانه لا تنفعه طاعة الطائعين ، ولا تضره معصية العاصين ، فختم على قلوبهم فلا يدخلها إيمان ، ولا يخرج منها كفر ، وهو سبحانه الغنى عن خَلْقه ؛ لذلك لما خلق الجنة خلقها لتتسع للناس جميعاً إنْ آمنوا ، ولما خلق النار خلقها لتتسع للناس جميعاً إنْ كفروا ، وترك لنا سبحانه الاختيار : ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ (٢٩)﴾ [الكهف]

وكأن الحق سبحانه يقول لنا : أنتم أحرار ، فأنا مستعد للجزاء على أيِّ حال تسعكم جنتى ، إنْ آمنتم جميعاً ، ولا تضيق بكم النار إنْ كفرتم جميعاً .

ونقول لمن تمرَّد على الله : ينبغى أن تكون منطقياً مع نفسك ، وأن تظل متمرداً على الله فى كل شىء ما دمت قد ألفتَ التمرد ، فإنْ جاءك المرض تتأبى عليه ، وإنْ جاءك الموت ترفضه ، فإذا لم تستطع فأنت مقهور لله خاضع له ﴿كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ (٢٦)﴾ [الروم] خاضعون ، إما عن اختيار ، وإما عن قهر فى كل أمر لا اختيار لك فيه ، إذن : فأنت قانت رغماً عنك ، وقنوتك مع تمرُّدك أبلغ فى الشهادة لله .

إذن : فالمؤمن خاضع لله فى منطقة الاختيار ، وهى الإيمان والتكاليف ، وخاضع لله فيما لا اختيارَ له فيه كالقضاء والأمور الاضطرارية ، فهو يستقبلها عن رضا ، أما الكافر فهو خاضع لله لا يستطيع الفكاك عن قضائه ولا عن قدره رغماً عنه فى الأمور التى لا اختيارَ له فيها ، لكنه يستقبلها بالسُّخْط وعدم الرضا ، فهو كافر بالله كاره لقضائه .

فنقول لمن تمرد على الله فكفر به ، أو تمرَّد على أحكامه فعصاها : ما لكم لا تتمردون على الله فيما يقضيه عليكم من أمور

اضطرارية ؟ هذا دليل على أنكم اتخذتم الاختيار فى غير محلِّه ؛ لأن الذى يختار ينبغى أنْ يأخذ الاختيار فى كل شىء ، لكن أنْ تختار فى شىء ولا تختار فى شىء آخر ، فهذا لا يجوز .

﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٧) ﴾

كثيراً ما يُحدِّثنا القرآن الكريم عن هذه المسألة ويُذكِّرنا بالبدء والإعادة ، لماذا ؟ يهتم القرآن بهذه المسألة ويؤكد عليها لأنها كانت الأساس فى دعوته ؛ لأنهم إنْ كانوا يؤمنون بأنهم يرجعون إلى الله لخافوا من عقابه ؛ لذلك يؤكد لهم فى مواضع كثيرة حتمية الإعادة وأنها حَقٌّ .

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ .. (٢٧) ﴾ [الروم] استُهلَّت الآية بقوله تعالى (وَهُوَ) وفى آية أخرى ﴿ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ .. (١١) ﴾ [الروم] فكأن (هُوَ) مدلولها (الله) وهو كما نعلم ضمير غيبة ، والحق سبحانه غَيْب عن الأنظار ، ومن عظمته سبحانه أنه غيب ، فلو كان مُدْركاً مُحسَّاً ما استحق أنْ يكون إلهاً ، وكيف نطمع فى إدراكه سبحانه ونحن لا نستطيع أن ندرك بعض مخلوقاته ؟

فالمعانى التى خلقها الله لتسوس حركة الحياة : كلمة الحق ، العدل ، الحق الذى يقف القضاء كله ليؤيده ويُعلنه ، والعدل الذى يحكم موازين الحياة ؛ ليوازن بين الشهوات وبين الحقائق ، هذه المعانى لا تُدرَك بالحواس ، فهل رأيتم العدل ؟ هل سمعتم العدل ؟ هل شممتم العدل ؟ ... الخ .

إذن : فالمعانى العالية لا يمكن أنْ تُدرك لأنها أرفع من الإدراك ؛ لأن بها يكون الإدراك ، أيكون المخلوق للحق أسمى من أنْ يُدرك ، ويكون الحق سبحانه موضعاً للإدراك ؟

فإذا سمعت (هُوَ) فاعلم أنها لا تنصرف إلا إلى الإله الواحد الذى من عظمته أنه لا يُدرَك ﴿ لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ .. (١٠٣) ﴾ [الأنعام]

لذلك نقرأ فى سورة الإخلاص ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) ﴾ [الإخلاص] فترى أن (الله) لفظ الجلالة ، وهو علَم على واجب الوجود يأتى بعد (هُوَ) فكأن (هُوَ) أدلُّ على وجود الحق سبحانه من لفظ الجلالة (الله) ، فكأنه لا يصح حين يُطلَق ضمير الغيبة (هُوَ) على شىء إلا الله ؛ لأنه لا شىء فى الكون إلا الله .

وقوله تعالى هنا ﴿ وَهُوَ الَّذِى يَبْدَأُ الْخَلْقَ.. (٢٧) ﴾ [الروم] بالفعل المضارع الدالّ على الاستمرارية ، مع أنه سبحانه بدأ الخَلْق بالفعل : ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ (٢٩) ﴾ [الأعراف] فإنْ ذكرت الأولى فقد بدأ الخَلْق ، وإن ذكرت الاستمرارية فى الإيجاد فهو يبدأ دائماً ، وفى كل وقت ترى فى خَلْق الله شيئاً جديداً ، فالخَلْق لم يأتِ مرة واحدة ، ثم توقف ، بل بدأ ثم استمر .

ونلحظ أن القرآن يذكر هذه المسألة مرة بالماضى (بَدَأَ) ومرة بالمضارع (يَبْدَأُ) ؛ لأن الخالق سبحانه بدأ الخلق فعلاً بخَلْق آدم عليه السلام الإنسان الأول : ﴿ الَّذِى أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ (٧) ﴾ [السجدة] ولا يزال سبحانه بقيوميته خالقاً ، يبدأ كل يوم وكل لحظة خَلْقاً جديداً نشاهده فى الإنسان ، وفى الحيوان ، وفى النبات .. الخ .

وبالخَلْق المتجدِّد للإنسان ، حيث يُولَد كل لحظة مولود جديد نردُّ على الذين يقولون بتناسخ الأرواح - يعنى : أن الروح تخرج من جسد فتحلُّ فى جسد آخر - وهذا يعنى أن تكون المواليد على قدر الوَفيَات ، ويعنى أن يظل العالم على تعداد واحد دون زيادة ، ونحن نرى الآن مدى الكثافة السكانية التى يشكو العالم منها الآن ، وهذه تكفى لهدم هذه النظرية .

والحق سبحانه يُحذِّرنا أن نأخذ قصة بَدْء الخلق من غير الخالق سبحانه ، فمن الناس مضلون سيضلونكم فى هذه المسألة ، فلا تُصْغون إليهم ؛ لأن الله يقول : ﴿مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا (٥١)﴾ [الكهف]

وقد رأينا من هؤلاء المضلين مَنْ يقول بأن الإنسان أصله قرد متطور إلى إنسان ، والردُّ على هذه الضلالات يسير ، فإذا كان القرد تطور إلى إنسان ، فلماذا لم تتطور باقى القرود ؟ ولماذا لم يتطور الإنسان منذ أنْ خُلِق آدم وحتى الآن إلى شىء آخر ؟ وكيف نصدق هذه الضلالات ، وربنا سبحانه يقول : ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٤٩)﴾ [الذاريات]

ويقول سبحانه : ﴿سُبْحَانَ الَّذِى خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ (٣٦)﴾ [يس] فإياك أنْ تقول : إن شيئاً تطور عن شىء ، فكل جنس قائم بذاته منذ خلقه الله .

إذن : احذروا مثل هذه الأقوال ، ولا تأخذوا قصة بَدْء الخَلْق إلا من الله وحده .

كلمة ﴿يُعِيدُهُ.. (٢٧)﴾ [الروم] أى : إلى الخَلْق فهى بمعنى يخلقه ، فالمعنى : يبدأ الخلق ثم يميته ثم يُعيده ، البعض يظن أن يعيده يعنى

يبعثه في الآخرة ، لكن الله تعالى يقول : ﴿اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١١)﴾ [الروم] فيعيده غير تُرجعون ، ترجعون أى : فى القيامة .

وقوله ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ.. (٢٧)﴾ [الروم] أى : على حَسْب فهمكم أنتم للأشياء ، وإلا فالله تعالى لا يقال فى حقه هذا سهل وهذا أسهل ، ولا هيِّن وأهون ؛ لأنه سبحانه لا يزاول الأشياء كما نزاولها نحن ، ولا يعالج الأفعال ، إنما يفعل سبحانه بكُنْ فيكون .

ومن ذلك قوله تعالى لزكريا عليه السلام لما تعجب أن يكون له ولد ، وقد بلغ من الكِبَر عتياً وامرأته عاقر : ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ .. (٩)﴾ [مريم] ذلك لأن طلاقة القدرة لا تقف عند أسبابكم . وكذلك قال لمريم : ﴿كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ .. (٢١)﴾ [مريم]

فالأمر عجيب فى نظر مريم ، أن تأتى بولد بدون زوج ؛ لكنه ليس عجيباً فى قدرة الله ، فإنْ كانت العادة أنْ يأتى الولد بالأسباب فالله سبحانه هو خالق الأسباب ، يفعل ما يشاء بدونها .

وسبق أن تحدثنا عن طلاقة قدرة الله فى قصة إبراهيم عليه السلام حينما أراد القوم أنْ يحرقوه ، فلو كانت المسألة مسألة نجاة إبراهيم من النار ما مكّنهم الله من الإمساك به ، أو : حتى إنْ أمسكوه وألقَوْه فى النار كان بالإمكان أنْ يُنزِل الله على النار مطراً فتنطفىء .

لكن الحق سبحانه يريد أن يسدَّ على الكافرين منافذ الحِجَاج ، ويبطل كفرهم ، فهاهم قد ظفروا به وألقَوْه فى قَعْر النار ، وهى على حال الاشتعال والإحراق ، لكنهم غفلوا عن شىء هام ، هو أن الله تعالى ربُّ هذه النار وخالقها وخالق قوة الإحراق فيها ، وهو وحده

القادر على أنْ يسلبها هذه الخاصية ، فيلقى فيها نبيه إبراهيم دون أن يحترق . وهنا تكمن العظمة وتظهر الحجة ﴿قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰٓ إِبْرَاهِيمَ (٦٩)﴾ [الأنبياء]

ونلحظ فصاحة الأداء فى ﴿وَهُوَ الَّذِى يَبْدَأُ الْخَلْقَ.. (٢٧)﴾ [الروم] فهو أسلوب قَصْر ، حيث قدّم المتعلق الذى حقُّه أن يكون مؤخراً ، كما فى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ .. (٥)﴾ [الفاتحة] فقدّم المفعول ، ومن حق المفعول أن يُؤخّر عن الفعل والفاعل ، وقدَّمه هنا ، لنقصر العبادة على الله وحده دون سواه ، وحتى لا نعطف على الله تعالى شيئاً ، فلو قلت نعبدك لجاز أن تقول : ونعبد غيرك . كذلك هنا ﴿وَهُوَ الَّذِى يَبْدَأُ الْخَلْقَ.. (٢٧)﴾ [الروم] أفادت تخصيص الخلق لله وحده دون أن نعطف عليه أحداً .

وقوله تعالى ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ.. (٢٧)﴾ [الروم] الحقيقة ليس فى الأمور بالنسبة لله تعالى هيِّن وأهون ، إنما فى عُرْفنا نحن ، وليُقرِّب لنا الحق سبحانه فَهْم المسائل ، وإلا فالحق سبحانه لا يعالج الأمور ولا يزاولها كما نعالجها نحن ، وإنما يفعل سبحانه بكُنْ فيكون .

لذلك لما نتأمل قَوْل مريم عليها السلام لما بشَّرتها الملائكة بالمسيح قالت : ﴿رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ .. (٤٧)﴾ [آل عمران] فكيف فهمتْ مريم هذه المسألة ، ومَنْ أخبرها بأن الولد سيكون دون أن يمسَّها بشر ؟

لقد فهمت مريم هذا من قول الملائكة ﴿إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ .. (٤٥)﴾ [آل عمران] . فلو كان له أبٌ لذكرته الملائكة ، وما داموا قد نسبوه إلى أمه فلا أب له .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَىٰ فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ.. (٢٧)﴾ [الروم] له المثل الأعلى يعنى : أن الله تعالى لا مثيلَ له ، فإنْ شابهه سبحانه شىء من خَلْقه فى صفة من الصفات فخُذْها فى إطار التقريب للمعنى ، وفى إطار ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ .. (١١)﴾ [الشورى] فلك وجود ولله تعالى وجود ، لكن وجودك ليس كوجود الله ، أنت حَىٌّ والله حَىٌّ ، لكن حياتك ليست كحياته عز وجل .. وهكذا .

وقوله ﴿الْمَثَلُ الأَعْلَى.. (٢٧)﴾ [الروم] نقول : عَالٍ وأعلى ، فهى أفعل تفضيل بمعنى : الذى لا يُشابه ولا يُضَاهى ؛ لذلكً يقول سبحانه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ .. (١١)﴾ [الشورى] فينفى أن يوجد شبيه لمثل الله لا شبيه لله ؛ لأن الكاف هنا بمعنى : مثل . فكأنك قلت : ليس مِثْل مِثْله شىء .

وطريقة العرب فى الأداء فى مسألة المشابهة يقولون : زيد مثل الأسد فى الشجاعة ، فأنت تريد أن تعطينى صورة لشجاعة زيد ، فذكرت أوضح شىء لهذه الصفة وهو الأسد ، فهو مُشبَّه به .

إذن : فالأسد أقوى من زيد فى هذه الصفة ، وإلا لما جعلتَ المشبّه به توضيحاً لما لا تعلم .

فحين تقول ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ .. (١١)﴾ [الشورى] تعنى : إنْ وُجد مِثْل لله لا يوجد مثل لهذا المِثْل ، فنفيتَ المثل من باب أَوْلَى ؛ لأن الأضعف وهو المثل المشبه أضعف من المشبه به ، فإذا كان المثل أضعف من الممثَّل ولا يوجد مثل للأضعف ، فكيف يوجد مثل للأقوى ؟

وانظر إلى جمال الحق سبحانه حين يُجلِّى للخَلْق مثَلاً فى دنياهم ، ويجعل من ذاته ـ سبحانه وتعالى ـ المماثلة ، يقول تعالى ليُقرِّب لأفهامنا كيفية نوره : ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ

كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ .. (٣٥) ﴾ [النور]

فالله - سبحانه وتعالى - يضرب المثَل لنوره بالمشكاة ، السطحيون يظنون أن المشكاة هى المصباح ، لكن الله يقول ﴿ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ .. (٣٥) ﴾ [النور] والمشكاة تجويف فى الحائط ، مثل الطاقة غير نافذة ، فإنْ كانت نافذة نسميها شباكاً ، وكانوا فى الماضى يضعون المصباح فى هذه الفجوة ليضىء الحجرة ، والفجوة هذه أو المشكاة تجمع الضوء وتُقوِّيه ؛ لذلك يكون الضوء فيها أقوى من ضوء الحجرة ، أو : أن المصباح يستوعب المشكاة أكثر من استيعابه للحجرة كلها .

وبتأمل هذا المعنى نرى أن الحق سبحانه لا يضرب لنا مثَلاً لنوره إنما لتنويره ، فتنوير الله تعالى مثْل المشكاة التى فيها المصباح ، والمصباح يدلُّ على الرقى فى وسائل الإضاءة ، فدونه مثلاً الشعلة ، وهو فتيل يُوقَد فى الهواء ويكون له دخان أسود ، أما المصباح فله زجاجة تحجز عنه الهواء إلا بقدر ما يكفى لاحتراق الفتيل ، فيأتى الضوء منه صافياً .

ثم هو فضلاً عن ذلك فى زجاجة ليست عادية ، إنما ﴿ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ .. (٣٥) ﴾ [النور] أى : مثل الدرة التى تضىء بذاتها . هذا المصباح يُوقَد من شجرة زيتونة معتدلة المزاج ﴿ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ .. (٣٥) ﴾ [النور] فتصوُّر هذا المصباح فى مكان ضيق لا فى الحجرة كلها ، إنما فى المشكاة كيف يكون ضوؤه ؟

كذلك تنوير الله - سبحانه وتعالى - للسماوات وللأرض على سعتهما ، فنوره تعالى يستوعبهما ، لا يترك منهما مكاناً مظلماً كالطاقة بالنسبة لهذا المصباح الذى وصفنا .

ولهذا المثل قصة شهيرة فى الأدب العربى ، فقد فطن إليها أبو تمام[١] فى مدحه أحد الخلفاء ، وحين أراد أنْ يجمع له ملَكات العرب ومواهبهم من الجود والشجاعة والحِلْم والذكاء ، قال مادحاً :

إقْدَامُ عَمْرٍو فى سَمَاحَةِ حَاتِمٍ وفى حِلْم أَحْنفَ فى ذَكاءِ إيَاسِ

وقد اشتهر عمرو بن معدى كرب بالشجاعة والإقدام ، واشتهر حاتم الطائى بالكرم ، وأحنف بن قيس بالحلم حتى قيل « أحلم العرب » فلا يُغضبه شىء أبداً ، ولا يُخرجه عن حلْمه ، حتى أن جماعة قصدوا أنْ يُخرجوه عن حلْمه ، فتكون سابقة لَهم فتبعوه فى الطريق ، وأخذوا يهزءُون به وهو يضحك ، حتى قارب من الحى ، فنظر إلى هؤلاء الفتية وقال : أيها الفتية ، لقد قربنا من الحىِّ ، فإنْ كان فى جوفكم استهزاء بى فافرغوا منه ؛ لأنهم لو ظفروا بكم لقتلوكم .

أما إياس بن معاوية فكان مَضْرب المثَل فى الذكاء ، وهكذا جمع أبو تمام لممدوحه خلاصة ما تعرفه العرب من مواهب . وهنا قام له واحد من خصومه وقال : أتُشبِّه الخليفة بأجلاف العرب ، فمَنْ يكون هؤلاء إذا ما قُورِنوا بأمير المؤمنين ؟

وهذا الاعتراض مأخوذ من قول الشاعر :

وشَبَّهه المدَّاحُ فى البَأْسِ والنَّدَى بمَنْ لَوْ رآهُ كانَ أصْغر خَادمِ

فَفِى جيشه خَمسُونَ ألفاً كَعنترٍ وأَمْضَى وفى خُدَّامه ألفُ حاتمِ

فلما قيل لأبى تمام : كيف تشبه الخليفة بأجلاف العرب أحجم هنيهة ثم رفع رأسه ، وقال :

---

(١) هو : حبيب بن أوس بن طىء ، قال أبو الفرج الأصفهانى فى الأغانى (ص ١٧٣٨) : « شاعر لطيف الفطنة ، دقيق المعانى ، سلك فى البديع والمطابقة مسلكاً لم يسبقه من تقدَّمه إليه ، وإن كانوا هم الذين فتحوه له » .

لاَ تُنكِروا ضَرْبِى لَهُ مَنْ دُونَهُ مثَلاً شَرُوداً فى النَّدَى والبَاس
فاللهُ قد ضَرَبَ الأقلَّ لِنُـوره مَثَلاً من المشْكَاةِ والنِّبراسِ[1]

ومع دِقَّة الاستشهاد وطرافته إلا أن خصومه اتهموه بأن ذلك ليس ارتجالاً لوقته ، إنما هو مُعدٌّ لهذا الموقف سلفاً ، وبعض الدارسين للأدب يقول بذلك وقاله لنا مدرس الأدب ، لكن يُروَى أنهم لما أخذوا الورقة التى مع أبى تمام لم يجدوا فيها هذه الأبيات ، ثم على فرض أن الرجل أعدَّها قبل هذا الموقف فإنها تُحسَب له لا عليه ، وتضيف إليه ذكاءً آخر ؛ لأنه استدرك على ما يمكن أنْ يُقال فاستعد له .

وكما أن الحق سبحانه وتعالى له المثَل الأعلى فى الأرض ، فلا مثيلَ له ، كذلك له المثل الأعلى فى السماء فلا مثيلَ له ، مع أن ما فى السماء غيب ، وهم الملائكة من صفاتهم كذا وكذا ، فلله المثَل الأعلى فى السماوات .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٧)﴾ [الروم] أى : أنه سبحانه وتعالى بذاته عزيز لا يُغلب ، ومع عزته سبحانه حكيم لا يظلم .

ثم يقول الحق سبحانه[2] :

---

(١) النبراس : المصباح والسراج . وهو ثلاثى مشتق من البرس الذى هو القطن . قال ابن سيده : وإنما قضينا بزيادة النون لأن بعضهم ذهب إلى أن اشتقاقه من البرس الذى هو القطن ، إذ الفتيلة فى الأغلب إنما تكون من قطن . [لسان العرب ـ مادة : برس] .

(٢) سبب نزول الآية : عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : كان يلبى أهل الشرك : لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك ، تملكه وما ملك ، فأنزل الله ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلاً مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ .. (٢٨)﴾ [الروم] أورده السيوطى فى الدر المنثور (٦/٤٩٢) وعزاه للطبرانى وابن مردويه .

﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٨) ﴾

ضَرْب المثل أسلوب من أساليب القرآن للبيان وللتوضيح وتقريب المسائل إلى الأفهام ، ففى موضع آخر يقول سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا .. (٢٦) ﴾ [البقرة]

وقال سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ .. (٧٣) ﴾ [الحج] فهذا كثير فى كتاب الله ، والمثَل يُضرب ليُجلِّى حقيقة . والضَّرْب هنا لا يعنى إحداث أثر ضار بالمضروب ، إنما إحداث أثر نافع إيجابى كما فى قوله تعالى : ﴿ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ .. (٢٠) ﴾ [المزمل]

وقولنا فى مسألة سكِّ العملة : ضُرِبَ فى كذا ، فكأن الضرب يُحدث فى المضروب أثراً باقياً ، ففى الأرض بإثارة دفائنها واستخراج كنوزها ، وفى العملة بتَرْك أثر بارز لا تمحوه الأيدى فى حركة التداول ، وكأن ضَرْب المثَل يوضح الشىء الغامض توضيحاً بيِّناً كما تُسكّ العملة ، ويجعل الفكرة فى الذهن قائمة واضحة المعالم . وللضرب عناصر ثلاثة : الضارب ، والمضروب ، والمضروب به .

ويُروى فى مجال الأمثال أن رجلاً خرج للصيد معه آلاته : الكنانة وهى جُعْبة السهام ، والسهام ، والقوس ، فلما رأى ظبياً أخذ يُعدّ كنانته وقَوْسه للرمى لكن لم يمهله الظبى وفرَّ هارباً ، فقال له آخر

وقد رأى ما كان منه : قبل الرِّماء تُملأ الكنائن ، فصارت مثلاً وإن قيل فى مناسبة بعينها إلا أنه يُضرَب فى كل مناسبة مشابهة ، ويقال فى أىِّ موضع كما هو وبنفس ألفاظه دون أنْ نُغيِّر فيه شيئاً .

فمثلاً ، حين ترى التلميذ المهمل يذاكر قبيل الامتحان ، وحين ترى مَنْ يُقدِم على أمر دون أنْ يُعدّ له عُدَّته لك أنْ تقول : قبل الرِّماء تُملأ الكنائن . إذن : هذه العبارة صار لها مدلولها الواضح ، وترسَّخَتْ فى الذِّهْن حتى صارتْ مثَلاً يُضرب .

وتقول لمن تسلَّط عليك وادَّعى أنه أقْوى منك : إنْ كنتَ ريحاً فقد لاقيتَ إعصاراً .

والحق سبحانه يضرب لنا المثل للتوضيح ولتقريب المعانى للأفهام ؛ لذلك يقول سبحانه : ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِ أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا .. (٢٦)﴾ [البقرة] يقف هنا بعض المتمحكين الذين يحبون أنْ يستدركوا على كلام الله ، يقولون : مادام الله تعالى لا يستحى أنْ يضرب مثلاً بالبعوضة فما فوقها من باب أَوْلى ، فلماذا يقول ﴿فَمَا فَوْقَهَا .. (٢٦)﴾ [البقرة]

وهذا يدل على عدم فهمهم للمعنى المراد لله عز وجل ، فالمعنى : فما فوقها أى : فى الغرابة وفى القلة والصِّغر ، لا ما فوقها فى الكِبَر[1] .

---

(١) قول ابن كثير فى تفسيره (١/ ٦٤) : « قوله تعالى : ﴿فَمَا فَوْقَهَا .. (٢٦)﴾ [البقرة] فيه قولان :
أحدهما : فما دونها فى الصغر والحقارة . وهذا قول الكسائى وأبى عبيد قاله الرازى وأكثر المحققين .
والثانى : فما فوقها لما هو أكبر منها لأنه ليس شىء أحقر ولا أصغر من البعوضة ، وهذا قول قتادة بن دعامة واختيار ابن جرير » .

ومن الأمثلة التى ضربها الله لنا ليوضح لنا قضية التوحيد قوله تعالى : ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٢٩)﴾ [الزمر]

فالذى يتخذ مع الله إلهاً آخر كالذى يخدم سيدين وليتهما متفقان ، إنما متشاكسان مختلفان ، فإنْ أرضى أحدهما أسخط الآخر ، فهو متعب بينهما ، فهل يستوى هذا العبد وعبد آخر يخدم سيداً واحداً ؟ كذلك فى عبادة الله وحده لا شريك له . فبالمثال اتضحت القضية ، ورسختْ فى الأذهان ؛ لذلك يقول سبحانه : أنا لا أستحى أنْ أضرب الأمثال ؛ لأننى أريد أن أوضح لعبادى الحقائق ، وأُبيِّن لهم المعانى .

﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلاً مِّنْ أَنفُسِكُمْ.. (٢٨)﴾ [الروم]

فى هذه الآية وبهذا المثَل يؤكد الحق - سبحانه وتعالى - فى قمة تربية العقيدة الإيمانية ، يؤكد على واحدية الله وعلى أحديته ، فالواحدية شىء والأحدية شىء آخر : الواحدية أنه سبحانه واحد لا فرد آخر معه ، لكن هذا الفرد الواحد قد يكون فى ذاته مُركّباً من أجزاء ، فوصف نفسه سبحانه بأنه أحدٌ أى : ليس مُركَّباً من أجزاء . أكَّد الله هذه الحقيقة فى قرآنه بالحجج وبالبراهين ، وضرب لها المثل . وهنا يضرب لنا مثلاً من أنفسنا ليؤكد على هذه الوحدانية .

وقوله تعالى : ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ.. (٢٨)﴾ [الروم] يعنى : ليس بعيداً عنكم ، وأقرب شىء للإنسان نفسه ، إذن : فأوضح مثَل لما غاب عنك أنْ يكون من نفسك ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ .. (١٢٨)﴾ [التوبة] أى : من جنسكم تعرفون نشأته ، وتعرفون خُلُقه وسيرته .

لكن ، ما المثَل المراد ؟

المثل : ﴿هَلْ لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ.. (٢٨)﴾ [الروم]

يقول سبحانه : أريد أنْ أضرب لكم مثلاً على أن الإله الواحد يجب عقلاً ألاَّ تشركوا به أشياء أخرى ، والمثل أنِّى أرزقكم ، ومن رزقى لكم مَوَالٍ وعبيد ، فهل جئتم للرزق الذى رزقكم الله وللعبيد وقلتم لهم : أنتم شركاء لنا فى أموالنا تتصرفون فيها كما نتصرف نحن ، ثم جعلتم لهم مطلق الحرية والتصرف ، ليكونوا أحراراً أمثالكم تخافونهم فى أنْ تتصرفوا دونهم فى شىء كخيفتكم أنفسكم ؟ هل فعلتم ذلك ؟ بل هل تقبلونه على أنفسكم ؟ إذن : لماذا تقبلونه فى حق الله تعالى وترضَوْن أنْ يشاركه عبيده فى ملكه ؟

إنكم لم تقبلوا ذلك مع مواليكم وهم بشر أمثالكم ملكتموهم بشرع الله فائتمروا بأمركم . هذا معنى ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ.. (٢٨)﴾ [الروم] أى : من البشر ، فهم مثلكم فى الآدمية ، وملكيتكم لهم ليست مُطْلقة ، فأنتم تملكون رقابهم ، وتملكون حركة حياتهم ، لكن لا تملكون مثلاً قتلهم ، ولا تملكون منعهم من قضاء الحاجة ، لا تملكون قلوبهم وإرادتهم ، ثم هو مُلْك قد يفوتك ، كأن تبيعه أو تعتقه أو حتى بالموت . ومع ذلك ما اتخذتموهم شركاء ، فعَيْب أنْ تجعلوا لله ما تستنكفون منه لأنفسكم .

ونلحظ هنا أن الله تعالى لم يناقشهم فى مسألة الشركاء بأسلوب الخبر منه سبحانه ، إنما اختار أسلوب الاستفهام وهو أبلغ فى تقرير الحقيقة : ﴿هَلْ لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ.. (٢٨)﴾ [الروم]

وأنت لا تعدل عن الخبر إلى الاستفهام عنه إلا وأنت تعلم وتثق بأن الإجابة ستكون فى صالحك ، فمثلاً حين ينكر شخصٌ جميلَك فتقول مُخبراً : فعلتُ معك كذا وكذا ، والخبر يحتمل الصدق ويحتمل الكذب ، وقد ينكر فيقول : لا لم تفعل معى شيئاً .

أمّا حين تقول مستفهماً : ألم أفعل معك كذا وكذا ؟ فإنك تُلجئه إلى واقع لا يملك إنكاره ، ولا يستطيع أنْ يفرّ منه ، ولا يملك إلا أنْ يعترف لك بجميلك ولا أقلَّ من أنْ يسكت ، والسكوت يعنى أن الواقع كما قلت .

لذلك يستفهم الحق سبحانه وهو أعلم بخَلْقه ﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ .. (٢٨)﴾ [الروم] لا بدّ أنْ يقولوا : لا ليس لنا شركاء فى أموالنا ، إذن : لماذا جعلتم لله شركاء ؟

وقوله تعالى : ﴿فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ .. (٢٨)﴾ [الروم] سبق أنْ تحدثنا فى مسألة الرزق وقلنا : إن الله تعالى هو الرازق ، ومع ذلك احترم ملكية خَلْقه ، واحترم سعيهم ؛ لأنه سبحانه واهب هذا الملك ، ولا يعود سبحانه فى هبته لخَلْقه ؛ لذلك لما أراد أنْ يُحنن قلوب خَلْقه على خَلْقه قال : ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا .. (٢٤٥)﴾ [البقرة] فاعتبر صدقتك على أخيك الفقير قرضاً يردّه إليك مُضَاعفاً .

والرزق لا يقتصر على المال ـ كما يظن البعض ـ إنما رزقك كلّ ما انتفعتَ به فهو رزق ينبغى عليك أن تفيض منه على مَنْ يحتاجه ، وأن تُعدِّيه إلى مَنْ يفتقده ، فالقوىُّ رزقه القوة يُعدِّيها للضعيف ، والعالم رزقه العلم يُعدّيه للجاهل ، والحليم رزقه حِلْم يُعدِّيه للغضوب وهكذا ، وإلا فالمال أهونِ ألوان الرزق ؛ لأن الفقير الذى لا يملك مالاً ولم يتصدق أحد عليه قصارى ما يحدث له أن يجوع ويُباح له فى

هذه الحالة أنْ يسأل الناس ، وما رأينا أحداً مات جوعاً .

لكن ينبغى على الفقير إنْ ألجأتْه الحاجة للسؤال أنْ يسأل بتلطُّف ولين ، فإنْ كان جائعاً لا يسأل الناس مالاً إنما لقمة عيش وقطعة جبن أو ما تيسَّر من الطعام ليسُدّ جَوْعته ، وسائل الطعام لا يكذبه أحد لأنه ما سأل إلا عن جوع ، حتى لو سألك وهو شبعان فأعطيتَه ما استطاع أنْ يأكل ، أما سائل المال فقد نظن فيه الطمع وقصد الادخار . إذن : أفضح سؤال سؤال القوت .

لذلك فى قصة الخضر وموسى عليهما السلام : ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا .. (٧٧)﴾ [الكهف] فلما منعوهم حتى لقمة العيش استحقُّوا أنْ يُوصفوا بألأم الناس ، وقد أباح الشرع للجائع أن يسأل الطعام من اللئيم فإن منعه فللجائع أن يأخذه ولو بالقوة ، وإذا رفع أمره إلى القاضى أيَّده القاضى ، لذلك يقولون فيه : طالب قُوتٍ ما تعدَّى .

والحق سبحانه تكفَّل لك برزقك ، إنما جعل للرزق أسباباً وكل ما عليك أنْ تأخذ بهذه الأسباب ثم لا تشغل بالك هماً فى موضوعه ، وإياك أن تظن أن السَّعْى هو مصدر الرزق ، فالسعى سبب ، والرزق من الله ، وما عليك إلا أنْ تتحرى الأسباب ، فإنْ أبطأ رزقك فأرحْ نفسك ؛ لأنك لا تعرف عنوانه ، أمّا هو فيعرف عنوانك وسوف يَأتيك يطرق عليك الباب[1] .

والذى يُتعب الناس أنْ يظل الواحد منهم مهموماً لأمر الرزق مُفكِّراً فيه ، ولو علم أن الذى خلقه واستدعاه للوجود قد تكفَّل برزقه لاستراح ، فإنْ أخطأت أسباب الرزق فى ناحية اطمئن فسوف يأتيك من ناحية أخرى .

---

(١) ومن شعر الشيخ رضى الله عنه :

تحرّ إلى الرزق أسبابَه ... ولا تشْغَلَنْ بعدها بالكَا
فإنك تجهلُ عنوانه ... ورزقُك يعرفُ عُنوانكا

ونذكر هنا قصة عروة بن أذينة[١] وكان صديقاً لهشام بن عبد الملك بالمدينة قبل أنْ يتولى هشامٌ الخلافة ، فلما أصبح هشام أميراً للمؤمنين انتقل إلى دمشق بالشام ، أما عروة فقد أصابته فاقة ، فلما ضاق به الحال تذكّر صداقته القديمة لهشام ، وما كان بينهما من وُدٍّ ، فقصده فى دمشق علَّه يُفرِّج ضائقته .

جاء عروة إلى دمشق واستأذن على الخليفة فأذن له ، فدخل وعرض على صاحبه حاجته وكله أمل فى أنْ ينصفه ويجبر خاطره ، لكن هشاماً لم يكن مُوفّقاً فى الردِّ على صديقه حيث قال : أتيتَ من المدينة تسألنى حاجتك وأنت القائل :

لَقد علِمْتِ ومَا الإسْرافُ مِنْ خُلُقى أنَّ الذِى هُو رِزْقى سوفَ يَأْتِينى

فقال عروة بعد أن كسر صديقه بخاطره : جزاك الله عنى خيراً يا أمير المؤمنين ، لقد نبَّهتَ منى غافلاً ، وذكَّرتَ منى ناسياً ، ثم استدار وخرج .

وعندها أدار هشام الأمر فى نفسه وتذكّر ما كان لعروة من وُدٍّ وصداقة ، وشعر بأنه أساء إليه فأنَّبه ضميره ، فاستدعى صاحب الخزانة ، وأمر لعروة بعطية كبيرة ، وأرسل بها مَنْ يلحق به .

لكن كلما وصل الرسول إلى (محطة) وجد عروة قد فارقها حتى وصل إلى المدينة ، ودقَّ على عروة بابه ، وكان الرسول لَبِقاً ، فلما فتح عروة الباب قال : ما بكم ؟ قال : رسل هشام ، وتلك صِلَة

---

(١) هو : عروة بن يحى (ولقبه أذينة) بن مالك بن الحارث الليثى : شاعر غزل مقدم ، من أهل المدينة ، وهو معدود من الفقهاء والمحدثين أيضاً ، ولكن الشعر أغلب عليه . توفى نحو ١٣٠ هـ [الأعلام للزركلى ٤/٢٢٧] . قال الإمام أبو عبيد البكرى فى « التنبيه على أوهام أبى على فى أماليه » (ص ٢٩) : « روى عنه مالك وغيره من الأئمة » .

هشام لك لم يَرْضَ أنْ تحملها أنت خوفاً عليك من قُطاع الطريق ، أو تحمل مؤونة حَمْلها ، فأرسلنا بها إليك .

فقال عروة : جزى الله أمير المؤمنين خيراً ، قولوا له لقد ذكرتَ البيت الأول ، ولو ذكرت الثانى لأرحتَ واسترحتَ ، لقد قلت :

لَقد علِمْتِ ومَا الإسْرافُ مِنْ خُلُقى ... أنَّ الذى هُو رِزْقى سوفَ يَأْتينى
أَسْعى إليْهِ فَيُعْيينى تطلُّبه ... ولَوْ قَعَدْتُ أتَانى لا يُعَنِّينى[1]

ثم يقول سبحانه بعد هذا المثل : ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الروم] أى : نُبيِّنها ونُوضِّحها ، بحيث لو عُرِضتْ على العقل مجرداً عن الهوى لا ينتهى إلا إليها ، ومعنى ﴿يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الروم] من العقل ، وسُمِّى عقلاً ؛ لأنه يعقل صاحبه ويقيده عما لا يليق .

والبعض يظن أن العقل إنما جُعل لترتع به فى خواطرك ، إنما هو جاء ليقيد هذه الخواطر ، ويضبط السلوك ، يقول لك : اعقل خواطرك وادرسها لا تنطلق فيها على هواك تفعل ما تحب ، بل تفعل ما يصح وتقول ما ينبغى . إذن : ما قصَّرنا فى البيان ولا فى التوضيح .

ويتجلَّى دور العقل المجرد وموافقته حتى للوحى فى سيرة الفاروق عمر رضى الله عنه ، وفى وجود رسول الله ، وهو ينزل عليه الوحى يأتى عمر ويشير على رسول الله بأمور ، فينزل الوحى موافقاً لرأى عمر ، وكأن الحق - تبارك وتعالى - يلفت أنظارنا إلى أن العقل الفطرى إذا فكَّر فى أمر بعيداً عن الهوى لا بُدَّ أنْ يصل إلى الصواب ،

---

(١) ذكر هذه الأبيات خير الدين الزركلى فى الأعلام (٤/٢٢٧) وعزاها لعروة بن أذينة . وأورد الأصفهانى أخباره فى كتاب « الأغانى » ص ١٩١١ وذكر هذا الخبر بين عروة وهشام بن عبد الملك ، وأورد هذين البيتين .

وأنْ يوافق حقائق الدين ، أمّا إنْ تدخَّل الهوى فسد الفكر .

وقوله تعالى ﴿ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٨) ﴾ [الروم] العقل وسيلة من وسائل الإدراك فى الإنسان ؛ لأن الله تعالى قال : ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨) ﴾ [النحل]

لكن ، كيف تُربَّى الأمور العقلية فى الناس ؟ تُربَّى عن طريق الحواس والإدراك ، فالعين ترى ، والأذن تسمع ، واللسان يتذوق ، واليد تلمس ، والأنف يشمُّ ، إلى آخر الحواس التى توصلنا إليها كحاسة البين ، وحاسة العضل وغيرها .

لذلك احتاط العلماء فى تسمية الحواس فقالوا « الحواس الخمس الظاهرة » ليدعوا المجال مفتوحاً لحواس أخرى ، فهذه الوسائل تدرك المعلومات وتنقلها إلى العقل ليراجعها وينتهى فيها إلى قضايا يجعلها دستوراً لحياته ، فأنت تأكل مثلاً العسل فتدرك حلاوته ، وتأكل الجبن فتدرك ملوحته ، فتتكون لديك قضية عقلية أن هذا حلو ، وهذا مالح .. الخ .

وحين تستقر هذه القضايا فى القلب تصير عقيدة لا تخرج للتفكير مرة أخرى ، ولا تمر على العقل بعد ذلك ، فقد انعقد عليها الفؤاد ، وترسختْ فى الذهن .

ودَوْر العقل أن يعقل هذه القضايا ، وأنْ يختار بين البدائل ، والأمر الذى لا بديلَ له لا عملَ للعقل فيه ، فلو أنك مثلاً ستذهب إلى مكان ليس له إلا طريق واحد فلا مجال للتفكير فيه ، لكن إنْ كان لهذا المكان أكثر من طريق فللعقل أنْ يفاضل بينها ويختار الأنسب منها فيسلكه .

وما دام العقل هو الذى يختار فهو الميزان الذى تَزن به الأشياء ، وتحكم به فى القضايا ؛ لذلك لا بُدَّ له أنْ يكون سليماً لتأتى نتائجه كذلك سليمة وموضوعية ، ومعلوم أن الميزان يختلف باختلاف الموزون وأهميته .

والحق سبحانه يعطينا مثالاً لدقة الميزان فى الشمس والقمر ، فيقول ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥﴾ [الرحمن] أى : بحساب دقيق ، ولولا الدقة فيهما ما أخذناهما ميزاناً للوقت ، فبالشمس نعرف الليل والنهار ، وبالقمر نعرف الشهور .

فحين يقول سبحانه ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٢٨﴾ [الروم] يعنى : أننا عملنا ما علينا من التفصيل والبيان ، وتوضيح الحجج والبراهين ، ولكن أنتم الذين لا تعقلون .

ولما كان العقل هو آلة الاختيار بين البدائل وآلة التمييز أعفى الحق سبحانه مَنْ لا عقل له من التكاليف ، أعفى الطفل الصغير الذى لم يبلغ ؛ لأن عقله لم ينضج بعد ، ولأن حواسّه لم تكتمل .

وتتجلى حكمة الشارع فى قول النبى ﷺ « مروا أولادكم بالصلاة لسبع ، واضربوهم عليها لعشر »[1] فجعل من ضمن تكليف الآباء أنْ يُكلِّفوا هم الأبناء فى هذه السِّنِّ ، لتكون لهم دُرْبة على طاعة الأمر والنهى فى وقت ليس عليهم تكليف مباشر من الله تعالى .

فإذا كبر الصغير يستقبل تكليفى كما استقبل تكليفك أولاً ، وربُّك ما افتات عليك فى هذه المسألة ، فأعطاك حق التكليف بالصلاة ، وأعطاك حق أنْ تعاقبه إنْ قصَّر ، فأنت الذى تُكلِّف ، وأنت الذى تعاقب .

---

(١) أخرجه أبو داود فى سننه (٤٩٥) ، وكذا الإمام أحمد فى مسنده (٢/١٨٧) بلفظ « مروا أبناءكم » من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما .

وأعفى المجنون لأن آلة الاختيار عنده غير سليمة وغير صالحة ، وقلنا : إن علامة النضج فى الإنسان أن يصير قادراً على إنجاب مثله ، ومثَّلْنا لذلك بالثمرة التى لا تحلو إلا بعد نضجها ، بحيث إذا أُكلت زرعتَ بذرتها ، فأنبتت ثمرة جديدة ، وهكذا يحدث بقاء النوع وتستمر الدورة .

فربك لا يريد أن تأكل أكلة واحدة ، ثم تُحرم أو يُحرم مَنْ يأتى بعدك ، إنما يريد أنْ تأكل ويأكل كل مَنْ يأتى بعدك ، فلا تأخذ الثمرةُ حلاوتها إلا بعد نُضْج بذرتها ، وصلاحيتها للإنبات .

وقوله تعالى : ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٨)﴾ [الروم] يدل على أن الذين يتخذون مع الله شركاء غير عاقلين ، وإلا فما معنى عبادة الأصنام أو الأشجار أو الشمس أو القمر ؟ وقد قالوا بألسنتهم : ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ .. (٣)﴾ [الزمر]

فما هى العبادة ؟ العبادة طاعة العابد لأمر المعبود ونَهْيه ، إذن : بماذا أمرَتْكُم هذه الآلهة ؟ وعَمَّ نهتْكُم ؟ ما المنهج الذى وضعتْه لكم ؟ ماذا أعدتْ لمن أطاعها من النعيم ؟ وماذا أعدتْ لمن عصاها من العذاب ؟ لا شىء إلا أنها آلهة بدون تكاليف ، وما أيسرَ أنْ يعبد الإنسانُ إلهاً لا تكاليف له ، لا يُقيدك فيما تحب من شهوات ، ولا يُحمِّلك مشقة العبادة . وهنا يتضح عدم العقل .

وأيضاً عدم العقل فى ماذا ؟ الله خلقك فى كون فيه أجناس ، والأجناس تحكمها سلسلة الارتقاء ، فجنس أعلى من جنس ، والجنس الأعلى فى خدمة الجنس الأقل .

ولو استقرأتَ أجناس الوجود تجد أن معك أيها الإنسان جنساً

آخر يشاركك الحسَّ والحركة ، لكن ليس له عقل واختيار بين البدائل ؛ لأنه محكوم بالغريزة منضبط بها ، وهذا هو الحيوان الذى لا ينفكُّ عن الغريزة أبداً .

وسبق أنْ ضربنا مثلاً لذلك بالغريزة الجنسية عند الإنسان وعند الحيوان ، وأن الله تعالى إنما جعلها للتكاثر وحفْظ النوع ، فالحيوان المحكوم بالغريزة يؤدى هذه المهمة للتكاثر ويقف بها عند حدِّها ، فإذا لقَّح الذكر الأنثى يستحيل أنْ تمكِّنه من نفسها بعد ذلك ، وهو أيضاً يشمُّ رائحة الأنثى ، فإنْ كانت حاملاً ينصرف عنها .

أما الإنسان فغير ذلك ؛ لأن له شهوة تتحكم فيه ، فالمرأة تتحمل مشقة الحمل وألم الولادة ، ثم تربية المولود إلى أنْ يكبر ، ولولا أن الله تعالى ربط حفْظ النوع فى الإنسان بشهوة هى أعنف شهوات النفس ما أقدمتْ المرأة على الحمل مرة أخرى .

وما قُلْناه فى غريزة الجنس نقوله فى الطعام والشراب ، الحيوان محكوم فيها بالغريزة المطلقة التى لا دَخْلَ للهوى فيها ، فإذا شبع لا يأكل مهما حاولتَ معه ، بل ونرى الحمار الذى نقول عنه إنه حمار لا يأكل عوداً واحداً بعد شبَعه ، ويمر على النعناع الأخضر مثلاً أو على الملوخية فلا يأكلها ، ويذهب إلى الحشائش اليابسة ، فهو يعرف طعامه بالغريزة التى جعلها الله فيه .

أما الإنسان فيأكل حتى التُّخْمة ، ثم لا ينسى بعد ذلك الحلو والبارد والمهضم .. الخ ذلك ؛ لأنه أسير لشهوة بطنه ، حتى إن من الناس مَنْ يغضب ؛ لأنه شبع فهو يريد ألاَّ يفارق المائدة .

وقد حدثنا رجال حديقة الحيوان بعد زلزال ١٩٩٢ أنهم شاهدوا هياجاً فى الحيوانات المحبوسة فى الأقفاص قبل حدوث الزلزال ، كان

أولها الوطواط ، ثم الزرافة ، ثم التمساح ، ثم القرود ، ثم الحمير ، وكأنهم يريدون تحطيم الأقفاص والخروج منها ، بعدها حدث الزلزال .

وكذلك ما شاهده أهل أغادير بالدار البيضاء قبل الزلزال الذى وقع بها ، حيث شاهدوا الحمير تفك قيودها ، وتفرّ هاربة إلى الخلاء ، وبعدها وقع الزلزال . إذن : لدى هذه الحيوانات استشعار بالزلزال قبل أن يقع .

وقد أعطانا الحق ـ سبحانه وتعالى ـ مثالاً لهذه الغريزة فى قصة الغراب الذى علَّم الإنسان كيف يُوارى الميت ، فقال تعالى فى قصة وَلَدَىْ آدم : ﴿ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ .. (٣١) ﴾ [المائدة]

نعود إلى حديثنا عن أجناس الكون لبيان عدم عَقْل هؤلاء الذين جعلوا لله شركاء ، فأجناس الوجود : الإنسان ، ثم الحيوان ، ثم النبات ، ففيه حياة ونمو ، ثم الجماد أقل الموجودات درجةً ، وهو خادم للنبات وللحيوان وللإنسان ، فكل جنس من هذه يخدم الجنس الأعلى منه .

فماذا فعل الكفار حينما عبدوا الأصنام ؟ جعلوا الجماد الذى هو أدنى المخلوقات أرقاها وأعظمها ، جعلوه إلهاً يُعْبد ، وهل هناك أقلّ عقلاً من هؤلاء ؟

لذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ (٢٩) ﴾

اتبعوا أهواءهم ؛ لأنهم اختاروا عبادة مَنْ لا منهجَ له . ولا تكليف ، عبدوا إلهاً لا أمر له ولا نهى ، لا يرتب على التقصير عقوبة ، ولا على العمل ثواباً ، وهذا كله من وحى الهوى الذى اتبعوه .

إياك أن تُقدِّم الهوى على العقل ؛ لأنك حين تُقدِّم الهوى يصير العقل عقلاً تبريرياً ، يحاول أنْ يعطيك ما تريد بصرف النظر عن عاقبته . لكن بالعقل أولاً حدِّد الهوى ، ثم اجعل حركة حياتك تبعاً له .

والبعض يظن أن الهوى شىء مذموم على إطلاقه ، لكن الهوى الواحد غير مذموم ، أما المذموم فهى الأهواء المتعددة المتضاربة ؛ لأن الهوى الواحد فى القلب يُجنِّد القالب كله لخدمة هذا الهوى ، فحين يكون هواى أنْ أذهب إلى مكان كذا ، فإن القالب يسعى ويخطط لهذه الغاية ، فيحدد الطريق ، ويُعد الزاد ، ويأخذ بأسباب الوصول .

وهذا الهوى الواحد هو المعنىّ فى الحديث الشريف : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به »[1] فالنبى ﷺ لم يمنع أن يكون للإنسان هوى تميل إليه نفسه وتحبه ؛ لأن ذلك الهوى يُعينه على الجهاد والكفاح فى حركة الحياة .

أما حين تتعدد الأهواء فلَكَ محبوب ، ولى محبوب آخر ، فإنها لا شكَّ تتعارض وتتعاند ، والله تعالى يريد من المجتمع الإيمانى أن تتساند كل أهوائه ، وأن تتعاضد لا تتعارض ، وأن تتضافر لا تتضارب ؛ لأن تضارب الأهواء يُبدِّد حركة الحياة ويضيع ثمرتها .

أمّا إنْ كان هواى هو هواك ، وهو هوى ليس بشرياً ، إنما هوى رسمه لنا الخالق ـ عز وجل ـ فسوف نتفق فيه ، وتثمر حركة حياتنا

---

(١) أخرجه ابن أبى عاصم فى كتاب « السنة » (١٢/١) من حديث عبد الله بن عمرو ، وأورده ابن رجب الحنبلى فى « جامع العلوم » (ص ٤٦٠) وضعَّفه .

من خلاله ﴿أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤)﴾ [الملك]

وسبق أنْ قُلْنا : إن صاحب الصَّنْعة فى الدنيا يجعل معها كتالوجاً يُبيِّن طريقة صيانتها ، والحق ـ سبحانه وتعالى ـ هو الذى خلقك ، وهو الذى يُحدِّد لك هواك ، وأول فشل فى الكون أن الناس المخلوقين لله يريدون أنْ يضعوا للبشر قانون صيانتهم من عند أنفسهم .

ونقول : هذا لا يصح ؛ لأن الذى يُقنِّن ويضع للناس ما يصونهم ينبغى أن تتوفر فيه شروط : أولها : أن يكون على علم محيط لا يستدرك عليه ، وأنت أيها الإنسان علْمك محدود كثيراً ما تستدرك أنت عليه بعد حين ، ويتبين لك عدم مناسبته وعدم صلاحيته .

بل وتتبين أنت بنفسك فساد رأيك فترجع عنه إلى غيره ، كما يجب على مَنْ يشرِّع للناس الهوى الواحد أن يكونوا جميعاً بالنسبة له سواء ، وألا ينتفع هو بما يشرِّع ، وإلا لو كانت له منفعة فإنه سوف يميل إلى ما ينفعه ، فلا يكون موضوعياً كما رأينا فى الشيوعية وفى الرأسمالية وغيرها من المذاهب البشرية .

والحق ـ سبحانه وتعالى ـ هو وحده الذى لا يُسْتدرك عليه ؛ لأن علمه محيط بكل شىء لا تخْفى عليه خافية ، والخَلْق جميعاً الذين يشرع لهم أمامه سواء ، وكلهم عباده ، لا يحابى منهم أحداً ، ولا يميز أحداً على أحد ، وليس له سبحانه من خَلْقه صاحبة ولا ولد .

لذلك يطمئننا سبحانه بقوله : ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا (٣)﴾ [الجن]

وكأن الله تعالى يقول : اطمئنوا ، فربّكم ليس له صاحبة تُؤثِّر عليه ، ولا ولد يُحابيه ، فالصاحبة والولد نقطة الضعف ، وسبب الميْل فى مسألة التشريع .

وكذلك هو سبحانه لا ينتفع بما يُشرِّعه لنا ، لأنه سبحانه خلقنا بقدرته ، وهو الغنى عنَّا لا تنفعه طاعة الطائعين ، ولا تضره معصية العاصين ، إذن : فهو سبحانه وحده المستكمل لشروط التشريع ، والمستحق لها سبحانه ، وبيان الهوى الواحد الذى يجتمع عليه كل الخَلْق .

وسبق أن ذكرنا فى مسألة التشريع أنه لا ينبغى أن تنظر إلى ما أُخِذ منك ، بل قارن بين ما أخذتَ وما أعطيتَ ، فالذى منعك أنْ تعتدى على الآخرين وأنت فرد واحد منع الخَلْق جميعاً أنْ يعتدوا عليك ، فالتشريع إذن فى صالحك أنت .

إذن : لو عقلنا لأخذنا هوانا الواحد من إله واحد هو الله ـ عز وجل ـ لكن الخيبة أنهم ما استمعوا هذا الكلام وما عقلوه .

﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ .. (٢٩)﴾ [الروم] ظلموا لأنهم عزلوا الهوى الواحد ، ونَحَّوْه جانباً ، وأخذوا أهواءً شتى تعارضتْ وتضاربت ، فلم يصلوا منها إلى نتيجة .

وما ظلموا بالشرك إلا أنفسهم ، والله تعالى يقول : ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣)﴾ [لقمان] ظلموا أنفسهم حينما أعطوها شهوة عاجلة ولذة فانية ، وغفلوا عن عاقبة ذلك ، فهم إما كارهون لأنفسهم ، أو يحبونها حباً أحمق ، وهذه آفة الهوى حينما يسبق العقل ويتحكم فيه .

وقوله تعالى : ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ .. (٢٩)﴾ [الروم] أولاً : ما هو العلم ؟ فى الكون قضايا نجزم بها ، فإنْ كان ما نجزم به مطابقاً للواقع ونستطيع أن ندلل عليه ـ كما نُعلِّم مثلاً الولد الصغير : الله أحد ، فإنِ استطاع أن يدلل عليها فهى عِلْم ، وإنْ لم يستطع فهى تقليد .

وكمن يقول مثلاً : الأرض كروية وهى فعلاً كذلك ، أما مَنْ يكابر حتى الآن ويقول ليست كروية ، والواقع أنها كروية ، فهذا جهل .

إذن : نقول ليس الجهل ألاَّ تعلم ، إنما الجهل أنْ تعلم قضية على خلاف الواقع ؛ لذلك نُفرِّق بين الجاهل والأمى : الأمى خالى الذِّهْن ليست لديه قضية من أساسه ، فإنْ أخبرته بقضية أخذها منك دون عناد ، ودون مكابرة ، أمّا الجاهل فعنده قضية خاطئة معاندة ، فيحتاج منك أولاً لأنْ تُخرِج القضية الفاسدة لتُلقِى إليه بالقضية الصحيحة .

فإنْ كانت القضية لا تصل إلى مرتبة أنْ نجزم بها ، فتنظر : إنْ تساوى الإثبات فيها مع النفى فهى الشك ، إذن : فالشكُّ قضية غير مجزوم بها يستوى فيها الإثبات والنفى ، فإنْ غلَّبْتَ جانب الإثبات ورجَّحته فهو ظن ، أما إنْ غلَّبت جانب النفى فهو وهم . فعندنا ـ إذن ـ من أنواع القضايا : علم ، وجهل ، وتقليد ، وظن ، ووَهْم .

فالحق سبحانه يريد الهوى الذى تخدمه حركة حياتنا هوى عن علم وعن قضية مجزوم بها ، مطابقة للواقع ، وعليها دليل ، لكن ما دام هؤلاء قد اتبعوا أهواءهم المتفرقة ، وأخذوها بدون أصولها من العلم ، فسوف أكمل لهم ما أرادوا وأعينهم على ما أحبُّوا ﴿فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ.. (٢٩)﴾ [الروم] فقد ألغوْا عقولهم وعطَّلوها وعشقوا الكفر بعد ما سُقْنا لهم الأدلة والبراهين .

إذن : لم يَبْقَ إلا أنْ أعينكم على ما تعتقدون ، وأنْ أساعدكم عليه ، فأختم على قلوبكم ، فلا يدخلها إيمان ولا يفارقها كفر ، لأننى رب أعين عبدى على ما يريد . وهكذا يُضل الله هؤلاء ، بمعنى : يعينهم على ما هم عليه من الضلال بعد أنْ عَشِقوه ، كما قال سبحانه :

﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٧)﴾ [البقرة]

لذلك نحذر الذين يصابون بمصيبة ، ثم لا يَسْلُون ، ولا ينسون ، ويلازمون الحزن ، نحذرهم ونقول لهم : لا تدعوا باب الحزن مفتوحاً ، وأغلقوه بمسامير الرضا ، وإلا تتابعتْ عليكم الأحزان ؛ لأن الله تعالى رب يُعين عبده على ما يحب ، حتى الساخط على قدره تعالى .

فالمعنى ﴿فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ .. (٢٩)﴾ [الروم] يعنى : مَنْ ينقذه ؟ ومَنْ يضع له قانون صيانته إنْ تخلَّى عنه ربه وتركه يفعل ما بدا له ؟ لا أحد . وأنت إذا نصحتَ صاحبك وكررتَ له النصْح فلم يُطعْك تتخلى عنه ، بل إن أحد الحكماء يقول : انصح صاحبك من الصبح إلى الظهر ، ومن الظهر إلى العصر ، فإنْ لم يطاوعك ضلّله ـ أو أكمل له بقية النهار غشاً .

وسبق أن تحدثنا عن الطريقة الصحيحة فى بحث القضايا لتصل إلى الحكم الصائب فيها ، فلا تدخل إلى العلم بهوى سابق ، بل أخرج كل ما فى قلبك يؤيد هذه القضية أو يعارضها ، ثم ابحث القضية بموضوعية ، فما تقتنع به الموازين العقلية وتُرجِّحه أدخله إلى قلبك .

والذى يُتعب الناس الآن أن نناقش قضية الإسلام مثلاً وفى القلب مَيْل للشيوعية مثلاً ، فننتهى إلى نتيجة غير سليمة .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ (٢٩)﴾ [الروم] يعنى : يا ليت لهم مَنْ ينقذهم إنْ أضلَّهم الله فختم على قلوبهم ، فلا يدخلها إيمان ، ولا يخرج منها كفر ، فليس لهم من الله نصير ينصرهم ، ولا مجير يجيرهم من الله ، وهو سبحانه يجير ولا يُجَار عليه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٠) ﴾

الخطاب هنا للنبى ﷺ : يا محمد ، ما دام الأمر كذلك ، وما داموا قد اتبعوا أهواءهم وضلوا ، وأصروا على ضلالهم ، فدَعْك منهم ولا تتأثر بإعراضهم .

كما قال له ربه : ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣) ﴾ [الشعراء]

وقال له : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا (٦) ﴾ [الكهف]

فما عليك يا محمد إلا البلاغ ، واتركهم لى ، وإياك أن يؤثر فيك عنادهم ، أو يحزنك أنْ يأتمروا بك ، أو يكيدوا لك ، فقد سبق القول منى أنهم لن ينتصروا عليك ، بل ستنتصر عليهم .

وهذه قضية قرآنية أقولها ، وتُسجَّل علىّ : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) ﴾ [الصافات]

﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ .. (٤٠) ﴾ [الحج]

﴿ إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ ... (٧) ﴾ [محمد]

هذه قضية قرآنية مُسلَّم بها ومفروغ منها ، وهى على ألسنتنا وفى قلوبنا ، فإنْ جاء واقعنا مخالفاً لهذه القضية ، فقد سبق أنْ

أكدها واقع الأمم السابقة ، وسيحدث معك مثل ذلك ؛ لذلك يُطمئن الحق نبيه ﷺ : ﴿ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٧٧) ﴾ [غافر]

فهنا ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا .. (٣٠) ﴾ [الروم] أى : دعْكَ من هؤلاء الضالين ، وتفرَّغ لمهمتك فى الدعوة إلى الله ، وإياك أنْ يشغلوك عن دعوتك .

ومعنى إقامة الوجه للدين يعنى : اجعل وجْهتك لربك وحده ، ولا تلتفت عنه يميناً ولا شمالاً ، وذكر الوجه خاصة وهو يعنى الذات كلها ؛ لأن الوجه سِمة الإقبال .

ومنه قوله سبحانه : ﴿ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ .. (٨٨) ﴾ [القصص] يعنى : ذاته تعالى .

ومعنى ﴿ حَنِيفًا .. (٣٠) ﴾ [الروم] هذه الكلمة من الكلمات التى أثارت تذبذباً عند الذين يحاولون أنْ يستدركوا على كلام الله ؛ لأن معنى الحنيف : مائل الساقين فترى فى رِجْله انحناء للداخل ، يقال : فى قدمه حنف أى ميل ، فالمعنى : فأقم وجهك للدين مائلاً ، نعم هكذا المعنى ، لكن مائلاً عن أىِّ شىء ؟

لا بُدَّ أن تفهم المعنى هنا ، حتى لا تتهم أسلوب القرآن ، فإن الرسول ﷺ جاء ليصلح مجتمعاً فاسداً منحرفاً يدين بالشرك والوثنية ، فالمعنى : مائلاً عن هذا الفساد ، ومائلاً عن هذا الشرك ، وهذه الوثنية التى جئت لهدمها والقضاء عليها ، ومعنى : مال عن الباطل . يعنى : ذهب إلى الحق .

و (أَقِمْ) هنا بمعنى : أقيموا ، لأن خطاب الرسول خطاب

لأمته ، بدليل أنه سبحانه سيقول فى الآية بعدها : ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ.. (٣١)﴾ [الروم] ولو كان الأمر له وحده لَقالَ منيباً إليه ، ومثال ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿يَـٰأَيُّهَا النَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ .. (١)﴾ [الطلاق]

فالخطاب للأمة كلها فى شخص رسول الله ؛ لأنه ﷺ هو المبلِّغ ، والمبلِّغ هو الذى يتلقى الأمر ، ويقتنع به أولاً ليستطيع أنْ يُبلِّغه ؛ لذلك قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ .. (٢١)﴾ [الأحزاب]

وقال ﴿حَنِيفًا.. (٣٠)﴾ [الروم] لأن الرسل لا تأتى إلا على فساد شمل الناس جميعاً ؛ لأن الحق سبحانه كما خلق فى الجسم مناعة مادية خلق فيه مناعة قيمية ، فالإنسان تُحدِّثه نفسه بشهوة وتغلبه عليها ، فيقع فيها ، لكن ساعة ينتهى منها يندم عليها ويُؤنِّبه ضميره ، فيبكى على ما كان منه ، وربما يكره مَنْ أعانه على المعصية .

وهذه هى النفس اللوامة ، وهى علامة وجود الخير فى الإنسان ، وهذه هى المناعة الذاتية التى تصدر من الذات .

وفَرْق بين مَنْ تنزل عليه المعصية وتعترض طريقه ، ومَنْ يُرتِّب لها ويسعى إليها ، وهذا بيِّن فى قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ .. (١٧)﴾ [النساء]

فَرْق بين مَنْ يذهب إلى باريس لطلب العلم ، فتعترض طريقه إحدى الفتيات ، ومَنْ يذهب إلى باريس لأنه سمع عما فيها من إغراء ، فهذا وقع فى المعصية رغماً عنه ، ودون ترتيب لها ، وهذا قصدها وسعى إليها ، الأول غالباً ما يُؤنِّب نفسه وتتحرك بداخله النفس اللوامة والمناعة الذاتية ، أما الآخر فقد ألِفَتْ نفسه المعصية

واستشرتْ فيها ، فلا بُدَّ أن تكون له مناعة ، ليست من ذاته ، بل من المجتمع المحيط به ، على المجتمع أن يمنعه ، وأن يضرب على يديه .

والمناعة فى المجتمع لا تعنى أن يكون مجتمعاً مثالياً لا يعرف المعصية ، بل تحدث منه المعاصى ، لكنها مُفرّقة على أهواء النَّاس ، فهذا يميل إلى السرقة ، وهذا يميل إلى النظر إلى المحرمات ، وهذا يحب كذا .. الخ .

إذن : ففى الناس مواطن قوة ، ومواطن ضعف ، وعلى القوى فى شىء أن يمنع الضعيف فيه ، وأنْ يزجره ويُقوِّمه ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْاْ بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِالصَّبْرِ (٣)﴾ [العصر]

فإذا عَمَّ الفساد وطَمَّ كما قال تعالى عن اليهود : ﴿كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ .. (٧٩)﴾ [المائدة] وفقد المجتمع أيضاً مناعته . فلا بُدَّ أنْ تتدخل السماء برسول جديد ومعجزة جديدة ، لينقذ هؤلاء .

ثم يقول تعالى : ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا .. (٣٠)﴾ [الروم] فنحن نرى البشر يتخذون الطعوم والأمصال للتحصين من الأمراض ، كذلك الحق سبحانه ـ وله المثل الأعلى ـ جعل هذا المصل التطعيمى فى كل نفس بشرية ، حتى فى التكوين المادى .

ألا ترى قوله تعالى فى تكوين الإنسان : ﴿يَـأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ .. (٥)﴾ [الحج]

فالمخلَّقة هى التى تكوّن الأعضاء ، وغير المُخلَّقة هى الرصيد

المختزن فى الجسم ، وبه يعوِّض أىَّ خلل فى الأعضاء المخلَّقة ، فهى التى تمده بما يصلحه ، كذلك فى القيم جاء دين الله فطرت الله التى فطر الناس عليها ، فإذا تدخلتْ الأهواء وحدثتْ الغفلة جاءتْ المناعة ، إما من ذات النفس ، وإما من المجتمع ، وإما برسول ومنهج جديد .

وقد كرَّم الله أمة محمد بأن يكون رسولُها خاتَم الرسل ، فهذه بُشْرى لنا بأن الخير باقٍ فينا ، ولا يزال إلى يوم القيامة ، ولن يفسد مجتمع المسلمين أبداً بحيث يفقد كله هذه المناعة ، فإذا فسدتْ فيه طائفة وجدت أخرى تُقوِّمها ، وهذا واضح فى قول النبى ﷺ :

« لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق ، لا يضرهم من خذلهم ، حتى يأتى أمر الله وهم كذلك »[(١)] .

وقال ﷺ : « الخير فىَّ وفى أمتى إلى يوم القيامة »[(٢)] .

وإلا لو عَمَّ الفساد هذه الأمة لاقتضى الأمر شيئاً آخر .

وحين نقرأ الآية نجد أن كلمة ﴿فِطْرَتَ.. ﴿٣٠﴾﴾ [الروم] منصوبة ، ولم يتقدم عليها ما ينصبها ، فلماذا نُصِبَتْ ؟ الأسلوب هنا يريد أن يلفتك لسبب النصب ، وللفعل المحذوف هنا ، لتبحث عنه بنفسك ، فكأنه قال : فأقم وجهك للدين حنيفاً والزم فطرت الله التى فطر الناس عليها .

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٩٢٠) كتاب الإمارة من حديث ثوبان رضى الله عنه ، وأخرجه البخارى فى صحيحه (٧٣١١) ، وكذلك مسلم فى صحيحه (١٩٢١) من حديث المغيرة بن شعبة بلفظ « لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون » .

(٢) قال ابن حجر العسقلانى : لا أعرفه ، ولكن معناه صحيح . ذكره القارى فى « الأسرار المرفوعة » (٤٥٧) وكذا السيوطى فى « الدرر المنتثرة » (٢٢٠) والعجلونى فى كشف الخفاء (١/٤٧٦) .

لذلك يسمى علماء النحو هذا الأسلوب أسلوب الإغراء ، وهو أن أغريك بأمر محبوب وأحثَّك على فعْله ، كذلك الحق سبحانه يغرى رسوله ﷺ بأنْ يُقيم وجهه نحوَ الدين الخالص ، وأنْ يلزم فطرت الله ، وألا يلتفت إلى هؤلاء المفسدين ، أو المعوِّقين له .

والفطرة : يعنى الخلقة[1] كما قال سبحانه : ﴿فَاطِرَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. (١٠١)﴾ [يوسف] يعنى : خالقهما ، والفطرة المرادة هنا قوله تعالى : ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ (٥٦)﴾ [الذاريات]

فالزم هذه الفطرة ، واعلم أنك مخلوق للعبادة .

أو : أن فطرت الله تعنى : الطبيعة التى أودعها الله فى تكوينك منذ خلق اللهُ آدم ، وخلق منه ذريته ، وأشهدهم على أنفسهم ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ .. (١٧٢)﴾ [الأعراف]

وسبق أنْ بيَّنا كيف أن فى كل منا ذرة حية من أبينا آدم باقية فى كل واحد منا ، فالإنسان لا ينشأ إلا من الميكروب الذكرى الحى الذى يُخصِّب البويضة ، وحين تسلسل هذه العملية لا بُدَّ أن تصل بها إلى آدم عليه السلام .

وهذه الذرة الباقية فى كل منا هى التى شهدتْ العهد الأول الذى أخذه الله علينا ، وإلا فالكفار فى الجاهلية الذين جاء رسول الله لهدايتهم ، كيف اعترفوا لله تعالى بالخلق : ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ .. (٣٨)﴾ [الزمر]

من أين عرفوا هذه الحقيقة ؟ نُقلت إليهم من هذا العهد الأول ،

---

(١) « قال ابن عطية : الذى يُعتمد عليه فى تفسير هذه اللفظة أنها الخلقة والهيئة التى فى نفس الطفل التى هى مُعدَّة ومُهيأة لأن يميز بها مصنوعات الله تعالى ، ويستدل بها على ربه ويعرف شرائعه ويؤمن بها » [ذكره القرطبى فى تفسيره ٧/٥٢٨٤] .

فمنذ هذا العهد لم يجرؤ أحد من خَلْق الله أنْ يدَّعى هذا الخَلْق لنفسه ، فظلت هذه القضية سليمة فى الأذهان مع ما حدث من فساد فى معتقدات البشر .

وتظل هذه القضية قائمة بالبقية الباقية من هذا العهد الأول ، حتى عند الكفار والملاحدة ، فحين تكتنفهم الأحداث وتضيق بهم أسبابهم ، تراهم يقولون وبلا شعور : يا رب ، لا يدْعون صنماً ولا شجراً ، ولا يذهبون إلى آلهتهم التى اصطنعوها ، فهم يعلمون أنها كذب فى كذب ، ونصب فى نصب .

والآن لا يخدعون أنفسهم ولا يكذبون عليها ، الآن وفى وقت الشدة وحلول الكرب ليس إلا الله يلجئون إليه ، ليس إلا الحق والفطرة السليمة التى فطر الله الناس عليها .

وما دام الله قد فطرنا على هذه الفطرة ، فلا تبديل لما أراده سبحانه ﴿لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ.. ﴿٣٠﴾﴾ [الروم] يعنى : ما استطاع أحد أنْ يقول : أنا خلقتُ السموات والأرض ، ولا أنْ يقول : أنا خلقتكم أو خلقتُ نفسى .

﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ .. ﴿٣٠﴾﴾ [الروم] أى : الدين الحق ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الروم] أى : لا يعلمون العلم على حقيقته والتى بيَّناها أنها الجزم بقضية مطابقة للواقع ، ويمكن إقامة الدليل عليها .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾﴾

أناب : يعنى رجع وقطع صلته بغير الحق ﴿إِلَيْهِ .. (٣١)﴾ [الروم] إلى الله ، فلا علاقة له بالخَلْق فى مسألة العقائد ، فجعل كل علاقته بالله .

ومنه يسمون الناب ؛ لأنه يقطع الأشياء ، ويقولون : ناب إلى الرشد ، وثاب إلى رشده ، كلها بمعنى : رجع ، وما دام هناك رجوع فهناك أصل يُرجع إليه ، وهو أصل الفطرة .

وقوله تعالى ﴿وَاتَّقُوهُ .. (٣١)﴾ [الروم] لأنه لا يجوز أنْ تنيب إلى الله ، وأن ترجع إليه ، وأن تجعله فى بالك ثم تنصرف عن منهجه الذى شرَّعه لينظم حركة حياتك ، فالإنابة وحدها والإيمان بالله لا يكفيان ؛ بل لا بُدَّ من تطبيق المنهج بتقوى الله ، لذلك كثيراً ما يجمع القرآن بين الإيمان والعمل الصالح : ﴿إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ .. (٢٢٧)﴾ [الشعراء]

لأن فائدة الإيمان وثمرته بعد أن تؤمن بالإله الحق ، وأن منهجه هو الصدق ، وفيه نفعك وسلامتك فى حركة حياتك ، وأنه الذى يُوصِّلك إلى سعادة الدارين ، ولا معنى لهذا كله إلا بالعمل والتطبيق .

﴿وَاتَّقُوهُ .. (٣١)﴾ [الروم] أى : اتقوا غضبه ، واجعلوا بينكم وبين غضب الله وقاية ، وهذه الوقاية تتحقق باتباع المنهج فى افعل ولا تفعل . وسبق أن تكلمنا فى معنى التقوى وقلنا : إنها تحمل معنيين يظن البعض أنهما متضاربان حين نقول : اتقوا الله . واتقوا النار . لكن المعنى واحد فى النهاية ؛ لأن معنى اتق الله : اجعل بينك وبين عذاب الله وغضبه وقاية ، وهذا نفسه معنى : اتق النار . يعنى : ابتعد عن أسبابها حتى لا تمسَّك .

وقوله تعالى : ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ .. (٣١)﴾ [الروم] أقيموا الصلاة أدُّوها على الوجه الأكمل ، وأدُّوها على ما أُحبُّ منكم فى أدائها ، فساعة أناديك : الله أكبر يجب أن تقبل علىَّ ، وأنت حين تُلبِّى النداء لا تأتى لتعيننى على شىء ، ولا أنتفع بك فى شىء ، إنما تنتفع أنت بهذا اللقاء ، وتستمد منى العون والقوة ، وتأخذ شحنة إيمان ويقين من ربك .

وقلنا : ما تصورك لآلة تُعرَض على صانعها كل يوم خمس مرات أيبقى بها عَطَب ؟ لذلك يُعلِّمنا نبينا ﷺ أنه إذا حزبنا أمر أن نهرع إلى الصلاة ، وكذلك كان يفعل ﷺ إذا عزَّ عليه شىء ، أو ضاقت به الأسباب ، وإلا فما معنى الإيمان بالله إنْ لم تلجأ إليه .

وما دام ربك غيباً ، فهو سبحانه يُصلحك بالغيب أيضاً ، ومن حيث لا تدرى ؛ لذلك أمرنا ربنا بإقامة الصلاة ، وجعلها عماد الدين والركْن الذى لا يسقط عنك بحال ، فالزكاة والحج مثلاً يسقطان عن الفقير وعن غير القادر ، والصوم يسقط عن المريض أو المسافر ، فى حين مرضه أو سفره ، ثم يقضيه بعد انقضاء سبب الإفطار .

أما الصلاة فهى الركْن الدائم ، ليس مرة واحدة فى العمر ، ولا مرة واحدة فى العام ، إنما خمس مرات فى اليوم والليلة ، فبها يكون إعلان الولاء لله تعالى إعلاناً دائماً ، وهذا إنْ دلَّ فإنما يدل على عظمة الإنسان ومكانته عند ربه وخالقه .

وسبق أن قلنا : إنك إنْ أردتَ مقابلة أحد المسئولين أو أصحاب المنزلة كم تعانى ليُؤذَن لك ، ولا بُدَّ أن يُحدِّد لك الموعد والمكان ، بل وموضوع المقابلة وما ستقوله فيها ، ثم لصاحب المقابلة أنْ يُنهيها متى يشاء .

إذن : لا تملك من عناصر هذا اللقاء شيئاً ، أما فى لقائك بربك ـ عز وجل ـ فالأمر على خلاف ذلك ، فربُّك هو الذى يطلبك ويناديك لتُقبل عليه ، لا مرة واحدة بل خمس مرات كل يوم ، ويسمح لك أنْ تناجيه بما تحب ، وتطلب منه ما تريد .

ولك أن تنهى أنت المقابلة بقولك : السلام عليكم ، فإنْ أحببتَ أن تطيل اللقاء ، أو أنْ تعتكف فى بيت ربك فإنه سبحانه لا يملُّ حتى تملُّوا ، فهذه ـ إذن ـ ليست عبودية ، بل عزٌّ وسيادة .

وما أجملَ ما قاله الشاعر فى هذا المعنى[1] :

حَسْبُ نَفْسِى عِزّاً بأنِّى عَبْدٌ ... يحتَفِى بى بلاَ مَواعيدَ رَبٌّ
هُوَ فى قُدْسِه الأعَزِّ ولكِنْ ... أنَا أَلْقى متَى وأيْنَ أُحِبّ

ولأن للصلاة هذه المنزلة بين أركان الإسلام لم تُفرض بالوحى كباقى الأركان ، إنما فُرِضَتْ مباشرة من الله تعالى لنبيه ﷺ ، حين استدعاه ربه للقائه فى السماء فى رحلة المعراج .

وسبق أنْ مثَّلنا لذلك ـ ولله تعالى المثل الأعلى ـ برئيس العمل الذى يُلقى أوامره بالتليفون ، أو بتأشيرة على ورقة ، فإنْ تعرَّض لأمر هام استدعى الموظف المختص إلى مكتبه ، وأعطاه الأمر مباشرة لأهميته ، كذلك كانت الصلاة ، وكذلك فُرِضَتْ على سيدنا رسول الله بالتكليف المباشر .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٣١)﴾ [الروم] وهنا وقفة : فكيف بعد الإنابة إلى الله والتقوى ، وبعد الأمر بإقامة الصلاة يقول ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٣١)﴾ [الروم] ؟ وأين الشرك ممَّنْ يُؤدِّى التعاليم على هذا الوجه ؟ قالوا : الشرك المنهىّ عنه هنا ليس

---

(١) من شعر الشيخ رضى الله عنه .

الإشراك مع الله إلهاً آخر ، إنما أشركوا مع الله نيةً أخرى ، فالإشراك هنا بمعنى الرياء ، والنظر إلى الناس لا إلى الله .

لذلك يقولون : العمل من أجل الناس رياء ، وترْك العمل من أجل الناس شرك . فالذى يصلى أو يبنى لله مسجداً للشهرة ، وليحمده الناس فهو مُراء ، وهو خائب خاسر ؛ لأن الناس انتفعوا بعمله ولم يُحصِّل هو من عمله شيئاً .

أما مَنْ يترك العمل خوفاً من الوقوع فى الرياء ، فيمتنع عن الزكاة مثلاً ، خَوْفَ أنْ يُتَّهم بالرياء ، فهو والعياذ بالله مشرك ، لأن الناس ينتفعون بالعمل حتى وإنْ كان رياءً ، لكن إنِ امتنعتَ عن العمل فلا ينتفع الناس منك بشىء .

فالمعنى : ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الروم] أى : الشرك الخفى وهو الرياء ؛ لذلك رأينا سيدنا رسول الله وهو الأسوة للأمة الإيمانية يدعو ربه ويقول « اللهم إنِّى أستغفرك من كل عمل أردتُ به وجهك فخالطنى فيه ما ليس لك »[1] .

فالعمل الإيمانى ما كان لله خالصاً ، وعلى قَدْر الإخلاص يكون الجزاء ، فمن الناس مَنْ يفعل الصلاح فيوافق شيئاً فى نفسه ، كأن يساعده على استقامة الحياة أو على التوفير فى النفقات أو غير ذلك ، فيستمر عليه ، لا لله إنما لمصلحته هو .

وفى هؤلاء يقول تعالى : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ

---

(١) ذكره ابن رجب الحنبلى فى كتابه « جامع العلوم والحكم » (ص ٢٧) من دعاء مطرف ابن عبد الله بن الشخير أنه كان يقول : « اللهم إنى أستغفرك مما تبت إليك منه ، ثم عدت فيه ، وأستغفرك مما جعلته لك على نفسى ثم لم أفِ لك به ، وأستغفرك مما زعمت أنى أردت به وجهك فخالط قلبى منه ما قد علمت » وقد أورده أبو نعيم فى حلية الأولياء (٢/٢٠٧) .

أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (١١) ﴾ [الحج]

وكالتاجر الذى يلتزم الصدق فى تجارته ، لا حباً فى الصدق ذاته ، إنما طمعاً فى الشهرة والصِّيت وكَسْب المزيد من الزبائن ، ومثل هؤلاء ينالون من الدنيا على قَدْر سعيهم لها ، ولا يحرمهم اللهُ ثمرةَ مجهوداتهم ، كما قال سبحانه : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ (٢٠) ﴾ [الشورى]

فما أشبه الناس فى نياتهم من الأعمال بركْب يقصدون وجهة واحدة ، لكن لكل منهم غاية يسعى إليها ، فهذا يسعى للطعام أو أكلة شهية ، وهذا يسعى لامرأة جميلة ، وهذا يسعى لدرْس علم ينتفع به ، وآخر يسعى لرؤية مَنْ يحب ، وقد عبَّر الشاعر عن هذا المعنى بقوله :

قَصَدْتُ بالركْبِ مَنْ أَهْوى وقُلْتُ لَهُم ... هَيّا كُلوا وخُذُوا ما حَظكم فيهِ
لكِنْ دَعُونى أُلاَقِى مَنْ أؤمِلُهُ ... عَيْنى تَرَاهُ وَوُجْدَانِى يُنَاجِيهِ

كذلك الحق ـ تبارك وتعالى ـ يريد من عبده أنْ يقصده لذَاته ، لا خوفاً من ناره ، ولا طمعاً فى جنته ، وفَرْق بين أن تنعم بنعمة الله ، وأن تنعم بالنظر إلى الله ، فأنت فى الجنة تأكل ، لا عن جوع ولا عن حاجة ، إنما لمجرد التنعُّم .

لذلك يقول سبحانه عن الشهداء : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) ﴾ [آل عمران] فتكفيهم هذه العندية ، وأنْ ينظروا إلى الله سبحانه وتعالى .

لذلك تقول رابعة العدوية[1] : اللهم إنْ كنتَ تعلم أنِّى أعبدك طمعاً فى جنتك فاحرمنى منها ، وإنْ كنتَ تعلم أنى أعبدك خوفاً من نارك فأدخلنى فيها ، لكنى أعبدك لأنك أحقُّ أنْ تُعبدَ .

ولا شكَّ أن القليل من الناس يخلصون النية لله ، وأن الغالبية يعملون العمل كما اتفق على أية نية ، لا تعنيهم هذه المسألة ، ولا يهتمون بها ، كما قال سبحانه : ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ (١٠٦)﴾ [يوسف]

﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٣٢)﴾

فرَّقوا دينهم كالركْب الذين اختلفتْ وجهاتهم ونياتهم ﴿وَكَانُوا شِيَعًا .. (٣٢)﴾ [الروم] جمع شيعة ، وهم الجماعة المتعاونة على أمر من الأمور ، خيراً كان أو شراً ، خيراً مثل قوله تعالى : ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لإِبْرَاهِيمَ (٨٣)﴾ [الصافات]

أو شراً مثل : ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِى الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا .. (٤)﴾ [القصص]

وفى آية أخرى : ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ .. (٦٥)﴾ [الأنعام]

---

(١) هى : رابعة بنت إسماعيل العدوية ، أم الخير ، مولاة آل عتيك البصرية ، صالحة مشهورة من أهل البصرة ومولدها بها ، لها أخبار فى العبادة والنسك ، توفيت بالقدس عام ١٣٥ هـ (الأعلام للزركلى ٣/١٠) .

وقوله تعالى : ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٣٢)﴾ [الروم] لما لهم من سلطة زمنية ، ولما لهم من مكانة يخافون أنْ تهتز كالسلطة الزمنية التى منعتْ يهود المدينة من الإيمان برسول الله ، مع أنهم كانوا يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ويعرفون زمانه ، وكانوا يقيمون بالمدينة ينتظرون ظهوره ، وكل ذلك عندهم فى التوراة ، حتى إنهم كانوا يصطدمون بعبدة الأصنام ، فيقولون لهم . لقد أطلَّ زمن نبى يظهر آخر الزمان سنتبعه ، ونقتلكم به قتْل عاد وإرم[1] .

﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ .. (٨٩)﴾ [البقرة]

لماذا ؟ حفاظاً على سلطتهم الزمنية ، وقد كانوا أهل علم وغنىً ومكانة ، فلما بُعث محمد ﷺ ألغى هذه السلطة ، فلا كلام بعد كلامه ﷺ ، أما مَنْ ثبت منهم على دينه الحق ، وعمل بما فى التوراة فقد آمن بمحمد كعبد الله بن سلام وغيره من أحبار اليهود .

فالسلطة الزمنية هى التى حالتْ بين الناس وبين الحق الذى يؤمنون به ، وهذه السلطة الزمنية هى التى نراها الآن فى هذه الفِرَق والأحزاب التى يدَّعى كل منها أنها على الحق وما سواها على الباطل .

يقول تعالى : ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ .. (٧١)﴾ [المؤمنون]

---

(١) قال محمد بن إسحاق عن عاصم بن عمرو عن قتادة الأنصارى عن أشياخ منهم قال : فينا والله وفيهم يعني في الأنصار وفي اليهود الذين كانوا جيرانهم نزلت هذه القصة يعني: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ .. (٨٩)﴾ [البقرة] قالوا : كنا قد علوناهم قهراً دهراً فى الجاهلية ونحن أهل شرك وهم أهل كتاب وهم يقولون : إن نبياً سيُبعث الآن نتبعه قد أظل زمانه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم ، فلما بعث الله رسوله من قريش واتبعناه كفروا به » أورده ابن كثير فى تفسيره (١/١٢٤) .

فكل منهم يناطح الآخرين ليعلى مذهبه ، ويظهر هو على الساحة .

بعد ذلك يُبيِّن لنا الحق سبحانه أن الذين يكفرون بالله ، أو يتمردون على منهج الله يظلون هكذا أسْرى هذه السلطة الزمنية ، فإذا أصابتهم هزة أو بلاء لا تقوى أسبابهم على دفعه لم يجدوا ملجأ إلا الله ، فقال سبحانه :

﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

الضر : هو الشيء الذى نتضرر منه ، ولا تستطيبه النفس ، فإنْ أصابهم الضر وأسبابهم لا تفى بالخلاص منه ﴿ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ .. ﴿٣٣﴾ ﴾ [الروم] أى : رجعوا إليه سبحانه ، والآن علموا أن لهم رباً يلجئون إليه ، وهذا يُذكِّرنا بما قاله العرب عندما فتر الوحى عن رسول الله ، فسرَّهم ذلك ، وقالوا : إن رب محمد قلاه[1] . سبحان الله الآن عرفتم أن لمحمد رباً .

وقلنا : إن ساعة الضيق والمحنة لا يَكْذب الإنسان نفسه ولا يخدعها ، وسبق أنْ ذكرنا قصة حلاق الصحة الذى كان يحلّ محلّ الطبيب الآن ، فلما أنشئت كليات للطب وخرَّجت أطباء ، وذهب أحدهم إلى قرية الحلاق ، فأخذ الحلاق يهاجمه ويدَّعى أنه حديث لا خبرةَ له ، فلما مرض ابنه وأحسَّ بالخطر أخذه خُفْية فى ظلام الليل ، وذهب به إلى الطبيب ، لماذا ؟ لأنه لن يغشَّ نفسه فى هذه اللحظة .

---

(١) ذكر ابن كثير فى تفسيره (٥٢٢/٤) من رواية سفيان بن عيينة عن الأسود بن قيس سمع جندباً قال : أبطأ جبريل على رسول الله ﷺ فقال المشركون : ودَّع محمداً ربُّه ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ ﴾ [الضحى] .

﴿ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٣٣) ﴾ [الروم]

أى : يعودون إلى ما كانوا عليه من الشرك بالله .

وحين نتأمل هذه المسألة نجد أن القرآن عرضها مرة بصيغة الإفراد ، فقال : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا .. (٨) ﴾ [الزمر]

وقال : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ .. (١٢) ﴾ [يونس]

لكن الكلام عن الإنسان المفرد لا يكفى لإثبات الظاهرة ؛ لأن الإنسان الواحد يمكن أن يستذل أمام ربه ، ويعود إليه بعد أنْ تجرَّأ على معصيته ، يكون ذلك بينه وبين نفسه ، فلا يفضح نفسه أمام الناس ، فأراد سبحانه أنْ يثبت هذه المسألة عند الناس جميعاً ؛ ليفضح بعضهم بعضاً ، فذكر هنا ﴿ وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ .. (٣٣) ﴾ [الروم]

وفى آية أخرى : ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ (٦٥) ﴾ [العنكبوت]

فجاء بصيغة الجمع ليفضح الكافرين بعضهم أمام بعض ، وقد يكون فى هؤلاء الداعين مَنْ كان يُؤلّبهم على الله ، ويصرفهم عن الإيمان به ، وها هو الآن يدعو ويتضرع ، وحين يُفتضح أمرهم يكون ذلك أدْعى لاستقامتهم وأدعى ألاَّ يتكبر أحد على أحد .

لذلك قلنا فى ميزات الصلاة أنها تُسوِّى بين الناس ، فيجلس الرجل العادى بجوار مَنْ لم يكُن يُؤْمَل أنْ يجلس بجواره ، ويجده خاضعاً معه مطاوعاً للإمام .. الخ ففى الصلاة ، الجميع سواء ، والجميع منتفع بهذه المساواة ، آخذ منها عبرة ، فلا يتكبر بعدها أحد على أحد .

ونقف هنا عند ﴿مَسَّ .. (٣٣)﴾ [الروم] وهو اللمس الخفيف ، فالمعنى مسَّهم اليسير من الضر ، ومع ذلك ضاقتْ أسبابهم عن دفعه ، وضَجُّوا يطلبون الغَوْث .

وكلمة ﴿أَذَاقَهُم .. (٣٣)﴾ [الروم] الذوق حاسة من حواس الإنسان يُحِسُّ بها الطعام عند مروره على منطقة معينة فى اللسان ، فإذا ما تجاوز الطعامُ هذه المنطقةَ لا يشعر الإنسان بطعمه .

إذن : فَلَذَّة الطعام مقصورة على هذه المنطقة فى الفم ، والتذوق أقوى انفعالات النفس فى استقبال المذاق ؛ لذلك يقولون فى الأمثال (اللى يفوت من اللسان بقى نتان) .

وتأمل ، كيف استعمل الحق سبحانه الإذاقةَ فى مجال العذاب حين ضرب لنا هذا المثل : ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً[1] مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١١٢)﴾ [النحل]

فذكر الإذاقة مع أن اللباسَ يستوعب الجسم كله ، وكذلك الجوع والخوف ، فكل منهما إحساس يستولى على الإنسان كله ، ومع ذلك قال ﴿فَأَذَاقَهَا .. (١١٢)﴾ [النحل] لأن الإذاقة أقوى أنواع الإدراك .

وكلمة ﴿مِّنْهُ .. (٣٣)﴾ [الروم] أى : من الله تعالى ، يعنى بلا أسباب ، أو ﴿أَذَاقَهُم مِّنْهُ .. (٣٣)﴾ [الروم] أى : بدَّل الضر برحمة ، وخلَّصهم من الضُّرِّ برحمة . كما أن الإذاقة وإنْ دلَّتْ على الانفعال الشديد للمستقبل ، فإنها أيضاً تدلُّ على التناول الخفيف بلُطْف ، كما

---

(١) رُغد العيش : اتسع وطاب . وقوله : ﴿وَكُلا مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا .. (٣٥)﴾ [البقرة] أى : أكلاً طيباً موسعاً عليكم فيه . [القاموس القويم ١/٢٦٩] .

تقول : ذُقْتُ الطعام . أو تقول : والله ما ذُقْتُ لفلان طعاماً يعنى : ما أكلتُ عنده من باب أوْلى .

لذلك الحق سبحانه وتعالى عبر عن الرحمة هنا بالإذاقة ؛ لأن رحمة الدنيا لا تستوعب كل رحمة الله ، فالقليل منها فى الدنيا ، وجُلُّها فى الآخرة .

ونلحظ فى قوله تعالى : ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٣٣)﴾ [الروم] ، أما فى الآية الأخرى : ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ (٦٥)﴾ [العنكبوت]

فلماذا قال فى الأولى ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم .. (٣٣)﴾ [الروم] وفى الأخرى : ﴿إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ (٦٥)﴾ [العنكبوت] فلم يستثْنِ منهم أحداً ؟

قالوا : لأن الآية الأولى تتكلم عن الذين دَعَوا الله فى البَرِّ ، والناس فى البر عادة ما يكونون مختلفين ، فيهم الصالح والطالح ، والمطيع والعاصى ، فهم مختلفون فى رَدِّ الفعل ، فالمؤمنون لما عَاينوا النجاة ورحمة الله قالوا : الحمد لله الذى نجانا ، أما المشركون فعادوا إلى كُفْرهم وعنادهم .

أما الآية الأخرى فتتكلم عن الذين دَعَوا الله فى البحر ، وعادة ما نرى الذين يركبون البحر على شاكلة واحدة ، وهم لا يركبونه كوسيلة للسفر ، إنما للترف ، كما نرى البعض يتخذ لنفسه يختاً مثلاً أو عوَّامة يجمع فيها أتباعه ومَنْ هم على شاكلته ، ولا بُدَّ أنهم يجتمعون على شىء يحبونه ، فهم على مذهب واحد ، وطريقة واحدة ، وسلوك واحد .

إذن : ما دام هؤلاء كانوا فى البحر فلا بُدَّ أنهم كانوا مجرمين

عتاة ، وكانوا سواسية فى الشرك وفى التخلِّى عن الله ، بمجرد أنْ أمنوا الخطر ، لذلك استخدم الأسلوب هنا ﴿إِذَا .. (٣٣)﴾ [الروم] الفَجائية واستخدمه فى آية أخرى ﴿إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ (٦٥)﴾ [العنكبوت] فبعد أنْ أنجاهم الله أسرعوا العودة إلى ما كانوا عليه من الشرك .

ففى هذه الآية الحق سبحانه يُبيِّن لنا حقيقة الإنسان ، ومدى حرصه على جَلْب الخير لنفسه ، فإنْ كان الخير الذى أعدَّه الله له يُبطره ويُطغيه كما قال سبحانه ﴿كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ (٧)﴾ [العلق]

فإنه لا مناصَ له من أنْ يرجع إلى ربه حين ينفض الله عنه كُلَّ أسباب الخير ، ويهدده فى نفسه وفى ذاته التى لم تنتفع بآيات الله فى الكون ، فتظل فى حضانة الله ، فيأتى له بالضُّر الذى ينفض عنه كلّ أسباب البطَر والأشَر والاستعلاء .

ولكنه لا يسلم نفسه للضر الذى يهلكه ، بل عندها يتنبه أن له رباً يلجأ إليه ، ولا يجد مفزعاً فى الكون إلا هو ؛ لأنه يعلم جيداً أن الذين أخذوه من الله فآمن بهم وكفر بالله لن ينفعوه بشىء ؛ لأنه عبد من دون الله آلهة لا تضر ولا تنفع .

لذلك يقول تعالى : ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ .. (٦٧)﴾ [الإسراء] فهؤلاء الذين تدعونهم لا يعرفون طريقكم ، وإنْ عرفوا لا يملكون أنْ يصلوا إليكم ، أما أنا فربكم الأعلم بكم ، والقادر على إغاثتكم ، وإنزال الرحمة بكم .

إذن : فهؤلاء المشركون أشركوا بالله فى وقت الرخاء ، أما فى وقت الضيق والكرب فلن يخدع أحدهم نفسه ، ولن يغشَّها لن يقول : يا هُبَل . لأنه يعلم أن هُبَلَ لا يسمعه ولا يجيبه ، فلا ينفعه الآن ،

ولا ينجيه إلا الإله الحق ، فقد ألجأتْه الضرورة أن يعترف به ويدعوه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾﴾

يتبادر إلى الذهن أن اللام فى ﴿لِيَكْفُرُوا .. ﴿٣٤﴾﴾ [الروم] لام التعليل ، أو لام السببية التى يكون ما بعدها سبباً لما قبلها ، كما تقول : ذاكر لتنجح ، وكذلك فى الشرط والجواب : إنْ تذاكر تنجح فعلَّة المذاكرة النجاح .

فهل يستقيم المعنى هنا على هذا الفهم ؟ وهل نجاهم الله وأذاقهم الرحمة ليكفروا به ؟

نقول : ليس الشرط سبباً فى مجىء الجواب كما يفهم السطحيون فى اللغة ، بل الجواب هو السبب فى الشرط ، لكنهم لم يُفرِّقوا بين سبب دافع وسبب واقع ، فالتلميذ يذاكر لأن النجاح ورد بباله ، وتراءتْ له آثاره الطيبة أولاً فدفعتْه للمذاكرة .

إذن : فالجواب سبب فى الشرط أى : سبب دافع إليه ، فإذا أردتَ أن يكون واقعاً فقدِّم الشرط ليجىء الجواب .

وكما تقول : ركبتُ السيارة لأذهب إلى الأسكندرية ، فركوب السيارة ليس سبب ذهابك للأسكندرية ؛ لأنك أردْتَ أولاً الذهاب فركبتَ السيارة ، فلما ركبتها وصلتَ بالفعل . إذن : نقول : الشرط سبب للجواب دافعاً يدفع إليه ، والجواب سبب للشرط واقعاً .

فهنا نجّاهم الله من الكرب ، وأذاقهم رحمته لا ليكفروا به ، إنما ليُبيِّن لهم أنه لا مفزعَ لهم إلا إليه ، فيتمسكون به سبحانه ، فيؤمن منهم الكافر ، ويزداد مؤمنهم إيماناً ، لكن جاء ردُّ الفعل منهم على خلاف ذلك ، لقد كفروا بالله ؛ لذلك يسمون هذه اللام لام العاقبة أى : أن كفرهم عاقبة النجاة والرحمة .

ومثال ذلك ـ ولله المثل الأعلى ـ لو ضممتَ طفلاً مسكيناً إلى حضانتك وربَّيته أحسن تربية ، فلما شبَّ وكَبِر تنكّر لك ، واعتدى عليك ، فقلت للناس : ربَّيته ليعتدى علىَّ ، والمعنى : ربَّيته ليحترمنى ويحبنى ، لكن جاءت النتيجة والعاقبة خلاف ذلك ، وهذا يدل على فساد التقدير عند الفاعل الذى ربَّى ، وعلى لُؤْم وفساد طبع الذى رُبِّى .

فالأسلوب هنا ﴿لِيَكْفُرُوا .. (٣٤)﴾ [الروم] يحمل معنى التقريع ؛ لأن ما بعد لام العاقبة ليس هو العلة الحقيقية لما قبلها ، إنما العلة الحقيقية لما قبلها هو المقابل لما بعد اللام : أذاقهم الرحمة ، ونجاهم ليؤمنوا ، أو ليزدادوا إيماناً ، فما كان منهم إلا أنْ كفروا .

ولهذه المسألة نظائر كثيرة فى القرآن ، كقوله تعالى فى قصة موسى : ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا .. (٨)﴾ [القصص]

ومعلوم أنهم التقطوه ليكون لهم قُرَّة عين ، ولو كانوا يعلمون هذه العاقبة لأغرقوه أو قتلوه كما قتلوا غيره من أطفال بنى إسرائيل ، وكما يقولون فى الأمثال (بيربى خنَّاقه) .

فهذا دليل على غفلة الملتقط ، وعلى غبائه أيضاً ، فكيف وهو يُقتِّل الأولاد فى هذا الوقت بالذات لا يشكّ فى ولد جاء فى تابوت مُلْقىً فى البحر ؟ أليس فى هذا دلالة على أن أهله يريدون نجاته من

القتل ؟ لكن كما قال سبحانه : ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ[1] بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ .. (٢٤)﴾ [الأنفال]

فأنت تُقتِّل فى الأطفال لرؤيا أخبرك بها العرافون ، فسيأتى مَنْ تخاف منه إلى بابك ، وستأخذه وتُربِّيه فى حضنك ، وسيكون زوال مُلْكك على يديه ، فلا تظن أنك تمكر على الله .

والقصة تدل على خيبة فرعون وخيبة العرافين ، فإذا كنتَ قد صدَّقْتَ العرافين فيما أخبروك به فما جدوى قَتْل الأطفال ، وأنت لن تدرك مَنْ سيكون زوال مُلْكك على يديه ولن تتمكن منه ؟ فلماذا تحتاط إذن ؟

لذلك يجب أن يكون تفكير البشر فى إطار أن فوق البشر رباً ، والرب يكلف العدو ليأتى بعدو له ليقضى عليه ، وهو سبحانه خير الماكرين ، والمكْر الحق أن يكون خُفْية بحيث لا يشعر به الممكور به .

وقد وصل بنا الحال فى القرن العشرين أن نقول : الصراحة مكْر القرن العشرين . يعنى : مَنْ أراد أنْ يمكر فليقُل الحق وليكُنْ صريحاً ؛ لأننا أصبحنا فى زمن قلَّتْ فيه الصراحة وقول الحق ، لدرجة أنك حين تُحدِّث الناس بالحق يشكُّون فيك ، ويستبعدون أن يكون قولك هو الحق ، كالذى قال لجماعة يطلبونه ليقتلوه : أنا سأذهب إلى المكان الفلانى فى الوقت الفلانى فقالوا : إنه يُضلِّلنا ويمكر بنا رغم أنه صادق فيما أخبرهم به .

وبعد أنْ تربَّى موسى ـ عليه السلام ـ فى بيت فرعون ، ثم كلَّفه

---

(١) أى : أن الله يملك أن يصرف قلب الإنسان ويُغيِّر نيته كما يريد ، فالمرء لا يملك قلبه وإنما الله هو الذى يملكه . [القاموس القويم ١/١٧٩] .

ربه بالرسالة ، وذهب إلى فرعون يدعوه إلى الله قال له : ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (١٨)﴾ [الشعراء]

نعم ربَّيتنى وليداً ، لكن الذى ربّانى وربّاك هو الذى بعثنى إليك ، فأنا أبرّ المربى الأعلى قبل أنْ أبرَّ بك ، وفى هذا إشارة إلى أن عناية الله هى الأصل فى تربية مَنْ تحب ، فإياك أنْ تقول : ربَّيْتُ ولدى حتى صار كذا وكذا ، بل عليك بالأَخْذ بأسباب التربية ، وتترك المربِّى الأعلى هو الذى يُربِّى على الحقيقة .

وهذا المعنى فطن إليه الشاعر ، فقال :

إذَا لَمْ تُصَادِفْ فى بَنِيكَ عنَايَةً فَقَدْ كَذَبَ الرَّاجى وخَابَ المؤملُ
فَمُوسَى الذى ربَّاه جِبْرِيلُ كَافِرٌ ومُوسَى الذى ربَّاهُ فِرْعَونُ مُرسَل

ثم يقول سبحانه : ﴿فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٤)﴾ [الروم] لأنه كفر ليتمتع بكفره فى الدنيا ؛ لأن للإيمان مطلوبات صعبة تشقُّ على النفس ، فيأمرك بالشىء الثقيل على نفسك ، وينهاك عن الشىء المحبب إليها ، أما الأصنام التى عبدوها من دون الله وغيرها من الآلهة فلا مطلوبَ لها ولا منهج .

لكنه متاع الحياة الدنيا ومتاع الدنيا قليل ؛ لأن الدنيا بالنسبة لك مدة بقائك فيها فلا تقُلْ إنها ممتدة من آدم إلى قيام الساعة ، فهذا العمر الطويل لا يعنيك فى شىء ، الذى يعنيك عمرك أنت .

ومهما كان عمر الإنسان فى الدنيا فهو قصير وتمتُّعه بها قليل ، ثم إن هذا العمر القصير مظنون غير مُتيقن ، فربما داهمك الموت فى أىِّ لحظة ، ومَنْ مات قامت قيامته[1] .

---

(١) رواه الديلمى فى مسنده (١١١٧) عن أنس رفعه بلفظ : « إذا مات أحدكم فقد قامت قيامته » وقال العجلونى فى كشف الخفاء (٢٦١٨) : « رُوى عن أنس : أكثروا ذكر الموت فإنكم إن ذكرتموه فى غنى كدَّره عليكم ، وإن ذكرتموه فى ضيق وسَّعه عليكم ، الموت القيامة ، إذا مات أحدكم فقد قامت قيامته ، يرى ماله من خير وشر » .

لذلك أبهم الحق ـ سبحانه وتعالى ـ الموت ، ونثر أزمانه فى الخَلْق : فهذا يموت قبل أن يولد ، وهذا يموت طفلاً ، وهذا يموت شاباً .. الخ وإبهام الموت سبباً وموعداً ومكاناً هو عَيْن البيان ؛ لأنه أصبح شاخصاً أمام كل منَّا ينتظره فى أىِّ لحظة ، فيستعد له .

ونلحظ هنا أن الأسلوب القرآني عطف فعل الأمر ﴿فَتَمَتَّعُوا.. (٣٤)﴾ [الروم] على الفعل المضارع ﴿لِيَكْفُرُوا.. (٣٤)﴾ [الروم] ، وفى موضع آخر قال سبحانه : ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا .. (٦٦)﴾ [العنكبوت] فجعل التمتُّع ليس خاضعاً لفعل الأمر ، إنما للعلة : ليكفروا وليتمتعوا .

لذلك اختلفوا حول هذه اللام . أهى للأمر أم للتعليل ، ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٤)﴾ [الروم] جاءت بعد ﴿فَتَمَتَّعُوا.. (٣٤)﴾ [الروم] وهذه جاءتْ معطوفة على ﴿لِيَكْفُرُوا .. .. (٦٦)﴾ [العنكبوت] فكأنه قال : اكفروا وتمتعوا ، لكن ستعلمون عاقبة ذلك .

والذى جعلهم يقولون عن اللام هنا لام التعليل أنها مكسورة ، أما لام الأمر فساكنة ، فلما رأوا اللام مكسورة قالوا لام التعليل ، أما الذى فهم المعنى منهم فقال : ما دام السياق عطف فعل الأمر فتمتعوا على المضارع المتصل باللام ، فاللام للأمر أيضاً ، لأنه عطف عليها فعل الأمر ، وهو هنا للتهديد .

لكن ، لماذا كُسِرَتْ والقاعدة أنها ساكنة ؟ قال أحد النحاة : لام الأمر ساكنة ، ويجوز أنْ تُكْسَر ، واستشهد بهذه الآية ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا .. (٦٦)﴾ [العنكبوت]

ونقول لمن يقول : إنها لام التعليل : إذا سمعت لام التعليل فاعلم أنها تعنى لام العاقبة ؛ لأن الكفر والتمتّع لم يكُنْ سبباً فى إذاقة الرحمة .

ويا مَنْ تقول لام الأمر سيقولون لك : لماذا كُسرت ؟ وفى القرآن شواهد كثيرة تدل على أنها قد تُكسر ، واقرأ قوله تعالى : ﴿وَأَذِّن فِي

النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧) لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ .. (٢٨) ﴾ [الحج] فاللام هنا مكسورة لأنها لام التعليل .

ثم قال بعدها : ﴿ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ (٢٩) ﴾ [الحج] فاللام سُكِّنَتْ لأنها لام الأمر .

وفى آية أخرى جُمعت اللامان : ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ .. (٧) ﴾ [الطلاق] فجاءتْ لام الأمر مكسورة ؛ لأنها فى أول الجملة ، ولا يُبتدأ فى اللغة بساكن ، فحُرِّكت بالكسر للتخلص من السكون ، ثم يقول سبحانه : ﴿ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ .. (٧) ﴾ [الطلاق] فجاءت لام الأمر ساكنة ؛ لأنها واقعة فى وسط الكلام .

لذلك يجب أن يتنبه إلى هذه المسألة كُتَّاب المصحف ، وأن يعلموا أن كلام الله غالب ، فقد فات أصحاب رسم المصحف أنه مبنىٌّ من أوله إلى آخره على الوصل ، حتى فى آخر آيات سورة الناس وأول الفاتحة نقول ﴿ الذى يُوَسْوِسُ فى صُدورِ النَّاسِ مِنَ الجِنَّةِ والنَّاسِ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ ... ﴾ .

فآخرُ القرآن موصول بأوله ، حتى لا ينتهى أبداً . وعليه فلا ترسم ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ .. (٧) ﴾ [الطلاق] بالكسر ، إنما بالسكون ، لأنها موصولة بما قبلها .

وكلمة ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٤) ﴾ [الروم] تدلُّ على التراخى واستيعاب كل المستقبل ، سواء أكان قريباً أم بعيداً ، فهى احتياط لمن سيموت بعد الخطاب مباشرة ، أو سيموت بعده بوقت طويل .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

كلمة (أم) لا تأتى بداية ؛ لأنها أداة تفيد التخيير بين أمرين ، كما تقول : أجاء زيد أم عمرو ؟ فلا بُدَّ أنْ تأتى بين متقابلين ، والتقدير : أَهُمُ اتبعوا أهواءهم ، أم عندهم كتابٌ أُنزل إليهم فهو حجة لهم على الشرك ؟ وحيث إنهم لم ينزل عليهم كتاب يكون حُجَّة لهم فلم يَبْقَ إلا الاختيار الآخر أنهم اتبعوا أهواءهم .

والفعل ﴿ أَنزَلْنَا .. ﴿٣٥﴾ ﴾ [الروم] الإنزال يقتضى عُلُوَّ المنزَّل منه ، وأن المنزَّلَ عليه أَدْنى ، فالإنزال من عُلُو الربوبية إلى ذُلِّ العبودية . ونحن لم نَرَ الإنزال ، إنما الذى تلقَّى القرآن أول مرة وباشر الوحى هو الذى رآه وأخبرنا به .

والأصل فى الإنزال أن يكون من الله تعالى ، وحين ينزل الله علينا إنما ليعطينا سبحانه شيئاً من هذا العُلُو ، سواء أكان العُلُو معنوياً ؛ لأن الله سبحانه ليس له مكان ، أم عُلُواً حسِّياً كما فى ﴿ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ .. ﴿٢٥﴾ ﴾ [الحديد]

والسلطان : من التسلُّط ، وهى تدلُّ على القوة ، سواء أكانت قوة الحجة والبرهان ، فمَنْ أقنعك بالحجة والبرهان فهو قوىٌّ عليك ، أو قوة قهر وإجبار كمَنْ يُرغمك على فعل شىء وأنت كاره ، أما سلطان الحجة فتفعل وأنت راضٍ ومقتنع .

وإذا استقرأنا كلمة سلطان نجد أن الله تعالى عرضها لنا فى

موقف إبليس فى الآخرة ، حين يتبرأ من الذين اتبعوه : ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم .. (٢٢)﴾ [إبراهيم]

أى : لم يكُنْ لى عليكم سلطان حجة وإقناع أستحوذ به على قلوبكم ، ولم يكُنْ لى عليكم سلطان قهر ، فأقهر به قوالبكم ، والحقيقة أنكم كنتم (على تشويرة) مجرد أنْ دعوتكُم جئتم مُسرعين ، وأطعتُم مختارين .

وهذا المعنى يُفسِّر لنا شيئاً فى القرآن خاض الناس فيه طويلاً - عن خُبْث نية أو عن صدق نية - هذا فى قوله تعالى مرة لإبليس ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ .. (٧٥)﴾ [ص] ومرة أخرى : ﴿مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ .. (١٢)﴾ [الأعراف]

فالأولى تدل على سُلْطان القهر ، كأنك كنتَ تريد أنْ تسجد فجاء مَنْ منعك قهراً عن السجود ، والأخرى تدل على سلطان الحجة والإقناع ، فلم تسجد وأنت راضٍ ومقتنع بعدم السجود[1] .

وقوله تعالى : ﴿فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ (٣٥)﴾ [الروم] أى : ينطق بما كانوا به يشركون ، يقول : اعملوا كذا وكذا ، فجاء هذا على وَفْق هواهم .

---

(١) قال الإمام أبو يحيى زكريا الأنصارى فى كتابه « فتح الرحمن بكشف ما يلتبس فى القرآن » (ص ١٣٧) طبعة دار الصابونى : « قوله ﴿أَلاَّ تَسْجُدَ .. (١٢)﴾ [الأعراف] قال ذلك بزيادة « لا » كما فى قوله تعالى : ﴿لِئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ .. (٢٩)﴾ [الحديد] وقال فى « ص » بحذفها ، وهو الأصل ، فزيادتها هنا لتأكيد معنى النفى فى « منعك » . أو : لتضمين « منعك » حملك ، وهى على الثانى ليست زائدة فى المعنى » .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

جميل أنْ يفرح الناس ، وأنْ يستبشروا برحمة الله ، لكن ما لهم إذا أصابتهم سيئة بما قدَّمتْ أيديهم يقنطون ؟ فمُجرى الرحمة هو مُجرى السيئة ، لكنهم فرحوا فى الأولى لأنها نافعة فى نظرهم ، وقنطوا فى الأخرى ؛ لأنها غير نافعة فى نظرهم ، وكان عليهم أنْ يعلموا أن هذه وتلك من الله ، وأن له سبحانه حكمةً فى الرحمة وحكمةً فى المصيبة أيضاً .

إذن : أنتم نظرتم إلى شىء وغفلتم عن شىء ، نظرتُم إلى ما وُجد من الرحمة وما وُجد من المصيبة ، ولم تنظروا إلى مَنْ أوجد الرحمةَ ، ومَنْ أوجد المصيبةَ ، ولو ربطتم وجود الرحمة أو المصيبة بمَنْ فعلها لَعلمتُم أنه حكيم فى هذه وفى تلك ، فآفة الناس أنْ يفصلوا بين الأقدار ومُقدِّرها . إذن : ينبغى ألاَّ تنظروا إلى ذات الواقع ، إنما إلى مَنْ أوقع هذا الواقع .

فلو دخل عليك ولدك يبكى ؛ لأن شخصاً ضربه ، فأول شىء تبادر به : مَنْ فعل بك هذا ؟ فإنْ قال لك : فلان تقول : نعم إنه يكرهنا ويريد إيذاءنا .. الخ فإنْ قال لك : عمى ضربنى فإنك تقول : لا بُدَّ أنك فعلتَ شيئاً أغضبه ، أو أخطأتَ فى شىء فعاقبك عليه .

إذن : لم تنظر إلى الواقع فى ذاته ، إنما ربطت بينه وبين مَنْ أوقعه ، فإنْ كان من العدو فلا بُدَّ أنه يريد شراً ، وإنْ كان من الحبيب فلا بُدَّ أنه يريد بك خيراً .

وهكذا ينبغى أن نربط بين الموجود ومَنْ أوجده ، فإنْ كان الذى أوجد الواقع رَبٌّ فيجب أنْ تتأمل الحكمة ، ولن نتحدث عن الرحمة ، لأن النفع ظاهر فيها للجميع ، لكن تعال نسأل عن المصيبة التى تُحزِن الناس ، فيقنطوا وييأسوا بسببها .

ونقول : لو نظرتَ إلى مَنْ أنزلها بك لارتاح بالك ، واطمأنتْ نفسك ، فالمصيبة تعنى الشىء الذى يصيبك ، خيراً كان أم شراً ، ألاَ ترى قوله تعالى : ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ .. (٧٩)﴾ [النساء]

فالمصيبة لا تُذَمُّ فى ذاتها ، إنما بالنتيجة منها ، وكلمة أصاب فى الحسنة وفى السيئة تدلُّ على أن سهمها أُطلق عليك ، وعمرها مقدار وصولها إليك ، فهى لا بُدَّ صائبتك ، لنَ تتخلَّف عنك أبداً ، ولن تُخطئك ؛ لأن الذى أطلقها إله ورب حكيم ، فإنْ كانت حسنة فسوف تأتيك فلا تُتعب نفسك ، ولا تُزاحم الناس عليها ، وإنْ كانت مصيبة فإياك أنْ تقول : أحتاط لها لأدفعها عن نفسى ؛ لأنه لا مهربَ لك منها .

ثم لماذا تقنط وتيأس إنْ أصابتْك مصيبة ؟ لماذا لا تنتظر وتتأمل ، لعل لها حكمة ، ولعل من ورائها خيراً لا تعلمه الآن ، وربما كانت ضائقة سوف يكون لها فرج قريب.

ألم تقرأ : ﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ .. (٢١٦)﴾ [البقرة]

أتذكرون حادث عمارة الموت وقد طردوا منها البواب وأسرته ، وجعلوا منها قضية فى المحكمة ، وبعد أن انهارتْ العمارة ، وتبيَّن للبواب وأسرته أن ما ظنوه شراً ومصيبة كان هو عَيْن الخير .

إذن : لا تقنط من ضُرٍّ أصابك ، واعلم أن الذى أجراه عليك ربك ، وأن له حكمة فانتظر حتى تتكشف لك ، ولا يقنط إلا مَنْ ليس له ربٌّ يلجأ إليه .

ثم تعالَ نناقشك فى المصيبة التى قَنَط من أجلها : ألكَ دَخْلٌ فيها ؟ أم ليس لك دَخْل ؟ إنْ كان لك دَخْل فيها كالتلميذ الذى أهمل دروسه فرسب فى الامتحان ، فعليك أن تستقبل هذه المصيبة بالرِّضا ، فالرسوب يُعدِّل لك خطأك ، ويلفتك إلى ما كان منك من إهمال حتى تتدارك الأمر وتجتهد .

فإنْ كانت المصيبة لا دَخْلَ لك فيها ، كالذى ذاكر واجتهد ، ومع ذلك لم يُوفّق لمرض ألمَّ به ليلة الامتحان ، أو لعارض عرض له ، نقول : إياك أنْ تفصل المصيبة عن مُجريها وفاعلها ، بل تأمَّل ما يعقُبها من الخير ، ولا تفصل المصيبة عن مُجريها عليك ولا تقنط .

وابحث عن حكمة ربك من إنزال هذه المصيبة بك ، كالأم التى تقول لابنها : يا بُنى أنت دائماً متفوق والناس تحسدك على تفوقك ، فلعل رسوبك يصرف عنك حسدهم ، ويُنجيك من أعينهم ، فيكفوا عنك .

وحينما يأتى أبوه يقول له : يا بنى هَوِّن عليك ، فلعلَّك إنْ نجحت هذا العام لم تحصل على المجموع الذى تريده ، وهذه فرصة لتتقوى وتحصل على مجموع أعلى . إذن : لن تُعدم من وراء المصيبة نفعاً ، لأن ربك قيوم ، لا يريد لك إلا الخير .

لذلك حين تستقرىء الأحداث تجد أناساً فُضحوا وأُخذوا بما لم يفعلوا ، وذهبوا ضحية شاهد زور ، أو قاضٍ حكَم عن هوى .. إلخ لكن لأن ربك قيوم لا يغفل يُعوِّض هذا المظلوم ويقول له : لقد أصبح

لك نقطة عندى فى حسابك ، فأنت اتُّهِمْتَ ظلماً ، فلك عندى إذا ارتكبتَ جريمة أنْ أنجيك منها فلا تُعاقَب بها ، وأنت يا من عَمَّيْتَ على العدالة ، وشهدتَ زوراً ، أو : أخذت ما ليس لك ، أو أفلتَّ من العقاب فسوف أُوقِعك فى جريمة لم تفعلها .

إذن : القنوط عند المصيبة لا محلَّ له ، ولو ربطتَ المصيبة بمجريها لعلمتَ أنه حكيم ، ولا بُدَّ أنْ تكون له حكمة قد تغيب عنك الآن ، لكن إذا أدرتَ المسألة فى نفسك ، فسوف تصل إلى هذه الحكمة .

وحين ننظر إلى أسلوب الآية نجد فيه مفارقات عديدة ، ففى الكلام عن الرحمة قال ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا .. (٣٦)﴾ [الروم] فاستخدم أداة الشرط (إذا) .

أما فى المصيبة فقال ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ (٣٦)﴾ [الروم] فاستخدم أداة الشرط (إنْ) ، فلماذا عدلَ عن رتابة الأسلوب من إذا إلى إن ؟

قالوا : حين تقارن بين النعَم وبين المصائب التى تنزل بالإنسان فى دنياه تجد أن النعم كثيرة والمصائب قليلة ، فنعم الله متوالية عليك فى كل وقت لا تُعدُّ ولا تحصى ، أمّا المصائب فربما تُعَدُّ على الأصابع .

لذلك استخدم مع النعَم (إذا) الدالة على التحقيق ، ومع المصيبة استخدم (إنْ) الدالة على الشك ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١)﴾ [النصر] فاستعمل إذا لأنها تدلُّ على التحقيق وتُرجِّح حدوث النصر ، وقال سبحانه : ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ .. (٦)﴾ [التوبة]

كما نلحظ فى أسلوب الآية أنها لم تذكر السبب فى إذاقة الرحمة ، إنما ذكرتْ سبب المصيبة ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ .. (٣٦) ﴾ [الروم] ليدلَّ على عدله تعالى فى إنزال المصيبة ، وتفضُّله فى إذاقة الرحمة ؛ لأن الرحمة من الله والنعَم فضل من الله .

لكن فى المصيبة قال ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ .. (٣٦) ﴾ [الروم] فذكر العلّة حتى لا يظن أحد أن الله تعالى يُجرى المصيبة على عبده ظلماً ، بل بما قدَّمَتْ يداه ، فالمسألة محكومة بالعدل الإلهى .

وبين الفضل والعدل بوْن شاسع ، فلو جاءك خَصْمان لتحكم بينهما تقول : أحكم بينكما بالعدل ، أم بأفضل من العدل ؟ يقول : وهل هناك أفضل من العدل ؟ إذن : نريد العدل ، لكن تنبَّه لأن العدل يعطيك حقك ، والفضل يُترِكك[1] حقك .

فكأن الحق سبحانه يقول لنا : إياكم أنْ تظنوا أنكم ناجون بأعمالكم ، لا إنما بالتفضل عليكم : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٥٨) ﴾ [يونس]

يعنى : مهما جمعتُم من الطاعات فلن تكفيكم ، ولا نجاةَ لكم إلا برحمة من الله وفضل .

فالحق ـ تبارك وتعالى ـ يريد منا أن نعرف أن رحمة الله وسعتْ كل شىء ، وأنه مع ما أنعم به عليكم من نِعَم لا تُعَدُّ

---

(١) وَتَره حقه وماله : نقصه إياه . وفى التنزيل العزيز : ﴿ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ (٣٥) ﴾ [محمد] . أى : لن ينقصكم من ثوابكم شيئاً . [لسان العرب ـ مادة : وتر] . والمعنى المقصود أن الحكم بالعدل يعطى كلا المتخاصمين حقه ، أما الفضل فمن يحكم قد ينظر إلى فضيلة أحدهما وعلو همته وشرفه فينقص من حقه ، لأنه يعلم رجاحة عقله وقناعته وعفته . والله أعلم .

ولا تُحصى لا يُعاقبكم إلا بشىء اقترفتموه يستحق العقاب ؛ ذلك لأنه رَبٌّ رحيم حكيم .

وما دام الأمر كذلك فانظر إلى آثار رحمة ربك فى الكون ، وتأمل هذه النعَم ، وقفْ عند دقَّة الأسلوب فى قوله سبحانه : ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا .. (٣٤) ﴾ [إبراهيم]

فالعَدُّ يقتضى الكثرة و ﴿ نِعْمَتَ .. (٣٤) ﴾ [إبراهيم] مفرد ، فكيف نعدُّ يا رب ؟ قالوا : نعم هى نعمة واحدة ، لكن فى طياتها نِعَم فلو فتشتها لوجدتَ عناصر الخيرية فيها لا تُعَد ولا تُحصَى .

لذلك لما تعرضتْ الآيات لعَدِّ نعَم الله استخدمتْ (إنْ) الدالة على الشكِّ ؛ لأنها لا تقع تحت الحصر ولا العَدِّ ، لكن على فرض إنْ حاولت عدَّها فلن تُحصيها ، والآن ومع تقدُّم العلوم وتخصُّص كليات بكاملها لدراسة علم الإحصاء ، وخرجوا علينا بإحصاءات لأمور ولأشياء كثيرة فى حياتنا ، لكن لم يتعرض أحد لأنْ يُحصى نعمة الله ، لماذا ؟

لأن الإقبال على الإحصاء لا يكون إلا مع مظنَّة أنْ تُعدَّ وتستوعب ما تحصيه ، فإنْ كان خارج نطاق استيعابك فلن تتعرض لإحصائه كما لم يتعرَّضْ أحد مثلاً لعَدِّ الرمال فى الصحراء ؛ لذلك يُشككم الله فى أنْ تعدُّوها ﴿ وَإِن تَعُدُّوا .. (٣٤) ﴾ [إبراهيم] فهو أمر مُستبعد ، ولن يكون .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣٧) ﴾

يبسط : يُوسِّع ، ويقدِر : يعنى يُضيِّق .

يعنى : ألم يروا هذه المسألة ، فواحد يُوسِّع الله عليه الرزق ، وآخر يُضيِّق عليه ، وربما صاحب السعة لم يتعب فيها ، إنما جاءته من ميراث أو خلافه ، وصاحب الضيق يكدّ ويتعب ، ومع ذلك فعيشته كفاف ، لذلك استقبل الفلاسفة هذه المسألة بما فى ضمائرهم من إيمان أو إلحاد ، فهذا ابن الراوندى[1] الملحد يقول :

كَمْ عَالمٍ عَالمٍ أعْيَتْ مَذَاهِبه ... وجَاهلٍ جَاهلٍ تَلْقَاهُ مرْزُوقا
هَذَا الذِى تركَ الأوهامَ حَائرةً ... وَصيَّر العَالِم النِّحْرير زِنْدِيقا

فردَّ عليه آخر ممن امتلأت قلوبهم بالإيمان :

كَمْ عَالمٍ عالمٍ قَدْ باتَ فى عُسْرٍ ... وجَاهلٍ جاهلٍ قَدْ باتَ فى يُسْرِ
تحيَّر الناسُ فى هَذَا فقُلْتُ لهم ... هَذا الذِى أوجبَ الإيمانَ بالقدرِ

فالعالم لا يسير بحركة ميكانيكية ثابتة ، إنما بقيومية الخالق سبحانه عليه ، فانظر إلى البسط لمن بسط الله له ، والقبض لمن قبض الله عنه ، ولا تعزل الفعل عن فاعله سبحانه ، وتأمل أن الله تعالى واحد ، وأن عباده عنده سواء ، ومع ذلك يُوسِّع على أحدهم ويُضيِّق على الآخر .

إذن : لا بُدَّ أن فى هذه حكمة ، وفى تلك حكمة أخرى ، ولو تتبعتَ عواقب السعة هنا والتضييق هناك لتراءتْ لك الحكمة .

---

(١) هو : أحمد بن يحى بن إسحاق ، أبو الحسين الراوندى ، فيلسوف مجاهر بالإلحاد ، من سكان بغداد ، نسبته إلى « راوند » من قرى أصبهان . قال ابن حجر العسقلانى : كان أولاً من متكلمى المعتزلة ثم تزندق واشتهر بالإلحاد ، وضع كتاباً فى قِدَم العالم ونفى الصانع وتصحيح مذهب الدهر والرد على مذهب أهل التوحيد ، وكتاباً فى الطعن على محمد ﷺ . توفى عام ٢٩٨ هـ بين الرقة وبغداد . [الأعلام للزركلى ١/٢٦٧] .

ألا ترى صاحب سعة ورزق ونعم كثيرة ، ومع ذلك لم يستطع تربية أولاده ؛ لأن مظاهر الترف جرفتهم إلى الانحراف ، ففشلوا فى حياتهم العملية . وفى المقابل نرى الفقير الذى يعيش على الكفاف يتفوق أولاده ، ويأخذون أعلى المراتب ؟ إذن : ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ .. (٣٧)﴾ [الروم] وفق حكمة يعلمها سبحانه وتعالى .

وسبق أن ذكرنا أن فى ألمانيا مدرستين فلسفيتين فى الإلحاد ، إحداهما لواحد اسمه (جيبل) ، والأخرى لـ (بختر) أحدهما : ينكر أن يكون للعالم إله ، يقول : لو كان للعالم إله حكيم ما خلق الأعمى والأعرج والأعور .. الخ فالحكمة فى الخَلْق تقتضى المساواة ، فأخذ من الشذوذ فى الخَلْق دليلاً على إلحاده .

أما الآخر فقال : ليس للكون إله ، إنما يسير سَيْراً ميكانيكياً رتيباً ، ولو كان فيه إله لكان يخلق الخَلْق على صور مختلفة ، وتكون له إرادة مطلقة عن الميكانيكا ، فأخذ ثبات النظام دليلاً على إلحاده ليناقض مذهب سابقه .

إذن : المسألة عندهم رغبة فى الإلحاد بأىِّ شكل ، وعلى أية صورة ، واستخدام منهج مُعْوج يخدم القضية التى يسعون إلى إثباتها .

ونقول فى الرد على الأول الذى اتخذ من الشذوذ فى الكون دليلاً على عدم وجود إله حكيم : الشذوذ الذى ذكرتَ شذوذ فى الأفراد الذين يُعوض بعضهم عن بعض ، فواحد أعمى ، وآخر أعور يقابلهم ملايين المبصرين ، فوجود هذه النسبة الضئيلة لا تفسد القاعدة العامة فى الخَلْق ، ولا تؤثر على حركة البشر فى الكون فالصحيح يعوض غير الصحيح .

أمـا النظام الثـابت الذى يريده الثـانى فـعليـه أن ينظر إلى المـلأ الأعلى ، وفى الكون الأعلى من شمس وقمر ونجوم ..الخ فسيرى فيه نظاماً ثابتـاً لا يتغـير ، لأن الشذوذ فى هذه المـخلوقات يفـسد الكون كله ؛ لذلك خلقه الله على هيئة الثبات وعدم الشذوذ .

إذن : فى النظام العـام للكون نـجد الثـبـات ، وفى الأفـراد الذين يغنى الواحد منهم عن الآخر نـجد الشذوذ والاختلاف ، فالثـبات يثبت حكمة القدرة ، والشذوذ يثبت طلاقة القدرة .

فيـا مَنْ تريد ثبات النظام دليلاً على الإيمـان ، فالثبات مـوجود ، ويا مَنْ تريد شذوذ النظام دليلاً على الإيمان ، فالشذوذ موجود ، فما عليكمـا إلا أن تتـفـقا وأن ينـفتح كل مـنكما عـلى الآخر لتـصـلا إلى الصواب .

ومسألة الـرزق لها فلسفة فى الإسـلام ، فالحق سبحانـه أخبرنا بأنه الرزَّاق ، فمـرة يرزق بالأسبـاب ، ومرة يرزق بلا أسـباب ، لكن إياك أنْ تغتر بالأسباب ، فقـد تقدم الأسباب وتسعى ثم لا يأتيك منها رزق ، ويخيب سَعْيك كالفلاح الذى يأخذ بالأسباب حتى يقارب الزرع على الاستواء فتأتيه جائحة فتهلكه ، فاحذر أن تغتر بالأسباب ، وانظر إلى المسبِّب سبحانه .

وقلنا : ينبغى أنْ تتحرى إلى الرزق أسبابه ولا تشغلنّ بعدها بالك بأمره ، فقد تكفل به خالقك الذى استدعاك للوجود ، وقد عبَّر الشاعر عن هذا المعنى بقوله :

تَحَرَّ إلى الرزْقِ أَسْـبابَهُ ... ولاَ تشغلنْ بعدَهَا بَالَكا
فَإنَّـك تجهـلُ عـنوانـه ... ورِزْقُكَ يعرِفُ عُنْـوانَكا

ثم يقول سبحانه : ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الروم] قال (لِقَوْمٍ يُؤمِنُونَ) لأن مسألة الرزق هذه تحتاج إلى إيمان بحكمة الرازق سبحانه فى الإعطاء وفى المنع .

ونلحظ على أسلوب الآية قوله تعالى فى البسط : ﴿لِمَن يَشَاءُ .. ﴿٣٧﴾﴾ [الروم] وفى التضييق ﴿وَيَقْدِرُ .. ﴿٣٧﴾﴾ [الروم] ولم يقُلْ لمن يشاء ؛ لأن البسط فى نظرنا شىء محبوب نفرح له ونتمناه فقال ﴿لِمَن يَشَاءُ .. ﴿٣٧﴾﴾ [الروم] لنطمئن نحن إلى أننا سندخل فى هؤلاء الذين سيُبْسط لهم فى الرزق ، أما فى التقتير فلم يقُلْ (لمنْ) ليظل مبهماً يستبعده كلٌّ منّا عن نفسه .

ثم يقول رب العزة سبحانه :

﴿فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾﴾

حينما نتأمل النسق القرآنى هنا نجد أن الله تعالى ذكر أولاً البسْطَ فى الرزق ، ثم التقتير فيه ، ثم أكَّد بعده مباشرة على حَقِّ ذى القُرْبى والمسكين وابن السبيل ، وكأنه يلفت أنظارنا أن هذه الحقوق لا تقتصر على مَنْ بسط له الرزق ، إنما هى على الجميع حتى مَنْ كان فى خصاصة ، وضُيِّق عليه رزقه ، فلا ينسى هؤلاء .

لذلك يذيل الحق سبحانه الآية بقوله : ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الروم] والجميع : مَنْ بُسط له ، ومَنْ قُتر عليه يريدون وجه الله .

وبمقارنة هذه الآية بآية الزكاة : ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ

وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ[1] وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾ [التوبة]

فلم تذكر ذا القربى الذى ذكر هنا ، وكأن الآية تشير لنا إلى أمر ينبغى أن نلتفت إليه ، وهو أن القريب عيب أن نعطيه من مال الزكاة ، وهذه آفة وقع فيها كثير من الأغنياء وحتى المتدينين منهم ، فكثيراً ما يسألون : لى ابن عم ، أو لى قريب أأعطيه شيئاً من زكاة مالى ؟

وكنتُ أقول للسائل : والله ، لو علم ابن عمك أنك تعطيه من مال الزكاة ما قبله منك ؛ لأن للقريب حقاً ، سواء أكنتَ غنياً تملك نصاب الزكاة ، أو لم تصل إلى حد النِّصَاب .

إذن : لا تربط هؤلاء الثلاثة ـ القريب والمسكين وابن السبيل ـ بمسألة الزكاة ، فلهم حَقٌّ حتى على الفقير الذى لا يملك نصاباً ، وعلى مَنْ ضُيِّق عليه رزقه .

ومع هذا الحق الذى قرره الشرع للقريب نجد كثيرين يأكلون حقوق الأقارب ، ويحتالون لحرمانهم منها ، فمثلاً بعض الناس لا ينجب ذكوراً ، فيكتب أملاكه للبنات ليحرم عمهم أو أبناء عمومتهم من الميراث ، مع أن البنت لها نصف التركة ، وإنْ كُنَّ أكثر من واحدة فلهُنَّ الثلثان ، ويُوزَّع الثلث على العم أو ابن العم ؛ ذلك لأن البنات فى هذه الحالة ليس لهن ذَكَر عصبة ، فيجعلها الشرع فى العم أو ابن العم .

والشارع الحكيم يوازن بين الأطراف ، فيأخذ منك ويعطيك ،

---

(١) الغارمون : جمع غارم . والغارم : مَن لزمه دين بحق وبغير حق . والمغرم : الغرامة والدَّيْن الثقيل . [القاموس القويم ٢/٥٢] .

فلماذا فى حالة موت الوالد عن هؤلاء البنات ، وليس لهُنَّ ميراث يَعُدْن على العم أو ابن العم بالنفقة ويقاضونه فى المحاكم ، فلماذا نحرمهم حقوقهم ونطالب نحن بحقوقنا ، فهذا نوع من التغفيل .

لماذا لا نعطى العم أو ابن العم وهو الذى سيحمى البنات ويسهر على راحتهن ، ويقف بجوارهن حال شدتهن ؟

إياك - إذن - أنْ تُدخِل الأقارب فى الزكاة أو تربط مساعدتهم بالقدرة ؛ لأن لهم عليك حقاً حال رخائك وحال شدتك .

ويكفى أن الحق سبحانه خصَّهم بقوله ﴿ذَا الْقُرْبَىٰ .. (٣٨)﴾ [الروم] ولم يقُلْ : ذا المسكنة ، أو ذا السبيل ، وكلمة (ذو) بمعنى صاحب ، تدل على المصاحبة الدائمة والملازمة ، فلا نقول : فلان ذو علم لمن علم قضية أو قضيتين ، إنما لمن اتصف بالعلم الواسع وتمكَّن منه ، كذلك لا نقول فلان ذو خلق إلا إذا كان الخُلُق صفة ملازمة له لا تنفك عنه .

ومن ذلك نقول : ذو القربى يعنى ملاصقاً لك لا ينفك عنك ؛ فيجب أنْ تراعى حقَّه عليك ، فتجعل له نصيباً ، حتى إنْ لم تكُنْ تملك نصاباً ، وكذلك للمسكين وابن السبيل ؛ لأن الله ذكرهم معاً فى غير بند الزكاة ، فدلَّ ذلك على أن لهم حقاً غير الزكاة الواجبة .

ونلحظ أن القرآن رتَّبهم حسب الأهمية والحاجة ، فأولهم القريب لقرابته الثابتة منك ، ثم المسكين وهو متوطن معروف لك ، ثم ابن السبيل العابر الذى تراه يوماً ولا تراه بعد ذلك ، فهو حسب موضعه من الحال .

والمسكين قد يتغير حاله ، ويتيسر له الرزق فيُوسِّع الله عليه ، وابن السبيل يعود إلى بلده ، فالوصف الثابت لذى القربى ؛ لذلك وصفه الله تعالى بما يدل على الثبات .

ثم قال ﴿حَقَّهُ .. (٣٨)﴾ [الروم] فالحق ملازم له وهو أَوْلَى به ، لذلك لم يَقُل مثلاً : وآت ذا القربى حقه ، والمسكين ، وابن السبيل حقوقهم .

وقد مثَّلوا لذلك بقولهم : قال الأمير : يدخل علىَّ فلان ، وفلان ، وفلان ، فالإذن بالدخول للأول يتبعه فى ذلك الباقون .

إذن : لهؤلاء الثلاثة خصوصية ، فقد أمرك الله أنْ تعطيهم من لحمك ، وألاّ تربطهم بالزكاة ولا ببسط الرزق ، أما باقى السبعة المستحقون للزكاة فلم يُلزمك نحوهم بشىء غير الزكاة المفروضة .

ولما حدث نقاش بين العلماء حول المراد بالمسكين والفقير ، أيهما أحوج من الآخر ؟ قالوا : المسكين مَنْ له مال ، ولكن لا يكفيه[1]، واستشهد أبو حنيفة على هذا المعنى بقوله تعالى : ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ .. (٧٩)﴾ [الكهف] فأثبت لهم ملكية وسماهم مساكين . أما الفقير فهو الذى لا شىء له ، وعلى هذا فالفقير أحوج من المسكين ، فيدخل فى هذه الآية من باب أَوْلَى .

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « ليس المسكين بهذا الطوَّاف الذى يطوف على الناس ، فترده اللقمة واللقمتان ، والتمرة والتمرتان . قالوا : فما المسكين يا رسول الله قال : الذى لا يجد غنىً يغنيه ، ولا يُفطن له فيُتصدق عليه ، ولا يسأل الناس شيئاً » أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٥٣٩) وكذا مسلم فى صحيحه (١٠٣٩) كتاب الزكاة ، واللفظ لمسلم .

وقوله تعالى : ﴿ذَٰلِكَ .. ﴿٣٨﴾﴾ [الروم] أى : الإيفاء لهؤلاء ﴿خَيْرٌ .. ﴿٣٨﴾﴾ [الروم] كلمة خير تُطلَق فى اللغة ، ويُراد بها أحد معنيين : مرة نقول خير ويقابلها شر كما فى قوله تعالى : ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة] ، ومرة نقول : خير ونقصد الأخْير كالأحسن أى : أفعل تفضيل ، كما جاء فى قول الشاعر :

زَيْدٌ خِيَارُ النَّاسِ وابْنُ الأَخْيَر

لكن الشائع أن تُستعمل خير فى أفعل التفضيل كقول النبى ﷺ : « المؤمن القوى خير وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفى كُلٍّ خير »[1] فخَيْر الأولى بمعنى أخير . لكن لمن ؟

﴿لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ .. ﴿٣٨﴾﴾ [الروم] أى : فى الوفاء بحقِّ ذى القربى والمسكين وابن السبيل ، يريد بذلك وجه الله ، لا يريد رياءً ولا سمعة ؛ لأن الذى يفعل خيراً يأخذ أجره ممَّن فعل من أجله ، فمَنْ عمل لله مخلصاً فأجره على الله ، ومَنْ عمل للناس رياءً وسمعةً فليأخذ أجره منهم .

وهؤلاء الذين وصفهم الله تعالى بقوله : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾﴾ [النور] أى : فوجىء بوجود إله لم يكُنْ فى باله ولم يعمل من أجله .

فمعنى ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ .. ﴿٣٨﴾﴾ [الروم] أى : يقصدون بعملهم

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٢/٣٦٦ ، ٣٧٠) ، ومسلم فى صحيحه (٢٦٦٤) ، وابن ماجه فى سننه (٧٩) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

وجه الله ، سواء رآه الناس ، أو أخفى عمله ، حتى لا تعلم شماله ما صنعتْ يمينه ؛ لأن الأمر قائم على النية ، فقد تعطى أمام الناس ونيتك أنْ يتأسَّوْا بك ، أو لتكُفَّ عنك ألسنتهم وقدحهم فى حقك .

وحين تعطى علانية بنية خالصة لله فإنها صدقة مخصِّبة للعطاء ، مخصِّبة للأجر ؛ لأنك ستكون أُسْوة لغيرك فيعطى ، ويكون لك من الأجر مثله ؛ لأن مَنْ سَنَّ سنة حسنة فله أجرها وأجر مَنْ عمل بها إلى يوم القيامة .

والقرآن الكريم عرض علينا هذه القضية فى قوله تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَىٰ كَالَّذِى يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ .. (٢٦٤) ﴾ [البقرة]

ثم يعطينا مثلاً توضيحياً : ﴿ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ[1] عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٢٦٤) ﴾ [البقرة]

فمثَل المرائى كهذا الحجر الناعم الأملس حين يصيبه المطر ، وعليه طبقة من التراب يزيحها المطر ، ويبقى هو صَلْداً ناعماً لا يحتفظ بشىء ، ولا ينبت عليه شىء .

وهذا المثَل يُجسِّد لنا خيبة سَعْى المرائى ، وأنه مغفل ، سعى واجتهد فانتفع الناس بسَعْيه ، وتعدّى خيره إلى غيره ، وخرج هو خالى الوفاض من الخير ومن الثواب .

ثم يذكر الحق سبحانه المقابل : ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ

---

(١) الصفوان : الحجر الصلد الضخم الذى لا ينبت شيئاً . [لسان العرب ـ مادة : صفا] والصلد : الأملس الذى لا يصلح للزرع . والوابل : المطر الغزير . [القاموس القويم للقرآن الكريم] .

مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٦٥) ﴾ [البقرة]

فالصدقة ابتغاء وجه الله كالأرض الخصْبة حين ينزل عليها المطر ، فيأتى نباتها مضاعفاً مباركاً فيه ، فإنْ لم يكُنْ مطر كفاها الطَّل لتنبت وتُؤتى ثمارها ، ولو قال : كمثل جنة لكانت كافية لكنها ﴿ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ .. (٢٦٥) ﴾ [البقرة] يعنى : على مكان مرتفع ليدلَّ على خصوبتها ، فكلما كانت الأرض مرتفعة زادتْ خصوبتها ، وخلَتْ من المياه الجوفية التى تؤثر على النبات .

وهذه الجنة تُرْوى بالمطر يأتيها من أعلى ، فيغسل الأوراق والغصون ، فتزيد نضارتها وجودتها ، والأوراق هى رئة النبات .

والله تعالى يترك لآثار الذات فى الناس تذكرةً وعبرة ، فواحد يفعل الخير بآخر ليشتريه به ، أو ليُخضِع عنقه بهذا الجميل ، فتكون النتيجة الطبيعية أنْ ينكر الآخر جميله ، بل ويكرهه ويحقد عليه ، وهذا جزاء وفاقٌ لمن عمل العمل لغير وجه الله .

وهو معنى قولهم : اتَّقِ شر مَنْ أحسنتَ إليه ، لماذا ؟ لأنه حين يراك يتذكر ما لك من يَد عليه ، وما لك من فضل ، فيخزى ويشعر بالذلة ؛ لأن وجودك يدكُّ كبرياءه ؛ لذلك يكره وجودك ، ويكره أنْ يراك .

فالحق سبحانه يقول : احذروا أنْ تُبطلوا المعروف بالرياء ، أو بالأغراض الدنية ؛ لأن معروفك هذا سيُنكر ، وسينقلب ما قدمتَ ، من خير شراً عليك . إذن : عليكم بالنظر فى أعمالكم إلى وجه الله لا إلى غيره ، فإنْ حدث وأنكر جميلك فجزاؤك محفوظ عند الله ،

وكأن ربك - عز وجل - يغار عليك ، ويريد أنْ يحفظ لك الجميل ويدخره عنده .

وهذا المعنى عبَّر عنه الشاعر بقوله[١] :

أقُولُ لأصْحاب المرُوءَات قَوْلَةً ... تُريحهُمُ إنْ أحسَنُوا وتفضَّلُوا
يَسيرُ ذوو الحَاجَات خَلْفَكَ خُضَّعاً ... فَإنْ أدْركُوهَا خلَّفُوكَ وهَرْوَلُوا
فَلا تَدعِ المعْروفَ مهما تنكَّروا ... فَإنَّ ثوابَ الله أربى وأجْزَلُ

وسبق أنْ ذكرتُ قصة الرجل الذى قابلنا فى الطريق ونحن فى الجزائر ، فأشار لنا لنوصله فى طريقنا ، فتوقف صاحب السيارة وفتح له الباب ، لكنه قبل أنْ يركب قال (على كام) ؟ يعنى : ثمن توصيله . فقال صاحب السيارة : لله . فقال الرجل (غلِّتها يا شيخ) .

لذلك يقول بعض العارفين : إن الذين يريدون بأعمالهم وجه الله هم الذين يُغْلون أعمالهم ، أى : يرفعون قيمتها ، ويضاعفون ثوابها .

وقوله تعالى : ﴿فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ.. (٣٨)﴾ [الروم] بعد قوله : ﴿وَيَقْدِرُ..(٣٧)﴾ [الروم] يدل فى ظاهره على أنه يأخذ منك مع أنك مُقلٌّ ، وهذا يدخل فى إطار قوله تعالى : ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ .. (٩)﴾ [الحشر]

وقلنا : إن الشارع حكيم ، فإذا ألزمك وأخذ منك فإنما ذلك ليعطيك إنْ احتجتَ ، وكأنه يقول لك : اطمئن فقد أمَّنْتُ لك حياتك ، إن أصابك الفقر ، أو كنت فى يوم من الأيام مسكيناً أو ابن سبيل ، فكما فعلتَ سيُفعل بك .

وهذه المسألة واضحة فى كفالة اليتيم ، فلو أن المجتمع الإيمانى عوَّضه عن أبيه عملاً بقول النبى ﷺ : « أنا وكافل اليتيم كهاتين فى

---

(١) من شعر الشيخ رحمه الله .

الجنة»[١] لاطمأنَّ كلُّ أب على أولاده إنْ مات وتركهم ؛ لأنهم فى مجتمع يُعوِّضهم عن أبيهم بآباء كثيرين .

والإنسان إنْ كان آمناً مُنعَّماً ، فإنما يُنغِّص هذه النعمة أنها عُرْضة لأنْ تزول ، فيريد الله أنْ يُؤمِّن لعبده الحياة الكريمة فى امتداده من بعده ، وهذا هو التأمين الحق الذى أرسله الله قضية تأمينية فى الكون ، ليست فى شركات التأمين ، إنما فى يده سبحانه حيث قال :

﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا (٩) ﴾ [النساء] فإذا اتقوا الله وقالوا القول السديد ، فإن يتيمهم يصادف أناساً يكفلونه ، ويخافون عليه ، ويتولَّوْن أمره .

وسبق أنْ تعرَّضْنا فى سورة الكهف لقصة الجدار الذى تبرع الخضر ـ عليه السلام ـ ببنائه مع أنه فى قرية أهلها لئام[٢] منعوهم حتى الطعام . وقلنا : إن سؤال الطعام هو أصدق سؤال ، ولا يُرَدُّ سائله ، ومع ذلك بناه الخضر ، وقال فى بيان أمر الجدار : ﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا .. (٨٢) ﴾ [الكهف]

فصلاح الأبويْن ينفع الغلامين ، فيُسخِّر الله لهما مَنْ يبنى لهما الجدار ، ويحافظ لهما على كنزهما حتى يكبرا ، ويستطيعا حمايته من

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٠٠٥) من حديث سهل بن سعد ، وأخرجه مسلم فى صحيحه (٢٩٨٣) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه . وتمام الحديث : « وقال بإصبعيه السبابة والوسطى » ومعنى السبابة : لأنها يسب بها الشيطان حينئذ . وفى رواية « السبَّاحة » لأنها يُسبح بها فى الصلاة فيشار بها فى التشهد لذلك . قاله ابن حجر العسقلانى فى فتح البارى (١٠/٤٣٦) .

(٢) اللئام : جمع لئيم ، وهو الدَّنِىء الأصل الشحيح النفس . [لسان العرب ـ مادة : لأم] .

هؤلاء اللئام الذين إذا علموا بأمره نهبوه من هذيْن الصغيريْن .

ثم يحدثنا الحق سبحانه عن الفارق بين الهدية والصدقة ، فيقول:

﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا (١) لِّيَرْبُوَاْ فِيٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾

الحق - سبحانه وتعالى - يعرف أن خَلْقه يفعلون الخير ، ويطلبون الأجر عليه ، لكن هذا الطلب قد يضيع إذا راءوا فى أعمالهم ، وقد يكون الأجر على قدر العمل إذا خلا من الرياء ، لكن الحق سبحانه يريد أن يرتفع بالصدقة أو بالزكاة إلى مستوى عَالٍ ، فيأخذ صاحبها الثمن من يد الله سبحانه مضاعفاً ، وطلب الزيادات يكون فى النية .

فالمؤمن مثلاً يعلم أنه إذا حُيِّيَ بتحية فعليه أنْ يردَّها بخير منها ، فقد يأتى فقير ويقدم لأحد الأغنياء هدية على قدر استطاعته ، وفى نيته أنْ يردَّها الغنى بما يناسب غِنَاه ، إذن : فهو حين أعطى يطمع فى الزيادة ، وإن كانت غير مشروطة ، ويجوز أنْ يردَّ الغنىُّ على الهدية بأفضل منها ، ويجوز ألاَّ يردَّها أصلاً .

فقوله تعالى : ﴿ وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا .. (٣٩) ﴾ [الروم] أى : الزيادة

---

(١) قال ابن عباس فى هذه الآية : « الربا رباءان ، ربا لا بأس به ، وربا لا يصلح . فأما الربا الذى لا بأس به فهدية الرجل إلى الرجل يريد فضلها أو أضعافها » . [أخرجه ابن أبى حاتم] وفى قول آخر له قال : هو ما يُعطى الناس بعضهم بعضاً ، يعطى الرجلُ الرجلَ العطية يريد أن يعطى أكثر منها . [أخرجه ابن جرير الطبرى] أورد السيوطى هذين الأثرين فى الدر المنثور ٦/٤٩٥ .

بأيٍّ ألوانها عما تعطى ، وهذه الزيادة غير مشروطة فى عقد ، والزيادة تكون فى المال ، أو بأيٍّ وسيلة أخرى فيها نفع ؛ لأنهم قالوا فى تعريف الربا : كل قرض جَرَّ نفعاً فهو ربا[1] .

حتى أن الإمام أبا حنيفة كان يجلس فى ظل جدار لجاره ، فلما طلب منه جاره مالاً وأقرضه رآه الجار لا يجلس فى ظل الجدار كما كان يجلس ، فسأله عن ذلك فقال : كنت أجلس فى ظل جدارك وأعلم أنه تفضّل منك ، أما الآن فأخاف أنْ أجلس فيه حتى لا تظن أن هذه الجلسة للمالَ الذى أخذتَه منى .

فالمعنى : وما آتيتم من ربا تبغون به الزيادة سواء أكانتْ نفعاً ، أو مالاً ، أو غير مال ، سواء أكانت مشروطة أو غير مشروطة . قالوا : فما حكم الهدايا إنْ رُدَّتْ بأحسن منها ؟ وما ذنبى أنا المعطى فى ذلك ؟ قالوا : لا شىء فيها بشرط ألاَّ تكون فى نيتك الزيادة ، وألا تكون هديتك مشروطة ، إنما تكون تحبباً وتودداً ومعروفاً بين الناس ، إنما لا تأخذ عليها ثواباً من الله .

وقوله ﴿لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ .. (٣٩)﴾ [الروم] فى هنا للظرفية ، فالمال ظرف ، وما تضعه فيه ينقص منه ، ويزيد ما عندك ﴿فَلا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ .. (٣٩)﴾ [الروم] يربو عندك أنت بالزيادة التى تأخذها ممَّنْ حيَّيْته ، أمّا عند الله فلا يربو .

---

(١) قال الشوكانى فى نيل الأوطار (٥/٢٣٢) : « مما يدل على عدم حل القرض الذى يجر إلى المقرض نفعاً ما أخرجه البيهقى فى المعرفة عن فضالة بن عبيد موقوفاً بلفظ « كل قرض جر منفعة فهو وجه من وجوه الربا » ورواه فى السنن الكبرى عن ابن مسعود وأُبىّ ابن كعب وعبد الله بن سلام وابن عباس موقوفاً عليهم . ورواه الحارث بن أبى أسامة من حديث على عليه السلام بلفظ « إن النبى ﷺ نهى عن قرض جر منفعة » وفى رواية « كل قرض جر منفعة فهو ربا » وفى إسناده سوار بن مصعب وهو متروك . قال عمر بن زيد فـ " فنى : لم يصح فيه شىء .

هكذا قال ابن عباس[١] ، وإن كان بعض العلماء قال : هى مطلق فى الربا الأصل ، وهذه مسألة كان يجب أنْ يُشرّع لها ، لكن رأى ابن عباس أن آية الربا معروفة ، وهذه للربا فى زيادات التحية والمجاملات بين الناس .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُوْلَـٰئِكَ .. (٣٩)﴾ [الروم] أى : الذين يُؤتون الزكاة ويريدون بها وجه الله ﴿هُمُ الْمُضْعِفُونَ (٣٩)﴾ [الروم] ليست من الإضعاف ، إنما من الأضعاف ، فالزكاة أضعاف بالفتح كما فى قوله تعالى : ﴿مَن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ .. (١١)﴾ [الحديد] أما الربا فإضعاف بالكسر .

وهذه المسألة وقف عندها بعض المستشرقين الذين يحبون أنْ يستدركوا على كلام الله ، قالوا : فى القرآن آيات تصادم الحديث النبوى ، فالقرآن يقول : ﴿مَن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ .. (١١)﴾ [الحديد]

إذن : القرض الحسن يضاعف به الله الثواب ، وعندكم أن الحسنة بعشر أمثالها . وقال النبى ﷺ : « مكتوب على باب الجنة : الحسنة بعشر أمثالها ، والقرض بثمانية عشر »[٢] فلو أن القرض الحسن يضاعف الحسنة بعشر أمثالها ، فهو بعشرين لا بثمانية عشر .

---

(١) قال ابن عباس وابن جبير وطاوس ومجاهد : هذه آية نزلت فى هبة الثواب . قال ابن عطية : وما جرى مجراها مما يصنعه الإنسان ليجازى عليه كالسلام وغيره فهو وإن كان لا إثم فيه فلا أجر فيه ولا زيادة عند الله تعالى . ذكره القرطبى فى تفسيره (٥٢٩٣/٧) .

(٢) أخرجه ابن ماجه فى مسنده (٢٤٣١) من حديث أنس بن مالك قال قال ﷺ « رأيت ليلة أُسْرى بى على باب الجنة مكتوباً : الصدقة بعشر أمثالها ، والقرض بثمانية عشر . فقلت : يا جبريل ، ما بال القرض أفضل من الصدقة ؟ قال : لأن السائل يسأل وعنده . والمستقرض لا يستقرض إلا من حاجة » .

فقلنا له : لو تصدقْتَ بدولار مثلاً فقد عملتَ حسنة تُضَاعف لك إلى عشر ، لكن أردُّ إليك دولارك الذى تصدَّقْتَ به ؟ لا ، إذن حقيقة الأمر أنك أخذتَ تسعة تضاعف إلى ثمانية عشر .

قالوا : فلماذا زاد ثواب القرض ؟ نقول : لأن المتصدِّق حين يتصدق ينقطع أمله فيما قدَّم ، لكن المقرض لا يزال مُعلَّق البال فى القرض ينتظر ردّه ، فكلما صبر عليه أخذ أجراً ، ثم إن المقترض لا يقترض إلا عن حاجة ، أما المتصدَّق عليه فقد يقبل الصدقة وهو غير محتاج إليها ، وربما كان ممَّنْ يكنزون المال .

إذن : فالحق سبحانه يريد أنْ يُنمى القرض لماذا ؟ قالوا : لأن الله يريد أن تسير حركة الحياة ، وأنْ تتكامل ، وأنت تعتز بمالك وتخاف عليه وتريد له النماء ، وسوف تجد هذا كله فى القرض ، فاجعله قرضاً ، فهو الباب الذى فتحه الله لك للزيادة وللثواب .

ثم إن الله تعالى احترم ملكيتك لمالك ، وحرص على حمايته لك ، فقال : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ .. (٢٨٢) ﴾ [البقرة]

فالله يحفظ عليك مالك لتهدأ بالاً من ناحيته ، ومع ذلك يترك مجالاً لأريحية المعطى ومروءته ﴿ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِى اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ .. (٢٨٣) ﴾ [البقرة]

وبهذه الفلسفة الإيمانية يدور المال وتسير به حركة الحياة ، بحيث يضمن لصاحب المال ماله ، لأنه مُحبٌّ له حريص عليه ، ويضمن لمن لا مالَ له أنْ يتحرك من مال الغير ، فإذا كانت هناك أمانة أداء ، فكل صاحب أمانة عليه أنْ يؤدِّيها لمستحقها .

فإنِ اختلت هذه الموازين ، وماطل الفقيرُ الغنىَّ ، وضنَّ عليه أنْ

يردَّ إليه حقه ، فقد فسد حال المجتمع وانهارت فيه هذه القيم ، وساعتها لا نلوم القادر على العطاء إنْ أمسك ماله عن المحتاجين للقرض ولِمَ لا ؟ والناس يأكلون الحقوق ، وبذلك تتوقف حركة الحياة ويتراجع المجتمع عن مسايرة حركة التقدم .

فإذا كان الربا غير المشروط ، وهو الربا فى الهدايا والمجاملات والتحية بين الناس جعله الله للمودَّات وللمروءات بين الناس ، لا يثيب عليه ولا يعاقب ، وقال عنه ﴿فَلا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ.. (٣٩)﴾ [الروم]

أما الربا المشروط فقد وقف معه وقفة حازمة ، وشرع له عقاباً ، وجعل هذا العقاب من جنس ما يضادّ غرض الذى رَابَى ، فأنت ترابى لتزيد من مالك ، فيقابلك الله بالنقصان ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا .. (٢٧٦)﴾ [البقرة] لماذا ؟

قالوا : لأن المعطى غنىٌّ واجد ، لديه فائض من المال يعطى منه ، أما الآخذ فمحتاج ، فكيف نطلب من المحتاج أنْ يزيد فى مال الواجد غير المحتاج ؟ وكيف تكون نظرة المحتاج إليك حين يعلم أن عندك مالاً يزيد عن حاجتك ، ومع ذلك ترفض أن تُقرضه القرض الحسن ، بل تشترط عليه الزيادة ، فتأخذ الزيادة منه وهو محتاج ؟

ثم افرض أننى أخذت هذا القرض لأثمره وأنميه فخسر ، أليس كافياً أنْ أخسر أنا عملى ، وأنْ يضيع مجهودى ؟ أمن العدل أن أخسر عملى ، ثم أكون ضامناً للزيادة أيضاً ؟ هذه ليست من العدالة ؛ لأن شرط العقد أن يحمى مصلحة الطرفين ، أما عقد الربا فلا يحمى إلا مصلحة الدائن .

ونحن نرى حتى التشريعات الوضعية فى الاقتصاد إذا أعطى البنك مالاً لشخص لعمل مشروع مثلاً ثم خسر وأرادوا تسوية حالته ،

أول شىء فى إجراءاتهم أنْ يُسقطوا عنه الفوائد .

وهذا يوافق شرع الله فى قوله تعالى : ﴿وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ (٢٧٩)﴾ [البقرة] (لا تُظلمون) بمعنى : أن نردَّ إليكم رءوس أموالكم ؛ (ولا تظلمون) أى : لا نظلمك من ناحية أخرى ، فنقول لك :

إنْ أردتَ أنْ تتوب فرُدّ ما أخذتَه بالربا بأثر رجعى ؛ لأن ما أخذتَه قد صُرف وتصعب إعادته ، وبذلك نراعى مصلحة الدائن حين نعيد إليه رأس المال ، ومصلحة المدين ، فلا نكلفه ردَّ مَا لا يقدر على ردِّه .

وحين نتأمل هذه المسألة : آلدول أقوى أم الأفراد ؟ الدول ، أرأيتم دولة اقترضتْ مالاً من دولة أخرى ، ثم استطاعت أن تُسدِّد فوائد هذا الدين فضلاً عن أصل الدَّيْن ؟ كذلك الأفراد الأقوياء الذين يأخذون القروض ، ثم لا يسددون مجرد الفوائد ، ولا يستطيعون جدولتها ولا تسوية حالتهم ، فيقعون فى خصومات ومشاكل .

شىء آخر ، هَبْ أن رجلاً لديه مثلاً ألف جنيه ورجل لا عند له ، صاحب الألف يستطيع أن يديرها ، وأن يعيش منها ، أما الآخر الذى لا يملك شيئاً فيقترض ليعيش مثل صاحبه ، فإنْ قلت له : الألف قرضاً بمائة جنيه ، فمن أين يوفر هذه المائة ؟

إنْ أخذها من عائد المال يخسر ، وإنْ أخذها من السلعة بأنْ يُقلل من الجودة أو من العناصر الفعالة فى السلعة ، أو فى التغليف ، جاءت السلعة أقلَّ من مثيلاتها وبارت . إذن : لابد أن يتحملها المستهلك ، وهذا إضرار به ، وهو ليس طرفاً فى العقد ، إذن : العقد باطل .

وحين نقول : إن الإسلام صالح لكل زمان ومكان يجب أن نفهم هذه القضية جيداً ، وإياك أن تقول : إن الإسلام لا يصلح فى زمان كذا ، أو فى مكان كذا .

والآن نسمع البعض ينصرف عن منهج الإسلام ويقول لك ﴿ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا .. (٢٨٦) ﴾ [البقرة] أى : ليس فى وُسْعه الآن تنفيذ شرع الله . لكن نقول له : مَن الذى يحدد الوُسْع ؟ أنت أم المشرِّع سبحانه ؟

ما دام الله تعالى قد كلَّف ، فاعلم أن التكليف فى وُسْعك ، فخذ الوُسْع من التكليف ، لا أن تُقدِّر أنت الوسع وتنسى ما كلَّفك الله به . لذلك ترى أن الله تعالى إذا ضاق الوُسْع يُخفِّف عنك دون أنْ تطلب أنت التخفيف ، كما فى صلاة وصوم المريض والمسافر .. الخ وكما فى التيمم إنْ تعذَّر استعمال الماء .

فلا معنى لأن نقول : إن تعاليم الدين لا تناسب العصر ، إذن : اجعل العصر هو المشرِّع ، وانصرف عن تشريع السماء إلى ما يحتمله العصر .

لذلك قلنا : إن الحق سبحانه حينما يلقى تكاليفه يقول : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا .. (١٥١) ﴾ [الأنعام] فمعنى تعالوا : ارتفعوا عن مستوى أهواء البشر ، واعلوا إلى تكاليف الله ، فإنْ هبطت بالتكاليف إلى مستواك ، وقُلْت ظروف العصر تحتم علىَّ كذا وكذا فقد أخضعتَ منطق السماء لمنطق الأرض ، وما جاء منطق السماء إلا ليعلو بك .

فإنْ نظرنا إلى مواقف العلماء من مسألة الربا ، فمنهم مَنْ يُحلِّل ، ومنهم مَنْ يُحرِّم وهم الكثرة ، وهَبْ أنهم متساوون مَنْ يحرم ومَنْ يحلل ، فما حكم الله فيما تساوتْ فيه الاجتهادات ؟

النبى ﷺ أوضح لنا هذه القضية فى قوله : « الحلال بيِّن ، والحرام بيِّن ، وبينهما أمور مشتبهات ، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعِرْضه ، ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام كالراعى يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه ، ألا وإن لكل ملك حِمىً ، ألا وإن حمى الله محارمه »[(١)] .

فهل قال رسول الله : فمَنْ فعل الشبهات أم : فمَنْ ترك الشبهات ؟ إذن : مَنْ وقع فى الشبهات لم يستبرىء ، لا لدينه ولا لِعرْضه ، وهل يرضى أحد أنْ يُوصَف هذا الوصف ؟ وعجيب أن نسمع مَنْ يقول : وما علاقة العِرْض بهذه المسألة ؟ نقول : والله حتى غير المؤمن بدين يستنكف أن يَقال عنه أنه مُرابٍ ، عِرْضه لا يقبلها فضلاً عن دينه .

لذلك ؛ فالمكارون الذين يريدون أن يُغلوها ، ويريدون أن يعيشوا على دماء الناس لا يدرون أن النفعية هى القانون الذى يحكم الله به خَلْقه ، فيجعل لهم الحسنة بعشر أمثالها ، لذلك يقول اليهود : كيف تُحرِّمون الربا والله يعاملكم به ؟

نعم ، الحق ـ سبحانه وتعالى ـ يعاملنا بالربا ، ويعطينا بالزيادة ؛ لأن هذه الزيادة لا تُنقص مما عنده سبحانه ، أمّا الزيادة من الناس ومن المحتاجين فإنها ترهقهم وتزيدهم فقراً وحاجة .

ثم دَعْكَ من هذا كله ، وتأمل فى المحيط الذى تعيش فيه ، ففى كل بلد أناس يحبون الربا ويتعاملون به ، أرأيتم مرابياً مات بخير ؟ أمات مرابٍ وثروته كاملة ؟ لا ، لأن الله تعالى لم يكن ليقول ﴿ يَمْحَقُ

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٠٥١) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير رضى الله عنه .

اللَّهُ الرِّبَا .. (٢٧٦) ﴾ [البقرة] ثم يترك مرابياً ينمو ماله ، ويسلم له إلى أنْ يموت ، فإن اغتنى لحين ، فإنما غناه كيد فيه ، ومبالغة فى إيذائه ، كما جاء فى الأثر « إذا غضب الله على إنسان رزقه من الحرام ، فإن اشتد غضبه عليه بارك له فيه » .

واقرأ قول الله تعالى :

﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ (٤٤) ﴾ [الأنعام]

لذلك نسمع « فلان ماهر فى التجارة » ، « فلان يضع يده فى التراب يصير ذهباً » ... الخ .

وسبق أن أوضحنا الفرق بين « فتحنا لهم » و « فتحنا عليهم » : « لهم » أى لصالحهم بالخير ، أما « عليهم » فيعنى كيداً لهم وتحدياً وإهلاكاً ، فالله تعالى يعطى الكافر ويُوسِّع عليه زهرة الدنيا ، حتى إذا أخذه كان أَخْذه أليماً ، كما قلنا : إنك إنْ أردت أنَ تُوقِع عدوك لا توقعه من على الحصير ، إنما من مكان عالٍ حتى يكون السقوط مؤلماً .

وقوله تعالى ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا .. (٤٤) ﴾ [الأنعام] والفرح بالنعمة ليس ممنوعاً ، لكن هناك فرح يُحب ، وفرح يُكره ، وإلاَّ فالحق سبحانه نسب الفرح للمؤمنين فى قوله تعالى فى سورة الروم : ﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ اللَّهِ .. (٥) ﴾ [الروم] وقال سبحانه : ﴿ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ .. (١٧٠) ﴾ [آل عمران] وقال : ﴿ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا .. (٥٨) ﴾ [يونس]

فأثبت لهم الفرح المقبول ، وهو الفرح الذى يعقبه قولنا : ما شاء الله لا قوة إلا بالله ثم تشكر الله الذى أنعم عليك ، أما الفرح المكروه فهو الفرح الذى يُورِثك بَطَراً وأَشَراً وكبراً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾

سبق أنْ قلنا : إن قضية الخَلْق مُسلَّم بها ؛ لأنها قضية لم يدَّعِها أحد لنفسه مع كثرة المتبجحين بالكفر والإلحاد ؛ لذلك لما ادَّعاها النمروذ الذى حاجَّ إبراهيم فى ربه فقال : أنا أحيى وأميت ، فعلم إبراهيم عليه السلام أنه يريد اللجاج والسفسطة التى لا طائل منها ، وإلا فكيف يكون الأمر بقتل واحد إماتة ، والأمر بترك الآخر والعفو عنه إحياء ؟

ثم ما بال الذين خُلقوا قبلك وميلادهم قبل ميلادك ؟ إذن : أنت لم تخلق ولم تُحى أحداً ، وسبق أنْ بيّنا الفرق بين القتل والموت مع أنهما يشتركان فى إنهاء الحياة وإزهاق الروح ، لكن الموت يكون بإزهاق الروح أولاً ، يتبعه نَقْض البنية وتحطم الجسم .

أما القتل فينقض البنية أولاً نَقْضاً يترتب عليه إزهاق الروح فالروح لا تقيم إلا فى بنية سليمة ، ومثَّلنا لذلك بلمبة الكهرباء حين تحرق فينطفىء نورها ، فهل يعنى ذلك أن التيار انقطع عنها ؟ لا بل هو موجود لكنه يحتاج لبنية سليمة بدليل أننا إذا استبدلنا اللمبة تضىء .

والحق ـ سبحانه وتعالى ـ يبين لنا هذا الفرق فى قوله سبحانه :

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ .. (١٤٤)﴾ [آل عمران] إذن : فالنمروذ لا يحيى ، بل يُبقِى على الحياة ، ولا يُميت بل يقتل ويُزهِق الروح .

وكان بمقدور إبراهيم عليه السلام أنْ يردَّ عليه هذه الحجة ، وأنْ يكشف تزييفه ، لكنه أراد أن يأخذه إلى ميدان آخر لا يستطيع التلفيق فيه ولا التمحُّك ، فقال له : ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ .. (٢٥٨)﴾ [البقرة]

كذلك مسألة الرزق فهى مُسلَّمة لله لم يدَّعِها أحد : ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ .. (٤٠)﴾ [الروم]

بدليل أن الله تعالى جعل بعض المناطق جدباء ، يجوع فيها القادر والعاجز ، ويجوع فيها ذو المال وغير ذى المال ، ولو كان هناك رازق غير الله فَلْيُحى هذه المناطق الجدباء .

وقوله تعالى : ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ .. (٤٠)﴾ [الروم] ولم يقل : يقتلكم ﴿هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ .. (٤٠)﴾ [الروم] أى : اسألهم هذا السؤال ، ودَعْهم يجيبون هم عليه : أتستطيع الأصنام التى تشركونها مع الله أنْ تفعل شيئاً من الخَلْق أو الرزق أو الإحياء أو الإماتة ؟

أفى قدرتها شىء من ذلك وأنتم الذين تصنعونها وتنحتون حجارتها بأيديكم ، وتُصوِّرونها كما تشاؤون ، فإذا هبَّتْ عاصفة أطاحت بها وربما كسرت ذراع أحد الأصنام فتجتمعون لإقامتها وإصلاحها ؟ فأين عقولكم ؟ وما هذه الخيبة التى أصابتكم ؟

لذلك يقول سبحانه عنهم : ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (٢٠)﴾ [النحل]

ويقول سبحانه : ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ .. (٧٣)﴾ [الحج] بل وأكثر من ذلك ﴿إِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣)﴾ [الحج]

بالله ، أيستطيع أحد أنْ يستردَّ ما أخذتْه منه الذبابة ؟

ونلحظ فى الآية تكرار (مِنْ) وهى للتبعيض : ﴿هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَلِكُم مِّن شَيْءٍ .. (٤٠)﴾ [الروم] والمعنى : لا يستطيع أحد من شركائكم أن يفعل شيئاً ولو هيِّناً من الخلق ، أو الرزق ، أو الإحياء ، أو الإماتة .

لذلك يجب أنْ تُعلِّقوا على هذه القضايا من الله بقول واحد ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٤٠)﴾ [الروم] لا تعليق إلا هذا .

لذلك لما تكلم سيدنا إبراهيم عن الأصنام قال : ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ..(٧٧)﴾ [الشعراء] أى : أنتم وما تعبدون من دون الله ؛ لأنهم كانوا يشركون آلهتهم مع الله ، فالله سبحانه داخل فى هذه الشركة ؛ لذلك استثناه ربه ﴿إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٧٧) الَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨)﴾ [الشعراء]

وتلحظ هنا فى قوله ﴿الَّذِى خَلَقَنِى .. (٧٨)﴾ [الشعراء] أنه لم يؤكدها بشىء ، ولم يذكر قبل الخَلْق الضمير (هو) ؛ لأن مسألة الخَلْق كما قُلْنا لم يدَّعها أحد ، أمّا فى الهداية وهى مجال ادعاء ، فقال (فهو) أى : الحق سبحانه يقصر الهداية على الله ﴿فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨)﴾ [الشعراء]

وفى هذا إشارة إلى أن القانون الذى يُنظم حياتى والمنهج الذى يهدينى قانون ربى لا آخذه من أحد سواه ، وكثيراً ما نرى مَنْ يدَّعى الهداية ويقول : إننى وضعتُ قانوناً يُسعِد حياة الناس ، ويفعل كذا

وكذا ، سمعنا هذه النغمة مرة من الرأسمالية ، ومرة من الاشتراكية ومن الشيوعية .. الخ .

إذن : هذا مجال ادعاء واسع ، فقيَّده إبراهيم ـ عليه السلام ـ وقصره على الله ، حيث لا منهجَ إلا منهجُ الله ، ولا قانونَ يحكمنا إلا قانون ربنا ، كما نقول فى العامية (مفيش إلا هو) .

كذلك فى مسألة الإطعام قال : ﴿وَالَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى .. (٧٩)﴾ [الشعراء] فاستخدم القصر هنا بذكر الاسم الموصول (الذى) ثم الضمير المفرد الغائب (هو) ؛ ليؤكد أن الذى يطعمه إنما هو الله ؛ لأن الإنسان قد يظن أن أباه هو الذى يطعمه ، أو أن أمه هى التى تُطعمه ؛ لأنها تُعد له طعامه ، فهما السببان الظاهران فى هذه المسألة ، فاحتاج الأمر إلى أكثر من مؤكد .

ثم يقول عليه السلام : ﴿وَالَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١)﴾ [الشعراء] هكذا دون توكيد ؛ لأن الموت والحياة مسألتان مُسلَّمتان لله مفروغ منهما ، وكذلك : ﴿الَّذِى أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيئَتِى يَوْمَ الدِّينِ (٨٢)﴾ [الشعراء] وهذه أيضاً لا تكون إلا لله تعالى .

إذن : ما كان للغير فيه شبهة عمل يؤكدها ويخصُّها لله تعالى ، أما الأخرى التى لا دخْلَ لغير الله فيها فيسوقها مُطْلقة دون اختصاص .

فالتعليق فى هذا الأمر العجيب لا يكون إلا بقولنا : ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٤٠)﴾ [الروم] أى : تنزيهاً له عن الشركة . وإذا كان رسول الله ﷺ قد أخبرنا أن الله تعالى قال : لا إله إلا أنا ، ولم يَقُمْ لهذه القضية منازع ، ولم يدَّعِها أحد لنفسه .

إذن : فهى مُسلَّمٌ بها ، وإلا فإنْ كان هناك إله آخر فأين هو ؟ ولماذا لم يدافع عن حقه فى الألوهية ؟ إن كان لا يدرى فهو غافل ، وإنْ كان يدرى ولم يعارض فهو جبان ، وفى كلتا الحالتين لا يصلح أن يكون إلهاً .

لذلك ربنا حكمها بقضية واحدة ، فقال : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً (٤٢) ﴾ [الإسراء]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤١) ﴾

ظهر : بان ووضح . والظهور : أن يَبين شىء موجود بالفعل لكنَّا لا نراه ، وما دام الحق سبحانه قال : ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ .. (٤١) ﴾ [الروم] فلا بُدَّ أن الفساد كان موجوداً ، لكن أصحاب الفساد عمُّوه وجنُّوه إلى أن فقس وفرخ فى المجتمع .

والفساد لا يظهر إنما يظهر أثره ، أتذكرون الزلزال الذى حدث والذى كشف الفساد والغش والتدليس بين المقاول والمهندس ، وكانت المبانى قائمة والفساد مستتراً إما لغفلتنا عنه ، أو لتواطئنا معه ، أو لعدم اهتمامنا بالأشياء إلى أن طمَّتْ المسائل ، ففضح الله الأرض بالزلزال ، ليكشف ما عندنا من فساد .

فإذا ازداد الغش ، وانتشر وفَاقَ الاحتمال لا بُدَّ أن يُظهره الله للناس ، فلم يَعُدْ أحد قادراً على أن يقف فى وجه الفساد ، أو يمنعه ؛ لذلك يتدخَّل الحق سبحانه ، ويفضح أهل الفساد ويذيقهم آثار ما عملت أيديهم .

وتأتى ظهر بمعنى « الغلبة » كما فى قوله تعالى : ﴿ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ

آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ (١٤) ﴾ [الصف] أى: غالبين . وفى سورة التحريم : ﴿ وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ .. (٤) ﴾ [التحريم]

وبمعنى « العلو » فى قوله تعالى : ﴿ فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا (٩٧) ﴾ [الكهف]

فالمعنى ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ .. (٤١) ﴾ [الروم] أى : غلب الصلاح وعلا عليه ، والكون خلقه الله تعالى على هيئة الصلاح ، وأعدّه لاستقبال الإنسان إعداداً رائعاً ، وللتأكد من صدْق هذه المسألة انظر فى الكون وأجناسه وأفلاكه وأجوائه ، فلن ترى فساداً إلا فيما تتناوله يد الإنسان .

أما ما لا تتناوله يد الإنسان ، فلا ترى فيه خللاً ؛ لأن الله خلقه منسجمَ الأجناس منسجمَ التكوين : ﴿ لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٤٠) ﴾ [يس]

فهل خلقنا الحق سبحانه وخلق اختيارنا لنفسد فى الكون ؟

لا ، إنما هو ابتلاء الاختيار حين ينزل عليك المنهج ويجعله قانوناً لحركتك بافعل ولا تفعل ، وما لم أقُل فيه (افعل) أو (لا تفعل) فأنت حر فيه ، فلا يحدث من الفعل أو من عدمه ضرر فى الكون ، أمّا أنا فقد قلت افعل فى الذى يحصل منه ضرر بعدم فعله ، وقلت لا تفعل فى الذى يحصل ضرر من فعله .

فالفساد يأتى حين تُدخِل يدك فى شىء وأنت تطرح قانون الله فى افعل ولا تفعل ، أما الصلاح فموجود وفيه مناعة يكافح بها الفساد ، فإنْ علا تيار الفساد وظهر على الصلاح وغلبه بان للناس .

وعندها يُنبِّهنا الحق سبحانه بالأحداث تطرقنا وتقول لنا : انظروا إلى مَنْ خالف منهج الله ماذا حدث له ؛ لذلك فى أعقاب الأحداث نزداد عشقاً لله ، وحباً لطاعته ، وترى الناس (تمشى على العجين متلخبطه) ، لكن سرعان ما يعودون إلى ما كانوا عليه من الإهمال والغفلة ، على حَدِّ قول الشاعر :

تُروِّعنا الجنَائزُ مُقْبِلاتٍ ونلهُو حِين تَذهَبُ مُدبراتِ

كَروْعَةِ ثُلَّةٍ لمغَارِ ذئْبٍ فَلما غابَ عادتْ راتعاتِ

فالحق يقول : ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ .. (٤١)﴾ [الروم] أى : غلب على قانون الصلاح الذى أقام الله عليه نظام هذا الكون ، الذى لو نالتْه يد الإنسان لَفسد هو الآخر ، كما قال سبحانه : ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَـٰوَاتُ وَالأَرْضُ .. (٧١)﴾ [المؤمنون]

فظواهر الكون أشياء وقضايا لكل العامة ، ومن الحكمة ألاّ تنالها يد الإنسان ؛ لأن الله تعالى يريد للكون البقاء ، ولم يأْتِ أوان انتهائه ، لذلك الحق سبحانه يجعل فينا مناعة تجعلنا نقبل الفساد إلى حين ، إلى أن يصل إلى درجة التشبُّع ، فتتفجر الأوضاع .

فقوله : ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِى الْبَرِّ .. (٤١)﴾ [الروم] نتيجة لدعوته ﷺ ؛ لأن كلمة (ظهر) تدل على أن شيئاً وقع ، فكأنه يقول لنا : إنْ كررتم الفساد والغفلة تكرَّر ظهور الفساد ، فهو يعطينا مُلخصاً لما حدث بالفعل من عداوتهم لرسول الله ، ومقاطعته وعزله وإغراء السفهاء منهم للتحرش به ، ثم عداوة أصحابه وإجبارهم على الهجرة إلى الحبشة حتى لا يستقر لهم قرار بمكة .

لذلك دعا عليهم رسول الله : « اللهم اشْدُدْ وطأتك على مُضَر ، واجعلها عليهم سنين كسنى يوسف »[١] فأصابهم الجَدْب والقحط ، حتى رُوِى أنهم كانوا يذهبون للبحر لصيد السمك ، فيبتعد عنهم ولا يستقيم لهم فيعودون كما أتوا .

وهذا معنى ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ .. (٤١)﴾ [الروم]

ثم يوضح الحق سبحانه سبب هذا الفساد : ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ .. (٤١)﴾ [الروم] فتلحظ هنا أن الحق سبحانه لما يذكر الرحمة لا يذكر علَّتها ، لكن يذكر علَّة الفساد ؛ لأن الرحمة من الله سبحانه أولاً وأخيراً تفضُّل ، أما الأخذ والعذاب فَبعدله تعالى ؛ لذلك يُبيِّن لك أنك فعلتَ كذا ، وتستحق كذا ، فالعلَّة واضحة .

هناك قضية أخرى أحب أن أوضحها لكم ، وهى أن الحق سبحانه يعامل خَلْقه معاملته فى الجزاء ، فالله يقول : ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا .. (١٦٠)﴾ [الأنعام]

إذن : فالحسنة الواحدة تستر عشر سيئات ، وكذلك فى جسم الإنسان ، فيقول بعض علماء وظائف الأعضاء والتشريح : إن الكلية بها مليون خلية يعمل منها العُشْر بالتبادل ، فمجموعة تعمل ، والباقى يرتاح وهكذا . فانظر كم ترتاح الخلية حتى يأتى عليها الدور فى العمل .

فكأن ربنا ـ سبحانه وتعالى ـ خلق لها العشر يقوم مقام المليون ؛ لذلك قالوا لو أن فى أحد الدواوين عشرة موظفين ، منهم

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٢/ ٤٧٠ ، ٥٠٢ ، ٥٢١) ، وكذا البخارى فى صحيحه (١٠٠٦) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ كان إذا رفع رأسه من الركعة الآخرة يقول : « اللهم اشدد وطأتك على مضر ، اللهم اجعلها سنين كسنى يوسف » .

واحد محسن ، يستر إساءة الباقين ، وكثيراً ما تلاحظ هذه الظاهرة فى دواوين الحكومة ، فترى غالبية الموظفين منشغلين : هذا يقرأ الجرائد ، وهذا يشرب الشاى ، وآخر لم يأتِ أصلاً .

وخلف كومة من الملفات تجد موظفاً نحيلاً غارقاً فى العمل ، يقصده الجميع ، ويتحمل هو تقصير الآخرين ، ويؤدى عنهم ، وبه تسير دفَّة الأمور ، لكن إنْ فقدنا هذا أيضاً ، فلا بُدَّ أن تأتى ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ .. (٤١)﴾ [الروم] إذن : إن رأيت الفساد فاعلم أنه نتيجة إهمال وغفلة فاقت كل الحدود .

وما دام الحق سبحانه قال : ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى النَّاسِ.. (٤١)﴾ [الروم] فلا بُدّ أن الفساد جاء من ناحيتهم ، وبالله هل اشتكينا أزمة فى الهواء مثلاً ؟ لكن نشتكى تلوث الهواء بما كسبتْ أيدى الناس ، أمّا حين نذهب إلى الخلاء حيث لا يوجد الإنسان ، نجد الهواء نقياً كما خلقه الله .

الحق سبحانه تكفَّل لنا بالغذاء فقال : ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا .. (١٠)﴾ [فصلت] لكنا نشتكى أزمة طعام ، لماذا ؟ لأن الطعام يحتاج إلى عمل ، ونحن تكاسلنا ، وأسأنا التصرُّف فى الكون ، إما بالكسل والخمول عن استخراج خيرات الأرض وأقواتها ، وإما بالأنانية حيث يضنُّ الواجد على غير الواجد .

وقد قرأنا مثلاً أن أمريكا تسكب اللبن فى البحر ، وتعدم الكثير من المحصولات ، وفى العالم أُناس يموتون جوعاً ، إذن : هذه أنانية ، أما التكاسل فقد حدث منا فى الماضى .

وانظر الآن إلى صحرائنا التى كانت جرداء قاحلة ، كيف اخضرت الآن ، وصارت مصدراً للخيرات لما اهتممنا بها ويسَّرنا ملكيتها

للناس ، فإنْ ضنَّتْ الأرض فى منطقة ما فقد جعل الله لنا سعة فى غيرها ، فالخالق سبحانه لم يجعل الأرض لجنس ولا لوطن ، إنما جعلها مشاعاً لخَلْق الله جميعاً .

واقرأ قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا .. (٩٧)﴾ [النساء]

ولذلك قلت فى هيئة الأمم : إن فى القرآن آية واحدة ، لو أخذ العالم بها لضمنت له الرخاء والاستقرار والأمان ، إنها قوله تعالى : ﴿وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ (١٠)﴾ [الرحمن] فالأرض كل الأرض للأنام كل الأنام ، لكن الواقع خلاف ذلك ، فقد وضعوا للأرض حدوداً ، وأقاموا عليها الحواجز والأسوار ، فإنْ أردتَ التنقّل من قطر إلى آخر تجشَّمت فى سبيل ذلك كثيراً من المشاق فى إجراءات وتأشيرات .. إلخ .

وكانت نتيجة ذلك أن يوجد فى الكون رجال ازدحموا بلا أرض ، وفى موضع آخر أرض بلا رجال ، ولو حدث التكامل بين هذه وتلك لاستقامت الأمور .

إذن : الذين وضعوا الحدود والحواجز فى أرض الله أخذوها لأنفسهم ، فلم تَعُدْ أرض الله الواسعة التى تستقبل خَلْق الله من أى مكان آخر ، إنما جعلوها أرضهم ، وأخضعوها لقوانينهم هم ، وتعجب حين تتأمل حدود الدول على الخريطة ، فهى متداخلة ، فترى جزءاً من هذه الدولة يدخل فى نطاق دولة أخرى ، على شكل مثلث مثلاً ، أو تمتد أرض دولة فى دولة أخرى على شكل لسان أو مناطق متعرجة ، فما دُمْتم قد وضعتم بينكم حدوداً ، فلماذا لا تجعلونها مستقيمة ؟

وكأن واضعى هذه الحدود أرادوها بُؤراً للخلاف بين الدول ، ولا

يخلو هذا التقسيم من الهوى والعصبيات القبلية والجنسية والقومية والدينية ، لكن لو أخذنا بقول ربنا : ﴿وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ (١٠)﴾ [الرحمن] لما عانينا كل هذه المعاناة .

وقوله تعالى : ﴿كَسَبَتْ.. (٤١)﴾ [الروم] عندنا : كسب واكتسب ، الغالب أن تكون كسب للحسنة ، واكتسب للسيئة ؛ لأن الحسنة تأتى من المؤمن طبيعة بدون تكلُّف أو افتعال ، فدلَّ عليها بالفعل المجرد (كسب) .

أما السيئة ، فعلى خلاف الطبيعة ، فتحتاج منك إلى تكلُّف وافتعال ، فدلَّ عليها بالفعل المزيد الدال على الافتعال (اكتسب) .

ألاَ ترى أنك فى بيتك تنظر إلى زوجتك وبناتك كما تشاء ، أما الأجنبية فإنك تختلس النظرات إليها وتحتال لذلك ؟ فكل حركاتك مفتعلة ، لماذا ؟ لأنك تفعل شيئاً محرماً وممنوعاً ، أما الخير فتصنعه تلقائياً وطبيعياً بلا تكلُّف .

كما أن الحسنة لا تحتاج منك إلى مجهود ، أمّا السيئة فتحتاج إلى أنْ تُجنِّد لها كل قواك ، وأن تحتاط ، كالذى يسرق مثلاً ، فيحتاج إلى مجهود ، وإلى محاربة لجوارحه ؛ لأنها على الحقيقة تأبى ما يفعل .

ومع ذلك نلحظ قوله تعالى : ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُوْلَـٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ .. (٨١)﴾ [البقرة]

فجعل السيئة كَسْباً لا اكتساباً . قالوا : لأن السيئة هنا صارت عادة عنده ، وسهلت عليه حتى صارت أمراً طبيعياً يفعله ولا يبالى كالذى يفعل الحسنة ، وهذا النوع والعياذ بالله أحب السيئة وعشقها ، حتى أصبح يتباهى بها ولا يسترها ويتبجح بفعلها .

وهذا نسميه (فـاقد) ، فقد أصبح الشر والفسـاد حرفة له ، فلا يتأثر به ، ولا يخـجل منه كالذى يقبل الرِّشْوة ، ويـفرح لاستقبـالها ، فإن سألته قال لك : وماذا فيها ؟ أنا لا أسرق الناس .

وقوله تعالى : ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِى عَمِلُوا .. (٤١)﴾ [الروم] الإذاقة هنا عقوبة ، لكنها عقوبة الإصـلاح كما تعاقب ولدك وتضر به حرصاً عليه ، وسبق أن قلنا : إنه لا ينبغى أن نفصل الحدث عن فاعله ، فقد يعتدى ولد على ولدك ، فيـجرحه فتذهب به للطبيب ، فيـجرحه جرحاً أبلغ ، لكن هذا جرح المعتدِى ، وهذا جرح المداوى .

وحين يُذيـق الله الإنسانَ بعض ما قـدَّمت يداه يوقظه من غـفلته ، ويُنبِّه فـيه الفطرة الإيمـانية ، فيـحتاط للأمـر ولا يهمل ولا يقـصر ، وتظل عنده هذه اليقظة الإيمـانية بمقـدار وَعْيه الإيمانى ، فـواحد يظلّ يقظاً شهراً ، ثم يعود إلى ما كان عليه ، وآخر يظل سنة ، وآخر يظل عمره كله لا تنتابه غفلة .

وقد أذاق اللهُ أهلَ مكة عـاقبة كـفرهم حـتى جاعوا ولم يجـدوا ما يأكلونه إلا دَمَ الإبل المخلوط بوبرها ، وهو العِلْهِز .

وقوله : ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤١)﴾ [الروم] لأن الكلام هنا فى الدنيا ، وهى ليـستْ دار جزاء ، فالحـق يُذيقهم بعض أعـمالهم ليلتـفتـوا إليه سبـحانه ، ويتوبوا ويعودوا إلى حـظيرة الإيمان ؛ لأنهم عبـيده ، وهو سبحانه أرحم بهم من الوالدة بولدها .

والحق سبـحانه سـاعـة يقول ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ .. (٤١)﴾ [الروم] أى : على عهد رسول الله ﷺ ليُبيِّن لنا أن الرسل إنما جاءوا لإنقاذ البشرية من هذا الفسـاد ، لكن ما دام الأمر عُلِّل فالأمـر يدور مع العلة وجوداً وعدماً ، فكلمـا ظهر الفساد حلَّتْ العقـوبة ، فخذوها فى الكون آية من

آيات الله إلى قيام الساعة .

فظهر الفساد قديماً ﴿ فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٠) ﴾ [العنكبوت]

لكن هذا الأخْذ كان قبل سيدنا رسول الله فى الأمم السابقة ، وكان هلاك استئصال ؛ لأن الرسل السابقين لم يُكلَّفوا بالمحاربة لأجل نَشْر دعوتهم ، فما عليهم إلا نشر الدين وتبليغه ، مع التأييد بالمعجزات ، فإنْ تأبَّى عليهم أقوامهم تولَّى الحق سبحانه عقابهم ، أما أمة محمد ﷺ فقد أكرمها الله بألاَّ يعاقبها بعذاب الاستئصال :

﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣) ﴾ [الأنفال]

ثم سيظهر الفساد حديثاً وسيحدث العقاب . إذن : ليست الأمة الإسلامية بِدَعاً فى هذه المسألة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ (٤٢) ﴾

السير : الانتقال من حيز مكانى إلى حيز آخر ، وسبق أنْ قلنا : إن النظرة السطحية فى ظاهر الأمر أن السير يكون على الأرض لا فيها ؛ لأننا نسكن على الأرض لا فيها ، لكن الحق سبحانه يُبصرنا بقوله : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ .. (٤٢) ﴾ [الروم] أن الأرض ليست هى اليابسة والماء على سطح الكرة الأرضية ، أما الأرض فتشمل غلافها

الجوى لذلك يدور معها وهو إكسير الحياة فيها ؛ فلا حياة لها إلا به.

إذن : فهواء الأرض من الأرض ، وهو أهم الأقوات للأحياء عليها ، فحين يقول تعالى : ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا .. (١٠)﴾ [فصلت] فالهواء داخل فيها ، لذلك قال ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ .. (٤٢)﴾ [الروم]

وقلنا : لو أنك استقرأتَ أجناس الوجود لوجدت أنك الجنس الأعلى فى الكون ، وكل الأجناس تحتك تخدمك ، فأنت تنتفع بالحيوان وبالنبات وبالجماد ، فأدنى الأجناس فى الكون وهو الجماد له مهمة يؤديها .

فأنت أيها الإنسان الذى كرَّمك الله على كل أجناس الوجود إذا لم تبحث لك عن مهمة تؤديها فى الحياة ، ودور تقوم به ، فأنت أقل منزلةً من أدنى الأجناس وهو الجماد ، إذا لم تبحث بعقلك عن شىء ترتبط به يناسب سيادتك على مَنْ دونك ، فأنت أتفه من الحجر ؛ لأن الحجر له مهمة يؤديها ، وأنت لا مهمةَ لك .

لكن هذا الجنس الأدنى إنْ أراد سبحانه أعطاه عزة فوق السيد المخدوم وهو الإنسان ، ففى فَرْض الحج يُسَنُّ لك أن تُقبِّل هذا الحجر ، وتسعى جاهداً لكى تُقبِّله ، وتأمل الإنسان ـ وهو سيد هذا الوجود ـ وهو يحاول أنْ يُقبِّل الحجر ، ويغضب إنْ لم يتمكن من ذلك.

وتأمل الردَّ من دولة الأحجار على مَنْ عبدها من دون الله[1] :

عَبَدُونَا ونَحْنُ أعبَدُ للـه ... مِنَ القائمين بالأسْحار
تَخِذُوا صَمْتَنَا عَلَيْنَا دَليلاً ... فَغدوْنَا لَهُم وقُودَ النار
قَدْ تجنَّوا جَهْلاً كما قَدْ تجنَّوْه ... علَى ابْن مريم والحَوارى
للمغَالِى جَزَاؤه والمغَالَى فيه ... تُنجِيه رَحْمَةُ الغفَّار

(١) من شعر الشيخ رضى الله عنه .

ثم يقول سبحانه : ﴿فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ .. (٤٢)﴾ [الروم] فالسير فى الأرض يكون إما للسياحة والتأمل فى آيات الله فى كونه ، لذلك يستخدم فيها الفاء ﴿فَانظُرُوا .. (٤٢)﴾ [الروم] أو يسير فى الأرض لطلب الرزق .

وفى آية أخرى : ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا .. (١١)﴾ [الأنعام] والمعنى : سيروا فى الأرض للاستثمار ، وطلب القوت ، وقضاء المصالح ، لكن لا يفوتكم النظر والتأمل فى آيات الله وفى مخلوقاته لتأخذوا منها العبرة والعظة .

ومعنى : ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ.. (٤٢)﴾ [الروم] أى : الذين ظهر الفساد بينهم ، فأذاقهم الله الألم بما كسبتْ أيديهم ، فهذه ليست عندك وحدك ، إنما حدثتْ فى الأمم السابقة ، كما قال سبحانه : ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧)﴾ [الصافات]

فهناك مدائن صالح والأحقاف وعاد وثمود والفراعنة .. إلخ انظر ما حلَّ بهم بعد الحضارة والنضارة ، بعد ما توصلوا إليه من علم التحنيط الذى لم يعرف العلم أسراره حتى الآن ، ويضعون مع جثث الموتى حبوب القمح أو الشعير ، فتظل على حالها ، بحيث إذا زُرِعت بعد آلاف السنين تنبت .

إنها قدرة علمية فائقة ، ومع ذلك ما استطاعت هذه الحضارة أن تحمى نفسها من الاندثار ، وإذا كان القرآن قد قال عن الحضارة الفرعونية ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ (١٠)﴾ [الفجر] فقد قال عن إرم ﴿الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ (٨)﴾ [الفجر]

فأىُّ حضارة هذه ؟ وأين هى الآن ؟ طمرتها رمال الأحقاف[١] ، ودفنتها تحت أطباق الثرى ، ولا تعجب من ذلك ، ففى هذه المنطقة إنْ هبَّتْ عاصفة واحدة ، فإنها تغطى قافلة كاملة بجمالها ورجالها تحت الأرض ، فما بالك بالعواصف منذ قرون طوال ؛ لذلك نجد كل الآثار يتم التنقيب عنها حَفْراً .

إذن : فالحضارات مع عظمها لم تستطع أنْ تحمى نفسها من الزوال ، وهذا دليل على وجود قوة أعلى منها تزيلها وتقضى عليها .

وقوله تعالى : ﴿ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ (٤٢) ﴾ [الروم] أى : أن القليل منهم لم يكُنْ مشركاً ، قالوا : هذه القلّة هم الصبيان والمجانين ، ومن ليس له إرادة حرة ، وإن أخذت هذه القلة مع الكثرة المشركة ، فإن الله إنما أراد بهم خيراً ؛ لأن مثواهم إلى الجنة بغير حساب .

لذلك لما تكلمنا عن موسى والعبد الصالح فى سورة الكهف : لما قتل الخضر الغلام تعجَّب موسى ، ففى المرة الأولى خرق السفينة واعتدى على ملْك ، أما فى هذه المرة فقد أزهق روحاً ؛ لذلك قال فى الأولى ﴿ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا (٧١) ﴾ [الكهف] أى : عجيباً ، أما فى الثانية فقال : ﴿ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا (٧٤) ﴾ [الكهف]

ثم بيَّن الخضر الحكمة من قتل الغلام فقال : إن له أبوين صالحين ، وفى علم الله تعالى أنه سيفسد عليهما دينهما ؛ لأن الفتنة تأتى الإنسان غالباً من الزوجة أو من الولد ، كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ .. (١٤) ﴾ [التغابن] لماذا ؟ لأنهما يحملانك على ما لا تطيق ، ويضطرانك ربما للسرقة أو للرشوة لتوفر لهما ما يلزمهما ، ولأن الفساد يأتى من ناحيتهما قال سبحانه :

---

(١) قال الأزهرى : الأحقاف رمال بظاهر بلاد اليمن كانت عاد تنزل بها . [لسان العرب - مادة : حقف] .

﴿ مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلا وَلَدًا (٣) ﴾ [الجن] يعنى : طمئنوا عبادى ، فلا أحد يؤثر على إرادتى .

إذن : فالخضر صنع الجميل بالوالدين ، حيث أنقذهما من هذا الابن ، وصنع أيضاً جميلاً بالغلام حيث قتله قبل سنِّ التكليف ، وجعل مصيره إلى الجنة ، وربما لو تركه لكان كافراً بالله عاقاً لوالديه ، وهذا كله إنما جرى بأمر الله وحكمه : ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِى .. (٨٢) ﴾ [الكهف]

وكأن الحق - تبارك وتعالى - يقول لنبيه فى هذه المسألة بداية من ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى النَّاسِ .. (٤١) ﴾ [الروم] ثم إنزال العقاب بهم جزاء ما عملتْ أيديهم وأجبتُك فى دعوتك عليهم .

كل ذلك إنما يعنى أننى أُقوِّى مركزك ، ولن أتخلى عنك ، وما دام الأمر كذلك فإياك أن يُؤثِّر فيك مكرهم أو تركن إلى أحد منهم ممَّنْ قالوا لك : تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة[1] ، لكن يقول الحق سبحانه :

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِىَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ (٤٣) ﴾

قوله تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ .. (٤٣) ﴾ [الروم] يعنى : اطمئن يا محمد ، وتفرغ لعبادة الله لأننى وعدتُك بالنصر ، وأجبتُك حين قُلْت : « اللهم اشْدُدْ وطأتك على مُضَر ، واجعلها عليهم سنين كسنىِّ يوسف »[2] .

---

(١) ذكره الواحدى فى أسباب النزول (ص٢٦١) فى نزول سورة (الكافرون) أن رهطاً من قريش قالوا : يا محمد هلم اتبع ديننا ونتبع دينك ، تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة .

(٢) عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ كان إذا رفع رأسه من الركعة الآخرة يقول : « اللهم اشدد وطأتك على مضر ، اللهم اجعلها سنين كسنىِّ يوسف » أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٢/٤٧٠) ، والبخارى فى صحيحه (١٠٠٦) .

﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٧٧)﴾ [غافر] يعنى : مَنْ لم تَنَلْهُ عقوبة الدنيا نالته عقوبة الآخرة .

وقال : ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ .. (٤٣)﴾ [الروم] لأن الوجه محلُّ التكريم ، وسيد الكائن الإنسانى ، وموضع العزة فيه ، بدليل أن السجود والضراعة لله تعالى تكون بوضع هذا الوجه على الأرض ؛ لذلك حين ترسل شخصاً برسالة أو تُكلِّفه أمراً يقضيه برِجْله ، أو بيده ، أو بلسانه ، أو بأىٍّ جارحة من جوارحه تقول له : أرجو أنْ تُبيِّض وجهى ؛ لأن الوجه هو السيد .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ .. (٨٨)﴾ [القصص] لأنك لا تعرف سمة الناس إلا بوجوههم ، ومَنْ أراد أنْ يتنكر أو يُخفى شخصيته يستر مجرد عينيه ، فما بالك إنْ ستر كل وجهه ، وأنت لا تعرف الشخص من قفاه ، ولا من كتفه ، ولا من رجله ، إنما تعرفه بوجهه ، ويقولون : فلان وجيه القوم ، أو له وجاهته فى القوم ، كلها من ناحية الوجه .

وما دام قد خصَّ الوجه ، وهو أشرف شىء فيك ، فكُلُّ الجوارح مقصودة من باب أَوْلَى فهى تابعة للوجه ، فالمعنى : أقم يدك فيما أمرك الله أن تفعل ورجلك فيما أمرك الله أنْ تسعى ، وقلبك فيما أمرك الله أن تشغل به ، وعينك فيما أمرك الله أن تنظر فيه .. الخ .

يعنى : انتهز فرصة حياتك ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ .. (٤٣)﴾ [الروم] هو يوم القيامة ﴿لاَّ مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ .. (٤٣)﴾ [الروم] المعنى : أن الله حين يأتى به لا يستطيع أحد أنْ يسترده من الله ، أو يأخذه من يده ، أو يمنعه أنْ يأتى به ، أو أنه سبحانه إذا قضى الأمر لا يعود ولا يرجع فيه .

فكلمة ﴿مِنَ اللَّهِ .. (٤٣)﴾ [الروم] تعطينا المعنيين ، كما فى قوله تعالى : ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ .. (١١)﴾ [الرعد] فكيف تحفظه المعقِّبات من أمر الله ؟ قالوا : كونهم مُعقِّبات للحفظ أمر صادر من الله أصلاً ، وبناءً على أمره تعالى بالحفظ .

وقوله : ﴿يَوْمَئِذٍ .. (٤٣)﴾ [الروم] يعنى : فى اليوم الذى لا مردَّ له من الله ﴿يَصَّدَّعُونَ (٤٣)﴾ [الروم] أى : هؤلاء الذين تكاتفوا على حربك وعلى عداوتك وإيذائك ، وتعصَّبوا ضدك ﴿يَصَّدَّعُونَ (٤٣)﴾ [الروم] أى : ينشقُّون بعضهم على بعض ، ويتفرقون ، وقد وردت هذه المسألة فى آيات كثيرة .

والتفريق إما إيمان وكفر أى : أشقياء وسعداء ، وإما أن يكون التفريق فى القوم الذين عاندوا واتبعوا أتباعهم على الشرك ، فيتبرأ كل منهم من الآخر ، كما قال سبحانه : ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا .. (١٦٦)﴾ [البقرة]

ثم قال الحق ليبين لنا ذلك التفريق فى الآخرة بعلّته ، وعِلَّته ما حدث فى الدنيا ، فالله تعالى لا يظلم أحداً ، فقال بعد ذلك :

﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ (٤٤)﴾

ما دامت القيامة أمراً لا مردَّ له من الله ، فلننتبه للعواقب ، ولنحسب لها حساباً ، فمَنْ كفر فعليه كفره ، عليه لا له ، وهذه قضية تقتضى أن نقول فى مقابلها : ومَنْ آمن فله إيمانه .

بعد أن بيَّن الدلائل الواضحة على واحديته فى الكون ، وأحديته فى ذاته سبحانه ، وبيَّن الأدلة الكونية بكُلِّ صورها برهاناً وحجةً ، وضرب أمثالاً وتفصيلاً بعد ذلك قال : سأقول لكم أنكم أصبحتم مختارين أى : خلقتُ فيكم الاختيار فى التكليف حتى لا أقهر أحداً على الإيمان بى .

وخَلْق الاختيار فى التكليف بعد القهر فى غير التكليف يدلُّ على أن الله تعالى لا يريد من عباده قوالب تأتمر بأمر القهر ، ولكنه يريد أنْ يجذب الناس بمحبوبيتهم للواحد الأحد .

وإلا فكان من الممكن أن يخلقهم جميعاً مهتدين ، وأنْ يخلقهم على هيئة لا تتمكّن من الكفر ، وتسير إلى الطاعة مرغمة ، كما قال سبحانه حكاية عن السماء والأرض : ﴿أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١)﴾ [فصلت] وذلك يُفسِّر لنا أمانة خَلْق الاختيار فى الناس .

والحق ـ سبحانه وتعالى ـ حينما تكلم عن هذه المسألة بوضوح قال : ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا .. (٧٢)﴾ [الأحزاب] والإباء هنا ليس إباءَ تكبُّر على مراد الله ، إنما وضعوا أنفسهم فى الموضع الطبيعى ، فقالوا : لا لحمل الأمانة ؛ لأننا لا نأمن أنفسنا ولا نضمنها عند الأداء .

والإنسان كذلك ابن أغيار ، فقد يحمل الأمانة ، ويضمن أداءها فى وقت التحمل ، لكنه لا يضمن نفسه عند الأداء ، وسبق أن مثَّلْنا لذلك بمَنْ يقبل الأمانة ، ويرحب بها عند التحمل ، ثم تطرأ عليه من أحداث الحياة ما يضطره لأنْ يمدَّ يده إلى هذه الأمانة وإنْ كان فى نيته الأداء ، لكن يأتى وقته فلا يستطيع ، وآخر يُقدِّر هذه المسئولية ويرفض تحمل الأمانة ، وهذا هو العاقل الذى يُقدِّر الظروف وتغيّر الأحوال .

ومعلوم أن الأمانة لا تُوثَّق ، فإنْ كتبتَ وشهد عليها فإنها لم تَعُدْ أمانة ، فالأمانة إذن مردُّها لاختيار المؤتمن إنْ شاء أقرَّ بها ، وإنْ شاء أنكرها .

فالحق سبحانه قال حكايةً عن السموات والأرض والجبال ﴿ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا .. (٧٢) ﴾ [الأحزاب] لأنهم يُقدِّرون مسئوليتها ، أما الإنسان فقد تعرَّض لحملها وقال : عندى عقل أفكر به ، وأختار بين البدائل ، وسوف أؤدى ، فضمن وقت التحمل ، لكنه لا يضمن وقت الأداء ، فظلم نفسه وجهل حقائق الأمور .

﴿ وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً (٧٢) ﴾ [الأحزاب] ظلوماً لنفسه ، جهولاً بما يمكن أنْ يطرأ عليه من الأغيار .

وما دام الإنسان ابن أغيار ، فإنه لا يثبت على حال ؛ لذلك قلنا : إذا صعد الإنسان الجبل إلى قمته وهو ابن أغيار فليس أمامه إلا أنْ ينزل ، والعقلاء يخافون أنْ تتم لهم النعمة ؛ لأنه ليس بعد التمام إلا النقصان ، كما قال الشاعر :

إِذَا تَمَّ شىء بَدا نَقْصُه ترقَّبْ زَوَالاً إذَا قِيلَ تَمّ

فإذا قلت : لماذا خلق الله الاختيار فى الإنسان ولم يخلقه فى الأجناس التى تخدمه من جماد ونبات وحيوان ؟ نقول : كُنْ دقيقاً ، وافهم أنها أيضاً خُيِّرت بقوله تعالى ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَـوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا .. (٧٢) ﴾ [الأحزاب]

إذن : هذه الأجناس أيضاً خُيِّرت ، لكنها اختارت اختياراً واحداً يكفيها كل الاختيارات ، فقالت : نريد يا رب أنْ نكون مقهورين لكل ما تريد .

ولما كنا مختارين أعطانا الله تعالى هذه القضية : ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ.. (٤٤)﴾ [الروم] وكلمة (عَلَيْه) تفيد الدَّيْن والوِزْر ، و (له) تفيد النفع ، فإذا جئنا بالمقابل بقول : ومَنْ آمن فله إيمانه ، كما فى : ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (١٤)﴾ [الانفطار]

لكن القرآن لم يَأْت بهذا المقابل ، إنما عَدَل إلى مسألة أخرى : ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ (٤٤)﴾ [الروم] فلماذا ؟ قالوا : لأن فائدة الإيمان أن تعتقد بوجود إله قادر واحد هو الله فتؤمن به ، فإذا ما أمرك تطيع ، فعلَّة الإيمان التكليف ؛ لذلك حين تبحث أىَّ تكليف إياك أنْ تنظر إلى عِلَّته فتقول : كلفنى بكذا لكذا ، فعِلَّة التكليف وحكمته عنده تعالى .

فإذا قلنا مثلاً : حكمة الصيام أنْ يشعر الغنىُّ ويذوق ألم الجوع فيعطف على الفقير ، فهل يعنى هذا أن الفقير المعدَم لا يصوم ؟ إذن : ليست هذه حكمة الصيام ، والأصوب أنْ تقول : أصوم ؛ لأن الله أراد منى أن أصوم ، وحكمة الصيام عنده هو .

ومثَّلنا لذلك ولله تعالى المثل الأعلى : أنت حين تشكو مرضاً أو ألماً تسأل عن الطبيب الماهر والمتخصص حتى تنتهى إليه ، وعندها تنتهى مهمة عقلك ، فتضع نفسك بين يديه يفحصك ويُشخِّص مرضك ، ويكتب لك الدواء ، فلا تعارضه فى شىء ، ولا تسأله لماذا كتب هذا الدواء .

فإذا سألك زائر مثلاً : لماذا تأخذ هذا الدواء ؟ لا تقول : لأن من خصائصه كذا ، ومن تفاعلاته كذا ، إنما تقول : لأن الطبيب وصفه لى ، مع أن الطبيب بشر قد يخطىء ، وقد يكتب لك دواءً ، أو يعطيك حقنة ترديك ، ومع ذلك تُسلِّم له بما يراه مناسباً لك ، فإذا كنت

لا تناقش الطبيب وهو خطأ ، فكيف تناقش الله فيما فرضه عليك وتطلب علَّةً لكل شىء ؟

ولا يناقش فى علَل الأشياء إلا المساوى ، فلا يناقش الطبيبَ إلا طبيبٌ مثله ، كذلك يجب أنْ نُسلِّم لله تعالى بعلل الأشياء وحكمتها إلى أنْ يوجد مُسَاوٍ له سبحانه يمكن أنْ يناقشه .

والحق سبحانه يُبيِّن لنا علَّة الإيمان - لا الإيمان فى ذاته - إنما ما يترتب عليه من طاعة أوامر هذا الإله ، وعلى طاعة هذه الأوامر يترتب صلاح الكون ، بدليل أن الله يطلب من المؤمنين أنْ ينشروا الدعوة ، وأن يُبلِّغوها ، وأن يحاربوا مَنْ يعارضها ويمنعهم من نشرها .

فما شُهر السيف فى الإسلام إلا لحماية بلاغ الدعوة ، فإنْ تركوك وشأنك فدَعْهم ، بدليل أن البلاد التى فتحها الإسلام ظل بها أصحاب ديانات أخرى على دياناتهم ، وهذا دليل على أن الإسلام لم يُرغِم أحداً على اعتناقه .

لكن ما دام الإسلام قد فتح البلاد فلا بُدَّ أنْ تكون له الغَلَبة ، وأنْ يسير الجميع معه فى ظِلِّ منهج الله ، فيكون للكافرِ ولغير ذى الدين ما لصاحب الدين .

فكأن الحق سبحانه يريد لقوانينه أنْ تحكم آمنت به أو لم تؤمن ؛ لأن صلاح الكون لا يكون إلا بهذه القوانين .

إذن : فأنت حُرٌّ ، تؤمن أو لا تؤمن ، لكن مطلوب ممَّنْ آمن أنْ يحمى الدعوة فى البلاغ ، ثم يترك الناس أحراراً ، مَنْ آمن فبها ونعمت ، ومَنْ أبى نقول له : لك ما لنا ، وعليك ما علينا .

إذن : فأصل الإيمان لصلاح الخلافة ، ولا يهتم الله سبحانه بأنك تؤمن أو لا تؤمن ، ما دام منهج الخلافة قائماً ، وهذا المنهج يعود نفعه على المؤمن وعلى الكافر ، فإذا كان الإيمان يُربِّى الإنسان على ألاّ يفعل إلا خيراً وصلاحاً ، فالكافر لا بُدَّ وأن يستفيد من هذا الصلاح . وهل قال الشرع للمؤمن : لا تسرق من المؤمن ؟ لا إنما أيضاً لا تسرق من الكافر .. الخ ، فالكل أمام منهج الله سواء .

وفى القرآن آية ينبغى أنْ نتنبه لها ، ونعرف غير المؤمنين بها ، ليعلموا أن الإيمان إنما يحمى مصلحة الناس جميعاً ، إنها قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا (١٠٥) وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ .. (١٠٦) ﴾ [النساء] يعنى : إنْ خطر لك أن تكون لصالح الخائن ، استغفر الله من هذا ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا (١٠٧) ﴾ [النساء] ولو كان مؤمناً به .

ولهذه الآية قصة مشهورة هى قصة اليهودى زيد بن السمين ، وقد جاءه طعمة بن أبيريق ـ وكان مؤمناً ـ وقال : يا زيد خُذْ هذه الدرع أمانة عندك فقبله زيد ، وإذا بالدرع مسروق قد سرقه ابن أبيريق من قتادة بن النعمان[1] ووضعه فى جوال من الدقيق ، فكان على الدرع آثار الدقيق ، فلما بحث ابن النعمان عن درْعه دلّه أثر الدقيق على بيت ابن السمين اليهودى فاتهمه بسرقته .

ثم جاءوا به إلى النبى ﷺ ليحكم فى أمره ، فقصَّ عليه ما كان من أمر ابن أبيريق ، وأنه وضعه عنده على سبيل الأمانة .

---

(١) قتادة بن النعمان بن زيد الأنصارى الأوسى ، صحابى بدرى ، من شجعانهم ، كان من الرماة المشهورين ، شهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ ، وكانت معه يوم الفتح راية بنى ظفر ، وتوفى بالمدينة عام ٢٣ هـ وهو ابن ٦٥ سنة ، وهو أخو « أبى سعيد الخدرى » لأمه . (الأعلام للزركلى ٥/١٨٩) .

وعندها عَزَّ على المسلمين أن يسرق واحد منهم ، وأن يأخذها اليهود ذلّة فى حقِّهم ، وأخذ النبى ﷺ يدير الأمر فى رأسه ، فإنْ حكم علىَ المسلم أخذها اليهود حجة ، وإنْ حكم للمسلم كانت عيباً وسُبَّة فى الدين ، فأسعفه ربه بهذه الآية : ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا (١٠٥)﴾ [النساء] فقال : بين الناس لا بين المؤمنين فحسب .

ومعنى ﴿وَلا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا (١٠٥)﴾ [النساء] البعض يقولون : لا تخاصم الخائن حتى لا يضطهدك ، إنما المراد : لا تكُنْ خصيماً لصالحه . ﴿وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ .. (١٠٦)﴾ [النساء] إنْ طرأتْ عليك مسألة الإسلام وصورته بين غير المسلمين ؛ لأن الله فى مبدأ الإصلاح لا يحب كل خوَّان أثيم .

ولو أن غير المسلمين تنبهوا إلى هذه القضية ، وعلموا أن الله تعالى عدل الحكم للمؤمنين ، وأعلنه لرسول الله ، وقرر أن الحق هو الحق ، والكل أمامه سواء المؤمن وغير المؤمن لعلموا أن الإسلام هو الدين الحق ولأقبلوا عليه ، لذلك يقول النبى ﷺ : « من عادى ذمياً فأنا خصيمه يوم القيامة »[(١)] .

لأنك إنْ عاديتَه واضطهدته أو هددتْه فى حياته ، أو فى عِرْضه ، أو فى ماله لصارتْ حجة له فى ألاَّ يؤمن ، وله أنْ يقول : إذا كان هذا هو حال المؤمنين ، فما الميزة فى الإسلام حتى أعتنقه ؟ بل من مصلحتى أنْ أبتعد عنه ، لكن إنْ عاملتَه بالحق وبالخير والحسنى

---

(١) أخرج أبو داود فى سننه (٣٠٥٢) عن عدة من أبناء أصحاب رسول الله ﷺ عن آبائهم عن رسول الله ﷺ قال : « ألا من ظلم معاهداً أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة » . قال السخاوى فى المقاصد الحسنة : سنده لا بأس به ، ولا يضر جهالة من لم يُسمَّ من أبناء الصحابة ، فإنهم عدد منجبر به جهالتهم .

لعطفته إلى الإسلام ، وجعلته يُؤنِّب نفسه ألاَّ يكون مسلماً .

لذلك سبق أنْ قُلْنا : إن سيدنا إبراهيم - على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام - جاءه رجل فاشتمَّ منه أنه غير مسلم ، فلما سأله قال : أنا مجوسى فردَّ الباب فى وجهه ، فانصرف الرجل ، وإذا بإبراهيم - عليه السلام - يتلقى الوحى من الله : يا إبراهيم لم تقبل أنْ تُضيِّفه لأنه على غير دينك ، وأنا قبلته طوال عمره فى مُلْكى وهو كافر بى .

فأسرع إبراهيم خلف الرجل حتى لحق به واسترضاه ، فقال الرجل : وماذا جرى لقد طردتنى ونهرتنى منذ قليل ؟ فقال : إن ربى عاتبنى فى أمرك ، فقال الرجل : إنَّ رباً يعاتب أنبياءه بشأن أعدائه لحقيق أن يُعبد . لا إله إلا الله ، إبراهيم رسول الله .

إذن : نفهم من هذا أن العمل الصالح هو مطلوب الإيمان ، وإذا آمنتَ بإله لتأخذ الحكم منه وأنت مطمئن أنه إله حق ، فلا يهم بعد ذلك أنْ تؤمن أو لا تؤمن ، المهم قاعدة الصلاح فى الكون وفى حركة الحياة ؛ لذلك لم يقل ومَنْ آمن فله إيمانه ، كأن المراد بالإيمان العمل ﴿ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ (٤٤) ﴾ [الروم] لأنه لا يعمل صالحاً إلا إذا كان مؤمناً .

ونلحظ هنا أن الآية تتحدث عن صيغة المفرد : ﴿ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا .. (٤٤) ﴾ [الروم] ثم يتحول إلى صيغة الجمع ﴿ فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ (٤٤) ﴾ [الروم] ولم يقُلْ : فهو يمهد لنفسه ، فلماذا ؟

قالوا : لأن الذى يعمل الصالح لا يعمله لذاته ، إنما له ولذريته من بعده ، كما جاء فى قوله سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ .. (٢١) ﴾ [الطور] إذن : ساعةَ تكلم عن الإيمان جاء بالمفرد ، وساعةَ تكلم عن الجزاء جاء بصيغة الجمع .

كما أن العمل الصالح يأتى من ذات الإنسان ، ويستقبله هو من غيره ، وكلمة (مَنْ) هنا تصلح للمفرد وللمثنى وللجمع بنوعيه ، وتحل محلَّ جميع الأسماء الموصولة تقول : من جاءك فأكرمه ، ومَنْ جاءتك فأكرمها ، ومَنْ جاءاك فأكرمهما ، ومَنْ جاءوك فأكرمهم .. الخ . كذلك فى هذه الآية استعمل مَنْ للدلالة على المفرد ، وعلى الجمع .

وتأمَّل قوله تعالى : ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ .. (٦١)﴾ [النور] وهل يُسلِّم الإنسان على نفسه ؟ قالوا : نعم لأن المؤمنين شىء واحد ، إذا سلَّمْتَ على أحدهم فكأنك سلَّمت على الجميع ، وأيضاً إذا قُلْت لصاحبك السلام عليكم يردُّ عليك : وعليكم السلام ، فكأنك سلَّمْتَ على نفسك .

ومعنى ﴿يَمْهَدُونَ (٤٤)﴾ [الروم] مأخوذة من المهْد ، وهو فراش الطفل ، والطفل لا يُمَهده ولا يُسوِّيه ويُهيِّئه ، ولا بُدَّ له من صدر حنون يُسوِّى له مهده ، ويفرشه ويُعده ، فكأن الذى يعمل الصالح فى الدنيا يُمهِّد لنفسه فراشاً فى الآخرة ، كما يحكى أبو منصور بن حازم عن أبى عبد الله بن الحسين يقول : العمل الصالح يسبق صاحبه إلى الجنة ليمهد له فراشه ، كما يمهد الخادم لأحدكم فراشه .

لذلك سبق أن قلنا : إن الذين يؤثرون على أنفسهم يؤثرون من الفانية ليُدَّخر لهم فى الباقية ، وسيدنا رسول الله ﷺ حينما أُهديت له الشاة ، وعاد ليسأل أم المؤمنين عائشة عنها فقال لها : « ماذا صنعت بالشاة ؟ » . فقالت : ذهبتْ كلُّها إلا كتفها ، يعنى : تصدَّقَتْ بها إلا كتفها ، فقال سيدنا رسول الله : « بل ، بقيت كلها إلا كتفها »[1] .

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٦/٥٠) ، والترمذى فى سننه (٢٤٧٠) من حديث عائشة ، قال الترمذى : حديث صحيح .

وفى حديث آخر : « يا بْن آدم ، تقول : مالى مالى ، وهل لك من مالك إلا ما لبسْتَ فأبليتَ ، أو أكلتَ فأفنيتَ ، أو تصدَّقْتَ فأبقيتَ »[(١)] .

والإمام على رضى الله عنه يسأله أحدهم : أنا من أهل الدنيا ، أم من أهل الآخرة ؟ فقال الإمام : الجواب عندك أنت ، فقال : كيف ؟ قال : هَبْ أنه دخل عليك شخص بهدية ، وآخر يطلب منك صدقة فلأيِّهما تبشُّ؟ إنْ كنت تبش لصاحب الهدية فأنت من أهل الدنيا وإن كنت تبشّ لطالب الصدقة فأنت من أهل الآخرة .

ذلك لأن الإنسان يحب ما يعمر له محبوبه ، فإنْ كان من أهل الدنيا يحب ما يعمرها له ، وإنْ كان من أهل الآخرة يحب مَنْ يعمر له آخرته .

ثم يعلل الحق سبحانه لماذا يمهدون لأنفسهم :

﴿ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾

وذكر هنا الإيمان فقال ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا .. ﴿٤٥﴾ ﴾ [الروم] ثم ﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ .. ﴿٤٥﴾ ﴾ [الروم] حتى لا يظن أحد أن العمل الصالح ربما يُغنى عن الإيمان . وهذه مسألة شغلتْ كثيراً من الفلاسفة ، يقولون : كيف أن الرجل الكافر الذى يعمل الصالحات لا يُجازى عليها ؟

نقول له : أُجر ويُجازى على عمله الصالح لكن فى الدنيا ؛ لأنه لم يعمل لله ، بل عمل للشهرة وللصيت ، وقد أخذ منها تكريماً

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٤/٢٤ ، ٢٦) ومسلم فى صحيحه (٢٩٥٨) والترمذى فى سننه (٢٣٤٢) وصححه .

وشهرة وتخليداً لذكْراه وأقيمت لهم التماثيل .. إلخ ، أما جزاء الآخرة فلمَنْ عمل العمل لوجه الله خالصاً .

والقرآن يُنبِّهنا إلى هذه المسألة يقول : إياكم أنْ تُغَشُّوا بمن يعمل الأعمال للدنيا :

﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا (٢٣)﴾ [الفرقان]

وجاء فى الحديث : « فعلتَ ليُقال وقد قيل »[١] نعم بنيت مسجداً ، لكن كتبت عليه : بناه فلان ، وشرَّف الافتتاح فلان .. الخ فماذا تنتظر بعد ذلك ، إن ربك يريد العمل الخالص لوجهه تعالى ، كما جاء فى الحديث « ورجل تصدَّق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما فعلت يمينه »[٢] .

فقوله تعالى ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا .. (٤٥)﴾ [الروم] يدل على أن العمل الصالح إنْ كان صالحاً بحقٍّ يفيد صاحبه فى الدنيا ، لكن لا يفيده فى الآخرة إلا أن يكون صادراً عن إيمان بالله ، ثم يربط الإيمان بالعمل الصالح حيث لا يغنى أحدهما عن الآخر .

وقوله تعالى : ﴿مِن فَضْلِهِ .. (٤٥)﴾ [الروم] أى : تفضُّلاً من الله ،

---

(١) عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتى به فعرَّفه نعمه فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : قاتلت فيك حتى استشهدت . قال : كذبت ولكنك قاتلت لأن يقال : جرىء فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار ، ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن فأتى به فعرفه نعمه فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن . قال : كذبت ، ولكنك تعلَّمت العلم ليقال : عالم ، وقرأت القرآن ليقال : هو قارىء . فقد قيل ، ثم أُمر به فسُحب على وجهه حتى ألقى فى النار .. » الحديث أخرجه مسلم فى صحيحه (١٩٠٥) والنسائى فى سننه (٢٣/٦) طبعة دار الكتب العلمية ـ بيروت .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٠٣١) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ضمن حديث : « سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله » الحديث .

حتى لا ينخدع أحد بعمله ، ويظن أنه نجا به ، وهذه المسألة موضع نقاش بين العلماء يقولون : مرة يقول القرآن ﴿مِن فَضْلِهِ .. (٤٥)﴾ [الروم] ومرة يقول : ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٢)﴾ [النحل] أى : أنها حق لكم بما قدَّمتم من عمل ، فهل الجنة حق للمؤمنين أم فضل من الله ؟

ونقول : العمل الذى يطلبه الله تكليفاً من المؤمنين به يعود على مَنْ ؟ يعود على الإنسان ، ولا يستفيد الله منه بشىء ؛ لأن له تعالى صفات الكمال المطلق قبل أن يخلق الخَلْق .

لذلك قال فى الحديث القدسى : « يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك فى مُلكى قدر جناح بعوضة ، ولو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من مُلْكى قدر جناح بعوضة ، ولو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم اجتمعوا فى صعيد واحد ، فسألنى كُلٌّ مسألته فأعطيتها له ما نقص ذلك مما عندى إلا كمغرز إبرة إذا غمسه أحدكم فى بحر ، ذلك أنِّى جَوَاد ماجد واجد ، عطائى كلام ، وعذابى كلام ، إنما أمرى لشىء إذا أردتُه أن أقول له : كُنْ فيكون »[1] .

ويقول سبحانه : ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ .. (٩٦)﴾ [النحل]

إذن : فالأعمال التكليفية لخير الإنسان نفسه ، وإنْ كانت فى الظاهر تقييداً لحريته ، فهو مثلاً يريد أنْ يسرق ليزيد ماله ، فنأخذ

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٥/٧٧ ، ١٥٤) والترمذى فى سننه (٢٤٩٥) من حديث أبى ذر رضى الله عنه ، قال الترمذى : حديث حسن ، فى إسناده شهر بن حوشب ، ضعفه بعضهم وقد حسَّن البخارى حديثه وقوَّى أمره .

على يديه ، ونمنعه ونقول له : تنبَّه أننا منعناك من السرقة وأنت واحد ، ومنعنا الناس جميعاً أنْ يسرقوا منك ، فأنت إذن المستفيد من منهج الله ، فلا تنظر إلى ما أخذه منك التكليف ، ولكن انظر إلى ما أعطاك هذا التكليف من الغير .

وما دام التكليف كله فى مصلحتك ولخيرك أنت ، فإنْ أثابك الله عليه بعد ذلك فهو فضل من الله عليك ، كما تقول لولدك مثلاً : إنْ تفوقتَ سأعطيك كذا وكذا مع أنه المستفيد من التفوق ، فتكون الجائزة بعد ذلك فضلاً .

كذلك الحق تبارك وتعالى يحب عبده أنْ يتقن عمله ، وأن يجتهد فيه ؛ لذلك يعطيه مكافأة عليه مع أننا المستفيدون منه .

ويقول سبحانه : ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ .. (٢٥)﴾ [النور] فجعله حقاً عليه سبحانه ، كما قال : ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧)﴾ [الروم]

ولو بحثنا كلمة «حق» فلسفياً لوجدنا أن كل حق لك يقابله واجب على غيرك ، فلا يكون حقاً لك إلا إذا كان واجباً على غيرك ، فحقُّك هنا واجب إذن على الله تعالى ، لكن الواجب يقتضى مُوجباً فمَنْ أوجب على الله ؟ لا أحد ؛ لأنه سبحانه أوجبه على نفسه .

إذن : فالحق الذى جعله لك تفضُّلاً منه سبحانه ، والحق فى أنه جعل لك حقاً ، كالذى ليس له حق فى الميراث ، فيتفضل عليه واحد فى التركة ويجعل له وصية يكتبها له ، فتصير حقاً واجباً ، له أن يطالب الورثة به شرعاً ؛ لأن المورِّث تفضَّل وجعله حقاً له .

ثم يقول سبحانه : ﴿إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (٤٥)﴾ [الروم] نلحظ فى

الآية أنها تتحدث عن جزاء المؤمنين ، فما مناسبة ذكْر الكافرين هنا ؟ قالوا : لأن الله تعالى يريد أنْ يلفت نظر عبده الكافر إلى الإيمان ومزاياه ، كأنه يقول له : تعال إلى الإيمان لتنال هذا الجزاء .

ومثال ذلك ـ ولله المثَل الأعلى ـ رجل عنده ثلاثة أولاد وَعَدهم بهدية لكل مَنْ ينجح فى دراسته ، فجاء آخر العام ونجح اثنان ، وأخذ كل منهما هديته ، وتألم الوالد للثالث الذى أخفق وتمنى لو كان مثل أخويْه .

وكذلك الحق سبحانه لا يحب الكافرين ؛ لأنه يحب أن يكون الخَلْق جميعاً مؤمنين لينالوا جزاء الإيمان ؛ لأن الجميع عباده ، وهو سبحانه أرحم بهم من الوالدة بولدها ، وهم خلْقته وصَنْعته ، وهل رأيتم صانعاً حطم صنعته وكسرها ، إذن : فالله تعالى حريص على عباده حتى الكافر منهم .

وجاء فى الحديث القدسى : « قالت السماء : يا رب ائذن لى أن أسقط كِسَفاً على ابن آدم ، فقد طَعِم خيرك ، ومنع شكرك . وقالت الأرض : يا رب ائذن لى أنْ أخسف بابن آدم فقد طعم خيرك ومنع شكرك ، وقالت الجبال : يا رب ائذن لى أن أخرَّ على ابن آدم فقد طعم خيرك ومنع شكرك ، وقالت البحار : يا رب ائذن لى أن أُغرق ابن آدم ، فقد طَعِم خيرك ومنع شكرك . فماذا قال الرب الخالق للجميع ؟ قال : « دعونى ومن خلقتُ ، لو خلقتموهم لرحمتموهم ، إنْ تابوا إلىَّ فأنا حبيبهم ، وإنْ لم يتوبوا فأنا طبيبهم »[(١)] .

---

(١) أورده أبو حامد الغزالى فى « إحياء علوم الدين » (٤/٥٢) من قول بعض السلف ولفظه : « ما من عبد يعصى إلا استأذن مكانه من الأرض أن يخسف به ، واستأذن سقفه من السماء أن يسقط عليه كسفاً ، فيقول الله تعالى للأرض والسماء : كُفَّا عن عبدى ، وأمهلاه فإنكما لم تخلقاه ، ولو خلقتماه لرحمتماه ، ولعله يتوب إلىَّ فأغفر له ، ولعله يستبدل صالحاً ، فأبدله له حسنات» .

لذلك يفرح الله تعالى بتوبة عبده حين يعود إليه بعد إعراض ، ويضرب لنا سيدنا رسول الله مثلاً لتوضيح هذه المسألة فيقول : « لله أفرح بتوبة عبده المؤمن من أحدكم وقع على بعيره ، وقد أضله فى فلاة »[(١)] .

فالله لا يحب الكافرين لأنهم لم يكونوا أهلاً لتناول هذا الفضل ، وما ذاك إلا لأنه سبحانه مُحِبٌّ لهم حريص على أن ينالهم خيره وعطاؤه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾

هذه نِعَم خمس من نِعَم الله على عباده .

فإرسال الرياح وحدها نعمة ، وتبشيرها بالمطر نعمة ، وإجراء الفُلْك نعمة ، والابتغاء من فضل الله نعمة ، ثم الشُّكْر على هذا كله نعمة أخرى .

والآيات : جمع آية ، وهى كما قلنا : الشىء العجيب الذى يجب أنْ يلفت الأنظار ، وألاَّ يغفل الإنسان عنه طرفة عَيْن ، ومن ذلك قولنا :

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٣٠٩) وكذا مسلم فى صحيحه (٢٧٤٧) عن أنس بن مالك رضى الله عنه واللفظ للبخارى . و « وقع على بعيره » أى : صادفه وعثر عليه من غير قصد فظفر به بعد أنْ ضلَّ منه . والأرض الفلاة هى الصحراء المهلكة .

فلان آية فى الفصاحة ، أو آية فى الجمال .. إلخ .

وتُطلق الآيات ويراد بها معَان ثلاثة : آيات كونية تلفت إلى المكوِّن سبحانه ، وتثبت قدرة الخالق .

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ .. (٣٧) ﴾ [فصلت]

وآيات بمعنى المعجزات التى تصاحب الرسل ؛ لتثبت صدْقهم فى البلاغ عن الله ، ثم الآيات التى تحمل الشرع والأحكام ، وهى آيات القرآن الكريم التى تحمل إلينا منهج الله .

وهنا يتكلم الحق سبحانه عن الآيات الكونية ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ .. (٤٦) ﴾ [الروم] كلمة الرياح جمع ريح ، والرياح هنا بالمعنى العام : الهواء ، وهو أنواع : هواء ساكن ﴿ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ .. (٣٣) ﴾ [الشورى]

والهواء الساكن يضايق الإنسان ، حيث يُصعِّب عليه عملية التنفس ، فيجلب الهواء لنفسه إما بيده أو بمروحة . لماذا ؟ ليجدد الأكسوجين فى الهواء المحيط به فيستطيع التنفس ، والهواء يأتى مرة ساخناً يلفح الوجوه ، ومرة نسيماً رطباً مُنعشاً عليلاً ، ويأتى عاصفاً مدمراً .. الخ .

والحق سبحانه ـ كما سبق أنْ بينَّا ـ رتَّب مقومات حياة الخليقة فى الأرض على : الهواء ، ثم الماء ، ثم الطعام على هذا الترتيب ، وحَسْب أهمية هذه المقومات . فالهواء هو أهم مُقوِّم فى حياة الكائن الحى ، حيث لا يصبر عليه الإنسان إلا لحظة بمقدار شهيق وزفير ولو حُبس عنه لمات . ثم الماء ويصبر عليه الإنسان إلى عشرة أيام . ثم الطعام ويصبر عليه إلى شهر .

لذلك من حكمة الخالق سبحانه ألاَّ يُملِّك الهواء لأحد ، ولو ملكه أحد وغضب عليك لمتَّ قبل أنْ يرضى عنك ، أما الماء فقليل أنْ يُملكه للناس ، أما الطعام فكثيراً ما يملك ؛ لأن الإنسان يصبر عليه فترة طويلة تُمكِّنه أن يكتسبه ، ويحتال عليه ، أو لعل مالكَ الطعام يرقُّ قلبه ويعطيك.

لذلك نسمع من عبارات التهديد : والله لأكتم أنفاسه ، كأن هذه العملية هى أقسى ما يمكن فعْله ؛ لأنك قد تمنع عنه الماء أو الطعام ولا يموت ، لكن إنْ منعتَ عنه الهواء فهى نهايته ، وهى أسرع وسائل الإبادة للإنسان وأيسرها وأقلّها أثراً ، فلا يترتب عليها دم ولا جروح مجرد منديل مبلل بالماء . إذن : الهواء مُقوِّم هام حياة وإماتة .

وقلنا : إذا حُبِس الهواء أو سكن لا يتجدد فيه الأكسوجين فيتضايق الإنسان ؛ لأن أنفاسه تكتم ، أما إذا حدثت فى المكان رائحة كريهة فترى الجميع يضج : افتحوا النوافذ ، لماذا ؟ ليتجدد الهواء .

إذن : إرسال الرياح فى ذاتها نعمة ، فإذا كان فيها برودة وشعرتَ بطراوتها فهى تُبشِّرك بالمطر ؛ لذلك كان العربى يعرف المطر قبل وقوعه ويُقدِّر مسافة السحابة التى ستمطره ، إذن : فالتبشير بالمطر نعمة أخرى .

وهاتان النعمتان إرسال الرياح وإنزال المطر ، لا دخلَ للإنسان فيهما ﴿ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ .. (٤٦) ﴾ [الروم] أى : بالمطر أما فى آية الفلك ﴿ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ .. (٤٦) ﴾ [الروم] فنسب الجريان إلى الفُلْك لأن للإنسان يداً فيها وعملاً ، فهو صانعها ومُسيِّرها بأمر الله ﴿ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٤٦) ﴾ [الروم] أى : تسيرون فى البحر للصيد وطلب الرزق ، أو حتى للنزهة والسياحة .

إذن : الآية التى لا دخلَ للإنسان فيها تُنسَب إلى الله وحده ، وإنْ كان

للإنسان فيها عمل نسبها إليه ، كما في قوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ (٥٨) أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ (٥٩) نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٦٠) عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦١) ﴾ [الواقعة]

فأعطانا نعمة الحياة ، ثم ذكر ما ينقضها ، حتى لا نستقبل الحياة بغرور ، ولما كانت آية الحياة وآية الموت لا دخلَ للإنسان فيها اكتفى بهذا الاستفهام ﴿ أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ (٥٩) ﴾ [الواقعة] ولا أحدَ يستطيع أنْ يقول أنا خلقتُ .

أما في آية الحَرْث ، فنسب الحرث إلى الإنسان ؛ لأن عمله كثير في هذه الآية ، حيث يحرث ويبذر ويروى .. إلخ لذلك قال في نَقْض هذه النعمة ﴿ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا .. (٦٥) ﴾ [الواقعة] وأكدَ الفعل باللام حتى لا تغترّ بعملك في الزرع .

أما في الماء ، فلم يذكر هذا التوكيد ؛ لأن الماء نعمة لا يدَ للإنسان فيها ؛ لذلك قال في نقضها ﴿ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا .. (٧٠) ﴾ [الواقعة] بدون توكيد .

النعمة الخامسة : ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٤٦) ﴾ [الروم] وهذه النعمة هي كنز النعم كلها وعقالها ، فإنْ شكرتَ لله نعمه عليك زادك منها : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ .. (٧) ﴾ [إبراهيم]

وبعد ذلك يُسلِّي الحق سبحانه رسوله ﷺ :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧) ﴾

يعنى : يا محمد ، إنْ كنتَ تعبت فى الدعوة ، ولقيت من صناديد قريش عنتاً وعناداً وإيذاءً ومكراً وتبييتاً ، فنحن مع ذلك نصرناك ، وخُذْ لك أسوة فى إخوانك من الرسل السابقين ، فقد تعرَّضوا لمثل ما تعرضتَ له ، فهل أسلمنا رسولنا لأعدائه ؟ إذن : اطمئن ، فلن ينال هؤلاء منك شيئاً .

ومعنى ﴿فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ .. (٤٧)﴾ [الروم] أى : الآيات الواضحات التى تثبت صدقهم في البلاغ عن الله ، ومع ذلك لم يؤمنوا وكذَّبوا ﴿فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا .. (٤٧)﴾ [الروم] وهنا إيجاز لأمر يُفهم من السياق ، فلم يقُل القرآن أنهم كذبوا ، إنما جاء بعاقبة التكذيب ﴿فَانتَقَمْنَا .. (٤٧)﴾ [الروم]

وهذا الإيجاز واضح فى قصة هدهد سليمان ، فى قوله تعالى : ﴿اذْهَب بِّكِتَابِي هَـٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ (٢٨)﴾ [النمل] ثم أتبعها مباشرة : ﴿قَالَتْ يَـٰأَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (٢٩)﴾ [النمل] وحذف ما بين العبارتين من أحداث تُفهَم من السياق ، وهذا مظهر من مظاهر بلاغة القرآن الكريم .

وتكذيب الأمم السابقة للآيات التى جاءتهم على أيدى الرسل دليل على أنهم أهل فساد ، ويريدون أن ينتفعوا بهذا الفساد ، فشىء طبيعى أنْ يعاندوا الرسل الذين جاءوا للقضاء على هذا الفساد ، وأنْ يضطهدوهم ، فيغار الله تعالى على رسله ﴿فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا .. (٤٧)﴾ [الروم]

ثم يقرر هذه القضية : ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧)﴾ [الروم] وما كان الله تعالى ليرسل رسولاً ، ثم يُسلمه لأعدائه ، أو يتخلى عنه ؛ لذلك قال سبحانه فى موضع آخر : ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ

كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) ﴾ [الصافات]

وسبق أنْ قُلْنا : لا ينبغى أن تبحث فى هذه الجندية : أصادق هذا الجندى فى الدفاع عن الإسلام أم غير صادق ؟ إنما انظر فى النتائج ، إنْ كانت له الغلبة فاعلم أن طاقة الإيمان فيه كانت مخلصة ، وإنْ كانت الأخرى فعليه هو أن يراجع نفسه ويبحث عن معنى الانهزام الذى كان ضد الإسلام فى نفسه ، لأنه لو كان من جُنْد الله بحق لتحقق فيه ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) ﴾ [الصافات] ولا يُغلب جند الله إلا حين تنحلّ عنهم صفة من صفات الجندية .

وتأمل مثلاً ما حدث فى غزوة أحد ، حيث انهزم المسلمون - وإنْ كانت كلمة الهزيمة هنا ليست على سبيل التحقيق لأن المعركة كانت سجالاً ، وقد انتصروا فى أولها ، لكن النهاية لم تكُنْ فى صالحهم ؛ لأن الرماة خالفوا أمر رسول الله[1] ، والهزيمة بعد هذه المخالفة أمر طبيعى .

وهل كان يسرُّك أيها المسلم أنْ ينتصر المسلمون بعد مخالفتهم أمر رسولهم ؟ والله لو انتصروا مع مخالفتهم لأمر رسولهم لهانَ كل

---

(١) أخرج البيهقى فى دلائل النبوة (٣/٢٠٩) عن موسى بن عقبة فى حديث طويل « أن رسول الله ﷺ أمر خمسين رجلاً من الرماة فجعلهم نحو خيل العدو ، وأمَّر عليهم عبد الله ابن جبير ، وقال لهم : أيها الرماة إذا أخذنا منازلنا من القتال فإن رأيتم خيل المشركين تحركت وانهزم أعداء الله فلا تتركوا منازلكم ، إنى أتقدم إليكم أن لا يُفارقن رجل منكم مكانه واكفونى الخيل ، فوعظ إليهم فأبلغ ، ومن نحوهم كان الذى نزل بالنبى ﷺ يومئذ والذى أصابه .. فلما أبصر الرماة الخمسون أن الله عز وجل قد فتح لإخوانهم ، قالوا : والله ما نجلس ها هنا لشىء ، قد أهلك الله العدو وإخواننا فى عسكر المشركين ، وقال طوائف منهم : علام نُصفُّ وقد هزم الله العدو ، فتركوا منازلهم التى عهد إليهم النبى ﷺ ألا يتركوها وتنازعوا وفشلوا وعصوا الرسول » . الحديث .

أمـر لرسول الله بعـدها ، ولقـالوا : لقد خـالفنا أمـره وانتصـرنا . إذاً فمعنى ذلك أن المسلمـين لم ينهزموا ، إنما انهزمت الانهزامـية فيهم ، وانتصر الإسلام بصِدْق مبادئه .

كذلك فى يوم حنين الذى يقـول الله فيه ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ .. (٢٥)﴾ [التوبة] حـتى أن الصِّديق نفـسه يقـول : لن نُغلَب اليـوم عن قلة ، فـبدأت المـسـألة بالهزيـمة ، لكن الأمـر كـما تقـول (صـعـبوا على ربـنا) فأنزل الـسكينة عليـهم ، وشـاء سبـحـانه أن يسامحهم فى هذه الزلَّة مراعاة لخاطر أبى بكر .

فقوله تعالى ﴿وَكَانَ حَقًّا[1] عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧)﴾ [الروم] نعم ، نصر المؤمنين حَقٌّ على الله ، أوجبه سبـحانه على نفسه ، فهو تفضُّل منه سبحانه ، كما يتفضل الموصِى بماله على الموصَى له .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٨)﴾

الحق سبحـانه يعطينا هنا مذكرة تفـصيلية لعمليـة حركة الرياح ، وسَوْق السـحاب ، وإنزال المطر ، وكلـمة الرياح إذا جُمِـعَتْ دلَّتْ على الخير كما فى قوله تعالى : ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ .. (٢٢)﴾ [الحجر]

---

(١) قال القـرطبى فى تفسيـره (٧/٥٣٠٠) : « كان أبو بكر يقف على « حقـا » أى : وكان عقابنا حقاً ، ثم قال : « علينا نصر المـؤمنين » ابتداء وخبر ، أى : أخبرنا به ولا خُلْف فى خبرنا » .

أى : تُلقِّح النباتات فتأخذ من الذكَر ، وتضع فى الأنثى ، فيحدث الإثمار ، ومن عجيب هذه العملية أن ترى الذكر والأنثى فى العود الواحد كما فى نبات الذرة مثلاً ، ففى (الشُّوشة) أعلى العود حبات اللقاح الذكر ، وفى الشعيرات التى تخرج من الكوز متصلة بالحبات توجد أعضاء الأنوثة ، ومع حركة الرياح تتناثر حبات اللقاح من أعلى وتنزل على هذه الشعيرات ، فتجد الشعيرة التى لُقحت تنمو الحبة المتصلة بها ، أما الأخرى التى لا يصلها اللقاح فتموت .

ولذلك نلحظ أن العيدان التى فى مهبِّ الريح أو ناحية بحرى أقلّ محصولاً من التى تليها ، لماذا ؟ لأن الرياح تحمل حبَّات لقاحها إلى العيدان الأخرى التى تليها ، فيزداد محصولها .

فإذا كانت بعض النباتات نعرف فيها الذكر من الأنثى كالنخيل . والجميز مثلاً ، فأين الذكر والأنثى فى القمح ، أو فى الجوافة ، أو فى الموز .

ولما درسوا حبوب اللقاح هذه وجدوا أن كل حبة مهما صَغُرت فيها أهداب دقيقة مثل القطيفة تتناثر مع الرياح ، ويحملها الهواء إلى أماكن بعيدة ؛ لذلك ترى الجبال والصحراء تخضرّ بعد نزول المطر ، فمَنْ بذر فيها هذه البذور ؟ إنها الرياح اللواقح بقدرة الخالق عز وجل .

ولنا وَقْفة عند قوله تعالى : ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ .. (٣٣)﴾ [الشورى] أى : السفن التى تسير بقوة الرياح تظل راكدة على صفحة الماء لا يحركها شىء ، فإنْ قُلْت : كيف نفهم هذا المعنى الآن مع تقدم العلم الذى سيَّر السفن بقوة البخار والديزل أو الكهرباء ، واستغنى عن الرياح ؟

ونقول : الرياح من معانيها الهواء ، وهي أيضاً تعنى القوة مطلقاً ، كما فى قوله تعالى : ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ .. (٤٦)﴾ [الأنفال] أى : قوتكم ، فالريح تعنى القوة على أىِّ وضع ، سواء أسارتْ بالرياح أو بالآلة ، فهو سبحانه قادر على أنْ يُسكنها .

لذلك تجد أن الرياح بمعنى القوة لها قوة آنية ، وقوة آتية ، آنية يعنى الآن ، وآتية تأتى فيما بعد ، وكذلك كل إنسان وكل شىء فى الكون له نَفَس وريح وكيماوية خاصة به تميزه عن غيره وهذه مهمة كلاب البوليس التى تشم رائحة المتهمين والمجرمين فى قضايا المخدرات مثلاً ، فالشخص له رائحة الآن وهو موجود ، وله رائحة تظلّ فى المكان حتى بعد أنْ يفارقه .

لذلك يُعلِّمنا القرآن أن الريح هو أثبت الآثار فى الإنسان ، واقرأ فى ذلك قوله تعالى عن يوسف ويعقوب عليهما السلام : ﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَـٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا .. (٩٣)﴾ [يوسف]

وكان يوسف فى مصر ، ويعقوب فى أرض فلسطين ، فلما فصلت[1] العير بقميص يوسف ، وخرج من نطاق المبانى التى ربما حجزتْ الرياح ، قال يعقوب ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ .. (٩٤)﴾ [يوسف] على بُعْد ما بينهما من المسافات[2] .

---

(١) فصل عن المكان : جاوزه . فالعير خرجت وجاوزت المدينة . [القاموس القويم ٢/٨٣] .

(٢) للعلماء فى تقدير هذه المسافة أقوال :

- عن ابن عباس عدة أقوال : مسيرة ثمانية أيام ـ عشرة أيام ـ مسيرة ثمانين فرسخاً ـ مسيرة ستة أيام .
- عن الحسن البصرى أنها مسيرة شهر .
- وعن محمد بن كعب ـ أنها مسيرة سبعة أيام . [ذكر السيوطى هذه الأقوال فى « الدر المنثور فى التفسير بالمأثور » (٤/٥٨١)] وعلى قول ابن عباس أنه مسيرة ثمانين فرسخاً ، يكون معنى هذا أن المسافة هى أكثر من ٤٠٠ كيلو متر . على أساس أن الفرسخ ثلاثة أميال على الأقل ، والميل ١٧٦٠ متراً . والله تعالى أعلم .

وإذا أُفردت الرياح دلَّتْ على الشر ، ومعنى الرياح أن تأتى ريح من هنا وريح من هنا .. فتأتيك بالأكسوجين أينما كان ، وتحمل إليك عبير العطور فى الكون ، فهى إذن تأتيك بالفائدة .

وقلنا : إن الأشياء الثابتة اكتسبتْ الثبات من وجود الهواء فى كُلِّ نواحيها وجهاتها ، ولو فرَّغْتَ الهواء من ناحية من نواحى إحدى العمارات لانهارتْ فى الحال ، كذلك الريح إنْ جاءت مفردة فهى مدمرة ، وفيها العطب كما فى قوله تعالى : ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ (٤١)﴾ [الذاريات]

وقال : ﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (٦)﴾ [الحاقة]

فقوله تعالى : ﴿اللَّهُ الَّذِى يُرْسِلُ الرِّيَاحَ .. (٤٨)﴾ [الروم] فإرسال الرياح فى ذاته نعمة ﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا .. (٤٨)﴾ [الروم] إثارة السحاب أى : تهيجه وتحركه ، وهذه نعمة أخرى .

والسحاب عبارة عن الماء المتبخِّر من الأرض ، وتجمُّع بعضه على بعض فى طبقات الجو ، وماء المطر ماء مُقطر بقدرة الله ، كما نُجرى نحن عملية التقطير فى المعامل مثلاً ، فيأتينا المطر بالماء العَذْب النقى الزلال الذى قطرته لنا عناية الخالق سبحانه دون أنْ ندرى .

وإذا كان تقطير كوب واحد يحتاج إلى كل هذه العمليات ، وكل هذه التكلفة ، فما بالك بماء المطر ؟

وسبق أنْ قُلْنا : إن من حكمة الخالق سبحانه أنْ جعل ثلاثة أرباع اليابسة ماء لتتسع رقعة البَخْر ليكفى الربع الباقى ، وضربنا لتوضيح ذلك مثلاً بكوب الماء حين تتركه على المنضدة مثلاً ، وحين تسكبه

فى أرض الغرفة ، ففى الحالة الأولى يظل الماء فترة طويلة ؛ لأن البَخْر قليل ، أما فى الأخرى فإنه سرعان ما يتبخر .

ثم يقول سبحانه : ﴿فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ .. (٤٨)﴾ [الروم] وانظر إلى طلاقة المشيئة ، فالمطر يصرفه الله كيف يشاء إلى الأماكن التى تحتاج إلى مطر ، ومن العجيب أن الله تعالى حين يريد أن يرزق إنساناً ربما يرزقه من سحاب لا يمر على بلده ، وانظر مثلاً إلى النيل ، من أين يأتى ماؤه ؟ وأين سقط المطر الذى يروى أرض النيل من أوله إلى آخره ؟

ومعنى ﴿وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا .. (٤٨)﴾ [الروم] كسفاً : جمع كِسْفة ، وهى القطعة ﴿فَتَرَى الْوَدْقَ .. (٤٨)﴾ [الروم] المطر ﴿يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ .. (٤٨)﴾ [الروم] أى : من بين هذه السحب .

﴿فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٨)﴾ [الروم] والإصابة قد تكون مباشرة ، فيهطل المطر عليهم مباشرة ، وقد تكون غير مباشرة بأنْ تكون الأرض منحدرة ، فينزل المطر فى مكان ويسقى مكاناً آخر ، بل ويحمل إليه الخصْب والنماء ، كما كان النيل فى الماضى يحمل الطمى من الحبشة إلى السودان ومصر .

وكان هذا الطمى يستمر مع الماء طوال مجرى النيل وإلى دمياط ، فلماذا لم يترسب طوال هذه المسافات ؟

لم يترسب بسبب قوة دفع الماء وشدة انحداره ، بحيث لا يستقر هذا الطمى ولا يترسب .

وقوله : ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٨)﴾ [الروم] لأن الرياح حين تمر عليهم تُبشِّرهم بالمطر ، وحين ينزل المطر يُبشِّرهم بالزرع والنماء والخِصْب والخير ، كما قال تعالى : ﴿وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا

عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ [الحج]

وأذكر وأنا صغير وبلدنا على النيل ، والنيل من أمامها متسع ، وبه عدة جزر يزرعها الناس ، فأذكر أننا كنا نزرع الذرة ، وجاء الفيضان فأغرقه وهو ما يزال أخضر لم ينضج بَعْد ، وكان الناس يذهبون إليه ويجمعونه بالقوارب ، ورأيت النساء تزغرد والفرحة على الوجوه ، فكنت أسأل أبى رحمه الله : النيل أغرق الزرع ، فلماذا تزغرد النساء ؟

فكان والدى يضحك ويقول : تزغرد النساء لأن النيل أغرق الزرع ، وهذا هو مصدر الخير ، وسبب خصوبة الأرض ، فلما كبرتُ وقرأت قصيدة أحمد شوقى[1] رحمه الله فى النيل :

مِنْ أىِّ عَهْدٍ فى القُرَى تتدفَّقُ ... وبأىِّ كَفٍّ فى المدائن تُغدِق

الماءُ تُرسِلُه فيصبح عَسْجداً[2] ... والأرضُ تُغرِقُها فيحيَا المغرَق

لما قرأتُ هذه القصيدة عرفت لماذا كانت النساء تزغرد حين يُغرق النيلُ الزرعَ .

والاستبشار لنزول المطر يأتى على حسب الأحوال ، فإن جاء بعد يأس وقحط وجفاف كانت الفرحة أكبر ، والاستبشار أبلغ حيث يأتى المطر مفاجئاً ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [الروم] أما إنْ جاء المطر فى

---

(١) هو : أحمد شوقى بن على بن أحمد شوقى ، أشهر شعراء العصر الأخير ، يلقب بأمير الشعراء ، ولد ١٨٦٨ م بالقاهرة وتوفى ١٩٣٢ م عن ٦٤ عاماً ، نشأ فى ظل البيت المالك ، درس الحقوق واطلع على الأدب الفرنسى ، كانت حياته كلها للشعر يستوحيه من المشاهدات والحوادث ، اتسعت ثروته وعاش مترفاً فى نعمة واسعة . [الأعلام للزركلى ١/١٣٧] .

(٢) العسجد : الذهب . وقيل : هو اسم جامع للجوهر كله من الدرّ والياقوت . [لسان العرب ـ مادة : عسجد] .

الأحوال العادية فإن الاستبشار به يكون أقلَّ .

ثم يقول سبحانه :

﴿ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾

معنى ﴿ مُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الروم] آيسين من نزول المطر ، فإنْ جاءهم المطر بعد هذا اليأس كانت فرحتهم به مزدوجة ومضاعفة .

وللعلماء[1] وقفة حول هذه الآية ؛ لأنها كررتْ كلمة من قبل ، وبالتأمل نجد المعنى : من قبل أنْ ينزل عليهم ، وإنْ كانوا من قبل هذا القبل يائسين ، فهنا إذن قبلان .

ولا بُدَّ أن نفهم أن هناك إرسالاً للرياح التى تبشر بالمطر ، وهناك إنزال المطر ، فلما ينزل المطر يكون هناك قبلية له هى الإرسال ، فقبل الإرسال كان عندهم يأس ، وبعد الإرسال قالوا ربما لا تمطر .

إذن : هنا كم قبل ؟ قبل الإنزال وقبل الإرسال . فالمعنى : فهُمْ من قبله ـ أى من قبل أن ينزل المطر ـ من قبل هذا عندهم يأس .

﴿ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ﴾

---

(١) هنا أقوال ذكرها القرطبى فى تفسيره (٥٣٠١/٧) :

- عند الأخفش : هذا تكرار معناه التأكيد . وأكثر النحويين على هذا القول . قاله النحاس .
- وقال قطرب : إن « قبل » الأولى للإنزال والثانية للمطر . أى : وإن كانوا من قبل التنزيل من قبل المطر .
- وقيل : المعنى : من قبل السحاب من قبل رؤيته . واختار هذا القول النحاس .

كأن الحق سبحانه أراد أنْ يستدلَّ بالمحَسِّ المنظور فى الكون على ما يريد أنْ يخبرنا به من الغيب من أمور البعث والآخرة ؛ لذلك يعلل بقوله : ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾ [الروم] فذكر مع الأرض الفعل المضارع يحيى ، والفعل المضارع يدل على التجدد والاستمرار وهذه عملية مُحسَّة لنا .

أما فى إحياء الموتى فجاء بالاسم محيى ، والاسم يفيد ثبوت الصفة ؛ ليؤكد إحياء الموتى ، ومعلوم أن الموت لا يشك فيه أحد ؛ لأنه مُشَاهد لنا ، أما البعث فهو محلٌّ شكٍّ لدى البعض لأنه غيب .

ومع ذلك يقول تعالى عن الموت : ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾﴾ [المؤمنون] ، فيؤكد هذه القضية مرة بإنْ ، ومرة باللام ، والموت شىء واقع لا ننكره ، فلماذا كل هذا التأكيد ؟

قالوا : نعم هو واقع لا نشك فيه ، لكنه واقع مغفول عنه ، فكأن الغفلة عنه كالإنكار ، ولو كنتم متأكدين منه ما غفلتم عنه .

فلما ذكر البعث قال : ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾﴾ [المؤمنون] فأكدها بمؤكد واحد ، مع أنه محلُّ شكٍّ ، فكأنه لما قامت الأدلة عليه كان ينبغى ألاَّ يشك فيه ؛ لذلك لم يؤكده كما أكَّد الموت ، ولما غفلنا عن الأدلة كان واجباً أنْ يُؤكِّد الموت ، فأكَّد الموت ، ولم يؤكد البعث .

ومعنى ﴿فَانظُرْ .. ﴿٥٠﴾﴾ [الروم] الأمر بالنظر هنا ليس (فنطزية) ولا (للفرجة) أو التسلية ، لأننا نقول : هذا الأمر فيه نظر يعنى : محلاً للبحث والتقصى لنصل إلى وجه الحق فيه ، بترجيح بعض الأدلة على بعض .

إذن : (فانظر) أى : نظر اعتبار وتأمل ؛ لأننا نريد أن نقيس الغائب عنا والذى نريد أن نخبر به من أمور الآخرة بالمنظور لنا من إحياء الأرض بعد موتها .

ففى الآية دليل جديد من أدلة قدرة الحق ووحدانيته ، وهو دليل كونى نراه جميعاً ، والحق سبحانه يُلوِّن الأدلة ليلفت المخلوق إلى عظمة الخالق ليؤمن به إلهاً واحداً قاهراً قيوماً مقتدراً ، وهذه الأدلة حجة تضىء العقل ، وآيات فى الكون تبرهن على الصِّدق ، وأمثال يضربها للناس فى الكون وفى أنفسهم ، ووعد لمن آمن ، ووعيد لمن خالف .

وهنا أيضاً دليل كونى مشهود فى الكون ، فالذى أحيا الأرض الميتة كما تشاهدون (لمحى الموتى) فى الآخرة كما يخبركم ، وجاء بصيغة اسم الفاعل الدال على ثبوت صفة الإحياء قبل أنْ يُحيى ، كما نقول : فلان شاعر فلم يكتسب هذه الصفة لأنه قال شعراً ، إنما هو شاعر قبل أن يقول ، كذلك الخالق سبحانه (محى) قبل أن يوجد منه الفعل ، وقادر قبل أنْ يخلق مقدوراً له ، وخالق قبل أنْ يخلق خَلْقاً ، فبالصفة فيه سبحانه خلق .

ولكى نُقرِّب الشبه بين إحياء الأرض بالنبات وإحياء الموتى يوم القيامة نقول : لو نظرنا إلى الإنسان لوجدنا هذا الهيكل الضخم الذى يزن إلى مائة كيلو أو يزيد ، أصل تكوينه ميكروب لا يُرَى بالعين المجردة ، حتى قالوا : إن أنسال العالم كله من الحيوان المنوى يمكن أنْ توضع فى حجم كستبان الخياطة ، إذا ملىء نصفه من المنى ، ثم يأخذ هذا الحيوان المنوى من الغذاء من الرزق فينمو ويكبر فى الحجم فقط ، لكن تظل الشخصية كما هى .

فإذا مات الإنسان يبلَى هذا الجسد ، ويتحلل إلا عظمة الذنب ، فتبقى لا تتحلل ولا تأكلها الأرض لتكون هى البذرة التى تنبت الإنسان بقدرة الله يوم القيامة ؛ لذلك جاء فى حديث إحياء الموتى يوم القيامة : « فينبتون كما ينبت البقل »[١]

ففى هذه العظمة الصغيرة كل صفات الإنسان وخصائصه ، ومنها يعود كما كان قبل الموت ، كما نرى حبة السمسم مثلاً ، فهى رغم صغَرها إلا أنها تحمل كل خصائص هذا النبات كلها ، إذن : صِغَر الحجم دليل على القدرة ، فإذا ما وضعت هذه الحبة الصغيرة فى البيئة المناسبة تأخذ الغذاء من التربة ومن الهواء وتنمو وتكبر ، وهذا النمو وهذا الكبر لا يعطى شخصية جديدة إنما الشخصية ثابتة ، إنما يعطى تكبيراً لها فحسب .

لذلك لما شرَّحوا الأرنب وجدوه صورة طبق الأصل من تشريح الإنسان ، بمعنى أن فيه كل جوارح الإنسان وكل أجهزته ، حتى البعوضة فى حجمها الضئيل فيها كل الأجهزة ، لكن أين جهازها الهضمى وجهازها الدموى وجهازها العصبى والسمبتاوى والبولى .. الخ ، فدقَّة هذه المخلوقات دليل على القدرة .

وفى حضارتنا الحالية نجد أن من علامات التقدم العلمى أنْ نُصغِّر الكبير إلى أقصى درجة ممكنة ، وانظر مثلاً إلى الراديو أول ما

---

(١) أخرج البخارى فى صحيحه (٤٩٣٥) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٩٥٥) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « ما بين النفختين أربعون ، قال : أربعون يوماً ؟ قال : أبيت ، قال : أربعون شهراً ، قال : أبيت ، قال : أربعون سنة ؟ قال : أبيت . قال : ثم يُنزل الله من السماء ماء ، فينبتون كما ينبت البقل ، ليس من الإنسان شىء إلا يبلى ، إلا عظماً واحداً وهو عُجْب الذنب ، ومنه يُركب الخلق يوم القيامة » .

اخترعوه كان فى حجم النورج ، أما الآن فهو فى حجم علبة الكبريت.

إذن : فالعظمة أن تضع كل الأجهزة فى هذا الحجم الصغير ، أو تجعلها كبيرة فوق العادة وفوق القدرة ، كما فى ساعة « بج بن » مثلاً .

لذلك نرى الخالق سبحانه خلق الشىء الدقيق المتناهى فى الصِّغَر ، بحيث لا يُدرك بالعين المجردة ، ومع ذلك يحتوى على كل خصائص الشىء الكبير ، وخلق من المخلوقات الضخم الذى لا تستطيع أنْ تحدَّه .

إذن : حينما ينمو الشىء لا يزداد خصائص جديدة ، إنما تكبُر عنده نفس الخصائص ونفس المشخَّصات الأصلية فيه .

وسبق أنْ قُلْنا : لو أن إنساناً يزن مثلاً مائة كيلو أصابه مرض والعياذ بالله أفقده نصف وزنه ، نقول : أين ذهب هذا النقص ؟ ذهب إلى فضلات نزلتْ منه ؛ لأن الإنسان ينمو حينما يكون الداخل إليه من الغذاء أكثر من الخارج منه من الفضلات ، فإنْ تساوى يقف عند حَدٍّ معين لا يزيد ولا ينقص .

فإذا سخر الله لهذا المريض طبيباً يداويه ، فإنه يستعيد عافيته إلى أنْ يعود إلى وزنه الطبيعى مائة كيلو كما كان ، فهل عاد إليه ما فقده فى نقص الوزن ، أم عاد إليه مثله من عناصر الغذاء والتكوين ؟ عاد إليه مثل الذى فقده . إذن : فالشخصية هى هى باقية لا تتغير مع النقص أو الزيادة .

كذلك فالشخصية أو الخصائص موجودة فى هذا الميكروب الدقيق أو فى هذه الحبة الصغيرة ، إلى أنْ تُوضع فى بيئتها المناسبة ،

فتعطى نفس الشخصية أو نفس الخصائص لنوعها ، حتى قالوا : إن قدماء المصريين وضعوا مع الموتى بعض الحبوب ، وحفظوها طوال آلاف السنين ، بحيث إذا وُضِعت الحبة منها فى التربة المناسبة فإنها تنبت .

فإذا كان الإنسان يستطيع أن يستنبت الحبة بعد بضعة آلاف من السنين ، أيكون عزيزاً على الله أنْ يستنبت بذرة الإنسان ، ويُحيى الذرة الباقية منه فى الأرض حين ينزل عليها المطر بأمره تعالى يوم القيامة ؟

ثم إن الحبة الواحدة التى يستنبتها الإنسان تعطيه آلافاً من نوعها ، أما بذرة الإنسان والذرة الباقية منه فتعطى شخصاً واحداً لا غير ، أيصعب هذا على القدرة الإلهية ؟

لذلك يحثُّنا الحق سبحانه على التأمل فى قوله ﴿فَانظُرْ .. ﴿٥٠﴾﴾ [الروم] لا نظر عين ، ولكن نظر تأمُّل وتعقُّل واستنباط ، وربنا ينعى علينا الغفلة فى التأمل ، فيقول سبحانه : ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [يوسف]

ونسمى الجدل لإظهار الحقائق (مناظرة) ، يناظر كل منَّا الآخر ، لا نظرَ عين ، ولكن نظر عَقْل واستنباط .

﴿فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ .. ﴿٥٠﴾﴾ [الروم] أى : الذى أحياها ﴿لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ .. ﴿٥٠﴾﴾ [الروم] وما دام قد ثبتتْ له صفة الإحياء ، فإذا أخبرك بأنه يُحيى الموتى ، فصدِّق وخُذْ مما شاهدته دليلاً على ما غاب عنك .

ثم يختم الحق سبحانه هذه الآية بصفة أخرى تؤكد صفة الخَلْق

والإحياء ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾ [الروم] فغير أنه سبحانه حيٌّ ومحيى له سبحانه صفات الكمال ، والقدرة على كل شىء علماً وقدرةً وحكمة وبَسْطاً وقبضاً ونفعاً وضراً .. إلخ .

فبعد أنْ ذكر الحدث فى الفعل المضارع الدال على الاستمرار ﴿يُحْيِي .. ﴿٥٠﴾﴾ [الروم] ذكر الاسم الدال على ثبوت الصفة ﴿لَمُحْيِي .. ﴿٥٠﴾﴾ [الروم] ثم جاء بكل صفات الكمال فى ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾ [الروم]

يريد الله أن يبين أن الإنسان كنود[1] ، وأنه خُلق جزوعاً ، إنْ مسَّه الشر يجزع ، وإنْ مسه الخير يمنع ، فلما كان يائساً من الهواء يهبُّ عليه أرسل الله إليه الرياح ، وبعد أنْ كان يائساً من قطرة الماء أنزل الله عليه المطر مدراراً ، فهل أخذ فى باله هذا العطاء ، بحيث إذا أصابه يأس من شىء طلب فرجه من الله ، وأزاح اليأس عن نفسه وقال : إن لى رباً ألجأ إليه ، ولا ينبغى لى أن أقنط وهو موجود ؟

فالذى فرج عليك من يأس الرياح ومن يأس المطر قادر أنْ يُفرِّج عنك كل كَرْب ؛ لذلك ينبغى أن يكون شعار كل مؤمن : لا كرْبَ وأنت ربٌّ ، ما دام لك ربٌّ فلا تهتم ولا تيأس ، فليستْ مع الله مشكلة المشكلة ألاَّ يكون لك ربٌّ تلجأ إليه .

وهذا هو الفرق بين المؤمن والكافر المؤمن له رَبٌّ يلجأ إليه إنْ عزَّتْ عليه الأسباب ، أما الكافر فما أشقاه ، فإنْ ضاقت به الأسباب لا يجد صدراً حنوناً يحتويه ، فيلجأ فى كثير من الأحوال إلى الانتحار.

لذلك كان سيدنا رسول الله ﷺ إذا حَزَبه أمر يقوم إلى الصلاة ،

---

(١) كند النعمة يكندها : جحدها ولم يشكرها فهو كانـد ، وصيغة المبالغة كنود أى : كفور شديد الجحود [القاموس القويم ٢/١٧٥] .

وكان يقول : « أرحنا بها يا بلال »[١] ففى الصلاة تختلى بربك وخالقك ، وتعرض عليه حاجتك ، وتستمد منه العون والقوة .

كذلك يُعلِّمنا هذا الدرس نبى الله موسى ـ عليه السلام ـ فحينما خرج ببنى إسرائيل وأدركه فرعون وقومه ، فوجدوا أنفسهم محاصرين ، البحر من أمامهم والعدو من خلفهم ، قالوا لموسى ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١) ﴾ [الشعراء] وهذا منطق البشر وواقع الأشياء ، لكن كان لموسى منطق آخر ينطلق فيه من وجود رَبٍّ قادر يلجأ إليه فى وقت الشدة فيفرجها عنه .

فقال موسى بملء فيه (كلا) قالها على سبيل اليقين قَوْلة الواثق من أن ربه لن يتخلى عنه ، لم يقُلْها برصيد من عنده ، إنما برصيد إيمانه فى الله ﴿ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢) ﴾ [الشعراء] وهذا هو المَفْزَع لكل مؤمن .

لِمَ لا ، وأنت إنْ كانت لديك قضية ترتاح إنْ وكَّلْتَ فيها محامياً يدافع عنك ، فما بالك إنْ وكَّلت رب الأرض والسماء ، فكان هو سبحانه المحامى والقاضى والشاهد والمنفِّذ للحكم ؟

وأنت ترى القاضى فى الدنيا يحكم ببينة قد يُدلِّس فيها ويحكم ، ويحكم بإقرار لا يستطيع أنْ ينتزعه من صاحبه ، أو بشهادة الشهود ، وقد يكونون شهودَ زور ، ثم هو بعد ذلك لا يملك تنفيذ حكمه ، فهناك سلطة قضائية تحكم وسلطة تنفيذية تنفذ ، حتى السلطة التنفيذية يستطيع المجرم أن يفلت منها .

أما فى محكمة العدل الإلهى ، فقاضيها هو الحق ـ سبحانه

---

(١) عن حذيفة قال : « كان النبى ﷺ إذا حزبه أمر صلى » أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٥/٣٨٨) وأبو داود فى سننه (١٣١٩) .

وتعالى ـ فلا يحتاج إلى بينة أو إقرار أو شهود ، ولا يستطيع أحد أنْ يُدلِّس عليه سبحانه ، أو أنْ يُفلت من حكمه ؛ لذلك قال تعالى عن نفسه : ﴿ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (٨٧) ﴾ [الأعراف]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِن بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ (٥١) ﴾

لك أن تلحظ الفرق بين أسلوب هذه الآية ﴿ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا .. (٥١) ﴾ [الروم] والآية السابقة ﴿ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ .. (٤٨) ﴾ [الروم] فيرسل : مضارع دالٌّ على الاستمرار ، والرياح كما قلنا لا تُستعمل إلا فى الخير ، فكأن إرسال الرياح أمر متوافر ، وكثيراً ما يحدث فضلاً من الله وتكرُّماً .

أما هنا ، وفى الحديث عن الريح ، وسبق أنْ قُلْنا : إنها لا تستعمل إلا فى الشر ، فلم يقُلْ يرسل ، بل اختار (إن) الدالة على الشك ، والفعل الماضى الدال على الانتهاء لماذا ؟ لأن ريح الشر نادراً ما تحدث ، ونادراً ما يُسلِّطها الله على عباده ، فمثلاً ريح السَّمُوم تأتى مرة فى السنة ، كذلك الريح العقيم جاءتْ فى الماضى مرة واحدة ، كذلك الريح الصرصر العاتية .

إذن : فهى قليلة نادرة ، ومع ذلك إنْ أصابتهم يجزعون وييأسون ، وهذا لا ينبغى منهم ، أليست لهم سابقة فى عدم اليأس حين يئسوا من إرسال الرياح ، فأرسلها الله عليهم ومن إنزال المطر فأنزله الله لهم ، فلماذا القنوط والرب موجود ؟

ومعنى ﴿ فَرَأَوْهُ .. (٥١) ﴾ [الروم] أى : رأوا الزرع الذى كان

أخضر نضراً ﴿مُصْفَرًّا .. (٥١)﴾ [الروم] أى : متغيراً ذابلاً ﴿لَّظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ (٥١)﴾ [الروم] يكفرون باليأس الذى يعزل الحق سبحانه عن الأحداث ، مع أن لهم سابقةً ، وقد يئسوا وفرَّج الله عليهم .

ذلك لأن الإنسان لا صبرَ له على البلاء ، فإنْ أصابه سرعان ما يجزع ، ولو قال أنا لى رب أفزع إليه فيرفع عنى البلاء ، وأن له حكمة سأعرفها لاستراحَ ولهانَ عليه الأمر .

ولك أنْ تسأل : لماذا قال القرآن ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا .. (٥١)﴾ [الروم] ولم يقُلْ وإن ؟ قالوا : هذه اللام الزائدة يُسمُّونها اللام الموطئة للقسم ، فتقدير الكلام : والله لئن أرسلنا ، فالواو هنا واو القسم واللام مُوطِّئة له ، وللحق سبحانه أن يقسم بما يشاء على ما يشاء ، وكل قسم يحتاج إلى جواب ، تقول : والله لأضربنَّك .

كذلك الشرط فى (إن) يحتاج إلى جواب للشرط ، والحق سبحانه هنا مزج بين القسَم والشرط فى جملة واحدة ، فإنْ قلت فالجواب هنا للقسَم أم للشرط ؟

قالوا : فطنة العرب تأبى أنْ يوجد جوابان فى جملة واحدة ، فيأتى السياق بجواب واحد نستغنى به عن الجواب الآخر ، والجواب يكون لما تقدَّم ، فإنْ تقدم القسَم فالجواب للقسم ، وإنْ تقدَّم الشرط فالجواب للشرط . وهنا ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا .. (٥١)﴾ [الروم] قدم القسم ؛ لأن التقدير : والله لئن أرسلنا ريحاً ..

وكلمة ﴿لَّظَلُّوا .. (٥١)﴾ [الروم] مأخوذة من الظل وظلَّ فعل مَاضٍ ناقص مثل بات يعنى فى البيتوتة ، وأضحى يعنى : استمر فى وقتٍ الضحى ، وأمسى فى وقت المساء ، كذلك ظلَّ أى : استمر فى الوقت الذى فيه ظِلٌّ يعنى : طوال النهار ، إذن : نأخذ الزمن من المشتق منه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾

يريد الحق سبحانه أن يُسلِّى رسوله ﷺ حتى لا يألم لما يلاقيه من قومه ، يقول له : يا محمد لا تُتعب نفسك ؛ لأن هؤلاء لن يؤمنوا ، وما عليك إلا البلاغ ، فلا تيأس لإعراض هؤلاء ، ولا تتراجع عن تبليغ دعوتك والجهاد فى سبيلها والجهر بها ؛ لأننى أرسلتك لمهمة ، ولن أتخلى عنك ، وما كان الله ليرسل رسولاً ثم يخذله أو يُسْلمه .

وقد قال تعالى لنبيه : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ ﴾ [الكهف] ولو أردتُ لجعلتُهم مؤمنين قَسراً لا يملكون أنْ يكفروا : ﴿ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴿٤﴾ ﴾ [الشعراء]

إنما أريد أنْ يأتونى طواعية عن محبة ، لا عن قهر ؛ لأننى لا أريد قوالبَ تخضع ، إنما قلوباً تخشع ، ويستطيع أىُّ بشر بجبروته أنْ يجعلَ الناسَ تخضع له أو تسجد ، لكنه لا يستطيع مهما أُوتِى من قوة أنْ يُخْضِع قلوبهم ، أو يحملهم على حُبِّه .

وهنا يقول تعالى لنبيه : ﴿ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ.. ﴿٥٢﴾ ﴾ [الروم] فجعلهم فى حكم الأموات ، وهم أحياء يُرْزَقون ، لماذا ؟ لأن الذى لا ينفعل لما يسمع ولا يتأثر به ، هو والميت سواء .

أو نقول : إن للإنسان حياتين : حياة الروح التى يستوى فيها المؤمن والكافر ، والطائع والعاصى ، وحياة المنهج والقيم ، وهذه

للمؤمن خاصة ، والتى يقول الله فيها : ﴿يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ .. (٢٤)﴾ [الأنفال]

فهو سبحانه يخاطبهم هذا الخطاب وهم أحياء ، لكن المراد هنا حياة المنهج والقيم ، وهى الحياة التى تُورِثك نعيماً دائماً باقياً لا يزول ، خالداً لا تتركه ولا يتركك .

لذلك يقول سبحانه عن هذه الحياة : ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٦٤)﴾ [العنكبوت]

لذلك سمَّى الله المنهج الذى أنزله على رسوله روحاً : ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا .. (٥٢)﴾ [الشورى] لأن المنهج يعطيك حياة باقية لا تنزوى ولا تزول .

وسمَّى الملَك الذى نزل به روحاً : ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣)﴾ [الشعراء] فالمنهج روح من الله ، نزل به روح من الملائكة هو جبريل عليه السلام على قلب سيدنا رسول الله ليحمله رسول مصطفى فيبثُّه فى الناس جميعاً ، فَيحيَوْن الحياة الآخرة .

فالكفار بهذا المعنى يحيَوْن حياة روح القالب التى يستوى فيها جميع البشر ، لكن هم أموات بالنسبة للروح الثانية ، روح القيم والمنهج .

لذلك ، إذا كان عندنا شخص شقى أو بلطجى يفسد فى المجتمع أكثر مما يصلح نقول له : أنت وجودك مثل عدمه ، لماذا ؟ لأن الحياة إذا لم تُستغل فى النافع الدائم ، فلا معنى لها .

وهنا يقول تعالى لنبيه : لا تحزن ، ولا تذهب نفسك على هؤلاء

القوم الحسرات ، فهم موتى لم يقبلوا روح المنهج وروح القيم ، وما داموا لم تدخلهم هذه الروح ، فلا أملَ فى إصلاحهم ، ولن يستجيبوا لك ، فالاستجابة تأتى ممن أصغى سمعه ، وأعمل عقله فى الكون من حوله ليصل إلى حقيقة الحياة ولغز الوجود .

وسبق أنْ قُلْنا : إنك إذا سقطتْ بك طائرة مثلاً فى صحراء ، وانقطعت عن الناس ، فلا أنيس ولا شىء من حولك ، ثم فجأة رأيتَ أمامك مائدة عليها أطايب الطعام والشراب ، فطبيعى قبل أنْ تمتد يدك إليها لا بُدَّ أنْ تسأل نفسك : مَنْ أتى بها ؟

كذلك أنت أيها الإنسان طرأتَ على كون مُعَدٍّ لاستقبالك ، ملىء بكل هذا الخير ، بالله ألاَ يستدعى هذا أنْ تسأل مَنْ أعد لى هذا الكون ؟

ثم لم يدَّعِ أحد هذا الكون لنفسه ، ثم جاءك رسول من عند الله يخبرك بحقائق الكون ، ويحل لك لغز الحياة والوجود ، لكن هؤلاء القوم لما جاءهم رسول الله أبَوْا أن يستمعوا إليه ، ولم يقبلوا الروح الذى جاءهم به .

والحق سبحانه يعرض لنا هذه المسألة فى آية أخرى : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا .. (١٦) ﴾ [محمد] وهذا يعنى أن روح المنهج لم تباشر قلوبهم .

ويردُّ الحق عليهم : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَـٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ (٤٤) ﴾ [فصلت]

فالقرآن واحد ، لكن المستقبِل للقرآن مختلف ، فواحد يسمعه بأذن

مُرْهفة وقلب واعٍ فيستفيد ، ويصل إلى حَلِّ اللغز فى الكون وفى الخَلْق ؛ لأنه استجاب للروح الجديدة التى أرسلها الله له ، وآخر أعرض .

وهؤلاء الذين أعرضوا عن القرآن إنما يخافون على مكانتهم وسيادتهم ، فهم أهل فساد وطغيان ، ويعلمون أن هذا المنهج جاء ليقيد حرياتهم ، ويقضى على فسادهم وطغيانهم ؛ لذلك رفضوه .

لذلك تجد أن الذين تصدَّوْا لدعوات الرسل وعارضوهم هم السادة والكبراء ، ألاَ تقرأ قول الحق سبحانه عن مقالتهم : ﴿إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاْ (٦٧)﴾ [الأحزاب]

إذن : لا تتعجب من أنَّ القرآن يسمعه إنسان فيقول مُستلذاً به : الله ، أعِدْ ، وآخر ينصرف عنه لا يدرى ما يقول ، والمنصرف عن القرآن نوعان : إما ينصرف عنه تكبُّراً يعنى : وعى القرآن وفهمه لكن تكبَّر على الانصياع لأوامره ، وآخر سمعه لكن لم يفهمه ؛ لأن الله ختم على قلبه .

ومهمة الداعى أنْ يتعهد المدعو ، وألاَّ ييأس لعدم استجابته ، وعليه بتكرار الدعوة له ، لعله يصادف عنده فترة صفاء وفطرة ، وخلو نفس ، فتثمر فيه الدعوة ويستجيب .

وإلا فقد رأينا من أهل الجاهلية مَنْ أسلم بعد فترة طويلة من عمر الدعوة أمثال : خالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص ، وعكرمة ، وغيرهم .

ونعلم كم كان عمر بن الخطاب كارهاً للإسلام معادياً لأهله ، وقصة ضَرْبه لأخته بعد أنْ أسلمتْ قصة مشهورة لأنها كانت سبب إسلامه ، فلما ضربها وشجَّها حتى سال الدم منها رقَّ قلبه لأخته ،

فلما قرأت عليه القرآن صادف منه قلباً صافياً ، وفطرة نقية نفضت عنه عصبية الجاهلية الكاذبة فانفعل للآيات وباشرتْ بشاشتها قلبه فأسلم[١] .

لذلك أمر الحق سبحانه رسوله ﷺ أنْ يجهر بالدعوة ، وأنْ يصدع بما يُؤْمر ، لعلَّ السامع تصادفه فترة تنبه لفطرته ، كما حدث مع عمر .

وحين نلحظ الفاء فى بداية هذه الآية ﴿فَإِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ .. (٥٢)﴾ [الروم] نجد أن التقدير : فلا تحزن ، ولا يهولنك إعراضهم ؛ لأنك ما قصرْتَ فى البلاغ ، إنما التقصير من المستقبل ؛ لأنهم لم يقبلوا الروح السامية التى جاءتهم ، بل نفروا من السماع ، وتناهوا عنه ، كما حكى القرآن عنهم : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (٢٦)﴾ [فصلت]

---

(١) عن أنس بن مالك قال : « خرج عمر متقلداً السيف ، فلقيه رجل ، فقال له : أين تعمد يا عمر ؟ فقال : أريد أن أقتل محمداً . قال : وكيف تأمن من بنى هاشم وبنى زهرة وقد قتلت محمداً ؟ فقال له عمر : ما أراك إلا قد صبوت وتركت دينك الذى أنت عليه ، قال : أفلا أدلك على العجب إن ختنك وأختك قد صَبَوا وتركا دينك الذى أنت عليه . فمشى عمر ذامراً حتى أتاهما وعندهما رجل من المهاجرين يقال له خباب ، فلما سمع خباب بحس عمر توارى فى البيت ، فدخل عليهما ، فقال : ما هذه الهينمة التى سمعتها عندكم ؟ لعلكما قد صبوتما ؟ فقال له ختنه : يا عمر إن كان الحق فى غير دينك ؟ فوثب عمر على ختنه فوطئه وطئاً شديداً ، فجاءت أخته لتدفعه عن زوجها فنفحها نفحة بيده فدمَّى وجهها فقالت وهى غضبى : وإن كان الحق فى غير دينك ، إنى أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله » . وقد أدى هذا الموقف بعمر أن ذهب لرسول الله ﷺ فى دار ابن أبى الأرقم ، فخرج رسول الله ﷺ حتى أتى عمر ، فأخذ بمجامع ثوبه وحمائل السيف ، فقال : ما أنت بمنته يا عمر حتى ينزل الله بك من الخزى والنكال ما أنزل بالوليد بن المغيرة ، فهذا عمر ابن الخطاب : اللهم أعز الإسلام ـ أو الدين ـ بعمر بن الخطاب ، فقال عمر : أشهد أن لا إله إلا الله وأنك عبده ورسوله وأسلم » أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٢/٢١٩ ، ٢٢٠) .

ونَهْى بعضهم بعضاً عن سماع القرآن دليل على أنهم يعلمون أن مَنْ يسمع القرآن بأذن واعية لابُدَّ أنْ يؤمن به وأنْ يقتنع .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (٥٢)﴾ [الروم] وفى موضع آخر : ﴿وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ .. (٤٤)﴾ [فصلت] وقال أيضاً : ﴿صُمٌّ بُكْمٌ .. (١٨)﴾ [البقرة]

وقد علمنا من وظائف الأعضاء أن البكَم يأتى نتيجة الصمم ؛ لأن اللسان يحكى ما سمعته الأذن ، فإذا كانت الأذن صماء فلا بُدَّ أن يكون اللسان أبكمَ ، ليس لديه شىء يحكيه .

لذلك نجد الطفل العربى مثلاً حين ينشأ فى بيئة إنجليزية يتكلم الإنجليزية لأنه سمعها وتعلمها ، بل نجد صاحب اللغة نفسه تُعرض عليه الكلمات الغريبة من لغته فلا يعرفها لماذا ؟ لأنه لم يسمعها ، فحين يقول العربى عن العجوز : أنها الحَيْزبون والدَّردبيس[1] .. الخ تقول : ما هذا الكلام ، مع أنه عربى لكن لم تسمعه أذنك .

والأذن هى أداة الالتقاط الأولى لبلاغ الرسالة ، وما دام الله تعالى قد حكم عليهم بأنهم فى حكم الأموات ، فالإحساس لديهم ممتنع ، فالأذن لا تسمع آيات القرآن ، والعين لا ترى آيات الكون ولا تتأملها .

لذلك قال تعالى عنهم : ﴿فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَـٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (٤٦)﴾ [الحج]

وكلمة أعمى نقولها للمبصر صحيح العينين حينما يخطىء فى

---

(١) الحيزبون : العجوز . والنون زائدة ، كما زيدت فى الزيتون . [اللسان ـ مادة حزب] .
– الدردبيس : الشيخ الكبير الهمّ (البالى) الفانى ، والعجوز أيضاً يقال لها دردبيس [اللسان مادة : دردب ، دربس] .

شيء ، فتقول له : أنت أعمى ؟ لماذا ، لأنه وإنْ كان صحيح العينين ، إلا أنه لم يستعملهما فى مهمتهما ، فهو والأعمى سواء .

وهؤلاء القوم وصفهم الله بأنهم أولاً فى حكم الأموات ، ثم هم مصابون بالصمم ، فلا يسمعون البلاغ ، وتكتمل الصورة بأنهم عُمْى لا يروْنَ آيات الإعجاز فى الكون ، وليتهم صُمٌّ فحسب ، فالأصم يمكن أن تتفاهم معه بالإشارة فينتفع بعينيه إنْ كان مقبلاً عليك ، لكن ما الحال إذا كان مدبراً ، كما قال تعالى : ﴿إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (٥٢)﴾ [الروم] يعنى : أعطوْكَ ظهورهم ، إذن : لم يَعُدْ لهم منفذ للتلقى ولا للإدراك ، فهم صُم بُكْم ، وبالإدبار تعطلت أيضاً حاسة البصر ، فلا أملَ فى مثل هؤلاء ، ولا سبيل إلى هدايتهم .

﴿وَمَا أَنتَ بِهَادِ الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ (٥٣)﴾

والدلالة على الطريق والهداية إليه لا تتأتَّى مع العمى ، خصوصاً إذا أصرَّ الأعمى على عماه ، ونقول لمن يكابر فى العمى (فلان لا يعطى العمى حقّه) يعنى : يأنف أنْ يستعين بالمبصر ، ولو استعان بالناس من حوله لوجدهم خدماً له ولصار هو مُبصراً ببصرهم .

وقوله سبحانه : ﴿إِن تُسْمِعُ .. (٥٣)﴾ [الروم] أى : ما تُسمع ﴿إِلاَّ مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ (٥٣)﴾ [الروم] وهؤلاء هم أصفياء القلوب والفطرة ، الذين يلتفتون إلى كون الله ، يتأملون أسراره وما فيه من وجوه الإعجاز والقدرة ، فيستدلون بالخَلْق على الخالق ، وبالكون على المكوِّن سبحانه ، ولِمَ لا ، ونحن نعرف مَنِ اخترع أبسط الأشياء فى

حياتنا ونُؤرِّخ له ، ونُخلِّد ذكراه ، ألسنا نعرف أديسون الذى اخترع المصباح الكهربائى ، والله الذى خلق الشمس لَهُوَ أوْلَى بالمعرفة .

فإذا جاءك رسول من عند الله يخبرك بوجوده تعالى ، ويحل لك لغز هذا الوجود الذى تحتار فيه ، فعليك أنْ تُصدِّقه ، وأن تؤمن بما جاءك به ؛ لذلك الحق سبحانه يُعلِّم الرسل أنْ يقولوا للناس فى أعقاب البلاغ ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ .. (١٠٩)﴾ [الشعراء]

وفى هذا إشارة إلى أن العمل الذى يُؤدِّيه الرسل لأقوامهم عمل يستحقون عليه أجراً بحكم العقل ، لكنهم يترفعون عن أجوركم ؛ لأن عملهم غالٍ لا يُقدِّره إلا مَنْ أرسلهم ، وهو وحده القادر على أنْ يُوفِّيهم أجورهم .

ومعنى ﴿يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا .. (٥٣)﴾ [الروم] يعنى : ينظر فيها ويتأملها ، ويقف على ما فى الكون من عجائب الخَلْق الدالة على قدرة الخالق ، فإذا ما جاءه رسول من عند الله أقبل عليه وآمن به ؛ لذلك قال بعدها : ﴿فَهُم مُّسْلِمُونَ (٥٣)﴾ [الروم]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ (٥٤)﴾

الحق ـ تبارك وتعالى ـ بعد أنْ عرض علينا بعض الأدلة فى الكون من حولنا يقول لنا : ولماذا نذهب بعيداً إذا لم تكْف الآيات فى الكون من حولك ، فانظر فى آيات نفسك ، كما قال سبحانه : ﴿وَفِي

أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ (٢١) ﴾ [الذاريات] وجمع بين النوعين فى قوله سبحانه : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِى الآفَاقِ وَفِى أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ .. (٥٣) ﴾ [فصلت]

فهنا يقول : تأمل فى نفسك أنت : ﴿ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ .. (٥٤) ﴾ [الروم] ، فإنْ قال الإنسان المكلف الآن : أنا لم أشاهد مرحلة الضعف التى خُلِقْتُ منها .

نقول : نعم لم تشاهدها فى نفسك ، فلم تكُنْ لك ساعتها مشاهدة ، لكن شاهدتها فى غيرك ، شاهدتها فى الماء المهين الذى يتكوَّن منه الجنين ، وفى الأم الحامل ، وفى المرأة حين تضع وليدها صغيراً ضعيفاً ، ليس له قَدَم تسعى ، ولا يَدٌ تبطش ، ولا سِنٌّ تقطع ، ومع ذلك رُبى بعناية الله حتى صار إلى مرحلة القوة التى أنت فيها الآن .

إذن : فدليل الضعف مشهود لكل إنسان ، لا فى ذاته ، لكن فى غيره ، وفى مشاهداته كل يوم ، وكل منا شاهد مئات الأطفال فى مراحل النمو المختلفة ، فالطفل يُولَد لا حولَ له ولا قوة ، ثم يأخذ فى النمو والكِبَر فيستطيع الجلوس ، ثم الحَبْو ، ثم المشى ، إلى أنْ تكتمل أجهزته ويبلغ مرحلة الرشْد والفتوة .

وعندها يُكلِّفه الحق ـ سبحانه وتعالى ـ وينبغى أنْ نكلفه نحن أيضاً ، وأنْ نستغل فترة الشباب هذه فى العمل المثمر ، فنحن نرى الثمرة الناضجة إذا لم يقطفها صاحبها تسقط هى بين يديه ، وكأنها تريد أنْ تؤدى مهمتها التى خلقها الله من أجلها .

لذلك ، فإن آفتنا نحن ومن أسباب تأخُّر مجتمعاتنا أننا نطيل عمر طفولة أبنائنا ، فنعامل الشاب حتى سِنِّ الخامسة والعشرين على أنه

طفل ، ينبغى علينا أن نلبى كل رغباته لا ينقصنا إلا أنْ نرضعه .

آفتنا أن لدينا حناناً (مرق) لا معنى له ، أما فى خارج بلادنا ، فبمجرد أن يبلغ الشاب رُشْده لم يَعُدْ له حق على أبيه ، بل ينتقل الحق لأبيه عليه ، ويتحمل هو المسئولية .

والحق سبحانه يُعلِّمنا فى تربية الأبناء أنْ نُعوِّدهم تحمُّل المسئولية فى هذه السِّنِّ : ﴿ وَإِذَا بَلَغَ الأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ .. (٥٩) ﴾ [النور]

فانظر أنت أيها الإنسان الذى جعلتَ كل الأجناس الأقوى منك فى خدمتك ، انظر فى نفسك وما فيها من آيات وما بين جنبيك من مظاهر قدرة الله ، فقد نشأتَ ضعيفاً لا تقدر على شىء يخدمك غيرك.

ومن حكمته تعالى فى الطفل ألاَّ تظهر أسنانه طوال فترة الرضاعة حتى لا يؤذى أمه ، ثم تخرج له أسنان مؤقتة يسمونها الأسنان اللبنية ؛ لأنه ما يزال صغيراً لا يستطيع تنظيفها ، فيجعلها الله مؤقتة إلى أن يكبر ويتمكَّن من تنظيفها ، فتسقط ويخرج مكانها الأسنان الدائمة ، ولو تأملتَ فى نفسك لوجدتَ ما لا يُحصى من الآيات .

﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً .. (٥٤) ﴾ [الروم] أى : قوة الشباب وفتوته ﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً .. (٥٤) ﴾ [الروم] أى : ضعف الشيخوخة ، وهذا الضعف يسرى فى كل الأعضاء ، حتى فى العلم ، وفى الذاكرة ﴿ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا .. (٥) ﴾ [الحج]

ويظل بك هذا الضعف حتى تصير إلى مثل الطفل فى كل شىء تحتاج إلى مَنْ يحملك ويخدمك إذن : لا تأخذ هذه المسألة بطبع تكوينك ، ولكن بإرادة مُكوِّنك سبحانه ، فبعد أنْ كنتَ ضعيفاً يُقوِّيك ، وهو سبحانه القادر على أنْ يعيدك إلى الضعف ، بحيث لا تستطيع

عقاقير الدنيا أنْ تعيدك إلى القوة ؛ لذلك يسخر أحد العقلاء ممن يتناولون (الفيتامينات) فى سِنِّ الشيخوخة ، ويقول : يا ويل مَنْ لم تكُنْ (فيتاميناته) من ظهره .

لذلك تلحظ الدقة فى الأداء فى قول سيدنا زكريا : ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي .. ﴿٤﴾﴾ [مريم] ؛ لأن العظم آخر مخزن لقُوت الإنسان، حيث يختزن فيه ما زاد عن حاجة الجسم من الطاقة ، فإذا لم يتغذَّ الجسم بالطعام يمتصّ من هذا المخزون من الشحوم والدهون ، ثم من العضل ، ثم من نخاع العظم ، وهو آخر مخزن للقوت فى جسمك.

فمعنى قول سيدنا زكريا : ﴿إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي .. ﴿٤﴾﴾ [مريم] يعنى : وصلتُ إلى مرحلة الحرض[1] التى لا أملَ معها فى قوة ، ويؤكد هذا المعنى بقوله ﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا .. ﴿٤﴾﴾ [مريم]

وقلنا : إن بياض الشعر ليس لوناً ، إنما البياض انعدام اللون ؛ لذلك فاللون الأبيض ليس من ألوان الطيف ، ومع الشيخوخة تضعف أجهزة الإنسان ، وتضعف الغدد المسئولة عن لون الشعر عن إفراز اللون الأسود ، فيظهر الشعر بلا لون .

ونلحظ أن أغلب ما يشيب الناس يشيبون مما يُعرف بـ « السوالف » من هنا ومن هنا ، لماذا ؟ قالوا : لأن الشعرة عبارة عن أنبوب دقيق ، فإذا قُصَّتْ أثناء الحلق ينفتح هذا الأنبوب ، وتدخله بعض المواد الكيماوية مثل الصابون والكولونيا ، فتؤثر على الحويصلات الملوّنة وتقضى عليها ؛ لذلك نلاحظ هذه الظاهرة كثيراً فى المترفين خاصة ؛ لذلك تجد بعض الشباب يظهر عندهم الشيب فى هذه المناطق من الرأس .

---

(١) الحرض : الساقط الذى لا يقدر على النهوض . [اللسان مادة : حرض] .

وقد رتب سيدنا زكريا مظاهر الضعف بحسب الأهمية ، فقال أولاً ﴿وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي .. (٤)﴾ [مريم] ثم ﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا .. (٤)﴾ [مريم] ومع كِبَر سيدنا زكريا وضعفه ، ومع أن امرأته كانت عاقراً إلا أن الله تعالى استجاب له فى طلبه للولد الذى يرث عنه النبوة ، فبشَّره بولد وسمَّاه يحيى ، وكأن الحق ـ تبارك وتعالى ـ يقول لنا : إياكم ، ألا أستطيع أنْ أخلق مع الشيب والكبر والضعف ؟ لذلك قال بعدها : ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ .. (٥٤)﴾ [الروم]

وقال في شأن زكريا عليه السلام : ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا (٩)﴾ [مريم]

وقوله تعالى : ﴿وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ (٥٤)﴾ [الروم] أى : أن هذا الخَلْق ناشىء عن علم ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤)﴾ [الملك] لكن العلم وحده لا يكفى ، فقد تكون عالماً لكنك غير قادر على تنفيذ ما تعلم ، كمهندس الكهرباء ، لديه علم واسع عنها ، لكنه لا يستطيع تنفيذ شبكة أو معمل كهرباء ، فيذهب إلى أحد الممولين ليعينه على التنفيذ ؛ لذلك وصف الحق سبحانه نفسه بالعلم والقدرة .

إذن : هذا هو الدليل النفسى على الموجد الحق الفاعل المختار الذى يفعل الأشياء بعلم وقدرة ، ولا يكلفه العمل شيئاً ولا يستغرق وقتاً ؛ لأنه سبحانه يقول للشىء : كن فيكون ، ولا تتعجب أن ربك يقول للشىء كُنْ فيكون ؛ لأنك أيها المخلوق الضعيف تفعل هذا مع أعضائك وجوارحك .

وإلاَّ فقُلْ لى : ماذا تفعل إنْ أردتَ أنْ تقوم مثلاً أو تحمل شيئاً مجرد أن تريد الحركة تجد أعضاءك طوع إرادتك ، ودون أنْ تدرى بما يحدث بداخلك من انفعالات وحركات ، وإنْ قُلت فأنا كبير وأستطيع أداء هذه الحركات كما أريد ، فما بالك بالطفل الصغير ؟

وسبق أن ضربنا مثلاً لتوضيح هذه المسألة بالبلدوزر ، فلكل حركة منه ذراع خاص بها يُحرِّكه السائق ، وأزرار يضرب عليها ، وربما احتاج السائق لأكثر من أداة لتحريك هذه الآلة حركة واحدة .

أما أنت فمجرد أن تريد تحريك العضو تجده يتحرك معك كما تريد دون أن تعرف العضلات والأعصاب التى شاركت فى حركته ، فإذا كنتَ أنت على هذه الصورة ، أتعجب من أن الله تعالى يقول للشىء كن فيكون ؟

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾﴾

بعد أنْ عرض الحق ـ سبحانه وتعالى ـ الدليل ليهتدى به مَنْ يشاء ، ومَنْ لم يهتَد يُلوِّح له بهذا التهديد : ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ .. ﴿٥٥﴾﴾ [الروم] معنى كلمة ﴿تَقُومُ السَّاعَةُ .. ﴿٥٥﴾﴾ [الروم] تدل على أنها موجودة ، لكن نائمة تنتظر الإذن لها ، فتقوم تنتظر أنْ نقول لها : كُنْ فتكون .

فالقيام هنا له دلالته ؛ لأن الساعة أمر لا يتأتَّى به القيام ، إنما يقيمها الحق سبحانه ، فقوله ﴿تَقُومُ .. ﴿٥٥﴾﴾ [الروم] كأنها منضبطة كما تضبط المنبه مثلاً ، ولها وقت تنتظره ، وهى من تلقاء نفسها إنْ جاء وقتُها قامتْ .

وحين تتأمل كلمة ﴿تَقُومُ .. ﴿٥٥﴾﴾ [الروم] تجد أن القيام آخر مرحلة للإنسان ليؤدى مهمته ، فيقابلها ما قبلها ، فقبل القيام القعود ،

ثم الاضطجاع ، ثم النوم ، فمعنى قيام الساعة يعنى : أنها جاءت لتؤدى مهمتها أداءً كاملاً .

وسُمِّيَتْ الساعة ؛ لأنها دالة على الوقت الذى يأذن الله فيه بإنهاء العالم ، وإنْ كانت الساعة عندنا كوحدة لحساب الزمن نقول : صباحاً أو مساءً وَفْق حساب الحكومة أو الأهالى ، توقيت كذا أو كذا .

هذه الآلة التى فى أيدينا بما تضبطه لنا من وقت أمرها هيِّن ، ليست مشكلة أنْ تُقدِّم أو تُؤخِّر عدة ثوانٍ أو عدة دقائق ، تعمل (أتوماتيكياً) أو بالحجارة ، صُنِعتْ فى سويسرا ، أو فى الصين ، هذه الساعة لا تهم ، المهم الساعة الأخرى ، الساعة التى لا ساعةَ بعدها ، واعلم أنها منضبطة عند الحق سبحانه ، وما عليك إلا أنْ تضبط نفسك عليها ، وتعمل لها ألف حساب .

وعجيب أنْ يقسم الكفار يوم القيامة ﴿مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ .. (٥٥)﴾ [الروم] فإنْ كذبوا فى الدنيا ، فهل يكذْبون أيضاً فى الآخرة ؟ قالوا : بل يقولون ذلك على ظنهم ، وإلا فالكلام منهم فى هذا الوقت ليس اختيارياً ، فقد مضى وقت الاختيار ، ولم يَعُدْ الآن قادراً على الكذب .

لذلك سيقول الحق سبحانه فى آخر الآية : ﴿كَذَٰلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ (٥٥)﴾ [الروم] فقد كانوا يقلبون الحقائق فى الدنيا ، أما فى الآخرة فلن يقلبوا الحقائق ، إنما يقولون على حَسْب نظرهم .

والمجرمون : المجرم هو الذى خرج عن المطلوب منه بذنب يخالفه ، فنقول : فلان أجرم ، والقانون يُسمِّى الفعل جريمة .

ومعنى ﴿مَا لَبِثُوا .. (٥٥)﴾ [الروم] اللبث : المكْث طويلاً أى فى الدنيا ، أو : ما لبثوا فى قبورهم بعد الموت إلى قيام الساعة ، أو : ما لبثوا بعد النفخة التى تميت إلى النفخة التى تُحيى .

فهذه فترات ثلاث للبثهم فى القبور ، أطولها للذين ماتوا منذ آدم عليه السلام ، ثم أوسطهم الذين جاءوا بعد ذلك أمثالنا ، ثم أقلّهم لُبْثاً وهم الذين يموتون بين النفختين . وفي كل هذه الفترات يوجد كفار ، وعلى عهد آدم كان هناك كفار ، وعلى مَرِّ العصور بعده يُوجَد كفار ، حتى بين النفختين يوجد كفار ، إذن : فكلمة لبثوا هنا على عمومها : أطول ، وطويل ، وقصيرة ، وأقصر .

وهؤلاء يقولون يوم القيامة « ما لبثنا غير ساعة » مع أن الآخرة لا كذبَ فيها ، لكنهم يقولون ذلك على حسب ظنهم ؛ لأن الغائب عن الزمن لا يدرى به ، والزمن ظرف لوقت الأحداث ، كما أن المكان ظرف لمكانها ، فالنائم مثلاً لا يشعر بالزمن ؛ لأن الزمن يُحسب بتوالى الأحداث فيه ، فإذا كنتَ لا تشعر بالحدث فبالتالى لا تشعر بالوقت ، سواء أكان بنوم كأهل الكهف ، أو بموت كالذى أماته الله مائة عام ثم بعثه[1] .

ولما قاموا من النوم أو الموت لم يُوقِّتوا إلا على عادة الناس فى النوم ، فقالوا : ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ .. (١٩)﴾ [الكهف] ؛ لأنه فى هذه الحالة لا يدرى بالزمن ، إنما يدرى بالزمن الذى يتتبع الأحداث ، وما دام الإنسان فى هذه الحالة لا يدرك الزمن ، فهو صادق فيما يخبر به على ظنه .

لذلك يقول تعالى فى آية أخرى : ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (١١٢) قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ (١١٣)﴾ [المؤمنون]

---

(١) هو : العُزَيْر . حكاه ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس والحسن وقتادة والسدى . وهذا هو القول المشهور . وقال سلمان بن بريدة : هو حزقيل بن بوار . قال ابن كثير : « أما القرية فالمشهور أنها بيت المقدس مر عليها بعد تخريب بختنصر لها وقتل أهلها » [تفسير ابن كثير ١/٣١٤] .

أى : اسأل الذين يعدُّون الزمن ويحصونه علينا ، والمقصود الملائكة[١] ، فهم الذين يعرفون الأحداث ، ويسجلونها منذ خَلْق آدم عليه السلام وإلى الآن ، وإلى قيام الساعة .

فلا يسأل عن عدد إلا مَنْ عدَّ بالفعل ، أو مَنْ يمكن أنْ يعُدّ ، أما الشىء الذى لا يكون مظنة العدِّ والإحصاء فلا يُعَدُّ ، وهل عَدَّ أحد فى الدنيا رمال الصحراء مثلاً ؟ لذلك نسمع فى الفكاهات : أن واحداً سأل الآخر : تعرف فى السماء كم نجم ؟ قال : تسعة آلاف مليون وخمسمائة ألف وثلاثة وتسعون نجماً ، فقال الأول : أنت كذاب ، فقال الآخر : اطلع عدّهم .

لكن ، لماذا يستقلّ الكفار الزمن فيُقسمون يوم تقوم الساعة ما لبثوا غير ساعة ؟ وفى موضع آخر يقول عنهم : ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا (٤٦) ﴾ [النازعات]

قالوا : لأن الزمن يختلف بحسْب أحوال الناس فيه ، فواحد يتمنى لو طال به الزمن ، وآخر يتمنى لو قصر ، فالوقت الذى يجمعك ومَنْ تحب يمضى سريعاً وتتمنى لو طال ، على خلاف الوقت الذى تقضيه على مَضض مع مَنْ تكره ، فيمر بطيئاً متثاقلاً .

على حدِّ قول الشاعر :

حَادِثَاتُ السُّرورِ تُوزَنُ وَزْناً ... والبَلاَيَا تُكَالُ بالقُفْزان[٢]

ويقول آخر :

وَدَّع الصَّبر محبٌّ ودَّعكَ ... ذائعٌ من سرِّه مَا اسْتَوْدعَكْ

---

(١) قاله مجاهد . أورده السيوطى فى الدر المنثور (٦/١٢٢) وعزاه لابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم .

(٢) القفزان جمع : قفيز . وهو مكيال تتواضع الناس عليه . قال ابن منظور فى [لسان العرب ـ مادة : قفز] : « هو ثمانية مكاكيك عند أهل العراق . والمكُّوك : ثلاث كيلات » أى : أن القفيز الواحد : ٢٤ كيلة . أى : ٢٨٨ كيلوجرام .

يَقْرعُ السِّنَّ على أنْ لم يكُنْ زَادَ فى تِلْكَ الخُطَى إذْ شيَّعَكْ

إلى أنْ يقولَ :

إنْ يَطُلْ بعدكَ لَيْلى فلكَمْ بِتُّ أشكُو قِصرَ الليْلِ معكْ

ففى أوقات السرور ، الزمن قصير ، وفى أوقات الغَمِّ الزمن طويل ثقيل ، ألم تسمع للذى يقول ـ لما جمع الليل شمله بمَنْ يحب :

يَا لَيْلُ طُلْ يا نَوْمُ زُلْ يَا صُبْحُ قِفْ لاَ تطْلُعِ

كذلك الذى ينتظر سروراً يستبطىء الزمن ، ويود لو مرَّ سريعاً ليعاين السرور الذى ينتظره ، أما الذى يتوقع شراً أو ينتظره فيودُّ لو طالَ الزمن ليبعده عن الشر الذى يخافه .

لذلك نجد المؤمنين يودُّون لو قصر الزمن ؛ لأنهم واثقون من الخير الذى ينتظرهم والنعيم الذى وُعدوا به ، أما المجرمون فعلى خلاف ذلك ، يودُّون لو طال الزمن ليبعدهم عما ينتظرهم من العذاب ؛ لذلك يقولون ما لبثنا فى الدنيا إلا قليلاً ويا ليتها طالتْ بنا . إما لأنهم لا يدرون بالزمن ويقولون حَسْب ظنهم ، أو لأنهم يريدون شيئاً يُبعد عنهم العذاب .

إذن : أقسموا ما لبثوا غير ساعة ، إما على سبيل الظن ، أو لأن الغافل عن الأحداث لا يدرى بالزمن ، ولا يستطيع أنْ يُحصيه ، كالعُزير الذى أماته الله مائة عام ثم بعثه ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ .. (٢٥٩)﴾ [البقرة] فأخبره ربه أنه لبث مائة عام ﴿قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ .. (٢٥٩)﴾ [البقرة]

والذى لا شكَّ فيه أن الله تعالى صادق فيما أخبر به ، وكذلك العزير كان صادقاً فى حكمه على الزمن ؛ لذلك أقام الحق ـ سبحانه وتعالى ـ الدليل على صِدْق القولين فقال : ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ

لَمْ يَتَسَنَّهْ .. (٢٥٩) ﴾ [البقرة] والطعام لا يتغير فى يوم أو بعض يوم ، فقام الطعام والشراب دليلاً على صدْق الرجل .

ثم قال سبحانه ﴿ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا .. (٢٥٩) ﴾ [البقرة]

فقامت العظام البالية دليلاً على صدْقه تعالى فى المائة عام . ولا تقل : كيف نجمع بين صدق القولين ؟ لأن الذى أجرى هذه المسألة رب ، هو سبحانه القابض الباسط ، يقبض الزمن فى حَقٍّ قوم ، ويبسطه فى حَقٍّ آخرين .

وهذه الآية : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ .. (٥٥) ﴾ [الروم] جاءت بعد إعذار الله للكافرين برسله ، ومعنى إعذارهم أى : إسقاط عذرهم فى أنه سبحانه لم يُبيِّن لهم أدلة الإيمان فى قمته بإله واحد ، وأدلة الإيمان بالرسول بواسطة المعجزات حتى يؤمنوا بآيات الأحكام فى : افعل ، ولا تفعل .

فالآيات كما قلنا ثلاث : آيات تثبت قمة العقيدة ، وهو الإيمان بوجود الإله القادر الحكيم ، وآيات تثبت صدْق البلاغ عن الله بواسطة رسله ، وهذه هى المعجزات ، وآيات تحمل الأحكام .

والحق سبحانه لا يطلب من المؤمنين به أنْ يؤمنوا بأحكامه فى : افعل ولا تفعل إلا إذا اقتنعوا أولاً بالرسول المبلِّغ عن الله بواسطة المعجزة ، ولا يمكن أنْ يؤمنوا بالرسول المبلِّغ عن الله إلا إذا ثبتَ عندهم وجود الله ، ووجود الله ثابت فى آيات الكون .

لذلك دائماً ما يعرض علينا الحق سبحانه آياته فى الكون ، لكن يعرضها متفرقة ، فلم يصبّها علينا صبّاً ، إنما يأتى بالآية ثم يُردِفها

بما حدث منهم من التكذيب والنكران ، فيأتى بالآية ونتيجتها منهم ، ذلك ليكرر الإعذار لهم فى أنه لم يَعُدْ لهم عُذْر فى ألاَّ يؤمنوا .

فنلحظ هذا التكرار فى قوله سبحانه : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٤٦)﴾ [الروم]

ثم يذكر أن هذه الآيات لم تُجْدِ معهم : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلاً إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧)﴾ [الروم]

ثم يسوق آية أخرى :

﴿ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٨) وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ (٤٩) فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٥٠)﴾ [الروم]

ثم يذكر سبحانه ما كان منهم بعد كلِّ هذه الآيات : ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِن بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ (٥١)﴾ [الروم]

وهكذا يذكر الحق سبحانه الآية ، ويُتبعها بما حدث منهم من نكران ، ويكررها حتى لا تبقى لهم حجة للكفر ، ثم تأتى هذه الآية : ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ .. (٥٥)﴾ [الروم] لتقول لهم : إنْ كنتم قد كذَّبتم بكل هذه الآيات ، فستأتيكم آية لا تستطيعون تكذيبها هى القيامة .

وعجيب أنْ يُقسموا بالله فى الآخرة ما لبثوا غير ساعة ، وقد كفروا به سبحانه فى الدنيا .

وفى الآية جناس تام بين كلمة الساعة الأولى ، والساعة الثانية ، فاللفظ واحد لكن المعنى مختلف ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ .. (٥٥) ﴾ [الروم] أى : القيامة ﴿ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ .. (٥٥) ﴾ [الروم] أى : من الوقت . ومن ذلك قول الشاعر :

رَحلْتُ عَنِ الديارِ لكُمْ أَسِيرُ وقَلْبى فِى محبتِكُمْ أَسِيرُ

أى : مأسور

ولى أنا وزميلى الدكتور محمد عبد المنعم خفاجة ـ أطال الله بقاءه ـ قصة مع الجناس ، ففى إحدى حصص البلاغة ، قال الأستاذ : لا يوجد فى القرآن جناس تام إلا فى هذه الآية بين ساعة وساعة ، لكن يوجد فيه جناس ناقص ، فرفع الدكتور محمد أصبعه وقال : يا أستاذ أنا لا أحب أنْ يُقال : فى القرآن شىء ناقص .

فضحك الشيخ منه وقال له : إذن ماذا نقول ؟ وقد قسم أهل البلاغة الجناس إلى تام وناقص : الأول تتفق فيه الكلمتان فى عدد الحروف وترتيبها وشكلها ، فإن اختلف من ذلك شىء فالجناس بينهما ناقص ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ (١) ﴾ [الهمزة] فبين هُمزة ولمزة جناس ناقص ؛ لأنهما اختلفا فى الحرف الأول .

أذكر أن الشيخ أشار إلىَّ وقال : ما رأيك فيما يقول صاحبك ؟ فقلت : نسميه جناس كُل ، وجناس بعض ، يعنى : تتفق الكلمتان فى كل الحروف أو فى بعضها ، وبذلك لا نقول فى القرآن : جناس ناقص .

فقولهم ﴿مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ .. (٥٥)﴾ [الروم] أى : الساعة الزمنية التى نعرفها ، والزمن له مقاييس : ثانية ، ودقيقة ، وساعة ، ويوم ، وأسبوع ، وشهر ، وسنة ، وقرن ، ودهر ، وهم يقصدون الساعة الزمنية المعروفة لنا .

إذن : فهم يُقلِّلون مدة مُكْثهم فى الدنيا أو فى القبور لما فاجأتهم القيامة ، وقد أخبرناهم وهم فى سَعَة الدنيا أن متاع الدنيا قليل ، وأنها قصيرة وإلى زوال ، فلم يُصدّقوا والآن يقولون : إنها كانت مجرد ساعة ، ولم يقولوا حتى شهر أو سنة ، فكيف تستقل ما سبق أن استكثرته ، وظننتَ أنك خالد فيه حتى قلتَ ﴿مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ .. (٢٤)﴾ [الجاثية]

ففى الدنيا كذَّبتم وأنكرتم ، ولم تستجيبوا لداعى الإيمان ، أما الآن فى الآخرة فسوف تستجيبون استجابة مصحوبة بحمده تعالى ، كما قال سبحانه : ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ .. (٥٢)﴾ [الإسراء] أى : تقولون الحمد لله والإنسان لا يحمد إلا على شىء محبوب .

ثم يقول سبحانه : ﴿كَذَٰلِكَ .. (٥٥)﴾ [الروم] أى : كهذا الكذب ﴿كَانُوا يُؤْفَكُونَ (٥٥)﴾ [الروم] والإفك من أَفك إفكاً . أى : صرف الشىء عن وجهه ؛ لذلك سُمِّى الكذب إفكاً ؛ لأن الكاذب يخبر بقضية تخالف الواقع ، فيأتى بها على غير وجهها ، أو يُوجِدها وهى غير موجودة ، أو ينكر وجودها .

ومنه قوله تعالى : ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ (٥٣)﴾ [النجم] وهى القرى التى قلبها الله ، فجعل عاليها سافلها .

فقوله ﴿كَذَٰلِكَ .. (٥٥)﴾ [الروم] أى : كهذا الإفك كانوا يُؤْفكون ، يعنى : يكذِّبون الرسل فى الحقائق التى جاءوا بها من قِبلَ ربهم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾

قال هنا ﴿الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ .. ﴿٥٦﴾﴾ [الروم] فهل العلم ينافى الإيمان ؟ لا ، لكن هناك فَرْق بينهما ، فالعلم كسب ، والإيمان أنت تؤمن بالله وإنْ لم تَرَه . إذن : شىء أنت تراه وتعلمه ، وشىء يخبرك به غيرك بأنه رآه ، فآمنتَ بصدقه فصدَّقْتَه ، فهناك تصديق للعلم وتصديق للإيمان ؛ لذلك دائماً يُقَال : الإيمان للغيبية عنك ، أما حين يَقْوى إيمانك ، ويَقْوى يقينك يصير الغيب كالمشاهَد بالنسبة لك .

وقد أوضحنا هذه المسألة فى الكلام عن قوله تعالى فى خطابه لنبيه محمد ﷺ : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾﴾ [الفيل]

فقال : ألم تَرَ مع أن النبى ﷺ وُلِد عام الفيل ، ولم يتسنّ له رؤية هذه الحادثة ، قالوا : لأن إخبار الله له أصدق من رؤيته بعينه .

فقوله : ﴿أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ .. ﴿٥٦﴾﴾ [الروم] لأن العلم تأخذه أنت بالاستنباط والأدلة .... الخ ، أو تأخذه ممن يخبرك وتُصدِّقه فيما أخبر ، لذلك النبى ﷺ لما سأل الصحابى[1] : « كيف أصبحتَ » ؟ قال : أصبحتُ مؤمناً حقاً ، قال : « لكلِّ حقٍّ حقيقة ، فما حقيقة إيمانك » ؟

---

(١) هو : الحارث بن مالك الأنصارى . ذكره ابن حجر العسقلانى فى « الإصابة فى تمييز الصحابة » (١/٣٤٣) وعزا الحديث لابن المبارك فى الزهد .

يعنى : ما مدلول هذه الكلمة التى قلتها ؟

فقال الصحابى : عزفتْ نفسى عن الدنيا ، فاستوى عندى ذهبها ، ومدرها[١] ، وكأنى أنظر إلى أهل الجنة فى الجنة يُنعَّمون ، وإلى أهل النار فى النار يُعذَّبون ـ يريد أن يقول لرسول الله : لقد أصبحتُ وكأنى أرى ما أخبرتنا به ـ فقال له رسول الله : « عرفتَ فالزم »[٢] .

لكن ، مَن هم الذين أوتوا العلم ؟ هم الملائكة الذين عاصروا كل شىء ، لأنهم لا يموتون ، أو الأنبياء لأن الذى أرسلهم أخبره ، أو المؤمنون لأنهم صدَّقوا الرسول فيما أخبر به .

وقال ﴿أُوتُوا الْعِلْمَ .. (٥٦)﴾ [الروم] ولم يقل : علموا ، كأن العلم ليس كَسْباً ، إنما إيتاء من عَالِم أعلم منك يعطيك . فإنْ قُلتَ : أليس للعلماء دور فى الاستدلال والنظر فى الأدلة ؟ نقول : نعم ، لكن مَنْ نصب لهم هذه الأدلة ؟ إذن : فالعلم عطاء من الله .

ثم يقول سبحانه : ﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ .. (٥٦)﴾ [الروم] يعنى : مسألة مرسومة ومنضبطة فى اللوح المحفوظ إلى يوم البعث ﴿فَهَٰذَا يَوْمُ الْبَعْثِ .. (٥٦)﴾ [الروم] الذى كنتم تكذبون به ، أما الآن فلا بُدَّ أنْ تُصدِّقوا فقد جاءكم شىء لا تقدرون على تكذيبه ؛ لأنه أصبح واقعاً ومن مصلحتكم أنْ يقبل عذركم ، لكن لن يقبل منكم ، ولن نسمع لكم كلاماً لأننا قدمنا الإعذار سابقاً .

وقوله تعالى : ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٥٦)﴾ [الروم] فى أول

---

(١) المدر : قطع الطين اليابس . وقيل : الطين العلك الذى لا رمل فيه . [لسان العرب ـ مادة : مدر] .

(٢) أورده الهيثمى فى مجمع الزوائد (١/٥٧) وعزاه للطبرانى فى الكبير من حديث الحارث ابن مالك الأنصارى .

الآية قال : ﴿أُوتُوا الْعِلْمَ .. (٥٦)﴾ [الروم] فنسب العلم إلى الله ، أما هنا فنسبه إليهم ؛ لأن الله تعالى نصب لهم الأدلة فلم يأخذوا منها شيئاً ، ونصب لهم الحجج والبراهين والآيات فغفلوا عنها ، إذن : لم يأخذوا من الدلائل والحجج ما يُوصِّلهم إلى العلم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٥٧)﴾

قوله ﴿فَيَوْمَئِذٍ .. (٥٧)﴾ [الروم] أى : يوم قيام الساعة ﴿لَّا يَنفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٥٧)﴾ [الروم] أى : لا يُقبَل منهم عذر ، ومعنى ﴿ظَلَمُوا .. (٥٧)﴾ [الروم] أى : ظلموا أنفسهم ، والظالم يلجأ إلى الظلم ؛ لأنه يريد أنْ يأخذ من الغير ما عجزتْ حركته هو عن إدراكه .

فالظلم أنْ تأخذ نتيجة عرق غيرك لتحوله إلى دم فيك ، لكن دمك إنْ لم يكُنْ من عَرَقك فهو دم فاسد عليك ، ولا تأتى منه أبداً حركة إجابة فى الوجود لا بُدَّ أن تكون نتيجته حركات شر ؛ لأنه دم حرام ، فكيف يتحرك فى سبيل الحلال ؟

لذلك ورد فى الحديث الشريف أن رسول الله ﷺ قال : أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً ، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين ، فقال : ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٥١)﴾ [المؤمنون] وقال : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (١٧٢)﴾ [البقرة] ثم ذكر

الرجل يطيل السفر ، أشعث أغبر ثم يمد يديه إلى السماء : يا رب يا رب ، ومطعمه من حرام ، ومشربه من حرام ، فأنَّى يُستجاب له »[(١)] .

إذن : كيف يُستجاب لنا وأبعاضنا كلها غير أهْلٍ لمناجاة الله بالدعاء ؟

ولا يقف الأمر عند عدم قبول العذر ، إنما ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٥٧)﴾ [الروم] العتاب : حوار بلُطْف ودلال بين اثنين فى أمر أغضب أحدهما ، وكان من المظنون ألاَّ يكون ، ويجب أن يعرض عليه ليصفى نفسه منه ، كأن يمر عليك صديق فلا يسلم عليك فتغضب منه ، فإنْ كنتَ حريصاً على مودته تقابله وتقول : والله أنا فى نفسى شىء منك ، لأنك مررتَ فلم تسلم علىَّ يوم كذا ، فيقول لك : والله كنتُ مشغولاً بكذا وكذا ولم أرَك ، فيزيل هذا العذر ما فى نفسك من صاحبك .

ونقول : عتب فلان على فلان فأعتبه أى : أزال عتابه ؛ لذلك يقولون : ويبقى الود ما بقى العتاب ، ويقول الشاعر :

أَمَّا العِتَابُ فبالأحِبّة أَخْلَق والحُبُّ يَصلُح بالعِتَابِ ويصْدُقُ

والهمزة فى أعتب تسمى همزة الإزالة ، ومنها قول الشاعر :

أُرِيدُ سُلُوَّكم ـ أى بعقلى ـ والقَلْبُ يأْبَى وأعْتِبكُم ومِلءُ النَفْسِ عَتْبى

ومنه ما جاء فى مناجاة النبى ﷺ لربه يوم الطائف بعد أن لَقِى منهم ما لَقِى ، حتى لجأ إلى حائط ، وأخذ يناجى ربه : « ربِّ إلى مَنْ

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٢/٣٢٨) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٠١٥) ، والدارمى فى سننه (٢/٣٠٠) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

تَكِلنى ، إلى بعيد يتجهمنى[١] ، أم إلى عدو ملّكته أمرى ؟ إنْ لم يكُنْ بكَ علىَّ غضب فلا أُبالى ، ولكن عافيتك هى أوسع لى .. إلى أنْ يقول : لك العُتْبى حتى ترضى »[٢] .

يعنى : يا رب إنْ كنتَ غضبتَ لشىء بدر منى ، فأنا أريد أن أزيل عتابك علىَّ .

ومن همزة الإزالة قولنا : أعجمت الكلمة أى : أزلْتُ عُجْمتها وخفاءها ، وأوضحت معناها ، ومن ذلك نُسمِّى المعجم لأنه يزيل خفاء الكلمات ويُبيِّنها .

وتقرأ فى ذلك قوله تعالى : ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا ۖ ﴿١٥﴾﴾ [طه] أى : أقرب أنْ أزيل خفاءها بالآيات والعلامات .

وهذه الكلمة ﴿يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [الروم] وردتْ فى القرآن ثلاث[٣] مرات ، ووردت مرة واحدة مبنية للفاعل[٤] (يَسْتعتبون) ، لأنهم طلبوا إزالة عتابهم ، فلم يُزِلْه الله ولم يسمح لهم فى إزالته ، أما (يُستعتبون) فلأنهم لم يطلبوا العتب بأنفسهم ، إنما جعلوا لهم

---

(١) جهمه : استقبله بوجه كريه . أى : يلقانى بالغلظة والوجه الكريه . ورجل جهم الوجه أى : كالح الوجه . [لسان العرب ـ مادة : جهم] .

(٢) هذا الدعاء أورده ابن هشام فى السيرة النبوية (٢/٤٢٠) ، وذلك أن أهل الطائف أغروا به ﷺ سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به ، حتى اجتمع عليه الناس ، وألجئوه لحائط لعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة ، فلما اطمأن رسول الله ﷺ دعا بهذا الدعاء .

(٣) وردت يُستعتبون بالبناء للمجهول فى ثلاثة مواضع :
- ﴿ثُمَّ لا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [النحل] .
- ﴿فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يَنفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [الروم] .
- ﴿فَالْيَوْمَ لا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الجاثية] .

(٤) وذلك فى قوله تعالى : ﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [فصلت] .

شفعاء يطلبون لهم ، لكن خَاب ظنهم فى هذه وفى هذه .

فالمعنى ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٥٧)﴾ [الروم] لا يجرؤ شفيع أنْ يقول لهم : استعتبوا ربكم ، واسألوه أنْ يعتبكم أى : يزيل العتاب عنكم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ (٥٨)﴾

وهذه الآية تعنى أننا لم نترك معذرة لأحد ممن كفروا برسلهم ؛ لأننا جئنا لهم بأمثال متعددة وألوان شتى من الأدلة المشاهدة ليستدلوا بها على غير المشاهد ليأخذوا من مرائيهم ومن حواسهم دليلاً على ما غاب عنهم .

فحين يريد سبحانه أن يقنعهم بأن يؤمنوا بإله واحد لا شريك له يضرب لهم هذا المثَلَ من واقع حياتهم : ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً .. (٢٩)﴾ [الزمر]

هل يستوى عبد لسيد واحد مع عبد لعدة أسياد يتجاذبونه ، إنْ أرضى واحداً أسخط الآخرين ؟

ثم يُقرِّب المسألة بمثَل من الأنفس ، وليس شىء أقرب إلى الإنسان من نفسه ، فيقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلاً مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ

يَعْقِلُونَ (٢٨) ﴾ [الروم]

والمعنى : إذا كنتم لا تقبلون أنْ يشارككم مواليكم فيما رزقكم الله ، فتكونون فى هذا الرزق سواء ، فكيف تقبلون الشركة فى حق الله تعالى ؟

وحين يريد الحق سبحانه أنْ يبطل شرْكهم وعبادتهم للآلهة يضرب لهم هذا المثل ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣) ﴾ [الحج]

والمَثَل يعنى أنْ تُشبِّه شيئاً بشىء ، وتلحق خفياً بجلى ، لتوضحه وليستقر فى ذهْن السامع ، كأن تشبه شخصاً غير معروف بشخص معروف ، ويُسَمَّى هذا : مثْل أو مَثَل ، نقول : فلان مثْل فلان .

أما المثل فقول من حكيم شاع على الألسنة ، وتناقله الناس كلما جاءت مناسبته ، وسبق أنْ مثَّلنا لذلك بالملك الذى أرسل امرأة تخطب له أم إياس بنت عوف بن محلم الشيبانى ، وكان اسمها (عصام) ، فلما عادت من المهمة بادرها بقوله : ما وراءكِ يا عصام ؟ فصارت مثلاً يُقال فى مثل هذه المناسبة مع أنه قيل فى حادثة مخصوصة .

والمثل يقال كما هو ، لا نغير فيه شيئاً ، فنقول : ما وراءك يا عصام للمذكر وللمؤنث ، وللمفرد وللمثنى وللجمع .

ومن ذلك نُشبِّه الكريم بحاتم ، والشجاع بعنترة .. الخ لأن حاتماً الطائى صار مضربَ المثل فى الكرم ، وعنترة فى الشجاعة . وفى المثال نقول لمن يواجه بمَنْ هو أقوى منه : إنْ كنت ريحاً فقد لاقيتَ إعصاراً ، ونقول لمن لم يُعِدّ للأمر عُدَّته : قبل الرماء تُملأ الكنائن .

إذن : المثل قول شبه مضربه الآن بمورده سابقاً لأن المورد كان قوياً وموجزاً لذلك حُفظ وتناقلته الألسنة .

والقرآن يسير على أسلوب العرب وطريقتهم فى التعبير وتوضيح المعنى بالأمثال حتى يضرب المثل بالبعوضة ، والبعض يأنف أنْ يضرب القرآن بجلاله وعظمته مثلاً بالبعوضة ، وهو لا يعلم أن الله يقول : ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا .. (٢٦)﴾ [البقرة]

وليس معنى : ﴿فَمَا فَوْقَهَا .. (٢٦)﴾ [البقرة] أى : فى الكِبَر كما يظن البعض ، فيقولون : لماذا يقول فما فوقها وهو من باب أَوْلى ، لكن المراد ما فوقها فى الصِّغَر وفيما تستنكرونه من الضآلة ، كالكائنات الدقيقة والفيروسات .. الخ .

لكن ، لماذا يضرب الله الأمثال للناس ؟ قالوا : لأن الإنسان له حواسّ متعددة ، فهو يرى ويسمع ويشم ويتذوق ويلمس .. الخ ، ولو تأملتَ كل هذه الحواس لوجدتَ أن ألصق شىء بالحس أنْ يضرب ؛ لذلك حين تريد أنْ تُوقظ شخصاً من النوم فقد لا يسمع نداءك فتذهب إليه وتهزُّه كأنك تضربه فيقوم .

إذن : فالضرب هو الأثر الذى لا يتخلف مدلوله أبداً ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ .. (٢٠)﴾ [المزمل] أى : يُؤثرون فيها تأثيراً واضحاً كالحرث مثلاً ، وهو أشبه ما يكون بالضرب .

والضرب لا يكون ضرباً يؤدى مهمة وله أثر إلا إذا كان بحيث يُؤلم المضروب ، ولا يُوجع الضارب ، وإلا فقد تضرب شيئاً بقوة فتؤلمك يدك ، فكأنك ضربتَ نفسك . وهذا المعنى فَطِن إليه الشاعر ،

فقال للذين لا يؤمنون بقدر الله :

أيَا هَازئاً من صُنُوفِ القَدَرِ بنفسِكَ تعنف لاَ بالقَدرْ
وَيَا ضَارِباً صَخْرةً بِالعصَا ضربتَ العَصَا أَمْ ضربْتَ الحجَرْ

فالحق سبحانه يضرب المثل ليُشعركم به ، وتُحسون به حسَّ الألم من الضرب ، فإذا لم يحسّ الإنسان بضرب المثل فهو كالذى لا يحسُّ بالضرب الحقيقى المادى ، وهذا والعياذ بالله عديم الإحساس أو مشلول الحسِّ .

فالمعنى : ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَـٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ .. (٥٨)﴾ [الروم] يعنى : أتيناهم بأمثال ودلائل لا يمكن لأحد إلا أنْ يستقبلها كما يستقبل الضرب ؛ لأن الضرب آخر مرحلة من مراحل الإدراك .

وسبق أنْ قلنا : إن الحق سبحانه ضرب المثل لنفسه سبحانه فى قوله : ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ .. (٣٥)﴾ [النور]

والمثَل هنا ليس لنوره تعالى كما يظن البعض ، إنما مَثَلٌ لتنويره للكون الواسع ، وهو سبحانه يُنوِّرك حِسِّياً بالشمس وبالقمر وبالنجوم ، ويُنوِّرك معنوياً بالمنهج وبالقيم .

ففائدة النور الحسى أن يزيل الظلمة ، وأنْ تسير على هُدى وعلى بصيرة فتسلم خطاك واتجاهك من أنْ تحطم ما هو أقلّ منك أو يحطمك ما هو أقوى منك ، والمحصلة ألاَّ تضر الأضعف منك ، وألاَّ يضرك الأقوى منك .

كذلك النور المعنوى ، وهو نور القيم والمنهج يمنعك أنْ تضرَّ غيرك ، ويمنع غيرك أنْ يضرَّك ، وكما ينجيك النور الحسى من

المعاطب الحسية كذلك ينجيك نور القيم من المعاطب المعنوية .

لذلك يقول سبحانه بعد أن ضرب لنا هذا المثل : ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣٥)﴾ [النور]

وسبق أنْ ذكرنا ما كان من مدح أبى تمام[١] لأحد الخلفاء :

إقْدامُ عَمرٍو فى سَمَاحةِ حَاتِمٍ ... فى حِلْمِ أحْنَفَ فى ذَكَاءِ إيَاسِ

فقال أحد حُسَّاده على مكانته من الخليفة : أتشبه الخليفة بأجلاف العرب ؟ فأطرق هنيهة ، ثم أكمل على نفس الوزن والقافية :

لاَ تُنكِروا ضربى لَهُ مَنْ دُونَه ... مثَلاً شَرُوداً فى النَّدَى والبَاسِ[٢]

فاللهُ قَدْ ضربَ الأقلَّ لِنُورِه ... مَثَلاً من المشْكَاةِ والنبراسِ[٣]

الأعجب من هذا أنهم أخذوا الورقة التى معه ، فلم يجدوا فيها هذين البيتين ، وهذا يعنى أنه ارتجلهما لتوّه . وقد قلت : والله لو وجدوا هذه الأبيات مُعدة معه لما قلَّل ذلك من شأنه ، بل فيه دلالة على ذكائه واحتياطه لأمره وتوقعه لما قد يقوله الحساد والحاقدون عليه .

لكن لم تُجد هذه الأمثال ولم ينتفعوا بها ، وليت الأمر ينتهى عند هذا الحد بل : ﴿وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ .. (٥٨)﴾ [الروم] أى : جديدة ﴿لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ مُبْطِلُونَ (٥٨)﴾ [الروم] فيتهمون الرسل

---

(١) هو : حبيب بن أوس الطائى ، ولد بقرية من قرى الشام (١٨٠ هـ) ، نشأ نشأة متواضعة حيث كان يعمل صبياً لحائك ، توفى ٢٣١ هـ عن ٥١ عاماً .

(٢) المثل الشرود : الخارج عن المألوف والعادة . والندى : السخاء والكرم . والبأس : القوة والحرب .

(٣) النبراس : المصباح والسراج . والمشكاة : كُوَّة فى جدار البيت ليست بنافذة وتعرف فى قرانا بـ « الطاقة » مع نطق القاف همزة .

فى بلاغهم عن الله بأنهم أهل باطل وكذب .

والحق سبحانه يحتجّ على الناس فى أنه لم يُجبهم إلى الآيات التى اقترحوها ؛ لأن السوابق مع الأمم التى كذَّبت الرسل تؤيد ذلك ، فقد كانوا يطلبون الآيات ، فيجيبهم الله إلى ما طلبوا ، فما يزدادون إلا تكذيباً.

لذلك يقول سبحانه : ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ .. (٥٩)﴾ [الإسراء]

فالأمر لا يتعدى كونهم يريدون إطالة الإجراءات وامتداد الوقت فى جدل لا يجدى ، ثم إن فى إجابتهم إلى ما طلبوا رغم تكذيبهم بالآيات السابقة احتراماً لعدم إيمانهم ، ودليلاً على أن الآيات السابقة كانت غير كافية ، بدليل أنه جاءهم بآية أخرى ، إذن : فعدم مجىء الآيات يعنى أن الآيات السابقة كانت كافية للإيمان لكنهم لم يؤمنوا ؛ لذلك لن نجيبهم فى طلب آيات أخرى جديدة .

وهذه القضية واضحة فى جدل إبراهيم ـ عليه السلام ـ مع النمروذ فى قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِى حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِى رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّىَ الَّذِى يُحْيِى وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِى وَأُمِيتُ .. (٢٥٨)﴾ [البقرة]

وعندها شعر إبراهيم عليه السلام بأن خَصْمه يميل إلى الجدل والسفسطة ، وأنه يريد إطالة أمد الجدل ، ويريد تضييع الوقت فى أخذ وردٍّ ؛ لذلك أضرب عن هذه الحجة ـ مع أن خَصْمه لا يميت ولا يحيى على الحقيقة ـ وألجأه إلى حجة أخرى لا يستطيع منها فكاكاً ، ولا يجد معها سبيلاً للمراوغة فقال :

﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ .. (٢٥٨)﴾ [البقرة] فماذا يقول هذا المعاند ؟ ﴿فَبُهِتَ[1] الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٢٥٨)﴾ [البقرة]

كذلك كان فرعون يلجأ إلى هذا الأسلوب فى حواره مع موسى وهارون عليهما السلام ، ففى كل موقف كان يقول : ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ (٤٩)﴾ [طه] إنه الجدل العقيم ، يلجأ إليه مَنْ أفلس ، فلم يجد حجة يستند إليها .

ونلحظ فى أسلوب الآية صيغة الإفراد فى ﴿وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ .. (٥٨)﴾ [الروم] ثم تنتقل إلى صيغة الجمع فى ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ مُبْطِلُونَ (٥٨)﴾ [الروم] فلم يقولوا لرسولهم مثلاً : أنت مبطل ، فلماذا ؟ قالوا : لأن الرسول حين يُكذِّبه قومه فيقولون : أنت مبطل ، فلعل من أتباعه المؤمنين به مَنْ يدافع عنه ويشهد بصدقه ، فجاءت صيغة الجمع لتفيد الشمول ، فكأنهم يقولون : أنت مبطل وكل مَنْ (يتشدد لك) .

أو : يكون المعنى ﴿إِنْ أَنتُمْ .. (٥٨)﴾ [الروم] يعنى : كل الرسل ﴿مُبْطِلُونَ (٥٨)﴾ [الروم] أى : كاذبون تختلقون من عند أنفسكم وتقولون : هو من عند الله . وعجيب من هؤلاء أن يؤمنوا بالله ويُكذِّبوا رسله ، ككفار مكة الذين شمتوا فى رسول الله حين فتر عنه الوحى فقالوا : « إن رب محمد قلاه »[2] .

---

(١) بَهُتَ : دهش وتحير . [القاموس القويم ١/٨٦] قال ابن منظور فى لسان العرب ـ مادة : بهت : « انقطع وسكت متحيراً » .

(٢) عن جندب بن عبد الله البجلى قال : اشتكى النبى ﷺ فلم يقم ليلة أو ليلتين ، فأتت امرأة فقالت : يا محمد ما أرى شيطانك إلا قد تركك ، فأنزل الله ﴿وَالضُّحَىٰ (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣)﴾ [الضحى] رواه البخارى ومسلم ، وفى رواية قال جندب : أبطأ جبريل على رسول الله ﷺ فقال المشركون : ودع محمداً ربه . قاله ابن كثير فى تفسيره (٤/٥٢٢) .

وهم لا يدرون أن الوحى كان يجهد رسول الله ، وكان يشقُّ عليه فى بداية الأمر ، حتى جاء زوجه خديجة يقول : زملونى زملونى ، دثرونى دثرونى ، وكان جبينه يتفصد عرقاً ، وكان ﷺ يقول عن الملَك : « وضمنى حتى بلغ منى الجهد »[(١)] .

وما ذاك إلا لالتقاء الملكية بالبشرية ؛ لذلك كان جبريل عليه السلام يتمثل لسيدنا رسول الله فى صورة بشر ، ليس عليه غبار السفر ولا يعرفه أحد ، كما جاء لرسول الله وهو فى مجلس الصحابة يسأله عن الإيمان والإسلام والإحسان[(٢)] .

إذن : مسألة فتور الوحى وانقطاعه مدة عن رسول الله أراد الله به أن يستريح رسول الله من مشقة الوحى حتى يزول عنه الألم والعناء ، وعندها يشتاق للوحى من جديد ، ويهون عليه فيتحمله ويصير له دُرْبة على تلقيه من الملك ، فشَوْق الإنسان إلى الشىء يجعله يتحمل المشاقّ فى سبيله ، ويُهوِّن عليه الصعاب ، كالذى يسير إلى محبوبه

---

(١) قالت عائشة رضى الله عنها : « لقد رأيته ﷺ ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد ، فيفصم عنه ، وإن جبينه ليتفصّد عرقاً » أخرجه البخارى فى صحيحه (٢) كتاب بدء الوحى . قال ابن حجر فى الفتح (١/٢١) : « شبه جبينه بالعرق المفصود مبالغة فى كثرة العرق » والفصد هو قطع العرق لإسالة الدم .

(٢) عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر لا يُرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منا أحد ، حتى جلس إلى النبى ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ، ووضع كفيه على فخذيه ، وقال : يا محمد ، أخبرنى عن الإسلام (فيجيبه) ، فأخبرنى عن الإيمان (فيجيبه) ، فأخبرنى عن الإحسان (فيجيبه) ، فأخبرنى عن الساعة (فيجيبه) قال عمر : ثم قال ﷺ : أتدرى من السائل ؟ قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : « فإنه جبريل ، أتاكم يعلمكم دينكم » . أخرجه مسلم فى صحيحه (٨) كتاب الإيمان ، وكذا البخارى فى صحيحه (٥٠) ولكن من حديث أبى هريرة .

فلا يبالى حتى لو سار على الشوك ، أو اعترضته المخاوف والأخطار.

والوحى لقاء بشرى بملكى ، فإما أنْ ينتقل الرسول إلى مرتبة الملَك ، أو ينتقل الملك إلى مرتبة البشر ، وهذا التقارب لم يحدث فى بداية نزول الوحى فأجهد رسول الله واحتاج إلى هذه الراحة بانقطاع الوحى .

لذلك يقول سبحانه : ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ (٢) الَّذِى أَنقَضَ ظَهْرَكَ (٣)﴾ [الشرح] أى : جعلناه خفيفاً لا يجهدك . ويقول سبحانه فى الرد عليهم : ﴿وَالضُّحَىٰ (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣)﴾ [الضحى]

فعجيب أنْ يقولوا « إن رب محمد قلاه » فيعترفون برب محمد ساعة الشدة والضيق الذى نزل به ، فأشمتهم فيه حتى قالوا : إن رب محمد جفاه ، فلما وصله ربه بالوحى ودعاهم إلى الإيمان كفروا وكذَّبوا .

﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٥٩)﴾

قوله سبحانه : ﴿كَذَٰلِكَ .. (٥٩)﴾ [الروم] أى : كتكذيبهم لكل آية تأتيهم بها ﴿يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ (٥٩)﴾ [الروم] أى ختمها وأغلقها .

فإنْ قلتَ : فمن المصلحة أنْ تظل قلوبهم مفتوحة لعلها تستقبل شيئاً من الهداية والنور . نقول : الخَتْم على قلوب هؤلاء لا يكون إلا بعد استنفاد كل وسائل الدعوة ، فلم يستجيبوا فلا أملَ فى هدايتهم ولا جدوى من سماعهم .

والحق - سبحانه وتعالى - ربٌّ يعين عبده على ما يحب ويلبى له رغبته ، حتى وإنْ كانت الكفر ، وهؤلاء أرادوا الكفر وأحبوه ، فأعانهم الله على ما أرادوا ، وختم على قلوبهم حتى لا يدخلها إيمان ، ولا يفارقها كفر .

لذلك سبق أنْ حذَّرنا أصحاب المصائب ، أو الذين يفقدون عزيزاً ، حذرناهم أنْ يستديموا الحزن ، وأنْ يألفوه مخافة أنْ يوافقكم الله على هواكم فى محبة الحزن وعشْقه ، فتتوالى عليكم الأحزان وتتتابع المصائب ، إياكم أن تدعوا بَاب الحزن موارباً ، بل أغلقوه بمسمار الرضا ، فالحزن إنْ ظلَّ بك فلن يدعَ لك حبيباً .

وكذلك نقول : إن شُغل عنك شخص فلا تُذكِّره بنفسك ، بل أَعِنْهُ على هجرك ، وساعده بألاَّ تذكره .

فإذا قلتَ : إذا كان الحق سبحانه قد وصفهم بأنهم لا يعلمون ، فلماذا يختم على قلوبهم ، ولماذا يحاسبهم ؟ نقول : لأن عدم العلم نتيجة تقصيرهم ، فالحق سبحانه أقام لهم الأدلة والآيات الكونية الدالة على وجوده تعالى ، فلم ينظروا فى هذه الآيات ولم يستدلوا بالأدلة على وجود الخالق القادر سبحانه ، وضرورة البلاغ عن الله ، إذن : فعدم علمهم نتيجة غفلتهم وتقصيرهم .

لكن ، ماذا بعد أنْ كذَّبوا الرسل وأنكروا الآيات ، أتتوقف مسيرة الدعوة ، لأنهم صَمُّوا آذانهم عنها ؟ لقد خلق الله الكون ونثر فيه الآيات التى تدل على وجود الإله الواحد الأحد ، وجعل فيه المعجزات التى تثبت صِدْق الرسُل فى البلاغ عن الله ، والحق سبحانه لا ينتفع بهذه الآيات ؛ لأن مُلْكه تعالى لا يزيد بطاعتنا ، ولا ينقص بمعاصينا ، فالمسألة تعود إلينا نحن أولاً وآخراً ، إذن : فالحسم فى هذه

المسألة : دَعْكَ من هؤلاء المكذِّبين يا محمد ، واثبُتْ على ما أنت عليه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾

اصبر على كرههم ، واصبر على لَدَدهم وعنادهم ، واصبر على إيذائهم لك ولمن يؤمن بك ، اصبر على هذا كله ؛ لأن العاقبة فى صالحك ﴿ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ .. ﴿٦٠﴾ ﴾ [الروم] وقد وعد الله رسله بالنصرة والغَلَبة ، ووَعْد الله حق ، فتأكد أن النصر آتٍ .

لكن ما دام النصر آتياً ، فلماذا هذا الصراع بين المؤمنين والكافرين ؟ ولماذا كل هذه المشقة والعناء فى سبيل الدعوة ؟ قالوا : لأن الله تعالى يريد أنْ يُمحِّص أتباع محمد ، وأن يُدرِّبهم على مسئولية حمل أمانة الدعوة وشعلة النور من بعد رسول الله ، لا إلى أهل الجزيرة العربية وحدها ، إنما إلى الكون كله .

فلا بُدَّ أنْ يكونوا من أهل الثبات على المبدأ الذين لا تزعزعهم الشدائد ، والدليل على ذلك أنهم يُؤذَوْن ويُضطهدون فيصبرون ، وهذه أهم صفة فيمن يُعدُّ لتحمُّل الأمانة .

لذلك نقول : إذا رأيتَ منهجاً أو مبدأ يغدق على أصحابه أولاً ، فاعلم أنه مبدأ باطل ؛ لأن المبدأ الحق يضحى أهله من أجله بأنفسهم وبأموالهم ، يعطونه قبل أنْ يأخذوا منه ، لماذا ؟ لأن صاحب المبدأ الباطل لن يجد مَنْ يناصره على باطله إلا إذا أغراهم بالمال أولاً

واشترى ذممهم ، وإلا فماذا يلجئه إلى مبدأ باطل ، ويحمله على اتباعه ؟ إذن : لابد أن يقبض الثمن أولاً .

أما المبدأ الحق فيعلم صاحبه أن الثمن مُؤجَّل للآخرة ، فهو ممنَّى بأشياء فوق هذه الدنيا يؤمن بها ويعمل من أجلها ، فتهون عليه نفسه ، ويهون عليه ماله فى سبيل هذا المبدأ .

وفى رحلة الدعوة ، رأينا الكثيرين يتساقطون بالردة عندما تَحْدثُ لرسول الله آية أو هزة تهزُّ الناس ، وكأن الشدة غربال يميز هؤلاء وهؤلاء ، حتى لا يبقى تحت راية لا إله إلا الله إلا الصناديد الأقوياء القادرون على حمل هذا اللواء إلى العالم كله .

فالله يقول لنبيه : اصبر على تكذيبهم وعلى إنكارهم وعلى ائتمارهم عليك ، فنحن مُؤيدوك ، ولن نتخلى عنك ، وقد وضح لك هذا التأييد حين جاهروك فانتصرت على جهرهم وبيَّتوا لك فى الخفاء فانتصرتَ على تبييتهم ، واستعانوا حتى بالجن ليفسدوا عليك أمرك ، ففضح الله تدبيرهم ونجاك منهم .

إذن : فاطمئن ، فنحن لهم بالمرصاد ، ولن نُسلِمك أبداً ، بل وسوف نريك فيهم ما يستحقون من العقاب فى الدنيا ، وتراه بعينك ، أو فى الآخرة بعد موتك : ﴿ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٧٧) ﴾ [غافر]

ومن هذا العقاب الذى نزل بهم فى الدنيا ورآه سيدنا رسول الله ما حاق بهم يوم بدر من قَتْل وأَسْر وتشريد ، وقلنا : إن عمر رضى الله عنه وما أدراك ما عمر ، فقد كان القرآن ينزل على وَفْق رأيه ، ومع ذلك لما نزلت : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) ﴾ [القمر] تعجب وقال : أىُّ جمع هذا الذى سيُهزم ، ونحن عاجزون حتى عن حماية

أنفسنا ، فلما كانت بدر ، ورأى ما رأى قال : صدق الله ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥)﴾ [القمر]

وقوله تعالى : ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ .. (٦٠)﴾ [الروم] الوعد : هو البشارة بخير لم يأت زمنه الآن ، وفَرْق بين الوعد بالخير من إنسان ، والوعد من الله تعالى ، فوَعْدكَ قد يتخلف لأنك ابن أغيار ، ولا تملك كل عناصر الوفاء بالوعد ، وربما جاء وقت الوفاء فلم تقدر عليه أو تتغير نفسك من ناحيته فتبخل عليه ، أو تراه لا يستحق ... إلخ .

إذن : الأغيار التى تنتابك أو تنتابه أو تنتاب قيمة ما تؤديه من الخير موجودة ، وقد تحول بينك وبين الوفاء بما وعدتَ .

لذلك يعلمنا الحق سبحانه أنْ نحتاط لهذا الأمر ، فيقول سبحانه : ﴿وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا (٢٣) إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ ..(٢٤)﴾ [الكهف] فاربط فعْلك بمشيئة الله التى تُيسِّر لك الفعل ، ولا ينبغى أنْ تجزم بشىء أنتَ لا تملك شيئاً من أسبابه .

قلنا : هَبْ أنك قلتَ : سألقاك غداً فى المكان الفلانى ، وسأعطيك كذا وكذا ، فأنت قلتَ هذه المقولة ووعدتَ هذا الوعد وأنت لا تضمن أن تعيش لغد ، ولا تضمن أنْ يعيش صاحبك ، وإنْ عشْتُما لغد فقد يتغير رأيك ، أو يصيبك شىء يعوقك عن الوفاء ، إذَن : فقولك إنْ شاء الله يحميك أنْ تُوصف بالكذب فى حالة عدم الوفاء ؛ لأنك وعدتَ ولم يشأ الله ، فلا دخلَ لك فى الأمر .

فالوعد الحق يأتى ممَّنْ ؟ منَ الذى يملك كُلَّ أسباب الوفاء ، ولا يمنعه عنه مانع .

وقوله تعالى : ﴿وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ (٦٠)﴾ [الروم] خف الشىء : لم يَعُدْ له ثِقَل ، واستخفّ غيره : طلب منه أنْ يكون خفيفاً ،

فمثلاً حين تقسو على شخص يأتى آخر فيقول لك : خف عنه . واستخفّه مثل استفزّه يعنى : حرّكه وذبذبه من ثباته ، فإنْ كان قاعداً مثلاً هَبَّ واقفاً .

لذلك نقول فى مثل هذه المواقف (خليك ثقيل .. فلان بيستفزك يعنى : يريد أنْ يُخرجك عن حلمك وثباتك .. متبقاش خفيف .. إلخ) ونقول للولد (فز) يعنى قفْ انهض ، ومنه قوله تعالى ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ[1] .. (٦٤)﴾ [الإسراء]

إذن : فالمعنى استخفه : حمله على الخفة وأن يتحول عن الثبات الذى هو عليه .

فالمعنى : إياك يا محمد أنْ يستفزّك القوم ، أو يُخرجوك عن ثباتك ، فتتصادم معهم ، لكن ظلّ على ثباتك فى دعوتك ولا تقلق ؛ لأن الله وعدك بالنصرة ووَعْد الله حَقٌّ . والحق سبحانه ساعة يُرخى العنان لمن كفر به إنما يريد أنْ يُخرج كل ما عندهم حتى لا يبقى لهم عذر ، ثم يقابلهم ببعض ما عنده مما يستحقون فى الدنيا ، والباقى سيرونه فى الآخرة .

والله يقول : ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣)﴾ [الصافات]

ومن سيرة الإمام على ـ رضى الله عنه وكرَّم الله وجهه ـ علمنا أنه ابتُلِى بجماعتين : الخوارج الذين يُكفِّرونه ، والشيعة الذين يُؤلهونه ويصلون به إلى درجة النبوة ، حتى صدق فيه قول رسول الله :

---

(١) أى : بكل قوتك وبجنودك كلهم راكبين أو مشاة غير راكبين . [القاموس القويم ١/٢٥٧] .

« هلك فيك اثنان : مُحب غالٍ ، ومبغض قَالٍ[١] »[٢] .

ويروى[٣] أنه ـ رضى الله عنه ـ كان يصلى يوماً الفجر بالناس ، فلما قرأ : (ولا الضالين) اقترب منه أحد الخوارج وقرأ : ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٥) ﴾ [الزمر] يريد أن يقول له : أنت كافر ولن يقبل منك عملك .

وسرعان ما فطن على لما أراده الرجل ، فقرأ بعدها مباشرة : ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ (٦٠) ﴾ [الروم] يعنى : لن تُخرجنى عن ثباتى وحلْمى ولن تستفزنى .

والعظمة فى هذا الموقف أنْ يرد على لتوِّه بالقول الشافى من كتاب الله دون سابق إعداد أو ترتيب ، ولِمَ لا ، وهو على بن أبى طالب الذى أُوتى باعاً طويلاً فى البلاغة والفصاحة والحجة .

ومعنى : ﴿ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ (٦٠) ﴾ [الروم] من اليقين ، وهو الإيمان الثابت الذى لا يتزعزع ، فيصير عقيدة فى القلب لا تطفو إلى العقل لتناقش من جديد .

---

(١) القلَى : البغض . قال ابن سيده : قليته قِلى وقلاء : أبغضته وكرهته غاية الكراهة فتركته . [لسان العرب ـ مادة : قلى] .

(٢) عن على بن أبى طالب قال : دعانى رسول الله ﷺ فقال : « إن فيك مثلاً من عيسى أبغضته اليهود حتى بهتوا أمه ، وأحبته النصارى حتى أنزلوه بالمنزل الذى ليس به ، ألا وإنه يهلك فىّ اثنان : محب مفرط يقرظنى بما ليس فىّ ، ومبغض يحمله شنآنى على أن يبهتنى ، ألا وإنى لست بنبى ولا يُوحى إلىَّ ، ولكنى أعمل بكتاب الله وسنة نبيه ما استطعت » أورده الهيثمى فى مجمع الزوائد (٩/١٣٣) وعزاه للبزار وأبى يعلى الموصلى .

(٣) أورده ابن كثير فى تفسيره (٣/٤٤٠) من عدة طرق :
- من طريق قتادة . رواه ابن جرير وابن أبى حاتم .
- من طريق على بن ربيعة . رواه ابن جرير .
- من طريق أبى يحى . رواه ابن أبى حاتم .

سُورَةُ لُقْمَانَ

سورة لقمان[1]

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الم ١﴾

سبق أنْ فصَّلنا القول فى الحروف المقطّعة فى بدايات السور ، وذكرنا كل ما يمكن أنْ يقوله بشر ، وبعد هذا كله نقول : والله أعلم بمراده ؛ لأننا مهما أوتينا من العلم فلن نصل إلى غاية هذه الحروف ، وسيظل فيها من المعانى ما نعجز نحن عن الوصول إليه .

فإنْ قلتَ : فما فائدة هذه الحروف المقطعة إنْ كانت غير معلومة المعنى ؟ نقول : نحن نناقشكم بالعقل وبالمنطق ، فالقرآن نزل بأسلوب عربى ، وتحدى العرب وهم أهل الفصاحة والبلاغة والبيان

---

(١) سورة لقمان هى السورة رقم (٣١) فى ترتيب المصحف الشريف عدد آياتها ٣٤ آية ، وهى سورة مكية نزلت بعد سورة الصافات ، وقبل سورة سبأ . قال القرطبى فى تفسيره : « هى مكية ، غير آيتين . قال قتادة : أولهما : ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلامٌ.. ﴿٢٧﴾﴾ [لقمان] إلى آخر الآيتين . وقال ابن عباس : ثلاث آيات ، أولهن هذه الآية إلى قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ .. ﴿٢٩﴾﴾ [لقمان] .

وأصحاب التعبير الجميل والأداء الرائع ، ونزل فى قريش التى جمعتْ فى لغتها كل لغات القبائل العربية ، وقد خرج منها صناديد كذبوا محمداً ، وكفروا بدعوته ، فهل سمعنا منهم مَنْ يقول مثلاً : ما معنى (الم) أو (حم) .

والله لو كان فيها مطعن ما تركوه ، إذن : فهذا دليل على أنهم فهموا هذه الحروف ، وعرفوا أن لها معنى أبسطها أن نقول : هى من حروف التنبيه التى كان يستخدمها العرب فى كلامهم ، فهى مثل (ألا) فى قول الشاعر[١] .

أَلاَ هُبِّى بِصحْنك فَاصْبِحينا ولاَ تُبْقِ خُمور الأَنْدرينَا[٢]

فألا أداة للتنبيه ، وتأتى أهمية التنبيه فى أول الكلام من أن المتكلم يملك زمام منطقه فيرتبه ويُعده ، ويدير المسائل بنسب ذهنية فى ذِهْنه ، لكن السامع قد يكون غافلاً ، فيُفاجأ بالكلام دون استعداد ، فيفوته منه شىء ، فتأتى حروف التنبيه لتُخرجه من غفلته ، وتسترعى انتباهه ، فلا يفوته من كلامك شىء ، إذن : أبسط ما يقال فى هذه الحروف أنها للتنبيه على طريقة العرب فى كلامهم .

وسبق أنْ بيَّنا أن القرآن مبنى كله على الوصل فى آياته وسوره ، بل فى آخره وأوله نقول : (من الجنة والناس بسم الله الرحمن

---

(١) هو : عمرو بن كلثوم بن مالك بن عتاب أبو الأسود ، شاعر جاهلى ، ولد فى شمال جزيرة العرب فى بلاد ربيعة ، وتجول فيها وفى الشام والعراق ونجد ، هو من الفتاك الشجعان ، أشهر شعره معلقته التى فيها هذا البيت : توفى نحو ٤٠ ق هـ . [الأعلام للزركلى ٥/٨٤] .

(٢) الصحن : القدح العظيم . والأندرون : قرى بالشام . ومعنى البيت : ألا استيقظى من نومك أيتها الساقية ، واسقنى الصبوح بقدحك العظيم ولا تدخرى خمر هذه القرى . [شرح المعلقات السبع للزوزنى ص ١٦٥] .

الرحيم الحمد لله رب العالمين) وكذلك فى الآيات والسور . وكأن الله تعالى يريد منك ألاَّ تفصل آية من القرآن عن التى بعدها ؛ لذلك يقولون عن قارىء القرآن : هو الحالّ المرتحل ، فهو حالٌّ فى آية أو سورة ، مرتحل إلى التى تليها .

إذن : الوصْل سمَة عامة فى القرآن كله لا يستثنى من ذلك إلا الحروف المقطعة فى بدايات السور ، فهى قائمة على القطع ، فلا نقول هنا ألفٌ لامٌ ميمٌ ، لكن نقول ألفْ لامْ ميمْ ، فلماذا اختلفت هذه الحروف عن السمة العامة للقرآن كله ؟

قالوا : ليدلَّك على أن الألف أو اللام أو الميم ، لكل منها معناه المستقل ، وليست مجرد حروف كغيرها من حروف القرآن ؛ لذلك خالفتْ نسق القرآن فى الوصل ؛ لأن لها معنىً مستقلاً تؤديه .

ويفسر هذا قول النبى ﷺ : « مَنْ قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة ، والحسنة بعشر أمثالها ، لا أقول الم حرف ، ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف »[1] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ ﴾

تلك : اسم إشارة للمؤنث مثل ذلك للمذكر ، وهى عبارة عن التاء للإشارة ، واللام للبُعْد ، سواء أكان فى المكان أو فى المكانة والمنزلة ، ثم الكاف للخطاب ، وتأتى بحسب المخاطب مذكراً أو مؤنثاً ، مفرداً أو مثنىً أو جمعاً .

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه (٢٩١٠) من حديث عبد الله بن مسعود ، وقال : حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه .

فتقول فى خطاب المفرد المذكر : تلك . وللمفردة المؤنثة : تلك . وللمثنى تلكما .. إلخ ، ومن ذلك قول امرأة العزيز فى شأن يوسف عليه السلام : ﴿فَذَٰلِكُنَّ الَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ .. (٣٢)﴾ [يوسف] فذا اسم إشارة ليوسف ، واللام للبُعْد وكُنَّ ضمير لمخاطبة جمع المؤنث .

ويقول تعالى فى خطاب موسى : ﴿فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ .. (٣٢)﴾ [القصص] أى : اليد والعصا ، فذانِ اسم إشارة للمثنى ، والكاف للخطاب .

والإشارة هنا ﴿تِلْكَ آيَاتُ.. (٢)﴾ [لقمان] لمؤنث وهى الآيات ، والمخاطب سيدنا رسول الله ﷺ وأمته تبع له ، والقرآن الكريم مرة يشير إلى الآيات ، ومرة يشير إلى الكتاب نفسه ، فيقول : الكتاب أو الفرقان ، أو القرآن ولكل منها معنى .

فالكتاب دلَّ على أنه يُكتب وتحويه السطور ، والقرآن دلَّ على أنه يُقرأ وتحويه الصدور ، أما الفرقان فهذه هى المهمة التى يقوم بها : أنْ يفرق بين الحق والباطل .

وهنا قال ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (٢)﴾ [لقمان] فوصفه بالحكمة ، أما فى أول البقرة فقال : ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى.. (٢)﴾ [البقرة] فلم يُوصَف بالحكمة ، إنما نفى عنه أن يكون فيه ريب. أى : شك .

وكلمة ﴿لا رَيْبَ فِيهِ .. (٢)﴾ [البقرة] تؤكد لنا صدْق الرسول فى البلاغ عن الله ، وصدْق الملَك الذى حمله من اللوح المحفوظ إلى رسول الله ، وقد مدحه الله بقوله : ﴿ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى الْعَرْشِ مَكِينٍ (٢٠)﴾ [التكوير]

وقال عن سيدنا رسول الله فى شأن تبليغ القرآن : ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ

عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ (٤٤) لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) ﴾ [الحاقة]

إذن : فالقرآن كما نزل من عند الله ، لم يُغيَّر فيه حرف واحد ، وسيظل كذلك محفوظاً بحفظ الله له إلى أنْ تقوم الساعة ، وسنظل نقرأ ﴿ لا رَيْبَ فِيهِ .. (٢) ﴾ [البقرة]

ويقرؤها مَنْ بعدنا إلى قيام الساعة ، فقد حكم الحق سبحانه بأنه لا ريْب فى هذا القرآن منذ نزل إلى قيام الساعة ، فإنْ شككونا فى شىء من كتاب ربنا فعلينا أن نقرأ ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (٢) ﴾ [البقرة]

فهذه قضية حكم الله بها ، وهى ممتدة وباقية ما بقيتْ الدنيا ، كما سبق أنْ قُلْنا ذلك فى قوله تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ .. (٥٣) ﴾ [فصلت] فالآية تستوعب المستقبل كله ، مستقبل مَنْ عاصر نزول القرآن ، ومستقبل مَنْ يأتى بعد إلى قيام الساعة ، بل مستقبل مَنْ تقوم الساعة عليهم .

فالقرآن لم ينزله الله ليُفرغ كل أسراره وكل معجزاته فى قَرْن واحد ، ولا فى أمة واحدة ، ثم يستقبل القرون والأمم الأخرى دون عطاء ، الله يريد للقرآن أنْ يظل جديداً تأخذ منه كل الأمم وكل العصور ، وتقف على أسراره ومعجزاته وآياته فى الكون .

ومعنى ﴿ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (٢) ﴾ [لقمان] الكتاب لا يُوصَف بالحكمة إنما يُوصَف بالحكمة مَنْ يعلم ، فالمعنى : الكتاب الحكيم أى : الموصوف بالحكمة ، أو الحكيم قائله ، أو الحكيم مُنزله . ومعنى حكيم : هو الذى يضع الشىء فى موضعه ، ولا يضع الشىء فى موضعه إلا الله ؛ لأنه هو الذى يعلم صِدْق الشىء فى موضعه .

أما نحن فنهتدى إلى موضع الشىء ، ثم يتبين لنا خطؤه فى

موضعه ، ونضطر إلى تغييره أو تعديله ككثير من المخترعات التى ظننا أنها تخدم البشرية قد رأينا مضارها ، واكتوينْا بنارها فيما بعد .

فكل آية ذكرت ناحية من نواحى كمال القرآن وجهة من جهات عظمته ، إذن : فهى لقطات مختلفة لشىء واحد متعدد الملكات فى الكمال ، وكذلك تجد تعدد الكمالات فى الآية بعدها :

﴿ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ٣ ﴾

هنا يقول سبحانه ﴿ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ٣ ﴾ [لقمان] أما فى صدر سورة البقرة فيقول ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ٢ ﴾ [البقرة] وفَرْق بين المعنيين ، فالتقوى تقتضى الإيمان ، ومطلوب الإيمان الافتراض يعنى : أنْ تؤدى ما فرضه الله عليك .

أما مطلوب الإحسان ففوق ذلك ، فالإحسان فى الأداء أن تُحسن فى كَمِّه ، وأن تحسن فى كيفه : تحسن فى كيفه بأن تستصحب مع العمل الإخلاصَ للمعمول له ، وهو الحق سبحانه ، وتحسن فى كَمِّه بأنْ تعشق التكليف حتى تؤدى فوق ما فُرِض عليك ، فبدل أنْ تصلى ركعتين تصلى ثلاثاً أو أربعاً ، هذا إحسان فى الكم .

والتقوى من عجائب التأويل القرآنى كما سبق أنْ قلنا ، فالقرآن يقول (اتقوا الله) ويقول (اتقوا النار) ، والمعنى عند التحقيق واحد ؛ لأن اتق النار يعنى : اجعل بينك وبينها وقاية وحاجزاً يمنعك منها ، كذلك اتق الله ، لا أن تجعل بينك وبين ربك حاجزاً ؛ لأن المؤمن دائماً يكون فى معية الله .

إنما اجعل بينك وبين صفات الجلال ومتعلقاتها من الله وقاية ، اتق صفات المنتقم الجبار القهار .. الخ ؛ لأنك لستَ مطيقاً لهذه

الصفات ، ولا شكَّ أن النار جندى من جند الله ، ومتعلق من متعلقات صفات الجلال إذن : فالمعنى واحد .

والبعض يأخذون بالظاهر فيقولون : كيف نتقى الله ، والتقوى أن تبعد شيئاً ضاراً عنك ؟ نقول : نعم أنت تبعد عنك الكفر ، وهذا هو عين التقوى ، والمتقون هم الذين يحبون أنْ يتقوا الله بألاَّ يكونوا كافرين به ، وما دام الإنسان اتقى الكفر فهو مُحسِن ومؤمن ، فالقرآن مرة يأتى باللازم ، ومرة بالملزوم ، ليؤدى كل منهما معنى جديداً .

لذلك لما سُئل سيدنا رسول الله عن الإحسان - فى حديث جبريل - قال : « أنْ تعبد الله كأنك تراه ، فإنْ لم تكُنْ تراه فإنه يراك »[(١)]

فحين نوازن بين صدر سورة البقرة ، وبين هذه الآية ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ۝٣﴾ [لقمان] نرى أن القرآن لا يقوم على التكرار ، إنما هى لقطات إعجازية كل منها يؤدى معنى ، وإنْ ظن البعض فى النظرة السطحية أنه تكرار ، لكن هو فى حقيقة الأمر عطاء جديد لو تأملته .

فهنا وصف الكتاب بأنه حكيم ، وأنه هدى ورحمة : والهدى هو الدلالة على الخير بأقصر طريق ، وقد نزل القرآن لهداية قوم قد ضلوا ، فلما هداهم إلى الصواب وأراهم النور أراد أنْ يحفظ لهم هذه الهداية ، وألاَّ يخرجوا عنها فقال ﴿وَرَحْمَةً ۝٣﴾ [لقمان] يعنى : من رحمة الله بهم ألاَّ يعودوا إلى الضلال مرة أخرى .

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٠) وكذا مسلم فى صحيحه (٨) من حديث عمر بن الخطاب ، وهو حديث جبريل الطويل الذى تمثل فى صورة رجل « شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ، لا يُرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منا أحد » فسأل رسول الله ﷺ عن الإسلام والإيمان والإحسان .

كما فى قوله سبحانه :﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٨٢) ﴾ [الإسراء] فالمعنى : شفاء لمن كان مريضاً ، ورحمة بألاَّ يمرض أبداً بعد ذلك .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤) ﴾

جاءت هذه الآية كوصف للمحسنين ، فهل هذه هى كل صفاتهم ، أنهم يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ، وبالآخرة هم يوقنون ؟ قالوا : لا لكن هذه الصفات هى العُمد الأساسية ، والحق سبحانه يريد من خَلْقه سواسية فى العبودية ، وهذه السواسية لا تتأتى إلا إذا تساوى الجميع .

وفى الصلاة بالذات تتجلى هذه المساواة ، وفيها يظهر عِزّ الربوبية وذل العبودية ، وفيها منتهى الخضوع لله عزوجل ، ثم هى تتكرر خمس مرات فى اليوم والليلة .

أما الفرائض الأخرى فلا تأخذ هذه الصورة ، فالزكاة مثلاً تجب مرة واحدة فى العام ﴿ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ (١٤١) ﴾ [الأنعام] وتجب على القادر فقط دون غيره ، كذلك الصوم والحج ، فكأن الصلاة هى عمدة العبادات كلها ، ولشرفها ومنزلتها جعلها الله لازمة للعبد ولا تسقط عنه بحال أبداً ؛ لذلك شُرعت صلاة المريض والمسافر والخائف ... الخ.

وفى الصلاة استطراق للعبودية فى الخَلْق جميعاً ، حيث نخلع

أقدارنا حين نخلع نعالنا على باب المسجد ، ففى الصف الواحد ، الرئيس والمرءوس ، والكبير والصغير ، والرفيع والوضيع - نقصد الوضيع فى نظر الناس ، وربما لا يكون وضيعاً عند ربه - فالجميع هنا سواء ، ثم حين نرى الكبار والرؤساء والسادة معنا فى الصفوف خاضعين لله أذلاء تزول بيننا الفوارق ، ويدكُّ فى نفوسهم الكبرياء ، فلا يتعالى أحد فى مجتمع المسلمين على أحد .

ولمنزلة الصلاة وأهميتها رأينا كيف أنها الفريضة الوحيدة التى فرضها الله علينا بالمباشرة ، أما باقى التكاليف فقد فُرِضَتْ بواسطة الوحى ، وسبق أنْ ضربنا مثلاً لذلك برئيس العمل حينما يأتيه أمر هام ، فلا يأمر به بمكاتبة أو بالتليفون ، إنما يستدعى الموظف المختص إلى مكتبه ، ويلقى إليه الأمر مباشرة .

وكذلك رسول الله استدعاه ربه إلى السماء ، وأخذ حظاً بالقُرْب من الله تعالى ، والله سبحانه يعلم حب الرسول لأمته وحرصه عليهم ، وعلى أنْ ينالوا هم أيضاً هذا القرب من حضرته تعالى ، فأجابه ربه ، وجعل الصلاة حضوراً للعبد فى حضرته تعالى ، وقرباً كقرب رسول الله فى رحلة المعراج .

لذلك خاطبه ربه بقوله :﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۝٥ ﴾ [الضحى]

فقال سيدنا رسول الله : « إذن ، لا أرضى وواحد من أمتى فى النار »[1]

وكما تُحدِث الصلاة استطراق عبودية تُحدِث الزكاةُ فى المجتمع

---

(١) أخرج الخطيب فى « تلخيص المتشابه » عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : لا يرضى محمد ، وواحد من أمته فى النار . وأخرج البيهقى فى شعب الإيمان عن ابن عباس أيضاً أنه قال : رضاه أن تدخل أمته الجنة كلهم .

استطراقاً اقتصادياً ، فيعيش الجميع الغنى والفقير عيشة كريمة مُيسَّرة ، فلا يشبع واحد حتى التخمة ، والآخر يموت جوعاً . وما بالك بمجتمع لا يتعالى فيه الكبير على الصغير ولا يبخل فيه الغنى على الفقير ؟ إذن : فى الصلاة والزكاة ما يكفل سعادة المجتمع كله .

وقد فرض الله الزكاة للفقراء ؛ لأن الله سبحانه حين يستدعى عبده إلى كونه لا بُدَّ أنْ يضمن له مُقومات الحياة ، ولم لا وأنت إذا دعوْتَ شخصاً إلى بيتك لابُدَّ أنْ تكرمه ، وأنْ تُعد له على الأقل ضروريات ما يلزمه فضلاً عن الإكرام والحفاوة ورفاهية المأكل والمشرب .. الخ.

فالله سبحانه استدعى عباده إلى الوجود مؤمنهم وكافرهم ، وعليه سبحانه أنْ يوفر لهم القوت ، بل كل مقومات حياتهم ، كذلك يضمن للعاجز غير القادر قوته ، لذلك يفرض الزكاة حقاً معلوماً للسائل والمحروم ، فهى صِلاتٌ والأولى صلاة .

ولهذه المسألة قصة فى الأدب العربى ، فيُرْوى أن ابن المدبر وكنيته أبو الحسن ، كان الشعراء يقصدونه للنيل من عطاياه ، يقولون : إن اللُّها تفتح اللَّها[1] ، أى : أن العطايا تفتح الأفواه بالمدح والثناء .

لكن ، كان ابن المدبر إذا مدحه شاعر بشعر لم يعجبه يأمر رجاله أنْ يأخذوه إلى المسجد ولا يتركوه حتى يصلى لله مائة ركعة ، وبذلك خافه الشعراء وتحاشوْا الذهاب إليه إلا أبو عبد الله الحسين بن عبد السلام البشرى ، ذهب إليه وقال : عندى شعر أحب أنْ أنشده لك ،

---

(١) اللُّها : أفضل العطايا وأجزلها . ويقال : إنه لمعطاء للُّها إذا كان جواداً يعطى الشىء الكثير . واللَّهاة : لحمة حمراء فى الحنك فى أقصى سقف الفم . [لسان العرب ـ مادة لَهَا] .

فقال : أتدرى ما الشرط ؟ قال : نعم ، قال : قُلْ ما عندك ، فقال :

أَرَدْنَا فِى أَبِى حَسَنٍ مَدِيحاً كَمَا بالمدْحِ تُنْتَجَعُ الوُلاَةُ

يعنى : يذهب الشعراء إليهم لينالوا من خيراتهم .

فَقُلْنَا أكْرَمُ الثَّقَلَيْنِ طُراً ومَنْ كَفَّيْه دجلَةُ والفُراتُ
وقَالُوا يَقبل المدحاةَ لكنْ جَوَائِزُهُ عليهنَّ الصَّلاَةُ
فَقُلْتُ لهم ومَا تُغْنى صَلاَتى عَيَالى إنما الشْأنُ الزَّكَاةُ
فَيأمُر لى بكسْر الصّادِ منها فَتُصبح لِى الصِّلاتُ هِى الصَّلاةُ

فلما تجرَّأ عليه أحدهم وسأله : لماذا تعاقب مَنْ لم يعجبك شعره بصلاة مائة ركعة ؟ فقال : لأنه إما مسىء وإما محسن ، فإنْ كان مسيئاً فهى كفارة لإساءته فى شعره ، وإنْ كان محسناً فهى كفارة لكذبه فىَّ .

ثم يقول سبحانه فى وصفهم : ﴿ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤) ﴾ [لقمان] لأن الإيمان باليوم الآخر يقتضى أنْ نعمل بمنهج الله فى (افعل كذا) و (لا تفعل كذا) ، ونحن على يقين من أننا لن نفلت من الله ولن نهرب من عقابه فى الآخرة ، وأننا مُحَاسبون على أعمالنا ، فلم نُخلق عبثاً ، ولن نُتْرك سدى ، كما قال سبحانه : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ (١١٥) ﴾ [المؤمنون]

ونلحظ هنا فى الأسلوب تكرار ضمير الغيبة (هم) فقال :﴿ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤) ﴾ [لقمان] وهذا يدلُّنا على أن الإيمان بالآخرة أمر مؤكد لا شكَّ فيه ، ومع أن الناس يؤمنون بهذا اليوم ، ويؤمنون أنهم محاسبون ، وأن الله لم يكلفهم عبثاً - مع هذا - يؤكد الحق سبحانه على أمر الآخرة ؛ لأنها مسألة بعيدة فى نظر الناس ، وربما غفلوا عنها لبُعْدها عنهم ، ولم لا وهم يغفلون حتى عن الموت الذى يرونه

أمامهم كل يوم ، ولكن عادة الإنسان أن يستبعده فى حق نفسه .

لذلك يقول الحسن البصرى [١] : ما رأيت يقيناً أشبه بالشك من يقين الناس بالموت .

أما الكفار فينكرون هذا اليوم ، ولا يؤمنون به ؛ لذلك أكد الله عليه .

ولما سأل النبى ﷺ حذيفة [٢] رضى الله عنه : « كيف أصبحتَ يا حذيفة ؟» قال : أصبحت مؤمناً حقاً ، فقال : « لكلٍّ حقٍّ حقيقة فما حقيقة إيمانك ؟ قال : عزفتْ نفسى عن الدنيا فاستوى عندى ذهبها ومدرها [٣] ، وكأنى أنظر إلى أهل الجنة فى الجنة يُنعَّمون ، وإلى أهل النار فى النار يُعذَّبون » فقال ﷺ : « عرفتَ فالزم »

وقوله ﴿ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [لقمان] من اليقين ، وهو الإيمان الراسخ الذى لايتزعزع ، ولا يطرأ عليه شكٌّ فيطفو إلى العقل ليناقش من جديد ، وسبق أنْ قُلْنا : إن المعلومة تتدرج على ثلاث مراحل : علم اليقين ، وعين اليقين ، وحق اليقين .

علم اليقين إذا أخبرك به مَنْ تثق به ، فإذا رأيتَ ما أخبرك به

---

(١) هو : الحسن بن أبى الحسن أبو سعيد البصرى ، نشأ بالمدينة ، وحفظ كتاب الله فى خلافة عثمان ، وسمعه يخطب مرات ، كان عالماً رفيعاً ثقة حجة مأموناً عابداً ناسكاً كثير العلم فصيحاً جميلاً وسيماً ، مات سنة عشر ومائة ، وله ثمان وثمانون سنة . [تذكرة الحفاظ للذهبى ١/٧١] .

(٢) ما ورد كان فى حق الحارث بن مالك الأنصارى . أورده الهيثمى فى مجمع الزوائد (١/٥٧) وعزاه للطبرانى فى المعجم الكبير (٣/٣٠٢) وقال الهيثمى : « فيه ابن لهيعة » . وكذا أورده عن أنس بن مالك أن النبى ﷺ لقى رجلاً يقال له حارثة فى بعض سكك المدينة فقال : كيف أصبحت يا حارثة ؟ الحديث وعزاه للبزار وفيه يوسف بن عطية لا يحتج به .

(٣) المدر : قطع الطين اليابس . وهو الطين المتماسك . [لسان العرب ـ مادة مدر] .

فهو عين اليقين ، فإذا باشرتَ ذلك بنفسك فهو حَقُّ اليقين .

وضربنا لذلك مثلاً إذا قلت لك : إن البيت الحرام فى مكة وصفَته كذا وكذا ، وقد حدثت فيه توسعات كذا وكذا ، فهذه المعلومات بالنسبة لك علم يقين ، فإذا رأيتَ الحرم فهى عَيْن يقين ، فإذا يسَّر الله لك الحج أو العمرة فباشرْتَه بنفسك ، فهو حَقُّ اليقين .

والحق سبحانه وتعالى عالج هذه المراتب فى سورتين : ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ (١) حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ (٢) كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٤) كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (٥) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (٦) ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ (٧) ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ (٨) ﴾ [التكاثر]

وذلك حين يمرون على الصراط ويروْنَ النار بأعينهم رأى العين .

أما حق اليقين بالنسبة للنار ، فقد جاء فى قوله تعالى :﴿ فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٨٨) فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ (٨٩) وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩٠) فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩١) وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ (٩٢) فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ (٩٣) وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ (٩٤) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ (٩٥) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٩٦) ﴾ [الواقعة]

لكن ، هل القرآن نزل هُدى للمتقين ، وهدى للمحسنين فحسب ؟ قلنا : إن الهداية تأتى بمعنيين : هداية دلالة وإرشاد ، وهداية توفيق ومعونة ، فإن كانت هداية دلالة فقد دلّ الله المؤمن والكافر بدليل قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ (١٧) ﴾ [فصلت]

فالحق سبحانه دلَّ الجميع لأنهم عباده ، فمنهم من قَبِل الدلالة واقتنع بها فآمن ، ومنهم مَنْ رفضها فكفر ، أما الذى قَبِل دلالَة الله وآمن به فيزيده الله هداية أخرى ، هى المعونة علىَ الإيمان ، فيُحبِّبه

إليه حتى يعشقه ، ثم يعينه عليه ، كما قال سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧) ﴾ [محمد]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ (٥) ﴾

وصف الحق سبحانه قرآنه بأنه هدى ، أما هنا فيقول : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى (٥) ﴾ [لقمان] والمتكلم هو الله - عزوجل - فلا بُدَّ أنْ نتأمل المعنى ، ربنا عزوجل يريد أنْ يقول لنا نعم القرآن هُدى ، لكن إياك أنْ تظن أنك حين تتبع هذا الهدى تنفعه بشىء ، إنما المنتفع بالهداية أنت ، فحين تكون على الهدى يدلُّك ويسير بك إلى الخير ، فالهدى كأنه مطية يُوصِّلك إلى الخير والصلاح ، فأنت مُسْتعلٍ على الهدى إنْ قَبِلْتَه ، وإنْ كان هو مُسْتَعلياً عليك تشريعاً .

ثم هو هدى ممَّنْ ؟ ﴿ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ (٥) ﴾[لقمان] ممن لا يستدرك عليه ، فإنْ دلَّك دلَّك بحق ، وهَبْ أن البشر اهتدوْا إلى شىء فيه خير ، لكن بعد فترة يعارضون هم أنفسهم هذا الطريق ، ويكتشفون له مضارّ ومثالب ، ويستدركون عليه ، وربما يعدلون عنه إلى غيره ، وكم هى القوانين البشرية التى أُلغيت أو عُدِّلت ؟

إذن : الهداية والدلالة الحقة لا تكون إلا لله ، والقانون الذى ينبغى أن يحكمنا ونطمئن إليه لا يكون إلا لله ، لماذا ؟ لأن البشر ربما ينتفعون من قوانينهم ، وقد تتحكم فيهم الأهواء أو يميلون لشخص

على حساب الآخر ، أما الحق - سبحانه وتعالى - فهو وحده سبحانه الذى لا ينتفع بشىء مما شرع لعباده ، ولا يحابى أحداً على حساب أحد ، والعباد كلهم عباده وعنده سواء .

لذلك يطمئننا الحق سبحانه على تشريعه وعدالته سبحانه ، فيقول ﴿ مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلا وَلَدًا (٣) ﴾[الجن] يعنى : اطمئنوا ، فربكم ليس له صاحبة تؤثر عليه ، ولا ولد يظلم الناس فيحابيه ، فأنتم جميعاً عنده سواسية .

ثم هناك فَرْق بين هُدى من الله ، وهدى من الرب ، فالرب هو الذى ربَّاك ، هو الذى أوجدك من عَدم ، وأمدك من عُدْم ، وأعطاك قبل أنْ تعرف السؤال ، وتركك تربع فى كونه وتتمتع بنعمه .

لذلك يُعلمك ربك : إياك أنْ تسألنى عن رزق غد ؛ لأننى رزقْتُك قبل أنْ تعرف أن تسأل ، ثم لم أطالبك بعبادة غدٍ ، إذن : ليكُنْ العبد مؤدباً مع ربه عزوجل .

وهكذا نتبين أن الربوبية عطاء ، أما الألوهية فتكليف .

ثم يخبر الحق سبحانه عنهم بخبر آخر ﴿ وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥) ﴾ [لقمان] فالفلاح نتيجة الهدى الذى ساروا عليه واتبعوه ، كما قال تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) ﴾ [المؤمنون]

الفلاح أصله من فلاحة الأرض بالحرث والبَذْر والسَّقْى .. الخ ، فاستعارها أسلوب القرآن للعمل الصالح ، ووجه الشبه بين الأمرين واضح ، فالفلاح يلقى الحبة فيضاعفها له ربه سبعمائة حبة ، كذلك العمل الصالح يُضَاعَف لصاحبه ، فالحسنة عند الله بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ﴿ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ (٢٦١) ﴾ [البقرة]

واقرأ فى كتاب الله هذا المثل : ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦١)﴾ [البقرة]

وتأمل الاستدلال هنا : إذا كانت الأرض وهى مخلوقة لله تعطى كل هذا العطاء ، فكيف يكون عطاء مَنْ خلقها ؟ إذن : فهم لاشكَّ مفلحون أى : فائزون بالثمرة الطيبة التى تفوق ما بذلوه من مشقة ، كما يزرع الفلاح الأرض فتعطيه أضعاف ما وُضِع فيها .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (٦)﴾

بعد أن ذكر الحق سبحانه الكتاب وآياته ، وأن فيه هدى ورحمة لمن اتبعه وفلاحاً لمن سار على هديه يبين لنا أن هناك نوعاً آخر من الناس ينتفعون بالضلال ويستفيدون منه ، وإلا ما راجتْ سوقه ، ولما انتشر بين الناس أشكالاً وألواناً .

لذلك نرى للضلال فئة مخصوصة حظهم أن يستمر وأن ينتشر

---

(١) سبب نزول الآية : قال الكلبى ومقاتل : نزلت فى النضر بن الحارث ، وذلك أنه كان يخرج تاجراً إلى فارس فيشترى أخبار الأعاجم فيرويها ويحدث بها قريشاً ويقول لهم : إن محمداً ـ عليه الصلاة والسلام ـ يحدثكم بحديث عاد وثمود ، وأنا أحدثكم بحديث رستم واسفنديار وأخبار الأكاسرة ، فيستملحون حديثه ويتركون استماع القرآن ، فنزلت فيه هذه الآية .

وقال مجاهد : نزلت فى شراء القيان والمغنيات . [أسباب النزول للواحدى ص ١٩٧] .

لتظل مكاسبهم ، ولتظل لهم سيادتهم على الخَلْق وعبوديتهم لهم واستنزاف خيراتهم .

وطبيعى إنْ وُجِد قانون يعيد توازن الصلاح للمجتمع لا يقف فى وجهه إلا هؤلاء يحاربونه ويحاربون أهله ويتهمونهم ويُشككون فى نواياهم ، بل ويواجهونهم بالسخرية والاستهزاء مرة وبالتعدى مرة أخرى .

وربما قطعوا عليهم سبل الحياة ، كما عزلوا رسول الله ﷺ فى شِعْب أبى طالب ، ثم يُكرِهون أهل الحق على الهجرة والخروج من أموالهم وأهلهم إلى الحبشة مرة ، وإلى المدينة مرة أخرى ، لماذا ؟ لأن حياتهم تقوم على هذا الضلال فلا بُدَّ أنْ يحافظوا عليه .

والحق سبحانه يبين لنا أن هؤلاء الذين يحاربون الحق ويقفون فى وجه الدعوة إلى الإيمان يعرفون تماماً أنهم لو تركوا الناس يسمعون منهج الله وداعى الخير لا بُدَّ أنْ يميلوا إليه ؛ لذلك يَحُولُون بين آذان الناس ومنطق الحق ، فهم الذين قالوا للناس : ﴿لا تَسْمَعُوا لِهَـٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ .. (٢٦)﴾ [فصلت]

وما ذلك إلا لأنهم واثقون من لغة القرآن وجمال أسلوبه ، واستمالته للقلوب بحلو بيانه ، فلو سمعتْه الأذن العربية لابُدَّ وأنْ تتأثر به ، وتقف على وجوه إعجازه ، وتنتهى إلى الإيمان .

فإذا ما أفلتَ منهم أحد ، وانصرف إلى سماع الحق أتوْهُ بصوارف أخرى وأصوات تصرفه عن الحق إلى الباطل .

وقوله سبحانه :﴿وَمِنَ النَّاسِ (٦)﴾ [لقمان] من هنا للتبعيض أى : الناس المستفيدون من الضلال ، والذين يسوؤهم أنْ يأتم الناس

جميعاً بمنطق واحد ، وهدف واحد ، وهدى واحد ؛ لأن هذه الوحدة تقضى على تميزهم وجبروتهم وظلمهم فى الأرض ؛ لذلك يبذلون قصارى جهدهم فى الضلال ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ .. (٦)﴾ [لقمان]

قوله تعالى : ﴿يَشْتَرِى (٦)﴾ [لقمان] من الشراء الذى يقابله البيع ، والشراء أنْ تدفع ثمناً وتأخذ فى مقابله مُثمناً ، وهذا بعدما وُجد النقد ، لكن قبل وجود النقد كان الناس يتعاملون بالمقايضة والتبادل سلعة بسلعة ، وفى هذه الحالة فكل سلعة مباعة وكل سلعة مشتراة ، وكل منهما بائع ومُشْتر .

ومن ذلك قوله تعالى فى قصة يوسف عليه السلام : ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ (٢٠)﴾ [يوسف]

والمعنى : شروه أى : باعوه .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ .. (٢٠٧)﴾ [البقرة]

أى : يبيعها ، إذن : الفعل (شَرَى) يأتى بمعنى البيع ، وبمعنى الشراء .

أما إذا جاء الفعل بصيغة (اشترى) فإنه يدل على الشراء الذى يُدفع له ثمن ، ومن ذلك قوله تعالى :﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً ..(١٩٩)﴾ [آل عمران]

وقوله تعالى :﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ (١١١)﴾ [التوبة]

وعادة تدخل الباء على المتروك تقول : اشتريتُ كذا بكذا

وحين نتأمل قوله تعالى : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ الْحَدِيثِ (٦)﴾ [لقمان] نجد أن هذه عملية تحتاج إلى طلب للشىء المشترَى ، ثم إلى ثمن يُدفع فيه ، وليت الشراء لشىء مفيد إنما ﴿ لَهْوَ الْحَدِيثِ (٦)﴾[لقمان] وهذه سلعة خسيسة .

إذن : هؤلاء الذين يريدون أنْ يصدوا عن سبيل الله تحملوا مشقة الطلب ، وتحملوا غُرْم الثمن ، ثم وُصفوا بالخيبة لأنهم رَضُوا بسلعة خسيسة ، والأدهى من ذلك والأمرّ منه أن يضعوا هذا فى مقابل الحق الذى جاءهم من عند الله على يد رسوله بلا تعب وبلا مشقة وبلا ثمن ، جاءهم فضلاً من عند الله وتكرماً :﴿قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِى الْقُرْبَىٰ (٢٣)﴾ [الشورى]

فأىُّ حمق هذا الذى يوصفون به ؟

وكلمة اللهو : ذكر القرآن اللهو وذكر اللعب فى عدة آيات ، قدَّمت اللعب على اللهو فى قوله تعالى : ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ (٣٢)﴾ [الأنعام]

وفى قوله تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ (٢٠)﴾ [الحديد]

وقدمت اللهو فى قوله تعالى :﴿ وَمَا هَـٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ (٦٤)﴾ [العنكبوت]

فقدمت الآيات اللعب فى آيتين ؛ لأن اللعب أن تصنع حركة غير مقصودة لمصلحة ، كما يلعب الأطفال ، يعنى : حركة لا هدفَ لها ، ونقول عنها (لعب عيال) وسُمِّيت لعباً ؛ لأن الطفل يلعب قبل أنْ يُكلَّف بشىء ، فلم يشغل باللعب عن غيره من المهمات .

لكن إذا انتقل إلى مرحلة التكليف ، فإن اللعب يشغله عن شيء طُلب منه ، ويُسمَّى فى هذه الحالة لهواً ، ومنه قوله تعالى : ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا ﴿١١﴾﴾ [الجمعة]

إذن : فاللهو هو الشيء الذى لا مصلحة فيه ، ويشغلك عن مطلوب منك .

فآية سورة العنكبوت التى قدمت اللهو على اللعب تعنى أن أمور الاشتغال بغير الدين قد بلغت مبلغاً ، وأن الفساد قد طمَّ واستشرى الانشغال بغير المطلوب عن المطلوب ، فهذه أبلغ فى المعنى من تقديم اللعب ؛ لأن اللعب لم يُلهه عن شيء .

لكن ، ما اللهو الذى اشتروه ليصرفوا الناس به عن الحق وعن دعوة الإسلام ؟ إنهم لما سمعوا القرآن سمعوا فيه قصصاً عن عاد وثمود ، وعن مدين وفرعون .. الخ ، فأرادوا أنْ يشغلوا الناس بمثل هذه القصص .

وقد ذهب واحد منهم وهو النضر بن الحارث إلى بلاد فارس وجاءهم من هناك بقصص مسلية عن رستم وعن الأكاسرة وعن ملوك حِمْيَرَ ، اشتراها وجاء بها ، وجعل له مجلساً يجتمع الناس فيه ليقصّها عليهم ، ويصرفهم بسماعها عن سماع منطق الحق فى رسول الله .

وآخر يقول : بل جاء أحدهم بمغنية تغنيهم أغانىَ ماجنة متكسرة .

ومعنى : ﴿لَهْوَ الْحَدِيثِ ﴿٦﴾﴾ [لقمان] قال العلماء : هو كل ما يُلهى عن مطلوب لله ، وإنْ لم يكُنْ فى ذاته فى غير مطلوب الله لَهْواً ، وعليه فالعمل الذى يُلهى صاحبه من صناعة أو زراعة .. الخ يُعَدُّ من اللهو إنْ شغله مثلاً عن الصلاة ، أو عن أداء واجب لله تعالى .

ومن التصرفات ما يُعَدُّ لهواً ، وإنْ لم يشغلك عن شيء كالغناء ،

وللعلماء فيه كلام كثير خاصة بعد أنْ صاحبته الموسيقى وآلات الطرب والحركات الخليعة الماجنة ، ولفقهائنا القدامى رأيهم فى هذا الموضوع ، لكن العلماء المحدثين والذين يريدون أنْ يُجيزوا هذه المسألة يأخذون من كلام القدماء زاوية ويُطبِّقونها على غير كلامهم .

نعم ، أباح علماؤنا الأُنْس بالغناء فى الأفراح وفى الأعياد اعتماداً على قول النبى ﷺ لأبى بكر الصديق الذى رأى جاريتين تغنيان فى بيت رسول الله فنهرهما ، وقال : أمزمار الشيطان فى بيت رسول الله ، فقال ﷺ : « دعهما ، فإننا فى يوم عيد »[(١)]

وكذلك أباحوا الأناشيد التى تقال لتلهب حماس الجنود فى الحرب، أو التى ينشدها العمال ليطربوا بها أنفسهم وينشغلوا بها عن متاعب العمل ، أو المرأة التى تهدهد ولدها لينام .

ومن ذلك حداء[(٢)] الإبل لتسرع فى سيرها ، وقد قال النبى ﷺ لأنجشة[(٣)] : « رفقاً بالقوارير »[(٤)] فشبَّه النساء فى لُطْفهن ورقّتهن

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٩٨٧) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٨٩٢) كتاب العيدين من حديث عائشة رضى الله عنها ، وفى لفظ مسلم أنهما كانتا « تغنيان بما تقاولت به الأنصار يوم بعاث » أى « كان غناء فى الشجاعة والقتل والحذق فى القتال ونحو ذلك مما لا مفسدة فيه » قاله النووى فى شرح مسلم ، وكذلك فى لفظه « وليستا بمغنيتين » قال النووى : « أى : ليستا ممن يتغنى بعادة المغنيات من التشويق والهوى والتعريض بالفواحش والتشبيب بأهل الجمال وما يحرك النفوس » .

(٢) الحَدْو : سَوْق الإبل والغناء لها ، فإنه من أكبر الأشياء على سَوْقها وبَعْثها . [لسان العرب ـ مادة حدا] .

(٣) قال البلاذرى : كان أنجشة حبشياً يكنى أبا مارية . وقد كان حسن الصوت بالحداء . [الإصابة فى تمييز الصحابة ١/٦٨] ترجمة (٢٥٩) .

(٤) أخرج البخارى فى صحيحه (٦٢٠٢) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٣٢٣) من حديث أنس ابن مالك قال : كانت أم سليم مع نساء النبى ﷺ ، وهن يسوق بهن سوَّاق ، فقال نبى الله ﷺ : « أى أنجشة ، رويداً سوقك بالقوارير » .

بالقوارير ، فإذا ما أسرعتْ بهن الإبل هُزَّت بهن الهوادج ، وهذا يشقُّ على النساء .

إذن : لا مانع من كل نصٍّ له غرض نبيل ، أما إنْ أهاج الغرائز فهو حرام - والكلام هنا عن مجرد النص - لأن الخالق سبحانه يعلم طبيعة الغرائز فى البشر ؛ لذلك نسميها غريزة ؛ لأن لها عملاً وتفاعلاً فى نفسك بدون أىِّ مؤثرات خارجية ، ولها طاقة لا بُدَّ أنْ تتحرك ، فإنْ أثرْتَها أنت ثارتْ ونزعتْ إلى ما لا تُحمَد عُقْباه .

وسبق أن أوضحنا أن مراتب الشعور ثلاث : يدرك بحواسه ، ثم وجدان يتكوَّن فى النفس نتيجة للإدراك ، ثم النزوع والعمل الذى يترجم هذا الوجدان .

ومن رحمة الله بنا أن الشرع لا يتدخل فى هذه المسألة إلا فى مرحلة النزوع ، فيقول لك : قفْ لا تمدّ يدك إلى ما ليس لك ، ومثَّلْنا لهذه المسألة بالوردة تراها فى البستان ، ويُعجبك منظرها ، وتجذبك رائحتها فتعشقها وهذا لك ، فإنْ مددْتَ يدك لتقطفها يقول لك الشارع : قِفْ ليس من حقّك .

إذن : فالشارع الحكيم لا يتدخَّل فى مرحلة الإدراك ، ولا فى المواجيد إلا فى مسألة واحدة لا يمكن الفصل فيها بين الإدراك والوجدان والنزوع ، لأنها جميعاً شىء واحد ، إنها عملية نظر الرجل إلى المرأة التى لا تحل له ، لماذا هذه المسألة بالذات ؟

قالوا : لأنها لا تقف عند حَدِّ الإعجاب بالمنظر ، إنما يُورثك هذا الإعجاب انفعالاً خاصاً فى نفسك ، ويُورثك تشكلاً خاصاً لا يهدأ ، إلا بأن تنزع ، فرحمةً بك يا عبدى أنا سأتدخل فى هذا الأمر بالذات من أوله ، وأمنعك من مجرد الإدراك ، لأنك إنْ أدركتَ وجدتَ ، وإنْ

وجدتَ نزعتَ إلى ما تجد فأثمت فى أعراض الناس أو كبت فى نفسك ، فأضررتَ بها ، وربك يريد أنْ يُبرئك من الإثم ومن الإضرار بالنفس ، فالأسلم لكم أنْ تغضُّوا أبصاركم .

إذن : لا تقُل الغناء لكن قُلْ النص نفسه : إنْ حثَّ على فضيلة فهو حلال ، وإنْ أهاج الغرائز فهو حرام وباطل ، كالذى يُشبِّب بالمرأة ويذكر مفاتنها ، فهذا حرام حتى فى غير الغناء ، فإذا ما أضفتَ إليه الموسيقى والألحان والتكسر والميوعة ازدادت حرمته وتضاعف إثمه.

أما ما نراه الآن وما نسمعه مما يُسمُّونه غناء ، وما يصاحبه من حركات ورقصات وخلاعات وموسيقى صاخبة ، فلا شكّ فى حرمته .

فكل ما يُخرِج الإنسان عن وقاره ورزانته وكل ما يجرح المشاعر المهذبة فهو حرام ، ثم إن الغناء صوت فإنْ خرج عن الصوت إلى أداء آخر مُهيّج ، تستعمل فيه الأيدى والأرجل والعينان والوسط .. الخ فهذا كله باطل ومحرم .

ولا ينبغى للمؤمن الذى يملك زمام نفسه أن يقول : إنهم يفرضون ذلك علينا ، فالمؤمن له بصيرة يهتدى بها ، ويُميز بين الغثِّ والسمين ، والحق والباطل . فكُنْ أنت حكماً على ما ترى وما تسمع ، بل ما يرى وما يسمع أهلك وأولادك ، وبيدك أنت الزمام إنْ شئتَ سمعتَ ، وإنْ شئتَ أغلقتَ الجهاز ، فلا حجة لك لأن أحداً لا يستطيع أنْ يجبرك على سماع أو رؤية ما تكره .

ففى رمضان مثلاً ، وهو شهر للعبادة نصوم يومه ، ونقوم ليله ، وينبغى أن نكرمه ، ونحتفظ فيه بالوقار والروحانية ، ومع ذلك يخرجون علينا بألوان اللهو الذى يتنافى والصيام ، فإنْ سألتهم قالوا : الناس مختلفو الأمزجة ، وواجبنا أن نوفر لهم أمزجتهم ، لكن للمؤمن

ولاية على نفسه وهو يملك زمامها ، فلا داعى أن تتهم أحداً ما دام الأمر فى يدك ، وعليك أن تنفذ الولاية التى ولاك الله ، فإنْ فعلتَ ففى يدك خمسة وتسعون بالمائة من حركة الحياة ، ولغيرك الخمسة الباقية .

ثم إن ما يحلّ من الغناء مشروط بوقت لا يكون سمة عامة ولا عادة مُلحّة على الإنسان يجعلها ديدنه ؛ لذلك يقول النبى ﷺ : « روِّحوا القلوب ساعة بعد ساعة ».(١)

وهؤلاء المغنون والمغنيات الذين يُدخلون فى الغناء ما ليس منه من الحركات والرقصات لا يدرون أنهم يثيرون الغرائز ، ويستعدون على الشباب غير القادر على الزواج ، ويلهبون مشاعر الناس ويثيرون الغيرة .. الخ .

إذن : القضية واضحة لا تحتاج منا إلى فلسفة حول حكم الغناء أو الموسيقى ، فكل ما يثير الغرائز ، ويُخرجك عن سَمْت الاعتدال والوقار فهو باطل وحرام ، سواء أكان نصاً بلا لحن ، أو لحناً بدون أداء ، أو أداء مصحوباً بما لا دخلَ له بالغناء .

لكن ، لماذا يكلفون أنفسهم ويشترون لهو الحديث ؟

العلة كما قال الحق سبحانه : ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴿٦﴾﴾ [لقمان] وفرْق بين مَنْ يشترى اللهو لنفسه يتسلى به ، ويقصر ضلاله على نفسه وبين مَنْ يقصد أن يَضلَّ ويُضل غيره ؛ لذلك فعليه تبعة الضَّلالَيْن : ضلاله فى نفسه ، وإضلاله لغيره .

وقوله : ﴿ لَهْوَ الْحَدِيثِ ﴿٦﴾﴾ [لقمان] لا يقتصر على الغناء

---

(١) أورده العجلونى فى كشف الخفاء (١/٥٢٤) وعزاه للديلمى وأبى نعيم والقضاعى عن أنس رفعه . وقال : ويشهد له ما فى مسلم وغيره من قوله ﷺ « يا حنظلة ساعة وساعة » أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٧٥٠) عن حنظلة الأسيدى .

والكلام ، إنما يشمل الفعل أيضاً ، وربما كان الفعل أغلب .

وقوله تعالى : ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴿٦﴾ ﴾ [لقمان] يدل على عدم معرفتهم حتى بأصول التجارة فى البيع والشراء ، فالتاجر الحق هو الذى يشترى السلعة ، بحيث يكون نفعها أكثر من ثمنها ، أما هؤلاء فيشترون الضلال ؛ لذلك يقول الحق عنهم : ﴿ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ ﴿١٦﴾ ﴾ [البقرة]

والسبيل : هو الطريق الموصل إلى الخير من أقصر طريق ، وهو الصراط المستقيم الذى قال الله تعالى عنه ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ ﴾ [الفاتحة] لذلك نقول فى علم الهندسة : المستقيم هو أقصر بُعد بين نقطتين .

وقوله : ﴿ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ﴿٦﴾ ﴾ [لقمان] أى : السبيل ؛ لأن السبيل تُذكَّر وتؤنث ، تُذكَّر باعتبار الطريق ، كقوله تعالى : ﴿ وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ﴿١٤٦﴾ ﴾ [الأعراف]

وتُؤنَّث على اعتبار الشِّرْعة ، كقوله تعالى : ﴿ قُلْ هَـٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [يوسف]

هؤلاء الذين يشترون الضلال لإضلال الناس لا يكتفون بذلك ، إنما يسخرون من أهل الصلاح ، ويهزأون من أصحاب الطريق المستقيم والنهج القويم ، ويُسفِّهون رأيهم وأفعالهم .

ثم يذكر الحق سبحانه عاقبة هذا كله : ﴿ أُولَـٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ ﴾ [لقمان] أولئك : أي الذين سبق الحديث عنهم ، وهم أهل الضلال ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ ﴾ [لقمان] ووصْف العذاب هنا بالمهانة دليل على أن من العذاب ما ليس مُهيناً ، بل ربما كان تكريماً لمن وقع عليه كالرجل الذى يضرب ولده ليُعلِّمه ويُربِّيه ، فهو يضربه لا ليعذبه ويؤلمه ويهينه ، إنما لكى لا يعود إلى الخطأ مرة أخرى . على حَدِّ قول الشاعر :

فَقَسَا لِيزْدجِرُوا ومَنْ يَكُ حَازِماً فَلْيَقسُ أحْيَاناً على مَنْ يَرْحَمُ

إذن: فمن العذاب ما هو تذكير وتطهير أو ترضية وتكريم لمستقبل ، وإنما سُمِّى عذاباً تجاوزاً ، فهو فى هذه الحالة لا يُعَدُّ عذاباً.

وفى هذا المعنى قال الزمخشرى[1] رضى الله عنه : الملك يكون عنده الخادم ، فيفعل ما لا يُرضى سيده ، فيأمر صاحب الشرطة أنْ يأخذه ويعذبه جزاء ما فعل ، فيأخذه الشرطى ويُعذِّبه بقدر لا يتعداه ، لأنه يعلم أنه سيعود مرة أخرى إلى خدمة السيد ، فالعذاب فى هذه الحالة يكون بقدر ما فعل الخادم ليس مهيناً له . لكن إنْ قال له : خُذْ هذا الخادم واقْصِه عن الخدمة أو افصله ، يعنى : ليست له عودة فلا شكَّ أن العذاب سيكون مهيناً وأليماً .

فالعذاب إنْ سمَّيناه عذاباً يكون إكراماً لمن تحب وتريد أن تطهره ، أما العذاب المهين فهو لمن لا أملَ فى عودته ، والإهانة تقتضى الأبدية والخلود .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾ ﴾

---

(١) هو : جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشرى (توفى عام ٥٣٨ هـ) صاحب « الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل » وهو من تفاسير المعتزلة الذين قالوا بالمنزلة بين المنزلتين فى حق العصاة والمذنبين فاعتبروهم لا مؤمنين ولا كافرين ، وقالوا بأنه يجب على الله إدخال المؤمنين الجنة ، والكافرين النار ، وقالوا بنفى صفات الله ، وكلها قضايا خالفوا فيها أهل السنة .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا .. ﴿٧﴾ ﴾ [لقمان] بعد قوله : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴿٦﴾ ﴾ [لقمان] يدلنا على حرص النبى ﷺ على تبليغ أمر دعوته ، حتى لمن يعلم عنه أنه ضَلَّ فى نفسه ، بل ويريد أنْ يُضل غيره .

ومعنى ﴿ وَلَّىٰ ﴿٧﴾ ﴾ [لقمان] يعنى : أعرض وأعطانا (عرض أكتافه) كما نقول ، وتولى وهو مستكبر ﴿ وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا ﴿٧﴾ ﴾ [لقمان] أى : تكبَّر على ما يُدْعى إليه ، أنت دُعيت إلى حق فاستكبرت ، ولو كنت مستكبراً فى ذاتك لما لجأتَ إلى باطل لتشتريه ، إذن : فكيف تستكبر عن قبول الحق وأنت محتاج حتى إلى الباطل ؟

ولماذا تتكبَّر وليس عندك مُقوِّمات الكِبْر ؟ ومعلوم أنك تستكبر عن قبول الشىء إنْ كان عندك مثله ، فكيف وأنت لا تملك لا مثله ولا أقل منه ؟

إذن : فاستكبارك فى غير محله ، والمستكبر دائماً إنسان فى غفلة عن الله ؛ لأنه نظر إلى نفسه بالنسبة للناس ـ وربما كان لديه من المقومات ما يستكبر به على الناس ـ لكنه غفل عن الله ، ولو استحضر جلال ربه وكبرياءه سبحانه لاستحى أنْ يتكبَّر ، فالكبرياء صفة العظمة وصفة الجلال التى لا تنبغى إلا لله تعالى ، فكبرياؤه سبحانه شرف لنا وحماية تمنعنا أن نكون عبيداً لغيره سبحانه .

لذلك نسمع فى الأمثال العامية (اللى ملوش كبير يشترى له كبير) فإنْ كان لى كبير خافنى الناس واحتميتُ به ، كذلك المؤمن يحتمى بكبرياء ربه ؛ لأن كبرياء الله على الجميع والكل أمامه سواسية ، لا أحد يستطيع أن يرفع رأسه أمام الحق سبحانه .

إذن : فكبرياؤه تعالى لصالحنا نحن .

وهذا المستكبر استكبر عن سماع الآيات ﴿كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ﴾ [لقمان] أى : ثقَل وصَمَم ﴿ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [لقمان] ونحن نعلم أن البشارة لا تكون إلا فى الخير ، فهى الإخبار بأمر سارٍّ لم يأْت زمنه ، كما تبشر ولدك بالنجاح قبل أنْ تظهر النتيجة .

أما البشارة بالعذاب فعلى سبيل التهكّم بهم والسخرية منهم ، كما تتهكم من التلميذ المهمل فتقول له : أبشرك رسبتَ هذا العام . واستخدام البُشْرى فى العذاب كأنك تنقله فجأة من الانبساط إلى الانقباض ، وفى هذا إيلام للنفس قبل أنْ تُقاسى ألم العذاب ، فالتلميذ الذى تقول له : أُبشِّرك يستبشر الخير بالبشرى ، ويظن أنه نجح لكن يُفَاجأ بالحقيقة التى تؤلمه .

والشاعر يُصوِّر لنا هذه الصدمة الشعورية بقوله :

كَما أبرقَتْ يَوْماً عِطَاشاً غَمامَةٌ فَلَمّا رأوْهَا أقْشَعَتْ وتجلَّتِ[1]

ويقول آخر :

فَأصْبحتُ من ليلى الغَداةَ كقَابِضٍ علَى الماءِ خَانتْه فُروجُ الأصَابِعِ

لذلك يقولون : ليس أشرّ على النفس من الابتداء المطمع يأتى بعده الانتهاء الموئس ، وسبق أن مثلنا لذلك بالسجين الذى بلغ به العطش منتهاه ، ورجا السجان ، إلى أنْ جاء له بكوب من الماء ، ففرح واستبشر ، وظن أن سجانه رجل طيب أصيل فلما رفع الكوب إلى فيه ضربه السجان من يده فأراقه على الأرض .

---

(١) انقشع الغيم وأقشع وتقشع الريح أى : كشفته فانقشع . وتقشَّع السحاب أى تصدع وأقلع . [لسان العرب ـ مادة : قشع] . والبيت لكثير عزة فى ديوانه (ص ١٠٧) وعزاه له شهاب الدين محمود الحلبى فى « حسن التوسل » (ص ١٢١) .

ولا شكَّ أن هذا آلم وأشدّ على نفس السجين ، ولو رفض السجان أنْ يأتى له بالماء من البداية لكان أخفّ ألماً . وهذا الفعل يسمونه « يأس بعد إطماع » فقد ابتدأ معه بداية مُطمعة ، وانتهى به إلى نهاية موئسة ، نعوذ بالله من القبض بعد البسط .

ثم يذكر الحق سبحانه عقوبة الإضلال عن سبيل الله والتولِّى والاستكبار ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٧)﴾ [لقمان] فعذابهم مرة (مهين) ومرة (أليم) .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ (٨)﴾

وهؤلاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات فى مقابل الذين يشترون لهو الحديث ليضلوا عن سبيل الله ، وهذه سمَة من سمات الأسلوب القرآنى ؛ لأن ذكر الشىء مع مقابله يُوضِّح المعنى ويعطيه حُسْناً ، كما فى قوله تعالى :

﴿إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (١٤)﴾ [الانفطار]

فالجمع بين المتقابلات يُفرح المؤمن بالنعيم ، ثم يفرحه بأنْ يجد أعداءه من الكفار الذين غاظوه واضطهدوه وعذَّبوه يجدهم فى النار .

وقلنا : إن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ حينما يتكلم عن الإيمان يردفه بالعمل الصالح ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ (٨)﴾ [لقمان] لأن الإيمان أن تعلم قضايا غيبية فتُصدِّق بها ، لكن ما قيمة هذا الإيمان إذا لم تنفذ مطلوبه ؟

وكذلك فى سورة العصر : ﴿وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِى خُسْرٍ (٢) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ .. (٣)﴾ [العصر] ففائدة الإيمان العمل بمقتضاه ، وإلا فما جدوى أن تؤمن بأشياء كثيرة ، لكن لا تُوظف ما تؤمن به ، ولا تترجمه إلى عمل وواقع ؛ لذلك إنْ اكتفيتَ بالإيمان ككلمة تقال دون عمل ، فقد جعلت الإيمانَ حجة عليك لا حجةً لك .

ومعنى ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ (٨)﴾ [لقمان] أى : الصالح ، والحق سبحانه خلق الكون على هيئة الصلاح ، فالشىء الصالح عليك أنْ تزيد من صلاحه ، فإنْ لم تقدر فلا أقلَّ من أنْ تدعَ الصالح على صلاحه فلا تفسده .

ثم يذكر سبحانه جزاء الإيمان والعمل الصالح : ﴿لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ (٨)﴾ [لقمان] فهى جنات لا جنة واحدة ، ثم هى جنات النعيم أى : المقيم الذى لا تفوته ولا يفوتك .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿خَالِدِينَ فِيهَا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٩)﴾

حين نتأمل هذه الآيات نلمس رحمة الله بعباده حتى الكافر منهم الذى ضلَّ وأضلَّ ، ومع ذلك فالله رحيم به حتى فى تناول عذابهم ، ألا ترى أن الله تعالى قال فى عذابهم أنه مهين ، وأنه أليم ، لكن لم يذكر معه خلوداً كما ذكر هنا الخلود لنعيم الجنات ، كما أن العذاب جاء بصيغة المفرد ، أما الجنة فجاءت بصيغة الجمع ، ثم أخبر عنها أنها ﴿وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا (٩)﴾ [لقمان]

والوعد يستخدم دائماً لعدَة بخير يأتيك ، وقلنا : إن العبد يعد ، وقد لا يفى بوعده ؛ لأنه لا يملك كل مُقوِّمات الوفاء ، أما الوعد إنْ كان من الله فهو محقق لأنه سبحانه يملك كل أسباب الوفاء ، ولا يمنعه أحد عن تحقيق ما أراد ؛ لأنه سبحانه ليس له شريك ، كالرجل الذى أراد أنْ يذم آخر فقال له : الدليل على أن الله ليس له شريك أنه خلقك ، فلو كان له شريك لقال له : لا داعى لأنْ تخلق هذا.

لذلك يعلمنا الحق ـ سبحانه وتعالى ـ أنْ نردف وَعْدنا بقولنا : إن شاء الله حتى نكون منصفين لأنفسنا من الناس ، ولا نُتهم بالكذب إذا لم نَفِ ، وعندها لى أن أقول : أردت ولكن الله لم يُرِد ، فجعلت المسألَة فى ساحة ربك عز وجل .

وبهذه المشيئة رحم الله الناس من ألسنة الناس ، فإذا كلفتنى بشىء فلم أقضه لك فاعلم أن له قدراً عند الله لم يأتِ وقته بعد ، واعلم أن الأمر لا يُقْضى فى الأرض حتى يُقْضى فى السماء ، فلا تغضب ولا تتحامل على الناس ، فالأمور ليست بإرادة الناس ، وإنما بإرادة الله .

لذلك حين تتوسط لأخيك فى قضاء مصلحة وتُقْضى على يديك ، المؤمن الحق الذى يؤمن بقدر الله يتأدب مع الله فيقول : قُضِيَتْ معى لا بى ، يعنى : شاء الله أنْ يقضيها فأكرمنى أن أتكلم فيها وقت مشيئته تعالى ، كذلك يقول الطبيب المؤمن : جاء الشفاء عندى لا بى .

ولو فهم الناس معنى قدر الله لاستراحوا ، فحين ترى المجدّ العامل يُقْصى ويُبعد ، وحين ترى الخامل والمنافق يُقرّب ويعتلى أرفع المناصب فلا تغضب ، وإذا لم تحترمه لذاته فاحترم قدر الله فيه .

فالمسائل لا تجرى فى كَوْن الله بحركة (ميكانيكية) ، إنما بقدر الله الذى يرفع مَنْ يشاء ويضع مَنْ يشاء ، وله سبحانه الحكمة البالغة

فى هذه وتلك ، وإلا لقلنا كما يقول الفلاسفة : إن الله تعالى خلق القضايا الكونية ثم تركها للناس يُسيِّرونها .

والحق سبحانه ما ترك هذه القضايا ، بدليل قوله تعالى : ﴿ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا (٥٠) ﴾ [الشورى]

فبعد هذه الآية لا يقل أحد : إن فلاناً لا ينجب أو فلانة لا تنجب ؛ لأن هذه مرادات عليا لله تعالى ، ولو أن العقيم احترم قَدَر الله فى العقم لجعل الله كل مَنْ يراهم من الأولاد أولاده ، وما دام الله تعالى قال ﴿ يَهَبُ (٤٩) ﴾ [الشورى] فالمسألة فى كل حالاتها هبة من الله تعالى لا دَخْلَ لأحد فى الذكورة أو الأنوثة أو العقم . فلماذا ـ إذن ـ قبلتَ هبة الله فى الذكور ، ولم تقبل هبة الله فى العقم ؟

وسبق أن تحدثنا عن وأْد البنات قبل الإسلام ؛ لأن البنت كانت لا تركب الخيل ، ولا تدافع عن قومها ، ولا تحمل السلاح .. الخ ، فلما جاء الإسلام حرم ذلك وكرَّم المرأة ، وأعلى من شأنها ، لكن ما زالت المفاضلة قائمة بين الولد والبنت .

والآن احتدم صراع مفتعل بين أنصار الرجل وأنصار المرأة ، والإسلام برىء من هذا الصراع ؛ لأن الرجل والمرأة فى الإسلام متكاملان لا متضادان ، وعجيب أنْ نرى من النساء مَنْ تتعصب ضد الرجال وهى تُجَنّ إنْ لم تنجب الولد ، وهذه شهادة منهن بأفضليته .

وكأن الحق ـ تبارك وتعالى ـ يعلمنا أن مَنْ يحترم قدره فى إنجاب البنات يقول الله له : لقد احترمتَ قدرى فسوف أعطيك على قدْرى ، فيعطيه الله البنين ، أو يُيسِّر لبناته أزواجاً يكونون أبرَّ به من أولاده وأطوع .

ثم ألاَ ترى أن الله تعالى قدم البنات فى الهبة ، فقال :﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩) ﴾ [الشورى] لماذا ؟ لأنه سبحانه يعلم محبة الناس للذكور :﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (٥٨) يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ (٥٩) ﴾ [النحل]

وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٩) ﴾ [لقمان] العزيز الذى لا يغلب ، ولا يستشير أحداً فيما يفعل ﴿ الْحَكِيمُ (٩) ﴾ [لقمان] أى : حين يعِد ، وحين يفى بالوعد .

ثم تنتقل الآيات إلى دليل من أدلة الإيمان الفطرى بوجود الإله :

﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ (١) وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (١٠) ﴾

أولاً : ذكر الحق سبحانه آية كونية لم يدَّعها أحد لنفسه من الكفار أو من الملاحدة ، وهى آية موجودة ومُشَاهدة ، وبعد أن قال سبحانه أنا خالق السماء والأرض لم يعارضه أحد ، ولم يأتِ مَنْ يعارضه فيقول : بل أنا خالق السماء والأرض .

وسبق أنْ قلنا : إن القضية تسلم لصاحبها ومدعيها إذا لم يَقُمْ لها معارض ، فإن كانت هذه القضية صحيحة ، والحق سبحانه هو

---

(١) ماد يميد : تحرَّك واهتزَّ . ومادت الأرض : اضطربت وزلزلت . يقول تعالى : ﴿ وَأَلْقَىٰ فِى الأَرْضِ رَوَاسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ .. (١٠) ﴾ [لقمان] لئلاَّ تميل وتضطرب فالجبال العالية توازن البحار العميقة . [القاموس القويم ٢/٢٤٦] .

الخالق فقد انتهتْ المسألة ، وإذا كان هناك خالق غيره سبحانه فأين هو ؟ هل درى أن واحداً آخر أخذ منه الخَلْق ، ولماذا لم يعارض ويدافع عن حقِّه ؟ أو أنه لم يَدْرِ بشىء فهو إله (نائم على ودنه) ، وفى كلا الحالين لا يصلح أن يكون إلهاً يُعبد .

لذلك قال تعالى ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ (١٨)﴾ [آل عمران] ، فهذه شهادة الذات للذات ، ولم يعارضها معارض فصَحَّتْ لصاحبها إلى أنْ يوجد معارض .

وسبق أن مثَّلنا لذلك ـ ولله المثل الأعلى ـ بجماعة جلسوا فى مجلس فلما انفضَّ مجلسهم وجد صاحب البيت حافظة نقود لا يعرف صاحبها ، فاتصل بمن كانوا فى مجلسه ، وسألهم عنها فلم يقُلْ واحد منهم أنها له ، إلى أن طرق الباب أحدهم وقال : والله لقد نسيت حافظة نقودى هنا ، فلا شكَّ إذن أنها له وهو صاحبها حيث لم يدَّعها واحد آخر منهم .

والحق سبحانه يقول فى إثبات هذه القضية : ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لاَّبْتَغَوْا إِلَى ذِى الْعَرْشِ سَبِيلاً (٤٢)﴾ [الإسراء] أى : لذهبوا يبحثون عمَّنْ أخذ منهم الخَلْق والناس ، وأخذ منهم الألوهية .

فإنْ قالوا نحن آلهة لكن فوقنا إله أكبر يردُّ الحق عليهم :﴿مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَـوَاتِ والأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا (٥١)﴾ [الكهف]

وقوله تعالى : ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا (١٠)﴾ [لقمان] حين تدور فى أنحاء الكرة الأرضية من شمالها إلى جنوبها ، ومن شرقها إلى غربها تجد السماء تظلّك ، ومع سعة السماء لا تجد لها عمداً ترفعها ، وكلمة ﴿تَرَوْنَهَا (١٠)﴾ [لقمان] تحمل معنيين : إما هى فعلاً بغير عمد ، أو لها عمد لكن لا نراها ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا (١٠)﴾ [لقمان] يعنى : لا نرى لها

عمداً ، لكن الحقيقة أن لها عمداً لا ترونها بإحساسكم ومقاييسكم .

فإنْ قلت ، فما هذه العمد التى لا نراها ؟ البعض يقول : هى الجاذبية ، وهذا القول مجانب للصواب ، والحق سبحانه يكفينا مؤنة البحث فى هذه المسألة ، فيقول سبحانه : ﴿.. وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ (٦٥)﴾ [الحج]

إذن :لا نملك إلا أنْ نقول إنها ممسوكة بقدرة الله ، ولكى لا نحار فى كيفية ذلك يُقرِّب الله لنا هذه المسألة بمثال مُشَاهد لنا ، فالطير يمسكه الله فى جو السماء : ﴿أَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ اللَّهُ ..(٧٩)﴾ [النحل]

وفى موضوع آخر يقول الحق سبحانه : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا (٤١)﴾ [فاطر] إذن : فهو سبحانه يمسكها بقانون ، لكن لا نعرفه نحن ولا ندركه .

والسماء فى اللغة : كل مَا علاك فأظلّك ، فالغيم الذى يعلوك وتراه قريباً منك يُعد من السماء بدليل قول الله تعالى : ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً (١٠)﴾ [لقمان] والماء ينزل من الغيم ، لا من السموات العلا ، والفرق بينهما أن الغيم تراه فى مكان دون آخر ، وتراه مُتقطعاً منفطراً ، أمَّا السماء العليا فهى بشكل واحد ، لا ترى فيها من فطور .

وحين تكلم الحق سبحانه عن الأرض والسماء قال : إنها سبع سماوات ، ولم يقُلْ سبع أراضين ، بل ﴿وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ (١٢)﴾ [الطلاق] فدلَّ على أن الأرض سبع كالسماء ، وإنْ كانت السماء كل ما أظلّك ، فالأرض كل ما أقلَّك ، لكن أين هذه الأرَضين السبع ؟

لقد أخبرنا القرآن الكريم أن السماوات سبع ، وأخبرنا النبى ﷺ أنه مرَّ بها فى رحلة المعراج فقال فى الأولى كذا وكذا ، وفى الثانية كذا وكذا ، وما دامتْ السماء كل ما أظلك ، والأرض كل ما أقلك فالخَلْق

فى السماء الأولى مثلاً سماؤهم السماء الثانية ، وأرضهم سماؤنا الأولى ، وهكذا وهكذا .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَأَلْقَىٰ فِى الْأَرْضِ رَوَاسِىَ ﴿١٠﴾﴾ [لقمان] أى : الجبال الراسية الثابتة المتصلة بالأرض اتصالاً وثيقاً بحيث لا تتخلخل منها ، والعلة فى خَلْق الجبال الرواسى على الأرض ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ ﴿١٠﴾﴾ [لقمان] أى : تميل وتضطرب بكم ، ولو أن الأرض مخلوقة على هيئة الثبات لما احتاجت إلى ما يثبتها .

إذن : فالأرض متحركة ، وما خُلقت الجبال إلا لتثبيتها وضبط حركتها ، فدلَّت هذه الآية على صدْق النظرية القائلة بدوران الأرض ، كذلك فى قوله تعالى : ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ﴿٨٨﴾﴾ [النمل]

إذن : فللجبال حركة مرتبطة بحركة الأرض ، فإنْ قُلْتَ : ولماذا لا نراها ؟ نقول : لأن وحدة المكان تجعلك لا تدرك هذه الحركة ، فالمتحد فى مكان لا تختلف مرائى الأشياء بالنسبة له .

فلو تصوَّرنا أن هذا المسجد الذى يجمعنا صُمِّم على هيئة رَحَىً تدور بنا ، فهل نشعر بدورانه ونحن ندور بدورانه ؟ لا نشعر ، لماذا ؟ لأن مواقعنا من بعض ثابتة لا تتغير ، كذلك موقعنا من المكان ؛ لذلك لا نشعر بالحركة ، لكن نشعر بالحركة حين نقيس متحركاً بثابت ، فلو فتحنا الباب مثلاً أو الشباك ورأينا ما هو خارج المسجد ، عندها نشعر أننا نتحرك .

إذن : لا يمكن لمَنْ على الأرض أن يشعر بحركتها ؛ لأنه يتحرك معها ، وما دامت الجبال أوتاداً فى الأرض وهى - أى الجبال - تمر مرَّ السحاب فلا بُدَّ أن الأرض كذلك تمر وتتحرك بنفس الحركة ،

وحركة الجبال ليست ذاتية ، إنما هى تابعة لحركة الأرض ، والحق سبحانه شبَّه حركة الجبال بحركة السحاب ، والسحاب حركته غير ذاتية ، إنما هى تابعة لحركة الرياح .

ثم يذكر الحق سبحانه علة أخرى لخَلْق الجبال : ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ (١٠)﴾ [لقمان] وسبق أنْ أوضحنا أن الجبال تمثل مخازن للقوت الذى به قوام الحياة للإنسان وللحيوان والذى ينشأ من الزرع ، وبيَّنا أن الطبقة الخارجية للجبال تتفتتْ بعوامل التعرية ، ثم يحملها ماء المطر إلى الوديان فتزيد من خصوبة الأرض بمقدار كل عام ، ومن الجبال أيضاً يتكون الماء فى الأنهار أو فى مسارب الأرض فنخرجه حين الحاجة إليه .

ومن حكمته تعالى أنْ جعل الجبال راسية ثابتة ، وجعلها صلدة وإلا لو كانت هشّة لأذابتها الأمطار وفتتها فى عدة سنوات ، ثم حرمت الأرض من الخصوبة التى تستمدها من الجبال ؛ لذلك يقول الله تعالى : ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ (٢١)﴾ [الحجر] فمع زيادة السكان تزداد المساحة الخِصْبة التى يُكوِّنها الغِرْين الذى يتفتت من الجبال عاماً بعد عام .

واقرأ إنْ شئتَ قوله تعالى : ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا .. (١٠)﴾ [فصلت]

فالجبال جعلها الله راسية حتى لا تضطرب بنا الأرض ، وجعلها صلبة لأنها مخزن الخِصْب الذى يُمِدُّنا بالزرع الذى به قِوَام حياتنا .

ومن رحمة الله بالإنسان أنْ جعل فيه ذاتية استبقاء الحياة ، فإن مُنِع عنه الطعام أو الشراب تغذَّى من المخزون فى جسمه ، فيأخذ

أولاً من الدهن ، ثم من اللحم ، ثم من العظم ؛ لذلك قلنا : إن العظم هو آخر مخازن القوت فى جسم الإنسان ، وفى ضوء ذلك نفهم قول سيدنا زكريا : ﴿إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي ﴿٤﴾﴾ [مريم]

يعنى : قد بلغتُ آخر مرحلة من مراحل استبقاء الحياة .

فكان من رحمة الله بالخَلْق أنْ جعل حتى شَرَه الإنسان للطعام والشراب رحمة به ، حيث يتحول الزائد عن طاقته وحاجته إلى مخزون فى جسمه ، فإذا انقطعتْ به السُّبُل أو تعذَّر عليه الطعام والشراب استمد مما فى جسمه .

كذلك من رحمة الله بالإنسان أنْ جعله يصبر على الطعام إلى شهر ، ويصبر على الماء من ثلاثة أيام إلى عشرة بحسب ما فى جسمه من مخزون الطعام والشراب ، أما الهواء فلا يصبر عليه إلا بمقدار شهيق وزفير ؛ لذلك تتجلى رحمته تعالى وحكمته فى خَلْقه بألاَّ يُملِّك الهواء لأحد ، فلو ملَكه عدوك لمتّ قبل أن يرضى عنك .

وقوله : ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ ﴿١٠﴾﴾ [لقمان] بث أى : نشر ، والدابة : كل ما له دبيب على الأرض ، والدبيب بحسب ما يدبّ على الأرض ، وكل ما يمشى على الأرض له دبيب نسمعه فى الحيوان الضخم مثلاً ، لكن لا نسمعه فى النملة مثلاً ، فهى أيضاً لها دبيب بدليل قولنا : فلان يسمع دبّة النملة ، إذن : لها دبيب على الأرض ، لكن أذن مَنْ التى تستطيع أنْ تسمعه ؟

وقوله تعالى : ﴿مِن كُلِّ دَابَّةٍ ﴿١٠﴾﴾ [لقمان] كل تعنى سوراً كلياً يضم كل ما له حركة ودبيب على الأرض ، يعنى : كل ما يقال له دابة بداية من النملة أو الفيروسات الآن إلى أكبر حيوان على الأرض . وقوله (من) تتدرج من الصغير إلى الكبير فتدلُّ على الشمول .

ومن هذه الدواب ما أحله الله ومنها ما حرمه ؛ لذلك يقول البعض : ما دام الله حرَّم هذه الحيوانات ، فما الضرورة فى خَلْقها ؟ وهل كل شىء مخلوق يُؤكل ؟

لا ، ليس كل مخلوق من الحيوانات يؤكل ؛ لأن له مهمة أخرى يؤديها .

ولو تأملت ما حُرِّم عليك لوجدته يخدمك فى ناحية أخرى ، فمنه ما يمد الحيوانات التى تأكلها ، ومنه ما فيه خاصية تحتاج إليها فى غير الأكل ، فالثعبان مثلاً لا نرى فيه إلا أنه مخلوق ضار ، لكن ألم نحتَجْ إلى سُمِّه الآن ، ونجعله مَصْلاً نافعاً ؟ ألسنا ننتفع بجلوده ؟ الخ ، فإذا كنا لا نأكله فنحن نستفيد من وجوده فى نواحٍ أخرى .

كذلك الخنزير مثلاً ، البعض يقول : ما دام الله تعالى حرمه ، فلماذا خلقه ؟ سبحان الله ، هل خلق الله كل شىء لتأكله أنت ؟ ليس بالضرورة أنْ تأكل كل شىء ، لأن الله جعل لك طعامك الذى يناسبك ، أتأكل مثلاً البترول ؟ كيف ونحن نرى حتى السيارات والقطارات والطائرات لكل منها وقوده المناسب له ، فالسيارة التى تعمل بالبنزين مثلاً لا تعمل بالسولار .. الخ ، فربك أعطاك قُوتَك كما أعطى لغيرك من المخلوقات أقواتها .

لذلك ؛ إذا نظرت فى غابة لم تمتد إليها يد الإنسان تجد فيها جميع الحيوانات والطيور والدواب والحشرات .. الخ دون أنْ تجد فيها رائحة كريهة أو منظراً مُنفِّراً ، لماذا ؟

لأن الحيوانات يحدث بينها وبين بعضها توازن بيئى ، فالضعيف منها والمريض طعام للقوى ، والخارج من حيوان طعام لحيوان آخر.. وهكذا ، فهى محكومة بالغريزة لا بالعقل والاختيار .

وكل شىء لا دَخْلَ للإنسان فيه يسير على أدقِّ نظام فلا تجد فيه فساداً أبداً إلا إذا طالتْه يد البشر ، ولك أنْ تذهب إلى إحدى الحدائق أو المتنزهات فى شم النسيم مثلاً لترى ما تتركه يد الإنسان فى الطبيعة .

لكن ، لماذا وُصِف الإنسان بهذا الوصف ؟ ولماذا قُرِن وجوده بالفساد ؟ نقول : لأنه يتناول الأشياء بغير قانون خالقها ، ولو تناول الأشياء بقانون الخالق عز وجل ما أحدث فى الطبيعة هذا الفساد .

وسبق أنْ بيَّنا أن الإنسان لا قدرةَ له على شىء من مخلوقات الله إلا إذا ذلَّلها الله له ويسَّرها لخدمته ، بدليل أن الولد الصغير يركب الفيل ويسحب الجمل ويُنيخه ويحمله الأثقال فى حين لا قدرةَ لأحدنا على ثعبان صغير ، أو حتى برغوث ، لماذا ؟ لأن الله تعالى ذلَّلَ لنا هذا ، ولم يُذلِّل لنا هذا .

ثم يقول تعالى : ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾﴾ [لقمان] من السماء : أى من جهة العلو ومن ناحية السماء ، وإلا فالمطر لا ينزل من السماء ، إنما من الغمام ﴿فَأَنْبَتْنَا فِيهَا .. ﴿١٠﴾﴾ [لقمان] أى : فى الأرض ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾﴾ [لقمان] زوج أى : نوع من النبات ، فهى كلمة تدل على مفرد ، لكن معه مثله ، والبعض يظن أنها تعنى اثنين وهذا خطأ ؛ لذلك نقول عن الرجل زوج ، وعن المرأة زوج رغم أنه مفرد ، لكن قُرِن بغيره .

وقال تعالى عن التكاثر : ﴿مِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ .. ﴿٤٩﴾﴾ [الذاريات] فَسمّى الذكر (زوج) وسمّى الأنثى (زوج) .

ومثلها كلمة (توأم) فهى تدل على مفرد ، لكن مفرد لم يُولَد

وحده إنما معه غيره ، والبعض يقول (توأم) ويقصد الاثنين ، إنما الصواب أن نقول هما توأمان .

ووصف الحق سبحانه الزوج أى النوع من النبات بأنه ﴿ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ ﴾ [لقمان] لأنه يعطيك بكرم وسخاء ، فالحبة تعطيك سبعمائة حبة ، وهذا عطاء المخلوق لله ، فما بالك بعطاء الخالق عز وجل ؟

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾ ﴾

والكلام هنا مُوجَّه للمكابرين وللمعاندين الجاحدين لآيات الله : ﴿ هَٰذَا .. ﴿١١﴾ ﴾ [لقمان] أى : ما سبق ذِكْره لكم من خَلْق السماوات بغير عمد ، ومن خَلْق الجبال الرواسى والدواب وإنزال المطر وإحياء النبات .. الخ .

هذا كله ﴿ خَلْقُ اللَّهِ .. ﴿١١﴾ ﴾ [لقمان] فلم يدَّعه أحد لنفسه ، وليس لله فيه شريك ﴿ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ .. ﴿١١﴾ ﴾ [لقمان] أى : الذين اتخذتموهم شركاء مع الله ، ماذا خلقوا ؟

وليس لهذا السؤال إجابة عندهم ، حيث لا واقع له يستدلون به ، ولا حتى بالمكابرة ؛ لأن الحق أبلج[1] والباطل لجلج[2] ، لذلك لم

---

(١) أبلج الحق : ظهر ، ويقال : هذا أمر أبلج أى واضح . والبلوج : الإشراق وصبح أبلج بيِّن البلج أى مشرق مضىء . وكذلك الحق إذا اتضح . [لسان العرب ـ مادة : بلج] .

(٢) اللجلج : المختلط الذى ليس بمستقيم . [لسان العرب ـ مادة لجج] .

نسمع لهم صوتاً ولم يجرؤ واحد منهم مثلاً على أن يقول آلهتنا خلقت الجبال مثلاً أو الشمس أو القمر ، فلم يستطيعوا الردّ رغم كفرهم وعنادهم .

والحق سبحانه فى الرد عليهم يبين لهم أن المسألة لا تقف عند عدم قدرتهم على الخَلْق ، إنما لا يعرفون كيف خُلقُوا هم أنفسهم : ﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا (٥١) ﴾ [الكهف]

وفى قول الله ﴿ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا (٥١) ﴾ [الكهف] دليل على صِدْق القرآن ومظهر من مظاهر إعجازه ، فقد أخبرنا الحق سبحانه أنه سيُوجد مُضِلون يضلون الناس فى مسألة الخَلْق ، ويصرفونهم عن الحق بكلام باطل .

وفعلاً صدق الله وسمعنا من هؤلاء المضلين مَنْ يقول : إن الأرض قطعة من الشمس انفصلتْ عنها ، وسمعنا مَنْ يقول إن الإنسان فى أصله قرد .. الخ ، ولولا هذه الأقاويل وغيرها ما صدقت هذه الآية ، ولجاء أعداء الإسلام يقولون لنا : أين المضلون الذين أخبر عنهم القرآن ؟

فكأن كل كلام يناقض ﴿ هَـٰذَا خَلْقُ اللَّهِ .. (١١) ﴾ [لقمان] هو كلام مُضِل ، وكأن هؤلاء المضلين - فى غفلة منهم ودون قصد - يؤيدون كلام الله ﴿ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا (٥١) ﴾ [الكهف]

ونجد هذه المسألة أيضاً فى سنة رسول الله ﷺ ، حيث يطلع

علينا من حين لآخر مَنْ ينكر سنة رسول الله ويقول : بيننا وبينكم كتاب الله ، فما كان فيه من حلال حللناه ، وما كان فيه من حرام حرمناه .

وعندها نقول : سبحان الله ، كأن الله تعالى أقامكم دليلاً على صدْق رسوله ، فقد أخبر الرسول عنكم ، وعما تقولونه فى حَقِّ سنته ، حيث قال : « يوشك رجل يتكىء على أريكته ، يُحدَّث بالحديث عنى فيقول : بيننا وبينكم كتاب الله ، فما وجدنا فيه من حلال حللناه ، وما وجدنا فيه من حرام حرمناه »[1] .

ومعنى : ﴿هَـٰذَا خَلْقُ اللَّهِ ..(١١)﴾ [لقمان] أى : مخلوقاته ﴿فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ .. (١١)﴾ [لقمان] ولن نطلب منك خَلْقاً كخَلْق السماء والأرض والجبال ، ولا إنزال المطر وإحياء الأرض بالنبات ، بل اخلقوا أقلّ شىء فى الموجودات التى تروْنها ، وليس هناك أقل من الذباب : ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ .. (٧٣)﴾ [الحج] بل وأبلغ من ذلك ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣)﴾ [الحج]

ثم يختم الحق سبحانه الآية بقوله : ﴿بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (١١)﴾ [لقمان] أى : ضلال محيط بهم من كل اتجاه ، والضلال المبين المحيط لا تُرْجى معه هداية ، فلن يهتدى هؤلاء ، وما عليك إلا أنْ تصبر على دعوتك يا محمد حتى يُبدلك الله خيراً من هؤلاء ، ويكونون لك جنوداً يؤمنون بك ، وينصرون دعوتك . وقد كان .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (١٣٢/٤) والترمذى فى سننه (٢٦٦٤) وابن ماجة (١٢) والدارقطنى (٢٨٦/٤) فى سننهم . من حديث المقدام بن معد يكرب رضى الله عنه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ (١) وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ ﴾

الحق سبحانه آتانا قبل أنْ يخلقنا ، وآتانا بعد أن خلقنا بالمنهج ثم وَالَى إلينا بمواكب الرسالات التى تحمل إلى كل بيئة المنهج الذى يناسبها ، وقبل أن يخرج آدم عليه السلام لتحمُّل عبء هذه الخلافة أعطى الله له تجربة ، هذه التجربة مفادها أن يحافظ على منهج ربه فى (افعل) و (لا تفعل) وأن يحذر كيد الشيطان .

وقد مرَّ آدم بهذه التجربة البيانية قبل أن يجتبيه الله للنبوة وكثيرون يظنون أن عصيان آدم جاء بعد أنْ كُلِّف بالنبوة فيقولون : كيف يعصى آدم ربه ، وهو نبى والنبى معصوم ؟

ونقول : نعم ، عصى آدم ربه ، لكن قبل النبوة ، وهو ما يزال بشراً عادياً ؛ لذلك قال سبحانه فى حقه : ﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَاهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ ﴾ [طه]

---

(١) كان لقمان عليه السلام عبداً حبشياً نجاراً . قاله ابن عباس فيما أخرجه عنه الإمام أحمد فى الزهد وابن أبى شيبة وغيرهما . وقال سعيد بن المسيب : إن لقمان عليه السلام كان أسود من سودان مصر ، ذا مشافر ، أعطاه الله الحكمة ومنعه النبوة . أخرجه ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم فى تفاسيرهم . أورد السيوطى هذه الآثار فى الدر المنثور (٦/٥٠٩، ٥١٠) . وقال القرطبى : هو لقمان بن باعوراء بن ناحور بن تارح . قال وهب ابن منبه : كان ابن أخت أيوب . وقال مقاتل : ذكر أنه كان ابن خالة أيوب . انظر تفسير القرطبى (٧/٥٢١٦) .

إذن : جاء الاجتباء بعد المعصية ، فإنْ قلتَ : فما الداعى للعصيان يصدر من آدم ، وهو يُعد للنبوة ؟ قالوا : لأنه أبو البشر ، والبشر قسمان : بشر معصومون ، وهم الأنبياء ، وبشر ليست لهم عصمة وهم عامة الناس غير الأنبياء ، ولا بُدَّ لآدم أنْ يمثل النوعين لأنه أبو الجميع ، فمثَّل البشر عامة حين وقع فى المعصية ، ومثّل الأنبياء حين اجتباه ربه وتاب عليه ، فجمع بذلك بين الملحظين .

هنا يقول سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا .. (١٢) ﴾ [لقمان] والإيتاء يُطلَق على الوحى مع الفارق بينهما ، فإنْ أطلق الوحى فإنه ينصرف إلى الوحى للرسول بمنهج من الله ، ويُعرَف الوحى عامة بأنه إعلام بخفاء.

ومن ذلك قوله تعالى فى الوحى للملائكة : ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا .. (١٢) ﴾ [الأنفال]

ويُوحِى للبشر ، قال تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ .. (٧) ﴾ [القصص]

ويوحى للحيوان ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا .. (٦٨) ﴾ [النحل]

ومن ذلك أيضاً يوحى الشياطين بعضهم إلى بعض من شياطين الإنس أو الجن : ﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ .. (١٢١) ﴾ [الأنعام]

كذلك يوحى الله إلى أهل الخير من أتباع الرسل : ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي .. (١١١) ﴾ [المائدة]

هذا فى المعنى اللغوى للوحى وهو : إعلام بخفاء ، فإنْ قصدت الوحى الشرعى الاصطلاحى : فهو إعلام من الله لرسوله بمنهجه .

وهذا التعريف يُخرِج كل الأنواع السابقة .

والحق سبحانه عبَّر عن الإيتاء العام بقوله : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ .. (٥١) ﴾ [الشورى]

والإيتاء يُقصد به الإلهام ، ويكون حين تتوفر للإنسان آلة استقبال سليمة صالحة لاستقبال الإلهام والخاطر من الحق سبحانه وتعالى ، وآلة الاستقبال لا تصلح للاستقبال عن الله تعالى إلا إذا كانت على مواصفات الخالق سبحانه صانعها ومبدعها ، كما يلتقط (الراديو أو التليفزيون) الإرسال ، فإن انقطع عنك الإرسال فاعلم أن جهاز استقبالك به عطب ، أما الإرسال فموجود لا ينقطع ، ولله تعالى المثل الأعلى .

وله سبحانه إرسال دائم إلى عباده ، لا يلتقطه إلا مَنْ صفَتْ آلة استقباله ، وصلحت للتلقى عن الله ، وهذه الآلة لا تصلح إلا إذا كانت على المنهج فى افعل ولا تفعل ، لا تصلح إذا تكونت من الحرام وتغذَّتْ به ؛ لأن الحرام يفسد كيماوية الفطرة التى خلقها الله فى عباده يوم أن أخذ عليهم العهد :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ .. (١٧٢) ﴾ [الأعراف]

فهذه الذرية لو ظلتْ على حالها من الصفاء يوم كانت فى ظهر آدم ويوم أخذ الله عليها العهد ، ولو التزمتْ منهج ربها فى (افعل) و (لا تفعل) لكانت أهلاً لإلهام الله ؛ لأن آلة استقبالها عن الله سليمة .

وتأمل فى وحى الله إلى أم موسى : ﴿ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ

﴿فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي .. (٧)﴾ [القصص]

فأىُّ آلة استقبال هذه التى استقبلتْ هذا الأمر ونفذته دون أنْ تناقشه ، واطمأنتْ إليه قبل أنْ تفكر فيه ؟ وكيف تقتنع الأم أن الموت المحقق يُنجى وليدها من موت مظنون ؟

لذلك نقول : إذا صادف الإلهام آلة استقبال سليمة فإنه لا يوجد فى النفس ما يصادره ، ولا ما يبحث عن دليل ، فقامت أم موسى ونفذت الأمر كما أُلقى إليها ، هذا هو الإيتاء..

ومنه أيضاً قوله تعالى : ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا (٦٥)﴾ [الكهف] والعبد الصالح[1] لم يكن نبياً ، ومع ذلك آتاه الله بدون واسطة ، فكان هو مُعلِّماً للنبى ، وما ذلك إلا لأنه عبد لله على منهج موسى ، وأخلص لله تعالى فآتاه الله من عنده .

واقرأ قول الله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا .. (٢٩)﴾ [الأنفال] وقال سبحانه : ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧)﴾ [محمد]

إذن : كلُّ ما علينا لنأخذ إلهامات الحق سبحانه أنْ نحتفظ بصفاء

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٣/٩٢) : « هذا هو الخضر عليه السلام كما دلت عليه الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ » . وأخرج البخارى (٣٤٠٢) وأحمد والترمذى (٣١٥١) وابن أبى حاتم عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « إنما سُمِّى الخضر ، لأنه جلس على فروة بيضاء ، فإذا هى تهتز من خلفه خضراء » . أورده السيوطى فى الدر المنثور (٥/٤٢٠) قال ابن حجر فى فتح البارى (٦/٤٣٤) : « قال الطبرى فى تاريخه : كان الخضر فى أيام أفريدون فى قول عامة علماء الكتاب الأول ، وكان على مقدمة ذى القرنين الأكبر » . وأخرج النقاش أخباراً كثيرة تدل على بقائه لا تقوم بشىء منها حجة ، قاله ابن عطية » .

البنية التى خلقها الله لتظل بمواصفات خالقها ، ثم نسير بها على منهجه تعالى فى افعل ولا تفعل ، وكان سيدنا لقمان من هذا النوع الصافى الطاهر النقى ، الذى لم يخالط جسمه حرام ، والذى لا يغفل عن منهج ربه ؛ لذلك آتاه الله الحكمة ، وقال فيه : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ .. (١٢) ﴾ [لقمان]

وقد اختلف العلماء فيه : أهو نبى أم غير نبى ، والغالب أنه غير نبى[١] ؛ لأن القائلين بنبوته ليس لهم سند صحيح ، والجمهور اجتمعوا على أنه رجل صالح مرهف الحس ، دقيق الإدراك ، والحسّ كما قلنا هو الأصل الأول فى المعلومات ، وكان لقمان لا يمر على الأشياء إلا بهذا الحسِّ المرهف والإدراك الدقيق العميق ، فتتكون لديه مُدْركات ومواجيد دقيقة تختمر فى نفسه ، فتتجمع لديه مجموعة من الفضائل والقيم التى تسوس حركة حياته ، فيسعد بها فى نفسه ، بل ويسعد غيره من حوله بما يملك من المنطق المناسب والتعبير الحسن ، كذلك كان لقمان[٢] .

---

(١) أخرج ابن أبى حاتم عن قتادة رضى الله عنه قال : خيَّر الله تعالى لقمان بين الحكمة والنبوة ، فاختار الحكمة على النبوة ، فأتاه جبريل عليه السلام وهو نائم ، فذرّ عليه الحكمة ، فأصبح ينطق بها فقيل له : كيف اخترت الحكمة على النبوة ، وقد خيَّرك ربك ؟ فقال : لو أنه أرسل إلىّ بالنبوة عزمة لرجوت فيها العون منه ، ولكنت أرجو أن أقوم بها ، ولكنه خيَّرنى ، فخفت أن أضعف عن النبوة ، فكانت الحكمة أحب إلىَّ . أورده السيوطى فى الدر المنثور (٦/٥١١) والقرطبى فى تفسيره (٧/٥٣١٧) .

(٢) عن أبى الدرداء أنه ذكر لقمان الحكيم فقال : ما أوتى ما أوتى عن أهل ، ولا مال ، ولا حسب ولا خصال ، ولكنه كان رجلاً صمصامة (الشديد الصلب المجتمع الخَلْق) سكِّيتاً ، طويل التفكر عميق النظر ، لم ينم نهاراً قط ، ولم يره أحد يبزق ولا يتنحنح ولا يبول ولا يتغوط ولا يغتسل ولا يعبث ولا يضحك ، كان لا يعيد منطقاً نطقه إلا أن يقول حكمة يستعيدها . [عزاه السيوطى فى الدر المنثور (٦/٥١٢) لابن أبى حاتم] .

وللعلماء أبحاث حول شخصية لقمان وجنسيته ، فمنهم مَنْ ذهب إلى أنه كان أسود اللون غليظ الشفتين كأهل جنوب إفريقيا ، لكنه مع ذلك كان أبيض القلب نقى السريرة ، تخرج من بين شفتيه الغليظتين الحِكَم الرقيقة والمعانى الدقيقة(١) .

وصدق رسول الله ﷺ حين قال : « إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم »(٢) .

لذلك حين ترى مَنْ هو أقل منك فى مال ، أو صحة ، أو جاه ، أو منظر فلا تغتر بذلك ، وانظر وتأمل ما تميّز به عليك ؛ لأن الخالق سبحانه - كما قلنا - وزَّع فضله بين عباده بالتساوى ، بحيث يكون مجموع كل إنسان يساوى مجموع الآخر ، ولا تفاضلَ بين المجموعات إلا بالتقوى : « لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى والعمل الصالح »(٣) .

فالذين يحلو لهم أنْ يقسموا المهن مثلاً إلى مهن شريفة وأخرى حقيرة نقول : ليست هناك مهنة حقيرة ما دام المجتمع فى حاجة إليها ولا تستقيم حركة الحياة إلا بها ، فكيف تحقرها ؟ وكيف تحقر أهلها ؟

---

(١) مما يُروى من أخبار لقمان الحكيم أنه قال لرجل ينظر إليه : إن كنت ترانى غليظ الشفتين فإنه يخرج من بينهما كلام رقيق ، وإن كنت ترانى أسود فقلبى أبيض . [تفسير القرطبى ٥٣١٧/٧] .

(٢) أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه (٢٥٦٤) ، وأحمد فى مسنده (٢٨٥/٢ ، ٥٣٩) وابن ماجة فى سننه (٤١٤٣) واللفظ لمسلم .

(٣) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٤١١/٥) ، عن أبى نضرة عن رجل من أصحاب النبى ﷺ ، وأخرجه أبو نعيم فى حلية الأولياء (١٠٠/٣) عن أبى نضرة عن جابر بن عبد الله قال : خطبنا رسول الله ﷺ فى وسط أيام التشريق ، فقال : « يأيها الناس ، ألا إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، ألا لا فضل لعربى على أعجمى ، ولا لعجمى على عربى ، ولا لأحمر على أسود ، ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى » .

والله لو قعد الوزراء فى بيوتهم أسبوعاً ما حدث شىء ، لكن لو تعطل عمال النظافة مثلاً أو الصرف الصحى ليوم واحد لحدثتْ مشكلة ، ولأصبحت الدنيا (خرارة) .

وكيف نحقر هذه المهن ونحقر أصحابها ، وهم يرضوْنَ باليسير ، ويتحملون ما لا يطيقه غيرهم ؟ كيف نحقرهم ، والله تعالى يقول :

﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ .. (١١) ﴾ [الحجرات]

فإن قلت : ما دام ليس نبياً ، فكيف يؤتيه الله ؟ نقول : بالمدد والإلهام الذى قال الله فيه : ﴿ إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا (٢٩) ﴾ [الأنفال] فمَنْ يحافظ على مواصفات التكوين بمنطق الله يأخذ من الله مباشرة .

كما لو طلب منك ولدك مبلغاً من المال يتاجر به فى السوق ، فتعطيه مبلغاً يسيراً تُجرِّبه به ، فإنْ أفلح وربحت تجارته يطمئن قلبك فتزيده أضعاف ما أخذ فى المرة الأولى ، كذلك الإنسان إن أحسن صحبته لربه داوم الله عليه فضله ووالى إليه فيضه .

لذلك يقول سيدنا عمر بن عبد العزيز[1] : ما قصر بنا فى علم ما نجهل إلا عدم عملنا بما علمنا ـ يعنى : لو كنا أهلاً للزيادة لزادنا ، لو كنا مأمونين على ما علمنا فوظّفناه فى حركة حياتنا لجاءتنا فيوضات إشراقية وعطاءات من ربنا ممتدة لا تنتهى ، أما إنْ أخذنا

---

(١) هو : عمر بن عبد العزيز بن مروان الأموى ، أبو حفص ، ولد بالمدينة (٦١هـ) ونشأ بها ، وولى إمارتها للوليد ، ثم استوزره سليمان بن عبد الملك بالشام ، وولى الخلافة بعهد من سليمان سنة ٩٩ هـ ، فبويع فى مسجد دمشق ، ومنع سبَّ على بن أبى طالب وكان مَنْ سبقه من الأمويين يسبونه على المنابر ، توفى وهو فى الأربعين من عمره عام (١٠١هـ) ، مدة خلافته سنتان ونصف .

العلم فألقيناه جانباً ولم نعمل به ، فما الداعى للزيادة ، وأنت لم تستفدْ بما عندك ؟

وكما تكلم العلماء فى شخصية لقمان وجنسيته تكلموا فى حكمته ، فسأله أحدهم وقد تبسَّط معه فى الحديث : ألم تكُنْ عبداً تخدم فلاناً ؟ قال : بلى ، قال : فَبِمَ أوتيتَ الحكمة ؟ قال : باحترامى قدر ربى ، وأدائى الأمانة فيما وليت من عَمل ، وصدق الحديث ، وعدم تعرُّضى لما لا يعنينى[1] .

وهذه الصفات كافية لأنْ تكون منهجاً لكل مؤمن ، ولأنْ ينطق صاحبها بالحكمة ، والله لو كانت فيه صفة الصدق فى الحديث لكانت كافية .

لذلك وصل لقمان إلى هذه المرتبة وهو العبد الأسود ، فآتاه الله الحكمة مباشرة ، وهو ليس نبياً ولا رسولاً ، وسُمِّيت إحدى سور القرآن باسمه ، وهذا يدلك على أن الإنسان إذا اعتدل مع الله وأخلص فى طاعته فإن الله يعطيه من فيضه الواسع ، فيكون له ذِكْر فى مصافِّ الرسل والأنبياء .

ويُرْوَى من حكمة لقمان أن سيده أمره أن يذبح له شاة ثم يأتيه بأطيب مُضْغتين فيها ، فذبح الشاة وجاءه بالقلب واللسان ، وفى اليوم التالى قال له : اذبح لى شاة وأتنى بأخبث مُضْغتين فيها ، فجاءه أيضاً بالقلب واللسان فسأله : ألم تَأْتِ بهما بالأمس على أنهما

---

(١) أخرجه ابن أبى الدنيا فى « كتاب الصمت » (حديث رقم ٦٧٥) ط . دار الاعتصام ١٩٨٦ م وابن جرير عن عمرو بن قيس قال : مرَّ رجل بلقمان عليه السلام والناس عنده ، فقال : ألست عبد بنى فلان ؟ قال : بلى . قال : ألست الذى كنت ترعى عند جبل كذا وكذا ؟ قال : بلى . قال : فما الذى بلغ بك ما أرى ؟ قال : تقوى الله ، وصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وطول السكوت عما لا يعنينى . وأورده السيوطى فى الدر المنثور فى التفسير بالمأثور (٦/٥١٢) .

أطيب مضغتين فى الشاة ؟ قال : بلى فليس شىء أطيب منهما إذا طَابَا ، ولا شىء أخبث منهما إذا خَبُثَا[١] .

وبعد لقمان جاء سيدنا رسول الله ﷺ يُعلِّمنا هذا الدرس فيقول : « ... ألا إن فى الجسد مضغة إذا صلُحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدتْ فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب »[٢] .

ويقول ﷺ فى حديث آخر : « من حفظ ما بين لحييه[٣] وما بين رِجْليه دخل الجنة »[٤] .

ويُروى أن لقمان كان يفتى الناس ، وكانوا يثقون بكلامه ، وكان ذلك قبل داود عليه السلام ، فلما جاء داود كفَّ لقمان عن الفُتْيا ، فلما سألوه : لماذا امتنعتَ عن الفُتْيا ؟ فقال ـ وهذه أيضاً من حكمته : ألاَ أكتفى إذا كُفيت ؟

يعنى : لماذا أتمسَّك بها وقد بعث الله لى مَنْ حملها عنى ، وهو يعلم تماماً أنه مجرد عبد صالح (أى : أنه أخذ الحكمة من منازلهم

---

(١) أخرجه ابن أبى شيبة وأحمد وابن جرير عن خالد الربعى ، فيما ذكره السيوطى فى الدر المنثور (٦/٥١٦) .

(٢) متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٠٥١) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير رضى الله عنه ، وتمام الحديث : « إن الحلال بيِّن ، وإن الحرام بيِّن ، وبينهما مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس ، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام ، كالراعى يرعى حول الحمى ، يوشك أن يرتع فيه ، ألا وإن لكل ملك حمىً ، ألا وإن حمى الله محارمه » الحديث .

(٣) اللحيان : حائطا الفم ، وهما العظمان اللذان فيهما الأسنان من داخل الفم من كل ذى لَحْى [لسان العرب ـ مادة لحا] .

(٤) أخرجه أبو نعيم فى حلية الأولياء (٣/٢٥٢) من حديث سهل بن سعد بهذا اللفظ ، وأصله فى البخارى (٦٤٧٤) عن سهل بلفظ « من يضمن لى ما بين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة » .

كما يقال) ، أما داود فرسول من عند الله ، ومن الحكمة أنْ يُفسح له هذا المجال ، ويترك لـه ساحة الفُتْيا فى القوم لعله يـأتى بأفضل مما عند لقمان ؛ لذلك تركها له عن رضاً وطيب خاطر .

والبعض يقول : إن الله خيَّره بين أن يكون نبياً أو حكيماً ، فقال : أما وقد خيَّرتنى يا رب ، فأنـا أختار الراحة ، وأترك الابتلاء ، أما إنْ أردتها يا رب عـزمة فأنا سـأقبلها سـمعاً وطـاعة ؛ لأنى أعلم أنك لن تخذلنى[1] .

والحق سبحانه يُنطق لقمان بأشياء من الحكمة يسبق بها النبوة ؛ ليـبـين لنا أن الإنسـانَ من الممـكن أن يكون ربانيـاً ، كمـا جـاء فى الحـديث القـدسـى : « عبـدى ، أطعنى تكُنْ ربانيـاً ، تقـول للشىء كُنْ فيكون »[2] .

ذلك لأن فـضل الله ليس له حـدود ، ولـيس عليـه حـرج ، وبابه تعالى مـفتـوح ، المهم أن تكون أهلاً لأنْ تلِجَ هذا الـباب ، وأنْ تكون

---

(١) أخرج الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول عن أبى مسلم الخولانى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن لقمان كـان عبداً كثير التفكر ، حسن الظن ، كـثير الصمت ، أحب الله فأحبـه الله تعالى ، فمَنَّ عليه بالحكمة ، نـودى بالخلافة قبل داود ، فقـيل له : يا لقمان هل لك أن يجعلك الله خليفة تحكم بين الناس بالحق ؟ قال لقمان : إن أجبرنى ربى قبلت ، فإنى أعلم أنه إن فعل ذلك أعـاننى وعلمنى وعصمنى ، وإن خيّـرنى ربى قبلت العافـية ولم أسأل البلاء » أورده السيوطى فى الدر المنثور (٦/٥١١) .

(٢) أخرج البخارى فى صحيحه (٦٥٠٢) نحو هذا عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال ﷺ : « إن الله قال : من عادى لى ولياً فقد آذنتـه بالحرب ، وما تقرب إلىَّ عبدى بشىء أحب إلىّ مما افترضته عليه ، وما يزال عبدى يتقرب إلىَّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصـر به ، ويده التى يبطش بها ، ورِجْله التى يمشى بها » الحديث . قـال الطوفى (سليمان عبـد القوى الصرصرى ت ٧١٦ هـ) : اتفق العلمـاء ممن يعتد بقوله أن هذا مجاز وكناية عن نصرة العبـد وتأييده وإعانته ، حتى كأنه سبحانه ينزل نفسه من عبده منزلة الآلات التى يستعين بها » .

فى معية ربك دائماً .

ومما يُـرْوَى من حكمة لقمان أنه غـاب فى سَفْرة ، ثم عاد فلقـيه تابعه ، فـقال له : مَـا حال أبى ؟ فـقال : مات ، فـقال لقـمان : الآن ملكْتُ أمرى ، ثم سـأل : فمـا حال زوجتى ؟ فـقال : ماتت ، فـقال : جدّدتُ فراشى ، ثم سـأل عن أخته ، فقال : ماتت ، فـقال : سَتر الله عِرْضى ، ثم سأل عن أخيه ، فقال : مات ، فقال : انقصم ظهرى[1] .

وهذا الكلام لا يصـدر إلا عن حكمـة ، فكثـيراً مـا يفـرح الابن ـ خاصة العاق ـ بموت أبيه ؛ لأنه سيترك له المال يتمتع به ، أما لقمان فيقـول عندما علم بموت أبيه : الآن ملكْتُ أمرى ؛ لأنه فى حـياة أبيه كان له أمر ، لكن أمره ليس فى يده إنمـا فى يد أبيه ، فلما مات أبوه صار أمره بيده .

وهذه الحكمـة توضح لنا قول النبى ﷺ : « أنت ومـا ملكت يداك لأبيك »[2] كأنه من العيب أن تقول فى حياة أبيك : أنا أملك كذا وكذا . أما الآن فقد تجاوز الأبناء كل هذه القـيم ، ونسمع الابن يقول لأبيه : اكتب لى كذا وكذا .

---

(١) أخرجـه عبد الله بن أحـمد بن حنبل فى زوائده عن عـبد الله بن دينار : إن لقمـان قدم من سفـر فلقيـه غلام فى الطـريق فقال : مـا فعل أبـى ؟ قال : مات . قـال : الحمـد لله ملكت أمرى . قال : مـا فعلت أمى ؟ قال : مـاتت . قال : ذهب همى . قال : ما فـعلت امرأتى ؟ قال : مـاتت قال : جُـدِّدَ فراشى . قـال : ما فـعلت أخـتى ؟ قال : مـاتت . قال : سـترت عورتى . قال : ما فعل أخى ؟ قال : مـات . قال : انقطع ظهرى . أورده السيوطى فى الدر المنثور (٦/٥١٩) .

(٢) عن عبد الله بن عمرو بن العاص قـال : أتى أعرابى رسول الله ﷺ فقال : إن أبى يريد أن يجـتاح مـالى . قال : « أنت ومـالك لوالدك ، إن أطيب مـا أكلتم من كـسبكم ، وإن أمـوال أولادكم من كسبكم فكـلوه هنيئاً » أخرجه أحـمد فى مسنده (٢/١٧٩، ٢١٤) ، وأبو داود فى سننه (٣٥٣٠) .

أما قوله : « جددت فراشى » فهى كلمة لها معنى كبير : أنا لا أُدخِل الجديدة على فراش القديمة حتى لا أجرح مشاعرها ، أو أننى لا أتزوج إلا بعد وفاة زوجتى الأولى ؛ ذلك لأن الغيرة طبع فى النساء .

وكانت أم المؤمنين عائشة تغار حتى من ذكر السيدة خديجة ، فقد دخلت فاطمة بنت محمد ﷺ على أبيها مُغْضبة فقال ﷺ : « ما أغضبك يا أم أبيها » فقالت : والله إن عائشة قالت لى : إن رسول الله تزوج أمك ثيِّباً ، ولم يتزوج بِكْراً غيرى ، فقال لها رسول الله : « إذا أعادت عليك هذا القول ـ وانظر هنا إلى أدب النبوة فى الردِّ وفى سرعة الخاطر ـ فقولى لها : ولكن أمى تزوجتْ رسول الله وهو بكر ، وتزوجتيه أنت وهو ثيِّب »[1] هذا كلام النبوة ، ومن بعدها لم تُعِدْها عائشة مرة أخرى .

وقد يقول قائل : وكيف تغار عائشة ، وهى أم المؤمنين وزوج رسول الله ؟ قالوا : هذه الغيرة لها معنى ، فقد عقد رسول الله عليها وهى بنت السادسة ، ودخل بها وهى بنت التاسعة[2] ، وقد جاوز ﷺ الخمسين من عمره ، ومع فارق السن بينهما رضيتْ عائشة برسول الله ؛ لأنها رأتْ فيه من مزايا نوره ما جعلها تَغَار عليه رغم كِبَر سنّه وصِغَر سنها . فلم تنظر إليه على أنه رجل عجوز يكبرها ، بل رأَتْ

---

(١) لقد كانت عائشة تغار من خديجة رضى الله عنهما ، رغم أن رسول الله ﷺ ما تزوج عائشة إلا بعد وفاة خديجة ، ومن هذا ما أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٤٣٧) باب فضائل خديجة : أن عائشة قالت لرسول الله ﷺ : « ما تذكر من عجوز من عجائز قريش ، حمراء الشدقين ، هلكت فى الدَّهر ، أبدلك الله خيراً منها » فتغير وجهه ﷺ وزجر عائشة غاضباً : « والله ما أبدلنى الله خيراً منها : آمنت بى حين كفر الناس ، وصدقتنى إذ كذبنى الناس ، وواستنى بمالها إذ حرمنى الناس ، ورزقنى منها الله الولد دون غيرها من النساء » .

(٢) عن عائشة رضى الله عنها قالت : تزوجنى رسول الله ﷺ وأنا بنت ست سنين ، ودخل علىّ وأنا بنت تسع سنين ، ولقد دخلت عليه وإنى لألعب بالبنات مع الجوارى فيدخل فينقمعن منه صواحبى فيخرجن فيخرج رسول الله ﷺ فيسربهن علىّ . أخرجه ابن سعد فى كتاب الطبقات الكبير (١٠/٥٩) ـ ط مكتبة الخانجى ـ هيئة الكتاب .

فيه ما يفوق ويعلو على مجرد الشباب .

إذن : فمعنى : « جددت فراشى » أننى أراعى مشاعر الزوجة الجديدة ، فلا أُدخلها على فراش القديمة فأصدمها به ، وأُلهب مشاعر الغيرة عندها ، حتى من التى ماتت ، وأنا أريد أن تكون صافية التكوين لذاتى ، راضية عن كل تصرفاتى ، أريد أن أمنع كل شبهة تقلق كونها سكناً لى ، وأنا سكَن لها .

نعود إلى قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ .. (١٢) ﴾ [لقمان] فالذى آتى هو الله عز وجل ، والحكمة : مادة حكَم تدل على وَضْع الشىء فى موضعه ، ومنها الحاكم ؛ لأنه يضع الحق فى نصابه ، حتى فى الدواب نسمى الحديدة التى توضع فى فم الفرس لأتحكم فى حركته (حكَمه) ؛ لأن الهدف من ركوب الخيل مختلف ، فمرة أركبه للنزهة ، ومرة أركبه لأدرك به صَيْداً ، ومرة للكرِّ وللفرِّ فى المعركة ، فكُلُّ هدف من هذه له حركة ، وينبغى أنْ أتحكم فى حصانى ليؤدى لى ما أريده منه .

إذن : فالحكمة تعنى فى معناها العام وَضْع الشىء فى موضعه ، وهى مجموعة من مَلَكات الفضائل تصدر عنها الأشياء التى تضع كل أمر فى محله لكن بيُسْر وبلا مشقة ولا تعب ، كالشيخ الذى ظل يدرس فى الأزهر مثلاً عشرين أو ثلاثين سنة تذهب إليه ، وتستفتيه فى أمر من الأمور ، فيجيبك بيُسْر وسهولة ، وبدون تفكير أو إعداد ، لماذا ؟ لأن الفُتْيا أصبحت مَلَكة عنده لا تحتاج منه إلى مجهود ولا مشقة .

ومن الحكمة أنْ يخلق الله لك أشياءً ، ويهديك لأنْ تستنبط منها أشياءً أخرى .

وساعة تسمع من الله تعالى ﴿وَلَقَدْ .. (١٢)﴾ [لقمان] فاعلم أن هنا قَسَماً فالواو واو القسم ، والمقسَم عليه مُؤكَّد باللام ومُؤكَّد بقد التى تفيد التحقيق .

قوله سبحانه : ﴿آتَيْنَا .. (١٢)﴾ [لقمان] الحق ـ سبحانه وتعالى ـ فى إتيانه للأشياء يعنى تعدَّى ما قدره لمن قدره من خير ظاهر ومن خير مستور . وقبل أنْ يخلق الله الإنسان خلق له ، فجاء الإنسان الأول (آدم عليه السلام) وطرأ على كون فيه كل مُقوِّمات حياته من هواء وماء وأرض وسماء وطعام وشراب .. الخ .

وكل ذلك مُسخَّر له تسخيراً لا دَخْلَ للمنتفع به فيه ، وهذا أول الإيتاء ، بل قبل ذلك ، وفى الأزل قبل أن يخلق الإنسان خلق له مُقوِّمات مادته ومُقوِّمات قيمه وروحه ـ أى : أوجدها .

لأننا نعلم أن كل صانع قبل أن يُقدم على صَنْعة لا بُدَّ أن يُحدِّد الغاية ، ويضع الهدف منها أولاً ، لا أنْ يصنع الشىء ثم ينظر فيه : لأىِّ شىء يصلح هذا الشىء ، كذلك لا بُدَّ أنْ يسبق الصنعةَ منهجُ صيانتها .

فالحق سبحانه قبل أنْ يخلق الإنسان وضع له مُقوِّماته المادية والمعنوية ، والمنهج الذى يُصلحه وحدّد الهدف من وجوده ؛ لذلك يُنبِّهنا الحق سبحانه إلى هذه المسألة فى قوله تعالى : ﴿الرَّحْمَـٰنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الإِنسَانَ (٣)﴾ [الرحمن] فقبل أنْ يخلق اللهُ الإنسانَ وضع المنهج الذى به صيانته ، وهو القرآن الكريم .

إذن : فمعنى الإيتاء أنْ يعدى الله ما قدره من خير ظاهر أو خير مستور لمن قدره ، والخير يكون على نوعين : خير يقيم المادة ، وخير يقيم القيم الروحية ، المادة تقوم بالهواء وبالطعام وبالشراب .. الخ ، والقيم تقوم بالوحى وبالمنهج الذى حمله الرسل بافعل ولا تفعل.

والله تعالى آتى كثيراً من خلقه ، فلماذا خَصَّ لقمان بالذات ، فقال ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ .. (١٢)﴾ [لقمان] ؟ قالوا : لأن الله تعالى حين يأمر الرسل بأمر ليُبلِّغوه يُعِد الرسل لهذا الأمر ، وكأن الحق سبحانه يريد أنْ يقول لنا : إن الفطرة السليمة تهتدى إلى الله ، وإلى المطلوب من الله بدون وحى ، وبدون إعداد .

ومن ذلك ما رُوِى عن سيدنا عمر ـ رضى الله عنه ـ من أنه كان يُحدِّث سيدنا رسولَ الله بالأمر ، ويقترح عليه فيأتى الوحى موافقاً لرأيه ، فكيف يتسنى لعمر أن يقترح على رسول الله وفى وجوده ، وهو المشرع الثانى بعد القرآن ؟

نقول : لأن الله تعالى يريد أنْ يثبت لنا أن الفطرة السليمة إذا صَفَتْ لله تستطيع أنْ تهتدى إلى الأشياء ، وتصل إلى الحق قبل أنْ ينزل الوحى به .

إذن : فالإيتاء من الله لا يأتى عبثاً ، فالإيتاء الأول كان لآدم عليه السلام ، وآدم شاء الله أنْ يجعله خليفة له فى الأرض ، ولا يعنى هذا أنه أول المخلوقات فى الأرض ، والحق سبحانه لم يَقُلْ إننى أول ما خلقتُ خلقتُ آدم ، وبدليل قوله تعالى : ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ (٢٧)﴾ [الحجر]

ومسألة الخلْق هذه هيِّنة على الله ، بدليل قوله تعالى : ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٩) وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (٢٠)﴾ [إبراهيم] فالمسألة ليست نادرة حدثت مرة واحدة ، ولن تحدث بعد ذلك .

وللعلماء كلام طويل فى عوالم أخرى غير عالمنا كعالم الجن[1] ،

---

(١) قال ابن سيده : الجن نوع آخر غير الجن . ويقال : الجن خَلْق بين الجن والإنس . وقال الفراء : الجِنّ كلاب الجن . [لسان العرب ـ مادة : جنن] .

وعالم البنِّ ، وعالم الجن وغيرها مما لا يعلمه إلا الله ، لكن إنْ حدَّثك المضللون الذين يريدون أنْ يستدركوا على الدين ويقولون : إن الحفريات أثبتت وجود مخلوقات قبل آدم ، فكيف تقولون : إن آدم أول مخلوق ؟

ونقول لهؤلاء : لم يقُلْ أحد : إن آدم أول مخلوق على الأرض ، إنما هو أول هذا الجنس البشرى الذى نسميه « إنسان » لكن سبقته أجناس أخرى ، وشاء الله أنْ يجعل آدم خليفة فى الأرض ، ثم أخبر الملائكة ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى الأَرْضِ خَلِيفَةً .. (٣٠)﴾ [البقرة]

والله حين يخبر الملائكة هذا الخبر لا يستشيرهم ، إنما ليبين لهم أمراً واقعاً ، وخصَّ الملائكة بهذا الإخبار ؛ لأنه سيكون لهم دور مع هذا الخليفة الجديد . إذن : فالذين قال الله لهم : ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى الأَرْضِ خَلِيفَةً .. (٣٠)﴾ [البقرة] ليسوا كل الملائكة ، إنما الذين لهم دور ومهمة مع هذا المخلوق ، أما باقى الملائكة فلا يدرون بآدم ، ولا يعرفون عنه شيئاً ، وليس فى بالهم إلا الله .

والقرآن الكريم يشير لنا إلى هذه المسألة إشارةً دقيقة فى قوله تعالى مخاطباً إبليس لما رفض السجود لآدم : ﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥)﴾ [ص] والعالون هم الملائكة الذين لم يشملهم الأمر بالسجود .

وقلنا : إن الله تعالى كرَّم آدم حين خلقه تعالى ، وباشر خَلْقه بيده سبحانه ، ولم يخلقه كباقى المخلوقات (بكُنْ) ؛ لذلك جاء فى حيثية النقد على إبليس : ﴿قَالَ يَـٰإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ .. (٧٥)﴾ [ص]

إذن : مباشرة الخَلْق باليد دليل على العناية بالمخلوق ؛ لأن اليد هى الآلة الفاعلة لأكثر الأشياء ، وحتى الآن نفخر بعمل اليد فنقول (هذا الشىء يدوىّ) يعنى : لم تصنعه آلة صماء ، إنما يد مفكر يتقن الصنعة .

وفى مسألة خَلْق آدم ـ عليه السلام ـ يحلو للبعض أن يقول : هو الذى أخرجنا من الجنة ، فهل قال الله تعالى قبل أن يصدر أول بيان عن آدم أننى خلقتُه للجنة ، ثم عصى آدم ربه وتسبب فى أنْ نخرج منها ؟

لم يقُلْ ذلك ، إنما قال : ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى الأَرْضِ خَلِيفَةً .. (٣٠)﴾ [البقرة] فهو ـ إذن ـ مخلوق للأرض ، وما الجنة التى دخلها إلا جنة التجربة لا جنة الخلد ، والبعض يظن أن كلمة الجنة إذا أُطلقَتْ تعنى جنة الآخرة ، وهذا خطأ بدليل قول الله تعالى : ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (١٧)﴾ [القلم]

وقوله تعالى : ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ .. (٣٢)﴾ [الكهف]

فالجنة فى اللغة هى المكان الملىء بالأشجار الكثيفة التى تستر مَنْ يسير فيها ، كما تستره أيضاً عن البيئة الخارجية ؛ لأنها تكفيه بما فيها عن الاحتياج إلى غيرها ، فبها كل مُقوِّمات الحياة ، ومن ذلك الجنة التى دخلها آدم ؛ لأن الله تعالى أراد أنْ يصنع لآدم تدريباً على مهمة الخلافة ، ولم لا ونحن نُدرِّب كل صاحب مهمة على مهمته قبل أنْ يقوم بها ، حتى لاعب الكرة .

وحين نأخذ المتدرب لندربه على أداء مهمته لا بُدَّ أن نوفر له كل مُقوِّمات حياته ، ونتكفل له بكل ما يعينه على أداء مهمته ، فنقدم له

إقامة كاملة من طعام وشراب ومسكن .. إلخ وكذلك فعل الله تعالى لآدم فقال له ﴿يَـآدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (٣٥)﴾ [البقرة]

وحين نقارن بين ما أباحه الله لآدم وما حظره عليه نجد أنه تعالى أباح له كُلَّ ما فى الجنة ولم يحرم عليه إلا هذه الشجرة التى أوضحها وبيَّنها له . كما نلحظ قوله تعالى : ﴿لا تَقْرَبَا.. (٣٥)﴾ [البقرة] ولم يقُلْ : لا تأكلا ؛ لأن القرب من الشىء قد يُغرِى بمزاولته ، فاحتطْ أنت لنفسك بعدم القرب منه .

وهذا التدريب لآدم فيه إشارة رمزية لكل تكليف من الله لخَلْقه فى (افعل) و (لا تفعل) .

ثم يذكِّر الحق سبحانه آدم بالمقدمة العدائية التى حدثتْ بينه وبين إبليس ، وينصحه بأنْ يحذر هذا العدو ؛ لأنه أبى أنْ يسجد له لما أمره الله بالسجود استكباراً وعُتواً .

والله حين يأمر بالسجود لآدم إنما يريد السجود للأمر والانصياع له ، لا السجود لآدم فى ذاته ؛ لذلك نجد الأمر من الله تعالى يختلف باختلاف المأمورين ، فمرة ينهى عن شىء ويأمر بمثله ليرى مدى انضباطك للأمر وللنهى .

ففى الحج مثلاً ، يأمرك أنْ تُقبِّل حجراً ، وأنْ ترمى حجراً آخر وترجمه ، وهذا حجر وذاك حجر ، إذن : فالحجرية غير منظورة ، لكن المنظور فيه إلى الأمر أو النهى .

وبصرف النظر عن المصلحة أو الحكمة من الأمر أو النهى ، فمثلاً حينما يتعذر الماء يشرع التيمم بدلاً من الوضوء ، فيأتى مَنْ يقول :

الوضوء للنظافة ، فما النظافة فى التيمم ، وهو يُلوِّث الجسم ؟

ونقول : فَرْق بين النظافة والتطهير ، والمراد من التيمم التطهير بشىء هو أصل فى مادتك وتكوينك ، فالمسألة انضباط فى طاعة الأمر بأن تفعل شيئاً تجعله مقدمة لصلاتك ، كأنك لا تُقبل على الصلاة إلا بتهيئة ، وأيضاً لأن الصلاة بها قِوَام روحك وحياتك ، وحياتك فى الأصل ومادتك من الماء الذى تستخدمه فى الوضوء والتراب الذى تستخدمه فى التيمم .

إذن : لهاتين المادتين رمزية يجب أنْ تُلحظ فى الدخول على الله فى الصلاة ، ولا يليق بالمؤمن أنْ يُفلسف أمور العبادات ويبحث عن علّتها والحكمة أو المصلحة من أدائها ، إنما يكفى أن يقول : علَّة هذا الأمر أن الله أمر به أنْ يفعل ، وعلة هذا الحكم أن الله أمر به ألاّ يُفعل .

لذلك ورد عن الإمام على رضى الله عنه أنه قال : لو كانت المسألة بالعقل لكان أسفل الخُفِّ أوْلَى بالمسح من أعلاه[1] ، إذن : المسألة طاعة والتزام للأمر وللنهى ؛ لذلك من غير المناسب أن نقول : إن من حكمة الصوم : أنْ يَشعر الغنى بألم الجوع ، فيعطف على الفقير ؛ لأننى سأقول لك إذن : لماذا يصوم الفقير ؟

ولتوضيح هذه المسألة ضربنا مثلاً وما زِلْنا نكرره . قلنا : إن أعز شىء على المرء صحته ، فإنْ أصابته علة ، فأول ما يُعمِل عقله

---

(١) عن على رضى الله عنه قال : « لو كان الدين بالرأى لكان أسفل الخفِّ أوْلَى بالمسح من أعلاه ، وقد رأيت رسول الله ﷺ يمسح على ظاهر خفيه » أخرجه أبو داود فى سننه (١٦٢) .

يبحث عن الطبيب المتخصص فى مرضه فيذهب إليه ، ثم يسلم له نفسه ليفحصه ، ثم يكتب له الدواء فيأخذه ويتناوله دون أنْ يسأل عن علِّته ، أو لماذا وصفه الطبيب ، لماذا ؟

لأن الطبيب مؤتمن بعد أنْ تعلَّم ودرس وتخصَّص ، فأنت لا تسأله ولا تناقشه : لماذا كتب لك هذا الدواء ، وهو مع ذلك إنسان وعُرْضة للخطأ وللسهو وللنسيان ، ومع ذلك لا يناقش . إذن : علة تناول الدواء أن الطبيب وصفه لى ، وعلة كل أمر عند الآمر به .

والآمر فى العبادات هو الحق ـ سبحانه وتعالى ـ فلا يليق بالمؤمن بعد أنْ آمن بالله وبحكمته وقدرته أنْ يبحث ليعلم الحكمة من كل أمر يأتيه من ربه عز وجل .

نعود إلى آدم ـ عليه السلام ـ وأن الجنة التى دخلها كانت للتدريب والتجربة ولم تكُنْ جنة الخلد ، تدرَّب فيها آدم على : كل (افعل) وعلى : لا تقرب (لا تفعل) واحذر الشيطان فإنه عدو لك ، وسوف يوسوس لك ، ويغويك ؛ لأنه لا يريد أنْ يكونَ عاصياً وحده ، يريد أنْ يجرَّك معه إلى حمأة المعصية .

وظل آدم وزوجته يأكلان كما قال تعالى من الجنة رغداً حيث شاءا ، دون أنْ يقربا هذه الشجرة التى بيَّنها الله لهما إلى أنْ وسوس لهما الشيطان وأغراهما بالأكل منها ، مع أن الله تعالى حذَّرهما ، وأعطاهما حقنة مناعة ضد الشيطان ووسوسته ، ومع ذلك حدثتْ من آدم الغفلة .

وهذه الغفلة الله يُنبِّه بها ذرية آدم من بعده : أن الشيطان لن يدعكم ، وسوف يدخل عليكم بألاعيبه وحيله ، كما دخل على أبيكم آدم ، فكونوا منه على حذر ، وابحثوا بعقولكم ما يلقيه إليكم من وساوس .

بالله ، ماذا قال إبليس لآدم حين أغواه بالأكل من الشجرة ؟ قال : ﴿ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (٢٠) ﴾ [الأعراف]

أليس من المنطق أن نقول : ولماذا لم تأكل أنت منها يا إبليس فتصير ملَكاً ، وتصير من الخالدين ، ولا تتمحك فتقول : ﴿ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٣٦) ﴾ [الحجر] إذن : كان على آدم أنْ يتنبه إلى مكايد الشيطان وألاعيبه .

ثم يُنبِّهنا الحق ـ سبحانه وتعالى ـ من خلال هذه القصة إلى أن الشيطان سيأتينا فى مقام الطاعة ، فلو أن آدم وزوجه ذهبا إلى هذه الشجرة وأكلا منها ما وسوس لهما ، فهذا دليل على أنهما احتاطا للأمر ، فلم يقربا من الشجرة تنفيذاً لأمر الله ؛ لذلك تدخَّل الشيطان .

إذن : نقول إن الشيطان لا يتدخل إلاّ فى مجال الطاعة ، أما المعصية فصاحبها كفاه مؤنة الوسوسة ، الشيطان يذهب إلى المسجد لا يذهب إلى الخمارة ؛ لأن الذى يذهب إلى الخمارة صار شيطاناً فى ذاته ، فما حاجته لإبليس ؟

لذلك يقول تعالى حكاية عن إبليس : ﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ﴾ [الأعراف] أى : فى مواضع الخير وطرق الصلاح والهداية لأبطل أعمالهم ، وأفسد عليهم أمرهم ، ونحن نلحظ ذلك فى صلاتنا مثلاً ، فقد تنسى شيئاً ، وتحاول أن تتذكره فلا تستطيع ، وفجأة وأنت تصلى تتذكره .

فلو أننا أخذنا (الروشتة) من خالقنا عز وجل وبمجرد أنْ ينزغنا الشيطان نقول : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم لتنبّه الشيطان ،

وعلم أننا لسنا فى غفلة ، وأننا نكشف ألاعيبه ، ونعرف حيله ، وصدق الله العظيم حين قال : ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ .. (٢٠٠) ﴾ [الأعراف]

وقد وصف الله الشيطان بأنه خنّاس ، يعنى : إذا ذُكر الله خنس وتضاءل ، فإنْ جاءك هذا الخاطر الشيطانى - حتى وإنْ كنتَ تقرأ القرآن - قُلْ بجرأة وقوة : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ؛ ليعلم أن ألاعيبه لا تخفى عليك فينصرف عنك ، أما أن تخضع له فإنه يعطيك فقط طرف الخيط ، ويفتح لك باباً يشغلك به ، ثم يتركك أنت (تكُرُّ) هذا الخيط من نفسك ، ويذهب هو (يستغفل) واحداً غيرك .

والشيطان رغم علْمه ، إلا أن فيه تغفيلاً بدليل أنه أعلن عن خطته ، وأظهر لنا مكايده قبل أنْ يكيدنا بها ، فقال : ﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ﴾ [الأعراف] وقال ﴿ لَآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ .. (١٧) ﴾ [الأعراف] ، فالذى يدبر المكايد ويتآمر على غيره لا يعلن عن مكايده مُقدماً ، ونحن أيضاً كان علينا أنْ نحذر هذه المكايد خاصة ، وقد أعلن عدونا عنها .

ولك أنْ تلحظ فى خطة إبليس أنه يأتيك من جهاتك الأربع ، ومعلوم أن الجهات ست ، فلماذا لم يذكر فوقنا وتحتنا ؟ قالوا : لأن هاتين الجهتين محلُّ نظر إلى الله عز وجل ، فالعبد ينظر إلى عِزِّ الربوبية فى عليائه وذُلِّ العبودية إذا اتجه فى سجوده إلى أسفل .

إذن : فأنت فى معية ربك فى هاتين الجهتين ، والشيطان لا ينال منك إلا وأنت بعيد عن معية ربك . ومثَّلْنا لذلك ، ولله المثل الأعلى ؛ قلنا : إن الغلام إذا كان يسير فى يد أبيه وفى صحبته ، لا يجرؤ أحد من أمثاله على الاعتداء عليه ، إنما إنْ سار وحده فهو عُرْضة للإيذاء .

وهذا دليل على علم إبليس وعلى ذكائه ، ونلحظ هذا أيضاً فى قوله : ﴿ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣) ﴾ [ص] كأنه يقول لربه : أنا لا أقترب من عبادك الذين هم فى حضانتك ، وفى معيتك .

والتغفيل الأكبر فى إبليس أنه مع علمه بمقام ربه يتمرد على أمره ، حين يأمره بالسجود فلا يسجد .

إذن : نبَّه الله تعالى آدم وحذره من كيْد إبليس ، وكان عليه أنْ يحذر وألاَّ تدخل عليه حيلة الأكل من الشجرة إلا أنه فى غفلة منه عن أمر ربه أكل من الشجرة ، فلما خالف الأمر اختلفتْ طبيعته ، وبدَتْ له ولزوجه السَّوْءة ، وكانت المرة الأولى التى يشعر فيها آدم بعورته عند خروج الغائط .

لكن ، ما الفرق بين فتحة دخول الطعام (الفم) وفتحة خروجه ؟ ولماذا أصبحت هذه عورة ، وهذه غير عورة ؟

قالوا : لأن آدم حال طاعته لأمر ربه فى الأكل من ثمار الجنة كان يأكل بطهى ربه ، وهو طهى بحكمة وبقدر معلوم ، يكفى مقومات الحياة ولا يزيد عنها ، لذلك لم يَبْق فى بطن آدم فضلات ، ولم توجد عنده غازات أو أرياح ، فلم يشعر فى هذه الحالة بحاجة إلى التغوط ، فكانت الفتحتان متساويتين ، هذه فتحة ، وهذه فتحة .

فلما خالف آدم أمر ربه وذاق الشجرة اختلفتْ الأغذية فى بطنه ، وحدث لها تفاعلات ، ونتج عنها فضلات وأرياح ، ولما أحسَّ بها آدم نفر منها وأصابه الخجل ، وشعر أنها عورة ينبغى أنْ تُستر ، فالطبع السليم لا بُدَّ أنْ ينفر منها ؛ لذلك أخذ يزيل هذا الأذى عن نفسه ،

ويستره بأوراق الشجر ، ومنذ ذلك الحين لم يستطع آدم أن يسدَّ هذه الفتحة ، ولن تُسَدَّ .

إذن : الحق سبحانه جعل الدُّرْبة لآدم فى الجنة هذه ، وهيَّأ له فيها طعامه ، ونهاه عن نوع بعينه[1] ، فأمره ونهاه وعلَّمه وحذَّره ، فلما وقع فى المخالفة وأغواه الشيطان ، ولم يعمل بنصيحة ربه أخرجه إلى الأرض بهذه التجربة ، لتكون رمزاً له ولذريته من بعده : إنْ سِرْتَ على منهجى ووفْق أوامرى فى (افعل) و (لا تفعل) فلن تجد عورة فى الكون كله ، ونحن نرى ذلك فعلاً فى حركة حياتنا فى الكون ، فلا نرى عورة فى المجتمع ولا خللاً إلا إذا خُولِفَتْ أوامر الله .

هذا هو الإتيان الأول ، بعد ذلك قدَّر الله غفلة البشر ، فأرسل إليهم الرسل بالمنهج ، فكان إتيان آخر ، كما قال تعالى : ﴿ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا (١٦٣) ﴾ [النساء] وقال فى عيسى عليه السلام : ﴿ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ (٢٧) ﴾ [الحديد]

---

(١) قال تعالى : ﴿ وَقُلْنَا يَـٰآدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (٣٥) ﴾ [البقرة] . قال ابن كثير فى تفسيره (١/٧٩) : « اختلف فى هذه الشجرة ما هى ؟

- الكرم (العنب) . قاله ابن عباس وسعيد بن جبير وغيرهما .
- الحنطة . زعمته اليهود .
- التينة . قاله مجاهد وقتادة وابن جريج .
- السنبلة . قاله ابن عباس .
- النخلة . قاله أبو مالك .
- البر . قاله وهب بن منبه .

قال ابن كثير : فهذه أقوال ستة فى تفسير هذه الشجرة . قال الإمام العلامة أبو جعفر ابن جرير رحمه الله : والصواب فى ذلك أن يقال : إن الله عز وجل ثناؤه نهى آدم وزوجته عن أكل شجرة بعينها من أشجار الجنة دون سائر أشجارها فأكلا منها ولا علم عندنا بأى شجرة كانت على التعيين ؛ لأن الله لم يضع لعباده دليلاً على ذلك فى القرآن ولا من السنة الصحيحة ، وذلك علم إذا علم لم ينفع العالم به علمه وإن جهله جاهل لم يضره جهله به .

وهذا الإيتاء من الله يتم فى خفاء ؛ لذلك يُسمونه وحياً ، وهو من الغيبيات ، فالله تعالى لا يمدُّ يده فيعطى النبى أو الرسول شيئاً حسِّياً ، ومن هنا ارتبط الإيمان بالغيبيات دون المحسَّات ، فأنا لا أقول مثلاً : آمنتُ بأننى قاعد فى مسجد الشيخ سليمان وأمامى جَمْع من الإخوة .. الخ . إذن : لا بُدَّ أنْ يكون الإيمان بأمر غيبى .

الحق ـ سبحانه وتعالى ـ يُؤتى على توالى العصور أنبياءه معجزات ، ويؤتيهم منهجاً يسوس حركة الحياة ، ولا يقتصر إيتاء الله على الرسل ، إنما يؤتى غير الرسل ، ويؤتى الحيوان .. الخ .

ثم يعطينا الحق سبحانه نموذجاً للحكمة التى آتاها لقمان : ﴿أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ .. (١٢)﴾ [لقمان] هذه هى الحكمة الأولى فى الوجود ؛ لأنك إنْ شكرتَ الله على ما قدَّم لك قبل أنْ توجد ، وعلى ما أعطاك قبل أن تسأل ، وعلى ما هدى جوارحك لتؤدى مهمتها حتى وأنت نائم ، كأنه تعالى يقول لعباده : ناموا أنتم فربكم لا تأخذه سنة ولا نوم .

فإن شكرك لله يهدم أول لبنة من لبنات الاغترار ، فالذى يفسد خلافة الإنسان فى الأرض أنْ يغترَّ بما أعطاه الله وبما وهبه ، وينسى أنه خليفة ، ويعتبر نفسه أصيلاً فى الكون ، والشكر لله تعالى يكون على ما قدَّم لك من نعم .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨)﴾ [النحل] أى : تشكر الله على ما سبق ، فقد وُلدتَ لا تعلم شيئاً ، ثم تكونت عندك آلات الإدراك والعلم ، فعلمتَ وملأت قلبك بالمعانى الجميلة ؛ لذلك تشكر الله عليها ، فجَعْل هذه الآلات لك ، علَّته أنْ تشكر أى : على ما مضى .

ثم هناك شكر آخر ، لا على ما فات ، لكن شكر هو فى ذاته نعمة جديدة ، وتأمل فى ذلك قول الله تعالى : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ .. (٤٦)﴾ [الروم] هذه كلها نِعَم يعطف عليها بقوله ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٤٦)﴾ [الروم]

فعطف الشكر على النعم السابقة يعنى أنه فى ذاته نعمة ، وإلا لقال كما فى الآية السابقة ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨)﴾ [النحل]

والشكر بهذا المعنى هو المراد فى قوله تعالى : ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ .. (٧)﴾ [إبراهيم] فهذا شكر لما سبق ، وهذا شكر لما هو آت .

والشكر فى قوله تعالى ﴿أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ .. (١٢)﴾ [لقمان] مُوجه إلى الله تعالى ، فكيف إذا توجه الشكر فى أسباب تناوله إلى غير الله ، كأنْ تشكر صاحبك الذى قدم لك معروفاً مثلاً ؟ قالوا : لو تأملتَ شكر غير الله ممن قدَّم لك معروفاً يستوجب الشكر لوجدته يؤول إلى شكر الله فى النهاية .

لذلك قالوا : لا تشكر الله إلا حين تشكر مَنْ ساق لك الجميل على يديه ، يعنى : جعله سبباً فى قضاء حاجتك ، ثم إن الذى قدَّم لك جميلاً ، ما قدّمه لك وما آثرك على نفسه إلا لأن الله أمره بذلك ، ودعاه إليه ، وأثابه على فعله ، فإذا سلسلتَ الشكر لانتهى إلى شكر الله تعالى .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (١٢)﴾ [لقمان] علمنا أن الشكر لله هو أول الحكمة ، فلماذا ؟

لأن مَنْ يشكر تعود إليه ثمرة شكره .

وإياك أن تظن أن من مقومات قيومية ربك أنْ تشكره ، فشكْرك وعدمه سواء بالنسبة لله تعالى ، كيف وقد وسع سبحانه الكافر الذى كفر به ، ولم يقطع عنه نعمه ؛ ذلك لأنه سبحانه غنى عن خَلْقه ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (١٢)﴾ [لقمان] لأنه سبحانه يعرف أنه رب ، حتى للكافر الجاحد .

ونلحظ فى الأسلوب هنا عظمة وروعة ، ففى الشكر قال سبحانه ﴿وَمَن يَشْكُرْ .. (١٢)﴾ [لقمان] أما فى الكفر فقال ﴿وَمَن كَفَرَ .. (١٢)﴾ [لقمان] ولم يقل : ومَنْ يكفر ، وفَرْق بين الأسلوبين ، والكلام هنا كلام ربٍّ ، ففى الشكر جاء بالفعل المضارع ﴿يَشْكُرُ .. (١٢)﴾ [لقمان] الدال على الحال والاستقبال ، فالشكر متجدد ودائم على خلاف الكفر.

وكأنه ـ سبحانه وتعالى ـ لا يريد من عبده الدوام على كفره ، فلعله يتوب ويرجع إلى ساحة الإيمان ، فجاء بالفعل الماضى ﴿كَفَرَ .. (١٢)﴾ [لقمان] أى : فى الماضى فحسب ، وقد لا يعود فى المستقبل ، وهذا مظهر من مظاهر الإعجاز البيانى فى القرآن الكريم .

ومعنى ﴿حَمِيدٌ (١٢)﴾ [لقمان] من صيغ المبالغة على وزن « فعيل » وتأتى مرة بمعنى « فاعل » مثل رحيم ، ومرة بمعنى « مفعول » مثل قتيل أى : مقتول ، والمعنى هنا ﴿حَمِيدٌ (١٢)﴾ [لقمان] أى : محمود وجاءت هذه الصفة بعد ﴿غَنِيٌّ .. (١٢)﴾ [لقمان] لأن الكافر لو كان يعلم أن الله لم يقطع عنه نعمه رغم كفره به لحمد هذا الإله الذى حلم عليه ، ولم يعامله بالمثل .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ ﴾

يعطينا الحق سبحانه طرفاً من حكَم لقمان التى رواها القرآن الكريم : ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ .. ﴿١٣﴾ ﴾ [لقمان] قوله : ﴿ وَإِذْ .. ﴿١٣﴾ ﴾ [لقمان] أى : اذكر يا محمد حين قال لقمان لابنه ، وتوجيه حكمة لقمان ونصيحته لابنه يدلُّنا على صدق ما رُوِى عنه أنه كان يفتى الناس ويعظهم قبل سيدنا داود عليه السلام ، فلما جاء داود أمسك لقمان وقال : ألا أكتفى وقد كُفِيت ، ثم وجه نصائحه لمن يحب وهو ولده .

ولذلك ، فالإمام أبو حنيفة ـ رضوان الله عليه ـ عندما شكاه القاضى ابن أبى ليلى[1] إلى الخليفة أنه يفند شكاواه وأحكامه ، فأرسل إليه الخليفة بأنْ يترك الفتوى ، وبينما هو فى بيته إذ جاءته ابنته وقالت له : يا أبى حدث لى كذا وكذا ـ تريد أن تستفتيه ـ فماذا قال لها وهى ابنته ؟ قال : سلِى أخاك حماداً ، فإن أمير المؤمنين نهانى عن الفُتْيا .

وفَرْق بين أنْ يتكلم الإنسان مع عامة الخَلْق ، وبين أنْ يتكلم مع

---

(١) هو : محمد بن عبد الرحمن بن أبى ليلى ، الأنصارى الكوفى : قاضٍ ، فقيه ، من أصحاب الرأى . ولد ٧٤ هـ . ولى القضاء والحكم بالكوفة لبنى أمية ، ثم لبنى العباس ، واستمر ٣٣ سنة ، له أخبار مع الإمام أبى حنيفة وغيره ، مات بالكوفة عام ١٤٨ هـ عن ٧٥ عاماً . (الأعلام للزركلى ٦/١٨٩) ، (تذكرة الحفاظ للذهبى ١/١٧١) .

ولده ، فالابن هو الإنسان الوحيد فى الوجود الذى يودُّ أبوه أن يكون الابن أفضلَ وأحسن حالاً منه ، ويتمنى أن يُعوِّض ما فاته فى نفسه فى ولده ويتدارك فيه ما فاته من خير .

ومعنى ﴿وَهُوَ يَعِظُهُ .. ﴿١٣﴾﴾ [لقمان] الوعظ : هو التذكير بمعلومة عُلمت من قبل مخافة أنْ تُنْسى ، فالوعظ لا يكون بمعلومة جديدة ، إنما يُنبه غفلتك إلى شىء موجود عندك ، لكن غفلت عنه ، فهناك فَرْق بين عالم يُعلم ، وواعظ يعظ ، والوعظ للابن يعنى أنه كان على علم أيضاً بالمسائل ، وكان دور الوالد أنْ يعظه ويُذكِّره .

ونلحظ فى أسلوب الآية أن الله تعالى لما أخبر عنه قال ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ .. ﴿١٣﴾﴾ [لقمان] ولما تكلم لقمان عن ابنه قال ﴿يَـٰبُنَىَّ .. ﴿١٣﴾﴾ [لقمان] ولم يقل يا ابنى ، فصغّره تصغير التلطف والترقيق ، وليوحى له : إنك لا تزال فى حاجة إلى نصائحى ، وإياك أنْ تظن أنك كَبِرت وتزوجت فاستغنيتَ عنى .

وأول عظَة من الوالد للولد ﴿لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ .. ﴿١٣﴾﴾ [لقمان] وهذه قمة العقائد ؛ لذلك بدأ بها ؛ لأنه يريد أنْ يُصحِّح له مفهومه فى الوجود ، ويلفت نظره إلى أن الأشياء التى نعم بها آباؤك وأجدادك لا تزال تعطى فى الكون ، ومن العجيب أنها باقية ، وهى تعطِى فى حين يموت المعطَى المستفيد بها .

وتأمل منذ خلق الله الكون كم جيل من البشر انتفع بالشمس ؟ ومع ذلك اندثروا جميعاً ، وما زالت الشمس باقية ، كذلك القمر والهواء والجبال .. الخ . فكيف وأنت سيد هذا الكون يكون خادمك أطول عمراً منك ؟

إذن : على العاقل أن يتأمل ، وعلى الإنسان الذى كرَّمه الله على

سائر المخلوقات أن يقول : لا بُدَّ أن لى عمراً أطول من عمر هذه المخلوقات التى تخدمنى ، وهذا لا يتأتى إلا حين تصل عمرك فى الدنيا بعمرك فى الآخرة ، وهذا يستدعى أن تؤمن بالله وألاّ تشرك به شيئاً ، فهو وحده سبحانه الذى خلق لك هذا كله ، وأعدّه لخدمتك قبل أن توجد .

واقرأ : ﴿ هَـٰذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ .. (١١) ﴾[لقمان]

فكيف تدعى أن لله شركاء فى الخَلْق ، وهم أنفسهم لم يدَّعوا أنهم آلهة ، أو أنهم خلقوا شيئاً فى كون الله ؟ كيف وأنت تسير فى الصحراء ، فترى الحجر يعجبك فتأخذه وتُسوِّيه وتجعله إلهاً ولو هبَّتْ الريح لأطاحتْ به ؟

ثم ما المنهج الذى جاءتكم به هذه الآلهة بِمَ أمرتكم وعَمَّ نهتكم ؟ ماذا أعدت من نعيم لمن عبدها ، وماذا أعدَّت من عذاب لمن كفر بها ؟ إذن : فهذه آلهة بلا تكليف ، والعبادة فى حقيقتها أنْ يطيع العابد أمر معبوده ، إذن : هى آلهة باطلة لا يخفى بطلانها على العاقل .

لذلك يقول لقمان ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣) ﴾ [لقمان] نعم الشرك ظلم ؛ لأن الظلم يعنى : نَقْل حق الغير إلى الغير ، وقمة الظلم ومنتهاه أن تأخذ حق الله ، وتعطيه لغير الله ، ألا ترى أن الصحابة ضجُّوا لما نزل قوله تعالى[1] : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَـٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ (٨٢) ﴾ [الأنعام]

---

(١) عن عبد الله بن مسعود قال : لما نزلت هذه الآية ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ .. (٨٢) ﴾ [الأنعام] شق ذلك على الناس فقالوا : يا رسول الله وأينا لم يظلم نفسه ؟ قال : « إنه ليس الذى تعنون ، ألم تسمعوا العبد الصالح ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣) ﴾ [لقمان] إنما هو الشرك » حديث متفق عليه ، أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٧٧٦) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٢٤) كتاب الإيمان .

وقالوا : يا رسول الله ، ومَنْ منا لم يخالط إيمانه ظلم ؟ فهدَّأ رسول الله من رَوْعهم وطمأنهم أن المراد بالظلم هنا ظلم القمة أى : الشرك بالله ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣)﴾ [لقمان]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (١٤)﴾

أهذه وصية من وصايا لقمان لابنه ، أم هى كلام جديد من الله تعالى جاء فى سياق كلام لقمان ؟ قالوا[1] : هو من كلام الحق تبارك وتعالى ، بدليل قوله تعالى بعد ذلك : ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا .. (١٥)﴾ [لقمان]

ومن التكريم للقمان أن الله تعالى ساق هذه الوصية بعد وصيته لابنه ، فجاءت وكأنها حكاية عنه .

ومعنى ﴿وَوَصَّيْنَا .. (١٤)﴾ [لقمان] يعنى : علّمنا ووعظنا ، وهما يدلان على معلومات تبتدىء بعلمنا ويذكر بها فى وعظنا ، ويُوفى بها

---

(١) قيل : إن هذا مما أوصى به لقمان ابنه ، أخبر الله به عنه ، أى : قال لقمان لابنه : لا تشرك بالله ولا تطع فى الشرك والديك ، فإن الله وصى بهما فى طاعتهما مما لا يكون شركاً ومعصية لله تعالى .

وقيل : وإذ قال لقمان لابنه لا تشرك ، ونحن وصينا الإنسان بوالديه حسناً ، وأمرنا الناس بهذا ، وأمر لقمان به ابنه .

قال القرطبى فى تفسيره (٧/٥٣٢٠) : « ذكر هذه الأقوال القشيرى . والصحيح أن هاتين الآيتين نزلتا فى شأن سعد بن أبى وقاص وعليه جماعة المفسرين » .

حين جمعنا كل الخير فى كلمة واحدة ؛ لذلك فالنبى ﷺ عندما خطب الناس فى حجة الوداع[١] ذكر أمهات الفضائل ، لماذا ؟ لأنه آخر كلامه إليهم ، والموقف لا يناسب أنْ يذكر فيه تفاصيل الدين كله ، فاكتفى بذكر أسسه وقواعده ، كالرجل منَّا حين تحضره الوفاة يجمع أولاده ، ويوصيهم ، فيختار الأمور الهامة والخلاصة فى أضيق نطاق.

الله تعالى يقول : ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ .. (١٤)﴾ [لقمان] والوصية بالوالدين بالذات أخذتْ رقعة واسعة فى كتاب الله ، فى هذه الآية ذكر علة الوصية ، فقال ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ .. (١٤)﴾ [لقمان]

وفى خمس آيات أخرى وردتْ كلمة (إحساناً) ، فى قوله تعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا .. (٨٣)﴾ [البقرة]

وفى سورة النساء : ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا .. (٣٦)﴾ [النساء]

وفى الأنعام : ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا .. (١٥١)﴾ [الأنعام]

وفى الإسراء : ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا .. (٢٣)﴾ [الإسراء]

---

(١) وذلك أن رسول الله ﷺ قال فى خطبة هذه الحجة « أيها الناس ، إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم ، كحرمة يومكم هذا ، وكحرمة شهركم هذا ، وإنكم ستلقون ربكم ، فيسألكم عن أعمالكم ، وقد بلغت ، فمن كانت عنده أمانة فليؤدّها إلى من ائتمنه عليها ، وإن كل ربا موضوع ، ولكن لكم رءوس أموالكم ، لا تظلمون ولا تُظلمون .. » الخطبة بتمامها أوردها ابن هشام فى السيرة النبوية (٤/٦٠٣ ، ٦٠٤) .

وفى الأحقاف : ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْراً .. (١٥)﴾ [الأحقاف]

وفى آية واحدة وردت كلمة (حسناً) فى سورة العنكبوت : ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا .. (٨)﴾ [العنكبوت]

وفى آية واحدة أيضاً جاءت الوصية بالوالدين دون ذكر لهاتين الكلمتين : (حُسْناً وإحساناً) هى الآية التى نحن بصدد الحديث عنها .

لكن ، ما الفرق بين (إحساناً) و (حُسناً) ؟ الفرق أن الإحسان مصدر أحسن ، وأحسن حدث ، تقول : أحسن فلان إحساناً . أما حُسناً فمن الحسن وهو المصدر الأصيل لهذه المادة كما تقول : فلان عادل ، فوصفته بالعدل ، فإنْ أردتَ أنْ تبالغ فى هذا الوصف تقول : فلان عَدْل أى : فى ذاته ، لا مجرد وَصْف له .

إذن : فحُسْناً آكد فى الوصف من إحساناً ، فلماذا جاءت فى هذه الآية بالذات : ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا (٨)﴾ [العنكبوت] قالوا : لأن هذه الآية تتعرض لمسألة صعبة تمسُّ قمة العقيدة ، فسوف يطلب الوالدان من الابن أنْ يشرك بالله .

لذلك احتاج الأمر أنْ نوصى الابن بالحُسْن فى ذاته ، وفى أسمى توكيداته فلم يقُلْ هنا (إحْسَاناً) إنما قال (حُسْناً) حتى لا يظن أن دعوتهما إياه إلى الشرك مبرر لإهانتهما ، أو التخلى عنهما ؛ لذلك يُعلِّمنا ربنا : ﴿ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِى الدُّنْيَا مَعْرُوفًا (١٥)﴾ [لقمان]

وإنْ كانت الوصية هنا بالوالدين إلا أن حيثيات الوصية خاصة بالأم ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِى عَامَيْنِ (١٤)﴾ [لقمان] فلم

يذكر شيئاً عن دور الأب ، لماذا ؟ قالوا : لأن الكلام هنا كلام رب ، وما عليك إلا أنْ تُعمِل فيه فكرك وقلبك لتصل إلى دقائقه .

الله تعالى يُذكِّرنا هنا بدور الأم خاصة ، لأنها تصنع لك وأنت صغير لا تدرك صُنْعها ، فهو مستور عنك لا تعرفه ، أما أفعال الأب وصنعه لك فجاء حال كِبَرك وإدراكك للأمور من حولك ، فالابن يعرف ما قدَّم أبوه من أجله .

فكأن أفعال الأب وُجِدت حين تم تكوين العمر العقلى الواعى ، ففهم الابن ما فعل أبوه ، وكثيراً ما سمع الابن : أبوك ذهب إلى كذا ، أبوك أحضر لك كذا ، وهذا الأمر عندما يأتى أبوك .. الخ ، فدوْر الأب ظاهر على خلاف دور الأم ؛ لذلك ذكره الحق - تبارك وتعالى - هنا ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ ﴿١٤﴾﴾ [لقمان]

ويأتى مَنْ يقول : أليس الابن نتيجة التقاء الأب والأم ، فهما فيه سواء ؟ ونقول : بلى ، لكن مشقة الأم فيه أوضح أثناء الحمل وعند الولادة ، ولولا أن الله تعالى ربط النسل بالشهوة لَزهدَ الناس فيه لما تتحمله الأم من مشاق ، ولما يتحمله الأب من تبعات الأولاد .

ونعرف قصة المرأة التى ذهبت تقاضى زوجها لأنه يريد أنْ يأخذ ولدها منها ، فقالت للقاضى وقد قال لها : أليس الولد ولدكما معاً ؟ قالت : بلى ، ولكنه حمله خِفّاً ووضعه شهوة ، وحملتُه وهناً على وهن ، فحكم لها .

ومعنى : ﴿وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ .. ﴿١٤﴾﴾ [لقمان] أى : ضعفاً على ضعف ، والمرأة بذاتها ضعيفة ، فاجتمع لها ضعفها الذاتى مع ضعف بسبب الجنين الذى يتغذى منها ، ويكبر فى أحشائها يوماً بعد يوم ؛ لذلك قلنا : إن من حكمة الله تعالى فى خَلْق الرحم أنْ جعله قابلاً

للتمدد والاتساع ليحتوى الجنين فى مراحل الحمل المختلفة إلى أنْ يزيد الجنين زيادةً لا يتحملها اتساع الرحم فينفجر إيذاناً بولادة إنسان جديد وخَلْق آخر كما قال تعالى : ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤)﴾ [المؤمنون]

فالجنين كان خَلْقاً تابعاً لأمه فى غذائه وفى تنفسه وحركته ، لكن حينما جاء أمر الله وأذن بميلاده أنشأه خَلْقاً آخر له مُقوِّمات حياة مستقلة غير متصل بأمه .

ويقولون فى هذه العملية (القرن طش) كما تنفجر البالونة إذا نُفخت لدرجة أكثر مما تتحمل ، ومن العجيب أن الرحم يتسع بقدرة الله لعدة توائم كما نرى ونسمع .

ومن عظمة الخالق سبحانه فى مسألة الرزق أن رزق الجنين يأتيه منفصلاً عن رزق أمه ، فلكل منهما رزق لا يأخذه الآخر ، ومعلوم أن المرأة حين يُقدَّر لها حَمْل ينقطع عنها الدم الذى كان ينزل بصفة دورية حال فراغ الرحم من الحمل ، هذا الدم هو الذى جعله الله غذاءً للجنين الجديد .

أما إذا لم يُقدَّر لها حمل فإنَّ جسمها يطرد هذا الدم ويتخلص منه ولا يستفيد به ، لماذا ؟ لأنه ليس غذاءها ، وكأن الخالق ـ عز وجل ـ يُنبِّهنا أن لكل منا رزقه الذى لا يتعدَّاه إلى غيره .

وأيضاً من حكمته تعالى فى وَضْع الجنين فى بطن أمه عند الولادة أنْ ينزل برأسه ، وهذا هو الوضع الطبيعى لولادة طفل سليم ؛ لأن أول ضروريات الحياة للطفل ساعةَ ينفصل عن أمه أنْ يتنفس ، فإذا نزل برأسه ـ وهذا الوضع يحاول أطباء الولادة التأكد منه ـ استطاع التنفس حتى وإنْ تعسر نزول باقى جسمه ، أمّا إنْ نزل

الطفل بعكس هذا الوضع فإنه يختنق ويموت قبل أنْ يتم نزوله .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ .. (١٤)﴾ [لقمان] الفصال : أى الانفصال عن الأم فى مسألة الرضاعة ، ومنه : يسمون ولد الناقة الذى استغنى عن لبنها : الفصيل أى الذى فُصل عن أمه ، وأصبح قادراً على أنْ يأكل ، وأن يعيش دون مساعدتها ، وحتى عملية فصال الولد عن أمه فيها مشقة وألم للأم .

أما العملية الجنسية التى أثمرتْ الولد فكانت شركة بينهما ، وبذلك لا بُدَّ أن نعترف أن للأم الدور الأكبر وعليها العبء الأكبر فى مسألة الأولاد ؛ لذلك كان لها الحظ الأوفر فى وصية النبى ﷺ للصحابى الذى سأله : مَنْ أحق الناس بحُسْن صحابتى يا رسول الله ؟ فقال ﷺ : أمك ، ثم أمك ، ثم أمك ، ثم أبوك[1] ، فأعطى كلاً منهما على قدر ما قدَّم .

ومسألة الفصال هذه شُرحت فى آيات أخرى ، ففى سورة البقرة : ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ .. (٢٣٣)﴾ [البقرة] وهذه تؤكد ﴿وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ .. (١٤)﴾ [لقمان]

وفى آية أخرى تجمع الحمل والرضاعة معاً : ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا .. (١٥)﴾ [الأحقاف] وبخصم العامين من الثلاثين شهراً يكون الباقى ستة أشهر ، وهى أقلّ مدة للحمل .

وهذه المسألة اعتمد عليها الإمام على ـ رضى الله عنه ـ حينما

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٩٧١) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٥٤٨) كتاب البر والصلة ، من حديث أبى هريرة قال : « جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، من أحق بحسن صحابتى ؟ قال : أمك . قال : ثم من ؟ قال : أمك . قال : ثم من ؟ قال : أمك . قال : ثم من ؟ قال : ثم أبوك » .

رأى عُمَر رضى الله عنه يريد أن يُقيم الحد على امرأة ولدتْ لستة أشهر ؛ لأنه يعتقد أن مدة الحمل تسعة أشهر ، فقال لعمر : يا أمير المؤمنين ، الله يقول غير ذلك ، فقال : وماذا يقول الله ؟ فذكر عليٌّ الآيتين السابقتين[1] :

﴿ وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا .. (١٥) ﴾ [الأحقاف]

والأخرى : ﴿ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (١٤) ﴾ [لقمان]

ثم بيَّن له عليٌّ أن أقلَّ مدة للحمل بناءً على هاتين الآيتين ستة أشهر ، فقال عمر : بئس المقام بأرض ليس فيها أبو الحسن[2] .

وقوله تعالى : ﴿ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (١٤) ﴾ [لقمان] فالله تعالى هو المستحق للشكر أولاً ؛ لأنه سبحانه هو الذى أنشأ من عدم ، وأمدَّ من عُدْم ، ثم الوالدان لأنهما السبب فى الإيجاد وإنشاء الولد .

فكأن الحق سبحانه مسبِّب أعلى ؛ لأنه خلق من لا شىء ، والوالدان سبب من أسباب الله فى الوجود ، إذن : لا تُحسِن شكر الله

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (١٥٧/٤) : « قد استدل على رضى الله عنه بهذه الآية ﴿ وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا .. (١٥) ﴾ [الأحقاف] مع التى فى لقمان ﴿ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ .. (١٤) ﴾ [لقمان] على أن أقل مدة الحمل ستة أشهر وهو استنباط قوى صحيح ووافقه عليه عثمان وجماعة من الصحابة .

(٢) أخرج الحاكم فى مستدركه (٤٥٧/١) والبيهقى فى شعب الإيمان عن أبى سعيد الخدرى قال : « حججنا مع عمر رضى الله عنه ، فلما دخل الطواف استقبل الحجر فقال : إنى أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع » وهو حديث طويل وفيه أن عمر رضى الله عنه قال : « أعوذ بالله تعالى أن أعيش فى قوم لست فيهم يا أبا الحسن » ، وذلك بعد أن قال له على : بل إنه يضر وينفع !! أليس يشهد يوم القيامة لمن قبّله ؟

الخالق الأول والمسبِّب الأعلى حتى تُحسِن شكر الوالدين ، وهما السبب الثانى فى وجودك .

فقوله سبحانه : ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (١٤)﴾ [لقمان] أى : على الإيجاد ، لكن فى موضع آخر : ﴿وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (٢٤)﴾ [الإسراء] وهذه للإيجاد وللتربية وللرعاية ، فكما أن هناك أبوةً للإيجاد هناك أبوة للتربية ، فكثيراً ما نجد الطفل يربيه غير أبيه وغير أمه ، ولا بُدَّ أنْ يكون لهؤلاء نصيب من الشكر ومن الولاء والبرِّ ما دام أن الله تعالى ذكرهم فى العلة ﴿وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (٢٤)﴾ [الإسراء]

والعلة تدور مع المعلول وجوداً وعدماً ، فإذا لم يكُنْ للأب الحقيقى وجود ، فالأبوة لمن ربَّى ، وله نفس حقوق الأب من حيث الشكْر والبر والمودة ، بل ينبغى أن يكون حقُّه مضاعفاً ؛ لأن فى الأب الحقيقى عطف البُضع على البُضع ، وفى الأب المربِّى عطف الدين على الدين ، وهذه مسألة أخرى غير مجرد الأبوة .

لكن ، هل شكر الله أولاً دُرْبة على أنْ تشكر الوالدين ، وهما السبب المباشر فى وجودك ؟ أم أن شكرَ الوالدين دربةٌ على أن تشكر الله الذى خلقك وأوجدك ؟ نقول : هما معاً ، فشُكْر الله يستلزم شكْر الوالدين ، وشكر الوالدين ينتهى إلى شُكْر الله .

وقوله : ﴿إِلَيَّ الْمَصِيرُ (١٤)﴾ [لقمان] أى : المرجع ، والمعنى : أننى أوصيك بأهم شىء فاحذر أنْ تخالف وصيتى ؛ لأننى أقدر على أنْ أعاقب مَنْ خالف .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ﴾

يؤكد الحق سبحانه على أمر الوالدين ، وكأنه سبحانه استدرك غير مُستدَرك ، فليس لأحد أنْ يستدرك على الله ، وكأن واحداً كان يناقش رسول الله ﷺ فى أمر الوالدين وما نزل فى شأنهما ، فسأل : كيف لو أمرانى بالكفر ، أأكفر طاعةً لهما ؟ لذلك جاء الحكم من الله فى هذه المسألة .

وفى آية العنكبوت : ﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [العنكبوت]

---

(١) سبب نزول الآية : قال سعد بن أبى وقاص : نزلت فىّ هذه الآية ﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا .. ﴿١٥﴾ ﴾ [لقمان] كنت رجلاً براً بأمى ، فلما أسلمتُ قالت : يا سعد ، ما هذا الذى أراك قد أحدثت ؟ لتدعن دينك هذا أو لا آكل ولا أشرب حتى أموت فتُعيَّر بى ، فيقال يا قاتل أمه . قلت : يا أمه لا تفعلى فإنى لا أدع دينى هذا لشىء ، فمكثت يوماً وليلة لا تأكل ، فأصبحت قد جهدت ، فمكثت يوماً آخر وليلة وقد اشتد جهدها ، فلما رأيت ذلك قلت : يا أمه تعلمين والله لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفساً نفساً ما تركت دينى هذا لشىء ، فإن شئت فكلى وإن شئت فلا تأكلى ، فلما رأت ذلك أكلت ، فنزلت هذه الآية . أورده السيوطى فى الدر المنثور (٦/٥٢١) وعزاه لأبى يعلى والطبرانى وابن مردويه وابن عساكر عن أبى عثمان النهدى .

فذكر فيها (حُسْناً) ولم يقل فيها ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا .. ﴿١٥﴾﴾ [لقمان] فكأن كلمة الحُسْن ، وهى الوصف الجامع لكلِّ مدلولات الحُسْن أغنتْ عن المصاحبة بالمعروف .

ومعنى ﴿جَاهَدَاكَ .. ﴿١٥﴾﴾ [لقمان] نقول : جاهد وجهد ، جهد أى فى نفسه ، أما جاهد ففيها مفاعلة مع الغير ، نقول : جاهد فلان فلاناً مثل قاتل ، فهى تدل على المشاركة فى الفعل ، كما لو قلت : شارك عمرو زيداً ، فكل منهما فاعل ، وكل منهما مفعول ، لكن تغلب الفاعلية فى واحد ، والمفعولية فى الآخر .

فمعنى ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ .. ﴿١٥﴾﴾ [لقمان] لا تعنى مجرد كلمة عَرَضَا فيها عليك أن تشرك بالله ، إنما حدث منهما مجهود ومحاولات لجذبك إلى مجاراتهما فى الشرك بالله ، فإن حدث منهما ذلك فنصيحتى لك ﴿فَلا تُطِعْهُمَا .. ﴿١٥﴾﴾ [لقمان]

ثم إياك أنْ تتخذ من كفرهما ودعوتهما لك إلى الكفر سبباً فى اللدد معهما ، أو قطع الرحم ، فحتى مع الكفر يكون لهما حق عليك ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا .. ﴿١٥﴾﴾ [لقمان] ثم إنهما كفرا بى أنا ، وأنا الذى أوصيك بهما معروفاً .

وقوله تعالى : ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ .. ﴿١٥﴾﴾ [لقمان] أى : لن تكون وحدك ، إنما سبقك أُنَاسٌ قبلك تابوا وأنابوا فكُنْ معهم ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ .. ﴿١٥﴾﴾ [لقمان] أى : مأواكم جميعاً .

قالوا : إن هذه الآية نزلت فى سعد بن أبى وقاص ، الذى قال

فيه رسول الله ﷺ : « خالى سعد ، فليُرنى امرؤ خاله »[١] ولما أسلم سعد غضبت أمه[٢] ـ وكانت شديدة الحب له ـ فكادت تُجَنُّ وحلفتْ لا تأكل ولا تشرب ولا تغتسل ، وأنْ تتعرَّى فى حَرِّ الشمس حتى يرجع عن دينه ، فلما علم سعد بذلك قال : دعوها والله لو عضَّها الجوع لأكلتْ ، ولو عضَّها العطش لشربتْ ، ولو أذاها القمل لاغتسلتْ ، أما أنا فلن أحيد عن الدين الذى أنا عليه ، فنزلت ﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ .. (١٥) ﴾ [لقمان]

ولو أن الذى يكفر بالله ويريد لغيره من المؤمنين أنْ يكفر معه كابن أو غيره ، ثم يرى وصية الله به رغم كفره لعلم أن الله تعالى رب رحيم لا يستحق منه هذا الجحود .

وسبق أن ذكرنا الحديث القدسى الذى قالت فيه الأرض : « رب ائذن لى أنْ أخسف بابن آدم ، فقد طعم خيرك ، ومنع شكرك ، وقالت السماء : رب ائذن لى أن أسقط كسَفاً على ابن آدم فقد طعم خيرك ومنع شكرك ، وقالت البحار : يا رب ائذن لى أن أُغرق ابن آدم فقد طعم خيرك ، ومنع شكرك .. الخ ، فقال الحق تبارك وتعالى : لو خلقتموهم لرحمتموهم »[٣] .

---

(١) ذكره ابن حجر العسقلانى فى « الإصابة » (ترجمة ٣١٨٧) وعزاه للترمذى من حديث جابر قال : أقبل سعد فقال النبى ﷺ : « هذا خالى فليرنى امرؤ خاله » . وأخرجه الحاكم فى مستدركه (٣/٤٩٨) وقال : صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، وابن سعد فى الطبقات (٣/١٢٨) .

(٢) هى : حمنة بنت سفيان بن أمية . قال ابن حجر العسقلانى فى « الإصابة فى تمييز الصحابة » (ترجمة ٣١٨٧) فى ترجمة ابنها سعد : « هى بنت عم أبى سفيان بن حرب ابن أمية » .

(٣) أورده الإمام الغزالى فى إحياء علوم الدين (٤/٥٢) من قول بعض السلف ولفظه « ما من عبد يعصى إلا استأذن مكانه من الأرض أن يخسف به ، واستأذن سقفه من السماء أن يسقط عليه كسفاً ، فيقول الله تعالى للأرض والسماء : كُفَّا عن عبدى وأمهلاه فإنكما لم تخلقاه ، ولو خلقتماه لرحمتماه ، ولعله يتوب إلىَّ فأغفر له ، ولعله يستبدل صالحاً فأبدله له حسنات » .

ذلك لأنهم عباد الله وصَنْعته ، وهل رأيتم صاحب صنعة يُحطِّم صنعته ، وجاء فى الحديث النبوى « الله أفرح بتوبة عبده من أحدكم سقط على بعيره ، وقد أضله فى أرض فلاة »[(١)] .

إذن : فنِعْمَ الرب هو .

ويُروى أن سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ جاءه ضيف ، فرأى أن سَمْته غير سَمْت المؤمنين ، فسأله عن دينه فقال : إنه من عُبَّاد النار ، فردَّ إبراهيم الباب فى وجهه ، فانصرف الرجل ، فعاتب الله نبيه إبراهيم فى شأن هذا الرجل فقال : يا إبراهيم ، تريد أن تصرفه عن دينه لضيافة ليلة ، وقد وَسِعْتُه طوال عمره ، وهو كافر بى ؟

فأسرع إبراهيم خلف الرجل حتى لحق به ، وأخبره بما كان من عتاب الله له ، فقال الرجل : نِعْم الرب ربٌّ يعاتب أحبابه فى أعدائه ، ثم شهد ألاَّ إله إلا الله .

فلو أن الكافر الذى يريد الكفر لغيره يعرف أن الله يوصى به وهو كافر ، ويُرقِّق له القلوب لَعاد إلى ساحة الإيمان بالله ؛ لذلك كثيراً ما نقابل أصحاب ديانات أخرى يعشقون الإسلام فيختارونه ، فيغضب عليهم أهلهم فنقول للواحد منهم : كُنْ فى دينك الجديد أبرَّ بهم من دينك القديم ، ليعلموا محاسن دينك ، فضاعف لهم البر ، وضاعف لهم المعروف ، لعل ذلك يُرقِّق قلوبهم ويعطفهم نحو دينك .

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٣٠٩) وكذا مسلم فى صحيحه (٢٧٤٧) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه . وفى لفظ عند مسلم « لله أشد فرحاً بتوبة عبده ، حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة ، فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه فأيس منها ، فأتى شجرة فاضطجع فى ظلها قد أيس من راحلته ، فبينما هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده ، فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح : اللهم أنت عبدى وأنا ربك ، أخطأ من شدة الفرح » .

وتأمل عظمة الأسلوب فى ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِى الدُّنْيَا مَعْرُوفًا .. (١٥)﴾ [لقمان] فلم يقل مثلاً أعطهم معروفاً ، إنما جعل المعروف مصاحبة تقتضى متابعتهما وتفقُّد شأنهما ، بحيث يعرف الابن حاجة أبويْه ، ويعطيهما قبل أنْ يسألا ، فلا يلجئهما إلى ذُلِّ السؤال ، وهذا فى ذاته إحسان آخر .

كالرجل الذى طرق بابه صديق له ، فلما فتح له الباب أسرَّ له الصديق بشىء فدخل الرجل وأعطى صديقه ما طلب ، ثم دخل بيته يبكى فسألته زوجته : لم تبكى وقد وصلْته ؟ فقال : أبكى لأننى لم أتفقد حاله فأعطيه قبل أن يذلَّ نفسه بالسؤال .

والحق - تبارك وتعالى - حين يقول بعد الوصية بالوالدين : ﴿إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٥)﴾ [لقمان] إنما لينبهنا أن البرَّ بالوالدين ومصاحبتهما بالمعروف لن يُنسى لك ذلك ، إنما سيُكتب لك ، وسيكون فى ميزانك ؛ لأنك أطعتَ تكليفى وأمرى ، وأدَّيْتَ ، فلك الجزاء لأنك عملتَ عملاً إيمانياً لا بُدَّ أن تُثاب عليه .

﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (١٦)﴾

﴿يَٰبُنَيَّ .. (١٦)﴾ [لقمان] نداء أيضاً للتلطف والترقيق ﴿إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ .. (١٦)﴾[لقمان] يريد لقمان أن يدل ولده على صفة من صفات الحق سبحانه ، هى صفة العلم المطلق الذى لا تخفى عليه خافية ، وكأنه يقول له : إياك أن تظن أن ما يخفى على الناس

يخفى على الله تعالى ﴿أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤)﴾[الملك]

وكما أن الله تعالى لا يخفى عليه مثقال حبة من خردل ، حتى إن كانت فى باطن صخرة ، أو فى السموات ، أو فى الأرض ، كذلك لا تخفى عليه حسنة ولا سيئة مهما دَقَّتْ ، ومهما حاول صاحبها إخفاءها .

وقلنا : إن المستشرقين وقفوا عند مسألة علم الله الخفى بخفايا خَلْقه ، وعند قوله تعالى : ﴿يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ (١١٠)﴾ [الأنبياء] يقولون : الله يمتنُّ بعلم ما نكْتُم ، فكيف يمتنُّ بعلم الجهر ، وهو معلوم للجميع ؟

ونقول : الحق سبحانه فى قوله : ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ (١١٠)﴾ [الأنبياء] لا يخاطب فرداً ، إنما يخاطب جماعة ، فهو يعلم جَهْر الجماعة فى وقت واحد ، ومثَّلْنا لذلك بمظاهرة مثلاً ، فيها الآلاف من البشر يهتفون بأصوات مختلفة وشعارات شتى ، منها ما يعاقب عليه القانون ، فهل تستطيع مع اختلاط الأصوات وتداخلها أنْ تُميِّز بينها ، وتُرجع كل كلمة إلى صاحبها ؟

إنك لا تستطيع ، مع أن هذا جهر يسمعه الجميع ، أما الحق - تبارك وتعالى - فيعلم كل كلمة ، ويعلم مَنْ نطق بها ويردّ كل لفظ إلى صاحبه . إذن : من حقه تعالى أن يمتنَّ بعلم الجهر ، بل إن عِلْم الجهر أعظم من علْم السرِّ وأبلغ .

وقوله تعالى ﴿مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ .. (١٦)﴾ [لقمان] أى : وزن حبة الخردل ، وكانت أصغر شىء وقتها ، فجعلوها وحدة قياس للقلة ، وليس لك الآن أن تقول : وهل حبة الخردل أصغر شىء فى

الوجود ؟ فالقرآن ذكرها مثالاً للصِّغَر على قدر معرفة الناس بالأشياء عند نزوله ، أما من حيث التحقيق فقد ذكر القرآن الذرة والأقلَّ منها .

لذلك لما اخترعوا فى ألمانيا أسطوانة تحطيم الجوهر الفرد (أى الجزء الذى لا يتجزأ) ، واستطاعوا تفتيت الذرة ، ظنوا أن فى هذه العملية مأخذاً على القرآن ، فقد ذكر القرآن الذرة ، وجعلها مقياساً دينياً فى قوله تعالى : ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨)﴾ [الزلزلة] لكن لم يذكر الأقلَّ منها ، ومعلوم أن الجزء أصغر من كله .

ونقول : قرأتم شيئاً وغابت عنكم أشياء ، ولو كان لديكم إلمام بكلام الله لعلمتم أن فيه احتياطاً لما توصلتم إليه ، ولما ستتوصلون إليه فيما بعد ، واقرأوا إن شئتم قول الله تعالى عن الذرة : ﴿وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٦١)﴾ [يونس]

بل نقول : إن الاحتياط هنا احتياط مركب ، فلم يقل صغير إنما قال (أصغر) وهذا يدل على وجود رصيد فى كلام الله لكل مُفتّت من الذرة .

وقوله : ﴿فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ .. (١٦)﴾ [لقمان] ﴿فِي صَخْرَةٍ .. (١٦)﴾ [لقمان] أى : على حبكة الوجود ، وفى أضيق مكان ﴿أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ .. (١٦)﴾ [لقمان] يعنى : فى المتسع الذى لا حدود له ، فلا فى الضيِّق المحكم ، ولا فى المتسع يخفى على الله شىء ﴿يَأْتِ بِهَا اللَّهُ .. (١٦)﴾ [لقمان] واستصحب حيثيات الإتيان بها بوصفين لله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (١٦)﴾ [لقمان]

وجمع بين هاتين الصفتين ؛ لأنك قد تكون خبيراً بالشىء عالماً بمكانه ، لكنك لا تستطيع الوصول إليه ، كأنْ يكون فى مكان ضيق لا تنفذ إليه يدك ، وعندها تستعين بآلة دقيقة كالملقاط مثلاً ، فالخبرة موجودة ، لكن ينقصك اللطف فى الدخول .

والحق - سبحانه وتعالى - لطيف ، فمهما صَغُرت الأشياء ودقَّتْ يصل إليها ، فهو إذن عليم خبير بكل شىء مهما صغر ، قادر على الإتيان به مهما دقَّ ؛ لأنه لطيف لا يمنعه مانع ، فصفة اللطف هذه للتغلغل فى الأشياء .

ونحن نعلم أن الشىء كلما دقَّ ولَطُف كان أعنف حتى فى المخلوقات الضارة ، وسبق أن أوضحنا هذه المسألة بمَنْ بنى بيتاً فى الخلاء ، وأراد أنْ يُؤمِّن نوافذه من الحيوانات والحشرات الضارة ، فوضع على النوافذ شبكة من الحديد تمنع اللصوص والحيوانات الكبيرة ، ثم تذكّر الفئران والثعابين فضيّق الحديد ، ثم تذكّر الذباب والناموس فاحتاج إلى شىء أضيق وأدقّ ، إذن : كلما كان عدوك لطيفاً دقيقاً كان أعنف ، واحتاج إلى احتياط أكثر .

فقوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (١٦)﴾ [لقمان] يعنى : لا يعوزه علم بالمكان ، ولا سهولة ويُسْر فى الوصول إلى الأشياء .

كانت هذه بعض وصايا لقمان ومواعظه لولده ، ولم يأمره حتى الآن بشىء من التكاليف ، إنما حرص أنْ يُنبهه : أنك قد آمنت بالله وبلغَك منهجه واستمعت إليه ، فأطِع ذلك المنهج فى افعل ولا تفعل ، لكن قبل أنْ تباشر منهج ربك فى سلوكك اعلم أنك تتعامل مع إله قيوم ، لا تأخذه سنة ولا نوم ، ولا يغيب عنه شىء ، فادخل على المنهج بهذا الاعتقاد .

وإياك أنْ تتغلَّب عليك شبهة أنك لا ترى الله ، فإنك إنْ لم تكُنْ تراه فإنه يراك ، واعلم أن عملك محسوب عليك ، وإنْ كان فى صخرة صماء ضيقة ، أو فى سماء ، أو فى أرض شاسعة .

ويؤكد هذه المسألة قوله تعالى فى الحديث القدسى : « يا عبادى : إنْ كنتم تعتقدون أنى لا أراكم فالخلل فى إيمانكم ، وإنْ كنتم تعتقدون أنِّى أراكم ، فلِمَ جعلتمونى أهونَ الناظرين إليكم ؟ »[(١)] .

بعد ذلك يدخل لقمان فى وعظه لولده مجال التكليف ، فيقول له :

﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴿١٧﴾ ﴾

هذه مسائل أربع بدأها لقمان بإقامة الصلاة ، والصلاة هى الركن الأول بعد أنْ تشهد ألا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وعلمنا أن الصلاة لأهميتها فُرِضت بالمباشرة ، ولأهميتها جُعِلت ملازمة للمؤمن لا تسقط عنه بحال ، أما بقية الأركان فقد تسقط عنك لسبب أو لآخر ، كالصوم والزكاة والحج ، فإذا سقطت عنك هذه الأركان لم يَبْقَ معك إلا الشهادتان والصلاة ؛ لذلك جعلها النبى ﷺ عماد الدين[(٢)] .

---

(١) ثبتت جملة من هذا الحديث على لسان بعض العارفين ، حيث جاء فى حلية الأولياء (١٤٢/٨) أن رجلاً قال لوهيب بن الورد : عظنى ، قال : اتق الله أن يكون الله أهون الناظرين إليك .

(٢) حديث : « الصلاة عماد الدين ، من أقامها فقد أقام الدين ، ومن تركها فقد هدم الدين » . قال الحافظ العراقى فى تخريجه للإحياء (١٤٧/١) : « رواه البيهقى فى الشُّعَب بسند ضعفه من حديث عمر » وقال الملا على القارى فى « الأسرار المرفوعة » (حديث ٥٧٨) : « قال ابن الصلاح فى مشكل الوسيط : إنه غير معروف » .

ولذلك بدأ بها لقمان ﴿يَـٰبُنَىَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ .. (١٧)﴾ [لقمان] لأنها استدامة إعلان الولاء لله تعالى خمس مرات فى اليوم والليلة ، فحين يناديك ربك (الله أكبر) فلا ينبغى أن تنشغل بمخلوق عن نداء الخالق ، وإلا فما موقف الأب مثلاً حين ينادى ولده فلا يجيبه ؟ فاحذر إذا ناداك ربك ألا تجيب .

ثم تأمل النداء للصلاة الذى اهتدتْ إليه الفطرة البشرية السليمة ، وأقرّه سيدنا رسول الله : الله أكبر الله أكبر ، يعنى أكبر من كل ما يشغلك عنه ، فإياك أن تعتذر بالعمل فى زراعة أو صناعة أو تجارة عن إقامة الصلاة .

وقد ناقشتُ أحد أطباء الجراحة فى هذه المسألة ، فقال : كيف أترك عملية جراحية من أجل الصلاة ؟ فقلت له : بالله لو اضطررتَ لقضاء الحاجة تذهب أم لا ؟ فضحك وقال : أذهب ، فقلت : فالصلاة أَوْلَى ، ولا تعتقد أن الله تعالى يكلِّف العبد تكليفاً ، ثم يضنّ عليه باتساع الزمن له ، بدليل أنه تعالى يراعى وقت العبد ومصالحه وإمكاناته ، ففى السفر مثلاً يشرع لك الجمع والقصر .

فبإمكانك أنْ تُوفِّق صلاتك حسب وقتك المتاح لك ، إما بجمع التقديم أو التأخير ، وكم يتسع وقتك ويخلو من مشغولية العبادة إذا جمعتَ الظهر والعصر جمْعَ تقديم ، والمغرب والعشاء جَمْع تأخير فى آخر وقت العشاء ؟ أو حين تجمع الظهر والعصر جمعَ تأخير ، فتصليهما قبل المغرب ، ثم تصلى المغرب والعشاء جمع تقديم ؟

إذن : المسألة فيها سعَة ، ولا حجةَ لأحد فى تَرْك الصلاة بالذات ، أما الذين يقولون فى مثل هذه الأمور ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا .. (٢٨٦)﴾ [البقرة] وأن هذا ليس فى وُسْعى .. فنقول لهم :

لا ينبغى أنْ تجعل وُسْعك هو الحكم ، إنما التكليف هو الحكم فى الوُسْع ، وما دام ربك ـ عز وجل ـ قد كلَّفك فقد علم سبحانه وُسْعك وكلّفك على قدره بدليل ما شرعه لك من رُخَص إذا خرجتْ العبادة عن الوُسْع .

وقال ﴿أَقِمِ الصَّلاةَ .. (١٧)﴾ [لقمان] لأن الصلاة أول اكتمال فى الإجماع لمنهج الله ، وبها يكتمل إيمان الإنسان فى ذاته ، وسبق أن قلنا : إن هناك فرقاً بين أركان الإسلام وأركان المسلم ، أركان الإسلام هى الخمس المعروفة ، أمَّا أركان المسلم فهى الملازمة له التى لا تسقط عنه بحال ، وهى الشهادتان والصلاة ، وإنْ كان على المسلم أنْ يؤمن بها جميعاً ، لكن فى العمل قد تسقط عنه عدا الصلاة والشهادتين .

ثم يبين لقمان لولده : أن الإيمان لا يقف عند حدِّ الاستجابة لهذين الركنين الأساسيين ، إنما من الإيمان ومن كمال الإيمان أنْ تحب لأخيك ما تحب لنفسك ، فيقول له : ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ .. (١٧)﴾ [لقمان] فانشغل بعد كمالك بإقامة الصلاة ، بأنْ تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، فبالصلاة كَمُلْتَ فى ذاتك ، وبالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر تنقل الكمال إلى الغير ، وفى ذلك كمال الإيمان .

وأنت حين تأمر بالمعروف ، وحين تنهى عن المنكر لا تظن أنك تتصدَّق على الآخرين ، إنما تؤدى عملاً يعود نفعه عليك ، فبه تجد سعة الراحة فى الإيمان ، وتجد الطمأنينة والراحة الذاتية ؛ لأنك أديْتَ التكاليف فى حين قصَّر غيرك وتخاذل .

ولا شك أن فى التزام غيرك وفى سيره على منهج الله راحة لك أنت أيضاً ، وإلا فالمجتمع كله يَشْقى بهذه الفئة القليلة الخارجة عن منهج الله .

ومن إعـزاز العلم أنك لا تنتـفع به الانتـفاع الكـامل إلا إذا عدَّيْتـه للغيـر ، فإنْ كتـمته انتـفع الآخرون بخـيرك ، وشقـيتَ أنت بشرِّهم . إذن : لا تنتفع بخير غيرك إلا حين تؤدى هذه الفريضة ، فتأمر غيرك بالمعـروف ، وتنهاه عن المنكر ، وتحب لهم مـا تحب لنفسك ، وبذلك تنال الحظين ، حظك عند الله لأنـك أديْتَ ، وحظك عند الناس لأنك فى مجتمع متكامل الإيمان ينفعك ولا يضرك .

ولك هنا أن تلحـظ أن هذه الآية لم تقـرن إقـامـة الصـلاة بإيتـاء الزكاة كعادة الآيات ، فغالباً ما نقرأ : ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ .. (٤٣)﴾ [البقرة]

وحين نستقرىء كلمة الزكـاة فى الـقرآن الكـريم نجـد أنها وردت اثنتـين وثلاثيـن مـرة ، اثنتـان منهـا ليسـتـا فى مـعنى زكاة المـال المعروفة النماء العام إنما بمعنى التطـهر ، وذلك فى قـوله تعـالى فى قصـة الخضـر وموسى عليـهما الـسلام : ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ .. (٧٤)﴾ [الكهف]

ثم قوله تعالى : ﴿فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا (٨١)﴾ [الكهف]

والمعنى : طـهرناهم حينمـا رفعنا عنهم باباً من أبواب الـفتنة فى دين الله .

والمـوضـع الآخـر فى قـوله تعـالى : ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَـاةً .. (١٣)﴾ [مريم] فالمعنى : وهبنا لمريم شيـئاً نُزكيها به ؛ ذلك لأن الزكاة

أول ما تتعدى تتعدَّى من واجد لمعدم ، ومريم لم تتزوج فهى مُعْدَمة فى هذه الناحية ؛ لذلك وهبها الله النماء الخاص من ناحية أخرى حين نفخ فيها الروح من عنده تعالى .

وفى موضع واحد ، جاءت الزكاة بمعنى زكاة المال ، لكن غير مقرونة بالصلاة ، وذلك فى قوله تعالى : ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُوْلَـٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ (٣٩)﴾ [الروم]

وفى هذه الآية قال لقمان لولده : ﴿يَـٰبُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ .. (١٧)﴾ [لقمان] ولم يقل : وآتِ الزكاة ، فلماذا ؟

ينبغى أن نشير إلى أن القرآن جمع بين الصلاة والزكاة ؛ لأن الصلاة فيها تضحية بالوقت ، والوقت زمن العمل ، والعمل وسيلة الكسب والمال ، إذن ؛ ساعة تصلى فقد ضحيْتَ بالوقت الذى هو أصل المال ، فكأن فى الصلاة تصدقت بمائة فى المائة من المال المكتسب فى هذا الوقت ، أمّا فى الزكاة فأنت تتصدَّق بالعُشْر ، أو نصف العشر ، أو رُبْع العشر ، ويبقى لك معظم كسبك ، فالواقع أن الزكاة فى الصلاة أكبر وأبلغ من الزكاة نفسها .

إذن : لما كانت الزكاة فى كل منهما ، قرن القرآن بينهما إلا فى هذا الموضع ، ولما تتأمله تجده من دقائق الأسلوب القرآنى ، فالقرآن يحكى هذه الوصايا عن لقمان لولده ، ولنا فيه ملحظان :

الأول : أن الله تعالى لم يكلِّف العبد إلا بعد سِنِّ البلوغ إلا فى

الصلاة ، وجعل هذا التكليف مُوجهاً إلى الوالد أو ولى الأمر ، فأنابه أن يكلف ولده بالصلاة ، وأن يعاقبه إنْ أهمل فى أدائها ، ذلك ليربى عند ولده الدُّرْبة على الصلاة ، بحيث يأتى سِنّ التكليف ، وقد ألِفَها الولد وتعوَّد عليها ، فهى عبادة تحتاج فى البداية إلى مران وأخذ وردٍّ ، وهذا أنسب للسنِّ المبكرة .

والوالد يُكلِّف ولده على اعتبار أنه الموجِد الثانى له ، والسبب المباشر فى وجوده ، وكأن الله تعالى يقول : أنا الموجد لكم جميعاً وقد وكَّلتُك فى أنْ تكلِّف ولدك ؛ لأن معروفك ظاهر عنده ، وأياديك عليه كثيرة ، فأنت القائم بمصالحه المُلَبِّى لرغباته ، فإنْ أمرته قَبِل منك وأطاعك ، فهى طاعة بثمنها .

وطالما وكلتك فى التكليف فطبيعى أنْ أُوكِّلك فى العقوبة ، فإنْ حدث تقصير فى هذه المسألة فالمخالفة منك ، لا من الولد ؛ لأننى لم أُكلِّفه إنما كلَّفْتُك أنت .

لذلك بدأ لقمان أوامره لولده بإقامة الصلاة ، لأنه مُكلَّف بهذا الأمر ، فولده ما يزال صغيراً بدليل قوله ﴿يَـٰبُنَىَّ .. ﴿١٧﴾﴾ [لقمان] فالتكليف هنا من الوالد ، فإنْ كان الولد بالغاً حال هذا الأمر فالمعنى : لاحظ التكليف من الله بإقامة الصلاة .

أما الزكاة ، وهى تكليف من الله أيضاً فلم يذكرها هنا ـ وهذه من حكمة لقمان ودِقَّة تعبيره ، وقد حكاها لنا القرآن الكريم لنأخذ منها مبادىء نعيش بها .

ثانياً : إنْ كلَّفه بالزكاة فقال : أقم الصلاة وآتِ الزكاة فقد أثبت لولده ملكية ، ومعروف أن الولد لا ملكيةَ له فى وجود والده ، بدليل

قول الرسول ﷺ : « أنت ومالك لأبيك »[(١)] وذكرنا أن لقمان لما علم بموت أبيه قال : إذن ملكتُ أمرى[(٢)] فأمره ليس مِلْكاً له فى حياة أبيه ؛ لذلك لم يأمر ولده بالزكاة ، فالزكاة فى ذمته هو ، لا فى ذمة ولده .

وتتأكد لدينا هذه المسألة حين نقرأ قول الله تعالى :

﴿ لَيْسَ عَلَى الأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِن بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ .. (٦١) ﴾ [النور]

فالله تعالى رفع عنَّا الحرج أنْ نأكل من هذه البيوت ، ونلحظ أن الآية ذكرتْ الأقارب عدا الأبناء ، وكان الترتيب المنطقى أن يقول بعد أمهاتكم : أو بيوت أبنائكم ، فلماذا لم يذكر هنا بيوت الأبناء ؟ قالوا : لأنها داخلة فى قوله : بيوتكم ، فبيت الابن هو بيت الأب ، والولد وما ملكتْ يداه مِلْكٌ لأبيه .

ثم يقول لقمان لولده : ﴿ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ .. (١٧) ﴾ [لقمان]

---

(١) عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : إن أبى اجتاح مالى ، فقال : « أنت ومالك لأبيك » وقال رسول الله ﷺ : « إن أولادكم من أطيب كسبكم ، فكلوا من أموالهم » أخرجه ابن ماجه فى سننه (٢٢٩٢) وأحمد فى مسنده (١/١٧٩) . واللفظ لابن ماجه .

(٢) أخرج عبد الله بن أحمد بن حنبل فى زوائد الزهد عن عبد الله بن دينار : إن لقمان قدم من سفر فلقيه غلام فى الطريق فقال : ما فعل أبى ؟ قال : مات . قال : الحمد لله ملكت أمرى . [الدر المنثور ٦/٥١٩] .

الصبر : حَمْل النفس على التجلُّد للأحداث ، حتى لا تعينَ الأحداث على نفسك بالجزع ، فأنت أمام الأحداث تحتاج إلى قوة مضاعفة ، فكيف تُضعف نفسك أمامها ؟

والمصيبة تقع إما لك فيها غريم ، أو ليس لك فيها غريم ، فالذى يسقط مثلاً ، فتنكسر ساقه ، أو الذى يفاجئه المرض .. الخ هذه أقدار ساقها الله إليك بلا سبب فلا غريمَ لك فيها ؛ لذلك يجعلها فى ميزانك : إما أنْ يعلى بها درجاتك ، وإما أنْ يُكفِّر بها سيئاتك ؛ لذلك كان الكفار يفرحون إذا أصاب المسلمين مصيبة ، كما فرحوا يوم أُحُد ، وقد ردَّ الله عليهم وبيَّن غباءهم ، وقال سبحانه : ﴿ **قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا** .. (٥١) ﴾ [التوبة] وتأمل الجار والمجرور (لنا) ولم يقُلْ كتب علينا ، إذن : فالمصيبة فى حساب (له) لا (عليه) فلماذا تفرحون فى المصيبة تقع بالمسلمين ؟

وأوصى بالصبر بعد الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ؛ لأن الذى يتعرض لهذين الأمرين لا بُدَّ أن يصيبه سوء من جراء أمره بالمعروف أو نَهْيه عن المنكر ، فإنْ تعرضْت للإيذاء فاصبر ؛ لأن هذا الصبر يعطيك جزاءً واسعاً .

وتغيير المنكر له مراحل وضحها النبى ﷺ فى قوله : « مَنْ رأى منكم منكراً فليُغيِّره بيده ، فإنْ لم يستطع فبلسانه ، فإنْ لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان »[(١)] .

فالله أمرك أنْ تُغيِّر المنكر ، لكن جعل لك تقدير المسألة ومدى

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٤٩) كتاب الإيمان ، وأحمد فى مسنده (٣/٢٠ ، ٤٩ ، ٥٢) ، والترمذى فى سننه (٢١٧٣) من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه .

إمكانك فيها ، فالدين يـريدك مُصلحاً لكن لا يريد أنْ تلقى بنفسك إلى التهلكة ، فلك أنْ تُغـيِّر المنكر بيدكَ فتضـرب وتمنع إذا كان لك ولاية على صاحب المنكر ، كأن يكون ولدك أو أخاك .. إلخ .

فلك أن تضربه مثلاً إنْ رأيتَ سيـجارة فى فمه ، أو أنْ تكسر له كأس الخـمر إنْ شربها أو تمـزق له مثلاً ورق « الكوتشـينة » ، فإنْ لم تكُنْ لك هذه الاسـتطاعـة فيكفى أنْ تُغـيِّـر بلسانك إنْ كـانت لديك الكلمـة الطيبـة التى تداوى دون أن تجرح الآخـرين ، ودون أنْ يؤدى النصح إلى فتنة ، فيكون ضرره أكثر من نفعه .

فـإنْ لم يكُنْ فى اسـتطاعـتك هذه أيضـاً ، فليكُنْ تغـيـيـر المنكر بالقلـب ، فـإنْ رأيتَ منكراً لا تمـلك إلا أنَّ تقـول: اللهم إنَّ هـذا منكر لا يرضيك لكن أيُعَدُّ عمل القلب تغيـيراً للمنكر وأنت مطالب بأنْ تُغيِّره بيدك يعنى : إلى ضده ؟ وهل هذه الكلمة تغير من الواقع شيئاً ؟

قالوا : لا يحـدث التغيـير بالقلب إلا إذا كان القـالب تابعاً للقلب ، فـالقلب يشـهـد أنَّ هذا منكـر لا يُرضِى الله ، والقـالب يسـاند حـتى لا تكون منافقـاً ، فأنت أنكرتَ عليه الفعل ، ولا اسـتطاعة لك على أنْ تمنعه ، ولا أن تنصحه ، فلا أقلَّ من أنْ تعـزله عن حياتك وتقاطعه ، وإلاَّ فكيف تُـغـيِّـر بقلبك إنْ أنكرتَ عـليـه فـعله وأبقـيتَ على وُدِّه ومعاملته ؟

إذن : لا يكون التغيـير بالقلب إلا إذا أحسَّ صاحب المنكر أنه فى عزلة ، فـلا تهنئه فى فرح ، ولا تعزيه فى حـزن ، وإنْ كنتَ صاحب تجارة ، فلا تَبِعْ له ولا تشتر منه .. الخ .

ومـا استـشرى البـاطل وتَبجـح أهل الفسـاد وأهل المنكر إلا لأن الناس يحترمـونهم ويعاملونهم على هذه الحال ، بل ربمـا زاد احترام

الناس لهم خوفاً من باطلهم ومن ظلمهم .

فالتغيير بالقلب ليس كلمة تقال إنما فعل وموقف ، وقد علَّمنا ربنا ـ تبارك وتعالى ـ هذه القضية فى قوله سبحانه : ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا (١٤٠) ﴾ [النساء]

ويقول سبحانه فى آية أخرى : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٦٨) ﴾ [الأنعام]

والنبى ﷺ فى قصة الثلاثة[1] الذين خُلِّفوا بغير عذر فى غزوة تبوك ، يُعلِّمنا كيف نعزل أصحاب المنكر ، لا بأن نعزلهم فى زنزانة كما نفعل الآن ، إنما بأن نعزل المجتمع عنهم ، ليس المجتمع العام فحسب ، بل عن المجتمع الخاص ، وعن أقرب الناس إليه .

وقد تخلف عن هذه الغزوة عدة رجال اعتذروا لرسول الله فقَبِل علانيتهم وترك سرائرهم لله ، لكن هؤلاء الثلاثة لم يجدوا لأنفسهم عذراً ، ورأوا أنهم لا يستطيعون أنْ يكذبوا على رسول الله ، ولم يحبسهم الرسول ، إنما حبس المجتمع عنهم حتى الأقارب ، فكان الواحد منهم يمشى و (يتمحك) فى الناس ليكلمه أحد منهم ، فلا يكلمه أحد ، وكعب بن مالك[2] يتسوَّر على ابن عمه الحديقة ، ويقول

---

(١) الثلاثة هم : كعب بن مالك ، وهلال بن أمية ، ومرارة بن الربيعة العامرى .

(٢) هو : كعب بن مالك بن أبى كعب الأنصارى ، شاعر رسول الله ﷺ ، أمه ليلى بنت زيد من بنى سلمة ، كنيته أبو عبد الرحمن ، شهد العقبة مع السبعين من الأنصار ، شهد أحداً والخندق والمشاهد كلها ، ما خلا تبوك . وتاب الله عليه ، ذهب بصره فى آخر حياته ، وتوفى عام ٥٠ هـ فى خلافة معاوية ، وهو يومئذ ابن ٧٧ عاماً أى أنه ولد ٢٧ ق هـ .

له : تعلم أنى أحب الله ورسوله فلا يجيبه . ويصلى بجوار الرسول يلتمس أنْ ينظر إليه ، فلا ينظر إليه[١] .

ولما نجحت هذه المقاطعة على هذا المستوى أعلاها الشرع وتسلسل بها إلى الخصوصيات فى البيت ، فعزل هؤلاء الثلاثة عن زوجاتهم ، فأمر كلاً منهن ألاَّ يقربها زوجها إلى أن يحكم الله فى أمرهم[٢] ، حتى أن واحدة[٣] من هؤلاء جاءت لرسول الله وقالت : يا رسول الله ، إن زوجى رجل كهدبة الثوب (يعنى : ليست له رغبة فى أمر النساء) فأذن لها رسول الله فى أن تخدمه على ألاَّ يقربها .

ظل هؤلاء الثلاثة ثلاثين يوماً فى هذا الامتحان العام وعشرة أيام فى الامتحان الخاص ، ونجح المجتمع العام ، ونجح المجتمع الخاص، وهكذا علَّمنا الشرع كيف نعزل أصحاب المنكر وأهل الجريمة ، فعزل

---

(١) يروى لنا كعب بن مالك هذه الأيام العصيبة ، فيقول : « أما هلال بن أمية ومرارة بن الربيعة فاستكانا وقعدا فى بيوتهما يبكيان ، وأما أنا فكنت أشبّ القوم وأجلدهم فكنت أخرج فأشهد الصلاة وأطوف فى الأسواق ولا يكلمنى أحد ، وآتى رسول الله ﷺ فأسلم عليه وهو فى مجلسه بعد الصلاة فأقول فى نفسى : هل حرَّك شفتيه برد السلام أم لا ، ثم أصلى قريباً منه وأسارقه النظر فإذا أقبلتُ على صلاتى نظر إلىَّ ، وإذا التفتُّ نحوه أعرض عنى . [صحيح مسلم حديث ٢٧٦٩] كتاب التوبة .

(٢) جاء رسول من عند رسول الله ﷺ إلى كعب بن مالك يقول له : إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك . فقلت : أطلقها أم ماذا أفعل ؟ قال : لا بل اعتزلها فلا تقربنَّها . (صحيح مسلم حديث ٢٧٦٩) .

(٣) هى : خولة بنت عاصم ، امرأة هلال بن أمية أحد الثلاثة الذين خلفوا . [قاله ابن حجر فى الفتح ١٢١/٨] ويروى مسلم فى صحيحه (٢٧٦٩) والبخارى فى صحيحه (٤٤١٨) أن امرأة هلال بن أمية جاءت رسول الله ﷺ وقالت : « يا رسول الله ، إن هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خادم ، فهل تكره أن أخدمه ؟ قال : لا ولكن لا يقربنك فقالت : إنه والله ما به حركة إلى شىء ، ووالله ما زال يبكى منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا ».

المجتمع عنهم أبلغ من عزلهم عن المجتمع ، لذلك كان وَقْع هذه العزلة قاسياً على هؤلاء .

فهذا كعب بن مالك يحكى قصته ويقول : لقد ضاقت بى الأرض على سعتها ، والحق يقول فى وصف حالهم : ﴿حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١١٨)﴾ [التوبة]

فلما استوى المجتمع العام والمجتمع الخاص على منهج الله فرَّج الله عن هؤلاء الثلاثة ، ونزل قوله تعالى : ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١١٨)﴾ [التوبة]

فأسرع أحدهم[١] يبشر كعباً بهذه البشرى فطار كعب فرحاً بها ، وقال : فوالله ما ملكتُ أنْ أخلع عليه ثيابى كلها ، ثم أستعير ثياباً أذهب بها إلى رسول الله[٢] .

إذن : ينبغى أن نعزل المجتمع كله عن أصحاب المنكر ، لا أن نعزلهم هم فى السجون ، لكن مَنْ يضمن لنا استقامة المجتمع فى تنفيذ هذه العزلة كما نفذها المجتمع المسلم على عهد رسول الله ؟

نعود إلى ما كنا نتحدث عنه من أن المصيبة إذا كانت قدراً من الله ليس لك فيها غريم ، فإن الصبر عليها هيِّن ، فالأمر بينك وبين ربك ، أما إنْ كان لك فى المصيبة غريم كأن يعتدى عليك أحد فيحرق

---

(١) هو : حمزة بن عمرو الأسلمى ، ذكره ابن حجر العسقلانى فى الفتح (شرح حديث رقم ٤٤١٨) .

(٢) قطعة من حديث كعب بن مالك الذى أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٤١٨) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٧٦٩) .

زرعك أو يقتل ولدك ، فهذه تحتاج إلى صبر أشد ، فكلما رأيتَ غريمك هاجتْ نفسك وغلى الدم فى عروقك ، فيحتاج إلى طاقة أكبر ليحمل نفسه على الصبر .

لذلك يقول سبحانه فى هذه المسألة : ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (٤٣)﴾ [الشورى] فأكَّدها باللام ؛ لأنها تحتاج إلى طاقة أكبر من الصبر وضبط النفس حتى لا تتعدى كلما رأيت الغريم ، وهذا من المواضع التى وقف عندها المستشرقون يلتمسون فيها مأخذاً على كلام الله .

يقولون : ما الفرق بين قول القرآن ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٧)﴾ [لقمان] وقوله : ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (٤٣)﴾ [الشورى]

ثم أيهما أبلغ من الأخرى ، فإنْ كانت الأولى بليغة فالأخرى غير بليغة .

ونقول فى الرد عليهم : كل من الآيتين بليغة فى سياقها ، فالتى أُكِّدت باللام جاءت فى المصيبة التى لك فيها غريم وتحتاج إلى صبر أكبر ، أما الأخرى ففى المصيبة التى ليس لك فيها غريم ، فهى بينك وبين ربك ، والصبر عليها هيِّن يسير .

لذلك ، فالحق سبحانه يعالج هذه المسألة ليُصفِّى النفس ويمنع ثورتها ، فيقول : ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا .. (٤٠)﴾ [الشورى] لتقف النفس عند حدِّ الرد بالمثل ، ثم يُرقِّى المسألة ، ويفتح باباً للعفو : ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ .. (٤٠)﴾ [الشورى] وقال فى موضع آخر : ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ (١٢٦)﴾ [النحل]

فحين يبيح لك ربك أنْ تأخذ بحقك تهدأ نفسك ، وربما تتنازل عن هذا الحق بعد أن أصبح فى يدك ؛ لذلك كثيراً ما نرى ـ خاصة فى صعيد مصر حيث توجد عادة الأخذ بالثأر ـ القاتل يأخذ كفنه على يديه ، ويدخل به على ولى الدم ، ويُسلِّم نفسه إليه ، وعندها لا يملك ولى الدم إلا أن يعفو .

حتى فى مسألة القتل والقصاص يجعل الحق سبحانه مجالاً لترقية النفس البشرية وأريحيتها ، بل ويُسمِّى الطرفين إخوة فى قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ .. (١٧٨) ﴾ [البقرة]

ففى هذا الجو وفى أثناء ما تسيل الدماء يُحدِّثنا ربنا عن العفو والإحسان والأخوة ، ومعلوم أن هناك فَرْقاً بين أن تأخذ الحق ، وبين أنْ تنفذ أخذ الحق بيدك .

فالله تعالى خالق النفس البشرية ويعلم ما جُبِلَتْ عليه من الغرائز وما تُكنّه من العواطف ، وما يستقر فيها من القيم والمبادىء ، لكنه ـ سبحانه وتعالى ـ لا يبنى الحكم على ارتفاع المناهج فى الإنسان ، إنما على ضوء هذه الطبيعة التى خلقه عليها ، فليس الخَلْق كلهم على درجة من الورع تدعوهم إلى العفو والصفح ؛ لذلك أعطاك حقَّ الرد بالمثل على مَن اعتدى عليك ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا .. (٤٠) ﴾ [الشورى] وقال ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ .. (١٢٦) ﴾ [النحل]

ومع ذلك حين تتأمل هذه الآيات تجد أن تنفيذها من الصعوبة بمكان ، فمَنْ لديه القدرة والمقاييس الدقيقة التى تُوقفه عند حدِّ المثلية التى أمر الله بها ؟

وسبق أنْ بيَّنا : أنه إذا اعتدى عليك شخص وضربك مثلاً ، أتستطيع أنْ تضربه مثل ضربته لا تزيد عليها ، لأنك إنْ زدتَ صرْتَ ظالماً ، واقرأ بقية الآية : ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٤٠)﴾ [الشورى]

وسبق أنْ ذكرنا قصة المرابى اليهودى الذى اتفق مع مدينه على أنْ يقطع من جسمه رطلاً ، إذا لم يُؤدِّ فى الموعد المحدد ، وفعلاً جاء موعد السداد ، ولم يَفِ المدين ، فرفع اليهودى أمره إلى القاضى وأخبره بشرطه ـ وكان القاضى مُوفَّقاً قد نوَّر الله بصيرته ، فقال لليهودى : نعم لك حَقٌّ فى أن تُنفذ ما اتفقنا عليه ، وسأعطيك السكين على أنْ تأخذ من المدين رطلاً من لحمه فى ضربة واحدة ، بشرط إذا زدتَ عنها أو نقصتَ أخذناه من لحمك .

وعندها انصرف اليهودى ؛ لأن المثلية لا يمكن أن تتحقق ، فكأن الله تعالى بهذا الشرط ـ شرط المثلية فى الردِّ ـ يلفت انتباهك إلى أن العفو أوْلَى بك وأصلح .

إذن : يُحدِّثنا الحق ـ تبارك وتعالى ـ عن العفو وعن الإحسان فى المصيبة التى لك فيها غريم ، ويبين لنا أنك إذا أخذتَ حقك الذى قرره لك فقد أرحتَ نفسك ، لكن حرمتها الأجر الذى تكفَّل الله لك به إنْ أنت عفوتَ .

وكأن الحق ـ تبارك وتعالى ـ يريد أنْ يولد من أسباب البغضاء أسباباً للولاء ، فالذى كان من حقك أنْ تقتله ثم عفوتَ عنه أصبحتْ حياته ملْكاً لك ، فهل يفكر لك فى سوء بعدها ؟

لذلك يُعلِّمنا ربنا : ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤)﴾ [فصلت]

وأذكر أننى جاءنى مَنْ يقول : والله أنا دفعتُ بالتى هى أحسن مع خصمى ، فلم أجده ولياً حميماً كما قال الله تعالى ، فقلت له : عليك أن تراجع نفسك ؛ لأنك ظننتَ أنك دفعتَ بالتى هى أحسن ، لكن الواقع غير ذلك ، ولو دفعتَ بالتى هى أحسن لَصدق الله معك ، ورأيت خَصْمك ولياً حميماً ، إنما أنت تريد أنْ تُجرِّب مع الله والتجربة مع الله شكٌّ .

والنبى ﷺ يُعلِّمنا أنْ نبقى على يقين التوكل سارياً دون أنْ نفكر كيف يحدث ، وقصة الصحابية أم مالك[1] شاهدَة على ذلك ، فقد كان عندها غنم تحلب لبنها ، فتصنع مما زاد عن حاجتها وحاجة أولادها زبداً ، وكانت تهدى منه إلى رسول الله فى عكة[2] عندها ، فكان أهل بيت رسول الله يُفرغون هذه العكة فى آنيتهم ، ثم يعيدونها إليها وهكذا .

حتى قالت أم مالك[3] : والله ما أصبتُ إداماً إلا من هذه العكة ، وكانت كلما احتاجت الإدام أفرغتْ العكة ، فوجدت بها الإدام حتى بعد أن أفرغها أهل بيت الرسول ، لكن خُيِّل لها فى يوم من الأيام أنها أسرفت فى استعمال هذه العكة ، وظنت أن ما بها من إدام قد نفد ، فأخذتها وعصرتها ، فلم تجد فيها شيئاً ، فظنت أن رسول الله غاضب

---

(١) هى : أم مالك الأنصارية . ذكرها ابن حجر العسقلانى فى « الإصابة فى تمييز الصحابة » (٢٧٨/٨) .

(٢) العكة : أصغر من القربة للسمن ، وهو زُقَيْق صغير . [لسان العرب ـ مادة : عكك] .

(٣) حديث مسلم (٢٢٨٠) عن جابر بن عبد الله أن أم مالك كانت تهدى للنبى ﷺ فى عكة لها سمناً ، فيأتيها بنوها فيسألون الأُدْم ، وليس عندهم شىء ، فتعمد إلى الذى كانت تهدى فيه للنبى ﷺ ، فتجد فيه سمناً ، فما زال يقيم لها أدم بيتها حتى عصرته ، فأتت النبى ﷺ فقال : عصرتيها ؟ قالت : نعم . قال : لو تركتيها ما زال قائماً .

منها ، فذهبت إليه وقصَّتْ عليه هذه المسألة ، فقال لها ﷺ : « أَعَصرتيها يا أم مالك ؟ » فقالت : نعم يا رسول الله ، فأخبرها أن التجربة مع الله شكٌّ وأنها لو لم تعصرها ولم تظن هذا الظن لبقيتْ العُكَّة على حالها ، وكما تعودت منها[1] .

وتلحظ أن كلمة (أصابك) والمصيبة تدل على أنها واقعة بك ولن تنجو منها ؛ لأنها قدر أرسل إليك بالفعل ، وسيصيبك لا محالة ، والمسألة مسألة وقت إلى أنْ يصلك هذا السهم الذى أُطلق عليك ، فإياك أنْ تقول : لو أنى فعلت كذا لكان كذا ، فما سُمِّيت المصيبة بهذا الاسم إلا لأنها صائبتك لا تستطيع أنْ تفرَّ منها . كما يقولون عن الموت : تأكد أنك ستموت ، وعمرك بمقدار أنْ يصلك سهم الموت .

وكلمة ﴿مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ (١٧)﴾ [لقمان] نقول : فلان له عزم ، ونسمع القرآن يقول : ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ .. (١٥٩)﴾[آل عمران] العزم : الفرض المقطوع به ، والذى لا مناصَ عنه ، ومنه ما جاء فى قول لقمان لما خيَّره ربه بين أن يكون رسولاً أو حكيماً ، فاختار الراحة وترك الابتلاء ، لكنه قال : يا رب إنْ كانت عزمةً منك فسمعاً وطاعة ، يعنى : أمراً مفروضاً ينبغى ألاَّ نحيد عنه .

والعزم يعنى شحن كل طاقات النفس للفعل والقطع به ، فالصلاة على الميت مثلاً لا تُسمَّى عزيمة ؛ لأنها فرض كفاية إنْ فعلها البعض سقطتْ عن الباقين ، على خلاف الصلاة التامة فى السفر مثلاً حيث يعتبرها الإمام أبو حنيفة عزيمة لا رخصة ، فإن أتممت الصلاة فى

---

(١) قال النووى فى شرحه لصحيح مسلم (١٥/٤٦) : « قال العلماء : الحكمة فى ذلك أن عصرها مضاد للتسليم والتوكل على رزق الله تعالى ويتضمن التدبير والأخذ بالحول والقوة وتكلُّف الإحاطة بأسرار حكم الله تعالى وفضله فعوقب فاعله بزواله » .

السفر أسأت[١] ، عملاً بقول النبى ﷺ : « إن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه »[٢] .

والمعنى : لا ترد يد الله المبسوطة لك بالتيسير فى الصلاة أثناء السفر .

ثم يعتمد فى هذا الرأى على دليل آخر من علم الأصول هو أن الصلاة فُرِضَتْ فى الأصل مثنى مثنى ، ثم أقرت فى السفر وزيدت فى الحضر . إذن : فصلاة السفر مع الأصل ، فلو أتممتَ الصلاة فى السفر أسأتَ .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ ﴾

معنى : تصعر من الصَّعَر ، وهو فى الأصل داء يصيب البعير يجعله يميل برقبته ، ويشبه به الإنسان المتكبر الذى يميل بخدِّه ، ويُعرض عن الناس تكبّراً ، ونسمع فى العامية يقولون للمتكبر (فلان ماشى لاوى رقبته) .

فقول الله تعالى ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ..﴿١٨﴾ ﴾ [لقمان] واختيار

---

(١) الحنفية والمالكية متفقون على أن قصر الصلاة الرباعية فى السفر سنة مؤكدة ، ولكنهم مختلفون فى الجزاء المترتب على تركه ، فالحنفية يقولون : من أتم يكون مسيئاً بترك الواجب ، وهو إن كان لا يعذب على تركه بالنار ، ولكنه يُحرم من شفاعة النبى ﷺ يوم القيامة . أما المالكية فيقولون : إذا تركه المسافر فلا يُؤاخذ على تركه ، ولكنه يحرم من ثواب السنة المؤكدة فقط ، ولا يحرم من شفاعة النبى » [الفقه على المذاهب الأربعة ٤٧١/١] دار إحياء التراث العربى .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (١٠٨/٢) وابن حبان (٥٤٥ ، ٩١٤) من حديث ابن عمر رضى الله عنهما .

هذا التشبيه بالذات كأن الحق سبحانه يُنبِّهنا أن التكبُّر وتصعير الخدِّ داء ، فهذا داء جسدى ، وهذا داء خلقى . وقد تنبه الشاعر إلى هذا المعنى فقال :

فَدَعْ كُلَّ طَاغِيةٍ للزَّمانِ فإنَّ الزمانَ يُقيم الصَّعَر

يعنى : إذا لم يستطع أبناء الزمان تقويم صعر المتكبر ، فدعْه للزمان فهو جدير بتقويمه ، وكثيراً ما نرى نماذج لأناس تكبروا وتجبروا ، وهم الآن لا يستطيع الواحد منهم قياماً أو قعوداً ، بل لا يستطيع أنْ يذب الطير عن وجهه .

والإنسان عادة لا يتكبر إلا إذا شعر فى نفسه بميزة عن الآخرين ، بدليل أنه إذا رأى مَنْ هو أعلى منه انكسر وتواضع وقوَّم من صَعره ، ومثَّلنا لذلك بـ (فتوة) الحارة الذى يجلس على القهوة مثلاً واضعاً قدماً على قدم ، غير مُبَال بأحد ، فإذا دخل عليه (فتوة) آخر أقوى منه نجده تلقائياً يعتدل فى جلسته .

وهذه المسألة تفسر لنا الحكمة التى تقول (اتق شر من أحسنت إليه) لماذا ؟ لأن الذى أحسنتَ إليه مرتْ به فترة كان ضعيفاً محتاجاً وأنت قوى فأحسنتَ إليه ، وقدَّمْتَ له المعروف الذى قوّم حياته فأصبح لك يَدٌ عليه ، وكلما رآك ذكَّرته بفترة ضعفه ، ثم إن الأيام دُوَل تدور بين الخَلْق ، والضعيف يصبح قوياً ويحب أنْ يُعلى نفسه بين معارفه ، لكنه لا بُدَّ أن يتواضع حينما يرى مَنْ أحسن إليه ، وكأن وجود مَنْ أحسن إليه هو العقبة أمام عُلُوِّه وكبريائه ؛ لذلك قيل : (اتق شر من أحسنت إليه) .

ثم إن الذى يتكبر ينبغى أنْ يتكبَّر بشىء ذاتى فيه لا بشىء موهوب له ، وإذا رأيتَ فى نفسك ميزة عن الآخرين فانظر فيما تميزوا هم به عليك ، وساعة تنظر إلى الخَلْق والخالق تجد كل مخلوق لله جميلاً .

لذلك تروى قصة الجارية التى كانت تداعب سيدتها ، وهى تزينها وتدعو لها بفارس الأحلام ابن الحلال ، فقالت سيدتها : لكنى مشفقة عليك ؛ لأنك سوداء لن ينظر أحد إليك ، فقالت الجارية : يا سيدتى ، اذكرى أن حُسْنك لا يظهر لأعين الناس إلا إذا رأوا قُبْحى - فالذى تراه أنت قبيحاً هو فى ذاته جميل ، لأنه يبدى جمال الله تعالى فى طلاقة القدرة - ثم قالت : يا هذه ، لا تغضبى الله بشىء من هذا ، أتعيبين النقش ، أم تعيبين النقاش ؟ ولو أدركت ما فىَّ من أمانة التناول لك فى كل ما أكلف به وعدم أمانتك فيما يكلفك به أبوك لعلمت فى أى شىء أنا جميلة .

ويقول الشاعر فى هذا المعنى :

فَالوَجْه مِثْلُ الصُّبْح مُبيضٌّ والشَّعْر مثْل الليْل مُسْوَدُّ
ضِدَّانِ لما اسْتجْمعَا حَسُناَ والضِّد يُظْهِر حُسْنَهُ الضِّدُّ

والله تعالى يُعلِّمنا هذا الدرس فى قوله تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ .. (١١) ﴾ [الحجرات]

فإذا رأيتَ إنساناً دونك فى شىء ففتش فى نفسك ، وانظر ، فلا بُدَّ أنه متميز عليك فى شىء آخر ، وبذلك يعتدل الميزان .

فالله تعالى وزَّع المواهب بين الخَلْق جميعاً ، ولم يحابِ منهم أحداً على أحد ، وكما قلنا : مجموع مواهب كل إنسان يساوى مجموع مواهب الآخر .

وسبق أن ذكرنا أن رجلاً قال للقمان : لقد عرفناك عبداً أسود غليظ الشفاه ، تخدم فلاناً وترعى الغنم ، فقال لقمان : نعم ، لكنى

أحمل قلباً أبيض ، ويخرج من بين شفتيَّ الغليظتين الكلام العذب الرقيق[١] .

ويكفى لقمان فخراً أن الله تعالى ذكر كلامه ، وحكاه فى قرآنه وجعله خالداً يُتْلى ويُتعبَّد به ، ويحفظه الله بحفظه لقرآنه .

ولنا ملْحظ فى قوله تعالى ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ .. ﴿١٨﴾﴾ [لقمان] فكلمة للناس هنا لها مدخل ، وكأن الله تعالى يقول لمن يُصعِّر خده : لا تَدْعُ الناس إلى العصيان والتمرد على أقدار الله بتكبُّرك عليهم وإظهار مزاياك وسَتْر مزاياهم ، فقد تصادف قليلَ الإيمان الذى يتمرد على الله ويعترض على قدره فيه حينما يراك متكبراً متعالياً وهو حقير متواضع ، فإنْ كنت محترف صَعَر و (كييف) تكبُّر ، فليكُنْ ذلك بينك وبين نفسك ، كأن تقف أمام المرآة مثلاً وتفعل ما يحلو لك مما يُشْبع عندك هذا الداء .

فكأن كلمة ﴿لِلنَّاسِ .. ﴿١٨﴾﴾ [لقمان] تعنى : أن الله تعالى يريد أنْ يمنع رؤية الناس لك على هذا الحال ؛ لأنك قد تفتن الضعاف فى دينهم وفى رضاهم عن ربهم .

ثم يقول لقمان : ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا .. ﴿١٨﴾﴾ [لقمان] المرح هو الاختيال والتبختر ، فربُّكَ لا يمنعك أنْ تمشى فى الأرض ، لكن يمنعك أنْ تمشى مشْية المتعالى على الناس ، المختال بنفسه ، والله تعالى يأمرنا : ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾ [الملك]

---

(١) أورده القرطبى فى تفسيره (٥٣١٧/٧) : « قال لرجل ينظر إليه : إن كنت ترانى غليظ الشفتين فإنه يخرج من بينهما كلام رقيق ، وإن كنت ترانى أسود فقلبى أبيض » .

فالمشى فى الأرض مطلوب ، لكن بهيئة خاصة تمشى مَشْياً سوياً معتدلاً ، فعمر ـ رضى الله عنه ـ رأى رجلاً يسير متماوتاً فنهره ، وقال : ما هذا التماوت يا هذا ، وقد وهبك الله عافية ، دَعْها لشيخوختك[١] .

ورأى رجلاً يمشى مشية الشطار[٢] ـ يعنى : قُطَّاع الطرق ـ فنهاه عن القفز أو الجرى والإسراع فى المشى .

إذن : المطلوب فى المشى هيئة الاعتدال ، لذلك سيأتى فى قول لقمان ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ.. ﴿١٩﴾﴾ [لقمان] يعنى : لا تمشِ مشية المتهالك المتماوت ، ولا تقفز قفز أهل الشر وقُطَّاع الطريق .

﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾﴾ [لقمان] المختال : هو الذى وجد له مزية عند الناس ، والفخور الذى يجد مزية فى نفسه ، والله تعالى لا يحب هذا ولا ذاك ؛ لأنه سبحانه يريد أنْ يحكم الناس بمبدأ المساواة ليعلم الناس أنه تعالى ربُّ الجميع ، وهو سبحانه المتكبِّر وحده فى الكون ، وإذا كان الكبرياء لله وحده فهذا يحمينا أنْ يتكبَّر علينا غيره ، على حدِّ قول الناظم :

والسُّجُود الذى تَجْتويه من أُلُوفِ السُّجُودِ فيه نَجَاةُ

فسجودنا جميعاً للإله الحق يحمينا أن نسجد لكل طاغية ولكل

---

(١) أورده الغزالى فى الإحياء (٢٩٦/٣) أنه يُروى عن عمر بن الخطاب « أنه رأى رجلاً يطأطىء رقبته ، فقال : يا صاحب الرقبة ارفع رقبتك ، ليس الخشوع فى الرقاب إنما الخشوع فى القلوب » .

(٢) الشطار : جمع شاطر ، وهو الذى أعيا أهله ومؤدبه خبثاً . قال أبو إسحاق : قول الناس فلان شاطر معناه أنه أخذ فى نحو غير الاستواء ، ولذلك قيل له شاطر لأنه تباعد عن الاستواء . [لسان العرب ـ مادة : شطر] .

متكبر متجبر ، فكأن كبرياء الحق ـ تبارك وتعالى ـ فى صالح العباد .

ثم يقول الحق سبحانه على لسان لقمان عليه السلام :

﴿ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾ ﴾

القصد : هو الإقبال على الحدث ، إقبالاً لا نقيضَ فيه لطرفين ، يعنى : توسطاً واعتدالاً ، هذا فى المشى ﴿ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ .. ﴿١٩﴾ ﴾ [لقمان] أى : اخفضه وحَسْبك من الأداء ما بلغ الأذن .

لكن ، لماذا جمع السياق القرآنى بين المشى والصوت ؟ قالوا : لأن للإنسان مطلوبات فى الحياة ، هذه المطلوبات يصل إليها ، إما بالمشى ـ فأنا لا أمشى إلى مكان إلا إذا كان لى فيه مصلحة وغرض ـ وإما بالصوت فإذا لم أستطع المشى إليه ناديته بصوتى .

إذن : إما تذهب إلى مطلوبك ، أو أنْ تستدعيه إليك . والقصد أى التوسط فى الأمر مطلوب فى كل شىء ؛ لأن كل شىء له طرفان لا بُدَّ أن يكون فى أحدهما مبالغة ، وفى الآخر تقصير ؛ لذلك قالوا : كلا طرفى قصد الأمور ذميم .

ثم يقول سبحانه مُشبِّهاً الصوت المرتفع بصوت الحمار : ﴿ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿١٩﴾ ﴾ [لقمان] والبعض يفهم هذه الآية فهماً يظلم فيه الحمير ، وعادة ما يتهم البشرُ الحميرَ بالغباء وبالذلة ، لذلك يقول الشاعر :

وَلاَ يُقيم علَى ضَيْمٍ يُرَادُ به ... إلاَّ الأذلاَّنِ عَيْرُ الحىِّ والوَتِدُ

هذا على الخسْف مربوطٌ برمته وذَا يُشَدُّ فَلاَ يَرْثِى لَهُ أَحَدُ

ونعيب على الشاعر أن يصف عيرَ الحى ـ والمراد الحمار ـ بالذلة ، ويقرنه فى هذه الصفة بالوتد الذى صار مضرب المثل فى الذلة حتى قالوا (أذلّ من وتد) لأنك تدقّ عليه بالآلة الثقيلة حتى ينفلق نصفين ، فلا يعترض عليك ، ولا يتبرم ولا يغيثه أحد ، فالحمار مُسخّر ، وليس ذليلاً ، بل هو مذلَّل لك من الله سبحانه .

ولو تأملنا طبيعة الحمير لوجدنا كم هى مظلومة مع البشر ، فالحمار تجعله لحمل السباخ والقاذورات ، وتتركه ينام فى الوحل فلا يعترض عليك ، وتريده دابة للركوب فتنظفه وتضع عليه السِّرْج ، وفى فمه اللجام ، فيسرع بك إلى حيث تريد دون تذمر أو اعتراض .

وقالوا فى الحكمة من علو صوت الحمار حين ينهق : أن الحمار قصير غير مرتفع كالجمل مثلاً ، وإذا خرج لطلب المرعى ربما ستره تلّ أو شجرة فلا يهتدى إليه صاحبه إلا إذا نهق ، فكأن صوته آلة من آلات البادية الطبيعية ولازمة من لوازمه الضرورية التى تناسب طبيعته .

لذلك يجب أن نفهم قول الله تعالى : ﴿إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾ [لقمان] فنهيق الحمار ليس مُنكَراً من الحمار ، إنما المنكر أن يشبه صوت الإنسان صوت الحمار ، فكأن نهيق الحمار كمال فيه ، وصوتك الذى يشبهه مُنكَر مذموم فيك ، وإلا فما ذنب الحمار ؟

إنك تلحظ الجمل مثلاً وهو أضخم وأقوى من الحمار إذا حمَّلته حِمْلاً فإنه (ينعَّر) إذا ثقل عليه ، أما الحمار فتُحمِّله فوق طاقته فيحمل دون أنْ يتكلم أو يبدى اعتراضاً ، الحمار بحكم ما جعل الله فيه من الغريزة ينظر مثلاً إلى (القناة) فإنْ كانت فى طاقته قفز ،

وإنْ كانت فوق طاقته امتنع مهما أجبرته على عبورها .

أما الإنسان فيدعوه غروره بنفسه أنْ يتحمّل مَالا يطيق . ويُقال : إن الحمار إذا نهق فإنه يرى شيطاناً[1] ، وعلمنا بالتجربة أن الحيوانات ومنها الحمير تشعر بالزلزال قبل وقوعه ، وأنها تقطّع قيودها وتفرّ إلى الخلاء ، وقد لوحظ هذا فى زلزال أغادير بالمغرب ، ولاحظناه فى زلزال عام ١٩٩٢ م عندما هاجت الحيوانات فى حديقة الحيوان قبيل الزلزال .

ثم إن الحمار إنْ سار بك فى طريق مهما كان طويلاً فإنه يعود بك من نفس الطريق دون أنْ تُوجِّهه أنت ، ويذهب إليه مرة أخرى دون أنْ يتعدَّاه ، لكن المتحاملين على الحمير يقولون : ومع ذلك هو حمار لأنه لا يتصرف ، إنما يضع الخطوة على الخطوة ، ونحن نقول : بل يُمدح الحمار حتى وإنْ لم يتصرف ؛ لأنه محكوم بالغريزة .

كذلك الحال فى قول الله تعالى : ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا .. ۝٥﴾ [الجمعة]

فمتى نثبت الفعل وننفيه فى آن واحد ؟ المعنى : حملوها أى : عرفوها وحفظوها فى كتبهم وفى صدورهم ، ولم يحملوها أى : لم يؤدوا حق حملها ولم يعملوا بها ، مثَلهم فى ذلك ﴿كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا .. ۝٥﴾ [الجمعة] فهل يُعَدُّ هذا ذَماً للحمار ؟ لا ، لأن الحمار مهمته الحمل فحسب ، إنما يُذَمّ منهم أنْ يحملوا كتاب الله

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : « إذا سمعتم صياح الديكة فاسألوا الله من فضله فإنها رأت ملكاً ، وإذا سمعتم نهيق الحمار فتعوذوا بالله من الشيطان فإنه رأى شيطاناً » أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٣٠٣) ، وأحمد فى مسنده (٢/٣٠٧ ، ٣٢١ ، ٣٦٤) .

ولا يعملوا به ، فالحمار مهمته أنْ يحمل ، وأنت مهمتك أنْ تفقه ما حملت وأنْ تؤديه .

فالاعتدال فى الصوت أمر ينبغى أن يتحلى به المؤمن حتى فى الصلاة وفى التعبد يُعلِّمنا الحق سبحانه : ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ ﴾ [الإسراء] أما ما تسمعه من (الجعر) فى مكبرات الصوت والنُّواح طوال الليل فلا ينالنا منه إلا سخط المريض وسخط صاحب العمل وغيرهم ، ولقد تعمدنا عمل إحصاء فوجدنا أن الذين يأتون إلى المسجد هم هم لم يزيدوا شيئاً بـ (الميكروفونات) .

كذلك الذين يرفعون أصواتهم بقراءة القرآن فى المساجد فيشغلون الناس ، وينبغى أن نترك كل إنسان يتقرب إلى الله بما يخفّ على نفسه : هذا يريد أنْ يصلى ، وهذا يريد أن يُسبِّح أو يستغفر ، وهذا يريد أنْ يقرأ فى كتاب الله ، فلماذا تحمل الناس على تطوعك أنت ؟

بعد أنْ عرضتْ لنا الآيات طرفاً من حكمة لقمان ووصاياه لولده تنقلنا إلى معنى كونى جديد :

﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ ﴾

التسخير : هو الانقياد للخالق الأعلى بمهمة يؤديها بلا اختيار فى

التنقُّل منها ، كما سخر الله الشمس والقمر .. إلخ ، فعلى الرغم من أن كثيراً من الناس منصرفون عن الله وعن منهج الله لم تتأبَّ الشمس فى يوم من الأيام أنْ تشرق عليهم ، ولا امتنع عنهم الهواء ، ولا ضنَّتْ عليهم الأرض بخيراتها ولا السماء بمائها ، لماذا ؟ لأنها مُسخَّرة لا اختيارَ لها .

ولا نفهم من ذلك أن الله سخَّر هذه المخلوقات رغماً عنها ، فهذا فهم سطحى لهذه المسألة ، حيث يرى البعض أن الإنسان فقط هو الذى خُيِّر ، إنما الحقيقة أن الكون كله خُيِّر ، وهذا واضح فى قول الله تعالى :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً (٧٢) ﴾ [الأحزاب]

إذن : فالجميع خُيِّر ، خُيِّرت السموات والأرض والجبال فاختارت أن تكون مُسخَّرة لا إرادةَ لها ، وخُيِّر الإنسان فاختار أنْ يكون مختاراً ؛ لأن له عقلاً يفكر به ويقارن بين البدائل .

ومعنى التسخير أنك لا تستطيع أن تخضع ما ينفعك من الأشياء فى الكون بعقلك ولا بإرادتك ولا بالمنهج ، والدليل على ذلك أنك إذا صدْتَ طيراً وحبسته فى قفص ومنعته من أنْ يطير فى السماء وتريد أنَ تعرف : أهو مُسخَّر لك أم غير مسخر وحبسه حلال أم حرام ؟ فافتح له باب القفص ، فإنْ ظلَّ فى صحبتك فهو مُسخَّر لك ، راض عن بقائه معك باللقمة التى يأكلها أو المكان الذى أعددتَهُ له ، وإنْ خرج وترك صحبتك فاعلم أنه غير مُسخَّر لك ، ولا يحقُّ لك أنْ تستأنسه رغماً عنه .

لذلك سيدنا عمر ـ رضى الله عنه ـ لما مَرَّ بغلام صغير يلعب بعصفور أراد أنْ يُعلِّمه درساً وهو ما يزال (عجينة) طيِّعة ، فأقنعه

أنْ يبيعه العصفور ، فلما اشتراه عمر وصار فى حوزته أطلقه ، فقال الغلام : فو الله ما قَصَرْتُ بعدها حيواناً على الأنس به .

وسبق أنْ تكلمنا عن مسألة التسخير ، وكيف أن الله سخر الجمل الضخم بحيث يسوقه الصبى الصغير ولم يُسخِّر لك مثلاً البرغوث فلو لم يُذلِّل الله لك هذه المخلوقات ويجعلها فى خدمتك ما استطعت أنت تسخيرها بقوتك .

وقوله تعالى : ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً .. (٢٠)﴾ [لقمان] أسبغ : أتمّ وأكمل ، ومنها قوله تعالى عن سيدنا داود : ﴿أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ .. (١١)﴾ [سبأ] أى : دروعاً ساترة محكمة تقى لابسها من ضربات السيوف وطعنات الرماح ، والدروع تُجعل على الأعضاء الهامة من الجسم كالقلب والرئتين ، وقد علَّم الله تعالى داود أن يصنع الدروع على هيئة الضلوع ، ليست ملساء ، إنما فيها نتوءات تتحطم عليها قوة الضربة ، ولا تتزحلق فتصيب مكاناً آخر .

ورُوِى أن لقمان رأى داود ـ عليه السلام ـ يعجن الحديد بين يديه فتعجب ، لكنه لم يبادره بالسؤال عما يرى وأمهله إلى أن انتهى من صنعته للدرع ، فأخذه ولبسه وقال : نِعْمَ لَبُوس الحرب أنت ، فقال لقمان : الصمت حُكْمٌ وقليل فاعله[1] فظلَت حكمة تتردد إلى آخر الزمان .

فمعنى أسبغ علينا النعمة : أتمها إتماماً يستوعب كل حركة

---

(١) أخرج العسكرى فى الأمثال والحاكم والبيهقى فى شعب الإيمان عن أنس أن لقمان عليه السلام كان عبداً لداود ، وهو يسرد الدرع ، فجعل يفتله هكذا بيده ، فجعل لقمان عليه السلام يتعجب ويريد أن يسأله وتمنعه حكمته أن يسأله ، فلما فرغ منها صبها على نفسه وقال : نِعْمَ درع الحرب هذه . فقال لقمان : الصمت من الحكمة وقليل فاعله ، كنت أردت أن أسألك فسكت حتى كفيتنى .

حياتكم ، ويمدكم دائماً بمقوِّمات هذه الحياة بحيث لا ينقصكم شىء ، لا فى استبقاء الحياة ، ولا فى استبقاء النوع ؛ لأن الذى خلق سبحانه يعلم كل ما يحتاجه المخلوق .

أما إذا رأيتَ قصوراً فى ناحية ، فالقصور من ناحية الخَلْق فى أنهم لم يستنبطوا من معطيات الكون ، أو استنبطوا خيرات الكون ، لكن بخلوا بها وضنُّوا على غيرهم ، وهذه هى آفة العالم فى العصر الحديث ، حيث تجد قوماً قعدوا وتكاسلوا عن البحث وعن الاستنباط ، وآخرين جدُّوا ، لكنهم بخلوا بثمرات جدهم ، وربما فاضتْ عندهم الخيرات حتى ألقَوْها فى البحر ، وأتلفوها فى الوقت الذى يموت فيه آخرون جوعاً وفقراً .

إذن : فآفة العالم ليس فى أنه لا يجد ، إنما فى أنه لا يحسن استغلال ما يجد من خيرات ، ومن مُقوِّمات لله تعالى فى كونه . فقوله تعالى : ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً .. ﴿٢٠﴾﴾ [لقمان] هذه حقيقة لا ينكرها أحد ، فهل تنكرون أنه خلقكم ، وخلق لكم من أنفسكم أزواجاً منها تتناسلون ؟

هل تنكرون أنه خلق السموات بما فيها من الكواكب والمجرَّات ، وخلق الليل فيه منامكم ، والنهار وفيه سعيكم على معايشكم ؟ ثم فى أنفسكم وما خلقه فيكم من الحواس الظاهرة وغير الظاهرة ، وجعل لكل منها مجالاً ومهمة تؤديها دون أنْ تشعر أنت بما أودعه الله فى جسمك من الآيات والمعجزات ، وكل يوم يطلع علينا العلم بجديد من نِعَم الله علينا فى أنفسنا وفى الكون من حولنا .

فمعنى ﴿ظَاهِرَةً .. ﴿٢٠﴾﴾ [لقمان] أى : التى ظهرتْ لنا ﴿وَبَاطِنَةً .. ﴿٢٠﴾﴾ [لقمان] لم نصل إليها بعد ، ومن نِعَم الله علينا ما ندركه ، ومنها ما لا ندركه .

تأمل فى نفسك مثلاً الكليتين وكيف تعمل بداخلك وتصفى الدم من البولينا ، فتنقيه وأنت لا تشعر بها ، وأول ما فكر العلماء فى عمل بديل لها حال فشلها صمموا جهازاً يملأ حجرة كبيرة ، كانت نصف هذا المسجد من المعدات لتعمل عمل الكليتين ، ثم تبين لهم أن الكُلْية عبارة عن مليون خلية لا يعمل منها إلا مائة بالتناوب .

وقالوا : إن الفشل الكُلَوى عبارة عن عدم تنبه المائة خلية المناط بها العمل فى الوقت المناسب يعنى المائة الأولى أدَّتْ مهمتها وتوقفت دون أنْ تتنبه المائة الأخرى ، ومن هندسة الجسم البشرى أن خلق الله للإنسان كليتين ، حتى إذا تعطلت إحداهما قامت الأخرى بدورها .

أما النعم الباطنة فمنه ما يُكتشف فى مستقبل الأيام من آيات ونِعَم ، فمنذ عدة سنوات أو عدة قرون لم نكُنْ نعرف شيئاً عن الكهرباء مثلاً ، ولا عن السيارات وآلات النقل وعصر العجلة والبخار .. إلخ .

كلها نِعَم ظاهرة لنا الآن ، وكانت مستورة قبل ذلك أظهرها النشاط العلمى والبحث والاستنباط من معطيات الكون ، وحين تحسب ما أظهره العلم من نِعَم الله تجده حوالى ٣٪ ونسبة ٩٧٪ عرفها الإنسان بالصدفة .

وقلنا : إن أسرار الله ونعمه فى كونه لا تتناهى ، وليس لأحد أن يقول : إن ما وضعه الله فى الأرض من آيات وأسرار أدى مهمته ؛ لأنه باق ببقاء الحياة الدنيا ، ولا يتوقف إلا إذا تحقَّق قوله تعالى : ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا

أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا[1] كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ .. (٢٤) ﴾ [يونس]

وفى الآخرة سنرى من آيات الله ومن عجائب مخلوقاته شيئاً آخر ، وكأن الحق تعالى يقول لنا : لقد رأيتُم آياتى فى الدنيا واستوعبتموها ، فتعالوا لأُريكم الآيات الكبرى التى أعددتها لكم فى الآخرة .

ففى الآخرة سأنشئكم نشأة أخرى ، بحيث تأكلون ولا تتغوَّطون ولا تتألمون ، وتمر عليكم الأعوام ولا تشيبون ، ولا تمرضون ، ولا تموتون ، لقد كنتم فى الدنيا تعيشون بأسبابى ، أما فى الآخرة فأنتم معى مع المسبِّب سبحانه ، فلا حاجة لكم للأسباب ، لا لشمس ولا لقمر ولا .. إلخ .

لذلك نقول : من أدب العلماء أنْ يقولوا اكتشفنا لا اخترعنا ؛ لأن آيات الله ونِعَمه مطمورة فى كونه تحتاج لمن يُنقِّب عنها ويستنتجها مما جعله الله فى كونه من معطيات ومقدمات .

وسبق أنْ قلنا : إن كل سرٍّ من أسرار الله فى كونه له ميلاد كميلاد الإنسان ، فإذا حان وقته أظهره الله ، إما ببحث العلماء وإلا جاء مصادفة تكرُّماً من الله تعالى على خَلْقه الذين قَصُرَت جهودهم عن الوصول إلى أسراره تعالى فى كونه .

وفى هذا إشارة ومقدمة لأنْ نؤمن بالغيب الذى أخبرنا الله به ، فما دُمْنا قد رأينا نِعَمه التى كانت مطمورة فى كونه فينبغى علينا أنْ نؤمنَ بما يخبرنا به من الغيب ، وأنْ نأخذَ من المُشاهَد دليلاً على ما غاب .

---

(١) من هذا قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ (١٥) ﴾ [الأنبياء] أى : كالزرع المحصود . أى : أهلكناهم . [القاموس القويم ١/١٥٦] .

واقرأ فى هذه المسألة قول الله تعالى : ﴿وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ .. (٢٥٥)﴾ [البقرة] أى : شاء سبحانه أنْ يوجد هذا الغيب ، وأن يظهر للناس بعد أنْ كان مطموراً ، فإنْ صادف بحثاً جاء مع البحث ، وإنْ لم يصادف جاء مصادفة وبلا أسباب ، بدليل أنه نسب إحاطة العلم لهم .

أما الغيب الذى ليس له مُقدِّمات توصل إليه ، ولا يطلع عليه إلا الله فهو المعنىّ بقوله تعالى : ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ .. (٢٧)﴾ [الجن]

وقال سبحانه ﴿ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً .. (٢٠)﴾ [لقمان] لأن الظاهرة تلفتنا إلى الإيمان بالله واجب الوجود الأعلى ، والباطنة يدخرها الله لمن يأتى بعد ، ثم يدخر ادخاراً آخر ، بحيث لا يظهر إلا حين نكون مع الله فى جنة الله .

وقد حاول العلماء أن يُعدِّدوا النعم والآيات الظاهرة والباطنة ، فالظاهرة ما يعطيه لنا فى الدنيا ظاهراً ، والباطنة ما أخبرنا الله بها ، فمثلاً حين تريد الجهاد فى سبيل الله تُعدُّ لذلك عُدَّته من سلاح وجنود .. الخ وتأخذ بالأسباب ، فيؤيدك الله بجنود من عنده لم تروْها ، كما قال سبحانه : ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ .. (١٢)﴾ [الأنفال]

والرسول ﷺ يخبرنا ببعض هذه النعم الباطنة ، فيقول : « للمؤمن ثلاثة هى له وليست له ـ يعنى ليست من عمله ـ أما الأولى : أن المؤمنين يصلون عليه ، وأما الثانية فجعل الله له ثلث ماله يوصى به ـ يعنى : لا يتركه للورثة إنما يتصرف هو فيه ، وكان المنطق أن تستفيد بما لك وأنت حىٌّ ، فإذا ما انتهيت فليس لك منه شىء وينتقل إلى الورثة يوزعه الله تعالى بينهم بالميراث الذى

شرعه ، فمن النعم أن يباح لك التصرف فى ثلث ما لك توصى به لتُكفّر به عن سيئاتك وتُطَهر به ذنوبك ـ أما الثالثة : أن الله تعالى ستر مساويك عن خَلْقه ، ولو فضحك بها لنبذك أهلك وأحبابك وأقرباؤك »[1] .

إن من أعظم النعم علينا أن يحجب الله الغيب عن خَلْق الله ، ولو خيَّرتَ أىَّ إنسان : أتحب أن تعرف غَيْب الناس ويعرفوا غيبك ؟ فلا شكَّ فى أنه لن يرضى بذلك أبداً .

والنبى ﷺ يوضح هذه المسألة فى قوله : « لو تكاشفتم ما تدافنتم » يعنى : لو ظهر المستور من غيب الإنسان ، واطلع الناس على ما فى قلبه لتركوه إنْ مات لا يدفنونه ، ولقالوا دَعُوه للكلاب تأكله ، جزاءً له على ما فعل .

لكن لما ستر الله غيوب الناس وجدنا حتى عدو الإنسان يُسرع بحمله ودفنه ، كما قال القائل : محا الموت أسباب العداوة بيننا . لكن من غباء الإنسان أن ينبشَ عن عيوب الآخرين ، وأنْ يتتبعَ عوراتهم ، فهل ترضى أنْ يعاملك الناس بالمثل ، فيتتبعون عوراتك ، ويبحثون عن عيوبك ؟

ثم إن سيئة واحدة يعرفها الناس عنك كفيلة بأن تُزهِّدهم فى كل

---

(١) عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « سألت رسول الله ﷺ عن قوله ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً .. ﴿٢٠﴾﴾ [لقمان] قال : أما الظاهرة فالإسلام وما سوَّى من خلقك وما أسبغ عليك من رزقه . وأما الباطنة فما ستر من مساوىء عملك ، يا ابن عباس إن الله تعالى يقول : ثلاث جعلتهن للمؤمن . صلاة المؤمنين عليه من بعده ، وجعلت له ثلث ماله أكفر عنه من خطاياه ، وسترت عليه من مساوىء عمله فلم أفضحه بشىء منها ، ولو أبديتها لنبذه أهله فمن سواهم » أخرجه ابن مردويه والبيهقى والديلمى وابن النجار . [ذكره السيوطى فى الدر المنثور ٦/٥٢٥]

حسناتك ، والله تعالى يريد أنْ ينتفع الناس بعضهم ببعض ليثرى حركة الحياة .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدًى وَلا كِتَابٍ مُّنِيرٍ (٢٠) ﴾ [لقمان]

المجادلة : الحوار فى أمر ، لكل طرف فيه جنود ، وكل منهم لا يؤمن برأى الآخر ، والجدل لا يكون إلا فى سبيل الوصول إلى الحقيقة ، ويسمونه الجدل الحتمى ، وهذا يكون موضوعياً لا لَددَ فيه ، ويعتمد على العلم والهدى والكتاب المنير ، وفيه نقابل الرأى بالرأى ليثمر الجدال .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ .. (٤٦) ﴾ [العنكبوت] أما الجدل الذى يريد فيه كل طرف أنْ يُعلى رأيه ولو بالباطل فهو مماراة وسفسطة لا توصل إلى شىء .

والجدل مأخوذ من الجَدْل أى الفَتْل ، والشىء حين يُفتل على مثله يقويه ، كذلك الرأى فى الجدل يُقوِّى الرأى الآخر ، فإذا ما انتهيا إلى الصواب تكاتفا على إظهاره وتقويته ، فالجدل المراد به تقوية الحق وإظهاره .

فإنْ كان الجدل غير ذلك فهو مماراة يحرص فيها كل طرف على أن يعلى رأيه ولو بالباطل .

والحق سبحانه يبين لنا أن من الناس من أَلفَ الجدل فى الله على غير علم ولا هُدىً ولا كتاب منير ، فيقولون مثلاً فى جدالهم : أللكون إله موجود ؟ وإنْ كان موجوداً ، أهو واحد أم متعدد ؟ وإنْ كان موجوداً أيعلم الجزئيات أم الكليات ؟ أيزاول مُلْكه كل وقت ؟ أم أنه

خلق القوانين ، ثم تركها تعمل فى الكون وتُسيِّره ؟ كأن الله تعالى زاول سلطانه فى الملْك مرة واحدة .

ومعلوم أن الله تعالى قيُّوم أى : قائم على أمر الخَلْق كله فى كل وقت ، والدليل على ذلك هذه المعجزات التى خرقتْ النواميس لتدلّ على صِدْق الرسل فى البلاغ عن الله ، كما عرفنا فى قصة إحراق إبراهيم ـ عليه السلام ـ فلو أن المسألة إنجاء إبراهيم من النار لما مكّنهم الله منه ، أو مكّنهم منه ومن إلقائه فى النار ، ثم أرسل على النار سحابة تُطفِئها .

لكن أراد سبحانه أن يشعلوا النار ، وأنْ يُلقوا بإبراهيم فيها ، ومع ذلك يخرج منها سالماً ليروْا بأعينهم هذه المعجزة الخارقة لقانون النار ليكبتهم الله ، ولا يعطيهم الفرصة ليخدعوا الناس ، ولو أفلتَ إبراهيم من قبضتهم لوجدوا هذه الفرصة ولقالوا : لو أمسكنا به لفعلنا به كذا وكذا .

ومعنى ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ .. ﴿٢٠﴾﴾ [لقمان] العلم أن تعرف قضية وتجزم بها ، وهى واقعة وتستطيع أنْ تُدلِّل عليها ، فإنْ كانت القضية التى تؤمن بها غير واقعة ، فهذا هو الجهل ، فالجاهل لا يوضع فى مقابل العالم ؛ لأن الجاهل لديه علم بقضية لكنها باطلة ، وهذا يتعبك فى الإقناع ؛ لأنه ليس خالى الذهن ، فيحتاج أولاً لأنْ تُخرج من ذهْنه القضية الباطلة وتُحل محلها القضية الصحيحة ، أما الأُمىّ فهو خَالى الذِّهن من أى قضيةَ .

فإنْ كانت القضية التى تجزم بها واقعة لكن لا تستطيع أنْ تُدلِّل عليها ، كالولد الصغير الذى علمناه أن (الله أحد) واستقرتْ فى ذهنه هذه المسألة ؛ لأن أباه أو معلمه لقَّنه هذه القضية حتى أصبحتْ

عقيدة عنده ، فالذى يُدلِّل عليها مَنْ لقّنها له إلى أنْ يكبر ، ويستطيع هو أن يُدلِّل عليها .

والعلم أنواع ، منها وأولها : العلم البدهى الذى نصل إليه بالبديهة دون بحث ، فمثلاً حين نرى الإنسان يتنفس نعلم أنه حىٌّ بالبديهة ، ونعلم أن الواحد نصف الاثنين ، وأن السماء فوقنا ، والأرض تحتنا .. الخ .

وإذا نظرتَ إلى معلومات الأرض كلها تجد أن أم هذه المعلومات البديهة . فعلم الهندسة مثلاً يقوم على نظريات تستخدم الأولى منها مقدمة لإثبات الثانية ، والثانية مقدمة لإثبات الثالثة وهكذا .

فحين تعيد تسلسل النظريات الهندسية فإنك لا بُدَّ عائد إلى النظرية الأولى وهى بديهة تقول : إذا التقى مستقيم بآخر نتج عن هذا الالتقاء زاويتان قائمتان .

إذن : فأعقد النظريات لا بُدَّ أن تعود إلى أمر بدهى منثور فى كون الله ، المهم مَنْ يلتفت إليه ، وقد قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِى السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥) ﴾ [يوسف]

فقوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِى اللَّهِ .. (٢٠) ﴾ [لقمان] أى : وجوداً وصفاتاً ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدًى وَلا كِتَابٍ مُّنِيرٍ (٢٠) ﴾ [لقمان] يعنى : أن الجدل يصحّ إنْ كان بعلم وهدى وكتاب منير ، فإنْ كان بغير ذلك فلا يُعَدُّ جدلاً إنما مراء لا طائلَ من ورائه .

ومعنى الهدى : أى الاستدلال بشىء على آخر ، كالعربى الذى ضَلَّ فى الصحراء ، فلما رأى على الرمال بَعْراً وأثراً لأقدام استأنس

بهـا ، وعلم أنـه على طريق مطروق ولا بُدَّ أن يمـرَّ بـه أحـد ، فلمـا عرضتْ له قضية الإيمان استدل عليها بما رأى فقال[١] :

البعـرة تدل على البعيـر ، والقدم تدل على المـسير ، سـماء ذات أبراج ، وأرض ذات فجـاج ، نجوم تزهر ، وبحـار تزخر[٢] .. ألاَ يدل ذلك على اللطيف الخبير ؟

فـالإنسـان حـيـن ينظر فى الكون وفى آياتـه لا بُدَّ أنْ يصل من خلالها إلى الخـالق عز وجل ، فما كان لهـا أنْ تتأتى وحدها ، ثم إنه لم يدَّعها أحدٌ لنفسه مـمَّنْ ينكرون وجود الله ، وقلنا : إن أتفه الأشياء التى نراها لا يمكن أن توجـد هكذا بدون صانع ، فـمثـلاً الكوب الذى نشرب فيه ، هل رأينا مثلاً شجرة تطرح لنا أكواباً ؟

إذن : لا بُدَّ أن لها صانعاً فكر فى الحاجة إليها ، فصنعها بعد أنْ كان الإنسان يشرب الماء عباً[٣] أو نزحاً بالكف ، وما توصلنا إلى هذا الكوب الرقيق النظيف إلا بعـد بحث العلماء فى عناصر الوجـود ، أيها يمكن أنْ يعطينى هـذه الزجاجـة الشـفافـة ، فوجـدوا أنهـا تُصنَع من الرمل بعد صَهْـره تحت درجة حرارة عالية ، فـهذا الكوب الذى يمكن

---

(١) هو : قس بن سـاعدة بن عـمرو الإيادى ، أحـد حكمـاء العرب ، ومن كـبار خطبـائهم فى الجاهلية ، كـان أسقف نجران ، طالت حياته وأدركه النبى ﷺ قـبل النبوة ، ورآه فى سوق عكاظ . توفى نحو ٢٣ ق هـ . [الأعلام للزركلى ١٩٦/٥] .

(٢) هـذا الجزء من خطبة خطبها قس فى سوق عكاظ : أيها الناس ، اسمعوا وعُوا ، فإذا وعيتم فانتفعوا ، إنه من عاش مـات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آتٍ آت ، مطر ونبات ، وأرزاق وأقوات .. إن فى السـماء لخـبراً ، وإن فى الأرض لعـبراً ، ليلٌ داج ، وسـماء ذات أبراج ، وأرض ذات رتاج ، وبحار ذات أمواج . [ذكرها البيهقى فى دلائل النبوة ١٠٨/٢] .

(٣) العب : شرب المـاء من غير مصٍّ . وقـيل : أن يشرب الماء ولا يتنفس . [لسـان العرب ـ مادة : عبب] .

أنْ نستغنى عنه أخذ منا خبرة وقدرة وعلماً .. إلخ .

فما بالك بالشمس التى تنير الكون كله منذ خلق الله هذا الكون دون أنْ تكلّ أو تملَّ أو تتخلف يوماً واحداً ، وهى لا تحتاج إلى صيانة ولا إلى قطعة غيار ، أليست جديرة بأنْ نسأل عمَّنْ خلقها وأبدعها على هذه الصورة ؟ خاصة وأنها فوق قدرتنا ولا تنالها إمكاناتنا .

هذه هى الآيات التى نأخذها بالأدلة ، لكن هذه الأدلة لا تُوصِّلنا إلا إلى أن لهذا الكون بآياته العجيبة خالقاً مبدعاً ، لكن العقل لا يصل بى إلى هذا الخالق : مَنْ هو ، وما اسمه ، إذن : لا بُدَّ من بلاغ عن الله على يد رسول يبلغنا مَنْ هذا الخالق وما اسمه وما مطلوباته ، وماذا أعدّ لمن أطاعه ، وماذا أعدَّ لمن عصاه .

وفَرْق بين التعقُّل والتصوُّر ، والذى أتعب الفلاسفة أنهم خلطوا بينهما ، فالتعقل أن أنظر فى آيات الكون ، وأرى أن لها موجداً ، أمّا التصور فبأنْ أتصور هذا الموجد : شكله ، اسمه ، صفاته .. إلخ وهذه لا تتأتى بالعقل ، إنما بالرسول الذى يأتى من قِبَل الإله الموجد .

وسبق أن ضربنا مثلاً ـ ولله تعالى المثل الأعلى ـ قلنا : لو أننا نجلس فى مكان مغلق ، وطرق الباب طارق ، فكلنا يتفق على أن طارقاً بالباب لا خلاف فى هذه ، لكن نختلف فى تصوُّره ، فواحد يتصور أنه رجل ، وآخر يقول : طفل ، وآخر يتصوَّره امرأة ، وواحد يتصوره بشيراً ، وآخر يتصوره نذيراً .. إلخ .

إذن : اتفقنا فى التعقُّل ، واختلفنا فى التصور ، ولكى نعرف مَن الطارق فعلينا أن نقول : من الطارق ؟ ليعلن هو عن نفسه ويخبرنا

مَنْ هو ؟ ولماذا جاء ؟ ويُنهى لنا هذا الخلاف .

كذلك الحق ـ تبارك وتعالى ـ هو الذى يخبرنا عن نفسه ، لكن كيف يتم ذلك ؟ من خلال رسول من البشر يستطيع أنْ يتجلى الله عليه بالخطاب ، بأن يكون مُعداً لتلقِّى هذا الخطاب ، لا أنْ يخاطب كل الناس .

وقد مثَّلْنا لذلك أيضاً (بلمبة) الكهرباء الصغيرة أو (الراديو) الذى لا يتحمل التيار المباشر ، بل يحتاج إلى (ترانس) أو منظم يعطيه الكهرباء على قَدْره وإلا حُرق ، فحتى فى الماديات لابد من قوى يستقبل ليعطى الضعيف .

والحق سبحانه يُعد من خَلْقه مَنْ يتلقى عنه ، ويُبلِّغ الناس ، فيكلم الله الملائكة ، والملائكة تكلم الرسل من البشر ؛ لذلك يقول سبحانه : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا .. (٥١) ﴾ [الشورى]

وإلا لو كلَّم الله جميع البشر ، فما الحاجة للرسل ؟ لذلك لما سُئل الإمام على رضى الله عنه : أعرفتَ ربك بمحمد ، أم عرفتَ محمداً بربك ؟ فقال : لو عرفتُ ربى بمحمد لكان محمد أوثقَ عندى من ربى ، ولو عرفتُ محمداً بربى ، فما الحاجة إذن للرسل ؟ لكن عرفتُ ربى بربى ، وجاء محمد ، فبلَّغنى مراد ربى منى . إذن : لا بُدَّ من هذه الواسطة .

والحق سبحانه يعطينا فى القرآن مثالاً يوضح هذه المسألة فى قوله تعالى عن سيدنا موسى : ﴿ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ .. (١٤٣) ﴾ [الأعراف] فبماذا أجابه ربه ؟ ﴿ قَالَ لَن تَرَانِي .. (١٤٣) ﴾ [الأعراف] ولم يقل سبحانه : أنا لا أُرَى ، والمعنى : لو أعددتُكَ الإعدادَ المناسب لهذه الرؤية لرأيتَ بدليل أننا سنُعَدُّ فى الآخرة على هيئة نرى فيها الله عز وجل : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣) ﴾ [القيامة]

وفى المقابل يقول عن الكفار الذين سيُحرمون هذه الرؤية : ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [المطففين]

ثم لما تجلى الحق سبحانه للجبل ، وهو الجنس الأقوى من موسى مادةً وصلابة اندكَّ الجبل ، ونظر موسى إلى الجبل المتجلَّى عليه فخرَّ صَعقاً ، فما بالك لو نظر إلى المتجلِّى سبحانه ؟

إذن : الحق سبحانه حينما يريد أنْ يخاطب أحداً من خَلْقه ، أو يتجلى عليه يُعدُّه لذلك ، ويُربِّيه على عينه ، كما قال عن موسى ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴿٣٩﴾ ﴾ [طه] وقال فى موضع آخر : ﴿ وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴿٤١﴾ ﴾ [طه] ثم يقوم هذا المربى الذى رباه الله بتربية الخَلْق .

وقد ربى محمد ﷺ أمته فى ثلاث وعشرين سنة ، ولو أن الله تعالى خاطب كل إنسان بالمنهج لاستغرقتْ تربية الناس وقتاً طويلاً ؛ لذلك يصطفى الله الرسل ، ويعطيهم من الخصائص ما يُمكِّنهم من تربية الأمم بعد أنْ ربَّاهم الله ، واصطنعهم على عينه .

إذن : كان ولا بُدَّ من إرسال الرسل للبلاغ عن الله : مَنْ هو ، ما اسمه ؟ ما صفاته ؟ ما مطلوباته ؟ ماذا أعدَّ لمن أطاعه ؟ وماذا أعد لمن عصاه .. إلخ . لذلك فأول دليل على بطلان الشرك أنْ تقول للذى يشرك الشمس أو القمر أو الأصنام مع الله فى العبادة : وماذا قالت لك هذه الأشياء ؟ ما مطلوباتها ؟ ما مرادها منك ؟ وإلا ، فلماذا تعبدها والعبادة فى أوضح معانيها : طاعة العابد لأمر المعبود ونهيه ؟

فإنْ قُلْتَ : إذن لماذا قَبِلَتْ عقول هؤلاء القوم أنْ يعبدوا هذه الأشياء ؟ نقول : لأن التديُّن طبيعة فى النفس البشرية ومركوز فى الفطرة التى فطر الله الناس عليها ، وسبق أنْ أوضحنا أن كلاً منا فيه ذرة حية من أبيه آدم ـ عليه السلام ـ لم يطرأ عليها الفناء ، وإلا لما وُجِد الإنسان ، وهذه الذرة فى كل منا هى التى شهدتْ الفطرة ،

وشهدتْ الخلقَ ، وشهدتْ العهد الذى أخذه الله علينا جميعاً ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ .. (١٧٢)﴾ [الأعراف]

فإنْ حافظتَ على إشراقية هذه الذرة فيك ، ولم تُعرِّضها لما يطمس نورها ـ ولا يكون ذلك إلا بالسير على منهج خالقك وبناء لبنات جسمك مما أحل الله ـ إنْ فعلتَ ذلك أنار الله وجهك وبصيرتك .

لذلك جاء فى الحديث أن العبد يشكو : يقول « دعوتُ فلم يُستجب لى ، لكن أنَّى يستجاب له ، ومطعمه من حرام ، ومشربه من حرام ، وملبسه من حرام؟ »[1] كيف وقد طمس الذرة النورانية فيه ، وغفل عن قانون صيانتها ؟ واقرأ قوله تعالى : ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَىٰ (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤)﴾ [طه]

فالمعيشة الضنك والعياذ بالله تأتى حين تنطمس النورانية الإيمانية ، وحين لا تحافظ على إشراقية هذه الذرة التى شهدتْ خَلْق الله ، وشهدتْ له بالربوبية ، ولو حافظت عليها لظلّتْ كل التعاليم واضحة أمامك ، وما غفلت عن منهج ربك هذه الغفلة التى جرَّتْ عليك المعيشة الضنك ، واقرأ قول الله تعالى : ﴿يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا .. (٢٩)﴾ [الأنفال] أى : نوراً يهديكم وتُفرِّقون به بين الحق والباطل .

والحق سبحانه يوضح لنا ما يطمس الفطرة الإيمانية ، وهما

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٠١٥) عن أبي هريرة قال قال ﷺ : « أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً ، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين ، فقال : ﴿يَـٰأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٥١)﴾ [المؤمنون] وقال ﴿يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ .. (١٧٢)﴾ [البقرة] ، ثم ذكر الرجل يطيل السفر ، أشعث أغبر ، يمد يديه إلى السماء ، يا رب ، يا رب ومطعمه حرام ، ومشربه حرام وملبسه حرام ، وغذى بالحرام ، فأنى يُستجاب لذلك ؟ » .

أمران : الغفلة والتى قال الله عنها : ﴿أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢)﴾ [الأعراف] والقدوة التى قال الله عنها : ﴿إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ .. (١٧٣)﴾ [الأعراف]

فالذى يطمس الفطرة الإيمانية الغفلة عن المنهج ، هذه الغفلة تُوجد جيلاً لا يتمسك بمنهج الحق ، وبذلك تكون العقبة فى الجيل الأول الغفلة ، لكن فى الأجيال اللاحقة الغفلة والقدوة السيئة ، وهكذا كلما تنقضى الأجيال تزداد الغفلة ، وتزداد القدوة السيئة ؛ لذلك يوالى الحق سبحانه إرسال الرسل ليزيح عن الخَلْق هذه الغفلة ، وليوجد لهم من جديد قدوةً حسنة ، ليقارنوا بين منهج الحق ومنهج الخَلْق .

فمَنْ أراد أنْ يجادل فى الله فليجادل بعلم وبهدى وبكتاب منير مُنزَّل من عند الله ، ووَصْف الكتاب بأنه منير يدلُّنا على أن الكتاب المنسوب إلى الله تعالى لا بُدَّ أن يكون منيراً ؛ لكنه قد يفقد هذا النور بما يطرأ عليه من تحريف وتبديل ونسيان وكتمان .. إلخ .

وقد أوضح الله تعالى هذه المراحل فى قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ .. (٤٤)﴾ [الأنعام]

ثم : ﴿يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ .. (١٥٩)﴾ [البقرة]

وإن كان الإنسان يُعذَر فى النسيان ، فلا يُعذَر فى الكتمان ، ثم الذى نجا من النسيان ومن الكتمان وقع فى التحريف ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ .. (١٣)﴾ [المائدة] ولَيْتهم اقتصروا على ذلك ، إنما اختلقوا من عند أنفسهم كلاماً ، ثم نسبوه إلى الله : ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ .. (٧٩)﴾ [البقرة] فأنواع الطمس هذه أربعة ظهرت كلها فى اليهود .

إذن : فالكتب التى بأيديهم لا تصلح للجدل فى الله ؛ لأنها تفقد العلم والحجة والهدى ، ولا تُعَدُّ من الكتاب المنير المشرق الذى يخلو من التضبيبات والفجوات ، فجوات النسيان والكتمان ، والتحريف والاختلاق .

فمَنْ يريد أنْ يجادل فى الله فليجادل بناء على علم بدهىٍّ أو هدى استدلالى ، أو كتاب منير . والكتب المنزلَّة كثيرة ، منها صحف إبراهيم وموسى ، ومنها زُبُر[1] الأولين ، والزبور نزل على سيدنا داود ، والتوراة على موسى ، والإنجيل على عيسى - عليهم جميعاً السلام - وهذه كلها كتب من عند الله ، لكن هل طرأ عليها حالة عدم الإنارة ؟

نقول : نعم ، لأنها انطمست بشهوات البشر فيها وبأهوائهم التى شوَّهتها وأخرجتها عن الإشراقية والنورانية التى كانت لها ، وهذا نتيجة السلطة الزمنية وهى أقسى شىء فى تغيير المناهج .

هذه السلطة الزمنية هى التى منعتْ اليهود أن يؤمنوا برسول الله ، وهم يعلمون بعثته فى بلاد العرب ، ويعلمون موعده وأوصافه ، وأنه ﷺ خاتم الرسل ؛ لذلك يقول القرآن عنهم : ﴿ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ .. (٢٠) ﴾ [الأنعام]

ويقول عنهم : ﴿ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤٦) ﴾ [البقرة] لذلك ، سيدنا عبد الله بن سلام يقول عن سيدنا رسول الله : والله لقد عرفتُه حين رأيته كمعرفتى لابنى ، ومعرفتى لمحمد أشد[2] .

---

(١) الزُّبُر : جمع زبور ، وهو الكتاب . زَبَر الكتاب يزبره : كتبه فهو مزبور ، وزبور : أى مكتوب . [القاموس القويم ١/٢٨٣] .

(٢) يُروى عن عمر أنه قال لعبد الله بن سلام : أتعرف محمداً كما تعرف ولدك ؟ قال : نعم وأكثر ، نزل الأمين من السماء على الأمين فى الأرض بنعته فعرفته ، وإنى لا أدرى ما كان من أمه » ذكره ابن كثير فى تفسيره (١/١٩٤) .

ويحكى القرآن عن أهل الكتاب أنهم كانوا يستفتحون برسول الله على الكفار فيقولون لهم : لقد أظل زمان نبى جديد نسبقكم إليه ، ونقتلكم به قتل عاد وإرم[1] ﴿وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٨٩)﴾ [البقرة]

لماذا ؟ لأنهم يعلمون أنه سيسلبهم المكانة التى كانت لهم ، والريادة التى أخذوها فى العلم والاقتصاد والحرب .. إلخ ، لقد كانوا يُعِدُّون واحداً[2] منهم ليُنصِّبوه ملكاً عليهم فى المدينة ليلة هاجر إليها رسول الله ، فلما دخلها رسول الله لم تَعُد لأحد مكانة الريادة بعد رسول الله ، فرفض هذا الملك الجديد .

إذن : فكل الكتب السماوية لحقها التحريف والتغيير ، فلم يضمن لها الحق سبحانه الصيانات التى تحميها كما حمى القرآن ، وما ذاك إلا ليظهر شرف النبى الخاتم ، فالكتب السابقة للقرآن جاءت كتبَ أحكام ، ولم تكن معجزة فى ذاتها ، فالرسل السابقون كانت لهم معجزات منفصلة عن الكتب وعن المنهج ، فموسى عليه السلام معجزته : العصا واليد .. إلخ وكتابه ومنهجه التوراة ، وعيسى عليه السلام معجزته أنْ يُبرىء الأكمه والأبرص ويحيى الموتى بإذن الله وكتابه ومنهجه الإنجيل .

أما محمد ﷺ فمعجزته وكتابه ومنهجه هو القرآن ، فهو منهج

---

(١) ذكره ابن كثير فى تفسيره (١/١٢٤) نقلاً عن ابن إسحاق عن أشياخ من الأنصار .

(٢) هو عبد الله بن أُبىّ بن سلول . قال سعد بن عبادة لرسول الله ﷺ : إنا والله يا رسول الله ، لقد كنا قبل الذى خصنا الله به منك ، ومنَّ علينا بقدومك ، أردنا أن نعقد على رأس عبد الله بن أبىٍّ التاج . ونملكه علينا . [أورده البيهقى فى دلائل النبوة (٢/٥٠٠)] .

ومعجزة ستصاحب الزمان إلى أنْ تقوم الساعة ؛ لأن رسالته هى الرسالة الخاتمة ، فلا بُدَّ أن يكون كتابه ومعجزته كذلك فنقول : هذا محمد وهذه معجزته .

أما الرسالات السابقة فكانت المعجزة وقتية لمن رآها وعاصرها ، ولولا أن الله أخبرنا بها ما عرفنا عنها شيئاً ، وما صدَّقنا بها ، وسبق أنْ شبَّهناها بعود الكبريت الذى يشعل مرة واحدة رآه مَنْ رآه ، ثم يصبح خبراً ؛ لذلك لا نستطيع أن نقول مثلاً : هذا موسى عليه السلام وهذه معجزته ؛ لأننا لم نَرَ هذه المعجزة .

ولما كانت الكتب السابقة كتباً تحمل المنهج ، وليست معجزة فى ذاتها ترك الله تعالى حفظها لأهلها الذين آمنوا بها ، وهذا أمر تكليفى عُرْضة لأنْ يُطاع ، ولأنْ يُعصَى ، فكان منهم أنْ عصوا هذا الأمر فحدث تضبيب فى هذه الكتب .

يقول تعالى : ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ .. (٤٤)﴾ [المائدة]

وساعة تسمع الهمزة والسين والتاء ، فاعلم أنها للطلب : استحفظتُك كذا يعنى : طلبتُ منك حفْظه ، مثل : استفهمتُ يعنى طلبت الفهم ، واستخرجت ، واستوضحت .. إلخ .

فلما جُرِّب الخَلْق فى حفظ كلام الخالق فلم يؤدوا ، ولم يحفظوا ، تكفَّل الله سبحانه بذاته بحفظ القرآن ، وقال : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩)﴾ [الحجر]

لذلك ظلَّ القرآن كما نزل لم تَنَلْه يد التحريف أو الزيادة

أو النقصان ، وصدق الله تعالى حين قال فى أول سوره ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ .. ﴿٢﴾﴾ [البقرة] لا الآن ، ولا بعد ، ولا إلى قيام الساعة ، حتى أن أعداء القرآن أنفسهم قالوا : لا يوجد كتاب مُوثَّق فى التاريخ إلا القرآن .

والعجيب فى مسألة حفْظ القرآن أن الذى يحفظ شيئاً يحفظه ليكون حجة له ، لا حجة عليه ، كما تحفظ أنت الكمبيالة التى لك على خصمك ، أما الحق ـ سبحانه وتعالى ـ فقد ضمن حفْظ القرآن ، والقرآن ينبىء بأشياء ستوجد فيما بعد ، والحق سبحانه لا يحفظ هذا ويُسجِّله على نفسه ، إلا إذا ضمن صدْق وتحقُّق ما أخبر به وإلا لما حفظه ، إذن : فحفْظ الحق سبحانه للقرآن دليل على أنه لا يطرأ شىء فى الكون أبداً يناقض كلام الله فى القرآن : ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء]

وسبق أنْ قُلنا : إن القرآن حكم فى أشياء مستقبلية للخلق فيها اختيار ، فيأتى اختيار الخَلْق وفق ما حكم ، مع أنهم كافرون بالقرآن، مكذبون له ، ومع ذلك لم يحدث منهم إلا ما أخبر الله به ، وكان بإمكانهم أنْ يمتنعوا ، لكن هيهات فلا يتم فى كون الله إلا ما أراد .

لكن ، ماذا نفعل فيمَنْ يجادل فى الله بغير علم ولا هُدىً ولا كتاب منير ؟ نلفته إلى العلم ، وإلى الهدى ، وإلى الكتاب المنير .

ندعوهم إلى النظر فى الآيات الكونية ، وفى البدهيات التى تثبت وجود الخالق عز وجل ، ندعوهم إلى الهدى ، والاستدلال وإلى النظر فى المعجزة التى جاء بها رسول الله ، ألم يخبر وهو فى شدة الحصار الذى ضربه عليه وعلى آله كفار مكة حتى اضطروهم إلى أكل الميتة وأوراق الشجر .. إلخ.

ألم يُخبر القرآن فى هذه الأثناء بقوله تعالى : ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥)﴾ [القمر] حتى أن سيدنا عمر ليتعجب : أىُّ جمع هذا ؟ ونحن غير قادرين على حماية أنفسنا ؟ فلما جاء يوم بدر ورأى بعينه ما حاق بالكفار قال : صدق الله ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥)﴾ [القمر]

ألم يقل القرآن عن الوليد بن المغيرة[١] ﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ (١٦)﴾ [القلم] وفعلاً ، لم يعرفوا الوليد يوم بدر بين القتلى إلا بضربة على خرطومه[٢] . ألم يُشِرْ رسول الله قبل المعركة إلى مصارع القوم ، فيقول وهو يشير إلى مكان بعينه : هذا مصرع فلان ، وهذا مصرع فلان[٣] ، ثم تأتى المعركة ويُقتل هؤلاء فى نفس الأماكن التى أشار إليها سيدنا رسول الله ﷺ .

والحق سبحانه أعطانا فى القرآن أشياء تدل على أنه كتاب يُنوِّر لنا الماضى ، ويُنوِّر لنا الحاضر والمستقبل . وسبق أنْ قُلْنا : إن

---

(١) قال ابن حجر فى الفتح (٦٦٢/٨) : « اختلف فى الذى نزلت فيه ، فقيل هو الوليد بن المغيرة وذكره يحى بن سلام فى تفسيره ، وقيل : الأسود بن عبد يغوث ذكره سنيد بن داود فى تفسيره ، وقيل : الأخنس بن شريق وذكره السهيلى عن القتيبى » .

(٢) عن ابن عباس فى قوله ﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ (١٣)﴾ [القلم] قال : رجل من قريش كانت له زنمة زائدة مثل زنمة الشاة يعرف بها . قال السيوطى فى الدر المنثور (٢٤٩/٨) : « أخرجه البخارى والنسائى وابن أبى حاتم وابن مردويه وأبو نعيم » وعن ابن عباس أيضاً فى قوله ﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ (١٦)﴾ [القلم] : قاتل يوم بدر فخطم بالسيف فى القتال . ولم يذكر أنه الوليد بن المغيرة .

(٣) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٧٧٩) من حديث أنس رضى الله عنه ، وأحمد فى مسنده (٢١٩/٣ ، ٢٥٨) أن رسول الله ﷺ قال : « هذا مصرع فلان » ويضع يده على الأرض هاهنا وهاهنا ، قال : فما ماط أحدهم عن موضع يد رسول الله ﷺ .

الغيب دونه حجب الزمان ، أو حجب المكان ، فما سبقك من أحداث يحجبها عنك حجاب الزمان الماضى ، وما سيحدث فى المستقبل يحجبه عنك حجاب الزمان المستقبل ، أما الحاضر الذى تعيشه فيحجبه عنك المكان ، بل وقد تكون فى نفس المكان وتجلس معى ، لكنك لا تعرف ما فى صدرى مثلاً .

وكل هذه الحجب خرقها الحق سبحانه لرسوله ﷺ ، فمثلاً فى غزوة مؤتة[1] لما بعث النبى ﷺ جيشه إليها ، وبقى هو فى المدينة قال : حين وزَّع القيادة : يحمل الراية فلان ، فإذا قُتِل يحملها فلان ، فإذا قُتِل يحملها فلان وسمَّى هؤلاء الثلاثة ، ثم قال : فإذا قُتِل الثالث فاختاروا من بينكم مَنْ يحملها[2] .

وجلس النبى ﷺ بين أصحابه فى المدينة ، وأخذ يصف لهم المعركة وصفاً تفصيلياً ، فلما عاد الجيش من مؤتة وجدوا واقع المعركة وفق ما أخبر به النبى ﷺ وهو فى المدينة .

وقد نبهتنا هذه المسألة إلى السر فى تسمية مؤتة (غزوة) وكانوا لا يقولون غزوة إلا للتى شهدها رسول الله بنفسه ، أما التى لا يخرج فيها فتسمّى (سرية) فلما أخبر ﷺ بما يدور فى المعركة مع بُعد المسافات اعتبرها المسلمون غزوة .

بل وأبلغ من ذلك ، فالحق سبحانه كشف لرسوله ﷺ ما يدور

---

(١) وقعت غزوة مؤتة فى جمادى الأولى عام ٨ هجرية ، ومؤتة : قرية من أرض البلقاء من الشام ، وتسمى أيضاً غزوة جيش الأمراء ، وقد كانت غزوة شديدة ، استشهد فيها جعفر ابن أبى طالب ، وزيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة ، قاتلوا فيها الروم .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٢٦٢) ، والبيهقى فى دلائل النبوة (٣٦٦/٤) وفيه أن رسول الله ﷺ نعاهم قبل أن يجىء الخبر .

فى نفوس قومه[1] : ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ .. (٨)﴾ [المجادلة]

هذه كلها من آيات الإنارة فى القرآن التى استوعبتْ الماضى والحاضر والمستقبل .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ (٢١)﴾

كلمة ﴿مَا أَنزَلَ اللَّهُ .. (٢١)﴾ [لقمان] عامة تشمل كل الكتب المنزَّلة ، وأقرب شىء فى معناها أن نقول : اتبعوا ما أنزل الله على رسلكم الذين آمنتم بهم ، ولو فعلتم ذلك لَسلَّمتم بصدق رسول الله وأقررتم برسالته .

أو : يكون المعنى ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ .. (٢١)﴾ [لقمان] أى : تصحيحاً للأوضاع ، واعرضوه على عقولكم وتأملوه .

لكن يأتى ردهم : (بَلْ) وبل تفيد إضرابهم عما أنزل الله ﴿نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا .. (٢١)﴾ [لقمان] وفى آية أخرى ﴿قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا .. (١٧٠)﴾ [البقرة]

---

(١) قال ابن كثير فى تفسير هذه الآية (٤/٣٢٣) : أى يفعلون هذا ويقولون ما يحرفون من الكلام وإيهام السلام وإنما هو شتم فى الباطن ومع هذا يقولون فى أنفسهم : لو كان هذا نبياً لعذبنا الله بما نقول له فى الباطن لأن الله يعلم ما نسره ، فلو كان هذا نبياً حقاً لأوشك أن يعاجلنا الله بالعقوبة فى الدنيا فقال الله تعالى : ﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٨)﴾ [المجادلة] .

فما الفرق بين (وجدنا) و (ألفينا) وهما بمعنى واحد ؟ قالوا: لأن أعمار المخاطبين مختلفة فى صُحْبة آبائهم والتأثر بهم ، فبعضهم عاش مع آبائه يُقلِّدهم فترة قصيرة ، وبعضهم عاصر الآباء فترة طويلة حتى أَلف ما هم عليه وعشقه ؛ لذلك قال القرآن مرة (أَلْفَيْنَا) ومرة (وَجَدْنَا) .

والاختلاف الثانى نلحظه فى اختلاف تذييل الآيتين ، فمرة يقول : ﴿ أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ (١٧٠) ﴾ [البقرة] ومرة أخرى يقول : ﴿ أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ (١٠٤) ﴾ [المائدة]

فما الفرق بين : يعقلون ويعلمون ؟

الذى يعقل هو الذى يستطيع بعقله أنْ يستنبط الأشياء ، فإذا لم يكن لديه العقل الاستنباطى عرف المسألة ممَّنْ يستنبطها ، وعليه فالعلم أوسع دائرة من العقل ؛ لأن العقل يعلم ما عقله ، أما العلم فيعلم ما عقله هو وما عقله غيره ، فقوله (يَعْلَمُونَ) تشمل أيضاً (يَعْقِلُونَ) .

إذن : إذا نُفى العقل لا يُنْفى العلم ؛ لأن غيرك يستنبط لك فالرجل الريفى البسيط يستطيع أن يدير التلفزيون مثلاً ويستفيد به ويتجول بين قنواته ، وهو لا يعرف شيئاً عن طبيعة عمل هذا الجهاز الذى بين يديه ، إنما تعلَّمه من الذى يعلمه ، فالإنسان يعلم ما يعقله بذاته ، ويعلم ما يعقله غيره ، ويؤديه إليه ؛ لذلك فنَفْى العلم دليل على الجهل المطبق الذى لا أملَ معه فى إصلاح الحال .

ونلحظ أيضاً أن القرآن يقول هنا : ﴿ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا .. (٢١) ﴾ [لقمان] ، وفى موضع آخر يقول : ﴿ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا .. (١٠٤) ﴾ [المائدة] فقولهم : نتبع ما وجدنا عليه آباءنا

فيه دلالة على إمكانية اتباعهم للحق ، فالإنكار هنا بسيط ، أما الذين قالوا ﴿حَسْبُنَا.. (١٠٤)﴾ [المائدة] يعنى : يكفينا ولا نريد غيره ، فهو دلالة على شدة الإنكار ؛ لذلك فى الأولى نفى عنهم العقل ، أما فى الأخرى فنفى عنهم العلم ، فعَجُز الآيات يأتى مناسباً لصدرها .

وهنا يقول تعالى فى تذييل هذه الآية ﴿أَوَ لَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ (٢١)﴾ [لقمان] لأن آباءهم ما ذهبوا إلى ما ذهبوا إليه من عبادة الأصنام والكفر بالله إلا بوسوسة الشيطان ، فالشيطان قَدْر مشترك بينهم وبين آبائهم .

وهذا يدلنا على أن منافذ الإغواء مرة تأتى من النفس ، ومرة تأتى من الشيطان ، وبهما يُطمس نور الإيمان ونور المنهج فى نفس المؤمن .

وسبق أنْ بينَّا أنك تستطيع أن تفرق بين المعصية التى تأتيك من قِبَل الشيطان ، والتى تأتيك من قِبَل نفسك ، فالشيطان يريدك عاصياً على أىِّ وجه من الوجوه ، فإذا تأبيْتَ عليه فى ناحية نقلك إلى ناحية أخرى .

أما النفس فتريد معصية بعينها تقف عندها لا تتحول عنها ، فالنفس تميل إلى شىء بعينه ، ويصعب عليها أنْ تتوبَ منه ، ولكل نفس نقطة ضعف أو شهوة تفضلها ؛ لذلك بعض الناس لديهم كما قلنا (طفاشات) للنفوس ؛ لأنهم بالممارسة والتجربة يعرفون نقطة الضعف فى الإنسان ويصلون إليه من خلالها ، فهذا مدخله كذا ، وهذا مدخله كذا .

لكن نرى الكثيرين ممن يقعون فى المعصية يُلْقون بالتبعة على

الشيطان ، فيقول الواحد منهم : لقد أغوانى الشيطان ، ولا يتهم نفسه ، وهذا يكذّبه الحديث النبوى فى رمضان :

« إذا جاء رمضان فُتحت أبواب الجنة ، وغُلِّقت أبواب النار ، وصُفِّدت الشياطين »[1] .

فلو أن المعاصى كلها من قِبَل الشيطان ما رأينا معصية فى رمضان ، ولا ارتكبت فيه جريمة ، أما وتقع فيه المعاصى وتُرتكب الجرائم ، فلا بُدَّ أن لها سبباً آخر غير الشيطان ؛ لأن الشياطين مُصفَّدة فيه مقيدة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ ﴾

يعنى : مَنْ أراد أن يُخلِّص نفسه من الجدل بغير علم ، وبغير هدى ، وبغير كتاب منير ، فعليه أنْ يُسلم وجهه إلى الله ؛ لأن الله تعالى قال فى آية أخرى : ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) ﴾ [ص] ثم استثنى منهم ﴿ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٤٠) ﴾ [الحجر]

وقال سبحانه : ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ .. (٦٥) ﴾ [الإسراء]

ومعنى ﴿ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ .. (٢٢) ﴾ [لقمان] أخلص وجهه فى

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٠٧٩) ، والإمام أحمد فى مسنده (٣٥٧/٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

عبادته لله وحده ، وبذلك يكون فى معية الله ، ومَنْ كان فى معية ربه فلا يجرؤ الشيطان على غوايته ، ولا يُضيع وقته معه ، إنما ينصرف عنه إلى غافل يستطيع الدخول إليه ، فالذى ينجيك من الشيطان أنْ تُسلِم وجهك لله .

وقد ضربنا لذلك مثلاً بالولد الصغير حينما يسير فى صحبة أبيه فلا يجرؤ أحد من الصبيان أن يعتدى عليه ، أما إنْ سار بمفرده فهو عُرْضة لذلك ، لا يَسْلم منه بحال ، كذلك العبد إنِ انفلتَ من يد الله ومعيته .

وهذا المعنى ورد أيضاً فى قوله سبحانه : ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ .. (١١٢)﴾ [البقرة] وهنا قال ﴿إِلَى اللَّهِ.. (٢٢)﴾ [لقمان] فما الفرق بين حرفى الجر : إلى ، اللام ؟

استعمال (إلى) تدل على أن الله تعالى هو الغاية ، والغاية لا بُدَّ لها من طريق للهداية يُوصِّل إليها . أمَّا (اللام) فتعنى الوَصْل لله مباشرة دون قطع طريق ، وهذا الوصول المباشر لا يكون إلا بدرجة عالية من الإخلاص لله .

فقوله تعالى : ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ .. (٢٢)﴾ [لقمان] يعنى : أنك على الطريق الموصِّل إلى الله تعالى ، وأنك تؤدى ما افترضه عليك .

ومن إسلام الوجه لله قَوْل ملكة سبأ : ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٤)﴾ [النمل] الكلام هنا كلام ملكة ، فلم تقل : أسلمتُ لسليمان ، لكن مع سليمان لله ، فلا غضاضة إذن .

وإسلام الوجه لله ، أو إخلاص العمل لله تعالى عملية دقيقة تحتاج

من العبد إلى قدر كبير من المجاهدة ؛ لأن النفس لا تخلو من هفوة ، وكثيراً ما يبدأ الإنسان العمل مخلصاً لله ، لكن سرعان ما تتدخل النفس بما لها من حب الصِّيت والسمعة ، فيخالط العملَ شيء من الرياء ولو كان يسيراً .

لذلك ؛ فإن سيدنا رسول الله ﷺ يتحمل عنا هذه المسألة ويطمئن المسلم على عمله ، فيقول فى دعائه : « اللهم إنى أستغفرك من كل عمل أردتُ به وجهك ، فخالطنى فيه ما ليس لك »[(١)] .

والنبى ﷺ ليس مظنة ذلك ، لكن الحق سبحانه علَّمه أن يتحمل عن أمته كما تحمَّل الله عنه فى قوله تعالى : ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ .. (٣٣)﴾ [الأنعام] أى : أنك أسمى عندهم من أن تكون كاذباً .

﴿وَلَـٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٣٣)﴾ [الأنعام]

وقوله تعالى : ﴿فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ .. (٢٢)﴾ [لقمان] كلمة استمسك تدلُّ على القوة فى الفعل والتشبُّث بالشيء ؛ كما نقول (تبِّت فيه) ، وهى تعنى : طلب أنْ يمسك ؛ لذلك لم يَقُل مسَك إنما (استمسك) .

وأول مظاهر الاستمساك أنك لا تطمئن إلى ضعف نفسك ، فيكون تمسكك بالعروة الوثقى أشدّ ، كما لو أنك ستنزل من مكان عالٍ على حبل مثلاً فتتشبث به بشدة ؛ لأنك إنْ تهاونت فى الاستمساك به

---

(١) قال سفيان بن عيينة : كان من دعاء مطرف بن عبد الله : « اللهم إنى أستغفرك مما تبت إليك منه ، ثم عدت فيه ، وأستغفرك مما جعلته لك على نفسى ، ثم لم أفِ لك به ، وأستغفرك مما زعمت أنى أردت به وجهك ، فخالط قلبى منه ما قد علمت » ذكره ابن رجب الحنبلى فى جامع العلوم والحكم (ص ٢٧) وانظر حلية الأولياء (٢/٢٠٧) .

سقطت ، وهذا دليل على ثقتك بضعف نفسك ، وأنه لا يُنجيك من الهلاك ، ولا واقىَ لك إلا أنْ تستمسك بهذا الحبل .

كذلك الذى يُسْلِم وجهه لله ويُمسِك بالعروة الوثقى ، فليس له إلا هذه مُنْجية وواقية .

وكلمة ﴿بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ ..(٢٢)﴾ [لقمان] العروة : هى اليد التى نمسك بها الكوز أو الكوب أو الإبريق ، وهى التى تفرق بين الكوب والكأس ، فالكأس لا عروة لها ، إلا إذا شُرب فيها الشراب الساخن ، فيجعلون لها يداً .

ومعنى ﴿الْوُثْقَىٰ ..(٢٢)﴾ [لقمان] أى : المحكمة ، وهى تأنيث أوثق ، نقول : هذا أوثق ، وهذه وُثْقى ، مثل أصغر وصُغْرى ، وهى تعنى الشىء المرتبط ارتباطاً وثيقاً بأصله ، فإنْ كان دَلْواً فهى وُثْقى بالدلو ، وإنْ كان كوباً فهى وُثْقى بالكوب ، فهى الموثقة التى لا تنقطع ، ولا تنفصل عن أصلها .

والعُرْوة تختلف باختلاف الموثَّق ، فإنْ صنع العروة صانع غاشٌّ ، جاءت ضعيفة هشَّة ، بمجرد أنْ تمسك بها تنخلع فى يدك ، وهذا ما نسميه « الغش التجارى » وهو احتيال لتكون السلعة رخيصة يقبل عليها المشترى ، ثم يكون المعوِّض فى ارتفاع قطع الغيار ، كما نرى فى السيارات مثلاً ، فترى السيارة رخيصة وتنظر إلى ثمن قطع الغيار تجده مرتفعاً .

إذن : إرادة عدم التوثيق لها مقصد عند المنتفع ، فإذا كان الموثِّق هو الله تعالى فليس أوثق من عُرْوته .

وفى موضع آخر يقول الحق عنها ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا

تَفَرَّقُوا .. (١٠٣) ﴾ [آل عمران] فالعروة الوُثْقى هى حبل الله المتين الذى يجمعنا فلا نتفرق ؛ لذلك فى الاصطلاح نسمى الفتحة فى الثوب والتى يدخل فيها الأزرار (عروة) لماذا ؟ لأنها هى التى تجمع الثوب ، فلا يتفرق .

وفى آية أخرى وصفَ العروة الوثقى بقوله سبحانه : ﴿ لا انفِصَامَ لَهَا .. (٢٥٦) ﴾ [البقرة]

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ (٢٢) ﴾ [لقمان] أى : مرجعها ، فلا نظن أن الله تعالى خلقنا عبثاً ، أو أنه سبحانه يتركنا سُدًى : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ (١١٥) ﴾ [المؤمنون] . ولو تركنا الله تعالى بلا حساب لكان المنحرف الذى أعطى لنفسه شهواتها فى الدنيا أوفر حظاً من المستقيم ، وما كان الله تعالى ليغشَّ عبده الذى آمن به ، وسار على منهجه ، أو يسلمه للظلمة والمنحرفين .

وإذا كانت لله تعالى عاقبة الأمور أى : فى الآخرة ، فإنه سبحانه يترك لنا شيئاً من ذلك فى الدنيا نصنعه بذواتنا لتستقيم بنا مسيرة الحياة وتثمر حركتها ، ومن ذلك مثلاً ما نجريه من الامتحانات للطلاب آخر العام لنميز المجدّ من الخامل ، وإلا تساوى الجميع ولم يذاكر أحد ، ولم يتفوق أحد ؛ لذلك لابُدَّ من مبدأ الثواب والعقاب لتستقيم حركة الحياة ، فإذا كنا نُجرى هذا المبدأ فى دنيانا ، فلماذا نستنكره فى الآخرة ؟

فهل يليق بهذا العالَم الذى خلقه الله على هذه الدقة ؛ وكوَّنه بهذه الحكمة أن يتركه هكذا هَملاً يستشرى فيه الفساد ، ويرتع فيه المفسدون ، ثم لا يُحاسبون ؟ إن كانت هذه هى العاقبة ، فيا خسارة كل مؤمن ، وكل مستقيم فى الدنيا .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ ﴾

بعد أن بيَّن الحق سبحانه أن إليه مرجع كل شىء ونهاية الأمور كلها ، أراد أن يُسلِّى رسوله ﷺ فقال : ﴿ وَمَن كَفَرَ .. ﴿٢٣﴾ ﴾ [لقمان] أى : بعدما قلناه من الجدل بالعلم وبالهدى وبالكتاب المنير ، وبعدما بيناه من ضرورة إسلام الوجه لله ، مَنْ يكفر بعد ذلك ﴿ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ .. ﴿٢٣﴾ ﴾ [لقمان]

وهذا القول من الله تعالى لرسوله ﷺ يدل على أن الله علم أن رسوله يحب أن تكون أمته كلها مؤمنة ، وأنه يحزن لكفر من كفر منهم ويؤلمه ذلك ، وقد كرر القرآن هذا المعنى فى عدة مواضع ، منها قوله تعالى : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ ﴾ [الكهف] ويقول : ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ ﴾ [الشعراء]

فالله تعالى يريد أنْ يقول لرسوله : أنا أرسلتُك للبلاغ فحسب ، فإذا بلَّغْت فلا عليك بعد ذلك ، وكثيراً ما تجد فى القرآن عتاباً لرسول الله فى هذه المسألة ، وهو عتاب لصالحه لا عليه ، كما تعاتب ولدك الذى أجهد نفسه فى المذاكرة خوفاً عليه .

ومن ذلك قوله تعالى معاتباً نبيه ﷺ : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ الْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ ﴾ [عبس]

والعتاب هنا لأن رسول الله ﷺ ترك الرجل المؤمن الذى جاءه يستفهم عن أمور دينه ، وذهب يدعو الكفار والمكذِّبين به ، فكأنه اختار الصعب الشاق وترك السهل اليسير ، إذن : فالعتاب هنا عتاب لصالح الرسول لا ضده ، كما يظن البعض فى فهمهم لهذه الآيات .

كذلك الأمر فى قوله تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ .. (١) ﴾ [التحريم] فالله يعاتب رسوله لأنه ضيَّق على نفسه ، فحرَّم عليها ما أحله الله لها[1] .

ثم يقول سبحانه : ﴿ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ .. (٢٣) ﴾ [لقمان] يعنى : إذا لم تَرَ فيهم عاقبة كفرهم ، وما ينزل بهم فى الدنيا ، فسوف يرجعون إلينا ونحاسبهم فى الآخرة ، كما قال سبحانه فى موضع آخر : ﴿ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ .. (٧٧) ﴾ [غافر] أى : ترى بعينك ما ينزل بهم من العقاب ﴿ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٧٧) ﴾ [غافر]

إذن ﴿ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ .. (٢٣) ﴾ [لقمان] هذه هى الغاية النهائية ، وهذه لا تمنع أن نُرِيَك فيهم أشياء تُظهر عزتك وانتصارك عليهم وانكسارهم وذلَّتهم أمامك ، وهذا ما حدث يوم الفتح يوم أنْ دخل النبى مكة منتصراً ومتواضعاً يطأطىء رأسه[2] بأدب وتواضع ؛ لأنه

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٤/٣٨٦) : « اختلف فى سبب نزول صدر هذه السورة (التحريم) فقيل : نزلت فى شأن مارية ، فعن أنس أن رسول الله ﷺ كانت له أمة يطؤها فلم تزل به عائشة وحفصة حتى حرمها . والصحيح أن ذلك كان فى تحريمه العسل ، فعن عائشة قالت : كان النبى ﷺ يشرب عسلاً عند زينب بنت جحش ، ويمكث عندها فتواطأت أنا وحفصة على أيتنا دخل عليها فلتقل له : أكلت مغافير فقال : لن أعود له ولا تخبرى بذلك أحداً » أ هـ بتصرف .

(٢) يذكر ابن هشام فى السيرة النبوية (٤/٤٠٥) « أن رسول الله ﷺ لما انتهى إلى ذى طوى وقف على راحلته معتجراً بشقة برد حبرة حمراء ، (أى : أنه كان متعمماً بنصف برد من برود اليمن ، عمامة بغير ذؤابة) ، وإن رسول الله ﷺ ليضع رأسه تواضعاً لله حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح ، حتى إن عثنونه ليكاد يمسّ واسطة الرحل » . والعثنون : هو ما نبت على الذقن وتحته سفلاً . وقيل : هو طولها وما تحتها من شعرها .

يعلم أن النصر من الله ، وكأنه ﷺ يقول لأهل مكة : لقد كنتم تريدون الملْك لتتكبروا به ، وأنا أريده لأتواضع به ، وهذا هو الفرق بين عزَّة المؤمن وعزّة الكافر .

لذلك لما تمكن رسول الله من رقابهم - بعد أنْ فعلوا به ما فعلوا - جمعهم وقال قولته المشهورة : « يا معشر قريش ما تظنون أنى فاعل بكم ؟» قالوا : خيراً ، أخ كريم ، وابن أخ كريم ، قال : « اذهبوا فأنتم الطلقاء »[1] .

ولك أنْ تلحظ تحوُّل الأسلوب من صيغة الإفراد فى ﴿وَمَن كَفَرَ فَلا يَحْزُنكَ .. (٢٣)﴾ [لقمان] إلى صيغة الجمع فى ﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ .. (٢٣)﴾ [لقمان] ولم يقل : إلىَّ مرجعه ؛ لأن مَنْ فى اللغة تقوم مقام الأسماء الموصولة كلها ، فإنْ أردتَ لفظها فأفردها ، وإن أردتَ معناها فاجمعه .

وقوله تعالى : ﴿فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا .. (٢٣)﴾ [لقمان] لأننا نُسجِّله عليهم ونحصيه ، كما قال سبحانه : ﴿أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ .. (٦)﴾ [المجادلة] ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٢٣)﴾ [لقمان] أى : بنات الصدر ومكنوناته يعلمها الله ، حتى قبل أنْ تُترجم إلى نزوع سلوكى عملى أو قَوْلى ، فالله يعلم ما يختلج فى صدورهم من حقد أو غلٍّ أو حسد أو تآمر .

و ﴿عَلِيمٌ .. (١١٩)﴾ [آل عمران] صيغة مبالغة من العلم ، وفَرْق بين عالم وعليم : عالم : ذاتٌ ثبت لها العلم ، أما عليم فذات علْمها ذاتى ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ (٧٦)﴾ [يوسف]

---

(١) ذكره ابن هشام فى السيرة النبوية (٤/٤١٢) أن رسول الله ﷺ قال بعد أن فتح الله عليه مكة : يا معشر قريش ، ما ترون أنى فاعل فيكم ؟ قالوا : خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم ، قال : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾ ﴾

الحق سبحانه يُبيِّن لكل مؤمن ألاَّ يغتر بحال الكفار حين يراهم فى حال رَغَد من العيش ، وسعة وعافية وتمكُّن ؛ لأن ذلك كله متاع قليل ، والحق سبحانه يريد من أتباع الأنبياء أنْ يدخلوا الدين على أنه تضحية لا مغنم .

وسبق أن أوضحنا أنك تستطيع أن تُفرِّق بين مبدأ الحق ومبدأ الباطل بشىء واحد ، هو استهلال الاثنين ، فالداخل فى مبدأ الحق مستعد لأنْ يُضحِّى ، والداخل فى مبدأ الباطل ينتظر أنْ يأخذ المقابل ؛ لذلك ضحَّى المسلمون الأوائل فى سبيل دينهم بالأنفس والأموال ، وتركوا بلادهم وأبناءهم لماذا ؟ لأنهم مُكلَّفون بأداء مهمة إنسانية عالمية ، لا يحملها إلا مَنْ كان مستعداً للعطاء ، أما أصحاب الدعوات الباطلة كالشيوعية وغيرها فلا بُدَّ أنْ يأخذوا أولاً .

لذلك رُوِى أن صحابياً حين سمع من رسول الله ﷺ البشرى بالجنة ، وأنه ليس بينه وبينها إلا أنْ يحارب فيُقتل ألقى تمرات كانت فى يده[1] ، ولم ينتظر حتى يمضغها ، وأسرع إلى المعركة مُبتغياً الشهادة وطامعاً فيما عند الله ، وقد سُمع منهم فى ساحة القتال أنْ ينادى أحدهم : هُبِّى يا رياحَ الجنة ، وآخر يقول : إنى لأجد ريح

---

(١) عن جابر بن عبد الله قال : قال رجل للنبى ﷺ يوم أُحُد : أرأيت إن قتلت فأين أنا ؟ قال : فى الجنة . فألقى تمرات فى يده ، ثم قاتل حتى قُتِل . أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٠٤٦) .

الجنة دون أُحُد[١] .

فقوله تعالى : ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٢٤)﴾ [لقمان] هذا التمتُّع بزينة الحياة الدنيا ما هو إلا استدراج لهم لا تكريم ، وقلنا : إنك لا تلقى بعدوك من على الحصيرة مثلاً ، إنما تعليه وترفعه ليكون أَخْذه أليماً وشديداً ، كذلك الحق سبحانه يُمتِّعهم ، لكن لفترة محدودة لتكون حسرتهم أعظم إذا ما أخذهم من هذا النعيم .

واقرأ في هذا المعنى قول الله تعالى : ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ (٤٤)﴾ [الأنعام] أى : يائسون .

وكلمة الفتح لا تؤدى نفعاً إلا إذا جاءت معرفة (الفتح) وقلنا : هناك فرق بين فتح لك وفتح عليك ، فتح لك أى : لصالحك ، أمّا فتح عليك أى : أعطاك الدنيا لتكون حِمْلاً فوق رأسك .

إذن : فإذا رأيتَ لهم هذا الفتح فلا تغترّ به ، واعلم أنهم نَسُوا ما ذُكِّروا به . وقد ورد فى الأثر أن الله تعالى إذا غضب من المرء رزقه من الحرام ، فإذا اشتد غضبه عليه بارك له فيه .

ذلك ليظل فى سَعَة ورَغَد عيش وعُلو مكان ، حتى إذا أخذه الله آلمه الأخذ واشتد عليه ، فأخْذُ الكافر وهو فى أَوْج قوته وجبروته يدل

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٨٠٥) من حديث أنس بن مالك قال : غاب عمى أنس بن النضر عن قتال بدر فقال : يا رسول الله غبت عن أول قتال قاتلت فيه المشركين ، لئن الله أشهدنى قتال المشركين ليرين الله ما أصنع ، فلما كان يوم أحد وانكشف المسلمون قال : اللهم إنى أعتذر إليك مما صنع هؤلاء يعنى أصحابه وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء يعنى المشركين . ثم تقدم فاستقبله سعد بن معاذ ، فقال : يا سعد بن معاذ ، الجنة ورب النضر ، إنى أجد ريحها من دون أحد » الحديث .

على قوة الأَخْذ وقدرته ، أما الضعيف فلا مزيّة فى أَخْذه ، كالذى يريد أنْ يحطم الرقم القياسى مثلاً ، فإنه يعمد إلى أعلى الأرقام فيحطمها ليثبت جدارته .

ومن ذلك أيضاً نرى أن القرآن لما أراد التحدى ببلاغته وفصاحته تحدَّى العرب ، وهم أهل الفصاحة والبلاغة وفن الأداء البيانى ، ولا معنى لأنْ يتحدى عَيّياً لا يقدر على الكلام .

ومعنى ﴿ نَضْطَرُّهُمْ .. (٢٤) ﴾ [لقمان] نلجئهم أى : نُضيِّق عليهم الخناق ، بحيث لا يجدون إلا العذابَ الغليظ ، أو : أن فترة الحساب وما قبل العذاب أشدّ من العذاب نفسه ، كما جاء فى الحديث من « أن الشمس تدنو من الرؤوس ، حتى ليتمنى الناسُ الانصرافَ ولو إلى النار »[(١)] .

ووصف العذاب هنا بأنه ﴿ غَلِيظٍ (٢٤) ﴾ [لقمان] والغلظ يعنى السُّمْك ، فالمعنى أنه عذاب كبير يصعب قلقلة النفس منه ، فلو كان رقيقاً لربما أمكن الإفلات منه .

ثم يعود السياق إليهم :

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٢٥) ﴾

---

(١) فى صحيح مسلم من حديث المقداد بن الأسود قال : سمعت النبى ﷺ يقول : « تدنى الشمس يوم القيامة من الخلق حتى تكون منهم كمقدار ميل ، فيكون الناس على قدر أعمالهم فى العرق ، فمنهم من يكون إلى كعبيه ، ومنهم من يكون إلى ركبتيه ، ومنهم من يكون إلى حقويه ، ومنهم من يلجمه إلجاماً »» التذكرة للقرطبى ص ٢٧٤ .

هذا إفحام لهم ، حيث شهدوا بأنفسهم أن الله تعالى هو خالق السموات والأرض ، وتعجب بعد ذلك لأنهم ينصرفون عن عبادة الخالق سبحانه إلى عبادة مَنْ لا يخلق ولا يرى ولا يسمع .

لذلك بعد هذه الشهادة منهم ، وبعد أنْ قالوا (الله) يُتبعها الحق سبحانه بقول ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ .. (٢٥)﴾ [لقمان] أى : الحمد لله ؛ لأنهم أقروا على أنفسهم ، ونحن فى معاملاتنا نفعل مثل هذا ، فحين يعترف لك خَصْمك تقول : الحمد لله .

وهذه الكلمة تُقال تعليقاً على أشياء كثيرة ، فحين يعترف لك الخَصْم بما تريد تقول : الحمد لله ، وحين يُخلِّصك الله من أذى أحد الأشرار تقول : الحمد لله أى : الذى نجانا من فساد هذا المفسد .

فلو بلغنا خبر موت أحد الأشقياء أو قُطّاع الطرق نقول : الحمد لله أى : الذى خلصنا من شرِّه ، وأراح منه البلاد والعباد ، ومن ذلك قول الله تعالى : ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٥)﴾ [الأنعام]

كذلك تقال حينما يُنصَف المظلوم ، وتُردُّ إليه مظلمته ، أو تظهر براءته ، كما سنقول - إنْ شاء الله - فى الآخرة : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (٣٤)﴾ [فاطر]

﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ (٧٣) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (٧٤)﴾ [الزمر]

فالحمد لله تُقال أيضاً عند خلوصك إلى غاية تُخرجك مما كنتَ فيه

من الضيق ، ومن الهَمِّ ، ومن الحزن ، وتقال حين ندخل الجنة ، وننعم بنعيمها ونعلم صِدْق الله تعالى فيما أخبرنا به من نعيمها .

هذا كله حَمْد على نعمه ، وهناك الحمد الأعلى : ألم تقرأ الحديث القدسى : « إن الله يتجلى على خَلْقه المؤمنين فى الجنة فيقول : يا عبادى ، ألا أزيدكم ؟ فيقولون : وكيف تزيدنا وقد أعطيْتنا مَا لا عَيْن رأتْ ، ولا أذن سمعتْ ، ولا خطر على قلب بشر ؟ قال : أُحلُّ عليكم رضوانى ، فلا أسخط عليكم بعدها أبداً »(١) فماذا بعد هذا الرضوان ؟

يقول تعالى : ﴿وَتَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٧٥)﴾ [الزمر]

هذا هو الحمد الأعلى ، فقد كنت فى الحمد مع النعمة ، وأنت الآن فى الحمد مع المنعِم سبحانه .

ثم يقول سبحانه : ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٢٥)﴾ [لقمان] وهم أهل الغفلة عن الله ، أو ﴿لا يَعْلَمُونَ (٢٥)﴾ [لقمان] أى : العلم الحقيقى ، النافع ، وإنْ كانوا يعلمون العلم من كتاب غير منير ، أو : يعلمون العلم الذى يُحقِّق لهم شهواتهم .

ثم ينتقل السياق إلى آيات كونية فيقول سبحانه :

﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٢٦)﴾

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٥٤٩) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٨٢٩) من حديث أبى سعيد الخدرى ، ولفظه : إن الله يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة . فيقولون : لبيك ربنا وسعديك . فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تُعط أحداً من خلقك . فيقول : أنا أعطيكم أفضل من ذلك . قالوا : يا رب وأى شىء أفضل من ذلك ؟ فيقول : أحل عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم بعده أبداً .

بعد أن سجَّل الله تعالى عليهم اعترافهم وشهادتهم بأنه سبحانه خالق السموات والأرض ، أراد سبحانه أنْ يُبيِّن لنا أن السموات والأرض ظرف لما فيهما ، وفيهما أشياء كثيرة ، منها ما نعرفه ، ومنها ما لا نعرفه ، والمظروف دائماً أغلى من المظروف فيه ، فما فى (المحفظة) من نقود عادة أغلى من المحفظة ذاتها ، وما فى الخزانة من جواهر وأموال أو أوراق هامة أنفَسُ من الخزانة وأهمّ .

لذلك قلنا : إياك أنْ تجعل كتاب الله حافظة لشىء هام عندك ؛ لأنه أغلى من أىِّ شىء فينبغى أنْ نحفظه ، لا أنْ نحفظ فيه .

وكأن فى الآية إشارة إلى أنهم كما أقرُّوا لله تعالى بخَلْق السموات والأرض ينبغى أنْ يُقروا كذلك بأن له سبحانه ما فيهما ، وهذه مسألة عقلية يهتدى إليها كل ذى فكر سليم ، فما دامت السموات والأرض لله ، فله ما فيهما ، وهَبْ أن لك قطعة أرض تمتلكها ، ثم عثرتَ فيها على شىء ثمين ، إنه فى هذه الحالة يكون مِلكك شرعاً وعقلاً .

وينبغى للعاقل أنْ يتأمل هذه المسألة : لله تعالى ما فى السموات وما فى الأرض ، ومن هذه الأشياء الإنسان الذى كرَّمه الله ، وجعله سيداً لجميع المخلوقات وأعلى منها ، بدليل أنها مُسخَّرة لخدمته : الحيوان والنبات والجماد ، فهل يصح أن يكون الخادم أعظم من سيده أو أطول عمراً منه ؟

فعلى العاقل أن يتأمل هذه المسألة ، وأن يستعرض أجناس الكون ويتساءل : أيكون الجماد الذى يخدمنى أطول عمراً منى ؟

إذن : لابد أن لى حياة أخرى تكون أطول من حياة الشمس والقمر وسائر الجمادات التى تخدمنى ، وهذا لا يكون إلا فى الآخرة

حيث تنكدر الشمس ، وتتلاشى كل هذه المخلوقات ويبقى الإنسان .

إذن : أنت محتاج لما فى الأرض ولما فى السماء من مخلوقات الله ، وبه وحده سبحانه قوامها مع أنه سبحانه غنىٌّ عنها لا يستفيد منها بشىء ، فالله سبحانه خلق ما هو غنىٌّ عنه ؛ لذلك يقول : ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٢٦)﴾ [لقمان] لأنه سبحانه بصفات الكمال خلق ، فلم يزِدْه الخلق صفة كمال لم تكُنْ له ، فهو مُحْيٍ قبل أنْ يوجد مَنْ يُحييه ، مُعِزٌّ قبل أنْ يوجد من يعزه .

وقلنا : إنك لا تقول فلان شاعر لأنك رأيته يقول قصيدة ؛ بل لأنه شاعر قبل أن يقولها ، ولولا أنه شاعر ما قال .

فمعنى ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ .. (٢٦)﴾ [لقمان] أى : الغنى المطلق ؛ لأن له سبحانه كل هذا الملْك فى السموات وفى الأرض ، بل جاء فى الحديث القدسى أن السماء والأرض بالنسبة لملْك الله تعالى كحلقة ألقاها مُلْقٍ فى فلاة[1] ، فلا تظن أن مُلْك الله هو مجرد هذه المخلوقات التى نعلمها ، رغم ما توصَّل إليه العلم من الهندسة وحساب المسافات الضوئية .

فالله سبحانه هو الغنىُّ الغنَى المطلق ؛ لأنه خلق هذا الخَلْق وهو غنى عنه ، ثم أعطاه لعبيده وجعله فى خدمتهم ، فكان من الواجب لهذا الخالق أن يكون محموداً ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٢٦)﴾ [لقمان] وحميد فعيل بمعنى محمود ، وهو أيضاً حامد كما جاء فى قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ (١٥٨)﴾ [البقرة] لكن ، شاكر لمن ؟

---

(١) عن أبى ذر الغفارى أنه سأل رسول الله ﷺ عن الكرسى ، فقال ﷺ : « والذى نفسى بيده ما السماوات السبع والأرضون السبع عند الكرسى إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة ، وإن فضل العرش على الكرسى كفضل الفلاة على تلك الحلقة » أخرجه ابن جرير الطبرى فى تاريخه (١/١٥٠) وابن حبان (ص ٥٢ موارد الظمآن) ، وأبو نعيم فى الحلية (١/١٦٦) .

قالوا : إذا كان العبد يشكر ربه ، وقد علَّمه الله : أن الذى يحيِّيك بتحية ينبغى عليك أنْ تُحيِّيَه بأحسن منها ، فربُّك يعاملك هذه المعاملة ، فإنْ شكرْتَهُ يزدك ، فهذه الزيادة شُكْر لك على شُكْرك لربك . أى : مكافأة لك .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٧) ﴾

قوله تعالى ﴿ مِن شَجَرَةٍ .. (٢٧) ﴾ [لقمان] مِنْ : هنا تفيد العموم أى : من بداية ما يُقال له شجرة ، وفرق بين أنْ تقول : ما عندى مال ، وما عندى من مال ، فالأولى لا تمنع أن يكون عندك القليل من المال الذى لا يُعتدُّ به ، أمّا (من مال) فقد نفيتَ جنس المال قليله وكثيره . وتقول : ما فى الدار أحد . وربما يكون فيها طفل مثلاً أو امرأة ، أمّا لو قلْتَ : ما فى الدار من أحد ، فهذا يعنى خُلوها من كل ما يُقال له أحد .

والشجرة : هى النبات الذى له ساق ، وقد تشابكتْ أغصانها ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ .. (٦٥) ﴾ [النساء]

أما النبات الذى ليس له ساق فهو العُشْب أو النجم الذى ينتشر على سطح الأرض ، خاصة بعد سقوط الأمطار ، وهذا لا تُؤخذ منه الأقلام ، إنما من الشجرة ذات الغصون والفروع .

وقد ذكر القرآن الكريم هذين النوعين فى كلام معجز ، فقال سبحانه : ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥) وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (٦) ﴾ [الرحمن] فالشمس والقمر ﴿ بِحُسْبَانٍ (٥) ﴾ [الرحمن] أى : حساب دقيق محكم ؛ لأن بهما حساب الزمن ، ﴿ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (٦) ﴾ [الرحمن] أى : فى خضوع لله تعالى .

وكلمة النجم هنا يصح أنْ تُضاف إلى الشمس والقمر ، ويصح أنْ تضاف للشجر ، فهو لفظ يستخدم فى معنى ، ويؤدى معنى آخر بضميمة ضميره .

وقد تنبه الشاعر إلى هذه المسألة ، فقال :

أُرَاعِى النجْمَ فى سَيْرِى إليكُمُ ويرعَاهُ مِنَ البَيْدا جَوادِى

فهو ينظر إلى نجم السماء ليهتدى به فى سيره ، ويرعى جواده نَجْم الأرض ، ومن ذلك أيضاً كلمة العين ، فتأتى بمعنى الذهب والفضة ، وبمعنى الجاسوس ، وبمعنى عين الماء ، وبمعنى العين المبصرة .

ومعنى : ﴿ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ .. (٢٧) ﴾ [لقمان] أى : يُعينه ويساعده إنْ نفد ماؤه . ولك هنا أن تسأل : لماذا جعل الإمداد للماء ، ولم يجعله للشجر ؟ قالوا : لأن القلم الواحد يكتب بحبر كثير لا حَصْر له ، فالحبر مظنة الانتهاء ، كما أن الشجر ينمو ويتجدد ، أما ماء البحر فثابت لا يزيد .

واقرأ أيضاً فى هذه المسألة : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا (١٠٩) ﴾ [الكهف]

والعدد سبعة هنا ﴿ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ .. (٢٧) ﴾ [لقمان] لا يُراد به العدد ،

إنما يراد به الكثرة كما فى قوله تعالى : ﴿سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ.. (١٢)﴾ [الطلاق] فهذه فى مجرتنا الشمسية ، فما بالك بالسموات فى المجرات الأخرى ، وقد علمنا أن السماء هى كل ما علاك فأظلك .

إذن : يرد العدد سبعة على سبيل الكثرة ، والعرب كانوا يعتبرون هذا العدد نهاية للعدد ؛ لأن العدد معناه الأرقام التى تبين المعدود ، فهناك فرق بين العدد والمعدود ، ولما تبينّا هذا الفرق استطعنا أنْ نرد على المستشرقين فى مسألة تعدد الزوجات ، فالعدد يعنى ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ . أما المعدود ، فما يميز هذه الأعداد .

والرسول ﷺ حينما أراد أنْ يُنهى التعدد المطلق للزوجات لما أنزل الله عليه أنْ يأمر الناس أن مَنْ معه أكثر من أربع زوجات أنْ يُمسك أربعاً منهن ويفارق الباقيات[1] .

وكان عند رسول الله فى هذا الوقت تسع زوجات لم يشملهُنَّ هذا الحكم ، فقالوا : لماذا استثنى الله محمداً من هذا الحكم ؟ وكيف يكون عنده تسع ، وعند أمته أربع ؟ ولم يفطنوا إلى مسألة العدد والمعدود : هل استثنى الله تعالى رسوله فى العدد ، أم فى المعدود ؟

نقول : استثناه فى المعدود ؛ لأنه تعالى خاطب نبيه فى آية أخرى : ﴿لا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ .. (٥٢)﴾ [الأحزاب] ففرض على رسول الله أنْ يقتصر على هؤلاء ، لا يزيد عليهن ، ولا يتزوج بعدهن حتى لو مُتْنَ جميعاً .

---

(١) أخرج الإمام مالك فى الموطأ (ص ٥٨٦) كتاب الطلاق بلاغاً أن رسول الله ﷺ قال لرجل من ثقيف ، أسلم وعنده عشر نسوة حين أسلم الثقفى : « أمسك منهن أربعاً ، وفارق سائرهن » ووصله الترمذى فى سننه (١١٢٨) من حديث ابن عمر أن النبى ﷺ أمره أن يتخير أربعاً منهن ، وسمَّى الرجل « غيلان بن سلمة الثقفى » .

إذن : لم يستثنه فى العدد ، وإلا لكان من حقِّه إذا ماتت واحدة من زوجاته أنْ يتزوج بأخرى ، وإنْ مُتْن جميعاً يأتى بغيرهن .

ولك أن تقول : ولماذا جعل الله الاستثناء فى المعدود لا فى العدد ؟ قالوا : لأن زوجات غير النبى ﷺ إذا طلَّقها زوجها لها أن تتزوج بغيره ، لكن زوجات النبى ﷺ أمهات للمؤمنين ومحرمات عليهم ، فإنْ طلَّق رسول الله إحدى زوجاته بقيت بلا زواج .

لذلك أُمر رسول الله أنْ يمسك زوجاته التسع ، شريطة ألاَّ يزيد عليهن ، فى حين يُباح لغيره أن يتزوج بأكثر من تسع ، بشرط ألاَّ يبقى معه أكثر من أربع ، وعليه ، فهذا الحكم ضيَّق على رسول الله فى هذه المسألة فى حين وسَّع على أمته .

ونعلم أنَّ معظم زوجات النبى كُنَّ كبيرات فى السِّن ، وبعضهن كُنَّ لا إرْبة لهن فى مسألة الرجل ، لكنهن يحرصن على شرف الانتساب لرسول الله ، وعلى شرف كَوْنهن أمهات المؤمنين ؛ لذلك كانت الواحدة منهن تتنازل عن قَسْمها فى البيتوتة لضرتها مكتفية بهذا الشرف[1] .

إذن : التفريق بين العدد والمعدود خلَّصنا من إفك المستشرقين ، ومن تحاملهم على رسول الله واتهامهم له بتعدد الزوجات ، وأنه ﷺ وسَّع على نفسه وضيَّق على أمته .

ومسألة العدد والمعدود هذه مسألة واسعة حيّرت حتى الدارسين للنحو ، فلا إشكالَ فى العدد واحد والعدد اثنان ؛ لأننا نقول فى المفرد المذكر : واحد والمؤنث : واحدة . وللمثنى المذكر : اثنان ،

---

(١) فعلت هذا سودة بنت زمعة زوجة رسول الله ، وقد وهبت ليلتها لعائشة رضى الله عنها فى مقابل ألا يطلقها رسول الله ﷺ ، قائلة للنبى ﷺ : « أبقنى يا رسول الله وأهب ليلتى لعائشة ، وإنى لا أريد ما تريد النساء » . الإصابة لابن حجر (١١٧/٨) .

وللمؤنث : اثنتان . فالعدد يوافق المعدود تذكيراً وتأنيثاً ، لكن الخلاف يبدأ من العدد ثلاثة ، حيث يذكَّر العدد مع المعدود المؤنث ، ويُؤنَّث مع المعدود المذكَّر ، فمن أين جاء هذا الاختلاف ؟

قالوا : لاحظ أن التذكير هو الأصل ؛ ولذلك احتاج التأنيث إلى علامة ، أما المذكَّر وهو الأصل فلا يحتاج إلى علامة ، تقول : قلم . وتقول : دواة . فاحتاجت إلى علامة للتأنيث فهى الفرع والمذكر هو الأصل .

وتعالَ إلى الأعداد من ثلاثة إلى عشرة ، تقول : ثلاثة ، أربعة ، خمسة ، ستة ... إلخ فالعدد نفسه مبنىٌّ على التاء ، وليست هى تاء التأنيث ؛ لأنها أعداد مجردة بلا معدود ، فإذا أردنا تأنيث هذا العدد وبه تاء لا نضيف إليه تاءً أخرى ، إنما نحذف التاء فيكون الحذف هو علامة التأنيث ويبقى العدد مع المذكر على الأصل بالتاء .

فما حكاية العدد سبعة بالذات ؟ قالوا : إن العدد واحد هو الأصل فى الأعداد ؛ لأن العدَّ ينشأ من ضم واحد إلى آخر ، فواحد هو الخامة التى تتكون منها الأعداد فتضم واحداً إلى واحد وتقول : اثنان وتضم إلى الاثنين واحداً ، فيصير العدد ثلاثة .. وهكذا .

ومعلوم أن أقلَّ الجمع ثلاثة ، والعدد إما شفع وإما وتر ، الشفع هو الذى يقبل القسمة على الاثنين ، والوتر لا يقبل القسمة على الاثنين ، والله تعالى يقول : ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ۝٣﴾ [الفجر] فبدأ بالشفع وأوله الاثنان ثم الثلاثة ، وهى أول الوتر ، أما الواحد فقد تركناه لأنه كما قلنا الخامة التى يتكون منها جميع الأعداد .

وما دام الله تعالى قال : ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ۝٣﴾ [الفجر] فالاثنان أول الشفع ، والثلاثة أول الوتر ، وأربعة ثانى الشفع ، وخمسة ثانى

الوتر ، وستة ثالث الشفع ، وسبعة ثالث الوتر .

وقلنا : إن الجمع أقلُّه ثلاثة ، فاعتبرت العرب العدد سبعة أقصى الجمع وتراً وزوجاً ، وانتهت عند هذا العدد ، فإذا أرادوا العدَّ أكثر من ذلك أتوْا بواو يسمونها واو الثمانية ، وقد سار القرآن الكريم فى أحكام العدد هذه على ما سارت عليه العرب .

واقرأ إنْ شئت هذه الآيات : ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا .. (٧١)﴾ [الزمر]

أما فى الجنة فيقول سبحانه : ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا .. (٧٣)﴾ [الزمر]

فما الفرق بين الآيتين ؟ ولماذا جاءت الواو فى الثانية ، ولم تُذْكر فى الأولى ؟

قالوا : لأن ﴿فُتِحَتْ .. (٧١)﴾ [الزمر] فى الأولى جواب شرط ، وهذا الجواب كانوا يُكذِّبونه وينكرونه . والشرط تأسيس ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا .. (٧١)﴾ [الزمر] ماذا حدث ؟ ﴿فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا .. (٧١)﴾ [الزمر] إنما هل كان المؤمنون المتقون الذين يذهبون إلى الجنة يُكذِّبون بهذا اليوم ؟

إذن فـ : ﴿فُتِحَتْ .. (٧١)﴾ [الزمر] هنا لا تكون جواباً ؛ لأنهم يعلمون يقيناً أنها ستفتح ، أما الجواب فسيأتى فى : ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ (٧٣) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (٧٤)﴾ [الزمر]

ولما كانت أبواب النار سبعة لم يذكر الواو ، أما فى الجنة فذكر

الواو ، لأن أبوابها ثمانية .

كذلك اقرأ قول الله تعالى ولاحظ متى تستخدم الواو : ﴿عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ[1] تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ[2] ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا (٥)﴾ [التحريم]

تجد الواو قبل الثمانية ، ذلك لأن العرب تعتبر السبعة منتهى العدد بما فيه من زوج وفرد .

وقوله تعالى : ﴿وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ .. (٢٧)﴾ [لقمان] أى : يُجعل مداداً لكلمات الله ﴿مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ .. (٢٧)﴾ [لقمان] كلمات الله هى السبب فى إيجاد المقدورات العجيبة ؛ لأن الله تعالى يقول : ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٨٢)﴾ [يس] فكل مراد من شىء سببه كن .

وهنا عجيبة ينبغى أنْ نتأملها : فالله تعالى يقول للشىء وهو لم يُخْلق بعد (كن) ، كأن كل الأشياء موجودة فى الأزل ومكتوبة ، تنتظر هذا الأمر (كن) ، فتبرز إلى الوجود ، كما يقول أهل المعرفة : أمور يبديها ولا يبتديها .

إذن : ﴿كَلِمَاتُ اللَّهِ .. (٢٧)﴾ [لقمان] هى كن وكل مرادات الله فى كونه ، ما علمنا منه وما سنعلم ، وما لم نعلم إلا حين تقوم الساعة .

ألم يَقُلْ فى العجيب من أمر عيسى عليه السلام : ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ .. (١٧١)﴾ [النساء] والمعنى أنه لم يُخلق بالطريق

---

(١) القانت : المطيع الذاكر لله تعالى العابد . والقانت : القائم بجميع أمر الله تعالى . [لسان العرب ـ مادة : قنت] .

(٢) السائحات : الصائمات . وسياحة هذه الأمة الصيام ولزوم المساجد . [لسان العرب ـ مادة : سيح] .

الطبيعى فى خَلْق البشـر من أب وأم ، إنما خُلِق بهذه الكلمة (كن) . لماذا ؟

لأن الله تعالى يريد أنْ يثبت لنفسـه طلاقة القدرة فى الإيجادات ، وأنه سبحانه يخلق كما يشاء ، فمرة يخلق بلا أب وبلا أم ، كما خلق آدم عليـه السلام ، ومـرة يخلق بأم دون أب كـما خلق عـيسى عليـه السلام ، ومرة يخلق بأب وأم ، ويخلق بأب دون أم كما خلق حواء . إذن : القسمة العقلية موجودة بكل وجوهها .

إذن : مع طلاقة القـدرة لا اعتـبارَ للأسبـاب ، فأنت إنْ أردتَ أنْ تكوِّن مـثلاً قطرة الماء ، فـعليك أنْ تأتى بالأكـسوجين والأيـدروجين بطريقـة معيـنة ليخـرج لك الماء وإلا فـلا ، أما الخالـق ـ عز وجل ـ فيـخلق بالأشياء وبدون شىء ، لأن الأشيـاء بالنسبة لله تعـالى ليست فاعلة بذاتها ، وإنما هى فاعلة بمراد الله فيها .

ثم يقول سبحانه : ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٧)﴾ [لقمان] والعزيز هو الذى يَغلب ولا يُغلب ويَقْـهر ولا يُقهـر ، ولا يستدرك أحـد على فعله حتى لو كان مخالفاً لعقله هو ، وتأمل معنى العزة ، وكيف وردت فى هذا الموقف من قوله تعالى لسيدنا عيسى عليه السلام :

﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَـٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١١٦)﴾ [المائدة] إلى أن يقول : ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨)﴾ [المائدة]

والمنطق العـقلى يقتـضى أن نقول فى عـرف البشر : فـإنك أنت الغفور الرحيم ، فـالمقام مقام مغفرة ، لكن عـيسى عليه السلام يأتى

بها ، لا من ناحية الغفران والرحمة ، وإنما من ناحية طلاقة القدرة والعزة التى لا يستدرك عليها أحد .

﴿ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨) ﴾ [المائدة] والمعنى : لو قال الناس لماذا غفرتَ لهم مع أنهم قالوا كذا وكذا ؟ فالإجابة أننى أنا العزيز الذى أغلب ولا أُغلب ، ولا يستدرك أحد على حكمى ، إذن : ذيَّل الآية بالعزة لعزة الله تعالى فى خَلْقه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ۗ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٢٨) ﴾

الحق سبحانه وتعالى يؤكد دائماً على قضية البعث والقيامة ، ويريد سبحانه أنْ ينصب للناس فى حركة حياتهم موازين الجزاء ؛ لأن كل عمل لا توجد فيه موازين للجزاء يعتبر عملاً باطلاً ، ولا يمكن أنْ يستغنى عن الجزاء ثواباً وعقاباً إلا مَنْ كان معصوماً أو مُسخَّراً ، فالمعصوم قائم دائماً على فِعْل الخير ، والمسخّر لا خيارَ له فى أنْ يفعل أو لا يفعل .

إذن : إذا لم يتوفر مبدأ الجزاء ثواباً وعقاباً فى غير هذين لا بُدَّ أنْ يوجد فساد ، إذا لم يُثب المختار على الفعل ، ويعاقب على الترك اضطربت حركة الحياة ، حتى فى المجتمعات التى لا تؤمن بإله وضعت لنفسها هذا القانون ، قانون الثواب والعقاب .

والحق ـ سبحانه وتعالى ـ يعطينا مثالاً لهذا المبدأ فى قوله تعالى من قصة ذى القرنين : ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ

شَيْءٍ سَبَبًا (٨٤) فَأَتْبَعَ سَبَبًا (٨٥) ﴾ [الكهف]

أراد الحق سبحانه أن يبين أن الرجل الممكّن فى الأرض له مهمة ، هذه المهمة هى شكر الله على التمكين ولا يكون إلا بإقامة ميزان العدالة فى الكون ﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ .. (٨٦) ﴾ [الكهف] أى : فى رأى العين ، وإلا فهى لا تغرب أبداً ، إنما تغرب عن جماعة فى مكان ، وتشرق على جماعة فى مكان آخر .

﴿ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَـٰذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا (٨٦) ﴾ [الكهف]

ولا يُفوَّض إنسان فى أنْ يُعذِّب أو يتخذ الحسنى إلا إذا كانت لديه مقاييس وميزان العدالة ، وقد قال الله عنه : ﴿ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا (٨٤) ﴾ [الكهف] أى : نعمة وميزاناً لتوزيع هذه النعمة ، فلم تقتصر نعمة الله عليه فى أنه صاحب سلطان وجبروت ، إنما عنده المقوِّمات الحياتية ، وعنده ميزان العدالة الذى يضبط استطراق النِّعَم فى الكون كله .

فالذى خُيِّر فى أنْ يفعل أو لا يفعل أراد أنْ يبين منهجه فى أنه لم يأخذ الاختيار وسيلة لتثبيت الأهواء ؛ لذلك قال بعدها : ﴿ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا (٨٧) ﴾ [الكهف] هذا هو العقاب ﴿ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا (٨٨) ﴾ [الكهف] أى : بعد أنْ ينال ثوابه ، نعطيه فوق ذلك حوافز تشجعه ، ونقيم له حفلة تكريم لنغرى غيره بأن يسلك مسلكه .

إذن : فقضية الثواب والعقاب أمر لازم ، وإذا كان هذا فى الأمور الحياتية الجزئية ، فهو أَوْلى فى أمور الدين والقيم التى تسيطر على كل موازين الحياة ، لا بُدَّ من وقت للثواب وللعقاب ، وإلا استشرى

الظلم واغتال الناس ، وقضى عليهم ، وأخذ منهم كل مُتع الحياة ، فانتفع بذلك المفسد ، وخاب كل مَن التزم بدين الله وقيم منهجه .

لذلك تجد الحق ـ تبارك وتعالى ـ يؤكد دائماً على مسألة البعث والقيامة والحساب ، وترى أعداء الدين يحاولون أنْ يُشككوا فى هذه القضية ، وأنْ يُزحزحوا الناس عن الإيمان بها بطرق شتى .

فالفلاسفة لهم فى ذلك دور ، وللملاحدة دور ، ولأهل الكتاب دور ؛ لذلك تجد التوراة مثلاً تكاد تخلو من إشارة عن اليوم الآخر ، وهذا أمر غريب لا يمكن تصوره فى كتاب ودين سماوى ومنهج حياة .

وما ذلك إلا لأن أهل التوراة أرادوا أنْ يُزحزحوا الناس عن أمور عدة ليثبتوا لأنفسهم سلطة زمنية مادية ، حتى إنهم طمعوا فى أنْ يرتقوا بهذه السلطة حتى يصلوا إلى الله تعالى ، كما حكى القرآن عنهم : ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً .. (٥٥) ﴾ [البقرة]

ولما أنزل الله عليهم المنَّ ، وهو مادة حُلْوة كطعم القشدة جعلها تتساقط عليهم ، وأنزل عليهم السلوى ، وهى طيور مثل السمان تنزل عليهم جاهزة مُعدَّة للتناول رفضوا عطية الله لهم ، وطعامه الذى أُعدَّ من أجلهم ، وقالوا : بل نريد طعاماً نصنعه بأيدينا ، وقالوا : ﴿ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ ..(٦١) ﴾ [البقرة] ، فقال لهم : ﴿ اهْبِطُوا مِصْرًا[1] فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ..(٦١) ﴾ [البقرة]

وما دام الأمر بالنسبة لهؤلاء مادياً فلا بُدَّ أنْ يزحزح نفسه عن

---

(١) المصر : واحد الأمصار . ومصَّروا الموضع : جعلوه مِصْراً . وقال الليث : المصر فى كلام العرب كل كورة تقام فيها الحدود ويقسم فيها الفىء والصدقات . [لسان العرب ـ مادة : مصر] .

الآخرة وعن القيامة والحساب ، لذلك راحوا يُشكِّكون فيها ، أما الفلاسفة فقالوا : حين يبعث الله إنساناً بعد الموت وقد تحللتْ أعضاؤه وصارت تراباً ، ثم غرست فى هذا المكان شجرة فتغذتْ من هذا التراب ، وأكل إنسان آخر من ثمارها وانتقلتْ إليه بعض خلايا وجزئيات الأول ، فإذا كان هناك بعث أتُبعث هذه الجزئيات مع الأول أم مع الآخر ؟ فإنْ كانت مع الأول فهى نقص فى الآخر والعكس . هذه هى شبهة الفلاسفة .

وقد تخبَّط الفلاسفة هذا التخبُّط ؛ لأنهم لم يفطنوا إلى شىء فى الوجود يعطى قيماً للغيبيات ، وقد أوضحنا هذه المسألة فقلنا لهم : لو أن إنساناً يزن مائة كيلو مثلاً أصيب بمرض أفقده أربعين كيلو من وزنه ، فماذا يعنى هذا النقص بالنسبة للشخص نفسه ؟

هذه المسألة يتحكم فيها أمران : الغذاء والإخراج ، ففى فترة النمو يكون الداخل للجسم أكثر من الخارج ، أما فى فترة الشيخوخة مثلاً فالخارج أكثر ، فإنْ توازن الأمران كانت حالة من الثبات لا يزيد فيها الشخص ولا ينقص ، وهى فترة الثبات .

فالشخص الذى نقص من وزنه أربعون كيلو ، ثم شفاه الله وعادت إليه عافيته حتى زاد وزنه وعاد إلى حالته الطبيعية ، فهل تغيَّر الشخص حال نقصان وزنه ؟ وهل تغيَّر حال عودته إلى طبيعته ؟ أم ظلت الشخصية والذاتية هى هى ؟

إذن : المسألة فى تكوين الجسم ليست ذرات وجزيئات ، إنما هى شخصية معنوية خاصة وإنْ تكوَّنت من جزيئات المادة وهى الستة عشر عنصراً التى تكوِّن جسم الإنسان ، والتى تبدأ بالأكسوجين وتنتهى بالمنجنيز ، وهى نفس العناصر المكوِّنة لتربة

الأرض التى نأكل منها ، وهذه العناصر بنسب تختلف من شخص لآخر .

والحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ﴿٤﴾﴾ [ق] يعنى : نعرف ما نقص من كل إنسان : كذا من الحديد ، وكذا من الأكسوجين ، وكذا من الفسفور .. إلخ .

إذن : حين يبعث الله الإنسان بعد الموت يبعث هذه الشخصية المعنوية بهذه الأجزاء المعروفة ، فيأتى الشخص هو هو .

ومن القضايا التى أثاروها فى مسألة البعث والالتباسات التى يحاولونها يقولون : الله تعالى يخلق الإنسان فى مدة تسعة أشهر ، أو ستة أشهر ، يمر خلالها بعدة مراحل : نطفة ، ثم علقة ، ثم مضغة ، ثم عظاماً ، ثم يكسو هذه العظام لحماً ، هذا للإنسان الواحد ، فكم تستغرق إعادة خَلْق البشر من لَدُن آدم عليه السلام حتى قيام الساعة ؟

ونقول : لقد ذكرتم كيفية خَلْق سلالة الإنسان والتى تستغرق تسعة أو ستة أشهر ، لكن لم تذكروا خَلْق الأصل ، وهو آدم عليه السلام ، وقد خلقه الله على هيئته وصورته التى كان عليها ، فلم يكُنْ صغيراً وكبر ، إنما خُلِق كبيراً مستوياً كاملاً ، ثم نُفِخت فيه الروح .

ثم إن عناصر الفعل هى : الفعل ، والفاعل ، والمنفعل ، يُضاف إليها الزمن الذى سيتم فيه الفعل ، فأنا أريد أنْ أنقل هذه (الحملة) من هنا إلى هناك ، فنقلنا فعل ، وأنا الفاعل ، والحملة هى المنفعل ، ثم الزمن الذى يستغرقه الحدث ، والزمن يعنى توزيع جزئيات الحدث على جزئيات الزمن ، فإذا أردتَ أنْ تخيط ثوباً بطريقة يدوية فإنه يأخذ منك وقتاً طويلاً ، فإن خِطَّه بالماكينة أخذ وقتاً أقلّ بكثير .

إذن : فـزمن الفـعل يتناسب مع قـوة الفـاعل ، وتذكـرون أنه فى الماضى كانت الشوارع تضاء بمـصابيح الزيت ، وكان لكل منطقة عامل يصعد على سلم إلى كل فـانوس ليشعله ، أما الآن فتـستطيع أن تنير مدينة بأكملها بضغطة زر واحد . إذن : كلما زادتْ القوة قلَّ الزمن .

فتعال إذن إلى مسألة البعث والإعادة بعد الموت : أهى بقوتك أنت لتحـسبهـا بما يناسب قوتـك وقدرتك ؟ إنها بقـوة الله عز وجل ، والله لا يعالج الأمور كما نفعل ولا يزاولها ، إنما يفعل سبحانه بكُنْ . إذن : فالفعل بالنسـبة لله تعالى لا يحتاج إلى زمن تُوزَّع فيـه جزئيات الفعل على جزئيات الزمن .

ولمَ تستـبعـد هذا فى حقِّ الله تعالى ، وقد أعطاك ربـك طرفاً منه رغم قـدرتك المحـدودة ؟ ألستَ تجلس فى مـثل هذا المـجلس فتـرانا جـميـعاً مـرة واحدة فـى نظرة واحدة ، كـذلك تسـمع الجمـيع دفعـة واحدة ؟ ألستَ تقـوم بمجرد أن تريد أنْ تقوم ، وتنفـعل جوارحك لك بمـجـرد أنْ يخطر الفـعل على بالـك ؟ أتفكر أنت فى العـضـلات التى تحركتْ والإشارات التى تمتْ بداخلك لتقوم من مجلسك ؟

وقد سبق أنْ أوضحنا هذه المسألـة حين قارنَّا حركة الإنسان فى سلاستها وطواعيـة الجوارح لمراد صاحبها بحركة الحـفار مثلاً ، فهو لا يؤدى حركة إلا بالضغط على زر خاص بها .

فإذا كنت أنت أيها العبد تنفعل لك جوارحك وأعضاؤك بمرادك فى الأشيـاء ، فهل تستبـعد فى حق الله أنْ يفعل بكلمـة كُنْ ؟ كيف وأنت ذاتك تفعل بدون أنْ تقولها ، مجرد الإرادة منك تفعل ما تريد .

فإنْ قلتَ : كيف يـفعل الحق سبحانه بكلمـة كُنْ ، وأنا أفعل بدون أنْ أقـولها ؟ نقـول : نعم أنت تفـعل بدون كُنْ ؛ لأن الأشـياء ليـست

منفعلة لك أنت ، إنما هى مُسخَّرة بكُنْ الأولى حين قال الله لها كونى مُسخَّرة لإرادته ، إذن : أنا أفعل بدون كُنْ ؛ لأنها ليست فى مقدورى أنا ، فكأن كُنْ الأولى من الله تعالى هى كُنْ لنا جميعاً .

وبهذا الفهم استطعنا تفسير حادثة الإسراء والمعراج ، واستطعنا الرد على منكريها ، فالله يقول : ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا .. (١)﴾ [الإسراء]

فلما سمع الكفار بالحادثة أنكروها وقالوا : كيف ونحن نضرب إليها أكباد الإبل شهراً ؟ نعم أنتم تضربون إليها أكباد الإبل شهراً ؛ لأن فعلكم يحتاج إلى زمن ومزاولة نوزع فيها جزئيات الفعل على جزئيات الزمن ، أمَّا محمد فلم يقُلْ سريتُ ، فيكون فى الفعل كأحدكم إنما قال : أُسرِى بى[1] .

إذن : فهو محمول على قدرة أخرى ، فالفعل لا يُنسب إليه إنما إلى حامله إلى الله ، وقلنا : كلما زادتْ القوة قلَّ الزمن ، فإذا كانت القوة قوة الحق - تبارك وتعالى - فلا زمن ؛ لذلك يقول سبحانه فى مسألة الخَلْق والإعادة : ﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ .. (٢٨)﴾ [لقمان]

فالأمر يسير على الله ؛ لأن خَلْق النفس الواحدة وخَلْق جميع الأنفس يتم بكُنْ ، فالمسألة لا تحتاج إلى تسعة أو ستة أشهر .

وضربنا مثلاً لتوضيح هذه المسألة بصناعة الزبادى مثلاً ، فأنت تأتى باللبن وتضع عليه المادة المعروفة وتتركه فى درجة حرارة معينة فيتحول تلقائياً إلى الزبادى الذى تريده ، فهل جلستَ أمام كل

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٧١٠) ، ومسلم فى صحيحه - (١٧٠) من حديث جابر بن عبد الله رضى الله عنه .

علبة تُحوِّلها بنفسك ، أم أنك عملت العملية المعروفة فى هذه الصناعة ، ثم تركت هذه المواد تتفاعل بذاتها ؟

كذلك شاء الله تعالى أنْ يوجد الإنسان جنيناً فى بطن أمه ، وأن تجرى عليه أمور النمو بطبيعتها ، إذن : خَلْق الإنسان لا يقاس بالنسبة لله تعالى بالزمن ، وقد حَلَّ لنا الإمام على كرم الله وجهه هذه القضية حينما سُئل : كيف يحاسب الله الناس جميعاً من لَدُن آدم عليه السلام إلى قيام الساعة فى وقت واحد ؟

فقال : يحاسبهم جميعاً فى وقت واحد ، كما أنه يرزقهم جميعاً فى وقت واحد[1] ؛ لأنه سبحانه لا يشغله شأن عن شأن .

ثم يذيل الحق سبحانه هذه الآية بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ [لقمان] سميع وبصير صيغة مبالغة من السمع والبصر ، وقلنا : إنك وأنت العبد المخلوق تستطيع أن ترى هذا الجمع مرة واحدة فى نظرة واحدة ، وكذلك تسمعه ، فما بالك بسَمْع الله تعالى وبصره ؟

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ﴾

---

(١) سئل الإمام على بن أبى طالب : كيف يحاسب الله الخلق على كثرتهم ؟ فقال : كما يرزقهم على كثرتهم . [شرح نهج البلاغة ـ للشريف الرضى ـ طبعة دار الشعب ص ٤٠٤ فقرة ٢٩٨] .

هذه آيات كونية واضحة مرئية للجميع : للمؤمن وللكافر ، للطائع وللعاصى ، ، فالحق سبحانه يوزع لنا الوقت بين ليل ونهار ، لكنه ليس توزيعاً متساوياً (ميكانيكياً) ، بحيث يكون كل منهما أربعاً وعشرين ساعة ثابتة على التقدير الجبرى كما يقولون ؛ لذلك نرى اليوم ينقص مثلاً عن الأربع وعشرين ساعة عدة دقائق تُضاف إلى زمن الليل أو العكس .

لذلك قالوا من أيام بطليموس : السنة ٣٦٥ يوماً وخمس ساعات ، وخمس وخمسون دقيقة ، واثنتا عشرة ثانية بالدقة . بعدها انتهوا إلى أن السنة ٣٦٥ يوماً وربع يوم عن طريق الجبر ، فكل ثلاث سنين نجبر الرابعة ، ويقولون : سنة بسيطة ، وسنة كبيسة أى : طويلة ، فالتى تقبل القسمة على أربعة سنة كبيسة ، لذلك نجد شهر فبراير فى هذه السنة ٢٩ يوماً ، ذلك لنعوض اليوم .

وكلمة يوم تعنى الليل والنهار ، لكن القسمة بينهما ليست متساوية ، فالحق ـ تبارك وتعالى ـ بصنعته الحكيمة أراد أنْ يُوزع الحرارة والبرودة على كل مناطق المعمورة ، ويعطى لكل منطقة ما تحتاجه لتنبت أرضها ، وتعطينا نحن مقومات حياتنا ، بدليل أن من النباتات ما لا ينمو إلا فى الصيف ، ومنها ما لا ينمو إلا فى الشتاء ، كذلك فى الاعتدال الربيعى والاعتدال الخريفى .

لذلك ، عرفنا أخيراً أن الخالق سبحانه جعل لمحور الأرض ميلاً بمقدار ٢٣,٥ درجة عن مستوى مدارها فهى إذن غير مستوية ، ففى فصل الشتاء يكون القسم الكبير منها مواجهاً لليل ، والآخر مواجهاً للنهار ، فتجد ليل الشتاء أطول من ليل الصيف وأبرد منه ، ويبلغ ليل الشتاء أقصى ما يمكن من الطول وهو ١٢ ساعة فى شهر كيهك ،

حتى أن الفلاحين يقولون فى كيهك (كياك صباحك مساك قوم من نومك حضر عشاك) .

ومقابل ذلك فى فصل الصيف ، فكأن ميل محور الأرض سرٌّ من أسرار هندسة هذا الكون ، ففى الحادى والعشرين من حزيران (يونيو) يبدأ الانقلاب الصيفى ، وفى الثالث والعشرين من كانون الأول (ديسمبر) يبدأ الانقلاب الشتوى ، ثم الاعتدال الربيعى فى الحادى والعشرين من آذار (مارس) ، والاعتدال الخريفى فى الثانى والعشرين من أيلول (سبتمبر) . وفى الاستواء الربيعى والاستواء الخريفى تجد أن الليل مساو للنهار ، وجوّهما معتدل لا حر ولا برد .

فقول الله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ .. (٢٩)﴾ [لقمان] يعنى : لا تظن أن الليل والنهار قسمة متساوية ؛ لأن الله تعالى بحكمته يُدخل جزءاً من الليل فى النهار ، أو جزءاً من النهار فى الليل ، فيزيد فى أحدهما ، وينقص من الآخر لحكمة أرادها سبحانه وتعالى لصالح الإنسان ، وإمداداً له بمقوِّمات حياته ، لتعلم أن ما يطرأ على الليل أو النهار من تغيير الأشياء لها مناط فى الحكمة الإلهية العليا .

وحين نُقسِّم اليوم إلى ليل ونهار ـ وهى قسمة كما قلنا ليست رتيبة ولا متساوية ـ فإن لليل مهمة فى الحياة وللنهار مهمة ، كما بيَّن لنا سبحانه : ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا (١٠) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا (١١)﴾ [النبأ]

معنى اللباس أن تسكن فيه وتكنّ وتستر نفسك ؛ لذلك عرفنا فيما بعد أن الضوء أثناء النوم أمر غير صحى ، وفهمنا قول رسول الله : « أطفئوا المصابيح إذا رقدتم »[1] .

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٦٢٤) وأحمد فى مسنده (٣/٣٨٨) عن جابر بن عبد الله ، واللفظ للبخارى .

والحق سبحانه يوضح لنا هذه المسألة فى قوله تعالى : ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢﴾ [الضحى] ويقول : ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢﴾ [الليل] ليبين لك أن لكل منهما مهمة فى حركة حياتك ، فالنهار للحركة ، والليل للسكون ، وعليك ألا تخلط بين هاتين المهمتين دون داع ، وقد استثنينا من هذه القاعدة مَنْ تحتم عليهم طبيعة عملهم أنْ يعملوا بالليل ويرتاحوا بالنهار .

والخالق عز وجل جعل فى حركة الليل والنهار أسراراً وعجائب ينبغى أن نتنبه إليها بمعطيات العلم ، ومن حكمة الخالق سبحانه أنْ جعل لكل سر فى الكون ميلاداً يولد فيه ، ونثر أسرار كونه على خَلْقه ولم يُظهرها لجيل واحد ، وإلا لو كشف القرآن كل أسراره للأمة الأمية التى عاصرتْ نزوله لانصرفتْ عن الدعوة الجديدة بتكذيب هذه القضايا التى لم تصدقها العقول حتى فى العصر الحديث ورغم تقدم العلوم ، فمثلاً لما قال العلماء بكروية الأرض ودورانها حول الشمس لم نصدق هذه الحقائق حتى جاءتنا الصور الفضائية التى تؤكد ذلك .

وقلنا : إن ميلاد سرٍّ من أسرار الكون قد يصادف بحثاً من البشر ، فيأتى السر ويظهر على أنه نتيجة لهذا البحث ، وإلا أظهره الله للناس بالمصادفة رحمة بهم وتفضُّلاً عليهم ؛ لذلك نجد أن معظم الاكتشافات جاءت صدفة ، لم يَسْعَ إليها البشر ، ولم يذهبوا إليها بمقدمات .

والقرآن الكريم حين يتحدث عن الليل والنهار يقول كلاماً عاماً يفهمه كل معاصر لمرحلة من مراحل التقدم العلمى : ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ .. ۝١٢﴾ [الإسراء]

ويقول ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ

شُكُوراً (٦٢) ﴾ [الفرقان] ومعنى خلفة يعنى : يخالف أحدهما الآخر ويأتى بعده ، وهذا صحيح الآن ، فنحن نرى الليل يخلف النهار ، والنهار يخلف الليل ، لكن كيف نتصور هذه المسألة فى بَدْء الخَلْق ؟

لو أن البداية كانت بخَلْق الأرض مواجهة للشمس ، فالنهار إذن أولاً ليس خِلْفة لشىء قبله ، ثم تغيب الشمس فينشأ الليل ليكون خِلْفة للنهار ، وفى المقابل إن وجدت الأرض غير مقابلة للشمس ، فالليل هو الأول ليس خِلْفة لشىء قبله .

إذن : لا يحل لنا هذه المسألة إلا قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً .. (٦٢) ﴾ [الفرقان] أى : من بداية الخَلْق وهما خِلْفة ، وهذا لا يتأتى ولا يسوغ إلا إذا كانت الأرض مكوَّرة ، بحيث يكون الجزء المقابل للشمس منها مكوِّناً للنهار ، والجزء الآخر لليل فى وقت واحد ، فلما تحركت الأرض فى دورانها صار كل منها خِلْفة للآخر ، إذن : معطيات القرآن يهضمها العقل ، ولا يعارضها أبداً .

تذكرون فى الثلاثينيات وبالتحديد عام ١٩٢٨ فسروا السموات السبع بأنها الكواكب السبعة السيارة التى تدور حول الشمس ، ذلك ليقربوا العلم للناس ، ويشاء الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن يكتشفوا بعدها (نبتون) ثم (بلوتو) فصاروا تسعة كواكب ، وأظهر الله لهم فساد هذا التأويل .

وفى الكون عجائب كثيرة نعرفها حتى عن طريق الكفار ، وكأن الله سخَّر حتى الكافر ليُثبت إيمان المؤمن ، فإذا كنا قد عرفنا اليوم عندنا على الأرض ، وأنه ليل ونهار يُكوِّنان أربعاً وعشرين ساعة ، فماذا يعنى اليوم بالنسبة للكواكب الأخرى ؟

لما عرفوا أفلاك الكواكب الأخرى التى تدور حول الشمس وجدوا

أقربها للشمس عطارد ، ثم الزهرة ، ثم الأرض ، ثم المريخ ، ثم المشترى ، ثم زحل ، ثم نبتون ، ثم بلوتو ، وهو أبعد الكواكب عن الشمس .

ومن عجائب اليوم فى هذه الكواكب أن يوم الزهرة مثلاً ٢٤٤ يوماً بيومنا نحن ، أما العام فيساوى ٢٢٥ يوماً بيومنا ، فكأن يوم الزهرة أطول من عامها ، كيف ؟ قالوا : لأن المدار مختلف عن مدار الأرض ، فاليوم نتيجة دورة الكوكب حول نفسه ، والعام نتيجة دورة الكوكب حول الشمس .

وقوله تعالى : ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ .. (٢٩)﴾ [لقمان] ولك أن تلحظ دقة الأداء القرآنى فى الانتقال من الفعل المضارع ﴿يُولِجُ .. (٢٩)﴾ [لقمان] إلى الماضى ﴿سَخَّرَ .. (٢٩)﴾ [لقمان] ففى الكلام عن حركة الليل والنهار قال ﴿يُولِجُ .. (٢٩)﴾ [لقمان] ولما تكلم عن الشمس والقمر قال : ﴿سَخَّرَ .. (٢٩)﴾ [لقمان] لماذا ؟

قالوا : لأن التسخير تم مرة واحدة ، ثم استقر على ذلك ، أما إيلاج الليل فى النهار ، وإيلاج النهار فى الليل فأمر مستمر يتكرر كل يوم ، فناسبه المضارع الدالّ على التكرار .

وقوله تعالى : ﴿كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى .. (٢٩)﴾ [لقمان] أى : إلى غاية محدودة ؛ لذلك نسمى العمر النهائى : الأجل . والمراد بالأجل المسمى يوم القيامة ، فكأن الخالق سبحانه ضمن لنا استمرار الشمس والقمر إلى قيام الساعة ، فاطمئنوا .

ثم أىُّ عظمة هذه فى كوكب مضىء ينير العالم كله منذ خلقه الله وإلى قيام الساعة ، دون صيانة ودون قطعة غيار ؛ ذلك لأنه مبنى على التسخير القهرى الذى يمنع الاختيار ، فليس للشمس أنْ تمتنع

عن الشروق وكذلك القمر ، ومن العظمة فى الألوهية هذه الرحمانية الرحيمة التى تحتضن الجميع المؤمن بها والكافر .

وفى هذه الآية ورد التعبير بلفظ ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ..(٢٩)﴾ [لقمان] وفى مواضع أخرى ورد بلفظ ﴿لِأَجَلٍ مُّسَمًّى .. (٢)﴾ [الرعد] باللام بدلاً من إلى ، وكذلك فى سورتى فاطر (١٣) والزمر (٥) ، ولكل من الحرفين معنى : ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ .. (٢٩)﴾ [لقمان] تعطينا الصورة لمشية الشمس والقمر قبل وصولهما الأجل ، إنما ﴿لِأَجَلٍ مُّسَمًّى .. (١٣)﴾ [فاطر] أى : الوصول المباشر للأجل .

وكما أن لليل مهمة وللنهار مهمة ، كذلك للشمس مهمة ، وللقمر مهمة بيَّنها الله فى قوله : ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا .. (٥)﴾ [يونس]

وفى موضع آخر قال سبحانه : ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا (٦١)﴾ [الفرقان] فالضياء للشمس فيه نور وحرارة ، على خلاف نور القمر الذى يناسب حالماً لا حرارة فيه .

ومن عجائب أمر القمر أننا كُنَّا نحسبه قطعة من اللؤلؤ مضيئة فى السماء ، حتى إن الشعراء درجوا على تشبيه المحبوبة بالقمر ، ولو عرفوا حقيقة القمر التى عرفناها نحن اليوم ما صحَّ منهم هذا التشبيه ، فقد أطلعنا العلم أن القمر ما هو إلا حجارة وجسم معتم لا يضىء بذاته ، إنما يعكس فقط ضوء الشمس ؛ لذلك لما شبَّه أحد الشعراء محبوبته بالقمر أنكرتْ عليه هذا الشبه :

شبَّهْتُها بالبدْرِ فَاسْتَضْحكتْ وقابَلَتْ قَوْلِى بالنُّكْرِ

أى : تكلفت الضحك

وَسفَّهَتْ قولى وقَالَتْ متَى سَمُجْتُ حتى صِرْتُ كالبدْرِ

ولك أن تسأل فمن أين عرفت سماجة البدر ، وأنه حجارة لا جمالَ فيها ؟ تجيب هى حين تقول :

البَدْرُ لاَ يرنُو بعيْن كَما أَرْنُو ولاَ يَبْسِمُ عَنْ ثَغْر

ولاَ يُميطُ المرْطَ عن نَاهدٍ ولا يشدُّ العقد فى نَحْر

مَنْ قَاسَ بالبَدْر صَفَائى فَلا زَالَ أَسِيراً فى يَدِى هَجْرى

إذن : فحقيقة القمر التى عرفناها أخيراً آية من آيات الله الظاهرة والباطنة فى الكون أطلعنا الله عليها بسلطان العلم ، فلما تيسَّر للبشر الصعود إلى سطحه عرفنا أنه جسم مُعْتم ، وصخور لا تنير بذاتها ، إنما تعكس أشعة الشمس ، فتصل إلينا هادئة حالمة ، وكأن القمر كما يقولون : (يصنع من الفسيخ شربات) .

ومن حكمة الخالق سبحانه فى خَلْق الشمس والقمر أن تكون الشمس ميزاناً لمعرفة اليوم ، والقمر لمعرفة الشهر ، وهو الأصل فى التكليفات ، لأن له شكلاً مميزاً فى أول الشهر على خلاف الشمس ؛ لذلك يقول سبحانه : ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ .. ﴿٥﴾﴾ [يونس]

وتتجلى عظمة التكليف الإلهى وارتباطه بالقمر فى فريضة الحج مثلاً ، بحيث يتنقل موعد الحج على مدار العام كله ، فمرة يأتى فى الصيف ، وأخرى فى الشتاء .. إلخ مما يُيسِّر للحجاج ما يناسب كلاً

منهم من الجو الملائم ، ويقطع الأعذار فى التخلف عن أداء هذه الفريضة .

إذن : بالتوقيت القمرى يأتى الحج فى كل أوقات السنة ؛ لذلك قال البعض : إن ليلة القدر دائرة فى العام كله إذا ما قارنا التوقيت الشمسى بالتوقيت القمرى ، فإن اتفقنا على أن ليلة القدر فى السابع والعشرين من رمضان ، فإنها ستوافق أول يناير مثلاً ، وفى العام التالى توافق الثانى ، ثم الثالث وهكذا .. وهذا من رحمة الله تعالى بعباده ..

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٩) ﴾ [لقمان] وما دام أنه سبحانه خبير بما تعملون ، فهو الذى يهيىء لكم صلاح العمل بخبرته وحكمته وقدرته وقيوميته ؛ لذلك شرع لكم الأعمال التى تنظم حركة حياتكم وحركة عبادتكم ؛ لذلك نجد رمضان مثلاً يدخل بالليل فنقول هذه الليلة من رمضان ، أما يوم عرفة فيدخل بيومه لأنه يوم مجموع له الناس .

وقوله : ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٩) ﴾ [لقمان] معطوفة على ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ .. (٢٩) ﴾ [لقمان] فالتقدير : وألم تر أن الله بما تعملون خبير .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ (٣٠) ﴾

قوله تعالى ﴿ذَٰلِكَ .. ﴿٣٠﴾﴾ [لقمان] إشارة إلى ما تقدم ذكْره من دخول الليل فى النهار ، ودخول النهار فى الليل ، وتسخير الشمس والقمر ، ذلك كله ﴿بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ .. ﴿٣٠﴾﴾ [لقمان] فكل ما تقدم نشأ عن صفة من صفات الله وهو الحق ، والحق هو الشىء الثابت الذى لا يتغير ، فكأن ناموس الكون بكل أفلاكه وبكل المخلوقات فيه له نظام ثابت لا يتغير ؛ لأن الذى خلقه وأبدعه حق ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ .. ﴿٣٠﴾﴾ [لقمان]

وما دام الله تعالى هو (الحق) فما يدَّعونه من الشركاء هم الباطل ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ .. ﴿٣٠﴾﴾ [لقمان] ، فلا يوجد فى الشىء الواحد حقَّان ، فإنْ كان أحدهما هو الحق فغيره هو الباطل ، فالحق واحد ومقابله الباطل . وأىُّ باطل أفظع من عبادتهم للأصنام واتخاذها آلهة وشركاء مع الله عز وجل ؟

كيف وهى حجارة صوَّروها بأيديهم وأقاموها ليعبدوها من دون الله ، والحجارة جماد من جمادات الأرض ، والجماد هو العبد الأول لكل المخلوقات ، عبد للنبات ، وعبد للحيوان ، وعبد للإنسان ؛ لأنه مُسخّر لخدمة هؤلاء جميعاً .

فكيف بك وأنت الإنسان الذى كرَّمك ربك وجعل لك عقلاً مفكراً تتدنى بنفسك وترضى لها أنْ تعبد أدنى أجناس الوجود ، وتتخذها شريكاً مع الله ، وأنت ترى الريح إذا اشتدتْ أطاحتْ باللات أو بالعزى ، وألقتْه على الأرض ، وربما كُسرت ذراعه ، فاحتاج لمن يصلح هذا الإله ، إذن ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ .. ﴿٣٠﴾﴾ [لقمان]

لذلك ؛ قلنا فى الحروب التى تنشب بين الناس : إنها لا تنشب بين حقين ؛ لأن الحقيقة لا يوجد فيها حقَّان ، إنما هو حق واحد ،

والآخر لا بُدَّ أن يكون باطلاً ، أو تنشأ بين باطلين ، أما نشأتها بين حق وباطل فإنها فى الغالب لا تطول ؛ لأن الباطل زهوق .

والعاقبة لا بُدَّ أنْ تكون للحق ولو بعد حين ، أما الباطل فإنه زَهُوق ، إنما تطول المعركة إنْ نشبت بين باطلين ، فليس أحد الطرفين فيها أهلاً لنصرة الله ، فتظل الحروب بينهما حتى يتهالكا ، وتنتهى مكاسب طغيان كل منهما ، ولا يردهما إلا مذلَّة اللجوء إلى التصالح بعد أنْ فقدا كل شىء .

لذلك نرى هذه الظاهرة أيضاً فى توزيع التركات والمواريث بين المستحقين لها ، حيث ينشب بينهم الخلاف والطعن واللجوء إلى القضاء والمحامين حتى يستنفد هذا كله جزءاً كبيراً من هذه التركة ، حتى إذا ما صَفَتْ مما كان بها من أموال جُمعتْ بالباطل ترى الأطراف يميلون إلى الاتفاق والتصالح وتقسيم ما بقى .

واقرأ إنْ شئت حديث رسول الله ﷺ : « مَنْ أصاب مالاً من مهاوش[١] أذهبه الله فى نهابر[٢] »[٣] ومعنى : مهاوش يعنى بالتهويش أو كما نقول (بيهبش) من هنا ومن هنا ، وطبيعى أن يُذهِب الله هذا المال فى الباطل وما لا فائدة منه .

وسبق أن أعطينا مثلاً لمصارف المال الحرام بالأب يرجع إلى بيته ، فيجد ابنه مريضاً حرارته مرتفعة ، فيسرع به إلى الطبيب

---

(١) المهاوش : مكاسب السوء ، فهو كل مال يُصاب من غير حلِّه ولا يُدْرى ما وجهه كالغصب والسرقة ونحو ذلك . [لسان العرب ـ مادة : هوش] .

(٢) النهابر : المهالك . أى : أذهبه الله فى مهالك وأمور متبددة . [لسان العرب ـ مادة : نهبر] .

(٣) أورده العجلونى فى كشف الخفاء (٢/٣١٣) وعزاه للقضاعى عن أبى سلمة الحمصى مرفوعاً ، وأبو سلمة ضعيف ولا صحبة له . قال التقى السبكى: لا يصح .

ويصيبه الرعب ، ويتراءى له شبح المرض ، فينفق على ابنه المئات ، أما الذى يعيش على الكفاف ويعرق فى كسب عيشه بالحلال فيكفيه فى مثل هذه الحالة قرص أسبرين وكوب ليمون ، فالأول أصاب ماله من مهاوش ، والآخر أصابه من الحلال .

فقول الله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ .. (٣٠) ﴾ [لقمان] يعنى : أن الحق هو الظاهر وهو الغالب ، فإنْ قلتَ كيف ونحن نرى الباطل قد يعلو على الحق ويظهر عليه ؟ ونقول : نعم ، قد يعلو الباطل لكن إلى حين ، وهو فى هذه الحالة يكون جندياً من جنود الحق ، كيف ؟ حينما يعلو الباطل وتكون له صَوْلَة لا بُدَّ أن يعض الناس ويؤذيهم ويذيقهم ويلاته ، فيلتفتون إلى الحق ويبحثون عنه ويتشوقون إليه .

إذن : لولا الباطل ما عرفنا ميزة الحق ، ومثال ذلك الألم الذى يصيب النفس الإنسانية فينبهها إلى المرض ، ويظهر لها علتها ، فتطلب الدواء ، فالألم جندى من جنود الشفاء ، وقلنا سابقاً : إن الكفر جندى من جنود الإيمان .

لذلك لا تحزن إنْ رأيتَ الباطل عالياً ، فذلك فى صالح الحق ، واقرأ قول ربك عز وجل : ﴿ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا .. (١٧) ﴾ [الرعد] يعنى : يأخذ كل واد على قدره وسعته من الماء ﴿ فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا .. (١٧) ﴾ [الرعد] وهو القش والفتات الذى يحمله الماء ﴿ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ .. (١٧) ﴾ [الرعد] أى : مثَلاً لكل منهما .

﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً .. (١٧) ﴾ [الرعد] يعنى : مطروداً مُبْعداً من الجفوة ﴿ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ (١٧) ﴾ [الرعد]

وبعد أن بيَّن الحق سبحانه وتعالى أنه ﴿الْحَقُّ .. (٣٠)﴾ [لقمان] وأن غيره من آلهة المشركين هم الباطل ذكر لنفسه سبحانه صفتين أخريين ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٣٠)﴾ [لقمان] العلى الكبير يقولها الله تعالى ، ويقولها رسوله ﷺ ، ونقولها نحن ؛ لأن الله قالها ؛ ولأن النبى الصادق أخبرنا بها ، لكن المسألة أن يشهد بها مَنْ كفر بالله .

لذلك يعلمنا ربنا ـ تبارك وتعالى ـ أن نحمد الله حينما يشهد الكافر لله رغم كفره به ، كما ورد فى الآيات السابقة : ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٢٥)﴾ [لقمان]

فهذه الشهادة منهم تستحق من المؤمن أن يقول : الحمد لله ؛ لأنها شهادة جاءت ممَّنْ كفر بالله وكذَّب رسوله وحاربه ، وأيضاً تنظر إلى هذا الكافر الذى تأبَّى على منهج الله وكذَّب رسوله حين يصيبه مرض مثلاً ، أيستطيع أنْ يتأبى على المرض كما تأبَّى على الله ؟ هذا الذى أَلِف التمرد على الله : أيتمرد إنْ جاءه الموت .

واقرأ قوله تعالى : ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ .. (٦٧)﴾ [الإسراء] أى : لا يجدون أمامهم ساعة الكرب والهلاك إلا الله ؛ لأن الإنسان فى هذه الحالة لا يخدع نفسه ولا يكذب عليها ، بالله أرأيتم إنساناً أحاطتْ به الأمواج ، وأشرف على الهلاك يدعو يقول : يا هبل ؟ إذن : الله هو العلى وهو الكبير ، وغيره شرك وباطل.

وسبق أن ضربنا مثلاً للإنسان ، وأنه لا يغشُّ نفسه ، ولا يخدعها خاصة إذا نزلتْ به ضائقة بالحلاق أو حكيم الصحة كما كانوا يطلقون عليه ، فهو يداوى أهل القرية ويسخر من طبيب الوحدة

الصحية ، ويتهمه بعدم الخبرة ، لكن حين مرض ولده وأحسَّ بالخطر أخذ الولد وتسلَّل به فى ظلام الليل ، وذهب إلى الطبيب .

فلله وحده العلو ، ولله وحده الكبرياء ، بدليل أن الكافر حين تضطره أمور الحياة وتُلجئه إلى ضرورة لا مخرجَ منها لا يقول إلا : يا الله يا رب .

فالله هو العلىُّ بشهادة مَنْ كفر به ، ثم أردف صفة (العلى) بصفة (الكبير) ؛ لأن العلى يجوز أنه علا بطغيان وعدم استحقاق للعلو ، لكن الحق سبحانه هو العلى ، وهو الكبير الذى يستحق هذا العلو .

ثم يلفتنا الحق سبحانه إلى آية أخرى من آياته فى الكون :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ ﴾

بعد أن ذكر الحق سبحانه بعض الآيات الكونية البعيدة عنا أراد سبحانه أنْ يعطينا نموذجاً آخر للآيات التى بيْن أيدينا فى الأرض فقال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ .. ﴿٣١﴾ ﴾ [لقمان] ألم تر : يعنى ألم تعلم ﴿ أَنَّ الْفُلْكَ .. ﴿٣١﴾ ﴾ [لقمان] أى : السفن .

وربما أن سيدنا رسول الله لم يَرَ هذه السفن فى البحار ، ولم تكن قد ظهرت السفن العملاقة التى نراها اليوم كالأعلام ، كما فى قوله

سبحانه : ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ (٢٤)﴾ [الرحمن]

ومتى وُجِدت البوارج العالية التى تشبه الجبال والمكوَّنة من عدة أدوار ؟ لم توجد إلا حديثاً ، إذن : فهذا مظهر من مظاهر إعجاز القرآن ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿وَلَوْلا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَـٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (٣٣)﴾ [الزخرف]

ومَنْ يبحث فى القرآن يجد فيه الكثير من هذه الآيات التى تثبت صِدْق القرآن وصِدْق رسول الله فى البلاغ عن الله .

وذكرنا قصة المرأة التى أسلمت لما قرأت التاريخ الإسلامى ، وقرأت فى سيرة رسول الله أن المؤمنين به كانوا يجعلون عليه حراسة دائمة يتبادلونها حماية له من أعدائه ، وفجأة صرف رسول الله هؤلاء الحرس من حوله وقال لهم لقد أنزل الله علىَّ : ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ .. (٦٧)﴾ [المائدة] فوقفت المرأة عند هذه الآية وقالت : والله لو أن هذا الرجل كان يخدع الناس جميعاً ما خدع نفسه فى حياته .

وقلنا فى معنى ﴿ألم تَرَ .. (٣١)﴾ [لقمان] أنها بمعنى ألم تعلم ، لأن إعلام الله لك أوثق من رؤية عينيك .

وكلمة ﴿تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ .. (٣١)﴾ [لقمان] الجرى : حركة تودع فيها مكاناً إلى مكان آخر ، هذا التوديع إما أن تمشى الهُوَيْنَا أو تجرى . لكن ما هى نعمة الله فى جريها ؟ أولاً كانت أول سفينة من الخشب المربوط إلى بعضه بالحبال والدُّسُر[1] ، وكان

---

(١) الدسر : مسامير السفينة وشرطها التى تشد بها . والدسار : المسمار ويقول تعالى : ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ (١٣)﴾ [القمر] .

الغاطس منها فى الماء حوالى شبر واحد يزيح من الماء بحجم وزن السفينة ، فإذا ما وضعت عليها ثقلاً فإنها تغطس بمقدار هذا الثقل ، حتى إذا ما زاد وزن الماء المزاح عن وزن السفينة وحمولتها فإنها تغرق .

وهذه الفكرة هى التى تُستخدم فى الغواصات ، فبالوزن يتم التحكم فى حركة الغواصة تحت الماء . والآن نرى السفن العملاقة والتى تُصنع من الحديد ، والعجيب أن هذا الحديد الصلب يحمله الماء السائل الليِّن ويجرى به ، ثم تأتى الريح فتدفع السفن إلى حيث تريد ، حتى وإنْ كانت تسير عكس جريان الماء ، ويتمكن ربان السفينة من التحكم فى حركتها باستخدام بعض الآلات البسيطة وبتوجيه الشراع بطريقة معينة فتسير السفينة حسب ما أراد حتى لو كان اتجاهها عكس اتجاه الريح ، ويسمون هذه الحركة (تسفيح).

لذلك يقول سبحانه عن حركة السفن : ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ .. (٣٣)﴾ [الشورى]

وكأن الحق سبحانه يريد أن يُبيِّن لنا أن أقل الأشياء كثافة بقوة الحق له يحمل أكثر الأشياء كثافة ، وانظر إنْ شئتَ إلى جرارات النقل الثقيل ، هذه الجرارات العملاقة التى تحمل عدة أطنان من الحديد مثلاً على أى شىء تسير وتتحرك ؟ إنها تسير وتتحرك على الهواء المضغوط فى عجلاتها ، والذى يأخذ قوته من هذا الضغط ، بحيث إذا زدتَ فى ضغط هذه العجلات تقوى على نفسها فتنفجر .

وقوله تعالى : ﴿لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ .. (٣١)﴾ [لقمان] أى : من عجائبه فى كونه خاصة فى البحار ، ففى الماضى كنا لا نرى من المخلوقات فى الأعماق إلا السمك الذى يصطاده الصيادون ، أما الآن ومع تطور

علوم البحار وطرق التصوير تحت الماء أصبحنا نرى فى أعماق البحار عجائب أكثر مما نراه على اليابسة .

ثم يقول تعالى : ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣١)﴾ [لقمان] قوله تعالى : ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ .. (٣١)﴾ [لقمان] توحى بأن آيات الله فى كونه كثيرة ، لكن على الإنسان أنْ يبذل جهداً فى البحث عنها واكتشافها ، وعليه أن يكون صبَّاراً على مشقة البحث والغوص تحت الماء ، فإذا ما رأينا ما فى أعماق البحار من عجائب مخلوقات الله فقد وجب علينا الشكر ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣١)﴾ [لقمان] والشكر لا يكون إلا عن نعمة جدَّت لم تكُنْ موجودة من قبل .

إذن : الحق ـ تبارك وتعالى ـ يريد منا أن نستقبل آياته فى الكون استقبالَ بحث وتأمل ونظر ، لا استقبال غفلة وإعراض ، كما قال سبحانه : ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥)﴾ [يوسف]

وتقديم صبَّار على شكور دليل على أن الصبر على مشقات العمل والبحث والاستنباط والاكتشاف يُؤتى نعمة كبيرة تدعو الإنسان إلى شكرها .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ (٣٢)﴾ (١)

---

(١) ختره : غدر به أقبح الغدر فهو خاتر وختّار : صيغة مبالغة . [القاموس القويم ١٨٧/١] .

معنى ﴿غَشِيَهُم مَّوْجٌ .. (٣٢)﴾ [لقمان] يعنى : غطاهم واحتواهم ؛ لذلك قال ﴿كَالظُّلَلِ .. (٣٢)﴾ [لقمان] جمع ظُلَّة ، وهى التى تعلو الإنسان وتظلله ، ولا يكون الموج كذلك إلا إذا علا عن مستوى الإنسان ، وخرج عن رتابة الماء وسجسجته . ومن ذلك قول الله تعالى : ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا[1] الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ .. (١٧١)﴾ [الأعراف]

وأنت تشاهد هذه المظاهر إذا كنتَ فى عرض البحر ، فترى الموجة من بعيد أعلى منك ، وأنها حتماً ستطمسك ، حتى إذا ما وصلتْ إليك شاهدتَ فيها مظهراً من لطف الله بك ، حيث تتلاشى وتمر من تحتك بسلام ، وهذا شىء عجيب ونعمة تستوجب الشكر .

فالموج إذن شىء مخيف ؛ لذلك لما غشيهم وأيقنوا الهلاك ﴿دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ .. (٣٢)﴾ [لقمان] دعوا الله رغم أنهم كافرون به ، لكن المرء فى مثل هذه الحال لا يخدع نفسه ولا يكذب عليها ، فالأمر جد ، فلم يدعوا اللات أو العزى ، ولم يقُلْ أحد منهم يا هبل ، إنما دعوا الله بإخلاص لله ، فإنْ كانوا ملتفتين لدين آخر فى عبادة الأصنام ، ففى هذا الموقف لا بُدَّ أن يُخلصوا لله ؛ لأنهم واثقون أن الأصنام لن تنفعهم ، وأنها لا تملك لهم ضراً ولا نفعاً ، ولن يكون النفع وكشف البلاء إلا من الله الحق .

فإنْ قُلْتَ : ما دام الأمر كذلك ، فما الذى صرفهم عن عبادة الله إلى عبادة الأصنام ؟

---

(١) النتق : الزعزعة والهز والجذب والنفض . ونتق الشىء : جذبه واقتلعه . [لسان العرب - مادة : نتق] .

قلنا : إن التديُّن طبيعة فى النفس البشرية ، وهذه الطبيعة باقية فى ذرات كل إنسان منذ خلق الله آدم ، وأخذ من صُلْبه ذريته ، وأشهدهم على أنفسهم ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ .. (١٧٢)﴾ [الأعراف] فشهدوا .

فكل واحد منا فيه ذرة شهدتْ هذا العهد ، وهذه الذرة هى مصدر الإشراقات فى نفس المؤمن ، وعليه أنْ يحافظ عليها بأن يأخذ قانون صيانة هذه الذرة ممن خلقها ، لا أنْ يطمس نورها بمخالفة قانون صيانته الذى وضعه له ربه ـ عز وجل ـ فيكون كمَنْ قال الله فيه : ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤)﴾ [طه]

النبى ﷺ يُوضح لنا هذه المسألة بقوله : « كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يُهوِّدانه ، أو يُنصِّرانه أو ، يُمجِّسانه »[١] .

فالنفس الإنسانية بخير ما دام فيها الإشراقيات الإلهية الأولى التى شهدتْ أن الله هو الرب ، لكن إذا تضبَّبت فلا بُدَّ أن تحدث الخيبة ويدخل الفساد .

إذن : التديُّن طَبْع فى النفس ، لكن التديُّن الحق له مطلوبات ومنهج بافعل كذا ، ولا تفعل كذا ، وهذا يريد أنْ يُرضى نفسه بأن يكون مُتديناً ، لكن يريد أنْ يريح نفسه من مطلوبات هذا التدين ، فماذا يفعل ؟ يلجأ إلى عبادة إله لا مطلوبات له ، وقد توفرت هذه فى عبادة الأصنام .

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٧٧٥) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٦٥٨) من حديث أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « ما من مولود إلا يولد على الفطرة » الحديث .

لكن نقول لمن عبد الأصنام : لا بُدَّ أنْ يأتى عليك الوقت الذى لا تلتفت فيه إلى الأصنام ، بل إلى الإله الحق الذى هربتْ من مطلوباته وانصرفت عن عبادته ، لا بُدَّ أن تُلجئك الأحداث إلى أنْ تلوذ به ؛ لذلك يقولون فى المثل (اللى متحبش تشوف وجهه ، يُحوجك الزمن لقفاه) .

فأنتم أعرضتم عن الله وكفرتم به ، فلما نزلت بكم الأحداث وأحاطت بكم الأمواج صرْتم أرانب ، فلماذا الآن تلجئون إلى الله ؟ لماذا لم تستمروا على عنادكم وتكبُّركم حتى على الله ؟

ثم يقول تعالى : ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ .. (٣٢)﴾ [لقمان] وكان ينبغى عليهم بعد أن اعترفوا أن الله هو الإله الحق الذى يُلْجأ إليه ويُستغاث به ، وبعد أنْ نجاهم وأسعفهم ، كان ينبغى عليهم أن يؤمنوا به ، وأنْ يطيعوه ، وأن تؤثر فيهم هذه الهزة التى زلزلتهم ، إلا أنهم عادوا إلى ما كانوا عليه من الكفر والإعراض عن الله ، وطاوع نفسه وشهوته .

هذه هى حال الكافر حينما يتعرض للابتلاء والتمحيص ، فإنه ينتكس ولا يرعوى على خلاف المؤمن ، فإنه إن تعرَّض لمثل هذا الاختبار يزداد إيماناً ويقيناً .

والمقتصد هو البين بين ، تأخذه الأحداث والخطوب ، فتردُّه إلى الله حال الكرب والشدة ، لكنه إذا كشف عنه تردد وضعفتْ عنده هذه الروح ، بدليل أن الله تعالى يذكر فى مقابل المقتصد نوعاً آخر منهم غير مقتصد ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ (٣٢)﴾ [لقمان]

فمنهم من بهت كفره حينما تنبه فيه الوازع الإيمانى ، لكنه لما نجا غرَّته الدنيا من جديد ، ومنهم الجاحد الختَّار أى : الغادر .

ولك أنْ تلحظ المقابلة بين صبَّار وختَّار ، وبين شكور وكفور .

ثم يخاطب الحق سبحانه الناس ، فيقول :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾ ﴾

خطاب الحق سبحانه لعباده بيأيها الناس يدل على أنه تعالى يريد أنْ يُسعدهم جميعاً فى الآخرة ، وسبق أنْ ذكرنا الحديث القدسى الذى تقول فيه الأرض : يا رب ائذن لى أنْ أخسف بابن آدم . وقالت البحار : نغرقه ... إلخ ، فكان الرد من الخالق عز وجل « دعونى وخلقى ، فلو خلقتموهم لرحمتموهم ، إنْ تابوا إلىَّ فأنا حبيبهم ، وإنْ لم يتوبوا فأنا طبيبهم»[1] .

وقوله تعالى : ﴿ اتَّقُوا رَبَّكُمْ .. ﴿٣٣﴾ ﴾ [لقمان] التقوى أنْ تجعل بينك وبين ما يضرك وقاية تقيك وتحميك ؛ لذلك يقول تعالى فى آية

---

(١) أورده الغزالى فى إحياء علوم الدين (٤/٥٢) من قول بعض السلف ، ولفظه : « ما من عبد يعصى إلا استأذن مكانه من الأرض أن يخسف به ، واستأذن سقفه من السماء أن يسقط عليه كسفاً ، فيقول الله للأرض والسماء : كفًّا عن عبدى وأمهلاه فإنكما لم تخلقاه ، ولو خلقتماه لرحمتماه ، ولعله يتوب إلىَّ فأغفر له ، ولعله يستبدل صالحاً فأبدل له حسنات » .

أخرى ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ .. (١٣١)﴾ [آل عمران] وهما بمعنى واحد ؛ لأن معنى اتقوا الله : اجعلوا بينكم وبين صفات جلال ربكم وانتقامه وجبروته وقاية ، وكذلك فى : اتقوا النار .

فالخطاب هنا عام للناس جميعاً مؤمنهم وكافرهم ، فالله تعالى يريد أن يُدخلهم جميعاً حيِّز الإيمان والطاعة ، ويريد أنْ يعطيهم ويمنّ عليهم ويعينهم ، وكأنه سبحانه يقول لهم : لا أريد لكم نِعَم الدنيا فحسب ، إنما أريد أنْ أعطيكم أيضاً نعيم الآخرة .

وكذلك النبى ﷺ ، كان رحيماً حتى بالكافرين والمعاندين له ، كما ذكرنا فى قصة اليهودى الذى اتهموه ظلماً بسرقة درع أحد المسلمين ، وقد عزَّ على المسلمين أنْ يُرمى واحد منهم بالسرقة ، فجعلوها عند اليهودى ، وعرضوا الأمر على سيدنا رسول الله ، فأداره فى رأسه : كيف يتصرف فيه ؟

فأسعفه الله ، وأنزل عليه : ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ .. (١٠٥)﴾ [النساء] لا بين المؤمنين فحسب ﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا (١٠٥)﴾ [النساء] أى : لا تخاصم لصالح الخائن ، وإنْ كان مسلماً ، فالناس جميعاً سواء أمام مسئولية الإيمان .

وفَرْق بين : اتقوا ربكم واتقوا الله ؛ لأن عطاء الربوبية غير عطاء الألوهية ، عطاء الربوبية إيجاد من عَدَم ، وإمداد من عُدْم ، وتربية للمؤمن وللكافر ، أما عطاء الألوهية فطاعة وعبادة وتنفيذ للأوامر ، فاختار هنا الرب الذى خلق وربَّى ، وكأنه سبحانه يقول للناس جميعاً : من الواجب عليكم أن تجعلوا تقوى الله شكراً لنعمته عليكم ، وإنْ كنتم قد كفرتُم بها .

ولا تنتهى المسألة عند تقوى الرب فى الدنيا ، إنما ﴿وَاخْشَوْا يَوْمًا

لاَّ يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ .. (٣٣) ﴾ [لقمان] أى : خافوا يوماً تُرجعون فيه إلى ربكم ، وكلمة (يوم) تأتى ظرفاً ، وتأتى اسماً مُتصرِّفاً ، فهى ظرف إذا كان هناك حدث سيحدث فى هذا اليوم كما تقول : خفْت شدة الملاحظة يوم الامتحان ، فالخوف من الحدث ، لا من اليوم نفسه ، أمَّا لو قلت خفت يوم الامتحان ، فالخوف من كل شىء فى هذا اليوم ، أى من اليوم نفسه .

فالمعنى هنا ﴿ وَاخْشَوْا يَوْمًا .. (٣٣) ﴾ [لقمان] لأن اليوم نفسه مخيف بصرف النظر عن الجزاء فيه ، وفى هذا اليوم ﴿ لاَّ يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ .. (٣٣) ﴾ [لقمان] خصَّ هنا الوالد والولد ؛ لأنه سبحانه نصح الجميع ، ثم خصَّ الوالدين فى الوصية المعروفة ﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ .. (١٤) ﴾ [لقمان]

ثم ذكر حيثيات هذه الوصية وقال ﴿ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ .. (١٤) ﴾ [لقمان] فجعل لهما فضلاً ومَيْزة ومنزلة عند الله ، حتى أصبحا مظنة النفع حتى يوم القيامة ، فأراد سبحانه أنْ يُبيِّن لنا أن نفع الوالد لولده ينقطع فى الآخرة ، فكلٌّ منهما مشغول بنفسه ، فلا ينفع الإنسان حتى أقرب الناس إليه .

وفى سورة البقرة : ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا .. (٤٨) ﴾ [البقرة] أى : مطلق النفس ، لا مجرد الوالد والولد ، إنما عامة الناس لا ينفع أحد منهم أحداً أياً كان .

والآية بهذا اللفظ وردت فى موضعين : اتفقا فى الصدر ، واختلفا فى العَجُز ، وهى تتحدث عن نَفْسين : الأولى هى النفس الجازية أى : التى تتحمل الجزاء ، والأخرى هى النفس المجزيَّة التى تستحق العقوبة .

فالآية التى نظرت إلى النفس المجزىِّ عنها ، جاء عَجُزها ﴿ وَلا يُقْبَلُ

مِنْهَا عَدْلٌ وَلا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ .. (١٢٣) ﴾ [البقرة]

ومعنى : عَدْل أى فدية ، فالنفس المجزىّ عنها أول مرحلة عندها لتدفع عن نفسها العذاب أن تعرض الفدية ، فلا يقبل منها فدية ، لكنها لا تيأس ، بل تبحث عَمَّنْ يشفع لها من أصحاب الجاه والمنزلة يتوسط لها عند الله ، وهذه أيضاً لا تنفع .

أما النفس الجازية ، فأول ما تعرض تعرض الشفاعة ، فإنْ لم تُقبل عرضت العدل والفدية ؛ لذلك جاء عَجُز الآية الأخرى الذى اعتبر النفس الجازية بتقديم الشفاعة على العدل . إذن : ذَيْل الآية الأولى عائد على النفس المجزىِّ عنها ، وذيل الآية الثانية يعود على النفس الجازية .

وهنا ﴿ لاَّ يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ .. (٣٣) ﴾ [لقمان] لأن الوالد مظنّة الحنان على الولد ، وحين يرى الوالد ولده يُعذَّب يريد أنْ يفديه ، فقدَّم هنا (الوالد) ثم قال : ﴿ وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا .. (٣٣) ﴾ [لقمان] فقدم المولود ، وكان مقتضى الكلام أنْ نقول : ولا يجزى ولد عن والده ، فلماذا عدل عن ولد إلى مولود ؟

الكلام هنا كلام رب ، وفرْق كبير بين ولد ومولود ؛ لأن المسلمين الأوائل كان لهم آباء ماتوا على الكفر ، فظنوا أن وصية الله بالوالدين تبيح لهم أنْ يجزوا عنهم يوم القيامة ، فأنزل الله هذه الآية تبين لهؤلاء ألاَّ يطمعوا فى أنْ يدفعوا شيئاً عن آبائهم الذين ماتوا على الكفر .

لذلك لم يقل هنا ولد ، إنما مولود ؛ لأن المولود هو المباشر للوالد ، والولد يقال للجد وإنْ علا فهو ولده ، والجد وإنْ علا والده ، فإذا كانت الشفاعة لا تُقبل من المولود لوالده المباشر له ، فهى من

باب أَوْلَى لا تُقبل للجدِّ ؛ لذلك عَدل عن ولد إلى مولود ، فالمسألة كلام رب حكيم ، لا مجرد رَصْف كلام .

لكن ، متى يجزى الوالد عن الولد ، والمولود عن والده ؟ قالوا : الولد ضعيف بالنسبة لوالده يحتاج منه العطف والرعاية ، فإذا رأى الوالد ولده يتألم سارع إلى أنْ يشفع له ويدفع عنه الألم ، أما الولد فلا يدفع عن أبيه الألم لأنه كبير ، إنما يدفع عنه الإهانة ، فالوالد يشفع فى الإيلام ، والولد يشفع فى الإهانة ، فلكل منهما مقام .

ثم يقول سبحانه : ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ .. (٣٣)﴾ [لقمان] عرفنا أن الوعد : إخبار بشىء يسر لم يَأْت وقته ، وضده الوعيد ، وهو إخبار بشىء يؤذى لم يأْتِ وقته بعد ، لكن ما فائدة كل منهما ؟

فائدة الوعد أنْ تستعدَّ له ، وتأخذ فى أسبابه ، فهو يشجعك على العمل والسعى الذى يُحقِّق لك هذا الوعد كأنْ تَعد ولدك مثلاً بجائزة إنْ نجح فى الامتحان ، وعلى العكس من ذلك الوعيد ؛ لأنه يُخوِّفك من عاقبته فتحترس ، وتأخذ بأسباب النجاة منه .

إذن : الوعد حق ، وكذلك الوعيد حق ، لكنه خصَّ الوعد لأنه يجلب للنفس ما تحب ، أمّا الوعيد فقد يمنعها من شهوة تحبها ، ووضحنا هذه المسألة بأن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ يتكلم فى النعم أن منها نِعَم إيجاب ، ونِعَم سلب .

واقرأ فى ذلك قول ربك : ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلا تَنتَصِرَانِ (٣٥) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٦)﴾ [الرحمن]

فإذا كانت الجنة وما فيها نعماً تستحق الشكر ، ويمتنّ الله بها علينا ، فأىُّ نعمة فى الشواظ والنار والعذاب ؟ قالوا : هى نعمة من حيث هى تحذير وتخويف من العذاب لتبتعد عن أسبابه ، وتنجو منه

قبل أنْ تقع فيه ، نعمة لأن الله لم يأخذنا على غِرَّة ، ونبهنا إلى الخطر قبل أنْ نقع فيه .

ووَعْد الله حقٌّ ؛ لأنه وعد ممَّنْ يملك الوفاء بما وعد ، وإنفاذ ما وعد به ، أما غير الله سبحانه فلا يملك أسباب الوفاء ، فوعده لا يُوصَف بأنه حق ؛ لذلك قال سبحانه فى سورة الكهف : ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا (٢٣) إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ .. (٢٤) ﴾ [الكهف]

فأنت وإنْ كنتَ صادقاً فيما وعدتَ به إلا أنك لا تضمن البقاء إلى أنْ تفى بما وعدتَ ، فإنْ بقيت فقد تتغير الأسباب فتحول بينك وبين الوفاء ، وأنت لا تملك سبباً واحداً من هذه الأسباب .

إذن : تأدب ودَع الأمر لمَنْ يملك كل أسباب إنفاذ الوعد ، وقُلْ سأفعل كذا إن شاء الله ، حتى إذا لم تنفذ يكون لك حجة فتقول : أردتُ لكن الله لم يشأ .

وكأن ربنا - عز وجل - يريد أنْ يدارى كذبنا ويستره علينا ، يريد ألاَّ يفضحنا به ، وأخرجنا من هذه المسئولية بترك المشيئة له سبحانه ، وكأن قدر الله فى الأشياء صيانة لعبيده من عبيده . لذلك كثيراً ما نقول حينما لا نستطيع الوفاء : هذا قدر الله ، وماذا أفعل أنا ، والأمر لا يُقضى فى الأرض حتى يُقضى فى السماء .

وما دمنا قد آمنا بقدر الله والحكمة منه ، فلا تغضب منى إنْ لم أفِ لك وأنت كذلك ، والعاقل يعلم تماماً حين يقضى أمراً لأحد أن قضاء الأمر جاء معه لا به ، فالقدر قضاء ، ووافق قضاؤه قضاء الله للأمر ، فكأن الله كرَّمه بأنْ يقضى الأمر على يديه ، لذلك قلنا : إن الطبيب المؤمن يقول : جاء الشفاء معى لا بى ، وأن الطبيب يعالج والله يشفى . إذن : لا يُوصَف الوعد بأنه حقٌّ إلا وعد الله عز وجل .

وما دام وعد الله حقاً فعليك أنْ تفعل ما وعدك عليه بالخير وتجتنب ما توعَّدك عليه بشرٍّ ، وألاَّ تغرك الحياة ﴿فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا .. (٣٣)﴾ [لقمان] أى : بزينتها وزُخْرفها ، فهى سراب خادع ليس وراءه شىء ، واقرأ قول الله تعالى : ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ (١١٥)﴾ [المؤمنون]

والحق سبحانه يضرب لنا مثلاً للدنيا ، لا ليُنفِّرنا منها ، وإنما لنحتاط فى الإقبال عليها ، وإلا فحبُّ الحياة أمر مطلوب من حيث هى مجال للعمل للآخرة ومضمار للتسابق إليها .

يقول تعالى فى هذا المثل : ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. (٤٥)﴾ [الكهف] فسماها دنيا ، وليس هناك وصف أبلغ فى تحقيرها من أنها دنيا ﴿كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ .. (٤٥)﴾ [الكهف] نعم ، كذلك الدنيا تزدهى ، لكن سرعان ما تزول ، تبدأ ابتداءً مقنعاً مغرياً ، وتنتهى انتهاءً مؤسفاً .

وقوله تعالى : ﴿وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ (٣٣)﴾ [لقمان] والغَرور بالفتح الذى يغرُّك فى شىء ما ، والغرور يوضحه لنا الشاعر الجاهلى[1] وهو يخاطب محبوبته فيقول :

أَفَاطِمُ مَهْلاً بَعْضَ هَذَا التدلُّلِ ... وإنْ كنتِ قَدْ أَزْمعتِ صَرْمِى[2] فأَجْمِلِى
أغرَّكِ منى أنَ حبَّكِ قَاتلى ... وأَنَّكِ مَهْما تأْمُرِى القَلْبَ يفعَلِ

فمعنى غرَّك : أدخل فيك الغرور ، بحيث تُقبل على الأشياء ،

---

(١) هو الشاعر امرؤ القيس ، والأبيات من معلقته التى أولها :
قفَا نبْكِ منْ ذكرى حبيبٍ ومَنْزِلِ ... بسقْط اللِّوَى بين الدَّخُول فَحَوْمَلِ

(٢) الصرم : القطع مادياً ، كقطع الثمار ، ويكون القطع معنوياً بمعنى الهجر وقطع صلة المودة . [القاموس القويم ١/٣٧٥] .

وتتصرف فيها فى كنف هذا الغرور وعلى ضوئه .

والغَرُور بالفتح هو الشيطان ، وله فى غروره طرق وألوان ، فغرور للطائعين وغرور للعاصين ، فلكل منهما مدخل خاص ، فيغرّ العاصى بالمعصية ، ويوسوس له بأن الله غفور رحيم ، وقد عصا أبوه فغفر الله له . لذلك أحد الصالحين سمع قول الله تعالى : ﴿ **يَـٰٓأَيُّهَا الإِنسَـٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (٦) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (٧)** ﴾ [الانفطار] فأجاب هو : غرَّنى كرمه ، لأنه خلقنى وسوَّانى فى أحسن صورة ، وعاملنى بكرم ودلَّلنى ، حتى أصابنى الغرور بذلك ، ولو أنه عز وجل قسا علينا ما اغتررنا .

وكان لأحدهم دَيْن خمسة صاغ فضة عند آخر ، فردَّها إليه ، فلما نظر فيها الدائن وجدها ممسوحة فأعادها إليه ، فقال المدين : والله لو كنت كريماً لقبلتها دون أنْ تنظر فيها .

فأخذ الواعظ هذه الواقعة وأراد أنْ يعظ بها الدائن ، وكان يصلى صلاةً لا خشوعَ فيها ، فقال له : إن صلاتك هذه لا تعجبنى ، فهى نَقْر لا خشوع فيها ، أرأيت لو أن لك دَيْناً فأعطاك صاحب الدين نقوداً ممسوحة قديمة أكنت تقبلها ؟ فقال الرجل : والله لو كنتُ كريماً أقبلها ولا أردها .

ثم يقول الحق سبحانه مختتماً سورة لقمان :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ (٣٤) ﴾

بعد أن حذرنا ربنا ـ تبارك وتعالى ـ من الغرور فى الحياة الدنيا يُذكِّرنا أن بعد هذه الحياة حياة أخرى ، وقيامة وساعة ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ .. (٣٤)﴾ [لقمان] والساعة لا تعنى القيامة فحسب ، إنما لكل منا ساعته ، لأنه مَنْ مات فقد قامت قيامته .

لماذا ؟ لأنه انقطع عمله ، ولا يمكنه تدارك ما فاته من الإيمان أو العمل الصالح ، فكأن قيامته قامت بموته .

وقلنا : إن عمر الدنيا بالنسبة لك هو مقدار عمرك فيها ، وإنْ كان عمر الدنيا على الحقيقة من لَدُن آدم ـ عليه السلام ـ إلى قيام الساعة ، لكن ماذا استفدتَ أنت من عمر غيرك ؟

إذن : لا ينبغى أن تقول : إن الدنيا طويلة ؛ لأن عمرك فيها قصير ، ثم إنك لا تعلمه ، ولا تستطيع أنْ تتحكم فيه ، وكما أبهم الله الساعة أبهم الأجل ؛ لأن فى إبهامه أنفع البيان ، فلما أبهم الله الأجل جعل النفس البشرية تترقبه فى كل لحظة ، فكل لحظة تمر عليك يمكن أن يأتيك فيها الموت .

وهكذا أشاع الموت فى كل الزمن ، وما دام الأمر كذلك فلا بُدَّ أن ينتبه الإنسان ويخشى أن يموت وهو على معصية ، فالإبهام هنا هو عَيْن البيان .

وقلنا : إن الذين ماتوا من لَدُن آدم عليه السلام يلبثون فى قبورهم طوال هذه المدة ، فإذا ما قامت القيامة ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا (٤٦)﴾ [النازعات] لماذا ؟ قالوا : لأن قياس الزمن إنما يتأتى بالأحداث ، فحيث لا توجد أحداث لا يوجد زمن .

ومثَّلْنا لذلك بأهل الكهف الذين مكثوا فى كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعاً ، ومع ذلك لما سأل بعضهم بعضاً ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا

يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ .. (١٩) ﴾ [الكهف]

لماذا ؟ لأن النوم يخلو من الأحداث ، فلا يشعر النائم فيه بالزمن ، كما أنهم لما رأى بعضهم بعضاً بعد هذه الفترة رآه على حالته التى نام عليها لم يتأثر بمرور هذه المدة ، ولم تتغير هيئته ، فأقصى ما يمكن تصوُّره أن يقول : لبثنا يوماً أو بعض يوم .

وكذلك الحال في قصة العُزير الذى قال الله عنه : ﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ .. (٢٥٩) ﴾ [البقرة] ؛ لأن هذه هى أطول مدة يمكن أن ينامها الإنسان .

ثم أخبره ربه ﴿ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ .. (٢٥٩) ﴾ [البقرة] ويريد الحق سبحانه أن يُدلِّل على صدق الرجل فى قوله يوماً أو بعض يوم ، وعلى صدقه تعالى فى قوله مائة عام ، فيقول سبحانه : ﴿ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ .. (٢٥٩) ﴾ [البقرة] أى : لم يتغير .

وهذا دليل على صِدْقه فى يوم أو بعض يوم ﴿ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ .. (٢٥٩) ﴾ [البقرة]

وهذا دليل على صدق الحق ـ تبارك وتعالى ـ فى قوله ﴿ مِائَةَ عَامٍ .. (٢٥٩) ﴾ [البقرة] فكلا القولين صادق ؛ لأن الله تعالى هو القابض الباسط ، يقبض الزمن فى حق قوم ، ويبسطه فى حق آخرين .

وهذه الآية جمعتْ خمسة أمور استأثر الله تعالى بعلمها : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ .. (٣٤) ﴾ [لقمان]

فهل هذه هى كل الغيبيات فى الكون ؟ نقول : فى الكون غيبيات

كثيرة لا نعرفها ، فلا بُدَّ أن هذه الخمس هى المسئول عنها ، وجاء الجواب على قدر السؤال ، بالله لو هَبَّتْ الريح ، وحملتْ معها بعض الرمال ، أنعرف أين ذهبت هذه الذرات ؟ وفى أى ناحية ؟ أنعرف ورق الشجر كم تساقط منها ؟

هذه كلها غيبيات لا يعلمها أيضاً إلا الله ، أما نحن فلا نعلم حتى عدد النِّعَم التى أنعم الله بها علينا ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا .. (٣٤) ﴾ [إبراهيم]

إذن : فهذه نماذج لما استأثر الله بعلمه ؛ لأن الله تعالى قال : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٧) ﴾ [لقمان]

فلله تعالى فى كونه أسرار لا تُحصى ، أجَّل الله ميلادها ؛ لنعلم أننا فى كل يوم نجهل ما عند الله ، وكل يوم يطلع علينا العلماء والباحثون بجديد من أسرار الكون ـ هذا ونحن لا نزال فى الدنيا ، فما بالنا فى الآخرة ، وفى الجنة إن شاء الله ؟

وقد أخبر النبى ﷺ عنها فقال : « فيها ما لا عين رأتْ ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر »[(١)] .

والإنسان يكتسب المعلومات ، إما برؤية العين ، أو بسماع الأذن ، ومعلوم أن رقعة السمع أوسع من البصر ؛ لأنك لا ترى إلا ما تراه عيناك ، لكنك تسمع لمرائى الآخرين ، ثم أنت تسمع وترى موجوداً ،

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : قال الله عز وجل : أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر . مصداق ذلك فى كتاب الله : ﴿ فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٧) ﴾ [السجدة] أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٨٢٤) ، وأحمد فى مسنده (٢/٤٦٦) ، وأبو نعيم فى الحلية (٢/٢٦٢) من حديث أبى هريرة .

لكن هناك ما لا يخطر على قلب بشر يعنى : أشياء غيبية لم تطرأ على بال أحد ، وفى ذلك يقول سبحانه : ﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٧)﴾ [السجدة]

وقد ورد فى أسباب نزول مفاتح الغيب هذه ، أن رجلاً من محارب ، اسمه الحارث بن عمرو بن حارثة[1] أتى رسول الله ﷺ وقال : يا رسول الله : أريد أنْ أعرف متى الساعة ، وقد بذرْت بذرى ، وأنتظر المطر فمتى ينزل ؟ وامرأتى حامل ، وأريد أن تلد ذكراً ، وقد أعددت لليوم عُدَّته ، فماذا أُعِد لغد ؟ وقد عرفت موقع حياتى ، فكيف أعرف موقع مماتى ؟

هذه خمس مسائل مخصوصة جاء بها الجواب من عند الله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ .. (٣٤)﴾ [لقمان]

وعجيب أنْ نرى من خَلْق الله مَنْ يحاول أن يستدرك على مقولة الله فى هذه الغيبيات الخمس ، كالذين حاولوا أنْ يتنبأوا بموعد قيام الساعة ، وقد كذبوا جميعاً ، ولو قُدِّر لهم الإيمان بالله ، والعلم بما قاله الله فى قيام الساعة ما تجرأ منهم أحد على هذه المسألة .

وقلنا : إن الحق سبحانه أخفى موعد الساعة لكى نستشعرها دائماً ، وفى كل وقت ، حتى الذين لا يؤمنون بها ويشكُّون فيها ، وإذا ما استشعرها الناس عملوا لها ، واستعدوا لأهوالها ، كما أخفى الله عن الإنسان ساعة موته ومكان أجله ، وجعل الموت يدور على

---

(١) قال الواحدى فى أسباب النزول (ص ١٩٨) : « نزلت آية ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ .. (٣٤)﴾ [لقمان] : فى الحارث بن عمرو بن حارثة بن محارب بن حفصة من أهل البادية أتى النبى ﷺ فسأله عن الساعة ووقتها وقال : إن أرضنا أجدبت ، فمتى ينزل الغيث ، وتركت امرأتى حُبْلَى فماذا تلد ؟ وقد علمت أين ولدت فبأىّ أرض أموت ؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية .

العباد على غير قاعدة .

فمنهم مَنْ يموت بعد دقائق من مولده ، ومنهم مَنْ يعمر مئات السنين ، كما أنه سبحانه لم يجعل للموت مقدمات من مرض أو غيره ، فكم من مريض يُعافى ، وصحيح يموت ، كما يقولون : كيف مريضكم ؟ قال : سليمنا مات ، وصدق القائل :

فَلا تَحْسَبَ السُّقْم كأْسَ الممات وإنْ كَان سُقْماً شَديد الأثَر
فَرُبَّ عليل تَرَاهُ اسْتفَاق ورُبّ سَلِيم تَرَاه اسْتتر

كذلك الموت لا يرتبط بالسِّن :

كم بُودرت غادة كعَابٌ وغُودِرَتْ أمُّها العَجُوزُ
يجُوزُ أنْ تبطىء المنَايَا والخُلْدُ فى الدَّهْر لا يَجُوزُ

إذن : أخفى الله القيامة وأخفى الموت ؛ لنظل على ذُكْر له نتوقعه فى كل لحظة ، فنعمل له ، ولنتوقع دائماً أننا سنلقى الله ، فنعد للأمر عُدته ؛ لأن مَنْ مات فقد قامت قيامته ؛ لأنه انقطع عمله ، ففى إبهام موعد القيامة وساعة الموت عَيْن البيان لكل منهما ، فالإبهام أشاعه فى كل وقت .

وقوله : ﴿ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ .. (٣٤) ﴾ [لقمان] وهذا أيضاً ، ومع تقدُّم العلوم حاول البعض التنبؤ به بناء على حسابات دقيقة لسرعة الرياح ودرجة الحرارة .. إلخ ، وربما صَحَّتْ حساباتهم ، لكن فاتهم أن لله أقداراً فى الكون تحدث ولا تدخل فى حساباتهم ، فكثيراً ما نُفَاجأ بتغيُّر درجة الحرارة أو اتجاه الريح ، فتنقلب كل حساباتنا .

لذلك من عجائب الخَلْق أنك كلما اقتربتَ من الشمس وهى مصدر الحرارة تقِلُّ درجة الحرارة ، وكلما ابتعدت عنها زادت درجة

الحرارة ، إذن : المسألة ليست روتينية ، إنما هى قدرة الله سبحانه ، والله يجمع لك الأسباب ليثبت لك طلاقة قدرته التى تقول للشىء : كُنْ فيكون .

ألسنا نُؤمر فى الحج بأن نُقبِّل حجراً ونرمى آخر ، وكل منهما إيمان وطاعة ، هذا يُباس[1] وهذا يُداس ، هذا يُقبَّل وهذا يقنبل ، لماذا ؟ لأن الله تعالى يريد منا الالتزام بأمره ، وانصياع النفس المؤمنة للرب الذى أحيا ، والرب الذى كلَّف .

وقوله تعالى : ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ .. (٣٤)﴾ [لقمان] هذه أيضاً من مفاتح الغيب ، وستظل كذلك مهما تقدمت العلوم ، ومهما ادَّعى الخَلْق أنهم يعلمون ما فى الأرحام ، والذى أحدث إشكالاً فى هذه المسألة الآن الأجهزة الحديثة التى استطاعوا بها رؤية الجنين ، وتحديد نوعه أذكر أم أنثى ، فهذه الخطوة العلمية أحدثتْ بلبلة عند بعض الناس ، فتوهموا أن الأطباء يعلمون ما فى الأرحام ، وبناءً عليه ظنوا أن هذه المسألة لم تَعُدْ من مفاتح الغيب التى استأثر الله بها .

ونقول : أنتم بسلطان العلم علمتم ما فى الأرحام بعد أن تكوَّن ووضحتْ معالمه ، واكتملتْ خلْقته ، أما الخالق ـ عز وجل ـ فيعلم ما فى الأرحام قبل أنْ تحمل الأم به ، ألم يُبشِّر الله تعالى نبيه زكريا عليه السلام بولده يحيى قبل أن تحمل فيه أمه ؟ ونحن لا نعلم هذا الغيب بذواتنا ، إنما بما علّمنا الله ، فالطبيب الذى يُخبرك بنوع الجنين لا يعلم الغيب ، إنما مُعلَّم غيب .

والله ـ تبارك وتعالى ـ يكشف لبعض الخلق بعض الغيبيات ،

---

(١) قال ابن منظور فى [لسان العرب ـ مادة : بوس] : « البَوْس التقبيل ، فارسى معرب ، وقد باسه يبوسه » .

ومن ذلك ما كان من الصِّدِّيق أبى بكر ـ رضى الله عنه ـ حين أوصى ابنته عائشة ـ رضى الله عنها ـ قبل أن يموت وقال لها : يا عائشة إنما هما أخواك وأختاك ، فتعجبت عائشة حيث لم يكن لها من الإخوة سوى محمد وعبد الرحمن ، ومن الأخوات أسماء ، لكن كان الصِّديق فى هذا الوقت متزوجاً من بنت خارجة ، وكانت حاملاً وبعد موته ولدتْ له بنتاً[1] ، فهل نقول : إن الصِّدِّيق كان يعلم الغيب ؟ لا ، إنما أُعلِم من الله . إذن : الممنوع هنا العلم الذاتى أن تعلم بذاتك .

ثم إن الطبيب يعلم الآن نوع الجنين ، إما من صورة الأشعة أو التحاليل التى يُجريها على عينة من الجنين ، وهذا لا يُعتبر علماً للغيب ، و (الشطارة) أن تجلس المرأة الحامل أمامك وتقول لها : أنت إنْ شاء الله ستلدين كذا أو كذا ، وهذا لا يحدث أبداً .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا .. (٣٤)﴾ [لقمان] الإنسان يعمل ، إما لدنياه ، وإما لأُخْراه ، فالمعنى إما تكسب من الخير المادى لذاتك لتعيش ، وإن كان من مسألة التكليف ، فالنفس إما تعمل الخير أو الشر ، الحسنة أو السيئة ، والإنسان فى حياته عُرضَة للتغيُّر .

لذلك يقال فى الأثر : « يا ابن آدم ، لا تسألنى عن رزق غدٍ ، كما لم أطالبك بعمل غد » .

وقوله تعالى : ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ .. (٣٤)﴾ [لقمان] وهذه المسألة حدث فيها إشكال ؛ لأن رسول الله ﷺ أخبر الأنصار

---

(١) هى : أم كلثوم بنت أبى بكر ، أمها حبيبة بنت خارجة بن زيد ، وكانت حاملاً بها عند وفاة أبى بكر وولدت بعده . [ابن سعد فى الطبقات ٣/١٥٥] .

أنه سيموت بالمدينة حينما وزع الغنائم على الناس جميعاً ما عدا الأنصار ؛ لذلك غضبوا ووجدوا فى أنفسهم شيئاً ؛ لأن رسول الله حرمهم ، لكن سيدنا رسول الله جمعهم وتلطَّف معهم فى الحديث واعترف لهم بالفضل فقال : والله لو قلتم أنى جئت مطروداً فآويتمونى فأنتم صادقون ، وفقيراً فأغنيتمونى فأنتم صادقون .. لكن ألا تحبون أن يرجع الناس بالشاة والبعير ، وترجعون أنتم برسول الله »[(١)] ، وقال فى مناسبة أخرى « المحيا محياكم ، والممات مماتكم »[(٢)] .

إذن : نُبِّىءَ رسول الله أنه سيموت بالمدينة ، والله يقول ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ .. (٣٤)﴾ [لقمان] نقول : الأرض منها عام وخاصّ ، فأرض المدينة شىء عام ، نعم سيموت بالمدينة ، لكن فى أىِّ بقعة منها ، وفى أى حجرة من حجرات زوجاته ؟ إذن : إذا علمتَ الأرض العامة ، فإن الأرضَ

---

(١) أخرج البخارى فى صحيحه (٤٣٣٠) عن عبد الله بن زيد بن عاصم قال : « لما أفاء الله على رسوله ﷺ يوم حنين قسم فى الناس فى المؤلفة قلوبهم ولم يُعْطِ الأنصار شيئاً ، فكأنهم وجدوا إذ لم يُصبهم ما أصاب الناس ، فخطبهم فقال : يا معشر الأنصار ألم أجدكم ضلالاً فهداكم الله بى ، وكنتم متفرقين فألفكم الله بى ، وعالة فأغناكم الله بى ؟ كلما قال شيئاً قالوا : الله ورسوله أمنُّ . قال : ما يمنعكم أن تجيبوا رسول الله ﷺ ؟ قال : كلما قال شيئاً . قالوا : الله ورسوله أمنُّ . قال : لو شئتم قلتم : جئتنا كذا وكذا ، ألا ترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير ، وتذهبون بالنبى ﷺ إلى رحالكم ؟ لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار ، ولو سلك الناس وادياً وشعباً لسلكت وادى الأنصار وشعبها ، الأنصار شعار ، والناس دثار » .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٧٨٠) رواية (٨٦) كتاب الجهاد والسير أنه قال للأنصار فى حديث طويل : « أنا محمد عبد الله ورسوله ، هاجرت إلى الله وإليكم ، فالمحيا محياكم والممات مماتكم » .

الخاصة ما زالت مجهولة لا يعلمها أحد .

يُرْوى أن أبا جعفر المنصور الخليفة العباسى كان يحب الحياة ويحرص عليها ، ويخاف الموت ، وكان يستشير فى ذلك المنجِّمين والعرافين ، فأراد الله أنْ يقطع عليه هذه المسألة ، فأراه فى المنام أن يداً تخرج من البحر وتمتد إليه ، وهى مُفرَّجة الأصابع هكذا ، فأمر بإحضار مَنْ يُعبِّر له هذه الرؤيا ، فكان المتفائل منهم ، أو الذى يبغى نفاقه يقول له : هى خمس سنوات وآخرون قالوا : خمسة أشهر ، أو خمسة أيام أو دقائق .

إلى أن انتهى الأمر عند أبى حنيفة رضى الله عنه فقال له : إنما يريد الله أن يقول لك : هى خمسة لا يعلمها إلا الله ، وهى : ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ .. (٣٤)﴾ [لقمان]

وما دامت هذه المسائل كلها مجهولة لا يعلمها أحد ، فمن المناسب أن يكون ختام الآية ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (٣٤)﴾ [لقمان]

إذن : الحق سبحانه يريد أنْ يُريح خَلْقه من الفكر فى هذه المسائل الخمس ، وكل ما يجب أن نعلمه أن المقادير تجرى بأمر الله لحكمة أرادها الله ، وأنها إلى أجل مسمى ، وأن العلم بها لا يُقدِّم ولا يُؤخِّر ، بالله ماذا يحدث لو علمت ميعاد موتك ؟ لا شىء أكثر من أنك ستعيش نَكِداً حزيناً طوال الوقت لا تجد للحياة لذة .

لذلك أخفى الله عنَّا هذه المسألة لنُقبِل على الله بثقتنا فى مجريات قدر الله فينا .

سُورَةُ السَّجْدَةِ

سورة السجدة[1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾

هذه من الحروف المقطَّعة المبنية على الوقف ، على خلاف آيات القرآن التى بُنِيتْ كما قُلْنا على الوصل من أول القرآن إلى آخره ، بل على وصل آخره بأوله ؛ لذلك ينبغى أن تقرأ القرآن على الوصل ، ما دام نَفَسُكَ يساعدك ، ولا تقف إلا إذا انقطع النفَس ، فتقف وتُسكِّن الحرف الذى وقفتَ عليه .

وقد قال علماء القراءات : وليس فى القرآن مِنْ وقف وجب ؛ لأنه

---

(١) سورة السجدة هى السورة رقم (٣٢) فى ترتيب المصحف الشريف ، وهى سورة مكية ، إلا ثلاث آيات نزلت بالمدينة ، وهى قوله تعالى ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾ أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ .. ﴿٢٠﴾﴾ [السجدة] . عدد آياتها ٣٠ آية ، نزلت بعد سورة المؤمنين وقبل سورة الطور .

بُنى على الوصل ، فلا تقف إلا إذا ضاق نَفَسُك ؛ لذلك جعلوا فى القرآن مواضع للوقف ، وتُرسم فى المصحف (صِلى ، قِلى ، ج) ، لكن الأصل الوصل .

وقلنا : إن أوضح مثال على الوصل فى القرآن أن كلمة الناس فى آخر سورة الناس ، وهى آخر القرآن لم تأْت ساكنة ، إنما متحركة بالكسر (الناسِ) ؛ لأن الله تعالى قدَّر حلَّكَ فى الناس فجعلك ترحل إلى بسم الله الرَحمن الرحيم فى أول الفاتحة ، فلا تقطع الصلة بين آخر القرآن وأوله ، وسمَّيْنا قارىء القرآن لذلك « الحالّ المرتحل » .

وهنا تأتى ﴿الٓمٓ ۝١﴾ [السجدة] بعد مفاتح الغيب الخمسة التى سبقتْ فى آخر سورة لقمان ، وكأنها مُلْحقة بها ، فهى سرٌّ استأثر الله تعالى بعلمه ، ونحن فى تفسيرنا لها نحوم حولها ؛ لذلك كل مَنْ فسَّر الحروف المقطَّعة فى بدايات السور لا بُدَّ أن يقول بعدها : والله أعلم بمراده ؛ لأن تفسيراتنا كلها اجتهادات تحوم حول المعنى المراد ؛ لذلك نحن لا نقول هذه الكلمة فى كل آيات القرآن ، إنما فى هذه الآيات والحروف بالذات .

وكيف بنا حين يجمعنا الله تعالى إنْ شاء الله فى مقعد صدْق عند مليك مقتدر ، كيف بنا حين نسمع هذا القرآن مباشرة منَ الله عز وجل ؟ لا شكَّ أننا سنسمع كلاماً كثيراً غير الذى سمعناه ، ومعانى كثيرة غير التى توصَّلنا إليها فى اجتهاداتنا ، وعندها سنعرف مرادات الله تعالى فى هذه الحروف ، وسنعرف كم قَصُرَتْ عقولنا عن فهمها ، وكم كنا أغبياء فى فَهْمنا لمرادات ربنا .

وقوله تعالى ﴿الٓمٓ ۝١﴾ [السجدة] عادةً يأتى بعد هذه الحروف المقطعة أمر يخصُّ الكتاب العزيز .

وهنا يقول سبحانه :

﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾

مادة (نزل) وردتْ فى القرآن بلفظ : نزل ، ونزَّل ، وأنزل . أنزل تدل على التعدية ، يعنى : أن الله تعالى عدَّى القرآن من اللوح المحفوظ ، إلى أنْ يباشر مهمته فى السماء الدنيا ، وهذا الإنزال من الله تعالى .

أما نزَّل فالتنزيل مهمة الملائكة ؛ لذلك يقول تعالى فى الإنزال : ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ ۝١﴾ [القدر] أى : من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا ، ثم تتنزَّل به الملائكة مُنجَّماً حسب الأحداث ، وفى ذلك يقول تعالى : ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ ۝١٩٣﴾ [الشعراء]

ويقول سبحانه : ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ ..۝١٠٥﴾ [الإسراء] فقد كان محفوظاً عندنا فى اللوح المحفوظ ﴿لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ ۝٧٩﴾ [الواقعة] ثم نزل به الروح الأمين جبريل .

وما دام ﴿نَزَلَ به .. ۝١٩٣﴾ [الشعراء] فهذا يعنى أن القرآن نزل معه ، فقوله : ﴿نَزَلَ به الرُّوحُ الأَمِينُ ۝١٩٣﴾ [الشعراء] تساوى تماماً ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ ..۝١٠٥﴾ [الإسراء] ، فالنزول يُنسَب مرة إلى القرآن ، ومرَّة إلى الروح الأمين .

ومادة نزل وما يُشتق منها من إنزال وتنزيل تفيد كلها أنه جاء من جهة العلو إلى جهة أسفل منه ، كأنك تتلقّى من جهة أعلى منك وأرفع ، وما دُمْتَ تتلقى من جهة أعلى منك ، فإيَّاك أنْ يضل بك الفكر لناحية أخرى .

لذلك يقول تعالى مخاطباً رسوله ﷺ فى أمر التكليف : ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ .. (١٥١)﴾ [الأنعام] فنحن نفهم أن تعالوا بمعنى تعالَ . أى : أقبل ، لكنها تحمل مع هذا المعنى معنى العلو : أقبل دانياً إلى متعالٍ ، تعالَ من أوضاعك الأرضية إلى عُلُو ربك فى الملأ الأعلى.

تعالَ يعنى : لا تأخذ من نفسك ولا من مُسَاوٍ لك ، إنما ارتفع وخُذْ من الأعلى ، ارتفع عن مستوى الأرض وعقولهم وأفكارهم ، وخُذْ من الذى شرَّع لك ؛ لأنه لا بُدَّ أن تكون عنده أمور ومواصفات آمن لك وأسلم ؛ لأن علمه أوسع ، فلا يُشَرِّع لك اليوم ما ينقضه غداً .

ثم إنَّ شرعه لك يستوعب كل نواحى حياتك وأقضيتها ، وهذه المواصفات لا تكون إلا فى الحق ـ تبارك وتعالى ـ وهو سبحانه أرحم بك من الوالدة بولدها ، فلا يُشرِّع لك إلا ما يُصلحك ، ثم هو سبحانه ليس له غرض أو مصلحة ذاتية من وراء هذا التشريع ، كما نرى فى تشريعات البشر للبشر .

وقد رأينا الرأسماليين حينما شرّعوا قانوناً جاء يخدمهم ، وليكونوا هم أول المنتفعين به ؛ لذلك سرعان ما تهاوى ؛ لأن شرط المشرِّع الحق ألاَّ ينتفع هو بما يُشرِّع ، وعليه فلا مشرِّع حقٌّ إلا الله .

لذلك رأينا حتى غير المؤمنين بالله من الكافرين أو المشركين بعد أنْ تعضَّهم الأحداث ، وتخفق قوانينهم فى حَلِّ مشاكلهم يلجئون إلى حلول لها من قوانين الإسلام .

ولما سُئلنا فى سان فرانسيسكو عن قوله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٣٣)﴾ [التوبة] وفى موضع آخر ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٨)﴾ [الصف]

قالوا لنا : هذا يعنى أن الإسلام ظاهر على الأديان منذ أربعة عشر قرناً من الزمان ، فما بالنا نرى الآن أكثر أهل الأرض من غير المسلمين ؟

فقلت فى الرد عليهم : والله لو فهمتُم أسرار اللغة ، وتأملتُم هذه الآية لوجدتم أن الردَّ فيها ، فواحدة تقول ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٨)﴾ [الصف] ، والأخرى تقول ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٣٣)﴾ [التوبة]

إذن : فالكفر والشرك موجودان مع وجود الإسلام ، وليس معنى الظهور هنا أن يطمس هؤلاء ، أو أنْ يُقْضَى عليهم قضاء مبرماً ، إنما يظهر عليهم بحيث يُضطرون إليه ، ويلجئون إلى أحكامه ، رغم عدم إيمانهم به ، وهذا أبلغ فى الظهور ، أنْ تأخذ بما فى القرآن وأنت غير مؤمن به ؛ لأنك لا تجد حلاً لقضاياك إلا فيه .

وأوضح مثال على ذلك أنهم هاجموا شرع الله فى مسألة الطلاق ، وفى مسألة تعدُّد الزوجات ، واتهموا الإسلام بالوحشية .. إلخ ، ثم تضطرهم أقضية الحياة ومشاكلها أنْ يشرِّعوا الطلاق ، وأنْ يأخذوا به على مرأى ومَسْمع من الفاتيكان ، فماذا جرى ؟ فنقول لهم : هل أسلمتم وآمنتم ؟ لا ، إنما لجأنا إليه ؛ لأن فيه الحل لهذه المشاكل التى أحاطتْ بنا .

فهذه إذن شهادة العدو لدين الله ، وهذا هو أعظم الإظهار للإسلام على هذه الأديان ؛ لأنهم لو أسلموا لقالوا عنهم : أخذوا بهذا الشرع لأنهم أسلموا ، إنما ها هم يأخذون به وهم به كافرون مشركون .

ومعنى ﴿لا رَيْبَ فِيهِ .. (٢)﴾ [السجدة] أى : لا شكَّ فيه . وقلنا : إن النسب فى القضايا . أى : نسبة شىء لشىء إما مجزوم بها أو غير مجزوم بها ، فلو قُلْنا : الأرض كروية هذه قضية جزم بها

الآن ، ونستطيع التدليل على صحتها دليلاً حسياً ، فهذه قضية واقعة ومجزوم بصحتها ، وعليها دليل من الكون .

فإنْ كانت القضية غَيْرَ مجزوم بها ، فهى بين ثلاث حالات : إما فيها شكّ ، أو ظنّ ، أو وهم : الشك أنْ تتساوى الكفَّتان : الإثبات والنفى ، والظن أن تغلب جانب الإثبات فلا تجزم به إنما ترجِّحه ، فإنْ غلَّبْتَ الأخرى وجعلتها هى الراجحة ، فهذا توهم .

وهنا قال سبحانه ﴿لا رَيْبَ فِيهِ .. (٢)﴾ [السجدة] لا شكَّ فيه ، فنفى الشكَّ ، وهو تساوى النفى والإثبات ، وما دام قد نفى التساوى ، فهذا يعنى أنه أراد أنْ يثبت الأعلى . أى : أنه حَقٌّ لا يرقى إليه الشك .

وجملة ﴿لا رَيْبَ فِيهِ .. (٢)﴾ [السجدة] جملة اعتراضية بين ﴿الْكِتَابِ .. (٢)﴾ [السجدة] ، وبين ﴿مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٢)﴾ [السجدة] وما دام أنه ﴿مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فلا بُدَّ أنه حقٌّ لا ريب فيه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣)﴾

عجيب أنْ يقابلَ العربُ كلامَ الله بهذا الاتهام ، وهم أمة فصاحة وبلاغة وبيان ، وقد بلغوا فى هذا شأناً عظيماً ، حتى جعلوا للكلام معارض وأسواقاً ، كما نقيم الآن المعارض لمنتجاتنا ، ولا يُعرض فى المعارض هذه إلا السلع الجيدة محلّ الفخر ، فقبل الإسلام كان فى عكاظ وذى المجاز مضمار للقول ، وللأداء البيانى بين الأدباء والشعراء .

فعجيبٌ منهم ألاَّ يميزوا كلام الله عن كلام البشر ، خاصة وقد تحدَّاهم وتحدَّى فصاحتهم وبلاغتهم أنْ تأتى بآية واحدة من مثله ، ومعلوم أن التحدى يكون للقوى لا للضعيف ، فتحدِّى القرآن للعرب يُحسَبُ لهم ، وهو اعتراف بمكانتهم ومكانة لغتهم ، فهو - إذن - شهادة لهم ، ويكفيهم أن الله تعالى أدخلهم معه فى مجال التحدى .

ولما عجزوا عن الإتيان بمثله راحوا يتهمونه ويتهمون رسول الله ، فمرة يقولون : شاعر ، ومرة : ساحر ، وأخرى يقولون : مجنون ، ومرة يقولون : بل يُعلِّمه ذلك أحد الأعاجم .. إلخ ، وهذا كله إفلاس فى الحجة ، فهم يريدون أنْ يُكذِّبوا رسول الله ﷺ ، أما القرآن فى حدِّ ذاته ، فلا يَخْفى عليهم أنه كلام الله ، وأن البشر لا يقولون مثل هذا الكلام ، بدليل أن الوليد بن المغيرة لما سمعه قال : « والله ، إن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغْدِق ، وأنه يعلو ولا يُعلى عليه »[(١)] .

لذلك لما لم يجدوا فى القرآن مطعناً اعترفوا بأنه من عند الله ، لكن كان اعتراضهم أنْ ينزل على هذا الرجل بالذات : ﴿ وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ[(٢)] مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) ﴾ [الزخرف] فكانوا

---

(١) اجتمع نفر من قريش إلى الوليد بن المغيرة ، فقال لهم : يا معشر قريش إنه قد حضر هذا الموسم ، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه ، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا (يقصد محمداً) فأجمعوا فيه رأياً واحداً ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضاً . فمن قائل : إنه كاهن. وقائل : مجنون . وقائل : إنه شاعر . وقائل : إنه ساحر . فردَّ كل أقوالهم ، ثم قال : والله إن لقوله لحلاوة وإن أصله لعذق ، وإن فرعه لجناة ، وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عُرف أنه باطل ، وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا هو ساحر جاء بقول هو سحر يفرق به بين المرء وأبيه ، وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجته ، وبين المرء وعشيرته ، فتفرقوا عنه بذلك « السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٢٨٤) » .

(٢) اختلف العلماء فى تحديد الرجل العظيم المقصود ، فمن مكة : الوليد بن المغيرة أو عتبة ابن ربيعة . ومن الطائف : عروة بن مسعود أو عمير بن عبد ياليل . قال ابن كثير فى تفسيره (٤/ ١٢٧) : « الظاهر أن مرادهم رجل كبير من أى البلدتين كان » والقريتان هنا : مكة والطائف .

ينتظرون أنْ يُنزَّل القرآن على عظيم من عظمائهم أو ملك من الملوك ، لكن أنْ ينزل على محمد هذا اليتيم الفقير ، فهذا لا يُرضيهم ، وقد ردَّ القرآن عليهم : ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ .. (٣٢)﴾ [الزخرف]

يعنى : إذا كنا قد قسمنا بينهم أمور الدنيا وما يتفاضلون به من عرضها ، فهل نترك لهم أمور الآخرة يُقسمونها على هواهم وأمزجتهم ؟ والرسالة رحمة من الله يختصُّ بها مَنْ يشاء من عباده ﴿و اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ .. (١٢٤)﴾ [الأنعام]

وهذا يعنى أنهم انتهوا إلى أن القرآن مُعْجِز ، وأنه من عند الله لا غُبَار عليه ، والذى قرأه منهم ، وأيقن أنه حق قال : ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ(٣٢)﴾ [الأنفال]

وهذا الكلام لا يقول به عاقل ، وقد دلَّ على غبائهم وحُمْقهم ، وكان الأَوْلَى بهم أنْ يقولوا : اللهم إنْ كان هذا هو الحق من عندك فاهْدِنا إليه .

وقد ردَّ القرآن على كل افتراءاتهم على رسول الله ، وفنَّدها جميعاً ، وأظهر بطلانها ، لما قالوا عن رسول الله إنه مجنون ردَّ الله عليهم : ﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (١) مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (٢) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ (٣) وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤)﴾ [القلم]

والمجنون لا يكون أبداً على خلق عظيم ؛ لأنه محكوم بالغريزة لا يختار بين البدائل والتصرفات كالحيوان ، ولا ينشأ عن ذلك خُلق كريم .

أما الإنسان السَّوىُّ فإنه يختار بين البدائل المتعددة ، فلو اعتدى عليه إنسان فقد يردُّ عليه . بمثل هذا الاعتداء ، وقد يفكر فى المثلية ، وأن اعتداءه قد يزيد فيميل إلى التسامح ، واحد يكظم غيظه وآخر يزيل كل أثر للغيظ ، ويبغى الأجر على ذلك من الله ، عملاً بقوله تعالى[1] : ﴿أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ .. (٢٢)﴾ [النور] وكأن الله يشجعنا على عمل الخير .

لذلك لما سُئل الحسن البصرى : كيف يطلب الله منَّا أنْ نُحسن إلى مَنْ أساء إلينا ؟ قال : هذه مَرَاق فى مجال الفضائل ، وقد أباح الله لك أنْ تردَّ الإساءة بمثلها ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا .. (٤٠)﴾ [الشورى] لكن يترك الباب مفتوحاً أمام أريحية النفس المؤمنة ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ .. (٤٠)﴾ [الشورى]

ثم إذا حسبنا هذه المسألة بمقاييس العقل ، فإن الخَلْق كلهم عيال الله ، وهم عنده سبحانه سواء ، فماذا لو اعتدى أحد عيالك على الآخر ؟ لا شكَّ أنك ستكون فى جانب المظلوم ، فتأخذه فى حضنك وترعاه وتعطف عليه ، وكذلك الحق ـ تبارك وتعالى ـ يكون فى جانب عبده إذا ظلم . وقد قال أحدهم : أَلاَ أُحسِن إلى مَنْ جعل الله فى جانبى ؟

من هنا يقولون : أنت لا تكسب كثيراً من الأخيار ، إنما كل كسب

---

(١) نزلت هذه الآية فى أبى بكر الصديق حين حلف أن لا ينفع مسطح بن أثاثة بنافعة أبداً بعدما قال فى عائشة ، فلما أنزل الله براءة عائشة رضى الله عنها شرع الله يعطف الصِّديق على قريبه ونسيبه مسطح وكان ابن خالة الصديق وكان مسكيناً لا مال له إلا ما ينفق عليه أبو بكر ، وقد ضرب الحد على الزلة التى زلها فى حق عائشة ، فنزل قوله تعالى : ﴿أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ .. (٢٢)﴾ [النور] ، عند ذلك قال الصديق : بلى والله إنا نحب أن تغفر لنا يا ربنا ، ثم رجع إلى مسطح ما كان يصله من النفقة . [تفسير ابن كثير ٣/٢٧٦] .

لك يأتى من الأشرار حين يسيئون إليك وتحسن إليهم ؛ لذلك يقولون : فلان هذا رجل طيب ، لكن مَنْ يمشى معه لا يستفيد منه حسنة أبداً ، لماذا ؟ يقولون : لأنه خادم للجميع ، وجعل خدَّه (مداساً) لمن معه ، فلا يجعل أحداً (يستفتح) منه بحسنة .

ورُوى عن سيدنا رسول الله ﷺ أنه تبسَّم فى مجلس مع أصحابه ، فقالوا : ما يُضحكك يا رسولَ الله ؟ فقال : « رأيتُ ربى ، وقد أجلس بين يديه خَصْمين ، فقال أحدهما : يا ربِّ إن هذا ظلمنى فخُذْ لى حقِّى منه ، فقال : كيف آخذ لك حقك منه ؟ قال : أعطنى من حسناته بقدر ما أساء إلىّ ، فقال : ليست له حسنات ، فقال : فخُذْ من سيئاتى واطرح عليه ، فقال : أوَيرضيك ألاَّ تكونَ لك سيئة ؟ قال : إذن ، يا رب كيف أقضى حقى منه ؟ قال : انظر يمينك ، فنظر الرجل يمينه ، فوجد قصوراً وبساتين وجِنَاناً ، مما لا عَيْنٌ رأت ، ولا أذنٌ سمعتْ ، ولا خطر على قلب بشر ، فقال : لمَنْ هذه يا ربِّ ؟ قال : لمن يدفع ثمنها ، فقال : وما ثمنها يا رب ؟ قال : أنْ تأخذَ بيد أخيك إلى الجنة ، فعجبتُ من رَبٍّ يُصلِح بين عباده »[(١)] .

هذا عن قولهم عن رسول الله : مجنون ، أما قولهم : ساحر . فالردُّ عليها ميسور ، فإذا كان محمد ساحراً ، سحر مَنْ آمن به ، فلماذا لم يَسْحركم أنتم أيضاً ؟ فكونكم سالمين من السحر دليل على أنه ﷺ ليس ساحراً ، بل هذا كذب وافتراء على رسول الله .

أما قولهم : شاعر ، فهذا عجيب منهم ، وهم أمة كلام وبلاغة ،

---

(١) أخرجه الحاكم فى مستدركه (٤/٥٧٦) وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، قال الذهبى : « عباد ضعيف وشيخه لا يعرف » وكذا أخرجه أبو بكر بن أبى داود السجستانى فى « البعث والنشور » (ص ٤٩ ، ٥٠) كلاهما من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه .

وهم أكثر خَلْق الله تمييزاً للشعر من النثر ، وخير مَنْ يفرق بين الأساليب وطرق الأداء ، وقد تولى الله تعالى الردَّ عليهم ، فقال : ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ .. (٦٩)﴾ [يس]

وفى سورة الحاقة ، يقول سبحانه : ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ (٤١) وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ (٤٢)﴾ [الحاقة]

فلما خابتْ كُلُّ هذه الحيل ، وكذبتْ كل هذه الافتراءات قالوا : بل له شيطان يُعلِّمه ، وكانوا يقولون ذلك للشاعر البليغ الذى لا يُشَقُّ له غبار فى الفصاحة وحُسْن الأداء ، حتى جعلوا لهؤلاء الجن مكاناً خاصاً بهم ، فقالوا (وادى عبقر) ، وهو مسكن هؤلاء الجن الذين يُلْهِمون البشر ويُعلِّمونهم .

والشعر كلام موزون مُقفًّى ، وله بحور معروفة ، فهل القرآن على هذه الشاكلة ؟ لا ، إنما هو افتراء على رسول الله ، كافترائهم عليه هنا :

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ .. (٣)﴾ [السجدة]

فقوله تعالى : ﴿أَمْ يَقُولُونَ .. (٣)﴾ [السجدة] أم تعنى أن لها مقابلاً ، يعنى : أيقولون كذا ؟ أم يقولون : افتراه ، فماذا هذا المقابل ؟ المقابل ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٢)﴾ [السجدة] فالمعنى : أيُصدِّقون بأن هذا الكتاب من عند رب العالمين ، وأنه لا رَيْبَ فيه ؟ أم يقولون افتراه محمد ، فأَمْ هنا جاءت لتنقض ما يُفهَم من الكلام السابق عليها .

وقوله : ﴿بل هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ .. (٣)﴾ [السجدة] نعرف أن (بل) تأتى للاستدراك ، لكنها هنا ليست للاستدراك ، إنما لإبطال قولهم ﴿افْتَرَاهُ .. (٣)﴾ [السجدة] كما لو قُلْت : زيد ليس عندى بل

عمرو ، فأفادتْ الإضراب عما قبلها ، وإثبات الحكم لما بعدها ، وهم يقولون افتراه والله يقول : ﴿بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ .. ﴿٣﴾﴾ [السجدة] فكلامهم واتهامهم باطل ، والقرآن هو الحق من عند الله .

وقُلْنا : إن ﴿الْحَقّ.. ﴿٣﴾﴾ [السجدة] هو الشيء الثابت الذى لا يطرأ عليه التغيير ؛ لذلك فالحقائق ثابتة لا تتغير أبداً ، كيف ؟ هَبْ أن حادثة وقعتْ نتج عنها مُدَّع ومُدَّعىً عليه وشهود ، واجتمعوا جميعاً أمام القاضى ، وقد يحدث أن يُغيِّر أحدهم أقواله ، أو يشهد الشهود شهادة زور .

لكن خبرة القاضى ودُرْبته تكشف الحقائق وتُظهر كذبهم حين يضرب أقوال بعضهم ببعض ، ويسألهم ويحاورهم إلى أنْ يصل إلى الحقيقة ؛ ذلك لأن الواقع شيء واحد ، ولو أنهم يصفون واقعاً لاتفقوا فيه ، ولباقة القاضى هى التى تُظهر الباطل المتناقض وتُبطله وتُحقّ وتغلب الحق الذى لا يمكن أن يتناقض .

كالقاضى الذى اجتمع أمامه خَصْمان ، يدَّعى أحدهما على الآخر أنه أخذ منه مالاً ولم يردّه إليه ، فقال المدَّعَى عليه : بل رددته إليه فى مكان كذا وكذا ، فأنكر المدَّعى ، فقال القاضى للمدَّعَى عليه : اذهب إلى هذا المكان ، فلعل هذا المال وقع منك هناك ، فذهب الرجل وأبطأ بعض الوقت ، فقال القاضى للمدعى : لقد أبطأ صاحبك ، فقال : أبطأ ؛ لأن المكان بعيد ، فوقع فى الحقيقة التى كان ينكرها .

ثم يقول سبحانه : ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ .. ﴿٣﴾﴾ [السجدة] ومعلوم أن سيدنا رسول الله جاء بشيراً ونذيراً ، لكن خصَّ هنا النذير ؛ لأنه جاء ليصلح معتقدات فاسدة ، وإصلاح الفاسد لا بُدَّ أن يسبق ما يُبشر به ، ولم يأتِ ذكر البشارة هنا ؛ لأنهم

ما سمعوا للنذارة ، وما استفادوا بها .

لكن قوله تعالى : ﴿ مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ .. (٣) ﴾ [السجدة] تصطدم لفظياً بقوله تعالى : ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ (٢٤) ﴾ [فاطر] وقوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً (١٥) ﴾ [الإسراء] وليس بين هذه الآيات تناقض ؛ لأن المعنى : ما أتاهم من نذير قريب ، ولا مانع من وجود نذير بعيد ، كما قال تعالى : ﴿ يَـٰأَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ .. (١٩) ﴾ [المائدة]

وإلا ، فمن أين عرفوا أن الله تعالى خالق السموات والأرض ، كما حكى القرآن عنهم : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ .. (٢٥) ﴾ [لقمان] فهذا أثر من آثار الرسل السابقين ، كما كان فيهم أناس متبعون لمنهج الدين الحق ، والذين سماهم الله الحنفاء ، وهم الذين لم يسجدوا لصنم ، ولم ينحرفوا عن الفطرة السوية .

وقوله تعالى : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣) ﴾ [السجدة] لعل تفيد الرجاء ، والرجاء من الله كأنه واقع متحقق ؛ لأن الله تعالى يحب لعباده جميعاً أنْ يؤمنوا به ؛ ليأخذوا جميل عطائه فى الآخرة ، كما أخذوا عطاءه فى الدنيا ، وهم جميعاً خَلْقه وصَنْعته ، وسبق أن ذكرنا الحديث القدسى : « ... دعونى وما خلقت ، إنْ تابوا إلىَّ فأنا حبيبهم ، وإنْ لم يتوبوا إلىَّ فأنا طبيبهم .. »[1] .

---

(١) أورده الغزالى فى إحياء علوم الدين (٤/٥٢) من قول بعض السلف ولفظه : « ما من عبد يعصى إلا استأذن مكانه من الأرض أن يخسف به ، واستأذن سقفه من السماء أن يسقط عليه كسفاً ، فيقول الله تعالى للأرض والسماء : كُفَّا عن عبدى وأمهلاه فإنكما لم تخلقاه ، ولو خلقتماه لرحمتماه ، ولعله يتوب إلىَّ فأغفر له ، ولعله يستبدل صالحاً فأبدله له حسنات » .

ثم ينقلنا الحق سبحانه إلى قضية من قضايا أصول الكون :

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ ﴾

يخبرنا الحق ـ تبارك وتعالى ـ أنه خلق السموات والأرض وما بينهما لخدمة الإنسان ، وهو المكرَّم الأول فى هذا الكون ، وجميع الأجناس فى خدمته حيواناً ونباتاً وجماداً ، فهو سيد فى هذا الكون ، لكن هل أخذ هذا السيد سيادته بذاته وبفعله ؟ لا إنما أخذها بفضل الله عليه ، فكان عليه أولاً أنْ يشكر مَنْ أعطاه هذه السيادة على غيره .

وهذا السيد عمره ومروره فى الحياة عبور ، فعمره فيها يطول أو يقصر ينتهى إلى الموت ، فى حين أن الجمادات التى تخدمه عمرها أطول من عمره ، وهى خادمة له ، فكان لزاماً عليه أنْ يتأمل هذه المسألة : كيف يكون عمر الخادم أطول وأبقى من عمر السيد المخدوم ؟

إذن : لابد أن لى عمراً آخر أطول من هذا ، عمراً يناسب تكريم الله لى ، ويناسب سيادتى فى هذا الكون ، إنهَا الآخرة حيث تندثر هذه المخلوقات التى خدمتنى فى الدنيا وأبقى أنا ، لا أعيش مع الأسباب ، إنما مع المسبب سبحانه ، فلا أحتاج إلى الأسباب التى خدمتنى فى الدنيا ، إنما أجد كل ما أشتهيه بين يدىَّ دون تعب ودون سَعْى ، وهذه ارتقاءات لا تكون إلا لمَنْ يطيع المرقى المعطى .

لذلك ، الحق ـ سبحانه وتعالى ـ يلفتنا ويقول : صحيح أنت أيها الإنسان سيد هذا الكون وكل مخلوقاتى فى خدمتك ، لكن خَلْقها أكبر من خَلْقك :

﴿ لَخَلْقُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ .. (٥٧) ﴾ [غافر]

لماذا ؟ لأن للناس أعماراً محددة ، مهما طالت لا بُدَّ أنْ تنتهى إلى أجل ، ثم إن هذه الأعمار لا تَسْلم لهم ، إنما تنتابها الأغيار ، فالغنىّ قد يفتقر ، والصحيح قد يمرض ، والقوى قد يضعف ، أمّا الشمس والقمر والنجوم والكون كله فلا يتعرض لهذه الأغيار ، فما رأينا الشمس أو القمر أو النجوم أصابتها علة وانتهت كانتهاء الإنسان ، ثم أنت لستَ مثلها فى العظمة المستوعبة ؛ لأن قصارى ما فيك أنك تخدم نفسك أو تخدم البيئة التى حولك ، أمَّا هذه المخلوقات فتخدم الكون كله .

فإذا أقرَّ ـ حتى الكفار ـ بأن الله تعالى هو خالق السماء والأرض إذن : فهى دليل أول على وجود الحق تبارك وتعالى .

ومسألة خَلْق السماوات والأرض من الأشياء التى استأثر الله بعلمها وليس لأحد أنْ يقول : كيف خُلقت ولا حتى كيف خُلق الإنسان ؛ لأن مسائل الخَلْق لم يشهدها أحد فيخبرنا بها ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً (٥١) ﴾ [الكهف]

فسماهم الله مُضلِّين ، والمضلّ هو الذى يجنح بك إلى طريق باطل ، ويصرفك عن الحق ، وقد رأينا فعلاً هؤلاء المضلِّين وسمعنا افتراءاتهم فى مسألة خَلْق السموات والأرض .

إذن : خَلْق السماوات والأرض مسألة لا تُؤخَذ إلا ممَّنْ خلق ؛

لذلك قَصَّ لنا ربنا ـ تبارك وتعالى ـ قصة خَلْق آدم ، وقصَّ لنا قصة خلق السماوات والأرض ، لكن الخَلْق حدث وفعل ، والفعل يحتاج إلى زمن تعالج فيه الحدث وتزاوله ، والإشكال هنا فى قوله تعالى ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ .. ④﴾ [السجدة] ، فهل الحدث بالنسبة لله تعالى يحتاج إلى زمن ؟

الفِعْل من الإنسان يحتاج إلى علاج يستغرق زمناً ، حيث نوزع جزئيات الفعل على جزئيات الزمن ، أما فى حقه تعالى فهو سبحانه يفعل بلا علاج للأمور ، إنما يقول : للشىء كن فيكون ، أما قوله تعالى ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ .. ④﴾ [السجدة] فقد أوضحناها بمثال ، ولله المثل الأعلى .

قلنا : أنت حين تصنع الزبادى مثلاً تأتى بالحليب ، ثم تضع عليه خميرة زبادى سبق إعداده ، ثم تتركه فى درجة حرارة معينة سبع أو ثمانى ساعات بعدها تجد الحليب قد تحوَّل إلى زبادى ، فهل تقول : إن صناعة الزبادى استغرقت منى سبعاً أو ثمانى ساعات ؟ لا ، إنها استغرقتْ مجرد إعداد المواد اللازمة ، ثم أخذت هذه المواد تتفاعل بعضها ببعض ، إلى أن تحولت إلى المادة الجديدة .

كذلك الحق ـ تبارك وتعالى ـ خلق السموات والأرض بأمره (كُنْ) ، فتفاعلت هذه الأشياء مُكوِّنة السماوات والأرض .

ومسألة خلق السموات والأرض فى ستة أيام عُولجت فى سبع سور من القرآن ، أربع منها تكلمْن عن خلق السماوات والأرض ولم تتعرض لما بينهما ، وثلاث تعرضتْ لخَلْق السماوات والأرض وما بينهما ، ففى الأعراف مثلاً ، وفى يونس ، وهود ،

والحديد[١] . تعرضت الآيات لخلق السماوات والأرض فقط .

وفى الفرقان والسجدة وق[٢] . فتكلَّمتْ عن البينية ، فكأن السماوات والأرض ظرف خُلق أولاً ، ثم خُلق المظروف فى الظرف ، وهذا هو الترتيب المنطقى أنْ تُعِدَّ الظرفَ أولاً ، ثم تضع فيه المظروف .

وقوله تعالى : ﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ .. ﴿٤﴾﴾ [السجدة] الله يخاطب بهذه الآيات العرب ، واليوم له مدلول عند العرب مرتبط بحركة الشمس والقمر ، فكيف يقول سبحانه ﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ .. ﴿٤﴾﴾ [السجدة] ولم تخلق بعد لا الشمس ولا القمر ؟

نقول : المعنى خلقها فى زمن يساوى ستة أيام بتقديرنا نحن الآن ، وإلا فاليوم عند الله تعالى يختلف عن يومنا ، ألم يقل سبحانه وتعالى : ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحج] أى : فى الدنيا .

وقال عن اليوم فى الآخرة : ﴿تَعْرُجُ[٣] الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ

---

(١) هذه الآيات الأربعة هى :
- ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ .. ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف]
- ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ .. ﴿٣﴾﴾ [يونس]
- ﴿وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ .. ﴿٧﴾﴾ [هود]
- ﴿هُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ .. ﴿٤﴾﴾ [الحديد]

(٢) أما الآيات التى أضيف فيها ما بين السماوات والأرض فهى :
- ﴿الَّذِى خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ .. ﴿٥٩﴾﴾ [الفرقان]
- ﴿اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ .. ﴿٤﴾﴾ [السجدة]
- ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ .. ﴿٣٨﴾﴾ [ق]

(٣) عرج يعرج : صعد وعلا وارتفع . [القاموس القويم ١٣/٢] .

كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ (٤)﴾ [المعارج] فلله تعالى تقدير لليوم فى الدنيا ، ولليوم فى الآخرة .

والحق سبحانه لم يُفصِّل لنا مسألة الخَلْق هذه إلا فى سورة (فُصِّلَت) فهى التى فصَّلَتْ القول فى خَلْق السماوات والأرض ، وهذه من عجائب هذه السورة .

فقال تعالى : ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِى أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ .. (١٠)﴾ [فصلت] هذه ستة أيام .

﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ .. (١٢)﴾ [فصلت] وهكذا يصبح المجموع ثمانية أيام .

إذن : كيف نُوفِّق بين ستة أيام فى الإجمال ، وثمانية أيام فى التفصيل ؟ قالوا : الأعداد يُحمل مُجْملها على مفصَّلها ؛ لأن المفصَّل تستطيع أن تضم بعضه إلى بعض ، أما المجمل فهو النهاية .

وأعدْ معى قراءة الآيات :

﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا .. (١٠)﴾ [فصلت] وهذا كله من لوازم الأرض ﴿فِى أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ .. (١٠)﴾ [فصلت] أى : أن هذه اللوازم تابعة لما قبلها .

فالمعنى : فى تتمة أربعة أيام ، فاليومان الأولان داخلان فى الأربعة ، كما لو قلت : سِرْتُ من القاهرة إلى طنطا فى ساعة ، وإلى الأسكندرية فى ساعتين ، فالساعة الأولى محسوبة من هاتين الساعتين .

فالحق سبحانه خلق الأرض فى يومين ، وخلق ما يلزمها فى تتمة الأربعة الأيام ، فالزمن تتمة للزمن ؛ لأن الحدث يُتمِّم الحدث ، إذن : المحصلة النهائية ستة أيام ، وليس هناك خلاف بين الآيات ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا (٨٢)﴾ [النساء] ومن العجيب أن يأتى هذا التفصيل فى (فُصِّلت) .

وقوله تعالى : ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ .. (٤)﴾ [السجدة] الحق - تبارك وتعالى - يخاطب الخَلْق بما يُقرِّب الأشياء إلى أذهانهم ؛ لأن الملوك أو أصحاب الولاية فى الأرض لا يستقرون على كراسيهم إلا بعد أنْ يستتبَّ لهم الأمر .

فمعنى ﴿اسْتَوَىٰ .. (٤)﴾ [السجدة] صعد وجلس واستقر ، كل هذه المعانى تناسب الآية ، لكن فى إطار قول الحق سبحانه وتعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ .. (١١)﴾ [الشورى]

فكما أن لله تعالى وجوداً ليس كوجودك ، وسَمْعاً ليس كسمعك ، وفعلاً ليس كفعْلك ، فكذلك له سبحانه استواء ، لكن ليس كاستوائك ، وإذا دخلت حجرة الجلوس مثلاً عند شيخ البلد وعند العمدة والمحافظ ورئيس الجمهورية ستجد مستويات متباينة ، كلٌّ على حسب ما يناسبه ، فإذا كان البشر يتفاوتون فى الشىء الواحد ، فهل نُسوِّى بيننا وبين الخالق عز وجل ؟

فالمعنى إذن ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ .. (٤)﴾ [السجدة] استتبَّ له أمر الخَلْق ، ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلا شَفِيعٍ .. (٤)﴾ [السجدة] الولىُّ : مَنْ يليك ، ويكون قريباً منك ، وإليه تفزع فى الأحداث ، فهو ملجؤك الأول . والشفيع : الذى يشفع لك عند مَنْ يملك أمرك ، فالولىُّ هو الذى ينصرك بنفسه ، أمَّا الشفيع فهو يتوسط لك عند مَنْ

ينصرك ، فليس لك ولىٌّ ولا شفيع من دون الله عز وجل .

لذلك يقول سبحانه : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ .. (٦٧) ﴾ [الإسراء] فلا أحدَ ينجيكم ، ولا أحدَ يُسْعفكم إلا الله ﴿ أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ (٤) ﴾ [السجدة]

كأن هذه المسألة يجب أنْ تكون على بالك دائماً ، فلا تغفل عن الله ؛ لأنك ابْنُ أغيار ، والأحداث تتناوبك ، فلا يستقرّ بك حال ، فأنت بين الغِنَى والفقر ، والصحة والمرض ، والقوة والضعف .

لذلك تذكَّر دائماً أنه لا ولىَّ ولا نصيرَ لك إلا الله ، وإذا استحضرتَ ذلك دائماً اطمأنَّ قلبك ، ولم لا وأنت تستند إلى ولىٍّ وإلى نصير لا يخذلك أبداً ، ولا يتخلى عنك لحظة ، فإذا خالط هذا الشعورُ قلبَك أقبلتَ على الأحداث بجسارة ، وإذا أقبلتَ على الحدث بجسارة لم يأخذ الحدث من قوتك شيئاً ؛ لأن الذى يخاف الأحداث يُضعِف قوته الفاعلة .

فمثلاً صاحب العيال الذى يخاف الموت فيتركهم صغاراً لا عائلَ لهم لو راجع نفسه لقال لها : ولِمَ الخوفُ على العيال من بعدى ، فهل أنا خلقتهُم ، أم لهم خالق يرعاهم ويجعل لهم من المجتمع الإيمانى آباءً متعددين ؟ لو قال لنفسه ذلك ما اهتم لأمرهم ، وصدَق الذى قال مادحاً : أنتَ طِرْتَ باليُتْم إلى حَدِّ الكَمالِ

وقال آخر :

* قَال ذُو الآبَاءِ لَيْتِى لاَ أَبَا لِى *

ولِمَ لا ؟ وقد كفل الإسلام للأيتام أنْ يعيشوا فى ظل المجتمع المسلم أفضل مما يعيش مَنْ له أب وأم .

إذن : فالإنسان حينما يعلم أن له سنداً من ألوهية قادرة وربوبية لا تُسلمه يستقبل الحوادث بقوة ، ويقين ، ورضا ، وإيمان بأنه لن يُسْلَم أبداً ما دام له إيمان برب ، وكلمة رب هذه ستأتى على باله قَسْراً فى وقت الشدة ، حين يخذله الناس وتُعْييه الأسباب ، فلا يجد إلا الله ـ حتى لو كان كافراً لقال فى الشدة : يا رب .

وقوله تعالى ﴿مِّن دُونِهِ .. (٤)﴾ [السجدة] يعنى : لا يوجد غيره ، وإنْ وُجِد غَيْرٌ فبتحنين الله للغير عليك ، فالخير أياً كان فمردُّه إلى الله .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ (٥)﴾

فى هذه الآية ردٌّ على الفلاسفة الذين قالوا بأن الله تعالى قادر وخالق ، لكنه سبحانه زاول سلطانه فى مُلْكه مرة واحدة ، فخلق النواميس ، وخلق القوانين ، ثم تركها تعمل فى إدارة هذا الكون ، ونقول : لا بل هو سبحانه ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ .. (٥)﴾ [السجدة] أى : أمْر الخَلْق ، وهو سبحانه قيُّوم عليه .

وإلا فما معنى ﴿لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ .. (٢٥٥)﴾ [البقرة] إن قُلْنا بصحة ما تقولون ؟ بل هو سبحانه خلق الكون ، ويُدبِّر شئونه على عينه عز وجل ، والدليل على قيوميته تعالى على خَلْقه أنه خلق الأسباب على رتابة خاصة ، فإذا أراد سبحانه خَرْق هذه الرتابة

بشواذ تخرج عن القوانين المعروفة كما خرق لإبراهيم - عليه السلام - قانون الإحراق ، وكما خرق لموسى - عليه السلام - قانون سيولة الماء ، ومسألة خَرْق القوانين فى الكون دليل على قيوميته تعالى ، ودليل على أن أمر الخَلْق ما يزال فى يده سبحانه .

ولو أن المسألة كما يقول الفلاسفة لكان الكون مثل المنبه حين تضبطه ثم تتركه ليعمل هو من تلقاء نفسه ، ولو كان الأمر كذلك لانطفأتْ النار التى أُلقِى فيها إبراهيم عليه السلام مثلاً .

لذلك لما سُئِل أحد العارفين عن قوله تعالى : ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ (٢٩)﴾ [الرحمن] ما شأن ربك الآن ، وقد صحَّ أن القلم قد جفَّ ؟ قال : أمور يبديها ولا يبتديها ، يرفع أقواماً ويضع آخرين[(١)] .

إذن : مسألة الخَلْق إبداء لا ابتداء ، فأمور الخَلْق مُعدَّة جاهزة مُسْبقاً ، تنتظر الأمر من الله لها بالظهور .

وقلنا هذا المعنى فى تفسير قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٨٢)﴾ [يس] فكلمة ﴿يَقُولَ لَهُ .. (٨٢)﴾ [يس] تدل على أن هذا الشىء موجود بالفعل ينتظر أنْ يقول الله له : اظهر إلى حيِّز الوجود .

---

(١) عن أبى الدرداء رضى الله عنه عن النبى ﷺ فى قول الله تعالى : ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ (٢٩)﴾ [الرحمن] قال : « من شأنه أن يغفر ذنباً ، ويُفرِّج كرباً ، ويرفع قوماً ويضع آخرين » قال السيوطى فى الدر المنثور (٦٩٩/٧) : « أخرجه الحسن بن سفيان فى مسنده والبزار وابن جرير والطبرانى وأبو الشيخ فى العظمة وابن مردويه والبيهقى فى شُعَب الإيمان وابن عساكر » .

فالحق سبحانه ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ .. (٥)﴾ [السجدة] ثم تعود إليه سبحانه النتائج ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ .. (٥)﴾ [السجدة] فالله سبحانه يرسل إلى الأرض ، ثم يستقبل منها ؛ لأن المدبِّرات أمراً من الملائكة لكل منهم عمله واختصاصه ، وهذه المسألة نسميها فى عالمنا عملية المتابعة عند البشر ، فرئيس العمل يكلف مجموعة من موظفيه بالعمل ، ثم لا يتركهم إنما يتابعهم ليستقيم العمل ، بل ويحاسبهم كلاً بما يستحق .

والملائكة هى التى تعرج بالنتائج إليه سبحانه ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ (٥)﴾ [السجدة] فالعود سيكون للملائكة ، وخَطْو الملائكة ليس كخَطْوِك ؛ لذلك الذى يعمله البشر فى ألف سنة تعمله الملائكة فى يوم .

ومثال ذلك ما قرأناه فى قصة سليمان ـ عليه السلام ـ حين قال : ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣٨)﴾ [النمل]

وهذا الطلب من سليمان ـ عليه السلام ـ كان على ملأ من الإنس والجن ، لكن لم يتكلم بشرىٌّ ، ولم يتصدَّ أحد منهم لهذا العمل ، إنما تصدّى له عفريت ، وليس جنِّياً عادياً ، والعفريت جنى ماهر له قدراته الخاصة ، وإلا ففى الجن أيضاً من هو (لبخة) لا يجيد مثل هذه المهام ، كما فى الإنسان تماماً .

قال العفريت : ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ .. (٣٩)﴾ [النمل] وهذا يعنى أنه سيستغرق وقتاً ، ساعة أو ساعتين ، أما الذى عنده علم من الكتاب ، فقال : ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ .. (٤٠)﴾ [النمل]

يعنى : فى طرفة عين لما عنده من العلم ؛ لذلك لما رأى سليمانُ العرشَ مستقراً عنده فى لمح البصر ، قال : ﴿قَالَ هَـٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِى أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ .. (٤٠)﴾ [النمل]

إذن : الفعل يستغرق من الزمن على قَدْر قوة الفاعل ، فكلما زادتْ القوة قَلَّ الزمن ، وقد أوضحنا هذه المسألة فى كلامنا على الإسراء والمعراج .

ومعنى : ﴿مِّمَّا تَعُدُّونَ (٥)﴾ [السجدة] أى : من سنينكم أنتم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ذَٰلِكَ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ (٦)﴾

قوله تعالى ﴿ذَٰلِكَ .. (٦)﴾ [السجدة] إشارة إلى تدبير الأمر من السماء إلى الأرض ، ثم متابعة الأمر ونتائجه ، هذا كله لأنه سبحانه ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ .. (٦)﴾ [السجدة] وأنه سبحانه ﴿الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٦)﴾ [السجدة] فالحق سبحانه يُعلِّمنا أن الآمر لا بد أنْ يتابع المأمور .

وقلنا : إن عالم الغيب تعنى أنه بالأَوْلى يعلم الشهادة ، لكن ذكر الحق سبحانه علمه بالشهادة حتى لا يظن أحد أن الله غَيْب ، فلا يعلم إلا الغيب ، وقد بيَّنّا معنى الشهادة هنا حينما تكلَّمنا عن قوْل الله تعالى : ﴿يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ (١١٠)﴾ [الأنبياء]

والجهر أو الشهادة يعنى الجهر المختلط حين تتداخل الأصوات ، فلا تستطيع أنْ تُميِّزها ، مع أنها جهر أمامك وشهادة ، أما الحق سبحانه فيعلم كل صوت ، ويردُّه إلى صاحبه ، فعِلْم الجهر هنا أقوى من علم الغيب .

ومعنى ﴿الْعَزِيزُ .. ٦﴾ [السجدة] أى : الذى لا يُغلَب ولا يُقهر ، فلا يلويه أحد عن علمه ، ولا عن مراداته فى كَوْنه . ومع عِزَّته فهو سبحانه (الرحيم) .

﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ٧ ﴾

الخَلْق إيجاد من عدم بحكمة ، ولغاية ومهمة مرسومة ، وليس عَبَثاً هكذا يخلق الأشياء كما اتفق ، فالخالق ـ عز وجل ـ قبل أنْ يخلق يعلم ما يخلق ، ويعلم المهمة التى سيؤديها ؛ لذلك يخلق سبحانه على مواصفات تحقق هذه الغاية ، وتؤدى هذه المهمة .

وقد يُخيَّل لك أن بعض المخلوقات لا مهمةَ لها فى الحياة ، أو أن بعضها كان من الممكن أنْ يُخلَق على هيئة أفضل مما هى عليها .

ونذكر هنا الرجل الذى تأمل فى كون الله فقال : ليس فى الإمكانِ أبدعُ مما كان . والولد الذى رأى الحداد يأخذ عيدان الحديد المستقيمة ، فيلويها ويُعْوِجها ، فقال الولد لأبيه : لماذا لا يترك الحداد عيدان الحديد على استقامتها ؟ فعلَّمه الوالد أن هذه العيدان لا تؤدى مهمتها إلا باعوجاجها ، وتأمل مثلاً الخطَّاف وآلة جمع الثمار من على الأشجار ، إنها لو كانت مستقيمة لما أدَّتْ مهمتها .

وفى ضوء هذه المسألة نفهم الحديث النبوى الذى قال فيه النبى ﷺ ـ عن النساء : « إنهن خُلِقْنَ من ضلع ، وإن أعوج ما فى

الضلع أعلاه ، فإنْ ذهبتَ تقيمه كسرته ، وإنْ تركته لم يَزَلْ أعوج ، فاستوصوا بالنساء »[١] .

وحين تتأمل الضلوع فى قفصك الصدرى تجد أنها لا تؤدى مهمتها فى حماية القلب والرئتين إلا بهذه الهيئة المعْوَجة التى تحنو على أهم عضوين فى جسمك ، فكأن هذا الاعوجاج رأفة وحُنُو وحماية ، وهكذا مهمة المرأة فى الحياة ، ألاَ تراها فى أثناء الحمل مثلاً تترفق بحملها وتحافظ عليه ، وتحميه حتى إذا وضعتْه كانت أشدَّ رفقاً ، وأكثر حناناً عليه ؟

إذن : هذا الوصف من رسول الله ليس سُبَّة فى حق النساء ، ولا إنقاصاً من شأنهن ؛ لأن هذا الاعوجاج فى طبيعة المرأة هو المتمم لمهمتها ؛ لذلك نجد أن حنان المرأة أغلب من استواء عقلها ، ومهمة المرأة تقتضى هذه الطبيعة ، أما الرجل فعقله أغلب ليناسب مهمته فى الحياة ، حيث يُنَاط به العمل وترتيب الأمور فيما وُلِّى عليه .

إذن : خلق الله كلاً لمهمة ، وفى كل منَّا مهما كان فيه من نقص ظاهر ـ مَيْزة يمتاز بها ، فالرجل الذى تراه لا عقلَ له ولا ذكاءَ عنده تقول : ولماذا خلق الله مثل هذا ؟ لكن تراه قوىَّ البنية ، يحمل من الأثقال والمشاقّ ما لا تتحمله أنت ، والرجل القصير مثلاً ، ترى أنت عيبه فى قِصَر قامته ، لكن يراها غيرك ميزة من مزاياه ، وربما استدعاه للعمل عنده لهذه الصفة فيه .

وحين تتأمل مثلاً عملية التعليم ، وتقارن بين أعداد التلاميذ فى

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٣٣١) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٤٦٨) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه . قال النووى فى شرحه لمسلم : « يعنى أنها خُلِقت من أعوج أجزاء الضلع ، فلا يتهيأ الانتفاع بها إلا بالصبر على تعوجها » .

المرحلة الابتدائية ، وكم منهم يصل إلى مرحلة التعليم العالى ؟ وكم منهم يتساقطون فى الطريق ؟ ولو أنهم جميعاً أخذوا شهادات عليا لما استقام الحال ، وإلاَّ فمَنْ للمهن المتواضعة والحرف وغيرها ؟ إذن : لا بُدَّ أنْ يوجد هذا التفاوت ؛ لأن العقل الواحد يحتاج إلى آلاف ينفذون خطته ، وقيمة كل امرىء ما يُحسنه مهما كان عمله .

لذلك قلنا : إنه لا ينبغى لأحد أنْ يتعالى على أحد ؛ لأنه يمتاز عنه فى شىء ما ، إنما ينظر فيما يمتاز به غيره ؛ لأن الخالق عز وجل وزّع المواهب بين الخَلْق جميعاً ، ويكفى أن تقرأ قول الحق سبحانه : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ .. (١١) ﴾ [الحجرات]

فالله تعالى : ﴿ الَّذِى أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُ .. (٧) ﴾ [السجدة] لأن لكل مخلوق مهمة مُهيّأ لها ، وتعجب من تصاريف القدر فى هذه المسألة فتجد أخوين ، يعمل أحدهما فى العطور ، ويعمل الآخر فى الصرف الصحى ، وتجد هذا راضياً بعمله ، وهذا راضٍ بعمله .

حتى أنك تجد الناس الذين خلقهم الله على شىء من النقص أو الشذوذ حين يرضى الواحد منهم بقسمة الله له وقدره فيه يسود بهذا النقص ، أو بهذا الشذوذ ، وبعضنا لاحظ مثلاً الأكتع إذا ضرب شخصاً بهذه اليد الكتعاء ، كم هى قوية ! وكم يخافه الناس لأجل قوته ! وربما يجيد من الأعمال ما لا يجيده الشخص السَّوى .

فإنْ قلتَ : إذا كان الخالق سبحانه أحسن كل شىء خلقه ، فما بال الكفر ، خلقه الله وما يزال موجوداً ، فأىُّ إحسان فيه ؟

نقول : والله لولا طغيان الكافرين ما عشق الناسُ الإيمانَ ، كما أنه لولا وجود الظلم والظالمين لما شعر الناس بطَعْم العدل . إذن :

فالحق سبحانه يخلق الشىء ، ويخلق من ضده دافعاً له .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ (٧) ﴾ [السجدة] فالإنسان الذى كرّمه الله على سائر المخلوقات بدأه الله من الطين ، وهو أدنى أجناس الوجود ، وقلنا : إن جميع الأجناس تنتهى إلى خدمة الإنسان : الحيوان وهو أقربها للإنسان ، ثم النبات ، ثم الجماد ، ومن الجماد خُلِق الإنسان .

وقد عوَّض الله عز وجل الجماد الخادم لباقى الأجناس حين أمر الإنسان المكرَّم بأنْ يُقبِّله فى فريضة كُتبت عليه مرة واحدة فى العمر ، وهى فريضة الحج ، فأمره بأن يُقبِّل الحجر الأسود ، وأنْ يتعبد لله تعالى بهذا التقبيل ؛ لذلك يتزاحم الناس على الحجر ، ويتقاتلون عليه ، وهو حجر ، وهم بشر كرَّمهم الله ، وما ذلك إلا ليكسر التعالى فى النفس الإنسانية ، فلا يتعالى أحد على أحد .

وسبق أنْ بيّنا أن المغرضين الذين يحبون أنْ يستدركوا على كلام الله قالوا : إن الله تعالى قال فى مسألة الخَلْق مرة ﴿ مِّن مَّاءٍ .. (٢٠) ﴾ [المرسلات] ومرة ﴿ مِن تُرَابٍ .. (٣٧) ﴾ [الكهف] ومرة ﴿ مِّن طِينٍ (١٢) ﴾ [المؤمنون] ومرة ﴿ مِن صَلْصَالٍ .. (٣٣) ﴾ [الحجر] ومرة ﴿ مِّنْ حَمَأٍ مَّسْنُونٍ (٢٦) ﴾ [الحجر] .. الخ ، فأىُّ هذه العناصر أصل للإنسان ؟

وقلنا : إن هذه مراحل مختلفة للشىء الواحد ، والمراحل لا تقتضى النية الأولية ، فالماء والتراب يُكوِّنان الطين ، فإذا تُرك الطين حتى تتغير رائحته فهو الحمأ المسنون ، فإذا تُرك حتى يجفَّ ويتجمد فهو الصلصال ، فهذه العناصر لا تعارضَ بينها ، ويجوز لك أنْ تقول : إن الإنسان خُلِق من ماء ، أو من تراب ، أو من طين ... الخ .

والمراد هنا الإنسان الأول ، وهو سيدنا آدم ـ عليه السلام ـ ثم

أخذ الله سلالته من ماء مهين ، والسلالة هى خلاصة الشىء ، فالخالق سبحانه خلقنا أولاً من الطين ، ثم جعل لنا الأزواج والتناسل الذى نتج عنه رجال ونساء .

ثم يحتفظ الخالق سبحانه لنفسه بطلاقة القدرة فى هذه المسألة ، وكأنه يقول لك : إياك أنْ تفهم أننى لا أخلق إلا بالزوجية ، إنما أنا أستطيع أنْ أخلق بلا زوجية كما خلقْتُ آدم ، وأخلق من رجل بلا امرأة كما خلقتُ حواء ، وأخلق من امرأة بلا رجل كما خلقتُ عيسى عليه السلام .

وقد تتوفر علاقة الزوجية ويجعلها الله عقيماً لا ثمرةَ لها ، وهكذا تناولت طلاقة القدرة كل ألوان القسمة العقلية فى هذه المسألة ، واقرأ إنْ شئتَ : ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٥٠) ﴾ [الشورى]

إذن : هذه مسألة طلاقة قدرة للخالق سبحانه ، وليست عملية (ميكانيكية) ، لأنها هبَة من الله ﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا .. (٤٩) ﴾ [الشورى] ولاحظ أن الله قدَّم هنا الإناث ، وهم الجنس الذى لا يفضِّله الناس أن يُولد لهم ، ولكن تجد الذى يرزقه الله بالبنت فيفرح بها ، ويعلم أنها هبَة من الله يُعوِّضه الله بزوج لها يكون أطوعَ له من ولده .

كما أنه لو رضى صاحب العُقْم بعُقْمه ، وعلم أنه هبَة من الله لَعوَّضه الله فى أبناء الآخرين ، وشعر أنهم جميعاً أبناؤه ، ولماذا نقبل هبة الله فى الذكور وفى الإناث ، ولا نقبل العقم ، وهو أيضاً هبة الله ؟

ثم ألستَ ترى من الأولاد مَنْ يقتل أباه ، ومَنْ يقتل أمه ؟ إذن :

المسألة تحتاج منّا إلى الرضا والتسليم والإيمان بأن العُقْم هبة ، كما أن الإنجاب هبة .

ثم إن خَلْق الإنسان الأول وهو آدم عليه السلام من طين جاء من البداية على صورته التامة الكاملة ، فخلقه الله رجلاً مستوياً ، فلم يكُنْ مثلاً طفلاً ثم كبر وجرتْ عليه سنة التطور ، لا إنما خلقه الله على صورته ، أى : على صورة آدم .

والبعض يقول : خلق الله آدم على صورته أى على صورة الحق[1] ، فالضمير يعود إلى الله تعالى ، والمراد : على صورة الحق لا على حقيقة الحق ، فالله تعالى حىٌّ يَهَب من حياته حياة ، والله قوى يهَبُ من قوته قوة ، والله غنىٌّ يهب من غِنَاه غِنى ، والله عليم يَهبُ من علمه علماً .

لذلك قيل : « تخلَّقوا بأخلاق الله » ؛ لأنه سبحانه وهبكم صفات من صفات تجلِّيه ، وقد وهبكم هذه الصفات ، فاجعلوا للصفة فيكم مزية وتخلَّقوا بها ، فمثلاً كُنْ قوياً على الظالم ، ضعيفاً متواضعاً للمظلوم ، على حَدِّ قول الله تعالى فى صفات المؤمنين :

﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ .. (٢٩)﴾ [الفتح]

وقال : ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ .. (٥٤)﴾ [المائدة]

وهذه الصفات المتناقضة تجتمع فى المؤمن ؛ لأنه ليس له طبع واحد ، إنما الموقف والتكليف هو الذى يصبغه ويلويه إلى الصفة المناسبة .

---

(١) عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « خلق الله آدم على صورته ، طوله ستون ذراعاً » أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٢٢٧) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٨٤١) أى : خلقه على صورته التى استمر عليها إلى أن أُهْبِطَ وإلى أن مات ، دفعاً لتوهم من يظن أنه لما كان فى الجنة كان على صفة أخرى (نقله ابن حجر فى فتح البارى ٣/١١) .

وقلنا : إن علماء التحاليل فى معاملهم أثبتوا صدْق القرآن فى هذه الحقيقة ، وهى خَلْق الإنسان من طين حينما وجدوا أن العناصر المكوِّنة لجسم الإنسان هى ذاتها العناصر الموجودة فى التربة ، وعددها ١٦ عنصراً ، أقواها الأكسوجين ، ثم الكربون ، ثم الهيدروجين ، ثم النيتروجين ، ثم الصوديوم ، ثم الماغنسيوم ، ثم البوتاسيوم .. الخ .

﴿ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ﴾

النسل هو الأنجال والذرية . والسلالة : خلاصة الشىء تُسلُّ منه كما يُسلُّ السيف من غمده ، فالسلالة هى أجود ما فى الشىء ، ولذلك نقول : فلان من سلالة كذا ، وفلان سليل المجد . يعنى : فى مقام المدح . حتى فى الخيل يحتفظون لها بسلالات معروفة أصيلة ويُسجلون لها شهادات ميلاد تثبت أصالة سلالتها .

هذا النسل وهذه السلالة خلقها الله من ماء ، وهو منىُّ الرجل وبويضة المرأة .

هذا الماء وصفه الله بأنه ﴿ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ﴾ [السجدة] لأنه يجرى فى مجرى البول ، ويذهب مذهبه إذا لم يصل إلى الرحم ، وفى هذا الماء المهين عجائب ، ويرحم الله العقاد[1] حين قال : إن أصول ذرات العالم

---

(١) هو : عباس محمود إبراهيم العقاد ، أصله من دمياط بمصر ، انتقل أسلافه إلى المحلة الكبرى ، وكان أحدهم يعمل فى « عقادة الحرير » فعرف بالعقاد ولد بأسوان عام ١٨٨٩ من أم كردية ، تعلم فى مدرستها الابتدائية ، وكان موظفاً بالسكة الحديد وبوزارة الأوقاف بالقاهرة ثم معلماً فى بعض المدارس الأهلية وانقطع إلى الكتابة فى الصحف والتأليف ، ظل اسمه لامعاً مدة نصف قرن ألَّف خلالها ٨٣ كتاباً أشهرها العبقريات . توفى بالقاهرة عام ١٩٦٤ عن ٧٥ عاماً [الأعلام ٣/٢٦٦] .

كله يمكن أن تُوضع فى نصف كستبان الخياطة ، وتأمل كم يقذف الرجل فى المرة الواحدة من هذا المقدار ؟ إذن : المسألة دقة تكوين وعظمة خالق ، ففى هذه الذرة البسيطة خصائص إنسان كامل ، فهى تحمل : لونه ، وجنسه ، وصفاته .. الخ .

وسبق أن قلنا فى عالم الذر : إن فى كل منا ذرة وجزيئاً حياً من لَدُنْ أبيه آدم عليه السلام .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ(١) وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾ ﴾

وهذه التسوية كانت أولاً للإنسان الأول الذى خلقه الله من الطين ، كما قال سبحانه : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الحجر] وقد مَرَّ آدم ـ عليه السلام ـ فى هذه التسوية بالمراحل التى ذكرت ، كذلك الأمر فى سلالته يُسوِّيها الخالق ـ عز وجل ـ وتمر بمثل هذه المراحل : من نطفة ، ثم من علقة ، ثم من مضغة .. الخ ، ثم تُنفخ فيه الروح .

وإذا كان الإنسان لم يشهد كيفية خَلْقه ، فإن الله تعالى يجعل من المشَاهَد لنا دليلاً على ما غاب عَنَّا ، فإنْ كنَّا لم نشهد الخَلْق فقد شاهدنا الموت ، والموت نَقْضٌ للحياة وللخَلْق ، ومعلوم أن نَقْض

---

(١) قال الشيخ أبو يحى زكريا الأنصارى فى كتابه « فتح الرحمن بكشف ما يلتبس فى القرآن » (ص ٣٣٤) : « المراد بـ (روحه) جبريل ، وإلا فالله منزه عن الروح الذى يقوم به الجسد وتكون به الحياة ، وأضافه إلى نفسه تشريفاً وإشعاراً بأنه خَلْق عجيب مناسب للمقام » .

الشىء يأتى على عكس بنائه ، فإذا أردنا مثلاً هدم عمارة من عدة أدوار فإن آخر الأدوار بناءً هو أول الأدوار هدماً .

كذلك الحال فى الموت ، أول شىء فيه خروج الروح ، وهى آخر شىء فى الخَلْق ، فإذا خرجت الروح تصلَّب الجسد ، أو كما يقولون (شضَّب) ، وهذه المرحلة أشبه بمرحلة الصلصالية ، ثم يُنتن وتتغير رائحته ، كما كان فى مرحلة الحمأ[1] المسنون ، ثم يتحلل هذا الجسد ويتبخر ما فيه من مائية ، وتبقى بعض العناصر التى تتحول إلى تراب ليعود إلى أصله الأول .

إذن : خُذْ من رؤيتك للموت دليلاً على صِدْق ربك - عز وجل - فيما أخبرك به من أمر الخَلْق الذى لم تشهده .

وقوله تعالى : ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ .. ﴿٩﴾﴾ [السجدة] سبق أن تكلمنا عن هذه الأعضاء ، وقد قرر علماء وظائف الأعضاء مهمة كل عضو وجارحة ، ومتى تبدأ هذه الجارحة فى أداء مهمتها ، وأثبتوا أن الأذن هى الجارحة الأولى التى تؤدى مهمتها فى الطفل ، بدليل أنك إذا وضعتَ أصبعك أمام عين الطفل بعد ولادته لا (يرمش) ، فى حين يفزع إنْ أحدثتَ بجواره صوتاً ؛ ذلك لأنه يسمع بعد ولادته مباشرة ، أما الرؤية فتتأخر من ثلاثة إلى عشرة أيام .

لذلك كانت حاسة السمع هى المصاحبة للإنسان ، ولا تنتهى مهمتها حتى فى النوم ، وبها يتم الاستدعاء ، أما العين فلا تعمل أثناء النوم .

---

(١) الحمأ : الطين الأسود ، ومسنون أى : مصبوب فى قالب إنسانى ، أو مصوّر بصورة إنسان أو طين كالفخار صالح للتصوير والصقل . [القاموس القويم ١/٣٣١] .

وهذه المسألة أوضحها الحق سبحانه فى قصة أهل الكهف ، فلما أراد الحق سبحانه أنْ يُنيم أهل الكهف هذه المدة الطويلة ، والكهف فى صحراء بها أصوات الرياح والعواصف والحيوانات المتوحشة ؛ لذلك ضرب الله على آذانهم وعطَّل عندهم هذه الحاسة كما قال سبحانه : ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا (١١)﴾ [الكهف]

إذن : الأذن هى أول الأعضاء أداءً لمهمتها ، ثم العين ، ثم باقى الأعضاء ، وآخرها عملاً الأعصاب ، بدليل أن الطفل تصل حرارته مثلاً إلى الأربعين درجة ، ونراه يجرى ويلعب دون أن يشعر بشىء ، لماذا ؟ لأن جهازه العصبى لم ينضج بَعْد ، فلا يشعر بهذه الحرارة .

لذلك نجد دائماً القرآن يُقدِّم السمع على البصر ، ويتقدم البصرَ إلا فى آية واحدة هى قوله تعالى : ﴿أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا .. (١٢)﴾ [السجدة] لأنها تصور مشهداً من مشاهد القيامة ، وفيه يفاجأ الكفار بأهوال القيامة ، ويأخذهم المنظر قبل أنْ يسمعوا الصوت حين ينادى المنادى .

ومن عجائب الأداء البيانى فى القرآن أن كلمة أسماع يقابلها أبصار ، لكن المذكور هنا ﴿السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ.. (٩)﴾ [السجدة] فالسمع مفرد ، والأبصار جمع ، فلماذا أفرد السمع وجمع البصر ؟

قالوا : لأن الأذن ليس لها غطاء يحجب عنها الأصوات ، كما أن للعين غطاءً يُسْدل عليها ويمنع عنها المرئيات ، فإذن فهو سمع واحد لى ولك وللجميع ، الكل يسمع صوتاً واحداً ، أما المرئيات فمتعددة ، فما تراه أنت قد لا أراه أنا .

ولم يأْت البصر مفرداً - فى هذا السياق - إلا فى موضع واحد هو قوله تعالى : ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَـٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً (٣٦)﴾ [الإسراء] ذلك لأن الآية تتكلم عن المسئولية ، والمسئولية واحدة ذاتية لا تتعدى ، فلا بُدَّ أنْ يكون واحداً .

ومن المناسب أن يذكر الحق سبحانه السمع والأبصار والأفئدة بعد الحديث عن مسألة الخَلْق ؛ لأن الإنسان يُولَد من بطن أمه لا يعلم شيئاً ، وبهذه الأعضاء والحواس يتعلّم ويكتسب المعلومات والخبرات كما قال سبحانه : ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨)﴾ [النحل]

إذن : فهذه الأعضاء ضرورية لوجود الإنسان الخليفة فى الأرض ، وبها يتعايش مع غيره ، ولا بُدَّ له من اكتساب المعلومات ، وإلاَّ فكيف سيتعايش مع بيئته ؟

وقلنا : إن الإنسان لكى يتعلم لا بُدَّ له من استعمال هذه الحواس المدركة ، كل منها فى مناطه ، فاللسان فى الكلام ، والعين فى الرؤية ، والأذن فى السمع ، والأنف فى الشم ، والأنامل فى اللمس .

وقلنا : إن هذه الحواس هى أمهات الحواس المعروفة ، حيث عرفنا فيما بعد حواسَّ أخرى ؛ لذلك احتاط العلماء لهذا التطور ، فأطلقوا على هذه الحواس المعروفة اسم « الحواس الظاهرة » ، وبعد ذلك عرفنا حاسة البَيْن التى نعرف بها رقَّة القماش وسُمْكه ، وحاسة العضل التى نعرف بها الثقل .

إذن : حينما يُولَد الإنسان يحتاج إلى هذه الحواس ليتعايش بها ويدرك ويتفاعل مع المجتمع الذى يعيش فيه ، ولو أن الإنسان يعيش وحده ما احتاج مثلاً لأنْ يتكلم ، لكنه يعيش بطبيعته مع الجماعة ،

فلا بُدَّ له أن يتكلم ليتفاهم معهم ، وقبل ذلك لا بُدَّ له أنْ يسمع ليتعلم الكلام .

وعرفنا سابقاً أن اللغة وليدة السماع ، فالطفل الذى يُولَد فى بيئة عربية ينطق بالعربية ، والذى يعيش فى بيئة إنجليزية ينطق الإنجليزية وهكذا ، فما تسمعه الأذن يحكيه اللسان ، فإذا لم تسمع الأذن لا ينطق اللسان .

لذلك سبق أن قلنا فى سورة البقرة فى قول الله تعالى : ﴿صُمٌّ بُكْمٌ .. (١٨)﴾ [البقرة] أن البكَم وهو عدم الكلام نتيجة الصمم ، وهو عدم السماع ، فالسمع ـ إذن ـ هو أول مهمة فى الإنسان ، وهو الذى يعطينى الأرضية الأولى فى حياتى مع المجتمع من حولى .

ومعلوم أن تعلُّم القراءة مثلاً يحتاج إلى معلم أسمع منه النطق ، فهذه ألف ، وهذه باء ، هذه فتحة ، وهذه ضمة .. الخ ، فإذا لم أسمع لا أستطيع النطق الصحيح ، ولا أستطيع الكتابة .

وبالسماع يتم البلاغ عن الله من السماء إلى الأرض ؛ لذلك تقدَّم ذِكرْ السمع على ذِكْر البصر .

والحق سبحانه لما تكلَّم عن السمع بهذه الصورة قال : أنا سأُسْمِع أسماء الأشياء ، فهذه أرض ، وهذه سماء .. الخ ؛ لذلك حينما نُعلِّم التلميذ نقول له : هذه عين ، وهذه أذن .

وبعد أنْ يتعلم التلميذ من مُعلِّمه القراءة يستطيع بعد ذلك أنْ يقرأ بذاته ، فيحتاج إلى حاسّة البصر فى مهمة القراءة ، فإذا أتم تعليمه واستطاع أن يصحح قراءته بنفسه ، واختمرت عنده المعلومات التى اكتسبها بسمعه وبصره استطاع أنْ يقرأ أشياء أخرى غير التى قرأها

له معلمه ، واستطاع أن يربى نفسه ويُعلِّمها حتى تتكون عنده خلية علمية يستحدث من خلالها أشياء جديدة ، ربما لا يعرفها معلمه ، وهذه مهمة الفؤاد ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ..(٩)﴾[السجدة]

فالمعانى تتجمع بهذه الحواس ، حتى يصير الإنسان سَوياً لديه الملَكة التى يتعلم بها ، ثم يُعلِّم هو غيره .

واللغة المنطوقة لا تُتعلَّم إلا بالسماع ، فأنا سمعت من أبى ، وأبى سمع من أبيه ، وتستطيع أنْ تسلسل هذه المسألة لتصل إلى آدم عليه السلام أبى البشر جميعاً ، فإنْ قلتَ : فممَّنْ سمع آدم ؟ نقول : سمع الله حينما علَّمه الأسماء كلها : ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا[1] ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَـؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣١)﴾ [البقرة]

وهذا أمر منطقى ؛ لأن اللغة المسموعة بالأذن لا يمكن لأحد اختراعها ، ومع ذلك يوجد مَنْ يعترض على هذه المسألة ، يقول : هذا يعنى أن اللغة توقيفية ، لا دخْلَ لنا فيها . بمعنى : أننا لا نستحدث فيها جديداً .

ونقول : نعم ، اللغة أمر توقيفى ، لكن أعطى اللهُ آدم الأسماء وعلَّمه إياها ، وبهذه الأسماء يستطيع أنْ يتفاهم على وضع غيرها من الأسماء فى المعلومات التى تستجد فى حياته .

---

(١) عن ابن عباس قال : علم الله آدم الأسماء كلها ، وهى هذه الأسماء التى يتعارف بها الناس : إنسان ، ودابة ، وأرض ، وبحر ، وسهل ، وجبل ، وحمار ، وأشباه ذلك من الأمم وغيرها . [أورده السيوطى فى الدر المنثور ١/١٢١ وعزاه لابن جرير الطبرى] .
قال ابن كثير فى تفسيره (١/٧٣) : « علَّمه أسماء الأشياء كلها ذواتها وصفاتها وأفعالها كما قال ابن عباس : حتى الفسوة والفسية . يعنى : أدوات الأسماء والأفعال المكبَّر والمصغر » .

وإلا ، فكيف سمَّيْنا (الراديو والتليفزيون .. الخ) وهذه كلها مُستجدات لا بُدَّ لها من أسماء ، والاسم لا يوجد إلا بعد أنْ يوجد مُسمَّاه ، وهذه مهمة المجامع اللغوية التى تقرر هذه الأسماء ، وتوافق على استخدامها ، وقد اصطلح المَجْمع على تسمية الهاتف : مسرة . والتليفزيون : تلفاز .. الخ .

إذن : أتينا بهذه الألفاظ واتفقنا عليها ؛ لأنها تعبر عن المعانى التى نريدها ، وهذه الألفاظ وليدة الأسماء التى تعلمها آدم عليه السلام ، فاللغة بدأت توقيفية ، وانتهت وضعية .

وقوله تعالى بعد هذه النعم : ﴿قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ۝٩﴾ [السجدة] دليل على أن هذه النعم تستوجب الشكر ، لكن قليل منَّا مَنْ يشكر ، وكان ينبغى أن نشكر المنعم كلما سمعنا ، وكلما أبصرنا ، وكلما عملتْ عقولنا وتوصلتْ إلى جديد .

لذلك ، كان شكر المؤمن لربه لا ينتهى ، كما أن أعياده وفرحته لا تنتهى ، فنحن مثلاً نفرح يوم عيد الفطر بفطرنا وبأدائنا للعبادة التى فرضها الله علينا ، وفى عيد الأضحى نفرح ؛ لأن سيدنا إبراهيم - عليه السلام - تحمَّل عنَّا الفداء بولده ، لكى يعفينا جميعاً من أنْ يفدى كل منَّا ، ويتقرب إلى الله بذبح ولده ، وإلا لكانت المسألة شاقة علينا ؛ لذلك نفرح فى عيد الأضحى ، ونذبح الأضاحى ، ونؤدى النُّسُك فى الحج .

وما دام المؤمن ينبغى له أن يفرح بأداء الفرائض وعمل الطاعات ، فلماذا لا نفرح كلما صلَّينا أو صُمْنا أو زكَّيْنا ؟ لماذا لا نفرح عندما نطيع الله بعمل المأمورات ، وترْك المنهيات ؟ لماذا لا نفرح فى الدنيا حتى يأتى يوم الفرح الأكبر ، يوم تتجمع حصيلة هذه الأعمال ، وننال ثوابها الجنة ونعيمها ؟

واقرأ إن شئت قول ربك : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٩) دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠)﴾ [يونس]

﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍۭ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ۝١٠﴾

معنى ﴿ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ .. (١٠)﴾ [السجدة] أى : غبْنا فيها ، واندثرتْ ذراتنا ، بحيث لا نعرف أين ذهبت ، وإلى أىِّ شىء انتقلت ، إلى حيوان أم إلى نبات ؟ إذا حدث هذا ﴿أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ .. (١٠)﴾ [السجدة] يعنى : أيخلقنا الله من جديد مرة أخرى ؟

والحق سبحانه يرد عليهم : ﴿بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ (١٠)﴾ [السجدة] بل تفيد الإضراب عن كلامهم السابق ، وتقرير حقيقة أخرى ، هى أنهم لا ينكرون البعث والحشر ، إنما ينكرون لقاء الله ﴿بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ (١٠)﴾ [السجدة] لأن مسألة الحشر مستحيل أنْ ينكروها ؛ لأن الدليل عليها واضح .

كما قال سبحانه : ﴿أَفَعَيِينَا[1] بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ (١٥)﴾ [ق] والذى خلق من العدم أولاً قادر على الإعادة من موجود ؛ لأن ذراتك وخاماتك موجودة ، فالإعادة أسهل من البَدْء ؛

---

(١) عىَّ عن الأمر يعيا : عجز عن النهوض به . فقوله ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ .. (١٥)﴾ [ق] أى : لم نعجز ولم نَعْىَ بالخلق الأول ، وكذلك لن نعجز عن الخلق الثانى يوم القيامة ، وهو برهان على إمكان البعث بعد الموت ، فإن من قدر على الخلق أول مرة يكون قادراً من باب أَوْلَى على الخلق مرة ثانية . [القاموس القويم ٢/٤٦] .

لذلك قال سبحانه : ﴿وَهُوَ الَّذِى يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ .. (٢٧)﴾ [الروم]

إذن : تكذيبهم ليس للبعث فى حَدِّ ذاته ، إنما للقاء الله وللحساب ، لكنهم ينكرون البعث ؛ لأنه يؤدى إلى لقاء الله ، وهم يكرهون لقاء الله ، فينكرون المسألة من بدايتها .

﴿ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (١١) ﴾

تلحظ هنا أنهم يتكلمون عن البعث ﴿وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِى الأَرْضِ أَئِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ .. (١٠)﴾ [السجدة] ومعلوم أن البعث إيجاد حياة ، فإذا بالقرآن يُحدِّثهم عن الوفاة ، وهى نقْضٌ للحياة ، ليُذكِّرهم بهذه الحقيقة .

ومعنى ﴿يَتَوَفَّاكُم .. (١١)﴾ [السجدة] من توفيت دَيْناً من المدين . أى : أخذتهُ كاملاً غيرَ منقوص ، والمراد هنا الموت ، والتوفِّى يُنسَب مرة إلى الله عز وجل : ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا (٤٢)﴾ [الزمر]

ويُنسَب لملك الموت ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ .. (١١)﴾ [السجدة] ويُنسب إلى أعوانه من الملائكة ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لا يُفَرِّطُونَ (٦١)﴾ [الأنعام]

لأن مسألة الموت أمرها الأعلى بيد الخالق سبحانه ، فهو وحده واهب الحياة ، وهو وحده صاحب الأمر فى نَقْضها وسلْبها من صاحبها ؛ لذلك حرَّم الله القتل ، وجعل القاتل ملعوناً ؛ لأنه يهدم

بنيان الله ، فإذا قدَّر الله على إنسان الموت أذِن لملَك الموت فى ذلك ، وهو عزرائيل .

إذن : هذه المسألة لها مراحل ثلاث : التوفِّى من الله يأمر به عزرائيل ، ثم يأمر به عزرائيلُ ملائكته الموكَّلين بهذه المسألة ، ثم ينفذ الملائكةُ هذا الأمر .

وتأمل لفظة ﴿ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا .. (٦١) ﴾ [الأنعام] أى : أخذتْه كاملاً ، فلم يقُلْ : أعدمتُه مثلاً ؛ لذلك نقول قُبضت روحه أى : ذهبتْ إلى حيث كانت قبل أن تُنفخ فيه ، ذهبت إلى الملأ الأعلى ، ثم تحلَّل الجسد وعاد إلى أصله ، وذاب فى الأرض ، جزئية هنا وجزئية هناك، كما قالوا ﴿ أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ .. (١٠) ﴾ [السجدة]

فالذى يُتوفَّى لم يُعدم ، إنما هو موجود وجوداً كاملاً ، روحه وجسده ، والله قادر على إعادته يوم القيامة ؛ لذلك لم يقُلْ أعدمنا . وهذه المسألة تحلُّ لنا إشكالاً فى قصة سيدنا عيسى ـ عليه السلام ـ فقد قال الله فيه : ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَـٰعِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ .. (٥٥) ﴾ [آل عمران]

فالبعض يقول : إنه عليه السلام تُوفِّى أولاً ، ثم رفعه الله إليه . والصواب أن واو العطف هنا تفيد مطلق الجمع ، فلا تقتضى ترتيباً ولا تعقيباً ، واقرأ إنْ شئتَ قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ .. (٧) ﴾ [الأحزاب]

والخطاب هنا للنبى محمد ﷺ ونوح عليه السلام قبله .

فالمعنى هنا أن الله تعالى قدَّم الوفاة على الرفع ، حتى لا يظن أحد أن عيسى ـ عليه السلام ـ تبرأ من الوفاة ، فقدَّم الشىء الذى فيه شكٌّ أو جدال ، وما دام قد توفّاه الله فقد أخذه كاملاً غير منقوص ، وهذا يعنى أنه لم يُصلَب ولم يُقتل ، إنما رفعه الله إليه كاملاً .

وقوله تعالى : ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ .. (١١)﴾ [السجدة] جاءت رداً على قولهم ﴿أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ .. (١٠)﴾ [السجدة] فالحق الذى قال أنا خلقتُ الإنسان لم يقُلْ وأنا سأعدمه إنما سأتوفاه ، فهو عندى كاملٌ بروحه وبذراته التكوينية ، والذى خلق فى البَدْء قادر على الإعادة ، وجمع الذرات التى تشتتت .

وقوله عن ملك الموت ﴿الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ .. (١١)﴾ [السجدة] أى : يرقبكم ولا يغفل عنكم ، يلازمكم ولا ينصرف عنكم ، بحيث لا مهربَ منه ولا فكَاك ، كما قال أهل المعرفة : الموت سهم انطلق إليك فعلاً ، وعمرك بمقدار سفره إليك ، فهو واقع لا محالة . كما قلنا فى المصيبة وأنها ما سُمّيت مصيبة إلا لأنها ستصيبك لا محالة .

وقوله : ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (١١)﴾ [السجدة] أى : يوم القيامة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ (١٢)﴾

تصوِّر لنا هذه الآية مشهداً من مشاهد يوم القيامة ، يوم يُساق

المجرم ذليلاً إلى ما يستحق من العذاب ، كأنْ ترى مجرماً مثلاً تسوقه الشرطة وهو مُكبَّل بالقيود يذوق الإهانة والمذلّة ، فتشفى نفسك حين تراه ينال جزاءه بعد أنْ أتعب الدنيا وأداخ الناس .

وفى هذا المشهد يخاطب الحق سبحانه نبيه ﷺ ، وهو أول مخاطب ، ثم يصبح خطاباً لأمته : ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ .. (١٢)﴾ [السجدة] أى : حالة وجودهم أنهم ناكسو رءوسهم . وتقدير جواب الشرط : لرأيتَ أمراً عجيباً يشفى صدرك مما فعلوه بك .

ونلحظ فى هذا الأسلوب دقة الأداء فى قوله تعالى : ﴿وَلَوْ تَرَىٰ .. (١٢)﴾ [السجدة] فلم يقل مثلاً : ولو تعلم ؛ لأن إخبار الله كأنه رؤيا العين ، فحين يخبرك الله بأمر ، فاعلم أنه أصدق من عينك حين ترى ؛ لأن عينك قد تخدعك ، أما إخبار الله لك فهو الحق .

ومعنى ﴿نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ .. (١٢)﴾ [السجدة] النكس هو جَعْل الأعلى أسفل ، والرأس دائماً فى الإنسان أعلى شىء فيه .

وقد وردتْ هذه المادة فى قوله تعالى فى قصة إبراهيم عليه السلام حين حطم الأصنام ، وعلَّق الفأس على كبيرهم : ﴿ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَـٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ (٦٥)﴾ [الأنبياء]

فبعد أنْ عادوا إلى رشدهم واتهموا أنفسهم بالظلم انتكسوا وعادوا إلى باطلهم ، فقالوا : ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَـٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ (٦٥)﴾ [الأنبياء]

وورد هذا اللفظ أيضاً فى قوله تعالى : ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ (٦٨)﴾ [يس]

والمعنى : نرجعه من حال القوة والفتوة إلى حال الضعف والهرم وعدم القدرة ، كما قال سبحانه : ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا .. (٧٠)﴾ [النحل]

فبعد القوة يتكىء على عصا ، ثم لا يستطيع السير فيحبو ، أو يُحمل كما يُحمل الطفل الصغير ، هذا هو التنكيس فى الخَلْق ، وحين نتأمله نقول : الحمد لله لو عافانا من هذه الفترة وهذه التنكيسة ، ونعلم أن الموت لُطْف من الله ورحمة بالعباد ، ألاَ ترى أن مَنْ وصل إلى هذه المرحلة يضيق به أهله ، وربما تمنَّوْا وفاته ليستريح وليستريحوا ؟

وتنكيس رءوس المجرمين فيه إشارة إلى أن هذه هى العاقبة فاحذر المخالفة ، فمَنْ تكبر وتغطرس فى الدنيا نُكِّسَتْ رأسه فى الآخرة ، ومَنْ تواضع لله فى الدنيا رُفعت رأسه ، وهذا معنى الحديث الشريف : « من تواضع لله رفعه »[(١)] .

وفى تنكيس رءوس المجرمين يوم القيامة معنى آخر ؛ لأن الحق - سبحانه وتعالى - سيفعل فى كل مخالف فى الآخرة من جنس ما فعل فى الدنيا ، وهؤلاء الذين نكَّس الله رءوسهم فى الآخرة فعلوا ذلك فى الدنيا ، واقرأ إن شئتَ قول ربك : ﴿أَلا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ .. (٥)﴾ [هود]

أى : يطأطئون رءوسهم ؛ لكى لا يواجهوا رسول الله ، فللحق صَوْلة وقوة لا يثبت الباطل أمامها ؛ لذلك نسمع من أصحاب الحق :

---

(١) أخرج أبو نعيم فى حلية الأولياء (٤٦/٨) من حديث أبى هريرة قال : قال ﷺ : « من تواضع لله رفعه الله » ، وكذا (١٢٩/٧) عن عمر بن الخطاب أنه قال : يأيها الناس ، تواضعوا فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من تواضع لله رفعه الله » .

تعالَ واجهنى ، هات عينى فى عينك . ولا بُدَّ أنْ يستخزى أهل الباطل ، وأنْ يجبنوا عن المواجهة ؛ لأنها ليست فى صالحهم .

وهذا العجز عن المواجهة يدعو الإنسان إلى ارتكاب أفظع الجرائم ، ويصل به إلى القتل ، والقتل لا يدل على القوة ، إنما يدل على عجز وضعف وجُبْن عن المواجهة ، فالقاتل أقرَّ بأنه لا يستطيع أنْ يواجه حياة عدوه فقتله ، ولو كان قوياً لواجه حياته .

ومن العذاب الذى يأتى من جنس ما فعل الإنسان فى الدنيا قول الله تعالى فى الذين يكنزون الذهب والفضة ، ولا ينفقونها فى سبيل الله : ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤) يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ (٣٥) ﴾ [التوبة]

سبحان الله ، كأنها صورة طبق الأصل مما فعلوه فى الدنيا ، فالواحد منهم يأتيه طالب العطاء فيعبس فى وجهه ، ثم يُعرض عنه ، ويعطيه جنبه ، ثم يعرض عنه ويعطيه ظهره ، ويأتى العذاب بنفس هذا التفصيل . إذن : فعلى العاقل أن يحذر هذه المخالفات ، فمن جنسها يكون العذاب فى الآخرة .

وهؤلاء المجرمون حال تنكيسهم يقولون : ﴿ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا .. (١٢) ﴾ [السجدة] هذا كلامهم ، ومع ذلك لم يقل القرآن : قالوا أبصرنا وسمعنا ، فحَذْف الفعل هنا يدل على أن القول ليس سهلاً عليهم ؛ لأنه إقرار بخطئهم الأول وإعلان لذلَّة التوبة .

وقلنا : إن هذه هى الآية الوحيدة التى تقدَّم فيها البصر على السمع ؛ لأن الساعة حين تأتى بأهوالها نرى الهول أولاً ، ثم نسمع ما نراه .

لذلك يقول تعالى مُصوِّراً أثر هذا الهول : ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾﴾ [الحج]

وفى معرض حديثنا السابق عن الحواس : السمع والبصر والفؤاد فاتنا أنْ نذكر آية مهمة جاءت على غير هذا الترتيب ، وهى قول الله تعالى : ﴿خَتَمَ [1] اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾﴾ [البقرة]

فجاء الفؤاد هنا أولاً ، وجمع الفؤاد مع السمع فى الختم لأنهما اشتركا فيه ، أما البصر فاختص بشىء آخر ، وهو الغشاوة التى تُغطِّى أبصارهم ؛ ذلك لأن الآية السابقة فى السمع والبصر والفؤاد كانت عطاءً من الله ، فبدأ بالسمع ، ثم البصر ، ثم ترقى فى العطاء إلى الفؤاد ، لكن هنا المقام مقام سلب لهذه النعم ، فيسلب الأهم أولاً ، فأتى بالفؤاد ثم السمع ثم الأبصار .

لكن أى شىء أبصروه ؟ وأى شىء سمعوه فى قولهم ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا .. ﴿١٢﴾﴾ [السجدة] ؟ أول شىء يبصره الكافر يوم القيامة ﴿وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ .. ﴿٣٩﴾﴾ [النور] وحده سبحانه ليس معه شريك من الشركاء الذين عبدوهم فى الدنيا ، وليس لهم من دونه سبحانه ولىٌّ ، ولا شفيع ، ولا نصير .

ومعنى ﴿سَمِعْنَا .. ﴿١٢﴾﴾ [السجدة] أى : ما أنزلته يا رب على رسولك ، ونشهد أنه الحق وصدَّقنا الرسول فى البلاغ عنك ، وأنه

---

(١) أى : غطاها فأحكم غطاءها فهم لا يفهمون ولا يسمعون . [القاموس القويم ١/١٨٧]
قال أبو إسحاق : معنى ختم وطبع فى اللغة واحد ، وهو التغطية على الشىء والاستيثاق من أن لا يدخله شىء . [لسان العرب ـ مادة : ختم] .

ليس مُفْترياً ، ولا هو شاعر ، ولا هو ساحر ، ولا هو كاذب[١] .

لكن ، ما فائدة هذا الاعتراف الآن ؟ وبماذا ينفعهم[٢] وهم فى دار الحساب ؟ لا فى دار العمل والتكليف ؟! وما أشبه هذا الاعتراف باعتراف فرعون قبل أنْ يغرق : ﴿آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِى آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ .. (٩٠)﴾ [يونس] لذلك ردَّ الله عليه : ﴿آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٩١)﴾ [يونس]

فقولهم : ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا .. (١٢)﴾ [السجدة] إقرار منهم بأنهم كانوا على خطأ ، وأنهم يرغبون فى الرجوع إلى الصواب ، كما قال سبحانه فى موضع آخر : ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّى أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ .. (١٠٠)﴾ [المؤمنون] ، وردَّ الله عليه : ﴿كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا (١٠٠)﴾ [المؤمنون]

ثم كشف حقيقة أمرهم : ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٢٨)﴾ [الأنعام]

وهنا يقولون : ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ (١٢)﴾ [السجدة] وهل يكون اليقين فى هذا الموقف ؟ اليقين إنما يكون بالأمر الغيبى ، وأنتم الآن فى اليقين الحسىِّ المشاهَد ، فهو إذن يقين لا يُجدى[٣] .

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٥٣٥٣/٧) : « أى أبصرنا ما كنا نكذِّب ، وسمعنا ما كنا ننكر . وقيل : أبصرنا صدق وعيدك وسمعنا تصديق رسلك » .

(٢) قال قتادة : أبصروا حين لم ينفعهم البصر ، وسمعوا حين لم ينفعهم السمع . [أورده السيوطى فى الدر المنثور ٥٤٤/٦ وعزاه لعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم] .

(٣) قال القرطبى فى تفسيره (٥٣٥٤/٧) : « قيل : معنى ﴿إِنَّا مُوقِنُونَ (١٢)﴾ [السجدة] أى : قد زالت عنا الشكوك الآن ، وكانوا يسمعون ويبصرون فى الدنيا ، ولكن لم يكونوا يتدبرون ، وكانوا كمن لا يبصر ولا يسمع ، فلما تنبهوا فى الآخرة صاروا حينئذ كأنهم سمعوا وأبصروا » .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٣) ﴾

هنا قد يسأل سائل : لماذا جعل الله الناسَ : مؤمناً وكافراً ، وطائعاً وعاصياً ؟ لماذا لم يجعلنا جميعاً مهتدين طائعين ؟ أهذا صعب على الله سبحانه ؟ لا ، ليس صعباً على الله تعالى ، بدليل أنه خلق الملائكة طائعين مُنفِّذين لأوامره سبحانه ﴿ لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٦) ﴾ [التحريم]

كذلك الأرض والسماء والجبال .. الخ ، كلها تُسبِّح الله وتعبده ﴿ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ .. (٤١) ﴾ [النور]

وقال : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَـٰكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. (٤٤) ﴾ [الإسراء] ، وبعد ذلك يعطى الله تعالى لبعض خَلْقه معرفة هذا التسبيح ، كما قال فى حق داود عليه السلام : ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ .. (٧٩) ﴾ [الأنبياء]

نعم ، هى تُسبِّح أيضاً مع غير داود ، لكن الميزة أنها تشترك معه فى تسبيح واحد ، كأنهم (كورس) يرددون نشيداً واحداً .

وعرفنا فى قصة الهدهد وسليمان ـ عليه السلام ـ أنه كان يعرف قضية التوحيد على أتمِّ وجه ، كأحسن الناس إيماناً بالله ، وهو الذى قال عن بلقيس ملكة سبأ : ﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لاَ يَهْتَدُونَ (٢٤) ﴾ [النمل]

وقال ﴿أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِى يُخْرِجُ الْخَبْءَ[1] فِى السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (٢٥)﴾ [النمل]

والحق ـ سبحانه وتعالى ـ حينما يريد أنْ يُدلِّل لخَلْقه على قدرته يجعل من الضعف قوة ، ومن القوة ضعفاً ، وانظر إلى حال المؤمنين الأوائل ، وكم كانوا أذلة مستضعفين ، فلما أسلموا رفعهم الله بالإسلام وجعلهم سادة .

ومشهورة قصة الصِّدِّيق أبى بكر لما أدخل عليه المستضعفين أمثال : عمار وبلال .. وترك صناديد قريش بالباب ، فعاتبه أبوه على ذلك : كيف يُدخِل العبيد ويترك هؤلاء السادة بالباب ؟ فقال أبو بكر : يا أبى ، لقد رفع الإسلام الخسيسة ، وإذا كان هؤلاء قد ورمتْ أنوفهم أن يدخل العبيد قبلهم ، فكيف بهم حين يُدخِلهم اللهُ الجنةَ قبلهم؟ .

وعجيب أن يصدر هذا الكلام من الصِّدِّيق أبى بكر ، مع ما عُرِف عنه من اللين ورِقَّة القلب والحلم .

وهذا لون من تبديل الأحوال واجتماع الأضداد ، وقد عرض الحق ـ تبارك وتعالى ـ لهذه المسألة فى قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٣٠)﴾ [المطففين] يعنى : يسخرون منهم ويهزأون بهم ، كما نسمع من أهل الباطل يقولون للإنسان المستقيم (خدنا على جناحك) .

---

(١) الخبء : كل ما غاب ، وهو كل شىء غائب مستور ، والخبء الذى فى السماوات هو المطر ، وفى الأرض هو النبات . [لسان العرب ـ مادة : خبأ] .

وليت الأمر ينتهى عند هذا الحد ، إنما إذا عادوا إلى أهلهم كرروا هذا الاستهزاء ، وتبجحوا به ، وفرحوا لإيذائهم لأهل التقوى والاستقامة : ﴿ وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ (٣١) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَـٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ (٣٢) وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ (٣٣) ﴾ [المطففين] لكن يُنهى الحق سبحانه هذا الموقف بقوله : ﴿ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٣٤) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ (٣٥) ﴾ [المطففين] ثم يسألهم الله : ﴿ هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦) ﴾ [المطففين]

فهنا يقول الحق سبحانه : لا تفهموا أن أحداً تأبى علىَّ ، من خَلْقى ، إنما أردتُ لهم الاختيار ، ثم أخبرتهم بما أحبّ أنْ يفعلوه ، فيريد الله أن يعلم علم وقوع بمَنْ آمن به ، وهو يملك ألاَّ يؤمن . وإلا فهو سبحانه عالم أزلاً ؛ ليكون الفعل حجة على أصحابه ، إذن : إياك أنْ تظنَّ أنك باختيارك كسرت قهر العلى .

وسبق أنْ قُلْنا : إن الذين أَلفوا التمرد على الله إيماناً به ، فكفروا وتمردوا على طاعته فعصوه .. الخ نقول لهم : ما دُمْتم قد تعودتم التمرد على أوامر الله ، فلماذا لا تتمردون على المرض مثلاً أو على الموت ؟ إذن : أنت عبد رغم أنفك .

يقول سبحانه هنا : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا .. (١٣) ﴾ [السجدة] أى : لَجعل الناس كالملائكة ، وكالمخلوقات المسيَّرة التى لا اختيار لها ، وسبق أنْ قُلْنا : إن المخلوقات كلها خُيِّرت فى حمل الأمانة ، وليس الإنسان وحده ، لكن الفرق أن ابن آدم أخذ الاختيار مُفصَّلاً ، وبقية الخَلْق أخذوا الاختيار جملة ، بدليل قوله تعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا (٧٢) ﴾ [الأحزاب]

ومعنى الهداية فى ﴿وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا .. (١٣)﴾ [السجدة] أى : هدى المعونة ، وإلا فقد هدى اللهُ جميعَ الناس هُدى الدلالة على طريق الخير ، فالذى أخذ بهدى الدلالة وقال على العين والرأس يأخذ هدى المعونة ، كما قال سبحانه ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧)﴾ [محمد]

ولكى نفهم الفرق بين الهديين ، اقرأ : ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ .. (١٧)﴾ [فصلت] أى : دللناهم وأرشدناهم ﴿فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ .. (١٧)﴾ [فصلت]

ثم يقول سبحانه : ﴿وَلَـٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٣)﴾ [السجدة]

الحق سبحانه يريد أنْ يثبت لخَلْقه أنه هو الأَوْلَى بالحكمة فى الخَلْق ، بدليل أن الذى يشذ عن مراد الله لا بُدَّ أن يفسد به المجتمع ، كما نرى المجتمعات تشقى بكفر الكافر ، وبعصيان العاصى .

والحق سبحانه يترك الكافر يكفر باختياره ، والعاصى يعصى باختياره ليؤذى الناس بإثم الكافر وبإثم العاصى ، وعندها يعودون إلى تشريع الله ويلجئون إلى ساحته سبحانه ، ولو أن الناس عملوا بشرع الله ما حدث فساد فى الكون ولا خَلَلٌ فى حياتهم أبداً .

لذلك نفرح حينما ينتقم الله من أهل الكفر ومن أهل المعصية ، ونقول : الحمد لله الذى أراح منهم البلاد والعباد .

إذن : مخالفة منهج الله فى القمة كفراً به سبحانه ، وفى غيرها معصيةً لأمره هو الذى يبين مزايا الإيمان وحلاوة التشريع . وقلنا :

إن التشريع يجب أنْ يأخذه المكلَّف أَخْذاً كاملاً بما له وبما عليه ، فالله كلَّفك ألاَّ تسرق من الناس ، وكلَّف الناسَ جميعاً ألاَّ يسرقوا منك .

ومعنى ﴿ وَلَـكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي .. (١٣) ﴾ [السجدة] أى : وقع وثبت وقُطع به ، ويأتى هذا المعنى بلفظ سبق ، كما فى ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) ﴾ [الصافات] وفى قصة نوح عليه السلام : ﴿ فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ .. (٢٧) ﴾ [المؤمنون]

وقال تعالى حكايةً عن الكفار فى حوارهم يوم القيامة : ﴿ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ (٣١) ﴾ [الصافات]

ومعنى ﴿ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٣) ﴾ [السجدة] عرفنا أن الله تعالى خلق الجنة ، وخلق لها أهلاً يملأونها ، وخلق النار وخلق لها أهلاً يملأونها ، فليس فيهما أزمة أماكن ، فالجنة أُعدَّتْ لتسع جميع الخَلْق إنْ آمنوا ، وكذلك النار أُعِدَّتْ لتسع الخَلْق جميعاً إنْ كفروا .

لذلك حين يذهب أهل الجنة إلى الجنة يرثون أماكن أهل النار فيها[1] ، كما قال سبحانه : ﴿ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣) ﴾ [الأعراف]

والجِنَّة : أى الجِنّ والعفاريت .

---

(١) أخرج ابن ماجة فى سننه (٤٣٤١) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال ، قال ﷺ : « ما منكم من أحد إلا له منزلان : منزل فى الجنة ، ومنزل فى النار ، فإذا مات فدخل النار ورث أهل الجنة منزله ، فذلك قوله تعالى : ﴿ أُولَـئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (١٠) ﴾ [المؤمنون] » .
قال البوصيرى فى الزوائد : هذا إسناده صحيح على شرط الشيخين .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٤) ﴾

والتقدير : ذوقوا العذاب ، كما جاء فى آية أخرى ﴿ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ (٤٨) ﴾ [القمر] ويُقال هذا لزعماء ورءوس الكفر ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (٤٩) ﴾ [الدخان]

واختار حاسة التذوق ؛ لأن كل وسيلة إدراك قد تتصل بلون من ألوان الترف فى الحياة ، أمَّا الذوق فيتصل بإمداد الحياة ، وهو الأكل والشرب ، وبهما قوام حياة الإنسان ، فهما ضرورتان للحياة لا مجردَ ترف فيها .

وفى موضع آخر ، يُبيِّن لنا الحق سبحانه أثر الإذاقة ، فيقول عن القرية التى كفرت بربها : ﴿ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١١٢) ﴾ [النحل] وتصور أن يكون الجوع لباساً يستولى على الجسم كله ، وكأن الله تعالى يريد أنْ يُبين لنا عضة الجوع ، التى لا تقتصر على البطن فحسب ، إنما على كل الأعضاء ، فقال ﴿ لِبَاسَ الْجُوعِ .. (١١٢) ﴾ [النحل] لشمول الإذاقة ، فكأن كل عضو فى الجسم سيذوق ألم الجوع ، وهذا المعنى لا يؤديه إلا اللفظ الذى اختاره القرآن .

وقد فطن الشاعر إلى هذه الشمولية التى تستولى على الجسم كله ، فقال عن الحب الإلهى حين يستشرف فى القلب ويفيض منه ليشمل كلَّ الجوارح ، فقال :

خَطَرَاتُ ذِكْرِكَ تَسْتَثِيرُ مودَّتى فأُحِسُّ منها فى الفُؤادِ دَبِيبَا
لاَ عُضْوَ لى إلاَّ وَفِيه صَبَابَةٌ[1] فكأنَّ أَعْضَائى خُلِقْنَ قُلُوبَا

وعلَّة هذه الإذاقة ﴿بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا .. ﴿١٤﴾﴾ [السجدة] أى : يوم القيامة الذى حدَّثناكم عنه ، وحذَّرناكم من أهواله ، فلم نأخذكم على غِرَّة ، لكن نبهناكم إلى سوء العاقبة ، فلا عذرَ لكم الآن ، وقد ضخَّمنا لكم هذه الأهوال ، فكان من الواجب أن تلتفتوا إليها ، وأنْ تعتبروا بها ، وتتأكدوا من صِدْقها .

أما المؤمنون فحين يروْنَ هذا الهول وهذا العذاب ينزل بالكفرة والمكذِّبين يفرحون ؛ لأن الله نجاهم بإيمانهم من هذا العذاب .

وتكون عاقبة نسيان لقاء الله ﴿إِنَّا نَسِينَاكُمْ .. ﴿١٤﴾﴾ [السجدة] فأنتم نسيتم لقاء الله ، ونسيتم توجيهاته ، وأغفلتم إنذاره وتحذيره لكم ، ونحن تركناكم ليس هملاً ، إنما تركناكم من امتداد الرحمة بكم ، فقد كانت رحمتى تشملكم فى الدنيا ، ولم أخصّ بها المؤمنين بى ، بل جعلتُها للمؤمن وللكافر .

فكل شىء فى الوجود يعطى الإنسان مطلق الإنسان طالما أخذ بالأسباب ، لا فرق بين مؤمن وكافر ، هذا فى الدنيا ، أما فى الآخرة فننساكم من هذه الرحمة التى لا تستحقونها ، بل : ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [السجدة]

فإنْ كنتم قد تمردتم على الله وكفرتم به فى دنيا محدودة ، وعمرك فيها محدود ، فإن العذاب الواقع بكم اليوم خالد باقٍ دائم ، فخسارتكم كبيرة ، ومصيبتكم فادحة .

---

(١) الصبابة : الشوق . والصَّبُّ : العاشق المشتاق . [لسان العرب ـ مادة : صبب] .

وقلنا : إن العمل فى الدنيا للآخرة يمثل معادلة ينبغى أنْ تُحلّ حلاً صحيحاً ، فأنت فى الدنيا عمرك لا يُحسب بعمرها ، إنما بمدة بقائك فيها ، فهو عمر محدود ، أما الآخرة فخلود لا ينتهى ، فلو أن النعيم فيهما سواء لكان امتداد الزمن مرجحاً للآخرة .

ثم إن نعيمك فى الدنيا على قدر إمكاناتك وحركتك فيها ، أما نعيم الآخرة فعلى قدر إمكانات الله فى الكون ، نعيم الدنيا إما أنْ يفوتك أو تفوته أنت ، ونعيم الآخرة باقٍ لا يفوتك أبداً لأنك مخلد فيه .

إذن : هى صفقة ينبغى أنْ تُحْسبَ حساباً صحيحاً ، وتستحق أن نبيع من أجلها الدنيا بكل ما فيها من غالٍ ونفيس ؛ لذلك سماها رسول الله تجارة رابحة .

وقال سبحانه وتعالى عن الكافرين ﴿أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (١٦)﴾ [البقرة]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ (١٥)﴾

الخرور : السقوط بغير نظام ولا ترتيب ، كما جاء فى قوله تعالى ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ .. (٢٦)﴾ [النحل] وفى موضع آخر قال سبحانه فى هذا المعنى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ .. (١٠٧)﴾ [الإسراء] أى : من قبل القرآن ﴿إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا (١٠٧) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا (١٠٨)﴾ [الإسراء]

فالخرور أنْ تهوى إلى الأرض ساجداً دون تفكير ، وكل سجود

فى القرآن يتلو هذه المادة (خرَّ) دليل على أنها أصبحتْ ملَكة وآلية فى المؤمن ، بل ويؤكدها الحق سبحانه بقوله : ﴿ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا (١٠٧) ﴾ [الإسراء] لأنه سجود يأخذ الذقن ، فهو متمكن فى الذلّة ، وهو فوق السجود الذى نعرفه فى الصلاة على الأعضاء السبعة المعروفة .

ولم يُذكر الخرور مع الركوع إلا فى موضع واحد ، هو قوله تعالى فى شأن سيدنا داود : ﴿ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ (٢٤) ﴾ [ص]

وفى موضع آخر قال سبحانه : ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا (١٠٩) ﴾ [الإسراء] فكلما ازدادوا ذلَّة ازدادوا خشوعاً ، فكأنهم عشقوا التكليف ، وأحبوا أوامر الله ؛ لذلك بالغوا فى الذلة والعبودية لله تعالى ، وهذه المسألة تفسر لنا قول النبى ﷺ : « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد ، فأكثروا من الدعاء »[(١)] .

ففى السجود تضع وجهك وجبهتك ، وهى رمز العلو والرِّفْعة تضعها على الأرض خضوعاً لله عز وجل .

ثم يقول الحق سبحانه عنهم[(٢)] :

﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ (١٦) ﴾

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٤٨٢) كتاب الصلاة ، وكذا أحمد فى مسنده (٢/٤٢١) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

(٢) **سبب نزول الآية** : أخرج البزار (٢٢٥٠ - كشف الأستار للهيثمى) عن بلال بن رباح أنه قال : كنا نجلس فى المجلس وناس من أصحاب النبى ﷺ يصلون بعد المغرب إلى العشاء ، فنزلت هذه الآية ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ .. (١٦) ﴾ [السجدة] . وأورده السيوطى فى أسباب النزول (ص ١٣٦) وعزاه للبزار وضعَّفه بشيخه عبد الله بن شبيب.

التجافى يعنى الترك ، لكن الترك قد يكون معه شوق ويصاحبه ألم ، كما تودع حبيباً وتتركه وأنت غير زاهد فيه ولا قَالٍ[١] له ، أما الجفوة فترك فيه كراهية للمتروك ، فهؤلاء المؤمنون الذين يتركون مضاجعهم كأن جنوبهم تكره المضجع وتجفوه ؛ لأنها تتركه إلى لذة أبقى وأعظم هى لذة الاتصال بالله ومناجاته .

ونذكر هنا أن الإمام علياً رضى الله عنه حينما ذهب ليدفن فاطمة بنت رسول الله ﷺ رضى الله عنها وقف عند قبر رسول الله وقال : السلام عليك يا سيدى يا رسول الله ، قَلَّ عن صفيتك صبرى ، ورقَّ عنها تجلُّدى ، إلا أن لى فى التعزى بعظيم فُرْقتك وفادح مصيبتك موضع تأسٍّ - يعنى : الذى تحمَّل فَقْدك يا رسول الله يهون عليه أىُّ فَقْد بعدك - فلقد وسدتُك يا رسول الله فى ملحودة قبرك ، وفاضت بين سَحْرى[٢] ونَحْرى نفسك ، أما ليلى فمُسهَّد ، وأما حزنى فَسَرْمَد[٣] ، إلى أنْ يختار الله لى دارك التى أنت بها مقيم ، هذا وستخبرك ابنتك عن حال أمتك وتضافرها على هضمها ... فَأَصْغِها السؤال ، واستخبرها الحال . هذا ولم يَطُل منك العهد ، ولم يخْلُ منك الذكر .

ثم لما أراد أنْ ينصرف عن قبر حبيبه قال : والسلام عليك سلام

---

(١) قليته قِلَى : أبغضته وكرهته غاية الكراهة فتركته . والقِلَى : البُغْض . [اللسان - مادة : قلى] .

(٢) السَّحْر : الرئة والقلب . أى : أنها ماتت وهى مستندة إلى صدره . والنحر : الصدر وهو موضع القلادة منه . [اللسان] .

(٣) السرمد : دوام الزمان من ليل أو نهار . والسرمد : الدائم الذى لا ينقطع . [اللسان - مادة : سرمد] .

مُودِّع ، لا قالٍ ولا سئم ، فإنْ انصرف فلا عن ملالة ، وإنْ أُقِم فلا عن سوء ظن بما وعد الله به عباده الصابرين .

فقوله تعالى : ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ .. ﴿١٦﴾﴾ [السجدة] أى : تكرهها وتجفوها ، مع أنها أعزُّ ما يركن إليه الإنسان عند راحته ، فالإنسان حين تدبّ فيه الحياة ، ويستطيع أنْ تكون له قوة ونشاط يعمل فى الحياة ، فالعمل فرع وجود الحياة ، وبالقوة يمشى ، وبالقوة يحمل الأثقال .

فإذا ما أتعبه الحِمْل وضعه عن نفسه ليستريح ، لكنه يستطيع أن يمشى بدون حمل ، فإنْ أتعبه المشى وقف ، فإذا أتعبه الوقوف جلس ؛ لذلك يحدث أن تقول لصاحبك : لو سمحت احمل عنى هذا الحِمْلَ فيقول : يا شيخ ، هل أنا قادر أن أحمل نفسى ؟

إذن : التعب فى هذه الحالة ناشىء من ثِقَل الجسم على القدمين فيتعبه الوقوف ، ألاَ ترانا إذا أطال الإمام فى الصلاة مثلاً نراوح بين القدمين مرة على هذه ، ومرة على هذه ، أما القعود فيريح الإنسان ؛ لأنه يُوسِّع دائرة العضو المحتمل ، فثِقَل الجسم فى حالة القعود يُوزَّع على المقعدة كلها ، فإذا بلغ به التعب حداً بحيث أتعبه القعود فإنه يستلقى على جنبه ، ويمد جسمه كله على الأرض فيتوزع الثقل على كل الأعضاء ، فلا يحمل العضو إلا ثقله فقط .

فإنْ شعر الإنسان بتعب بعد هذا كله تقلَّب على جنبه الآخر أو على ظهره ، هذه كلها ألوان من الراحة لجسم الإنسان ، لكنه لا يرتاح الراحة الكاملة إلا إذا استغرق فى النوم ، ويُسمُّون هذا التسلسل متواليات عضلية .

والدليل على أن النوم راحة تامة أنك لا تشعر فيه بالألم الذى تشعر به حال اليقظة ـ إنْ كنت تتألم من مرض مثلاً ـ وهذه كلها متواليات يمر بها المؤمن ، وبالتالى إذا مات استراح أكثر ، ثم إذا بُعِث يوم القيامة ارتاح الراحة الكبرى ، فهى مراحل نمرُّ بها إلى أنْ نرتمى فى حضن خالقنا عز وجل .

إذن : فالمضاجع آخر مرحلة فى اليقظة ، ولم تأْتِ إلا بعد عدة مراحل من التعب ، ومع ذلك شوق المؤمنين إلى ربهم ورغبتهم فى الوقوف بين يديه سبحانه يُنسيهم هذه الراحة ، ويُزهِّدهم فيها ، فيجفونها ليقفوا بين يدى الله .

وفى موضع آخر قال تعالى عنهم : ﴿كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧)﴾ [الذاريات] ثم يقول سبحانه : ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ .. (١٦)﴾ [السجدة] أى : يدعون ربهم وهم على حال التعب ، كأن الدعاء مجرد الدعاء يريحهم ، لماذا ولم يُجَابوا بعد ؟ قالوا : لأنهم وضعوا حاجاتهم وطلبهم عند قادر على الإنفاذ ، ثم إن حلاوة لقائهم بربهم فى الصلاة تُنسيهم التعب الذى يعانون .

والمؤمنون يدعون ربهم ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا .. (١٦)﴾ [السجدة] أى : خوفاً مما حدث منهم من تقصير فى حق الله ، وأنهم لم يُقدِّموا لله تعالى ما يستحق من التقوى ومن الطاعة ﴿وَطَمَعًا .. (١٦)﴾ [السجدة] أى : فى المغفرة ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (١٦)﴾ [السجدة] والمراد هنا الزكاة .

لذلك نرى فى قوله تعالى : ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ..

(١٦) ﴾ [السجدة] أن هذا التجافى كان بقصد الصلاة ؛ لأن القرآن عادةً ما يقرن الصلاة بالزكاة ، فقال بعدها : ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (١٦) ﴾ [السجدة]

﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (١٧) ﴾ (١)

قلنا : إن الحق سبحانه أخفى أسرار الخير عن الخَلْق ، ولم يُعْطهم منها إلا على قدر حاجتهم منها ، فإذا أراد سبحانه أنْ يُجازى عباده المؤمنين لا يجازيهم بما يعلمون من خيرات الدنيا وإمكاناتهم فيها ، إنما يجازيهم بما يعلم هو سبحانه ، وبما يتناسب مع إمكانات قدرته .

وهذه الإمكانات لا نستطيع نحن التعبير عنها ؛ لأن ألفاظ اللغة لا تستطيع التعبير عنها ، ومعلوم أن الإنسان لا يضع الاسم إلا إذا وُجد المسمى والمعنى أولاً ؛ لذلك قال تعالى فى التعبير عن هذا النعيم : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ .. (١٧) ﴾ [السجدة]

وقال النبى ﷺ عن الجنة : « فيها ما لا عين رأتْ ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر »(٢) إذن : كيف نُسمِّى هذه الأشياء ؟ وكيف نتصوَّرها وهى فوق إدراكاتنا ؟ لذلك سنفاجأ بها حين نراها إنْ شاء الله .

---

(١) القرة : كل شىء قرَّتْ به عينك . ويقال : أقرَّ الله عينك ، أى : بلَّغك أمنيتك حتى ترضى نفسك وتسكن عينك فلا تستشرف إلى غيره . [لسان العرب ـ مادة : قرر] .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٨٢٤) ، وأحمد فى مسنده (٢/٤٦٦) ، وأبو نعيم فى حلية الأولياء (٢/٢٦٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

ثم ألاَ ترى أن الحق سبحانه حينما يعرض علينا طرفاً من ذكر الجنة لا يقول لنا الجنة كذا وكذا ، إنما يقول : ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ .. (٣٥)﴾ [الرعد] أى : أن ما نعرضه عليك ليس هو الجنة ، إنما شبيه بها ، أما هى على الحقيقة ففوق الوصف الذى تؤديه اللغة ، فأنا أعطيكم الصورة القريبة لأذهانكم .

ثم يُنقى الحق سبحانه المثل الذى يضربه لنا من شوائبه فى الدنيا ، وتأمل فى ذلك قول الله تعالى عن نعيم الجنة : ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ .. (١٥)﴾ [محمد] وكانت آفة الماء عندهم أن يأسن ويتغير فى الجرار ، فنقَّاه الله من هذه الآفة .

وكذلك فى ﴿وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ (١٥)﴾ [محمد] وكان العربى إذا سار باللبن يحمض فيعافه ﴿وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ .. (١٥)﴾ [محمد] وآفة خمر الدنيا أنها تغتال العقل ، وتذهب به ، وليس فى شربها لذة ؛ لذلك نرى شاربها والعياذ بالله يتجرَّعها مرة واحدة ، ويسكبها فى فمه سكْباً ، دليلاً على أنها غير طيبة ، وهل رأيت شارب الخمر يمتصُّها مثلاً كما تمتص كوباً من العصير ، وتشعر بلذة شربه ؟

وقد وصف الله خمر الآخرة بقوله : ﴿لا فِيهَا غَوْلٌ[1] وَلا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ[2] (٤٧)﴾ [الصافات]

---

(١) الغَوْل : الصداع . وقيل : السُّكر . وقال أبو عبيدة : الغَوْل أن تغتال عقولهم . [لسان العرب ـ مادة : غول] .

(٢) أنزف القوم : نفد شرابهم . وأنزف القوم إذا ذهب ماء بئرهم وانقطع [لسان العرب ـ مادة : نزف] . قال الضحاك عن ابن عباس : فى الخمر أربع خصال : السُّكْر والصداع والقىء والبول فذكر الله تعالى خمر الجنة فنزهها عن هذه الخصال . [نقله ابن كثير فى تفسيره ٤/٧] .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُصَفًّى .. (١٥)﴾ [محمد] فوصف العسل بأنه مُصفًّى ؛ لأن آفة العسل عندهم ما كان يعلَق به من الحصى والشوائب حين ينحدر من بيوت النحل فى الجبال ، فصفَّى الله عسل الآخرة من شوائب العسل فى الدنيا .

ومهما بلغ بنا ترف الحياة ونعيمها ، ومهما عَظُمَتْ إمكاناتنا فى الدنيا ، فلن نرى فيها نهراً من الخمر ، أو من اللبن ، أو من العسل ، ثم إن هذه الأنهار تجرى فى الجنة بلا شطآن ، بل ويتداخل بعضها فى بعض دون أن يطغى أحد منها على الآخر ، وهذه طلاقة القدرة التى لا حدود لها .

إذن : الحق سبحانه حين يشرح لنا نعيم الجنة ، وحين يَصِفُها يعطينا المثال لا الحقيقة ، ثم يُنقِّى هذا المثال مما يشوبه فى الدنيا .

ومن ذلك أن العربى كان يحب شجرة السِّدر أى النبق ، فيستظل بظلها ، ويأكل ثمرها ، لكن كان ينغص عليه هذه اللذة ما بها من أشواك لا بُدَّ أنْ تؤذى مَنْ يقطف ثمارها ، فلما ذكرها الله تعالى فى نعيم الجنة قال عنها : ﴿فِى سِدْرٍ [1] مَّخْضُودٍ (٢٨)﴾ [الواقعة] أى : منزوع الشوك ، فالمتعة به تامة لا يُنغِّصها شىء .

ولما تكلم عن نساء الجنة قال سبحانه عن الحور العين : ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ [2] إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ (٧٤)﴾ [الرحمن] فنفى عنهن ما يُنغِّص على

---

(١) السدر : شجر النبق والسدر من الشجر سدران : أحدهما برى لا يُنتفع بثمره ، وثمره لا يسوغ فى الحلق . والسدر الثانى ينبت على الماء ، وثمره النبق أصفر مُرٌّ . [لسان العرب ـ مادة : سدر] . المخضود : هو الذى خُضِد شوكه فلا شوك فيه .

(٢) طمثت المرأة : حاضت . فهى طامث . والطمث : الافتضاض وهو النكاح بالتدمية . فمعنى لم يطمثهن إنس أى : لم يمسسهن أحد .

الرجل جمال المرأة فى الدنيا ، وطمأنك أنها بِكْر لم ينظر إليها أحد قبلك .

لهذا قال تعالى عن نعيم الجنة ﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ .. ﴿١٧﴾﴾ [السجدة] والقرة والقُرور أى : السكون ، ومنه قرَّ فى المكان أى : استقر فيه ، والمعنى أن الإنسان لا يستقر فى المكان إلا إذا وجد فيه راحته ومُقوِّمات حياته ، فإذا أردتَ أنْ تستقر فى مكان أو تشترى شقة مثلاً تسأل عن المرافق والخدمات من ماء وكهرباء وطرق .. الخ .

حتى نحن فى تعبيراتنا العامية وفى الريف الذى يحتفظ لنا بخصائص الفطرة النقية التى لم يَشُبْها زيف الحضارات ولا زخرفة المدينة ، وهذه الفطريات تستهوى النفوس وتجذبها ، بدليل أن الإنسان الحضارى مهما بلغ القمة وسكن ناطحات السحاب ، وتوفرتْ له كل كماليات الحياة لا بُدَّ أنْ يأتى اليوم الذى يلجأ فيه إلى أحضان الطبيعة ، فلا ترتاح نفسه ، ولا تستقر إلا فى الريف ، فيقضى هناك عدة أيام حيث تهدأ هناك نفسه ، وتستريح من ضوضاء المدينة ، والبعض يسمونها (الويك إند) .

فمعنى (قرة العين) أى : استقرارها على شىء بحيث لا تتحول عنه إلى غيره ، والعين لا تستقر على الشىء إلا إذا أعجبها ، ورأتْ فيه كل ما تصبو إليه من متعة .

ومن ذلك قولنا (فلان عينه مليانة) يعنى : لا يحتاج مزيداً من المرائى غير ما يراه (وفلان عينه فارغة) يعنى : لا يكتفى بما يرى ، بل يطلب المزيد ، فينظر هنا وهناك .

ففى الجنة تقرّ العيون بحيث لم يَعُدْ لها تطلعات ، فقد كَمُلَتْ لها المعانى ، فلا ينبغى لها أنْ تطمع فى شىء آخر إلا الدوام .

لذلك يخاطب الله رسوله ﷺ : ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ .. (١٣١)﴾ [طه]

فالإنسان إذا كانت عينه فارغة تراه زائغ العينين ، ينظر هنا وهناك ، ولو كانت عينه (مليانة) لانتهى عندها .

ومن معانى مادة (قرَّ) القُرُّ وهو البرد الشديد ، وهذا المعنى يَكْنُون به عن سرور النفس ، فالعين الباردة أى : المسرورة ، أما العين الساخنة فهى الحزينة المتألمة .

ومن المعانى أيضاً لقرور العين سكونها وعدم حركتها لعلَّة أو عمى ، ومن ذلك قول المرأة التى دخلتْ على الخليفة فقالت : أقرَّ الله عينك ، وأتمَّ عليك نعمتك . ففهم الحاضرون أنها تدعو له ، فقال : والله ما دعتْ لى ، إنما دعتْ علىَّ ، فهى تقصد أقرَّ الله عينك يعنى : أسكنها فلا تتحرك ، وأتمَّ عليك نعمتك . أى : أزالها ؛ لأن النعمة إذا تمتْ زالت ، فلا شىء بعد التمام إلا النقصان .

ثم يُعلِّل الحق سبحانه هذا النعيم الذى أخفاه لعباده المؤمنين فى الجنة بأنه ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٧)﴾ [السجدة] وهذه أثارت معركة بين العلماء هى معركة الأحباء : فريق قال إن المؤمن يدخل الجنة بعمله ، كما نصَّتْ هذه الآية أى : أن الجنة بالعدل لا بالفضل ، وفريق قال : بل يدخل الجنة بفضل الله ، كما جاء فى قول الحق سبحانه

وتعالى : ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [يونس]

وقول النبى ﷺ : « لن يدخل أحدٌ الجنةَ بعمله قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمدنى[1] الله برحمته»[2] .

فلما حميَتْ هذه المعركة أرادوا أنْ يوحدوا هذين الرأيين ، ويُوفِّقوا بينهما ، فقالوا : لقد سبق الله تعالى المكلف بالإحسان ، فخلق له مُقومات حياته قبل أنْ يوجد ، ثم تركه يرتع فى نِعَمه دون أنْ يطالبه بشىء حتى بلغ سِنَّ التكليف .

فإذا ما كلَّفه الله بعد سابق نعمه عليه ، فعليه أنْ يطيع هذا التكليف جزاء ما سبق من إحسان الله إليه الإحسان الأول ، وبذلك يكون الجزاء فى الآخرة ليس على العمل ، إنما محْض فضل من الله على عباده .

إذن : حينما تؤدى ما كلَّفك ربك به كأنك تجازى ربك بطاعته على سابق إحسانه إليه ، فكأن الجنة ونعيمها زيادة وفضل من الله ، فالله سبحانه له الفضل عليك فى الأولى ، وله الفضل عليك فى الآخرة .

ثم إن الحق ـ تبارك وتعالى ـ حين يُشرِّع لك ويكلِّفك ، فشَرْعه وتكليفه فى ذاته فضل ، ألاَ ترى أن الحسنة عنده سبحانه بعشر أمثالها ، وأنها تضاعف إلى أضعاف كثيرة ، ونحن مِلْكه سبحانه ، يعطينا أو لا يعطينا .

---

(١) تغمده الله برحمته : أدخله فيها وغمره بها . قال أبو عبيد : قوله يتغمدنى : يلبسنى ويتغشانى ويسترنى . [لسان العرب ـ مادة : غمد] .

(٢) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٤٦٣) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٨١٦) عن أبى هريرة .

وبعض أهل المعرفة والشطح يقولون : الله قدَّم الإحسان أولاً ، فيجب على العبد أن يأتى بالإحسان جزاء الإحسان ؛ لأنه ﴿هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ (٦٠)﴾ [الرحمن]

وحين يُحسِن العبد فى التكليف يُحيِّيه ربه بإحسان آخر ، فيرد العبد على إحسان ربه إليه بالإحسان ، وهكذا يتواصل الإحسان بين العبد وربه إلى ما لا نهاية .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ (١٨)﴾

أولاً : نلحظ فى اللفظ أن مؤمناً وفاسقاً جاءت بصيغة المفرد ، فكان القياس أنْ نقول : لا يستويان ، إنما سياق القرآن ﴿لاَّ يَسْتَوُونَ (١٨)﴾ [السجدة] وسبق أنْ قُلْنا : إن (من وما) الموصولتين تأتى للمفرد أو للمثنى أو للجمع ، وللمذكر وللمؤنث ، فمرة يراعى السياق لفظها ، ومرة يراعى معناها .

والمعنى هنا ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا (١٨)﴾ [السجدة] الحق سبحانه لا يتكلم عن المفرد ، إنما عن الجمع ، أو أنها قيلت رداً لحالة مخصوصة بين مؤمن وكافر وأراد الحق سبحانه أن يعطيها

---

(١) **سبب نزول الآية** : أخرج الواحدى وابن عساكر من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : قال الوليد بن عقبة بن أبى معيط لعلى بن أبى طالب : أنا أحدُّ منك سناناً ، وأبسط منك لساناً ، وأملأ للكتيبة منك . فقال له على : اسكت فإنما أنت فاسق ، فنزلت ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لاَّ يَسْتَوُونَ (١٨)﴾ [السجدة] [أسباب النزول للسيوطى ص ١٣٦] .

العموم لا خصوص السبب ، فراعى السياق خصوص السبب فى مؤمن وكافر ، وراعى عموم الموضوع فقال ﴿لاَّ يَسْتَوُونَ (١٨)﴾ [السجدة] والقاعدة الفقهية تقول : إن العبرة فى القرآن بعموم اللفظ لا بخصوص السبب[١] .

وقيل : إن هذه الآية نزلت فى الوليد بن عقبة بن أبى معيط حين جادل علياً رضى الله عنه . فقال له : أنا أشبُّ منك شباباً ، وأجلد[٢] منك جَلَداً ، وأذرب[٣] منك لساناً ، وأحدُّ منك سناناً ، وأشجع منك وجداناً ، وأكثر منك مَرَقاً . فردَّ عليه علىٌّ - كرَّم الله وجهه - بما يدحض هذا كله ويبطله ، فقال له : اسكت يا فاسق ، ولا موهبة لفاسق .

والمعنى : إنْ كنت كما تقول فقد ضيعتَ هذا كله بفسقك ، حيث استعملتَ قوة شبابك وجلَدك وذَرَب لسانك وشجاعة وجدانك فى الباطل وفى المعصية ، وفى الصدِّ عن سبيل الله .

وهكذا جمعتْ الآية بين خصوصية هذا السبب فى ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا .. (١٨)﴾ [السجدة] وبين عموم الموضوع فى ﴿لاَّ

---

(١) « ذهب الجمهور إلى أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، فالحكم الذى يؤخذ من اللفظ العام يتعدى صورة السبب الخاص إلى نظائرها ، كآيات اللعان التى نزلت فى قذف هلال بن أمية زوجته فيتناول الحكم المأخوذ من هذا اللفظ العام ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ..(٦)﴾ [النور] غير حادثة هلال دون احتياج إلى دليل آخر » [مباحث فى علوم القرآن - مناع القطان - ص ٨٠ - نشر مكتبة وهبة ١٩٨٨ م] .

(٢) الجلد : القوة والشدة والصبر . [لسان العرب - مادة : جلد] .

(٣) الذرب اللسان هو الحادُّ اللسان . والذرب : الحاد من كل شىء . [اللسان - مادة : ذرب] .

يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [السجدة] ، فهذا الحكم ينسحب على الجمع أيضاً .

وجاء قوله تعالى : ﴿ لاَّ يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [السجدة] كأنه جواب للسؤال ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا .. ﴿١٨﴾ ﴾ [السجدة] لكن ، لماذا لم يأتِ الجواب مثلاً : لا يستوى المؤمن والفاسق ؟ قالوا : لأن هذا الأسلوب يسمى أسلوب الإقناع التأكيدى ، وهو أن تجعل الخصم هو الذى ينطق بالحكم .

كما لو قال لك صديق : لقد مررتُ بأزمة ولم تقف بجانبى . فتستطيع أنْ تقول له : وقفتُ بجانبك يوم كذا ويوم كذا ـ على سبيل الخبر منك ، لكن الإخبار منك يحتمل الصدق ويحتمل الكذب ، فتلجأ إلى أسلوب آخر لا يستطيع معه الإنكار ، ولا يملك إلا الاعتراف لك بالجميل فتقول بصيغة السؤال : ألم أقدم لك كذا وكذا يوم كذا وكذا ؟ وأنت لا تسأله إلا إذا وثقتَ بأن جوابه لا بُدَّ أنْ يأتى وَفْق مرادك وعندها يكون كلامه حجة عليه .

لذلك طرح الحق سبحانه هذه المسألة فى صورة سؤال : ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا .. ﴿١٨﴾ ﴾ [السجدة] ولابد أن نقول نحن فى جواب هذا السؤال : لا يستوى مؤمن وفاسق ، ومَنْ يقُلْ بهذا فقد وافق مراد ربه .

وما دام أن المؤمن لا يستوى والفاسق ، فلكل منهما جزاء يناسبه :

﴿ أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ ﴾

وإنْ كانت لفظة (مؤمن) جاءت مفردة ، فقد أوضحتْ هذه الآية

أن المراد الجمع ﴿أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ .. (١٩)﴾ [السجدة] أى : العموم ؛ لأنه أُخذ مما كان مفرداً جمعاً ، وهذا دليل على أن هذا المفرد فى جنسه جمع كثير ، كما فى قوله تعالى ﴿وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢)﴾ [العصر] فالإنسان مفرد يُستثنى منه الجمع ﴿إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ .. (٣)﴾ [العصر] لأن لفظة الإنسان هنا تدل على الجماعة ، و (ال) فيها ال الاستغراقية .

فالحق سبحانه ينقلنا من المؤمن إلى العموم ﴿أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا .. (١٩)﴾ [السجدة] ومن الفاسق إلى ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا .. (٢٠)﴾ [السجدة] فهما جماعتان متقابلتان لكل منهما جزاؤه الذى يناسبه :

﴿أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ .. (١٩)﴾ [السجدة] والمأوى هو المكان الذى يأوى إليه الإنسان ويلجأ إليه ليحفظه من كل مكروه ، كما قال تعالى فى شأن عيسى وأمه مريم عليهما السلام : ﴿وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ (٥٠)﴾ [المؤمنون] يعنى : يمكنهما الاستقرار فيها ؛ لأن بها مُقوِّمات الحياة (ومعين) يعنى : عيْن ماء .

ومن ذلك قوله تعالى فى قصة ابن نوح حين قال لأبيه : ﴿سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ .. (٤٣)﴾ [هود] فنبَّهه أبوه وحذره ، فقال : ﴿لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ .. (٤٣)﴾ [هود]

ونلحظ فى هذه القصة حنان الأبوة من سيدنا نوح حين قال ﴿رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي .. (٤٥)﴾ [هود] لكن ربه عز وجل لا يتركه على هذه القضية ، إنما يُصحِّحها له ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ .. (٤٦)﴾ [هود]

إذن : فالبنوة هنا ليست بنوة نسب ، إنما بنوة إيمان وعمل ، ألاَ

ترى أن سيدنا رسول الله قال لسلمان الفارسى وهو من غير العرب بالمرة : « سلمان منا آل البيت »[١] .

وإنْ كان النسب ينفع من الآباء إلى الأبناء ، فهذه ليست خصوصية للأنبياء ، إنما لكل الناس ، كما قال سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ .. (٢١) ﴾ [الطور]

وإلحاق الأبناء بالآباء فى الحقيقة كرامة للآباء أنْ يجدوا أولادهم معهم فى الجنة جزاء إيمان الآباء وعملهم الصالح ، فإنْ كان الأولاد دون سنِّ التكليف فطبيعى أنْ يلحقوا بالآباء ، بل وتكون منزلتهم أعظم من منزلة آبائهم ؛ لأن الأطفال الذين يموتون قبل الرُّشْد ليس لهم أماكن محددة ، إنما ينطلقون فى الجنة يمرحون فيها كما يشاؤون .

وقد مثَّلْنا لذلك بالولد الصغير تأخذه معك فى زيارة أحد الأصدقاء ، فتجلس أنت فى حجرة الجلوس ، بينما الولد الصغير يجرى فى أنحاء البيت ، ويدخل أى مكان فيه لا يمنعه أحد ، لذلك يسمون الأطفال (دعاميص) الجنة[٢] .

---

(١) عن عمرو بن عوف المزنى قال : خط رسول الله ﷺ الخندق عام الأحزاب من أجم السَّمُر طرف بنى حارثة حين بلغ المداد ، ثم قطع أربعين ذراعاً بين كل عشرة ، فاختلف المهاجرون والأنصار فى سلمان الفارسى ، وكان رجلاً قوياً ، فقالت الأنصار : سلمان منا . وقالت المهاجرون : سلمان منا . فقال رسول الله ﷺ : « سلمان منا أهل البيت » أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٣/٤١٨) والحاكم فى مستدركه (٣/٥٩٨) وضعَّف الذهبى إسناده من أجل كثير بن عبد الله .

(٢) عن أبى حسان قال قلت لأبى هريرة : إنه قد مات لى ابنان ، فما أنت محدثى عن رسول الله ﷺ بحديث تطيب به أنفسنا عن موتانا ؟ قال : نعم « صغارهم دعاميص الجنة يتلقى أحدهم أباه ـ أو قال أبويه ـ فيأخذ بثوبه كما آخذ أنا بصنفة ثوبك هذا فلا يتناهى حتى يُدخله الله وأباه الجنة » أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٦٣٥) ، وكذا أحمد فى مسنده (٢/٤٧٧ ، ٥١٠) .

والبعض هنا يثير مسألة أن الإنسان مرتهن بعمله ، ولا ينتفع بعمل غيره ، فكلٌّ مُعلَّق من (عرقوبه) كما نقول ، فالبعض يسأل : لماذا إذاً نصلى على الميت ، والصلاة عليه ليست من عمله ؟ فإنْ كانت الصلاة عليه لها فائدة تعود عليه فقد انتفع بغير عمله ، وإن لم تكُنْ لها فائدة فهى عبث ، وحاشَ لله أنْ يضع تشريعاً عبثاً .

ونقول : هل صليت على كل ميت مؤمناً كان أو كافراً ؟ لا إنما نصلى على المؤمن ، إذن : صلاتك أنت عليه نتيجة إيمانه ، وجزء من عمله ، ولولا إيمانه ما صلَّينا عليه .

نعود إلى معنى كلمة (المأوى) ، فالجنة مأوى المؤمن ، تحفظه من النار وأهوالها ﴿ نُزُلاً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٩) ﴾ [السجدة] أى : جزاء عملهم الصالح ، والنزُل هو المكان المعدّ لينزل فيه الضيف الطارىء عليك ؛ لذلك يسمون الفندق (نُزُل) ، فإذا كانت الفنادق الفاخرة التى نراها الآن ما أعدَّه البشر للبشر ، فما بالك بما أعدَّهُ ربُّ البشر لعباده الصالحين ؟

﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢٠) ﴾

﴿ فَسَقُوا .. (٢٠) ﴾ [السجدة] من الفسوق أى الخروج ، نقول : فسقتْ البلحة يعنى خرجت عن قشرتها ، والمراد هنا الذين خرجوا عن طاعة الله وعن مطلوبات الحق سبحانه ﴿ فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ .. (٢٠) ﴾ [السجدة] قلنا : إن المأوى هو المكان الذى تأوى إليه ، فيحميك من كل مكروه ، فكيف تُوصف به النار هنا ؟

قالوا : المأوى المكان الذى ينزل فيه الإنسان على هواه وعلى (كيفه) ، أما هؤلاء فينزلون هنا رغماً عنهم ، أو أن الكلام هنا على سَبْق التهكم والسخرية ، كما فى قوله تعالى : ﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٢١) ﴾ [آل عمران]

ومعلوم أن البشرى لا تكون إلا بالشىء السَّار ، ومثل : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (٤٩) ﴾ [الدخان] ، وهذا كثير فى أسلوب القرآن ؛ لأنه أسلوب يؤلم الكافرين ، ويحطّ من شأنهم .

ثم يُصوِّر لنا الحق سبحانه ما فيه أهل النار من اليأس : ﴿ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا .. (٢٠) ﴾ [السجدة] وفى موضع آخر قال عنهم ﴿ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ (٧٧) ﴾ [الزخرف] إذن : لا أمل لهم فى الخروج ، ولا حتى فى الموت الذى يريحهم مما هم فيه ، بل تردهم الملائكة فى العذاب ، ويقولون لهم : ﴿ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢٠) ﴾ [السجدة]

فالإذاقة تعدَّتْ اللسان واستولتْ على كل الأعضاء ، فكل ذرة فيه تذوق عذاب النار جزاء ما كانوا يكذبون بها فى الدنيا ، حيث كذَّبوا بالأصل ، وهو الرجوع إلى الله يوم القيامة .

ثم إن عذاب الفاسقين لا يقتصر على عذاب الآخرة ، إنما سيكون لهم عذاب آخر يذوقونه فى الدنيا :

﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ (١) دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢١) ﴾

---

(١) قال ابن عباس : يعنى بالعذاب الأدنى مصائب الدنيا وأسقامها وآفاتها وما يحل بأهلها مما يبتلى الله به عباده ليتوبوا إليه . وروى مثله عن كثير غيره . وقال البراء بن عازب ومجاهد وأبو عبيدة يعنى به عذاب القبر . [تفسير ابن كثير ٣/٤٦٢] .

﴿الْعَذَابِ الأَدْنَىٰ .. (٢١)﴾ [السجدة] أى : القريب والمراد فى الدنيا ﴿دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ .. (٢١)﴾ [السجدة] أى : عذاب الآخرة ، وهذا العذاب الذى سيصيبهم فى الدنيا مظهر من مظاهر رحمة الله حتى بالكافرين والفاسقين ؛ لأن الله تعالى علَّله بقوله : ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢١)﴾ [السجدة]

إذن : المراد ما يلحقهم من عذاب فى دار التكليف كالأَسْر والذلَّة والهوان من كثرة المؤمنين وقوتهم ، ألم يركب عبد الله بن مسعود[١] مع ما عُرِف عنه من ضآلة الجسم[٢] على أبى جهل فى إحدى الغزوات ، وقد طرحه فى الأرض وداسه بقدمه ، ويُرْوى أن أبا جهل نظر إليه وهو على هذه الحال وقال : لقد ارتقيتَ مُرْتقىً صعباً يا رُويعى الغنم[٣] .

ووصف العذاب فى الآخرة بأنه العذاب الأكبر ؛ لأنه العذاب المحيط الذى لا مهربَ منه ولا ملجأ .

---

(١) هو : عبد الله بن مسعود بن غافل الهذلى ، من أكابر صحابة رسول الله ﷺ فضلاً وعقلاً وقرباً من رسول الله ، وهو أول من جهر بالقرآن بمكة ، كان قصيراً جداً يكاد الجلوس يوارونه ، ولى بيت مال الكوفة بعد وفاة النبى ﷺ ، ثم قدم المدينة فى خلافة عثمان فتوفى فيها عن نحو ستين عاماً .

(٢) قال عبيد الله بن عبد الله بن عتبة : كان ابن مسعود رجلاً نحيفاً قصيراً . وقال إبراهيم التيمى : أن ابن مسعود صعد شجرة فجعلوا يضحكون من دقة ساقيه فقال رسول الله ﷺ : أتضحكون منهما ؟ لهما أثقل فى الميزان من جبل أحد . [ابن سعد فى الطبقات الكبرى ٣/١٤٣] .

(٣) كان هذا فى غزوة بدر ، حيث أمر رسول الله ﷺ أصحابه بالتماس أبى جهل فى القتلى ، فمر عبد الله بن مسعود بأبى جهل ، فوجده بآخر رمق ، فوضع رِجْله على عنقه ، وقال له : هل أخزاك الله يا عدو الله ؟ فقال له أبو جهل : لقد ارتقيت مرتقى صعباً يا رويعى الغنم . ثم احتز ابن مسعود رأسه . [السيرة النبوية لابن هشام ٢/٢٧٦ ، ٢٧٧] .

وقوله سبحانه ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢١)﴾ [السجدة] أى : رجاء أنْ يعودوا إلى ساحة الإيمان . وقلنا : إن لعلَّ تفيد الرجاء المحقق إنْ كان الفعل من الله عز وجل ، أما الرجاء هنا فرجاء فى العبد الذى يملك الاختيار ؛ لذلك رجع منهم البعض ، ولم يرجع الآخرون .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ (٢٢)﴾

هنا أيضاً يعرض علينا ربنا ـ تبارك وتعالى ـ هذه القضية فى صورة هذا السؤال التقريرى ، كأنه سبحانه يقول لنا : أنا رضيت ذمتكم يا عبادى ، فقولوا لى : هل يوجد أحد أظلم ممَّنْ ذُكِّر بآيات ربه ، ثم أعرض عنها . والمنطق الطبيعى أن نقول : لا أحدَ أظلم من هذا . وهذا إقرار منّا بهذه الحقيقة ؛ لذلك عرضها الحق سبحانه فى صورة سؤال بدل الإخبار بها .

ومعنى ﴿ذُكِّرَ .. (٢٠)﴾ [السجدة] أى : أن رسالات الله إلى خَلْقه ما هى إلا تذكير بعهد الإيمان القديم الذى أخذه الله على عباده حين قال سبحانه : ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ .. (١٧٢)﴾ [الأعراف] وسبق أنْ قُلْنا : إن فى كل منّا ذرةً شهدتْ هذا العهد ، وعلى كل منا أنْ يحفظ إشراقات هذه الذرة فى نفسه بأنْ يُغذِّيها بالحلال ، ويُعوِّدها الطاعة لتبقى فيه إشراقات الإيمان .

كما قال تعالى : ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا (١٠)﴾ [الشمس]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ ﴾

والإيتاء يختلف ، فهناك مَنْ يُؤْتَى بمنهج أو بمعجزة أو بهما معاً ، وهناك إيتاء لكتاب موقوت ، لزمن موقوت ، لقوم موقوتين ، وإيتاء آخر لكل الأزمان ولكل الأمكنة .

و ﴿ الْكِتَابَ .. ﴿٢٣﴾ ﴾ [السجدة] أى : التوراة ﴿ فَلا تَكُن فِي مِرْيَةٍ .. ﴿٢٣﴾ ﴾ [السجدة] أى : فى شك ﴿ مِّن لِّقَائِهِ .. ﴿٢٣﴾ ﴾ [السجدة] لقاء موسى عليه السلام أم لقاء الكتاب ؟ إنْ كان لقاء موسى فهو تبشير بأن الله سيجمع بين سيدنا رسول الله وهو حَىٌّ بقانون الأحياء وموسى عليه السلام الميت بقانون الأموات ، وهذا لا يتأتَّى إلا إذا كان حديث الإسراء والمعراج فى أنهما التقيا فيه صادقاً[1] .

لذلك فى القرآن آية ينبغى أن نقف عندها ، وأن نتأملها بيقظة ، وهى قوله تعالى : ﴿ وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [الزخرف]

هذا تكليف من الله تعالى لمحمد ﷺ أنْ يسأل الرسل ، فمتى يسألهم ؟ فهذه الآية تنبىء بأنهم لا بُدَّ أنْ يلتقوا . فهذه الآية فى لقاء موسى والأخرى فى لقاء كل الرسل[2] . إذن : علينا أن نصدق بحديث

---

(١) عن ابن عباس قال ، قال رسول الله ﷺ : « أريت ليلة أُسْرى بى موسى بن عمران رجلاً آدم طوالاً جعداً كأنه من رجال شنوءة ، ورأيت عيسى رجلاً مربوع الخلق إلى الحمرة والبياض سبط الرأس » رواه قتادة عن أبى العالية الرياحى . وقال : يعنى به ليلة الإسراء . أورده ابن كثير فى تفسيره (٣/٤٦٣) .

(٢) هو قول لعبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى تفسير الآية (الزخرف : ٤٥) أى : واسألهم ليلة الإسراء ، فإن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام جمعوا له . [تفسير ابن كثير ٤/١٢٩] .

الإسراء والمعراج ، وأن رسول الله ﷺ اجتمع بإخوانه من الأنبياء وصلى بهم ودار بينهم حوار .

أما إذا كان المعنى ﴿فَلا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ..(٢٣)﴾ [السجدة] أى : لقاء الكتاب ، فالتوراة كما قلنا أصابها التحريف والتبديل ، وزِيدَ عليها وكُذِب فيها ، لكن سيأتيك يا محمد من أهل التوراة أمثال عبد الله بن سلام مَنْ يعرفون التوراة بلا تحريف ويُسرُّون إليك بها ، هؤلاء الذين قال الله فيهم : ﴿مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣)﴾ [آل عمران]

ألم يواجه عبد الله بن سلام[١] قومه من اليهود ، فيقول لهم : كيف تُكذِّبون بمحمد ، وقد كنتم تستفتحون به على الذين كفروا ، فتقولون لهم : لقد أطلَّ زمان نبى يأتى فنتبعه ، ونقتلكم به قتل عاد وإرم[٢] ، لقد تجمعتم من شتى البلاد التى اضطهدتكم ، وجئتم إلى يثرب تنتظرون مَقْدِم هذا النبى ، فما بالكم تكذِّبونه ؟

وقال القرآن عنهم : ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ .. (٨٩)﴾ [البقرة]

---

(١) هو : عبد الله بن سلام بن الحارث الإسرائيلى أبو يوسف ، أسلم عند قدوم النبى ﷺ المدينة ، وكان اسمه « الحصين » شهد مع عمر فتح بيت المقدس والجابية ، ولما كانت الفتنة بين على ومعاوية اتخذ سيفاً من خشب واعتزلها ، وأقام بالمدينة إلى أن مات عام ٤٣ هـ . [الأعلام للزركلى ٤/٩٠] .

(٢) عن أشياخ من الأنصار قالوا : كنا قد علوناهم قهراً دهراً فى الجاهلية ونحن أهل شرك وهم أهل كتاب وهم يقولون : إن نبياً سيبعث الآن نتبعه ، قد أظل زمانه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم ، فلما بعث الله رسوله من قريش واتبعناه كفروا به . ذكره ابن كثير فى تفسيره (١/١٢٤) نقلاً عن ابن إسحاق .

ومن لقاء الكتاب الذى وعد بـه النبى ﷺ ما رُوِى عن عبد الله بن سلام أنه لمـا أراد أنْ يؤمن أتى النبى ﷺ فقـال : يا رسول الله ، إن اليهود قـوم بُهْتٌ ـ يعنى : يتبجحون بالـكذب ـ فإذا أسلمتُ قالوا فىَّ ما ليس فىَّ . فاسألهم عنى يا رسول الله قبل أنْ أعلن إسلامى ، فلَما اجتمع اليهود سألهم رسـول الله : ما تقولون فى ابن سلام ؟ فقالوا : سيـدنا وابن سيدنا وحـبرنا وابن حـبرنا ... فقـال عبد الله : أمـا وقد قالـوا ما قالـوا يا رسول الله فأشـهد أنْ لا إله إلا الله ، وأنـك رسول الله ، فقالوا : شرُّنا وابن شرِّنا .

فقال عبد الله : ألم أَقُلْ لك يا رسول الله أنهم قوم بُهْت[1] ؟

وقوله تعالى : ﴿وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ (٢٣)﴾ [السجدة] أى : جعلنا الكـتاب هدى ، وهذا دليل على أن منهم مهـتدين بدليل شـهادة القرآن لهم : ﴿مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣)﴾ [آل عمران]

وقوله تعالى فى الآية بعدها :

﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ (٢٤)﴾

أئمـة : ليس المـقـصـود بـالإمـامـة هنـا السـلـطة الزمنيـة من باطنهم، إنما إمامة القدوة بأمـر الله ؛ لذلك قال سبحانه : ﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا

---

(١) بعدمـا أسلم عبد الله بن سـلام قال : يا رسول الله ، إن اليـهود قوم بهت ، فـاسألهم عنى قبل أن يعلـموا بإسلامى ، فـجاءت اليـهود ، فقـال النبى ﷺ : أى رجل عبـد الله بن سلام فيكم ؟ قالوا : خيرنا وابن خيرنا ، وأفضلنا وابن أفضلنا . فقال النبى ﷺ : أرأيتم إن أسلم عبد الله بن سلام ؟ قـالوا : أعاذه الله من ذلك ، فأعاد عليهم ، فقالوا مـثل ذلك فخرج إليهم عبد الله فـقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأن مـحمداً رسول الله . قالوا : شـرنا وابن شرنا ، وتنقـصوه . قـال : هذا مـا كنت أخاف يا رسـول الله . أخـرجه البـخـارى فى صحـيحـه (٣٩٣٨) ، وأحمد فى مسنده (٣/١٠٨ ، ٢٧١ ، ٢٧٢) .

.. ﴿٢٤﴾ [السجدة] ، فهم لا يصدرون فى شىء إلا على هدى من الله .

وفى سورة الأنبياء قال تعالى : ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [الأنبياء]

الإيقان : هو الإيمان الذى لا يتزعزع ، ولا يطفو إلى العقل ليبحث من جديد ، يعنى : أصبحت مسألة مُسلَّماً بها ، مستقرة فى النفس .

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾﴾

تلحظ على أسلوب الآية أنها لم تقل مثلاً : إن ربك يفصل بينهم ، إنما استخدمت الضمير المنفصل (هو) ليفيد التأكيد والاختصاص ، فالمعنى لا أحدَ يفصل بينهم فى القيامة إلا الله ، كما قال سبحانه : ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾﴾ [غافر]

إذن : جاءت (هو) لتقطع الشك فى وجود الغير .

ولك أنْ تتأمل هذا الضمير فى هذه الآيات ، ومتى استعمله الأسلوب ، يقول تعالى فى قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام :

﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي .. ﴿٧٧﴾﴾ [الشعراء] أى : الأصنام ﴿إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾﴾ [الشعراء]

فاستخدم الضمير الدالّ على الاختصاص فى الهداية والإطعام والسُّقْيا والشفاء ، وهذه الأفعال مظنة أنْ يدعيها أحد لنفسه ، أما الإحياء والإماتة فهى لله وحده لا يمكن أنْ يدَّعيها أحد ؛ لذلك جاءت بدون هذا التوكيد ، فهى مسألة مُسلَّم بها لله تعالى .

والشك يأتى فى مسألة الفصل يوم القيامة ؛ لأن الله تعالى جعل من الملائكة المدبرات أمراً لتدبر أمر الخلق ، وقال سبحانه ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ(١) مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ .. (١١) ﴾ [الرعد] أى : تبعاً لأمر الله فيه ، فقد يفهم البعض أن للملائكة دوراً فى الفصل بين الناس يوم القيامة ، كما أن لهم مهمة فى الدنيا .

وتأمل هنا أن الله تعالى ذكر لفظ الربوبية فقال ﴿ إِنَّ رَبَّكَ .. (٢٥) ﴾ [السجدة] ولم يقُلْ : إن الله ، والربوبية كما قُلْنا عطاء وتربية ، وكأنه سبحانه يقول : اطمئنوا فالذى سيتولَّى مسألة الفصل هو ربكم .

وقوله سبحانه : ﴿ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٢٥) ﴾ [السجدة] لأن الفصل لا يكون إلا عن نزاع ، والنزاع لا بُدَّ أن يكون عن قضية تريد مراجعةً من حكم حاكم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ (٢٦) ﴾

الحق ـ سبحانه وتعالى ـ تكلم عن الرسالة التى أرسل بها رسوله ﷺ ليؤكد فى الناس عقيدة أعلى ، وهى عقيدة الوجود للإله الواحد الذى لا شريك له ، ثم بيَّن أن لنا مع الله لقاء آخر حين تنتهى هذه

---

(١) له معقبات : أى ملائكة حفظة يتتبعونه يحفظونه ويحصون أعماله . أو المعنى : تتعاقب الملائكة ليلاً ونهاراً . [القاموس القويم ٢/٢٩] .

الدنيا الفانية ، ثم نستقبل حياة خالدة ، إما إلى جنة إنْ شاء الله ، وإما إلى نار ونعوذ بالله .

والحق سبحانه حين يعرض آياته فى الكون يعرضها لتثبت أنه هو الذى خلق هذه الآيات العجيبة ، فلم يتركنا سبحانه ننظر وننصرف ، إنما لفتنا ونبَّهنا إلى وجوب النظر إلى آياته فى الكون ، وحين يأتى مَنْ يريد أنْ يُنبه عقلك فاعلم أنه لا يريد أنْ يخدعك ، أو أن يأخذك على غرَّة ، فربك يقول لك : استقبل كلامى هذا بمنتهى التدبُّر والتذكُّر والتعقُّل .

ولو لم يكُنْ واثقاً من أنه سيصل بالتدبُّر والتعقُّل والتذكر إلى الغاية التى يريدها لما نبَّه عقلَك لآياته ، كما ترى عارض السلعة الجيدة الواثق من جودتها يعرضها عليك ، ويكشفها لك ، ويدعوك إلى فحصها وتأمُّل ما فيها ، فهو لا يفعل ذلك إلا لثقته فى بضاعته وأنها ستنال رضاك .

أما صاحب السلعة المغشوشة فيخدعك ويسلك معك أساليب اللفِّ والدوران والتغرير ، فحين تذهب مثلاً لشراء حذاء وجاء ضيقاً يقول لك : سيتسع بعدما تمشى فيه ، فإنْ جاء واسعاً يقول لك : أحضر لك واحداً أوسع ؟ ليوهمك أنه ضيِّق ، وأساليب هؤلاء مكشوفة لا تخفى على أحد . فالذى يريد أنْ يغشَّ أو يخدع يلف القضايا ليسترها عن عقلك المتدبر المتذكر المتمعن .

أما الحق سبحانه ، فكثيراً ما قال فى قرآنه : أفلا يسمعون ، أفلا يعقلون ، أفلا يتدبرون القرآن ؛ لذلك من مصلحة الدعوة أنْ يتعقلها الناس ، وأن يتدبروها ، فى حين أن بعض أصحاب الديانات الأخرى يقول لك حين تناقشه : أبعِدْ العقل عن هذه المسألة ، لماذا ؟ لأنه

واثق أنها لو بُحِثَتْ بالعقل لردها العقل ولم يقبلها ـ والحق سبحانه يريد ألاَّ يترك عذراً لأحد فى البلاغ ، فالدعوة قد بلغتْ الجميع بلاغاً سليماً واضحاً ، تلك آيات الله فى الكون .

ثم يأتى الحق سبحانه بآيات معجزة ليثبت صدْق الرسول ، فيجعلها تخالف نواميس الكون فيما نبغ فيه القومَ ليقطع عليهم الحجة ، ثم يأتى بآيات الأحكام التى تحمل المنهج بافعل ولا تفعل ، ويُبيِّن أنَّ صلاح حركة الحياة فى تطبيق هذا المنهج ويترك للمخالفات أنْ تُظهر بعض العيوب ، فإذا ما نظرتَ إلى عيب أو عورة فى المجتمع عرفتَ أنها نتيجة طبيعية لمخالفة منهج الله ، فكأن المخالفة ذاتها من مُؤكِّدات الحكم .

ثم يُبيِّن سبحانه أنه أرسل رسلاً كثيرين من لَدُنْ آدم عليه السلام ؛ لأن الإنسان الذى هو خليفته فى الكون تصيبه غفلة حين ينخرط فى أسباب الدنيا ، وتأخذ عليه كل فكره وكل همه ، فينسى ما طلب الله منه ، فمن عادة الإنسان ألاَّ يتذكر إلاَّ ما ينفعه النفع العاجل .

لذلك نجد كثيراً من الناس ينسى ما للناس عنده ، ويتذكر ما له عندهم .

فالحق سبحانه يقول : أنا لم يَعُدْ لخَلْقى عندى حجة ، فقد نثرتُ لهم آيات الكون المُلْفتة ، وهى آيات واضحات لم يدَّعها أحد لنفسه ، ومع كثرة الملحدين والكافرين لم نَرَ أبداً مَن ادَّعى خَلْق الشمس أو القمر ، ولم يقُلْ أحد : إننى أُسيِّر الريح ، أو أُنبِت الزرع ، أو أُنزِل الماء من السحاب .

والحق سبحانه يُنبهنا أيضاً : لا تنْسَ أيها الإنسان أنك خليفة لله فى الأرض ، وإياك أنْ تظن أنك أصيل فيها ، فساعةَ تظن أنك أصيل

فى الدنيا يتخلى الله عنك ، ويتركك لنفسك فتهلك ، كما حدث لقارون حين وسَّع الله عليه فى الدنيا ، فاغترَّ بما فى يده ، وظن أنه من سعيه وعلمه وجهده .

فكانت النتيجة ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ .. (٨١)﴾ [القصص] لينبه الناس جميعاً أن المال ليس مال صاحبه ، إنما هو مُسْتخلف فيه ، ولو كان ماله لحافظ عليه ، فالحق يردُّ الناس بالأحداث إلى طبيعة الفطرة الخلافية ، لأن فساد الكون يأتى من اعتبار الإنسان نفسه أصيلاً فى الكون .

وسبق أنْ قُلْنا : إن الإنسان إذا نظر فى الكون نظرة فاحصة عادلة لَعلِم ما يأتى : أن كل شىء لم تتدخل فيه يَدُ الإنسان سليم ، ويؤدى مهمته على أكمل وجه ، وأن كل فساد فى الكون إنما هو من تدخُّل الإنسان فيه بغير قانون ربه ، ولو تدخَّل فيه بقانون ربه لَصلُحت له الأشياء التى تدخَّل فيها ، كما صلُحَتْ له الأشياء التى لم يتدخل فيها .

وقلنا : إنك إذا رأيتَ عواراً فى الكون فاعلم أنه نتيجة حقٍّ مُضيَّع من حقوق الله ، فحين ترى فقيراً يتضوَّر جوعاً أو عرياناً لا يملك ما يستر عورته ، فاعلم أن الأغنياء قصَّروا فى أداء حق الله فى الزكاة ؛ لأن الله تعالى شرعها بحساب ، فلو أن القادر أخرج الزكاة المفروضة فى ماله لما بقى فى المجتمع المحيط به محتاج .

ثم يريد منا الحق سبحانه أن نحافظ فى نفوسنا على إيمان الفطرة ، وعلى الذرة الإيمانية الأولى التى لم تدخلها الشهوة ، ولم يخالطها النسيان ، هذه الذرة التى شهدت العهد الأول الذى قال الله فيه :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) ﴾ [الأعراف]

أى : قبل أنْ تأخذكم شهوات الدنيا ونسيانها فتُنكروا هذه الشهادة ، وتقولون : ﴿ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣) ﴾ [الأعراف]

فالذى يحافظ على هذه الذرة ، وعلى هذه اللمسة الربانية التى وضعها الله فيه بيده ، وعلى العهد الذى أخذه الله عليه يبقى له نور هذه الفطرة ، وتظل هذه النورانية متأججة فى نفسه ، فإن أهملها طمستْها الذنوب والغفلة .

لذلك فالنبى ﷺ يضرب لنا المثل فيقول : « تُعْرض الأمانة ـ أى : التكاليف الاختيارية من الله ـ على القلوب كالحصير عوداً عوداً ، فأيُّما قلب أُشْرِبها نُكتَتْ فيه نكتة بيضاء ، وأيُّما قلب أنكرها نُكتت فيه نكتة سوداء حتى تكون على قلبين : أبيض مثل الصَّفا ، لا تضره فتنة ما دامتْ السموات والأرض ، والآخر أسود مُربَاداً كالكوز مُجَخِّياً[1] ممقوتاً ، لا يعرف معروفاً ، ولا ينكر منكراً »[2] .

فالطاعات أو الذنوب تتراكم على القلب كما تُصَفُّ عيدان الحصير عوداً بجوار عود ، فيبيضّ القلب بالطاعات ، أو يسودّ بالمعاصى .

---

(١) مرباداً : أسود عليه غبرة . والتربد : التلوّن [اللسان ـ مادة : ربد] والكوز المجخىّ أى : المائل الذى يصب ما فيه . وهو هنا المائل عن الاستقامة ، فشبه القلب الذى لا يعى خيراً بالكوز المائل الذى لا يثبت فيه شىء ، لأن الكوز إذا مال انصبَّ ما فيه . [لسان العرب ـ مادة : ج خ ى] .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٣٨٦/٥ ، ٤٠٥) ومسلم فى صحيحه (١٤٤) كتاب الإيمان من حديث حذيفة بن اليمان . ولفظه : « تُعرض الأمانة » .

والإنسان منه مادة ومنه روح ، الروح فى المادة تعطيها الحياة والحركة والفهم والفكر والتصرف ، وهما قبل أن يلتقيا كانا مُسبِّحَيْن لله تعالى ، فكل شىء فى الوجود مُسبِّح ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ.. (٤١)﴾ [النور]

وعلى الإنسان أنْ يفهم هذه الحقيقة ، وأن يحافظ على الطبيعة الإيمانية فى ذراته ومكوناته لتظل مشرقة نيِّرة بنور الإيمان ، فإنْ غفل عن هذه الطبيعة حدثتْ الأغيار ، وحدث عدم الانسجام بين ذراته فى الذات البشرية ، فحين تحمل إرادتُك الجسمَ والروحَ على المعصية يكرهك جسمك ، وتكرهك روحك ؛ لأنك خالفتَ منهج خالقها - عز وجل - فهى مُسبّحة عابدة وأنت لاهٍ غافل عَاصٍ ؛ لذلك تلعنك روحك وتلعنك أبعاضك .

ومن رحمة الله بالعاصى أن ينام فترتاح أبعاضه ، وترتاح روحه من معاصيه ، وتأخذ راحتها فى عبادة ربها ، حيث لا منازع لها ، ولا معاند من إرادة صاحبها ، لذلك يشعر الإنسان بالراحة عند النوم ، ويقوم منه نشيطاً لما حدث من انسجام وتعادل بين ذرات ذاته أثناء النوم .

لذلك ورد أن سيدنا رسول الله ﷺ كانت تنام عينه ولا ينام قلبه[1] ؛ لأن أبعاضه منسجمة دائماً فى نومه وفى يقظته ، فإذا رأيتَ

---

(١) عن أبى سلمة بن عبد الرحمن أنه سأل عائشة : كيف كانت صلاة رسول الله ﷺ فى رمضان ؟ قالت : ما كان يزيد فى رمضان ولا غيره على إحدى عشرة ركعة : يصلى أربع ركعات فلا تسأل عن حسنهن وطولهن ، ثم أربعاً فلا تسأل عن حسنهن وطولهن ، ثم يصلى ثلاثاً ، فقلت : يا رسول الله ، تنام قبل أن توتر ؟ قال : « تنام عينى ولا ينام قلبى » . أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٥٦٩) وكذا مسلم فى صحيحه (٧٣٨) كتاب صلاة المسافرين .

إنساناً يغلب عليه أنه مُنْهك القوى فاعرف أنه قد أتعب ذراته ، وأنها تودُّ الخلاص منه بالنوم ، وكأنها تقول له نَمْ فلم تَعُدْ صالحاً للتعايش معى .

إذن : الحق سبحانه يُنبِّهنا دائماً من هذه الغفلة بواسطة الرسل ، ثم يترك سبحانه للرسالات التى سبقتْ أدلة تؤيد الرسل الموجودين ، وتعينهم على أداء مهمتهم ؛ لذلك يقول لنا : انظروا إلى الرسل الذين سبقوا ، وكيف كانت عاقبة المكذِّبين بهم .

﴿أَوَ لَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ .. (٢٦)﴾ [السجدة]

كما قال سبحانه : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (٨) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا[1] الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ[2] (١٠)﴾ [الفجر]

فهذه الأهرامات التى يَفِد إليها الناس ، والتى تُعَدُّ مزاراً سياحياً هى آية من آيات الله تقوم دليلاً على هلاك أصحابها من المكذِّبين للرسل ، فالحق سبحانه لم يترك لأحد من خَلْقه عذراً بعد أنْ كشف له الآيات الكونية تشهد بوحدانيته تعالى وألوهيته ، والمعجزات التى

---

(١) جابوا الصخر : أى قطعوه ونحتوه وصنعوا منه بيوتهم وأصنامهم . [القاموس القويم ١/١٣٥] .

(٢) نقل ابن كثير فى تفسيره (٤/٥٠٨) أقوال السلف فى تأويل الأوتاد :

« - الأوتاد : الجنود الذين يشدون له أمره . قاله ابن عباس .

- كان فرعون يوتد أيديهم وأرجلهم فى أوتاد من حديد يعلقهم بها . قاله مجاهد وسعيد ابن جبير .

- كان له ملاعب يُلعب له تحتها من أوتاد وحبال . قاله قتادة » .

وقال الأستاذ إبراهيم عبد الفتاح فى كتابه « القاموس القويم ٢/٣١٨ » : « لعل المراد بها الأهرام التى بناها فرعون تشبه الجبال » .

تثبت صدق الرسول فى البلاغ عن ربه ، ثم آيات الأحكام التى تحمل أقضية الحياة ، والتى لا يمكن لبشر أنْ يستدرك عليها ، والتى تحمل الحلَّ الشافى والدواء الناجع لكل داءات المجتمع .

وبعد ذلك تركت لهم تكذيب المكذِّبين أمام أعينهم ، كما قال سبحانه : ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ(١٣٨) ﴾ [الصافات]

فها هى آثار عاد وثمود وغيرهم ما تزال شاهدةً عليهم ، بعضها فوق الأرض ، ومعظمها مطمور تحت طبقات الثَّرى ؛ لذلك نجد أن كل الآثار القديمة يجدونها فى الحفريات تحت الأرض ، ولم لا وقد كانت العاصفة تهبُّ الهبَّة الواحدة ، فتبتلع القافلة بأكملها ، فما بالك بهبَّات الرياح من أيام عاد حتى الآن . إذن : خذوا عبرة من مصير هؤلاء .

ومعنى ﴿ أَوَ لَمْ يَهْدِ لَهُمْ .. (٢٦) ﴾ [السجدة] يهدى : أى : يدلُّ ويرشد ويُبيِّن ويُوضِّح ، والهداية لها عناصر ثلاثة : هاد ومهدىٌّ والشىء المهْدَى إليه ، ومادة : (هدى) تُستعمل فى كتابِ الله ثلاثة استعمالات :

الأول : أنْ يُذكر الهادى ، وهو الله عز وجل ، **والثانى** : أن يُذكر المهدىّ وهم الخَلْق ، **والثالث** : وهو أن يُذكر المهدى إليه ، وهى الغاية التى يريدها الله .

وهذا الفعل يأتى مرة متعدِّياً بنفسه ، كما فى سورة الفاتحة : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) ﴾ [الفاتحة] أى : يا الله ، فالله هو الهادى ، ونحن المهديون ، والغاية هى الصراط المستقيم .

ومرة يُعدَّى الفعل باللام ، كما فى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى هَدَانَا لِهَـذَا

.. ﴿٤٣﴾ [الأعراف] فلم يَقُلْ : هدانا هذا ، ومرة يتعدى بإلى كما فى :
﴿ .. وَاللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾ ﴾ [البقرة]

فتلحظ أن الهادى واحد وهو الله تعالى ، والمهدىّ هو الخَلْق ، لكن المهْدَى إليه هو المختلف ، أما فى هذه الآية فالأمر مختلف ، حيث يقول سبحانه : ﴿أَوَ لَمْ يَهْدِ لَهُمْ .. ﴿٢٦﴾ ﴾ [السجدة] فلم تدخل اللام على المهْدى إليه ، إنما دخلتْ على المهدى ، فلم يقُلْ الحق سبحانه : أولم يَهْدِ الله هؤلاء القوم لكذا .

فلماذا ؟

قالوا : لأن بعض الناس يظنون أن الله حين يهدى إلى الطريق يُحمِّلك مشقات التكاليف ؛ لذلك نرى بعض الناس ينفرون من التكاليف ويروْنَ فيها عبئاً عليهم ، ومن هنا عبد بعضهم الأصنام ، وعبد بعضهم الشمس أو القمر .. الخ ؛ لأنها آلهة بدون منهج وبدون تكاليف ، ليس لها أوامر ، وليس عندها نَواهٍ ، وما أيسر أنْ يعبد الإنسان مثل هذه الآلهة التى لا مطلوبات لها .

والذى يرى فى التكاليف مشقة ، ويراها عبئاً عليه يراها كذلك ؛ لأنها تصادم مراد نفسه فى الشهوات وتحدٌّ من رغباته ، ومرادات النفس ربما أعطتْك لذة عاجلة ، لكن يعقبها حسرة وشر آجل .

ومثَّلْنا لذلك بالتلميذ الذى يتحمل مشقة المذاكرة والدرس طمعاً فى التفوق الذى ينتظر حلاوته ، وآخر يفضل اللذة السريعة العاجلة فيلعب ولا يهتم ، فيلاقى مذلَّة الفشل والاحتقار آخر العام .

إذن : عليك أنْ تقرن بين مشقة العمل والنتيجة والثمرة التى تنالها من ورائه ، وعندها تهون عليك مشقة التكاليف ؛ لأن ما ينتظرك من

الأجر عليها أعظم مما قدَّمتَ وأبقى .

فالحق سبحانه يريد منا أنْ نُقبل على التكاليف ، ونعرف أنها لمصلحتنا نحن ، وأنها فى الحقيقة تشريف لنا لا تكليف ؛ لأن الذى كلفنى لا يحتاج منى إلى هذا ، ولا ينتفع من عبادتى بشىء ، بل هو سبحانه يتحنن إلىَّ ؛ لأكون أهلاً لإنعامه وجديراً بفضله وكرمه .

ألم يقُلْ سبحانه : ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ .. (٧)﴾ [إبراهيم] فالمسألة إذن منك وإليك ، فالله سبحانه له صفات الكمال قبل أنْ يخلق عباده .

فاللام فى ﴿أَوَ لَمْ يَهْدِ لَهُمْ .. (٢٦)﴾ [السجدة] أى : لصالحهم ومن أجلهم ، وليس عليهم ، فالهدى لصالح المهدى لا الهادى ، ولو فهم الإنسان هذه الحقيقة وعرف أن الهداية راجعة إليه لَقبَّل يد مَنْ بلَغه عن الله هذا الفضل .

ويؤكد هذا المعنى ـ لمن فطن ـ قوله تعالى عن المؤمنين : ﴿أُوْلَـٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ .. (٥)﴾ [لقمان] فالهدى ليس حِمْلاً يحملونه ، إنما مطية يركبونها إلى الغاية النبيلة التى أرادها الله لهم .

فما الذى بيَّنه الله للمؤمنين ودلَّهم عليه ؟

يقول سبحانه : ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ .. (٢٦)﴾ [السجدة] أى : انظروا إلى المخالفين للرسل من قبلكم ، وكيف أخذهم الله فلم يُمكِّنهم من رسله ، بل انتصر الرسل عليهم .

وكم هنا تفيد الاستفهام عن العدد ، وهى بمعنى كثير ، كما تقول لمن ينكر جميلك : كم أحسنتُ إليك أى : مرات كثيرة لا تُعَدُّ ،

والمراد أننا بيَّنا لكم كثيراً من الأمم التى عادتْ رسلها ، وكيف كانت عاقبتهم وغايتهم التى انتهوا إليها :

﴿ فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُم[1] مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٠) ﴾ [العنكبوت]

ومن مصلحتنا أن يُبيِّن الله لنا عاقبة المكذبين ؛ لأنه ينبهنا إلى الخطر قبل أنْ نقع فيه . وسبق أنْ أوضحنا هذه المسألة فى كلامنا عن قوله تعالى ـ من سورة الرحمن : ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلا تَنتَصِرَانِ (٣٥) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٦) ﴾ [الرحمن] فاعتبر الشواظ والنار من النِّعم التى ينبغى ألاَّ نُكذِّب بها ، لماذا ؟ لأنه نبَّهنا إليها حتى لا نقع فيها .

وقوله تعالى : ﴿ مِّنَ الْقُرُونِ .. (٢٦) ﴾ [السجدة] القرن حدده العلماء بمائة عام ، لكن هذه المائة تتداخل ، ويقترن فيها عدة أجيال يجتمعون على مذهب أو مبدأ واحد ، فالقرن يقرن بين الجد والابن والحفيد ، هذا إنْ أردتَ الزمن وحده ، فإنْ قُرِن الزمن بعصر دين من الأديان أو نبى أو ملك ، فقد يطول القرن إلى الألف عام ، كما فى قرن نوح عليه السلام .

فالقرن مرتبط بما قُرن به ؛ لذلك نقول : العصر الجاهلى ، عصر صدر الإسلام ، عصر بنى أمية ، العصر العباسى ، عصر المماليك ،

---

(١) قال قتادة : ﴿ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا .. (٤٠) ﴾ [العنكبوت] هم قوم لوط . ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ ﴾ قال : قوم صالح وقوم شعيب . ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ ﴾ قال : قارون ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ﴾ قال : قوم نوح وفرعون وقومه . [الدر المنثور فى التفسير بالمأثور ٦/٤٦٣] .

وما نزال حتى الآن نقول عن عصرنا : العصر الحديث .

والحق سبحانه يبين لنا فى الحياة التى نعيشها أن الزمن متغير ، إلى أعلى فى الماديات ، وإلى أدنى فى المعنويات ، فكلما تقدَّم الزمن انحلَّ الناس من ربْقة الدين وتفلَّتوا منه ؛ ذلك لأن الارتقاءات المادية ينتج عنها حضارات تستهوى النفوس وتغريها ، والنتيجة انحدار فى القيم وفى الدين ، ولو أن الارتقاء كان متساوياً لسار الأمران فى خطين متوازيين .

لذلك يقول تعالى : ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا .. (٢٤)﴾ [يونس]

ثم إنك لو نظرتَ إلى جزئيات الحضارة فى الكون تجد أن الأمم صاحبة الحضارات لم تستطع أنْ تجعل لنفسها وقاية من اندحار حضارتهم ، ولم يستطيعوا صيانتها . حتى العصور التقدمية : كنا فى العصر الحجرى ، ثم عصر البخار ، ونحن الآن فى عصر الفضاء .

إذن : نحن مرتقون فقط فى الماديات ، لكن منحدرون فى المعنويات ، لكن هل هذا الارتقاء المادى جاء عن امتلاك لمعالم هدى الله فى الأرض ؟ لا ، لأن الله تعالى بيَّن لنا : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩)﴾ [الحجر]

فأنا الذى أنزلتُ ، وأنا الذى ضمنتُ حفظه ، فلم أتركه لكم تحفظوه ، إذن : المسألة عن عجز منا ، وإلا فكتاب البداية موجود حجة علينا .

وقوله تعالى : ﴿يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ .. (٢٦)﴾ [السجدة] أى : أننى لا ألقى القضايا بدون حجة أو دليل ، بل هى شاخصة أمامكم تمرون

بها ، وتروْنَها ليل نهار ، كما قال سبحانه : ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٣٨)﴾ [الصافات]

ثم يقول سبحانه : ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ أَفَلا يَسْمَعُونَ (٢٦)﴾ [السجدة] فالله يحضُّهم على أنْ يستمعوا إلى سِيَر المكذِّبين المعاندين ، وما حاق بهم من انتقام الله منهم .

وبالله : الإنسان مهما قَصُر عمره ، ألم يَرَ ظالماً ، وألم يَرَ مصرع هذا الظالم وعاقبة ظلمه ، فإنْ لم يَرَ ظالماً ألم يُحدَّث عنه ؟ إذن : مما يصلح حال الناس أنْ يستمعوا إلى حكايات عن الظالمين وعن نهايتهم ، وما ينزل بهم من الانتقام الذى لا ينتظر الآخرة ، بل يُعجل لهم فى الدنيا .

وفى ذلك حكمة لله بالغة ؛ لأن الظالم ربما لا يرعوى ولا يرجع فى الدنيا عن ظلمه ، فيظل يُعربد فى الخَلْق ما أحياه الله ، لكن إنْ مسَّه شىء من العذاب ، فلربما عاد إلى رُشْده ، وإن لم يَعُدْ كان عبرة لغيره .

لذلك قال أهل المعرفة : لن يموت ظلوم حتى ينتقم الله منه . وربما مَنْ رآه ظالماً يراه مظلوماً ، ومَنْ أراد أن يرى نهاية ظالم فلينظر إلى مصارع الظالمين قبله .

وتأمل قول ربك : ﴿وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا .. (١٢٩)﴾ [الأنعام] فكأن الظالم له رسالة ، هى أن ينتقم من ظالم مثله ، وهكذا يُهلك الله هؤلاء بعضهم ببعض ؛ لأن الخيِّر طيِّب القلب لا يؤدب ظالماً ، فإن اعتديتَ عليه غلب عليه طابع التسامح والعفو .

ألم يَقُلْ سيدنا رسول الله ﷺ لكفار مكة : « اذهبوا فأنتم

الطلقاء »[1] فكأن الله عز وجل يقول للخيِّر : اجلس أنت واسترح ، واترك الأشرار لى ، فسوف أرسل عليهم من هو أشرّ منهم ليؤدبهم .

واختار الحق هنا حاسة السمع ﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ (٢٦)﴾ [السجدة] لأنها وسيلة الإدراك المناسبة للموقف ، فبها نسمع ما يُحكَى عن الظالمين وبها نعتبر ، وفى موضع آخر سيقول ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ (٢٧)﴾ [السجدة] ويقول : ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ (٦٨)﴾ [يس] فيُنوِّع لنا ، ويُقلِّب كل وسائل الإدراك لينبهنا من خلالها .

والمعنى ﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ (٢٦)﴾ [السجدة] ما يُرْوَى لهم عن مصارع الظالمين ، لقد نبهناهم وذكَّرناهم ، ومع ذلك أشركوا وجعلوا سمعهم (ودن من طين ، وودن من عجين) .

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ[2] فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ (٢٧)﴾

أولاً لك أن تلحظ هنا توافق النسق القرآنى بين صدر الآيات وعَجُزها ، ففى الآية السابقة قال سبحانه ﴿أَوَ لَمْ يَهْدِ لَهُمْ.. (٢٦)﴾ [السجدة] أى : يدلُّ ويرشد ، والكلام فيها عن قصص تاريخى ، فناسبها ﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ (٢٦)﴾ [السجدة] أما هنا فالكلام عن مشاهد

---

(١) قال ابن إسحاق : حدثنى بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ قام فى خطابه على باب الكعبة فقال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده . إلى أن قال : ما ترون أنى فاعل فيكم ؟ قالوا : خيراً ، أخ كريم ، وابن أخ كريم . قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء » [راجع السيرة النبوية لابن هشام ٤/٤١٢] .

(٢) أرض جُرز : لا نبات بها كأنه انقطع عنها ، أو انقطع عنها المطر . [لسان العرب ـ مادة : جرز] فهى الأرض الجدباء التى لا نبات فيها أو التى أُكِل نباتها أو هلك لأى سبب . [القاموس القويم ١/١٢٠] .

مرئية ، فناسبها ﴿أَفَلا يُبْصِرُونَ (٢٧)﴾ [السجدة] فهذا ينبغى أنْ يُسمع ، وهذا ينبغى أنْ يُرى .

وفى الآية السابقة قال سبحانه ﴿أَهْلَكْنَا.. (٢٦)﴾ [السجدة] لنعتبر بإهلاك المكذبين فى الماضى ، أما هنا فيلفتنا إلى آية من آياته فى الكون ، فيأتى الفعل ﴿نَسُوقُ الْمَاءَ.. (٢٧)﴾ [السجدة] بصيغة المضارع الدالّ على التجدّد والاستمرار ، ففى كل الأوقات يسوق الله السحب ، فينزل منها المطر على الأرض (الجرز) أى : المجدبة ، فتصبح مُخضرة بأنواع الزروع والثمار ، وهذه آية مستمرة نراها جميعاً ، ولا تزال فى الحال وفى الاستقبال ، ولأن هذه الآية واقعة الآن تحتاج منا المشاهدة والتأمل قال فى ختامها ﴿أَفَلا يُبْصِرُونَ (٢٧)﴾ [السجدة]

وفى موضع آخر قال سبحانه : ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً (٧) وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيداً جُرُزاً (٨)﴾ [الكهف] فالجُرُز هى الأرض المقطوع منها النبات ، إما لأن الماء شحَّ عليه فجفَّ ، وإما أنه استُحصد فحصدوه .

ومعنى ﴿نَسُوقُ الْمَاءَ .. (٢٧)﴾ [السجدة] السَّوْق : حَثٌّ بسرعة ؛ لذلك تقول للذى يتعجلك (ما لك سايقنا كده) ، ومعلوم أن السَّوْق يكون من الوراء ، على خلاف القيادة ، فهى من الأمام ، فالذى تسوقه تسوقه وهو أمامك ، تراه فلا يتفلت منك ، ولو كان خلفك فهو عُرْضة لأنْ يهرب منك ، فلا تشعر به .

والسَّوْق مرة يكون للسحاب ، كما فى قول الله تعالى : ﴿وَاللَّهُ الَّذِى أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ .. (٩)﴾ [فاطر]

ومرة يكون السَّوْق للماء نفسه كما فى هذه الآية ، وسَوْق الماء له عدة مظاهر : فالله يسوق الماء من السحاب إلى الأرض ، فإذا نزل

إلى الأرض ساقه فى الأنهار ، أو سلكه ينابيع فى الأرض ليحتفظ لنا به لحين الحاجة إليه .

فربُّنا ـ عز وجل ـ جعل لنا خزانات للماء تحت الأرض ، لا لنحرم منه حين يوجد ، لكن لنجده حين يُفقد ، وكون الماء ينابيع فى الأرض يجعلنا نتغلب على مشاكل كثيرة ، فالأرض تحفظه لنا ، فلا يتبخر ولا نحتاج إلى بناء السدود وغيرها ، مما يحفظ لنا الماء العَذْب .

لذلك يقول النبى ﷺ : « مثَلُ ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً ، فكان منها نقياً ـ أرض خصبة ـ قبلتْ الماء ، فأنبتت الكلأ والعُشْب ، وكان منها أجادب أمسكت الماء ، فشرب الناس منه وسَقُوا أنعامهم وزروعهم ، وكان منها قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ ، فذلك مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم »[(١)] .

فهذه أنواع ثلاثة من الأرض تمثل انتفاع الناس بالعلم ، فالأولى تمسك الماء ، وتُخرِج الزرع ، والثانية تمسك الماء حتى ينتفع الناس به ، ولك أن تسأل : فما فائدة الثالثة : القيعان التى لا تُمسِك ماء ، ولا تنبت كلأ ؟ ولماذا خلقها الله إذن ؟

نقول : هذه القيعان هى التى تسلك الماء فى باطن الأرض ، وصدق الله : ﴿ **فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ** (٢٢) ﴾ [الحجر] وقال سبحانه : ﴿ **قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ** (٣٠) ﴾ [الملك]

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٤/٣٩٩) وابنه عبد الله فى زوائده على المسند (٤/٣٩٩) ، والبخارى فى صحيحه (٧٩) كتاب العلم (٢٠) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٢٨٢) من حديث أبى موسى الأشعرى .

إذن : هذه القيعان لها مهمة يعرفها مَنْ فَطِن لهذه المسألة ، وإلا فالله تعالى لم يخلق شيئاً عبثاً أبداً ، كذلك يكون انتفاع الناس بالعلم ، فمنهم مَنْ نرى أثر علمه خيراً عاجلاً ، ومنهم مَنْ يتأخر نَفْع علمه للأجيال القادمة .

ثم إياك أنْ تظن أنَّ الماء حين يسلكه اللهُ ينابيعَ فى باطن الأرض يسيح فيها ، أو يحدث له استطراق سائلى يختلط فيه العذب بالمالح ، لا .. إنما يسير الماء العَذْب فى شبه أنابيب ومسارب خاصة ، يجدونها حتى تحت مياه الخليج المالحة .

وهذه من عجائب الخَلْق الدالة على قدرة الخالق عز وجل ، وكما يوجد برزخ بين المائيْن على وجه الأرض ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَّ يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾﴾ [الرحمن] كذلك هناك برزخ للماءين تحت الأرض .

فالحق سبحانه يلفت أنظارنا إلى هذه الآية المشاهدة ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الأَرْضِ الْجُرُزِ .. ﴿٢٧﴾﴾ [السجدة] نعم ، هذه آية نشاهدها جميعاً ، لكن المراد هنا مشاهدة تمعُّن وتذكّر وعظة وتعقُّل ، نهتدى من خلالها إلى قدرة الخالق عز وجل .

وقوله سبحانه ﴿أَنَّا نَسُوقُ .. ﴿٢٧﴾﴾ [السجدة] فيه دليل على قيُّوميته تعالى على الخلق ، فإنْ كان سَوْق الماء يتم بواسطة الملائكة المكلفين به ، إلا أنه تعالى صاحب الأمر الأول والمتتبع لعملية تنفيذه .

وقدَّم الحق سبحانه الأنعامَ على الإنسان فى الأكل من الزرع ، مع أنها كلها مملوكة للإنسان ؛ لأن الأنعام فى الغالب ما تأكل من

الزرع ، وهو ما يزال أخضر لم ينضج بَعْد ، ليأكل منه الإنسان ، وأيضاً هو سبحانه حين يطعم الأنعام فإنما يطعم مَنْ جعله له فاكهة طعام ، وهى الأنعام .

وأشرْنا إلى أن دقَّة البيان القرآنى اقتضتْ أنْ تختم هذه الآية المشاهدة بقوله تعالى : ﴿أَفَلا يُبْصِرُونَ (٢٧)﴾ [السجدة] لأن هذه مسألة تتعلق بالبصر .

ولك أنْ تقرأ فى مثل هذه الدقَّة قوله تعالى : ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلا تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلا تُبْصِرُونَ (٧٢)﴾ [القصص]

فقال فى الأولى ﴿أَفَلا تَسْمَعُونَ (٧١)﴾ [القصص] لأنها تتكلم عن آية الليل ، والسمع هو وسيلة الإدراك فيه ، وقال فى الأخرى ﴿أَفَلا تُبْصِرُونَ (٧٢)﴾ [القصص] لأنها تتكلم عن آية النهار ، والبصر هو وسيلة الإدراك فى النهار ، إذن : نلحظ دقَّة الأداء وإعجازه ؛ لأن المتكلم إله ورب ، فلا بُدَّ أنْ تجد كل لفظة فى مكانها المناسب .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ (٢٨)﴾

(متى) يُستفهم بها عن الزمان ، والاستفهام بها يدل على أنك استبطأت الشىء فاستفهمتَ : متى يحدث ؟

الرسول ﷺ حين بُعث أخبر قومه أنه مُرْسَل إليهم بمنهج من الله ، وقد أيده الله بالمعجزات ، وأخبرهم بمصير مَن اتبعه ومصير مَنْ

خالفه ، وأن ربه - عز وجل - ما كان ليرسله إليهم ، ثم يُسْلمه أو يتخلى عنه ، فهو لا بُدَّ منتصر عليهم ، فهذه سنة الله فى أنبيائه ورسله ، حيث قال سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) ﴾ [الصافات]

لذلك قلنا : إذا رأيت موقفاً لم ينتصر فيه المسلمون ، حتى فى حياة الرسول ﷺ وحياة الصحابة ، فاعلم أن الجندية عندهم قد اختلتْ شروطها ، فلم يكونوا فى حال الهزيمة جنوداً لله متجردين .

وحين نتأمل الأحداث فى (أحُد) نجد أن الله تعالى يقول للمسلمين : لا تظنوا أن وجود رسول الله بينكم يحميكم أو يُخرِجكم عن هذه القضية ، فهذه سنة لله فى كونه لا تتبدل .

ففى (أُحُد) خالف المسلمون أوامر رسول الله ، حين نزل الرماة وتركوا أماكنهم طمعاً فى الغنائم ، فالتفَّ عليهم المشركون ، وكانت النتيجة لا نقول انهزموا ، إنما هم لم ينتصروا ؛ لأن المعركة (ماعت) والرسول موجود بينهم[1] .

والبعض يرى فى هذه النتيجة التى انتهتْ إليها الحرب فى أُحُد مأْخذاً ، فيقول : كيف يُهزم جيش يقوده رسول الله ؟ وهذه المسألة تُحسَب للرسول لا عليه ، فالرسول لن يعيش بينهم دائماً ، ولا بُدَّ لهم أن يروْا بأعينهم عاقبة مخالفتهم لأمر رسول الله ، وأنْ يشعروا

---

(١) أمَّر رسول الله على الرماة عبد الله بن جبير أخا بنى عمرو بن عوف ، والرماة يومئذ خمسون رجلاً ، فقال : « انضح الخيل عنا بالنبل لا يأتونا من خلفنا إن كانت لنا أو علينا فاثبت مكانك لا نؤتين من قبلك » (السيرة لابن هشام ٣/ ١٠) وأورد البيهقى فى دلائل النبوة (٣/ ٢٢٩) أن الرماة بعد انهزام المشركين تركوا مواضعهم للفوز بالغنائم ، فقال لهم ابن جبير : أنسيتم ما قال لكم رسول الله ﷺ ؟ قالوا : لنأتين الناس فلنصيبن من الغنيمة ، فمال الكافرون على المسلمين حتى لم يبق مع رسول الله ﷺ إلا اثنا عشر رجلاً » .

بقداسة هذه الأوامر ، ولو أنهم انتصروا مع المخالفة لفقدوا الثقة فى أوامر رسول الله بعد ذلك ، ولِمَ لا وقد خالفوه فى أُحُد وانتصروا !!

كذلك فى يوم حنين الذى قال الله فيه : ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ .. (٢٥) ﴾[التوبة]

وكان من إعجاب المؤمنين بكثرتهم أن يقول أبو بكر نفسه : لن نُغْلَب اليوم عن قلة ، لذلك لقَّنهم الله تعالى درساً ، وكادوا أنْ يُهزموا ، لولا أن الله تداركهم فى النهاية برحمته ، وتحوَّلت كفَّة الحرب لصالحهم ، وكأن التأديب جاء على قدر المخالفة .

فالحق سبحانه يُعلِّمنا امتثال أمره ، وأنْ نخلص فى الجندية لله سبحانه ، وأن ننضبط فيها لنصل إلى الغاية منها ، فإنْ خالفنا حُرِمْنا هذه الغاية ؛ لأننى لو أعطيتُك الغاية مع المخالفة لما أصبح لحكَمى مكان احترام ولا توقير .

وهنا يحكي الحق ـ تبارك وتعالى ـ عن المشركين قولهم لرسول الله : ﴿ مَتَىٰ هَذَا الْفَتْحُ .. (٢٨) ﴾ [السجدة] أى : النصر الذى وعدكم الله به ، وقد كان هذا النصر غاية بعيدة المنال أمام المؤمنين ، فما زالوا قلَّة مُسْتضعفة .

لذلك لما نزل قول الله تعالى : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) ﴾ [القمر] تعجب عمر حتى قال : أىُّ جمع هذا ، ونحن لا نستطيع أنْ نحمى أنفسنا ؟ لكن الحق سبحانه لم يُطل عليهم هذا الوضع ، وسرعان ما جاءتْ بدر ، ورأى عمر بعينه كيف تحقَّق وعد الله ، وكيف هُزِم جَمْع المشركين ، ورددها بنفسه بعد المعركة : نعم يا رب ، سَيُهزم الجمع ويولون الدبر[1] .

---

(١) قال عكرمة : لما نزلت ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) ﴾ [القمر] قال عمر : أىّ جمع يُهزم ؟ أى : أى جَمْع يُغلب ؟ قال عمر : فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ يثب فى الدرع وهو يقول : « سيُهزم الجمع ويُولون الدبر » فعرفت تأويلها يومئذ . أورده ابن كثير فى تفسيره (٤/٢٢٦) وعزاه لابن أبى حاتم .

ومن العجيب أنْ يدل رسول الله على الكفار وعلى أصحابه وأنصاره بفيض الله عليه ، وأنه أخبره بنتيجة المعركة قبل حدوثها ، فيقف ﷺ فى أرض بدر ، ويشير بعصا فى يده إلى مصارع المشركين : هذا مصرع أبى جهل ، وهذا مصرع عتبة ، وهذا مصرع الوليد[1] .. الخ .

فمَنْ يستطيع أنْ يحدد نتيجة معركة بهذا التفصيل ، والمعركة أَخْذٌ وردّ وكرّ وفرّ واختلاط ، مع أنهم لم يخرجوا لحرب ، إنما خرجوا لملاقاة قافلة قريش التجارية ، فما بالك لو خرجوا على حال استعداد للحرب ، وهذه سيأخذها الكفار قياساً يقيسون عليه قوة المسلمين الوليدة ، وسيقذف الله بهذه النتيجة الرعب فى قلوب الكفار ، ولم لا وقد انتصرتْ القلة المستضعفة غير المجهزة على الكثرة المتعجرفة المستعدة للحرب .

والاستفهام هنا ﴿مَتَىٰ هَـٰذَا الْفَتْحُ .. (٢٨)﴾ [السجدة] ليس استفهاماً على حقيقته ، إنما يراد به الاستهزاء والسخرية ، وجواب الله على هذا الاستفهام يحدد نيتهم منه ، فهم يستبعدون هذا النصر وهذه الغلبة التى وعد الله بها عباده المؤمنين ، لكنهم يستبعدون قريباً ، ويستعجلون أمراً آتياً لا ريب فيه .

وقد سجَّل القرآن عليهم مثل هذا الموقف فى قوله تعالى حكايةً عن الكفار يقولون لرسولهم : ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧٠)﴾ [الأعراف]

كلمة (الفتح) إنْ جاءت مُعرَّفة بأل فخيرها مضمون ، فاعلم أنها

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٧٧٩) ، وأحمد فى مسنده (٣/٢١٩ ، ٢٥٨) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه .

نعمة محروسة لك سينالك نفعها ، فإنْ جاءت نكرة فلا بُدَّ لها من متعلق يوضح الغاية منها : أهذا الفتح لك أم عليك ؛ فقوله تعالى فى خطاب النبى ﷺ : ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾ [الفتح] دلَّ على أن هذا الفتح لصالحه ﷺ ، فهو غُنْم لا غُرْم ، كما يقولون فى حسابات البنوك : له وعليه .

أما الأخرى ، ففى قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ .. ۝٤٤﴾ [الأنعام]

إذن : تنبَّه لما يفتحه الله عليك ، ولا تغترَّ به ، وتأمَّل : أهو لك أم عليك ؟ وإياك أنْ تُطغيك النعمة إذا (زهزهتْ) لك الدنيا ، فلعلها استدراج وأنت لا تدرى ، فالفتح يحتمل المعنيين ، واقرأ إنْ شئتَ :

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ .. ۝٩٦﴾ [الأعراف] أى : احذروا هذه النعمة لا تطغيكم .

وكلمة (الفتح) تأتى بمعانٍ متعددة ، يحددها السياق ، كما قلنا فى كلمة العين ، فتأتى بمعنى العين الباصرة . تقول : رأيت فلاناً بعينى ، وتقول : جُدْت على فلان بعيْن منى أى : : بالذهب أو الفضة ، وتقول : سمحتُ له أنْ يروى أرضه من عينى أى : عين الماء ، وتقول : هؤلاء عيون فلان أى : جواسيسه . وهذا يسمونه : المشترك اللفظى .

وكلمة (الفتح) تستخدم أولاً فى الأمر المادى ، تقول : فتحتُ الباب أى : أزلت مغاليقه ، وهذا هو الأصل فى معنى الفتح . فالحق سبحانه يقول فى قصة سيدنا يوسف عليه السلام : ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ .. ۝٦٥﴾ [يوسف] ففتحوا متاعهم الفتح المادى الذى يزيل عنه الأربطة .

وقد يُراد الفتح المعنوى ، كما فى قول الله تعالى : ﴿وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ .. (٧٦)﴾ [البقرة] أى : بما أعطاكم الله ومنحكم من الخير ومن العلم .

ويأتى الفتح بمعنى إظهار الحق فى الحكم بين حق وباطل وتجلية الأمر فيه ؛ لذلك يسمى أهلُ اليمن القاضىَ (الفاتح) .

ويأتى بمعنى النصر والغلبة ، كما فى هذه الآية التى معنا : ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٨)﴾ [السجدة] ولابد أنْ يقول المؤمنون فى إجابة هذا السؤال : نحن لا نقول أننا صادقون أو كاذبون فى هذا الخبر ؛ لأن هذه مسألة بعيدة عنا ، ولا دخْلَ لنا بها ، إنما هى من الله الذى أخبرنا هذا الخبر ، فنحن لا نُوصَف فيه ، لا بصدق ولا بكذب .

ولكى يكون الإنسان عادلاً ينبغى أنْ ينسب الفعل إلى فاعله ، أرأيت رسول الله ﷺ حين أخبر قومه خبر إسرائه قال : « لقد أُسْرِى بى الليلة من مكة إلى بيت المقدس »[(١)] ولم يقل سريت ومع ذلك سأله القوم : أتدَّعى أنك أتيتها فى ليلة ، ونحن نضرب إليها أكباد الإبل شهراً ؟ وهذه مغالطة منهم ، لا عدم فهم لمقالة رسول الله ؛ لأنهم أمة كلام ، ويفهمون جيداً معانى الألفاظ .

إذن : رسول الله ما سَرَى بذاته ، إنما أَسْرى الله به ، فمَنْ أراد أن يبحث هذه المسألة فليبحثها فى ضوء قدرة الله ، وكيف يكون الزمن بالنسبة لله تعالى ، وقلنا : إن الفعل الذى يستغرق زمناً هو

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٧١٠) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٧٠) كتاب الإيمان ، من حديث جابر بن عبد الله رضى الله عنه .

الفعل العلاجى ، إنما ربنا ـ تبارك وتعالى ـ لا يعالج الأفعال ، فقط يقول كُنْ فيكون ، والفعل يتناسب مع زمنه تناسباً عكسياً ، فكلما زادت قوة الفاعل قَلَّ زمن الفعل . وعليه لو نسبتَ حادثة الإسراء إلى قوة الحق تبارك وتعالى لوجدتَ الزمن لا زمن .

ثم يجيب الحق تبارك وتعالى عن سؤالهم ﴿مَتَىٰ هَـٰذَا الْفَتْحُ .. (٢٨)﴾ [السجدة] بما يفيد أنه سؤال استبعاد واستهزاء ، فيقول سبحانه :

﴿قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ[1] لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ (٢٩)﴾

أى : لِمَ تسألون عن يوم الفتح ؟ وماذا ينفعكم العلم به ؟ إن يوم الفتح إذا جاء أُسْدل الستار على جرائمكم ، ولن تنفعكم فيه توبة أو إيمان ، ولن يُنْظِركم الله إلى وقت آخر .

ومعلوم أن الإيمان لا ينفع صاحبه إلا إذا كانت لديه فُسْحة من الوقت ، أما الإيمان الذى يأتى فى النزع الأخير ، وإذا بلغت الروح الحلقوم فهو كإيمان فرعون الذى قال حين أدركه الغرق : ﴿قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠)﴾ [يونس] فردَّ الله عليه هذا الإيمان ﴿آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٩١)﴾ [يونس]

الآن لا ينفع منك إيمان ؛ لأنك مُقْبل على الله ، وقد فات أوان العمل ، وحلَّ أوان الحساب ، الإيمان أنْ تؤمن وأنت حريص صحيح تستقبل الحياة وتحبها ، الإيمان أن تؤمن عن طواعية .

---

(١) قال قتادة : الفتح القضاء . وقال الفراء والقتبى : يعنى فتح مكة . قال القرطبى فى تفسيره (٥٣٧١/٧) : وأولى من هذا ما قاله مجاهد ، قال : يعنى يوم القيامة .

﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ (٢٩)﴾ [السجدة] أى : ليس لكم الآن إمهال ؛ لأن الذى خلقكم يعلم سرائركم ، ويعلم أنه سبحانه لو أمهلكم لَعُدْتم لما كنتم عليه : ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٢٨)﴾ [الأنعام]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ (٣٠)﴾

هذا المعنى كما نقول فى العامية (ادينى عرض كتافك) أى : انصرف عنهم ، فلم يَعُدْ بينك وبينهم لقاءٌ ، ولا جدوى من مناقشتهم والتناظر معهم فقد استنفدوا كل وسائل الإقناع ، ولم يَبْقَ لهم إلا السيف يردعهم ، على حَدِّ قول الشاعر :

أنَاةٌ فإنْ لَمْ تُغْنِ عَقِّبْ بعدَها وَعيداً فَإنْ لَمْ يُغْنِ أغنَتْ عَزَائمهُ

فقد بلَّغهم رسول الله وأنذرهم ، لقد بشَّرهم بالجنة لمن آمن ، وحذرهم النار لمن كفر فلم يسمعوا . إذن :

فَمَا هُوَ إلاَّ الوَحْى أو حَدّ مُرْهَف

فالعاقل الوحى يقنعه ، والجاهل السيف يردعه .

وقوله سبحانه : ﴿وَانتَظِرْ .. (٣٠)﴾ [السجدة] أمر من الله تعالى لرسوله ﷺ ، أى : انتظر وعدى لك بالنصر والغلبة ، وقلنا : إن وعد الله محقق ، حيث لا توجد قوة أخرى تمنعه من إنفاذ وعده ، أما الإنسان فعليه حين يَعِد أنْ يتنبه إلى بشريته ، وأنه لا يملك شيئاً من أسباب تنفيذ ما وعد به .

لذلك يُعلِّمنا ربنا : ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا (٢٣) إِلاَّ أَن

يَشَاءَ اللَّهُ .. ﴿٢٤﴾ [الكهف] وتعليق أمرك على مشيئة الله عز وجل يحميك أن تكون كاذباً إذا لم تَفِ بما وعدتَ به ، فأسباب الوفاء بالوعد لا يملكها البشر ، إنما يملكها خالق البشر سبحانه ، فإذا وعد فاعلم أن وعده متحقق لا محالة .

وقلنا : إنك حين تقول لصاحبك مثلاً : سأقابلك غداً أو سأفعل لك كذا وكذا ، نعم أنت صادق وتنوى الوفاء ، لكنك لا تملك فى الغد سبباً واحداً من أسباب الوفاء ، فلربما طرأ لك طارىء ، أو منعك مانع ، وربما تغيَّر رأيك .. الخ .

وفَرْق بين انتظار رسول الله حين ينفذ أمر ربه ﴿انتَظِرْ .. ﴿٣٠﴾﴾ [السجدة] وبين ﴿إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [السجدة] فانتظار رسول الله لشىء محقق ، له رصيد من القوة والقدرة ، أما انتظارهم فتسويل نفس ووسوسة شيطان ، لا رصيدَ لها من قوة إنفاذ .

ومعنى ﴿إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [السجدة] أى : ينتظرون أن يحدث لرسول الله ﷺ شىء يمنعه من تبليغ رسالة ربه ، وهذا حمق منهم ، فقد كان عليهم أن يعلموا أن الرسول مُؤَيَّد من الله مُرْسَل من قبَله لهدايتهم ، وما كان الله تعالى ليرسل رسولاً ثم يُسْلمه أو يخذله ، فسنة الله فى الرسل أن لهم الغلبة مهما قويتْ شوكة المعاندين لهم .

إذن : لا سبيلَ إلى ذلك ، ولا سبيلَ أيضاً إلى الخلاص منه أو حتى تخويفه ليرتدع ، ويدع ما يدعو إليه من منهج ربه .

وقد ورد هذا الانتظار فى موضع آخر بلفظ (التربص) فى قوله تعالى : ﴿تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الطور]

وفى قوله تعالى : ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ ..

(٥٢) ﴾ [التوبة] أى : ماذا تنتظرون منا ونحن أمام حُسْنيين : إما النصر والغلبة عليكم ، وساعتها ندحركم ونُذلكم . أو الشهادة التى تضمن لنا حياة النعيم الباقية الخالدة ﴿ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا .. (٥٢) ﴾ [التوبة]

يعنى : تربَّصوا بنا ، فنحن أيضاً نتربص بكم ، لكن فَرْق بين تربُّصنا وتربُّصكم .

وهذه السورة سميت (السجدة) أولاً : لأن بها سجدة تلاوة ينبغى أن نسجد لله شكراً عندها ، والسجود يمثل منتهى الخضوع للحق ـ تبارك وتعالى ـ فإذا جاءت هذه الآية التى تهز كيان الإنسان يعلمنا ربنا أن ننفعل لهزَّة الكيان ، وأن نسارع بالسجود ، ولا ننتظر سجودنا بعد ذلك فى الصلاة .

فكأن فى هذه الآية أمراً قوياً وسراً عظيماً استدعى أنْ نُخرِج السجود عن موقعه بأمر مَنْ شرع السجود الأول . إذن : لا بُدَّ أن فى آيات سجود التلاوة طاقاتٍ جميلة من نِعَم الله تُذكِّرنى به .

والحق سبحانه يريد أنْ يشعر الخَلْق أنهم يستقبلون نعماً جديدة ، لا يكفى فى شكرها السجود الرتيب الذى نعرفه ، فيشرع لها سجوداً خاصاً بها .

وفى السورة أيضاً بعض الإشارات التى وقف عليها العارفون وقالوا : إنها تضع نماذج لصيانة النفس الإنسانية ، وعدم بُعْدها عن حكمة خالقها ، ومن هذه الإشارات أن العين ترى الأشياء فتقول : هذا حسن ، وهذا قبيح ، ذلك من مجرد الشكل الخارجى ، لكن على المرء أنْ يتأمل الأشياء ويعرف معنى القبح .

القبح ليس ما قَبُحَ فى نظرك ، إنما القبيح الذى يُخرِج الحُسْن التكليفى عن مناطه ؛ لأن الخالق ـ عز وجل ـ خلق كل شىء جميلاً ، كما قال سبحانه : ﴿ الَّذِى أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُ .. (٧) ﴾ [السجدة]

فإذا قَبُحَ الشىء فى نظرك فاعلم أنك نظرتَ إلى جانب الشكل ، وأهملتَ جوانب أخرى ، وقُلْ إننى لم أتوصل إلى سرِّ الجمال فيه .

وسبق أنْ قُلْنا : إن الخالق سبحانه نثر المواهب بين خَلْقه بحيث تجد مجموع مواهب كل إنسان تساوى مجموع مواهب كل إنسان ، فلا تنظر إلى جانب واحد فتقول : هذا غنى ، وهذا فقير ، لكن انظر إلى الجوانب الأخرى .

ويُرْوَى أن سيدنا نوحاً عليه السلام رأى كلباً أجرب فبصق عليه، فأنطق الله الكلب الأجرب ، وقال له : أتعيبنى أم تعيب خالقى ؟ والمعنى أنه خلقنى لحكمة ، ولمعنى من المعانى .

وصدق القائل[1] :

لِلْقُبْح وَقْتٌ فِيهِ يَظْهر حُسْنُه ... وَيُحمد مَنْ غشَّ البناءَ لَدَى الهَدْمِ

كذلك نثر الحق سبحانه حكمه ، ونثر خيره فى كتابه ، فلا تغنى آية عن آية ، ولا تغنى كلمة عن كلمة ، ولا حرف عن حرف ، لكن البصائر التى تَتَلَقَّى عن الله هى التى تستطيع أنْ تقف على أسرار الله .

---

(١) من شعر الشيخ رضى الله عنه .

سُورَةُ الأَحْزَابِ

سورة الأحزاب(١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ .. ﴿١﴾ ﴾ [الأحزاب] نداء لرسول الله ﷺ ، والمنادى هو الحق سبحانه ، رسول الله لقبه ، واسمه محمد ، واسمه أحمد كما ذُكِر فى القرآن ، والإنسان حين يُولَد يُوضع له اسم يدل على مُسمَّاه ، بحيث إذا أطلقه الواضع انصرف إلى المسمى ، والقوم الذين سُمُّوا لهم محيط يُعرفون فيه ، وغيرهم بنفس الأسماء لهم محيط آخر ، فمحمد هذا المحيط غير محمد هذا المحيط .

---

(١) سورة الأحزاب هى السورة رقم ٣٣ فى ترتيب المصحف الشريف ، وهى سورة مدنية ، عدد آياتها ٧٣ آية ، نزلت فى المنافقين وإيذائهم رسول الله ﷺ وطعنهم فيه وفى مناكحته لنسائه وزواجه ﷺ من ابنة عمته زينب بنت جحش وأدب دخول بيوت النبى . وقد نزلت سورة الأحزاب بالمدينة بعد سورة آل عمران وقبل سورة الممتحنة فهى السورة رقم ٨٩ فى ترتيب نزول سور القرآن . [راجع الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى ١/٢٧] .

وتعريف الإنسان يكون بالاسم أو بالكُنْية أو باللقب ، فالاسم هو العلم الذى يُوضع لمسمّى ليُعلَم به ويُنادَى به ، ويُميّز عن غيره ، أما الكنية فاسم صُدِّر بأب أو أم كما نقول : أبو بكر ، وأم المؤمنين ، فإنْ سُمِّى به بدايةً وجُعِل علَماً على شخص فهو اسم ، وليس كنية ، أما اللقب فما أشعر برفعة أو ضِعةً كما تقول : فلان الشاعر أو الشاطر .. إلخ .

فإذا أُطلِق الاسم الواحد على عدة مسميات ، بحيث لا تتميز بعضها عن بعض وجب أنْ تُوصَف بما يميزها كأسرة مثلاً عشقتْ اسم محمد فسمَّتْ كل أولادها (محمد) فلا بُدَّ أن نقول : محمد الكبير ، محمد الصغير ، محمد الأوسط ..الخ .

ورسول الله ﷺ له اسم وكُنْية ولقب ، أما اسمه فمحمد وقد ورد فى القرآن الكريم أربع مرات :

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ .. (١٤٤) ﴾ [آل عمران]

﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَـٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ .. (٤٠) ﴾ [الأحزاب]

﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ .. (٢٩) ﴾ [الفتح]

﴿ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ .. (٢) ﴾ [محمد]

وورد باسم أحمد فى موضع واحد هو : ﴿ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ .. (٦) ﴾ [الصف] وسبق أنْ تكلَّمنا فى علة هذه التسمية .

أما كنيته : فأبو القاسم . ولقبه : رسول الله .

وهكذا استوفى سيدنا رسول الله العَلَمية فى أوضاعها الثلاثة : الاسم ، والكُنْية ، واللقب .

واللقب يضعه أيضاً الأب أو الأم أو الناس المحيطون بالإنسان ، إما يدل على الرفعة تفاؤلاً بأنه سيكون له شأن ، أو يدل على الضِّعَة ، وهذه فى الغالب تحدث فى الأولاد الذين يُخاف عليهم العين ، فيختارون لهم لقباً يدل على الحطّة والضِّعة وما أشبهه (بالفاسوخة) يُعلِّقونها على الصغار مخافة العين .

أما لقب رسول الله ﷺ فقد اختاره له ربه عز وجل ، وطبيعى أنْ يأتى لقبه ﷺ مُشْعِراً برفعة أيما رفعة ، فهى ليست عند الخلق فحسب ، إنما رفعةَ عند الخالق ، فلما وُلد رسول الله أسماه جده بأحب الأسماء عنده . وقال : سمَّيْته محمداً ليُحمد فى الأرض وفى السماء[1] .

ولما وُلِد القاسم كُنِّى به رسول الله فقيل : أبو القاسم ، فلما اختاره الله للرسالة وللسفارة بينه تعالى وبين الخَلْق لقّبه برسول الله وبالنبى ، وهذان اللقبان على قدر عظيم من الرفعة لو جاءت من البشر ، فما بالك وهى من عند الله ، فأنت حين تضع المقاييس تضعها على قَدْر معرفتك وإمكاناتك .

فالرسول ﷺ رسول الله ونبى الله بمقاييس الله ، فهو إذن مُشرّف عندكم ، مُشرَّف عند مَنْ أرسله و ﴿ **اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ** .. ﴿١٢٤﴾ [الأنعام]

---

(١) ذكر ابن هشام فى السيرة النبوية (١/١٧٠) أن آمنة بنت وهب أم رسول الله ﷺ كانت تحدِّث أنها أُتيت ـ حين حملت برسول الله ﷺ ـ فقيل لها : إنك قد حملت بسيد هذه الأمة ، فإذا وقع إلى الأرض فقولى : أعيذه بالواحد من شر كل حاسد ، ثم سمِّه محمداً .

فأحبُّ شيء في الإعلام برسول الله أن نقول : محمد ، أو أبو القاسم ، أو رسول الله ، أو النبي ، والحق سبحانه حين نادى رسوله ﷺ لم يُنَاده باسمه أبداً ، فلم يقُلْ يا محمد ، إنما بلقبه الذي يُشعر برفعته عند الحق سبحانه ، فقال في ندائه : ﴿يَـٰأَيُّهَا النَّبِيُّ .. (٦٥)﴾ [الأنفال] ، ﴿يَـٰأَيُّهَا الرَّسُولُ .. (٤١)﴾ [المائدة]

ولو تتبعتَ نداء الله للرسل من لَدُنْ آدم عليه السلام لا تجد رسولاً نُودِي بغير اسمه إلا محمد ﷺ . أما لفظ (محمد) فقد ورد في القرآن ، لكن في غير النداء ، ورد على سبيل الإخبار بأن محمداً رسول الله .

وحتى في الإخبار عنه ﷺ أخبر الله عنه بلقبه : ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ .. (١٢٨)﴾ [التوبة]

وقال : ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَـٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا (٣٠)﴾ [الفرقان]

إذن : في النداء استقل بيا أيها النبي ، ويا أيها الرسول ، أما في الإخبار فلا بُدَّ أنْ يذكر اسمه (محمد رسول الله) ، وإلا فكيف يعرف أنه رسول الله ؟ فيخبر به أولاً اسماً ومُسمّى .

ونُودِي ﷺ بيـأيها النبي ، ويـأيها الرسول تعظيماً له ﷺ ، ونحن حين نريد أنْ نُعظِّم مَنْ ننادي نسبق الاسم بمقدمات ، نقول : يا سيدي فلان ، يا فضيلة الشيخ ، يا صاحب العزة .. الخ .

وقد تقدمتْ (أَيُّهَا) على المنادى هنا ؛ لأن الاسم المنادى المحلَّى بأل لا يُنادى مباشرة إلا في لفظ الجلالة (الله) فنقول : يا الله ، فكأن الحق سبحانه توحَّد حتى في النداء ، هذا في نداء المفرد .

والحق سبحانه نادى رسوله بيأيها النبى ، ويأيها الرسول ، الرسول هو سفير بين الله وبين خَلْقه ؛ ليُبلغهم منهجه الذى يريد أنْ تسير عليه حياتهم فالرسول مُبلِّغ ، أما النبى فمُرْسَل أيضاً من قِبَل الحق سبحانه ، لكن ليس معه شرع جديد ، إنما يسير على شرع مَنْ سبقه من الرسل ، أما هو فقدوة وأُسْوة سلوكية لقومه .

ومحمد ﷺ جمع الأمرين معاً ، فهو نبى ورسول له خصوصيات أُمر بها ، ولم يُؤْمَر بتبليغها ـ وهذه مسائل خاصة بالنبوة ـ وله أمور أخرى أُمِر بها ، وأُمِر بتبليغها .

ومعلوم من أقوال العلماء أن كل رسول نبى ، وليس كل نبى رسولاً بالمعنى الاصطلاحى ، وإلا فَهُم جميعاً مُرْسَلون من قِبَل الله .

وكلمة (النبى) مأخوذة من النبأ وهو الخبر الهام ، فالخبر يكون من البشر للبشر ، فإنْ كان من خالق البشر فهو نبأ أى : أمر عظيم ينبغى الاهتمام به ، وأصلُه من النَّبْوَة ، وهى الشىء العالى المستدير فى وسط شىء مستَوٍ .

فحين تقول : رأيتُ فلاناً اليوم ، هذا لا يُسمَّى نبأ إنما خبر ؛ لذلك قال سبحانه: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (١) عَنِ النَّبَأِ الْعَظِيمِ (٢)﴾ [النبأ] أى : الخبر الهائل الذى هَزَّ الدنيا كلها ، وملأ الأسماع ، وزلزل العروش .

ثم يقول سبحانه مخاطباً نبيه ﷺ ﴿اتَّقِ اللَّهَ .. (١)﴾ [الأحزاب] سبق أنْ قُلْنا : إن الكلام العربى مُقسَّم إلى خبر وإنشاء ، فالخبر نسبة كلامية كانت قبل النطق بها نسبة ذهنية ، وبعد النطق بها كلامية ، فإنْ كان لها معنى ومدلول فهى نسبة واقعية ، والخبر هو القول الذى يُوصَف بالصدق إنْ طابق الواقع ، ويُوصَف بالكذب إن خالف .

أما الإنشاء فهو مقابل الخبر يعنى : قولٌ لا يُوصَف بصدق ولا بكذب ، كأن تقول لإنسان : قِفْ ، فهذا أمر لا يقال لقائله : صادق ، ولا كاذب .

فقوله تعالى لنبيه ﴿اتَّقِ اللَّهَ .. (١)﴾ [الأحزاب] هذه نسبة كلامية من الله لرسوله ، ليحدث مدلول هذا الأمر ، وهو التقوى ، لكن أكان رسول الله ﷺ غير تقى حتى يأمره ربه بالتقوى ؟

نقول : ليس بالضرورة أنْ يكون الرسول عصى ، فيأمره الله بتقواه ، لكن الحق سبحانه ينشىء مع رسوله كلاماً بداية دون سابقة عصيان . أو : أنه الأمر الأول بالتقوى كما تقول لولدك فى بداية الدراسة : اجتهد وذاكر دروسك ، وأنت تعرف أنه مجتهد ، لكن لا بُدَّ من تقرير المبدأ فى بداية الأمر .

ثم إن الحدث يحدث فى أزمنة ثلاثة : ماضٍ وحال ومستقبل ، فإذا طلب من شخص فعل شىء هو مقيم عليه بالفعل كقوله تعالى : ﴿يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ (١٣٦)﴾ [النساء]

فالحق سبحانه يأمرهم بالإيمان ، مع أنه وصفهم وخاطبهم بلفظ الإيمان ؛ لأن المعنى : أنتم آمنتم قبل أنْ أُكلمكم ، وهذا الإيمان السابق لكلامى ماض ، وأنا أريد منكم أنْ تُحدثوا إيماناً جديداً ، حالاً ومستقبلاً ، أريد أنْ تُجدِّدوا إيمانكم ، وأنْ تستمروا عليه .

فمعنى : ﴿يَـٰأَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ .. (١)﴾ [الأحزاب] أى : واصل تقواك حالاً ، كما فعلتها سابقاً ، وواصلها مستقبلاً ، فلا تنقطع عنها أبداً .

أو : أن تقوى الله أمر يلصق الإنسانَ بربه ، والله كلَّف بأشياء ،

ثم أباح لك من جنس التكليف أشياء ، فإذا قال الله لرسوله ﴿اتَّقِ اللَّهَ .. (١)﴾ [الأحزاب] فهى غير قوله لنا : اتقوا الله ، فالأمر لنا نحن بالتقوى . أى : نفِّذ ما فُرِض عليك ، أما فى حق رسول الله فهى بمعنى : ادخل فى مقام الإحسان ، وجدِّده دائماً ؛ لأن مراقى القبول من الله لا تنتهى ، كما أن كمالات العطاء فى الله لا تنتهى .

لذلك قال ﷺ : « من استوى يوماه فهو مغبون »[(١)] أى : من استوى يومه مع أمسه فى قُرْبه من الله فهو خاسر ، لماذا ؟ لأنه ينبغى للمؤمن أنْ يزيد فى قُرْبه وفى مودته ، وعلاقته بالله يوماً بعد يوم ؛ لأن نِعَم الله عليك متوالية تستوجب شكراً متوالياً ، وحمداً دائماً .

كما أن الحق سبحانه لا يكتفى من رسوله بما يكتفى به من سائر الخلق ، إذن : فالتقوى بالنسبة لرسول الله غير التقوى بالنسبة لسائر الخَلْق ، التقوى فى حق رسول الله مجالها واسع ، وللرسول مع الله فيوضات لا تنتهى .

لذلك حين يناديك ربك للصلاة فى كل يوم خمس مرات ، فاعلم أن فضله عليك غير مكرر ، بل فضله متجدد ، فعطاؤه لك فى الظهر

---

(١) ذكره الزركشى فى « التذكرة فى الأحاديث المشتهرة » (ص ١٣٨) بطوله « من استوى يوماه فهو مغبون ، ومن كان آخر يومه شراً فهو ملعون ، ومن لم يكن على الزيادة فهو فى النقصان فالموت خير له ، ومن اشتاق إلى الجنة سارع إلى الخيرات ، ومن أشفق من النار لهى عن الشهوات ، ومن ترقب الموت هان عليه اللذات ، ومن زهد فى الدنيا هانت عليه المصيبات » وقال : « أسنده صاحب مسند الفردوس (الديلمى) من حديث محمد بن سوقة عن الحارث عن على مرفوعاً وهو إسناد ضعيف » ، قال الحافظ العراقى فى تخريج أحاديث الإحياء (٤/٣٣٥) : لا أعلم هذا إلا فى منام لعبد العزيز بن أبى رواد قال : رأيت النبى ﷺ فى النوم فقلت : يا رسول الله ، أوصنى ، فقال ذلك بزيادة فى آخره رواه البيهقى فى الزهد .

غير عطائه لك فى العصر ، غير عطائه لك فى المغرب ، وهكذا تكون التقوى عملاً متواصلاً ممتداً .

ولذلك يحذرنا أهل الخير أن نداوم مع الله فى شىء من الطاعة ، ثم نقصر عنها ، كذلك يحذرنا الشرع أنْ ننذر لله ما لا نستطيع الوفاء به ، لأنك بالنذر تفرض على نفسك الطاعة ، فأجملْ بك أنْ تظل فى مقام التطوع ، إنْ خفّت نفسك للطاعة أدِّها ، وإنْ قَصُرت فلا شىء عليك .

وكونك تفرض على نفسك شيئاً من الطاعات من جنس ما فرض الله عليك . يعنى : أنك أحببتَ الطاعة وحلَتْ لك العبادة ، حتى زدتَ الله منها ، فقلت مثلاً : نذرتُ لله أن أصلى من الركعات كذا ، أو أتصدَّق بكذا من المال ؛ لأنك رأيتَ فى الصلوات الخمس إشراقات وفيوضات من الله فزدْتَ منها .

والحق سبحانه يطلب منا حين ينادينا للصلاة أنْ نسعى للمسجد ، مع أن الأرض كلها مسجد وكلها طهور ، لكن المسجد خُصِّص للصلاة ، فينبغى أنْ تُؤدَّى فيه . وأنت فى صلاة ما دُمْتَ تسعى للصلاة ، فمَنْ كان بعيد البيت عن المسجد عليه أنْ يأتى الصلاة فى سكينة ووقار ، ولا يخرج عن هذا السَّمْت حتى وإنْ تأخر عن تكبيرة الإحرام .

وقد ورد فى حديث سيدنا رسول الله : « إذا أقيمت الصلاة فلا تأتوها تسعون ، وأتوها تمشون وعليكم السكينة ، فما أدركتم فصلُّوا وما فاتكم فأتموا »[1] .

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٢/٢٣٧ ، ٢٣٩ ، ٢٧٠) ، ومسلم فى صحيحه (٦٠٢) كتاب المساجد من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

وهناك مطلوب إيمان ومطلوب إحسان : مطلوب الإيمان هو ما فرضه الله عليك ، وجاء فى الحديث القدسى : « ما تقرَّب إلىّ عبدى بشىء أحبّ إلىّ مما افترضته عليه »[1]

فإنْ أردتَ أن تتقرب إلى الله فتقرَّب إليه بما يحب ، ومن جنس ما فرضه عليك ، فالله أمرك بصلاة وصيام وزكاة ، فإنْ حلَتْ لك هذه العبادات فزدْ منها فوق ما فرضه الله عليك ، وحين تزيد اعرف أنه مسَّتْكَ نورانية الإشراق فى العبادة فقلت : الله يستحق منى فوق ما كلَّفنى ، وهذا هو مقام الإحسان .

وسبق أنْ تحدثنا عن هذا المعنى فى قوله تعالى :

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨)﴾ [الذاريات]

وهل فرض الله على عبده ألاَّ يهجع إلا قليلاً من الليل ؟ لا بل لك أنْ تُصلى العشاء ، وتنام حتى صلاة الفجر ، كذلك فى الاستغفار ، أما الذى لا يهجع من الليل إلا قليلاً ويقوم فى السَّحَر للاستغفار ، فلا بُدَّ أنه حلَتْ له العبادة ، وحلا له الوقوف فى حضرة ربه ـ عز وجل ـ فدخل فى مقام الإحسان .

ثم الإحسان نوعان : إحسان كم ، وإحسان كيف ، إحسان الكم بأنْ تزيد على ما فُرض عليك ، فتصلى فوق الفرض وتُزكِّى فوق الفرض ، أما إحسان الكيف فبأنْ تخلص فى عبادتك لله ، وأنْ تعبد الله

---

(١) جزء من حديث قدسى ، أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٥٠٢) من حديث أبى هريرة ، وأخرجه أحمد فى مسنده (٢٥٦/٦) من حديث عائشة ، وقد أفاض فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى فى شرح هذا الحديث فى كتاب « الأحاديث القدسية » (٨٧/١) بتحقيقنا .

كـأنك تراه ، فـإنْ لم تكُنْ تراه فـإنه يراك[١] يعنى : إذا لم يكُن لديك الإشـراق والشفـافيـة التى تريك الله ، فـلا أقلَّ من أنْ تعبـده على أنه يراك .

وساعـة تدخل فى مقـام الإحسان فـأنت حرٌّ إذن فـيمـا تقدم من الإحسان ، كما قـال سبحانه : ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ .. (٩١)﴾ [التوبة] على حـسب ما تخفّ نفـسك للطاعة ، خـفَّتْ لخمس ركـعات ، خفَّتْ لعشـر ، خفَّت لخمسـة بالمائة فى الزكاة ، خفَّتْ لـعشرة .. الخ أنت حر .

ألا ترى أن الحق سبـحانه لمـا تكلم عن هذا المقـام قال : ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩)﴾ [الذاريات] أما فى الزكاة المفروضة فقال : ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ (٢٤)﴾ [المعارج]

إذن ﴿يَـا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ .. (١)﴾ [الأحزاب] أى : تقوى تناسب مقامك من ربك ؛ لأن عطاءات الله سبحـانه لا تتناهى ، كما أن كمالاته لا تتناهى ، لذلك كان سيدنا رسول الله يقـوم الليل حتى تتفطر قدماه ولما سألتـه السيدة عائشـة : تفعل هذا وقد غفـر الله لك ما تقدم من ذنبك ؟ قال : « أفلا أكون عبداً شكوراً »[٢] .

يعنى : العـبادة لا تكـون لمجـرد الثواب والمـغـفرة ، إنمـا هناك درجات وارتقاءات أخرى .

---

(١) هو حديث جبـريل المشهور الذى أخرجه الـبخارى فى صحيحـه (٥٠) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٨) من حديث عمر بن الخطاب ، أن جبريل أتى رسول الله ﷺ بين أصحابه فى صورة رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ، لا يُرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه أحد ، وأخذ يسأله عن الإسلام والإيمان والإحسان ، ورسول الله يجيبه .

(٢) أخرجه البـخارى فى صحيحـه (٤٨٣٧) وكذا مسلم فى صحيـحه (٢٨١٩) من حديث عائشة رضى الله عنها .

والتقوى : قلنا أنْ تجعل بينك وبين ما يمكن أنْ ينشأ منه ضرر لك وقاية ، لكن كيف نجعل بيننا وبين ربنا سبحانه وقاية ، ومهمة التقوى أن تندمج مع الله فى معيته ؟ هذا فى حق مَنْ يتحكم جيداً فى نفسه ، ويحملها على منهج الله .

قالوا : لأن لله تعالى صفات جلال وصفات جمال ، ولكل صفة منها مطلوب ، فالله تعالى غفور رحيم ، وهو أيضاً سبحانه القهار الجبار المنتقم ، الله سبحانه هو الضار وهو النافع ، إذن : فصفات الجمال هى التى تُؤتى الإنسان الخير الذى يحبه ، وصفات الجلال هى التى تتسلط على مَنْ يخالف . فعلى العبد دائماً أنْ يظل خائفاً من صفات الجلال راجياً صفات الجمال .

إذن : تقوى الله تكون بأنْ تجعل بينك وبين صفات الجلال وقاية ؛ لأنك لستَ مطيقاً لهذه الصفات ، ولا تطيق مسَّة خفيفة من النار ، وهى جند من جنود الله فاحذرها .

وعرفنا فى مسألة الشفاعة أن الصيام والقرآن يشفعان لصاحبهما ، وأن الله يُشفِّع بعض المؤمنين ، ويُشفِّع الأنبياء والملائكة ، ثم بعد ذلك تبقى شفاعة أرحم الراحمين ، فكيف يشفع الله عند الله[1] ؟

---

(١) عن أبى بكر الصديق فى حديث طويل عن رسول الله ﷺ قال : « عُرِض علىَّ ما هو كائن من أمر الدنيا وأمر الآخرة ، فجمع الأولون والآخرون بصعيد واحد .. حتى قال : ثم يقال : ادعوا الصديقين فيشفعون ، ثم يقال : ادعوا الأنبياء فيجىء النبى ومعه العصابة ، والنبى ومعه الخمسة والستة ، والنبى ليس معه أحد . ثم يقال : ادعوا الشهداء فيشفعون لمن أرادوا ، فإذا فعلت الشهداء ذلك يقول الله : أنا أرحم الراحمين ، أدخلوا جنتى من كان لا يشرك بى شيئاً فيدخلون الجنة » الحديث أخرجه أحمد فى مسنده (١/ ٤) وأورده الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٣٧٤) والسيوطى فى « البدور السافرة فى أمور الآخرة » (ص ١١٩) .

قالوا : أى تشفع صفات الجمال عند صفات الجلال ، فحين يذنب العبد ذنباً تتسلط عليه صفات الجلال لتعاقبه ، فتتصدى لها صفات الجمال ، وتشفع عندها لتسقط ما لها عنده من حق .

ثم يقول سبحانه مخاطباً رسوله ﷺ : ﴿وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ .. (١)﴾ [الأحزاب] فهل حين يتقى رسول الله ربه أيطيع الكافرين والمنافقين ؟ قالوا : جمع القرآن بين الأمر بالتقوى والنهى عن طاعة الكافرين والمنافقين على الالتزام ، تقول : أكرم فلاناً وفلاناً أيضاً ، فلم تقل لا تكرم إلا فلاناً ، إذن : فعطف لا تُطع الكافرين والمنافقين على ﴿اتَّقِ اللَّهَ .. (١)﴾ [الأحزاب] بالالتزام .

والنبى ﷺ حينما جاء جاء على نظام كونى أعده الله تعالى لخَلْقه ، وحين خلق الله الخَلْق أخذ على الإنسانية كلها بكل أفرادها من آدم إلى أن تقوم الساعة ـ أخذ عليهم العهد ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ .. (١٧٢)﴾ [الأعراف] فشهدوا لله تعالى قبل أنْ تتهيأ لهم المعاصى والشهوات .

فإذا أصابت الناسَ غفلةٌ أو نسُوا هذا العهد بعث الله لهم من رسله مَنْ يُذكِّرهم ؛ لذلك خُوطِب النبى ﷺ بقوله تعالى : ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ .. (٧)﴾ [الرعد]

وقال سبحانه عن الرسل : ﴿رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ .. (١٦٥)﴾ [النساء] يعنى : ليسوا منشئين تقوى وطاعة ، إنما مذكرون بقضية معلومة سلَفاً من الأزل ، وما هم إلا مبشرون بالثواب لمن أطاع ، ومنذرون بالعذاب لمن عصى ، والحق سبحانه يريد من عباده أنْ يكونوا على ذكر دائم لهذه الحقيقة وألاَّ يغفلوا عنها .

والغفلة تأتى إما من شهوة النفس أو كسلها عن مطلوب شاق

للعبادة أو وسوسة من غير مطيع فى أذنك ، سواء أكان من شياطين الإنس أو من شياطين الجن ، كما قال تعالى : ﴿ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ .. (١١٢) ﴾ [الأنعام]

وقلنا : إن المنحرف يحسد المستقيم على استقامته ، لكنه لا يستطيع أنْ يتحمل تبعات هذه الطاعة ، فلا أقلَّ من أنْ يحاول أنْ يجذب المستقيم إليه ، فيوسوس له ويصرفه عن صفة الكمال التى له ؛ لذلك حين يوسوس لك صاحبك بشىء من معصية الله فأول شىء ينبغى أنْ تفطن إليه أنه يكرهك ، ولا يريد لك الخير الذى يعجز هو عن إدراكه ، فهو لا يريد لك أنْ تتميز عليه بشىء .

إذن : الكافرون والمنافقون الذين يصادمون دعوة الرسل لم يقدروا على أنْ يحملوا أنفسهم على منهج الله ، ولا أنْ يلتزموا كما التزم المؤمنون ، فلا أقلَّ من أنْ يحولوا بين المؤمنين وبين المنهج الجديد الذى جاء به رسول الله .

وقلنا : إن الرسول لم يأتِ إلا لضرورة ، هى انطماس معالم المنهج عند المرسل إليهم ، وانعدام الرادع فى النفس البشرية أولاً ثم فى المجتمع ككل ، فالإنسان حين يغفل تُذكِّره النفس اللوامة وتردُّه عن المعصية ، فإذا ما ضعف سلطان هذه النفس تحكمتْ فيه النفس الأمَّارة بالسوء وصرفتْه عن الخير كله ، فلم يَبْقَ له رادع إلا فى المجتمع الإيمانى الذى يقوم بدوره فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

وهذه هى ميزة الخيرية فى هذه الأمة التى قال الله فيها : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ .. (١١٠) ﴾ [آل عمران]

فإذا انطمس هذا المبدأ فى المجتمع أيضاً حتى لم يَعُدْ فيه آمر بمعروف ولا ناهٍ عن منكر ، فلا بُدَّ أنْ تتدخّل السماء بإيقاظ جديد برسول جديد ، لكن أمة محمد ﷺ من شرفها عند ربها وشرفها برسولها أن الله منحها هذه الخيرية ، بحيث لا يعدم فيها الأمر بالمعروف ولا النهى عن المنكر أبداً ؛ لذلك لا يجىء رسول بعد رسول الله ﷺ ؛ لأنها أمة مأمونة .

ولا بُدَّ للأمة التى توفرتْ لها هذه المناعة الجماعية الآمرة بالمعروف الناهية عن المنكر أنْ يكون لها وَعْىٌ إيمانى وفهم جيد لهذه المهمة ، وقد وردت فيها مذكرة الإيضاح التفسيرية من سيدنا رسول الله حين قال : « مَنْ رأى منكم منكراً فليُغيِّره بيده ، فإنْ لم يستطع فبلسانه ، فإنْ لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان »[(١)] .

فالمشرِّع قدَّر عدم الاستطاعة ، فجعل لكل خطوة من أمر بمعروف أو نهى عن منكر مجالاً : متى أُغيِّر المنكر بيدى ؟ ومتى أُغيره بلسانى ؟ ومتى أغيره بقلبى ؟

أغيره بيدى فيمن أملك الولاية عليه ، حيث أتمكن من التغيير ، فإنْ كان المُنْكَر ممن لا ولايةَ لى عليه ، فعلىَّ أنْ أغيره بلسانى فى ضوء قوله تعالى : ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ .. (١٢٥)﴾ [النحل] بالأسلوب الحسن الجميل ،

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٣/١٠ ، ٥٢) ، وابن ماجه فى سننه (١٢٧٥ ، ٤٠١٣) وأبو داود فى سننه (١١٤٠) من حديث أبى سعيد الخدرى بلفظ « من رأى منكراً فاستطاع أن يغيره بيده فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان » .

لكن نجد بعض الدعاة يدعون على غير بصيرة ، فيغفلون مسألة الاستطاعة ، ولا يجعلون لعدم الاستطاعة مجالاً ، ويميلون إلى تغيير المنكر كله باليد ، وهذا مخالف لأمر رسول الله .

فإنْ توقعتَ أنْ يصيبك ضرر فلتغير المنكر بقلبك ؛ لأن الهدف أن تستقطب المنحرف إلى جهة الاعتدال ، وهذا لا يتم إلا باللين وبالرفق حتى لا تجمع عليه شدتين : الأولى أنْ تُخرِجه مما يألف ، والثانية : أنْ تُخرِجه عما يألفه بما يكرهه .

ويخطىء الكثيرون فى فهم تغيير المنكر بالقلب فيظنون مثلاً أن تقول فى نفسك : اللهم إن هذا منكر لا يرضيك وأنا أنكره ، هذا مجرد إنكار باللسان والله لا يريد كلمة تخرج من أفواههم ، إنما يريد منا عمل القلب الذى يتبعه عمل الجوارح ، فقالبك فى هذا الإنكار تابع لقلبك .

فحين ترى مَنِ استشرى فى العصيان والطغيان وأنت لا تقدر على نهيه ، لا بيدك ولا بلسانك ، ولا تستطيع مواجهته ، فعليك أن تكون كارهاً لعمله معرضاً عنه ، مهملاً له ، فلا تجامله فى حزن ولا تُهنِّئه فى فرح ولا تساعده إن احتاج .. الخ .

عليك أنْ تعزله عن مجتمعك ، فإذا فعل معه الجميع هذا الفعل ، وسلكوا معه هذا المسلك سقط وحده وارتدع .

لذلك لم نر النبى ﷺ صنع سجناً للمسلمين المخالفين ، إنما جعل سجنهم فى عزل المجتمع الإيمانى لهم ، أو سجن المجتمع عنهم ، لا يكلمهم ولا يتعامل معهم ، حتى الزوجة عزلها الشرع عن زوجها لا يقربها حتى يقضى الله فى أمره .

أتذكرون قصة كعب بن مالك[١] ، وكيف عزله المجتمع الإيمانى وكان من الثلاثة[٢] الذين خُلِّفوا عن رسول الله فى غزوة تبوك ، حتى قاطعه أقرب الناس إليه ، فلما تسوَّر الحديقة على ابن عمه وقال : تعلم أنى أحب رسول الله فلم يرد عليه .

وتأتى زوجة[٣] هلال إلى رسول الله وقد كان أحد الثلاثة أيضاً ، وتقول : يا رسول الله ، إن هلالاً رجل كبير السن ، ليس له ما للرجال فى النساء ، فقال لها : اخدميه لكن لا يقربنك . وقد ظل هؤلاء فى هذه العزلة حتى أن القرآن قال فيهم : ﴿حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ .. (١١٨)﴾ [التوبة]

هكذا التزم المسلمون الأوائل بشرع الله ، واستطاعوا لا نقول سجن المخالف ، إنما سجن المجتمع عنه ، وهذه المسألة هى سبب الأزمة التى تعيشها بلدنا الآن ، فالمجرم الذى يعيش بيننا ، أليس معلوماً لأهل المنزل الذى يعيش فيه ، بل لأهل الحى والشارع ؟

فهل ذهب واحد منهم إلى تاجر فقال له : أعطنى كذا فقال :

---

(١) هو : كعب بن مالك الأنصارى ، شاعر رسول الله ﷺ ، أمه ليلى بنت زيد من بنى سلمة ، كنيته أبو عبد الرحمن ، شهد العقبة مع سبعين من الأنصار ، شهد أحداً والخندق والمشاهد كلها ، إلا تبوك ، تخلف عنها ، وتاب الله عليه ، ذهب بصره فى آخر حياته وتوفى عام ٥٠ هـ فى خلافة معاوية عن ٧٧ عاماً .

(٢) الثلاثة الذين خلفوا هم : كعب بن مالك ، وهلال بن أمية ، ومرارة بن ربيعة .

(٣) هى : خولة بنت عاصم امرأة هلال بن أمية [قاله ابن حجر فى الفتح ١٢١/٨] ، ويروى مسلم فى صحيحه (٢٧٦٩) والبخارى فى صحيحه (٤٤١٨) أن امرأته جاءت رسول الله ﷺ وقالت : يا رسول الله ، إن هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خادم ، فهل تكره أن أخدمه ؟ قال : لا ولكن لا يقربنك فقالت : إنه والله ما به حركة إلى شىء ، ووالله ما زال يبكى منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا .

لا ليس عندى وقاطعه ؟ هل سلَّم واحد منهم على شخص ، فلم يردّ عليه السلام ؟

إذن : المجتمع كله يتحمل هذه المسئولية ، ويتحمل الإثم عليها ؛ لأنه تستَّر على هؤلاء ، لدرجة أن نقول : إن المجتمع نفسه مجرم أكثر من المجرمين .

وينبغى قبل أنْ نتكلم عن المجرم نتكلم معه نحاوره وننصحه ونحسن إليه قبل أن نقاطعه ، نفهم هذا المعنى من قول سيدنا رسول الله ﷺ : « أعظم الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر »[1] ولم يقل على سلطان جائر . فقبل أنْ نفضحه ونُشنِّع عليه يجب أنْ نتكلم معه ، وأنْ ننصحه حتى يعلم أنك تريد به الخير ، وتريد أنْ ترده إلى الجادة فيقبل منك ، وعلى الأقل لا يضرك ، إنما آفتنا أننا نُشنِّع على المجرم، وربما نُحمِّله فوق الصدق الواحد ألف كذب لمجرد كراهيتنا له .

لذلك قال العربى فى صفات الناس : إنْ علموا الخير أخفوه ، وإنْ علموا الشر أذاعوه ، وإنْ لم يعلموا كذبوا .

إذن : معنى التغيير بالقلب أن يكون قالبك موافقاً لقلبك ، وهذه لا تُكلِّفك شيئاً ، على خلاف التغيير باليد أو باللسان ؛ لذلك وصفه رسول الله بأضعف الإيمان ، يعنى أنها مسألة يقوم بها الضعيف .

وبعزل المجتمع عن المجرم تنتهى ظاهرة الإجرام ، وما استشرى الإجرام إلا حين خاف الناس من المجرمين وتملّقوهم وتودَّدوا إليهم ربما لاتقاء شَرِّهم ، ولم لا يزداد المجرم فى إجرامه والأمر كذلك ؟

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٣/١٩ ، ٦١) ، والترمذى فى سننه (٢١٧٤) وحسَّنه وأبو داود فى سننه (٤٣٤٤) من حديث أبى سعيد الخدرى . ولفظ الترمذى : « إن من أعظم الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر » .

لذلك جعل الشارع الحكيم الدية فى القتل الخطأ ليست على القاتل وحده ، إنما على العاقلة أى : على جميع العائلة لأنها المنوط بها تقويم أبنائها ، والأخذ على أيدى المنحرف منهم ؛ لأنها هى التى ستتحمل العاقبة ، وبذلك يحدث التوازن فى المجتمع .

والحق - سبحانه وتعالى - حين وضع المنهج الذى يُنظِّم حياة الخَلْق يريد سبحانه الخير لخلقه ، وهو سبحانه صاحب الخير ولا ينتفع منه بشىء ، فلو أن الخَلْق جميعاً كانوا على أتقى قلب رجل واحد منهم ما زاد ذلك فى مُلْك الله شيئاً[1] .

ثم هو سبحانه خلق الإنسان ، وحدد مهمته فى الحياة ، ووضع له قانون صيانته فيها ، كما أن صانع الآلة يحدد الهدف منها قبل صناعتها ، وحدد لها قانون صيانتها ، فالذى صنع الغسالة مثلاً رأى كيف تتعب المرأة فى عملية غسيل الملابس ، فصنع هذه الآلة لتقوم بهذه المهمة ، ولم يحدث أنْ صنع صانع آلة ، ثم قال : انظروا فى أىِّ شىء يمكن أنْ تُستخدم .

لذلك ، فَشَلُ العالم كله يأتى من أن الخَلْق يريدون أنْ يحددوا مهمة الإنسان ، ويضعوا له قانون صيانته ، ويغفلون أنه صنعة الله ، والذى يحدد مهمة الصَّنْعَة هو صانعها .

والحق سبحانه حدَّد لنا مهمتنا فى الحياة قبل أنْ يستدعينا إليها ،

---

(١) قطعة من حديث قدسى طويل ، أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٥٧٧) كتاب البر والصلة ، وأحمد فى مسنده (٥/١٥٤ ، ١٧٧) من حديث أبى ذر رضى الله عنه ، ولفظ الحديث : « يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك فى ملكى شيئاً ، يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكى شيئاً » .

واقرأ إنْ شئتَ قولَ ربك : ﴿الرَّحْمَـٰنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الإِنسَانَ (٣)﴾ [الرحمن]

فالحق سبحانه قبل أنْ يخلق الإنسان وضع له المنهج ، وحدَّد له مهمته وقانون صيانته فى قرآنه الكريم ، كما يحدد الصانع مهمة صَنْعته أولاً ، فإنْ حدث فى هذه الصنعة عَطَب فيجب أنْ تُردَّ إلى الصانع ، وإلى قانون الصيانة بافعل ولا تفعل ؛ لأنه سبحانه هو الذى خلق ، وهو الذى يعلم ما يصلح صنعته ويضمن سلامتها ، واقرأ إنْ شئتَ : ﴿أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤)﴾ [الملك]

ويقول تعالى : ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ .. (٥٩)﴾ [النساء]

إذن : فآفة المجتمع البشرى أولاً : أنه يريد أن يُحدِّد لخَلْق الله مهمتهم ، وأن يتدخل فى صنعة ليست صنعته . ثانياً : حين يفسد المجتمع يجعلون له قوانين إصلاحية من عندهم ، وهل تركنا الله بدون منهج ، وبدون قانون صيانة ؟

لقد كان سيدنا رسول الله ﷺ وهو قدوتنا إذا حزبه أمر أو عَزَّ عليه شىء يُهْرع إلى ربه ، ويقف بين يديه فى الصلاة ، كما تعرض أنت آلتك أو جهازك على المهندس المختص ، فيصلح لك ما فيه من عطب ، وهذه مسألة مادية يصلحها المهندس بشىء مادى .

أما الحق سبحانه فغيب ، فحين يصلحك أنت أيها العبد يصلحك بقانون الغيب ، بحيث لا تدرى أنت كيف أصلحك ، المهم حين تعرض نفسك على ربك وعلى خالقك ـ عز وجل ـ تعود مُنْشرح الصدر ، راضياً طيِّب النفس .

الحق سبحانه يقول لرسوله : ﴿وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ..

(١) ﴾ [الأحزاب] لأنهم أهل فساد يمارسونه وينتفعون به ؛ لذلك لا بُدَّ أنْ يصادموا الحق ، وأنْ يعترضوا طريقه ، وأساس الفساد فى الكون أنْ يحب الإنسان أنْ يأخذ خير غيره ، وأن يكون دمه من عرق الآخرين ، فإذا جاء مَنْ يعدل هذا الميزان المائل وقفوا له بالمرصاد ؛ لأن دعوته تتعارض ومنافعهم .

والحق سبحانه بيَّن لنا على مدى موكب الرسل جميعاً أنه ما من رسول إلا كان له أعداء ومعاندون ، لكن سنة الله فى الرسل أنْ تكون لهم الغَلَبة فى نهاية الأمر ، كما قال سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) ﴾ [الصافات]

إذن : فالله تعالى يريد منا الاستقامة على منهجه ، وأهل الفساد يريدون الانحراف عن هذا المنهج ، واقرأ : ﴿ وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا .. (١٥٣) ﴾ [الأنعام] يعنى : استقامة على إطلاقها ، فمَنْ منكم يرينا فيه التواءً أو اعوجاجاً؟ ﴿ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ .. (١٥٣) ﴾ [الأنعام]

فالصراط المستقيم واحد ، وسبيل الحق واحد ، أما الباطل والفساد فله سُبُل شتى ، وقد نبهنا سيدنا رسول الله ﷺ إلى هذه القضية حين خَطَّ للصحابة خطاً واحداً مستقيماً ، وعلى جانبيه خطوطاً[1] ، ثم تلا : ﴿ وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا

---

(١) عن عبد الله بن مسعود قال : خط رسول الله خطاً بيده ، ثم قال : هذا سبيل الله مستقيماً ، ثم خط عن يمينه وشماله ، ثم قال : هذه السبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه ، ثم قرأ ﴿ وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ .. (١٥٣) ﴾ [الأنعام] . أخرجه أحمد فى مسنده (١/٤٦٥) والحاكم فى مستدركه (٢/٣١٨) وقال : « صحيح الإسناد ولم يخرجاه » .

السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ .. (١٥٣) ﴾ [الأنعام]

وتعلَّمنا فى علم الهندسة أن الخط المستقيم هو أقرب مسافة بين نقطتين ، فلو خَطَّ مهندس طريقاً مستقيماً بين بلدين مثلاً تراه لو انحرف فى بداية الطريق عدة سنتيمترات فإنها تبعده عن البلدة الأخرى عدة كيلو مترات .

إذن : الطريق المستقيم هو الذى يُسهِّل لك السفر ، ويقرب لك المسافة ، أما السبل المتعددة فإنها تهدر مجهودك وتشقُّ عليك ، حتى أنت فى لغتنا العامية تقول لصاحبك : (تعال دُغرى) أو تقول (بلاش لف ودوران) كذلك يقول لك ربك : ﴿ وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ .. (١٥٣) ﴾ [الأنعام]

وإن كان طريق الحق واحداً ، فطرق الضلال متعددة ، فواحد فساده من ناحية المال ، وواحد من ناحية النساء ، وواحد يفسده المنصب والسلطان .. إلخ .

فإذا ما جاء رسول من عند الله يكبح جماح هؤلاء لا بُدَّ أن يتصادموا معه ؛ لذلك ينبه الحق ـ تبارك وتعالى ـ نبيه ﷺ : أول مراتب التقوى أن تتقى الله وحده ، ثم لا تُطع الكافرين والمنافقين ؛ لأنهم يريدون أنْ يأخذوك للشر والله يريدك للخير .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ .. (١) ﴾ [الأحزاب] تعنى : أنه لا مانع أن تطيع غيرهم من أصحاب الرأى والمشورة من المؤمنين فيما لم يأتكَ فيه أمر من الله ؛ لذلك نزل سيدنا رسول الله فى غزوة بدر على رأى الصحابى الجليل الحباب بن المنذر[1] لما قال

---

(١) هو : الحباب بن المنذر بن الجموح الأنصارى ثم السلمى . قال ابن سعد وغيره : شهد بدراً . وكان يكنى أبا عمر . قال ابن سعد : مات فى خلافة عمر وقد زاد على الخمسين . [الإصابة ١/ ٣١٦] .

له : يا رسول الله ، أهذا منزلٌ أنزلكه الله ، أم هو الحرب والمكيدة ؟ فقال رسول الله ﷺ : « بل هو الحرب والمكيدة » ، فقال : إذن هذا ليس لك بمنزل[١] .

وقد أشار سلمان الفارسى[٢] على رسول الله بحفر الخندق فأخذ بمشورته ، والقاعدة الشرعية تقول : لا اجتهاد مع النص . فإذا لم يكُنْ فى المسألة نصٌّ فلا مانع من أنْ تطيع المؤمنين الناصحين لك ، المشيرين عليك بالخير .

فالحق سبحانه لم يمنع عن رسوله نُصْح الناصحين ، ولم يحرمه مشورة أهل الرأى .

وقد اختلف الناس حول استشارة الحاكم : أهى ملزمة له أم غير ملزمة ؟ وإجابة هذا السؤال فى قوله تعالى : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ .. (١٥٩) ﴾ [آل عمران]

فللحاكم أنْ يسمع المشورة ، وأنْ يقارن بين الآراء ويفاضل بينها ، ثم يكون له وحده القرار النهائى ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ .. (١٥٩) ﴾ [آل عمران] أى : أنت وحدك .

وفى العالم المعاصر نرى الأنظمة إذا احتاجت إلى أَخْذ الآراء فى موضوع ما ترجح الجانب الذى به الرئيس ، وهذا لا يصح ، فالآراء

---

(١) أورده ابن هشام فى السيرة النبوية (٢/٢٥٩) وعزاه لابن إسحاق ، وتمامه أن الحباب ابن المنذر قال : : يا رسول الله ، فإن هذا ليس بمنزل فانهض بالناس حتى نأتى أدنى ماء من القوم فننزله ، ثم نغور ما وراءه من القُلب ، ثم نبنى عليه حوضاً فنملؤه ماء ، ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون ، فقال ﷺ « لقد أشرت بالرأى » .

(٢) سلمان الفارسى صحابى ، من مقدميهم ، أصله من مجوس أصبهان ، عاش عمراً طويلاً ، جاب البلاد طلباً للحق وقرأ كتب الفرس والروم واليهود . ثم أسلم وآمن برسول الله ﷺ ، وقال عنه : سلمان منا أهل البيت ، جُعِل أميراً على المدائن ، فأقام فيها إلى أن توفى عام ٣٦هـ ، كان ينسج الخوص ويأكل خبز الشعير من كسب يده . [الأعلام للزركلى ٣/١١٢] .

تنير للرئيس الطريق ، وتوضح له الصورة ، وله هو القرار الأخير ؛ لأن الحيثية التى انتخبته من خلالها أنك تشهد له بالتفوق ، إذن : فهو الذى يرجح أحد الآراء .

وفَرْق بين المشورة والتفويض ، فحين يُفوِّض رئيس الدولة شخصاً أو هيئة لدراسة أمر من الأمور ، أو اتخاذ قرار ، فهى صاحبة الرأى ، وحين تعرض عليه ما توصلتْ إليه يعطيها الموافقة ؛ لأنه فوَّضها فى هذا الأمر ، إذن : التفويض يجيز لك اتخاذ القرار ، أمَّا المشورة فتقف عند عرض الرأى فحسب .

والرسول ﷺ كان لا يريد الخروج لغزوة أُحُد ، لكن لما شاور صحابته أشاروا عليه بالخروج لما عندهم من العزة والحماس لنصرة دين الله ، وظلوا برسول الله حتى استعد للحرب ، ولبس لها ملابسها ، ثم عادوا إلى رأيه ﷺ فى عدم الخروج . فقال ﷺ : « ما كان لنبى يلبس لامة الحرب ... »[(١)] .

وحدث ما حدث فى أُحُد ولم ينتصر المسلمون ، أما أبو بكر رضى الله عنه ـ فلم يستمع لمشورة المسلمين فى حرب الردة وصمَّم عليها[(٢)] ، وقال : والله لأقاتلنهم ولو بالذر يعنى : بالحصى ، وانتصر

---

(١) عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ لما جاءه المشركون يوم أحد كان رأى رسول الله ﷺ أن يقيم بالمدينة يقاتلهم فيها فقال له ناس لم يكونوا شهدوا بدراً : تخرج بنا يا رسول الله إليهم نقاتلهم بأحد ورجوا أن يصيبوا من الفضيلة ما أصاب أهل بدر ، فما زالوا برسول الله ﷺ حتى لبس أداته فندموا وقالوا : يا رسول الله أقم فالرأى رأيك فقال رسول الله ﷺ : « ما ينبغى لنبى أن يضع أداته بعد أن لبسها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه » . أخرجه الحاكم فى مستدركه (٢/١٢٩) وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وأقره الذهبى .

(٢) قال البخارى فى صحيحه (كتاب الاعتصام ـ باب قول الله تعالى : ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ .. (١٥٩)﴾ [آل عمران] (١٣/٣٣٨ ـ فتح البارى) : « لم يلتفت أبو بكر إلى مشورة إذ كان عنده حكم رسول الله ﷺ فى الذين فرَّقوا بين الصلاة والزكاة وأرادوا تبديل الدين وأحكامه ، وقال النبى ﷺ : « من بدَّل دينه فاقتلوه » .

الصِّديق ، وإليه يرجع الفضل فى إنقاذ دين الله من فتنة كادت تذهب به .

إذن : فاجعلوا من اختيار الله لرسوله ﷺ مُرجِّحاً ، فيأخذ منكم جميع الآراء ، ويستشيركم ، ثم ينفذ هو ما يراه مناسباً .

وهنا فَرْق بين الكافرين والمنافقين ، ولدينا بعض المصطلحات التى ينبغى أن نكون على علم بمدلولها : الإيمان والكفر والنفاق والجحد .

الإيمان : الإنسان منا له قلب يحمل النوايا ، وله قالب يعبر عنها ، كما قال الشاعر :

إنَّ الكَلاَم لَفِى الفُؤادِ وإنَّمَا جُعِلَ اللسَانُ عَلَى الفُؤادِ دَليلاً

فالإيمان هو الحق الذى يعتقده القلب ، ويقتنع به ، ويوافقه اللسان والقالب ، أما إنْ وافق اللسان القلب فى الباطل فهذا هو الكفر .

لذلك قلنا : إن الكافر منطقى مع نفسه ؛ لأنه نطق بما فى قلبه ، لكنه غير منطقى مع الحق لأنه جحده بقلبه وجحده بلسانه ، فليس عنده اختلاف بين القلب واللسان .

أما النفاق فهو أنْ يعتقد القلب الكفر ويضمره ، ويعلن اللسان كلمة الإيمان ، فالمنافق يخالف لسانُه قلبَه ، فهو غير منطقى لا مع الحق ولا مع نفسه ؛ لذلك كان المنافق فى الدَّرْك الأسفل من النار ، لأنه أشرُّ من الكافر .

لذلك لما طلب سيدنا رسول الله من القوم أنْ يقولوا : لا إله إلا الله قالتها القلة المؤمنة ، وامتنعت الكثرة الكافرة ، لماذا ؟ لأنهم

يعرفون معناها ، وإلا لَقَالوها من بداية الأمر ، وانتهت المواجهة بين الإيمان والكفر ، فعدم نُطْقهم بها دليل على فهمهم لها ولمطلوباتها .

أما الجاحد فعلى النقيض من المنافق ، فهو مقتنع فى نفسه ، لكنه لا يقدر على النطق بما يقتنع به من الحق ؛ لذلك يقول تعالى عنهم : ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا .. (١٤)﴾ [النمل]

ولما طال الجدل بينهم وبين رسول الله قالوا : ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ(٣٢)﴾ [الأنفال] بدل أن يقولوا : فاهدنا إليه .

وبعد أنْ قالوا فى القرآن أنه سحر ، وأنه أساطير الأولين .. الخ زهق باطلهم ، وكشف الله جحودهم ، حين حكى قولهم : ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١)﴾ [الزخرف]

إذن : فالقرآن لا غبارَ عليه وهو حق ، لولا أنه نزل على هذا الرجل بالذات ، ولو نزل على عظيم من عظماء مكة أو المدينة لآمنَّا به ، وهكذا أثبتوا إيمانهم بالقرآن ، والقرآن يستوجب أنْ يؤمنوا أيضاً بمحمد .

ومعلوم أن الإسلام صاح صيحته الأولى فى أُذن مَنْ ؟ فى أذن كفار مكة وسادة قريش والجزيرة كلها ، وقد كانت لهم الكلمة المسموعة والمنزلة الرفيعة بين العرب جميعاً لقيامهم على خدمة الحجيج ، ووقوع بلادهم على طرق التجارة بين الشمال والجنوب .

إذن : الإسلام لم يستضعف جماعة ليعلن فيهم صيحته الأولى ، إنما اختار السادة ، لكن الله تعالى لم يشأ أنْ ينتصر الإسلام فى مكة ؛ لأنه لو انتصر فيها لكان من الممكن أن يقال : قوم من قريش

تعصَّبوا لواحد منهم ليسودوا به العالم كما سادوا الجزيرة .

لذلك لما أعلن سيدنا رسول الله دعوته بين قومه أسرعوا إليه يقولون : يا محمد إنْ كنتَ تريد مُلْكاً ملّكناك علينا ، وإنْ كنت تريد مالاً جمعنا لك المال حتى تصير أغنانا .. فقال قولته المشهورة : « والله لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى يسارى على أنْ أترك هذا الأمر ما تركتُه حتى يُظهِره الله ، أو أهلك دونه »[1] .

فشاء الله أن تكون الصرخة الأولى فى أذن السادة أصحاب الكلمة والسلطة فى مكة ، وأن تكون نصرة الدين فى المدينة ، لتعلم الدنيا كلها أن الإيمان بمحمد هو الذى خلق العصبية لمحمد ، وليست العصبية لمحمد هى التى خلقتْ الإيمان بمحمد .

ونفهم أيضاً من قوله تعالى : ﴿وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ .. (١)﴾ [الأحزاب] أن غير الكافرين وغير المنافقين لا يكون لهم أمر يُطاع مع أمر رسول الله ؛ لأن المؤمن برسول الله يتلقَّى من رسول الله .

لذلك يُعَدُّ من الخطأ بمكان أن نقول : كيف فعل رسول الله كذا وكذا ؟ فنناقشه ونستدرك عليه ﷺ ، وكيف تجعل من نفسك أيها المؤمن ميزاناً وحَكَماً يحكم على أفعال الرسول ويضعها فى الميزان ؟

---

(١) أورده ابن هشام فى السيرة النبوية (١/٢٦٦) معزواً لابن إسحاق ، أن قريشاً قالوا لأبى طالب : يا أبا طالب ، إن لك سناً وشرفاً ومنزلة فينا ، وإنَّا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا ، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا ، وتسفيه أحلامنا ، وعيب آلهتنا ، حتى تكفه عنا ، أو ننازله وإياك فى ذلك ، حتى يهلك أحد الفريقين ، فبعث أبو طالب إلى رسول الله ﷺ فقال له : يا بن أخى ، إن قومك قد جاءونى ، فقالوا لى كذا وكذا ، فأبق علىَّ وعلى نفسك ولا تحملنى من الأمر ما لا أطيق ، فقال له ﷺ هذه المقالة .

كمن يناقشون مثلاً مسألة تعدد الزوجات ، ويصل بهم الحدُّ إلى انتقاد رسول الله ، وكأنه يُجرى له محاكمة .

وكيف نعارض رسول الله فى هذا ، والله تعالى لم يعارضه ، ولم يُقِلْه من مسألة الرسالة ، بل ارتضى الله فعْل رسوله وباركه ، فلا تجعل من نفسك مقياساً على رسول الله ؛ لأن الأصل أنه هو المقياس الذى نقيس عليه أفعالنا ، فنسأل : أفعل رسول الله ذلك أم لم يفعل ؟ فإنْ فعل فعلنا .

ومن هذا المنطلق سُمِّى الصِّديق صدِّيقاً ، فلما حدَّثوه أن رسول الله يخبر أنه أتى بيت المقدس فى ليلة قال : إنْ كان قال فقد صدق[1] .

والحق سبحانه حين ينهى رسوله عن طاعة الكافرين والمنافقين إنما يُبيِّن له طبيعتهم ، وحقيقة عدائهم له ، فهُمْ غير مخلصين له ، وعليه أن يتهم أمرهم إنْ أمروه ويتهم نهيهم إنْ نَهوْه ، وكيف يُخلِصون فى أمره أو نهيه ، وقد جاء ليصادم سيادتهم ، ويكسر جبروتهم وكفرهم ؟

وهَبْهم مخلصين لك لأنك من قريش ، ويريدون نصرتك فينقصهم فى نُصْحهم لك العلم والحكمة ، فلا يصح إذن أنْ تقارن بين طاعة الله وطاعة هؤلاء ، مهما كانوا مخلصين لك .

كما نلحظ أن القوم فعلاً طلبوا من رسول الله أشياء ، فكأن الله نبهه قبل أنْ يطلبوا منه إلى ما يُطلب منه من مخالفتهم وعدم طاعتهم ، والطاعة فيها مطيع ومطاع ، وهم يريدون أن يكونوا

---

(١) ذكره القرطبى فى تفسيره (٤٠١٢/٥) وتمامه أنه قيل له : أتصدقه قبل أن تسمع منه ؟ فقال : أين عقولكم ؟ أنا أصدّقه بخبر السماء ، فكيف لا أصدّقه بخبر بيت المقدس ، والسماء أبعد منها بكثير .

مطاعين ، ورسول الله طائع ممتثل لأمرهم ، لكن كيف تقلب المسألة بهذا الشكل ، وما جاء رسول الله إلا ليُشرِّع للناس فيطيعوه ، فهو الذى يأمر ، وهو الذى يُطاع .

فكأن الرسول ﷺ يقول لهم : كيف أقارن بينكم وبين ربى ؟ وقد ثبت ذلك فقد جاء أبو سفيان وعكرمة بن أبى جهل والوليد بن المغيرة والأعور السلمى وانضم إليهم وفد ثقيف ، جاءوا جميعاً إلى المدينة واجتمعوا بعبد الله بن أُبىٍّ ، وعبد الله بن سعد بن أبى السرح ، وقد أمَّنهم رسول الله فقالوا : يا محمد كُفَّ عن آلهتنا : اللات والعزى ومناة ، واشهد بأن شفاعتهم تُقبل عند الله ، ونريد أن تحفظ لنا كرامتنا ومهابتنا بين العرب ، فمتِّعنا بآلهتنا سنة وأقرنا على ذلك ، ونتركك وشأنك مع ربك[1] .

فنهاه الله ﴿وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ .. ۝١﴾ [الأحزاب] لأنك لا ينبغى أن تتراجع أمامهم فى شىء أبداً ، وإلاّ لكنتَ خاضعاً لهذه السيادة المزعومة ، ولأعطيتَهم الفرصة حين تطاوعهم ؛ لأنْ يقولوا : لقد أطاعنا محمد فيصيرون هم الهادين ، وأنت المهدى .

ثم إن هذا الأمر بعدم طاعتهم وهم القادة والصناديد وما زالت الدعوة وليدة تحتاج إلى مهادنة مع أعدائها ، وربما يقول قائل : ولِمَ لم يهادنهم رسول الله حتى يشتدَّ عود الدعوة ، فهم سادة القوم وأصحاب الكلمة والمهابة ؟ لكن منطق الحق يرفض هذه المهادنة ، ويرفض أن يعتمد رسول الله إلا على الله ؛ لذلك قال فى الآية

---

(١) أورد الواحدى فى أسباب النزول (ص ٢٦) أن قوله تعالى : ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۝١ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢﴾ [الكافرون] نزلت فى رهط من قريش قالوا : يا محمد هلم اتبع ديننا ونتبع دينك ، تعبد آلهتنا سنة ، ونعبد إلهك سنة ، فإن كان الذى جئت به خيراً مما بأيدينا قد شركناك فيه وأخذنا بحظنا منه ، وإن كان الذى بأيدينا خيراً مما فى يدك قد شركت فى أمرنا وأخذت بحظك ، فقال : معاذ الله أن أشرك به غيره .

بعدها : ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً ﴿٣﴾﴾ [الأحزاب]

ثم يقول سبحانه : ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾﴾ [الأحزاب]

فالعلم غير الحكمة ، العلم أن تعلم القضايا ، أمّا الحكمة فأنْ تُوظِّف هذه القضايا فى أماكنها ، فالعلم وحده لا يكفى ، فالصفتان متلازمتان متكاملتان ، كما فى قوله تعالى : ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ ﴿٢٦﴾﴾ [القصص]

فالقوى إنْ كان خائناً لم تنفعك قوته ، كذلك إنْ كان الأمين ضعيفاً فلا تنفعك أمانته ؛ لذلك لما اشتكى أمير المؤمنين إلى أحد خاصته من أهل العراق ، يقول : إن استعملتُ عليهم القوى يَفْجُروه[1] ، وإن استعملتُ عليهم الضعيف يُهينوه ، فقال له : إن استعملت عليهم القوى فلك قوته وعليه فجوره ، فقال له أمير المؤمنين : ما دُمْتَ قد عرفتَ هذا فلا أُولِّى عليهم غيرك .

إذن : فالعلم يعطيك قضايا الخير كله ، والحكمة أنْ تضع الشىء فى موضعه ، والقضية فى مكانها .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ[2] خَبِيرًا ﴿٢﴾﴾

---

(١) يفجرونه : يُغضبونه ويخالفونه . ويفجرونه أيضاً : يجعلونه يفجر فلا يرعى لهم حرمة [معنى ما فى لسان العرب ـ مادة : فجر] .

(٢) قال القرطبى فى تفسيره (٧/٣٥٧٥) : « قراءة العامة بتاء على الخطاب ، وهو اختيار أبى عبيد وأبى حاتم . وقرأ السلمى وأبو عمرو وابن أبى إسحاق « يعملون » بالياء على الخبر » ، أى : أن الله كان :

- بما تعملون من اتباع ما أوحى إلينا من ربنا ببلاغ رسلنا .
- بما يعمل الكافرون والمنافقون من الكيد للإسلام ومحاولة إبعادنا عن اتباعنا ديننا .

نلحظ هنا نهياً بين أمرين : الأول ﴿يَـأَيُّهَا النَّبِىُّ اتَّقِ اللَّهَ .. (١)﴾ [الأحزاب] والآخر ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ .. (٢)﴾ [الأحزاب] وبينهما النهى : ﴿وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ .. (١)﴾ [الأحزاب] ووقوع هذا النهى بين هذين الأمرين ترتيب طبيعى ؛ لأنك إذا اتقيتَ الله ستُعلى منهج الحق ، وهذا يؤذى أهل الباطل وأهل الفساد المستفيدين به ، فلا بُدَّ أنْ يأتوا إليك يوسوسون فى أُذنك ليصرفوك عن منهج ربك ، وعليك إذن أنْ ترد الأمر إلى ما يوحى إليك وأنْ تتبعه .

وقلنا : إن الوحى : إعلام بخفاء ، فإنْ كان علانية فلا يُعَدُّ وحياً ، ولله تعالى فى وحيه وسائل كثيرة مع جميع خَلْقه ، فيوحى سبحانه إلى الجماد ؛ لأنه قادر على أن يخاطب الجماد ، كما فى قوله سبحانه وتعالى عن الأرض : ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا (٤) بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا (٥)﴾ [الزلزلة]

ويوحى إلى النحل : ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِى مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (٦٨)﴾ [النحل]

ويُوحى إلى غير رسول أو نبى : ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِى وَبِرَسُولِى .. (١١١)﴾ [المائدة]

وقال : ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ .. (٧)﴾ [القصص]

هذا هو الوحى فى معناه العام ، أما الوحى الخاص فيكون من الله تعالى لرسول مُرْسَل من عنده إلى الخَلْق ، وله طرق متعددة ، فمرةً يكون بالنفث فى الروع ، ومرة يكون بالوحى بكلام لا يُرى قائله ، ولا يُعرف مصدره ، ومرة يكون عن طريق رسول ينزل به من الملائكة .

يقول تعالى : ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا .. (٥١)﴾ [الشورى]

والقـــرآن الكريم لم يـأْتِ بالإلهـام ولا بـالكلام من وراء الغـــيب والحُـجُب ، إنما جـاء عن طريق رسول ملَك نزل به علـى رسول الله ، فثبت القرآن من هذا الطريق .

ولا بُدَّ فى هذه المسألة من التقارب بين الرسول الملَك ، والرسول البشر ، فلكل منهمـا طبيعته الخاصة ، ولكى يلتـقيا لا بُدَّ من أمرين : إما أنْ يرتفع البشر إلى مرتبة الملائكية بحيث يستقبل منها ، أو ينزل الملَك إلى مرتبة البشرية بحيث يستطيع أنْ يُلقنها .

لذلك جـاء فى الحديـث أن جبـريل عليه الـسلام نزل إلى مـجلس رسول الله فى صورة بشـرية ليُعلِّم الناس أمور دينهم[1] . وكان النبى ﷺ فى أول الوحى تأخذه قشـعريرة ، ويتصبب جبينه عـرقاً ، حينما يأتيه جبريل بالوحى ، وما ذاك إلا لالتقاء الملكية بالبشرية ، فكان ﷺ يبلغ به الجهد حتى يقول : زمِّلونى زمِّلونى ، دثِّرونى دثِّرونى .

وإذا جاءه الوحى وهو جالس مع أصحابه وركـبته على ركبة أحدهم يشعر لها بثـقل كأنها الجبل[2] ، أو يأتيه الوحى وهو على دابة فكانت تئط[3] ، لذلك فتـر عن رسول الله الوحى بعد فـترة ليسـتريح من هذا الإجهاد ، وتبقى له حلاوة ما أُوحى إليه ، فيتشوق إليه من جديد .

---

(١) متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٠) وكذا مسلم فى صحيحه (٨) من حديث عمـر بن الخطاب : أن جـبريل أتى رسـول الله ﷺ بين أصحـابه فى صورة « رجل شـديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ، لا يُرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه أحد » .

(٢) قال زيد بن ثابت (كاتب الوحى) : أنزل الله على رسوله ﷺ ، وفخـذه على فخذى ، فثقلت عليَّ حتى خفت أن تُرضَّ فخذى (أى : تكسر وتدق) أخرجـه البخارى معلقاً مجزوماً به فى كتاب الصلاة ـ باب ما يذكر في الفخذ ، ووصله فى تفسير سورة النساء .

(٣) عن أسـمـاء بنت يزيد قـالـت : إنى لآخـذة بزمـام العـضـبـاء ناقـة رسـول ﷺ إذ أنزلت عليـه المائدة كلهـا فكادت من ثقلها تدق بـعضد الـناقة . أخـرجه الإمام أحـمد فى مـسنده (٦/٤٥٥) .

وبعدها خاطبه ربه : ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (١) وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ (٢) الَّذِى أَنقَضَ ظَهْرَكَ (٣) وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (٤)﴾ [الشرح]

والهدف حينما يكون غالياً ، والغاية سامية يهون فى سبيلها كل جهد ، وقد عاد الوحى إلى رسول الله بعد شوق ، وخاطبه ربه بقوله : ﴿وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأُولَىٰ (٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ (٥)﴾ [الضحى]

إذن : ثبت القرآن بالوحى عن طريق الرسول الملَك ، ولم يثبت بالإلهام أو النفث فى الرَّوْع ، أو الكلام من وراء حجاب ، يقول تعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ .. (٥٢)﴾ [الشورى]

والوحى هنا ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ .. (٢)﴾ [الأحزاب] مِنْ مَنْ ؟ ﴿مِن رَّبِّكَ .. (٢)﴾ [الأحزاب] ولم يقل مثلاً رب الخلق ، نعم هو سبحانه رب الخَلْق جميعاً ، لكن محمداً ﷺ سيد الخلق ، فهو رب الخلق من باب أَوْلَى ، وكلمة (ربك) تدل على الحب وعلى الاهتمام ، وأنه تعالى لن يخذلك أبداً ، وما اتصاله بك إلا للخير لك ولأمتك .

ثم يقول تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (٢)﴾ [الأحزاب] الخبير مَنْ وصل إلى منتهى العلم الدقيق ، ومنه قولنا : اسأل أهل الخبرة . يعنى : لا يسأل أهل العلم السطحى ، فالخبير هو الذى لا يغيب عنه شىء .

وتلحظ أن الآية السابقة خُتمتْ بقوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (١)﴾ [الأحزاب] أى : عليماً بما يُشرِّع ، حكيماً يضع الأمر فى موضعه ، وقال هنا : ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (٢)﴾ [الأحزاب] أى : بما ينتهى إليه أمرك مع التشريع ، استجابةً أو رفضاً ، فربُّك لن يُشرِّع لك ثم يتركك ، إنما يَخْبُر ما تصنع ، ولو حتى نوايا القلوب .

فالخبرة تدل على منتهى العلم وعلى العلم الواسع ، وهذا المعنى واضح فى قوله تعالى فى قصة لقمان : ﴿يَـٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى السَّمَـٰوَٰتِ أَوْ فِى الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾﴾ [لقمان]

فالخبرة تدل على العلم الواسع الذى لا تفوته جزئية مهما صغرت ، واللطف هو التغلغل فى الأشياء مهما كانت دقيقة ، وقلنا : إن الشىء كلما لَطُفَ عَنُفَ .

فكأن الحق سبحانه يقول لرسوله : اطمئن ، فمهما صُودمتَ من خصومك ، ومهما تألَّبوا عليك ، فربُّك من ورائك لن يتخلى عنك ، وهؤلاء الخصوم خَلْقى ، وأنا معطيهم الطاقات المفكرة والطاقات العاقلة والطاقات المتآمرة ، وسوف أنصرك عليهم فى كل مرحلة من مراحل كيدهم لك .

لذلك لم يقووا عليك مناظرة ولا جدلاً ، ولم يقدروا عليك حين بيَّتوا لك ليضربوك ضربة رجل واحد ، فيتفرق دمك بين القبائل ، وخرجتَ من بينهم سالماً تحثو التراب على رؤوسهم ، حتى لما استعانوا عليك بالسحر وبالجن أخبرتُك بما يدبرون لك ، ولم أُسلِمْك لكيدهم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾﴾

يعنى : إياك أن تظن أن واحداً من هؤلاء سوف يساعدك فى أمرك ، أو أنه يملك لك ضراً ولا نفعاً ، فلا تُحسِن الظن بأوامرهم ولا

بنواهيهم ، ولا تتوكل عليهم فى شىء ، إنما توكل على الله .

ولا بُدَّ أن نُفرِّق هنا بين التوكل والتواكل : التوكل أن تكون عاجزاً فى شىء ، فتذهب إلى مَنْ هو أقوى منك فيه ، وتعتمد عليه فى أن يقضيه لك ، شريطة أن تستنفد فيه الأسباب التى خلقها الله لك ، فالتوكل إذن أن تعمل الجوارح وتتوكل القلوب .

وقد ضرب لنا سيدنا رسول الله ﷺ مثلاً توضيحياً فى هذه المسألة بالطير ، فقال : « لو توكلتم على الله حقَّ توكله ، لرزقكم كما يرزق الطير ، تغدو خماصاً[1] وتروح بطاناً »[2] .

أما التواكل فأنْ ترفضَ الأسباب التى قدمها الله لك ، وتقعد عن الأَخْذ بها ، وتقول : توكلت على الله ، لا إنما استنفد الأسباب الموجودة لك من ربك ، فإنْ عزَّتْ عليك الأسباب فلا تيأس ؛ لأن لك رباً أقوى من الأسباب ؛ لأنه سبحانه خالق الأسباب .

لذلك ، كثير من الناس يقولون : دعوتُ الله فلم يستجب لى ، نقول : نعم صدقت ، وصدق الله معك ؛ لأن الله تعالى أعطاك الأسباب فأهملتها ، فساعة تستنفد أسبابك ، فثِقْ أن ربك سيستجيب لك حين تلجأ إليه .

واقرأ قوله تعالى : ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ .. (٦٢)﴾ [النمل] والمضطر هو الذى عزَّتْ عليه الأسباب ، وخرجتْ عن

---

(١) المخمصة : الجوع ، وهو خلاء البطن من الطعام جوعاً . ومعنى الحديث : أى تغدو الطير بُكرة وهى جياع ، وتروح عشاء وهى ممتلئة الأجواف . [لسان العرب ـ مادة : خمص] .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (١/ ٣٠ ، ٥٢) ، وابن ماجه فى سننه (٤١٦٤) ، والترمذى فى سننه (٢٣٤٤) من حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه وقال : حديث حسن صحيح .

نطاق قدرته ، كما حدث لسيدنا موسى ـ عليه السلام ـ حين حاصره فرعون وجنوده حتى قال قوم موسى : ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١)﴾ [الشعراء]

نعم ، مدركون ؛ لأن البحر من أمامهم ، والعدو من خلفهم ، هذا رأى البشر وواقع الأمر ، لكن لموسى منفذ آخر فقال : (كلا) يعنى لن نُدْرَك ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢)﴾ [الشعراء] قالها موسى عن رصيد إيمانى وثقة فى أن الله سيستجيب له .

والبعض يقول : دعوتُ الله فى كذا وكذا ، وأخذت بكل الأسباب ، فلم يستجب لى ، نقول : نعم لكنك لَسْتَ مضطراً ، بل تدعو الله عن ترف كمن يسكن مثلاً فى شقة ويدعو الله أنْ يسكن فى فيلا أو قصر ، فأنت فى هذه الحالة لست مضطراً .

ثم يذكر الحق سبحانه حيثية التوكل على الله ، فيقول ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً (٣)﴾ [الأحزاب] أى : يكفيك أنْ يكون الله وكيلك ؛ لأنه لا شىء يتأبَّى عليه ، ولا يستحيل عليه شىء .

وأحكى لكم قصة حدثت بالفعل معنا ، وكنا نسير مع بعض الإخوان فرأينا رجلاً مكفوف البصر يريد أنْ يعبر الشارع فقلنا لزميل لنا : اذهب وخذ بيده ، فنزل وعبر به الشارع ثم قال له : إلى أين تذهب ؟ قال : إلى المنزل رقم كذا فى هذا الشارع ، فأخرج صاحبنا من جيبه عشرة جنيهات ووضعها فى يد الرجل ، فلما أمسك بورقة العشرة جنيهات لم يلتفت إلى المعطى ، إنما رفع وجهه إلى السماء وقال : لا شىء يستحيل عليك أبداً ، ثم قال لصاحبنا : يا بنى أرجعنى مكان ما كنت !! فقد قضيت حاجته التى كان يسعى لها !!

نعم ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً (٣)﴾ [الأحزاب] لأنه لا تعوزه أسباب ، ولا

يُثنيه عن إرادته شىء ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ .. (٩٦)﴾[النحل]

وفى التوكل ملحظ آخر ينبغى أنْ نتنبه إليه ، هو أنك إذا توكلتَ على أحد يقضى لك أمراً فاضمن له أنْ يعيش لك حتى يقضى حاجتك ، فكيف تتوكل على شخص وتُعلِّق به كل آمالك ، وفى الصباح تسمع نعيه : مات فلان ؟

إذن : لا ينبغى أن تتوكل إلا على الله الحى الذى لا يموت : ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ .. (٥٨)﴾ [الفرقان] واستغنِ بوكالة الله عن كل شىء ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً (٣)﴾ [الأحزاب]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾﴾ (١) (٢)

---

(١) **سبب نزول الآية** : قال مجاهد : نزلت فى جميل بن معمر الفهرى ، وكان رجلاً لبيباً حافظاً لما سمع ، فقالت قريش : ما حفظ هذه الأشياء إلا وله قلبان ، وكان يقول : إن لى قلبين أعقل بكل واحد منهما أفضل من عقل محمد ﷺ ، فلما كان يوم بدر وهزم المشركون وفيهم يومئذ جميل بن معمر ، تلقاه أبو سفيان وهو معلق إحدى نعليه بيده والأخرى فى رِجْله ، فقال له : يا أبا معمر ما حال الناس ؟ قال : انهزموا ، قال : فما بالك إحدى نعليك فى يدك والأخرى فى رجلك ؟ قال : ما شعرت إلا أنهما فى رجلى ، وعرفوا يومئذ أنه لو كان له قلبان لما نسى نعله فى يده . [أسباب النزول للواحدى ص ٢٠١] .

(٢) قال القرطبى فى تفسيره (٥٣٧٨/٧) : « أجمع أهل التفسير على أن هذا نزل فى زيد ابن حارثة . وروى الأئمة أن ابن عمر قال : ما كنا ندعو زيد بن حارثة إلا زيد بن محمد حتى نزلت ﴿ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ .. (٥)﴾ [الأحزاب] » .

ترتبط هذه الآية بالآيات قبلها ، فقد ذكر الله تعالى معسكرين : معسكراً يجب أنْ يُطاع ، فقال تعالى لرسوله ﴿يَـأَيُّهَا النَّبِىُّ اتَّقِ اللَّهَ .. ﴿١﴾﴾ [الأحزاب] وقال : ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ .. ﴿٢﴾﴾ [الأحزاب] وبينهما معسكر آخر نُهِى رسول الله عن طاعته ﴿وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ .. ﴿١﴾﴾ [الأحزاب]

إذن : نحن هنا أمام معسكرين : واحد يمثل الحق فى أجلى معانيه وصوره ، وآخر يمثل الباطل ، وللقلب هنا دَوْر لا يقبل المواربة ، إما أنْ ينحاز ويغلب صاحب الحق ، وإما أنْ يغلب جانب الباطل ، وما دمت أنت أمام أمرين متناقضين لا يمكن أنْ يجتمعا ، فلا بُدَّ أن تُغلِّب الحق ؛ لأن الله تعالى : ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِ .. ﴿٤﴾﴾ [الأحزاب] إما الحق وإما الباطل ، ولا يمكن أنْ تتقى الله وتطيع الكافرين والمنافقين ؛ لأن القلب الذى يميل ويغلب قلب واحد .

ومعلوم أن القلب هو أهم عضو فى الجسم البشرى ، فإذا أصيب الإنسان بمرض مثلاً يصف له الطبيب دواءً ، الدواء يُؤخذ عن طريق الفم ويمرُّ بالجهاز الهضمى ، ويحتاج إلى وقت ليتمثل فى الجسم ، فإنْ كانت الحالة أشدَّ يصف حقنة فى العضل ، فيصبُّ الدواء فى الجسم مباشرة ، فإنْ كان المرض أشد يُعْطَى حقنة فى الوريد ، لماذا ؟

ليصل الدواء المطلوب جاهزاً إلى الدم مباشرة ، ليضخه القلب إلى جميع الأعضاء فى أسرع وقت . إذن : فالدم هو الذى يحمل خصائص الشفاء والعافية إلى البدن كله ، والقلب هو (الموتور) الذى يؤدى هذه المهمة ؛ لذلك عليك أنْ تحتفظ به فى حالة جيدة ، بأن تملأه بالحق حتى لا يفسده الباطل .

وسبق أنْ أوضحنا أن الحيز الواحد لا يمكن أنْ يسع شيئين فى وقت واحد فما بالك إنْ كانا متناقضين ؟ وقد مثَّلْنا هذه العملية بالزجاجة الفارغة إنْ أردتَ أن تملأها بالماء لا بُدَّ أنْ يخرج منها الهواء أولاً ليدخل مكانه الماء .

كذلك الحال فى المعانى ، فلا يجتمع حق وباطل فى قلب واحد أبداً ، وليس لك أنْ تجعل قلباً للحق وقلباً للباطل ؛ لأن الخالق جعل لك قلباً واحداً ، وجعله محدوداً لا يسع إلا إيمانك بربك ، فلا تزاحمه بشىء آخر .

ويُرْوَى أنه كان فى العرب رجل اسمه جميل بن أسد الفهرى[١] وكان مشهوراً باللسَنِ[٢] والذكاء ، فكان يقول : إن لى قلبين ، أعقل بواحد منهما مثل ما يعقل محمد ، فشاء الله أنْ يراه أبو سفيان وهو منهزم بعد بدر ، فيقول له : يا جميل ، ما فعل القوم ؟ قال : منهم مقتول ومنهم هارب ، قال : وما لى أراك هكذا ؟ قال : مالى ؟ قال : نعل فى كفِّك ، ونعل فى رِجْلك ، قال : والله لقد ظننتهما فى رجلى ، فضحك أبو سفيان وقال له : فأين قلباك ؟

وإذا كان القلب هو المضخة التى تضخ الدم إلى كل الجوارح والأعضاء حاملاً معه الغذاء والشفاء والعافية ، كذلك حين تستقر عقائد الخير فى القلب ، يحملها الدم كذلك إلى الجوارح والأعضاء ،

---

(١) ذكر ابن حجر العسقلانى هذه القصة فى كتابه « الإصابة فى تمييز الصحابة » (١/٢٥٥) فى ترجمة جميل بن أسيد الفهرى يكنى أبا معمر ويلقب ذا القلبين ، وذكرها أيضاً فى ترجمة وهب بن عمير الجمحى (٦/٣٢٧) ثم قال : « ذكر الثعلبى هذه القصة لجميل بن معمر ، وأن الذى تلقاه فسأله هو أبو سفيان ، وأسنده ابن الكلبى فى تفسيره عن أبى صالح عن ابن عباس لكن قال : جميل بن أسد » .

(٢) اللَسن : الفصاحة ، واللسْن : الكلام واللغة . [لسان العرب ـ مادة : لسن] .

فتتجه جميعها إلى طاعة الله ، فالرِّجْل تسعى إلى الخير ، والعين لا تنظر إلا إلى الحلال ، والأذن تسمع القول فتتبع أحسنه ، واللسان لا ينطق إلا حقاً .

فكل الجوارح إذن لا تنضح إلا الحق الذى تشرَّبته من طاقات الخير فى القلب .

لذلك يُعلِّمنا سيدنا رسول الله هذا الدرس ، فيقول : « إن فى الجسد مضغة ، إذا صلُحَتْ صلُحَ الجسد كله ، وإذا فسدتْ فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب »[1] .

ثم يأخذ الحق سبحانه من مسألة اجتماع المتناقضين فى قلب واحد مقدمة للحديث عن قضايا المتناقضات التى شاعتْ عند العرب ، فيقول سبحانه : ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللاَّئِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ .. (٤) ﴾ [الأحزاب]

وقد شاع فى الجاهلية حين يكره الرجل زوجته ، يقول لها : أنت علىَّ كظهر أمى ، ومعلوم أن ظهر الأم مُحرَّم على الابن حرمة مؤبدة ، لذلك كانوا يعتبرون هذه الكلمة تقع موقع الطلاق ، فلما جاء الإسلام لم يجعلها طلاقاً ، إنما جعل لها كفارة كذب ؛ لأن الزوجة ليست أماً لك ، وحدد هذه الكفارة إما : عتق رقبة ، أو إطعام ستين مسكيناً ، أو صيام ستين يوماً[2] .

---

(١) متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٢) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير رضى الله عنه .

(٢) قال تعالى فى كفارة الظهار : ﴿ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٣) فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤) ﴾ [المجادلة] .

وهذه المسألة تناولتها سورة (قد سمع) : ﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلاَّ اللاَّئِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا .. (٢)﴾ [المجادلة] أى : كذباً ؛ لأن الزوجة لا تكون أماً .

فالحق سبحانه جاء بمتناقض ، وأدخل فيه متناقضاً آخر ، فكما أن القلب الواحد لا تجتمع فيه طاعة الله وطاعة الكافرين والمنافقين ، فكذلك الزوجة لا تكون أبداً أماً ، فهى إما أم ، وإما زوجة .

كذلك وُجد عند العرب تناقض آخر فى مسألة التبنى ، فكان الرجل يستوسم الولد الصغير ، أو يرى فيه علامات النجابة فيتبناه ، فيصير الولد ابناً له ، يختلط ببيته كولده ، ويرثه كما يرثه ولده ، وله عليه كل حقوق الابن .

وهذه متناقضة أيضاً كالسابقة ، فكما أن الرجل لا يكون له قلبان ، وكما أن الزوجة لا تكون أماً بحال ، كذلك المتبنَّى لا يكون ولداً ، فيقول سبحانه ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ .. (٤)﴾ [الأحزاب]

الدعىُّ : هو الذى تدعى أنه ابنٌ وليس بابن ، وكان هذا شائعاً عند العرب ، وأراد الله سبحانه أنْ يبطل هذه العادة ، ومثلها مسألة الظِّهار ، فألغى القرآن هذه العادات ، وقال : ضعوا كل شىء فى موضعه ، فجعل للظهار كفارة ، ونهى عن التبنى بهذه الصورة .

والحق سبحانه ساعةَ يريد أنْ يلغى حكماً يقدم صاحب الدعوى نفسه ليطبق هو أمام الناس ؛ لذلك جعل سيدنا رسول الله يبدأ بنفسه ، ويبطل التبنى الذى عنده .

تعلمون أن سيدنا رسول الله ﷺ تزوج من السيدة خديجة ، وكان

لها منزلة عند رسول الله ، وقد اشترى لها حكيم بن حزام[١] عبداً من سوق الرقيق هو زيد بن حارثة ، وكان من بنى كلب ، سرقه اللصوص من أهله ، وادعوْا أنه عبد فباعوه ، ثم أهدتْه السيدة خديجة لسيدنا رسول الله ، فصار مولىً لرسول الله ، يخدمه طيلة عدة سنوات ، وما بالكم بمَنْ يكون فى خدمة رسول الله ؟

لقد أحبَّ زيدٌ رسولَ الله ، وعَشِق خدمته ، وقال عن معاملته ﷺ له : « لقد خدمتُ رسول الله عشر سنين ، فما قال لشىء فعلتُه : لِمَ فعلتَه ، ولا لشىء تركتُه لِمَ تركتَه »[٢] .

وفى يوم من الأيام ، رآه واحد من بنى كَلْب فى طرقات مكة ، فأخبر أهله به ، فأسرع أبو زيد إلى مكة يبحث عن ولده ، فدلُّوه عليه ، وأنه عند محمد ، فذهب إلى سيدنا رسول الله ، وأخبره خبر ولده ، وطلب منه أنْ يعود معه إلى بنى كلب .

ولكن ، ما كان رسول الله ليتخلَّى عن خادمه الذى يحبه كل هذا الحب ، فقال لأبيه : خيِّره ، فإنِ اختاركم فخذوه ، وإن اختارنى فأنا له أبٌ ، فلما خيَّروه ـ قال سيدنا زيد : والله ما كنت لأختار على رسول الله أحداً .

عندها أحب رسول الله أن يكافئه على هذا الموقف ، وعلى

---

(١) هو : حكيم بن حزام بن خويلد الأسدى ، عمته خديجة بنت خويلد ، ولد قبل الفيل بـ ١٣ سنة ، كان من سادات قريش ، وكان صديق النبى ﷺ قبل المبعث وكان يوده ويحبه بعد البعثة ،ولكن تأخر إسلامه حتى أسلم عام الفتح . فى عام وفاته خلاف ولكنه مات وعمره ١٢٠ سنة . [الإصابة فى تمييز الصحابة ٣٣/٢] .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٠٣٨) والترمذى فى سننه (٢٠١٥) من حديث أنس ابن مالك رضى الله عنه .

تمسّكه بخدمته ، فتبنّاه كما تتبنى العرب ، وسمَّوْه بعدها : زيد بن محمد.[١]

فلما أراد الحق سبحانه أنْ يبطل التبنى بدأ بمتبنَّى رسول الله ، ليكون هو القدوة لغيره فى هذه المسألة ، فكيف أبطل الله تعالى هذه البنوة ؟

كان سيدنا رسول الله قد زوَّج زيداً من ابنة عمته زينب بنت جحش ، أخت عبد الله بن جحش ، وقد تعب رسول الله فى إقناع عبدالله وزينب بهذه الزيجة التى رفضتها زينب[٢] ، تقول : كيف أتزوج زيداً وهو عبد وأنا سيدة قرشية ؟

ثم تزوجته إرضاءً لرسول الله ، وعملاً بقوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ (٣٦) ﴾ [الأحزاب]

لكنها بعد الزواج تعالتْ عليه ، أنها من السادة ، وهو من العبيد ، فكَره زيد ذلك ، ولم يُطِقْ فأحبَّ أنْ يطلقها ، فذهب إلى رسول الله وشكا إليه ما كان من زينب ، وعرض عليه رغبته فى طلاقها .

فقال له رسول الله : أمسك عليك زوجك ، فعاوده مرة أخرى فقال

---

(١) أورده ابن سعد فى الطبقات الكبرى (٣/ ٤٠) ، وابن الأثير فى أسد الغابة (٢/ ٢٨٢) ، وابن حجر العسقلانى فى الإصابة (٢/ ٥٩٩) . وفيه أن رسول الله ﷺ قال عندما اختاره زيد على أبيه وعمه : « يا من حضر ، اشهدوا أن زيداً ابنى أرثه ويرثنى ، فلما رأى ذلك أبوه وعمه طابت أنفسهما وانصرفا » .

(٢) أورد ابن سعد فى الطبقات (١٠/ ٩٨) أن زينب بنت جحش قالت لرسول الله ﷺ : يا رسول الله ، لا أرضاه لنفسى وأنا أيم قريش ، قال : فإنى قد رضيته لك ، فتزوجها زيد ابن حارثة .

له : أمسك عليك زوجك فعاوده زيد ، عندها علم رسول الله أن رغبتهما فى الطلاق ، وكراهيتهما للحياة الزوجية أمر قدرى ، أراده الله لحكمة ، ولأمر تشريعى جديد ، شاء الله أنْ يُوقِع البغض بين زيد وزينب ، فبُغْض زينب لزيد كان تعالياً واستكباراً ، وبُغْض زيد لزينب كان اعتزازاً بالنفس .

ولكى يبطِل الحق سبحانه تبنِّى رسول الله لزيد قضى بأنْ يتزوَّج رسول الله من زينب بعد طلاقها من زيد ، ومعلوم أن امرأة الابن تحرم على أبيه ، فزواج سيدنا رسول الله من زينب يعنى أن زيداً ليس ابناً لرسول الله ، ويبطل عادة التبنى ، والأثر المترتب على هذه العادة .

وقد أحسَّ رسول الله بشىء فى نفسه ، وتردَّد فى هذا الزواج مخافة أنْ يقول الناس : إن محمداً أوعز إلى زيد أنْ يُطلِّق زينب ليتزوجها هو ، كما يقول بعض المستشرقين الآن ، وأنه ﷺ كان يضمر حبَّ زينب فى نفسه ، وهذه كلها افتراءات على رسول الله ، فالذى يحب امرأة لا يسعى جاهداً لأنْ تتزوج من غيره ، وحين يريد زوجها أنْ يُطلِّقها لا يقول له : أمسكْ عليك زوجك .

ثم لا ينبغى لأحد أنْ يخوض فيما أخفاه رسول الله فى نفسه ، من أنه عاشق أو مُحِبٌّ ، لكن انظر فيما أبداه الله ، فالذى أبداه الله هو الذى يُخفيه رسول الله ، واقرأ : ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ (٣٧)﴾ [الأحزاب]

إذن : الذى كان يُخفيه رسول الله هو أنه يخاف أنْ تتكلَّم به العرب ، وأنْ تقول فيه مَا لا يليق به فى هذه المسألة .

ويقول تعالى : ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا[1] زَوَّجْنَاكَهَا (٣٧)﴾ [الأحزاب] لماذا ؟ ﴿لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ .. (٣٧)﴾ [الأحزاب]

وهكذا قرَّر الحق سبحانه مبدأ إبطال التبنى فى شخص رسول الله.

والحق سبحانه حينما يبطل عادة التبنى إنما يبطل عادة ذميمة ، تُقوِّض بناء الأسرة ، وتهدم كيانها ، تؤدى إلى اختلاط الأنساب وضياع الحقوق ، فالولد المتبنّى يعيش فى الأسرة كابنها ، تعامله الأم على أنه ابنها ، وهو غريب عنها ، كذلك البنت تعامله على أنه أخوها ، وهو ليس كذلك ، وفى هذا من الفساد مَا لا يخفى على أحد.

وأيضاً ، فكيف يكون الأب الذى جعله الله سبباً مباشراً لوجودك وتأتى أنت لتردَّ هذه السببية ، وتنقلها إلى غير صاحبها ، وأنت حين تنكر البنوة السَّببية فى أبيك فمن السهل عليك - إذن - أنْ تنكر المسبِّب الذى خلق أولاً ، ولِمَ لا وقد تجرأتَ على إنكار الجميل .

وكذلك الذى ينكر البنوة السببية يتجرأ على أنْ ينسب الأشياء إلى غير أهلها ، فينسب العبادة لغير مستحقها ، وينسب الخَلْق لغير الخالق .

وإلا ، فلماذا يحثُّنا الحق دائماً على برِّ الوالدين ؟ ولماذا قرن بين عبادته سبحانه وبين الإحسان إلى الوالدين فى أكثر من موضع من

---

(١) الوطر هو الحاجة والأرب . أى : لما فرغ منها وفارقها زوجناكها . [قاله ابن كثير فى تفسيره ٣/٤٩١] . ويقول فى القاموس القويم ٢/٣٤٣ : « الوطر : الحاجة التى يعتنى بها الإنسان ويهتم لها وإذا بلغها قيل : إنه قضى وطره ، أى : حقق رغبته وقضى حاجته وانتهى من أمرها . ويقال : فلان قضى وطره من زوجه أى : طلقها » .

كتابه العزيز ، فقال سبحانه : ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا(٣٦)﴾ [النساء] وقال :﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا (٢٣)﴾ [الإسراء]

قالوا : لأن الأب هو سبب الوجود المباشر ، فإذا لم تبره ، وأنكرتَ أبوته وتمردْتَ عليها ، فلعلَّك تتمرد أيضاً على سبب الوجود الأصلى ، فالوالدان لهما حق البر والإحسان ، حتى لو كانا كافرين .

لذلك ، لما سُئل ﷺ : أيسرق المؤمن ؟ قال : نعم ، أيزنى المؤمن ؟ قال : نعم ، أيكذب المؤمن ؟ قال : لا[1] . فالشرع حين يضع للجريمة حَداً وعقوبة ، فهذا إيذان بأنها ستحدث فى المجتمع المسلم ، أما الكذب فلم يضع له الشارع حداً ، مع أنه أشد من السرقة ، وأعظم من الزنى ، لماذا ؟

قالوا : لأن المؤمن لا يُتصوَّر منه الكذب ، ولا يجترئ هو عليه ؛ لأنه إنْ عُرف عنه الكذب وقال أمامك : أشهد أنْ لا إله إلا الله يمكنك أنْ تقول له : أنت كاذب .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ ذَٰلِكُمْ.. (٤)﴾ [الأحزاب] أى : ما تقدَّم من جَعْل الزوجة أماً ، أو جَعْل الدَّعى ابناً ، فالزوجة لا تكون أبداً أماً ؛ لأن الأم هى التى ولدتْ ، كذلك لا يكون للولد إلا أب واحد ﴿ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ .. (٤)﴾ [الأحزاب] وهل يكون القول إلا بالأفواه ؟ فماذا أضافتْ الأفواه هنا ؟ قالوا : نعم ، القول بالفم ، لكن أصله فى الفؤاد ، وما اللسان إلا دليل على ما فى الفؤاد ، كما قال الشاعر :

---

(١) أخرجه الإمام مالك بن أنس فى موطئه (ص ٩٩٠) من حديث صفوان بن سليم مرسلاً .

إنَّ الكَلامَ لَفِى الفُؤادِ وَإنَّما جُعِلَ اللسَانُ علَى الفُؤَادِ دَليلاً

إذن : لابدَّ أنْ يكون الكلام نسبة فى القلب ، منها تأتى النسبة الكلامية ، فهل ما تقولونه له واقع ؟ هل الزوجة تكون أماً ؟ وهل الولد الدعىُّ يكون ابناً ؟ فهذا كلام من مجرد الأفواه ، لا رصيد له فى القلب ولا فى الواقع ، فهو - إذن - باطل ، أما الحق فما يقوله الحق سبحانه ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى السَّبِيلَ ﴿٤﴾﴾ [الأحزاب] والحق هو أن يكون المعتقد فى القلب مطابقاً للكائن الواقع .

فالإنسان قد يتكلم بكلام استقر فى قلبه حتى صار عقيدة عنده ، وهو كلام غير صحيح ، فحين يخبر بهذا الكلام لا يُسمَّى كاذباً لأنه أخبر على وَفْق اعتقاده ، مع أن الخبر كاذب ، فهناك فَرْق بين كذب الخبر ، وكذب المخبر .

فالحق سبحانه يعاملنا فى الأمر المعتقد فى القلب : إنْ كان له واقع ، فهو صِدْق فى الخبر ، وصِدْق فى المخبر ، وإنْ كان المعتقد لا واقعَ له فهو كذب فى الخبر ، وصدق فى المخبر .

إذن : الأمر المعتقد يكون حقاً ، إنْ كان له واقع ، ويكون كاذباً إنْ لم يكُنْ له واقع ، فإذا لم يكُنْ هناك اعتقاد فى القلب أصلاً فهو مجرد كلام بالفم ، وهذا أقل مرتبةً من القول الذى تعتقده وهو غير واقع .

فمعنى ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ ﴿٤﴾﴾ [الأحزاب] أى : الواقع الذى يجب أنْ يعتقد ، والإعجاز هنا ليس فى أن الله تعالى يقول الحق الواقع بالفعل ، إنما ويخبر بالشىء فيقع فى المستقبل على وَفْق ما أخبر سبحانه .

واقرأ قوله تعالى : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) ﴾ [القمر]

فالحق سبحانه صادق حين يقول ما كان ، ويصدق حين يقول ما سيكون .

والحق سبحانه حين يقول : ﴿ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ .. (٤) ﴾ [الأحزاب] كأنه يقول : قارنوا بين قولين : قَوْل بالأفواه ، وقول بالواقع والاعتقاد ، وإذا كان قَوْل الله أقوى من الاعتقاد فقط فهو من باب أَوْلَى أقوى من القول بالأفواه فقط .

وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ (٤) ﴾ [الأحزاب] أى : يهدى السبيل إلى القول الحق .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٥) ﴾

معنى ﴿ ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ .. (٥) ﴾ [الأحزاب] يعنى : قولوا : زيد بن حارثة ، لكن كيف يُنزع من زيد هذا التاج وهذا الشرف الذى منحه له سيدنا رسول الله ؟ نعم ، هذا صعب على زيد ـ رضى الله عنه ـ لكنه ﴿ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ .. (٥) ﴾ [الأحزاب] لا عندكم أنتم .

و ﴿ أَقْسَطُ .. (٥) ﴾ [الأحزاب] أفعل تفضيل ، نقول هذا قِسْط وهذا أقسط ، مثل عدل وأعدل ، ومعنى ذلك أن الذى اختاره رسول الله من نسبة زيد إليه يُعَدُّ قِسْطاً وعدلاً بشرياً ، فى أنه ﷺ أحسَّ بالبنوة

وصار أباً لمن اختاره وفضَّله على أبيه .

لكن الحق سبحانه يريد لنا الأقسط ، والأقسط أنْ ندعو الأبناء لآبائهم ﴿فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ ..(٥)﴾ [الأحزاب] أى : نُعرِّفهم بأنهم إخواننا فى الدين .

ومعنى الموالى : الخدم والنصراء الذين كانوا يقولون لهم « العبيد » ، فالولد الذى لا نعرف له أباً هو أخ لك فى الله تختار له اسماً عاماً ، فنقول مثلاً فى زيد : زيد بن عبد الله ، وكلنا عبيد الله تعالى .

والبنوة تثبت بأمرين : بالعقل وبالشرع ، فالرجل الذى يتزوج زواجاً شرعياً ، وينجب ولداً ، فهو ابنه كوناً وشرعاً ، فإذا زَنَت المرأة ـ والعياذ بالله ـ على فراش زوجها ، فالولد ابن الزوج شَرْعاً لا كوناً ؛ لأن القاعدة الفقهية تقول : الولد للفراش ، وللعاهر الحَجَر[1]

كذلك فى حالة الزوجة التى تتزوج مرة أخرى بعد وفاة زوجها أو بعد طلاقها ، لكنها تنجب لستة أشهر ، فتقوم هنا شبهة أن يكون الولد للزوج الأول ، لذلك يُعَدُّ ابناً شَرْعاً لا كوناً ؛ لأنه وُلد على فراشه .

فإن جاء الولد من الزنا ـ والعياذ بالله ـ فى غير فراش الزوجية فهو ابنه كوناً لا شرعاً ؛ لذلك نقول عنه « ابن غير شرعى » .

كما أن فى قوله تعالى : ﴿هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ.. (٥)﴾ [الأحزاب] تشريفاً للنبى ﷺ ، فلو قال تعالى : هو قسْط لكان عمل النبى إذن جَوْراً وظلماً ، لكن أقسط تعنى : أن عمل النبى قِسْط وعَدْل .

---

(١) هو حديث لرسول الله ﷺ أخرجه أحمد فى مسنده (٢/٢٣٩ ، ٢٨٠ ، ٣٨٦ ، ٤٠٩) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٤٥٨) كتاب الرضاع ـ باب الولد للفراش (١٠) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

وقوله تعالى : ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَـكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ..(٥)﴾ [الأحزاب] يُخْرجنا من حرج كبير فى هذه المسألة ، فكثيراً ما نسمع وما نقول لغير أبنائنا : يا بنى على سبيل العطف والتودد ، ونقول لكبار السن : يا أبى فلان احتراماً لهم .

فالحق سبحانه يحتاط لنا ويُعفينا من الحرج والإثم ، لأننا نقول هذه الكلمات لا نقصد الأُبوّة ولا البنوة الحقيقية ، إنما نقصد تعظيمَ الكبار وتوقيرهم ، والعطف والتحنُّن للصغار ، فليس عليكم إثْمٌ ولا ذَنْبٌ فى هذه المسألة ، إنْ أخطأتم فيها ، والخطأ هو ألاَّ تذهب إلى الصواب ، لكن عن غير عَمْد .

وإذا كان ربنا ـ تبارك وتعالى ـ قد رفع عنا الحرج ، وسمح لنا باللغو حتى فى الحلف بذاته سبحانه ، فقال : ﴿لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَـكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الأَيْمَانَ (٨٩)﴾ [المائدة] فكيف لا يُعفينا من الحرج فى هذه المسألة ؟

ثم يقول سبحانه : ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً (٥)﴾[الأحزاب] سبق أنْ قُلْنا : أن الفعل إذا أُسْنِد إلى الحق سبحانه انحلَّ عنه الزمن ، فليس مع الله تعالى زمن ماض ، وحاضر ، ومستقبل ، وهو سبحانه خالق الزمن .

لذلك نقول ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً (٥)﴾ [الأحزاب] يعنى : كان ولا يزال غفوراً رحيماً ؛ لأن الاختلاف فى زمن الحدث إنما ينشأ من صاحب الأغيار ، والحق سبحانه لا يطرأ عليه تغيير .

لذلك نخاف نحن من صاحب الأغيار لأنه مُتقلِّب ، ويقول أهل المعرفة : تغيَّروا من أجل ربكم ـ يعنى : من الانحراف إلى الاستقامة ـ لأن الله لا يتغير من أجلكم ، أنت تتغير من أجل الله ، لكن الله لا يتغير من أجل أحد ، ومادام الحق سبحانه كان غفوراً رحيماً ، وهو سبحانه

لا يتغير ، فبالتالى سيبقى سبحانه غفوراً رحيماً.

وتلحظ فى أسلوب القرآن أنه يقرن دائماً بين هذين الوصفين غفور ورحيم ؛ لأن الغفر سلْب عقوبة الذنب ، والرحمة مجىء إحسان جديد بعد الذنب الذى غُفر ، كأن تُمسك فى بيتك لصاً يسرق ، فلك أنْ تذهب به للشرطة ، ولك أن تعفو عنه وتتركه ينصرف إلى حال سبيله ، وتستر عليه ، وبيدك أنْ تساعده بما تقدر عليه ليستعين به على الحياة ، وهذه رحمة به وإحسان إليه بعد المغفرة .

وقد عُولجَتْ هذه المسألة فى قوله تعالى : ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ .. (١٢٦)﴾ [النحل] وهذا التوجيه يضع لنا أول أساس من أسس المغفرة ؛ لأنك لا تستطيع أبداً تقرير هذه المثلية ، ولا تضمن أبداً إذا عاقبتَ أنْ تعاقب بالمثل ، ولا تعتدى ؛ لذلك تلجأ إلى جانب المغفرة ، لكى لا تُدخِل نفسك فى متاهة اعتداء جديد ، يُوجب القصاص منك .

وسبق أنْ حكيْنا قصة المرابى الذى اشترط على مدينه إذا لم يسدِّد ما عليه فى الوقت المحدد أن يأخذ رطلاً من لحمه ، فلما تأخر اشتكاه المرابى عند القاضى ، وذكر ما كان بينهما من شروط ، فأقرَّه القاضى على شرطه ، لكن ألهمه الله أنْ يقول للمرابى : نعم خُذْ رطلاً من لحمه ، لكن بضربة واحدة ، فإنْ زِدْتَ عنها أو نقصْتَ وفَّيناها من لحمك أنت ، عندها تراجع المرابى ، وتنازل عن شَرْطه .

إذن : أجاز لك الشرع القصاصَ بالمثل ليجعل هذه المرحلة صعبة التنفيذ ، ثم يفتح لك الحق سبحانه باب العفو والصفح فى المرحلة الثانية :﴿وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٤)﴾ [التغابن]

ثم يُفسرها بحيثية أخرى ، فيقول سبحانه : ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤)﴾ [آل عمران]

ومعنى كظم الغيظ أننى لم أنفعل انفعالاً غضبياً ينتج عنه ردّ فعل انتقامى ، وجعلتُ غضبى فى قلبى ، وكظمتُه فى نفسى ، وهذه المرحلة الأولى ، أما الثانية فتُخرِج ما فى نفسك من غَيْظ وغضب وتتسامح وتعفو .

ثم المرحلة الثالثة أنْ ترتقى إلى مرتبة الإحسان ، فتُحسن إلى مَنْ أساء إليك ، وهذه رحمة ، والرحمة : أنْ يميل الإنسان بالإحسان لعاجز عنه ، فإنْ كان الأمر بعكس ذلك فلا تُسمَّى رحمة ، كأن يميلَ العبدُ بإحسان إلى سيده .

هذه صور أتتْ فيها الرحمة بعد المغفرة ، وهذا هو الأصل فى المسألة ، وقد تأتى الرحمة قبل المغفرة ، كأنْ تُمسك باللص الذى يسرق فتشعر أنه مُكْره على ذلك ، وليس عليه أمارات الإجرام ، فيرقّ له قلبك ، وتمتد يدك إليه بالمساعدة ، ثم تطلق سراحه ، وتعفو عنه ، فالرحمة هنا أولاً وتبعتها المغفرة .

بعد ذلك لقائل أنْ يقول : ما موقف زيد بعد أنْ أبطل الله تعالى التبنى ، فصار زيدَ بن حارثة بعد أنْ كان زيد بن محمد ؟ وكيف به بعد أنْ سُلب هذه النعمة وحُرم هذا الشرف ؟ أضفْ إلى ذلك ما يلاقيه من عنت المرجفين ، وألسنة الذين يُوغرون صدره ، ويُوقعون بينه وبين رسول الله ، وهو الذى اختاره على أبيه .

لا شكَّ أن الجرعة الإيمانية التى تسلَّح بها زيد جعلتْه فوق هذا كله ، فقد تشرَّب قلبه حبّ رسول الله ، ووقر فى نفسه قوله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ

مِنْ أَمْرِهِمْ.. (٣٦) ﴾ [الأحزاب]

ثم تأتى الآيات لتوضح للناس : لستم أحنَّ على زيد من محمد ، لأن محمداً ﷺ أوْلى بالمؤمنين جميعاً من أنفسهم ، لا بزيد وحده .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا (٦) ﴾

فالمعنى : إذا كان النبى ﷺ أوْلَى بالمؤمنين جميعاً من أنفسهم فما بالكم بزيد ؟ إذن : لستُم أحنَّ على زيد من الله ، ولا من رسول الله ، وإذا كنتم تنظرون إلى الوسام الذى نُزِع من زيد حين صار زيد ابن حارثة بعد أنْ كان زيدَ بن محمد .

فلماذا تُغمضون أعينكم عن فضل أعظم ، ناله زيد من الله تعالى حين ذُكر اسمه صراحةً فى قرآنه وكتابه العزيز الذى يُتْلَى ويُتعبَّد بتلاوته إلى يوم القيامة ، فأىُّ وسام أعظم من هذا ؟ فقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا (٣٧) ﴾ [الأحزاب] قَوْل خالد يَخلُد معه ذِكْر زيد ، وهكذا عوَّض الله زيداً عما فاته من تغيير اسمه .

وقوله تعالى : ﴿ النَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ .. (٦) ﴾ [الأحزاب]

ما المراد بهذه الأولوية من النبى ﷺ ؟

قالوا : هى ارتقاءات فى مجال الإحسان إلى النفس ، ثم إلى الغير ، فالإنسان أولاً يُحسن إلى نفسه ، ثم إلى القرابة القريبة ، ثم القرابة البعيدة ، ثم على الأباعد ؛ لذلك يقول ﷺ : « ابدأ بنفسك ، ثم بمَنْ تعول »(١)

ويقولون : أوطان الناس تختلف باختلاف هِمَمها ، فرجل وطنه نفسه ، فيرى كل شىء لنفسه ، ولا يرى نفسه لأحد ، ورجل وطنه أبناؤه وأهله ، ورجل يتعدَّى الأصول إلى الفروع ، ورجل وطنه بلده أو قريته ، ورجل وطنه العالم كله والإنسانية كلها .

فرسول الله ﷺ تعدَّى خيره إلى الإنسانية كلها على وجه العموم ، والمؤمنين على وجه الخصوص ؛ لذلك كان ﷺ إذا مات الرجل من أمته وعليه دَيْن ، وليس عنده وفاء لا يُصلِّى عليه ويقول : « صلُّوا على أخيكم »(٢)

والنظرة السطحية هنا تقول : وما ذنبه إنْ مات وعليه دَيْن ؟ ولماذا لم يُصَلِّ عليه الرسول ؟

---

(١) عن جابر بن عبد الله قال أن رسول الله ﷺ قال لرجل من بنى عذرة : « ابدأ بنفسك فتصدق عليها ، فإن فضل شىء فلأهلك ، فإن فضل عن أهلك شىء فلذى قرابتك ، فإن فضل عن ذى قرابتك شىء فهكذا وهكذا » أخرجه مسلم فى صحيحه (٩٩٧) كتاب الزكاة - باب الابتداء فى النفقة بالنفس . أما لفظة « ثم بمن تعول » فقد وردت فى حديث آخر عند مسلم أيضاً فى صحيحه (١٠٣٤) كتاب الزكاة عن حكيم بن حزام أن رسول الله ﷺ قال : « أفضل الصدقة عن ظهر غِنىً ، واليد العليا خير من اليد السفلى ، وابدأ بمن تعول » .

(٢) عن أبى قتادة قال : أُتى النبى ﷺ برجل ليصلى عليه ، فقال النبى « صلوا على صاحبكم فإن عليه ديناً » قال أبو قتادة : هو علىَّ . فقال ﷺ : بالوفاء ؟ قال : بالوفاء . فصلى عليه . أخرجه الترمذى فى سننه (١٠٦٩) وقال : هذا حديث حسن صحيح .

قالوا : لم يمنع الرسولُ الصلاة عليه وقال : صلُّوا على أخيكم ؛ لأنه قال فى حديث آخر : « مَنْ أخذ أموال الناس يريد أداءها - لم يَقُل أدّاها - أدى الله عنه »[(١)]

أما وقد مات دون أنْ يؤدى ما عليه ، فغالب الظن أنه لم يكُنْ ينوى الأداء ؛ لذلك لا أصلى عليه ، فلما نزل قوله تعالى : ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ .. (٦) ﴾ [الأحزاب] صار رسول الله يتحمل الدَّيْن عمَّنْ يموت من المسلمين وهو مدين ، ويؤدى عنه رسول الله ، وهذا معنى ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ .. (٦) ﴾ [الأحزاب] فالنبى أَوْلى بالمسلم من نفسه .

ثم ألم يَقُلْ سيدنا رسول الله ﷺ أمام عمر : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبَّ إليه من : نفسه ، وماله ، والناس أجمعين » ولصدْق عمر - رضى الله عنه - مع نفسه قال : نعم يارسول الله ، أنت أحبُّ إلىَّ من أهلى ومالى ، لكن نفسى .. فقال النبى ﷺ : « والذى نفسى بيده ، لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبَّ إليه من نفسه »[(٢)]

فلما رأى عمر أن المسألة عزيمة فَطِن إلى الجواب الصحيح ، فلابُدَّ أن الله أنطق رسوله بحُبٍّ غير الحب الذى أعرفه ، إنه الحب العقلى ، فمحمد ﷺ أحبُّ إليه من نفسه ، والإنسان حين يحب الدواء

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٢/٣٦١ ، ٤١٧) والبخارى فى صحيحه (٢٣٨٧) وابن ماجة فى سننه (٢٤١١) عن أبى هريرة .

(٢) عن جد زهرة بن معبد قال : كنا مع النبى ﷺ وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال : والله يا رسول الله ، لأنت أحب إلىَّ من كل شىء إلا نفسى ، فقال النبى ﷺ : « والذى نفسى بيده ، لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه » قال : فأنت الآن والله أحب إلىَّ من نفسى ، فقال رسول الله ﷺ : « الآن يا عمر » ، أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٤/٣٣٦) .

المرَّ إنما يحبه بعقله لا بعاطفته ، وكما تحب الولد الذكى حتى لو كان ابناً لعدوك ، أما ابنك فتحبه بعواطفك ، وتحب مَنْ يثنى عليه حتى لو كان غبياً مُتخلِّفاً .

ومشهورة عند العرب قصة الرجل الغنى الذى رزقه الله بولد متخلف ، وكَبر الولد على هذه الحالة حتى صار رجلاً ، فكان الطالبون للعطاء يأتونه ، فيُثْنون علَى هذا الولد ، ويمدحونه إرضاء لأبيه ، وطمعاً فى عطائه ، مع أنهم يعلمون بلاهته وتخلُّفه ، إلى أن احتاج واحد منهم ، فنصحوه بالذهاب إلى هذا الغنى ، وأخبروه بنقطة ضَعْفه فى ولده .

وفعلاً ذهب الرجل ليطلب المساعدة ، وجلس مع هذا الغنى فى البهو ، وفجأة نزل هذا الولد على السُّلم كأنه طفل يلعب لا تخفى عليه علامات البلَه والتخلف ، فنظر الرجل إلى صاحب البيت ، وقال : أهذا ولدك الذى يدعو الناس له ؟ قال : نعم ، قال : أراحك الله منه ، والأرزاق على الله .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ .. (٦) ﴾ [الأحزاب] أى : أن أزواجه ﷺ أمهات للمؤمنين ، وعليه فخديجة رضى الله عنها أم لرسول الله بهذا المعنى ؛ لأنه أول المؤمنين ؛ لذلك كانت لا تعامله معاملة الزوجة ، إنما معاملة الأم الحانية .

ألاَ تراها كيف كانت تحنُو عليه وتحتضنه أول ما تعرَّض لشدة الوحى ونزول الملَك عليه ؟ وكيف كانت تُطمئنه ؟ ولو كانت بنتاً صغيرة لاختلفَ الأمر ، ولاتهمتْه فى عقله . إذن : رسول الله فى هذه المرحلة كان فى حاجة إلى أم رحيمة ، لا إلى زوجة شابة قليلة الخبرة .

وزوجاته ﷺ يُعْتبرن أمهات للمؤمنين به ؛ لأن الله تعالى قال مخاطباً المؤمنين : ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا .. (٥٣) ﴾ [الأحزاب] لماذا ؟ لأن الرجال الذين يختلفون على امرأة توجد بينهم دائماً ضغائن وأحقاد .

فالرجل يُطلِّق زوجته ويكون كارهاً لها ، لكن حين يتزوجها آخر تحلو فى عينه مرة أخرى ، فيكره مَنْ يتزوجها ، وهذه كلها أمور لا تنبغى مع شخص رسول الله ، ولا يصح لمن كانت زوجة لرسول الله أن تكون فراشاً لغيره أبداً ؛ لذلك جعلهن الله أمهات للمؤمنين جميعاً ، وهذه الحرمة لا تتعدى أمهات المؤمنين إلى بناتهن ، فمَنْ كانت لها بنت فلتتزوج بمَنْ تشاء .

إذن : لا يجوز لإنسان مؤمن برسول الله ويُقدِّره قدره أنْ يخلفه على امرأته .

لذلك كان تعدد الزوجات فى الجاهلية ليس له حَدٌّ معين ، فكان للرجل أن يتزوج ما يشاء من النساء ، فلما جاء الإسلام أراد أنْ يحدد العدد فى هذه المسألة ، فأمر أنْ يُمسك الرجل أربعاً منهن ، ثم يفارق الباقين[1] ، بمعنى أنه لا يجمع من الزوجات أكثر من أربع .

أما رسول الله ﷺ فقد أمسك تسعاً من الزوجات ، وهذه المسألة أخذها المستشرقون مَأخذاً على رسول الله وعلى شرع الله ، كذلك مَنْ لَفَّ لَفَّهم من المسلمين .

---

(١)عن ابن عمر رضى الله عنهما أن غيلان بن سلمة الثقفى أسلم وله عشر نسوة فى الجاهلية ، فأسلمن معه ، فأمره النبى ﷺ أن يتخير أربعاً منهن . أخرجه الترمذى فى سننه (١١٢٨) ، وابن ماجة فى سننه (١٩٥٣) موصولاً . وأخرجه الإمام مالك فى موطئه مرسلاً عن ابن شهاب الزهرى بلفظ : « أمسك منهن أربعاً ، وفارق سائرهن » .

ونقول لهؤلاء : أنتم أغبياء ، ومَنْ لفَّ لفكم غبى مثلكم ؛ لأن هذا الاستثناء لرسول الله جاء من قول الله تعالى له : ﴿ لا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ.. (٥٢) ﴾ [الأحزاب]

يعنى : إنْ ماتت إحداهن لا تتزوج غيرها ، حتى لو مُتْنَ جميعاً لا يحل لك الزواج بغيرهن ، فى حين أن غيره من أمته له أنْ يتزوج بدل إحدى زوجاته ، إنْ ماتت ، أو إنْ طلقها ، وله أنْ يُطلِّق منهن مَنْ يشاء ويتزوج مَنْ يشاء ، شريطة ألاَّ يجمع منهن أكثر من أربع ، فعلى مَنْ ضيَّق هذا الحكم ؟ على رسول الله ؟ أم على أمته ؟ إذن : لا تظلموا رسول الله .

ثم ينبغى على هؤلاء أنْ يُفرِّقوا بين الاستثناء فى العدد والاستثناء فى المعدود ، فكَوْن رسول الله يكتفى بهؤلاء التسع لا يتعدَّاهن إلى غيرهن ، فالاستثناء هنا فى المعدود ، فلو انتهى هذا المعدود لا يحلّ له غيره ، ولو كان الاستثناء فى العدد لجاز لكم ما تقولون .

ومن ناحية أخرى : حين يمسك الرجل أربعاً ، ويفارق الباقين من زوجاته لهن أنْ يتزوجن بغيره ، لكن كيف بزوجاته ﷺ إنْ طلق خمساً منهن ، وهُنَّ أمهات المؤمنين ، ولا يحل لأحد من أمته الزواج منهن ؟ إذن : الخير والصلاح فى أنْ تبقى زوجات الرسول فى عصمته .

وما دام ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ .. (٦) ﴾ [الأحزاب] كذلك يجب أن يكون المؤمنون أوْلى برسول الله من نفسه ، ليردُّوا له هذه التحية ، بحيث إذا أمرهم أطاعوه .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَأُوْلُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ (٦) ﴾ [الأحزاب]

كلمة (وَأُولُوا الأَرْحَامِ) مأخوذة من الرحم ، وهو مكان الجنين فى بطن أمه ، والمراد الأقارب ، وجعلهم الله أولى ببعض ؛ لأن المسلمين الأوائل حينما هاجروا إلى المدينة تركوا فى مكة أهلهم وأموالهم وديارهم ، ولم يشأ أنصار رسول الله أن يتركوهم بقلوب متجهة إلى الأزواج .

فكانوا من شدة إيثارهم لإخوانهم المهاجرين يعرض الواحد منهم على أخيه المهاجر أنْ يُطلِّق له إحدى زوجاته ليتزوجها[1] ، وهذا لوْن من الإيثار لم يشهده تاريخ البشرية كلها ؛ لأن الإنسان يجود على صديقه بأغلى ما فى حوزته وملكه ، إلا مسألة المرأة ، فما فعله هؤلاء الصحابة لون فريد من الإيثار .

وحين آخى النبى ﷺ بين المهاجرين والأنصار هذه المؤاخاة اقتضت أنْ يرث المهاجر أخاه الأنصارى ، فلما أعزَّ الله الإسلام ، ووجد المهاجرون سبيلاً للعيش أراد الحق سبحانه أنْ تعود الأمور إلى مجراها الطبيعى ، فلم تَعُدْ هناك ضرورة لأنْ يرث المهاجر أخاه الأنصارى .

فقررت الآيات أن أُولى الأرحام بعضهم أولى ببعض فى مسألة الميراث ، فقال سبحانه : ﴿ وَأُولُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ .. (٦) ﴾ [الأحزاب] فقد استقرت أمور المهاجرين ، وعرف كل منهم طريقه ورتَّب أموره ، والأرحام فى هذه

---

(١) حدث هذا مع عبد الرحمن بن عوف المهاجر من مكة ، وسعد بن الربيع الأنصارى « حيث قال له سعد : أخى أنا أكثر أهل المدينة مالاً ، فانظر شطر مالى فَخُذْه ، وتحتى امرأتان فانظر أيتهما أعجب إليك حتى أطلقها لك . فقال له عبد الرحمن : بارك الله لك فى أهلك ومالك ، دلونى على السوق » الخبر بطوله أخرجه ابن سعد فى الطبقات (٣/١١٧) .

الحالة أوْلَى بهذا الميراث .

وقوله تعالى : ﴿ وَأُوْلُوا الأَرْحَامِ .. (٦) ﴾ [الأحزاب] تنبيه إلى أن الإنسان يجب عليه أنْ يحفظ بُضْعة اللقاء حتى من آدم عليه السلام ؛ لأنك حين تتأمل مسألة خَلْق الإنسان تجد أننا جميعاً من آدم ، لا من آدم وحواء .

يُرْوى أن الحاجب دخل على معاوية ، فقال له : رجل بالباب يقول : إنه أخوك ، فقال معاوية : كيف لا تعرف إخوتى ، وأنت حاجبى ؟ قال : هكذا قال ، قال : أدخله ، فلما دخل الرجل سأله معاوية : أى إخوتى أنت ؟ قال : أخوك من آدم ، فقال معاوية : نعم ، رحم مقطوعة ، والله لأكونَنَّ أول مَنْ يصلها .

وقوله تعالى : ﴿ إِلاَّ أَن تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفًا .. (٦) ﴾ [الأحزاب] الحق سبحانه يترك باب الإحسان إلى المهاجرين مفتوحاً ، فمَنْ حضر منهم قسمة فَليكُنْ له منها نصيب على سبيل التطوع ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُوْلُوا الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفًا (٨) ﴾ [النساء]

وقوله سبحانه : ﴿ كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا (٦) ﴾ [الأحزاب] أى : فى أم الكتاب اللوح المحفوظ ، أو الكتاب أى : القرآن .

ثم ينقلنا الحق سبحانه إلى قضية عامة لموكب الرسل جميعاً :

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا (٧) ﴾

كلمة (إذ ، إذا) ظرف لحدث ، تقول : إذا جاءك فلان فأكرمه ، فالإكرام مُعلّق بالمجيء ، والمعنى هنا : واذكر إذْ أخذ الله من النبيين ميثاقهم ، وهذه قضية عامة فى الرسل جميعاً ، ثم فصَّلها الحق سبحانه بقوله :

﴿ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ .. (٧) ﴾ [الأحزاب]

الميثاق : هو العهد يُؤخذ بين اثنين ، كالعهد الذى أخذه الله تعالى أولاً على الخَلْق جميعاً ، وهم فى مرحلة الذَّرِّ ، والذى قال الله عنه :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ .. (١٧٢) ﴾ [الأعراف]

فما العهد الذى أخذه الله على النبيين ؟ العهد هنا هو : الاصطفاء والاختيار من الله لبشر أنْ يكون رسولاً وسفيراً بين الله تعالى والخلق ، وحين يصطفى الله رسولاً ليبلِّغ الناس شرع الله ، هذا الاصطفاء لا يرد ، إذن : فهو عرض مقبول ، وحين يقبله الرسول كأنه أخذ عهداً وميثاقاً من الله تعالى بأنْ يحمل رسالة الله إلى الخَلْق ، فهى - إذن - مسألة إيجاب وقبول .

فقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ .. (٧) ﴾ [الأحزاب] الآخذ هو الحق سبحانه ، والمأخوذ منه هم النبيون ، والميثاق : العهد الموثَّق ، والعهد تعاهد وتعاقد بين طرفين على أمر يُحقِّق الصالح عندهما معاً ، ولو اختلف واحد منهما ما تَمَّ العقد ، فإنْ كان الطرفان متساويين اشترط كل منهما ما يراه لنفسه فى العقد .

فإنْ كان الميثاق من الأعلى إلى الأدنى فهو الذى يأخذ العهد للأدنى ، لماذا ؟ لأنك جعلتَه فى مرتبة أنْ يعطى عهداً ، ويُوثق بينك وبينه أشياء ؛ لذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ .. (٧) ﴾ [المائدة]

والمواثقة مفاعلة بين الطرفين : أنتم واثقتُموه به وهو واثقكم به ؛ لأن

الرسل حين يختارهم الله ، لا شكَّ أنه سبحانه يعلم حيث يجعل رسالته ، فإذا اختار الله رسولاً ، فقبول الرسول للرسالة ارتضاء منه بما يريده الله من العهد .

وهل رأينا رسولاً فى موكب الرسالات عُرِضَتْ عليه الرسالة فرفضها ؟ إذن : قبول الرسالة كأنه العهد ، جاء من طرف واحد فى إملاء شروطه ؛ لأنه الطرف الأعلى ، وحيثية التوثيق فى أن الله اختاره ، وجعله أهْلاً للاصطفاء للرسالة .

لذلك رأينا فى قصة سيدنا موسى ـ عليه السلام ـ لما اصطفاه الله للرسالة آنس من نفسه أنها مسألة كبيرة بالنسبة له ، لكن لم يردَّها ، إنما طلب من الله أنْ يسانده فى هذه المسئولية أخوه هارون ، فقال للحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَأَخِي هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا [1] يُصَدِّقُنِي .. (٣٤) ﴾ [القصص]

فلم يقل : أنا لا أصلح لهذه المسألة ، إنما أذعن لأمر الله ، فالله أعلم حيث يجعل رسالته ، ومسألة العقدة التى فى لسانه يستعين عليها بأخيه .

إذن : كلمة (الميثاق) تدور حول الشيء المؤكَّد الموثَّق ، ومنه قوله تعالى عن الأعداء : ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ [2] فَشُدُّوا الْوَثَاقَ .. (٤) ﴾ [محمد]

ثم يأتى تفصيل هذه القضية العامة : ﴿ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ

---

(١) ردأه : قوّاه وأعانه . والردء : المعين والناصر . [القاموس القويم ١/ ٢٦٠] .

(٢) أثخنتموهم : غلبتموهم وكثر فيهم الجراح . وأثخنته الجراح : أوهنته والإثخان فى كل شىء : قوته وشدته ، [لسان العرب ـ مادة : ثخن] .

وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ .. ﴿٧﴾ [الأحزاب]

قوله (مِنْكَ) أى من سيدنا رسول الله ، خاتم الأنبياء والمرسلين ، لكن لماذا قدَّم محمداً ﷺ على نوح عليه السلام ، وهو الأب الثانى للبشرية كلها بعد آدم عليه السلام ؟

نعلم أن البشرية كلها من سلالة آدم عليه السلام ، إلى أنْ جاء عهد نوح عليه السلام ، فانقسموا إلى مؤمن وكافر ، ثم جاء الطوفان ولم يَبْقَ على وجه الأرض إلا نوح ومَنْ آمن به ، فكان هو الأب الثانى للبشر بعد سيدنا آدم .

لذلك يقول البعض : إن نوحاً عليه السلام رسالته عامة ، كما أن رسالة محمد عليه الصلاة والسلام عامة . ونقول : عمومية نوح كانت لمن آمن به ولأهل السفينة فى زمن معلوم ومكان محدد ، أما رسالة محمد فهى عامة فى كل الزمان ، وفى كل المكان .

أما تقديم ذكر محمد ﷺ أولاً ؛ لأن الواو هنا عادة لا تقتضى ترتيباً ولا تعقيباً ، إنما هى لمطلق الجمع ، ثم قدم رسول الله لأنه المخاطب بهذا الكلام ، ومن إكرام الله لرسوله أنْ يبدأ به فى مثل هذا المقام ، ثم لهذا التقديم ملحظ آخر نفهمه من قوله ﷺ عن نفسه « كنت نبياً وآدم بين الماء والطين »[1] .

ثم يخصُّ بالذكر هنا نوحاً ؛ لأنه الأب الثانى للبشر ، ثم إبراهيم وموسى وعيسى ، فإبراهيم ، لأن العرب كانت تؤمن به ، وتعلم أنه

---

(١) قال السيوطى فى « الدرر المنتثرة » (ص ٣٤٢) : « لا أصل له بهذا اللفظ » وقد أخرج الترمذى فى سننه (٣٦٠٩) من حديث أبى هريرة قال : قالوا يا رسول متى وجبت لك النبوة ؟ قال : وآدم بين الروح والجسد . قال الترمذى : حديث حسن صحيح غريب . وفى الباب عن ميسرة الفجر .

أبو الأنبياء ، وتُقدِّر علاقته بالكعبة ورَفْع قواعدها ، وأنه قدوة فى مسألة الذَّبْح والسَّعْى وغيرها .

وموسى وعيسى ؛ لأن اليهودية والمسيحية ديانتان معاصرتان لدعوة رسول الله ، حيث كان اليهود فى المدينة ، والنصارى فى نجران ، وهما أهل الكتاب الذين كان بينهم وبين رسول الله مواقف شتى ، وكانت لهم فى الجزيرة العربية السيادة العلمية والسيادة الاقتصادية والسيادة العمرانية والسيادة الحربية ، وكأنهم هم أصحاب هذه البلاد .

ومن العجيب أن هؤلاء كان الله سبحانه ـ فى ميثاقهم مع أنبيائهم ـ يدخرهم ليشهدوا لمحمد بصِدْق دعوته ؛ لذلك كانوا يستفتحون بمحمد على الذين كفروا ويقولون لعبدة الأصنام : لقد أطلّ زمان نبى سنتبعه ، ونقتلكم به قتْل عاد وإرم ، فكانوا يعرفون زمان رسول الله وموطنه ، وأنه سيُبعث فى أرض ذات نخل ، ومن صفاتها كذا وكذا ، لذلك لما قطَّعهم الله فى الأرض أمماً وشتتهم ، جاء المشتغلون منهم بالعلم إلى يثرب ينتظرون بعثته ﷺ .

لذلك يقول تعالى : ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ (٤٣) ﴾ [الرعد]

إذن : فأهل الكتاب كان من المفترض فيهم أنْ يشهدوا لرسول الله بصدْق الرسالة ، لكن يحكى القرآن عنهم بعد هذا كله : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٨٩) ﴾ [البقرة]

فكيف إذن تم هذا التحول ؟ وكيف تنقلب عقيدة القلب إلى تمرُّد القالب ؟ قالوا : إنها السلطة الزمنية التى أحبوا أنْ تبقى ، وأنْ تدوم لهم ، فقد بُعِث الرسول وهم أهل مال وتجارة وأهل حِرَف وعمارة ،

وخافوا من رسول الله ومن الدين الجديد أن يسلبهم هذه المكانة ، وأنْ يقضي على هذه السيادة ، لذلك قال القرآن عنهم : ﴿ بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ (٩٠) ﴾ [البقرة]

لهذا خصَّ بالذكْر هنا موكب الأنبياء موسى وعيسى عليهما السلام .

ونلحظ أن السياق ذكر موسى عليه السلام ، ولم يذكر له أباً ، أما فى عيسى عليه السلام فقال : ﴿ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ .. (٧) ﴾ [الأحزاب] وهذا دليل على أنه يؤكد الأصالة فى الإنجاب ، فالأب هو الأصل إنْ وُجِد مع الزوجة ، فإنْ لم يوجد الأب فالأبوة للزوجة ؛ لذلك نسب عليه السلام إلى أمه .

وجاءت هذه المسألة لتبرهن على طلاقة القدرة الإلهية ، فمسألة الخَلْق ليست عملية ميكانيكية تخضع لقانون ، إنما هى قدرة الله التى خلقتْ آدم بدون أب ولا أم ، وخلقت حواء من أب دون أم ، وخلقتْ عيسى عليه السلام من أم بدون أب ، وخلقتْ سائر الخَلْق من أب وأم ، وهكذا استوفى الخَلْق القسمة العقلية فى كل صورها .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا (٧) ﴾[الأحزاب] أى : من الأنبياء ، والميثاق الغليظ أى المؤكد ، فقد وسّعه الله وأكده حينما أخبر أنبياءه ورسله أنهم سيُضطهدون وسيُحاربون من أممهم .

لذلك لم يُوصَف الميثاق بأنه غليظ إلا فى هذا الموضوع ، وفى علاقة الرجل بالمرأة حين يطلقها ، وقد فرض لها مهراً ، فينبغى أنْ يُؤديه إليها ، ولو كان قنطاراً ، يقول سبحانه : ﴿ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا (٢١) ﴾ [النساء]

فسمّى الميثاق بين الزوجين ميثاقاً غليظاً أى : قوياً ومتيناً ؛ لأنه فى العِرْض ، ولم يُوصَف الميثاق فيما دون ذلك بأنه غليظ .

وهذا الميثاق الذى أخذه الله تعالى على الرسل المذكِّرين المبشِّرين المنذرين جاء تفصيله فى قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي[1] قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ (٨١) ﴾ [آل عمران]

والشىء الذى شهد الله عليه لا يحتاج إلى قضاء ، لكن لماذا أخذ الله هذا العهد ؟ قالوا : لأن الذى لا يؤمن بإله ليس لديه دين يتعصَّب له حين يأتى رسول جديد ، لكن من الصَّعب على الإنسان أن يكون له دين ، ثم يأتى رسول جديد ليزحزحه عن دينه ، وهنا تكمن المشقة التى يعانيها الرسل .

لذلك قال الله تعالى للرسل : من تمام ميثاقكم أن تقولوا لأقوامكم إذا جاءكم رسول مُصدِّق لما معكم لتُؤمنن به ولتنصرنه [2]، ثم أقررهم على ذلك ، وأشهدهم عليه فشهدوا ، والمعنى : إياكم أن تتركوا أممكم التى تؤمن بكم بدون أنْ تضعوا لهم هذه القاعدة ، ففيها الوقاية لهم .

---

(١) الإصر : القيد والثقل والعهد المؤكد ، وسميت التكاليف الشاقة إصراً ؛ لأنها تشق على المكلَّف وتثقل عليه ، وقوله ﴿ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي .. (٨١) ﴾ [آل عمران] أى : عهدى . [القاموس القويم ١/٢١] .

(٢) أخرج ابن جرير الطبرى عن على بن أبى طالب قال : لم يبعث الله نبياً ، آدم فمن بعده إلا أخذ عليه العهد فى محمد ، لئن بُعث وهو حى ليؤمنن به ، ولينصرنه ، ويأمره فيأخذ العهد على قومه ، ثم تلا ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ .. (٨١) ﴾ [آل عمران] [ذكره السيوطى فى الدر المنثور فى التفسير المأثور ٢/٢٥٣] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾ ﴾

اللام هنا فى ﴿ لِيَسْأَلَ .. ﴿٨﴾ ﴾ [الأحزاب] لام التعليل ، فالمعنى أننا أخذنا من النبيين الميثاق ، لكن لن نتركهم دون سؤال ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ .. ﴿٧﴾ ﴾ [الأحزاب] لماذا ؟ ﴿ لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ .. ﴿٨﴾ ﴾ [الأحزاب] لكن إذا كان المبلِّغ صادقاً ، فكيف يسأل عن صدقه ؟

سؤال الصادق عن صدْقه ليس تبكيتاً للصادق ، إنما تبكيتاً لمن كذَّب به ، سنسأل الرسل : أبلغتم هؤلاء ؟ ويقول تعالى : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ .. ﴿١٠٩﴾ ﴾ [المائدة] ويسأل الله القوم : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا .. ﴿١٣٠﴾ ﴾ [الأنعام]

فالاستفهام هنا للتقريع والتبكيت لمن كذَّب .

أو : يكون المعنى ﴿ لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ .. ﴿٨﴾ ﴾ [الأحزاب] أى : أنتم بشَّرتم بأن الإله واحد ، فأنتم صادقون ؛ لأنكم أخذتُمْ هذه منى ، ولما قامت الساعة ولم تجدوا إلهاً آخر يحمى الكافرين ، إذن : فقد صدقت فيما أخبرت به ، وصدقتم فيما بلغتم عنى ، حيث لم تجدوا فى الآخرة إلا الإله الواحد .

لذلك يقول سبحانه : ﴿ وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ﴿٣٩﴾ ﴾ [النور] ولو كان معه سبحانه إله آخر لَدافع عن هؤلاء الكافرين ، ومنعهم من العذاب .

كذلك يسأل الرسل عن البعث الذى وعد الله به ، وبلَّغوه لأممهم ،

وعن الحساب وما فيه من ثواب وعقاب ، وكأن الحق سبحانه يسألهم : هل تخلَّف شىء مما أخبرتكم به ؟ هل قصرت فى إثابة المحسن أو معاقبة المسىء ؟ إذن : صدق كلامى كله .

كما تجلس مع ولدك مثلاً تراجع معه المواد الدراسية ، وتحثُّه على المذاكرة فيُوفَّق فى الامتحان ، ثم تسأله : ماذا فعلت فى إجابة السؤال الفلانى ؟ فأنت لا تقصد الاستفهام ، إنما تستعيد معه أمجاد ما أنجزه بالفعل تسأله عن توفيق الله له ، كذلك الحق سبحانه يستعيد مع الرسل وَقْفتهم لدين الله وإعلاءَهم كلمة الحق فى هذه الساعة ولا مردَّ لها .

إذن : فسؤال الصادقين عن صدقهم تكريم لهم ، وشهادة بأنهم أدَّوْا ما عليهم ، وهو كذلك تبكيت لمن كذَّب بهم[1] .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا (٨) ﴾ [الأحزاب] والفعل الماضى هنا دليل على أن كل شىء معدٌّ وموجود سلَفاً ، ولن ينشىء الحق سبحانه شيئاً جديداً ، كذلك قال عن الجنة ﴿ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣) ﴾ [آل عمران]

وسبق أنْ أوضحنا أن الله تعالى خلق الجنة لتسع الناس جميعاً إنْ آمنوا ، وخلق النار كذلك تسع الناس جميعاً إنْ كفروا ، يعنى : لن تكون هناك أزمة أماكن ، فإذا ما أخذ أهل الإيمان أماكنهم من الجنة

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره عند تفسير هذه الآية (٥٣٨٨/٧) :

« فيه أربعة أوجه :

أحدها : ليسأل الأنبياء عن تبليغهم الرسالة إلى قومهم ، حكاه النقاش .

الثانى : ليسأل الأنبياء عما أجابهم به قومهم ، حكاه على بن عيسى .

الثالث : ليسأل الأنبياء عن الوفاء بالميثاق الذى أخذه عليهم ، حكاه ابن شجرة .

الرابع : ليسأل الأفواه الصادقة عن القلوب المخلصة » .

تتبقى أماكن الذين كفروا شاغرة ، فيقول تعالى للمؤمنين : خذوها أنتم :[١] ﴿ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٧٢) ﴾ [الزخرف]

وقد وصف العذاب مرة بأنه أليم ، ومرة بأنه مهين ، ومرة بأنه عظيم ، ومرة بأنه شديد ، ولكل منها ملحظ ، فالأليم يُلحظ فيه القسوة والإيلام ، والعذاب المهين يُلحظ فيه إهانة المعذَّب والنيل من كرامته ، فمن الناس مَنْ يحاول التجلُّد ، ويُظهر تحمل الألم وعدم الاكتراث به ، فى حين يؤلمه أنْ تنال من كرامته ، فيناسبه العذاب المهين .

لذلك يُرْوى فى التجلد أن رجلاً دخل على معاوية فى مرضه ، وهو يُظهر للناس أنه بخير وصحته على ما يرام ، فقال له الرجل :

وَإِذَا المنيَّةُ أنْشَبَتْ أظْفَارهَا ... ألفيْتَ كُلَّ تَميمةٍ لاَ تَنْفَعُ

ففطن معاوية إلى مقصده ، وأجابه من نفس قصيدة أبى ذؤيب[٢] :

وَتجلُّدِى للشَّامتِينَ أُريهُمُوا ... أنِّى لريْبِ الدهْرِ لاَ أَتَضَعْضَعُ [٣]

أما العذاب العظيم فلعظمه فى ذاته ، ولكبر حجمه يعنى ليس صغيراً ، أو يكون صغير الجرم ، لكن عظمته فى صفاته ، أو فى بقاء

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « ما من أحد إلا وله منزل فى الجنة ، ومنزل فى النار ، فالكافر يرث المؤمن منزله فى النار ، والمؤمن يرث الكافر منزله فى الجنة ، وذلك قوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٧٢) ﴾ [الزخرف] .
أورده السيوطى فى الدر المنثور (٧/ ٣٩٤) وعزاه لابن أبى حاتم وابن مردويه .

(٢) عزاه شهاب الدين محمود الحلبى فى كتابه « حسن التوسل إلى صناعة الترسل » ص ١٣٢ لأبى ذؤيب الهذلى ، وانظر ديوان الهذليين القسم الأول ص ٣ . [وعزاه ابن منظور لأبى ذؤيب فى اللسان ـ مادة : ضعع] .

(٣) الضعضعة : الخضوع والتذلل . والضعضاع : الضعيف من كل شىء . ورجل ضعضاع أى : لا رأى له ولا حزم . [لسان العرب ـ مادة : ضعضع] .

أثره فى زمن طويل .

ويُوصَف العذاب بأنه شديد لشدة المعذِّب سبحانه ؛ لأنه سبحانه إذا أخذ فأَخْذه أَخْذ عزيز مقتدر .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ ﴾

أراد الحق سبحانه أنْ يُدلِّل على قوله لرسوله فى الآيات السابقة : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً ﴿٣﴾ ﴾[الأحزاب] فجاء بحادثة جمعتْ كل فلول خصومه ، فقد سبق أن انتصر عليهم متفرقين ، فانتصر أولاً على كفار مكة فى بدر ، وانتصر على اليهود فى بنى النضير وبنى قينقاع ، وهذه المرة اجتمعوا جميعاً لحربه ﷺ ، ومع ذلك لن يؤثر جمعهم فى الصدِّ عن دعوتك ، وسوف تُنصَر عليهم بجنود من عند الله .

إذن : فحيثية (وتوكل على الله) هى قوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ .. ﴿٩﴾ ﴾[الأحزاب] النعمة : الشىء الذى يخالط الإنسان بسعادة وبِشْر وطلب استدامته ، وهذه الصفات لا تتوافر إلا فى الإيمان ؛ لأن استدامة النعمة فيه تعدَّتْ زمن الدنيا إلى زمن آخر دائم وباقٍ فى الآخرة ، وإنْ كانت نعمة الدنيا على قَدْر أسبابك وإمكاناتك ، فنعمة الآخرة على قَدْر المنعِم سبحانه ، فهى إذن : نعمة النعم .

والله تعالى يخاطب هنا المؤمنين ، ومعنى الإيمان هو اليقين بوجود إله واحد له كل صفات الجلال والكمال ، والله سبحانه يكفى العقل أنْ يهتدى إلى القوة الخالقة الواحدة التى لا تعاند ، لكن ليس من عمل العقل أنْ يعرف مثلاً اسم هذا الإله ، ولا أن يعرف مراده ، فكان ولابُدَّ من البلاغ عن الله .

وسبق أنْ مثَّلْنا لذلك بمَنْ يطرق علينا الباب ، فنتفق جميعاً بالعقل على أن طارقاً بالباب ، هذا هو عمل العقل ، لكن أمن عمل العقل أن نعرف مَنْ هو ؟ أو نعرف مقصده من المجىء ؟ وهذا ما نسميه التصور .

فآفة العقل البشرى أنه لم يقنع بالتعقل للقوة القاهرة الفاعلة ، فكان يكفيه أن يتعقل أن وراء هذا الكون قوةً ، هذه القوة لها صفات الكمال التى بها أوجدتْ هذا الكون ، فإنْ أردنا معرفة ما هى هذه القوة فلابُدَّ أنْ نترك هذا الطارق ليخبرنا عن نفسه ، ويفصح عن هدفه وسبب مجيئه ، ولا يتم ذلك إلا من خلال رسول يأتى من عند الله يخبرنا عن هذه القوة ، عن الله ، عن أسمائه وصفاته ومنهجه الذى ارتضاه لخَلْقه ، وما أعدَّه الله لمَنْ أطاعه من النعيم ، وما أعدَّه لمَنْ عصاه من العذاب .

فإنْ كذَّبنا هذا الرسول ، وطلبنا دليلاً على صدْقه فى البلاغ أخرج لنا من المعجزات ما يؤيده وما يحملنا على تصديقه ؛ لأنه أتى بلونٍ مما ننبغ فيه نحن ، وفن من فنوننا ، ومع ذلك عجزنا عن الإتيان بمثله .

إذن : فالتعقُّل أول مراحل الإيمان ؛ لذلك فإن أبسط ردٍّ على مَنْ يعبدون غير الله أن نقول لهم : بماذا أمرتكم آلهتكم ؟ وعمَّ نهتْكم ؟ وماذا أعدَّتْ لمن أطاعها ؟ وماذا أعدَّت لمنْ عصاها ؟ ما المنهج الذى تستعبدكم به ؟

فكان من منطق العقل ساعةَ يأتينا رسول من عند الله أنْ نستشرف له ، ونُقبل عليه ، ونسأله عن اللغز الذى لا نعرفه من أمور الحياة والكون ، كان علينا أن نستمع له ، وأن ننصاع لأوامره ؛ لأنه ما جاء إلا ليُخرجنا من مأزق فكرى ، ومن مأزق عقلى لايستطيع أحد منَّا أنْ يُحلِّله ، كان على القوم أن يتلهفوا على هذا الرسول ، لا أن يعادوه ويعاندوه ، لما لهم من سلطة زمنية ظنوها باقية .

وقوله تعالى : ﴿ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ .. (٩) ﴾[الأحزاب] ما هو الذكر ؟ العقل حين يتلقَّى المعلومات من الحواسِّ يقارن بينها ويُغربلها ، ثم يحتفظ بها فى منطقة منه تمثل خزينة للمعلومات ، وما أشبه العقل فى تلقى المعلومات بلقطة (الفوتوغرافيا) التى تلتقط الصورة من مرة واحدة ، والناس جميعاً سواء فى تلقى المعلومات ، المهم أن تصادف المعلومة خُلوّ الذِّهْن مما يشغله .

وهذه المنطقة فى العقل يسمونها بؤرة الشعور ، وهى لا تلتقط إلا جزئية عقلية واحدة ، فإذا أردتَ استدعاء معلومة من الحافظة ، أو من حاشية الشعور ، فالذاكرة هى التى تستدعى لك هذه المعلومة ، وتُخرِجها من جديد من حاشية الشعور إلى بؤرة الشعور .

ثم هناك ما يُسمَّى بتداعى المعانى ، حين يُذكِّرك شىء بشىء آخر ، وهناك المخيِّلة ، وهى التى تُلفِّق أو تُؤلِّف من المعلومات المختزنة شيئاً جديداً ، ونسميه التخيُّل ، فالشاعر العربى حين أعجبه الوشم باللون الأخضر على بشرة شابة بيضاء تخيَّلها هكذا .

خَـوْدٌ كـأنَّ بَنَـانَهَا فِـى نَقْشِـةِ الوَشْـمِ المُـزَرَّدِ[١]
سَـمَكٌ مِنَ البـلـلَّوْرِ فِـى شَبَكٍ تكوَّنَ مِنْ زَبَرْجَدِ[٢]

فهذه صورة تخيُّلية خاصة بالشاعر ، وإلا فَمَنْ منَّا رأى سمكاً من البللور فى شبك من زبرجد ؟ فللشاعر نظرته الخاصة للصور التى يراها ، وسبق أنْ ذكرنا الصورة التى رسمها الشاعر[٣] للأحدب ، فقال :

قَصُرَتْ أَخَـادِعُه[٤] وغَاصَ قَذَالُه[٥] فَـكـأنَّهُ مُـتربِّصٌ أنْ يُصْـفَـعَا
وكأنَّـمَـا صُفِعَـتْ قـفَـاهُ مـرةً فَأحـسَّ ثانيـةً لَهَـا فَتَجَـمَّـعا

ومنذ القدَم يعتبر الشعراء القلبَ محلاً للحب وللمشاعر ، لكن يخرج علينا هذا الشاعر بصورة أخرى جديدة من نَسْج خياله ، فيقول :

خَطَـرَاتُ ذِكْـرِكَ تَسْتَثِيرُ مَـودَّتِي فَـأُحِـسُّ مِنْها فِـى الفُؤادِ دَبيبا
لاَ عُضْـوَ لِـى إلاَّ وَفيهِ صَـبَـابَةٌ فَـكـأنَّ أَعْـضَـائى خُلِقْنَ قُلُـوبَا

---

(١) الخود : الفتاة الحسنة الخَلْق الشابة ، ما لم تَحِض . وقيل : الجارية الناعمة . [لسان العرب ـ مادة : خود] ، والمزرد : هى حلق الدرع متداخلة فى بعضها ، والمقصود أن الوشم متقن متشابك متداخل .

(٢) الزبرجد : الزمرد . وهو الزبردج أيضاً . [لسان العرب ـ مادة : زبرجد] .

(٣) الشاعر هو : ابن الرومى على بن العباس بن جريج ، شاعر كبير من طبقة بشار والمتنبى ، رومى الأصل ، كان جده من موالى بنى العباس ، ولد ببغداد ٢٢١ هـ ونشأ بها ، ومات فيها مسموماً عام ٢٨٣ هـ عن ٦٢ عاماً . [الأعلام للزركلى ٤/٢٩٧] .

(٤) الأخادع : جمع الأخدع ، وهو أحد عرقين فى جانبى العنق .

(٥) القذال : جماع مؤخر الرأس من الإنسان . [لسان العرب ـ مادة : قذال] .

فمعنى : ﴿ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ .. (٩) ﴾ [الأحزاب] لا تمروا على النعم بغفلة لرتابتها عندكم ، بل تذكروها دائماً ، واجعلوها فى بؤرة شعوركم ؛ لذلك جعل الله الذكر عبادة ، وهو عبادة بلا مشقة ، فأنت حين تصلى مثلاً تستغرق وقتاً ومجهوداً للوضوء وللذهاب للمسجد ، كذلك حين تزكى تُخرِج من مالك ، أما الذكْر فلا يُكلِّفك شيئاً .

لذلك فى سورة الجمعة حينما يستدعى الحق سبحانه عباده للصلاة ، يقول : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ .. (٩) ﴾ [الجمعة] فهنا حركتان : حركة إيجاب بالسعى إلى الصلاة ، وحركة سَلْب بترْكِ البيع والشراء ، وكلّ ما يشغلك عن الصلاة .

ثم يقول تعالى : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِى الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا .. (١٠) ﴾ [الجمعة]

وفى موضع آخر قال : ﴿ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ (٤٥) ﴾ [العنكبوت] فإياك أن تظن أن الله يريد أنْ تذكره ساعة الصلاة فحسب ، إنما اذكره دائماً وأبداً ، وإنْ كانت الصلاة لها ظرف تُؤدَّى فيه ، فذكْر الله لا وقتَ له ؛ لذلك جعله الله يسيراً سهلاً ، لا مشقة فيه ، لا بالوقت ولا بالجهد ، فيكفى فى ذكْر الله أنْ تتأمل المرائى التى تمر بها ويقع عليها نظرك لترى فيها قدرة الله .

والحق سبحانه يُذكِّرنا بنعمه ؛ لأن النعمة بتواليها على النفس البشرية تتعوَّد عليها النفس ، ويحدث لها رتابة ، فلا تلتفت إليها ، فأنت مثلاً ترى الشمس كل صباح ، لكن قلَّما تتذكر أنها آية من آيات الخالق ـ عز وجل ـ ونعمة من نعمه ؛ لأنك تعوَّدت على رؤيتها ، وأصبحت رتيبة بالنسبة لك .

كذلك يلفتنا الحق سبحانه إلى نعمه حين يسلبها من الآخرين ، فحين ترى السقيم تذكَّر نعمة العافية ، وحين ترى الأعمى تذكَّر نعمة البصر .. الخ وساعتها ينبغى عليك أنْ تشكر المنعم الذى عافاك مما ابتلى به غيرك ، إذن : فهذه الشواذ جعلها الله وسائل للإيضاح وتذكيراً للخلق بنِعَم الخالق .

والنعمة وردتْ هنا مفردة ، وكذلك فى قوله تعالى : ﴿ **وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا** (٣٤) ﴾ [إبراهيم] وقد وقف أعداء الإسلام من المستشرقين أمام هذه الآية يعترضون على أن النعمة فيها مفردة ، يقولون : فكيف تُعَدُّ ؟ وهذا الاعتراض منهم ناشئ عن عدم فَهْم لمعانى وأساليب القرآن .

ونقول : الذى تروْنه نعمة واحدة ، لو تأملتُم فيها لوجدتم بداخلها نعَماً متعددة تفوق العَدَّ ؛ لذلك استخدم القرآن هنا (إنْ) الدالة على الشك ؛ لأن نعمَ الله ليست مظنَّة العَدِّ والإحصاء كرمال الصحراء ، هل تعرَّض أحد لعدِّها ؟ لأنك لا تقبل على عَدِّ شىء إلا إذا كان مظنَّةَ العَدِّ ، وإحصاء المعدود .

لذلك ، فالحق سبحانه يوضح لنا : إنْ حاولتم إحصاء نعَم الله ـ وهذا لن يحدث ـ فلن تستطيعوا عدَّها ، مع أن الإحصاء أصبح عِلْماً مستقلاً ، له جامعات وكليات تبحث فيه وتدرسه .

ولك أنْ تأخذ نعمة واحدة من نعَم الله عليك ، ثم تتأمل فيها وفى عناصرها ومُكوِّناتها وفوائدها وصفاتها ، وسوف تجد فى طيَّات النعمة الواحدة نعَماً شتَّى ، فالتفاحة مثلاً فى ظاهرها نعمة واحدة، لكن فى ألوانها ومذاقها وعناصر مكوناتها ورائحتها واختلاف وتنوُّع هذا كله نِعَم كثيرة .

والحق سبحانه جعل نعَمه عامة للمؤمن وللكافر ؛ لأنه سبحانه جعل لها أسباباً ، مَنْ أحسَنَ هذه الأسباب أعطتْه ، حتى لو كان كافراً .

ثم نلاحظ فى قوله تعالى : ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا ﴿٣٤﴾ ﴾ [إبراهيم] أنها وردتْ فى القرآن مرتين ، ولكل منهما تذييل مختلف ، فمرَّة يقول تعالى : ﴿ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ [إبراهيم] ، ومرة يقول : ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ ﴾ [النحل]

وفيه إشارة إلى أن الله تعالى لو عامل المنعَم عليهم من الخَلْق بما يقتضيه إيمانهم ، وما يقتضيه كفرهم ، لأعطى المؤمن وسلَب الكافر ، لكنه سبحانه غفور رحيم بخَلْقه ، فبهاتين الصفتين يُنعم سبحانه على الجميع ، وما ترفلون فيه من نعَم الله عليكم أثر من آثار الغفران والرحمة ، فغفر لكم معايبكم أولاً ، والغفر : أنْ تستر الشىء القبيح عَمَّن هو دونك .

ثم الرحمة ، وهى أنْ تمتدَّ يدك بالإحسان إلى مَنْ دونك ، وسبق أنْ أوضحنا أن المغفرةَ تسبق الرحمةَ ، وهذه هى القاعدة العامة ، لكن قد تسبق الرحمةُ المغفرةَ ؛ ذلك لأن السَّلب للشىء المذموم ينبغى أن يسبق النعمة ، أو : أن دَفْع الضرر مُقدَّم على جَلْب المنفعة .

وقد مثَّلْنا لذلك باللصِّ تجده فى دارك ، فتستر عليه أولاً حين لا تسلمه للبوليس ، ثم يرقّ له قلبك ، فتمتد يدُك إليه بالإحسان ، وهنا تسبق المغفرةُ الرحمةَ ، وقد تتصرف معه بطريقة أخرى ، بحيث تقدَّم فيها الرحمة على المغفرة ، والمغفرة لا تكون إلا من الأعلى للأدنى ، فتستر على القبيح قُبْحه ، وأنت أعلى منه ، فلا يقال مثلاً للخادم : إنه ستر على سيده .

ثم يرسل لنا الحق ـ سبحانه وتعالى ـ هذه البرقية الدالَّة على تأييده سبحانه لعباده المؤمنين : ﴿ إِذْ (١) جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا (٢) وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٩) ﴾ [الأحزاب]

فالجنود تُؤذن بالحرب ، وجاءت نكرة مُبْهمة ، ثم جاءت نهاية هذه المعركة فى هاتين الجملتين القصيرتين ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا .. (٩) ﴾ [الأحزاب] ولم يذكر ماهية هؤلاء الجنود ، إلا أنهم من عند الله ، جاءوا لردِّ هؤلاء الكفار وإبطال كيدهم .

ثم يأتى بمذكرة تفسيرية توضح مَنْ هم هؤلاء الجنود :

﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ (٣) وَإِذْ زَاغَتِ (٤) ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ (١٠) ﴾

---

(١) ذلك يوم الخندق فى غزوة الأحزاب ، قال ابن إسحاق : كانت فى شوال من السنة الخامسة ، وقال ابن وهب وابن القاسم عن مالك رحمه الله : كانت وقعة الخندق سنة أربع ، وهى وبنو قريظة فى يوم واحد . (تفسير القرطبى ٧/٥٣٨٩) .

(٢) قال ابن كثير فى تفسيره (٣/٤٧٠) : « هم الملائكة زلزلتهم وألقت فى قلوبهم الرعب والخوف ، فكان رئيس كل قبيلة يقول : يا بنى فلان إلىَّ ، فيجتمعون إليه ، فيقول : النجاء النجاء ، لما ألقى الله عز وجل فى قلوبهم من الرعب » .

(٣) قال ابن وهب : سمعت مالكاً يقول : ذلك يوم الخندق ، جاءت قريش من هاهنا ، واليهود من هاهنا ، والنجدية من هاهنا . قال القرطبى : يريد مالك أن الذين جاءوا من فوقهم بنو قريظة ، ومن أسفل منهم قريش وغطفان . [تفسير القرطبى ٧/٥٣٨٩] .

(٤) زاغ البصر : اضطرب ولم يحقق ما يرى . وقوله فى وصف فزع بعض الناس فى المدينة حين أحاطت بهم الأعداء فى غزوة الأحزاب ﴿ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ .. (١٠) ﴾ [الأحزاب] أى : اضطربت لشدة الفزع . القاموس القويم (١/٢٩٤) .

هذا وَصْف لما جرى فى غزوة الأحزاب التى جمعتْ فُلول أعداء رسول الله ، فقد سبق أنْ حاربهم مُتفرِّقين ، والآن يجتمعون لحربه ﷺ ، فجاءت قريش ومَنْ تبعها من غطفان وأسد وبنى فزارة وغيرهم، وجاء اليهود من بنى النضير وبنى قريظة ، وعجيب أنْ يجتمع كل هؤلاء لحرب الإسلام على ما كان بينهم من العداوة والخلاف .

وقلنا : إن أهل الكتاب كانوا يستفتحون برسول الله على كفار مكة ، ثم جاءت الآيات لتجعل من أهل الكتاب شهداء على صدْق رسول الله ، فقال تعالى : ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ (٤٣) ﴾ [الرعد]

ولو قدَّر أهل الكتاب هذه الشهادة التى قرنها الحق سبحانه بشهادته ، لكَان عليهم أنْ يؤمنوا بصدْق رسول الله ﷺ .

والمعنى : ﴿ إِذْ جَاءُوكُم .. (١٠) ﴾ [الأحزاب] أى : اذكر يا محمد وتخيَّل وتصوَّر إذ جاءكم الأحزاب ، وتجمَّعوا لحربك ﴿ مِّن فَوْقِكُمْ .. (١٠) ﴾ [الأحزاب] أى : من ناحية الشرق ، وهُمْ : غطفان ، وبنو قريظة، وبنو النضير ﴿ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ .. (١٠) ﴾ [الأحزاب] أى : من ناحية الغرب وهم قريش ، ومَنْ تبعهم من الفزاريين والأسديين وغيرهم ﴿ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ .. (١٠) ﴾ [الأحزاب] أى : اذكر إذ زاغت الأبصار ، ومعنى زاغ البصر أى : مال ، ومنه قوله تعالى : ﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ (١٧) ﴾ [النجم]

فـ (زاغت الأبصار) يعنى : مالتْ عن سَمْتها وسنمها ، وقد خلق الله العين على هيئة خاصة ، بحيث تتحرك إلى أعلى ، وإلى أسفل ، وإلى اليمين ، وإلى الشمال ، ولكل اتجاه منها اسم فى اللغة ، فيقولون : رأى أى : بجُمْع عَيْنه ، ولمح بمؤخَّر مُوقه ، ورمق أى : من ناحية أنفه .. الخ

فسَمْت العين وسَنمها أنْ تتحرك فى هذه الاتجاهات ، فإذا فزعتْ من شىء أخذ البصر ، مال عن سَمْته من التحول ، لذلك يقول تعالى : ﴿ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا .. (٩٧) ﴾ [الأنبياء]

وقال : ﴿ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ (٤٢) ﴾ [إبراهيم] وشخوص البصر أنْ يرتفع الجَفْن الأعلى ، وتثبت العين على شىء ، لا تتحرَّك إلى غيره .

وفى موضع آخر قال تعالى عن المنافقين والمعوِّقين : ﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ .. (١٩) ﴾ [الأحزاب]

لأن الهول ساعة يستولى على الأعين ، فمرة تشخص العين على ما ترى لا تتعداه إلى غيره من شدة الهول ، ومرة تدور هنا وهناك تبحث عن مفرٍّ أو مخرجٍ مما هى فيه ، فهذه حالات يتعرَّض لها الخائف المفزَّع .

وقوله تعالى : ﴿ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ .. (١٠) ﴾ [الأحزاب] معلوم أن الحنجرة أعلى القصبة الهوائية فى هذا التجويف المعروف ، فكيف تبلغ القلوبُ الحناجرَ ؟ هذا أثر آخر من آثار الهول والفزع ، فحين يفزع الإنسان يضطرب فى ذاته ، وتزداد دقَّات قلبه ، وتنشط حركة التنفس ، حتى ليُخيَّل للإنسان من شدة ضربات قلبه أن قلبه سينخلع من مكانه ، ويقولون فعلاً فى العامية (قلبى هينط منى)

وقوله تعالى : ﴿ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (١٠) ﴾ [الأحزاب]

أى : ظنوناً مختلفة تأخذهم وتستولى عليهم ، فكلٌّ له ظنٌّ يخدم غرضه ، فالمؤمنون يظنون أن الله لن يُسلمهم ، ولن يتخلى عنهم ، والكافرون يظنون أنهم سينتصرون وسيستأصلون المؤمنين ، بحيث لا تقوم لهم قائمة بعد ذلك .

ونلحظ فى هذه الآية أن الحق سبحانه لا يكتفى بأنْ يحكى له ما حدث ، إنما يجعله ﷺ يستحضر الصورة بنفسه ، فيقول له : اذكُرْ إذ حدث كذا وكذا .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ ﴾ (١)

﴿ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ .. ﴿١١﴾ ﴾ [الأحزاب] أى : اختُبِروا وامْتُحِنوا ، فقَوِىُّ الإيمان قال : لن يُسلمنا الله . والمنافق قال : هى نهاية الإسلام والمسلمين ﴿ وَزُلْزِلُوا .. ﴿١١﴾ ﴾ [الأحزاب] الزلزلة هى الهزة العنيفة التى ينشأ عن قوتها تَخْلخل الأشياء ، لكن لا تقتلعها ، والمراد أنهم تعرَّضوا لكرب شديد زلزل كيانهم ، وميَّز مؤمنهم من منافقهم ؛ لذلك يقول تعالى بعدها :

﴿ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ ﴾

---

(١) هنا : للقريب من المكان . وهنالك : للبعيد . وهناك : للوسط . ويشار به إلى الوقت . أى : عند ذلك اختبر المؤمنون ليتبين المخلص من المنافق . [قاله القرطبى فى تفسيره ٥٤٠٦/٧] .

المنافقون هم أنفسهم الذين فى قلوبهم مرض ، فهما شىء واحد ، وهذا العطف يُسمُّونه « عطف البيان » .

والغرور أنْ تخدع إنساناً بشىء مُفْرح فى ظاهره ، محزن فى باطنه ، تقول : ما غرَّك بالشىء الفلانى كأن فى ظاهره شيئاً يخدعك ويغرّك ، فإذا ما جئتَ لتختبره لم تجده كذلك [١] .

﴿ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَـٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ ﴾ [٢]

﴿ وَإِذْ .. ﴿١٣﴾ ﴾ [الأحزاب] هنا أيضاً بمعنى : واذكر ﴿ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَـٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ .. ﴿١٣﴾ ﴾ [الأحزاب] يثرب : اسم للبقعة التى تقع

---

(١) أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة قال : قال المنافقون يوم الأحزاب حين رأوا الأحزاب قد اكتنفوهم من كل جانب ، فكانوا فى شك وريبة من أمر الله ، قالوا : إن محمداً كان يعدنا فتح فارس والروم ، وقد حُصرنا ههنا حتى ما يستطيع يبرز أحدنا لحاجته ، فأنزل الله ﴿ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُوراً ﴿١٢﴾ ﴾ [الأحزاب] [ذكره السيوطى فى الدر المنثور ٦/٥٧٧] .

(٢) يثرب هى : المدينة ، وسماها رسول الله طَيْبة وطابة . وقال أبو عبيدة : يثرب اسم أرض والمدينة ناحية منها . وقال السهيلى : سميت يثرب لأن الذى نزلها من العماليق اسمه يثرب ابن عميل بن مهلائيل بن عوص بن عملاق . [تفسير القرطبى٧/ ٥٤٠٧] قال ابن كثير فى تفسيره : « قال السهيلى : روى عن بعضهم أنه قال : إن لها فى التوراة أحد عشر اسماً : المدينة وطابة وطيبة والمسكينة والجابرة والمحبة والمحبوبة والقاصمة والمجبورة والعذراء والمرحومة » (تفسير ابن كثير ٣/٤٧٣) . ويقول ابن منظور فى لسان العرب [مادة : ثرب] : « سماها طيبة وطابة كراهية التثريب ، وهو اللوم والتعيير » .

فيها المدينة ، وقد غيَّر رسول الله ﷺ اسمها إلى (طَيْبة) .

ومعنى : ﴿ لا مُقَامَ لَكُمْ .. (١٣) ﴾ [الأحزاب] أى : فى الحرب ﴿ فَارْجِعُوا .. (١٣) ﴾ [الأحزاب] يعني : اتركوا محمداً وأتباعه فى أرض المعركة واذهبوا ، أو ﴿ لا مُقَامَ لَكُمْ (١٣) ﴾ [الأحزاب] أى : على هذا الدين الذى تنكرونه بقلوبكم ، وتساندونه بقوالبكم .

ثم يكشف القرآن حيلة فريق آخر يريد الفرار ﴿ وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ .. (١٣) ﴾ [الأحزاب] أى : فى عدم الخروج للقتال ﴿ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ .. (١٣) ﴾ [الأحزاب] أى : ليست مُحصّنة ، ولا تمنع مَنْ أرادها بسوء . يقال : بيت عورة إذا كان غير مُحْرز ، أو غير محكم ضد مَنْ يطرقه يريد به الشر ، كأن يكون منخفضاً أو مُتهدِّم الجدران يسهل تسلُّقه ، أو أبوابه غير محكمة .. إلخ .

كما نقول فى العامية (مَنَطٌّ) ، لكن الحق سبحانه يثبت كذبهم ، ويبطل حجتهم ، فيقول ﴿ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ (١٣) ﴾ [الأحزاب] إنما العلة فى ذلك ﴿ إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَارًا (١٣) ﴾ [الأحزاب] أى : من المعركة إشفاقاً من نتائجها ومخافةَ القتل .

ثم يقول سبحانه :

﴿ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلاَّ يَسِيرًا (١٤) ﴾

﴿ دُخِلَتْ عَلَيْهِم (١٤) ﴾ [الأحزاب] أى : البيوت ﴿ مِّنْ أَقْطَارِهَا (١٤) ﴾ [الأحزاب] من نواحيها ﴿ ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ (١٤) ﴾ [الأحزاب] أى : طُلب منهم الكفر ﴿ لآتَوْهَا (١٤) ﴾ [الأحزاب] يعنى : لكفروا . ﴿ وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلاَّ

يَسِيراً (١٤) ﴾ [الأحزاب] يعنى : ما يجعل الله لهم لُبْثاً وإقامة إلا يسيراً ، ثم ينتقم الله منهم [(١)].

﴿ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا (١٥) ﴾

معنى ﴿ عَاهَدُوا اللَّهَ .. (١٥) ﴾ [الأحزاب] أخذ الله عليهم العهد وقَبلوه ، وهو ما حدث فى بيعة العقبة حين عاهدوا رسول الله على النُّصْرة والمؤازرة . أو : يكون الكلام لقوم [(٢)] فاتتهم بدر وفاتتْهم أُحُد ، فقالوا : والله لئن وقفنا فى حرب أخرى لنبلونّ فيها بلاءً حسناً .

وعَهْد الله هو الشىء الذى تعاهد الله عليه ، وأول عهد لك مع الله تعالى هو الإيمان به ، وما دُمْتَ قد آمنتَ بالله فانظر إلى ما طلبه منك وما كلَّفك به ، وإياك أنْ تُخلَّ بأمر من أموره ، لأن الاختلال فى أى أمر تكليفى من الله يُعَد نقصاً فى إيمانك بالله ، فلا يليق بك أنْ تنقض ما أكَّدته من الأيْمان ، بل يلزمك أن توفي به ؛ لأنك إنْ وفَّيْتَ بها وُفِّى لك بها أيضاً ، فلا تأخذ الأمر من جانبك وحدك ، ولكن انظر إلى المقابل .

---

(١) قال ابن كثير فى تفسير هذه الآية (٣/٤٧٣) : « يخبر تعالى عن هؤلاء الذين ﴿ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا (١٣) ﴾ [الأحزاب] أنهم لو دخل عليهم الأعداء من كل جانب من جوانب المدينة وقطر من أقطارها ثم سُئلوا الفتنة وهى الدخول فى الكفر لكفروا سريعاً ، وهم لا يحافظون على الإيمان ، ولا يستمسكون به مع أدنى خوف وفزع . هكذا فسره قتادة وعبد الرحمن بن زيد وابن جرير » .

(٢) قال يزيد بن رومان : هم بنو حارثة ، هَمُّوا يوم أُحد أن يفشلوا مع بنى سلمة ، فلما نزل فيهم ما نزل عاهدوا ألا يعودوا لمثلها ، فذكر الله لهم الذى أعطوه من أنفسهم . [قاله القرطبى فى تفسيره ٧/٥٤١٠] .

واعلم أن الله مُطلع عليك ، يعلم خفايا الضمائر وما تُكنّه الصدور ، فاحذر حينما تعطى العهد أنْ تعطيه وأنت تنوى أنْ تخالفه ، إياك أنْ تعطى العهد خداعاً ، فربك - سبحانه وتعالى - يعلم ما تفعل .

﴿ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ ﴾

قوله تعالى لنبيه ﷺ ﴿ قُل ﴿١٦﴾ ﴾ [الأحزاب] أى : لهؤلاء الذين يريدون الفرار من المعركة ﴿ لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ ﴿١٦﴾ ﴾ [الأحزاب] والقرآن هنا يحتاط لمسألة إزهاق الروح ، وسبق أن تحدثنا عن الفرق بين الموت والقتل ؛ لذلك يقول تعالى عن نبيه محمد : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ .. ﴿١٤٤﴾ ﴾ [آل عمران]

فالموت لا يقدر عليه إلا واهب الحياة سبحانه ، ويكون بنقض الروح أولاً بأمر خالقها ، ثم يتبعه نَقْض البنية ، أما القتل فيقدر عليه الخَلْق ، ويتم أولاً بنقض البنية الذى يترتب عليه إزهاق الروح ؛ لأن البنية لم تَعُدْ صالحة لاستمرار الروح فيها ، بعد أنْ فقدتْ المواصفات المطلوبة لبقاء الروح .

والفرار لن يُجدِى فى هذه المسألة ؛ لأن لها أجلاً محدداً ، سواء أكان بالله واهب الحياة ، أو كان بفعل واحد من الخَلْق عصى أمر الله ، فهدم البنية التى بناها الله ، وما جدوى الفرار من المعركة ، وقد رأينا مَنْ شهد المعارك كلها ، ثم يموت على فراشه ، كخالد بن الوليد الذى

يقول : لقد شـهدتُ مائة زَحْف أو زهاءها ، وما فى جسـدى شبر إلا وفيه ضربة بسيف ، أو طعنة برُمْح ، وها أنذا أموت على فراشى كما يموت البعير ، فلا نامتْ أعين الجبناء[1] .

ثم يناقشهم القرآن : هَبُوا أنكم فررتُم من الموت أو القتل ، أتدوم لكم هذه السـلامة ؟ أتخلدون فى هذه الحـياة ؟ ﴿وَإِذًا لاَّ تُمَتَّعُونَ إِلاَّ قَلِيلاً (١٦)﴾ [الأحزاب] وسرعـان ما تنتهى الحـياة ، وتواجهـون الموت الذى لا مَفَرَّ منه ، وكلنا ذاهب إلى هذا المصير .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (١٧)﴾

المعنى : قل لهم يا محمد مَن الذى ﴿يَعْصِمُكُم .. (١٧)﴾ [الأحزاب] أى : يمنعكم ﴿مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً .. (١٧)﴾ [الأحزاب] كما قال فى موضع آخر : ﴿لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ .. (٤٣)﴾ [هود]

فـإذا أراد الله بقـوم سـوءاً فلا عـاصمَ لهـم ؛ لأنه لا يمـتنـع أحـد مع الله ؛ لأنه لا يوجـد معه سـبحانه إله آخـر يدفع السـوء عن هؤلاء .

---

(١) ذكره ابن كـثير فى « البـداية والنهاية » (١١٧/٧) وعـزاه للواقدى عن عبـد الرحمن بن أبى الزناد عن أبيه .

والإشكال الذى يحتاج إلى توضيح هنا قوله تعالى : ﴿أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً .. ﴿١٧﴾﴾ [الأحزاب] فكيف تكون العصمة من الرحمة ؟ قالوا : يعصم هنا بمعنى يمنع ، والمعنى : لا يمنع أحد من أعدائكم رحمة الله إنْ أراد الله بكم رحمة .

ونلحظ على سياق الآية أنها جاءت بأسلوب الاستفهام ، ولم تأتِ على صورة الخبر ، فلم يَقُلْ القرآن لمحمد ﷺ : قل يا محمد ، لا يُعصَم أحد من الله إنْ أرادكم بسوء ، لأن الجملة الخبرية محتملة للصدق وللكذب ، إنما شاء الله أن يجعلها جملة إنشائية استفهامية ؛ ليقرروا هم بأنفسهم هذه الحقيقة ، كأنه تعالى يقول لهم : لقد ارتضيتُ حكمكم أنتم ، ولو لم يكُنْ الحق سبحانه واثقاً من أن الجواب لن يأتى إلا : لا أحدَ لَمَا جاء بالأسلوب فى صورة استفهام ، إذن : فالاستفهام هنا آكد فى تقرير صِدْق هذه الجملة .

كذلك أنت تلجأ إلى هذا الأسلوب فى الردِّ على مَنْ ينكر جميلك ، فتقول : ألم أُحْسِن إليك يوم كذا وكذا ؟ فلا يملك عندها إلا الإقرار .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾ [الأحزاب] الولى : هو القريب منك ، وأنت لا تُقرِّب منك إلا مَنْ ترجو نفعه ، هو الذى يليك أو يُواليك ، فحبُّه يسبق الحدث ، فإذا ما جاء الحدث حمله حبُّه لك على أنْ يدافع عنك .

والنصير : قريب من معنى الولى ، ويدافع أيضاً عنك ، لكن يأتى دفاعه بعد الحدث ، وقد يكون ممَّنْ لا قرابةَ بينك وبينهم .

والمعنى : حين يريد الله أحداً بسوء فلن يجد أحداً يمنعه من الله ، لا الولىّ ولا النصير .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ ﴾

قد : حرف يفيد التحقيق ، خاصة إذا جاءتْ من الحق سبحانه ، ويأتى معها الفعل فى صيغة الماضى ، لكن هنا ﴿قَدْ يَعْلَمُ .. ﴿١٨﴾﴾ [الأحزاب] فجاء الفعل بصيغة المضارع ، وهذا يعنى أن الحدث الذى يقع الآن سيثبت أن الله يعلم المُعوِّقين ، وقد علم أزلاً .

فإنْ قُلْتَ : فالحق سبحانه يعلم قبل أنْ يكون هناك تعويق ، نقول : فَرْق بين أنْ يعلم الأمر قبل أنْ يقع ، وأنْ يعلمه إذ يقع ، فقد يقول قائل : علمتُ وسوف تجازينى على ما تعلم سابقاً ، لكن لو تركتنى فى المستقبل لن تحدث منى مخالفة . إذن : فالحق سبحانه يريد أن يؤكد هذا الأمر . والمعوِّق : هو الذى يضع العوائق أمام مرادك ، ويُثبِّط همَّتك ويُخذِّلك .

وقوله ﴿هَلُمَّ إِلَيْنَا .. ﴿١٨﴾﴾ [الأحزاب] يعنى : أقبل وتعال . وكلمة (هلم) تأتى هكذا بصيغة المفرد دائماً مع المفرد والمثنى والجمع ،

---

(١) أخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد رضى الله عنه فى قوله : ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ .. ﴿١٨﴾﴾ [الأحزاب] قال : هذا يوم الأحزاب ، انصرف رجل من عند النبى ﷺ ، فوجد أخاه بين يديه شواء ورغيف ، فقال له : أنت ههنا فى الشواء والرغيف والنبيذ ورسول الله ﷺ بين الرماح والسيوف قال : هلم إلىَّ ، لقد بلغ بك وبصاحبك ـ والذى يُحلف به لا يستقى لها محمد أبداً قال : كذبت ـ والذى يُحلف به ـ وكان أخاه من أبيه وأمه ، والله لأخبرنَّ النبى ﷺ بأمرك ، وذهب إلى النبى ﷺ يخبره ، فوجده قد نزل جبريل عليه السلام بخبره ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾﴾ [الأحزاب] .
[أورده السيوطى فى الدر المنثور ٦/٥٨٠] .

ومع المذكر والمؤنث ، ومنه قوله تعالى : ﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَـٰذَا .. (١٥٠)﴾ [الأنعام] أى : هاتوا ، وهذه هى اللغة الفصيحة .

وفى لغة من لغات تهامة يُلحقون بها علامة التثنية والجمع ، والتذكير والتأنيث ، فيقولون : هلم وهلمى وهلما وهلموا ، ولجمع الإناث هَلُمْنَ .

وقوله تعالى : ﴿وَلا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلاَّ قَلِيلاً (١٨)﴾ [الأحزاب] البأس أى : الحرب ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنْ بَأْسِكُمْ .. (٨٠)﴾ [الأنبياء]

وقال سبحانه : ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ .. (١٧٧)﴾ [البقرة] ففَرْق بين البأس والبأساء : البأس أى : الحرب . أما البأساء ، فكل ما يصيب الإنسان من مكروه فى غير ذاته كفَقْد ولد ، أو خسارة مال .. إلخ ، أما الضراء فما يصيب الإنسان فى ذاته ، كمرض أو نحوه .

ومن ذلك قول الله تعالى عن سيدنا داود : ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنْ بَأْسِكُمْ .. (٨٠)﴾ [الأنبياء]

والمراد : صناعة الدروع التى يلبسها الإنسان على مظانِّ المقَاتل فيه ، وعلى أجهزته الحيوية كالصدر والقلب والرأس ، ولها غطاء خاص (الخوذة) ، وتُصنع الدروع مُسنَّنة . أى : بها تموُّج وتجاويف ، بحيث تتلقى ضربات السيف بإحكام ، فلا تنفلت الضربة إلى مكان آخر فتؤذيه .

لذلك يقول تعالى لنبيه داود عن هذه الصنعة ﴿وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ .. (١١)﴾ [سبأ] أى : فى إحكام هذه الحلقات المتداخلة .

وفَرْق أيضاً هنا بين لَبُوس ولباس : اللباس هو ما يقى الإنسان تقلبات الجو ، ويستر عورته أثناء الأمن وسلام الحياة ، وهذه هى الملابس العادية التى يرتديها الناس .

وفيها يقول الحق سبحانه : ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلالاً وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا[1] وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ[2] تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ (٨١) ﴾ [النحل]

أما كلمة (لَبُوس) فهى المُعدَّة لحالة الحرب كالدروع ونحوها ؛ لذلك جاءت بصيغة دالة على التضخيم (لَبُوس) .

وهذه الآية تلفتنا إلى مظهر من مظاهر الدقة فى الأداء القرآنى المعجز ، فالآية هنا ذكرت (الحَرَّ) ، ولم تذكر شيئاً عن المقابل له ، وهو البرد ، والعلماء عادةً ما يلجئُون إلى تقدير هذا المحذوف عند تفسير الآية ، فيقولون : أى تقيكم الحر والبرد[3] ، يريدون أنْ يكملوا أسلوب القرآن ، وهذا لا يجوز .

---

(١) الأكنان : جمع كِنّ ، وما يُصان أو يستتر فيه الشىء ، والبيوت أكنان لأصحابها . [القاموس القويم للقرآن الكريم ٢/١٧٥] .

(٢) السربال : القميص والدرع . وقيل : كل ما لُبِس فهو سربال . [لسان العرب ـ مادة : سربل] .

(٣) قال ابن منظور فى لسان العرب ـ مادة : سربل : قيل فى قوله تعالى : ﴿ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ .. (٨١) ﴾ [النحل] : « إنها القمص تقى الحر والبرد ، فاكتفى بذكر الحر كأن ما وقى الحر وقى البرد » .

وقال أبو يحيى زكريا الأنصارى فى كتابه « فتح الرحمن بكشف ما يلتبس فى القرآن » : « ﴿ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ .. (٨١) ﴾ [النحل] أى : والبرد . وإنما حذفه لدلالة ضده عليه ، كما فى قوله تعالى : ﴿ بِيَدِكَ الْخَيْرُ .. (٢٦) ﴾ [آل عمران] أى : والشر . وخصَّ الحر والخير بالذكر ؛ لأن الخطاب بالقرآن أول ما وقع بالحجاز ، والوقاية من الحر أهم عند أهله ؛ لأن الحر عندهم أشد من البرد ، والخير مطلوب العباد من ربهم دون الشر » .

وحين نمعن النظر فى هذه الآيـة ، نجد أن الله تعالى خلق الظلال لتقـينا حرارة الشمس ، وجـعل اللباس ، وكذلك جـعل لنا الأكنان فى الجبال ، والله خلق الحرَّ على هذه الصـورة التى لا يتحملها الإنسان ؛ لأن للحر مهمة فى حياتنا ، فحرارة الشمس تخدمك فى أمور كثيرة ، وإنْ كانت تضايقك بعض الوقت ، فـالحق سبحانه أبقاها لتـؤدى مهمةَ خير لك ، ثم حَمَاك بالظل واللباس والأكنان من شرِّها .

فإنْ قُلْتَ : فهذه الأشياء تقينى أيضاً البرد ، نقول : إياك أنْ تظن أن الدفء يأتيك من غطاء ثقـيل أو مـلابس شتـوية ، إنمـا الدفء من ذاتك أنت ، فأنت تدفىء (البطانية) والـفراش الذى تنام عليه ، بدليل أنك ساعة تأتى فراشك لتنام تجده بارداً ، ثم بعد مرور ساعات الليل تجده فى الصباح دافئاً .

إذن : فحرارتك الذاتية انتـقلَتْ إلى الغطاء فأدفأتْه ، وكل ما يؤديه الغطاء أنه يحفظ حرارة جسمك بداخله ، فـلا تتبدد فى الهواء المحيط بك .

لذلك ، لما درس العلماء مسألة حرارة جـسم الإنسان وجدوا فيها مظهراً من مظاهر قدرة الله ، فالإنسان تُشع منه حرارة تكفى فى أربع وعشرين ساعة لغَلْى سبعة عـشر لتراً من الماء ، ومعدل هذه الحرارة فى الجسم ٣٧° ثابتة فى قـيظ الحر وبرد الشتاء ، مـما يدل على أن لجسمك ذاتيةً منفصلة تماماً عن الجو المحيط بك .

ومن عجائب خَلْق الإنسان أن هذه الحـرارة تتفاوت من عضو إلى عـضو آخـر ، والجسم واحـد ، فأعـضاء حـرارتها مـا بين ٧° - ٩° كـالأنف والأذن والعـين ، ولو زادتْ حـرارة الـعـين عن هذا المـعـدل

تنفجر ، أما الكبد فحرارته ٤٠° .. إلخ ، ومعلوم أن الحرارة تُحدِث استطراقاً فى الجسم الواحد ، وفى المكان الواحد .

ومن عجائب خَلْق الإنسان فى هذه المسألة العَرَق الذى يتصبب منك فى حالة تعرضك للحرارة الشديدة ، فيخرج العرق من مسامِّ الجسم ، ليُلطف من درجة حرارته ، ويُحدث عملية تبريد ، كالتى نراها مثلاً فى موتور السيارة ، حتى عندنا فى الفلاحين تجد الفلاح من كثرة عمله فى الأرض وكثرة عرقه تتكون على جسمه طبقة مثل الجير ، وهذه أملاح تخرج مع العرق ؛ لذلك يكثر فى هؤلاء الفلاحين أكل (المش) و (المخللات) لتعويض نسبة الأملاح المفقودة مع العرق ، إذن : فالحق سبحانه لم يقل (والبرد) ، لأن الدفء كما رأينا ذاتى .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا (١٨) ﴾ [الأحزاب] وهذه القلة مستثناة : إما من الإتيان ، أو أنهم يأتون البأس ، لكن قلة منهم يُقاتلون بهمة ونشاط ، والباقون أتوْا ذَرًّا للرماد فى العيون ـ كما يقولون ولئلا يُتهموا بالتخلف عن رسول الله .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (١٩) ﴾

قوله تعالى : ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ .. (١٩)﴾ [الأحزاب] الشح فى معناه العام هو البخل ، لكن الشحيح الذى يبخل على الغير ، وقد يكون كريماً على نفسه وعلى أهله ، أما البخيل فهو الذى يبخل حتى على نفسه ؛ لذلك قال تعالى ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ .. (١٩)﴾ [الأحزاب] ليس على أنفسهم[1] .

وأنت حين تتأمل الصفات المذمومة فى الكون تجدها ضرورية لحقائق تكوين الكون ، وتجد لها مهمة ؛ لذلك فَطِن الشاعر إلى هذه المسألة ، فقال :

إنَّ الأشِحَّاءَ أسْخَى النَّاسِ قَاطِبةً ... لأَنَّهم ملَكُوا الدُّنيا وَمَا انتفَعُوا
لم يَحْرِمُوا الناسَ من بَعْضِ الذى ملَكُوا ... إلاَّ لِيُعْطَوْا هُموا كُل الذى جمَعُوا

وآخر يرى للبخيل فضلاً عليه ، فيقول :

جُزِى البخيلُ علىَّ صالحةً ... مِنِّى لخِفَّتِه علَى نَفْسِى

نعم ، البخيل خفيف على النفس ؛ لأنه لم يَجُدْ عليك بشىء يأسرك به ، ولم يستعبدك فى يوم من الأيام بالإحسان إليك ، فهو خفيف على نفسك ؛ لأنك لستَ مديناً له بشىء .

وهذا على حَدِّ قول الشاعر :

---

(١) أورد القرطبى فى تفسيره (٥٤١٢/٧) عدة أقوال فى تأويل قوله تعالى : ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ .. (١٩)﴾ [الأحزاب] :

- أشحة عليكم : أى : بالحفر فى الخندق والنفقة فى سبيل الله . قاله مجاهد وقتادة .
- وقيل : بالقتال معكم .
- وقيل : بالنفقة على فقرائكم ومساكينكم .
- وقيل : أشحة بالغنائم إذا أصابوها . قاله السدى » .

أَحْسِنْ إِلَى النَّاسِ تَسْتَعبِدْ قُلُوبَهُم وطَالَما اسْتعبَدَ الإِنْسَانَ إِحْسَانُ

فالبخل وإنْ كان مذموماً ، فقد ركزه الله فى بعض الطباع ليعين التضاد ، ومعنى « يعين التضاد » أن البخل مقابله الكرم ، والبخيل يعاون الكريم على أداء مهمته ، فالكريم عادة (إيده سايبه) ، ينفق هنا وهناك حتى ينفد ما معه ، ومن أهل الكرم مَنْ يلجأ إلى أنْ يبيع أرضه أو بيته فى سبيل كرمه ، فمَنْ يشترى منه إذن إذا لم يكُنْ هناك مَنْ يكنز المال ويبخل به ؟

إذن : لو نظرتَ إلى كل شىء فى الوجود تجد له مهمة ، حتى إنْ كان مذموماً ، ثم إن البخيل كثيراً ما يكون ظريفاً لا يخلو مجلسه من ظُرْفه ، فقد كنا فى بواكير شبابنا نشرب السجائر ، فكان الواحد منا يُخرِج علبة السجائر يوزعها على الحاضرين ، وربما لا تكفى واحدة فأخرج الأخرى ، وكان فى مجلسنا واحد من هؤلاء ، فنظر إلىَّ فى غَيْظ وقال (يا قلبك يا أخى) .

وقد كانت هذه السجائر سبباً فى أننا جُرْنا على شبابنا ، فكان لهذا أثر بالغ علينا فى الكِبَر ، فليحْمِ الشباب شبابهم ولا يدمروه بمثل هذه الخبائث المحرمة .

ثم يقول سبحانه : ﴿ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ .. (١٩) ﴾ [الأحزاب] أى : فى ساعة الفزع ، يأخذ الفزع أبصارهم، فينظرون هنا وهناك ، لا تستقر أبصارهم ، ولا تسكن إلى شىء ، زاغتْ أبصارهم ﴿ كَالَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ .. (١٩) ﴾ [الأحزاب]

ومن ذلك الخبر : « إنكم لتكثرون عند الفزع ، وتَقِلُّون عند الطمع » .

كان هذا حالهم عند الخوف والفزع ﴿ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ .. (١٩) ﴾ [الأحزاب] معنى ﴿ سَلَقُوكُم .. (١٩) ﴾ [الأحزاب]

آلموكم وآذوكم بألسنتهم ، وقالوا لكم : أعطونا حقنا ، فقد حاربنا معكم ، ولولا نحن ما انتصرتُمْ على عدوكم ، إلى غير ذلك من التطاول بالقول والإيذاء والتأنيب .

وهذا كله من معانى (السلق) ومنه : سلق اللحم ونحوه ، وهو أنْ يغلى فى الماء دون أنْ تضيف إليه شيئاً ، ومثله السلخ ، فكلها معانٍ تلتقى فى الإيلام .

وعادةً ما تجد فى اللغة إذا اشترك اللفظان فى حرفين ، واختلفا فى الثالث تجد أن لهما معنى عاماً يجمعهما كما فى سلق وسلخ ، وفى : قطف ، وقطر ، وقطم . وكلها تلتقى فى الانفصال .

وقوله تعالى ﴿بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ .. (١٩)﴾ [الأحزاب] حداد يعنى : حادة فصيحة بملء الفم ، كما فى قوله تعالى : ﴿فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (٢٢)﴾ [ق]

ومعنى ﴿أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ .. (١٩)﴾ [الأحزاب] بعد أنْ قال ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ .. (١٩)﴾ [الأحزاب] أكَّد هذا المعنى بقوله ﴿أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ .. (١٩)﴾ [الأحزاب] أى : فى عمومه .

﴿أُولَـٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا .. (١٩)﴾ [الأحزاب] لأنهم لو آمنوا لَعلموا أن الشحَّ ، شُحٌّ عليهم هم ، وليس فى صالحهم ؛ لأن الكريم يستزيد من الله العطاء ، أما الشحيح فليس له زيادة ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿هَـٰأَنتُمْ هَـٰؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ .. (٣٨)﴾ [محمد]

وربك حين يراك تنفق مما أعطاك يزيدك ؛ لأنك مؤتمن على الرزق ؛ لذلك يقول أحد الصالحين : اللهم إنك عوّدتنى خيراً ، وعوَّدْتُ

خلقك خيراً ، فلا تقطع ما عوَّدتنى حتى لا أقطع عن الناس ما عوَّدتهم . إذن : فالعطاء استدرار لنعمة الله ، وسبب للمزيد منها .

وهَبْ أن لك عدة أولاد ، أعطيتَ لواحد منهم جنيهاً مثلاً ، فذهب واشترى به حلوى ، ثم وزَّعها على إخوته ، ولم يُؤثِر نفسه عليهم ، لا بُدَّ أنك ستأتمنه ، وتعطيه المزيد ؛ لأن الخير فى يده يفيض على الآخرين .

ونتيجة عدم الإيمان ﴿فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾﴾ [الأحزاب] أى : أنهم عملوا ، لكن أعمالهم لا رصيدَ لها من إيمان ؛ لذلك أحبطها الله أى : جعلها غير ذات جدوى ولا فائدةَ تعود عليهم . وهذه القضية أوضحها القرآن فى قوله تعالى : ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٨﴾﴾ [إبراهيم]

وهذا الإحباط أمر يسير على الله تعالى ، لكن أفى حَقِّ الله تعالى نقول : هذا صعب ، وهذا يسير ؟ قالوا : كلُّ أمر الله يسير ؛ لأنه تعالى لا يفعل بمعالجة الشىء ، إنما يفعل سبحانه بكُنْ ، وسبق أنْ مثَّلنا لمعالجة الأفعال بمَنْ يريد أنْ ينقل مثلاً عشرة أرادبّ من القمح ، فإنه لا يستطيع إلا أنْ يحملها مُجزَّأة ، فينقل (الجُوال) من هنا إلى هناك ، ثم الآخر ، إلى أنْ ينتهى من الكمية كلها ، ويأخذ فى هذا العمل وقتاً يتناسب مع قوته .

فلما تقدَّم العلم ، وتطوَّر الفكر الإنسانى رأينا الآلة التى تحمل كل هذه الكمية وتنقلها فى حركة واحدة ، وبمجرد الضغط على مجموعة من الأزرار والمفاتيح ، فإذا كان العبد المخلوق لله عز وجل قد استطاع أنْ يصلَ إلى هذا التيسير ، فما بالك بالخالق عز وجل ؟

لذلك يقول تعالى : ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٨٢)﴾ [يس] ولا تتعجب من هذه المسألة ؛ لأن ربك أعطاك فى ذاتك شيئاً منها ، لماذا تستبعد فعْل الله تعالى بكُنْ ، وأنت ترى جوارحك تنفعل لمجرد إرادتك للفعل ، مجرد رغبتك فى القيام ترى نفسك قد قُمْتَ ، دون حتى أن تأمر جوارحك وعضلاتك بالقيام .

فإنْ قلتَ : فلماذا لا يأمر الإنسان جوارحه وأعضاءه بما يريد ؟ نقول : لأنك لا تملك أنْ تأمرها ، فهى تنقاد لك ولمرادك بأمر الله ، فالأشياء كلها إنما تأتمر بأمر الخالق سبحانه ، ولا تتخلف عن أمره أبداً ، ألم تقرأ عن السماء ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٢)﴾ [الانشقاق]

فالسماء مع عظَم خَلْقها تسمع وتطيع أمر خالقها ؛ أما أنت أيها العبد ، فأىَّ شىء تأمر ، وأنت لا تعرف أصلاً ما تأمره ؟ وهل تعرف أنت العضلات والأعضاء والأعصاب التى تشترك بداخلك لأداء عملية القيام ؟ لذلك ولعدم علمك بما تأمره جعل الله أعضاءك وجوارحك تنفعل لمجرد إرادتك .

أما هو سبحانه فيقول (كُنْ) لأنه خالق كل شىء ، وكل شىء مؤتمر بأمره ، وقال سبحانه (كُنْ) حتى لا تقولها أنت ، فكأنها سبقتْ منه سبحانه لصالحك أنت ، وأنت تفعل من باطن كُنْ الأولى التى توزَّعَتْ علينا جميعاً .

﴿يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا ۖ وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا (٢٠)﴾

القرآن الكريم يحكى هذا الموقف عن المنافقين ، ويكشف نواياهم السيئة ، فبعد أنْ تجمَّع الأحزاب وخرجوا لمحاربة النبى ﷺ ما يزال هؤلاء المنافقون ﴿ يَحْسَبُونَ الأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا .. (٢٠) ﴾ [الأحزاب] فهذا التجمُّع يخيفهم ويروعهم ؛ لذلك لم يُصدِّقوه ، فقد رأوا النبى ﷺ ينتصر على أعدائه متفرقين ، وهذه هى المرة الأولى التى يجتمع فيها أعداء الإسلام على اختلافهم .

إذن : استبعد المنافقون تجمُّع الأحزاب هذا التجمع ، وبعد ذلك ينفضون دون أنْ يصنعوا حَدَثاً يُذكر فى التاريخ .

والحُسْبان : ظن ، أى : ليس حقيقة .

﴿ وَإِن يَأْتِ الأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى الأَعْرَابِ .. (٢٠) ﴾ [الأحزاب] أى : إنْ يتجمع الأحزاب يودُّ المنافقون لو أنهم بادون أى : مقيمون فى البادية بعيداً عن المدينة ؛ لأنهم يخافون من مطلق التجمع ، ولأنهم إنْ بَقَوْا فى المدينة إما أنْ يحاربوا الأحزاب وهم غير واثقين من النصر ، وإما ألاَّ يحاربوا فيصيرون أعداءً للمسلمين .

فهم يريدون - إذن - أنْ يعيشوا فى النفاق ، وألاَّ يخرجوا منه ؛ لذلك يودون عيشة البادية مع الأعراب ، ومن بعيد ﴿ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ .. (٢٠) ﴾ [الأحزاب] أى : ما حدث لكم فى هذه المواجهة .

ثم يقرر القرآن هذه الحقيقة : ﴿ وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلاَّ قَلِيلاً (٢٠) ﴾ [الأحزاب] أى : درْءاً للشبهات ، وذَرّاً للرماد فى العيون ، إذن : لا تأْسَ عليهم ، ولا تحزن لتخلُّفهم .

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾

أسوة : قدوة ونموذج سلوكى ، والرسول ﷺ مُبلِّغ عن الله منهجه لصيانة حركة الإنسان فى الحياة ، وهو أيضاً ﷺ أُسْوة سلوك ، فما أيسر أنْ يعظ الإنسانُ ، وأنْ يتكلَّم ، المهم أنْ يعمل على وَفْق منطوق كلامه ومراده ، وكذلك كان سيدنا رسول الله مُبلِّغاً وأسوة سلوكية ؛ لذلك قالت عنه السيدة عائشة رضى الله عنها : « كان خلقه القرآن »[(١)] .

لكن ، ما الأسوة الحسنة التى قدَّمها رسول الله فى مسألة الأحزاب ؟ لمَّا تجمَّع الأحزاب كان من دعائه ﷺ : « اللهم مُنزلَ الكتاب ، سريعَ الحساب ، اهزم الأحزاب ، اللهم اهزمهم وزلزلهم »[(٢)] .

وجعل شعاره الإيمانى فيما بعد « لا إله إلا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وأعزَّ جنده ، وهزم الأحزاب وحده »[(٣)] وما دام

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٦/٩١ ، ١٦٣) ، وأبو بكر البيهقى فى دلائل النبوة (١/٣١٠) من حديث عائشة رضى الله عنها أن سعد بن هشام بن عامر قال : أتيت عائشة ، فقلت : يا أم المؤمنين أخبرينى بخلق رسول الله ﷺ . قالت : كان خلقه القرآن ، أما تقرأ القرآن قول الله عز وجل : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ [القلم] .

(٢) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٩٣٣) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٧٤٢) كتاب الجهاد ـ باب استحباب الدعاء بالنصر (٧) من حديث عبد الله بن أبى أوفى.

(٣) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٤١١٤) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٧٢٤) كتاب الذكر والدعاء ـ باب (١٨) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ولفظهما : « لا إله إلا الله وحده ، أعزَّ جنده ، ونصر عبده ، وغلب الأحزاب وحده ، فلا شىء بعده » .

هذا شعار المصطفى ﷺ ، فهو لكم أُسْوة .

وقال تعالى عن المؤمنين فى هذه الغزوة : ﴿وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ .. (٢١٤)﴾ [البقرة]

وفى بدر يقول أبو بكر : يا رسول الله ، بعض مناشدتك ربك ، فإن الله منجز لك ما وعدك[١] .

ولقائل أنْ يقول : إذا كان الله تعالى قد وعد نبيه بالنصر ، فلَم الإلحاح فى الدعاء ؟ نقول : ما كان سيدنا رسول الله يُلِح فى الدعاء من أجل النصر ؛ لأنه وَعْد مُحقَّق من الله تعالى .

واقرأ قوله تعالى : ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ (٧)﴾ [الأنفال]

فالرسول لا يريد الانتصار على العِير ، وعلى تجارة قريش ، إنما يريد النفير الذى خرج للحرب .

وقوله تعالى : ﴿فِي رَسُولِ اللَّهِ .. (٢١)﴾ [الأحزاب] كأن الأُسْوة الحسنة مكانها كل رسول الله ، فهو ﷺ ظرف للأُسْوة الحسنة فى كل عضو فيه ﷺ ، ففى لسانه أُسْوة حسنة ، وفى عينه أُسْوة حسنة ، وفى يده أُسْوة حسنة .. إلخ ، كله ﷺ أُسْوة حسنة .

---

(١) أورده ابن هشام فى السيرة النبوية (٢/٦٢٧) أن رسول الله ﷺ عدّل الصفوف يوم بدر ، ورجع إلى العريش فدخله ، ومعه فيه أبو بكر الصديق ، ليس معه فيه غيره ، ورسول الله ﷺ يناشد ربه ما وعده من النصر ، ويقول فيما يقول : اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تُعبد . وقد خفق رسول الله ﷺ خفقة وهو فى العريش ، ثم انتبه فقال : أبشر يا أبا بكر ، أتاك نصر الله ، هذا جبريل آخذٌ بعنان فرس يقوده ، على ثناياه النقع . (أى : الغبار) .

هذه الأُسْوة لمَنْ ؟ ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً (٢١)﴾ [الأحزاب]

وصف ذكر الله بالكثرة ؛ لأن التكاليف الإيمانية تتطلب من النفس استعداداً وتهيؤاً لها ، وتؤدى إلى مشقة ، أما ذكْر الله فكما قُلْنا لا يكلفك شيئاً ، ولا يشق عليك ؛ لذلك قال تعالى : ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ .. (٤٥)﴾ [العنكبوت]

يعنى : أكبر من أىِّ طاعة أخرى ؛ لأنه يسير على لسانك ، تستطيعه فى كل عمل من أعمالك ، وفى كل وقت ، وفى أىِّ مكان ، ولذلك قُلْنا فى آية الجمعة : ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً .. (١٠)﴾ [الجمعة]

﴿وَلَمَّا رَءَا الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا (٢٢)﴾

أى : لما رأى المؤمنون الأحزاب منصرفين مهزومين ﴿قَالُوا هَـٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ .. (٢٢)﴾ [الأحزاب]
أى : هذا النصر ، وهذا الوعد الذى تحقق ما زادهم ﴿إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيماً (٢٢)﴾ [الأحزاب]

وهذه المسألة دليل من أدلة أن الإيمان يزيد وينقص ، فالإيمان يزيد بزيادة الجزئيات التى تُعليه ، فبعد الإيمان بالحق - سبحانه وتعالى - هناك إيمان بالجزئيات التى تثبت صدْق الحق فى كلِّ تصرف .

وتسليماً : أى لله فى كلِّ ما يُجريه على العباد .

﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ[1] وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ ﴾

نزلت هذه الآية فى جماعة من المؤمنين صادقى الإيمان[2] ، إلا أنهم لم يشهدوا بدراً ولا أُحُداً ، ولكنهم عاهدوا الله إنْ جاءت معركة أخرى لَيُبَادِرُنَّ إليها ، ويبلُون فيها بلاءً حسناً .

وورد أنها نزلت فى أنس بن النضر ، فقد عاهد الله لما فاتته بدر لو جاءت مع المشركين حرب أخرى لَيبلونَّ فيها بلاء حسناً ، وفعلاً لما جاءت أُحُد أبلى فيها بلاءً حسناً حتى استشهد فيها ، فوجدوا فى جسده نيِّفاً وثمانين طعنةً برمح ، وضربة بسيف[3] ، وهذا معنى

---

(١) نحب : أوجب على نفسه أمراً . أو نذر نذراً . وقضى نحبه : وفَّى بنذره . والنحب النذر ويقال لمن مات فى سبيل الله : قضى نحبه . أى : وفَّى بنذره لأنه نذر أن يموت فى سبيل الله . [القاموس القويم ٢/٢٥٥] .

(٢) قال على بن أبى طالب عن طلحة بن عبيد الله : ذلك امرؤ نزلت فيه آية من كتاب الله تعالى ﴿ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ .. ﴿٢٣﴾ ﴾ [الأحزاب] : طلحة ممن قضى نحبه ، لا حساب عليه فيما يستقبل . وقال عيسى بن طلحة : أن النبى ﷺ مرّ عليه طلحة فقال : هذا ممن قضى نحبه . أوردهما الواحدى النيسابورى فى (أسباب النزول ص ٢٠٢ ، ٢٠٣) .

(٣) عن أنس بن مالك قال : غاب عمى أنس بن النضر عن قتال بدر ، فشق عليه ، وقال : غبت عن أول مشهد شهده رسول الله ﷺ ، والله لئن أشهدنى الله سبحانه قتالاً ليرينَّ الله ما أصنع ، فلما كان يوم أحد انكشف المسلمون فقال : اللهم إنى أبرأ إليك مما جاء به هؤلاء المشركون وأعتذر إليك مما صنع هؤلاء ، يعنى المسلمين ، ثم مشى بسيفه فلقيه سعد بن معاذ فقال : أى سعد ، والذى نفسى بيده إنى لأجد ريح الجنة دون أُحُد ، فقاتلهم حتى قُتل . قال أنس : فوجدناه بين القتلى به بضع وثمانون جراحة من بين ضربة بالسيف وطعنة بالرمح ورمية بالسهم ، وقد مثّلوا به ، وما عرفناه حتى عرفته أخته ببنانه ، ونزلت هذه الآية . [أسباب النزول للواحدى ص ٢٠٢ ، وابن سعد فى الطبقات الكبير (٤/٣٢٩)] .

﴿صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ .. (٢٣)﴾ [الأحزاب]

وساعة تسمع كلمة ﴿رِجَالٌ .. (٢٣)﴾ [الأحزاب] فى القرآن ، فاعلم أن المقام مقام جدٍّ وثبات على الحق ، وفخر بعزائم صُلْبة لا تلين ، وقلوب رسخ فيها الإيمان رسوخ الجبال . وهؤلاء الرجال وَفَّوا العهد الذى قطعوه أمام الله على أنفسهم ، بأنْ يبلُوا فى سبيل نصرة الإسلام ، ولو يصل الأمر إلى الشهادة .

وقوله تعالى : ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ .. (٢٣)﴾ [الأحزاب] قضى نحبه : أى أدَّى العهد ومات ، والنحب فى الأصل هو النذر ، فالمراد : أدى ما نذره ، أو ما عاهد الله عليه من القتال ، ثم استُعمِلَت (النحب) بمعنى الموت .

لكن ، ما العلاقة بين النذر والموت ؟ قالوا : المعنى إذا نذرتَ فاجعل الحياةَ ثمناً للوفاء بهذا النذر ، وجاء هذا التعبير ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ .. (٢٣)﴾ [الأحزاب] لتعلم أن الموت يجب أن يكون منك نذراً . أى : انذر لله أنْ تموت ، لكن فى نُصْرة الحق وفى سبيل الله ، فكأن المؤمن هو الذى ينذر نفسه وروحه لله ، وكأن الموت عنده مطلوب ليكون فى سبيل الله .

فالمؤمن حين يستصحب مسألة الموت ويستقرئها يرى أن جميع الخَلْق يموتون من لدُن آدم عليه السلام حتى الآن ؛ لذلك تهون عليه حياته ما دامت فى سبيل الله ، فينذرها ويقدمها لله عن رضا ، ولِمَ لا وقد ضحيتَ بحياة ، مصيرها إلى زوال ، واشتريتَ بها حياة باقية خالدة مُنعَّمة .

وقد ورد فى الأثر : « ما رأيتُ يقيناً أشبه بالشك من يقين الناس بالموت » ومع أننا نرى الموت لا يُبقى على أحد فينا إلا أن كل

إنسان فى نفسه يتصور أنه لن يموت .

وحَقٌّ للمؤمن أنْ ينذر نفسه ، وأنْ يضحى بها فى سبيل الله ؛ لأن الله يقول : ﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ (١٧١) ﴾ [آل عمران]

وهذه الحياة التى عند الله حياة على الحقيقة ، لأن الرزق سمة الحىِّ الذى يعيش ويأكل ويشرب .. إلخ ، وإياك أنْ تظن أنها حياة معنوية فحسب .

وقد تسمع مَنْ يقول لك : هذا يعنى أننى لو فتحتُ القبر على أحد الشهداء أجده حياً فى قبره ؟ ونقول لمن يحب أنْ يجادل فى هذه المسألة : الله تعالى قال : ﴿ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ .. (١٦٩) ﴾ [آل عمران] ولم يقل : أحياء عندك ، فلا تحكم على هذه الحياة بقانونك أنت ، لا تنقل قانون الدنيا إلى قانون الآخرة .

والمؤمن ينبغى أن يكون اعتقاده فى الموت ، كما قال بعض العارفين : الموت سهم أُرسِل إليك بالفعل ، وعمرك بقدر سفره إليك .

والقرآن حين يعالج هذه المسألة يقول تعالى : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ .. (٢) ﴾ [الملك] فقدَّم الموت على الحياة ، حتى لا نستقبل الحياة بغرور الحياة ، إنما نستقبلها مع نقيضها حتى لا نغترَّ بها .

وقوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ .. (٢٣) ﴾ [الأحزاب] أى : ينتظر الوفاء بعهده مع الله ، وكأن الله تعالى يقول : الخير فيكم يا أمة محمد

باق إلى يوم القيامة ﴿وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً (٢٣)﴾ [الأحزاب] معنى التبديل هنا : أى ما تخاذلوا فى شىء عاهدوا الله عليه ونذروه ، فما جاءت بعد ذلك حرب ، وتخاذل أحد منهم عنها ، ولا أُدخل أحد منهم الحرب مواربة ورياء ، فقاتل من بعيد ، أو تراجع خوفاً من الموت ، بل كانوا فى المعمعة حتى الشهادة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (٢٤)﴾

تأمل هنا رحمة الخالق بالخَلْق ، هذه الرحمة التى ما حُرم منها حتى المنافق ، فقال سبحانه ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ .. (٢٤)﴾ [الأحزاب]

وسبق أنْ تحدثنا عن صفتى المغفرة والرحمة وقلنا : غفور رحيم من صيغ المبالغة ، الدالة على كثرة المغفرة وكثرة الرحمة ، وأن القرآن كثيراً ما يقرن بينهما ، فالمغفرة أولاً لتستر العيب والنقائص ، ثم يتلوها الرحمة من الله ، بأن تمتد يده سبحانه بالإحسان .

وقد أوضحنا ذلك باللص تجده فى بيتك ، فتشفق عليه ، ثم تمتد إليه يدك بالمساعدة التى تعينه على عدم تكرار ذلك . وقلنا : إن الغالب أن تسبق المغفرةُ الرحمةَ ، وقليلاً ما تسبق الرحمةُ المغفرةَ .

وقلنا : إنه يشترط فى المغفرة أن تكون من الأعلى للأدنى ، فإذا

ستر العبد على سيده قبحاً لا يقال : غفر له ، وكذلك فى الرحمة فإن مال الأقل بالإحسان إلى الأعلى لا يقال رحمة ؛ لأنه قد يعطيه عِوَضاً عما قدَّم له أو يعطيه انتظار أنْ يرد إليه ما أعطاه مرة أخرى .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ ﴾

الغيظ : احتدام حقد القلب على مقابل منافس ، والمعنى : أن الله تعالى ردَّ الكافرين والغيظ يملأ قلوبهم ؛ لأنهم جاءوا وانصرفوا دون أنْ ينالوا من المسلمين شيئاً ﴿لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا .. ﴿٢٥﴾﴾ [الأحزاب] ليس الخير المطلق ، إنما لم ينالوا الخير فى نظرهم ، وما يبتغونه من النصر على المسلمين ، فهو خير لهم وإنْ كان شراً يُراد بالإسلام .

وقد رد الله الكافرين إلى غير رَجْعة ، ولن يفكروا بعدها فى الهجوم على الإسلام ؛ لذلك قال سيدنا رسول الله بعد انصرافهم خائبين : « لا يغزونا أبداً ، بل نغزوهم نحن »[1] وفعلاً كان بعدها فتح مكة .

وقوله تعالى : ﴿وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ .. ﴿٢٥﴾﴾ [الأحزاب] أى :

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٤١٠٩ ، ٤١١٠) ، وأحمد فى مسنده (٢٦٢/٤) من حديث سليمان بن صرد . قال العسقلانى فى (فتح البارى ٤٠٥/٧) : « فيه علَم من أعلام النبوة ، فإنه ﷺ اعتمر فى السنة المقبلة فصدته قريش عن البيت ووقعت الهدنة بينهم إلى أن نقضوها فكان ذلك سبب فتح مكة ، فوقع الأمر كما قال » .

أن ردَّ الكافرين لم يكُنْ بسبب قوتكم وقتالكم ، إنما تولَّى الله ردَّهم وكفاكم القتال ، صحيح كانت هناك مناوشات لم تصل إلى حجم المعركة ، ولو حدثت معركة بالفعل لكانت فى غير صالح المؤمنين ؛ لأنهم كانوا ثلاثة آلاف ، فى حين كان المشركون عشرة آلاف .

إذن : كانت رحمة الله بالمؤمنين هى السبب الأساسى فى النصر ؛ لذلك ذُيلت الآية بقوله تعالى : ﴿وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا (٢٥)﴾ [الأحزاب] قوياً ينصركم دون قتال منكم ، وعزيزاً : أى يغلب ولا يُغلب .

هذا ما كان من أمر قريش وحلفائها ، أما بنو قريظة فيقول الله فيهم :

﴿وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا (٢٦)﴾

معنى ﴿ظَاهَرُوهُم .. (٢٦)﴾ [الأحزاب] أى : عاونوهم ﴿مِن صَيَاصِيهِمْ .. (٢٦)﴾ [الأحزاب] أى : من حصونهم وقلاعهم ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ .. (٢٦)﴾ [الأحزاب] أى : الخوف وهو جندى من جنود الله ، وهذا الرعب الذى ألقاه الله فى قلوب الكافرين هو الذى فرَّقهم ، ولم يجعل لكثرة العدد لديهم قيمة ، وما فائدة أعداد كثيرة خائفة مذعورة ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ .. (٤)﴾ [المنافقون]

ألم يُحدِّثنا صحابة رسول الله أنهم كانوا يستعملون السواك ، فظن الكفار أنهم يسنُّون أسنانهم ليأكلوهم ، هذا هو الرعب الذى نصر الله به عباده المؤمنين .

ومعنى ﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ .. (٢٦)﴾ [الأحزاب] أى : المقاتلين الذين يحملون السلاح ﴿وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا (٢٦)﴾ [الأحزاب] وهم النساء والذرارى وغيرهم مِمَّنْ لا يحملون السلاح .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا (٢٧)﴾

معنى ﴿وَأَوْرَثَكُمْ .. (٢٧)﴾ [الأحزاب] أى : أعطاكم أرضَ وديار وأموالَ أعدائكم من بعد زوالهم وانهزامهم ﴿وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا .. (٢٧)﴾ [الأحزاب] أى : أماكن جديدة لم تذهبوا إليها بعد ، والمراد بها خيبر ، وكأن الله يقول لهم : انتظروا فسوف تأخذون منهم الكثير ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا (٢٧)﴾ [الأحزاب]

وهكذا انتهى التعبير القرآنى من قصة الأحزاب[1] .

---

(١) أخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة رضى الله عنه فى قوله ﴿وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ .. (٢٦)﴾ [الأحزاب] قال : « هم بنو قريظة ظاهروا أبا سفيان ، وراسلوه ، ونكثوا العهد الذى بينهم وبين النبى ﷺ ، فبينما النبى ﷺ عند زينب بنت جحش يغسل رأسه وقد غسلت شقه ، إذ أتاه جبريل عليه السلام ، فقال : عفا الله عنك . ما وضعت الملائكة عليها السلام سلاحها منذ أربعين ليلة ، فانهض إلى بنى قريظة فإنى قد قطعت أوتادهم ، وفتحت أبوابهم ، وتركتهم فى زلزال وبلبال .

فأرسل رسول الله ﷺ فحاصرهم ، وناداهم : يا إخوة القردة فقالوا : يا أبا القاسم ما كنت فحاشاً . فنزلوا على حكم سعد بن معاذ وكان بينهم وبين قومه حلف ، فرجوا أن تأخذه فيهم مودة ، فأومأ إليهم أبو لبابة ، فأنزل : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ .. (٢٧)﴾ [الأنفال] فحكم فيهم سعد : أن تُقتل مقاتلتهم ، وأن تسبى ذراريهم ، وأن عقارهم للمهاجرين دون الأنصار ، فقال الأنصار : آثر المهاجرين بالأعقار علينا ، فقال سعد : إنكم كنتم ذوى أعقار ، وأن المهاجرين كانوا لا أعقار لهم . فذكر لنا أن رسول الله ﷺ كبَّر وقال : مضى فيكم بحكم الله » . [الدر المنثور فى التفسير بالمأثور ٦/٥٩١] .

وينبغى علينا الآن أنْ نستعرض القصة بفلسفة أحداثها ، وأن نتحدث عَمَّا فى هذه القصة من بطولات ، ففيها بطولات متعددة ، لكل بطل فيها دور .

وتبدأ القصة حين ذهب كل من حيى بن أخطب ، وسلام بن أبى الحقيق ، وكانا من قريظة ، ذهبا إلى قريش فى أماكنها ، وقالوا : جئناكم لنتعاون معكم على إبطال دعوة محمد ، فأتُوا أنتم من أسفل ، وننزل نحن من أعلى ، ونحيط محمداً ومن معه ونقضى عليهم .

وكان فى قريش بعض التعقُّل فقالوا لحيى بن أخطب وصاحبه : أنتم أهل كتاب ، وأعلم بأمر الأديان فقولوا لنا : أديننا الذى نحن عليه خير أم دين محمد ؟ فقال : بل أنتم أصحاب الحق[1] .

سمعتْ قريش هذا الكلام بما لديها من أهواء ، وكما يقال : آفة الرأى الهوى ؛ لذلك لم يناقشوه فى هذه القضية ، بل نسجوا على منواله ، ولم يذكروا ما كان من أهل الكتاب قبل بعثته ﷺ ، وأنهم كانوا يستفتحون على الكافرين برسول الله ويقولون لهم : لقد أطلَّ زمان نبى جديد نتبعه ونقتلكم به قَتْلَ عاد

---

(١) قال تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَـٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾﴾ [النساء] وعن عكرمة قال : جاء حُيى بن أخطب وكعب بن الأشرف إلى أهل مكة فقالوا لهم : أنتم أهل الكتاب وأهل العلم فأخبرونا عنا وعن محمد ، فقالوا : ما أنتم وما محمد ؟ فقالوا : نحن نصل الأرحام ، وننحر الكوماء (الناقة العظيمة السنام) ، ونسقى الماء على اللبن ، ونفك العانى (الأسير) ، ونسقى الحجيج ، ومحمد صنبور قطع أرحامنا واتبعه سراق الحجيج من غفار ، فنحن خير أم هو ؟ فقالوا : أنتم خير وأهدى سبيلاً . [تفسير ابن كثير ١/٥١٣] .

وإرم[١] ، لقد فات قريشاً أنْ تراجع حيى بن أخطب ، وأن تسأله لماذا غيَّرتم رأيكم فى محمد ؟

ثم جاء القرآن بعد ذلك ، وفضح هؤلاء وهؤلاء ، فقال سبحانه : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَـٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾﴾ [النساء]

فكانت هذه أول مسألة تغيب فيها العقول ، ويفسد فيها الرأى ، فتنتهز قريش أول فرصة حين تجد مَنْ يناصرها ضد محمد ودعوته ، ومن هنا اجتمع أهل الباطل من قريش وأحلافها من بنى فزارة ، ومن بنى مرة ، ومن غطفان وبنى أسد والأشجعيين وغيرهم ، اجتمعوا جميعاً للقضاء على الدين الوليد .

ثم كانت أولى بطولات هذه المعركة ، لرجل ليس من العرب ، بل من فارس عبدة النار والعياذ بالله ، وكأن الحق سبحانه يُعِد لنصرة الحق حتى من جهة الباطل ، إنه الصحابى الجليل سلمان الفارسى[٢] ،

---

(١) قال محمد بن إسحاق عن عاصم بن عمرو عن قتادة الأنصارى عن أشياخ منهم قال : فينا والله وفيهم ، يعنى فى الأنصار وفى اليهود الذين كانوا جيرانهم نزلت هذه القصة يعنى ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ﴿٨٩﴾﴾ [البقرة] قالوا : كنا قد علوناهم قهراً دهراً فى الجاهلية ونحن أهل شرك وهم أهل كتاب . وهم يقولون : إن نبياً سيُبعث الآن نتبعه قد أظل زمانه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم ، فلما بعث الله رسوله من قريش واتبعناه كفروا به » أورده ابن كثير فى تفسيره (١/١٢٤) .

(٢) سلمان الفارسى ، صحابى من مقدميهم ، أصله من مجوس أصبهان ، رحل إلى الشام ، فالموصل ، فنصيبين ، قرأ كتب الفرس والروم واليهود ، وعلم بخبر الإسلام فقصد النبى فسمع كلامه ، ولم يدخل الإسلام إلا بعد أن تحرر من العبودية . كان ينسج الصوف ويأكل خبز الشعير من كسب يده . توفى ٣٦ هـ [الأعلام للزركلى ٣/١١٢] .

الذى قضى حياته جَوَّالاً يبحث عن الحقيقة ، إلى أنْ ساقتْه الأقدار إلى المدينة ، وصادف بعثة رسول الله وآمن به .

وكان سلمان أول بطل فى هذه المعركة ، حين أشار على رسول الله بحفر الخندق ، وقال : يا رسول الله كنا - يعنى فى فارس - إذا حَزَبنا أمرُ القتال خندقنا يعنى : جعلنا بيننا وبين أعدائنا خندقاً ، ولاقت هذه الفكرة استحساناً من المهاجرين ومن الأنصار ، فأراد كل منهم أن يأخذ سلمان فى صَفِّه ، فلما تنازعا عليه ، قال سيدنا رسول الله لهم « بل سلمان منا آل البيت »[(١)] وهذا أعظم وسام يوضع على صدر سلمان رضى الله عنه .

وهذه الفكرة دليل على أن الحق سبحانه يُجنِّد حتى الباطل لخدمة الحق ، فنحن لم يسبق لنا أنْ رأينا خندقاً ولا أهل الفارسى الذين جاءوا بهذه الفكرة ، لكن ساقها الله لنا ، وجعلها جُنْداً من جنوده على يد هذا الصحابى الجليل ، لنعلم كما قال تعالى ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ .. (٢٤)﴾ [الأنفال]

وقد أوضحنا هذا المعنى فى قصة فرعون الذى كان يذبح الأطفال

---

(١) عن عمرو بن عوف المزنى قال : خط رسول الله ﷺ الخندق عام الأحزاب من أجم السَّمُر طرف بنى حارثة حين بلغ المداد ، ثم قطع أربعين ذراعاً بين كل عشرة ، فاختلف المهاجرون والأنصار فى سلمان الفارسى ، وكان رجلاً قوياً ، فقالت الأنصار : سلمان منا . وقالت المهاجرون : سلمان منا . فقال رسول الله ﷺ : « سلمان منا أهل البيت » أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٣/٤١٨) والحاكم فى مستدركه (٣/٥٩٨) وضعّف الذهبى إسناده من أجل كثير بن عبد الله .

بعد النبوءة التى سمعها ، ثم يأتيه طفل على غير العادة يحمله إليه الماء ، وهو فى صندوقه ، ولا يخفى على أحد أنَّ أهله قصدوا بذلك إبعاده عن خطر فرعون ، ومع ذلك حال الله بين فرعون وبين ما فى قلبه ، فأخذ الولدَ وربَّاه فى بيته .

وقد أحسن الشاعر الذى عبَّر عن هذا المعنى ، فقال :

إذاَ لَمْ تُصَادِفْ فِى بَنِيكَ عِنَايَةً فَقَد كَذَب الراجى وَخَابَ المُؤَمِّلُ
فَمُوسىَ الذِى ربَّاه جِبْرِيلُ كَافِرٌ ومُوسىَ الذِى ربَّاهُ فرعَوْنُ مُرْسَلُ

البطل الثانى فى هذه المعركة رجل يُدْعَى نعيم بن مسعود الأشجعى[1] ، جاء لرسول الله يقول : يا رسول الله لقد مال قلبى للإسلام ، ولا أحد يعلم ذلك من قومى ، فقال له رسول الله : « وما تغنى أنت ؟ ولكن خذِّل عنا »[2] أى : ادفع عنا القوم بأىِّ طريقة ، أبعدهم عنّا ، أو ضلِّلهم عن طريقنا ، أو قُلْ لهم أننا كثير ليرهبونا .. إلخ .

---

(١) نعيم بن مسعود بن عامر الأشجعى ، أبو سلمة . صحابى مشهور ، أسلم ليالى الخندق ، وهو الذى أوقع الخلف بين الحيين قريظة وغطفان فى وقعة الخندق ، فخالف بعضهم بعضاً ورحلوا عن المدينة . قُتل نعيم فى أول خلافة على قبل قدومه البصرة فى وقعة الجمل ، وقيل : مات فى خلافة عثمان ، والله أعلم . [الإصابة فى تمييز الصحابة ترجمة رقم ٨٧٨٠] .

(٢) ذكره ابن هشام فى السيرة النبوية (٢٤٧/٣) أن نعيم بن مسعود أتى رسول الله ﷺ ، فقال : يا رسول الله إنى قد أسلمت ، وإن قومى لم يعلموا بإسلامى ، فمُرْنى بما شئت ، فقال رسول الله ﷺ ، « إنما أنت فينا رجل واحد ، فخذِّل عنا إن استطعت ، فإن الحرب خدعة » .

هذا رجل كان بالأمس كافراً ، فماذا فعل الإيمان فى قلبه ، وهو حديث عهد به ؟ نظر نُعَيْم ، فرأى قريشاً وأتباعها يأتون من أسفل ، وبنى قريظة وأتباعهم يأتون من أعلى ، فأراد أنْ يدخل بالدسيسة بينهما ، فذهب لأبى سفيان ، وقال : يا أبا سفيان ، أنا صديقكم ، وأنتم تعلمون مفارقتى لدين محمد ، ولكنى سمعت هَمْساً أن بنى قريظة تداركوا أمرهم مع محمد ، وقالوا : إن قريشاً وأحلافهم ليسوا مقيمين فى المدينة مثلنا ، فإنْ صادفوا نصراً ينتصرون ، وإنْ صادفوا هزيمة فروا إلى بلادهم ، ثم يتركون بنى قريظة لمحمد ؛ لذلك قرروا ألاَّ يقاتلوا معكم إلاَّ أنْ تعطوهم عشرة من كبرائكم ليكونوا رهائن عندهم .

سمع أبو سفيان هذا الكلام ، فذهب إلى قومه فقال لهم : أنتم المقيمون هنا ، وليس هذا موطن بنى قريظة ، وسوف يتركونكم لمواجهة محمد وحدكم ، فإنْ أردتم البقاء على عهدهم فى محاربة محمد ، فاطلبوا منهم رهائن تضمنوا بها مناصرتهم لكم .

بعدها ذهب أبو سفيان ليكلِّم بنى قريظة فى هذه المسألة ، فقال : هلك الخفُّ والحافر ـ يعنى : الإبل والخيل ـ ولسنا بدار مقام لنا ، فهيا بنا نناجز[1] محمداً ـ هذا بعد أنْ مكثوا نيِّفاً وعشرين يوماً يعدون ويتشاورون ـ فقالوا له : هذا يوم السبت ، ولن نفسد ديننا من أجل قتال محمد وعلى كل حال نحن لن نشترك معكم فى قتال ، إلا أنْ تعطونا عشرة من كبرائكم يكونون رهائن عندنا ، ساعتها علم أبو سفيان أن كلام نعيم الأشجعى صِدْق ، فجمع قومه وقال لهم :

---

(١) المناجزة فى القتال : المبارزة والمقاتلة ، وهو أن يتبارز الفارسان فيتمارسا حتى يقتل كل واحد منهما صاحبه أو يُقتل أحدهما . وتناجز القوم : تسافكوا دماءهم كأنهم أسرعوا فى ذلك . [لسان العرب ـ مادة : نجز] .

الأرض ليست أرض مقام لنا ، وقد هلك الخف والحافر ، فهيا بنا ننجو .

قالوا : إن رسول الله ﷺ لما جاء نعيم بن مسعود ، وأخبر رسول الله بما حدث ، ووجد رسول الله الجو هادئاً ، فقال : « ألا رجل منكم يذهب فيُحدِّثنا الآن عنهم ، وهو رفيقى فى الجنة ؟ » والمراد : أن يندسَّ بين صفوف الأعداء ليعلم أخبارهم .

ومع هذه البشارة التى بشر بها سيدنا رسول الله مَنْ يؤدى هذه المهمة ، لم يَقُمْ من الحاضرين أحد ، ودَلَّ هذا على أن الهول ساعتها كان شديداً ، والخطر كان عظيماً ، وكان القوم فى حال من الجهد والجوع والخوف ، جعلهم يتخاذلون عن القيام ، فلم يأنس أحد منهم قوة فى نفسه يؤدى بها هذه المهمة .

لذلك كلَّف رسول الله رجلاً يُدْعى حذيفة بن اليمان بهذه المهمة قال حذيفة : ولكن رسول الله قال لى : لا تُحدث أمراً حتى ترجع إلىَّ ، فلما ذهبتُ وتسللتُ ليلاً جلستُ بين القوم ، فجاء أبو سفيان بالنبأ من بنى قريظة ، يريد أنْ يرحل بمَنْ معه ، فقال : ليتعرَّف كل واحد منكم على جليسه ، مخافة أن يكون بين القوم غريب .

وهنا تظهر لباقة حذيفة وحُسْن تصرفه ـ قال : فأسرعتُ وقلت لمَنْ على يمينى : مَنْ أنت ؟ قال : معاوية بن أبى سفيان ، وقلت لمَنْ على يسارى : مَنْ أنت ؟ قال : عمرو بن العاص[1] ، وسمعت أبا سفيان

---

(١) ذكر البيهقى فى دلائل النبوة (٣/٤٥١) من حديث حذيفة « أن أبا سفيان أحس أنه دخل فيهم من غيرهم ، فقال : يأخذ كل رجل منكم بيد جليسه فضربت بيدى على الذى عن يمينى فأخذت بيده ، ثم ضربت بيدى على الذى عن يسارى فأخذت بيده » (أخرجه الحاكم فى مستدركه ٣/٣١) وفى رواية أخرى ذكرها ابن كثير فى تفسيره (٣/٤٧١) وعزاها لمحمد بن إسحاق « أن أبا سفيان قال : يا معشر قريش لينظر كل امرىء مَنْ جليسه . قال حذيفة : فأخذت بيد الرجل الذى إلى جنبى ، فقلت : من أنت ؟ فقال : أنا فلان بن فلان » ولم يذكر أمر معاوية ولا أمر عمرو بن العاص . والله أعلم .

يقول للقوم : هلك الخفُّ والحافر ، وليستْ الأرضُ دارَ مقام فهيا بنا ، وأنا أولكم ، وركب راحلته وهى معقولة[١] من شدة تسرُّعه ، قال حذيفة : فهممتُ أن أقتله ، فأخرجت قوسى ووترتُها ، وجعلت السهم فى كبدها ، لكنى تذكرت قول رسول الله « لا تحدثن شيئاً حتى تأتينى » فلم أشأْ أن أقتله ، فلما ذهبت إلى رسول الله وجدته يصلى ، فلما أحسَّ بى فَرج بين رجليه ـ وكان الجو شديد البرودة ـ فدخلتُ بين رجليه فنثر علىَّ مُرْطه ليدفئنى ، فلما سلم قال لى : ما خطبك فقصصت عليه قصتى[٢] .

وبعد أنْ جند الحق سبحانه كلاً من نعيم الأشجعى وحذيفة لنصرة الحق ، جاءت جنود أخرى لم يروْهَا ، وكانت هذه الليلة باردة ، شديدة الرياح ، وهبَّتْ عاصفة اقتلعتْ خيامهم ، وكفأتْ قدورهم وشرَّدتهم ، ففرَّ مَنْ بقى منهم .

وهذا معنى قوله تعالى : ﴿وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا (٢٥)﴾ [الأحزاب]
﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ .. (٣١)﴾ [المدثر]

بعد أنْ ردَّ الحق سبحانه كفار مكة بغيظهم ، وكفى المؤمنين القتال أراد أنْ يتحوَّل إلى الجبهة الأخرى ، جبهة بنى قريظة ، فلما رجع رسول الله من الأحزاب لقيه جبريل عليه السلام فقال : أوضعتَ لأْمتَك[٣] يا محمد ، ولم تضع الملائكة لأمتها للحرب ؟ اذهب فانتصر لنفسك من بنى قريظة ، فقال رسول الله للقوم : « مَنْ كان سامعاً

---

(١) عقل البعير : قيده وربطه . [لسان العرب ـ مادة : عقل] بتصرف .

(٢) ذكره البيهقى فى دلائل النبوة (٣/٤٥١) ، وانظر تفسير ابن كثير (٣/٤٧١) .

(٣) اللأمة : الدرع . وقيل : السلاح . ولأمة الحرب : أداتها . وقال بعضهم : اللأمة الدرع الحصينة ، سميت لأمة لإحكامها وجودة حلَقها . [لسان العرب ـ مادة : لأم] .

مطيعاً فلا يصلين العصر إلا فى بنى قريظة »[١] .

فاختلف الصحابة حول هذا الأمر : منهم مَنْ انصاع له حرفياً ، وأسرع إلى بنى قريظة ينوى صلاة العصر بها ، ومنهم مَنْ خاف أنْ يفوته وقت العصر فصلى ثم ذهب ، فلما اجتمعوا عند رسول الله أقرَّ الفريقين ، وصوَّب الرأيين .

وكانت هذه المسألة مرجعاً من مراجع الاجتهاد فى الفكر الإسلامى ، والعصر حَدَثٌ ، والحدث له زمان ، وله مكان ، فبعض الصحابة نظر إلى الزمان فرأى الشمس توشك أنْ تغيب فصلَّى ، وبعضهم نظر إلى المكان فلم يُصَلِّ إلا فى بنى قريظة ؛ لذلك أقر رسول الله هذا وهذا[٢] .

وينبغى على المسلم أنْ يحذر تأخير الصلاة عن وقتها ؛ لأن العصر مثلاً وقته حين يصير ظلُّ كل شىء مثْلَيْه وينتهى بالمغرب ، وهذا لا يعنى أن تُؤخِّر العصر لآخر وقته ، صحيح إنْ صليْتَ آخر الوقت لا شىء عليك ، لكن مَنْ يضمن لك أن تعيش لآخر الوقت .

إذن أنت لا تأثم إنْ صلّيْت آخر الوقت ، لكن تأثم فى آخر لحظة من حياتك حين يحضرك الموت وأنت لم تُصَلِّ ؛ لذلك يقول سيدنا

---

(١) ذكره بهذا اللفظ ابن حجر العسقلانى فى شرحه للبخارى (فتح البارى ٤٠٨/٧) من قول ابن إسحاق . وأصل الحديث عند البخارى فى صحيحه (٤١١٩) من حديث ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال يوم الأحزاب : « لا يصلينَّ أحد العصر إلا فى بنى قريظة » .

(٢) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٤١١٩) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٧٧٠) كتاب الجهاد ـ باب المبادرة بالغزو (٢٣) من حديث ابن عمر رضى الله عنهما ، ولفظه أن بعض الصحابة أدركه العصر فى الطريق ، فقال بعضهم : لا نصلى حتى نأتيهم ، وقال بعضهم : بل نصلى ، لم يُرد منا ذلك . فذُكر ذلك للنبى ﷺ فلم يُعنِّف واحداً منهما .

رسول الله ﷺ : « خير الأعمال الصلاة لوقتها »[١] فليس معنى امتداد الوقت إباحة أنْ تُؤخَّر .

وفى مسألة الأحزاب بطولة أخرى لسيدنا على بن أبى طالب رضى الله عنه ، وقد ظهرت هذه البطولة عندما وجد الكفار فى الخندقة نقطة ضعيفة ، استطاعوا أنْ يجترئوا على المسلمين منها ، وأن يقذفوا منها خيولهم ، فلما قذفوا بخيولهم إلى الناحية الأخرى ، فجالت الخيل فى السبخة بين الخندق وجبل سلع ، ووقف واحد من الكفار وهو عمرو بن ود العامرى[٢] وهو يومئذ أشجع العرب وأقواها حتى عدَّوْه فى المعارك بألف فارس .

وقف عمرو بن ود أمام معسكر المسلمين يقول وهو مُشْهِر سيفه : مَنْ يبارز ؟ فقال على لرسول الله : أبارزه يا رسول الله ؟ قال ﷺ : « اجلس يا على ، إنه عمرو » فأعاد عمرو : أين جَنّتكم التى وعدتم بها مَنْ قُتِل فى هذا السبيل ؟ أجيبونى .

فقال على : أبارزه يا رسول الله ؟ قال « اجلس يا على ، إنه عمرو » وفى الثالثة قال عمرو :

وَلَقَدْ بُحِحْتُ مِنَ النِّداءِ ... بجمعِكُمُ هَلْ مِنْ مُبَارِزْ

---

(١) عن ابن مسعود قال : سألت رسول الله ﷺ : أى الأعمال أفضل ؟ قال : الصلاة لوقتها . قلت : ثم أى ؟ قال : ثم بر الوالدين . قلت : ثم أى ؟ قال : ثم الجهاد فى سبيل الله . حديث متفق عليه ، أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٧٨٢) وكذا مسلم فى صحيحه (٨٥) كتاب الإيمان .

(٢) هو : عمرو بن عبد ود ، قرشى من بنى لؤى ، فارس قريش فى الجاهلية ، أدرك الإسلام ولم يسلم ، عاش إلى أن كانت وقعة الخندق فحضرها وقد تجاوز الثمانين ، وأصر على المقاتلة ، فقاتله على بن أبى طالب فقتله عام ٥ هجرية . الأعلام للزركلى (٥/٨١) .

وَوقفْتُ إذ جَبُنَ المشجَّعُ مَوْقِفَ القِرْنِ المنَاجِزْ
إنَّ الشَّجاعَةَ فى الفَتَى والجودَ مِنْ خير الغرائِز

عندها انتفض على رضى الله عنه وقال : أنا له يا رسول الله ، فأذن له رسول الله ، فأشار على لعمرو ، وقال :

لاَ تَعجَلَنَّ فَقَدْ أتَاكَ مجيب صوتكَ غير عَاجِز
ذُو نيةٍ وبَصيرة والصِّدْقُ مُنجِى كُلَّ فَائِزْ
إنِّى لأَرْجُو أَنْ أُقيم عَلَيك نَائحةَ الجنَائِزْ
مِنْ ضَرْبةٍ نَجْلاَء[1] يَبْقَى ذِكْرُهَا عِنْدَ الهَزَاهِزْ

أى : الحروب[2] .

وكانت لسيدنا رسول الله درع سابغة اسمها ذات الفضول ، فألبسها رسول الله علياً وأعطاه سيفه ذا الفقار وعمامته السحاب ، وكانت تسعة أكوار ، وخرج على رضى الله عنه لمبارزة عمرو بن ود ، فضرب عمرو الدرقة[3] فشقَّها ، فعاجله على بضربة سيف على عاتقه أردتْهُ قتيلاً ، فقال علىٌّ ساعة وقع : الله أكبر سمعه رسول الله فقال : « قُتِل عدو الله » .

ثم حدثت زوبعة العثْيَر[4] - وهو غبار الحرب - فحَجبت المعركة ،

---

(١) طعنة نجلاء : أى واسعة بيِّنة النجَل . وسنان منجل : واسع الجرح . ونجله بالرمح : طعنه وأوسع شقه . [لسان العرب - مادة : نجل] .

(٢) ذكر هذه الأبيات فى نحو هذا السياق أبو بكر البيهقى فى دلائل النبوة (٣/٤٣٨ ، ٤٣٩) .

(٣) الدرقة : ترس يُتخذ من الجلود ، ليس فيه خشب ولا عقب . والجمع درق وأدراق . [قاله ابن منظور فى لسان العرب - مادة : درق] .

(٤) العثْير (بالثاء الساكنة) : الغبار . والعثيرات : التراب . حكاه سيبويه . [لسان العرب - مادة : عثر] ولفظ الحديث عند البيهقى فى دلائل النبوة ٣/٤٣٩ : « وثار العَجاج » والعجاج : الغبار . وقيل : هو من الغبار ما ثوَّرته الريح .

فذهب سيدنا عمر رضى الله عنه ليرى ما حدث ، فوجد علياً يمسح سيفه فى درع عمرو بن ود ، فقال : الله أكبر ، فقال رسول الله : « قُتِل وأَيْم الله » .

ومن الأخلاق الكريمة التى سجَّلها سيدنا على فى هذه الحادثة أنه بعد أنْ قتل عَمْراً سأله رسول الله ﷺ : « ألاَ سلبْتَ درْعه ، فإنه أفخر درع فى العرب » ؟ فقال على : والله لقد بانتْ سوأته ، فاستحييت أنْ أصنع ذلك[١] .

ثم أنشد رضى الله عنه وكرَّم الله وجهه ، وهو يشير إلى عمرو[٢] :

نَصَرَ الحجَارةَ[٣] من سَفَاهَة رأْيه ... ونَصَرْتُ ربَّ مُحمد بصَوابى
فَصَدَدْتُ حِينَ تركْتُه مُتجدِّلاً ... كالجِذْعِ بين دَكَادِكَ[٤] ورَوَابى
وعَفَفْتُ عن أثْوَابِه ولَو أنّنى ... كنتُ المُقَنْطَر بَزَّنى أثْوابى[٥]

---

(١) السائل لعلى هو عمر بن الخطاب فيما أورده البيهقى فى دلائل النبوة (٣/٤٣٩) أن عمر قال له : هلا استلبته درعه ، فإنه ليس للعرب درع خير منها . فقال : « ضربته فاتقانى بسواده (أى : بإسته) ، فاستحييت ابنَ عمى أن أستلبه » . فالله أعلم .

(٢) ذكر ابن هشام هذه الأبيات فى « السيرة النبوية » (٣/٢٢٥) وعزاها لابن إسحاق ، ثم قال : وأكثر أهل العلم بالشعر يشك فيها لعلى بن أبى طالب .

(٣) الحجارة (هنا) : هى الأنصاب والأصنام التى كانوا يعبدونها ويذبحون لها .
وقد ذكر البيهقى هذا البيت بلفظ آخر :
عَبَدَ الحجَارةَ من سَفَاهة عَقْله ... وَعَبَدْتُ ربَّ مُحمد بصَوابِ

(٤) متجدلاً : لاصقاً بالأرض . والجذع : فرع النخلة . والدكادك : هو الرمل اللين . والروابى : جمع رابية ، وهى الكدية المرتفعة .

(٥) القطر : الناحية والجانب . وطعنه فقطّره أى : ألقاه على قطره أى جانبه . [لسان العرب مادة : قطر] والبزُّ : السلب ، وبز الشىء : انتزعه . [لسان العرب ـ مادة : بزز] .

وفى هذه الواقعة قال سيدنا رسول الله ﷺ : « لو لم يكن لك يا على غيرها فى الإسلام لَكَفَتْكَ » .

لذلك قال العارفون بالله كأن علياً رضى الله عنه حُسِد حين قتل عمرو بن ود ، فأصابته العين فى ذاته ، فقُتِل بسيف ابن ملجم ، ومن هنا قالوا : أعزّ ضربة فى الإسلام ضربة علىٍّ لعمرو بن ود ، وأشأم ضربة فى الإسلام ضربة ابن ملجم لعلى .

وفى المعركة بطولة أخرى لسيدنا سعد بن معاذ[١] رضى الله عنه حيث يقول : ضربنى يوم الأحزاب حِبَّان بن قيس بن العَرِقة ، وقال : خُذْها وأنا ابن العَرِقة[٢] ـ فقلت : عرَّقَ الله وجهك فى النار ، فلما أصابنى فى أكحلى ـ والأكحل هو : العِرْق الذى نضع فيه الحقنة ، ومنه يخرج دم الفَصْد والحجامة .

فقلت : اللهم إنْ كانت هذه آخر موقعة بيننا وبين قريش فاجعلنى شهيداً ، وإنْ كنتَ تعلم أنهم يعودون فأبقنى لأشفى نفسى ممَّنْ أخرج رسول الله وآذاه ، ولا تُمِتْنى حتى أشفى غليلى من بنى قريظة[٣] .

---

(١) هو سعد بن معاذ بن النعمان الأوسى الأنصارى ، صحابى من الأبطال ، من أهل المدينة ، كانت له سيادة الأوس ، شهد بدراً وأحداً ، رُمى بسهم يوم الخندق ، فمات من أثر جرحه عام ٥ هـ ، وكان عمره سبعة وثلاثين عاماً (الأعلام للزركلى ٣/٨٨) .

(٢) العرقة : هى قلابة بنت سعد بن سهم ، وتكنى أم فاطمة ، وسميت العَرِقة لطيب ريحها ، وهى جدة خديجة ، أم أمها هالة (راجع الروض الأنف للسهيلى) .

(٣) ذكره ابن هشام فى السيرة النبوية (٣/٢٢٦) ، والبيهقى فى دلائل النبوة (٣/٤٤١) ، وفيه إضافة : « اللهم وإن كنت قد وضعت الحرب بيننا وبينهم فاجعله لى شهادة ، ولا تمتنى حتى تقر عينى من بنى قريظة » .

وقد كان ، فبعد أنْ مكث الأحزاب وبنو قريظة قرابة خمسة وعشرين يوماً دون قتال ، وانتهى الأمر بالمفاوضات اختار سيدنا رسول الله سعد بن معاذ ليكون حكَماً فى هذه المسألة ، فحكم سعد بقتل المقاتلين منهم ، وأسر الذرارى والنساء والأموال ، فلما بلغ هذا الحكم رسول الله ﷺ قال : « لقد حكمتَ فيهم حكم ربك من فوق سبع سموات »[(١)] .

ثم ثار الجرح على سيدنا سعد حتى مات به ، فحملوه إلى خيمة رسول الله بالمسجد ، فجاءت الملائكة تقول لرسول الله : مَنْ هذا الذى مات ، وقد اهتزَّ له عرش الرحمن ؟ قال : « إنه سعد بن معاذ »[(٢)] .

وقد قال تعالى : ﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا (٢٦)﴾ [الأحزاب]

وفى قوله تعالى : ﴿وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا.. (٢٧)﴾ [الأحزاب] بشارة للمسلمين بأن البلاد ستُفتح لهم دون قتال ، وهذا حال جمهرة البلاد

---

(١) عن أبى سعيد الخدرى أن أناساً نزلوا على حكم سعد بن معاذ ، فأُرسل إليه فجاء على حمار ، فلما بلغ قريباً من المسجد قال النبى ﷺ : قوموا إلى خيركم ـ أو سيدكم ـ فقال : يا سعد ، إن هؤلاء نزلوا على حكمك ، قال : فإنى أحكم فيهم أن تقتل مقاتلتهم ، وتُسْبى ذراريهم ، فقال ﷺ : « حكمت بحكم الله ، أو بحكم الملك » أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٨٠٤) .

(٢) أخرجه الحاكم فى مستدركه (٣/٢٠٧) من حديث عبد الله بن كعب بن مالك أن سعداً عاش بعدما أصابه سهم نحواً من شهر حتى حكم فى بنى قريظة بأمر رسول الله ورجع إلى مدينة رسول الله ، ثم انفجر كَلْمه (جُرْحه) فمات ليلاً فأتى جبريل رسول الله فقال له : من هذا الذى فُتحت له أبواب السماء ، واهتز له عرش الرحمن فخرج النبى ﷺ إلى سعد ، فوجده قد مات . فقال ابن حجر فى الفتح (٧/١٢٤) : « المراد باهتزاز العرش استبشاره وسروره بقدوم روحه » .

التى دخلها الإسلام ، فغالبية هذه البلاد فُتِحَتْ بالأُسْوة السلوكية للمسلمين آنذاك ، وبذلك نستطيع أن نردَّ علىَ مَنْ يقول : إن الإسلام انتشر بحدِّ السيف .

وإذا كان الإسلام انتشر بحَدِّ السيف ، فأىُّ سيف حمل المسلمين الأوائل على الإسلام وكانوا من ضعاف القوم لا يستطيعون حتى حماية أنفسهم ؟ إذن : لا شىء إلا قدوة السلوك التى حملت كل هؤلاء على الإيمان .

وسبق أن ذكرنا أن عمر ـ رضى الله عنه ـ وما أدراك ما عمر قوة وصلابةً يقول حين سمع قول الله تعالى : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) ﴾ [القمر]

قال : أىُّ جمع هذا ، ونحن لا نستطيع حماية أنفسنا ؟ مما يراه من ضعف المسلمين وبطش الكافرين[1] .

ثم لو انتشر الإسلام بالسيف لأصبح سكان البلاد التى دخلها الإسلام كلهم مسلمين ، ولَمَا كانت للجزية وجود فى الفقه الإسلامى ، إذن : بقاء الجزية على مَنْ لم يؤمن دليل على بطلان هذه المقولة ، ودليل على عدم الإكراه فى الدين ، فالفتح الإسلامى كفل حرية العقيدة ﴿ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ .. (٢٩) ﴾ [الكهف] وعليه الجزية لبيت مال المسلمين مقابل ما تقدمه الدولة إليه من خدمات .

فالجزية التى تتخذونها سُبة فى الإسلام دليل على أن الإسلام

---

(١) أورد ابن كثير فى تفسيره وعزاه لابن أبى حاتم (٤/٢٦٦) عن عكرمة قال : « لما نزلت ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) ﴾ [القمر] قال عمر : أى جمع يُهزم ؟ أى جمع يُغلب ؟ قال عمر : فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ يثب فى الدرع وهو يقول : « سيهزم الجمع ويولون الدبر » فعرفت يومئذ تأويلها .

أقرَّكم على دينكم ، إنما حَمْل السيف كان فقط لحماية الاختيار فى الدعوة ، فأنا سأعرض الإسلام على الناس ، ومن حقى أنْ أقاتل مَنْ يعارضنى بالسلاح ، من حقى أن أعرض الإسلام كمبدأ ، فمَنْ آمن به فعلى العين والرأس ، ومَنْ لم يؤمن فليَبْقَ فى ذمتنا .

ثم ينقلنا الحق سبحانه إلى بيوت أزواج النبى ﷺ ، فيقول سبحانه[1] :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا (٢٨) ﴾

لسائل أنْ يسأل : ما سرُّ هذه النقلة الكبيرة من الكلام عن حرب الأحزاب وحرب بنى قريظة إلى هذا التوجيه لزوجاته ﷺ ؟

قالوا : لأن مسألة الأحزاب انتهتْ بقوله تعالى : ﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا .. (٢٧) ﴾ [الأحزاب] فربما طلبتْ زوجات الرسول أنْ يُمتِّعهن وينفق عليهن ، مما يفتح الله عليه من خيرات هذه البلاد ، فجاءتْ هذه الآية : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ .. (٢٨) ﴾ [الأحزاب] لتقرر أن الإسلام ما جاء ليحقق مزيَّة لرسول الله ، ولا لآل رسول الله ، حتى الزكاة لا تصح لأحد من فقراء بنى هاشم .

لكن مجىء الآية هكذا بصيغة الأمر : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ .. (٢٨) ﴾ [الأحزاب] دليل على حدوث شىء منهن يدلّ على تطلعهن إلى زينة الحياة ومُتَعها . وقد رُوِى عن عمر - رضى الله عنه

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٥٤٢٢/٧) : « قال علماؤنا : هذه الآية متصلة بمعنى ما تقدم من المنع من إيذاء النبى ﷺ ، وكان قد تأذى ببعض الزوجات . قيل : سألْنه شيئاً من عرض الدنيا . وقيل : زيادة فى النفقة . وقيل : أذيته بغيرة بعضهن على بعض » .

أنهن اجتمعْنَ يسألْنَ رسول الله النفقة ، وأنْ يُوسِّع عليهن بعد أنْ قال ﷺ عن الكفار : لن يغزونا ، بل نغزوهم[١] وبعد أنْ بشَّرتهم الآيات بما سيُفتح من أرض جديدة .

وقوله تعالى : ﴿فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً (٢٨)﴾ [الأحزاب] يعني : ليس عندى ما تتطلَّعْن إليه من زينة الدنيا وزخرفها ، ومعنى ﴿فَتَعَالَيْنَ .. (٢٨)﴾ [الأحزاب] نقول : تعاليْن يعنى : أقبلْنَ ، لكنها هنا بمعنى ارتفعْنَ من العلو ، ارتفعْنَ عن مناهج البشر والأرض ، وارتقينَ إلى مناهج خالق البشر ، وخالق الأرض ؛ لأن السيادة فى منهج الله ، لا فى مُتَع الحياة وزخرفها .

وقد ورد هذا المعنى أيضاً فى قوله تعالى : ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ .. (١٥١)﴾ [الأنعام] فتعالوْا أى : ارتفعوا عن قوانين البشر وقوانين الأرض إلى قوانين السماء ؛ لأنه يُشترط فيمَنْ يضع القانون ألاَّ يفيد من هذا القانون ، وأن يكون مُلماً بكل الجزئيات التى يتعرض لها القانون والبشر مهما بلغتْ قدرتهم ، فإنهم يعلمون شيئاً ويجهلون آخر ؛ لذلك لا ينبغى أنْ يُقنِّن لهم إلا خالقهم عز وجل .

ومعنى ﴿أُمَتِّعْكُنَّ .. (٢٨)﴾ [الأحزاب] أى : أعطيكُنَّ المتعة الشرعية التى تُفْرض للزوجة عند مفارقة زوجها ، والتى قال الله فيها[٢] :

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٤١٠٩ ، ٤١١٠) ، وأحمد فى مسنده (٢٦٢/٤) من حديث سليمان بن صُرَد رضى الله عنه ، وفى الرواية الثانية عند البخارى « نحن نسير إليهم » قال ابن حجر فى الفتح (٤٠٥/٧) : « فيه علَم من أعلام النبوة ، فإنه ﷺ اعتمر فى السنة المقبلة فصدته قريش عن البيت ووقعت الهدنة بينهم إلى أن نقضوها ، فكان ذلك سبب فتح مكة ، فوقع الأمر كما قال ﷺ » .

(٢) قال ابن كثير فى تفسيره (٢٩٧/١) : « قد استدل بهذه الآية من ذهب من العلماء إلى وجوب المتعة لكل مطلقة سواء كانت مفوضة أو مفروضاً لها أو مطلقة قبل المسيس أو مدخولاً بها ، وهو قول عن الشافعى رحمه الله ، وإليه ذهب سعيد بن جبير وغيره من السلف واختاره ابن جرير » .

﴿وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (٢٤١)﴾ [البقرة]

وقوله : ﴿وَأُسَرِّحْكُنَّ .. (٢٨)﴾ [الأحزاب] التسريح هنا يعنى الطلاق ﴿سَرَاحًا جَمِيلًا (٢٨)﴾ [الأحزاب] ذلك يدلُّ على أن المفارقة بين الزوجين إنْ تمتْ إنما تتم بالجمال أى : اللطف والرقة والرحمة بدون بشاعة وبدون عنف ؛ لأن التسريح فى ذاته مفارقة مؤلمة ، فلا يجمع الله عليها شدتين : شدة الطلاق ، وشدة العنف والقسوة .

ولك أنْ تلحظ أن لفظ الجمال يأتى فى القرآن مع الأمور الصعبة التى تحتاج شدة ، واقرأ قوله تعالى : ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ .. (٨٣)﴾ [يوسف] والصبر يكون جميلاً حين لا يصاحبه ضَجَر ، أو شكوى ، أو خروج عن حَدِّ الاعتدال .

ورسول الله ﷺ يعرض على زوجاته التسريح الجميل الذى لا مشاحنةَ فيه ولا خصومةَ إنْ اخترْنَهُ بأنفسهن ، وما كان رسول الله ليمسك زوجة اختارتْ عليه أمراً آخر مهما كان .

وللعلماء كلام طويل فى هذه المسألة : هل يقع الطلاق بهذا التخيير ؟ قالوا : التخيير لَوْنٌ من حب المفارقة الذى يعطى للمرأة ـ كما نقول مثلاً : العصمة فى يدها ـ فهى إذن تختار لنفسها ، فإنْ قَبلت الخيار الأول وقع الطلاق ، وإنِ اختارت الآخر فَبِها ونعمتْ ، وانتهتْ المسألة[1] .

---

(١) قال الشافعى : التخيير كناية ، فإذا خيَّر الزوج امرأته وأراد بذلك تخييرها بين أن تطلق منه وبين أن تستمر فى عصمته فاختارت نفسها وأرادت بذلك الطلاق طُلِّقت ، فلو قالت : لم أُرد باختيار نفسى الطلاق ، صدقت . وقال القرطبى فى المفهم فقال فى الحديث : إن المخيَّرة إذا اختارت نفسها أن نفس ذلك الاختيار يكون طلاقاً من غير احتياج إلى نطق بلفظ يدل على الطلاق . أما الحافظ ابن حجر العسقلانى فقال : لكن الظاهر من الآية أن ذلك بمجرده لا يكون طلاقاً ، بل لابد من إنشاء الزوج الطلاق لأن فيها ﴿فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ .. (٢٨)﴾ [الأحزاب] أى : بعد الاختيار . [نيل الأوطار للشوكانى ٦/٢٤٢] .

وأَمْرُ الله لرسوله أن يقول لزوجاته هذا الكلام لا بُدَّ أنْ يكون له رصيد من خواطر خطرتْ على زوجاته ﷺ لَمَّا رأيْنَ الإسلام تُفْتح له البلاد ، وتُجبى إليه الخيرات ، فتطلَّعْن إلى شىء من النفقة .

وكلمة الأزواج : جمع زوج ، وتُقال للرجل وللمرأة ، والزوج لا يعنى اثنين معاً كما يظن البعض ، إنما الزوج يعنى الفرد الذى معه مثله من جنسه ، ومثله تماماً كلمة التوأم ، فهى تعنى (واحد) لكن معه مثله ، والدليل على ذلك قوله تعالى : ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ.. (٤٩)﴾ [الذاريات] يعنى : ذكر وأنثى ، فالذكر وحده زوج ، والأنثى وحدها زوج ، وهذه القسمة موجودة فى كل المخلوقات . وتُجمع زوج أيضاً على زوجات .

ونلحظ فى الأسلوب هنا أن الحق سبحانه حين يعرض على رسوله أنْ يُخيِّر زوجاته بين زينة الدنيا ونعيم الآخرة يستخدم (إنْ) الدالة على الشكِّ ، ولا يستخدم مثلاً (إذَا) الدالة على التحقيق ، وفى هذا إشارة إلى عدم المبالغة فى اتهامهن ، فالأمر لا يعدو أنْ يكون خواطر جالتْ فى أذهان بعض زوجاته .

وتعلمون أن سيدنا رسول الله جمع من النساء تسعاً معاً ، منهن خمسٌ من قريش ، وهُنَّ : عائشة ، وحفصة ، وأم حبيبة ، وسودة بنت زمعة ، وأم سلمة ابنة أبى أمية . ومن غير قريش : صفية بنت حيى بن أخطب الذى ذكرنا قصته فى الأحزاب ، ثم جويرية بنت الحارث من بنى المصطلق ، ثم ميمونة بنت الحارث الهلالية - ومَنْ ذهب عند التنعيم وجد هناك بئر ميمونة ، ثم زينب بنت جحش من بنى أسد ، هؤلاء هُنَّ أمهات المؤمنين التسعة اللائى جمعهنَّ رسولُ الله معاً .

فلما سألْنَ رسول الله النفقة كانت أجرأهُنَّ فى ذلك السيدة حفصة بنت عمر ، وقد حدث بينها وبين رسول الله مُشَادّة فى الكلام ، فقال لها : « ألا تحبين أنْ أستدعى رجلاً بيننا ؟ » فوافقتْ ، فأرسل إلى عمر ، فلما جاء قال لها رسول الله : تكلَّمى أنت ـ يعنى : اعرضى حاجتك ـ فقالت : بل تكلم أنت ، ولا تقل إلا حقاً .

أثارت هذه الكلمة حفيظة سيدنا عمر ، فهاج وقام إلى ابنته فوجأها ، فحجزه رسول الله فتناولها ثانية فوجأها ، ثم قال لها : إن رسول الله لا يقول إلا حقاً ، ووالله لولا أنَّا فى مجلسه ما تركتُك حتى تموتى ، فقام رسول الله من المجلس ليفضَّ هذا النزاع ، وذهب إلى حجرته ، واعتكف بها ، وقاطع الأمر كله مدة شهر[1] .

وتأمل قول الله تعالى : ﴿إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا .. (٢٨)﴾ [الأحزاب] فأىُّ وَصْف أحقر ، وأقلّ لهذه الحياة من أنها دُنْيا ؟ وما فيها من مُتَع إنما هى زينة ، يعنى : ترف فى المظهر ، لا فى الجوهر ، كما قال سبحانه فى موضع آخر : ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ .. (٢٠)﴾ [الحديد]

ثم يعرض رسول الله على زوجاته الخيار الثانى المقابل للحياة الدنيا :

﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا (٢٩)﴾

المتأمل جانبىْ التخيير هنا يجد أن المقارنة بينهما أمر صَعْب يوحى

---

(١) هذا الأمر اختلفت فيه الروايات ، فبعضها يورد هذا فى حق عائشة وأبيها أبى بكر ، وبعضها الآخر فى حق حفصة وأبيها عمر ، أما الأول فقد أخرجه ابن سعد فى الطبقات (١٠/٧٩) ، وأما الثانى فقد أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٤٦٨) ضمن حديث طويل ، ويجوز أن الواقعة قد تكررت ، والله تعالى أعلم .

برفض التخيير بين طرفى هذه المسألة ، فمَنْ يقبل أنْ تكون له حياة دنيا مقابل الله ، وأن تكون له زينتها مقابل رسول الله ، ثم زدْ على ذلك الدار الآخرة التى لم يُذكَر قبالتها شىء فى الجانب الآخر ، ثم إن الحياة الدنيا التى نعيشها حتى لو لم تُوصَفْ بأنها دنيا كان يجب أنْ يُزهد فيها .

والحق أنهن فَهِمْنَ هذا النص واخترْنَ الله ورسوله والدار الآخرة ، ومَنْ يرضى بها بديلاً : والحمد لله

﴿ وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ .. (٢٥) ﴾ [الأحزاب]

ثم يأتى جزاء مَن اختار الله ورسوله والدار الآخرة ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا (٢٩) ﴾ [الأحزاب] المحسنة هى الزوجة التى تعطى من الرحمة والمودة الزوجية فوق ما طُلب منها .

﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (٣٠) ﴾

الحق ـ سبحانه وتعالى ـ بعد أنْ خيَّر زوجات النبى ﷺ فاخترْنَ الله ورسوله والدار الآخرة أراد سبحانه أنْ يُعطيهن المنهج والمبادىء التى سيسرْنَ عليها فى حياتهن . ونلحظ أن آية التخيير كانت من كلام النبى عن ربه ، أما هنا فالكلام من الله مباشرة لنساء النبى .

﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ .. (٣٠) ﴾ [الأحزاب] فبداية المسألة ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ .. (٢٨) ﴾ [الأحزاب] فلما اخترْن الله ورسوله والدار الآخرة كأنهن ارتفعْنَ إلى مستوى الخطاب المباشر من الله تعالى ، كأنهن حقَّقْنَ المراد من الأمر السابق ﴿ فَتَعَالَيْنَ .. (٢٨) ﴾ [الأحزاب]

كلمة ﴿ نِسَاءَ .. (٣٠) ﴾ [الأحزاب] نعلم أنها جمع ، لكن لا نجد لها

مفرداً من لفظها ، إنما مفردها من لفظ آخر هو امرأة[١] ، وفى اللغة جموع تُنُوسِى مفردها بشهرة مفرد آخر أرقّ أو أسهل فى الاستعمال ، وامرأة أو (مَرة) يصح أيضاً من (امرؤ)[٢] ، وهذه اللفظة تختلف عن ألفاظ اللغة كلها ، بأن حركة الإعراب فيها لا تقتصر على الحرف الأخير إنما تمتد أيضاً إلى الحرف قبل الأخير ، فنقول : قال امْرُؤُ القيس ، وسمعت امْرَأَ القيس ، وقرأت لامْرِئِ القيس .

وبعض الباحثين فى اللغة قال : إن (نساء) من النَّسْأ والتأخير ، على اعتبار أن خَلْقها جاء متأخراً عن خَلْق الرجل ، ومفردها إذن (نَسْءٌ) وإنْ كان هذا تكلفاً لا داعىَ له .

وبعد هذا النداء ﴿يَـٰنِسَآءَ النَّبِيِّ ﴿٣٠﴾﴾ [الأحزاب] يأتى الحكم الأول من المنهج الموجَّه إليهن : ﴿مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَـٰعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ .. ﴿٣٠﴾﴾ [الأحزاب] نلحظ أن الحق سبحانه لم يبدأ الكلام مع نساء النبى بقوله مثلاً : مَنْ يتق الله منكن ، إنما بدأ بالتحذير من إتيان الفاحشة ؛ لأن القاعدة الشرعية فى التقنين والإصلاح تقوم على أن « درء المفسدة مُقدَّم على جَلْب المصلحة » كما أننا قبل أنْ نتوضأ للصلاة نبرئ أنفسنا من النجاسة .

ومثَّلْنَا لذلك وقُلْنا : هَبْ أن واحداً رماك بتفاحة ، وآخر رماك بحجر ، فأيهما أَوْلَى باهتمامك ؟ لا شكَّ أنك تحرص أولاً على ردِّ الحجر والنجاة من أذاه ، وكذلك لو أردتَ أنْ تكوى ثوبك مثلاً وهو مُتسخ ، لا بُدَّ أن تغسله أولاً .

---

(١) قال ابن منظور فى [لسان العرب ـ مادة : نسا] : « النِّساء ، والنِّسْوان والنُّسْوان : جمع المرأة من غير لفظه . وقال ابن سيده : والنساء جمع نسوة إذا كثُرْنَ » .

(٢) قال الليث : امرأة تأنيث امرىء : وقال ابن الأنبارى : للعرب فى المرأة ثلاث لغات ، يقال : هى امرأته ، وهى مَرْأتُه ، وهى مَرَتُهُ . [لسان العرب ـ مادة : مرأ] .

لذلك بدأ الحق سبحانه التوجيه لنساء النبى بقوله ﴿مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ .. (٣٠)﴾ [الأحزاب] لكن الفاحشة أمر مستبعد ، فكيف يتوقع منتهى الذنوب من نساء رسول الله ؟ قالوا : ولم لا ، وقد خاطب الله تعالى نبيه ﷺ بقوله : ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ .. (٦٥)﴾ [الزمر]

ومعلوم أن رسول الله ليس مظنة الوقوع فى الشرك ، إذن : فالمعنى ، يا محمد ليس اصطفاؤك يعنى أنك فوق المحاسبة ، كذلك الحال بالنسبة لنسائه : إنْ فعلَتْ إحداكن فاحشة ، فسوف نضاعف لها العذاب ، ولن نستر عليها لمكانتها من رسول الله ، فإياكُنَّ أنْ تظننَّ أن هذه المكانة ستشفع لكُنَّ ، وإلا دخلتْ المسألة فى نطاق : إذا سرق الوضيع أقاموا عليه الحد ، وإذا سرق الشريف تركوه[1] .

إذن : منزلة الواحدة منكُنَّ ليست فى كونها مجرد زوجة لرسول الله ، إنما منزلتها بمدى التزامها بأوامر الله ، وإلا فهناك زوجات للرسل خُنَّ[2] أزواجهن واقرأ : ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ (١٠)﴾ [التحريم]

---

(١) حديث متفق عليه ، أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٧٨٨) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٦٨٨) من حديث عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : « أيها الناس ، إنما ضل من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق الشريف تركوه ، وإذا سرق الضعيف فيهم أقاموا عليه الحد ، وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها » .

(٢) قال ابن كثير فى تفسيره (٣٩٣/٤) : « ليس المراد بقوله (فخانتاهما) فى فاحشة بل فى الدين ، فإن نساء الأنبياء معصومات عن الوقوع فى الفاحشة لحرمة الأنبياء .. قال ابن عباس : ما زنتا ، أما خيانة امرأة نوح فكانت تخبر أنه مجنون ، وأما خيانة امرأة لوط فكانت تدل قومها على أضيافه » .

ولك أن تسأل : هذا حكم الفاحشة المبيِّنة ، أنْ يُضاعَف لها العذاب ، فما بال الفاحشة منهن إنْ كانت غير مُبيِّنة ؟

قالوا : هذا الحكم خاصٌّ بنساء النبى ﷺ ، فإن حدث من إحداهن ذنب بينها وبين نفسها فهو ذنب واحد مقصور عليها ، فإنْ كان علانيةً فهو مُضَاعف ؛ لأنهن أسوة وقدوة تتطلع العيون إلى سلوكهن ، فإنْ ظهرت منهن فاحشة كان تشجيعاً للأخريات ، ولم لا وقد جاءت الفاحشة من زوجة النبى .

فمضاعفة العذاب - إذن - لأن الفساد تعدَّى الذات إلى الآخرين ، وأحدث قدوة سوء فى بيت النبى ، فاستحقتْ مضاعفة العذاب ؛ لأنها آذتْ شعور رسول الله ، ولم تُقدِّر منزلته وفضَّلَت عليه غيره لتأتى معه الفاحشة ، وهذا يستوجب أضعاف العذاب ، فإنْ ضاعف لها اللهُ العذابَ ضعفين فحسب ، فهو رِفْق بها ، ومراعاة لماضيها فى زوجية رسول الله .

كذلك إنْ فعلتْ إحداهن حسنة ، فلها أجرها أيضاً مُضَاعفاً ؛ لأنها فعلتْ صالحاً فى ذاتها كأىِّ إنسانة أخرى ، ثم أعطتْ قدوة حسنة ، وأُسْوة طيبة لغيرها .

فإنْ أخذْنا فى الاعتبار حديث النبى ﷺ : « مَنْ سَنَّ سنة حسنة ، فَلَهُ أجرها وأجر مَنْ عمل بها إلى يوم القيامة ، ومَنْ سَنَّ سنة سيئة فعليه وِزْرها ، ووِزْر مَنْ عمل بها إلى يوم القيامة »[1] .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٤/٣٦١ ، ٣٦٢) ، وابن ماجة فى سننه (٢٠٧) والترمذى فى سننه (٢٦٧٥) عن جرير بن عبد الله ، قال الترمذى : « حديث حسن صحيح » .

علمنا أن أجر الحسنة لا يُضاعف فقط مرتين ، إنما بعدد ما أثَّرت فيه الأسوة ، وفَرْق بين الضِّعْف والضُّعْف . الضِّعْف : ضِعْف الشىء أى مثله ، أما الضُّعف فهو فَقْد هذا المثل ، فهو أقلُّ[1] .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (٣٠) ﴾ [الأحزاب] يعنى : مسألة مضاعفة العذاب أمر يسير ، ولن تغنى عنكُنَّ منزلتكُنَّ من رسول الله شيئاً ، فهذا أمر لا يسألنى فيه أحد ، ولا أحابى فيه أحداً ، ولا بُدَّ أن أُسَيِّر الأمور كما يجب أن تكون ، ولا يعارضنى فيها أحد ، لذلك كثيراً ما تُذيَّل أحكام الحق سبحانه بقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٢٠) ﴾ [البقرة] فالعزة تقتضى أن يكون الحكم ماضياً لا يُعدِّله أحد ، ولا يعترض عليه أحد .

وهذا المعنى واضح فى قوله تعالى لسيدنا عيسى عليه السلام : ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١١٧) إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨) ﴾ [المائدة]

---

(١) الضُّعْف والضَّعْف : خلاف القوة سواء كان فى الجسد أو فى الرأى والعقل . وقد قال تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا (٥٤) ﴾ [الروم] .

فقوله : ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ .. (١١٨)﴾ [المائدة] يقتضى أن يقول : فإنك غفور رحيم ، لكن الحق سبحانه عدل إلى ﴿فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨)﴾ [المائدة] لأن الذنب الذى وقع فيه القوم ذنب فى القمة ، فى الألوهية التى أخذوها من الله وجعلوها لعيسى عليه السلام ، وهذا بمقتضى العقل يستوجب العذاب الشديد ، لكن الحق سبحانه لا يُسأل عما يفعل ، يُعذِّب مَنْ يشاء ، ويغفر لمَنْ يشاء ، فإنْ غفر لهم فبصفة العزة التى لا يعارضها أحد ، فكأن المنطق أن يُسأل الله : لماذا لم تُعذِّب هؤلاء على ما ارتكبوه ؟ لذلك دخل هنا من ناحية العزة ، التى لا تُعارَض ، والحكمة التى لا تخطىء .

وبعد أن ذكر الحق سبحانه مسألة الفاحشة ، وما يترتب عليها من عقاب ذكر سبحانه المقابل ، فقال تعالى :

﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا (٣١)﴾

معنى ﴿يَقْنُتْ .. (٣١)﴾ [الأحزاب] أى : يخضع لله تعالى الخضوع التام ، ويخشع ويتذلَّل لله فى دعائه ، واختار الحق سبحانه القنوت ؛ لأنه سبحانه لا يحب من الطائع أنْ يُدِلَّ على الناس بطاعته ؛ لذلك يقول العارفون : رُبَّ معصية أورثت ذلاً وانكساراً ، خير من طاعة أورثتْ عزّاً واستكباراً[1] .

---

(١)هذه الحكمة من حكم ابن عطاء الله السكندرى (متصوف شاذلى ، من العلماء ـ توفى ٧٠٩ هـ) ، وقد ذكر عبد العال كحيل هذه الحكمة لابن عطاء الله فى كتابه « أبو العينين الدسوقى» طبعة دار الشعب ـ ص ٧٦ .

أو ﴿وَمَن يَقْنُتْ .. (٣١)﴾ [الأحزاب] أى : بالغ فى الصلاح ، وبالغ فى الورع حتى ذهب إلى القنوت ، وهو الخضوع والخشوع .

والنتيجة ﴿نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ .. (٣١)﴾ [الأحزاب] فالآية السابقة تقرر مضاعفة العذاب لمن تأتى بالفاحشة ، وهذه تقرر مضاعفة الأجر لمن تخضع لله وتخشع وتعمل صالحاً .

﴿وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا (٣١)﴾ [الأحزاب] أى : أعددناه وجهّزناه لها من الآن ، فهو ينتظرها .

وحين تتأمل الأسلوب القرآنى فى هاتين الآيتين تطالعك عظمة الأداء ، فحين ذكر الفاحشة ومضاعفة العذاب جاء الفعل ﴿يُضَاعَفْ .. (٣٠)﴾ [الأحزاب] مبنياً لما لم يُسَمَّ فاعله ، أما فى الكلام عن القنوت لله ، فقال ﴿نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا .. (٣١)﴾ [الأحزاب] فجاء الفعل مُسْنداً إلى الحق سبحانه مباشرة ، وكأن الحق سبحانه لم يُرِدْ أنْ يواجه بذاته فى مقام العذاب ، إنما واجه بالعذاب فقط .

ومجرد بناء الفعل ﴿يُضَاعَفْ .. (٣٠)﴾ [الأحزاب] للمجهول يدل على رحمة الله ولُطْفه فى العبارة ، فالحق سبحانه يحب خَلْقه جميعاً ، ويتحبب ويتودد إليهم ، ويرجو من العاصى أنْ يرجع ويفرح سبحانه بتوبة عبده المؤمن أكثر من فرح أحدكم حين يجد راحلته وقد ضلَّتْ منه فى فلاة[1] .

وجاء فى الأثر : « يا ابن آدم ، لا تخافنَّ من ذى سلطان ما دام سلطانى باقياً وسلطانى لا ينفد أبداً ، يا ابن آدم ، لا تخْشَ من ضيق الرزق وخزائنى ملآنة وخزائنى لا تنفد أبداً ، يا ابن آدم ، خلقتُكَ

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٧٤٧) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه .

للعبادة فلا تلعب ـ والمراد باللعب العمل الذى لا جدوى منه ـ وقسمتُ لك رزقك فلا تتعب » .

والمراد هنا لا تتعب ، ولا تشغل قلبك ، فالتعب يكون للجوارح ، كما جاء فى الحديث النبوى الشريف : « مَنْ بات كالاً من عمل يده بات مغفوراً له »[(١)] ولما رأى رسول الله ﷺ يداً خشنة من العمل قال : « هذه يد يحبها الله ورسوله »[(٢)] .

فالتعب تعب القلب ، فالشىء الذى يطيقه صدرك ، وتقدر على تحمُّله لا يُتعبك ؛ لذلك نجد خالى الصدر من الهموم يعمل فى الصخر وهو هادىء البال ، يغنى بحداء جميل ونشيد رائع يُقوِّى عزيمته ، ويعينه على المواصلة ، فتراه مع هذا المجهود فَرِحاً منشرحَ الصدر .

وقد فطن الشاعر العربى لهذه المسألة فقال :

لَيْسَ بحمْلٍ مَا أطَاقَ الظَّهر مَا الحمْلُ إلاَّ مَا وَعَاهُ الصَّدْرُ

فالمعنى : أتعب جوارحك ، لكن لا تُتعِب قلبك ، والكَلَل والتعب لا يأتى على الجوارح إنما على القلب ، فأتعب جوارحك فى العمل الجاد النافع الذى تأخذ من ثمرته على قدر حاجتك ، وتفيض بالباقى على غير القادرين .

---

(١) أورده السيوطى بهذا اللفظ فى « الدرر المنتثرة » (حديث ٤٠١) من حديث أنس مرفوعاً وعزاه لابن عساكر . وأورده الهيثمى فى « مجمع الزوائد » (٤/٦٣) من حديث ابن عباس قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من أمسى كالاً من عمل يديه أمسى مغفوراً له » وقال : « رواه الطبرانى فى الأوسط وفيه جماعة لم أعرفهم » قال الحافظ العراقى فى تخريجه لأحاديث الإحياء (٢/٩٠) : « فيه ضعف » .

(٢) مما رُوى فى هذا أن رسول الله ﷺ قال : « ما أكل أحد طعاماً خيراً من أن يأكل من عمل يده ، وأن نبى الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده » أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٠٧٢) من حديث المقدام بن معديكرب .

ثم يقول : « فإنْ أنتَ رضيتَ بما قَسمْتُه لك أرحْتُ قلبك وبدنك ، وكنتَ عندى محموداً ، وإنْ أنت لم تَرْضَ بما قَسَمْتُه لكَ فوعزتى وجلالى لأسلطنَّ عليك الدنيا تركضُ فيها ركْضَ الوحوش فى البرية ، ثم لا يكون لَك منها إلا ما قَسَمْتُه لك ، وكنتَ عندى مذموماً ، يا ابن آدم ، خلقتُ السموات والأرض ولم أَعْىَ[1] بخلقهن ، أَيُعْيينى رغيفٌ أسوقه لك .. يا ابن آدم ، لا تطالبنى برزق غد كما لم أطالبك بعمل غدٍ ، يا ابن آدم أنا لم أَنْسَ مَنْ عصانى ، فكيف بمَنْ أطاعنى ؟ » .

وشاهدنا هنا قوله تعالى فى آخر الحديث القدسى : « يا ابن آدم ، أنا لك محب فبحقى عليك كُنْ لى مُحباً »[2] .

فربُّكَ يظهر لك بذاته فى مقام الخير وجلب النفع لك ، أما فى الشر فيشير إليك من بعيد ، ويلفت نظرك برِفْق .

كما نلحظ فى أسلوب الآية قوله تعالى ـ والخطاب لنساء النبى ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ .. (٣١)﴾ [الأحزاب] ولم يقل تقنت ، ثم أنَّثَ الفعل فى ﴿وَتَعْمَلْ صَالِحًا .. (٣١)﴾ [الأحزاب] فمرة يراعى اللفظ ، ومرة يراعى المعنى ، وسبق أنْ قُلْنا إن (مَنْ) اسم موصول يأتى للمفرد وللمثنى وللجمع ، وللمذكر وللمؤنث .

ونقف أيضاً هنا عند وصف الرزق بأنه كريم ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا (٣١)﴾ [الأحزاب] قلنا : إن الرزق كل ما يُنتفع به من مأكل ، أو مشرب ، أو ملبس ، أو مسكن ، أو مرافق ، وقد يأتى فى صورة معنوية كالعلم والحلم .. إلخ ، وهذا الرزق فى الدنيا لا يُوصف بأنه

---

(١) عىَّ بالأمر فهو عىٍّ وعييٌّ : عجز عنه ولم يُطق إحكامه . [لسان العرب ـ مادة : عيا] .

(٢) أورد هذه القطعة من الأثر الإمام أبو حامد الغزالى فى « إحياء علوم الدين » (٤/٢٩٦) قال : « فى بعض الكتب : عبدى أنا وحقِّك لك محب ، فبحقى عليك كُنْ لى محباً » .

كريم ، إنما الكريم هو الرازق سبحانه ، فلماذا وصف الرزق بأنه كريم ؟

قالوا : فَرْق بين الرزق فى الدنيا والرزق فى الآخرة ، الرزق فى الدنيا له أسباب ، فالسبب هو الرازق من والد أو وَالٍ أو أجير أو تاجر .. إلخ فالذى يَجرى لك الرزق على يديه هو الذى يُوصف بالكرم ، أما فى الآخرة فالرزق يأتيك بلا أسباب ، فناسب أنْ يُوصف هو نفسه بأنه كريم ، ثم فيها ملحظ آخر : إذا كان الرزق يوصف بالكرم ، فما بال الرازق الحقيقى سبحانه ؟

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِۚ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ﴿٣٢﴾ ﴾

كلمة (أحد) تُستخدم فى اللغة عدة استخدامات ، فنقول مثلاً فى العدد : أحد عشر إنْ كان المعدودُ مذكراً ، وإحدى عشرة إن كان المعدود مؤنثاً ، أما فى حالة النفى فلا تُستعمل إلا بصيغة واحدة (أحد) ، وتدل على المفرد والمثنى والجمع ، وعلى المذكر والمؤنث ، فتقول : ما عندى أحد ، لا رجلٌ ولا امرأة ولا رجلان ولا امرأتان ، ولا رجال ولا نساء ، لذلك جاء قوله تعالى : ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤) ﴾ [الإخلاص]

وقوله سبحانه : ﴿ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ .. (٣٢) ﴾ [الأحزاب] هذه خصوصية لهن ؛ لأن الأشياء تمثل أجناساً وتحت الجنس النوع ،

فالإنسان مثلاً جنس ، منه ذكر ومنه أنثى ، وكل نوع منهما تحته أفراد ، والذكر والأنثى لم يفترقا إلى نوعين بعد أنْ كانا جنساً واحداً ، إلا لاختلاف نشأ عنهما بعد اتفاق فى الجنس فالجنس حَدٌّ مُشترك : حىٌّ ناطق مفكر ، فلما افترقا إلى نوعين صار لكل منهما خصوصيته التى تُميِّزه عن الآخر .

كما قلنا فى الزمن مثلاً ، فهو ظرف للأحداث ، فإنْ كانت أحداثَ حركة فهى النهار ، وإنْ كانت أحداثَ سُكُون فهى الليل ، فالليل والنهار نوعان تحت جنس واحد هو الزمن ، ولكل منهما خصوصيته ، وعلينا أن نراعى هذه الخصوصية ، فلا نخلط بينهما .

وتأمل قول الله تعالى : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ (١) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ (٢) وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ (٣) إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ (٤) ﴾ [الليل]

فالليل والنهار متقابلان متكاملان لا متضادان ، كذلك الذكر والأنثى ، ولكلٍّ دوره ومهمته الخاصة ، فإنْ حاولتَ أنْ تجعلَ الليل نهاراً ، أو الذكر أنثى أو العكس ، فقد خالفتَ هذه الطبيعة التى اختارها الخالق سبحانه .

وحكينا قصة الرجل الذى مرَّ على عمدة القرية ، فوجده يضرب غفيراً عنده ، فدافع عن الغفير وقال للعمدة : لماذا تضربه يا عم إبراهيم ؟ قال : مررتُ عليه ووجدتُه نائماً ، فقال الرجل : نام ؛ لأنه قضى النهار يروى لك أرضك ، ومَنْ يحرث لا يحرس .

إذن : تحت الجنس النوع ، وهذا النوع غير متكافىء ؛ لأنه لو تساوى لكان مكرراً لا فائدة منه ، إنما يختلف الأفراد ويتميزون ؛ لذلك لا تظن أنك تمتاز عن الآخرين ؛ لأن الله تعالى وزَّع المواهب بين خَلْقه ، فأنت تمتاز فى شىء ، وغيرك يمتاز فى شىء آخر ، ذلك ليرتبط

الناس فى حركة الحياة ارتباطَ حاجةٍ ، لا ارتباطَ تفضُّل كما قُلْنا .

لذلك ، فالرجل الذى يكنس لك الشارع مُميَّزٌ عنك ؛ لأنه يؤدى عملاً تستنكف أنت عن أدائه ، وإذا أدَّى لك هذا العامل عملاً لابُدَّ أنْ تعطيه أجره ، فى حين إذا سألك مثلاً سؤالاً وأنت العالم أو صاحب المنصب .. إلخ فإنك تجيبه ، لكن دون أنْ تأخذ منه أجراً على هذا الجواب ، وقد مكثتَ أنت السنوات الطوالَ تجمع العلم وتقرأ وتسمع ، إلى أنْ وصلتَ إلى هذه الدرجة ، وصارت لك خصوصية ، إذن : لكل منا ، ذكر أو أنثى ، فردية شخصية تُميِّزه .

هنا يقول الحق سبحانه لنساء النبى ﴿لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ .. (٣٢)﴾ [الأحزاب] هذه هى الخصوصية التى تُميِّزهن عن غيرهن من مطلق النساء ، فمطلق النساء لَسْنَ قدوة ، إنما نساء النبى خاصة قدوة لغيرهن من النساء وأُسْوة تُقتدى .

والشرط بعد هذا النفى ﴿إِنِ اتَّقَيْتُنَّ .. (٣٢)﴾ [الأحزاب] يعنى : أن زوجيتهن لرسول الله ليست هذه ميزة ، إنما الميزة والخصوصية فى تقواهن لله ، وإلا فهناك من زوجات الأنبياء مَنْ كانت غير تقية .

وقوله تعالى : ﴿فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ .. (٣٢)﴾ [الأحزاب] أى : اقْطَعْنَ طريق الفاحشة من بدايته ، ولا تقربن أسبابها ، واتركْنَ الأمور المشتبهة فيها . ومعنى الخضوع بالقول أنْ يكون فى قول المرأة حين تخاطب الرجال ليونة ، أو تكسُّر ، أو ميوعة ، أو أن يكون مع القول نظرات أو اقتراب .

فإذا اضطررتُنَّ لمحادثة الرجال فاحذرْنَ هذه الصفات ﴿فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ .. (٣٢)﴾ [الأحزاب] والمعنى : أنا لا أتهمكُنَّ ، إنما الواحدة منكُنَّ لا تضمن الرجل الذى تُحدِّثه ، فربما كان فى قلبه

مـرض[١] ، فلا تعطيـه الفرصـة .

وليس مـعنى عـدم الخـضـوع بالقـول أنْ تُكلِّمْنَ الناسَ بـغلظة وخـشونـة ، إنما المـراد أن تكون الأمـور عند حـدودها ؛ لذلك يقـول سبحانه بعدها ﴿وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفًا (٣٢)﴾ [الأحزاب] فلما نهى القرآن عن التصرف غير المناسب عرض البديل المناسب ، وهو القول المعروف ، وهو من المرأة القول المعتدل والسماع بالأذن دون أنْ تمتد عينها إلى مُحـدِّثها ؛ لأن ذلك ربما أطمـعه فيهـا ، وجرَّأه عليهـا ، وهذا ما يريد الحق سبحانه أنْ يمنعه .

لذلك حُكِى أن رجلاً رأى خادمته على البـاب تُحدِّث شاباً وسيماً ، وكان يسـألها عن شيء ، إلا أنها أطالتْ مـعه الحديث ، فضـربها ربُّ البيت ونـهرها على هذا التصـرف ، وفى اليوم التـالى جاء شـاب آخر يسـألها عن نفس الشيء الـذى سأل عنه صـاحبـه بالأمس ، فبـادرته بالشـتائم والسُّـباب بعـد أنْ ظهـر لها مـا فى قلب هذا ، وأمثـاله من مرض .

وفى مـوضـع آخـر من هذه السورة سـيـأتى : ﴿يَـا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلابِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٥٩)﴾ [الأحزاب] ؛ لأن الرجل حين يجد المرأة محتشمة تستر مـفاتن جسمها لا يتجرأ عليها ، ويعلم

---

(١) قال ابن عرفة : المرض فى القلب فتـور عن الحق ، وفى الأبدان فتور الأعضاء وفى العين فتور النظر . وعين مريضة : فـيها فتور ، ومنه قوله : ﴿فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ .. (٣٢)﴾ [الأحزاب] أى : فتور عما أمـر به ونُهى عنه . نقله ابن منظور فى [لسان العرب ـ مادة : مرض] وقال ابن كثير فى تفسيره : « مرض أى : دغَل » والدغل هو الفساد وأصل الدغل الشجر الملتف الذى يكمن أهل الفساد فيه [لسان العرب ـ مادة : دغل] .

أنها ليستْ من هذا الصنف الرخيص ، فيقف عند حدوده .

وقد قال الحكماء : أما إذا رأيتَ امرأةً تُظهر محاسنها لغير محارمها وتُلِحُّ فى عرض نفسها على الرجال ، فكأنها تقول للرجل (فتح يا بجم) تقول للغافل تنبه . فتستثير فيه شهوته ، فيتجرأ عليها .

فالحق سبحانه يريد لزوجات النبى ﷺ أولاً أنْ يُكلِّمْنَ الناس من وراء حجاب ، وأنْ يُكلِّمْنَ الناس بالمعروف كلاماً لا لينَ فيه ، ولا ميوعة حتى لا يَتعرَّضْنَ لسوء ، ولا يتجرأ عليهن بذىء أو مستهتر .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ ﴾

معنى ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ .. ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأحزاب] الزمنها ولا تُكثِرْن الخروج منها ، وهذا أدب للنساء عامة ؛ لأن المرأة إذا شغلتْ نفسها بعمل المطلوب منها فى بيتها وفى خدمة زوجها وأولادها ومصالحهم لَمَا اتسع الوقت للخروج ؛ لذلك كثيراً ما يعود الزوج ، فيجد زوجته مُنهمكة فى أعمال البيت ، وربما ضاق هو نفسه بذلك ؛ لأنه لا يجدها متفرغة له .

إذن : المرأة المفلسة فى بيتها هى التى تُكثِر الخروج ، وتقضى

مصالح بيتها من خارج البيت ، ولو أنها تعلمتْ الصناعات البسيطة لَقضَتْ مصالح بيتها ، ووفَّرتْ على زوجها ، وقد حكوا لنا عن النساء فى دمياط مثلاً ، كيف أن المرأة هناك تعمل كل شىء وتساعد زوجها ، حتى أن البنت تتعلم حرفة ، ولا ترهق أباها عند زواجها ، بل وتوفر من المال ما يساعد زوجها بعد أن تتزوج .

وقوله تعالى : ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَىٰ .. (٣٣)﴾ [الأحزاب] كلمة التبرج من البُرْج ، وهو الحصن ، ومعنى تبرَّج أى : خرج من البرج وبرز منه ، والمعنى : لا تخرجن من حصن التستر ، ولا تبدين الزينة والمحاسن الواجب سَتْرُها .

وقال ﴿تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَىٰ .. (٣٣)﴾ [الأحزاب] أى : ما كان من التبرج قبل الإسلام ، وكانت المرأة ـ ونعنى بها الأَمَة لا الحرة ـ تبدى مفاتن جسمها ، بل وتظهر شبه عارية ، وكُنَّ لا يجدْنَ غضاضة فى ذلك ، وقد رأينا مثل هذا مثلاً فى إفريقيا .

أما الحرائر فى الجاهلية ، فكانت لهُنَّ كرامة وعفّة ، فى حين كانت تُقام للإماء أماكن خاصة للدعارة والعياذ بالله ؛ لذلك لما أخذ رسول الله العهد على النساء المؤمنات ألاَّ يَزْنين قالت امرأة أبى سفيان[1] : أو تزنى الحرة يا رسول الله ؟ يعنى : هذا شىء مستنكف من الحرة ، حتى فى الجاهلية .

ومن معانى البرج : الاتساع ، فيكون المعنى : لا تُوسِّعْنَ دائرة التبرج التى حددها الشرع ، وهى الوجه والكفان .

---

(١) هى : هند بنت عتبة بن ربيعة ، أخبارها قبل الإسلام مشهورة ، وشهدت أُحُداً كافرة وفعلت ما فعلت بحمزة ، أسلمت يوم الفتح بعد زوجها أبى سفيان ، ماتت فى خلافة عثمان . [الإصابة لابن حجر ٢٠٦/٨] وقد ذكر ابن سعد فى طبقاته (٢٢٦/١٠) أن هذا حدث عند مبايعة النساء لرسول الله ﷺ . وهند هى أم معاوية بن أبى سفيان .

وفى موضع آخر ، قال تعالى : ﴿ وَالْقَوَاعِدُ[1] مِنَ النِّسَاءِ اللاَّتِي لاَيَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ .. (٦٠) ﴾ [النور]

وتعجب من المرأة تبلغ الخمسين والستين ، ثم تراها تضع الأحمر والأبيض ، ولا تخجل من تجاعيد وجهها ، ولا تحترم السنَّ التى بلغتْها .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَأَقِمْنَ الصَّلاَةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ .. (٣٣) ﴾ [الأحزاب] كثيراً ما قرن القرآن بين الصلاة والزكاة ، وبدأ بالصلاة ؛ لأنها عمدة التكاليف كلها ، وإنْ كنتَ فى الزكاة تنفق بعض المال ، والمال فرع العمل ، والعمل فرع الزمن ، فأنت فى الصلاة تنفق الزمن نفسه وتضحى به ، فكأنك فى الصلاة تنفق نسبة سبعة وتسعين ونصف بالمائة ، فضلاً عن الاثنين ونصف نسبة الزكاة .

كما يُفهم من إيتاء الزكاة هنا أن للمرأة ذمتها المالية الخاصة المستقلة عن ذمة الغير من أب أو زوج أو غيره ، بدليل أن الله كلفها بإيتاء الزكاة ، لكن الحضارة الحديثة جعلتْ مال المرأة قبل الزواج للأب ، وبعد الزواج للزوج ، ثم سلبتْ المرأة نسبتها إلى أبيها ، ونسبتها بعد الزواج لزوجها .

وهذه المسألة أشدُّ على المرأة من سلْبها المال ؛ لأن نسبتها لزوجها طمْسٌ وتَعَدٍّ على هُويتها ، وانظر مثلاً إلى السيدة عائشة ، فما زلنا حتى الآن نقول « عائشة بنت أبى بكر » ولم يقل أحد أنها عائشة امرأة محمد .

---

(١) القواعد : هنَّ اللواتى قعدن عن الأزواج . وهى جمع قاعد ، وهى المرأة الكبيرة المسنَّة . وقعدت المرأة عن الحيض والولد تقعد قعوداً وهى قاعد : انقطع عنها . [لسان العرب - مادة : قعد] .

ثم يقول تعالى : ﴿وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ .. (٣٣)﴾ [الأحزاب] لأن المسألة لا تقتصر على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، إنما هناك أمور أخرى كثيرة تحتاج طاعة الله وطاعة رسول الله .

ونلحظ هنا أن الآية عطفت رسول الله على ربه تعالى ، وجاء الأمر واحداً ﴿وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ .. (٣٣)﴾ [الأحزاب] وحين نستقرىء هذا الأمر فى القرآن الكريم نجده مرة يُكرِّر الفعل ، فيقول : ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ .. (١٢)﴾ [التغابن]

ومرة : ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ .. (١٣٢)﴾ [آل عمران]

ومرة يقول تعالى : ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ .. (٥٩)﴾ [النساء]

وهذه الصيغ ، لكلٍّ منها مدلول ومعنى ، فساعةَ يقول : أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ، كأن لله فى الأمر طاعةً فى الإجمال ، وللرسول طاعة فى التفصيل ، فالحق سبحانه أمر بالصلاة وأمر بالزكاة أَمْرَ إجمال ، ثم بيَّن الرسول ذلك وفصَّل هذا الإجمال ، فقال : « صلُّوا كما رأيتمونى أصلى »[(١)] وقال : « خُذُوا عنِّى مناسككم »[(٢)] .

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٣١) ، وأحمد فى مسنده (٥/٥٣) من حديث مالك بن الحويرث رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « إذا حضرتْ الصلاة فأذِّنا وأقيما وليؤمكما أكبركما ، وصلُّوا كما ترونى أصلى » .

(٢) عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال : « رأيت النبى ﷺ يرمى على راحلته يوم النحر يقول لنا : خذوا مناسككم ، فإنى لا أدرى لعلِّى أن لا أحج بعد حجتى هذه » أخرجه أحمد فى مسنده (٣/٣١٨) والنسائى فى سننه (٥/٢٧٠) ، ومسلم فى صحيحه (١٢٩٧) .

إذن : تكرر الفعل هنا ؛ لأن لله طاعةً فى إجمال الحكم ، وللرسول طاعة فى تفصيله ، فإنْ جاء الفعل واحداً ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ .. (١٣٢)﴾ [آل عمران] فهذا يعنى توارد أمر الله تعالى مع أمر رسوله ﷺ ، فالطاعة إذن واحدة ، وهَبْ أن الله تعالى له فعْل ، ورسوله له فعْل ، فلا يفصل أحدهما عن الآخر ، بدليل قوله تعالى : ﴿وَمَا نَقَمُوا إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ .. (٧٤)﴾ [التوبة]

فلم يَقُلْ : وأغناهم رسوله حتى يقول قائل : كل منهما يُغْنى بقدره ، إنما جاء الفعل واحداً ﴿أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ .. (٧٤)﴾ [التوبة]

واقرأ أيضاً قوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ (٦٢)﴾ [التوبة] ولم يقل : يرضوهما .

أما قوله تعالى : ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ .. (٥٩)﴾ [النساء] فلم يُكرِّر الأمر بالطاعة مع أولى الأمر ؛ لأنه لا طاعةَ لولىِّ الأمر إلا من باطن طاعة الله ، وطاعة رسول الله .

ثم يقول سبحانه : ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً (٣٣)﴾ [الأحزاب] الرجس بالسِّين هو الرِّجز بالزاى ، وهو القذارة ، سواء أكانت حسية كالميتة مثلاً ، وكالخمر ، أو معنوية كالآثام والذنوب ، وقد جمعتْها الآية : ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٩٠)﴾ [المائدة] وقد يُراد بالرجس : النفاق والمرض .

وكلمة (أهل) تُقال : لعشيرة الرجل ، لكنها تُطلَق فى عُرْف الاستعمال على امرأته ، ومن بقية الاصطلاحات لهذا المعنى ما نقوله الآن حين نذهب لزيارة صديق مثلاً فنقول : معى الأهل أو الجماعة ، والبعض يقول : معى الأولاد ، ونقصد بذلك الزوجة ، لماذا ؟ قالوا :

لأن أمر المرأة مبنىٌّ على الستر ، فإذا كان اسمها مبنياً على الستر ، فكذلك معظم تكليفاتها مبنية على الستر فى الرجل ، ونادراً ما يأتى الحكم خاصاً بها .

لذلك ، السيدة أسماء بنت عميس[١] زوجة سيدنا جعفر بن أبى طالب ، وكانت قد هاجرت إلى الحبشة ، فلما عادت سألتْ : أنزلَ شىء فى أمر المرأة فى غَيْبَتى ؟ فقالوا لها : لم ينزل شىء ، فذهبت إلى سيدنا رسول الله ﷺ وقالت : يا رسول الله ، ما أعظم خيبتنا وخسارتنا ، فليس لنا فى الأحكام شىء ، فقال لها رسول الله ﷺ : « إنكن مستورات فى الرجال »[٢] .

ومع ذلك نزل القرآن الكريم بقوله تعالى :

﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ[٣] وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ

---

(١) هى : أسماء بنت عميس بن الحارث الخثعمى : صحابية ، أسلمت قبل دخول النبى ﷺ دار الأرقم بمكة ، وهاجرت إلى أرض الحبشة مع زوجها جعفر بن أبى طالب ، ثم قتل عنها جعفر شهيداً فى وقعة مؤتة (٨ هـ) فتزوجها أبو بكر الصديق فولدت له محمد بن أبى بكر ، وتوفى عنها أبو بكر فتزوجها على بن أبى طالب فولدت له ، وماتت بعد على . وصفها أبو نعيم بمهاجرة الهجرتين ومصلية القبلتين . [الأعلام للزركلى ٣٠٦/١] .

(٢) لم أقف على هذا الحديث ، ولكن أخرج الإمام أحمد فى مسنده (٢٥٦/٦) من حديث عائشة رضى الله عنها : « النساء شقائق الرجال » وكذا الترمذى فى سننه (١١٣) قال الخطابى فى « معالم السنن » ٧٩/١ : « أى : نظائرهم وأمثالهم فى الخُلُق والطباع ، فكأنهن شُقِقْنَ من الرجال » .

(٣) القنوت : هو الطاعة فى سكون . والقانت : المطيع الذاكر لله تعالى ، وهو العابد ، قال ابن سيده : القانت القائم بجميع أمر الله [لسان العرب ـ مادة : قنت] .

فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٣٥) ﴾ [الأحزاب]

وتلحظ فى هذه الآية أيضاً ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا (٣٣) ﴾ [الأحزاب] أنها تتحدث عن النساء ، لكنها تراعى مسألة سَتْر المرأة فتعود إلى ضمير الذكور ﴿ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ .. (٣٣) ﴾ [الأحزاب] ولم تقُلْ عنكُنَّ ، كذلك فى ﴿ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا (٣٣) ﴾ [الأحزاب] ويصحّ أنه يريد أهلَ البيت جميعاً رجالاً ونساءً .

﴿ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا (٣٤) ﴾

قوله تعالى ﴿ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ .. (٣٤) ﴾ [الأحزاب] أى : نساء النبى ﴿ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ .. (٣٤) ﴾ [الأحزاب] أى : آيات القرآن الكريم ﴿ وَالْحِكْمَةِ .. (٣٤) ﴾ [الأحزاب] أى : حديث رسول الله ﷺ ، أو : أن عطف الحكمة على آيات الله من عطف الصفة على الموصوف ، لكن القول الأول أَوْلَى ما دام أن الأمر فيه سعة .

ومعنى ﴿ وَاذْكُرْنَ .. (٣٤) ﴾ [الأحزاب] قلنا : إن الذكْر استحضار واستدعاء معلومة من حاشية الشعور إلى بؤرة الشعور ، والمعنى : استحضر ذكْر الله واجعلْه على بالك دائماً ؛ لذلك قال تعالى ﴿ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ .. (٤٥) ﴾ [العنكبوت] أى : أكبر من أىِّ عبادة ؛ لأن العبادات كما ذكرنا تحتاج إلى استعداد ، وإلى وقت ، وإلى مشقة ، وإلى تفرُّغ وعدم مشغولية .

أمَّا ذكر الله فهو يجرى على لسانك فى أىِّ وقت ، وبدون استعداد

أو مشقة ، ويلهج به لسانك فى أى وقت ، وعلى أى حال أنت فيه ، واقرأ فى ذلك قوله تعالى من سورة الجمعة : ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠)﴾ [الجمعة] فما دام أن الذكر هو أنْ تجعل الله على بالك ، فلا يمنعك من ذلك سَعْىٌ ولا عمل ؛ لأن الذِّكْر أخف العبادات وأيسَرُها على النفس ، وأثقلها فى الميزان .

ثم تأمل : ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً (٢١)﴾ [الأحزاب]

فمن عظمة سيدنا رسول الله ﷺ أن باله لم يَخْلُ لحظة من ذكر ربه أبداً ؛ لذلك ورد عنه ﷺ أنه قال عن نفسه : « تنام عينى ، ولا ينام قلبى »[1] .

ثم تُختم الآية بقوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيراً (٣٤)﴾ [الأحزاب] اللطف هو الدقَّة فى تناول الأشياء وحُسْن تأتِّى الأمور مهما كانت وسائلها ضيقة ، وسبق أنْ أوضحنا هذا المعنى وقلنا : إن الأشياء الضارة مثلاً كلما لطُفَتْ عَنُفَتْ ، فالحديد الذى تجعله على النوافذ ليحميك من الذئاب ، غير الحديد الذى يحميك من الثعابين ، أو من الناموس والذباب .. إلخ ؛ لذلك نجد أن أفتك الأمراض تأتى من الفيروسات اللطيفة التى لم تُعرف .

وحُسْن التأتِّى للأمور يعنى التغلغل فى الأشياء مهما دَقَّتْ ، فقد تُضطر مثلاً لأنْ تُدخل يدك فى شىء ضيق لتتناول شيئاً بداخله ، فلا تستطيع ، فتستعين على ذلك بالولد الصغير ؛ لأن يده ألطف من يدك ، أو تستعين على ذلك بآلة أدقّ لتؤدى بها هذا الغرض .

---

(١) حديث متفق عليه ، أخرجه البخارى فى صحيحه (٢١١٣) كتاب صلاة التراويح ، وكذا أخرجه مسلم فى صحيحه (٧٣٨) كتاب صلاة المسافرين من حديث عائشة أنها قالت : يا رسول الله أتنام قبل أن توتر ؟ قال : يا عائشة إن عينى تنامان ولا ينام قلبى » .

ووَصْف اللطيف يُتمِّمه وصف الخبير ، فإذا كان اللطيف يعنى الدقة فى تناول الأشياء وحُسْن التأتِّى ، فالخبرة تعنى معرفة الموضع ، فاللطف لا يتأتى إلا بالخبرة .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ ﴾

قلنا : إن هذه الآية نزلت تطييباً لخاطر السيدة أسماء بنت عميس زوجة سيدنا جعفر بن أبى طالب ، لما حدَّثَتْ سيدنا رسول الله فى

---

(١) **سبب نزول الآية** : أخرج الإمام أحمد فى مسنده (٦/٣٠١ ، ٣٠٥) عن أم سلمة قالت قلت : يا رسول الله ، ما لنا لا نُذكر فى القرآن كما يُذكر الرجال . قالت : فلم يرعنى منه يوماً إلا ونداؤه على المنبر يأيها الناس قالت : وأنا أسرح رأسى فلففت شعرى ثم دنوت من الباب فجعلت سمعى عند الجريد ، فسمعته ﷺ يقول : « إن الله عز وجل يقول : إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات . » هذه الآية .

وأخرج الترمذى فى سننه (٣٢١١) من حديث أم عمارة الأنصارية أنها أتت النبى ﷺ فقالت : ما أرى كل شىء إلا للرجال وما أرى النساء يُذْكرن بشىء ؟ فنزلت هذه الآية ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ .. ﴿٣٥﴾﴾ [الأحزاب] قال الترمذى : « هذا حديث حسن غريب » .

أمر الأحكام ، وأنها تنزل وتتوجَّه فى الغالب إلى الرجال ، ويبدو أنها حدَّثَتْ رسول الله فى أمر النساء ، وأن منهن مثل الرجال مسلمات ومؤمنات .. إلخ .

ونلحظ أن الآية بدأت بذكر الإسلام ، ثم الإيمان ، فأيّهما يسبق الآخر ؟ ونجد إجابة هذا السؤال فى قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ **قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَـٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ** .. (١٤) ﴾ [الحجرات]

فالإسلام أنْ تؤدى أعمال الإسلام بصرف النظر ، أكان أداؤك لها عن إيمان أو عن غير إيمان ؟ لأن الإسلام تلقِّى حكم ، أما الإيمان فأنْ تؤمن بمَنْ حكم ، وتُصدِّق مَنْ بلَّغك هذا الحكم ، وعليه فالإيمان سابق للإسلام .

لذلك جاءت هذه الآية لتفضح هؤلاء الأعراب الذين تستروا وراء الأعمال الظاهرة للإسلام ، وهم غير مؤمنين بها ، وقد يأتى الإيمان بعد الإسلام حين تؤدى أعمال الإسلام فتحلُو لك ، وتجذبك إلى الإيمان والتصديق .

لذلك ، فرح هؤلاء الأعراب لقوله تعالى : ﴿ **وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ** .. (١٤) ﴾ [الحجرات] وقالوا الحمد لله ؛ لأن (لَمَّا) لا تدخل إلا على ما يمكن أنْ يجىء ، كأن تقول : لَمَّا يثمر بستاننا ، وقد أثمرتْ البساتين ، والمعنى : أنه سيثمر فيما بعد .

قالوا : لأن هناك كثيراً من الأحكام أنت لا تؤمن بالذى حكم بها إلا إذا أدركتَ وذُقْتَ حلاوتها ، فالرجل الذى جاء سيدنا إبراهيم عليه السلام ، وطلب منه أنْ يبيت عنده ، أو : أنْ يضيفه ، فسأله إبراهيم

عليه السلام عن دينه فقال : إنه مجوسى ، فردَّ الباب فى وجهه ، فعاتبه ربه فى ذلك ، وقال له : يا إبراهيم تريده أنْ يغير دينه لضيافة ليلة ، وأنا أَسَعُه طوال عمره وهو كافر بى ؟ فأسرع إبراهيم فى إثر الرجل حتى لحق به ودعاه إلى بيته ، فقال الرجل : ألم تنهرنى منذ قليل ، فماذا حدث ؟ فقال : لقد عاتبنى ربى فيك ، فقال الرجل : نِعْم الربّ ربٌّ يعاتب أحبابه فى أعدائه ، أشهد ألاَّ إله إلا الله .

وقد اشتملتْ هذه الآية على عشر صفات ، بدأت بالمسلمين والمسلمات ، وانتهت بالذاكرين الله كثيراً والذاكرات ، وكأن الله تعالى أوجد مراد السيدة أسماء بنت عُميس فى هذه الصفات العَشْر التى جمعتْ الرجال والنساء ، واشتملت على كل أنواع التكليف ، وهى برقية تدلُّ على أن حكم المرأة التكليفى مطمور فى باطن الرجل ، وهذه هى الأصول .

ومعنى ﴿وَالْقَانِتِينَ .. (٣٥)﴾ [الأحزاب] المداومون على عبادة الله وطاعته فى خشوع وتضرُّع كما نفهم من قوله تعالى ﴿وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ .. (٣٥)﴾ [الأحزاب] أن للمرأة ذمتها المالية المستقلة وحرية التصرُّف فى مالها بغير إذن زوجها إذا كانت تملك إرثاً أو هبة من زوجها أو من غيره ، فلا ولايةَ عليها من أحد .

وسبق أن أوضحنا هذه المسألة فى كلامنا عن الزكاة ، وهذه من مَيْزات المرأة فى الإسلام ، حيث كانت قبل الإسلام ، وحتى فى الحضارات الحديثة تابعة لأبيها أو لزوجها ، والصدقة تشمل الزكاة ؛ لأن الله قال فيها : ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا .. (٦٠)﴾ [التوبة]

فالصدقة هى العنوان الأعم ، ومعناها أنك صدَّقْتَ الحق سبحانه حين استأمنك على خير، فاستنبط بمجهودك وسعيك فى أرض الله التى خلقها ، فكأنك تُحقِّق ما كان من سيدنا أبى بكر حين سأله رسول الله ﷺ : ماذا صنع بماله الذى كسبه فى الغنيمة ؟ قال : تصدَّقْتُ به كله ، فقال له : « وماذا أبقيتَ لأهلك ؟ » قال : أبقيت لهم الله ورسوله . فلما سأل عمر ـ رضى الله عنه ـ قال : تصدَّقْتُ بنصفه ، ولله عندى نصفه[1] .

فكلٌّ منهما تصرَّف فى ماله تصرُّفاً منطقياً يناسبه .

وإنْ كانت الزكاة يُراد بها نماء المال وطهارته ، فالصدقة عطاء لا يُرَاد به إلا وجه الله وثوابه فى الآخرة ، فكأن المتصدِّق يريد أنْ يبرَّ ، وأنْ يعترف لله المعطى بالفضل ؛ لأن الله مكَّنه من مال لم يُمكِّن منه الضعيف ، ولا غير القادر .

ثم ذكر الحق سبحانه تكليف الصوم ﴿وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ .. (٣٥)﴾ [الأحزاب] والصوم أخذ حُكْماً فريداً من بين أحكام التكاليف كلها، والحق سبحانه جعل لكل تكليف من التكاليف (كادر خاص) فى الجزاء إلا الصوم ، فليس له (كادر) محدد ، لذلك قال عنه الحق سبحانه : « إلا الصوم ، فإنه لى ، وأنا أجزى به »[2] يعنى : قرار عالٍ فوق الجميع ، فلماذا أخذ الصوم هذه المنزلة ؟

---

(١) أخرجه أبو داود فى سننه (١٦٧٨) ، والترمذى فى سننه (٣٦٧٥) والحاكم فى مستدركه (١/٤١٤) وصححه . وقال الترمذى : « حديث حسن صحيح » .

(٢) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (١٩٠٤) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢/٨٠٦) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، وهو حديث قدسى عن رب العزة سبحانه .

قالوا : لأن الصوم هو العبادة الوحيدة التى لم يعبد بها بشرٌ بشراً أبداً ، فمن الممكن مثلاً فى شهادة أنْ لا إله إلا الله أنْ يأتى مَنْ يمدح آخر ، فيقول له : ليس فى الكون إلا أنت ، أنت النافع وأنت الضار ، وهناك من قال عن نفسه : أنا الزعيم الأوحد ، كذلك فى الصلاة نرى مَنْ يخضع ويسجد لغير الله كما نخضع ونسجد نحن فى الصلاة ، وكذلك فى الزكاة نتقرب إلى العظيم أو الكبير بالهدايا له أو لمن حوله .

لكن ، هل قال بشر لبشر : أنا أصوم شهراً ، أو يوماً تقرُّباً إليك ؟ لا .. لأن الصيام للغير المماثل تذنيب للمصوم له لا للصائم ؛ لأنه سيُضطرّ لأنْ يظل طوال اليوم يراقبك ، أكلتَ أم لم تأكل ؟

ولأن الصوم هو العبادة الوحيدة التى لم يتقرب بها بشر لبشر قال الله عنها فى الحديث القدسى : « كل عمل ابن آدم له إلا الصوم ، فإنه لى ، وأنا أجزى به »[(١)] يعنى : جزاؤه خارج المقرر كما قلنا .

ومن عظمة تكليف الصوم أيضاً أن الله تعالى أحلَّ لنا أشياء ، وحرَّم علينا أشياء أخرى تحريماً أبدياً ، فالذى تحمَّل التكليف أَلِفَ الحلال ولم يألف ما حُرِّم عليه ، ورسختْ هذه العقيدة فى نفسه ، حتى أن الحرام لا يخطر بباله أبداً ، فلم يأْت على باله مرة مثلاً أنْ يشرب الخمر ، أو يأكل الميتة ، فهذه مسألَة منتهية بالنسبة له ، فأراد الله تعالى أنْ يديم لذَّة التكليف على البشر ، ففرضَ الصومَ الذى يُحرِّم عليك اليوم ما كان مُحلَّلاً لك بالأمس ومألوفاً حتى صار عادة .

إذن : هناك فَرْق بين دوام العادة ولذة العبادة ، وتأمل مثلاً يوم الفطر ، والفطر عادة لك فى غير هذا اليوم ، وأنت حر تفطر أو لا تفطر ، فإذا ما جاء يوم عيد الفطر أخرجك ربك من العادة إلى

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (١٩٠٤) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٨٠٦/٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

العبادة ، وجعله تكليفاً أنْ تفطر قبل الخروج للصلاة[١] .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ .. (٣٥) ﴾ [الأحزاب] جاءتْ مسألة حفْظ الفروج بعد ذكر الصيام ؛ لأن الصيام امتناعٌ عن شهوتَىْ البطن والفرج ، شهوة البطن جعلها الله تعالى لحفظ الحياة بالطعام والشراب ، وشهوة الفرج جعلها الله تعالى لحفظ النوع بالنكاح والتناسل .

قُلْنا : إن الله تعالى أرضى السيدة أسماء رضى الله عنها الممثِّلة لجنس النساء ، فذكر أنواع التكاليف مرة للمذكَّر ، ومرة للمؤنث ، لكنه راعى فى ذلك سَتْر المرأة ، وهنا أيضاً يُراعى هذه المسألة ، فيقول : ﴿ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ .. (٣٥) ﴾ [الأحزاب] حينما تكلم عن المذكَّر قال ﴿ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ .. (٣٥) ﴾ [الأحزاب] ولم يقُلْ : والحافظات فروجهن ؛ لأن أمر النساء ينبغى أنْ يُسْتر وأنْ يُصَان .

ثم يقول سبحانه ﴿ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ .. (٣٥) ﴾ [الأحزاب] ويعود إلى مسألة السَّتْر مرة أخرى فى قوله : ﴿ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً (٣٥) ﴾ [الأحزاب] فقال (لهم) على سبيل التغليب ، وسَتْر المرأة فى الرجل ، وهذه مسألة مقصودة يُراد بها شرف للمرأة ، وصيانة لها ، لا إهمالها كما يدَّعى البعض ، ومن هذه الصيانة ما نقوله نحن عن المرأة : معى أهلى أو الأولاد أو الجماعة ، ونقصد بذلك سَتْرها وصيانتها لا إهمالها ، أو التقليل من شأنها .

---

(١) عن بريدة الأسلمى قال : « كان رسول الله ﷺ لا يغدو يوم الفطر حتى يأكل ، ولا يأكل يوم الأضحى حتى يرجع فيأكل من أضحيته » أخرجه أحمد فى مسنده (٥/٣٥٣) . قال الشيخ سيد سابق فى « فقه السنة » (١/٢٦٨) : « قال ابن قدامة : لا نعلم فى استحباب تعجيل الأكل يوم الفطر اختلافاً » .

فكأن الحق سبحانه حينما أرضى السيدة أسماء نيابةً عن المرأة المسلمة ، فذكر ما ذكر من جمع المؤنث الذى يقابل جمع المذكر ، أراد أنْ يبنى حول المرأة سياجاً من الستر فى كل شىء حتى فى التكاليف .

ونلحظ على سياق الآية هنا أيضاً أنه قدَّم المغفرة على الأجر ؛ لأن القاعدة كما قُلْنا : إن دَرْء المفسدة مُقدَّم على جَلْب المصلحة ، والحق سبحانه يُعد لعباده الأجر على الحسنة التى فعلوها ، مع أنه سبحانه لا ينتفع منها بشىء إنما يعود نَفْعها على المكلَّف نفسه ، فهو يستفيد بالطاعة وينال عليها الأجر فى الآخرة .

أما الحق سبحانه فغنىٌّ عنَّا ، وعن طاعتنا ، واقرأ الحديث القدسى : « يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ، ما زاد ذلك فى مُلْكى شيئاً ، ولو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ، ما نقص ذلك من ملكى شيئاً »[(١)] .

إذن : نحن المستفيدون من التكاليف ، ففيها صلاحُنَا فى الدنيا ، ثم نأخذ عليها الأجر يوم القيامة .

لذلك نجد الكثير من الرسل يقولون لأقوامهم : ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ .. (١٠٩) ﴾ [الشعراء] كأنه يقول : الذى أؤديه لكم من تبليغ دعوة الله فى عرف الاقتصاد والتبادل يقتضى أنْ آخذَ عليه أجراً ؛ لأننى أؤدى لكم خدمة ، لكن ماذا سآخذ منكم أيها العرايا وأجرى عالٍ لا يقدر عليه المكلَّف ﴿ إِنْ أَجْرِىَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ .. (٧٢) ﴾ [يونس] فهو

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٥٧٧) ، وكذا الترمذى فى سننه (٢٤٩٥) من حديث أبى ذر رضى الله عنه .

وحده القادر على أنْ يجازيني بما أستحق .

ووَصْف الأجر بأنه عظيم يدلُّ على كِبَر في الحجم ، ونَفَاسة في الصفات ، وامتداد في الزمن ، وهذه هي عناصر العظمة في الشيء ، وأيُّ أجر أعظم من أجر الله لعباده في الآخرة ؟

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ ﴾

جمعتْ هذه الآية أيضاً بين المذكر والمؤنث في ﴿ مَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ .. ﴿٣٦﴾ ﴾ [الأحزاب] فهي امتداد للآية السابقة ، فهي تخدم ما قبلها ، وتخدم أيضاً ما بعدها ، وما به أصل السبب ؛ لأنها نزلتْ في عبد الله بن جحش وأخته زينب ، حين رفضا زواج زينب من زيد بن حارثة ، فالمؤمن عبد الله بن جحش ، والمؤمنة أخته زينب من حيث هما سبب لنزول الآية ، وإلا فهي لجميع المؤمنين وجميع المؤمنات .

وسبق أنْ ذكرنا قصة زيد بن حارثة ، وملخصها أنه سُرِق من أهله ، وبِيع في سوق العبيد على أنه عبد ، فاشتراه حكيم بن حزام ،

---

(١) **سبب نزول الآية** : قال ابن عباس : خطب رسول الله ﷺ زينب بنت جحش لزيد بن حارثة رضي الله عنه ، فاستنكفت منه ، وقالت : أنا خير منه حسباً ، وكانت امرأة فيها حدة ، فأنزل الله تعالى ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ .. ﴿٣٦﴾ ﴾ [الأحزاب] أورده ابن كثير في تفسيره (٣/٤٨٩) ، والسيوطي في « أسباب النزول » . (ص ٢٢٠) .

ثم وهبه للسيدة خديجة أم المؤمنين ، فوهبته خديجة رضى الله عنها لسيدنا رسول الله ﷺ ، فصار مَوْلىً لرسول الله .

وبينما هو ذات يوم بالسوق ، إذ رآه جماعة من قومه فعرفوه ، وأخبروا أباه أنه بالمدينة ، فجاءه أبوه وأعمامه ، وحكَوْا لرسول الله قصته ، وطلبوا عودته معهم ، فقال رسول الله : خيِّروه ، فإن اختاركم فهنيئاً لكم ، وإن اختارنى ، فَمَا كان لى أنْ أُسْلِمه ، فردَّ زيد وقال : والله ما كنت لأختار على رسول الله أحداً .

فأراد سيدنا رسول الله أنْ يكافىء زيداً على هذا التصرف ، فنسبه إليه على عادة العرب فى هذا الوقت ، فسمَّاه زيد بن محمد[1] .

فلما أراد الحق سبحانه أن ينهى هذه العادة ومثلها عادة الظهار ، نزل قوله سبحانه : ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللاَّئِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ .. (٤) ﴾ [الأحزاب]

فكما أن الرجل لا يكون له إلا قلب واحد ، كذلك لا يكون له إلا أب واحد ، وشاء الله أنْ يبدأ بمُتَبنَّى رسول الله ؛ ليكون نموذجاً تطبيقياً عملياً أمام الناس ، وكانت هذه الظاهرة يترتب عليها أنْ يرث المتبنَّى من المتبنِّى بعد موته ، وأنْ تُحرم زوجة المتبنَّى أنْ يتزوجها المتبنِّى .

صحيح أن القضاء على هذه العادة قضاءٌ على نظام اجتماعى فاسد موجود فى الجزيرة العربية ، لكنه فى الوقت نفسه دليل على أن رسول الله ﷺ تبنَّى كما يتبنَّى العرب ، وأن الله تعالى أبطل من

---

(١) انظر سيرة النبى لابن هشام (١/٢٤٨ ، ٢٤٩) .

رسول الله هذا التصرّف ؛ وهذا سيفتح الباب أمام معاندى رسول الله أنْ يَشْمتوا فيه ، وأن تتناوله ألسنتهم ؛ لذلك عالج الحق سبحانه هذه القضية علاج ربٍّ بإنفاذ الأمر فى نُصْرة حبيب له ، فلم يُشوِّه عمل الرسول ، إنما جعل فعْله عَدْلاً ، وحكمه سبحانه أعدل ، فقال : ﴿ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ .. (٥)﴾ [الأحزاب]

والمعنى : إنْ كُنتم جعلتم من العدل والمحبة أنْ تكفلوا هؤلاء الأولاد ، وأنْ تنسبوهم إليكم ، فهذا عَدْل بشرىٌّ ، لكن حكم الله أعدل وأقْسَط ، وشرفٌ لرسول الله أنْ يردَّ اللهُ حكمه إلى حكم ربه ، وشرفٌ لرسول الله أن يكون له الأصل فى المسألة ، وأنه يحكُم ، فيردّ الله حكمه إلى حكمه ، فهذا تكريم لرسول الله .

فقوله تعالى ﴿هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ ..(٥)﴾ [الأحزاب] يعنى : أن فعْل محمد كان قسْطاً وعَدْلاً بقانون البشر ، وقد جاء محمد ليُغيِّر قوانين البشر بقوانين ربِّ البشر ، وبهذا خرج سيدنا رسول الله من هذا المأزق .

أما زيد فقد عوَّضه الله عما لحقه من ضرر بسبب انتهاء نسبه إلى رسول الله ، فصار زيد بن حارثة بعد أنْ كان زيد بن محمد ، عوَّضه الله وأنصفه بأنْ جعله العَلَم الوحيد من صحابة رسول الله الذى ذُكر اسمه فى القرآن الكريم بنصِّه وفصِّه ، فقال سبحانه : ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا .. (٣٧)﴾ [الأحزاب] فَخُلِّدَ زيد فى كتاب يُتْلى ، ويُتعبد بتلاوته إلى يوم القيامة .

وعلاقة زيد بن حارثة بما نحن بصدده من قوله تعالى ﴿مَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ .. (٣٦)﴾ [الأحزاب] أنه تزوج من السيدة زينب بنت جحش ، زوَّجه إياها رسول الله ، وقد نزلتْ هذه الآية فى زينب ،

وفى أخيها عبد الله[١] .

ومعنى ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ .. (٣٦)﴾ [الأحزاب] معنى (ما كان) أى : أنه شىء بعيد ، لا يمكن أنْ يَرِد على العقل ، أى : أنه أمر مُسْتبعد غير مُتصوَّر ، وكان المنفية تدل على جَحْد هذه المسألة ، فالمؤمن والمؤمنة ، ما دام أن الإيمان باشر قلبيهما لا يمكن أنْ يتركا أمر الله وحكمه ، أو أمر رسوله إلى اختيارهما .

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ .. (٣٦)﴾ [الأحزاب] وإلا فلا إيمانَ لا بالله ، ولا برسول الله .

فإنْ قُلْتَ : كيف وقد أثبتَ الله الاختيار ؟ نقول : هناك فرق بين اختيار داخل فى التكليف ، إنْ شئْتَ فعلْته أو لم تفعله ، وشىء فى إيجاد التكليف بداية ، فليس للعباد دخْل فى إيجاد الشىء المكلَّف به ، إنما إذا كلَّفتهم أنا ، فأنا صاحب التكليف ، وكونهم يطيعونه أو لا يطيعونه ، فهذا أمر آخر ، ليس للعباد أن يقترحوا التكليف على هواهم ؛ لأن التكليف لى ، ولهم الاختيار فى طاعته وفى قبوله ، وما دام قد ثبت أنهم آمنوا بالله وآمنوا برسول الله فكان من الواجب عليهم أنْ يرتضوا الأمر ، وألاَّ يُعرِضوا عنه إلى غيره .

وقصة طلاق زيد وزينب ، ثم زواج سيدنا رسول الله ﷺ منها

---

(١) هو : عبد الله بن جحش بن رئاب الأسدى ، صحابى ، قديم الإسلام ، هاجر إلى بلاد الحبشة ، ثم إلى المدينة ، وكان من أمراء السرايا ، وهو صهر رسول الله ﷺ ، أخو زينب بنت جحش أم المؤمنين ، قتل يوم أحد شهيداً ، فدفن هو والحمزة فى قبر واحد عام ٣ هجرية . [الأعلام للزركلى ٤/٧٦] . والحمزة بن عبد المطلب عم رسول الله هو خال عبد الله بن جحش ، فأمه هى أميمة بنت عبد المطلب .

قصة خاضَ فيها المستشرقون والمغرضون كثيراً ، وتجرأوا على سيدنا رسول الله بكلام لا ينبغى فى حقه ﷺ ، ومن قولهم أن محمداً أحبَّ زينب وأرادها لنفسه ، فأمرها أنْ تشاغب زيداً حتى يطلقها فيتزوجها .

ونقول لهؤلاء الأغبياء : أولاً زينب بنت جحش الأسدية هى بنت عمة رسول الله ، وكان ﷺ مُكلَّفاً بإدارة أموالها ورعاية شئونها ، وقد نشأتْ تحت عينه ، ولو أرادها لنفسه لتزوَّجها بداية ، وهذا بنصِّ القرآن : ﴿ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ .. (٣٧) ﴾ [الأحزاب]

فإنْ أردتَ أنْ تعرف ما أخفاه رسول الله فخُذْه مما أبداه الله ، والذى أبداه الله قوله تعالى ﴿ لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ .. (٣٧) ﴾ [الأحزاب] وهذا يهدم كلَّ ادعاءاتكم على رسول الله .

أما قولهم بانشغال قلب رسول الله بزينب ، فنقول : ولماذا تجعلون انشغالَ قلب محمد انشغالاً جنسياً ؟ ولو تتبعتُم القصة من أولها لظهر لكم غير ذلك ، فحينما أرسل رسول الله مَنْ يخطب زينب ظنَّ أخوها عبد الله وأختها حَمْنة أنه جاء ليخطبها لرسول الله ، فلما علموا أنه يخطبها لمولاه زيد غضبوا جميعاً ، فكيف تتزوج السيدة القرشية وبنت عمة رسول الله من عبد ، لكن لما علموا أن الأمر من الله أذعنُوا له ووافقوا .

ثم بعد أنْ تزوجتْ زينب من زيد تعالتْ عليه ، بل وشعر أنها تحتقره لهذا الفارق بينهما ، فكان زيد يشتكى لرسول الله سوءَ معاملة زوجته له ، وأنها كما نقول (منكدة عليه عيشته) ، وأنها تعيش معه فى بيت الزوجية بالقالب لا بالقلب ، لكن حبه لرسول الله كان يمنعه من طلاقها ، وهو أيضاً لا يريد أن يخسر هذا الشرف الذى ناله

بالزواج من ابنة عمة رسول الله .

وكان سيدنا رسول الله فى كل مرة يشتكى فيها زيدٌ من زينب يقول له ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ .. (٣٧)﴾ [الأحزاب] ولو أرادها الرسول لنفسه لقال له طلِّقها ، ولوجد الفرصة أمامه سانحة .

ويجب أن نبحث هنا علاقة المرأة بالرجل ، فالخالق سبحانه خلق الرجل للمرأة ، والمرأة للرجل ؛ لذلك نجد المرأة العربية أم إياس ، وهى تُوصى ابنتها لما خطبها الحارث ، تقول : « أىْ بُنية ، إنك لو تُركْتِ بلا نصيحة لكنتِ أغنى الناس عنها ، ولو أن امرأة استغنتْ عن الزوجِ لغنى أبويها وشدَّة حاجتهما إليها لكنتِ أغنى الناس ، ولكن الرجال للنساء خُلقْن ، ولهُنّ خُلق الرجال ، وأنَ النصيحة لو تركتْ لفضل أدبٍ لتركتَ لذلك منك ، ولكنها تذكرةٌ للغافل ومعونة للعاقل » .

وقلنا : إن الإنسان يستطيع أنْ يعيش أفضل ما يكون من مأكل ومَشْرب وملبس ومسكن ، لكنه مع ذلك لا يستغنى بحال عن الزوجة والمرأة كذلك ؛ لذلك يقول رسول الله ﷺ : « لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد لأمرتُ الزوجة أن تسجد لزوجها »[(١)] .

لماذا ؟ لأن الزوج يعطيها ما يعطيه الأب والأم والإخوة ، ويزيد على ذلك مما لا يقدرون ولا يستطيعون .

الشاهد أن المرأة للرجل ، والرجل للمرأة ، مهما وضعوا من أسوار من عزٍّ أو من جبروت ، أو غيره .

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٤/٣٨١) عن عبد الله بن أبى أوفى أن رسول الله ﷺ قال : « لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها ، ولا تؤدى المرأة حق الله عز وجل عليها كله حتى تؤدى حق زوجها عليها كله ، حتى لو سألها نفسها وهى على ظهر قتب لأعطته إياها » . والقتب : رَحْل صغير على قدر سنام الجمل .

إن المسألة بالنسبة لزيد كانت صعبة ؛ لأن الله تعالى جعل للزواج ثلاث مراحل ، وردتْ فى قوله تعالى : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً .. (٢١)﴾ [الروم]

فالأولى أنْ يسكن الزوج إلى زوجته ، وأنْ يطمئن إليها ، ويرتاح بجوارها حين تمسح عنه عرقه ، وتحتويه بعد تعب اليوم ومشاقّ الحياة ، فإن امتنع السَّكَن بسبب مُنغِّصات الحياة ، فليكُنْ بينهما مودة تجمعهما ، ولِمَ لا ، وأنت حين تصاحب صديقاً مثلاً مدة طويلة تجد له مودة فى قلبك ، وتجد أن لهذه المودة ثمناً ، فتتحمله إنْ أخطأ ، وتسامحه إنْ أساء ، فما بالك بالزوجة ، أليست أحق بهذه المودة ؟

فإذا ما فُقِدَت المودة أيضاً ، فليبْقَ بين الزوجين التراحم ، فليرحم كل منهما الآخر إنْ أصابه الكِبَر أو المرض ، أو غير ذلك .

وقد وصل زيد مع زينب إلى مرحلة فقد فيها السَّكَن والمودة والرحمة بسبب ما بينهما من فارق .

أمر آخر ، إنْ كان رسول الله ﷺ قد فكَّر فى أمر زينب ، فلماذا تعدلون به إلى التفكير فى الغريزة ؟ ولماذا لا تعدلون به إلى مرتبة الإنصاف ، وهو الذى أرغم زينب على الزواج من زيد ، وهى الشريفة القرشية ، وهو العبد المملوك ، فلما وضعها فى هذا المأزق أراد أنْ يُطيِّب خاطرها ، ويصلح ما كان منه بأنْ يضمها إليه ، فتصير إحدى أمهات المؤمنين .

ثم مَن الذى منع رسولاً قال الله عنه أنه بشر من أن تكون له هذه الرغبة ، وكل الرسل السابقين كان لهم هذه ـ هذا على فرض رغبة رسول الله فى زينب ـ لكن الناس لم يُحسِنُوا الظن .

والذى يدلُّنا على أن هذه المسألة كانت ترتيباً ربانياً صِرْفاً ما نجده من الرياضة الإيمانية بين كل من سيدنا رسول الله ، ومولاه زيد ، وابنة عمته زينب ، فقد جمعهم الثلاثة رياضة إيمانية كما نقول نحن الآن : فلان عنده روح رياضية .

يعنى : يتقبل الهزيمة بروح عالية بدون عداوات أو أحقاد ، فلقد انصاع الجميع لأمر الله بهذه الروح الإيمانية .

أما الذين يأخذون من قوله تعالى فى حق رسوله ﴿ **وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ** .. (٣٧) ﴾ [الأحزاب] يأخذونها سُبَّة فى حقِّ الرسول ، فعليهم أنْ يعلموا أنَّ الخشية نوعان : خشية من شىء تخاف أنْ يضرك ، وخشية استحياء ، فالخشية فى ﴿ **وَتَخْشَى النَّاسَ** .. (٣٧) ﴾ [الأحزاب] خشية استحياء ، ويكفى أن الحق سبحانه قال فى حق رسوله ﷺ[1] : ﴿ **إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى النَّبِىَّ فَيَسْتَحْيِى مِنكُمْ وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِى مِنَ الْحَقِّ** .. (٥٣) ﴾ [الأحزاب]

فالخشية هنا تعنى خَوْف رسول الله من ألسنة الكفار التى ستخوض فى حقه ، والتى ستقول إن محمداً تزوَّج من امرأة مُتبنَّاه ، لكن غاب عن هؤلاء أن الله تعالى ألغى مسألة التبنى ، فليس لهم

---

(١) وذلك أن رسول الله ﷺ حين بنى (دخل) بزينب بنت جحش ، صنع وليمة خبز ولحم فدعا الناس إليها ، فأخذ يجىء قوم فيأكلون ويخرجون ثم يجىء قوم فيأكلون ويخرجون وبقى ثلاثة رهط يتحدثون لم يخرجوا ورسول الله يريد أن يخلو بزينب . عروسه وهم جالسون ، فخرج ثم عاد ، ثم خرج . ثم عاد حتى أخبر أن القوم قد خرجوا ، وكان شديد الحياء ، فنزل قوله تعالى : ﴿ **يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِىِّ إِلاَّ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَـٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى النَّبِىَّ فَيَسْتَحْيِى مِنكُمْ وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِى مِنَ الْحَقِّ** .. (٥٣) ﴾ [الأحزاب] انظر : أسباب النزول للواحدى (ص ٢٠٥) ، وتفسير ابن كثير (٣/٥٠٣) .

حجة ، وطبيعى أن يخاف رسول الله من ألسنة الكفار ؛ لأنه جاء لنقض عادات وتقاليد جاهلية ، وكان هو ﷺ أول مَنْ تحمَّل تبعة هذا التغيير ؛ لأنه جاء على يديه وفى شخصه ﷺ .

وسيدنا رسول الله حين يستحى من زواجه من زينب أو من كلام الناس ، فإنما يريد أنْ يبرىء عِرْضه وساحته ، مما يشين ، وقد كان ﷺ يدفع الشبهة عن نفسه دائماً ، لذلك لما رآه بعض أصحابه مع امرأة ، فمالوا عنه ﷺ خشيةَ أنْ يتسببوا له فى حرج ، فناداهما رسول الله : « على رِسْلكما إنها صفية » فقالوا : نحن لا نشك فيك يا رسول الله ، فقال : « إن الشيطان ليجرى من ابن آدم مجرى الدم »[(١)] .

فرسول الله يريد أن ينفض عن نفسه أىَّ شبهة ، يريد ألا يجعل لأحد جميلاً عليه ، بأنه ستر على رسول الله .

ولا أدلَّ على حيائه ﷺ من قصته مع عبد الله بن سعد بن أبى السرح ، فلما دخل ﷺ مكة فاتحاً ومنتصراً كان قد أهدر دم عبد الله بن سعد بن أبى السرح ؛ لأنه نال كثيراً من رسول الله[(٢)] ، فجاء عثمان بن عفان رضى الله عنه يستأمن لعبد الله من رسول الله ـ يعنى : يطلب له الأمان ـ فما ردَّ عليه رسول الله ، وكان ينتظر أن يقوم رجل من القوم فيقتل عبد الله ، لكن عثمان أعادها مراراً على

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٢١٩) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢١٧٥) من حديث صفية بنت حُيىّ .

(٢) كان عبد الله بن سعد بن أبى سرح قد أسلم قديماً وكتب لرسول الله ﷺ الوحى ثم افتتن وخرج من المدينة إلى مكة مرتداً فأهدر رسول الله دمه يوم الفتح . [الطبقات الكبرى لابن سعد ٩/٥٠٢] .

رسول الله حتى أنه استحى من عثمان فأمَّن عبد الله ، فلما أمَّنه أخذه عثمان وانصرف من مجلس رسول الله .

فقال رسول الله لصحابته : « ألم يكن فيكم رجل رشيد يقوم إليه فيقتله ؟ » يعنى : قبل أن يُكلِّمه عثمان فيكون قد سبق السيف العذل[1] كما يقولون ، فقام عبد الله بن بشر وقال : يا رسول الله ، لقد كانت عينى فى عينك ، أنتظر إشارة منك لأقتله ، لكنك لم تفعل ، فقال سيدنا رسول الله ـ انظر إلى العظمة « ما كان لنبى أن تكون له خائنة الأعين »[2] .

أذكر أنه كان لنا أستاذ ، هو سيدنا الشيخ موسى شريف رحمه الله ورضى الله عنه ، وكان رجلاً له مدد من الله ، وقد فسر لنا هذه الآية ، وكنا نذاكر دروسنا قبل أن نحضر درسه ، وكان يصطفينى من بين إخوانى الموجودين أمثال الشيخ حسن جاد ، والدكتور خفاجة وأبى العينين وغيرهم ، ليسألنى عن مذاكرتنا وما وقف أمامنا من قضايا ، فنادانى وكان قد علم من أبى اسم أمى ، فنادانى بها فتقدَّمت إليه ، فضربنى على قفاى ضربة انحلَّتْ معها القضية التى كانت تقف أمامنا ، تماماً كما تضرب الذى يعانى من (الزغطة) ضربة على ظهره فتذهب .

ولما حدَّثنا الشيخ عن قصة سيدنا عثمان هذه جاء فى اليوم التالى وقال : يا أولاد ، رأينا الليلة سيدنا عثمان بحيائه ، فقلت له :

---

(١) العذل : اللوم والتأنيب . وقال ابن منظور فى [لسان العرب ـ مادة : عذل] : « قولهم فى المثل : سبق السيف العَذَل ، يُضرب لما قد فات ، وأصل ذلك أن الحارث بن ظالم ضرب رجلاً فقتله ، فأخبر بعذره ، فقال : سبق السيف العذل » .

(٢) أخرجه أبو داود فى سننه (٤٣٥٩) ، وكذا النسائى فى سننه (٧/١٠٥ ، ١٠٦) من حديث سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه . ولفظ أبى داود والنسائى . « إنه لا ينبغى لنبى أن تكون له خائنة الأعين » .

كيف تستأمن لرجل قال فى رسول الله كذا وكذا ؟ فقال لى : ألاَ تعلم أن الله يحب مَنْ تاب ، فقلت لرسول الله ﷺ - ولم يقل : أنا رأيتُ رسول الله - ما الذى جعلك تقبل شفاعة عثمان ؟ فقال : ألاَ أستحى من رجل تستحى منه الملائكة[1] ؟

فالنبى ﷺ بطبيعته كان شديد الحياء .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُّبِينًا (٣٦) ﴾ [الأحزاب] وهنا ثلاثة توكيدات : قد الدالة على التحقيق وبعدها الفعل الماضى ، ثم المفعول المطلَق ضلالاً ، ثم وصف هذا الضلال بأنه مبين .

والضلال هو عدم الاهتداء إلى الطريق المؤدِّى إلى الغاية ، لكن قد يضلّ إنسانٌ طريقه ، ثم يأتى مَنْ يفتح عليه ويدلُّه ، أما هذا الذى يعصى الله ورسوله ، فضلاله ضلال مبين لا يجد مَنْ يدلُّه ، ولا مَنْ يهديه أبداً ؛ لأن هذا الطريق الذى يسير فيه مُوصِّل إلى الآخرة ، وليس هناك شىء من ذلك .

كانت هذه (لقطة) لسيدنا رسول الله ﷺ مع عثمان وعباد بن بشر أوضحتْ صفة الحياء فى رسول الله ، نعود بعدها إلى ما كنا بصدده من الحديث عن الرياضة الإيمانية التى جمعتْ بين رسول الله وكل من زيد وزينب .

---

(١) هذه العبارة قالها رسول الله ﷺ عن عثمان رضى الله عنه فى مناسبة أخرى ، فى حديث أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٤٠١) عن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ مضطجعاً فى بيتى كاشفاً عن فخذيه أو ساقيه فاستأذن أبو بكر فأذن له وهو على تلك الحال فتحدث ، ثم استأذن عمر فأذن له وهو كذلك فتحدث ، ثم استأذن عثمان فجلس رسول الله ﷺ وسوَّى ثيابه ، فلما خرج قالت عائشة : دخل أبو بكر ولم تهتش له ولم تباله ، ثم دخل عمر فلم تهتش له ولم تباله ، ثم دخل عثمان فجلست وسويت ثيابك فقال : ألا تستحى من رجل تستحى منه الملائكة .

وكان سيدنا رسول الله إذا غاب زيد يذهب فيسأل عنه ، فذهب مرة ، فرأى زينب منشغلة فى أمور بيتها ، وكانت زينب على حالة طيبة ، فقال ﷺ : « تبارك الله أحسن الخالقين » كما ترى مثلاً ابنتك فى مظهر حسن ، فتقول : ما شاء الله .

وكأن رسول الله أراد أنْ يُطيِّب خاطرها ، أو يرفع من روحها نظير ما أجبرها عليه من الزواج بزيد ، ونظير أنها تعيش معه على مضض ، فلما جاء زيد قالت له : لقد جاء رسول الله وسأل عنك وقال لى : تبارك الله أحسن الخالقين ، فقال لها : يا زينب أرى أنْ تكونى لرسول الله ؛ لأنك وقعت فى قلبه ، وأرى أنْ أُطلِّقك ليتزوجك رسول الله ، فبدا عليها الارتياحَ ، وتعجبتْ كأنها لم تصدق : إذا طلَّقْتنى أتزوج برسول الله ، كان هذا الحوار مجرد كلام .

وبالله لو قيل هذا الكلام فى غير هذا الموقف ، ولواحد غير زيد لغلى الدم فى عروقه ، وفعل ما فعل ، إنما تأمل الرياضة الإيمانية التى تحلَّى بها زيد .

يقول تعالى فى هذه المسألة :

﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ ﴾

معنى ﴿وَإِذْ تَقُولُ .. (٣٧)﴾ [الأحزاب] واذكر جيداً وأدرْ مسألة زيد فى رأسك ، اذكر إذ تقول للذى أنعم الله عليه بالإيمان - والمراد زيد - وأنعمتَ عليه بالعتق أولاً ، وأنعمت عليه بقانون البشرية بأنْ جعلْتَه ابناً لك وأنعمتَ عليه بأن زوَّجته ، وهو عبد ، من قرشية ، هى ابنة عمتك ، ثم أنعمتَ عليه حين قُلْت له ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ .. (٣٧)﴾ [الأحزاب]

لكن ، لماذا قُلْتَ له هذه الكلمة يا محمد ؟ أخوفاً من كلام الناس أنْ يقولوا : تزوَّج من امرأة مُتبنَّاه ؟ كيف وهذا مقصود من الله تعالى ، إنه يريد أن يُنهى عادة التبنى ، وأنْ يُنهيها على يدك أنت ، فأنت تخفيه خوفاً من كلام الناس ، وقد أبداه الله حين أخبرك بهذه المسألة ، وأن نهايتها ستكون على يديك بأنْ تتزوج امرأة مُتبنَّاك ﴿وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ .. (٣٧)﴾ [الأحزاب] فدعْكَ من الناس .

لذلك قال سبحانه فى موضع آخر : ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلاَّ اللَّهَ .. (٣٩)﴾ [الأحزاب]

وسبق أن أوضحنا أن خشيته ﷺ لم تكن خشية خوف من شىء يضره ، إنما خشية استحياء ليدفع رسول الله الشبهة عن نفسه .

وقوله تعالى : ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا .. (٣٧)﴾ [الأحزاب] الوطر : هو الأشياء التى تناسب معاش الرجل ، فمعناه الغاية أو الحاجة ، وسبق أن قُلْنا : إن وطر الرجل من زوجته أن تكون سكناً ، فإن لم يكُنْ ، فمودة تجمعهما ، فإنْ لم يَكُنْ فرحمة متبادلة .

وقد افتقد زيد فى زوجته كل هذه المراحل ، فلم يجد معها ، لا السكن ، ولا المودة ، ولا الرحمة ، فلماذا - إذن - يستمر فى الارتباط بها ؟ لذلك كان يذهب إلى رسول الله ، فيشتكى له ما يلاقى

من زينب ، فكان رسول الله ﷺ يقول له :

﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ ..(٣٧)﴾ [الأحزاب]

وتأمل هنا هذه الرياضة الإيمانية بين سيدنا رسول الله وزيد وزينب رضى الله عنهما : لما طلَّق زيدٌ زينبَ تركها رسول الله لتقضى عدَّتها ، فلما قضتْ العدَّة قال : يا زيد اذهب إلى زينب فاخطبها علَيَّ[1] ، فما هذه العظمة ؟ رسول الله يبعث المطلِّق ليخطب له المطلَّقة ، وهذا يدل على ثقته فى زيد ، وأنه قد قضى وطره من زينب ، ولم يَعُدْ له فيها حاجة .

ويدخل زيد على زينب ، فيقول لها : أبشرى يا زينب ، لقد بعثنى رسول الله لأخطبك له ، فقالت : والله لا أجيب حتى أسجد شكراً لله ، فقامت زينب فسجدتْ ، عندها عاد زيد إلى رسول الله ، فأخبره ما كان من زينب فجاءها رسول الله ﷺ ، فدخل عليها بلا استئذان[2] .

تُرى لماذا يدخل عليها سيدنا رسول الله بلا استئذان ؟ قالوا : لأنها حينئذ صارت زوجته ، كما قال سبحانه ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا

---

(١) أخرج ابن سعد فى الطبقات الكبرى (١٠/١٠١) من حديث أنس قال : « لما انقضت عدة زينب بنت جحش قال رسول الله ﷺ لزيد بن حارثة : ما أجد أحداً آمن عندى أو أوثق فى نفسى منك ، ائت إلى زينب فاخطبها علىَّ . .. قال زيد : يا زينب ، أبشرى ، إن رسول الله يذكرك » . ولكن أخرج ابن سعد أيضاً فى الطبقات (١٠/٩٩) أن رسول الله ﷺ بعد انقضاء عدة زينب أخذته غشية فسُرِّى عنه وهو يتبسَّم وهو يقول : من يذهب إلى زينب يبشِّرها أن الله قد زوجنيها من السماء . قالت عائشة : فخرجت سلمى خادم رسول الله ، تشتد فتحدثها بذلك فأعطتها أوضاحاً عليها .

(٢) قاله أنس بن مالك رضى الله عنه « أن زينب ردَّتْ على زيد : ما أنا بصانعة شيئاً حتى أوامر ربى ، فقامت إلى مسجدها ونزل القرآن ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا .. (٣٧)﴾ [الأحزاب] قال : فجاء رسول الله فدخل عليها بغير إذن » أخرجه ابن سعد فى الطبقات الكبرى (١٠/١٠١) ، وابن الأثير فى أسد الغابة (٧/١٢٥) .

وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا .. ﴿٣٧﴾ [الأحزاب] أى : زوَّجه الله بها من فوق سبع سموات .

لذلك كانت السيدة زينب حين تجلس مع زوجات النبى ﷺ - وهذه أيضاً من الرياضات الإيمانية - تقول لهن : إنى لأفتخر عليكن جميعاً بأنكن زوجكُنَّ أولياؤكن ، أما أنا فزوَّجنى ربى ، فلا تجرؤ إحداهن على الردِّ عليها[1] .

ليس هذا فحسب ، إنما تُدلُّ أيضاً على سيدنا رسول الله ، فتقول له : يا رسول الله ، أنا أُدلُّ عليك بثلاث ، فيضحك سيدنا رسول الله ويقول : أما الأولى ؟ فتقول : أما الأولى فجدِّى وجدُّك واحد ، وأما الثانية فلأن الله زوَّجنى من فوق سبع سموات ، وأما الثالثة فلأن سفيرى فى الزواج لم يكُن زيداً ، إنما كان جبريل[2] .

فأىُّ عظمة هذه التى نلاحظها فى هذه القصة ، وأىُّ رياضة إيمانية عالية من رسول الله وصحابته ؟

إذن : لم يتزوج رسول الله من زينب ، إنما زوَّجه ربه ؛ لذلك نقول للمغرمين بالخوض فى هذه المسألة ، يحسبونها سُبَّة فى حق رسول الله : افهموا الفرق بين زُوِّج وتزوج . تزوج أى : بنفسه

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٧٤٢٠) من حديث أنس بن مالك أن زينب كانت تفخر على أزواج النبى ﷺ تقول : « زوَّجكن أهاليكن وزوجنى الله تعالى من فوق سبع سماوات » .

(٢) ذكره ابن حجر العسقلانى فى فتح البارى (٤١٢/١٣) ببعض هذه الألفاظ من مرسل الشعبى « قالت زينب : يا رسول الله ، أنا أعظم نسائك عليك حقاً ، أنا خيرهن منكحاً ، وأكرمهن سفيراً ، وأقربهن رحماً ، فزوَّجنيك الرحمن من فوق عرشه ، وكان جبريل هو السفير بذلك ، وأنا ابنة عمتك وليس لك من نسائك قريبة غيرى » أخرجه الطبرى وأبو القاسم الطحاوى فى « كتاب الحجة والتبيان » له» .

وبرغبته ، إنما زُوِّج أى زوَّجه غيره ، وكلمة ﴿زَوَّجْنَاكَهَا .. (٣٧)﴾ [الأحزاب] تحتوى على الفعل زوَّج والضمير (نا) فاعل يعود على الحق سبحانه ، والكاف لخطاب رسول الله ، وهى مفعول أول ، والهاء تعود على السيدة زينب ، وهى مفعول ثانٍ للفعل زوَّج .

فرسول الله فى هذه المسألة ، وفى كل زوجاته لم يخالف عن أمر الله . فلتكونوا منصفين ؛ لأن المسألة ليستْ عند محمد ، إنما عند ربِّ محمد ، واقرأوا إن شئتم : ﴿عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ[1] ثَيِّبَاتٍ[2] وَأَبْكَارًا (٥)﴾ [التحريم]

ثم هَبُوا ـ جدلاً ـ أن محمداً فعلها ، ما العيب فيها وقد كان التعدُّد موجوداً ، ولم ينشىء رسول الله تعدُّداً ، كان التعدُّد موجوداً فى الأنبياء والرسل ، وفيكم وعندكم .

أما الذين يتهمون رسول الله ﷺ بأنه وسَّع على نفسه ، فتزوَّج تسعاً ، وضيَّق على أمته بأربعة ، فالرد على ذلك أن الله تعالى حكم بأن زوجات الرسول أمهاتٌ للمؤمنين ، وما دُمْنَ أمهات للمؤمنين ، فليس لأحد أنْ يتزوَّجهُنَّ بعد رسول الله ، أمّا غيرهن من المؤمنات فإنْ كان مع الرجل سبعة مثلاً ، فعليه أنْ يفارق ثلاثة منهن ، وهؤلاء الثلاثة سيجدْنَ مَنْ يتزوج بهنَّ ، إذن : على الرسول أنْ يُمسك زوجاته كلهن ، وعلى غيره من المؤمنين أنْ يفارقوا ما زاد على أربع .

---

(١) سائحات . أى : صائمات . قاله أبو هريرة وعائشة وابن عباس وغيرهم كثير ذكر ابن كثير فى تفسيره (٤/٣٩٠) ثلاثة عشر عالماً آخر قالوا بهذا القول ثم قال : وقال زيد ابن أسلم وابنه عبد الرحمن : سائحات أى مهاجرات ، والقول الأول أولى والله أعلم .

(٢) الثيب : المرأة التى سبق لها الزواج سواء كانت مطلقة أو أرملة . قال ابن منظور فى [لسان العرب ـ مادة : ثيب] : « الثيب من النساء التى تزوجت وفارقت زوجها بأى وجه كان بعد أن مسَّها » .

شيء آخر : تظنون أن رسول الله وسَّع الله له هذه المسألة ، والحقيقة أن الله ضيَّق عليه إذا ما قارناه بغيره من عامة المؤمنين ، فالمؤمن له أنْ يمسك أربعَ زوجات ، فإذا ماتتْ إحداهن تزوج بأخرى ، وإنْ طلَّق إحداهن تزوج بدلاً منها ، فإن مُتْنَ جميعاً أو طلَّقهن ، فله أنْ يتزوَّج غيرهن حتى يكمل الأربعة ، وهكذا يكون للمؤمن أن يتزوَّج بعدد كثير من النساء .

أما رسول الله ـ نعم تزوج تسعاً ـ لكن خاطبه ربه بقوله : ﴿ **لا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ ..** (٥٢) ﴾ [الأحزاب] فمَن الذى ضيِّق عليه إذن ؟ محمد أم أمته ؟

ثم يا قوم تنبهوا إلى الفرق بين الاستثناء فى العدد والاستثناء فى المعدود ، هل استثنى الله نبيه فى العدد من أربع إلى تسع ، أم استثناه فى معدود بذاته ، استثناه فى المعدود لا فى العدد ، لأنه لو استثناه فى العدد لكان له إذا ماتتْ إحدى زوجاته أنْ يتزوَّج بأخرى ، إنما وقف به عند معدود بذاته ، بحيث لو ماتوا جميعاً ما كان له ﷺ أنْ يتزوَّج بعدهن .

وبعد ذلك أظلَّ الحكمُ على رسول الله هكذا ؟ لا ، إنما كان فى بداية الأمر وبعد ذلك حينما استقرتْ الأمور وأَمِن الله رسولَه قال له : افعل ما تشاء ، لأنك مأمون على أمتك[1] .

---

(١) وذلك فى قوله تعالى : ﴿ تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ .. (٥١) ﴾ [الأحزاب] ولكن ضعَّف القرطبى فى تفسيره القول القائل بأن هذه الآية ناسخة لقوله تعالى : ﴿ لا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ .. (٥٢) ﴾ [الأحزاب] ورجح القرطبى (٥٤٨٣/٨) أن معناها التوسعة على النبى ﷺ فى ترك القسم ، فكان لا يجب عليه القسم بين زوجاته . قال : « وهذا القول هو الذى يناسب ما مضى ، وهو الذى ثبت معناه فى الصحيح عن عائشة قالت : كنت أغار على اللائى وهبن أنفسهن لرسول الله ، وأقول : أو تهب المرأة نفسها لرجل ؟ فلما أنزل الله ﴿ تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ .. (٥١) ﴾ [الأحزاب] قالت عائشة : والله ، ما أرى ربك إلا يسارع فى هواك » .

ثم نقول : هَبُوا أن رسول الله له اختيار فى هذه المسألة ، ولم تكن مُسْبقة ، ألم يُؤدِّ فعلُه هذا إلى إلغاء عادة التبنى ؟ ثم أنُزِعَتْ الرسالة من رسول الله بعد أنْ فعل ما فعل ؟ إذن : لا يتناقض مراد الله ومراد رسول الله .

والذين تناولوا سيدنا رسول الله فى هذه المسألة مثل الذين تناولوا سيدنا يوسف ـ عليه السلام ـ لما قال الله فيه : ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا .. (٢٤)﴾ [يوسف] وكأنهم أكثر غيرةً على يوسف من ربه عز وجل ، نعم همَّ بها يوسف أى : فكَّر فيها أو غير ذلك ، ولن نقول لكم على الصواب لتظلوا فى حيرتكم ، لكن أنزعَ الله منه الرسالةَ بعد ما همَّ بها ؟ إذن : هَمُّه بها لم يناقض الرسالة ، فما تقولونه فى هذه المسألة فضول منكم .

ثم تأتى العلة فى هذه المسألة ﴿لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا .. (٣٧)﴾ [الأحزاب] ثم تختم الآية بما لا يدع مجالاً للشك فى رسول الله : ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً (٣٧)﴾ [الأحزاب] أى : لا بُدَّ أن يحدث ، ولن يترك لأىٍّ شخص آخر ، حتى لا تفسد القضية فى إلغاء عادة التبنى ، إذن : فزواج رسول الله من امرأة مُتبنَّاه ما كان إلا لرفع الحرج عن جميع المؤمنين ، والآن يصح لكل مُتبنٍّ أن يتزوج امرأة مُتبنَّاه .

﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا (٣٨)﴾

قوله تعالى ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ .. (٣٨)﴾ [الأحزاب] أى :

إثم أو ملامة ﴿فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ .. (٣٨)﴾ [الأحزاب] أى : كيف تلومون رسول الله على تنفيذ أمر فرضه الله له وتأمل ﴿فَرَضَ اللَّهُ لَهُ .. (٣٨)﴾ [الأحزاب] أى : لصالحه ولم يقُلْ فرض عليه ؟ ما دام أن الله هو الذى فرض هذا ، فلتُصعِّدوا الأمر إليه ، فليس لرسوله ذنب فيه .

وهذه المسألة تشبه تماماً مسألة الإسراء ، فحين أخبر سيدنا رسول الله قومه بخبر الإسراء قالوا : يا محمد أتدَّعى أنكَ أتيتَ بيت المقدس فى ليلة ، ونحن نضرب إليها أكباد الإبل شهراً[1] ؟ وهذا غباء منهم لأن محمداً لم يقل : سريْت إنما قال : أُسْرِى بى . فالذى أسرى به ربه - عز وجل - إذن : المسألة ليست من فعل محمد ، ولكن من فعل الله .

وسبق أن ضربنا لذلك مثلاً توضيحياً - ولله المثل الأعلى - قُلْنا : هَبْ أن رجلاً قال لك : أنا صعدتُ بولدى الصغير قمة (إفرست) أتقول له : كيف صعد ولدك قمة (إفرست) ؟

لكن انتفعنا الآن بقول المكذِّبين : أتدَّعى يا محمد أنك أتيتَ بيت المقدس فى ليلة ونحن نضرب إليها أكباد الإبل شهراً ؛ لأن غباء المكذِّب يؤدى به إلى عكس ما قصده من غبائه ، فهذا القول اتخذناه الآن دليلاً للرد على مَنْ يقولون بأن الإسراء كان رؤيا ، أو كان بالروح دون الجسد .

فلو قال رسول الله : رأيتُ فى الرؤيا أنى أتيتُ بيت المقدس ما

---

(١) ذكر ابن هشام فى السيرة النبوية (٢/ ٤) : لما أصبح رسول الله - بعد الإسراء به - غدا على قريش ، فأخبرهم الخبر ، فقال أكثر الناس : هذا والله الإمْر البيِّن ، والله إن العير لتطرد شهراً من مكة إلى الشام مدبرة وشهراً مقبلة ، أفيذهب ذلك محمد فى ليلة واحدة ويرجع إلى مكة ؟ » .

قالوا هذه المقالة ، إذن : فَهِمَ القومُ أن رسول الله أتى بيت المقدس بروحه وجسده ، وإلا ما قارنوا بين ذهابهم وذهابه ، فالذين عاصروا هذه الحادثة قالوا هذه المقالة ، فكيف نأتى اليوم لنقول : إن الإسراء كان مناماً ، أو كان بالروح دون الجسد ؟

وقوله تعالى : ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ .. (٣٨)﴾ [الأحزاب] أى : إخوانه من الرسل السابقين ، أو فيما كان قبل الإسلام من التعدُّد ، فلم يكُنْ رسول الله بدَعاً فى هذه المسألة .

﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا (٣٨)﴾ [الأحزاب] تلحظ أن الآية السابقة خُتِمَتْ بقوله تعالى : ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً (٣٧)﴾ [الأحزاب] فلقائل أن يقول نعم مفعولاً فى هذا الوقت الذى حدثتْ فيه هذه الأحداث ؛ لذلك قال هنا ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا (٣٨)﴾ [الأحزاب] أى : أن ما حدث لرسول الله كان مقَّدراً أزلاً ، ولا شىء يخرج عن تقدير الله ، وقد صَحَّ أن القلم قد جَفَّ على ما كُتِب ، وعلى ما قُدِر[1] .

﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا (٣٩)﴾

وكأن الحق سبحانه يُعيدنا إلى قوله تعالى فى نبيه محمد : ﴿وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ .. (٣٧)﴾ [الأحزاب] فالرسل

---

(١) أخرج البخارى فى صحيحه (٥٠٧٦) أن أبا هريرة رضى الله عنه قال لرسول الله ﷺ : « إنى رجل شاب ، وأنا أخاف على نفسى العنت ، ولا أجد ما أتزوج به النساء ، فسكت عنى ، ثم قلت مثل ذلك ، فسكت عنى . ثم قلت له مثل ذلك ، فسكت عنى ، ثم قلت مثل ذلك فقال النبى ﷺ : « يا أبا هريرة ، جفَّ القلم بما أنت لاقٍ » وكذا أخرجه ابن أبى عاصم فى السنة (١/ ٥٠ ، ٥١) ، والنسائى فى سننه (٦/ ٥٩) .

لا يخشوْنَ شيئاً فى البلاغ عن الله ، فكأنه تعالى نفى عن الرسول ﷺ أن تكون خشيته فى البلاغ ، إنما خشيته استحياؤه مخافة أنْ تلوكه ألسنة قومه ، وإلاَّ فَهُمْ لا يملكون له شيئاً يضره أو يخيفه .

نلحظ هنا أن ﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلاَّ اللَّهَ .. (٣٩) ﴾ [الأحزاب] هذه العبارة مبتدأ[1] لم يُخبر عنه ؛ لأن قوله تعالى ﴿ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا (٣٩) ﴾ [الأحزاب] ليس خبراً لهذا المبتدأ ، إنما هو تعليق عليه ، فأين خبر هذا المبتدأ ؟ قالوا : تقديره ، الذين يُبلِّغون رسالات الله .. لا يمكن أنْ يُتَّهموا بأنهم خشوا الناس من أجل البلاغ .

﴿ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا (٣٩) ﴾ [الأحزاب] أى : أنكم لن تحاسبوهم ، إنما سيحاسبهم الله ، وكان مقتضى الحساب مع رسول الله إنْ فعل ما لا يصحّ منه أنْ تسحب منه الرسالة ، وأنْ يأتى الله بنبى آخر ، ولم يحدث شىء من هذا .

ثم يعود السياق إلى أمر آخر فى قضية التبنى ، فيقول سبحانه :

﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٤٠) ﴾

قال سبحانه ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ .. (٤٠) ﴾ [الأحزاب] لأن علاج قضية التبنى أهمُّ من أُبوته ﷺ لأحد منكم أن يكون أبوه رسول الله ؛ لأن أبوته لآخر لا تنفعه بشىء ، إنما ينفعه البلاغ عن الله ، وأن يحمل له منهج ربه الذى يسعده فى دينه ودنياه .

---

(١) يجوز أن يكون قوله تعالى ﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ .. (٣٩) ﴾ [الأحزاب] صفة لـ ﴿ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ .. (٣٨) ﴾ [الأحزاب] .

إذن : فرحكم برسول الله كرسول أَوْلَى من فرحكم به كأب ، وإلاَّ فما أكثر من لهم آباء ، وهم أشقياء فى الحياة لا قيمة لهم .

وقوله ﴿مَا كَانَ .. (٤٠)﴾ [الأحزاب] النفى هنا يفيد الجحود ، فهو ينكر ويجحد أنْ يكون محمد أباً لأحد من رجالكم ، وتأمل عظمة الأداء القرآنى فى كلمة ﴿مِّن رِّجَالِكُمْ .. (٤٠)﴾ [الأحزاب] ولم يَقُلْ مثلاً أبا أحد منكم ، لماذا ؟ قالوا : لأنه ﷺ كان أباً لعبد الله وللقاسم ولإبراهيم ، وكانوا جميعاً منهم ، وهو ﷺ أبوهم ، فجاءت كلمة ﴿رِّجَالِكُمْ .. (٤٠)﴾ [الأحزاب] لتُخرج هؤلاء الثلاثة ؛ لأنهم لم يبلُغوا مبلغ الرجال ، فمحمد ما كان أبداً أبا أحد من الرجال ، وإنْ كان أباً لأولاد صغار لم يصلوا إلى مرحلة الرجولة .

وقوله ﴿وَلَـٰكِن .. (٤٠)﴾ [الأحزاب] أى : أهم من أُبوَّته أن يكون رسول الله ﴿وَلَـٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ .. (٤٠)﴾ [الأحزاب] ليس هذا فحسب ، ولكن أيضاً ﴿وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ .. (٤٠)﴾ [الأحزاب] أى : الرسول والنبى الذى يختم الرسالات ، فلا يستدرك عليه برسالة جديدة .

وهذه من المسائل التى وقف عندها المستشرقون معترضين ، يقولون : جاء فى القرآن : ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ .. (٨١)﴾ [آل عمران]

ومحمد ﷺ من ضمن الأنبياء الذين أُخذَ عليهم هذا العهد ، بدليل : ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ .. (٧)﴾ [الأحزاب]

إذن : أخذ اللهُ العهدَ على الأنبياء أنه من ضمن مبادئهم أنْ يُبلِّغوا قومهم بمقدم رسول جديد ، وأنه إذا جاءهم عليهم أنْ يؤمنوا به ، وأنْ ينصروه ، كما بشَّر مثلاً عيسى عليه السلام برسالة محمد ﷺ

فقال : ﴿ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ .. (٦) ﴾ [الصف]

فكيف يخبر الله عن محمد أنه خاتم النبيين وهو واحد منهم ؟ نقول : نعم هو واحد منهم ، لكن إنْ كانوا قد أُمروا بأنْ يُبشِّروا وأنْ يُبلغوا أقوامهم برسول يأتى ، فقد أمر ﷺ أن يُبلِّغ قومه أنه خاتم الأنبياء والرسل .

لذلك يُرْوَى أن رجلاً ادَّعَى النبوة فى زمن المأمون ، فأمر به فَوُضِع فى السجن ، وبعد عدة أشهر ظهر رجل آخر يدعى النبوة ، فرأى المأمون أن يواجه كل منهما الآخر ، فأحضر المدعى الأول وقال له : إن هذا الرجل يدَّعى أنه نبى ، فماذا تقول فيه ؟ قال : هو كذاب ؛ لأننى لم أرسل أحداً ـ فارتقى إلى منزلة الألوهية ، لا مجرد أنه نبى .

والمرأة التى ادَّعَتْ النبوة أيضاً فى زمن المأمون لما أوقفها أمامه يسألها قال لها : ألم تعلمى أن رسول الله قال : لا نبىَّ بعدى[1] ؟ قالت : بلى ، ولكنه لم يقل لا نبية بعدى !

ثم يختم الحق سبحانه هذه المسألة بقوله : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٤٠) ﴾ [الأحزاب] وما دام أن الله تعالى عليم بكل شىء فليس لأحد أنْ يعترض ؛ لأنه سبحانه هو الذى يضع الرسول المناسب فى المكان المناسب والزمان المناسب ، وقد علم سبحانه أن رسالة محمد تستوعب كل الزمان وكل المكان .

---

(١) مما رُوِى دليلاً على أنه لا نبى بعد رسول الله ﷺ حديث سعد بن أبى وقاص قال : « خلف رسول الله ﷺ على بن أبى طالب فى غزوة تبوك ، فقال : يا رسول الله ، تخلفنى فى النساء والصبيان . قال : أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى ، غير أنه لا نبى بعدى » أخرجه أحمد فى مسنده (١/١٨٢) .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ ﴾

أمرنا ربنا سبحانه بذكره ذِكْراً كثيراً ؛ لأن الذكْر عمدة العبادات وأيسرها على المؤمن ؛ لذلك نجد ربنا يأمرنا به عند الانتهاء من العبادات كالصلاة والصيام والحج ، وجعله سبحانه أكبر فقال ﴿ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ .. ﴿٤٥﴾ ﴾ [العنكبوت]

والذكر شغل الذاكرة ، وهى منطقة فى المخ ، قُلْنا : إن المعلومة يستقبلها الإنسان فى بؤرة شعوره ، فإذا أراد أنْ يحتفظ بها لحين الحاجة إليها حفظها فى الحافظة ، أو فى حاشية الشعور ، فأنت مثلاً ترى شخصاً فتقول : هذا الرجل لم أَرَهُ منذ عشرين سنة ، وآخر مرة رأيته كان فى المكان الفلانى .

إذن : الذكر لشىء كان موجوداً فى بؤرة الشعور ، الذكر يعنى قضية موجودة عندك بواقع كان لها ساعة وجودها ، لكن حصلتْ عنها غفلة نقلتها إلى حاشية الشعور أو الحافظة ، بعد ذلك نريد منك ألا تنساها فى الحاشية أو فى منطقة بعيدة بحيث تحتاج إلى مجهود لتذكرها ، إنما اجعلها دائماً فى منطقة قريبة لك ، بحيث يسهل عليك تذكُّرها دون عناء .

وكذلك ينبغى أنْ يكون ذكرك لله ، فهو القضية الحيوية التى ينبغى أنْ تظلَّ على ذِكْر لها دائماً وأبداً ، وكيف تنسى ذكر ربك وقد أخذ عليك العهد ، وأنت فى عالم الذرِّ ، وأخذ منك الإقرار بأنه سبحانه

ربُّك ، الحق سبحانه خلق العقل ليستقبل المعلومات بوسائل الإدراك ، كما قال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨) ﴾ [النحل]

فكأن السمع والبصر هما عُمْدة الحواسِّ ، وبهما نعلم ما لم نكُنْ نعلمه حين نزولنا من بطون أمهاتنا ، ونحن حين نستقبل المعلومات يظن بعض الناس أن الناس يختلفون فى ذلك ذكاءً وبلادةً ، فواحد يلتقط المعلومة من مرة واحدة ، وآخر يحتاج إلى أنْ تعيدها له عدة مرات .

والواقع أن العقل مثل آلة (الفوتوغرافيا) يلتقط المعلومة من مرة واحدة شريطةَ أن يكون خالياً ومستعداً لاستقبالها غير مشغول بغيرها ؛ لأن بؤرة الشعور لا تسع ولا تستوعب إلا فكرة واحدة ، وهذه المسألة تناولناها فى قوله تعالى : ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ .. (٤) ﴾ [الأحزاب]

فالإنسان الذكى هو الذى لا يشغل باله بأمرين فى وقت واحد ، ولا يفكر فى شىء وهو بصدد شىء آخر ، فإذا كانت بُؤْرة الشعور خالية فالناس جميعاً سواسية فى التقاط المعلومة .

لذلك ، المدرس الموفّق هو الذى يستطيع أنْ يجتذب إليه انتباه التلاميذ ، ولا يعطيهم الفرصة للانشغال بغير الدرس ، وهذا لا يتأتى إلا بالتلطُّف إليهم وإشراكهم فى الدرس بالأسئلة من حين لآخر ، ليظل التلميذ متوقعاً لأنْ يسأل فلا ينشغل ، لذلك رأينا أن الطريقة الحوارية هى أنجح طرق التدريس ، أما طريقة سَرْد المعلومات فهى تجعل المدرس فى وادٍ والتلاميذ فى وادٍ آخر ، كل منهم يفكر فى شىء يشغله .

وسبق أنْ قُلْنا : إن الطالب حين يعلم بأهمية درس من الدروس فيذاكره وهو ذاهب للامتحان وهو يصعد السلم إذا جاءه هذا الدرس يجيب عنه بنصه ، لماذا ؟ لأنه ذاكره فى الوقت الحرج والفرصة ضيقة لا تحتمل انشغالاً ولا تهاوناً ، فيلتقط العقل كل كلمة ويُسجِّلها ، فإنْ أراد استرجاعها جاءت كما هى ، لماذا ؟ لأنها صادفتْ العقلَ خالياً غير مشغول .

وتأمل عظمة الخالق سبحانه فى مسألة التذكُّر ، فالذاكرة جزء صغير فى المخ ، فكيف بالطفل الصغير الذى لا يتجاوز الثامنة يحفظ القرآن كاملاً ويُعيده عليك فى أىِّ وقت ، ونحن نتعجب من شريط التسجيل الذى يحفظ لنا حلقة أو حلقتين .

والقرآن ليس حفظاً فحسب ، إنما معايشة ، فحروف القرآن ملائكة ، لكل حرف منه ملك ، والملَك يحب مَنْ يودُّه ، فإذا كنتَ على صلة بالقرآن تكثر من تلاوته ، فكأنك تود الملائكة ، فساعة تريد استرجاع ما حفظت تراصتْ لك الملائكة ، وجرى القرآن على لسانك . فإنْ هجرْته هجرك ، وتفلَّت من ذاكرتك ؛ لذلك حذرنا رسول الله ﷺ من هجر القرآن ، فقال : « تعاهدوا القرآن ، فوالذى نفسى بيده لهو أشدُّ تفصياً[1] من الإبل فى عقلها »[2] .

وسبق أنْ قُلْنا : إن الذكر هو العبادة الوحيدة التى لا تكلفك شيئاً ، ولا تُعطل جارحة من جوارحك ، ولا يحتاج منك إلى وقت ، ولا إلى مجهود ، وليس له وقت مخصوص ، فمَنْ ذكر الله قائماً وذكر

---

(١) تفصَّى من الشىء : تخلَّص . ومعنى قوله ﷺ عن القرآن : « هو أشد تفصياً من قلوب الرجال من النَّعَم من عقلها » أى : أشد تفلتاً وخروجاً . [لسان العرب ـ مادة : فصى] .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (١/٤٢٣) من حديث ابن مسعود ، وأخرجه مسلم فى صحيحه (٧٩١) كتاب صلاة المسافرين من حديث أبى موسى الأشعرى .

الله قاعداً وذكر الله على جَنْبه عُـدَّ من الذاكرين ـ هذا بالنسبة لوضعك ـ ومَنْ ذكر الله بُكْرة ، وذكر الله أصيلاً ، أو غدواً وعشياً ، أصبح من الذاكرين ـ هذا بالنسبة للزمان .

ومن قال : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، ولا حولَ ولا قـوة إلا بالله العلى العظيم ، ثلاثين مرة فى اليـوم كُتِبَ من الذاكرين ، ومَنِ استيقظ ليلاً فأيقظ أهله ، وصلَّى ركعتين فهو من الذاكرين .

إذن : فذكْر الله مـسألة سهلة تستطيع أنْ تذكـر الله ، وأنت تعمل بالفأس ، أو تكتب بالقلم ، تذكر الله وأنت تأكل أو تشرب .. إلخ فذكر الله وإنْ كان أكبر إلا أنه على المؤمن سهل هَيِّن .

وقوله تعالى : ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (٤٢)﴾ [الأحزاب] التسبيح : هو التقديس ، والتقديس هو التنزيه ، فعن أىِّ شىء نُنزه الله ؟ قالوا : ننزه الله فى ذاته ، وفى أفعاله ، وفى صفاته ، فالله تعالى له وجود ، ولك أنت وجـود ، وللنهـر وللجبـل وجود ، لكن وجـوده تعـالى ليس كوجود ما سـواه ، وجوده تعالى عن غير عدم ، أمـا وجود ما سواه فوجود عن عدم ، هذا فى الذات .

أما فى الأفـعال ، فالله تعالى له فـعْل كما أن لك فـعلاً ، لكن نزِّه ربك أنْ يكون فـعله كـفـعلـك ، وهذا مـا قلناه فى حـادثة الإسـراء والمـعراج ، وفى الفـرق بين سَـرَى وأسرى به ، فـإذا كان الفـعلُ لله تعالى فـلا تنظر إلى الزمن لأنه ليس فعلك أنت ، بل فـعْل الله ، وفعل الله بلا علاج ، إنما يقول للشىء : كُنْ فيكون .

وقلنا : إنه حتى فى طاقات البشر نجد الفعل يأخذ من الزمن على قدر قـوة فاعله ، فالولد الصـغير ينقل فى سـاعة ما ينقله الكبـير فى

دقيقة ، فلو قسْتَ فعلَ الله بقدرته تعالى وجدتَ الفعل بلا زمن .

كذلك نُنزه الله فى صفاته ، فالله تعالى له سمع نُنزِّه أن يكون كسمعك ، وله وجه نُنزِّه أنْ يكون كوجهك .. إلخ كل هذا فى إطار ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ .. (١١)﴾ [الشورى]

وحين تستعرض آيات التسبيح فى القرآن تجدها كثيرة ، لكن للتسبيح طابع خاص إذا جاء فى استهلالات السور ، ففى أول الإسراء : ﴿سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ .. (١)﴾ [الإسراء]

فبدأت السورة بتنزيه الله لما تحتويه من أحداث عجيبة وغريبة ؛ لذلك قال بداية ﴿سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ .. (١)﴾ [الإسراء] فالله له التسبيح والتقديس ثابت قبل أنْ يفعل ، وسبحان الله قبل أنْ يوجد المسبِّح ، كما أنه تعالى خالق قبل أنْ يوجد مَنْ خلق ، فهو بالخالقية فيه أولاً خلق ، كما قلنا فى الشاعر : تقول فلان شاعر ، هل لأنك سمعت له قصيدة أم هو شاعر قبل أن يقولها ؟ هو شاعر قبل أنْ يقولها ، ولولا أنه شاعر ما قال .

والمتتبع لألفاظ التسبيح فى القرآن يجد أنه ثابت لله تعالى قبل أن يخلق المسبِّحين فى قوله ﴿سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ .. (١)﴾ [الإسراء] ثم بعد أن خلق الله الخَلْق ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ .. (١)﴾ [الحشر]

وما يزال الخلق يُسبِّح فى الحاضر : ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ .. (١)﴾ [الجمعة] فتسبيح الله كان وما يزال إلى قيام الساعة ، لذلك يأمر الحق سبحانه نبيه ﷺ ومعه أمته ألاَّ يخرج عن هذه المنظومة المسبِّحة ، فيقول له :

﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى (١)﴾ [الأعلى]

وجاء الأمر بذكر الله وبعد الأمر بتسبيحه تعالى ، وكأنه يقول لك كلما ذكرته : نزِّهه ذاتاً وصفاتاً وأفعالاً ، فمن مصلحتك فى رحلة الحياة ألاَّ يكون لله مثيل ولا شبيه ولا نظير ولا نِدٌّ ؛ لأن الجميع سيكونون تحت عَدْله سبحانه ، فتنزيه الله لمصلحتك أنت أيها المسبِّح .

وسبق أنْ ذكرنا فى ذلك قول أهل الريف (اللى ملوش كبير يشترى له كبير) ، فوجود كبير فوق الجميع يحميك أنْ يتكبر أحد عليك ، إذن : عظمته تعالى وكبرياؤه من أعظم النعم علينا ، فساعة تُسبِّحه وتُنزِّهه احمد الله لأنه مُنزَّه ، احمد الله أنه لا شريكَ له ، وأن الناس جميعاً عنده سواء ، احمد الله لأن كلامه وأمره نافذ على الجميع ، احمد الله أنه لم يتخذ صاحبة ولا ولداً ، وليس بينه وبين أحد من خَلْقه نَسَب .

وكيف لا نذكر الله ولا نُسبِّحه ونحمده ، وهو سبحانه الذى خلق الخَلْق ، وقبل أنْ يخلقهم رتَّب لهم غاياتهم - والخَلْق : إيجاد على تقدير لغاية - بل وأعدَّ لهم ما يخدمهم ، فطرأ الإنسان على كون مُعَدٍّ لاستقباله ، فقبل أنْ يخلقه خلق له .

ثم ما كلفك بمنهجه مباشرة ، إنما تركك تربع فى نعمه ، منذ ميلادك إلى سنِّ البلوغ بدون تكليف ، ومعنى البلوغ أنْ تصل سنَّ الرشد فتُقبل على الله بعقل وفكر ، فالدين ليس تقليداً إنما عقيدة واقتناع .

وسبق أنْ شبَّهنا نضج الإنسان بنضج الثمرة ، فالثمرة لا تحلو إلا حين تنضج بذرتها ، وتصير صالحة للإنبات إنْ زُرِعت ، وهذه من عظمة الخالق سبحانه ، ولو أن الثمرة تحلو وتستوى قبل نُضْج

بذرتها لأكلنا الثمار مرة واحدة ، ولما انتفع بها أحد بعدنا ، ومثَّلْنا لذلك ببذرة البطيخ إن وجدتها سوداء صلبة فاعلم أن ثمرتها استوت وحلَتْ وصارتْ صالحة للأكل ، وهذه المسألة جعلها الخالق سبحانه لحفظ النوع .

شيء آخر : بعد أن بلغتْ سنَّ التكليف ، أجاءك التكليف مستوعباً لكل حركة فى حياتك ؟ أجاء قَيْداً لك ؟ حين تتأمل مسائل التكليف تجدها فى نطاق محدود أمرك الله فيه بافعل كذا ولا تفعل كذا ، وهذه المنطقة لا تشغل أكثر من خمسة فى المائة من حركة حياتك ، وترك لك نسبة الخمسة والتسعين أنت حُرٌّ فيها ، تفعل أو لا تفعل ، فأىُّ عظمة هذه ! وأىُّ رحمة التى يعاملنا بها ربنا عز وجل ! وهذا إنْ دلَّ فإنما يدلُّ على حبِّ الخالق سبحانه لخَلْقه وصنعته . أفلا يستوجب ذلك منَّا ألاَّ نغفل عن ذكره ، وأن نكثر من تسبيحه وشكره ، فى كل غدوة وعشية .

والأعظم من هذا كله أنه ـ سبحانه وتعالى ـ جعل ذِكْرك له وتسبيحك إياه لصالحك أنت ، وفى ميزانك ؛ لذلك قال فى الآية التى بعدها :

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ ﴾

معنى ﴿ الَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ .. ﴿٤٣﴾ ﴾ [الأحزاب] الصلاة هى الدعاء ، والدعاء لا يكون إلا بطلب الخير للداعى ، ولا يدعو إلا قادر على هذا الخير ، وعليه كيف نفهم هذا المعنى ؟ أيدعو ربنا نفسه تبارك

وتعالى ؟ قالوا : إذا كانت نهاية الصلاة طلبَ الخير ، وهذا الخير إذا طلب حصل ، فالحق سبحانه هو الداعى ، وهو الذى يملك مفاتح الخير كله ، فهو الذى يُصلِّى عليكم ، وهو الذى يعطيكم ، وهو الذى يرحمكم .

وأيضاً يُصلِّى عليكم الملائكة ﴿وَمَلائِكَتُهُ .. (٤٣)﴾ [الأحزاب] وقد أخبرنا سبحانه عنهم أنهم ﴿عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ (٢٦) لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (٢٧)﴾ [الأنبياء]

وقال : ﴿لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٦)﴾ [التحريم]

والملائكة أقسام : منهم المكلفون بخدمتنا ومنافعنا فى الأرض ، ومنهم مَنْ يحفظنا من الأحداث التى قد تفاجئنا بإقدار الله لهم عليها ، ومنهم الحفظة والكرام الكاتبون ، وهؤلاء الملائكة المتعلقون بنا هم الذين أُمروا بالسجود لآدم عليه السلام فى قوله تعالى : ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٢٩)﴾ [الحجر]

وهذا دليل على أنهم سيكونون فى خدمته .

وكأن الله تعالى قال لإبليس : طلبتُ منك أنْ تسجد لآدم ، وطلبت من الملائكة وأنت معهم ، فإنْ كنتَ من الملائكة فينبغى أن تستجيب ، وإنْ لم تكُنْ من الملائكة وحشرتك بطاعتك فى زمرتهم كان يجب عليك أنْ تطيع لأنَّ الأعلى منك سجد .

وقد أوضحنا هذه المسألة بمثَل ، ولله تعالى المثل الأعلى قُلْنا : إذا أعلن فى أحد الدواوين الحكومية أن الرئيس سيزور هذا الديوان يوم كذا ، وعلى الوزراء أنْ يصطفُّوا لتحيته ، ألم يشمل هذا الأمر وكلاء الوزارة من باب أوْلى ؟

فإذا قال الله للملائكة : اسجدوا لآدم وكان معهم إبليس وهو أقلّ منهم ، فكان عليه أنْ يسجد . ثم إنْ كنتَ يا إبليسُ أخذتَ منزلة أعلى من الملائكة بالطاعة ، فلا بُدَّ أنْ تكون طاعتك لله على هذه المنزلة ، فأنت ملُوم على أيِّ حال ، إلا أنه كان من الجن ، والجن مختار ، ففسق عن أمر ربه .

وهناك نوع آخر من الملائكة لا دخلَ لهم بالإنسان ولا بدنياه ، وهم الملائكة العالون أو المهيَّمون ، وهم الذين قال الله فيهم لما أبى إبليس أنْ يسجد قال له ربه :

﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥)﴾ [ص]

وهؤلاء العالون لم يشملهم الأمر بالسجود ؛ لأنهم لا يدرون شيئاً عن آدم ، وليس لهم علاقة به ، وأخصُّهم حَمَلَة العرش وهم أكرم الملائكة ، وهؤلاء هم الذين يُصلُّون عليكم بعد أنْ صلَّى الله عليكم ؛ لذلك يُبيِّن لنا الحق سبحانه هؤلاء الملائكة ودورهم فى الصلاة علينا والاستغفار لنا ، فيقول سبحانه :

﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا .. (٧)﴾ [غافر]

فهؤلاء هم أخصُّ الملائكة وأكرمهم يُسبِّحون بحمد ربهم ويؤمنون به ، لكن ما فائدة (يؤمنون به) بعد أن سبَّحوه ؟ قالوا : لأن التسبيح قد يكون عن خوف ورهبة ، أما تسبيح هؤلاء فتسبيح عن حبٍّ وعن إيمان ، وأنه سبحانه وتعالى يستحق أنْ يُسبَّح ، ومن مهام هؤلاء أيضاً أنهم يستغفرون للذين آمنوا ، وإنْ لم تكن لهم علاقة

بالناس وليسوا فى خدمتهم ، إلا أنهم يُصَلُّون عليهم ويستغفرون لهم .

إذن : نقول الصلاة من مالك الدعوة القادر على الإجابة رحمة وعطف وحنان ، والصلاة مِمَّنْ دونه دعاء للقادر المالك للخير ، فهم يدعون الله للمؤمنين ويستغفرون الله لهم ، بل ويبالغون فى الدعاء ويتعطَّفون فيه : ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (٧)﴾ [غافر]

بل لم يقفوا عند حَدِّ طلب النجاة للمؤمنين من النار ، إنما يطلبون لهم الجنة ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٨)﴾ [غافر]

ثم يزيدون على ذلك : ﴿وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٩)﴾ [غافر]

ووالله ، لو أراد المؤمن أنْ يدعو لنفسه ما وجد أعمَّ ولا أشمل من دعاء الملائكة له ، فبعد أنْ طلبوا له المغفرة والنجاة من النار لم يتركوه هكذا فى أهل الأعراف ، لا هُمْ فى الجنة ، ولا هُمْ فى النار ، إنما سألوا الله لهم الجنة عملاً بقوله تعالى : ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ .. (١٨٥)﴾ [آل عمران]

وهذه المسألة من المسائل التى وقف أمامها المستشرقون ، فقالوا : إنها تتناقض مع الحديث النبوى : « ما من يوم تطلع شمسه إلا وينادى ملكان يقول أحدهما : اللهم أَعْطِ مُنفقاً خَلَفاً ، ويقول

الآخر : اللهم أَعْط مُمسكاً تَلَفاً »[1] ، فكيف تقولون : إن الملائكة يدعون للناس بالخير وهم يدعون عليهم بالشر ؟

وهم معذورون فى اعتراضهم ؛ لأن ملكاتهم لا تستطيع فَهْم المعانى فى الحديث الشريف ، والتناقض فى نظرهم فى قوله ﷺ : « ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكاً تلفاً » ، فالأولى واضحة لا تناقض فيها ؛ لأنها دعوة بالخير ، أما الثانية فهى دعوة بالشر . « اللهم أَعْط ممسكاً تلفاً » .

ولو تأملوا نصَّ هذه العبارة لوجدوا فيها الجواب ، فالتلف يُعطى أم يؤخذ ؟ المفروض أنه يُؤخذ ، فحين يقول رسول الله : « اللهم أعط ممسكاً تلفاً » فاعلم أنه عطاء لا أَخْذٌ وإن كان فى ظاهره تلفاً ، والمعنى أن شيئاً شغلك وفتنك فتصيبك فيه مصيبة تخلصك منه فتعود إلى ربك ، إذن : هو أَخْذ فى الظاهر عطاء فى الحقيقة .

ثم يبيّن لنا الحق سبحانه العلَّة فى صلاة الله وصلاة الملائكة على المؤمنين ، فيقول ﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ .. (٤٣)﴾ [الأحزاب] فكأن منهج الله بافعل ولا تفعل هو أول صلاة الله علينا ؛ لأنه الوسيلة التى تُخرجنا من الظلمات إلى النور ، وجاء هنا بالشىء الحسِّىِّ لنقيس عليه المعنوى ، فأنت فى النور ترى طريقك وتهتدى إلى غايتك بلا معاطب ، أمَّا فى الظلام فتتخبط خُطَاك وتضلّ الطريق فى الظلام ، تسير على غير هُدى ، وعلى غير بصيرة ، فتحطم الأضعف منك ، ويُحطِّمك الأقوى منك .

والنبى ﷺ يُوجِّهنا حين ننام بالليل أنْ نطفىء المصابيح فيقول :

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٠١٠) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

« وأطفئوا المصابيح إذا رقدتم »[١] وقد أثبت العلم أن للأنوار المضاءة أثناء النوم تأثيراً ضاراً على صحة الإنسان ، وأنه لا يرتاح فى الضوء الراحة التامة لما يصيبه أثناء النوم من إشعاع الضوء ، كما حذرونا أيضاً من التعرُّض لأضواء التليفزيون مثلاً .

إذن : للنور مهمة ، وللظلمة مهمة ـ هذا فى الحسِّيات .

كذلك منهج الله بافعل ولا تفعل هو النور المعنوى الذى يقيك العطب ، ويمنحك الإشراقات التى تهتدى بها فى دروب الحياة ، لذلك قال تعالى بعدها : ﴿ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا (٤٣) ﴾ [الأحزاب]

لكن إنْ كان سبحانه رحيماً بالمؤمنين ، فما بال الكافرين ؟ قالوا : هو سبحانه بالكافرين رحمن ، فالله تعالى رحمن الدنيا ورحيم الآخرة ؛ لأن رحمن الدنيا يعنى أن خيره يعُمُّ الجميع المؤمن والكافر ، والطائع والعاصى ، أما فى الآخرة فتتجلَّى صفة الرحيم ؛ لأن رحمته فى الآخرة تخصُّ المؤمنين دون غيرهم .

والحق سبحانه حين يقول : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ .. (٣٥) ﴾ [النور] لا يعنى هذا وَصْفاً لذاته سبحانه ، إنما يعنى أنه سبحانه نور السموات والأرض أى : مُنوِّرهما كما نقول : المصباح نور المسجد .

وسبق أنْ أوضحنا هذه المسألة بقول أبى تمام فى مدح المعتصم:

---

(١) أخرج البخارى فى صحيحه (٣٢٨٠) من حديث جابر بن عبد الله عن النبى ﷺ قال : « إذا استجنح الليل ـ أو كان جنح الليل ـ فكفّوا صبيانكم ، فإن الشياطين تنتشر حينئذ ، فإذا ذهب ساعة من العشاء فخلُّوهم وأغلق بابك ، واذكر اسم الله ، وأطفىء مصباحك ، واذكر اسم الله ، وأوْكِ سقاءك ، واذكر اسم الله وخمِّر إناءك ، واذكر اسم الله ولو تعرض عليه شيئاً » .

إِقْدَامُ عَمرٍو فى سَمَاحةِ حاتم فى حِلْم أحْنفَ فى ذَكَاءِ إيَاسِ

وعمرو مضرب المثل عند العرب فى الشجاعة ، وحاتم فى الكرم ، وأحنف بن قيس فى الحِلْم ، وإياس بن معاوية فى الذكاء . فقام إليه أحد الحاضرين وقال له ـ وكان حاقداً عليه ـ : أمير المؤمنين فوق ما تقول ، أتُشبِّهه بأجلاف العرب ؟ وأنشأ يقول :

وشبَّهه المدَّاح فى البَأْسِ والنَّدَى بمَنْ لوْ رآهُ كَانَ أصْغر خَادِمِ

فَفِى جَيْشِهِ خَمْسُونَ أَلْفاً كعنْتر وفى خُزَّانِهِ أَلْفُ حَاتِمِ

عندها أطرق أبو تمام هُنيهة ، ثم قال :

لاَ تُنكِرُوا ضَرْبى له مَنْ دُونَهُ مَثَلاً شَرُوداً فى النَّدَى والبَاسِ

فَاللهُ قَدْ ضَربَ الأقلَّ لِنُورِهِ مثَلاً من المشْكَاةِ والنِّبراسِ

إذن : فالنور المعنوى يُجنِّبك العطب المعنوى ، كما أن النور الحسىَّ يُجنِّبك العطب الحسِّىَّ ؛ لذلك قال سبحانه عن نوره ﴿نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ.. (٣٥)﴾ [النور] يعنى : نور حسّىّ يقيكم المعاطب الحسية ، ونور معنوى يقيكم المعاطب المعنوية ﴿يَهْدِى اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ .. (٣٥)﴾ [النور] والمراد به هنا النور المعنوى الذى يهتدى به المؤمن ويسير عليه ، أما الكافر فهو لا يعرف إلا النور الحسىَّ فقط .

فإنْ سألت : فأين نجد هذا النور يا رب ؟ يُجيبك ربك : ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ .. (٣٧)﴾ [النور]

فإنْ أردتَ النور الحق فهو فى خَلْوتك مع ربك وفى بيته ، حيث تتجلَّى عليك إشراقاته ويغمرك نوره .

وقبل أن نترك مسألة صلاة الله وصلاة الملائكة على المؤمنين نذكر صلاتنا نحن على النبي ﷺ ، عملاً بقوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٥٦)﴾ [الأحزاب]

فالصلاة من الله تعالى تعنى الحنان والرحمة والعطف ، والصلاة من الملائكة تعنى الدعاء والطلب من الذى يملك ، أما الصلاة منا نحن على سيدنا رسول الله ، فالبعض يظن أنها دعاء منا لرسول الله ، وهى ليست كذلك ؛ لأنك تقول فى الصلاة على رسول الله : اللهم صَلِّ على محمد ، فأنت لا تصلى عليه ﷺ ، إنما تطلب من الله تعالى أنْ يصلى عليه ، لكن كيف تطلب من الله أن يصلى على رسوله ؟ قالوا : لأن كل خير ينال الرسول منثور على أمته .

والحق سبحانه وتعالى لم يدع محمداً يصلى عليه كل مَنْ آمن به ، ثم لا يرد رسول الله عليه هذه التحية بصلاة مثلها ، فقال سبحانه : ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ .. (١٠٣)﴾ [التوبة] وكأنها رَدٌّ للتحية ولصلاة المؤمنين على رسول الله ﷺ .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَـٰمٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا (٤٤)﴾

الكلام هنا عن الآخرة ، وهذه التحية ، وهذا السلام ليس منا ، ولكن من الله ، كما قال فى موضع آخر ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ (٥٨)﴾ [يس]

فالرحمة التى ننالها ، والعطف والحنان من الله لنا فى الدنيا

يعنى : سداداً فى حركة الحياة ، واستقامة فى السلوك ، وراحةً للبال ، واطمئناناً للنفس ، لكن مع هذا لا تخلو الدنيا من مُنغِّصات وأحداث تُصيبك ، أما رحمة الله فى الآخرة فهى سلام تام لا يُنغِّصه شىء ، والإنسان أيضاً يتمتع بنعم الله فى الدنيا ، لكن يُنغِّصها عليه خشية فواتها .

أما فى الآخرة فيتمتع متعة خالصة ، لا ينغصها شىء ، فالنعمة دائمة باقية لا يفوتها ولا تفوته ، لقد كان فى الدنيا فى عالم الأسباب وهو الآن فى الآخرة مع المسبِّب سبحانه الذى يقول : ﴿ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦) ﴾ [غافر]

لكن ، ما المراد بقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ .. (٤٤) ﴾ [الأحزاب] أيوم القيامة للثواب ، أمْ يوم يلقوْنَهُ بالموت وبانتهاء الحياة ؛ كما نقول مثلاً فى الموت : فلان لقى ربه ؟ قالوا : المؤمن لا يأتيه مَلَك الموت إلا إذا سلَّم عليه أولاً قبل أنْ يقبض روحه ، فإذا سلَّم عليه فهذا يعنى أنه من أهل السلام ، وهذه أول مراتبه . وقد يكون المراد السلام التام الذى يَلْقاه المؤمن يوم القيامة حيث يجد سلاماً لا مُنغِّصات بعده .

لذلك نجد أن سيدنا رسول الله ﷺ وهو يعانى سكرات الموت تقول له السيدة فاطمة لما رأتْ ما يعانيه : واكرباه يا أبتاه ، فيقول لها « لا كرب على أبيك بعد اليوم »[1] فأىُّ كرب على رسول الله بعد أن ينتقل إلى جوار ربه ، إلى السلام النهائى الذى لا خوفَ بعده .

---

(١) أخرجه بهذا اللفظ ابن ماجه فى سننه (١٦٢٩) من حديث أنس بن مالك أن رسول الله قال لفاطمة عندما سمع مقالتها : « لا كرب على أبيك بعد اليوم ، إنه قد حضر من أبيك ما ليس بتارك منه أحداً ، الموافاة يوم القيامة » . وأصله فى البخارى (٤٤٦٢) أنه قال : « ليس على أبيك كرب بعد اليوم » .

ثم يقول سبحانه ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا (٤٤)﴾ [الأحزاب] فوصف الأجر نفسه بأنه كريم ، والذى يُوصَف بالكرم الذى أعدَّ الأجر ، فوصف الأجر بأنه كريم يعنى أن الكرم تعدَّى من الرب سبحانه الذى أعده إلى الأجر نفسه ، حتى صار هو أيضاً كريماً .

ومثال ذلك قوله تعالى : ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا (٣١)﴾ [الأحزاب] فتعدَّى الكرم من الرازق إلى الرزق ؛ لأن الرزق فى الدنيا له أسباب بأيدى الخَلْق ، لكن الرزق فى الآخرة يأتيك بلا أسباب ، وليس لأحد فيه شىء ، ولماذا لا يُوصَف بالكرم وهو يأتيك دون سَعْى منك ، وبمجرد الخاطر تستدعيه فتراه بين يديك .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٤٥) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا (٤٦)﴾

الشاهد : هو الذى يؤيد ويُثبِّت الحق لصاحبه ؛ لذلك يطلب القاضى شهادة الشهود ليأتى حكمه فى القضية عن تحقيق وبيِّنة ودليل ؛ لذلك يقولون إن القاضى لا يحكم بعلمه ، إنما بالبينة حتى إنْ علم شيئاً فى حياته العامة ، ثم جاء أمامه فى القضاء يتركه ويتنحَّى عنه لقاضٍ آخر يحكم فيه حتى لا يبنى حكمه على علمه هو .

وحين تتأمل هذه المسألة تجد أن الله تعالى يريد أنْ يُوزِّع مسئولية الحكم على عدة جهات ، حتى إذا ما صدر الحكم يصدر بعد تدقيق وتمحيص وتصفية لضمان الحق .

فنرى مثلاً إذا حدثتْ حادثة نذهب إلى القسم لعمل (محضر) بالحادث ، (المحضر) يحيله ضابط الشرطة إلى النيابة ، فتحيله النيابة للقاضى ليحكم فيه ، ثم يُعَاد مرة أخرى للسلطة التنفيذية ليُنفَّذ ، كل هذه الدورة يُراد بها تحرى الحق ووضعه فى نصابه .

فما بالك إذا كان الحق سبحانه هو الذى يشهد ، وهو الذى يحكم ، وهو الذى يُنفِّذ الحكم ؟ لا شكَّ أن العدالة هنا ستكون عدالة مطلقة . فإنْ قلتَ : إذن عَلاَم يشهد رسول الله ؟

قالوا : يشهد رسول الله أنه بلَّغ أمته ، كما يشهد الرسل جميعاً أنهم بلَّغوا أممهم كما قال سبحانه : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَـٰؤُلَاءِ شَهِيدًا (٤١) ﴾ [النساء]

إذن : كل رسول شهيد على أمته ، وأنت شهيد على هذه الأمة أنك قد بلَّغتها ، لكن ميْزتُك على مَنْ سبقك من إخوانك الرسل أن تكون خاتمهم ، فلا نبىَّ بعدك ؛ ولذلك سأجعل من أمتك من يخلف الأنبياء الذين يأتون بعد الرسل فى مهمتهم .

لذلك جاء فى الحديث الشريف قول رسول الله ﷺ : « علماء أمتى كأنبياء بنى إسرائيل »[1] .

إذن : ضمن الحق سبحانه فى أمة محمد أنْ يوجد فيهم مَنْ يقوم بمهمة الأنبياء فى البلاغ ، وهذا معنى ﴿ لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ .. (١٤٣) ﴾ [البقرة]

---

(١) قال الشوكانى فى « الفوائد المجموعة » (ص ٢٨٦) : « قال ابن حجر والزركشى : لا أصل له » . وكذا قال السيوطى فى « الدرر المنتثرة » (ص ٣٠٩) قال العجلونى فى كشف الخفاء (١٧٤٤) : « زاد بعضهم : ولا يُعرف فى كتاب معتبر .. وأشار إلى الأخذ بمعناه التفتازانى وفتح الدين الشهيد وأبو بكر الموصلى والسيوطى فى الخصائص » .

وكلمة الناس هنا عامة ، تشمل آدم عليه السلام وذريته إلى قيام الساعة ، فإنْ قلتَ كيف ؟ نقول : يشهدون على الناس بشهادة القرآن أن الرسل قد بلَّغَتْ أممها ، هذا بالنسبة لمن مضى منهم ، أما مَنْ سيأتى فأنتم مطالبون بأن تشهدوا عليهم أنكم قد بلَّغتموهم ، كما يشهد عليكم رسول الله أنه قد بلَّغكم .

إذن : فأمة محمد أخذت حظاً من النبوة ، وهو أنها ستُسْتدعى وتشهد على الناس .

لذلك يُعدّ رسول الله ﷺ أمته لهذه المهمة ، فيقول : « نضَّر اللهُ امرءًا ، سمعَ مقالتى فوعاها ، ثم أدَّاها إلى مَنْ يسمعها ، فرُبَّ مُبلَّغٍ أوعى من سامع »[(١)] .

واقرأ أيضاً فى ذلك قول الله تعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا .. (١٤٣)﴾ [البقرة] لماذا ؟ ﴿لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا .. (١٤٣)﴾ [البقرة] فهذه الأمة فى الوسط ، بحيث لا إفراط ولا تفريط ، وما أشبهها بالميزان الذى لا تميل كفة عن الأخرى إلا بما يُوضَع فيها ، فهى كالميزان العادل الذى لا يميل هنا أو هناك .

وقوله سبحانه ﴿وَمُبَشِّرًا .. (٤٥)﴾ [الأحزاب] لمن استجاب لك بثواب الله ، والبشارة هى الإخبار بالخير قبل أوانه ﴿وَنَذِيرًا (٤٥)﴾ [الأحزاب] أى : منذراً لمن لم يُصدقك بعقاب الله ، والإنذار هو التخويف بشرٍّ لم يأْت أوانه ﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ .. (٤٦)﴾ [الأحزاب] أى : بأمر منه ، لا تطوُّعاً من عندك ، فقد يأتى زعيم من الزعماء أو مصلح من

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٤٣٧/١) والترمذى فى سننه (٢٦٥٧ ، ٢٦٥٨) وابن ماجة فى سننه (٢٣٢) والحميدى (٤٧/١) من حديث عبد الله بن مسعود .

المصلحين بمنهج أو بأفكار من عنده ويبثُّها فى مجتمعه .

فقوله تعالى ﴿بِإِذْنِهِ .. (٤٦)﴾ [الأحزاب] يبين الفرق بين الرسول والمصلح من البشر ، فهذا الذى جاء به محمد من عند الله ، وما بلَّغكم به إلا بأمر الله .

ويُشترط فيمَنْ يدعو إلى منهج الخير ثلاثة شروط :

الأول : ألاَّ ينتفع بشىء مما يدعو إليه ، وهذا لا يوجد فى بشر أبداً ، وقد رأينا : حينما قنَّنَ الرأسماليون غَبَنُوا العمال ، وحينما قنَّنَ الاشتراكيون غبنوا الرأسماليين .. وهكذا .

وذلك لأن البشر لهم أهواء مختلفة متعددة ، وكلٌّ يريد أنْ يُقنِّن على هواه ، وبما يخدم مصالحه ، يريد أنْ يُسخِّر غيره لخدمة هواه ، وبعد فترة قد تطول تفضحهم التجارب ، ويفضحهم الواقع ، وتُظهِر لهم أنفسهم مساوىء ما قنَّنُوا حتى يثوروا هم على قوانينهم ، وينتفضوا على أنفسهم ، ويعودوا إلى تعديل هذه القوانين .

الشرط **الثانى** : أن يكون على علم بالأحداث المحتملة بعد أنْ يُقنِّن ، وألاَّ تغيب عنه جزئية من جزئيات الموضوع ، فيحتاج إلى تعديل القانون أو الاستدراك عليه .

ثالثاً : يُشترط فيمَنْ يُقنِّن أن يكون حكيماً فيما يُقنِّن ، بحيث يضع الأمر فى موضعه ، فلا ينصف جماعة على حساب أخرى ، وأن يكون الجميع أمامه سواء .

وحين تتأمل هذه الشروط الثلاثة تجدها لا تتوفر إلا فى الحق سبحانه وتعالى ، إذن : ينبغى ألاَّ يُقنِّن للبشر إلا ربُّ البشر ، وسبق

أنْ أوضحنا هذه المسألة بمثال من المحسوسات ، فالناس فى الظلمة يحتاجون لبعض النور ؛ ليهتدوا به إلى قضاء مصالحهم فى الليل ، فينير كلٌّ منا ليله بما يناسبه من وسائل الإضاءة ، فواحد يشعل شمعة ، وآخر لمبة (نمرة خمسة) وآخر لمبة (نمرة عشرة) ، وبعد ما استخدمنا الكهرباء رأينا اللمبة العادية والفلوروسنت والنيون والكرستال .. إلخ .

إذن : أنتم تنيرون ظلمتكم على قدر إمكاناتكم ، فإذا ما أشرقتْ شمس الصباح ، أتُبْقون على هذه الأنوار ؟ لا بل يطفىء الجميع أنواره ؛ لأن نور الشمس يأتى على قدر إمكانات خالقها عز وجل ، لذلك نقول : أطفئوا مصابيحكم ، فقد طلعت شمس الله ، فإذا كان ذلك فى النور الحسىِّ فهو أيضاً ومن باب أوْلَى فى النور المعنوى ، فإذا جاءك نور التشريع ونور المنهج من الله ، فأطفىء ما عداه من تشريعات ومناهج .

وقوله تعالى : ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا (٤٦)﴾ [الأحزاب] شبّه الحق سبحانه نبيه ﷺ بالسراج ، ولا تستقلّ هذا الوصف فى حقِّ رسول الله ، فليس معنى السراج أنه كالسراج الذى يضىء لك الحجرة مثلاً ، إنما هو كالسراج الذى قال له عنه : ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا (١٣)﴾ [النبأ] والمراد : الشمس .

فإذا قُلْتَ : فلماذا لم يُوصَف النبى ﷺ بأنه شمس ، وقد قال تعالى عنها : ﴿هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً .. (٥)﴾ [يونس]

والشمس أقوى من السراج ؟ قالوا : الكلام هنا كلام ربٍّ والأسلوب دقيق معجز ، صحيح أن الشمس تنير الدنيا كلها ، إنما أمة محمد مُكلَّفة أن تقوم بدعوته من بعده ، فكأن رسول الله سراج ،

والسراج تأخذ منه النور دون أنْ ينقص نورُه ، لكن لا تستطيع أنْ تأخذ من الشمس .

وحين سطعتْ أنوار الهداية على لسان رسول الله محمد لم يَعُدْ للشرائع الأولى أنْ تتدخل على حدِّ قول المادح :

كَأَنَّكَ شَمْسٌ والملُوكُ كَواكِبُ إذَا طلعَتْ لم يَبْدُ مِنْهُنَّ كوكَبُ

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾﴾

نقول فى الدعاء : اللهم عاملنا بالفضل لا بالعدل ؛ لأن العدل أن تأخذ الجزاء المساوى للعمل ، أو تأخذ حقك ، أمَّا الفضل فأنْ تأخذ فوق حقك وزيادة ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا .. ﴿٥٨﴾﴾ [يونس]

ويقول النبى ﷺ : « لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله » قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : «ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمته »[1] لأننى حين أحسب عملى مقابل ما أعطانى ربى من نِعَم قبل أنْ أُخلق ، وإلى أن أبلغ وأُكلَّف ، أجد أننى لو قضيتُ حياتى كلها فى طاعة ربى ما وفَّيتُ بحقه علىَّ .

---

(١) قال ابن عطية : قال لنا أبى رضى الله عنه : هذه أرجى آية عندى فى كتاب الله تعالى ؛ لأن الله عز وجل قد أمر نبيه أن يبشر المؤمنين بأن لهم عنده فضلاً كبيراً ، وقد بيَّن تعالى الفضل الكبير فى قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾﴾ [الشورى] . [نقله القرطبى فى تفسيره ٨/ ٥٤٧٠] .

ثم من ناحية أخرى تجد أن العبادة والطاعة نفعُها يعود إليك أنت ، ولا ينتفع الله تعالى منها بشيء ، فإذا كانت الطاعة والعبادة يعود نفعها إليك ، إذن : فالثواب عليها يكون فضلاً من الله .

ومثَّلْنا لذلك ـ ولله المثل الأعلى ـ بولدك تُشجِّعه على المذاكرة ، وتُحضر له أدواته ، وتنفق عليه طوال العام ، فإذا ما نجح آخر العام أعطيْتَه هدية أو مكافأة ، فهذه الهدية من باب الفضل .

لذلك ، إنْ أردتَ أنْ تصلح بين متخاصمين ، أو تُؤلِّف بينهما ، فقُلْ لهم : أتحبون أنْ أحكم بينكم بالعدل أم بالفضل ؟ سيقولون لك : ليس هناك أفضل من العدل ، وعندها لك أن تقول : بل الفضل أحسن من العدل ؛ لأن العدل أنْ تأخذ حقك من خصمك ، والفضل أنْ تترك حقَّك لخصمك لتأخذه من يد ربك عز وجل .

وهذا ما رأيناه مُطبَّقاً فى قصة الإفك بين سيدنا أبى بكر حين عفا عن مسطح[1] بعد أن نزل قوله تعالى : ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٢)﴾ [النور]

فمن أراد أنْ يغفر الله له ذنوبه فليغفر لأخيه زلَّته وسَوْأَتَهُ .

---

(١) هو : مسطح بن أثاثة بن عباس بن المطلب ، كان اسمه عوفاً ، أما مسطح فهو لقبه وأمه بنت خالة أبى بكر ، كان أبو بكر يمونه لقرابته منه ، فلما خاض مع أهل الإفك فى أمر عائشة حلف أبو بكر ألا ينفق عليه فنزلت ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ .. (٢٢)﴾ [النور] فعاد أبو بكر إلى الإنفاق عليه . وقد توفى مسطح عام ٣٤ هـ فى خلافة عثمان ويقال : مات عام ٣٧ هـ وشهد صفين مع على . [الإصابة فى تمييز الصحابة (٧٩٢٩)] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾﴾

فى أول السورة خاطب الحق سبحانه نبيه ﷺ بقوله : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ .. ﴿١﴾﴾ [الأحزاب] وهنا خاطبه ربه بقوله : ﴿وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾﴾ [الأحزاب] فالأولى كانت فى بداية الدعوة ، حين أخذ الكفار يكيدون لرسول الله ، فما بالك وقد قويتْ الدعوة ، واشتدَّ عودها ، لا بُدَّ أنْ يتضاعف كيْد الكافرين لرسول الله .

لذلك يكرر له مسألة ﴿وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ .. ﴿٤٨﴾﴾ [الأحزاب] ولا يعني ذلك أننى سأُسْلِمك ، إنما أنا وكيلك ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾﴾ [الأحزاب]

فإنْ قلت : كيف والوكيل أقل من الأصيل ؟ نقول : لا ، فالأصيل ما وكَّل غيره ، إلا لأنه عجز أنْ يفعل ، فاختار الأقوى ليفعل له .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾﴾

تتحدث الآية عن مسألة اجتماعية تخصُّ حفظ النوع ، وحفظ النوع الإنسانى لا يتأتَّى إلا بالزواج ، وهو وسيلة التكاثر ، وأولى مراحل الزواج مرحلة الخِطْبة ، وكثيرون لا يفهمون معنى الخِطْبة وحدودها لكل من الرجل والمرأة ، فالخِطْبة مجرد أنْ يذهب طالب البنت إلى وليِّها ليقول له : أإذا تقدمتُ لطلب يد ابنتك أكون أهلاً للقبول ؟

فيقول وليُّها : مرحباً بك ، هذه تسمى خِطْبة ، وربما لا يتقدم ، فإنْ تقدَّم لها ، له أنْ يراها مرة واحدة بين مَحارمها ؛ لأن النبى ﷺ قال للشاب الذى أراد الخطبة : « انظر إليها ، فإنه أحْرَى أنْ يُؤدَم بينكما »[(١)] .

وعجيب أنْ يخلط الناس بين الخِطْبة والعقد ، فيعطون الخِطْبة صفة العقد ، فإذا قبل الولىُّ الخاطبَ اتفق معه على المهر أو الشَبكة وعلى كلِّ تفاصيل الزواج ، وأباح له أنْ يجلس مع ابنته ، وأنْ يتحدث معها ، وربما يختلى بها ، وياليتهم جعلوها عقداً ، فأخرجوا أنفسهم من هذا الحرج .

فالخطبة إنْ عدل عنها الخاطب ما عليهم إلا أنْ يذهب إلى ولىِّ البنت فيقول له : لقد طلبتُ منك يد ابنتك وأنا فى حلٍّ من هذا الأمر ، أما العقد فلا يُفسخ قبل الدخول إلا بالطلاق ، إذن : لا تجعلوها صورة خطبة وموضوعية عقد .

---

(١) عن المغيرة بن شعبة قال : خطبت امرأة فقال لى رسول الله ﷺ : أنظرتَ إليها ؟ قلت : لا . قال : فانظر إليها ، فإنه أحرى أن يؤدم بينكما . أخرجه أحمد فى مسنده (٤/٢٤٥ ، ٢٤٦) ، والترمذى فى سننه (١٠٨٧) ، وابن ماجة فى سننه (١٨٦٥) قال البوصيرى فى الزوائد : « إسناده صحيح ورجاله ثقات » .

والحق سبحانه وتعالى يُبيِّن لنا فى هذه الآية الكريمة ما يتعلَّق بأحكام الطلاق إنْ وقع قبل الدخول بالزوجة : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا .. (٤٩) ﴾ [الأحزاب]

فالنكاح هنا مقصود به العقد فقط ، وإلا لو قصد به المعنى الآخر لما قال ﴿ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ .. (٤٩) ﴾ [الأحزاب] والمسُّ كناية عن الجماع ، وهو عملية دائماً يسترها القرآن بألفاظ لا تدل عليه حقيقةً .

والحكم هنا ﴿ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا .. (٤٩) ﴾ [الأحزاب] فليس للزوج على زوجته عِدَّة إنْ طلَّقها[1] قبل أنْ يدخل بها ؛ لأن العِدَّة إنما كانت لحكمة : فالعدة فى حالة الطلاق الرجعى تعطى للزوج فرصة أنْ يراجع زوجته ، وأنْ يعيدها بنفسه إلى عصمته ، والعِدَّة تكون لاستبراء الرحم والتأكد من خُلوِّه من الحمل ، وقد تكون العِدَّة ، لا لهذا ولا لذاك ، ولكن لأنه تُوفِّى عنها[2] .

فالعِدَّة قبل الدخول لها حكم ، وبعد الدخول لها حكم آخر ، وهذا الفرق يتضح كذلك فى مسألة المهر ، فقبل الدخول للزوجة نصف

---

(١) هذا إن طلقها قبل الدخول بها ، أما إذا توفى الزوج قبل أن يدخل بها فعليها العدة ولكن عدة المتوفَّى عنها زوجها كما لو كان قد دخل بها ، لقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا (٢٣٤) ﴾ [البقرة] ، وإنما وجبت العدة عليها وإن لم يدخل بها وفاءً للزوج المتوفى ومراعاة لحقه » [فقه السنة ٣٤٢/٢] . وقال ابن قدامة فى المغنى (٧٨/٩) : « كل من توفى عنها زوجها ، ولا حمل بها ، قبل الدخول أو بعده ، حرة أو أمة ، فعدتها بالشهور » .

(٢) العدة : مأخوذة من العدد والإحصاء ، أى : ما تحصيه المرأة وتعده من الأيام والأقراء . وهى اسم للمدة التى تنتظر فيها المرأة وتمتنع عن التزويج بعد وفاة زوجها ، أو فراقه لها . [فقه السنة ـ الشيخ سيد سابق ٣٤١/٢] .

مهرها ، كما قال سبحانه : ﴿فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ .. (٢٣٧)﴾ [البقرة] وقال هنا : ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً (٤٩)﴾ [الأحزاب] فإنْ سُمِّى المهر بين الطرفين فلها نصفه ، وإنْ لم يُسَمَّ فلها نصف مهر المثْل .

أما العدَّة بعد الدخول ففيها تفصيل ، بحيث تختلف من حالة لأخرى بما يناسب الحالة التى تشرع فيها العدَّة ، والعدَّة كما قلنا : تدل على أنها شىء معدود ، فإنْ كانت المرأة من ذوات الحيض ، فهى ثلاث حيضات ، ليتأكد خلالها استبراء الرحم ، لكن الرحم يستبرىء من مرة واحدة ، فلماذا جعلها الله ثلاث حيضات ؟

قالوا : الهدف من ذلك إعطاء الزوج فرصة ، فقد يراجع نفسه وتهدأ نفسه ، فيراجع زوجته فى هذه المدة ، فالشرع هنا يراعى بناء الأسرة ، ألاَ ترى أن الحق سبحانه شرع التقاء الزوج بزوجته بكلمة : زوِّجنى وزوَّجتك ، أما فى حالة الطلاق والفراق بين الزوجين ، فجعله على ثلاث مراحل ؛ لأن الله تعالى يريد ألاَّ يجعل للغضب العابر سبيلاً لنقْضِ كلمة الله فى الزواج .

وأذكر أنهم كانوا يسألوننا سؤالاً وكأنه لغز : أو يعتدُّ الرجل ؟ أو : أو ليس للمرأة عدَّةٌ عند الرجل ؟ قالوا : نعم ، يعتدُّ الرجل فى حالة واحدة وهى : إذا تزوج امرأة ثم طلقها ، وأراد أن يتزوج بأختها ، فعليه أن يمضى العدة ليحلَّ له الزواج بأختها .

أما عدَّة التى انقطع عنها الحيض فثلاثة أشهر ، وعدة الحامل أنْ تضع حملَها ، أما عدة المتوفَّى عنها زوجها فأربعة أشهر وعشرة أيام ، لكن ما الحكم إذا اجتمع للمرأة الحملُ مع وفاة الزوج ، فكيف تعتدُّ ؟ قالوا : تعتدُّ فى هذه الحالة بأبعد الأجلين : الحمل ، أو الأربعة أشهر وعشرة أيام .

ولك أنْ تسأل : لماذا كانت عدَّة المطلَّقة ثلاثة أشهر ، وعدَّة المتوفَّى عنها زوجها أربعة أشهر وعشرة أيام ؟ قالوا : لأن هناك فَرْقاً بين الطلاق والوفاة بالنسبة لعلاقة الزوج بزوجته ، سببه أن الذى خلق الذكر والأنثى جعل هناك كلمة تجمعهما ، هذه الكلمة هى : زوِّجنى وزوَّجتُك شريطة أنْ تكون علانية على رءوس الأشهاد ، ولا تستهنْ بهذه الكلمة ، فأنت لا تعلم ما الذى تصنعه هذه الكلمة فى ذرات التكوين الإنسانى ، ولكنك تعرفها بآثارها .

وقلنا : هَبْ أنك تعرضتَ لشاب تعوَّد معاكسة ابنتك مثلاً ، ماذا تصنع أنت ؟ لا شكَّ أنك ستثور ، ويفور دمك ، وتأخذك الغَيْرة ، وربما تعرضْتَ له بالإيذاء ، أما إنْ جاء من الباب ، وطلب يدها منك ترحب به وتسعد ويفرح الجميع ، فما الذى حدث ؟ وما الفرق بين الموقفين ؟ فالذى أهاجك أنه تلصَّص عليها من غير إذن خالقها ، لذلك يقول ﷺ : « اتقوا الله فى النساء ، فإنكم أخذتموهن بأمان الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله »[1] .

ويقول رسول الله لرجل كان مشهوراً بالغيرة على بناته ، وقد جاء يدعو رسول الله ﷺ إلى زواج إحدى بناته ، فضحك رسول الله وقال : « جدع الحلال أنف الغيرة » .

فالعقد الذى يجمع الزوجين على كلمة الله يجعل الله به بين الزوجين سيَالاً حلالاً عند كل منهما ، ويلتقى هذان السيالان فى الحلال وتحت مظلة الشرع الذى جمعهما .

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٢١٨) كتاب الحج ، وابن ماجة فى سننه (٣٠٧٤) ، وأبو داود فى سننه (١٩٠٥) من حديث جابر بن عبد الله ، فى حديث طويل فى حجة النبى ﷺ ، وهى حجة الوداع .

وعادة ما يصاحب الطلاق بُغْضٌ من الطرفين ، أو كُرْه من أحدهما للآخر ؛ لذلك تكون العدَّة بينهما ثلاثة أشهر أو وَضْع الحمل ؛ لأن الكراهية التى حدثتْ بينهما تميت خلايا الالتقاء بين الأنسجة ، وتُسرِع بانتهاء ما بينهما من سِيال وتطمسه .

أما فى حالة موت الزوج ، فقد قطع النكاح قدرياً من الله ، فعادة ما تكون الزوجة مُحبَّة لزوجها ، حزينة على فَقْده ، وتأتى فاجعة الموت ، فتزيدها حُباً له ، وفى هذه الحالة ليس من السهل أنْ ينتهى السِّيَال بينهما ؛ لذلك يشاء الخالق سبحانه أنْ يطيل أمد العدَّة إلى أنْ ينتهى هذا السِّيال الذى جمعهما ، فلا يدخل على سيال الرجل سيال جديد ، فيحدث صراع بين السيالين ؛ لذلك كانت عِدَّة المتوفى عنها زوجها أطول من عدة المطلقة .

وقوله تعالى : ﴿ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ .. (٤٩)﴾ [الأحزاب] يعنى : أن الطلاق قبل المسِّ والدخول كان موجوداً كما هو موجود الآن ، ونحن نرى الطرفين أو أحدهما يتعجَّل العقد ، رغم أنه غير مُستعد لنفقات الزواج ، إنما يتعجله لمصلحة تعود عليه من هذا الارتباط .

وقد ذكر لنا التاريخ أن كثيراً من الأسر ، خاصة الأسر العربية الأصيلة كانت تفعل ذلك ، لكنهم لم يكونوا يسمحون للزوج فى هذه الحالة أنْ يختلى بالزوجة ، وإنْ كان عاقداً عليها ، وبعض فتياتنا لهن قصص مُشرِّفة فى هذه المسألة .

ومما رُوى فى هذا الصدد قصة بهيثة بنت أوس بن حارثة الطائى والحارث بن عوف ، وهو سيد من سادات بنى مُرَّة ، وكان للحارث ابن عوف صديق اسمه ابن سنان ، وفى ليلة جلس الحارث يتسامر

مع صديقه ابن سنان فقال له : ترنى لو أننى خطبتُ إلى أحد من العرب ابنته أيردّنى ؟ قالها وهو مُعْتَزٌّ بنفسه فخور بسيادته على قومه .

فلما رآه صاحبه على هذه الحالة قال له : نعم هناك مَنْ يردُّك ، قال : مَنْ ؟ قال : أوس بن حارثة الطائى ، فنادى الحارث على غلامه وقال : أحضر المراكب ، وهيا بنا إلى أوس بن حارثة الطائى ، فذهبوا إليه ، فوجدوه جالساً فى فناء بيته ، فلما رآه أوس قال له : مرحباً بك يا حارث ، فأقبل عليه الحارث ، وقال : ويك يا أوس ، ما الذى جاء بك ؟ وتركه على دابته ـ قال : جئتُكَ خاطباً لابنتك ، فقال له : لستَ هناك ـ يعنى لستَ أهْلاً لها ـ فلوى الحارث زِمام دابته منصرفاً ، فى حين بدا على ابن سنان الارتياح ؛ لأن كلامه صدق فى صاحبه .

فلما دخل أوس على امرأته سألتْه : مَنْ رجلٌ وقف معك فلم يُطل ولم ينزل ؟ قال : إنه الحارث بن عوف سيد من سادات بنى مُرَّة ، فقالت : ولماذا لم تستنزله عندك ؟ قال : لقد استحمق ـ يعنى : ارتكب حُمْقاً ـ قالت : وكيف هذا ؟ قال : إنه جاء يخطب ابنتى ، قالت : عجباً أو لا تريد أن تُزوِّج بناتك ؟ قال : بلى ، قالت : فإذا كنتَ لا تُزوِّجهن من سادات العرب ، فمَنْ تُزوِّجهن ؟ يا أوس ، اذهب فتدارك الأمر ، قال : كيف وقد فرطَ منى ما فرطَ ؟ قالت : الحقْ به ، وقُلْ له : إنك جئتنى وأنا مُغْضب من أمر لا دخْلَ لك فيه ، ولما راجعتُ نفسى جئتُك معتذراً أطلب منك أنْ تعود ، ولك عندى ما تحب .

فذهب الرجل ، فلم يجد الركْبَ ، فشدَّ على راحلته ، حتى صار بينهما فى الركْب ، فالتفت ابنُ سنان ، وقال : يا ابن عوف ، هذا

أوس يلحق بنا ، فقال : وماذا أصنع به امْضِ ، فناداه أوس : يا حارث : اربع[1] عليَّ ساعة ، يعنى : انتظرنى ـ ولك عندى ما تحب، ففرح الحارث وعاد معه .

عاد أوس إلى بيته ، وقال لامرأته : ادْعى ابنتك الكبرى ، فجاءت ، فقال : يا بُنيَّة إن الحارث بن عوف سيد بنى مرة جاء ليخطبك ، فقالت : لا تفعل يا أبى ، فقال : ولم ؟ قالت : إننى امرأة فى وجهى ردّة ـ يعنى قُبْح يردُّ مَنْ يرانى ـ وفى خُلُقى عُهْدة ـ أى عيب ـ وليس بابن عم لى فيرعى رحمى ، ولا بجَار لك فى بلدك فيستحى منك ، وأخاف أنْ يكره منى شيئاً ، فيُطلِّقنى فيكون عليَّ فيه ما تعرف . فقال لها : قُومى ، بارك الله فيكِ .

ثم قال لامرأته : ادْعِى ابنتك الوُسْطى فجاءتْ ، فقال لها ما قال لأختها ، فقالت : لا تفعل يا أبى ، قال : ولم ؟ قالت : أنا امرأة خرقاء ـ يعنى : لا تُحسن عملاً ـ وليست لى صناعة ، وأخاف أنْ يرى منى ما يكره فيُطلِّقنى ، ويكون فيَّ ما يكون . فقال لها : قومى بارك الله فيك ، وادْعِى أختك الصغرى ، وكانت هذه هى بُهَيْثة التى نضرب بها المثل فى هذا الموقف .

لما عرض عليها أبوها الأمر قالت : افعل ما ترى يا أبى ، قال : يا بُنيَّتى ، لقد عرضتُه على أُختيك فأبتَاهُ ، قالت : لكنى أنا الجميلة وجهاً ، الصَّناعُ يداً ، الرفيعة خُلُقاً ، فإنْ طلَّقنى فلا أخلفَ اللهُ عليه ، فقال : بارك الله فيك . ثم قام إلى الحارث وقال : بُوركَ لك يا حارث ، فإنِّى زوَّجتك ابنتى بهيثة ، فبارك الله لكما ، قال : وأنا قبلتُ زواجها .

---

(١) اربع على نفسك : كُفَّ وارفُق . كذلك معناه : انتظر . فهو بمعنى التوقف والانتظار . [لسان العرب ـ مادة : ربع] .

ثم قال لامرأته : هَيِّئى ابنتك ، واصنعى لها فُسْطاطاً بفناء البيت ، ولما صُنع الفسطاط حُملت إليه بهيئة ، ودخل عليها الحارث ، لكنه لم يلبث طويلاً حتى خرج ، فسأله ابنُ سنان : أفرغتَ من شأنك ؟ قال : لا والله ، يا بن سنان ، قال : ولم ؟ قال : جئتُ لأقترب منها . فقالت : أعند أبى وإخوتى ؟ والله لا يكون ذلك أبداً ، فخرجتُ .

فقال : ما دامتْ لا ترضى وهى عند أبيها وإخوتها ، فهيَّا بنا نرحل ، فأمر بالرحيل ، وسار الركب بهم طويلاً ، ثم قال : يا بن سنان تقدَّم أنت ـ يعنى : أعطنا الفرصة ـ فتقدَّم ابن سنان بالركْبِ ، وانحاز الحارث بزوجته إلى ناحية من الطريق ونصب خيمته ، ثم دخل عليها فقالت له : ما شاء الله ، أتفعل بى كما يُفعل بالسَّبِيَّة الأخيذة ، والأَمَة الجليبة ؟ والله لا يكون ذلك حتى أذهب إلى أهلك وبلدك ، وتذبح لى الذبائح ، وتدعو سادة العرب ، وتصنع ما يصنعه مثلك لمثلى .

الشاهد هنا ـ وهو درس لبنات اليوم ـ أنها لم ترْضَ لزوجها ، ولم تقبل منه فى بيت أبيها ، ولا فى الطريق ، ولم تتنازل عن شىء من عِزَّتها وكبريائها ، مع أنها زوجته .

وفعلاً تمَّ لها ما أرادت ، وذُبِحَتْ لها الذبائح ، ودُعى لها سادات العرب ، فلما دخل عليها وحاول الاقتراب منها ، قالت : لقد ذكرتَ لى شرفاً ما رأيتُ فيك شيئاً منه ، فقال : ولم ؟ قالت : أتفرغُ لأمر النساء والعرب يقتلُ بعضُهم بعضاً ـ تريد الحرب الدائرة وقتها بين عبس وذبيان ـ اذهب فأصلِح بينهما ، ثم عُدْ لأهلك ، فلن يفوتك منى شىء ، فذهب الحارث وابن سنان ، وأصلحا بين عبس وذُبْيان ،

وتحمَّلا ديات القتلى ثلاثة آلاف بعير يُؤدُّونها فى ثلاث سنوات ، ثم عاد إليها ، فقالت له : الآن لك ما تريد .

وهذه الآية ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ .. (٤٩) ﴾ [الأحزاب] بظاهرها أعطتْ فهماً لبعض الناس الذين يريدون أن يتحلَّلوا من أحكام الدين فى أشياء قد ترهقهم : فمثلاً الذى طلَّق امرأته ثلاث مرات ، واستوفى ما شُرِع له من مرات الطلاق حكمه أنه لا تحلُّ له زوجته هذه إلا بعد أن تنكح زوجاً غيره ، فيأتى مَنْ يقول - بناءً على الآية السابقة - ما دام النكاح هنا بمعنى العقد[1] فهو إذن كَاف فى حالة المرأة التى طُلِّقت ثلاث مرات ، وأنها تحلّ لزوجها الأول بمجرد العقد على آخر .

ونقول : لكن فاتك أن رسول الله ﷺ فُوِّض من ربه بالتشريع وبيان وتفصيل ما جاء فى كتاب الله من أحكام ، كما قال سبحانه مخاطباً نبيه :

﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ .. (٤٤) ﴾ [النحل]

فلو أن سُنَّة رسول الله لم تتعرَّض لهذه المسألة ، لكانَ هذا الفهم جائزاً فى أن مجرد العقد يبيح عودة الزوجة لزوجها ثانية ، لكن الذى أناط الله به مهمة بيان القرآن وقال عنه : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا .. (٧) ﴾ [الحشر]

إذن : فهو ﷺ له حَقُّ التشريع ، وقد بيَّن لنا المراد هنا فى قوله

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٣/٤٩٧) : « هذه الآية الكريمة فيها أحكام كثيرة منها إطلاق النكاح على العقد وحده ، وليس فى القرآن آية أصرح فى ذلك منها ، وقد اختلفوا فى النكاح ، هل هو حقيقة فى العقد وحده ، أو فى الوطء ، أو فيهما ؟ على ثلاثة أقوال ، واستعمال القرآن إنما هو فى العقد والوطء بعده إلا فى هذه الآية ، فإنه استعمل فى العقد وحده » .

تعالى : ﴿ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ .. (٢٣٠) ﴾ [البقرة]

فأبقى كلمة النكاح على أنها مجرد العقد ، ثم بيَّن المراد من ذلك ، فقال للرجل : « حتى تذوق عسيلته ، ويذوق عسيلتها »[1] إذن : تمام الآية لا يجيز لمن يقول : إن مجرد العقد يبيح للرجل أنْ يعيد زوجته التى طُلِّقَتْ ثلاث مرات إلا بعد أن تذوق عُسَيْلته ، ويذوق عُسَيْلتها ، وهذه المسألة جعلها الله تأديباً للرجل الذى تعوَّد الطلاق ، وسَهُلَ عليه النطق به ، حتى صار على لسانه دائماً .

ومن رحمة الخالق بالخَلْق ، ومن حرصه ـ تبارك وتعالى ـ على رباط الأسرة أنْ أحلَّ المرأة للرجل كما قلنا بكلمة زوَّجنى وزوّجتك ، لكن عند الفراق لم يجعله بكلمة واحدة ، إنما جعله على مراحل ثلاث ؛ ليُبقِى للمودة وللرحمة بين الزوجين مجالاً ، فإن استنفد الزوج هذه الفرص ، وطلَّق للمرة الثالثة فلا بُدَّ أن نحرق أنفك بأنْ تتزوج امرأتُكَ من زوجٍ غيرك زواجاً حقيقياً تمارس فيه هذه العملية ، وهى أصعب ما تكون على الزوج .

ونلحظ هنا أن دقَّة التشريع أو صعوبته فى كثير من المسائل لا يريد الله منه أنْ يُصعِّب على الناس ، وإنما يريد أن يرهِّب من أنْ تفعل ذلك ، يريدك أنْ تبتعد عن لفظ الطلاق ، وألاَّ تلجأ إليه إلا عند الضرورة القصوى .

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٤٣٣) كتاب النكاح ـ باب ١٧ من حديث عائشة أن امرأة رفاعة القرظى جاءت النبى ﷺ فقالت : يا رسول الله ، كنت عند رفاعة فطلقنى فبَتَّ طلاقى فتزوجت عبد الرحمن بن الزبير ، وإن ما معه مثل هدبة الثوب (وفى رواية زيادة : وأخذت بهدبة من جلبابها) فتبسَّم رسول الله ﷺ ، فقال : أتريدين أن ترجعى إلى رفاعة ، لا حتى تذوقى عسيلته ويذوق عسيلتك » .

لذلك يُعلِّمنا سيدنا رسول الله فيقول : « إن أبغض الحلال عند الله الطلاق »[١] ، فالذين يعترضون على الطلاق فى شرعنا ، ويتعجَّبون كيف يفارق الزوجُ زوجته بعد العشْرة الطويلة والحب والمودة يفارقها بكلمة ، وفاتَ هؤلاء أن الطلاقَ وإنْ كان الأبغض إلا أنه حلالٌ ، ويكفى أن الله تعالى جعله على مراحل ثلاث ، وجعله لا يُستخدم إلا عند الضرورة ، وحذَّر الرجل أنْ يتساهل فيه ، أو يُجرِيه على لسانه ، فيتعوَّده .

ونلحظ أن الحق سبحانه خصَّ المؤمنات فى قوله : ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ .. (٤٩)﴾ [الأحزاب] مع أن المؤمن يُبَاح له أنْ يتزوج من الكتابية[٢] ، مسيحية كانت أو يهودية ، فكأن فى الآية إشارةً لطيفة لمن أراد أنْ يتزوج فليتزوج مؤمنة ، ولا يُمكِّن من مضجعه إلا مؤمنة معه ، وهذا احتياط فى الدين ، فالمؤمنة تكون مأمونة على حياته وعلى عِرْضه ، وعلى أولاده وماله ، فإن غير المؤمنة لا تُؤتمن على هذا كله .

وقد رأينا بعض شبابنا الذين ذهبوا إلى بلاد الغرب ، وتزوجوا من أجنبيات ، وبعد الزواج ظهرت النكبات والمصائب ، فالأم لا تنسى أنها يهودية أو نصرانية ، وتبثّ أفكارها ومعتقداتها فى الأولاد ، إذن : فعلى المؤمن أنْ يختار المؤمنة ؛ لأنها مؤتمنة عليه وعلى بيته .

وأذكر حين سافرنا إلى الخارج ، كنا نُسْأل : لماذا أبحتُم لأنفسكم

---

(١) أخرجه ابن ماجه فى سننه (٢٠١٨) ، وأبو داود فى سننه (٢١٧٨) من حديث عبد الله بن عمر .

(٢) قال ابن كثير فى تفسيره (٣/٤٩٧) : « قوله تعالى (المؤمنات) خرج مخرج الغالب : إذ لا فرق فى الحكم بين المؤمنة والكتابية فى ذلك بالاتفاق » وانظر أيضاً « فتح الرحمن بكشف ما يلتبس فى القرآن » (ص ٤٣٠) .

أنْ تتزوجوا الكتابية ، ولم تبيحوا لنا أن نتزوج المسلمة ؟ وكان بعض الآباء يأتون ببناتهم اللائى وُلِدْن فى ألمانيا مثلاً ، وكانت البنت تُحاج والدها بهذه المسألة ، لماذا لا أتزوج ألمانياً كما تزوجْتَ أنت ألمانية ؟

فكنا نرد على بناتنا هناك : بأن المسلم له أن يتزوج كتابية ؛ لأنه يؤمن بكتابها ، ويؤمن بنبيِّها ، لكن كيف تتزوجين أنت من الكتابى ، وهو لا يؤمن بكتابك ، ولا يؤمن بنبيك ؟ إذن : فالمسلم مُؤْتَمن على الكتابية ، وغير المسلم ليس مُؤتمناً على المسلمة .

وقوله تعالى : ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً (٤٩)﴾ [الأحزاب] وفي موضع آخر قال سبحانه في نفس هذه المسألة : ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ .. (٢٣٧)﴾ [البقرة]

ويمكن أنْ نُوفِّق بين هاتين الآيتين بأن الأولى نزلتْ فيمَنْ لم يُفْرض لها مهر ، والثانية فيمَنْ فُرض لها مهر ، التى لم يُفرض لها مهر لها المتعة ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ .. (٤٩)﴾ [الأحزاب] والتى فُرض لها مهر لها نصفه ، فكل آية تخصُّ وتعالج حالة معينة ، وليس بين الآيتين نَسْخ .

وبعض العلماء يرى أنه لا مانع ، إنْ فُرِضَ لها مهر أنْ يعطيها المتعة فوق نصف مهرها ، وهذا رأى وجيه ، فالعدل أنْ تأخذ نصف ما فُرض لها ، والفضل أنْ يعطيها المتعة فوق هذا النصف ، وينبغى أنْ تبنى المعاملات دائماً على الفضل لا على مجرد العدل ، وربنا عز وجل يُعلِّمنا ذلك ، حين يعاملنا سبحانه بفضله لا بعدله ، ولو عاملنا بالعدل لهلكنا جميعاً .

لذلك جاء فى دعاء الصالحين : اللهم عاملْنَا بالفضل لا بالعدل ، وبالإحسان لا بالميزان ، وبالجبر لا بالحساب . نعم ، فإن لم يكُنْ فى الآخرة إلا الحساب ، فلن يكسب منا أحدٌ ، وقد ورد فى الحديث : « مَنْ نُوقشَ الحساب عُذِّب »[(١)]

ويقول سبحانه : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٥٨) ﴾ [يونس]

فالفرح لا يكون إلا حين يشملك فضْل الله ، وتعمُّك رحمته ، وفى الحديث الشريف : « لن يدخل أحدٌ الجنةَ بعمله » قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : « ولا أنا إلا أنْ يتغمدنى الله برحمته »[(٢)] .

فإنْ قُلْتَ : فكيف نجمع بين هذه النصوص من القرآن والسنة ، وبين مكانة العمل ومنزلته فى مثل قوله تعالى : ﴿ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٢) ﴾ [النحل]

قالوا : صحيح أن للعمل منزلته وفضله ، لكنك حين تعبد الله لا تُقدم لله تعالى خدمة بعبادتك له ، إنما الخدمة مُقدَّمة من الله لك فى مشروعية العبادة ، وإلا فالله تعالى بكل صفات الكمال خلقك وخلق الكون كله لك ، فإنْ كلَّفك بعد ذلك بشىء ، فإنما هو لصالحك ، كما تكلف ولدك بالجد والمذاكرة .

---

(١) عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ حوسب يوم القيامة عُذِّب . فقال عبد الله بن أبى مليكة : أليس قد قال الله عز وجل : ﴿ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (٨) ﴾ [الانشقاق] ، فقال : ليس ذاك الحساب ، إنما ذاك العرض ، من نوقش الحساب يوم القيامة عُذِّب » أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٨٧٦) قال النووى فى شرحه : « معناه أن التقصير غالب فى العباد ، فمن استقصى عليه ولم يُسامح هلك ودخل النار ، ولكن الله تعالى يعفو ويغفر ما دون الشرك لمن يشاء » .

(٢) متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٤٦٣) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٨١٦) من حديث أبى هريرة . وتغمده الله برحمته : أدخله فيها وغمره بها [لسان العرب ـ مادة : غمد] .

ثم لو أنك وضعتَ عملك فى كفَّة ، ونعَم الله عليك فى كفة لما وفَّتْ أعمالك بما أخذْتَه من نعَم ربك . إذن : إنْ أثابك بعد ذلك فى الآخرة فإنما بفضله تعالى عليك ورحمته لك .

ومثَّلْنا لذلك ـ ولله تعالى المثل الأعلى ـ بقولك لولدك : لو نجحتَ آخر العام سأُعطيك هدية أو مكافأة ، فمع أنه هو المستفيد من نجاحه إلا أنك تزيده ؛ لأنك مُحِبٌّ له وتحب له الخير .

إذن : ينبغى أنْ نتعامل بهذه القاعدة ، وأنْ نتخلَّق بهذا الخلق ، خاصة فى مثل هذه الحالة ، حالة الزوجة التى طُلِّقَتْ قبل الدخول بها .

فإنْ قُلْتَ : ولماذا تأخذ الزوجة التى طُلِّقت قبل الدخول بها نصف المهر والمتعة أيضاً ؟ نقول : هو عوَض لها عن المفارقة ، فإنْ كانت هى المُفَارقة الراغبة فى الطلاق ، فليس لها شىء من المهر أو المتعة ، إنما عليها أنْ تردَّ على الزوج ما دفعه ، كما جاء فى حديث المرأة التى جاءت رسول الله ﷺ تخبره أنها لا تريد البقاء مع زوجها ، فقال لها : « رُدِّى عليه ما دفعه لك »[1] وهذه العملية يسميها العلماء (الخُلْع) .

ثم بعد أن ذكر الحق سبحانه مسألة المتعة قال : ﴿وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا (٤٩)﴾ [الأحزاب]

السَّرْح فى الأصل : شجر له ثمر ، يوجد فى البوادى ، ترعاه الماشية وتحبه ، فالكبيرة منها تأكل من أعلى الشجرة ، أما الصغيرة

---

(١) عن ابن عباس أن امرأة ثابت بن قيس أتت النبى ﷺ فقالت : يا رسول الله ، ثابت بن قيس ما أعتب عليه فى خلق ولا دين ، ولكنى أكره الكفر فى الإسلام . فقال رسول الله ﷺ : أتردين عليه حديقته ؟ قالت : نعم . قال رسول الله ﷺ : اقبل الحديقة وطلِّقها تطليقة . أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٢٧٣) ، وابن ماجه فى سننه (٢٠٥٦) من حديث ابن عباس ، وقد صرّح بتسمية امرأة ثابت ، فهى جميلة بنت سلول ، وفى رواية أخرى (٢٠٥٧) أنها حبيبة بنت سهل .

فيتعهدها الراعى إنْ كان عنده دقة رعاية ، بأنْ يضرب بعصاه غصون الشجرة ، فتتساقط منها بعض الأوراق ، فيأكلها الصغار[١] .

ومن ذلك قوله تعالى عن عصا موسى عليه السلام : ﴿وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾ [طه]

ورُوى أن سيدنا عمر مرَّ على راعٍ فقال له : يا راعٍ ، فنظر الراعى إلى أمير المؤمنين ، وقال : نعم يا راعينا ـ يعنى : أنا راعى الغنم وأنت راعى الراعى ، فكأنه لا يتكبر راعٍ على راعٍ ـ فقال عمر : يا هذا فى الأرض التى تبعد عنك كذا وكذا سَرْحٌ أجمل من هذا وأخصب ، فاذهب إليه بماشيتك .

وهذا درس فى تحمُّل مسئولية الرعية والحرص عليها ، وكان عمر رضى الله عنه خير مَنْ تحمَّل هذه المسئولية ، فيُرْوى أن سيدنا عمر وسيدنا عبد الرحمن بن عوف رأيا جماعة من التجار عابرى السبيل يلجئون إلى المسجد للمبيت فيه ، منهم مَنْ يحمل بضاعته ، ومنهم مَنْ يحمل ثمن بضاعة باعها ، فخافا أن يجترىء عليهم أحد فيسرقهم ، فبات عمر وعبد الرحمن يتسامران حتى الفجر لحراسة هؤلاء العابرين .

وحتى الآن ، فى الفلاحين يقول الذاهب فى الصباح إلى الحقول (نسْرَحْ) وللعودة آخر النهار (نروح) ، ثم تُدوول هذا اللفظ فأُطلق على كل خروج إلى شىء ، ومن ذلك نقول : اعطنى التسريح ، فكأنى كنت محبوساً فسمح لك بالخروج ، ومن ذلك تسريح الزوجة .

لكن تسريح الزوجة وصفه الله تعالى بقوله ﴿سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾﴾

---

(١) الذى فى لسان العرب لابن منظور (مادة : سرح) أن السرح : شجر كبار عظام طوال ، لا يُرعى وإنما يُستظل فيه ، لا ينبت فى رمل ولا جبل ، ولا يأكله المال (الأنعام) إلا قليلاً ، له ثمر أصفر .

[الأحزاب] وكل شيء وُصف فى القرآن بالجمال له مزية فى ذاته ، كما فى ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ .. (١٨)﴾ [يوسف] وتسريح الزوجة عادة ما يصاحبه غضب وانفعال ، فينبغى أنْ يكون التسريح جميلاً لا عنفَ فيه ، كأنْ يُطيِّب خاطرها بقوله : هذا قدرنا ، وأرجو الله أن يُعوِّض عليك بخير منى أو غير ذلك ، مما يراه مناسباً لتخفيف الخطْب عليها ، ويكفى أن تتحمل هى ألم المفارقة ومصيبة الطلاق . وأىُّ جمال فيمَنْ يفارق زوجته بالسُّباب والشتائم ، ويؤذيها بأن يمنعها حقاً من حقوقها .

وهذه الآية عالجتْ قضية هامة من قضايا الأسرة ؛ لأنها مرادة للحق سبحانه ، فالله تعالى خلق الإنسان الخليفة ، وهو آدم عليه السلام ، وخلق منه الزوجة ليُحقِّق منهما الخلافة فى الأرض ، لكن لماذا هذه الخلافة ؟ قالوا : ليستمتعوا بآثار قدرة ربهم وحكمته فى كونه ، كما تسعد أنت حين تأتى لأولادك بما لَذَّ وطابَ من الطعام ، وتفرح حين تراهم يأكلون ويتمتعون بما جئتَ به ، تفرح لأنك عدَّيْتَ أثر قدرتك للغير ـ ولله تعالى المثل الأعلى ـ .

فما دام الحق سبحانه جعل الخليفة فى الأرض ثم حدد مهمته ، فقال : ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا .. (٦١)﴾ [هود] إذن : لا بُدَّ أنْ يضمن لهذا الخليفة مُقوِّمات حياته ومُقوِّمات استبقاء هذه الحياة لا تكتمل إلا بمُقوِّمات بقاء النوع ، فإنه لن يعيش فى الدنيا وحيداً لآخر الزمان .

واستبقاء الحياة يكون بالقوت ؛ لذلك فإن ربك عز وجل قبل أنْ يستدعيك إلى الوجود ، وقبل أنْ يخلقك خلق لك ، خلق لك الشمس والقمر والنجوم والكواكب والأرض والهواء والماء ، فأعدَّ للخليفة كل مُقوِّمات حياته .

واقرأ قول الله تعالى : ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الأَرْضَ

فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ (١٠) ﴾ [فصلت]

إذن : فمخازن القوت مملوءة ﴿ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ (٢١) ﴾ [الحجر] وما دام خالق البشر قدَّر لهم الأقوات مُقدَّماً ، فليس لك أن تقول « انفجار سكانى » قُلْ : إنك قصرْتَ فى استنباط هذا القوت بما أصابك من كسل أو سوء تخطيط .

ونلحظ هذا المعنى فى قوله تعالى : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١١٢) ﴾ [النحل]

ومن الكفر بنعمة الله ستْرها بالكسل والقعود عن استنباطها ، وقد يَشْقى جيل بكسل جيل قبله ، لذلك لما تنبَّهنا إلى هذه المسألة ، وبدأنا نزرع الصحراء ونُعمِّرها انفرجتْ أزمتنا إلى حَدٍّ ما ، ولو بكَّرْنا بزراعة الصحراء ما اشتكينا أزمة ، ولا ضاقَ بنا المكان .

والحق سبحانه يُعلِّمنا أنه إذا ضاق بنا المكان ألاَّ نتشبثَ به ، ففى غيره سعة ، واقرأ : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا .. (٩٧) ﴾ [النساء]

لذلك يخاطب الحق سبحانه نبيه ﷺ ، حتى فى الخلوة الليلية معه : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ .. (٢٠) ﴾ [المزمل] إلى أن يقول : ﴿ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ .. (٢٠) ﴾ [المزمل] والمرضى غير قادرين على العمل ، فعلى القادر إذن أنْ يعمل ليسُدَّ حاجته وحاجة غير القادر ﴿ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ .. (٢٠) ﴾ [المزمل]

إذن : قانون الإصلاح الذى جعله الله لحياة البشر يقوم على دعامتين : الضرب فى الأرض والسَّعْى فى مناكبها ، وفيه مُقوِّمات الحياة ، ثم نقاتل فى سبيل الله لبقاء الدعوة والمنهج ، فالأولى للقالب ، وبها نأكل ونشرب ونعيش ، والأخرى للقيم .

فإنْ قعدتْ الأمة أو تكاسلتْ عن أىٍّ من هاتين الدعامتين ضاعتْ وهلكتْ وصارتْ مطمعاً لأعدائها ؛ لذلك تجد الآن الأمم المتخلفة فقيرة، تعيش على صدقات الأمم الغنية ؛ لأنها كفرتْ بأنعم الله وسترتها ، ولم تعمل على استنباطها ، قعدتْ عن الاستعمار والاستصلاح .

أما الأغنياء فعندهم فائض لا يُعْطى للفقراء ، إنما يُرْمى فى البحر ويُعدَم ، لتظل لهم السيادة الاقتصادية ، لذلك نستطيع أنْ نقول بأن شر العالم كله والفساد إنما يأتى بكفر نعم الله ، إما بسترها وعدم استنباطها ، أو بالبخل بها على غير الواجد .

ولأهمية القوت يأتى فى مقدمة ما يمتنُّ الله به على عباده فى قوله : ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَـٰذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِى أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ (٤)﴾ [قريش]

وكما ضَمن الحق سبحانه للخليفة فى الأرض مُقوّمات حياته ضَمن له أيضاً بقاء نوعه ونَسْله ، وجعل ذلك بالزواج الذى شرَّعه الله؛ ليأتَى النسل بطريقة طاهرة شريفة ، لا بطريقة خسيسة دَنسة ، وفَرْق بين هذا وذاك ، فالولد الشرعى تتلقفه أيدى الوالدين وتتباهى به ، أما الآخر فإذا لم تتخلَّص منه أمه وهو جنين تخلصت منه بعد ولادته ، لأنه عار عليها .

فالحق سبحانه شرع الزواج لطهارة المجتمع المسلم ونظافته وسلامته ، مجتمع يكون جديراً بأن يتباهى به سيدنا رسول الله يوم القيامة ، فقد ورد فى الحديث الشريف : « تناكحوا تناسلوا ، فإنِّى

مُبَاهٍ بكم الأمم يوم القيامة »[١] .

ثم يقول الحق سبحانه[٢] :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ[٣] اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٥٠﴾ ﴾

---

(١) قال العجلونى فى كشف الخفاء (١/ ٣٨٠) : « رواه عبد الرزاق والبيهقى عن سعيد بن أبى هلال مرسلاً بلفظ « تناكحوا تكثروا ، فإنى أباهى بكم الأمم يوم القيامة » . وقد أخرج أبو داود فى سننه (٢٠٥٠) من حديث معقل بن يسار قال : جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : إنى أصبت امرأة ذات حسب وجمال ، وإنها لا تلد ، أفأتزوجها ؟ قال : لا . ثم أتاه الثانية فنهاه ، ثم أتاه الثالثة ، فقال : « تزوجوا الودود الولود ، فإنى مكاثر بكم الأمم » .

(٢) قال ابن كثير فى تفسيره (٣/ ٤٩٩) : « هذه الآية عدل وسط بين الإفراط والتفريط ، فإن النصارى لا يتزوجون المرأة إلا إذا كان الرجل بينه وبينها سبعة أجداد فصاعداً ، واليهود يتزوج أحدهم بنت أخيه وبنت أخته ، فجاءت هذه الشريعة الكاملة الطاهرة بهدم إفراط النصارى ، فأباح بنت العم والعمة ، وبنت الخال والخالة ، وتحريم ما فرطت فيه اليهود من إباحة بنت الأخ والأخت » .

(٣) قال القرطبى فى تفسيره (٨/ ٥٤٧٥) : « معلوم أنه لم يكن تحته أحد من بنات عمه ، ولا من بنات عماته ، ولا من بنات خاله ، ولا من بنات خالاته ، فثبت أنه أحلَّ له التزويج بهذا ابتداء » .

الحق ـ تبارك وتعالى ـ لم يخاطب نبيه محمداً ﷺ باسمه العَلَم أبداً ، كما خاطب غيره من الأنبياء فقال : يا نوح ، يا عيسى ، يا موسى ، يا إبراهيم .. إلخ ، أما رسول الله ، فناداه ربه بقوله ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّبِيُّ .. (٥٠) ﴾ [الأحزاب] و ﴿ يَـٰأَيُّهَا الرَّسُولُ .. (٤١) ﴾ [المائدة]

ونداء الشخص باسمه العَلَم دليلٌ على أنه ليستْ له صفة مميزة ، فإنْ ملك صفة مميزة نُودى بها تقول : يا شجاع ، يا شاعر .. إلخ ، الآن الجميع يشتركون فى العَلَمية . إذن : فنداء النبى ﷺ بيأيها النبى ، ويأيها الرسول تكريم له ﷺ .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ .. (٥٠) ﴾ [الأحزاب] ما معنى ﴿ أَحْلَلْنَا .. (٥٠) ﴾ [الأحزاب] هنا ما دام الحديث عن أزواجه ﷺ ؟ قالوا : معناها أنها كانت فى منطقة مُحرَّمة ثم أحلَّها الله له أى : جعلها حلالاً ، وهذا المعنى يتضح بقوله تعالى بعدها ﴿ اللاَّتِى آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ .. (٥٠) ﴾ [الأحزاب] كأن رسول الله أخذ بالحلِّ أولاً ، بدليل أنه آتى الأجر والمهر .

ولقد كان للعلماء وَقْفة عند تسمية المهر أجراً ، قالوا :كيف يُسمِّى المهر أجراً ، ومعنى الأجر فى اللغة : جُعْلٌ على منفعة موقوتة يؤديها المُستأجَر للمُستأجِر ، أما النكاح فليس موقوتاً ، إنما من شروطه نية التأبيد والدوام ؟

وللجواب على هذه المسألة نقول : لا يصح أنْ تُؤخَذ الآيات ، منفصلة بعضها عن بعض ، إنما ينبغى أنْ نجمع الآيات الواردة فى نفس الموضوع جَنْباً إلى جنب ؛ ليأتى فهمها تاماً متكاملاً .

فالحق سبحانه يقول فى موضع آخر مخاطباً نبيه ﷺ فى شأن زوجاته : ﴿ تُرْجِى مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ .. (٥١) ﴾ [الأحزاب] أى : تؤخر

استمتاعك بها ﴿وَتُؤْوِى إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ .. (٥١)﴾ [الأحزاب] أى : تضمُّها إليك .

إذن : ما دام لك أن ترجىء أزواجاً منهن وتمنعهن من القسمة ، ثم تضم غيرهن ، فكأن المنفعة هنا موقوتة ، فناسب ذلك أن يُسمَّى المهر أجراً .

والحق سبحانه يعطى نبيه ﷺ فى كل مراحل سيرته أزكى المواقف وأطهرها وأنبلها ، فقوله تعالى ﴿اللاَّتِى آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ .. (٥٠)﴾ [الأحزاب] دليل على أنه ﷺ ما انتفع بهن إلا بعد أنْ أدَّى مهرهن ، فى حين أن للإنسان أنْ يسمى المهر ، ويدخل بزوجته دون أن يدفع من المهر شيئاً ، ويكون المهر كله أو بعضه مُؤخَّراً ، لكن تأخير المهر يعطى للمرأة حق أنْ تمتنع عن مضاجعته ، فإنْ سمحَتْ له فهو تفضُّل منها . إذن : فرسول الله اختار أكمل شىء .

رسول الله ﷺ جاء ليُبيِّن للناس ما نُزِّل إليهم ، وجعله ربه أُسْوة سلوكية فى الأمور التى يعزُّ على الناس أن يستقبلوها ، فنفَّذها رسول الله فى نفسه أولاً كما قلنا فى مسألة التبنى .

كذلك فى مسألة تعدد الزوجات ، فرسول الله أُرسل والتعدد موجود عند العرب وموجود حتى عند الأنبياء السابقين ، لكن أراد الله أنْ يحدد هذا التعدد تحديداً يمتص الزائد من النساء ، ولا يجعله مباحاً فى كل عدد ، فأمر رسوله أن يقول لأمته : مَنْ كان عنده أكثر من أربع فليمسك معه أربعاً ، ويفارق ما زاد عنهن ، فى حين كان عنده ﷺ تسع زوجات .

فلو أن الحكم شمله ، فأمسك أربعاً ، وسَرَّح خمساً لأصابهُنَّ ضرر كبير ، ولصِرْنَ مُعلَّقات ؛ لأنهن زوجات رسول الله وأمهات

المؤمنين ، وليس لأحد أن يتزوج إحداهن بعد رسول الله .

إذن : الحكم يختلف مع رسول الله ، والعدد بالنسبة له أن يقتصر على هؤلاء التسعة بذواتهن ، بحيث لو ماتت إحداهن أو طُلِّقت فليس له أنْ يتزوَّج بغيرها ؛ لأن الله خاطبه بقوله : ﴿ **لا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ** .. (٥٢) ﴾ [الأحزاب]

وقد بيَّنا للمستشرقين الذين خاضوا فى هذه المسألة أن رسول الله لم يُسْتَثْن فى العدد ، إنما استُثنى فى المعدود ، حيث وقف عند هؤلاء التسع بذواتهن ، وليس له أنْ يتزوج بأخرى ، أما غيره من أمته فله أنْ يتزوج ضِعْف أو أضعاف هذا العدد ، شريطة ألاَّ يزيد عن أربع فى وقت واحد .

وكلمة ﴿ **أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ** .. (٥٠) ﴾ [الأحزاب] جاءت قبل ﴿ **لا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ** .. (٥٢) ﴾ [الأحزاب] وقد ورد عن السيدة عائشة أنها قالت[١] : ما مات رسول الله حتى أبيح له أنْ يتزوج ما شاء ، فكيف ذلك ؟

قالوا : لأن الله تعالى أراد أنْ يعطى لرسوله تميُّز الوفاء لأزواجه ، فمع أن الله أباح له أنْ يتزوج بغيرهن ، إلا أنه ﷺ لم يفعل وفاءً لهُنَّ ، والرسول ﷺ يفعل ذلك لأنه كان إذا حُيى بتحية يُحيِّى بأحسن منها أو يردُّها بمثلها ، وقد رأى ﷺ من أزواجه سابقة خير حين خيرَّهُنَّ فاخترْنه وفضَّلْن العيش معه على زينة الدنيا ومتعها ، فكأنه يردُّ لهم هذه التحية بأحسن منها .

ومجىء ﴿ **أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ** .. (٥٠) ﴾ [الأحزاب] قبل ﴿ **لا يَحِلُّ لَكَ**

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه (٣٢١٦) ، والنسائى فى سننه (٦/٥٦) من قول عائشة رضى الله عنها . قال الترمذى : هذا حديث حسن .

النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ.. (٥٢) ﴾ [الأحزاب] دليل على تكريم الرسول ومعاملته معاملة خاصة ، فالله قد أحل له قبل أنْ يُحرِّم عليه ، ومثال هذا التكريم قوله تعالى : ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ .. (٤٣) ﴾ [التوبة] فسُبق العتاب بالعفو .

ونلحظ فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ .. (٥٠) ﴾ [الأحزاب] أن الأزواج جاءت بصيغة المذكَّر ولم يقل زوجاتك ؛ لأن الزوج يُطلق على الرجل وعلى المرأة ، والزوج فى اللغة هو الواحد المفرد ومعه غيره من جنسه ، وليس الزوج يعنى الاثنين كما يعتقد البعض ، ومثلها كلمة (توأم) فهى تعنى الواحد الذى معه غيره ، فكل منهما يُسمَّى توأماً ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ .. (١٤٣) ﴾ [الأنعام]

ثم يقول تعالى : ﴿ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ .. (٥٠) ﴾ [الأحزاب] نعرف أن ملْك اليمين يُقصَد به المرأة المملوكة ، وجاء قوله تعالى : ﴿ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ ..(٥٠) ﴾ [الأحزاب] احتياط ، فملْك اليمين بالنسبة لرسول الله جاء من طريق شرعى ، جاء من الفىء والمراد أسرى الحروب .

وقد باشر ﷺ عملية السَّبْى بنفسه ؛ لأن من الإماء حرائر أُخذْنَ عُنْوة أو سُرِقْنَ ، ومنهن من بيعتْ فى سوق الرقيق على أنها أَمَة ، وهذا ما رأيناه فعلاً فى قصة سيدنا زيد بن حارثة ، إذن : فقوله تعالى ﴿ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ .. (٥٠) ﴾ [الأحزاب] أى : أنك ملكتها ، وأنت واثق تمام الثقة أنها أَمَة وَفَىءٌ أحله الله لك .

﴿ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالاتِكَ اللاَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا

خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ .. (٥٠) ﴾ [الأحزاب]

وكذلك أحلَّ الله لنبيه أنْ يتزوّج من بنات عمه ، أو بنات عماته ، أو بنات خاله ، أو بنات خالاته ، والعمومة : أقاربه من جهة أبيه ، والخئولة أقاربه من جهة أمه ، ونلاحظ أن رسول الله لم يتزوج لا من بنات عمه ، ولا من بنات عماته ، ولا من بنات خاله ، ولا من بنات خالاته .

والمعنى أن الله تعالى أحلَّ له أنْ يتزوَّج من هؤلاء ما وُجد ؛ لأن قرابته سيكونون مأمونين عليه ، ومعينين له على أمره .

وحين تتأمل هذه الآية نجد أن العم والخال جاءت مفردة ، فى حين جاءت العمات والخالات جمعاً ، لماذا ؟ قالوا : لأن العم والخال اسم جنس ، واسم الجنس يُطلَق على المفرد وعلى الجمع ، بدليل أنك تجد اسم الجنس فى القرآن يُستثنى منه الجمع ، كما فى ﴿ وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣) ﴾ [العصر]

فالإنسان اسم جنس مفرد ، واستثنى منه الذين آمنوا وهى جمع ، أما العمَّات والخالات فليستْ اسم جنس ؛ لذلك جاءتْ بصيغة الجمع المؤنث .

وأيضاً ، لأن العم صنْو الأب ، فعلى فرض أنهم أعمام كثيرون ، فهم فى منزلة الأب ، واقرأ فى ذلك قوله تعالى : ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ .. (١٣٣) ﴾ [البقرة] فدخل العمُّ فى مُجْمل الآباء .

وكذلك سَمَّى العمَّ أباً فى قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ .. (٧٤) ﴾ [الأنعام] ومعلوم أنه كان عمه .

وفى موضع آخر ، جاءت عم بصيغة الجمع ، وهو قوله تعالى : ﴿لَيْسَ عَلَى الأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِن بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالاتِكُمْ .. (٦١)﴾ [النور]

فجاءت العم والخال هنا بصيغة الجمع ، لماذا ؟ قالوا : لأن الحديث هنا عن البيوت التى يُبَاح لك أنْ تأكل منها ، وجاءت (بيوت) بصيغة الجمع ، والعم له بيت واحد ، فما دام قال بيوت فلا بُدَّ أنْ تأتى (أعمامكم) و (أخوالكم) بصيغة الجمع .

ثم يقول تعالى : ﴿وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ [1] .. (٥٠)﴾ [الأحزاب] الوَهْب : انتقال ملكية بلا مقابل ، نقول : فلان وهبك كذا يعنى : أعطاه لك بلا مقابل ، ليس بيعاً وليس بدلاً مثلاً .

لذلك لما نزلت هذه الآية قالت السيدة عائشة : أتعجبُ لامرأة تبتذل نفسها ، وتعطى نفسها لرجل هكذا مجاناً بلا مقابل ، فنزل النص ﴿وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ ..(٥٠)﴾ [الأحزاب] عندها قالت السيدة عائشة لسيدنا رسول الله : يا رسول الله ، أرى الله يسارع إلى هواك ، فقال لها ﷺ : « وأنت يا عائشة ، لو اتقيتِ اللهَ لسارع فى هواك » [2] .

---

(١) قوله (النبى) هنا دليل على أن هذا أمر خاص برسول الله ، فليس لأحد من أمته أن يتزوج امرأة على سبيل الهبة بأن تهب نفسها له ، وهذا من الأمور التى خُصَّ بها رسول الله ؛ لذلك قال تعالى : ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ.. (٥٠)﴾ [الأحزاب]

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٧٨٨ ، ٥١١٣) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٤٦٤) كتاب الرضاع ، وأحمد فى مسنده (٦/١٣٤ ، ١٥٨ ، ٢٦١) من حديث عائشة رضى الله عنها .

والمعنى : أن الله يسارع فى هواى ، لأننى سارعتُ فى هواه ، طلب منى فأدَّيْتُ ؛ لذلك يُلبى لى ما أريد من قبل أنْ أطلب منه .

وقال ﴿وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً .. ﴿٥٠﴾﴾ [الأحزاب] لأن الهبة هنا خاصة بالمؤمنة ، فإنْ كانت كتابية لا يصح أن تهبَ نفسها للنبى ، لكن أتحل له المرأة بمجرد أن تهب نفسها له ؟ قالوا : لا ، إنما لا بُدَّ من القبول ، فإنْ قالت المرأة لرسول الله : أنا وهبتُ نفسى لك لا بُدَّ أنْ يقبل هو هذه الهبة ؛ لذلك علَّق على هذه المسألة بقوله ﴿إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا .. ﴿٥٠﴾﴾ [الأحزاب] لأن المسألة مبنية على إيجاب وقبول .

وللعلماء كلام فى هذه المسألة ، فبعضهم[1] قال : لم يأخذ رسول الله امرأة بهبة أبداً ، وقال آخرون[2] : بل عنده أربع موهوبات هُنَّ : ميمونة بنت الحارث الهلالية ، وزينب بنت خزيمة أم المساكين ، وأم شريك بنت جابر ، وخولة بنت حكيم .

وليس فى هذا التعارض (فزورة) ، فمن السهل أنْ نجمع بين

---

(١) قاله ابن عباس ، أورده السيوطى فى الدر المنثور (٦/٦٣٠) وعزاه لابن جرير وابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه والبيهقى فى السنن عن ابن عباس قال : لم يكن عند رسول الله ﷺ امرأة وهبت نفسها له .

(٢) ذكره القرطبى فى تفسيره (٨/٥٤٧٧) ، وكذا ابن كثير (٣/٥٠٠) والسيوطى فى الدر المنثور (٦/٦٢٨ ـ ٦٣٠) . قال القرطبى : « الذى فى الصحيحين يقوى هذا القول ويعضده ، روى مسلم عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : كنت أغار على اللاتى وهبن أنفسهن لرسول الله ﷺ وأقول : أما تستحى امرأة تهب نفسها لرجل حتى أنزل الله تعالى ﴿تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ .. ﴿٥١﴾﴾ [الأحزاب] . فقلت : والله ما أرى ربك إلا يسارع فى هواك . وروى البخارى عن عائشة أنها قالت : كانت خولة بنت حكيم من اللائى وَهَبْن أنفسهن لرسول الله ﷺ ، فدلَّ هذا على أنهن كُنَّ غير واحدة » .

هذين القولَيْن ؛ لأن الله تعالى قال : ﴿وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا .. (٥٠)﴾ [الأحزاب] فربما وهبَتْ نفسها للنبى ، لكنه لم يُرِد ، أو وهبتْ نفسها للنبى ، فأراد أنْ يكرمها ، وأنْ يجعل لها مهراً ويتزوجها .

وكلمة ﴿يَسْتَنكِحَهَا .. (٥٠)﴾ [الأحزاب] مثل ينكحها ، فهما بمعنىً واحد ، مثل : عَجِل واستعجل .

ومعنى ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ .. (٥٠)﴾ [الأحزاب] أن الله تعالى خَصَّ رسوله بأشياء ميَّزه بها ؛ لأن مهمته ﷺ ليستْ مع نفسه هو ، إنما مهمته مع الناس جميعاً ، وليس للناس المعاصرين له فحسب ، إنما جميع الناس حتى قيام الساعة .

إذن : فمشغولياته ﷺ كثيرة كبيرة ، كما قال سبحانه ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً (٥)﴾ [المزمل]

لذلك أراد الحق سبحانه ألاَّ يشغله شىء عن مهمته هذه ، وأراد أنْ يتوفر رسول الله لأداء هذه المهمة التى هو بصددها ، بحيث إذا ما عشق عملية البلاغ عن الله واندمج فيها ومعها تموت فى نفسه كلُّ الأهواء ، ولا يبقى إلا انشغاله بمهمة الدعوة .

بدليل أن الوحى فى أوله كان يجهد سيدنا رسول الله ، وكان جبينه يتفصَّد عرقاً ، ويذهب إلى أهله فربما يقول : زَمِّلونى زمِّلونى ، ودثِّرونى دثِّرونى ، ثم شاء الله تعالى أنْ يرفع عنه هذه المعاناة ، وأنْ يريحه مما أنقض ظهره وأتعبه ، ففتر الوحى فترة عن رسول الله حتى استراحتْ أعصابه ، وهدأتْ طاقته ، وبقيت معه حلاوة ما أوحى إليه هذه الحلاوة التى جعلتْ سيدنا رسول الله يتشوَّق للوحى من جديد ، وشوقك إلى الشىء يُنسِيك التعب فى سبيله .

وفى ذلك يقول تعالى : ﴿وَالضُّحَىٰ (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣) وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأُولَىٰ (٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ (٥)﴾ [الضحى]

وعجيبٌ أن يقول المشركون عند انقطاع الوحى : إن ربَّ محمد قلاه ، ففى الجفوة عرفوا أن لمحمد رباً يجفوه ، أما حين الخلوة والجَلْوة قالوا : مُفْتر وكذَّاب وشاعر .. إلخ .

ومعنى ﴿وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأُولَىٰ (٤)﴾ [الضحى] يعنى : ستكون عودة الوحى خيراً لك من بدايته ؛ لأنه جاءك أولاً فوق طاقتك فأجهدك ، أما فى الأخرى فسوف تستدعيه أنت بنفسك وتنتظره على شوق إليه ، فطاقتك هذه المرة مستعدة لاستقباله ، قادرة على تحمُّله دون تعب أو إجهاد .

إذن : فالحق سبحانه جعل لرسوله ما يُيسِّر له أمر الاندماج فى المستقبل ، لذلك لما عاوده الوحى لم يتفصَّد جبينه عرقاً ، ولا أُجهد كالمرة الأولى ، لأن طاقة الشوق عنده وطاقة الحب تغلبتا على هذا التعب وهذا الإجهاد .

ثم يقول سبحانه : ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ..(٥٠)﴾ [الأحزاب] أى : من العدد الذى حُدِّد بأربعة ، ومن المهر الذى سُمِّى ساعة العقد ، والمراد أن لكلٍّ حكمه وقانونه ، فلكَ يا محمد حكم يناسبك ، ولأمتك حكم .

وبمناسبة ما نحن بصدده من الحديث عن أحكام الزواج والتعدد يجدر بنا أن نشير إلى الضجة التى يثيرها أعداء الإسلام بسبب مسألة « تعدد الزوجات » ، مع أن التعدد فى مصر لم يصل إلى حَدِّ الظاهرة ، وليس وباءً كما يُصوِّره البعض .

فالذين أحصوا هذه المسألة وجدوا أن الذين عدَّدوا بزوجتين ثلاثة بالمائة ، والذين عددوا بثلاث واحد فى الألف ، والذين عدَّدوا بأربع نصف فى الألف ، فلماذا إذن إثارة الناس ضد ما شرع الله ، ثم ألم يمتصّ التعدد فائضاً من النساء ؟

وتأتى الزوجة تشتكى : بعد أنْ عشْتُ معه كذا وكذا ، وخدمته كذا وكذا يتزوج علىَّ ؟ فأقول لها : أضَرَّك أنتِ ؟ تقول : نعم ، أقول: لكنه نفع أخرى ، فواحدة بواحدة ، ولماذا ننظر إلى المتزوجة ، ونغفل التى لم تتزوج ، أليس من حقِّها هى الأخرى أن تتزوج ؟

ثم إن المرأة التى قبلَتْ أن تكون الثانية ما قبلت إلا لأنها لم تستطع أنْ تكون الأولى ، وكذلك الثالثة ما قبلتْ ، إلا لأنها لم تستطع أن تكون الثانية .. إلخ ثم نقول لهؤلاء : أألزمك ربك أنْ تعدد ؟ هذه مسألة أباحها الشارع لحكمة ، ولم يلزمك بها ، فإنْ كان التعدد لا يعجبك فاكتفِ بواحدة .

والذين أثاروا الضجة فى تعدُّد الزوجات أثاروا أكثر منها فى مسألة ملْك اليمين فى الإسلام ، وراحوا يتهمون الإسلام والمسلمين : كيف يجمع الرجل فوق زوجاته كذا وكذا من ملْك اليمين ؟

ومعلوم أن ملْك اليمين كان موجوداً قبل الإسلام ، وظل موجوداً ، حتى دعا القانونَ الدولى العام إلى منع ظاهرة العبودية ، ودعا إلى تحرير العبيد ، فسرَّح الناس ما عندهم من العبيد ، وكان منهم مَنْ يشترى العبيد من أصحابهم ثم يُطلِق سراحهم .

ومن هؤلاء العبيد مَنْ كان يعود إلى صاحبه وسيده مرة أخرى يريد العيش فى كنفه وفى عبوديته مرة أخرى ؛ لأنه ارتاح فى ظل

هذه العبودية ، وعاش فى حمايتها ، وكان بعضهم يفخر بعبوديته ولا يسترها فيقول : أنا عتيق آل فلان .

والمنصف يجد أن ملْك اليمين فى الإسلام ليست سُبَّة فيه ، إنما مفخرة للإسلام ؛ لأن مَلْك اليمين وسيلته فى الإسلام واحدة ، هى الحرب المشروعة ، فالإسلام ما جاء لينشىء رِقّاً ، إنما جاء لينشىء عتقاً .

الإسلام جاء والرق موجود ، وكان العبيد يُباعون مع الأرض التى يعملون بها ، ولا سبيل للحرية غير إرادة السيد فى عِتْق عبده ، فى حين كانت منابع الرقِّ كثيرة متعددة ، فكان المدين الذى لا يقدر على سداد دَيْنه يبيع نفسه أو ولده لسداد هذا الدين ، وكان اللصوص وقُطَّاع الطرق يسرقون الأحرار ، ويبيعونهم فى سوق العبيد ... إلخ .

فلما جاء الإسلام حرَّم كل هذه الوسائل ومنعها ، ولم يُبْقِ إلا منبعاً واحداً هو السَّبْى فى حرب مشروعة ، وحتى فى الحرب ليس من الضرورى أن ينتج عنها رقٌّ ؛ لأن هناك تبادلَ أسرى ، ومعاملةً بالمثل ، وهذا التبادل يتم على أقدار الناس ، فالقائد أو الفيلسوف أو العالم الكبير لا يُفتدى بواحد من العامة ، إنما بعدد يناسب قدره ومكانته ، واقرأ فى ذلك قوله تعالى : ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا .. ﴿٤﴾﴾ [محمد]

لأن الحرب ما شُرِعَتْ فى الإسلام ليُرغم الناسُ على الدين ، لكن ليُحمى اختيارهم للدين ، بدليل أن البلاد التى دخلها الفتح الإسلامى بقى فيها كثير من الناس على كفرهم ، ثم ألزمهم دفع الجزية مقابل الزكاة التى يدفعها المسلم ، ومقابل الخدمات التى تؤديها إليه الدولة .

ثم تأمل كيف يعامل الإسلام الأسرى ، وعلى المجتمع الظالم الذى ينتقد الإسلام فى هذه الجزئية أن يعلم أن الذى أسرْتَه فى المعركة قد قدرْتَ عليه ، وتمكَّنْتَ منه ، وإنْ شئت قتلتَهُ ، فحين يتدخَّل الشرع هنا ويجعل الأسير ملْكاً لك ، فإنما يقصد من ذلك حَقْن دمه أولاً ، ثم الانتفاع به ثانية ، إمَا بالمال حين يدفع أهله فديته ، وإما بأنْ يخدمك بنفسه .

إذن : المقارنة هنا ليستْ بين رِقٍّ وحرية كما يظن البعض ، إنما هى بين رِقٍّ وقتل .

إذن : مشروعية الرق فى أسرى الحرب إنما جاءتْ لتحقنَ دم المأسور ، وتعطى الفرصة للانتفاع به ، فإذا لم يتم الفداء ولا تبادل أسرى وظَلَّ أسيرك بيدك ، فاعلم أن له أحكاماً لا يصح تجاوزها ، فهو شريكك فى الإنسانية المخلوقة لله تعالى ، وما أباح الله لك أنْ تأسره ، وأن تملكه إلا لكى تَحْقِنَ دمه ، لا أن تُذلَّهُ .

واقرأ قول النبى ﷺ : « إخوانكم خَولكُم ، جعلهم الله تحت أيديكم ، فمَنْ كان أخوه عنده فليُطْعمه مما يطعم ، وليُلبِسْه مما يلبس ، ولا يُكلِّفه ما لا يطيق ، فإن كَلَّفه فلْيُعِنْه »[1] .

فأىُّ إكرام للأسير بعد هذا ، بعد أنْ حقن دمه أولاً ، ثم كرَّمه بأنْ جعله أخاً لك ، واحترم آدميته بالمعاملة الطيبة ، ثم فتح له عدة منافذ تؤدى إلى عِتْقه وحريته ، فإنْ كان للرقِّ فى الإسلام باب واحد ، فللحرية عدة أبواب ، منها العتق فى الكفارات وهى فى تكفير الذنوب التى بين العبد وربه .

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٠ ، ٢٥٤٥) كتاب الإيمان ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٦٦١) كتاب الأيمان من حديث أبى ذر رضى الله عنه .

فإذا لم تكُنْ هناك ذنوب فقد رغَّبَنا الشرع فى عتْق الرقاب لاجتياز العقبة كما فى قوله تعالى : ﴿فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (١١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ(١٢) فَكُّ رَقَبَةٍ (١٣)﴾ [البلد]

هذا إنْ كان الأسير رجلاً ، فإنْ كان امرأة ، ففيها نفس التفصيل السابق ، وتُعامَل نفس المعاملة الطيبة يزيد على ذلك أن للأَمَة - وهى فى بيت سيدها - وضعاً خاصاً ، فهى ترى سيدتها تتمتع بزوجها ، وترى البنت تتزوج ، فيأخذها زوجها إلى بيت الزوجية ، إلى آخر مثل هذه الأمور ، وهى تقف موقف المتفرج ، وربما أخذتها الغيرة من مثل هذه المسائل ، فيكرمها الله حين يُحلّها لسيدها ، فيكون لها ما لسيدتها الحرة ، فإذا ما أنجبتْ لسيدها ولداً صارت حُرَّة به ، وهذا منفذ آخر من منافذ القضاء على الرق .

وقوله تعالى : ﴿لِكَيْلا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ .. (٥٠)﴾ [الأحزاب] هذه هى الهبة الخالصة للنبى ﷺ دون أمته ، كأن الله يقول لنبيه : لا نريد أنْ نُحمِّلك ضيقاً فى أىِّ شىء لتفرغ أنت لمهمتك الصعبة . ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٥٠)﴾ [الأحزاب]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا (٥١)﴾

قوله ﴿تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ .. (٥١)﴾ [الأحزاب] أى : تؤخر مَنْ تشاء من زوجاتك عن ليلتها ﴿وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ .. (٥١)﴾ [الأحزاب] أى : تضم إليك ، وتضاجع مَنْ تشاء منهن ﴿وَمَنِ ابْتَغَيْتَ .. (٥١)﴾ [الأحزاب] من طلبتَ من زوجاتك وقرَّبت ﴿مِمَّنْ عَزَلْتَ .. (٥١)﴾ [الأحزاب] أى : اجتنبتَ بالإرجاء والتأخير ﴿فَلا جُنَاحَ عَلَيْكَ .. (٥١)﴾ [الأحزاب] أى : لا إثم ولا حرج .

﴿ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ .. (٥١)﴾ [الأحزاب] أى : أنهُنَّ جميعاً سيفرَحْنَ ، التى تضمها إليك ، والتى تُرجئها وتؤخرها ، وسوف يرضَيْنَ بذلك ؛ لأنهن يعلَمنَ أن مشيئتك فى ذَلك بأمر الله ، فالتى ضمها رسول الله إليه تفرح بحب رسول الله ولقائه ، والتى أُخِّرَتْ تفرح ؛ لأن رسول الله أبقى عليها ، ثم عاد إليها مرة أخرى وضمَّها إليه وقرَّبها ، وهذا يدل على أن لها دوراً ومنزلة ، وأيضاً حين يكون ذلك من تشريع رب محمد لمحمد ، فإنه لا يعنى أنه كرهها أو زهد فيها ، فإنْ فعلْتَ ذلك يا محمد ـ مع أن فيه مشقة ـ فإنما فعلْتَه طاعة لأمر مَنْ ؟ لأمر الله ، فتأخذ ثواب الله عليه .

وحين نتأمل كلمة ﴿تَقَرَّ .. (٥١)﴾ [الأحزاب] تجد أنها كعامة كلمات القرآن (كالألماس) ، لكل ذرة تكوينية فيه بريق خاص وإشعاع ؛ لذلك يقولون عنه : (دا بيلالى) ومع كثرة بريقه لا يطمس شعاعٌ فيه شعاعاً آخر ، كذلك كلمات القرآن .

(قرَّ) وردتْ كثيراً فى القرآن كما فى ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ .. (٩)﴾ [القصص]

كلمة قرَّ معناها سكن ، نقول : قَرَّ بالمكان أى : استقر فيه وسكن ، والقرّ هو البرد ، وقُرَّة العين تأتى بالمعنيين ، فالعين تسكن

عند شىء ما ، ولا تنتقل إلى غيره إنْ كان جميلاً يأسرها فلا تفارقه ، يقولون : فلان قيْد النظر .

وفى المقابل يقولون : فلان عينه زائغة يعنى : لا تستقر على شىء أو (عينه دشْعَة) عند إخواننا الذين ينطقون الچيم دالاً مثل (دِرْدَة) يقصدون جرجا ، والعين الجشعة[1] بنفس المعنى ، وفى المعنى السياسى يقولون : فلان له تطلُّعات يعنى : كلما وصل إلى منصب نظر إلى الأعلى منه .

أما القُرُّ بمعنى البرودة ، فَقُرَّة العين تعنى : برودتها ، وهى كناية عن سرورها ؛ لأن العين لا تسخُن إلا فى الحزن والألم ؛ لذلك ثبت أخيراً أن حبة العين (ترمومتر) دقيق لحالة الجسم كله ، وميزان لصحته أو مرضه .

ولأهمية العين نقول فى التوكيد : جاءنى فلان عينه ، وسبق أن تحدثنا عن ظاهرة الاستطراق الحرارى فى جسم الإنسان وقلنا : إن من المعجزات فى تكوين الإنسان أن الاستطراق الحرارى فى جسمه يتم بنظام خاص ، بحيث يحتفظ كل عضو فى الجسم بحرارة تناسبه ، فإن كانت حرارة الجسم العامة والمثالية ٣٧° ـ ومن العجيب أنها كذلك عند سكان القطب الشمالى ، وهى كذلك عند سكان خط الاستواء ـ فإن حرارة الكبد مثلاً لا تقل عن ٤٠° مئوية ، أما العين فإذا زادت حرارتها عن عشر درجات تنفجر .

إذن : فقُرَّة عَيْن زوجات النبى وسُرورهن فى مشيئته ، حين

---

(١) الجشع : أسوأ الحرص . وقيل : هو أشد الحرص على الأكل وغيره ، وقيل : هو أن تأخذ نصيبك وتطمع فى نصيب غيرك . [لسان العرب ـ مادة : جشع] .

يُقرِّب إليه مَنْ يُقرِّب ، أو يؤخر من يؤخر ؛ لأن مشيئته نابعة من أمر الله له .

وقوله تعالى : ﴿وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ.. (٥١)﴾ [الأحزاب] أى : فى أىِّ الحالات ، ثم جاء قوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا (٥١)﴾ [الأحزاب] ليشير إلى أن الرضا هنا ليس هو رضا القوالب ، إنما يراد رضا القلب بتنفيذ أوامر الله دون أنْ يكون فى النفوس دخائل أو اعتراض .

فالله سبحانه ﴿كَانَ عَلِيمًا .. (٥١)﴾ [الأحزاب] يعلم ما فى القلوب ﴿حَلِيمًا (٥١)﴾ [الأحزاب] لا يجازيكم على ما يعلم من قلوبكم ، ولو جازاكم على قَدْر ما يعلم لأتعبكم ذلك .

وتأمل حلْم الله علينا ورحمته بنا فى مسألة البدء ببسم الله ، فالنبى ﷺ يُعَلِّمنا أن كل عمل لا يبدأ ببسم الله فهو أبتر أى : مقطوع البركة ، فالإنسان حين يبدأ فى الفعل لا يفعله بقدرته عليه ، ولكن بتسخير مَنْ خلقه له ، فحين تقول : بسم الله أفعل كذا وكذا ، فإنك تفعل باسم الذى سخَّر لك هذا الشىء .

لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَالَّذِى خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ (١٢) لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ (١٣)﴾ [الزخرف]

فعليك أنْ تبدأ ببسم الله حتى إنْ كنتَ عاصياً لله ، إياك أن تظنَّ أنك لستَ أهلاً لهذه الكلمة ؛ لأن ربك حليم ، ورحمن رحيم .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَۗ[2] وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾ ﴾

سبق أن تناولنا تفسير هذه الآية فى إطار سياق الآيات السابقة ، ونلخصها هنا فى أن الحق سبحانه بدأ رسوله أولاً بأن أحلَّ له فى قوله : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ .. ﴿٥٠﴾ ﴾ [الأحزاب] ثم قيد هذا التحليل هنا ، فقال : ﴿ لا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ .. ﴿٥٢﴾ ﴾ [الأحزاب]

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٣/٥٠١) : « ذكر غير واحد من العلماء كابن عباس ومجاهد والضحاك وقتادة وابن زيد وابن جرير وغيرهم أن هذه الآية نزلت مجازاة لأزواج النبى ﷺ ورضاً عنهن على حُسْن صنيعهن فى اختيارهن الله ورسوله والدار الآخرة لمَّا خيرهن رسول الله ﷺ كما تقدم فى الآية ، فلما اخترن رسول الله ﷺ كان جزاؤهن أن الله تعالى قصره عليهن وحرَّم عليه أن يتزوج بغيرهن أو يستبدل بهن أزواجاً غيرهن ولو أعجبه حسنهن إلا الإماء والسرارى فلا حرج عليه فيهن ، ثم إنه تعالى رفع عنه الحرج فى ذلك ونسخ حكم هذه الآية ، وأباح له التزوج ، ولكن لم يقع منه بعد ذلك تزوُّج لتكون المنة لرسول الله ﷺ عليهن » .

(٢) قال القرطبى فى تفسيره (٨/٥٤٩١) : « اختلف العلماء فى إحلال الأمَة الكافرة للنبى ﷺ على قولين :

الأول : تحل لعموم قوله ﴿ إِلاَّ مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ .. ﴿٥٢﴾ ﴾ [الأحزاب] قاله مجاهد وسعيد بن جبير وعطاء والحكم .

الثانى : لا تحل تنزيهاً لقدره عن مباشرة الكافرة ، وقد قال الله تعالى ﴿ وَلا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ .. ﴿١٠﴾ ﴾ [الممتحنة] فكيف به ﷺ ؟ » .

فالحق سبحانه يأتى بالمخفَّف فى أشياء ، ثم يأتى بالمثقّل ؛ ليعلم القوم أن الله تعالى بدأ رسوله بالعطف والرحمة والحنان ، ويُبيِّن فضله عليه ، كما قال له سبحانه ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ .. (٤٣)﴾ [التوبة] قبل أنْ يعاتبه بقوله : ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ .. (٤٣)﴾ [التوبة]

وهذه الآية ﴿ لا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ .. (٥٢)﴾ [الأحزاب] توضح أنّ ما شُرِع لرسول الله فى مسألة تعدُّد الزوجات غير ما شُرِع لأمته ، فرسول الله استثناه الله تعالى فى المعدود لا فى العدد ، والفرق بين الاستثناء فى العدد والاستثناء فى المعدود أن العدد يُدَار فى أشياء متعددة ، فلو أنه أباح له عدد تسع ثم تُوفِّين لكَان له أن يتزوج بتسع أُخَر ، وإنْ ماتت واحدة منهن له أن يتزوج بواحدة بدلاً منها .

لكن الاستثناء لم يكُنْ لرسول الله فى العدد كأمته ، إنما فى المعدود ، بحيث يقتصر على هؤلاء بخصوصهن ، والحكمة فى ذلك أن التى يفارقها زوجها من عامة نساء المؤمنين لها أنْ تتزوج بغيره ، على خلاف زوجات رسول الله ، فإنهن أمهات للمؤمنين ، فلا يحل لهُنَّ الزواج بعد رسول الله .

ثم أوضحنا أن مسألة ملْك اليمين ليستْ سُبَّة فى جبين الإسلام ، إنما هى ميزة من ميزاته ، فالله ملَّك الرقبة ليحميها من القتل ، والمقارنة هنا ليستْ بين رق وحرية ، إنما بين رق وقتل كما أوضحنا ، والذى يتأمل حال المملوك أو المملوكة فى ظل الإسلام لا يسعه إلا الاعتراف بحكمة الشرع فى هذه المسألة .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَـٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَـٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ ﴾

الحق ـ سبحانه وتعالى ـ وزَّع الأمر بين رسول الله وبين أمته ، فكما قال للرسول فى أول السورة ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا النَّبِىُّ اتَّقِ اللَّهَ .. (١) ﴾

---

(١) قال حماد بن زيد : هذه الآية نزلت فى الثقلاء ، فالجمهور من المفسرين على أن سببها أن رسول الله ﷺ لما تزوج زينب بنت جحش امرأة زيد أولم عليها ، فدعا الناس ، فلما طعموا جلس طوائف منهم يتحدثون فى بيت رسول الله وزوجته مُوَلِّية وجهها إلى الحائط ، فثقلوا على رسول الله ﷺ . قال أنس : فما أدرى أأنا أخبرت النبى ﷺ أن القوم قد خرجوا أو أخبرنى . قال أنس : فانطلق ﷺ حتى دخل البيت ، فذهبت أدخل معه فألقى الستر بينى وبينه ونزل الحجاب . قال : ووُعظ القوم بما وُعظوا به ، وأنزل الله عز وجل هذه الآية .. أورده القرطبى فى تفسيره (٨/٥٤٩٢) .

[الأحزاب] أمر أمته بـذكْره وطاعته ، وكما تكلَّم عن أمـر يتعلَّق برسول الله تكلَّم كـذلك عن أمر يتـعلق بأمته فـى قوله ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ .. (٤٩) ﴾ [الأحزاب]

بعد ذلك قال لرسول الله : ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٤٥) ﴾ [الأحزاب] ليُبيِّن عموم نَفْعـه لأمته ، فجازاه عن الأمة بأن يُصلُّوا عليه ، وأنْ يتأدبوا حين دخولهم بيته ﷺ ، فقال هنا : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ .. (٥٣) ﴾ [الأحزاب] لأن التكليف لا بُدَّ أن يكون لمن آمن بالله . وقـلنا : إن الحق سبـحانه رب وإله ، ومعنى (رب) أنه سبحانه خلق وربَّى وأنعم وتفضَّل ، والخَلْق والتـربيـة والإنعام والتـفـضُّل ليس خـاصـاً بالمؤمـنين ، بل لكل مَن استدعاه الله للوجود من مؤمنين وكافرين .

فـالشـمس تشـرق على الجـمـيع ، والـمطر يروى أرض المـؤمن والكافر ، والأرض تستـجيب للكل ، فالذى يُحسن أَخْـذ أسباب الله من عطاء الربوبية يأخذ النتيجة ، وينال نصـيبه موقوتاً بمدى الربوبية فى الدنيا ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ (٢٠) ﴾ [الشورى] والله لا يضيع أجر مَنْ أحسن عملاً .

فالمؤمن الذى لا يأخذ يد الله الممدودة لـه بالأسباب ويهملها يعيش مُتخلِّفاً عالةً على غيره ، يعيش شـحاذاً يستجدى قُوتَه حتى من الكافر ، فإذا ما خَلَتْ الساحة للكافر ، وأخذ هو بالأسباب ، وأعطاها حقوقها أخذ هو عطـاء الرب ، وكـان أَوْلَى بالمـؤمن ألاَّ يترك عطاء ربه ، يأخـذه مَنْ لا يؤمن بالله ، ثم يتخلف هو عـن ركْب الحضارة ، وإنْ كانت الحـضارة التى وصل إليها الكفار اليوم حضارة فى الماديات فحسب .

أما القيم والأخلاقيات فقد انحدرتْ فى هذه المجتمعات ، بدليل أنك حين تذهب إلى هـذه البلاد وتنزل مثـلاً فى فندق ـ كمـا نزلنا ـ تجد مكتوباً على باب الحـجرة : إذا دخل عليك اللصوص فلا تـقاوم ، فإن حياتك أثمن مما معك ، إذا خرجتَ إلى الشارع فلا تحمل من المال إلا بقدر ضرورياتك . إذن : ارتقوا فى شىء ، وانحدروا فى أشياء .

وإذا كان مظهر ارتقائهم فى الناحية الاقتصادية ، فانظر إلى أعلى دَخْلٍ للفـرد فى الـعـالم تجـده فى السـويد ، ومع ذلك تـكثـر عندهم الأمراض النفسيـة والعصبية والانتحار والجـنون والشذوذ وغيرها من الأمراض الاجتماعية .

لقد تحضَّـرتْ هذه البلاد حضارة مادية ؛ لأنهم أخذوا بأسـبابها ، فـأتقن كُلٌّ عـمله ، وأعطى وقت العـمل للعـمل ، فمـا بين الثـامنة إلى الثانيـة عشرة لا تجـد إنساناً فى الشارع ، ولا تجـد أحداً يجلس على (القهوة) مثلاً أو يضـيع وقت العمل ، وفى وقت الراحة يذهب الجميع إلى المطعم ليأكل (السندوتش) الجاهز ، ثم يعود إلى عمله .

هكذا يعيش المجتمع المادى ، فالذى لا يعمل فيه يموت من الجوع ، والحمـد لله أن شبابنا تنبهـوا إلى أهمية العمـل وتخلَّوْا عن الطفولة التى كانوا يعيشون فيها حتى الثلاثين ، وهم عَالَة على الأبوين .

والحق سـبـحـانه هنا يُعلِّمـنا الأدب مع رسـول الله ، ويجـعله لنا قدوة ، فهـو ﷺ عاش عيشة الكـفاف مطعماً وملبسـاً ومسكناً ، فليس عنده إلا عدة حجـرات ، لكل زوجة من زوجاته حجـرة واحدة ، فليس لديه حجرة صـالون أو استقبال ، فلا بُدَّ أن تتـعلم الأمة آداب الدخول وآداب الزيارة فى مثل هذه الحالة ، وخاصة مع رسول الله فى بيوته .

فقال سبحانه ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَن يُؤْذَنَ

لَكُمْ .. ﴿٥٣﴾ [الأحزاب] كلمة (بيوت) جمع بيت ، وهو ما أُعِدَّ للبيتوتة أى : للمبيت فيه ، والمبيت فى الأغلب الأعَمِّ لليل ، فهو محل السكون والبيات ، أما النهار فهو محلُّ الحركة ، ولابد للإنسان بعد التعب والجهد أن يأوى بالليل إلى مكان يستريح فيه ويفىء إليه ؛ لذلك سُمِّى البيت سكناً ، كذلك سُمِّيت الزوجة سكناً للسبب نفسه .

فالبيت مسكن لإيواء القالب وراحته ، والمرأة سكَن لإيواء القلب وراحة النفس ، فكلاهما ينبغى أن يكون مصدراً للراحة .

والبيت يُجمع على بيوت إنْ أردنا المسكن ، ويجمع على أبيات إنْ أردنا البيت الشعرى ، وسُمِّى الشعر بيتاً عند العرب وهم أمة فصاحة وبيان ؛ لأنه تأوى إليه المعانى ، كما نأوى نحن إلى بيوتنا ونسكن فيها ، كذلك المعانى تسكن بيت الشعر ، فيصير البيت نفسه حكمة .

لذلك يقول أحمد شوقى رحمه الله : لا يزال الشعر عاقلاً ـ يعنى : لا زينة له من قولهم المرأة العاقل أى : التى لا زينة لها[1] ـ ما لم تُزيِّنه الحكمة ، فهو بدونها هراء لا فائدة منه .

ولا تزال الحكمة شاردة حتى يؤويها بيت من الشعر يُحفظ ويُتداول على مَرِّ العصور ، كما نستشهد نحن الآن بأبيات المتنبى والمعرى وشوقى .. إلخ .

والبيتوتة فى كل شىء بحسبها ، فالذين يعملون بالنهار بيتوتهم بالليل ، والذين يعملون بالليل بيتوتهم بالنهار ، وإنْ كان الأصل فى البيات أن يكون ليلاً . وإياك أنْ تشغل إنساناً وقت بيتوته سواء أكانت بالليل أو بالنهار ، فوقت العمل للعمل ، ووقت السكن للسكن .

---

(١) قال ابن منظور فى لسان العرب (مادة : عقل) : « العاقلة لا تحمل السِّنَّ والإصبع والموضحة وأشباه ذلك » . والأوضاح : حَلْى من الدراهم الصحاح .

لذلك فإن أهل الحكمة عندنا فى الفلاحين يقولون : (مَنْ يحرس) يعنى : بالليل (لا يحرث) يعنى : بالنهار ؛ لأن الإنسان إنِ انشغل وقت راحته لا يجيد عمله ولا يتقنه .

بصرف النظر ، أكان وقت الراحة فى الليل أو فى النهار ، فأنت مثلاً حين تتأمل البلاد التى تشرق فيها الشمس ثلاثة أشهر أو ستة أشهر ، وتغيب أيضاً ثلاثة أشهر أو ستة أشهر ، هل نتصور أن يعمل أهل هذه البلاد طوال الثلاثة أشهر ، وينامون ثلاثة أشهر ؟ لا إنما يُقسِّمون هذه الفترة فى ليل أو نهار إلى فترات : فترة للعمل ، وفترة للراحة .

لذلك تجد من عظمة القرآن أنْ يحتاط لمثل هذه الأمور ، فيقول سبحانه : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ .. (٢٣) ﴾ [الروم] فالنوم يكون بالليل ، ويكون أيضاً بالنهار لمن تستدعى طبيعة عمله أن يعمل بالليل .

والبيت يكون على قدر إمكانات صاحبه ، المهم أنْ يكون له مكان يأوى إليه ويستريح فيه ، مهما قَلَّ ، حتى لو كان مكاناً ضيِّقاً على قَدْر ما يسع الإنسان أنْ يضع جنبه على الأرض ، فإنْ كان فيه مُتَّسع فبها ونِعْمت ، وعلى طارق البيت أنْ يراعى مدى البيتوتة لمن يطرق عليه .

وكما يتفاوت الناس فى البيوت ، كذلك يتفاوتون فى ترف الحياة وأسباب الراحة فى البيت على حسب الإمكانات ، وما دامت الراحة على قدر الإمكانات ، فينبغى أنْ يتحلَّى كلٌّ بالرضا ، وأنْ يربط بين عمله ودَخْله وبين ترف حياته ، فقبل أنْ تفرض لنفسك حياة مترفة ، افرض لها أولاً عملاً مترفاً بنفس المستوى ، بحيث توفر منه إمكانات هذا الترف .

وكما يقول المثل (على قدر لحافك مدّ رجليك) فإذا كانت إمكاناتك لا توفر لك إلا الكفاف ، فلتكُنْ راضياً به ، وإنْ تمردَّتَ وطلبْتَ المزيد فلتتمرد أولاً على نفسك ، ولتعمل العمل الذى يوفر لك ما تتطلع إليه .

وآفة الناس فى اقتصادهم أنْ يحددوا مستوى الحياة أولاً ، ثم يرغمون دخولهم وإمكاناتهم على هذا المستوى ، فيحدث العجز ، ولا تفى الإمكانات بالمتطلبات ، إنما الواجب أنْ أُحدِّد مستوى حياتى على ضوء دَخْلى وإمكاناتى ، وبذلك يعيش الإنسان سعيداً مرتاحاً لا يرهقه شىء ، ولا يفوتنا ونحن نتحدث عن الدخول والإمكانات أنْ نراعى الحلال فى الكسب وفى الإنفاق .

وإذا كانت البيوت وأسباب الراحة فيها بحَسْب إمكانات أصحابها ، فينبغى أنْ تكون أحوالهم النفسية أيضاً على قدر إمكاناتهم حتى لا يمتلىء قلب الفقير حِقْداً على صاحب النعمة .

إذن : لا بُدَّ لنا أن نتحلَّى بالرضا ، وأنْ نقنع بما فى أيدينا ، ومَنْ يدريك لعل صاحب النعمة هذا ورثها ، وإنْ كان لم يتعب هو فيها فقد تعب آباؤه وأجداده ، وسبق أن قلنا : إن الذى يعرق عشر سنين من حياته يرتاح بقية عمره ، والذى يعرق عشرين سنة يُريح أولاده ، والذى يعرق ثلاثين يُريح أحفاده ، ومَنْ ذا الذى عرق وكدَّ ولم يجد ثمرة عرقه ؟

فمَنْ أراد أنْ يعيش محترماً مكرماً حال شيخوخته فليعمل فى شبابه وحال قدرته ، وليعرق قبل أنْ يأتيه يوم لا يجد فيه هذه القدرة ؛ لذلك يراعى سيدنا رسول الله هذا المعنى فى قوله ﷺ :

« أعْطوا الأجير حقه قبل أنْ يجفَّ عرقه »[١] .

أما الذين يتسكعون فى الشوارع أو على القهاوى فليسوا أهلاً لهذه الحياة الكريمة حال شيخوختهم ، كذلك العامل الذى لا يعطى للعمل حقه ، أو لا يتقنه ، أو يجلس يراقب صاحب العمل يتحيَّن الفرصة لإضاعة الوقت . ومعلوم أن القرش إذا اكتسبه صاحبه دون وجه حق كان وبالاً عليه وفساداً لحاله ؛ لأنه لم يعرق به .

واقرأ إنْ شئْتَ قول سيدنا رسول الله ﷺ : « مَنْ أصاب مالاً من مهاوش ، أذهبه الله فى نهابر »[٢] والمهاوش هى الطرق غير المشروعة لجمع المال ، وهو نفس المعنى الذى نقصده حين نقول مثلاً : فلان جمع هذا المال من (الهَبْش) أو (النتش) ، والنهابر هى الأبواب التى تُفتح لصرف هذا المال فيما لا فائدة منه . وكثيراً ما نرى بعض الناس دخولهم ورواتبهم كبيرة ، ومع ذلك يعيشون عيشة الفقراء ، لا ترى عليهم ولا على أولادهم أثراً لهذه النعمة .

والناس يختلفون فى نظرتهم إلى النعمة فى أيدى الآخرين فقوىُّ الإيمان ساعة يرى النعمة فى يد غيره لا يحسده عليها ، إنما يرى أنها فَضْل الله على عباده ، وتراه يدعو لصاحب النعمة بالبركة ، ويقول : والله إنه يستحق هذه النعمة وأكثر منها ؛ لأنه جَدَّ واجتهد .

---

(١) أخرجه ابن ماجة فى سننه (٢٤٤٣) من حديث ابن عمر ، قال البوصيرى فى الزوائد : إسناده ضعيف ، فيه ضعيفان ، وأخرجه بهذا اللفظ أيضاً الطبرانى فى معجمه الصغير (٢٠/١) من حديث جابر ، وأبو نعيم فى الحلية (١٤٢/٧) من حديث أبى هريرة ، فهو بمجموع هذه الطرق والروايات يرقى إلى مرتبة الحسن ، وله أصل فى صحيح البخارى عن أبى هريرة ـ كتاب البيوع .

(٢) أورده العجلونى فى كشف الخفاء (٣١٣/٢) وعزاه للقضاعى عن أبى سلمة الحمصى مرفوعاً ، وأبو سلمة ضعيف ولا صحبة له . قال التقى السبكى : لا يصح والمهاوش : مكاسب السوء ، فهو كل مال يُصاب من غير حله ولا يدرى ما وجهه كالغصب والسرقة ونحو ذلك [لسان العرب ـ مادة : هوش] والنهابر : المهالك أى : أذهبه الله فى مهالك وأمور متبددة [لسان العرب ـ مادة : نهبر] .

المؤمن يقول : ما شاء الله ، لا قوةَ إلا بالله ، اللهم بارك له وأعطنى من نعمك ، المؤمن يرى فى نعمة الدنيا نموذجاً مُصغَّراً لنعمة الآخرة ، فيقول : هذا ما أعدَّه البشر لأنفسهم ، فكيف بما أعدَّه الله لخَلْقه ؟ عندها يتراءى له نعيم الجنة ، فيُقبل عليها بقلب يملؤه الإيمان واليقين ، وهذه النظرة للنعمة عند الآخرين تسمى غِبْطة .

أما غير المؤمن ـ والعياذ بالله ـ فيحقد على صاحب النعمة ، ويراه غير أهْل لها ، ويتمنى زوالها من عنده ، ويحسده عليها ، وهذا كله دليل على ضَعْف الإيمان والاعتراض على أقدار الله فى خَلْقه .

ونُسمِّى المساجد بيوت الله ، وسُمِّى المسجد بيت الله ؛ لأنه جُعل خصيصاً لكى نقابل فيه الله حينما نسمع نداء الصلاة ؛ لذلك حذرنا رسول الله أنْ نُدخل الدنيا معنا بيوت الله ، فحذَّر أنْ تُعقد الصفقات فى المساجد ، أو تُنشَد فيها الضالة ، ولا أدلَّ على ذلك من قوله ﷺ لمن عقد صفقة تجارية فى بيت الله : « لا باركَ اللهُ لك فى صفقتك »[(١)] وقال لمن نشد ضالته فى المسجد : « لا ردَّ اللهُ عليك ضالَّتك »[(٢)] .

لأن الإنسان يعيش طوال وقته للدنيا ، فلا يجوز أن يأخذها معه حتى فى وقت الصلاة ، فوقت الصلاة للقاء الله ، وهذا الوقت لا يعطل حركة حياتك ، إنما يعطيك شحنة إيمانية تُقوِّيك على متابعة حركة حياتك ، وسبق أن قلنا : إن هذه الشحنة أشبه بشحنة البطارية ، فهل يقال لمن أخذ البطارية ليشحنها أنه عطَّل البطارية ؟

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إذا رأيتم من يبيع أو يبتاع فى المسجد فقولوا : لا أربح الله تجارتك » أخرجه الترمذى فى سننه (١٣٢١) وقال : « حديث حسن غريب » .

(٢) أخرج مسلم فى صحيحه (٥٦٨) كتاب المساجد من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « من سمع رجلاً ينشد ضالة فى المسجد فليقل : لا ردها الله عليك ، فإن المساجد لم تُبْن لهذا » .

كذلك أنت صَنْعة الله وخلْقته ، وما بالك بصنعة تُعرض على صانعها كل يوم خمس مرات ، أيصيبها عطب بعد ذلك ؟ وكذلك أنت حين تعرض نفسك على ربك ، تأخذ من هذا اللقاء شحنة إيمان ويقين ، وتتخلَّص من همومك ومشاكلك .

لذلك كان سيدنا رسول الله ﷺ كلما حَزَبَه أمر فزع إلى الصلاة[1] ، ففى الصلاة ترمى بنفسك وترمى بهمومك ومشاكلك فى (أحضان) ربك ؛ لأنه سبحانه أعطى الكون أسباباً ، فإذا عزَّتْ عليك الأسباب ولم تُفدْكَ بشىء فاترُكْ الأسباب ، والجأ إلى المسبِّب سبحانه .

وقلنا : إن المسجد بيت الله باختيار الخَلْق ، أما بيت الله الحرام فهو بيت الله باختيار الله ؛ لذلك جعله الله قِبْلة كل البيوت ، فإذا ما زُرْته ولو مرة واحدة أصلح حياتك كلها .

نعود إلى بيوت النبى ﷺ وما ينبغى أنْ يتحلى به المؤمنون من أدب فى دخولها ، وما يجب أنْ يُراعَى فى دخول هذه البيوت بالذات ؛ لأن لها طبيعة خاصة تناسب مهمة صاحبها ﷺ .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ .. (٥٣) ﴾ [الأحزاب] يعنى : لا تتهجَّموا عليها ؛ لأنها ضيِّقة وليستْ فيها سعة للاستقبال فى كل الأوقات ، والإذن هنا مُقيَّد بالطعام ﴿ إِلاَّ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ .. (٥٣) ﴾ [الأحزاب]

وحتى إذا دُعيتَ إلى طعام رسول الله لا تذهبْ إليه قبل وقته ، فإذا كان الغداء مثلاً الساعة الثانية ، فلا تذهب أنت الساعة العاشرة ؛ لأنه لا يليق بك أن تشغل رسول الله وله فى بيته مهمات يجب ألاّ

---

(١) عن حذيفة رضى الله عنه قال : « كان النبى ﷺ إذا حزبه أمر صلى » أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٥/٣٨٨) وأبو داود فى سننه (١٣١٩) .

ينشغلَ عنها ، مهام مع ربه ، ومهام مع أهل بيته ، وهذا معنى : ﴿غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ .. (٥٣)﴾ [الأحزاب] أى : نضج الطعام واستوائه وإعداده ، والفعل (إِنَى) على وزن رضا ، وفى لغة : أنىٰ أنياً مثل : رمى رمياً .

وهنا تحذير للمؤمنين إذا دُعُوا إلى طعام رسول الله أنْ يدخلوا بيوته ينتظرون نُضْج الطعام ، إنما عليهم ألاَّ يدخلوا إلا بعد نُضْج الطعام وإعداده ، بحيث يقول لهم تفضلوا الطعام ﴿وَلَـٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا .. (٥٣)﴾ [الأحزاب] فالطعام جاهز ومُعَدٌّ ﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا .. (٥٣)﴾ [الأحزاب] فكما نهاهم فى أوَّليّة الطعام عن انتظار نُضْجه ، كذلك نهاهم فى آخريته عن عدم الجلوس بعده ، إنما ينبغى عليهم إذا أكلوا أنْ ينتشروا .

والانتشار : أنْ يأخذ الشىء حيِّزاً أوسع من حجمه ، والانتشار يُعينك على تحقيق الغاية ، ألسْنَا ننشر الملابس بعد غَسْلها ؟ لماذا ؟ لأن نَشْر الغسيل يساعد على جفافه ، ولو تركْتَه فى حيِّزه الضيق لاحتاج أسبوعاً لكى يجفَّ ، إذن : فى الانتشار فائدة .

وسبق أنْ أوضحنا هذه الظاهرة بكوب الماء إذا تركْتَه مثلاً وسافرتَ لمدة شهر ، فإنك ستعُود فتجده كما هو لم ينقص إلا القليل، لكن إنْ سكبْتَه فى أرض الحجرة فسوف يجفّ قبل أنْ تخرج منها .

فقوله تعالى هنا ﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا .. (٥٣)﴾ [الأحزاب] أى : تفرَّقوا ؛ لأن المكان الذى أنتم فيه فى بيت النبى ضيِّق ، إذن : ليذهب كُلٌّ إلى عمله ، وماذا يُراد من المؤمن بعد أنْ تناول طعامه ؟ أنْ يسعى فى مناكب الأرض ، لا أنْ يجلس خاملاً عَالةً على غيره ، وتأمل أيضاً قول الله تعالى فى سورة الجمعة ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ

فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ .. ﴿١٠﴾ [الجمعة]

إذن : أمر الحق سبحانه عباده المؤمنين بالانتشار ؛ لأن له هدفاً وغايةً ، فالهدف السعى وطلب الرزق ، وماذا بعد أنْ تناولتم طعامكم ؟ أيليق بكم أنْ تقعدوا مثل (تنابلة السلطان) فى بيت رسول الله ، وأنتم تعلمون أنه يعيش عَيشَة الكفاف فى كل شئون حياته ؟

ومن معانى الانتشار : السياحة ، وهى مأخوذة من سَاح الماء إذا فَاض ، وأخذ حيِّزاً أكبر ، والانتشار أو السياحة ينبغى أنْ تكون مُنظمة كما تنتشر نقطة الماء على القماش ، فتحدث فيه دائرة منتظمة .

كذلك فى انتشاركم فى الأرض للسعى فى طلب الرزق يجب أنْ يكون بنظام معين ، بحيث لا يحدث تكدُّس فى مكان أو زحام ، فى حين يخلو مكان آخر لا يجد مَنْ يعمره ، ويستنبط خيراته .

والسياحة فى الأرض أو الانتشار فيها ، الله تعالى يريده مِنَّا لغايتين :

الأولى : الضرب فى الأرض وابتغاء رزق الله وفضله ، كما قال الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ .. ﴿٢٠﴾ [المزمل]

والضرب فى الأرض ليس مجرد الانتشار فيها ، إنما المراد العمل والكفاح واستخراج خيراتها ؛ لأن الخالق سبحانه نثر القوت فى أنحاء الأرض بالتساوى ، ونثر فيها الخيرات ؛ لذلك كل يوم تعطينا الأرض جديداً من نعَم الله ، كنا لا نعرف من خيرات الأرض إلا الزراعة ، فلما تقدَّمَتْ العلوم والاكتشافات وتطوَّرت أدواته عرفنا المعادن والبترول

والكنوز المطمورة فى أرض الله ، وكل أثر كنزىٍّ فى الأرض لا نستخرجه ولا نعرفه إلا بالضرب فى الأرض ، وسبق أن قلنا : الضرب إيقاع شىء بقوة .

كنا نتعجَّب من الناس الذين يسكنون البوادى والصحراء ونشفق عليهم ، كيف يعيشون فى هذا الجَدْب والقَحْط ؟ ولماذا لا يتركون هذا المكان إلى غيره ؟ والآن وبعد الاكتشافات البترولية صاروا هم أغنى الناس وتأتيهم كل خيرات الدنيا تحت أقدامهم . لماذا ؟ لأنهم تمسَّكوا بأرضهم وبلادهم وصبروا عليها ، حتى آن الأوان لجنى خيراتها ، ولو أنهم يئسوا منها ما نالوا كل هذا الخير .

وسبق أنْ أوضحنا أن خيرات الأرض متساوية ، وشبهناها بقطاع طولى فى البطيخة مثلاً ، وإنْ تعددت ألوان هذه الخيرات واختلفت من مكان لآخر .

والأخرى : أن تكون السياحة للاعتبار والتأمل فى آيات الله فى كونه ، فبالتنقل والسير فى الأرض أرى آيات ليست موجودة فى بيئتى ، وفى ذلك يقول تعالى : ﴿ **قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** (٢٠) ﴾ [العنكبوت] ويقول سبحانه فى موضع آخر :

﴿ **قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا ..** (١١) ﴾ [الأنعام]

والمعنى أن السَّيْر فى الأرض لابتغاء الرزق ينبغى أنْ يصاحبه نظر وتأمُّل لآيات الله .

ثم يقول سبحانه : ﴿ **وَلا مُسْتَئْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي**

النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ.. (٥٣) ﴾ [الأحزاب] أى : لا ينبغى أنْ تجلسوا بعد الطعام للحديث ، وتجعلوها (سهراية) فى بيت رسول الله ، وهذا النهى كان له سبب وحادثة وقعتْ ، فنزلت هذه الآية . سيدنا رسول الله لم يُولِم وليمة فى عُرْس من أعراسه إلا لزينب بنت جحش ، فذبح ﷺ شاة ، وأعدَّ لهم الحَيْس ، وهو التمر المخلوط بالزبد والسمن ، ثم يوضع عليه اللبن الحامض أو الرايب .

فلما أكل الناس جلسوا يتحدثون ، انتظر رسول الله أنْ يقوموا وينصرفوا ، فلم يَقُمْ منهم أحد ، وحياؤه ﷺ يمنعه أنْ يقول لهم : قوموا ، فأراد ﷺ أنْ يُظهِر لهم أنه يريد أنْ يقوم ، وقام فعلاً وخرج ، فلم يقُم منهم أحد ووجَد ﷺ آخرين جالسين بالخارج ، فعاد إلى مجلسه ، فشعر القوم بما يريده رسول الله فانصرفوا .

يقول سيدنا أنس : فجئتُ فأخبرتُ رسول الله أنهم انطلقوا ، فجاء ﷺ ودخل ، فذهبت لأدخل وراءه ، فألقى الحجاب بينى وبينه - يعنى : لا أحد يدخل حتى أنت .

ومعنى : ﴿ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ .. (٥٣) ﴾ [الأحزاب] لأنه ﷺ يريد أنْ تنصرفوا ، لكن يمنعه حياؤه ، وهذا لأن المكان ضيِّق ، ورسول الله فى يوم عُرْس ، وليس من المناسب الجلوس عنده .

﴿ وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ .. (٥٣) ﴾ [الأحزاب] لذلك قالوا[1] : حَسْب الثقلاء أن الله لم يحتملهم . هكذا حدثتنا الآية فى صدرها عن :

---

(١) قاله ابن أبى عائشة فى كتاب الثعلبى أنه قال : حسبك من الثقلاء أن الشرع لم يحتملهم . [ذكره القرطبى فى تفسيره ٥٤٩٢/٨] .

آداب الدخول ، وآداب الاستئذان ، وآداب الأكل ، وآداب الجلوس عند رسول الله .

ثم تحدَّثنا بعد ذلك عن الآداب التى يجب أنْ يتحلَّى بها المؤمنون فى علاقتهم بزوجاته ﷺ : ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ .. (٥٣)﴾ [الأحزاب]

المتاع : أوانى البيت التى لا تتيسَّر للجميع ، فعادة ما يكون فى الشارع أو الحارة بيت أو بيتان مَسْتوران ، عندهم مثل هذه الأشياء : ماجور العجين ، أو المنخل ، أو الغربال ، أو الهون .. إلخ .

ومثل هذه الأشياء عادة لا تتوفر للفقير ، فيذهب إلى جاره فيستعيرها منه ، وهذا ما قال الله فيه : ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِى يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (١) فَذَٰلِكَ الَّذِى يَدُعُّ الْيَتِيمَ (٢) وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ (٣) فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ (٤) الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ (٥) الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ (٦) وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ (٧)﴾ [الماعون]

فالمتاع هو الماعون ، وهو أدوات البيت التى يستعيرها منك جارك غير القادر على توفيرها فى بيته .

إذن : الحق سبحانه فى حين جعل للمؤمنين أدباً خاصاً مع رسول الله فى الدخول عليه أو الأكل فى بيته والجلوس عنده ، لم يمنع الانتفاع بما عنده ﷺ من متاع البيت ، ومتاع البيت يُطلَب بأنْ تطرق الباب على أهله تقول : أعطونا كذا وكذا ، وعادة ما تُسْأل المرأة لأنها ربةُ البيت والمسئولة عن هذا المتاع ، فإذا طلبتُم شيئاً من زوجات النبى فاطلبوه من وراء حجاب ﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ .. (٥٣)﴾ [الأحزاب]

سبق أنْ قُلْنا : إن المشاعر والإدراكات والمواجيد والعقائد التى تستقرُّ فى النفس ، هذه المظاهر الشعورية تتكون على مراحل ثلاث : آلة تدرك ، ووجدان يستقبل ، إما بالمحبة ، وإما بالكراهية ، ثم نفس تنزع ، ومثَّلْنا لذلك بالوردة تراها فى البستان جميلة نضرة ، وتشُمُّ رائحتها زكية عطرة ، فهذا إدراك بحاسة البصر وحاسة الشم ، نتج عنه إعجاب ومواجيد ، يترتب عليها أنْ تمدَّ يدك لتقطفها ، وهذا هو النزوع .

والشرع لا يتدخل ، لا فى الإدراك ، ولا فى الوجدان ، إنما يتدخل فى النزوع ، فلَكَ أنْ ترى جمال الوردة كما تشاء ، ولك أنْ تشمَّ عبيرها ، لكن إن امتدَّتْ يدُكَ إليها قُلْنا لك : قف : أهى حَقٌّ لك ؟ إنْ كانت حقك فَخُذْهَا ، وإلا فهى مُحرَّمة عليك لأنها ليستْ ملْكك ، وليس فى هذا حَجْراً على حريتك ؛ لأن الذى قيَّد حريتك فى الاعتداء على مال الغير قيَّد حرية الآخرين فى الاعتداء عليك ، فأعطاك قبل أنْ يأخذ منك إذن : فالشرع فى صالحك أنت .

نقول : الشرع لا يتدخل إلا عند مرحلة النزوع ، إلا فى علاقة الرجل بالمرأة والنظر إلى جمالها ، فإنه يتدخل فيها من بدايتها ، فيحظر عليك مجرد الإدراك ، لأنك حين ترى جمال المرأة ، وربما كانت أجمل من امرأتك أو لم يسبق لك الزواج ، فإنك تُعجب بها .

وهذا الإعجاب لا بُدَّ أنْ يدعوك إلى النزوع ، فكيف تنزع فى هذه الحالة ؟ والنزوع فى هذه المسألة له شروط : أولها أنْ تأتيه من باب الحلال ، فإنْ لم تكُنْ قادراً على باب الحلال ، فإما أنْ تعفَّ نفسك ، وإما أنْ تعربد فى أعراض الآخرين ، لذلك تدخَّل الشرع فى هذه المسألة من أولها ، ولم يتركك حتى تقع فى المحظور وتنزع فيما لا يحلُّ لك ؛ لأن المرأة الجميلة لا شكَّ تهيج فى الرجل معانى خاصة .

وفى ذلك يقول الشاعر[١] :

سُبْحانَ مَنْ خَلَق الجَماَ ... لَ والانْهِزَام لسَطْوته
ولَـذَاكَ يأمُـرنَا بغَـضِّ ... الطَّرْف عنـه لَرحمـتَه
من شـاء يطْلبـه فـلا ... إلاّ بطُهْـر شـريعتَه
وبذَا يـدُوم له التمـتُّع ... هَاهُـنَـا وبجـنَّتَه

أما الذى يدَّعى أن نظره إلى جمال المرأة لا يترك فيه هذا الأثر فهو مخالف للطبيعة ، حتى وإنْ كان متزوجاً ، وإياك أنْ تظن أن امرأة تُغنى بجمالها عن جمال فى سواها ؛ لذلك يقولون : النساء كالخمر ، كل مليحة بمذاق ، فمهما كانت زوجتك جميلة ، وفيها كل المواصفات التى تعجبك فسوف تجد فى غيرها الجديد مما ليس فيها . إذن : من رحمة الله بك أنْ لا تدخل فى هذه المسألة من أول مراحلها ، فحرَّم مجرد النظر .

وإذا كان هذا فى المعنى العام للناس ، فكيف يكون مع زوجات النبى ﷺ ، وقد قال تعالى مخاطباً المؤمنين ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ .. (٥٣)﴾ [الأحزاب] أى بالنظر إلى زوجاته ؛ لأن النظر إدراك يتبعه أنْ تجد فى نفسك شيئاً ، صحيح أنت لا تستطيع أنْ تُقدم ؛ لأنهن أمهات المؤمنين ، إنما سينشغل قلبك ، ومجرد خواطر القلب هنا إيذاء لسيدنا رسول الله ، بدليل أنه قال بعدها : ﴿وَلا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ .. (٥٣)﴾ [الأحزاب]

ورُوِى أن رجلاً رأى السيدة عائشة قبل الحجاب فانبهر بها ، فقال : والله إنْ مات رسول الله لأتزوجنَّ هذه الحميراء ، وإنْ كان كفَّر عن هذه القَوْلة وحَجَّ ماشياً ، وأعتق الرقاب ، ليغفر الله له هذه الجرأة

(١) من شعر الشيخ رحمه الله .

على رسـول الله ﷺ[١] .

فمعنى ﴿ذَٰلِكُمْ .. (٥٣)﴾ [الأحزاب] أى : أمرنا بأنْ تسـألوهنَّ من وراء حجاب ، وهذا الأمر احـتياط للطرفين ﴿أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ .. (٥٣)﴾ [الأحزاب] لقلوبكم أولاً ، ولقلوبهن ثانياً .

وقـوله تعـالى : ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ .. (٥٣)﴾ [الأحزاب] أى : لا ينبغى ولا يكون ، وهذا يعنى أنَّ شيئاً لم يحدث ، بل مجرد الخاطر يُعَدُّ إيذاءً ؛ لأنه فى حق مَنْ ؟ فى حق رسول الله .

وقوله : ﴿وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا .. (٥٣)﴾ [الأحزاب] هذا تكريم لرسـول الله ولأزواجه ليس فى مـدة حيـاته فحَسْـب ، إنما حتى بعد مماته ؛ لأنهُنَّ أمهات للمؤمنين ، وليس لأحد أنْ يتزوج منهن بعد رسول الله .

---

(١) تحقيق هذا الأمر أن رجلاً قال : لو قبض رسول الله ﷺ تزوجت عائشة ، فنزلت هذه الآية ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ .. (٥٣)﴾ [الأحزاب] ، ولكن اختلف فى تحديد هذا الرجل .

- قال ابن عبـاس فى رواية عطاء : قاله رجل من سادة قريش . ذكره الواحـدى فى أسباب النزول (ص ٢٠٦) .

- وقال ابن عباس أيضـاً ـ ليزيد الأمر تحديداً ـ : قال رجل من سادات قـريش من العشرة الذين كـانوا مع رسـول الله ﷺ على حـراء فى نفسـه : لو توفى رسـول الله ﷺ لتـزوجت عائشـة ، وهى بنت عـمى . ذكره القـرطبى فى تفسـيره (٥٤٩٧/٨) نقـلاً عن القشـيرى أبى نصر عبد الرحيم .

- قال قتادة ومقـاتل ومعمر والسدى أنه طلحة بن عبيـد الله ، بل إن السدى نقل كلاماً لا يليق أن يكون قد صدر من طلحة رضى الله عنه . انظر الدر المنثور للسيوطى (٦٤٣/٦).

قال ابن عطية : هذا عندى لا يصح على طلـحة بن عبيد الله . قال شيـخنا أبو العباس : وقد حُكِى هذا الـقول عن بعض فضـلاء الصحابـة . وحاشاهم عن مـثله والكذب فى نقله ، وإنما يليق مثل هذا القـول بالمنافقين الجهال . نقله القرطبى فـى تفسيره (٥٤٩٧/٨) ثم قال : يُروى أن رجلاً من المنافقين قال حين تزوج رسول الله ﷺ أم سلمة بعد أبى سلمة ، وحفـصة بعـد خنيس بن حذافـة : ما بال محـمد يتـزوج نساءنا ، والله لو قد مـات لأجلْنَا السهام على نسائه ، فنزلت الآية فى هذا .

ومعلوم أن للزوجة بالنسبة لزوجها خصوصيةً ، فعادةً فى طبيعة التكوين الإنسانى ترى الرجل عنده ألوان من الخير ، فإنْ كان صاحب أريحية لا يمنعك شيئاً تتطلبه أو تستعيره منه ، يعطيك من ماله ، من متاع بيته ، يعيرك سيارته .. إلخ .

إلا ما يتعلق بالمرأة ، فإنه يغار حتى من مجرد أنْ تنظر إليها ، ليس ذلك وهى فى حوزته وملْكه ، إنما حتى لو كان كارهاً لها ، حتى لو طلقها يغار عليها أن تتزوج بآخر .

إذن المرأة هى المتاع الوحيد الذى يحتل هذه المنزلة ، وينال هذا الحفظ وهذه الرعاية ، لماذا ؟ لأنها وعاء النَّسْل ، وكأن الله تعالى يريد للأمة كثرة النسل شريطة أنْ يكون من طُهْر وعِفَّة ونقاء ، فوضع فى قلب الرجل حُبَّها والغيرة عليها .

لذلك ، تأمل هذا الوصف الذى وصف الله به الأنصار لما استقبلوا المهاجرين ، وأفسحوا لهم فى أملاكهم وفى بيوتهم ، فوصفهم الله وصفاً أرقى ما يُوصف به مكان فى مكين .

فقال سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ .. (٩) ﴾ [الحشر] فكأنهم يسكنون فى الإيمان ﴿ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ .. (٩) ﴾ [الحشر]

وما استحق الأنصارُ هذا الوصفَ من الحق سبحانه إلا لإيثارهم إخوانهم المهاجرين وبَذْل شىء لم يبذله أحد قبلهم ، حيث كان الواحد منهم يعرض على أخيه المهاجر أنْ يُطلِّق له إحدى زوجاته ليتزوجها ، وهذه هى المسألة التى تثبت أن إيمانَ هؤلاء طغى على كل ما عداه ، وصار أحبَّ شىء إليهم حتى من المرأة ، ومن الغيرة عليها .

وقوله تعالى : ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ .. (٥٣)﴾ [الأحزاب] أى : ما سبق أنْ ذُكر من سؤال أمهات المؤمنين من وراء حجاب ، وألاَّ تؤذوا رسول الله ، أو تنكحوا أزواجه من بعده ، كل هذا ﴿كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا (٥٣)﴾ [الأحزاب] وكيف يُؤْذَى رسولُ الله ، وهو ما جاء إلا ليحمينا من الإيذاء فى الدنيا وفى الآخرة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿إِن تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٥٤)﴾

فكأن فى الآية إشارة تحذير : إياكم أنْ تسرقكم خواطركم فى هذه المسألة ؛ لأن ربكم لا تخفى عليه خافية ، ولا يعزُبُ عن علمه شىء ، وإنْ كانت الخواطر والهواجس لا يُحاسب عليها المرء ، إلا أنها محظورة منهى عنها ، إنْ كانت فى حَقِّ رسول الله .

لقد ورد فى الحديث الشريف : « مَنْ هَمَّ بسيئة فلم يعملها كُتبت له حسنة »[1] هذا فى الأمور العامة ، أما إنْ تعلَّق الأمر برسول الله فلا ؛ لأن مراد الحق سبحانه أنْ يُوفِّر طاقة رسول الله للمهمة التى أُرسل بها ، وألاَّ يشغله عنها شاغل ، وأىُّ مهمة أعظم من مهمة هداية العالَم كله ، ليس فى زمنه ﷺ ، وإنما منذ بعثته وحتى قيام الساعة .

وقوله تعالى : ﴿إِن تُبْدُوا شَيْئًا .. (٥٤)﴾ [الأحزاب] أى : أىّ شىء

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة ، ومن هم بحسنة فعملها كتبت له عشراً إلى سبعمائة ضعف ، ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب وإن عملها كتبت » أخرجه مسلم فى صحيحه (١٣٠) كتاب الإيمان .

مهما كان ﴿أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٥٤)﴾ [الأحزاب] وعليم صيغة مبالغة فى العلم ؛ لأن علْم الله تعالى علْم أزلىٌّ ليس مُتجدِّداً بتجدُّد الحدث ، فالله يعلم قبل الفعل وأثناء الفعل وبعده .

لذلك قلنا : إن الزمن عندنا نحن ماض وحاضر ومستقبل ، أما بالنسبة للحق سبحانه فليس هناك ماض ولا حاضر ولا مستقبل ؛ لذلك يتكلم سبحانه عن المستقبل وكأنه ماض .

واقرأ مثلاً : ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ .. (١)﴾ [النحل] وأتى فعل ماض ومع ذلك قال بعده ﴿فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ .. (١)﴾ [النحل] والاستعجال لا يكون إلا لشىء لم يَأْتِ وقته ، فكأن (أتى) معناها بالنسبة لكم سيأتى ، أما بالنسبة للحق سبحانه فإنه أتى بالفعل ؛ لأن الزمن كله فى علم الله سواء .

ومعنى : ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٥٤)﴾ [الأحزاب] أى : كان وما يزال عليماً ؛ لأنه سبحانه ما دام كان عليماً ، وهو سبحانه لا تتأتى فيه الأغيار ، فهو سبحانه عليم فيما مضى ولا يزال ؛ لأنه لا يتغير ، فكان هنا لا تعنى أن علمه تعالى نتيجة لحدثكم الذى أحدثتموه ، إنما هو سبحانه عالم قبل أنْ يحدث منكم .

وهذه الآية من الآيات التى وقف عندها المستشرقون ؛ ليستدركوا كما يظنون على كلام الله ؛ لأنهم دائماً يتهموننا أننا ننظر إلى القرآن بقداسة ، وأنه كلام الله فلا نُعمل فيه عقولنا ، وأنهم حين يُدقِّقون فى القرآن ويتجرَّأون على البحث فيه يجدون فيه مآخذ ـ على حَدِّ زعمهم .

ووَجْه اعتراضهم فى قوله تعالى : ﴿إِن تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ

اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٥٤) ﴾ [الأحزاب] ومثله : ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ (٢٩) ﴾ [النور]

يقولون : إذا كان الله يمتنُّ بعلم ما نُخفى ، فما الميزة وما العظمة فى علم ما نبدى ؟

نقول : إياك حين تقرأ كلام الله أنْ تُحكِّم فيه عقلك قبل أنْ تؤمن أنه صادر من الله تعالى ، وأن هذا كلامه سبحانه ، وعندها أدِرْ المسألة فى عقلك وابحثها حتى تصل إلى الحكمة ووجه الإعجاز فيها .

فقوله تعالى ﴿ إِن تُبْدُوا .. (٥٤) ﴾ [الأحزاب] الله لا يخاطب فرداً ، إنما يخاطب جمهرة الناس ، والإبداء من الجمهرة لا يمكن لك أن تحدد مصدر الفعل فيه ، بحيث تردُّ كلَّ صوت ، وكلَّ حركة إلى صاحبها .

وسبق أنْ مثَّلنا لذلك بالمظاهرة مثلاً التى تختلط فيها الأصوات وتعلو الهتافات ، وسمعنا مثلاً مَنْ ينادى بسقوط فلان ، أنستطيع فى هذه الحالة أنْ نحدد صاحب هذا الهتاف ؟ لا لا نستطيع بسبب اختلاط وتداخل الأصوات ، مع أنه جَهْر أعلنه صاحبه بأعلى صوته وأبداه على الملأ ، ومع ذلك لا تستطيع أنت تحديده .

أما الحق سبحانه ، فيعلم الصوت ، ويعلم صاحبه ، ويعلم أثره ونتيجته ، ويرد كل كلمة ، بل وكل نَفَس إلى صاحبه ، فالذين يحاولون التستُّر والاستخفاء فى جمهرة الناس عليهم أنْ يحذروا إنْ شوَّشوا على الخَلْق ، واسْتخفوا منهم ، فلن يستخفوا من الله ، فالله لا تشتبه عليه اللغات ، ولا تختلط عليه الأصوات .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾ ﴾ (١)

بعد أنْ نزلت آية الحجاب : ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ .. ﴿٥٣﴾ ﴾ [الأحزاب] اشتكى أقارب أمهات المؤمنين وقالوا : حتى نحن يا رسول الله ؟ فأنزل الله هذه الآية . ﴿ لا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ .. ﴿٥٥﴾ ﴾ [الأحزاب]

ومعنى ﴿ لا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ .. ﴿٥٥﴾ ﴾ [الأحزاب] أى : لا حرجَ ولا إثمَ أنْ يدخل عليهن هؤلاء المذكورون ؛ لأن مكانتهم من المرأة معلومة ، ولا يُخْشَى من دخولهم عليها ، وهم : الأب ، والابن ، والأخ ، وابن الأخ ، وابن الأخت .

والكلام فى ﴿ وَلا نِسَائِهِنَّ .. ﴿٥٥﴾ ﴾ [الأحزاب] وهى مضاف ومضاف إليه ، والإضافة فى اللغة تأتى بمعانٍ ثلاثة : بمعنى (مِنْ) مثل أردب شعير يعنى : من شعير ، وبمعنى (فى) مثل (مكر الليل) أى : فى الليل ، وتأتى بمعنى (اللام) مثل مال زيد يعنى لزيد ، واللام هنا للملكية أو للاختصاص ، فمعنى مال زيد يعنى :

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٥٤٩٩/٨) : « لم يذكر العم والخال لأنهما يجريان مجرى الوالدين ، وقد يسمى العم أباً ، قال الله تعالى : ﴿ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ .. ﴿١٣٣﴾ ﴾ [البقرة] .

ملْك لزيد ، وتقول : لجام الفرس ، فاللجام ليس مِلْكاً للفرس ، إنما يختص به .

فهنا كلمة ﴿نِسَائِهِنَّ .. (٥٥)﴾ [الأحزاب] تأتى بمعنى (من) وبمعنى اللام أى : نساء لَهُنَّ ، أو نساء منهن ، ولا تأتى هنا بمعنى (فى) إذن : فالمراد نساء منهن يعنى : من قرابتهن أو نسائهن يعنى : التابعين لهن مثل الخدم شريطة أنْ يكُنَّ مؤمنات ؛ لأن المؤمنة هى المؤتمنة على المؤمنة ، أما الكتابية أو الكافرة فلا يصح أنْ تقوم على خدمة المؤمنة ؛ لأنها ربما تَصِفُها لقومها .

لذلك نلحظ دقة التعبير هنا فى عدم ذكْر الأعمام والأخوال ؛ لأن العم أو الخال ـ رغم أنه فى منزلة الوالد ـ إلا أنه قد يصف البنت لابنه ، فإنْ كان العم أو الخال ليس له ولد ، فالعلة مفقودة ، ويجوز التساهل معهما ـ إذن ـ فى الدخول على المرأة ، وإبداء الزينة أمامهما .

وقوله تعالى : ﴿وَلا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ .. (٥٥)﴾ [الأحزاب] قلنا : إن ملْك اليمين يأتى من الأسرى فى حرب مشروعة ، وقد باشرتَ أَسْره بنفسك ، بمعنى أنه لم يكُنْ حراً ، ثم أُخذ وبيع على أنه عبد ، ثم بعد الأَسْر يمكن أن تأخذ ملْك اليمين بأنْ تشتريه ، أو تأخذه إرثاً ، أو تأخذه هبة ، وملْك اليمين قد يكون من النساء فتدخل فى نسائهن ، أو يكون من الصبيان الذين لم يبلغوا مبلغ الرجال .

كما قال سبحانه فى موضع آخر : ﴿أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ .. (٣١)﴾ [النور]

ويدخل فى ذلك أيضاً التابعون الذين يعملون فى البيت كالبوابين والسائقين والطباخين .. إلخ ، والشرع يتساهل مع هؤلاء ؛ لأن العرف الاجتماعى يأبى أنْ تنشأ علاقة بين هؤلاء وبين أهل البيت ، فهؤلاء

التابعون يعملون فى البيوت ، وبها نساء وبنات جميلات ، لكن كم من هؤلاء تجرّأ على أنْ ينظر إلى سيدته ؛ ذلك لأن المركز الاجتماعى جعل بينهما حاجزاً .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَاتَّقِينَ اللَّهَ .. (٥٥)﴾ [الأحزاب] كأن الحق سبحانه يقول : لقد بينتُ لكُنَّ الحكم فى الدخول على المرأة ، وبينتُ الأنواع التى لا جناحَ عليكُنَّ فى دخولهم ، والحارس عليكُنَّ فى هذا تقواكُنَّ لله ، فتقوى الله هى التى تحملك على طاعته ، وتمنعك من الخروج عنها ، ويكفى بعد الأمر بالتقوى أنْ تعلم ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ .. (٥٥)﴾ [الأحزاب] وما يزال ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا (٥٥)﴾ [الأحزاب]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا (٥٦)﴾

جاء النبى ﷺ بالخير لأمته مُبشِّراً للمؤمنين ، نذيراً للكافرين ، وكان ﷺ حريصاً على هداية قومه ، كما قال تعالى : ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٢٨)﴾ [التوبة]

كان ﷺ يألم ويحزن إنْ تفلَّتَ أحدٌ من يده ، وخرج عن ساحة الإيمان ، وكان يُكلِّف نفسه فى أمر الدعوة فوق ما يطيق ، وفوق ما طلب منه ، حتى خاطبه ربه بقوله : ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ[1] نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا (٦)﴾ [الكهف]

---

(١) بخع نفسه : قتلها غيظاً أو غماً . قال الفراء فى معنى الآية ، أى : مخرج نفسك وقاتل نفسك . [لسان العرب ـ مادة : بخع] .

ومعلوم أن سيدنا رسول الله لم يُطلَب منه إلا البلاغ فحسبْ ، أما الهداية فمن الله عز وجل ؛ لأنه تعالى قال : ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ (٤)﴾ [الشعراء]

فلشدة حرصه ﷺ على هداية قومه عاتبه ربه ؛ لأنه شَقَّ على نفسه ، فالعتاب هنا لصالحه ﷺ ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ .. (١)﴾ [التحريم]

وهذا العتاب أشبه بعتابك لولدك الذى أرهق نفسه فى المذاكرة ، حتى أنك أشفقتَ عليه ، فأنت لا تلومه على تقصير ، إنما على المبالغة فى عمل لا تطيقه قوته .

وقد ظهرت قمة حرْصه ﷺ على أمته حين أنزل الله عليه : ﴿وَالضُّحَىٰ (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣) وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ (٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ (٥)﴾ [الضحى]

فالتقطها رسول الله من ربه وجعلها لأمته ، فقال : « إذن : لا أرضى وواحد من أمتى فى النار »[(١)] .

فإذا كان رسول الله حريصاً عليكم بهذا الشكل ، فهو يستحق منكم أنْ تُصلُّوا عليه ؛ لأن كل خير يناله يعُمُّ عليكم ، ويعود إليكم ؛ لذلك قال سبحانه : ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٥٦)﴾ [الأحزاب]

وتلحظ أن الخبر ﴿يُصَلُّونَ .. (٥٦)﴾ [الأحزاب] خبر عن الله والملائكة ؛ فجمع الحق سبحانه بين صلاته وصلاة ملائكته ، والنبى ﷺ سمع مرة

---

(١) أخرج الخطيب فى « تلخيص المتشابه » عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال : لا يرضى محمد ، وواحد من أمته فى النار . وأخرج البيهقى فى شعب الإيمان عن ابن عباس أيضاً أنه قال : رضاه أن تدخل أمته الجنة كلهم .

خطيباً يخطب ، يقول : مَنْ يتَّقِ الله ورسوله يُثبْه الله ، ومَنْ يعصهما يعاقبه الله ، فقال ﷺ له : « بِئْسَ خطيبَ القوم أنت »[١] لماذا ؟

قالوا : لأنه جمع بين الله تعالى ورسوله فى : (ومن يعصهما) ، وكان عليه أنْ يقول : ومَنْ يَعْصِ الله ورسوله ، فالله وحده هو الذى يجمع معه سبحانه مَنْ يشاء . قال سبحانه : ﴿وَمَا نَقَمُوا[٢] إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ .. (٧٤)﴾ [التوبة]

أما نحن ، فليس لنا أبداً أنْ نأتى بصيغة تشريكية بين الله تعالى وأحد من خَلْقه .

وقوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ .. (٥٦)﴾ [الأحزاب] هكذا قال الله ، وجمع معه سبحانه مَنْ يشاء من خَلْقه ، وأنت لا يجوز لك أنْ تجمعَ هذا الجمع إلا إذا كنتَ تقرأه على أنه قرآن ، فإن أردتَ أنْ تنشىء كلاماً من عندك فلا بُدَّ أن تقول : الله يُصلِّى على النبى ، والملائكة يُصلُّون على النبى .

لذلك احتاط علماء التفسير[٣] لهذه المسألة فقالوا أن (يصلون)

---

(١) عن عدى بن حاتم أن رجلاً خطب عند النبى ﷺ فقال : من يطع الله ورسوله فقد رشد ، ومن يعصهما فقد غوى . فقال رسول الله ﷺ : « بئس الخطيب أنت . قل : ومن يعص الله ورسوله فقد غوى » . أخرجه مسلم فى صحيحه (٨٧٠) ، وأحمد فى مسنده (٤/٢٥٦، ٣٧٩) ، وأبو داود فى سننه (١٠٩٩) .

(٢) نقم الشىء : أنكره وعابه وكرهه ، ومنه قوله تعالى : ﴿هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ .. (٥٩)﴾ [المائدة] أى : هل تكرهون وتنقمون منا إلا إيماننا بآيات ربنا ، وهذا أمر لا يقتضى النقمة . [القاموس القويم ٢/٢٨٤] .

(٣) قال القرطبى فى تفسيره (٨/٥٥٠٠) : « اختلف العلماء فى الضمير فى قوله « يصلون » : فقالت فرقة : الضمير فيه لله والملائكة ، وهذا قول من الله تعالى شرَّف به ملائكته . قالوا : لأنه ليس لأحد أن يجمع ذكر الله تعالى مع غيره فى ضمير ، ولله أن يفعل فى ذلك ما يشاء .
وقالت فرقة : فى الكلام حذف ، تقديره : إن الله يصلى وملائكته يصلون ، وليس فى الآية اجتماع ضمير ، وذلك جائز للبشر فعله .

ليست خبراً للكل ، إنما تقدير الخبر أن الله يصلى على النبى ، والملائكة يُصلُّون على النبى .

وإذا كان الله يُصلِّى على النبى ، والملائكة يُصلُّون على النبى ، فماذا عنكم أنتم ؟ يجب أنْ تُصلوا أنتم كذلك على النبى ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٥٦) ﴾ [الأحزاب]

سبق أنْ بيّنّا أن الصلاة من الله لها معنى ، ومن الملائكة لها معنى ، ومن المؤمنين المأمورين بها لها معنى ، فكُلٌّ بحَسْبه ، والصلاة فى الأصل هى الدعاء ، والدعاء يقتضى داعياً ومدعواً له ومدعواً ، فمثلاً حين أدعو الله أنْ يغفر لفلان ، فأنا الداعى ، والله تعالى مدعو ، وفلان مدعو له ، فإذا كان المصلى والداعى هو الله عز وجل ، فمَنْ يدعو ؟ إذن : معنى الدعاء لا يأتى مع الله تعالى .

لذلك قلنا : إنك لو نظرتَ إلى الأحداث تجد أن صاحبك مثلاً إذا قال لك أَعِدُك أنْ أعطيك غداً كذا وكذا ، فهذا وَعْد منه ، لا يملك هو من أسباب الوفاء به شيئاً ، أما إنْ قال لك : أدعو الله أنْ يعطيك كذا وكذا ، ونسب العطاء لله تعالى ، فهذا أَرْجَى للتحقيق ؛ لأنه منسوب إلى الله ، فإنْ قبل الدعاء تحقق المطلوب ، فإنْ كان الله تعالى هو الذى يأمر لك بهذا العطاء فلا بُدَّ أنْ تناله لا محالة .

إذن : الصلاة من الله ليست بمعنى الدعاء ، إنما هى تنفيذ مباشر ورحمة شاملة وعامة ، ويكفى من رحمته تعالى لنبيه ﷺ أنْ جعله خاتم الرسل ، فلا يستدرك عليه أحد ، يكفيه من رحمته وإنعامه وثنائه عليه أنْ قرن اسمه باسمه ؛ لذلك خاطبه بقوله : ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (٤) ﴾ [الشرح]

يكفيه من تكريم الله له أنه سيقبل شفاعته يوم القيامة ، لا لأمته فحسب ، إنما للخَلْق جميعاً ، يكفيه أن الله تعالى خاطب كل رسله بأسمائهم المشخِّصة لهم ، وخاطبه هو بالوصف المكرم فى ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّبِىُّ .. (١٢) ﴾ [الممتحنة] و ﴿ يَـٰأَيُّهَا الرَّسُولُ .. (٤١) ﴾ [المائدة]

أما عن صلاة الملائكة ، فهى دعاء ، واقرأ : ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (٧) رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٨) وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٩) ﴾ [غافر]

فإذا كان الخَلْق جميعاً محلَّ صلاة الملائكة واستغفارهم ودعائهم ، حتى الذين أذنبوا منهم ، ثم تابوا ، فما بالك برسول الله ، وهو هادى الناس جميعاً ؟

أما الصلاة من المؤمنين ، فهى الاستغفار ، واستغفارهم ليس لرسول الله ، إنما هو استغفارهم لأنفسهم ؛ لأن رسول الله جاء رحمةً لهم ، وما دام جاء رحمةً لهم كان من الواجب ألاَّ يغيب توقيره عن بالهم أبداً ، فَهُمْ إنِ استغفروا ، فاستغفار عن الغفلة عنه ﷺ ، أو عن أنهم لم يتقدم اسمه ، فيصلون عليه .

والمؤمن حين يُصلِّى على رسول الله ، ماذا يملك من عطاء يُؤدِّيه لرسول الله ؟ ماذا بأيدينا ؟ لذلك تأمل لفظ صلاتك على رسول الله ، إنك لا تقول أصلى ، ولكن تقول : اللهم صَلِّ على محمد ، أو صلَّى

الله على محمد ، فتطلب ممَّنْ هو أعلى منك أنْ يُصلى على رسول الله ؛ لأنه لا يوجد عطاء عندك تُؤدِّيه لرسول الله .

إذن : فالصلاة من الله الرحمة العامة المطلقة ، والصلاة من الملائكة الدعاء ، والصلاة من المؤمنين الاستغفار .

لذلك سُئلَ سيدنا رسول الله : يا رسول الله تلك صلاة الله ، وتلك صلاة الملائكة ، فما الصلاةُ عليك ؟ يعنى كيف ؟ قال ﷺ : « قولوا اللهم صَلِّ على محمد وعلى آل محمد ، كما صلَّيتَ على إبراهيم وعلى آل إبراهيم ، وبارك على محمد وعلى آل محمد ، كما باركتَ على إبراهيم وعلى آل إبراهيم فى العالمين ، إنك حميدٌ مجيدٌ »[(١)] .

ودخل عليه صحابى ، فقال : يا رسول الله ، ما رأيتك بهذه الطلاقة والبِشْر قبل اليوم ؟ فقال ﷺ : « إن جبريل جاءنى فأخبرنى أن مَنْ صلى علىَّ صلاة صلَّى الله بها عليه عشراً ، وكُتِب له عشر حسنات ومُحى عنه عَشْر سيئات »[(٢)] .

وقال عمر رضى الله عنه : دخل رجل على رسول الله ، فسأله : ما الصلاة عليك يا رسول الله ؟ قال ﷺ : « ذلك من العلم المكنون ، ولولا أنكم سألتمونى ما قلته : إن الله وكَّل بى ملكيْنِ ، فإذا صلَّى واحد علىَّ قال الملكان : غفر الله لك . ويقول الله : آمين وتقول

---

(١) أخرج البخارى فى صحيحه (٤٧٩٧) من حديث كعب بن عجرة ، قيل : يا رسول الله ، أما السلام عليك فقد عرفناه ، فكيف الصلاة عليك ؟ قال : قولوا اللهم صَلِّ على محمد وآل محمد ، كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد . اللهم بارك على محمد وآل محمد كما باركت على آل إبراهيم ، إنك حميد مجيد » .

(٢) أورده السيوطى فى الدر المنثور (٦/ ٦٥٠) وعزاه للبخارى فى الأدب المفرد عن أنس ومالك بن أوس بن الحدثان أن النبى ﷺ قال : « إن جبريل عليه السلام جاءنى فقال : من صلى عليك واحدة صلى الله عليه عشراً ، ورفع له عشر درجات » .

الملائكة : أمين »[١] .

سبحان الله : الله عز وجل بذاته يُؤمِّن على دعاء الملكين .

وقالوا : الصلاة على رسول الله فَرْض على المؤمن ، كالحج مرة واحدة فى العمر ، لكنها واجبة عليه عند كل ذِكْر لرسول الله ، لذلك جاء فى الحديث : « أبخل البخلاء من ذُكِرْتُ عنده فلم يُصَلِّ علىَّ »[٢] .

وقوله تعالى بعدها : ﴿وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٥٦)﴾ [الأحزاب] لك أنْ تلحظ فى صدر الآية ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ.. (٥٦)﴾ [الأحزاب] ولم يَقُلْ سبحانه ويسلمون ، فلما أمر المؤمنين قال ﴿صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٥٦)﴾ [الأحزاب] فزاد : وسلِّموا تسليماً .

قال العلماء : لأن الصلاة على رسول الله لا تكون إلا مع التسليم له بمعنى طاعته والإذعان لأمره ، وأن تُسْلِم زمامك له فى كل صغيرة وكبيرة ، وإلاَّ فكيف تُصلِّى عليه وأنت تعصى أوامره ، وقد قال تعالى : ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٦٥)﴾ [النساء]

---

(١) ذكره السيوطى فى الدر المنثور (٦٥٢/٦) من حديث الحسن بن على رضى الله عنه وعزاه للطبرانى وابن مردويه وابن النجار ، ولفظه : « قال الحسن قالوا : يا رسول الله ، أرأيت قول الله ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ.. (٥٦)﴾ [الأحزاب] قال : « إن هذا لمن المكتوم ، ولولا أنكم سألتمونى عنه ما أخبرتكم ، إن الله وكل بى ملكين لا أُذكر عند عبد مسلم فيصلى علىَّ إلا قال ذانك الملكان : غفر الله لك ، وقال الله وملائكته جواباً لذينك الملكين : آمين . ولا أذكر عند عبد مسلم فلا يصلى علىَّ إلا قال ذانك الملكان : لا غفر الله لك ، وقال الله وملائكته لذينك الملكين : آمين » . قال ابن كثير فى تفسيره (٥١٥/٣) عن هذا الحديث : « غريب جداً ، وإسناده به ضعف شديد » .

(٢) أخرج أحمد فى مسنده (٢٠١/١) ، وابن حبان فى صحيحه (٢٣٨٨ - موارد الظمآن) من حديث الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهما أن النبى ﷺ قال : « البخيل من ذُكِرْتُ عنده ثم لم يصل علىَّ » .

ومن معانى التسليم أن نقول : السلام عليك أيها النبى كما نقول فى التشهُّد ، والسلام اسم من أسماء الله ، ومعنى : السلام عليك يا رسول الله أى : جعل الله لك وقايةً ، فلا ينالك أحد بسوء .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا (٥٧) ﴾

الإيذاء : إيقاع الألم من المؤذِى للمؤذَى ، سواء أكان الإيذاء بالقول أم بالفعل ، والإيذاء بهذا المعنى أمر لا يتناسب مع الحق سبحانه وتعالى . إذن ما معنى : يؤذون الله ؟

قالوا : الله تعالى لا يُؤذَى بالفعل ؛ لأنهم لا يستطيعون ذلك ، فهو أمر غير ممكن ، أما القول فممكن ، والإيذاء هنا يكون بمعنى إغضاب الله تعالى بالقول الذى لا يليق به سبحانه ، كقولهم : ﴿ إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ .. (١٨١) ﴾ [آل عمران] وبعضهم أنكر وجود الله .

وقولهم : ﴿ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ .. (٦٤) ﴾ [المائدة]

وقولهم : ﴿ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ .. (٣٠) ﴾ [التوبة]

وبعضهم يسُبُّ الدهر ، والله يقول فى الحديث القدسى : « يؤذينى عبدى ، وما كان له أنْ يؤذينى ، يسبُّ الدهر ، وأنا الدهر ، بيدى الأمر ، أُقلِّبُ الليل والنهار »[1] .

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٨٢٦ ، ٦١٨١ ، ٧٤٩١) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٢٤٦) كتاب الألفاظ من الأدب ، وأحمد فى مسنده (٢/٢٣٨ ، ٢٧٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

وهل الزمن له ذَنْب فى الأحداث التى تؤلمك ؟ الزمن مجرد ظرف للحدث ، أما الفاعل فهو الله عز وجل ، إذن : لا تسبُّوا الدهر ، فالدهر هو الله ، وهم أنفسهم قالوا : ﴿مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ.. (٢٤)﴾ [الجاثية]

كل هذا إيذاء بالقول ، لكن ينبغى أنْ ننظر فيه : أهو كذب وبهتان ؟ أم قول صادق يقوم عليه دليل ؟ وقد يُؤذيك شخص بكلمة ، لكنك لا تُؤذَى منها ، وفى هذه الحالة يأخذ هو إثمها ، وتسلَم أنت من شرها وتسلم من ألمها .. فهذه الأقوال منهم فى الواقع فيها إيذاء ، لكن ليس لله تعالى ، إنما إيذاء لهم ، كيف ؟

الحق ـ سبحانه وتعالى ـ حينما استخلف الإنسان فى الأرض خلق له الكون قبل أنْ يخلقه فطرأ الإنسان على كون مُعَدٍّ لاستقباله ، فيه مُقوِّمات بقاء الحياة ، ومُقوِّمات بقاء النوع ، ثم أعدَّ له أيضاً قانون صيانته ، بحيث إنْ أصابه عطب استطاع أنْ يصلحه ، هذا القانون هو منهجه سبحانه المحفوظ فى كتابه ، واقرأ قول الحق سبحانه : ﴿الرَّحْمَـٰنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الإِنسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤)﴾ [الرحمن]

فقانون الصيانة فى القرآن موجود قبل أنْ يخلق الإنسانَ ؛ لأن الإنسان خَلْق الله وصَنْعته خلقه الله فى أحسن تقويم ، وعلى أحسن هيئة ، ويريد له أنْ يظل هكذا سوىَّ التكوين فى كل شىء ، فإذا ما خرج هذا الخليفة المخلوق لله على قانون صيانته ، فإنه ولا شكَّ لا بُدَّ أنْ يغضب الله ، لأن الله يريد أنْ تظلَّ صنعته جميلة ، كما أبدعها سبحانه .

إذن : فالذين أنكروا وجود الله ، أو الذين أشركوا به ، والذين

قالوا : « إن الله فقير ونحن أغنياء » أو قالوا : الملائكة بنات الله ... إلخ هذه الأقوال التى ترتب عليها غضب الحق سبحانه ؛ لأنه خليفته فى الأرض لم يُؤَدِّ المطلوب منه على حَسْب منهج الله .

ونقول لهؤلاء : إياكم أنْ تظنوا أنكم بكفركم خرجتم من قبضة الحق سبحانه ، بل أنتم فى قبضته ، وتحت مشيئته ، ولو شاء سبحانه لقهركم على طاعته ، أو خلقكم على هيئة الصلاح لا تأتى منكم المعصية كما خلق الملائكة ، إنما جعلكم مختارين فيما كلفكم به، مَنْ شاء آمن ، ومَنْ شاء كفر ، ليعلم مَنْ يقبل عليه بحب لا بقهر .

والدليل على ذلك أنكم مخلوقون ، على هيئتين . هيئة لكم فيها اختيار وهى التكاليف ، وهيئة مقبوضين فى قبضة الحق سبحانه وهى القضاء ، فما دمتم تعودتم التمرد على التكاليف ، فلماذا لا تتمرَّدُون على أقدار الله فيكم ، كالمرض والموت مثلاً ؟

ومع ذلك ما دُمْتَ قد اخترْتَ الكفر وأنا رَب ، ومطلوب منى أنْ أعينك على ما تحب ، فسوف أختم على قلبك ، بحيث لا يدخله الإيمان ، ولا يخرج منه الكفر الذى تحبه . إذن : أنا جئت على مرادك مما يدل على أن كفرك بى لا يضرنى ولا يؤذينى .

وقد ورد فى الحديث القدسى : (يا عبادى ، إنكم لن تبلغوا نفعى فتنفعونى ، ولن تبلغوا ضُرِّى فتضرونى) [(١)] .

وإنْ كانت لكم منطقة اختيار فى الدنيا هى أمور التكاليف ، فسيأتى يوم القيامة ، ويمتنع الاختيار كله ، فلا اختيارَ لأحد فى شىء

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٥٧٧) ، وأحمد فى مسنده (٥/١٦٠) ، والبيهقى فى سننه الكبرى (٦/٩٣) والبخارى فى الأدب المفرد (ص ١٧٢ ، ٤٩٠) من حديث أبى ذر رضى الله عنه الطويل وقد شرح فضيلة الشيخ الشعراوى قطعة منه فى شرح الأحاديث القدسية بتحقيقى (المجلد ٢/ص ٣ - ٤٠) نشر : دار الروضة ـ القاهرة .

يوم يقول الحق سبحانه ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ .. ﴿١٦﴾﴾ [غافر] فلا يجيب أحد ، لا مالك ولا مملوك ، فيجيب الحق سبحانه على ذاته : ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾﴾ [غافر]

هذا فى معنى إيذاء الله تعالى ، أما الإيذاء فى حقِّ سيدنا رسول الله ، فرسول الله بشر ، يمكن أنْ يصيبه الإيذاء بالفعل والإيذاء بالقول ، فكما قالوا : إن الله فقير ونحن أغنياء قالوا عن رسول الله : كاهن وساحر ومجنون وشاعر ، ثم تعدَّى الإيذاء إلى الفعل الذى أصاب رسول الله وآلمه بالفعل .

ألم يُرْمَ بالحجارة حتى دَميتْ قدماه فى الطائف[1] ؟ ألم يضعوا على ظهره الشريف سَلاَ البعير فى مكة[2] - أى سَقَط البعير - ألم تكسَر رباعيته يوم أحد[3] ويُشَجُّ ويسيل دمه ﷺ ؟

فرسول الله ناله مع ربه - عز وجل - إيذاء بالقول ، ثم ناله إيذاء آخر بالفعل ، إيذاء بشرى فيه إيلام ، وقمة الإيذاء بالفعل ما يتعرَّض لأمر محارمه وأزواجه ﷺ .

---

(١) ذكر ابن هشام فى السيرة النبوية (٢/٤٢١) « أن أهل الطائف أغروا به سفهاءهم وعبيدهم ، يسبونه ويصيحون به ، حتى اجتمع عليه الناس ، وألجئوه إلى حائط (بستان) لعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة » . أما إدماء رجليه ﷺ فقد ذكره البيهقى فى دلائل النبوة (٢/٤١٥) فقال « قعدوا له صفَّيْن على طريقه ، وجعلوا لا يرفع رجليه ولا يضعهما إلا رضخوهما بالحجارة ، وكانوا أعدوها حتى أدموا رجليه » .

(٢) أخرج البيهقى فى دلائل النبوة (٢/٢٧٨) من حديث عبد الله بن مسعود قال « بينما رسول الله ﷺ ساجد وحوله ناس من قريش . وثمَّ سلا بعير (السلا هو لفافة من الجلد تكون حول الجنين فى البطن) فقالوا : من يأخذ سلا هذا الجزور أو البعير فيقذفه على ظهره ، فجاءه عقبة بن أبى معيط فقذفه على ظهر النبى ﷺ ، فلم يرفع رأسه حتى جاءت فاطمة فأخذته من ظهره ودعت على من صنع ذلك » . وهو فى صحيح البخارى (٣١٨٥) ، وكذا فى صحيح مسلم (١٠٨) كتاب الجهاد والسير .

(٣) أورده ابن هشام فى السيرة النبوية (ص ١٤٢٨) غزوة أحد ، عن أنس بن مالك ، أن رسول الله ﷺ جعل يمسح الدم وهو يقول : « كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم » .

لذلك قال تعالى : ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ .. (٥٣)﴾ [الأحزاب] أى : بمخالفة ما جاء به ، أو بأنْ تتهموه بما ليس فيه ، أو تتعرَّضوا له بإيلام حسى ، ثم لم يخص من ألوانِ الإيذاء إلا مسألة الأزواج ، فقال : ﴿وَلا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا .. (٥٣)﴾ [الأحزاب] وذكر هذه المسألة بالذات صراحةً مراعاة لطبيعة النفس البشرية ، فقد قلنا : إن الرجل يمكن أن يتجمل على أصحابه أو أحبابه بأغلى ما يملك ، لكنه أبداً لا يقبل أن ينظر أحد إلى زوجته ، يحميها ويغَارُ عليها من مجرد النظر .

لذلك فإن سيدنا حذيفة ، وكان يحب امرأته ، فقال لها : ألاَ تحبين أن تكونى معى فى الجنة ؟ فقالت : بلى ، فقال لها : إذن إذا متُّ فلا تتزوجى بعدى - فهو يغار عليها حتى بعد موته - لأنى سَمعت رسول الله يقول : « المرأة لآخر أزواجها »[(١)] .

لكن هذا الحديث وُجه بحديث آخر لما سُئل رسول الله : أىُّ نساء الرجل تكون معه فى الجنة ؟ فقال : « أحسنهَن خلُقاً معه »[(٢)] .

وقد رأى البعض تعارضاً بين هذين الحديثين ، والواقع أنه ليس بينهما تعارض ، لأن الآخرية هنا لا يُراد بها آخرية الزمن ، إنما آخرية الانتقال ، كما لو تمتعتَ برحلة جميلة مع أحد الأصدقاء منذ عشرين سنة ، فلما ذكَّرته بها قال : كانت آخر متعة ، مع أنك تمتعت بعدها برحلات أخرى .

---

(١) أورده العجلونى فى كشف الخفاء (٢/٤١٠) وعزاه للطبرانى عن أبى الدرداء وللخطيب عن عائشة . قال : وهذا هو الصحيح . وقيل : لأحسنهم خلقاً . وقيل : تُخيَّر .

(٢) أخرج ابن عدى فى (الكامل فى ضعفاء الرجال) (٣/٢٦٢) من حديث أم سلمة أنها قالت : يا رسول الله ، المرأة منا تتزوج الزوجين والثلاثة والأربعة ثم تموت فتدخل الجنة ويدخلون معها من يكون زوجها ؟ قال : يا أم سلمة ، إنها تُخيَّر فتختار أحسنهم خلقاً ، فتقول : أى رب ، إن هذا كان أحسنهم خلقاً معى فى دار الدنيا فزوجنيه ، يا أم سلمة ، ذهب الخلق الحسن بخير الدنيا والآخرة . قال ابن عدى : هذا حديث منكر . قال ابن القيم فى « حادى الأرواح » (ص ٢١٦) : « ضعَّفه أبو حاتم » .

فالمعنى : تكون لآخر أزواجها فى المتعة ، وإن كان مُتقدِّماً بحُسْن الخلق ، إذن : فالمعنيان متفقان ، لا تعارضَ بينهما .

ومسألة غَيْرة الرجل على المرأة لها جذور فى تاريخنا وأدبنا العربى ، ومن ذلك قول الشاعر[١] :

أَهِيمُ بِدَعْدٍ مَا حَيِيتُ فإن أَمُتْ فوَا أسفَى مَنْ ذَا يهيمُ بهَا بَعْدى

فهو مشغول بها حتى بعد أنْ يموت ، لكن يُؤْخذ عليه أنه شغل بمن يحل محله فى هيامه بمحبوبته ؛ لذلك كان أبلغ منه قَوْل الآخر[٢] :

أَهِيمُ بدَعْدٍ مَا حَيِيتُ فإن أَمُتْ فَلاَ صلُحَتْ دَعْدٌ لذِى خُلَّةٍ بَعْدى

إذن : فهذه الغيرة مراتب ودرجات .

ويُحدِّثنا التاريخ أن أحد الخلفاء العباسيين ـ أظنه الهادى ـ كان يحب جارية اسمها غادر ، ولشدة حبه لها قالوا إنه تزوجها ، وفى خلوة من خلوات الهيام والعشْق قال لها : عاهدينى ـ لأن صحته لم تكُنْ على ما يرام ـ إذا أنَا متُّ أن لا تتزوجى بعدى ، وفعلاً أعطتْه هذا العهد ، فلما مات الهادى لمَ تلبث أن نسيَتْ غادر عشقها للهادى ، ونسيتْ حُزْنها عليه ـ وهذا من رحمة الله بنا أن كل شىء يبدأ صغيراً ثم يكبر إلا المصائب ، فإنها تبدأ كبيرة ثم تصغر .

بعدها تزوجت غادر من أخى الهادى ، وفى يوم من الأيام استيقظت فَزعة صارخة ، حتى اجتمع عليها مَنْ فى القصر ، وسألوها : ماذاَ بك ؟ قالت : جاءنى الهادى فى المنام ، وقال لى :

خَالَفْت عَهْدِى بَعْدَمَا جَاوَرْتُ سُكَّانَ المقَابرْ

ونكحْت غادرةً أخِى صَدَق الذى سَمَّاك غَادرْ

---

(١) هو : نُصيب بن رباح ، أبو محجن ، توفى عام ١٠٨ هـ . مولى عبد العزيز بن مروان ، شاعر له شهرة ذائعة . [الموسوعة الشعرية] .

(٢) هو : عبد الملك بن مروان الخليفة الأموى ، وقد عاب بيت نصيب السابق.

لاَ يَهْنك الإلْفُ الجديدُ ... ولا عَـدتْ عَنْك الدَّوائرْ
وَلَحقتِ بى مُنْذُ الصَّباح ... وصِـرْتِ حَيْثُ ذهبْتُ صائر

وما كادت تنتهى من قولها حتى لفظتْ أنفاسها الأخيرة ، وماتت .

لذلك ، فالحق سبحانه يراعى هذه الغرائز الإنسانية وهذه الطبيعة ، ألا ترى أن عدَّة المتوفَّى عنها زوجُها كانت سَنَةً كاملة ، كما فى قوله تعالى[1] : ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ .. (٢٤٠)﴾ [البقرة]

ثم جُعلَتْ عدَّة المتوفى عنها زوجها أربعة أشهر وعشرة أيام احتراماً لهذه الغَريزة فى المرأة .

ثم يُبيِّن الحق سبحانه الجزاء العادل لمن يؤذى الله ويؤذى رسول الله ، فيقول سبحانه : ﴿لَعَنَهُمُ اللَّهُ .. (٥٧)﴾ [الأحزاب] أى : طردهم من رحمته ﴿فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا (٥٧)﴾ [الأحزاب]

ثم يعطينا الحق سبحانه إشارةً إلى أن هذا الجزاء العادل الذى أعدَّه لمن يؤذى الله ورسوله ليس تعصُّباً لله ، ولا تعصباً لرسول الله ، بدليل أن الذى يؤذى مؤمناً أو مؤمنة لا بُدَّ أن يُجازَى عن هذا الإيذاء ، فسوَّى المؤمن والمؤمنة فى إرادة الإيذاء بإيذاء الله ، وبإيذاء رسول الله ، فقال سبحانه :

﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا (٥٨)﴾

---

(١) قال الأكثرون : هذه الآية منسوخة بالتى قبلها ، وهى قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا .. (٢٣٤)﴾ [البقرة] نقل ابن كثير فى تفسيره (٢٩٦/١) أن ابن الزبير قال : قلت لعثمان بن عفان : قد نسختها الآية الأخرى فلم تكتبها أو تدعها . قال : يا بن أخى لا أغير شيئاً منه من مكانه .

لما تكلم الحق سبحانه عن إيذاء المؤمنين والمؤمنات خَصَّ هذا الإيذاء بقوله ﴿بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا .. (٥٨)﴾ [الأحزاب] لأن هناك إيذاءً مشروعاً أوجبه الله للذين يخرجون على حدوده ، فحَدُّ الزنا والقذف وشرب الخمر .. إلخ كلها فيها إيذاء للمؤمن وللمؤمنة ، لكنه إيذاء مشروع لا يُعاقب مَنْ قام به ، كما فى إيذاء الله ورسوله .

لذلك يقول تعالى فى اللذين يأتيان الفاحشة : ﴿وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَآذُوهُمَا .. (١٦)﴾ [النساء]

والحق سبحانه حين شرع هذه الحدود وهذا الإيذاء ، إنما شرعه ليكون عقوبةً لمن يتعدَّى حدود الله ، وتطهيراً له من ذنبه ، ثم لتكون رادعاً للآخرين ، فسيدنا عمر رضى الله عنه لما قرأ هذه الآية : ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ .. (٥٨)﴾ [الأحزاب] بكى فقال له جليسه : ما يُبكيك يا أمير المؤمنين ؟ قال : لأننى آذيتُ المؤمنين والمؤمنات ، قال : يا أمير المؤمنين إنك تؤذى لتُعلِّم ولتُقوِّم والله تعالى أمرنا أن نرجم ، وأن نقطع ، فضحك عمر وسُرَّ[1] .

بل أكثر من هذا يأمرنا الحق سبحانه فى الحدود : ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ .. (٢)﴾ [النور]

لأن الرأفة فى حدود الله رحمة حمقاء ، ولسنا أرحم بالخَلْق من

---

(١) ذكره السيوطى فى الدر المنثور (٦٥٧/٦) وعزاه لعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى الآية قال : إياكم وأذى المؤمنين فإن الله يحوطهم ويغضب لهم ، وقد زعموا أن عمر بن الخطاب قرأها ذات يوم ، فأفزعه ذلك حتى ذهب إلى أُبىٍّ بن كعب رضى الله عنه فدخل عليه فقال : يا أبا المنذر ، إنى قرأت آية من كتاب الله تعالى فوقعت منى كل موقع ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ .. (٥٨)﴾ [الأحزاب] والله إنى لأعاقبهم وأضربهم ، فقال له : إنك لست منهم ، إنما أنت معلم . وانظر تفسير القرطبى (٥٥٠٩/٨): « إنما أنت مُعلِّم ومُقوِّم » .

الخالق سبحانه ، والله تعالى حين يُضخِّم العقوبة ويؤكد عليها ، إنما يريد ألاَّ نجترىء على حدوده ، وألاَّ نُعرِّض أنفسنا لهذه العقوبات ، ولك أنْ تسأل حين تقرأ قوله تعالى : ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ .. (١٧٩)﴾ [البقرة]

كيف تكون الحياة فى القتل ؟ نعم ، فى القصاص حياة ؛ لأنك حين تعلم أنك إنْ قتلتَ تُقتَل ، فلن تُقدم أبداً على القتل ، وبذلك حَمَى الله القاتل والمقتول ، وهل يُعَدُّ هذا إيذاءً ؟

ومعنى ﴿بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا .. (٥٨)﴾ [الأحزاب] أى : بغير جريمة تستحق الإيذاء ، وكلمة ﴿اكْتَسَبُوا .. (٥٨)﴾ [الأحزاب] قلنا : هناك فَرْق بين : فعل وافتعل ، فعل أى الفعل الطبيعى الذى ليس فيه مبالغة ولا تكلُّف ، أما افتعل ففعْل فيه تكلُّف ومبالغة ، كذلك كسب واكتسب ، كسب : أنْ تأخذ فى الشىء فوق ما أعطيتَ ، كما لو اشتريت بخمسة وبِعْتَ بسبعة مثلاً فهذا كسْب ، أما اكتسب ففيها زيادة وافتعال .

لذلك تجد فى العُرْف اللغوى العام أن كسب تأتى فى الخير واكتسب تأتى فى الشر ، مثل قوله تعالى : ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ .. (٢٨٦)﴾ [البقرة] لها ما كسبتْ تفيد الملكية ، وعليها تفيد الدَّيْن .

ذلك لأن الأمر الحلال يأتى طبيعياً تلقائياً ، أما الحرام فيحتاج إلى محاولة وافتعال واحتياط ، فحين تنظر مثلاً إلى زوجتك تكون طبيعياً لا تتكلف شيئاً ، أما حين تنظر إلى امرأة جميلة فى الشارع ، فإنك تتلصص لذلك وتسرق النظرات ، خشية أن يطلع أحد على فِعْلتك ، هذا هو الفرق بين الحلال والحرام .

وفى آية واحدة فى كتاب الله جاء الفعل كسب فى الشر ، وذلك فى قوله تعالى : ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ .. (٨١)﴾ [البقرة]

فلماذا ؟ قالوا : لأن الآية فيمَنْ تعوَّد السيئات ، وأحاطت به الخطايا حتى أصبحت عادة ، وسَهُلَتْ عليه حتى صارت عنده كالحلال ، يفعله بلا تكلُّف ، بل ويجاهر به ويتباهى ، هذا هو المجَاهر الذى قال فيه رسول الله ﷺ : « كل أمتى مُعَافَى إلا المجَاهِرين »[(١)] وفيه : « ستر الله عليه وأصبح يفضح نفسه » .

وهذا الذى يُسَرُّ بالمعصية ويتباهى بها بلغ به الاحتراف أنه يستطيع أنْ يستر حركات انفعاله فى الحرام ، كأنها الحلال بعينه ؛ لذلك جاء الفعل كسب هنا ، وكأن السيئة أصبحت مَلَكةً .

أذكر بمناسبة التكلُّف والافتعال فى الحرام رجلاً من بلدتنا اسمه الشيخ مصطفى ، ذهب إلى السوق لشراء بقرة ، وأخذ النقود فى جيبه ، ومن حرصه وضع يده على جيبه خوفاً من اللصوص ، فلما رأوه فى السوق يمسك جيبه بيده عرفوا أنه ضالتهم ، فكيف احتالوا ليسرقوه ؟ لطخ أحدهم كتفه بروَث البهائم ، ثم احتكَّ بالشيخ مصطفى ، حتى اتسخت ملابسه فغضب ، وأخذ ينظف ملابسه من الروث ، ونسى مسألة النقود التى فى جيبه فسرقوه .

وكما يأتى الحرام بافتعال ، كذلك يكون العقاب فيه أيضاً افتعال

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٠٦٩) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٩٩٠) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « كل أمتى مُعَافى إلا المجاهرين ، وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملاً ، ثم يصبح وقد ستره الله فيقول : يا فلان عملتُ البارحة كذا وكذا ، وقد بات يستره ربه ويصبح يكشف ستر الله عنه » .

ومبالغة تناسب افتعال الفعل ؛ لذلك يقول سبحانه في عقاب الذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا : ﴿فَقَدِ احْتَمَلُوا .. (٥٨)﴾ [الأحزاب] ولم يَقُلْ حملوا ، وفَرْق بين حمل واحتمل ، حمل تُقال لما في طاقتك حَمْله ، إنما احتمل يعني فوق الطاقة ، وإنْ حملْته تحمله بمشقة ، فالجزاء هنا من جنس العمل ، فكما تفاعلْتَ وتكلَّفْتَ في المعصية كذلك يكون الجزاء عليها .

﴿فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا (٥٨)﴾ [الأحزاب] البهتان : أن تقول في غيرك ما ليس فيه ، فالبهتان كذب ، أمَّا الإثم : فأنْ ترتكب ذنباً في حقه بأن تؤذيه بصفة هي فيه بالفعل ، لكنه يكره أنْ تصفه بها ، كما تقول للأعمى مثلاً : يا أعمى .

لذلك ورد في الحديث لما سُئل سيدنا رسول الله ﷺ : أرأيتَ إنْ كان في أخي ما أقول ؟ قال : « إنْ كان فيه ما تقول فقد اغتبْتَهُ ، وإنْ لم يكن فيه ما تقول فقد بَهته »[1] أي : كذبْتَ وافتريْتَ عليه .

ووصف الحق سبحانه الإثم هنا بأنه مبين ﴿وَإِثْمًا مُّبِينًا (٥٨)﴾ [الأحزاب] يعني : جلِيٌّ واضح ؛ لأن الوضوح في الإثم إما أن يكون بأنْ تُقر أنت به وتعترف بذنبك ، وإما أنْ يكون بالبينة ، فلو سألناك : أنت قلْت لهذا الرجل يا أعمى ، أتحب أنْ تُوصَف أنت بصفة تكرهها ؟ لا بُدَّ أنْ تقول : لا أحب . إذن : فالإثم هنا واضح ، ويكفي إقرارك به .

وينبغي أن تعامل الناس كما تحب أن يعاملوك كما علَّمَنَا سيدنا رسول الله ، فكما أنه لا يُرضيك أنْ يسرق الناس منك ، كذلك أنت

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٥٨٩) كتاب البر والصلة ، وكذا أحمد في مسنده (٢/ ٢٣٠، ٣٨٤ ، ٣٨٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : أتدرون ما الغيبة ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : ذكركَ أخاك بما يكره . قيل : أفرأيتَ إن كان في أخي ما أقول ؟ قال : إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه فقد بهته » .

لا تسرق منهم ، وكما يُؤذيك الإثمُ كذلك يؤذيهم .

ثم يأخذنا الحق سبحانه إلى أدب آخر من آداب الأسرة ، فيقول سبحانه :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٥٩ ﴾

نلحظ أن الأمر توجَّه أولاً لأزواج النبى ، ثم لبناته ﷺ ، وهذا يعنى أن رسول الله لا يأمر أمته بشىء هو عنه بنجوى ، إنما يأمرهم بشىء بدأ فيه بأهل بيته ، وهذا أدْعَى لقبول الأمر وتنفيذه ، فقبل أنْ آمركم أمرت نفسى فلم أتميز عنكم بشىء .

لذلك جاء فى سيرة القائد المسلم « طارق بن زياد »[1] أنه لما ذهب لفتح الأندلس وقف بجنوده على شاطىء البحر ، وأعداؤه على الشاطىء الآخر ، ثم قال للجنود : أيها الناس أنا لن آمركم بأمر أنا عنه بنجوى ، وإننى عند ملتقى القوم سابقكم ، فمبارز سيِّدَ القوم ، فإنْ قتلتُه فقد كُفيتم أمره ، وإنْ قتلنى فلن يعوزكم أمير بعدى .

أى : أننى سابقكم إلى القتال ، ولن أرسلكم وأجلس أتفرج وأرقب ما يحدث ، يعنى : أنا لا أتميز عنكم بشىء .

---

(١) طارق بن زياد الليثى بالولاء ، فاتح الأندلس ، أصله من البربر ، أسلم على يد موسى بن نصير ، ولى طارقاً ١٢ ألفاً معظمهم من البربر ، فنزل بهم البحر واستولى على الجبل (جبل طارق الذى سمى باسمه) ، وواصل فتوحه فى الأندلس مع موسى بن نصير ، مولده عام ٥٠ هـ ووفاته ١٠٢ هـ عن ٥٢ عاماً . [الأعلام للزركلى ٣/٢١٧] .

وبهذه المساواة أيضاً ساد عمر ـ رضى الله عنه ـ القوم وقاد العالم وهو يرتدى مُرقَّعته بالمدينة ؛ لذلك لما رآه رجل وهو نائم تحت شجرة كعامة الناس قال : حكمتَ فعدلْتَ فأمنْتَ ، فنمتَ يا عمر .

وكان ـ رضى الله عنه ـ إذا أراد أنْ يأخذ قراراً فى أمر من أمور رعيته يعلم أن الفساد إنما يأتى أولاً من الحاشية والأقارب والأتباع ومن مراكز القوى التى تحيط به ؛ لذلك كان يجمع قرابته ويحذرهم : أنا اعتزمْتُ أنْ أصدر قراراً فى كذا وكذا ، فوالذى نفسى بيده مَنْ خالفنى منكم إلى شىء منه لجعلته نكالاً للمسلمين ، أيها القوم إياكم أنْ يدخل عليكم مَنْ يدَّعى صلته بى ، فتعطونه غير حق مَنْ لم يعرفنى ، والله إنْ فعلتُم لأجعلنكم نكالاً للمسلمين .

وورود النص القرآنى بلفظ ﴿يَـٰأَيُّهَا النَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ .. ﴿٥٩﴾﴾ [الأحزاب] دليل على أن سيدنا رسول الله كان ينقل النصَّ الذى جاءه ، والصيغة التى تكلَّم الله بها دون أنْ يُغيِّر فيها شيئاً ، وإلا فقد كان بإمكانه أن ينقل الأمر لأزواجه ، فيقول : يا أيها النبى أزواجك وبناتك يدنين عليهن من جلابيبهن . إنما نقل النص القرآنى كما أُنزل عليه ؛ ليعلم الجميع أن الأمر من الله ، وما محمد إلا مُبلِّغ عن الله ، فمَنْ أراد أنْ يناقش الأمر فليناقش صاحبه .

وأزواج النبى ﷺ ساعة نزلتْ عليه هذه الآية كُنَّ تسعة أزواج ، كرَّمهن الله وخيَّرهن فاخترْنَ رسول الله ، كان منهن خمس من قريش هُنَّ : عائشة ، وحفصة ، وأم حبيبة ، وأم سلمة ، وسودة بنت زمعة ، وثلاث من سائر العرب هُنَّ : ميمونة بنت الحارث ، وزينب بنت جحش ، وجُويرية بنت الحارث من بنى المصطلق ، وواحدة من نسل هارون أخى موسى ـ عليهما السلام ـ هى السيدة صفية بنت حيى بن أخطب .

أمـا بنات رسول الله ، فـرسول الله أنجب البـنين والبنات : البنون ماتوا جميعاً فى الصِّغَر ، أما البنات فأبقاهُنَّ الله حتى تزوَّجْنَ جميعاً ، وهُنَّ : زينب ، ورقية ، وأم كلثوم .

وأصغـرهن فاطمـة ، وهى الوحيـدة التى بقيتْ بعـد موت سـيدنا رسول الله ، أما زينب ورقية وأم كلثوم فقد مُتْنَ فى حياة رسول الله.

ولفـاطمة قـصة فى الضـحك والبكاء ؛ لذلك بعض العـارفين كـان يقـول فى قـوله تعـالى : ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾﴾ [النجم] أن السيدة فاطمة حينما سُئلت ما الذى أبكاك وما الذى أضحكك ؟ قالت : لأننى لمـا دخلتُ على أبى وهو مـريض قـال لى : إن هذا هو مـرض الموت يا فاطمة فبكيت ، ثم انصـرفتُ فأشار إلىَّ وقال لى : يا فاطمة ستكونين أول أهل بيـتى لحوقاً بى فـضحكت . لذلك لم تمكث فـاطمة بعد رسول الله إلا ستة أشـهر[1] .

وقد أخـذ العلماء من هـذا الحديث أن لقـاء الأموات يكون بمـجرد الموت ، وإلا لو كـان اللقاء فى البعث والقـيامة لاسـتوى فى ذلك مَنْ مات أولاً ، ومَنْ مـات آخراً ، فـدلَّ قوله : « ستكونيـن أول أهل بيتى لحوقاً بى » على أن لقاءه ﷺ بها سيكون بمجرد أنْ تموت .

الشـاهد فى هذه القـصـة أن أحـدهم ـ أظنه الإمـام عليـاً ـ قـال لفاطمة : الله يقول ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾﴾ [النجم] أما رسول الله فأبكاك أولاً ، ثم أضحكك حتى لا يكون أضحك وأبكى كربه .

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٦/٧٧ ، ٢٤٠) من حديث عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ دعا فاطمة ابـنته فسارّها فبكت ، ثم سارّها فـضحكت ، فقالت عائشة : فـقلت لفاطمة : مـا هذا الذى سـارك به رسـول الله ﷺ فـبكيت ، ثم سـارك فـضـحكت ؟ قـالت : سـارنى فأخبرنى بموته فبكيت ، ثم سارنى فأخبرنى أنى أول من أتبعه من أهله فضحكت .

أما السيدة زينب[١] فتزوجت العاص بن الربيع[٢] قبل أنْ يُحرَّم الزواج من الكفار ، وقد أُسر العاص فى غزوة بدر ، فذهبتْ زينب لتفديه ، وقدمتْ قلادة كانت معها ، فلما رآها رسول الله وجد أنها قلادة خديجة - رضى الله عنها - قد وهبتْها لابنتها ، فقال : إنْ رأيتم أنْ تردوا لها قلادتها وتفكُّوا لها أسيرها فافعلوا ، فردَّ ﷺ الأمر إلى مَنْ ينتفع به ، فتنازلوا عن القلادة[٣] .

أما رقية وأم كلثوم فلهما حوادث ، منها حوادث مؤسفة ، ومنها حوادث مبهجة ، أما المؤسف فإنَّ عتبة بن أبى لهب عقد على رقية ، وأخوه عتيبة عقد على أم كلثوم ، وكان هذا قبل بعثة رسول الله ﷺ ، فلما بُعث رسول الله وحدث ما حدث بينه وبين أبى لهب وأنزل الله تعالى: ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (٢) ﴾ [المسد]

قال لابنه عتبة : رأسى ورأسك علىَّ حرام حتى تُطلِّق رقية فطلَّقها ، بعدها مَرَّ عتبة على رسول الله ، وفعل فَعْلَةً فيها استهزاء برسول الله ، فقال له ﷺ : « أكلك كلب من كلاب الله »[٤] .

---

(١) زينب بنت سيد البشر محمد بن عبد الله ، كبرى بناته ، تزوج بها ابن خالتها أبو العاص ابن الربيع ، ولدت له علياً وأمامة ، فمات على صغيراً ، وبقيت أمامة فتزوجها على بن أبى طالب بعد موت فاطمة الزهراء . توفيت زينب عام ٨ هـ ، أى قبل وفاة رسول الله بعامين . [الأعلام للزركلى ٣/٦٧] .

(٢) هو : أبو العاص القاسم بن الربيع بن عبد العزى ، صحابى ، زوج زينب كبرى بنات النبى ﷺ ، تزوجها فى الجاهلية بمكة وتأخر إسلامه ، فكانت عند أبيها بالمدينة وأسلم فأعيدت إليه . غلب عليه لقب (أبو العاص) وكان يلقب « جرو البطحاء » ويقال له «الأمين» توفى عام ١٢ هجرية . [الأعلام للزركلى ٥/١٧٦] .

(٣) أخرجه ابن سعد فى الطبقات (١٠/٣١) ، أسره عبد الله بن جبير فى بدر ، وجاء أخوه عمرو بن الربيع ليفتديه ، وبعثت معه زينب بنت رسول الله ، وهى يومئذ بمكة بقلادة لها كانت لأمها خديجة ، كانت خديجة قد أدخلتها بها على أبى العاص حين تزوج بها .

(٤) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٢/٣٣٨ ، ٣٣٩) ، وأورده الهيثمى فى مجمع الزوائد (٦/١٩) وعزاه للطبرانى مرسَلاً وقال : « فيه زهير بن العلاء وهو ضعيف » وقد أخرجه الحاكم فى مستدركه (٢/٥٣٩) من حديث أبى عقرب وصححه . وحسَّنه ابن حجر فى الفتح (٤/٣٩) .

أخبر عتبة أباه بما كان من دعاء رسول الله عليه ، وكان أبو لهب يعلم صدْق رسول الله ، وأن دعاءه مستجاب لا يرَدُّ ، فخاف على ابنه ، وأخذ يحتاط له ، ويوصى به رفاقه فى رحلات تجارته - وعجيب أنه مع هذا كله لم يؤمن .

وفعلاً كان عتبة فى رحلات التجارة ينام فى وسط القوم ، وهم يحيطون به من كل جانب ، وفى إحدى الليالى جاءه أسد ، فأخذه من بين القوم ، ولم يَبْقَ منه إلا ما يُعرف به .

علَّق على هذه الحادثة أحد المغرضين فقال : إن رسول الله قال : « أكلك كلب » وهذا أسد ، فردَّ عليه أحد العارفين فقال : إذا نُسب الكلب إلى الله ، فلا بُدَّ أنْ يكون أسداً ، فرسول الله لم يقل : كلب مَن كلابكم ، إنما من كلاب الله[1] .

هذا ما كان من أمر عتبة ، أما عتيبة فقد طلَّق أم كلثوم ، لكنه لم يتعرض لرسول الله بإيذاء ، بل قالوا : إنه كان يستحى أنْ يواجه رسول الله ، لذلك لم يَدْعُ عليه رسول الله .

أما الحادث المبهج فى حياة رقية وأم كلثوم ، فقد أبدلهما الله خيراً من عتبة وعتيبة ، حيث تزوجت رقية من سيدنا عثمان ، فلما ماتت تزوج بعدها من أم كلثوم ؛ لذلك لُقِّب - رضى الله عنه - بذى النورين ، وكانت النساء يُغنين حين تزوج عثمان برقية :

أَحْسَنَ مَا رأى إنْسَانٌ رُقيَّة وزوجُهَا عُثْمَانُ[2]

---

(١) الكلب : كل سبع عقور ، ومنه الأسد . قال ابن سيده : غلب الكلب على هذا النوع النابح ، وقد يكون التكليب واقعاً على الفهد وسباع الطير . وقال مالك فى الموطأ : كل ما عقر الناس وعدا عليهم وأخافهم مثل الأسد والنمر والفهد والذئب هو العقور . [انظر فتح البارى لابن حجر العسقلانى ٤/٣٩] .

(٢) لفظ تفسير القرطبى (٨/٥٥١٠) :

أحسَنُ شَخْصيْن رَأى إنْسَانُ رُقيَّةُ وبعْلُها عُثْمانُ

فانظر إلى عظَم هذا العوض أنْ يُبدلَهُمَا الله بعتبة وعتيبة مَنْ ؟ عثمان ، نعم العوَض هذا ، والعوَض فى مثل هذه المسائل إنما يتأتَّى بقبول القضاء فى نظائره ، فإذا أُصيب الإنسان فاستسلم وسلَّم الأمر لله ؛ فقال كما علَّمنا رسول الله : « إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون ، اللهم أجرْنى فى مصيبتى - أيًا كانت هذه المصيبة - واخلُفْنِى خَيْراً منها »[(١)] .

إذا قال ذلك وعلم أن لله حكمة فى كل قضاء يقضيه لا بُدَّ أنْ يُعوِّضه الله خيراً ، وأظن أن قصة السيدة أم سلمة مشهورة فى هذا المقام ، فلما توفى زوجها أبو سلمة حزنتْ عليه حزناً شديداً ، ولما جاءها النسوة يُعزِّينها فى زوجها قالت إحداهن : يا أم سلمة ، قولى كما قال رسول الله : إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون ، اللهم أأجرنى فى مصيبتى ، واخلُفْنى خيراً منها ، فقالت : وهل هناك خير من أبى سلمة ، يعنى : هو فى نظرها أحسن الناس وخيرهم .

لكنها مع هذا رضيَتْ بقضاء الله فما انقضَتْ عدَّتها حتى طرق عليها طارق يقول : يا أم سلمة ، إن رسول الله ﷺ يخطبكِ لنفسه ، فضحكتْ لأن الله عوَّضها بمَنْ هو خير من أبى سلمة[(٢)] .

---

(١) أخرج مسلم فى صحيحه (٩١٨) كتاب الجنائز من حديث أم سلمة أنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول : ما أمره الله : إنا لله وإنا إليه راجعون . اللهم أجرنى فى مصيبتى واخلف لى خيراً منها ، إلا أخلف الله له خيراً منها » وكذا أخرجه أحمد فى مسنده (٦/٣٠٩) .

(٢) أخرج ابن سعد فى الطبقات الكبرى (١٠/٨٧) من حديث أم سلمة أن أبا سلمة لما احتُضر قال : اللهم اخلفنى فى أهلى بخير ، فلما قبض قلت : إنا لله وإنا إليه راجعون ، اللهم عندك احتسبت مصيبتى فأجرنى فيها ، وأردت أن أقول : وأبدلنى بها خيراً منها . فقلت : من خير من أبى سلمة ؟ فما زلت حتى قلتها . فلما انقضت عدتها خطبها أبو بكر فردته ، ثم خطبها عمر فردته ، فبعث إليها رسول الله ﷺ فقالت : مرحباً برسول الله وبرسوله . الحديث .

بعد أن أمر الحق سبحانه أزواج النبى وبناته أولاً بهذا الأدب ثنَّى بنساء المؤمنين ، فقال ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٥٩) ﴾ [الأحزاب] لأن أسرة رسول الله ليست أزواجه وبناته فحسب ، إنما العالم كله ، وكلمة (نساء) جمع ، لا واحد له من لفظه ، فمفرد أزواج زوج ، ومفرد بنات بنت ، أما (نساء) فمفردها من معناها ، لا من لفظها ، فتقول : امرأة ، واستُثْقل جمع امرأة على امرآت فقالوا : نساء وأصلها فى اللغة من النسىء ، قالوا : لأن المرأة أُجِّلَ خَلْقُها بعد خَلْق الرجل . وفى اللغة : النَّسْء أى : التأخير والتأجيل ، فقالوا : نساء .

ثم يذكر سبحانه الأمر الذى وُجِّه إلى زوجات النبى ، وبناته ونساء المؤمنين جميعاً ﴿ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ .. (٥٩) ﴾ [الأحزاب] فالفعل ﴿ يُدْنِينَ .. (٥٩) ﴾ [الأحزاب] مجزوم فى جواب الطلب (قُلْ) مثل : اسكُتْ تسلَم ، ذاكر تنجح ، وفى الآية شرط مُقدَّر : إنْ تَقُلْ لهُنَّ ادنين يُدنين .

كما فى ﴿ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا (٢٧) ﴾ [الحج] لأن الخطاب هنا للمؤمنات ، وعلى رأسهن أزواج النبى وبناته ، وإنْ لم يستجب هؤلاء للأمر ، فقد اختلَّ فيهنَّ شرط الإيمان .

ومعنى : الإدناء : تقريب شىء من شىء ، ومن ذلك قوله تعالى فى وصف ثمار الجنة ﴿ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (٢٣) ﴾ [الحاقة] أى : قريبة التناول سَهْلة الجَنْى ، والمراد : يُدنين جلابيبهن أى : من الأرض لتستر الجسم . وقوله : ﴿ عَلَيْهِنَّ .. (٥٩) ﴾ [الأحزاب] يدل على أنها تشمل الجسم كله ، وأنها ملفوفة حوله مسدولة حتى الأرض .

وكلمة ﴿ جَلَابِيبِهِنَّ .. (٥٩) ﴾ [الأحزاب] مفردها جلباب ، وقد اختلفوا فى تعريفه فقالوا : هو الثوب الذى يُلْبس فوق الثوب الداخلى ، فتحت الجلباب مثلاً (فانلة) أو قميص وسروال ، ويجوز أن تكون الملابس الداخلية قصيرة ، أما الجلباب فيجب أن يكون سابغاً طويلاً قريباً من الأرض[(١)] .

وقالوا : الجلباب هو الخمار الذى يغطى الرأس ، ويُضرب على الجيوب - أى فتحة الرقبة - لكن هذا غير كاف ، فلا بُدَّ أنْ يُسدل إلى الأرض ليستر المرأة كلها ؛ لأن جسم المرأة عورة ، ومن اللباس ما يكشف ، ومنه ما يصف ، ومنه ما يلفت النظر .

وشرط فى لباس المرأة الشرعى ألاَّ يكون كاشفاً ، ولا واصفاً ، ولا مُلْفتاً للنظر ؛ لأن من النساء مَنْ ترتدى الجلباب الطويل السَّابغ الذى لاَ يكشف شيئاً من جسمها ، إلا أنه ضيِّق يصف الصَّدْر ، ويصف الأرداف ، ويُجسِّم المفاتن ، حتى تبدو وكأنها عارية[(٢)] .

لذلك من التعبيرات الأدبية فى هذه المسألة قَوْل أحدهم - وهو على حق - إنَّ مبالغة المرأة فى تبرُّجها إلحاح منها فى عَرْض نفسها على الرجل . يعنى : تريد أنْ تُلفت نظره ، تريد أنْ تُنبِّه الغافل وكأنها تقول : نحن هنا . وإنْ تساهلنا فى ذلك مع البنت التى لم تتزوج ،

---

(١) وهذا ما ذهب إليه القرطبى فى تفسيره (٨/٥٥١١) قال : « الجلابيب جمع جلباب ، وهو ثوب أكبر من الخمار . وروى عن ابن عباس وابن مسعود أنه الرداء . وقد قيل : إنه القناع ، والصحيح أنه الثوب الذى يستر جميع البدن » .

(٢) أخرج الحاكم فى مستدركه (٤/١٨٧) من حديث دحية بن خليفة الكلبى أن رسول الله ﷺ حين بعثه إلى هرقل ، فلما رجع أعطاه رسول الله ﷺ قُبْطية (ثوب مصرى) فقال : اجعل صديعها (نصفها) قميصاً ، وأعط صاحبتك (امرأتك) صديعاً تختمر به ، فلما ولى قال : مرها تجعل تحتها شيئاً لئلا يصف . قال الحاكم : حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه . قال الذهبى : « فيه انقطاع » .

ربما كان لها عُذْر ، لكن ما عذر التى تزوجت ؟

ثم يُبيِّن الحق ـ تبارك وتعالى ـ الحكمة من هذا الأدب فى مسألة اللباس ، فيقول : ﴿ ذَٰلِكَ .. (٥٩) ﴾ [الأحزاب] أى : إدناء الجلباب إلى الأرض ، وستَر الجسم ، وعدم إبداء الزينة ﴿ أَدْنَىٰ .. (٥٩) ﴾ [الأحزاب] أى : أقرب ﴿ أَن يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ .. (٥٩) ﴾ [الأحزاب]

فالمرأة المسلمة تُعْرف بزيِّها وحِشْمتها ، فلا يجرؤ أحد على التعرض لها بسوء أو مضايقتها ، فلباسها ووقارها يقول لك : إنها ليست من هذا النوع الرخيص الذى ينتظر إشارة منك ، وليست ممَّنْ يَعْرض نفسه عَرْضاً مُهيِّجاً مستميلاً مُلْفتاً .

وقوله تعالى بعد ذلك وفى ختام الآية ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٥٩) ﴾ [الأحزاب] جاء وَصْف المغفرة والرحمة هنا ليشير إلى أن عقوبة الله ليست بأثر رجعى ، فما سبق هذا الأمر من تجاوزات مغفور معفوٌّ عنه برحمة الله ، والعبرة بسلوك المؤمنة بعد أنْ تسمع هذا الأمر بإدناء الجلباب والتستُّر .

والحق سبحانه بمثل هذا الأدب إنما يُؤمِّن حياة المرأة المسلمة ، كيف ؟ نقول : معنى التأمين أنْ نأخذ منك حال يُسْرك ، وحين تكون واجداً ، لنعطيك حينما تكون غير واجد .

كذلك الإسلام حين يستر جمال المرأة ومفاتنها حال شبابها ونضارتها يسترها حين تكبر ، وحين يتلاشى الجمال ، ويحلُّ محلَّه أمور تحرص المرأة على سترها ، فالإسلام فى هذه الحالة يحمى المرأة ويحفظ لها عِزَّتها .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ(١) فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾﴾

المتتبع لموكب الرسالات يجد أن الرسل واجهوا فى نشر رسالتهم ثلاثة أصناف من البشر : صنف آمن ، وصنف كفر ، وصنف وقف متردداً بين الكفر والإيمان ، وهؤلاء هم المنافقون .

ذلك ؛ لأن الرسول حين يُبعث إنما يُبعَث لتغيير وضع اجتماعى بلغ من السوء درجةً لا يحتملها الناس ، فالذى يعانى من هذا الوضع ينتظر هذا الرسول الجديد ، فما أنْ يُبعث حتى يبادر إلى الإيمان به ؛ لأنه جاء بمبادىء جديدة ، لا ظُلْم فيها ، ولا قهر ، ولا استبداد ، ولا رشوة ، ولا فساد .

إذن : مَنْ عضته هذه الأحداث ، وشقى بهذا الفساد سارع إلى الإيمان ، وكذلك آمن أهل مصر ، وما إنْ دخلها الإسلام حتى أسرعوا إليه ، لماذا ؟ لأنهم شَقُوا قبله بحكم الرومان ، وكذلك آمن الفُرْس بمجرد أنْ سمعوا بالإسلامْ ، ورأوا الأسوة الحسنة فى المسلمين بعد أنْ عَضَّهم فساد غير المسلمين .

ساعة يشْقَى الناسُ بفساد الأوضاع يتطلَّعون إلى منقذ ، فإنْ

---

(١) أرجف فى الناس أو فى المدينة : خاض فى الفتنة وأشاع الأخبار المقلقة السيئة التى توقع الناس فى الاضطراب . [القاموس القويم ١/٢٥٧] .

جاءهم اتبعوه ، خاصة إنْ كان منهم وله فيهم مَاضٍ مُشرِّف لم يُجربوا عليه كذباً ولا نقيصة .

وهذا ما رأيناه مثلاً فى قصة إسلام سيدنا أبى بكر ، فما أنْ أعلن محمد أنه رسول الله حتى سارع إلى الإيمان به دون أنْ يسأله عن شىء ، لماذا ؟ لأنه عرف صِدْقه ، وعرف أمانته ، ووثق من ذلك .

ومثله كان إيمان السيدة خديجة ـ رضى الله عنها ـ فما إنْ جاءها رسول الله مُضطرباً مما لاقى من نزول المَلَك عليه حتى احتضنته ، وهدَّأتْ من رَوْعه ، وأنصفته ، وذهبتْ به إلى ورقة بن نوفل لتثبت له أنه على الحق ، وأن الله تعالى لن يُسلمه ولن يتخلى عنه .

وكان مما قالتْ : « والله إنك لتقرى الضيف ، وتحمل الكلَّ ، وتُكسِب المعدوم ، وتعين على نوائب الدهر ... »[1] .

لذلك قال العلماء : إن السيدة خديجة كانت أول فقيهة فى الإسلام قبل أنْ ينزل الإسلام .

وطبيعى أن يكون أهل الفساد والمستفيدون منه على النقيض ، فهم ينتفعون بالفساد والاستبداد ، ويريدون أن تظلَّ لهم سيادتهم ومكانتهم ، وأنْ يظل الناسُ عبيداً لهم ، يأكلون خيراتهم ويستذلونهم .

وهؤلاء الذين استعبدوا الناس ، وجعلوا من أنفسهم سادةً بل آلهة ، ويعلمون أن الرسول ما جاء إلا للقضاء على سيادتهم وألوهيتهم

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٣) وستة مواضع أخرى من صحيحه ، وأخرجه أيضاً مسلم فى صحيحه (١٦٠) من حديث عائشة رضى الله عنها .

ومعنى « تحمل الكل » أى : تعين المثقل ومنه الإنفاق على الضعيف واليتيم والعيال . و « تكسب المعدوم » أى : تستفيد المال المعدوم وقد كان النبى ﷺ محظوظاً فى تجارته. « تقرى الضيف » أى : تطعمه طعام الأضياف . و « نوائب الحق » حادثات الأيام . انظر : شرح النووى على مسلم (٥٦١/٢) ، وفتح البارى للعسقلانى (٢٤/١) .

الكاذبة ، هؤلاء لا بُدَّ أن يصادموا الدعوة ، لا بُدَّ أنْ يكفروا بها ، وأن يحاربوها ، حِفَاظاً على سيادتهم وسلطتهم الزمنية .

وعجيب أن نرى من عامة الناس مَنْ أَلِف هذه العبودية ، ورضى هذه المذلة ، واكتفى بأنْ يعيش فى كَنَف هؤلاء السادة مهما كانت التبعاتُ ، هؤلاء وأمثالهم هم الذين قالوا : ﴿وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١)﴾ [الزخرف]

فبعد أنْ جاءهم الرسول المنقذ ما زالوا يتطلعون إلى عظيم يستعبدهم .

وكلٌّ من هذيْن الفريقين (المؤمن ، والكافر) كان منطقياً مع نفسه ، فالمؤمن آمن بقلبه ، ونطق بلسانه ، والكافر كفر بقلبه ، وكفر بلسانه ، لأنه لم ينطق بكلمة التوحيد ، والإنسان قلبٌ وقالبٌ ، ولا بُدَّ فى الإيمان أنْ يوافق القالبُ ما فى القلب .

أما الصنف الثالث وهو المنافق ، فليس منطقياً مع نفسه ، لأنه آمن بلسانه ، ولم يؤمن بقلبه ، فهو جبان يُظهر لك الحب ، ويُضمِر الكره ؛ لذلك جعلهم الله فى الدَّرْك الأسفل من النار .

لذلك ، فالعرب لما سألهم رسول الله أنْ يقولوا : لا إله إلا الله ، ليبطل بها سيادة زعماء الكفر أبوْا أن يقولوها ، لماذا ؟ لأنهم يعلمون أنها ليست كلمة تُقال ، إنما لها تبعات ، ويترتب عليها مسئوليات لا يقدرون هم على القيام بها ، ولو أنها كلمة تُقَال لقالوها ، وانتهى العداء بينهم وبين رسول الله .

فمعنى لا إله إلا الله : لا عبوديةَ إلا لله ، ولا خضوعَ إلا لله ، ولا تشريعَ إلا لله ، ولا نافع إلا الله .... إلخ ، وكيف تستقيم هذه المعانى مع مَنْ أَلِف العبودية والخضوع لغير الله ؟

والحق ـ تبارك وتعالى ـ لما تكلّم هنا عن المنافقين خَصَّ المدينة، فقال سبحانه ﴿لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ .. (٦٠)﴾ [الأحزاب] فالنفاق لم يظهر فى مكة ، وهى مَعْقل الكفر والأصنام ، إنما ظهر فى المدينة ، وهى التى آوَتْ مهاجرى رسول الله ، وكان غالبية أهلها من أهل الكتاب ، وهم أقرب إلى الإيمان من الكفار ، فلماذا هذه الظاهرة ؟

قالوا : لأن الإسلام كان ضعيفاً فى مكة ، وصار قوياً فى المدينة ، فالنفاق ظاهرة صحية للإسلام ؛ لأنه لولا قوته ما نافقه المنافقون ، فظهور النفاق فى المدينة دليل على قوة الإسلام فيها ، وأنه صارت له شوكة ، وصارت له سطوة ؛ لذلك نافق ضعافُ الإيمان ؛ ليأخذوا خير الإسلام ، وليحتموا بحماه ، وإلا فالضعيفُ لا يُنَافَق .

نعم ، ظهر النفاق فى المدينة التى قال الله فى حق أهلها : ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا[1] الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ .. (٩)﴾ [الحشر]

ويقول عنها رسول الله ﷺ : « إن الإيمان ليأرز[2] إلى المدينة كما تأرز الحية إلى جُحْرها »[3] .

---

(١) تبوأوا الدار : سكنوا دار الهجرة وهى المدينة أولاً ، وهم الأنصار ، وعطف الإيمان على الدار كأنه منزل طيب يسكنه الإنسان ويستريح فيه . [القاموس القويم ١/٨٨] .

(٢) يأرز : أى ينضم ـ الإسلام إلى المدينة ـ ويجتمع بعضه إلى بعض فيها . [لسان العرب ـ مادة : أرز] .

(٣) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (١٨٧٦) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٤٧) كتاب الإيمان من حديث أبى هريرة رضى الله عنه . ولفظ الحديث « إن الإيمان » .

وأيضاً القرآن هو الذى قال عن أهل المدينة : ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا[1] عَلَى النِّفَاقِ .. (١٠١)﴾ [التوبة] وهذا ليس استضعافاً للمدينة ، إنما إظهار لقوة الإسلام فيها ، بحيثُ أصبحتْ له سطوة وقوة تُنافَق .

هنا قوله تعالى : ﴿لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ.. (٦٠)﴾ [الأحزاب] ساعة تسمع ﴿لَئِن لَّمْ يَنتَهِ..(٦٠)﴾ [الأحزاب] فاعلم أن الله تعالى أقسم بشىء ، وهذا القول هو جواب القسم ، والحق سبحانه لا يُقسم إلا على الشىء العظيم ، ونحن البشر نُقسم لنؤكد كلامنا ، كما تقول : والله إنْ ما حدث من فلان كذا وكذا سأفعل كذا وكذا .

أما الحق سبحانه ، فكلامه صادق ونافذ دون قَسَم ، فما بالُكَ إنْ أقسم ؟ لذلك يقول بعض العارفين إذ سمع الله تعالى يُقسِم : مَنْ أغضب الكريم حتى ألجأه أن يقسم ؟

كلمة ﴿الْمُنَافِقُونَ.. (٦٠)﴾ [الأحزاب] مفردها منافق ، مأخوذ من نَافَقَاء اليربوع ، واليربوع حيوان صغير يشبه الفأر ، يعرفه أهل البادية ، يعيش فى جحور ، فيترصدونه ليصطادوه ساعة يخرج من جُحْره ، لكن هذا الحيوان الصغير فيه لُؤْم ودهاء ، فماذا يفعل ؟ يجعل لجُحْره مدخلين ، واحد معروف ، والآخر مستتر بشىء ، فإذا أحس بالصياد على هذا المدخل ذهب إلى المدخل الآخر ؛ لذلك أشبه المنافق تماماً الذى له قلب كافر ولسان مؤمن .

وتلحظ أن المنافقين وصفهم الله هنا بصفات ثلاث ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ .. (٦٠)﴾ [الأحزاب] فالعطف هنا لا يقتضى المغايرة ، إنما عطف صفات مختلفة لشىء

---

(١) مرد على الشىء : مرن عليه ومهر فيه ، وأكثر ما يُستعمل فى الشر ، ومن ذلك قوله : ﴿مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ .. (١٠١)﴾ [التوبة] . [القاموس القويم ٢/٢٢٢] .

واحد ، وجاءتْ هذه الصفات مستقلةً ؛ لأنها أصبحتْ من الوضوح فيهم ، بحيث تكاد تكون نوعاً منفرداً بذاته[١] .

وقد وصف القرآن فى موضع آخر المنافقين بأن فى قلوبهم مرضاً ، فقال سبحانه : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ (٨) يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٩) فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (١٠) ﴾ [البقرة]

وفى هذا دليل على أن الواو هنا أفادت عطف صفة على صفة ، لا طائفة على طائفة ، ومثْله العطف فى قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ .. (٩) ﴾ [الحشر] فالدار أى المدينة ، وكذلك الإيمان يُراد به المدينة أيضاً .

ومعنى ﴿ الْمُرْجِفُونَ .. (٦٠) ﴾ [الأحزاب] المرجف من الإرجاف ، وهو الهزَّة العنيفة التى تزلزل ، ومنه قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ (٦) تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ (٧) ﴾ [النازعات] فالمرجفون هم الذين يحاولون زلزلة الشىء الثابت ، وزعزعة الكيان المستقر ، كذلك كان المنافقون كلما رأوا للإسلام قوةً حاولوا زعزعتها وهزّها لإضعافه والقضاء عليه .

وهؤلاء هم الذين نسميهم فى التعبير السياسى الحديث (الطابور الخامس) ، وهم الجماعة الذين يُروِّجون الإشاعات ، ويذيعون الأباطيل التى تُضعِف التيار العام وتهدد استقراره .

وكثيراً ما قعد المنافقون يقولون : إن قبيلة فلان وقبيلة فلان

---

(١) قال أبو رزين : هم شىء واحد ، يعنى : أنهم قد جمعوا هذه الأشياء . وقيل : كان منهم - أى : من المنافقين - قوم يرجفون ، وقوم يتبعون النساء للريبة ، وقوم يشككون المسلمين . نقله القرطبى فى تفسيره (٥٥١٣/٨) .

اجتمعوا للهجوم على المدينة والقضاء على محمد ورسالته ، وهدفهم من هذه الإشاعات إضعاف وهزيمة الروح المعنوية لدى المسلمين الجدد والمستضعفين منهم .

حتى على مستوى الأفراد ، كانوا يذهبون إلى مَنْ يفكر فى الإسلام ، أو يرون أنه ارتاح إليه ، فيقولون له : ألم تعلم أن فلاناً أخذه قومه ، أو أخذه سيده وعذَّبه حتى الموت لأنه اتبع محمداً ، ذلك ليصرفوا الناس عن دين الله .

إذن : المرجِفُ يعنى الذى يمشى بالفتنة والأكاذيب ؛ ليصرف أهل الحق عن حقهم ، بما يُشيع من بهتان وأباطيل .

لذلك يهددهم الحق سبحانه : لئن لم ينته هؤلاء المنافقون عن الإرجاف فى المدينة وتضليل الناس لَيكُونَنَّ لنا معهم شأن آخر ، كان هذا وقت مهادنة ومعاهدة بين المسلمين واليهود وأتباعهم من المنافقين ، وكأن الله تعالى يقول : لقد سكتنا على جرائمهم إلى أنْ قويَتْ شوكة الإسلام ، أما وقد صار للإسلام شوكة فإنْ نقضوا عهدهم معنا فسوف نواجههم .

وعجيب من هؤلاء المرجفين أنْ يظنُّوا أن الله لا يعلم أباطيلهم ، ولا يعلمها رسوله ، والله تعالى يقول : ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ (٢٩) وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ (٣٠)﴾ [محمد]

ومعنى لحن القول : أن يميلوا بالكلام عن غير معناه ، ومن ذلك قولهم فى السلام على رسول الله : السام عليكم ، والسام هو الموت ، وكما لووا ألسنتهم بكلمة (راعنا) فقالوا : راعونا يقصدون الرعونة .

وأغرب من ذلك ما حكاه القرآن عنهم : ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ..(٨)﴾ [المجادلة]

فهذا القول منهم دليل على غبائهم . أولاً : لأنهم يتمنوْنَ العذاب .

ثانياً : لأنهم قالوا ذلك فى أنفسهم لم يقولوا للناس ، ولم يقولوا حتى لبعضهم البعض ؛ لأن (يقولون) جمع ، و (فى أنفسهم) جمع ، فكأن كلاً منهم كان يقول ذلك فى نفسه .

إذن : ألم يسأل واحد منهم نفسه : مَن الذى أعلم رسولَ الله بما فى نفسى ؟ ألاَ يدل ذلك على أن محمداً موصول بربه ، وأنه لا بُدَّ فاضحهم ، وكاشفٌ مكنونات صدورهم ، إذن : هذا غباء منهم .

والمتتبع لتاريخ اليهود والمنافقين فى المدينة يجد أن الإسلام لم يأخذهم على غرَّة ، إنما أعطاهم العهد وأمَّنهم ووسَّع لهم فى المسكن والمعيشة طالما لم يُؤذُوا المسلمين ، لكن بلغ رسول الله ﷺ أنهم يتناجوْنَ بالإثم والعدوان ، فبعث إليهم ونهاهم عن التناجى بالإثم والعدوان ، لكنهم عادوا مرة أخرى ، كما قال القرآن عنهم ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ (٨)﴾ [المجادلة]

إذن : لم يَبْقَ إلا المواجهة على حَدِّ قول الشاعر[١] :

أَنَاةٌ فإنْ لَمْ تُغْنِ عقَّبَ بَعْدهَا وَعيداً فإنْ لم يُغْنِ أغنَتْ عَزَائمهُ[٢]

لذلك يأتى جواب الشرط : ﴿لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ .. (٦٠)﴾ [الأحزاب]

فجواب الشرط : ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ .. (٦٠)﴾ [الأحزاب] من الإغراء ، وهو باب من أبواب الدراسات النحوية اسمه الإغراء ، ويقابله التحذير، الإغراء : أنْ تحمل المخاطب وتُحبِّبه فى أمر محبوب ليفعله ، كما تقول لولدك مثلاً : الاجتهادَ الاجتهادَ .

---

(١) الشاعر هو : إبراهيم بن العباس الصولى ، كاتب العراق فى عصره ، أصله من خراسان ، نشأ فى بغداد ، فكان كاتباً للمعتصم والواثق والمتوكل ، ولد ١٧٦ هـ وتوفى ٢٤٣ هـ ، وهو من شعراء العصر العباسى .

(٢) البيت من قصيدة له من بحر الطويل ، وانظر الأغانى للأصفهانى والأوائل لأبى هلال العسكرى (ص٤١٩) .

أما التحذير فأنْ تُخوِّفه من أمر مكروه ليجتنبه ، كما تقول : الأسدَ الأسدَ ، أو الكسلَ الكسلَ .

فمعنى ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ .. (٦٠)﴾ [الأحزاب] أى : نُسلِّطك عليهم ، ونُغريك بمواجهتهم والتصدِّى لهم ، فكأن هذه المواجهة صارتْ أمراً محبوباً يُغْرى به ؛ لأنها ستكون جزاءَ ما فزَّعوك وأقلقوك .

وما دمنا سنسلطك عليهم ، وما دمتم ستصيرون إلى قوة وشوكة تُغرى بعدوها ، فلن يستطيعوا البقاء معكم فى المدينة .

﴿ثُمَّ لا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلا قَلِيلاً (٦٠)﴾ [الأحزاب] أى : فى المدينة ، وكلمة ﴿إِلا قَلِيلاً (٦٠)﴾ [الأحزاب] يمكن أنْ يكون المعنى : قليل منهم ، أو قليل من الزمن رَيْثما يجدوا لهم مكاناً آخر ، يرحلون إليه مُشيَّعين بلعنة الله .

﴿مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً (٦١)﴾ [الأحزاب]

الملعون : المطرود من رحمة الله ، أو مطرودون من المدينة بعد أنْ كشف الله دخائلَ نفوسهم الخبيثة ؛ لذلك طردهم رسول الله من المسجد ؛ لأنهم كانوا من خُبْثهم ولُؤْمهم يدخلون المسجد ، بل ويُصلُّون فى الصف الأول ، يظنون أن ذلك يستر نفاقهم .

لكن رسول الله كان يطردهم بالاسم : يا فلان ، يا فلان[1] ، فكان ﷺ يعرفهم ، ولم لا وقد قال الله له : ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ .. (٣٠)﴾ [محمد]

---

(١) أورد القرطبى فى تفسيره (٨/٥٥١٥) أنه لما نزلت سورة « براءة » جمعوا ، فقال النبى ﷺ : « يا فلان قم فاخرج فإنك منافق ، ويا فلان قم » فقام إخوانهم من المسلمين وتولوا إخراجهم من المسجد . وانظر أيضاً (زاد المسير) لابن الجوزى (٣/٤٩٢) .

ومعنى ﴿أَيْنَمَا ثُقِفُوا .. (٦١)﴾ [الأحزاب] أى : وُجِدوا ﴿أُخِذُوا .. (٦١)﴾ [الأحزاب] أى : أُسروا ﴿وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً (٦١)﴾ [الأحزاب] ولاحظ المبالغة فى ﴿وَقُتِّلُوا .. (٦١)﴾ [الأحزاب] والتوكيد فى ﴿تَقْتِيلاً (٦١)﴾ [الأحزاب] يعنى : اقتلوهم بعنف ، ولا تأخذكم فيهم رحمة جزاءَ ما ارتكبوه فى حق الإسلام والمسلمين .

ولأن المنافق الذى طُبع على النفاق صارت طبيعته مسمومة مُلوّثة لا تصفو أبداً ، فالنفاق فى دمه يلازمه أينما ذهب ، ولا بُدَّ أنْ ينتهى أمره إلى الطرد من أى مكان يحل فيه .

لذلك ، فمع أن الله تعالى قطَّعهم فى الأرض أمماً ، إلا أن كل قطعة منهم فى بلد من البلاد لها تماسك فيما بينها ، بحيث لا يذوبون فى المجتمعات الأخرى فتظل لهم أماكن خاصة تُعرف بهم ، وفى كل البلاد تعرف حارة اليهود ، لكن لابد أنْ يكتشف الناس فضائحهم ، وينتهى الأمر بطردهم وإبادتهم ، وآخر طرد لهم ما حدث مثلاً فى ألمانيا .

وصدق الله حين قال فيهم : ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ (١٦٧)﴾ [الأعراف]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾﴾

بعد أن بيَّن الحق سبحانه نهاية أعدائه بالتقتيل وانتصار رسوله ﷺ ، أوضح أن هذا ليس شيئاً جديداً فى موكب الرسالات ، إنما هى

سنة مُتبعة ومتواترة ، وهل رأيتم فى موكب الرسالات رسولاً أرسله الله ، ثم خذله أو تخلى عنه ، وانتهى أمره بنصر أعدائه عليه ؟

والسنة : هى الطريقة الفِطْرية الطبيعية المتواترة التى لا تتخلَّف أبداً ، فالأمر إذا حدث مرة أو مرتين لا يسمى سُنة ، فالسنة إذن لها رتابة واستدامة .

فالمراد بالسنة هنا غَلَبة الحق على الباطل ﴿فِي الَّذِينَ خَلَوْا .. (٦٢)﴾ [الأحزاب] يعنى : الذين مَضَوْا من الأمم السابقة ، وما زالتْ سنة الله فى نصر الحق قائمة ، وستظل إلى قيام الساعة ؛ لأنها سنة .

﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً (٦٢)﴾ [الأحزاب] نعم لا تتبدل ولا تتغير ؛ لأنها سنة مَنْ ؟ سنة الله ، والله سبحانه ليس له نظير ، وليس له شريك يُبدل عليه ، أو يستدرك على حكمه بشىء .

بعد ذلك أراد الحق سبحانه أنْ يخبرنا أن المنهج الذى جاء به رسول الله ﷺ من ربه وفيه أوامره ، وفيه نواهيه ، وفيه سبل الخلاص من الخصوم ، هذا المنهج لا بُدَّ أنْ يُحترمَ ؛ لأنه سيُسلم الناس جميعاً إلى حياة أخرى يُستقبلون فيها استقبالاً ، لا ينفعهم فيه إلا أعمالهم .

حياة أخرى يعيشون فيها مع المسبِّب سبحانه ، لا مع الأسباب فإياكم أنْ تظنوا أن الله خلقكم ورزقكم وتنعمتُمْ بنعمه فى الدنيا ، وانتهت المسألة ، وأفلت من عقابه مَنْ خرج على منهجه ، لا بل تذكروا دائماً أنكم راجعون إليه ، ولن تُفلِتوا من يده .

﴿ يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ ﴾

سُئل رسول الله كثيراً عن الساعة ، والسؤال ظاهرة صحية إذا كان فى الأمر التكليفى ؛ لأن السؤال عن التكاليف الشرعية دليل على أن السائل آمن برسول الله ، وأحبَّ التكليف ، فأراد أنْ يبنى حركة حياته على أسس إسلامية من البداية .

فعلى فرض أن الإسلام جاء على أشياء كانت مُتوارثة من الجاهلية فأقرَّها الإسلام ، فيأتى مَنْ يسأل عن رأى الإسلام فيها حِرْصاً منه على سلامة دينه وحركة حياته .

لكن أراد الحق سبحانه أنْ يُهوِّن المسائل على الناس ، فقال سبحانه : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ .. ﴿١٠١﴾ ﴾ [المائدة]

وقال رسول الله ﷺ : « دعونى ما تركتكم ، فإنما أُهلك مَنْ كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم »[(١)] .

إذن : السؤال المطلوب هو السؤال عن الأمور التكليفية التى تهم المسلم ، حتى وإنْ كانت من أمور الجاهلية ، وقد أقرَّ الإسلام كثيراً منها ، فالدية مثلاً فى الإسلام جاءت من جذور كانت موجودة عند الجاهليين وأقرَّها الإسلام ، وقد أمر الله تعالى المسلم بأنْ يسأل عن

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٢/٢٤٧) ، ومسلم فى صحيحه (١٣٣٧) كتاب الحج ، وابن ماجه فى سننه (٢) من حديث أبى هريرة ، ولفظ الحديث : « ذرونى ما تركتكم ، فإنما هلك من كان قبلكم بسؤالهم واختلافهم على أنبيائهم ، فإذا أمرتكم بشىء فخذوا منه ما استطعتم ، وإذا نهيتكم عن شىء فانتهوا » .

مثل هذه المسائل فى قوله تعالى : ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٤٣)﴾ [النحل]

أما السؤال عن الساعة ، فالساعة أمر غيبى لا يعلمه إلا الله ، فهو سؤال لا جدوى منه ، لذلك لما سُئل رسول الله : متى الساعة ؟ قال للسائل : « وماذا أعددتَ لها »[1] فَأخذه إلى ما ينبغى له أنْ يسأل عنه ويهتمّ به .

وهذه الآية الكريمة ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ .. (٦٣)﴾ [الأحزاب] جاءت بعد معركة الإيذاء لله تعالى ، والإيذاء لرسوله وللمؤمنين به ، هذا الإيذاء جاء ممَّنْ لا يُؤمنون بالسماء ، ولا يؤمنون بالله ، ولا يؤمنون بالبلاغ عن الله بواسطة رسوله .

وإيذاء هؤلاء لله تعالى هو فى الحقيقة إيذاء لأنفسهم ؛ لأنه لا يصل إلى الله تعالى ، والله يريد لهم الخير ؛ لأنهم عباده وصَنْعته ، فحين يخرجون على منهجه فإنما يؤذون أنفسهم ، أما إيذاؤهم لرسول الله فقد آذوه ﷺ فى أهله وفى نفسه ، فقد تعرَّضوا له ﷺ بما يتأبَّى عنه أىّ إنسان كريم ، آذوْه بالقول وبالفعل ، ومع ذلك صبر ﷺ ، وصبر أصحابه ، وقد أوذوا فى أنفسهم وفى أموالهم .

والمتأمل يجد أن هذا الإيذاء مقصود وله فلسفة ، فقد أراده الله تعالى ليُمحِّص المؤمنين ، وليرى ـ وهو أعلم سبحانه ـ مَنْ يثبت على

---

(١) عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن أعرابياً قال لرسول الله ﷺ : متى الساعة ؟ قال له رسول الله ﷺ : « ما أعددت لها ؟ قال : حبَّ الله ورسوله . قال ﷺ : أنت مع من أحببت»، أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٦٣٩) ، والبخارى فى صحيحه (٦١٦٧ ، ٦١٧١) وفى لفظ عند البخارى أن الرجل قال : ما أعددتُ لها من كثير صلاة ولا صوم ولا صدقة ، ولكنى أحب الله ورسوله . فقال ﷺ : « أنت مع من أحببت » .

الإيمان ؛ لذلك قال تعالى : ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ (٢)﴾ [العنكبوت]

وسبق أن أوضحنا أن الإيمان ليس كلمةً تُقال ، إنما الإيمان مسئولية وعمل ، ولهذا السبب امتنع كفار مكة عن النطق بكلمة الإيمان ؛ لأنهم يعلمون حقيقتها ، وهم أهل بيان وفَهْم للأساليب وللمعانى .

وثبات سيدنا رسول الله وصبره هو والذين آمنوا معه دليل على أنهم أجرَوْا مقارنة بين هذا الإيذاء فى الدنيا من بشر له قدرة محدودة ، وإيذاء الله سبحانه فى الآخرة ، وهذا إيذاء يناسب قدرته تعالى ، ولا يمكن أنْ يفرّ منه أحدٌ .

إذن : نقول : إن للإيذاء فلسفةً مقصودة ، وإلا فقد كان من الممكن أن يأخذ الله أعداء دينه أَخْذ عزيز مقتدر ، كما أخذ قوم نوح بالطوفان ، وقوم فرعون بالغرق ، وكما خسف بقارون الأرض ، لكن أراد سبحانه أن يعذب هؤلاء بأيدى المؤمنين وبأيدى رسول الله ، وربما لو نزلت بهم أخذة عامة لقالوا : آية كونية كالزلازل والبراكين مثلاً ؛ لذلك قال تعالى مخاطباً المؤمنين : ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ ..(١٤)﴾ [التوبة]

ثم يُصبِّر الحق سبحانه نبيه ويُسلِّيه : ﴿ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٧٧)﴾ [غافر]

إذن : ردُّ الحق سبحانه على هذا الإيذاء جاء على نوعين : نوع فى الدنيا بأنْ ينصرَ اللهُ نبيَّه عليهم ، كما بشَّره الله بقوله : ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥)﴾ [القمر]

والآخر رَدٌّ أخروى يوم القيامة ؛ لذلك قال تعالى : ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ .. (٦٣)﴾ [الأحزاب]

والسؤال الذى سُئِلَه رسول الله ﷺ كان متوجهاً إلى أمرين : الأول : إعجازى لأنهم كانوا يعلمون من كتبهم وأنبيائهم بعض الأمور ، فيريدون أنْ يُحرجوا بها رسول الله حين يسألونه عنها ، فلم يجدوا جواباً ، وهم يعرفون أن رسول الله أُميٌّ لا يقرأ ولا يكتب ، ولم يجلس أبداً إلى مُعلِّم ، لكن الحق سبحانه كان يُسعف رسوله ويُعلمه الجواب ، فيجيب عليهم الجواب الصحيح ، فيموتون غيظاً ، ويتمحكون فى أىِّ مسألة ليثبتوا لأنفسهم أن محمداً لا يعلمها .

من ذلك مثلاً سؤالهم عن أهل الكهف : كم لبثوا ؟ فأجابهم الله تعالى : ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا (٢٥)﴾ [الكهف] فقالوا : نحن نعلم أنها ثلاثمائة ، فمن أين هذه الزيادة ؟ وجهلوا أن توقيت المناسك الإلهية فى الدين إنما يقوم على التقويم الهلالى لا على حركة الشمس ؛ لأن مُقْتضى ما تعطيه لنا الشمس أن نعلم بها بداية اليوم ونهايته ، لكن لا نعرف بها أول الشهر ولا آخره .

أما التوقيت العربى الهلالى ، فله علامة مميزة هى ظهور الهلال أول الشهر ، وإذا ما قارنْتَ بين التقويم الهلالى والتقويم الميلادى تجد أن كل سنة هجرية تنقص أحد عشر يوماً عن السنة الشمسية ، فالثلاثمائة سنة الميلادية تساوى فى السنة الهجرية ثلاثمائة وتسعة .

فكأنهم أرادوا تجهيل محمد ، فنبَّههم الله إلى أنهم هم الجهلة . وعجيب أن يعترض اليهود على هذا التوقيت ، مع أنه التوقيت العبادى لسيدنا موسى عليه السلام ، ألم يقل سبحانه : ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ..(١٤٢)﴾ [الأعراف]

إذن : فقوله تعالى : ﴿وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴿٢٥﴾﴾ [الكهف] فيه إعجاز أدائى بليغ ، يدل على أنَّ التسْع سنين إنما جاءتْ زيادةً من داخل الثلاثمائة ، وليستْ خارجة عنها .

ثم سألوه ﷺ عن رجل جوَّال ، فأنزل الله : ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِى الْقَرْنَيْنِ .. ﴿٨٣﴾﴾ [الكهف]

فكان ينبغى أن يلفتهم ذلك إلى صدق محمد ﷺ ، وأن يسألوا أنفسهم : من أين له هذا العلم ، وهو الأميُّ الذى لم يجلس مرة إلى مُعلِّم ؟

لذلك قلنا : إن الأُمية عَيْبٌ فى كل إنسان ، إلا أنها كانت شرفاً وميزة فى رسول الله بالذات ؛ لأنها تعنى فى حقِّ رسول الله أنه لم يُعلِّمه بشر كما اتهموه ، إنما علمه ربه .

كذلك كانت الأمة التى نزل فيها القرآن أمة أمية ، وهذا أيضاً شرف فى حقها ، فلو أن هذه الأمة كانت أمةَ علم وثقافة لقالوا عن الإسلام : إنه قفزة حضارية ، لكنها كانت أمة أمية يسودها النظام القبلى ، فلكل قبيلة قانونها ونظامها ، ولكل قبيلة رئيسها ، ومع ذلك خرج منهم مَنْ جاء بنظام عام يصلح لسياسة الدنيا كلها ، إلى أنْ تقوم الساعة ، وهذا لا يتأتَّى إلا بمنهج إلهى .

إذن : الأمية فى العرب شرف ، وعجزهم عن محاكاة القرآن ، والإتيان بمثله أيضاً شرف لهم ، فكوْن الحق سبحانه يتحدَّاهم بأسلوب القرآن دليل على عظمتهم فى هذا المجال ، وإلا فأنت لا تتحدَّى الضعيف إنما تتحدَّى القوى فى مجال التحدى ، فكأن تحدِّى الله للعرب شهادة منه سبحانه بأنهم أفصح الخَلْق ؛ لذلك جاءهم بمعجزة من جنس ما نبغوا فيه .

ثم يسأل اليهود رسول الله عن الساعة ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ.. (٦٣)﴾ [الأحزاب] وهم يسألون عن الساعة يعنى : عن يوم القيامة ؛ لأنهم ينكرونه ، ومن مصلحتهم ألاَّ يكون هذا اليوم ، حتى لا يقفوا موقف المساءلة والحساب على ما أجرموه فى الدنيا من ظلم وشرك وعربدة وسَفْكٍ للدماء ، ولَغْو فى أعراض الناس .

ولو بحث هؤلاء قضية القيامة والحساب بالعقل - لا بنصوص القرآن - لَوجدوا أنها أمر منطقى لا بُدَّ أنْ يحدث ، فمثلاً نحن عاصرنا الحزب الشيوعى فى روسيا سنة ١٩١٧ ، ورأينا كيف أخذوا الإقطاعيين والرأسماليين وعذَّبوهم ، وفعلوا بهم الأفاعيل ، وصادروا ممتلكاتهم جزاءً لهم على ظلمهم للناس ، وكنا نقول لهم : نعم هذا أمر منطقى أنْ تقتصَّ من الظالم ، لكن ما بال كثير من الظَّلمة الذين ماتوا أو لم تدركوهم وأفلتوا من قبضتكم ؟

بالله ، لو جاء شخص ودلّكم على مكان أحد الظلمة هؤلاء ، ألستم تحمدون له هذه المساعدة ؟ فكيف به لو قال : بل سأحضره وأحاسبه وأقتصّ منه ، أليست هذه إعانة لكم على مهمة الانتقام من الظالمين ؟

لذلك نقول : كان من الواجب أن يكون الشيوعيون أول الناس إيماناً بيوم القيامة وبالبعث والحساب ليتداركوا مَنْ أفلت من أيديهم .

شىء آخر : ألستم تضعون - فى أىِّ نظام من أنظمتكم الوضعية - القوانين المنظمة ؟ ما معنى القانون : القانون قواعد تحدد للمواطن ما له وما عليه ، أليس فى قوانينكم هذه مبدأ الثواب للمحسن ، والعقاب للمقصر ؟

إذن : كل مجتمع لا بُدَّ أن تكون فيه عناصر خارجة على نظامه ،

وتستحق العقوبة ، فمَن استطاع أنْ يُدلِّس على المجتمع ، وأنْ يدارى جريمته ما حظه من العقوبة ، وقد استشرى فساده وكَثُر ظلمه ؟

إذن : لا بُدَّ أنْ نؤمن بقدرة أخرى لا يَخْفَى عليها أحد ، ولا يُدلِّس عليها أحد ، ولا يهرب منها أحد ، قدرة تعرف الخفايا وتفضحها وتحاسب أصحابها . هذه القضية لا بُدَّ أنْ تسوقك إلى فطرية الإيمان بالله تعالى ، وأنه سبحانه خبير عالم ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي ..(٥٩)﴾ [الأنعام]

لماذا إذن تنكرون القيامة وأنتم فى أنظمتكم الدنيوية تُجنِّدون الجواسيس والمخابرات ، وتُحْصُون هَمْسَ الناس لمعرفة الذين يحتالون فى ألاَّ يراهم القانون ؟ أليس من فضل الله عليكم أنه سبحانه يعلم ما خَفِى عليكم ويقتصّ لكم من خصومكم ؟

فقضية القيامة والحساب واضحة بالفطرة ؛ لذلك تجد أن المنكرين لها هم الذين أسرفوا على أنفسهم ويخافون ما ينتظرهم من العقاب فى هذا اليوم ، ولا يملكون إلا إنكاره وعدم الاعتراف به ، وكأن هذا الهروب هو الحل .

وسورة الكهف تعطينا نموذجاً لهؤلاء ، وهو صاحب الجنة الذى قال : ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً ..(٣٦)﴾ [الكهف] بعد أنْ أسرف على نفسه وجحد نعمة الله عليه ، ولما تنبَّه وراجع فطرته قال : ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْراً مِّنْهَا مُنقَلَباً (٣٦)﴾ [الكهف]

فالتكذيب بيوم القيامة هو الأغلب والآكد والشكّ فى ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي .. (٣٦)﴾ [الكهف] يعنى : وعلى فرض أنِّى رُددْتُ إلى ربى يوم القيامة فسوف يكون لى عنده أفضل مما أعطانى فى الدنيا ، فكما أكرمنى هنا سيكرمنى هناك .

وهذا اعتقاد خاطىء وفَـهْم أحمق ، فالله تعالى لا يكرم فى الآخرة إلا مَنْ أكرم نفسـه باتباع منهجه فى الدنيا ، ومَـنْ لم يكرم نفسه هنا بمنهج الله لا يكرمه الله فى الآخرة .

لذلك كـثيـراً مـا نسـمع : دَعوْتُ فلم يُسـتـجب لى ، خـصوصـاً السيدات ، جاءتنى إحداهن تشـتكى أنها توجهت إلى الله بالدعاء ، ومع ذلك البنت لم تتـزوج والولد كذا والزوج كذا . فكنـت أقول لها (كـتر خيرك) أولاً أنك عـرفت أن لك رباً تفزعين إليه وقت الشدة كـما قال سبحانه : ﴿فَلَوْلا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا..(٤٣)﴾ [الأنعام]

إنما أسألـك : هل أنت أجبت اللهَ أولاً فيمـا طلبه منك كى تنتظرى منه أنْ يُجيـبك إلى ما طلبت ؟ أأجبت الله فى شعـرك هذا ؟ أأجبت الله فى (شفـايفك) وتغييـرك لخلْقة الله ؟ فكانت لا تجـد جواباً ، إلاَ أنْ تقول : والله أنا قلبى (صافى) ولا أؤذى أحداً ... إلخ .

إذن : أخذتم على الله أنكم دعـوتُم فلم يَسْتـجب لكم ، ولم تأخذوا على أنفسكم أنه سـبحانه دعاكم أولاً ونـاداكم فلم تستجيـبوا لندائه ، احرصوا أولاً على إجابة نداء الله ، وثقوا أنه سبحانه سيجيبكم .

نعـود إلى مـا كنا بصـدده من الـحـديث عن السـؤال فى القـرآن الكريم ، فسؤالهم عـن الساعة إمَّا ليتـأكد السائل أنها ستـحدث ، وإما لأنه يستبطئها ويريدها الآن .

ومادة السؤال جاءت كثيراً فى كتاب الله ؛ لأن القرآن لم ينزل على رسول الله جـملةً واحدة ، إنمـا نزل مُنجَّـماً حَسْب الأحـداث ليعطـيهم الفـرصـة للسـؤال ، وجـاء السـؤال إمـا لتـحـدى رسـول الله ، وإمـا للاستزادة من أحكام الله التى أنزلهـا على رسوله ﷺ ، وهذا جاء مِمَّنْ

عشقوا الإيمان ، فأحبوا أنْ تُبنى حركة حياتهم على هدى الإيمان .

حتى المسائل التى كانت لها جذور فى الجاهلية راحوا يسألون عنها ، لماذا ، مع أن الإسلام أقرها ؟ قالوا : لأنهم أرادوا أنْ يَبْنوا أعمالهم على العبادة ، لا على العادة الجاهلية .

والقرآن حينما عرض لهذه الأسئلة قال مرة : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى .. (٢٢٢) ﴾ [البقرة] فرسول الله ﷺ حينما سُئل هذا السؤال لم يَقُلْ : هو أذى ؛ لأن الجواب ليس من عنده ، إنما هو مُبلِّغ عن الله ، والله هو الذى يقول ، فقال ﴿ قُلْ هُوَ أَذًى .. (٢٢٢) ﴾ [البقرة] فكلمة قُلْ هذه من مقول الله تعالى ، وأنا أقولها كما هى .

لذلك نعجب مِمَّنْ ينادى بحذف كلمة (قُلْ) من القرآن ، بحجة أنها لا تضيف جديداً للمعنى ، فى حين أنها دليل على صدْق سيدنا رسول الله ﷺ ، ودليل على أن ما جاء به ليس من عنده ، إنما من عند الله ، وهو مُبلِّغ فحسب ، فربه قال له : قُلْ وهو يقولها كما هى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ .. (٢١٩) ﴾ [البقرة]

وفى موضع آخر : ﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ .. (٢١٥) ﴾ [البقرة]

لكن قُلْ تأتى مرة مقترنة بالفاء ، ومرة أخرى غير مقترنة بها ، فلماذا ؟ هذا مَلْمح إعجازى فى أداء القرآن ؛ لأن الجواب بقُلْ يعنى أن السؤال قد حدث بالفعل ، مثل ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ ..(١٨٩) ﴾ [الحج]

أما الجواب حين يقترن بالفاء ، فإنه يعنى وجودَ شرط ، فالسؤال لم يحدث بالفعل ، إنما سيحدث فى المستقبل ، كما فى قوله تعالى :

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (١٠٥)﴾ [طه]

والمعنى : إن سألوك فى المستقبل عن الجبال فقُلْ ينسفها ربى نَسْفاً ، فالجواب مُعَدٌّ مسْبقاً لسؤال لم يُسأل بَعْد ، لكنه لا بُدَّ أنْ يُسأل ، وأنْ يقع منهم ، وهذا وجه آخر من وجوه الإعجاز فى القرآن الكريم ، وإلا فقد كان بإمكانهم ألاَّ يسألوا ، لكن هيهات أنْ ينقض أحد كلام الله ، أو ينقض علمه تعالى .

ما دام الله قال فلا بُدَّ أنْ يقولوا ، وهذه المسألة أوضحناها فى قوله تعالى : ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (٢) سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (٣) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ (٥)﴾ [المسد]

فحكم الله تعالى على هذا الكافر العنيد أنه سيموت على كفره ، وسيكون مصيره وزوجته النار ، وقد سمع أبو لهب وامرأته هذه الآية ، وعرفوا صدْقها ، لكنه مع ذلك لم يؤمن ولو نفاقاً ، وقد آمن مَنْ هو أشدُّ منه كفراً وعناداً ، أمثال : عمرو بن العاص ، وخالد بن الوليد وغيرهما .

لكن الذى حكم وأخبر أنه لن يؤمن يعلم أنه سينتهى إلى هذه النهاية مهما حذَّره وأنذره ؛ لذلك كان أبو لهب مثالاً لغباء الشرك ، فلو أنه جاء فى مَحْفل من محافل قريش بعد نزول هذه السورة ، وقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله لأحرجَ رسول الله وكذَّب القرآن ، لكن لم يحدث شىء من هذا ، وما كان ليحدث بعد أنْ قال الله ، مع أنه حُرٌّ مختار .

وفى آية واحدة من كتاب الله وردت الإجابة عن السؤال غير مُصدَّرة بـ (قُلْ) ولا (فقل) ، وهى قوله سبحانه : ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ

عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ .. (١٨٦) ﴾ [البقرة] ، لماذا ؟

قالوا : لأن السؤال هنا عن ذات الله تعالى ؛ لذلك جعل الجواب منه سبحانه مباشرة بلا واسطة ؛ لأن المقامَ مقامُ سؤال عن قريب مباشر لك ، كذلك جاءتْ الإجابة مباشرة .

هذا عن السؤال ، أما عن الساعة التى سألوا عنها ، فكلمة الساعة حين نطلقها فى هذا العصر نريد بها الآلة المعروفة التى تحدد أجزاء الوقت من ليل أو نهار بالسوية ، فليس هناك ساعة أكبر من ساعة .

والعرب حينما اخترعوا الساعة أو المزولة ، كانت ساعة دقَّاقة بالماء ، وهى عبارة عن خزان يقطر منه الماء قطرةً قطرة ، وكلما نزلت قطرة الماء حرّكتْ عقارب الساعة بالتساوى ، وسُمِّيت ساعة بالذات ؛ لأن الساعة هى أقرب أجزاء الوقت لليل أو للنهار ، وبعد ذلك عرفنا الدقيقة والثانية والجزء من الثانية .

وقد حرص العرب بالذات على حساب الوقت ، وفكَّروا فى آلة تضبطه ؛ لأن الإسلام يقوم على عبادات موقوتة لا بُدَّ أنْ تُؤدَّى فى وقتها ، من هنا اخترعوا الساعة .

وكأن الحق سبحانه استعار فطرة البشر منهم ، حين سَمَّى القيامة (الساعة) فالساعة التى تنتظرونها هى آلة مواقيتكم فى الحركة ؛ لذلك قال شوقى رحمه الله :

دَقَّاتُ قَلْبِ المرْءِ قَائِلَةٌ لَهُ إنَّ الحيَاةَ دَقَائِقُ وثَوانِ

والحق سبحانه يقول : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ .. (٥٥) ﴾ [الروم] أى : القيامة ﴿ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ .. (٥٥) ﴾ [الروم] أى : ساعتكم وآلتكم التى تعارفتم عليها لضبط الوقت ، فجمع سبحانه بين

الساعة الفاصلة بالقيامة ، وبين الساعة التى هى جزء من الليل ، أو من النهار .

والمعنى : ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ .. (٦٣)﴾ [الأحزاب] يعنى : أتوجد أم لا توجد ؟ وإذا كانت تُوجَد ، قالوا : ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧٠)﴾ [الأعراف]

الحق سبحانه تكلَّم فى السؤال عن الساعة فى موضعين : هنا ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا (٦٣)﴾ [الأحزاب]

وفى سورة الشورى : ﴿اللَّهُ الَّذِى أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ (١٧)﴾ [الشورى]

ونلحظ أولاً أن كلمة (قريب) جاءت بدون تأنيث ، والساعة مؤنثة ، فلم يَقُلْ قريبة ، قالوا : لأن المراد وقت قيامها : وما يدريك لعل وقت قيامها قريب . وقال اللغويون[1] : إن (قريب) على وزن فعيل ، وهذا الوزن يستوى فيه المذكَّر والمؤنث ، كما فى قوله سبحانه : ﴿وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ (٤)﴾ [التحريم]

ثم فى الآية الأولى جاء بالفعل تكون ، فقال : ﴿تَكُونُ قَرِيبًا (٦٣)﴾ [الأحزاب] وفى الأخرى قال : (قريب) لماذا ؟ قالوا : لأن السؤال مرة يكون عن أصل الوجود ، ومرة يكون عن شىء تابع لأصل الوجود ،

---

(١) قال ابن منظور فى (لسان العرب ـ مادة : قرب) : « الواحد والاثنان والجميع فى ذلك سواء . وقوله تعالى : ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ (١٧)﴾ [الشورى] ذكَّر قريباً لأن تأنيث الساعة غير حقيقى ، وقد يجوز أن يُذكر لأن الساعة فى معنى البعث . وقال ابن السكيت : تقول العرب هو قريب منى ، وهما قريب منى ، وهم قريب منى ، وكذلك المؤنث : هى قريب منى ، وهى بعيد منى ، وهما بعيد ، وهُنَّ بعيد منى » .

وفى الدراسات النحوية نُدرِّس للتلاميذ كان وأخواتها ، وهى فعل مَاضٍ ناقص ، يرفع المبتدأ وينصب الخبر ، وقد تأتى كان تامة تكتفىً بفاعلها كما فى ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ .. (٢٨٠)﴾ [البقرة] يعنى : إنْ وُجِد ذو عُسْرة .

إذن : إنْ أردتَ الوجود الأول فهى تامة ، وإنْ أردتَ وجوداً ثانياً طارئاً على الوجود الأول فهى ناقصة ، كما لو قُلْتَ : كان زيد مجتهداً ، فأنت لا تتكلم عن الوجود الأول لزيد ، إنما تتكلم عن شىء طرأ على وجوده ، وهو اجتهاده ، وهذه هى كان الناقصة ؛ لأن الفعل ينبغى أنْ يدلَّ على زمن وحدث ، والفعل كان دلَّ على زمن فقط ، فاحتاج إلى خبر ليدل على الحدث ، فكأنك قُلْتَ : اجتهد زيد .. فى الزمن الماضى .

كذلك نقول فى الوجود الأول وكان التامة : « كان الله ولا شىء معه»[1] هذا هو الوجود الأعلى ، فإنْ أردتَ شيئاً آخر مُتعلِّقاً بهذا الوجود الأول تقول : ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (١٥٢)﴾ [النساء]

فالحق سبحانه فى هاتين الآيتين يردُّ على الذين يسألون عن الساعة ، إما لأنهم ينكرونها وجوداً ، أو يؤمنون بها ، ويسألون عن وقتها ، فقال مرة ﴿لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا (٦٣)﴾ [الأحزاب] ومرة ﴿لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ (١٧)﴾ [الشورى]

كلمة ﴿وَمَا يُدْرِيكَ .. (١٧)﴾ [الشورى] معنى الدراية : الإعلام ، كما نقول : هل دريْتَ بالموضوع الفلانى ، يعنى : علمتَ به .

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٤/٤٣١) ، والبخارى فى صحيحه (٣١٩١) من حديث عمران بن حصين ، وتمامه : « كان الله ولم يكن شىء غيره ، وكان عرشه على الماء ، وكتب فى الذكر كل شىء ، وخلق السماوات والأرض » .

وفى علم الأصول يُقسِّمون العلم إلى : علم دراية ، وعلم رواية ، فعلم الرواية كالذى يحفظ القرآن الكريم بالقراءات السبع أو العشر أو الأربعة عشر ، ومع ذلك ربما لا يعرف تفسيره ؛ لأن علْمه بالقرآن علْم رواية فحسب ، أما الذى تخصص فى تفسيره ومعرفة معانيه وأحكامه ، فهذا العلم يُعَدُّ علْم دراية ، فالدراية إذن علْم بالتفصيل ، والرواية علم بالإجمال الكلى .

ومن حكمته تعالى أن يكون حَفَظة القرآن ليسوا من العلماء - إلا فيما نَدُر - لأن العالم إذا ما وقف حفظه عند كلمة معينة ربما دعاه علْمه إلى التصرُّف فيها بلفظ آخر ، كما فى (فتبينوا ، فتثبتوا)[1] مثلاً ، أما الذى حفظ القرآن روايةً فحسب ، فإذا وقف أمام كلمة ناسياً لها ، فإنه لا يتجاوزها حتى يفتح الله عليه بما نسيه ، وبذلك حفظ الله كلامه .

ونلحظ أن هذا الفعل جاء بصيغة المضارع ﴿وَمَا يُدْرِيكَ .. (١٧)﴾ [الشورى] وجاء بصيغة الماضى ﴿وَمَا أَدْرَاكَ .. (١٤)﴾ [المرسلات] ولكل منهما مدلول ، فساعةَ يقول سبحانه ﴿وَمَا يُدْرِيكَ .. (١٧)﴾ [الشورى] يعنى : لا وسيلةَ إلى أنْ يُعْلمك أحد بها أبداً ، لا فى الحال ، ولا فى الاستقبال . أما ﴿وَمَا أَدْرَاكَ .. (١٤)﴾ [المرسلات] فتدل على أنه نفى أنْ يعلمه أحد قبل الآن ، ومن الممكن أنْ نعلمه نحن .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (٢٦) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ (٢٧) لا تُبْقِي وَلا تَذَرُ (٢٨)﴾ [المدثر]

وقال : ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ (١٤) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (١٥)﴾ [المرسلات]

---

(١) يقول تعالى : ﴿يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا .. (٩٤)﴾ [النساء] .

وقال : ﴿ الْحَاقَّةُ (١) مَا الْحَاقَّةُ (٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ (٣) كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ (٤) ﴾ [الحاقة]

وقال : ﴿ الْقَارِعَةُ (١) مَا الْقَارِعَةُ (٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ (٣) يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ (٤) ﴾ [القارعة]

وقال : ﴿ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (١١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (١٢) فَكُّ رَقَبَةٍ (١٣) أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (١٤) ﴾ [البلد]

وقال : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ (٨) فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ (٩) وَمَا أَدْرَاكَ مَاهِيَهْ (١٠) نَارٌ حَامِيَةٌ (١١) ﴾ [القارعة]

وقال : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (١٧) ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (١٨) يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ (١٩) ﴾ [الانفطار]

وقال : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (٢) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ (٣) ﴾ [القدر]

وهكذا فى كل (وَمَا أَدْرَاكَ) تعنى : أنك لم تكُنْ تعرفه من قبل ، لكن سيخبرك الله به ، أما صيغة ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ .. (٦٣) ﴾ [الأحزاب] فتعنى أن هذا الشىء المبهم سيظل كذلك مُبْهماً لا يطلعك الله عليه ، ومن هذه الأمور وقت قيام الساعة ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا (٦٣) ﴾ [الأحزاب]

ولم يخبر الحق سبحانه عن وقتها ؛ لأن الإبهام قد يكون أوضح البيان ، فالله تعالى أبهم عنَّا ساعة الموت ، فلا يدرى أحد منا متى يموت ، وهذا الإبهام جعلك تنتظره فى كل لحظة من لحظات حياتك ، فالحقيقة أنه بهذا الإبهام أوضحه كل الإيضاح .

كذلك أبهم الله مثلاً ليلة القدر فى العشر الأواخر من رمضان ؛ لأنه سبحانه لا يريدك مُتعبِّداً ليلة واحدة ، إنما يريدك مُتعبِّداً طوال هذه العشر لتستزيد من الثواب وتحب العبادة لذاتها لا لمجرد الثواب عليها .

وكذلك أخفى الله تعالى عنا وقت الساعة ، لكى نتوقعها فى كل وقت ، وننتظرها كل لحظة ، وهذا أدْعى للاستقامة والخوف من المعصية ، ومن أدراك أنْ تقومَ الساعة وأنت على معصية الله ، إذن : الإبهام هنا عَيْن البيان .

وهو مقصد من مقاصد الحق سبحانه ؛ ليشيع الحكم فى كُلِّ زمان ، وإلا لو عرف الإنسانُ أجَله لسار فى الدنيا كما نقول (على حَلِّ شعره) يُعربد فيها كما يشاء ، ثم يتوب قبل الموت ؛ لذلك لم يجعل الله تعالى للموت سبباً ، فحين لا ترى سبباً قُلْ مات لأنه يموت ، وصدق مَنْ قال : والموت من دون أسباب هو السبب .

ورحم الله شوقى حين قال فى الموت :

فى الموْتِ ما أعْيَا وفى أسْبابه ... كلُّ امْرى رهن بطىِّ كتَابه
أسَد لَعَمرك مَنْ يموتُ بظُفْره ... عنْد اللقاء كمنْ يموتُ بنَابه
إنْ نامَ عنكَ فكُلُّ طبٍّ نافعٌ ... أَوْ لَم يَنَمْ فالطبُّ منْ أذْنَابه

وكثيراً ما نرى المريض يموت بسبب حقنة أعطاها له الطبيب ، أو عملية جراحية غير مُوفَّقة .

وصدق مَنْ قال :

سُبْحانَ مَنْ يرِثُ الطبيبَ وطِبَّه ... ويُرى المريضَ مصَارعَ الآسينَا

لكن مع ذلك ، يجعل الله لها علامات لُطْفاً بنا ورحمة ، علامات

صغرى وعلامات كبرى ؛ لذلك يقول سبحانه عن الساعة : ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا .. (١٥)﴾ [طه]

يعنى : قاربْتُ أنْ أزيل خفاءها بالعلامات الصغرى ، والعلامات الكبرى ، لأنها أصبحتْ قريبة ، وقلنا : إن الهمزة فى (أخفيها) همزة إزالة يعنى : أزيل خفاءها ، مثل همزة (أعجم) تقول : أعجم الكتاب أى : أزال عُجْمته وإبهامه بوضع النقط على الحروف ، ومنه سُمِّيتْ الكتب التى تُوضِّح معانى المفردات : معاجم .

وقد تكون الإزالة بالتضعيف مثل (قشَّرت البرتقالة) يعنى : أزلْتُ قشْرتها .

فمعنى ﴿وَمَا يُدْرِيكَ .. (١٧)﴾ [الشورى] أى : لا أحدَ سيخبرك بها ولا أنا ، وكما ضَنَّ الحقُّ بعلمها على الخَلْق جميعاً فقد ضَنَّ على نبيه وحبيبه محمد ، ولو كان مُخبراً بها لأخبر نبيه ، حتى ولو سراً بينه وبينه ، دون أنْ يُبلِّغ الناسَ بها ، لكن أبداً لا هذه ولا هذه ؛ لذلك كان سيدنا رسول الله إذا سُئِلَ عن الساعة قال : « ما المسئول عنها بأعلم من السائل »[1] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا (٦٤) خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (٦٥)﴾

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٠) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٠) كتاب الإيمان من حديث أبى هريرة رضى الله عنه فى حديث جبريل أنه قال لرسول الله ﷺ وهو فى هيئة رجل : يا رسول الله متى تقوم الساعة ؟ قال ﷺ : « ما المسئول عنها بأعلم من السائل ».

لعنهم يعنى : طردهم من رحمته تعالى ، وأبعدهم أى : فى الدنيا ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا (٦٤)﴾ [الأحزاب] يعنى نارًا تستعر وتتأجج وتتوهج ، وهذا فى الآخرة فى اليوم الذى قال الله فيه : ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ (٣٠)﴾ [ق]

وهذه النار المتأججة باقية دائمة لا تنتهى ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا .. (٦٥)﴾ [الأحزاب] وسمعنا بعض العلماء يقولون عن الأبدية أنها ذُكِرَتْ فى كل الآيات التى تحدثتْ عن نعيم الجنة ، لكنها لم تُذكر فى عذاب الكفار يوم القيامة .

وصاحب هذا القول لم يستقرىء كتاب الله جيداً ، فقد ذُكر هذا اللفظ : ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا .. (٦٥)﴾ [الأحزاب] فى موضعين : أحدهما هذا الذى نحن بصدده ، والآخر فى سورة الجن فى قوله سبحانه : ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا (٢٣)﴾ [الجن]

وهذا مظهر من مظاهر رحمة الله تعالى بعباده أن يأتى لفظ التأبيد فى كل آيات الجنة ، ولا يأتى إلا فى موضعين لأهل النار ، ذلك لأن رحمة الله سبقتْ غضبه ، فاقتضى ذلك أنْ يُبشِّر المؤمنين بتأبيد النعيم ودوامه .

أما فى جزاء الكافرين ، فيقول : ﴿خَالِدِينَ فِيهَا .. (٦٥)﴾ [الأحزاب] ولا يذكر لفظ التأبيد ، لعل ذلك يحنّن قلوب هؤلاء ، ويعطفهم إلى طريق الله الرحيم بهم .

وذكر لفظ التأبيد فى هاتين الآيتين ليحقق المبدأ ويُقرِّره فحسْب ، ومن رحمته تعالى أن تسبق رحمته فى البشارة ، وتتلطف بالنذارة .

فهذه الحكمة الإلهية مقصودة ، وكانت تُؤتى ثمارها المرجوة ،

فكانت باباً لإيمان الكثيرين من الكفار ، وسبق أنْ ذكرنا قصة سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ لما جاءه ضيف وطرق بابه ، فسأله عن دينه ، فلما علم أنه غير مؤمن أغلق الباب فى وجهه ، فانصرف الرجل ، لكن سرعان ما عاتب الله تعالى نبيه إبراهيم فى ذلك وقال له : يا إبراهيم ، لقد وَسِعْتُه طوال حياته فى مُلكى وهو كافر بى ، أتريد أنْ يُغيِّر دينه فى ليلة تستضيفه فيها .

فهرول إبراهيم ـ عليه السلام ـ حتى لحق بالرجل ، وأعاده إلى ضيافته ، فقال الرجل : ألم تردَّنى عن بابك منذ قليل ؟ قال : بلى ، ولكن عاتبنى ربى فيك ، فقال : نعْم الربُّ رَبٌّ يعاتب أولياءه فى أعدائه ، أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنك رسول الله .

وهم فى خلودهم فى النار ﴿لاَّ يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلا نَصِيراً (٦٥)﴾ [الأحزاب] أى : مالكاً يتولَّى أمرهم ﴿وَلا نَصِيراً (٦٥)﴾ [الأحزاب] ينصرهم أو يدافع عنهم .

﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولاَ (٦٦)﴾

بعد أن ذكر الحق سبحانه الأبدية التى ستكون للكفار فى النار يذكر وَصْفاً للحالة التى سيكونون عليها فى النار ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ .. (٦٦)﴾ [الأحزاب] التقليب معناه تغيير الأمر وتصريفه من حال إلى حال ، ومنه قوله تعالى : ﴿لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ (١٩٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٩٧)﴾ [آل عمران]

يعنى : أسفارهم ونشاطهم فى حركة التجارة بين الشام واليمن ، وما يترتب على هذه الحركة من أموال وثروات .

فقوله : ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ .. (٦٦)﴾ [الأحزاب] أى : تقلِّبهم الملائكة ، فكلما نضج جانب قلبوهم على الجانب الآخر كما نُقلِّب نحن (سيخ الكباب) على النار لتستوعبه كله ، فيتم نُضْجه .

وخَصَّ الوجه ، لأنه سمَة الإعلام بالشخص ، وأشرفُ أعضائه وأكرمها ، ومنه أُخذتْ الوجَاهة والوجيه ، وكلها تدل على الشرف ، ونظراً لأنه أشرف الجوارح ، فالجوارح كلها تحميه وتدافع عنه ، وسبق أنْ قُلْنا : لو أن سيارة أسرعتْ بجوارك ، ولطختْ ثيابك ووجهك بالوحل مثلاً ، ماذا تفعل ؟ أولاً : تنشغل بوجهك وتزيل ما أصابه من أذىً ، ثم تلتفت إلى ثيابك .

ولتعلم أهمية الوجه ومنزلته ، اقرأ قوله تعالى : ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .. (٢٤)﴾ [الزمر] فمنْ شدَّة العذاب يتقيه بوجهه الذى هو أشرف أعضائه .

أو : أن معنى التقليب من عذاب إلى عذاب ، وقد أعطانا الحق سبحانه صوراً متعددة لوجوه الكافرين في النار ، والعياذ بالله ، فقال مَرَّةً : ﴿تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ .. (٦٠)﴾ [الزمر]

وقال : ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ[1] (٤٠) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ[2] (٤١) أُوْلَـئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ (٤٢)﴾ [عبس]

وقال : ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ[3] (٢٤) تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ (٢٥)﴾ [القيامة]

---

(١) الغبرة : ما دقَّ من التراب ، قال تعالى : ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤٠)﴾ [عبس] أى : عليها غبار وتراب كناية عن الذل والشقاء . [القاموس القويم ٢/٤٧] .

(٢) القترة : شبه دخان يغشى الوجه من شدة الكرب . [القاموس القويم ٢/١٠٠] ، والقترة : غبرة يعلوها سواد كالدخان . [لسان العرب ـ مادة : قتر] .

(٣) بسر : أظهر العبوس ونظر بكراهية وكلح وتغيَّر ، وقوله تعالى : ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ (٢٤)﴾ [القيامة] كالحة عابسة كناية عن الهم والغم والخوف الشديد . [القاموس القويم ١/٦٦] .

فالوجه هنا لا يأخذ صورة واحدة ، إنما يأخذ ألواناً متعددة وأحوالاً شتى ، تدلُّ على تنوع ما يتعرضون له من العذاب والإيلام ، والوجه هو الدليل الأول على صاحبه ، والمترجم عمَّا بداخله ، فحين يتغير لك صاحبك مثلاً تلحظ ذلك على وجهه ، فتقول : ما لك تغيَّر وجهك من ناحيتى ؟ أو لماذا تقلَّب وجهُكَ عنى ؟

وهؤلاء حالَ تقلُّب وجوههم فى النار ، يقولون : ﴿ يَـٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا ﴿٦٦﴾ ﴾ [الأحزاب] وهم الذين كانوا بالأمس يُؤذون الله ، ويؤذون الرسول ، ويؤذون المؤمنين .

كلمة ﴿ يَـٰلَيْتَنَآ .. ﴿٦٦﴾ ﴾ [الأحزاب] كلمة تمنٍّ ، وهو لَوْن من الطلب تتعلق به النفس وتريده ، لكن هيهات ، فهو عادةً يأتى فى المُحَال ، وفي غير الممكن ، كما جاء فى قول الشاعر :

أَلاَ ليْتَ الشباب يَعُودُ يَوْماً فَأُخبرهُ بما فَعل المشيبُ

وقول الآخر :

لَيْتَ الكَوَاكِب تَدْنُو لِى فَأَنظمُهَا عُقُودَ مَدْحٍ فَمَا أَرْضَى لكُمْ كَلمى

فالشباب لا يعود ، والكواكب لا تدنو لأحد ، لكنها أُمنية النفس ، كذلك هؤلاء يتمنَّوْنَ أنْ لو كانوا أطاعوا الله وأطاعوا رسول الله ، لكن هيهات أنْ يُجدِى ذلك ، فقد فات الأوان .

ثم يذكر الحق سبحانه المقابل ، فهم ما أطاعوا الله وما أطاعوا رسول الله ، لكن حجتهم :

﴿ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾ ﴾

السادة : جمع السيد ، وهو الآمر المنفِّذ على غيره ، ولا يغير عليه أحد . والكبراء : هم الذين يأخذون منازل فى قومهم ، على قَدْر ما يُؤدُّون لهم من خدمات ، فسيد القوم أو كبير القوم لا يتبوأ هذه المنزلة من فراغ ، إنما من مواهب وإمكانات تؤهله لهذه المنزلة ؛ لذلك لا يجد غضاضة فى أنْ يقول له الناس : يا سيدى . لأنه دفع ثمن هذه السيادة وهذا هو السيد الحقيقى .

وقد تُؤخَذ السيادة بالقوة والجبروت والقهر ، دون أن يُقدِّم السيدُ شيئاً يَسُودُ به قومه ، وهذا تلصُّص على السيادة يبغضه الناس ؛ لذلك فإن الشرع الإسلامى لم يغفل هذه السيادة الحقيقية ، ولم يغفل وجاهة الناس ومنزلتهم ، فقيَّم ذلك كله مالياً فى شركة سماها شركة الوجوه[1] ، فرأس مالى فى الشركة أموال ، ورأس مالك وجاهتك ومحبة الناس لك ومنزلتك فى المجتمع .

والناس يُحبُّون هذه السيادة الحقَّة التى أخذها صاحبها بحقها ؛ يحبونها لأنهم ينالون خيرها ، وينتفعون بها على خلاف السيادة المسروقة التى أخذها صاحبها عُنْوةً ، فهم لا يستفيدون منها بشىء ، بل هى سيادة تضرُّهم ، وتأكل خيراتهم .

لذلك قلنا فى العبودية : إنها كلمة نكرهها ، إنْ كانت عبودية بشر لبشر ؛ لأنها عبودية تعطى خير العبد لسيده ، إنما العزّ كله فى أنْ تكون العبودية لله تعالى ، حيث يأخذ العبد خَيْر سيده .

وتأمل كيف كانت العبودية شرفاً وتكريماً لسيدنا رسول الله حينما

---

(١) شركة الوجوه : هى أن يشترى اثنان فأكثر من الناس دون أن يكون لهم رأس مال اعتماداً على جاههم وثقة التجار بهم ، على أن تكون الشركة بينهم فى الربح فهى شركة على الذمم من غير صنعة ولا مال ، وهى جائزة عند الحنفية والحنابلة ؛ لأنها عمل من الأعمال . وأبطلها الشافعية والمالكية ؛ لأن الشركة إنما تتعلق بالمال أو العمل ، وهما هنا غير موجودين . قاله الشيخ سيد سابق فى « فقه السنة » (٣/٢٩٦) .

خاطبه ربه بقوله : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا .. (١) ﴾ [الإسراء] فعبودية محمد لله هى التى أوصلته إلى هذه المنزلة التى لم يصل إليها بشر سواه .

وصدق الشاعر[1] حين قال :

حَسْبُ نَفْسِى عِزّاً بأنِّى عَبْدٌ ... يَحْتَفِى بِى بلاَ مَوَاعِيدَ رَبُّ
هُوَ فِى قُدسِهِ الأعَزِّ وَلكِنْ ... أَنَا أَلْقَى مَتَى وأَيْنَ أُحِبُّ

فإنْ أردْتَ أنْ تقابل ربك ، فالأمر فى يدك ، فأنت تحدد مكان المقابلة وزمانها وموضوعها ، فى الشارع ، فى البيت ، فى العمل ، فى المسجد مجرد أنْ تتوضأ وتقول : الله أكبر تصبح فى حضرة ربك ، ثم أنت الذى تُنهى المقابلة إنْ شئتَ ، وربك عز وجل لا يملُّ حتى تملُّوا . فأىُّ عزٍّ فوق هذا ؟

فى حين أنك إنْ أردتَ أنْ تقابل رئيساً مثلاً أو وزيراً فَدُون هذا اللقاء عقبات ومصاعب ، وليس لك من أمر هذا اللقاء شىء ، فهو الذى يحدد لك الزمان والمكان ، حتى ما تقوله ، وهو الذى يُنهى المقابلة .

أنت فى عبوديتك لله تعالى ، ربُّك هو الذى يطلبك لحضرته ، ويغضب إنْ دعاك ولم تُجِبْ ، فنِعْم الرب ربُّك ، ونِعْمتْ العبوديةُ عبوديتُك له سبحانه .

وهنا يُلْقِى الكفار باللائمة على سادتهم وكبرائهم ﴿ إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاْ (٦٧) ﴾ [الأحزاب] ويريدون الانتقام منهم ، وأنْ يُنفِّسوا عن أنفسهم بأنْ يروهم فى العذاب جزاءَ ما أوقعوهم فى الشرك ، وزيَّنوا لهم المعصية .

فيقولون : ﴿ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ .. (٦٨) ﴾ [الأحزاب] أى :

---

(١) من شعر الشيخ رحمه الله .

عذاب مضاعف ؛ لأن ضلالهم كان كذلك مُضَاعفاً ، فقد ضلُّوا فى أنفسهم ، وأضلُّوا غيرهم .

وفى موضع آخر يحكى لنا القرآن قول الكافرين يوم القيامة : ﴿ رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلاَّنَا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الأَسْفَلِينَ (٢٩) ﴾ [فصلت]

وفى آيات كثيرة يحكى لنا القرآن حوارات تدور بين الكافرين ، يُلْقِى كل منهم التهمة على الآخر ، كما حكى عن إبليس قوله : ﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٢) ﴾ [إبراهيم]

ولم يكتفوا بمضاعفة العذاب لسادتهم ، إنما طلبوا لهم اللعن ، واللعن الكبير ﴿ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا (٦٨) ﴾ [الأحزاب] فاللعن لأنهم ضلُّوا فى ذواتهم ، وينبغى أن يكون كبيراً ؛ لأنهم أضلوا غيرهم .

ونلحظ هنا أن كل نداء للرب - تبارك وتعالى - يأتى دائماً بغير أداة النداء ، لماذا ؟ قالوا : لأن النداء له أدوات تختلف باختلاف المسافة بينك وبين المنادى ، والنداء طلب الإقبال ، فإنْ كان المنادى بجوارك تقول : محمد افعل كذا ، فإنْ كان بعيداً عنك تقول : أمحمدُ . والأبعد منه : يا محمد . والأبعد : أيا محمد . وهذه الأدوات مبنية على مَدِّ الصوت بحسب المسافة .

إذن : ماذا تقول حين تنادى ربك وإنْ لم تكُنْ أنت قريباً من الله ، فالله قريب منك ؟ لا تستخدم أداة النداء لا للقريب ولا للبعيد ، لذلك ورد فى القرآن لفظ (ربّ) منادى فى خمس وستين آية بدون أداة

نداء ، أولها قول سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ : ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا آمِنًا .. (١٢٦)﴾ [البقرة]

إلى قول نوح ـ عليه السلام ـ : ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ .. (٢٨)﴾ [نوح]

ويكفي في هذا القُرْب قول الله تعالى : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (١٦)﴾ [ق]

لذلك لما سُئل سيدنا رسول الله ﷺ : أقريبٌ ربُّنا فنناجيه ؟ أم بعيد فنناديه[1] ؟ فأنزل الله : ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ .. (١٨٦)﴾ [البقرة]

إذن : فالله تعالى قريب منا بالفعل ، وإنْ حدث بعد فمنك أنت ، وأكثر ما يكون العبد قُرْباً من الله حين يكون مضطراً ، حتى إنْ كان بعيداً عن الله قبل الاضطرار .

وفي آيتين فقط من كتاب الله نُودي الربُّ ـ تبارك وتعالى ـ بأداة النداء (يَا) الأولى : ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَـٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا (٣٠)﴾ [الفرقان]

والأخرى : ﴿وَقِيلِهِ يَـٰرَبِّ .. (٨٨)﴾ [الزخرف]

وهذان الموضعان حكاية عن كلام النبي ﷺ ، فلماذا لم تأت أداة النداء إلا من محمد ﷺ في نداء ربه ؟

---

(١) أورده السيوطي في أسباب النزول (ص ٣٠) وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه وأبي الشيخ وغيرهم من طرق من حديث معاوية بن حيدة قال : جاء أعرابي إلى النبي ﷺ ، فقال : أقريب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه ؟ فسكت عنه ، فأنزل الله ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ .. (١٨٦)﴾ [البقرة] .

قالوا : لأن سيدنا رسول الله كان شديد الحرص على هداية قومه ونُصْرة دعوته ، حتى خاطبه ربه بقوله : ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣) ﴾ [الشعراء]

وقد مَرَّ رسول الله بمواقف صعبة لدرجة جعلَتْه يستبطىء نصر الله ، فالله تعالى أنزل عليه : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. (٥١) ﴾ [غافر] ومع ذلك زلزل رسول الله والذين آمنوا معه كما قال سبحانه : ﴿ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ.. (٢١٤) ﴾ [البقرة] فخاف ﷺ أن يكون بعُد عن ربه ، وهذا البُعْد ما هو إلا مظنّة من رسول الله ، أو اتهام للنفس .

فلما ذهب ﷺ يدعو ربه ويشتكى إليه أنَّ قومه هجروا القرآن نادى ربه من منزلة البعيد ، فقال : (يا رب) وكأنه ﷺ ظنَّ فى نفسه التقصير أو الفشل فى مهمته ورأى أن ذلك يُبعده عن ربه ، لكن أنصفه ربه وأكَّد نداءه ، بل وأقسم به ، فقال الحق سبحانه : ﴿ وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَٰؤُلاءِ قَوْمٌ لاَّ يُؤْمِنُونَ (٨٨) فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٨٩) ﴾ [الزخرف]

أى : أقسم بقولك يا محمد : ﴿ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا (٣٠) ﴾ [الفرقان] والحق سبحانه يُقسم بما يشاء على ما يشاء ، يُقْسم بالملائكة وبالجماد ، يقسم بالنبات ، لكن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ لم يُقْسم بأحد من الخَلْق إلا برسول الله فى قوله تعالى : ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٢) ﴾ [الحجر]

أى : وتعميرك ، أو وحياتك يا محمد .

وكما أقسم سبحانه بحياة نبيه محمد أقسم بقوله ، فقال سبحانه : ﴿ وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَٰؤُلاءِ قَوْمٌ لاَّ يُؤْمِنُونَ (٨٨) ﴾ [الزخرف]

ثم يخاطب الحق سبحانه عباده المؤمنين ، فيقول تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾ ﴾

بعد أن تكلم الحق سبحانه عن الذين آذوا الله ، وآذوا رسول الله ، وآذوا المؤمنين دَلَّ على أن المسألة ليست تعصُّباً لمحمد ، إنما هذا مبدأ سائد فى كل رسل الله ، وليس معنى منع إيذاء محمد أن تؤذوا غيره من إخوانه الرسل ، فقال سبحانه : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا .. (٦٩) ﴾ [الأحزاب]

وموسى - عليه السلام - كانت له فى رحلة دعوته علاقتان : علاقة مع الفراعنة ، وعلاقة مع بنى إسرائيل ، ولم يكُنْ موسى - عليه السلام - رسولاً إلى الفراعنة ، إنما أُرسل إلى بنى إسرائيل ؛ لذلك قال موسى وهارون لفرعون : ﴿ إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِى إِسْرَائِيلَ وَلا تُعَذِّبْهُمْ .. (٤٧) ﴾ [طه] فهدفه تخليص بنى إسرائيل من استعباد فرعون .

أما دعوته لفرعون إلى الإيمان بالله وإظهار المعجزة أمامه لعله يؤمن ، فجاءت على هامش دعوته الأساسية لبنى إسرائيل ، ومع ذلك لم يَسْلم موسى عليه السلام من إيذاء فرعون ، فقال عنه ﴿ سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٢٤) ﴾ [غافر]

وقال : ﴿ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (٢٧) ﴾ [الشعراء]

وقال : ﴿ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَـٰذَا الَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلا يَكَادُ يُبِينُ (٥٢) ﴾ [الزخرف]

وطبيعى أنْ يُؤْذَى موسى عليه السلام من فرعون ، وقد جاء ليبطل ألوهيته المزعومة ، لكن كيف يُؤْذَى من بنى إسرائيل ، وهو الذى جاء لينقذهم من قبضة فرعون ، ومما كانوا فيه من العذاب والاستعباد ؟

قال العلماء : إن بنى إسرائيل آذوا موسى حين آذوا مَنْ بعثه ، الله سبحانه وتعالى ، فقالوا له : ﴿أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً .. (١٥٣)﴾ [النساء]

وقالوا : ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ .. (١٨١)﴾ [آل عمران]

وآذَوْا موسى حين قالوا معترضين على ما رزقهم الله من المنِّ والسَّلْوى ، فقالوا : ﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ..(٦١)﴾ [البقرة]

ومعلوم أن المنَّ هو سائل يشبه العسل ، يتساقط مثل الندى فى الصباح من الأشجار ، والسَّلْوى طائر يشبه السّمان يسوقه الله إليهم دون تعب منهم ، لكنهم قوم لا يؤمنون بالغيب ، ولا يريدون هذا الطعام الجاهز ، فهم يريدون شيئاً محسوساً يزرعونه ، ويُعدونه بأنفسهم .

ثم آذَوْا موسى عليه السلام فى شخصه ، حين اتهموه بقتل أخيه هارون حين صَعَدا الجبل[1] ، ومات هارون هناك ، فقالوا : إن موسى حقد على أخيه فقتله ، فجعل الله الملائكة تحمل جسد هارون وتمرُّ به

---

(١) هذا القول قاله على بن أبى طالب فيما أخرجه ابن أبى حاتم وذكره ابن كثير فى تفسيره (٣/٥٢٠) فى تفسير الآية ، قال : « صعد موسى وهارون الجبل ، فمات هارون ، فقال بنو إسرائيل لموسى عليه السلام : أنت قتلته ، كان ألين لنا منك ، وأشد حياء فآذوه من ذلك فأمر الله الملائكة فحملته فمروا به على مجالس بنى إسرائيل فتكلمت بموته ، فما عرف موضع قبره إلا الرخم ، وإن الله جعله أصم أبكم » .

على بنى إسرائيل وهو سليم لا جُرْحَ فيه ، وهذا معنى قوله تعالى : ﴿فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا .. (٦٩)﴾ [الأحزاب]

وقال آخرون : بل اتهموا موسى عليه السلام بمرض فى جسده ؛ لأنه عليه السلام كان شديد الحياء ، ستِّيراً ، يحتاط فى ستر نفسه عند استحمامه وعند قضاء حاجته ، فقالوا : ما فعل ذلك إلا لعيب يريد أنْ يستره .

ومنهم مَنْ قال : به برص . ومنهم مَنْ تجرَّأ واتهمه بعيب فى أعضائه التناسلية ، فشاء الله أنْ يبرئه مما قالوا ، فنزل ذات يوم النهرَ ليستحم ، فأمر الله حجراً فأخذ ثيابه بعيداً عنه ، فجرى موسى عليه السلام خلف الحجر وهو يقول : ثوبى حجر ، ثوبى حجر فرأوه مُبرأً من العيوب التى اتهموه بها[1] .

أو : أن قارون لما حصلتْ الخصومة بينه وبين موسى عليه السلام استأجر امرأة بغياً ، وقال لها: اتهمى موسى على مَشْهد من الناس ، فشاء الله أنْ يجتمع الناس وتنطق هى وتقول : قارون فعل كذا وكذا ، فبرَّأه الله بذلك[2] .

---

(١) عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ : « إن موسى كان رجلاً حيياً ستيراً لا يُرى من جلده شىء استحياء منه ، فآذاه من آذاه من بنى إسرائيل ، فقالوا : ما يستتر هذا التستر إلا من عيب جلده : إما برص ، وإما أدرة ، وإما آفة . وإن الله أراد أن يبرئه مما قالوا لموسى ، فخلا يوماً وحده فوضع ثيابه على الحجر ثم اغتسل ، فلما فرغ أقبل إلى ثيابه ليأخذها ، وإن الحجر عدا بثوبه ، فأخذ موسى عصاه عرياناً أحسن ما خلق الله ، وأبرأه مما يقولون ، وقام الحجر ، فأخذ ثوبه فلبسه ، وطفق بالحجر ضرباً بعصاه ، فوالله إن بالحجر لندباً من أثر ضربه ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً ، فذلك قوله ﴿يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ .. (٦٩)﴾ [الأحزاب] . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦/٤٣٦) .

(٢) أورده السيوطى فى الدر المنثور (٦/٤٣٦) وعزاه لابن أبى شيبة فى المصنف وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه عن ابن عباس أنهم اتهموه بالزنى وأتوا بالمرأة وقالوا لها : ما تشهدين على موسى ؟ فقال لها موسى عليه السلام : أنشدك بالله إلا ما صدقت . قالت : أما إذ نشدتنى بالله فإنهم دعونى وجعلوا لى جُعْلاً على أن أقذفك بنفسى ، وأنا أشهد أنك برىء ، وأنك رسول الله ، فَخَرَّ موسى ساجداً يبكى .

والحق سبحانه وتعالى يقول هنا ﴿يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا .. (٦٩)﴾ [الأحزاب] فينفى عنه العيب ، ثم يُثبت له الوجاهة والشرف .

﴿وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا (٦٩)﴾ [الأحزاب] وأىُّ وجاهة بعد أنْ أظهر الله براءته ، وبيَّن كذب أعدائه ، فالوجاهة هيئة تدل على أنه مقبول الرجاء ، مقبول الدعاء ، لا يجرؤ أحد أنْ يرميه بعيب بعد ذلك ، ولا أنْ يتهمه بذنب لم يفعله ؛ لأنهم علموا أن لموسى رباً يحميه ، ويدافع عنه .

ومن عدالته سبحانه وتعالى مع خَلْقه أن مَنْ يُرْمَى بذنب لم يفعله يُعوِّضه عنه بأنْ يستر عليه ذنباً فعله ، ولا يفضحه به ، فواحدة بواحدة ، إلا شيئاً واحداً كان مع موسى ـ عليه السلام ـ فحين لقى جواب الله ، فكأنه غرَّه كرم ربه معه فقال : يا رب ما داموا قالوا فىَّ كذا وكذا ، أسألُكَ ألاَّ يُقال فىَّ ما ليس فىَّ ، فقال : يا موسى ، أنا لم أفعل ذلك لنفسى ، فكيف أفعله لك ؟ والمعنى أنهم يقولون فى حَقِّ الله تعالى أكثر من ذلك .

إذن : أبقى الله الكفر ليطمئن كل مَنْ أُنكر جميله ، وكأنه يقول له : لا تحزن فأنا الخالق ، وأنا الرازق ، ومع ذلك كفروا بى وأنكروا الجميل .

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧١)﴾

سبق أن تكلمنا عن معنى التقوى ، وهى أن تجعل بينك وبين الله وقاية ، فالحق سبحانه له صفاتُ جمالٍ ، وصفات جلال : صفات الجمال الفضل والرأفة والمغفرة والغِنَى والنفع .. إلخ وصفات الجلال : الجبار المنتقم ذو البطش .. إلخ فالتقوى أنْ تجعل بينك وبين صفات الجلال وقاية تقيك منها لأنك لستَ مطيقاً لبطش الله وانتقامه .

ومع ذلك يقول أحد العارفين : احرص على معيتك مع الله ، نعم لأنك حين تجعل بينك وبين صفات الجلال وقاية تقترب من صفات الجمال .

أما إذا اشتبه عليك قوله تعالى : ﴿اتَّقُوا اللَّهَ .. (١١٢)﴾ [المائدة] وقوله تعالى : ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ .. (١٣١)﴾ [آل عمران] فاعلم أن النار جند من جنود غضب الله ، فمن يتقى اللهَ يتقى النارَ ، فلا تعارضَ إذن .

ومعنى ﴿وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا (٧٠)﴾ [الأحزاب] أى : قولاً صادقاً يُوصل للحق ، وكلمة سديد من سداد السهم ، حين يصيب هدفه ولا يُخْطئه ، وهدفك أنْ تنعم بذات الله فى الآخرة ، وأنْ تنفض الأسباب التى فى الدنيا ، وتعيش مع المسبِّب سبحانه .

فأنت فى الدنيا حين تريد أن تأكل مثلاً انظر إلى الطعام الذى أُعدَّ لك ، كم أخذ من وقت وإمكانات وأموال .. إلخ ، أما فى الآخرة ، فمجرد أنْ يخطر الشىء على بالك تجده بين يديك ، إذن : هذه معية يجب أنْ تحرص عليها كلَّ الحرص .

ثم يذكر لنا الحق سبحانه نتيجة القول السديد ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧١)﴾ [الأحزاب] أى : فى الآخرة ، ووصف الفوز بأنه عظيم ؛ لأنك فى

الدنيا تأخذ عطاء الله بأسباب الله ، أما في الآخرة فتأخذ عطاء الله من ذات الله ، وليس هناك أعظم من هذا .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا (٧٢) ﴾

العَرْض : إدارة معروض على معروض عليه ، كما نرى مثلاً في العرض العسكري ، حيث تمر نماذج من الجيوش والأسلحة أمام القائد ، ومنه قوله تعالى في قصة سيدنا سليمان عليه السلام : ﴿ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ[1] الْجِيَادُ (٣١) ﴾ [ص]

ومنه قولك : عرضتُ على فلان الأمر يعني : أطلعتُه عليه ، ليرى فيه رأيه يقبل أو لا يقبل ، فالعرض تخيير لا إلزامَ فيه .

فالحق سبحانه يقول : عرضت الأمانة على خَلْقي كلّ خَلْقي ، ومنه الإنسان والحيوان والجماد والنبات لأرى مَنْ منهم سيقبل تحمُّلها ، ومَنْ سيرفض ، إذن : معنى العَرْض أن هناك مَنْ سيقبل ، وهناك مَنْ سيرفض .

لذلك قُلْنا : من الخطأ : أن نقول : إن الأرض والسماء والجبال .. إلخ مُسَيَّرة مقهورة ، بل يجب أنْ نُعدِّل العبارة فنقول هي مقهورة باختيارها ؛ لأن الله حين عرض عليهن الأمانة أبيْن أن يحملنها وأشفقْنَ

---

(١) صفن الجواد : قام على ثلاث أرجل وثنى الرابعة وهذا يدل على كرمه . [القاموس القويم ١/٣٧٩] وهو قول مجاهد ، ذكره ابن كثير في تفسيره (٤/٣٣) . وقال إبراهيم التيمي : كانت عشرين فرساً ذات أجنحة ، رواه ابن جرير .

منها ، وقالت : نخرج من باب الجمال ، فاختارتْ ألاَّ تكون مختارة .

ومعنى الأمانة فى عُرْفنا هى المال ، أو الأشياء النفيسة التى تخشى عليها الضياع ، فتُودعها عند مَنْ تلتمس فيه أنه يحافظ عليها لحين حاجتك لها ، وليس لك أنْ تأخذ ممَّنْ ائتمنته صكاً ، ولا أنْ تُحضر شهوداً ، وإلا ما أصبحت أمانة ، إذن : ليس عليها إثبات إلا أمانة مَنْ أخذها ، فإنْ شاء أقرَّ بها وأدَّاها ، وإنْ شاء أنكرها .

فالأمانة إيعاد النفس بأن تكون مختارة فى الفعل وغيره ، فإنْ كانت مقهورة بصكٍّ ، أو بشهادة شهود لم تَعُدْ أمانة .

والأمانة التى عرضها الحق سبحانه على خَلْقه هى أمانة الاختيار فى أنْ يكون مختاراً فى أنْ يؤمن أو يكفر ، فى أنْ يطيع أو يعصى ، فكل ما عدا الإنسان رفض التحمُّل ؛ لأنه لم تأخذه الحمية وقت العَرْض والتحمُّل ، مخافة أنْ يأتى وقت الأداء ، فلا يجد له ذمة .

وفَرْق بين وقت التحمُّل ووقت الأداء ، فمَنْ يلاحظ وقت التحمل فقط يُقدِم عليها ويقبلها ، لكن مَنْ يلاحظ مع التحمُّل الأداءَ يرفض ، فربما مع حُسْن النية والرغبة فى الأداء تتغير الظروف ، أو تتغير الذمة ، أو يطرأ عليك ما يُحوجك لها ، فتمتد إليها يدك ، فيأتى وقت الأداء ، فلا تستطيع .

كل أجناس الوجود ما عدا الإنسان أبَوْا ، أنْ يحملوا الأمانة واختاروا القهر والتسيير للخالق عز وجل ؛ لأن الإنسان كما وصفه ربه ﴿ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً (٧٢) ﴾ [الأحزاب]

كذلك وصل عباد الله الصالحين إلى منزلة العبودية لله حين وجَّهوا اختيارهم حَسْب مراد ربِّهم ، فالله أعطاهم الاختيار فى الإيمان أو الكفر فآمنوا ، وأعطاهم الاختيار فى الطاعة وفى المعصية فأطاعوا ، فوجَّهوا اختيارهم إلى ما أحبَّ ربهم ، فصاروا من عباده المقربين .

فكأنك إذن تنازلتَ عن اختيار نفسك فى حرية الحركة ، فصرْتَ كالسموات والأرض والجبال حين تنازلن عن اختيارهن لاختيار ربها ووصلْتَ ـ مع أنك مختار ـ إلى أنْ لا تختار إلا ما وضعه الله لك منهجاً .

هنا يحلو للبعض أنْ يقول : كيف عُرِضَتْ الأمانة على السموات والأرض والجبال ، وهى جمادات ، وكيف لها أنْ تأبى ؟ ... إلخ نقول : أنت أدخلتَ نفسك فى متاهة ، وهل كان العرض منك أنت حتى لا تفهمك الجمادات ؟ أم كان العرض من ربها وخالقها ؟

ساعة ترى فعْلاً يحدث منك ويحدث من الله ، إياك أنْ تعزل الحدث عن فاعله ، والله يقول : ﴿أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤)﴾ [الملك]

فهو سبحانه خالقها ، وهو الذى يخاطبها ، ولم تنكر ذلك ، وقد علَّم الله بعض رسله مثلاً لغة الطير فعرفها وتفاهم معها ، كما قال سبحانه عن نبيه سليمان أنه قال : ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ .. (١٦)﴾ [النمل]

وقال ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا .. (١٩)﴾ [النمل]

وقال عن تسبيح الجبال مع سيدنا داود عليه السلام ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ .. (١٠)﴾ [سبأ] فالجبال ، نعم تُسبِّح فى كل حال ،

لكن الذى امتاز به سيدنا داود أنْ يوافق تسبيحُه تسبيحَ الملائكة ، وكأنهم جميعاً فرقة ينشدون نشيداً واحداً .

إذن : الخالق سبحانه هو الذى يخاطب ما يشاء من خَلْقه ، ولو علَّمك أنْ تخاطب الجمادات لخاطبتها ، وتأمل مثلاً قصة الهدهد وسيدنا سليمان حين ذهب إلى أهل سبأ ، ووجدهم يعبدون الشمس من دون الله ، وكيف أنه كان على فقه تام بقضية التوحيد .

فأرِحْ نفسك وانْسبْ الفعل إلى فاعله وأنت تستريح ، ولك فى تصرفات حياتك أُسْوَةٌ ، فأنت مثلاً لو دخل عليك ولدك مُمزق الثياب ، يسيل منه الدم ، قبل أنْ تسأله عن شىء تسأله : مَنْ فعل بك هذا ؟

لا بُدَّ أن تحدد الفاعل أولاً ، فعليه ستبنى حكمك وقرارك ، فإنْ كان الفاعل ابنَ الجيران مثلاً تقيم الدنيا ولا تُقعدها ، وإنْ قال لك : عمِّى فلان ضربنى تهدأ أعصابك ، وتقول للولد : لا بُدَّ أنك فعلتَ شيئاً استحق العقاب ، ولو ذهبتَ إلى عمه لعرفتَ فعلاً أن الولد ارتكب خطأ ، إذن : الفعل الواحد يمكن أنْ يكون سيئاً ، ويمكن أن يكون حسناً ، المهم مَن الفاعل ؟

وآياتُ القرآن يساند بعضها بعضاً ، وتسعفنا فى هذه المسألة ، فالذى قال ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ .. (٧٢) ﴾ [الأحزاب] قال ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ .. (٤٤) ﴾ [الإسراء]

فكل شىء فى الوجود كله مُسبِّح ، فدلَّ هذا على أن الموجودات لها دلالة عن ذاتها ، وتستطيع أنْ تبين عما فى مرادها ، ونعجب من بعض العلماء حين يقول : هذه دلالة حال ، لا دلالة مقال ، وهذا القول يرده قوله تعالى : ﴿ وَلَـٰكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. (٤٤) ﴾ [الإسراء]

ونحن نفهم تسبيح الدلالة ، ونراه فى انسجام جزئيات الكون ونظامه البديع ، والحق يقرر أننا لن نفهم هذا التسبيح . إذن : هو تسبيح مَقال على الحقيقة لا يعرفه إلا مَنْ عرّفه الله . ولِمَ نستبعد تسبيح الكائنات ، ونحن نرى لبعض الطوائف والمهن (شفرات) وإشارات لا يفهمها غيرهم ، وفى اللغة الواحدة يمكن أن تسمع كلمات لا تعرف معناها ، فضلاً عن اختلاف اللغات بين الجنسيات المختلفة .

فإذا كنتَ لا تعرف بعض المعانى فى لغتك ، وإذا كنت لا تعرف لغات الآخرين وهم من بنى جنسك ، فلماذا تنكر أنْ يكون للأجناس الأخرى فى الوجود لغات يتعارفون عليها ، ويُعبِّرون بها ؟

ثم أكُلّ اللغات ووسائل الفهم منطوقة ؟ أليستْ هناك مثلاً لغة الإشارة ، يتعارف عليها البعض ، ويفهم بها ؟ ومع ذلك هناك قَدْر مشترك ومنطق فى الدلالة يتفق عليه الجميع فى كل اللغات ويتفاهمون به ، كما يتفاهم الخُرْس مثلاً ، كما أن هناك أشياءً تتفق فيها كل الطباع كالضحك والبكاء ، فليس هناك ضحك عربى ، ولا بكاء فرنسى مثلاً .

ومعنى حَمْل الأمانة أى : القيام بها وتطبيقها ، كما جاء فى قوله تعالى فى معنى الحَمْل : ﴿ **مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا** .. (٥) ﴾ [الجمعة]

فقد حملوها كمنهج وحفظوا ما فيها ، لكن لم يحملوها بمعنى : لم يُطبِّقوا هذا المنهج ، فصار مثَلهم عند الله كمثل الحمار الذى يحمل الكتب ، وهو لا يستفيد مما فيها ، وهذا فى حَدِّ ذاته ليس ذمّاً للحمار ، وليس اتهاماً له بالغباء كما يدَّعى البعض ، فالحمار ليس شغله الفهم إنما الحَمل . فحسب ، فمَنْ حمل منهجاً دون أنْ يستفيد

به فهو شبه الحمار فى هذه المسألة ، وهذه خصوصية للحمار ـ أنه يحمل ما لا يفهم .

والحمار فى أمور أخرى يفهم ويؤدى مهمته على الوجه الذى ربما عجز عنه الإنسان ، فمن المعروف عن الحمار أنه إذا ذهب إلى مكان فإنه لا ينساه ولا يضل عنه ولو بعد فترة ، وربما يضلّ الإنسان طريقه الذى سار فيه منذ فترة ، أما الحمار فلو تركتَ له حرية الحركة لذهبَ بك إلى نفس المكان ، إذن : مَنِ الغبى ؟

لذلك فالبعض يسأل : إذن لماذا يتهمون الحمار بالغباء ؟ قالوا : لأنهم كلّفوه بما لم يُكلِّفه الله به ، فالحمار خُلق للحمل ، وأنت تريده على درجة من الفهم ربما تفقدها فى الإنسان العاقل .

وسبق أنْ قُلْنا : إنك إذا أردتَ من الحمار أنْ يقفز فوق قناة مثلاً أوسع من إمكاناته ، فإنه لا يطاوعك أبداً فمهما ضربته لا يُقدم على القفز ، فإنْ كانت فى مقدوره نظر إليها وكأنه يُقدِّر اتساعها بالضبط ، ثم يقفز دون أنْ تجبره ، وهذا التصرف تصرف مَنْ يحسب العواقب جيداً ، ويفهم ما يفعل .

إذن : الشىء لا ينفصل عن مهمته ، ولا يطلب منه فوق ما هُيِّىء له ، ومثّلنا لذلك بعود الحديد ترى جماله فى استقامته ، فإنْ أردته خُطّافاً مثلاً فجماله وأداؤه لمهمته لا يتم إلا بعوجه ، وساعتها لا تستطيع أنْ تقول عنه إنه مُعْوج ؛ لأن هذا الغوج هو عَيْن الاستقامة لمهمته .

لذلك قلنا فى قوله تعالى : ﴿إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾ [لقمان] ليس ذماً لصوت الحمار ؛ لأن صوت الحمار جعله الله عالياً هكذا ؛ لأنه يعيش فى بادية ، وغالباً ما يستتر خلف مرتفع

أو حجر أو شجرة أو يبتعد مسافة طويلة عن صاحبه ، فجاء صوته بهذه الهيئة ليدل عليه ويُرشد صاحبه إلى مكانه .

إذن : فالصوت العالى يكون مُنكراً إذا لم يكُنْ له مهمة ، وإذا استُعمل فى غير موضعه ، والشىء قد يكون مختلفاً ، لكن مهمته تكون متحدة .

مثلاً ، الدم الذى به حياة الإنسان إذا تجلط داخل أوعيته يؤدى إلى شلل العضو ، ويحتاج إلى أدوية تعيد له سيولته ، وفى المقابل إذا زادت سيولة الدم أدى ذلك إلى نزيف ، وإذا حدث جُرْح مثلاً لا يندمل ؛ لأن الدم لا يتجلط ولا يسدّ أماكن خروجه ، إذن : تجلُّط الدم مطلوب خارج الأوعية ، وسيولة الدم مطلوبة داخل الأوعية . إذن : لكل منهما حكمة فى مكانه .

ومعنى : ﴿ وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا .. (٧٢) ﴾ [الأحزاب] أى : خفْنَ وقت التحمل مخافة أنْ يأتى وقت الأداء فلا يؤدى ﴿ وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ .. (٧٢) ﴾ [الأحزاب] لما عنده من فكر واختيار ومحاولة ، لكن قد يأتى فكره بالضرر .

وقلنا : إن الإنسان يأكل مثلاً حتى يشبع ، ثم يُعرض عليه الحلو والبارد ، فتمتلىء بطنه حتى التخمة وحتى المرض ، فى حين أن الحمار أو الجاموسة مثلاً لا تأكل عوداً واحداً فوق الشِّبع ؛ لأنها محكومة بالغريزة التى لا تعرف التصرف فى الأشياء ، وميزة الحيوان فى هذه الغريزة وفى عدم تصرفه .

لذلك وصف الإنسان هنا بأنه ﴿ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً (٧٢) ﴾ [الأحزاب] وهذه صيغة فَعُول الدالة على المبالغة فى الظلم والمبالغة فى الجهل . وقد يُعقل الظلم للغير ؛ لأن الظالم يظن أنه يستفيد منه ، أمّا أنْ يظلم المرءُ

نفسه بأنْ يمنعها خيراً ، أو يجلب لها ضُرًّا ، فهذا ما لا يُعقل ودليل الغباء .

فحين يتكاسل عن الطاعة لشهوة نفس موقوتة يمنعها خيراً باقياً ، ومتعة لا حدودَ لها ، فهو عدو لنفسه ؛ لذلك قال العلماء : إن نفس الإنسان هى أعدى أعدائه ؛ لأن العدو إنْ كان من خارجك تستطيع أنْ تراه ، وأنْ تحتاط له ، أمّا إنْ كان من داخلك فأمره شاقّ .

وقد بيَّن الحق سبحانه أن أعظم الظلم الشرك بالله ، فقال سبحانه : ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣) ﴾ [لقمان] وهذا الظلم أيضاً لا يعود ضرره على الله تعالى ، إنما يعود على المشرك بالله ؛ لذلك وصف الإنسانَ بعد الظلم بأنه جهول ؛ لأنه يظلم نفسه ، وهذا يدل على الجهل وعدم العلم ، والجهول هو الذى يقع فى الخطأ ويعدل عن الحق عن جهل ، فالوصف هنا يدل على الحكمة الأدائية ﴿ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً (٧٢) ﴾ [الأحزاب]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٧٣) ﴾

أولاً : يلفت أنظارنا أن الآية السابقة ذُيِّلَتْ بقوله تعالى ﴿ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً (٧٢) ﴾ [الأحزاب] وذُيِّلَتْ هذه الآية بقوله سبحانه ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً (٧٣) ﴾ [الأحزاب] فكأن وصف (ظَلُوماً) قابله (غَفُوراً) ، و (جَهُولاً) قابله (رَحيماً) .

فالحق سبحانه غفور لمن ظلم ، ورحيم لمن جهل ، فالنسق

القرآنى مظهر من مظاهر رحمة الله ، والله سبحانه وتعالى عُلم عنه ممَّنْ آمن به أنه غفور رحيم ، لكن لا ينبغى أنْ تغرَّك صفات الجمال فى ربك - عز وجل - فتُقدِم على الذنب وتظلم ، اعتماداً على أنَّ ربك سيغفر وسيرحم .

لذلك قالوا فى قوله تعالى : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (٦)﴾ [الانفطار] أن الذى غَرَّ الإنسان بربه فعصاه أو كفر به اعتماده على أن ربه كريم ، فصفة الكرم فى الله هى التى أغرَتْ بعصيانه .

وكأن الحق سبحانه لقَّنَ الإنسان الجواب عن هذه المسألة ؛ فإنْ سُئل : ما غرَّك بربك ؟ يقول : كرمه ، وعندنا فى الفلاحين يسأل أحدهم الآخر : لماذا لا تطمئن فى صلاتك ، وتنقرها هكذا أرأيتَ لو كان عليك (شلن) لواحد هل يصلح أن تعطيه (شلناً ممسوحاً) ؟ فردَّ عليه الرجل : والله لو كان كريماً لقَبِله .

وفى الآية دقيقة أخرى فى قوله تعالى : ﴿لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ .. (٧٣)﴾ [الأحزاب] فهل كان عَرْضُ الأمانة والتكليف للناس ليُعذبهم ؟ هل التعذيب مقصود لله فى الحكم ؟

قالوا : لا ؛ لأن اللام هنا ﴿لِيُعَذِّبَ .. (٧٣)﴾ [الأحزاب] لام العاقبة ، فالحق سبحانه جعل التكليف ليتبعه الناس ولا يعذبون ، فاللام دلَّتْ على النتيجة . كما فى قوله تعالى : ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا (٨)﴾ [القصص] .

فساعة التقطه آل فرعون التقطوه عليه السلام ليكون قُرَّة عَيْن لهم ، لا ليكون عدواً ، لكن الذى حدث أنه صار عدواً وحَزَناً ، فاللام ليست للتعليل ، إنما لام النتيجة والعاقبة ، وهى أن تفعل الشىء لمراد عندك ، ثم تأتى العاقبة لتدلّ على غباء الذى فعل .

وقوله : ﴿ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ .. (٧٣) ﴾ [الأحزاب] سبق أنْ عرَّفنا النفاق ، وقلنا : إن النفاق أشدُّ من الكفر ؛ لأن الكافر كان منطقياً مع نفسه ؛ لأنه كفر بقلبه وبلسانه . يعنى : وافق لسانه ما فى قلبه ، أما المنافق فغير منطقى مع نفسه ؛ لأنه اعتقد شيئاً ونطق بخلافه : أخفى الكفرَ وأظهر الإيمانَ فهو مُشتَّت الفكر ؛ لذلك استحق أنْ يكون أعدى الأعداء ، وأن يكون فى الدَّرْك الأسفل من النار ، ويكفى ما فيه من خداع وتمويه ، فهو بظاهره معك ، وفى حقيقته هو عدوك .

ونلحظ أيضاً فى هذه الآية أن الحق سبحانه أراد أنْ يفصل فصلاً تاماً بين جزاء المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ، وبين جزاء المؤمنين والمؤمنات ، فالأسلوب البشرى يقتضى أن يقول بعدها: ﴿ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ .. (٧٣) ﴾ [الأحزاب] ويتوب على المؤمنين والمؤمنات .

لكن السياق القرآنى هنا لم يعطف التوبة على العذاب وفصل الفعلين بتكرار الفاعل الصريح ، وهو لفظ الجلالة فقال ﴿ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ .. (٧٣) ﴾ [الأحزاب] وقال ﴿ وَيَتُوبَ اللَّهُ .. (٧٣) ﴾ [الأحزاب] ليفصل هذا عن هذا ، ويعزله بحكم خاص به ؛ لأن لله تعالى ـ كما ذكرنا ـ صفات جلال ، تختص بالكافرين والمنافقين ، وصفات جمال تختص بالمؤمنين ، ولكل من النوعين سياق خاص مستقل .

سُورَةُ سَبَإٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(سورة سبأ)[1]

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ① ﴾

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ .. ① ﴾ [سبأ] جملة قائلُها الحق سبحانه ، فهل قالها لنفسه أم قالها ليُعلِّمنا نحن أنْ نقولها ؟ قالها ليُعلِّمنا . والحمد أنْ تأتى بثناء على مستحق الثناء بالصفات الجميلة . ومقابله : الذم ، وهو أنْ تأتى لمستحقٍّ الذم بالصفات القبيحة ، وتنسبها إليه .

وأنت قد تحمد شيئاً لا علاقةَ لك به ، لمجرد أنه أعجبك ما فيه من صفات ، فاستحق فى نظرك أنْ يُحمد ، كأن تحمد الصانع على صَنْعة أتقنها مثلاً ، وإنْ لم تكُنْ لك علاقة بها .

---

(١) سورة سبأ هى السورة رقم (٣٤) فى ترتيب المصحف الشريف ، عدد آياتها ٥٤ آية ، نزلت بعد سورة لقمان وقبل سورة الزمر ، وهى السورة رقم ٥٧ فى ترتيب النزول ، قال القرطبى فى تفسيره (٨/٥٥٢٧) « مكية فى قول الجميع ، إلا آية واحدة اختلف فيها ، وهى قوله تعالى : ﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ .. ⑥ ﴾ [سبأ] فقالت فرقة : هى مكية ، والمراد المؤمنون أصحاب النبى ﷺ قاله ابن عباس . وقالت فرقة : هى مدنية ، والمراد بالمؤمنين من أسلم بالمدينة ، كعبد الله بن سلام وغيره . قاله مقاتل » .

إذن : فالحمد مرة يكون لأن المحمود فيه صفات تستحق الحمد ، وإنْ لم تَصلْ إليك ، فكيف إذا كانت صفات التحميد والتمجيد والتعظيم أثرها واصلَ إليك ؟ لا شكَّ أن الحمد هنا أوجب .

لذلك نقول : كل حمد ولو توجَّه لبشر عائد فى الحقيقة إلى الله تعالى ؛ لأنك حين تحمد إنساناً إنما تحمده على صفة وهبها الله له ، فالحمد على إطلاقه ولو لمخلوق حَمْدٌ لله .

وكلمة ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ .. ① ﴾ [سبأ] وردت فى القرآن ثمان وثلاثون مرة ، وخُصَّتْ منها فى فواتح السور خمس مرات : فى الفاتحة ، والأنعام ، والكهف ، وسبأ ، وفاطر .

والحق سبحانه بدأ بالحمد ؛ لأنه بدأ خَلْقه من عدم فله علينا نعمة الخَلْق من عدم ، ثم أمدَّنا بمقومات الحياة فوفَّر لنا الأقوات التى بها استبقاء الحياة ، ثم التناسل الذى به استبقاء النوع ، هذا لكيان الإنسان المادى ، لكن الإنسان مطلوب منه حركة الحياة ، وهو يعيش مع آخرين فلا بُدَّ أنْ تتساند حركاتهم لا تتعاند ، لا بُدَّ أن تنسجم الحركات وإلا لتفانى الخَلْق .

وهذا التساند لا يتأتَّى إلا بمنهج يُحدِّد الحركات ، ويحكم الأهواء ، وإلا لجاء واحد يبنى ، وآخر يهدم . هذا فى الدنيا ، أما فى الحياة الآخرة فسوف يُعدُّنا لها إعداداً آخر ، ويعيدنا إلى خير مما كنا فيه ؛ لأننا نعيش فى الدنيا بالأسباب المخلوقة لله تعالى ، أما فى الآخرة فنعيش مع المسبِّب سبحانه مع ذات الحق .

نحن فى الدنيا نزرع ونحصد ونطبخ ونخبز ونغزل .. إلخ ، هذه أسباب لا بُدَّ من مزاولتها ، لكنك فى الآخرة تعيش بكُنْ من المسبِّب ، فى الدنيا تخاف أنْ يفوتك النعيم أو تفوته أنت ، أما فى الآخرة

فنعيمها بَاقٍ لا يزول ولا يحول ، فى الدنيا تتمتع على قَدْر إمكاناتك ، أما فى الآخرة فتتمتع على قَدْر إمكانات ربك .

فالحق سبحانه أوجدنا من عدم ، وأمدنا من عُدْم ، ووضع لنا المنهج الذى يحفظ القيم ، ويُنظِّم حركة الحياة قبل أنْ تُوجد الحياة ، فقبل أنْ يخلقك خلق لك كالصانع الذى يُحدِّد مهمة صنعته قبل صناعتها ، وهل رأيتم صانعاً صنع شيئاً ، ثم قال : انظروا فى أىِّ شىء يمكن أن يستخدم ؟

لذلك قال تعالى : ﴿الرَّحْمَـٰنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الإِنسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤)﴾ [الرحمن] فالمنهج المتمثل فى القرآن وُضِع أولاً ليحدد لك مهمتك وقانون صيانتك ، قبل أنْ تُوجَد أيها الإنسان .

والمتأمل لآيات الحمد فى بدايات السور الخمس يجد أنها تتناول هذه المراحل كلها ، ففى أول الأنعام : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (١)﴾ [الأنعام]

تكلَّم الحق سبحانه عن بَدْء الخَلْق ، ثم قال : ﴿هُوَ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ .. (٢)﴾ [الأنعام] وهذا هو الإيجاد الأول .

ثم فى أول الكهف يذكر مسألة وَضْع المنهج والقيم : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا (١)﴾ [الكهف]

هذا هو القانون الذى يحكم الأهواء ، ويُنظِّم حركة الحياة لتتساند ولا تتعاند .

وفى أول سورة سبأ التى نحن بصددها يذكر الحمد فى الآخرة : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى لَهُ مَا فِى السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِى الآخِرَةِ .. (١)﴾ [سبأ] وحين تنظر إلى الحمد فى الآخرة تجده حَمْداً

مركباً مضاعفاً ؛ لأنك فى الدنيا تحمد الله على خَلْق الأشياء التى تتفاعل بها لتعيش بالأسباب ، لكن فى الآخرة لا توجد أسباب ، إنما المسبِّب هو الله سبحانه ، فالحمد فى الآخرة أكبر حَمْداً يناسب عَيْشَك مع ذات ربك سبحانه .

وفى أول فاطر : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً أُوْلِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ .. (١) ﴾[فاطر]

نحمد الله على القيم ، وعلى المنهج الذى وضعه لنا الحق سبحانه بواسطة الملائكة ، والملائكة هم رسل الله إلى الخَلْق ، ومنهم الحفظة ، ومنهم المدبِّرات أمراً التى تدبر شئون الخَلْق ، ومنهم مَنْ أسجدهم الله لك .

ثم جاءت أم الكتاب ، فجمعت هذا كله فى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) ﴾ [الفاتحة] والربّ هو الخالق الممدّ ﴿ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ (٣) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤) ﴾ [الفاتحة] أى : فى الآخرة ، ثم ذكرت وجوب السير على المنهج ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥) اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ (٧) ﴾ [الفاتحة]

ولأنها جمعتْ البداية والنهاية ، والدنيا والآخرة سُمِّيت فاتحةَ الكتاب ، وسُمِّيت المثانى ، وسُمِّيت أم القرآن .

فقوله تعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ .. (١) ﴾ [سبأ] علَّمنا الله تعالى أن نقولها ؛ لأن الناس مختلفون فى المواهب ، وفى الملَكات ، وفى حُسْن الأداء ، وفى صياغة الثناء ، فلا يستوى فى الحمد والثناء الأديب والأُمىُّ الذى لا يجيد الكلام ؛ لذلك قال الله لنا : أريحوا أنفسكم من هذه المسألة ، وسوف أُعلمكم صيغة يستوى فيها الأديب الفيلسوف مع راعى الشاة ، وسوف تكون هذه الصيغة هى أحبّ صيغ الحمد إلىَّ ، هذه الصيغة هى ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ .. (١) ﴾ [سبأ]

لذلك جاء فى الحديث قول سيدنا رسول الله فى حمد ربه ، والثناء عليه : « سبحانك لا نحصى ثناءً عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك »[١] فحين أقول خطبة طويلة فى حمد الله والثناء عليه ، وتقول أنت : الحمد لله لا أقول لك قصَّرت فى حمد ربك ، وكأن هذه الصيغة وتعليمها لنا نعمة أخرى تستحق الحمد ؛ لأنها سوَّتْ الجميع ، ولم تجعل لأحد فضلاً على أحد فى مقام حمد الله والثناء عليه .

وحين تحمد الله على أن علَّمك هذه الصيغة ، بماذا تحمده ؟ تحمده بأن تقول الحمد لله . إذن : هى سلسلة متوالية من الحمد لا تنتهى ، الحمد لله على الحمد لله ، ومعنى ذلك أنْ تظل دائماً حامداً لله ، وأنْ يظلَّ الله تعالى دائماً وأبداً محموداً .

كما قُلْنا : إن اختلاف المواقيت فى الأرض واختلاف المشارق والمغارب إنما جُعِلَتْ لتستمر عبادة الله لا تنقطع أبداً فى كل جزئيات الزمن ، ففى كل لحظة صلاة ؛ وفى كل لحظة الله أكبر ، وفى كل لحظة أشهد ألا إله إلا الله ، وفى كل لحظة أشهد أن محمداً رسول الله... إلخ لتظل هذه الألفاظ وهذه العبادات دائرة طوال الوقت ، فالكون كله يلهج بذكْر الله وعبادة الله فى منظومة بديعة ، المهم مَنْ يُحسِن استقبالها ، المهم صفاء جهاز الاستقبال عندك .

وقوله سبحانه ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الآخِرَةِ .. ①﴾ [سبأ] بيَّنَّا أن الحمد فى الآخرة أكبر وأعظم من الحمد فى الدنيا ؛ لأنك فى الدنيا تعيش بالأسباب ، أما فى الآخرة فتعيش مع ذات المسبِّب سبحانه ،

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٦/٥٨ ، ١٢٠) ومسلم فى صحيحه (٤٨٦) من حديث عائشة رضى الله عنها قالت : فقدت رسول الله ﷺ ليلة من الفراش ، فالتمسته فوقعت يدى على بطن قدميه وهو فى المسجد وهما منصوبتان وهو يقول : « اللهم أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك ، لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك » .

فى الدنيا نعيم موقوت ، وفى الآخرة نعيم باق ، فى الدنيا فناء ، وفى الآخرة بقاء ؛ لذلك قال سبحانه عن الآخرة : ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠)﴾ [يونس]

وقال سبحانه حكايةً عن المؤمنين فى الآخرة : ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (٧٤)﴾ [الزمر]

وقالوا : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَـٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ..(٤٣)﴾ [الأعراف]

فإنْ قُلْت : فما وجه الحمد فى أن الله تعالى يملك السموات والأرض ؟ نقول : فَرْق بين أنْ يخدمك فى الكون مَا لا تملك ، وبين أنْ يخدمك ما تملك ، فالعظمة هنا أنك تنتفع هنا بما لا تملك ، فالسموات والأرض ملْك لله ، ومع ذلك هى فى خدمتك أنت ، وليست العظمة من أنْ يخدمكَ ما تملكه .

لذلك قالوا لأحد الناس : لماذا لا تشترى لك سيارة ؟ قال : والله الإخوان كثيرون ، وكلهم عندهم سيارات ، وكل يوم أركب سيارة واحد منهم ، ولا يغرمنى هذا شيئاً . إذن : انتفاعك بما يملك الغير أعظمُ من انتفاعك بما تملك أنت ، وملْك الله جُعل لصالحنا نحن ، وهذه تستحق الحمد ، فاللهم لا تحرمنا نعمك .

ملحظ آخر أن الحق سبحانه يريد أن يُطمئنَ العبادَ ، فمُلْك السموات والأرض لله وحده ، ولو كانت لغيره لمنعنا منها ، فكأن ربك يقول لك : اطمئن فهذا ملْكى وأنا ربك ولن أتخلى عنك أبداً ، وليس لى شريك ينازعنى ، فيمنع عنك خيراتى ، فأنا المتفرِّد بالملْك والسلطان .

لذلك ، فالحق سبحانه حين يقول للشىء : ﴿ كُن فَيَكُونُ (٤٧) ﴾ [آل عمران] ما قال (كُنْ) إلا لأنه سبحانه يعلم أنه لا يستطيع ألاَّ يكون ، والدليل قوله تعالى عن الأرض ﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٢) ﴾ [الانشقاق] أى : أصغتْ السمع ، وحَقَّ لها ذلك ، فما قال سبحانه لشىء كُنْ إلا وهو واثق أنه لا يخرج عن أمره .

لذلك سبق أنْ قُلْنا : إن الحق سبحانه حين طلب منا أنْ نشهد أنه لا إله إلا هو شهد بها لنفسه أولاً ، فقال : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ .. (١٨) ﴾ [آل عمران] وهذه شهادة الذات للذات ، ولذلك تصرَّف سبحانه فى الملك تصرُّف مَنْ لا شريكَ له ، فلم يقُلْ شيئاً أو يحكم حكماً ، ثم خاف أنْ ينقضه أحد أو يعدله .

ثم شهدتْ بذلك الملائكة ، ثم شهد بذلك أولو العلم من عباده ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ .. (١٨) ﴾ [آل عمران]

فشهادة الله شهادة الذات للذات ، وشهادة الملائكة شهادة المشهد ، وشهادة أُولى العلم شهادة العلم والدليل .

ونلحظ أيضاً أن الحق سبحانه قال : ﴿ الَّذِى لَهُ مَا فِى السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ.. (١) ﴾ [سبأ] فكرَّر الاسم الموصول (ما) ولم يقُلْ له ما فى السموات والأرض ، كما جاء فى قوله سبحانه فى التسبيح :

مرة : ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ .. (١) ﴾ [الجمعة]

ومرة : ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِى السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. (٢٤) ﴾ [الحشر]

وفَرْق بين التعبيرين ؛ لأن هناك خَلْقاً مشتركاً بين السماء والأرض ، وهناك خَلْق خاص بالسماء ، وخَلْق آخر خاص بالأرض ،

فإنْ أراد الكل قال : ﴿مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. (٢٤)﴾ [الحشر] ، وإنْ أراد الاختلاف كلاً فى جهته ، قال ﴿مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ .. (١)﴾ [سبأ]

والسموات والأرض ظرف لما فيهما من خيرات ، والذى يملك الظرف والمكان يملك المظروف فيه ، فالحيز هنا مشغول .

ثم يقول سبحانه تذييلاً لهذه الآية ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (١)﴾ [سبأ] الحكيم : هو الذى يضع الشىء فى مكانه وموضعه المناسب ، ولا يتأتّى هذا إلا لخبير يعلم الشىء ، ويعلم موضعه الذى يناسبه ؛ لذلك قال سبحانه ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (١)﴾ [سبأ] الذى لديه خِبْرة بدقائق الأشياء وبواطنها .

ثم أراد سبحانه أنْ يعطينا نموذجاً لهذه الحكمة ولهذه الخبرة ، فقال سبحانه :

﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ (٢)﴾

معنى ﴿يَلِجُ .. (٢)﴾ [سبأ] يدخل ، ومنه قوله تعالى : ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ .. (١٣)﴾ [فاطر] يعنى : يُدخل كلاً منهما فى الآخر ، فزيادة الليل تنقص من النهار ، وزيادة النهار تنقص من الليل ؛ لذلك نرى اختلاف المواقيت .

لكن ، ما الذى يدخل فى الأرض ـ فى حدود ما تراه أنظارنا ـ ؟ هناك أشياء تدخل فى الأرض لا دَخْلَ لنا بها كماء المطر مثلاً حين ينزل من السماء ، نأخذ منه حاجاتنا ، ويتسرَّب منه جزء فى باطن الأرض ، كما قال تعالى : ﴿فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ .. (٢١)﴾ [الزمر]

ويدخل فى الأرض الحبة التى نزرعها ، فينشأ عنها الاقتيات الذى يضمن لنا بقاء الحياة ، وهذا الاقتيات يأتى من مضاعفة الحبة إلى أضعاف كثيرة ، كذلك يدخل فى الأرض الميِّت الذى نستودعه الأرضَ بعد أنْ يموت ، ولك أنْ تلحظ وجه الشبه بين الحبة تزرعها ، والميت تدفنه فى ضوء قوله تعالى : ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ (٥٥)﴾ [طه]

فكما أن الحبة أنبتتْ سبع سنابل ، فى كل سنبلة مائة حبة ، كذلك يجب أنْ نقيس المتواليات الذهنية فنقول كذلك حين أدخل أو أدفن فى الأرض بعد الموت : أخرج بحياة أخرى أكثر نماءً من حياتى فى الدنيا ، وأكثر خَيْراً فضلاً عما سترَتْه الأرض من سَوْءاتى .

وقوله سبحانه : ﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ .. (٢)﴾ [سبأ] ما الذى ينزل من السماء ؟ ينزل منها المطر لاستبقاء الحياة ، وبالماء حياة كل شىء حى ، هذا فى مادة تكوينك ، أما فى حياتك الروحية فتنزل الملائكة بالقيم وبالمنهج الذى به تحيا الأرواح والقلوب ، وتنزل الملائكة المدبِّرات أمراً ، التى تدبر شئون الخلائق ، والتى قال الله فيها : ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ[1] مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ .. (١١)﴾ [الرعد]

والبعض لا يفهم معنى الآية ، فيقول : كيف تحفظه الملائكة من أمر الله ؟ يريدون أن أمر الله ينبغى أنْ يُنفذ ، فكيف يحفظونه منه ؟

---

(١) المعقبات : ملائكة الليل والنهار ، لأنهم يتعاقبون ، فكأن ملائكة النهار تحفظ العباد ، فإذا جاء الليل جاء معه ملائكة الليل وصعد ملائكة النهار ، فإذا أقبل النهار عاد من صعد ، وصعد ملائكة الليل ، كأنهم جعلوا حفظهم عُقباً أى نُوَباً . [لسان العرب ـ مادة : عقب] .

والمعنى : يحفظونه حِفْظاً صادراً من أمر الله ، ليس تطوُّعاً من عندهم[١] .

والحق سبحانه يُرينا قدرته فى إنزال المطر حينما نُجرى عملية تقطير الماء فى المعامل والأجزاخانات ، انظر كم يتكلف كوب الماء المقطر ، وكم يأخذ من الوقت والجهد ، أما المطر فتُقطِّره لك قدرة الله دون أنْ تشعر أنت به ، فحرارة الشمس تُبخِّر الماء الذى يُكوِّن السحب ، ثم تسوقه الرياح إلى حيث شاء الله له أنْ ينزل ، ومن حكمته تعالى أنْ جعل ثلاثة أرباع الكرة الأرضية ماءً لتتسع مساحة البخر ، فيكفى المطر حاجة الأحياء .

ومثّلْنا لهذه الظاهرة بكوب الماء الذى تتركه لمدة شهر ، فلا ينقص إلا عدة سنتيمترات ، أما إنْ سكبْتَه فى أرض الحجرة فإنه يجفّ قبل أنْ تغادرها ، لماذا ؟ لأنك وسَّعْتَ المساحة التى يتبخر منها الماء .

وماء المطر هو الماء العَذْب الزلال الذى يشرب منه الإنسان والحيوان والطير ، ونسقى منه الزرع ومشارف الأرض ، وما تبقَّى يسلكه الله فى جوف الأرض لحين الحاجة إليه ، فالمطر آية من آيات الله الدالة على قدرته تعالى .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا .. (٢)﴾ [سبأ] أى : يصعد ، وقد أشار القرآن إلى هذه المسألة فى قوله تعالى : ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ .. (١٠)﴾ [فاطر] أى : تصعد آثار التكليف المنهجى من الله تعالى .

---

(١) عن ابن عباس : ذلك الحفظ من أمر الله بأمر الله . أخرجه أبو الشيخ . وعنه أيضاً : بإذن الله . أخرجه ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم . وعن سعيد بن جبير : حفظهم إياه بأمر الله . أخرجه ابن جرير . وذكر هذه الآثار السيوطى فى الدر المنثور (٤/٦١٢) .

لكن نلحظ فى أسلوب ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا .. ﴿٢﴾﴾ [سبأ] استخدام حرف الجر (فى) ولم يَقُلْ يعرج إليها ، نعلم أن الحرف يدل على معنًى فى ذاته ، لكن هذا المعنى لا بُدَّ له من ضميمة شىء إليه ، ليعطى معنى يفهم ، فالحرف (فى) يدل على الظرفية ، كما تقول : ماء فى الكوب ، أمَّا لو قلت (فى) مستقلة بذاتها ، فإنها لا تدلُّ على شىء .

والعلماء حينما استقبلوا كثيراً من الأساليب وجدوا بها حروفاً ظَنُّوا أنها زائدة ، أو أنها بمعنى حرف آخر ، كما قالوا فى معنى : ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ﴿٢﴾﴾ [سبأ] أن (فى) هنا بمعنى (إلى) ، لكن لماذا عدل الأسلوب عن (إلى) إلى (فى) ؟ إذن : لا بُدَّ أنها تحمل معنى الظرفية .

وللتوضيح نذكر ما قُلْنا فى قوله تعالى : ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ ﴿٧١﴾﴾ [طه] البعض قال أى : على جذوع النخل ، وهذا فَهْم غير دقيق عن الله ؛ لأن (فى) هنا تعطينى المعنيين : معنى (على) ومعنى (فى) .

فالتصليب صَلْب شىء على شىء ، وهذا المعنى تؤديه (على) ، لكن فيه قصور ، فإنْ أردتَ (على) فحسب ، فينبغى أنْ تقول : لأصلبنكم على جذوع النخل تصليباً قوياً ، بحيث تدخل أجزاء المصلوب فى المصلوب عليه . إذن : المعنى الكامل للتصليب لا تؤديه إلا (فى) .

خُذْ مثلاً عود كبريت وضَعْه على يدك ، أو على أصبعك ، والْفُفْ عليه خيطاً خفيفاً ، فى هذه الحالة الخيط فقط يثبت العود ، أما إذا

شددْتَ عليه الخيط بقوة ، فإن العود يدخل فى الجلد حتى يكاد يختفى بداخله ، هذا هو التصليب المراد أنْ تشدَّ المصلوب على المصلوب عليه بقوة بالمسامير أو الحبال أو نحوه .

لذلك قال سبحانه : ﴿فِي جُذُوعِ النَّخْلِ .. (٧١)﴾ [طه] ولم يقُلْ على جذوع النخل ؛ لأن (فى) أدَّتْ معنى الاستعلاء والظرفية معاً .

كذلك فى ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا .. (٢)﴾ [سبأ] ولم يقُلْ : وما يعرج إليها ؛ لأن إلى لا تؤدى المعنى المطلوب ، فـ (إلى) تدل على الغاية ، كما تقول : سافرت من القاهرة إلى الإسكندرية . والسماء ليست هى غاية صعود الكَلِم الطيب ، إنما غايته ومنتهاه إلى الله عز وجل ، وما السماء إلا طريق يُوصل إلى المنتهى الأعلى ، وسبق أنْ قُلْنا : إن السماء هى كل مَا علاك .

وهذا المعنى لحرف الجر واضح كذلك فى قوله تعالى : ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ .. (١٣٣)﴾ [آل عمران] فاستخدم (إلى) لأن المغفرة هى غاية ما يَسْعى إليه المؤمن ويسارع .

وقال : ﴿أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ .. (٦١)﴾ [المؤمنون]

ولم يقل : إلى الخيرات ؛ لأن الخيرات ليست هى الغاية ، إنما هى مراتب يترقَّى فيها المؤمن ويتعالى ، كلما وصل إلى خير تطلَّع إلى أَخْيَر منه ، فكأن الخيرات ظرف يسير فيه لا إليه .

كذلك لما تكلَّم الحق سبحانه عن الذين كذَّبوا الرسل ، قال : ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ .. (٩)﴾ [إبراهيم]

البعض يقول : أى : إلى أفواههم ، لا لأن (فى) تحمل معنى المبالغة فى رَدِّ المنهج الذى جاء به الرسل ، فالمعنى أن الرسل حينما

جاءوا بالمنهج لم يقبله المكذّبون وقالوا لهم : وفروا عليكم كلامكم ، يعنى : لن يُجدى معنا شيئاً ، وجعلوا أيديهم داخل الأفواه ، وعَضُّوا عليها من الغيظ مما سمعوا من الرسل ، وهذا المعنى لا تؤديه لفظة : إلى أفواههم .

ثم هو سبحانه : ﴿وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ (٢)﴾ [سبأ] صفة الرحيم أى : الذى يمنع وقوع الضُّرِّ بدايةً ، كما قال سبحانه : ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ .. (٨٢)﴾ [الإسراء]

كلمة ﴿شِفَاءٌ .. (٨٢)﴾ [الإسراء] تعنى : أنه أصابك مرض نشأ من الغفلة ، فجاء القرآن ليُذكِّرك ويُنبِّهك ويشفى نفسك من هذه الغفلة ، فإنْ لم توجد الغفلة كان القرآن رحمة تمنع حدوث الداء من البداية . و (رحيم) صيغة مبالغة من الرحمة .

كذلك ﴿الْغَفُورُ (٢)﴾ [سبأ] صيغة مبالغة من المغفرة ، والحق سبحانه كثيراً ما يؤكد على هذه الصفة ؛ لأنه سبحانه خلق الإنسان ، ويعلم أنه لن يسير دائماً على الصراط المستقيم ، ولا بُدَّ أن ينحرف يوماً ما عن المنهج القويم ؛ لذلك قال ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ .. (١٥)﴾ [المائدة]

وقلنا : إنه لولا صفة الرحمة والتوبة والمغفرة لتمادى المذنب فى الذنوب ، ويئس أنْ يعود إلى الطريق المستقيم ، وهذا الذى أسميناه (فاقد) وبه يشقى المجتمع كله ، لكن إنْ عرف أن له رباً يغفر الذنب ويقبل التوبة ، فإنه يُقبل عليها ويتوب ولم لا ، وقد تكفَّل الله له بمغفرة ذنوبه إنْ تاب وأناب ؟

إذن : شرع اللهُ التوبةَ ليرحم الخَلْق كلهم ، ويُقدِّم لهم جميلاً ،

فحين يتوب على المذنب يرحم المجتمع من شرِّه ، ويرحمه هو من آثار ذنوبه ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا .. (١١٨)﴾ [التوبة] أى : شرع لهم التوبة ليفتح لهم مجال التراجع وطريق العودة إلى الله ، حتى لا يكون هناك شراسة وتَمَادٍ فى الشر ، ولا ينقلب المذنب إلى طاغوت .

وحين نتأمل قوله تعالى : ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا .. (٣٤)﴾ [إبراهيم] نجد صَدْر الآية ورد بنفس اللفظ في موضعين ، لكن العَجُز مختلف ، ففى آية : ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤)﴾ [إبراهيم] وفى الأخرى : ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٨)﴾ [النحل]

عندما وقف بعضهم عند هذه الآية اعترضوا ، فقالوا : كيف تُعَدُّ النعمة ، وهى واحدة ؟ ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا .. (٣٤)﴾ [إبراهيم] والرد : أن النعمة التى تراها واحدة فى ظاهرها فى طَيِّها نِعَم شتى ، وقد وَضُح لنا هذا بعد أنْ تقدَّمت العلوم وظهر علم عناصر الأشياء ، فالتفاحة مثلاً تراها فى ظاهرها نعمة واحدة ، لكن علم العناصر يُبيِّن لنا أن بها نعَماً شتى ، وعناصر وفوائد مختلفة ، فهى نعمة فى طَيِّها نِعَم .

والنعمة تقتضى : نعمة ، ومُنْعِماً ، ومُنْعَماً عليه ، فالنعمة فى ذاتها من الكثرة بحيث لا تُعَدُّ ولا تُحصى ؛ لذلك استخدم كلمة (إنْ) الدالة على الشك ، ولم يقل مثلاً : إذا عددتم نعمة الله ؛ لأن هذا مجال لا يطمع فيه أحد ، ونِعَم الله ليست مظنة الإحصاء .

لذلك لم يُقْدِم أحد على محاولة عَدِّ نِعَم الله حتى بعد أنْ وُجدت جامعات وكليات متخصصة فى الإحصاء ، حاولت إحصاء كل شىء إلا

هذه المسألة ؛ لأن الإقبال على العَدِّ والإحصاء يعنى إمكانية الوصول إلى إحصاء المعدود .

أما من حيث المنْعَم عليه وهو الإنسان ، فهو ظَلُوم كفار ، ظلوم لنفسه ولغيره ، كفَّار بالنعمة ، ولو آخذناه بذلك لحرمناه هذه النعمة ، والذى حماه من هذا الحرمان أن المُنعِم عليه غفور ورحيم ، وهذا إذا نظرنا إلى المنعِم سبحانه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾ ﴾

هنا أيضاً يُحدِّثنا عن الساعة ، ففى آخر الأحزاب ﴿ يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ .. (٦٣) ﴾ [الأحزاب] وهنا ينكرونها ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ .. (٣) ﴾ [سبأ] أى : القيامة .

فلماذا ينكرونها ؟ نعم ينكرونها ؛ لأنهم أسرفوا على أنفسهم ، وتمادوا فى غَيِّهم ، ولن تكون القيامة فى صالحهم ؛ لذلك يهربون منها بالإنكار والتكذيب . حتى إخوان هؤلاء المكذبين ممَّنْ يحبون أن يستدركوا على كلام الله يقولون : إذا كان الله قد قدَّر كل شىء على العبد ، فقدَّر الطاعة ، وقدَّر المعصية ، فلماذا يعذبه على المعصية ؟

والملاحظ ، أنه لم يقُلْ أحد منهم فى المقابل : ولماذا يثيبه على

الطاعة ؟ مما يدل على أن هذه الوقفة خاطئة وغير منطقية ، وأنهم يخافون العقاب ، وصاحب هذه المقولة ما قالها إلا لأنه واثق من كثرة سيئاته ، ومن مصلحته أن يُكذِّب بالقيامة وينكرها ، كالذى قال : ﴿ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [الكهف]

فكثرة سؤالهم عن الساعة وإنكارهم لها يدلُّ على خوفهم منها ، بل هم مرعوبون من مجرد تصديقها ؛ لأنهم يعلمون جيداً أنهم إن استتروا عن الناس فلن يستتروا من الله ، وإنْ عَمُّوا على قضاء الأرض فلن يُعَمُّوا على قضاء السماء ، ولن تنفعهم فى القيامة حجة ولا لباقة منطق ، ولا تزييف للحقائق .

لذلك قال ﷺ : « إنما أنا بشر ، وإنكم تختصمون إلىَّ ، ولعلَّ أحدكم أن يكون ألحنَ[1] بحُجَّته فأقضى له ، فمَنْ قضيتُ له من حقِّ أخيه بشىء فلا يأخذه ، فإنما أُقْطِع له قطعةً من النار »[2] .

فالقاضى يحكم بالحجة وبالبيان ، ويمكن للمتكلم أنْ يُضلِّل القاضى ، وأنْ يأخذ حقَّ الآخرين ظلماً ، كما يفعل بعض المحامين الآن ، هذا فى الدنيا ، أما فى الآخرة فأنت فى محكمة قاضيها الحق سبحانه وتعالى .

---

(١) ألحن بحجته ، أى : أفطن لها وأجدل . وقال ابن الأثير : اللحن الميل عن جهة الاستقامة . يقال : لحن فلان فى كلامه إذا مال عن صحيح المنطق . [لسان العرب ـ مادة : لحن] .

(٢) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٤٥٨ ، ٢٦٨٠) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٧١٣) من حديث أم سلمة رضى الله عنها بهذا اللفظ ، وفى لفظ آخر أن رسول الله ﷺ قال « إنما أنا بشر ، وإنه يأتينى الخصم ، فلعل بعضكم أن يكون أبلغ من بعض ، فأحسب أنه صدق فأقضى له بذلك ، فمن قضيتُ له بحق مسلم فإنما هى قطعة من النار ، فليأخذها أو ليتركها » .

إذن : هؤلاء ينكرون القيامة ؛ لأنها اللغز الذى يُحيِّرهم ، والحقيقة التى تقضُّ مضاجعهم وتُرعبهم ، الحقيقة التى تزلزل جاههم ، وتقضى على سيادتهم ، وإنْ أَمنوا فى الدنيا لما لهم من جاه وسيطرة ، ففى القيامة سيأتون كما قال تعالى ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ .. (٩٤) ﴾ [الأنعام]

وكثرة سؤالهم عن الساعة له نظير فى العالم الحديث وفى عالم الاقتصاد ، فمثلاً ترى الرجل كلما جلس مع عالم سأله عن رأى الدين فى فوائد البنوك ، حتى إنه ليسأل فى ذلك ألفَ عالمٍ ، فلماذا لا يكتفى بقول واحد منهم ؟ لأنه يريد أنْ يسمع رأياً على هواه يقول له : إن فوائد البنوك حلال ، فهذه مسألة شائكة تشغل الكثيرين ، لكن ما دامت قد حاكتْ فى الصدر ، فهى من الباطل الذى قال عنه سيدنا رسول الله : « والإثم ما حاك فى الصدر ، وخشيتَ أنْ يطلعَ عليه الناسُ »[1] .

ثم يرد الحق سبحانه على إنكارهم للساعة ، فيقول مخاطباً نبيه ﷺ : ﴿ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ .. (٣) ﴾ [سبأ] يعنى : قُلْ بملْء فيك (بلى) وبلى نفى للنفى السابق فى قولهم ﴿ لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ .. (٣) ﴾ [سبأ] وحين ننقض النفى ، فإننا نثبت المقابلَ له ، فمعنى (بلى) أى : أنها ستأتى .

ثم لا يكتفى الأسلوب بذلك ، إنما يؤكد هذه القضية بالقَسَم ﴿ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ .. (٣) ﴾ [سبأ] فالحق سبحانه يُعلِّم رسوله أنْ

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (١٨٢/٤) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٥٥٣) كتاب البر والصلة من حديث النواس بن سمعان قال : سألت رسول الله ﷺ عن البر والإثم ؟ فقال : « البر حسن الخلق ، والإثم ما حاك فى صدرك ، وكرهتَ أن يطلع عليه الناس » .

يحلف بذاته سبحانه وهو مطمئن أنها ستأتيهم ، والحق سبحانه لا يُلقِّن رسوله يميناً كاذباً ، والحق سبحانه صادق دون حلف ، فما بالك حين يحلف لك ؟

وقوله تعالى بعدها ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ .. (٣)﴾ [سبأ] فيه إشارة إلى أننا لا نخبر بالساعة ولا نحلف على إتيانها من فراغ ، إنما بما عندنا من علم الغيب ، فهى لا بُدَّ آتية ، ليس هذا فحسب ، إنما سنُوافيكم فيها بإحصاء كامل للذنوب ، كبيرها وصغيرها ، ظاهرها وخَفيِّها ، فعالم الغيب لا يخفى عليه شىء مهما استتر ، ومهما كنتَ بارعاً فى إخفائه عن الناس .

﴿عَالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى السَّمَـٰوَاتِ وَلا فِى الأَرْضِ وَلا أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرُ إِلاَّ فِى كِتَابٍ مُّبِينٍ (٣)﴾ [سبأ] لا يعزب : لا يغيب عن علمه .

والحق سبحانه فى جمهرة الآيات يضرب المثل لصغَر الأشياء بالذرة ، وهى الهباءة التى نراها فى شعاع الشمس ، ولا نراها فى الظل لصغَر حجمها ، إذن : كَوْنُك لا ترى الشىء لا يعنى أنه غير موجود ، بل هو موجود ، لكن ليستْ لديك آلة البصر الدقيقة التى تستطيع رؤيته بها ، والعين المجردة لا ترى كلَّ الأشياء ، لكن حزمة الضوء القوية تساعدك على رؤية الأشياء الدقيقة ؛ لذلك قالوا : إن الضوء والذر أحكم مقاييس الكون .

لذلك يستخدم المهندسون هذه الظاهرة مثلاً فى استلام المبانى ، والتأكد من دقة تنفيذها ، فالحائط الذى يبدو لك مستوياً مستقيماً لو تركتَه عدة أيام لكشفَ لك الغبار عَمَّا فيه من نتوءات وعدم استواء ؛ لأن الغبار والذرات تتساقط عمودياً ، كذلك الضوء حين

تُسلِّطه على حائط يكشف لك ما فيه من عيوب ، مهما كانتْ دقيقة لا تراها بالعين المجردة .

ولأن الذرة كانت أصغر ما يعرفه الإنسان ، قال تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ .. (٤٠)﴾ [النساء]

لكن ، هل ظلَّتْ الذرة هى أصغر ما فى الكون ؟ حينما انهزمت ألمانيا فى الحرب العالمية الأولى لم تقبل الهزيمة ، وأبَتْ أنْ تكون مغلوبة فصممتْ على أنها تثأر لنفسها ، فاشتغل كل فرد فيها فى اختصاصه ، وكان مما أنجزوه عملية تحطيم الجوهر الفرد أى : تحطيم الجزء الذى لا يتجزأ ، وهذه أول فكرة فى تفتيت الذرة يعرفها العالم .

وهذه العملية نشاهدها نحن فى عصارة القصب مثلاً ، وهى أن تُدخل عود القصب بين أسطوانتين ، فكلما ضاقت المسافة بين الأسطوانتين زَادت عملية العصر وتفتيت العود ، كذلك عملت ألمانيا أسطوانة تحطيم الجوهر الفرد .

وعندها قال الذين يحبون أن يستدركوا على كلام الله : ذكَر القرآن أن الذرة هى أصغر ما فى الكون ، وها نحن فتتنا الذرة إلى أجزاء . ولو أَلَمَّ هؤلاء بكل القرآن ، وقرأوا هذه الآية : ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَـٰوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَلا أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلا أَكْبَرُ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٣)﴾ [سبأ] لعرفوا أن القرآن احتاط لما سيأتى به العلم من تفتيت الذرة ، وأن فى كلام الله رصيداً لكل تقدم علمىٍّ .

وتأمل الدقة الأدائية هنا ، فقد ذكر الذرة ، وهى أصغر شىء عرفه الإنسان ، ثم ذكر الصغير عنها والأصغر بحيث مهما وصلنا فى تفتيت الذرة نجد فى كلام الله رصيداً لما سنصل إليه .

وقال : ﴿لا يَعْزُبُ .. ﴿٣﴾﴾ [سبأ] لا يغيب ﴿عَنْهُ مِثْقَالُ .. ﴿٣﴾﴾ [سبأ] مقدار ﴿ذَرَّةٍ فِي السَّمَـٰوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ .. ﴿٣﴾﴾ [سبأ] لشمول كل ما فى الكون ﴿وَلا أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ .. ﴿٣﴾﴾ [سبأ] أى : أصغر من الذرة ﴿وَلا أَكْبَرُ .. ﴿٣﴾﴾ [سبأ] من الذرة .

ولقائل أنْ يقول : إذا كان الحق سبحانه يمتنُّ علينا بمعرفة الذرة ، وما دَقَّ من الأشياء ، فما الميْزة فى أنه سبحانه يعلم الأكبر منها ؟

قالوا : هذه دقيقة من دقائق الأسلوب القرآنى ، فالشىء يخفى عليك ، إما لأنه مُتناه فى الصِّغَر ، بحيث لا تدركه بأدواتك ، أو لأنه كبير بحيث لا يبلغه إدراكك ، فهو أكبر من أنْ تحيط به لِكبره ، إذن : فالحق سبحانه مُسلَّط على أصغر شىء ، وعلى أكبر شىء لا يغيب عنه صغير لِصِغَره ، ولا كبير لِكِبَره .

والحق سبحانه لا يحيط علمه بما فى كَوْنه فحسب ، بل ويُسجِّله فى كتاب مُعْجِز خالد ، وفَرْق بين الإخبار بالعلم قوْلاً وبين تسجيله ، فإذا لم يكُنْ العلم مُسجَّلاً فلَكَ أن تقول ما تشاء ، لكن حين يسجل يصير حجة عليك .

لذلك نرى الحق سبحانه حين يعطينا قضية فى الكون يحفظها مع القرآن ، وأنت لا تحفظ إلا ما فى صالحك ، وما دام الحق سبحانه يحفظها فهذا يعنى أنها واقعة لا محالة ، وإلا ما سجَّلها الحق سبحانه وحفظها ، فهو سبحانه يعلم تمام العلم أنه لا يكون فى مُلْكه إلا ما علم ، إذن : كتب لأنه علم ، وليس عَلِم لأنه كُتب . ومَن الذى أمر بكتابته ؟ علمه سبحانه إذن : فالعلم أسبق .

لكن ، لماذا عندما سألوا عن الساعة أو أنكروها ذكَّرهم الله بعلمه لكل صغيرة وكبيرة ، فقال : ﴿ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَـٰوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَلا أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرُ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٣) ﴾ [سبأ]

قالوا : ذكر لهم الحق سبحانه إحاطة علْمه بكل شىء ؛ ليلهيهم عن التفكير فى أمر الساعة ، ويشغلهم بذنوبهم ، وأنها محسوبة عليهم لا يخفى على الله منها شىء ، وعندها سيقولون : ليتنا ما سألنا ، كما قال تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ .. (١٠١) ﴾ [المائدة]

إذن : سألوا عن الساعة ، فأخذهم إلى ساحة أخرى تزعجهم وتزلزلهم كلما علموا أنَّ عِلْم الله تعالى يحيط بكل شىء فى السموات وفى الأرض .

فالمسألة ليست مجرد (فنطزية) عِلم ، إنما سيترتب على هذا العلم جزاء وحساب ، فقال سبحانه :

﴿ لِّيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّـٰلِحَـٰتِ أُوْلَـٰئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٤) ﴾

عجيب أنْ يُوصف الرزق ذاته بأنه كريم ، فالكريم صفة الرازق الذى يهبُكَ الرزق ، فما بالك إنْ كان الرزق نفسه كريماً يذهب إليك ويعرف مكانك ، كما قال الشاعر[1] :

تَحرَّ إلى الرِّزْقِ أسْبَابَهُ ... وَلاَ تَشْغَلَنَّ بعدَهَا بَالكَا
فَإنَّكَ تَجْهَلُ عُنْوانَهُ ... ورِزْقُكَ يعرِفُ عُنْوانكَا

(١) من شعر الشيخ يغفر الله له .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَٱلَّذِينَ سَعَوْا فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾

السعى هو المشى الحثيث وقطع المسافة ، فما معنى ﴿ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا .. ﴿٥﴾ ﴾ [سبأ] ألم تسمع قولهم : سعى فلان بفلان عند السلطان مثلاً ؟ والمراد : أنه نَقَل إلى السلطان ما يُغضبه وما يُحزنه من هذا الشخص ، وهذه التى نسميها فى العامية وبين الموظفين (ضربه زُنْبَة) هى هنا بنفس هذا المعنى .

﴿ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا .. ﴿٥﴾ ﴾ [سبأ] يعنى : ضربوا فيها (زُنَب) وألَّبوا الناس عليها ليزهد فيها مَنْ كان مُقبلاً عليها ، ويخرج منها مَنْ كان فيها ويتملَّص منها ، سعَوْا فى آيات الله وهى القرآن ليبطلوه وليصرفوا الناس عنه ، لماذا ؟ لأنهم واثقون من أثر القرآن فى القلوب ، فلو أعطاه الناسُ آذانهم لابد وأنْ يؤثر فيهم ويجذبهم إلى ساحة الإيمان ، فتنفعل به قلوبهم . وتلهج به ألسنتهم .

وهؤلاء هم الذين قالوا : ﴿ لا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [فصلت] ولو كان القرآن كلاماً عادياً غير ذى أثر لَمَا نَهوْا عن سماعه ، ولما شوَّشوا عليه ، وخافوا من سماعه .

ومعنى ﴿ مُعَاجِزِينَ .. ﴿٥﴾ ﴾ [سبأ] مفردها مُعَاجز : اسم فاعل من عَاجَزَ مثل : قَاتَلَ ومقاتل ، وعاجز مثل نافس ، والمنافسة الأصل فيها التسابق فى التنفس ، وقد رُوى أن سيدنا عمر وسيدنا عبد الله بن عباس رضى الله عنهما مَرَّا ببحيرة ، فقال عمر : هيا بنا نتنافس يعنى :

نغطس تحت الماء ، لنرى أيّنا أطول نَفَساً من الآخر ، ومعروف أن طول فترة الغطس تدل على قوة التنفس وسلامة الرئة ، وأنها تحتوى مخزوناً أكبر من الهواء ، ثم أُطلقت المنافسة على كل مسابقة .

ومثل نافس : عَاجَزَ يعنى : حاول كُلٌّ من الطرفين إثبات عجز الآخر . تقول : عاجزنى يعنى : جعلنى أفعل فعلاً أعجز عنه ، فكأنهم يريدون بسعيهم فى آيات الله أنْ يُثبتوا عجزها ، وأن يُعجزوا الدعوة أنْ تبلغ مداها ، ويُعجزوا رسولَ الله أنْ يتمم رسالته ، ويُعجزوا منهج الله أن يصل إلى خلق الله .

لكن يُعاجزون مَنْ ؟ يُعاجزون الله ؟ كيف وهو سبحانه الذى أرسل الرسل ، وتكفَّل بنصرتهم وعدم التخلِّى عنهم ، وما كانت الحروب والقتال بين الرسل والمكذبين إلا سبباً يأتى من خلاله نصر الله ، كما قال سبحانه : ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ (١٤)﴾ [التوبة]

وقال سبحانه : ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣)﴾ [الصافات]

إذن : مَنْ سيُعاجزون ؟ ربما يُقبل أنْ يُعاجزوا رسول الله ﷺ أو يُعاجزوا المؤمنين ، أما الحق سبحانه فهو الغالب القادر ، وهل يستطيع أحد أنْ يُعجز الله ، ويتغلب عليه سبحانه ، فيجعله عاجزاً ، وهو سبحانه القادر الغالب ؟

فمعنى ﴿سَعَوْا فِي آيَاتِنَا .. (٥)﴾ [سبأ] أى : وضعوا المكايد والعراقيل فى طريقها : ليفسدوا أمر الدعوة ، وحتى يردُّوها على رسول الله فى فمه الذى قالها ﴿مُعَاجِزِينَ .. (٥)﴾ [سبأ] حالة كونهم

معاجزين ، يعنى : يسيرون مع خالقهم فى مضمار واحد ، الله يريد أنْ يُعجزهم ، وهم يريدون أنْ يُعجزوا الله ، وأنْ يكونوا فى مكان القدرة الإلهية العليا ؛ ليثبتوا أن الدعوة باطلة .

ثم يُبيِّن سبحانه جزاء هؤلاء المعاجزين : ﴿أُوْلَـٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ۝٥﴾ [سبأ] الرِّجز والرُّجز هو الحمْل الثقيل ، وأصله الذنب ، وما يترتب عليه من عقوبة ؛ لذلك يقول تعالَى : ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ۝٥﴾ [المدثر] أى : الذنب الكبير ، أو العقوبة المترتبة عليه ، والمعنى : لا تفعل الذنب ، ولا ما يؤدى للعقوبة ، وإذا هجرتَ الذنب لا تأتى العقوبة .

وقد وُصف العذاب هنا بأنه ﴿عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ۝٥﴾ [سبأ] والعذاب يُوصَف مرة بأنه أليم ، ومرة بأنه مهين ، ومرة بأنه عظيم ، وهى أوصاف تدل على معَان مختلفة لحال واحدة ، فهو أليم أى : يؤلم صاحبه ، فإنْ كان جَلْداً يدعى التحمُّل فله عذاب مهين يُهينه ، ويحطُّ من كرامته ، وهو الذى يتعالى أو يظنُّ نفسه عظيماً .

والعذاب المهين ليس بالضرورة أن يكون مؤلماً ، فمن الناس مَنْ يؤلمه التوبيخ والتقريع ، فإنْ أردتَ ضخامة العذاب من حيث القدر ، فهو عذاب عظيم .

إذن : إنْ أردتَ الإيلام فهو عذاب أليم ، وإنْ كان قليلاً فى قدره ، وإنْ أردتَ التحقير والإهانة فهو عذاب مهين ، وإنْ أردتَ ضخامة العذاب فهو عذاب عظيم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٦﴾

هنا تثبيت لسيدنا رسول الله ﷺ ، فكأن ربه - عز وجل - يقول له : يا محمد لا تيأس من هؤلاء الذين سَعَوْا فى آياتنا معاجزين ولا تهتم ، فإن الذى جعل من الكفرة مَنْ يسعون بالفساد ويُعاجزون خالقهم جعل أيضاً لك مَنْ ينصر دعوتك ويؤيدك من الذين يؤمنون بآيات الله ، ويعلمون أنها الحق ، وأن مَا يقوله هؤلاء هو الهراء ، وهو الباطل .

فكما أثبتَ لهم سَعْياً فى الباطل ومعاجزة أثبتَ للمؤمنين العلم بآيات الله وتصديقها والاعتراف بأنها الحق ، وطمأن رسول الله أن هؤلاء لن يفسدوا عليك أمرك ، ولن يُطفئوا نور الله ، كما قال سبحانه:

﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٨) ﴾ [الصف]

وقال : ﴿ هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٣٣) ﴾ [التوبة]

فقوله تعالى : ﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِى أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ .. (٦) ﴾ [سبأ] أى : يشهدون لك بأنك على الحق ، وأنك جئتَهم بمنهج هو الحق ، ويهدى إلى صراط مستقيم . إذن : فضَعْ هؤلاء قبالة الذين سعَوْا فى آياتنا معاجزين ، واعقد مقارنة بين هؤلاء وهؤلاء .

فالكفار الذين سَعَوْا فى آياتنا بالفساد مُجرَّدون عن معونة القدرة ، بل إن القدرة ضدهم ولهم بالمرصاد ، أما الذين أوتوا العلم وشهدوا لرسول الله ، فهم مُؤيِّدون للقدرة الإلهية ، والقدرة معهم تساندهم ، فأىُّ الكفَّتين أرجح ؟

ومعنى : ﴿وَيَرَى الَّذِينَ[1] أُوتُوا الْعِلْمَ (٦)﴾ [سبأ] الذين أوتوا العلم من المؤمنين بمحمد ﷺ الذين صدَّقوه وصدَّقوا معجزته ورسالته . أو : الذين أوتوا العلم من أهل الكتاب اليهود أو النصارى ، فالمنصفون منهم يعلمون صدْق رسول الله ، ويعرفونه كما يعرفون أبناءهم وهم الذين ذهبوا إلى يثرب قبل بعثة رسول الله ينتظرون بعثته ، وكانوا يستفتحون به على الذين كفروا يقولون : لقد أظلّ زمن نبى جديد نتبعه ونقتلكم به قَتْل عاد وإرم ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ .. (٨٩)﴾ [البقرة]

لذلك يقول القرآن فى جدال الكافرين : ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ .. (٤٣)﴾ [الرعد] أى : رداً عليهم ﴿كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ .. (٤٣)﴾ [الرعد] أى : الله الذى أرسلنى بالمعجزة ﴿وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ (٤٣)﴾ [الرعد] أى : من اليهود والنصارى ، أهل التوراة والإنجيل .

والعلم : هو كل قضية مجزوم بها ، وهى واقعة وعليها دليل ، وغير ذلك لا يعتبر علْماً ، فالقضية إنْ لم يكُنْ مجزوماً بها فلا تدخل فى العلم ، إنما هى فى الشك ، أو فى الظن ، أو فى الوهم ، فإنْ كانت القضية مجزوماً بها ، لكن ليس لها واقع ، فهذا هو الجهل .

لذلك سبق أنْ قُلْنا : ليس الجاهل هو الذى لا يعلم ، إنما الجاهل الذى يعلم قضية منافية للواقع ، أما الذى لا يعلم فهو الأميُّ خالى

---

(١) فى تأويل الذين أوتوا العلم هنا قولان :

- هم أصحاب محمد ﷺ . قاله قتادة فيما ذكره السيوطى فى الدر المنثور (٦/٦٧٤) وقاله ابن عباس فيما ذكره القرطبى فى تفسيره (٨/٥٥٣٠) .
- هم المؤمنون من أهل الكتاب . قاله مقاتل فيما ذكره القرطبى ، وقاله الضحاك فيما ذكره القرطبى .

قال القرطبى : وقيل : جميع المسلمين ، وهو أصح لعمومه .

الذِّهْن تماماً ؛ لذلك يقبل منك ما تقول ، على خلاف الجاهل الذى ينبغى عليك أنْ تثبت له خطأ قضيته أولاً ، ثم تقنعه بما تريد .

فإنْ كانت القضية مجزوماً بها ولها واقع ، لكن لا تستطيع أنْ تُدلِّل عليها ، فهى تقليد كالولد الذى نلقنه مثلاً ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢)﴾ [الإخلاص] فيحفظها كما هى ، لكن لا يستطيع أنْ يقيم الدليل عليها ، فهو إذن مُقلد لمن يثق فيه وفى إخلاصه له ، كأبيه أو مُعلمه ، فإنْ وصل الولد إلى مرحلة يستطيع فيها أنْ يُدلِّل على صِدْق هذه القضية فقد وصل إلى مرتبة العلم .

والعلم وإنْ كان أنواعاً كثيرة ، إلا أنه يمكن حَصْره فى العلم الشرعى والعلم الكونى : العلم الشرعى أو علم الشرع ، ومصدره السماء يُبلِّغه رسول بمعجزة ، ولا دَخْلَ لأحد فيه ، وليس للبشر فى علم الشرع إلا النقل والرواية ، والبلاغ من الرسول ، وهذا العلم هو الذى يُحدِّد لنا الحلال والحرام ، وقد جاء العلم الشرعى لا ليتدخل فى العلم الكونى ، إنما جاء ليضبط الأهواء المختلفة ؛ لذلك يختلف الناس فى هذا العلم .

أما العلم الكونى فهو العلم الذى يبحث فى أجناس الوجود كلها : فى الجماد ، وفى النبات ، وفى الحيوان ، وفى الإنسان ، فهذا العلم يقوم على نشاط العقل ، ولا يختلف الناس فيه ؛ لأنه مادىٌّ يعتمد على البحث والتجربة والملاحظة ؛ لذلك يتنافس فيه الناس ، وربما سرقوه بعضهم من بعض .

وبهذا العلم الكونى يُرَقِّى الإنسان حياته ، فالخالق عز وجل أعطاك كل مُقوِّمات الحياة وضرورياتها ، وعليك إنْ أردتَ رفاهية الحياة أنْ تُعمِل عقلك وفكرك فى معطيات الكون من حولك لتكتشف ما لله تعالى

فى كونه من أسرار وآيات تُرقِّى بها حياتك .

ففى الماضى ، كان الإنسان مثلاً إذا أراد الماء يذهب إلى النهر أو إلى البئر ، فإنْ عَزَّ عليه الماء طلب السُّقْيا من الله ، وتوجَّه إليه بالدعاء ولا شىء آخر ، فلما تطورتْ الوسائل وتوصَّل الإنسان إلى خواصِّ الماء واستطراقه من أعلى إلى أسفل ، واستحدث الخزانات والمواسير ، وصار يستقبل الماء فى بيته بمجرد فَتْح صنبور المياه أصبح إذا انقطعت عنه المياه لا يقول : يا ربِّ اسقنى . إنما يبحث عن سبب انقطاعها ، أهو فى (ماسورة) كُسرت ؟ أم أن الكهرباء انقطعت فعطلتْ موتور الرفع ؟ أم أن محطة المياه تعطلت ؟ .. إلخ .

إذن : كلما تقدمتْ الحضارة ووسائل المدنية بَعُدت الصِّلات بيننا وبين الله .

وهذا العلم الكونى الذى يقوم على الفكر وإعمال العقل لا دَخْلَ للسماء فيه ، ويستوى فيه المؤمن والكافر ، فمَنْ سعى إليه وأخذ بأسبابه أعطتْه الأسباب ؛ لذلك وجدنا معظم الاختراعات والاكتشافات جاء بها علماء كفرة لا يؤمنون بالله ، كالكهرباء والتليفون والتلغراف وغيرها .

فمعنى : ﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ .. (٦) ﴾ [سبأ] أى : العلم الشرعى ، وهم الذين آمنوا بك وصدَّقوك بالمعجزة على أنك رسول الله ، وأن ما جئتَ به هو الحق ﴿ الَّذِى أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ .. (٦) ﴾ [سبأ]

وكذلك الذين أوتوا العلم الكونى لهم دَوْر فى تصديق الرسل وتأييدهم بما أوتوا من العلم الكونى الذى يدلُّ على الله ، وإذا كان القرآن كتابَ الله

المقروء ، فالكون بأجناسه المختلفة كتاب الله المشاهَد المنظور .

واقرأ إنْ شئت قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا .. (٢٧)﴾ [فاطر] هذا هو النبات ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ(١) بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ(٢) (٢٧)﴾ [فاطر] وهذا هو الجماد ﴿وَمِنَ النَّاسِ .. (٢٨)﴾ [فاطر] الإنسان ﴿وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ .. (٢٨)﴾ [فاطر] أى : الحيوان ﴿مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ .. (٢٨)﴾ [فاطر]

ثم يختم الحق سبحانه بقوله : ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ .. (٢٨)﴾ [فاطر] أىّ علماء ؟ علماء الكون الذين يبحثون فى أجناسه المختلفة وقوانينه العلمية والاجتماعية والصحية .. إلخ .

وهؤلاء العلماء يخشوْنَ الله ؛ لأنهم يشاهدون أسراره فى كونه ، ويُطْلعون الناس عليها ، فهم جُنْد من جنود الدعوة إنْ آمنوا يؤيدون قدرة الله ، بل ويستشهد علماء الشرع بكلامهم ، ويُظهرون قدرة الله فى الكون من خلال نظرياتهم العلمية ، إذن : للعلم الكونى مهمة كبرى فى مجال الدعوة إلى الله .

لكن ، مَن الذى يرى منْ هؤلاء ـ علماء الشرع ، أو علماء الكون ـ أن الذى جاء به محمد هو الحق ؟

إنْ قُلْنا علماء الشرع فقد شهدوا لرسول الله وصدَّقوه ، سواء من المؤمنين برسالته ، أم من علماء أهل الكتاب ، وإنْ قلنا علماء الكون

---

(١) الجدة من الشىء : الجزء منه يخالف لونُه لونَ سائره . ومعنى الآية : أى من الجبال أجزاء ذات ألوان مختلفة . [القاموس القويم ١/١٢٨] .

(٢) الغربيب : شديد السواد وجمعه غرابيب ، ووصف الغرابيب بأنها سود للتوكيد . [القاموس القويم ٢/٥٠] .

فقد شهدوا هم أيضاً لرسول الله وأيَّدوه بما لديهم من أسرار قدرة الله ، والدليل أننا كنا نتحدث فى قوله تعالى : ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ[1] عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَـٰوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَلا أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلا أَكْبَرُ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٣)﴾ [سبأ]

قُلْنا : إن الذرة هى الهباءة المتناهية فى الصِّغَر ، والتى لا تُرَى بالعين المجردة إلا فى شعاع الشمس ، هذا هو كلام الحق سبحانه ، فأعطنى من العلم الكونى ما يثبت هذا الكلام ، وما يقنعنى بأن الله تعالى يعلم كل شىء ، ولا يخفى عليه حتى الذرة فى السموات ولا فى الأرض .

نقول : مَنِ الذى خلق السموات والأرض وما فيهن ؟ لا أحد يستطيع أن يقول غير الله . كما قال سبحانه : ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم .. (٢٥)﴾ [لقمان] أى : الكفار ﴿مَّنْ خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ .. (٢٥)﴾ [لقمان] ، وقال تبارك وتعالى : ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٨٧)﴾ [الزخرف]

لا أحد يجرؤ أنْ يقول غير هذا ، مع أن الكفرة والملاحدة كثيرون ، لكن لم يدَّعِ أحد أنه خلق شيئاً ، كيف والناس يقفون عند أتفه الأشياء ، فيُؤرِّخون لها ويُخلِّدون اسم صانعها أو مخترعها ، لو سألت تلميذ الابتدائية : مَن اكتشف الكهرباء ؟ يقول لك : أديسون . مَنْ أول مَنْ صعد إلى القَمر ؟ يقول لك : كذا وكذا .

فكيف نعرف هؤلاء ونصنع لهم التماثيل ونكرمهم ، ولا نسأل أنفسنا : مَنْ خلق الشمس ، مَنْ خلق القمر ؟ مَنْ أجرى الهواء .. الخ ، وهذه مقومات الحياة وأساسياتها ، وليست ترفاً كالأخرى .

---

(١) يعزب : يغيب ، فلا يغيب عن علمه سبحانه شىء . [لسان العرب ـ مادة : عزب] .

إذن : قضية الخَلْق هذه ساعةَ تُعرض لا بُدَّ أنْ يتمثل لك قوله تعالى ﴿فَبُهِتَ الَّذِى كَفَرَ .. (٢٥٨)﴾ [البقرة] يعنى : لا يملك إلا أن يقول : الله .

تذكرون أننا قلنا : إذا قال الحق قولاً ، وقال البشر قولاً يجب أن ينطمس قول البشر أمام قول الله ؛ لأن البشر حين يُقنِّنون يُقنِّنون حسب ما يرى من أحداث ، ولا يحسب حساباً لما سيطرأ ، ومَا يُستجد ؛ لذلك تأتى قوانين البشر عاجزة قاصرة تحتاج دائماً إلى تعديل .

كذلك ، فى مسألة الإضاءة نرى البشر يضىء كل منهم بيته مثلاً حَسْب إمكاناته وقدراته ، فإذا جاء نور الله أُطْفِئت كل الأنوار ، ومن هذه المسألة نأخذ الدليل على مسألة الذرة التى نحاول أنْ نثبت عِلْم الله لها من خلال العلم الكونى .

فنحن الآن فى المسجد ، والمسجد مُضاء ، ونرى كل شىء ، فهل ترون الآن غباراً فى جو المسجد ؟ لا ، مع أننا فى النور ، لكن ماذا لو جلستَ بجوار شباك مثلاً يدخل منه شعاع الشمس ؟ لا شك أنك سترى هذا الغبار المتطاير فى الجو .

إذن : هذا الغبار لا تراه إلا فى ضوء الشمس ، فنور البشر لا يكشف الغيبَ ، إنما يكشفه نور الله المتمثل فى ضوء الشمس ، فإذا كانت الشمس المخلوقة لله تعالى بيَّنَتْ لنا ما خَفِى عَنَّا ، أيعجز خالق الشمس سبحانه أنْ يعلم ما غاب عنَّا ؟

هذه إذن رسالة العلم الكونى ، أنْ يُثبت لنا ما يؤيد الدعوة ، وأن ما جاء به الرسول حق .

مسألة أخرى توضح مكانة العلم الكونى ومنزلته فى الدعوة ، هذه المسألة نجدها فى قوله تعالى عن عذاب الكفار يوم القيامة : ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ .. (٥٦) ﴾ [النساء]

هكذا قال الله تعالى ، وهكذا نقلها القرآن لنا لم يخبرنا شيئاً عن مراكز الألم والإحساس ، وكنا لا نعلم شيئاً عنها ، حتى جاء علماء وتخصَّصوا فى وظائف الأعضاء ، وبعد بحوث وتجارب توصَّلوا إلى أن الجلد هو المسئول عن الإحساس ، فقد لاحظ الألمان أن المريض حين نعطيه حقنة مثلاً لا يشعر بالألم إلا بمقدار ما تنفذ الإبرة من طبقة الجلد ، فأخذوا من ذلك أن الجلد هو محلُّ الإحساس ، وليس المخ أو النخاع الشوكى كما قال البعض .

أخذ علماء الشرع هذه القضية ، وجعلوها دليلاً على قول الحق سبحانه : ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا .. (٥٦) ﴾ [النساء] لماذا يا رب ؟ ﴿ لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ .. (٥٦) ﴾ [النساء] فالجلد محل الإذاقة ، وهكذا ساعدنى العلم الكونى فى إثبات صدق القرآن الكريم ، وأنه حق .

كذلك نفعنا العلم الكونى فى إثبات كروية الأرض ، وأنها تدور حول الشمس ، فالحق سبحانه أخبرنا أن الليل والنهار خِلْفة أى : يخلف كل منهما الآخر ، وهذا واضح لنا الآن فى تعاقب الليل والنهار ، لكن ماذا كان أول الخَلْق لو أن النهار خُلق أولاً يعنى : خُلقت الشمس مواجهة للأرض ثم غابت ، فجاء الليل ، فالنهار فى هذه الحالة ليس خِلْفة لليل ، لأن النهار جاء أولاً لم يسبقه ليل فليس خِلْفة .

وعليه فلا بُدَّ أن تكون الأرض خُلقت على هيئة كروية ، ما قابل الشمس منها يكون النهار فيه ، وما لم يقابل الشمس يكون الليل

فيه ، فهما معاً فى وقت واحد ، فلما دارت الشمس تعاقب الليل والنهار ، وخلف كل منهما الآخرَ ، فلا تتأتى هذه الخِلْفة إلا بكُروية الأرض .

فقوله تعالى : ﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ .. ﴿٦﴾ ﴾ [سبأ] أى : العلم الشرعى المنزَّل من أعلى ، أو العلم الكونى القائم على البحث والمشاهدة . وقوله ﴿ أُوتُوا الْعِلْمَ .. ﴿٦﴾ ﴾ [سبأ] سواء كان عِلْماً شرعياً ، أو علماً كونياً يدل على أن العلم إيتاءٌ ، فليس هناك عالم بذاته ، إنما العلم إيتاء من الله حتى فى علم الكونيات لذلك لم يقل علموا ، إنما ﴿ أُوتُوا الْعِلْمَ .. ﴿٦﴾ ﴾ [سبأ]

لذلك قالوا : إنْ كان العلمُ نعمةً من الله ، فكذلك النسيان قد يكون نعمة ، وجندياً يخدم الإنسان ، فنحن نعرف مثلاً (الخميرة) التى تخمر العيش ، إذا وجدت رغيف العيش (مبلّط) يعنى : وجهه ملتصق بظهره ترده للبائع وتطلب الرغيف (القابب) هذا ما تفعله (الخميرة) فى رغيف العيش تجعل الهواء يدخل بين ذرات العجين ، فحين تُدخِله النار يتمدد هذا الهواء فيُحدِث فاصلاً بين وجه الرغيف وظهره .

وهذه الخميرة هى التى تعطى للعيش طعمه المميز ، فهل تعرف من أين جاءت هذه الفكرة ؟ جاءت نتيجة نسيان ، فيُروى فى هذه المسألة أن امرأة عجنتْ العجين ، ثم انشغلت عن خَبْزه بعض الوقت ونسيته ، فلما تذكرتْ جاءتْ إليه وخبزته كما هو ، فوجدتْ هذا الفرق بين العجين حين يُخبز سريعاً ، وحين يُترك حتى يختمر ، وكانت هذه بداية فكرة الخميرة ، وكأن كل قطعة خميرة نأكلها الآن هى فى الحقيقة جزء من خميرة هذه المرأة .

كذلك يقال فى سبب شواء اللحم أن الإنسان أولاً كان يأكل اللحم

نيئاً ، وقد ذبح رجل شاة بالليل ، وأوقد ناراً يستدفىء بها ، فجاء ذئب ينازعه الشاة ، فدخل معه فى معركة ، فوقعت قطعة لحم فى النار ، فلما خلص من الذئب شَمَّ رائحة الشِّواء فأعجبته ، ومن هنا عرف الإنسان كيف يشوى اللحم .

إذن : الحق سبحانه يهدى خَلْقه ولو بالنسيان ، ولو بالمصادفة ، فالعلم حتى الكونى منه إيتاء من الله ، وكل قضية كونية لا يعطيك الله علمها مباشرة ، يعطيك المقدمات التى تُوصِّل إليها ، وتهدى إلى معرفتها .

وكنا ونحن نتعلم الهندسة ندرس كتاباً اسمه (هول ونايت) نتعلم كيف نبرهن على صحة النظرية ، فمثلاً النظرية المائة نبرهن عليها بما ثبت فى النظرية التسعة والتسعين وهكذا ، فحين تسلسل هذه المسألة نصل إلى النظرية ، رقم واحد ، كيف نبرهن على صحتها ؟

قالوا : البرهان عليها بدهية فى الكون ، فكأن كلَّ علم وصل إلينا أصله بدهية مخلوقة لله تعالى ، إذن : فالعلم سواء أكان شرعياً أو كونياً إيتاء من الله ؛ لذلك قال سبحانه : ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ .. (٢٨٢)﴾ [البقرة] يعنى : يلهمكم ويرشدكم إلى الأشياء ولو بالمصادفة ، وسبق أنْ قُلْنا : إن لكل سر فى الكون ميلاداً ، إما أنْ يأتى نتيجة بحث الإنسان ، فإنْ لم يبحث الإنسان فيه كشفه الله له ولو بالمصادفة ، كما اكتشف الإنسان مثلاً البنسلين .

لذلك يقول سبحانه فى العلم الكونى : ﴿اللَّهُ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ .. (٢٥٥)﴾ [البقرة]

فمعنى ﴿إِلاَّ بِمَا شَاءَ .. (٢٥٥)﴾ [البقرة] أى : يأذن سبحانه بميلاد

هذا الشىء ، فإنْ شاء سبحانه أعطاك علمه نتيجة بحثك وأنت تبحث وإنْ لم يكُنْ هناك بَحْث أعطاك العلم مصادفة .

أما العلم الذى استأثر الله به فهو غيب لا يحيط به أحد ، كما قال سبحانه : ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ .. (٢٧)﴾ [الجن] هذا هو العلم الذى لا دَخْل لأحد فيه ، أما العلم الكونى فله زمن ، وله ميلاد يُولَد فيه .

ونلحظ فى أسلوب الآية أن المفعول الثانى للفعل (يرى) جاء على صورة الضمير المنفصل ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِى أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ .. (٦)﴾ [سبأ] ولم يقل الحق فقط إنما ﴿هُوَ الْحَقَّ .. (٦)﴾ [سبأ] وهذا الضمير المنفصل يعنى أن غيره ليس حقاً ، فالحق هو الذى أُنزل على رسول ، وما عداه ليس حقاً ، وكأنها خاصية لم تُعْط إلا له ﷺ .

ومثلها قوله تعالى حكاية عن سيدنا إبراهيم : ﴿الَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨)﴾ [الشعراء] فلم يَقُلْ : الذى خلقنى يهدينى ؛ لأنها تحتمل أن يهديك غيره ، إنما ﴿هُوَ يَهْدِينِ (٧٨)﴾ [الشعراء] قصرت الهداية عليه سبحانه وتعالى ، ومثلها ﴿وَالَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠)﴾ [الشعراء] فقصر الإطعام والسُّقْيا والشفاء على الله سبحانه وتعالى ؛ لأنك قد تظن أن أباك هو الذى يُطعمك ويسقيك ، وهو مجرد سبب ومُناول عن الله .

وكذلك قد تظن أن الشفاء بيد الطبيب ، وما الطبيب إلا معالج ، والشفاء من الله ، لكن تأمل حين تكلم سبحانه بعدها عن الموت والحياة ، قال : ﴿وَالَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١)﴾ [الشعراء] ولم يأْت بالضمير المنفصل هنا ، لماذا ؟ لأن الموت والحياة لم يدَّعِها أحد غَير

الله ، فليست مظنة المشاركة ، والكلام هنا عن الموت لا عن القتل ، وهناك فَرْق بينهما سبق أنْ أوضحناه .

إذن : قوله تعالى : ﴿هُوَ الْحَقَّ .. ﴿٦﴾﴾ [سبأ] دلَّتْ على أن الحق واحد ، هو ما أنزل الله ، وما عداه باطل ، ولا يجتمع حقَّانِ فى مسألة واحدة ، إلا إذا كانت الجهة مُنفكة كأن تقول مثلاً : والله أنا ودعت فلاناً اليوم فى المطار وسافر إلى كذا ، فيقول آخر : بل لم يسافر وأنا رأيتُه اليوم فى بيته ، وعندها يتهم كل واحد منكما الآخر بالكذب فأسرعتَ إلى التليفون واتصلتَ بهذا الرجل ، فقال لك : نعم لم أسافر فقد طرأ لى طارىء ، فرجعت من المطار . إذن : فالخبران صادقان ، لكن الجهة منفكة .

والحق هو : الشىء الثابت الذى لا يتغير ولا يُنكر ، وكيف تنكر الحق وأنت حين تريد أنْ تؤيد نفسك فى شىء تقول : هذا حقى يعنى لى ولا ينازعنى فيه أحد ، فالدَّعْوى التى تقيمها أن هذا حقك .

والحق إلى جانب أنه أمر ثابت فهو ينفعك ، فله إذن ميزتان أو حجتان : الأولى أنه الحق الثابت وغيره باطل ، والأخرى أنه يعود عليك نفعه ؛ لذلك قال تعالى بعدها : ﴿وَيَهْدِى إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٦﴾﴾ [سبأ] ، فإذا لم تقبل الحق لذاته وتتعصب له ، فاقبله لما يعود عليك من نفعه ، فهذان الأمران هما من حيثيات التمسك بالحق .

ومعنى ﴿الْعَزِيزِ .. ﴿٦﴾﴾ [سبأ] هو الذى لا يُغلب ولا يُقهر ، ومنه قولنا : عزَّ علىَّ كذا يعنى : لم أقدر عليه ، وفلان عزيز يعنى لا يقهره أحد ، فصفة العزة صفة ترهيب ، فحين تُعرض عن هذا الحق فاعلم أنك تعصى عزيزاً لا يُقهر ، يغلب ولا يُغلب .

ثم يتبعها سبحانه بصفة من صفات الترغيب ﴿الْحَمِيدِ ﴿٦﴾﴾

[سبأ] بمعنى المحمود على ما يُعطى من النِّعَم ، فهى تُرغِّبك فى المزيد من نِعَم الله .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا .. ﴿٧﴾ ﴾ [سبأ] معلوم أن القول يحتاج إلى قائل ، وإلى مقُول له ، القائل هم الذين كفروا ، قالوا : لمن ؟ قالوا بعضهم لبعض وهم يتسامرون ، أو قال المتبوع منهم لتابعه الذى يقلده . أما قولهم فهو ﴿ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ ﴾ [سبأ]

ويلفت أنظارنا فى هذا القول أنهم وصفوا سيدنا رسول الله ﷺ بكلمة (رجل) ، وهى نكرة قصدوا بها الاستهزاء والاستنكار والتقليل من شأنه ﷺ .

وهذا فى حد ذاته يدل على غبائهم وتغفيلهم ، فهم أنفسهم الذين وصفوه بأنه رسول الله حين قالوا كما حكى القرآن عنهم : ﴿ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ .. ﴿٧﴾ ﴾ [المنافقون] فدلَّ ذلك على غبائهم .

وهم أيضاً الذين قالوا ـ لما فَتَر الوحى عن رسول الله ـ إن ربَّ محمد قلاه[1] ، وهذا عجيب منهم ، فعند المحنة والسوء يعترفون أن لمحمد رباً .

---

(١) عن جندب بن عبد الله البجلى أنه قال : أبطأ جبريل على رسول الله ﷺ ، فقال المشركون : وَدَع محمداً ربُّه . أورده ابن كثير فى تفسيره (٤/٥٢٢) .

وقولهم ﴿يُنَبِّئُكُمْ .. ⑦﴾ [سبأ] من النبأ ، ولا يُطلَق إلا على الخبر الهام وليس مطلق الخبر ، فمثلاً حين أقول لك : أكلتُ اليوم كذا وكذا ، وذهبتُ إلى مكان كذا لا يُعَدُّ هذا نبأ ؛ لأنه خبر عادى ، أما النبأ فخبر عجيب وهام وعظيم ، كما جاء فى قول الله تعالى : ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ① عَنِ النَّبَأِ الْعَظِيمِ ②﴾ [النبأ]

ومعنى ﴿إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ .. ⑦﴾ [سبأ] التمزيق : إبطال الكل عن أجزائه ، وإبعاد الأجزاء بعضها عن بعض ، فمثلاً أنا أجلس الآن على كرسى ، هذا الكرسى كُلٌّ مكوَّن من أجزاء : خشب ومسامير وغِراء وقطن وقماش .. إلخ ، فتمزيق هذا الكل أن أفصل هذه الأجزاء عن بعضها ، فينهدم هذا الكل إلى أجزاء .

وينبغى هنا أن نُفرِّق بين الكل والكلى : الكل مكوَّن من شىء كثير ، لكنه مختلف فى الحقيقة ، فالخشب غير المسمار غير الغِراء غير القماش ، فكل جزء له تكوينه الخاص .

أما الكلى فيُطلق على أشياء كثيرة منفصلة ، إلا أنها متفقة فى الحقيقة ، كما نقول مثلاً : إنسان بالنسبة للأفراد شىء كلى ؛ لأن الإنسان يُطلق على كل المجموع ، بحيث يُقال عن كل فرد : إنسان ، إنما فى الكل لا أقول الخشب كرسى .

هذا هو التمزيق ، فماذا أضافت ﴿كُلَّ مُمَزَّقٍ .. ⑦﴾ [سبأ] ؟

أى : تمزيقاً شديداً يُمزِّق الكل ، ويمزِّق الجزء ، إذن : التمزيق له مراحل وصور ، فمعنى ﴿مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ .. ⑦﴾ [سبأ] استقصاء لأصغر شىء يصل إليه الممزَّق ، وهذا التمزيق نشاهده فى تحلل الميت وتفكُّك أجزائه وعناصره ، حتى تذهب فى الأرض ، لا يبقى لها أثر .

ومن ذلك قولهم : ﴿وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ .. (١٠)﴾ [السجدة]

فمعنى ﴿ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ .. (١٠)﴾ [السجدة] أى : ذهبنا فيها وغبْنا فى متاهتها .

والتمزيق له أسباب متعددة ، فمَنْ يموت ويُدفن تمزِّقه الأرض ، ومَنْ يموت محروقاً تمزِّقه النار ، وربما تذروه الرياح وتتبعثر ذراته ، ومَنْ تأكله الحيوانات والطير .. إلخ .

ومع هذا التمزيق والتفتيت والبعثرة تستطيع قدرة الله أنْ تعيد الإنسان من جديد ، واقرأ : ﴿قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ (١) بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَـٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ (٢) أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ (٣)﴾ [ق] يستبعدون البعث ، فيردّ القرآن عليهم ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ .. (٤)﴾ [ق] يعنى : لا تستعجبوا ، فكل ذرة تبعثرتْ نعلمها ، ونعلم مكانها ، ونقدر على إعادتها ﴿وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ (٤)﴾ [ق] يعنى : ليس مجرد علم ، إنما علم مُسجَّل محفوظ ، لا يناله تغيير ولا تبديل .

وقوله : ﴿إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ (٧)﴾ [سبأ] الخلق الجديد أنْ يُعاد الشىء إلى أصل تكوينه ، كالذى يقلب البدلة مثلاً فتصير جديدة ، لماذا ؟ لأنه أعاد تكوينها من جديد .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِ جِنَّةٌ ۗ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ (٨)﴾

هذا القول كسابقه يحتاج إلى قائل ومقول له ، ويصح أنْ يكون

قائله هو القائل الأول الذى قال ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ .. (٧)﴾ [سبأ] ويصح أن يكون الآخر الذى سمع القائل الأول فردَّ عليه : ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِ جِنَّةٌ .. (٨)﴾ [سبأ]

معنى ﴿أَفْتَرَىٰ .. (٨)﴾ [سبأ] من الافتراء ، وهو تعمُّد الكذب ﴿أَم بِهِ جِنَّةٌ .. (٨)﴾ [سبأ] أى : جنون يعنى : كلامه هراء ، لا وزن له ، ولا يُقال له صدق ولا كذب . لكن لماذا اتهموا رسول الله بأن به جِنَّة بعد أن اتهموه بالكذب والافتراء ؟

قالوا : لأن هذا اتهام كذب ، والكاذب دائماً يخاف أنْ يُفتضح أمره ، وينكشف كذبه ؛ لذلك يحاول أنْ يجعل لنفسه مخرجاً حين يثبت كذبه ، فقالوا ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِ جِنَّةٌ .. (٨)﴾ [سبأ] فإذا ما ثبت صدق رسول الله ، وأنه ليس كاذباً ولا مفترياً وجد المتهم له مخرجاً فقال : والله أنا لا أدرى أهو مُفْتر أم به جِنَّة ، وما دام ثبتَ صِدْقه ، فهو به جِنَّة .

وعجيب أن يصف كفار مكة رسول الله بالكذب والافتراء على الله ، وهو واحد منهم ، ما عرفوا عنه إلا أنه الصادق الأمين ، وما جرَّبوا عليه كذباً قط ، وما رأوْه يوماً خطيباً ولا شاعراً ، وهم أهل الفصاحة وفرسان الكلمة ، لا يَخْفى عليهم تذوُّق اللغة وفَهْم الأساليب العربية ، فكان عليهم أنْ يعقلوا أولاً قبل أنْ يُوجِّهوا لرسول الله هذا الاتهام .

ثم ، هل تأتى البلاغة ؟ وهل يأتى النبوغ بعد سِنِّ الأربعين ؟ معلوم أن النبوغ يأتى فى أواخر العقد الثانى أو أوائل العقد الثالث من العمر ، ورسول الله ﷺ لَبِثَ فيهم أربعين سنة قبل أنْ يُبلِّغهم عن الله كلمة واحدة .

لذلك يخاطبهم القرآن ، ويجادلهم بالحجة ، فيقول على لسان سيدنا رسول الله : ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٦)﴾ [يونس] يعنى : تدبَّروا الأمر واعقلوه ، فأنتم أهل البلاغة واللسان الفصيح ، ومنكم الخطباء والشعراء ملأوا الدنيا كلاماً ، فهل رأيتم منى شيئاً من هذا ؟

إذن : الذى قال ﴿أَم بِهِ جِنَّةٌ .. (٨)﴾ [سبأ] احتاط لنفسه ، فحين يظهر صِدْق رسول الله يقول هو : أنا قُلْت : إنه إما كاذب ، وإما مجنون .

ثم يردُّ الحق على هؤلاء : ﴿بَلِ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلالِ الْبَعِيدِ (٨)﴾ [سبأ] كلمة (بَلْ) تفيد الإضراب عما قبلها ونفيه ورفضه ، ثم إثبات ما بعدها ، فهى تنفى أن يكون رسول الله مفترياً ، وتنفى أن يكون مجنوناً ؛ لأن رسول الله ما جرَّبتُمْ عليه كذباً من قبل ، وما رأيتم عليه علامة من علامات الجنون ؛ لأن المجنون لا يُحمد على فعل ، ولا يُذم على فعل ، ولا يُوصَف بصدق ولا كذب ، وقد سبق أن مدحتم رسول الله فقلتم عنه « الصادق الأمين » .

لذلك يقول الحق سبحانه : ﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (١) مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (٢) وَإِنَّ لَكَ لأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ (٣) وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤)﴾ [القلم] وهل يُوصَف المجنون بأنه على خلق عظيم ؟ هل يُوصَف المجنون بالأدب أو الوفاء أو غيرها من خصال الخلق الحميد ؟

فكيف إذن تصفون رسول الله بالجنون ، وقد شهدتم له بسيدة الخصال الحميدة فى النفس البشرية وهى الأمانة ، وكنتم تأتمنونه

على أشيائكم ، وتضعونها عنده ؟ لذلك خلَّف رسول الله الإمام علياً وراءه بعد أنْ هاجر ليرد الودائع والأمانات إلى أهلها[١] .

وبعد أن أبطل الحق سبحانه كذبهم على رسول الله يقرر ما يستحقونه على ذلك من العذاب ﴿بَلِ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلالِ الْبَعِيدِ (٨)﴾ [سبأ] فى العذاب لأنهم اتهموا رسول الله بالكذب والافتراء على الله ، ورسول الله لم يكذب ، ولم يفْترِ على الله ، وهم فى الضلال البعيد ؛ لأنهم وصفوا رسول الله بالجنون ، وهو شىء مُخلٌّ بتكوينه إنما لم يكذب ، إذن : العذاب مقابل الاتهام بالافتراء على الله ، والضلال البعيد مقابل اتهامه ﷺ بالجنون .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِم وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ[٢] ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ (٩)﴾

الهمزة هنا للاستفهام . والمعنى : كيف يقولون هذا ويغفلون عن

---

(١) قال ابن إسحاق : لم يعلم فيما بلغنى بخروج رسول الله ﷺ أحد حين خرج إلا على بن أبى طالب وأبو بكر الصديق وآل أبى بكر ، أما على فإن رسول الله فيما بلغنى أخبره بخروجه وأمره أن يتخلف بعده بمكة ، حتى يؤدى عن رسول الله ﷺ الودائع ، التى كانت عنده للناس ، وكان رسول الله ﷺ ليس بمكة أحد عنده شىء يخشى عليه إلا وضعه عنده ، لما يُعلم من صدقه وأمانته ﷺ [سيرة ابن هشام ٢/٤٨٥] .

(٢) الكسفة : القطعة وجمعها كسْف وكِسَف . وكسف السحاب : قطعه . [لسان العرب - مادة : كسف] .

آيات الله فى كونه ، وهى ظاهرة لهم غير مطموسة عليهم ؛ لأنهم يعيشون فى بادية سماؤها مكشوفة لهم ، ليستْ ذات عمائر تحجب عنهم آيات الله كأهل المدن مثلاً ، قلَّما يَروْن الشمس أو القمر ، وإذا حدث كسوف أو خسوف لا يدرون به إلا من أخبار الصحف .

أمَّا أهل البادية فيعيشون فى صحراء شاسعة ، وتبدو لهم صفحة السماء ، أنيسهم الشمس بالنهار ، والقمر والنجوم بالليل ، وهم ينظرون إلى هذه الآيات ويتأملونها ؛ لذلك قال الرجل العربى[١] وهو يتأمل الكون من حوله وهو على الفطرة : سماء ذات أبراج ، وأرض ذات فجاج[٢] ، وبحار ذات أمواج ، القدم تدل على المسير ، والبعرة تدل على البعير ، أفلا يدل ذلك على وجود اللطيف الخبير ؟

إذن : كيف وآيات الحق واضحة أمامكم - تتهمون رسول الله وتغفلون عن آيات الله ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ .. ⑨﴾ [سبأ] معنى ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ .. ⑨﴾ [سبأ] أمامهم ﴿وَمَا خَلْفَهُم .. ⑨﴾ [سبأ] وراءهم ، ويمكنك أن تزيد يمينهم وشمالهم ؛ لأنك أينما سرْتَ فى هذه الاتجاهات فلن تجد إلا السماء ، حتى لو قلت تحتهم وحاولتَ أنْ تخترق الأرض فلا بُدَّ أن تصل فى النهاية إلى سماء فى الجهة الأخرى ، لكنه لم يقل تحتهم ؛ لأن الإنسان لا يستطيع أن يخترق الأرض إلى نهايتها .

---

(١) هو : قس بن ساعدة بن عمرو ، من بنى إياد ، أحد حكماء العرب ، ومن كبار خطبائهم فى الجاهلية ، كان أسقف نجران ، كان يفد على قيصر الروم زائراً فيكرمه ويعظمه ، طالت حياته ، وأدركه النبى ﷺ قبل النبوة ، ورآه فى عكاظ وسئل عنه بعد ذلك فقال : يُحْشَر أمة وحده . [الأعلام للزركلى ١٩٦/٥] .

(٢) الفج : الطريق الواضح الواسع ، وجمعه فجاج . قال تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا .. ㉛﴾ [الأنبياء] أى : طرقاً واسعة واضحة . [القاموس القويم ٧٢/٢] .

ثم أيُّ عظمة فى خَلْق السماء بهذا الاتساع وهى بلا عمد ؟ إنك لا تستطيع إقامة خيمة مساحتها عدة أمتار إلا بأن تثبتها بالحبال والأوتاد وترفعها بالأعمدة ، ولو هبَّتْ عليها الريح اقتلعتْ أوتادها وأعمدتها وهدمتها على مَنْ فيها ، فكيف تمرُّ على آيات الله فى السماء وفى الأرض دون أن تتأملها ؟

ثم يقول سبحانه : ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الأَرْضَ .. ⑨﴾ [سبأ] كما خسفها بقارون ﴿أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ .. ⑨﴾ [سبأ] كما نزلت الصاعقة من قَبْل على المكذِّبين للرسل و (كسفاً) جمع كسفة أى : قطعة ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ⑨﴾ [سبأ] آية يعنى : عبرة وعِظَة لكل عبد يحاول أنْ يرجع لربه .

فكأن الحق سبحانه جعل فى كونه هذه الآيات لتُذكِّر كل غافل ، وتردّ كل كافر ، وتعطفه إلى أنْ يرجع إلى ربه ، ولو رجع الكافر إلى ربه لَقَبِلَه .

إذن : الحق سبحانه خلق الخَلْق ، ويريد أن يسعدهم ، لكن لا بُدَّ أنْ نختبر مَنْ يستحق السعادة ، وأنْ نُميز مَنْ أطاع منهج الله ومَنْ عصاه .

لذلك يقول النبى ﷺ : « مَثَلى ومَثَلكم كرجل أوقد ناراً فأخذ الذباب والفراش يتهافت عليها ، فأنا آخذ بحجزكم عن النار وأنتم تفلَّتون منى »[1] .

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٢٨٥) من حديث جابر بن عبد الله ، واتفق عليه البخارى فى صحيحه (٦٤٨٣) ومسلم (٢٢٨٤) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه . ومعنى (آخذ بحجزكم) أى : آخذ بمعاقد أزركم وسراويلكم . الحجزة : هى معقد الإزار ، ومن السراويل : موضع التكة .

فالحق سبحانه يفتح لعباده - حتى الكافرين منهم - باب الأمل ليعودوا إلى ساحته ، وقد ورد عن رسول الله أنه قال : « لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم وقع على بعيره وقد أضلَّه فى فلاة »[(١)] ففتح بالتوبة وبالإنابة باب الرجوع إليه ، وخاصة إذا اكتملتْ للإنسان الوسائل الداعية للتوبة من تقدُّم السن أو المرض .. إلخ .

مما يبعد الإنسان عن مَظَانِّ الشهوات ، ويدعوه لأنْ يُقبل على الله ويصلح ما فسد من علاقته بربه وخالقه ، حتى إذا ما عاد إليه يوم القيامة عاد طاهراً من ذنوبه ؛ ذلك لأن الخَلْق خَلْقه ، وصَنْعته ، والصانع يريد لصنعته الخير والسعادة .

وسبق أنْ ذكرنا الحديث الذى يُوضِّح أن السماء والأرض والجبال والبحار تمرَّدتْ على ابن آدم ، واستأذنت ربها - تبارك وتعالى - أن تفتك به . فقالت السماء : يا رب ائذن لى أن أسقط كِسَفاً على ابن آدم ، فقد طَعِم خيرك ، ومنع شكْرك .. إلخ ، فماذا قال الحق سبحانه لها ؟ قال : دعونى وما خلقتُ ، لو خلقتموهم لرحمتموهم ، إنْ تابوا إلىَّ فأنا حبيبهم ، وإنْ لم يتوبوا فأنا طبيبهم[(٢)] .

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٧٤٧) من حديث أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : « لله أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة ، فانفلتت منه ، وعليها طعامه وشرابه فأيس منها فأتى شجرة فاضطجع فى ظلها قد أيس من راحلته ، فبينما هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح : اللهم أنت عبدى وأنا ربك أخطأ من شدة الفرح » .

(٢) أورده الغزالى فى إحياء علوم الدين (٤/٥٢) من قول بعض السلف ولفظه : « ما من عبد يعصى إلا استأذن مكانه من الأرض أن يخسف به ، واستأذن سقفه من السماء أن يسقط عليه كسفاً ، فيقول الله تعالى للأرض والسماء : كُفَّا عن عبدى وأمهلاه ، فإنكما لم تخلقاه ، ولو خلقتماه لرحمتماه ، ولعله يتوب إلىَّ فأغفر له ، ولعله يستبدل صالحاً فأبدله له حسنات » .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ (١) وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ (٢) وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾

بعد أن فتح الحق سبحانه باب التوبة لعباده ، وأعطاهم الأمل حتى الكافرين منهم ، وبعد أنْ فعلوا برسول الله ما فعلوا ، وسعَوْا فى آيات الله معاجزين ما يزال الحق سبحانه رحيماً بهم ، حريصاً عليهم ، فيلفت أنظارهم إلى واسع رحمته .

وكأنه سبحانه يقول لهم : لا تستكثروا أفعالكم وذنوبكم أمام رحمة الله ، ولا تصدَّنكم هذه الذنوب عن التوبة والعودة إلى الله ، وإنْ كنتم أذنبتُم ، فمن الرسل مَنْ حدثت هفوة من بعضهم مع أنهم أنبياء ، فكأن الحق سبحانه مع هذا كله يلتمس لهم عذراً .

لذلك ذكر بعدها حكاية سيدنا داود : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلاً .. ﴿١٠﴾ ﴾ [سبأ] وفى موضع آخر بيَّن ما كان من أمر سيدنا داود : ﴿ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [ص]

إذن : لا تخجلوا أنْ تُنيبوا إلى الله ؛ لأن سيدكم الذى أعطيته

---

(١) أوبى معه : أى رددى الذكر والتسبيح مع داود عليه السلام . [القاموس القويم ٤٢/١] . وقال ابن كثير فى تفسيره : « التأويب فى اللغة هو الترجيع ، فأُمرت الجبال والطير أن تُرجِّع معه بأصواتها » .

(٢) السرد : نسج حلقات الدرع وإحكام صُنْعها . قال ابن كثير فى تفسيره (٥٢٧/٣) : « لا تُدقُّ المسمار (أى : لا تجعله رفيعاً) فيقلقل فى الحلقة ، ولا تغلظه فيقصمها ، واجعله بقدر » .

كذا وكذا لمَّا حدثتْ منه هفوة استغفر وخَرَّ راكعاً وأناب ، يريد سبحانه أنْ يُحنِّن قلوبهم ليعودوا إلى أحضان ربهم .

كذلك سيدنا سليمان حدثتْ منه هفوة ، فابتلاه الله وعاقبه ، فتاب واستغفر ، واقرأ : ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا .. (٣٤)﴾ [ص] والجسد يعنى : أنه أصبح لا يستطيع الحركة فى ذاته ﴿ثُمَّ أَنَابَ (٣٤) قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ (٣٥)﴾ [ص] فماذا كان من أمره بعد أن استغفر ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ (٣٦) وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ (٣٧) وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (٣٨)﴾ [ص]

لذلك يُقال : إن سيدنا سليمان ركب البساط مرة ، فداخله شىء من الزَّهْو أو الإعجاب ، فمال به البساط ، فقال له : اعتدل يا بساط ، فقال : أُمرنا أنْ نطيعك ما أطعتَ الله[1] . والمعنى : أنك ما سخَّرتنا ، إنما سخَّرنا اللهُ لك .

ومعنى (الفضل) الشىء الزائد ، وقد أعطى الله داود عليه السلام نِعَماً كثيرة لم يُعْطِها لكثير من الأنبياء ، أعطاه الاصطفاءَ

---

(١) لم أقف على هذا الأثر فيما وصلت إليه يدى من مراجع ، ولكن لو أخضعنا هذا الأثر لما ورد فى القرآن وفى السنة لتيقنا أنه غير صحيح والله أعلم ، قال تعالى : ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ .. (٣٦)﴾ [ص] ، قال ابن عباس : مطيعة له حيث أراد . [الدر المنثور ١٨٩/٧] . وبهذا انتفى أن تكون الريح قد ردَّت عليه أمراً ، أما الزهو والإعجاب الذى تملَّك سليمان حينئذ ، فيرد عليه ما رواه سلمان بن عامر الشيبانى قال : بلغنى أن رسول الله ﷺ قال : « أرأيتم سليمان ، وما أعطاه الله تعالى من ملكه ، فلم يكن يرفع طرفه إلى السماء تخشعاً حتى قبضه الله تعالى » [أخرجه ابن أبى شيبة وعبد بن حميد] ، وأخرج ابن أبى حاتم نحوه عن ابن عمر قال ، قال ﷺ : « ما رفع سليمان طرفه إلى السماء تخشعاً حتى قبضه الله تعالى » [أورد هذه الآثار السيوطى فى الدر المنثور ١٨٩/٧] . والله تعالى أعلى وأعلم .

وأعطاه المنهج ، وزاده نعمة أخرى خاصة به ، وهى أنه ألان له الحديد ، كما قال سبحانه : ﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ (١٠) أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ .. (١١)﴾ [سبأ]

وكلمة ﴿مِنَّا .. (١٠)﴾ [سبأ] دلتْ على أن النعمة ليست من ذاتك ، إنما من الله ، فتقديم الجار والمجرور هنا أفاد قصْر النعمة على المنعم سبحانه ، ومثلها الجار والمجرور فى قوله تعالى فى قصة سيدنا موسى عليه السلام : ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي .. (٣٩)﴾ [طه]

كأن الحق سبحانه يقول لنبيه موسى عليه السلام : لقد أخذك آل فرعون ، والتقطوك من اليم فى وقت كانوا يقتلون فيه الأطفال ، وقد جئتَهم فى صورة تدعو إلى الشك ، لكنهم أحبوك ، ورأوا فيك قرَّة عَيْن لهم ، وأنت وقتها أسمر اللون ، كبير الأنف ، جعد الشعر يعنى : ليس فيك ما يلفت النظر ، لكن تذكَّر أنِّى ألقيتُ عليك محبة منى أنا ، فأحبوك .

والفضل من الله يأتى الناس جميعاً ، لكن الرسل لهم نِعَم متميزة، وفضل أعظم فى صورة معجزات . ويُبيِّن الحق سبحانه فضله على نبيه داود بقوله : ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ (١٠)﴾ [سبأ]

(يا جبال) نداء ، فالله ينادى الجبال ؛ لأنها تسمع وتعى هذا النداء ﴿أَوِّبِي .. (١٠)﴾ [سبأ] يعنى : رجِّعى معه ما يقول وما يقرأ من الزبور أو من الذكر ، وهذا دليل على أنه يفهم قول الجبال ، وأنها تفهم قوله ، وتُردِّد خلفه ، إذن : للجبال منطق ولغة أفهمها اللهُ نبيَّه داود .

وقد تناولنا مسألة تسبيح الجمادات لـمَّا تعرضنا لقوله تعالى : ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَـٰكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. (٤٤)﴾ [الإسراء] ورددنا قول مَنْ قال إنه تسبيح الحال لا تسبيح المقال ؛ لأن

الله قال ﴿وَلَـٰكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. ﴿٤٤﴾﴾ [الإسراء] وما دام قد حكم سبحانه أننا لا نفقه تسبيحهم ، فهو تسبيح بالقول .

والذين قالوا بتسبيح الدلالة استعظموا أنْ يكون للجبل كلام ولغة وتفاهم ، لكن هل للجبل كلام معك أنت ؟ للجبل كلام مع ربه وخالقه الذى قال : ﴿أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك]

إذن : ما دَخْلك أنت فى هذه المسألة ؟ ولماذا تنكرها ؟

وتأمل قوله سبحانه : ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ .. ﴿١٣﴾﴾ [الرعد] فجمع بين تسبيح الرعد وهو جماد وتسبيح الملائكة ، وهم أعلى أجناس المخلوقات ، وأين وجه الدلالة فى تسبيح الملائكة ؟ فلماذا العجب ، وقد ثبت أن لكل شىء لغةً تناسبه ، وقد رأينا لغة للهدهد ، ولغة للنمل .. إلخ .

فعظمة سيدنا داود أنه فهم لغة الجبال ، وسمع تسبيحها ، ووافق تسبيحُها تسبيحَه ، كذلك ﴿وَالطَّيْرَ .. ﴿١٠﴾﴾ [سبأ] يعنى : يا طير أوِّب مع داود ، وردِّد معه التسبيح .

﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ﴿١٠﴾﴾ [سبأ] وهذه معجزة أخرى لسيدنا داود ، وإذا قال الله عدة أشياء ، ثم حدث فى الواقع أنه صدق فى واحدة ، ألاَ أُصدِّقه فى الأخرى ؟

فإذا قال سبحانه ﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ﴿١٠﴾﴾ [سبأ] فلا بُدَّ أن نُصدِّق بذلك ، وأن نعتقد أن الحديد صار فى يد سيدنا داود مثل طين الصلصال الذى يُشكِّله الأطفال كيفما أرادوا[1] ، لأن البعض يرى أن ﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ﴿١٠﴾﴾ [سبأ] يعنى : علَّمه الله أن النار تذيب الحديد ،

---

(١) أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة رضى الله عنه فى قوله : ﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ﴿١٠﴾﴾ [سبأ] قال : ليَّن الله له الحديد ، فكان يسرده حلَقاً بيده يعمل به كما يعمل بالطين من غير أن يُدخِله النار ، ولا يضربه بمطرقة . [أورده السيوطى فى الدر المنثور ٦/٦٧٦] .

ولو أن الأمر كذلك فليس فيه معجزة ، ولا ميزة على غيره من الناس.

وللحديد ميزات عدة ، وأنواع مختلفة ، وتتوقف مدى أهميته على مدى صلابته ، ولأهميته أنزله الله من عَل كما أنزل الكتب ؛ لذلك تكلم سبحانه فى سورة الحديد عن الرسل مثل موسى وعيسى ـ عليهما السلام ـ وتكلم عن إنزال الكتب ، وقال عن الحديد : ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ .. (٢٥)﴾ [الحديد]

ومعلوم أن الإنزال يأتى من جهة العلو ، فالحق سبحانه أنزل الكتب ينطق بها الرسل لهداية المهتدى الذى يسمع ، وأنزل الحديد لردع العاصى وزَجْره ، ففى الحديد بأس شديد فى وقت الحرب ، ومنافع للناس فى وقت السلم .

لذلك قال تعالى بعدها : ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢٥)﴾ [الحديد] ينصره فى أىِّ شىء ؟ ينصره فى الحديد ، وفى استخدامه وقت الحروب . وسيدنا داود ـ عليه السلام ـ آتاه الله ، وأنزل عليه هذا وهذا : الكتاب للهداية ، والحديدَ للحرب .

لذلك قال له : ﴿أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ .. (١١)﴾ [سبأ] يعنى : دروعاً واسعة ، وهى عُدة الحرب يلبسها الجندى على مظانِّ الفتك ، وخاصة على الصدر ؛ لأن بداخله القلب والرئتين ، ولم يقُلْ له اعمل فأساً ولا محراثاً مثلاً ؛ لأن هذه لمنافع الأرض ، والله يريد ما يحمى المنهج ويزجر العاصى .

وكانت الدروع قبله تُصنع ملساء يتحرك عليها السيف ويتزحلق ، وربما أصاب منطقة أخرى من الجسم ، وكانت تُصْنع على قدر ما يحمى الصدر ، فعلَّمه الله أنْ تكون واسعة لتحمى أكبر قدر ممكن من الجسم ، فقال ﴿أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ .. (١١)﴾ [سبأ]

وعلَّمه كذلك أن تكون على شكل حلَقٍ متداخلة ﴿وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ .. ﴿١١﴾﴾ [سبأ] يعنى : أحكم تداخل هذه الحلَق بعضها فى بعض ، حتى إذا ما نزل عليها السيف ثبت على إحداها ولم يتحرك .

وكان درع الإمام على ـ كرَّم الله وجهه ورضى الله عنه ـ ليس لها ظهر ، فقالوا له : ألاَ تتخذ لدرعك ظهراً ؟ فقال : ثكلتنى أمى ، إنْ مكَّنْتُ عدوى من ظهرى[1] .

فتأمل أن الله تعالى لم يُعلِّم نبيه داود أولاً وسائل السلم ، إنما علَّمه أولاً وسائل الحرب وإعداد العُدة لمن نقض كلمة الله ، وحاد عن منهجه ، علَّمه أنْ يُعِد له ما استطاع من قوة .

ومعنى : ﴿وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ .. ﴿١١﴾﴾ [سبأ] اجعلها بتقدير دقيق وإحكام فى النسج ، قال العلماء : السرد : الحلَق التى يتكون منها الدرع ، وبها خروق تُوضع فيها المسامير التى تثبت الحلَق بعضها إلى بعض .

فمعنى ﴿وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ .. ﴿١١﴾﴾ [سبأ] يعنى : لا تجعل الخُرْق واسعاً ، لا يثبت فيه المسمار ، ولا تجعله ضيِّقاً فيغلق المسمار الحلقة ، وقال آخرون : ﴿وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ .. ﴿١١﴾﴾ [سبأ] يعنى : اعمل منها على قدر ما تحتاج ، ولهذا المعنى قصة :

يُرْوى أن سيدنا داود ـ عليه السلام ـ كان يأكل من بيت مال

---

(١) أورد هذا الخبر ابن قتيبة الدينورى فى كتابه « عيون الأخبار » (٦٣١/١) ، قال : كان درع على ـ رضى الله عنه ـ صدراً لا ظهر له . فقيل له فى ذلك ، فقال : إذا استمكن عدوى من ظهرى فلا يُبْقِ .

المؤمنين ؛ لأنه المتولِّى لأمرهم ، فأنزل الله ملَكاً فى صورة رجل ، وجعل الناس يسألونه : كيف يعيش داود ؟ فقال : فيه كثير من خصال الخير ، إلا أنه يأكل من بيت المال ، فلما بلغتْ هذه الكلمةُ داود غضب وتألم لها وبكى ، ثم قال : يا ربِّ لم جعلْتَ فىَّ هذه المسألة ؟ فعلَّمه الله صناعة الدروع ليعيش منها[1] .

فكان يصنع الدرع بأربعة آلاف[2] يعيش منها حتى تنفد ، فيصنع درعاً آخر وهكذا ، فلما أمره الله بصناعة الدروع قال ﴿وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ .. ﴿١١﴾﴾ [سبأ] يعنى : اجعلها على قَدْر حاجتك ، ولا تبالغ فيها .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾﴾ [سبأ] كأن الحق سبحانه يقول لنبيه داود : تذكَّر حين تعمل ما طُلِب منك أنِّى بصير بعملك مُطلع عليه ، وهذه التذكرة لنبى مأمون على التصرف ، فما بالك بنا نحن ؟

إننا نلاحظ العامل يتقن عمله طالما يراه صاحب العمل ، فإنْ غاب عنه أهمل العمل وغَشَّه ، فالله يحذرنا من هذه المسألة .

هكذا ورد أمر سيدنا داود فى هذا الموضع مختصراً ، وإنْ كانت له قصص فى مواضع أخرى .

---

(١) ذكره الحافظ ابن عساكر فى ترجمة داود عليه السلام من طريق إسحاق بن بشر عن أبى إلياس عن وهب بن منبه . قال ابن كثير فى تفسيره (٣/٥٢٧) بعد إيراد الأثر : « إسحاق بن بشر فيه كلام » .

(٢) قاله ابن شوذب فيما أخرجه الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول وابن أبى حاتم . قال : كان داود عليه السلام يرفع فى كل يوم درعاً فيبيعها بستة آلاف درهم . ألفين له ولأهله ، وأربعة آلاف يطعم بها بنى إسرائيل الخبز الحوارى (أى الخبز المصنوع من الدقيق الأبيض) [أورده السيوطى فى الدر المنثور ٦/٦٧٦] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ(١) وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ ﴾

يعنى : كما آتينا داود منّا فضلاً ، وكان من هذا الفضل أنْ أوَّبَتْ معه الجبال ، وألنَّا له الحديد ، كذلك كان من فضل الله على ولده سليمان أنْ طوَّعنا له الريح ، وجعلناها تأتمر بأمره .

وسبق أنْ بيَّنَّا أن كلمة الريح إنْ وردت مفردة ، فهى فى الشر والعذاب ، وإنْ جاءت جمعاً دلَّتْ على الخير والرحمة ، واقرأ قوله تعالى : ﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ (٤١) مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلاَّ جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ (٤٢) ﴾ [الذاريات] وقال : ﴿ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) ﴾ [الأحقاف]

وفى الرياح قال : ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ .. (٢٢) ﴾ [الحجر]

وبيان ذلك ، أن الريح إنْ كانت مفردة تُعَدّ ريحاً مدمرة ؛ لأنها تأتى من ناحية واحدة ، والذى يقيم الأشياء ويحفظ توازنها أن الرياح تحيط بها من كل جانب فتستقيم ، فالذى يدعم ناطحات السحاب مثلاً الهواء الذى يحيط بها ، فإنْ أفرغتَ الهواء من ناحية منها انهارتْ نحو هذه

---

(١) القطر : النحاس . قاله ابن عباس فيما أخرجه عنه ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم فيما أورده السيوطى فى الدر المنثور (٦/٦٧٧) . وقال عكرمة : أسال الله تعالى له القطر ثلاثة أيام يسيل كما يسيل الماء . أخرجه ابن المنذر .

الناحية ؛ لذلك كانت الريح الواحدة من جنس العذاب ، والرياح من جنس الرحمة ، ألاَ ترىَ الأعاصير تدمر ؛ لأنها تأتى من جهة واحدة ؟

لكن ، هل سخَّر الله تعالى لسليمان الرياح ؟ أمْ سخَّر له الريح ؟ قالوا : لم تُسخَّر لسليمان الرياح كلها ، إنما ريحاً مخصوصة وظَّفها له وطوَّعها لأمره ، وهذه الريح أعطتْ سليمان عليه السلام عزَّة ومنعة ، بحيث لا يَقْوَى أحد على مواجهته أو التصدى له .

لذلك كان هو ـ عليه السلام ـ النبى والملك الذى لم يحاربه أحد ، ولم يجرؤ أحد على منازعته مُلْكَه ولا نبوته . كيف وفى يده من القوة ما لم يتوفر لغيره ، فسلطانه سلطان قَهْر إنْ أراد شيئاً أذعن الجميع لإرادته .

أما نبينا محمد ﷺ ، فجاءت دعوته لاستمالة القلوب ، لا لإرغام القوالب ؛ لذلك خاطبه ربه بقوله : ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ (٤)﴾ [الشعراء]

ومعنى : ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ .. (١٢)﴾ [سبأ] الغدو : السير أول النهار ، والرواح : العودة آخر النهار ﴿وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ .. (١٢)﴾ [سبأ] أى : أذبْنا له النحاس ، كما ألنَّا لأبيه الحديد ، فهذه واحدة من الأفضال التى خصَّ الله بها سيدنا سليمان ، تذكرون قصة السد الذى بناه ذو القرنين ، فلما انتهى من بنائه قال : ﴿آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا (٩٦)﴾ [الكهف] يعنى : نحاساً مُذَاباً ، بحيث لا يستطيع أحد أنْ ينقبه .

ثم يذكر الحق سبحانه أمراً آخر مما خصَّ به سليمان عليه السلام : ﴿وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ .. (١٢)﴾ [سبأ] ومعنى ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِ .. (١٢)﴾ [سبأ] أن المسألة كلها تسخير من الله لنبيه سليمان ، وليس أمراً ذاتياً من عنده .

لذلك قال : ﴿ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا .. (١٢) ﴾ [سبأ] أى : يميل ، أو ينحرف عنه ، أو يعصاه ﴿ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ (١٢) ﴾ [سبأ] فأمْر سليمان للجن من باطن أمْر الله ، ومَنْ يَعْصِ أمره كأنه عَصَى أمرنا .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ (١٣) ﴾

المحاريب : جمع محراب ، ويُطلق على القصر الفخم الواسع ، وعلى المكان الذى يتخذه الناس للعبادة ، ومنه قوله تعالى : ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا .. (٣٧) ﴾ [آل عمران]

والتماثيل : جمع تمثال ، وهو ما يُنحَت من الحجر مثلاً ، أو يُصوَّر على هيئة إنسان ، أو حيوان ، أو طائر .. إلخ . وفى مسألة التماثيل بالذات يطرأ سؤال : أيمتنُّ الله على نبيه سليمان بأن الجن تصنع له التماثيل مع ما عُرِفَ عنها من أنها رمز للإشراك بالله ، وقد حطمها الأنبياء ونهَوْا عن عبادتها من دون الله ؟

قالوا : حُطِّمت التماثيل لَمَّا اتخذها الناس للعبادة والألوهية ، وكانت من قبل لا تتخذ للعبادة ، بل للخدمة[1] ، وللدلالة على الإهانة

---

(١) على ذكر الخدمة هنا لابد أن أورد ما أخرجه الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى (وتماثيل) قال : اتخذ سليمان عليه السلام تماثيل من نحاس فقال : يا رب ، انفخ فيها الروح فإنها أقوى على الخدمة ، فنفخ الله فيها الروح ، فكانت تخدمه ، وكان اسفيديار من بقاياهم . [ذكره السيوطى فى الدر المنثور ٦/٦٧٩] .

والإذلال ، ألم نَرَ فى الآثار القديمة كرسياً أو مائدة تقوم على هيئة مجموعة من الأسود مثلاً ؟

وحتى الآن توجد قصور تقوم شُرفاتها على هيئة رجل مُنْحَنٍ يحمل الشرفة بدلاً من الخرسانة التى نصنعها نحن الآن . إذن : كانت التماثيل تدل على الإذلال والإهانة ، فلما عُبِدت أُمِرنا بتحطيمها وتحريمها .

وقوله : ﴿وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ .. ﴿١٣﴾﴾ [سبأ] الجفان : جمع جَفْنة ، وهى القصعة المعروفة ﴿كَالْجَوَابِ .. ﴿١٣﴾﴾ [سبأ] كالحوض الواسع الكبير ، وهذا كناية عن كرمه وكثرة إطعامه الطعامَ ﴿وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ .. ﴿١٣﴾﴾ [سبأ] أى : قدور ثابتة لِكِبرها ، فهى لا تُرفع ولا تُحرَّك من مكان لآخر لعظَمها .

لذلك حُدِّثنا فى سيرة سيدنا رسول الله ﷺ عن ابن مطعم قال : كان لرسول الله ﷺ جفنة (قصعة طعام) كنت أستظل بها فى اليوم القائظ فى مكة ، وهذا دليل على سِعَتها وكِبَرها وكثرة من يُطْعمون منها[1] .

ولما بنى الملك عبد العزيز آل سعود الرياض جعل بها قُدوراً للطعام ، وكان القِدْر يسع الجمل يقف بداخله ، وأذكر أننى أول ما ذهبت إلى مكة دخلت المبرَّة[2] ، فوجدت بها قدوراً واسعة ، فوقفتُ فى إحداها فوسعتنى .

ومعنى ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا .. ﴿١٣﴾﴾ [سبأ] أى : شُكْراً لله

---

(١) مما ورد فى هذا ما أخرجه أبو داود فى سننه (٣/٣٤٨) من حديث عبد الله بن بسر قال : كان للنبى ﷺ قصعة يقال لها الغراء يحملها أربعة رجال . وأخرجه أيضاً أبو الشيخ الأصبهانى (حديث ٦١٤) طبعة الدار المصرية اللبنانية .

(٢) مبرّة وزارة الأوقاف المصرية لخدمة الفقراء ، وكانتا اثنتين : واحدة فى مكة ، والأخرى فى المدينة المنورة ، كما كان هناك سبيل فى مِنَى .

على نعمه ، لا لتقوتوا أنفسكم فحسب ، إذن : فربُّك يُعلِّمك : لا تعمل على قدر حاجتك فحسب ؛ لأن فى مجتمعك مَنْ لا يقدر على العمل ، فاعمل أنت أيها القادر على قَدْر طاقتك ، وخُذْ لنفسك ما يكفيك ، وتصدَّق بما فاض عنك لغير القادرين . ومعلوم أن شكر النعمة يقيدها أى يديمها بل ويزيدها ، كما قال سبحانه : ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ .. (٧)﴾ [إبراهيم]

أو : المعنى ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا .. (١٣)﴾ [سبأ] أن أقدركم على العمل حتى تعولوا مَنْ لا يقدر على العمل ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ (١٣)﴾ [سبأ] يعنى : قليل من الناس مَنْ يقابل نعمة الله بالشكر .

لذلك رُوِى أن سيدنا عمر ـ رضى الله عنه ـ سمع فى الطريق رجلاً يقول : اللهم اجعلنى من القليل ، فتعجَّب عمر من دعوة الرجل ، ولم يفهم معناها ، فسأله عنها ، فقال الرجل ، سمعت الله يقول : ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ (١٣)﴾ [سبأ] وأنا أرجو أن أكون منهم ، فقال عمر متعجباً : كل الناس أعلم منك يا عمر[1] ؟!

فمن الناس مَنْ عنده مَلَكة التقاط المعانى وتوظيفها ، من ذلك ما يُحكَى من أن رجلاً كان يسير فى سوق البطيخ فى بغداد وهو صائم فى يوم حار ، فمرَّ برجل يبيع شراباً مثل العرقسوس مثلاً ، وينادى : غفر الله لمن شرب منى ، فمال إليه وقال له : اسْقنى ، فقال له صاحبه : تذكر أنك صائم ، فقال : والله لقد رجوتُ دعوتَه .

رجل آخر كان يسعى بين الصفا والمروة ، والمسعى زمان ـ أنتم لم تروْنَهُ ـ كان عبارة عن شارع به دكاكين وبيع وشراء وحركة قبل

---

(١) أخرجه ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر عن إبراهيم التيمى ، وقد أورده السيوطى فى الدر المنثور (٦٨٢/٦) ، والقرطبى فى تفسيره (٥٥٤٦/٨) غير معزُوّ .

أنْ يُطوَّر بهذا الشكل الحالى ، وكان به رجل يبيع الخيار وينادى : العشرة بريال يا خيار ، فسمعه رجل يسعى ، فقال متعجباً : إذا كان الخيار العشرة بريال ، فبِكم يكون الأشرار ؟!

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ(١) فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿١٤﴾ ﴾

قلنا : إن من الأشياء التى سخَّرها الله لسليمان ليحقق له مُلْكاً لا ينبغى لأحد من بعده أنْ سخَّر له الريح وسخَّر له الجن يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل .. إلخ .

وتسخير الجن يعنى : أن الله سبحانه وتعالى سخَّر له أخفَّ الخَلْق حركة وأخفاها وهم الجن ؛ لأن للجن طبيعة مخصوصة ؛ لذلك قال الله عنهم : ﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ(٢) مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ .. ﴿٢٧﴾ ﴾ [الأعراف]

ولهم أيضاً خِفَّة فى مزاولة الأعمال بأن يقصروا زمنها ، وأنْ يكثروا حملها ، والدليل على ذلك أن سليمان ـ عليه السلام ـ حينما طلب عرش بلقيس ، وكان فى سبأ قال لجلاَّسه : ﴿ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [النمل] فلم يتكلم أحد من الإنس ؛ لأن

---

(١) المنسأة : العصا الغليظة ، قال الفراء : هى العصا العظيمة التى تكون مع الراعى ، يقال لها المنسأة ، أخذت من نسأت البعير أى : زجرته ليزداد سيره . [لسان العرب ـ مادة : نسأ] .

(٢) القبيل : الجماعة أو العشيرة أو الكفلاء أو الأعوان المناصرون . [القاموس القويم ٢/٩٨].

سليمان قيَّد الإتيان بزمن فوق قدرة البشر ، وقد طلب سليمان العرش بعد أنْ علم أن قوم سبأ قد خرجوا وهم فى الطريق إليه ، ويريد مَنْ يحضر عرش بلقيس قبل أن يصلوا إليه .

حتى الجن لم يتعرض لهذه المهمة جنيٌّ عادى ، إنما عفريت من الجن ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ .. (٣٩)﴾ [النمل]

وكلمة (عفريت) تعنى : أنه الماهر من الجن ، الشاطر الذى يأتى بما لا يأتى به غيره من بنى جنسه ، وهذا يدل على أن الجن منهم العفريت الماهر ومنهم (اللبخة) يعنى : مثلنا تماماً . وما زلنا فى لغتنا العامية نقول : فلان عفريت يعنى : ماهر يجيد ما لا يجيده الآخرون .

لكن ، كان فى مجلس سليمان مَنْ هو أمهر من العفريت وأكثر منه خبرة وخفَّة ، إنه الذى أُوتى قَدْراً من العلم ﴿قَالَ الَّذِى عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ .. (٤٠)﴾ [النمل]

فإنْ كان العفريت سيأتى بعرش بلقيس قبل أنْ يقوم سليمان من مقامه ، وربما أقام سليمان فى مقامه هذا ساعة أو عدة ساعات ، لكن الذى عنده علم من الكتاب تعهد بأنْ يأتى به ﴿قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ .. (٤٠)﴾ [النمل] وارتداد الطَّرْف لا يحتاج إلى زمن طويل ، فالطرف[1] يطرف فى الدقيقة الواحدة عدة مرات .

لذلك صوَّر الحق سبحانه سرعة الاستجابة لهذا الفعل ، فقال :

---

(١) الطرف : جانب العين ، ويطلق على العين وعلى البصر . وقوله تعالى : ﴿ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ .. (٤٠)﴾ [النمل] أى : بصرك ، أى : مقدار غمضة العين وفتحها . [القاموس القويم ١/٤٠٠] .

﴿فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَـٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ (٤٠)﴾ [النمل]

ولم يتعرَّض السياق لتفاصيل الإتيان بالعرش ، ولم يذكر حتى أن سليمان أمره بالإتيان به ، بل : ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ .. (٤٠)﴾ [النمل] هكذا مباشرة ؛ لأن الفعل نفسه لم يستغرق وقتاً ، وكذلك جاء التعبير سريعاً مباشراً .

والحق ـ سبحانه وتعالى ـ يعلم أن الجن كانوا يَسْترقون السمع قبل بعثة محمد ﷺ ، أما بعد بعثته ﷺ فقد منعهم الله من استراق السمع ، فقال سبحانه : ﴿فَمَن يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا (٩)﴾ [الجن]

وهذه واحدة من ميزات رسالته ﷺ ، فقبل رسول الله صينَ سر السماء جُلُّه . وبعده ﷺ صينَ سرُّ السماء كلُّه . قبل رسول الله كان الجن يصعدون فى السماء يسترقُون السمع ، ويلتقطون بعض كلام الملائكة ، ثم يوحونه إلى أوليائهم من شياطين الإنس[1] ، كما قال سبحانه : ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ .. (١٢١)﴾ [الأنعام]

---

(١) عن أبى هريرة قال : إن نبى الله ﷺ قال : « إذا قضى الله الأمر فى السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله كأنه سلسلة على صفوان ، فإذا فزع عن قلوبهم قالوا : ماذا قال ربكم ؟ قالوا : قال الحق وهو العلى الكبير ، فيسمعها مُسْتَرق السمع ـ ومُسْترق السمع هكذا بعضه فوق بعض ، فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته ثم يلقيها الآخر إلى من تحته ، حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن ، فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها ، وربما ألقاها قبل أن يدركه فيكذب معها مائة كذبة ، فيقال : أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا كذا وكذا ، فيصدق بتلك الكلمة التى سمع من السماء » . أخرجه البخارى فى صحيحه (٨/ ٣٨٠ ، ٥٣٧ بشرح ابن حجر) ، وابن ماجه فى سننه (١/ ٦٩) والترمذى مختصراً (٥/ ٣٦٢) وقال : حسن صحيح .

ثم يخبرون الناس بما علموا ، ويدَّعُون أنهم يعلمون الغيب ، وفعلاً تأتى الأحداث كما أخبروا ، فيغشُّون الناس ويخدعونهم ويفتنونهم ؛ لذلك أراد الحق سبحانه أنْ يفضح الجن فى هذه المسألة ، فقال :

﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ .. (١٤)﴾ [سبأ] أى : على سليمان ، وكلمة (قَضَيْنَا) تعنى : أن الموت قضاء ، لا مندوحة عنه ، ولا يترتب على سبب من مرض أو كِبَر أو غيره ، وكما قُلْنا : والموت من دون أسباب هو السبب ، يعنى : مات لأنه يموت .

لذلك يخاطب الحق سبحانه الأحياء ، بما فيهم سيدنا رسول الله بقوله : ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ (٣٠)﴾ [الزمر] ويخاطبه هو ﷺ أولاً قبل أنْ يخاطب أمته بهذه الحقيقة .

ومعنى (ميِّت) أى : تؤول إلى الموت ، فنحن ونحن أحياء ميِّتون أى : سنموت ، أما الذى مات بالفعل فيسمى (مَيْت) بسكون الياء ، كما قال الشاعر :

* ومَا الميْتُ إلاَّ مَا إلَى القَبْر يُحْمَلُ

لذلك ، فإن العلماء لما أعطوْنَا صورة حسِّية للموت قالوا : مع حياتك التى بدأت انطلق معها سهم الموت إليك ، فعُمْرك بمقدار وصوله إليك ، فنحن - وإنْ كنا أحياء - ميتون .

وقوله تعالى : ﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ .. (١٤)﴾ [سبأ] أى : دلَّ الجن ، فضمير الغائبين فى (دَلَّهُم) يعود على معلوم من السياق الأول فى : ﴿وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ .. (١٢)﴾ [سبأ]

قالوا فى قصة سيدنا سليمان عليه السلام أنه كان يعبد الله

ويشكره بمقدار ما أنعم عليه وما أعطاه من الملْك ، فمع كل هذه النِّعم كان يقضى الأسبوع والشهر لا يأكل إلا الخشكار[١] ، وهى (الردة) التى نعرفها ، وهى آخر درجة فى الدقيق ، والتى نسميها فى الفلاحين السِّن ، وهو طعام الفقراء والعبيد ، أما السادة والأغنياء فيأكلون الدقيق الفاخر أو (نمرة واحد) .

وسبحان الله ، أظهر العلم الحديث أن الفائدة فى هذا السنّ الذى يأكله الفقراء ، لدرجة أنه أصبح يُوصَف كدواء ، ويجعلونه الآن على هيئة أقراص كعلاج لبعض الأمراض ، حتى أن أهل الرفاهية الذين عاشوا على الدقيق الفاخر وتغذَّوْا طوال حياتهم على الخبز السياحى والقطايف .. إلخ . يأتى الواحد منهم فى أواخر حياته فيُحرِّم عليه الطبيب كل هذه الأنواع ولا يجد له دواء إلا فى السنِّ وفى الردة التى ما ذاقها طوال حياته ، وكأنها معادلة لا بُدَّ أنْ تتم بين الأغنياء والفقراء .

وهذه البحوث التى أظهرت لنا أهمية (الردة) تلفتنا وتُفهمنا معنى قول الله سبحانه وتعالى وقسمه : ﴿وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ (١٢)﴾ [الرحمن]

كذلك كان سيدنا سليمان يعبد الله واقفاً ، لا على هيئة مريحة ، فكان يشق على نفسه شكراً لله ، ويقف عابداً لله حتى يتعب ، فيراوح بين قدميه ، ثم يستعين بالعصا يتكىء عليها من شدة تعبه .

---

(١) وردت هذه الكلمة فى لسان العرب (الخُشَار والخُشَارة) يقال : الخشارة والخشار من الشعير : ما لا لُبَّ له . (يقصد الردة أى القشرة) والخشار أيضاً : الردىء من كل شىء . [لسان العرب ـ مادة : خشر] .

وقد قضى الله عليه الموت ، وهو على هذه الهيئة ، فلم يكتشف الجن موته ، وظلوا يعملون بين يديه ويجتهدون خوفاً منه عليه السلام[١] .

وأراد الحق سبحانه أن يُنهى بموت سليمان مسألة شغلتْ الجن والإنس ، هى قضية علم الجن للغيب ، أراد سبحانه أن يفضح الجن ، وأنْ يُظهر عجزهم عن علم الغيب ، فالغيب لا يعلمه إلا الله .

مات سليمان واقفاً متكئاً على عصاه ، وظل على هذه الحالة حتى سلَّط الله على عصاه دابة الأرض ، كما قال سبحانه : ﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلاَّ دَابَّةُ الأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ .. (١٤)﴾ [سبأ]

البعض يفهم أن ﴿دَابَّةُ الأَرْضِ .. (١٤)﴾ [سبأ] الأرض التى تقابل السماء ، لكن المراد الدابة التى تَقْرض كما نقول : قرض الفأر كذا وكذا ، وفعلها قرض يقرض قَرْضاً . مثل : ضرب يضرب ضرباً ، وهذه الدابة هى العتة التى تصيب الخشب وتأكله .

هذه الدابة أو العتة ظلتْ تنخر فى العصا حتى اختلَّ توازن سليمان عليه السلام ، فسقط على الأرض ﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ (١٤)﴾ [سبأ] أى : ما مكثوا وما ظلُّوا فى العذاب المهين . ومعنى خَرَّ : سقط بلا نظام ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ .. (٢٦)﴾ [النحل]

فالخرور انهيار بلا نظام وبلا ترتيب ، وعندها فقط علِم الجن

---

(١) أخرج عبد بن حميد عن قتادة : كانت الجن تخبر الإنس أنهم يعلمون من الغيب أشياء ، وأنهم يعلمون ما فى غد ، فابتلوا بموت سليمان عليه السلام ، فمات فلبث سنة على عصاه وهم لا يشعرون بموته وهم مُسخَّرون تلك السنة ، ويعملون دائبين . [أورده السيوطى فى الدر المنثور ٦/٦٨٤] .

بموت سليمان ، وكذلك الإنس ، وعلموا أنهم لا يعلمون الغيب ، ولو علموا الغيب لاكتشفوا موته ، وما لبثوا فى العمل ، وفى التعب والعذاب طوال هذه المدة[1] ، عندها انكشف أمرهم ، وعُلم كذبهم وادعاؤهم معرفة الغيب .

وقوله تعالى : ﴿مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾ [سبأ] يدل على أن الجن يتعب من العمل ويطرأ عليه ما يطرأ على كل حىٍّ من تعب وإجهاد .

والمِنْسأة هى العصا من الفعل نَسَأ بمعنى أخَّر ، وسُمِّيَتْ العصا منسأة ؛ لأن الإنسان يزجر بها الهوام والحيوانات الضارية التى تؤذيه ويؤخرها عنه ويبعدها ويُردعها ؛ لذلك سميت منسأة .

وسيدنا موسى - عليه السلام - قال فى عصاه لما سأله ربه : ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾ [طه]

وقد أطال موسى الحديث مع الله ؛ لأن الله تعالى آنسه أنْ يطيل حين قال له ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿١٧﴾﴾ [طه] ولم يقل له مثلاً : ما بيدك ؟ ثم مَنِ الذى يخاطبه ربه ولا يطيل الحديث معه سبحانه وتعالى ؟ ومع ذلك تدارك موسى أمره ، فقال مُجملاً ﴿وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾ [طه]

ونفهم من قوله تعالى : ﴿مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾ [سبأ]

---

(١) أخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : لبث سليمان عليه السلام على عصاه حولاً بعدما مات ، ثم خر على رأس الحول ، فأخذت الإنس عصاً مثل عصاه ، ودابة مثل دابته ، فأرسلوها عليها فأكلتها فى سنة . (الدر المنثور ٦/٦٨٣) .

أن العمل الذى كانوا فيه كان عملاً شاقاً وفيه إهانة لهم ؛ لأن الجن يظنون أن لهم خيرية على الإنس ، وأنهم جنس تسامى على البشر ، بدليل قول أبيهم من قبل : ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ (١٢)﴾ [الأعراف]

فمن الإهانة لهم ، ومن العذاب أنْ يُسخَّروا لواحد من الإنس ، ويعملون له ، ويأتمرون بأمره ، فالعمل الذى كانوا يعملونه لسليمان إنْ لم يكُنْ مُرهقاً لهم بدنياً فهو مرهق نفسياً ، ولم لا وقد سخَّرهم مَنْ هو أدنى منهم ـ على حسب ظنهم .

ولسائل أنْ يسأل ـ كيف يكون فى العذاب المهين مَنْ يخدم نبياً ويعاشره ؟ نقول : هذه الشبهة جاءتْ من كلمة الجن ، ففهمنا أن الجن كلهم كانوا مُسخَّرين لسليمان ، والحقيقة أن الجنَّ سُمِّى كذلك ؛ لأنه مستور الفعل لا نراه ، والذى سخر من الجن هم الشياطين ، كما قال سبحانه : ﴿وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ (٣٧)﴾ [ص]

وقال : ﴿وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذَٰلِكَ .. (٨٢)﴾ [الأنبياء] وهؤلاء هم أصحاب العذاب المهين ، أما مؤمنو الجن فلم يكونوا مُسخَّرين .

وكلمة (خَرَّ) بمعنى سقط توحى بأن كرامة الإنسان فى روحه ، وفى السر الذى وضعه الله فيه ، فهنا سليمان نبى الله بجلالة قدره ومكانته عند ربه يقول عنه ﴿فَلَمَّا خَرَّ .. (١٤)﴾ [سبأ] وكأنه جماد سقط على الأرض ؛ لأن الروح حينما تفارق الجسد يصير كالجماد ، كالعصا وكالحجر .

وسبق أنْ قُلْنا : إن الروح ساعة تُسلَب من الجسد أول ما ينسى ينسى اسمه مهما كان عظيماً ، ويقولون : الجثة ثم إذا ما وُضِعَتْ فى النعش يقولون : الخشبة .

سبحان الله ، لم يَعُد لهذه المادة أية صفة ، بل ويسارع الأهل والأحبة إلى الخلاص منها ودفنها بأسرع ما يمكن ، ولو بقيتْ عندهم لا يتحملها أحد منهم ، لما يطرأ عليها من تغيُّر ورائحة يتأذى منها أقرب الأقارب .

ثم يُحدِّثنا الحق سبحانه عن سبأ وأهلها ، فيقول تعالى :

﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ ﴾

ينقلنا الحق ـ تبارك وتعالى ـ من قصة سليمان عليه السلام إلى أهل سبأ ، فما العلاقة بينهما ؟ المتأمل فى سور القرآن وآياته يجد بينها ترابطاً وانسجاماً ، والمناسبة هنا أن سيدنا سليمان كانت له أبرز قصة فى الإيمانيات والعقائد مع بلقيس ملكة سبأ ، فبينهما إذن علاقة ، وهذه النقلة لها مناسبتها .

وقصة سليمان والهدهد وبلقيس قصة مشهورة ، وبها دلالات إيمانية عظيمة فى العقيدة ، وفى بيان أن الحيوان عنده دراية بالعقيدة ، وبأسرار الله فى كونه .

و (سَبَأ) عَلَم على رجل اسمه عمرو بن عامر ، ويُلقِّبونه بمزيقباء وأبوه (ماء السماء) وقد سأل كرَّة بين نسيك[1] رضى الله

(١) صوابه : فروة بن مُسَيْك المرادى ، له صحبة ، يعد فى الكوفيين وأصله من اليمن يكنى أبا سبرة ، وفد على النبى ﷺ فاستعمله على مراد ومذحج وزبيد ، وكانت وفادته هذه عام تسع أو عشر للهجرة ، واستعمله عمر على صدقات مذحج ، ثم سكن الكوفة وكان من وجوه قومه . [باختصار من الإصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر العسقلانى ترجمة رقم ٦٩٧٥ ، وذكر له سؤاله رسولَ الله ﷺ عن سبأ] .

عنه سيدنا رسول الله عن سبأ فقال : (كذا وكذا ....) وكان له عشرة أولاد هم : أزد ، وكِنْدة ، ومَذْحج ، وأشعريون ، وأنمار ، وغسان ، وعاملة ، ولَخْم ، وجُذَام ، وخثعم[1] .

وقد كوَّن كل واحد منهم قبيلة كبيرة . ستة من هؤلاء ذهبوا إلى اليمن ، وأربعة ذهبوا إلى الشام ، الذين ذهبوا إلى اليمن عاشوا فى خيرها الوفير ، فَيُروى أن بلقيس لما رأتْ ماء المطر يسيح فى الوديان وتتشرّبه الأرض ، فلا يستفيدون به ، فكَّرت فى بناء سد بين جبلين يحجز ماء المطر ، وجعلت به عيوناً كالتى عندنا فى القناطر الخيرية مثلاً ، تفتح عند الحاجة وتعطى الماء بقدر ؛ لذلك زاد الخير والنماء فى اليمن ، حتى سُمِّيت اليمن الخصيب واليمن السعيد .

إلا أن عرافة عندهم أو امرأة حكيمة ذات رأى قالت لسبأ هذا : إن السد سيخرب ويُغرِق ماؤه اليمن فاخرج منها ، وفعلاً خرج سبأ إلى الحجاز والشام ، حيث ذهب الغساسنة إلى الشام ، والمناذرة إلى العراق ، وأنمار إلى المدينة ، وأزد إلى عمان فى الأردن .

واسم سبأ بعد أنْ كان عَلَماً على شخص تعدَّى إلى أنْ صار اسماً لقبيلة ، ثم اسماً للمكان الذى يسكنونه .

وقوله تعالى : ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَأٍ فِي مَسْكَنِهِمْ .. (١٥)﴾ [سبأ] أى : المكان الذى يسكنونه ، والمكان الذى يعيش فيه الإنسان يُسمَّى (سكن) أو (بيت) أو (منزل) ، ولكل منها معنى . والسكن هو المكان الذى يتخذه الإنسان ليسكن إليه وليطمئن فيه ، ويرتاح من حركة الحياة والعمل ، والإنسان لا يسكن إلا فى مكان تتوفر فيه

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه (٣٢٢٢) ، وأبو داود فى سننه مختصراً (٩٣٨٨) كتاب الحروف والقراءات من حديث فروة بن مسيك رضى الله عنه .

مُقوِّمات الحياة والأمن .

لذلك فإن سيدنا إبراهيم عليه السلام لما وضع زوجته وولده عند البيت دعا ربه : ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ .. (٣٧) ﴾ [إبراهيم]

فقد كان هذا المكان جَدْباً لا زرع فيه ولا ماء ، ولا مُقوِّم من مقومات الحياة إلا الهواء ومعنى ﴿ أَسْكَنتُ .. (٣٧) ﴾ [إبراهيم] أى : وطَّنْتهم فى هذا المكان .

أما المنزل فهو المكان تنزل فيه مرة أو عدة مرات ، ثم ترحل عنه لا تقيم فيه إقامة دائمة ، فهو كالاستراحات التى تُجعل للطوارىء ، ولا يقيم فيها أهلها إلا عدة أيام فى السنة كلها .

ومن ذلك ما رُوِى أن سيدنا رسول الله ﷺ لما نزل ببدر سأله الصحابى الجليل الحباب بن المنذر[1] : يا رسول الله ، أهذا منزل أنزلكه الله ؟ أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟ قال : « بل هو الرأى والحرب والمكيدة » قال : إذن لا أراه لك بمنزل ، فانهض بالناس حتى نأتى أدنى ماء من القوم فننزله ، ثم نُغَوِّر (نفسد) ما وراءه من القُلُب ، ثم نبنى عليه حوضاً فنملؤه ماء ، ثم نقاتل القوم ، فنشرب ولا يشربون ، فقال رسول الله ﷺ : « لقد أشرت بالرأى »[2] .

---

(١) هو : الحباب بن المنذر بن الجموح الأنصارى الخزرجى ، شهد بدراً ، وكان يكنى أبا عمر. قال ابن سعد : مات فى خلافة عمر وقد زاد على الخمسين . [الإصابة لابن حجر ترجمة رقم ١٥٤٧] وذكر له أبياتاً من الشعر .

(٢) أورده ابن هشام فى السيرة النبوية (٢/٢٥٩ ، ٢٦٠) وعزاه لابن إسحاق أنه حُدِّث عن رجال من بنى سلمة .

إذن : السكن فيه دوام واستقرار ، أما المنزل فهو استراحة ، إنْ شئتَ نزلتَ به ، وإنْ شئتَ رحلتَ عنه .

أما البيت فيُلاحظ فيه البيتوتة ، والإنسان لا ينام نوماً مريحاً إلا فى مكان يأمن فيه على نفسه وعلى ماله ، فإن الخائف وكذلك الجوعان لا ينام .

ومن السكن قوله تعالى فى بنى إسرائيل : ﴿وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا (١٠٤)﴾[الإسراء]

أخذ أحد المستشرقين هذه الآية ، وجعلها دليلاً على أن الأرض كلها مُبَاحة لليهود ، كيف وهم فى الأرض ، وأنت حين تريد هذا الأمر تقول : اسكن القاهرة ، اسكن طنطا مثلاً ، فتعين لى مكاناً ، لكن ﴿اسْكُنُوا الأَرْضَ .. (١٠٤)﴾ [الإسراء] لها معنى آخر ، هو التقطيع الذى قال الله عنه : ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأَرْضِ أُمَمًا .. (١٦٨)﴾ [الأعراف]

يعنى : ليس لهم وطن مخصوص ، وسوف ينساحون فى الدنيا كلها ، ولن يتمكن أحد من ضربهم والقضاء عليهم ، وهم على هذه الحالة من التقطيع ، حتى يأتى أمر الله ، ويجمعهم فى مكان واحد ، وعندها سيسهل القضاء عليهم .

ومعنى كلمة ﴿آيَةٌ .. (١٥)﴾ [سبا] نقول : فلان آية فى الكرم ، وفلان آية فى الأدب ... إلخ ، والمراد شىء عجيب نادر الوجود ، والحق سبحانه حدثنا عن أنواع ثلاثة من الآيات : آيات كونية مثل : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ .. (٣٧)﴾ [فصلت] ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ .. (٣٩)﴾ [فصلت]

وآيات بمعنى معجزات وخوارق للعادة ، تأتى على أيدى الرسل

لتـؤيدهم وتثبت صـدْقهم فى البـلاغ عن الله ، كمـا فى قوله تعـالى : ﴿ اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ .. (٣٢) ﴾ [القصص]

ثم تُطلق الآيات على آيـات الكتاب الحـاملة لأحكام الله فى القـرآن الكريم ، وهذه كلها ـ سواء كانت آيات كـونية ، أو معجزات ، أو آيات القرآن ـ كلـها عجـائب ، وإن كانت هذه العـجائب واضـحة فى الآيات الكونية وفى المعجزات ، فـهى أيضاً واضحة فى آيات الكتاب الحكيم ، فالقرآن عجيبة فى تنظيم حياة الناس بدليل أن الكافر به سيُضطر إلى الأخذ بأحكامه والانصياع لقوانينه ، لا على أنها دين ، ولكن على أنها قوانين حياة .

وسـبق أنْ مـثَّلْنـا لذلك بأحكـام الطلاق التى طـالمـا نقـدوها وهاجموها ، واتهـموا دين الله ـ ظلماً وجهلاً ـ بالقـسوة ، ثم بعد ذلك نراهم يلجـئـون إليه ، ولا يـجدون حـلاً لبـعـض مـشكـلاتهم إلا فى الطلاق وفى الرجـوع إلى أحكام الله ، مع أنهم غـير مـؤمنين به ، وهذا منتهى الغَلَـبة لدين الله أن يرجع إليه الكافـر به ، إنها غلبـة الحق وغلبة الحجة .

وسبق أنْ قُلْنا : إن أحد المستشرقين سألنا فى سان فرانسيسكو قال : فى القرآن ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٩) ﴾ [الصف]

وبعـد أربعـة عشـر قـرناً من الزمـان ما زال فى الدنيـا يهـودية ومـسيـحيـة وبوذية ... إلخ ، وهذا الكلام يدل على عـدم فَهْم لمـعنى الآيات ، فليـس المـراد ﴿ لِيُظْهِـرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ .. (٩) ﴾ [الصف] أن يصـبح النـاس جـمـيـعـاً مـؤمنين ، بدليـل قـوله تعـالى ﴿ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٩) ﴾ [الصف]

إذن : فالدين سيظهر ظهور حجة وظهور غلبة على تقنيناتهم ، وسوف يطرأ عليهم من مشكلات الحياة ما لا يجدون له حلاً إلا فى شرع الله ، وهذا هو الظهور المراد فى الآية .

ثم يوضح الحق - تبارك وتعالى - ماهية الآية التى كانت لسبأ فى مسكنهم ، فيقول سبحانه : ﴿جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ .. (١٥)﴾ [سبأ] وما دام الله تعالى وصف هاتين الجنتين بأنهما آية ، فلا بُدَّ أن فيهما عجائب ، وأنهما يختلفان عن الجنَان التى نعرفها .

وقد حدَّثنا العلماء عن هذه العجائب فقالوا عن هاتين الجنتين : لا تجد فيهما عقرباً ، ولا حية ، ولا ذباباً ، ولا برغوثاً ... إلخ ، فإنْ طرأ عليهما طارىء ، وفى جسمه قُمَّل فإنه يموت بمجرد أنْ يدخل إحدى هاتين الجنتين[1] ، وهذه كلها عجائب فى الجنتين .

ونلحظ هنا أن الآية مفرد والعجائب كثيرة ؛ لأن كلمة آية تُطلَق على الجمع أيضاً ، ومن ذلك قوله تعالى فى سيدنا عيسى عليه السلام : ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً .. (٥٠)﴾ [المؤمنون] ولم يقل آيتين ، قالوا : لأن الأمر العجيب الذى جمعهما واحد ، فعيسى عليه السلام وُلد من لا ذكورة ، وأمه حملتْ وولَدتْ كذلك من لا ذكورة ، فالآيتان آيَة واحدة .

ومعنى : ﴿جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ .. (١٥)﴾ [سبأ] يحتمل أنْ يكون لكل واحد منهم جنتان ، واحدة عن اليمين ، والأخرى عن الشمال ،

---

(١) أخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد رضى الله عنه فى قوله : ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ .. (١٥)﴾ [سبأ] قال : لم يكن يُرى فى قريتهم بعوضة قط ، ولا ذباب ، ولا برغوث ، ولا عقرب ، ولا حية ، وإن الركب ليأتون فى ثيابهم القمل والدواب ، فما هو إلا أن ينظروا إلى بيوتها فتموت تلك الدواب ، وإن كان الإنسان ليدخل الجنتين ، فيمسك القفَّة على رأسه ، ويخرج حين يخرج وقد امتلأت تلك القفة من أنواع الفاكهة ، ولم يتناول منها شيئاً بيده . [أورده السيوطى فى الدر المنثور (٦/٦٨٧)] .

وبيته فى الوسط ، ويحتمل أن تكون الجنتان لأهل سبأ جميعاً ، بمعنى أنها جنَان موصولة عن اليمين ، وجنَان موصولة عن الشمال وَصْلاً لا يُميَّز بسور ولا حائط[1] ، مما يدل على أن الأمن كان مستتباً بينهم ، وقد شاهدنا مثل هذا فى أمريكا ، حيث الحقول والمزارع ممتدة متصلة لا يفصلها إلا مجرد سلْك بسيط .

وقوله سبحانه ﴿ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ .. (١٥) ﴾ [سبأ] كيف نفهم ﴿ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ .. (١٥) ﴾ [سبأ] والناس جميعاً يأكلون من رزق الله ؟ قالوا : الناس يأكلون من رزق الله بالأسباب ، إنما هذا رزق الله مباشرة بلا أسباب ؛ لذلك يقول تعالى فى موضع آخر ﴿ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ .. (٨١) ﴾ [طه]

فليس كل الرزق طيباً للأكل ، إنما هنا ﴿ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ .. (١٥) ﴾ [سبأ] أى : كله طيب ، وكله حلو ، فالفاكهة فى هاتين الجنتين لا يصيبها عطب ، ولا يطرأ على ثمارها ما يطرأ على الثمار من فساد ؛ لذلك سيقول سبحانه فى آخر الآية : ﴿ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ (١٥) ﴾ [سبأ]

ونعرف أن البساتين مؤونة الخدمة فيها قليلة ؛ لذلك نرى الفلاح حين يضيق بزراعة الأرض وأجور العمالة يلجأ إلى زراعة الحدائق والبساتين المثمرة ؛ لأنها أقلّ تكلفة ، ولا تحتاج إلى رعاية كثيرة إلا وقت الإثمار .

---

(١) ورد فى الجنتين عدة أقوال ، منها :

- أن الجنتين كانتا بين جبلين باليمن . قاله قتادة .
- إحدى الجنتين عن يمين الوادى والأخرى عن شماله . قاله سفيان .
- لم يُرد جنتين اثنتين ، بل أراد من الجنتين يمنة ويسرة . قاله القشيرى . أوردها القرطبى فى تفسيره (٨/٥٥٥٣) وقال : أى كانت بلادهم ذات بساتين وأشجار وثمار ، تستر الناس بظلالها .

والحق سبحانه يقول فى غير هذا الموضع : ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (٦٤)﴾ [الواقعة] فأثبت لهم عملاً وحرثاً ، إنما المسألة هنا فى هاتين الجنتين ، فهى عطاء من الله بلا عمل وبلا أسباب ، فالله سبحانه هو الزارع ، وقد خصَّها بالجو اللطيف ، لا حرَّ ولا قَرَّ ، ولا سآمة ، ولا مخافة ، ولا زهد فى نعمة من النعم لتكرارها .

إذن لا عمل لهم فى حدائقهم ينتج ما يستمتعون به ، إنما عملهم أنْ يشكروا المُنعمَ سبحانه ليزيدهم من الخيرات ، وشكْر النعمة هو حكمة العبد مع مولاه ؛ لذلك قال سبحانه عن لقمان : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ .. (١٢)﴾ [لقمان] ما هذه الحكمة ؟ ﴿أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ .. (١٢)﴾ [لقمان] لأن شكر النعمة يزيدها .

وقوله سبحانه : ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ .. (١٥)﴾ [سبأ] يعنى : تعطيك طيب الأشياء بدون منغصات فيها ؛ لأن هناك أشياء تعطيك طيباً تهنأ به ، لكنها تتعبك وتُنغِّصك فيما بعد .

أما هذه البلدة فما فيها طيب تأكله هنيئاً مريئاً ؛ لأنها رزق الله بدون أسباب من العباد ، لكن حين يتدخل العباد فى عطاء الله تظهر فى النعم متاعب ومُنغِّصات ، وهذا ما نعانى منه الآن بسبب التدخل فى المزروعات بالمواد الكيماوية والمبيدات الحشرية ، التى أفسدت علينا حياتنا ، وجاء ضررها أكثر من نفعها حتى أصبحنا نعزو كل الأمراض إلى تدخّلنا فى عطاء الله ، ولو تركنا الأرض تُروى بماء السماء كما كان فى البداية لَذُقْنا الخير بلا مُنغِّصات ، فمن الضرورى أن نتأدب مع الله فى عطائه .

لذلك تجد كثيراً من المترفين والمثقفين وأهل العلم والفلاسفة

يحبون الخروج من ضوضاء المدن وتلوث هوائها ومياهها وما فيها من صخب ويخرجون إلى الريف أو البرارى ، يهربون من الآثار الضارة للحضارة الحديثة إلى الخلاء ، حيث يعيش راعى الأغنام ، حيث الطبيعة كما خلقها الله ، وحيث الفطرة السليمة التى لم يتدخل فيها البشر .

تذكرون فى الماضى ، كنا نقاوم دودة القطن مقاومة يدوية طبيعية ، فلما تقدمت العلوم جاءوا بمادة (دى دى تى) للقضاء على دودة القطن ، لكن هذه المادة السامة أماتتْ كل شىء فى الحقول ، قضَتْ على الأسماك فى الترع والمصارف ، وقضتْ على (أبى قردان) صديق الفلاح ، ولوَّثت الماء والمزروعات ... إلخ . أما دودة القطن فهى الوحيدة التى أخذت مناعة ، وأصبحت كما قلنا (كييفة) دى دى تى .

أما سبأ فكانت ﴿ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ .. (١٥) ﴾ [سبأ] بكل ما فيها من طيب الماء والهواء والتربة لم يُصبْها تلوث من أىِّ نوع ، وإذا كانت البَلدة نفسها طيبة ، فما بالك بما عَليها ؟

وفى الآية طلبان ﴿ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ .. (١٥) ﴾ [سبأ] وفيها تحذير : إياك أنْ تغتر بالنعمة ، وتظن أنها أصبحت ملكاً لك ، وتنسى المنعم بها عليك ، إياك أنْ تكون كالذى قال الله فيه ﴿ كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ (٧) ﴾ [العلق]

إياك أن تظن أنك أصيل فى هذه المسألة ، وظلّ دائماً على ذكْر بأن المنعم هو الله ، وأن ما أنت فيه هو من عطاء الله ، ثم بعد ذَلك عليك أن تشكره سبحانه ؛ لأن الشكر قيد النعم .

وفى موضع آخر ، تكلم الحق سبحانه عن شكر النعمة فقال : ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ الشَّكُورُ (١٣) ﴾ [سبأ] والحمد لله أنه سبحانه لم يقُلْ :

وقليل من عبادى الشاكر ، وتعلمون أن الشكور صيغة مبالغة من الشكر ، أو الشكور هو الذى يشكر على النعمة ، ثم يشكر الله على أن ألهمه أنْ يشكر على النعمة ، فكأنه قدَّم الشكر مرتين .

ثم لم يَقْصُر النعمة على أهل سبأ فى الدنيا وحَسْب ، إنما تعدَّت نعمته عليهم إلى الآخرة ، ففى الدنيا ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ .. ﴿١٥﴾﴾ [سبأ] وفى الآخرة ﴿وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾﴾ [سبأ] يعنى : يتجاوز عنكم إنْ حدثت منكم زَلَّة أو هفوة .

ثم يُبيِّن الحق سبحانه النتيجة وردَّ فعْلهم ، فيقول :

﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ[1] وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ[2] قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا ۖ وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾﴾

قوله تعالى ﴿فَأَعْرَضُوا .. ﴿١٦﴾﴾ [سبأ] أى : عن المأمور به ، وهو ﴿كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ .. ﴿١٥﴾﴾ [سبأ] فلم يأكلوا من رزق الله ، إنما أكلوا من سعيهم ومهارتهم - على حدِّ زعمهم - وهذه أول الخيبة ، ثم لم يشكروا الله على هذه النعم ؛ لأن النعم أترفتهم فنسوا شكرها .

وفَرْق بين ترف وأترف ، نقول : ترف فلان أى تنعَّم . لكن أترف

---

(١) العرم : السيل الشديد أو المطر الشديد أو السد يعترض ماء الوادى ، أو أنه اسم واد بعينه. [القاموس القويم ٢/١٧] .

(٢) الخمط : كل نبات فيه مرارة وحموضة تعافه النفس . والأثل : شجر طويل مستقيم الخشب كثير الأغصان أوراقه دقيقة وثمره حب أحمر مُرٌّ لا يؤكل . والسدر : شجر النبق وهو شجر ذو أشواك ، له ثمر فيه حلاوة قليلة .

فلان ، أى : غرَّته النعمة ؛ لذلك قال تعالى : ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا .. (١٦)﴾ [الإسراء]

فلا بأس أنْ تتنعم ، لكن المصيبة أن تُطغيك النعمة ، وتغرّك ، وأول طغيان بالنعمة أن تنسبها إلى نفسك فتقول : بمجهودى وشطارتى كالذى قال : ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي .. (٧٨)﴾ [القصص] ثم أنْ تنسى المنعِم ، فلا تشكره على النعمة .

وفى موضع آخر لخَّص لنا الحق سبحانه هذه القضية فى قوله سبحانه ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١١٢)﴾ [النحل]

وقال فى قوم سيدنا نوح عليه السلام : ﴿وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا (١٦)﴾ [الجن]

إذن : صيانة النعمة بشكرها والاعتراف بها كلها منسوبة إلى المنعِم سبحانه ، وحتى نحن على مستوى البشر نقول : فلان هذا حافظ للجميل ، فنزيده ولا نبخل عليه بجميل آخر وآخر ، فما بالك بالحق سبحانه وتعالى ؟!

وكلمة الإعراض تُعطى شيئاً فوق الإهمال وفوق النسيان ؛ لأن الإعراض أنْ تنصرف عن مُحدِّثك وتعطيه جانبك كما تقول لمَنْ لا يعجبك حديثه (اعطنى عرض كتافك) .

إذن : الإعراض تَرْك متعمَّد بلا مبالاة ، أما السهو أو النسيان أو الخطأ أو عند النوم ، فهذه كلها أمور مُعْفىً عنها ، قد رفعها الله عنَّا رحمة بنا ، فربُّك عز وجل لا يعاملك إلا على اليقظة والانتباه وتعمد الفعل .

واقرأ إنْ شئتَ قول ربك : ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤)﴾ [طه]

لماذا ؟ لأن الإعراض فيه شبهة عدم اعتناء بالآمر ، فالنكبة فيه أشدُّ على خلاف أنْ تكون معتنياً بالآمر ، وبعد ذلك تتهم نفسك لأىِّ سبب آخر .

ويقول تعالى أيضاً فى الإعراض : ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ .. (٥١)﴾ [فصلت] وسوف يأتى الجزاء على قدر الإعراض ، كما بيَّن الحق سبحانه فى قوله : ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤) يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَـٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنفُسِكُمْ .. (٣٥)﴾ [التوبة]

كما نقول : أنت ربيتَ مَنْ سيقتلك فيما بعد ، كذلك هؤلاء كنزوا الأموال ليتمتعوا بها قليلاً فى دنيا فانية ، ثم يلاقون تبعة ذلك يوم القيامة ، نار تكوى جباههم وجنوبهم وظهورهم ، حتى يتمنى الواحد منهم ـ والعياذ بالله ـ لو أنه قلَّل منها حتى يُقلل من مواضع الكىِّ .

وتأمل هذا الترتيب : جباههم وجنوبهم وظهورهم ، فسوف تجده نفس ترتيب الإعراض عن المحتاج الذى سأل صاحب المال فى الدنيا ، فأول ما يراه يشيح عنه بوجهه ، ثم يعطيه جانبه ، ثم يدير إليه ظهره ، فيأتى الجزاء من جنس العمل وبنفس تفاصيله .

فماذا كانت نتيجة هذا الإعراض ؟ يقول تعالى : ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ .. (١٦)﴾ [سبأ] أى : بعد أن انهار سدُّ العرم ، فسال ماؤه ، فأغرقهم ، ومن العجيب أن الله تعالى جعل من الماء كل شىء حى ،

لكن إذا أراده سبحانه وسيلة هلاك أهلك ، وبه أهلك اللهُ قومَ نوح ، وبه أهلك فرعونَ وجنوده ، وهذا من طلاقة قدرة الله ، حيث يوجه الشىء للحياة فيُحيى ، وللهلاك فيُهلك .

وبعد أنْ أفزعهم سيل العرم لما أرادوا الإقامة بعد ذلك أقاموا فى أماكن لا ماء فيها ، فإذا أرادوا الماء جلبوه من الآبار بالقِرَب ، وكأن الماء أحدث لديهم (عقدة) .

وهذه القضية القديمة لها عندنا قصة حديثة : كنا ونحن فى الأزهر نلبس (القفاطين) و (الكواكيل) ، وكان لنا زميل حالته رقيقة ، وكان لا يملك إلا (كاكولة) واحدة لبسها حتى بليت وتمزقت ، فكان يمدّ يده من وقت لآخر إلى مكان القطع ويحاول أن يداريه ، حتى صارت عادة عنده ، ثم رزقه الله بأخ له توظف واشترى له (كاكولة) جديدة ، فلما لبسها صارت يده تمتد إلى نفس الموضع ، وتحاول ستر القطع الغير موجود فى الجديدة ، فقال له أحد الزملاء : ما لك ؟ فقال : القديمة رعبانى .

والسيل : أن يسيل الماء على وجه الأرض بعد أنْ تشرَّبت منه قَدْر حاجتها ، فما فاض عليها سال من مكان لآخر ، والحق سبحانه يعلمنا : قبل أنْ نبحث عن مصادر الماء لا بُدَّ أنْ نبحث عن مصارفه حتى لا يغرقنا ، واقرأ : ﴿وَقِيلَ يَـٰأَرْضُ ابْلَعِى مَاءَكِ وَيَـٰسَمَاءُ أَقْلِعِى .. (٤٤)﴾ [هود]

فالأمر الأول للأرض أنْ تبلع الماء وتتشرَّبه ، ثم يا سماء أمسكى ماءك ؛ لذلك إذا تشبَّعت الأرض بالماء نقول : الأرض (عنَّنت) يعنى : امتلأت بالمياه الجوفية ، فإنْ كانت أرضاً زراعية لا تُخرج زرعاً ، وإن كانت فى المدن أضرَّت بالمبانى ، وفاضتْ فى الشوارع وكسرت

المواسير ... إلخ ، ويعرف أهمية الصرف مَنْ يتعاملون مع الأرض .

وسيل العَرِم منسوب إلى العرم ، وله إطلاقات متعددة ، فالعرم هى الحجارة التى تُبنى بها السدود ، أو هو الجُرْذ (الفأر) الذى نقب السد[1] ، وأحدث به فجوة نفذ منها الماء ، فوسّعها وجعلها عيناً .

وقد رأينا ما فعله الماء فى تحطيم خط بارليف ، حيث هدى الله أحد مهندسينا جزاه الله خيراً إلى فكرة استخدام ضَخِّ الماء بقوة لإزالة الساتر الترابى الذى كان عقبة فى طريقنا للاستيلاء على هذا الخط المنيع وتحطيمه ، وفعلاً كانت فكرة أدهشتْ العالم كله .

والعَرِم جمع مفرده عرمة مثل لَبِن ولبنة ، لكن اللبن هو الطوب (النىّ) أو الطين ، أما العرم فهو الطوب المتحجر .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ .. (١٦)﴾ [سبأ] من صفاتهما أنهما ﴿ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ .. (١٦)﴾ [سبأ] يعنى : أبدلهم الله بالجنتين السابق وصفهما بجنتين أُخْريين ، لكن ثمارهما ﴿أُكُلٍ خَمْطٍ .. (١٦)﴾ [سبأ] يعنى : ثمر مُرّ تعافُه النفس ، وأشجارهما ﴿وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ (١٦)﴾ [سبأ]

والأثل : هو شجر الطرفاء ، وهو قليل النفع لا ثمر له ، والسدر : هو شجر النبق المعروف ، وهو شجر قليل الفائدة . فكيف يُسمى هذا جنة ؟ قالوا : سماها الحق جنة على سبيل التهكم ، وإلا فليس فى الجنة مثل هذا الشجر . ونلحظ أن الحق سبحانه رحيم بهم حتى فى العقاب ، فلم يجعلها خاوية لا شىء فيها .

ثم يقرر الحق تبارك وتعالى أن ما نزل بهم ليس ظلماً لهم ، إنما

---

(١) قاله الزجاج وابن الأعرابى . وقال مجاهد وابن نجيح : العرم ماء أحمر أرسله الله تعالى فى السد فشقَّه وهدمه . وعن ابن عباس أيضاً : العرم المطر الشديد . [تفسير القرطبى ٨/٥٥٥٤] .

جزاء ما فعلوا ﴿ذَلِكَ .. ﴿١٧﴾﴾ [سبأ] يعنى : ما سبق ذكْره من الأكل الخمط والأثل والسدر ﴿جَزَيْنَاهُم .. ﴿١٧﴾﴾ [سبأ] أى : جزاءً لهم ﴿بِمَا كَفَرُوا .. ﴿١٧﴾﴾ [سبأ] والكفر سَتْر النعمة ، وهؤلاء ستروا نعمة الله حين ظنوا أنهم يأكلون من جَهْدهم وسعيهم وملكهم ، وستروا نعمة الله حين لم يلتفتوا إلى المنعم سبحانه ولم يشكروه ، فما أطاعوا فى ﴿كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ .. ﴿١٥﴾﴾ [سبأ] وما أطاعوا فى ﴿وَاشْكُرُوا لَهُ .. ﴿١٥﴾﴾ [سبأ]

ثم يُنزه الحق سبحانه نفسه بهذا الاستفهام التقريرى : ﴿وَهَلْ نُجَازِى إِلاَّ الْكَفُورَ ﴿١٧﴾﴾ [سبأ] وجاء بالكفور وهى صيغة مبالغة ، ولم يقل سبحانه : الكافر ، وهذا من رحمته سبحانه بعباده ، فهو سبحانه لا يجازى منهم إلاَّ الكفور أى : المُصرّ على الكفر المتمادى فيه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴿١٨﴾﴾

هذه نعمة أخرى يمتنّ الله بها على أهل سبأ ، فمعنى ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ .. ﴿١٨﴾﴾ [سبأ] بين أهل سبأ ﴿وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا .. ﴿١٨﴾﴾ [سبأ] والمراد بلاد الشام التى قال الله فيها فى قصة الإسراء : ﴿سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾ [الإسراء]

والقرى جمع قرية ، وهى اسم لمكان متواضع البناء ، به مقومات الحياة الضرورية ، فإذا نزلْتَه وجدت به قِرَى يعنى طعاماً وشراباً .

ونعلم أن أهل اليمن كانوا أهل تجارة بين اليمن والشام ، فجعل الله لهم فى طريق تجارتهم ﴿قُرًى ظَاهِرَةً .. ﴿١٨﴾﴾ [سبأ] يعنى : متقاربة متواصلة ، كانت بمثابة استراحات فى الطريق مثل (الرست) وذلك لبُعْد المسافة بين اليمن والشام فى رِحْلَتَى الشتاء والصيف ، فأراد الحق سبحانه أنْ يُيسِّر لهم تلك الرحلات ، وأنْ يقطعوها بلا مشقة .

﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ .. ﴿١٨﴾﴾ [سبأ] يعنى : جعلنا سيرهم على مسافات متقاربة ، فالقرى الظاهرة لهم فى سيرهم والقريبة منهم بحيث يمرون بها ويروْنَها على طريقهم بلا مشقة ، قرى مُوزَّعة على مسافات الطريق ، بحيث كلما ساروا مسافة وجدوا قرية على سابلة الطريق .

وهذا يعنى أنهم سيأمنون ، لا يخيفهم شىء ، وأنهم لا يحتاجون لحَمْل زاد ، فالقرى التى يمرون بها تكفيهم مؤنة الطريق ، ويجدون بها حاجتهم ، وهذا أيضاً يعنى أنهم لن يحتاجوا إلى دواب كثيرة للحمل .

والسير أى فى الصباح ويقال كذلك للغدوة والروحة ، ثم يُؤنسهم الحق سبحانه بهذا الأمر ﴿سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴿١٨﴾﴾ [سبأ] بحيث يسير فى الغدوة إلى مكان يقيل فيه ، ويسير فى الرواح إلى مكان يبيت فيه يعنى : محطة للقيلولة ومحطة للبيتوتة . وهذا السير فى ظل أمن وأمان ضَمنه لهم الحق سبحانه ، فلا يروعهم شىء لا من الناس ، ولا من الوحوش .

وحين نقارن بين قوله تعالى هنا ﴿آمِنِينَ ﴿١٨﴾﴾ [سبأ] وبين قوله تعالى عن قريش : ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴿٤﴾﴾ [قريش] نجد أن الأمن يتوفر بالإطعام والأمان من الخوف ، وهنا قال

﴿آمِنِينَ (١٨)﴾ [سبأ] ولم يَقُل من خوف ؛ لأن معنى ﴿آمِنِينَ (١٨)﴾ [سبأ] أى : الأمن التام آمنين من الخوف ، وآمنين من الجوع ؛ لأنه لم يُذكر مع ﴿آمِنِينَ (١٨)﴾ [سبأ] متعلق .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (١٩) ﴾

تأمل هذا التعنت وهذا البطر لنعمة الله ، حيث لم يعجبهم أنْ قَارَبَ الله لهم بين القرى ، فطلبوا ﴿رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا .. (١٩)﴾ [سبأ] يعنى : افصل بين هذه القرى بصحارٍ شاسعة ، بحيث لا يستطيع السفر فيها إلا الأغنياء والقادرون الذين يملكون المطايا القوية القادرة على الحمل[(١)] .

إذن : نظرتهم فى هذه المسألة نظرة اقتصادية كلها جشع وطمع ، فهم يريدون أنْ يحرموا الفقراء وغير القادرين من السفر للتجارة معهم ، فحين تتقارب القرى وتكثر الاستراحات على طول الطريق ، فلا يكاد المسافر يتجاوز قرية إلا بدَتْ له الأخرى من بعيد ،

---

(١) وذلك مثل قول بنى إسرائيل عندما بطروا نعمة الله بإنزال المن والسلوى عليهم دون مجهود منهم ، فقالوا : ﴿ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ .. (٦١)﴾ [البقرة] ، فكان عقابهم ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ (٦١)﴾ [البقرة] .

فهذا يُسهِّل السفر على الفقراء الذين يركبون الدواب الضعيفة ، فوسائل الامتطاء تختلف حسب قدرات الناس ، فواحد على جواد ، وواحد على ناقة ، وواحد على حمار .

وقُرْب المسافات بين القرى شجَّع الفقراء على السفر لرحلة الشام ؛ لذلك طلب هؤلاء أنْ يباعد الله بين هذه القرى فهو مطلب جَشِع أنانى ؛ لذلك قال تعالى بعدها : ﴿وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ .. (١٩)﴾ [سبأ] نعم ظلموا أنفسهم ؛ لأنهم حرموها من الراحة التى جعلها الله لهم ، وظلموا أنفسهم لأنهم أرادوا أنْ يحتكروا هذه التجارة ، وألاَّ يخرج إليها غيرهم من الفقراء ، أو ظلموا أنفسهم لأنهم أثبتوا لها عدم اكتمال الإيمان ؛ لأن الإيمان لا يكتمل للمؤمن حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، وهؤلاء يحبون أنْ يستأثروا بالنعمة لأنفسهم ، ويحرموا منها غيرهم .

لكن ، كيف تكون المباعدة التى طلبوها فى طريق تجارتهم؟ عرفنا من علم الهندسة أن الخط المستقيم هو أقرب مسافة بين نقطتين ، فاستقامة الطريق تُيسِّر الحركة فيه ، وتقلِّل الوقت والمجهود ، والمباعدة لا تكون إلا بتحطيم بعض هذه القرى لتبعد المسافة بينها ، أو بأنْ يلتوى الطريق ، أو يدور هنا وهناك .

فكانت نتيجة هذا الجشع والبطر ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ .. (١٩)﴾ [سبأ] أى : أحدوثة يتحدث بها الناس أو (حدوتة) تُحكى ، كما لو وقع مجرم فى أيدى رجال الشرطة ، فجعلوه عبرة لغيره حتى تحاكَى الناس به ، كذلك أهل سبأ جعلهم الله عبرة لغيرهم حتى صارت سيرتهم مثلاً يُضرب ، يقولون فى المثل العربى الدال على التفرُّق : تفرقوا أيدى سبأ ، يعنى : تفرقوا بعد اجتماع كما تفرَّق أهل سبأ .

ومعنى ﴿وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ .. (١٩)﴾ [سبأ] أى : التمزيق والتفريق بكل أنواعه وطرقه ، بحيث يتناول التمزيق كل الأجزاء مهما صَغُرَتْ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ .. (١٩)﴾ [سبأ] يعنى : فيها عبر وعظات يستفيد منها العاقل فى حياته .

﴿لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (١٩)﴾ [سبأ] صبار وشكور من صيغ المبالغة ، صبَّار مبالغة من الصبر ؛ لأن هؤلاء ظلموا الفقراء واضطهدوهم ، وأرادوا أنْ يقطعوا عليهم سبيل النعمة ، وأن يستأثروا به لأنفسهم وقد تكرر منهم ذلك ؛ لذلك لم يقل لكل صابر ؛ لأنهم تحملوا من الأذى ما يحتاج إلى صبر كثير .

وسبق أنْ قُلْنا : لو علم الظالم ما أعدَّه الله للمظلوم لضَنَّ عليه بالظلم ، ويكفى المظلوم أن الله تعالى سيكون فى جانبه يوم القيامة .

ومن الغباء أن الظالم حين يتنبه إلى ظلمه وتهدأ شرَّته وعصبيته يريد أنْ يُكفِّر عن ظلمه ، فيسعى فى أبواب الخير ، ويبنى مسجداً مثلاً أو مدرسة ... إلخ يظن أن له ثوابها ، والحقيقة أن الثواب لمن ظلمهم وأخذ أموالهم ؛ لأن الله سبحانه وتعالى يقول : ﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ (٤٧)﴾ [الأنبياء]

وقال أيضاً ﴿شَكُورٍ (١٩)﴾ [سبأ] يعنى : كثير الشكر لله أنْ أقْدره على أن يصبر ؛ لذلك قالوا : ما صبرت وإنما صبَّرناك .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٠)﴾

معنى ﴿وَلَقَدْ .. (٢٠)﴾ [سبأ] توكيد باللام مـرة وبقد أخرى ﴿صَدَّقَ .. (٢٠)﴾ [سبأ] حقق وأكد ﴿عَلَيْهِمْ .. (٢٠)﴾ [سبأ] على أهل سبأ وأمثالهم ممَّن اتبعوه ﴿إِبْلِيسُ ظَنَّهُ .. (٢٠)﴾ [سبأ] ما ظَنُّ إبليس ؟ ظنُّه أن شـهوات البشر ستُمكِّنه من إغوائهم ، ونحن نعلم قصته لمَّا أمره الله بالسجود لآدم فأبَى وقـال مهدداً : ﴿فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦)﴾ [الأعراف] وقال : ﴿فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢)﴾ [ص] وكان لا يزال فيه بقية من حياء ، فقال : ﴿إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٤٠)﴾ [الحجر]

فظنُّ إبليس أنه قال : لقد أغويتُ أباهم وقدرْتُ عليه حين أغويته ، فـأكل من الشجـرة مع أنه كـان أول الخَلْق وأقـواهم ، وقد كلَّفـه الله مباشـرة وكلَّفه بشيء واحد ، وهو أنْ يأكل من كل ثمـار الجنة ، عدا هذه الشجـرة ، ومع ذلك قدرْتُ عليـه . إذن : فأنا أقـدر على ذريته ؛ لأنهم أقلُّ منه قـوةً ، وقد كلَّـفهم الله تكليـفاً غـيـر مبـاشر ، وكلَّفـهم بتكاليف متعددة ، فأنا أقدر عليهم من قدرتى على أبيهم .

وهذا الظن من إبليس ليس علْماً للغيب ، إنما هو قياس قاس ذرية آدم على أبيهم ، فإذا كان آدم هو المخلوق الأول الذى خلقه الله بيده ، وأسجد له ملائكته وكلَّفه مباشرة ولم يُكلِّفه إلا بأمر واحد ، ومع ذلك قـدرْت عليه فـأنا على ذريته أقـدر ، هذا قـياس لم يصل إليـه إبليس ولايةً ولا كرامةً ؛ لذلك سماه ظناً .

فلما قدر إبليس على ذرية آدم وأغواهم بالفعل قال : ظنى جاء فى محله ؛ لأنهم بالفـعل اتبعوه ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ .. (٢٠)﴾ [سبأ] ثم يأتى هذا الاستثناء ﴿إِلاَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٠)﴾ [سبأ] فـجـاء هذا الاسـتـثناء مطـابقـاً للاسـتـثناء الأول ﴿إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٤٠)﴾ [الحجر]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾ ﴾

لما أغوى إبليس بنى آدم هل لهم عذر فى هذا الإغواء ؟ وهل الذنب هنا ذنب إبليس ؟ الحق سبحانه يخبر عنه وعنهم هذا الخبر فى سياق قصة سبأ : ﴿ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ .. ﴿٢١﴾ ﴾ [سبأ] ، وقد التقط إبليس هذه العبارة وجعلها حُجَّة له يوم القيامة ، فإذا قال له البشر يوم القيامة : أنت سبب ضلالنا وغوايتنا قال : ﴿ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِى فَلا تَلُومُونِى وَلُومُوا أَنفُسَكُم .. ﴿٢٢﴾ ﴾ [إبراهيم]

يعنى : لا تلومونى ولا تظلمونى ، فقد كنتم (على تشويره) منى ، وليس لى عليكم من سلطان : لا سلطان قوة أقهركم بها وأجبركم على طاعتى ، ولا سلطان حجة أقنعكم به ، والفرق بين سلطان القهر وسلطان الحجة أنك تفعل مع الأول وأنت غير راض فأنت مُكْره ، أمّا مع سلطان الحجة والمنطق فإنك تفعل ما يُطلَب منك عن رضا واقتناع .

وربنا عز وجل حذرنا من إبليس ووسوسته ونزغه ، وعلمنا أننا لن نقهره إلا بالله خصوصاً بهذه (الروشتة) التى قال الله فيها : ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ .. ﴿٣٦﴾ ﴾ [فصلت]

مجرد أنْ تُذكِّره بالله يخنس ويهرب ويتراجع ، فهو يقدر عليك

وحدك ، فإنْ لجأتَ إلى ربك خاف وفَرَّ ؛ لأنه لا قدرةَ له ، ولا كيد مع ذكر الله ، لذلك قال بعض العارفين : قل هذه الكلمة بقوة وكأنك تراه وتصرعه .

فماذا نفعل إنْ جاء لأحدنا وهو يقرأ القرآن ؟ قالوا : يقطع قراءته ، ويقول بصوت أعلى وبأسلوب مغاير لقراءته : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . وقد حاولنا أن نُقرِّب هذا المعنى لأذهان الناشئة فقلنا : لو أن أحد الأغنياء مثلاً يجلس فى (الشرفة) ليلاً ، فرأى لصاً يحاول دخول بيته ، فقام من مكانه ، وقال (إحم) ماذا يصنع اللص ؟ يهرب ، فإنْ قال فى نفسه لعلها مصادفة ، ثم عاد فى الليلة التى بعدها ، فتنبَّه له صاحب البيت ، وقال (إحم) عندها يفرّ بلا عودة ، فصاحب البيت متنبه غير غافل .

كذلك ، قَوْل أعوذ بالله من الشيطان الرجيم يُفزع الشيطان ويطرده ، فإنْ عاد إليك مرة ومرة فقُلْ كلما شعرت بوسوسته ونزغاته : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، عندها سيعلم أنك (فقسته) ، وأنه لا مدخل له إليك .

وقد عرف الشيطان حين جادل ربه من أين يدخل على ابن آدم ، فقال : ﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ﴾ [الأعراف] فهو كما ذكرنا ، لا يقعد فى خمارة مثلاً ، إنما يقعد فى المسجد ، فهو يعلم أنك فى عبادة ، وكُل مُناه أنْ يُفسد عليك عبادتك ، ألاَ تراه يُذكّرك فى الصلاة ما نسيتَ من مهمات الحياة ، وعلى المؤمن أنْ يقدِّر موقفه بين يدى الله ، وألاّ ينشغل بأى شىء وهو فى حضرة ربه .

فالصلاة هى الصراط المستقيم الذى سيقعد لك الشيطانُ عليه ؛ لذلك علَّمنا فقهاؤنا ـ رحمهم الله ورضى الله عنهم ـ أنْ نغيظ

الشيطان ، فإذا وسوس لك فى الصلاة بحيث لا تدرى ، أصليتَ ركعتين أم ثلاثاً ، فاعتبرها ركعتين وابْنِ على الأقل ، كذلك فى الوضوء وأمثاله من العبادات ، لتغيظه وتُيئسه منك .

وظاهرة السهو فى الصلاة فى الحقيقة ظاهرة صحية فى الإيمان ، فلا تُمرض نفسك بها ، وكُنْ قوىَّ الإيمان وتشجَّع على هذا العدو ، وقُلْ له : لن أعطيك الفرصة لتفسد علىَّ لقائى مع ربى ، قل هذا (واشخط شخطة إيمان) فإنك تحرقه ، وإن عاد فَعُدْ ، واعلم أن كيد الشيطان كان ضعيفاً ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا (٧٦)﴾ [النساء]

فلا قدرة له عليك ما دُمْت فى معية الله ، وما دُمْت ذاكراً لله ، عندك تنبُّه إيمانى ، وتنبُّه عقدى .

وسبق أنْ حكينا قصة الإمام أبى حنيفة لما جاءه رجل يستفتيه ويقول : يا إمام ، لقد كنتُ أخفيتُ مالاً فى مكان فى الصحراء ، وعلَّمته بحجر ، فجاء السيل فطمسه حتى ضللتُ مكانه ، فضحك الإمام وقال للرجل بما لديه من خبرة وتمرُّس وملَكة فى الفتيا : يا بنى ليس فى هذا علم ، لكنى سأحتال لك ، اذهب بعد أنْ تصلى العشاء ، فتوضأ وضوءاً جديداً بنية أنْ يهديك الله إلى ضالتك وصَلِّ لله ركعتين ، ثم أخبرنى ماذا حدث .

فعل الرجل ما أوصاه به الإمام ، فجاءه إبليس ليفسد عليه صلاته وقال له : إن المال فى مكان كذا وكذا ، فراح فوجد المال ، ثم عاد إلى الإمام فأخبره فقال : والله لقد علمتُ أن الشيطان لا يدعك تُتِم ليلتك مع ربك .

إذن : فَثِق بكلمة (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم) وقُلْها بقوة

إيمـان ، أيقول الله قَـوْلة يأتى واقع الحـياة من المـؤمن به ليكذبهـا ؟ وجَرِّبها أنت بنفسك .

وقوله تعالى : ﴿إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ .. (٢١)﴾ [سبأ] ما دام أنه ليس لإبليس سـلطان على بنى آدم ، وما دام أنهم على (تشـويرة) منه ، فـلا بُدَّ أنَّ إيمانـهم غيـر راسخ ، وأنهم تَسُـوا حكماً من أحكام الله ؛ لأنه سـبـحانه حـذرهم منه ووصف لهم طريقة التغلب عليه فلم يفعلوا .

فكانت غواية إبليس لهم ﴿لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ .. (٢١)﴾ [سبأ] أى : علْم وقـوع ، وإلا فـالحق سـبـحـانه يعلم ما سيكون منهـم أزلاً ، لكن لا بُدَّ أنْ يحدث منهم الفعل لتقـوم الحجة عليهم كالمعلم الذى يرى على تلميذه علامات الفشل ، فيحذره ، فحين يدخل الامتحـان ويرسب فيه يأتى يعاتب أستـاذه أنه بشَّره بالرسوب فيـقول المعلم : وهل أمـسكتُ بيدك ومنعتُك من الإجـابة ، لقد حكمتُ عليك من خلال المقدمات التى رأيتها منك .

ومع ذلك كـان من المـمكن أنْ يغشَّ هذا التلمـيـذ فى الامـتحـان وينجح رغم مـا قـاله المـعلم ؛ لأن علمـه علْمٌ ناقص ، أمـا علم الحق سبحانه فعلْم تام . إذن : فعلْم الوقوع ألزم للحجة .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (٢١)﴾ [سبأ] حفيظ صيغة مبالغة من الحفظ ، فالله تعالى حفيظ على الكنوز وعلى الأرزاق وعلى العلم وعلى كل شىء ، كـما قـال سبـحانه : ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ (٢١)﴾ [الحجر] وما دام الله تعالى هو الحفيظ ، فلا أحدَ يستطيع أنْ يخل بهذه القضية .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾

ينتقل الحق سبحانه إلى قضية عامة ، هى قضية هؤلاء القوم الذين يعبدون غير الله ويجادلهم ، ليُظهر لهم فساد مسلكهم وبطلان عبادتهم دون الله ، وقد ردَّ هؤلاء فقالوا : ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ .. ﴿٣﴾﴾ [الزمر]

ونقول أولاً : ما هى العبادة ؟ العبادة أنْ يطيع العابدُ أمرَ معبوده ونهيه ، فإذا كان الكفار يعبدون الشمس أو القمر أو الأصنام ... إلخ بماذا أمرتهم هذه الآلهة ؟ وعن أى شىء نهَتْهم ؟ ماذا أعدَّتْ هذه الآلهة لمن عبدها من الثواب ؟ وماذا أعدتْ لمن كفر بها من عقاب ؟

إذن : أنتم كاذبون فى كلمة نعبدهم ، وإذا كنتم تعبدونهم ليقربوكم إلى الله زُلْفى ، فلماذا لا تتوجهون بالعبادة إلى الله مباشرة ؟ فكيف تعبدون آلهة بلا منهج ولا عمل لها فيمن عبدها ، ولا عمل لها فيمن كفر بعبادتها ؟

وهذه المخلوقات التى يعبدونها من دون الله مخلوقة لله مُسخَّرة له سبحانه مُسبِّحة ، وهى بريئة من هذا الشرك ولا ترضاه ، بل هى أعبد لله منهم ؛ لذلك نطقتْ الأحجار على لسان هذا الشاعر[1] وقالت :

---

(١) الشيخ رضى الله عنه من قصيدة فى الهجرة النبوية .

عَبَدُونَا ونَحْنُ أَعْبَدُ لله ... مِنَ القَائِمِينَ فِى الأَسْحَارِ
تَخِذُوا صَمْتَنا عَلَيْنا دَلِيلاً ... فَغَدْونَا لَهم وقُودَ النَّارِ
قَدْ تجنَّوْا جَهْلاً كَما قَدْ ... تَجنَّوْه على ابْن مَرِيمَ والجَوارِى
لِلْمغَالِى جَزَاؤُهُ والمُغَالَى ... فيه تُنْجِيه رَحْمَةُ الغَفَّارِ

فالحق سبحانه يناقشهم فى هذه المسألة : ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ .. (٢٢)﴾ [سبأ] ادعوا هذه الآلهة المدَّعَاة ، لكنهم لم يدْعُوا ، لعلمهم أن آلهتَهم المزعومة لن تجيب ؛ لذلك أكمل الله لهم وأظهر لهم النتيجة : لو دعوتُم هذه الآلهة ، فإنهم ﴿لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى السَّمَـٰوَاتِ وَلا فِى الأَرْضِ .. (٢٢)﴾ [سبأ]

فعلام إذن تعبدونهم ، وهم لا يملكون شيئاً ، ولم يصنعوا لكم معروفاً ، ولا قدَّموا لكم خدمة ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا .. (٢٢)﴾ [سبأ] أى : فى السموات والأرض ﴿مِن شِرْكٍ .. (٢٢)﴾ [سبأ] يعنى : مع الله ، أى ليس لهم مع الله شركة فى مسألة الخَلْق ﴿وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ (٢٢)﴾ [سبأ] يعنى : لم يعاونوا الله حين خلق السموات والأرض ، والظهير هو المعين القوى ، ومنه قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ (٤)﴾ [التحريم]

والظهير من الظهر ، وهو أقوى الأعضاء فى الحمل ، وفى الدفع ، فالظهير : الذى يعاونك ويساندك بكل قوته .

والذين يدعون من دون الله آلهة يُحاجُّون بأشياء متعددة أولاً : الحق سبحانه وتعالى خلق الإنسان ، وجعله خليفة له فى الأرض ، وخلق له مُقوِّمات حياته قبل أنْ يخلقه ، وتركه يرتع فى نعمه ولم يُكلِّفه بشىء حتى سِنِّ البلوغ والنضج ويبلغ الإنسان سِنَّ النضج

حين يصبح قادراً على إنجاب مثله .

وسبق أنْ مثَّلْنا ذلك بالثمرة ، فهى لا تنضج ، ولا يحلو طعمها فى مذاق الإنسان ، إلا إذا استوتْ بذرتها ، بحيث إذا زُرِعَتْ أنبتت مثلها ، وهذا من لُطْف الله بنا ، وإلا لو حلَتْ الثمرة قبل نضج بذرتها لأكلنا الثمار مرة واحدة ، وانقطع نوعها بعد ذلك .

ويشاء الخالق سبحانه أن يجعل للتكاثر النسلى فى الإنسان تكاثراً نسلياً أعظم منه فى الخيرات بما يمثل احتياطاً واسعاً يُؤمِّن حاجة الإنسان ، فحبة البطيخ الواحدة تنتج شجرة بها عدة ثمار ، بها مئات البذور ؛ لأننا نزرع بعضها ونتسلى (بقزقزة) الكثير منها .

والحق سبحانه أخذ علينا ميثاق الذرِّ ، والبشر جميعاً فى ظهر آدم عليه السلام ، وأشهدهم على أنفسهم قبل أنْ تتأتى لهم شهوات النفس المعارضة لمنهج الله ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ .. (١٧٣) ﴾ [الأعراف]

وهذا العهد فطرىٌّ فى النفس الإنسانية ، وما جاءت الأديان إلا لتنفضَ عن هذه الفطرة غبار الغفلة وغبار الشهوات ؛ لذلك لم يأت الرسل لتأسيس دين ، إنما للتذكير بهذا العهد القديم : ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ (٢١) ﴾ [الغاشية]

لذلك ، فالإنسان منا حين تتناوبه الأحداث ، وتعزّ عليه الأسباب ، ولا يرى مُنقذاً ، ترده هذه الفطرة إلى القوة الخفية التى ستنقذه ، فتجده يقول مستنجداً ومستغيثاً : يا هوه يعنى يا هو ، وهو ضمير غيبة ، إنما أشد إعلاماً من الاسم الظاهر ، لماذا ؟ لأنك حين تقولها

لا تنصرف إلا لغائب عن عينك واحد هو الله .

لذلك قال سبحانه : ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص] ولم يقُلْ : قُلْ الله أحد ؛ لأنه لا يخطر ببالك حين تقولها إلا الله خصوصاً فى الشدة ، وحين تعزّ عليك الأسباب ، فلا يسعفك إلا ربك ، كما قال سبحانه : ﴿ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ .. ۝٦٧﴾ [الإسراء]

وفى الشدة والضيق لا يكذب الإنسان على نفسه ولا يخدعها ، فترى حتى الكفار عند الشدة يقولون : يا رب ، وتردُّهم الفطرة إلى الله الحق .

لكن ما دام الإيمان الفطرى بهذه القوة ، ما الذى يطمسه فى النفس الإنسانية ؟ قالوا : تطمسه الشهوات حين تتحرك فى اتجاه مخالف لمنهج الله ، فالمنهج يهدف إلى تهذيب الشهوات والغرائز والحدّ من عنفوانها ، ولا يُعَدُّ هذا تعدياً عليها ، وإلا فلماذا خلقها ؟

لا بُدَّ أن لها مهمة ، فالغريزة الجنسية مثلاً جُعلتْ لبقاء النوع ، ولم تُجعَل للشراسة والعربدة فى أعراض الآخرين ، كذلك جعل الله الغضب غريزة ولها مهمة ، فالحق أباح لك أنْ تغضب حين تُستغضب .

لذلك قالوا : مَن استُغضب ولم يغضب فهو حمار ، ومع ذلك يأمرنا ربنا بالحلم ، ويقول سبحانه : ﴿وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ[1] شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا .. ۝٨﴾ [المائدة] يعنى : لا يُخرجك الغضب عن حَدِّ الاعتدال ، ولا يدعوك إلى الظلم ، فالحق سبحانه لا يكبت فيك هذا

---

(١) لا يجرمنكم شنآن قوم : أى : لا يحملنكم بغض قوم على عدم العدل ، أى : التزموا العدل حتى مع من تكرهونهم ، أى : اعدلوا دائماً فالعدل أقرب للتقوى . [القاموس القويم ١/١٢١] .

الشعور ، لكن يقيده حتى لا نطغى بسببه .

وقصة سيدنا عمر فى هذا الموضوع وضعت لنا المبدأ ، فيُروى أن سيدنا عمر ـ رضى الله عنه ـ رأى قاتل أخيه زيد بن الخطاب فى المعركة ، فانصرف عنه ، فذكّروه : هذا قاتل أخيك ، فقال : وماذا أفعل به ، وقد هداه الله للإسلام ، فكأن الإسلام برَّد نار الثأر فى نفسه ، والإسلام كما علمنا يجُبُّ ما قبله[1] .

كذلك الإسلام يجبُّ الغضب ـ فلما واجه عمر قاتل أخيه قال له : يا هذا أدرْ وجهك عنى ، فإنى لا أحبك ـ قالها عمر بما عنده من غريزة الغضب ـ فقال الرجل : أو عدم حبك لى يمنعنى حقاً من حقوقى ؟ قال : لا . قال : إنما يبكى على الحب النساء[2] ، يعنى : لا يهمنى تحب أم تكره ، المهم أن حقى محفوظ .

كذلك حب الاستطلاع غريزة ، جعلها الله فى الإنسان ليكشف بها أسراره فى الكون ، فلا تجعلها تلصُّصاً على أعراض الناس وأسرارهم .

إذن : ما جاء الدين ليكبت الغريزة أو ليقضى عليها ، إنما جاء ليعلو بها ويُهذِّبها ، ويقف بها عند حدِّ الاعتدال والمهمة التى خلقت

---

(١) عن عمرو بن العاص أنه حين جاء ليسلم قال : يا رسول الله ، إنى أبايعك على أن تغفر لى ما تقدم من ذنبى ولا أذكر وما تأخر ، فقال رسول الله ﷺ : يا عمرو ، بايع فإن الإسلام يجبُّ ما كان قبله ، وإن الهجرة تجبُّ ما كان قبلها ، قال : فبايعته ثم انصرفت . أخرجه أحمد فى مسنده (٤/١٩٩ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥) .

(٢) قد ورد فى هذا المعنى عدة روايات ، منها ما قاله عمر بن الخطاب لطليحة الأسدى : قتلتَ عكاشة بن محصن لا يحبك قلبى . قال طليحة : فمعاشرة جميلة يا أمير المؤمنين ، فإن الناس يتعاشرون على البغضاء . [عيون الأخبار لابن قتيبة ٣/٩] ونقل ابن قتيبة (٣/١١) أن بعض الخلفاء قال لرجل : إنى لأبغضك . قال : يا أمير المؤمنين ، إنما يجزع من فقد الحب المرأة ، ولكن عدل وإنصاف .

من أجلها ؛ لذلك قلنا : إن الإسلام يجمع للمؤمن فى بعض المواقف بين الشىء ومقابله كما فى قوله سبحانه : ﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ .. (٢٩)﴾ [الفتح]

ورحم الله الإمام علياً ـ رضى الله عنه ـ حين قال[1] :

لئِنْ كُنْتُ مُحتَاجاً إلى الحِلْم إنَّنى ... إلى الجَهْلِ فى بَعْضِ الأحَايينِ أَحْوَجُ
ولِى فَرَسٌ للحِلْم بالحِلْم مُلْجَم ... ولِى فَرَس للجهْلِ بالجْهلِ مُسْرَجُ
فمَنْ رَامَ تَقْويمى فَإنِّى مُقَوَّم ... ومَنْ رامَ تَعْويجى فَإنِّى مُعْوَجُ

فالشدة مطلوبة ولها موضعها ، والذلة مطلوبة ولها موضعها ، إذن : الموقف الإيمانى هو الذى يصنعك ، والمنهج إنما جعله الله لتستقيم به أمور الحياة ، فإذا كلَّفك الله بشىء يصادم شهوة فى نفسكِ ، فلا تقُلْ إن الشرع صادم شهوتى ، بل خُذْها من باب الكرم الواسع ، وقُل وصادم شهوات الآخرين من أجلى ، فالشرع حين قال لك : لا تسرق وأنت واحد قال للملايين : ألاَّ يسرقوا منك .

وحين تصطدم الفطرة السَّوية والتديُّن الطبيعى بشهوات النفس يبحث الإنسان عن تديُّن يُرضى شهواته ويُشبع غرائزه ، فهو يريد أنْ يكون متديناً ، وفى الوقت ذاته يريد ألاَّ تُقيِّد شهواته ، فماذا يفعل ؟ يلجأ إلى عبادة آلهة بلا منهج وبلا تكاليف ، ومن هنا عبد الناسُ غير الله ، ودَعْك ممن عبدوا الأشجار والأحجار ، وتأمل الذين عبدوا الملائكة مثلاً ، هل أمرتهم بشىء أو نهتهم عن شىء ؟

لذلك الحق سبحانه يقول : ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ ..

---

(١) أورد هذه الأبيات ابن قتيبة الدينورى فى كتابه « عيون الأخبار » (١/٢٨٩) ولكن عزاها لمحمد بن وهيب وليس للإمام على .

(٢٢) ﴾ [سبأ] ولو بحثنا مسألة الشركاء بالعقل لظهر بطلانها وكذبها ، فإذا كان لله تعالى شركاء ، ومعه سبحانه آلهة أخرى ، فأين هم ؟ أدرَوْا بأن الله تعالى استبدَّ بالألوهية ، وشهد بها لنفسه ، وأعلنها صراحة من دونهم ؟ إنْ كانوا على دراية بذلك ، فلماذا تركوه سبحانه يستبد بالألوهية ؟ وإنْ كانوا لم يدروا بذلك فهم آلهة نيام ، وفى كلتا الحالتين لا يستحقون هذه الألوهية .

لذلك الحق سبحانه يمسُّ هذه القضية مساً جميلاً ، فيقول : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَى ذِى الْعَرْشِ سَبِيلاً (٤٢) ﴾ [الإسراء] يعنى : لو كان صحيحاً وجود آلهة مع الله لَذَهبوا إليه ليناقشوه ، لماذا استبدَّ بالألوهية من دونهم ، أو لذَهبوا إليه ليتقوه ، وليتقربوا إليه .

وأرقى ما يعبد المشركون يعبدون الملائكة ، وكأن عبادتهم أصبحتْ قريبة من عبادة الله ، والله يقول عن الملائكة : ﴿ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ (٢٦) لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (٢٧) ﴾ [الأنبياء]

ويردُّ القرآن عليهم : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ .. (٥٧) ﴾ [الإسراء]

فهؤلاء الملائكة الذين تعبدونهم من دون الله هم أنفسهم يتقربون إلى الله ويتوسَّلون إليه ، الأقرب منهم يتوسَّل إلى الله ، ويحب أن يكون أكثر قُرْباً ، فإذا كان الأقرب هو الذى يبتغى الوسيلة والقرب ، فما بالك بالقريب ؟ وما بالك بالبعيد والأبعد ؟

إذن : أنتم أغبياء بعبادتكم الملائكة ، وهل تظنون أن خَلْقاً من خَلْق الله كالملائكة يرضى أنْ تعبدوه من دون الله ، أو يقبل أنْ يشفع لك عند الله ، هذا سَفَه فى التفكير .

فالحق سبحانه وضع شروطاً للشفاعة ، فقال : ﴿ يَوْمَئِذٍ لاَّ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَـنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً (١٠٩) ﴾ [طه]

ويقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَـٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ ۖ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ (٢٣) ﴾

قال العلماء: يُشترط للشفاعة شرط فى المشفوع له أن يكون من أهل التوحيد ، وشرط فى الشافع أنْ يُؤذن له بالشفاعة ، كما قال تعالى : ﴿ مَن ذَا الَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ .. (٢٥٥) ﴾ [البقرة] فلا يقوم الشافع فيشفع مباشرة ، إنما ينتظر أنْ يُؤذَن له بها ، وهنا يضطرب المشفوع له ويفزع ، ويكون قلقاً : يا ترى أيُؤذن للشافع ؟ أم تُرَد شفاعته ؟

لذلك يقول تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ .. (٢٣) ﴾ [سبأ] يعنى : أُزيل عنها الفزع . فالتضعيف فى (فُزِّع) أفاد إزالة الحدث المأخوذ منه الفعل ، كما نقول (مرَّضه) يعنى : أزال مرضه و (قشَّر البرتقالة) يعنى : أزال قشْرتها ... إلخ .

﴿ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ .. (٢٣) ﴾ [سبأ] أى : قال القول الحق ، وأَذِن بالشفاعة لمن ارتضى .

وقال تعالى : ﴿ وَلا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ .. (٢٣) ﴾ [سبأ] ولم يقُلْ تُقبل الشفاعة ؛ لأن هدف الشافع أن تنفع الشفاعةُ المشفوعَ له ، فإذا ما ذهب ليشفع له قال له المشفوع عنده : أنا لا أرضى أنْ تشفع

للمشفوع له ، فالذى انتفى نَفْع الشفاعة لا قبولها ، ففَرْق بين أنْ توجد الشفاعة ، وبين أنْ تنفع الشفاعة .

وفى سورة البقرة آيتان فى الشفاعة صدرهما واحد ، لكن العَجُز مختلف ، ففى الأولى : ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ (٤٨)﴾ [البقرة]

والأخرى : ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ (١٢٣)﴾ [البقرة]

وهاتان الآيتان من المواضع التى وقف أمامها المستشرقون ، وظنوا فيها مأخذاً على كلام الله ، فالمعنى واحد حتى اللفظ هو هو ، لكن فى الأولى قدَّم ﴿وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ .. (٤٨)﴾ [البقرة] وفى الأخرى قدَّم : ﴿وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ ..(١٢٣)﴾ [البقرة] وفى الأولى قال ﴿وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ .. (٤٨)﴾ [البقرة]

وهذا الاعتراض منهم نتيجة عدم الفهم عن الله ، فالآيتان تتحدثان فى الشفاعة عن نَفْسين . الأولى : النفس الشافعة . والأخرى : النفس المشفوع لها ، الشافع له موقف مع الله ، والمشفوع له ، له موقف قبل ذلك ؛ لأنه لم يأْتِ بالشافع إلا لأنه لم يقدر على إنهاء المسألة بنفسه ، فالضمير يعود فى الآية الأولى على الشافع ، وفى الأخرى على المشفوع له ، كيف ؟

المعنى هنا : لا تجزى نفسٌ شافعة عن نفس مشفوع لها ، النفس الشافعة هى التى يُقبل منها الشفاعة ، والنفس المشفوع لها هى التى تنفعها الشفاعة ، إذن : الآية الأولى تخصُّ الشافع ؛ لأنه يذهب ليشفع

فلا يُقبل منه ، فيعرض أنْ يدفع هو العدل ، ويكون كفيلاً فيما على المشفوع له ، فلا يُقبل منه أيضاً .

أما الآية الأخرى فهى فى المشفوع له ؛ لأنه يعرض أن يدفع ما عليه أولاً فلا يُقبَل منه عدل ، فيبحث عمَّنْ يشفع له .

وسُمِّيت شفاعة ؛ لأن الشَّفْع يقابل الوتر ، وصاحب الحاجة الذى يطلب الشفاعة واحد ، فإذا انضم إليه الشافع ، فهما اثنان يعنى : شفع .

ثم يقول سبحانه فى ختام الآية : ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٢٣)﴾ [سبأ] علىٌّ أنْ يُناقَش فى أى قرار يتخذه ، وكبير يعنى أكبر من الشافع ، وأكبر من المشفوع له . فالحق سبحانه قال الحقَّ ونطق به ، وهذا يعنى أنه وقف بجانب الحق ، فلم يعبأ بشافع مهما كانت منزلته ، ولا بمشفوع له مهما كانت ذِلَّته ورِقَّته ؛ لأنه سبحانه هو العلىُّ الكبير .

وبعد ذلك يعود الحق سبحانه إلى مناقشة المسألة مناقشة عقلية ، فيقول :

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ قُلِ اللَّهُ ۖ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٢٤)﴾

أى : قُلْ لهم يا محمد : مَنْ يرزقكم من السموات والأرض ؟ لكن إذا كان محمد هو المستفهم منهم ، فمَنْ يجيب ؟ بالطبع هم لن يجيبوا ؛ لذلك أجاب الله (قل الله) فهذه حقيقة لا يستطيعون مجابهتها ، ولو اعترفوا بها لَقُلْنا لهم إذن : لماذا لم تؤمنوا بالله وهو رازقكم ؟

أيليق بكم أنْ تكفروا به وهو الرازق ، وتؤمنوا بآلهة أخرى لا تنفعكم ولا تضركم ؟ فاعترافهم بهذه الحقيقة يلزمهم الحجة ، ويقيم عليهم الدليل على سَفَه تفكيرهم ، وكأن الحق سبحانه أراد أنْ يُعفيهم من هذا الحرج ، فأجاب بدلاً منهم .

والحق سبحانه يسألهم هذا السؤال ؛ لأن الإجابة لن تكون إلا على وَفْق مراده سبحانه وتعالى ، كما لو اشتريتَ مثلاً (بدلة) لشخص ما وفى موقف من المواقف أنكر جميلك ، فتقول له : مَن الذى اشترى لك هذه (البدلة) ؟ أنت لا تسأل هذا السؤال إلا وأنتَ واثق أن الإجابة ستكون فى صالحك ، وأنه لا يستطيع الإنكار ، فلو أنكر ستقول له : تعال إلى التاجر الذى اشتريتها منه لنرى مَنِ الذى اشتراها ، فأنت إذن تملك إقامة الدليل عليه إنْ أنكر .

وقوله سبحانه وتعالى : ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٢٤)﴾ [سبأ]

الهدى : هو الدلالة على الخير والطريق إليه ، والضلال : أنْ تضلَّ عن الخير والدلالة إليه ، ومنه قوله تعالى : ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ (٧)﴾ [الضحى]

والهدى والضلال من المتناقضات فى الدين ، والمتناقضان لا يجتمعان أبداً ، فلا بُدَّ أنْ يكون واحد على هدى والآخر على ضلال . كثيرون لا يفهمون الفرق بين الضد والنقيض ، الضد شىء يضادّ شيئاً ، لكن لا ينفيه ، كما تقول مثلاً : الشىء الفلانى أحمر أم أخضر ؟ فيقول لك : لا أحمر ولا أخضر إنما أبيض ، إذن : الضِّدان لا يجتمعان وقد يرتفعان معاً ، لا هذا ولا هذا ، بل شىء آخر . أما النقيضان فإنِ ارتفع واحد ثبتَ الآخر ، كما هنا فى الهدى والضلال .

فمعنى ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٢٤)﴾ [سبأ] إنْ كان أحدنا على الهدى فلا بُدَّ أنْ يكون الآخر فى الضلال ، ولا ثالث لهما ، والحديث هنا عن منهج خير فى جانب الإيمان ، ومنهج شرٍّ فى جانب الكفر ، فرسول الله يقول لهم : نحن وأنتم على طرفى نقيض ، نحن نقول لا إله إلا الله وندعو إلى الخير ، وأنتم تكفرون بالله وتدعون إلى الشر ، ومع ذلك لا أحكم لى بالهدى ، ولا عليكم بالضلال ، بل أقول : أنا وأنتم على النقيض ، إنْ كان أحدنا على الهدى فالآخر فى الضلال .

بالله عليكم ، هل رأيتم حِجَاجاً أرقّ من هذا الحِجَاج ؟ فرسول الله لم يحكم لنفسه وللمؤمنين معه بالهدى رغم وضوحه فى جانبهم ، ولم يحكم على الكفار بالضلال رغم وضوحه فى جانبهم ، ومثال ذلك ، لو حلف رجلان على شىء واحد أمام رجل أعمى أيقول لواحد : أنت صادق ، وللآخر أنت كاذب ؟ لا ، بل يقول : واحد منكما صادق ، والآخر كاذب ، فهذا حكم أوَّلى لا يُلزم أحداً .

لكن ، حين تبحث القضية يتضح لك مَنْ على هدى ومَنْ فى ضلال ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٢٤)﴾ [سبأ] كلمة ﴿لَعَلَىٰ هُدًى .. (٢٤)﴾ [سبأ] على تفيد الاستعلاء ، كأن الهدى لا يستعلى عليك ، وإنما تستعلى أنت على الهدى وتكون فوقه ، كأنه مطية تُوصِّلك للخير المطلوب وللطريق المستقيم ، فساعةَ تقرأ (عَلَى) فاعلم أن هناك مكاناً عالياً ، وهناك ما هو دون هذا .

وتأمل مثلاً قوله تعالى : ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ .. (٦)﴾ [الرعد] فالمغفرة تعلو الظلم ؛ لأن الظلم يقتضى أنْ تُعاقب ، فتأتى المغفرة فتعلو عليه وتمحو أثره ، وبعض المفسرين يرى أن

(على) هنا بمعنى (مع) أى مع ظلمهم[١] ، والمعية لا تستقيم هنا ؛ لأنها تسوِّى بين الظلم والمغفرة وتجعلهما سواء ، فكيف تتغلب المغفرة على الظلم بهذا المعنى ؟ إذن : لا بُدَّ أن تكون المغفرة على الظلم ، لا مع الظلم .

كذلك فى قوله تعالى : ﴿الْحَمْدُ للَّه الَّذى وَهَبَ لى عَلَى الْكِبَرِ إسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ .. (٣٩)﴾ [إبراهيم] فقال ﴿عَلَى الْكِبَرِ .. (٣٩)﴾ [إبراهيم] لأن الكِبَر كان يمنعه أنْ ينجب ، فالحق سبحانه خرق له هذه القاعدة ، وأعطاه إسماعيل وإسحاق على كِبَره[٢] ، وقلنا : إن الكِبَر هو أقوى الأحداث التى يتعرَّض لها الإنسان ؛ لذلك قال سيدنا زكريا عليه السلام : ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ منَ الْكِبَرِ عتيًّا (٨)﴾ [مريم]

والعُتُو يعنى : الجبروت والقوة ، أما الكِبَر فضعْف وهُزَال وعدم قدرة على أبسط الأشياء مهما قاومه بالغذاء وبالفيتامينات ، فلا شىء يَقْوى عليه أو يمنعه ؛ لذلك إذا تعددتْ الداءات فى الجسم فلا مرجع لها إلا الكِبَر ، والإنسان بعد سنِّ السبعين والثمانين يشتكى كل شىء فى جسمه ؛ لذلك يسمونها أمراض الشيخوخة . يعنى : لا سببَ لها إلا كِبَر السن .

إذن : نقول ﴿لَعَلَىٰ هُدًى .. (٢٤)﴾ [سبأ] أى : أن الهدى سيكون مطيتك التى توصلك إلى الجنة وإلى النعيم ، أما الضلال فقال ﴿فِى ضَلالٍ .. (٢٤)﴾ [سبأ] وكأنها ظلمة تحيط بالضالِّ وهو يتخبط فيها ،

---

(١) ذكره جمال الدين بن هشام الأنصارى فى كتابه « مغنى اللبيب » (١/١٢٦) أن على تأتى حرفاً بمعنى « المصاحبة كمع نحو ﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ .. (١٧٧)﴾ [البقرة] ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ .. (٦)﴾ [الرعد] » .

(٢) قال ابن عباس : كان إبراهيم ابن تسع وتسعين سنة عندما وُلد له إسماعيل ، وجاءه إسحاق وهو ابن مائة واثنتى عشرة سنة [تفسير القرطبى ٥/٣٧١٣] فبين إسماعيل وإسحاق ١٣ عاماً .

لا يدرى أين يذهب ، ومعنى ﴿مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ [سبأ] واضح بيِّن .

﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾

هذا تلطف آخر وارتقاء فى حجَاج الكفار يُظهِر مدى حرص سيدنا رسول الله ﷺ على أنْ يستلَّ الضغينة من نفوس الكفار ، وتأمل : ﴿لاَّ تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا .. ﴿٢٥﴾﴾ [سبأ] فيجعل رسول الله الإجرام فى جانبه هو ولم يُسَوِّ هذه المرة بين الطرفين ، كما قال هناك ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ .. ﴿٢٤﴾﴾ [سبأ] إنما وصف فعْله بالإجرام وقال عن الكفار ﴿وَلا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [سبأ] ولم يَقُلْ تجرمون .

وفى الآية دقيقة أخرى ، هى ورود (أَجْرَمْنَا) بصيغة الماضى ، كأن الإجرام حدث بالفعل ، أما هم فورد الفعل (تَعْلَمُونَ) بصيغة المضارع ؛ ليدل على أنه لم يحدث منهم بعد ، وهذا تلطف آخر ، وارتقاء فى النقاش ، وتودُّد إلى الخَصْم علَّه يرعوى ، فيفرح الله بتوبته وعودته إلى رحابه .

وهذا الأسلوب الجدلى فى الآيتين لا يتأتَّى إلا من المجادل القوى الحجة الذى لا تنزله عنها زَلَّة سابقة من خَصْمه . ومثل ذلك قولنا فى المناقشة : سلَّمنا جدلاً بكذا وكذا ، ونرضى لأنفسنا بالأقل ، لماذا ؟ لأنك تعلم أنك على الحق ، وقوة الجدل لديك تجعلك على ثقة بأن البحث فى المسألة سينتهى لصالحك .

لكن ، مع ذلك كيف يأمر الحق سبحانه نبيه ﷺ أنْ ينسب الإجرام إلى نفسه ؟ قالوا : لأن الجُرْم يختلف باختلاف المخاطب به ، كما قالوا : حسنات الأبرار سيئات المقربين .

ثم تنتهى الآيات إلى خلاصة هذه القضية فى قوله تعالى :

﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ (٢٦) ﴾

المعنى : لن نطيل معكم النقاش والحجة ؛ لأننا نتكلم بالحق وأنتم تتلاعبون بالباطل ، فالخلاصة معكم أنْ يفصل اللهُ بيننا وبينكم فى محكمته الإلهية ﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا .. (٢٦) ﴾ [سبأ] أى : يوم القيامة ﴿ ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ .. (٢٦) ﴾ [سبأ] أى : يحكم ويقضى ، وفى بعض بلادنا حتى الآن يقولون للقاضى : الفتاح ﴿ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ (٢٦) ﴾ [سبأ] أى : الذى يحكم عن علم كامل ، ولا تَخْفى عليه خافية .

وسُمِّى الحكم فَتْحاً ؛ لأنه يفتح شيئاً عن شىء ويحدث فُرْجة بينهما ، فكأنهما كانا متشابكين ، بحيث يلتبس الحق بالباطل ، وكأنها معركة ، فيأتى الحكم فيفضُّ هذا الاشتباك ، وفَضُّ الاشتباك هذا هو الفتح ، ولا يفتح بين الحق والباطل إلا الله .

﴿ قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٧) ﴾

الحق سبحانه يأمر نبيه ﷺ : قُلْ لهم : أرونى الذين أشركتم مع الله ، وهو ﷺ يراهم بالفعل ، يرى أصنامهم التى يعبدونها من دون الله ، فما فائدة ﴿ أَرُونِي .. (٢٧) ﴾ [سبأ] ؟ قالوا : لأنه حين يطلب منهم هذا المطلب يعلم أنهم يَسْتحون أنْ يشيروا إليها ، ولا يجرؤون على ذلك ؛ لأنهم يعلمون أنها أحجار صمَّاء ، لا تضر ولا تنفع .

ومعنى ﴿أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاءَ .. (٢٧)﴾ [سبأ] من الإلحاق ، وهو أنْ تأتى بشىء جديد تُلحقه بشىء ثابت ، فكأن ألوهية الله هى الألوهية الحق الثابتة ، وآلهتهم الجديدة طارئة عليها ، ليست أصيلة ، فالإيمان ثابت وأصيل وفطرىٌّ فى النفس الإنسانية ، أما هذه الآلهة فمُحْدثة طارئة باطلة ، لذلك ينفيها بقوله ﴿كَلاَّ .. (٢٧)﴾ [سبأ]

ثم يُضرب عن هذا الكلام السابق ليثبت الألوهية لله وحده ﴿بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٧)﴾ [سبأ] و (بل) تفيد الإضراب عما قبلها وإثبات الحكم لما بعدها ، فالإله الحق هو الله .

وفى موضع آخر ، يناقشهم الحق سبحانه : ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا .. (٢٢)﴾ [الأنبياء] ونعلم من دراساتنا النحوية أن (إلاَّ) أداة استثناء ، تفيد إخراج ما بعدها من حكم ما قبلها ، وأن المستثْنَى بعدها منصوب ، كما نقول : حضر الطلاب إلا محمداً .

فلو طبَّقْنا هذه القاعدة على هذه الآية لكَان المعنى : لو كان فيهما آلهة خارج منها الله لَفَسدتا ، لكن لو كان فيهما آلهة والله معهم لم تَفْسدا ، هكذا منطق الآية إذا أُخذَتْ (إلاَّ) على أنها أداة استثناء للإخراج ، إنما (إلا) هنا ليست حرفَ استثناء ، بل هى اسم بمعنى (غير)[1] ، بدليل أن ما بعدها وهو لفظ الجلالة مرفوع وليس منصوباً على الاستثناء ، فالمعنى : لو كان فيهما آلهة غيرُ الله لفسدتا .

وقوله : ﴿بَلْ هُوَ اللَّهُ .. (٢٧)﴾ [سبأ] جاء هنا أيضاً بضمير الغيبة (هُوَ) ، ومعلوم أن ضمير الغيبة لا يأتى إلا إذا سبقه مرجع ، تقول : جاءنى على فأكرمتُه ، إلا مع الله سبحانه وتعالى ، فإن هو تسبق المرجع ﴿بَلْ هُوَ اللَّهُ .. (٢٧)﴾ [سبأ] لماذا ؟ قلنا : لأنه ضمير لا ينصرف إلا لغائب واحد هو الموجود الأعلى سبحانه .

---

(١) ولما كانت إلا بمعنى غير أُعْرب الاسم الذى بعدها (اللهُ) إعراب غيرٍ فرفع .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾

معنى ﴿أَرْسَلْنَاكَ .. ﴿٢٨﴾﴾ [سبأ] أى : جعلناك رسولاً ﴿إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ .. ﴿٢٨﴾﴾ [سبأ] كلمة كافة تبين منزلة الرسول الخاتم ، فقبل بعثة سيدنا رسول الله كان الرسول يُبعث لقوم مخصوصين ، كما قال سبحانه وتعالى : ﴿وَرَسُولاً إِلَىٰ بَنِى إِسْرَائِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ .. ﴿٤٩﴾﴾ [آل عمران]

ذلك ، لأن البشر لما تكاثروا كما قال سبحانه : ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً .. ﴿١﴾﴾ [النساء] تفرَّقوا فى أنحاء الأرض هنا وهناك ، والعالم لا يزال فى طفولة فطرته ، ليس فيه ارتقاءات للقاء بين هذه الجماعات ، فكانت جماعات منعزلة ، لا اتصال بينها ، ولكل بيئة منها داءاتها : فهؤلاء يُطفِّفون الكيل والميزان ، وهؤلاء يعبدون الأصنام ... إلخ فيأتى الرسول إلى قوم مخصوصين ليعالج داءهم لا علاقة له بغيرهم .

أما سيدنا رسول الله ، فكان هو الرسول الخاتم المبعوث للناس كافّة ؛ لأن الله تعالى عَلِمَ أزلاً أنه سيأتى على التقاء مع الدنيا كلها ، وعلى اتصال بين الجماعات التى كانت مُتفرِّقة ، وها نحن الآن نعيش عالم القرية الواحدة ، وما يحدث فى أقصى بلاد الدنيا نسمعه ونراه فى وقته ، وما دام العالم التقت مجتمعاته وقاراته ، فالداءات واحدة ؛ لذلك جاء رسول واحد ليعالج كل الداءات فى كل المجتمعات ، هذا

معنى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ .. (٢٨) ﴾ [سبا]

ومعنى أنه ﷺ خاتم الرسل أنه مشهود له ، وليس شاهداً لغيره ، فقد أخذ الله تعالى العهد على الرسل ، أنه إذا جاء محمد يشهدون له فشهدوا له جميعاً ، أما هو ﷺ فلم يشهد لأحد ؛ لأنه لم يأتِ بعده رسول .

قال العلماء فى كلمة ﴿ كَافَّةً .. (٢٨) ﴾ [سبا] يعنى : للناس جميعاً ، ففى موضع آخر يقول تعالى : ﴿ قُلْ يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّى رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا .. (١٥٨) ﴾ [الأعراف]

يعنى : لم تَعُدْ هناك خصوصية ، لا زمانية ولا مكانية . وحين نتأمل كلمة ﴿ كَافَّةً .. (٢٨) ﴾ [سبا] نجد لها مناسبة فى واقع لغتنا ، استقر على ألسنة العامة : نشاهد الخياط مثلاً حين يخيط ثوباً يُعمل المقصَّ فى القماش ، فيقطعه إلى لُحمة وسُدة ، لكن تخرج خيوط الثوب من خلال أطرافه كما نقول القماش (بينسِّل) فيجمع الخياط هذه الأطراف بعضها إلى بعض ، بحيث تكون أطراف القماش إلى الداخل ، وهذه العملية نسميها (كفكفة) القماش ، أو نسميها الآن (السَّرْفلة) .

ومن ذلك كلمة (كَافَّة) يعنى : جَمْع شتات الناس فى كل زمان ومكان ، بحيث لا يخرج منهم جنس ولا جماعة ، ولا يشذّ عن منهجه أحد .

وعندنا فى الفلاحين نبات ينمو على حوافِّ القنوات اسمه النجيل ، وهو غير الحشيش المعروف ، والنجيل لا يرتفع عن سطح الأرض ، وتتشابك عيدانه وجذوره بحيث يمنع هذه الحوافّ أن تنهار ، أو يسقط منها الردم فيسدّ القناة ، فكأن النجيل أدى مهمة هى كفّ

الردم ومنعه أنْ ينهار يعنى : كفّ جنساً أن يشرد عن مهمته .

وكلمة ﴿كَافَّةً .. (٢٨)﴾ [سبأ] من كفّ الشىء يكُفُّه ، فهو كافٌّ ، وزيدت تاء التأنيث للمبالغة ، كما فى عالم وعلاَّم وعلاَّمة ، لذلك يقول ربنا عن نفسه سبحانه : ﴿عَلاَّمُ الْغُيُوبِ (٧٨)﴾ [التوبة] فإنْ قُلْتَ : لماذا لم يَقُلْ علاَّمة ؟ نقول : لأن علْم الله تعالى لا يترقى بلاغة وقلَّة .

فمعنى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ .. (٢٨)﴾ [سبأ] يعنى : تكفُّهم وتمنعهم عن كل شر يفسد الصلاح فى الأرض ، وهذه هى مهمة المنهج الذى جاء به سيدنا رسول الله ؛ لذلك قال سبحانه : ﴿وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا .. (٥٦)﴾ [الأعراف]

إذن : كلمة ﴿كَافَّةً .. (٢٨)﴾ [سبأ] إما وَصْف للناس بمعنى جميعاً ، وإما وَصْف لرسول الله بمعنى كافٌّ للناس عن الشر ، والتاء للمبالغة .

ومعنى ﴿بَشِيراً وَنَذِيراً .. (٢٨)﴾ [سبأ] من البشارة ، وهى أنْ تخبر بخير لم يَأْتِ أوانه بعد ، ويقابلها النذارة ، وهى أن تخبر بشرٍّ لم يأْتِ أوانه بعد ، فمَيْزة البشارة أنها تخبرك بالخير القادم لك لتأخذ بأسبابه وتُقبل عليه وتجتهد فى سبيله ، وأنت مشتاق إليه ، كذلك النذارة تحذرك من الخطر المقبل لتنصرف عن أسبابه وتدفعه عنك .

ومثال ذلك : المعلم الذى يُبشِّر التلميذ المجتهد بالنجاح والتفوق ، وينذر المهمل بالفشل والرسوب ، لماذا ؟ لأنه يريد من المجتهد أنْ يزيد فى اجتهاده ، ومن الكسول المهمل أنْ يترك الكسل والإهمال ليتفوَّق هو الآخر .

وقوله سبحانه : ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٢٨)﴾ [سبأ] أى :

لا يعلمون أنك الرسول الخاتم ، أو الرسول الذى جاء ليمنع الشر عن البشرية كلها ويصلح حركتها . وما دام أكثر الناس لا يعلمون ، فمعنى ذلك أن القلة هى التى تعلم ، وهذه القلة العالمة هى خميرة الخير فى الوجود ؛ لذلك نرى الناس مهما بالغوا فى الإلحاد ، وفى الخروج عن منهج الحق لا بُدَّ أن تخرج من بينهم هذه القلة التى تتمسك بالحق وتسعى إليه وتنادى به ، فهى موجودة فى كل زمان ومكان وإنْ قَلَّتْ

لذلك يقول سيدنا رسول الله ﷺ : « الخير فىَّ وفى أمتى إلى يوم القيامة »[1] .

إذن : لا بُدَّ أنْ تبقى فينا هذه القلة كنماذج وخليّات للخير ، ولاستبقائه بين الناس مهما أظلمتْ الدنيا من حولهم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

المتأمل فى كتاب الله يجد الحق - سبحانه وتعالى - لم يجعل القرآن أبواباً منفصلة ، هذا للصلاة ، وهذا للزكاة ، وهذا للربا ... إلخ إنما يخلط هذه الأحكام فى نسق رائع ، ومزيج مشوِّق ، يراوح بين الأساليب ، فلا يملُّ منه قارئه ، ولا يزهد فيه .

القرآن ليس كتابَ قانون ، يُفرد فصلاً لكل جريمة ، إنما يتناول

---

(١) قال ابن حجر العسقلانى : لا أعرفه ، ولكن معناه صحيح . ذكره القارى فى « الأسرار المرفوعة » (٤٥٧) وكذا السيوطى فى « الدرر المنتثرة » (٢٠) ، والعجلونى فى كشف الخفاء (١/٤٧٦) .

الجريمة بأسلوب فريد ، فيذكر الجريمة ويُفظِّعها ويبين أثرها ، حتى إذا ما قرر العقوبة عليها تجد هذه العقوبة طبيعية تتقبلها النفوس ؛ لأن صاحب العقوبة يستحقها .

يقول تعالى حكاية عن الكافرين : ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا الْوَعْدُ .. (٢٩)﴾ [سبأ] والوعد لا يكون إلا بالخير ، والوعيد يكون بالشر ، وعجيب أنْ يسمى الكفار القيامة وَعْداً ، فكان ينبغى أنْ يقولوا متى هذا الوعيد ، أو : أن الله تعالى لوى ألسنتهم ليقولوا كلمة الحق ، فهو بالفعل وَعْد حق من الله ، وإنْ كان فى حقهم وعيداً .

والوعد من الله فيه أشياء كثيرة ، خاتمته البعث والحساب ، ثم الجنة أو النار . لكن هل وَعْد الله لا يتحقق إلا فى الآخرة ؟ قالوا : لا بل يروْنَ شيئاً منه فى الدنيا ، وإلا لو تركهم الله سالمين إلى أنْ يعاقبهم فى الآخرة لاستشرى فسادهم ، ولَعربد غير المؤمنين دون رادع لهم .

لذلك من حكمته تعالى أن يُعجِّل لهم شيئاً من وعده ، فيروْنَه فى الدنيا ، كما قال تعالى : ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥)﴾ [القمر] وفعلاً ، جاء يوم بدر وهزمهم الله ، وقُتل منهم مَنْ قُتل ، وأُسر منهم مَنْ أُسر ، فكما صدقت فيهم المقدمات ، فسوف تصدق المتواليات فى الآخرة .

لذلك يخاطب الحق نبيه ﷺ بقوله : ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٧٧)﴾ [غافر]

فمَنْ لم يتحقق فيه وَعْد الله فى الدنيا وتشاهده بعينيك ، فموعده الآخرة ، وإلا فهناك من الكفار مَنْ مات قبل بدر ، ولم يشهدوا انتصارات المسلمين وفتوحاتهم ، ولم ينَلْهم شىء من عقاب الدنيا .

وقولهم : ﴿مَتَىٰ هَـٰذَا الْوَعْدُ .. (٢٩)﴾ [سبأ] استبطاء للعذاب .

ثم يأمر الله تعالى نبيه أنْ يرد عليهم : ﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لاَّ تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلا تَسْتَقْدِمُونَ (٣٠)﴾ [سبأ] هو يوم النصر عليهم ، كما فى يوم بدر ، حيث أذاقهم الله الذلة والهوان والموت ، وقَضى على جبروتهم ، أو هو يوم القيامة .

والذى ضرب لكم هذا الميعاد هو القادر على إنفاذه ، وليست هناك قوة تمنعه سبحانه أنْ يفى بما وعد ، أو حتى يُؤخِّره لحظة واحدة ، وهو سبحانه العليم بأن الآيات الكونية لا تشذّ عما أراد سبحانه .

وسبق أنْ بينَّا أن البشر حين يَعِدُون لا يملكون أسباب الوفاء بوعودهم ، لذلك علَّمنا ربنا ـ عز وجل ـ أنْ نحتاط لذلك ؛ فقال سبحانه : ﴿وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا (٢٣) إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ .. (٢٤)﴾ [الكهف]

لأن الله يحب لعبده أن يكون صادقاً ، فحين يعلق فِعْله على مشيئة الله يُعفى نفسه من الكذب وإخلاف الوعد حين عدم الوفاء خاصة ، وهو لا يملك عنصراً واحداً من عناصره ، إذن : اطرح المسألة على مَنْ يملك كل هذه العناصر ؛ لذلك نُسمِّى الوعد من الناس وَعْداً ومن الله الوعد الحق يعنى : الذى لا يتخلف أبداً .

ومعنى ﴿لاَّ تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلا تَسْتَقْدِمُونَ (٣٠)﴾ [سبأ] أنه : ميعاد مضبوط ، وكأن الحق سبحانه يريد بذلك أنْ يستقبل الإنسانُ كلَّ المعطيات التى منحه الله ، وأنْ تظل دائماً فى ذهنه لا يغفل عنها .

وجاء (يَوْمٍ) نكرة مبهمة ، والإبهام هنا هو عَيْن البيان ، كما

سبق أنْ أوضحنا ، فحين يبهم اللهُ مثلاً أجلَ الإنسان يظل دائماً متذكراً له ، ينتظره فى أى وقت ، ويتوقعه فى كل نفَس ، وفى كل لحظة دون أنْ يربطه بمرض أو غيره ، فالموت من دون أسباب هو السبب .

ثم يقول الحق سبحانه : (١)

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ (٢) وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ ﴾

قولهم ﴿ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا الْقُرْآنِ .. ﴿٣١﴾ ﴾ [سبأ] يدل على لجلجتهم ، ففى موضع آخر حكى القرآن عنهم قولهم : ﴿ لَوْلا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾ [الزخرف] ومعنى هذا أن القرآن لا غُبارَ عليه ولا اعتراضَ ، الاعتراض على مَنْ نزل عليه القرآن ، كذلك من الغباء قولهم : ﴿ إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا .. ﴿٥٧﴾ ﴾ [القصص] فاعترفوا أنه جاء بالهدى .

ومثله قولهم : ﴿ لا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ .. ﴿٧﴾ ﴾ [المنافقون]

---

(١) يريد كفار قريش . وقال ابن جريج : قائل ذلك هو أبو جهل بن هشام . ذكره القرطبى فى تفسيره (٨/٥٥٧١) .

(٢) قال القرطبى فى تفسير الآية (٨/٥٥٧١) : « قيل : إن أهل الكتاب قالوا للمشركين صفة محمد فى كتابنا فسلوه ، فلما سألوه فوافق أهل الكتاب قال المشركون : لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذى أنزل قبله من التوراة والإنجيل بل نكفر بالجميع وكانوا قبل ذلك يراجعون أهل الكتاب ويحتجون بقولهم ، فظهر بهذا تناقضهم وقلّة علمهم » .

صحيح ، الباطل لجلج ، يتخبط هنا وهناك فى تفكير مُشوّش ليس له سيال واحد ، وهذا التخبط يكشف ما هم عليه من الباطل ، وقلنا : إن المحقق الماهر هو الذى يصل إلى الحقيقة من خلال مناقشة المتهم مناقشة تُوقعه دون أن يدرى ، ذلك لأن المتكلم بالحق يحكى واقعاً على هيئة واحدة ، فمهما أعدْتَ عليه السؤال يُجِب إجابة واحدة .

أمّا الكاذب فلا يحكى واقعاً ، إنما يحكى كذباً واختلاقاً لا بُدَّ أن ينتهى بتضارب فى أقواله ، كالكذاب الذى جاء يحكى للناس يقول : رجعت من (البندر) ليلة العيد الصغير ، وكانت الدنيا (قمر ظهر).

وقديماً ، قال العربى : إنْ كنتَ كذوباً فكُنْ ذكوراً . يعنى : تذكر ما سبق أنْ قُلْته ، ذلك لأنه لا يستند إلى واقع .

ومعنى ﴿ وَلا بِالَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ .. (٣١) ﴾ [سبأ] يعنى : الكتب السابقة على القرآن كالتوراة والإنجيل .

بعد أن قالوا هذا الكلام أراد الحق سبحانه أن يُفظع الرد عليهم فقال : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ .. (٣١) ﴾ [سبأ] يعنى : يا محمد ﴿ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ .. (٣١) ﴾ [سبأ] يعنى : بين يدى الله ، ينتظرون الفصل والحساب .

تعلمون أن (لَوْ) أداة شرط تحتاج إلى جواب ، هذا الجواب حُذف من سياق الآية ليدلَّ على التهويل والتفظيع . وتقديره : ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم .. لرأيتَ أمراً عظيماً ، وهذا الأسلوب تذهب فيه النفس كلَّ مذهب ، وتتصور ألوان العذاب والذلة التى يعانيها الكفار فى هذا الموقف بين يدى الله عز وجل ، فحَذْف الجواب هنا أبلغ من ذِكره .

كنا نرى (زمان) الرجل الظالم أو المتجبر أو (البلطجى) الذى يجلس طوال النهار على القهوة ، والناس تخدمه ، وتقضى له حاجته اتقاء شره ، لكن ساعة يقع فى أيدى العدالة وتأخذه الشرطة ، وأنتم تعلمون ما تفعله الشرطة بالمجرمين ، ساعتها يفرح الناس فيه ويتندَّرون به : لو رأيتم ما حدث لفلان ؟ يعنى : حدث له أمر عظيم يناقض جبروته الذى كان يمارسه على الناس ويكسر شوكته .

إذن : حُذف الجواب لنأخذه نحن على المحمل المخيف ؛ لأنه لو حكى واقعاً لجاء على لون واحد وهيئة واحدة .

لذلك ؛ وقف المستشرقون معترضين على قوله تعالى فى وصف شجرة الزقوم : ﴿ طَلْعُهَا [1] كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ (٦٥) ﴾ [الصافات] يقولون : نحن لم نر شجرة الزقوم ، ولم نَرَ رؤوس الشياطين ، فكيف يُشبِّه القرآن مجهولاً بمجهول ؟

نعم ، ينبغى فى التشبيه أنْ تُشبِّه المجهول بالمعلوم ، والخفى بالجلى ، لكن هؤلاء يحاولون تصيُّد أخطاء أو مآخذ على كتاب الله ، وهيهات لهم ذلك ، وكل اعتراضاتهم على كلام الله تأتى من عدم فَهْم للآيات وعدم وجود الملَكة العربية وعدم الإلمام بلغة القرآن وأساليب العرب ، فهذا النهج فى التشبيه نهجه العربى القديم حين قال[2] :

---

(١) الطلع : نَوْر النخلة الذى هو أصل ثمارها ويكون صغير الحجم أبيض منظماً منضوداً . [القاموس القديم (١/٤٠٥)] قال ابن كثير فى تفسيره (٤/١٠) : « هذا تبشيع لها وتكريه لذكرها . قال وهب بن منبه : شعور الشياطين قائمة إلى السماء ، وإنما شبهها برءوس الشياطين لأنه قد استقر فى النفوس أن الشياطين قبيحة المنظر » .

(٢) هو : امرؤ القيس بن حجر بن الحارث الكندى ، شاعر جاهلى ، أشهر شعراء العرب ، يمانى الأصل ، مولده بنجد عام ١٣٠ ق . هـ ، كان أبوه ملك أسد وغطفان ، قال الشعر وهو غلام ، جعل يُشبب ويلهو ويعاشر صعاليك العرب فأبعده أبوه إلى حضرموت وهو فى نحو العشرين من عمره ، طاف قبائل العرب بعد أن طلبه المنذر ملك العراق ، حتى ولاه قيصر الروم إمارة فلسطين ، فرحل إليها ، ولما كان بأنقرة ظهرت فى جسمه قروح ، فأقام فيها إلى أن مات عام ٨٠ ق . هـ عن ٥٠ عاماً . [الموسوعة الشعرية – المجمع الثقافى ٢٠٠٣ - CD].

أَيَقْتُلنى والمشْرَفىُّ مُضَاجِعى ومَسنُونة زُرْق كـأنياب أَغْوالِ[1]

هكذا رأى العربى القديم أن أسنَّة الرماح كأنياب الأغوال ، فهل رأى أحد الغول ؟ إذن : القرآن عربى ، وخاطب العربَ بأساليبهم ، فيكفى لتبشيع الصورة أن تحاول أنت أنْ تتخيل صورة الغول أو صورة الشيطان لتذهب نفسُك فى بشاعتها مذاهب شتَّى مخيفة مُفْزعة ، بدليل أننا إذا قلنا لرسامى الكاريكاتير فى العالم كله : ارسموا لنا صورة الشيطان ، فسوف يرسمها كل واحد منهم حَسْب رؤيته هو ، وستأتى صور مختلفة بعضها عن بعض ؛ لأن أحداً منهم لم يَرَ الشيطان ، إنما تخيَّله .

تُرَى ، لو حدد القرآن شكل شجرة الزقوم وقال لك : إنها مثل كذا أو كذا ، أيعطيك هذا التشبيه بشاعة أكثر مما أعطتْكَ رؤوس الشياطين ؟ هكذا ربَّبَ الحق سبحانه هذا المعنى .

ثم تستمر الآية فى وصف موقف هؤلاء الظالمين بين يد الله تعالى، ويا ليتها تنتهى عند الذلة والانكسار ، إنما ﴿ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ ﴿٣١﴾ ﴾ [سبأ] يعنى : يتجادلون ويتناقشون ، يرمى كل منهم باللائمة على الآخر ، ومعنى (يرجع) من المراجعة ، فواحد يقول ، والآخر يردُّ كلامه ويُنكره ، وفى القرآن مواضع كثيرة تحكى هذه المراجعة بين الأتباع والمتبوعين ، وهنا نموذج منها :

﴿ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا ﴿٣١﴾ ﴾[سبأ] يعنى : الضعفاء والمقلدين ﴿ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا ﴿٣١﴾ ﴾[سبأ] وهم السادة الكبار المتبوعون ﴿ لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ ﴾[سبأ] فيكفى من عظمة القيامة أنْ يقف المستضعف

---

(١) البيت من بحر الطويل . ذكره له ابن سلام الجمحى فى « طبقات فحول الشعراء » ، وياقوت الحموى فى « معجم الأدباء » .

أمام القوى ويراجعه ويواجهه - مع أن كلاهما خائب خاسر - ذلك لأن الضعف كان فى الدنيا والاستكبار والتبعية ، أما الآن وفى ساحة الحساب فقد تساوتْ الرؤوس ، وها هم الضعفاء يقولون لأسيادهم ﴿ لَوْلا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ (٣١) ﴾ [سبأ]

وما دامت المسألة مراجعة ، كُلٌّ يُرجِع إلى الآخر قوله ، فلا بُدَّ أنْ يرد الذين استكبروا ، وأنْ يراجعوا الذين استُضْعِفوا .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ (٣٢) ﴾

يرد الذين استكبروا : ﴿ أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ (٣٢) ﴾[سبأ] يعنى : ما منعناكم عن الهدى ، وما حُلْنَا بينكم وبين الإيمان ﴿ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ (٣٢) ﴾ [سبأ] يعنى : بطبيعتكم ، فقد وجدتم طريقنا سهلاً ، وعبادتنا لا تكليف فيها ولا مسئولية ، ليس فيها صوم ولا صلاة ولا زكاة ، ولو فكرتم وأعملتُم عقولكم ما تبعتمونا .

وهذا هو نفسه منطق الشيطان حين يناقش أولياءه يوم القيامة ، ويقول لهم : ﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ (٢٢) ﴾ [إبراهيم]

الفعل أصرخ يُصرخ فهو مُصرخ ، اسم فاعل للذى يصرخ ويستجير بغيره لينقذه من أمر فوق طَاقته وإمكاناته ، فإنْ أنقذه

يُقال : أصرخه يعنى : أزال صراخه والمفعول منه مُصْرَخ به ، والمعنى فى قول الشيطان : إننى لا أستطيع أن أزيل صراخكم ، وأنتم لا تستطيعون أن تزيلوا صراخى ، فالمسألة انتهت ، ولا ينفع أحداً ولا ينقذه إلا عمله الصالح .

ثم يردُّ الذين اسْتُضْعِفوا ويُرجِعون القول إلى الذين استكبروا مرة أخرى ، يقولون :

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ[1] لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَـٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾﴾

هذا استمرار فى المراجعة والحوار ، كُلٌّ يلقى بالمسئولية على الآخر ، فلما اتهموهم بالإجرام ، وأنهم انساقوا خلفهم طمعاً فى تدين خفيف ، لا تكاليف فيه ، ولا منهج يقيد شهواتهم ردَّ المستضعفون ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴿٣٣﴾﴾[سبأ] يعنى : المكر الذى ينشأ فى الليل ، والمكر الذى ينشأ فى النهار ، حيث قضيتم الليل والنهار تُلِحُّون علينا وتلعبون فى آذاننا حتى اتبعناكم .

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٨/٥٥٧٣) : « أسروا الندامة . أى أظهروها . وسر من الأضداد يكون بمعنى الإخفاء والإبداء . وقيل : أى : تبينت الندامة فى أسرار وجوههم . وقيل : الندامة لا تظهر ، وإنما تكون فى القلب ، وإنما يظهر ما يتولد عنها » .

﴿ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا (٣٣) ﴾ [سبأ] يعنى : شركاء ﴿ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ (٣٣) ﴾[سبأ] فالندامة تعتصرهم ، ومع ذلك لا يجهرون بها ولا يُبْدونها حتى لا يشمت بهم الآخرون ، وفَرْق بين أنْ يندم الإنسان وبين أنْ تُلجِئه الظروف ، لأنْ يعلن الندم .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَجَعَلْنَا الأَغْلالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٣٣) ﴾[سبأ] الأغلال : القيود ، ومعنى ﴿ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٣٣) ﴾[سبأ] تنبيه للمؤمنين الذين يسمعون هذا الكلام وهذا الجزاء : إياكم أنْ تأخذكم بهؤلاء رِقَّة على حالهم فى الآخرة ، وانظروا إلى ما فعلوه فى الدنيا من إجرام ؛ لتعلموا أن الله تعالى عادل لا يظلم الناس ، ولكن الناسَ أنفسهم يظلمون .

ومثال ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) ﴾ [المطففين] إلى أنْ قال سبحانه : ﴿ هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦) ﴾ [المطففين]

ذلك لأن الجريمة حين ينتهى وقتها ، وتهدأ آثارها ينسى الناسُ بشاعتها ، ولا يذكرون إلا بشاعةَ العقاب عليها ، أو ترقّ للمجرم قلوب الذين لم يشهدوا جريمته ؛ لذلك يُذكِّرنا الحق سبحانه بعدله ، وأنَّ هذا الجزاء جزاء وفاق ، فلا تأخذكم بالمجرمين رأفة ، ولا ترحموهم فى هذا الموقف المخزى الذليل ، وضَعُوا عقوبتهم أمام جريمتهم يوم كذَّبوا الرسل .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ[1] إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾

نلحظ فى هذه الآية أنها ذكرتْ النذارة ، ولم تذكر البشارة ، لماذا ؟ قالوا : لأن الحديث عن قرية استشرى فيها الفساد بحيث لم يَعُدْ لها إلا النذارة ، فهؤلاء قوم كذَّبوا الرسل ، ووقفوا من الدعوة موقفَ العداء والمكابرة . أما البشارة فتكون فى عموم الدعوة ، والحديث هنا عن دعوة خاصة بهؤلاء المكذبين .

ومعنى ﴿فِى قَرْيَةٍ ﴿٣٤﴾﴾[سبأ] أى : فى أهل قرية ، والقرية اسم للمكان ، أو أن الله سبحانه جاء بالمكان وإنْ كان يريد المكين ؛ لأن المكان كجماد مُسبِّح لله ، فيفرح بالمؤمن المسبِّح فيه ، ويحزن ويضيق بالكافر الذى يقيم فيه ؛ لذلك يقول العربى القديم : فلان نبا به المكان يعنى : المكان كرهه ، ولما قالوا لرجل حكيم : أدريتَ أن فلاناً باع أرضه ؟ قال : بل باعَتْه أرضه .

وقوله ﴿إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا ﴿٣٤﴾﴾[سبأ] جمع مُتْرف وترف يترف أى : تنعَّم . أما أترف فتعنى أن النعمة أطغَتْه وفتنته ، فالحق سبحانه لم يمنع عبده أنْ يتمتع بنعمه ، المهم ألاَّ تُطغيه النعمة .

وقد يكون الترف والتنعُّم استدراجاً من الله للعبد ، وإملاءً له ، ومَدّاً له فى النعمة حتى يَطْغى بها ، وتأمل مثلاً قول الله تعالى :

---

(١) قال قتادة : مترفوها هم جبابرتهم ورؤوسهم وأشرافهم وقادتهم فى الشر ، أخرجه عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم ، فيما نقله السيوطى فى الدر المنثور (٦/٧٠٤) .

﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ (٤٤) ﴾[الأنعام] ولم يقُلْ لهم يعني ليس هذا الفتح في صالحهم مع أنه في ظاهره نعمة ﴿ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا (٤٤) ﴾[الأنعام] وتعوَّدوا النعمة وألفوها ﴿ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً .. (٤٤) ﴾ [الأنعام]

لذلك ، ليس من الصواب قولُكَ لأخيك : فتح الله عليك والصواب : فتح الله لك . واقرأ : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا (١) ﴾ [الفتح] ﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا .. (٢) ﴾ [فاطر]

وحكوْا لنا عن سياسي كبير كان له خصم ، ففوجئوا بأنه أصدر قراراً بترقية هذا الخَصْم إلى منصب كبير ، فتعجبوا : كيف يُرقى خصمه ؟ فقال : أرفعه إلى منزلة عالية ، حتى إذا سقط منها كان السقوط مؤلماً ، وسبق أنْ قُلْنا : إذا أردتَ أنْ تُوقع عدوك لا توقعه من فوق الحصيرة مثلاً .

ومن الاستدراج بالنعمة والترف قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا (١٦) ﴾ [الإسراء]

البعض يخطىء فَهْم هذه الآية ، فيقول : ﴿ أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا (١٦) ﴾ [الإسراء] أن الفسق مترتب على الأمر . والله سبحانه لا يأمر بالفسق ، ولا يأمر بالفحشاء ، وإنما يأمر بالطاعة والعبادة ، كما قال سبحانه : ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ (٥) ﴾[البينة] وقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ ...(٩٠) ﴾[النحل] فالمعنى : أمرنا مترفيها بما يأمر الله به ، فما كان منهم إلا أنْ فسقوا فيها أي : فسقوا في الأمر ، إذن : الفسق ليس مترتباً على الأمر ، وإنما على مخالفة الأمر .

الحق - سبحانه وتعالى - حين يعرض قضية الترف والإتراف يقول : أنا أنعمتُ على عبادي نعماً يتنعَّمون بها ، إنما كنتُ أريد أنْ

يستقبلوا هذه النعم بالشكر ، وأنْ يُعدوا النعمة إلى غير المنعَّمين ليحصل فى المجتمع المسلم التكافل الاجتماعى المطلوب ، ولينزع هذا التكافل الغلَّ والحقد من قلوب الفقراء على الأغنياء .

فالفقير إذا رأى الغنى ينتفع بآثار النعمة ، ويتمتع بها دونه ، يحقد عليه ، ويتمنى زوال نعمته ، فإنْ ناله منها شىء أحبَّ الغنى ، وسأل الله له المزيد ، هذا من ناحية الفقير .

أما من ناحية الغنىِّ ، فالحق سبحانه يعلم أن الإنسان عامة مطبوعٌ على النفعية لذاته وحب الخير لها ؛ لذلك عامله الحق سبحانه بهذا المنطق ، منطق النفعية حين يعطيه جزاءَ ما أنفق ، ويثيبه على ما يفعل من الخير ، قال له : الحسنة بعشر أمثالها ، غُض طرفك عن المحارم فى الدنيا أمتعك بالحور العين يوم القيامة .. الخ

لذلك يقولون : إن التدين نفعية عالية ، فأنت مثلاً ما آثرتَ الفقير على نفسك ، وما أعطيتَهُ ما فى جيبك إلا لأنك تريد من الله تعالى أضعاف ما أعطيت . إذن : أنت حتى فى تجارتك مع الله تحب النفع لنفسك .

والحق سبحانه يعطى الغنى وصاحب الهمة العالية الذى يكدح ويتعب ويُكوِّن الثروة ، يعطيه حقه ، ويحترم جهده وعرقه ، ويحترم مشاعره النفعية ، فحين يسأله يسأله جزءاً من ماله ، لا ماله كله ، واقرأ قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ (٣٦) إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ (١) تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ (٣٧)﴾ [محمد]

---

(١) يحفكم : يلح عليكم . ويكثر ويلح فى الطلب والسؤال . وقال قتادة : علم الله فى مسألة الأموال خروج الأضغان ، أخرجه عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر فيما أورده السيوطى فى الدر المنثور (٧/٥٠٥).

ويُحببهم فى الإنفاق بنفس هذا المنطق : ﴿هَـأَنتُمْ هَـؤُلاء تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ ..(٣٨)﴾ [محمد]

إذن : مسألة الإنفاق هذه تُخرج ضغْن[1] الغنى، كما أخرجتْ ضغْن الفقير ، فهى تُحدث استطراقاً إيمانياً ، واستطراقاً اقتصادياً فى المجتمع ، فصاحب المال يحمد الله على النعمة ، ولا يبخل بها على الفقير ، والفقير يحمد الله أنْ جعل النعمة فى يد مَنْ يجود بها عليه ، وهكذا يحدث التوازن فى المجتمع .

نعود إلى ما كُنَّا بصدده من قوله تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ (٣٤)﴾ [سبأ] لماذا أنتم كافرون بما جاء به الرسل ؟

الحق - تبارك وتعالى - يريد من العباد ألاَّ يستعلى قوى على ضعيف ، وألاَّ يستعلى غنى على فقير ، وألاَّ يستعلى عالم على جاهل ، إنما يريد أن يعمَّ الخير ، فمَنْ كانت عنده خَصْلة من خصال الخير عدَّاها إلى غيره .

أما هؤلاء فقد اختاروا الكفر ، واطمأنوا إليه ؛ لأن النعمة أطغتهم وأترفتهم ، فمالوا إلى البذخ وإلى المظالم حتى عَشقوا هذا كله ، فلما جاء الدين ليُعدِّل من سلوكهم صادموه ، وحاولوا طمسه والقضاء على دعوته ؛ لأنهم ألفوا السيادة ، وألفُوا الطغيان ، ولا يريدون أنْ تُسلب منهم هذه السيادة . وإلا لو أن العالم كان مستقيماً متوازناً ما كانت هناك حاجة للرسل ، إذن : ما جاء رسول إلا بعد أنْ عَمَّ الفساد وطَمّ .

---

(١) الضِّغن : الحقد والعداوة والبغضاء . والجمع أضغان ، وكذلك الضغينة وجمعها الضغائن . (لسان العرب مادة : ضغن) .

وسبق أنْ قُلْنا : إن الحق سبحانه خلق فى النفس الإنسانية مناعة إيمانية نتيجة الفطرة الأولية ، لكن الشهوات وتقاليد الظالمين تطمس هذه الفطرة ، فتحتاج إلى مُذكِّر يعيدها إلى الطبيعة والفطرة التى خلقها الله ؛ لذلك قال سبحانه : ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ (٢١)﴾ [الغاشية] يعنى : ليس بادئاً .

والحق سبحانه يُبين أن الناس أمام الخير والشر أنواع ثلاثة ، فقال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٣٢)﴾ [فاطر]

فالظالم لنفسه هو الذى يفعل السيئة ، ولا يلوم نفسه ، ولا يندم على سيئته ، ولا يتوب منها ، فهو يظلم نفسه ؛ لأنه يحرمها الجزاء والنعيم الأبدى . والمقتصد هو الذى يتردد بين الحسنة والسيئة ، فإنْ فعل سيئة تذكَّر ولام نفسه وتاب ، ثم يفعل الحسنة لتُكفِّر السيئة ، وهؤلاء قال الله فيهم :

﴿خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٠٢)﴾ [التوبة]

وقوله سبحانه : ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا (٣٢)﴾ [فاطر] يُراد به أمة محمد ﷺ ؛ لأن الميراث يعنى أن الموروث ينتقل من السابق إلى اللاحق ، فأمة محمد ورثتْ الرسل جميعاً فى كل أمورهم الخيرية ، وتكفَّلَتْ بأن تردع الشر فى كل نواحيه ، وبذلك ورثوا الرسالات كلها ؛ لأنهم يأمرون بالمعروف وينهوْن عن المنكر ، كما قال سبحانه : ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ (١١٠)﴾ [آل عمران]

وقال تعالى أيضاً : ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا (١٤٣)﴾ [البقرة]

فالرسول يشهد أنه بلَّغكم ، وأنتم تشهدون أنكم بلَّغتم مَنْ بعدكم ، رسولكم فوَّضه الله فى أنْ يُشرِّع لكم ، وفوَّضكم أنتم فى أنْ تحملوا منهجه من بعده ؛ لذلك انقطعتْ الرسالات بعده ﷺ ؛ لأن أمته ستقوم بمهمة الرسالة ، وهذا دليل على أنها أمة ، الخيرية فيها باقية إلى قيام الساعة .

وقولهم : ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ (٣٤)﴾ [سبأ] بم أُرسل الرسلُ ؟ أُرسلوا أولاً بقضية التوحيد ، وأنه لا إله إلا الله ، أرسلوا بالبلاغ عن الله ، أرسلوا بمعجزات ، أُرسلوا بأحكام ومناهج تحكم حركة الحياة . فهؤلاء كفروا بهذا كله لأنهم يريدون أنْ يعيشوا فى ترفهم وظلمهم ، وأنْ يستبدوا كما يشاؤون .

لكن قولهم ﴿بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ (٣٤)﴾ [سبأ] دلَّ على غبائهم ؛ لأنهم لم يقولوا مثلاً بما جئتم به ، أو بما ادعيتموه ، إنما بما أُرسلتم به ، فهم يعترفون بأنهم مُرسَلُون ، فهذه كلمة الحق ساقها الله على ألسنتهم ، كما ساقه على ألسنتهم فى قولهم : ﴿لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ (٧)﴾ [المنافقون] وقولهم لما فتر الوحى عن رسول الله : إن رب محمد قلاه[1] .

إذن : هم يعترفون لرسول الله بالرسالة ، والمرسل لا يُرسَل من مثله ، إنما من جهة أعلى ، فالرسالة ليست من عند محمد : ﴿قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ

---

(١) عن جندب بن عبد الله البجلى أنه قال : أبطأ جبريل على رسول الله ﷺ فقال المشركون : ودَّع محمداً ربُّه . أورده ابن كثير فى تفسيره (٤/٥٢٢) .

(١٦) ﴾ [يونس] لكن ، ما علة هذا الكفر ؟

﴿ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٣٥) ﴾

قلنا : إن الدين إنما جاء ليُحدث توازناً فى المجتمع واستطراقاً عقدياً واقتصادياً واجتماعياً ، فمنطق هؤلاء الذين كفروا بالرسل أنهم ليسوا فى حاجة إلى هذا كله ، فعندهم المال والأولاد ، وعندهم كل مُتع الحياة .

﴿ وَقَالُوا .. (٣٥) ﴾ [سبأ] أى : فى حيثيات كفرهم ﴿ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا (٣٥) ﴾ [سبأ] بل أكثر من ذلك يأخذهم غرورهم إلى أن يقولوا : ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٣٥) ﴾ [سبأ] لماذا ؟ يقولون : لأن الله ما كان ليعطينا هذا النعيم فى الدنيا ، ويضنّ علينا فى الآخرة .

لكن نقول لهم : أنتم واهمون ، ففَرْق بين عطاء الألوهية وعطاء الربوبية ، الله تعالى أعطاكم بعطاء الربوبية الذى يشمل الجميع المؤمنَ والكافر ، والطائع والعاصى ، أما عطاء الألوهية فتكليف ، فالله يعطيكم فى الدنيا بعطاء الربوبية ، ويعاقبكم فى الآخرة بمقتضى الألوهية .

وهذه الحيثية منهم : ﴿ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا (٣٥) ﴾ [سبأ] حجة عليهم لا لهم ، فمن أين لكم هذا الخير ؟ ثم إن كثرة الأموال كان يجب أنْ تحملكم على نواحى الخير ، وكثرة الأولاد كان ينبغى أنْ تجعلوا منهم (عزوة) لكم على الحق ، إذن : كفركم بعد هذه النِّعَم دليل على أنكم استخدمتموها فى الباطل وفى الظلم والطغيان .

وما أشبه قولهم : ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٣٥) ﴾ [سبأ] بقول صاحب

الجنة : ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا (٣٦)﴾[الكهف] وهذا بَطَر بنعمة الله وغرور بها ، فليس بين الله تعالى وبين أحد من خَلْقه قرابة ولا نسب ، لينعم فى الدنيا وينعم فى الآخرة بلا عمل ، فهؤلاء فتنهم المال ، وفتنتهم الذرية ؛ لذلك يقول سبحانه محذراً : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ (١٤)﴾ [التغابن]

والحمد لله أنه قال (مِنْ) ، فهى تفيد التبعيض ، يعنى : ما يزال فى بعض الأزواج وفى بعض الأولاد عنصر الخير موجود .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٦)﴾

أى (قُلْ) رداً عليهم فى اغترارهم بكثرة الأموال والأولاد : ﴿إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ (٣٦)﴾ [سبأ] يبسط : يُوسع الرزق بكرمه ، ويقدر : يعنى : يضيقه على مَنْ يشاء بحكمته تعالى . والرزق لازمة من لوازم الربوبية التى خَلَقَتْ ، والتى استدعت الإنسان للوجود ، فلا بُدَّ أن تضمن له مقومات حياته .

لكن الرازق سبحانه لا يرزق الناس جميعاً (بمسطرة) يعنى بالتساوى ؛ لأن الله تعالى يريد أن تكون المجتمعات متعاونة متكافلة ، ولو أن كل إنسان كان عنده ما يكفيه ما احتاج أحد إلى أحد ، وما حدث فى المجتمع هذا الترابط وهذا الاتصال الجماعى .

وسبق أنْ أوضحنا أن ترابط المجتمع لا بُدَّ أنْ يكون ترابط

حاجة ، لا ترابط تفضّل ، فلو فرضنا أننا جميعاً تخرّجنا فى الجامعة ، أو أخذنا الدكتوراة ، فمن (يكنس) الشوارع ، ومن يمسح الأحذية ؟ لو جعلنا هذه الأعمال تفضّلاً من بعضنا ما قَبِلها أحد .

وقلنا : إن الرجل المتعجرف أو المتكبر أو الباشا لو عاد إلى بيته فوجد به رائحة كريهة فسأل فقالوا : المجارى بها كذا وكذا لا شكّ أنه لن يهدأ له بال حتى تنتهى هذه المشكلة ، وربما ركب سيارته ، وذهب بنفسه إلى السباك ليُخلِّصه من هذه المشكلة .

نقول فى هذه الحالة : إن السباك فاضل على الباشا فى هذا الوقت ، لأن الله أعطاه قدرة على نفسه لا يملكها الباشا أو حامل الدكتوراة ، وهذا السباك ما تحمَّل مثل هذا العمل إلا لحاجته إليه وإلا ما قَبِلَه .

لذلك أحسن الشاعر[1] حين قال :

النَّاس لِلنَّاسِ مِن بَدْوٍ وحَاضِرةٍ
بَعْضٌ لبعْضٍ وإنْ لم يَشْعُروا خَدَمُ[2]

وهذه الخدمة تقوم على التداول ، فالحق سبحانه لم يجعل ذرية كلها خادمة ، وذرية مخدومة ، إنما أنت خادم فى شىء ومخدوم فى شىء آخر ، وهكذا كلنا خادم ، وكلنا مخدوم ، ليعلم الإنسان أياً كان

---

(١) الشاعر هو : أبو العلاء المعرى ، وهو أحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخى ، شاعر وفيلسوف ، ولد عام (٣٦٣ هـ) ومات عام (٤٤٩ هـ) فى معرة النعمان عن ٨٦ عاماً ، عمى فى السنة الرابعة من عمره ، قال الشعر وهو ابن إحدى عشرة سنة ، كان يحرم إيلام الحيوان ، ولم يأكل اللحم خمساً وأربعين سنة . أشهر كتبه « رسالة الغفران » . [الموسوعة الشعرية - المجمع الثقافى ٢٠٠٣ - CD] - العصر الفاطمى .

(٢) لفظ البيت كما فى الموسوعة الشعرية :

والناس بالناس من حضر وبادية بعض لبعض وإن لم يشعروا خدم

والقصيدة من بحر البسيط .

أنه ابن أغيار ، وأن سيادته ليست ذاتية فيه ، فإنْ كان هو الأعلى عليه أنْ يُقدر هذا العلو ويعمل له ليظل على عُلُوه ، فإنْ رأى الأدنى منه فلا يحقره ، بل يُقدِّر له مهمته فى خدمته ، وأنه سيحتاج إليه فى يوم ما فى عمل لا يقدر هو عليه .

لذلك يقول تعالى : ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ ..(٧١)﴾ [النحل] كثيرون يظنون أن الرزق هو المال ، إنما الرزق كلمة عامة يُراد بها كل ما ينتفع به الإنسان ، والحق سبحانه فضَّل بعضنا على بعض فى هذه الأشياء ، لكن أىُّ بعض فضَّل ؟ وأىُّ بعض فضَّل عليه ؟ أنت مُفضَّل فيما لك فيه موهبة ، ومفضَّل عليه فيما لا موهبةَ لك فيه ، وهكذا يتكاتف المجتمع ويتكامل ، ويرتبط ارتباطَ حاجة لا ارتباطَ تفضُّل .

وتأمل قوله تعالى : ﴿فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥)﴾ [الفجر] وشكراً ، وكثَّر الله خيرك أنْ نسبتَ الإكرام لربك ﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦)﴾ [الفجر] فيقول الحق (كَلاَّ) يعنى : أنت كذاب فى هذا القول ؛ لأن بَسْط الرزق ليس دليلاً على التكرم ، ولا تضييقه دليل إهانة . وإلا كيف يكون بَسْط الرزق دليلَ التكريم ، والناس فيما يُرْزَقون لا يكرمون به اليتيم ، ولا المسكين ، ويأكلون التراث أكلاً لماً .

﴿كَلاَّ بَل لاَّ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ (١٧) وَلا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ (١٨) وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَّمًّا (١٩) وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا (٢٠)﴾ [الفجر]

إذن : على الإنسان أنْ يتأدب مع الله فيما صنع ؛ لأن الله يعلم كيف يرزق ، وهو سبحانه يريد أنْ يجعل من الناس أُسْوة للناس ، فالغنى الذى افترى بماله يُبقيه الله حتى يرى فيه الفقير المفْترَى

عليه ، يرى فيه عقاب الله ليعلم أن لله تعالى ألوهية ، ولله تعالى قيومية ، لا يفلت الظالم من عقابها فى الدنيا قبل الآخرة . وهذا المعنى خاطب الله به نبيه فقال : ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٧٧)﴾ [غافر]

ثم إن مسألة الرزق لا تتوقف على مهارة ، أو شطارة ، أو علم ، فهناك مَنْ سعى للرزق وزرع واجتهد ، لكن عند الحصاد جاءتْه جائحة اجتاحت زرعه فأهلكتْه ، وكأن الحق سبحانه يقول لنا : إياك أنْ تفطن إلى ألوهية الأسباب ، وتغفل ألوهية المسبب .

والرزق مقسوم لصاحبه ، وإنْ حمله غيره ، فالجنين فى بطن أمه غذاؤه من تكوينها ومن دمها ، لكن هذا الدم وإنْ حملتْه الأم ليس رزقها ، بدليل أنه إذا حدث الحمل توافر هذا الدم لغذاء الجنين ، فإنْ لم يحدث الحمل نزل منها هذا الدم فى عملية الحيض ، ولم تنتفع به الأم ، لماذا ؟ لأنه ليس رزقها هى ، وهذا يساعدنا فى فهم قوله تعالى : ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ (٣١)﴾ [الإسراء]

لذلك قالوا : ليس كل ما تملك رزْقاً لك ، إنما رزقك ما انتفعتَ به، فالشىء يكون فى ملكك وفى حوزتك تظن أنه لك ، ثم يضيع منك ، أو يُسرق أو يُؤمَّم أو تُصيبه جائحة .. إلخ بل أكثر من ذلك قد يكون طعاماً وتأكله بالفعل ، ويتمثل فى جسمك دماً يجرى فى عروقك ، ثم يسيل منك بسبب جرح ، أو عملية جراحية مثلاً : إذن : هذا الدم ليس رزقاً لك .

فالمؤمن ينبغى أنْ يطمئن إذن إلى عملية الرزق ، ويعلم أنها بقيومية الله التى ترزق المؤمن والكافر ، وأن الرزق مقسوم لك ، مُسمّى باسمك ، فلا يأخذه غيرك مهما كان ، فإنْ بُسط لك فاحمد

الله ، وإن قُتِّر وضُيِّق عليك فاعلم أنها بحكمة الله ، واقرأ :

﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ (٢١)﴾ [الحجر]

ثم تُختم الآية بقوله تعالى :﴿وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٣٦)﴾ [سبأ] فالأكثرية لا يعلمون حكمة الله فى تفاوت الأرزاق ، وهذا يعنى أن قلة منهم هم الذين يعلمون ، فاللهمَّ اجعلْنَا من هذه الأقلية .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ (٣٧)﴾

الكلام هنا مُوجَّه إلى الكفار الذين ظلموا بأموالهم وأولادهم ، فمثل هذا المال ، ومثل هؤلاء الأولاد لا يكونون أبداً زلفى ، ولا قربى إلى الله ، لكن إن استغل هذا فى مرضاة الله وفى سبيل الله وفى أبواب الخير فهو من أعظم القربات .

المال يُنْفَق منه فى نواحى الخير ، والأولاد يُربوْن التربية الصالحة ليكونوا أسوة خَيْر فى مجتمعهم ، لذلك استثنى الله تعالى فقال : ﴿إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا (٣٧)﴾[سبأ] أى : فيما أعطاه الله من نعمة المال ومن نعمة الأولاد .

﴿فَأُوْلَـئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا (٣٧)﴾[سبأ] وهكذا فتح الله الباب للنعمة ، حين تُستغل فى مرضاة الله ، فليس كل الأموال ولا كل الأولاد نعمة ، فالمال قد يجرُّ صاحبه إلى الهلاك ، ويلقى به فى النار، والأولاد الذين ظننتَ أنهم لك عِزْوة وقوة قد تنقلب هذه العِزْوة عليك .

ورأينا كثيراً من الذين يبحثون عن هذه العزْوة فى الباطل ، لكن يريد الله أنْ يُذلّهم بما فتنوا ، يذهب الرجل مثلاً فيخطب لولده بنت أحد الأعيان ، أو الأغنياء ، أو أحد أصحاب المناصب ، ويفرح بهذا النسب ويفخر به ، لكن أضمنتَ أنك سترضى هذه البنت ؟ وأنك لن تختلف معها فى يوم من الأيام ؛ لذلك كثيراً ما تنقلب هذه العزْوة وهذا الجاه على صاحبنا ، فيُذله الله من حيث ظنَّ هو العزة والكرامة .

وقوله تعالى : ﴿فَأُوْلَـٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ ﴿٣٧﴾﴾[سبأ] لا يأتى الضعف إلا فى جزاء الحسنة ، أما السيئة فلا تُضاعف ، إنما يكون الجزاء بمثلها ، وهذا من رحمة الله تعالى بنا ، وقال ﴿الضِّعْفِ ﴿٣٧﴾﴾[سبأ] ولم يقُلْ الأضعاف ؛ لأن (الضعف) اسم جنس يصلح للقليل وللكثير ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴿٣﴾﴾ [العصر] فاستثنى (الذِينَ) وهى جمع من المفرد (الإِنْسَانَ) لأنه اسم جنس.

والضِّعْف أى : مضاعفة الحسنة ، أو مضاعفة الصدقة ، ومن معانى الضِّعف أنك إذا وزنتَ الأصل الذى أنفقتَه وجدته ضعيفاً بالنسبة لما أخذتَ عليه من الجزاء .

وليست المضاعفة هى نهاية العطاء عند الله ؛ لأن الحديث النبوى الشريف أكمل هذه المسألة ، فقال ﷺ : « الحسنة بعَشْر أمثالها إلى سبعمائة ضِعْف »[1]

---

(١) أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه (كتاب الصيام - باب فضل الصيام) حديث رقم ١٦٤ وكذا ابن ماجه فى سننه (١٦٣٨) ، وأحمد فى مسنده (٢/٤٤٣ ، ٥١٦) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال ﷺ « كل عمل ابن آدم يضاعف ، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى ما شاء الله » .

فالله تعالى يُضاعف لمن يشاء على قَدر النيات فى العطاء والبَذْل ، فواحد يعطى وفى نفسه أنه أعطى وبذل من ماله ومن جهده ، وآخر يعطى ويؤمن أنه مجرد مُناول عن الله ، فالمال عنده مال الله ، والعطاء من الله .

ومن صور العطاء ما تعلَّمناه من السيدة فاطمة ، فرُوى أن سيدنا رسول الله دخل عليها فوجدها تجلو درهماً لها ، فَسألها رسول الله عنه فقالت : لأننى نويت أنْ أتصدق به ، وأنا أعلم أنه يقع فى يد الله قبل أنْ يقع فى يد الفقير .

ثم إن المتصدق بمجرد أنْ يُخرج الصدقة من يده تخرج قيمتها من قلبه ، ولا يتتبعها ، ولا تتعلَق نفسه بها ، أما حين يُقْرِض قرضاً ، فإن نفسه لا تنساه وتتعلق به ، وكلما تحركتْ نفسه لطلب القرض صبر عليه ، فكان له الثواب على قَرْضه كلما صبر عليه .

لذلك أثار المستشرقون ضجة حول مسألة الجزاء على الصدقة وعلى القرض ، وادعَوْا تضارب الآية والحديث فى هذه المسألة ، ففى الحديث قال ﷺ : « مكتوب على باب الجنة : الحسنةُ بعشر أمثالها ، والقرض بثمانية عشر »[1]

والحق سبحانه يقول : ﴿مَن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ..(٢٤٥)﴾ [البقرة]

وبالجمع بين الاثنين يكون القَرْض حين يُضَاعف بعشرين لا بثمانية عشر ، والحمد لله فتح الله لنا ما أُغْلِق من هذه المسألة ، فقُلْنا :

---

(١) عن أبى أمامة صدى بن عجلان رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « دخل رجل الجنة فرأى مكتوباً على بابها : الصدقة بعشر أمثالها ، والقرض بثمانية عشر » رواه الطبرانى والبيهقى كلاهما من رواية عتبة بن حميد (الترغيب والترهيب للمنذرى ٢/٣٤) .

لو أن رجلاً تصدَّق بدينار مثلاً ، فالله يجازيه الحسنة بعشر أمثالها ، لكن هل أعاد إليه الدينار الذى دفعه ؟ لا ، إنما ذهب الدينار مقابل العشرة ، إذن : أخذ فى الواقع تسعة ، فحين تُضاعف تساوى ثمانية عشر .

نعود إلى قوله تعالى : ﴿إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴿٣٧﴾﴾ [سبأ] فى مواضع كثيرة من كتاب الله يجمع الله بين الإيمان والعمل الصالح ، لماذا ؟ لأنهما جناحان لا يتم العمل إلا بهما معاً ، فالعمل الصالح بلا إيمان هَبَاء لا قيمةَ له كأعمال الكفار الخيرية التى يأخذون الجزاء عليها فى الدنيا شهرةً وتكريماً وتخليداً لهم ، لكن لا نصيبَ لهم فى ثواب الآخرة ، كذلك لا قيمة للإيمان إنْ لم يُترجم إلى عمل صالح .

﴿فَأُوْلَـئِكَ ﴿٣٧﴾﴾[سبأ] أى : الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴿لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾[سبأ] الغرفات جمع غرفة ، وهى المكان الذى يُبْنى عادة أعلى البيت ، وتكون خاصة للاستقرار الذاتى ، لذلك نرى حتى الآن فى بناء الفيلات مثلاً يجعلون الدور الأرضى للاستقبال العام وللطعام ، فإنْ أراد صاحب البيت أنْ يرتاح يصعد إلى الدور العلوى الذى جُعِل للاستقلالية والخصوصية.

وللإنسان خصوصيات ، حتى داخل بيته وبين أولاده ، فإذا كان صاحب البيت مثلاً فى غرفة نومه ، فله الحرية أن يلبس ما يشاء ، أو حتى يجلس فيها عرياناً ، فإنْ أراد أنْ يخرج إلى الصالة تهيَّأ لها وارتدى الملابس التى تناسبها ، فإنْ أراد أنْ يخرج إلى الشارع تهيَّأ أيضاً له بما يناسبه من ملابس ، كذلك النادى ، أو مكان اجتماع القوم ، لكُلٍّ زى خاص وسَمْت خاص .

ولهذه الاستقلالية والخصوصية جعل الناس الآن غرفة للبنين ، وغرفة للبنات ، فإنْ لم تَكُنْ هناك سَعَة فى المكان جعلوا سريراً للولد ، وسريراً للبنت .

فالحق سبحانه يحفظ لعبده قَدْره ، ويحفظ له هذه الخصوصية ، وهى خصوصية آمنة لا يُنغص أمنها فَزَع ﴿وَهُمْ فِى الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ (٣٧)﴾ [سبأ]

﴿وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِى آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ (١) أُولَئِكَ فِى الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ (٣٨)﴾

نقول : سعى فلان بفلان عند السلطان ، يعنى : بوشاية وبإفساد ، وهؤلاء سَعَوْا فى آيات الله ليصرفوا الناس عنها ، ويشغلوهم عن سماعها .

ومعنى : ﴿مُعَاجِزِينَ (٣٨)﴾ [سبأ] مفردها مُعاجز ، والمعاجزة مفاعلة يعنى : واحد يعاجز الآخر أى : يريد أنْ يُعجزه ، إذن : المعاجزة معركة ، لكن إياكم أنْ تظنوا أنها بين مؤمنين وكافرين ، أو بين الرسل والمكذِّبين لهم ، لا إنما هى معركة عالية ، فالذين يُعاجزون يُعاجزون الله فى آياته ليبطلوها ، وليضعوا العقبات فى طريقها ، ومهما كان كيدهم فلن يعجزوا الله ، ولن يُفلتوا منه سبحانه ، كما قال تعالى : ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ (٥١)﴾ [سبأ]

وهنا يقول : ﴿أُولَٰئِكَ فِى الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ (٣٨)﴾[سبأ] ومعنى محضرون أنهم يحضرون رغماً عنهم ، فهى اسم مفعول من حضر ، فهم يُجَرُّون ويُشدُّون كالمقبوض عليهم ، ومنها كلمة (مُحضر) وهو الذى يُحضِر المتهم رغماً عنه .

---

(١) المعاجز : من يحاول أن يعجز غيره . وأعجزه : جعله عاجزاً عن نيله وأفلت منه فلم يقدر عليه . [القاموس القويم ٢/٧ ، ٨]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٣٩) ﴾

قلنا : يبسط يعنى يُوسِّع . ويقدر يعنى : يُضيق ، وقد ورد هذا المعنى قبل عدة آيات ، لكن هنا يضيف لفتة جديدة ، فيقول سبحانه بعدها مباشرة ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٣٩) ﴾ [سبأ] وكأن الحق سبحانه يلفت أنظارنا إلى أن الخَلْق جميعاً خَلْقه وعباده ، وهو قادر سبحانه أنْ يعطى الجميع ، وأنْ يُوسِّع على الجميع ، لكن يريد أنْ يتحابَّ الخَلْق ، وأنْ يتكافل الناس ؛ لذلك وسَّع على بعضهم ، وضَيَّق على بعضهم ، ثم أشار لمن وسَّع عليه ولوَّح له بجزاء الإنفاق ، لينفق على أخيه الذى ضُيِّق عليه .

وهذه الآية تعطينا ملخصاً لاقتصاد العالم كله ؛ لأن معنى الاقتصاد موازنة المصروفات بالواردات ، فالمصروفات لمصروف له ، والواردات لوارد عليه ، إذن : لا بُدَّ أن يكون فى المكان الواحد فئة تعطى وفئة تأخذ ، لا بُدَّ أنْ يكون فيها فقراء وأغنياء ، لذلك الحق سبحانه لم يترك بَسْطة الغنى هكذا حرة ، كذلك لم يترك تقتير الفقير، بل جعل لهذا مَبْذلاً ، ولهذا مصدراً ..

فبعد أن أخبر سبحانه : ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ (٣٩) ﴾[سبأ] حكمها فقال : ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ (٣٩) ﴾[سبأ] فالحق سبحانه يراعى مبدأ النفعية لصاحب المال ، ويراعى

حب الأغنياء للمال ؛ لذلك يطمئنهم على أموالهم ، ويتكفّل هو سبحانه بأنْ يخلفها لهم .

والحق سبحانه بسط الرزق للأغنياء وهم يحبون المال ولكنه يقول لهم : إذا أُحلْت على غنى فاتبع ، يعنى : إنْ كان لك دَيْن عند فقير فأحالك بدينك إلى غنى قادر على السداد فتحوَّل ؛ لأنك لا تضمن متى سيُوسِّع الله على الفقير ليُسدِّد ما عليه .

وهكذا طمأن اللهُ الأغنياءَ بأنّ أموالهم لن تنقص بالإنفاق ؛ لأنها أحيلت إلى الله وتكفَّل هو بالسداد .

لذلك يعلمنا رسول الله ﷺ فيقول : « ليس لك من مالك إلا ما أكلتَ فأفنيْتَ ، أو لبستَ فأبليْتَ ، أو تصدقْتَ فأبقيْتَ »[(١)]

ولما أُهديَتْ لرسول الله ﷺ شاة تصدَّقَتْ بها السيدة عائشة ، وأبقَتْ لرسول الله كتفها ؛ لأنها تعلم أنه يحب الكتف ، فلما عاد رسول الله سألها : ماذا صنعت بالشاة يا عائشة ؟ قالت : ذهبتْ كلُّها إلا كتفها ، فقال ﷺ : « بل بقيَتْ كلها إلا كتفها »[(٢)]

لماذا ؟ لأنه مال تحوَّل إلى ذمة الله ، وقد تعهد الله بأنْ يُخلفه ، وما بالك إنْ كان الإخلاف من الله القائل : ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا (٨٦)﴾ [النساء]

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٤/٢٤، ٢٦) ، ومسلم فى صحيحه (٢٩٥٨) كتاب الزهد ، والترمذى فى سننه (٢٣٤٢) وصححه . ولفظ الحديث عند مسلم : « يقول ابن آدم : مالى مالى ، قال : وهل لك يا بن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأمضيت » .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٦/٥٠) والترمذى فى سننه (٢٤٧٠) من حديث عائشة . قال الترمذى : حديث صحيح . ولفظ أحمد أن عائشة قالت لرسول الله ﷺ : يا رسول الله ، ما بقى إلا كتفها . قال : « كلها قد بقى إلا كتفها » .

وأنت حييْتَ الله فى الفقير بتحية فلا بُدَّ أن يردَّها لك بأحسن منها ، بل ويُضاعفها لك أضعافاً كثيرة بما يفوق الحَصْر والعَدَّ ، ومثَّلْنا لذلك بالحبة يزرعها الفلاح ، فتُعطى سبع سنابل ، فى كل سنبلة مائة حبة ، فإذا كان هذا عطاء الأرض المخلوقة لله تعالى ، فما بالك بعطاء الخالق عز وجل ؟

فقوله تعالى : ﴿فَهُوَ يُخْلِفُهُ (٣٩)﴾[سبأ] يريد سبحانه أنْ يُطمئن الغنىَّ بأن ماله لن ينقص ، ويُطمئن الفقير بأنه لن يتخلَّى عنه ، ولن يتركه للفقر ، بدليل أنه سبحانه اقترض من أجله ، فقال تعالى : ﴿مَن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا (٢٤٥)﴾ [البقرة] فالله يقترض من الخَلْق للخَلْق ، وهو قادر سبحانه أن يُوسِّع على الجميع ، إنما الهدف أنْ يتعايش الناس بوداد المعونة ، وأنْ يحب الغنىُّ الفقيرَ ، ولا يحقد الفقير على الغنى .

لذلك تُختم الآية بقوله تعالى : ﴿وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٣٩)﴾[سبأ] قال سبحانه خير الرازقين ؛ لأن الرازق : كل مَنْ يمدُّ لك يده بما تنتفع به، وعليه فأبوك بالنسبة لك رازق ، والذى يعولك ويتكفَّل بك رازق ، كذلك ربُّك عز وجل رازق ، لكن فَرْق بينهما ، فأبوك رازق ؛ لأنه يأتى لك بالرزق ، لكن إنْ سألته من أين هذا الرزق يقول : من عند الله ، فهو سبب ومناول ، أما الحق سبحانه فهو خالق الرزق ؛ لذلك قال ﴿وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٣٩)﴾ [سبأ]

وسبق أنْ أوضحنا : إذا رأيتَ صفة مشتركة بين الخَلْق والخالق فاعلم أن الجهة مُنفكّة ، فلكلٍّ ما يناسبه . إذن : حيثية الخيرية هنا أنه تعالى هو الرازق ، وهو خالق الرزق ، وهو الذى يُيسِّر لك أسبابه حتى يصل إليك .

وقالوا : خيرية الله فى الرزق ناشئة من ثلاث مسائل : **الأولى** : أنه سبحانه لا يُؤجِّل الرزق لوقت الحاجة إليه ، إنما خلقه لك قبل أنْ يخلقك ، وأعدَّ لك مُقوِّمات الحياة قبل أنْ يستدعيك إليها . **الثانية** : أنه لا يحاسبك على ما رزقك . **الثالثة** : لا يطلب منك ثواباً على ما وهبك .

لهذا كله كان الحق سبحانه وما يزال خير الرازقين ، وتأمل مثلاً فرعون لما ربَّى موسى عليه السلام امتنَّ عليه ، فقال : ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾﴾ [الشعراء]

والمعنى : كان ينبغى عليك يا موسى أنْ تُجاملنا ، وتحفظ جميلنا عليك ، وألاَّ تصادمنا هذا الصدام .

ومثل ذلك قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ [يونس]

وقوله تعالى : ﴿.. فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ [المؤمنون]

فى هذه الآيات كلها ، الحق ـ تبارك وتعالى ـ راعَى مواهب الخَلْق وقدَّر حركتهم الإيجابية فى الحياة ؛ لذلك أثبتَ لهم صفة من صفاته وهى الخَلْق ، ومعنى الخَلْق إيجاد شىء لم يكُنْ موجوداً ، فالإنسان يُعَدُّ خالقاً حين يصنع من الرمل (الكريستال) مثلاً ، والحق سبحانه لا يضنّ عليه فيسميه خالقاً ، لكن إنْ كان الإنسان خالقاً ، فالحق – سبحانه وتعالى – أحسن الخالقين ، لماذا ؟

قالوا : حيثيات هذه الخيرية فى عملية الخَلْق من عدة وجوه : منها : **أولاً** : أن الإنسان يَخلق من مادة موجودة ، أما الخالق سبحانه فيخلق من لا شىء من العدم . **ثانياً** : صنعة الإنسان تظل على حالة واحدة ، فلا تنمو ولا تتكاثر ، أما خَلْق الله ففيه حياة ، فهو يتغذَّى وينمو ويتكاثر .. الخ .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾

المعنى : واذكر يوم يحشرهم جميعاً ، واليوم ظرف للحشر وللجمع يوم القيامة ، لكن لماذا يذكر رسول الله هذا اليوم ؟ قالوا : هنا إشارة لسيدنا رسول الله ﷺ أن الله لم يَنْسَه وما تركه ، ولا تخلى عنه ، بدليل أنه سينتقم له من أعدائه ومُكذِّبيه فى هذا اليوم ، وكأن الله يقول له : سترى ماذا سنفعل بهم ، كما قال سبحانه فى آخر المطففين : ﴿هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦)﴾ [المطففين]

وقوله تعالى : ﴿ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهَـؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ (٤٠)﴾[سبأ] معلوم أن الكفار عبدوا آلهة كثيرة ، فلماذا خَصَّ الملائكة هنا بهذا السؤال ؟ قالوا : لأنهم أعلى الأجناس التى عُبدَتْ من دون الله وأقربهم إلى الله ؛ لذلك قالوا عنهم : بنات الله ، فهم يظنون أنَّ الملائكة لهم كلمة عند الله ، ويمكن أنْ يشفعوا لهم أو يدافعوا عنهم إنْ عبدوهم ؛ لذلك ذكر هنا الملائكة ، ولم يذكر الشجر والحجر الذى عُبِد من دونه سبحانه .

لكن ، لماذا وُجِّه السؤالُ للملائكة المعبودين ، ولم يُوجَّه للعابدين الذين أشركوا ؟ لماذا لم يُوبِّخهم الله ويُقرِّعهم على عبادتهم دون الله ؟ قالوا : لأن الحق سبحانه أراد أنْ يسمع المشركون من الملائكة أنفسهم الردّ ؛ لتكون الحجة عليهم أبلغ .

يقول سبحانه للملائكة : ﴿أَهَـٰؤُلَاءِ ﴿٤٠﴾﴾[سبأ] المشركون ﴿إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾﴾[سبأ] فأول ردِّهم ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ ﴿٤١﴾﴾ [سبأ] يعنى : تنزيه لك يا رب أنْ يُعبد سواك ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ﴿٤١﴾﴾ [سبأ] يعنى : نحن فى ذُلِّية عبوديتنا لك يا رب أعزُّ وأكرم من كونهم يعبدوننا ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ ﴿٤١﴾﴾ [سبأ] يعنى : ما عبدونا ، إنما عبدوا الجن ﴿أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ [سبأ] فلماذا عبدوا الجن[1]؟ ولماذا كان أكثرهم يؤمن بالجن ؟

الجن هو الجنس الذى يقابل الإنس ، وسُمِّى الجن ؛ لأنه مستور عنَّا ، يرانا ونحن لا نراه ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ ﴿٢٧﴾﴾ [الأعراف]

والذين عبدوا الجن لم يعبدوهم جميعاً ، إنما عبدوا الشياطين منهم ، وعبدوهم لأنهم يطيعونهم ، وأكثرهم كانوا بالجن مؤمنين ، لماذا ؟ لأن الجن كانوا يَسْترقون السمع ، فيلتقطون بعض الأخبار والحقائق ، ثم يُوحُونها إلى أوليائهم من شياطين الإنس فيأخذها هؤلاء ويخبرون الناس بها على سبيل أنهم يعلمون الغيب ، إلا أنهم كانوا يدسُّون فى هذه الحقائق الكثير من الباطل ، ثم تأتى بعض الأحداث موافقة لما أخبروا به ، فيُفْتَن الناس بهم ، ويظنون أنهم يعلمون الغيب .

---

(١) ذكر القرطبى فى تفسيره (٥٥٧٩/٨) « أن حيّاً يقال لهم بنو مُليح من خزاعة كانوا يعبدون الجن ، ويزعمون أن الجن تتراءى لهم ، وأنهم ملائكة ، وأنهم بنات الله » ، ولكن أورد أبو يحيى زكريا الأنصارى سؤالاً فى كتابه « فتح الرحمن بكشف ما يلتبس فى القرآن» (ص ٣٤٥) « إن قلت : كيف قالت الملائكة فى حق المشركين ذلك ، مع أنه لم يُنقل عن أحد منهم أنه عبد الجن ؟ » ثم قال : « معناه أنهم كانوا يطيعون الشياطين فيما يأمرونهم به من عبادة غير الله تعالى . فالمراد بالجن الشياطين ، على أن الكرمانى جزم بأنهم عبدوا الجن أيضاً » .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾

قوله سبحانه ﴿فَالْيَوْمَ ﴿٤٢﴾﴾[سبأ] أى : يوم القيامة ﴿لا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ ﴿٤٢﴾﴾[سبأ] أى : الملائكة ومَنْ عبدوهم من المشركين ﴿نَفْعًا وَلا ضَرًّا .. ﴿٤٢﴾﴾ [سبأ] فإنْ كانوا يظنون أنهم الملائكة ، وأنهم عباد مُكْرمون ، وأن لهم منزلة عند الله ؛ لذلك سيشفعون لهم فأفهموهم : أنكم لا تشفعون إلا لمن ارتضى ولا تشفعون ابتداءً ، بل تنتظرون أنْ يُؤذَن لكم فى الشفاعة ، ثم أنتم أيها الملائكة تستحُونَ أنْ تكونوا شفعاء لمن عبد غير الله ؛ لأن إخلاصكم فى عبوديتكم لله تعالى يمنعكم أنْ تناصروا هؤلاء أو تشفعوا لهم .

ومثل هذا الموقف شاهدناه مع سيدنا رسول الله ﷺ ، حيث كان الذين آمنوا بالله وكفروا برسالته مُقدَّمون عنده على مَنْ كفروا بالله ، فعصبية محمد ﷺ لربه أكثر من عصبيته لنفسه .

وقوله تعالى : ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾﴾[سبأ] هذه الآية من المواضع التى وقف أمامها المستشرقون يظنون أن بها مأخذاً على كلام الله ، قالوا : القرآن يقول فى سبأ ﴿ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [سبأ] ويقول فى السجدة : ﴿ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِى كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [السجدة]

فهل كذَّب الكفار بالنار ، أم كذَّبوا بالعذاب ؟ ونقول : منهم مَنْ كان يُكذِّب بوجود النار أصلاً ، وهؤلاء قال الله لهم ﴿ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ

الَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ (٤٢)﴾ [سبأ] لأن تكذيبهم مُنصَبٌّ على النار ، والاسم الموصول (التى) يعود إلى النار .

أما الذين آمنوا بوجود النار ، لكن ينكرون أنْ يُعذَّبوا بها قال الله لهم ﴿ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِى كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢٠)﴾ [السجدة] لأن تكذيبهم للعذاب لا للنار ؛ لذلك جاء الاسم الموصول (الذى) العائد إلى العذاب .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ (٤٣)﴾

معنى﴿يَصُدَّكُمْ (٤٣)﴾ [سبأ] : أى : يصرفكم ﴿عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ (٤٣)﴾[سبأ] وهذا دليل على أن عبادتهم ما دون الله كان مجرد تقليد للآباء ، وهم بقولهم هذا لم يأتوا بجديد ، فقد أخبر الله عنهم بهذا ، وهم ما يزالون فى عالم الذرِّ يوم أخذ عليهم العهد والميثاق :

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِى آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣)﴾ [الأعراف]

بعد أنْ قالوا فى رسول الله قالوا فى القرآن : ﴿مَا هَٰذَا إِلاَّ إِفْكٌ مُّفْتَرًى (٤٣)﴾ [سبأ] الإفك : قَلْب الشىء عن موضعه أو قلب الحقائق ، ومن هنا سُمِّى الكذب إفكاً ؛ لأن الكذب أنْ تقول قضية يناقضها

الواقع ، والصدق أنْ تقول قضية يؤيدها الواقع ، فحين تقلب الحقيقة فإنك تُغيِّر الواقع .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾﴾ [النجم] فالمؤتفكة هى القرى التى قلبها الله ، وجعل عاليها سافلها ، ومنه أيضاً قوله تعالى : ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾﴾ [الأنعام] يعنى : كيف تُصرفون عن الحق، وتقلبونه إلى الباطل .

ولَيْتهم وقفوا فى وصف القرآن عند هذا الوصف ، إنما زادوا ﴿مُّفْتَرًىٰ ﴿٤٣﴾﴾ [سبأ] أى : متعمد .

ثم يقول تعالى : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَـٰذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾﴾[سبأ] معنى ﴿إِنْ هَـٰذَا ﴿٤٣﴾﴾ [سبأ] ما هذا الذى جاء به محمد ﴿إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾﴾[سبأ] وعجيب أنْ يصفوا ما جاء به محمد بالسحر ؛ لأن السحر تخييل لأعين الناس ، وليس ما يفعله الساحر حقيقة ، إنما هو توهم ؛ لذلك قُلْنا : هناك فَرْق بين السحر الذى جاء به السحرة وعصا موسى عليه السلام .

كان سحرهم كما قال تعالى : ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ ﴿١١٦﴾﴾ [الأعراف] وقال ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾﴾ [طه] مجرد تخيُّلات لا حقيقة . إنما لَمَّا ألقى موسى عصاه صارت حيَّة حقيقية ، ولو لم تنقلب حية حقيقية ما خاف منها موسى ، كما قال تعالى : ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾﴾ [طه]

ولو لم تكن حية حقيقية ما آمن لموسى كبار السحرة ، فالقرآن يحكى عنهم أنهم بمجرد رؤيتهم لها قالوا : ﴿آمَنَّا بِرَبِّ هَـٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾﴾ [طه] يعنى المسألة ليست من موسى ، إنما من الله .

إذن : فأين ما جاء به محمد من السحر ؟ وإذا كان محمد ساحراً

سحر المؤمنين به كما تقولون ، فلماذا لم يسحركم أيضاً وتنتهى هذه المسألة ؟ ومعلوم أنه لا خيار للمسحور مع الساحر . إذن : هذا القول منهم كذب على سيدنا رسول الله وعناد ومكابرة لعدم قبول الحق الذى جاء به .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ ﴾

كأن الحق سبحانه يسأل : من أين جاءوا بهذا الكلام ، وبهذه الاتهامات ، هل آتيناهم كُتباً يدرسونها ، ويعلمون منها ذلك ؟

ويجيب سبحانه ﴿ وَمَا آتَيْنَاهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ﴿٤٤﴾ ﴾[سبأ] كذلك ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ ﴾[سبأ] يعنى : رسول يخبرهم بهذا . إذن : من أين جاءوا به ؟

يقول سبحانه :

﴿ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾ ﴾

المعنى : أن ما قالوه فى رسول الله ، وفيما جاء به من الهدى تكذيب كما كذَّب السابقون ، فهو سنة مُتبعة وطبيعة فى المرسَل إليهم حين يأتى دين جديد ليُخرجهم عن طغيانهم واستبدادهم ويقضى على سيادتهم واستعبادهم للناس ؛ لذلك لا بُدَّ أنْ يصادموا الدين ويُكذِّبوا الرسل ، لتظلَّ لهم وسائل الطغيان ووسائل الفساد .

فمعنى ﴿وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ (٤٥)﴾[سبأ] الأمم السابقة الذين كذَّبوا إخوانك الرسل السابقين ، فلستَ يا محمد بدْعاً فى ذلك .

﴿وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ (٤٥)﴾[سبأ] يعنى : الأمم السابقة التى كذَّبت رسلها ما بلغتْ فى الرسالة وفى المنهج والحجة والبينة معشار ما آتيناك ؛ ذلك لأن سيدنا رسول الله ﷺ جاء بالدين الوافى والمنهج الكامل الذى لا يمكن الاستدراك عليه .

أو : أن المعنى ﴿وَمَا بَلَغُوا (٤٥)﴾[سبأ] أى : كفار مكة الذين كذَّبوا رسول الله ﴿مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ (٤٥)﴾[سبأ] يعنى : ما آتينا الأمم السابقة من القوة ، فالذين كذَّبوا الرسل من الأمم السابقة كانوا أكثر قوة ، وأكثر نفوذاً ، وأكثر حضارة من كفار مكة ، وأين هم من عاد وثمود وفرعون ؟

واقرأ قوله تعالى :

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (٨) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (١٠) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ (١١)﴾ [الفجر]

فأين قوة كفار قريش من قوة هؤلاء الذين يُضرب بهم المثل فى : القوة ، والبطش ، والجبروت ، والطغيان ؟ ومع ذلك أصابهم من بأس الله ما أصابهم .

والمعشار أكثر من العشير ، والعشير أكثر من العُشْر ، فإذا أردتَ العشرات تقول عُشر ، وإذا أردت المئات تقول عَشِير ، وإذا أردتَ الآلاف تقول معشار[1] .

---

(١) مقصد فضيلة الإمام - رحمه الله - أن العُشْر جزء من عشرة ، أما العشير فهو جزء من مئة ، أما المعشار فهو جزء من الالف . فمراد الآية ﴿وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ (٤٥)﴾ [سبأ] أى : ما بلغوا جزءاً من ألف جزء مما أعطيناه وآتيناه للأمم السابقة ، فالمراد به المبالغة فى التقليل ، وهذا يتوافق مع ما قاله القرطبى فى تفسيره (٥٥٨١/٨) ونقله عن الماوردى . [عادل أبو المعاطى] .

وقوله تعالى : ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾﴾[سبأ] يعنى : انظر كيف كان أخْذى للمكذبين ، فلم أتركهم دون عقاب ، إنما أخذتهم أخْذ عزيز مقتدر ، ومعنى ﴿نَكِيرِ ﴿٤٥﴾﴾[سبأ] يعنى : إنكارى عليهم بالتدمير والعقاب ، وإنكارى عليهم على قَدْر ما كانوا هم منكرين .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾﴾

بعد أنْ أعطاهم الحق سبحانه درساً وعبرة بمَنْ سبقهم من المكذبين يعود ليخاطبهم من جديد ، فيقول لنبيه ﷺ : ﴿قُلْ﴾ يعنى : لهم ﴿إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ ﴿٤٦﴾﴾ [سبأ] الوعظ ليس إنشاءَ حكم ، إنما هو تذكير بحكم سبق ونسيه الناس ، فالواعظ يُبيِّن للناس أموراً يعرفونها ويؤمنون بها من الدين ، لكن أنْستهم الشهوات والغفلة هذه الأمور ، فهو مُذكِّر بها ، والعِظَة لا تكون إلا من مُحبٍّ لك حريص على مصلحتك .

لذلك فالحق - تبارك وتعالى - يعطينا نموذجاً للوعظ فى قصة لقمان حين يعظ ولده : ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَـٰبُنَىَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ..﴿١٣﴾﴾ [لقمان]

ومعنى ﴿بِوَاحِدَةٍ ﴿٤٦﴾﴾ [سبأ] يعنى : موعظة واحدة فيها كل الآحاد ، واستخدم السياق ﴿إِنَّمَا ﴿٤٦﴾﴾ [سبأ] الدالة على القصر يعنى : لا أعظكم إلا بواحدة ، ما هى ؟ ﴿أَن تَقُومُوا لِلَّهِ ﴿٤٦﴾﴾ [سبأ] يعنى : إياك

أنْ تقوم لشهوة نفسك ، أو لسيادة تحافظ عليها ، إياك أنْ تقوم وأنت تريد الاستعلاء على هذا النبى ، إنما يكون قيامك لله ، يعنى : تتجرد عن هواك ، وتتجرَّد عن شهواتك وعن تعصُّبك .

وما دُمْتَ تتودد إليهم أنْ يقوموا لله فلا بُدَّ أن لله تعالى مكانة فى قلوبهم ، وهو سبحانه فى بالهم بدليل : ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ (٢٥)﴾ [لقمان]

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ (٨٧)﴾ [الزخرف]

إذن : كانوا يؤمنون بأن الله تعالى هو خالقهم ، وهو خالق السموات والأرض ؛ لأن هذه المسألة من الوضوح بحيث لا ينكرها منكر ، مهما بلغ من الكفر والإلحاد ، لماذا ؟

لأن مسألة الخَلْق لم يدَّعها أحد لنفسه ؛ لأن الدعوى إنما تكون عند وقوع لبس بباطل يمكنَ أن يكون له رواج ، لكن هذه المسألة واضحة ، لا لَبْسَ فيها ، ومهما بحثوا فلن يجدوا خالقاً لهم وللكون من حولهم إلا الله ؛ لذلك يجادلهم بالمنطق فى هذه المسألة فيقول : أنتم أمام أمرين : إما أنكم خلقتم هذا الخَلْق ، أو أنكم خُلِقْتم من غير خالق .

فالأولى مردودة ؛ لأن أحداً لم يَدَّع الخَلْق ، والأخرى مردودة ؛ لأن أتفه من السماء والأرض ، وأتفه من الإنسان لا بُدَّ له من صانع يصنعه ، فالحذاء الذى تلبسه فى قدميك ، أليس له صانع ؟

إذن : السماء والأرض والإنسان لا بُدَّ أن لهم صانعاً على قدر عظمهم ، وكيف ينكرون هذه المسألة وهم يعترفون بعضهم لبعض بأبسط الأمور ، ويعرفون صاحبها ويفخرون به ، ففلان كان يئد البنات ، وفلان كان عنده جفنة طعام يأكل منها كذا وكذا من

الضِّيفان ، وفلان كان أشجع العرب .. إلخ وكَثُر فى شعرهم قولهم : أنا ابن فلان ، وأنا ابن فلان .

إذن : مسألة الخَلْق هذه لا يجرؤ أحد منهم على أنْ ينكرها ، وما داموا يعترفون لله تعالى بالخَلْق ، فعليهم أنْ يقوموا لهذا الإله الذى أقروا له بالخلق ، وأنْ يُخلصوا فى قيامهم له ، فلا يكون فى بالهم أحد سواه ، وعندها ثِقُوا تَماماً أنكم ستصلون بهذا القيام إلى الحق ؛ لأنه لا يُضَبِّبُ الحق فى عقول الباحثين فيه إلا هوى النفس ، كما قال سبحانه :

﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَـٰوَاتُ وَالأَرْضُ (٧١) ﴾ [المؤمنون]

والقيام المراد هنا لا يشترط فيه الجماعة ولا الجماهيرية ؛ لأنه قيام للتفكُّر ، فينبغى أنْ يكون ﴿ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ..(٤٦) ﴾ [سبأ] مثنى : يعنى : اثنين اثنين ، وفرادى : واحداً واحداً . بحيث يختلى كُلٌّ مع نفسه ليفكر فى أمر محمد بواقعية وتجرُّد : كيف كان بينكم ، وكيف كانت سيرته وأخلاقه ، وهل جرَّبتم عليه كذباً ، أو سحراً ، أو كهانة ؟ وهل سبق له أنْ ادَّعَى ما ليس له ؟ هل رأيتم عليه قبل بعثته علامة من علامات الجنون ؟ ﴿ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ (٤٦) ﴾ [سبأ]

وهذا التفكُّر فى حال رسول الله يحتاج إلى موضوعية ؛ لذلك اختار أنْ ينفردوا به ، إما مثنى مثنى ، وإما فرادى ، فالإنسان حين يكون بمفرده ، فلا يوجد له نظير ينهزم أمامه ، ولا نظير يهيجه على غير الحق ، فرأيه فى هذه الحالة يكون أقرب للصواب .

والمنفرد إنْ تفكَّر وصل إلى الحق ؛ لأنه لن يغشَّ نفسه ، ولن يخدعها ، ولن يستكبر أنْ يعود للحق ، أما إن كانوا جماعة فلا بُدَّ أن يحاول كل منهم أنْ يثبت حجته ، ولو اضطر للكذب وللخداع كما

نراهم فى مثل هذه المواقف ، كُلٌّ يحلف أنه على الحق وغيره على الباطل .

فكأن الحق بهذه الطريقة فى التفكير يحمينا ويعصمنا من غوغائية الجماهيرية فى الحكم ، هذه الغوغائية التى نشاهدها مثلاً فى المظاهرات ، حيث يهتف كُلٌّ بما يريد ، فتختلط الأصوات ، وتتداخل الهتافات ، فلا تستطيع أنْ تميزها .

لذلك لما تكلم شوقى رحمه الله عن موقعة (اكتيوم) بين كليوباترا وخصومها وقد هُزِمَتْ فيها ، إلا أن أبواقهم صوَّرَتْ الهزيمة على أنها نصر ، وأخذتْ الجماهير الغوغائية تُردِّد ما يقولون ، فقال شوقى :

اسْمعِ الشعْبَ دُيُونُ ∴ كَيْفَ يُوحُون إليْه
مَلأَ الجوَّ هتَافاً ∴ بحياتَىْ قَاتِلَيْه
أثَّر البهتانُ فيه ∴ وانطَلى الزُّور عليْه
يَا لَهُ من بَبْغاء ∴ عقلُه فى أُذُنيْه!!

فالحق يُعلِّمنا كيفية التفكُّر مثنى أو فرادى ، ويحمينا من الغوغائية .

وهذه المسألة تأخذنا إلى اعتراض المستشرقين على قوله تعالى :

﴿ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ (١١٠) ﴾ [الأنبياء]

ووجه اعتراضهم : إذا كان الله تعالى يمتنُّ علينا بعلم ما نكتم ، فما الميزة فى علم الجهر ، وكلنا يعلم الجهر ؟ ونقول : الخطاب هنا للجماعة ، فالحق سبحانه يعلم ما تكتمون جميعاً وما تعلنون ، إنِ اختلطت أصواتكم وتداخلت فهو يعلمها ، ويرد كلَّ صوتٍ إلى

صاحبه ، وعِلْم الجهر المختلط أعظم من علم المكتوم ؛ لأن المكتوم يمكن أنْ تكون له أمارات تدل عليه ، أمّا علم الجهر المختلط ، فيصعب أنْ تُميِّز بعضه من بعض .

كذلك إنْ كانوا مثنى مثنى ، فالاثنان كما تقول : الرأى والرأى الآخر ، ولو انهزم أحدهما أمام الآخر فهزيمته مستورة ؛ لذلك دائماً ما نسمع من يقول لخصمه : أريد أن أجلس أنا وأنت على انفراد . لأنكما طرفا المسألة ولا يوجد طرف ثالث يُسبِّب لواحد منكما إحراجاً ، أو إذلالاً ، يتسبب فى تغيُّر مسلكك أمامه .

ومعنى﴿أَن تَقُومُوا لِلَّهِ ﴿٤٦﴾﴾[سبأ] ليس القيام الذى يقابله القعود ، إنما مَنْ قام بالأمر يعنى : فعله وأدَّاه ، وإنْ كان قاعداً ، ومن ذلك نقول : فلان يقوم بأمر فلان ، أو فلان يؤدى وظيفة فلان . أى : يقوم بها .

ومعنى ﴿مَا بِصَاحِبِكُم ﴿٤٦﴾﴾[سبأ] يعنى : رسول الله ﷺ ﴿مِّن جِنَّةٍ﴿٤٦﴾﴾[سبأ] جنون ؛ لأنهم قالوا على رسول الله أنه مجنون ، وعجيب منهم وهم أعرف الناس به ، أنْ يصفوه بالجنون ، وهم لم يَروْا عليه علامة من علامات الجنون ، ولم يصنع شيئاً مخالفاً لمجتمعه الذى عاش فيه ، بل كانوا قبل البعثة يقولون عنه : الصادق الأمين ، فكما ظهر كذبهم فى قولهم (ساحر) ، كذلك ظهر كذبهم فى قولهم (مجنون) .

ولو خَلاَ الواحد منهم إلى نفسه ، ثم تفكّر فى شخص رسول الله لوصل بنفسه إلى الحق ، ولو أدار فى عقله هذه الاتهامات لوجد أن رسول الله ﷺ برىء منها ، وما دام منفرداً فى هذا التفكُّر ، فلن يخجل أبداً أنْ يعود إلى الحق ؛ لأنه لن ينهزم أمام أحد .

وقد تناول القرآن الكريم كل افتراءاتهم على رسول الله ، وأظهر بطلانها ، فقال تعالى : ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (٤٠) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ (٤١) وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ (٤٢)﴾ [الحاقة]

وقال : ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ (٢٢)﴾ [التكوير]

والحق - سبحانه وتعالى - هنا لم يذكر لنا نتيجة للتفكُّر والبحث مثنى وفرادى ؛ لأنه معلوم وواضح ، إلا أنه قال عنه ﷺ : ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (٤٦)﴾ [سبأ]

شيء آخر : هل آمن الناس كلهم برسول الله بعد أن سمعوا منه قرآناً مُعْجزاً لنقول : إن القرآن هو المعجزة التى تثبت صدْق الرسول؟ نقول : لا ، إنما منهم مَنْ لم يؤمن بعد أن سمع القرآن ، ومنهم مَنْ آمن قبل نزول القرآن ، وبمجرد أنْ قال محمد : إنى رسول الله . وأولهم السيدة خديجة ، والصِّدِّيق أبو بكر ، فما حيثية إيمانهم برسول الله ؟ وما المعجزة التى عرفوا بها صدْقه ؟ حيثيته ومعجزته عند هؤلاء سيرته ﷺ فيهم أولاً ، فهى كافية لأنْ يؤمنوا به إنْ قال : أنا رسول الله إليكم . أما القرآن فهو معجزة وتحدٍّ لمن جحد .

لذلك نرى سيدنا رسول الله يُذكِّر قومه بهذه السيرة بينهم ويتخذها حجة له ، فلما بُعث صعد إلى الصفا ، ونادى فى القوم ، فلما اجتمعوا حوله قال : « أرأيتم لو حدثتكم أن خيلاً وراء هذا الوادى جاءت لتُغير عليكم ، أكنتم مُصدِّقى ؟ » قالوا : ما جرَّبنا عليك منْ كذب ، فقال : « أنا رسول الله إليكم » فقالوا لتَوِّهم : أنت كذاب تباً لك ، ألهذا جمعتنا ؟[1] .

---

(١) عن ابن عباس قال : لما نزلت ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ (٢١٤)﴾ [الشعراء] خرج رسول الله ﷺ حتى صعد الصفا (جبل بمكة) فاجتمعوا إليه . قال : أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً تخرج بسفح هذا الجبل أكنتم مُصدقى ؟ قالوا : ما جربنا عليك كذباً . قال : فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد . قال أبو لهب : تباً لك أما جمعتنا إلا لهذا ؟ فنزلت هذه السورة ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١)﴾ [المسد] . أخرجه أحمد فى مسنده (٣٠٧/١) ، ومسلم فى صحيحه (٣٥٥) كتاب الإيمان ، والبخارى فى صحيحه (٧٣٨/٨ - فتح البارى) .

ورُوِى فى إسلام سيدنا عبد الله بن سلام ، وكان أحد أحبار اليهود أنه لما اطمأنَّ قلبه للإيمان بعد ما رأى من أوصاف رسول الله التى ذُكِرت فى كتبهم ، وتأكَّد أنه رسول الله ذهب إليه وقال : يا رسولَ الله لقد شرح الله صدرى للإيمان ، وتعلم يا رسول الله أن اليهود قوم بُهْتٌ ، فإذا أسلمتُ قالوا فىَّ ما ليس فىَّ ، فادْعُهُمْ يا رسول الله ، واسألهم عنى ، وسوف أعلن إسلامى أمامهم بعد أنْ تسمع رأيهم فىَّ ، وفعلاً دعاهم سيدنا رسول الله وسألهم : ما تقولون فى ابن سلام ؟ قالوا : سيدنا وابن سيدنا ، وحَبْرنا وابن حَبْرنا ، وجمعوا له كل أوصاف المدح ، عندها قال ابن سلام : أما وقد قالوا فىَّ ما قالوا : أشهد أنك رسول الله ، فقالوا : بل أنت شرُّنا وابن شرِّنا[1] .

فقال : ألم أَقُلْ لك يا رسول الله أنهم قوم بُهْت ؟

وتلحظ أن الذين صادموا رسول الله فى أول البعثة ، والذين اتهموه بالكذب من أهله وأقرب الناس إليه ، وعمه هو الذى قال له : تباً لك ألهذا جمعتنا ؟ وهنا موطن حكمة وحجة فى بعثة سيدنا رسول الله ، جعلها الله ليعلم الناس أن مكانة قريش وسيادتها فى الجزيرة العربية لم تكن هى التى صنعت رسالة محمد ليسودوا بها العالم ، فأعدى أعدائه كانوا من قريش ، ولم يجد رسول الله نُصْرة فى مكة ، إنما كانت نصرته فى يثرب .

لذلك سبق أن قلنا : إن الإيمان بمحمد هو الذى خلق العصبية

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٨/١٦٥ - فتح البارى) والبيهقى فى دلائل النبوة (٢/٥٢٧ - ٥٢٩) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه . وفى بعض ألفاظ الحديث أنهم قالوا أولاً : « ذاك سيدنا وابن سيدنا ، وأعلمنا وابن أعلمنا » وفى لفظ آخر : « خيرنا وابن خيرنا ، وسيدنا وابن سيدنا »

لمحمد ، لا أن العصبية لمحمد هى التى خلقتْ الإيمان به ﷺ .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٤٧) ﴾

الأجر : هو الجُعل مقابل عمل ، وهذه العبارة قالها كل الرسل ، فقد علَّمهم الله أنْ يقول الواحد منهم لقومه : ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٩) ﴾ [الشعراء] كأنه فى طىّ هذا الأسلوب ، أنه لو كان هناك تقييم منصف لكنتُ أستحق أجراً على رسالتى ودعوتى ؛ لأننى أجلب لكم بالهداية نفعاً كبيراً ؛ لأنه ليس صفقة فى هذه الدنيا الفانية ، إنما نفعاً باقياً فى حياة خالدة باقية .

لكن الواقع أننى لا آخذ أجرى منكم ، إنما آخذه من الله ؛ لأن العمل الذى أقوم به أكبر من أنْ تُقوِّموه بثمن ، والحق - سبحانه وتعالى - هو الذى يُقوِّم عملى ، وأنا واثق أنه سبحانه سيعطينى ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ (٤٧) ﴾ [سبأ]

ومعنى : ﴿فَهُوَ لَكُمْ (٤٧) ﴾[سبأ] يعنى : إنْ كنتُ أخذتُ منكم أجراً ، فسوف أعمل لكم بهذا الأجر ، أو سيعود جزاؤه عليكم .

وسبق أنْ قلنا : إن كل الرسل قالوا هذه العبارة إلا رسولين اثنين لم تَأْتِ هذه العبارة فى سياق كَلامهما ، هما : سيدنا إبراهيم ، وسيدنا موسى عليهما السلام ، مما يدل على أن هذه المسألة مبنية بحكمة كبيرة عالية ، فلماذا إبراهيم وموسى بالذات من بين كل الرسل؟

قالوا : لأن سيدنا إبراهيم عليه السلام أول ما واجه المخالفين واجههم فى عمه[1] ، فلما صادمه عمه ، ورفض دعوته اعتزله ، واكتفى بأن يدعو له ، وليس من المعقول أنْ ينتظر أجراً من عمه ؛ لذلك لم تأتِ فى كلامه مسألة الأجر هذه .

كذلك موسى - عليه السلام - كانت أول دعوته لفرعون ، الذى قال له : ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾﴾ [الشعراء] يعنى : إنْ كان يستحق أجراً على دعوته لفرعون ، فسوف يستحى أن يطلب منه الأجر ، وقد تربَّى فى بيته ، وفى رعايته .

وكلمة ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ﴿٤٧﴾﴾[سبأ] تحتمل معنيين : أننى أخذتُ أجراً وأعطيته لكم ، أو أنا من الأصل لم أسألكم أجراً ، ثم تختم الآية بقوله تعالى : ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾﴾[سبأ] يعنى شاهد علينا جميعاً ، ويعلم ما قاسيته فى سبيل دعوتكم إلى الحق ، ويعلم ما فعلتموه معى من عناد وتعنُّت ، وهو سبحانه سيُغلى أجرى على قدر معاناتى وما تحملتُه فى سبيل هدايتكم ، والأخذ بأيديكم إلى ساحته .

وإذا كان الإنسان إنْ عمل عملاً لا بُدَّ أنْ يكون له حَظٌّ منه ومَغْنم ومنفعة ، فرسول الله لم يسألكم حتى الأجر على العمل ، فبأىِّ شىء تتهمونه بعد ذلك ؟

---

(١) يذهب فضيلة الشيخ رحمه الله إلى أن آزر هو عم إبراهيم عليه السلام وليس أباه . وقد اختلف فى اسم أبى إبراهيم ، فالنسابون والمفسرون على أن اسم أبيه « تارح » وبعضهم قال « تارخ » . وبعضهم قال : إنهما اسمان له كما لكثير من الناس وكما كان ليعقوب عليه السلام فهو إسرائيل أيضاً . والبعض قال : إن تارح اسم وآزر لقب . وقيل : إن آزر هو اسم الصنم الذى كانوا يعبدونه . انظر تفسير القرطبى (٣/٣٥٤٤) ، وابن كثير فى تفسيره (٢/١٤٩) ، وقصص الأنبياء لابن كثير (ص ١٠٤) ، ولسان العرب (مادة آزر) ، وقصص الأنبياء لعبد الوهاب النجار (ص ٩٣ - ٩٦) .

بعد ذلك أراد الحق سبحانه أنْ يُوضِّح لنا أمراً يتعلق بالحق الذى جاء به رسول الله ، فالكفار كانوا يعترضون على شخص رسول الله ، بدليل قولهم :﴿ءَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا .. ﴿٨﴾﴾ [ص]، وقالوا : ﴿لَوْلا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الزخرف]

فهم يعترفون بالقرآن ويعلمون أنه ذِكْر ، وأنه لا غبارَ عليه ، المشكلة أنه نزل على هذا الرجل بالذات ، ولم ينزل على واحد منهم من عظماء القوم ؛ لذلك أراد الحق سبحانه أنْ يقول إن إنزال مناهج الله للأرض لا بُدَّ أنْ تنزل على مصطفًى يصطفيه الله ، لا مصطفًى يصطفيه الخَلْق ، فلا معنى لقولهم : ﴿لَوْلا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الزخرف]

لذلك يردُّ الحق سبحانه عليهم بالحجة : ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الزخرف]

وقال سبحانه : ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴿١٢٤﴾﴾ [الأنعام]

ورحمة الله هى ما ينتفع به الناس ، إما فى الدنيا ، وهذه رحمة تشمل المؤمن والكافر ، وإما رحمة فى الآخرة ، وهذه للمؤمن دون الكافر ، وهذه الرحمة الأخروية دائمة باقية فى نعيم لا يفوتك ولا تفوته ، فإذا كنتُ أقسم لكم أرزاقكم ومعيشتكم فى الحياة الدنيا ، فكيف أَكِلُ إليكم اختيار مَنْ يرحمكم فى الآخرة ؟ هل أقسم لكم الرحمة الموقوتة . وأترك لكم الرحمة الباقية ؟

ثم ينحو القرآن معهم منحًى آخر بعد أنْ وعظهم وتودَّد إليهم ، فيقول سبحانه :

﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ ﴾

لك أنْ تلحظ هنا حدة الأسلوب ، خلافاً للآيات السابقة التى كانت تعظهم وتتودد إليهم ، وكأن الحق سبحانه يقول لهم : لا تظنّوا أننا سنظل نتودد إليكم ، أو أنكم الذين ستسيِّرون المراكب ، فالدين سيُظهره الله رغم عنادكم ، والحق سيعلو رغم كفركم .

فقال سبحانه : ﴿ قُلْ ﴾ أى : رداً عليهم ﴿ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ ﴿٤٨﴾ ﴾[سبأ] فبعد أنْ أعطاكم الفرصة ، وبعد أنْ طال تمردكم ، فالآن ربى سيقذف بالحق ، كما قال سبحانه فى موضع آخر ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [الأنبياء]

والقذف : الرمى بشدة ، وهى كلمة تُوحى بالعنف والقوة ، إنْ جاءت من البشر ، فما بالك إنْ كان القذف من الله ، والمقذوف من الله هو الحق ، والحق كما قلنا هو الشىء الثابت الذى لا يتغير .

والقذف لا بُدَّ أنْ له غرضاً وغاية ، ومَنْ أراد أنْ يقذف شيئاً عليه أنْ يُحدِّد المسافة لقريب أم لبعيد ، فإن كان لقريب فقلَّما يخطىء القاذفُ المقذوفَ ، وإنْ كان القذف لهدف بعيد فاحتمال الخطأ أكثر ، وهكذا كلما بَعُدَتْ المسافة ؛ لأن معنى القذف تحديد موضع لتصل القذيفةُ إليه ، وتصيب الغايةَ المقصودة منها .

وعندما يكون الموضع قريباً ، فالتغيرات التى ستطرأ عليه قليلة ؛ لأن زمن وصول القذيفة إليه قصير ، على خلاف الهدف إنْ كان بعيداً فهو عُرْضة لأنْ يتغير ، فتختلف مثلاً زاويته بسبب الريح ،

أو الأعاصير أو خلافه ؛ لذلك نحتاج فى هذه الحالة إلى أجهزة وحسابات دقيقة تحسب بُعْد الهدف وقوة المقذوف ، وقوة الريح أى : تتصادم معه وغير ذلك من حسابات السرعة والزمن ، كالذى يرمى الطير مثلاً وهو فى الهواء ، لا بُدَّ أنْ يغير نقطة التنشين لتناسب حركةَ واتجاه الطائر .

ولا أقْدَر على هذه العملية من علاَّم الغيوب سبحانه ، الذى لا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ؛ لذلك جاء الحق سبحانه بالصفة التى تناسب الدقة فى هذه العملية ، فقال : ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (٤٨) ﴾[سبأ] ، فهو سبحانه أولاً يقذف بالحق ، وقذيفته سبحانه لا تخطىء هدفاً ؛ لأنه تعالى علاَّم الغيوب .

والحق الذى يقذف الله به هو المنهج الذى أنزله من السماء يقذفه لغاية وهى الرسالة ، كما قال سبحانه : ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ (١٢٤) ﴾ [الأنعام]

إذن : القاذف هو الله ، والمقذوف الحق ، وهو الشىء الثابت الذى لا يتغير ، والغاية المقصودة هى وصول الرسالة إلى مَن اختاره الله لها ، وهذه العملية لا تخطىء ؛ لأن القاذف عالم بكلِّ غيب يؤثر على مسار المقذوف ، فالحق لا بُدَّ أنْ يصل إلى صاحبه المختار له والمصطفى لحمله ، لا إلى سواه .

لذلك هذه الآية تردُّ على هؤلاء الذين يقولون : إن الرسالة أو الوحى أخطأ ، فنزل على محمد بدل أنْ ينزل على فلان[1] ، فهذا تخبُّط لا سند له .

---

(١) من هؤلاء طائفة من طوائف الشيعة ، وهم أصحاب العلباء بن ذراع الدوسى ، وكان يفضل علياً على النبى ﷺ ، وزعم أن محمداً بُعث ليدعو إلى على فدعا إلى نفسه (الملل والنحل للشهرستانى ٢/١٧٥).

وكلمة ﴿الْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾﴾[سبأ] هنا تدل على كثرة المؤثرات التى يمكن أن تعترض القذيفة ، فتحُول بينها وبين هدفها ، وهذه المؤثرات لا يعلمها إلا الله .

فإنْ قلت : الفعل يقذف جاء فى صيغة المضارع الدال على الحال والاستقبال ، يعنى : أن الحق سبحانه عمله أنه يقذف بالحق إلى الرسل ، فهل قذفه إلى رسول الله ؟

تأتى الإجابة فى قوله تعالى فى الآية بعدها :

﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ .. ﴿٤٩﴾﴾[سبأ] يعنى : قذفه بالفعل فى صورة القرآن الذى نزل على محمد الذى اختاره الله للرسالة ولحمل منهجه إلى خَلْقه لينظم به حركة حياتهم ، وإذا كان الحق الواضح الثابت قد جاء وظهر ، والذى قذفه علام الغيوب ، فما موقف الباطل المقابل له ؟ لا بُدَّ أنه يتراجع ، ولا يستطيع الصمود أمام قوة الحق .

﴿وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾﴾[سبأ] فلا يبدىء فى الأولى ، ولا يعيد فى الأخرى ، يعنى : كما نقول : لا فى العير ولا فى النفير (لا يهش ولا ينش) ، هذا إذا كان للباطل وجود أو ثبات ، إنما الباطل ما هو إلا خيال بعيد فى أذهان أصحابه لا وجودَ له .

والحق - سبحانه وتعالى - يعطينا صورة حسِّية للحق والباطل، فيقول سبحانه : ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا ..﴿١٧﴾﴾[الرعد] يعنى : كل وادٍ يحوى من الماء على قدر اتساعه ﴿فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ﴿١٧﴾﴾ [الرعد]

والزَّبَد هو القشّ والفتات الذى يحمله الماء ، وهو تافه لا نفعَ فيه ، يأتى الهواء فيزيحه هنا وهناك ، وتبقى صفحة الماء نقية لينتفع الناس به .

ومعنى رابياً : طافياً على السطح ، وفى هذا إشارة إلى أن الباطل لا نفعَ فيه ، ولا بقاءَ له مهما علا ، وأن وجوده كوجود هذا الغثاء ، الذى لا قيمةَ له ، ولا فائدة منه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي ۚ إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾ ﴾

نلحظ أنه ﷺ نسب الضلال إنْ حدث إلى النفس ، ولكنه ﷺ نسب الهداية إلى الله وإلى الوحى المنزَّل عليه ؛ لأن الله إذا أنزل منهجاً هادياً لإنسان مختار ، ومجال الاختيار أنْ تُوجد بدائل يختار العقل منها ؛ لأن العقل لا مهمة له فى الأمر الواحد الذى ليس له بديل ، فمثلاً : تقول أريد أنْ أسافر إلى الفيوم ، فلا تجد إلا طريقاً واحداً ، فلا عملَ للعقل والاختيار هنا ، لكن تقول : أريد أنْ أسافر إلى الإسكندرية ، فتجد طريقين : الزراعى وصفته كذا وكذا ومميزاته كذا وكذا ، والصحراوى وصفته كذا ومميزاته كذا .

والله تعالى خلق كونه كله مختاراً ، إلا فى الأمور القضائية القدرية ، فقد جعلها الله قهرية لا اختيارَ للإنسان فيها ؛ لأن تدخُّله فيها يفسدها .

ولا تظن أنك وحدك مختار فى الكون ، فكُلُّ ما حولك من السماء والأرض مختار أيضاً ، إلا أن السماء والأرض والجبال اختاروا مرة واحدة ، ثم سخروا اختيارهم الكلىّ على كل الجزئيات التى تأتى بعد ، واقرأ فى ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ

وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً (٧٢) ﴾ [الأحزاب]

فالجمادات اختارت من البداية أنْ تكون مقهورة لله عز وجل ، وأبَتْ تحمُّل هذه الأمانة ، أما الإنسان فتحملها وقال : أستطيع بعقلى أن أختار بين البدائل ، وفاته أنه أدرك وقت التحمُّل ، ولم يدرك وقت الأداء ، وما يطرأ عليه من عوارض وشهوات ووسوسة شيطان .. إلخ ؛ لذلك وصفه الحق سبحانه بأنه كان ظلوماً جهولاً ، يعنى : ظلُوماً لنفسه ، جهولاً بالعواقب .

والمنهج الذى وضعه الحق سبحانه منهج عام ، وُضع للمؤمن وللكافر ، فالله هدى ودلَّ الجميع إلى طريق الخير ، وترك الجميع مختاراً ، فمنهم مَن اختار شهوات نفسه فى الدنيا ، ورأى أنْ يتمتع بها ، ويحدث ما يحدث بعد ذلك ، ومنهم مَنْ تأمل هذا المنهج ، فوجده من مُطاع بمعجزة ، وهذه المعجزة خرقت نواميس الكون ، فهو - إذن - منهج من عليم قادر وإله أعلى ، اختار هذا المنهج لصلاح الخَلْق .

والإنسان عموماً يحب الخير لنفسه ، لكن يختلف الناس فى فهمهم للخير ؛ لذلك يقول سبحانه : ﴿ وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً (١١) ﴾ [الإسراء]

ويقول سبحانه :﴿ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلا تَسْتَعْجِلُونِ (٣٧) ﴾ [الأنبياء]

وكأن الحق سبحانه يقول للإنسان : لا تعجل فى دعائك ، وارْضَ بما اختاره لك ؛ لأن حكمك وفَهْمك للخير على قَدْر علمك بالخير ، لكن أنا أعلم منك به ، وأعلم منك باستقبالك لهذا الخير وأثره فيك .

لذلك قلنا : إننا نسمع كثيراً مَنْ يقول : أنا أصلى وأسير على منهج الله ، ومع ذلك دعوتُ فلم يُسْتَجب لى ، نقول : لأنك دعوتَ بالخير بفهمك أنت للخير ، لكن ربك أعلم منك بالخير لك ؛ لذلك لم يُجِبْ دعاءك .

وكثيراً أيضاً ما نسمع أمًّا تدعو على ولدها الوحيد فى ساعة غضب تقول : (إلهى أشرب نارك ، إلهى يجيينى خبرك) بالله ، لو أن الله أجاب دعاءها ، ماذا كانت تقول فى ربها ؟ إذن : عدم إجابة الله لك فيما تدعو أحياناً هو عين الخير لك ، لأنه يعلم حمق دعائك ، وهو رب لا يرضى لك بآثار هذا الحمق ؛ لذلك يُعدِّل لك ما أخطأتَ فيه .

أمر آخر فى هذه المسألة ، فقد يكون الدعاء بخير حقيقى ، لكن جاء هذا الدعاء من غير مضطر ، إنما جاء كما نقول (بغددة) ، والحق تبارك وتعالى وعد بإجابة المضطر إذا دعاه ، فقال سبحانه : ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ (٦٢)﴾[النمل] فلو كنتَ مضطراً لأجابك ؛ لأن المضطر استنفد كل الأسباب الموهوبة له من الله ، وعجزَتْ قوته ، فلجأ إلى الله المسبِّب سبحانه ، وأغلبنا يدعو الله عن غير اضطرار .

إذن : حين لا يُجاب دعاؤك ، فاعلم أنه دعاء بشرٍّ تظنه أنت خيراً ، والخير فى ألاَّ يجيبك الله ، أو أن دعاءك عن غير اضطرار .

نعود إلى كلامنا عن المنهج الذى وضعه الله لهداية الناس جميعاً ، ونقول : الذى آمن بهذا المنهج واهتدى به يعينه الله ويزيده هداية ، كما قال سبحانه : ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧)﴾ [محمد] والذى انصرف عنه وضَلَّ كذلك يزيده الله من الضلال ، ويختم على قلبه ، بحيث لا يدخله إيمان ، ولا يخرج منه كفر ، ذلك لأنه تعالى رب يعين عبده على ما أحب ، ويزيده مما يريد .

إذن : طالما هناك اختيار فى قبول المنهج فلا بُدَّ أن توجد هداية ، ويوجد ضلال ، الهداية تجلب الخير والثواب ، والضلال يجلب الشر والعقاب ، هنا الحق سبحانه يُوضِّح لنا أن الضلال يُنسب إلى النفس ، أما الهداية فتُنسب إلى الله وإلى منهجه ، وقد قال سبحانه فى موضع آخر : ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ (٧٩)﴾ [النساء]

وقال سبحانه قبلها : ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ (٧٨)﴾[النساء] لماذا ؟ لأنه سبحانه جعل الطريقين ودلَّ الجميع ، فإنْ نظرتَ إلى الفعل فالله هو الذى أمدَّك ، كما قال سبحانه : ﴿كُلاًّ نُّمِدُّ هَـؤُلاءِ وَهَـؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً (٢٠)﴾ [الإسراء]

فالله أعطاك مثلاً اللسان تنطق به كلمة التوحيد ، أو تنطق به كلمة الكفر والعياذ بالله ، فاللسان لم يَعْصك ، لا فى هذه ولا فى تلك ، فمَن الذى أعطاك حرية الاختيار ؟ الله ، لذلك قلنا : لم يكفر كافر قهراً عن الله ، أما عدم رضائه عنه ، فهذا موضوع آخر .

لذلك قلنا : الرجل الذى أعطى لابنه جنيهاً مثلاً - وهو قوة شرائية - وقال له : اذهب إلى السوق واشتر به ما تريد ، لكن يُرضينى أنْ تنفقه فى شىء نافع ، فالذى أعطاه القوة الشرائية أبوه ، والذى ترك له الخيار أبوه ، وهو قادر أنْ يحجر عليه ويسلبه هذه القوة ، وهذا هو الاختيار .

كذلك الحق - تبارك وتعالى - يريد أن يذهب الإنسانُ إليه وهو مختار ، وهو قادر ألاَّ يذهب ، يريد أن يذهب العباد إليه عن حب ، وعن رغبة ، وعن إيمان ، لا عن قهر وجبروت ؛ لأنه سبحانه - كما سبق أن قُلْنا - يريد قلوباً تخشع ، لا قوالب تخضع .

فقوله تعالى : ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ ﴿٥٠﴾﴾[سبأ] يعنى : أنا وأنتم سواء فى هذه المسألة ؛ لأن الضلال نتيجة للسيئات التى تقترفها النفس ، فهى سبب الضلال ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي ﴿٥٠﴾﴾[سبأ] أما الهداية فمن الله ؛ لأنها بسبب منهج الله ﴿وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي ﴿٥٠﴾﴾ [سبأ]

لكن النبى ﷺ متفق وأمته فى نسبة الضلال إلى النفس ، لكن يختلف عنهم فى الهداية ﴿وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي ﴿٥٠﴾﴾[سبأ] فالهداية جاءته ﷺ من الله مباشرة قبل أنْ يبعث له رسولاً بالرسالة ، وقبل أنْ ينزل عليه وحى السماء ، أما هداية الأمة فبواسطة الرسول الذى يُبلِّغ منهج الله ويأتى بالمعجزة .

فهداية رسول الله كانت بدايةً لما اختاره الله رسولاً على هذا الوضع من الهداية ، ثم أنزل عليه المنهج لهداية الأمة .

وقوله تعالى : ﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾﴾[سبأ] سميع أى : يعرف مطلوبى ، ويسمع منى كل نَفَس ، وهو سبحانه مع سمعه قريب منى لا يبطىء علىّ فى الإجابة ؛ لأن الفعل من الله تعالى لا يحتاج إلى علاج ومزاولة ، إنما الفعل من الله بكُنْ .

ثم يرجع الحق سبحانه إلى رسوله ﷺ ليُسلِّيه :

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾﴾

قوله تعالى : ﴿وَلَوْ تَرَىٰ ﴿٥١﴾﴾[سبأ] أسلوب شرط ورد عدة مرات فى القرآن الكريم ، وتلحظ أن السياق لم يذكر له جواباً ، واقرأ :

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ (٣١)﴾ [سبأ]

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَـٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا .. (٢٧)﴾ [الأنعام]

فالجواب هنا محذوف ؛ لأنه معلوم من السياق ، فالتقدير هنا : ولو ترى يا محمد إذ فزعوا يوم القيامة لرأيتَ شيئاً عظيماً وأمراً عجيباً يريح قلبك ، وينتقم لك جزاءَ ما كذَّبوك وعاندوك ، وقد ورد هذا المعنى أيضاً فى قوله تعالى : ﴿هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ(٣٦)﴾ [المطففين]

فالذين طغَوْا وتجبَّروا فى الدنيا ، وصادموا كلمة الحق ، وكانوا عُتَاة وفراعنة تراهم فى الآخرة حين يصيبهم فزعها (بسابس) قططاً وأرانب .

ومعنى ﴿فَلَا فَوْتَ (٥١)﴾[سبأ] لا مهربَ ولا نجاةَ لهم ؛ لأن الإنسان قد يفزع ويخاف من شىء ، لكن يستطيع الهرب منه ، أو ربما ينقذه أحد ، أما هؤلاء فسوف يفزعون دون منقذ ودون مهرب ولا مفر ، وهذا يشفى صدرك وصدور المؤمنين الذين أوذوا معك فى سبيل نشر دعوة الحق .

فكما وقفوا فى وجه دعوة الله سيقفون يوم القيامة موقفَ الذلة والمهانة ، وتأمل : ﴿مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ (٣١)﴾[سبأ] ﴿وُقِفُوا عَلَى النَّارِ (٢٧)﴾[الأنعام] ﴿وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ (٣٠)﴾[الأنعام] يعنى : ينتظرون أنْ يُؤذَن لهم ليرَوْا ماذا سيقول شفعاؤهم الذين عبدوهم من دون الله ، لكن يُفاجأون بأن شفعاءهم وكبراءهم يسبقونهم إلى النار ، ويتقدمونهم إلى العذاب كما تقدَّموهم فى الضلال .

لذلك يقول سبحانه : ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا (٦٩)﴾[مريم] وقال عن فرعون : ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ (٩٨)﴾ [هود]

وهكذا يُيئِّسهم الله من النجاة ؛ لأنهم كانوا ينتظرون هؤلاء الشفعاء وهؤلاء الرؤساء ليدافعوا عنهم ، فإذا بهم يتقدمونهم إلى العذاب .

وهذه الوقفات التى ذكرناها للكفار يوم القيامة ، كل وَقْفة منها لها ذلة ، وكل وَقْفة لها فزعة ، وكل وقفة عذابٌ فى حدِّ ذاتها ، وكأن الحق سبحانه يقول لنبيه : لو رأيت وقفاتهم وفزعهم لَشَفى غليلك ، ولعلمتَ أننا استطعنا أنْ نجازيهم بما يستحقون .

وسبق أنْ مثَّلْنا لهذا الموقف بواحد (فتوة) أو (فاقد) يُذِل أهل بلده ويُخيفهم ، فالكل يخافه ويجامله ويتقى شرَّه ، وفى إحدى المرات قبضتْ عليه الشرطة وساقوه فى السلاسل ، فترى أهل البلدة فرحين يتغامزون به ، ونسمع فعلاً فى مثل هذا الموقف مَنْ يقول (لو شفتْ اللى حصل لفلان) ، والمعنى : رأيتَ أمراً عجيباً لا يُتخيَّل فى الذهن .

ومعنى : ﴿وَأُخِذُوا (٥١)﴾ [سبأ] أُهْلكوا ﴿مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ (٥١)﴾[سبأ] هو موقف القيامة ومكان الحساب . يعنى : لم يترك لهم الحق سبحانه بحبوحة ، إنما أخذهم من الحساب إلى النار .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ (٥٢)﴾

سبحان الله ، فبعد أنْ فعلوا برسول الله وأتباعه ما فعلوا ، وبعد أنْ فَزِعوا وحاق بهم العذاب يعلنون الإيمان ويقولون﴿ آمَنَّا بِهِ (٥٢) ﴾ [سبأ] ، وما أشبه هذا بإيمان فرعون لما أدركه الغرق ﴿قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ الَّذِى آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠) ﴾ [يونس] فردَّ الله عليه ﴿آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٩١) ﴾ [يونس] يعنى : هذا وقت لا ينفع فيه إيمان .

وهنا يردُّ الحق عليهم إيمانهم ، فيقول : ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ[1] (٥٢) ﴾ [سبأ] أى : تناول الإيمان ﴿مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ (٥٢) ﴾ [سبأ] كلمة(أنّى) يعنى: كيف لهم الإيمان الآن ، وهم فى موقف الموت أو البعث ، فقد كان الإيمان قريباً منهم فى الدنيا ، أما الآن فهو أبعد ما يكون عنهم .

لذلك استخدم السياق أداة الاستفهام (أنّى) ولها معنيان : بمعنى كيف الدالة على التعجُّب يعنى : هذا أمر غريب وعجيب منهم ، وتأتى (أنّى) بمعنى من أين كما جاء فى قول سيدنا زكريا للسيدة مريم : ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَـٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَـٰذَا (٣٧) ﴾ [آل عمران]

يعنى : من أين لك هذا الرزق ؟ لذلك ينبغى لولى الأمر أن يتعلَّم من هذه الآية إذا رأى عند أهله شيئاً لم يأت لهم به أن يسألهم من أين جاءوا به ، وكيف وصل إلى بيته ، وهذا احتياط واجب ؛ لأن هذا الشىء قد يكون تسللاً أو استمالة إلى معصية .

وترد السيدة مريم على هذا السؤال ﴿قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ

---

(١) التناوش : التناول من قرب . والمعنى : كيف يستطيعون تناول الإيمان وهم قد أُخذوا للعذاب أخذاً لا فوت منه ولا مهرب ، وبذلك صاروا فى مكان بعيد جداً عن الإيمان وعن قبول الاعتذار ، وقد بَعُد وقت التناوش ، فلا أمل فى تناول أى خير لهم . [القاموس القويم ٢/٢٩٢]

اللَّه (٣٧) ﴾[آل عمران] ثم تذكر حيثية ذلك ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٧) ﴾ [آل عمران] يعنى : إياك أنْ تحسب المسائل بقدرتك ، فتقول : من أين أتتك فاكهة الصيف فى الشتاء ، أو فاكهة الشتاء فى الصيف ؟ لأن هذا عطاء الله وقدرته .

وكأن هذا القول من السيدة مريم قد نبّه سيدنا زكريا إلى قضية غفل عنها ، فهزَّتْه هذه الكلمة ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٧) ﴾ [آل عمران]

عندها قال فى نفسه إذن : لماذا لا أدعو الله أنْ يرزقنى الولد بعد أنْ بلغْتُ من الكبَر عتياً وامرأتى عاقر ، فعطاء الله لا يخضع للأسباب ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٨) ﴾ [آل عمران]

وهكذا استفاد سيدنا زكريا من هذه القضية العقدية التى نبهته لها السيدة مريم ، وفعلاً استجاب الله له وأعطاه ولداً ، بل أكَّد ذلك بأنْ سمَّاه له ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ (٣٩) ﴾ [آل عمران]

وهذا تسجيل للبُشْرى وتأكيد لها ، ومن ذلك ما رُوى عن سيدنا أبى بكر ، فقبل أنْ يموت أوصى السيدة عائشة بخصوص الميراث من بعده ، فقال لها : إنما هما أُختاك وأخَواك . فى وقت لم يكُنْ لها إلا أخوان هما : عبد الرحمن ومحمد ، وأخت واحدة هى السيدة أسماء، لكن بعد موت الصِّدِّيق ولدتْ زوجته بنت خارجة[1] بنتاً فصدقتْ وصية

(١) هى : حبيبة بنت خارجة بن زيد الخزرجية ، زوج أبى بكر الصديق ووالدة أم كلثوم ابنته التى مات أبو بكر وهى حامل بها فقال : ذو بطن بنت خارجة ما أظنها إلا أنثى فكان كذلك. تزوجت إساف بن عتبة بن عمرو بعد وفاة أبى بكر . [انظر : الإصابة فى تمييز الصحابة (٤٨/٨)] .

الصِّديق ، وهو - رضى الله عنه - لم يكُنْ علم الغيب ، إنما عُلِّم ، وأنطقه الله بذلك ، لأنه لا يعلم ما فى الأرحام إلا الله ، فلا أحد يعلم ما فى الأرحام بذاته ، إنما يُعلَّم من الله .

وقد ورد عن سيدنا رسول الله أنه قال لأهل المدينة : « المحيا مَحْياكم ، والممات مماتكم »[1] فبيَّن ﷺ أنه سيموت فى المدينة ، والله تعالى يقول : ﴿ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ (٣٤) ﴾ [لقمان]

فرسول الله ﷺ لم يكُنْ يعلم غيباً ، إنما عُلِّم الغيبَ من علاَّم الغيوب سبحانه ؛ لذلك لا نقول فلان عالم غيب ، إنما مُعلَّم غيب.

لذلك كثيراً ما نرى بعض أهل الصلاح أو الذين كشف الله عنهم الحجاب يرى السيدة الحامل فيقول لها سَمِّ هذا الولد محمداً ، وفعلاً تلد ولداً ، وتسميه محمداً ، هذا تسجيل للبُشْرى وإلهام من الله وتعليم لمن اختارهم الله لهذا العلم .

والناس حين يُسمون يختارون الاسم الذى يُتفَاءل به ، فيقولون : سعيد ، ذكى .. إلخ تفاؤلاً أن يكون الولد بالفعل سعيداً أو ذكياً ، لكن أتملك أن يكون الاسم على مُسمَّاه ؟ لا لا أحد يملك أنْ يكون ولده كما يريد ، لكن إذا كان المسمِّى هو الله سبحانه فهو وحده القادر على تحقيق المسمَّى .

لذلك لما وهب لسيدنا زكريا الولد وسماه (يحيى) لم يفطن الناس إلى هذه التسمية ، وأنها من الله تعنى أن هذا الولد سيحيا ولا يموت ، فالله سماه يحيى ليحيا ، وفى هذه التسمية إشارة إلى أنه سيموت شهيداً ، فتتصل حياة الدنيا بحياة الشهادة ، ولو فطن قَاتلوه إلى هذا المعنى ما قتلوه .

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٧٨٠) رواية (٨٦) كتاب « الجهاد والسير » أنه قال للأنصار فى حديث طويل : « أنا محمد عبد الله ورسوله ، هاجرت إلى الله وإليكم ، فالمحيا محياكم والممات مماتكم » .

لذلك لما ذهبنا لزيارة قبر سيدنا حمزة قلنا هناك:

أَحَمْزَةَ عَمّ المصْطَفى أنتَ سَيِّدٌ على شُـهَداء الأرْضِ أجمعهمْ طُـرّا
وحَسْبُكَ من تِلْكَ الشهادةِ عِصْمَةٌ من المَوْتِ فى وَصْلِ الحيَاتَيْن بالأُخرى

وهذه القضية العقدية التى استفاد منها سيدنا زكريا فطلب من الله الولد ، استفادت منها السيدة مريم بعد ذلك حين حملت بلا ذكورة ، فتذكرت ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٧)﴾ [آل عمران] فاطمأن قلبها .

فكلمة (أنَّى) فى قوله تعالى : ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ (٥٢)﴾ [سبأ] هى بمعنى كيف ، ومثلها قول السيدة مريم لما بُشّرت بعيسى : ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ (٢٠)﴾ [مريم]

ومثل قوله تعالى : ﴿أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا (٢٥٩)﴾ [البقرة] فالسؤال هنا عن كيفية الإحياء ، وهى مسألة لا تُقال إنما تُشاهد ، ألم نقرأ قول سيدنا إبراهيم :﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي (٢٦٠)﴾ [البقرة]

وللمستشرقين اعتراض على هذه الآية . يقولون : كيف يخاطب الله أبا الأنبياء إبراهيم ويقول له ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن (٢٦٠)﴾[البقرة] ويقول هو ﴿بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي (٢٦٠)﴾[البقرة] ، وهل الإيمان إلا اطمئنان قلب إلى عقيدة ما ؟

ونقول : الإيمان خلاف الاطمئنان هنا ، فالإيمان بأن الله يحيى الموتى موجود عند إبراهيم ، فهو لم يسأل : أيوجد إحياء للموتى من الله أم لا يوجد ؛ لأنه يؤمن بقدرة الله على إحياء الموتى ، إنما يسأل عن كيفية ذلك ، فالاطمئنان المقصود على الكيفية ، بدليل أن الله تعالى

أظهر له آية عملية وتجربة حسِّيـة فى مسألة ذبح الطير ؛ لأن الكيفية كما قلنا لا تُقَال إخباراً إنما تُشَاهد .

فالحق سـبحـانه ينكر على الكفار تناولهم للإيمـان فى هذا الوقت ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ (٥٢)﴾ [سبأ] التناوش تناول الشىء بيُسْر ، وهم يريدون تناول الإيمـان فى آخر لحظة ، وبعد فوات أوانه وضيـاع فرصـته ، يريدون إيمـاناً بلا تكاليف ، وأنَّى لهم ذلك ، وهم أبْعد ما يكونون عن الإيمان ؛ لأن محل الإيمـان فى الدنيا ، فهذا القول منهم أشبه بقول أصـحابهم الذين قالوا : ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ (٣٧)﴾ [فاطر]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِن قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ (٥٣)﴾

يعنى : عرض عليـهم الإيمان وهم فى بحـبوحة الدنيـا وسعتـها ، فكفـروا به ، والـدنيـا هى مـحلُّ الإيمـان ومـحلُّ التـكاليف والأوامـر والنواهى ، فلما وقفوا موقف الموت أو البعث تمنَّوا الإيمان وقالوا آمنا وهم فى هذا ﴿يَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ (٥٣)﴾[سبأ] يعنى : يتكلمون بالظن فيما لا عِـلْم لهم به ، يريدون أنْ يصلوا إلى غرضـهم ، وهو أنْ ينجوا من العذاب ، لكن يأتى هذا القـذف بالظن أيضاً من مكان بعيد ، يعنى فى غيـر محله ، وفى غير وقـته ، والقرآن هنا أثبت لهم قَـذْفاً ، كما أثبت للحق سبحانه قَذْفاً ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِالْحَقِّ (٤٨)﴾[سبأ] ، لكن شتَّان بين الاثنين .

قذف هؤلاء من مكان بعيد ، والقَذْف من بعيد قَذْف لا يصيب الهدف ، وهم فى قَذْفهم لا يعلمون الغيب ، ولا يعلمون المؤثرات التى تؤثر على المقذوف ، أما الحق سبحانه فيقذف وهو سبحانه علاَّم الغيوب الذى لا يغيب عن علمه شىء .

﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴿٥٤﴾ ﴾

نقول : حُلْتُ بين الخصمين يعنى : فصلْتُ بينهما ، وجعلتُ بينهما حائلاً ومانعاً من الاشتباك حتى لا يبلغ كل منهم أشُدَّه فى المعركة ، أو ينال مراده من خَصْمه ، فالحق - سبحانه وتعالى - جعل حائلاً ومانعاً بين هؤلاء وبين ما يشتهون .

والاشتهاء طلب شهوة النفس من غير ارتباط بمنهج ، لكن ما الذى كان يشتهيه الكفار ؟ كانوا يشتهون أنْ يطمسوا دعوة الحق ، فلم يُمكِّنهم الله من طمسها ، كما قال سبحانه :﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [التوبة]

وقال سبحانه : ﴿ هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الصف]

وهم يشتهون انطماس الدعوة ؛ لتبقى لهم سيادتهم التى نهبوها على حساب الضعفاء ، ولتظل لهم المكانة والتصرُّف ، كذلك يَشْتهون انطماس الدعوة حتى لا تقف مناهج الله عقبةً أمام شهوات نفوسهم .

ومعلوم أن الإنسان تحاربه نفسه قبل أن يحاربه الشيطان ، لذلك قال النبى ﷺ فى رمضان : « إذا جاء رمضان فُتحت أبواب الجنة ،

وغُلِّقت أبواب النار ، وصُفِّدت[١] الشياطين[٢] » ومع ذلك تحدث فى رمضان ذنوب وجرائم . إذن : هذه الذنوب وهذه الجرائم ليست عن طريق الشيطان ، إنما من طريق النفس ، كأن الله تعالى يريد أنْ يفضح العاصين الذين يتهمون الشيطان ، ويُلْقون عليه تبعة كل ذنوبهم . إذن : ليس الشيطان وحده هو وسيلة الضلال والغواية ، إنما هناك النفس الأمَّارة بالسوء .

وسبق أنْ أوضحنا كيفية التفريق بين المعصية من طريق الشيطان والمعصية من طريق النفس ، وقلنا : إذا وقفْتَ أمام معصية بعينها لا تتحول عنها مهما عَزَّتْ عليك أسبابها ، فاعلم أنها من شهوات النفس ؛ لأن النفس تريد شيئاً بعينه ، أما الشيطان فإنْ عزَّت عليك معصية أخذك إلى أخرى ، المهم أن تعصى الله على أىِّ وجه ، وبأية طريقة .

فقوله تعالى : ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴿٥٤﴾﴾[سبأ] دلَّ على أن المسألة بالنسبة لهم كانت شهوةَ نفس ، لا مدخلَ للشيطان فيها ، لماذا ؟ لأنهم كفروا بالله وفرغ الشيطان منهم ، وإلا ماذا يريد منهم بعد ذلك ، فلم تَبْقَ إلا شهوات النفس فاشتهوا أنْ يطمسوا الدعوة ، وأنْ يذلوا مَنْ آمن ويجعلوه عبرةً لمن يفكر فى الإيمان ، لكن حال الله بينهم وبين ما أحبوا ، وسارت الدعوة على خلاف ما اشتهوا ، فمن ذُلَّ وضُرب وأُهين من المؤمنين ثبت على إيمانه ، ومَنْ كان يفكر فى الإيمان لم يَرْهَبْهُم ، ولم يخف مما فعلوه بإخوانه المؤمنين .

---

(١) صفدت : أى شُدَّت وأوثقت بالأغلال . والأصفاد هى الأغلال وقيل : القيود . [لسان العرب – مادة : صفد] .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٢/٣٥٧) ، ومسلم فى صحيحه (١٠٧٩) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

فإنْ قلت : كيف أسلم اللهُ المؤمنين الأوائل لأنْ يعذبهم الكفار ، وأنْ يُهينوهم ويُخرجوهم من أرضهم ؟ نقول : كان هذا لحكمة عالية أرادها الحق سبحانه ، وهىَ أنْ يُمحِّص إيمان المؤمنين ، بحيث لا يثبت على إيمانه إلا قوى العزيمة الذى يصبر على تحمل الشدائد ، فهؤلاء هم الذين سيحملون منهج السماء ودعوة الحق إلى العالم أجمع ، فلا بد أن يكونوا صفوة تختار دين الله وتضحى فى سبيله بكل غالٍ ونفيس .

لذلك أراد سبحانه أنْ تتزلزل هذه الدعوة فى بدايتها عدة مرات، وأن ترى بعض الفتن التى تُغربل الناس ، وتُخرِج المؤمنين فى جانب ، والمنافقين فى الجانب الآخر ، وهذا ما حدث بالفعل فى مسألة الإسراء والمعراج مثلاً ، وفى رحلة الطائف ، كلها فِتن تُمحِّص المؤمنين .

لقد ضيَّق الكفارُ على المؤمنين الخناقَ ، حتى جلس رسول الله يفكر فى أمرهم ويفتش فى رقعة الأرض المعاصرة له ، أيها تناسب أصحابه ، ويأمنون فيها على أرواحهم وعلى دينهم ، فلم يجد ﷺ إلا الحبشة ، فقال لأصحابه : « اذهبوا إلى الحبشة ، فإن بها ملكاً لا يُظْلم أحد عنده »[(١)] .

وفعلاً كان النجاشى عند ظن رسول الله ، فأكرم المؤمنين ، ورفض أنْ يُسلِّمهم إلى وفد قريش ؛ لذلك كافأه رسول الله بأنْ وكله

---

(١) عن أم سلمة أنها قالت : « لما ضاقت علينا مكة ، وأوذى أصحاب رسول الله ﷺ وفتنوا ورأوا ما يصيبهم من البلاء والفتنة فى دينهم ، وأن رسول الله لا يستطيع دفع ذلك عنهم ، وكان رسول الله فى منعة من قومه ومن عمه لا يصل إليه شىء مما يكره مما ينال أصحابه ، فقال لهم رسول الله ﷺ : « إن بأرض الحبشة ملكاً لا يُظلم أحد عنده ، فالحقوا ببلاده حتى يجعل الله لكم فرجاً ومخرجاً مما أنتم فيه » حديث طويل أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٢/٣٠١) ، وابن هشام فى السيرة بنحوه (١/٣٢١).

فى أن يُزوِّجه من أم حبيبة[١] ، وكانت لهذه الزيجة حكمة ، فالسيدة أم حبيبة هاجرت مع زوجها إلى الحبشة ، لكنه تنصَّر هناك ، وظلَّتْ أم حبيبة على إيمانها ، فدلَّ ذلك على صدْق إيمانها ، وأنها ما هاجرت لأجل زوجها ، إنما هاجرت لله ورسوله ، فكافأها رسول الله هذه المكافأة .

فالكفار اشتهوا إيذاء رسول الله وإيذاء المؤمنين مجاهرةً ، فلم يصلوا من ذلك إلى شىء ، فاشتهوا التآمر على رسول الله وقَتْله ، ودبروا له مؤامرة لقتله ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنفال] فخيَّب الله سَعْيهم ، وخرج رسول الله من بين شبابهم وفتيانهم ، وهو يحثُو التراب على وجوههم ، ويقول : « شاهت الوجوه»[٢]

والله يقول : ﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾﴾ [يس]

وهكذا حالَ الله بينهم وبين ما يشتهون من المجاهرة ومن المؤامرة ، فحاولوا أنْ يسحروا رسول الله ، بأن يكيدوا له بطريقة خفية فَسَحره لبيد بن الأعصم[٣] ، واستعانوا فى ذلك بإخوانهم من شياطين الجن ، كما قال سبحانه : ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ

---

(١) هى : رملة بنت أبى سفيان ، صحابية ، من أزواج النبى ﷺ وهى أخت معاوية ، كانت من فصيحات قريش ، ومن ذوات الرأى والحصافة ، تزوجها رسول الله بعد أن تنصَّر زوجها وهما فى الحبشة عام ٧ هجرية . توفيت بالمدينة عام ٤٤ هـ عن ٦٩ عاماً بعد ٣٤ عاماً من وفاة الرسول . [الأعلام للزركلى ٣/٣٣] .

(٢) ورد قول رسول الله هذا فى حديث الهجرة عن ابن عباس عند أحمد فى المسند (١/٣٦٨)، وكذلك فى غزوة حنين فى صحيح مسلم (١٧٧٧) من حديث إياس بن سلمة عن أبيه ، وأحمد فى مسنده (١/٢٨٦) والدارمى فى سننه (٢/٢١٩) من حديث أبى عبد الرحمن الفهرى .

(٣) لبيد بن الأعصم يهودى من بنى زُرَيق ، وكان قد أسلم نفاقاً ، وقد كان ساحراً ، وقد جاءه اليهود فقالوا له : يا أبا الأعصم ، أنت أسحرنا ، وقد سحرنا محمداً فلم نصنع شيئاً ، ونحن نجعل لك جُعْلاً على أن تسحره لنا سحراً ينكؤه ، فجعلوا له ثلاثة دنانير » انظر : فتح البارى لابن حجر العسقلانى (١٠/٢٢٦)

لِيُجَادِلُوكُمْ (١٢١) ﴾[الأنعام] لكن خيَّب الله مَسْعاهم فى السحر أيضاً ، ولم ينالوا من رسول الله ، ولا من منهج الله ، وكأن الله تعالى يقول لهم : وفِّروا على أنفسكم ، فرسول الله معصوم من الله ، كما خاطبه سبحانه بقوله : ﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ (٦٧) ﴾ [المائدة]

وقوله سبحانه : ﴿ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ (٥٤) ﴾ [سبأ] يعنى هذه القضية ليست خاصة بكفار مكة ، إنما هى سنة مُتبعة فى الأمم السابقة ، ومعنى ﴿ بِأَشْيَاعِهِم (٥٤) ﴾[سبأ] بأمثالهم من الكفار فى الأُمم السابقة .

والأشياع : جمع شيعة ، وهم الجماعة المجتمعة على رأى يقتنعون به ، ويدافعون عنه ، سواء أكان حقاً أم كان باطلاً ، فقوله تعالى هنا : ﴿ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ (٥٤) ﴾ [سبأ] دلَّ على أنهم كانوا على باطل ، أما قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ (٨٣) ﴾ [الصافات] فهذه على الحق .

والمعنى : أنهم أُخذوا كما أُخذ أمثالهم من الكافرين مع الفارق بين الحالتين ، فقبل رسول الله كانت السماء تتدخل مباشرة لتدافع عن دين الله وعن نبى الله ؛ لذلك حدثتْ فيهم الزلازل والخسْف والصيحة والمسخ .. إلخ .

فالأمم السابقة لم تكُنْ مأمونة على أنْ تدفع عن دين الله بسيفها، أما أمة محمد ﷺ فقد استأمنها الله على هذه المهمة ، فحملتْ السيف ودافعتْ عن دينها ؛ لذلك أكرم الله هذه الأمة ، فلم يحدث فيها خَسْف، ولا مَسْخ ولا إغراق . مما حدث لسابقيهم .

لذلك لما يئس نوح عليه السلام من هداية قومه دعا عليهم :

﴿رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً[١] (٢٦) إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِراً كَفَّاراً (٢٧)﴾ [نوح]

أما سيدنا رسول الله فجاءه الملَك يعرض عليه الانتقام من كفار قومه ، فيقول : لا ، لعل الله يُخرِج من أصلابهم مَنْ يقول لا إله إلا الله . وفعلاً آمن منهم كثيرون أمثال : خالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص ، وعكرمة بن أبى جهل ، وكما كانوا ألدَّ أعداء الإسلام صاروا قادته الفاتحين .

وقد تألم المسلمون كثيراً ؛ لأن هؤلاء نجوْا من القتل ، وهم لا يدرون أن الله تعالى كان يدخرهم للإسلام ، فصار خالد سيف الله المسلول ، وعمرو أعظم القادة الفاتحين ، ويكفى شهادة لعكرمة[٢] أنه ابن أبى جهل ، وأنه لما ضُرِب ضربة قوية فى موقعة اليرموك احتضنه خالد وهو يعانى سكرات الموت ، فقال : يا خالد ، أهذه ميتة تُرضى عنى الله ورسوله ؟

حتى الذين ظلُّوا على كفرهم من قوم رسول الله كانوا فى صالح الإسلام ، فمثلاً أبو لهب وهو عم رسول الله ، وهو الذى قال له : تباً لك ، ألهذا جمعتنا ، وهو الذى قال عن رسول الله لما مات ولده

---

(١) يقال : ما بالدار ديَّار . أى ما بها أحد . والدارىُّ : الملازم لداره لا يبرح ولا يطلب معاشاً . [لسان العرب – مادة دور] .

(٢) هو : عكرمة بن أبى جهل بن هشام المخزومى القرشى ، من صناديد قريش فى الجاهلية والإسلام . كان هو وأبوه من أشد الناس عداوة للنبى ﷺ وأسلم عكرمة بعد فتح مكة ، وحسن إسلامه ، فشهد الوقائع وولى الأعمال لأبى بكر ، واستشهد فى اليرموك عام ١٣ هـ وكان عمره ٦٢ سنة . [الأعلام للزركلى ٤/٢٤٤] . وذكر ابن سعد فى طبقاته (٩/٤٠٨) : « قُتِل يوم أجنادين شهيداً » .

إنه أبتر[١] يعنى مقطوع الذرية ، لأن أولاد البنات يُنسَبون إلى آبائهم ، كما قال الشاعر[٢] :

فَإِنَّمَا أُمَّهَاتُ القَومِ أَوْعِيَةٌ مُسْتَوْدَعَاتٌ وللأَحْسَابِ آبَاءُ[٣]

ومن العجيب أن أبا لهب قدَّم للإسلام كما قدَّم خالد وعمرو وربما أكثر ، كيف ؟ لأن الله جعله حجة على صِدْق كلام الله ، وعلى صِدْق رسول الله فيما بلَّغ عن ربه ، فلما قال لرسول الله : تباً لك ، ألهذا جمعتنا ؟

ردَّ الله عليه : ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾﴾ [المسد]

فحكم الله عليه وهو ما يزال فى سَعَة الدنيا ، وما يزال مختاراً حراً قادراً على إعلان إيمانه ولو نفاقاً ، ومع ذلك لم يجرؤ أنْ ينطق بكلمة التوحيد ، ولو نطق بها لكَان له أن يقول : إن القرآن كاذب ،

---

(١) قال عطاء فى قوله تعالى : ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴿٣﴾﴾[الكوثر] : نزلت فى أبى لهب وذلك حين مات ابن لرسول الله فذهب أبو لهب إلى المشركين فقال : بتر محمد الليلة (ابن كثير ٤/٥٥٩) وليس هذا الابن هو إبراهيم ، فإن إبراهيم ولد لرسول الله من مارية بالمدينة المنورة وليس بمكة والأقرب أنه القاسم .

(٢) هو : محمد بن هارون الرشيد العباسى يلقب بالأمين العباسى ، خليفة عباسى ، ولد فى رصافة بغداد عام ١٧٠ هـ ، بويع بالخلافة بعد وفاة أبيه (١٩٣ هـ) بعهد منه ، خلفه أخوه المأمون بعد عامين ، كان شجاعاً أديباً رقيق الشعر مكثراً من إنفاق الأموال سيء التدبير ، يؤخذ عليه انصرافه إلى اللهو ومجالسة النُّدَماء . مات عام ١٩٨ هـ [الموسوعة الشعرية] .

(٣) البيت من قصيدة للأمين العباسى ، من بحر البسيط ، يقول فيها :

لا تحقرن امرءاً من أن تكون له أم من الروم أو سوداء عجماء
فإنما أمهات القوم أوعية مستودعات وللأحساب آباء
فَرُبَّ مُعربة ليست بمنجبة وربما أنجبت للفحل سوداء

وها أنا أشهد ألا إله إلا الله ، وأنَّ محمداً رسول الله . وهكذا أقام الله من هذا الكافر المعاند دليلاً على صِدْق كلامه ، وصِدْق رسوله .

ثم تُختم السورة بقوله تعالى : ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ (٥٤)﴾[سبأ] كانوا فى شك من أمر رسول الله ، ونُصْرته عليهم ، وعدم تخلِّى ربه عنه ، مع أنهم كانوا على اتصال بأهل الكتاب ، وأهل الكتاب يقرأون كتبهم على هؤلاء الكفار ويستفتحون بها عليهم ، وقد علموا منها أن عاقبة الصراع بين الرسل وأقوامهم على مَرِّ موكب الرسالة كانت للرسل ؛ لأن الله تعالى ما كان ليرسل رسولاً ثم يُسلمه أو يتخلى عنه .

وهذه قضية ذُكِرت فى الكتب السابقة كما ذُكِرت فى القرآن فى أكثر من موضع ، وإن كانت الكتب السابقة قد ضاعت أو حُرِّفت فالقرآن هو كتاب الله الباقى الذى تكفَّل الله بحفظه ، فهو يُتلَى كما أُنزل إلى يوم القيامة ، وفيه يقول الله تعالى : ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا (٥١)﴾ [غافر]

وقال سبحانه : ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣)﴾ [الصافات]

لذلك سبق أنْ قلنا : إنْ هُزِم الإسلام فى معركة مع غيره فاعلم أن شرط الجندية الإيمانية قد اختلَّ ، ولو نصرهم الله مع اختلال شرط الجندية فيهم ما قامتْ للإسلام قائمة بعدها ، وهذا الدرس تعلمناه فى أُحُد ، لما خالف الرماة أمر رسول الله ونزلوا من على الجبل يريدون الغنائم ، مع أن رسول الله ﷺ حذَّرهم من هذا ، وقال

لهم : لا تتركوا أماكنكم مهما حدث[1]، فلما تركوا أماكنهم التفَّ عليهم الكفار ، وكادوا يهزمونهم .

وإنْ كان التحقيق أن الكفار لم ينتصروا فى أُحُد ؛ لأن المعركة (ماعت) ، ولو انتصر المسلمون مع هذه المخالفة لهَانَ عليهم أمر رسول الله بعد ذلك ، ولقالوا : لقد خالفنا أمره فى أُحد وانتصرنا ، إذن : نقول : الذى هُزِم فى أُحد هو مَنِ انخذل عن جندية الإيمان ، أمَّا الإسلام فى حدِّ ذاته فقد انتصر .

إذن : كانوا فى شكٍّ من الغاية التى ينتهى إليها رسول الله ، والشك هنا فى رسول الله لأن لديهم قضيةً عقدية هى الإيمان بوجود الله ، وأنه سبحانه الخالق لكل شىء ، بدليل قوله تعالى : ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴿٨٧﴾﴾ [الزخرف]

والشك يعنى عدم الجزم وعدم اليقين ، وبيَّنا ذلك بأن نسَبَ الكلام فى الكون ست ، لكل ثلاث منها اتجاه ، فالكلام بداية علَّم الله سبحانه آدم الأسماء كلها ليتفاهم بها مع غيره ، فالكلام يقتضى متكلماً ومُخاطباً ، ولا بُدَّ أن يكون المخاطب على علم بمدلول الكلام ، بدليل أن العربى لا يفهم الإنجليزى ، ولا الإنجليزى يفهم العربى ، لا بُدَّ من علم بالتواضع فى اللغة ليفهم كل منهما عن الآخر .

والكلام المفيد هو الجملة التى يحسُن السكوت عليها ، بأن تعطى

---

(١) ذكر ابن هشام فى السيرة النبوية (٣/ ١٠) أن رسول الله ﷺ أمَّر على الرماة عبد الله ابن جبير ، والرماة خمسون رجلاً فقال له : « انضح الخيل (ادفعهم عنا) بالنبل لا يأتونا من خلفنا إن كانت لنا أو علينا فاثبت مكانك لا نؤتين من قِبَلك » ، ولكنهم خالفوا أمر رسول الله عندما رأوا كفار قريش ينهزمون فنزلوا ليجمعوا الغنائم والأسلاب ، وفطن خالد ابن الوليد لهذا ، وقد كان كافراً فى جيش الكفار ، فأغار على المسلمين وأعمل فيهم الطعن آمناً من نبل الرماة .

معنى مفيداً ، فلو قُلْت مثلاً (محمد) فهى مفردة من مفردات اللغة لا تعطى معنى إلا بنسبة ، فتقول : محمد كريم ، فأسندتَ الكرم إلى محمد ، وهذا معنى تام ، يحسُن السكوت عليه .

وإسناد الكرم لمحمد هو مُعتقد المتكلّم به ، فإنْ كان لهذا الكلام وجود بالفعل بأن وُجد شخص اسمه محمد ، وصفته الكرم ، فهذا الكلام المعتقد جازم بالحكم والحكم واقع ، فإنْ كان المتكلم غير جازم بالحكم ، متردداً فيه فهذا شك ، فالشك فيه نسبة متأرجحة بين النفى والإثبات بحيث تتساوى الكفتان ، فإنْ رجحت واحدة فهى ظن ، والأخرى المرجوحة وهم .

إذن : كم نسبة للكلام غير المجزوم به ؟ ثلاث : الشك والظن والوهم . أما الكلام المجزوم به فإنْ كان له واقع ، وتستطيع أنْ تدلل عليه فهو علم ، وإنْ لم تستطع أنْ تُدلل عليه فهو تقليد ، وإنْ جزمتَ به وليس له واقع فهذا جهل ، وهذه الثلاث نِسَب الكلام المجزوم به : علم ، وتقليد ، وجهل .

إذن : الكفار جازمون معتقدون فى أن الله هو الخالق ، لكنهم شاكُّون فى مسألة البلاغ عن الله ، وأنها جاءت على لسان محمد ﷺ ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فِى شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴿٥٤﴾﴾[سبأ] الشك ذاته يُوقِع فى الارتياب والقلق .

سُورَةُ فَاطِرٍ

سورة فاطر[1]

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ[2] السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ﴾

تعرَّضنا للسور التى بُدئت بالحمد لله ، وهى : الأنعام ، والكهف ، وسبأ . وهنا فى فاطر ، والحمد فى كل منها له معنى وله مناسبة ؛ لأن الإنسان احتاج إلى إيجاد من عدم ، ثم وسائل إبقاء فى الحياة الدنيا ، ثم احتاج إلى إيجاد بعد البعث ، وأيضاً وسائل إبقاء فى الآخرة .

فسورة الكهف تعرضت لحمد الله على المنهج ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ

---

(١) سورة فاطر سورة مكية فى قول الجميع . قاله القرطبى فى تفسيره (٨/٥٥٩٠) وهى السورة رقم (٣٥) فى ترتيب المصحف الشريف ، عدد آياتها (٤٥) آية ، نزلت بعد سورة الفرقان وقبل سورة مريم ، فهى السورة رقم (٤٢) فى ترتيب النزول ، وتسمى أيضاً سورة الملائكة لذكرهم فيها .

(٢) الفاطر : الخالق . والفَطْر : الشق عن الشىء . والفطر : الابتداء والاختراع . قال ابن عباس : كنت لا أدرى ما ﴿ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴿١﴾ ﴾[فاطر] حتى أتانى أعرابيان يختصمان فى بئر ، فقال أحدهما : أنا فطرتها . أى : أنا ابتدأتها . [تفسير القرطبى ٨/٥٥٩٠] .

عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ .. ﴿١﴾[الكهف] ؛ لأن المنهج هو وسيلة الاستبقاء للإنسان ، فلولا أن المنهج يُبيِّن للناس الحق والباطل لتفانى الخَلْق ، وما استقامتْ لهم الحياة ، أما سورة سبأ فتعرضت لحمد الله على نعمه فى الدنيا وفى الآخرة .

وهنا فى فاطر : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً ﴿١﴾[فاطر] ؛ فذكرتْ الحمد على وسائل الإبقاء كلها ، المادى منها المتمثل فى مُقوِّمات الحياة المادية ، والمعنوى منها المتمثل فى منهج الله .

والحمد على إطلاقه لله تعالى ، حتى إنْ توجه للبشر ، فمردُّه إلى الله ؛ لأنك حين تحمد البشر تحمده على شىء قدَّمه لك ، هذا الشىء ليس من ملْكه فى الحقيقة ، ولا من ذاته ، إنما هو من فيض الله عليه ، فهو مناول عن الله ، وإنْ قدّم لك عملاً فإنما يقدِّمه بالطاقة التى خلقها الله فيه ، وبالجوارح التى انفعلتْ بخَلْق الله فيه ، إذن : فالحمد بكل صيغة راجع إلى الله تعالى .

ثم يأتى بحيثية من حيثيات حَمْد الله ، فيقول ﴿فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴿١﴾[فاطر] ومعنى فاطر السموات والأرض : خالقها ومُبدعها على غير مثال سابق يُحتذى به ، وهذه مسألة تستحق الحمد ؛ لأن الله تعالى كرَّم الإنسان الخليفة فى الأرض ، فسَوَّدهُ على سائر الأجناس وكرَّمه بالعقل الذى يختار بين البدائل .

وبعد ذلك بيَّن سبحانه إنْ كان خَلْق الإنسان مُعْجزاً ، وإنْ كان هو السيد المخدوم من جميع الأجناس ، فإنَّ خَلْق السموات والأرض أكبر من خَلْق الناس وأعظم ؛ لذلك لما تكلم سبحانه عن حمد الله ذكر أكبر المخلوقات وأعظمها ، وهى السموات والأرض .

والسماء هى كل ما علاك ، لذلك تُطلق على السحاب ، فهو السماء التى ينزل منها المطر ، كما قال سبحانه ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ (١١)﴾ [القمر] ، وليست هذه هى السماء المقابلة للأرض .

والله تعالى يقول فى خلق السموات السبع : ﴿الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَـٰوَاتٍ طِبَاقًا (٣)﴾ [الملك] يعنى : ليس بها فتوق أو شقوق ، فكيف إذن تنزل الملائكة ومسكنهم السماء ، كيف ينزلون إلى الأرض ؟

قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ (٤)﴾ [القدر]

الحق سبحانه يُقرِّب لنا وظيفة الملائكة ، وأنها خاصة بالسماء صعوداً وهبوطاً ، فقال فى آية فاطر ﴿جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِى أَجْنِحَةٍ (١)﴾[فاطر] فعملهم إذن فى السماء ، لكن كيف يَنْفُذون من السماء ، وليس بها فتوق ولا شقوق ، قالوا : ينفذون ؛ لأن طبيعتهم الملائكية الشفافة تسمح لهم بذلك ، فالإنسان مثلاً خُلِق من طين ، والطين له جِرْم ومادة لا تمكنه أنْ ينفذ من شىء .

أما الجن فقد خلقه الله من النار ، وللنار أيضاً جِرْم ومادة ، لكن ألطف وأشفّ من الطين ؛ لذلك ينفذ الجن من الأشياء المادية ، بدليل أنك لو جعلتَ مثلاً تفاحة خلف جدار ، فإنك لا ترى شكلها ، ولا تحسُّ طعمها ولا رائحتها ، لكن لو أوقدتَ ناراً خلف هذا الجدار فإنك بعد قليل تُحسّ بحرارتها فى الجهة الأخرى ، وهكذا ينفذ الجن كما تنفذ الحرارة .

أما الملائكة فهى أرْقى الأجناس وأعلاها ، خلقها الله من نور ، وهو ألطف وأشفّ من الطين ومن النار ؛ لذلك لا يحتاج النور إلى منافذ ، أرأيتم مثلاً الأشعة التى تخترق الجسم وتعطينا صورة كاملة

لما بداخله كالقلب أو غيره ؛ هكذا الملائكة تنفذ لا يحجزها شيء .

وقوله سبحانه ﴿جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً ﴿١﴾﴾[فاطر] الملائكة جنس من المخلوقات ، قال الله عنهم : ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنبياء] والملائكة أقسام : فمنهم العَالُون ، وهم المهيَّمون فى الله ، ولا عملَ لهم إلا عبادته سبحانه ، وهؤلاء لا يدرُونَ شيئاً عن هذا الكون ، ولا صلةَ لهم به ؛ لذلك لما أَبَى إبليس أنْ يسجد لآدم كما أمره الله ، قال الله له : ﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [ص]

ومن الملائكة قسْم له علاقة بالإنسان ، وهؤلاء هم الذين أُمروا بالسجود لآدم ، وكأن الله تعالى يقول لهم : هذا المخلوق هو الذى ستكونون فى خدمته ، ومنهم : المعقبات ، كما قال سبحانه :﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴿١١﴾﴾[الرعد] يعنى : يحفظونه حفْظاً صادراً من أمر الله ، وإلا فالملائكة لا تمنع عن الإنسان أمراً قضاه الله عليه .

إذن : حفْظهم لنا حفْظ من باطن حفْظ الله لنا ؛ لذلك يقولون مثلاً (العين عليها حارس) ، ونرى مثلاً من يسقط من الطابق الثالث أو الرابع ، ولا يصيبه مكروه ؛ لأن الله سبَّب له أسباب النجاة ، وحفظته الحفظة .

ومن هؤلاء المدبرات أمراً ، الذين قال الله عنهم : ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴿٥﴾﴾[النازعات] وهم الذين يُدبِّرون أمور الخَلْق بأمر الله ، ومنهم الكتبة الذين يكتبون الأعمال : ﴿كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾﴾ [الانفطار]

هؤلاء الملائكة جعلهم الله ﴿رُسُلاً ﴿١﴾﴾[فاطر] إما إلى الرسل من البشر يحملون إليهم منهج الله ، وإما رسلاً منه سبحانه لمهامهم التى

تتعلق بهذا الكائن الإنسانى . ثم وصفهم فقال : ﴿أُوْلِي (١)﴾ [فاطر] أصحاب ﴿أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ (١)﴾ [فاطر] وهذا الوصف دلَّ على صلة الملائكة بالجو والسماء ، ومهمة الصعود والهبوط ، وهذه الأجنحة ليس لها نظام ثابت ، بل منهم مَنْ له مثنى ، ومَنْ له ثلاث ، ومَنْ له رُبَاع ، بل ويزيد الله فى ذلك ما يشاء ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ (١)﴾ [فاطر]

وكأن الخالق سبحانه يقول لنا : إنْ كنتم لم تروْا إلا جناحين للطائر ، فلا تتعجبوا ولا تنكروا أنْ يكون للملَك أكثر من ذلك ؛ لأنه خَلْق الله الذى يزيد فى الخَلْق ما يشاء ، والذى له سبحانه طلاقة القدرة ، فخَلْق الله ليس عملية ميكانيكية أو قوالب تُصَبُّ على شكل واحد ، وخَلْق الله ليس مخبزاً آلياً يُخرِج لك الأرغفة متساوية .

وتتجلى طلاقة القدرة فى الخَلْق منذ خَلْق الإنسان الأول آدم عليه السلام ، فإنْ كانت مسألة التناسل تقوم على وجود ذكر وأنثى ، ومن هذه جاءت جمهرة الناس ، فطلاقة القدرة تخرق هذه القاعدة فى كل مراحل القسمة العقلية لها ، فالله خلق آدم عليه السلام من لا أب ولا أم ، وخلق حواء من أب بلا أم ، وخلق عيسى عليه السلام من أم بلا أب .

فما دام أن الذى يزيد فى الخَلْق هو الله ، فلا تتعجب ولا تُكذِّب حين تسمع الحديث النبوى ، قال ﷺ : « رأيتُ جبريل وله ستمائة جناح »[1] صَدِّق ؛ لأنك لستَ مسئولاً عن الكيفية ، إنما عليك أنْ تُوثق

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (١/٤١٢ ، ٤٦٠) من حديث ابن مسعود فى تفسير قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ (١٣) عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ (١٤)﴾ [النجم] قال قال رسول الله ﷺ : « رأيتُ جبريل وله ستمائة جناح ينتشر من ريشه التهاويل والدر والياقوت » . وقد قوَّى ابن كثير إسناده فى تفسيره (٤/٢٥١) .

الكلام : صدر من الله أو لم يصدر ، صَحَّ عن رسول الله أو لم يصح ، كُنْ كَالصِّدِّيق لمَّا حدثوه عن الإسراء والمعراج وقالوا : إن صاحبك يقول كذا وكذا ، فقال الصِّديق : « إنْ كان قال فقد صدق»[1] .

لذلك ، فالذين يبحثون فى علَل الأحكام عليهم أنْ يَدَعُوا البحث فيها ، ويكفى أنْ يُوثِّقوا مصدرها ، فإنْ كانت من الله فعلىَّ أن أفعل لمجرد أن الله أمرنى بذلك ، فَعِلَّة الحكم أن الله أمر به ، فهمتُ حكمته أو لم أفهم .

ونرى بعض العلماء يحرصون على استنباط الحكم من كل عبادة من العبادات ، فيقولون مثلاً : شرع اللهُ الصومَ ليدرك الغنىُّ ألمَ الجوع ، فيعطف على الفقير ، وهذا يعنى أن الفقير لا يصوم ، فالأقرب أنْ تقول : أصوم ؛ لأن الله أمرنى بالصوم .

فأنت مثلاً لا تسأل الطبيب لماذا كتب لك دواء كذا وكذا ، بل تترك له هذه المهمة ، وما عليك إلا أنْ تتناول الدواء ، ولا يسأل الطبيب ، ولا يناقشه فى هذه المسألة إلا طبيب مثله ، لكن هل هناك مُسَاوٍ لله فيسأله : لماذا فُرِض علينا كذا أو كذا ؟

فقوله سبحانه ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ۝١﴾[فاطر] دليل على طلاقة القدرة التى لا يعجزها شىء ، ومن طلاقة القدرة أنْ ترى الطويل والقصير ، ولا تكاد تُفرِّق بين قامات الناس وهم جلوس ؛ لأن منطقة الصدر والبطن متقاربة الطول ، إنما تُفرِّق بينهم حال الوقوف ؛ لأن

---

(١) ذكره القرطبى فى تفسيره (٤٠١٢/٥) وتمامه أنه قيل له : أتصدقه قبل أن تسمع منه ؟ فقال : أين عقولكم ؟ أنا أصدقه بخبر السماء ، فكيف لا أصدقه بخبر بيت المقدس ، والسماء أبعد منها بكثير .

معظم الطول فى السيقان والأوراك ؛ لذلك تنظر إلى رجلين وهما جالسان ترى طولهما واحداً ، فإنْ قاما ظهر الفارق ، وهذا يسمونه (الحبتر)[١]

من طلاقة القدرة اختلاف الخَلْق فى الشكل ، وفى اللون ، وفى الطباع ، وفى الذكاء ؛ لذلك من وقت لآخر نرى طفلاً برأسين ، أو بيد فيها ستة أصابع ، أو دابة بخمسة أرجل ، من طلاقة القدرة أن ترى هذا وسيماً معتدل الصورة ، متناسق الأعضاء ، كهؤلاء الذين تنطبق عليهم شروط القبول مثلاً فى الكليات العسكرية أو البوليس ، وترى آخر جبهته نصف وجهه ، أو أنفه كذا وكذا .. إلخ . هذا جرىء القلب ، وهذا رعديد جبان ، هذا فصيح اللسان ، وهذا عَيى لا يكاد ينطق ؛ لذلك يقول سبحانه ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ .. (٢٢)﴾ [الروم]

من طلاقة القدرة أنه سبحانه ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا (٥٠)﴾ [الشورى]

من طلاقة القدرة أنْ يؤلف الله سبحانه بين الأجناس المتباعدة تآلُفَ مصلحة وانتفاع ، ففى السودان مثلاً بيئة تعيش فيها التماسيح ، ورغم ما عرفناه من شراستها إلا أن الله ألَّف بينها وبين الطيور ، فجمعتهم مصالح مشتركة : التمساح يخرج إلى البَرِّ ثم يفتح فَاهُ ، فيأتى الطائر ويدخل فم التمساح ، ويُنظف له أسنانه ويتغذَّى على بقايا طعام التمساح ويخلِّصه من الفضلات ، فإذا أحسَّ الطائر

---

(١) الحبتر : القصير ، وكذلك البُحْتر . والحبترة : من أسماء الثعالب . [لسان العرب – مادة حبتر] .

بقدوم الصياد صوَّت ليحذر التمساح ، فتسرع إلى الماء ، سبحان الله الذى خلق فسوَّى ، والذى قدَّر فهدى .

إنك تتعجب من طلاقة القدرة حين ترى عنق الزرافة أو الجمل ، وعنق الدب مثلاً ، فكُلٌّ له ما يناسبه .

تذكرون أنه عندما تكلم العلماء عن الحواس ، قالوا : الحواس الخمس . واحتاطوا للأمر وللزيادة فقالوا : الخمس المعروفة ، وبالفعل عرفنا بعدها حواسَّ أخرى ، كحاسة البَيْن التى نعرف بها مثلاً سُمك القماش ، وعرفنا حاسَّة العَضل التى نعرف بها ثقل الأشياء .

كما أن أعضاء الإنسان وحواسّه تؤدى مهمتها مع اختلافها من شخص لآخر ، فنحن جميعاً نرى بالعين ، ونسمع بالأذن ، ونشُم بالأنف وهكذا ، لكن ألم تسمع ؛ فلان هذا يسمع دبة النملة ، وروى لنا التاريخ عن شخصيات كانت ترى لمسافات بعيدة على غير المعتاد[1] ، هذا كله زيادة فى الخَلْق ، يختصُّ الله بها مَنْ يشاء .

لذلك يقول الشاعر :

سُبْحَانَ مَنْ قَسَمَ الحُظُوظَ فَلا عتَابَ ولاَ مَلاَمَه
أَعْمَى وأَعْشَى ثُمَّ ذُو بَصَرٍ وزرْقَاء اليمَامَه

وزرقاء اليمامة يُضرب بها المثل فى حِدة البصر ، فيقولون : أبصر من زرقاء اليمامة .

---

(١) هى : الزرقاء ، من بنى جديس ، من أهل اليمامة ، مضرب المثل فى حدة النظر وجودة البصر . قالوا : إنها كانت تبصر الشىء من مسيرة ثلاثة أيام . وذكروا من أخبارها أن حسان بن تبع الحميرى لما أقبلت جموعه تريد غزو «جديس» رأتهم الزرقاء وأنذرت جديساً ، فلم يصدقوها ، فاجتاحهم حسان . [الأعلام للزركلى ٣/٤٤]

ويُلخِّص الشاعر[١] قصة فتاة منحها الله هذه الزيادة فى البصر ، فقال :

وَاحْكُمْ كحُكْمِ فَتَاةِ الحىِّ إذْ نظرَتْ ∴ إلى حمام شِراعٍ وَارد الثُّمَدِ[٢]

قالت ألا ليتما هذا الحمام لنا ∴ إلى حمامتنا أو نصفه فقد

وكان عندها حمامة واحدة ، فتمنَّتْ أنْ ينضم هذا السرب ونصفه إلى حمامتها ، وبذلك سيكون عندها مائة :

فَعَدوه فَألْفَوْهُ كما حكمَتْ ∴ سِتًا وستِّين لَمْ تنقُصْ ولم تزد[٣]

فتأمل هذه الفتاة تنظر إلى سِرْب الحمام وتعده ، وتضيف إليه نصفه ثم تضيف حمامتها ، فيكون لديها مائة حمامة ، هذه قوة فى البصر ، وقوة فى الملاحظة .

كذلك حاسة الشم فيها عجائب مما يزيده الله فى هذه الحاسة عند مَنْ شاء أن يزيده ، والمثال الواضح لحاسة الشم وتمييز الروائح عند كلب البوليس مثلاً ، وحاسة الشم قوية أيضاً عند الذين يبيعون الروائح والعطور ، فأنت تقول رائحة طيبة ، لكن قليل مَنْ يميز بين هذه الروائح ، أما بائع الروائح فرغم امتلاء أنفه بهذه الروائح الطيبة إلا أنه يستطيع أن يُميِّزها فيقول لك : هذه رائحة ورد ، وهذه رائحة

---

(١) الشاعر هو : النابغة الذبيانى ، زياد بن معاوية بن ضباب الذبيانى الغطفانى المضرى ، أبو أمامة ، شاعر جاهلى ، من الطبقة الأولى ، من أهل الحجاز ، كانت تُضرب له قبة من جلد أحمر بسوق عكاظ فيقصده الشعراء فتُعرض عليه أشعارهم ، كان حظياً عند النعمان بن المنذر ، عاش عمراً طويلاً ، توفى عام ١٨ ق . هـ [الموسوعة الشعرية].

(٢) البيت من قصيدة للنابغة الذبيانى ، من بحر البسيط ، عدد أبياتها خمسون بيتاً مطلعها : يا دار مية بالعلياء فالسند . و « الثمد » هو الماء القليل الذى لا مادّ له . وقيل : هو الذى يظهر فى الشتاء ويذهب فى الصيف .

(٣) لفظ هذا البيت كما فى كتاب « أدب الكتاب » لأبى بكر الصولى (توفى عام ٣٣٥ هـ) :

فحسبوه فألفوه كما زعمت ∴ تسعاً وتسعين لم ينقص ولم يزد

فكملت مائة فيها حمامتها ∴ وأسرعت حسبة فى ذلك العدد

فل ، وهذه كذا ، وهذه كذا ، فإنْ خُلِط له عدة أنواع يقول لك : هذا مخلوط .

أما سيدنا يعقوب عليه السلام فقد تميَّز فى هذه الحاسة بصورة عجيبة ، وتعلمون أنه ابتلى بفقد ولده يوسف - عليه السلام - حين رماه إخوته فى البئر ، وانتهى الأمر به إلى أنْ صار على خزائن مصر كلها ، وجاءه إخوته يطلبون الميرة[1] إلى أن أعطاهم قميصه ليجعلوه على وجه أبيه فيرتد له بصره ، العجيب هنا أنه لما فصلت العير يعنى : خرجت من مصر وعن حيزها السكانى لأن المنطقة السكنية تكثر الروائح فيها وتختلط ، فلما خرجوا بقميص يوسف خارج المدينة ، قال يعقوب عليه السلام - وهو آنذاك - بأرض فلسطين : ﴿إِنِّى لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ﴿٩٤﴾﴾ [يوسف] ، لأن فى قميص يوسف شيئاً من رائحته .

ومع تقدُّم العلم عرفنا أن الرائحة هى أقوى الآثار الدالة على الإنسان ، وأن للرائحة بصمة كبصمة اليد أو بصمة الصوت ؛ لذلك حتى فى لغتنا العامية نقول (مش ح اخللى لفلان ريحه) ، وكأن الرائحة هى آخر أثر يمكن أنْ يتبقَّى للإنسان فى المكان .

كذلك يزيد الله فى الخلق مَا يشاء فى حاسة الذوق ، وبعض الناس حرفته وعمله أنه ذوَّاقة يذوق الطعام ، ويزيد الله فى الخَلْق ما يشاء فى حاسة اللمس ، وكلنا رأى الصراف فى البنك بمجرد أنْ تلمس أصابعه العملة يعرف جَيِّدها من زائفها .

كل هذه المعانى نفهمها من قوله تعالى : ﴿يَزِيدُ فِى الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ

---

(١) الميرة : الطعام يمتاره (يجلبه) الإنسان . قال ابن سيده : الميرة جلب الطعام . والميَّار : جالب الطعام . [لسان العرب - مادة مير] .

(١) ﴾[فاطر] ثم تختم الآية بما يُطمئن القلوب إلى هذه الطلاقة ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) ﴾[فاطر] هذه هى العلة ، يعنى : لا تتعجب ، فهى قدرة الله التى لا يُعجزها شىء ، وشىء هذه تعد جنس الأجناس ؛ لأنها تشمل من الذرَّة إلى المجرَّة ، وهو سبحانه يقول للشىء كُنْ فيكون ، فكأنه موجود فى علم الغيب ينتظر الأمر بأن يظهر .

وبعضهم قال : (يَزِيدُ فى الحَلْق) بالحاء[١] ، والمراد : جمال وعذوبة الصوت[٢] ؛ لأن الصوتَ وسيلةٌ لنقل خواطر المتكلم إلى السامع ، وهذه يكفى لها أىُّ صوت ، فإنْ كان الصوت جميلاً عَذْباً ، فهذه زيادة وفضل من الله.

ومن أغرب ما رواه لنا تاريخ العرب[٣] ، ويُعَدُّ دليلاً على الزيادة فى الخَلْق ، والمواهب التى يختصُّ الله بها مَنْ يشاء ما رُوى عن نزار ابن معد بن عدنان ، وقد رزقه الله أربعة من الأولاد هم : مُضَر . ومن قبيلته جاء سيدنا رسول الله ﷺ ، وربيعة ، وإياد ، وأنمار ،

---

(١) لم أقف على هذه القراءة ، ولكن قال الشوكانى فى تفسيره (فتح القدير) (٣٣٨/٤) : « المعنى أنه يزيد فى خلق الملائكة ما يشاء ، وهو قول أكثر المفسرين ، واختاره الفراء والزجاج . وقيل : إن هذه الزيادة فى الخلق غير خاصة بالملائكة ، فقال الزهرى وابن جريج : إنها حُسْن الصوت . وقال قتادة : الملاَحَة فى العينين والحسن فى الأنف ، والحلاوة فى الفم . وقيل : الوجه الحسن . وقيل : الحظ الحسن ، وقيل : الشعر الجعد . وقيل : العقل والتمييز . وقيل : العلوم والصنائع ، ولا وجه لقصر ذلك على نوع خاص ، بل يتناول كل زيادة » .

(٢) قال الزهرى وابن جريج : يعنى حسن الصوت . وقال قتادة فى معنى الآية : المَلاحة فى العينين ، والحسن فى الأنف ، والحلاوة فى الفم . [تفسير القرطبى ٥٥٩١/٨] . وقاله أيضاً ابن عباس فيما أخرجه عنه ابن المنذر . [الدر المنثور للسيوطى ٤/٧] والأصح هو أنه يزيد فى خلق الملائكة ما يشاء من أجنحة وغيرها .

(٣) ذكر هذه القصة بطولها الإمام ابن الجوزى فى كتابه « الأذكياء » (ص ١٧٤) ، وابن حجة الحموى فى « ثمرات الأوراق فى المحاضرات » (٢٤٩/١) .

فلما أحسَّ نزار بدُنُوِّ أجله جمع أولاده الأربعة وقال لهم : أريد أنْ أدلَّكم على تركتكم منى قبل أن أموت : القبة الحمراء لمضر ، والفرس الأسود والخباء الأسود لربيعة ، والشمطاء لإياد ، ومجلس القوم وندّيه لأنمار . وإنِ اختلفتم فاذهبوا إلى الأفعى الجرهمى بنجران يُفسِّر لكم كلامى.

فلما مات نزار اختلف أولاده ، فذهبوا إلى الأفعى الجرهمى ، وهم فى طريقهم إلى نجران - وكانت من أرض اليمن - رأى مُضَر فى ناحية الطريق مرعىً رعَتْ فيه إبل ، وفى الجانب الآخر مرعى أحسن منه لم يُمَسّ ، فقال : إن الجمل الذى رعى هنا أعور . فقال ربيعة : وهو أزور يعنى : أعرج . وقال أنمار : هذا الجمل أبتر يعنى مقطوع الذيل . وقال إياد : وإنه لشرود .

وبينما هم على هذه الحال قابلهم رجل ينشُد بعيره يقول : هل رأيتم بعيراً شرد منى ؟ فقال مضر : أهو أعور ؟ قال : نعم ، قال : وأزور؟ قال : نعم ، قال : وأبتر ؟ قال : نعم ، قال : وشرود ؟ قال : نعم ، هو شرود ، وأنتم أخذتموه ، فاحتكموا إلى الأفعى الجرهمى ، لأنهم كانوا على مقربة من نجران ، فلما سألهم قالوا : ما أخذنا الجمل .

فقال : إذن كيف وصفتموه لصاحبه هذا الوصف ؟ قال مُضَر : لما رأيتُه رعى جانباً دون الآخر عرفتُ أنه أعور ، وقال ربيعة : لما رأيتُ أثر خُفِّه على الأرض وجدت اليُمْنى سليمة البصمة على الرمال ، والأخرى غير ذلك ، فعرفتُ أنه أزْور ، وقال إياد : رأيت بَعْره فى مكان واحد ، فعرفت أنه أبتر ، ولو كان له ذيل لفرَّق بَعْره هنا وهناك ، فقال أنمار : لما رأيتُه يأكل من أماكن متفرقة عرفْتُ أنه

شرود . فقال الأفعى الجرهمى : خلُّوا سبيلهم ، فتلك فراسة يهبها الله لمن يشاء .

ثم سألهم : مَنْ أنتم ؟ فقالوا : نحن أولاد نزار بن معد بن عدنان ، وقد أوصانا أبونا إذا اختلفنا أنْ نحتكم إليك ، ثم قَصُّوا عليه مقالة أبيهم ، فقال : القبة الحمراء التى لمضر . أعطوه كل شىء أحمر كالدنانير والنُّوق الحمر ؛ لذلك سُمِّيت مضر الحمراء بعد أن صار مُضَر عَلَماً على القبيلة .

وقال : والفَرَس الأدهم [١] والخباء[٢] الأسود لربيعة يعنى : أعطوه كل شىء فيه سواد ، والشمطاء لإياد : أعطوه رُذَال[٣] المال و(المدعبلات) من الغنم . أما أنمار فله الفضة البيضاء والمجلس .

وبعد أن فسَّر لهم وصية أبيهم أراد أنْ يكرمهم ، فأمر كهرمانه أن يذبح لهم ذبيحة ، ويُعد لهم طعاماً وشراباً ، وعلى مائدة الطعام جلسوا يتحدثون ، وهو يتأمل فراستهم ، فقال ربيعة : ما رأيتُ أطيب من هذا اللحم ، لولا أن أمه غُذِّيَتْ بلبن كلبة ، فلما شربوا من الشراب قال مُضَر : شراب طيب لولا أنْ كَرْمته زُرِعت على قبر ، ثم قال أنمار : هذا الرجل من سَرَاة القوم وهو سيد ، إلا أنه ليس ابن أبيه ، فقال إياد : والله ما رأينا كلاماً أحسن من كلامنا بعضنا مع بعض .

---

(١) الدهمة : السواد . والأدهم : الأسود ، يكون فى الخيل والإبل وغيرهما . [لسان العرب - مادة : دهم]

(٢) الخباء من وبر أو صوف ، وهو من بيوت الأعراب ، دون المظلة ، وهو على عمودين أو ثلاثة ، وقد يستعمل فى المنازل والمساكن ، ومنه الحديث : أنه أتى خباء فاطمة وهى فى المدينة ، يريد منزلها . [قاله ابن منظور فى لسان العرب - مادة خبا] .

(٣) الرذال : هو الردىء من كل شىء . والرذال : ما انتُقِى جيده وبقى رديئه ، والأرذل من كل شىء : الردىء منه . [لسان العرب - مادة : رذل] .

ثم قام الأفعى الجرهمى واستدعى الراعى الذى ذبح لهم الشاة ، وسأله : ما هذه الشاة التى ذبحتَها لنا ؟ فقال له : ماتت أمها بعد ولادتها ، ولم يكُنْ عندنا شياه مرضعة ، فأرضعتُها من كلبة ، ثم سأل كهرمانه عن الشراب فقال : هو من العنبة التى زرعْتَها على قبر أبيك ، فلم يَبْق إلا أنْ يسأل عن نسبه إلى أبيه ، فذهب إلى أمه وقال لها : يا أمى ، أخبرينى مَنْ أنا ؟ ومَنْ أبى ؟ فأحسَّتْ الأم أنه سمع شيئاً فقالت له : لقد كان أبوك مَلِكاً مطاعاً ، وذا نعمة ومال ، إلا أنه لم ينجب ، فخشيتُ أنْ يذهب هذا الملْك وهذا المال إلى غيره ، فحدث ما حدث .

عندها عاد إلى ضيفانه وقال لهم : لم تعودوا فى حاجة إلىَّ ، وإنما يصبح الناس جميعاً فى حاجة إليكم . فإنْ سألتَ الآن : وكيف عرف هؤلاء ما عرفوا ؟ نقول : إنها فراسة وقوة ملاحظة تدخل تحت هذه الآية ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ۝١﴾ [فاطر]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿مَّا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٢﴾

ما دام أنه - سبحانه وتعالى - هو الخالق ، فمقتضى الخَلْق أنْ يوفر الله للمخلوق ما يصلحه ، فهو أولاً يحتاج إلى رحمة فى بقاء حياته ؛ لذلك يُنزل سبحانه المطرَ فيحيى الأرضَ بالنبات ليزرع الإنسان ويأكل ويشرب ، وهذا قوام حياته المادية ، ثم يوفر له أيضاً قوامَ حياته الروحية المعنوية ، فيُنزل عليه ما يحفظ قيمه ، وما يُنظم

حياته بأدب مع غيره ، وهذا هو المنهج الذى قال الله فيه ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ (٣٢)﴾ [الزخرف]

وهذه الرحمة إنْ أرادها الله بعبد ، فلا أحدَ يمنعها عنه ﴿مَا يَفْتَحِ (٢)﴾ [فاطر] يعنى : يعطى ويمنح ﴿فَلا مُمْسِكَ (٢)﴾ [فاطر] فلا مانع ولا حابس لها ﴿وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ (٢)﴾ [فاطر] لا معطى ﴿لَهُ مِنْ بَعْدِهِ (٢)﴾ [فاطر] أى : من بعد الله .

وتأمل الأسلوب القرآنى فى ﴿مَا يَفْتَحِ (٢)﴾ [فاطر] مقابلها يغلق ، لكن الحق سبحانه لم يَقُل : وما يغلق ، إنما ﴿وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ (٢)﴾ [فاطر] لماذا ؟ قالوا : لأن المغلَق ربما تمكَّن أحد من فتحه بالحيلة أو بالقوة ، أما ﴿مَا يُمْسِكْ (٢)﴾ [فاطر] فلا أحدَ يستطيع أنْ ينال شيئاً أمسكه الله .

ومن معانى هذا الفتح وهذه الرحمة : الرسالة التى خَصَّ الله بها سيدنا رسول الله ؛ لذلك قال الكفار ﴿لَوْلا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١)﴾ [الزخرف]

وقالوا : ﴿ءَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا (٨)﴾ [ص]

فردَّ الله عليهم :﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. (٣٢)﴾ [الزخرف]

يعنى : تأدبوا مع الله ، فهو الذى قسم لكم أمور الدنيا وأمور المعايش ، أيترك لكم ولأهوائكم أنْ تُقسِّموا الوحى ، وأنْ تجعلوه ينزل على مَنْ تهوون ؟

والفتح : إزالة حاجز بين شيئين ، ومنه حسىٌّ كما نفتح الباب

أو الشنطة مثلاً ، كما ورد فى القرآن : ﴿ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ (٦٥) ﴾ [يوسف]

وقد يكون الفتح أمراً معنوياً كالفتح بالخير ، أو بالرحمة كالوحى الذى اختص الله به سيدنا رسول الله ﷺ ، ومنه قوله تعالى : ﴿ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ (٧٦) ﴾[البقرة] يعنى : من الوحى الموجود فى التوراة من صفة النبى ﷺ ، هذا فَتْح معنوى بالخير وبالبركة .

ومن معانى الفتح : الفصل وفضّ الإشكال بين الخصوم ، كما فى قوله سبحانه : ﴿ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ (٨٩) ﴾ [الأعراف]

وعلَّة قوله تعالى : ﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا .. (٢) ﴾ [فاطر] ، لأنه سبحانه واحد لا شريك له ، ولا إله غيره ، فلو كان معه إله آخر لكان له رأى آخر ، أمَّا الحق سبحانه وحده فيتصرف فى مُلْكه تصرُّف مَنْ لا شريكَ له ، وإلا فكيف يثق بأنه حين يقول للشىء كُنْ فيكون أن الشىء يطيعه ؟

فالله يقول هذا الأمر ، وهو يعلم أن الشىء سيطيع ، فلا أحدَ يستطيع أنْ يقول له لا تطع ، لذلك أول مَنْ شهد بالألوهية والوحدانية الواحدة هو الله سبحانه ، شهد بها لنفسه سبحانه ، فقال : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ (١٨) ﴾ [آل عمران] وهذه شهادة الذات للذات ، لذلك أقبل على الأشياء بكُنْ فكانت ، وسمعت ، وأطاعت ، ونفذت .

واقرأ : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ (١) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٢) ﴾ [الانشقاق] يعنى : سمعتْ بوعى وحَقّ لها أنْ تسمع ، وأن تطيع ؛ لأنه ليس لها إله آخر يعارضها إنْ أطاعتْ .

وبعد أنْ شهد الحق سبحانه لنفسه شهادة الذات لذات شهدتْ بذلك الملائكةُ شهادةَ المشاهدة ، ثم شهد أولو العلم شهادةَ التدليل : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ .. (١٨) ﴾ [آل عمران]

ثم تُذيَّل الآية بقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢) ﴾[فاطر] نعم ، مادام أنه تعالى إله واحد لا شريك له ، يرسل رحمته لمن يشاء ، ويمسك عَمَّنْ يشاء فهو عزيز ، والعزيز هو الذى لا يُغْلَب ولا يُمَانع ، لكن هذه العزة وهذه الغلبة ليست صادرة عن بطش أو ظلم أو جبروت ، إنما صادرة عن حكمة ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢) ﴾ [فاطر] فهو سبحانه حكيم فى عطائه ، حكيم فى منعه ، والحكمة ـ كما قلنا ـ هى وَضْع الشىء فى موضعه المناسب .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٣) ﴾

الحق سبحانه يمتنُّ على عباده ويُذكِّرهم بنعمه عليهم ، ويذكر أول هذه النِّعم ، وهى نعمة الخَلْق من عدم ، وأراد سبحانه أنْ يبرز لهم هذه المسألة إبرازاً يشاركه - سبحانه وتعالى - فيه ، فلم يأت الأسلوب فى صورة الخبر : أنا خلقتكم . إنما جاء فى صورة الاستفهام ليقولوا هم ويُقِرُّوا ﴿ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ (٣) ﴾ [فاطر]

ومعلوم أن الخبر عُرْضة لأنْ يُكذَّب ، أمّا الاستفهام فلا تستطيع أن تكذبه ، وأنت لا تستفهم عن شيء فعلْتَه إلا إذا كنتَ واثقاً أن الإجابة ستأتى على وَفْق مرادك ، فحين ينكر شخصٌ جميلَك لا تقول له : فعلتُ لك كذا وكذا ؛ لأنه ربما كذَّبك ، إنما تقول : ألم أُقدِّم لك كذا يوم كذا ؟ حينئذ لا يستطيع إلا أن يُقرَّ بجميلك ، فلن يجد إجابة عن سؤالك إلا الإقرار .

كذلك الحق سبحانه يُقرِّرهم بنعمه ليكون الإقرارُ حجةً عليهم ويسألهم ، وهو سبحانه أعلم ﴿ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم ﴿٣﴾ ﴾[فاطر] ثم يذكر هو سبحانه النتيجة ﴿ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ ﴿٣﴾ ﴾[فاطر] ولم يقولوها هم؛ لأنهم (مربوكون) وكان المنطق : ما دام هو سبحانه الخالق الرازق فعليهم أنْ يؤمنوا به ، وقالها سبحانه بصيغة الغائب ﴿ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ ﴿٣﴾ ﴾[فاطر] ولم يقُلْ إلا أنا ، كأنه سبحانه هو الشاهد فى هذه المسألة ، كأنه يتكلم عن الغيب .

وقوله ﴿ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾ ﴾[فاطر] يعنى : كيف بعد هذا تُصرفون عن توحيده وعن الإيمان به ، وتُؤفكون من الإفك ، وهو قَلْبُ الشيء عن موضعه وصَرْفه عن محله ، ومن ذلك المؤتفكة ، وهى القرى التى أهلكها الله ، فجعل عاليها سافلها ، وقَلَبها على وجهها .

والإفْكُ أيضاً بمعنى الكذب ؛ لأنه يقلب الحقيقة ، فكأن الحق سبحانه يقول لهم : كيف تقلبون الحقائق ؟ وكيف تصرفون خَلْق الله ورِزْق الله إلى غيره سبحانه ؟ يعنى : قولوا لنا علّة ذلك .

وبعد أنْ تكلَّم الحق سبحانه عن الوحدانية والألوهية أراد أنْ يتكلم سبحانه عن مُرْسَل الألوهية إلى الخَلْق :

﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤﴾ ﴾

هذه تسلية لسيدنا رسول الله ، كما خاطبه ربه بقوله : ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ ﴿٩﴾ ﴾ [الأحقاف] لستَ أول رسول يُكذِّبه قومه ، فمن قبلك كذَّبوا ، وهذا أمر طبيعى ؛ لأن السماء لا ترسل رسولاً إلا حين يعمُّ الفساد ، ويفتقد الناسُ الوازعَ والرادع ، لا من النفس للنفس ولا من المجتمع .

وقلنا : إن الخالق سبحانه جعل فى النفس الإنسانية رادعاً ذاتياً يردعها حين تخرج عن منهج ربها ، وهى النفس اللوامة ، فإنْ توارتْ هذه النفس وغلبتْ عليها النفس الأمَّارة بالسوء جاء دور المجتمع الذى يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، فإنْ فسد المجتمع فلا بُدَّ أنْ يأتى رسول جديد بمعجزة جديدة ليجدد للناس ما غفلوا عنه من دين الله .

وكوْنُ رسالة محمد هى الخاتمة ، فلا رسول بعده ، هذه شهادة لأمته أنها سيظل فيها الخير ، وستظل مأمونة على دين الله .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤﴾ ﴾[فاطر] أى : فى الآخرة ، فمَنْ كذَّبك من قومك إمَّا أنْ يأخذه الله فى الدنيا كما أخذ المكذِّبين من الأمم السابقة ، وإما أنْ يُؤخِّر له العذاب فى الآخرة .

بعد ذلك يتكلم الحق سبحانه عن الأصل الثالث من أصول التشريع ، فبعد أنْ تحدث عن الألوهية والوحدانية ، وتحدَّث عن الرسول ، يتحدث عن المسألة الثالثة التى اختلفوا فيها ، وهى البعث والحَشْر والحساب :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ٥ ﴾

يعنى : وعده حَقٌّ فى أنكم ستُردُّون إلى الله فى الآخرة ، فيحاسبكم ويُجازيكم ، المحسن بإحسانه والمسىء بإساءته ، وهذا مبدأ معروف ومعمول به فى كل المجتمعات ، حتى البدائية منها ، وحتى الملاحدة يعملون بهذا المبدأ ، فيعطى المُجدَّ ويعاقب المقصِّر ، بل بعض هؤلاء يضعون قوانينَ للثواب والعقاب أصرم وأشدّ من قوانين الله ، مثل قوانين الإعدام والشنق ومصادرة الأموال .. إلخ .

والمجتمع لا يستقيم أمره إلا بهذا المبدأ ، فإن اختلَّ تطبيقه فَسَد المجتمع ، وأُحْبط الأفراد ، وعمّتْ الفوضى ، ولم لا والمحسن لا يأخذ ثمرة إحسانه ، والمجرم لا يُعاقب على جريمته ؟ إذن : لا بُدَّ أنْ نربى فى الناس وازعَ الرغبة فى الخير ، والرهبة من الشر ؛ ليزداد المحسن فى إحسانه ، ويرعوى المسيىء عن إساءته .

وكيف لا يُقبل هذا المبدأ فى عالم ملىء بالمظالم والتعديات والبطش والجبروت ، ثم لا يأتى الوقت الذى ينال فيه كُلٌّ ما يستحقه ؟

لذلك كثيراً ما أذكر ما دار بيننا وبين الشيوعيين الذين ينكرون مسألة البعث والحساب ، فكنتُ أقول لهم : لقد أخذتم أعداءكم وقتلتموهم ، وصادرتم أموالهم ، وفعلتم بهم الأفاعيل ؛ لأنهم فى نظركم غيَّروا مقاييس العطاء ، فما بال مَنْ فعلوا هذا وظلموا ، لكنهم أفلتوا منكم ، ولم تَطُلْهم أيديكم بعقاب ؟

وما بال الظالمين قبلكم وبعدكم ؟ أليس من الصواب القوْلُ بموعد

يجمع هؤلاء جميعاً للحساب ، حيث ينال كل منهم جزاءه ؟ أليس هذا الجزاء يسعدكم ويُثلج صدوركم حين ترونَ الظالم يُؤخذ بظلمه .

إذن : كان عليكم أنْ تؤمنوا بهذا اليوم ، لا أنْ تنكروه وتكفروا به، وهو يقوم على نفس المبدأ الذى تنادون به أنتم .

لذلك تلحظ أن النداء هنا لكل الناس : ﴿ يَـأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴿٥﴾ ﴾[فاطر] أى : وعده بالقيامة والبعث والحساب ، فهذه مسألة يُخاطب بها كل الناس ، ووَعْد الله حَقٌّ ؛ لأن الوعد يأخذ حقيَّة من الواعد ، ومن قدرته على إنفاذ وعده ، ومَنْ أقدرُ من الله ؟

إذن : ينبغى أن نثقَ فى الوعد إنْ جاء من الله سبحانه ، ولا نثق فى وعد مَنْ لا قدرةَ له فى ذاته .

وسبق أنْ بيَّنا أن الإنسان يَعد وينوى الوفاء وقت الوعد ، لكنه لا يملك أسباب الوفاء ، فربما طرأ عليه طارىء ، أو تغيَّرت الظروف ، فحالتْ بينه وبين الوفاء بوعده ؛ لذلك يُعلمنا ربنا أدباً عالياً فى هذه المسألة فى سورة الكهف ، فيقول سبحانه : ﴿ وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ ..﴿٢٤﴾ ﴾ [الكهف] فتعليق فعْلك على مشيئة ربك يُعفيك من الكذب إنْ عجزْتَ عن الوفاء ، فلكَ أن تقول : نويتُ الوفاء ، لكن الله لم يشأ .

لذلك لا يُوصَف وعد بالحقية إلا وعد الله ؛ لأنه سبحانه وحده الذى يملك كل أسباب الوفاء بوعده . ولا يعوقه عن الوفاء شىء ، ولا يمانعه أحد .

وما دام أن وعد الله حَقٌّ ﴿ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴿٥﴾ ﴾[فاطر] لا تخدعنّكم ؛ لأن الناس طبائع ، منهم مَنْ يغتر بثناء الناس عليه ،

ومنهم مَنْ يغتر فى ذاته ، وهذا هو الذى تغرُّه الحياة الدنيا بشهواتها ، فيعيش فيها بلا تكاليف وبلا التزامات ، كما فعل الكفار حين عبدوا الحجارة ، لأنها آلهة بلا تكاليف .

لذلك يحذرنا ربنا : لا تخدعنكم الدنيا عن شىء آخر أعلى منها هو الآخرة ، ويكفى ذَماً لهذه الحياة أن الله تعالى سماها دُنْيا ، والمقابل للدنيا حياة عليا هى الآخرة ، فالمعنى : لا تخدعنكم الدنيا عن مطلوب الله الذى يؤهلكم لحياة أخرى عُلْيا .

وسبق أنْ بيَّنا أن الدنيا بالنسبة للإنسان هى مدة بقائه فيها ، لا عمر الدنيا كله ، وعمرك فى الدنيا رغم قصَره هو عمر مظنون ، ونعيمك فيها على قدر حركتك فيها ، أما عمرك فى الآخرة فمتيقن ، ونعيمك فيها على قدر إمكانات الله ، وأنت مهما بلغتَ من نعيم الدنيا يُنغِّصه عليك أنْ يزول ، إما أن تتركه أنت وتموت ، أو يتركك هو فتظل فى الدنيا رغم غنَاك وتمتعك بها ، مُؤرَّقاً مشغولَ البال خائفاً من فوات النعمة ، أما فى الآخرة فالنعمة باقية دائمة ، لا مقطوعة ولا ممنوعة . إذن : إنِ اغتررتَ بالدنيا فأجْرِ هذه المقارنة .

لذلك ، لما تكلَّم الحق سبحانه عن هذه الحياة وصفها بأنها دُنْيا ، ولما تكلم عن الآخرة قال : ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٦٤) ﴾ [العنكبوت] فمعنى الحيوان أى : الحياة الحقيقية الباقية التى لا يهددها موْتٌ ولا فناء ، فيجب - إذن - أنْ تتنبه ، وأنْ تختار البديل الأرجح والأنفع لك ؛ لذلك نقول للذين اعتمدوا على الله وعاشوا فى كَنَف الله وعلى منهج الله نقول : إنهم عرفوا كيف يسوسون حياتهم ، فأخذوها من أقصر الطرق ، ونَصِف هؤلاء بالمكر ، والمراد المكر العالى المكر الحسن .

وفى موضع آخر ، يُبيِّن الحق سبحانه لنا حبائلَ الدنيا ووسائل

غرورها ، فيقول سبحانه : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ [1] وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (١٤) ﴾ [آل عمران]

وقوله سبحانه :﴿ وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ (٥) ﴾ [فاطر] أى : الشيطان ، فالخداع والغرور إما أن يكون من النفس ذاتها بدون مؤثر خارجى ، وإما أنْ يوجد شيطان سُوء يغرُّك ويُوسوس لك ، إذن : أنت أمام عدوين ، إما الدنيا بشهواتها ، وإما الشيطان بهَمْزه ونَزْغه ، وقد حذرنا ربنا منه ، فقال : ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٠٠) ﴾ [الأعراف]

تعنى : تنبه لهذا العدو ، وكُنْ منه على حذر ، فعداوته لك مُسْبقة منذ أبيك آدم ، وكُرْهه لك واضح مُعْلَن ، فينبغى أنْ يكون لك معه موقف ؛ لذلك يقول تعالى بعدها :

﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ (٦) ﴾

ما دام أنه عدو لك مُعْلِن العداء ، فلا يجوز لك أنْ تهادنه أو تستكين له وتطيعه ؛ لأنك حين تطيعه يستمرئ عداوته ضدك ، إذن : لا بُدَّ أنْ تعاديه ، وأنْ تُوقفه عند حدِّه ، كيف ؟ أضعف الإيمان أنْ لا تطيعه ، فإنْ أردتَ أن تكون أقوى منه فانتقم منه وغِظْه بأنْ

---

(١) الخيل المسومة . أى : المرسلة للرعى أو المعلَّمة بعلامات . [القاموس القويم ١/٣٣٧] .
وقال ابن عباس : المسوّمة الراعية والمطهمة الحسان . وقال مكحول : المسومة الغرة والتحجيل . والمطهَّم من الخيل : الحسن التام ، كل شىء منه على حدته فهو بارع الجمال.
[قاله ابن منظور فى لسان العرب – مادة : طهم] .

تتجه إلى مقابل ما يطلب منك ، فهو يأمر بالسوء ، فافعل أنت الحسن يأمرك بالشر ، فاجتهد فى الخير ، وكأنك تسخر منه وتُلقِّنه درساً لا يملك بعده إلا أنْ ينصرف عنك ؛ لأنك وظَّفْتَ عداوته لصالحك وانتفعتَ بها ، وهذا ما يغيظه .

وتستطيع أنْ تأخذ بهذا المبدأ مع أىِّ عدو آخر ، سواء أكان من شياطين الإنس أو شياطين الجن ، تستطيع أن تجعل من عداوته لك حافزاً على الخير وعلى عشق كل ما هو جميل ، فالعاقل مَن استفاد من عدوه أكثر من استفادته من صديقه .

وصدق القائل[1] :

عدَاىَ لَهُمْ فَضْلٌ علىَّ ومِنَّةٌ ... فَلا أذهب الرحمَنُ عنِّى الأعَادِيا

هُمُوا بَحَثُوا عَن زَلَّتى فَاجْتنبْتُها ... وهُمْ نافَسُونِى فاكتسبْتُ المَعَالِيا

فالمؤمن الحق يستطيع أن يستفيد من عداوة أعدائه فى نواحٍ كثيرة ، فهو مثلاً يعمل ويجتهد ليتفوق على عدوه ، لا أنْ يتكاسلَ حتى يكون دونه منزلةً ومرتبةً ، يجتنب المعايب وأفعال السوء حتى لا يعطى لعدوه فرصة أنْ يشمت فيه .. إلخ

كذلك نقول : إن بعض الصفات المذمومة فى الناس فيها جوانب خير لو تأملناها ، فالبخيل مثلاً مكروه من الجميع ، لكن حين تتأمل وضعه تجده هو الذى يُعين الكريم على كرمه ، كيف ؟ رأينا كثيراً فى القرى هذا النموذج : رجل كريم لا يساعده دَخْله على القيام

---

(١) القائل هو أبو حيان الأندلسى ، وهو محمد بن يوسف بن على ، ولد ٦٥٤ هـ ، سمع الحديث بالأندلس وإفريقية والإسكندرية ومصر والحجاز من نحو ٤٥٠ شيخاً ، كان صدوقاً حجة سالم العقيدة من البدع ، توفى بالقاهرة عام ٧٤٥ هـ عن ٩٠ عاماً . والبيتان من قصيدة له فى ديوانه ، وهو ينتمى إلى العصر المملوكى .

بمتطلبات هذا الكرم وتبعاته من السماحة والبذل والعطاء والمجاملة .. إلخ ، فكان كل فترة يبيع قطعةَ أرض لينفق منها ، فلمَنْ يبيع الكريم أرضه إذا لم يكن هناك البخيل الممسك ؟ فكأن البخيل يعين الكريم على كرمه .

وإذا كان الكريم يأسرك بكرمه وتدان له بجميله ، فليس للبخيل جميل عليك ، ولست أسيراً له في شيء ؛ لذلك عبَّر الشاعر عن هذا المعنى ، فقال :

جُزِىَ البخيلُ علَىَّ صالحةً منِّى لخِفَّتِه على ظَهْرِى

يعنى : ليس له جميل عندى يجعلنى عبداً لإحسانه .

ومعنى ﴿فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ﴾[فاطر] أن تشحن كل طاقاتك وكل مواهبك لتربِّى فيك المناعة اللازمة ضد إغراءاته ووسوسته لك بالسوء ، فإنْ أردتَ الارتقاء فى مناهضته ، فزدْ من الحسنات التى يكرهها ، فإنْ جاءك فى الصلاة ليفسدها عليك فَغِظْه بأنْ تخشع فيها ، وتزيد فى تحسينها .

﴿إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ۝٦﴾[فاطر] يعنى : أصبح له حزب وجماعة يحاول أنْ يُكثِّرها ؛ لذلك قال تعالى فى موضع آخر: ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ۝١٩﴾ [المجادلة]

ومعنى حزب : جماعة تعصَّبوا لفكرة يعملون من أجلها فى مقابل جماعة أخرى لهم مناهضات ، ويعملون هم أيضاً لفكرة تخدمهم .

والعلَّة فى أنه يدعو حزبه ليكونوا كثرة فيكثر المتخبطون فى منهج الله والخارجون عنه فى مقابل حزب الإيمان والطاعة ، هذه هى العلة .

أما قوله تعالى ﴿لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿٦﴾﴾[فاطر] فاللام هنا لام العاقبة ومعناها : أنك تريد الشيء لعلة ، لكن تنتهى إلى علَّة أخرى ضد مطلوبك .

وقوله : ﴿مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿٦﴾﴾[فاطر] دلَّ على أن بينهم وبين النار أُلْفة ، وأنها تريدهم وتعشقهم حتى صارتْ بينهما مصاحبة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾﴾

بعد أن ذكر الحق سبحانه حزبَ الشيطان يذكر الحكم عليه ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٧﴾﴾[فاطر] وفى المقابل ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾﴾ [فاطر]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾﴾

الأسلوب فى ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ ﴿٨﴾﴾[فاطر] أسلوب استفهام ، لكن لم يذكر المقابل له ، وتقديره هل يستوى ، ومَنْ لم يُزين له سوء عمله ؟

والحق سبحانه لم يذكر جواباً لأنه معلوم ، ولا يملك أحد إلا أن يقول لا يستويان ، لأن الناس منهم مَنْ يعمل السيئة ، ويعلم أنها سيئة ، ويكتفى بها لا يتعداها ، ومنهم مَنْ يتعدَّى فيفعل السيئة ويدَّعى أنها حسنة ، وهذا مصيبته أعظم لأنه ارتكب جريمة حين فعل السيئة ، وارتكب جريمة أخرى حين ادعى أنها حسنة ، هذا معنى : ﴿ فَرَآهُ حَسَنًا ﴿٨﴾ ﴾[فاطر] ، وهذا اختلال فى الرؤية وضلال .

لذلك يقول تعالى بعدها : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِى مَن يَشَاءُ ﴿٨﴾ ﴾[فاطر] وهذه الآية وقف عندها كثيرون ، يقولون : إنْ كان الله هو الذى يهدى ، وهو الذى يُضل . فلماذا يُحاسب الإنسان ؟ ولا بُدَّ لتوضيح هذه المسألة أنْ نُبين معنى يهدى ويُضل . يهدى يعنى : يدلُّه على طريق الخير ويرشده إليه ، وهذا الإرشاد من الله لكل الناس ، فمَنْ سمع هذا الإرشاد وسار على هُدَاه وصل إلى طريق الخير ، فكان له من الله العون وزيادة الهدى ، كما قال سبحانه :

﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾ ﴾ [محمد]

أما الذى أغلق سمعه فلم يسمع ولم يَهْتَدِ فضَلَّ الطريق وانحرف عن الجادة ، فأعانه الله أيضاً على غايته ، وزاده ضلالاً ، وختم على قلبه ليكون له ما يريد ، فلا يدخل قلبه إيمانٌ ، ولا يخرج منه كفر ، وهؤلاء قال الله فيهم : ﴿ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [البقرة]

لذلك يقول تعالى عن قوم ثمود :﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ ﴿١٧﴾ ﴾ [فصلت]

فمعنى ﴿ هَدَيْنَاهُمْ ﴾ يعنى : دللناهم وأرشدناهم لطريق الخير ،

ولكنهم رفضوا هذه الدلالة وعارضوا الله فضلُّوا فأضلهم الله . يعنى : زادهم ضلالاً .

وسبق أنْ أوضحنا هذه القضية وقلنا : هَبْ أنك تريد أنْ تذهب إلى مكان ما ، ووقفتَ عند مفترق الطرق لا تدرى أيهما يُوصِّلك إلى غايتك فذهبتَ إلى رجل المرور تسأله أين الطريق ، فدلَّك عليه فشكرته وعرفتَ له جميله ، فلما رآك مُطيعاً له ، شاكراً لفضله قال الله : لكن أمامك فى هذا الطريق عقبة سأسير معك حتى تتجاوزها ، هكذا يعامل الحق سبحانه المهتدين : ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧) ﴾ [محمد]

وقد خاطب الحق سبحانه نبيه ﷺ بقوله : ﴿ إِنَّكَ لا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَـٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَاءُ (٥٦) ﴾[القصص] وخاطبه بقوله: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِى إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٢) ﴾[الشورى] فأثبت له ﷺ الهداية بمعنى الإرشاد والدلالة ، لكن نفى فى حقِّه الهداية بمعنى المعونة على الهدى ، فالذى يُعين هو الله .

ثم إن الحق سبحانه لم يترك هذه المسألة هكذا ، إنما بيَّن مَنْ يهديه ومَنْ يُضلُّه ، فقال سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٦٧) ﴾[المائدة] وقال :﴿ وَاللَّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٥) ﴾[الصف] وأىُّ هداية للإنسان بعد أنْ كفر بالله ، وفَسَق عن منهجه ، وأفسد فى البلاد ، وظلم العباد ؟

وقوله تعالى : ﴿ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ (٨) ﴾[فاطر] يعنى : لا تُهلك نفسك حسرة على عدم إيمانهم ، وهذا المعنى شرحه الحق سبحانه فى قوله : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَـٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا (٦) ﴾ [الكهف]

فرسول الله ﷺ كان حريصاً على هداية قومه ، يألم أشدَّ الألم حين يشرد أحد منهم عن طريق الإيمان ؛ لذلك قال تعالى عن نبيه محمد : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٢٨) ﴾ [التوبة]

ثم يقول سبحانه مُسلِّياً رسوله ﷺ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٨) ﴾ [فاطر] يعنى : لا تَخْفى عليه خافية من أفعالهم ، وسوف يجازيهم ما يستحقون من عقاب على قَدْر ما بدر منهم من إعراض ، فاطمئن ولا تحزن .

بعد ذلك ينقلنا الحق سبحانه إلى بعض الآيات الكونية الخاصة بنعمه سبحانه على الخَلْق ، فيقول تعالى :

﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ النُّشُورُ (٩) ﴾

معنى : يرسل الرياح يعنى : يحركها ، وبتحريك الرياح يتم استيعاب خير الوجود كله ، ألاَ ترى أن الريح إذا سكنتْ يتضايق الإنسان ويحاول تحريكها بنفسه بيده أو بالمروحة مثلاً ؛ لأن حيِّزَك فى التنفس لا يتم إلا بتحريك الهواء ، وتغيير ثانى أكسيد الكربون ليحل محلَّه الأكسوجين ، ولا تتم هذه العملية إلا بتحريك الهواء ؛ لذلك يقولون : إذا لم يمرّ عليك الهواء فمُرّ أنت عليه . يعنى : حرِّكه أنت .

ونتيجة حركة الرياح إثارة السحب ﴿ فَتُثِيرُ سَحَابًا (٩) ﴾ [فاطر] يعنى : تُهيِّجه وتُحركه من أماكنه ، بحيث يذهب بعد تجمُّعه إلى حيث أراد الله أنْ ينزل المطر ، إذن : حركة السحاب ليست ذاتية ، وإنما

تابعة لحركة الرياح ، وهذه المسألة تساعدنا فى فهم قوله تعالى :

﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ (٨٨) ﴾ [النمل]

فالجبال التى نحسبها ثابتة هى فى الحقيقة تمر وتتحرك كحركة السحاب ، وكما أن السحاب لا يمر بذاته ، إنما بحركة الرياح ، كذلك الجبال لا تمر بذاتها ، إنما بحركة الأرض والجبال ثابتة على الأرض كالأوتاد ؛ لذلك تتحرك بحركتها : ﴿ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ (٨٨) ﴾ [النمل]

البعض لم يفطن إلى حركة الأرض التى تتبعها حركة الجبال ، فقال فى قوله تعالى : ﴿ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ (٨٨) ﴾[النمل] أن هذا فى الآخرة ، لكن أين هى الجبال فى الآخرة والله يقول عنها : ﴿ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ[1] (٩) ﴾[المعارج] ثم ، كيف يمتنُّ الله عليها ويحتج ببديع صُنْعه فى حركة الجبال فى الآخرة ، حيث لا تكليف ، ولا موضع لتحنين القلوب وعَطْفها إلى الإيمان .

هذا عن حركة الرياح ، أما عن سكونها ، فيقول تعالى : ﴿ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ[2] عَلَىٰ ظَهْرِهِ (٣٣) ﴾ [الشورى] والمراد : السفن التى تُسيِّرها الرياح ، فإنْ قُلْتَ : فهل يظل لهذه الآية هذا المعنى بعد التطور الذى طرأ على السفن ، وبعد أنْ تلاشتْ القلاع وحَلَّ محلها الآلات التى تُسيِّر السفن دون حاجة إلى حركة الهواء ؟

---

(١) العهن : الصوف المصبوغ بأى لون أو بألوان مختلفة ، قال تعالى : ﴿ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ (٩) ﴾ [المعارج] كالصوف ذى الألوان المختلفة . [القاموس القويم ٢/٤٠] .

(٢) ركد الماء والريح : هدأ وسكن . وركدت السفينة : هدأت بعد اضطرابها . أو سكنت حركتها لسكون الريح التى تسيِّرها . [القاموس القويم ١/٢٧٤] .

نقول : نعم ستظل الآية تحمل هذا المعنى إلى ما شاء الله ؛ لأن الاختراعات الحديثة لم تفاجىء خالقها عز وجل ، ومَنْ قال : إن الريح هو الهواء ؟ الريح هو القوة أياً كانت ، واقرأ قوله تعالى : ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ (٤٦)﴾ [الأنفال] يعنى : قوتكم أيّاً كانت قوة هواء ، أو قوة كهرباء ، أو قوة بخار ومحركات .. الخ

ونلحظ فى أسلوب هذه الآية أن الفعل ﴿أَرْسَلَ (٩)﴾[فاطر] جاء فى صيغة الماضى ، لكن (تثير) فى صيغة المضارع ، ولم يقل سبحانه : فأثارت سحاباً ، قال : أرسل يعنى : أمر أنْ ترسل ، فهذه مسألة انتهت وفُرغ منها ، أما إثارة السحاب وتحريكه فمسألة مُتجدِّدة مستمرة فى كل لحظة ، فناسبها المضارع الدال على الحال والاستقبال .

أو : أن المعنى ﴿وَاللَّهُ الَّذِى أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا (٩)﴾[فاطر] جاء فى الماضى ؛ لأن الكلام عن الغيب ، والاسم الظاهر غيب وهو لفظ الجلالة ، ثم انتقل من الغيب فى ﴿أَرْسَلَ الرِّيَاحَ (٩)﴾[فاطر] إلى مقام المتكلم ، فقال ﴿فَسُقْنَاهُ (٩)﴾[فاطر] كأن الله يلفتك بالنعمة إلى غيب هو الله تعالى ، فحين تستحضر أنه الله الذى فعل أصبحْتَ أهلاً لمكالمة الله لك .

ومثال ذلك ما قُلْنا فى سورة الفاتحة : ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ (١) الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ (٣) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤)﴾[الفاتحة] هذا كله غيب إلى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥)﴾ [الفاتحة]

ولم يقُلْ : إياه نعبد لينقلك من الغيب إلى الخطاب المباشر معه سبحانه ؛ لأنك أصبحتَ أهلاً لأنْ تخاطبه ويخاطبك بعد أنْ آمنتَ بالحيثيات الأولى فى ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٢ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝٣ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ۝٤﴾ [الفاتحة]

ومعنى ﴿فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ ۝٩﴾[فاطر] يعنى : سُقْنا السحاب ، أو سُقْنا الماء بعد نزوله فى جداول وأنهار إلى الأرض التى لا نَبْتَ فيها ، والتى يمكن أن تنتفع به ، وهذا أدلّ على قدرة الله ، وتأمل مثلاً ماء النيل الذى يروى السودان ومصر أين نزل ؟ وهذا دليل على أن رزقك سيأتيك مهما بَعُد عنك مصدره .

فإذا ما استقر الماء فى الأرض كانت النتيجة ﴿فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۝٩﴾[فاطر] يعنى : أحييناها بالنبات ، ثم يجعل الحق سبحانه من نِعَم إحياء الأرض الميتة دليلاً على نعمة أخرى موصولة فى الآخرة ، فيقول سبحانه : ﴿كَذَٰلِكَ النُّشُورُ ۝٩﴾[فاطر] يعنى : البعث يوم القيامة وإحياء الموتى من قبورهم .

فَخُذْ مما تشاهد من إحياء الأرض الميتة دليلاً على صدق ما غاب عنك ، فكما أن الماء ينزل على الأرض الميتة فَيُحييها ، كذلك حين تنزل الروح على مادة الإنسان المدفونة فى الأرض يحدث لها النشور والبعث ، وتدب فيها الحياة .

وسبق أنْ بيَّنا أن العلماء لما حللوا جسم الإنسان وجدوه مُكوَّناً من ستة عشر عنصراً . أولها : الأكسوجين . وآخرها : المنجنيز . وهى نفسها عناصر التربة التى ينمو فيها النبات .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾ ﴾

التأبِّى على الرسالات تأبٍّ على أن يكون المؤمن الذى يُكلَّف بتكليفات تبَعاً لرأى غيره وطَوْع أمره ، والرسول ما جاء إلا ليقول لنا (افعل كذا) و (لا تفعل كذا) ، وبعض الناس يرى فى هذه الطاعة خَدْشاً لكرامته وعزته ، فهو يريد أنْ يكون الأعلى الذى لا يأمره أحد ولا ينهاه ، وهؤلاء الذين تتحدث عنهم الآية يريدون أن تكون لهم العِزَّة فى نفوسهم .

والحق - سبحانه وتعالى - هنا يُصحِّح لهم معنى العزة ويُبيِّن غباءهم ، فيقول سبحانه : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ ﴿١٠﴾ ﴾ [فاطر] أى : العزة الحقيقية لا المدَّعاة : ﴿ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴿١٠﴾ ﴾[فاطر] فالعزة الحقيقية ألاَّ تكون مغلوباً ولا مقهوراً لأحد ، وهذه العزة لا وجودَ لها إلا فى رحاب الله ، فمهما بلغ الإنسانُ فى الدنيا من القوة والجبروت لا بُدَّ أنْ يُغلب ، ولا بُدَّ أنْ يقهره الموت ، فإنْ كنتَ مُغْرماً بعزة لا تزول ، فهى فى جنب الله .

لذلك فالله تعالى يُعلِّمنا الحكمة ، فيقول : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ ﴿٥٨﴾ ﴾ [الفرقان] يعنى : أنا أعلم بك وأعلم بضعفك ، وأنك فى حاجة إلى مَنْ تتوكل عليه ليقضى لك الأمور التى فوق طاقتك ، فإياك أنْ تلجأ إلى غيرى ، فأنا الباقى الذى لا يموت ، فإنْ توكلْتَ على

ضعيف مثلك ، فربما مات قبل أنْ يقضى لك حاجتك ، كذلك مَنْ أراد العزة فليكُنْ فى حضن الله يعتزُّ بعزَّته ، ويتقوَّى بقوته ، ومَنْ كان فى حضن الله يخلع الله عليه من صفاته ويفيض عليه .

لذلك سيدنا رسول الله يعطينا هذا الدرس ، وهو فى الغار ، ومعه الصِّدِّيق - رضى الله عنه - فيقول الصِّديق : يا رسول الله ، لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا ، فيقول سيدنا رسول الله وهو واثق بربه : « يا أبا بكر ما بالك باثنين الله ثالثهما »(١) وحكى عنه القرآن قوله : ﴿ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا (٤٠) ﴾ [التوبة]

فهذه الطمأنينة التى ملأتْ قلب رسول الله منشؤها معية الله له ولصاحبه ، وهذه المعية تقتضى أنْ يخلع الله عليهما من صفاته سبحانه ، فإذا كان الله تعالى لا يُرى ، فمَنْ كان فى معيته كذلك لا يُرى.

ومعنى ﴿ الْعِزَّةُ جَمِيعًا (١٠) ﴾[فاطر] يعنى : كل ألوان العزة ، وهذه المسألة من المسائل التى تكلَّم فيها المستشرقون ، يلتمسون فيها مأخذاً على كلام الله ، يقولون : إن الله يقول﴿ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا (١٠) ﴾[فاطر] وفى آية أخرى : ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ (٨) ﴾ [المنافقون]

ولا تعارض بين الآيتين ؛ لأن العزة فى الأصل لله ، وعزَّة الرسول من التحامه بالعزيز ، وعزة المؤمنين من التحامهم بعزيز العزيز ، فهى عزة موصولة من الله تعالى لمَنِ اعتزَّ به ، وأول مَنِ اعتزَّ بالله رسوله ، ثم المؤمنون به .

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٦٦٣) ومسلم فى صحيحه (٢٣٨١) من حديث أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، بلفظ : « يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما» .

ثم يقول سبحانه : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ ﴿١٠﴾ ﴾ [فاطر] دائماً نخاطب الله على جهة العلو ، مع أنه سبحانه فى كل مكان ، وليس له مكان ، لذلك يحتج البعض على هذه المسألة فيقول : كيف أن الله ليس له مكان ، وسيدنا رسول الله لما أراد الله أنْ يُكلِّمه أصعده إلى السماء السابعة ؟

نقول : كان الصعود لمكان الرائى لا لمكان المرئى ، فالرائى لا يرى إلا من هذا المكان ، فمثلاً لو أننا سمعنا الآن ضجة خارج المسجد ، وهذه النافذة التى تُطل على هذه الضجة عالية ، فماذا تفعل إنْ أردتَ أنْ تعرف ما يدور بالخارج ، لا بُدَّ لك أنْ تصعد هذا العلو لترى ما يحدث ، فالأحداث هى هى ، لكن مكان الرائى يختلف .

ومعنى ﴿ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ ﴿١٠﴾ ﴾ [فاطر] هذا وصف عام لكل كلام يدلُّ على منهج خير ، وقد أعطانا القرآن مثالاً لذلك فى قوله سبحانه : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا .. ﴿٢٥﴾ ﴾ [إبراهيم]

وقد حاول العلماء تحديد هذه الكلمة ، فقالوا هى : كلمة لا إله إلا الله وسبحان الله والحمد لله ولا قوة إلا بالله ، ولكن هذا التحديد يُضيِّق المعنى الواسع الذى أراده الله تعالى منها ، والأصوب أن نقول الكلمة الطيبة : كل كلام يؤدى إلى خير .

وقوله تعالى : ﴿ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴿١٠﴾ ﴾ [فاطر] بعد أن تكلم سبحانه عن صعود الكلم الطيب يتكلم عن رفع العمل الصالح ؛ لأن الإنسان قد يتكلم بالكلمة الطيبة دون أنْ تُؤدى مطلوبها ، ودون أنْ يترجمها إلى عمل ، وربما قالها نفاقاً مثلاً ، كالذين قالوا لا إله إلا الله

نفاقاً وفراراً من القتل ، ومع ذلك تصعد إلى الله ، فيقول الله احموه بهذه الكلمة دنياه ، ولا تتعرضوا له ما دام نطق بها ، إنما ليس له عليها جزاء فى الآخرة ؛ لأن الجزاء يتأتَّى من العمل الذى يخدم مدلول الكلمة ، فالعبرة إذن بالعمل والعمل الصالح ، فهو الذى يُرفع إلى الله ، ويحميك فى الدنيا ، ويحميك فى الآخرة ، ويجمع لك الخيرين .

ثم يذكر الحق سبحانه وتعالى المقابل : ﴿ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَـٰئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾ ﴾[فاطر] الفعل مكر يتعدى بحرف الجر نقول : مكر بفلان ومكَره يعنى : خدعه ويتعدَّى بنفسه كما فى ﴿ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ ﴿١٠﴾ ﴾[فاطر] وأصلها يمكرون المكْرات السيئات ، فهى وصف لمصدر مأخوذ من مادة الفعل مثل : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴿١٢٢﴾ ﴾[النساء] أى : الأعمال الصالحات . أو مكر : فعل مكراً ، فيكون المعنى : والذين فعلوا السيئات .

ثم يبين سبحانه جزاء المكر السىء : ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٠﴾ ﴾[فاطر] لماذا ؟ لأنك حين تمكر ، كأنك تريد أنْ تسرق شيئاً من الله ، وتظن أنه لن يدرى بك ، وغفلتَ أنك تُبيِّت المكر سراً ، وهو سبحانه يعلم السِّر والنَّجْوى ، وأنك حين تمكر وحين تُبيِّت تُبيِّت على قدر إمكاناتك ، وربك عز وجل كذلك يمكر ويُبيِّت على قدر إمكاناته ، وقدرته تعالى : ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الأنفال]

لذلك يبوء هذا المكر بالخسران وبالبوار ، كما قال سبحانه : ﴿ وَمَكْرُ أُولَـٰئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾ ﴾[فاطر] فهو مكْر بائر ، كالأرض البُوَار التى لا تنبت ولا تنتج ، ومنه قوله سبحانه : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ

كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ ﴾ [إبراهيم]

فهذا المكر الذى ظنه صاحبه ينفعه ، ويرفعه على خَصْمه ، ويجعل نفسه عالية عليه ، إذا به يبور ، ولا يؤتى ثماره ، ولَيْته يبور وتنتهى المسألة ، إنما ينقلب عليه ويجرُّ على صاحبه العذاب الشديد.

ومعنى ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٠﴾ ﴾[فاطر] اللام تفيد الملكية ، فهنا قلب يعنى : لهم عذاب أى : استحقوه وكأن العذاب يحرص عليهم كما يحرص الإنسان على ما يملك ، فهو عذاب ملازم لهم لا ينفك عنهم .

﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾

تعرضت هذه الآية لقضية الخَلْق الأول للإنسان الخليفة ، وهذا الخَلْق كان له مراحل ، فالإنسان الأول وهو آدم عليه السلام خُلق خَلْقاً أولياً من مادة الأرض ، وهى التراب الذى يُخلط بالماء ، فصار طيناً ، هذا الطين مَرَّ بأطوار عدة ، فالطين إنْ تركْتَه حتى يعطن وتكون له رائحة فهو الحمأ المسنون ، فإنْ تركته حتى يجفَّ ويتماسك فهو الصلصال ، فهذه - إذن - أطوار للمادة الواحدة التى صَوَّر الله منها آدم ، ثم نفخ فيه من روحه ، وهذا هو الخَلْق الأول الذى أخذ الله منه حواء ، ومنهما يتمُّ التناسل والذرية .

وقبل أنْ يتكلم الحق سبحانه عن خَلْق الإنسان تكلَّم عَمَّا خلقه الله للإنسان قبل أنْ يُوجد ، فتكلَّم سبحانه عن خَلْق السماوات والأرض ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴿١﴾ ﴾[فاطر] ثم تكلم عن الملائكة

الذين ينزلون بالوحى إلى الرسل من البشر ، ثم أنزل من السماء ماءً به تنبت الأرض .

هذه كلها مُقـوّمات حياة الإنسان ، أوجـدها الله له قبل أنْ يُوجده هو ، وضمن له مُـقومات حيـاته المادية والمعنوية الروحيـة ، المادية بالقوت طعاماً وشراباً وهواءً ، والروحـية بالمنهج والقرآن ؛ لذلك قال سبحانه: ﴿ الرَّحْمَـٰنُ ۝١ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝٢ خَلَقَ الإِنسَانَ ۝٣ ﴾ [الرحمن]

فالإنسان خُلق لغاية ، كالصـانع يحدد غاية الشىء المصنوع قبل أنْ يبـدأ فيه ، وقُـلْنا : إن الذى صنع (التليفـزيون) أو الثلاجـة لم يصنعها ثم قـال : انظروا فيمَ تُستخدم هذه الآلة ، إنما قـدَّر غايتها ، وحـدَّد هدفهـا قبل صناعـتهـا ، كذلـك الحق سبـحانه قـبل أنْ يخلق الإنسان قـدَّر حركته فى الحـياة وما يسـعده فيهـا ، فوضع له منهج القرآن قبل أنْ يُخلق ، ثم جاء خَلْق المادة بعد وَضْع المنهج .

والحق سبـحانه حـينما يتكلَّم عن خَلْق الإنسـان ، يقول : ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ۝١١ ﴾[فاطر] فجاء الأسلوب كأنه يتحدث عن غائب ، ولم يقُلْ سبحانه أنا خلقـتُكم ، فكأننا نقول : الله خلق الإنسان من تراب ؛ ذلك لأن وسائل الخطاب بين متكلم ومخاطب تأتى على ثلاث صور : ضمير المتكلم أنا ، أو ضمير المخاطب أنت ، أو ضمير الغائب هو .

فالمتكلم حين يتكلم يقول : أنا فعلتُ . من الجائز أن يُكذِّب ، فإنْ خُـوطِب : أنت فـعلت . من الجـائز أنْ يُنافق ، لكن إذا جـاء الأسلوب بصيـغة الغائب : هو فـعل ، فقد برئنا من الادعـاء فى المتكلم ، ومن النفاق فى المخاطب .

وحين نقول هو خلق يعنى : ليس هناك غـيره ، وسبق أن قلنا :

إن ضمير الغائب (هو) لا ينصرف إلا إلى الحق سبحانه وتعالى .

وإذا استقرأتَ آيات الخَلْق فى القرآن الكريم تجدها بأسلوب الغيبة فى مائة وسبع آيات ، بداية من قوله تعالى فى سورة البقرة : ﴿هُوَ الَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى الأَرْضِ جَمِيعًا (٢٩)﴾[البقرة] وآخره سورة الفلق :﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (١) مِن شَرِّ مَا خَلَقَ (٢)﴾[الفلق] وبأسلوب المتكلم فى ست وسبعين آية ، مثل :﴿ .. إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ .. (١٣)﴾ [الحجرات]

وبأسلوب المخاطب فى أربعة مواضع هى : ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ (١٩١)﴾ [آل عمران]

وقوله : ﴿خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ (١٢)﴾ [الأعراف]

وقوله : ﴿أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا (٦١)﴾ [الإسراء]

فأسلوب الغيبة هو أكثر هذه الأساليب ؛ لأن الحديث عن غائب يخلو من ادعاء ، ويخلو من نفاق المواجهة ، أو نفاق الخطاب .

لكن ، ما معنى الخلق ؟ قال العلماء : الخَلْق إيجاد من عدم لحكمة أو لغاية مُسْبقة ، لا مجرد الإيجاد من عدم ، كيف ؟ أنت إذا أخذت قطعة كبيرة من طين جاف ورميتَها على الأرض ، فإنها تتفتتْ قطَعاً مختلفةَ الأشكال ، وربما وجدت منها على شكل هلال ، وأخرى على شكل نجمة ، وأخرى على شكل وجه إنسان أو حيوان .

هذا يُعد إيجاداً ، لكن لا يُعَدُّ خَلْقاً ؛ لأن الخَلْق إيجاد مقصود لغاية مقصودة ، وحكمة مرادة ، وهذه مهمة الخالق وحده سبحانه .

فإنْ قلتَ : كيف والله تعالى يثبت لنا خَلْقاً فى قوله تعالى : ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤)﴾ [المؤمنون]

قلنا : إن الخالق سبحانه يُقدِّر مجهودات البشر ، ولا يبخسهم حقوقهم ؛ لذلك يثبت لهم المشاركة فى الخَلْق مع الفارق الواضح بين خَلْق الله وخَلْق غيره ، فإذا وُصف الإنسانُ بأنه خالق ، فالله أحسن الخالقين ؛ لأنه سبحانه يخلق من عدم ، وأنت تخلق من موجود ، وخَلْقك يثبت على حالة واحدة ، ويجمد عليها ، أما خَلْق الله فيتطور وتدبّ فيه الحياة فيتغذّى وينمو ويتناسل ..إلخ .

ومثَّلْنا لذلك بصانع الزجاج يأخذ مثلاً الرمل المخلوق لله ، ثم يعالجه بطريقة معينة ، ويُحوِّله إلى زجاج ، نعم أنت خلقْتَ شيئاً ؛ لأن هذا الكوب لم يكُنْ موجوداً ، فأوجدته ، لكن من مادة موجودة مخلوقة لله ، وعقل فكّر هو من مخلوقات الله ، ونار صهرتْ هى من خَلْق الله .

ثم إنك لا تستطيع أنْ تمنح هذا الكوب صفة الحياة ، فينمو مثلاً ، أو يتكاثر ، إذن : إن أثبتَ الله لك خَلْقاً فهو سبحانه أحسن الخالقين .

والحق سبحانه يقول هنا : ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ (١١)﴾[فاطر] وفى مواضع أخرى قال : ﴿مِّن طِينٍ (٢)﴾ [الأنعام] وقال ﴿مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٢٦)﴾ [الحجر] وقال : ﴿مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ (١٤)﴾ [الرحمن] ولا تعارضَ بين هذه الأقوال ؛ لأنها أطوار للمادة الواحدة كما بيَّنَّا ، كالثوب الذى تلبسه تقول : هذا الثوب من القطن ، أو من الغزل ، أو من النسيج ، فهى مراحل تمر بها المادة الواحدة .

فليس فى هذا تناقض فى المراحل ، إنما التناقض فى أنْ يكون الشىء مرتبة واحدة ، ثم تجعله مراتب ، إنما هذه المسألة مراحل للمرتبة الواحدة ، كالطفل يصير غلاماً ، ثم شاباً ، ثم رجلاً ، ثم

كَهْلاً.. إلخ كلها مراحل لإنسان واحد .

الحق سبحانه حكم فى كونه بأشياء ، ونهى العقل أنْ يفكر فى أشياء ، قال : أنا خلقتُ لك الكون والمادة ، وضمنتُ لك مُقوِّمات حياتك ، فإنْ أردتَ أن تُرقِّى نفسك فأعمل عقلك فى المادة المخلوقة لله ، واستنبط منها على قَدْر إمكاناتك ، لكن لا تشغل بالك بأمرين لا جدوى من التفكير فيهما ، هذان الأمران هما خَلْق السموات والأرض وخَلْق الناس ؛ لأن الله تعالى يقول : ﴿مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾﴾[الكهف]

فخَلْق السموات والأرض وخَلْق الإنسان مسألة لم يشهدها أحد منكم ، ولم يكُنْ مع الله سبحانه معاون يخبركم بما حدث ، لكن احذروا سيأتى فى المستقبل مُضلُّون يُضلُّونكم فى هذه المسألة ، يقولون لكم - كما يقول المضلون الآن - إن السموات والأرض كانتا قطعة واحدة ملتهبة ، وحدث لها كذا وكذا ، أو أن الإنسان أصله الأول قرد تطور إلى إنسان ، احذروا هؤلاء ، ولا تأخذوا معلوماتكم إلا ممَّنْ شهدها ويعلمها ، وهو الحق سبحانه وتعالى .

لكن الحق سبحانه خلق العقل آلة للتفكير ، وجعل له منافذ يصل من خلالها إلى الحقيقة ، والاستدلال بما رآه على ما غاب عنه ، فعلى العقل أنْ يتأمل ما يراه ويستدل به على ما لا يراه .

نحن لم نشهد عملية الخَلْق ، لكن شهدنا عملية الموت ، والموت نَقْضٌ للخَلْق ، كما أن الهدم نَقْضٌ للبناء .

فهذه قضية فلسفية للعقل فيها دور ، فأنت حين تريد بناء عمارة مثلاً من عشرة أدوار تبدأ ببناء الدور الأول ، لكن إنْ أردتَ هدمها

تبدأ بالدور العاشر ، فالهدم على عكس البناء ، كذلك الموت نقيض الحياة .

فالذى لم نشاهده من عملية الخَلْق أخبرنا الله به فى كتابه ، فقال : خلقتكم من تراب صار طيناً ، ثم صار الطين حمأ مسنوناً ، وصار الحمأ المسنون صلصالاً كالفخار ، تشكَّل على صورة الإنسان ، ثم نفخ فيه اللهُ الروحَ فدبَّتْ فيه الحياة .

ونحن شاهدنا الموت ورأيناه يأتى على عكس عملية الخَلْق ، فأول شىء فى الموت أنْ تفارق الروحُ الجسدَ ، فيتصلَّب حتى يكون كالفخار ، ثم يرمَّ ، وتتغير رائحته كأنها الحمأ المسنون ، ثم تمتصُّ الأرضُ ما فيه من مائية ليعود إلى تراب وفُتَات يختلط بتراب الأرض، ويعود إلى أمه التى جاء منها .

إذن : خُذْ مما شاهدتَ دليلاً على صدق ما أخبرك الله به مما لم تشاهده .

الحق - سبحانه وتعالى - حينما تكلَّم عن الخلق تكلم عن مرحلتين : الأولى : خَلْق الإنسان الأول آدم عليه السلام من طين ، ولكى يتم التكاثر لعمارة الأرض كانت المرحلة الثانية بأنْ خلق له زوجه ، فقال :

﴿ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا .. (١٨٩) ﴾ [الأعراف]

والظنُّ يتسع فى هذه المسألة ، فيصح أنه سبحانه أخذ قطعة من آدم وخلق منها حواء ، ويصح أنْ تكون هذه القطعة كذلك كانت من الطين ، لكن اكتفى بالتشريع الأول للرجل ، ومن آدم وحواء أنشأ النسل ، وتم الاستخلاف فى الأرض .

ولكى نخرج من المتاهة فى هذه المسألة نقول : قوله تعالى

﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ۝١﴾ [النساء] يعنى : من جنسها ، من جنس خَلْقها ، كما قال سبحانه : ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۝١٢٨﴾ [التوبة] يعنى : من جنسكم .

لكن ، أيخلق الله هذا الخَلْق ، ويستخلف خليفته فى الأرض ، ثم يتركه دون أنْ يُمدَّه بالمنهج الذى حكم حركة حياته ؟ لا ، لا بُدَّ أنْ يُنزِل له المنهج ؛ لأن معنى الخلافة تقتضى أنْ يُوجد هذا المنهج .

والحق سبحانه حين يُملِّك خليفته أشياء تأتمر بأمره ربما غرَّه ذلك الملك فقال له : اذكر أنك لستَ أصيلاً ، وأنك خليفة ، وطالما تتذكر أنك خليفة فلن تطغى ، إنما الذى يُطغيك أن تظنَّ أنك أصيل فى الكون ، والأصيل فى الكون هو الذى يحفظ ما وُهب له ، هو الذى لا يمرض ولا يموت ، ولا يوجد معه مَنْ هو أقوى منه . إذن : تذكَّر أنك مُسْتخلف ، وما دُمْتَ مستخلفاً فعليك أنْ تنفذ أوامر مَن استخلفك .

بعد أن تكلم الحق سبحانه عن الخَلْق الأول من تراب وخَلْق الزوجة ، يُحدِّثنا عن الخَلْق العام الذى سيأتى منه البشر جميعاً بعد آدم وحواء ، وبالتزاوج يتم الخَلْق عن طريق النطفة ، فيقول سبحانه ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا ۝١١﴾ [فاطر]

وفى موضع آخر فصَّل مراحل النطفة ، فقال : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ ۝٥﴾ [الحج]

وأول زواج تم بين أولاد آدم تمَّ بالتباعد ، فابن هذه البطن يتزوج أخته من بطن أخرى ، وهكذا كان التباعد بحسب زيادة النسل قَدْر المستطاع ، ومسألة التباعد هذه هى التى أدتْ إلى أول جريمة

قَتْل فى البشرية ، وهى مسألة قابيل وهابيل . فلما اتسعتْ الدنيا ، وكَثُر الناس مُنِع زواج الأخت والخالة والعمة.

وقد أثبت العلم أهمية التباعد فى الزواج ، وأن زواج الأقارب يثمر نسلاً أضعف من زواج الأباعد ، حتى فى الزراعة أثبتوا أن زراعة الحبوب المستخرجة فى نفس أرضها يعطى محصولاً أقلَّ ؛ لذلك لجئوا فى الزراعة إلى عملية التهجين .

والنبى ﷺ يحثُّ على هذا التباعد ، فيقول : « اغتربوا لا تضووا[1] »[2] يعنى : لا تتزوج شديدة القرابة منك ؛ لأن الأقارب خصائص وجودهم واحدة والدم واحد ، أما فى الاغتراب ، فالخصائص مختلفة والدم مختلف ؛ لذلك يأتى النسل أقوى ؛ لذلك فطن الشاعر العربى إلى هذه المسألة ، فقال[3] :

أُنذِرُ مَنْ كَانَ بعيد الهَمِّ ... تَزْويج أولادِ بنات العَمِّ
فليسَ بنَاجٍ من ضَوى وسَقَم ... بأبى وإنْ أَطْعمتَهُ لا يَنْمي

وقد لاحظوا ضَعْف النسل فى الأُسَر التى تزوج أولادها من الأقارب ، ومدحوا الاغتراب ، فقال الشاعر :

---

(١) ضوى يضوى ، هو الولد يخرج ضعيفاً . ورجل ضَاوٍ إذا كان ضعيفاً . ومعنى لا تضووا ، أى : لا تأتوا بأولاد ضاوين . [لسان العرب – مادة : ضوا] .

(٢) مما ورد فى هذا ما ذكره أبو حامد الغزالى فى إحيائه (٤١/٢) : « لا تنكحوا القرابة القريبة ، فإن الولد يُخلق ضاوياً » . قال الحافظ العراقى فى تخريجه لأحاديث الإحياء : « قال ابن الصلاح : لم أجد له أصلاً معتمداً . قلت : إنما يُعرف من قول عمر أنه قال لآل السائب « قد أضويتم ، فانكحوا فى النوابغ » رواه إبراهيم الحربى فى غريب الحديث . قال الشوكانى فى (الفوائد المجموعة ص ١٣١) : « ليس بمرفوع » .

(٣) ذكرهما أبو حيان التوحيدى فى كتابه الإمتاع والمؤانسة ، ولم يعزهما لأحد . وانظر أيضاً « محاضرات الأدباء » للراغب الأصفهانى .

فَتَىً لم تلِدْهُ بنْتُ عَمٍّ قريبة فيضْوَى وقد يَضْوى سَلِيلُ الأقَارِب[١]

وآخر يبتعد عن بنت عمه فى الزواج رغم حُبِّه لها ، ويقول :

تَجَاوزْتُ بنتَ العَمِّ وهْىَ حَبيبةٌ مَخَافَةَ أنْ يَضْوىَ علىَّ سَلِيلُها

ثم يقول تعالى : ﴿ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ ﴿١١﴾ ﴾ [فاطر]

عملية حَمْل الأنثى تتم نتيجة الالتقاء بين الذكر والأنثى تحت مظلة الشرع ومنهج الله ، وللعلماء كلام طويل فى مسألة حمل المرأة ، أهى المسئولة عنه أم الرجل ، وأخيراً سمعنا من التحاليل التى أجرَوْهَا أنَّ الرجل هو المسئول عن ميكروب الذكورة أو الأنوثة ، أما المرأة فتحمل البويضة التى تستقبل هذا أو ذاك .

وعجيب أن تفطن المرأة العربية القديمة إلى نتائج العلم الحديث الآن ، وأن يكون لديها إلمامٌ وفَهْم لهذه المسألة ، فالمرأة البدوية التى كانت لا تنجب إلا البنات ، فغضب عليها زوجها ، وذهب فتزوَّج بأخرى لتنجب له الولد ، وهجر الأولى ، فأنشدت وقالت[٢] :

مَا لأبى حَمْزةَ لا يَأْتينَا غَضْبانَ ألاَّ نَلِدَ البَنينَا

تَاللَّه مَا ذَاكَ فى أيدينَا ونحن كالأرْضِ لِغَارسِينَا

* نُعطى لَهُمْ مثْلَ الذى أُعْطينَا *

وعجيب أنْ تتكلم البدوية بما توصَّل إليه العلم الحديث فى القرن العشرين ، وكأن الحق سبحانه يريد أنْ يثبت لنا أن الفطرة السليمة البعيدة عن الهوى قد تصل إلى حقائق الكون ، فسداد الرأى لا يجتمع

---

(١) هذا البيت للنابغة الذبيانى ، ولكن لفظه يختلف عما أورده الشيخ رحمه الله هنا :

فتى لم تلده بنت أم قريبة فيضوى وقد يضوى رديد الأقارب

وقد ذكره الخالديان فى « الأشباه والنظائر » وعزواه إلى أعرابى يذكر ابنه بلفظ الشيخ إلا قوله « الأقارب » فهو عندهما القرائب .

(٢) ذكر هذه الأبيات مع اختلاف فى اللفظ ابن عبد ربه الأندلسى فى العقد الفريد - باب قولهم فى النوادر والمُلَح :

ما لأبى حمزة لا يأتينا يظل فى البيت الذى يلينا

غضبان أن لا نلد البَنينا وإنما نأخذ ما أعطينا

وهوى النفس ؛ لذلك قالوا : آفة الرأى الهوى ، ومن ذلك ما رُوِى عن سيدنا عمر من أن القرآن كان ينزل على وَفْق ما يراه ، وما ذاك إلا لسلامة فطرته .

وقوله : ﴿وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ ﴿١١﴾﴾[فاطر] هذه مراحل تمر بها المرأة ، أولاً ، تزوجت ثم حملت ، ثم وضعتْ حملها ، وهذه كلها مراحل السلامة ، ولم يذكر - سبحانه وتعالى - ما يطرأ على الحمل من عطب ، فقد تحمل الأم ويسقط جنينها ولا تضعه .

والإعجاز الذى يصاحب عملية الحمل أن الدم الذى ينزل من المرأة حال الدورة الشهرية يتحول عندما تحمل إلى غذاء للجنين ، فكأن هذا الدم ليس رزقاً لها ، بل رزق ولدها إنْ قُدِّر لها الحمل ، وإن لم يُقدَّر لها حمل نزل منها دون أن تستفيد منه بشىء .

والعجيب أن هذا الدم يكفى الجنين الواحد ، ويكفى الاثنين والثلاثة ، والأكثر من ذلك ، وأخيراً سمعنا عن المرأة التى ولدتْ سبعة ، ومع ذلك كانت بحالة جيدة يعنى : لم ينقص من وزنها شىء ، وكأن الخالق عز وجلّ يذكّرنا قبل أنْ تحملوا هَمَّ القوت والأرزاق انظروا ما فعل الله بكم وأنتم فى بطون أمهاتكم ، فلكُلٍّ منكم رزق لا يتعدَّاه ولا يُخطئه .

وصدق رسول الله ﷺ حين قال : « طعام الواحد يكفى الاثنين ، وطعام الاثنين يكفى الثلاثة »[1] .

ومع تقدُّم العلم الآن لم يستطيعوا تحديد موعد الولادة بشكل قاطع ، وستبقى هذه اللحظة فى علم الله ﴿وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ ﴿١١﴾﴾[فاطر]

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٢/٤٠٧) من حديث أبى هريرة ، وأخرجه مسلم فى صحيحه (٢٠٥٩) كتاب الأشربة ، وابن ماجه فى سننه (٣٢٥٤) من حديث جابر بن عبد الله.

لماذا ؟ لأننا نعرف نعم مدة الحمل ، لكن لا نعرف على وجه التحديد متى التصق (الزيجوت) فى الرحم ؛ لذلك فإن أطباء الولادة دائماً ما يقولون ستضع الحامل بين كذا وكذا من الأيام .

إذن : لحظة الولادة أشبه ما تكون فى خفائها بلحظة الموت لا يعلمها إلا الله ، ومعنى يعلمها يعنى : يعلمها بكل ما يحيط بها من ملابسات وأحداث .

وبعد أنْ تضع المرأةُ حملها تتحول إلى مرضعة وحاضنة فيُجرى لها الخالق سبحانه رِزْق ولدها لترضعه دون أنْ يأخذ من رزقها شيئاً ، لأن إمداد الله لها مستمر ، والشىء ينقص إنْ أُخذ منه دون إمداد .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ ﴿١١﴾﴾ [فاطر] يُعمّر يعنى : يمد الله فى عمره ، وعندنا فى اللغة أفعال ملازمة للبناء للمجهول ، فمثلاً نقول : زُكم فلان لأنه لم يجلب لنفسه الزكام ، كذلك نقول : فلا عُمِّر . هو لم يُعمِّر نفسه ، إنما عمَّره الله ، لذلك جاء بصيغة اسم المفعول مُعَمَّر ، والمُعمَّر يعنى : طويل العمر .

وهذا من المواضع التى وقف عندها المستشرقون معترضين كالعادة ، بسبب جهلهم باللغة العربية وأساليبها ، قالوا : كيف يُعمَّر بالفعل ، فيعيش مائة سنة مثلاً ثم ينقص من عمره ؟ نقول : هم معذورون ؛ لأنهم لا يعلمون أن فى اللغة ضميراً ومرجعاً للضمير .

فتقول مثلاً : قابلتُ فلاناً فأكرمتُه ، فالهاء فى أكرمته تعود على فلان هذا ، وتقول : تصدقتُ بدرهم ونصفه . فهل يعنى هذا أنك تصدقتَ بدرهم ، ثم أعدته ثانية ونصَّفته ؟ لا إنما المعنى : تصدقت بدرهم ونصف درهم مثله ، فمرة يعود الضمير على ذات واحدة ،

ومرة يعود على واحد من مثله ، كما فى : تصدقت بدرهم ونصفه .

والإنسان له ذات وله صفات ، ذاته هى قوام تكوينه ، وصفاته ما يطرأ على الذات من أوصاف ، فكَوْنه معمَّراً يعنى بلغ سناً كبيرة ، وكما يعود الضمير على مثل الأول أو على بعض مثله ، كذلك يعود على بعض ذاته ، فالمعمَّر ذاتٌ ثبت لها التعمير ، فعلامَ يعود الضمير فى ﴿ وَلا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ (١١) ﴾[فاطر] صحيح حينما يصل إلى مائة سنة لا نستطيع أنْ نُميته فى سِنِّ العشرين مثلاً .

إذن : أعد الضمير على الذات دون الصفة ، وما يُعمَّر من مُعمَّر ، ولا ينقص من ذاته ، فالذات لم يثبت لها التعمير إلا بإذن الله ، فيصير المعنى مثل : تصدَّقْتُ بدرهم ونصفه .

والحق سبحانه حدَّثنا عن التعمير عندما تكلم عن اليهود : ﴿ وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ (١١١) ﴾ [البقرة]

وقالوا :﴿ لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً (٨٠) ﴾ [البقرة]

فردَّ الله عليهم : إنْ كنتم ضمنتم الجنة ، وأنه لا يأخذها منكم أحد ، فتمنَّوْا الموت الذى يوصلكم إليها : ﴿ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٩٤) ﴾ [البقرة]

ثم حكم الله عليهم ﴿ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٩٥) ﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (٩٦) ﴾[البقرة]

فمعنى ﴿ وَلا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ (١١) ﴾[فاطر] يعنى : من عمر ذات لم يثبت لها التعمير إلا بإذن الله .

وقوله ﴿إِلاَّ فِي كِتَابٍ (١١)﴾[فاطر] أى : فى اللوح المحفوظ ، فكلُّ ما يحدث فى الأعمار وفى فترات الحمل والوضع من الإنقاص أو الزيادة ، كله مُسطَّر معلوم فى اللوح المحفوظ ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (١١)﴾[فاطر] فإنْ كان صعباً عليكم وعلى فهمكم فهو يسيرٌ وسهلٌ على الله سبحانه.

ألاَ ترى لسيدنا زكريا عليه السلام وهو يدعو الله أنْ يرزقه الولد الصالح الذى يرث النبوة من بعده ، مع أنه بلغ من الكبَر عتياً وامرأته عاقر ، وأىّ ذرية بعد هذا السِّن خاصةً إنْ كانت الزوجةَ عاقراً ؟ لكن ، إنْ كانت بقوانين الله ، فالأمر سهل ميسور .

واقرأ :﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا (٥) يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا (٦) يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا (٧) قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا (٨) قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا (٩)﴾ [مريم]

إذن : لا تقسْ المسألة على قدرتك وقانونك ؛ لأن الفعل يُنسَب إلى الله ، لا إلى بشر .

كذلك سيدنا موسى – عليه السلام – لما تبعه فرعون بجنوده حتى حاصره وضيَّق عليه الخناق حتى قال أتباع موسى ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١)﴾ [الشعراء] ولم لا والبحر من أمامهم وجنود فرعون من خلفهم ، فقال موسى قولةَ الواثق بربه وقدرته التى لا حدودَ لها ﴿قَالَ كَلَّا (٦٢)﴾ [الشعراء] يعنى : لن يدركونا ، قالها بما لديه من رصيد الثقة بالله ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢)﴾ [الشعراء] فجاءه الفرج لتوِّه ﴿أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٣)﴾ [الشعراء]

رأى موسى طريقاً يابساً يشقُّ البحر ، فعبر هو وقومه إلى أن

أصبح فى الجانب الآخر ، فأراد أنْ يضرب البحر مرة أخرى ليعود إلى سيولته ، فلا يعبره فرعون ، لكن نهاه ربه ، فالمعجزة لم تنته بَعْد ، وما زال لها بقية ، والله تعالى قادر على أنْ يُنجى ويُهلك بالشىء الواحد ، وظل الطريق اليابس على يبوسته حتى اغترَّ به فرعون ، فعبره ليلحق بموسى ، ولما نزل آخر جندى من جنود فرعون أطبقَ اللهُ عليهم الماءَ ، وأعاده إلى سيولته ، فأغرق فرعونَ وجنوده ، هذه طلاقة القدرة التى لا تحدُّها حدود ، ولا تخضع للأسباب .

كذلك تأمل مسألة الخَلْق والتكاثر تجد جمهرة الناس جاءوا من ذكر وأنثى ، وهذه هى القاعدة ، لكن قدرة الله لا يُعجزها أنْ تأتى بالخَلْق فى كل مراحل القسمة العقلية المنطقية فى هذه المسألة ، فالخالق سبحانه خلق آدم بلا أب وبلا أم ، ثم خلق حواء من أب بلا أم ، وخلق عيسى من أم بلا أب . إذن : نقول الأمر هيِّن يسير على الله ، وإنْ ظننْتَهُ أنت صعباً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

---

(١) الفرات : العَذْب . فقوله تعالى : ﴿هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ..﴿١٢﴾﴾ [فاطر] فرات للتوكيد ، فهو عذب عذوبة بالغة . [القاموس القويم ٢/٧٤] .

(٢) الأجاج : الملح الشديد الملوحة . أجَّ الماء : اشتدت ملوحته . وقوله تعالى : ﴿وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ .. ﴿١٢﴾﴾ [فاطر] تأكيد لشدة ملوحته . [القاموس القويم ١/٧] .

الحق سبحانه وتعالى يريد أنْ يُقرِّب لنا القضية العقلية القيمية فيعرضها لنا فى صورة حسية مُشاهدة ﴿وَمَا يَسْتَوِى الْبَحْرَانِ ﴿١٢﴾﴾[فاطر] وكأن الله يقول لنا : كما أن هناك أشياء حسية لا تستوى فى الحسِّ ، كذلك فى القيم أشياء لا تستوى .

معنى ﴿الْبَحْرَانِ ﴿١٢﴾﴾[فاطر] البحر معروف ، وهو المتسع الذى يحوى الماء المالح ، وسُمِّى النهر أيضاً بَحْراً على سبيل التغليب ، والنهر يحوى الماء العذب ، فهما مختلفان لا يستويان ﴿هَـٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ ﴿١٢﴾﴾[فاطر] ﴿وَهَـٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴿١٢﴾﴾[فاطر] إذن : هما وعاء لشىء واحد هو الماء ، فهما وإنِ اشتركا فى الشىء الواحد وهو الماء فهما مختلفان فى النوع :

هذا عذب ، وهذا مالح ، العَذْب وُصف بأنه ﴿عَذْبٌ فُرَاتٌ ﴿١٢﴾﴾[فاطر] أى : شديد العذوبة ﴿سَائِغٌ شَرَابُهُ ﴿١٢﴾﴾[فاطر] سهل المرور فى الحَلْق هنيئاً ، ووصف المالح بأنه ﴿مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴿١٢﴾﴾[فاطر] شديد الملوحة .

وبين العَذْب والمالح عجائب فى التكوين ، ففيهما مثلاً تعيش الأسماك ونأكلها ، فلا نفرق بين سمك الماء المالح وسمك الماء العَذْب ؛ لأن الله أعدَّ الكائن الحى ليأخذ من الماء مقوِّمات حياته ، وينفى ما لا يريد ، مثل الشجرة تزرعها ، فتأخذ من الأرض العناصر اللازمة لها وتطرد ما لا تحتاج إليه .

ففى التربة الواحدة تزرع مثلاً شجرة (شطة) وعود القصب ، فتتغذى الشجرتان بنفس العناصر ، وتُسْقى بنفس الماء ، لكن يخرج الطَّعْم مختلفاً تماماً ، كما قال سبحانه : ﴿وَفِى الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ

وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ ﴿٤﴾ [الرعد]

وهذه فطرة وغريزة جعلها الله فى كل الكائنات الحية ، أن تأخذ من الغذاء ما تحتاج إليه فقط ، ولما أراد العلماء أنْ يُقرِّبوا لنا عملية التغذية فى النبات قالوا : إنها تعتمد على خاصية الأنابيب الشعيرية ، فالشعيرات الجذرية تمتصُّ الماء والغذاء من التربة وتُوصِّله بهذه الخاصية إلى الساق والأوراق ، لكن فَاتَهُم أن الأنابيب الشعيرية تمتص الماء دون تفرقة ودون تمييز لعنصر دون عنصر ، ودون انتخاب لمادة دون أخرى . إذن : ليست هى الخاصية الشعيرية ، إنما هى الغريزة والفطرة الإلهية التى أودعها الله فى الكائن الحى .

والإنسان تطرأ عليه مسائل غريزية ، ومسائل عاطفية ، ومسائل عقلية : فالمسائل العاطفية مثل الحب أو البغض لا دخْلَ للتشريع فيها ؛ لأن الإنسان لا يملك التحكم فيها ، فأحببْ مَنْ شئتَ ، واكره مَنْ شئتَ ، لكن شريطة ألاَّ يُخرجك الحب أو الكُرْه عن حَدِّ الاعتدال إلى الظلم والتعدى ، كما قال سبحانه : ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ[1] شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ .. ﴿٨﴾﴾ [المائدة]

كذلك المسائل الغريزية لا يتدخَّل فيها الشرع ، فالجوع والعطش مثلاً غرائز يعرفها المرء بنفسه وبالتجربة ، فأنت لا تُعلِّم ولدك الجوع أو العطش ، بل هو يعرفه بنفسه حين يجوع وحين يعطش .

لذلك عجيب الآن أنْ نسمع مَنْ ينادى بتعليم الأولاد والبنات فى

---

(١) أى : لا يحملنكم بغض قوم على عدم العدل ، أى : التزموا العدل حتى مع من تكرهونهم . أى : اعدلوا دائماً فالعدل أقرب للتقوى . [القاموس القويم ١/١٢١] والشنآن : البغض والكره .

المدارس الأمور الجنسية ، ويريدون مادة جديدة تسمى (التربية الجنسية) يتعلَّمها الأطفال منذ الصِّغَر ، ونقول : سبحان الله متى يُسمح للصغار بتعلُّم الغرائز ، الغرائز لا تُعلم ، بل يعرفها الإنسان فى وقتها المناسب .

ومن عجائب الخَلْق أن الماء العَذْب لا يختلط بالماء المالح ، كما قال سبحانه ﴿ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَّ يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الرحمن] وهذا دليل إعجاز ، فالماء المالح فى البحار والمحيطات الكبيرة دائماً ما نجد منسوب المياه فيها أقلَّ من منسوب مياه الأنهار ، ولو كان العكس لَطَغى الماء المالح على الأنهار وعلى اليابسة .

ومعنى ذلك أنْ تموت المزروعات وتفسد التربة ؛ لذلك شاءتْ حكمة الخالق سبحانه أن يكون منسوب الأنهار أعلى ، وأن يكون لها مَصبَّات تنتهى إلى البحار لتفرغ فيها الماء الزائد عن الحاجة .

وللخالق سبحانه حكمة فى الماء العَذْب ليكون صالحاً للشرب ولسَقْى الزرع ويروى العطش ، أما المالح فالله يحفظه بنسبة الملوحة فيه حتى لا يفسد ويعطن ؛ لأن البحار والمحيطات هى مخازن الماء العَذْب ، فمنها يتبخر ماء المطر الذى تجرى به الأنهار ، وتلحظ أن درجة الملوحة تختلف حسب طبيعة المكان ، فمثلاً تجد الماء فى بحر البلطيق أقلَّ ملوحة ، لأنه مصبٌّ لعدة أنهار ، ويقع فى منطقة كثيرة المطر ، وهذا كله يُقلِّل من مُلوحته .

أما البحر الميت مثلاً ، فهو أكثر البحار ملوحة ، لدرْجة أن الأسماك لا تعيش فيه ، والسبب أنه لا توجد أنهار تصبُّ فيه ، ويقع فى منطقة حارة ، قليلة المطر ، فيكثر تبخُّر الماء منه ، أما بقية المياه الملتقية فى البحار والمحيطات فتكاد ملوحتها تكون واحدة .

وسبق أنْ ذكرنا الحكمة من اتساع مساحة الماء المالح فى البحار والمحيطات ، وقُلْنا : إن اتساع سطح الماء يزيد فى نسبة البخر ليتوفر الماء العَذْب الصالح للرىّ وللشرب ، ومثَّلْنا لهذه العملية بكوب الماء تتركه على المكتب لمدة شهر وتعود فتجده كما هو تقريباً ، أما إنْ سكبْتَهُ على أرض الحجرة فإنه يجفّ قبل أنْ تغادرها ، لماذا ؟ لأنك وسَّعت مساحة التبخر .

إذن : وسَّع اللهُ سطحَ الماء المالح ليعطينا المطر الكافى لاستمرار الحياة ، إذن : لا يُذَمُّ الماء المالح إنْ قُوبل بالعَذْب ؛ لأنه أصل وجوده.

لذلك قال الشاعر[1] فى المدح :

أهدى لمجلسه الكَريم وإنَّما ... أهدى له ما حُزْت من نَعْمائهْ

كَالبَحْرِ يُمطره السَّحَابُ ومَا لَهُ ... فَضْلٌ عليه لأنه مِنْ مَائِهْ

ومعلوم أن الماء فى الكون له دورة معروفة ، قال الله فيها :

﴿ وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ﴿١﴾ فَالْحَامِلاتِ وِقْرًا ﴿٢﴾ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ﴿٣﴾ ﴾ [الذاريات]

فالماء الذى خلقه الله فى الكون هو هو لا يزيد ولا ينقص ، فما يستهلكه الإنسان مثلاً من الماء يُخرجه على شكل فضلات وبول وعرق.. إلخ وما تبقَّى فى جسمه من نسبة المائية وهى ٩٠ فى المائة من وزنه تمتصها الأرض بعد موته ، كذلك الزرع والحيوان ، فهى إذن دورة معروفة مشاهدة ، كذلك فالحياة دورة فحين نقول لك : إن

---

(١) هذان البيتان من قول هبة الله الاسطرلابى ، وقد ذكرهما له ابن معصوم فى كتابه « سلافة العصر فى محاسن الشعراء بكل مِصْر » .

الله قادر على إعادتها فَخُذْ من المُشَاهَد دليلاً على صِدْق ما غاب .

وقوله سبحانه : ﴿وَمِن كُلٍّ ..(١٢)﴾[فاطر] أى : من الماءيْنِ العذب والمالح ﴿تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا (١٢)﴾[فاطر] والمراد السمك ، وهو فى الماء العَذْب كما فى الماء المالح ، والطَّعْم واحد ، ولم تجد مثلاً أسماك الماء المالح مالحة كالفسيخ مثلاً أو السردين ، ذلك لأن الكائن الحىَّ يمتصُّ ما يحتاج إليه ، ويترك العناصر الأخرى .

وكلمة ﴿لَحْمًا طَرِيًّا (١٢)﴾ [فاطر] إشارة إلى أن السمك ينبغى أنْ يُؤكل طرياً طازجاً ، فإن يبُسَ وخرج عن طراوته فلا تأكله ، وقد اشتهر عن العرب اللحمُ القديد ، حيث كانوا يُجفِّفون لحم الأنعام فى حَرِّ الشمس ويقددونه ليعيش فترة أطول ، فهى طريقة من طرق حفظ اللحوم تناسب لحوم الأنعام ، أما لحوم الأسماك فتفسد إنْ خرجتْ عن هذا الوصف ﴿لَحْمًا طَرِيًّا .. (١٢)﴾ [فاطر]

ثم يذكر الحق سبحانه نعمة أخرى من نِعَم البحر :﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا (١٢)﴾[فاطر] والحلية ما يُتزيَّن به من اللؤلؤ والمرجان وغيرهما مما يخرج من البحر ، وهذه زينة عامة للرجال وللنساء على خلاف حلية الذهب التى تحرم على الرجال ، فللرجل أنْ يتحلَّى بما يشاء من حلية البحر ، فلا نَهْى عن شىء منها ، وحتى حلية الذهب للنساء ، فإن المرأة تتحلى بها لمن ؟ للزوج .

﴿وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ(١٢)﴾[فاطر] أى : السفن فى البحر ﴿مَوَاخِرَ(١٢)﴾[فاطر] يعنى : تشقّ البحر شَقّا فى رحلات الصيد أو رحلات السفر ، وهنا مظهر من مظاهر الإعجاز القرآنى ، فالخطاب فى القرآن أول مُخَاطَب به سيدنا رسول الله ﷺ ، ثم تخاطب أمته من باطن خطابه ، ورسول الله ﷺ لم يركب البحر ولا رآه .

فحين يقول القرآن على لسانه : ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ (٢٤)﴾[الرحمن] يعنى : كالجبال الشامخة . نقول : ومتى ظهرتْ السفن العملاقة التى تُوصَف بهذا الوصف ؟ إنها لم تظهر إلا فى العصر الحديث ، وكانت قَبْلُ سفناً عادية بدائية ، فمن الذى أخبر سيدنا رسول الله بهذا التقدم الجارى الآن فى صناعة السفن ، حتى إنه لَيُخيَّل لك أنها مدينة متحركة على أمواج البحر .

وقوله : ﴿لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ (١٢)﴾[فاطر] تطلبوا رزق الله وفضل الله فى حركة السفن ، سواء كانت للصيد أو للسفر ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢)﴾[فاطر] كلمة لعل كما نعلم تدل على الرجاء ، والمعنى : لعلكم بعد كل هذه النعم تقابلونها بالشكر ، وفى هذا إشارة إلى قِلَّة مَنْ يشكر .

بعد ذلك ينتقل بنا السياق إلى ظاهرة أخرى وآية من آيات الكون:

﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ (١٣)﴾

صحيح أن الليل والنهار يتساويان فى بعض الأحايين ، لكن يطول الليلُ فى الشتاء فيأخذ جُزْءاً من النهار ، ويطول النهار فى الصيف فيأخذ جزءاً من الليل ، إذن طُول أحدهما نَقْص من الآخر ، هذا معنى ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ (١٣)﴾[فاطر] يعنى : يُدخِل هذا فى هذا .

وظاهرة إدخال الليل فى النهار وإدخال النهار فى الليل ناشئة من ميل المحور ، فالحق سبحانه كما وزَّع الماء وحفظه فى البحر الواسع ، كذلك وزَّع الحرارة ، فالشمس لولا وجود المحور المائل لاحترقتْ الجهة المقابلة للشمس وتجمدتْ الجهة الأخرى .

ومن عجائب الخلق أن الإنسان الذى يعيش عند القطب الشمالى أو القطب الجنوبى حرارته ٣٧°مثل الذى يعيش عند خط الاستواء ، لأن الجسم البشرى مبنىٌّ على هندسة خاصة تحفظ له حرارته المناسبة أياً كان ، بل تحفظ لكل عضو فيه حرارته التى تناسبه مع أن الأعضاء كلها فى جسم واحد ، والحرارة تُشِعُّ وتستطرق فى المكان كله .

عجيب أن الكبد مثلاً لا يؤدى وظيفته الطبيعية إلا فى درجة حرارة ٤٠°، والعين لا تزيد حرارتها عن ٧°، فمَنْ يمنع حرارة الكبد أن تستطرق فى الجسم كله وتصل إلى العين مثلاً ؟ إنه الخالق ﴿الَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ (٢) وَالَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ (٣)﴾ [الأعلى]

وقوله سبحانه : ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ (١٣)﴾[القمر] يعنى : ذلَّلهما للإنسان ، وجعلهما فى خدمته دون قدرة له عليهما ، ودون إرادة منه ، فالشمس والقمر آيتان فى الهيكل العام للكون لا دَخْلَ للإنسان فيهما ، ولو كان له دَخْل لَفَسد أمرهما وما استقام ، وصدق الله : ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَـٰوَاتُ وَالأَرْضُ ..(٧١)﴾ [المؤمنون]

فإنْ قُلْت : إفساد الإنسان فى الأرض أمر ممكن ، فكيف يكون إفساده للسماء ؟ قالوا : ألم يتمَنَّ قوم أنْ تسقط السماءُ عليهم ، فقالوا ﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا (٩٢)﴾ [الإسراء] فلو اتبع

الحقُّ أهواءَ هؤلاء لَخَرِبَتْ الدنيا .

وهذه مسألة تكلمتْ فيها المدرسة الفلسفية فى ألمانيا أمام مدرسة أخرى ، وكان لهما رأيان متناقضان ، وهما فى عصر واحد ، وكل منهما تتخذ من رأيها دليلاً على الإلحاد وقولاً بعدم وجود إله ، وهذا عجيب .

فواحدة تقول : لا شذوذ فى العالم ، فهو يسير على قوانين مستقيمة أشبه ما تكون (بالميكانيكا) ، ولو كان لهذا الكون إله خالق لاختلف الخَلْق وحدث فيه شذوذ .

والأخرى تقول : إن الكون لا يسير على نظام ثابت ، بل يحدث فيه شذوذ فى الخَلْق ، بدليل أن البعض يُولَد مثلاً مُعوَّقاً ، ولو كان للعالم إله خالق لجاء الخَلْق واحداً مستوياً لا اختلافَ فيه .

سبحان الله ، فهم يريدون الإلحاد على أىِّ وجه ، فمزاجهم أنْ يلحدوا .

ونقول لهؤلاء : تعالوا نردّكم إلى الصواب وإلى كلمة سواء : يا مَنْ تريد شذوذ الأشياء دليلاً على وجود إله قادر الدليل موجود ، ويا مَنْ تريد ثبات الأشياء دليلاً على وجود إله حكيم الدليل موجود ، لكن الجهة مُنفكة ، كيف ؟

النظام الثابت الذى لا شذوذَ فيه موجود فى الكون العلوى الذى يسير على رتابة ونظام لا يتخلَّف ، فحركة الشمس والقمر والكواكب والأفلاك تسير كلها على نظام واحد لا يختلُّ أبداً ، والآن استطعنا مثلاً تحديد لحظة الكسوف والخسوف ، وفعلاً نشاهده فى وقته بالضبط .

إذن : إنْ أردتَ الثبات دليلاً فَخُذْه من الأفلاك العليا ؛ لأنها لا بُدَّ

أنْ تُبنى على نظامٍ ثابت لا شذوذَ فيه ، وإلا لاَخْتلَّ الكون كله .

فإنْ كنت تريد الشذوذ فشاهده فى الجزئيات ؛ لأن شذوذَ الجزئيات لا يؤثر على النظام العام للكون ؛ لذلك ترى : هذا سليم ، وهذا أعمى ، وهذا أعور .. إلخ . إذن : الثبات فى موضعه لحكمة والشذوذ فى موضعه لحكمة ، وهذا وذاك دليلان على وجود الإله الخالق القادر .

وقوله تعالى ﴿ كُلٌّ يَجْرِى لأَجَلٍ مُّسَمًّى (١٣) ﴾ [فاطر] أى : الشمس والقمر يجرى كل منهما إلى وقت معلوم يتم فيه فَنَاؤهما ونهايتهما ﴿ ذَٰلِكُمُ (١٣) ﴾[فاطر] أى : الذى فعل هذا وقدَّره ﴿ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ (١٣) ﴾[فاطر] أى : العالم المحسّ المشَاهَد لك ، أما الذى لا تراه من مُلْك الله فهو عَالَم الملكوت ، وهو ما غاب عنك ، ولا تدركه حواسُّك .

لذلك لما نجح سيدنا إبراهيم فى الابتلاء كما قال تعالى : ﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ (١٢٤) ﴾[البقرة] أعطاه الله منزلة عظيمة ، وأطلعه على الملكوت الذى غاب عن غيره ، فقال سبحانه : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ (٧٥) ﴾[الأنعام] وما يترتب من عالم المُلْك المشاهد لنا ناشىء عن عالم الملكوت الذى لا ندركه .

والحق سبحانه وتعالى يشير إلى هذا العالم - عالم الملكوت - فى قوله تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا (٢٩) ﴾ [الأنفال]

كيف ، ونحن ما اتقينا الله إلا بالفرقان أى : بالقرآن ، فما معنى ﴿ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا (٢٩) ﴾ [الأنفال] ؟ قالوا : الفرقان هنا أن يُريك الله ملكوتَ السموات والأرض .

وقوله سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ ﴾ [فاطر] يعنى : إنْ كان الإله الحق خلق لكم كذا وكذا ، وسخَّر لكم الشمس والقمر ، فإن آلهتكم المدَّعاة المزعومة ﴿ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ ﴾ [فاطر] فما القطمير ؟

المتأمل فى القرآن الكريم يجده يُولى اهتماماً كبيراً للنخلة ، وأول ما خاطب خاطب العربَ ، وهم أول مَنْ وُوجهوا بالإسلام ودُعوا إليه ، فخاطبهم القرآن بما يناسبهم ، وذكر لهم أمثلة من بيئتهم ، والنخلة مشهورة فى البيئة العربية ، ولها فى ديننا منزلة ، حتى أنه نُسب إلى سيدنا رسول الله أنه قال « أكرموا عمتكم النخلة »[(١)]

وهذا القول وإن لم يصح عن رسول الله إلا أن الذى قاله لم يَقُلْهُ من فراغ ، ولا بُدَّ أن لهذا القول أصلاً ، وأن هناك صلة بين الإنسان والنخلة .

وقد صَحَّ عن رسول الله ﷺ أنه قال لأصحابه : « إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها »[(٢)]

فلما سمع عبد الله بن عمر هذا قال لأبيه : لقد وقع فى نفسى أنها النخلة ، لأنها لا يسقط ورقها ، وهى أشبه بالمؤمن ، فكل ما فيها نافع فبكَّر عمر إلى رسول الله ﷺ ، وقال : يا رسول الله ،

---

(١) تمام الحديث : « فإنها خلقت من فضلة طينة أبيكم آدم » أورده السيوطى فى « الدرر المنتثرة » (ص١٠٧) حديث (٩٧) وعزاه لأبى يعلى وأبى نعيم عن ابن عباس وقال : ضعيف . قال ابن القيم فى زاد المعاد (٣/١٩٤) : « فى إسناده نظر » وانظر أيضاً (كشف الخفاء ١/١٩٥) .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه (٦١) ، وتمامه « وإنها مثل المسلم ، فحدِّثونى ما هى ؟ فوقع الناس فى شجر البوادى . قال عبد الله بن عمر : ووقع فى نفسى أنها النخلة ، فاستحييت ، ثم قالوا : حدِّثنا ما هى يا رسول الله ؟ قال : هى النخلة » .

إن ابنى عبد الله قال عن الشجرة التى ذكرتَ أنها النخلة . فقال : صدق ، فقال عمر : فوالله ما يسرنى أنْ يكون لى بها حُمر النعم ، يعنى : فرح أن يفهم ابنه[1] مقالة رسول الله .

وقد حاول العلماء تقريب هذه الحقيقة إلى الأذهان وإثبات النسب بين الإنسان والنخلة ، وأنها ربما تكون قد خُلِقَتْ من بقية طينة سيدنا آدم ، فقالوا : إن رائحة طلع النخلة الذى يتم به التلقيح هى نفس رائحة المنىِّ عند الإنسان ، وهذا يرجح صِدْق قول مَنْ قال إنها عمَّتنا .

وفى خَلْق النخلة على هذه الصورة عجائب وأسرار ، ويكفى أن كل ما فيها نافع ، ولا يُرْمى منها شىء ، وقد جعلها الله موضعاً للمثَل والعبرة ، فلما حدَّثَ العرب عن الهلال ، قال : ﴿ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٣٩) ﴾ [يس]

والعرجون هو السُّبَاطة التى تحمل البلح حين تيبس تلتوى وتتقوَّس ، فقرَّب لهم الأعلى بذِكْر الأدنى المعروف لهم .

خُذْ مثلاً نواة التمرة ، وهى أهون ما يكون ، إلا أن الله تعالى كرَّمها حين ذكر منها ثلاثة أجزاء جعلها أمثالاً توضيحية . ذكر القطمير الذى معنا فى هذه الآية ﴿ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ (١٣) ﴾[فاطر] وهو الغشاء الشفاف الذى يحيط بالنواة ، ونجد مثله بين بياض البيضة وقشرتها .

وذكر النقير فى قوله سبحانه : ﴿ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ

---

(١) أخرج هذه الرواية البخارى فى صحيحه (١٣١) ، وفيها أن ابن عمر قال : فحدثت أبى بما وقع في نفسى ، فقال : لأن تكون قلتها أحب إلىَّ من أن يكون لى كذا وكذا .

نَقِيراً (١٢٤) ﴾[النساء] والنقير تجويف صغير ، أو نقرة فى ظهر النواة .

وذكر الفتيل فى قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً (٧٧) ﴾[النساء] والفتيل خيط أبيض تجده فى بطن النواة ، وهذه الثلاث : القطمير والنقير والفتيل تُضرب مثلاً للشىء اليسير المتناهى فى القلة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ (١٤) ﴾

قوله ﴿ إِن تَدْعُوهُمْ (١٤) ﴾[فاطر] الدعاء هنا معناه العبادة ، فقد كان الواحد منهم يقف أمام صنمه يدعوه ويتوسل إليه ويكلمه .. الخ ، لكن هيهات فهذا حجر لا يسمع ، فدعاؤه غباء فضلاً عن كونه كفراً ، ومعنى ﴿ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ (١٤) ﴾[فاطر] أى : الآلهة التى لا تعقل ولا تسمع ، كالشجر والحجر وغيره .

لكن ، لماذا عبد الكفار الأصنام مثلاً ، وهم يعلمون أنها حجارة نحتوها بأيديهم ، ويرونَ أن هبَّة الريح تُوقع معبودهم ، وتُلقيه على الأرض ، وتكسر ذراعه ، فيحتاج إلى مَنْ يصلحها ، شىء عجيب أنْ تُعبد الأصنام من دون الله ، لكن السبب هو فطرة التدين فى النفس البشرية .

فكل إنسان بطبعه يحب التدين ، وآفة التدين أن له مطلوبات ، فما

المانع أنْ يذهب الإنسانُ إلى تدين يرضى هذه الفطرة ، ومع ذلك لا مطلوبات له ، من هنا عُبدت الأصنام ، وعُبدت الكواكب والأشجار وجُعِلَت آلهة .

ومعنى العبادة : أنْ يطيع العابد أمر معبوده وينتهى عن نَهْيه ، فإذا لم يكن هناك أمر ولا نهى ، فالعبادة ساقطة باطلة ؛ لأنك تعبد إلهاً بلا منهج ، وإلا فبماذا أمرتهم هذه الآلهة وعَمَّ نَهَتْهم ؟ ماذا أعدَّتْ لمن عبدها ؟ وماذا أعدَّتْ لمن كفر بها ؟

وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ سَمِعُوا ﴿١٤﴾ ﴾ [فاطر] أى : على فرض أنهم عبدوا بشراً يسمعهم ﴿ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ ﴿١٤﴾ ﴾ [فاطر] يعنى : ما وافقوا على عبادتكم لهم ، ولرفضوا أن يكونوا آلهة . ومثال ذلك : الذين عبدوا عيسى عليه السلام من دون الله .

وقد تناول الشاعر هذه المسألة حين تخيَّل أن غار ثور يَغَار من غار حراء ؛ لأن النبى ﷺ جعله مكاناً للخُلْوة وللتعبُّد ، وفيه نزل عليه أول الوحى ، فلما نزل النبى ﷺ فى هجرته بغار ثور فرح ثور ، ورأى أن الرءوس قد تساوتْ ، فحراء لبعثة رسول الله ، وثور لهجرته ، التى كانت منطلقاً للدعوة .

يقول الشاعر[1] :

كَمْ حَسَدْنَا حراءَ حين تَرَى ... الرُّوحَ أميناً يَغْذُوكَ بالأَنْوارِ
فَحراءٌ وثَوْرُ صَارَا سَواءً ... بِهِما اشفَعُ لأمَّة الأحْجارِ
عَبَدُونَا ونحْنُ أعْبَدُ لله ... مِن القائمين بالأَسْحَارِ

(١) من شعر الشيخ رضى الله عنه .

تَخِذُوا صَمْتنا عَلَيْنَا دَليلاً فَغَدَوْنَا لهم وَقُودَ النَّارِ
قَدْ تجنَّوْا جَهْلاً كمَا قَدْ تجنَّوْه عَلَى ابْنِ مريمَ والحوَارِى
لِلْمغَالِى جَزَاؤهُ والمغَالَى فِيه تُنجِيه رحمةُ الغفَّارِ

فالحجر ذاته يأبى أنْ يُعبد من دون الله ، ويعلم فى حقيقته قضية التوحيد ، ويخرُّ لله مُسبِّحاً ، فما بالك بالبشر ؟

لذلك سنرى فى موقف القيامة العجب من المعارك والمناقشات بين العابد والمعبود ، والتابع والمتبوع ، يقول تعالى : ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ (١٦٦)﴾ [البقرة] وقال حكايةً عن الذين ضلُّوا : ﴿رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلاَّنَا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الأَسْفَلِينَ (٢٩)﴾ [فصلت]

وهنا يقول سبحانه : ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ (١٤)﴾ [فاطر] أى : هؤلاء الذين توجهتم إليهم بالعبادة واتخذتموهم آلهة سيتبرأون منكم ومن شرككم ﴿وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ (١٤)﴾[فاطر] أى : عالم ببواطن الأمور ، وكأن الله تعالى يقول لك : أنا أخبرك بما سيكون فى المستقبل فَخُذْ من صدقى فيما مضى دليلاً على صدقى فيما هو آتٍ ، ومن صدقى فيما تشاهد دليلاً على صِدْقى فيما غاب عنك .

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (١٥) إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٦) وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (١٧)﴾

النداء فى ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ ﴿١٥﴾ ﴾[فاطر] نداء عام للناس جميعاً ، المؤمن والكافر ، والطائع والعاصى ﴿أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ ﴾ [فاطر] هذه حقيقة يُذل الله بها كبرياء الذين تأبَّوْا على الإيمان بالله ، وتمردوا على منهج الله ، وكأن الله تعالى يقول لهم : ما دُمْتم قد أَلِفْتم التمرد فتمردوا أيضاً على الفقر إنْ أفقرتُكم ، وعلى المرض إنْ نزل بكم ، تمردوا على الموت إن حان أجلكم ، إذن : أنتم مقهورون لربوبية الله ، لا تنفكون عنها .

﴿ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ ﴾[فاطر] أى : الغنَى المطلق ، ومعنى ﴿ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ ﴾[فاطر] أى : المحمود كثيراً ، والغنى لا يُحمد إلا إنْ أعطى ، وكان عطاؤه سابغاً ، فالغنى الممسك لا يُحمد بل يُذَم .

ثم يُذكِّرهم الحق سبحانه بحقيقة أخرى غابت عنهم ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ ﴾[فاطر] كما قال فى موضع آخر : ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴿٣٨﴾ ﴾[محمد] ومعنى : خلق جديد : الشىء الجديد هو قريب العهد بالعمل فيه ، مثل الثوب الجديد يعنى الذى فُرِغ من خياطته ولم يُلْبَس بعد .

وإعادة الخَلْق أو الإتيان بخَلْق جديد أمر هيِّن على الله ﴿ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ ﴾[فاطر] يعنى : ليس صعباً ، لكن الحق سبحانه يريد أنْ يأتى له الخَلْق طواعية ، ويؤمنون به سبحانه ، وهم قادرون على الكفر ولهم مُطْلق الاختيار ، وهذا الاختيار موطن العظمة فى دين الله .

وسبق أنْ مثَّلنا هذه القضية بأنه لو أن لك عبدين أمسكتَ الأول

إليك بسلسلة ، وتركتَ الآخر حراً ، وإنْ ناديتَ على أحدهما لبَّى وأجاب ، فأيهما يُعَدُّ الأطوع لك . كذلك الحق سبحانه يريدنا طائعين عن رضا وعن اختيار ، لا عن قهر وكراهية ، فالله سبحانه كما قلنا لا يريد قوالبَ تخضع ، إنما يريد قلوباً تخشع .

والإتيان بخَلْق جديد أمر هيِّن يسير على الله تعالى ؛ لأن الله تعالى لا يخلق بعلاج ، وإنما يخلق بكُنْ فيكون ، وهذا من الله تعالى لا يحتاج إلى زمن .

ولو أردتَ أن تستقصى هذا المعنى فى قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾[يس] تجد أن الشىء فى الحقيقة موجود بالفعل ، لكن فى عالم الغيب والأمر ، له أن يظهر لنا فى عالم الواقع ؛ لذلك لما سُئِلَ أحد العارفين قال : أمور يبديها ، ولا يبتديها.

وتلحظ فى قوله تعالى ﴿ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾[فاطر] ذكر ضمير الفصل (هو) فلم يَقُلْ الحق سبحانه : والله الغنى ، وهذا الضمير أفاد توكيد الخبر وقصر الغِنَى على الله سبحانه وتعالى ، لذلك قلنا : إن هذا الضمير لا يأتى إلا فى المواضع التى تحتمل شبهة المشاركة ، كما فى قوله تعالى : ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾﴾ [الشعراء]

فجاء هنا بضمير الغائب (هو) لأن الهداية والإطعام والسُّقْيا والشفاء من المرض كلها مظنة أنْ يشاركه فيها أحد من الخَلْق ، أما فى الحديث عن الموت فقال : ﴿وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾﴾ [الشعراء] ولم يأتِ هنا بضمير الغائب ؛ لأن الموت والإحياء لله وحده ، ولا

شبهةَ فيهما ، ولم يدَّعِهما أحد لنفسه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ ۚ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ ﴾

معنى ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ ﴿١٨﴾ ﴾ [فاطر] لا تحمل نفس آثمة ﴿ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ ﴾[فاطر] حِمْل نفس أخرى ؛ لأنها هى الأخرى مُثْقَلَة بحِمْلها ، والوزر هو الحِمْل الثقيل الذى لا يطيقه الظهر ، ومنه قوله تعالى فى مسألة الوحى : ﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ الَّذِى أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ ﴾ [الشرح] يعنى : أتعبك نتيجة التقاء الملائكية بالبشرية .

لذلك كان ﷺ يتفصَّد جبينه عرقاً من لقاء جبريل ، وهو الذى قال مُصوِّراً هذا اللقاء : « ضمَّنى حتى بلغ منى الجهد »[1] وعاد إلى أهله يقول : زملونى زملونى ، دثرونى دثرونى . ومع هذا كله لما فتر الوحى اشتاق إليه وتمناه أنْ يجىء ، لأنه ذاق حلاوته ، وحلاوة الشىء تُنسيك ما تلاقيه من المتاعب فى سبيله .

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٣) كتاب بدء الوحى من حديث عائشة رضى الله عنها فى حديث طويل . والغطُّ : حبس النفس . وفى رواية الطبرى « فغتنى » كأنه أراد ضمنى وعصرنى ، قاله ابن حجر فى فتح البارى (١/٢٤) .

والمعنى : لا تحمل وزر وذنب نفس أخرى مُثْقَلة بالذنوب والآثام ، وقد شرح الحق لنا هذا المعنى فى قوله سبحانه : ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٣٧) ﴾ [عبس] فكلٌّ مشغول بنفسه ، مُرْتَهَنٌ بعمله ، لا وقت للمجاملة ؛ لذلك يقول الوالد لولده : يا بُنى حِمْلى ثقيل علىَّ ، فخُذْ عنى شيئاً منه . فيقول الولد : حسبى حِمْلى يا أبى .

كذلك هنا ﴿ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا (١٨) ﴾[فاطر] أى : نفسى مُثْقَلة بالآثام تطلب مَنْ يحمل عنها شيئاً من ذنوبها ولكن هيهات ﴿ لا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ (١٨) ﴾ [فاطر] أى : لو كان هذا النداء لأقرب الناس إليها ما أجاب وما حمل عنها ، وكيف تحمل نفسٌ وِزْر نفس أخرى ، وهى مشغولة بحِمْلها مثقلة به ؟

لذلك يُكذِّب الحق سبحانه قَوْل الذين كفروا حين يتعرَّضون لحمل خطايا أتباعهم ، فيقول سبحانه :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٢) وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (١٣) ﴾ [العنكبوت]

إذن : هذه مسألة واضحة ، فكلٌّ مشغول بنفسه ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (٣٨) ﴾ [المدثر]

فالإنسان فى الدنيا مرتبط إما بقرابة لها حقوق عليه ، وإما بإخوان وأصدقاء ، وإما بمنقذ يستنجد به ، وإنْ لم يكن قريباً ولا صديقاً ، لكن يوم القيامة ستنحلُّ كل هذه العُرَى ؛ لأن الموقف لا يحتمل المجاملات ولا التضحيات .

لذلك لما سمعتْ السيدة عائشة رضى الله عنها سيدنا رسول الله وهو يُحدِّثهم عن القيامة ، ويذكر أن الشمس تدنو من الرؤوس والخَلْق يقفون عرايا ، استاءتْ وسألت رسول الله : كيف يقف الناس عرايا ينظر بعضهم إلى عورة بعض ؟ فأجابها رسول الله أن كل امرىء مشغول بنفسه ، وأن الأمر أعظم من أنْ ينظر أحد لعورة أحد فى هذا الموقف[1] .

ثم يقول سبحانه مخاطباً نبيه ﷺ : ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ ﴿١٨﴾ ﴾ [فاطر] يعنى : إنذارك يا محمد وتحذيرك لا ينفع إلا الذين يخشون ربهم بالغيب ، أما الآخرون فقد ظلموا أنفسهم حين حرموها الخير الكثير الذى أراده الله لهم ، ظلموها حين غرَّتهم الدنيا بنعيمها الفانى ، وشغلتهم عن نعيم الآخرة الباقى الدائم .

والإنذار : التخويف من شرٍّ قبل أوانه لتتوقَّاه ، والفرصة سانحة قبل أنْ يداهمك ، فأنت مثلاً حين تريد أنْ تحثَّ ولدك على المذاكرة وتحذره من الإهمال الذى يؤدى إلى الفشل لا تقول له هذا ليلة الامتحان ، إنما قبله بوقت كافٍ ليتدارك أمره ، ويصحح ما عنده من قصور أو إهمال .

والإنذار والتخويف لا يُجدى إلا مع مَنْ يؤمن بما تُخوِّفه به ، فحين ينذر رسول الله بعذاب الآخرة لا ينتفع بهذا الإنذار إلا مَنْ يؤمن بالله ويؤمن بالقيامة .

ومعنى ﴿ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم ﴿١٨﴾ ﴾ [فاطر] الخشية هى الخوف ، لكن بحب

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٢/٥٣) من حديث عائشة أن النبى ﷺ قال : « إنكم تحشرون يوم القيامة حفاة عراة غُرْلاً . قالت عائشة : يا رسول الله ، الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض . قال : يا عائشة ، إن الأمر أشد من أن يهمهم ذلك » .

وتوقير ، لا خوف بكراهية ، فأنت تخاف مثلاً من بطش جبار ظالم ، لكن تخافه وأنت كاره له ، إنما خَوْفك من الله خَوْف ناتج عن حب وتوقير ، لذلك يصحب هذا الخوف رجاء وطمع فى رحمته تعالى ، فأنت تسير فى رحلة حياتك بجناحين : خوف من العذاب ، ورجاء فى الرحمة .

والإنسان ينبغى ألاَّ ينظر إلى الفعل فى ذاته ، بل ينظر إلى الفعل وإلى قابل ، فقد يكون الفعل واحداً لكن يختلف مستقبل الفعل ، فالقرآن مثلاً سمعه قوم[1] عند رسول الله ، فحكى الله عنهم : ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا . . (١٦)﴾ [محمد]

فى حين سمعه آخر[2] فقال : والله إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة[3] ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وإنه يعلو ولا يُعْلَى عليه .

وسمعه عمر فَلاَنَ قلبه له ورَقَّ فأسلم ، فالقرآن واحد ، لكن

---

(١) المقصود بهم المنافقون . ذكره السيوطى فى أسباب النزول للسيوطى (ص ١٥٤) وابن كثير فى تفسيره (٤/١٧٧).

(٢) هو الوليد بن المغيرة ، وقد اجتمع إليه نفر من قريش ليحددوا وصفاً للقرآن ليجتمع رأيهم فى رأى واحد حتى لا يختلفوا أمام الناس الوافدين عليهم فى موسم الحج . فقال بعضهم : هو كاهن . فقال الوليد : ما هو بكاهن لقد رأينا الكهان فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه . وقال بعضهم : مجنون . فقال الوليد : لقد رأينا الجنون وعرفناه فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته . وقال بعضهم : شاعر . فقال الوليد : ما هو بشاعر ، لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه فما هو بالشعر . ثم قال : والله إن لقوله لحلاوة ، وإن أصله لغدق ، وإن فرعه لجناة . [ذكره ابن هشام فى السيرة النبوية ١/٢٨٣ ، ٢٨٤] .

(٣) الطلاوة : الرونق والحُسْن . [لسان العرب - مادة : طلى] .

فَرْق بين مَنْ يسمعه وهو له كاره ، فيغلق عليه وبين مَنْ يستقبله بقلب وَاعٍ مفتوح لإشراقات القرآن وتجلياته .

ألاَ ترى أن الحديد يستجيب لك حين تطرقه وهو ساخن ، فيصير كالعجينة فى يدك ، أما إنْ طرقْته وهو بارد فإنه لا يتفاعل معك ، كذلك قلنا مثلاً : إنك فى اليوم البارد تنفخ فى يدك لتشعر بالدفء ، وتنفخ أيضاً فى كوب الشاى مثلاً لتبرده ، فكيف تجتمع هذه المتضادات لفعل واحد ؟ نقول : لأن الفاعل وإنْ كان واحداً إلا أن المستقبِل للفعل مختلف .

كذلك إنذاره ﷺ إنذار واحد ، لكن استقبله قوم بخضوع ورغبة فى الهداية فآمنوا ، واستقبله قوم بعناد وإصرار فلم يستفيدوا منه ولم ينتفعوا بثمرته .

وقوله ﴿ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ (١٨) ﴾ [فاطر] دلتْ على أن الإيمان اكتمل فى نفوس هؤلاء اكتمالاً يستوى فيه مشهد الحكم بغيبه . ومن ذلك قول الإمام على رضى الله عنه : لو انكشف عنى الحجاب ما ازددتُ يقيناً .

ولما سأل سيدنا رسول الله ﷺ أبا ذر : « كيف أصبحتَ يا أبا ذر؟ » قال : أصبحت مؤمناً حقاً ، قال : « فإن لكل حق حقيقة ، فما حقيقة إيمانك ؟ » قال : عزفَتْ نفسى عن الدنيا ، حتى استوى عندى ذهبها ومدرها ، وكأنِّى أنظر إلى أهل الجنة فى الجنة يُنعَّمون ، وإلى أهل النار فى النار يُعذَّبون ، فقال له رسول الله : « عرفتَ فالزم[1] »

---

(١) أورده الهيثمى فى مجمع الزوائد (٥٧/١) وعزاه للطبرانى فى معجمه الكبير من حديث الحارث بن مالك الأنصارى وليس أبا ذر ، وقد عزا ابن حجر العسقلانى الحديث لابن المبارك فى الزهد ، وذلك فى « الإصابة فى تمييز الصحابة » (٣٤٣/١) .

ثم يذكر الحق سبحانه صفة أخرى للذين استجابوا لإنذار رسول الله وانتفعوا به : ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ﴿١٨﴾﴾[فاطر] فهم مع خشيتهم لله خشية أوصلتهم إلى إيمان يستوى فيه الغيب بالمشاهدة ، هم أيضاً يقيمون الصلاة أى : يؤدونها على أكمل وجه ، والصلاة كما ذكرنا هى العبادة الوحيدة التى لا تسقط عن المكلَّف بحال ، فقد يطرأ عليك ما يُسقط الزكاة أو ما يُسقط الصيام أو الحج فلم تَبْقَ إلا شهادة ألاَّ إله إلا الله محمد رسول الله . وهذه يكفى أنْ تقولها ولو مرة واحدة .

أما الصلاة فهى العبادة الوحيدة الملازمة للمسلم ؛ لأن الصلاة فى حقيقتها استدامة الولاء لله تعالى ، فَرَبُّك يدعوك إلى لقائه خمس مرات فى اليوم والليلة يناديك لتعرض الصنعة على صانعها ، وما بالك بصنعة تُعرض على صانعها خمس مرات فى اليوم والليلة ؟ أيكون بها عَطَب بعد ذلك ؟

أما إذا أردتَ مقابلة عظيم من عظماء الدنيا فَدُونه أبواب وحُرَّاس ومواعيد وإجراءات صارمة ، ولا تملك أنت من عناصر هذا اللقاء شيئاً ، بل يحدد لك الموعد والموضوع وحتى ما تقوله ، إنك تستأذن فى أوله ولا تملك الانصراف فى آخره .

أما لقاؤك بربك فخلاف ذلك ، ففى يدك أنت كل عناصر اللقاء ، فأنت تبدؤه متى تحب ، وتنهيه كما تحب ، وتناجى ربك فيه بما تريد، تبثّه شكواك ، وتعرض عليه حاجتك ، فيسمع ويجيب .

وبعد أنْ ذكر الحق سبحانه هذه العبارة الدائمة يقرر هذه الحقيقة ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ ﴿١٨﴾﴾[فاطر] يعنى : عبادتك عائدة إليك أنت لا ينتفع الله تعالى منها بشىء ، فهو سبحانه لا تنفعه طاعة الطائعين ، ولا تضره معصية العاصين .

فهو سبحانه غنى عنَّا ، ونحن بعبادتنا لله لم نزده سبحانه صفة كمال لم تكن له ؛ لأنه بصفة الكمال أوجدنا وبصفة الكمال كلَّفنا . لذلك جاء فى الحديث القدسى : « يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجِنَّكم ، وشاهدكم وغائبكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ، ما زاد ذلك فى مُلكى شيئاً ، ولو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجِنَّكم وشاهدكم وغائبكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من مُلكى شيئاً ، ذلك أنِّى جَوَاد ماجد واجد ، عطائى كلام ، وعذابى كلام ، إنما أمرى لشىء إذا أردته أنْ أقول له كن فيكون»[(١)] .

إذن : نحن صَنْعة الله ، وما رأينا صانعاً يعمد إلى صَنْعته فيحطمها أو يعيبها ، إنما يصلحها ويُهذِّبها ويعتنى بها ، حتى إنْ أصابك عطب أو إيلام فاعلم أنه فى النهاية لصالحك .

﴿ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ ﴾ [فاطر] يعنى : المرجع والمنقلب يوم القيامة ليفصل بين الخصوم ، ولينال كل ما يستحق ، فمَنْ أفلت من العقاب فى الدنيا فهناك مصير سيرجع إليه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ ۖ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ ﴾

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه (٢٤٩٥) من حديث أبى ذر رضى الله عنه ، وقال : حديث حسن ، وكذا أخرجه أحمد فى مسنده (٥/٧٧ ، ١٥٤) وابن ماجه فى سننه (٤٢٥٧).

هذه حقائق يقررها الحق سبحانه ، فالمتناقضان لا يستويان ، لأن الأعمى لا يعرف مواقع الأشياء من حركته ، والبصير يعرف مواقع الأشياء من حركته ، البصير يرى مواقع الأشياء ويتفادى الأخطار ، أما الأعمى فلا بُدَّ له من مرافق يتطوع بصداقة عينه السليمة للعين الغائبة ، لذلك نقول : إنْ أعطى الأعمى للعمى حقه صار مبصراً ، كيف ؟ لأنه لا يتكبر أن يستعين بالمبصر ، فحين ينادى على مَنْ يأخذ بيده تتسابق إليه كل العيون من حوله لتساعده ، أما إنْ تعالى فسرعان ما (يندب) على وجهه .

والعمى والبصر حسِّيات توضح المعنوى ، فالمراد لا يستوى الجاهل والعالِم ؛ لأن حركة الحياة تنقسم إلى حركة مادية : تأتى وتذهب ، تزرع وتقلع .. إلخ وحركة قيمية معنوية ، وهى الروحانيات والأخلاقيات العالية ، مثل معانى : الإيمان ، الصدق ، الوفاء ، العدل ، الرحمة .. الخ .

وإذا كانت الحركة المادية الحسية تحتاج إلى نور حسىٍّ يهديك حتى لا تصطدم بما هو أقوى منك فيحطمك ، أو بما هو أضعف منك فتحطمه ، فكذلك الحركة القيمية المعنوية الروحية تحتاج إلى نور معنوى يهدى خُطَاك كى لا تضلّ ، هذا النور المعنوى هو المنهج الذى قال الله فيه :

﴿ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ (١٥) يَهْدِى بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٦) ﴾

[المائدة]

فالشمس هى النور الحسى ، والقرآن هو النور المعنوى ؛ لذلك قلنا فى قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ (٣٥) ﴾ [النور] أى : مُنوِّرهما بالنُّورين.

الحق سبحانه سبق أنْ ذكر لنا التقابل بين الماءيْن العذب والمالح ، فقال سبحانه : ﴿ وَمَا يَسْتَوِى الْبَحْرَانِ هَـٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَـٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴿١٢﴾ ﴾[فاطر] نعم ، لا يستويان ، لكن العلاقة بينهما علاقة تقابل كالليل والنهار ، لا علاقة تضادٍّ كالأعمى والبصير ، بدليل أن الله جمعهما معاً ، فقال : ﴿ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴿١٢﴾ ﴾[فاطر] فإن اختلف المتقابلان ، فلكل منهما مهمة يؤديها ، فهما متساندان لا متعاندان .

وبعد أن ذكر الحق سبحانه عدم استواء الأعمى والبصير يقول : ﴿ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾ ﴾ [فاطر] ، لأن النور هو مصدر الإبصار فالمبصر لا يرى شيئاً فى الظلمة .

هذا فى العمى والبصر الحسى ، أما القيم والمعنويات فلها مقياس آخر ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَـٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الحج] ، فقد يكون الرجل مبصراً وهو أعمى بصيرة . والأعمى فى المعنويات هو الذى يجهل الحكم الذى يهديه إلى منطقة الحق فى كل القيم ، والبصير هو العالم بهذه الأحكام .

وحين تتأمل أسلوب هاتين الآيتين . تجد فيهما ملمحاً من ملامح الإعجاز فى كلام الله ، فالأولى ﴿ وَمَا يَسْتَوِى الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ ﴾ [فاطر] قرنت بين الاثنين باستخدام واو العطف ، أما الأخرى ﴿ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾ ﴾ [فاطر] فذكرت (لا) النافية الدالة على توكيد عدم الاستواء ، فلم يَقُل الحق سبحانه كما فى الأولى : ولا الظلمات والنور ، لماذا ؟

قالوا : لأن العمى والبصر صفتان قد تجتمعان فى الشخص الواحد ، فقد يكون أعمى اليوم ويبصر غداً ، قد يكون جاهلاً ويتعلم ، أو كافراً ويؤمن ، فيطرأ عليه الوصفان ؛ لذلك لم يؤكد معنى عدم الاستواء ، أما الظلمات والنور فهما متقابلان لا يجتمعان .

كما تلحظ فى دقة الأداء القرآنى ؛ لأن الحق سبحانه هو المتكلم ، فقال : ﴿وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ (٢٠)﴾[فاطر] فالظلمات جمع والنور مفرد ؛ لأن مذاهب الضلال شتى ، فهذا يعبد النجوم ، وهذا يعبد الأصنام ، وهذا يعبد الملائكة .. الخ . أما النور فواحد ، هو منهج الله المنزل فى كتابه .

لذلك لما أراد سيدنا رسول الله ﷺ أن يُعلِّم أصحابه هذا الدرس خَطَّ لهم خطاً مستقيماً ، ومن حوله خطوط متعرجة ، ثم تلا : ﴿وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ (١٥٣)﴾ [الأنعام]

ثم يقول سبحانه : ﴿وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ (٢١)﴾ [فاطر] وهما أيضاً متقابلان لا يجتمعان ، كذلك ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ (٢٢)﴾[فاطر] وتلحظ هنا أن الحق سبحانه أعاد ذكر الفعل المنفى﴿وَمَا يَسْتَوِي (٢٢)﴾[فاطر] لتأكيد عدم الاستواء بين الحى والميت .

وكذلك ذكر (لا) النافية الدالة على التوكيد ؛ لأن كلمة الأحياء تعنى المؤمنين الإيمانَ الحق ، الذين يستحقون حياة أبدية باقية تتصل بحياتهم الدنيوية الفانية ، أما الأموات فهم الكفار الذين تأبَّوْا على منهج الله . أو : أن الأحياء هم الذين عرفوا أن الحياة الحقة هى العيش بمنهج ربهم الذى يؤدى بهم إلى الحياة الحقيقية الباقية التى قال الله عنها :

﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٦٤)﴾ [العنكبوت]

وهذه هى الحياة المرادة فى قوله تعالى : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ (٢٤)﴾ [الأنفال] كيف وهو يخاطبهم وهم أحياء بالفعل ؟ إذن : المعنى يُحييكم الحياة الحقيقية التى لا تنتهى بموت ، ولا تُسلب منها نعمة .

ومن ذلك أيضاً قوله سبحانه : ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا .. (١٢٢)﴾ [الأنعام]

ومن المعانى التى نفهمها من عدم استواء الأحياء والأموات أن الحىَّ خلقه الله وأمدَّه بأجهزة نفسية : عقلاً ، وأعصاباً ، وعضلات ، وسمعاً وبصراً .. الخ وهذه الأعضاء لها قيمة ، ولها مهمة ، وعليه أنْ يستخدم هذه النعم استخداماً يجعلها وسائل لنِعَم أخرى ، ثم ليعلم أنه فى رحلة حياته لا بُدَّ أنه سيموت ، لكن ربه عز وجل أبهم له أجله ليكون ذلك عَيْن البيان ، وليظل على ذكْر له طوال الوقت وينتظره فى كل لحظة ، فعمرك محسوب بعدٍّ تنازلى ، وسهم الموت أُطلِق فى اتجاهك بالفعل ، وعمرك بقدر وصوله إليك .

بعد أن تكلم الحق سبحانه عن الحال فى التكليفات فقال : لا يستوى الأعمى الجاهل بأصول دينه والبصير العالم بها ، ولا يستوى نور الإيمان والهداية مع ظلمات الضلال ، يتكلم سبحانه عن المآل ، فيقول : ﴿وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ (٢١)﴾[فاطر] الظل كناية عن نعيم الجنة ، وفى موضع آخر قال : ﴿ظِلًّا ظَلِيلًا (٥٧)﴾ [النساء] والحَرُور كناية عن العذاب وشدة حَرِّه .

ثم يقول سبحانه مخاطباً نبيه ﷺ ومُسلِّياً له : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ (٢٢)﴾ [فاطر] النبى ﷺ جاء على كفر

وجهالة من قومه ، فكانت دعوته أنْ يخرجهم من العمى والجهالة إلى ما ينير بصائرهم ويُخرِجهم من ظلمات الضلال إلى نور الإيمان .

وقد كان ﷺ شديد الحرص على هداية قومه يكاد يُهلك نفسه في سبيل دعوته ؛ لذلك خاطبه ربه بقوله : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ ﴾ [الكهف]

كذلك هنا يخاطبه بقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ ﴿٢٢﴾ ﴾[فاطر] أى سماع هداية وإقبال ، وإلا فَهُمْ جميعاً يسمعون ، لكن هناك سماعُ إعراض وسماعُ إقبال ، منهم مَنْ يقبل ويؤمن ويتأثر بكلام الله ، ومنهم مَنْ يسمع ثم يُعرض وينصرف عما سمع ؛ لذلك قال الله فيهم : ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الأنفال]

إذن : يا محمد ، لقد أديتَ ما عليك نحوهم ، وخاطبتَهم خطابَ هداية ، وخطابَ تهديد ووعيد ، فلم يسمعوا ﴿ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ ﴾ [فاطر] فجعلهم الله لعدم سماعهم كالأموات ، وإلا فرسول الله خاطب أهل قليب بدر من الكفار حين وقف عليهم وناداهم بأسمائهم : « يا عتبة بن ربيعة ، يا شيبة بن ربيعة ، يا أبا جهل أليس وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً ، فإنَّا وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً » .

فقال عمر : أتكلمهم وقد جيَّفوا ؟ قال ﷺ : « والله ، ما أنتم بأسمعَ منهم ، ولكنهم لا يتكلمون »[1]

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٨٧٤) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه ، وفيه أن عمر رضى الله عنه قال : يا رسول الله ، كيف يسمعون وأنى يجيبون وقد جيَّفوا ؟ فقال ﷺ : « والذى نفسى بيده ، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ، ولكنهم لا يقدرون أن يجيبوا » . ثم أمر بهم فسُحبوا ، فأُلقوا فى قليب بدر .

فالمعنى : ما أنت بمسمع السماع المؤدى إلى الهداية ، كما أنك لا تُسمع مَنْ فى القبور ؛ لأن زمن السماع وقبول الهداية انتهى بالموت .

لكن إذا كان رسول الله لا يُسمع مَنْ فى القبور ، فما مهمته ؟ يقول سبحانه بعدها :

﴿ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ ﴾

إنْ هنا بمعنى ما النافية : ما أنت إلا نذير أى : مُحذِّر من المعصية ومن العذاب ، وكأن الحق سبحانه يريد أن يُخفِّف عن رسوله ، فيحدد له هذه المهمة فحسب ، وليس له أنْ يزيد عليها بما يشقُّ عليه حتى يكاد يُهلك نفسه ، فيقول له : مهمتك فقط الإنذار ، أما الهداية فمن الله فأرِحْ نفسك ، فلو أرادهم الله جميعاً مؤمنين لجاءوا طائعين مُسخَّرين كغيرهم من المخلوقات .

﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴿٤﴾ ﴾ [الشعراء]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾

الحق : هو الشىء الثابت الذى لا يتغير ، والله تعالى يضرب لنا مثلاً حسياً لتوضيح الحق والباطل ، فيقول سبحانه : ﴿ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا

مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الرعد]

وقد ترجمنا هذه العلاقة بين الحق والباطل ترجمة عصرية فقلنا : لا يصح إلا الصحيح ، نعم لأن الباطل وإنْ أخذ صورة الحق مرة بعض الوقت ، فهو كالزَّبَد الذى سرعان ما تزيحه الرياح لتكشف وجه الحقيقة الناصع والحق الواضح .

وقوله تعالى لنبيه : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ ﴿٢٤﴾ ﴾ [فاطر] يدل على أنه الرسول الخاتم الذى لا رسول ولا نبى بعده يغير شيئاً مما جاء به ، فالنبى جاء بالحق الثابت الذى لا يتغير أبداً ، ولا يستدرك عليه أحد بعده . لذلك فإن آفة البشرية الآن أنها تحكم العصر وتطور الأوضاع فى الحكم على المخالفات الشرعية ، فحين نتعرض لمخالفة نسمع مَنْ يقول إنه التطور الذى لا بُدَّ منه ، وهؤلاء هم دعاة (عَصْرنة) الدين ، يعنى تطويع الدين ليلائم العصر .

وهذا يعني أن تطور العصر هو المشرع ، فى حين أن المفروض أن العصر هو الذى يستقبل تشريع السماء ويبنى حركة حياته على هَدْيه ونوره ؛ لأن الحركة التى تُبْنَى على هَدْى السماء هى الحركة العليا من الرب الأعلى الذى يعلم حقيقة الخير لك ولا يستدرك عليه ، أما إنْ شرع لك إنسانٌ مثلك ، فحتى هو لو دَلَّك على الخير فهو خير من وجهة نظره وعلى قدر علمه ، فلا بُدَّ أنْ يكون فيه نقص وقصور ، ولا بُدَّ أنْ يأتى بعده مَنْ ينقضه ويستدرك عليه .

لذلك رأينا حتى غير المسلمين تُلجئهم أقضية الحياة إلى أن يأخذوا بحلول الإسلام للتغلب على مشاكلهم ، وهم بالطبع لا يأخذون أحكام الإسلام حباً فيه ، إنما لأنهم لم يجدوا حلاً فى غيره . ومن هذه القضايا قضية الطلاق التى طالما أثاروا حولها الشكوك وظنوها

مـأخـذاً على الإسـلام ، والآن فى إيطـاليـا يقـررون الطلاق ، لا لأن الإسلام شرَّعه ، إقعا لأن مشاكلهم لا تُحَلُّ إلا به .

وهذه المسألة توضح لنا معنى قوله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٣٣)﴾ [التوبة]

لذلك سُئِلْنا فى بعض رحـلاتنا : القرآن يقول : ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٩)﴾[الصف] وفى آية أخرى : ﴿وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَـرِهَ الْكَافِـرُونَ (٨)﴾ [الصف] فكيف تم نـور الله ومع الإسـلام ديانات أخرى كـثيرة ، مـا زالت موجـودة ، وأغلبها أكـثر من الإسـلام عَدَداً وقوة ؟

لقد فهم هؤلاء أن معنى﴿مُتِمُّ نُورِهِ (٨)﴾ [الصف] أنْ يصير الناس جمـيعاً مـسلمين ، ولو كان الأمـر كذلك ما قـال الله تعالى ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُـشْـرِكُـونَ (٩)﴾[الصف] ﴿وَلَوْ كَـرِهَ الْكَافِـرُونَ (٨)﴾ [الصف] إذن : الحق سبـحانه يقرر وجـود الشرك والكفر مع الإسـلام . والمعنى : أن الله مُـتِم نوره يعنى مع كفـرهم ومع شـركهم طوال المـدة ، إلا أنهم لن يقـدروا على إطفـاء هذا النور ، فسـوف يظل ، وسـوف يتـغلب على أحكامهم ويظهر عليـها ، بحيث لا يجدون حلاً لأقضـيتهم إلا فى هذا النور .

وقوله تعالى : ﴿بَشِيراً وَنَذِيراً (٢٤)﴾ [فاطر] البشـير : الذى يُخـبر بالخيـر قبل أوانه. والنذير : الذى يُحذِّر من الشـر قبل أوانه ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ (٢٤)﴾ [فاطر] إنْ هنا بمعنى ما النافـية ، مثل : ﴿إِنْ أَنتَ إِلاَّ نَذِيرٌ (٢٣)﴾ [فاطر] فـالمعنى : مـا من أمـة إلا خلا فـيهـا نذير يعنى : جاءها نذير ومضى .

والأمة : الجماعة من الناس ، تجمـعهم أرض واحدة ، أو يجمعهم

سلوك واحد ، أو عقيدة واحدة . ومن معانى كلمة أمة ما جاء فى قوله تعالى : ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً (١٢٠)﴾[النحل] يعنى : جامعاً وحده كُلَّ خصال الخير ، بحيث لو جمعت كل صفات الخير فى أمة تجدها فى سيدنا إبراهيم عليه السلام .

وإذا كانت الأمم السابقة مضى فى كل منها نذير ، فرسول الله هو النذير الأخير ، لماذا ؟ قالوا : لأن واقع العالم فى القديم كان بعيد التواجد منقطعاً بعضُه عن بعض لصعوبة الاتصال ، فالجماعات تعيش منفصلة لا اتصال بينها ، فترى لكل بيئة داءاتها وعيوبها وعاداتها ، فيأتى الرسول ليعالج داءات قومه فحسب ، فسيدنا نوح عليه السلام جاء للذين عبدوا وَداً وسُواعاً ويَغُوث ويَعُوق ونَسْراً ، وسيدنا لوط عليه السلام جاء ليعالج داء الشذوذ فى قومه .. الخ

أما سيدنا رسول الله ﷺ فقد جاء على ميعاد مع التقاء الدنيا كلها ، حين تداخلت الحضارات والمجتمعات ، فصار العيب فى أمة عيباً فى كل الأمم ، وزاد هذا الالتقاء حتى أصبحنا اليوم نرى ونسمع ما يحدث فى أقصى بلاد الدنيا فى التَّوِّ واللحظة ، كذلك نرى ونسمع سلبيات وعيوب الآخرين وكأنها فى بلادنا ، إذن : ستتوحد الداءات ، وتتوحد النقائص ، ويصبح العالم كله بيئة واحدة ، لذلك كانت رسالة الإسلام رسالة عالمية ، وبُعث سيدنا رسول الله للناس كافة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ (٢٥)﴾

يعنى : يا محمد ، خُذْ لك أُسْوة من إخوانك الرسل السابقين فقد كُذِّبوا جميعاً ، وهذه سنة مُتبعة ، ولستَ أنت يا محمد بدْعاً من الرسل . وقلنا : إن الله تعالى لا يرسل رسولاً إلا إذا عَمَّ الفساد وعَزَّ العلاج ، فلا وجودَ للنفس اللوامة التى تُردع صاحبها عن المعصية ، ولا للمجتمع الآمر بالمعروف الناهى عن المنكر ، يعنى : لا مناعة فى الذات ، ولا مناعة فى المجتمع ، فقد فسد هو الآخر ، واجتمع أهله على الضلال ، عندها لا بُدَّ أنْ تتدخل السماء برسول جديد يأتى بمعجزة تناسب الزمن الذى جاء فيه .

فقوله تعالى : ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ (٢٥) ﴾ [فاطر] لأن الرسول ما جاء إلا ليواجه الفساد فى المجتمع ، وطبيعى أنْ يواجهه الضالون والظالمون والمتجبرون المستفيدون من هذا الفساد ، وأنْ يُكذِّبوه ؛ لذلك قال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا (١٢٣) ﴾ [الأنعام]

وقوله تعالى : ﴿ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ (٢٥) ﴾ [فاطر] بالبينات يعنى : بالشىء الواضح الذى يُبيِّن أن المتكلم صادق فى التعبير والبلاغ عن ربه ، وهذه هى المعجزة ، إذن : فالرسول جاء بالمعجزة لتكون دليلاً على صدقه فى البلاغ عن ربه ، فليست المعجزة هى هدف الرسالة ، إنما هدف الرسالة تبليغ الأحكام والمنهج .

ويعنى ﴿ وَبِالزُّبُرِ (٢٥) ﴾ [فاطر] أى : الكتب السماوية المنزلة مثل : صحف إبراهيم ، وتوراة موسى ، وإنجيل عيسى ، لكن خص هنا الزبور والقرآن (الزبر والكتاب المنير) ؛ لأن الزبور الذى أُنزل على سيدنا داود امتاز بأنه مكتوب ، ومكتوب بحروف منقوشة بارزة ، لذلك كانت ثابتة ليست بمداد يُمْحَى مثلاً ، فهى أشبه بالنقوش

الحجرية ، ويسمونها (الأُويمة)[١] .

والكتاب المنير هو القرآن الكريم ؛ لأنه النور المعنوى الذى ينير للناس طريق الحياة ويهدى حركتهم ، فإنْ كانت الشمس هى النور الحسىّ الذى يهدى حركتك للحسيات ، فالقرآن هو النور المعنوى الذى يهدى مَنْ آمن به .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾ ﴾

وهذه سُنّة الله فى المرسلين ، أنْ يأخذ الكافرين بهم والمعاندين لهم ، أرأيتم نبياً أسلمه الله أو انهزم أمام قومه المعاندين ؟ لقد وعد الله رسوله بالنصرة وبالتأييد ، فقال سبحانه :﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴿٥١﴾ ﴾ [غافر]

وقال : ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾ [الصافات] لذلك إنْ رأيتَ جندياً لله انهزم فى شىء ولم يَغْلب ، فاعلم أن شرطاً من شروط الجندية تخلَّف ، وأول شرط للجندية لله الطاعة ، فإنْ خالف الجندىُّ أوامر الله فلا بُدَّ أنْ يُهزم ، لذلك قلنا : إن المسلمين انتصروا فى بدر وهم فئة قليلة ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ﴿٢٤٩﴾ ﴾ [البقرة]

ولم يَمْض على بدر سنة واحدة ، وحدثتْ أُحُد ، صحيح لم يُهزم المسلمون لكنهم أيضاً لم ينتصروا ؛ لأن المعركة (ماعت) ذلك لأن الرُّمَاة خالفوا أمر رسول الله وتخلَّوْا عن أماكنهم ونزلوا لجمع

---

(١) قال الزبيدى فى « البصائر » : « سمى كتاب داود زبوراً ، لأنه نزل من السماء مسطوراً وقيل : هو اسم للكتاب المقصور على الحكمة العقلية دون الأحكام الشرعية ، والكتاب لما يتضمن الأحكام » انظر كتاب « تاج العروس » للزبيدى ـ مادة : زبر .

الغنائم ، وأراد الله تعالى تأديب عباده المخلصين فلا بُدَّ أنْ يهزَّهم هذه الهزَّة العنيفة ، ويرَوْا هذه النتيجة ؛ لأنهم خالفوا .

لذلك قلنا : إن الإسلام انتصر فى أُحُد ، وإن كان المسلمون لم ينتصروا ؛ لأنهم لو انتصروا مع مخالفة أمر رسول الله لَهَانت على المسلمين أوامر رسول الله بعد ذلك ، ولقالوا : لقد خالفنا أوامره وانتصرنا فى أُحُد إذن : كان لا بُدَّ من هذه النتيجة المائعة ليعلم المسلمون أهمية الطاعة والأُسْوة برسول الله .

كذلك فى حُنَين لما رأى الصِّدِّيق أبو بكر كثرة المسلمين ، فقال : لن نُغْلَب اليوم عن قلة - وكانوا عشرة آلاف مقاتل - فأراد الله أنْ يكسر هذا الغرور فى المسلمين ، فكان التفوق للكفار فى بداية المعركة حتى أحرجوا المسلمين ، لكن تداركتهم رحمة الله ، وكأن الله أراد أنْ يُصحِّح لهم الخطأ فحسب ، لا أن تنزل بهم الهزيمة .

وحين نتأمل معنى : ﴿ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا (٢٦)﴾ [فاطر] نجد أن الأَخْذ يدل على قوة الآخذ وقوة الجذب التى تستوعب كل أعضاء المأخوذ ، فعلى مستوى البشر نقول : أخذ فلان يعنى ساقه أو شدَّه من مَجْمع ثوبه وملَكه بقبضة يده ، أما لو قُلْت أخذه الله فأَخْذُ الله شديد ، أخذ عزيز مقتدر .

لذلك يقول بعدها ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٢٦)﴾ [فاطر] أى : نكيرى واعتراضى على ما فعلوا . والنكير هو الشىء الذى تستنكره وتغضب منه ، وما بالك بقوم أنكر الله مسلكهم وغضب عليهم ؟ لا بُدَّ أنْ يأخذهم أَخْذاً يُرضِى أولياءه ، ويُرضِى المؤمنين به .

فقوله سبحانه : ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٢٦)﴾ [فاطر] يعنى : قُلْ لى يا محمد هل قدرتَ على مجازاتهم بما يستحقون ؟ وهذا المعنى

واضح أيضاً فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٣٠) وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ (٣١) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَـٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ (٣٢) وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ (٣٣) فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٣٤) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ (٣٥) هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦) ﴾ [المطففين]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (٢٧) ﴾

تلحظ أن الحق سبحانه وتعالى يُذكِّرنا ببعض نعَمه علينا ، ثم يُتبع ذلك ببعض المطلوبات ، وهكذا ليُؤنس قلبك بالإحسان إليك لتستجيب لمطلوباته . والحق سبحانه حين يُذكِّر عباده بهذه الآية الكونية ، آية إنزال الماء من السماء بعد أنْ بيَّن لنبيه أخْذه الشديد للكافرين ، كأنه سبحانه يقول لرسوله : دَعْك من أمر هؤلاء الكافرين ، فأنا قادر على معاقبتهم ، وتأمل فى هذه الآية الكونية ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً .. (٢٧) ﴾ [فاطر]

وقوله ﴿ أَلَمْ تَرَ (٢٧) ﴾ [فاطر] أى : تشاهد ؛ لأن الجميع يرى

---

(١) الجُدَّة من الشىء : الجزء منه يخالف لونه لون سائره ، ومعنى قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (٢٧) ﴾ [فاطر] أى : من الجبال أجزاء ذات ألوان مختلفة . [القاموس القويم ١/١١٩] .

(٢) الغربيب : الشديد السواد ، وجمعه غرابيب . [القاموس القويم ٢/٥٠] .

الماء ، وهو ينزل من ناحية العلو ، والسماء هى كل ما علاك فأظلَّك ، وقد تأتى ﴿ أَلَمْ تَرَ ① ﴾ [الفيل] بمعنى : ألم تعلم . وهذا فى الأشياء التى لم يَرَها رسول الله كما فى قوله سبحانه : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ① ﴾ [الفيل]

ومعلوم أن سيدنا رسول الله لم يَرَ حادثة الفيل ، لكن خاطبه ربه بـ ﴿ أَلَمْ تَرَ ① ﴾ [الفيل] ليدل على أن إخبار الله له أوثقُ وأصدقُ من رؤية العين .

ومسألة إنزال الماء من السماء أى من ناحيتها ، وإلا فالسماء شىء آخر ، المطر إنما ينزل من السحاب القريب من الأرض . نقول : مسألة إنزال الماء من ناحية السماء يبدو أمراً طبيعياً ، فبخار الماء ينعقد فى السماء على هيئة سُحُب ممتلئة بالماء ، والماء له ثِقَل ينزل إلى أسفل بجاذبية الأرض ، لذلك يرتب الله على إنزال المطر إخراج النبات ﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا ㉗ ﴾ [فاطر] فإنْ قُلْتَ : إن نزول الماء من السماء أمر طبيعى قد يُشك فيه أنه من فعل الطبيعة ، فهل إحياء الأرض وإنبات النبات مختلف الثمرات والألوان أيضاً من فعل الطبيعة ؟

وكلمة ﴿ أَنزَلَ ㉗ ﴾ [فاطر] تفيد العُلُو من المُنزِل والدُّنُو من المُنزَل إليه ، حتى لو كان هذا الأمر معكوساً وأتى الإنزال من أسفل إلى أعلى كما فى قوله تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ㉕ ﴾[الحديد] والحديد فى الواقع نُخرجه من باطن الأرض ، لكن سماه الله إنزالاً ؛ لأن المراد به الإتيان من أعلى لأدنى بصرف النظر عن

جهته أعلى أو أدنى .

ونحن نشاهد عملية إنزال الماء من السماء ، لكن لم نشاهد عملية البخر التى تتم على سطح الماء فى الأرض ، ثم صعودها إلى طبقات الجو العليا حيث تتكوَّن السُّحب عن طريق التكثيف ، والإنسان لم يكُنْ يعلم شيئاً عن هذه العمليات حتى تقدَّمتْ العلوم ، وعرفنا عملية تقطير الماء .

أما عملية إخراج النبات والثمرات المختلفة الألوان فهى واضحة مُشَاهدة فى البساتين والحقول ، فكلنا يرى بدائع الألوان واختلاف الأشكال بحيث لا تتناهى حصراً ؛ لأن ألوان الطيف إنْ كانت هى الألوان الأصلية فيمكن أن يتولَّد منها مَا لا حصر له ، فاللون الأسود مثلاً لو أضفْتَ إليه قطرة واحدة من اللون البنى مثلاً يعطيك لوناً آخر ، فإنْ أضفتَ قطرتين يعطيك لوناً ثالثاً ، وهكذا لا تتناهى الألوان ، وهذه المسألة نشاهدها الآن فى صناعة الأقمشة ، فقد تعددت ألوانها بدرجات مختلفة وزركشات لا حصر لها . إذن : نقول : إن الألوان كائن لا يتناهى .

ولك أن تتأمل تداخل الألوان وتناسقها فى زهرة أو وردة فى الحديقة ، وسوف ترى فى ألوانها الإعجاز المبهر ، فالحبة واحدة ، والأرض واحدة ، والماء واحد ، لكن تولَّد من هذا كله هذا الشكل البديع وهذه الألوان المتداخلة المتناسقة ؛ لأن الحدث آثار المحدِث ، فإذا كان المحدِثُ محدودَ القدرة ظهرتْ آثاره كذلك محدودةَ القدرة ، وإذا كان المحدِث فائقَ القدرة تأتى آثاره فائقة القدرة ، أما الحق سبحانه فله طلاقة القدرة ؛ لذلك تأتى آثاره كذلك .

وتلحظ في سياق الآية أن الحق سبحانه لم يتكلم عن إنزال المطر من السماء قال ﴿ أَنزَلَ (٢٧) ﴾ [فاطر] بصيغة ضمير الغائب ، لكن لما تكلّم عن إخراج الثمرات قال : ﴿ فَأَخْرَجْنَا (٢٧) ﴾ [فاطر] فنقلنا إلى ضمير الجماعة المتكلمة الدالّ على التعظيم ؛ لماذا ؟ لأن إنزال الماء من السماء ليس هدفاً في ذاته ، فليس هو المهم ، بدليل أن الماء قد ينزل على الأرض السّبخة فلا تستفيد به ، أما عملية إخراج الثمار فهي العملية المهمة التي أنزل اللهُ الماءَ من أجلها ؛ لذلك ذكرها بضمير الجمع الدالّ على التعظيم ، فالحق سبحانه يُعظِّم نفسه في الفعل كما في قوله سبحانه : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩) ﴾ [الحجر]

ونحن نعرف في عُرْفنا أن الحدث يختلف باختلاف المحدث ، فإنْ أحدثه فرد واحد أتى الحدثُ على مستوى قدرة هذا الفرد ، فإنْ تكاتفت فيه جماعة جاء على مستوى هذا التكاتف ؛ لذلك نسمع عند سَنِّ القوانين التي تحكم الشعوب يقول القائد أو الملك : نحن رئيس الجمهورية ، أو نحن ملك مصر ، أو نحن سلطان كذا وكذا ؛ لأن مسألة سَنِّ القوانين ليستْ مسألة فردية يقررها الحاكم أو الملك ، ولا ينطق بها باسمه ، إنما يشاركه فيها رعيته ، وينطق باسمهم جميعاً.

لذلك نجد الحق سبحانه وتعالى حين يُحدِّثنا عن فعل من أفعاله يُحدِّثنا بضمير الجمع ، أما إنْ تكلم عن ذاته سبحانه تكلّم بضمير المفرد ، مثل : ﴿ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي (١٤) ﴾ [طه]

وإنزال الماء في صورته أمر واحد ، أما الإخراج ففيه تلوُّن للمخرج ، فالماء المنزَّل من السماء واحد ، لكن آثار الماء متعددة ، فهذا أصفر ، وهذا أبيض ، وهذا أحمر .. الخ ، فهذه العملية تحتاج إلى تعظيم يناسبها .

لكن ، هل الإخراج للثمرات هكذا مباشرة ؟ أم الإخراج للنبات الذي

يعطى الثمرات ؟ الإخراج للنبات الذى يعطى الثمر ، فالحق سبحانه يذكر لنا الشىء بنهاية المطلوب منه وهو الثمر ، وهذا الثمر يأتى مختلفاً فى ألوانه ، مع أن البيئة واحدة ويُسْقى بماء واحد ، وحين تتأمل الألوان فى الثمار تجد فيها طلاقة القدرة لله تعالى ، وهذه الألوان لم تُجعل هكذا لمجرد الشكل والزينة ، إنما جُعلَتْ هكذا لحكمة أرادها الخالق سبحانَه ، منها أن هذه الألوان تجذب الحشَرات المخصِّبة .

ولو تأملتَ هذه الألوان لوجدتها متعددة حتى فى اللون الواحد ، ألاَ ترى أن بياض الثلج مثلاً غير بياض الثوب ، غير بياض الجير ؛ لذلك يصفون الألوان فيقولون أبيض يقق ، وأصفر فاقع ، وأحمر قانٍ ، وأخضر مدْهَام .

وبعد أنْ حدَّثنا الحق سبحانه عن آية من آياته فى النبات يُحدِّثنا عن الجماد ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾﴾[فاطر] ، ففى الجمادات أيضاً ألوان نشاهدها مثلاً حين نشقُّ الصخر لاستخراج ما فى باطن الأرض ، ترى مثلاً الجرانيت والرخام والعقيق بألوان مختلفة كذلك .

وكلمة ﴿جُدَدٌ ﴿٢٧﴾﴾[فاطر] جمع جُدة ، وهى الخط الفاصل بين شيئين ، رأيتم طبعاً الحمار الوحشى المخطط ومدى تناسق هذه الخطوط ، ترى مثل هذا فى طبقات الجبال ، وهى مختلفة البياض ومختلفة الاحمرار .

ومعنى ﴿وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾﴾[فاطر] تقول : أسود غِرْبيب يعنى : شديد السواد . فالغربيب أشدُّ درجات السواد نسبةً إلى الغراب لشدة سواده .

بعد أن ذكر الحق سبحانه جنس النبات وجنس الجماد يذكر أن هذا الاختلاف موجود أيضاً فى الإنسان وفى الحيوان - وهذه هى أجناس الوجود ، فيقول سبحانه :

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ ﴾

إذن : فالاختلاف فى كل الأجناس ؛ لأن الخَلْق قائم على طلاقة القدرة ، فالناس مع كثرتهم مختلفون ، وهذا إعجاز دالّ على طلاقة القدرة ، فالخَلْق ليس على قالب واحد يُخرج نسخاً متطابقة ، إنك تنظر إلى الرجل فتقول هو شبه فلان ، لكن إذا دققتَ النظر لا بُدَّ أنْ ترى اختلافاً ، إذن : طلاقة القدرة تقتضى اختلاف كل أجناس الوجود : الجماد ، والنبات ، والحيوان ، والإنسان .

ومعنى الدوابّ : كل ما يدبّ على الأرض عدا الإنسان والأنعام التى هى البقر والغنم والإبل والماعز .

وقوله سبحانه : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ .. ﴿٢٨﴾ ﴾ [فاطر]

والخشية هى الخوف الممزوج بالرجاء ، وهذا من العلماء عمل من أعمال القلوب ، وأنت تخاف مثلاً من عدوك ، لكن لا رجاءَ لك فيه ، إنما حين تخاف من الله تخافه سبحانه وأنت ترجوه وأنت تحبه ، لذلك قالوا : لا ملجأ من الله إلا إليه .

والعلم إما علم شرعى ، وهو علم الأحكام : الحلال والحرام والواجب والسنة .. الخ . أو علم الكونيات ، وهذه الآية وردت فى سياق الحديث عن آيات كونية ولم يُذكر قبلها شىء من أحكام الشرع ؛ لذلك نقول : إن المراد بالعلماء هنا العلماء بالكونيات والظواهر الطبيعية ، وينبغى أن يكون هؤلاء هم أخشى الناس لله تعالى ؛ لأنهم أعلم بالآيات الكونية فى : الجمادات ، والنبات ، وفى

الحيوان ، والإنسان ، وهم أقدر الناس على استنباط ما فى هذه الآيات من أسرار لله تعالى .

وكونيات الوجود هى الدليل على واجب الوجود ، وهى المدخل فى الوصول إلى الخالق سبحانه وإلى الإيمان به ؛ لذلك كثيراً ما نجد فى القرآن :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٢٣) ﴾ [الروم]

وإذا كان العلم قضية يقينية مجزوماً بها وعليها دليل ، فإن الحق سبحانه وتعالى نزَّل لنا علم الشرع وحدَّد لنا حدوده ، فلا دَخْلَ لنا فيه ، لذلك عصمه الله وأحكمه ؛ لأن الأهواء تختلف فيه ، والحق سبحانه يقول : ﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ (٧١) ﴾ [المؤمنون] . أما علم الكونيات فقد تركه الخالق سبحانه للعقول تبحث فيه وتستنبط منه وتتنافس فيه ، بل وتسرقه بعض الدول من بعض .

وآفة العصر الحديث أنْ يُدخل علماء الشرع أنوفهم فى الكونيات ، أو أن يُدخل علماء الكونيات أنوفهم فى أحكام الشرع ، وقد رأينا مثلاً لما قالوا بأن الأرض كروية ، وأنها تدور حول الشمس ، أسرع بعض علماء الشرع فاتهموا هؤلاء بالكفر ، وهذا خطأ فادح ، وكان عليهم أنْ يأخذوا من الحق سبحانه ما عصم به الأهواء من أنْ تختلف ؛ لأن شكل الأرض وحركتها مسألة كونية لا صلَة فيها بالحلال والحرام .

والحق سبحانه يقول : ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٤٣) ﴾[النحل] فأهل الذكر فى العلوم الشرعية غير أهل الذكر فى العلوم الكونية ، ويجب أنْ يحترم كل منهما تخصص الآخر فى مجاله ، ولا يَنْسَىٰ علماء الشرع أن علماء الكونيات هم الذين يكتشفون لنا أسرار الله فى الخَلْق ، وهم الذين يُربُّون فى نفوسنا أدلة الإيمان بواجب

الوجود الذى تصدر عنه أحكام الحلال والحرام .

والحق سبحانه وتعالى خلق الكون على هيئة الصلاح ، فلو دخلْتَ مثلاً غابة من الغابات الأنُف - يعنى : التى لم يدخلها أحد ، وما زالت على طبيعتها كما خلقها الله - لا تجد فيها قذارة ولا رائحة كريهة ولا قمامة ولا غُصْناً مكسوراً .. الخ ، بل تراها نظيفة متناسقة ، فالفضلات بها غذاء لحيوانات أخرى ، فنظافتها ذاتية .

وأذكر أننا رأينا فى وادى فاطمة فى السعودية عَيْنَ ماء تروى الوادى من حولها ، وفى أحد الجداول رأينا أسماكاً صغيرة فى حجم واحد مثل عُقْلة الأصبع فسألت صاحب البستان : هل يكبر هذا السمك ؟ قال : لا بل يظل على هذه الصورة ، وهو ما جاء إلا بعد أنْ ألقينا بعض فضلات الطعام فى الماء فظهر ليتغذَّى عليها ثم يختفى ، وكأن له مهمة محددة هى نظافة الماء ، ولما جئنا إلى مصر وجدنا بها هذا السمك فى « مُتْحف الأحياء المائية » يقوم بنفس هذه المهمة ، وهى تنظيف أحواض الأسماك من الفضلات .

لذلك نقول : لا يأتى الفساد فى الطبيعة إلا حين يتدخَّل فيها الإنسان ، بدليل أن المخلوقات التى لا دخل للإنسان فيها تسير بنظام محكم دقيق لا اختلاف فيه ؛ لذلك حين ترى فى الكون مثلاً أزمة فى القوت ، فاعلم أنها نتيجة حركة خاطئة للإنسان ، أو نتيجة تكاسل عن استنباط خيرات الأرض .

إذن : على علماء الشرع ألاَّ يُدخلوا أنفسهم فى الكونيات ، وقد علَّمنا ذلك رسول الله ﷺ حين نهاهم عن تأبير النخل يعنى : تلقيحه ، فلم يثمر النخل ، فلما رأى رسول الله ذلك قَبلها فى نفسه وقال : « أنتم أعلم بشئون دنياكم »[1] يعنى : المسائل الكونية والعلمية

---

(١) أخرج مسلم فى صحيحه (٢٣٦٣) من حديث أنس بن مالك « أن النبى ﷺ مَرَّ بقوم يلقحون . فقال : لو لم تفعلوا لصلح . قال : فخرج شيصاً (التمر الردىء) فمرَّ بهم فقال : ما لنخلكم ؟ قالوا : قلت كذا وكذا . قال : أنتم أعلم بأمر دنياكم » .

والمعملية التجريبية ، هذه أمور لا دخْلَ لأحكام الشرع فيها ، لكن آفة العلماء اليوم ألاَّ يلتزم كُلٌّ بما يخصُّه .

لذلك خَصَّ الله هنا علماء الكونيات ؛ لأنهم الأقدر على التمعُّن فى أسرار الله ، فالحق سبحانه ملأ كونه بأسرار تتناسب مع تطور العصر ومُضىّ الزمن ، فالأسرار التى عرفها الإنسان فى العصر الحجرى مثلاً غير التى عرفها فى العصر الحديث ، وشاءتْ حكمة الله أنْ يجعل لكل سرٍّ من أسراره ميلاداً يظهر فيه ، بحيث لا تظهر الأسرار فى زمن واحد ، ويستقبل الإنسان باقى الزمن بدون جديد .

وحين تتأمل هذه المسألة تجد أن الحق سبحانه أظهر للإنسان ما فيه مقومات حياته ، ثم ترك الأمور البدهية التى يعرفها الناس ليترقوا فيها ، فالإنسان مثلاً استخدم بدهية أن الماء ينساب من أعلى إلى أسفل ، ورقّى هذه البدهية وأصبح يستقبل الماء فى بيته من الصنبور (الحنفية) ، بعد أنْ كان ينقل الماء من الآبار والأنهار ، ويتحمل فى سبيل ذلك المشاق ، فلما أعمل عقله فى بدهيات الكون ترقَّى وجنى ثمرة هذا الترقِّى .

لذلك تجد أن أعقد النظريات العلمية والالكترونية مأخوذة فى بدايتها من بدهيات ، وقلنا فى علم الهندسة : إنك تبرهن على صدق النظرية المائة باستخدام النظرية التسعة والتسعين ، وهكذا حتى تصل إلى النظرية الأولى ، وهى قائمة على بدهية من بدهيات الكون ، لا تختلف فيها العقول .

لذلك دائماً يدعونا الحق سبحانه إلى التفكُّر والتأمُّل والتدبُّر .. الخ وما توصل إليه البشر الآن من آلات ووسائل حديثة مثل : الغسالة ، والثلاجة ، والتلفاز .. الخ ما هى إلا ثمرة هذا الفكر الذى رقَّى البدهيات ، حتى وصل بها إلى ما وصل إليه الآن ، ومَنْ أراد أن يقف على هذا الترقى ، ويرى قدرة الله فى توارد الصناعات وارتقاءاتها من

حلقة إلى حلقة فليذهب إلى (ديترويت) ليرى هناك معرض (فورد) الذى يضم ارتقاءات الصناعات من إبرة الخياطة للصاروخ .

إذن : الكون فيه أسرار يكتشفها الإنسان ، ولكل سرٍّ ميلاد يظهر فيه ، إما نتيجة بحث للإنسان أو حتى صدفة ، ومن لُطْف الله تعالى أن الملاحدة لما اكتشفوا بعض أسرار الكون قالوا اكتشفنا ، ولم يقل أحد منهم : اخترعنا . وكأن الله تعالى صرفهم وألهاهم عن النطق بكلمة الاختراع ولوى ألسنتهم حتى لا يجترئوا على الله ، فالجاذبية مثلاً موجودة منذ خُلقت السموات والأرض ، ودور الإنسان أنه اكتشف هذا السر ؛ لذلك الذى يقول اخترعت نقول له : هذا كذب والصواب أنك اكتشفتَ.

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ [فاطر] عزيز لا يُغلب ، وغفور لكم إنْ بدر منكم سهو أو تقصير فى استنباط أسرار الله فى كونه ، يغفر لهم إنْ أخطأوا فى تجربة من تجاربهم ، فسوف يأتى مَنْ بعدهم ويصححها .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ۚ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ ﴾

بعد أن ذكر الحق سبحانه العلم الكونى ، وأنه وسيلة لخشية الله ومعرفة أسراره فى كونه أراد سبحانه أنْ يلفت أنظارنا وأنْ يحذرنا : إياكم أنْ تُفْتنوا بالعلم الكونى فينسيكم مهمتكم فى أنْ تتلقَّوا عن الله ما يُسعدكم ، فتحدَّث سبحانه عن المنهج : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ (٢٩)﴾ [فاطر] وهذا هو العلم الشرعى والذِّكْر الذى يعصم الناس من اختلاف الأهواء .

ومعنى ﴿يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ (٢٩)﴾ [فاطر] أى : تلهج به ألسنتهم ، وتعيه قلوبهم ﴿وَأَقَامُوا الصَّلاةَ (٢٩)﴾ [فاطر] وهذه عبادة تشترك فيها كل الجوارح ﴿وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً (٢٩)﴾ [فاطر] والإنفاق يخصُّ الناحية المالية ، فهو دليل على سماحة النفس بما تنفق ، وحُبها للبذل والعطاء فى السِّر والعلانية ، وبالإنفاق تكتمل لهذه النفس الصفات الطيبة ، ويجتمع لها عمل القلب وعمل الجوارح فى طاعة الله .

وقوله ﴿مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ (٢٩)﴾ [فاطر] يعنى : أن الإنفاق ليس من مالك الخاص ، إنما من مال الله الذى رزقك ، وجعلك مُسْتخلَفاً فيه وما نفقتُكَ إلا سبب ، والأسباب فى الكون ستر ليد الله فى العطاء .

وهؤلاء الذين ينفقون مما رزقهم الله سراً وعلانية ﴿يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ (٢٩)﴾ [فاطر]

فالإنفاق فى سبيل الله تجارة مع الله ﴿لَّن تَبُورَ (٢٩)﴾ [فاطر] أى : لن تكسد ، وأنت حين تنفق على المحتاجين ، وحين تطعم الجائع إنما تُحبِّب الله إلى خَلْقه أرأيت لو أن مَلكاً من ملوك الدنيا له عبيد ، أليس مكلَّفاً بإطعامهم وسَدِّ حاجتهم ، وهذه من سمات العظمة فيه ، كذلك الحق سبحانه هو خالق هؤلاء الفقراء ، وهو الذى استدعاهم للوجود ، وهو سبحانه المكلّف باقتياتهم .

إذن : حين تطعمهم أنت فكأنك تؤدى مهمة الله عز وجل ، وتُحبِّب خَلْق الله إلى الله ، فالحق سبحانه حين يعطف مخلوقاً على مخلوق يقول : كأن عبدى يعيننى على خَلْقى ؛ لأن الله تعالى استدعى الخَلْق

للوجـود ، وتكفَّل بأن يُغنيـهم ، فـحين يأتى عـبـده الغنى ويكون فى عَوْن الفقير يقول سبحانه : كان عبدى فى عون أخيه بقدرته ، فلا بُدَّ أنْ أكون فى عـونه بقدرتى ، فـالعبـد لا يكون أبداً أكرم من خـالقه ، وكيف يعطف العبـد وهو لم يخلق شيئاً ، ولم يستـدع أحداً للوجود ، ولا يعطف الخالق سبحانه ؟

فإنْ قلتَ : ما دام الحق سبحانه قد استدعى الخَلْق للوجود ، فلماذا لم يضمن لهم الحياة الكريمة التى لا يحتاجون فيها لعطف أحد غيره ؟

نقول : أراد الحق سبـحانه أنْ يزرع بذور المحبـة والتعاطف بين خَلْقه ، أراد مـجتمعـاً مسلماً قائمـاً على المحبة وعلى التـعاون وعلى التكافل ، ثم وَعَد سـبحانه السخىَّ الـمعطى بأنْ يعامله بقدر سـخائه وعطائه هو سبحانه .

هذه هى التـجـارة مع الله التى لا تبـور ، والبَوْر والبَـوار . أى : الفساد وهو يصيب التجارة من ناحـيتين : إما فساد فى الربح ، كأن تتـعبك التـجارة ولا تربح ، أو فـسـاد فى الربح وفى الأصل يعنى : تخسر أصل التجارة ، ومعلوم أن الإنسان لا يتاجر إلا بقصد الربح ؛ لذلك قال أهل المعرفة وأهل الـتجارة مع الله : إنْ أردتَ الربح المحقق فتاجر مع كريم وهبك ما تجود به ، وبعد ذلك يجازيك عليه .

لذلك كـان أحد الصـالحين يهشّ فى وجه السـائل ويبشّ ويقول له : مرحباً بمَنْ جاء ليحمل عنى زادى إلى الآخرة بغير أجرة .

وسُئـل الإمام على - رضى الله عنه - : يا أبا الحـسن ، أريد أنْ أعرف نفـسى ، أأنا من أهل الدنيـا ؟ أم من أهل الآخرة ؟ فـقال : إنْ كنتَ تهشّ لمن يعطيك أكـثر مَـمَّنْ يأخذ منك ، فأنت مـن أهل الدنيا ؛ لأن الإنسان يحب مَنْ يعمر ما يحب .

ورسول الله ﷺ قال له صحابى : أنا أكره الموت ، فقال له الرسول : « ألكَ مال ؟ » قال : نعم ، قال : « أتتصدَّق به » ؟ قال : لا ، قال : « إن المال يحب صاحبه ، فإنْ كنتَ تحبه فى الآخرة أحببتَ أن تموتَ للآخرة ، وإنْ كنتَ تحبه فى الدنيا أحببتَ أنْ تظلَّ معه فى الدنيا »[1] .

واستخدام أداة النفى (لن) هنا له ملْحظ ، فلن تنفى الحال والاستقبال ؛ لأن الإنسان قد يموت قبل أنْ يدرك ثمرة الخير فى هذا العطاء ، وقبل أنْ يرى نتيجة صدقه ؛ لذلك يطمئنه ربه بأن هذه تجارة مع الله لن تبور ، وسوف ينتظره جزاؤها فى الآخرة وقوله تعالى : ﴿ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴿٢٩﴾ ﴾ [فاطر] أى : على أى حال ، أما نفقة السر ، فالحكمة منها أنها تبعد صاحبها عن الرياء أو المباهاة ، وهى أيضاً ستر لحياء الآخذ ؛ لذلك كان بعض العارفين إذا أراد أنْ يعطف على فقير أو محتاج يحتال على ذلك بحيلة تحفظ للمحتاج ماء وجهه ، فيكلّفه مثلاً بعمل بسيط ، ثم يعطيه المال على أنه أجره على العمل ، لا على أنه صدقة .

والبعض يتأدب فى هذه المسألة ، فيعطى المحتاج على أنها قرض وفى نيته أنها صدقة ، وربما أكد هذا المعنى ، فقال لصاحبه : ربنا يُعينك على السداد ، لكن إياك (تاكله) .

وبعضهم يعطى الصدقة على أنها أمانة ، لكن يقول للآخذ : إذا تيسَّر لك هذا المبلغ وأصبح فائضاً عن حاجتك فأعطه محتاجاً إليه ،

---

(١) ذكره أبو حامد الغزالى فى الإحياء (٣/٢٣٢) أن رجلاً قال : يا رسول الله مالى لا أحب الموت ؟ فقال : هل معك من مال ؟ قال : نعم يا رسول الله . قال : قدِّم مالك ، فإن قلب المؤمن مع ماله ، إن قدَّمه أحب أن يلحقه ، وإن خلفه أحب أن يتخلف معه » قال الحافظ العراقى : لم أقف عليه .

وقُلْ له يعطيه بدوره إلى مَنْ يحتاج إليه بعده ، وهكذا تتنامى الصدقة ، وتدور على ما شاء الله من المحتاجين إليها .

هذا عن صدقة السر ، أما العلانية فالحكمة منها أنها تمثل زاجراً للواجد حتى لا يبخل ولا يضنّ بما عنده ، كذلك تحمى صاحبها من ألسنة الناس ، وتحمى عرْضَه أنْ يخوضَ الناس فى حقه فيقولون : يبخل رغم غنَاه . كما أن الإنفَاق علانية يُعَدُّ نموذجاً وأُسْوةً للغير فى العطاء .

وقال العلماء : يُراد بالسر الصدقة الزائدة على الفريضة ، وهذه ينبغى فيها الستر ، ويُراد بالعلانية الزكاة المفروضة ؛ لأن الجهر فى العبادة مطلوب كما هو الحال فى الصلاة مثلاً ، والمتأمل يجد الزكاة أوْلَى بالعلانية من الصلاة ، فمن اليسير إقامة الصلاة فى أوقاتها ، أما الزكاة فقد تكون واجداً لكن تشح نفسُك وتبخل بالعطاء .

وأنت حين تُنفق تنفق على مَنْ ؟ على محتاج غير قادر أو مسلوب القدرة ، ومَن الذى سلبه القدرة ؟ الله ، لذلك كلفك الله أنْ تنفق على مَنْ سلبه القدرة ، وأنْ تعينه : أولاً حتى لا يحقد عليك ، وحتى يتمنى لك المزيد من الخير ؛ لأن خيرك سيعود عليه ، لذلك كنا نرى أهل الريف مثلاً يحزنون ويبكون إنْ ماتت بقرة فلان أو جاموسة فلان ، لماذا ؟ لأنها كانت تسقى الفقراء من لبنها ، وتحرث أرض المحتاج .

ثانياً : وهذه حكمة أسمى من الأولى ، وهى أن النفقة على غير القادر تجعله لا يغير خواطره على ربه وخالقه وتحميه من الاعتراض على قَدر الله الذى منعه وأعطى غيره ، وضيَّق عليه ووسَّع على الآخرين .

النفقة على غير القادر تجعله يشعر أنه أحظُّ حالاً من الغنى ، ولم لا وهو يُسَاق له رزقه دون تعب منه ودون عناء ؟ ويأتيه الغنى إلى بابه ليعطيه حقه فى مال الله . لذلك قال العلماء : الفقير شرط فى إيمان الغنى ، وليس الغنى شرطاً فى إيمان الفقير .

لذلك يعلمنا سيدنا رسول الله ﷺ ، فيقول : « .. ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه »[(١)]

والحق سبحانه وتعالى لما تكلَّم عن المحسنين الذين يكلِّفون أنفسهم فَوْق ما كلَّفهم الله ، ومن جنس ما كلَّفهم الله ، يقول سبحانه : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩) ﴾ [الذاريات]

فالحق غير المعلوم هو الصدقة ، أما الزكاة المفروضة التى هى حق الفقير فى مال الغنى فقد وردتْ فى صفات المؤمنين فى سورة سأل[(٢)] فقال سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ (٢٤) لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (٢٥) ﴾ [المعارج]

لذلك ، فالزكاة لا تَخْفى ، بل تُؤدَّى علانية ، لأنك تُؤدِّى حقاً عليك للفقير ، حتى أن بعض فقهاء الأندلس رضى الله عنهم قال : لو مُكنت بولاية أمر على المؤمنين ، فرأيتُ مَنْ يمنع الفقير حقَّه بمقدار نصاب لأتيتُه لأقطع يده ، فتأمل هذا الاجتهاد من العلماء ، وكيف ساووا بين منع الفقير حَقَّه والسرقة .

وسواء أكان الإنفاق سراً أم جهراً وعلانية ، فلا بُدَّ أن تتوفر له النية الخالصة كما علَّمنا ربنا فى الحديث القدسى : (الإخلاص سر

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٠٣١) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، ضمن حديث « سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله : الإمام العادل ، وشاب نشأ فى عبادة الله ، ورجل قلبه معلَّق فى المساجد ، ورجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال ، فقال : إنى أخاف الله ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم يمينه ما تنفق شماله ، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه » .

(٢) هى سورة المعارج ، سميت بسورة سأل لأن أولها قوله تعالى : ﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ (١) لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ (٢) ﴾ [المعارج] .

من أسرارى ، أودعته قلب مَنْ أحببتُ من عبادى ، لا يطلع عليه ملَك فيكتبه ، ولا شيطان فيفسده)[1]

وأنت فى عطائك تتعامل مع الله ، والله واجد ماجد كريم ، لا يبخسك حقك ، وتجارتك معه سبحانه لا بُدَّ أنْ تكون رابحة ؛ لذلك قال بعدها : ﴿ يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [فاطر]

كذلك يحذرنا سيدنا رسول الله ﷺ من الرياء الذى يحبط الأعمال، ويفسدها ويحرم صاحبها من ثمرتها يوم القيامة ، حيث يقال له : فعلتَ ليقال وقد قيل.

ويحذرنا سيدنا رسول الله أن تكون أعمالنا كأعمال الكافرين الذين قال الله فيهم : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ ﴾ [النور]

ثم يقول سبحانه : ﴿ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ.. ﴿٣٠﴾ ﴾ [فاطر]

أى : أنهم سيأخذون جزاء أعمالهم وعطائهم بوفاء من الله ، ثم يزيدهم بعد ذلك من فضله تكرُّماً ، قالوا هذه الزيادة أن تقبل شفاعتهم فيمن يحبون ، فإنْ شفعوا لأحد من أحبابهم قَبِل الله شفاعتهم ، لماذا ؟ لأن لهم أيادىَ سابقة على الفقراء والمحتاجين من عباد الله ، يكرمهم الله من أجلها ، ويتفضَّل عليهم كما تفضَّلوا على عباده .

﴿ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ ﴾ [فاطر]

ولك أنْ تسأل : لماذا ذُيِّلت الآية باسم الله (الغفور) ، مع أنها تحدثت عن أعمال الخير من تلاوة كتاب الله ، وإقامة الصلاة ، والإنفاق فى سبيل الله ، فأىُّ شىء من هذه يحتاج إلى المغفرة ؟

قالوا : ذكر هنا المغفرة ، لأن العبد حين يضع شيئاً من هذا

---

(١) ذكره الغزالى فى إحياء علوم الدين (٤/٣٧٦) من حديث الحسن البصرى مرسلاً ، ضعفه الحافظ العراقى والحافظ ابن حجر العسقلانى والشيخ الألبانى فى السلسلة الضعيفة (٢/٦٣٠) .

الخير قد يُداخله شيء من الغرور أو الإعجاب أو غيره مما يشوب العمل الصالح ، فيغفرها الله له ، ليلقى جزاءه خالصاً ؛ لذلك ورد فى حديث سيدنا رسول الله ﷺ : « اللهم إنى أعوذ بك من عمل أردتُ به وجهك فخالطنى فيه ما ليس لك »[1]

وقوله ﴿ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ ﴾[فاطر] صيغة مبالغة من شاكر ، فكأن الله تعالى بعظمته يشكر عبده ، بل ويبالغ فى شكره ؛ لأن العبد فى ظاهر الأمر عاون ربه فى أنْ يرزق مَنْ كان مطلوباً من الله أنْ يرزقه ؛ لذلك يشكره الله ولا يبخسه حقه ، مع أنه فى واقع الأمر مُنَاول عن الله .

وأنت حين تقرؤها : ﴿ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ ﴾[فاطر] وتعلم أنه تعالى يشكرك لا تملك إلا أنْ تشكره سبحانه ، وعندها يزيدك من النعمة ، إذن : نحن أمام شكر دائم لا ينقطع ، وعطاء لا ينفد .

﴿ وَالَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ هُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾ ﴾

الوحى فى معناه العام كما قلنا : إعلام بخفاء ، فإنْ كان جهراً وعلانية فلا يُعَدُّ وَحْياً ، فأنت مثلاً يدخل عليك جماعة من الضيوف فتنظر مجرد نظرة إلى خادمك يفهم منها ما تريد دون أنْ يشعر أحد بك ، هذا يُعَد وحياً . كذلك الوحى الشرعى لا يأتى علانية ، إنما خُفية بين الله تعالى ورسوله ﷺ .

الوحى يختلف باختلاف الموحِى ، والموحَى إليه ، والموحَى به .

---

(١) أورده ابن رجب الحنبلى فى كتابه « جامع العلوم والحكم » (ص ٢٧) من دعاء مطرف ابن عبد الله أنه كان يدعو قائلاً : اللهم إنى أستغفرك مما تبت إليك منه ، ثم عدت فيه ، وأستغفرك مما جعلته لك على نفسى ، ثم لم أفِ لك به ، وأستغفرك مما زعمتُ أنى أردت به وجهك ، فخالط قلبى منه ما قد علمت » .

فالله تعالى يُوحى للجماد ، كما أوحى للأرض : ﴿ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ ﴾ [الزلزلة]

ويُوحى للنحل : ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا .. ﴿٦٨﴾ ﴾ [النحل]

وأوحى للبشر من غير الرسل : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴿٧﴾ ﴾ [القصص] وأوحى للحواريين .

أما الوحى الشرعى الذى يتعلّق بالتكاليف فَوَحْى من الله وخطاب إلى الرسُل بمنهج ليبلغوه عن الله ، وليس مجرد خاطر أو إلهام كالوحى السابق ، ومن الوحى أنْ يُوحى الشياطين إلى أوليائهم ، يقول الحق سبحانه : ﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾ ﴾ [الأنعام]

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ ﴿٣١﴾ ﴾ [فاطر] أى : من القرآن . أو من اللوح المحفوظ ﴿ هُوَ الْحَقُّ ﴿٣١﴾ ﴾ [فاطر] أى : القرآن هو عَيْن الحق ، وقد عرفنا من دراساتنا النحوية أن المبتدأ يأتى دائماً معرفة ، لأنك ستحكم عليه ، ولا يمكن أن تحكم على مجهول فتقول مثلاً : زيد مجتهد . فزيد معروف لك حكمتَ عليه بأنه مجتهد ، إذن : المجهول هو الخبر ، لذلك يأتى نكرةً دائماً ، فإذا قلتَ زيد هو المجتهد ، فإن هذا يعنى أنه بلغ من الاجتهاد مبلغاً ، بحيث إذا أُطلق الاجتهاد لا ينصرف إلا إليه .

كذلك فى قوله تعالى ﴿ هُوَ الْحَقُّ ﴿٣١﴾ ﴾ [فاطر] : أى : لا ينصرف الحق إلا إليه ، وهو عَيْن الحق ، ومعنى الحق الشىء الثابت الذى لا يتغير ولا يتضارب ، وحتى لا يفهم أحد أنه ما دام القرآن هو الحق فغيره من الكتب السابقة باطل ، قال سبحانه : ﴿ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴿٣١﴾ ﴾ [فاطر]

فالقرآن حق ومُصدِّق لما سبقه من الكتب السماوية ، فهى أيضاً حق ؛ لأن القرآن صدَّق عليها ، ولم يأتِ مخالفاً لها .

وفى موضع آخر ، قال تعالى : ﴿ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ (٤٨) ﴾ [المائدة]

فكأن الحق سبحانه يعطى للقرآن صَوْلة الخاتم النهائى فى الإكمال البشرى ، فإنْ جاء حكم فى الكتب السابقة ثم نزل حكم آخر فى القرآن فلنأخذ بالحكم الأخير ؛ لأنه نسخ الأول لمصلحة يقتضيها العصر وطبيعة التكاليف التى تتدرج حسب حالات الأمم .

فكأن الحق سبحانه ميَّز رسوله ﷺ بميزة لم تتوفر لغيره من الرسل ، وهى أن الرسل السابقين كانوا يُبلِّغون ما يُوحَى إليهم لأممهم ، لكن الله أذن لرسوله أن يُبلِّغ عن الله وفوَّضه أنْ يُشرِّع لقومه ؛ لذلك قال سبحانه :

﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا (٧) ﴾ [الحشر]

وهذه الآية ترد على الذين يقولون بأخْذ القرآن دون السنة ، هذه الفرْية القديمة الحديثة التى نسمع مَنْ ينادى بها من حين لآخر ، وهم لا يعلمون أن نصَّ القرآن يُلزمهم بالسنة واحترامها والأخذ بها ؛ لأنها مُوضِّحة للقرآن ، مُبيِّنة له ، شارحة لما أُجمل فيه ، وإلا فماذا يقولون فى قوله تعالى : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا (٧) ﴾ [الحشر] ؟

ولو قُلْتُ لك : هل فى دستورنا مادة تنصُّ على فَصْل الموظف الذى يتغيَّب عن عمله خمسة عشر يوماً ؟ لا توجد هذه المادة فى الدستور ، إنما هى قانون وضعه جماعة من المختصين المفوضين فى ذلك ، حيث يُؤلَّف للخادمين فى الحكومة والعاملين بها لجنة تضع لهم القوانين بالتفويض ، كذلك فُوِّض رسول الله من قِبَل ربه عز وجل فى أنْ يُشرِّع لأمته ، وأنْ يُوضِّح لهم .

ثم يقول سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ (٣١) ﴾ [فاطر] الخبير : هو الذى يعلم خبايا كل الأشياء على حقيقتها ، والبصير : هو الذى لا يغيب عنه شىء ، ولا يعزب عنه مثقال ذرة ، فقد تعلم الشىء لكن لا تراه ، والحق سبحانه يجمع فى القرآن كثيراً بين الخبير البصير كما في هذه الآية[1] ، أو بين اللطيف الخبير[2] لأن الخبرة تحتاج إلى بصر وتحتاج إلى لُطْف . واللطيف كما قلنا هو الذى يتغلغل فى الأشياء ولا يمنعه مانع .

لذلك قلنا : إن أعنف الأشياء فَتْكاً هى الدقيقة اللطيفة التى لا تُرى بالعين المجردة ، وكنا (زمان) نسميها الميكروب ، والآن ظهر الڤيروس ، أظن أنه ألطف وأدقّ من الميكروب ، وأشدّ منه فَتْكاً .

وقد أوضحنا هذه المسألة بالذى يبنى بيتاً مثلاً ، ويريد أن يحتاط للحيوانات والحشرات الضارة ، فيضع شبكة من الحديد مثلاً على الشبابيك ، لكن لا بُدَّ أن تتناسب هذه الشبكة مع دقَّة الشىء الذى تخاف منه ، فالذى يمنع الذئاب ، غير الذى يمنع الفئران ، غير

---

(١) وكذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ وَلَـٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ (٢٧) ﴾ [الشورى] .
وقوله : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (١٧) ﴾ [الإسراء]
وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (٣٠) ﴾ [الإسراء].
وقوله تعالى : ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا .. (٩٦) ﴾ [الإسراء] .

(٢) ورد اقتران اللطيف بالخبير فى القرآن خمس مرات :
- ﴿ لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٠٣) ﴾ [الأنعام] .
- ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (٦٣) ﴾ [الحج] .
- ﴿ يَـٰبُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَـٰوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (١٦) ﴾ [لقمان] .
- ﴿ أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤) ﴾ [الملك] .

الذى يمنع الذباب والناموس .. الخ .

إذن : كلما دَقَّ الشىء عَنُفَ واحتاج إلى احتياط أكثر ؛ لأنه يتغلغل فى أضيق شىء وينفذ إليك دون أنْ تشعر به .

ونفهم من قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ (٣١) ﴾ [فاطر] أن الله تعالى هو القادر وحده على أنْ يُشرِّع لعباده ما يناسبهم فى كل زمان ومكان ؛ لذلك تعددتْ الكتب السماوية لما اختلفتْ الداءات ، فلما التقى العالم واتصل جاء القرآن مهيمناً على كل هذه الكتب .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٣٢) ﴾

الكتاب هو القرآن ، إذن : هذا الميراث كان بعد سيدنا رسول الله ﷺ وهو دليل على أن المرحلة التى بعد رسول الله مرحلة ميراث للكتاب وللمنهج ، يرثه العلماء عن رسول الله ؛ لذلك جاء فى الحديث : « إن العلماء هم ورثة الأنبياء ، وإن الأنبياء لم يُورثوا ديناراً ولا درهماً ، وإنما وَرَّثوا العلم ، فمن أخذه أخذ بحظ وافر »[(١)]

فالنبى ﷺ كان هو المبلِّغ والمعلِّم حال حياته ، أما بعد وفاته فقد وَكَل الله هذه المهمة إلى العلماء . ومعنى ﴿ أَوْرَثْنَا (٣٢) ﴾ [فاطر] يعنى :

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٥/١٩٦) ، وابن ماجه فى سننه (٢٢٣) ، وأبو داود فى سننه (٣٦٤١) من حديث أبى الدرداء رضى الله عنه .

طلبنا منهم أنْ يفعلوا فيه فعْل الوارث فى المال ؛ لأن الوارث للمال يُوجِّهه وجهةَ النفع العام ، وهذه هى وجْهة الرسالة أيضاً .

لذلك قال تعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا (١٤٣)﴾ [البقرة] فنحن ورثة محمد ، ومَنْ علم منَّا حكماً فعليه أنْ يبلغه . فالرسول شهيد على مَنْ بلَّغهم ، كذلك أمته سيكونون شهداء على الناس الذين يُبلِّغونهم .

ومعنى ﴿اصْطَفَيْنَا (٣٢)﴾ [فاطر] أى : اخترنا وفضَّلنا على سائر الأمة ، ثم يُقسِّم الحق سبحانه هؤلاء إلى ثلاثة أصناف : ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ (٣٢)﴾ [فاطر] ظلمها بالتقصير فى حَقِّ هذا الكتاب الذى ورثه ، فلم يعمل به كما ينبغى أنْ يعمل ، بل قد يرتكب كبيرة والعياذ بالله .

وهذا الصنف ظلم نفسه ؛ لأنه حرمها الثواب ، فكُلُّ تكليف يطلب منك العمل اليسير ويعطيك عليه الجزاء الوفير ، فحين تُقصِّر فى اليسير من العمل فإنك لا شكَّ ظالمٌ لنفسك .

﴿وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ (٣٢)﴾ [فاطر] يعنى : يعمل به فى بعض الأوقات ، فيخلط عملاً صالحاً بآخر سيء.

﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ (٣٢)﴾ [فاطر]

اللهم اجعلنا منهم إنْ شاء الله ، وكلمة (سابق) تدل على أن هناك سباقاً ومنافسة : أىّ المتسابقين يصل أولاً إلى الغاية الموضوعة للسباق ، وأهل هذا الصنف يتسابقون فى الخيرات .

وقوله تعالى : ﴿اصْطَفَيْنَا (٣٢)﴾ [فاطر] دلتْ على أن كلمة التوحيد لها ثمن ، والإيمان برسول الله له ثمن ، والعمل بما جاء به رسول الله له ثمن ، وإنْ كان من بين هؤلاء المصطفين مَنْ يظلم نفسه بالتقصير بل وارتكاب المعاصى ، وهو مع هذا كله من المصطفين ؛

لأنه قال لا إلـه إلا الله ، والحق سبحـانه لا يُسوِّى بين مَـنْ قال هذه الكلمـة ومَنْ جحـدها « لا إله إلا الله حِصْـنى ، مَنْ قـالهـا دخل حصنى »(١)

لذلك ذكـر الحق سبحـانه لهؤلاء المـؤمنين الذين وَرِثوا الكتـاب وصفين : ﴿ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا (٣٢) ﴾ [فاطر] فوصفهم بالاصطفاء ، والعبودية له سبحانه .

إذن : نزل الكتاب على محمد ﷺ وورثـتْ أمته الكتاب من بعده ، فهى امتداد لرسالته ؛ لذلك أَمن الله هذه الأمة على أنْ تحمل منهج الله إلى الناس كافة إلى أن تقوم الساعة ، فى حين لم يأْمَن غيرنا .

وقد تكفل الحق سـبحانه بحفظ هذا الكتـاب ، ولم يكلْ حفظه إلى أحد كـما حدث فى الكتب السـابقة على القرآن ، كـما قال سبـحانه : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ .. (٤٤) ﴾ [المائدة]

ومعنى ﴿ اسْتُحْفِظُوا (٤٤) ﴾ [المائدة] طُلب منهم أنْ يحفظوه ، لكنهم قصَّـروا فَنَسُوا بعض الآيات ، وحرَّفوا بـعضها ، وكـتَموا بعضـها ، بل ومنهم مَـنْ كـان يأتى بكلام مـن عنده ويقـول هـو من عند الله ، ولأن القرآن هو الكتاب الخاتم حفظه الله بنفسه ، ولم يأْمَن أحداً على حفظه .

فإنْ قُلْتَ : كيف يكون الظالمُ نفسَـه من المصطفين ، وهو مرتكب للذنوب وربما للكبائر؟ نقول : بمجرد أن يقول العبد أشهد ألا إله إلا الله وأن محـمداً رسول الله ، فـهو مُصْطفىً ، اصطفـاه الله على الكفار بهذه الكلمة ، وإنْ حدثت منه المعصية بعد ذلك .

(١) أخرجه ابن عساكر فيما ذكرته موسوعة أطراف الحديث (٢/٨٢) ، تهذيب تاريخ دمشق .

والحق سبحانه وتعالى حين يذكر الذنب ويُجرِّمه ويضع له عقوبة، فهذا إذْنٌ بأنه سيقع ، فمثلاً جرَّم الله السرقة ووضع لها حَدّاً ، وجرَّم الزنا ووضع له حداً ، فكأن مثل هذه الأمور تحدث فى مجتمع المسلمين ، أما الكذب مثلاً فلم يضع له حَدّاً ولا عقوبة ، لذلك ورد فى حديث سيدنا رسول الله لما سُئل : أيزنى المؤمن يا رسول الله ؟ قال : نعم ، أيسرق المؤمن يا رسول الله ؟ قال : نعم ، أيكذب المؤمن يا رسول الله ؟ قال : لا[1] .

فكأن المؤمن يُتوقَّع منه الزنا والسرقة ، ولا يُتوقَّع منه الكذب ، فهو أبعد الصفات عن المؤمن ، لماذا ؟ قالوا : لأن الكذب يخالف الواقع ويقلب الحقائق ، والمؤمن لا يكذب ؛ لأنه ينطق بلا إله إلا الله ، فإنْ كان كذاباً ما يدرينى أنه صدق فى هذه الكلمة ، فكأن الكذب يهدم الإيمان من أساسه ؛ لذلك لم يجعل الله له عقوبة ؛ لأنه لا يُتصوَّر من المؤمن .

والمقتصد : هو الذى تساوتْ حسناته وسيئاته ، وخلط عملاً صالحاً بآخر سىء ، وفى موضع آخر يقول تعالى فى حق هذا الصنف : ﴿ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٠٢) ﴾ [التوبة]

يقول النحاة : إن عسى تدل على الرجاء ، وأغلب الرجاء التوقّع واحتمال الحدوث ، على خلاف (ليت) التى وُضعت للتمنى ، والتمنى يكون لشىء بعيد أو مستحيل الحدوث ، فهى لمجرد إظهار المحبوبية للشىء المتمنَّى فقط ، ولا تدل على رجاء .

---

(١) أخرجه الإمام مالك فى موطئه (ص٩٩٠) من حديث صفوان بن سليم مرسلاً .

ومن ذلك قول الشاعر :

ألاَ لَيْتَ الشبابَ يَعُود يَوْماً فَأخْبِرهُ بِمَا فَعَلَ المشيبُ[1]

وسبق أنْ قُلنا : إن عسى وإنْ دَلَّتْ على رجاء حدوث الفعل ، إلا أنها درجات بعضها أوثق من بعض ومراتب ، فمثلاً إنْ كان الرجاء فى بشر مثلك كأن تقول : عسى فلان أنْ يعطينى . فهذا رجاء على درجة معينة من احتمال التحقق ، فإنْ قُلْتَ عسى أن أعطيك بصيغة المتكلم ، فهى أقوى من الأولى وأوثق ، فإنْ قُلْتَ : عسى الله أنْ يعطيك فهى أوثق ؛ لأنه رجاء فى الله ، فإنَّ قوله سبحانه : ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ (١٠٢)﴾ [التوبة] فعسى هنا للرجاء المحقق ، إذن : هذه من أرجى الآيات التى ينتظرها المقتصد المقصِّر فى حَقِّ ربه .

أما السابق بالخيرات ، فهو الذى يعمل بالأمر ويُتمه ويأتى به على أكمل أوجه ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ (٢٦)﴾ [المطففين]

وتأمل مثلاً قوله تعالى فى سيدنا إبراهيم عليه السلام : ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ (١٢٤)﴾ [البقرة]

يعنى : أتمَّ ما أمر به أولاً بالقدرة العادية ، ثم بالحيلة والقدرة العقلية ، فلما أمره الله مثلاً بأنْ يرفع القواعد من البيت : ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ (١٢٧)﴾ [البقرة] ماذا طلب منه ؟ وماذا فعل هو ؟

طلب منه أنْ يرفع قواعد البيت ، وكان يكفى فى طاعة هذا الأمر

---

(١) أكثر المصادر على أن هذا البيت لأبى العتاهية ، نسبه له الجاحظ فى « البيان والتبيين » (كتاب العصا) . وكذلك أبو هلال العسكرى فى كتابه « ديوان المعانى » فصل الشباب والشيب ، وكذلك الراغب الأصفهانى فى « محاضرات الأدباء » ، ولكن عزاه الزوزنى لحاتم طىء فى « حماسة الظرفاء » باب الكِبَر والشيب .

أنْ يبنى القواعد على قدر ما تطوله يده من الارتفاع ، لكنه زاد على ذلك واستخدم الحيلة العقلية ، فبعد أنْ وفَّى الأمر وأدَّاه أراد أنْ يزيد شيئاً من عنده ، وأن يحسن العمل فوق ما طُلِبَ منه ، فكان يأتى بالحجر الضخم ويضعه كـ (السقالة) ، ويقفَ عليه ليرفع البناء بقدر ارتفاع الحجر ، وولده إسماعيل يناوله .

كذلك لما ابْتُلى فى شبابه بالإحراق صبر ووثق بالله ، فلما جاءه جبريل عليه السلام يعرض عليه المساعدة ، وهو الواسطة بينه وبين ربه أَبَى وقال : أما إليك فلا ، يعنى : أنت وَصَلْتنى بالله فلم يَعُدْ بينى وبين ربى واسطة .

وهذه مسألة عجيبة ، ودرجة من الإيمان عالية ، وثقة بالله لا يتطرق إليها شك ولا ارتياب ؛ لذلك أنقذه الله وخرق له العادة ، وأبطل من أجله قانون النار والإحراق ، فقال سبحانه للنار ﴿يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰٓ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾ [الأنبياء]

وتأمل هذا الاحتياط من رب الأمر ﴿كُونِى بَرْدًا وَسَلَامًا ﴿٦٩﴾﴾ [الأنبياء] لذلك قال العلماء : لو أن الأمر كان للنار كُونى برداً (وفقط) لتحولتْ عليه برداً قاتلاً ربما أشد من النار .

ثم إن هذا الابتلاء وقع لإبراهيم عليه السلام فى نفسه وهو صغير والإنسان قبل أنْ يكون له ولد يكون كل حظه فى نفسه ، فإنْ رُزق الولد انتقل حظّه إلى ولده فيحبه أكثر من حُبه لنفسه ، ويتمنى أن يُعوِّض فى ولده ما لم يستطعه فى نفسه ، لذلك يقولون : إن الإنسان لا يحب أن يكون أحدٌ أفضل منه إلا ولده ، إذن : عصبية الإنسان فى حبه لولده أكثر من عصبيته لنفسه .

وسيدنا إبراهيم - عليه السلام - بعد أن نجح فى الابتلاء فى النفس ابتلاه الله فى الولد ، وتعلمون أن سيدنا إبراهيم رزقه الله بالولد على كِبَر وبعد يأس من الإنجاب ، فجاء إسماعيل على شوق من

إبراهيم حتى إذا شَبَّ الولد وبلغ مبلغ السعى مع أبيه يأتيه الأمر من السماء أنْ يذبحه ، وجاء هذا الأمر فى صورة رؤيا ، والرؤيا تحتمل التأويل ، لكن إبراهيم عليه السلام لم يؤولها ، وأخذها على الحقيقة .

وهذا الابتلاء فى الحقيقة ينطوى على ابتلاءات أربع : **الأول** : أن يذبح الولد الذى جاءه على كِبَر وبعد طول انتظار . **الثانى** : ألاّ يذبحه شخص آخر فيكون غريماً لإبراهيم عليه السلام . **الثالث** : أنْ يذبحه هو بيده . **الرابع** : أنْ يشرك ولده معه فى الابتلاء وألاَّ يأخذه على غِرَّة .

ذلك أن إبراهيم عليه السلام لما هَمَّ بتنفيذ ما أُمِرَ به لم يُرِدْ أنْ يأخذ ولده غِرَّة لعدْة أمور : **أولاً** : حتى لا يُتَّهم بالقسوة والغلظة . **ثانياً** : لكى لا تتغير خواطر الولد نحو والده فيتهمه بما لا يليق . **ثالثاً** : ليشركه ولده معه فى الابتلاء وفى الثواب ، وفى الرضا بقضاء الله ؛ لذلك قال له : ﴿ يَـٰبُنَىَّ إِنِّى أَرَىٰ فِى الْمَنَامِ أَنِّى أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ (١٠٢) ﴾ [الصافات]

فكأنه يأخذ رأيه فى الموضوع : ﴿ قَالَ يَـٰأَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ .. (١٠٢) ﴾ [الصافات] ولم يقل مثلاً : افعل ما تريد ؛ فالأمر انصياع وخضوع لأمر الله : ﴿ سَتَجِدُنِى إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢) ﴾ [الصافات]

وهكذا اشترك الاثنان فى الرضا ، وفى الصبر ، وفى الجزاء وخطفَ إسماعيلُ الفوز فى الابتلاء فى آخر الشوط ؛ لذلك قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا (١٠٣) ﴾ [الصافات] الولد وأبوه ﴿ وَتَلَّهُ[1] لِلْجَبِينِ (١٠٣) ﴾ [الصافات] يعنى : هَمَّ بذبحه ، أو كاد يفعل ﴿ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَـٰإِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ

---

(١) تلَّه : ألقاه على وجهه على الأرض ، وقوله تعالى : ﴿ وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) ﴾ [الصافات] أى : ألقاه وجبينه ووجهه إلى الأرض . [القاموس القويم ١/١٠١] .

الرُّءْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧) ﴾ [الصافات]

وحين تتأمل هذه القصة تجد أن الحق سبحانه قابلَ هذه الابتلاءات الأربعة ، بعطاءات أربعة : أنقذ إسماعيل من الذبح ، وفداه بذبح عظيم ، ثم بشَّر إبراهيم بإسحاق . ومن وراء إسحاق يعقوب ، ثم جعلهم جميعاً من الأنبياء فضلاً من الله .

﴿ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٣٢) ﴾ [فاطر] نعم ، الحق سبحانه يعاملنا بالفضل الكبير ، ويعطينا مُثُلاً ليُحبِّبنا فى الدين ، فالحسنة عنده بعشر أمثالها ، أو يزيدها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ، والسيئة بمثلها .

ومَنْ غلبت حسناته سيئاته يُرْجَى له الجنة ، ومَنْ غلبت سيئاته حسناته فهو مُرْجأ لأمر الله ، إنْ شاء عذبه بعدله ومآله إلى الجنة، وإنْ شاء غفر له بفضله ، فإنْ بادر بالتوبة النصوح وأخلص بدَّل الله سيئاته حسنات .

حتى أن بعض الظرفاء يقول : ليتنى كنت من أهل الكبائر . وجاء فى دعاء العارفين : اللهم عاملنا بالفضل لا بالعدل ، وعاملنا بالإحسان لا بالميزان ، وعاملنا بالجبر لا بالحساب .

يعاملنا ربنا بالفضل بدليل أنه أدخل الظالم لنفسه ، وأدخل المقتصد فى ساحة المصطفين من عباده .

ثم يوضح لنا الحق سبحانه هذا الفضل الكبير فيقول :

﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٣٣) ﴾

تلحظ أن ﴿جَنَّاتُ (٣٣)﴾ [فاطر] جمع ، فهى جنات عدَّة ، لا جنة واحدة ، وجنات (عدن) يعنى : إقامة دائمة لا تنتهى ، ووصف الجنّات هنا بالدوام لأن آدم عليه السلام سبق أنْ أُدخل الجنة ، لكن خرج منها ، أما جنة الآخرة فدائمة باقية لا يخرج منها مَنْ دخلها .

وقوله تعالى ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا (٣٣)﴾ [فاطر] تلحظ أن الحق سبحانه ذكر هنا التحلية والزينة قبل الضروريات ، وهذا يعنى أن الضروريات جاهزة مفروغ منها ، وهذه التحلية ستكون فى الآخرة من الذهب ومن الحرير ، وهى من المحرَّمات على الرجال فى الدنيا ، أما فى الآخرة فشىء آخر .

وكلمة (أساور) جمع أسورة وأسورة جمع سوار . مثل فؤاد وأفئدة ، فهى جمع للجمع ليدل على كثرتها ، وأنك ستُحلَّى إن شاء الله فى الجنة بأساور كثيرة تملأ الذراع من المعصم إلى العَضُد ، ومعلوم أن السوار هو ما يتحلى به المعصم وتلبسه النساء للزينة فى الدنيا ، كُلٌّ حسب إمكاناتها ، حتى أن بعض الغنيات يلبسْنَ أسورة عريضة فى العضد يسمونها (دُمْلُك) لفرط غناها .

وعجيب أن نرى بعض الرجال يتعجَّلون حلية الجنة ، لكن من غير طريقها ، فيلبسون الأساور ، وهو ما يُسمَّى الآن (الانسيال) .

وذكر الحق سبحانه أساور الذهب فى الحلية ؛ لأن الملوك قديماً كانوا يلبسونها ويتحلَّوْن بها ، وكان لكسرى سواران لهما قصة فى تاريخنا ، فلما أسلم سراقة بن مالك[1] ، وكان نحيلاً تشبه ذراعاه

---

(١) هو : سراقة بن مالك بن جعشم المدلجى الكنانى ، أبو سفيان ، صحابى ، كان فى الجاهلية قصاصاً للأثر ، أخرجه أبو سفيان ليقتص أثر رسول الله ﷺ حين خرج إلى الغار مع أبى بكر ، أسلم بعد غزوة الطائف عام ٨ هجرية ، له فى كتب الحديث ١٩ حديثاً . توفى عام ٢٤ هجرية . [الأعلام للزركلى ٣/٨٠] .

ذراعَىْ الماعز[١] ، وكان بعض الصحابة يسخرون منه ، فنهاهم عن ذلك سيدنا رسول الله ﷺ وقال قولة عرفوا معناها فيما بعد ، قال : « كيف بهما - يعنى ذراعى سراقة - فى سِوَارى كسرى ؟ ».

فلما فتح المسلمون بلاد فارس وغنموا قصور كِسْرى وأمواله جاء السِّواران من نصيب سُراقة عند توزيع الغنائم ، فلما رآهما عمر فى يديه قال : صدق رسول الله ﷺ[٢] .

وهذه الأساور ﴿مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا (٣٣)﴾ [فاطر] الذهب معلوم أنه من الجبال ، واللؤلؤ من حِلْية البحر .

وتأمل دِقَّة الأداء القرآنى هنا : فلما تكلم عن الأساور جاء بجمع الجمع ليدل على الكثرة ، لكن لما تكلم عن الثياب قال ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٣٣)﴾ [فاطر] بصيغة المفرد ، لماذا ؟ قالوا ، لأنك لا تحتاج إلى العديد من الثياب إلا لتردَّ عن نفسك البرد أو الحر ، وليس فى الجنة شىء من هذا .

﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (٣٤)﴾

---

(١) ذكر أبو عبد الله الحميرى فى كتابه « الروض المعطار فى أخبار الأقطار » « أن سراقة كان رجلاً أزب كثير شعر الساعدين » أثناء ذكره هذا الخبر .

(٢) أخرجه أبو بكر البيهقى فى دلائل النبوة (٦/٣٢٥) من حديث عمر بن الخطاب أنه أتى بفروة كسرى فوُضعت بين يديه وفى القوم سراقة بن مالك بن جعشم قال : فألقى إليه سوارى كسرى بن هرمز فجعلهما فى يديه فبلغا منكبيه فلما رآهما فى يدى سراقة قال : الحمد لله سوارى كسرى بن هرمز فى يد سراقة بن مالك بن جعشم . قال الشافعى : وإنما ألبسهما سراقة لأن النبى ﷺ قال لسراقة ونظر إلى ذراعيه : كأنى بك قد لبست سوارى كسرى » .

هذا قَوْل المؤمنين ساعة يتمتعون بنعيم الجنة ، فهم لا ينسوْنَ المنعمَ سبحانه ، فيحمدونه أولاً على أنْ شَرَع لهم المنهج الذى أوصلهم إلى هذا النعيم ، ويحمدونه على أنْ نجَّاهم وأنقذهم من الكفر وهداهم إلى الإيمان . إذن : هذا حمد مركب .

وكلمة ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ (٣٤)﴾ [فاطر] هى آخر ما يقوله المنعَّمون فى الآخرة ، كما قال تعالى : ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠)﴾ [يونس]

ومن لُطف الله بعباده وعَطْفه عليهم يُعلِّمهم كيف يحمدونه سبحانه ، ويُعلِّمهم هذه الكلمة الموجزة المكوّنة من مبتدأ وخبر : الحمد لله ، ذلك لأن الناس مختلفون فى القدرة على الأداء البيانى والتعبير البليغ ، فواحد بليغ قادر على صياغة الأسلوب الجميل وتنميق العبارات ، وآخر لا يجيد شيئاً من هذا ؛ لذلك علَّمنا الله تعالى كيف نحمده بلفظ سهل ميسور يتساوى فيه الجميع .

لذلك جاء فى مناجاة رسول الله لربه : « .. لا أحصى ثناءً عليك أنت كما أثنيتَ على نفسك »[(١)]

وقلنا : إن كلمة (الحمد لله) تستوجب سلسلةً لا تنتهى من الحمد ، فحين تقول على النعمة : الحمد لله . فهذه الكلمة فى ذاتها نعمة تستوجب الحمد ، وتستحق الحمد ، وهكذا يظل الحق سبحانه محموداً ، ويظل العبد حامداً إلى ما لا نهاية .

وقوله سبحانه ﴿الَّذِى أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ (٣٤)﴾ [فاطر] هذه نعمة ثالثة

---

(١) أخرج مسلم فى صحيحه (٤٨٦) من حديث عائشة قالت : فقدت رسول الله ﷺ ليلة من الفراش ، فالتمسته ، فوقعت يدى على بطن قدميه وهو فى المسجد ، وهما منصوبتان وهو يقول : « اللهم أعوذ برضاك من سخطك . وبمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك ، لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك » .

تستحق الحمد ، فالحمد أولاً على النعم ، وثانياً على أنك حمدتَ الله على نعمه ، وثالثاً تحمد الله الذى أذهب عنك الحزن ، والحَزَن كل ما يُحزنك أو يغمُّك ، أو هو استدامة الحزن فى الإنسان .

فالإنسان يسعد بالنعيم فى الدنيا ويُسَرُّ به ، لكن يُنغِّصه عليه مخافة زواله ، فيعيش مهموماً حزيناً ، يخاف أنْ تفوته النعمةُ أو يفوتها هو بالموت ، أما فى الآخرة فلا يفكر المرء فى شىء من هذا أبداً ، فقد ذهب هذا الفكر مع ذهاب الدنيا ، والجزاء فى الآخرة باقٍ دائم ، لا يفوتك ولا تفوته .

وقولهم : ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (٣٤)﴾ [فاطر] كأنهم يتهمون أنفسهم بالتقصير ، وأنهم ما أدَّوا حق الله كما ينبغى ، وأن ما هم فيه من النعيم ما هو إلا لأن ربهم غفور يتجاوز عن تقصيرهم ، وشكور يشكر لهم العمل الصالح بعد أنْ وفَّقهم له وأعانهم عليه .

ثم يذكر الحق سبحانه إقرارهم بما وهبهم الله من نعيم ، فيقول :

﴿الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ (٣٥)﴾

معنى : ﴿أَحَلَّنَا (٣٥)﴾ [فاطر] أدخلنا وجعلها محلاً لنا ﴿دَارَ الْمُقَامَةِ (٣٥)﴾ [فاطر] أى : الإقامة الدائمة والمراد الجنة ، فالجنة دار إقامة دائمة . أما الدنيا فما هى إلا معبر إلى الآخرة ، ولا تُسمَّى دار إقامة . وهذه الجنة جعلها الله محلاً لهم ليس بأعمالهم ، إنما بفضل من الله وتكرُّم ، حتى إنْ كان لك عمل صالح فهو راجع إلى تشريع الله لك . إذن : كله يعود إلى فضل الله.

وقولهم : ﴿وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا (٣٥)﴾ [فاطر] أى : فى الجنة ﴿نَصَبٌ

﴿٣٥﴾ [فاطر] أى : تعب ومشقة ﴿وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾﴾ [فاطر] يعنى : إعياء وفتور نتيجة التعب من حركات الأجهزة . والإنسان منَّا فى سعيه فى الدنيا يتعرض لكثير من المشاق ، حتى أننا نقول يضرب فى الأرض يعنى : يسعى فكأنها عملية مرهقة شاقة يعود الإنسان منها مُتْعباً مُنْهكاً ، هذا هو اللُّغُوب إلى أنْ ترتاح منه وتستجم ، وتعود لك قوتك ونشاطك للعمل من جديد .

ومن هذا المعنى قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾ [ق]

وقال بعضهم : النَّصَب : تعب الجوارح . واللغوب : تعب الصدور ، ويُراد به الهم الذى يشغل بال الإنسان .

وهذا المعنى قال فيه شوقى رحمه الله :

لَيْسَ بِحِمْلِ مَا أطَاقَ الظهْرُ ... مَا الحِمْلُ الاَّ مَا وَعَاهُ الصَّدْرُ

والإمام على رضى الله عنه لما سُئِل عن أشدِّ جنود الله فى الأرض ، قال : الهَمّ . فإنْ تسلط على إنسان أقلقه وأقضَّ مضجعه ؛ لذلك قالوا : والهمّ يغلب النوم ، فكان أشد منه[1] ، وما يزال الهم بالإنسان حتى يصير نحيلاً بعد البدانة ، كما قال المتنبى:[2]

---

(١) ذكره أبو على القالى فى ذيل الأمالى والنوادر (١٩٣/٣) أن على بن أبى طالب قال : أشد جنود ربك عشرة : الجبال الرواسى ، والحديد يقطع الجبال ، والنار تذيب الحديد ، والماء يطفىء النار ، والسحاب المسخر بين السماء والأرض يحمل الماء ، والريح تقطع السحاب ، وابن آدم يغلب الريح يستتر بالثوب أو الشىء ويمضى لحاجته ، والسُّكْر يغلب ابن آدم ، والنوم يغلب السكر ، والهمُّ يغلب النوم ، فأشد خلق الله عز وجل الهمُّ .

(٢) المتنبى هو أحمد بن الحسين بن الحسن الكندى ، أبو الطيب ، ولد بالكوفة ٣٠٣ هـ شاعر حكيم ، نسب إلى كندة بالكوفة ونشأ بالشام ، قال الشعر صبياً ، وتنبأ فى بادية السماوة لذلك سمى بالمتنبى ولكنه تاب ورجع عن دعواه ، مدح كافور الإخشيدى بمصر ثم هجاه ، ومدح عضد الدولة بن بويه فى شيراز ، توفى قتيلاً عام ٣٥٤ هـ .

والهَمُّ يغتنم[1] الجَسيمَ نَحَافَةً ويُشيبُ نَاصيةَ الصَّبِيِّ ويُهرِمُ

بعد أنْ حدَّثنا الحق سبحانه وتعالى عن أهل الإيمان المصطفين من عباده ، وعن جزائهم فى جنات عدن لتستبشر النفس ، وتتفتح إلى بشارات الأتقياء يذكر سبحانه ما يقابل ذلك من نذارات الأغبياء ، وذكْر المقابل يزيد المعنى وضوحاً ، وهو سمَة من سمات الأسلوب القرآنى ، كما فى قوله تعالى :﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (١٤) ﴾ [الانفطار]

وقوله سبحانه : ﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢) ﴾ [التوبة]

كذلك هنا يقول سبحانه :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ (٣٦) ﴾

اللام فى ﴿ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ (٣٦) ﴾ [فاطر] تفيد الملكية والاختصاص ، كما نقول : فلان له كذا وكذا ، فكأنهم يتعلَّقون بها ، وهى تتعلق بهم تعلُّق المالك بالمملوك ، وساعةَ يدخلونها والعياذ بالله يودُّون الخلاص منها ولو بالموت ، على حدِّ قول الشاعر :

كَفَى بكَ دَاءً أنْ تَرَى الموْتَ شَافياً وحَسْبُ المنَايَا أنْ يكُنَّ أمانيا[2]

---

(١) الصواب : (والهم يخترم) كما فى ديوان المتنبى : وهو من قصيدة له من بحر الكامل عدد أبياتها ٣٦ بيتاً ، وأشهر أبيات هذه القصيدة هو قوله :

ذو العقل يشقى فى النعيم بعقله وأخو الجهالة فى الشقاوة ينعم

(٢) هذا البيت للمتنبى أيضاً وهو مطلع قصيدة له فى ديوانه ، وهى من بحر الطويل ، عدد أبياتها ٤٧ بيتاً .

نعم : يتمنَّوْنَ الخلاص ولو بالموت ، لكن هيهات لهم ذلك ، وهذا المعنى واضح فى قوله تعالى فى موضع آخر : ﴿وَنَادَوْا يَـٰمَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ (٧٧)﴾ [الزخرف] فالموت ليس عذاباً ، بل هو بالنسبة لهم راحة من عذاب أشدّ وأبْقى .

وأذكر أن بعض المستشارين ادعى أن كتاب الله ليس فيه دليل على رَجْم الزانية المحصنة ، واستدل على ذلك بقوله تعالى فى الإماء: ﴿فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ (٢٥)﴾ [النساء]

على اعتبار أن الرجم لا يتجزأ ليكون فيه نصف رجم ، وما دام الرجم لا يتجزأ فلا رجمَ إذن . فربنا سبحانه وتعالى ألهم وقلنا والحمد لله : علينا أن نحدد أولاً ما العذاب ؟ العذاب : إيلام حَيٍّ ، وإذا ما جمعنا آيات القرآن فى الموضوع بعضها إلى بعض ، وَضُحَتْ لنا الصورة وظهر المعنى ، فالله يقول فى قصة هدهد سليمان عليه السلام : ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ (٢١)﴾ [النمل] إذن : الموت أو الذبح أو القتل ليس عذاباً . والرجم إماتة ، والإماتة إنهاء للعذاب .

والحق سبحانه وتعالى حين قال هذا النص شاء الله سبحانه أن يجعل لنبيه ﷺ بياناً بهذا النص ، وفَرْق بين حكم تأخذه بالنص ، وحكم تأخذه بالتطبيق الفعلى من المشرِّع ﷺ ؛ لأن النص يمكن لك أنْ تؤوله ، أما التطبيق الفعلى من رسول الله فلا تأويلَ فيه ، وقد ثبت أن رسول الله رجم بالفعل .

ولو كان الأمر كما يدَّعى المستشار لكانت الآية : فعليهن نصف ما على المحصنات دون أنْ تذكر العذاب ، فقوله تعالى : ﴿مِنَ الْعَذَابِ (٢٥)﴾[النساء] يعنى : لا من غيره ، فهو بيان للنصف ، نصف العذاب ، والرجم ليس عذاباً ، بل إنهاء للعذاب .

ثم يخبر سبحانه عن حال أهل النار ﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا (٣٦)﴾ [فاطر] أى : أنه عذاب دائم لا ينقطع ولا يفتر ، فالإنسان مثلاً فى الدنيا قد يُبْتلى - والعياذ بالله - بأنْ يُعتقل ويُضرب مثلاً ليُقرَّ بما حدث ، إلى أن يصير جسمه جسماً (أطرش) يعنى : لا يشعر بالألم لكثرة الضرب ؛ لذلك مثل هؤلاء يُضرب جَلْدة ، أو عدة جلدات ، ثم لا يشعر بعدها بشىء ، ويصدق فيه قول الشاعر :

مَنْ يَهُنْ يَسْهُلُ الهَوَانُ عَلَيْهِ مَا لجُرْحٍ مِيِّتٍ إيلامُ (١)

أو قَوْل الآخر :

وكنتُ إذَا أصَابَتْنى سِهَامٌ تكسَّرَتِ النِّصَالُ على النِّصَالِ (٢)

إذن : عذاب الدنيا قد يُخفَّف ، ولو بهذه العادة الرديئة ، وهى فقدان الإحساس بالعذاب حين يفقد الجلد اتصاله بالمخ ، أما عذاب الآخرة فلا يُخفَّف عنهم مهما طال بهم ؛ لذلك يقول تعالى فى موضع آخر : ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ (٥٦)﴾ [النساء]

---

(١) هذا البيت للمتنبى أيضاً ، وهو من قصيدة مطلعها :

لا افتخَارٌ إلاَّ لمَنْ لاَ يُضامُ مُدْرِك أوْ مُحارِبٍ لاَ ينَامُ

وهى فى ديوانه من بحر الخفيف ، عدد أبياتها ٤٣ بيتاً .

(٢) هذا البيت قاله عدة شعراء مع اختلاف فى صدره واتحاد العجز :

- إبراهيم الطباطبائى : فصار إذا أصابته سهام
- أحمد الغروى : فصرت إذا أصابتنى سهام
- المتنبى : فصرت إذا أصابتنى سهام
- جرمانوس فرحات : فصرت إذا أصابتنى سهام
- حفنى ناصف : ولاقت مثلها الصعدات حتى
- عبد الرحمن الموصلى : وصار إذا أصابته سهام

فهو للمتنبى أيضاً من قصيدة له فى ديوانه من بحر الوافر ، عدد أبياتها ٤٥ بيتاً ، فهو السابق إلى هذا المعنى بهذا اللفظ .

﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾

معنى ﴿يَصْطَرِخُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [فاطر] أى : يصرخون ويصيحون مستغيثين طالبين للنجدة . والصراخ : استنجاد بمَنْ يخلصك من شدة أو ضائقة أو عذاب ، ومثل هذا الصوت نسمعه مثلاً حين يشبُّ حريق لا قَدَّر الله ، فيصرخ الناس طلباً للمساعدة .

وهؤلاء يصطرخون﴿فِيهَا ﴿٣٧﴾﴾ [فاطر] أى : فى النار يقولون فى صراخهم ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ﴿٣٧﴾﴾ [فاطر] أولاً : عجيب منهم أن يقولوا الآن (ربنا) هذه الكلمة التى أنكروها فى الدنيا ، وكفروا بها ، الآن ينطقونها ، لكن بعد فوات أوانها . ثم أقرُّوا على أنفسهم بأن عملهم فى الدنيا لم يكُنْ صالحاً ، وهذه حيثية تُحسب عليهم لا لهم ، وتزيد من عذابهم لا تُخففه عنهم .

ثم لو أجابهم الله - وهيهاتَ لهم ذلك - هل سيعملون صالحاً كما يقولون ؟ لقد علم الله كذبهم ، فقال سبحانه ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنعام]

إذن : هذا مجرد كلام حين الضائقة ، ولو رجعوا لعادوا لما كانوا عليه ؛ لذلك يرد الله عليهم ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ.. ﴿٣٧﴾﴾ [فاطر] يعنى : مددنا لكم العمر فى الدنيا بما يكفى للتذكُّر وللاعتبار لمَنْ أراد أنْ يتذكر أو يعتبر .

﴿وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ ﴿٣٧﴾﴾ [فاطر] الرسول الذى ينذركم ويحذركم من

عـاقبـة أفـعالـكم ، ومع ذلك لم تعـودوا إلى الجادة ، ولـم تراجعـوا أنفسكم إلى أن فات الأوان .

﴿ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ (٣٧) ﴾ [فاطر] أى : ذوقوا الـعذاب ، ومعنى ﴿ مِن نَّصِيرٍ (٣٧) ﴾ [فاطر] أى : مُعين . والنصـير هو الذى يدفع عنك بقوة ، ويدخل مـعك المعركة ، وفى مـوضـع آخر يقول سبـحانه ﴿ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٣١) ﴾ [الشورى] والولى : هو القريب الذى يدفع عنك برجاء واسـتمـالة وتحنين ، وهؤلاء لا لهم ولىٌّ ، ولا لهم نصـير فى هذا الموقف .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ (٣٨) ﴾

جـاءت هذه الآية كتـعليل لما قـبلهـا ، فالحق سـبحـانه يعلم كل ما غاب فى السموات وفى الأرض ، ويعلم خـفايا الصدور ومكنوناتها ونواياها وما يعلق بها ، وقد علم سبحانه نوايا أهل النار ، وعلم أنهم لو رجعوا إلى الدنيـا لَعادوا لما كانوا عليه ، فـهذه تجربة لن تتكرر ؛ لذلك أنهى الله معهم هذا الموقف ، وحكم بعدم رجوعهم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا (٣٩) ﴾

معنى : ﴿ خَلَائِفَ (٣٩) ﴾ [فاطر] خلفاء : يخلف بعضكم بعضاً . وفى آية أخرى ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً .. (٣٠) ﴾ [البقرة] أى : خليفة لله فى أرضه ؛ لذلك وهبنا الله صفات من صفاته سبحانه ، لنباشر بها مهمتنا فى الأرض ، فإنْ وجدتَ فينا قدرة على العمل فهى من قدرة الله، وإنْ وجدت فى تصرفاتنا حكمة فهى فيض من حكمة الله ، وإنْ وجدت فينا عزة فهى من عزة الله .. الخ .

هذا هو معنى الخلافة ؛ لأن الإنسان حين يتأمل ذاته يجد أن كلَّ ما فيه موهوب له من خالقه سبحانه ، ليس ذاتياً فيه .

وسبق أنْ قلنا مثلاً : إنك لمجرد إرادتك أنْ تقوم من مكانك تجد نفسك قد قُمْت دون أنْ تعرف ماذا حدث فى أعضائك وعضلاتك ، وكيف صدرت الأوامر لهذه العضلات أنْ تتحرك ، هذه فى الحقيقة صفة من صفات الخالق سبحانه وهبك شيئاً منها ، بدليل أنه سبحانه إنْ سلبك هذه القوة لا تستطيع القيام ، وقد سلبها بالفعل من غيرك ليبين لك أن قوتك ليست ذاتية فيك ، فلا تغترَّ بها .

تلحظ مثلاً بعد تطور الصناعة أن العلماء استخدموا حركات البشر فى صناعة (الأوناش والبلدوزرات) فترى الحركة الواحدة تحتاج إلى عدة حركات من الآلة ، وتحتاج إلى أنْ يضغط السائق على زرٍّ معين لهذه الحركة ، أما أنت فلا تحتاج فى حركة أعضائك إلى شىء من هذا .

فبمجرد أن تريد الفعل تفعله وتتفاعل معك أعضاؤك وعضلاتك ، وتؤدى لك ما تريد منها دون أن تشعر أنت بشىء ، فإذا كنتَ أنت وأنت مخلوق لله تعالى حين تريد شيئاً تفعله دون أنْ تأمر عضواً من أعضائك ، ولا عضلة من عضلات جسمك ، فما بالك بالخالق سبحانه ؟

أتنكر أنه سبحانه يقول للشىء كُنْ فيكون ؟ ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٨٢) ﴾ [يس]

أنت حينما تريد حركة لا تأمر شيئاً من أعضائك ، لأنك لا تعرف أيَّها تأمر ، فالأعضاء والعضلات والأعصاب أشياء متداخلة ، ولا تدرى أنت ما يدور بداخلك لتؤدى هذه الحركة ؛ لذلك سوَّاك الخالق سبحانه على صورة تنفعل لك أعضاؤك بمجرد إرادتك ، أما الخالق سبحانه فيأمر الأشياء ويقول لها : كُنْ . لأنه سبحانه يعلم الآلة التى تتحرك .

وأيضاً الخالق سبحانه لم يترك لك أمراً على جوارحك ، إنما ذلَّلها لك وطوَّعها لإرادتك ؛ لأنك لا تضمن إنْ أمرتها أنْ تطيعك وتستجيب لك ، أمّا الخالق سبحانه فإن أمر الأشياء أطاعته ، بدليل أن الإنسان حين يُسْلَب القدرة على الحركة ، أو حين يصيبه هذا المرض والعياذ بالله يريد أنْ يحرك أصبعاً من أصابعه فلا يستطيع .

والحق سبحانه وتعالى قبل أنْ يستدعى الخليفة إلى الوجود خلق له قبل أن يخلقه ، وضمن له قُوتَه ومُقومات حياته وضرورياتها إلى قيام الساعة ، ثم ترك للعقول أن تعمل ، وأن تستنبط من الضروريات ما يُترف الحياة ويثريها .

إذن : أنت أيها الخليفة لله فى الأرض ليس لك إلا أن تستقبل أمر الله فى (افعل كذا) و (لا تفعل كذا) بالطاعة والانقياد ، فإنْ كفرتَ بعد ذلك ﴿فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ (٣٩)﴾ [فاطر] كفرت يعنى لم تُطع افعل ولا تفعل ، والكفر يعنى الستر ، وكفر بالله يعنى : ستره ، كأن الله كان ظاهراً ، فستره الكافر بكفره ؛ لذلك قلنا : إن الكفر أول دليل على الإيمان ، فلولا وجود الله ما كان الكفر .

وكما أن هناك كفراً بالله الذى استخلفك ، هناك كفر بما استُخلفْتَ فيه ، كُفْر بالنعمة بأنْ تنسى واهبها لك والمنعِم عليك بها ، ومن كفر

النعمة أن تكسل عن استنباطها واستخراجها من باطن الأرض ، وتتركها مطمورة لا ينتفع الناس بها ، ومن كُفْر النعمة أيضاً ألاَّ تؤدى حقَّ الله فيها ، وأنْ تسترها عن مُستحقها المحتاج إليها .

وما يعانيه العالم الآن من أزمات فى القوت ومجاعات ما هو إلا نتيجة طبيعية لكفر النعمة ، إما بالتكاسل والقعود عن استنباطها ، وإما نستنبطها لكن تشح بها نفوسنا وتبخل ، بدليل أننا عشْنا فترة طويلة فى الوادى الضيق ، ولم نحاول استنباط خيرات الصحراء ، فلما تنبهنا إلى ضرورة غزو الصحراء وتعميرها أصابنا هوس الاستنباط ، فزرعنا الترف ولم نزرع الضروريات فتجد السوق عندنا مليئاً بالبرتقال والموز والعنب والكنتالوب والفراولة .. الخ ونحن (نشحت) رغيف العيش ، ونستجدى غيرنا ضروريات حياتنا .

إذن : الجزاء هنا من جنس العمل ﴿فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ﴿٣٩﴾﴾ [فاطر] أى : يُجزى به ، فالذى كفر بالمنعم له جزاؤه ، وجزاؤه العذاب فى الآخرة ، والذى كفر بالنعمة له جزاؤه ، وجزاؤه أنْ يموت جوعاً وأنْ يُذلَّ لغيره ، وإنْ ذُلَّ لغيره فلن ينفذ أمراً ولا نهياً ، ولن يهتم بدين ولا بمنهج .

ورحم الله أجدادنا الذين قالوا : (اللى لقمته من فاسه كلمته من راسه) .

ثم يقول سبحانه مُبيِّناً عاقبة الكفر ﴿وَلا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلاَّ مَقْتًا وَلا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلاَّ خَسَارًا ﴿٣٩﴾﴾ [فاطر] نعم ، الكفر يُزيد صاحبه مَقْتاً وكراهية من الله عز وجل ؛ لأنك كفرت بمَنْ ؟ كفرتَ بالله ربك وخالقك ورازقك وواهبك النِّعَم ، وكل كفر بشىء من هذا يستوجب لك كراهية وبُغْضاً من الله ، وهذا البغض يزيد بالاستمرار فى الكفر والتصميم عليه ، ثم بعد هذا كله يزيد الكفر صاحبه

﴿ خَسَارًا (٣٩) ﴾ [فاطر] وأىُّ خسارة بعد الكفر بالله ، الخسارة هنا كبيرة ؛ لأنها هلاك وخسران لخيرَىْ الدنيا والآخرة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا (٤٠) ﴾

الخطاب فى (قل) لسيدنا رسول الله ﷺ ﴿ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ (٤٠) ﴾ [فاطر] يعنى أخبرونى عنهم ، وليست مجرد استفهام عن الرؤية كما لو قُلْتُ لك : أرأيتَ فلاناً أمس ؟ تقول : نعم أو لا ، أما هنا فالمراد الإخبار عن الحال وطلب منهم هم أنْ يخبروا عن حال شركائهم الذين عبدوهم من دون الله ، وجعلهم هم أنفسهم حكَماً فى هذه المسألة .

﴿ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ (٤٠) ﴾ [فاطر] يعنى : أخبرونى إنْ كانوا هم انفردوا بالخَلْق ﴿ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ (٤٠) ﴾ [فاطر] يعنى : شاركونى الخَلْق وكانت أيديهم بيدى يخلقون معى ﴿ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّنْهُ (٤٠) ﴾ [فاطر] كتاباً يبيح لهم الشرك ، ويكون حُجَّة لهم فى شركهم .

والحق سبحانه وتعالى يشرح لنا هذه القضية فى موضع آخر ، فيقول سبحانه : ﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا (٥١) ﴾ [الكهف]

فالحق سبحانه لا ينفى مشاركتهم له سبحانه فى الخلق فحسب ، إنما ينفى مجرد مشاهدتهم لهذه المسألة ، فليس لهم علْم بالخَلْق ولا صلةَ لهم به ، ولا يستطيعون أنْ يخبروا كيف خُلقت السمواتُ والأرض ، ولا كيف خُلقوا هم أنفسهم .

ثم يقول سبحانه ﴿ بَلْ ﴿٤٠﴾ ﴾ [فاطر] وهى إضراب عن الكلام السابق ، وإثبات للحكم بعدها ﴿ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلاَّ غُرُورًا ﴿٤٠﴾ ﴾ [فاطر] وإنْ هنا بمعنى ما النافية ، يعنى : ما يَعد الظالمون بعضهم بعضاً إلا غروراً ، والغرور هو الخداع الذى يُلبس الباطلَ ثوبَ الحق ؛ ليجذب الناس إليه ، ويزخرفه لهم ليغرَّهم به .

ومن ذلك قول الله تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ﴾ [الانفطار] يعنى : ما أغراك بمعصيته ؟ وما شجَّعك على عصيان أوامره ؟ وكأن الحق سبحانه يُعلِّمنا الرد بقوله تعالى (الكريم) فالذى غرَّنا بالله كرمه وفضله .

فالمعنى : بل كل هذا باطل ، فشركاؤهم ما خلقوا شيئاً ، وما شاركوا فى خَلْق شىء ، ولا آتيناهم كتاباً يكون حُجَّة لهم ، كل هذا خداع منهم وزخرفة ، والحقيقة أنهم يَغُرُّ بعضُهم بعضاً ، ويخدع بعضهم بعضاً بهذه الأباطيل .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ ﴾

نَعَم ، الله وحده هو الذى يُمسك السموات أنْ تقع على الأرض ويمسك السموات والأرض أن تزولا يعنى : تتحرك من أماكنها ، وتسقط وتتهدم ، ولو تركها الخالق سبحانه ما استطاع أحد أنْ يُمسكهما ﴿ مِنْ بَعْدِهِ (٤١) ﴾ [فاطر] أى : سواه ، وهذه المسألة لله وحده ، ليس له فيها شريك ولا معارض ، وهى من صميم ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) ﴾ [الإخلاص]

والحق سبحانه يمسك السموات والأرض أنْ تزولا ، لأنه سبحانه خلق السموات بغير عَمَد ، وبغير دعائم تحملها ﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا (١٠) ﴾ [لقمان]

وأرنى غير الله يستطيع أنْ يرفع هذه القبة الزرقاء هكذا بغير عَمَد ، إن قصارى ما وصل إليه التقدم البشرى بناء كوبرى مثلاً يمتد لعدة مترات بدون دعائم فى وسطه ، مع أنهم يستعيضون عن ذلك بدعائم أقوى فى أطرافه ، بحيث تحمل الوسط وتشده ويسمونها الكبارى المعلَّقة ، فأين هذا من رفع السماء ؟ والسماء كما قلنا : هى كلُّ ما علاك ، فالله يمسك السماء بما فيها من نجوم وأقمار وكواكب ومجرات ، ويمسك الأرض أنْ تميد بأهلها ، وأن تضطرب بهم .

ولما تكلم العلماء فى هذه المسألة قالوا : إنها الجاذبية التى تمسك الأشياء ، لكن إنْ كانت الجاذبية للأرض ، فلماذا لم تجذب النجوم مثلاً ، وهى بين السماء والأرض ؟

إذن : المسألة قدرة إلهية ، ونظام للكون مُحكم ، يجعل لكل مخلوق فى السموات والأرض ما يحفظ توازنه ويمسكه أنْ يقع .

و(إنْ) فى قوله تعالى : ﴿ وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا (٤١) ﴾ [فاطر] يعنى ما يمسكهما ، فهى بمعنى أداة النفى ، كما فى قوله تعالى : ﴿ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلاَّ اللاَّئِى وَلَدْنَهُمْ (٢) ﴾ [المجادلة]

وتُختم الآية بقوله تعالى : ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾﴾ [فاطر] ولك أنْ تسأل : ما علاقة هاتين الصفتين لله تعالى الحليم والغفور بمسألة إمساك السموات والأرض ، وهى مسألة كونية ؟

قالوا : لأن هذه المسألة يكثر حولها الجدال ، وكثيراً ما يتعدى الإنسانُ حددوه فيها ، فيسأل عمّا لا ينبغى له الخوض فيه ، وعن كيفية إمساك السموات والأرض ، وهو يمشى فى أنحاء الأرض ، ويركب الطائرة فى جَوِّ السماء ، فلا يرى شيئاً ، ولا يرى أعمدة .

وهذه مسألة لا دخلَ لنا فيها ، ويكفى أن الخالق عز وجل أخبرنا عنها بقوله : ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴿١٠﴾﴾ [لقمان] أى : لا يوجد لها عُمد بالفعل ، أو لها عمد ، لكن لا ترونها ويصح المعنيان ، وعلينا أنْ نقف عند هذا الحدِّ .

فالحق سبحانه حليم لا يعاقب المتجرئين عليه ، الخائضين فى حقه ، بل إن المنكرين لوجوده سبحانه لا يعاجلهم بالعقوبة ، ولولا حِلْمه تعالى كان (دربكها) على رؤوسهم .

وقد ورد فى الحديث القدسى : « قالت الأرض : يا رب ائذن لى أنْ أخسف بابن آدم ، فقد طَعِم خيرك ومنع شكرك ، وقالت السماء : يا رب ائذن لى أنْ أسقط كسفاً على ابن آدم ، فقد طَعِم خيرك ومنع شكرك ، وقالت الجبال : يا رب ائذن لى أنْ أسقط على ابن آدم ، فقد طعم خيرك ومنع شكرك ، وقالت البحار : يا رب ائذن لى أنْ أُغرق ابن آدم فقد طَعِم خيرك ومنع شكرك . فقال تعالى : دعونى وخَلْقى ، لو خلقتموهم لرحمتموهم ، إنْ تابوا إلىَّ فأنا حبيبهم ، وإنْ لم يتوبوا فأنا طبيبهم .. »[1]

---

(١) أورده الغزالى فى إحياء علوم الدين (٤/٥٢) من قول بعض السلف ولفظه : « ما من عبد يعصى إلا استأذن مكانه من الأرض أن يخسف به ، واستأذن سقفه من السماء أن يسقط عليه كسفاً ، فيقول الله تعالى للأرض والسماء : كُفَّا عن عبدى وأمهلاه فإنكما لم تخلقاه ، ولو خلقتماه لرحمتماه ولعله يتوب إلىَّ فأغفر له ، ولعله يستبدل صالحاً فأبدله له حسنات».

إذن : لولا حلْم الله علينا ومغفرته لذنوبنا ما أمسك السموات والأرض ، ولتهدَّم هذا الكون على مَنْ فيه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا (٤٢) ﴾

قوله تعالى : ﴿ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ (٤٢) ﴾ [فاطر] أى : اجتهدوا فى القَسَم والحَلف بأغلظ الأيمان ﴿ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ (٤٢) ﴾ [فاطر] رسول ﴿ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ (٤٢) ﴾ [فاطر] أشد هداية ﴿ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ (٤٢) ﴾ [فاطر] أى : أهْدى من الأمم السابقة يعنى : سيكونون فى المقدمة .

والحق سبحانه يُوضِّح لنا هذا المعنى فى موضع آخر ، فيقول سبحانه : ﴿ وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ (١٦٧) لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ (١٦٨) لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٦٩) ﴾ [الصافات]

وهذا كله قولهم بأفواههم ، ويعلم الله أنهم كاذبون ، لكنه سبحانه يُرخى لهم العنان ، ولا يكشف هذا الكذب فيقول لهم : دَعْكم من الأوَّلين ، وها هو الذكر الذى طلبتم وقلتم إنكم ستكونون به أهدى الناس ، والمراد هنا رسالة محمد ﷺ .

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا (٤٢) ﴾ [فاطر] يعنى : إعراضاً وتباعداً عن الحق وعن الهداية ، لماذا ؟ لأن الذكْر الذى جاءهم جاء على يد محمد ، ولو جاء على يد رجل عظيم كما يقولون لَقَبِلوه : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) ﴾[الزخرف] فيرد

الله عليهم : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ (٣٢) ﴾ [الزخرف]

عجيب منهم أنْ يريدوا قسمة رحمة الله على هواهم واختيار رسول الله كما يحبون ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ (١٢٤) ﴾ [الأنعام]

كيف والله قد قسم بينهم أبسط أمور حياتهم فى الدنيا ، فجعل هذا غنياً ، وهذا فقيراً ، وهذا قوياً ، وهذا ضعيفاً .

لكن هذا القول منهم دليل على أن القرآن عندهم لا غبارَ عليه ، وأنهم لا يُكذِّبون به مع أنهم قالوا عنه إنه سحر ، وأنه كهانة ، وأنه شعر ، ومع هذا يعترفون بأن القرآن لا غُبارَ عليه ، لكن آفته أنه نزل على محمد بالذات .

ثم يُبيِّن الحق سبحانه علَّة نفورهم ، فيقول :

﴿ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا (٤٣) ﴾

نعم ، استكبروا على الحق ، فلم يقبلوه ، لماذا ؟ لأن هذا الحق جاء ليُنزلهم من عالى السيادة إلى العبودية المقترحة المستطرقة بين كل الخَلْق ، وهم ألفوا السيادة وتشقّ عليهم المساواة ، وأن يكونوا هم وعبيدهم كأسنان المشط .

وكأن الحق سبحانه يرد عليهم : يا مَنْ تستكبرون عن قبول الحق بما لكم من السيادة ، أمَا كان يليق بكم أنْ (تخزوا) على

عرضكم ، وتسألوا أنفسكم : مِنْ أين لكم هذه السيادة ؟

بالله ، لو أن الله تعالى مكَّن أبرهة من هدم الكعبة فى حادثة الفيل ، وانصرف الناس إلى كعبة أخرى فى صنعاء ، أكانت لكم سيادة ؟ أكانت لكم مهابة أو ذكْر بين الناس ؟ إذن : كان عليكم أنْ تُعملوا عقولكم ، وأن تتأملوا هذه المهابة من أين ، وهذه الأرزاق التى تُسَاق إليكم من أين ؟ لقد كنتم تُحرِّمون على الناس أنْ يطوفوا بالبيت إلا وهم عرايا ليشتروا منكم الثياب .

واقرأوا قول الله : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣) تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ (٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ (٥) ﴾ [الفيل]

لماذا فعل الله هذا بأصحاب الفيل ؟ يجيب الحق سبحانه فى السورة بعدها : ﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ (١) إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (٢) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَـٰذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ (٤) ﴾ [قريش]

يعنى : ما فعلتُ هذا بأصحاب الفيل إلا من أجل قريش ، واستبقاء سيادتها ، وتوفير القوت والأمن لها ، لكنهم مع هذا كله استكبروا على منهجى وصادموا رسولى ، وعاندوه وكادوا له .

﴿ اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ (٤٣) ﴾ [فاطر] أى : برسول الله ، وبمَنْ آمن معه ليردُّوهم عن دينهم ، ولو علموا حيثية استكبارهم لهداهم هذا الاستكبار إلى الإيمان بمَنْ جعلهم كبراء .

ثم يقرر الحق سبحانه هذه الحقيقة : ﴿ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ (٤٣) ﴾ [فاطر] فقد مكروا برسول الله وكادوا له ، وتآمروا عليه ، وآذوا المؤمنين به وعذَّبوهم ، لكن جعل الله كيدهم فى نحورهم ، كما

قال سبحانه فى موضع آخر : ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ (٣٠)﴾ [الأنفال] أى : يسجنوك ﴿أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٣٠)﴾ [الأنفال]

لقد احتالوا للقضاء على دعوة الإسلام بكل ألوان الاحتيال ، فلم يُفلحوا ، حتى دبروا لقتله ﷺ ، فخيَّبَ الله سَعْيهم ، وخرج رسول الله من بينهم وهم نيام ، وهو يحثو التراب على رؤوسهم ، ثم لما يئسوا من القضاء عليه بالحيلة لجئوا إلى الجن ، واستعانوا بهم ليسحروا رسول الله ، لكن نجَّاه الله منهم ، ثم حاولوا دسَّ السُّم فى طعامه ﷺ .

وكأن الله تعالى يقول لهم : وفِّروا جهودكم ، فلن تُطفئوا نور الله، ولن تصدوا محمداً عن دعوته ، لا بالاستهزاء والسخرية ، ولا بالإيذاء والمكر والتبييت ، ولا حتى بالسحر .

ومعنى : ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ (٤٣)﴾ [فاطر] يعنى : ينزل بهم ويحيط بهم ، وينقلب عليهم .

ثم يقول سبحانه : ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ (٤٣)﴾ [فاطر] يعنى : فما ينظرون إلا سنت الأولين فى الرسل السابقين ، والسنة هى الطريقة والعادة المتبعة والموجودة ، فهل وجدوا فى الرسل السابقين وفى الأمم السابقة أن الله أرسل رسولاً ثم خذله ، أو تخلَّى عنه ، ولم يهلك أعداءه والمكذبين به ؟ إن نصرة الرسل سُنة متبعة ، كما قال سبحانه : ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣)﴾ [الصافات]

ثم يؤكد الحق سبحانه هذا المعنى فيقول : ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً (٤٣)﴾ [فاطر] لماذا لا تتبدَّل سنة الله ولا تتحوَّل ؟ لأن الله تعالى أولاً ليس عنده بِدَاء ، ومعنى البِدَاء أنْ تفعل شيئاً ثم يَعِنّ لك أنْ تفعل

أحسن منه ، وأيضاً لأنه سبحانه إله واحد ، لا ثانى له ، ولا شريك له ، فلا أحدَ يستدرك عليه ، أو يُغير فعله .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا (٤٤) ﴾

الاستفهام فى ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا .. (٤٤) ﴾ [فاطر] استفهام يفيد التعجُّب ، يعنى : كيف يكون منهم هذا ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ (٤٤) ﴾ [فاطر] أى من المكذِّبين الذين أخذهم الله ﴿ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً (٤٤) ﴾ [فاطر]

كما قال سبحانه فى موضع آخر : ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٣٨) ﴾ [الصافات]

نعم ، كانوا فى حركة حياتهم وفى أسفارهم يمرُّون على قُرى عَاد وثمود ، وقوم لوط وقوم صالح .. الخ وكانوا يرونَ آثارهم وما حَاق بهم من الدمار والخراب بعد أنْ كذَّبوا رسلهم ، وكانوا أصحاب حضارات وعمارة وقصور لا مثيل لها .

كما قال سبحانه : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (٨) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (١٠) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (١٤) ﴾ [الفجر]

والعجيب أن أصحاب هذه الحضارات التى جابت سمعتُها الآفاق لم يستطيعوا أن يضعوا لحضاراتهم ما يصونها من الاندثار .

ولنا ملحظ فى قوله سبحانه : ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ (٤٤)﴾ [فاطر]

فمنذ عهد قريب كنا نعتقد أن السير فى الأرض يعنى على الأرض ؛ لأننا نسير عليها لا فيها ، إلى أن اكتشفنا أن الأرض فيها الأقوات ، وسيد الأقوات الهواء ، بدليل أنك تصبر على الماء لعدة أيام ، وتصبر أكثر منها على الطعام ، لكنك لا تصبر على الهواء إلا بمقدار شهيق أو زفير ، لو حُبس عنك لفارقتَ الحياة .

وعرفنا أن هواء الأرض من الأرض ؛ لذلك يدور معها ويرتبط بها إذن : نحن بهذا المعنى لا نسير على الأرض ، إنما نسير فيها ، حتى الذى يحلق بالطائرة فى طبقات الجو العليا أيضاً يسير فى الأرض ؛ لأن الهواء من الأرض ، وهو أصل قوامها نفساً وقوتاً .

وليتأكد لك أن الهواء سيد الأقوات ، إجر هذه التجربة ، خذ إصيصاً أو برميلاً مثلاً وضَعْ فيه تربة زراعية بوزن معين ، وازرع فيه شجرة مثمرة كالموز مثلاً ، وبعد فترة زِنْ الثمار التى أخذتها من الشجرة وزِن ما نقص من التربة ، وسوف تجد أن التربة نقصتْ بمقدار خمسة بالمائة ، أما نسبة الخمسة والتسعين فمن الهواء .

فكأن الهواء هو المغذِّى الأساسى للنبات ؛ لذلك نقول : إنه الأصل فى القوت ، على خلاف ما كنا نعتقده من أن التربة هى الأصل فى القوت ، لذلك يشير القرآن إلى هذه المسألة ، فيقول

سبحانه : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا[1] التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم (٦٦) ﴾ [المائدة] فذكر الفوقية قبل التحتية .

الحق سبحانه وتعالى فى هذه الآية ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا.. (٤٤) ﴾ [فاطر] يريد من الكفار أنْ ينظروا إلى مواقع الحياة ، لا إلى كلامنا ، ولا إلى كلامهم ، بل واقع الحياة المشَاهَد ، فقال ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا (٤٤) ﴾ [فاطر] لأنهم ساروا بالفعل ؛ لذلك لا يأمرهم هنا بالسير ، بل يقرر واقعاً حدث بالفعل ؛ لأنهم كانوا أمة لها تجارة فى الصيف إلى الشمال ، وفى الشتاء إلى الجنوب .

وفى هذه الأسفار رأوا الكثير من آثار مَنْ سبقهم ، فهل رأوا فى السابقين رسولاً هُزِم من المكذبين به ؟ لقد هزم الله المكذبين والكافرين ، وكتب النصر للمؤمنين الصادقين ، وهؤلاء الذين أخذهم الله كانوا أشدَّ منهم قوةً ، لكنها قوة البشر مهما بلغتْ من التقدم ماذا تفعل أمام قوة الله ، فلا تنظر إلى قوة الرسول ، لكن انظر إلى قوة مَنْ أرسله ، ومَنْ تكفَّل بحفظه ونصرته .

إذن : هذه معركة ليست بين خَلْق وخَلْق ، إنما بين خَلْق معاندين للخالق سبحانه ، فهل تُعجِزون الله ؟ لذلك ينفى الحق سبحانه أنْ

---

(١) بعض الذين لم يفهموا القرآن أو الذين لا يريدون أن يفهموا يطعنون فى القرآن بأنه يتناقض مع نفسه ، فمن جهة يرمى أهل الكتاب من اليهود والنصارى بالكفر ، ومن جهة أخرى يطالبهم أن يقيموا التوراة والإنجيل ويطالبهم بالرجوع إليهما كما فى هذه الآية . إنهم يتجاهلون أن الذى أنزل القرآن هو الذى أنزل التوراة على موسى والإنجيل على عيسى ، والإسلام يعترف بالأديان قبله ، فهناك تواصل ، فلماذا يقفون عند حد التوراة والإنجيل ويتجاهلون أن الله أنزل كتاباً يصدق ما بين أيديهم من كتبهم وهو مهيمن عليها حاكم على ما فيها ، فلو أقاموا التوراة التى نزلت على موسى ، والإنجيل الذى نزل على عيسى لا ما اخترعوه هم وأضافوه لأدى بهم إلى الإيمان بما أنزل الله عليهم من القرآن . فإن كتبهم ناطقة بتصديقه والأمر باتباعه حتماً لا محالة .

يكونوا معجزين ، وينفى أن يكونوا معاجزين ، وفَرْق بين الاثنين : معجز إنْ أعجزه ولو مرة يعنى : أتى بما يعجزه ، إنما مُعاجز فيها مشاركة ومفاعلة ، كأن الإعجاز كان بينهما سِجَال ، وفيه أَخْذ ورَدٌّ .

فكأن الحق سبحانه يُملى لهم ويمهلهم ، فيجعل لهم الغَلَبة فى بعض الجَوْلات ليستنفد كل أنواع الحيل ، ويستنفد كل قُواهم ، إذن : مهما كانت قوتكم ، ومهما استعنتُم وتقوَّيتم بحضارات أخرى فلن تُعجزوا الله ؛ لأن الله تعالى لا يُعجزه شىء ، وليس له سبحانه شريك أو مقابل يساعدكم ، فهو إله واحد يساعد المؤمنين به وينصرهم ، وأنتم لا ناصرَ لكم ، والحق سبحانه أهلك المكذِّبين قبلكم ، وكانوا أشد منكم قوةً ، والذى يقدر على الأشدِّ أقدر من باب أَوْلَى على الأضعف .

والحق سبحانه وتعالى حين يريد أنْ يؤكد أمراً واقعياً من الممكن أنْ يأتى به فى صورة الخبر ، فيقول : لقد ساروا فى الأرض ، ورأوا كذا وكذا ، لكن عدل عن الخبر هنا إلى الاستفهام ، يعنى : اسألوهم أساروا أم لم يسيروا ؟

والحق سبحانه لا يسأل هذا السؤال إلا وهو واثق أنهم سيقولون سِرْنا ، وهذا يؤكد الكلام ؛ لأنه إقرار من المخاطب نفسه ، كما أن الاستفهام بالنفى أقوى فى تقرُّر المخاطب من الاستفهام بالإثبات .

ومسألة السير فى الأرض أخذتْ حظاً واسعاً من القرآن الكريم ؛ لأن الله تعالى يريد من الناس أنْ ينظروا إلى الآيات الكونية ، وأنْ يتأملوا فى الكون ليقفوا على أسراره ، وعلى دلائل القدرة فيه ؛ لذلك يأمرنا الحق سبحانه مرّة بقوله : ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا (٦٩)﴾[النمل] ومرة : ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا (١١)﴾ [الأنعام]

فما الفرق بين التعبيرين ؟

قالوا : السير فى الأرض يكون إما للنظر والاعتبار وإما للاستثمار ، فقوله تعالى : ﴿فَانظُرُوا ﴿٦٩﴾﴾ [النمل] للسير المراد منه الاعتبار والتأمل فى آيات الله ، وفى هندسة الكون العجيبة التى تدلُّنا على قدرة الخالق سبحانه .

أما قوله ﴿ثُمَّ انظُرُوا ﴿١١﴾﴾ [الأنعام] فهى للسير الذى يُرَاد منه العمل والاستثمار وطلب الرزق ، فحتى إنْ سِرْتَ فى أنحاء الأرض طلباً للرزق وللاستثمار لا تنْسَ ولا تغفل عن الاعتبار وعن التأمل ، ولا تحرم نفسك من النظر فى الآيات وفى مُلْك الله الواسع ، خاصة إذا اختلفتْ البيئات .

فالبيئة الصحراوية البدوية كبادية الحجاز مثلاً تسير فيها لا تكاد ترى فيها أثراً للون الأخضر ، وفى إندونيسيا مثلاً ذهبنا إلى أماكن تكسوها الخضرة ، بحيث لا ترى بقعة من الأرض خالية من النبات ، وفى كل من هاتين البيئتين خيراتها وما يُميِّزها عن الأخرى ؛ لذلك قالوا فى المثل : (اللى يعيش ياما يشوف ، واللى يمشى يشوف أكثر) .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾﴾ [فاطر]

سبق أنْ تكلَّمنا فى معنى يُعجزه ، الآية هنا لا تنفى أن شيئاً فى السموات أو فى الأرض يُعجِز الحق سبحانه ، إنما تنفى مجرد أنْ يكون هذا أو يُتصوَّر ، فهذا أمر لا يُتصور ولا يكون أصلاً .

وقوله : ﴿مِن شَيْءٍ ﴿٤٤﴾﴾ [فاطر] من هنا تنصُّ على العموم يعنى :

من بداية ما يقال له شيء كما تقول : ما عندى مال ، فيجوز أنْ يكون لديك مال ، لكن قليل لا يُعْتَدُّ به ، فإنْ قلتَ : ما عندى من مال فقد نفيتَ وجود كل ما يُقال له مال ، مهما كان قليلاً ولو قرشاً واحداً .

وقوله تعالى : ﴿إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾﴾ [فاطر] يُبيِّن علة أنه سبحانه لا يُعجزه شيء ، فالله تعالى عليم بعلم محيط لا يعزب عنه شيء ، فإن بيَّتوا شيئاً علمه الله وعلم مكانه ، ثم هو سبحانه قدير ، عالم بقدرة ، وهذان هما عُنْصرا الغَلَبة العلم والقدرة ، تعلم الشيء وتقدر أنْ تردَّه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾﴾

الحق سبحانه وتعالى رحيم يُوالى نعمه حتى على الكافرين به ، والعاصين لأوامره ، ولو أن الله تعالى آخذهم بظلمهم - وظلمهم كثير - ما ترك أحداً منهم ، فلماذا يعاملنا الله هذه المعاملة ؟ ولماذا يمهلنا هذا الإمهال ؟ قالوا : لأنه تعالى ربنا وخالقنا ، ويعلم أن الإنسان ضعيف أمام شهوات نفسه ، ضعيف أمام هواه وأمام شيطانه ؛ لذلك سبق حلْمُه غَضَبه ، وسبق عفوُه مؤاخذته ، وقال سبحانه ﴿وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الشورى]

وورد فى الأثر أن الحق سبحانه يخاطبنا بقوله تعالى : « .. لو

لم تذنبوا لخلقتُ خلقاً غيركم يذنبون ، فيستغفرون فأغفر لهم »[١] وإلاَّ فكيف يُوصَف الحق سبحانه بأنه توَّاب غفَّار ، فالحق سبحانه يريد أنْ يثبت لنفسه سبحانه كل صفات الكمال ، وأولها الوجود الواجب ، ثم الحياة ، وكل الصفات تابعة لهاتين الصفتين .

وهذه الصفات لله تعالى يمكن أنْ تقسم إلى قسمين : قسم له مقابل : وهى صفات الفعْل من الله تعالى ، مثل : المحيى يقابلها المميت ، والمعز يقابلها المذل ، وقسم ليس له مقابل وهى صفات الذات مثل : الحى العزيز القهار الحليم ، فهى صفات لا نقيضَ لها .

والحق سبحانه لا يُؤاخذ الناسَ بما كسبوا . أى : من التعدى والظلم ؛ لأن الله خلق الإنسان ، وخلق له شهوات وغرائزَ ، وكل أمور الدين جاءت لتُعلى هذه الشهوات ، وتسمو بهذه الغرائز ، لا لتمحوها ، جاءت لتهذبها لا لتقضى عليها ، وإلا لو أن الحق سبحانه أراد ألاَّ تحدث هذه التعديات وهذا الظلم ما جعل الغرائز أصلاً .

فمثلاً غريزة الجنس خلقها الله لعمارة الكون ، ويريد الله من الإنسان أنْ يُعلى من هذه الغريزة بحيث تكون فى الحلال وتحت مظلة الشرع ، وسبق أنْ بيَّنا الفرق فى هذه المسألة حين تتم فى النور وتحت مظلة شرع الله ، وعلى كلمات الله ، وكيف نفرح بها ونعلنها ونفخر بها ، أما لو تمت فى الخفاء بعيداً عَمَّا شرعَ اللهُ فنحاول كتمانها ، والتخلص من ثمرتها إنْ كان لها ثمرة ، وإنْ ظهرت للناس كانت وصمةَ عار لا تُمحَى .

لذلك جاء فى الحديث أن رجلاً من الصحابة كان شديد الغيرة

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٢/٣٠٩) وكذا مسلم فى صحيحه (٢٧٤٩) كتاب التوبة ولفظه : « والذى نفسى بيده ، لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ، ولجاء قوم يذنبون ، فيستغفرون الله ، فيغفر لهم » .

على بناته ، فلما تقدم رجل لخطبة واحدة منهن ذهب ليخبر رسول الله ، فتبسَّم رسول الله وقال له : « جدع الحلال أنف الغيرة »[١]

يعنى : الأمر الذى كنت تغار منه ولا تقبله ، الآن تفرح به وتدعو الناس إليه ، لماذا ؟ لأنه جاء من طريق الحلال الذى شرعه الله ، وكلمة الحق هى التى أبرزتْ العواطف ، وجعلتْ المهيِّج المثير مُسْعِداً لا غضاضة فيه .

كذلك غريزة حب الاستطلاع موجودة فى الإنسان ليتأمل الكون من حوله ، ويبحث عن أسرار الله فيه ، وما جعلها الله للتلصُّص على الناس ، وتتبُّع عوراتهم وأعراضهم . كذلك الأكل والشرب غريزة جعلها الله لأنها مُقوِّم من مُقوِّمات الحياة ، وينبغى أنْ تكون فى هذه الحدود حدود استبقاء الحياة ، لا أنْ تتحوَّل إلى نَهَم وشَراهة ، وتصل إلى حَدِّ التُّخمة .

والغريزة جعلها الله فى الإنسان لحكمة ، فالولد مثلاً يتحمل أبوه مشقة تربيته والإنفاق عليه ، ويظل الولد عالةً على أبيه طيلة خمس عشرة سنة ، ولولا أن الله تعالى ربط النسل بالعملية الجنسية ، وجعل فيها لذة الجماع لزَهدَ كثيرون فى الإنجاب ، كذلك الأم تتحمل مشقة الحمل والولادة والرضاعة .. إلخ ، حتى أنها لتُقسم فى الولادة أنها لا تحمل مرة أخرى ، لكن عندما يذهب ألم الوضع ، ويكبر الولد تشتاق إلى غيره .. وهكذا .

---

(١) ذكر أبو هلال العسكرى فى « الصناعتين » فصل الاستعارة والمجاز أنه ﷺ رأى علياً مع فاطمة فى بيت فردّ عليهما الباب . وقال : « جدع الحلال أنف الغيرة » . وذكر الميدانى فى « مجمع الأمثال » أن هذا كان ليلة زُفَّت فاطمة إلى على ، وقال : هذا حديث يُروى عن الحجاج ابن منهال يرفعه . وانظر أيضاً : أبو منصور الثعالبى فى « الإعجاز والإيجاز ـ فصل استعاراته ﷺ » ، وابن حمدون فى « التذكرة الحمدونية – ما جاء فى الحلوم والثبات » .

وحين تتأمل مسألة الغريزة تجد أن الخالق سبحانه جعل فى الإنسان الغريزة ونقيضها ، فتراه فى موقف رحيماً وفى موقف آخر غَضُوباً ، أو عزيزاً فى موقف ، ذليلاً فى موقف آخر ، وهاتان الغريزتان لا تجتمعان فى الإنسان فى وقت واحد ، فالظرف الإيمانى يحكم عليه مرة بأن يكون عزيزاً ، ومرة بأن يكون ذليلاً .

واقرأ إنْ شئتَ قوله تعالى : ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ (٥٤)﴾ [المائدة]

وقوله سبحانه : ﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ (٢٩)﴾ [الفتح]

إذن : الخالق عز وجل جعل فيك الغرائز المتناقضة ، لا يكبت شيئاً منها ، لكن لتُستعمل كل غريزة منها فى موقعها المناسب .

ومعنى : ﴿يُؤَاخِذُ (٤٥)﴾[فاطر] يعنى : يعاقب ويجازى ﴿بِمَا كَسَبُوا (٤٥)﴾ [فاطر] نقول : كسب واكتسب ، كلمة كسب تدل على وجود تجارة فيها ربح ومكسب زيادة على رأس المال ، وهى تدل على المكسب الذى يأتى طبيعياً ، أما اكتسب ففيها مفاعلة ، وهى على وزن افتعل ، ففيها افتعال وتكلُّف .

لذلك يستعمل القرآن كسب فى الخير واكتسب فى الشر ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ (٢٨٦)﴾[البقرة] لأن فعل الخير يأتى منك طبيعياً ، لا تكلفَ فيه ولا افتعال على خلاف الشر ، فيحتاج إلى محاولات وإلى حِيَل واحتياط وتلصُّص .. الخ .

لذلك قلنا : إن الطاعة لا تُكلِّف الإنسان شيئاً ، أما المعصية فهى التى تكلف الكثير ؛ لأن الطاعة تأتى منك طبيعية ، أما المعصية

فتحتاج إلى حِيَل واحتياط وافتعال .

فإن قُلْتَ : فما بَالُ قوله تعالى فى السيئة ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُوْلَـٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ (٨١)﴾ [البقرة]

نقول: استعمل القرآن كسب مع السيئة ؛ لأنه يتحدث عن الذين أسرفوا على أنفسهم ، وبالغوا فى المعصية حتى أحبوها وعشقوها ، بل ويتحدثون بها ويجاهرون ، وحتى أن المعصية تأتى منهم طبيعية ، كأنها طاعة ، ويفعلونها بلا افتعال ولا احتياط ، فهى فى حَقِّهم كسبٌ لا اكتساب ، ويفرحون بها كأنها مكسب فلا يُؤنِّبون أنفسهم ، ولا يلومونها ، ولا يندمون على معصيتهم .

والآية هنا بنفس هذا المعنى ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا..(٤٥)﴾[فاطر] يعنى : عشقوا المعصية والظلم وفرحوا به كأنه مكسب . ثم يأتى جواب الشرط : ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ .. (٤٥)﴾[فاطر] معنى الدابة : كل ما يدبّ على الأرض . أى : يمشى عليها الهُوَيْنَا ، لكن غلبتْ الكلمة على ما يُركب ويحمل الأثقال .

لذلك قال العربى لآخر : لقد أَعْيَيْتنى شبَّ ودبَّ يعنى فى شبابك ، وفى شيخوختك ، وأنت تدبّ وتمشى الهُوَيْنا .

لكن ، ما ذنب الدوابِّ تتحمل عاقبة ظلم الإنسان ؟ قالوا : العلاقة هنا أن الدابة مخلوقة مُذلَّلة لخدمة الإنسان وراحته ، فمعنى هلاك الدواب أنْ تمتنع راحة الإنسان ، وأنْ يمتنع المطر وتجدب الأرض ، وعندها لا يجد الإنسان قُوته ، لا من لحوم الدواب ولا من نبات الأرض ، وفى هذا إذلال للإنسان الذى يرى وسائل حياته وأسباب راحته تُسلَب منه دون أنْ يفعل شيئاً ، ولا يقدر على شىء .

وحين نتتبع آيات القرآن نجد أنه تكلَّم عن هذا المعنى فى موضعين :

الأول: فى سورة النحل : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَـٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ (٦١) ﴾ [النحل]

والآخر هنا فى فاطر : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَـٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا (٤٥) ﴾ [فاطر]

قد يرى البعض فى الآيتين تكراراً ، وحاشا لله أن يكون فى كلامه تكرار، فإذا تأملتَ لوجدتَ بينهما خلافاً ، يجعل لكل منهما معناها الخاص . فالأولى تتكلم عن ظلم الناس ، والأخرى عمَّا اكتسبوه من السيئات عامة ، وكل من اللفظين يعطيك لقطة جديدة لأننى قد أظلم ، لكن أندم على ظلمى ، ولا أفرح به ، ولا أتمادى فيه ، أما إنْ صار عادةً لى حتى عشقته ، فهو اكتساب وافتعال بالمعنى الذى ذكرنا .

الأولى تقول : ﴿ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا (٤٥) ﴾ [فاطر] والأخرى : ﴿ مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا (٦١) ﴾ [النحل] كذلك فى تذييل الآيتين ، ففى الأولى يتحدث الحق سبحانه عن الزمن والأجل الذى لا يتقدم ولا يتأخر ، وفى الأخرى يتحدث عن الجزاء ، وأن الله تعالى بصير بأعمال عباده ، لا يخفى عليه منهم شىء ، إذن : فالآيتان متكاملتان ، ليس فيهما تكرار أبداً .

وضمير الغائب فى ﴿ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا (٤٥) ﴾ [فاطر] و﴿ مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا (٦١) ﴾ [النحل] هذا الضمير متصل بالآية قبلها : ﴿ .. وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَـٰوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ (٤٤) ﴾ [فاطر] فالضمير يعود

على أقرب مـذكور ، وهو الأرض ، ويفهم هذا المرجع أيضـاً بالقرينة العقلية ؛ لأن المعنى ينصرف إليها .

وهذه الآية لها مـعنا قصة ونحن صـغار فى كُتَّاب الشـيخ حسن رحمه الله ، وكان الشيخ يكلف العريف أنْ يُصحِّح لنا الألواح ، وفى هذا اليوم جلس الشيخ حسن يصـحح لنا بنفسه ، لكن فى هذا اليوم لم أكُنْ صحـحت اللوح (وطلعت خالص) وانتظرت الفلَكة والمقـرعة (تشتـغل) ، لكن الشيخ قال لى : اسـمع أنا سأعلمك كـيف تقرأ هذه الآية دون أنْ تخلطـهـا بآية النحل ، لا تـجـمع الظائين ولا السـينين يعنى : إن قلت (بِظُلمـهمْ) فلا تقل (عَلَى ظَهْـرِهَا) وإنْ قلتَ (بِمَا كَسَبُوا) فـلا تقل (لاَ يَسْتأخرون سَاعةً) وهكذا كان شـيخنا رحمه الله يعايـش القرآن ويتفـاعل معه ، وصـدق الله العظيم ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (٢٢)﴾ [القمر]

وكان لى مـعه أيضاً ـ رحمـة الله عليه ـ قصة أخـرى ، ما زلت أذكـرها فى سورة الشـورى ، وجلس الشـيخ يُصـحِّح لنا اللوح وكنا هربنا ولم نصحح ، فلما جلستُ أمام الشيخ قرأت (حم عسق) وقد مرت بنا حم وطه وغيرهما لكن لم يمر بنا مثل (عسق) فقرأتها كما هى عَسَقْ ، فضربنى الشيخ فقرأتُ أيضاً عَسَقْ فضربنى ، وفي المرة الثـالثة عـرف أننى لم أصحح اللـوح على العريف ، فـقال : قُلْ عـين سـين قاف ، فظـلت ملازمـة لى لا أنسـاها حـتى الآن ، رحمـهم الله ورَضى عنهم أجمعين .

والمـراد بالأجل فى ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ (٤٥)﴾[فـاطر] أى : القـيامـة والعذاب ، أو جـاء أجل إفنائهم بعذاب يستأصلهم ، وعـرفنا أن عذاب الاستئـصال مثل الصـيحة والرجفـة والخسف .. الخ لا ينزل إلا على

يأس من هداية القوم ، بحيث لم يَعُدْ هناك أمل فى هدايتهم ، كما جاء فى قصة سيدنا نوح - عليه السلام - لما قال : ﴿رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (٢٦) إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا (٢٧)﴾ [نوح]

لكن إنْ كان هناك أمل فى أنْ يؤمن بعض القوم فلا ينزل بهم مثل هذا العذاب .

أو : يراد بالأجل هنا أجل الأمة ، كما قال سبحانه : ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ (٤٩)﴾ [يونس] فكأن الآجال ثلاثة : أجل للدنيا ونهايته قيام الساعة ، وأجل للشخص الواحد بانتهاء عمره ، وأجل للأمة كلها حين يأتيها عذاب عام يقضى عليهم جميعاً مرة واحدة .

أو : لكل أمة أجل تنتصر فيه ، وتغلب مع وجود المعاندين والكافرين ، كما حدث لسيدنا رسول الله ﷺ لمَّا انتصر المسلمون فى بدر ، فقد كان لأمة الظلم والكفر أجل انتهى بالإسلام وقوة المسلمين ، مع أن الأمل كان بصيصاً من نور ، بحيث يغلب اليأسُ على الأمل .

حتى أن سيدنا عمر - رضى الله عنه - يقول لما نزلت : ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥)﴾ [القمر] قال عمر : أىُّ جمع هذا ونحن عاجزون عن حماية أنفسنا ؟

فلما جاءت بدر وانتصر المسلمون ، قال : صدق الله[1] ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥)﴾ [القمر] فقد اشتدتْ شوكة الإسلام ، وقَوى

---

(١) أورده ابن كثير في تفسيره وعزاه لابن أبى حاتم (٤/٢٦٦) عن عكرمة قال : « لما نزلت : ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥)﴾ [القمر] قال عمر : أىّ جمع يُهزم ؟ أى : أى جمع يُغلب ؟ قال عمر : فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله يثب فى الدرع وهو يقول : « سيهزم الجمع ويولون الدبر ، فعرفت تأويلها يومئذ » .

المسلمون ، وأذنت دولة الكفر بالزوال ، انتهى أجل الأمة الكافرة الظالمة ، وبدأ أجل الأمة المؤمنة .

لذلك حين نتأمل قوله تعالى : ﴿وَمَا يَسْتَوِى الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ (١٩) وَلا الظُّلُمَاتُ وَلا النُّورُ (٢٠) وَلا الظِّلُّ وَلا الْحَرُورُ (٢١) وَمَا يَسْتَوِى الأَحْيَاءُ وَلا الأَمْوَاتُ..(٢٢)﴾ [فاطر]

نجد أربعة متقابلات ، الأولان منها مطابقان لحاله ﷺ مع أمته قبل انتشار الإسلام فى فترة غلبة الجاهلية على سيدنا رسول الله وأتباعه فى مكة ، فالأعمى أى : الجاهل بالحكم ، والبصير العالم به ، والظلمات يعنى : الضلال والكفر ، والنور هو الإيمان ، لأنهم كانوا عمياً ، فأراد الله أنْ يُبصِّرهم ، وكانوا فى ظلمات الجهل والضلال فأخرجهم الله منها إلى نور الإيمان .

أما المتقابلان الأخيران فيطابقان حاله ﷺ مع أمته بعد أن أرسى الإسلامُ دعائمه ، وتمكّن من نفوس المؤمنين ﴿وَلا الظِّلُّ وَلا الْحَرُورُ (٢١) وَمَا يَسْتَوِى الأَحْيَاءُ وَلا الأَمْوَاتُ (٢٢)﴾ [فاطر] فتراه بدأ بصفة الإيجاب فلم يقل الحرور ولا الظل كما قال ﴿الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ (١٩)﴾ [فاطر] لماذا ؟ لأن الحديث هنا عن أمة النصر وأمة الإيمان ، فناسب أنْ يبدأ التقابل بصفة الخير التى تناسب هذه الأمة الجديدة .

وفى هذا المعنى إشارة لطيفة إلى انتهاء أجل الجاهلية وظلماتها وعماها ، وإيذان ببداية أجل جديد ، لأمة الإيمان الوليدة التى تستظل بواحة الإيمان بعد أنْ أحياهم الله بالإيمان وكانوا أمواتاً بالكفر ، كما قال سبحانه فى آية أخرى : ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِى بِهِ فِى النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِى الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا.. (١٢٢)﴾ [الأنعام]

وسبق أنْ بيَّنا الفرق بين مَيْت ومَيِّت ، الميِّت بالتشديد هو مَنْ يؤول أمره إلى الموت وإنْ كان حياً ، ومن ذلك خطاب الحق سبحانه لرسوله ﷺ : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ (٣٠) ﴾[الزمر] يعنى : سيؤول أمرك إلى الموت . أما ميْت بالسكون فهو الذى مات بالفعل .

إذن : نستطيع أن نقول ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ (٤٥) ﴾[فاطر] أى : بنُصْرة الإيمان على الكفر ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا (٤٥) ﴾[فاطر] كلمة عباد وعبيد جمع لعبد ، ومع أنهما جَمْع لمفرد واحد إلا أن معناهما مختلف ؛ لأن الإنسان العبد ملْك سيده ، وما دام ملْكه فهو مطيع لأوامره ، والإنسان المؤمن له اختيار ، فالله تعالى يخاطبه وهو يطيع أو يعصى ، فى حين أن العبد لا يعصى سيده إنْ كان من البشر .

نعم قد يخالف أمر الله ، لكنه لا يخالف أمر سيده ، كيف ؟ قالوا : لأن الله تعالى هو الحليم الغفار ، أما السيد من البشر فلا يخلو من جبروت ، أو طغيان ، أو استبداد وتسلُّط .

وفَرْق بين طاعة العبد وهو مختار أنْ يعصى وطاعته وهو مقهور على الطاعة ، وسبق أنْ مثَّلْنا لهذه المسألة بعبدين سعيد وسعد ، سعيد شُدَّ إلى سيده بسلسلة لا يستطيع الفكاك منها ، وسعد أُطلق حُراً لا يقيده شىء ، وحين ينادى السيد على أحدهما يأتيه ، فأيهما أطوع ؟ لا شك أن سعداً أطوع من سعيد ؛ لأنه يأتى سيده وهو قادر مختار ألاَّ يأتى ، أما سعيد فلا يملك إلا أنْ يجيب ؛ لأنه لو عصى لجذبه السيد من السلسلة .

كذلك الحق سبحانه خلق الخَلْق مختارين ، ووضع لهم هذه القاعدة : ﴿ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ (٢٩) ﴾[الكهف] مَنْ شاء أطاع ، ومَنْ شاء عصى ، وهذا تصرُّف العبيد مع سيدهم ، فإنْ قال العبد :

يا ربِّ أنت خلقتنى ورزقتنى وجعلتَ لى الجوارح ، وجعلتنى مختاراً ، وأنا عبد من عبيدك ؛ لذلك أتنازل عن اختيارى لاختيارك ، وعن مرادى لمرادك ، لقد اختار هذا العبد أنْ يكون مقهوراً لربه مسخراً كما سُخِّرت السماء والأرض .

وهؤلاء هم العباد ، وهم الصفوة من الخَلْق الذين آثروا مراد الله على مراد أنفسهم ؛ لذلك يتحدث عنهم الحق سبحانه ويعطينا صورة لهم : ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَـٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا (٦٣) ﴾ [الفرقان] يعنى : متواضعين غير متكبرين ، وعلامَ التكبر ﴿ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً (٣٧) ﴾ [الإسراء]

﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا (٦٣) وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (٦٤) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا [1] (٦٥) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٦٦) وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا (٦٧) وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَـٰهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) ﴾ [الفرقان]

هذه صفات ثمان ترسم لنا صورة كاملة لمن استحقوا أن يكونوا عباد الله ؛ لذلك يخاطبهم ربهم فى موضع آخر : ﴿ قُلْ يَـٰعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣) ﴾ [الزمر]

ومن رحمة الله بعباده أن الحسنة تمحو السيئة ، كما قال

---

(١) الغرام : العذاب الدائم والهلاك الملازم . [القاموس القويم للقرآن الكريم ٢/٥٢] وقال الزجاج : هو أشد العذاب . وأيضاً هو ما لا يُستطاع أن يُتفصَّى منه . [لسان العرب – مادة : غرم] .

سبحانه: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا[1] مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ (١١٤)﴾ [هود]

بل وأعظم من ذلك ، ألاّ تقتصر رحمة الله على محو السيئة ، إنما تُبدَّل السيئة بعد التوبة حسنة : ﴿إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَـئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٧٠)﴾ [الفرقان]

وحول معنى (عباد) و (عبيد) الذى أوضحناه سمعنا مَنْ يعترض ويقول : فى القرآن ما يناقض هذا المعنى ، وهو قوله تعالى فى موقف القيامة يخاطب الكبراء والسادة الذين أضلُّوا الناس وزيَّنوا لهم الكفر : ﴿أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَـؤُلاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ (١٧)﴾ [الفرقان]

ونقول : ليس بين الآيات تعارض كما تقولون ؛ لأن الحديث هنا عن الآخرة ، وليس فى الآخرة اختيار ، فلا فَرْق بين (عباد) و (عبيد) فى الآخرة .

وقوله تعالى : ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا (٤٥)﴾[فاطر] ذكر هنا صفة البصر ؛ لأنها أقوى وسائل العلم والإدراك ، فللعلم وسائل متعددة ذكرها الحق سبحانه فى قوله : ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨)﴾ [النحل]

فالسمع أول وسائل الإدراك ، وهو أول جارحة تتنبه وتؤدى مهمتها فى المولود ، بدليل أنك تضع مثلاً أصبعك أمام عينه ، فلا تطرف ، أما إنْ صرختَ فى أذنه ينزعج ويستجيب للصوت ، والسمع كذلك هو الحاسة التى لا تتعطل أثناء النوم ؛ لأن بها يتم الاستدعاء ،

---

(١) الزلفة : الطائفة من الليل وجمعها زُلَفٌ . قال تعالى : ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ (١١٤)﴾ [هود] أى : أوقاتاً وساعات من الليل . قيل : فى أوله . وقيل : فى أى وقت فيه . [القاموس القويم ١/٢٨٨] .

والسمع هو الوسيلة الأولى فى القيم والمعنويات ، وبه يستقبل الإنسان منهج الله .

أما البصر وإنْ جاء فى المرتبة الثانية إلا أنه أكبر من السمع وأقوى ؛ لأنك قد تسمع عن الشىء ، لكن لا تلتفت إليه ، فإنْ تحوّل من السمع إلى البصر فقد وصل إلى قمة الإدراك الذى لا شكَّ فيه ؛ لذلك يقولون : ليس مع العين أين . والشىء الذى تسمع عنه قد يكون كاذباً ، أمَّا الشىء الذى تبصره فإنه لا يكون إلا حقاً .

لذلك ، فالحق - سبحانه وتعالى - حين يريد أن يؤكد لنا معلومة ، يقول سبحانه : ﴿أَلَمْ تَرَ ﴿٢١﴾﴾[الزمر] لأن الذى تراه العين هو الآكد . وأبو جعفر لما قال لمقاتل : عظنى يا مقاتل ، قال له : أعظك بما سمعتُ ، أم بما رأيتُ ؟ بالله أجيبوا أنتم بماذا ؟ قال : عظْنى بما رأيتَ ، نعم لأنك قد تسمع كذباً ، أمَّا إنْ رأيتَ بالعين فهو الحَق .

سُورَةُ يسٓ

سورة يس[١]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ يسٓ ۝١ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ۝٢ ﴾

(يس) يصح أنْ تكون حروفاً مُقطَّعة مثل (الم) و (طه) ، ويصح أنْ تكون حروفاً مُقطّعة صادفتْ اسماً ؛ لذلك من أسمائه ﷺ : يس وطه ، ولا مانع أن يكون الاسم على حرفين ، بل على حرف واحد مثل (ن) فى قوله تعالى :﴿ نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ ﴾ [القلم] وقد جُعِل علَماً على سيدنا ذى النون[٢] عليه السلام ، كذلك ؛ (ق) أصبح

---

(١) سورة يس هى السورة رقم (٣٦) فى ترتيب المصحف الشريف ، عدد آياتها ٨٣ آية ، نزلت بعد سورة الجن ، وقبل سورة الفرقان ، فهى السورة رقم ٤٠ فى ترتيب النزول ، وقد حكى القرطبى فى تفسيره (٥٦٣٥/٨) الإجماع على أنها سورة مكية ، ولكنه قال : « إلا أن فرقة قالت : إن قوله تعالى ﴿ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ ۝١٢ ﴾ [يس] نزلت فى بنى سلمة من الأنصار حين أرادوا أن يتركوا ديارهم وينتقلوا إلى جوار مسجد الرسول ﷺ » وقد أورد ابن كثير فى تفسيره (٥٦٦/٣) هذه الرواية عن أبى سعيد الخدرى ولكنه قال : « فيه غرابة من حيث ذكر نزول هذه الآية ، والسورة بكمالها مكية ، فالله أعلم » .

(٢) النون : الحوت وذو النون لقب يونس بن متّى عليه السلام ، سماه الله ذا النون لأنه حبسه فى جوف الحوت الذى التقمه . [لسان العرب – مادة : نون]. أما (ن) التى فى سورة القلم فقد ورد فيها أقوال منها : أنه الحوت . ومنها أنه الدواة . انظر حكاية هذه الأقوال فى تفسير ابن كثير (٤٠٠/٤ ، ٤٠١) ، ولكن قال الأزهرى : (ن والقلم) لا يجوز فيه غير الهجاء ، ألا ترى أن كُتَّاب المصحف كتبوه ن ؟ ولو أُريد به الدواة أو الحوت لكتب نون . [لسان العرب – مادة : نون]

علَماً على الجبل المعروف . إذن : هذه حروف مُقطَّعة ، يمكن أنْ تُنقل إلى العلَمية ، ويُسمَّى بها[١] .

وكثيراً ما تحدَّثنا عن الحروف المقطَّعة فى أوائل السور ، وكلما مَرَّ بنا حروف مُقطَّعة لا بُدَّ أنْ نتحدث عَمَّا تحتمله من المعانى ، والذى يثبت فى الذِّهْن أن الحرف له اسم ومُسمَّى ، اسم الحرف لا يعرفه إلا المتعلم ، أما مُسمَّى الحرف فيعرفه المتعلم ويعرفه الأمى ، الأمى مثلاً يعرف الفعل (أكل) ويقول : أكلتُ ، لكن لا يستطيع أنْ يتهجَّى حروفه ؛ لأنه لا يعرف إلا مُسمَّى الحروف ، أما المتعلم فيعرف اسم الحرف فيقول : ألف فتحة ، وكاف فتحة ، ولام فتحة . فكيف إذن عرف محمد ﷺ أسماء هذه الحروف ونطق بها ، وهو الأمى الذى لا يعرف القراءة ولا الكتابة ؟ الجواب : أنه عُلِّم وعُرِّف من ربه عز وجل .

والقرآن جاء معجزة يتحدَّى القوم فيما نبغوا فيه ، والعرب كانوا أهلَ فصاحة وبيان ، ويكفى أنهم كانوا يقيمون المعارض والأسواق للكلمة ، كما نقيم نحن الآن المعارض للصناعات المتميزة ، ومعروف عند العرب سوق عكاظ وسوق المربد والمجنة .. الخ .

وقد بلغ من اهتمامهم بالكلمة والأسلوب أنْ يُعلقوا القصائد

---

(١) ورد فى تأويل قوله تعالى : ﴿ يسٓ ۝١ ﴾ [يس] عدة أقوال :
- هو اسم من أسماء محمد ﷺ . قاله سعيد بن جبير . ودليله ﴿ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝٣ ﴾ [يس] بعدها .
- معناه : يا سيد البشر . قاله أبو بكر الوراق .
- معناه : يا إنسان . أراد محمداً ﷺ . قاله ابن عباس .
وهناك قول آخر ذكره القرطبى فى تفسيره (٥٦٣٨/٨) بالإضافة إلى ما سبق ونقله عن الإمام مالك أن يس اسم من أسماء الله ، حتى أنه كان يكره التسمى باسم يس . قال ابن العربى : الذى يجوز التسمى به هو (ياسين) بهذا التهجى . والله أعلم .

الشهيرة عندهم على الكعبة ، وسُمِّيت هذه القصائد « المعلَّقات » ، وهى أشهر ما عُرِف من الشعر الجاهلى .

وكَوْن القرآن يتحداهم هذه شهادة لهم بالتفوق ، فالضعيف لا يُتحدى بل القوى ، كما نرى الآن مثلاً فى تحطيم الرقم القياسى فى مجال من المجالات .

وتحدِّى القرآن للعرب فى الفصاحة والبلاغة مثل تحدِّى سيدنا موسى للسحرة ، وتحدِّى سيدنا عيسى للأطباء ، إذن : هذه سنة متبعة فى جميع الأمم يتحداها الحق سبحانه بما نبغوا فيه . كذلك القرآن الكريم جاء بلغة العرب وحروفهم وكلماتهم التى ينطقون بها ، ومع ذلك عجزوا عن الإتيان بمثله ، لماذا مع أن مادة الكلام واحدة ؟

قالوا : لأن المتكلم بالقرآن هو الحق سبحانه .

وقد أوضحنا هذه المسألة بمَثَل - ولله المثل الأعلى - قُلْنا : لو أردتَ اختبار مجموعة من عمال النسيج أيُّهم أمهر لا يصح أنْ تعطى أحدهم مثلاً حريراً ، وآخر قطناً ، وآخر صوفاً ؛ لأن المادة الخام مختلفة ، إنما تعطى الجميع مادة واحدة ، ثم تنظر فى نسيج كل منهم ، كذلك القرآن ولغة العرب ، المادة واحدة لكن المتكلم هنا العرب ، والمتكلم هنا الحق سبحانه .

وحين تتأمل حروف العربية تجدها ثمانية وعشرين حرفاً ، والحروف المقطَّعة فى القرآن أربعة عشر ، فهى إذن نصف الحروف العربية . وللفخر الرازى[1] - رحمه الله - جدول مدهش ينظم هذه

---

(١) هو : محمد بن عمر أبو عبد الله فخر الدين الرازى ، قرشى النسب ، أصله من طبرستان ومولده فى الرىّ (٥٤٤ هـ) (طهران الآن) وإليها نسبته ، إمام مفسر ، أوحد زمانه فى المعقول والمنقول وعلوم الأوائل ، يقال له « ابن خطيب الرىّ » أقبل الناس على كتبه فى حياته يتدارسونها ، كان يحسن الفارسية . من تصانيفه « مفاتيح الغيب » « محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين » توفى عام ٦٠٦ هـ عن ٦٢ عاماً . [الأعلام للزركلى ٦/٣١٣]

الحروف ، ويوضح أنها وُضعت هكذا لحكمة ، ووُضِعَتْ بقدر وحساب ، هذه الحروف الأربعةَ عشر تقسم كما يلى :

مجموع حروف اللغة ثمانية وعشرون حرفاً ، التسعة الأوائل بداية من الألف إلى الذال لم تأخذ الحروف المقطعة منها إلا حرفين : الألف والحاء ، وتركت منها سبعة أحرف أما التسعة أحرف الأخيرة ، وتبدأ من الفاء فقد أخذتْ منها الحروف المقطعة سبعة أحرف هى : القاف والكاف واللام والميم والنون والهاء والياء وتركتْ منها الفاء والواو ، فهى إذن على عكس التسعة الأُول .

أما الحروف العشرة فى الوسط ، والتى تبدأ من الراء وتنتهى بالغين ، فلها نَسَق آخر ، حيث أخذت الحروفُ المقطعة منها الأحرف غير المنقوطة ، وهى الراء والسين والصاد والطاء والعين ، وتركت منها الزاى والشين والضاد والظاء والغين .

كذلك حين نتأمل مثلاً حروف الحَلْق تجد الخاء فى المجموعة الأولى لم تُذكر فى الحروف المقطعة ، وذُكِرت الميم فى المجموعة الأخيرة .

وهكذا نرى أن هذه الحروف لم تُوضع هكذا اعتباطاً أو كما اتفق، إنما وُضِعت بقدر ونظام له حكمة ووراءه أسرار ، وُضِعت بهندسة مقصودةَ الذات فهى مثل سنان المفتاح ، والله سبحانه وتعالى يفتح بها لمَنْ يشاء ، ومن حكمته تعالى أنه لم يُعْط كل أسرار هذه الحروف لجيل من الأجيال ، إنما وزَّع عطاءها على مَرِّ الأزمان بحيث لا يستقبل جيل من الأجيال كلامَ الله بلا عطاء ، وليظل القرآن نوراً يضىء جنبات الدنيا إلى قيام الساعة ؛ لذلك يقول سبحانه : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ (٥٣) ﴾ [فصلت]

هذه السين الدالة على الاستقبال نطق بها سيدنا رسول الله ﷺ وقال ﴿سَنُرِيهِمْ ﴿٥٣﴾﴾ [فصلت] وظهرت فى عهده أسرار ، ونطق بها مَنْ بعده من الأجيال المتعاقبة ، وظهرت لها أسرار ، وسنظل ننطق بها وتتجلَّى لنا أسرارها إلى قيام الساعة ، وإلى أنْ تظهر الآية الكبرى وهى القيامة . إذن : فعطاء القرآن عطاء مستمر لا ينقطع أبداً .

لذلك لما تناقشنا مع بعض المستشرقين فى سان فرانسيسكو حول موضوع المخترعين والمكتشفين الذين خدموا البشرية وأسعدوها باختراعاتهم واكتشافاتهم . قال أحدهم : عجباً للمسلمين ! لماذا لا يدخل هؤلاء المكتشفون الذين أسعدوا البشرية الجنة ؟ فأوضحنا له أنهم نعم خدموا البشرية ، لكن لم يكُنِ الله فى بالهم حين اكتشفوا ما اكتشفوا ، بل كان فى بالهم الشهرة والمجد والذِّكْر بين الناس ، وقد نالوا ما يريدون فخلّدنا ذكْراهم وأقمنا لهم التماثيل .. الخ فينطبق عليهم الحديث : « عملتَ ليُقال وقد قيل »[(١)]

إذن : هؤلاء العلماء الذين خدموا البشرية وأسعدوها وهم غير مؤمنين بالله ما هم إلا خَدَم سخرَّهم الله لخدمة البشر ، فهم كالشمس والقمر وغيرهما ، سخرهما الله للإنسان لفائدته ولمنفعته ، ما هم إلا جنود من جنود الله يخدمون هذا الحرف فى ﴿سَنُرِيهِمْ ﴿٥٣﴾﴾ [فصلت] ليظل يعطى على مَرِّ الأزمان ، وفى كل المستقبل .

هؤلاء العلماء غير المؤمنين بالله مَثَلهم كمثَل خادم عندك قُلْتَ له : احمل هذا الحجر مثلاً ، فقال لك إنه ثقيل علىَّ لا أقوى على حَمْله ، فإنْ قلت له : استعِنْ بمَنْ يحمله معك ربما قال لك لا أجد ، لكن إنْ

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٩٠٥) ، وأحمد فى مسنده (٣٢٢/٢) ، والنسائى فى سننه (٢٣/٦ ، ٢٤) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

قُلْتَ له احمله وسوف تجد تحته كنزاً هو لك فإنه سيحمله وحده ، فى هذه الحالة : أَحَمله احتراماً لأمرك ؟ أم حمله طمعاً فى الكنز ؟

كذلك لما تقدمتْ العلوم اكتشفوا أن الخمر تضر بالكبد ، فأقلع كثيرون عن شربها مخافة ضررها ، وبعد أنْ عرف العلة ، أمَّا المؤمن فيقلع عنها قبل أنْ يعرف هذه الحقيقة ، يقلع عنها لأن ربه عز وجل نهاه عن شربها فينتهى ثقةً منه فى حكمة ربه ، واحتراماً لأمره ، ولو لم يعرف العلة .

ولأن سورة يس ، ثبت فى الحديث أنها قلب القرآن[1] فيجب أن نستهل الاستعاذة والتسمية قبلها ، كما استهللناها فى السُّوَر قبلها ، فالحق سبحانه الذى أنزل القرآن معجزة وكتاب هداية على سيدنا رسول الله ليصحح للمؤمنين به حركة حياتهم قال : ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٩٨) ﴾ [النحل]

وقلنا سابقاً : إن علة هذا الأمر من الأعلى أن الشيطان حينما عصى ربه فى السجود لآدم ، وحدث الحوار بينه وبين ربه قال : ﴿ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) ﴾[ص] يعنى : حتى لا يتميز آدم وبنوه عنِّى فى المعصية ﴿ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣) ﴾ [ص] فقوله : ﴿ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) ﴾[ص] أى : فى أنْ يسلكوا طريقاً غير الطريق الذى رسمه الله لهم ، والطريق الذى رسمه الله لهم هو الصراط المستقيم الذى قال فيه : ﴿ لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ﴾ [الأعراف]

نعم ، لأن الشيطان لا يأتى الخمارة ولا أماكن القمار والمعصية ، إنما يتعرض لأهل الطاعات ليفسد عليهم طاعتهم ، والصراط المستقيم

---

(١) عن معقل بن يسار أن رسول الله ﷺ قال : « يس قلب القرآن ، لا يقرؤها رجل يريد الله تبارك وتعالى والدار الآخرة إلا غفر له ، واقرؤوها على موتاكم » أخرجه أحمد فى مسنده [٥/٢٦]

هنا هو منهج الله الذى وضعه لإسعاد البشرية ، فإبليس بدل أنْ ينتظر إلى أنْ تنفذ منهج الله فى حركة الجوارح طاعة ومعصية يأتى للأساس الذى تأخذ عنه تلك الجوارح منهج الحركة ، فإذا قرأتَ القرآن جاء ليفسد عليك القراءة .

لذلك يُعلِّمك ربك - عز وجل - الاستعاذة ، أولاً لتقطع على الشيطان هذا السبيل ؛ لأنه لن ينتظرك حتى تقرأ ، وحتى تأتى بثمرة هذه القراءة فى حركة الحياة ، بل يأتى إلى القرآن نفسه فيفسده عليك من البداية ، فإنْ أردتَ أن تنتصر عليه فاستعذ بالله منه .

وحين تستعيذ منه بالله فإنك تلجأ إلى ركن قوى ودرع وَاقٍ لا ينفذ إليك منه شىء من وسوسة الشيطان وهَمْزه وغَمْزه ؛ لذلك كان الشيطان واعياً حين قال : ﴿إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣)﴾ [ص] فهم الذين يحتمون منه فى حِمَى ربهم وخالقهم .

أما قوله تعالى (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) فالحق سبحانه خلق الإنسان ، وجعله سيد هذا الكون ، وسخَّر له كل شىء ، ومما سخَّر له سخر أبعاضه لإرادته ، فسخَّر مثلاً لسانه لإرادته ، فإنْ كان مؤمناً قال : الله واحد . وإنْ كان غير ذلك قال : الله ثالث ثلاثة ، كذلك سخَّر له العين تنظر إلى ما أحلَّ وإلى ما حرَّم كذلك الرِّجْل ، فكل جوارحك سخَّرها الله لك إنْ أردتَ منها طاعة أطاعتْ ، وإنْ أردتَ منها معصية عصتْ ، فالإرادة هى التى تملى ما تريده ، والجوارح لا تملك إلا أنْ تنفذ طاعة أو معصية لأنها مُسخَّرة .

وسبق أنْ مثَّلنا لذلك بالقائد الأعلى للجيش حين يرسل مثلاً القائد الأدنى على رأس كتيبة فى مهمة ما ، فعلى الكتيبة أنْ تطيع أمر هذا القائد المباشر طاعةً عمياء ، حتى لو كانت هذه الأوامر فى غير

صالحهم ، وليس لهم أن يعترضوا عليه حتى إذا ما عادوا إلى القائد الأعلى اشتكَوْا له ما كان من قائدهم المباشر ، كذلك طاعة الجوارح لإرادة الإنسان فى الدنيا .

أما فى الآخرة فسوف تُسلَب منه هذه القيادة لجوارحه ، وسوف تشهد هذه الجوارح على صاحبها أمام الحق الأعلى سبحانه ، ففى الآخرة لا سلطانَ لأحد إلا الله :

﴿ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦) ﴾ [غافر]

وقال سبحانه : ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) ﴾ [النور]

وقال : ﴿ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِى أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ (٢١) ﴾ [فصلت]

فإذا كنتَ تريد عملاً من الأعمال ، هذا العمل يتطلب منك أولاً طاقة عقلية فكرية تخطط له ، ثم يتطلب قوة فى الجوارح لتفعل ، مَن الذى خلق لك العقل المفكر ؟ ومَن الذى أمدَّ جوارحك بالقوة والطاقة الفاعلة ؟ أهى تأتمر لك وتفعل مطلوبك بقوة ذاتية فيك ؟ أم بتقدير الله لها ؟

إذن : عليك أنْ تُقبل على كل فعل ، فكراً وتخطيطاً وتنفيذاً وعملاً بقولك بسم الله ، وحين تقولها فكأنك تقول للجوارح : أنا لا أطلب منك بقوتى ، ولكن من باطن قوة بسم الله ، فبسم الله أفعل لا بى .

بدليل أن الله تعالى إنْ أراد سلب الإنسان ذاتية الحركة وذاتية الطاقة والفكر فتُشَلّ الجوارح ويُشَلّ التفكير ، إذن : أقْبل على كل أعمالك ببسم الله الذى يُعينك عليها .

ثم أنت فى الأعمال تحتاج إلى حكمة ، وإلى قدرة ، وإلى علم .. الخ ، فمَن الجامع لكل هذه الصفات ؟ إنه الله . إذن : فقُلْ بسم الله الجامع لصفات الكمال كله الممدّ خَلْقه بها ، فهو سبحان العالم الذى يمدّك بالعلم ، القادر الذى يمدك بالقدرة ، الحكيم الذى يمدّك بالحكمة ، العزيز الذى يمدّك بالعزة ، القهار الذى يمدّك بالقهر .. الخ .

ألسنا نسمع القاضى يقول عندما يجلس للحكم : بآسْم الشعب يعنى : هو لا يحكم بذاته ، إنما يحكم بقوة الشعب ، كذلك المؤمن يقول : بسم الله عند كل عمل يعنى أيتها الجوارح ، أطيعينى من باطن طاعتك لله .

ثم يصف الحق سبحانه نفسه بقوله ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝١﴾ [الفاتحة] لأن الحق سبحانه خلق الخَلْق مختارين ، فكان منهم المؤمن والكافر ، والطائع والعاصى ، وربما غفل الإنسان عن منهج الله فصدرتْ منه صغائر بل وكبائر ، فكيف يقبل على عمله ببسم الله ؟ وكيف يستعين به سبحانه وقد عصاه ؟

لذلك يقول له ربه عز وجل لا تستح أنْ تقول بسم الله ، لأننى رحمن رحيم ، أغفر لك وأتجاوز عَمَّا كان منك ، ولن أتخلَّى عنك ، إذن : تشجَّع ولا تترك الاستعانة باسمى مهما كان منك من ذنوب ، واعتمد فى ذلك على أنِّى رحمن رحيم .

وقد رُوِى أن الأصمعى[1] سمع رجلاً يقول - وهو يطوف

---

(١) الأصمعى هو عبد الملك بن قُريب الباهلى أبو سعيد ، راوية العرب وأحد أئمة العلم باللغة والشعر والبلدان ، نسبته إلى جده أصمع ، وُلد بالبصرة عام ١٢٢ هـ ، كان كثير التطواف فى البوادى ، أخباره كثيرة جداً ، كان أتقن القوم للغة وأعلمهم بالشعر ، له « الأضداد » « خلق الإنسان » ، « الإبل » توفى بالبصرة عام ٢١٦ هـ عن ٩٤ عاماً [الأعلام للزركلى ١٦٢/٤]

بالكعبة - اللهم إنى عاصيك وأستحى أنْ أطلب منك ، لكن أطلب ممَّنْ ، وليس فى الكون إلا أنت ؟ فقال له الأصمعى : يا هذا ، إن ربك قد أجابك لحُسن مسألتك له .

والحق سبحانه وتعالى حين يُعدِّد نعمه على عباده يقول ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا ﴿٣٤﴾﴾ [إبراهيم] نعم ، لأن عَدَّ الشىء مظنة إحصائه ، ومع تقدُّم العلوم وتخصُّص جامعات ومعاهد للإحصاء لم يُقبل أحد على عدِّ نعَم الله ؛ لأنها لا تُعَدُّ ، بل النعمة الواحدة مطمور فيها مَا لا يُحصى مَن النعم ؛ لذلك لم يقُل سبحانه : وإنْ تعدوا نعَم الله ، بل نعمة الله ، فالنعمة الواحدة مستور فيها ما لا يُدرَكُ من النعمَ .

ونلحظ فى هذه الآية أنها وردتْ فى موضعين ، لكن لكل منهما تذييل ، فواحدة : ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ [إبراهيم] والأخرى : ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ [النحل]

وكأن الحق سبحانه يقول لنا : أنت أيها الإنسان المُنْعَم عليه مع ما تُقَابل به نعَم الله من الظلم وكفران النعمة ، فربُّكَ المنعم سبحانه يقابل ظلمك وكفرك لنعمه باستدامة النعم ؛ لأنه غفور ورحيم .

وللعلماء أقوال فى (يس) قالوا : الياء للنداء و (س) من أسمائه ﷺ ؛ لأن عادة العرب أنْ تحذف بعض حروف الكلمة ، وتُبقى على الحرف المميز قوى الجرْس ، فمثلاً كلمة إنسان ، السين أقوى حرف فيها ؛ لذلك ورد قول النبى ﷺ : « كفى بالسيف شا »[1] والمراد : شاهداً .

---

(١) عن سلمة بن المحبِّق قال : قيل لأبى ثابت ، سعد بن عبادة ، حين نزلت آية الحدود وكان رجلاً غيوراً : أرأيت لو أنك وجدت مع امرأتك رجلاً ، أى شىء كنت تصنع ؟ قال : كنت ضاربهما بالسيف . أنتظر حتى أجىء بأربعة ؟ إلى ما ذاك قد قضى حاجته وذهب . أو أقول : رأيت كذا وكذا . فتضربونى الحد ولا تقبلوا لى شهادة أبداً . قال فذكر ذلك للنبى ﷺ . فقال : « كفى بالسيف شاهداً » أخرجه ابن ماجه فى سننه (٢٦٠٦) وأبو داود فى سننه (٤٤١٧) وتمام الحديث : « ثم قال : لا ، لا ، أخاف أن يتتابع فيها السكران والغيران » .

ومن ذلك قول الشاعر :

أَفَاطِمُ مَهْلاً بَعْضَ هَـذَا التَّدلُّلِ وإنْ كنتِ قَدْ أزمَعْتِ صَرْمى فأجْمِلى[1]

والمراد : فاطمة .

ونحن فى حديثنا اليومى نختصر بعض الحروف ، فحين ننادى مثلاً يا أحمد ، بعضنا لا ينطق الدال ، وخاصة فى لهجة الدمايطة . إذن : فحَذْف بعض الحروف وإبقاء بعضها مما له جَرْس قوى أمر وارد فى لغة العرب .

وقال آخرون : بل اسمه ﷺ (يس) وحُذِفت ياء النداء والخطاب لمحمد ﷺ .

الحق سبحانه وتعالى علَّم الإنسان الأسماء كلها ، يعنى : علَّمه الكلمة المطلوبة له فى التخاطب ، وبعد ذلك ساعةَ يتكلم الإنسانُ ويتخاطب يتواضع ويصطلح على أسماء أخرى ، فالإنسان مثلاً الآن يعرف (التليفزيون) ويتعارف على هذا الاسم ، فهل علَّم الله آدم اسم (التليفزيون) ؟ لا إنما اصطلح عليه الإنسان بما علَّمه الله .

فالمعنى : ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا (٣١)﴾ [البقرة] أى : الصالحة لتخاطبه الآن فى البيئة البدائية ، وعليه هو أنْ يُنمى لغته ، فيضع لهذا الشىء اسم كذا ، وهذا اسم كذا .

ونحن نعرف أن الحروف قسمان : القسم الأول : حروف مَبْنى يعنى مهمتها بناء الكلمة ، دون أن يكون لها معنى غير ذلك ، كما نقول مثلاً : كتب ، فالكاف والتاء والباء حروف تُبنى منها هذه الكلمة

---

(١) هو من قصيدة لامرىء القيس من بحر الطويل عدد أبياتها ٧٧ بيتاً ، وهى معلقته الشهيرة التى أولها : قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل . والصرم : القطع والقطيعة . ومعنى البيت : يا فاطمة دعى بعض دلالك ، وإن كنت وطنت نفسك على فراقى فأجملى فى الهجران .

دون أنْ تعطى معنى آخر زيادةً على معنى هذا الفعل الذى كوَّنته الحروف .

القسم الثانى : حروف معنى ، وهى أن يكون للحرف معنى يدل عليه بذاته كما نقول : كتبتُ . فهذه التاء الأخيرة تحمل معنى آخر غير معنى الكتابة ؛ لأنها تدل على الفاعل المتكلم فإنْ جاءت مفتوحة دلَّتْ على الفاعل المخاطب ، وإنْ جاءت مكسورة دلَّتْ على المؤنث ، وهكذا .

وقُلْنا : إن اسم الحرف قد يصادف علَماً على شىء ، فالسين مثلاً اسم لنهر معروف ، والعين حرف معجم لكن سُمِّى به أشياء كثيرة : العين الباصرة ، وعين الماء ، والعين بمعنى الجاسوس ، والعين للنفيس من المال من الذهب أو الفضة .

وقوله سبحانه : ﴿ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (٢) ﴾ [يس] هذه الواو تسمى واو القسم فما دخلتْ عليه كاليمين ، لكن هل المطالب التى يريدها المتكلم من المخاطب تأتى بالقسم أم بالدليل ؟ تأتى بالدليل ، وقد يأتى اليمين فيه الدلالة على الغرض المراد . فمثلاً يقول لك صاحبك : يا أخى أنت لم تُقدِّرنى ، لأننى مررتُ بأزمة ، فلم تقف بجانبى فتقول له : وحياة الشيك الذى كتبتُه لك يوم كذا ، وحياة الهدية التى أخذتها يوم كذا ، فتحلف له بالدليل على صدْقك .

كذلك هنا الحق - تبارك وتعالى - يقول لنبيه ﷺ : أنت مرسل وأنا أحلف بالقرآن لأنه دليل على أنك رسول صادق .

كلمة قرآن مصدر لقرأ تقول قرأت قراءة وقرآناً ، ولا بُدَّ أن الزيادة فى المبنى تدل على الزيادة فى المعنى ، فقلنا قرآناً لنفرق بين قراءة القرآن وقراءة غيره ، وهى أيضاً تدل على أنه كتاب مقروء ، ومرة أخرى يسميه الكتاب لأنه مكتوب ، فالقرآن إذن مقروء من الصدور ، مكتوب فى السطور.

ومرة أخرى يسميه الذِّكْر ، لأنه يُذكِّرنا بعهد الفطرة الأولى التى

قال الله فيها : ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَافِلِينَ(١٧٢)﴾ [الأعراف]

وهذا التذكير بالعهد الأول يُعَدُّ رحمة من الله بنا ، فمن رحمة الله بنا أن يُذكِّرنا إذا نسينا أو غفلنا ، فمنذ أنْ خلق آدم وإلى الآن ، الحق - تبارك وتعالى - يُذكِّر عباده ، فكما يُلقِّن الوالد ولده حركة الحياة يُلقِّنه أولاً حركة هذا الدين ، ولا بد أنْ يستمر هذا التلقين وهذا التذكير ، وأنْ يتوالى من جيل إلى جيل ؛ لأن طبيعة الإنسان فيه غفلة وفيه نسيان ، وتحدث منه معصية .

لذلك الذين قالوا : ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ (٢٢)﴾[الزخرف] كاذبون فى هذا القول ؛ لأن آدم وأمته فى البداية كانوا على هُدىً ، فلماذا لم تتبعوهم ؟ إذن : أنتم اتبعتُم الآباء الضالين لا المهتدين .

كذلك حين تتأمل مسألة جمع القرآن تجد أن الذين جمعوا القرآن كانوا يتحرَّوْن فى الآية قبل تسجيلها أن تكون مكتوبة أولاً فى قرطاس أو فى الرقاع والعظام التى سُجِّل عليها القرآن أولاً ، ثم يشهد على صحتها اثنان من القراء ، لماذا ؟

قالوا : لأن القرطاس لا هوى له ، فيغير ما كتب فيه ، أما الإنسان الحافظ فهو عُرْضَة للخطأ والنسيان والغفلة ، فلا بُدَّ أنْ يكون معه آخر يُذكِّره على حَدِّ قوله تعالى : ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ(٢٨٢)﴾ [البقرة]

والقرآن وصفه الله بالحكمة ، وهى وَضْع الشىء فى موضعه الحق ليؤدى مهمته ، وكلُّ المعانى الدينية مأخوذة من مُحسَّات قبل الدين ، فمثلاً الفَرَس يركبه الإنسان ليُوصِّله إلى مراداته ، فإنْ كان

مرادك من ركوب الفرس التنزُّه بين الحقول سار بك سَيْراً بطيئاً كسَيْر الحنطور مثلاً ، وإنْ أردتَ به قَطْع المسافة جرى بك كالريح .

لذلك جعلوا للحصان لجاماً يُوضَع فى حنكه ليكبح سرعته ، ويتحكم فيه ، هذا اللجام يُسمى الحَكَمَة[1] ومنها الحكْمَةُ التى تكبح جماح الأهواء ، كى لا تشرد وتضع المسائل فى موضعها ، فالإنسان له هوىً يميل به ، وينحرف بحركته عن الجادة ، فيأتى القرآن بالحق الواضح الذى يُقوِّم هذا الميل ويُصلحه ، والقرآن فى الحقيقة حكيم ، لأنه محكم من الحكيم الأعلى سبحانه ، إذن : فالقرآن كلام من الحكيم ، وهو بالنسبة للإنسان كالحَكَمة للفرس .

ولحكمة القرآن اختصّ بأشياء ، فتناول القرآن لا يكون كتناول غيره من الكتب ، فالكتاب العادى أتناوله فى أىِّ وقت وعلى أىِّ حال كنت جُنُباً أو مُحدثاً ، أما القرآن فلا يمسُّه إلا طاهر[2] ، لأنك مع القرآن تُقبل على مقدس له خصوصية ، فإياك أنْ تتناوله وأنت غير طاهر ، كما قال الحق سبحانه[3] : ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (٧٧) فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ (٧٨) لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ (٧٩) ﴾ [الواقعة]

---

(١) حكَمة اللجام : ما أحاط بحنكى الدابة ، فهى تأخذ بفم الدابة ، والحكمة : حديدة فى اللجام تكون على أنف الفرس وحنكه تمنعه عن مخالفة راكبه . وفى الحديث : « ما من آدمى إلا فى رأسه حكمة » وفى رواية : فى رأس كل عبد حكمة إذا همَّ بسيئة ، فإن شاء الله تعالى أن يقدعه بها قدعه .[لسان العرب - مادة : حكم]

(٢) اتفق الأئمة ولم يخالف أحد من الصحابة فى ذلك على حرمة مس المصحف وحمله بالنسبة للجنب . أما المحدث حدثاً أصغر فقد ذهب ابن عباس والشعبى والضحاك وزيد بن على وابن حزم وغيرهم إلَى أنه يجوز للمحدث حدثاً أصغر مس المصحف ، وأما القراءة له بدون مس فهى جائزة اتفاقاً . [قاله الشيخ سَيد سابق فى فقه السنة ١/٤٣ وما بعدها] .

(٣) فى هذه الآية قولان :

الأول : المطهرون هنا هم الملائكة . قاله ابن عباس وأنس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وغيرهم . فعلى هذا القول فالآية لا تخص قراءة القرآن على وضوء أو غير وضوء .

الثانى : أى المطهرون من الجنابة والحدث . والمراد بالقرآن هنا هو المصحف . وقد أخرج الطبرانى وابن مردويه عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يمس القرآن إلا طاهر » .

فالحق سبحانه جعل لك هذه الضوابط النفسية لتعرف أنك مُقبِل على كتاب له تميُّز عن سائر الكتب الأخرى .

كذلك للقرآن خصوصية فى حروفه ، فالحروف هى التى تُكوِّن الكلمات ، فهى عبارة عن نبرات صوتية ، لكل منها منطقة فى أعضاء الكلام ، فمثلاً حروف تخرج من الجوف والصدر هى :

هَمْزٌ فَهَاءٌ ثُمَّ عَيْنٌ حَاءُ مُهْمَلَتَانِ ثُمَّ غَيْنٌ فَاءُ

فإنْ خرجنا من منطقة الجوف نجد الحروف اللسانية التى تُنطق من اللسان بداية من : (لغلوغه) ثم وسطه ثم طرفه . فالقاف مثلاً تخرج من أقصى اللسان ، والشين والجيم من وسطه ، والضاد واللام والراء من طرفه ، كذلك هناك حروف تخرج من الشَّفة ، كالفاء من باطن الشَّفة السفلى ، والباء من باطن الشفتين معاً ، كذلك الواو يشترك فى نطقها الشفتان .

ولكى نقرأ القرآن قراءة صحيحة لا بُدَّ أنْ نلتزم بهذه المخارج الصوتية ، على خلاف قراءة أىِّ كتاب آخر ، فلا يُشترط له هذا الشرط ؛ لذلك نقول : إن كمال القرآن لا يتعدى ما دام له طريقة معينة ونغمة مضبوطة ، فلا بُدَّ أن تُراعى .

فمثلاً لو أنك تتكلم فى خطبة عادية تقول : أيها السادة السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد ، لقد استدعانى فلان لألتقى به فى مكان كذا .. لو نطقتَ هذا الكلام بنغمة القرآن وطريقته لكان شيئاً غير مقبول (بايخ) أمَّا إنْ كان هذا النَّغَم فى القرآن ، فإنه يأتى جميلاً متناسقاً .

إذن : كمال القرآن لا يُتعدَّى حتى فى نطقه ؛ لأن هذا شىء مُختصٌّ به وحده دون غيره من الكلام ، فإنْ عدَّيْتَ خصائص القرآن إلى غيره من الكلام جاء سخيفاً مردوداً لا يُقبل .

أذكر ونحن صغار أنهم كانوا ينصحوننا بقراءة كتب الأدب مثل

كتب المنفلوطى مثل « العبرات » أو « النظرات » لنتعلم الأسلوب الجميل فى كتابة الإنشاء ، وبالفعل كان أسلوبنا يتحسَّن ويترقّى بقراءة كتب الأدب ، ونكتسب منها تعبيرات جديدة ، فإنْ جئتَ إلى حافظ القرآن الذى جوَّده على القراءات العشر أو الأربعة عشر ، وقرأتَ له كلمة أو مقالاً ، فإنك تجد أسلوبه لا يتأثر بالقرآن لماذا ؟ لأن كمال أسلوب القرآن لا يُتعدَّى .

إذن : نفهم أن حكمة القرآن جاءت من هذه الخصوصية : فى حروفه حكمة ، وفى كلماته حكمة ، وفى نَظْمه ، وترتيله ، وفى أسلوبه الذى لا يُبَارى ولا يُنقَل إلى غيره .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ ﴾

هذا هو جواب القسم ، الحق سبحانه يرد على كفار مكة ، ويقسم لهم : إنك يا محمد لمن المرسلين ، والمتكلم حين يرى المخاطب خالى الذِّهْن عن الأمر الذى يتحدث فيه يُلقى له الكلام طبيعياً بدون تأكيد ، فإنْ كان شاكاً فى الكلام أو مُنكِراً له أكّد المتكلمُ كلامه بمؤكِّد يناسب الشكَّ أو الإنكار .

لذلك الحق سبحانه يؤكد هنا كلامه بأكثر من مؤكد ﴿ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ ﴾[يس] فاستخدام التأكيد بإن واللام ، وقبل ذلك القسم؛ لأن الكفار منكرون لرسالته ﷺ ، وعلى قدْر الإنكار يكون تأكيد الكلام .

وتأمل فى ذلك قوله تعالى : ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾[يس] وكانت النتيجة الإنكار ﴿ قَالُوا مَا

أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَـٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ (١٥) ﴾ [يس]

لـــذلك يؤكدون كـــلامهم بأكثر من مؤكـد : ﴿ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ (١٦) ﴾ [يس]

وقلنا : إن هذه الآية جاءت دليلاً وبرهاناً فى صورة اليمين ، كأن الله يقول : الذى يقرأ القرآن لا بُدَّ أنْ يؤمن بأنك يا محمد مُرسَل من الله ، لماذا ؟ لأنهم أمة كلام وتذوُّق ، وما وُجِدت أمة من الأمم حتى المعاصرة تقيم مـعارض للكلمة ، أما العرب فى جاهليتـهم فقد أقاموا للكلمة أسواقـاً ومعارض يتبارى فـيها الخطباء والشـعراء كل عام فى المربد وعكاظ وذى المجنة[1] وغيرها .

وقد بلغ اهتمـامهم بالكلمة أن يعلقوا أروع قصـائدهم على أستار الكعـبة ، وما دام العـرب أمة كـلام ، إذن : كان عليـهم أنْ يستقـبلوا القرآن بهذه الملَكة ، وألاَّ يخفى عليـهم إعجازه ، لكنهم كذَّبوه وقالوا : سحر وقـالوا : شعر وقالوا : افـتراء . فلما أعيتـهم الحيل ولم ينالوا من ذلك شـيئاً قـالوا : ﴿ لَوْلا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) ﴾ [الزخرف] يعنى : القرآن لا غـبار عليه إلا أنه نزل على محـمد ، هذه آفته عندهـم ؛ لأن ملَكتهم البلاغية لا يصـح أن تقف أمام القرآن أو تُكذِّبه .

لذلك كانوا حتى وهُمْ على كـفرهم يحبون سماع القـرآن ، يتخفَّى الواحـد منهم ، ويذهب يتـسمَّع القـرآن من رسـول الله ليلاً ، وربمـا

---

(١) قـال أبو بكر الأزدى فـيمـا ذكـره المرزوقى فى كـتـابه « الأزمنة والأمكنة » باب أسـواق العرب : « أسـواق العرب الكبيـرة كانت فى الجـاهلية ثلاث عشـرة سوقاً ، فـأولها قيـاماً : سـوق دومة الجندل ، ثـم صحـار ، ثم دبا ، ثم الشـحر ، ثم رابيـة حـضرمـوت ، ثم ذو المجاز ، ثم نطاة خيـبر ، ثم المشقر ، ثم حجر باليـمامة ، ثم منى ، ثم عكاظ ، ثم عدن ، ثم صنعاء »

تقابل الاثنان منهم عند حجرات رسول الله ، فسأل أحدهما الآخر : ماذا أتى بك إلى هنا يا فلان ، فلا يملك إلا أنْ يقول : جئتُ لزيارة خالتى المريضة ، والآخر يقول جئت لكذا وكذا !! لكن هيهات فحالُه يُغنى عن مقاله[1].

لذلك تأمل قول الشاعر فى هذه المسألة :

انْظُروهُمْ وقَدْ تَسَلَّل كُلٌّ ... بَعْدمَا انفَضَّ مجلِسُ السُّمَّارِ

اخْتِلاساً يَسْعَى لحجرةِ طه ... لِسَماعِ التنزيل فى الأسْحارِ

اعْذروهم حسنه فلَمَّا تَراءَوْا ... علَّلوها ببَارِدِ الأعْذَارِ

لذلك كان الواحد منهم حينما يسمع القرآن من رسول الله ويعود إلى قومه ، فيقولون : لقد رجع فلان بغير الوجه الذى ذهب به .

﴿عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٤﴾

الصراط : هو الطريق ، وله معنى آخر يوم القيامة ، هو الصراط المضروب على متْن جهنم يمرُّ عليه البَارُّ والفاجر ، والمؤمن والكافر ، ويختلف المارُّ عليه باختلاف عمله فى الدنيا ، فواحد يمرُّ عليه كالبرق

---

(١) ذكر ابن هشام فى السيرة النبوية (١/٣٣٧) طبعة دار التراث أن أبا سفيان بن حرب ، وأبا جهل ، والأخنس بن شريق خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله ﷺ وهو يصلى من الليل فى بيته ، فأخذ كل رجل منهم مجلساً يستمع فيه ، وكلٌّ لا يعلم بمكان صاحبه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق ، فتلاوموا ، وقال بعضهم لبعض : لا تعودوا ، فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم فى نفسه شيئاً ، ثم انصرفوا (وتكرر هذا ثلاث ليال متوالية) حتى إذا كانت الليلة الثالثة قال بعضهم لبعض : لا نبرح حتى نتعاهد ألا نعود ، فتعاهدوا على ذلك ، ثم تفرقوا ، وفى القصة طول فلتراجع هناك عن رأيهم فيما سمعوه .

الخاطف ، مع أنه أَحَدُّ من السيف وأدَقُّ من الشعرة ، وآخر يمرُّ عليه كأسرع جَوَاد ، وآخر يمر عليه حَبْواً ، وآخر يقع فى جهنم[١] ، والعياذ بالله .

وحين تمر على الصراط لن يكون معك عَصَا تحفظ بها توازنك كلاعب السيرك مثلاً ؛ لأن الذى يزنُ حركتك على الصراط هو القرآن الذى استمسكْتَ به فى الدنيا ، فكأن المؤمن حين يمرُّ على الصراط لا يكون توازنه من تحته إنما من أعلى ، من جهة القرآن ، فهو أشبه بالكبارى المعلَّقة التى لا يحملها شىء من تحتها ، لكنها مشدودة من أعلى بما يمسكها ويحفظ توازنها ، كذلك حال المؤمن على الصراط .

والصراط فى معناه العام هو الطريق المستقيم الذى يوصلك للغاية من أقرب مسافة وأيسرها ، لكن عبارة القرآن ﴿عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾﴾[يس] فيها إشارة إلى أن الصراط له مهمة ، هى أنْ يُوصّلك إلى الغاية المرادة ، فالصراط فى خدمتك .

ومثل ذلك قوله سبحانه : ﴿عَلَىٰ هُدًى ﴿٥﴾﴾ [البقرة] البعض يفهم أن الهداية تقتضى التكاليف وتقييد الحركة ، وأن فى الهداية مشقة وعنتاً ، لكن لفظ الآية يعنى خلاف ذلك ، فمعنى ﴿ عَلَىٰ هُدًى ﴿٥﴾﴾ [البقرة] أنك تعتلى الهدى ، وكأنه مطية لك تُوصِّلك لغايتك المجيدة ، فهو يحملك ، لا تحمله أنت .

ووَصْف الصراط بأنه مستقيم ، لأننا تعلمنا فى الهندسة أن الخط

---

(١) أخرج أحمد عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : « لجهنم جسر أدق من الشعرة وأحَدّ من السيف عليه كلاليب وحسك يأخذون من شاء الله ، والناس عليه كالطرف وكالبرق وكالريح وكأجاويد الخيل والركاب ، والملائكة يقولون : رب سلم رب سلم ، فناج مُسلَّم ، ومخدوش مُسلَّم ، ومكوّر فى النار على وجهه » أخرجه أحمد فى مسنده [٦/١١٠] وأورده الهيثمى فى مجمع الزوائد [١٠/٣٥٩] وقال : « فيه ابن لهيعة وهو ضعيف وقد وثق » .

المستقيم هو أقرب مسافة بين نقطتين ، فحين تريد مثلاً الانتقال من مكان إلى مكان ، فـ (من) للابتداء ، و (إلى) للغاية التى تريدها ، وما دُمْتَ لا يعنيك إلا البداية والغاية ، فالتيسير يقتضى أنْ تسلك أقرب الطرق وأقصرها وهو الخط المستقيم ؛ لأن كل التواء فى الطريق أو منعطف يكون فى خط السير مُثلَّثاً من ضلعين، ويكون الطريق المستقيم هو الضلع الثالث .

ومعلوم أن مجموع أىِّ ضلعين فى المثلث أطول من الثالث ، إذن : يطول عليك الطريق ؛ لذلك يُحدِّثنا القرآن عن الصراط المستقيم ، وعن سواء السبيل يعنى : الجهة اليمين تساوى الجهة اليسار .

لكن ، لماذا كان طريق المؤمنين صراطاً مستقيماً ؟ لأن الله تعالى هو الذى شرعه فى منهج خَلْقه ، ولأنه مُنزَّل من الله .

﴿ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٥﴾ ﴾

وساعةَ تسمع كلمة ﴿ تَنزِيلَ ﴿٥﴾ ﴾ [يس] فاعلم أنه من جهة العلو ، وإنْ كان المنزَّل فى باطن الأرض ؛ لأنه فى واقع الأمر جاء من الأعلى ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الحديد] فالحديد لا تنظر إلا أن مقرَّه فى الأرض ، لكن انظر إلى عُلُوِّ خالقه ؛ لذلك أعطاه الله صفتين : صفةً دنيوية ، وأخرى دينية .

﴿ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الحديد] فالبأس الشديد لأعداء الله ﴿ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ..﴿٢٥﴾ ﴾ [الحديد] فهذه للآخرة ، وفيه منافع للناس أى : فى الدنيا ؛ لذلك تجده المعدن الشائع الانتفاع به ، والأكثر قوةً وصلابةً .

وقوله تعالى ﴿الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ۝٥﴾ [يس] ذكر سبحانه هنا صفة العزة وصفة الرحمة ؛ لأن التنزيل من أعلى منهج يقيد حركة الإنسان بافعل كذا ، ولا تفعل كذا ، وأنت مختار تطيع أو تعصى ، فالحق الذى شرع لك هذا المنهج يريد لك الخير ؛ لأنه سبحانه لا يعود عليه شىء من طاعتك ولا تضره معصيتك .

إذن : أنت المقصود من هذه المسألة ؛ لأن الله تعالى عزيز عن خلْقه ، ورحيم بهم ، فإذا نظرتَ إلى العاصى المخالف لمنهج الله ، فالله عزيز قادر على الانتقام ، لا يقدر أحد أن يأخذك من قبضته تعالى ، وإذا نظرتَ إلى المطيع ، فالله رحيم .

وعلة الإنزال :

﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ۝٦﴾ (١)

الإنذار : التخويف من معطب مهلك ، ويشترط أنْ يكون الإنذار قبل وقوع الشىء ليؤدى الإنذار مهمته فى أنْ يردع الإنسان عنه ، فلا يقع فى أسباب الهلاك ، ويستطيع أنْ يحتاط لنفسه ، وأن ينجو بها .

---

(١) فى هذه الآية أمر دقيق جداً يجب الانتباه إليه ، فإن بعض المشككين فى القرآن قديماً وحديثاً يقولون : كيف يقول القرآن هنا ﴿مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ ۝٦﴾ [يس] أى أن العرب لم يُنذروا من قبل ، وهذا ما صرح به ابن كثير فى تفسيره ، كيف يقول القرآن هنا هذا ، وفى آية أخرى يقول : ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا ۝٥٤﴾ [مريم] أليس إسماعيل من العرب؟

نقول : نعم ، إسماعيل رسول ونبى كما نص القرآن ، بل فى آيات أخرى كثيرة صرح القرآن بأنه أوحى إلى إسماعيل ، كما قال تعالى : ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۝١٦٣﴾ [النساء] ، بل نزل عليه مثل ما نزل على إبراهيم ، كما صرحت الآية ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ ..۝٨٤﴾ [آل عمران] وهذا يؤكد أن (ما) هنا فى الآية اسم موصول ، لا نافية . والمعنى على هذا : لتنذر قوماً الذى أُنذر آباؤهم . أى (مثل الذى) أو (بالذى) . لذلك قال : فهم غافلون أى أنهم غفلوا ونسوا ما كان عليه إبراهيم وإسماعيل ، فأشركوا مع الله رب البيت الذى بناه ورفع قواعده إبراهيم وإسماعيل ، وكانوا يُقرُّون بأن الله هو الخالق الرازق ، ولكن علتهم هى الشرك ورفضهم أن يخرج من بنى هاشم رسول . والله تعالى أعلى وأعلم . [عادل أبو المعاطى]

ومعنى ﴿مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ ﴿٦﴾﴾ [يس] ساعة تسمع (ما) تظن أنها نافية ، كذلك قال المفسرون . قالوا : لأنهم كانوا أى : الآباء أهل غفلة ، وعلى فترة من الرسل ، فلم يكُنْ لهم رسول ينذرهم . فإنْ قُلْنا : إن رسول الله ﷺ أُرسلَ نذيراً للناس كافة ، بمن فيهم من اليهود والنصارى قالوا : لا ، ليس نذيراً لنا ، فقد جاءنا نذير من قبله ، جاءنا موسى وجاءنا عيسى .

وحَلُّ هذا الإشكال أن نقول : نعم موسى عليه السلام أنذر قومه ، وعيسى عليه السلام أنذر قومه ، لكن مرَّتْ عليهم جميعاً فترات اختلفوا فيها وضلُّوا ، ولم يأتِ لهم نذير يردُّهم عن ضلالهم ، إذن : جاءكم النذير ، لكنكم لم تستمروا على نذارته ، وها هو محمد ﷺ جاءكم نذيراً جديداً .

أو : أن (ما) هنا بمعنى اسم موصول أى : لتنذر قوماً بالذى أُنذِر به آباؤهم ، كما أُنذِر آباؤهم من قبلهم . يعنى : لستَ بِدْعاً من الرسل .

وقوله : ﴿فَهُمْ غَافِلُونَ ﴿٦﴾﴾ [يس] الغفلة أنْ يوجد شىء كان بخاطرك ، ثم لم يتعلَّق قلبك به حتى يدخل فى مرتبة النسيان ، فلا تذكره إلا حين يأتى مَنْ ينبهك إليه ، ويُذكِّرك به ، والنسيان ليس وظيفة القلب ، إنما وظيفة العقل والذاكرة ، فلو أن القلب مُتعلِّق بالشىء ، فكلما طرأتْ عليه غفلة تعلَّق القلبُ بها يسدها ، فتظل فى الذاكرة لا تغفل عنها .

﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾﴾

الحق سبحانه وتعالى سطَّر أزلاً كلَّ ما يكون من مُسْتقبلى أىِّ دعوة دينية المؤمنين بها والكافرين ، لكنه سبحانه ترك للناس

الاختيار ، وكَوْنه تعالى يسجل ما سيحدث من الناس ، ثم يأتى الحدث منهم وفْق ما سجَّل ، هذا يعنى أن ما قاله قديماً حقٌّ .

والقرآن يقول مرة ﴿حَقَّ الْقَوْلُ ۝٧﴾ [يس] ، ومرة ﴿سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ ۝٤٠﴾ [هود] ، ومرة ﴿وَقَعَ الْقَوْلُ ۝٨٢﴾ [النمل]

وكلها تدل على أن ما سبق فى علم الله من الإخبار عن مختار اختار الهدى أو الضلال مُسجَّل عنده تعالى ، وهو حق كما أخبر الله به ، ولو كان العبد غير مختار لَقُلْنا : إن الله قهره على ما أراد ، لكنه مختار .

والحق سبحانه له طلاقة القدرة وطلاقة العلم ، فلعلمه تعالى بما سيكون سجل وكتب ، وقد أوضحنا هذه المسألة فى كلامنا عن أبى لهب : ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١﴾ [المسد] فقد كان بوسع أبى لهب حين سمع هذه الآية أنْ ينطق بكلمة الإيمان ولو نفاقاً ، وله إذن أنْ يتهم القرآن وأنْ يُكذِّبه ، لكنه لم يفعل وظَلَّ على كفره حتى صَدَق فيه إخبار الله مع أنه مختار .

كذلك فى قوله تعالى : ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ ..۝٨﴾[المجادلة] وعجيب منهم بعد أنْ فضحهم القرآن ، وأخبرهم بما يدور فى نفوسهم ألاَّ يؤمنوا به ، وألاَّ يسألوا أنفسهم مَن الذى أخبر محمداً بما فى نفوسنا ، ولو لم يكُنْ منهم هذا القول فى أنفسهم بالفعل لواجهوا محمداً ، ولقالوا : لم يحدث منا هذا .

لذلك الذين أنكروا رسالة محمد ﷺ مع إخباره بمغيبات لا تقع عليها عقول البشر أنكروا رسالته ، ولكنهم أرادوا أنْ يُثبتوا له فوق الرسالة أنه إله يخبر بالشىء قبل حدوثه ، فهو ﷺ يقول لهم : أنا رسول وهم يريدونه إلهاً .

القول السابق وقع على هؤلاء ؛ لأنهم لا يؤمنون ، ولأنهم يكذبون ويعاندون ﴿ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (٧) ﴾[يس] لذلك يقولون : إن للملائكة تعجباً ، قالوا : وما تعجُّب الملائكة ؟ قالوا : ساعة تقع فى كون الله حركةٌ يجدون خبرها عندهم فى الكتاب ، فيقولون : ما أعلم ربنا وأقدره ، يعنى : ما أخبر الله به ، وقع كما أخبر تماماً ، مع أن العباد لهم حرية الاختيار .

ولما حاول الفلاسفة عَرْض هذه المسألة : ﴿ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (٧) ﴾[يس] قالوا : الحق سبحانه وتعالى حين ترك الأمر للمكلَّف بالاختيار ؛ لأن الإنسان نفسه قَبِل أنْ يكون مختاراً لم يلزمه الله بشىء ، على خلاف السموات والأرض والجبال ، فقد رفضتْ هذا الاختيار ، واختارت أن تكون مُسخَّرة لله ، مقهورة لإرادته سبحانه .

يقول تعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً (٧٢) ﴾ [الأحزاب]

إذن : الحق سبحانه خَيَّر الجميع فأبت السموات والأرض والجبال ، أما الإنسان فقد اغترَّ بعقله وذكائه وتصرفه فى الأمور ، فَقَبِل الاختيار ، فحكم الله عليه بأنه ظلوم وجهول ، ظلوم لأنه ظلم نفسه بتحمُّل الأمانة ، وجهول لأنه ضمن وقت التحمل ، ولم يَضمن وقت الأداء ، فالعاقل هو الذى ينظر إلى وقت أداء الأمانة ، لا إلى وقت تحمُّلها .

فلو جاءك صديق يُودِع لديك مبلغاً من المال كأمانة لحين الحاجة إليه ، فمن السهل عليك أنْ تقبل هذا المبلغ وفى نيتك أداؤه عندما يطلبه صاحبه ، لكنك لا تضمن أنْ تتغير ظروفك فتحتاج إليه ، أو تتغير ذمتك ، أو غير ذلك مما يطرأ على الإنسان .

إذن : فجهل الإنسان هنا أنه أغفل وقت الأداء ، وظُلْمه لنفسه أنه جَرَّ عليها مَا لا تقدر عليه ؛ لأن شهوات نفسه لا بُدَّ أن تُلح عليه ، ولا بُدَّ أنْ تُوقعه فى المخالفة .

قالوا : إن العالم كله محكوم بأمرين : بمشهود ، وغيب ، ومن عجيب الأمر أن المشهود هو الدليل على الغيب ، يعنى خُذْ مما تراه دليلاً على ما لا تراه ؛ لذلك حين نريد أنْ نربى فى الناس الإيمانَ بالله نلفت أنظارهم إلى ملكوت السموات والأرض : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (٣٧) ﴾ [فصلت]

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِى أَحْيَاهَا لَمُحْيِى الْمَوْتَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (٣٩) ﴾ [فصلت]

وبعد أنْ تتأمل فى ملكوت الله وآياته فى كونه فتؤمن به يعطيك قضايا أخرى لا يتسع لها عقلك ، لماذا ؟ لأنه سبحانه يريد للإيمان به عنصرين : أنْ تؤمن بالمشهد ، وأن تسلم إذا آمنت بالمشهد على وجود حق ، وهو الحق واجب الوجود ، فتسمع منه سبحانه ، فإنْ أخبرك بشىء لم يتسع له عقلك فاقبله من باطن الإيمان به .

فإنْ قال لك إن الصراط مثلاً أدقُّ من الشعرة ، وأحدُّ من السيف فلا تنكر ، وإنْ كان عقلك لا يتسع لإدراكها ، لأن الذى قالها الله المشرع . فأنت أخذتَ من المشهد دليل الغيب وهو الله ، وأخذتَ من دليل الغيب وهو الله إيمانك بأشياء لا يعقلها عقلك ، فكأن المشهد والغيب عليهما مَدار الإيمان وغيره .

فمطلوبات التديُّن إما مطلوبات من القلب ، أو مطلوبات من

الجوارح ، أو مطلوبات من اللسان . فالقلب مطلوب منه العقيدة بأنْ يؤمن بواجب الوجود ، وأنه واحد ، وأن يؤمن بأنه لا بُدَّ أن يبلغنى منهج حياتى ؛ لأنه هو الذى خلقنى وأنا صنعته ، والصانع هو الذى يحدد قانون الصيانة لما صنع ، وقانون الصيانة لا يكون إلا بالبلاغ .

والحق سبحانه لا يكلم الخلْق واحداً واحداً ، إنما يصطفى لهذه المهمة - مهمة البلاغ عنه سبحانه - مَنْ يشاء من الملائكة ومن البشر ، فالمصطفى من الملائكة يبلغ المصطفى من البشر ، والمصطفى من البشر يبلغ بقية الناس ؛ لذلك ربَّى النبى ﷺ الأمة الإسلامية فى ثلاث وعشرين سنة ، ولو أن كل واحد انتظر أنْ يكلمه الله مباشرة لاستغرقتْ تربية الأمة أكثر من ذلك بكثير .

إذن : البلاغ عن الله ضرورة من ضرورات وجود الله ، وإلا إذا كان الله موجوداً فأنت لا تعرف أنه سبحانه واحد ، أو أن له شريكاً ، أنت بنفسك لا تعرف هذه المسألة ، لا بُدَّ من رسول يخبرك : عن الله ، عن اسمه ، وعن صفاته ، وعن مراده منك .

لذلك الذين يعبدون الشمس أو القمر أو الشجر أو الحجر أبلغ رد عليهم أنْ نقول لهم أولاً : ما هى العبادة ؟ العبادة طاعة العابد لمعبوده فى أمره ونَهْيه ، فنقول : ماذا قالتْ لكم الشمس ؟ بمَ أمرتكم ؟ وعن أىِّ شىء نهتْكم ؟ ماذا أعدَّتْ لمن عبدها ؟ وماذا أعدَّتْ لمَنْ عصاها ؟ إذن : هذه آلهة بلا منهج وبلا تكاليف ، فهى إذن باطلة مردودة .

وسبق أنْ أوضحنا هذه المسألة بمثال ، قُلْنا : لو أن طارقاً طرق علينا الباب ، لا بُدَّ أننا جميعاً سنلتقى فى فكرة واحدة ، هى أن طارقاً بالباب يريد الدخول ، إنما لا أحد منا يعرف مَنْ هو ؟ ولا لماذا

أتى ؟ ولا من أين ، أهو بشير أم نذير ؟ هذه أمور لا بد أننا سنختلف فيها .

إذن : علينا أن نقف عند الحد الذى نتفق عليه ، وهو أن طارقاً بالباب ، ونترك لهذا الطارق أن يُعبِّر هو عن نفسه ، فنقول : مَنْ أنت ؟ فيقول : أنا فلان جئت لكذا وكذا . كذلك الحق سبحانه يكفى أنْ تستدل من صُنْع الكون العجيب أن له صانعاً عالماً قادراً حكيماً ، له كل صفات الكمال ، لكن مَنْ هو ؟ وما مراده منك ؟ هذه مهمة الرسول المُبلِّغ عن الله .

لذلك ، فإن خيبة الفلاسفة أنهم لم يقفوا عند تعقُّل واجب الوجود سبحانه ، بل أرادوا أنْ يتصوروا واجب الوجود ، هذا هو خطؤهم ، ولو وقفوا عند التعقُّل لكان كافياً ، ثم تقول لمن تعقلته : من أنت ؟ وماذا تريد منى ؟ ماذا أعددتَ لى إنْ أطعتُك ؟ وماذا تفعل بى إنْ عصيتُك ؟ وعندها يرسل لك رسولاً يجيبك على كل هذه الأسئلة .

هذا هو مطلوب التديُّن القلبى ، وهو الاعتقاد بوجود إله واجب الوجود ، واحد أحد ، وأنه يرسل الرسول ليبلغ عنه ، وهذا الرسول صادق فى البلاغ مُؤيَّد بمعجزة ، هذه مسألة عقلية واضحة .

وبعد أنْ آمنتَ بهذه العقلية الواضحة المشهودة يخبرك بأشياء غيبية لا دليلَ عليها ، كالإخبار مثلاً عن الجنة وصفاتها ، وأنك ستتمتع فيها وتأكل دون أن تتغوط .. إلخ هذه كلها مسائل يقف العقل أمامها ، لكن مَنْ أخبرك بها ؟ الله الذى صدقك فيما شاهدتَ ، وسبق أنْ آمنتَ به ووثقتَ بكلامه .

ثم يأتى دور مطلوبات الجوارح ، فالإله الذى آمنتَ به لا بُدَّ أنْ

تكون على اتصال دائم به سبحانه ؛ لذلك شرع لك الصلوات الخمس ، وفيها دوام الولاء لله .

لكن ، لماذا جعلها خمس صلوات ؟ قالوا : كانت خمسين لتستوعب كل الزمن يعنى : خمسين تُوزَّع على أربع وعشرين ساعة ، بمعدل صلاة كل نصف ساعة ، ومن رحمة الله بنا أنْ جعلها خمساً فى العمل ، وخمسين فى الأجر ، ومع ذلك يملّ الناس منها .

وأذكر أننا ونحن فى الحرم ، كنا نصلى الظهر مثلاً ، وسرعان ما يُؤذَّن للعصر ، فلا نتمكن من الجلوس فى الحرم والتأمل فيه ، والنكتة المشهورة فى هذا المقام أن الشيخ أحمد رحمه الله كان كثيراً ما يُذكِّر واحداً منا بالصلاة (قوم يا واد صلى) . فقال له : يا شيخ أحمد (احنا جايين نحج ، مش جايين نصلى)

إذن : نقول جُعِلَتْ الصلاة خمساً لتستوعب كل اليوم والليلة ، ولتحقق استدامة الولاء لله تعالى ، ثم أنت فى الصلاة نفسها تجد هذه ركعتين ، وهذه ثلاثاً ، وهذه أربعاً دون أنْ يعى عقلُك الحكمة من العدد هنا ، ويكفى أن تقول هنا إن الله هو الذى شرعها كذلك وتقف.

ثم أنت لا تعيش فى المجتمع بمفردك ، بل مع أناس ، منهم الضعيف ، ومنهم الفقير والمحتاج ، وهؤلاء لا بُدَّ أنْ يعيشوا كما تعيش أنت ، فعليك أن تُعينهم بالزكاة أو الصدقة .

ثم شرع لك الصيام ، وهو عبادة تُعوِّدك ألاَّ تعصى الله وتُبعدك عن المخالفة ، حتى تصير الاستقامة عادةً مُتأصِّلة فيك ، والله يريد أنْ يستديم فى التكاليف حرارة العبادة ، لا إلْفَ العادة ؛ لذلك يأتى إلى ما أحلَّه لك فى شعبان ، ويمنعه عنك فى رمضان .

كذلك فى اللسان الذاكر الناطق بالكلمات ، هناك فى القرآن كلام تفهمه ، وكلام يقف أمامه عقلك ، ففواتح السور مثلاً كلها مما تقف فيه العقول ، والباقى مما تتفتَّح فيه العقول وتفهمه ؛ لأن هناك فرقاً بين مَنْ يُقبل على الشىء لتعقله ، ومَنْ يُقبل على الشىء بدون تعقُّل ، ولكن لأن الآمر أمر به .

وسبق أنْ ضربنا مثلاً قُلْنا : هَبْ أن سيداً فى بيته وعنده عمال، فقال لواحد منهم : انقل هذا الحجر من مكانه إلى مكان آخر فقال : لا أقدر وحدى ، وسوف أستعين بزميل لى ، فقال : إن تحته مالاً هو لك ، عندها سيكافح وحده لنقْل الحجر ، إذن : نقله للعلة أم للأمر ؟ للعلة ، والإيمان لا يكون كذلك ، الإيمان لا يكون لعلة ، إنما انصياعاً للأمر .

فالمعنى : ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ ۝٧﴾[يس] يعنى : وجب وثبت وجاء كما سجلناه عليهم ، وقوله ﴿عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ ۝٧﴾[يس] يعنى : ليس عليهم جميعاً ، وهذا كما قلنا سابقاً احتياط للواقع ، وهو دليل على أن منهم مؤمنين ، ولو رجلاً واحداً ، وهذا الاحتياط من القرآن نسميه « صيانة الاحتمال » .

وقوله تعالى : ﴿ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ۝٧﴾[يس] إخبار يدل على حيثيات هذا الإخبار .

ثم يقول سبحانه :

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ۝٨ ﴾

يعطينا الحق سبحانه فى هـذه الآية تصويراً لحال هؤلاء الكافرين المعرضين عن اتباع الحق ، فيقول : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلالاً فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ ﴾[يس] الأغلال : مفـردها غل ، وهو الحديدة التى تمسـك اليد وتشدّها تحت الـذقن ، وحين تشد اليـد تحت الذقن ترتفع الرأس إلى أعلى ، وبالتالى يرتفع مستوى النظر إلى أعلى ، فلا يكاد يرى الإنسانُ طريقه ، ولا يهتدى إلى موضع قدمه .

وهذه الصورة واضحة أيضاً فى معنى كلمة ﴿ مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ ﴾[يس] المقمح : مـأخوذ من إبل قماح ، وقماح الإبل أنهـا حين تذهب لشرب الماء تغرف منه ، ثم ترفع رءوسها إلى أعلى[1] .

قال بعضهم : إن هذه صورة رسمـها الحق سبحانه لمن غَلَّ يده عن الصـدقة وعن الإنفـاق ، كذلك تُغَـلُّ يده إلى عنقه يوم القـيامـة ، بحيث يؤثر هذا الغُلُّ فى مساره الذى بنى عليه حركة حياته ، والحق سبحانه يوازن دائماً بين ما فعله المـستحق للجزاء والجزاء ، فالجزاء من جنس العمل .

ومثال ذلك قوله سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴿٣٤﴾ ﴾[التوبة] هذا هو العمل ، فما الجزاء ﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَـٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [التوبة]

هذه مواضع ثلاثة من الإنسان : الجِبَاه ، والجُنُوب ، والظُّهور جاءت بهذا الترتيب لتطابق تماماً مـا فعله صاحب المال الذى كنز ماله وضَنَّ به على الفقيـر ، فقد كان الفـقير يأتيه فيـلوى عنه جبهته ويعطـيه جَنْبه ، ثم

---

(١) قال الجوهرى : قمح البعير قمـوحاً وقامح إذا رفع رأسه عن الحوض وامتنع عن الشرب ، فهو بعير قامح . [لسان العرب - مادة : قمح] .

يدير له ظهره وينصرف عنه ، فجاء عذابهم على مقدار ما فعلوه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ ﴾

هل معنى هذا أن الله تعالى يساعدهم ، ويُعينهم على الكفر ؟ قالوا : نعم لأن عبدى حين أناديه فيتأبَّى علىَّ فى ندائى ، ولا يُقبِل علىَّ بعبوديته لى أعينه على كفره ؛ لأننى رَبٌّ غنى عنه ، فإنْ أحب الكفر وعشقه ولم يَعُدْ هناك أمل فى هدايته أختم على قلبه ، فلا يدخله إيمان ، ولا يخرج منه الكفر . لذلك مَنْ تجنَّى عليك وصَدَّ عنك فأعنْه على ذلك ، ولا تُذكِّره بنفسك .

إذن : ما كفر أحد غَصْباً عن الله ، إنما كفر بما أودع الله فيه من اختيار ، ولأنه سبحانه رَبٌّ وهو خالق العباد ، فعليه سبحانه أنْ يُعينهم ، كلاً على ما يريد ، فالذى أراد الإيمان وأحبَّه أعانه على الإيمان ، والذى أراد الكفر وعَشِقه أيضاً أعانه عليه وساعده .

لذلك ختم الله على قلوب الكافرين ، وهنا يقول : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ ﴿٩﴾ ﴾ [يس] يعنى : أمامهم ﴿ سَدًّا ﴿٩﴾ ﴾ [يس] حاجزاً ومانعاً ﴿ وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا ﴿٩﴾ ﴾ [يس]

هذا مانع مادى خارج عن تكوين الإنسان ﴿ فَأَغْشَيْنَاهُمْ ﴿٩﴾ ﴾ [يس] يعنى : جعلنا على أبصارهم غشاوة وغطاءً ، فهم مصدودون عن الحق لأشياء . أولاً : فى ذواتهم أغشينا أبصارهم فلا يرونَ ولا يهتدون ؛ لأنهم بذواتهم لم يذكروا عهد الفطرة الأولى التى فطر اللهُ الناس عليها .

أما الخارج عنهم ، ففى المنهج الذى لم يلتفتوا إليه ، لا فيما أمامهم ، ولا فيما وراءهم ؛ لأن هناك سَدّاً يمنعهم ، فلو تذكَّروا ما ينتظرهم لارتدعوا عن غَيِّهم ، ولو تأملوا ما نزل بمَنْ سبقهم من المكذِّبين ، وما حاق بهم من عذاب الله لرجعوا .

لكن جعل الله من أمامهم سَدّاً ، فلا يعرفون ما ينتظرهم ، ومن خَلفهم سَدّاً فلا يتدبرون ما حاق بأسلافهم ، ممَّنْ قال الله فيهم : ﴿ فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا [1] .. (٤٠) ﴾ [العنكبوت]

فإنْ قُلْتَ : الحق سبحانه جعل سَدّاً يمنعهم من الجهة الأمامية ، وسَدّاً يمنعهم من الجهة الخلفية ، فماذا لو ساروا على جنب إلى اليمين ، أو إلى اليسار ؟ قالوا : لو ساروا وتوجهوا إلى اليسار مثلاً لَصَار اليسار بالنسبة لهم أمام ، واليمين صار خلفاً ، فهم إذن مُحَاصرون بالموانع ، بحيث لا أمل لهم فى الرجوع إلى منهج الحق ، وإلى الصواب .

ويصح أن يكون المعنى ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا (٩) ﴾ [يس] أى : مانعاً يمنعهم من التأمل والنظر فى الأدلة العقلية المنصوبة أمامهم ليؤمنوا ﴿ وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا (٩) ﴾ [يس] يمنعهم ، فلم

---

(١) هذه أربعة أصناف من العذاب :

- ﴿ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً (٤٠) ﴾ [العنكبوت] : هم قوم عاد . والحاصب ريح شديدة البرد عاتية شديدة الهبوب جداً تحمل عليهم حصباء الأرض حصاها ورمالها .
- ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ (٤٠) ﴾ [العنكبوت]: هم قوم ثمود ، جاءتهم صيحة أو صرخة أخمدت منهم الأصوات والحركات .
- ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ (٤٠) ﴾ [العنكبوت] : هو قارون ، خسف الله به وبداره الأرض .
- ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا (٤٠) ﴾ [العنكبوت] هو : فرعون ووزيره هامان وجنودهما أغرقوا عن آخرهم فى صبيحة واحدة .

ينتهوا إلى الفطرة الإيمانية المُودَعة فيهم .[١]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ ﴾

السوائية هنا بالنسبة لهم ، لا بالنسبة لرسول الله ﷺ ؛ لأن رسول الله عليه مجرد البلاغ ، ومادام بلَّغهم فقد انتهت مهمته ، فكأن الله يقول له : اطمئن ولا تحزن ، فإنذارك وعدمه عندهم سيَّان ، إنما بإنذراك أُقيمت عليهم الحجة ، لأنهم أقسموا فى موضع سابق : ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ﴾ [فاطر]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ ﴾

---

(١) أورد ابن كثير فى تفسيره هذه الآية (٣/٥٦٤) عن محمد بن كعب القرظى « أن أبا جهل قال لصناديد قريش وهم جلوس : إن محمداً يزعم أنكم إن تابعتموه كنتم ملوكاً . فإذا متم بعثتم بعد موتكم وكان لكم جنان خير من جنان الأردن ، وأنكم إن خالفتموه كان لكم منه ذبح ثم بعثتم بعد موتكم وكانت لكم نار تعذبون بها وخرج عليهم رسول الله ﷺ عند ذلك وفى يده حفنة من تراب ، وقد أخذ الله على أعينهم دونه فجعل يذرُّها على رءوسهم ويقرأ (يس والقرآن الحكيم) حتى انتهى إلى قوله تعالى ﴿ وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [يس] وانطلق رسول الله ﷺ لحاجته وباتوا رصداء على بابه حتى خرج عليهم بعد ذلك خارج من الدار ، فقال : ما لكم ؟ قالوا : ننتظر محمداً . قال : « وقد خرج عليكم ، فما بقى منكم من رجل إلا وضع على رأسه تراباً ثم ذهب لحاجته ، فجعل كل رجل منهم ينفض ما على رأسه من التراب » وذكره أيضاً السيوطى فى الدر المنثور (٧/٤٣) وعزاه لابن إسحاق وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبى نعيم فى الدلائل .

يعنى : إنذارك يا محمد يجدى مع مَنْ يذكر الله ويخافه ، ويؤمن به ، ويؤمن بقدرته تعالى على البعث وعلى الحساب ، هذا الذى ينتفع بالإنذار ويستفيد منه على خلاف المكذِّب للأصل ، كيف يستفيد من الإنذار ؟ ومعنى ﴿ اتَّبَعَ الذِّكْرَ ﴾ [يس] أى : القرآن .

والخشية : خوف ، لكن بمهابة ، فأنت تخاف الله وتهابه ، وكذلك ترجوه ، أما الخوف من غير الله فخوف بكُرْه ؛ لأنه خوف من جبروت ؛ لذلك جاءت بعد الخشية صفة الرحمة ﴿ وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ ﴾ [يس] فأنت تخاف ممَّن اتصف بالعطف والحنان ، وهذا أدْعى أنْ يُحبِّبك فيمَنْ تخاف منه ويعطفك إليه ، فتكون خشيتك له ممزوجة بالهيبة والوقار ، وبالرجاء فيه ؛ لذلك قال سبحانه : ﴿ وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ ﴾ [يس] حتى لا تنفر من الذى تخافه .

وهذه الخشية تكون من المؤمن ﴿ بِالْغَيْبِ ﴾ [يس] يعنى : ساعةَ يكون غائباً عن الناس منفرداً ، فإنه يخشى الله ، ولا يخشى الناس ، ولا يحتاج إلى رقيب ؛ لأن رقابة البشر للبشر لا تُجدى ؛ لأنك ستجعل عليه رقيباً من جنسه ، وما جاز على المراقَب يجوز على المراقب من تدليس وغيره ، حتى حين تجعل على المراقِب تفتيشاً مفاجئاً لا تأمن التدليس .

وسبق أنْ ضربنا مثلاً برجل المرور ، فالواحد منا قبل أنْ يُسمح له بقيادة سيارة لا بُدَّ أنْ يمرَّ بشروط قاسية تضمن أولاً سلامة السيارة التى يقودها ، ثم تمكّنه هو من فن القيادة ، ولا بُدَّ أنْ يجتاز الاختبارات اللازمة لذلك ، ومع هذا كله منَّا مَنْ يلتزم ، ومنَّا مَنْ لا يلتزم بالقواعد المرورية ؛ لذلك نجعل رجلَ المرور ليراقب وينظم حركة المرور فى الشوارع ، وعليه مَنْ يراقبه .

لكن لما وجدوا أن رجل المرور يمكن أنْ يُدلس ، فيأخذ الرخصة من مخالف ، ويتغافل عن آخر استحدثوا آلات للمراقبة مثل الرادارات، لتكون أكثر دقة ، لكن هذه الآلات مَنْ يُشغِّلها ؟ بشر يجوز عليهم ما يجوز على غيرهم .

إذن : حين يكون المراقب من جنس المراقَب ، فعملية المراقبة لا تفيد ، ولو جعلنا على كل منا رقيباً لاحتجْنا إلى جيوش من الحراس .

إذن : ماذا نفعل لنحكم هذا العالم كله ؟

محمد ﷺ جاء ولرسالته ميزات الرسالة الكاملة ، فرسالته غير محدودة بزمان ولا بمكان ، فالزمان والمكان هما اللذان يحصران الأحداث ، فهما ظرفان للحدث ، فإذا لم يكُنْ حدث موجوداً فلا زمانَ ولا مكانَ ؛ لذلك لا يصح أنْ يُقال بالنسبة لله تعالى : أين ولا متى ، لأن أيْن ومتى مخلوقتان لله .

وإذا كان الزمان والمكان يشتركان فى الظرفية للحدث إلا أن المكان ظرف قارٌّ يعنى : ثابت ، والزمان ظرف متغير ، فهذا وقته الصبح ، وهذا الظهر ونقول : هذا قبل كذا ، وهذا بعد كذا .

رسول الله جاء برسالة عامة فى الزمان وفى المكان إلى أنْ تقوم الساعة ، وجاء بمنهج لصيانة الإنسان فى العالم كله مع اختلاف بيئاته وطبائعه ، وفى الأزمنة باختلاف عصورها ، فكيف تتحقق هذه الصيانة وهذه المراقبة ؟ ما دام محمد ﷺ قد جاء بمنهج ليحكم به العالم كله زماناً ومكاناً ، فلا يصح أنْ يجعل على كل فرد منه رقيباً من جنسه ، ولا حتى من الملائكة ، إنما عليه أنْ يربى فى نفوس الناس خشية الله ، وأنْ يزرع فى قلوبهم المهابة منه سبحانه بالغيب ،

وهذا هو الرقيب الحقيقى والرقيب الملازم الذى لا ينفكّ عنك ، ولا يفارقك لحظة .

لذلك ، المرأة التى راودها الرجل وأغراها بأنهما فى فلاة لا يراهما أحد فقال لها : ما يمنعك منى ، وما يرانا غير الكواكب ؟ فقالت له : يا أبله ، وأين مُكوكب الكواكب ؟ هذه هى خشية الرحمن بالغيب .

ورُوِى أن المعتضد[1] وهو أحد ملوك دولة بنى بُوَيْه أيام الخلافة العباسية ، وكان مشهوراً بالذكاء والعدل ، وحدث أن جاء رجل إلى سوق بغداد ليبيع عِقْداً نفيساً ليحج بثمنه ، فلم يجد فى السوق مشترياً لنفاسة العقد ، ومرَّ الرجل بشيخ وقور عليه علامات الصلاح فقال : هذا رجل أمين أُودع عنده هذا العقد أمانة حتى أعود من الحج ، فلما عاد من الحج سأل الشيخ عن العقد الذى تركه عنده ، فأنكره الشيخ ، وخابت كل محاولاته لاستعادة العِقد .

سمعه أحد المارة فقال : يا هذا إنه رجل مخادع كذاب ، اذهب إلى المعتضد ، وسوف يعيد لك العقد بذكائه وحيلته ، ذهب الرجل إلى المعتضد وقصَّ عليه القصة فقال له : اذهب فى الغد واجلس بجوار هذا الرجل ، وسوف أمرُّ عليك فى موكبى فلا تَقُمْ لى وإنْ كلَّمتُك فرُدّ وأنت جالس ، ودَعْنى أتصرف فى هذه المسألة .

وفى الغد مَرَّ المعتضد فى موكبه المهيب ، وحوله الحاشية

---

(١) ليس المعتضد ، وإنما هو عضد الدولة واسمه فنَّاخسرو ، أبو شجاع ، أحد المتغلبين على الملك فى عهد الدولة العباسية ، ولد ٣٢٤ هـ تولى ملك فارس ثم ملك الموصل وبلاد الجزيرة ، كان شيعياً ، وكان كثير العمران عظيم الهيبة ، توفى ببغداد عام ٣٧٢ هـ عن ٥٢ عاماً . [الأعلام للزركلى ٥/١٥٦].

و (الهيلمان) والصولجان[١] فنظر إلى صاحب العقد وقال : يا فلان منذ متى وأنت هنا ؟ وكيف لا تخبرنى بوجودك لأقابلك وأؤدى لك حقك .

سمع الشيخ هذا الكلام فظنَّ أن الرجل من معارف الملك ومن أتباعه ، فارتعد ونادى صاحب العقْد ، وقال له : أرجوك لا تذكرنى أمام الملك بحكاية العقْد هذه ، وقام إلى العقْد فردّه إلى صاحبه ، ذهب الرجل بالعقد إلى المعتضد فتبسم ، وقال له : انتظرنى فى الغد أمام دكان هذا الشيخ .

وبالفعل جاء المعتضد ، لكنه هذه المرة كان بصحبته المشنقة ، فأمر بنَصْبها أمام دكان هذا المخادع ، وأمر به فشنقوه . ثم قال : هذا جزاء مَنْ كان إيمانه بين الناس مشهداً ، وليس إيمانه بالغيب – يعنى : بعيداً عن أعين الناس[٢] .

لذلك جعل الله المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ، وكانوا أول الناس سَعْياً للصلاة ، وكانوا أصحاب الصف الأول خلف رسول الله ، ومع ذلك كان هذا جزاءهم لماذا ؟ لأن المنافق متناقض مع نفسه ، فلسانه خلاف قلبه .

ومن معانى الغيب فى قوله تعالى :﴿ وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ ﴿١١﴾ ﴾ [يس] أى : الغيب الذى أخبر الله به من أن هناك آخرة وبعثاً وحشراً وحساباً .

---

(١) الصولجان : العود المعوج فارسى معرّب [لسان العرب – مادة صلج] وهو رمز السلطة والجاه .

(٢) ذكر هذه القصة الإمام ابن الجوزى فى كتابه الأذكياء – الباب الحادى عشر ، وقد حدث هذا فى بغداد ، وقد كان التاجر الذى أنكر الوديعة التى عنده عطاراً ، أما الآخر فقد كان من أهل خراسان ، وكان جزاء العطار أن العقد عُلّق فى رقبته وصُلب على باب الدكان .

وهذه الخشية لله تكون بالغيب يعنى : الإيمان بالغيب ، والله تعالى نؤمن به سبحانه وهو غيب ، والغيب كما قلنا : ما غاب عنك ولا يوجد فى الكون طريق يُوصِّلك إليه ولا مقدمات ، فنحن نعرف مثلاً فى حل تمارين الهندسة أو النظرية : الفرض والمعطيات والمطلوب ، فالمعطيات والمقدمات تُوصِّلك للغاية وللمطلوب .

لذلك تجد أن علم الغيب ينقسم إلى قسمين : غيب استأثر الله به ، لا يُظهر عليه أحداً إلا مَن ارتضى من رسول ، ولم يجعل لهذا النوع من الغيب مقدمات تُوصل إليه وتدلّ عليه ، وهناك غيب له مقدمات تدلُّك عليه ، فإن استخدمتَ هذه المقدمات توصَّلْتَ بها اليوم إلى ما كان غيباً بالأمس ، وينبغى عليك أنْ تستدلّ بالغيب الذى صار مشهداً لك على أنْ تصدق بالغيب الذى لم تدرك غيبه ، ولا سبيل لك إليه ، ينبغى أنْ يحفزك ما ترى على أنْ تؤمن بما لم تَرَهُ .

وقلنا : إن هذا النوع من الغيب وهو الغيب الذى له مقدمات تُوصِّل إليه ، له ميلاد يظهر فيه ، فإنْ صادف هذا الميلاد بحثاً من البشر ، وكان البحث سبباً فى ظهوره ، وإلا أظهره الله مصادفة ، كما جاءت أغلب الاكتشافات التى تخدم البشرية الآن مصادفة ؛ لأن ميلاد الغيب جاء وبحثُك عنه لم يجئ .

والمؤمن هو الذى يزداد إيمانه بالغيب حين يستدل بما ظهر له على ما لم يظهر ، ومن العلماء والموهوبين من الناس مَنْ يفسر لك الغيب الذى لم يأْت أوانه بشىء موجود بالفعل ، ومن ذلك ما رُوى أن الروم أرسلتْ إلَى أمير المؤمنين أنْ يرسل إليهم عالماً يفقههم فَى أمور الدين ، فأرسل إليهم الشّعْبى[1] فجعلوا يسألونه فيمَا يَخْفى عليهم

(١) ذكر ابن حمدون فى « التذكرة الحمدونية » أن الرجل هو خالد بن يزيد القرشى ، وقد التقى بشمامسة ورهبان وسألوه هذه الأسئلة ، وذكر صلاح الدين الصفدى فى « الوافى بالوفيات » أن الرجل هو الخليل بن أحمد الفراهيدى والسائل راهب فى صومعة ، وكذلك القاضى التنوخى فى « نشوار المحاضرة » . والله أعلم .

من الدين ، وكان مما عرضوه عليه أن الإنسان حين يُنعَّم فى الجنة يأكل ولا يتغوَّط ، فكيف يكون ذلك ؟ فرد الشَّعْبى بما عنده من الإشراقات التنويرية التى يفتح الله بها على مَنْ يشاء . وقال لهم : أرأيتم الجنين فى بطن أمه ، إنه يتغذى وينمو دون أنْ يتغوط ، ولو تغوَّط فى مشيمته لاحترق ، كذلك الإنسان فى الجنة يأكل ولا يتغوَّط ؛ لأنه يتغذى بطهى الله له ، فالله يعطيه بقَدَر بحيث لا يبقى شىء يتغوّطه الإنسان ، أمّا نحن فنأكل بطهينا لأنفسنا ، ولا نأكل بقدْر الحاجة ، لذلك نتغوط .

قالوا له : زعمتم أنكم تأخذون من الجنة ما تشاءون دون أنْ ينقص منها شىء ، فكيف ذلك ؟ قال : لأن الشىء ينقص بالأخذ منه حين لا يكون له مدد من الغير ، فإنْ كان له مدد لا ينقص ، والمدد فى الجنة مِن الله ، فكيف يتأتى النقصان ؟

شىء آخر : لو جئتَ إلى المصباح فأخذتَ منه شعلة ، بل آلاف الشعلات ، أينقص من ضوء المصباح شىء ؟

وهكذا رَدّ الشعبى ، وأُعجب به القوم ، وكتبوا له كتاباً يُوصله إلى أمير المؤمنين ، وكأنهم حسدوا أمير المؤمنين أن تكون مثل هذه العقلية وهذه الموهبة فى خدمته ، وكان فى الكتاب : عجبتُ لقوم فيهم مثل الشعبى ، كيف يُولُّون غيره ؟

فلما ذهب الشعبى وسلَّمه الكتاب قرأه أمير المؤمنين ، وقال للشعبى : أتدرى ما فى الكتاب ؟ قال : لا يا أمير المؤمنين . قال : اقرأ ، فقرأ الشعبىُّ العبارة : عجبتُ لقوم فيهم مثل الشعبى كيف يُولُّون غيره ؟ فقال : نعم يا أمير المؤمنين ، لأنه لم يَرَكَ ، ولو رآك لغيَّر رأيه .

والمتأمل فى مسألة الإنذار يجد لرسول الله ﷺ إنذارين : عام للعالمين جميعاً ، وهو إنذار بلاغ من الله للجميع المؤمن والكافر ، وهو الذى قال الله فيه : ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا .. (٢٤)﴾ [فاطر] فالذين يؤمنون بالله ينتفعون بالإنذار ، وينتفعون بالبشارة ، والذين لا يؤمنون لا ينتفعون من ذلك بشىء .

والإنذار الآخر إنذار خاص بمَنْ خَشى الرحمن بالغيب ، وهو إنذار القبول ، وينتفع به مَنْ خشى الرحمن بالغيب ، فالذين لا يخشوْن ربهم سبق أن أُنذروا ، لكن إنذار بلاغ ، فلم ينتفعوا به ؛ لذلك لم يشملهم الإنذار الخاص .

وقوله سبحانه : ﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ (١١)﴾ [يس] قلنا : إن البشارة : إخبار بالخير قبل أوانه ليحفزك إلى أسباب الخير ويُطمعك فيها ، وتلحظ هنا أن المغفرة سبقتْ الأجر ، لماذا ؟ قالوا : لأن الحق - سبحانه وتعالى - قبل أن يُعطيك النعمة يصرف عنك العذاب أولاً ؛ لأن التخلية كما قلنا تسبق التحلية ، ثم إن المغفرة دائماً هى جزاء الإيمان بالله ، أما الأجر فجزاء العمل بمنهج الله ؛ لذلك قال سبحانه : ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ (٤٨)﴾ [النساء] فمَنْ آمن بالله أمِنَ العذاب وضمن المغفرة ، فإنْ أراد الأجر فعليه بالعمل الصالح .

ووصف الأجر نفسه بأنه كريم مع أن الكريم هو المعطى سبحانه ، فالمعنى أن كرم المعطى تعدَّى إلى العطية ، فصارت العطية كريمة ، وكأنها تتلهَّف على صاحبها ، كما يتلهَّف الرجل إلى العطاء ؛ لذلك قلنا : إن النعمة التى يُنعم الله بها على خَلْقه تعشق صاحبها ، وتسعى إليه وتكره مَنْ يحسده عليها ، أو يحقد عليه بسببها .

لذلك لا تذهب إلى هذا الحاسد الحاقد ، ولا يناله منها خير أبداً ،

وكأن المُنعم سبحانه يقول : ما دُمْتَ قد كرهتَ النعمة عند غيرك ، فلن تنال منها شيئاً ؛ لأنك تُخطِّئ الله فى عطائه ، وتعترض على قضائه ، فكيف تأتيك نعمته ؟ لكن إنْ أحببت النعمة عند غيرك تأتكَ وتطرق هى بابك .

وهذه المسألة لها شواهد كثيرة من حياتنا ، أذكر منها أن رجلاً من بلدنا ميت غمر جاءنى يشكو قسوة عمه الغنى عليه ، وأنه رغم غنَاه بخيل عليه ، ويستعمل الأغراب ، ويتركه هو بدون عمل ، وغير ذلك مما ذكره فى شكواه ، وكان معى فى هذه الجلسة أهلى ، فقالت له : يا ابنى أنت دائماً تشتم عمك وتخوض فى حقه ، قال : نعم لأنه لا يسأل عنى .

فقلت له : أسألك سؤالاً وأستحلفك ألاَّ تكذب ، فلما رأى أننى سأحلفه على المصحف تراجع ، فقلت له : أتحب النعمة عند عمك ؟ قال : لا ، كيف أحبها ، وأنا لا أنال منها شيئاً ، قلتُ : لو أحببتَ النعمة عند عمك ، وتمنيتَ له الخير والمزيد لجاءتك النعمة تطرق بابك ، قال : إذن أرجوك يا مولانا تكلم عمى وتوصيه علىَّ .

ويبدو أن الرجل حاول فعلاً إصلاح نفسه ، فأصلح الله ما بينه وبين عمه ، فبعد صلاة الفجر جاءنى يطرق الباب ، فلما دخل قال وهو يبكى : يا مولانا أحكى لك حكاية أغرب من الخيال . قلت : ما هى ؟ قال : قبل الفجر بساعة جاء مَنْ يطرق علىَّ الباب بشدة ، فقمت ففتحت الباب ، فإذا به عمى يعاتبنى ويقول : كيف تتركنى للأغراب ينهبون مالى وأنت (داير) على حَلِّ شعرك ، خذ المفاتيح ، ومن الصباح تفتح المحلات ، وتباشر بنفسك مصالحى .

فقلت له . نعم ، لأنك أحببتَ النعمة عند عمك وغيَّرتَ ما فى

نفسك ناحيته . إذن : مَنْ أراد أن تكون نِعَم الناس كلها عنده ، فَلْيُحب النعمة عند غيره .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾

قوله تعالى فى الآية السابقة ﴿ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ ﴾ [يس] لها موضع هنا ، فالمغفرة والأجر الكريم فى الآخرة ، فناسب أنْ يُحدِّثنا الحق سبحانه عن مشهد من مشاهدها : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ ﴿١٢﴾ ﴾ [يس]

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ ﴿١٢﴾ ﴾ [يس] هذان ضميران للمتكلم على سبيل التعظيم ، فإنَّا هى نحن ، كما لو قلت : زيد زيد ، فماذا أضافتْ نحن بعد إنَّا ؟ القاعدة فى صياغة اللغة أن تمييز الشىء يأتى حين يكون هناك اشتراك ، فإنْ لم يكُنْ اشتراك فلا يأتى التمييز كما لو قُلْتَ لمن يطرق على بابك : مَنْ أنت ؟ يقول : محمد ، وأنت تعرف محمدين كثيرين . فتقول : أىُّ المحمدين أنت ؟ فيقول : محمد أحمد ، وأيضاً أنت تعرف كثيرين بهذا الاسم ، فتقول : محمد أحمد مَنْ ؟ فيقول : محمد أحمد محمود . وعندها يحصل التمييز لوجود الاشتراك فى الأولى ، وفى الثانية .

فكأن الحق سبحانه لما قال ﴿ إِنَّا ﴿١٢﴾ ﴾ [يس] وليس هناك غيره قال : ﴿ إِنَّا نَحْنُ ﴿١٢﴾ ﴾ [يس] يعنى : كأنه قال إنَّا إنَّا يعنى : لا أحدَ سِوَاى ، فليس فى هذه المسألة اشتراك .

وسبق أنْ أوضحنا أن كلام الله تعالى عن نفسه قد يأتى بصيغة الجمع كما فى ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾﴾ [القدر]

وقال : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر] وتلحظ أن الضمير هنا للتعظيم ، وهكذا فى كل الآيات التى تتحدث عن فعل من أفعاله تعالى ، أو عن فضل من أفضاله ، ذلك لأن كل فعل من أفعاله تعالى يحتاج إلى عدة صفات : يحتاج إلى علم ، وإلى حكمة ، وإلى قدرة .. الخ وكل هذه الصفات كامنة فى (نحن) الدالة على العظمة المتكاملة فى الأسماء الحسنى لله تعالى .

أما حين يتكلم سبحانه عن الذات الواحدة ، فيأتى بضمير المتكلم المفرد كما فى : ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ ﴿١٤﴾﴾ [طه] ولم يَقُلْ مثلاً : إننا نحن الله ؛ لأن إننا ونحن تدل على الجمع ، والكلام هنا عن الوحدانية ، فلا بُدَّ أنْ يأتى بصيغة المفرد .

لذلك يؤكد الحق سبحانه هذه الوحدانية بعدة وسائل للتوكيد فى قوله سبحانه : ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي ﴿١٤﴾﴾ [طه] فلم يَقُلْ سبحانه : فاعبدنا وأقم الصلاة لذكرنا ، إنما ﴿فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي ﴿١٤﴾﴾[طه] لأن العبادة تكون لله وحده .

ثم إن عملية البعث وإحياء الموتى لله وحده لا يشاركه فيها أحد .

وقال سبحانه ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ ﴿١٢﴾﴾ [يس] قبل ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ ﴿١٢﴾﴾ [يس] مع أن الكتابة تسبق عملية الإحياء ، الكتابة كانت فى الدنيا ، والإحياء فى الآخرة ، فلماذا ؟ أولاً : عليك أن تلاحظ أن هذا الكلام ليس كلامك ، إنما كلام الله ، فلا بُدَّ أن تُعمل عقلك لتفهم عن الله مراده ؛ لأن أسلوب الحق - سبحانه وتعالى - يحمل من الكمالات ما يناسب كماله سبحانه ، وكلامك أنت يحمل ما يناسب كمالك .

لذلك سبق أنْ قُلْنا : إن القرآن له تميُّزات عن كل الكتب ، وأن تناوله غير تناول أيِّ كتاب فلا بُدَّ أن يُقرأ على طهارة ، وعلى وضوء ، ولا بُدَّ أن يُراعى فى قراءته مخارج الحروف وقواعد التلاوة وآدابها .

وفاتنا أن نقول : إنه تميَّز تميُّزاً آخر ، فكما تميز فى نُطْقه تميز فى كتابته ، فمثلاً كلمة اسم تُكتب بالألف كما فى ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾﴾ [الرحمن] ، وكما فى ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴿١﴾﴾[الأعلى] ، لكن فى البسملة فى أوائل سور القرآن كُتبت بدون الألف هكذا بسم الله الرحمن الرحيم ، لذلك نقول عن القرآن : نكتبه بالإملاء ؟!! لا لأن كتابته توقيف .

إذن : ما الحكمة من تقديم ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ ﴿١٢﴾﴾ [يس] على ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا ﴿١٢﴾﴾ [يس] ؟ قالوا : لأنه ما فائدة الكتابة ؟ الكتابة للأعمال لحصر الحسنات لنثيب عليها ، ولحصر السيئات لنعاقب عليها ، فإذا لم يكُنْ هناك إحياء للموتى وحساب وجزاء ، فما فائدة الكتابة ؟ لذلك قدَّم الإحياء على كتابة الأعمال ، كما أن الإحياء أعظم من الكتابة فناسب أنْ يتقدم عليها .

ومعنى : ﴿مَا قَدَّمُوا ﴿١٢﴾﴾ [يس] أى : من الأعمال ، والعمل قد يكون عملاً مثمراً مستمراً بعد موت صاحبه كالصدقة الجارية ، فلو حفر إنسان بئراً مثلاً يشرب منه الناس ويموت يظلّ البئر يسقى الناس ، أو ترك علماً نافعاً ، هذا كله أثر من آثار العمل الذى كُتب أولاً ، وهو المراد بقوله تعالى : ﴿وَآثَارَهُمْ ﴿١٢﴾﴾ [يس]

ومن آثار الإنسان ما سنَّه للناس وتركه يتبع من بعده ، سواء أكان حسنة أم سيئة ، فكله مكتوب مُسجَّل فى كتاب لا يترك صغيرة

ولا كبيرة إلا أحصاها ، وأحصى آثارها من بعد صاحبها ، فلو كتب إنسان مثلاً وصية ظالمة حرمت صاحب الحق من حقِّه ، والوارث من ميراثه تحمل كل الآثار المترتبة على هذا الظلم ؛ لأنه لم يحرم الوارث المباشر فحسب ، إنما حرم أيضاً ذريته التى كانت ستستفيد من هذا الميراث ، لذلك يظل عليه وِزْرها إلى يوم القيامة .

كذلك مَنْ سَنَّ للناس قانوناً جائراً ، فعليه وِزْر القانون الجائر الذى حكم هو به ، ثم على مَنْ يحكم بهذا القانون من بعده ، ومثل مسألة القطاع العام مثلاً ، القطاع العام أقامه مَنْ أقامه ، ثم ظلَّتْ آثاره تنهب فى الناس إلى أنْ ضَجَّ منه الجميع وطالب الحكام أنفسهم بتعديله .

هذه القضية تشرح لنا حديث سيدنا رسول الله : « مَنْ سَنَّ سُنة حسنة فله أجرها وأجر مَنْ عمل بها إلى يوم القيامة ، ومَنْ سَنَّ سنة سيئة فعليه وزرها ووِزْر مَنْ عمل بها إلى يوم القيامة »[(١)]

أرأيتم الرجل العجوز يزرع النخلة وربما لا ينتفع بثمرها ، لكن ينتفع به مَنْ بعده ، فهذه هى آثاره من بعده يكتبها الله له ويُحصيها لحسابه .

وقال بعض العلماء فى معنى : ﴿ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ ﴿١٢﴾ ﴾ [يس] أى : نكتب ما قدموا من النية التى تسبق العمل ، ثم نكتب العمل نفسه ، وهو آثار هذه النية ، فحين تعقد نية الخير فى عمل ما تأخذ أجر النية ، فإذا ما عملتَ العمل تأخذ أجر العمل .

وهذا يفسر لنا الحديث الشريف : « مَنْ هَمَّ بحسنة فلم يعملها

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٤/٣٦١ ، ٣٦٢) ، ومسلم فى صحيحه (١٠١٧) ، وابن ماجه فى سننه (٢٠٧) ، والترمذى فى سننه (٢٦٧٥) من حديث جرير بن عبد الله البجلى . قال الترمذى : حديث حسن صحيح .

كُتبت له حسنة ، ومَنْ هَمَّ بها فعملها كُتبت له عَشْراً »[(١)] وهذا يرشدنا إلى أهمية عقد النية قبل الشروع فى العمل ليثاب عليها الإنسان ، فالمؤمن لا يأتى العمل هكذا عشوائياً .

وقوله تعالى : ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ (١٢) ﴾ [يس] هناك فَرْق بين الكتابة والإحصاء ، الكتابة أنْ تكتب الشىء ، لكن لا تضم المكتوبات إلى بعضها ، فتحتاج إلى مَنْ يحصيها ويعدُّها ، فالحق سبحانه يسجل علينا الأعمال كتابة أولاً ، ثم إحصاءً وعَدّاً ، والإحصاء والعَدُّ أيضاً فى كتاب مسجل فيه كل شىء ﴿ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ (١٢) ﴾ [يس] والإمام هو ما يُؤتَم به ، والمراد هنا اللوح المحفوظ الذى تأخذ منه الملائكة مهمتها فى إدارة الكون .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (١٣) إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ (١٤) ﴾ [(٢)]

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٣٠) كتاب الإيمان (حديث ٢٠٦) من حديث أبى هريرة ، وأخرجه البخارى فى صحيحه بلفظ آخر (٦٤٩١) عن ابن عباس .

(٢) قال ابن كثير فى تفسيره (٣/٥٦٩) : « جاء عن كثير من السلف أن هذه القرية هى أنطاكية ، وأن هؤلاء الثلاثة كانوا رسلاً من عند المسيح عيسى بن مريم ، كما نصَّ عليه قتادة وغيره وهو الذى لم يُذكر عن واحد من متأخرى المفسرين غيره ، وفى ذلك نظر من وجوه :

أحدها : ظاهر القصة يدل على أن هؤلاء كانوا رسل الله عز وجل لا من جهة المسيح ، ولو كان هؤلاء من الحواريين لقالوا عبارة تناسب أنهم من عند المسيح عليه السلام ، ثم لو كانوا رسل المسيح لما قالوا لهم : ﴿ مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا (١٥) ﴾ [يس] .

الثانى : أن أهل أنطاكية آمنوا برسل المسيح إليهم وكانوا أول مدينة آمنت بالمسيح ، ولهذا كانت عند النصارى إحدى المدائن الأربعة اللاتى فيهن بتاركة ، وهُنَّ : القدس ، وأنطاكية ، والإسكندرية ، ورومية . فإذا تقرر أن أنطاكية أول مدينة آمنت ، فأهل هذه القرية ذكر الله تعالى أنهم كذَّبوا رسله ، وأنه أهلكهم بصيحة واحدة أخمدتهم » .

أولاً : لاحظ أن هذه الآية هى التى ستفسر لنا مسألة أن يس قلب القرآن .

قوله تعالى : ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم (١٣) ﴾ [يس] نعرف أن الضرب هو إيقاع جسم على جسم بقوة بحيث يؤثر الجسم الضارب فى المضروب ويؤلمه ؛ لذلك لا بُدَّ أن يكون الضارب أقوى من المضروب ، فإذا كان المضروب مثل الضارب أو أقوى منه ، فالحركة عبث لا جدوى منها .

ومن ذلك قول الرافعى[1] رحمه الله مخاطباً مَنْ يهزأ من قدر الله :

أيَا هَازِئاً مِنْ صُنُوفِ القَدرِ ... بنفسكَ تعنُف لاَ بالقَدَر
وَيَا ضارباً صَخْرَةً بالعَصَا ... ضَرَبْتَ العَصَا أَمْ ضَرَبْتَ الحَجَر[2]

وفى مادة ضرب يقولون : ضريب الشىء من ضربه يعنى من شبهه وشكله ، فإنْ وقف اثنان فى مسألة ما ، اذكر لهما مثلاً مطابقاً لها وقُلْ لهما : هذه مثل هذه . وأكرم مَثَل فى القرآن ضربه الله تعالى لبيان تنويره سبحانه للكون لا لنوره ، كما يظن البعض ، هو قوله سبحانه :

﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ .. (٣٥) ﴾ [النور]

---

(١) هو مصطفى صادق عبد الرازق الرافعى ، عالم بالأدب شاعر ، من كبار الكتاب ، أصله من طرابلس الشام ، مولده فى بهتيم بمنزل والد أمه عام ١٨٨١ م ، وتوفى بطنطا عام ١٩٣٧م عن ٥٦ عاماً ، له رسائل فى الأدب والسياسة ، ديوان شعره فى ثلاثة أجزاء ، وله كتاب « وحى القلم » و « المعركة » فى الرد على طه حسين .

(٢) لم أقف على هذه القصيدة للرافعى ، ولكن له قصيدة من بحر البسيط عدد أبياتها عشرون بيتاً ، أولها : يا فاجع القوم ماذا ينفع الحذر .

هذا مَثَل لتنوير الله للمنوَّر ، وليس مثلاً لنور الله تعالى ؛ لأن نور الله كمال لا يُحَدُّ ، وما نحيا به من نور الدنيا إنما هو من متعلقات نوره سبحانه ، بدليل أنه في يوم القيامة لا تكون هناك شمس تنير ، ولا قمر يضيء ، إنما ﴿ وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا (٦٩) ﴾ [الزمر]

وقال : ﴿ لا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلا زَمْهَرِيرًا (١٣) ﴾ [الإنسان]

ذلك لأننا نعيش في الدنيا بالأسباب المخلوقة لله تعالى ، أما في الآخرة فنعيش بالمسبِّب مباشرة ، في الدنيا أعطاك الله عقلاً يفكر ، وجوارح تعمل ، وأرضاً تنبت ، وماءً يروى ، هذه أسباب لله يعيش عليها الإنسان ، وربما ظنَّ أنه أصيل في الدنيا ، وربما اغترَّ بما أعطاه الله ؛ لذلك يجعل الله هذه الأسباب تتخلَّف بعض الأحيان ، وتعزّ علينا ليلفتنا إليه سبحانه ، ويقول لنا : لا تغترُّوا بالأسباب ، وتغفلوا عن المسبِّب .

لذلك حين تتخلف الأسباب فيصيب الناسَ جدبٌ وقَحْطٌ قد يطول حتى يُشرف الناسُ والدوابُّ على الهلاك يشرع لنا صلاة الاستسقاء فيهرع الناسُ إلى الله معهم دوابّهم ونساؤهم وأطفالهم ، حتى أنهم يُغيِّرون هندامهم وملابسهم ، يجأرون إلى الله طالبين مِنْه السُّقْيا .

فكأن الله تعالى خلّف أسبابه ليُذكِّرنا به سبحانه ، وليُعلمنا أن المسألة ليست (ميكانيكا) ، المسألة أسباب وراءها مُسبِّب قادر أنْ يُوقفها ، حتى جوارح الإنسان سخَّرها الله لإرادته ، حتى ربما يغتر بها الإنسان ، ويظن أنها ملْكه ورَهْن إشارته ، والحقيقة أنها هبَة من الله إنْ شاء تركها ، وإنْ شاء سلبها ، بفصل السيال الكهربى بين الجارحة والعقل ، فتشل الجارحة ولا تتحرك ، فيريد أنْ يرفع يده فلا يستطيع .

الآن نرى مثلاً أمريكا تُوزِّع المعونات على دول العالم ، وهى أكثر الدول تقدُّماً وازدهاراً ، وفجأة يأتيها مثلاً فيضانات يصل فيها الماء إلى أسطح المنازل ، كذلك اليابان مثلاً تُعَدُّ بلد زلازل بطبيعتها ، وهم يعرفون ذلك ويقولون : بلادنا مهطل الزلازل ، لذلك يتخذون كل التدابير اللازمة والاحتياطات ، ومع ذلك يأتيهم زلزال كبير مدمر كما حدث فى (سخاليد) ، فلم تُجْدِ معه كل هذه الاحتياطات والاستعدادات .

إذن : الحق سبحانه يخلف هذه المسائل حتى لا نغترّ بالأسباب ، وننسى المسبب سبحانه ، وصدق الله حين قال : ﴿ كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝٦ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ۝٧ ﴾ [العلق]

والحق سبحانه وتعالى يُعلِّمنا كيف ندعوه ونلجأ إليه وحده حين تعزُّ علينا الأسباب ، فيقول سبحانه : ﴿ فَلَوْلا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا .. ۝٤٣ ﴾ [الأنعام] وكأن الله تعالى يُعلِّمنا كيف نُحنِّنه علينا حين نقول : اللهم افْرِج عنَّا ما نحن فيه .

وضَرْب المثل أسلوب من أساليب العربية لتوضيح المسائل والإقناع بها ، وأكرم مَثل ضربه الحق سبحانه لتنويره كما قلنا ؛ لأن نورَ الله لا مثيلَ له ، فقوله : ﴿ مَثَلُ نُورِهِ ۝٣٥ ﴾ [النور] أى : تنويره ﴿ كَمِشْكَاةٍ ۝٣٥ ﴾ [النور] كثيرون يظنون أن المشكاة هى المصباح ، لكن المشكاة هى (الطاقة) الموجودة فى الحائط ، وهى عبارة عن نافذة مفتوحة من جهة واحدة يُسمُّونها الكوة ، وهى موجودة فى بيوت الفلاحين المبنية بالطوب اللَّبِن ، وهذه الكوة تعمل على تجميع الضوء بحيث لا يتبدد هنا وهناك .

هذه المشكاة ﴿ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ

يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ﴿٣٥﴾﴾[النور] ولك أنْ تتأمل كم ميْزة فى هذا النور الذى يصدر من مشْكاة تجمع الضوء ، ثم مصباح ، هذا المصباح فى زجاجة تنقى ضوءه وتُصفِّيه ، بحيث لا يصدر منه دخان ؛ لأن الزجاجة تسمح بالهواء على قدر حاجة المصباح ، وهذه الزجاجة ليست زجاجة عادية ، إنما زجاجة مثل الكوكب الدرى . يعنى : مضيئة بنفسها ، من الدُّرة .

ثم إن هذا المصباح يُوقَد بزيت من أرقى أنواع الزيوت هو زيت الزيتونة ، هذه الزيتونة لا هى شرقية فتكون حارة ، ولا هى غربية فتكون باردة ، فهى معتدلة المزاج نقية ، حتى أنَّ زيتها يضىء ، ولو لم تمسسه نار .

فهو إذن من صفائه يكاد يضىء بذاته ؛ لذلك يختم المثل بقوله سبحانه : ﴿نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ ﴿٣٥﴾﴾ [النور] كذلك يُنوِّر الله هذا الكون الواسع كما يُنوِّر هذا المصباح هذه الكُوَّة الصغيرة .

لكن ، لماذا يضرب لنا الحق سبحانه هذا المثل ؟ قالوا : لأن الحق سبحانه حينما خلق الإنسان ، وجعل له حركة فى الحياة احتاجت هذه الحركة إلى نور حسِّى يهدى حركته الحسية ، وإلى نور معنوى يهدى حركته المعنوية ، فالنور الحسِّىُّ نأخذه من الشمس نهاراً ، ومن القمر ليلاً ، فإنْ عَزَّ علينا النور اصطنعناه ، كُلٌّ على قدر إمكاناته ، فواحد ينير طريقه بشمعة ، وآخر بلمبة (نمرة خمسة) ، وآخر بالنيون والفلورسنت مثلاً ، فإذا ما أشرقتْ الشمس ، وجاء نور الله استغنى الناسُ عن أنوارهم الصناعية ، وأطفئوا مصابيحهم وتساووا جميعاً فى نور الله ، إذا طلعتْ الشمس فكلنا فى الأَخْذ بنور الله سواء .

فما دام نور الله قد ظهر ، فلا نورَ لأحد مع نور الله ، كذلك فى

المعنويات ، وكأن الله تعالى يريد أنْ يقول لنا : إذا جاءكم حكم الله ، فلا حكمَ لأحد مع حكم الله ، وهذا هو نور القيم الذى جاءنا فى القرآن الكريم ؛ لذلك قال سبحانه : ﴿نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ (٣٥)﴾ [النور]

ولكُلِّ مَثَل مضرب يُضرب فيه ، ومناسبة يُقال فيها ، فلما رأى أحدهم شاعراً يطيل فى مدح ممدوحه قال : لا بُدَّ أنه بخيل ، فاحتاج إلى كل هذا المدح ليُحنِّنه على مادحه فيعطيه ، وقال فى ذلك[1] :

وإذَا امْرؤٌ مَدَح امْرَءاً لنَوالِه ... وأَطَالَ فيه فَقَدْ أَطَالَ هِجَاءَهُ
لَوْ لم يُقدِّر فيه بُعْد المسْتَقى ... عِنْد الوُرود لما أطال رِشَاءَهُ[2]

لأن بُعْد الماء فى البئر يستدعى طول الحبل ، وهو الرِّشَاء الذى يُربط به الدلو .

ومن أمثال القرآن لتوضيح مسألة الشرك بالله : ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً (٢٩)﴾ [الزمر]

يعنى : حين يتعجبون من دعوتهم إلى التوحيد ، وحين يختلفون فى هذه المسألة ، اضرب لهم هذا المثل وطوِّقهم به ، يعنى : كيف تتعجَّبون من عبادة الله وحده لا شريكَ له ، وفى حياتكم العملية مِثْلُ ذلك ، فهل يستوى عندكم عبد يتنازعه أكثر من سيد وعبد لسيد واحد ؟ ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً (٢٩)﴾ [الزمر]

---

(١) هو ابن الرومى على بن العباس بن جريج أو جورجيس ، رومى الأصل ، ولد ببغداد عام ٢٢١ هـ ونشأ بها ، مات فيها مسموماً قال المرزبانى : لا أعلم أنه مدح أحداً من رئيس أو مرؤوس إلا وعاد إليه فهجاه وكان سبباً لوفاته .

(٢) هذان البيتان من قصيدة لابن الرومى من بحر الكامل ، عدد أبياتها ٤ أبيات ، أولها :
كل امرىء مدح امرءًا لنواله ... فأطال فيه فقد أراد هجاءه

كذلك أنتم فى عبادتكم غير الله : كيف تذهبون إلى عبادة آلهة متعددة ، وتتركون الإله الواحد الحق ، إذن : يسوق الحق سبحانه للكفار هذا المثَل ليُجلِّى لهم قضية وقفتْ فيها عقولهم .

والمثَل فى أدبنا العربى له مورد ومضرب : مورد المثل هو الحادثة التى قِيل فيها المَثَل ، ومضرب المثل هى الحادثة المشابهة للمورد الأصلى ، فكأن المورد الأصلى للمثل يؤدى إلى حقيقة متينة ينبغى أنْ نحافظ عليها ونُكررها فى الموقف المشابه ، فمثلاً حين ترى تلميذاً يهمل دروسه طوال العام ، ويأتى قبل الامتحان ليذاكر ، لك فى هذا الموقف أن تقول (قبل الرِّماء تملأ الكنائن)[١] فهذا مثَل يُضرب لمن لا يستعد للأمر قبل وقوعه .

فإنْ تحدَّاك رجل مثلاً وادعى أنه أقوى منك لك أنْ تقول له : (إن كنتَ ريحاً فقد لاقيتَ إعصاراً)[٢]

والمثل يُقال كما جاء دون أنْ تغير فى لفظه شيئاً ، فلو أرسلتَ مثلاً رسولاً ليأتى لك بالأخبار تقول له حين يعود : (ما وراءك يا عصام)[٣] كذلك إنْ كانوا مَثْنى أو جمعاً ، فالمثل يلزم صيغةَ

---

(١) هو مثَل يضرب فى الاستعداد للنوائب قبل حلولها ، ذكره أبو هلال العسكرى فى جمهرة الأمثال ، وكذا الميدانى فى مجمع الأمثال ، وابن عبد ربه فى العقد الفريد (كتاب الجوهرة فى الأمثال) .

(٢) أى : لاقيتَ من هو أشد منك . ذكره أبو منصور الثعالبى فى كتابه « التمثيل والمحاضرة » ، وكذا الزمخشرى فى « المستقصى فى أمثال العرب » .

(٣) قال أبو عبيد : من أمثالهم فى الاستخبار قولهم : ما وراءك يا عصام ؟ يقال : إن المتكلم به هو النابغة الذبيانى قاله لعصام بن شهير الجرمى حاجب النعمان وكان مريضاً ، فسأل النابغة عصاماً عن النعمان . ذكره أبو عبيد بن سلام فى « الأمثال » ، وقد أورد أبو هلال العسكرى فى كتابه « جمهرة الأمثال » أن عصاماً امرأة وقد كانت مرسلة من الحارث بن عمرو الكندى إلى بنت عوف الكندى ، فلما رجعت إليه قال لها : ما وراءكِ يا عصام ؟ فوصفتها له .

المفرد المؤنث ؛ لأنه أوَّل ما قيل قيل لواحدة اسمها عصام . ونحن نحتفظ بلفظه لا نُغيره ، فلا نقول ما وراءكما ولا ما وراءكم . ويُشترط فى المثَل أنْ يكون مُوجزاً يخفّ على اللسان .

ومن الأمثال قولهم (قد يضرط العير والمكواة فى النار)[1] فالبعير حين يرى المكواة فى النار يعرف أنه سيُكوى بها ، وهى طريقة مُتَّبعة عند العرب لعلاج مرض (العُر)[2]، فساعة يراها البعير تجرى عليه بطنه ، ويحدث منه ضراط وإسهال ، وهذا مثَل يُضرب لمن يفاجئه العقاب المعدّ له .

وهنا فى قوله تعالى : ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ ﴿١٣﴾﴾[يس] يعنى : يا محمد اضرب لمن كفر بك وكذَّبك وعاندك وآذاك مثلاً أصحاب القرية ، فالأمر لسيدنا رسول الله ، والضرب للكافرين به المعاندين له ، والمعنى : قل لهم مَثلكم مثَل أصحاب القرية .

قالوا : هى أنطاكية بلدة من لواء الأسكندرونة التابع لتركيا ، وقد أرسل إليها سيدنا عيسى ـ عليه وعلى رسولنا الصلاة والسلام ـ رسولين لهداية أهلها ، فلما ذَهَبا كذَّبهما القوم ، فعزَّزهما عيسى عليه السلام وقوّاهما بثالث ، فلم يزدادوا إلا تكذيباً وعناداً ، لكن خرج من القوم رجل سمع من الرسولين الأولين ، فآمن ، فلما سمع أن القوم

---

(١) ذكره عبد القادر البغدادى فى « خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب » .

(٢) مرض « العُرّ » ؛ قروح تخرج فى مشافر الإبل وقوائمها . ذكره ابن قتيبة الدينورى فى كتابه « أدب الكاتب » قال الجاحظ فى كتاب الحيوان فى خطبة كتابه أن العرب كانوا إذا أصاب إبلهم العر كووا السليم ليدفعه عن السقيم ، فأسقموا الصحيح من غير أن يُبرئوا السقيم .

يريدون تعذيب هؤلاء الرسل أسرع ليقف الموقف الحقّ مع الرسل ضد أهل القرية ، هذا هو المثل .

ومعنى ﴿ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ ﴾[يس] أى : مُرْسلون من الله ، فما إرسال عيسى لهما إلا من باطن إرسال الله ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ ﴿١٤﴾ ﴾[يس] أى : قوَّيْناهما به ، والمراد قوَّيْنا الحق الذى يحملانه ، فإرسال الثالث ليس تأييداً لهما بذاتهما ، إنما تأييد للحق ، بدليل أنه سبحانه لم يَقُلْ فعززناهما ، وهذه من دقة الأداء القرآنى وبلاغته ، فلو جاء الحق على لسان غيرهما سنؤيده أيضاً . إذن : الاعتبار هنا ليس للأشخاص ، إنما للحق الذى جاءوا به .

وهذه المسألة لها نظير فى قصة سيدنا موسى عليه السلام فى قوله تعالى : ﴿ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ ﴿٣٥﴾ ﴾[القصص] فكأن هارون عليه السلام جاء تعزيزاً لموسى نفسه لا للحق الذى أُرسلَ به كما فى القصة السابقة ، لأن هناك فرقاً بين الحالتين ، فموسى عليه السلام هو الذى طلب من ربه أنْ يشُدَّ عضده ، واختار لذلك أخاه هارون ، فموسى المختار للرسالة يُقرُّ على نفسه ، ويطلب المساعدة والتأييد بأخيه ، فكأنه عليه السلام يحب الحقَّ ، ويريد نُصْرته ، ولو جاءت هذه النُّصْرة من غيره .

سبق أنْ قُلْنا : إن الكلام سفارة بين المتكلم والمخاطب ، المتكلم ينقل خواطر نفسه ومراداته إلى المخاطب ، فإذا كان المخاطب خالىَ الذِّهْن عن الأمر ، يرسل إليه الكلام مُرْسلاً دون تأكيد ، فإذا لم يكُنْ خالىَ الذهن عن الموضوع وعنده شكٌّ أو إنكار أو تكذيب فلا بُدَّ أن تؤكد له كلامك بمؤكد يناسب استقباله للأمر ، فإنْ كان شاكّاً أكدتَ له الكلام بمؤكِّد واحد ، وإنْ كان مُنكراً جئْتَ له بأكثر من مُؤكِّد ، كما فى قوله سبحانه : ﴿ إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [يس]

فلا بُدَّ أن الرسولين الأوَّلَيْن قالا للقوم : نحن مُرْسلون إليكم من قبَل نبى الله عيسى لكن كذَّب القوم ، فلما جاء الثالث كان لا بُدَّ أنْ يزداد الكلام تأكيداً ، فقالوا : ﴿إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾﴾[يس] فأكَّدوا الكلام هنا بأكثر من مؤكِّد ، ومع ذلك كُذِّبوا أيضاً :

﴿قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٧﴾﴾

فلما كذَّبوا وأنكروا للمرة الثانية كان لا بُدَّ من تأكيد الكلام على هذا النحو : ﴿إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾﴾[يس] وكل كلمة من هذه العبارة فيها تأكيد ، أولاً بإنَّ ، ثم أسلوب القصر فى تقديم الجار والمجرور إليكم ، ثم لام التوكيد فى (لمرسلون) ، إذن : على قَدْر الإنكار يكون التأكيد ، وهؤلاء ينكرون الرسالة من عدة وجوه أولاً : ﴿قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴿١٥﴾﴾ [يس] ، ثم ﴿وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَـٰنُ مِن شَيْءٍ ﴿١٥﴾﴾[يس] ، ثم ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾﴾ [يس]

وقولهم : ﴿مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴿١٥﴾﴾[يس] يعتبرون أن بشرية الرسل قَدْح فى الرسالة ، لكن كيف تتحقق الرسالة إذا لم يكُنْ الرسول من البشر ؟

الحق سبحانه يناقشهم هذه المسألة فى موضع آخر ، فيقول سبحانه : ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلاَّ أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولاً ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولاً ﴿٩٥﴾﴾ [الإسراء]

هذا أول ردٍّ عليهم ، فالذين يمشون على الأرض بشر ليسوا ملائكة .

وفى موضع آخر يجارى الحق الخَلْق ، فيقول : وحتى لو جاء الرسول ملَكاً لا بُدَّ أنْ ينزل على صورة البشر ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً ﴿٩﴾﴾ [الأنعام] وإلا كيف تروْنه ؟ وكيف تتلقَّوْن منه على صورته الملائكية .

إذن : لا بُدَّ أنْ يكون الرسول من جنس المرسَل إليهم لتصحَّ الأُسْوة فيه ، وكيف تتحقق الأسوة فى الرسول الملَك ، وهو لا يعصى الله أصلاً ، والرسول مُطالب أنْ يُبلِّغ منهج الله ، وأنْ يُطبقه بنفسه ، لذلك قال سبحانه ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب] يعنى : يُطبق هو المنهج الذى جاء به قبل أنْ يُبلِّغه للناس .

وقولهم : ﴿وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَـٰنُ مِن شَيْءٍ ﴿١٥﴾﴾ [يس] دلّ على غبائهم فى الأداء ، فعجيب منهم أنْ يعترفوا لله تعالى بصفة الرحمة ، وهم لا يؤمنون به ، ومن مقتضيات هذه الرحمة أن يرسل إليهم رسولاً يدلُّهم على الخير ويدفعهم عن الشر ، إذن : يعترفون بالحيثية التى تدينهم ، ثم يزيدون على ذلك فيتهمون الرسل بالكذب : ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾﴾ [يس]

وعندها يؤكد الرسل رسالتهم ، فيقولون : ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [يس] فكلمة ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ ﴿١٦﴾﴾ [يس] حلّتْ محلّ القسم : لأنهم يُشْهِدون الله على صدْق رسالتهم ، والقسم عند العرب لإثبات قضية مختلف عليها ، وما دام قال الرسل ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ ﴿١٦﴾﴾ [يس] فالأمر إما أنْ يكون صحيحاً ، أو غير صحيح ، فإنْ كان غير صحيح فقد كذبوا على الله .

وقد أجمع العرب على أن الكذبة الفاجرة تُوجب خراب الديار - هكذا يعتقدون - وفى حديث النبى ﷺ ما يدل على أن الكذب يجعل الديار بلاقع[١]، ولما سُئل ﷺ : أيسرق المؤمن ؟ قال : نعم . أيزنى المؤمن ؟ قال : نعم . أيَكذب المؤمن ؟ قال : لا[٢] .

فالكذب مذموم منهىٌّ عنه ، حتى عند غير المؤمنين بدين ؛ لذلك رأينا كفار مكة لا ينطقون بكلمة التوحيد : لا إله إلا الله ولو كانوا يعلمون أنها كلمة تقال ليس لها مدلول لَقَالوها ، لكنهم يعلمون مدلولها ومعناها ، يعلمون أنها تعنى أن العبادة لا تكون إلا لله ، وأن الأمر والنهى والسيادة لا تكون إلا لله .. الخ لذلك تأبَّوْا فلم يقولوها ، لأنهم لا يريدون مدلولها .

هؤلاء الكفار فى تكذيبهم للرسل يعتقدون أنهم بذلك يَغَارُونَ لله وينتقمون من الرسل الذين يكذبون عليه سبحانه ، فيقولون :

﴿ قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ ﴾

كأنهم يقولون للرسل : ما دُمْتم كذبتم على الله وقُلْتم ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ .. ﴿١٦﴾﴾ [يس] فى أمور نظنكم فيها كاذبين ، فقد تطيَّرنا بكم يعنى :

---

(١) بلاقع جمع بلقع ، وهى الأرض القفر التى لا شىء بها ، وقد أخرج البيهقى فى السنن الكبرى كتاب الأيمان - باب اليمين الغموس حديث رقم (١٩٦٥٥) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « ليس شىء أُطيع الله فيه أعجل ثواباً من صلة الرحم ، وليس شىء أعجل عقاباً من البغى وقطيعة الرحم ، واليمين الفاجرة تدع الديار بلاقع » .

(٢) أورده بهذا اللفظ المتقى الهندى فى منتخب الكنز (١/٣١٥) على هامش مسند أحمد من حديث عبد الله بن جراد وعزاه لابن عساكر . وأورد أيضاً أن أبا الدرداء سأل رسول الله ﷺ : يا رسول الله ، هل يكذب المؤمن ؟ قال : لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر مَنْ إذا حدَّث كذب . وعزاه للخطيب البغدادى فى المتفق .

تشاءمنا . والتطيُّر من الطِّيَرة ، وكانت عادة معروفة عند العرب ، فكانوا حين يريد الواحد منهم عمل شيء ، يأتى إلى طير فيزجره ويُطلقه ، فيرى إلى أين يطير : فإنْ طار إلى اليمين أمضى ما ينوى عليه ، وإنْ طار إلى اليسار أمسك وتشاءم ، وقد حَرَّم الإسلامُ هذه العادة ونهى عنها .

وقولهم ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا ﴿١٨﴾﴾[يس] أى : عما تقولونه من أنكم مُرْسَلُون بمنهج ﴿لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾﴾[يس] فجمعوا عليهم الرجم والعذاب الأليم ، والرجم غير العذاب ، الرجم رَمْىٌ بالحجارة حتى الموت ، فهو إنهاء للعذاب ؛ لأن التعذيب إيلام حى ، فمَنْ مات لا يستطيع أنْ تُعذِّبه ، لذلك قالت العرب : لا يضير الشاة سلخها بعد ذبحها .

لذلك لما ادَّعى أحد القضاة أن القرآن ليس فيه نَصٌّ على الرجم : قلنا لهم : صحيح ، ليس فى القرآن آية تنص على الرجم ، لكن أيهما أقوى فى التقنين : الكلام أم الفعل ؟ أيهما يُعَدُّ حُجة ؟ لا شكَّ أن الفعل أقوى حجة ، لأن الكلام يمكن أنْ يؤوَّل ، أمَّا الفعل فلا تأويل فيه ، وقد فعل الرسول ﷺ الرجم فى ماعز والغامدية.

إذن : الاحتجاج هنا ليس بالنصِّ القولى ، إنما بالفعل من رسول الله الذى فوَّضه الله فى أنْ يشرع ، وأمرنا بطاعة أوامره ، فقال سبحانه : ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ﴿٧﴾﴾ [الحشر] والحق سبحانه لا يأمرنا هذا الأمر إلا إذا كان قد ترك لرسول الله أموراً يُشرعها .

وهذه من ميزاته ﷺ على غيره من الرسل ، فكل رسول ما عليه إلا أنْ يُبلِّغ الحكم كما جاءه من الله ، أما سيدنا رسول الله فأُمِر أن

يُبلِّغَ عن الله ، وترك له بعض الأمور ، وفوّض أنْ يشرع فيها .

لذلك جاءت هذه الآية : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا (٧) ﴾ [الحشر]

لذلك حين نستقرىء آيات الطاعة تجد القرآن يقول مرة : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ (٩٢) ﴾ [المائدة]

ويقول فى آية أخرى :﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ (١٣٢) ﴾ [آل عمران]

ويقول : ﴿ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ (٥٩) ﴾ [النساء]

فتكرار الفعل (أَطيعُوا) يعنى : أن الجهة مُنفكة ، فلله تعالى أمر وللرسول أمر ، يعنى : أطيعوا الله فى التقنين الإجمالى العام ، وأطيعوا الرسول فى تفصيل ما أجمل ، ففى الزكاة مثلاً جاء الأمر العام بأداء الزكاة ، لكن لم يحدد الحق سبحانه له نصاباً ، هذا النِّصَاب بيَّنه سيدنا رسول الله . إذن : لله فيها أمر ، وللرسول أمر .

أما إن جاء الأمر (وأطيعوا) واحداً وعطف رسول الله على الله ، ولم تُكرر الطاعة مع المطاع ، فاعلم أنَّ الأمر واحد قاله الله وقاله رسول الله ، فطاعة المطاع الثانى من باطن طاعة المطاع الأول ، كما فى قوله سبحانه : ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ (٥٩) ﴾ [النساء] فلم يقُل : وأطيعوا أولى الأمر منكم ؛ لأن طاعة أولى الأمر من باطن طاعة الله وطاعة رسول الله ، وليس لهم طاعة مستقلة منفصلة ، بل طاعتهم فى ظِلِّ طاعة الله وطاعة رسول الله .

إذن : الاستدلال بالفعل أقوى من الاستدلال بالقول ، فإنْ قال قائل : نريد أنْ نسمع كلام الله فى هذه المسألة نقول : نعم ، هناك كلام بالنصِّ وكلام باللازم ، والحق سبحانه حين تكلم عن الإماء فى هذه المسألة قال : ﴿ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ (٢٥) ﴾ [النساء]

والعذاب كما قلنا : إيلام حَيٍّ أمَّا الرجم فهو إنهاء للحياة ، وإنهاء للعذاب ؛ لذلك بيَّن الحق سبحانه أن النصف للعذاب ، وهذا يُخرج الرجم ؛ لأن الرجم لا يُنصَّف . إذن : فالنصف ليس على الإطلاق وكونه يخصُّ هنا العذاب ، فهذا يعنى أنَّ عليهن الرجم أيضاً كاملاً ، لا يُنصَّف .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى فى قصة سليمان عليه السلام والهدهد : ﴿ لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ ﴿٢١﴾ ﴾ [النمل] إذن : العذاب غير الذبح وغير القتل .

وقولهم ﴿ لَنَرْجُمَنَّكُمْ ﴿١٨﴾ ﴾[يس] الرجم قد يُطلق على القول ، لنرجمنَّكم بالقول ، وقد يكون الرجم على حقيقته بشدة حتى الموت ، أو بهوادة ، فيُراد منه الإيلام .

﴿ قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾ ﴾

معنى ﴿ طَائِرُكُم ﴿١٩﴾ ﴾[يس] يعنى : تشاؤمكم ﴿ مَّعَكُمْ ﴿١٩﴾ ﴾[يس] أى : ملازم لكم ، والمراد هنا الكفر ، والهمزة الأولى فى ﴿ أَئِن ﴿١٩﴾ ﴾[يس] للاستفهام و (إنْ) أداة شرط وجوابها محذوف تقديره : أئن ذُكِّرتم بالله وبمنهج خالقكم ، وبما يُسعدكم فى دنياكم تكون النتيجة أنكم تهددون المذكِّر لكم بالرجم وبالعذاب الأليم ، بدل أنْ تتبركوا به وتُعينوه وتتبعوا ما جاءكم به .

﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾ ﴾[يس] يعنى : متجاوزون للحدِّ ؛ لأن الأمر بيننا وبينكم لم يخرج عن كونه مناظرة كلامية لم نتعدَّ فيها حدود البلاغ بأننا مُرْسَلون إليكم ، فكانت النتيجة أنْ قابلتم المناظرة

الكلامية بهذا الفعل القاسى المسرف المتجاوز للحدِّ ، حيث جمعتم علينا الرجْم والعذاب الأليم .

فى هذه الأثناء ، ماذا حدث ؟

﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

قوله سبحانه : ﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾[يس] يدل على أن الرسولين الأولين اللذين كذَّبهما القوم كان لهما أنصار مؤمنون بهما ، مُصدِّقون لدعوتهما ، فلما جاء الثالث وأيضاً كذَّبه القوم أخذتْ هؤلاء المؤمنين حَمِيَّة الحق ، وكان منهم هذا الرجل الذى جاء من أقصى المدينة يسعى لِنُصْرة الحق وإعلاء كلمته ، وقالوا : اسمه حبيب النجار[1] .

ونلحظ فى هذه الآية أولاً قوله سبحانه : ﴿ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ ﴿٢٠﴾ ﴾

---

(١) قال القرطبى : هو حبيب بن مرى وكان نجاراً . وقيل : إسكافاً . وقيل : قصاراً (صبّاغاً) . وقال ابن عباس ومجاهد ومقاتل : هو حبيب بن إسرائيل النجار وكان ينحت الأصنام ، قال وهب : كان حبيب مجذوماً ومنزله عند أقصى باب من أبواب المدينة ، وكان يعكف على عبادة الأصنام سبعين سنة يدعوهم ، لعلهم يرحمونه ويكشفون ضره ، فما استجابوا له ، فلما أبصر الرسل دعوه إلى عبادة الله فقال : هل من آية ؟ قالوا : نعم ، ندعو ربنا القادر فيفرِّج عنك ما بك . فقال : إن هذا لعجب لى ، أدعو هذه الآلهة سبعين سنة تفرج عنى فلم تستطع ، فكيف يفرجه ربكم فى غداة واحدة ؟ قالوا : نعم ربنا على ما يشاء قدير ، وهذه لا تنفع شيئاً ولا تضر ، فآمن ودعوا ربهم فكشف الله ما به ، كأن لم يكن به بأس . تفسير القرطبى (٥٦٥٣/٨) .

[يس] أنه لم يكن قريباً من مكان هذه المناظرة الكلامية ، وأنه تحمَّل المشاق فى سبيل نُصْرته للحق ، وهذا دليل على قوة الطاقة الإيمانية عند هذا الرجل ، ودليل أيضاً على أن الرسولين السابقين قد بلغت دعوتهما أقصى المدينة .

ثم وصفه بأنه (رَجُلٌ) ولم يَقُلْ فلان ، فذكر الصفة البارزة فى تكوينه أنه رجل .

وهِمَّة الرجل هى التى تحدد مقدار رجولته ، فرجل يريد الحياة لنفسه فقط والكل يخدمه ، يرى كل شىء لنفسه ولا يرى نفسه لأحد ، هذا رجل وطنه نفسه وذاته ، ورجل وطنه أهله وعياله يُعدِّى إليهم منفعته ، ورجل وطنه أمته ، ورجل وطنه العالم كله مثل سيدنا رسول الله ﷺ ، فهو فلسفة الرجل .

إذن : هِمَم الرجال هى التى تحدد أوطانهم ومنازلهم ، وأعلى هذه المنازل رجل وطنه العالم كله ؛ لأن الخَلْق كلهم عيال الله ، فمَنْ يحب الخير لهم وينثر عليهم ما ينفعهم فقد استأمنه الله على رزق العباد .

ومثَّلنا لبيان ذلك قلنا : هبْ أن لك أولاداً ، واحداً منهم يأخذ مصروفه فينفقه على ملذاته ورغباته وفيما لا يفيد ، والآخر يشترى بمصروفه حلوى ويُوزِّعها على إخوته الصغار ، فأيهما تُؤثره بعد ذلك ، وأيهما تزيده ؟ كذلك اليد المناولة عن الله لخَلْق الله ، وكأن الله يقول له : أنت مأمون على نعمتى ، مأمون على خَلقى ، ومن ذلك قول الشاعر :

وَإِنِّى امْرُؤٌ لاَ تَسْتَقِرّ دَرَاهِمِى عَلَى الكَفِّ إلاَّ عَابِرَاتِ سَبِيل

وقوله ﴿يَسْعَىٰ ۝٢٠﴾ [يس] يعنى : أن مجيئه لم يكُنْ عادياً ، إنما

مسرعاً يجرى ﴿قَالَ يَـٰقَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [يس] وقوله ﴿يَـٰقَوْمِ ﴿٢٠﴾﴾ [يس] نداء لتحنين المنادَى ، كأنه يقول : يا أهلى ، يا عشيرتى ، يا أبنائى ، فذكر ما بينه وبينهم من صلات المودة والرحمة .

وقوله ﴿ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [يس] يدل على تأييده لهم ، وهو هنا يذكر الحيثية الأولى لهذا الاتباع هى أنهم مرسلون ، ثم يذكر لهم حيثية أخرى فيقول : ﴿ اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾﴾ [يس] يعنى : لم يطلبوا منكم أجراً على دعوتهم .

وكلمة ﴿مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا ﴿٢١﴾﴾ [يس] لا تُقَال إلا إذا كان العمل الذى قام به يحتاج إلى أجر ، والرسول ما جاء إلا لينفع المرسَل إليهم ، فهو منطقياً يحتاج إلى أجر ، لكن مَنْ يستطيع أنْ يوفيه أجره ؟ لا أحد يوفيه أجره إلا الله ؛ لأن نَفْع الرسول يتعدَّى نفْع الدنيا إلى نفع الآخرة ، فمَنْ من البشر يعطى الرسول ما يستحقه ؟

لذلك رأينا الرسل جميعاً يقولون هذه الكلمة ﴿ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ ﴿٧٢﴾﴾ [يونس] يعنى : أنتم أيها القوم لا تملكون مقدار أجرى ، ولا تقدرون على تقييمه ، إنما يعطينى أجرى الذى أعمل من أجله . كل رسل الله قالوا هذه الكلمة إلا رسولين ، هما : سيدنا إبراهيم ، وسيدنا موسى عليهما السلام ، لماذا ؟

قالوا : لأن إبراهيم كانت أول دعوته لأبيه آزر ، ولا يليق أنْ يطلب منه أجراً على دعوته إياه إلى الحق ، كذلك سيدنا موسى أول ما دَعا دَعا فرعون الذى ربَّاه فى بيته ، وله فَضْل عليه ، فكيف يطلب منه أجراً ؟

وقوله سبحانه ﴿ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾﴾ [يس] حيثية ثالثة لاتباعهم ،

فهم مُرْسَلُون من قِبَل مَنْ أرسله الله ، والله لا يرسل إلا مَنْ يهدى إلى صراط مستقيم يوصل إليه سبحانه . فهؤلاء المرسلون مهتدون فى أنفسهم ، وبالتالى هادون لغيرهم ، فهو إذن يذكر الأمر وعلَّته ، فهؤلاء الرسل لا يسألون أجراً ، ولا يدعون إلى ضلال ، بل إلى هدى .

ثم يلتفت هذا الرجل إلى نفسه ، فيقول للقوم : أنا لا آمركم أمراً أنا عنه بنَجْوَة ، ولو كنتُ سأغشُّكُم فلن أغشَّ نفسى ﴿وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي ﴿٢٢﴾﴾ [يس] أى : خلقنى من العدم ، فهو أوْلى بالعبادة ، هو الذى صنعنى ، أوجدنى من عدم ، وأمدَّنى من عُدم ، ولا زال يُوالى علىَّ نعمه ، إذن : ما يمنعنى أنْ أعبده وهو أَوْلَى بالعبادة ، ولو لم تكُنْ عبادتى له إلا لأُكافئه على نعمه دون نظر إلى ثواب ، لكانتْ عبادته واجبة .

وهذا ليس كلامَ رسول ، إنما كلام رجل مؤمن متطوع باشر الإيمانُ قلبه ، فأراد أنْ يزكّى إيمانه ، وأنْ يُعدّى هدايته إلى غيره من باب قوله ﷺ: « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه »[1]

الحق سبحانه خلق الخَلْق أولاً ، ثم أرسل الرسل بالمنهج لهدايتهم ، الرسل بدورهم بلَّغوا الأصحاب ، ومَنْ بلغه شىء تحمله كما يتحمله الرسول ، لذلك قال سيدنا رسول الله ﷺ : « نضَّر الله امرءاً سمع مقالتى فوعاها ، ثم أدَّاها إلى مَنْ لم يسمعها فرُبَّ مُبلَّغ أَوْعَى من سامع »[2]

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (١٣) ، ومسلم فى صحيحه (٤٥) كتاب الإيمان عن أنس بن مالك بلفظ : « والذى نفسى بيده ، لا يؤمن عبد حتى يحب لجاره – أو قال لأخيه – ما يحب لنفسه » .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٤٣٧/١) ، والترمذى فى سننه (٢٦٥٧، ٢٦٥٨) ، وابن ماجه فى سننه (٢٣٢) ، والحميدى (٤٧/١) من حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه .

إذن : مسئولية الدعوة يتحملها أولاً الرسل ، ثم المؤمنون بهم الذين بلغتهم الدعوة ، وهذا التحمُّل ليس تفضُّلاً ، إنما تكليف من الله ، لذلك قال سبحانه : ﴿لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا (١٤٣)﴾ [البقرة] ، فكما شهد الرسول أنه بلغكم ، فواجب عليكم أنْ تشهدوا على الناس أنكم بلَّغتموهم ؛ لأن المؤمنين بالرسالة امتداد للرسول .

لذلك ، رأينا هذا الرجل المؤمن الذى جاء من أقصى المدينة يسعى لإعلاء كلمة الحق وتأييد الرسل لم يكن رسولاً ولم يكلِّفه أحد بهذا ، إنما تطوَّع به ؛ لأن طاقة الإيمان عنده دفعته إلى هذا الموقف .

ثم نراه يُطبِّق المسألة على نفسه أولاً ، فيقول : ﴿وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي (٢٢)﴾[يس] وهذا تلطّف فى عرض الدعوة وأحرى أنْ تُقبل .

وقوله : ﴿وَمَا لِيَ (٢٢)﴾ [يس] كأنه يتعجب من أمر نفسه لو أنه لم يؤمن بالذى فطره ، والتعجب من النفس أصدق ألوان التعبير ، كأنه لا يمارى ولا يداهن ويقول ما فى نفسه ، كما قال سيدنا سليمان ـ عليه السلام : ﴿مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ (٢٠)﴾ [النمل]

فالجواب ليس عند الغير ، بل عنده هو ، كأنه يقول : لا بُدَّ أن يكون الهدهد موجوداً لكنى لا أراه ، فالقاعدة أنه يستعمل الكل والكل موجود ، فالعجب عندى أنا : ما لى لا أراه ، ثم يعيد الأمر ﴿أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ (٢٠)﴾ [النمل] يعنى : إما أنْ يكون المانع من عندى أنا ، أو من عنده ، كأنه يُشكِّك فى الأول ، ثم يُدقِّق الأمر فيجده من عنده هو .

فقوله : ﴿وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾﴾[يس] كأن أمر الفطرة والخَلْق يقتضى أن تَعْبد الذى فَطَر ، والخروج عن هذا أمر يستدعى العجب .

لذلك فى سورة البقرة الحق سبحانه يلقننا فى مخاطبة الكافرين ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ﴿٢٨﴾﴾ [البقرة] يعنى : كيف يكون ذلك منكم ، إنَّ كفركم بالله الذى خلقكم ورزقكم أمر لا يجوز بالمنطق العقلى ، فأخبرونا إذن الطريقة التى كفرتم بها .

والفَطْر : الخَلْق العجيب على غير مثال سابق ؛ لذلك يقول سبحانه عن نفسه ﴿بَدِيعُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ ﴿١١٧﴾﴾ [البقرة] يعنى : خلق السموات والأرض ابتداءً على غير مثال سابق احتذاه فى الخَلْق .

أو : أن المعنى ﴿الَّذِى فَطَرَنِى ﴿٢٢﴾﴾[يس] أى : على الإيمان به إيمان فطرة ، إذن : فإيمانه بالله إما إيمان شكر لمن خلقه وأوجده على غير مثال سابق ، أو إيمان الفطرة الأولى التى فطر اللهُ الناسَ عليها ، واستجاب هو لِمَا فى ذاته من هذه الفطرة .

وحين نتأمل مهمة هذا الرجل نجد أنه أشبه بالقلب بالنسبة لباقى أعضاء الجسم ، أى : من حيث تكوين مراحل الإيمان ، كيف ؟ الجسم عبارة عن جوارح متعددة ، لكل جارحة مهمة ووظيفة ، وحياة الجسم تتطلب مقومات الحياة من الطعام والشراب والهواء ، فيأكل الإنسان من نتاج الأرض ، ويشرب من مائها .

وبعد عملية التناول وما فيها من نِعَم لله فى أسنان تقطع ، وأضراس تطحن ، ولعاب يساعد فى عملية البلع ، وعصارات هاضمة.. الخ يتمثل الغذاء فى الجسم إلى دم يستقبله القلب فيأخذ

منه حاجته أولاً ليقوِّى نفسه على ضَخِّ الدم إلى باقى الأعضاء ليؤدى كلٌّ عضوٍ مهمته .

كذلك ، كان هذا الرجل من حيث قوة إيمانه ، فبعد أنْ آمن واستقر الإيمان فى قلبه أراد أنْ يُعدِّى إيمانه إلى قومه ، وأنْ يُشِعَّ عليهم من الهداية التى تشرَّب بها قلبه ، إذن : فهو يمثل قلب الرسالات ، لذلك جاء فى الحديث الشريف أن « يس قلب القرآن »[1] وهذه المسألة لم تأتِ إلا فى يس ، لذلك كانت هى قلب القرآن ؛ لأنها جاءت بآخر مرحلة مِن مراحل الرسالات التطوعية التى تخدم الرسالة الواجبيّة .

وما دام أن رسول الله ﷺ قد أخبر أن يس قلب القرآن ، فعلى المؤمن أنْ يقبل كل ما جاء فى فضلها مما صَحَّ عن رسول الله ، وليس من الضرورى أن نقف على علَّة كل شىء ، لأن الإيمان كما قلنا غيب ومشهد ، والمؤمن يأخذ من صِدْق ما شاهد دليلاً على صِدْق ما غاب عنه .

إذن : لنأخذ هذه الأحاديث على العين والرأس ، حتى إن قرأتَ يس ، فلم تجد ما أخبرتْ به الأحاديث ، فيكفيك أنك تقرأ كلام الله ، ولن تُعدم الخير على أىِّ حال ؛ لذلك رأينا بعضهم يضع الأحاديث التى تحثُّ على قراءة القرآن .

وقد ورد فى حديث أُبىٍّ أن المريض الذى تُقرأ عنده يس تأتيه صفوف الملائكة على قدر كل حرف منها عشرة آلاف مَلَك ،

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٥/٢٦) من حديث معقل بن يسار أن رسول الله ﷺ قال : « يس قلب القرآن ، لا يقرؤها رجل يريد الله تبارك وتعالى والدار الآخرة إلا غفر له ، واقرأوها على موتاكم » .

لا يفارقونه حتى يموت ، ثم يشهدون تغسيله ، ويشهدون تشييعه ، والصلاة عليه ودفنه[١] .

وفى رواية أخرى : مَنْ قُرئت عنده يس وهو مريض ، أو قرأها هو لنفسه يأتيه جبريل عليه السلام بكأس فيه ماء ، فيشربه شربةً لا يظمأ بعدها ، ولا يحتاج إلى أحواض الأنبياء[٢] .

هذا كله وغيره على العين والرأس ، تحقق معناه عندنا ، أو لم يتحقق .

وقوله سبحانه ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾﴾[يس] يعنى : لا تظنوا أنكم تفلتون من الله ؛ لأنكم فى قبضته ، وأنتم فى البدء كنتم منه بإقراركم ، وكذلك تكون النهاية إليه والمرجع ، فإنْ لم تُقدِّروا نعمة الإيجاد فقدِّروا مغبة العَوْد .

ونلحظ فى هذه الآية أن الرجل المؤمن يتكلم عن نفسه بصيغة المفرد ﴿وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِى فَطَرَنِى ﴿٢٢﴾﴾[يس] ثم يعدل عن الإفراد إلى خطاب الجماعة والقوم المكذِّبين ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾﴾[يس] ولم يَقُلْ : وإليه أرجع ، لماذا ؟

قالوا : لأن الطاعة التى هى أصل العبادة إنما تأتى على مراحل ثلاث :

---

(١) قد صحت أحاديث فى فضل سورة يس ، ليس من بينها ما ذُكر هنا ، فقد أخرج الترمذى والدارمى والبيهقى فى شعب الإيمان عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن لكل شىء قلباً ، وقلب القرآن يس ، ومن قرأ يس كتب الله له بقراءتها قراءة القرآن عشر مرات » أورده السيوطى فى الدر المنثور (٧/٣٧) .

(٢) ما وجدته قريباً من هذا ما أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان عن أبى قلابة موقوفاً عليه : من قرأ يس غفر له ، ومن قرأها عند طعام خاف قلته كفاه ، ومن قرأها عند ميت هوَّن عليه ، ومن قرأها عند امرأة عسر عليها ولدها يسر عليها ، ومن قرأها فكأنما قرأ القرآن إحدى عشرة مرة » قال البيهقى : هكذا نُقل إلينا عن أبى قلابة وهو من كبار التابعين ، ولا يقول ذلك إن صح عنه إلا بلاغاً .

الأولى : أنْ تطيع مَنْ تجد فيه نموذجاً كمالياً يستحق أن يُطاع ، ويستحق أنْ يُحمد لكماله ، وإنْ لم يَعُدْ عليك منه شيء ، كما تنظر مثلاً إلى قصيدة رائعة معبِّرة فتعجب بقائلها وتثنى عليه ، أنت لا يعود عليك شيء منها لكنك تُقدِّر الشاعر لذاته .

الثانية : أن تطيع إنساناً وتُقدِّره لمنفعة تعود عليك منه ، وكثيراً ما نرى الناس يخدمون رجلاً جباناً لا يستحق أنْ يخدم ، وما خدمه الناسُ إلا طمعاً فيما عنده .

والمرحلة الثالثة : أنْ تطيع شخصاً أو تحترمه لمجرد الخوف منه واتقاءَ شرِّه .

وقد حقق الرجل الذى جاء من أقصى المدينة يسعى المرحلتين الأولى والثانية فى قوله ﴿وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِى فَطَرَنِى ﴿٢٢﴾﴾[يس] فأنا أعبده لأنه بكماله يستحق أنْ يُعبد ، وأعبده لنعمه المتوالية ، أما المرحلة الثالثة فجعلها لهؤلاء المكذِّبين من قومه ، فقال ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [يس]

يعنى : تنبهوا يا قوم : إذا لم تَقدروا فى الله صفات الكمال التى يُحبُّ لأجلها ، ولم تقدروا فى الله نعمه المتوالية عليكم ، فاعلموا أن العودة إليه والمرجع والمصير بين يديه ، وهو سبحانه قوى عليكم ، لا يفلت من قبضته أحد .

ثم يؤكد هذا الرجل المؤمن على مسألة عبادة الله وحده ، فيزيد :

﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾﴾

الاستفهام فى ﴿أَأَتَّخِذُ (٢٣)﴾ [يس] يحمل معنى التعجُّب والإنكار ، فهو يتعجب وينكر : كيف يتخذ من دون الله آلهة ، والله هو الذى خلقه ، وحين تتأمل معنى الفعل (أتخذ) تجد أن الشىء المُتَّخذ ليس أصلاً ، فمعنى اتخاذ آلهة أنها ليستْ آلهة فى الحقيقة ، وأنها لا تستحق أنْ تكون آلهة ، لكنك عمدتَ إليها فجعلتها آلهة ، ومثله اتخاذ الولد فى قوله تعالى : ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَـٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍ بِمَا خَلَقَ.. (٩١)﴾ [المؤمنون]

فالمعنى : أن الله تعالى ليس له ولد فى حقيقة الأمر ، وإنْ قلتم اتخذ الله ولداً ، فهذا يعنى أنه أتى سبحانه إلى ولد فتبنَّاه ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . وكما تقول أنت اتخذت ولداً . يعنى : أتيتَ إلى ولد لم تنجبه فتبنَّيْته .

إذن : ما دامت هذه آلهة متخذة ، فالمعنى أنها ليس لها وجود أصلاً ، وكأن الرجل يُصحِّح للقوم فكرتهم عن العبادة .

وقوله سبحانه : ﴿إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَـٰنُ بِضُرٍّ (٢٣)﴾[يس] هذه العبارة فيها لفتة لطيفة ينبغى تأملها ؛ لأن صفة الرحمة فى الرحمن تتناقض مع الضر ، فكيف جمع السياق بينهما ؟

نقول : إذا فسرتَ ما يجرى عليك به قَدَر الله على أنه ضُرٌّ لك فتعقَّل أنه من رحمن ، فلا بد أن يكون لمجريه عليك وهو الرحمن حكمه فيما أجرى ، لذلك نقول : أحمدك ربى على كُلِّ قضائك وجميع قدرك ، حَمْدَ الرضا بحكمك ، لليقين بحكمتك .

فكأن الحق سبحانه يقول لك : تنبه أنه ليس كل ما تراه بقوانينك أنت ضاراً لك ، هو كذلك ؛ لأن مُجريه عليك رحمن ، ففى طيَّات هذا الضر نَفْع كثير . كما يقدم الأب الحنون ولده للطبيب فيُجرى له جراحة مؤلمة ، أو يقطع جزءاً منه ليُصلح باقى الجسم ، فهذا ضرر

فى الظاهر ، وفى الحقيقة رحمة به .

لذلك سبق أنْ قلنا : إذا دخل عليك ولدك يسيل دمه ، فلا تستقبل هذا لا بالرضا ، ولا بالسخط ، إلا بعد أنْ تسأل عن الفاعل ، فإنْ كان عدواً سخطْتَ عليه ، وإنْ كان مُحباً تقبلْتَ ما حدث بالرضا ، وقلتَ للولد : لا بد أنَّ عمَّك مثلاً رآك تخطىء فَعاقبك .

كذلك لا تحكم على أقدار الله التى يُجريها عليك إلا من منطلق أنها من رحمن أرحم بك من الوالدة بولدها ، وأنت خَلْقه وصَنْعته ، وما رأينا أحداً من حمقى البشر يعمد إلى صنعته فيحطمها ، إنما يعتنى بها ، ويُعمل فيها يد التجميل والتزيين ، كما ترى النجار مثلاً يمسك بـ (الفارة) وينحت فى الخشب . أتقول : إنه يضر بصنعته ؟ لا بل يُصلحها ويُزينها .

لذلك يقول تعالى فى الحديث القدسى : « يا ابن آدم ، أنا لك مُحب ، فبحقِّى عليك كُنْ لى محباً »[1] أبعد هذا التودد من الخالق للخَلْق يُجرِى عليهم ما يضرهم ؟

وفى حياتنا العملية كثيراً ما نرى شواهد لهذه المسألة ، فكثيراً ما يفوتك القطار أو الأتوبيس مثلاً ، فتأخذ الميعاد التالى ، وفى الطريق تجد القطار أو الأتوبيس حدث له حادث فتصحح أنت فكرتك الأولى ، وتُحوِّل غضبك لفوات القطار إلى شكر لله الذى نجَّاك ، وكنتَ تظن غير ذلك . إذن : انظر إلى مَنْ أجرى عليك الأقدار ، ولا تنظر إلى المنفعة السطحية ؛ لأن لله تعالى حكمة فيما يُجريه ، تعلمها أنت أو لا تعلمها .

---

(١) أورده الإمام أبو حامد الغزالى فى « إحياء علوم الدين » (٤/٢٩٦) قال : « فى بعض الكتب : عبدى أنا وحقُّك لك محب ، فبحقى عليك كُنْ لى محباً » .

أيضاً كثيراً ما يُخفق أحد أبنائنا مثلاً فى الامتحان وقد ذاكر واجتهد وحصَّل العلوم .. الخ لكن عَرَض له عارض من مرض أو غيره فلم يُوفَّق . النظرة السطحية للأمور تقول : إنها شر وخسارة تدعو إلى السخط والعياذ بالله ، لكن النظرة المتأنية المتأملة ترى لله تعالى حكمة فى هذا الإخفاق .

فالأب العاقل فى مثل هذه المواقف يقول لولده : يا بنى ، احمد الله فأنت دائم النجاح ، ولعلك إنْ نجحتَ هذا العام لا تَسْلم من عيون الحاسدين ، وهذه فرصة لك لتزيد من مجموعك لتدخل الكلية التى تريدها .. الخ .

وهكذا يُوثق الوالد علاقة ولده بالله ، ويُزيد من إيمانه ورضاه بربه ، ويُبعده عن السخط وعدم الرضا بالقضاء ، وهذه مسألة ينبغى على الآباء الاهتمام بها .

إذن : اللمسة التى نريد الوقوف عندها فى هذه الآية أن الرحمن إنْ كانت تنافى عندك فعْل الضر ، فهذا عندك أنت ، إنما عند مُجريها لا تنافى ، لأنها من الرحمانية .

وقوله تعالى : ﴿لا تُغْنِ عَنِّى شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا (٢٣)﴾[يس] يعنى : شفاعة هذه الآلهة - إنْ كانت لهم شفاعة - لا تُجدى ، لأنهم شركاء لله وأنداد لله ، فكيف تُقْبل شفاعتهم عنده سبحانه ؟

وشرط فى الشفاعة أن يكون الشافع محبوباً عند المشفوع عنده ، فهذه الآلهة على فرْض أنه كان لهم شفاعة ، فهى غير مقبولة عند الله تعالى ، مع أن هذه الآلهة فى ذاتها معذورة حيث لا ذنبَ لها ، فهى ما ادَّعَتْ أنها آلهة ، إنما ادَّعى البشر ذلك .

وسبق أنْ ذكرنا أن هذه الآلهة قد تبرأت من كونها تُعبد من دون الله ، وصدق الشاعر الذى صاغ هذا المعنى ، فقال على لسان هذه الآلهة :

عَبَدُونَا وَنَحْنُ أَعْبَدُ الله ... مِنَ القَائمينَ بالأَسْحَارِ
قَدْ تجنَّوْا جَهْلاً كما قَدْ ... تجنوه على ابْنِ مريَم والحَوارى
تَخذُوا صَمْتَنَا عَلينَا دليلاً ... فغدَوْنَا بهمُ وَقُودَ النَّارِ
لِلْمُغَالِى جَزَاؤُه والمغَالَى فيه ... تُنجيه رحمةُ الغفَّارِ

وقوله سبحانه : ﴿وَلَا يُنقِذُونِ (٢٣)﴾[يس] لأن الشافع حين تُرد شفاعته يمكن أن ينقذ المشفوع فيه من يد المشفوع عنده ، أما هؤلاء الآلهة فلا تُقبل شفاعتها ، ولا تستطيع أنْ تنقذ مَنْ طلب منها أنْ تشفع له .

وقد بيَّنَّا معنى الشفاعة ، وأنها من الشفع يعنى : إنسان له قضية ، ولا يستطيع وحده بأسبابه حَلَّ هذه القضية فيستعين بآخر ليساعده وينضم إليه ليُقوِّيه على حلِّها ، إذن : بعد أنْ كان مفرداً صار بالشافع شفعاً . يعنى : اثنين .

ولما أراد الحق سبحانه أن يجلى لنا هذه المسألة قال سبحانه فى سورة البقرة : ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ (٤٨)﴾ [البقرة]

وقال فى موضع آخر : ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ (١٢٣)﴾ [البقرة]

تلحظ أن صدر الآيتين متفق لكن عجزهما مختلف ، فلماذا ؟ قالوا : لأن مرجع الضمير مختلف ؛ لأن عندنا هنا نَفْساً جازية ،

ونفساً مجزياً عنها ، فإنْ أعدْتَ الضمير على المجزى عنها ، فالمجزى عنه لا يشفع بنفسه ، إنما يعرض العدل أولاً ، ويطلب تقويم الضرر ليدفع فِدْيته ، فإنْ لم يقبل منه العدل بحث عَمَّنْ يشفع له ، إذن : فالمعنى : لا يُقبل من ذاتها عدل ، ولا تنفعها شفاعة الغير .

فإنْ أعدْتَ الضمير على النفس الجازية ـ أى : الشافعة ـ فإن الشافع يتقدم ليشفع أولاً ، فإنْ لم تُقبل شفاعته فإنه يعرض العدل ، ويتحمل الفدية .

إذن : هذه الآلهة – على فَرْض أن لها شفاعة – فهى شفاعة مردودة غير مقبولة ، وهم أيضاً لا يستطيعون إنقاذ مَنْ يلجأ إليهم من قبضة الحق سبحانه ، فهم لا يصلحون للشفاعة ، ولا للإنقاذ ، وهذا المعنى واضح فى قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣)﴾ [الحج]

وقوله : ﴿إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٢٤)﴾[يس] يعنى : إنْ فعلتُ ذلك ، وذهبتُ إلى عبادة هذه الآلهة أكون فى ضلال ﴿مُّبِينٍ (٢٤)﴾[يس] بيِّن واضح ، وقوله : ﴿لَّفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٢٤)﴾[يس] كأن الضلال يحاصره ويحيط به من كل ناحية ، بحيث لا يستطيع أنْ ينجو منه .

ثم يقول هذا الرجل المؤمن : ﴿إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ (٢٥)﴾[يس] هذا الخطاب يصح أنْ يُوجَّه إلى الرسل الذين جاء الرجل ليساندهم فى دعوتهم ويناصرهم ، فنظر إليهم وقال ﴿إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ (٢٥)﴾[يس] ومعنى ﴿فَاسْمَعُونِ (٢٥)﴾[يس] أى : اسمعوا منى ما أناصركم به ، واشهدوا لى بأننى متطوع بهذه المساندة الإيمانية ، لم يُكلِّفنى أحد بها .

ويصح أنْ يكون هذا الخطاب مُوجَّهاً إلى القوم المكذِّبين ، فهو يقول لهم : ﴿إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ (٢٥)﴾[يس] يعنى : الله ربكم رغماً عنكم ، وإنْ كنتم كافرين به سبحانه فأنا احترمت ربوبيته لكم ، وآمنتُ بها لأدخل فى عظمة هذه الربوبية ﴿فَاسْمَعُونِ (٢٥)﴾[يس] أى : اسمعوا منى هذا البلاغ لأكون قد أدَّيْتُ ما وجب علىَّ نحوكم ، وأبلغتكم ولم أخدعكم أو أغشَّكم[1] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (٢٦) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ (٢٧)﴾

بناء الفعل (قيل) للمجهول يفيد التعميم ، فمَنِ الذى قال له ادخل الجنة ، ومتى قال ؟ فى القرآن آية نقرؤها تجيب عن ذلك ، اقرأ قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠)﴾ [فصلت]

فالرجل الذى وقف هذا الموقفَ الإيمانى متبرعاً ، وجاء من أقصى المدينة يسعى ليساند الرسل فى أمر لم يُكلَّف به ، ويأتى للقوم المكذِّبين بحجج وبراهين لم يَأْتِ بها الرسل أنفسهم جدير بأنْ تتنزَّل عليه الملائكة ، وبأن تبشره بالجنة . أو : أن الحق سبحانه حكى عنه ما يقوله بعد أنْ يموت ويدخل الجنة ، وهذا إكبار من الله له .

---

(١) أما القول الأول : أنه خطابٌ للرسل ، فهو قول ابن مسعود . ذكره القرطبى فى تفسيره (٥٦٥٤/٨) ، ونقله السيوطى فى الدر المنثور (٥٢/٧) ، أما القول الثانى : أنه خطاب لقومه ، فقد نقله القرطبى فى تفسيره عن كعب الأحبار ، ووهب بن منبه . فالآية يجوز فيها التأويلان .

ومن مؤهلات هذا الرجل لدخول الجنة أنه لم ينظر إلى حَظِّ نفسه من التديُّن ، إنما نظر أيضاً إلى حَظِّ إخوانه ، فحتى بعد أنْ بُشِّر بالجنة ، أو بعد أنْ دخلها لم ينشغل بنعيمها عن قومه ، إنما قال﴿ يَـٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ (٢٦) ﴾ [يس] يعنى : ما أنا فيه من النعيم ، وما انتهى إليه أمر الإيمان والطاعة ، ليعملوا مثلى ولينالوا ما نلْت ، إنهم لو علموا لتهافتوا على الإيمان ، وأقبلوا على الطاعة أكثر من تهافتهم على الكفر والمعصية .

وقوله : ﴿ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ الْمُكْرَمِينَ (٢٧) ﴾ [يس] لاحظ أن المغفرة سبقتْ المكرُمة ، وهذه المسألة يسمونها التخلية والتحلية ، وسبق أنْ مثَّلْنا لها بالثوب حين تريد أنْ تكويه مثلاً : أتذهب به إلى (المكوجى) بما عليه من وسخ ؟ لا إنما تنظفه أولاً ، ثم تُزيِّنه بالكَىِّ .

كذلك الحق سبحانه وتعالى – ولله المثل الأعلى – قبل أنْ يُدخل عبده الجنة يُنقِّيه أولاً من الذنوب ، ويطهره مما علَق به ، وهذه هى التخلية ، ثم يُكرمه بالجنة ، وهذه هى التحلية ، وهذا المعنى واضح فى قوله تعالى : ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ (١٨٥) ﴾ [آل عمران]

فالحق سبحانه يمتنُّ علينا أولاً بأنْ يُزحزحنا عن النار بمغفرة الذنوب ، ثم يُكرمنا بدخول الجنة كرامةً منه وفضلاً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ (٢٨) إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَـٰمِدُونَ (٢٩) ﴾

نفهم من سياق هاتين الآيتين أن القوم المكذِّبين قتلوا هذا الرجل المتطوع ، أو أنه مات بطبيعة الحال[١] ، والمنتظر أن الله تعالى يجازيهم على تكذيبهم للرسل الثلاثة أولاً ، ثم تكذيبهم للرجل الذى جاء من أقصى المدينة يسعى لنصحهم ، فماذا فعل الله بهم ؟

يقول سبحانه : إن أمر هؤلاء المكذِّبين أهون من أنْ نُنزل عليهم جُنْداً من السماء تهلكهم . ومجرد صيحة واحدة كافية لهلاكهم ، فالمعنى ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ ﴿٢٨﴾﴾ [يس] أى : من بعد النصيحة والعظَات والبراهين التى تطوَّع بها ﴿مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾﴾ [يس] يعنى : لم نُنزل وما كان ينبغى لنا أنْ نُنزل عليهم جنداً من السماء ؛ لأن الأمر أهون من ذلك .

﴿إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً ﴿٢٩﴾﴾[يس] أى : ما كانت إلا صيحة واحدة ﴿فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴿٢٩﴾﴾[يس] كلمة ﴿خَامِدُونَ ﴿٢٩﴾﴾[يس] تدل على أنهم كانوا متحمسين للكفر بهم فى أُوَار وغضب واشتعال على رسل الله أولاً ، ثم على الرجل المتطوع ثانياً ، فهُمْ فى ذلك أشبه بالنار المتأججة ، فأخمدها الله .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك كلمة يصح أن يقولها كل مؤمن يرى مصارع العاصين ونهاية الكافرين الذين أدركهم الموت قبل أنْ يتداركوا أنفسهم بالإيمان ، يقول :

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٣/٥٦٨) : « قال ابن إسحاق فيما بلغه عن ابن عباس وكعب ووهب أنه لما قال ذلك وثبوا عليه وثبة رجل واحد فقتلوه ولم يكن له أحد يمنع عنه ، وقال قتادة : جعلوا يرجمونه بالحجارة وهو يقول : اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون ، فلم يزالوا به حتى أقعصوه وهو يقول كذلك » . أما القرطبى فى تفسيره (٧/٥٦٥٤) فقد ذكر عدة أقوال ، منها قول ابن مسعود أنهم وطئوه بأرجلهم حتى خرج قُصْبُه (أى أمعاؤه) من دبره . وألقى فى بئر الرس ، فهم أصحاب الرس .

﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٣٠﴾

هذه كلمة تحسُّر كثيراً ما نقولها تحسُّراً على فوات الخير ممن نحب له الخير ، ومعنى ﴿يَٰحَسۡرَةً ٣٠﴾[يس] هذا نداء كأنك تناديها تقول : يا حسرة تعالَىْ ، فهذا أوانك . والتحسُّر هنا على العباد الذين كذَّبوا رسل الله واستهزأوا بهم ، وهذا أمر يجب أنْ يتحسَّر عليه كل مؤمن ؛ لأن الله تعالى خلقك وخلق لك قبل أنْ يستدعيك للوجود .

خلق لك مُقوِّمات حياتك المادية ، وصان مادتك بما قدَّر لك فى الأرض من أقوات ومن ضروريات وكماليات ، فهل يُعقل أنْ يُعطى كل هذا للبدن ويُترك الروح بلا عطاء ، وهى أهم من البدن ؟

لا بُدَّ إذن أنْ يكون للروح عطاء وغذاء وقيم ، بل إن القيم هى مطلوب الله من عبده ؛ لأنك ستكون عابداً لله ، مطيعاً لأوامره ، منتهياً عن نواهيه ، وهذا هو المنهج الذى كلَّفك به فى افعل كذا ، ولا تفعل كذا .

لذلك تجد أن عطاء المادة ومُقوِّمات حياة البدن مكفولة للجميع : للمؤمن وللكافر ، للطائع وللعاصى ؛ لأن الله تعالى هو الذى استدعى الكل إلى الوجود ؛ لذلك تكفّل بأرزاقهم ، كما تستدعى أنت مثلاً ضيفاً إلى بيتك ، فتهيىء له مطعمه ومَشْربه ومُقَامه عندك ، وكل الناس أخذوا هذا العطاء .

أما عطاء القِيَم والروح ، فبعضهم أخذه وبعضهم تركه ؛ لأن عطاء المادة سمح له بشهوة نفسه ، أما القِيَم فقيَّدتْ هذه الشهوة

وأمسكتها عن أشياء ، نفسه تريدها ، فلما صدَّته القيم عن شهوات النفس تركها وتملَّص منها .

هذا المنهج القيمى جاء من مُحبٍّ لك حريص على مصلحتك ، كما ذكرنا فى الحديث القدسى عن رب العزة : (عبدى ، أنا لك مُحبّ ، فبحقِّى عليك كُنْ لى مُحباً) فأنت المنتفع بهذا المنهج ؛ لأن الله تعالى خلقك بكل صفات الكمال فيه سبحانه ، فطاعتك لا تزيده كمالاً ، كما أن معصيتك له لا تُنقصه شيئاً من صفاته ، ولا تضره بشىء .

لذلك جعل الله من عباده الغنى والفقير ، وكان قادراً سبحانه على أنْ يجعلنا جميعاً أغنياءَ لا يحتاج أحد منَّا إلى أحد ، والفقير لو تأمل الحكمة فى فقره لحمد الله ولَعلم أنه بفقره شرْط فى إيمان الغنى ، وليس الغنى شرطاً فى إيمان الفقير ، فالغنى يحتاجنى قبل أنْ أحتاجه أنا ، الغَنىّ يسعى ويتعب ويكابد أسباب الرزق والتجارة والمكسب والخسارة ، ثم يأتى إلى بابى ليعطينى حَقَّ الله فى ماله وأنا مستريح البال .

الغنى فُرض عليه الحج ، وإنْ قصَّر فيه يُعاقب ، وإنْ حَجَّ فهو بين قبول أو رَدٍّ ، فإن لم يُقبل حجه ظلتْ الفريضة عليه . وفرْق بين مَنْ فُرِض عليه الركن ، وبين مَنْ لم يُفرض عليه أصلاً .

إذن : المتأمل يرى أن الفقير أحظُّ من الغنى ، وغير المستطيع أحظُّ من المستطيع .

وقد كنا مع بعض الإخوان ، فأردنا أنْ نصلى المغرب فى مسجد سيدنا الحسين ، فلما قُمْنا للصلاة ، استوقفنا عم الحاج سيد جلال وقال : انتظروا دقيقتين ، لأننى أرسلت الولد سليمان (يفك) لى

عشـرة جنيهات ، فقـال أحد الحاضـرين : معى جنيهـات جديدة هَاتِ العشرة جنيـهات أفكها لك ، فقال الحـاج سيد : لا ، لأن الرجل الذى أنوى أنْ أعطيه لا يـأخذ إلا الجنيه الكبـير بتـاع زمان ، ويرفض هذه العملة الجديدة .

فقلت فى نفسى : سـبحان الله ، هذا الرجل المجـذوب الذى يقعد على باب سيدنا الحسين وصِفته كذا وكذا يُسخِّر أكبر رجل اقتصادى فى مصـر عم سيـد جلال ، ومـعه الوزير أحمـد طعيـمة ليـوفروا له النقود التى تعجبه .

والعجيـب أن من هؤلاء مَنْ كان يجلس على باب سيدنا الحـسين يضـع رِجْلاً على رِجْل ، ويمـرُّ عليه موكب الوزير والوزراء فلا ينـتبه إليـهم ، ولا هو يلقى بالاً إلى الموكب والحـراس والدنيا من حـوله ، فمـاذا يعنى هذا ؟ يعنى أنه مشغـول بما هو أعظم من هذا كله ، وأن الله قد تجلَّى عليه بما أفقده الوعى بالدنيا وبما حوله .

لذلك رأى أحد منهم موكبـاً لأحد الوزراء فقال للآخر : والله نحن فى لذة ، لو علم بهـا هؤلاء لحـاربونا عليهـا بالسـيف ، أليس هؤلاء سادة ؟ أليسوا أعِزَّة ؟

إذن : كل مؤمن يرى مصير المكذِّبين ومصارع الكافرين فى هذه القصـة وفى أشباهها لا بُدَّ أن يقـول هذه الكلمة ﴿يَـٰحَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ ﴿٣٠﴾﴾[يس] لماذا ؟ لأن من تمام الإيمان أنْ يتحسَّر المؤمن على مَنْ لم يَذُقْ طعم الفضيلة ولذة الطاعة ، فهو مـسكين يستحق مَنْ يشفق عليه ويتحسَّر على حاله ، والمؤمن يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، بل ويحب الخير للإنسانية كلها .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾

يعنى : كان يكفى هؤلاء المكذبين أن ينظروا مصير مَنْ كذَّب قبلهم ، وما حاق بهم من العذاب ، وأنهم بعد أنْ أهلكهم الله لم يرجع منهم أحد . وكلمة ﴿ يَرَوْا ﴿٣١﴾ ﴾[يس] من الفعل رأى ، وهى تأتى : بصرية أو علمية ، تقول : رأيت المشهد ، فهذه رؤية بصرية ، وتقول : رأيت هذا الرأى يعنى علمته ، والرؤية البصرية تقصر معلوماتك على ما اتصلتْ به جارحتك ، أمّا العلمية فتعطيك ما اتصلتْ به جارحتك وجوارح الآخرين ، فالرؤية العلمية إذن أوسع من البصرية .

لذلك قال تعالى مخاطباً نبيه ﷺ : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ ﴾ [الفيل]

ومعلوم أن سيدنا رسول الله وُلد فى عام الفيل ، وربما بعد هذه الحادثة ، إذن : لم يَرَ منها شيئاً رؤية بصرية ، ومع ذلك خاطبه ربه بقوله ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾[الفيل] يعنى : ألم تعلم ، سواء أكان قومه قصُّوا عليه القصة ، أو أن الله تعالى أخبره بها .

والرؤية البصرية للأحداث أوثق وسائل الإدراك لأنه كما يقولون : ليس مع العين أين ، لكن لماذا عدل السياق عن ألم تعلم إلى ألم تر ؟ قالوا : فى هذا إشارة من الحق سبحانه لنبيه يقول له : إن إخبارى لك بقضية علمية أوثق من رؤيتك بعينك .

وقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا ﴿٣١﴾ ﴾[يس] تعنى أن من هؤلاء القوم مَنْ

رأى بالفعل مصارع المكذِّبين ، ومرَّ على ديارهم وهى خاوية على عروشها فى أسفارهم ورحلات تجارتهم فى الشتاء والصيف ، ومعنى ﴿كَمْ ﴿٣١﴾﴾[يس] تفيد الكثرة ، وأنه أمر فوق الحصر كما تقول لمن ينكر جميلك : كم أحسنتُ إليك وكأنك تقول له : أنا أرتضى حكمك وأستأمنك أنت على الجواب ، وبذلك تحوَّل الإخبار منك إلى إقرار منه هو .

ومعنى : ﴿مِّنَ الْقُرُونِ ﴿٣١﴾﴾[يس] القرون جمع قرن ، وهو فترة من الزمن قدَّروها بمائة عام ، والقرن أيضاً يعنى الجماعة أو القوم يجمعهم الشىء الواحد مهما طالتْ فترته كالدين الواحد ، أو حكم ملك من الملوك .. الخ . فمثلاً نقول : قوم نوح وقد أخذوا من الزمن مساحة ألف عام أو يزيد .

وقوله : ﴿أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾﴾[يس] يحتمل أكثر من معنى حسب عَوْد الضمير فى (أنهم) وفى (إليهم) فالآية تتحدث عن قرون أُهلكَتْ من قبل وتخاطب مكذِّبين معاصرين ، فإنْ عاد ضمير الغائبين فى (أنهم) إلى القرون التى أهلكت . فالمعنى : أنهم لا يرجعون ، ولم نَرَ أحداً منهم رجع بعد هلاكه ، وإنْ عاد الضمير على المخاطبين الموجودين . فالمعنى : أنكم أيها المخاطبون ، لا ترجعون فى نسبكم إلى هؤلاء الذين أهلكهم الله ؛ لأن الله تعالى استأصلهم بحيث لم يُبْقِ منهم أحداً ولا نسلاً .

والآية فى مجملها تعنى أن هلاك الكافرين والمكذبين ليس بدعاً ؛ بل هو سنة مُتَّبعة على مَرِّ الزمان ، فالقرآن يقصُّ علينا ما نزل بعاد وثمود وفرعون : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي

الأَوْتَادِ (١٠) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (١٢) ﴾ [الفجر]

والله تعالى أبقى الآثار لتدلنا على صدْق ما أخبرنا به سبحانه ، وها نحن نرى أمريكا مثلاً ، وهى سيدة الحضارة الحديثة ، وصاحبة الأسبقية فى الابتكار والاختراع وغزو الفضاء ، ومع ذلك يأتون إلى مصر ليشاهدوا آثار الفراعنة التى بُنيت قبل الميلاد بآلاف السنين ، ويتعجبون رغم تقدُّمهم العلمى من كيفية بناء الأهرامات مثلاً .

هذه السُّنة ـ سُنة إهلاك الكافرين ـ نرى لها شواهد فى عصرنا الحديث ، فروسيا التى انتحرت وقتلتْ نفسها بنفسها ، انظر ماذا فعلتْ فى الشيشان ، هذه الدولة الإسلامية الصغيرة ، فى حين قصَّرنا نحن عن نُصْرتهم ، أو أن نُصْرتنا لهم لم تكُنْ على قَدْر جبروت المعتدين ؛ لذلك تدخلت السماء وردَّ الله على أعداء دينه ، وثأر منهم فى زلزال سخاليل .

وقوله تعالى فى الآية بعدها : ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ (٣٢) ﴾[يس] جاءت هذه الآية بعد قوله سبحانه ﴿ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لا يَرْجِعُونَ (٣١) ﴾ [يس] لتوضح أن عدم الرجعة أى فى الدنيا ، وإلا لو لم يكُنْ لهم رجعة لا فى الدنيا ولا فى الآخرة ، فالموت راحة بالنسبة لهؤلاء المكذِّبين ، كما قال الفخر الرازى[1] رحمه الله ، إنما المراد : لا يرجعون فى الدنيا ، أما فى الآخرة فلا بُدَّ من الرجوع للحساب عن كل كبيرة وصغيرة .

---

(١) هو محمد بن عمر بن الحسن ، أبو عبد الله ، فخر الدين الرازى ، ولد ٥٤٤ هـ فى الرى (طهران) ، إمام مفسر ، أوحد زمانه فى المعقول والمنقول وعلوم الأوائل ، رحل إلى خوارزم وما وراء النهر وخراسان ، توفى عام ٦٠٦ هـ عن ٥٢ عاماً بهراة . من كتبه « مفاتيح الغيب » فى تفسير القرآن ، و « محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين » [الأعلام للزركلى ٦/٣١٣]

قوله سبحانه (وإنْ) إنْ هنا بمعنى ما النافية و (لَمَّا) بمعنى إلا ، فالمعنى : وما كُلٌّ إلا جميع لدينا مُحْضرون . وقد عرفنا من دراستنا لقواعد النحو أن كل وجميع من ألفاظ التوكيد المعنوى للجمع ، ومثلهما أبصع وأكتع وأبتع ، تقول : جاء القوم أجمعون أو أبصعون أو أبتعون ، وجاء القوم كلهم . ونلحظ أن الآية جمعتْ بين لفظى التوكيد كل وجميع ، فلماذا ؟

قالوا : الجمع بينهما ضرورى هنا ، لأن لكل منهما مدلولاً ، لا تؤديه الأخرى ، فالكُلية تفيد الشمول للأفراد فى الرجوع ، فكلهم يعنى كل فرد منهم ، ولا يُشترط أن يكونوا مجتمعين سوياً ، إنما يأتى كُلٌّ بمفرده لتُرى الذلَّة والصَّغار على المسرفين وعلى الكافرين الذين جعلوا من أنفسهم آلهة مطاعة . أمَّا جميع فيعنى : يأتون مجتمعين .

ومعنى ﴿مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾﴾[يس] من الفعل حضر ، وفَرْق بين حضر وأُحْضِر ، حضر، أى : طواعية بنفسه وبرغبته ، أما أُحْضِر أى : أجبر على الحضور ، وأكْره رغم أنفه .

● ● ●

بعد أنْ ذكر الحق سبحانه مسألة البعث فى ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾﴾[يس] أراد سبحانه أنْ يذكر دليلاً على صدْق هذه القضية ؛ لأن البعث من المسائل التى ينكرها كثيرون ، وصدق القائل[1] :

زَعَمَ المُنجِّمُ وَالطَّبِيبُ كِلاَهُمَا ... لاَ تُحْشَرُ الأجْسَادُ قُلْتُ إليكُمَا

---

(١) هو : أبو العلاء المعرى ، أحمد بن عبد الله ، التنوخى ، ولد عام ٣٦٣ هـ بمعرة النعمان وتوفى فيها عام ٤٤٩ هـ عن ٨٦ عاماً ، شاعر وفيلسوف ، أصيب بالجدرى صغيراً فعمى فى السنة الرابعة من عمره ، قال الشعر وهو ابن ١١ سنة ، كان يلبس خشن الثياب ، وكان يُحرِّم إيلام الحيوان ، له « رسالة الغفران » ، « لزوم ما لا يلزم » وغيرهما .

إنْ صَحَّ قَوْلُكُمَا فلَسْتُ بِخَاسِرٍ أوْ صَحَّ قَوْلى فالخَسَارُ عليكُمَا[١]

وكما يقول لك الناصح : إنْ ذهبتَ فى الطريق الفلانى فاحذر وخُذْ الاحتياط ؛ لأن فيه ذئاباً وسباعاً وقطاعَ طرق ، فماذا عليك إنْ أخذتَ الحيطة ، ولم تجد شيئاً ، مما خوّفك منه ؟ كذلك اعتقادى فى البعث إنْ لم يُفدنى لا يضرنى ، واعتقادكم إنْ لم يضركم لا يُفيدكم .

وأقوى شبهة فى مسألة بَعْث الأجساد عند الفلاسفة أنهم قالوا : هَبْ أنَّ إنساناً مات ودُفن وتحلَّل جسده وزرعت على قبره شجرة تغذَّت من بقاياه ، ثم أثمرتْ وأكل من ثمارها إنسان آخر ، فوصلت إليه عناصر من الأول ، فحين يكون البعث . كيف تُبعَثُ هذه العناصر للأول ، أم للآخر ؟

وصاحب هذه الشبهة فَهِم أن العناصر حين تتكوَّن لها ذاتية فى التكوين ، ولم يفهم أن لها جنسية فى التعميم ، كيف ؟ نقول : هب أن إنساناً أصابه مرض أنقص وزنه عشرين كيلو مثلاً ، ثم هدى الله الطبيب إلى علَّته ووصف له الدواء شُفِى من مرضه وتغذَّى حتى عاد إلى وزنه الأول ، أين ذهبتْ عناصره التى نقصتْ منه ؟ وهل هى نفس العناصر التى عادتْ إليه بعد أنْ شُفى ؟

إذن : المسألة ليست خصوصية عناصر ، بل كمية عناصر ، والعظمة فى أنْ نحصى كمية عناصر كل إنسان ، فلو جمعت كمية العناصر الموجودة عندى (أكون) محمد الشعراوى ؛ لأن عناصر البشر جميعاً واحدة هى الستة عشر عنصراً المعروفة ، والتى تبدأ

---

(١) البيتان من قصيدة لأبى العلاء المعرى من بحر الكامل ، عدد أبياتها سبعة أبيات ، وفى أولها « قال » بدلاً من « زعم » . انظر ديوانه والموسوعة الشعرية .

كما ذكرنا بالأكسوجين ، ثم الكربون ، ثم النتروجين ، ثم الهيدروجين .. الخ لكن يختلف الأشخاص باختلاف كميات هذه العناصر عند كل منا ، فأنت عندك كذا أكسوجين ، وكذا كربون ، وكذا نتروجين ، وأنا أعلى منك فى الأكسجين ، وأقلّ منك فى الكربون ، وهكذا .

والحق سبحانه يُعلِّمنا أن المسألة ليست ذاتية عناصر ، وخصوصية عناصر ، إنما قيمة عناصر ، فيقول سبحانه فى سورة (ق) : ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ﴿٤﴾﴾[ق] يعنى : يحفظ هذه الكميات ويُحصيها بمقاديرها ، فإذا أراد سبحانه البعث جمع نسبة كذا ونسبة كذا تعطى فلاناً ، ونسبة كذا إلى نسبة كذا تعطى فلاناً وهكذا ، ولم يقف الأمر عند علم هذه النِّسَب ، بل حفظها الله وسجَّلها فى كتاب حفيظ .

وفى موضع آخر ، يردُّ الحق سبحانه على منكرى البعث يقول لهم : لماذا تكابرون فى البعث ، وهو إعادة لشىء كان موجوداً بالفعل وتفرَّقتْ عناصره ، والأعجب من ذلك أنْ أنشأته من غير موجود ، إذن : فالبعث أهون من الإعادة ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴿٢٧﴾﴾ [الروم] هذا إنْ جاريناكم فى فَهْمكم للأمور ، واتبعنا قوانينكم فى التفكير .

وسبق أنْ أوضحنا أن العناصر التى خلقها الله فى الكون هى هى ، لم تزد شيئاً ، ولم تنقص شيئاً ، فالماء مثلاً هو نفس الماء منذ خلق اللهُ الأرض ، لكنه يدور فى دورة معروفة ، فالإنسان مثلاً يشرب طوال حياته كذا طن من الماء ، فهل يحتفظ بها ؟ لا بل تخرج منه فى صورة بول وخلافه ، حتى بعد أنْ يموت يتبخّر ما فيه من

مائيـة ، وتمتصـها الأرض لتبـدأ دورة جديدة للمـاء . وهكذا عناصر الإنسان تدور هذه الدورة .

وهنا يسوق الحق سبحانه لهؤلاء المنكرين هذا الدليل :

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

وهذا دليل مُشَاهد يراه الجميـع ، ولا يستطيع أحد إنكاره ، فنحن نرى الأرض المـيتة الـجرداء القاحـلة ، فإذا ما جـاء المطر اخـضرَّتْ ودبَّتْ فيها الحياة واهتزَّت وربَتْ ، وعلى الإنسان أنْ يأخذ مما يُشاهد دليلاً على صِدْق ما غاب عن مشاهدته .

وقوله تعالى ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ ﴿٣٣﴾﴾[يس] الآية : الشـىء العجيب فى بابه كمـا نقول : فـلان آية فى الكرم أو آية فى الحُـسْن ، وهذه الآية لهم يعنى للكـافـرين فـحسـب ، لأن المـؤمن لا يحـتـاج إلى هذه الأدلة ؛ المؤمن قال : ﴿أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ [فصلت]

وطلب الدليـل على الشـىء أول دليل على وجـوده ، ومـا أتعـبتُ نفسـى فى البحث عن الدليل إلا لأننى مـقتنع بوجـود الشـىء ، فطلَب الدليل هو عَـيْن الدليل ، والمـؤمن لا يطلب الدليل إلا لـيجـادل به مَنْ لا يؤمن ليلفته إلى آيات الله.

وهذه الآية إما أن تأخذها على أنها آية كونية تدل على قدرة الإله المُوجِد سبحانه ، وإمَّا أن تأخذها دليلاً على أننا إذا أنزلنا المطر على

الأرض الميتة تهتزّ وتنبت من كل زوج بهيج .

والمتأمل فى الأرض يجد أنها آية فى ذاتها ، ونعمة من أعظم نعَم الله علينا ، حتى وإنْ كانت صخراً لا تنبت ، فيكفى أنها مَقرُّنا ، فوقها نستقر ، وإليها نأوى ، فما بالك إنْ منحها الله لوناً من الحياة حين تهتزّ بالنبات وتتحول إلى اللون الأخضر البديع .

وإحياء الأرض على مراتب ، فإما أنْ يكون الإحياء بنباتات لا تغنى فى القوت مثل العُشْب والحشائش والنجيل ، ويكفى أن هذا النوع يكسو وجه الأرض جمالاً ونُضْرة ويلبد الرمل ويثبته على وجه الأرض فلا تبعثره الرياح فى أعيننا ، فهى إذن مظهر من مظاهر حياة الأرض ، ونعمة من نِعَم الله ، والمرتبة الأخرى أن تنبت الأرض النبات الذى نقتات به ، وهو قسمان : الحبوب التى تمثل الضروريات ، وهى من مقومات حياتك ، وهى أصل القوت وأهمها القمح .

وقد أشار الحق سبحانه إلى أهميتها ، فقال سبحانه ﴿وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ ﴿١٢﴾﴾ [الرحمن] ليلفت أنظارنا إلى أهمية القشرة التى كنا إلى وقت قريب لا نهتم بها ، ونضعها علفاً للمواشى ، ونأكل الدقيق الفاخر أو (العلامة) ، وكان هذا طعام الصفوة والأغنياء إلى أنْ تنبهنا إلى أهمية الردة ، فأصبحنا نُفضِّلها على الدقيق الفاخر ، بدليل أن الخبز المكوَّن من الردة الآن أغلى من الخبز الأبيض ، ثم رأينا الذين أسرفوا على أنفسهم فى أكل الخبز الأبيض الفاخر لا يأكلون إلا الردة ، وبأمر الطبيب .

لذلك رُوِى أن سيدنا سليمان عليه السلام ، وقد أعطاه الله مُلْكاً

لا ينبغى لأحد من بعده كان لا يأكل إلا الخشكار أى : الدقيق الخشن[١] أما الدقيق (العلامة) فللخدم .

ثم الفواكه وتُعَدُّ من التَّرفيات التى نتفكَّه بها .

لذلك يقول سبحانه : ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ الأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا .. (٣٣)﴾[يس] هذه هى المرتبة الأولى ، ثم ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (٣٣)﴾[يس] وهذه هى الضروريات .

ثم ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ .. (٣٤)﴾ [يس]

وخَصَّ النخيل والأعناب ؛ لأن البلح والعنب أهم الفواكه ، وأقربها من ضروريات القُوت ، فهما قوت للبعض ، وفاكهة للبعض ؛ لذلك قال شوقى رحمه الله عن البلح :

طَعَامُ الفَقِير وحَلْوى الغَنِىّ وزَادُ المسَافِر والمغْتَرِب[٢]

ونقف هنا عند عظمة الأداء القرآنى ؛ لأن الكلامَ كلامُ رب ، وعلينا نحن أنْ نجلى وجوه العظمة فيه ، وقد لاحظ العلماء جزاهم الله عنَّا خيراً أن القرآن لما تكلم عن الفاكهة قال ﴿مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ (٣٤)﴾[يس] فذكر الشجرة فى النخيل ، وذكر الثمرة فى الأعناب ، ولم يذكر ثمرة النخيل وهى التمر ، ولم يذكر شجرة العنب وهى الكَرْم .

ولما بحث العلماء هذه المسألة وجدوا أن القرآن ذكر النخيل ؛

---

(١) وردت هذه الكلمة فى لسان العرب لابن منظور (الخُشَار والخُشَارة) يقال : الخشارة والخشار من الشعير : ما لا لُبَّ له . (يقصد الردة أى القشرة) والخشار أيضاً : الردىء من كل شىء . [لسان العرب – مادة : خشر] .

(٢) البيت من قصيدة لأحمد شوقى أمير الشعراء ، من بحر المتقارب ، عدد أبياتها ٢١ بيتاً ، أولها :

أرى شجراً فى السماء احتجب وشق العنان بمرأى عجب

لأنها شجرة كثيرة الفوائد ، مستمرة العطاء ، لا يقتصر نفعها على ثمرها ، بل كل ما فيها نافع مفيد ، ويكفى أنْ تعرف أن النخلة لا يُرْمَى منها شىء أبداً ، ولكل جزء فيها استعمال ومهمة : الجذع والجريد والخوص ، حتى الليف يحشون به أفخم أنواع الصالونات ، أما شجرة العنب فبعد أنْ تأخذ ثمرها لا يبقى فيها إلا مجموعة من العيدان الملتوية التى لا تغنى شيئاً .

ثم يقول سبحانه ﴿وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿٣٤﴾﴾[يس] لأن الأرض المنزرعة التى تعطينا هذا العطاء إما أنْ تُروى بالأنهار أو بالمطر ، فإذا لم يتوفر لها هذان المصدران تُرْوَى بعيون وهى المياه الجوفية التى تتسرَّب من ماء المطر فى باطن الأرض ، كما قال سبحانه : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ﴿٢١﴾﴾ [الزمر]

وهذه العيون مظهر من مظاهر قدرة الله ، فمنها ما نبحث عنه ونحفره ، ومنها ما ينساب بنفسه طبيعياً بقدرة الله ، وكأن ربك عز وجل يُطمئنك إلى عطائه ، فإنْ كنتَ فى أرض غير ممطرة ولستَ فى واد تجرى فيه الأنهار فاطمئن ، ففى باطن الأرض عيون تتفجَّر بالماء العَذْب الصالح للشرب ولسقْى الأرض . وقد تنبَّهنا مؤخراً إلى ضرورة زراعة الصحراء واستصلاحها ، وأعاننا على ذلك ما فيها من آبار ومياه جوفية ، ما علينا إلا أنْ نبحثَ عنها .

ثم يُبيِّن الحق سبحانه العلة فى تفجير العيون ، فيقول سبحانه : ﴿لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾[يس] قوله تعالى ﴿مِن ثَمَرِهِ ﴿٣٥﴾﴾[يس] قالوا : من ثمره . أى : الحبوب والبلح والعنب وغيرها ، أو من ثمر تفجير العيون ، قال البعض : ينبغى أن ننسب الثمرة إلى الأصل ، فيكون المعنى : من ثمر القدرة فى كُنْ ، وليس

المـراد الثمـرة القريبـة .

فكأن الحق سبحانه يريد أنْ يخلعك من الفـتنة بالأسباب ، ويلفتك إلى المـسبِّب الأعلى الأول ؛ لذلك أمـرنا حين يعـزُّ الماء ولا تسعـفنا الأسـباب أن نلجـأ إلى المسـبِّب سبـحانه بصـلاة الاستـسقـاء ؛ لأن المـسبِّب سـبحـانه هو المـرجع النهائى لـهذه المـسألة ، وأنت حـين تستسقى لا تستسقى بنفـسك ، إنما بأضعف منك ، وإنْ كنتَ عاصياً كفوراً تستسقى بمَنْ لم يرتكب معصية .

لذلك أمرنا أنْ نأخذ مـعنا فى صلاة الاستسقـاء النساء والأطفال والمواشى ، وكأننا نتوسل إلى الله بضعفهم وطهارتهم من المعاصى ، وكأننا نقـول لربنا : يا رب إن كنا قد عـصيناك ولا نسـتحق السُّقـيا فاسْقِنَا لأجل هؤلاء .

بل وأمرنا فى الاستـسقاء أن نخرج إليه ونحن مـخالفون للأَرْدِية مغيِّرون لِسَمتها ، إظهاراً للذلة والانكسار لله سبحانه وتعالى[1] .

والآن ، بعد مـا حدث من تطور فى استـخدام الماء حـتى صرْنَا نستقبله فى خزانات ومواسـير بَعُدَتْ الصلة بين واهب الماء والمنتفع به ، فحـين تنقطع المياه لا تخطر على بـالك صلاة الاستسـقاء ، ولا تتذكـر واهب الماء ، إنمـا تفكر فى سـبب انقطاع الميـاه فتـسأل عن

---

(١) أخرج أحمـد فى مسنده (٣٢٦/٢) وابن ماجه (١٢٦٨) والبـيهقى فى سننيهـما من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال : « خرج نـبى الله ﷺ يوماً يستسقى وصلى بنا ركـعتين بلا أذان ولا إقامـة ، ثم خطبنا ودعا الله وحـوَّل وجهه نحـو القبلة رافعـاً يديه ، ثم قلب رداءه فجعل الأيمن على الأيسر والأيسر على الأيمن » قـال ابن حجر فى فتح البارى (٤٩٩/٢) : « اختلف فى حكمة هذا التحويل : فجزم المهلَّب بأنه للتـفاؤل بتحويل الحال عما هى عليه . وتعقَّبه ابن العـربى بأن من شرط الفأل أن لا يقصد إليه . قال : وإنمـا التحويل أمارة بينه وبين ربه . قيل له : حوِّل رداءك ليتحول حالك » .

المواسير وعن الموتور .. الخ . إذن : الأسباب نفسها أبعدتْنَا عن المسبِّب سبحانه .

وقوله سبحانه ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ﴿٣٥﴾﴾[يس] استدراك يراعى دور الإنسان وعمله ، فمن الثمار ما يُؤكَل مباشرة مثل الخوخ والبرتقال والخيار ، ومن الثمار ما يحتاج إلى علاج وإعداد ليُؤكل ، كما نفعل مثلاً فى (الكوسة) وغيرها مما يحتاج إلى إعداد ، فكأن الحق سبحانه يُقدِّر لك دورك ، ويعطيك حقك ، ويذكر لك عملك مهما كان يسيراً .

وهذه المسألة جاءت بوضوح فى قوله سبحانه : ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [الواقعة] فربُّك عز وجل يُقدِّر عملك فى حرث الأرض وإعدادها للزراعة ، وهذا دورك فيها ، أما مسألة الإنبات فهى لله وحده ، لا دخْلَ لك فيها .

كذلك احترَم ربُّك عملَك فى إيجادك شيئاً كان معدوماً وسمَّاك خالقاً ، لأنك أوجدتَ معدوماً ، وإنْ كان هذا الذى أوجدته من موجود معلوم ، فقال سبحانه ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ [المؤمنون]

فإذا كان ربك قد احترم خلقك لشىء كان معدوماً ، فينبغى عليك أنْ تحترم أحسنيته فى الخَلْق ، فأنت خالق وربّك أحسن الخالقين ، أنت تستطيع أنْ تعالج الرمل مثلاً ، وتصنع منه كوباً ، هذا نوع من الخَلْق لكن يظل الكوب كما هو ، ويثبت على الحالة التى أوجد عليها ، فلا تعطى أنت الكوب صفة الحياة ، أما خَلْق الله فيعطيه اللهُ صفةَ الحياة ، فينمو ويكبر ويتناسل .. الخ .

وقوله سبحانه : ﴿أَفَلا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾[يس] جاء بعد ذكر هذه النِّعَم السابقة ، والتى تستوجب شكر الله عليها ، لكن لم يَأْتِ هُنا أمر

بالشكر ولم يَأتِ بأسلوب خبرى ، إنما جاء هكذا ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾[يس] بصيغة الاستفهام ، وكأن الله تعالى يقول لنا : أجيبوا أنتم ، فقد استأمنتُكم على الجواب ، وقد علم سبحانه أن الجواب لا يمكن أنْ يكون إلا الإقرار بالشكر على النعمة .

ثم يقول سبحانه :

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾

كلمة ﴿سُبْحَانَ ﴿٣٦﴾﴾[يس] تعنى : التنزيه المطلق لواجب الوجود الأعلى عن أنْ تحكمه قوانين الموجود نفسه ؛ لذلك تُقال فى كل أمر عجيب كما فى قصة الإسراء والمعراج ، فقد استهلَّ القرآنُ سورة الإسراء بقوله تعالى ﴿سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ ﴿١﴾﴾ [الإسراء] فالإسراء بسيدنا رسول الله ﷺ من مكة إلى بيت المقدس ، ثم الصعود به إلى السماء السابعة فى جزء فى الليل يُعَدُّ أمراً عجيباً ، وينبغى ألاَّ نقيسَ هذا الفعل على قوتنا نحن ، بل على قوة الفاعل ؛ لأن الفعل يجب أنْ يُقارن بقوة فاعله قوةً وضعفاً .

وسبق أنْ قُلْنا لتوضيح هذه المسألة : إننى لو قلتُ : صعدتُ بابنى الصغير قمة افرست مثلاً ، أتقول لى : كيف صعد ولدك الصغير قمة افرست ؟

فالحق سبحانه فى قوله ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ ﴿١﴾﴾ [الإسراء] يقول لنا : لا تتعجبوا من هذه المسألة ؛ لأن محمداً لم يَقُلْ سريتُ ، إنما قال : أُسْرِى بى ، فأنا الذى أسريت به وأنا مُنَزَّه عن الزمان ،

ومُنزه عن المكان وعن القوة ، وإذا كان كل فعل يُقاس زمنه بقوة فاعله فَقِسِ الزمن على الفاعل الأعلى سبحانه ، وعندها ستجد لا زمن .

وقلنا : إنك حين تذهب إلى الإسكندرية مثلاً ماشياً تستغرق عدة أيام ، أمّا بالسيارة فتستغرق عدة ساعات ، وبالطائرة عدة دقائق ، وبالصاروخ ثوانى ، إذن : كلما زادت القوة قَلَّ الزمن ، وعلى هذا قِس الإسراء والمعراج .

لذلك تجد أن هذه الكلمة ﴿سُبْحَانَ ۝١﴾ [الإسراء] لا تُقَال ولم تُقَل من قبل إلا لله تعالى ، مع كثرة الجبابرة فى الأرض ، ومع وجود مَن ادعى الألوهية ، ومَن قال : أنا ربكم الأعلى ومع ذلك لم تُقَلْ إلا لله ؛ لذلك نقول فى ذكر الله : سبحانك ولا تُقال إلا لك ، لماذا ؟ لأنها تعنى التنزيه المطلق ، وهو لا يكون إلا لله .

وكلمة (سبحان) مصدر يعنى : لله سبحان أى تنزيه قبل أن يوجد مَنْ ينزهه ، فهو مُنزَّه فى ذاته قبل أنْ يوجد مَنْ يقول سبحان الله ، كما أنه تعالى خالق قبل أنْ يخلق ، ورازق قبل أنْ يرزق أحداً ، فالصفة موجودة فيه سبحانه قبل أن يُوجد لها متعلق ، كما تقول : فلان شاعر ، أهو شاعر لأنه قال قصيدة رائعة ، أم هو شاعر قبل أنْ يقولها ؟ نعم هو شاعر قبل أن يقول القصيدة ، ولولا موهبة الشعر عنده ما قالها .

إذن : فصفات الكمال كلها موجودة لله تعالى قبل أنْ يوجد لها متعلق ؛ لأن هذه الصفات هى التى أوجدتْ متعلقها .

وكما ذكر القرآن كلمة المصدر (سبحان) ذكر المشتق منها من الماضى ، فقال سبحانه :

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۝١﴾ [الحشر]

وذكر المضارع فى قوله تعالى :

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ۝١﴾ [الجمعة]

إذن : الحق سبحانه مُسبَّح قبل أنْ يخلق الخَلْق ، ثم لما خلق الخَلْق سبحتْ له كلُّ المخلوقات ، وما زالت تُسبِّح وستظل تُسبِّح ، فما دام الكون كله مُسبِّحاً فلا تخرج أنت عن هذه المنظومة ، وسبِّح معها : ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ۝١﴾ [الأعلى]

والتنزيه المطلق للحق سبحانه له مقامات ثلاثة :

الأول : أن تُنزِّه ذاته سبحانه عن كل الذوات .

الثانى : أنْ تُنزه صفاته سبحانه عن كل الصفات ، فأنت تُوصف بالغِنى ، لكن غناك ليس كغِنَى الحق سبحانه ، أنت موجود والله موجود ، فهل وجودك كوجوده سبحانه ؟ ..الخ

ثم **الثالث** : أنْ تنزه فعله سبحانه أنْ يشبه الأفعال ، فإذا قيل : الله فعل كذا . إياك أن تقيس فعْله تعالى بفعلك ؛ لذلك قلنا فى ﴿سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ ..۝١﴾ [الإسراء] قِسْها على قوة الفاعل سبحانه ، لا على قوتك أنت .

الحق سبحانه حينما يأتى بشىء يعلمه المخاطبون الأولون لا يغلق خزائن فضله ، إنما يترك لنا رصيداً احتياطياً لكل ما يجد بعد ذلك نتيجة التطور والتزاوج فى قوله سبحانه : ﴿سُبْحَانَ الَّذِى خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ ۝٣٦﴾[يس] ، فقوله تعالى : ﴿وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ ۝٣٦﴾ [يس]

فهو غير معلوم للمخاطبين أولاً ، لكن سيُعلم فيما بعد ، وأبرز آيات القرآن التى أشارت إلى هذه المسألة قوله سبحانه : ﴿وَالْخَيْلَ

وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ [النحل]

فجاء قوله تعالى : ﴿وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾ [النحل] رصيداً احتياطياً لما استجدَّ بعد ذلك من وسائل النقل والمواصلات ، كالسيارات والطائرات والصواريخ .. الخ .

فإنْ قلتَ : فلماذا جاءت هذه الأشياء المستجدَّة على سبيل الإجمال ؟ نقول : لأن العقل لم يكُنْ مستعداً لأنْ يقبلها ساعة الخطاب ، وهو لم يَرَ شيئاً من هذا ، لكن حين يوجد الشيء يراه صراحة ، فقال سبحانه على سبيل الإجمال ﴿وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾ [النحل] لأن كل يوم سيأتى لنا بجديد وبعجائب لم نَرَهَا من قبل ، وآخر ما شاهدناهُ من ذلك الصواريخ ، ومَنْ يدريك لعلنا نرى عن قريب ما هو أعجب منها ، وعندها سنُدخِل كل هذه الأشياء تحت ﴿وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾ [النحل]

كذلك هنا فى قوله تعالى ﴿وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾[يس] فنحن نعلم الأزواج فى﴿مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ ﴿٣٦﴾﴾[يس] وشاهدناها مثلاً فى تلقيح النخيل وغيره من المزروعات ، ونعرف منها الذكر والأنثى فى النخيل وفى الجميز مثلاً ، لكن هناك مزروعات أخرى لا نعرف فيها الذكر من الأنثى ، وهذه الأنواع تُلقِّحها الرياح بقدرة الله كما قال سبحانه : ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ ﴿٢٢﴾﴾ [الحجر]

وفى بعض المزروعات جعل الخالق سبحانه الذكورة والأنوثة فى العود الواحد ، وغالب الظن أنها فى المزروعات الضرورية للأقوات كالذرة والقمح ، فليس فيهما عود ذكر وآخر أنثى ، إنما فى العود الواحد كعود الذرة مثلاً نجد فى أعلى العود سنبلة تحمل حبَّات لقاح الذكورة وتحتها كوز الذرة الذى تخرج منه شعيرات تمثل الأنوثة

وتتلقى حبات اللقاح التى تبعثرها الرياح من أعلى .

لذلك إذا لم تخرج هذه الشعيرات وتبرز من الكوز (يدكَّر) كما يقول الفلاحون يعنى : لا يُخرج كوزاً ، ولا تتكوَّن بداخله حبَّات الذرة ، لماذا ؟ لأنه لم يتلقَّ حبات الذكورة .

لذلك من العجائب أنك تجد حبات الذرة فى أسفل الكوز أكبر مما يليها إلى أعلى وبالتدريج ؛ لأن كل شعيرة من الشعيرات متصلة بحبة من حبات الكوز ، وتمثل هذه الشعيرة القناةَ التى تنقل اللقاح إلى الحبة ، لكن الشعيرات التى تنزل إلى أسفل الكوز تخرج منه قصيرةً متفرقة ، مما يتيح لها أن تتلقى أكبر كمية من اللقاح على خلاف الشعيرات الأعلى ، فإنها تكون طويلة متراكمة بعضها على بعض ؛ لذلك لا تأخذ كفايتها من اللقاح ، فتكون حبَّاتها أقلَّ حجماً ، إلى أنْ تضمر فى أعلى الكوز وتتلاشى .

ونحن جميعاً نشاهد صدْق قوله تعالى ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ (٢٢)﴾ [الحجر] حين ننظر مثلاً إلى الجبال وهى جرداء قاحلة ، فإذا نزل عليها المطر اخضرَّتْ ، فمَنْ بذر فيها هذه البذور ؟

والحق سبحانه وتعالى فى قوله ﴿سُبْحَانَ الَّذِى خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ (٣٦)﴾[يس] إنما يُطمئننا على امتداد النعمة وامتداد المنعَم عليه ، فبالتزاوج يبقى النوع ويتكاثر ، والزوجية موجودة فى كل شىء ، وكلمة زوج لا تعنى اثنين كما يظن البعض ، إنما الزوج يعنى : الشىء الواحد لكن معه مثله ، فنحن لا نقول للحذاء مثلاً زوج يعنى اليمين والشمال ، إنما نقول زوجين ، ومثلها كلمة توأم ، فكل واحد منهما يقال له : توأم وهما توأمان .

والزوجية موجودة فى كل شىء فى الوجود ، كما قال سبحانه

فى آية أخرى : ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ..(٤٩)﴾ [الذاريات]

وإذا نظرتَ إلى هذا الوجود كله بعين العلم الفاحصة المجرِّبة المدقِّقة لوجدتَ كل شىء فى الوجود زوجين لاستدامة الصنف ، بعض هذه الأشياء ندرى مسألة الزوجية فيها ، وبعضها لا ندرى به ، وما دام الزوجان يجتمعان للتكاثر فلا بُدَّ من تلقيح أحدهما بالآخر ، فما الذى يدلّنا على ميعاد هذا التكاثر ؟

قالوا : الشىء الذى لا دَخْلَ للإنسان فيه فالله يعلم ميعاده ، ويجعلها تتكاثر كُلٌّ بما يناسبه ، لكن المشكلة عندك أنتَ أيها الإنسان، ولو كانت عندك مقاييس دقيقة فى الذات لعلمتَ أن هناك تغيُّرات كيماوية فى جسمك تحتاج منك إلى دِقَّة ملاحظة ، هذه التغيرات هى التى تدلُّك على ميعاد التكاثر .

والآن اخترعوا ساعة تضعها المرأة بعد الحيض ، وتلاحظ منها درجة حرارتها ، فإذا ارتفعت عن ٣٧° فهذا يعنى وجود تغيُّر كيماوى فى الجسم ، يدل على نزول البويضة ؛ لذلك نرى كثيرين من الأزواج تتأخر عندهم عملية الإنجاب ، لأن المرأة ليست لديها دقَّة الملاحظة التى تعرف منها وقت التبويض الذى يُؤدى إلى الإنجاب .

وذكر الحق سبحانه الزوجية فى ﴿مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ (٣٦)﴾[يس] ولم يذكر الحيوان ، لماذا ؟ لأنه سبحانه ذكر الأعلى ، وهو الإنسان الحيوان الناطق ، فالآخر مِثْله وتابعٌ له .

ومعنى ﴿وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ (٣٦)﴾ [يس] أن فى الكون أشياء كثيرة

لا نعلم وجه الزوجية فيها ، وقد نعلمها مستقبلاً مع تَقدُّم العلوم التجريبية ، كما حدث مثلاً فى الكهرباء ، وعرفنا أنها سالب وموجب ، ولا نستفيد بالكهرباء إلا إذا التقى السالب بالموجب ، أما إن التقى سالبٌ بسالب أو موجبٌ بموجب ، فالنتيجة تكون عكسية ، والسالب والمُوجب هنا نوع من أنواع الزوجية ، كذلك الحال فى الذرَّة وغيرها مما اكتشفه العلم الحديث .

إذن : فكلمة ﴿وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾[يس] لها مدلولات وقعتْ ، أخبر الله عنها قبل أنْ نكتشفها لنعلم أن الغيب الذى يخبرنا الله به يأتى كمقدمة لغيب آخر سنعرفه فى المستقبل ، وكأن الحق سبحانه يلفت أنظارنا : كما صدَّق الواقع ما أخبرتُ به من الغيب ، فصدِّقوا ما أخبرتكُم به من غيب الآخرة .

بعد أن تكلَّم الحق سبحانه عن المكان وهو الأرض تكلَّم عن الزمان ؛ لأن الإنسان يعيش بالأحداث ، والحدث يحتاج إلى زمان وإلى مكان ، فبعد أن حدَّثنا الحق سبحانه عن الأرض وما عليها وهى المكان ، يُحدِّثنا عن الزمان ، فقال سبحانه :

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾﴾

قوله تعالى ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ ﴿٣٧﴾﴾[يس] يعنى : خاصة بهم ، وليست آية للكل ؛ لأن النبى ﷺ آمن بفطرته ، ولم يكن بحاجة إلى دليل ليؤمن ، كذلك المؤمن لا يبحث عن الدليل إلا ليردَّ به على مَنْ ينكر .

و﴿اللَّيْلُ ﴿٣٧﴾﴾[يس] هو قسيم النهار ، فاليوم يتكوَّن من ليل

ونهار، وليس من الدقة فى المقابلات أن نقول اليوم والليل ؛ لأن اليوم يشمل الليل والنهار ، فكلاهما يوم ، لكن البعض نظر إلى قوله تعالى ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا (٧)﴾[الحاقة] فأطلق اليوم مقابل الليل بدل النهار .

والليل ظلمة ، وفيها السكون يشبه النوم الذى تنامه بالليل ، والنوم يشبه الموت ، والليل يقابل النهار لكن لا يعانده ولا يضاده كما يظن البعض ، فالليل يقابل النهار ، وبينهما تكامل ؛ لأن لكل منهما مهمة فى الحياة ، الليل جُعل لنهدأ من حركة النهار ونستريح لنستأنف نهاراً جديداً بنشاط ، والنهار جُعل للعمل وللسعى نستغل فيه راحة الليل .

إذن : هما متعاضدان لا متعاندان ، وكل شىء له مقابل ، إياك أن تأخذه على أنه ضدّ ، بل انظر إلى أنه شىء ضرورى لا بُدَّ أنْ يكون.

لذلك الحق سبحانه يلفتنا فى الزمن إلى هذه المسألة ، فيقول :

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٧٢)﴾ [القصص]

إذن : لكل منهما مهمة ، ولا يُغنى أحدهما عن الآخر ، ومن دقَّة الأداء القرآنى أنْ يقول سبحانه فى الليل ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ (٧١)﴾ [القصص] وفى النهار ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٧٢)﴾[القصص] لأن الليل ظلمة ، وأداة

---

(١) الأيام الحسوم : التِّباع إذا تتابع الشىء فلم ينقطع أوله عن آخره . قاله الفراء . ونقله الأزهرى فى تهذيب اللغة ـ مادة : حسم . وقال الخليل بن أحمد فى كتابه العين : « حسوماً . أى : شؤماً عليهم ونحساً » .

الاستدعاء فيه الأذن ، أما النهار فضياء نبصر فيه .

إذن : لا يصح أنْ نجعل من كلٍّ متقابلين متضادين ، فالتكامل غير التضادّ ، كذلك أراد الله تعالى أنْ يَحلَّ بهذه المسألة مشكلة لا تزال العصور تتصارع فيها إلى الآن ، مشكلة التقابل بين الذكورة والأنوثة ، أو الرجل والمرأة ، والآن نسمع مَنْ ينادى بأن المرأة مثل الرجل ، كيف ولكل منهما مهمة نوعية ، إنهما متكاملان مثل تكامل الليل والنهار .

وقد أشار الحق سبحانه إلى هذا التكامل فى قوله سبحانه : ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ① وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ② وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ③ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ④﴾ [الليل]

ومعنى ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ④﴾[الليل] يعنى : مختلف ، ولكُلٍّ مهمة يؤديها فى الحياة ، فالذين ينادون الآن بالمساواة بين الرجل والمرأة إنما يظلمون المرأة ؛ لأنهم يريدون للمرأة أنْ تقوم بدور الرجل فى حركة الحياة ، وبعد ذلك يتركون المرأة تقوم هى بالخصوصية التى لا يؤديها إلا هى ، إذن : هى أخذت من مهمة الرجل ، ولم يأخذ الرجل من مهمتها . إذن : الحق سبحانه يخلق المتقابلات لتتكامل لا لتتعارض ، وتتساند لا لتتعاند ، فهى مسألة موزونة بحساب .

وقوله سبحانه : ﴿نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ ㊲﴾[يس] السلخ كَشْط الجلد عن الشاة ، فما العلاقة بين هذه المسألة وضوء الليل والنهار ؟ قالوا : الأصل فى الشىء الظلمة ، ولا تظهر الظلمة إلا بمنير طارىء ، فالليل ظلمة ، ثم يأتى ضوء النهار فيستر هذه الظلمة ، فكأن النهار حينما يأتى يستر الظلمة كما يستر جلدَ الشاة لحمُها ، فإذا ما أراد

الحق سبحانه أنْ يأتى الظلام يخلع الضوء ، كما نسلخ جلد الشاة عن لحمها .

إذن : فالليل يأتى على طبيعته لأنه الأصل ؛ لذلك قال سبحانه : ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ (٣٧)﴾[يس] فالظلام عدم نور ، أما النور فإيجاد ، ويحتاج إلى آلة جديدة ، فلو تركت الليل لحاله لظلَّ مظلماً ، ولولا آلة الضوء لظلَّ ليلاً ، إذن : للضوء آلة . أما الظلام فليس له آلة حينما تعمل يأتى الظلام ، أو قُلْ الظلام أمره عدمى ، أما الضوء فأمره وجودى ، فإذا قيل : نسلخ منه النهار فقد شبه الضوء الذى يغطى الظلام بالجلد الذى يغطى لحم الشاة .

والمعنى : نذهب بهذا الغلاف الضوئى الذى يستر الليل ، فيحلّ الظلام أى : يظهر على طبيعته ومن تلقاء نفسه ؛ لذلك جاء الأداء القرآنى بإذا الدالة على المفاجأة ﴿فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ (٣٧)﴾[يس] فكأن المسألة تلقائية لا تحتاج إلى ترتيب.

ثم يقول سبحانه :

﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٨)﴾

الشمس هى آلة الضوء الذى نسلخه عن الليل ، ومعنى ﴿تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا (٣٨)﴾[يس] أى : لشىء ولغاية تستقر عندها ، والمتتبع لحركة الشمس يجد أن لها مطلعاً عاماً هو الشرق ، وهذا المطلع العام يُقسَّم إلى مطالع بعدد أيام السنة . إذن : فمطالع الشمس مختلفة ؛ لذلك رأينا قدماء المصريين فى معابدهم يدركون هذه الحقيقة الكونية ويحسبونها بدقة ، ويجعلون فى المعبد ٣٦٥ طاقة ، تشرق الشمس

كل يوم من واحدة منها بالترتيب ، إلى أنْ تصل إلى آخرها فى آخر السنة.

وقد عرف الإنسان أن للشمس مجموعة من الكواكب تدور حولها، وسماها المجموعة الشمسية ، وهى تتكوَّن من سبعة كواكب : عطارد والزهرة والأرض والمريخ والمشترى وزحل ويورانوس ، وقد أغرتْ هذه السبعة بعض العلماء مثل الشيخ المراغى والشيخ محمد عبده أن يقولوا إنها السموات السبع ، لكن فى سنة ١٩٣٠ اكتشف العلماء كوكباً آخر هو بلوتو ، وبعدها بعشرين سنة اكتشفوا كوكباً آخر هو نبتون ، فصاروا تسعة كواكب فى المجموعة الشمسية ، كلها فى السماء الدنيا ، ولا صلة بينها وبين السموات السبع ، لكن حاول الشيخان تقريب المسائل الدينية للفهم .

هذه الكواكب فى المجموعة الشمسية لكل كوكب منها دورة حول نفسه ، ودورة حول الشمس ، من دورته حول نفسه ينشأ اليوم ، ومن دورته حول الشمس ينشأ العام ، والدورتان تختلفان فى السرعة ، فإذا كانت دورة الكوكب حول نفسه أسرعَ من دورته حول الشمس كان يومه أطولَ من عامه .

لذلك من الأشياء الملغزة التى تُقَال فى الجغرافيا : ما يوم أطول من عام ؟ يوم الزهرة أطول من عامها ، لأنهم لما حسبوا حركة الزهرة بالنسبة ليوم الأرض وجدوا أن عام الزهرة ٢٢٥ يوماً من أيام الأرض ، ويومها ٢٤٤ من أيام الأرض ، ذلك لأن سرعتها حول نفسها أكبر من سرعتها فى دورتها حول الشمس .

فمعنى ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ﴿٣٨﴾﴾[يس] أى : الشمس بمجموعتها ، وما يدور حولها من كواكب تجرى إلى نجم يسميه

علماء الفلك (الفيجا) والعرب تسميه (النسر) الواقع ، والشمس تجرى بمجموعتها بسرعة ١٢ ميلاً فى الثانية ، الشمس لها حركة والكواكب التى تدور حولها لها حركة ، وهذه أشبه ما تكون بإنسان يركب مركباً ، فكيف نحسب حركته وسرعته ؟

إنْ كان هو ساكناً فسرعته تساوى سرعة المركب ، وإذا كان يسير فى نفس اتجاه المركب ، فسرعتُه تساوى سرعته فى ذاته (زائد) سرعة المركب ، فإنْ كان يسير فى عكس اتجاه المركب فسرعته تساوى سرعة المركب (ناقص) سرعته هو .

ومعنى ﴿لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ﴿٣٨﴾﴾[يس] المستقر إما أن يكون نهاية العام ، ثم تبدأ عاماً جديداً ، وتشرق من أول مطلع لها ، أو أن المستقر آخر عمرها ونهايتها حيث تنفض وتُكوَّر وتنتهى .

لكن ، ما الذى يحرك هذه المجموعة الشمسية ؟ وكيف تجرى بهذه السرعة ؟ ونحن نعلم أن الحركة تحتاج إلى طاقة تمدها ، فما الطاقة التى تحرك هذه المجموعة بهذه الصورة وهذا الاستمرار ؟ قالوا : إنها تجرى ، لأن الله خلقها على هيئة الحركة والجريان ، لذلك تجرى لا يُوقفها شىء ، وستظل جارية إلى أن يشاء الله ، فلا يلزمها إذن طاقة تحركها ، ومثال ذلك قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ ﴿٤١﴾﴾ [فاطر]

وفى علم الحركة قانون اسمه قانون العطالة ، وهو أن كل متحرك يظل على حركته ، إلى أنْ تُوقفه ، وكل ساكن يظلُّ على سكونه إلى أنْ تُحركه ، وهذا القانون فسَّر لنا حركة الأقمار الصناعية ومراكب الفضاء التى تظل متحركة لفترات طويلة .

ونتساءل : ما الفترة التى تحركها طوال هذه المدة ؟ إنها

تتحرك ؛ لأنها وضعت فى مجالها على هيئة الحركة فتظل متحركة لا يُوقفها شىء لأنها فوق مجال الجاذبية . إذن : كل الذى احتاجته هذه الآلات من الطاقة هى طاقة الصاروخ الذى يحملها ، إلى أنْ يعبر بها مجالَ الجاذبية الأرضية ، أما هى فتظل دائرة بلا طاقة وبلا وقود .

ثم يُذكِّرنا الحق سبحانه بفضله فى هذه الحركة ، فيقول ﴿ذَٰلِكَ (٣٨)﴾[يس] أى : ما سبق من حركة الليل والنهار وجريان الشمس ﴿تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٨)﴾[يس] يعنى : كل هذا الجريان وكل هذه الحركة إنما هما بتقدير الله ، وكلمة ﴿الْعَزِيزِ (٣٨)﴾[يس] هنا مناسبة تماماً ، فالمعنى أنه تعالى العزيز الذى لا تغلبه القوانين ؛ لأنه سبحانه خالق القوانين .

ثم يقول سبحانه :

﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٣٩)﴾

بعد أنْ تكلَّم الحق سبحانه عن الشمس وهى آلة الضوء ، تكلم عن القمر لأن له مهمة يؤديها حين تغيب الشمس ، وكأن القمر استعار من الشمس بعض ضوئها لينير بالليل للذين لا يعملون إلا ليلاً كالعَسَس[1] والحراس ورجال الأمن وعمال المخابز وغيرهم ، فالقمر كما تعلمون لا يضىء بنفسه ، إنما يعكس بعض ضوء الشمس ، فيأتى ضوؤه هادئاً ؛ لذلك يسمونه الضوء الحليم ، حيث يأتينا لا شعاعَ له ، ولا حرارة فيه .

---

(١) العسس : جمع عَاسّ ، وعَسَّ يعُسُّ : طاف بالليل لحراسة الناسِ [الزبيدى فى تاج العروس – مادة : عسس]

لذلك حين يُعدِّد لنا الحق سبحانه بعض آلائه ونِعَمه ، يقول ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ .. (٢٣) ﴾ [الروم]

فإذا كان النوم مقصوراً على الليل ، فماذا كان يفعل هؤلاء الذين تقتضى طبيعة عملهم أنْ يعملوا بالليل ، ويرتاحون وينامون بالنهار ، فهذه الآية مظهر من مظاهر دقَّة الأداء القرآنى ، فإنْ كان الليل هو الأصل فى النوم والراحة لجمهرة الناس ، فلا مانع من النوم بالنهار للقلَّة القائمة على أمر النائمين بالليل .

ومعنى : ﴿ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ (٣٩) ﴾[يس] يعنى : قدَّرنا سَيْره فى منازل ومسافات ، هذه المنازل نشاهدها كل شهر فى حركة القمر : التربيع الأول ، والتربيع الثانى ثم البدر ..

والقمر أسرع فى حركته من الشمس ؛ لأنه يقطع فَلَكه فى شهر ، بينما تقطع الشمس فَلَكها فى سنة .

وتأمل دقَّة الأداء القرآنى المبنى على الهندسة العليا فى قوله سبحانه : ﴿ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٣٩) ﴾[يس] هذه صورة توضيحية لمنازل القمر مأخوذة من البيئة العربية ، فالعرجون هو عذْق النخلة الذى يحمل الثمار ، ونسميه (السُّباطة) ، وهى مكوَّنة من عدة شماريخ رفيعة ، لكن قاعدتها عند اتصالها بجذع النخلة عريضة ومفلطحة ، هذا العذق يَيْبَس ويضمر كلما تقادم ويعوج و (يتقفع) كلما جفَّتْ منه المائية ، وهذه الصورة توضح تماماً حركة القمر حيث يضمر ويتقفع إلى أنْ يتلاشى آخر الشهر .

وإذا كان القرآن قد شبَّه القمر بالعرجون القديم ، فإن العرب تشبهه بقُلامة الظفر ، كما جاء فى قول شاعرهم الذى راح يرقب

ضوء القمر حتى يغيب فيتسلل إلى محبوبته :

وَغَابَ ضَوْءُ قُمَيْرٍ كنتُ أَرْقُبُهُ مثل القُلاَمَةِ قَدْ قُدَّتْ من الظُّفْرِ (١)

ومن الحكمة أن نُشبِّه القمر العالى الذى لا ندركه بشىء دانٍ ندركه ، وأن نقول لك : هذا مثل هذا لتتضح الصورة .

ثم يقول سبحانه جامعاً بين الشمس والقمر ، وبين الليل والنهار:

﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾

لا يقال : فلان لا يدرك فلاناً إلا إذا كان سابقه ، كذلك الشمس لا تدرك القمر ؛ لأنه كما قُلْنا سابقها وأسرع منها ؛ لأنه يقطع دورته فى شهر ، وتقطع الشمس دورتها فى سنة .

كذلك : ﴿ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ﴿٤٠﴾ ﴾[يس] الليل والنهار هما الزمن الناشىء عن حركة الشمس والقمر ، فالنهار ابن الشمس ، والليل ابن القمر ، وفى هذه الآية نَفْيَان ، نفى لأنْ تدرك الشمسُ القمرَ فضلاً عن أنْ تسبقه ، ونفى لأنْ يسبق الليلُ النهارَ ، فإذا كانت الشمس لا تدرك القمر ، فليس معنى هذا أن يسبق الليلُ ابن القمر النهارَ ابن الشمس .

إذن : إياك أنْ تقول إن الليل يسبق النهار ؛ لأن هذه آيات كونية

---

(١) ذكره ابن عبد المنعم الحميرى فى كتابه « الروض المعطار فى خبر الأقطار » فى الديارات فى وصف دير عبدون ، وعزاه لابن المعتز من قصيدة أولها :

سقى الجزيرة ذات الظل والشجر ودير عبدون هطال من المطر

ولفظه : « وغاب ضوء هلال » وليس « وغاب ضوء قمير » والبيت من بحر البسيط .

أرادها الخالق سبحانه . والحق سبحانه حينما يتكلم فى قضية قد تقف فيها العقول يأتى لها بالرمزية بحيث يستطيع العاقل المفكر الذى يقرأ الأساليب ويُدقِّقها أنْ يصل إلى مطلوب الله فيها ، أما مَنْ حُرِم هذا الاستعداد فيمرُّ عليها مروراً عابراً لا يصل منه إلى شىء .

ونقول فى هذه المسألة الكونية : صحيح القمر يسبق الشمس ، لكن الليل لا يسبق النهار ، وتأمل هذا العلاج بالأساليب . والحق سبحانه إذا قال : ﴿وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ﴿٤٠﴾﴾[يس] فإنه سبحانه لا يقول ذلك إلا إذا كان هناك معتقد بأن الليلَ يسبق النهارَ ، فأراد سبحانه أنْ يُصحِّح لهم هذا الاعتقاد ، فنفى أنْ يسبق الليل النهار ﴿وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ﴿٤٠﴾﴾[يس] وهذا يعنى أن عندى قضية هى : ولا النهار يسبق الليل .

إذن : المحصلة لا الليلُ يسبق النهارَ ، ولا النهارُ يسبق الليلَ ، فالقضية التى أثبتوها أراد الله نفيها ، والقضية التى نفوْهَا تركها على حالها .

لكن ، كيف يتأتَّى لهم هذا الفهم ؟ قالوا : ظنوا أن الليل يسبق النهار ، لأن اليوم يثبت بالليل لا بالنهار ، ففى صيام رمضان مثلاً يثبت بداية اليوم من الليل ، فلما كان ذلك ظنوا أن الليلَ يسبق النهارَ ، إذن : عندهم قضية مقطوع بها ، هى أن النهار لا يسبق الليل ، وهذه لم يتعرض لها القرآن وتركها كما هى ، أما القضية المخالفة للآية الكونية فصححها لهم ﴿وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ﴿٤٠﴾﴾ [يس]

إذن : نحن أمام لغز يقول : الليل لا يسبق النهار ، والنهار لا يسبق الليل ، كيف ؟ قالوا : لو أن الله تعالى خلق الأرض

مسطوحة مواجهةً للشمس لكان النهار أولاً ، ثم تغيب الشمس فيحلُّ الليل ، أما لو كانت الأرض غير مواجهة للشمس لكان الليل أولاً يعقبه النهار ، لكن الحقيقة أن الله تعالى خلق الأرض على هيئة كروية بحيث لا أسبقيةَ لليل على نهار ، ولا لنهار على ليل لأنهما وُجِدا معاً فى لحظة واحدة ؛ لأن الأرض مُكوَّرة ، فما واجه منها الشمسَ كان نهاراً ، وما غابتْ عنه الشمس كان ليلاً .

لذلك حلَّتْ لنا هذه الآية مشكلة طال الجدال حولها هى : كروية الأرض .

وقوله سبحانه : ﴿ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾[يس] يسبحون من السبح، وهو قَطْع المسافة على ماء لين ، فهى حركة فيها انسيابية ، ليست على أرض تدبّ عليها الأقدام ، وهذا مثال لحركة الأفلاك ، وهذه الحركة السبحية يكون كل جزء منها مُوزَّعاً على جزء من الزمن .

وهذه الحركة ليس لدينا المقاييس التى ندركها بها ، إنما نعرفها من جملة الزمن مع جملة الحركة ، فمثلاً لو وُلد لك مولود وجلستَ ترقبه وتلاحظ نموه ، فإنك لا تلاحظ هذا النمو ، ولا يكبر الولد فى عين أبيه أبداً ، لماذا ؟

لأن نموه لا يأتى قفزةً واحدة يمكن ملاحظتها ، إنما يُوزَّع النمو على الزمن ، لكن إذا غبْتَ عن ولدك عدة شهور أو سنوات فإنك تلاحظ نموه حين تعود وتراه ؛ لأنك تلاحظ مجموع النمو طوال فترة غيابك عنه .

فمعنى : ﴿ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾[يس] يعنى : يسيرون سيراً انسيابياً متتابعاً يُوزَّع على الزمن .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾ ﴾

قوله تعالى ﴿ وَآيَةٌ لَّهُمْ ﴿٤١﴾ ﴾[يس] هى آية لنا ولهم ، لنا على سبيل الاستدلال نستدل لهم بها لنقنعهم ، ولهم هم أى : تدعوهم إلى الإيمان بالله ؛ لذلك لما سُئل الإمام على رضى الله عنه : أعرفتَ ربك بمحمد ؟ أم عرفتَ محمداً بربك ؟ فقال : عرفتُ ربى بربى ، وجاء محمد فبلَّغنى مراد ربى منى .

ومعنى ﴿ الْفُلْكِ ﴾ السفن ﴿ الْمَشْحُونِ ﴾ المملوء . والمراد : سفينة سيدنا نوح - عليه السلام - وقد أوحى الله إليه أنْ يصنع السفينة ، ودلَّه على كيفية صناعتها ، كما قال سبحانه : ﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا .. ﴿٢٧﴾ ﴾ [المؤمنون]

فالسفن فى حَدِّ ذاتها من آيات الله ، ولو لم يُوحِ الله إلى نوح أن يصنع السفينة ، كيف كنا ننتقل فى الماء ، وهو ثلاثة أرباع الكرة الأرضية ، فهذه آية أجراها الله تعالى على يد سيدنا نوح ، ليعلم الناسُ جميعاً صناعة السفن ، ثم للعقول بعد ذلك أنْ تُطوِّرها وترقى بصناعتها ، كما نرى الآن السفن العملاقة على أحدث ما يكون ، حيث استبدلَ الإنسانُ قلْع المركب بآلات البخار والكهرباء ، وحلَّ الحديد والمعادن محلَّ الخشب والمسامير .. الخ .

ومع هذا التطور ، وبعد الاستغناء عن قوة الريح فى تسيير

السفن تظلّ السفن تسير بسم الله وبقدرته ، حتى إن استخدمت البخار أو الكهرباء ؛ لأن الريح لا يعنى الهواء الذى يُسيِّر السفن فحسب ، إنما الريح تعنى القوة أياً كانت ؛ لذلك يقول سبحانه : ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ .. (٤٦)﴾ [الأنفال]

ويقول سبحانه : ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ .. (٣٣)﴾ [الشورى]

ويستوقفنا فى هذه الآية قوله تعالى : ﴿حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (٤١)﴾[يس] والآية تتحدث عن العرب الذين نزل القرآن مُخاطباً لهم ، والذين حُملوا فى السفينة هم آباؤهم لا ذريتهم ، فكيف ذلك ؟

قال القرآن : ﴿حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ (٤١)﴾[يس] والمراد : آباؤهم ؛ لأن الذرية تُطلق أيضاً على الأب ؛ لأن الذرارى منه ، أو لأن الآباء الذين نجوا فى السفينة هم الأصل الأصيل للموجودين الذين يخاطبهم القرآن ، وكانوا هم مطمورين فى آبائهم .

لذلك سبق أنْ قُلْنا : إن كل واحد منا إلى أنْ تقوم الساعة فيه جزىء حَىٌّ من أبيه آدم لم يطرأ عليه الموت ، ولو تتبعتَ الآباء وسلسلْتَ هذه السلسلة لقُلْتَ إننى من ميكروب حىٍّ جاء من أبى ، وأبى من ميكروب حَىٍّ جاء من أبيه ، وهكذا إلى آدم عليه السلام ، ولو كان هذا الميكروب ميتاً ما جئت .

إذن : ففى كل منَّا ذرة تكوينية من أبيه آدم لم يطرأ عليها تغيير ، وهذه الذرة هى التى تحمل الفطرة الإيمانية فى كل إنسان .

ووصف الحق سبحانه الفُلْكَ بأنه مشحون . يعنى : مملوء ؛ لأن سيدنا نوحاً لم يأخذ فيها المؤمنين ليُنجيهم من الغرق فحسب ، إنما

ليُوفِّر لهم سُبُل العيش بعد النجاة ، وإلا فكيف يعيش الناسُ على أرض لا يوجد فيها غيرهم ، لا نبات ولا حيوان ولا طيور ؟

لذلك قال سبحانه مخاطباً نبيه نوحاً : ﴿قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ .. (٤٠)﴾ [هود]

وقوله سبحانه : ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ (٤٢)﴾ [يس] فمن بعد السفينة أخذها الناس نموذجاً ، وصنعوا مثله ، وطوَّروا فى صناعته ، فأنشأوا السفن والمراكب والزوارق وغيرها مما يُركَب فى البحر . أو : خلقنا لهم من مثله ما يُركَب فى البرارى والصحراء ، ومن ذلك يُسَمُّون الجمل مثلاً سفينة الصحراء .

ثم يحذرنا الحق سبحانه أنْ نغترَّ بهذه المراكب ؛ لأنها وسائل للنجاة ، لأنه سبحانه إنْ أراد الهلاك أهلك ، وكم رأينا سُفُناً عملاقة توفرت لها كل سُبُل الأمان والسلامة ، ومع ذلك ابتلعتْها الأمواج بمَنْ فيها .

وصدق الله : ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلا صَرِيخَ لَهُمْ وَلا هُمْ يُنقَذُونَ (٤٣)﴾[يس] فإياك حين تُرزَق بنعمة تخلصك من معطب أنْ تغرَّك النعمة فتحسب فيها الأمن والنجاة ؛ لأنك لن تفلت من قبضة الله ، ولا ينقذك أحد ، ولا ينجيك شىء إنْ أراد بك الهلاك ، وهل ترى بيدك شيئاً يُنجيك حين تهبُّ عاصفة ، أو يعلو الموج فوق سفينتك كالجبال ؟ إذن : آلاتك ووسائلك لا تُنجيك من قدرى .

ومعنى ﴿فَلا صَرِيخَ لَهُمْ (٤٣)﴾[يس] الصريخ هو الذى تستصرخه وتستنجد به لينقذك ، ويأخذ بيدك ، ويُخرجك من المأزق الذى أنت فيه . ومن روائع العقائد التى استشفها أهل الإشراق والتنوير أنْ

قالوا : الإنسان يصرخ ويستنجد بمَنْ هو أقرب منه : كأبيه ، أو أمه ، أو خادمه ، أو جاره .. الخ . فإذا لم يجد ؟ يقول : يا الله ، لذلك نسمع بعضهم يقول عند المأزق : يا هُوْه . والمراد يا هُوَ يعنى : يا الله ؛ لأنه لا يوجد غيره ينقذ ويُغيث .

ومن المواضع التى وردت فيها مادة صرخ قوله تعالى حكايةً عن الشيطان ﴿مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ (٢٢)﴾[إبراهيم] والمُصْرِخ : هو الذى يُزيل الصراخ يعنى : يسعفك ، ويزيل عنك الشدة .

وقوله تعالى : ﴿وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ (٤٣)﴾[يس] يعنى : امتنع المصرخ ، وامتنع عنهم أيضاً المنقذ الذى يتطوَّع فينقذهم ، وهذا قَطْع للأمل فى النجاة ، فإنْ أراد اللهُ الإهلاكَ فلا سبيلَ للنجاة أبداً ، إلا بإذنه تعالى ورحمته .

لذلك يقول فى الآية بعدها : ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا (٤٤)﴾[يس] رحمة تنجى من الغرق ، ومعنى ﴿وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ (٤٤)﴾[يس] أن هذه النجاة ليست صكاً بالسلامة الدائمة والبقاء المستمر ، إنما هذه النجاة متاعٌ إلى حين ، إلى أنْ يحلَّ الأجلُ ويُدركك الموت ، فأنت إذنْ سلمتَ من الحِمام إلى الحِمام الذى لا بُدَّ منه .

وأشبه بذلك قول الفخر الرازى :

ولَوْ أنَّا إذَا مِتْنَا اسْتَرحْنَا ... لكَانَ الموْتُ رَاحَةَ كُلِّ حَىّ
ولكِنَّا إذَا مِتْنَا بُعِثْنَا ... ونُسَأل بَعْدهَا عن كُلِّ شَىّ[1]

وكلمة الحين تعنى الفترة من الزمن بحسب ما تُقاس به ، فمثلاً فى : ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ (١٧)﴾ [الروم] الحين يعنى :

(١) هذان البيتان للإمام على بن أبى طالب من بحر الوافر ، باختلاف بسيط فبدل (استرحنا) (تُركنا) . ذكرهما المبرد فى كتابه « الفاضل فى اللغة والأدب » فى باب فضل الشعر .

يوم وليلة ، وفى قوله تعالى : ﴿ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ .. ﴿٢٥﴾ ﴾ [إبراهيم] الحين هنا يعنى : سنة ، وفى : ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ ﴾[الإنسان] يعنى : مقدار مُحدَّد من الزمن .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾

تعلمون أن (إذَا) أداة الشرط التى تفيد التحقيق . أما (إنْ) فتفيد الشكّ ، ومعنى ﴿ لَهُمْ ﴾ أى : للكافرين ، وجاء الفعل ﴿ قِيلَ ﴾ هكذا مبنياً للمجهول ليفيد العموم ، فكأن كل مؤمن عليه أنْ يقول ، وأنْ ينصح ، وأن يأخذ بيد غيره إلى طريق الله .

والحق سبحانه فى هذه الآية يقول لعباده المؤمنين : يا عبادى ، يا مَنْ آمنتم بى ، وصدَّقتم برسلى ، لا تظنوا أنِّى أرضى عنكم طالما آمنتم بى وصدَّقتم رسلى ، لكنى أحب ألاَّ تدخروا وُسْعاً لتنقذوا خَلْقى من غضبى عليهم ، حين يُصرُّون على الكفر ويقيمون عليه .

وهذا نوع من الرجاء فى المؤمنين أنْ يأخذوا بيد الكفار ، وأن ينقذوهم من دواعى غضب الله عليهم ، وهذا المعنى داخل تحت قول سيدنا رسول الله ﷺ : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه »[1] .

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (١٣) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٤٥) كتاب الإيمان عن أنس بن مالك بلفظ : « والذى نفسى بيده ، لا يؤمن عبد حتى يحب لجاره - أو قال : لأخيه - ما يحب لنفسه » .

ومعنى ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ (٤٥)﴾[يس] أى : ما هو أمامكم ، وما ينتظركم من البعث والحشر والسؤال والحساب ، ثم النار ﴿وَمَا خَلْفَكُمْ (٤٥)﴾[يس] يعنى : ما سبقكم من العبر بالمكذِّبين قبلكم ، وكيف كانت عاقبتهم ونهاية كفرهم ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٤٥)﴾[يس] رجاء أنْ يرحمكم الله.

إذن : فينبغى أن يكون فى بال المؤمن أنْ يمهد السبيل لرحمة الكافر ، وأنْ يحاول وُسْعه أن ينقذه ، وأنْ يعطف عليه ، لا أنْ يسلك معه مسلكَ اللدد والخصومة التى لا تجدى :

﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٤٦)﴾

هذا هو اللدد والعناد بعينه ، فالآيات أمامهم واضحة ، وهم يُعرضون عنها وينصرفون عن تدبُّرها ؛ ذلك لأن الذين يكفرون بالله ويُكذِّبون رسله ، ويتأبَّوْن على منهج الله الذى جاء لصيانة خليفته فى الأرض ، هؤلاء مستفيدون من الفساد ، ومستفيدون من الإعراض عن منهج الله ، فطبيعى أنْ يَرَوْا فى كل رسول وفى كل مصلح أنه جاء ليقطع أرزاقهم ، ويفسد عليهم حياتهم ، فيصادمونه ويقفون فى وجهه .

وهذه الآية يفسرها قول الله فى موضع آخر : ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا (١٤)﴾ [النمل]

فإنْ قُلْتَ : ما دُمْتم حريصين على أنْ يرحم اللهُ هؤلاء الكافرين ، فلماذا لا تُلحون عليهم بالآيات الجديدة إلى أنْ يؤمنوا فيرحمهم الله ؟ نقول : مهما جئناهم بالآيات فسوف ننتهى إلى هذه النتيجة التى قررها القرآن : ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلاَّ كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ(٤٦)﴾ [يس]

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾﴾

هذا لون آخر من عنادهم وقلْبهم للحقائق ، فإذا قال لهم الناصح ﴿أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ﴿٤٧﴾﴾[يس] يعنى : مما استخلفكم فيه لا مما عندكم ، وملّكه لكم يكون الرد ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ ﴿٤٧﴾﴾[يس] هكذا يقلب الكافر حقائق الأمور ويتبجحون بالباطل .

﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ ﴿٤٧﴾﴾[يس] يعنى : لسنا بخلاء بل نحب أنْ ننفق ، وأن ننفذ مرادات الله فى خَلْقه ، والله يريد أن يمنع الرزق عن هؤلاء ، فكيف نرزقهم نحن ، إننا لو أنفقنا عليهم لكنا معاندين مخالفين لمراد الله ، ولو شاء الله لأطعمهم .

ولم يقفوا بعنادهم عند هذا الحدِّ ، إنما يتمادَوْنَ فيتهمون المؤمنين بالضلال المبين ﴿إِنْ أَنتُمْ ﴿٤٧﴾﴾[يس] يعنى : ما أنتم ﴿إِلاَّ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾﴾[يس] سبحان الله ، لماذا ؟ لأنكم تعارضون مراد الله ، وتُطعمون مَنْ حرمه الله وتجيرون عليه .

نعم ، الحق سبحانه رب الجميع ، ويرزق الجميع ، ويطعمنا ويسقينا ، لكنه سبحانه يريد أنْ يشهد عطف عباده على عباده لتسير حركتهم فى الحياة بلا غِلٍّ ، وبلا حقد ، فالفقير حين ينال من خير الغنىِّ لا يحقد عليه ولا يحسده ، بل يتمنى دوام النعمة عنده ، ثم إن الغِنَى والفقر عَرَض ينتقل ويزول ، والواقع يشهد بذلك .

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾
مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾
فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾

قولهم ﴿مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ ﴿٤٨﴾﴾[يس] أى : الوعد بالآخرة وكلمة (الوعد) تدل على البشارة بالخير ، على خلاف الوعيد وهو إنذار بالشرِّ ، فعجيب منهم أنْ ينكروا الوعد وهو فى صالحهم ، وحظهم فى الوعد لا فى الوعيد .

وهذا الاستفهام منهم على سبيل الإنكار ، فليس هناك آخرة ولا حساب ولا جزاء ، والعاقل منهم الذى يعترف بالآخرة يقول كما قال صاحب الجنة ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾ [الكهف]

ومعنى ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾﴾[يس] فى قولكم بأن هناك بعثاً وحساباً ، وواضح ما فى إنكارهم للقيامة من تحدٍّ وعناد واستعجال لها . يقولون : أين هى القيامة التى تتكلم عنها ، ائت بها الآن إنْ كنتَ صادقاً ، ويظل الواحد منهم فى هذا الجدل إلى أنْ تفاجئه القيامة .

﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾﴾[يس] يعنى : ربما تفاجئه القيامة وهو فى جداله هذا ، وما المانع فالأمر لا يكلفنا إلا مجرد صيحة واحدة تأخذهم وتقضى عليهم جميعاً .

وهذا إنذار لأهل الغفلة الذين غفلوا عن البعث والحشر والحساب ، وشغلتهم الدنيا فى تجارتهم وفى زراعتهم ومشاكل حياتهم ، حتى

أضاعوا الحياة فى أخذ وردٍّ وجدال وخصام إلى أنْ فاجأتهم القيامة ؛ لذلك يقول الشاعر : إياك أن تجادل فى شىء كان فى يدك فأخذه منك غيرك .

نَفْسِى التى تملكُ الأشياءَ ذَاهبَةٌ فكيفَ آسَى علَى شَىءٍ لَهَا ذَهَبَا

ومعنى ﴿تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾﴾[يس] يعنى : تفاجئهم وهم فى جدالهم وخصامهم ، ومعنى ﴿يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾﴾[يس] أى : يختصمون ، فقُلبت التاء صاداً ، وأدغمت فى الصاد للدلالة على المبالغة . والأَخْذُ يدل على الشدة ﴿أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾﴾ [القمر]

وقوله : ﴿فَلا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً ﴿٥٠﴾﴾[يس] يعنى : تفاجئهم الصيحة والقيامة ، بحيث لا يتمكن أحد أنْ يُوصى أحداً ، والوصية معروفة وهى أنْ يُوصِى الإنسان أهله وأولاده بما هو مهم فى حياتهم ؛ لذلك رأينا سيدنا رسول الله فى حجة الوداع لما أحسَّ بدُنُو الأجل أوصى المسلمين فى خطبته الجامعة للُبِّ الدين وأسسه ، كذلك مَنْ أقبل على أجله واستشعر نهايته عليه أنْ يوصى مَنْ يحرص عليه بالأشياء المهمة .

إذن : فَهُم فى هذا الموقف لا يسعفهم الوقت لكى يُوصِى بعضهم بعضاً ﴿وَلا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾﴾[يس] حتى ولا هذه يستطيعونها . فالقيامة إذن لا ينبغى أن يستبطئها أحد ؛ لأنها تأتى بغتة ؛ لذلك أخفاها الله ، واستأثر سبحانه وحده بعلمها ليظل الإنسان على ذكرٍ لها ، ينتظرها فى كل وقت ، والقيامة بالنسبة للإنسان لا تعنى بالضرورة الآخرة ، إنما مجرد أنْ يموت فقد قامت القيامة فى حقه ، فبالموت لم يَعُدْ له عمل ، ولا توبة ، ولا استدراك لشىء .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾

قوله سبحانه : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ﴿٥١﴾ ﴾[يس] أى : البوق الذى ينفخ فيه إسرافيل ، وهذه هى نفخة البعث ، وتسبقها نفخة الصَّعْق التى تُميتهم وتخمدهم ، لذلك يقول سبحانه : ﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [الزمر]

فإنْ قُلْتَ : النفخة واحدة ، فكيف تميت الأولى وتحيى الثانية ؟ نقول : النفخة فى الصُّور ما هى إلا علامة فقط للحدث أمّا الفاعل على الحقيقة فهو الله سبحانه وتعالى ، فهو الذى يميت فى الأولى ، ويحيى فى الثانية .

ومعنى ﴿ الأَجْدَاثِ ﴿٥١﴾ ﴾[يس] القبور ﴿ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ ﴾[يس] يعنى : يُسرعون وأصل كلمة ﴿ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ ﴾[يس] من نسل الخيوط بعضها عن بعض ، نقول : الثوب (ينسل) يعنى : تخرج بعض الخيوط من أماكنها من اللُّحْمة أو السُّدَّة ، لذلك نقول : (كفف) الخياطة يعنى : امنع هذا (التنسيل) بأن تُمسك الخيوط بعضها إلى بعض ، فلا تنفلت .

فإذا ما خرجوا من الأجداث ورأوا الحقيقة التى طالما كذَّبوها

قالوا : ﴿ يَـٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ﴿٥٢﴾ ﴾[يس] هم الذين يقولون ويدعُون على أنفسهم بالويل والثبور ؛ لا أحد يقول لهم : ويلكم إنما يقولونها هم لأنفسهم ، وهذا بيان للحسرة على ما فاتهم .

والمعنى : يا ويلنا احضر ، فهذا أوانك ، لأن الأمر فوق ما نحتمل ، ولا نستطيع دفعه ، والإنسان حين يُفاجأ بفساد رأيه يعود على نفسه باللوم ، بل قد يضربها ويعذبها .

وعجيب منهم أنْ يقولوا الآن ﴿ مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ﴿٥٢﴾ ﴾[يس] فيعترفون بأن الموت كان مجرد مَرْقد ، والمرقد لا بُدَّ بعده من يقظة . عندها يردُّ عليهم : ﴿ هَـٰذَا ﴾ أى : ما تروْنَه من أمور القيامة ﴿ مَا وَعَدَ الرَّحْمَـٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾[يس] ويجوز أنْ يكون اسم الإشارة ﴿ هَـٰذَا ﴾ إشارة إلى ﴿ مَرْقَدِنَا ﴾ فى ﴿ مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَـٰذَا ﴿٥٢﴾ ﴾ [يس]

الحق - سبحانه وتعالى - أخبر أنه جامعُ الناس ليوم لا ريب فيه ، وأن مَنْ أفلت من عقوبات الدنيا وعذاب الحياة التى يعيشون فيها ، فإن الله مُدَّخر له عذاباً من نوع أشد ؛ لأن الذين قاموا بالدعوة إلى الله أول الأمر واضطهدوا وأُوذوا ، منهم من مات فى الاضطهاد قبل أنْ يرى انتصار الإسلام وغلبة المسلمين ، وقبل أنْ يرى انتقامَ الله من أعدائه ، فإذا كان الأمر كذلك فلا بُدَّ أن يُرِى اللهُ هؤلاء المؤمنين عاقبةَ الكافرين وما نزل بهم من العذاب .

والوعد هنا رغم أنه إنذار بالشرِّ الذى ينتظرهم ، إلا أنه فى حقهم يُسمَّى وَعْداً لا وعيداً ، لماذا ؟ لأن التحذير من الشر قبل الوقوع فيه نعمة كبرى ، كما فى قوله تعالى فى سورة الرحمن : ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الرحمن]

فجعل النار والشُّواظ من آلاء الله ؛ لأنه يُخوِّفهم بها ، ويحذرهم منها ، ولم يفاجئهم بها وهم أصحاء ، ويسمعون ويبصرون ، ويقدرون على الرجوع إلى الله والتوبة إليه ، فهم فى وقت المهلة والتدارك . وكما تُحذِّر ولدك من الرسوب إنْ هو أهمل دروسه وتتوعده ، إذن : فالوعيد هنا عَيْن النعمة ؛ لذلك سُمِّى وعداً لا وعيداً.

ومعنى : ﴿وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾﴾[يس] أى : فى البلاغ عن الله ﴿إِن كَانَتْ ﴿٥٣﴾﴾[يس] أى : ما كانت النفخة ﴿إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً ﴿٥٣﴾﴾ [يس] لا تتكرر ؛ لأن الذى يُكرر الفعل البشر ، ومعنى تكراره أن الفعل الأول لم يكُنْ كافياً ولم يَفِ بالغرض منه ، أمَّا هنا فالفاعل الله عز وجل .

﴿إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾[يس] إذا هنا فجائية ، فبمجرد الصيحة أُحْضِروا جميعاً رغماً عنهم ، وبدون اختيارهم ، ومُحضر اسم مفعول من أحضر . يعنى : أُجبر على الحضور والمثول بين يدى الله للحساب .

وفى الآية السابقة ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾﴾[يس] فزادتْ (كل) الدالة على شمول الأفراد ، إنما قد يكون شمول الأفراد تتابعاً مجموعة تلْو الأخرى ، لكن هنا يأتون مجموعين ليرى التابع متبوعه ، والضال مَنْ أضلَّه .. الخ ؛ لذلك يسمونها الفاضحة .

﴿فَالْيَوْمَ لاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلاَ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾﴾

كأن الحق سبحانه يُطمئن أهل الإيمان والعمل الصالح ، يعنى :

لا تخافوا من هَوْل القيامة ؛ لأننا لا نظلم أحداً ، والجزاء عندنا من جنس العمل ﴿وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾﴾[يس] فهذه الآية طمأنينة لمن عمل صالحاً ، وتخويف لمن عمل سيئاً .

واليوم هنا أى : يوم القيامة ، والموازين فيه بيد الحق سبحانه ، يعنى : إنْ كنتم فى الدنيا يظلم القوىُّ الضعيفَ ، ولا تقيمون الموازينَ بالقسط ، فالميزان يوم القيامة ميزان عادل ، لا يظلم ؛ لأن الذى سيقيم هذا الميزانَ هو الحقُّ سبحانه : ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾﴾ [غافر]

ثم يحدثنا الحق سبحانه عن جزاء أصحاب الجنة ، فيقول :

﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾

قوله تعالى : ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ ﴿٥٥﴾﴾[يس] الصاحب هو المنتقَى والمختار من جنسك لتصاحبه ولا تفارقه ، فكأن الجنة أُخْرِجت مخرج العقلاء الذين يُصاحِبون ويُصاحَبون ، ذلك لأن الجنة كانت فى بالهم وفى أذهانهم ، فهم متعلقون بها وهى شُغْلهم الشاغل ، فلَهُم صحبة بالجنة ، وللجنة صحبة بهم ، فكلما أقدموا على خير تذكَّروا الجنة فرغبوا فيه ، وكلما أقدموا على شر تذكروا النار فانصرفوا عنه . أو : أن الصاحب هو المالك للشىء ، فكأن الجنة ملْك لهم ، ملكوها وحازوا مفاتيحها بما قدَّموا من العمل الصالح .

ومعنى ﴿ الْيَوْمَ ﴾ أى : يوم القيامة ﴿فِي شُغُلٍ ﴿٥٥﴾﴾[يس] أى :

نعيم يشغلهم عن أيِّ شيء آخر أو : فى شُغُل عن معارفهم وأقاربهم الذين دخلوا النار والعياذ بالله ، كما قال سبحانه : ﴿وَاخْشَوْا يَوْمًا لاَّ يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا (٣٣)﴾[لقمان] فهم فى نعيم يشغلهم عن كل هؤلاء ، فكأنهم لا يعرفونهم .

﴿ فَاكِهُونَ ﴾ يقال : فَاكِه وفكه يعنى : متلذذ ومُتنعِّم . ومنها : الفاكهة ، فهى ليست من الضروريات إنما من التفكُّه والتلذذ .

وقوله سبحانه : ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلالٍ عَلَى الأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ (٥٦)﴾[يس] أذكر أننى لما قرأتُ هذه الآية على الإخوان ضرب واحد منهم على صدره - وكان شيخاً وقوراً - ضرب على صدره بعنف وانفعال ، وقال : (يا خرابى ، يعنى فلانة هتجيلى تانى) لأنه رأى فى زوجته ما يُنفِّره منها ، فتعجب أنها ستصاحبه حتى فى الآخرة وفى الجنة ، فقلنا له : يا شيخ أنت تكره فى زوجتك أشياء لكن لها مع الله أعمال طيبة ، تجعلها أهْلاً للجنة ، فعملها الطيب مع الله يلغى عملها السيىء معك .

وربما كنتَ أنت حَادّ المزاج ، أو طماعاً وعينُك زائغة ؛ لأن الله تعالى قال فى الحياة الزوجية : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً (٢١)﴾ [الروم]

فالحياة الزوجية فى بدايتها سكَن ، حيث يسكن كلٌّ منهما إلى الآخر ويرتاح فى حضنه ، ثم إذا تغيَّرتْ الأوضاع وزَهَد أحدهما فى الآخر أو ظهر منه ما يُنفِّر كانت المودة ، فإذا ما أصابهما الكِبَر والعجز فليرحم كل منهما عَجْز الآخر ، بما جعله الله بينهما من صفة الرحمة ، فالحياة الزوجية فى هذه الحالة معيشة تراحم قبل كل شىء .

ثم إن هذه الزوجة التى تنقم منها بعض الصفات ، وتنفر من تصرفاتها لن تأتى فى الآخرة على هذه الصورة التى تكرهها ، إنما ستأتى على صورة جديدة كما قال سبحانه : ﴿وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ ﴿١٥﴾﴾ [آل عمران] فالله سيطهرها مما كنتَ تأخذه عليها .

ومعنى : ﴿فِي ظِلَالٍ ﴿٥٦﴾﴾[يس] أى : لا شمسَ هناك ، ولا حَرَّ يؤذيهم ، والظل معروف ألفه المكلَّفون فى الدنيا ، وإليه يفيئون فى حَرِّ الشمس ، فهو أمر مألوف لهم ، أما فى الآخرة فهى ظلال يُمتَّعون فيها ، أو فى ظل الله كما ورد فى الحديث الشريف : « سبعة يُظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله.. »[1]

والأرائك : جمع أريكة ، وهى السرير الذى له حَجَلَة[2] (النموسية) أو : هى الوسادة التى يُتكأ عليها .

ومعنى ﴿مُتَّكِئُونَ ﴿٥٦﴾﴾[يس] الاتكاء حالة وهيئة للإنسان ، فهو : إمَّا قائم ، أو قاعد ، أو متكئ ، والاتكاء أمتع هذه الحالات ؛ لأن القائم قائم لعمل ، والقاعد يقعد لِهَمٍّ يفكرُ فيه ، فلا هو قادر على القيام للعمل ، ولا هو قادر على الاتكاء للراحة ، فقوله سبحانه ﴿مُتَّكِئُونَ ﴿٥٦﴾﴾[يس] يعنى : تمام الراحة لهم .

ثم يقول سبحانه : ﴿لَهُمْ فِيهَا ﴿٥٧﴾﴾[يس] أى : فى الجنة ﴿فَاكِهَةٌ

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٠٣١) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، ضمن حديث « سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله : الإمام العادل ، وشاب نشأ فى عبادة الله ، ورجل قلبه معلَّق فى المساجد ، ورجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال : إنى أخاف الله ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم يمينه ما تنفق شماله ، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه ».

(٢) الحجلة فى اللغة : مثل القبة . وحجلة العروس : بيت يُزيَّن بالثياب والأسِرَّة والسُّتور . ويكون له أزرار كبار [لسان العرب – مادة : حجل] .

﴿٥٧﴾[يس] الفاكهة من التفكُّه والتلذذ ، وعرفنا أن الطعام يأكله الإنسان إما للاقتيات وهو الضروريات ، وإما فاكهة للتلذُّذ والتنعُّم ، وهنا يذكر الحق سبحانه الفاكهة فحسب ؛ لأننا لا نأكل فى الجنة إلا تفكُّهاً وتنعُّماً ، لا عن حاجة أو جوع .

﴿وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ٥٧﴾[يس] أى : ما يدعون به وما يخطر ببالهم ، فيجدوه بين أيديهم . وقال بعضهم (مَا يدَّعُون) يعنى : لا يدخر الله لهم دعوة ؛ لأنه سبحانه يعطيهم قبل أنْ يدعوا[1] .

وبعد ذلك يتكلم الحق ـ سبحانه وتعالى – عن معنى كان يريده لخَلْقه فى الدنيا نتيجة للسير على منهجه وصراطه المستقيم ، فيقول سبحانه : ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ٥٨﴾[يس] فثمرة الإسلام أنْ يُسْلِموا زمامهم جميعاً إلى يد خالقهم ، وأن يكونوا إخوة عابدين لمعبود واحد ، وأن يعيشوا معاً فى أمن واطمئنان وسلام .

إذن : فالأمن والسلام هما الغاية من منهج الله ، وهما تمام النعمة ، وإلا فلو نعم الإنسانُ بكل ألوان النعيم وفقد نعمة الأمن والسلام لنغَّصَتْ عليه كل النعم ، وما هنىء بعيش ولا تمتَّع بلذة ؛ لذلك امتن الله تعالى على قريش فقال : ﴿الَّذِى أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ٤﴾ [قريش]

السلام يكون منك حين تُقبل على آخر فتقول : السلام عليكم يعنى : أنا مقبل عليك بسلام ، فيردُّ عليك : وعليكم السلام ، والمعنى :

---

(١) أورد القرطبى فى تفسير هذه الكلمة عدة أقوال (٥٦٨٢/٨) :
– من دعا بشىء أعطيه . فمعنى يدعون : يتمنون . قاله أبو عبيدة .
– من ادعى منهم شيئاً فهو له .
– يدعون : يشتهون . قاله يحيى بن سلام .
– يسألون . قاله ابن عباس .
ثم قال القرطبى : « والمعنى متقارب » .

لا أنت تؤذينا ، ولا نحن نؤذيك ، وكُلٌّ يعطَى من السلام على قدر إمكاناته ، فإذا كان السلام من الله ، فهو السلام المطلق ، السلام الذى يحميك من كل جوانبك ، فلا ينفذ إليك شىء يضرُّك .

ومعنى : ﴿ سَلَامٌ قَوْلًا ﴿٥٨﴾ ﴾[يس] يعنى : الله تعالى هو قائله ليس مناولةً عن طريق الملائكة مثلاً ، فيقول لهم : سلِّموا على فلان ، فالمعنى : سلام حالة كونه قَوْلاً من رب رحيم ، وليس بلاغاً عن الله من أحد ، واختار هنا لفظ الربوبية التى تقتضى أن المربِّى يحب المربَّى ، فما بالك إذا وصفتَ الربوبية بالرحمة ﴿ مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾ ﴾[يس]

وبعد أنْ حدَّثنا الحق سبحانه عن المؤمنين ، وما ينتظرهم من النعيم يُحدِّثنا عن المجرمين :

﴿ وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾

معنى : ﴿ وَامْتَازُوا ﴿٥٩﴾ ﴾[يس] أى : تميّزوا أيها المجرمون عن المؤمنين ، وانحازوا بعيداً عنهم ، تجمعوا فى جانب واحد لتروْا دخول المؤمنين الجنة ، وتظلوا أنتم فى الموقف لتزداد حسرتكم .

وقد اقتضتْ حكمة الله تعالى أنْ يُميز المؤمنين والكافرين بمعنى : أن يُعرف كُلٌّ منهم ، وذلك فى غزوة الحديبية ، فلما مُنع المسلمون من دخول مكة وهم على مشارفها حَزِن المسلمون حُزْناً شديداً ، حتى كبار الصحابة مثل عمر بن الخطاب الذى قال لرسول الله : لِمَ نقبل الدَّنيَّة فى ديننا[1] ؟

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٤/٣٢٥) من حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم فى حديث الحديبية الطويل ، وفيه أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه لما جرى صلح الحديبية والتأم الأمر ولم يبق إلا الكتاب وثب فأتى أبا بكر فقال : يا أبا بكر أو ليس برسول الله ؟ أو لسنا بالمسلمين ؟ أو ليسوا بالمشركين ؟ قال : بلى . قال : فعلامَ نعطى الذلة فى ديننا ؟ فقال أبو بكر : يا عمر الزم غرزه حيث كان » الحديث بطوله .

وكاد المسلمون يخالفون أمر رسول الله حتى قال لزوجته السيدة أم سلمة : « هلك الناس يا أم سلمة ، أمرتُهم فلم يطيعوا » فقالت : يا رسول الله ، إنهم مكروبون . ذلك لأنهم مُنعوا من دخول الحرم وهم على مقربة منه ، وهذا أمر صعب على نفوسهم ، ثم أشارت على رسول الله وقالت : يا رسول الله امْض إلى ما أمرك الله به فافعل ، ولا تكلم أحداً ، فإنهم لو رأوك عزمتَ انصاعوا ، وفعلاً أخذ رسول الله ﷺ بمشورة السيدة أم سلمة ، وانتهت المشكلة[1] .

وقبل أنْ يعودوا إلى المدينة بيَّن الله لهم وجه الحكمة فى ذلك والعلة من صلح الحديبية ، ولماذا قَبِل رسول الله شروطها . العلة أن بين كفار مكة مؤمنين يكتمون إيمانهم ، ولا يعرفهم أحد ، فلو دخل المسلمون مكة فى هذا الوقت لحدثتْ مصادمات بين الجانبين ، وعندها سيُؤْذَى هؤلاء المؤمنون الذين يكتمون إيمانهم ، ولا يستطيعون الجهر به ، وسيؤخذ العاطل مع الباطل .

لذلك قال سبحانه فى هذه القصة من سورة الفتح : ﴿ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٢٥) ﴾ [الفتح]

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٤/٣٢٥) عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم ، وفيه : أن رسول الله ﷺ قال : يأيها الناس انحروا واحلقوا فما قام أحد ، ثم عاد بمثلها فما قام رجل حتى عاد بمثلها ، فما قام رجل ، فرجع ﷺ فدخل على أم سلمة فقال : يا أم سلمة ما شأن الناس ؟ قالت : يا رسول الله قد دخلهم ما قد رأيت فلا تكلمنَّ منهم إنساناً ، واعمد إلى هديك حيث كان فانحره واحلق فلو قد فعلت ذلك فعل الناس ذلك ، فخرج ﷺ لا يكلم أحداً حتى أتى هديه فنحره ثم جلس فحلق فقام الناس ينحرون ويحلقون حتى إذا كان بين مكة والمدينة فى وسط الطريق ، فنزلت سورة الفتح .

ومعنى ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا (٢٥)﴾[الفتح] يعنى : لو تميَّز المؤمنون عن الكافرين .

أو : يكون المعنى : ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ (٥٩)﴾[يس] امتازوا بعلامات تميزكم وتلازمكم دائماً ، بحيث لا يكون خجلكم أمامنا الآن فحسب ، إنما تكون لكم سمات تُعرَفون بها ، وهذه العلامة هى علامة الغضب وسواد الوجه والعياذ بالله . ومن ذلك قوله تعالى فى المؤمنين : ﴿تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ (٢٧٣)﴾ [البقرة]

﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٦٠) وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٦١)﴾

كأن سائلاً سأل : وهل يستحق الكفار كلَّ هذا العذاب وهذا الغضب من الله تعالى ؟ فيجيب الحق سبحانه : نعم ، يستحقون ؛ لأن الله نبَّههم وحذرهم فلم يستجيبوا ، ذلك فى قوله تعالى : ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِى آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ (٦٠)﴾ [يس]

فالحق سبحانه لم يأخذكم على غِرَّة ، إنما نبَّهكم وبيَّن لكم مداخل الشيطان وحبائله وحِيَله ؛ لأن الشيطان من خيبته رمى بكل مداخله مع المؤمنين أمام الله ، فحذرنا الله منها ، وبيَّن لنا عداوته لنا ، وعداوته المسبقة مع آدم عليه السلام منذ أنْ أُمر بالسجود فأبى .

ولم يَنْتَه أمره عند عدم السجود ، إنما أغوى آدم ، وأراد أن ينتقم منه ومن ذريته من بعده ، بل وأقسم على ذلك أمام خالقه سبحانه ، فقال بجبروت الإغواء كما حكى القرآن : ﴿فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢)﴾ [ص] لكنه تذكر عبوديته الحقة للرب الأعلى ، فقال :

﴿إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣)﴾ [ص]

فهؤلاء لا مدخلَ لى إليهم ، والمعنى أن الخصومة ليست بينى وبينك ، إنما بينى وبين بنى آدم . وحين أقسم إبليس ، أقسم قسماً يؤكد قدرته على ما يهدد به ، فمثلاً سحرة فرعون حين أقسموا قالوا : ﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ(٤٤)﴾ [الشعراء]

أمَّا إبليس فيعرف جيداً كيف يقسم ، فقال ﴿فَبِعِزَّتِكَ (٨٢)﴾ [ص] يعنى : باستغنائك عن خَلْقك ، مَنْ شاء فليؤمن ، ومَنْ شاء فليكفر ، هذا هو الباب الذى سأدخل منه إليهم ، أمَّا من تريده أنت يارب ، فلا أستطيع أن أقترب منه .

ومعنى ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ (٦٠)﴾ [يس] يعنى : آمركم كما فى قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا (١١٥)﴾ [طه]

يقول تعالى : ألم آمركم يا بنى آدم أنْ تحذروا مكايد الشيطان ، وأن تتنبَّهوا إلى مداخله إليكم وشباكه وخططه ، ألم يقل هو نفسه : ﴿لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦)﴾ [الأعراف] إذن : كان ينبغى ما دُمْتم أخذتم المصلْ الواقى أن تكون لديكم المناعة اللازمة لمواجهة هذا العدو ، خاصة وقد أسفر عن وجهه ، وأوضح خططه ، فهو لكم على الصراط المستقيم ، ومداخله من سبل الطاعة لا من سُبل المعصية ، الشيطان لا يأتى أهل الفجور ورُوَّاد الخمارات ، إنما يأتى أهل الطاعات ليفسدها عليهم .

وصدق الشاعر الذى قال عَمَّنْ أسرف على نفسه فى المعاصى :

وكُنْتُ امْـرءاً مِنْ جُنْـدِ إبْليسَ فَارْتَـقَى
بِيَ الحَالُ حَتَّى صَارَ إبْليسُ مِنْ جُنْدِي[١]

ومعنى : ﴿أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ ﴿٦٠﴾﴾ [يس] عبادته طاعة نزغاته ووسوسته ، والعلة فى ذلك ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾﴾[يس] يعنى : عدو بَيِّن العداوة ، محيط بأساليب الكَيْد لأعدائه .

وبعد أنْ نهانا ربنا - تبارك وتعالى - عن عبادة الشيطان يُوجِّهنا إلى العبادة الحقة : ﴿وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ [يس] حين نتأمل هاتين الآيتين نجد أن العلة فى النهى عن عبادة الشيطان ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾﴾ [يس] كان القياس فى الآية بعدها : وأن اعبدونى لأننى حبيبكم كما جاء فى الحديث القدسى : « يا ابن آدم ، أنا لك مُحِبٌّ ، فبحقى عليك كُنْ لى محباً ».[٢]

لكن الحق سبحانه لم يُعلل عبادته سبحانه بالمحبة ، إنما اعبدونى لأنى أدعوكم إلى الصراط المستقيم النافع لكم المنظِّم لحياتكم ، اعبدونى لهذا ، أما مسألة المحبة فهى موجودة وأنا أحبكم ، فسواء كنتُ أحبك أو لا أحبك كان ينبغى عليك اتباع هذا الصراط المستقيم ؛ لأنك المستفيد منه .

ولأهل المعرفة وقفة عندما قرأوا :﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾﴾

---

(١) هذا البيت ذكرته الموسوعة الشعرية من شعر شاعرين : أولهما : الخبز أرزى (توفى عام ٣١٧ هـ ٩٣٩ م) واسمه نصر بن أحمد ، بصرى ، انتقل إلى بغداد ، أخباره كثيرة طريفة : ونص البيت عنده ضمن قصيدة من بحر الطويل عدد أبياتها ٤٦ .

وكنت فتى من جند إبليس فارتقى ... بى الأمر حتى صار إبليس من جندى

وقد أخذ الأمير الصنعانى (توفى ١١٨٢ هـ - ١٧٦٨ م) هذا البيت فقال :

وكنت امرءاً من جند إبليس فارتمى ... بى الدهر حتى صار إبليس من جندى

وهو من بحر الطويل من قصيدة عدد أبياتها ١٥ بيتاً .

(٢) أورده الإمام أبو حامد الغزالى فى « إحياء علوم الدين » (٤/٢٩٦) ، قال : « فى بعض الكتب (يقصد الإلهية) : عبدى أنا وحقك لك محب ، فبحقى عليك كن لى محباً » .

[الفاتحة] ﴿هَـٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ [يس] ، ﴿وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام]

قالوا : الصراط المستقيم هو الطريق العَدْل الذى لا اعوجاجَ فيه ، ويمثل أقربَ الطرق وأقصر مسافة بين نقطتين ، وساعةَ تسمع كلمة الطريق تعرف أن له بداية ونهاية من .. إلى ، وهنا إشارة لطيفة ينبغى أن يتنبه لها المؤمن ، هى أن الدنيا بالنسبة لك ما هى إلا طريق أنت تسير فيه ، له بداية وله نهاية ، فهى - إذن - ليستْ دارَ قرار وإقامة ، إنما دارُ عبور ومرور .

والإنسان حينما يقيم فى مكان ولا يجد به راحته يتركه إلى مكان آخر ، ولو استقام له المكان الأول ما تركه ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ..﴿٩٧﴾﴾ [النساء]

وهذه الهجرة أيضاً تحتاج إلى طريق أهاجر فيه من .. إلى . فكأن الحق سبحانه يقول لك : أنت فى الدنيا عابر سبيل ، إلى غاية أعظم وأشرف ، فاسلُك إليها أقرب الطرق الموصِّلة إليها ، وإذا كنتَ قد عاينتَ بنفسك (مِنْ) فى الدنيا التى تعيشها ، فإن الله تعالى قد أخبرك عن (إلى) التى تسير إليها .

أنت فى الدنيا تعيش بالأسباب المخلوقة لله ، والممدودة إليك فى : الأرض التى تعيش عليها ، والماء الذى تشربه ، والهواء الذى تتنفسه ، والعقل الذى تفكر به .. الخ لكن ربك الذى مدَّ لك هذه الأسباب ، يخاف عليك الغرور بالأسباب : ﴿كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ﴿٦﴾ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ﴿٧﴾﴾ [العلق]

لذلك يجعل هذه الأسباب تتخلف فى بعض الأحيان ، كى تتعلق أنت بالمسبِّب سبحانه ، وتظل على ذكر له سبحانه ، فتدعوه وتلجأ إليه .

ومن الناس مَنْ يحب اللهُ دعاءهم ، ويحب أنْ يسمع أصواتهم ، فيبتليهم ليدعوه فيسمعهم ، وآخرون يكره الله نداءهم ، فيأمر الملائكة أنْ تقضى حوائجهم ، حتى لا يسمع لهم صوتاً .

ثم يحكى لنا الحق سبحانه تاريخَ الشيطان مع بنى آدم ، هذا التاريخ الذى كان علينا أنْ نتذكره دائماً :

﴿ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾

الجِبلّ : هم القوم الأشداء الأقوياء . وحين ترى مادة (جبل) فاعلم أنها تدُلُّ على القوة والشدة والثبات والفخامة ، ومن ذلك سُمِّىَ الجبل لثباته ونقول : فلان جُبل على كذا . يعنى : صفة أصيلة فيه ، ثابتة فى شخصيته ، فبَيْنَ هذه الأشياء جامع اشتقاقىّ واحد ؛ لذلك نُشبِّه الرجل العاقل بالجبل ؛ لأنه ثابت لا تهزه الأحداث .

ومن ذلك قول الشاعر يرثى أحد الخلفاء ، وقد رأى الناسَ يحملونه إلى قبره [١]

● رَضْوَى عَلَى أَيْدِى الرِّجَالِ يَسِير [٢] ●

ورَضْوى جبل معروف [٣]

---

(١) أما الشاعر فهو المتنبى أحمد بن الحسين أبو الطيب (ولد بالكوفة ٣٠٣ هـ وتوفى ٣٥٤ هـ) أحد مفاخر الأدب العربى ، ادعى النبوة ، ثم رجع عن دعواه . قتله قاطع طريق اسمه فاتك بن أبى جهل الأسدى .

(٢) وتمام البيت كما ذكر فى الموسوعة الشعرية :

ما كنت آمل قبل نعشك أن أرى رضوى على أيدى الرجال تسير

وهو من قصيدة عدد أبياتها ١٣ بيتاً من بحر الكامل .

(٣) رضوى : جبل منيع بين مكة والمدينة ، ويسمى جبل جهينة بالقرب من ينبع .

ومعنى ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلاًّ كَثِيراً أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ (٦٢)﴾[يس] : يعنى : لستم أول مَنْ أضلَّه إبليس ، فقد أضلَّ قبلكم قوماً كثيرين كانوا أقوى منكم ، ولعب بهم حتى جعل منهم أداة للضلال ، فلم يقف عند حَدِّ ضلالهم هم ، إنما ضلُّوا وأضلُّوا ، حتى صاروا جُنْداً من جُنْده كما قلنا .

ويكفى فى عظمة الحضارات القديمة أن الحضارة الحديثة حضارة القرن العشرين - قرن الاختراعات والاكتشافات والتقدم العلمى الهائل- تقف مبهورة أمام حضارة قديمة مثل حضارة الفراعنة مثلاً ، بل وتقف عاجزة عن فهمها ، والوصول إلى أسرارها ، وكان على رأس هذه الحضارة فرعون .

فماذا فعل به الشيطان ، أغواه وأضلَّه ، حتى قال لقومه : ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ (٢٤)﴾ [النازعات] . وحكى عنه القرآن فقال : ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ (٥٤)﴾ [الزخرف]

ففرعون وأمثاله من الأقوياء ما استطاعوا أنْ يواجهوا الشيطان ، وما استطاعوا النجاة من مكايده ؛ لأنه دخل إليهم من مدخل شهوات النفس ، ثم صعَّب عليهم الطاعات ، فمالوا إلى المعاصى وانصرفوا عن الطاعات .

ثم يُؤنِّب الحق سبحانه هؤلاء العاصين : ﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ (٦٢)﴾[يس] يعنى : أين كانت عقولكم حين انسقتُمْ وراءه ، بعد أن حذرناكم منه وبيَّنا لكم مداخله ، وحين يردُّك خالقك إلى العقل ، ويأمرك بإعماله فاعلم أن نتيجة إعمال العقل موافقة لمراده سبحانه منك ، فإنْ أعملتَ عقلك فى كَوْن الله وآياته ، لابد أنْ تصل إلى نتيجة مرادة لله تعالى ، كذلك أنت لا تأمر مخاطبك بأنْ يُعمل عقله فى شىء ، إلا إذا

كنتَ واثقاً أنَّ نتيجة هذا العمل فى صالحك ، ووفْق هواك ، ولو كنتَ تعرف أن النتيجة على خلاف ما تريد ما أعطيتَه الفرصة لإعمال عقله .

ومثَّلْنَا لذلك بالبائع الذى يبيع سلعة جيدة ، فإنه يدعوك إلى فحصها وتأمُّلها والتأكد من جودتها ، فبائع الأصواف مثلاً يعرض عليك الثوب ، ويُبيِّن لك جودته ، ويشعل الثقاب ، ويحرق لك خيطاً من خيوط النسيج ، إنه لا يفعل ذلك إلا وهو واثق من جودة بضاعته وأنك لابُدَّ مقتنع بها ، حريص على شرائها ، أما الغَاشُّ فيحاول إقناعك بكلام نظرى معظمه كذب وتدليس ، ويحاول أنْ يصرف ذهنك وفكرك فى الشىء ، لأن النتيجة لن تكون فى صالحه .

كذلك الحق - سبحانه وتعالى - يقول :﴿ أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ (٦٢) ﴾ [يس]

يعنى : لو عقلتم لَتوصلْتُم إلى الحق ، وإلى الصراط المستقيم .

﴿ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٦٣) ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (٦٤) ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ (٦٥) ﴾

هنا أيضاً اعتبر التخويفَ من جهنم وعداً لا وعيداً ، وسبق أنْ عرفنا أن الوعد فى الخير ، والوعيد فى الشر ، ومن ذلك قول الشاعر[١] :

يَا دَهْرُ يَا مُنْجِزَ إيعَادِه ... وَمُخْلِفَ المأْمُولِ مِنْ وَعْدِه[٢]

---

(١) هو أبو العلاء المعرى ، شاعر وفيلسوف ، ولد وتوفى (٤٤٩ هـ) فى معرة النعمان ، عمى فى السنة الرابعة من عمره ، قال الشعر وهو ابن ١١ سنة ، كان يلبس خشن الثياب ولم يأكل اللحم ٤٥ سنة .

(٢) البيت من قصيدة لأبى العلاء المعرى من بحر السريع عدد أبياتها ٥٠ بيتاً.

وقُلْنا : سَمَّى ذلك وعداً ؛ لأن التحذير من الشر قبل الوقوع فيه يُعَدُّ خيراً ؛ لأنك تستطيع تدارك الأمر ، وتصحيح الخطأ .

وقوله سبحانه : ﴿اصْلَوْهَا (٦٤)﴾[يس] ادخلوها ، واصْطَلُوا بنارها ، واحترقوا بلظَاهَا ، ﴿الْيَوْمَ (٦٤)﴾[يس] أى : يوم الجزاء اليوم القائم الذى نحن فيه ، أما ما قبله فقد مضى ومضتْ معه اللذات التى جاءت بكم إلى النار ، ذهبتْ اللذات وبقيتْ تبعتها ، ولم يعُد أمامكم إلا النار تحترقون فيها ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (٦٤)﴾[يس] يعنى : هذه النار ليست ظُلْماً ، إنما جزاء كفركم بنعمة الله ، وهذا تقريع لهم ؛ لأنهم لم يعرفوا للحق سبحانه نعمه عليهم ، ولو عرفوا لله هذه النعمة ما كفروا بها .

لذلك حين تُحسن إلى إنسان ، فيقابل إحسانك بالإساءة يخجل أن يقابلك ، ويستطيع أنْ يتحمل منك أىَّ عقاب ، إلا أن تواجهه أنت ، لماذا ؟ لأن حياء المسىء من المحسن أشدُّ عليه من العذاب ، فكأن الله تعالى يقول لهؤلاء الكفرة بنعمه : استحيوا من الله ، لأنه أنعم عليكم فكفرتم بنعمه ، ولو أن عندكم إحساساً لكان تذكيركم بكفركم أشدَّ عليكم من هذه النار التى تَصْلَوْنها .

ثم يقول سبحانه واصفاً حالهم ، والعياذ بالله : ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٦٥)﴾ [يس]

قوله ﴿الْيَوْمَ (٦٥)﴾[يس] أى : يوم القيامة والجزاء ﴿نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ (٦٥)﴾ [يس]

نضرب عليها فلا يستطيعون الكلام ، فالأفواه مَنَاط الكلام ، وقبل أن يختم الله على أفواههم فى الآخرة ختم على قلوبهم فى الدنيا ، بالأمس ختم اللهُ على القلوب فلا يدخلها إيمان ولا يخرج منها كفر ، واليوم ختم الله على الأفواه ومنعهم الكلام ، حتى لا يعتذرون ولا يستغفرون .

فالمقام هنا مقام حساب لا عمل ، فلا جدوى من الاستغفار ، ولا فائدة من الاعتذار ، بل انتهى أوان الكلام والمنطق ، ولم يعُد للسان دَوْر ، اليوم تُغْلَق الأفواه وتُقيَّد الألسنة لتنطق الجوارح .

وتأمل بعدها : ﴿ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٦٥) ﴾[يس] القياس كان يقتضى أنْ يقول الحق سبحانه ﴿ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ (٦٥) ﴾ [يس]

ومثلها : ونُنْطِق أيديهم ونُشهد أرجلهم ، لكن السياق القرآنى هنا مختلف ، فبعد أنْ يختمَ اللهُ على أفواههم تُكلمنا أيديهم تطوعاً لا أمراً ، وتشهد أرجلهم تطوعاً لا أمراً ، فلم نقل للأيدى : تكلمى ، ولم نقل للأرجل : اشهدى .

وإنما تطوعتْ هذه الجوارح بالشهادة ، مع أنها هى نفس الجوارح التى بُوشِرت بها المعاصى والذنوب فى الدنيا ، ومع ذلك تشهد لا على نفسها ، إنما على النفس الواعية التى أخضع اللهُ لها الجوارح ، وأمرها أن تسير وِفْق مرادها ، ورهْنَ إشارتها فى الدنيا .

أما ونحن الآن فى الآخرة ، وقد تحررتْ الجوارحُ من تبعيتها للنفس الواعية ، وأصبحَ الملْكُ كله والتفويض كله لله تعالى ، فالآن تتكلم الجوارح بما تريد ، وتشهد بما كان أمام الرب الأعلى سبحانه .

وسبق أنْ مثَّلْنَا هذه المسألة بالكتيبة من الجيش يرسلها القائد الأعلى ، وعلى الكتيبة أن تطيع أوامر قائدها المباشر ، ولو كانت الأوامر خاطئة ، إلى أن تعود إلى الأعلى ، فتشكو له ما كان من القائد المباشر ، هكذا الجوارح يوم القيامة .

فإنْ قلتَ : فلماذا أسند التكلم للأيدى ، والشهادة للأرجل ؟ نقول:

لأن جمهرة الأعمال عادة تُسند إلى الأيدى ، حتى لو كان المشى وسيلة العمل ، وطالما أن الأيدى تتكلم ، فكأنها أصبحتْ مُدَّعية تحتاج إلى شاهد فتشهد الأرجل .

أما مسألة : كيف تنطق الأيدى ، فالذى أنطق اللسان وهو قطعة من لحم ودم قادر على أنْ يُنطق باقى الأعضاء الأيدى أو غيرها ، وما دام الفعلُ لله تعالى فلا داعىَ للسؤال عن الكيفية ، ثم إن الأيدى بها من الأعصاب أكثر مما بأعضاء الكلام .

وقوله تعالى : ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾[يس] ولم يقُلْ : بما كانوا يعملون ، لأن هناك فرقاً بين إنسان يُقبل على المعصية لكنه لا يفرح بها ، بل يندم عليها ويعاقب نفسه على ارتكابها ، وآخر يعتبر ارتكاب المعصية مكسباً فيفرح بها ، ويتحدث عنها ويتباهى بارتكابها .

ومن حيث التحقيق اللغوى لمادة (كسب) ، فإن هذا الفعل يأتى مجرداً (كسب) ، ويدل على الربح فى البيع والشراء ، وعلى العمل يأتى من الإنسان طبيعياً ، لا تكلُّفَ فيه ولا افتعال ، وغالباً ما يُستخدم فى الخير .

ويأتى هذا الفعل مزيداً بالهمزة والتاء (اكتسب) ، ويدل على الافتعال والتكلّف ، وتُستخدم هذه الصيغة فى الإثم ، وأوضحنا هذه المسألة فقلْنا : إن الإنسان حين يفعل الخير يأتى الفعلُ منه طبيعياً تلقائياً ، أما الشر فيتلصص له ويحتال ، ذلك لأن الخير هَيِّن لَيِّن سهل مقبول ، أما الإثم فشَاقٌّ مخجل .

أنت حين تجلس مثلاً بين أهلك ترى زوجتك أو بناتك أو عمتك أو خالتك .. الخ وفيهن الجميلات والحسان ، وأنت تنظر إليهن جميعاً

دون تكلُّف ودون خجل ، لأنه أمر طبيعى ، أما مع غير المحارم ومع مَنْ يحرم عليك النظر إليهن ، فإنك تسرق النظرة وتحتال لها ، حتى لا ينكشف أمرك ، ولا يطلع أحد على نقيصتك .

فإذا جاءت كسب محل اكتسب ، فاعلم أن صاحب المعصية ومرتكب الإثم قد تعوَّد عليه وألفه ، حتى أنه يفعله كأمر طبيعى فلا يخفيه ولا يستحى منه ، بل يجاهر به ، فَعَدَّ الاكتساب فى حقه كسباً ، كما فى هذه الآية :

﴿ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٦٥) ﴾ [يس]

﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ[1] فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ (٦٦) ﴾

يعنى : كما ختمنا على أفواههم ومنعناهم الكلام لو شئْنا لطمسنا أعينهم يعنى : أغلقناها وسوَّيناها ، بحيث لا يظهر لَها أثر فى وجوههم ، وإذا طمسنا على أعينهم فقدوا البصر ، فكيف يبصرون وهم يسابقون إلى الصراط ؟

﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ (٦٧) ﴾

---

(١) المطموس والطميس عند أهل اللغة : الأعمى الذى ليس فى عينيه شق . وفى هذه الآية تاويلات : **أحدها** : أن هذا فى الدنيا . قال ابن عباس : المعنى لأعميناهم عن الهدى ، فلا يهتدون أبداً إلى طريق الحق

ثانيها : أى أعميناهم فلا يبصرون طريقاً إلى تصرفهم فى منازلهم ولا غيرها . قال القرطبى : وهذا اختيار الطبرى .

ثالثها : أن هذا فى الآخرة . وقد رُوى هذا عن عبد الله بن سلام . وعلى هذا يكون الصراط فى الآية يكون هو صراط يوم القيامة . راجع تفسير القرطبى (٥٦٨٧/٨)

لقائل أنْ يقول : إذا فقدوا البصر على الصراط ، فقد تكون لهم بدائل وحيل تُسعفهم ، كأن يتحسس طريقه بعصا مثلاً ، أو يجد مَنْ يأخذ بيده ويرشده ، فالحق سبحانه وتعالى يُطوِّقهم من كل نواحيهم ، ويقطع أملهم فى النجاة ، فيقول : ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ (٦٧)﴾ [يس]

فالأمر لا ينتهى عند العمى والطمس على الأعين ، إنما هناك ما هو أشد ، أنْ يمسخهم فى أماكنهم ويجمدهم فيها ، فلا يستطيعون حراكاً .

والمسخ أنْ يصيروا كالمساخيط لا يتحرك ، أو مسخناهم يعنى : حوَّلنا صورهم إلى صور قبيحة ، إذلالاً وإهانة لهم .

والمعنى الأول أوجه[1] ، لأنه تعالى قال بعدها : ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ (٦٧)﴾ [يس]

لأنهم تجمدوا فى أماكنهم ، فلا حركة لهم لا إلى الأمام بالمضىِّ فى الطريق الجديد الذى هم مُقبلون عليه ، ولا حتى العودة فى الطريق الذى جاءوا منه وألِفُوه .

﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ[2] فِي الْخَلْقِ ۖ أَفَلَا يَعْقِلُونَ (٦٨)﴾

---

(١) وهو قول الحسن البصرى : أى لأقعدناهم فلا يستطيعون أن يمضوا أمامهم ولا يرجعون وراءهم. وكذلك الجماد لا يتقدم ولا يتأخر . أما المسخ بمعنى تغيير الخلقة ، ومسخهم بهائم أو غير ذلك فقد قال به السدى فيما ذكره ابن كثير فى تفسيره (٣/٥٧٨)

(٢) النكْس : قلب الشىء على رأسه ، ونكس رأسه : أماله قال أبو إسحق : معناه من أطلنا عمره نكسنا خَلْقه فصار بدل القوة ضعفاً ، وبدل الشباب هرماً ، وقال شمر : يقال نكس الرجل إذا ضعف وعجز . [لسان العرب – مادة : نكس] قلت : علاقة معنى الكلمة بإمالة الرأس فى نحو ﴿نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ (١٢)﴾ [السجدة] أن العجز والهرم بسبب إطالة العمر والهرم يتسبب فى أن يمشى الإنسان منحنياً مميلاً رأسه خاضعاً برأسه إلى أسفل ، وقد يكون متكبراً على الله فى حياته . والله أعلم .

الحق سبحانه قد أعذر بأنه أنذر ، وأعذر لأنه قال لهم لا تعبدوا الشيطان وبيَّن عداوته ، وقال : اعبدونى واسلكوا صراطى المستقيم ، إذن : ليس لهم عذر حين كفروا بالله وأطاعوا الشيطان وعبدوه ، لكنهم قد يعتذرون من ناحية أخرى فيقولون : يارب أنت أخذتنا ولو عشْنا لاهتدينَا وعُدْنا إلى الصراط المستقيم ، فيرد الله عليهم : ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ .. (٣٧)﴾ [فاطر]

يعنى : قد عمَّرناكم عمراً طويلاً يكفى للتذكُّر والعودة فلم تعودوا ، ثم إن التعمير يُورث الضعف والوَهَن وعدم القدرة ، فأنت فى أول الحياة عندك فتوة وقوة ونشاط بدنى وذهنى ، لكن مع الكِبَر تضعف البنية ، وتقلُّ القوة العضلية والعقلية ، ويعود الإنسان إلى الضعف الذى بدأ به وهو طفل صغير ، وكما قال تعالى : ﴿لِكَيْ لا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا .. (٧٠)﴾ [النحل]

فإذا كنتم لم تعودوا ولم ترعووا فى فترة القوة وسلامة العقل والتفكير ، أتعودون فى فترة الهَرَم والضعف والنسيان ؟

لذلك يقول هنا الحق سبحانه : ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ (٦٨)﴾[يس] نطيل عمره ونَمُد له فيه ﴿نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ (٦٨)﴾ [يس] الانتكاس : العودة إلى الوراء ، والرجوع إلى ما كنتَ عليه أولاً ، فَطُول العمر يعود بالإنسان إلى مرحلة الطفولة الأولى ، فهو نكسة فى حقه حين يصير شيخاً هرماً لا يستطيع الحراك ولا الكلام ، وتأخذ ذاكرتُه فى الضعف فينسى ويخرف ، فهو كالطفل تماماً يحتاج مَنْ يحمله ويُطعمه ويُزيل عنه الأذى .. الخ ، فهل فى هذه الحال عودة ؟ وهل ينفع معها تفكُّر وتدبُّر ؟

﴿أَفَلا يَعْقِلُونَ (٦٨)﴾ [يس] يعنى : أين عقولكم فى هذه المسألة ؟ والحق سبحانه يسوقها بأسلوب الاستفهام ، ولا يأتى بها على سبيل

الإخبار ليجيبوا هم ويُقِرُّوا على أنفسهم بعدم التعقُّل .

﴿ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾

نلحظ هنا نقلة فى سياق هذه الآيات ، فما العلاقة التى نقلتنا من الكلام عن الآخرة وجزاء الكافرين المجرمين إلى الحديث عن سيدنا رسول الله ؟

نعرف أن المقاصد الأصلية للتديُّن هى أولاً : توحيد الله ، ومعنى التوحيد لله تعالى أن تشهد أنه واحد أحد ، ولكل من الوصفين معنى لا يؤديه الآخر ، فلكل منهما (ماصدق) ، فمعنى (واحد) أى : من حيث الوجود هو واحد لا فرد آخر معه .

أمَّا أحد فيعنى أنه فى ذاته سبحانه ليس مُكوَّناً من أجزاء ، فالإله أحَد فى ذاته ، لم تجتمع عدة أشياء فى تكوينه ، ذاته لا ترتكن إلى شىء ، فمثلاً حين تأخذ الشىء الواحد كالكرسى مثلاً ، الكرسى فى وجوده كرسى واحد ، لكنه ليس واحداً ، لأنه مُكوَّن من عدة أشياء ، مُكوَّن من الخشب والمسامير والغراء و (البوية) .. الخ فهو واحد ليس أحداً ، أما الحق سبحانه فلاَ بُدَّ أنْ يُوصفَ بالوصفين معاً ، فنقول : هو سبحانه واحد أحد ؛ لأن لكل منهما معنىً .

ومسألة الواحدية مسألة عملية عقلية ؛ لأن الله تعالى أعلن أنه الإله الحق ، وأنه واحد لا شريك له ، وأنه هو الخالق وحده ، وهو الرازق ، وهو الذى يستحق وحده أن يُعبدَ ، هذه دعوى لم يَقُمْ لها معارض ، والدعوى تثبت لصاحبها إلى أنْ يدَّعيها آخر ، ونحن لم نَرَ أحداً ادَّعَى الخَلْق لنفسه .

فلو كان معه سبحانه إله آخر أو آلهة أخرى فأين هم ؟ لماذا لم يطالبوا بحقهم فى هذه المسألة ؟ أو أنهم سكتوا عنها أو لم يَدْرُوا بها ؟ وعلى أىِّ حال من هذه الأحوال لا يصلحون لأَنْ يكونوا آلهة ؛ لذلك يناقش القرآنُ هذه المسألة بكلام منطقى :

﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَى ذِى الْعَرْشِ سَبِيلاً (٤٢) ﴾[الإسراء]

إذن : فالتوحيد هو الأساس الأصيل للدين ، لكن لا أعرف بالعقل مطلوبَ الإله منى ، لابُدَّ أن يُبعَث لى رسول يخاطبنى بمطلوب ربى منى ، إذن : لا بُدَّ من رسول . وهذا هو المقصد الثانى للدين . وخطاب الحق للخَلْق طاقة كمال مطلق والبشر نقص مطلق ؛ لذلك لابُدَّ فى هذا الخطاب من واسطة تستطيع التلقِّى عن هذا الكمال المطلق ، وتستطيع التبليغ إلى الأقل كمالاً ، وهكذا تتدرج المسألة ، فالله تعالى يخاطب الملائكة ، والملائكة تخاطب الرسل ، والرسل يخاطبون الناس.

فلا بُدَّ من (الرسالة) وهى المقصد الثانى للدين ، والرسول هو الواسطة بين الخالق والخَلْق ، والرسول ليس مُبلِّغاً فحسب ، إنما مُبلِّغ وأُسْوة سلوك وتطبيق ، كما قال سبحانه : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ (٢١) ﴾ [الأحزاب] ولو كان الرسول مَلَكاً لما تحققتْ به الأسوة ، ولا يمكن أن أُحمل على مطلوب الرسول إلا إذا كان الرسول من جنسى .

لذلك يقول تعالى موضحاً هذه القضية : ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلاَّ أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولاً (٩٤) ﴾[الإسراء] فيأتى الرد (قُلْ) أى رداً عليهم : ﴿ لَّوْ كَانَ فِى الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولاً (٩٥) ﴾ [الإسراء]

إذن : كيف نُنزل مَلَكاً لبشر ؟ لو نزل المَلَكُ على طبيعته النورانية ما رآه البشر ، ولابُدَّ أن يأتيهم فى صورة بشرية ، ولظلَّتْ الشبهة قائمة : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ (٩) ﴾ [الأنعام]

فلا بد - إذن - من وسائط هى أشبه ما تكون بـ (الترانس) فى عالم الكهرباء ، وهو أداة تأخذ من القوى وتعطى للضعيف دون أنْ تحرقه .

العنصر الثالث للدين هو الحشر ؛ لأن الرسالة جاءتْ لتحمل المنهج : افعل كذا ولا تفعل كذا ، هذا المنهج من الناس مَنْ سيسير عليه فيفعل ما أمر به وينتهى عما نُهى عنه ، ومنهم مَنْ سينصرف عنه بل ويخالفه ، إذن : لابُدَّ من مَرَدٍّ يُثَاب فيه المطيع ، ويُعاقَب فيه المخالف ، هذا المردُّ هو الحشر .

فالحق سبحانه تكلم عن التوحيد فى قوله : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٦٠) وَأَنِ اعْبُدُونِي هَـٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٦١) ﴾[يس] وتكلم عن الحشر فى قوله سبحانه : ﴿ هَـٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٦٣) اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (٦٤) ﴾ [يس]

والآن يتكلم عن العنصر الثانى وهو الرسالة فنقول عن رسوله ﷺ : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ (٦٩) ﴾[يس] أى : نحن لا المجتمع ولا البيئة التى يعيش فيها ؛ لذلك كانت الأمية فى رسول الله شرفاً ؛ لأنه لو لم يكُنْ أمياً لكانت ثقافته من الخَلْق .

أمَّا أميته فتعنى أنه أخذ ثقافته وعلمه من الله ؛ لذلك كان من شرفه ﷺ أن يكونَ أمياً ، ومن شرف أمته أنْ تكون أمية ، لأنها لو كانت أمة متعلمة لقيل إن ما حدث فى الجزيرة العربية ما هو إلا قفزة حضارية ، كما قالوا : لَمّا نصرنا الله فى حرب رمضان ورأينا

بأعيننا تأييد الله لنا ، ومع ذلك قالوا : نَصْر حضارى .

فالحق سبحانه يقرر هذه الحقيقة : ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ (٦٩)﴾[يس] لَكُنَّا علمناه غير الشعر ، فرسول الله مُعلَّم نعم ، لكن مُعلَّم مِنْ مَنْ ؟ من ربه ، لم يأخذ شيئاً من البشر .

وقد يُظَنُّ أن الله لم يُعلِّمه الشعر ؛ لأن الشعر يحتاج إلى ثقافة لغوية وعلْم بالأوزان والقوافى ، ولا بُدَّ له من الحسِّ المرهف والأذن الموسيقية إلى آخر هذه الأدوات التى يحتاجها الشاعر وربما لم تتوفر هذه الأدوات لرسول الله كما أنها لم تتوفر لكثيرين غيره .

فيرد الله تعالى هذا الظن ، ويقول :﴿ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ (٦٩)﴾[يس] يعنى: لم نُعلمه الشعر لنقص فى إمكانياته ، فلو أراد أنْ يقول شعراً لَقَالَ الشعر على أحسن مَا يُقَال ، لكن لا ينبغى له ذلك ؛ لأن مهمة الرسول خلاف مهمة الشاعر ، فأغلب الشعر فى الكذب وفى الشر ، فإذا دخل فى الخير ضَعُفَ ولاَنَ ، ذلك لأن طبيعة الشعر أن ينطلق ويُحلِّق فى الخيال ، وأن يقول الشاعر ما يحلو له أياً كانت غايته ؛ لذلك قالوا : أعذب الشعر أكذبه .

وكثيراً ما نرى الشعراء أصحاب القيم والأخلاق يصعب عليهم الجمع بين مطلوب الإيمان منهم ، وما تدعوهم إليه مَلَكة الشعر عندهم ، فلا يملكون إلا أنْ يحصروا أنفسهم فى شعر القيم والأخلاق والفضائل ، ويبتعدوا عن شعر الهجاء والغزل .

والشاعر المهجرى الذى عُرف عنه التقوى والصلاح ، فحاول أنْ يجمع بين هذه التقوى والموهبة الشعرية لديه ، فقال :

مَوْلاَى إنِّى قَدْ عَصَيْتُكَ عَامِداً ... لأَرَاكَ أَجْمَلَ مَا تكُونُ غَفُوراً
وَلَقَدْ جَنَيْتُ مِنَ الذُّنُوبِ كِبَارَهَا ... ضَنّاً بِعَفْوِكَ أنْ يكُونَ صَغِيراً

فأجاد فى الأولى ، ولم يُوفَّق فى الثانية .

وسيدنا حسان بن ثابت ، كان شاعراً مجيداً فى الجاهلية ، فلما أسلم قالوا له : لاَنَ شعرك يا أبا الحسام . فقال : الشعر نكِد يَقْوى فى الشر[١] ، فإذا دخل فى الخير ضَعُفَ ولاَنَ .

فقوله تعالى : ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓ ﴿٦٩﴾﴾[يس] دفع عن رسول الله الاتهام بأن طبيعته ليست شاعرية ، أو أنه غير مُرْهف الحس ، وأن أذنه غير موسيقية ، إلى آخر هذا الهراء ، وكيف يُتَّهم بهذا مَنْ علَّمه الله ، وباشرتْ أذنه الوحى ؟

أما القول بأن رسول الله ﷺ قد أنشد الشعر ، نعم أنشد رسول الله الشعر ، لكن لم ينشده مستقيماً ، بل خالف فيه حتى لا يظلَّ البيتُ على استقامة وزنه ، فلما أنشد[٢] :

سَتُبْدِى لَكَ الأيَّامُ مَا كُنْتَ جَاهِلاً ... وَيأْتِيكَ بِالأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تُزَوِّدِ

قال :

سَتُبْدِى لَكَ الأيَّامُ مَا كُنْتَ جَاهِلاً ... وَيأْتِيكَ مَنْ لَم تُزوِّدِ بِالأَخْبَارِ[٣]

وورد أنه ﷺ قال[٤] : « أصدق كلمة قالها لبيد :

---

(١) ذكر ابن قتيبة الدينورى فى « الشعر والشعراء » هذه القولة من قول الأصمعى . ثم ذكر حسان بن ثابت فقال : هذا حسان بن ثابت فَحْل من فحول الجاهلية ، فلما جاء الإسلام سقط شعره .

(٢) عن عائشة قيل لها : هل كان النبى ﷺ يتمثل بشىء من الشعر ؟ قالت : كان يتمثل بشعر ابن رواحة ويتمثل ويقول : « ويأتيك بالأخبار من لم تزود » أخرجه الترمذى فى سننه (٢٨٤٨) ، وأحمد فى مسنده (١٥٦/٦) .

(٣) كان رسول الله يتمثل بهذا البيت ولا يقيم وزنه ، وهو بيت لطرفة بن العبد ، وقال أبو عبيد بن سلام فى كتاب « الأمثال » : روينا فى حديث مرفوع أنه ﷺ تمثل به فقال : « ويأتيك من لم تزود بالأخبار »

(٤) أخرجه البخارى فى صحيحه (٦١٤٧) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٢٥٦) كتاب الشعر (روايات ٢- ٦) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

أَلاَ كُلُّ شيءٍ مَا خَلاَ اللهَ بَاطِلُ وَكُلُّ نَعيمٍ زَائِلٌ لاَ مَحَالَةَ

والصواب :

أَلاَ كُلُّ شيءٍ مَا خَلاَ اللهَ بَاطِلٌ وَكُلُّ نَعيمٍ لاَ مَحَالَةَ زَائِلُ

إذن : كان سيدنا رسول الله يكسر وزن البيْت ، حتى لا يقال إنه أنشد الشعر ، مع أن الله تعالى قال : ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ (٦٩)﴾[يس] لكن لم يَنْهَ رسول الله عن إنشاده ، فكأن رسول الله يحتاط للأمر ، فيقول ولا أنشده أيضاً ، ليكون بعيداً عنه كلية .

هذا عن الإنشاد ، أما عن قوله الشعر بنفسه ، فيرى البعض أنه ﷺ قال شعراً مثل قوله فى غزوة حنين[1] :

أَنَا النَّبِيُّ لاَ كَذِب أَنَا ابْنُ عَبْدِ المطَّلِب

نعم جاء هذا القول من رسول الله موافقاً لوزن شعرىٍّ يسمونه الرَّجز ، فهو قول صادف وزناً شعرياً وفرْق بين نَظْم الكلام وإخضاعه للوزن والقافية ، وبين كلام يصادف وزناً دون قصد ، وإلا ففى القرآن نفسه آيات صادفت وزناً شعرياً ، فهل نقول إنها شعر ؟ واقرأ مثلاً :

﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ .. (٩٢)﴾ [آل عمران]

﴿فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ (٣٢)﴾ [يوسف]

﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٤٩)﴾ [الحجر]

هذه وغيرها آيات صادفت وزناً شعرياً ، لكنها لا تُسمَّى شعراً ؛ لأن الشعر قول موزون مُقفًّى قصداً .

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٧٧٦) كتاب الجهاد ، والبخارى فى صحيحه (٤٣١٧) من حديث البراء بن عازب ، وذلك أن رجلاً سأله : أفررتم عن رسول الله يوم حنين ؟ فقال البراء: ولكن رسول الله لم يفر ، وكانت هوازن يومئذ رماة ، وإنَّا لما حملنا عليهم انكشفوا ، فأكببنا على الغنائم فاستقبلونا بالسهام ، ولقد رأيت رسول الله على بغلته البيضاء ، وإن أبا سفيان ابن الحارث آخذ بلجامها وهو يقول : « أنا النبى لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب » .

الحق سبحانه حكى عن رسوله أن الكفار اتهموه فقالوا : ساحر وشاعر وقالوا : كاهن ، لكن القرآن رَدَّ عليهم فى مسألة الشعر ، ونفى أن يقول الرسول شعراً : ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ (٦٩)﴾[يس] ولم يَنْفِ عنه السحر ولا الكهانة ، لماذا ؟

قالوا : لأن مهمة رسول الله بلاغ القرآن عن الله ، والقرآن من جنس الأساليب الراقية ، وأقرب شىء إليه الشعر لذلك نفاه القرآن ، أما السحر فطلاسم وكلام لا معنى له ، فلم يَقُلْ : وما علمناه السحر .

ولو أن لهذه الكلمة مدلولاً لكان الرد عليها سهلاً ، فإذا كان محمد ساحراً سحر المؤمنين به ، فلماذا لم يسحركم أنتم أيضاً ، إذن : تكذيبكم له وكفركم به أدَلُّ شىء على أنه ليس ساحراً ، وهل للمسحور إرادة مع الساحر .

وفى قولهم كاهن ردٌّ عليهم : ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ (٤٢)﴾ [الحاقة] لأن قَوْلَ الكاهن كلام مسجوع سَجْعاً بارداً ، والقرآن خلاف هذا كله ، ثم إنكم أهل فصاحة وبيان ، وأنتم أعلم الناس بالأساليب والتمييز بينها ، فهل يخفى عليكم أنْ تفرقوا بين القرآن وغيره من الكلام وأنتم أمة كلام ، وتجعلون للكلمة أسواقاً ومعارض ؟

ثم يُبيِّن الحق سبحانه العلة فى عدم قول الرسول للشعر ، فيقول سبحانه: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ (٦٩)﴾[يس] إن هنا بمعنى ما النافية . يعنى : ما هذا القرآن إلا تذكير لمن يعقل وقرآن مبين . أى : بيِّن واضح يُتلَى ، وقد يكون له نَغَم ألذّ فى أذن الوَرِع من الشعر ، لذلك بعض الناس يسمع القرآن فتأخذه نشوة وإعجاب ، ولو سألته تجده لا يعرف ما يحدث له ، لماذا ؟

قالوا : لأن الذى يتكلم الله ، والذى يسمع خلق الله ، فالله تعالى

يتكلم بالكلام الذى يؤثر ويستميل المخلوق لله الذى ما يزال على فطرته التى فطر الناس عليها ، فإنْ خرج عن هذه الفطرة لم يؤثر فيه القرآن هذا التأثير ، ذلك لأن القرآن واحد أمَّا الفطرة المستقبلة فتختلف .

والحق سبحانه يشرح لنا هذه المسألة فى قوله تعالى : ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا ﴿١٦﴾﴾ [محمد] فأمره الله أنْ يردّ عليهم : ﴿قُلْ هُوَ ﴿٤٤﴾﴾ [فصلت] أى : القرآن ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴿٤٤﴾﴾ [فصلت]

ذلك لأن فاعلَ الشىء غير قابله ، وسبق أن مثَّلْنا لذلك بكوب الشاى الساخن تنفخ فيه ليبرد ، وفى الشتاء تنفخ فى يديك لتُدفئها ، فالنفخة واحدة ، لكن المستقبل لها مختلف ، كذلك حال الناس فى تلقِّى القرآن ، فمَنْ تلقى كلام الله بفطرة سليمة فهمه وتأثر به ، ومَنْ تلقى كلام الله وهو منشغل عنه أُغْلِق عليه ، فلم يفهم عن الله ولم يتأثر بكلامه .

لذلك نرى بعض الناس من غير العرب لا ينطق بكلمة عربية ، لكنه ساعة يسمع أو يقرأ كلام الله تجد له انفعالَ مواجيد ، وتدمع عيناه ، لماذا ؟ لابد أن شيئاً فى تكوينه تأثر بهذا الأسلوب .

وإذا كان الحق سبحانه أوحى إلى الجماد فانفعل لكلامه ، وأوحى إلى الحيوان ففهم عنه ، فمن باب أَوْلَى يكلم الإنسان العاقل بكلام يصادف طبيعته ويؤثر فيه ، فيتأثر وينفعل .

ثم يقول سبحانه مبيِّناً مهمة هذا الذِّكْر وهذا القرآن المبين : ﴿لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا ﴿٧٠﴾﴾[يس] نعم ، سماهم أحياء وخطابك لهم دليل على أنهم أحياء ، لكن أحياء الحياة المادية التى تنتهى بالموت ، إنما

هناك حياة أخرى بالعقل والفكر وبالقيم الروحية ، وهذه لا يظهر أثرها إلا بعد الموت .

والناس جميعاً يشتركون فى الحياة المادية ؛ لذلك يُسمَّى العنصر الذى يدخل على الحياة المادية لتأخذ طابع الحياة الروحية (الروح) ، فالروح روح من أمره سبحانه ، وبعد أنْ يعطيه الروح التى تحيا بها المادة يعطيه الروح التى تحيا بها القيم ، وحياة القيم قُلْنا : إنها ترتقى بك لتعطيك قيمة فى الآخرة ، وقد تعطيك فى الدنيا راحة البال واستقامة واستقراراً ، لكن تظل الحياة الحقيقية فى الآخرة .

فإذا شاء الله أُعْطى الإنسانُ حياةً موصولة كما أعطى سيدنا يحيى ، فلما دعا سيدنا زكريا ربه ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾﴾ [مريم]

فأجابه الله : ﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾﴾ [مريم]

إذن : بشَّره الله بالغلام ، وسمَّاه اسماً يدل على أنه سيعطيه حياة موصولة ؛ فحين تسمى ولدك ذكى مثلاً تفاؤلاً أن يكون ذكياً ، أو نبيل تفاؤلاً أن يكون نبيلاً ، لكن أتملك أنت أنْ تحقق رغبتك هذه .

لذلك قال الشاعر :

وَسَمَّيْتُهُ يَحْيَى لِيحَيْا فَلَمْ يَكُنْ ... لِرَدِّ قَضَاءِ اللهِ فِيهِ سَبِيلُ

نعم ، أنت سميتَ ، لكنك لا تهب الحياة ، واهبُ الحياة هو الله ، فإذا سَمَّى الله يحيى فلا بُدَّ أن يحيا حياة موصولة ؛ لذلك مات سيدنا

يحيى شهيداً ، لتتصل حياته الدنيا بحياة الآخرة ، وليحقق فيه ما أراده الله .

ومعنى : ﴿ وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ (٧٠) ﴾[يس] أى : يستحق لهم العذاب ؛ لأنهم لم ينتفعوا بالإنذار .

ثم يتحدث الحق سبحانه بعد ذلك عن بعض آياته فى الكون :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (٧١) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (٧٢) وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ (٧٣) ﴾

هنا نقلهم الحق سبحانه إلى مجال المادة التى لا يستطيعون إنكارها ، وقلنا : إن الرؤية فى ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا (٧١) ﴾ [يس] يصح أن تكون رؤية بصرية أو رؤية علمية ﴿ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا (٧١) ﴾[يس] قوله ﴿ مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا (٧١) ﴾[يس] ينفى المشاركة يعنى : هذه صنعتنا وخَلْقنا لم يشاركنا فيه أحد ، ولم يعاوننا فيه أحد ، بل هو خَلْق لله وحده .

وكلمة ﴿ أَنْعَامًا (٧١) ﴾[يس] هى الأنعام التى ذُكرت فى سورة الأنعام : ﴿ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٤٣) وَمِنَ الإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٤٤) ﴾ [الأنعام]

وهى البقر والإبل والغنم والماعز ، وسميت أنعاماً لأنها النعمة

البارزة فى أشياء متعددة ، ننتفع بها فى حياتنا ، فنأخذ منها الصوف والوبر والجلود والألبان ، ونحمل عليها الأثقال ، وهذه كلها نِعَم واضحة فى البيئة العربية .

ثم إن خَلْق الأنعام فى ذاته نعمة ، وقوله سبحانه ﴿فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (٧١)﴾[يس] نعمة أخرى ؛ لأن هناك حيوانات أخرى متوحشة لا تُملَك إلا بالصيد وبالقوة ، وهى قليلة النفع إذا ما قُورِنت بالمستأنسة التى ينتفع بها الإنسان ، فيسوقها ويركبها ويحلبها .

ثم نعمة التذليل ﴿وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ (٧٢)﴾[يس] وإلا فإذا خلقها الله ولم يُذلِّلها ما استطاع الإنسانُ تذليلها ، ولا الاستفادة منها ، فالجمل مثلاً رغم ضخامة حجمه وقوته ، إلا أن الطفل يسوقه ويُنيخه ويركبه ، كيف ؟ لأن الله ذَلَّله وسخَّره ، أما الثعبان فمع صِغَر حجمه إلا أننا نخافه ونهرب منه ؛ لأن الله لم يُذلِّله لنا ، بل البرغوث فى الفراش يشاغبك ويقلقك ، وليس لك سلطان عليه .

إذن : فخَلْق هذه الأنعام فى ذاته نعمة ، وتملّكها نعمة ، وتذليلها نعمة ، وهذه النِّعم للمؤمن والكافر على السواء ، لأنها من عطاء الربوبية . إذن : كان عليهم أن يحترموا هذه ، وأن يسألوا أنفسهم : كيف نكفر بالله وهو يوالى علينا كل هذه النِّعَم ، وليت الأمر يقف عند كفرهم هم ، إنما يتعدى ذلك حين يمنعون الرسل من نَشْر دعوتهم .

وقوله سبحانه : ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ (٧٢)﴾[يس] أى : ما يُركب من الدواب . ورَكُوب مثل قولنا : شاة حَلُوب يعنى : تُحلب ﴿وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (٧٢)﴾[يس] أى : من لبنها وهى حَلُوبة ، واللبن نأكل منه الجبن والزبدة .. الخ ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ (٧٣)﴾[يس] مشارب جمع مشرب . والمراد القِرْبة التى كانوا يشربون بها ، وتُصنع من جلود

هذه الحيوانات أو يُراد بالمشارب ما يُشرب من ألبانها ، واللبن وإنْ كان يُشرب من الأنثى إلا أن الذكر سبب فيه ، فلولا أنها حملتْ ما كان منها اللبن .

ثم تُختم هذه النِّعَم بقوله سبحانه ﴿ أَفَلَا يَشْكُرُونَ (٧٣) ﴾[يس] هكذا بأسلوب الاستفهام ليجيبوا هم ، فالله لا يقول لهم : اشكرونى على هذه النِّعم إنما يقررهم : أهذه تستوجب الشكر أم لا ؟ ثم لو شكرتم فسوف تتعرضون لعطاء آخر وزيادة :

﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ (٧) ﴾ [إبراهيم]

إذن : كان يجب عليهم أن يشكروا الله على نِعَمه ، وأن تدعوهم هذه النِّعَم إلى الإيمان بهذا الإله المنعِم الذى يُوالى عليهم نعمه ظاهرة وباطنة ، ولِمَ لا والإنسان حينما يكون موظفاً يتقاضى أجره كل شهر من صاحب العمل لابُدَّ أن يُحيِّيه كل يوم ويتودد إليه ، فالمنعم بكل هذه النعم أفلا يستحق أن يُعبد وأنْ يُشكر ؟

وليت الأمر ينتهى بهم عند حَدِّ عدم الشكر ، إنما يحكى القرآن عنهم فيقول :

﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ (٧٤) لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ (٧٥) ﴾

عجيبٌ أن يحكى القرآن عنهم هذا بعد أن شرح اللهُ لهم آياته التى تثبت وجوده الأعلى ووحدانيته الكبرى ، ففى الآفاق حول الإنسان آيات ، وفى نفسه آيات ، فمَن انصرف عن الأولى أو غفل عنها ، فكيف يغفل عن الأخرى ، وهى فى نفسه وذاته التى لا تفارقه .

لذلك قال سبحانه : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ (٥٣) ﴾ [فصلت]

ومع ذلك ﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً (٧٤) ﴾[يس] أى : عبدوها من دون الله ، لماذا ؟ ﴿ لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ (٧٤) ﴾[يس] صحيح أن الإنسان يتخذ إلهاً أعلى منه لينصره فى شدته ، لكن إذا كان هذا الإله الذى ترجع إليه فى الشدة هو الذى يرجع إليك ويحتاجك ؛ لتصلحه إنْ كسرتْه الريح ، أو أطاحت به العوارض ، فإن وقع تقيمه ، وإنْ كُسرت ذراعه أصلحتها ، وإنْ جاء السيل جرفه ، وألقى به فى الوحل ، إذن : كيف يُتَّخذ هذا إلهاً ؟

وتعرفون قصة سيدنا إبراهيم لما حطم الأصنام سأله قومه : ﴿ أَأَنتَ فَعَلْتَ هَـٰذَا بِآلِهَتِنَا يَـٰإِبْرَاهِيمُ (٦٢) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَـٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ (٦٣) ﴾ [الأنبياء]

وهكذا أوقفهم نبى الله إبراهيم على كلمة الحق التى لا يستطيعون إنكارها ، وهى أنهم جمادات صمَّاء لا تنطق ﴿ فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ (٦٤) ﴾ [الأنبياء] لكن سرعان ما تنبهوا إلى خطورة هذا الاعتراف ، فعادوا إلى ما كانوا عليه من المكابرة والعناد ﴿ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَـٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ (٦٥) ﴾ [الأنبياء] عندها رأى إبراهيم أنْ يجابههم بهذه الحقيقة التى يحاولون الانفلات منها ﴿ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ (٦٦) أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٦٧) ﴾ [الأنبياء]

لذلك يرد الله عليهم : ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ (٧٥) ﴾[يس] فهم لا ينصرون عابديهم ، إنما العابدون هم الذين ينصرونهم ، ويوم القيامة سيجمعهم الله معاً ، لا يُحشر العابد بدون المعبود لتكون المواجهة ، فلو حُشر العابد وحده لانتظر معبوده

ينصره ويدافع عنه ، إنما يُحشَر الجميع معاً ، كما قال سبحانه : ﴿مَا لَكُمْ لا تَنَاصَرُونَ (٢٥) بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (٢٦)﴾ [الصافات]

وقال سبحانه : ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢)﴾ [الصافات] أى : أحضروهم معهم فى النار ، العابد والمعبود ، والمعنى أن هذه الأصنام ستكون وقوداً للنار التى يُعذَّب بها العابدون .

وبعد ذلك يعود السياق إلى رسول الله ، الذى يكابرون فيه ويعاندونه :

﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٦)﴾

الحق سبحانه وتعالى يُسلِّى رسوله ﷺ ويُطيِّب خاطره ، والتسلية لا تكون إلا من مُسلٍّ لمسلَّىً ، المسلِّى هو الذى أرسل المسلَّى ، فلابد أن يجامله حتى فى الشدة ، وسنة الله فى الرسل جميعاً أن الله ما أرسل رسولاً وخذله أبداً ، وما كانت الشدة فى رحلة وموكب الرسالات إلا تصفيةً لنفوس المؤمنين ، وتمحيصاً لهم ، وتصحيحاً للعقيدة ، حتى لا يبقى إلا المؤمن الحق الذى يتحمل مسئولية الرسالة والدفاع عنها .

لذلك يقول سبحانه مخاطباً نبيه ﷺ : ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ (٧٦)﴾ [يس] لا تحزن يا محمد ، والحزن : أسف النفس على عدم تحقيق ما يتمنى الإنسان وطُروء ما يفسد ، فإنْ حَزن رسول الله وانقبضتْ نفسه ، فمَنْ يُسلِّيه ؟ ومَنْ يُخفِّف عنه ؟ يُسلِّيه الذى أرسله ؛ لأنه سبحانه يحصى عليهم كل شىء ، ويعلم ما يُسرُّون وما يعلنون .

﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٦)﴾ [يس]

لكن ، ما الذى أسَرَّهُ هؤلاء ؟

الذين واجهوا رسول الله كانوا قسمين : قسم واجهه بشجاعة ، فأعلن بلسانه ما فى قلبه من أنه لا يؤمن به ، وهؤلاء هم الكَفَرة ، وقسم آمن بلسانه وكتم الكفر فى قلبه ، وهؤلاء هم المنافقون ، فمعنى ﴿مَا يُسِرُّونَ (٧٦)﴾[يس] أى : من النفاق ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٦)﴾ [يس] من الكفر . أو﴿مَا يُسِرُّونَ (٧٦)﴾ [يس] من الإيمان الحقيقى بك ، وأنك رسول وأمين وصادق ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٦)﴾ [يس] من الكفر ، بدليل قوله تعالى : ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا (١٤)﴾ [النمل]

بدليل أنهم لم يُكذِّبوا القرآن ، ولم يعترضوا عليه ، إنما اعتراضهم أنْ ينزل على محمد بالذات ، لذلك قالوا كما حكى عنهم القرآن : ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١)﴾ [الزخرف]

وبدليل أنهم كانوا يأتمنون رسول الله على ودائعهم وأماناتهم ، هذا كله دليل على إيمانهم برسول الله ، لكنهم مع ذلك أعلنوا كلمة الكفر خوفاً على السلطة الزمنية والمنزلة والسيادة والجبروت ، وقد جاء الدين الجديد ليسلبَ منهم هذا كله ، ويُوقف تسلُّطهم على الضعفاء وعلى الفقراء .

إذن : لا بُدَّ أن يصادموا رسول الله ، وأن يقفوا فى وجه دعوته ، بكل قواهم رغم إيمانهم بصدقه فى قرارة أنفسهم ؛ لذلك كانوا فى المدينة يستعدون لتنصيب ملك منهم[1] فلما دخلها رسول الله واجتمع الناس عليه انفضَّتْ مملكتهم ، وزالتْ قبل أنْ تُولد ، ذهبت السلطة الزمنية التى كانت للكفار كما ذهبت السلطة من أيدى اليهود ، وكانوا أهلَ العلم وأهلَ المال وأهلَ القتال ، ذهب كل هذا يوم علَتْ كلمة الإسلام .

---

(١) ذكره ابن هشام فى السيرة النبوية (٢/٢١٦) أن قوم ابن أبى أُبىٍّ قد نظموا له الخرز ليتوجوه ثم يملكوه عليهم ، فجاءهم الله برسوله ﷺ وهم على ذلك ، فامتلأ قلبه حقداً وعداوة ، ودخل فى الإسلام كارهاً منافقاً حاقداً .

أو : يُرادُ بما يُسرُّون وما يعلنون أن عمل الإنسان حصيلة أمرين : شيء أو حاجة تختمر فى النفس تُعَدُّ سراً وعقيدة تدفعه إلى العمل فإنْ ترجمَتْ إلى عمل وبرزتْ للوجود صارتْ علانية ، وعليه يكون المعنى : نعلم ما يُسِرُّون من عقائدهم الفاسدة ، وما يعلنون من فِعْل القبائح .

لكن أيمتنُّ الله بعلم الشيء دون فائدة من وراء هذا العلم ؟ المسألة لا تنتهى بمجرد العلم ، إنما لابُدَّ أنْ يترتب على هذا العلم جزاءٌ يعاقب الكافر العاصى ، ويُثيب المؤمن المطيع ، إذن : تدبَّروا أمركم ، واحذروا ما يترتب على هذا العلم من آثار ؛ لأن علم الله ليس (فنطزية) علم ومعرفة .

لذلك قال تعالى فى الآية الأخرى : ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿٦٥﴾﴾ [يونس] البعض فهم أن كلمة ﴿إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿٦٥﴾﴾ [يونس] هى قول الكافرين ، لكن كيف يقولها الكافر ، ليتهم قالوا إنما قالها الله تذييلاً لقوله : ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ﴿٦٥﴾﴾ [يونس] لماذا ؟ لأن العزة لله جميعاً .

بعد أن تكلم الحق سبحانه عن آياته فى الآفاق فى الأرض وفى الشمس والقمر والفُلْك والدواب والأنعام يتكلم سبحانه عن آياته فى النفس الإنسانية ، فإذا كانت الآيات فى الآفاق من حولهم لم تلفتهم إلى الله ، فهذه هى آياته فى ذات أنفسهم التى لا تفارقهم :

﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾﴾

قوله سبحانه : ﴿أَوَ لَمْ يَرَ ﴿٧٧﴾﴾ [يس] بمعنى يعلم لأن الإنسان لم يَرَ عملية الخَلْق فى نفسه ، فإنْ قلتَ : فمَن الذى أعلمه ؟ ومَن الذى عرَّفه أن الله هو الخالق ؟ قالوا : عرف الإنسانُ هذه الحقيقة ؛ لأن فى الكون كمالاً لم يدَّعه أحدٌ من الخَلْق ، ثم فوجئت الدنيا برسول الله يخبر بأن الله تعالى هو الخالق ، ولم يعارض أحد ، فهذه إذن دَعْوى ليس لها معارض ولا مناهض ، مع أن الإنسان كثيراً ما يدَّعى ما ليس له ، لكن هذه الدعوى بالذات لا يستطيع أحد أن يدعيها لنفسه .

والقاعدة أن الدعوى تثبت لصاحبها ما لم يَقُمْ لها معارض ، وإلا لو أن هذه الدعوى لم تسلم للخالق عز وجل ، فأين الخالق ؟ لماذا لم يعارضها ، ولماذا لم يطالب بحقه فى الخَلْق ؟ إما أنه جَبُنَ عن المواجهة ، أو أنه لم يَدْرِ بهذه الدعوى ، وفى كلتا الحالتين لا يستحق أن يكون إلهاً .

ونلحظ على سياق هذه الآيات أن الحق سبحانه قال فى الآيات السابقة : ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾﴾[يس] وهنا قال : ﴿أَوَ لَمْ يَرَ الإِنسَانُ ﴿٧٧﴾﴾[يس] فخاطب الإنسان ، ولم يخاطب الجماعة ، قالوا : لأن هذه الآية نزلت فى أُبَىِّ بن خلف[1] حين أمسك بعظم بَال ، وراح يُفتِّته أمام رسول الله ويقول : أتزعمَ أن ربك يحيى هذا مرةً أخرى ؟ قال : « نعم يُحييك ، ويُدخلك

---

(١) وردت روايات عدة فى سبب نزول هذه الآية وما بعدها :
- نزلت فى أبىّ بن خلف . وهو قول مجاهد وعكرمة وعروة بن الزبير والسدى وقتادة .
- نزلت فى العاص بن وائل . وهو قول لابن عباس .
- نزلت فى عبد الله بن أبىّ بن سلول . وهو قول لابن عباس . قال ابن كثير فى تفسيره (٣/٥٨١) عن القول الأخير : « هذا منكر ، لأن السورة مكية وعبد الله بن أبىّ بن سلول إنما كان بالمدينة ، وعلى كل تقدير سواء كانت هذه الآيات قد نزلت فى أُبىّ بن خلف أو العاص بن وائل أو فيهما ، فهى عامة فى كل من أنكر البعث » .

النار » ، أو يُراد بالإنسان مطلق الإنسان ، فهى لكل مُكذِّب بالبعث ممَّنْ هم على شاكلة أُبىٍّ .

وقوله سبحانه : ﴿مِن نُّطْفَةٍ (٧٧)﴾[يس] العلم التجريبى لم يصل إلى شىء فى مسألة الخَلْق هذه إلا مؤخراً ، يحاول على استحياء كشف بعض أسرار خَلْق الإنسان مما لم نكُنْ نعرف عنها شيئاً من قبل ، والنطفة هى الجوهر والميكروب أو الجرثومة الفعَّالة التى تسبب الإخصاب حين تصل إلى البويضة ، وهذه النطفة تسبح فى سائل هو المنى وتعيش فيه ؛ لذلك قال تعالى فى آية أخرى : ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ (٣٧)﴾ [القيامة]

وقد أثبت العلم التجريبى الحديث أن النطفة هى المسئولة عن تحديد الذكورة أو الأنوثة ، والبويضة ما هى إلا وعاء فقط . إذن : لا دَخْلَ للمرأة فى هذه المسألة ، بدليل قول الله تعالى : ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ (٣٨) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ (٣٩)﴾ [القيامة] أى : من النطفة ، وقلنا : إن من العجيب أن المرأة العربية قديماً فطنَتْ إلى هذه الحقيقة التى لم يتوصّل إليها العلم إلا حديثاً .

أما حديث النبى ﷺ فى هذه المسألة : « إذا غلب ماءُ الرجل ماء المرأة نزع الولد إلى أبيه ، وإذا غلب ماء المرأة نزع الولد إلى أمه»[1] فهموا من هذا الحديث أن تحديد الذكورة أو الأنوثة يتوقف على الماء الذى يسبق ، لكن حين نتأمل اللفظ نفسه ، فكلمة (غلب) تدل على

(١) هذا الحديث جواب من رسول الله على سؤال من عبد الله بن سلام : ما بال الولد ينزع إلى أبيه أو إلى أمه ؟ فقال ﷺ : « أما الولد فإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد ، وإذا سبق ماء المرأة ماء الرجل نزعت الولد » . فقال ابن سلام : أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله . أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٩٣٨) من حديث أنس . وعند مسلم فى صحيحه (٣١١) كتاب الحيض من حديث أم سليم : « إن ماء الرجل غليظ أبيض ، وماء المرأة رقيق أصفر ، فمن أيهما علا أو سبق يكون منه الشبه » .

الغلبة والسباق ، والسباق لا يكون إلا لعناصر تخرج من نقطة واحدة ، وتنطلق فى اتجاه واحد ، إذن : فهما غير متقابلين ، فمعنى يغلب يعنى يسبق .

وقلنا : إنهم الآن تنبهوا إلى أن البويضة حين تخرج من المرأة تُحدث تغييراً كيماوياً فى تكوين المرأة يُسبِّب ارتفاعاً فى درجة الحرارة وتغيُّراً فى المزاج وفى نبضات القلب ؛ لذلك اخترعوا ساعة تقيس هذه التغييرات ، وتعرف بها المرأة موعد نزول البويضة .

والنطفة ميكروب متناه فى الصِّغر ، لا يُرىَ إلا بالمجهر ، ورحم الله العقاد[1] الذى قال كلمة موجزة تصور هذا الصِّغَر ، فقال : إن أنسال العالم كله - يعنى النطف التى كوَّنتهم - يمكن أن توضع فى نصف كُسْتبان الخياطة . فسبحان الخالق الذى يُخرِج من هذه النطفة المتناهية الصِّغر إنساناً كاملاً ، ويُنشىء منها العظام الصلبة والعضلات نصف الصلبة والرَّخْوة ، وأنشأ منها الغضاريف والأعصاب والدم السائل والمخ .. الخ .

هذا فى الجسم المادى ، والأعجب منه ما يحتويه هذا الجسم من العقل الذى يفهم ، واللسان الذى ينطق ويتذوق ، والعين التى ترى ، واليد التى تبطش ، والأنف الذى يشم ، والأنامل التى تلمس ، والرِّجْل التى تسعى .

هذه كلها من النطفة ، هذا الميكروب الذى لا يُرى بالعين المجردة ، هذه النطفة التى عبَّر عنها القرآن بالماء المهين ، مهين لأن

---

(١) هو : عباس محمود العقاد ، إمام فى الأدب ، من المكثرين كتابة وتصنيفاً ، أصله من دمياط ، انتقل أسلافه إلى المحلة الكبرى وكان أحدهم يعمل فى « عقادة » الحرير ، فعرف بالعقاد . أمه كردية . ولد عام (١٨٨٩ م) فى أسوان ، توفى بالقاهرة عام ١٩٦٤م عن ٧٦ عاماً ودُفِن بأسوان . [الأعلام للزركلى ٣/٢٦٦]

الإنسان يتبوله ويخرج من مجرى البول ، ويُلقى فى دورات المياه مع القاذورات ، وإن أصاب ملابسك لا بُدَّ أن تُغسل . ومن هذا الماء المهين يُخْلق الإنسان ، بل ويصل إلى أعلى مراتب الطغيان والجبروت ، كيف ؟

قالوا : لأن الإنسانَ له صفات حسنة فى ذاته ، ومواهب يحب أن يظهرها ، فإنْ كان مع أحبابه أعجبه شكله الجميل أو ماله أو ذكاؤه .. الخ ، فيحاول أن يُبيِّن هذه المواهب لهم ، فإذا عُودى كانت له مواهب أخرى فى أعدائه ، ومع العدو يُجنِّد الإنسان كل مواهبه لينتصر على عدوه ، هذه مواهب فى الغضب وفى الخصومة والجدال .

لذلك قال أحدهم :

وكم مِنْ نِعْمَةٍ لله فِىَّ حَمَدْتُها ... يُجَمِّعُها فِىَّ مَواهِبُ ثلاث

أولاَهُما لِنَفْسى وثانيتهما لأحْبَابى وأصْحَابى ... وثالثهما لخصْمى

هذا كله معنى ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ (٧٧)﴾[يس] يعنى : بعد أنْ خلق الإنسان من هذه النطفة ومن هذا الماء المهين فوجئنا بأنه ﴿خَصِيمٌ (٧٧)﴾[يس] يعنى : عدو لدود ﴿مُّبِينٌ (٧٧)﴾[يس] يعنى : يبين عن مواهب العداء عنده إبانةً واضحة ، والإنسان لا يكون مُبيناً لغيره إلا إذا بَانَ الشىء فى نفسه هو ؛ لأن فاقد الشىء لا يعطيه ، فالمدرس الفاشل هو الذى لا يستطيع أن ينقل المعلومة لتلاميذه ؛ لأن المعلومة غير واضحة عنده ، ولو كانت المعلومة واضحة فى ذهنه لاستطاع أنْ ينقلها بأىِّ أسلوب .

إذن : المعنى ﴿مُّبِينٌ (٧٧)﴾[يس] يُحسن الإبانة عَمَّا فى نفسه ؛ لذلك تقول : أبنتُ لك لأنها بانت عندى ، وأعلمتُك لأنها عُلمت عندى ، وأفهمتُك لأننى فهمتُ ، فهما إذن موهبتان ، والإنسان ترتقى مواهبه ويجند كل صفاته فى الخصومة لا يدخر شيئاً منها ، ففى الخصومة

يُظهِر ما عنده من المال أو الشجاعة أو الحيلة .. الخ .

وعجيبٌ أن هذا كله كامن فى النطفة ، وعجيبٌ أيضاً أن ينقل الإنسانُ هذه الخصومةَ من ذات نفسه ، ومن خصومته لأعدائه إلى خصومة ربه وخالقه .

لذلك قال تعالى بعدها مُصوِّراً هذه الخصومة لا مع أُبَىٍّ سبب نزول الآيات ، إنما مع كل مَنْ هو على شاكلة أُبَىٍّ :

﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ﴾

تحدَّثنا عن ضرب المثل وقُلْنا : الضرب إيقاع جسم على جسم بعنف ، ويُشترط فيه أن يكون الضاربُ أقوى من المضروب ، وإلا كانت النتيجة عكسية ، ومن ذلك قول الرافعى[1] رحمه الله :

أَيَا هَازِئًا مِنْ صُرُوفِ القَدَرِ ... بِنَفْسِكَ تَعْنُفُ لاَ بِالقَدَرْ
وَيَا ضَارِباً صَخْرَةً بِالعَصَا ... ضَرَبْتَ العَصَا أَمْ ضَرَبْتَ الحَجَرْ ؟

كذلك ضَرْب المثل هو إيجاد شىء يُوقع على شىء ، ليبين لك الأثر الحاسم الفعَّال ، فحين تشكّ مثلاً فى شىء يُوضِّحه لك بمثَل لا تشك فيه ، فيُقرِّبه إلى ذهنك ، ومن ذلك قوله تعالى لما أرادَ أنْ

---

(١) هو : مصطفى صادق الرافعى ، عالم بالأدب شاعر ، أصله من طرابلس الشام ، ومولده فى بهتيم بمنزل جده لأمه (عام ١٨٨١م) وتوفى بطنطا عام (١٩٣٧م) ، شعره نقى الديباجة فى أكثره ، ونثره من الطراز الأول ، له « وحى القلم » ، « ديوان شعر » ، « تاريخ آداب العرب » .

يُوضِّح لنا بطلان الشرك ، والفرق بينه وبين التوحيد ، قال سبحانه : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَماً[1] لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٢٩) ﴾ [الزمر]

نعم ، لا يستوى عبد يتنازعه عدة أسياد ، وعبد مِلْك لسيد واحد ، كذلك لا يستوى التوحيد والشرك .

فقوله تعالى : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً (٧٨) ﴾ [يس] أى : أبىّ بن خلف ، والمثل الذى ضربه أنْ أخذ عَظْماً قد بَلِى ، وراح يُفتِّته أمام رسول الله وهو يقول : أتزعم يا محمد أن ربك سيحيى هذا ، بعد أنْ صار إلى ما ترى ؟ وإنْ كانت الآيات نزلت فى أبىٍّ ، إلا أنها لا تقتصر عليه ، إنما تشمل كل مُكذِّب بالبعث ، مُنكر لهذه القضية

ومعنى ﴿ وَنَسِيَ خَلْقَهُ (٧٨) ﴾[يس] يعنى : لو تذكَّر خَلْقه هو ، وتأمل فى ذات نفسه وجد الدليل على ما يُكذِّب به ؛ لأن الله خلقك من العدم ، فصار لك وجود ، فإذا متَّ بقيتْ منك هذه البقايا التى تُفتِّتها منثورة فى الأرض ، ومعلوم بحسب ما تفهمه العقول أن الإيجاد من موجود أهون من الإيجاد من العدم ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ (٢٧) ﴾ [الروم]

الحق سبحانه فى هذه الآية يخاطبنا على قَدْر عقولنا ووَفق منطقنا ، وإلاَّ فلا يُقال فى حقه تعالى هَيِّن وأهون ، ولا سهل وأسهل ، هذا يُقال فى حق البشر فحسب .

وقوله : ﴿ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) ﴾[يس] حينما ألقى هذا

---

(١) أى : مِلْكاً خالصاً له ، لا ينازعه فيه أحد . [القاموس القويم ١/ ٣٢٤] .

السؤال على الكافرين المكذِّبين بالبعث يقولون : لا أحد يستطيع أنْ يُحيى الموتى ، لماذا ؟ لأنه يقيس المسألة على عَجْز القدرة فى البشر ، لا على طلاقة القدرة فى الخالق سبحانه .

والعجيب أن الله تعالى يُثبت للإنسان صفة الخَلْق ، فيقول : ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ [المؤمنون] والإنسان ينكر ويُكذِّب بقدرة الله فى الخَلْق ، فإذا كان ربك لم يَضِنّ عليك بأنك خالق ، فلا تضنّ عليه بأنه أحسن الخالقين .

وقلنا : إذا وجدتَ صفة لله تعالى ووصف بها البشر فلا بُدَّ أنْ تأخذها فى إطار ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴿١١﴾﴾ [الشورى] فلله تعالى وجه لا كالأوجه ، وله سبحانه يد لكن ليستْ كالأيدى .. وهكذا ؛ لأن الله تعالى واحد فى ذاته ، وواحد فى صفاته ، وواحد فى أفعاله . الله موجود وأنت موجود ، لكن وجودك ليس كوجوده ، الله غنى وأنت غنى ، لكن غِنَاك ليس كغِنَى الله ، غِنَى الله ذاتىٌّ لا ينفصل عنه سبحانه ، أما غناك فموهوب .

الله خالق وأنت خالق ، لكن فَرْقٌ بين خَلْقك وخَلْق الله ، خَلْقك من موجود وخَلْقه تعالى من عدم ، خَلْقك جامد لا حياة فيه ، وخَلْق الله فى حياة فينمو ويتغذى ويتكاثر .. الخ فأنت خالق ، لكن ربك سبحانه أحسن الخالقين .

إذن : لله تعالى صفات الكمال المطلق ، يُفيض منها على خَلْقه فيعطيهم من صفاته تعالى ، لكن تظل له سبحانه طلاقة القدرة .

ومعنى﴿ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾﴾ [يس] قديمة بالية تتفتت .

ثم يردُّ الحق سبحانه على هذا المكذِّب وأمثاله : ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴿٧٩﴾﴾[يس] ومعنى ﴿أَنشَأَهَا﴾يعنى : من العدم ، ولأنْ

ينشئـها من موجـود أوْلَى ، وقوله ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ (٧٩)﴾[يس] فى الرد على هذا المكذِّب يوحى بأن هناك مرة أخرى ، وإحياءً آخر غير الأول﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩)﴾[يس] أى : بالخَلْق الأول وبالخَلْق الثانى ، فالعلم بالخَلْق الأول أنْ يعطيه صفات ومواهبَ فى ذاته ، وأنْ يستعمره فى الأرض ، وأن يجعلَ له منهجاً ينظم حياته فيها .

وبهذا المنهج أرشده إلى سبيل الخير ، وحذَّره من سُبل الشر ، وأوضح له الجزاء على هذا وذاك ، وهو سبحانه عليم بالخَلْق الآخر فى الآخرة . أى : يعلم كيف يجازيه على ما قدَّم . إذن : معنى ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩)﴾[يس] يعنى : عليم كيف يُكلِّفه ، وعليم كيف يجازيه ، وعلى قَدْر التكليف يكون الجزاء .

الفلاسفة المسلمون أحبوا أنْ يوضحوا لنا هذا المعنى ، فقالوا : حينما أراد الله أن يخلق من العدم وقبل أنْ توجد السماء أو الأرض قال : اخرجى يا سماء كونى سماءً فكانت ، وهكذا الأرض . إذن : قادريته سبحانه هى التى فعلت ، ومقدورية الأشياء هى التى انفعلت ، فما الذى انتهى من هذين العنصرين ؟ إنهما باقيتان موجودتان : قادرية الفاعل سبحانه ، ومقدورية الأشياء .

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ (٨٠)﴾

الحق سبحانه يسوق لهم دليلاً آخر على طلاقة قدرته ، فإن كنتم تُكذِّبون بالبعث ، فانظروا إلى هذه الآية المادية التى تشاهدونها ، فالذى يُحيى العظام التى رَمَّتْ هو الذى جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً تُوقِدونها ، فيشتعل العود الأخضر ، والخضرة دليل الرطوبة

والمائية ، فكيف تأتى النار من الماء ، هذه آية يروْنَها فى البيئات العربية كل يوم ، ومعلوم أن الحطب هو أول وقود عرفه الإنسان واستخدمه بسلام ؛ لأنه أصْفَى وقود ، وهو صحىٌّ لا يلوث البيئة ، ولا يضر بها ، ولك أنْ تقارن بين وقود الحطب ووقود البترول مثلاً ، لتعرف الفَرْق .

﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾

هذا تَرقٍّ فى الدليل ، فبعد أنْ ذكر سبحانه آية جَعْل الشجر الأخضر ناراً ، يسوق الدليل الأقوى ، وهو خَلْق السموات والأرض ، السموات دليل من العلو الثابت الذى لا يتغير ، والأرض دليل ملامس لنا ، نشاهده ونباشره . وحيثية هذه الآية جاءت فى آية أخرى ، حيث قال الحق سبحانه : ﴿ لَخَلْقُ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [غافر]

فإنْ قُلْتَ : علِّلْ لنا أن خَلْق السموات والأرض مع أنها لا تحس ولا تتكلم ولا تعلم .. الخ . أكبر من خَلْق الناس ، نقول : نعم خَلْق السموات والأرض أكبر من خَلْق الناس ؛ لأنها منذ خلقها الله على حالها لم تتغير ، وستظل إلى قيام الساعة ، أما أنت أيها الإنسان فتموت ، تموت وأنت طفل ، بل وأنت جنين فى بطن أمك ، تموت وأنت شاب وأنت شيخ هَرِم ، وقصارى ما يمكن أن تصل إليه لو عُمرت فى الدنيا مائة عام أو يزيد عليها بضعة أعوام ، فأين عمرك

من عمر الشمس ، أو القمر أو الأرض ؟ وَهل رأيت خادماً أطول عمراً من مخدومه ؟

إننا نتوارد على هذا الكون أفراداً وأمماً ودولاً ، تذهب جميعها وتَفْنى وتبقى السماء والأرض كما هى شامخة عظيمة ، لا يطرأ عليها تغيير ، ولا تخرج عن قانون التسخير فى شىء أبداً ، ومنذ أن خلق الله هذا الكون ما رأينا كوكباً خرج عن فلكه ، ولا تخلَّف عن موعده ، أو امتنع عن أداء مهمته .

هذا حال الجمادات فى السموات والأرض ، فما حالكم أنتم أيها العقلاء ؟ لو تحدَّثنا فى المادة فهى تبقى وأنتم تموتون ، وفى المعانى والقيم تتساند هذه الجمادات ، وأنتم تتعاندون وتختلفون وتتصارعون ، فأيُّكم إذن أحسن خَلْقاً وأكبر ؟

لذلك يجيب الحق سبحانه على هذا الاستفهام المنفى : ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ..(٨١) ﴾ [يس]

فيقول (بَلَى) أى : نعم قادر ﴿وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ (٨١) ﴾[يس] وخلاَّق صيغة مبالغة من خالق ، ليؤكد هذه القضية لكل مكذِّب بها ، وهو سبحانه ﴿الْعَلِيمُ (٨١) ﴾[يس] أى : بمَنْ خلق .

ثم يقول سبحانه : ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٨٢) ﴾[يس] هنا إشارة لطيفة من الحق سبحانه لكل مُكذِّب بالبعث ، كأن الله يقول لهم : يا مَنْ تكذِّبون بقدرة الله على بَعْث العظام التى رمَّتْ ، أتظنون أن الله يخلق بعلاج كما تخلقون أنتم ، الله الخالق لا يخلق بعلاج ، وإنما يخلق بكلمة (كُنْ) ، بل يخلق سبحانه بمجرد مراده ، فإنْ أراد شيئاً كان ، دون أنْ يقول ، ودون أنْ يأمر ، وما كلمة (كُنْ) إلا لتقريب المسألة إلى أذهاننا .

وسبق أنْ أوضحنا هذه العملية بمثال ، ولله المثل الأعلى ، قلنا : كيف تنكر أيها الإنسان قدرة الله ، وقد أفاض عليك بمثلها فى ذات نفسك ، فأنت مثلاً حينما تريد أنْ تقوم من مجلسك ، ماذا تفعل ؟ هل أمرتَ العضلات أنْ تتحرك ، بل هل تعرف أصلاً ما هى العضلات التى تقيمك ، وما الأعصاب التى تتحكم فى هذه العملية ؟

إنك تقوم بمجرد إرادتك للقيام وليس لك دَخْل فيها ، بدليل أن الطفل الصغير الذى لا يعرف عن تكوين جسمه شيئاً يقوم إذا أراد القيام ، فإذا كنتَ أنت أيها الإنسان تنفعل لك الأشياء دون أنْ تقولَ لها انفعلى ، فهل يليق بك أنْ تُكذِّب بهذا فى حق ربك وخالقك ؟

فإنْ قُلْتَ : فلماذا لا آمر أعضائى وأقول لها : اعملى كذا وكذا ؟ نقول : الحق سبحانه يقول للشىء كُنْ لأنه سبحانه يعلم أن الأشياء ستأتمر بأمره ، ولن تخرج عن مراده ، إنما هل أنت واثق أنها ستأتمر بأمرك إنْ أمرتها ؟ إنك لا تثق بهذه المسألة بدليل أن الله تعالى حين يسلب الإنسان هذه القدرة تخرج أعضاؤه عن طاعته ، فيريد أنْ يقوم فلا يستطيع ، تشل الأعضاء فلا تتحرك .

إذن ، نقول : إذا كان المخلوق مجرد إرادته تسيطر على جوارحه ، فهل نستبعد أن تكون إرادة الخالق الأعلى تسيطر على هذا الكون المخلوق له سبحانه ؟

وكلمة (كُنْ) يقولها الله ليقرِّب لنا فَهْم المسألة ، ويقولها لأن الأشياء لا تتخلف أبداً عن طاعته والانفعال لأمره ، إنما أنت إنْ قُلْتها فلن يسمعك أحد ؛ لذلك قال سبحانه موضحاً استجابة الأرض لأمره سبحانه : ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٢﴾[الانشقاق] أى : حَقَّ لها أنْ تسمع ، وأنْ تطيع .

ومعنى﴿ أَن يَقُولَ لَهُ ﴿٨٢﴾ ﴾[يس] أى : للشىء الذى لم يُوجد بَعْد ، فكيف إذن يخاطبه وهو ما يزال غَيْباً ، قالوا : الخالق سبحانه خلق كل الأشياء أزلاً فى عالم اسمه « عالم المثال » ، فالأشياء موجودة بالفعل ، لكن تنتظر الأمر بالظهور والخروج إلى عالم الوجود ؛ لذلك قال أحد العارفين : أمور يُبديها ولا يبتديها .

﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾

عرفنا فى الآية السابقة أن الحق سبحانه إذا قال كُنْ انفعلتْ له الأشياء وأطاعت ، أما إنْ قالها الإنسان فلن يستجيب له شىء ، وقلنا : إذا ورد لله تعالى وَصْف يُوصف به البشر ، فعلينا أنْ نأخذه فى إطار ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ ﴿١١﴾ ﴾ [الشورى] إذن : طبيعى أنْ تختم هذه الآيات والسورة كلها بقوله تعالى ﴿ فَسُبْحَانَ الَّذِى بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ ﴿٨٣﴾ ﴾[يس] يعنى : تنزيهاً له عن أن يُشبهه أحد ، لا فى ذاته ، ولا فى صفاته ، ولا فى أفعاله .

وكلمة ﴿ مَلَكُوتُ ﴿٨٣﴾ ﴾[يس] من ملك ، وهذه المادة الميم واللام والكاف تُستخدم على معانٍ أربعة : الأول : نقول مالك ، وهو كل مَنْ ملَك شيئاً ولو كان يسيراً ، فلو كان لا يملك إلا الثوب الذى يلبسه يُسمَّى مالك . الثانى : نقول مَلِك وهو الذى يملك مَنْ مَلَك أى : يملك أنْ يتصرف فيه وفى إدارة حركته ، الثالث : كلمة المُلْك وهى أن يترقى الملك فى أمور ظاهرة يعرفها الناس ، الرابع : كلمة الملكوت ويُراد بها الملْك المستور غير الظاهر ، وهو أقوى وأعمّ من المُلْك .

وقد يكون الشىء من عالم الملكوت ، ثم يصير إلى عالم المُلك مثل الأشياء التى كانت غيباً واكتشفها الإنسان أو ابتكرها ، فصارت

مشهودة ، وهناك أشياء تظل دائماً فى عالم الملكوت لا نعرف شيئاً عنها إلا فى الآخرة ، وهذا النوع هو الذى يُكذِّبون به ، ومن ذلك قوله تعالى فى شأن سيدنا إبراهيم : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ (٧٥) ﴾ [الأنعام]

نعم ، يُطلعه الله على عالم الملكوت ، لأنه لما أطلعه على عالم الملْك وابتلاه نجح فى الابتلاء بتفوق ، نجح فى كل مراحل حياته ، نجح وهو شيخ كبير فى مسألة ذَبْح ولده إسماعيل ، نجح لما أُلْقِى فى النار ؛ لذلك صار أهلاً لأنْ يُطلعه الله على أسرار الكون ، وعلى عالم الملكوت ، كما لو أن فى أولادك ولداً صالحاً ترى فيه مخايل النجابة ، فتصطفيه بشىء تفضله به عن باقى الأولاد ، كذلك مَنْ يحسن العبودية لله تعالى يحسن الله له العطاء .

ومن ذلك ما قَصَّه علينا القرآن فى سورة الكهف من قصة العبد الصالح الذى رافقه نبى الله موسى وتعلَّم منه ، والذى قال الله فيه ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا (٦٥) ﴾ [الكهف]

هذا العبد الصالح لم يكُنْ نبياً ، ولم ينزل عليه الوحى ، ومع ذلك تعلَّم منه النبى ، لماذا ؟ لأنه أخذ ما جاء به الرسول وطبَّقه على نفسه ، فلما علم الله منه أنه مأمون على مناهج الله وعلى أسراره زاده وأعطاه من علمه اللَّدُنىِّ ، وكشف له من أسرار الملكوت .

ألاَ ترى أن سيدنا موسى - عليه السلام - غضب منه حينما خرق السفينة ، وتعمد أنْ يَعيبها ، وهى لمساكين فقراء ، هذا هو عالم الملْك الذى اطَّلع عليه العبد الصالح ، أما علمه بعالم الملكوت ففى قوله : ﴿ وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا (٧٩) ﴾ [الكهف] فأطلع الله العبدَ الصالح على بعض عالم الملكوت ، كما أطلع إبراهيم عليه

السلام على ملكوت السماء .

وكلمة (ملكوت) تحمل معنى المبالغة ، مثل : رحموت وجبروت ورهبوت ، فهى إذن للمبالغة فى الملْك ، لكن نلحظ عند علماء القراءات أن أحدهم يقرأ : ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾﴾ [الفاتحة] فيقول (مَلِك يوم الدين) بدون صيغة المبالغة ، قالوا : لأن الكلام عن يوم الدين ، وفى هذا اليوم الملْك كله لله وليس لأحد مُلْك ، ولا حتى الثوب الذى يرتديه .

ومن ذلك أيضاً قولنا فى الأذان الله أكبر فذكر الصفة (أكبر) دون مبالغة ، ولم يذكر الاسم (الكبير) ، فكيف يتأتَّى ذلك فى شعار الصلاة ، التى هى عماد الدين ، ونأتى بالصفة دون الاسم ؟ قالوا : لأن الأذان يأخذ الناس من أعمالهم للاستجابة لنداء ربهم ، والعمل له اعتباره فى الإسلام ؛ لأنه مهمة الإنسان فى الحياة ، وبه يتوصَّل إلى طاعة الله ؛ لذلك يُقدِّره الدين ولا يحتقره .

ومعنى (الله أكبر) أن العمل كبير ومهم ، لكن الله أكبر ونداء ربِّك أهم ، أما كبير فهى اسم من أسماء الله . ومعنى كبير أن ما دونه صغير ؛ لذلك أتى فى الأذان بالوصف لا بالاسم .

فقوله تعالى : ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴿٨٣﴾﴾ [يس] أى : ما تراه وما لا تراه من الملك ، وما خَفِى عنك ، ثم توصَّلْتَ إليه بالعلم واكتشفته ، والذى لا تراه من الملك إلى أنْ يخبر الله به أحد عباده : ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ﴿٢٧﴾﴾ [الجن].

والتحقيق أن المغيبات والأسرار المطمورة فى الكون لا يكتشفها الإنسان إنما تُكْشف له ، وقلنا : إن كل سرٍّ فى الكون أراد الله أنْ

يُظهره له عمر وميلاد ، فإنْ صادف ميلادُه بحثَكَ ظهر على يديك ، وإلا أظهره الله لك مصادفة في موعده إذا لم تبحث عنه ؛ لذلك يقولون : إن سبعة وتسعين بالمائة من مكتشفات الحياة ظهرت لنا مصادفة .

ويقول سبحانه في آية الكرسي : ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ (٢٥٥)﴾ [البقرة] فالإنسان لا يحيط إلا بعلم الشيء اليسير من علم الله ، ولا يحيط بهذا اليسير إلا بعلمه تعالى وإذنه ، حين يأذن بميلاد الشيء وظهوره .

وقوله سبحانه : ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٣)﴾ [يس] أي : يوم القيامة ، فكونوا على ذكْرٍ لهذه الحقيقة ، فمَنْ لم يؤمن بنعمة الخَلْق ترهبه نعمة الإعادة والمرجع ، فأنتم ما خُلِقْتم عبثاً ، ولن تُتْرَكُوا سُدىً .

سُورَةُ الصَّافَّاتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة الصافات[1]

﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ۝١ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ۝٢ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ۝٣ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ ۝٤﴾

هذا الأسلوب يُسمَّى أسلوب القسم ، الله تعالى هو المقْسِم يُقسِم على ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ ۝٤﴾[الصافات] وقد أخبر الرسول ﷺ بمراده تعالى فى القسم ، فالله يريد منَّا إنْ أقسمنا ألاَّ نُقسِم إلا به سبحانه ، لكن بالاستقراء رأينا أنَّ الحق سبحانه يقسم بخَلْق من خَلْقه ، فيُقسِم بالملائكة ، ويُقسِم بالحيوان ، ويُقسِم بالجبال ، ويُقسِم بالفجر .. الخ

قالوا : لأن الله تعالى يقسم بما يشاء على مَنْ يشاء ، أمَّا أنت فلا تقسم إلا بالله ، لأن القَسَم تعظيمٌ للمقْسَم به ، وينبغى ألاَّ يكون

---

(١) سورة الصافات هى السورة (٣٧) فى ترتيب المصحف الشريف ، عدد آياتها ١٨٢آية ، وهى سورة مكية فى قول الجميع ، كما قاله القرطبى فى تفسيره (٥٦٩٩/٨) ، وقد ذكر السيوطى فى الإتقان (٢٧/١) نقلاً عن ابن الضريس فى « فضائل القرآن » أن سورة الصافات نزلت بعد سورة الأنعام وقبل سورة لقمان ، وعلى هذا فتكون سورة الصافات رقم (٥٥) فى ترتيب نزول القرآن الكريم .

مُعظّماً عند المؤمن إلا الله ، ولا يصح أنْ تقول (وحياة فلان ، ورأس علان) فإنْ كنتَ حالفاً فلتحلف بالله ، كما جاء فى الحديث الشريف : « مَنْ كان حالفاً فليحلف بالله »[١]

فإذا ظهر ما يكون ظاهره قَسَماً بغير الله ، فاعلم أنه لا يُعَدُّ قَسَماً ، وخصوصاً إنْ جاء من عالم أو يقينى كأنْ يقول : (وحياة أبوك يا فلان تعمل كذا وكذا) ، هذا ليس قَسَماً ، إنما هو مساءلة. القسَم : أنْ تُقسم على شىء ، حدث أو لم يحدث ، إنما طَلَبُ الشىء يسمى مساءلة ، كذلك يقول الحق تعالى : ﴿ ..الَّذِى تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ ۚ ﴾ [النساء] أى : وبالأرحام فى قراءة من جر الأرحام .

والحق سبحانه يقسم بما يشاء على مَنْ يشاء ، وأنت لا تقسم إلا بالله ؛ لأن الشىء قد يكون تافهاً فى نظرك ، ولكنه عند خالقه عظيم ، وله مهمة تغفل أنت عنها ، وحين يحلف الله به إنما يُلفت نظرك إلى أهميته ودوره ، فمثلاً لما فَتَر الوحى عن سيدنا رسول الله ﷺ لم يلتفت الكفار إلى الحكمة من ذلك .

والحكمة أن الوحى كان يَثْقُل على رسول الله ، حتى يبلغ منه الجهد ، وحتى أن جبينه ليتفصَّد عرقاً[٢] ، وإن نزل الوحى عليه وهو على دابة فإنها تئِنُّ وتنخُّ به[٣] ؛ ذلك لأن الوحى ثقيل .

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٦٤٦) كتاب الأيمان - رواية (٣) عن عبد الله بن عمر عن رسول الله ﷺ أنه أدرك عمر بن الخطاب فى ركب وعمر يحلف بأبيه ، فناداهم رسول الله : « ألا إن الله عزوجل ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم ، فمن كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت » .

(٢) قالت عائشة رضى الله عنها : لقد رأيته ﷺ ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد ، فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً . أى : أن عرقه كثير فى يوم شديد البرد . [أخرجه البخارى فى صحيحه (٢) كتاب بدء الوحى] .

(٣) أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٥٩٢) موصولاً من حديث زيد بن ثابت رضى الله عنه أن رسول الله أُنْزِل عليه ﴿ لايستوى القاعدون من المؤمنين والمجاهدون فى سبيل الله ﴾ وفخذه على فخذى ، فثقلت علىَّ حتى خِفْت أن ترُضَّ فخذى .

كما قال سبحانه : ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ۝٥﴾ [المزمل]

فجاءت فترة انقطاع الوحى رحمةً برسول الله ، وتسريةً عنه ، وتخفيفاً من معاناته ، ثم ليشتاق هو إلى الوحى يعاوده من جديد ، لم يلتفت الكفار إلى ذلك ، وقالوا : إن رب محمد قَلاَه[1] يعنى : تركه وهجره وجفاه ، وواضح ما فى هذا القول من تناقض ، فعند الإيمان يُكذِّبون بمحمد ورب محمد ، وعند الجفوة يقولون : إن رب محمد قلاه ، ويعترفون أن له رباً !!

لذلك أراد الحق سبحانه أنْ يوضح لهم هذه المسألة ، وأنْ يُظهر غباءهم بهذا المقَسَم الذى جاء مناسباً للموقف ، يحمل إشارة لطيفة إلى العلاقة بين المُقْسَم به ، والمقْسَم عليه ، فقال سبحانه : ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۝٥﴾ [الضحى]

والمعنى : أنك يا محمد أُجهدتَ بالوحى ، وكان لا بُدَّ أنْ تستريح لتشتاق نفسك إليه وتطلبه ، وحين ترتاح سيُخفِّف ذلك من معاناتك فى استقباله ، وسوف تذوق حلاوته من جديد ، ويكون عليك أيْسَرَ وأسهل ، وأتى الحق سبحانه بهذا القسم بشىء موجود مُشَاهد ، لا يختلف عليه اثنان .

فهم يعرفون ﴿الضُّحَىٰ ۝١﴾ [الضحى] حين تشرق الشمس ، وتنير الكون ، ويعرفون ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢﴾[الضحى] يعنى : سكَن وهدأ ، والإشارة هنا فى أن الضحى إذا جاء ثم تلاه الليلُ بسكونه ، هل يعنى هذا أن الضحى لن يعود مرة أخرى ؟

---

(١) أورد ابن كثير فى تفسيره (٥٢٢/٤) أن جندب بن عبد الله قال : « أبطأ جبريل على رسول الله ﷺ فقال المشركون : ودع محمداً ربه . فأنزل الله تعالى :﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾ [الضحى] .

لا ، بل سيأتى الضحى من جديد بعد أن تكونَ قد ارتحْتَ من تعب النهار والسعى فيه ، واستعدْتَ نشاطك ليوم جديد ، ومعنى ﴿وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأُولَىٰ ﴿٤﴾﴾ [الضحى] أى : أن عودة الوحى ثانية ستكون أحلى من الأولى ، وأخفّ وأيسر .

إذن : الحق سبحانه يقسم بما يشاء من مخلوقاته ، ليُعلمنا أن هذه الأشياء عظيمة عند خالقها ، لكن غفلنا نحن عن وجه العظمة فيها ، ويُقسِم بما يشاء من مخلوقاته ليُقرِّب لنا بواسطة المعلوم شيئاً مجهولاً .

هنا يقول تعالى : ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ﴿١﴾﴾[الصافات] الواو تسمى واو القسم مثل : التاء والباء . نقول : والله وبالله وتالله ، وقد يُستغنى عن حروف القسم ، ويستدل عليه باللام فى جواب القسم ، كما فى : ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾﴾ [يس] وأنت لا تقسم على الشىء بداية ، وإنما تقسم إنْ أنكر المخاطب لتؤكد له الخبر ، ويأتى القسم والتأكيد على قَدْر الإنكار .

فإذا قال الحق سبحانه مثلاً :﴿لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴿١﴾﴾ [القيامة] أو : ﴿لا أُقْسِمُ بِهَـٰذَا الْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَـٰذَا الْبَلَدِ ﴿٢﴾ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَدٍ ﴿٤﴾﴾ [البلد] وفى : ﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾ [الواقعة]

وفى هذه الآيات . قَسَم بدليل أن له جواباً ، لكن لماذا نَفَاهُ القرآن ، فقال (لاَ أُقْسِمُ) قالوا : لأن نَفْى القسم هنا أشدُّ من القسم المثبت ؛ لأن القَسَم إنما جاء لتأكيد المقسَم عليه ، ومعنى (لا أقسم) أن هذا أمر واضح لا يحتاج إلى قَسَم ، القَسَم يأتى لتأكيد أمر منكر أو مشكوك فيه ، أمَّا هذا الأمر فواضح بيِّن ، ومع ذلك سأقسم لك .

ومعنى ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا (١) فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا (٢) فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا (٣)﴾ [الصافات] قالوا : الصافات صفًّا هى الملائكة تُصَفُّ ، والصَّفُّ انسجام مجموعة بحيث لا يشذّ فيها فرد عن فرد ، فالصَّفُّ لا يعنى مجرد الجمع ، إنما الجمع فى انسجام وانضباط ، لذلك النبى ﷺ كان فى استعراض الجنود فى المعركة يُسوِّى الصفوف ، فلما رأى رجلاً شَذَّ عن الصف وخرج عنه فشكَّه فى بطنه ليستقيم فى مكانه من الصَّف ، وكان الرجل محباً لرسول الله ، فقال : أوجعتنى يا رسول الله ، فقال رسول الله ﷺ : « هذه بطنى اقتصّ منها » فأقبل الرجل يُقبِّل رسول الله ويقول : والله يا رسول الله لقد أمَّلْتُ أن أستشهد ، فأحببتُ أن يكون آخر عهدى بالحياة أنْ يمسَّ جسدى جسدك الشريف .

والصَّف دليل الانتظام والالتزام والاستعداد لتلقِّى الأوامر ، وهكذا تُصَفُّ الملائكة فى انتظار الأوامر ، ليقوم كل منهم بمهمته ودوره .

وإذا استعرضتَ مادة (ص ف ف) فى القرآن الكريم تجدها تدور حول هذا المعنى ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا (٦٤)﴾ [طه] يعنى : مجتمعين مُتحدين ، وقال : ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا (٢٢)﴾ [الفجر]

وقال : ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ الرَّحْمَـنُ (١٩)﴾ [الملك]

صحيح ، ترى الطائر فى السماء باسطاً أجنحته هكذا لا يحركها ، ومع ذلك لا يقع ، كذلك تراه يقبض أجنحته ، ويظل أيضاً ثابتاً فى مكانه ، فما الذى أمسكه لا يقع ؟ أمسكه الرحمن وكأن فى إمساك الطير الذى نراه ونشاهده دليلاً على صِدْق الحق فى

قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ(٤١)﴾ [فاطر]

إذن : إمساك الطير نموذج لإمساك السماء ، إلا أن هذا إمساك مؤقت ، وذاك إمساك دائم .

ويقول عن الملائكة عموماً : ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ (١٦٥)﴾ [الصافات] يعنى : نقف فى انضباط منتظرين الأوامر ، والصف هنا يدل على الانسجام ، وأنه لا يتعالى أحد على أحد ، ويدل على الرهبة ممَّنْ أنت أمامه مصفوفاً .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى فى نعيم الجنة : ﴿وَنَمَارِقُ[1] مَصْفُوفَةٌ (١٥)﴾ [الغاشية]

بعض العلماء يرى أن الصافات لها معنى أوسع ، ويراد بها مجال نشر الدعوة والإعلام بها ، والدفاع عنها ، وحماية الاختيار فى الإسلام ، وفى القتال ، قال تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ (٤)﴾ [الصف] معنى﴿فِي سَبِيلِهِ (٤)﴾ [الصف] أى : من أجل الإعلام بدينه والدفاع عنه أمام أعدائه ، فالإعلام بالدين مهمة العلماء ، والدفاع عنه مهمة الجنود فى ساحة القتال ، وينبغى أن يكون هؤلاء وهؤلاء صفاً واحداً كأنه البنيان المرصوص ؛ لذلك قال تعالى : ﴿فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ (١٢٢)﴾ [التوبة]

---

(١) النمرقة : الوسادة الصغيرة يُستند إليها ، ويُتكأ عليها ، وجمعها نمارق . [القاموس القويم٢/٢٨٨]

فالعالِم لا يقاتل ؛ لأن مهمته حَمْل الدعوة ، والمقاتل يموت فى سبيلها ويضحى بحياته من أجلها ، وهذه التضحية هى التى تثبت صدْق الدعوة ؛ لأن الدعوة لو لم تكُنْ صادقة فى نفس صاحبها لَمَا ضَحَّى من أجلها ، ثم تضحيته بروحه دليل على ثقته أنه ذاهب إلى خير مما هو فيه .

وتعرفون قصة الصحابى الذى سمع كلام رسول الله عن أجر الشهيد ، وكان فى فمه تمرة يمضغها ، فقال لرسول الله : أوليس بينى وبين الجنة إلا أنْ أقاتل هؤلاء فيقتلوننى ؟ قال : بلى . فألقى التمرة واستبطأ أن يمضغها وأسرع إلى ساحة القتال .[1]

إذن : القتال فى سبيل الله ، إما باللسان وإما بالسِّنان ، ولابد أنْ يُعلَم أن المقاتل الذى يحمل السيف لا يحمله ليُكرِه غير المؤمن على الإيمان ؛ لأنه لا إكراه فى الدين ، إنما يحمله ليحمى حريته واختياره هو لهذا الدين ، بدليل أن الإسلام فتح بلاداً كثيرة ، وظلَّتْ على دينها .

والصف الواحد ليس فقط للمقاتلين فى ساحة القتال ، إنما أيضاً لحاملى الدعوة ، فيجب على هؤلاء العلماء أن يكونوا فى دعواهم صفاً واحداً لا يشقه خلاف ، فما كان فى كلام الله مُحْكماً التزموا به ، وما كان متشابهاً لا يُكفِّر بعضهم بعضاً بسببه .

---

(١) عن جابر بن عبد الله قال قال رجل للنبى ﷺ يوم أحد : أرأيت إن قُتلت فأين أنا ؟ قال : فى الجنة فألقى تمرات فى يده ، ثم قاتل حتى قُتل أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٠٤٦) وقال ابن حجر : لم أقف على اسم الرجل وزعم ابن بشكوال أنه عمير بن الحُمام واحتج بما أخرجه مسلم من حديث أنس وفيه ذكر عمير بن الحمام . ولكن وقع التصريح فى حديث أنس أن ذلك كان يوم بدر ، فالذى يظهر أنهما قصتان وقعتا لرجلين ، والله أعلم .

﴿فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ۝٢﴾[الصافات] قالوا : هذه هى مهمة الملائكة أنْ تزجر الشياطين الذين يسترقون السمع ، كما قال تعالى : ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا ۝٩﴾ [الجن]

وكانت الشياطين قبل رسالة محمد ﷺ تصعد فى السماء ، وتتسمّع الأخبار ، ويُمكِّنهم الله من بعض الأخبار والأوامر فيسمعونها ويُلْقونها إلى أوليائهم من البشر ، فيزيدون عليها أشياء باطلة ، ويخبرون الناس بها على سبيل أنهم يعلمون الغيب ، فلما كانت بعثة النبى ﷺ مُنعوا من استراق السمع ، وسلَّط الله عليهم الشُهُب تنقضّ عليهم فتحرقهم .

فإنْ قلتَ : كيف ، ونحن نرى النجوم على كثرتها ، هى هى لا تنقص ، نقول : لأن النجوم منها نجوم فى السماء للزينة ، ومنها نجوم للرجم ، بدليل قوله تعالى : ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ۝٦ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ۝٧ لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلأِ الأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝٨ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝٩﴾ [الصافات]

أما ﴿فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ۝٣﴾[الصافات] قالوا : هى المُنزلات الوحى على الرسل ؛ لأنهم يتلُونه عليهم ، بعد أنْ نزلوا به من عند الله

آخرون فهموا ﴿وَالصَّافَّاتِ ۝١﴾ [الصافات] على معنى آخر يتفرع عنه معَانٍ أخرى للزاجرات زجراً والتاليات ذكراً ، قالوا : معنى ﴿وَالصَّافَّاتِ ۝١﴾[الصافات] أى : المؤمنين يُصَفُّون للصلاة ، لأنها عماد الدين ورمز للاجتماع والوحدة ، ومن تمامها أن تكون فى صفوف مستوية .

لذلك قال النبى ﷺ : « سَوُّوا صفوفكم ، فإنَّ تسوية الصفوف

من إقامة الصلاة[١]» وقال : « إن الله لا ينظر إلى الصَّف الأعوج»[٢] والصفوف فى الصلاة دليل على الانضباط ، وأنه لا يشذ أحد عن الآخر ، ودليل على الخضوع والوقوف فى أدب بين يدى الله . إذن : فكما تُصَفُّ الملائكة تُصَفُّون أنتم ، ولكلٍّ صلاته وعبادته .

فإذا ما سَوِيْنَا الصفوف واستقمنا فيها لله تعالى ندخل فى الصلاة ونقول : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، وهذا زَجْر للشيطان ؛ لذلك قال : ﴿ وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ﴿١﴾ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ ﴾[الصافات] ومعنى ﴿ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ﴿٣﴾ ﴾[الصافات] أى : ما نتلوه بعد ذلك من كلام الله : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾ ﴾ [الفاتحة]

هذا هو القَسَم ، فما المُقسَم عليه؟ المقْسَم عليه قوله سبحانه : ﴿ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ ﴿٤﴾ ﴾[الصافات] وهذه العبارة مع أنها جواب لقسم ، إلا أن الله تعالى أكّدها أولاً بـ (إن) ثم أكَّدهَا باللام فى (لَوَاحِدٌ) ، وذلك لأنها تمثل أساس الدين وجوهر العقيدة ، فالإله الحق واحد هو المهيمن على هذا كله ، وقلنا : إن واحد غير أحد : واحد يعنى ليس له ثَانٍ مثله ، أما أحد فيعنى أنه غير مركب من أجزاء فى تكوينه ، فهو سبحانه فى ذاته أحد .

﴿ رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ ﴿٥﴾ ﴾

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٧٢٣) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٤٣٣) كتاب الصلاة ـ باب تسوية الصفوف (٢٨) كلاهما من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه .

(٢) مما ورد فى هذا المعنى ما أخرجه أحمد فى مسنده (٢/٩٧) وأبو داود فى سننه (١/١٧٨) من حديث عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « أقيموا الصفوف ، وحاذوا بين المناكب ، وسدوا الخلل ، ولينوا بأيدى إخوانكم ، ولا تذروا فُرُجات للشيطان »

وفى آية أخرى قال : ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ ﴿٦﴾﴾ [طه] وهذا الذى تحت الثرى هو الذى يحتاج منّا إلى بحث لنصل إليه ونكتشفه ونُخرجه كما قلنا من عالم الملكوت إلى عالم الملْك .

هنا قال ﴿وَرَبُّ الْمَشَارِقِ ﴿٥﴾﴾[الصافات] ، وفى موضع آخر قال : ﴿بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ ﴿٤٠﴾﴾ [المعارج] إذن : الحق سبحانه يُبْقى لألمحية الالتقاط الذهنى من الألفاظ موضعاً ، فما دام هناك مشارق إذن لابد أنْ يقابلها مغارب ؛ لأن الشمس لا تشرق على قوم إلا وتغرب عن آخرين ، إذن : عرفناها باللزوم .

وحين نستعرض هاتين الكلمتين فى كتاب الله نجد أنهما تأتيان مرة بصيغة المفرد ﴿رَّبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ﴿٩﴾﴾ [المزمل] ، وتأتى بصيغة المثنى ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾﴾ [الرحمن] ، وتأتى بصيغة الجمع ﴿بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ ﴿٤٠﴾﴾ [المعارج]

ذلك لأنه إذا خاطب الإنسان الواحد فى المكان الواحد قال المشرق والمغرب ، لأن لكل مكان مشرقاً ومغرباً ، فإنْ تعدَّدتْ الأماكن تعددت المشارق والمغارب ، فنحن مثلاً فى القطر الواحد نلاحظ أن مغرب القاهرة غير مغرب الأسكندرية ، فإذا نظرنا إلى كل الأمكنة فى الكرة الأرضية علمنا أن المشارق والمغارب لا تتناهى ، ففى كل نصف ثانية مشرق ومغرب .

لذلك قلنا : من حكمة الخالق سبحانه فى دورة الأرض حول نفسها ، وحول الشمس أنها تُوزع مقومات الحياة فى الكون كله ، فلو ظلَّتْ الشمس مواجهةً لمكان واحد لاحترق ، ولو ظلَّتْ غائبة عن مكان لَتجمَّد . ونتيجة هذه الحركة يظل الحق سبحانه معبوداً فى كل

أوان بكل عبادة ، كما سبق أن أوضحنا أنه فى اللحظة الواحدة يُصلَّى الصبح عند قوم ، والظهر عند آخرين ، والعصر عند آخرين ، والمغرب والعشاء ، وهكذا على مَدار اليوم والليلة .

أما قوله تعالى ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾﴾ [الرحمن] قالوا : المشرقان يعنى : المشرق والمغرب ، أو مشرق الصيف ومشرق الشتاء[1]

ثم يقول سبحانه :

﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾﴾

نعم ، حين ننظر إلى السماء ليلاً نجدها مُزْدانةً بالنجوم تتلألأ ، وفى هذه النجوم عجائب وأسرار عرفها العربى الأُمىُّ ، فعرف النجم وعرف اسمه ومكانه وحركته ، واهتدى به فى سيره فى الصحراء ، كما قال سبحانه : ﴿وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾﴾ [النحل]

وحين تتأمل هذه النجوم فى السماء ترى أن الله تعالى أراد أنْ يرحمنا من حرارة الشمس ، ويُبقى لنا آثار الضوء نهتدى به ليلاً ؛ لأن هذه النجوم إنما تستمد ضوءها من ضوء الشمس .

ثم للكواكب مهمة أخرى :﴿وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾﴾[الصافات]

---

(١) عن ابن عباس قال : للشمس مطلع فى الشتاء ومغرب فى الشتاء ، ومطلع فى الصيف ومغرب فى الصيف ، غير مطلعها فى الشتاء وغير مغربها فى الشتاء . أورده السيوطى فى الدر المنثور (٦٩٥/٧) وعزاه لسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم .

يعنى : تحفظنا هذه الكواكب من الشياطين ؛ لأنها تنقضّ على الشياطين فتحرقها ، وهذا النوع يُسمُّونه النيازك ، أما زينة الكواكب فباقية لأنها لا دَخْل لها بهذه المسألة ، أما النجوم المخصصة للشيطان المارد ، فلا بُدَّ أنْ تتناقص .

ومعنى (المارد) أى : المتمرد على منهج ربه ، لأنه وارث لإبليس ، يقف من ذريته نفس الموقف الذى وقفه إبليس من آدم ، فإنْ قلْتَ : الله تعالى يريد أن يسود منهجه الكونَ ، ليسود السلامُ والأَمْن والطمأنينة ، فلماذا إذن يخلق الشيطان المارد ؟ نقول : ليُؤصِّل الإيمان فى النفس المؤمنة مع وجود المخالف ، وإلا فما الميزة إذا كان الجميع مؤمنين طائعين ، إذن : لابُدَّ أنْ نُصفى أهل الإيمان ، وأنْ نُمحِّصهم لنعلم أهل الثبات ، لأنهم سيحملون دعوة يظل نداؤها إلى أنْ تقومَ الساعة ، فهذه لا يحملها إلا أولو العزم .

وقوله : ﴿ لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلأِ الأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ ﴾ [الصافات] جاءت هذه الآيات بعد أنْ أقسم الله بالزاجرات زَجْراً ، وقلنا: من معانيها أن الملائكة تزجر الشياطين عن استراق السمع فى الملأ الأعلى ، حيث كانوا يخطفون بعض الجزئيات ويُلْقونها إلى أوليائهم من الكهنة فيضيف هؤلاء إليها كثيراً من الكذب ليُضلِّلوا به الخَلْق .

وقد كَثُر هذا الاستراق قبل بعثة النبى ﷺ ، فلما بُعث ﷺ منعهم الله من استراق السمع ، وسلَّط عليهم الشهب تزجرهم وتنقضّ عليهم ، كما حكى القرآن : ﴿ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ ﴾ [الجن] ذلك تكريماً لرسالة محمد أن يدلِّس عليها تدخُّل الشياطين بشىء يفسد على الناس عقائدهم ، فقال : ﴿ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ ﴾ [الصافات]

ومن عجائب الزَّجْر أنه يأتى على معنيين . فمعنى : زَجَرْتُ إنساناً يعنى : نهيتُه عن عمل شىء ، أما زجرتُ الدابة يعنى : أحثُّها على السير ، ومن ذلك قول الشاعر :

فَيَا وَيْحَنَا إلْفَيْنِ بُوعِدَ بَيْنَنَا ... فَهَذا لهُ عُشٌّ وَذَلِكَ فى عُشّ
فَلَمَّا ألحَّتْ لِلْوِصَالِ صَبَابَتى[1] ... زَجَرْتُ جَوَادِى أنْ يطِيرَ ولاَ يَمْشِى

وفى المعنى الآخر ، قال الشاعر :

.... لَمْ يُبْقِ فِينَا للْمودَّة مَطْرَحاً
إنِّى زَجَرْتُكَ عَنْ خَنَا[2] ... فَزَجَرْتَنِى أنْ أنْصَحَا

فالزَّجْر يأتى بمعنيين متضادين .

ومعنى ﴿لا يَسَّمَّعُونَ ۝٨﴾[الصافات] فَرْق بين سَمِع وتسمَّع : سَمِع يعنى دون قَصْد منه ، إنما تسمَّع يعنى حاول وتكلَّف أنْ يسمع بصرف النظر أنه سمع شيئاً أو لم يسمع .

والمعنى : أن هؤلاء الشياطين مُنِعُوا بعد بعثته ﷺ من تسمُّع الأخبار فى الملأ الأعلى ، وهم يحاولون ، لكن تزجرهم الملائكة وتنقضُّ عليهم الشُّهُب .

﴿وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝٨﴾[الصافات] والقذف : الرَّجْم بحيث تكون الضربة نافذة ﴿دُحُوراً ۝٩﴾[الصافات] يعنى : مذمومين مطرودين ، والمدحور هو المطرود بإهانة ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝٩﴾[الصافات] يعنى: دائم لا يتغير ، ومنه قوله تعالى ﴿وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا .. ۝٥٢﴾ [النحل] يعنى : دائماً ، فالدين هو هو واحد مع كل الرسل ، ووَصْف العذاب

---

(١) الصبابة : الشوق والعشق . قال ابن الأعرابى : صبَّ الرجل إذا عشق [لسان العرب – مادة صبب] .

(٢) الخنا : قبيح الكلام . والخنا : الفُحْش فى القول . [اللسان – مادة : خنا] .

هنا بأنه دائم ؛ لأنه حيلَ بينه وبين إنفاذ مهمته فى استراق السمع والتقاط الأخبار من الملأ الأعلى .

﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾﴾

المعنى : أن بعض هؤلاء المردة سيستطيعون خطْف بعض الأخبار ، لكن لن يتمكنوا من الفرار بها ، وتوصيلها إلى أوليائهم . والخطف نوع من حيازة الملكية بدون وجه حق ، فلكُلٍّ منَّا حيازة وملكية ، ولا يُخرجه عن ملكيته إلا مَنْ يأخذها منه اعتداءً وظلماً ، ولهذا الاعتداء والظلم وسائل متعددة منها : الخطف وهو أنْ يُؤخَذ منك الشىء خَطْفاً يعنى بسرعة ، لكن على مَرْأًى منك ولا تستطيع منعه ؛ لأن الشىء بعيد عن متناول يدك ، كالولد الصغير يخطف شيئاً من البائع ويجرى به .

فإنْ كان صاحب الشىء قريباً واستطاع الإمساك به فنازعه المعتدى وتغلَّب عليه وأخذه فهو غَصْب ، فإنْ أخذ الشىء دون علم صاحبه فهو سرقة ، أما إنْ كان مؤتمناً على المال وأخذ منه فهو اختلاس .. هذه كلها وسائل لحيازة أموال الغير دون وجه حق .

كذلك يخطف الشيطان بعض الأخبار ويحاول الفرار بها ، لكن هيهات له ذلك ﴿فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾﴾ [الصافات] يعنى : كوكب ينقضُّ عليه ، ومعنى ﴿ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾﴾ [الصافات] يعنى : نافذ يخترق الأجواء ، حتى يصل إلى هدفه فى أسرع وقت[1] .

فإنْ قُلْتَ : فلماذا لا يُمنع بدايةً من استراق السمع ؟ قالوا : فَرْقٌ بين أنْ يُمنَع من الشىء أصلاً ، وبين أنْ يناله ثم لا ينفذ به ولا

---

(١) عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : إن الجنى يجىء فيسترق ، فإذا سرق السمع ، فَرُمِى بالشهاب قال للذى يليه : كان كذا وكذا . أورده السيوطى فى الدر المنثور (٧/ ٨٠) وعزاه لابن جرير وابن المنذر .

يستفيد منه ، إن الله يُمكِّنه من بعض الأخبار بالفعل فيسمعها ، لكن تُعاجله الزاجرات والشُّهب من كل ناحية ، فتكون حسرته أعظمَ ، حسرة أنه تعب وتحمَّل المشاقَّ فى استراق السمع والخطف ، وحسرة أنه لم ينتفع بما سمع .

﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴿١١﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ ﴿١١﴾ ﴾[الصافات] أمر من الله تعالى لرسوله ﷺ ، يعنى : سلْهم ، واستفتى طلب الفتوى ؛ لأن الألف والسين والتاء تدل على الطلب ، والفتوى من الفُتوَّة ، فحين يكون الإنسان بصدد شىء ، يريد أن ينفذه ، ولا يعرف فيه طريق الحق والصواب يذهب إلى مَنْ هو أعلم منه يستفتيه . يعنى : يطلب منه الفتوى أو الفتوَّة ، والقوة الدافعة له على العمل ، فكأنه كان ضعيفاً وأراد أن يَقْوَى برأى غيره .

فكأن الحق - سبحانه وتعالى - استأمنهم أنْ يُفتوا ، وأنْ يجيبوا هم ؛ لأنه سبحانه واثق من أن الخصوم لن يجدوا إلا قَوْلة الحق ينطقون بها ؛ لذلك لم يأتِ سبحانه بالمراد إخباراً ، إنما أتى به إقراراً منهم وشهادة ؛ لأن الخبر يحتمل الصدق أو الكذب ، أمَّا الإقرار فلا يستطيع أحد إنكاره ؛ لذلك قالوا : الإقرار سيد الأدلة .

ومضمون السؤال ﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَا ﴿١١﴾ ﴾[الصافات]؟ يعنى : أهم وأعظم وأشدّ خَلْقاً من السماء والأرض ، ثم لم يأْتِ بالجواب لوضوحه ، ولن يكون إلا أنّ خَلْق السماء والأرض أشدُّ

من خَلْقهم وأعظم ؛ لذلك قال سبحانه فى موضع آخر : ﴿لَخَلْقُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٥٧)﴾[غافر]

فإنْ أردتَ أنْ تُدلِّل على هذه المسألة فتأمل خَلْقك وخَلْق السموات والأرض ، فالسماء والأرض مع أنهما يخدمانك ، إلا أنهما أطول عمراً منك وأبقى ، فهما منذ خلقهما الله باقيان لم يزولا ، أما الإنسان فيموت وهو طفل ، ويموت وهو شاب ، ويموت وهو شيخ ، يموت ويترك التركة باقيةً تتوارثها الأجيال .

إذن : هما أشدّ وأقوى ؛ لأنهما مخلوقان خلقة دائمة ، وأقوى من ناحية أنهما محكومان باختيارهما حين قالتا : ﴿أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١)﴾ [فصلت]

فاختارا أن تكونا مُسخَّرتين قال تعالى : ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً (٧٢)﴾ [الأحزاب]

وقلنا : إن هناك فَرْقاً بين قدرة النفس على تحمُّل الأمانة وقدرتها على الأداء ، فقد تتحمل الأمانة وتنوى أداءها ، لكن لا تضمن نفسك عند الأداء ، فربما تغيَّرتْ الظروف ، أو طرأ عليك ما يحول بينك وبين أدائها ؛ لذلك امتنعت السموات والأرض عن حَمْل الأمانة ، وخرجت عن مرادها لمراد ربها ، فكانت مُسخَّرة . إذن : فهى أيضاً مُخيَّرة إلا أنها اختارتْ بكلمة واحدة منسحبة على الزمن كله ، أما الإنسان فاختار أنْ يكون مختاراً ينفذ أو لا ينفذ .

ثم إن السماء والأرض وما بينهما وما فيهما من مخلوقات وكواكب وأجرام وأفلاك تسير وفق نظام دقيق مُحكَم ، لا يشذ ولا يتخلف أبداً : ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥) وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (٦)﴾ [الرحمن]

وقال : ﴿ لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٤٠) ﴾ [يس]

أما الإنسان فيتخبط فى الحياة ، ويخالف منهج ربه ، وينحرف عن الطريق الذى رُسِمَ له . إذن : أيّهما أعظم خَلْقاً ، وأشدّ تكويناً ، وأصحّ أداءً ؟ لا يسع هؤلاء الكفار رغم كفرهم إلا أنْ يقولوا : السماوات والأرض أشدُّ وأعظم من خَلْق الإنسان .

ومثال ذلك حين سألهم الله ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ (٨٧) ﴾ [الزخرف] ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ (٣٨) ﴾ [الزمر] لأن هذه كلها حقائق لا تُنكر ، حتى من الكفار .

ثم يسوق لهم الحق سبحانه دليلاً على صِدْق هذه المسألة ، فيقول : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لاَّزِبٍ (١١) ﴾ [الصافات] يعنى : هذا أصلهم ، فأين هم من خَلْق السموات والأرض ؟ ومعنى ﴿ لاَّزِبٍ (١١) ﴾ [الصافات] يعنى : طين متماسك بعضه ببعض ، فهو وَسَط بين السيولة والصلابة ، يعنى : أشبه ما يكون بطين الصَّلْصَال الذى نوزعه على التلاميذ فى المدارس ، والطين تراب وُضِع عليه الماء ، فإنْ زاد الماء صار الطين لَيِّناً يسيل منْ يدك ، وإنْ قَلَّ الماء جَفَّ وتصلَّبَ .

لذلك وقف المستشرقون عند مراحل التكوين الإنسانى يعترضون : من أىِّ شىء خُلِق الإنسان ، والقرآن قال ﴿ مِّن طِينٍ (١٢) ﴾ [المؤمنون] و ﴿ مِّن تُرَابٍ (٥) ﴾ [الحج] و﴿ مِّنْ حَمَأٍ مَّسْنُونٍ (٣٣) ﴾ [الحجر] و﴿ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ (١٤) ﴾ [الرحمن].وقد غاب عنهم أن هذه مراحل

للشىء الواحد كما قلنا ، فالماء يُوضَع على التراب فيصير طيناً ، ولو تُرك هذا الطين إلى أنْ يعطن أو يتعفن يصير حمأ مسنوناً [(١)] ، فإنْ تُرِك حتى يجفَّ يصير صلْصالاً .

الحق سبحانه يُحدِّثنا هنا عن الخَلْق الأول للإنسان ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴿١١﴾﴾ [الصافات] ؛ لأن آدم عليه السلام خُلِق من الطين ثم خُلقت بعده حواء ، والقرآن قَصَّ علينا قصة خَلْق آدم ، لكن اكتفى فى خَلْق حواء بقوله تعالى :﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴿١﴾﴾ [النساء]

قالوا : ﴿ منها ﴾ يعنى من جنس تكوينها ، فيصح أن تكون حواءُ قد خُلِقت مثل آدم من الطين ، أو خُلِقَتْ من ضلع من أضلاعه ، وفى كلتا الحالتين تعود إلى أصل الطين ، والله تعالى يخلق ما يشاء ، وسبق أنْ بيَّنا طلاقة القدرة فى عملية خَلْق الإنسان ، وأنها استوعبت كُلَّ الصور العقلية لهذه العملية ، فالله سبحانه يخلق من لا أب ولا أم ، ويخلق من أب بلا أم ، ويخلق من أم بلا أب ، وقد يجتمع الأب والأم ولا يحدث بينهما إنجاب .

يقول الحق سبحانه : ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا ﴿٥٠﴾﴾ [الشورى]

إذن : خُلِق الإنسان الأول ، وهو آدم عليه السلام من الطين ، وخُلِقَتْ من جنسه زوجه ، ثم جاءت الذرية من آدم بعد أنْ فارق

---

(١) الحمأ والحمأة : الطين الأسود . والمسنون : المصبوب فى قالب إنسانى أو مصوَّر بصورة إنسان أو طين كالفخار صالح للتصوير والصقل . [القاموس القويم ١/٣٣١) .

الطينية وصار إنساناً ، فنحن وإنْ جئنا من نسل إنسان ، إلا أنه يعود فى أصله إلى الطين ، فإنْ قُلْتَ : أين الطينية ، وقد تشكَّل شكلاً آخر غير الطين ، بدليل أنه إذا استحم بالماء لا يذوب كما يذوب الطين وتتفكك جزئياته .

نقول : لا بُدَّ أن يرد الإنسان الأصل أو الفرع إلى الأصل الأول وهو الطين ؛ لأن الإنسان يتوالد ويتكاثر بواسطة الحيوان المنوى فى الذكر والبويضة فى الأنثى ، فمن أين يأتى هذا وهذه ؟ من الدم ، والدم نتيجة الغذاء ، والغذاء مصدره الأرض والطين . إذن : سنؤول لا محالة إلى الطين ، لكن من الطين مرة بواسطة ، ومرة بدون واسطة .

والحق سبحانه نبّهنا إلى هذه المسألة فى قوله تعالى :﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ (٥٣) ﴾ [فصلت]

فنحن لم نشاهد عملية الخَلْق ، إنما أخبرنا الله بها ، فعلمنا أن الإنسان خُلق من الطين الذى مَرَّ بهذه المراحل ، حتى نفخ الله فيه الروح ، ودَبَّتْ فيه الحياة ، هذا كله لم نشاهده ، لكن شاهدنا الموت الذى ينقض الحياة ، وعلينا نحن أن نأخذ مما نشاهده دليلاً على صدق الغيب الذى أخبرنا الله به ولم نشاهده .

ونحن نعلم أن نَقْضَ الشىء يأتى على عكس بنائه ، فالذى يهدم عمارة مثلاً من عدة أدوار يبدأ بالدور الأخير ، كذلك يأتى الموت عكس الحياة ، فأول شىء ، تخرج الروح ، ومعلوم أن نَفْخَ الروح فى الإنسان هى آخر مرحلة فى مراحل الخَلْق ، فإذا ما فارقتْ الروحُ الجسدَ عاد إلى أصله ، حيث يرمّ الجسد وتمتص الأرض ما فيه من

الماء ، ثم يتحلل الباقى ويعود إلى التراب الذى جاء منه .

ثم آخر ، هو أن الإنسان الذى خُلق من الطين وقوامه الغذاء الذى يخرج من الطين ، لما حلَّل العلماء جسمَ الإنسان وجدوه مُكوَّناً من ١٦ عنصراً . أولها : الأوكسجين ، ثم الكربون ، ثم الهيدروجين ، ثم النتروجين .. الخ . وهى نفس العناصر المكوِّنة للتربة الزراعية الخِصْبة التى تعطينا القوت ، إذن : يكون هذا دليلاً على صدْق الحق - تبارك وتعالى - فى قوله : ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ (١١)﴾ [الصافات]

﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ (١٢) وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ (١٣) وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ (١٤)﴾

معنى (بَلْ) إضراب عن الكلام السابق وبداية لكلام جديد (عَجِبْتَ) بالفتح أى : يا محمد . والعَجَبُ : هو استغراب وقوع شىء على خلاف نظائره ، ومن ذلك قوله تعالى فى العقائد : ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ .. (٢٨)﴾ [البقرة]

يعنى : كيف يحدث منكم الكفر بعد أنْ فعلنا بكم ذلك ؟ هذا شىء مُسْتغرب ، ومسألة عجيبة . يعنى : جاءت على خلاف ما يُنتظر منكم .

لكن من أىِّ شىء عجب النبى ﷺ ؟ عجب من إنكارهم ومن كفرهم ، مع وضوح الأدلة الدامغة على صدْق قضية الإيمان . وقد سُقْنا لهم الدليل تِلْو الدليل ، ومع ذلك كذَّبوا ؛ لذلك قال تعالى مُخاطباً نبيه ﷺ فى موضع آخر : ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ .. (٥)﴾ [الرعد]

يعنى : وافق الله محمداً على أنْ يعجب . والمعنى : إنْ تعجب يا محمد فقولهم عَجَب . لكن عجب عند مَنْ ؟ يجوز عجب عند رسول الله ، ويجوز عجب عند الله تعالى ، إذن : هل يعجب الله تعالى كما نعجب ؟ قالوا : نعم ، بدليل أن فى هذه الآية قراءةً بالضم (بل عجبتُ)[1] بتاء المتكلم سبحانه ، وبدليل ما ورد فى الحديث الشريف : « تعجب ربك من شاب ليست له صَبْوة »[2]

لماذا ؟ لأنه خرج عن طبيعة التكوين الإنسانى ، أو قدر على نفسه وتحكم فيها ، بحيث لم يفعل ما يفعله الشباب ، فهذا شىء مستغرب منه ، ومعنى تعجب الحق سبحانه من هذا أنه يستغرب منه هذا العمل ؛ ليجازيه جزاءً مُستغرباً كذلك .

وسبق أنْ قُلْنا : إذا وُجدت صفة مشتركة بيننا وبين الحق سبحانه ، فعلينا أن نأخذها فى إطار ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴿١١﴾ ﴾ [الشورى]

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ﴿١٤٢﴾ ﴾ [النساء]

وقوله : ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الأنفال]

لذلك إياك أن تقول : الله خادع أو الله ماكر ؛ لأن هناك فَرْقاً بين

---

(١) قراءه أهل المدينة وأبى عمرو وعاصم بفتح التاء خطاباً للنبى ﷺ ، وهى قراءة شريح وأنكر قراءة الضم وقال : إن الله لا يعجب من شىء ، وإنما يعجب من لا يعلم . وقرأ الكوفيون إلا عاصماً بضم التاء . واختارها أبو عبيد والفراء وهى مروية عن على وابن مسعود . قال الفراء : الرفع أحب إلىَّ ، لأنها عن على وعبد الله وابن عباس . والعجب إن أسند إلى الله عز وجل فليس معناه من الله كمعناه من العباد . [تفسير القرطبى ٥٧٠٨/٨] بتصرف .

(٢) عن عقبة بن عامر قال قال رسول الله ﷺ : « إن الله عز وجل ليعجب من الشاب ليست له صبوة » . أخرجه أحمد فى مسنده (١٥١/٤) وابن أبى عاصم فى السنة (٢٥٠/١) . وذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد (٢٧٠/١٠) وعزاه لأحمد وأبى يعلى والطبرانى وقال : إسناده حسن .

أسماء الله تعالى وأفعال وصف الله بها نفسه سبحانه . فالمكر مثلاً من أفعال البشر يُراد به خداع الخصم والتخييل عليه ، لتستطيع أنت أنْ تنفذ إلى غَرَضك منه ، وهذا المكر يقابله مَكْر مثله يشاكله أو أمكر منه .

والمكر مأخوذ من قولهم شجرة ممكورة ، وهى شجرة ذات عيدان ملفوفة بعضها على بعض ، بحيث لا تستطيع أنْ تميِّزها ، ولا أنْ تردَّ كل فرع فيها إلى أصله ، كذلك المكر فيه لفٌّ وحيل لتستر سيئاتك عن خَصْمك ، هذا فى مكر البشر بعضهم ببعض ، لكن إنْ مكر الله بك فلن ينجيك من مكره شىء ؛ لذلك قال سبحانه :﴿ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ [آل عمران]

وقوله تعالى :﴿ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [الصافات] السخرية هى الاستهزاء من الشىء ، والمعنى أنك تعجب يا محمد من نكرانهم وتكذيبهم مع وضوح الأدلة ، وهم يسخرون منك ومن تعجبك ﴿ وَإِذَا ذُكِّرُوا ﴿١٣﴾ ﴾ [الصافات] يعنى : بآيات أخرى وبراهين ترشدهم ﴿ لا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ [الصافات] أى : يُعرضون عنها ، ولا يلتفتون إليها ، ويصرون على الإنكار ﴿ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً ﴿١٤﴾ ﴾ [الصافات] أى : دليلاً جديداً ﴿ يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [الصافات] أى : يبالغون فى السخرية .

ففى الآية قبل السابقة قال : ﴿ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [الصافات] وهنا ﴿ يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [الصافات] هذا دليل على أن من هؤلاء المكذبين أناساً ترقُّ قلوبهم لآيات الله وللأدلة الإيمانية ، وحين ترقُّ قلوبهم تخفّ لديهم نزوة الكيد لمحمد ، فيكتفون بالتكذيب دون السخرية ؛

لأن الإباء يأتى على درجات ، فواحد يأبى أنْ يفعل ما تأمره به ، وآخر يأبى أن يفعل ويسخر منك .

فهؤلاء الذين يسخرون لا يكتفون بالسخرية من رسول الله ، إنما ﴿ يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [الصافات] يعنى : يطلبون ممَّنْ لا يسخر أنْ يسخر ، يعنى : يستسخرون غيرهم ، إذن : هناك فَرْق بين يسخرون ويستسخرون ، حتى لا نقول كما يقول بعض المستشرقين : هذا تكرار فى كلام الله .

﴿ وَقَالُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ ﴾

معنى ﴿ إِنْ هَٰذَآ ﴿١٥﴾ ﴾ [الصافات] ما هذا إلا سحر ﴿ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ ﴾ [الصافات] يعنى : واضح ، والسحر كما قلنا تخييل شىء غير واقع ، فيُخيَّل إليك أنه واقع ، فالسحر لا يغير حقيقة الشىء ، إنما يسحر الناظر إليه ، كما قال تعالى فى سحرة فرعون : ﴿ .. سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ ﴿١١٦﴾ ﴾ [الأعراف]

وقال : ﴿ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ ﴾ [طه]

إذن : أين السحر من دعوة محمد ﷺ ، ومن قضية الإيمان التى يدعو الناس إليها ؟ والرد على هذه الفِرْية سهل وواضح : إذا كانت عند محمد القدرة على أن يسحر الناس ، فيؤمنوا بدعوته ، وسحر هؤلاء الذين آمنوا فلِمَ لم يسحركم أنتم ؟ إذن : هذا اتهام باطل لا معنى له .

ثم يعودون مرة أخرى إلى مسألة البعث ، ليسألوا عنها سؤالَ إنكار واستبعاد ، وهى أصل من أصول الدين لا يستقيم الإيمان إلا بها :

﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَءَابَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ (١)

عجيب منهم إنكار البعث بعد ما سُقْناه إليهم من أدلة ، حتى إنْ أنكروا أدلتنا وكذَّبوا بها ، ألم يسمعوا من الأمم السابقة والرسالة التى مَضَتْ أن البعث حَقٌّ ؟ إذن : هو العناد والاستكبار عن قبول الحق .

لذلك ، فالقرآن الكريم يضرب لهم مثلاً ودليلاً على صدْق الإخبار بالبعث ، ويسوق هذه القصة من الأمم السابقة فى سورة البقرة :﴿ أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِى هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ (٢) وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا (٣) ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾ ﴾ [البقرة]

هذه قصة واقعية ؛ لأن القرآن حكاها لنا عن الأمم السابقة ؛ لتكون دليلاً على قدرة الله على بَعْث الموتى ، وهى قصة رجل باحث

---

(١) داخرون : أذلاء صاغرون منقادون لأمر الله تعالى .[القاموس القويم ١/٢٢٢]

(٢) سنه الطعام يسنه : تغيَّر بعد مُضىّ زمن عليه .[القاموس القويم ١/٣٣٢]

(٣) أنشز الشىء : رفعه وأبرزه وأقامه . أى . نرفع العظام بعضها فوق بعض حتى يتكوَّن هيكل عظمى كامل ثم نكسوها لحماً فيصير حماراً حياً كما كان . [القاموس القويم ٢/٢٦٧] .

عن الحقيقة ، جعله الله مثالاً ونموذجاً لنفسه أولاً ، ولمن جاء بعده ، فلما مَرَّ على القرية وهى على هذا الحال من الخراب استبعد أنْ تحيا بأهلها مرة أخرى ، فأماته الله ليُريه كيف يحيى الموتى .

وصدق الرجل فى قوله ﴿لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ (٢٥٩)﴾ [البقرة] وصدق الله فى قوله ﴿ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ (٢٥٩)﴾ [البقرة] كيف ؟ لأن عظام الحمار التى تحولت إلى تراب دَلَّتْ على المائة عام ، وطعامه الذى لم يتغير دَلَّ على يوم أو بعض يوم ، وهذا ليس عجيباً ، ما دام أن الفاعل هو الله عز وجل القابض الباسط ، فهو وحده القادر على أنْ يجمع بين الضِّدّيْن ، فيقبض الزمن فى حَقٍّ قوم ، ويبسطه فى حق آخرين .

ألم يأمر نبيه موسى - عليه السلام - أن يضرب بعصاه البحر ، فصار الماء كُلُّ فرْق كالطود العظيم ، وأمره أنْ يضرب بعصاه الحجر ، فانبجست[1] منه اثنتا عشرة عَيْناً ؟ إذن : هى طلاقة القدرة .

وعجيبٌ منهم أيضاً أنْ يسألوا عن الآباء ، مع أن قضية البعث واحدة ، فقولهم ﴿أَوَ آبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ (١٧)﴾ [الصافات] دليل على تخبُّطهم ، أو ربما فهموا أن الذى سيموت حديثاً (طازة) يعنى : هو الذى سيُبعث ، أما القديم فبَعْثه غير ممكن .

ويردُّ الله عليهم (قُلْ) يعنى : قل لهم يا محمد بملءْ فيكَ (نَعَمْ) يعنى : ستُبعثون ، والنبى يقولها قَوْلة الواثق ؛ لأنه مأمور بها من قبَل الله القادر على أنْ يبعث الخَلْق ﴿قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ (١٨)﴾ [الصافات] يعنى : ستُبْعَثون حال كونكم ﴿دَاخِرُونَ (١٨)﴾ [الصافات]

---

(١) انبجست : تفجرت ونبعت فى قوة . [لسان العرب - مادة : بجس].

يعنى: صاغرين أذلاء خاضعين ، جزاءَ اللَّدَد والعناد والاستكبار على قبول الحق فى الدنيا ، كما قال تعالى فى موضع آخر : ﴿بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (٢٦)﴾ [الصافات]

﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ (١٩) وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ الدِّينِ (٢٠) هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢١)﴾

قوله تعالى ﴿فَإِنَّمَا هِيَ (١٩)﴾ [الصافات] أى : مسألة البعث ﴿زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ (١٩)﴾ [الصافات] صيحة[1] واحدة ، أو نفخة واحدة كافية لأن تُخرجهم من قبورهم ﴿فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ (١٩)﴾ [الصافات] لا أننا سنذهب إلى كل واحد منهم ونوقظه (اصحى يا فلان) إذن : البعث الذى تكذِّبون به أمرُه يسير علينا ، ولا يُكلِّفنا شيئاً .

والصيحة فى ذاتها لا تبعث الموتى ، إنما هى مجرد إذْن للملَك ، بأن يباشر مهمته ، فهى مثل الجرس الذى يُبْدأ به العمل ، فبعد الزَّجْرة ﴿فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ (١٩)﴾ [الصافات] هكذا مباشرة ؛ لأن إذا هنا تدل على المفاجأة ، فالأمر لن يستغرق وقتاً ، وأول ما يقومون من القبور ينظرون أى : هنا وهناك ؛ لأنهم سيرونَ أمراً عجيباً لا عَهْدَ لهم به ، وسيُفاجئهم ما كانوا يُكذِّبون به فى الدنيا .

لذلك حكى القرآن عنهم فى آية أخرى : ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا (١٢)﴾ [السجدة] وهى أول آية فى القرآن يتقدم فيها البصر على السمع ؛ لأنهم أول ما يفاجئهم يفاجئهم منظرٌ جديد لم يَرَوْهُ من قَبْل ، فينظرون إليه .

---

(١) قال الحسن البصرى : هى النفخة الثانية ، وسميت الصيحة زجرة ؛ لأن مقصودها الزجر. أى : يُزجر بها كزجر الإبل والخيل عند السَّوْق . [تفسير القرطبى ٨/ ٥٧١٠].

فإذا ما عاينوا هذا المنظر ، قالوا : ﴿يَـٰوَيْلَنَا هَـٰذَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَـٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِى كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الصافات] هم الذين يقولون ، وهم الذين يدْعُون على أنفسهم بالوَيْل والثبور ، لا نقولها نحن ويلكم ، بل يقولونها هم ﴿يَـٰوَيْلَنَا ﴿٢٠﴾﴾ [الصافات] يعنى : احضر ، فهذا أوانك ؛ لأنهم الآن تكشَّفَتْ لهم الحقائق وبَانَ كذبُهم وفسادُ تفكيرهم ، وما كانوا فيه فى الدنيا من اللَّدَد والعناد ، وأول ما يتبين للإنسان فسادُ تفكيره وسوء عمله أوَّل ما يلوم يلوم نفسه ، فيدعو عليها .

وقولهم : ﴿هَـٰذَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿٢٠﴾﴾ [الصافات] يعنى : يوم الجزاء على الأعمال ، هذا الجزاء الذى لم يؤمنوا به فى الدنيا ، ها هم يعترفون به ، أو ﴿هَـٰذَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿٢٠﴾﴾ [الصافات] يعنى : هذا هو اليوم الذى ينفع فيه الدين ، كما تقول لولدك وهو مُقبل على الامتحان : هذا يوم المذاكرة . يعنى : اليوم الذى لا تنفعك فيه إلا مذاكرتك .

ثم يقولون : ﴿هَـٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ ﴿٢١﴾﴾ [الصافات] ثم يعترفون ﴿الَّذِى كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الصافات] والفصل لا يكون إلا فى الخصومة ، والخصومة هنا كانت بين الرسل وأقوامهم المكذِّبين لهم والمعاندين ، ومثْل هذه الخصومة لا يُنهيها الجدل ؛ لأن المكذبين لديهم لدَد وعناد ، وقد لا يُنهيها السيف حتى يموت الظالم دون أنْ يقتصَّ منه .

إذن : لا بُدَّ أنْ يأتى يوم للقصاص وللفصل فى هذه الخصومات ؛ لذلك قال أحدهم : والله لا يموت ظلوم حتى ينتقمَ الله منه ، فقال الآخر : كيف وفلان ظلم كثيراً ولم نَرَ فيه شيئاً ؟ قال : والله ، إن وراء هذه الدار داراً أخرى يُجَازَى فيها المحسن بإحسانه ، والمسىء بإساءته .

نعم ، لا بُدَّ من هذا اليوم ، وإلا لَكانَ الظالم أحظَّ من المظلوم .

﴿ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ[(١)] وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ (٢٣) وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ (٢٤) ﴾

أى : اجمعوا كل هؤلاء معاً فى النار ﴿ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) ﴾ [الصافات] إذن : المحشور ثلاثة : الذين ظلموا جزاءَ ظلمهم ، وأزواجهم ، وما كانوا يعبدونه من دون الله . قلنا : الزوج يعنى المفرد ومعه مثله . فلا نقول على الرجل والمرأة زوج ، إنما زوجان ، الرجل يسمى (زوج) والمرأة تسمى (زوج) ، لا أن الزوج يعنى الاثنين كما يظن البعض ، ومثلها كلمة توأم ، فكل واحد منهما يُسمَّى توأم ، وهما معاً توأمان ؛ لذلك قال تعالى فى سورة الأنعام : ﴿ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ .. (١٤٣) ﴾ [الأنعام]

وقال : ﴿ مِنَ الإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ .. (١٤٤) ﴾ [الأنعام]

فلو أن الزوج يُطلق على الاثنين لقال : أربعة أزواج .

ومعنى كلمة ﴿ وَأَزْوَاجَهُمْ (٢٢) ﴾ [الصافات] أى : أزواجهم فى الدنيا ، كالزوجة التى تعين زوجها على الظلم ، كامرأة أبى لهب ، التى قال الله فى حقها : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ

---

(١) الزوج هنا بمعنى الشكل أو الصنف يكون له نظير أو نقيض ، كالرطب واليابس والذكر والأنثى . [القاموس القويم ٢٩١/١] . وقد أورد القرطبى فى تفسيره [٥٧١٢/٨] عدة معان لكلمة أزواج فى الآية :

- « يحشر الكافر مع الكافر . قاله قتادة وأبو العالية .
- يحشر الزانى مع الزانى ، وشارب الخمر مع شارب الخمر ، وصاحب السرقة مع صاحب السرقة . قاله عمر بن الخطاب
- يحشر معهم نساؤهم المرافقات على الكفر . قاله مجاهد والحسن .
- يحشر معهم قرناؤهم من الشياطين ، قاله الضحاك ومقاتل بنحوه » .

وخلاصة القول فى معنى (أزواجهم) : أشباههم وأمثالهم .

(٢) سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (٣) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (٤) فِي جِيدِهَا[١] حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ (٥) ﴾ [المسد]

أو يُراد بأزواجهم أشكالهم ونظائرهم وقرناءهم الذين أضلُّوهم وأغوَوْهم ﴿ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) مِن دُونِ اللَّهِ.. (٢٣) ﴾ [الصافات] أى : الأصنام التى عبدوها من دون الله ، تُحشَر معهم فى النار ، ليَروْا آلهتهم التى عبدوها وتعلّقوا بها تسبقهم إلى النار ، فينقطع أملهم فى النجاة وبيان لفساد تفكيرهم ، حيث عبدوا أصناماً لا تضرُّ ولا تنفع ، وهذا توبيخ لهم ؛ لذلك يمتدُّ هذا التوبيخ بعنف فى قوله تعالى : ﴿ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ (٢٣) ﴾ [الصافات] وهل القذف فى النار هُدىً ؟ والمعنى : دُلُّوهم على طريق جهنم ، يعنى : سخريةً منهم وتهكماً بهم .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ (٢٤) ﴾ [الصافات] أى : احبسوهم للسؤال وللحساب ، وهذا السؤال سيكون فردياً ليس جماعياً ، فكل واحد منهم سيُسأل وسيُناقش ، قالوا : فى السؤال تبكيت النفس للنفس قبل أن يُبكِّتهم الله الذى كفروا به ، يعنى : ساعةَ يعاينون البعث وموقف الحساب يُبكِّتون أنفسهم ، ويندمون ساعةَ لا ينفعُ الندم .

﴿ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ (٢٥) بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (٢٦) ﴾

وهذا الاستفهام أيضاً على سبيل السخرية والتهكُّم ، يعنى : ما لكم الآن لا ينصر بعضكم بعضاً وكنتم تَنَاصرون فى الدنيا ،

---

(١) الجيد : العنق . المسد : الحبل من الليف أو الخوص أو الشعر أو الوبر . وهو الحبل المضفور المحكم الفتْل ، قد لُوِى لَيًّا شديداً . [لسان العرب – مادة : مسد] .

الأتباع ينصرون السادة ، والسادة يُجنِّدون الأتباع ، وما أشبههم فى هذا الموقف بالمثل القائل : وافق شنٌّ طبقه ، أو قولنا (اتلم المتعوس على خايب الرجا) .

لذلك يقول تعالى بعدها : ﴿ بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [الصافات] أى : خاضعين منقادين أذلاَّء مُهانين ، ونحن نقول : رفع الراية البيضاء . يعنى : لم يَعُدْ لديه شىء من القوة يدافع بها عن نفسه ، ولا حجة ولا منطق ، إنه الآن قاعد فى ذِلَّة وصَغَار ، ينتظر أمر الله فيه .

﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ ۖ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾

تأمل هذه المواجهة بين التابع والمتبوع ، بعد أنْ ظهرت خيبة الجميع وتكشَّفَتْ الحقائق التى طالما أنكروها فى الدنيا وكذَّبوا بها ، إنهم الآن يُلْقى كل منهم بالمسئولية على الآخر ، ويتساءلون فيما بينهم .

﴿ قَالُوا ﴿٢٨﴾ ﴾ [الصافات] أى : الأتباع ﴿ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الصافات] اليمين يعنى من جهة اليمين ، واليمين منه اليمن والتيمن ، واليمين جهة الخير ؛ لذلك أمرنا النبى ﷺ بالتيمُّن[1] فى كل شىء ، فبها نُسلِّم ، وبها نأكل ونشرب ، ونتناول الأشياء ونكتب ، لأنها مُشرَّفة مُكرَّمة ، حتى العرب قديماً كانوا يتفاءلون بجهة اليمين لو طار الطيرُ ناحية اليمين .

---

(١) أخرج البخارى فى صحيحه (١٦٨ ، ٤٢٦ ، ٥٣٨٠) من حديث عائشة رضى الله عنها قالت : كان النبى ﷺ يعجبه التيمن فى تنعله وترجله وطهوره ، فى شأنه كله .

واليمين أيضاً من معانيها أنها مصدر القوة فى الفعل ، وغالبية الناس يستخدمون اليمين ، وهى عندهم الأقوى ، وقد سُئِلْنا مرة عن الذين يعملون بالشمال : هل ننهاهم عن ذلك ؟ نقول : العمل باليمين أو اليسار ليس مجرَّد تعوُّد ، إنما هو تكوين طبيعى فى الجسم ، ففى الجسم مركز يتحكم فى توزيع القوة ، فبعض الناس يميل مركز القوة عندهم ناحية اليمين ، فتكون يمينه أقوى من شماله ، وبعضهم العكس ، وبعضهم يتساوى عنده مركز القوة ، فيعمل باليمين ويعمل باليسار بنفس القوة ، وهذا يُسمُّونه (الأضبط)[1] مثل سيدنا عمر رضى الله عنه .

ومن معانى اليمين أيضاً الحلف والقَسَم . وهذه المعانى كلها واردة فى معنى هذه الآية ﴿ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الصافات] يعنى : من جهة الخير والحق لتصرفونا عنه ، أو من ناحية البطش والقوة لتجبرونا على الفعل ، أو بالحلف يعنى : تحلفون لنا أن هذا هو الطريق الصحيح ، لا طريق غيره .

ويرد المتبوعون على التابعين ﴿ قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الصافات] يعنى : ما أخرجناكم من الإيمان إلى الكفر ، بل كنتم بطبيعة الحال غير مؤمنين ، وبمجرد أنْ أشرنا إليكم سرْتم خلفنا وتابعتمونا ﴿ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الصافات] والسلطان إما سلطانُ قوة يقهركم على الفعل ، وإما سلطان حجة يقنعكم بالكفر ، فليس لنا عليكم لا سلطانُ قوة وقهر ، ولا سلطان حجة وإقناع .

﴿ بَلْ كُنتُمْ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الصافات] بطبيعتكم ﴿ قَوْمًا طَاغِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الصافات] أى : متجاوزين للحدِّ فى الكفر وفى الضلال . وهذه تعليمة إبليس يقولها

---

(١) الأضبط : هو الذى يعمل بيديه جميعاً ، يعمل بيساره كما يعمل بيمينه . قاله أبو عبيد . وهو الذى يقال له أعسر يَسَرٌ . [لسان العرب – مادة : ضبط]

لأتباعه فى الآخرة حين يتبرأ منهم ويُلقى عليهم مسئولية كفرهم ، كما حكاه القرآن الكريم : ﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم (٢٢) ﴾ [إبراهيم]

﴿ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ (٣١) فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ (٣٢) فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (٣٣) إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (٣٤) ﴾

معنى ﴿ فَحَقَّ (٣١) ﴾ [الصافات] أى : وقع ووجب ﴿ عَلَيْنَا (٣١) ﴾ [الصافات] أى : جميعاً التابع والمتبوع ، الجميع وجب له العذاب ، والحق هو الشىء الثابت الذى لا يتغير ، وهذا المعنى ورد فى القرآن بأساليب ثلاثة : ﴿ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ (٤٠) ﴾ [هود] ، و ﴿ حَقَّ الْقَوْلُ (٧) ﴾ [يس] ، و﴿ وَقَعَ الْقَوْلُ (٨٢) ﴾ [النمل]

فقد سبق منَّا أنْ أخبرنا بحدوث الشىء ، وقد تحقق بالفعل ما أخبرنا به وتحقُّقه بوَقْع يعنى : بقوة وبشدة . وقالوا : إن كلمة ﴿ وَقَعَ الْقَوْلُ (٨٢) ﴾ [النمل] لم تُستخدم إلا فى الشرِّ ، ما عدا مرة واحدة استُخدمت فى الخير ، وهى قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ .. (١٠٠) ﴾ [النساء]

وتأمل قوله سبحانه : ﴿ إِنَّا لَذَائِقُونَ (٣١) ﴾ [الصافات] ولم يقولوا مُعذَّبون أو مُحرَّقون ، لأن العذاب أو الإحراق يمكن أنْ ينتهى فى وقت من الأوقات ، أما الإذاقة فهى دائمة ومستمرة ، وهذا المعنى

واضح فى قوله تعالى : ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ[1] جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ (٥٦) ﴾ [النساء]

وقد اكتشفنا مُؤخَّراً أن الجلد هو مركز الإحساس لا المخ ، بدليل أنك حين تأخذ حقنة مثلاً تشعر بالألم بمجرد أن تنفذ الإبرة من منطقة الجلد ، وبعد ذلك لا تشعر بألم ، هذه الحقيقة قررها الحق سبحانه فى قوله : ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا (٥٦) ﴾ [النساء] لماذا ؟ ﴿ لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ (٥٦) ﴾ [النساء] فإذاقة العذاب فى نفس الجلد .

وقولهم : ﴿ فَأَغْوَيْنَاكُمْ (٣٢) ﴾ [الصافات] أى : دَلَلْناكم على طريق الغواية والضلال ، والغاوى هو الذى ضلَّ طريق الخير والحق ﴿ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ (٣٢) ﴾ [الصافات] والمعنى : إنْ كُنَّا نحن ضالين غاوين ، فلماذا نترككم للهداية وللإيمان ، لا بُدَّ أنْ تشربوا معنا من نفس الكأس ، وهذا منطق أستاذهم إبليس ، فلما عصى وطُرد من رحمة الله أقسم أنْ يُضِلَّ معه ذرية آدم ، ليكونوا مثله فى الضلال .

ثم يُنهى الحق سبحانه هذه المواجهة بين أهل الباطل ، ويقرر هذه الحقيقة ﴿ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ (٣٣) ﴾ [الصافات] أى : يوم القيامة ﴿ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (٣٣) ﴾ [الصافات] وهذه سُنّتنا فى أهل الضلال ﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (٣٤) ﴾ [الصافات] والمجرم هو الذى يُكذِّب بقضية الإيمان الأولى ، وهى التوحيد ؛ لذلك يصفهم الحق سبحانه فى الآية بعدها :

﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ (٣٥) وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ (٣٦) بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ (٣٧) ﴾

---

(١) نضجت جلودهم : المراد احترقت . [القاموس القويم ٢/ ٢٧٠]

قوله سبحانه : ﴿إِنَّهُمْ (٣٥)﴾ [الصافات] أى : الكفار الذين وُصفُوا بالإجرام ﴿كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إِلَـهَ إِلاَّ اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ (٣٥)﴾ [الصافات] أى : يستكبرون عن قبولها والتصديق بها ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا (٣٦)﴾ [الصافات] يعنى : منصرفون عن عبادتها ﴿لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ (٣٦)﴾ [الصافات] أى : من أجله ، ومن أجل دعوته .

وعجيب من العرب وهم أمة كلام يُقدِّرون الكلمة ويتذوَّقونها ، ويجعلون لها أسواقاً ومعارض ، ويُكرِّمون الشعر والشعراء ، لدرجة أنهم علَّقوا أجود قصائدهم على أستار الكعبة ، عجيب من قوم هذا حالهم أنْ يقولوا ﴿آلِهَتِنَا (٣٦)﴾ [الصافات] وهم يعلمون تماماً معنى الآلهة ومعنى العبادة ، فالإله يعنى المعبود فبأى حَقٍّ عُبِدَتْ الأصنام ؟ بماذا أمرتكم ؟ وعن أى شىء نهتْكم ؟ ما المنهج الذى جاءتكم به ؟

نعم هم يعلمون أنها جمادات ، لا تضر ولا تنفع ، لكن عبدوها بفطرة التديُّن فى الإنسان ، فالإنسان بطبعه مُتدين يحب أن يستند إلى قوة أعلى منه يلجأ إليها عند الشدة ، قوة تعينه على التجلُّد والتصبُّر للأحداث ، وقد وجدوا فى هذه الآلهة أنها آلهة بلا تكاليف وبلا متطلبات ، فعبدوها من دون الله .

ثم عجيبٌ منهم وهم أمة كلام ألاَّ يفرقوا بين كلام الله فى القرآن وبين الشعر ، وهم أعلم الناس به وبأوزانه وقوافيه ، فأين الشعر من كلام الله فى القرآن ؟ ثم عجيب منهم أنْ يتهموا رسولَ الله بالجنون ، وهم أعلمُ الناس به وبأخلاقه وصفاته وسيرته فيهم قبل بعثته ، وما أبعدَ الجنون عن الذى جمع محاسن الصفات وكريم الأخلاق !!

الجنون أنْ يتصرّف المجنون بجوارحه تصرُّفاً لا يمرُّ على العقل ، المجنون لا يفاضل بين الأشياء ، ولا يعرف الضَّارَّ من النافع ،

المجنون ليس له خُلُق ، لذلك يردُّ الحق عليهم ويدفع عن رسوله اتهاماتهم ، فيقول : ﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (١) مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (٢) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ (٣) وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤)﴾ [القلم]

لذلك يقول تعالى هنا : (بل) وهى للإضراب عن الكلام السابق ، يعنى : دَعْكَ من هذا الهُراء ﴿بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ(٣٧)﴾ [الصافات] بالشىء الثابت الذى لا يتغير ﴿وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ (٣٧)﴾ [الصافات] صدق مَنْ سبقوه من الرسل فى منهج الله .

﴿إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ (٣٨) وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٩)﴾ (١)

فى الآيات السابقة قال سبحانه حكايةً عن الظالمين قولَ المتبوعين لأتباعهم : ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ (٣١)﴾ [الصافات] وهنا يؤكد هذا المعنى ، إلا أنه يُصرِّح هنا بنوع الإذاقة ﴿لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الأَلِيمِ (٣٨)﴾ [الصافات] وهذا العذاب الأليم ليس ظلماً ولا تعدياً ، إنما جزاء ما قدَّمتم : ﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٩)﴾ [الصافات] .

وبعد الحديث عن أهل الكفر واللَّدَد وأهل الإجرام والعناد ، وبيان مصيرهم ، وما ينتظرهم من الجزاء يُتبع الحق سبحانه هذا بالحديث عن أهل الإيمان الذين أخلصوا العبادة لله ، والجمع بين المتقابلين أسلوب من أساليب القرآن ، كما فى قوله سبحانه : ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (١٤)﴾[الانفطار] وبضدِّها تتميز الأشياء ، والشىء بعد

---

(١) حذفت النون من (ذائقون) تخفيفاً ، وأضيفتْ لما بعدها . القرطبى فى تفسيره (٥٧١٥/٨) .

ذكر مقابله يتبين حُسْنه ، كما قال الشاعر[١] واصفاً محبوبته :

فَالوَجْهُ مِثْلُ الصُّبْحِ مُبْيَضٌّ ... والشَّعْرُ مِثْلُ اللَّيْلِ مُسْوَدُّ

ضِدَّانِ لَمَّا اسْتَجْمَعَا حَسُنَا ... والضِّدُّ يُظْهِرُ حُسْنَهُ الضِّدُّ[٢]

لذلك يذكر الحق سبحانه ما أعدَّه للمؤمنين المخلصين ، بعدما ذكره من جزاء الظالمين المكذِّبين ، لينشىء الحسرة فى نفوسهم ، فتكون عذاباً جديداً يضاف إلى عذابهم فى النار.

يقول تعالى :

﴿ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (٤٠) أُولَٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ (٤١)
فَوَاكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ (٤٢) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٤٣) عَلَىٰ سُرُرٍ[٣] مُّتَقَابِلِينَ (٤٤)
يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ[٤] (٤٥) بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ (٤٦)
لَا فِيهَا غَوْلٌ[٥] وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ (٤٧) ﴾

---

(١) هو : أبو الشيص الخزاعى ، محمد بن على بن عبدالله ، شاعر سريع الخاطر رقيق الألفاظ ، ولد (١٣٠ هـ) ، من أهل الكوفة ، غلبه على الشهرة معاصراه صريع الغوانى وأبو نواس. هو ابن عم دعبل الخزاعى ، عَمِى فى آخر عمره ، قتله خادم لعقبة فى الرقة (توفى ١٩٦هـ) . [الموسوعة الشعرية]

(٢) البيتان من قصيدة لأبى الشيص الخزاعى من بحر أحذّ الكامل ، عدد أبياتها ٦٦ بيتاً ، ولكن لفظ البيت (منبلج) وليس (مبيض) .

(٣) مما ورد فى هذا ما ذكره ابن القيم فى كتابه « حادى الأرواح إلى بلاد الأفراح » (ص٢٤٥) وعزاه لابن أبى الدنيا من حديث أنس أن رسول الله ﷺ قال : « إذا دخل أهل الجنة الجنةَ فيشتاق الإخوان بعضهم إلى بعض . قال : فيسير سرير هذا إلى سرير هذا ، وسرير هذا إلى سرير هذا ، حتى يجتمعا جميعاً ، فيقول أحدهما لصاحبه : تعلم متى غفر الله لنا ؟ فيقول صاحبه : يوم كنا فى موضع كذا وكذا فدعونا الله فغفر لنا .

(٤) قال الزجاج : (بكأس من معين) أى : من خمر تجرى كما تجرى العيون على وجه الأرض ، والمعين : الماء الجارى الظاهر . [القرطبى فى تفسيره ٥٧١٧/٨].

(٥) أورد السيوطى فى الدر المنثور (٨٧/٧) عن قتادة : (لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون) قال : لا تُذهِب عقولهم ، ولا تصدع رؤوسهم ، ولا توجع بطونهم ، عزاه لعبد الرزاق وابن =

سبق الحديث عن جزاء الكافرين ، وهنا استثناء ﴿إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (٤٠)﴾ [الصافات] فهم مُسْتَثْنون بعيدون من هذا المصير ، وكلمة ﴿الْمُخْلَصِينَ (٤٠)﴾ [الصافات] جمع مخلَص بالفتح ، فهى اسم مفعول . يعنى : الذين أخلصهم الله واصطفاهم لطاعته وعبادته ﴿أُوْلَـئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ (٤١)﴾ [الصافات] أى : فى الآخرة لأن رزق الدنيا ليس معلوماً ؛ لأنك تكدُّ وتتعب فى الدنيا ، وقد تُحرَم ثمرة هذا الكَدِّ ، فالزراعة قد تبور ، والتجارة قد تخسر .

إذن : لنا رزق فى الدنيا ، لكنه غير معلوم ، أما فى الآخرة فرزْقُكَ معلوم مُخصَّص لك لا يتخلف أبداً ، ولا تحول دونه الأسباب ؛ لأنك تعيشُ فى الآخرة - كما قلنا - مع المسبِّب سبحانه .

وسبق أنْ عرّفنا الرزق وقلنا : إنه كلُّ ما يُنتفَعُ به ، حتى ما يُؤخذ من الحرام يُعَدُّ رزقاً ؛ لذلك قال تعالى : ﴿يَـأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ (١٧٢)﴾ [البقرة]

ثم ينتقل السياق إلى تفصيل ما أجمل فى كلمة (رزق) . وأهم رزق ينتفع به المرء هو القُوت الضرورى الذى به قوَام حياته ، ثم التفكّه بما يُرفِّه هذه الحياة ، لكن الحق سبحانه هنا لم يذكر الضروريات ، إنما ذكر الترف الزائد على الضروريات ﴿فَوَاكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ (٤٢)﴾ [الصافات] مع أنه فى مواضع أخرى ذكر الضروريات ، ثم أتبعها بالفاكهة والتَّرَفيات ، مثل قوله سبحانه : ﴿لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ

= أبى شيبة وابن جرير وابن أبى حاتم .

- وعن ابن عباس قال : فى الخمر أربع خصال : السُّكْر والصداع والقىء والبول . فنزَّه الله خمر الجنة عنها (لا فيها غول) لا تغول عقولهم من السُّكْر (ولا هم عنها ينزفون) لا يقيئون عنها كما يقىء صاحب خمر الدنيا عنها ، والقىء مستكره . عزاه السيوطى فى الدر المنثور (٧/٨٨) لابن أبى حاتم وابن مردويه .

وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلا يَشْكُرُونَ (٣٥) ﴾ [يس]

إذن : لماذا اقتصر الكلام هنا على الفاكهة فحسب ؟ قالوا : لأن الكلام هنا عن الآخرة ، والأكل فى الآخرة لا يكون عن حاجة إلى الطعام ، إنما يكون متعةً وتفكُّهاً بالأكل . أو : يكون المراد أن الله تعالى ما دام قد ضمن لك التفكُّه ، فمن باب أوْلَى ضمن لك القُوتَ الضرورى .

ومعنى ﴿ وَهُم مُّكْرَمُونَ (٤٢) ﴾ [الصافات] أى : أنهم لا يُرْمَى لهم الأكل ليأكلوا ، كما نرمى الحشيش للبهائم مثلاً ، لا نقصد بذلك إكرامهم ، إنما يُسَاق لهم هذا الرزق ﴿ وَهُم مُّكْرَمُونَ (٤٢) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٤٣) ﴾ [الصافات] لأنه رِزْقُ المحبِّ لأحبابه .

وقوله تعالى : ﴿ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ (٤٤) ﴾ [الصافات] يعنى : لا يكلِّفهم مشقة التزاور ، فالسُّررُ التى يجلسون عليها متقابلةٌ ، بحيث إنْ أردتَ أنْ تزورَ أخاً لك تجده أمامك ، دون أن تنتقل إليه ، فهذه مسألة مضمونة .

﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ (٤٥) ﴾ [الصافات] ، وفى آية أخرى بيَّن سبحانه الذين يطوفون بهذه الكأس ﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ (١٧) بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ (١٨) ﴾ [الواقعة]

الكأس يُرَاد بها الخمر أو القدح الذى يُوضَع فيه الخمر ﴿ مِّن مَّعِينٍ (٤٥) ﴾ [الصافات] يعنى : من شىء تراه بعينيك ، أو من عيون تجرى كما تجرى عيون الماء . ثم يصف هذه الخمر بأنها (بيضاء) والبيضاء هى أصْفى أنواع الخمر عند العرب .

﴿ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ (٤٦) ﴾ [الصافات] ولم يقُلْ لذيذة . إنما (لَذَّةٍ) أى :

هى فى ذاتها لذّة ، وكأن اللذة تجسدتْ فى هذه الكأس ، كما تقول : فلان عادل . فإنْ أردتَ المبالغة فى هذا الوصف قُلْتَ : فلان عَدْلٌ .

ووصف الخمر فى الآخرة بأنها ﴿لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ (٤٦)﴾ [الصافات] ليُفرِّق بينها وبين خَمْر الدنيا ، لأن خمر الدنيا كما نراهم يشربونها فى الأفلام لا تُشرَب للذة ، لأنه يضع القليل منها فى الكأس ، ثم يصبُّها فى فمه صَبّاً ، ويتناولها على مَضَضٍ لكراهية طعمها .

لكن طالما أن خمر الدنيا لا لذَّةَ فى تعاطيها ، فلِمَ يشربونها ؟ يشربونها للأثر الذى ينشأ منها من اختلال العقل الذى يُعَدُّ حارساً على الحركة ، وهم يريدون الانطلاق والحرية من هذا الحارس ؛ لذلك فأجوَدُ أنواع الخمر عندهم والعياذ بالله ، هذه التى تُغيِّبه عن وَعْيه ، وتفعل به كذا وكذا .

أما خمر الآخرة فلا يجمعها بهذه إلا اسمها فحسْب ، خمر الآخرة لذَّةٌ ، تشعر بها حين تتناولها ، وتأخذها رشفةً رشفةً على مهل لتتذوَّقَ حلاوتها ، ثم هى لا تذهب بالعقل ولا تغتاله ﴿لا فِيهَا غَوْلٌ (٤٧)﴾ [الصافات] أى : لا تغتال العقول ، ولا تذهب بها .

﴿وَلا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ (٤٧)﴾ [الصافات] نقول : انزف الحوض . يعنى : أفرغه من الماء بالتدريج إلى نهايته ، ونزفَ الدمُ يعنى : سَالَ من الجسم واحدة واحدة ، إلى أنْ يموتَ الإنسان .

ومن أنواع الخمر ما يُسبِّب نَزْفاً لما فى البطن ، بحيث يفرغ شاربها كل ما فى بطنه ، ويُخرِج كلَّ ما فى جَوْفه . أما خمر الآخرة فلا تُسبِّب هذا النزف .

أو : يكون المعنى ﴿وَلا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ (٤٧)﴾ [الصافات] أى :

لا تُستنزف عقولهم ، ولا يَسْكَرون بسببها ، كما تُسكِر خَمْر الدنيا[١] .

﴿ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾ ﴾

هذا وَصْف لنساء الجنة فهُنَّ ﴿ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ .. ﴿٤٨﴾ ﴾ [الصافات] يعنى : تغضّ بصرها ، فلا تنظر إلى غير زوجها ، وقلنا : إن أغلى ما يتملّكه الإنسان يمكن أنْ يهبه لغيره ، فأنت تُعِيرُ صاحبك سيارتك مثلاً أو بيتك أو ثوبك .. الخ

أما المرأة فهى الشىء الوحيد الذى لا تقبل مجرد النظرة إليها ، لِمَا لها من خُصُوصية ومنزلة ، كذلك تحبُّ من زوجتك ألاَّ تمتدَّ عَيْنُها إلى غيرك ، وهذه من صفات أهل الجنة فَهُنَّ ﴿قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ .. ﴿٤٨﴾ ﴾ [الصافات] تقصر نظرها على زوجها ، وهُنَّ كما فى آية أخرى : ﴿ حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ ﴾ [الرحمن] يعنى : مأسورات محفوظات لأزواجهن .

فالحق سبحانه يحفظ حُسْن المرأة ، ويحرص على التكوين العفيف فى المجتمع ، ليأتىَ النسْلُ شريفاً طاهراً ، وهذه المقاييس التى للمؤمنة فى الدنيا هى كذلك فى الآخرة ، فكأن الحق سبحانه يُطمئن الأزواج على هذه الخصوصية ، ويؤكد أن الزوجة فيها لا يشاركه فيها أحد ، ولو حتى بالنظرة .

---

(١) عن ابن عباس قال : (لا ينزفون) : لا يسكرون . ومجاهد : لا تذهب عقولهم . (أخرجه هناد وعبد بن حميد وابن أبى حاتم) . وعن سعيد بن جبير : لا مكروه فيها ولا أذى . (أخرجه عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم) . أورد هذه الآثار السيوطى فى الدر المنثور (٨٨/٧) .

ومعنى ﴿عِينٌ ﴿٤٨﴾﴾ [الصافات] عين جمع عَيْناء . يعنى : واسعة العينين مع حُسْنهما ، وهذه من علامات الملاحة والحُسْن فى المرأة عند العرب ؛ لذلك من المقاييس التى وضعوها للجمال أنَّ العين تكون واسعة ، والفم ضيق ، بحيث إذا قِيسَتْ عينها بفمها ، كانت عينُها أوسع .

ومعنى (عندهم) يعنى : فى حَوْزتهم ؛ لأنها من مَتَاع الجنة ، فمَن اشتهى منهن شيئاً وجده وإلاَّ ترفَّع عنها ، لكن هى موجودة عندهم .

ثم يصفهُنَّ سبحانه بقوله : ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾﴾ [الصافات] كلمة ﴿بَيْضٌ ﴿٤٩﴾﴾ [الصافات] جمع بيضة ، والمراد بيضة النعام[1] ؛ لأنها أكبر وأجمل فى اللون . ويقولون لمن يحمى الجمَال فى قبيلته : يحمى بيضتها ؛ لذلك وصف البيض هنا بأنه ﴿مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾﴾ [الصافات] مُصَان مستور لم تُمَدّ إليه يَدٌ .

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾﴾

سبق أن استمعنا إلى حوار دار بين الكافرين المجرمين فى النار.

وهنا يحكى لنا الحق سبحانه هذا الحوارَ بين أهل الجنة يتساءلون عن أهل الظلم ، وأهل الضلال والغواية وأهل التكذيب ، أين هم الآن ؟ وما مصيرهم ؟

---

(١) قال الحسن وابن زيد : شبَّهن ببيض النعام ، تُكنّها النعامة بالريش من الريح والغبار ، فلونها أبيض فى صفرة ، وهو أحسن ألوان النساء . نقله القرطبى فى تفسيره (٨/٥٧١٩)، وذكره السيوطى فى الدر المنثور (٧/٨٩) وعزاه لابن أبى حاتم عن زيد بن أسلم .

﴿ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ (٥١) ﴾ [الصافات] من أهل الجنة ﴿ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ (٥١) ﴾ [الصافات] أى : صاحبٌ فى الدنيا ﴿ يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ (٥٢) ﴾ [الصافات] أى : بالبعث ﴿ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ (٥٣) ﴾ [الصافات] يعنى : محاسبون . وهذا السؤال منه على سبيل التكذيب والإنكار لقضية البعث والحساب .

﴿ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ (٥٤) فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٥٥) قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ (٥٦) وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (٥٧) ﴾

القرآن يُصوِّر لك هذا الموقف كأنك تراه ، ويحكيه كأنك تسمعه ، فبينما أهل الجنة مشغولون فى تساؤلهم عن أهل الضلال ممَّنْ كانوا يعرفونهم فى الدنيا ، إذ نظر أحدهم فاطلع على أهل النار ، فرأى صاحبه الذى حاول أنْ يُضِلَّه ، صاحبه المكذِّب بالبعث وبالحساب .

فقال لجلسائه : انظروا هذا فلان فى النار .

﴿ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٥٥) ﴾ [الصافات] أى : فى وسطها ، فلا أملَ له فى النجاة منها ، عندها تذكَّر المؤمنُ نعمةَ الله التى شملتْه وأنقذتْه من هاوية الضلال ، التى كاد أنْ يُوقعه فيها صاحبه ، فقال مخاطباً هذا القرين : ﴿ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ (٥٦) ﴾ [الصافات] أى : تُهلكنى معك ﴿ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي .. (٥٧) ﴾ [الصافات] أى : تداركَتْنى وأنقذتنى

---

(١) سواء الشىء وسواه وسُواه : وسطه . [لسان العرب مادة : سوا] وقال ابن مسعود : أى فى وسط النار والحسك (الشوك) حواليه . [نقله القرطبى فى تفسيره (٥٧٢٢/٨)] .

﴿لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (١) (٥٧)﴾ [الصافات] أى : الذين تحضرهم الملائكة للعذاب ، وهنا تزداد فرحة المؤمنين بإيمانهم ، ويزداد شكرهم لله واعترافهم بفضله ، ولا يُنغِّص عليهم هذه الفرحةَ إلا الخوفُ من الموت وفوات هذا النعيم ، فيقولون :

﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ (٥٨) إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٥٩) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٠) لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ (٦١)﴾

فهم إذن يخافون فواتَ هذا النعيم ، فيتساءلون ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ (٥٨) إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ (٥٩)﴾ [الصافات] يعنى : ألسنا سنموتُ مرة أخرى ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٥٩)﴾ [الصافات] أى : بعد ما نحن فيه من النعيم ، أليس هناك شىء آخر نُحَاسَب ونُعذَّب عليه ، كأن أمنيته أنْ يظلَّ على هذه الحال من التنعُّم ، فلا يفوته لا بموت ولا بتغيُّر الحال من النعيم إلى العذاب .

﴿إِنَّ هَٰذَا (٦٠)﴾ [الصافات] أى : ما نحن فيه من النعيم الدائم الذى لا ينقطع ولا يزول ، ولا يأتى بعده حساب آخر ولا عذاب ﴿لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٠)﴾ [الصافات] ولا شك أن هذه غاية ينبغى أن يعمل لها كل عامل ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ (٦١)﴾ [الصافات]

فكأن الحق سبحانه يحكى لنا هذا الموقف من الآخرة ليُبيِّن لنا أثر الإيمان وعاقبةَ العمل الصالح ، ويستحضر لنا ما يحدث فى اليوم الآخر ،

---

(١) المحضرين : المرغمين على الحضور ، يُحضرهم الملائكة للعذاب . [القاموس القويم - مادة : حضر] . وقال الماوردى : أحضر لا يُستعمل مطلقاً إلا فى الشر . نقله القرطبى فى تفسيره (٥٧٢٣/٨) .

لنأخذ من ذلك العبرة والعظة ، فكلُّ عمل يُؤدِّى إلى هذه العاقبة سَهْل هَيِّن ، مهما تحمَّلْنا فيه من مشَاقَّ ومتاعب ، وهو مكسب لا خسارةَ فيه .

﴿ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ (١) ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا (٢) كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿٦٥﴾ ﴾

الآيات هنا تراوح بين ذكْر الجنة وما فيها من النعيم ، وذكْر النار وما فيها من العذاب ، فتعود مرة أخرى إلى جهنم وعذابها ووَصْف ما فيها ﴿ أَذَٰلِكَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [الصافات] أى : ما سبق ذكْره من نعيم الجنة ﴿ خَيْرٌ ﴿٦٢﴾ ﴾ [الصافات] أفضل ، فهى بمعنى أفعل التفضيل . ﴿ نُّزُلًا ﴿٦٢﴾ ﴾ [الصافات] أى : مَنْزِلاً وضيافةً .

فالنُّزُل مَا يُعَدُّ للضيف الطارىء من مسكن ، فيه مُقوِّمات الحياة من مأكل ومشرب وخلافه ، لذلك يسمون الفندق (نُزُل) ، والفنادق مع ما فيها الآن من سبل الراحة هى ما أعدَّه البشر للبشر ، فما أدراك بما أعدَّه ربُّ البشر ؟ لا بُدَّ أنْ تكون الضيافةُ على قدر إمكانات المضيف .

---

(١) شجرة الزقوم مشتقة من التزقم ، وهو البلع على جهد لكراهتها ونَتْنها . واختُلف فيها : هل هى من شجر الدنيا التى تعرفها العرب أم لا ؟ على قولين :

أحدهما : أنها معروفة من شجر الدنيا . ومن قال بهذا اختلفوا فيها ، فقال قطرب : إنها شجرة مُرّة تكون بتهامة من أخبث الشجر . وقال غيره : بل هو كل نبات قاتل .

الثانى : أنها لا تُعرف فى شجر الدنيا . فلما نزلت هذه الآية فى شجرة الزقوم قال كفار قريش : ما نعرف هذه الشجرة . فقدم عليهم رجل من إفريقية فسألوه فقال : هو عندنا الزبد والتمر . [نقله القرطبى فى تفسيره ٨/٥٧٢٤)

(٢) طلعها : ثمرها ، سُمِّى طَلْعاً لطلوعه .

﴿أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ (٦٢)﴾ [الصافات] وطبيعى أن نسألَ : ما هى يا ربّ شجرةُ الزَّقُّوم ؟ فيصفُها الله لَنَا ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ (٦٣)﴾ [الصافات] فتنة بمعنى : محنةَ وعذاب ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ (٦٤)﴾ [الصافات] أى : فى وسطها .

وهذا مظهر من مظاهر طلاقة القدرة ـ فلا تسأل عن كيفية نُمو شجرة فى وسط النار ؛ لأن الفاعل هو الله عز وجل . إذن : خُذْها فى إطار تنزيه الحق عن قوانين الخَلْق .

ومعنى ﴿طَلْعُهَا (٦٥)﴾ [الصافات] أى : ثمرها ﴿كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ (٦٥)﴾ [الصافات] لكن نحن لم نَرَ رءوس الشياطين ، لذلك وقف بعض المستشرقين الذين يحاولون الاستدراك على كلام الله ، وقف يقول :

كيف يُشبِّه اللهُ فى هذه الآية مجهولاً بمجهول ، فنحن لم نَرَ شجرةَ الزقوم ، ولم نر رءوس الشياطين ، والتشبيه يأتى لتوضيح المشبّه بذكر المشبَّه به ، فما فائدة أنْ تُشبه مجهولاً بمجهول ؟

نقول : مُخ الإنسان فيه جزء للحافظة ، وجزء للذاكرة ، وجزء للتخيُّل يُسمَّى مُخَيلة ، فالإنسان يرى الأشياء ، فتسجلها الحافظة فى حاشية الشعور ، ثم الذاكرة تستدعى له هذه الأشياء ، أما المخيلة فتأخذ من واقع الأشياء وتكوِّن صوراً جديدة مُتخيَّلة ، لا أصلَ لها فى الواقع .

هنا أنت مع هذا التشبيه ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ (٦٥)﴾ [الصافات] مع أنك لم تَرَ رءوس الشياطين ، إلا أن خيالك سيرسم لها صورة على أبشع ما يكون ، وعندها سيتضح لك الفارق بين النُّزُل الذى أعَدَّهُ الله للمؤمنين فى الجنة وهذه الشجرة التى ثمارها كرءوس الشياطين ، فالجمع بين هاتين الصورتين مقصود ، فكأن ربّكَ عزَّ وجلَّ أراد أنْ يسوقَ لك العظَة فى وقت الجزاء المشهود ، لا فى وقت التكذيب .

وشجرة الزقوم شجرة خبيثة، مُنتنة الرائحة ، مُرَّة الطَّعْم ، موجودة فى منطقة تهامة ، جعلها الله مثلاً للشجرة التى تنبت فى أصل الجحيم . قالوا : هذا بمثابة تقريع للمعذَّبين بهذه الشجرة ، لأنهم كانوا يُكذِّبون بالبعث وبالحياة بعد الموت ، فجعل الله لهم هذه الشجرة تنبت فى وسط جهنم وفيها طعامهم ، فلا طعام لهم غير ثمرها .

والشجرة تعنى الخضرة والمائية ، ومعلوم أن المائية تنافى النار، وفى هذا إشارة إلى طلاقة القدرة التى كذَّبوا بها فى الدنيا . إذن : كَوْن هذه الشجرة فى أصل الجحيم ، وهم يعيشون على ثمرها ويحتاجون إليها وهى شاخصة أمامهم ، هذا كله تقريع لهم على ما كذّبوا به .

وهذه المسألة تُذكِّرنا بسيدنا إبراهيم - عليه السلام - حين أُلْقِى فى النار ، فجعلها الله عليه بَرْداً وسلاماً ، وعطَّل بقدرته تعالى قانون الإحراق .

الحق سبحانه يريد أنْ يُبشِّع صورة هذه الشجرة ، مع أن العرب يعرفون شجرة بهذا الاسم ، ويعرفون خُبْثها ونَتْن ريحها ومرارة طَعْمها ، ويعرفون طَلْعها البسيط ، لكن أحداً لم يَرَ الطَّلْع الذى يُشبه رءوس الشياطين .

إذن : المراد تبشيعه وإعطاء الفرصة للتخيُّل أنْ يذهبَ فى تصوُّر بشاعته كلَّ مذهب ، فطَلْع كل شىء يكون جميلاً ، بل هو أجمل ما فى الشجرة ، أما هذه فطَلْعُها كأنه رءوس الشياطين ، ولك أنْ تتصوَّر ما فيه من القُبح والدَّمَامَة والشكل المنفِّر .

ومعلوم أن العرب كانت تعتقد أن الشيطان أقبحُ صورة ، ويقابله

الملاك أحسن وأجمل صورة ، ومن ذلك قول النِّسْوة لما رأيْنَ يوسف عليه السلام : ﴿ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَـٰذَا بَشَرًا إِنْ هَـٰذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ (٣١) ﴾ [يوسف]

إذن : رَاعَى القرآن فى هذا التشبيه معتقدات العرب ، وجاء بصورة مجهولة . نعم لكن سيتصوَّرها كلٌّ واحد بمقاييس القبح عنده ، ولو أتى بمثَل محدَّد معروف فى القُبْح ، لكَانَ على لَوْنٍ واحد ، وربما كان قبيحاً فى نظر شخص وغير قبيح فى نظر الآخر ، لكن الحق سبحانه يريد منظراً مُقبَّحاً عند الكل ، ومَنْ مِنَّا يتصوَّر الشيطانَ جميلاً ؟

لذلك قلنا : إذا جئنا برسامى الكاريكاتير فى العالم ، وقلنا لهم : ارسموا لنا صورة تخيُّلية للشيطان ، فسوف يرسم كلٌّ منهم صورةً للقبح فى نظره ، ولن تجد فيها صورة مثل الأخرى . إذن : جاء تشبيه طلْع شجرة الزقوم برءوس الشياطين ، ليُشيعَ معانى القبح جميعاً فى النفوس ، وهذه الصورة كفيلة بأنْ تُنفِّرنا من هذه الشجرة.

وأصل الطَّلْع هو الكمُّ[1] الذى يحوى أول ثمرة للشجرة ، ويُقَال للكوز الذى يحوى ثمرة النخل وما يشبهها . فإذا خرجتْ منه الشماريخ ، وبانت استدارته وتكوينه يسمى (بلح) طالما كان أخضرَ اللون .

والبلحة لها ثلاثة أوصاف :

الأول : حجمها ، فإذا أخذتْ حجمها الطبيعى والنهائى يبدو دون لون ، فتتلوَّن إما حمراء أو صفراء ، وفى هذه المرحلة يقولون (البلح عَفَّرْ) ويسمونه (زهو) .

---

(١) الكمُّ والكُمُّ : غلاف الثمر والحب قبل أن يظهر . وهو وعاء الطلع ، وغطاء النَّوْر . فكُمُّ الطلعة قشرها ، ومن هذا قيل للقلنسوة كُمَّة لأنها تغطى الرأس ، ومن هذا كُمًّا القميص لأنهما يغطيان اليدين . [لسان العرب – مادة : كمم]

الثـانى : إذا استـقر اللون وكـمُلَتْ حُمْـرته أو صُفْـرته يُسمُّـونه (بُسْر).

الوصف الثالث : بـعد الحجم واللون يأتى القـوام : لين أو يابس بحسب البيئة ، فإنْ كانت حارة جافة ، فإنها تؤثر على البُسْر وتُجفِّفه ، فيتحول إلى تمر ، وإنْ كانت البيئة باردة رطبة صار البُسْر رطباً .

﴿ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ ﴾ (١)

معنى : ستـضطرهم الضرورة وتُلْجئهم لهـذا المثل المكدِّر المنكِّد لهم ، حـيث لا طعامَ لهم غـيرها ﴿ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا ﴿٦٦﴾ ﴾ [الصـافات] ولن يأكلوا على قَدْر الضرورة ، بل﴿ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [الصافات] وعندما يملأون منها بطونهم تَزْداد النارُ فيها ، فيريدون شراباً يُطفىء هذه النار ، فيكون شرابهم الحميم ، والعياذ بالله .

﴿ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ﴾ [الصافات] الشَّوْب هو الشـىء المخلوط المـمزوج ، والحميم هو الماء الذى بلـغ غايةَ الحرارة . وفى موضع آخر ، سمَّاه القرآن (الغسلين)(٢) هذا شرابهم والعياذ بالله ، فإذا ما أكلوا وشربوا عادوا لـلجحيم مرة أخرى : ﴿ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ ﴾ [الصافات]

ثم يُبيِّن الـحق سبحـانه علَّة ذلك ، وسبب هذا المـصيـر المؤلم ،

---

(١) الشَّوْب : الخَلْط . فـالشوب فى الآية : الخلط والمـزَاج [لسان العرب – مـادة : شوب] . قال السـدى : يُشاب (يُخلط) لهم الحمـيم بغساَق أعينهـم وصديد من قيحـهم ودمائهم . وقيل : يُمـزج لهم الزقوم بالحمـيم ليجمع لهم بين مـرارة الزقوم وحرارة الحـميم ، تغليظاً لعذابهم وتجديداً لبلائهم . [القرطبى فى تفسيره ٥٧٢٦/٨ ، ٥٧٢٧] .

(٢) قـال تعـالى : ﴿ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الحـاقـة] ، والغـسلين هـو صـديد أهل النار [التفسير الميسر] .

وأنه ليس ظلماً لهم ، إنما جزاء ما فعلوا :

﴿ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ (٦٩) فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ (٧٠) ﴾

يعنى : وجدوا آباءهم على ضلال ﴿ فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ (٧٠) ﴾ [الصافات] يعنى : يتبعون طريقهم ويُقلِّدونهم ، ومعنى ﴿ يُهْرَعُونَ (٧٠) ﴾ [الصافات] أى : يُزْعجون ويسرعون كأن شيئاً يحملهم على الإسراع ؛ لأن هذا الفعل (يُهْرَعُونَ) مبنى للمجهول . أى : لِمَا لم يُسَمَّ فاعله كما نقول : زُكم فلان ، فالفاعل غير معروف .

ولو كان الإسراع فى اتباع الآباء منهم لَقَال يَهرعون بالفتح ، إنما يُهرعون كأن شيئاً يدفعهم إلى تقليد الآباء ، ليبين لك سبحانه أن الشر أعدى ، لأنه لا تكليفَ للنفس فيه ولا حجزَ للشهوة ، لذلك يجرى الإنسان إليه ويُسرع فى طلبه .

أما الهدى والمنهج فلا يسرع إليه لأنه يُضيِّق عليه مجال الشهوات ، ويُقيِّد حركته فى إطار ما شرع الله ، إذن : هم يُقلِّدون الآباء وهم يعرفون أنهم ضالون لينفلتوا من قَيْد التكاليف الشرعية .

لذلك لما أخذ الله تعالى علينا العهد ونحن فى عالم الذر ، قال سبحانه : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣) ﴾ [الأعراف]

وقد حكى القرآن اعترافهم باتباع الآباء فى أكثر من موضع من

كتاب الله ، فقال سبحانه : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا (١٧٠) ﴾ [البقرة] ويردُّ عليهم ﴿ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ (١٧٠) ﴾ [البقرة]

فكأن الحق سبحانه يقول لهم : أنتم كاذبون فى هذا الادعاء . ولو كانت القضية عامة ، فلماذا لم تتبعوا أباكم آدم عليه السلام ، وقد جاء بمنهج وسار عليه ؟ فلو اتبعه القوم لقلَّدهم مَنْ بعدهم وهكذا ، ولاستمرَّ منهج الله ، إنما حكَمتكم الشهواتُ ، وسيطرتْ عليكم الرغباتُ ، فأخرجتكم عن منهج ربكم وخالفتم . ثم أليس منكم رجل عاقل يَعِى هذا الضلال ، ويأنف أنْ يتبعه ، ويبحث عن هدى ؟

﴿ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ (٧١) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ (٧٢) فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ (٧٣) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (٧٤) ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الأَوَّلِينَ (٧١) ﴾ [الصافات] يعنى : ليس هؤلاء بدعاً فى الضلال ، فقد ضلَّ قبلهم كثيرون ممَّنْ سبقوهم ، وهذا يعنى أن قلَّةً آمنتْ ، والكثرة ضلَّتْ ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ (٧٢) ﴾ [الصافات] يعنى : لم نتركهم على غفلتهم ، بل أرسلنا إليهم الرسل تنذرهم وتحذرهم .

وقلنا : إن فى ذات النفس البشرية مناعات ذاتيةً ، تعصم صاحبها من المعصية ومن الزَّلل ، حتى لو كان مُنفرداً عن الناس ، فإنْ ضعُفَتْ عنده هذه المناعة فخالف منهج الله تلومه النفس اللوَّامة الأوَّابة ، فتؤنبه حتى يتوب ويرجع ، فإنْ ألفَ المعصية وضعُفَتْ عنده

النفس اللوَّامة ، ولم يَعُد له رادع من ذات نفسه رَدَعَه المجتمعُ الآمر بالمعروف ، الناهى عن المنكر ، المجتمع الناصح الذى يقيم بين أفراده قوله تعالى : ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ③﴾ [العصر]

وفَرْق بين : وصُّوا وتواصَوْا ، تواصَوْا يعنى : يُوصى بعضكم بعضاً ، ففيها تفاعل بين أفراد المجتمع ؛ لأن المجتمعَ حتى المؤمن المتدين يتفاوتُ الناسُ فيه من حيث الاستقامة وتطبيق المنهج ، ولا بُدَّ أنْ يُوجَد فى المجتمع مَنْ يضعُف فيشذّ ، أو تصيبه غفلة ، فيجد مَنْ يُردعه ، ويجد مَنْ يُذكِّره حتى يعودَ إلى الجادة .

فإذا فُقِد الرادع من المجتمع ، وعَمَّ الفساد المجتمع قلنا : تدخلتْ السماء برسول جديد ومنهج جديد .

نحن نعرف أن الرسول يأتى بشيراً ونذيراً . لكن الحق سبحانه هنا خَصَّ الإنذار ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ⑦②﴾ [الصافات] لماذا ؟ قالوا : لأن دَرْءَ المفسدة مُقدَّم على جَلْب المنفعة ، وقلنا لتوضيح هذه المسألة : لو أن شخصاً يرمى لك تفاحة مثلاً ، وآخر يرميك بحجر لا شكَّ أنك ستدفع الحجرَ عن نفسك أولاً.

وقوله : ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ⑦③﴾ [الصافات] يعنى : تأمل نتيجة الإنذار ، فرسل الله أنذروا الجميع ، لكن هل انتفع الجميعُ بالإنذار ؟ لا بل منهم مَن انتفع به ، ومنهم مَنْ أعرض عنه ، لذلك جاء الحق سبحانه بعدها بهذا الاستثناء : ﴿إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ⑦④﴾ [الصافات] أى : الذين أخلصهم واصطفاهم لعبادته وطاعته ، وهم الذين انتفعوا بالإنذار .

وبعد أنْ تكلَّم الحق سبحانه عن موكب الرسل إجمالاً ، فقال : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ⑦②﴾ [الصافات] أراد سبحانه أنْ يتكلَّم عنهم

ببعض التفصيل ، فقال سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾

لكن ، لماذا بدأ بسيدنا نوح عليه السلام ؟ قالوا : لأن دعوته كانت أشبه بدعوة سيدنا رسول الله ﷺ ؛ لذلك قال تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴿١٣﴾ ﴾ [الشورى]

الحق سبحانه وَصَّى نُوحاً ، ووصَّى غيره من الرسل ممَّنْ هم أعلى منه ، ومع ذلك عطفهم عليه ، وجعله فى المقدمة . قالوا : لأن لنوح خصوصيةً هى فى البيئة التى كان فيها ، وفيمن آمن به ، فكان المؤمنون به هم الذين نجَوْا فى السفينة ، وهم وحدهم الموجودون فى العالم كله فى ذلك الوقت ، فكأن له عموميةَ رسالة بخصوص الموضوع ، ورسول الله ﷺ له عمومية رسالة ، لكن فى عموم الموضوع .

قوله سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ ﴿٧٥﴾ ﴾ [الصافات] كلمة (نَادَانَا) تدلُّ على أنه - عليه السلام - استنفد كل وسائله فى دعوة قومه ولم تفلح ، بدليل أنه قال فى موضع آخر كما حكى القرآن : ﴿ رَّبِّ لَا تَذَرْ

عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (٢٦) إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا (٢٧) ﴾ [نوح] وما دعا نوحٌ على قومه هذه الدعوة إلا بعد يأْسٍ منهم ، وبعد أنْ وجد أن أسبابه الإيمانية المحيطة به من أتباعه غير كافية ، فلمَنْ يلجأ إذن ؟ يلجأ لله ، لأنه وحده القادر على أنْ يُخلِّصه منهم ، فيناديه : يا ربِّ أنت بعثتنى فلا تتخلَّ عنى ، وهذه ظاهرة فطرية لكل مستنجد مستغيث ، فأنت حين يطرأ لك خطر ، لا تستطيع دفعه بقوتك وحيلتك تستنجد بأقرب الناس إليك ، فإن لم تجد تستنجد بالبعيد ، فإنْ عَزَّ المغيثُ تقول - كما قُلْنا سابقاً - (يا هوه) يعنى : يا ربِّ ليس غيرك يُغيثنى .

ثم يأتى جواب هذا النداء : ﴿ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ (٧٥) ﴾ [الصافات] لأنه - عليه السلام - كان نِعْمَ الداعى ، فلا بُدَّ أنْ يقابل بنعم المجيبون ، ولم يقُلْ : فلنعم المجيبُ ، لأن الحق يجيبه بجنوده فى الأرض مثل : الهواء والماء والملائكة .. ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ (٣١) ﴾ [المدثر] ونتيجة هذه الإجابة ﴿ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (٧٦) ﴾ [الصافات]

وهنا وقف المستشرقون يقولون : كيف وقد أهلك اللهُ ولده ، أليس من أهله ؟ لكن فى موضع آخر قَصَّ القرآن علينا قصة نوح عليه السلام وولده الذى شَذَّ عنه ، فغرق مع المغْرَقين ولم تُفلح توسُّلاتُ نوح : ﴿ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (٤٥) ﴾ [هود]

وهذا اللبس ناتج من أن الناس أغفلوا أنَّ بنوة الأنبياء ليستْ بنوة النسب ، إنما بنوة الإيمان بالله ؛ لذلك رَدَّ اللهُ على نوحٍ : ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ .. (٤٦) ﴾ [هود]

فالأهلية هنا أهليةُ عقيدةٍ وإيمانٍ بالله ، لا أهلية دمٍ ونسبٍ ؛ لذلك

إذا نظرتَ فى هذه الآية تجد الحق سبحانه لم يَنْفِ الذاتَ ، إنما نفى فعل الذات ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ .. (٤٦) ﴾ [هود]

لذلك قال النبى ﷺ : « .. لا يأتينى الناس بأعمالهم ، وتأتونى بأنسابكم وأحسابكم »[(١)]

وكلمة ﴿ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (٧٦) ﴾ [الصافات] المراد : الغرق ، والكرب هو : المكروه الذى لا تستطيع دفعه عن نفسك ، ولا يدفعه عنك مَنْ حولك حين تستغيثُ بهم ، فإنْ كان لك فيه حيلة للنجاة فلا يُسمَّى كَرْباً ، ووَصْف الكرب هنا بأنه عظيم ، لأنه جاء بحيث لا يملك أحدٌ دَفْعه ، فالماء ينهمر من السماء ، وتتفجَّر به الأرض ، ويغطى قِمَمَ الجبال ، فأين المفرُّ إذن ؟

ومعلوم أن الماء قوَام حياة كل حَيٍّ ، ومن أَجَلِّ نعَم الله علينا ، لكن إنْ أراد سبحانه جَعَلَ الماء نقمة وعذاباً ، وقد رأينا فى قصة سيدنا موسى - عليه السلام - كيف نجَّى اللهُ موسى بالماء ، وأهلك فرعونَ بنفس الماء .

وقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ (٧٧) ﴾ [الصافات] أى : الذين كانوا معه فى السفينة وهم المؤمنون بدعوته ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ (٧٨) ﴾ [الصافات] أى : فى الناس جميعاً من بعده يثنون عليه[(٢)] .

﴿ سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ (٧٩) ﴾ [الصافات]

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « يا فاطمة ، أنقذى نفسك من النار فإنى لا أملك لكم من الله شيئاً ، غير أن لكم رحماً سأبلُّها ببلالها » أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٠٤) كتاب الإيمان .

(٢) قال القرطبى فى تفسيره (٨/٥٧٢٩) عند تفسير هذه الآية : « أى : تركنا عليه ثناء حسناً فى كل أمة ، فإنه مُحبَّبٌ إلى الجميع ، حتى إن فى المجوس من يقول إنه أفريدون ، روى معناه عن مجاهد وغيره »

فالناس جميعاً عليهم حين يسمعون سيرة هذا النبى الذى تحمَّل فى سبيل دعوته المشاقّ ، ومكث فى دعوة قومه هذا العمرَ الطويلَ ، الذى خالف أعمار الناس أن يُسلِّموا عليه ، وينبغى حين نسمع ذِكْره أنْ نُسلِّم عليه ، فنقول : عليه السلام ﴿ سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ (٧٩) ﴾ [الصافات] أى : اعْطه السلامة والسلام ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٠) ﴾ [الصافات] يعنى : هذه سُنة لله مُتَّبعة فى أنبيائه ، أنْ ينصرهم ويُبقِى لهم الذكْرَ الحسن من بعدهم ﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (٨١) ﴾ [الصافات]

وقوله : ﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ (٨٢) ﴾ [الصافات] يعنى : الكافرين . وكلمة (الآخرين) إهمالٌ لهم ، واحتقارٌ لشأنهم .

﴿ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ (٨٣) إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٤) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ (٨٥) أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ (٨٦) فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٨٧) ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ (٨٣) ﴾ [الصافات] أى : أن إبراهيم - عليه السلام - كان من شيعة سيدنا نوح . يعنى : من أتباعه الذين تابعوه ، وساروا على منهجه . والشيعة هم الذين يُشايعون الإنسان على فكره فيؤمنون به ، بل ويحاولون أنْ يحملوا دعوته إلى الناس معه ، وأنْ يتحمَّلوا الأذى فى سبيل ذلك ، ومن هنا سُمِّيَتْ الشيعة المذهب المعروف الذين شايعوا الإمام علياً رضى الله عنه ، وتعلمون طبعاً الفرق بين الشيعة والشيوعية .

لكن ، لماذا بدأ الحق سبحانه هنا موكبَ الرسل بنوح - عليه السلام - ثم تبعه بإبراهيم - عليه السلام ؟

يقول سبحانه : ﴿إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٤)﴾ [الصافات] هذه هى العلة ؛ لأن سلامة القلب هى الأساسُ فى الدين وفى العقيدة ، لأن فطرة الله التى فطر الناسَ عليها ابتداءً مبنية كلها على هيئة الصلاح والسلامة ، فإنْ طرأ على هذه الفطرة فسادٌ فمن الإنسان .

لذلك مدح سيدنا إبراهيم بسلامة القلب ﴿إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٤)﴾ [الصافات] وهو القلب الذى فطر عليه أولاً ظل كما هو لم يتغيَّر ، فعاش به ، وجاء به ربه فى الدنيا ، لذلك يظفر به فى الآخرة : ﴿يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ (٨٨) إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩)﴾ [الشعراء]

فالسلامة الأولى التى فطره الله عليها استصحبها باستصحاب منهج الله ، فسلَم فى الدنيا ، فلقىَ اللهَ بقلْبٍ سليم فى الآخرة ، وهكذا وصف اللهُ نبيَّه إبراهيمَ على أحسن ما يكونُ الوصف .

وتأمل كلمة ﴿إِذْ جَاءَ رَبَّهُ (٨٤)﴾ [الصافات] فهى تُوحى بأن سيدنا إبراهيم لم ينتظر إلى أنْ يأتى له رسولٌ يدعوه ، إنما أقبل على الله بنفسه ، وجاء بفكره يبحث ويتأمل فى ملكوتِ السموات والأرض ، إلى أنِ اهتدى إلى الله .

لذلك لما أراد الله تعالى أنْ يُعرِّف نبيه إبراهيمَ ، وأنْ يُقدِّمه لمعشر الإيمان قال هذه البرقية الموجزة : ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا ..(١٢٠)﴾ [النحل]

تعلمون أن الحق سبحانه خلق المواهب ووزَّعها على الناس ، فكلٌّ منَّا له موهبة فى شىء ما ، ذلك ليظلَّ الناسُ مترابطين ترابطَ حاجة ، فتحتاج لى وأحتاجُ لك ، أما سيدنا إبراهيم فقد جمعَ وحاز كل

المواهب التى فى أمة كاملة ، فالمعنى ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً (١٢٠)﴾ [النحل] يعنى : حاز مواهب أمة .

لذلك استحق - عليه السلام - أنْ يُريه الله ملكوتَ السموات والأرض ، فالناس جميعاً يكتفون بعالم المُلْك ، أما هو فقد تجاوز هذا العَالمَ إلى عالم الملكوت ، لماذا ؟ لأنه جرَّد نفسه عن شبهة اليقين بأحد غيرِ الله ، بدليل أنه لما أُلْقِى فى النار وجاءه المَلَك يعرض عليه المساعدة : (ألكَ حاجة) ؟ فيقول سيدنا إبراهيم بما لديه من رصيد الإيمان واليقين بالله (أما إليك فلا)[1]. يقولها فى هذا الوقت العصيب ، وهذا الكرب المُلمّ .

وقوله سبحانه : ﴿إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ (٨٥)﴾ [الصافات] وهذه تُعَدُّ من سلامة القلب ، لأنه أحبَّ شيئاً وسَعد به ، فأراد أنْ ينقله إلى غيره وأوَّلهم الأقارب ، فهم أوْلَى الناس بأنْ تُعدِّى لهم خيرك ؛ لذلك أول ما دعا إبراهيم دعا أباه وقومه : ﴿إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ (٨٥)﴾ [الصافات]

وكلمة (لأبيه) وردتْ فى القرآن عشرَ مرات ، واحدة فقط منها لسيدنا يوسف - عليه السلام - فى قوله تعالى : ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ (٤)﴾ [يوسف] والتسع الباقيات لسيدنا إبراهيم بدايةً من سورة الأنعام إلى سورة الممتحنة ، من هذه التسع موضع واحد جمع فيه بين الاسم العلَم والوصف ، فقال : ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٧٤)﴾ [الأنعام]

وفى الثمان الباقيات جاءت كلمة (لأبيه) بدون ذكر آزر ، فكأن كلمة آزر جاءتْ فى هذا الموضع لتُشعرنا بشىء ، هو أنك إذا جمعتَ بين الوصف والعلَم ، فلا بُدَّ أنْ يكون الوصفُ مشتركاً مع غير العلَم ، وضربنا لذلك مثلاً قُلْنا : إذا أردتَ أنْ تسألَ عن شخص ، وقابلك ولده فى الشارع تقول له : أبوك موجود ؟

لأن هذا السؤال لا ينصرف إلا إلى أبيه الحقيقى ، فإنْ قلتَ : أبوك محمد موجود ؟ فإنك لا شكَّ تقصد عمه ، لأنك مَيَّزته باسمه لإزالة الاشتراك فى الأُبوّة .

إذن : آزر لم يكُن الأب الحقيقى لسيدنا إبراهيم ، إنما هو عمه ، ولا غرابةَ فى ذلك ، فالقرآن يُسمِّى العم أباً فى قوله تعالى : ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِى قَالُوا نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَـٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٣)﴾ [البقرة]

ومعلوم أن إسماعيل أخو إسحاق ، ومع ذلك أدخله فى جملة الآباء بالنسبة لسيدنا يعقوب ، عليهم جميعاً الصلاة والسلام .

وسيدنا إبراهيم فى معرض دعوته لأبيه وقومه يسألهم هذا السؤال : ﴿مَا تَعْبُدُونَ (٧٠)﴾ [الشعراء] وفى موضع آخر : ﴿مَاذَا تَعْبُدُونَ (٨٥)﴾ [الصافات] و ﴿مَا هَـٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِى أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (٥٢)﴾ [الأنبياء]

وهنا : ﴿مَاذَا تَعْبُدُونَ (٨٥) أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ (٨٦)﴾ [الصافات]

وهذه كلها استفهام إنكارى ، وقُلْنا : إن الاستفهام أقوى من الإخبار ؛ لأن الإخبارَ يمكن أنْ يُكذَّب ، أمَّا الاستفهام فيجعل الخصم يُقِرّ بالقضية ، ولا يستطيع أنْ يُكذِّبها .

والإفْك هو أقبح أنواع الكذب ؛ لأن القُبْح فى الكذب على مراحل ،

كيف ؟ قالوا : ننظر فى الموضوع الذى يكون فيه الكذب ، فإنْ كان فى الحقيقة العُلْيَا فى الذات الإلهية ، فهو أقبح الكذب كمَنْ يدَّعِى لله شريكاً .

فإنْ كان الكذب على البشر فهو بحسب مَنْ تكذب فى حَقه ، فمثلاً الذين اتهموا السيدة عائشة وخاضوا فى عِرْضها سَمَّاهُ الله إفْكاً لشناعته وعظَم منزلة مَنْ قيل فى حَقِّه هذا الكذب ، فقال سبحانه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ . . (١١) ﴾ [النور]

ومن معانى الإفك قَلْب الشىء على وجهه ، وقَلْب الحقيقة ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ (٥٣) ﴾ [النجم]

والمعنى : أتريدون آلهة إفكاً وكذباً دون الله ﴿ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٨٧) ﴾ [الصافات] أخبرونا ماذا تظنون فى الله ؟ وما الذى لا يعجبكم فى ألوهيته سبحانه ؟ وكيف تخدعون أنفسكم ، فتنصرفون عنه سبحانه ، وهو رَبُّ العالمين ، ومثَالُ ذلك قوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (٦) ﴾ [الانفطار]

لذلك قال أحد العارفين : كأن الحق سبحانه لقَّن الناسَ الجوابَ ، فالذى غَرَّنى بالله أنه كريم . والطُّرْفة هنا أن رجلاً رأى آخر يصلى صلاة على عَجَلٍ ، ينقرها نقراً ، فقال له : بالله لو عليك خمسة قروش لواحد ، يصح أنك تعطيها له ممسوحة ؟ فقال الرجل : والله ، لو كان كريماً سيقبلها ولا ينظر فيها .

فكأن الحق سبحانه يتعجَّب من هؤلاء الذين أشركوا به سبحانه ، مع وضوح الدليل على بُطلان شركهم ، والشىء لا يُتعجَّب منه إلا إذا جاء على غير ما يجب أنْ يكونَ عليه من الصِّدْق ؛ لذلك قال سبحانه

فى أول البقرة : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٨) ﴾ [البقرة]

يعنى : هذا أمر عجيب منكم ، ومسألة لا يقبلها العقل .

ثم بدأ سيدنا إبراهيم - عليه السلام - يُحقِّق قَوْلَ ربه : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ.. (٧٥) ﴾ [الأنعام] وسبق أنْ فرَّقْنا بين الملك والمُلك والملكوت .

يقول سبحانه :

﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ (٨٨) فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ (٨٩) فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ (٩٠) فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (٩١) مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ (٩٢) فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ (٩٣) فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ (٩٤) قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ (٩٥) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ (٩٦) ﴾

قوله تعالى عن سيدنا إبراهيم ﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ (٨٨) ﴾ [الصافات] هذه أولى خطوات إبراهيم إلى عالم الملكوت ، والنظرة هنا ليستْ هى النظرة الخاطفة العابرة ، إنما نظرة التأمُّل الفاحصة المتأنية ، فهى بمعنى رأى بتمعُّن واستنباط ، ومن ذلك قولنا : هذه مسألة فيها نظر . يعنى : تأمُّل وتأنٍّ . والنجوم مفردها نجم ، وهو كل مضىء فى السماء إضاءةً ذاتية ، لا أنْ يعكس ضوء الشمس ، وعليه فالشمسُ نَجْم من النجوم .

فقوله تعالى : ﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ (٨٨) ﴾ [الصافات] دلَّ على أنها نظرة طويلة مُتأملة مستوعبة ، لأنها استوعبتْ كوكباً وقمراً وشمساً . لذلك شرح لنا هذه النظرة فى موضع آخر ، فقال سبحانه :

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٧٩) ﴾ [الأنعام]

إذن : كانت نظرةُ إبراهيمَ طويلةً متأنيةً ؛ لأنها استغرقتْ طيلة مطلع الكوكب وغيابه ، ثم مطلع القمر وغيابه ، ثم مطلع الشمس وغيابها ، فلما رأى – عليه السلام – أن هذه المرائى لا تصلح لأنْ تكونَ آلهة تُعْبد ، قال : ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ (٨٩) ﴾ [الصافات] البعض يعدُّها كذبةً من كَذبات سيدنا إبراهيم أنه قال لقومه : إنى مريض .

إذن : أخذوا السُّقْم على أنه سُقْم الأبدان[1] والمراد هنا سُقْم القلب ، وشُغْله بما لا يستطيع الإنسانُ تحمُّله من إنكار القوم لمسألة الألوهية .. فهذه قضية تتعبه وتُؤرِّقه .

وهذا هو السُّقم الذى أراده سيدنا إبراهيم ﴿ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ (٨٩) ﴾ [الصافات] أى : مُجهد فكرياً من إنكار الناس لقضية الألوهية . إذن : إبراهيم عليه السلام لم يكُنْ ينظر فى النجوم ليرى دليلاً يقتنع هو به ، إنما يبحث عن دليل مادى فى الكون ينقله للناس .

لكن ، ما الذى أحوجه أنْ يقولَ للقوم : إنى سقيم ؟ قالوا : لأنهم كانوا فى يوم عيد يجتمعون فيه ، فقال : إنى سقيم لكى لا يخرج

---

(١) فَهُمْ تصوروا أن قوله لهم (إنى سقيم) : أى إنى مطعون أى : مصاب بالطاعون ، لذلك قال تعالى بعدها : ﴿ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ (٩٠) ﴾ [الصافات] أخرج ابن أبى حاتم عن سفيان فى قوله (إنى سقيم) قال : طعين ، وكانوا يفرون من المطعون . [الدر المنثور للسيوطى ١٠٠/٧]

معهم ، وليتفرغ هو لما عزم عليه من تحطيم الأصنام ، يقول تعالى : ﴿فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ (٩٠)﴾ [الصافات] أى : انصرفوا وتركوه .

﴿فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (٩١)﴾ [الصافات] معنى راغ : ذهب خُفيةً ، بحيث لا يراه أحد ، أو تسلَّل كمن يريد الانصراف من مجلس دون أن يشعروا به ، فيمشى خطوتين ثم يقف ، ثم يمشى ، ثم يتوارى خلف شىء وهكذا حتى يخرج ، وهذا المعنى نقوله بالعامية : فلان زوَّغ أو زاغ .

وسيدنا إبراهيم فعل ذلك وتسلل إلى آلهتهم ليحطمها ، لكن قبل أنْ يحطمها استهزأ بها ﴿فَقَالَ (٩١)﴾ [الصافات] أى : للآلهة ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ (٩١)﴾ [الصافات] فلم يُجيبوا ، فقال : ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ (٩٢)﴾ [الصافات] قالها سخريةً واستهزاءً بهم .

بعد ذلك مال عليهم ضرباً ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ (٩٣)﴾ [الصافات] وقلنا : إن اليمين جهة القوة . كما فى قوله سبحانه : ﴿قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ (٢٨)﴾ [الصافات] أى : من جهة القوة والقهر . والمعنى أن سيدنا إبراهيم أخذ يُحطمها بقوة ويُكسِّرها ، حتى أحدث التكسيرُ صوتاً عالياً سمعه القوم ﴿فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ (٩٤)﴾ [الصافات] أى : مسرعين .

فلما رآهم ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ (٩٥) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ (٩٦)﴾ [الصافات] الاستفهام هنا للتعجُّب وللاستنكار ، يقول لهم : كيف تعبدون إلهاً من صُنْع أيديكم تنحتونه من الصخور ، فأنتم أعلمُ الناس به ، وتروْنه يقع ، فتقيمونه فى مكانه ، وينكسر فتصلحونه ، ويجرفه السيل ويمرغه فى الوحل فتنتشلونه .

إذن : كيف يُعْبد مثل هذا الإله ، وكيف تنصرفون إلى عبادته ،

وتتركون عبادة الله الإله الحق الذى خلقكم ، وخلق ما تعملون ؟

وطبعاً ليس لديهم جواب لهذا السؤال ، وليس لديهم رَدٌّ على إبراهيم إلا ردّ القوة والبطش ، فلا حجَّةَ لديهم ، ولا منطقَ يدافعون به عن آلهتهم :

﴿ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾

تعلمون قصة النار التى أوقدوها ، ثم ألقوْا بنبىِّ الله إبراهيم فى وسطها ، هذا هو الكيد الذى أرادوه بإبراهيم ، وما كان الله تعالى ليبعثَ نبياً ثم يُسْلمه ، فردَّ الله كيدهم عليهم ﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ ﴾ [الطارق]

ومعنى ﴿ فَجَعَلْنَاهُمُ الأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾ [الصافات] أى : فى هذا المقام . وفى هذا الموقف الذى فعلوه بإبراهيم ، فليسوا الأسفلين لأنهم كفار ، إنما (أسفلين) لأنهم تعالَوْا على إبراهيم وتمكَّنوا منه ، وقدروا على إلقائه فى النار فعلاً وهى مشتعلة ، وظنوا ساعتها أنهم هم العالون .

لكن سرعان ما تكشفتْ حقيقة الموقف ، وظهرتْ الآية الكبرى التى أرادها الله تعالى ؛ فلو أراد الله لَنجَا إبراهيم ، فلم يتمكَّنوا من الإمساك به ، ولو أراد سبحانه لأمطرتْ السماء على النار فأطفأتها ، لكن أراد الله أنْ يُبطل حججهم ، فلو هرب إبراهيم من أيديهم لَقالوا : لو لم يهرب لأحرقناه ، ولو أمطرتْ السماء لقالوا : ظاهرة طبيعية لا دَخْلَ لنا بها .

لكن ها هو إبراهيم ، وها هى النار تشتعل ، ومع ذلك ينجو إبراهيم بعد أنْ جاء نداء الحق وكلمة الحق للخَلْق ﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِى بَرْدًا

وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) ﴾ [الأنبياء]

الخطاب من الله تعالى ، والأمر للنار على طبيعتها ، وبذات مواصفاتها ﴿ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا (٦٩) ﴾ [الأنبياء] لا فى ذاتك ، إنما ﴿ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) ﴾ [الأنبياء] فهذه خصوصية لهذه النار بالذات ، فهى فى ظاهرها مشتعلة ، وفى حقيقتها ﴿ بَرْدًا وَسَلَامًا (٦٩) ﴾ [الأنبياء] على إبراهيم ، فهى مثل شجرة الزقوم ، تبدو لهم شجرةً خضراءَ ، وهى نار تحرقهم .

وهكذا جعلهم الله فى هذا المقام ﴿ الْأَسْفَلِينَ (٩٨) ﴾ [الصافات] أى : فى الكيد الذى دبَّروه ، فهم يكيدون والله يكيدُ ، ولا بُدَّ أنْ يُؤخَذَ الكيدُ من خلال فاعله .

﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٩٩) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠٠) فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (١٠١) ﴾

لَمَّا لم يجد إبراهيم - عليه السلام - فائدة من دعوته لقومه ، قال : ﴿ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٩٩) ﴾ [الصافات] والمعنى ذاهب لنصرة دينه وإلا فربُّه موجود معه ، وفى كل مكان ، أو مهاجر إلى ربى . أى : إلى مكان آخر ، حيث أجد مَنْ يسمعنى ويستجيب لدعوتى ، وما دُمْتُ ذاهباً إلى ربى ﴿ سَيَهْدِينِ (٩٩) ﴾ [الصافات] أى : يهدينى المقام الطيب المناسب لدعوتى .

ثم يدعو إبراهيمُ ربَّه ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠٠) ﴾ [الصافات] أى : هَبْ لى ذريةً صالحةً مؤمنة ، ونبىُّ الله حين يتمنى الذرية لا يتمناها لتكون ذكْرى أو عزوة أو امتداداً ينتقل إليه الميراث ، فالأنبياء يريدون الولد ليَحمل رسالتهم ، وليكون نموذجاً إيمانياً يرثه في دعوته ؛ لذلك قال فى قصة سيدنا زكريا : ﴿ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا (٦) ﴾ [مريم]

فكأن سيدنا إبراهيم عَزَّ عليه ألاَّ يتسعَ عمره ليكون جندياً من جنود منهج الله فى الأرض ، فقال : يا رب قرّ عينى بأنْ أرى ولداً لى يحمل مسئولية النبوة من بعدى .

وقال ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠٠)﴾ [الصافات] ولم يقل رب هَبْ لى الصالحين ، فأراد من ذريته مَنْ هو صالح من ضمن صلاح غيره ، فهو يريد الصلاحَ لذريته وللآخرين ؛ لذلك أجابه ربه : ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (١٠١)﴾ [الصافات] الحليم : هو الذى لا يستفزه غضب ، ويتحمل الأمور على مقدار ما تطيب به أخلاقه ، ومن الحِلْم تَرْكُ المراء واللجاج ، ولو كان فى الحق .

لذلك جاء فى حديث سيدنا رسول الله ﷺ : « أنا زعيم[1] ببيت فى ربض الجنة لمن ترك المراء ، وإن كان محقاً .. »[2]

فهذا فى حاشية الجنة ، وهذا فى صميم الجنة ، لماذا ؟ لأنه يعتقد أن له رباً قيُّوماً لا تأخذه سِنَة ولا نوم ، سوف يحكم بين الجميع ، وإليه تنتهى كل الخلافات ، فيقتص للمظلوم من ظالمه . والناس يميلون دائماً إلى كبير يحكم بينهم ، ونقول فى العامية (اللى له أب ميحملش هم) ، فما بالك بمَنْ له رَبٌّ . لذلك من رحمة الله بنا أن يقول : يا عبادى ناموا ملء جفونكم ، لتصبحوا نشيطين لأعمالكم ، ولا تحملوا هَمَّ شىء ، لأن ربكم لا ينام .

---

(١) زعيم : كفيل . قال تعالى على لسان يوسف لإخوته : ﴿وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ (٧٢)﴾ [يوسف] أى : كفيل ضامن . [القاموس القويم ١/٢٨٧] .

(٢) أخرجه أبو داود فى سننه (٤٨٠٠) من حديث أبى أمامة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « أنا زعيم ببيت فى ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقاً ، وببيت فى وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحاً ، وببيت فى أعلى الجنة لمن حَسُن خلقه » .
– رَبَض الجنة : ما حولها خارجاً عنها تشبيهاً بالأبنية التى تكون حول المدن وتحت القلاع وقيل : وسطها . [لسان العرب – مادة : ربض]

وقوله سبحانه : ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (١٠١)﴾ [الصافات] البُشْرى بالشيء تكون قبل وجوده ، فوصفه الله بأنه سيكون حليماً وهو ما يزال غلاماً . يعنى : سيجمع الوصفين معاً ؛ لأن الحِلْم عادة ما يتكوَّن لدى الرجل الواعى الذى يستطيع تقدير الأمور ، فالمَيزة هنا أنْ يتصفَ الغلامُ بالحِلْم فى صغَره .

وفعلاً ظهر حِلْم هذا الغلام فى أول اختبار يتعرَّض له ، حين قال له أبوه : ﴿يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ (١٠٢)﴾ [الصافات] تأمل ماذا قال الغلام ، وأبوه يريد أنْ يذبحه ﴿قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢)﴾ [الصافات] هذا هو الحِلْم ، يتجلَّى منه وهو غلام .

﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ[1] فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ[2] لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧)﴾

---

(١) من هو الذبيح ؟ هل هو إسماعيل أم إسحاق ؟ قضية اختلف فيها الناس ، وذكر فيها القرطبى فى تفسيره (٨/٥٧٣٩ - ٥٧٤١) ثلاثة أقوال . ثالثهما قول الزجاج : الله أعلم أيهما الذبيح . وقد كان أميل إلى أنه إسحاق ، أما ابن كثير فى تفسيره (٤/١٤- ١٩) فقد ساق أدلة الجميع وفنَّد أدلة القائلين بأنه إسحاق ، وجزم بأن الصواب والصحيح أنه إسماعيل ، حتى بنص التوراة من أن إسماعيل أكبر من إسحاق بـ ١٣ سنة ، وأن إبراهيم أُمر بذبح وحيده البكر . وردَّ الأقوال المنسوبة إلى الصحابة . فليطلب تفصيل هذه المسألة فى مظَانِّها [عادل أبو المعاطى].

(٢) تلَّه للجبين : كبَّه على وجهه . [القاموس القويم].

هنا لم يتعرض السياق لحمل السيدة هاجر ولا ولادتها لإسماعيل ، إنما انتقل مباشرة من البشارة به إلى مرحلة بلوغه السَّعْىَ مع أبيه ، فقال سبحانه بعدها : ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْىَ .. (١٠٢) ﴾ [الصافات] ذلك لأن الحق سبحانه هو الذى يتكلَّم ، وهو الذى يحكى .

ومن البلاغة أنْ نترك ما يُعلم من السياق ، وهذه سمة من سمات الأسلوب القرآنى ، ففى قصة سيدنا سليمان - عليه السلام - والهدهد ، قال تعالى : ﴿ اذْهَب بِّكِتَابِى هَـٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ (٢٨) ﴾ [النمل] ، ثم يختصر السياق كثيراً من الأحداث ، ويقول : ﴿ قَالَتْ يَـٰأَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّى أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (٢٩) ﴾ [النمل] ولم يتعرض لرحلة الهدهد ، ولا لكيفية توصيل الخطاب إلى الملكة .

كذلك هنا : ﴿ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (١٠١) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْىَ (١٠٢) ﴾ [الصافات] فبلوغه السَّعْى دلَّ على أن البشارة تحققتْ ، ووُلد الغلام ، وبلغ مع أبيه السعى ، وفَرْق بين (بلغ السعى) عموماً ، وبلَغ مع أبيه السعى ؛ لأن الغلام لا يُكلَّف بالعمل إلا على قَدْر طاقته فى الحركة ، وعلى قَدْر عافيته وتحمُّله ، وإسماعيل فى هذا الوقت بلغ السعى مع أبيه فحسب ؛ لأنه لن يُكلِّفه أبوه الحنون إلا بما يقدر عليه من المصالح والأمور الحياتية ، فيفعل الغلامُ ما يقدر عليه ، ويترك ما لا يقدر عليه لأبيه ، ولو كان مع شخص آخر فربما كلَّفه بما لا يستطيع .

فلما بلغ الغلامُ هذا المبلغَ ﴿ قَالَ يَـٰبُنَىَّ إِنِّى أَرَىٰ فِى الْمَنَامِ أَنِّى أَذْبَحُكَ (١٠٢) ﴾ [الصافات] والمعنى : أرى فى المنام أنه مطلوب منى أنْ أذبحَكَ ، لا أنَّ الذبح تَمَّ فى المنام ، وانتهت المسألة بدليل رَدِّ إسماعيل ﴿ قَالَ يَـٰأَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِى إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢) ﴾ [الصافات]

وتأمَّل هنا الحلم على حقيقته ، وعظمة الرد فى هذا الامتحان الصعب ﴿قَالَ يَـٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ﴿١٠٢﴾﴾ [الصافات] ولم يقُلْ : افعل ما تريد ؛ لأن طاعته لأبيه هنا من باطن طاعته لله تعالى وامتثاله لأمر ربه ، فهو يدرك تماماً أن أباه مُتلَقٍّ الأمر من الله ، وإنْ جاء هذا الأمر فى شكل رؤيا . إذن : هو يعلم رغم صِغَره أن رؤيا الأنبياء وَحْىٌ حَقٌّ .

وسيدنا إبراهيم ينادى ولده ﴿يَـٰبُنَىَّ ﴿١٠٢﴾﴾ [الصافات] هكذا بالتصغير ، لأن بُنى تصغير ابن فلم يقل يا ابنى ، فقد أوثقه الحنان الأبوى ، وعرض عليه هذا الابتلاء ، وهو مشحون بعاطفة الحب لولده والشفقة عليه ، لأنه ما يزال صغيراً ، ومعلوم أن حنان الوالد يكون على قَدْر حاجة الولد ؛ لذلك المرأة العربية لما سُئِلَتْ : أىّ بنيك أحبُّ إليك ؟ فقالت : المريض حتى يشفى ، والغائب حتَى يعود ، والصغير حتَى يكبر[1] .

فقوله : ﴿يَـٰبُنَىَّ ﴿١٠٢﴾﴾ [الصافات] يعنى : أنا لا أعاملك معاملةَ النِّدِّ ، بل معاملة الصغير المحتاج إلى الحنان الأبوى ، فخذ أوامرى مصحوبة بهذه العاطفة الأبوية القلبية .

وقوله : ﴿فَٱنظُرْ ﴿١٠٢﴾﴾ [الصافات] يعنى : فكِّر ، وتدبَّر ﴿مَاذَا تَرَىٰ ﴿١٠٢﴾﴾ [الصافات] أى : فى هذه الرؤيا ، فكأن الصغير فى هذه المسألة مطلوب منه أمران : برّك بأبيك ، وبرُّك بربِّ أبيك ﴿قَالَ يَـٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ﴿١٠٢﴾﴾ [الصافات] ، فقوله ﴿ٱفْعَلْ﴾ برّ بأبيه . وقوله ﴿مَا تُؤْمَرُ﴾ برٌّ بربِّ أبيه .

---

(١) ذكره ابن عبد ربه فى (العقد الفريد) ، والمبرد فى (الكامل) ، والزمخشرى فى [المستقصى فى أمثال العرب] ، والميدانى فى [مجمع الأمثال] ، من كلام هوذة بن على الحنفى لكسرى ، وفى الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى ، والراغب الأصبهانى فى (محاضرات الأدباء) أنه لغيلان بن سلمة الثقفى .

ثم يؤكد سيدنا إسماعيل رغم صغَره فهمه لهذه القضية ، وإدراكه لهذا الابتلاء ، فيقول : ﴿ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢) ﴾ [الصافات] أى : على هذا البلاء ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا (١٠٣) ﴾ [الصافات] يعنى : هما معاً استسلما لأمر الله ، وأذعنَا لحكمه ، وسلَّم كلٌّ منهما زمام حركته فى الفعل لربِّه ، فإبراهيم همَّ بالذبح ، وإسماعيل انقاد ، وقال لأبيه ﴿ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢) ﴾ [الصافات]

والابتلاء فى حَقِّ سيدنا إبراهيم - عليه السلام - ابتلاءٌ مركَّب هذه المرة ، فقد ابتُلِىَ فى شبابه حين أُلْقى فى النار ، فنجح فى الابتلاء ، أما هذه المرة فالابتلاء وهو شيخ كبير ، جاءه الولد على كِبَر ، فهو أحبُّ إليه من نفسه ويُؤمَر بقتله .

وكان بوُسْع إبراهيم أنْ يذبحه على غرَّة ، ودون أنْ يُعلمه بمسألة الذبح هذه ، ولكنه أراد أنْ يُشركه معه فى الأجر ، وألاَّ يُوَغِر صدره من ناحيته ، وهو يذبحه دون دَاعٍ .

وقوله تعالى : ﴿ وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) ﴾ [الصافات] يعنى : ألقاه على وجهه ، أو على جنبه ، قالوا : كان ذلك بمشورة الولد ، حتى لا يرى أبوه وجهه ساعةَ يذبحه ، فتأخذه الشفقة به ، فلا يذبح ، وكأن الولد يُعين والده ويساعده على إتمام الأمر ، وهكذا ظهر الاستسلام واضحاً ، فالولد مُلقىً على الأرض ، والوالد فى يده السكين ، يحاول بالفعل ذَبْح ولده ، وأىّ ولد ؟ ولده الوحيد الذى رُزِق به على كِبَر .

والابتلاء ليس بأن يموت الولد ، إنما أنْ يذبحه أبوه بيده ، لا بشخص آخر ، ويذبحه بناءً على رؤيا لا أمر صريح ؛ لذلك قلنا ابتلاء مركَّب ، لأن وجوه الابتلاء فيه متعددة ، قد اجتاز إبراهيم وولده هذا الابتلاء بنجاح ، واستحق عليه السلام أن يقول الله فى حقه : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً (١٢٠) ﴾ [النحل]

نقول : لما وصل إبراهيم وولده إلى هذه الدرجة من الاستسلام لله ، ناداه الله ﴿ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَـٰٓإِبْرَاهِيمُ (١٠٤) ﴾ [الصافات] وكأن الله كان معهما يرقب هذا الانقياد من عبدين صدقا مع الله ، فجاءهما فرج الله ﴿ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَـٰٓإِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّءْيَآ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَـٰٓؤُا الْمُبِينُ (١٠٦) ﴾ [الصافات]

يعنى : ارفع يدك يا إبراهيم عن ذبح ولدك الوحيد ، فما كان الأمرُ إلا بلاءً مبيناً ، أى : واضح قاس عليك أنت وولدك ، وهو مبين لأنه يُبين قوة عقيدة إبراهيم - عليه السلام - فى تَلَقِّى الأمر من الله ، وإنْ كان صعباً وقاسياً ، ثم الانصياع له والطاعة ، وكذلك كان البلاء فى حَقِّ ولده الذى خضع وامتثل .

وجاء الفداء : ﴿ وَفَدَيْنَـٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧) ﴾ [الصافات] ذبح بمعنى مذبوح ، وهو الكبش الذى أنزله الله ، فداءً لإسماعيل .

﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى الْـَٔاخِرِينَ (١٠٨) سَلَـٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَاهِيمَ (١٠٩) كَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ (١١٠) إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١١١) ﴾

لقد استحقَّ سيدنا إبراهيم هذه المنزلة فى جميع الأمم من بعده أنْ يُسلِّموا عليه ، كلما ذُكر ، فيقولون ﴿ سَلَـٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَاهِيمَ (١٠٩) ﴾ [الصافات] فلو ذبح إبراهيم ولده لَصارتْ سنةً من بعده أنْ يتقرَّب الإنسان إلى الله بذبح ولده ، لكن لما صبر سيدنا إبراهيم ، واستسلم لأمر ربه جاءه الفرج من الله وعُوفى وولده من هذا البلاء ، وعُوفينا جميعاً معه من هذه المسألة ، فكلما ذُكر قلنا : عليه السلام ، لأنه حمانا من هذا الموقف الصعب .

وقوله : ﴿ كَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ (١١٠) ﴾ [الصافات] كذلك يعنى كما

فعلنا مع إبراهيم نجزى كل مُحسن ، والمحسن هو الذى لا يقف عند حَدِّ الواجب المطلوب منه ، إنما يتعدَّاه إلى الزيادة من جنس ما فُرِض عليه وكُلِّف به .

فالحق سبحانه فرض علينا خمس صلوات فى اليوم والليلة ، فمَنْ زاد على ذلك فهو من الإحسان .

الله فرض علينا الحقَّ المعلوم للفقير وهو الزكاة ، فمَنْ زاد وأعطى غير المعلوم فهو من الإحسان ، واقرأ فى سورة الذاريات : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) ﴾ [الذاريات] يعنى : زائدين عما فرض الله من جنس ما فرض الله عليهم .

ثم يذكر سبحانه حيثيات هذا الإحسان ﴿ كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ[1] (١٧) وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ[2] (١٨) وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩) ﴾ [الذاريات]

والمحسن يستحق هذا الجزاء ؛ لأن الذى يتقرَّب إلى الله بأكثر مما فَرَض الله عليه دليل على أنه عَشِق التكليف والمكلَّف ، وعلم أن الله كلَّفه بأقلّ مما يستحق فزادَ .

﴿ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ (١١٢) وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ (١١٣) ﴾

---

(١) الهجوع : النوم ليلاً . وقد يكون الهجوع بغير نوم . والهجيع : طائفة من الليل . [لسان العرب – مادة : هجع].

(٢) السَّحَر : الجزء الأخير من الليل إلى مطلع الفجر ، وجمعه أسحار [القاموس القويم ١/٣٠٥] .

هذه العطاءات كلها نتيجة ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣)﴾ [الصافات] لأن الابتلاء الذى وقع لسيدنا إبراهيم كان ابتلاءً مُركباً من مراحل ثلاث : فَقْد الولد الذى جاء على كِبَر ، وأنْ يقتله بيده ، ثم تاج هذه المراحل أنْ يُقتلَ ولده برؤيا منامية ؛ لذلك جاءه الجزاء على قَدْر هذه العقبات فى الابتلاء ، ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧)﴾ [الصافات]

والفداء فداء إسماعيل من الذبح فعاش إسماعيل ، ثم زاده الله فأعطاه إسحاق ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ (١١٢)﴾ [الصافات] فهو أيضاً نبى ، وفى آية أخرى قال سبحانه : ﴿وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ (٧١)﴾ [هود] ويعقوب أيضاً نبى . إذن : كلُّ هذا الخير جاء ثمرة الاستسلام لله تعالى والرضا بحكمه ؛ لذلك صدق القائل[1] :

سَلِّمْ لِربِّكَ حُكْمَهُ فَلِحِكْمَةٍ يَقْضِى ... وَحَتَّى تَسْتَفِيدَ وتَسْلَمَا
واذْكُرْ خليلَ الله فى ذَبْحِ ابْنِهِ ... إذْ قَالَ خالِقُهُ فَلَمَّا أَسْلَمَا

ثم يمتد هذا العطاء ، فيقول سبحانه : ﴿وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ (١١٣)﴾ [الصافات]

فلما تكلَّم الحق سبحانه عن الذرية ، قال : ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ (١١٣)﴾ [الصافات] يعنى : الذرية فيها هذا وذاك ، الخير والشر .

هكذا عرضتْ لنا هذه الآيات قصة سيدنا إبراهيم على وجه الاختصار ، حيث لم تتعرَّض لكل الأحداث .. وينبغى هنا أنْ نذكر معركةَ الأديان فى مسألة الذبيح ، فالمسلمون يعتقدون أن الذبيح إسماعيل ، وغير المسلمين يقولون : الذبيح إسحق ، وهذا القول مردود من عدة وجوه :

---

(١) من شعر الشيخ رضى الله عنه .

أولاً : لو كان الذبيح إسحق لكانت مسألةُ الذبح والفداء وما يتعلق بهما من مناسك مَغْداها ومَراحها بأرض الشام ، حيث عاشَ هناك سيدنا إسحاق ، أما وهى تُفعل فى أرض الحجاز حيث وُلِدَ وعاش سيدنا إسماعيل ، فهذا دليل من الواقع على أن الذبيح إسماعيل .

ثانياً : ثم معنا دليل من حديث النبى ﷺ ، حيث قال : « أنا ابْنُ الذبيحين » أى : الذبيحين اللذين كان لهما فداء من الذبح ، وتعلمون أن الذبيح الأول هو عبد الله أبو النبى ، وقد فداه أبوه من الذبح بمائة ناقة ، أما الذبيح الثانى فإسماعيل عليه السلام الذى فَدَاه ربه بكبش .

فإنْ أنكر غيرنا هذه الأدلة لأنهم لا يؤمنون بها ، فعلينا أنْ نأتيهم بدليل من كتبهم ؛ لأن الإنسان لا يُصدِّق إلا بما يؤمن به ، فلو حلفتَ للكافر باللات والعزى فإنه لا يُصدِّقك ؛ لأنه يعلم أنك لا تؤمن باللات والعزى ، والإنسان لا يحلف إلا بما يُعظِّمه . ولو قُلْتَ له : والله لصَدَّقك .

لذلك نسوق لغير المسلمين هذا الدليل من التوراة التى يؤمنون بها ، وقد ترك الله لنا فى الكتب السابقة على القرآن مواضع تؤيد ما جاء به القرآن ، وما زالت هذه المواضع موجودة ، وكأن الله أعماهم عنها لتظلَّ دليلاً على الحقيقة التى لا يعترفون بها .

وعليهم أن يقرأوا فى الأصحاح الثالث والعشرين فى سفر التكوين (وأوحى الله إلى إبراهيم أن اصعد بابنك الوحيد جبل الموريا وقدِّمْه قرباناً لى) ومتى كان إسحق عليه السلام وحيداً وقد وُلِد إسحق وعمر إسماعيل أربعة عشر عاماً . وفى الأصحاح الرابع والعشرين (وُلِد إسحقُ وعمر إسماعيل أربع عشرة سنة) .

﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾ ﴾

هذا موكب أُولى العزم من الرسل ، فبعد أنْ حدَّثنا القرآنُ عن سيدنا إبراهيم ، يحدثنا عن سيدنا موسى ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١١٤﴾ ﴾ [الصافات] منَّ الله على موسى وهارون منَّةَ عطاء ، بأنْ جعلهما رسولين إلى بني إسرائيل ، ومنةَ نَصْر بأنْ نصرهما على فرعون وجنوده ﴿ وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ ﴾ [الصافات] والمراد فرعون ، ووصفه الله بالكرب العظيم ، لأن فرعون لم يكُنْ رجلاً متسلطاً على الناس كملك ، إنما متسلط عليهم كإله ، وقد أراد الكيد بموسى عليه السلام ، وأراد الكيد لقومه في مصر ، حيث أخذ منهم الخدم والفعلة والسحرة .

وكلمة فرعون تُطلق على ملوك مصر القدماء ، فكل واحد منهم يسمى (فرعون) ، لكن في سورة يوسف سُمِّي حاكم مصر العزيز والملك ولم يَقُلْ فرعون ، لماذا ؟ قالوا : لأنه بعد أنْ فُكَّ حجر رشيد علمنا أن الهكسوس حينما أغاروا على مصر كانوا ملوكاً في مصر لا فراعنة ، فلما عاد الأمر إلى فرعون كان بنو إسرائيل في خدمة الفرعون بسبب وقوفهم إلى جوار المحتلين الهكسوس ، فاضطهدهم الفرعون وأعوانه .

فمعنى ﴿وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (١١٥)﴾ [الصافات] أى : من فرعون ومن الاستعباد ، حيث خرج بهم موسى - عليه السلام - فأدركه فرعون بجنوده حتى حاصرهم عند البحر ، فكان البحر من أمامهم ، وجيش فرعون من خلفهم .

وما أشبه هذا الموقف بموقف طارق بن زياد فى فتح الأندلس ، حين قال لجنوده : إن البحر من أمامكم ، والعدو من ورائكم .

وعندها أيقن بنو إسرائيل أن فرعون سيلحق بهم ويدركهم فقالوا لموسى عليه السلام : ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١)﴾ [الشعراء] لأن شواهد الواقع تدل على ذلك ، فهم لا محالةَ مُدْركون بقوانين البشر ، لكنْ لموسى مع ربه قانونٌ آخرُ ، جعل موسى عليه السلام يقول بملء فيه (كلا) كلا لن نُدْرَكَ ، قالها بما لديه من ثقة بربه ، وبما لديه من الرصيد الإيمانى : ﴿قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢)﴾ [الشعراء] وفعلاً ، جاءه الفرج لتوِّه ، وأمره ربه أنْ يضرب بعصاه البحر ، وكان ما تعلمون من القصة .

ثم يقول سبحانه ﴿وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ (١١٦)﴾ [الصافات] نعم ، وأىّ غَلَبَة ؟ لأن هناك فرقاً بين أنْ تغلبَ عدوك ويظل المغلوبُ حياً يُرزَق ، وبين أنْ تغلبه غلبة تُبيده من الوجود ، والذى حدث فى قصة موسى وفرعون أن الله قضى على فرعون وجنوده قضاءً مُبْرماً .

ثم ﴿وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ (١١٧)﴾ [الصافات] المستبين الذى بلغ النهاية فى البيان ، والمراد بالكتاب التوراة ، وقد وصف الحق سبحانه وتعالى - التوراة فى موضع آخر ، فقال : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ (٤٨)﴾ [الأنبياء]

وقوله تعالى : ﴿وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (١١٨)﴾ [الصافات] أى :

المنهج القويم الموصِّل إلى الله من أقرب طريق ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ (١١٩) سَلَامٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ (١٢٠)﴾ [الصافات] يعنى تركنا لهما الذكْر الحسن فيمَنْ يأتى منْ بعدهم ، فكلُّ مَنْ يسمع قصة موسى وهارون ومواقفهما وثباتهما فى الحق يقول سلام عليهما ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٢١)﴾ [الصافات] أى : موسى وهارون .

ومعلوم أن هارون جاء بطلب من موسى لما قال لربه : ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ (٣٤)﴾ [القصص] فاستجاب الله لطلب موسى وأيَّده بأخيه هارون ، وجعلهما معاً رسولاً واحداً إلى بنى إسرائيل .

والقرآن يُبيِّن لنا هذه المسألة ، وأنهما كانا كرسول واحد فى قوله تعالى : ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ[1] عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٨٨)﴾ [يونس]

فيردّ الحق سبحانه : ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا (٨٩)﴾[يونس] ، مع أن الداعى موسى وحده ، لكن فى الجواب قال ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا (٨٩)﴾[يونس] أى : موسى وهارون ؛ لأنهما فى مجال الرسالة واحد ، لا ينفصل[2] أحدهما عن الآخر ، فدعوة موسى هى دعوة هارون .

---

(١) الطمس على الأموال : تحويلها إلى حجارة . والشد على القلب : الطبع والختم على قلوبهم فلا ينعم الله عليهم بالإيمان حتى لو أرادوا ذلك حتى يعذبوا العذاب الأليم . والمقصود بهذا الدعاء هم فرعون وملؤه الممالئون له الملتفُّون حوله الذين يحرضونه ويشجعونه وينصرونه لا عموم شعب مصر كما قال البعض خطأ ، فالله تعالى قال : ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ (٨٨)﴾ [يونس] فالضمير هم عائد على فرعون وملئه . [عادل أبو المعاطى] .

(٢) قاله أبو العالية وأبو صالح وعكرمة ومحمد بن كعب القرظى والربيع بن أنس فيما نقله ابن كثير فى تفسيره (٢/٤٢٩) .

وقد حاول بعض العلماء أن يُقرِّبوا لنا هذه المسألة ، فقالوا : أجاب الله موسى بقوله : ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا ﴿٨٩﴾﴾[يونس] لأن موسى دعا ، وهارون أمَّنَ على دعائه ، والمؤمِّن أحد الداعين .

ثم يقول سبحانه عن موسى وهارون : ﴿إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الصافات] ثم ينتقل السياق إلى نبى آخر ، هو سيدنا إلياس :

﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا(١) وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴿١٢٥﴾ اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾﴾

كلمة (إلياس) تُكتب هكذا بالسين ، والبعض لا يكتبون السين ، إنما يكتبون اسمها فيقولون (إلياسين) فهما علَم على هذا النبى الكريم نقول : إلياس أو إلياسين اسم لمسمى واحد ، وهو غير اليَسَعَ عليهم جميعاً السلام .

وهذه الآيات توضح أن سيدنا إلياس جاء بقضية عقدية ، لا بمنهج تكليفى ، جاء ليُصحح القمة العقدية فى الإيمان بواجب الوجود الإله الواحد الذى يجب أنْ يُدْعى وحده ، وموكب الرسالات من لَدُنْ آدم عليه السلام إنما جاء ليصحح صلةَ المخلوق بالخالق .

لذلك أثبت له أنه الخالق الرازق ، وأنه العليم القادر الحكيم العزيز .. الخ ، فهو الذى خلقك وأنعم عليك ، لتتلقى أوامره برضاً ، وتُقبل عليها باطمئنان ، وإنْ لم تكُنْ عبادتك له جزاء ما قدَّم لك من

---

(١) قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه : هو اسم صنم كان يعبده أهل مدينة يقال لها بعلبك غربى دمشق . [تفسير ابن كثير ٤/٢٠]

النعم التى هيَّأها لك قبل أن توجد ، فلا تكُنْ عبادتك له خوفاً من عقابه حين تعود إليه .

معنى ﴿أَلا تَتَّقُونَ (١٢٤)﴾ [الصافات] ألاَ للحثِّ وللحضِّ على التقوى ، أو للعرض كما تقول : هل لك من كذا ؟ وقوله﴿أَتَدْعُونَ بَعْلاً (١٢٥)﴾ [الصافات] أى : تعبدون صنماً اسمه بَعْلاً ﴿وَتَذَرُونَ (١٢٥)﴾ [الصافات] تتركون ﴿أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ (١٢٥)﴾ [الصافات]

الحق سبحانه حين يصف نفسه بأنه تعالى (أحسن الخالقين) يعنى : أنه سبحانه لا يضنُّ على عبده بصفة الخَلق ، فالإنسان الذى يُعمل عقله فى الكون ، ويخترع شيئاً نافعاً لمجتمعه يُسمِّيه الله خالقاً ، لأنه أبدع شيئاً جديداً لم يكُنْ موجوداً .

فهو خالق ، والله أحسن الخالقين ، لأن الله يخلق من عدم محض ، أما أنت فتخلق من موجود ، خلق الله فيه حياةً ونمواً وحركة .. الخ ، وخَلْقُك جامد ثابت عند شىء معين ، وقد سبق أنْ بيَّنا الفرق بين الاثنين .

وتأمل هنا : الحق سبحانه ينكر عليهم أنْ يعبدوا صنماً ، ويتركوا عبادة الله لكن لم يقُلْ : وتذرون الله ، إنما ﴿وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ (١٢٥)﴾ [الصافات] فذكر الوصف المشوِّق الدال على أحقيته تعالى فى العبادة ، وكأنهم سألوا ، ومَنْ أحسن الخالقين ؟ فقال سبحانه : ﴿اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ (١٢٦)﴾ [الصافات] فأنا أحسن الخالقين ، وأنا ربّكم وأنا ربُّ آبائكم الأولين ، المستحق للعبادة .

فماذا كان الجواب ؟

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٢٧) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٢٨) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٢٩) سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ (١٣٠) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٣١) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١٣٢) ﴾

قوله تعالى : ﴿ فَكَذَّبُوهُ (١٢٧) ﴾ [الصافات] كشأن كل الأقوام التى جاءها الرسل ليخرجوهم من الظلمات إلى النور ، ولا بُدَّ أنْ يُكذبَ الرسل ، يُكذّبهم أهلُ الفساد والمنتفعون من الفساد ، يُكذِّبهم سَادَةُ القوم وكبراؤهم ، لتظلَّ لهم سيادتهم وجبروتهم واستعبادهم للضعفاء ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٢٧) ﴾ [الصافات] أى : عندنا للحساب تحضرهم ملائكة العذاب ، والمعنى : لا تظنوا أنكم تُفْلتون من أيدينا ، لأن لكم مَعاداً ورجعة كما قال سبحانه : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (١١٥) ﴾ [المؤمنون]

وقوله : ﴿ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٢٨) ﴾ [الصافات] أى : الذين اصطفاهم لطاعته وأخلصهم لعبادته ، ثم تُختم هذه القصة الموجزة لهذا النبى الكريم بما خُتمتْ به سابقتها ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٢٩) سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ (١٣٠) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٣١) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١٣٢) ﴾ [الصافات]

ونفهم من هذه الخاتمة أن الإحسانَ فَرْعُ الإيمان ، يعنى ما كان مُحسناً إلا لأنه كان مؤمناً أولاً .

هكذا لخَّص لنا القرآن قصة هذا النبى ، وبيَّن أنه جاء بقضية عقدية لا قضية تكليفية ، جاء ليُصحِّح للقوم الأساسَ والقاعدةَ التى تُبنى عليها الحياة ، وهذه مهمة الرسل من لدُن آدم عليه السلام ، فقد خلق اللهُ آدمَ أبا البشر خليفةً فى الأرض . ومعنى خليفة فى الأرض

أنْ يزاولَ فى الأرض مهمة عن الحق سبحانه وتعالى .

ولكى يزاول هذه المهمة أمَدَّه الله بصفات من صفاته ، وهذه الصفات موهوبة ممدودة ليست ذاتيةً فى الخليفة ، لذلك يسلبها الخالق فى أىّ وقت ، فالله تعالى هو واجب الوجود الأعلى ، وهو المتصف بهذه الصفات بذاته ، فالله قادر ويعطيك من قدرته قدرةً ، وحكيم ويهبك من حكمته حكمةً تزاول بها الأشياء ، والله قهَّار ويعطيك قهارية تزجر بها مَنْ كان تحت تصرُّفك لتستقيم أمورهم ، ويعطيك رحمانية تحنُو بها على الضعيف والمحتاج .

إذن : فمن صفات الحقِّ واجب الوجود الأعلى أنه يعطينا من وجوده وجوداً ، بل وجودات متعددة بتعدُّد الأفراد ومتوالية الأمثال ، لكن يعطى سبحانه من الوجود الذاتى وجوداً عَرَضياً . فإنْ نظرتَ إلى الآفات التى تصيب الناسَ فى حواسِّهم أو فى جوارحهم تجدها مرادةً لله تعالى خلقاً أو توجّهاً ، لماذا ؟ لأن الإنسان كما أخبر عنه خالقه :

﴿ كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ (٧) ﴾ [العلق]

وضربنا لذلك مثلاً بالولد مع أبيه ، فلو أن الأب يعطى ولده المصروفَ كلَّ شهر تجد الولد لا يحرص على لقاء أبيه إلا كل شهر ، إنما لو أعطاه يوماً بيوم لتعرَّض له الولد كل يوم وتمحَّك فيه ، وأظهر نفسه ليأخذ مصروفه الذى تعوَّد عليه ، فتراه مثلاً يمرُّ على أبيه فى الصباح . ويقول : يا أبى أنا رايح المدرسة ، فالحاجة هى التى ألجأتْه لمودَّة أبيه .

إذن : يجب أنْ نُفسِّر فلسفة الحاجات التى تُعوز النتيجة ، وهذه الحاجات هى التى تُلجئك إلى ربك ، والواقع يؤيد ذلك ، وكثيراً ما نرى الإنسان لا يلجأ لربه ولا يُصلح ما بينه وبين خالقه إلا إذا اختلَّ عنده شىء ، وعزَّتْ عليه أسبابه ، فلا يجد إلا ربه فيقول : يا رب ، يا الله .

إذن نقول : الخالق يَهبُ الخليفةَ من صفاته ، لكن تظل هذه الصفات الموهوبة عَرَضيةً غير دائمة ؛ لذلك يموت الإنسان جنيناً ، ويموت طفلاً ، ويموت شَاباً وكهلاً وشيخاً ، وهذه القضية تُفسِّر لنا الحديث الشريف :

« خلق اللهُ آدمَ على صورته ، طوله ستون ذراعاً »[1]

فالهاء يجوز أن تعود على الله تعالى ، فيكون المعنى : خلق اللهُ آدمَ على صورته تعالى ، لا على حقيقته ، وفَرْق بين الصورة والحقيقة ، الصورة هى التى تُؤخذ لك لقطة على هيئة معينة ، ثم تتجمد على هذه الهيئة ، إذن : هذا الخلق لا يعنى أن آدم أخذ شيئاً من صفات الله على الحقيقة ، لا إنما على الصورة ، لأن الحقيقة لها دوام ، والصفات فى آدم لا دوامَ لها .

ويجوز أنْ تعود الهاء على آدم ، فيكون المعنى : خلق اللهُ آدمَ على صورته أى على صورة آدم ؛ لأن الله تعالى لم يخلق آدم جنيناً ، ثم وُلد ثم صار طفلاً فشاباً ، لا بل خلقه أول الأمر هكذا على هذه الهيئة المَعروفة للإنسان الكامل الأعضاء والجوارح . إذن : يجوز الوجهان .

وفَرْقٌ بين مَنْ يخلق ، ومَنْ يخلق مَنْ يخلق ، ولتوضيح هذه المسألة قلنا : إن الطفل الصغير لا يقدر مثلاً على نقل المائدة من مكانها ، أما الرجل القوى فيستطيع أنْ ينقلها له ، وهو فى هذه الحالة لم يُعَدِّ قوته إلى الضعيف ليفعل بنفسه ، إنما عدَّى له أثرَ صفته

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (كتاب الاستئذان - حديث ٥٨٧٣) وكذا مسلم فى صحيحه (٢٨٤١) . قال النووى فى شرحه لهذا الحديث : « هذه الرواية ظاهرة فى أن الضمير فى صورته عائد إلى آدم ، وأن المراد أنه خُلق فى أول نشأته على صورته التى كان عليها فى الأرض وتوفى عليها وهى طوله ستونَ ذراعاً ، ولم ينتقل أطواراً كذريته ، وكانت صورته فى الجنة هى صورته فى الأرض لم تتغير » .

فحمل عنه واشتال له ، وظلَّ الطفل ضعيفاً غير قادر على الحَمْل .

لذلك نقول : إن وَجْه العظمة فى خَلْق الله تعالى وفى عطائه ، أنه سبحانه يخلق من قدرته قدرةً ، ويهبك إياها ، فتقدر أنت بنفسك وتعمل بيدك ، فالخَلْق يتطوَّعون ويُعينون الضعيف ويفعلون له ، لكن يظل ضعيفاً ، أما الخالق سبحانه فيعطى الضعيف قوةً فيفعل بنفسه .

لكن تنبَّه أن هذه الصفات موهوبةٌ لك لا ذاتية فيك ؛ لأنك لستَ أصيلاً فى الوجود بل أنت خليفة ، ولا بُدَّ لك أنْ تظلَّ فى حضن مَنِ استخلفك ، وإياك أنْ تشذَّ عَمَّنْ استخلفك ، وإلا سحبَ منك مقومات هذا الاستخلاف .

وحين ترى أصحاب الابتلاءات والعاهات : هذا أعور وهذا أعرج .. الخ فاعلم أن الخالق سبحانه يريد أنْ يلفتكَ إليه ، ويُنبِّهك إلى أنك لستَ أصيلاً فى الوجود إنما مُسْتَخلَفٌ ، وأنك شىء ما دام معك مَنِ استخلفك ، فإنْ تخلَّى عنك فأنت لا شىء ، وآفة الإنسان فى الكون أنْ يعتبر نفسه أصيلاً ، ولو فهم دوره وحقيقة وجوده لاستقامتْ الأمور .

البعض ينظر إلى هذه العاهات على أنها تشويه للخَلْق ولا يرى فيها حكمة ، والحقيقة أنها خُلقَتْ لحكمة مرادة لله تعالى ، وما هى إلا وسيلةُ إيضاحٍ للناس كى لا تغترّ بالجوارح السليمة ، وكى تظلّ على ذِكْر لله الخالق ، وكما قلنا الحاجة هى التى تُلجئك .

ونحن نرى مثلاً رجال المرور يعمدون إلى سيارة جديدة مُحطَّمة ، ويجعلونها فى مكان بارز يراه الناسُ ليرتدع السائقون عن الرعونة فى السُّرعة ، فهذه السيارة وسيلة إيضاح ونموذج جُعِل

كذلك لهدف ، وربما تعمَّدوا إعدام السيارة لما يترتَّبُ على إعدام سيارة واحدة من نجاة ملايين السيارات .

كذلك أنت أيها المعَافَى ، حين ترى أصحاب العاهات تقول : الحمد لله الذى عافانى مما ابتلاك به[1] ، وتلتفت إلى نعَم الله عليك التى كثيراً ما تغفل عنها ، فإنْ قُلْتَ : فما ذنبُ هذا المبتَلى أنْ يجعله اللهُ وسيلةَ إيضاحٍ لغيره ؟

نقول : لو أدركتَ ما وجده من العوَض عما فقد لتمنيتَ أن تكون مثله ، لذلك نلاحظ أن أصحاب العاهَات عوَّضهم الله بخصلة أخرى تُعوِّض ما فيه من نقص ؛ لذلك نقول فى الأمثال : كل ذى عاهة جبار وقد رأيتم فاقد الذراعين (يلضم) الخيط فى الإبرة برِجْليه ، والطفل المكفوف يحفظ القرآن كله وهو ابن السادسة ، أخذ الله منه البصر وأعطاه البصيرة ، إنها مواهب لا يستطيعها الأصحاء .

وسبق أنْ قلنا إن الأكتع لو ضربك بيده الكتعاء لعرفتَ أنها ضربة مميتة ، لأنها يد مستريحة لا تعمل ، ففيها من القوة ما ليس للصحيحة ، وإذا انفعل كانت كل قُوَّته فى هذه اليد .

ونحن نقول لإخواننا الذين ابتلاهم الله بفقد البصر : صناديق العلم!! لماذا ؟ لأنهم حصَّلوا من العلم ما يعجز عنه المبصرون ؛ ذلك لأن المبصر تشغله المرائى المتعددة من حوله ، أما المكفوف فلا يشغله شىء ، فبؤرة الشعور عنده دائماً خالية جاهزة للاستقبال ، ثم هو لا يستطيع أن يقرأ بنفسه ، فينتهز فرصة أن يُقرأ له ، فيُنصت

---

(١) أخرج الترمذى فى سننه (٣٤٣١) ، وابن ماجه فى سننه (٣٨٩٢) من حديث عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال : « من رأى صاحب بلاء ، فقال : الحمد لله الذى عافانى مما ابتلاك به وفضَّلني على كثير ممن خلق تفضيلاً إلا عوفى من ذلك البلاء كائناً ما كان ما عاش» .

جيداً ، ويعى ما يسمع بحيث لا يحتاج إلى إعادته مرة أخرى ؛ لذلك قال أحدهم[١] :

عَمِيتُ جَنيناً وَالذَّكَاءُ مِنَ العَمَى ... فَجِئتُ عَجِيبَ الظنِّ للعِلْمِ مَوئِلاً
وَغَابَ ضِياءُ العَيْنِ بالقَلْبِ رَافِداً ... لعلمٍ إذَا مَا ضَيَّع الناسُ حَصَّلاَ[٢]

إذن : نحن حينما نرى أصحاب العاهات أو الابتلاءات ننظر إلى كمالنا نحن ، ولا ننظر إلى ما عُوِّضوا به من مواهب فى جوانب أخرى ، وسبق أنْ قلنا : إن الذى أبدع السيمْفونية العالمية المشهورة كان أصمَّ [٣]!! وتيمورلنك الذى دوَّخ العالم وصاحب الفتوحات المعروف كان أعرجَ !!

والمؤمن الحق حين يرى غيره ممَّنْ ابتلاهم الله لا يتعالَى عليهم ولا يدلّ عليهم بسلامة جوارحه ، إنما يتواضع لهم ، وهو يعلم أن هذا النقص يقابله عِوَض فيقول فى نفسه : يا ترى فى أىِّ الجوانب تتفوَّق علىَّ وتتميز عنى ؟ وبهذه النظرة يتساوى الجميع .

نقول : فعلى الإنسان أنْ يظلَّ دائماً على ذكْر لهذه الحقيقة أنه خليفةٌ لله فى الكون ليس أصيلاً فيه ، وما أشبه هذه الخلافة بالوكالة حين تُوكِّل غيرك فى شىء بعينه ، فإنِ اعتبر نفسه وكيلاً فى كل

---

(١) هو : بشار بن برد العقيلى ، ولد ٩٥ هجرية ، أصله من طخارستان غربى نهر جيحون ، كان ضريراً ، نشأ فى البصرة وقدم بغداد ، أدرك الدولتين الأموية والعباسية ، اتهم بالزندقة فمات ضرباً بالسياط ، ودفن بالبصرة ، توفى عام ١٦٧ هـ . [الموسوعة الشعرية] .

(٢) البيتان من قصيدة له ، عدد أبياتها ٤ أبيات ، وهى من بحر الوافر . ولفظ الأبيات :

عميت جنيناً والذكاء من العمى ... فجئت عجيب الظن للعلم معقلاً
وغاض ضياء العين للقلب فاغتدى ... بقلب إذا ما ضيع الناس حصَّلا

(٣) هو بتهوفن ، مؤلف موسيقى ألمانى ، له الفضل الأعظم فى تطوير الموسيقى الكلاسيكية، أول حفلة موسيقية قدمها عندما كان فى الثامنة من عمره ، بدأ يفقد سمعه فى الثلاثينات من عمره إلا أن ذلك لم يؤثر على إنتاجه الذى ازداد فى تلك الفترة وتميز بالإبداع .

شيء فسدتْ الوكالة ؛ لذلك نرى العقلاء حين يُوكِّلون غيرهم يُوكِّلون على قَدْر الحاجة والضرورة حتى لا تُستغل الوكالة ، ويطغى الوكيل على صاحب الحق الأصيل .

وصلاح الدنيا كلها واستقامة أمور الناس قائمة على هذا المبدأ ، مبدأ الاستخلاف ، فالأصل فى الإنسان أنْ يظلَّ خليفةً محتاجاً لمن استخلفه ، والعادة أن الاستغناء يُنسِيك ، والحاجة تُلجِئك وتعطفك إلى مَنِ استخلفك .

ولما خلق اللهُ آدمَ ليكون خليفةً فى الأرض ، هل أنزله فى الوجود ليباشر مهمته فى إعمار الأرض واستنباط أسرار الله فى الكون ، دون أن يُعدَّهُ لهذه المهمة ؟ كيف ونحن نأخذ مثلاً اللاعب الذى نعده لمجرد أنْ يلعب فندربه ونعلمه ونصرف عليه ونصحح له أخطاءه ، إلى أنْ يصلَ إلى المستوى المطلوب منه ، فما بالك بمهمة إعمار الأرض ؟

كذلك الحق - سبحانه وتعالى - درَّبَ آدم على هذه المهمة ، فأسكنه فى بستان فيه كل ما تشتهيه النفس : ﴿وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (٣٥)﴾ [البقرة]

وهكذا حدَّد الخالق سبحانه لآدم كيفيةَ معيشته فى الجنة ، فأحلَّ له أنْ يأكلَ منها كما يشاء ، باستثناء شجرة واحدة . إذن : فالحلال كثير لا يُعَدُّ ولا يُحصى ، أما الحرام فمحدود ، وكذلك شأن الله تعالى فى الحياة ، فالأصل فى الأشياء الإباحة إلا ما جاء به نصٌّ يحرمه وهو محصور فى أشياء بعينها .

وتأمل هنا هذا الاحتياط التشريعى فى قوله سبحانه : ﴿وَلا تَقْرَبَا (٣٥)﴾ [البقرة] ولم يقُلْ : ولا تأكلا ، فالمنهىُّ عنه مجرد قُربها ؛ لأن

قُرْبك من المحرم يُغريكَ به حتى تقع فيه ؛ لذلك تجد أسلوب القرآن فى الأوامر يقول : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا (٢٢٩) ﴾ [البقرة] أما فى النواهى فيقول : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوهَا (١٨٧) ﴾ [البقرة]

لذلك لما حرّم الإسلامُ الخمرَ لم يحرم شُرْبها فحسب ، إنما حرَّم كلَّ ما يتصل بها من بيع أو شراء أو نقل أو صناعة ، أو حتى التواجد فى مكان هى فيه ، لماذا ؟ لِيَسُدَّ كل الطرق المؤدية إليها المُغْرية بها .

وحين يُبين لنا الحق سبحانه الحلالَ والحرامَ والأوامر والنواهى ، فإنما يلفت أنظارنا إلى قضية مهمة ، وكأنه يقول لنا : إن استقمتَ على منهجنا وتكليفنا لك ستظلّ حياتك سليمةً بلا عورة ، خالية من المشاكل والصعاب ، فإنْ تعدَّيْتَ هذه الحدود فانتظر ظهور العورات فى المجتمع ، سواء أكانت عوراتٍ اجتماعية ، أم أخلاقية ، أم اقتصادية .. الخ

وفى قصة آدم – عليه السلام – حين أكل من الشجرة رمز إلى هذه المسألة ، كيف ؟ لَمَّا استقامَ آدمُ على منْهج ربه والتزم بما أمره الله به عاش فى الجنة معافَى بلا سَوْءة ، فلما خالف وأطاع وسوسة الشيطان فأكل من الشجرة التى نُهِى عنها بدتْ سوءتُه لأول مرة ، لأنه لما استقام كان يأكل بطهى ربه له وهو طهْى على قَدْر حاجة الجسم ومُقوِّمات الحياة فلا يبقى منه شىء ، يخرج فضلات من الجسم .

ولكن لما تدخلتْ الشهوة ، وأطاع الشيطان أفسد الخلطة الغذائية التى أُعدَّتْ له ، فتكوَّنت فى بطنه الفضلات وأحسَّ لأول مرة بشىء غريب لَم يعهده ، وفوجىء بأنْ خُرْقاً فى بدنه يخرج منه شىء قذر

كريه الرائحة .

لذلك عرف آدم أنها عورة ينبغى أنْ تُستر ، فأخذ يقطع من أوراق الشجر ليستر عورته ، ويدارى سَوْءَته ، هذا قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا (١) يَخْصِفَانِ(٢) عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٢٢) ﴾ [الأعراف]

وقد رأينا فى أثناء الحروب أن الجندى يتغذَّى على قرص صغير يؤدى مهمة الوجبة الغذائية ، لكن لا يترك فضلات فى الجسم ، ذلك لتخفَّ مؤونة التموين ، ولا يحتاج الجندى لعملية الإخراج .

إذن : فى قصة آدم والأكل من الشجرة إشارة رمزية إلى أن أحكامَ الله ما دامتْ مُنفَّذة يستقيم حال البلاد والعباد ، ولا تظهر فى المجتمع عورات ومساوىء ، لذلك حين ترى فى المجتمع عورة ظهرت فى أى ناحية : علمية ، اقتصادية ، اجتماعية ، خلقية .. الخ فاعلم أن بنداً من بنود منهج الله قد عُطِّل ، فابحث عنه ، وحاول إصلاحه بنفسك أولاً ، إنْ كان الإصلاح فى مقدورك ؛ لذلك قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ .. (١١) ﴾ [الرعد]

وآدم – عليه السلام – وقع فى هذه المخالفة بعد أن بيَّن الله له ما أحلَّ له وما حرَّم عليه ، وبيَّن له عداوة الشيطان ، وأنها عداوة

---

(١) طفقا : من أفعال الشروع ، من أخوات كان وخبرها يكون دائماً فعلاً مضارعاً غير مقترن بأنْ . كقوله تعالى : ﴿ وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ (٢٢) ﴾ [الاعراف] أى : شرعا يفعلان ذلك . وأما قوله تعالى : ﴿ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ (٣٣) ﴾ [ص] فالمضارع مقدَّر أى : فطفق يمسح مسحاً . [القاموس القويم ١/٤٠٣] .

(٢) يخصفان : أى يلصقان عليهما ما يستر العورة من ورق الجنة . قيل : ورق شجر التوت . [القاموس القويم ١/١٩٥]

مُسْبِقة منذ أمره الله بالسجود فلم يسجد ، ومع ذلك سمع آدم لوسوسة الشيطان ، وكان عليه أنْ يُعمل نعمة العقل ، وأنْ يفكر فيما قاله عدوه إبليس ، حين قال : ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (٢٠)﴾ [الأعراف]

يعنى : أن مَنْ يأكل من هذه الشجرة يخلد ولا يموت ، إذن : لماذا لم تأكل أنت يا إبليس منها ، ما دام الأمر كذلك ؟ ألستَ القائل لله تعالى : ﴿أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤)﴾ [الأعراف] فهنا إشارة إلى وجوب التفكر فى وسوسة الشيطان وعدم الخضوع له .

إذن : ففترة وجود آدم فى الجنة كانت فترةَ التدريب على المنهج الخلافى ، فلما حدثتْ منه المخالفة وحصل منه عصيان أراد الله أنْ يُخرجه من الجنة ، وأنْ يُنزله إلى حياة الأرض ليتحرك فيها حركةَ الخليفة ، مُستصحباً للتجربة السابقة .

وكأن الله يقول له : خُذْ من الحلال ما شئتَ ، وابتعد عن الحرام واحذر الشيطان فهو عدوك ، وسيظل يوسوس لك ليُوقعك فى المخالفة كما أوقعك فى المخالفة الأولى ، فإياك أنْ تسمعَ له لأنك لو سمعتَ له وهو عدوُّك سيُخرجك من حياة النعيم إلى حياة الشقاء ، كما أخرجك من جنة الالتزام بأمر والالتزام بنهى : ﴿فَقُلْنَا يَـٰآدَمُ إِنَّ هَـٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ (١١٧)﴾ [طه] ولم يقل : فتشقيا .

والحق سبحانه وتعالى وضع لنا فى هذه الآية إشارة رمزية منذ أوَّل الخَلْق ، لتَحُلَّ لَنَا مشكلة وقضية ما زال العالم يتحدث فيها إلى الآن وسيظل ، إنها قضية خروج المرأة للعمل والمساواة بالرجل ، وأن المرأة تريد أن تثبت ذاتها .. الخ

وعجيبٌ أنْ تطالب المرأةُ بالمزيد من المسئوليات ، فهى تريد أنْ تأخذ من مهمة الرجل ، فى حين أن الرجل لن يأخذ من مهمتها شيئاً ، ولن يحمل عنها عبئاً من أعبائها ، الرجل لا يحمل ولا يلد ولا يرضع . إذن : أخذتِ أنت مهمةَ الرجل مضافاً إليها مهمتك الخاصة التى لا يقوم هو بها ، وفى هذا ظلم للمرأة .

فقوله تعالى لآدم ﴿فَتَشْقَىٰ (١١٧)﴾ [طه] دَل منذ أول الخَلْق على أن الشقاء والكدح والعمل وتحمُّل المسئولية مهمة الرجل ، وأن المرأة سيدةٌ فى بيتها مُعزَّزة مُكرَّمة ، وهذه الصورة ظلتْ موروثة فى مجتمعاتنا بدون تضليل وبدون انطماس ، فحتى الآن حين يتقدَّم شابٌ لخطبة البنت يشترط عليه كبير العائلة يقول (أنت حتستتها ولا حتشغلها) يعنى : أتجعلها سيدةً مَصُونةً فى بيتها ، أم أنك ستخرِجها للعمل ؟

البعض يقول : كيف يعصى آدم وهو نبى ؟ فهو إذن مثل الشيطان : هذا عصى وهذا عصى . نقول : عصى آدم وهو فى فترة التدريب التى لا يُؤاخَذ فيها المخطىء ، بل نُصحِّح له دون مؤاخذة ، فالتلميذ فى المدرسة يُصوِّب له المعلم خطأه باللون الأحمر دون أنْ يحاسبه عليه ، إلى أنْ يأتىَ اختبار آخر العام ، فيحاسبه على الخطأ .

فآدم حين أخطأ كان فى فترة التدريب ، وقد صَوَّب اللهُ له خَطأه ، ثم إنه لم يكُنْ نبياً فى هذه الفترة ، لأن آدم خُلق ليكون أباً للبشر جميعاً ، والبشر سَيُقَسَّمون إلى قسمين : قسم مُصْطفى وهم الرسل ، وقسم مُصْطَفَى عليه وهم المرسل إليهم .

إذن : آدم فى البداية كان يمثل القسمين ، وجاءت تجربته تمثل عصيان البشر وعصمة الأنبياء ، لذلك أخطأ فصوَّب الله له ، ثم تابَ

فتابَ الله عليه واصطفاه ، وكذلك حال البشر واقرأ : ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ (١٢١)﴾ [طه] هذه إشارة إلى ما سيكون من البشر ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ (١٢٢)﴾ [طه]

إذن : الاجتباء والعصمة جاءت بعد التجربة الأولى ؛ لأن آدم مَثَّلَ الجميع ، مثّل عصيان البشر ، ومثّل عصمة الأنبياء .

هذا الخليفة طرأ على وجود خُلِق له قبل أنْ يُوجد ؛ لا أن الله خلقه ، ثم نظر ماذا يريد وماذا يحتاج ، ثم خلقه سبحانه خَلْقاً يناسب قيامه بمهمته فى عمارة الأرض ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا (٦١)﴾ [هود]

ولم يجعل الحق سبحانه العبادات الأصيلة - أى أركان الإسلام - هى كل حركة الحياة ، بل جعلها هى الشحنة التى تُعينك على حركة الحياة ؛ لذلك مَنْ قال إن الإسلام هو هذه الأركان يؤديها وحسب نقول له : لا لأن هذه الأركان بها تستمد القوة من الله لتنجح فى حركة الحياة ، والإسلام أوسَعُ من هذه الخمس بكثير ، بدليل قوله تعالى فى سورة الجمعة : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ (٩)﴾ [الجمعة]

إذن : ناداهم وأخذهم من شغل ومن عمل هو قمة حركة الحياة ، ألا وهو البيع ، وإن كان البيع مرتبطاً بالشراء إلا أنه أقوى ، لذلك خَصَّه بالذكر ولم يقُلْ : وذروا البيع والشراء ، لماذا ؟

قالوا : لأنه سبحانه خالق الطبع الإنسانى ، ويعلم أن الإنسان ثقيل عند الشراء غير حريص عليه ، لكنه حريص على البيع ويسعى إليه ؛ لذلك عندما يكلِّفك أهل البيت بشراء شىء ربما تماطل فى شرائه أو تُؤجّله ، وتُسَرُّ حين تذهب فتجد المحل مغلقاً ، أما لو كنت

بائعاً فإنك تحرص كل الحرص على أنْ تبيع ، لماذا ؟ لأن المشترى ينفق والبائع يأخذ ؛ لذلك ذكر الحق سبحانه البيع لأنه ثمرة الحركة .

وبعد انتهاء الصلاة قال : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ .. (١٠) ﴾ [الجمعة] إذن : أخذك للصلاة من عمل ، وأعادك بعد الصلاة إلى العمل والسعى .

وحين تتأمل لفظ الحديث : « بُنِى الإسلامُ على خمس »[(١)] يعنى : هذه الخمس هى الدعائم التى يقوم عليها الإسلام والمبنى غير المبنى عليه ، وهل البناء الذى نسكنه مُكوَّن من الأساس والأعمدة فحسب ؟ إذن : الإسلام ليس هو الأركان الخمس ، إنما الإسلام أوسع من ذلك ، الأركان هى الشحنة التى يستدعيك ربك إليها ، فتأخذ من لقائه المددَ الذى يُعينك على القيام بحركة الحياة .

ومثَّلْنا ذلك (بالبطارية) حين تذهب بها إلى الشحن ، فنحن لا نستفيد بها فى فترة الشحن ، إنما نعطيها الشحنة اللازمة لتعمل بها بعد ذلك .

ومن عجيب أمر الرحمة الإلهية أن الله تعالى جعل الذهاب إلى شحنة الطاقة الإنسانية فَرْضاً تكليفياً لا بُدَّ لك من القيام به ، لا بُدَّ لك أنْ تقابلنى خمسَ مرات فى اليوم والليلة ؛ لأنك خَلْقى وصَنْعتى ، والصانع أعلم بما يُصلح صنعته ، وتصوَّرْ صنعة تُعْرض على صانعها خمسَ مرات فى اليوم والليلة : هل يبقى فيها عطب ، هذا فى

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٨) ، ومسلم فى صحيحه (١٦) من حديث ابن عمر رضى الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ : « بنى الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والحج وصوم رمضان » .

الصانع إنْ كان من البشر ، فما بالك فى الصانع إنْ كان هو ربّ البشر وخالقهم سبحانه .

الصانع من البشر يُصلْح صنعته بشىء مادى مثل مسمار أو قطعة غيار مثلاً ، أما الخالق سبحانه فيصلحك دون شىء مادى ؛ ذلك لأن المهندس وصنعته شىء مادى فيصلح بالمادة ، أما الخالق سبحانه فغَيْبٌ ، فحين يصلحك من عطب فيك يُصلِحك بالغيب فلا تشعر به ولا تراه .

إذن : نقول لا بُدَّ أنْ نفهمَ الدين على حقيقته ، وأنْ نفهمَ أن لكل منَّا مهمة ، فإذا تفوَّق عليك غيرك فاعلم أن تفوقه لصالحك وعائد عَليك ، لأنه بتفوقه يؤدى إليك خدمة ، فى حين أنه لا يستفيد منك ، فالذى يجيد عملاً لا شكَّ أنه ينفع نفسه وينفع الآخرين ، على خلاف مَنْ لا يجيد شيئاً .

لذلك نقول فى الفلاحين (باب النجار مخلع) ، فالنجار تظهر مهارته حينما يصنع لغيره ؛ لأنه يتقاضى أجراً ، إنما لا يجيد الصناعة لنفسه ، إذن : حين ترى المتفوِّق عنك ، لا تحسده ولا تحقد عليه ، بل تمَنَّ له الزيادة ، وتمَنَّ له الخير ، فسوف يُصيبك شىء لا محالة من هذا الخير ، وسيعود عليك هذا التفوق فى شكل خدمة يُقدِّمها لك .

لذلك كنا فى الفلاحين ، لو مات لأحدنا بقرة أو جاموسة يحزن الجميع ، لدرجة أننا رأينا مرة جماعة يَبْكُون على عجل مات فتعجبنا ، الناس يبكون على الميت منهم ، لكن من الحيوانات ؟! بعدها عرفنا أن هذا العجل هو الذى يدير الساقية ، ويحرث الأرض التى يأكل منها هؤلاء الناس ، وينالهم خير هذه الأرض ، وكنا فى الريف لا نشترى الخيار ولا

الملوخية ولا البامية وغيرها كثير ، بل كان يُهْدى ولا يُبَاع.

إذن : الهبة المبذولة عند الخَلْق عائدة على كل الخَلْق ، فحين ترى مَنْ هو أكثر منك خيراً أو موهبة ، فتمَنَّ له الزيادة ، لأن خيره لا محالة سيفيض عليك ، وحين ترى مَنْ يجيد عملاً لا تجيده أنت لا تحقد عليه ، لأنك ستحتاجه ليجيد لك عملك حتى لو كنتَ تكرهه ، أو على خلاف معه تحرص عليه ليعمل لك ، فأنت تعلم مدى إجادته للعمل ، فتذهب إليه حرصاً على مصلحتك أنت ، وبذلك يتم التعادل المطلوب فى المجتمع ، وتستقيم أمور الخَلْق استقامةً مبنيةً على الحاجة .

ولو تأملتَ فى نفسك كما قال الله تعالى : ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٢١)﴾ [الذاريات] لوجدتَ فى نفسك هذا التعادل بين الأعضاء ، فعندك مثلاً اليد اليمنى تزاول بها بعض الأعمال التى تناسبها ، واليد اليُسْرى تزاول بها أعمالاً أخرى تناسبها ، اليد اليمنى للأعمال الشريفة المكرَّمة ، أما اليسرى فهى لما دون ذلك ، وغالباً ما تكون اليمين أقوى من الشمال وأكثر حركة منها وأدقّ فى التناول .

وتأمل مثلاً حين تريد أنْ تقصَّ أظافرك ، فإنك تقصّ الشمال باليمين فيأتى القَصُّ دقيقاً مُريحاً ، على خلاف قَصِّ اليمين بالشمال ، إذن : موهبة اليمين عادتْ على الشمال ، وعدم موهبة الشمال عادت على اليمين ، وهذا يلفتنا إلى أنَّ الكمالات فى الكون كمالاتٌ مُسْتطرقة تستطرق فيه ، كاستطراق الماء .

والحق - سبحانه تعالى - حين خلق الإنسان الخليفة أعطى له تكوينات تناسب مهمته ، وأول هذه التكوينات الجوارح التى نسميها الحواس التى نُحسّ بها الأشياء ، ويُسمُّونها الحواس الخمس الظاهرة ، وقولهم الظاهرة احتياط لما سيجدّ من حواس يعرفها

العلم ، وفعلاً اكتشف فى الإنسان حواسّ أخرى غير هذه الخمس كالحاسة التى أعرف بها الجوع ، وكحاسة البَيْن التى أميز بها البُعْد بين شيئين ، وحاسة العضل التى أعرف بها ثقل الأشياء .

وحين تتأمل هذه الحواس الخمس المعروفة ، تجد أن التكليف الشرعى جاء على مقتضى هذا التكوين فى الحواس ، فلكُلٍّ حاسة فى الإنسان ، ولكل جارحة عَمل ، فأداء كل جارحة لمهمتها يُسمَّى (عمل) ، فالقلب يعمل بالنية ، واللسان يتكلم ، والأذن تسمع ، والأنف يشمُّ ، واليد تمس الأشياءَ ، والعين ترى ، هذا كله عمل .

ولا بُدَّ هنا أنْ نفرق بين العمل والفعل ، والفعل يقابله القول الذى هو مهمة اللسان ؛ لذلك قال تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [الصف]

إذن : فالقول ، وهو مهمة اللسان أخذ قسماً وحده ، وبقية الحواس أخذتْ القسم الآخر ، فالقول للسان ، والفعل لبقية الحواس ، لماذا أخذ اللسانُ الشطر ، وبقية الحواس الشطر الآخر ؟ قالوا : لأن القول هو وسيلةُ نقل مطلوب الرسل منا لنفعل ، ونقل مطلوباتنا من الغير ليفعلوها .

إذن : فكل الأفعال فى خدمة القول ، ومنهج الله لا يأتينا إلا بالقول الذى يحمل الأمر للحواسّ فتعمل ، والعمل ليس بالضرورة عملاً عضلياً ، بل ربما يكون عملاً معنوياً ، كعمل القلب وهو النية كما قلنا ، والشرع هو الذى يحكم هذه الحواس ، ويُحدّد لها الإطار الذى تعمل فيه فى ضوء الحلال والحرام .

ومهمة الحواس أنْ تلتقط المدْرَكَات ، ثم تعرضها على العقل ، فيُصفِّيها تصفيةً حقيقيةً ، بأنْ يقارن بينها ، ويعرف أن هذه تصلح

لكذا ، وهذه لكذا ، وبعد هذه التصفية يُسلِّمها للقلب لتصير عقيدةً فيه ، وكلمة عقيدة تعنى الشىء المعقود الذى لا يُفَكُّ ، ولا يعرض للنقاش مرة أخرى فى العقل ، فالطفل الصغير مثلاً يُغريه شكل النار الجميل ، فيحاول الإمساك بها ، فتحرقه النار ، ويُحِسّ لأول مرة بالحرارة ، فتتكوَّن عنده عقيدة أو قضية عقلية أن النار تحرق ، فلا يقترب منها بعد ذلك ، ويظل طوال حياته يسير على هذه العقيدة أو هذا المبدأ ، ولا يحتاج لأنْ يُجرِّبه مرة أخرى .

هذه العقيدة ساعةَ تستقر فى القلب يضخها القلب مع الدم ، فتسير فى جميع البدن ، وتتخلل كل الأعضاء فتتشرَّبها ، وهذا يفسر لنا الحديث الشريف : « إن فى الجسد مُضْغةً ، ، إذا صلُحَتْ صلُحَ الجسدُ كله ، وإذا فسدتْ فسدَ الجسدُ كله ، ألا وهى القلب »[(١)] .

وبعد أن خلق الحق سبحانه للإنسان الجوارحَ والحواسّ خلق الغرائز ، وهى أمور لازمة لك ، ثابتة فى تكوينك ، ولا يمكن لك الاستغناء عنها ، لكن هذه الغريزة قد تُلحّ عليك فتُخرجك عن الهدف منها ، وعندها لا بُدَّ أنْ يتدخَّل الشرع لِيَكبحَ جماحها ، وليُعيدها إلى توازنها الذى خلقها الله من أجله .

يتدخل الشرع لِيُعلى الغريزة ويُهذِّبها ، لا ليكبتها ويقضى عليها ، فالأكل غريزة لاستبقاء الحياة ويكفى فيه ما قال سيدنا رسول الله ﷺ : « بحسْبِ ابْنِ آدم لقيماتٌ يُقِمْنَ صلْبه »[(٢)] .

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٢) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير رضى الله عنه .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (١٣٢/٤) ، والترمذى فى سننه (٢٣٨٠) من حديث المقدام بن معد يكرب ، ولفظه : « ما ملأ آدمى وعاء شراً من بطن ، بحسب ابن آدم لقيمات يُقِمْنَ صلبه ، فإن كان ولابد فاعلاً ، فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنفسه » .
قال الترمذى : حديث حسن صحيح .

ولا ينبغى أنْ تخرجَ عن ذلك ، وتتحوَّل إلى شرَه وتخمة . حب الاستطلاع غريزة جعلها الله لاستكشاف أسراره فى الكون ، والتأمل فى مخلوقاته ، فإنْ خرجت عن هذا الإطار وصارتْ تَجسُّساً وتتبُّعاً للعورات ، فقد خرجتْ عن مهمتها ، وهنا يتدخَّل الشرع ليُعْليها ويُعيد إليها توازنها .

وأعنف غرائز الإنسان الغريزة الجنسية ، خاصة فى سنِّ الشباب وهذه الغريزة جعلها الله لحفظ النوع واستبقاء النسل ، هذه هى المهمة التى من أجلها خُلِقَتْ غريزة الجنس ، وقد حرص الشرع على استبقاء هذه الغريزة مصحوبةً بمنهج حركتها لمَنْ خلقها لتستقيمَ الأمور ، لأن النسلَ هو الثروة الأولى التى ينبغى الحفاظ عليها ليأتى النسلُ شريفاً طاهراً .

وسبق أنْ فرَّقْنا بين النسل الشرعى المحسوب على الوالدين ، والنسل غير الشرعى ، وكيف أن الأول يُقابَل بالفرحة وبالحنان والعطف والرعاية ، والآخر يُقابل بالكراهية وعدم الرغبة ، وربما فكرتْ أمه فى التخلص منه ، ولو بإلقائه فى الشارع .

من هنا حرص الدين على بناء الأسرة بناءً سليماً فيه شرف وكبرياء وعزَّةُ نفس فى ظلِّ كلمة الله ومنهجه الذى يُؤمِّن لك سلامة نَسْلك ، فيأتى موثوقاً به تطمئن إليه ، وتعتنى به ، وتربيه أحسنَ تربية ، وهذا هو هدف الشرع .

وسبق أنْ تحدَّثنا عن الفرق بين الحلال والحرام فى هذه المسألة ، وذكرنا الحديث الشريف : « جَدَعَ الحَلَالُ أنْفَ الغَيْرة »

إذن : فهذه الغريزة مخلوقة فى النفس البشرية لأداء مهمة ، ولكى تبقى فى إطار ما خُلِقتْ له ، لكن الحاصل أن كثيرين يخرجون

بها عن هدفها ، والعجيب أنْ يظلمَ الإنسانُ الحيوانَ فى هذه المسألة ، حين يقول : هذه شهوة بهيمية ويتشدَّق بها .

وهذا القول يدل على عدم فهم لغريزة الحيوان ؛ لأن الحيوان يقف بالغريزة عند حدودها كما خلقها الله ؛ لذلك لم نَرَ بهيمة أنثى حملتْ ثم مكَّنَتْ فحْلاً منها بعد ذلك ، كذلك الفحل يشمُّها ، فيعرف أنها حامل فينصرف عنها .

أهذه شهوة بهيمية على حسب ما نقصد نحن من هذه الكلمة ؟ لا ، بل هى إنسانية .. ولك أنْ تقارن بين هذه الغريزة عند الحيوان وعند الإنسان ، وسوف ترى العجب فى خروج الإنسان بهذه الغريزة عن المراد منها .

ومن حكمة الخالق سبحانه أنْ ربطَ الغريزة الجنسية والنسل بالاستمتاع ، ذلك لأن للنسل مطالب وتبعات ومسئوليات ، فلو لم تكنْ هناك متعة تُرغِّب الإنسان لَزَهد فى المسألة ، وانصرف عنها .

والحق سبحانه وتعالى يأتى للمؤمنين على منهج واحد بأمور متقابلة مثل : العزة والذِّلَّة ، فالمؤمن غير مطبوع على عزَّة دائمة ولا على ذلة دائمة ، إنما الموقف الذى يعيشه هو الذى يملى عليه أنْ يكونَ عزيزاً ، أو أنْ يكون ذليلاً ، فالذلّة والانكسار لإخوانه المؤمنين والعزَّة والتعالى على الكافرين الجاحدين ، كما قال تعالى فى وصف سيدنا رسول الله والمؤمنين : ﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ .. (٢٩)﴾ [الفتح]

إذن : فهُمْ أشداء رحماء فى وقت واحد ، وهذا دليل على أن المؤمن لا تكيفه غرائزه إلا بمعدلات خالق الغرائز .

من التكوينات أيضاً فى خَلْق الإنسان بعد الحواس والغرائز أن الله

خلق فى الإنسان العاطفةَ ، والعاطفة شعور لا نعرف سببه ؛ لذلك تقابل شخصاً فترتاح إليه وآخر تكرهه هكذا دون سابق تعامل ، لماذا إذن تحب هذا وتكره ذاك ؟ إنها العاطفة ؛ لذلك تحب ولدك ولو كان غبياً ؛ لأنك تحبه بعاطفتك ، وتحب ابن عدوك الذكى تحبه بعقلك .. لذلك لم يجعل الحق سبحانه العاطفةَ مجالاً للتكليف .

ويبيِّن لنا سيدنا رسول الله ﷺ العاطفة فى قوله لصحابته ، وفيهم سيدنا عمر : « لا يؤمن أحدكم حتى أكونَ أحبَّ إليه من أمه وأبيه ونفسه »

وقفتْ هذه الكلمة فى نفس عمر . فقال : يا رسول الله ، أنت أحب إلىَّ من أمى وأبى أو من ولدى ومالى ، لكن نفسى يا رسول الله ؟ فكرَّرها رسول الله مرة أخرى ، حتى علم عمر أنها عزيمة ، ولا بُدَّ أن رسول الله يقصد حباً غير الذى يراه عمر ، إنه يقصد الحبَّ العقلى ، عندها قال عمر : الآن يا رسول الله ، يعنى : الآن أصبحتَ أحب إلىَّ من أبى وأمى ، وأحب إلىَّ من ولدى ومالى ، وأحب إلىَّ من نفسى التى بين جَنْبَىَّ[1] .

إذن : المراد فى حب رسول الله الحب العقلى ، فلولاه ﷺ ما اهتدينا ولا بلغنا الهدى ، ولولاه لهلكنا ، فأنت تحب محمداً ﷺ كما تحب الدواء المرَّ ، لا تحبه بعاطفتك إنما بعقلك ؛ لذلك فهم سيدنا عمر أن الحب المطلوب شرعاً حبّ العقل ، وإنْ تحوَّل بعد ذلك إلى

---

(١) عن جد زهرة بن معبد قال : كنا مع النبى ﷺ وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال عمر : والله يا رسول الله ، لأنت أحب إلىَّ من كل شىء إلا نفسى ، فقال النبى ﷺ: « والذى نفسى بيده ، لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه » قال : فأنت الآن والله أحب إلىَّ من نفسى ، فقال رسول الله ﷺ : الآن ياعمر . أخرجه أحمد فى مسنده (٣٣٦/٤) .

عاطفة وعشق للذات ، وهذه درجة أخرى أعلى من الأولى .

والقرآن الكريم يُعلِّمنا هذا فى قول الله تعالى : ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ (٨) ﴾ [المائدة] يعنى : لا يحملنكم البغض لقوم أنْ تظلموهم ، وألاَّ تعدلوا معهم ، إذن : البُغْض غير ممنوع ؛ لأنه مسألة عاطفية ، فأحبب مَنْ شئتَ ، وابغضْ مَنْ شئتَ ، لكن إياك أنْ يحملَك الحبُّ أو البُغْض عَلى أنّ تظلم بأنْ تجامل مَنْ تحب ، وتظلم مَنْ تكره .

ولأن العواطف بهذا الشكل ، يعنى : ليس لها انضباط فى الذات خرجتْ من نطاق التكاليف الشرعية ؛ لأنك لا تعرف لماذا مالتْ بك العاطفة لأنْ تحبَّ أو تكره .

وحين نتأمل الحواسَّ والغرائز والعاطفة نجد أن الحواسَّ ظاهرةٌ معروفة ؛ فالعين ترى ، والأذن تسمع .. الخ . وكذلك الغرائز ظاهرة بأثرها وأسبابها ، فحين تجوع تطلب الطعام ، وحين تريد أهلك تحنُّ إليهم ، أما العاطفة فشىء خفى غير ظاهر ، لذلك يضرب لها القرآن مثلاً ليس فى الإنسان ولا حتى فيما دونه من الحيوان أو النبات إنما مثلاً فى الجماد ، واقرأ قوله تعالى فى عاقبة الكافرين قوم فرعون : ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ .. (٢٩) ﴾ [الدخان]

ومعلوم أن البكاء مظهرٌ عاطفىٌّ ، فهل تبكى السماء ؟ وهل تبكى الأرض ؟ نعم تبكى وتنفعل ، وكأنها تقول لهؤلاء : اذهبوا غَيْرَ مأسوف عليكم ، وإلا لما نفى الله عنها البكاءَ ، ولمَ نستبعد ذلك ؟ والسماء والأرض خَلْق من خَلْق الله خاضع للتسخير ، ألم يَقُل الحق سبحانه : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ (٤٤) ﴾ [الإسراء]

إذن : لا غرابة أنْ يفرح الجماد حين يجد مَنْ يُسبِّح معه وينسجم

مع الكون المسبِّح ، ولا غرابةَ أنْ يحزن ، وأنْ يبكى عندما يشذّ البشر عن هذه المنظومة المسبِّحة ، وعليه يمكن القول بأن السماء والأرض لم تَبْك على هلاك قوم فرعون ، وفرحتْ لهداية آسية امرأة فرعون . إذن : للسماء والأرض انفعال وعاطفة فهى تحب وتكره ، وتبكى وتفرح .

وهذا المعنى أوضحه لنا الإمام على رضى الله عنه ، حين قال[1] : إذا مات المؤمن بكى عليه موضعان : موضع فى السماء ، وموضع فى الأرض ، أما موضعه فى السماء فمصعد عمله - يبكيه لأنه حُرِم من صعود الكَلِم الطيب والعمل الصالح - أما موضعه فى الأرض فمُصلاَّهُ - يعنى : المكان الذى كان يُصلِّى فيه .

كانت هذه مقدمة ضرورية ندخل بها على قِصَّة سيدنا لوط فى قوله تعالى :

﴿ وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾

كانت مهمة سيدنا لوط فى دعوة قومه أشقَّ مهمة ؛ لذلك ذُكر فى القرآن سبع عشرة مرة ، بالرفع وبالجر ، وذُكر عشر مرات بالنصب ، ووَجْه المشقة فى مهمته عليه السلام أنه جاء ليُعدِّل أعنفَ الغرائز فى النفس البشرية ، وهى الغريزة الجنسية .

---

(١) أورد ابن كثير فى تفسيره (١٤٢/٤) أن رجلاً سأل على بن أبى طالب : هل تبكى السماء والأرض على أحد ؟ فقال له : لقد سألتنى عن شىء ما سألنى عنه أحد قبلك ، إنه ليس من عبد إلا له مُصلًّى فى الأرض ومصعد عمله من السماء .

لَيْتَ هذه الغريزة . كانت عند القوم فى مسارها الطبيعى ، بمعنى غريزة الرجل نحو المرأة ، إنما كانت غريزة جنسية منحرفة لم يسبق لها مثيل من قبل وهى علاقة الرجل بالرجل ، لذلك جاءت منهم جريمة وفعلة نكراء مبتكرة لم يسبق إليها أحدٌ غيرهم ، كما قال تعالى على لسان سيدنا لوط : ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ (٨٠)﴾ [الأعراف]

قلنا سابقاً : إن كل إنسان منَّا له فى ذاته الخاصة حرية ، فإذا انتقلتْ إلى غيره جاءتْ قيود لهذه الحرية ، إذن : فلى حرية مع نفسى، ولى حرية مع أهلى ، ولى حرية مع الناس عموماً فى الشارع، ولكلٍّ حدود والتزامات ، فالإنسان مثلاً حين يغلق على نفسه حجرته الخاصة تكون حريته أوسعَ ، حيث لا أحدَ معه يحدُّ من حريته .

فإذا خرج من حجرته الخاصة إلى الصالة مثلاً تصبح حريته مُقيَّدة بعض الشىء لوجود أهله وأولاده ، فإذا خرج إلى الشارع حيث عامة الناس قُيِّدتْ حريته أكثر ؛ لأن لكل مَنْ يتعامل معهم فى الشارع حرية ، وحريةُ الآخرين تُقيِّد حريتك ، فإذا ما ذهبتَ إلى النادى مثلاً حيث الأحبة والأصدقاء ، فإنك تذهب بهندامك الكامل وأدبك الجمّ .. الخ .

لذلك ظهر تبجُّح قوم لوط بفاحشتهم ، لدرجة أنهم كانوا يأتونها فى ناديهم ، كما قال تعالى : ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ (٢٩)﴾ [العنكبوت] يعنى : الفعل الذى لا ينبغى لكم فى الخُلْوة تفعلونه فى النادى علانيةً ، وهذه الفعْلة ممنوعة شرعاً ، حتى لو كانت فى المحلَّلة لك وهى الزوجة ؛ لأنَ إتيان الزوجة لا يكون إلا فى منبت الولد .

لذلك لما نادى البعض بحرية الرجل فى الاستمتاع بالمرأة حيثما

يشاء ، وفَهم هذه الحرية من قوله تعالى : ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ (٢٢٣)﴾ [البقرة] نقول لهم : لقد غفلتم عن معنى الحرث هنا ، فالحرث هو الأرض المعدَّة للإنبات ، كذلك يكون إتيان الزوجة فى موضع الإنبات حيث يأتى الولد ، فإنْ كان فى الموضع الآخر الذى لا إنبات فيه فهو حرام . فإذا كان الإسلام يُحرِّم هذه الفِعْلة مع الزوجة ، فما بالك لو فعلها مع رجل مثله ؟

وكما حرَّم الشرع فِعْلة قوم لوط ، وهو إتيان الرجل للرجل حرَّم كذلك أنْ تفعل المرأة بالمرأة ، وهو ما يُسمَّى بالسِّحاق والعياذ بالله ، وهذا التحريم بالقياس على الرجل .

إذن : فالشرع عدَّل الغرائز المنحرفة فى علاقة الرجل بالرجل ، وفى علاقة المرأة بالمرأة ، وفى العلاقة الزوجية بين الزوج وزوجته، ووضع الضوابط الرادعة فى هذه المسألة ، لماذا ؟ لأن هذا الانحراف سيسىء إلى النسل وإلى عمارة الكون ، والحق سبحانه يريد لخليفته فى الأرض أنْ يأتى طاهراً شريفاً ، ليكون أهلاً لهذه الخلافة .

لذلك ذُكر سيدنا لوط عليه السلام سبعاً وعشرين مرة لثِقَل المهمة التى كُلِّف بها ، فى حين ذكر سيدنا عيسى عليه السلام رغم أهميته فى موكب الرسالات ، ورغم طبيعة خَلْقه العجيبة ، إلا أنه ذُكِر خمساً وعشرين مرة .

وأنا شخصياً أخذتُ على كثيرين من الكُتَّاب والعلماء أنهم ينسبون هذه الجريمة ، وينسبون فاعلها إلى نبى الله لوط - عليه السلام - فيقولون عن الفعلة النكراء لواط ومرتكبها (لوطى) ، وهذا خطأ فادح وعيب كبير أن ننسب القبح والفاحشة لنبى الله ، الذى جاء ليحاربها ،

وليُعدِّل سلوكَ الناس فيها : قالوا : نحن نسير فى ذلك على مُقْتضى الكلام العربى فى النسب ، كما قال الناظم[١] :

وَالوَاحِدِ اذْكُرْ نَاسِباً لِلْجمْعِ إنْ لم يُشَابِهْ وَاحِداً بِالوضْعِ [٢]

يعنى : هم قوم لوط بالإضافة ، لكن فى اللغة مَا يُسمَّى بالنحت ، ويمكن أنْ ننحت من الكلمة ما يفيد أن القوم هم أصحاب هذه الفعلة ، بعيداً عن لوط – عليه السلام – فعيْبٌ أنْ نجعله عُنْواناً لهذه الفاحشة.

وهذه الآيات التى معنا تذكر قصة سيدنا لوط مع قومه ، فهى لقطة موجزة لآخر القصة ولنهايتها ، حيث نجَّى اللهُ المؤمنين وأهلكَ الكافرين ، وبداية قصة لوط حينما تقابل مع عمه سيدنا إبراهيم عليهما السلام ، كما قال تعالى :﴿ فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٦) ﴾ [العنكبوت]

فهذه لقطة من القصة ، وليس تكْرَاراً لها كما يدعى البعض ، فالقَصَص فى القرآن لا يأتى سَرْداً جملة واحدة ، إنما يأتى لقطات مختلفة يذكرها فى مناسبتها .

وقد وقف السطحيون كثيراً فى مسألة عصا موسى يتهمون القرآن بالتكرار ، وهذا نتيجة قصورهم فى فَهْم كتاب الله ، فالأمر الأول بإلقاء العصا كان فى مجال الإيناس ، حيث أراد الحق سبحانه أنْ يُجرى لموسى هذه التجربة بينه وبين ربه ، بدليل سؤال الإيناس . ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ (١٧) ﴾ [طه] فالله يعلم ما فى يمينه ، لكن أراد

---

(١) هو ابن مالك صاحب الألفية فى النحو أبو عبد الله جمال الدين ، أحد أئمة العلوم العربية ، ولد فى جيان بالأندلس عام ٦٠٠ هـ ، وانتقل إلى دمشق فتوفى بها عام ٦٧٢ هـ عن ٧٢ عاماً ، له مصنفات كثيرة فى علم العربية

(٢) هو البيت رقم ٨٧٨ فى الألفية ، وهى من بحر الرجز وعدد أبياتها ١٠٠٢ بيتاً .

سبحانه أنْ يُؤنسه ؛ لذلك أطال سيدنا موسى فى الجواب ، فقال : ﴿ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ[1] أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ ﴾ [طه] ثم أمره الله أنْ يُلقيها :﴿ قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ ﴾ [طه]

إذن : أراد الحق سبحانه أنْ يدرِّب موسى ، حتى إذا جاء لقاؤه مع فرعون ورأى العصا حَيَّة على الحقيقة ، كان لديه دُرْبة ولا يخاف. ثم كان الأمر بإلقاء العصا فى المرة الأخرى فى موقف آخر أمام فرعون والسحرة . إذن : هذا موقف ، وهذا موقف آخر .

وإنْ شاء سبحانه أورد القصة كاملة ، كما فى قصة سيدنا يوسف - عليه السلام - ربما ليتحقق لها الحبكة الفنية كما يقول نقاد الأدب ، وربما لأن العبرة والعظة لا تتم إلا بتمام القصة ؛ لأن القصة فى القرآن ليستْ سَرْداً لتاريخ ، ولا مجالاً للتسلية ، إنما تُساق للعبرة والعظة ، وتُساق لتسلية سيدنا رسول الله .

فمهمة رسول الله أمام مجابهة قومه له باللَّدد والخصومة والعناد والكفر كانت تقتضى أنْ يُثبته الله فى كل آونة ، فكلما احتاج إلى تثبيت نزلتْ عليه الآيات تحمل لقطة مناسبة من موكب الرسالات ، ثم يُسلِّى الله رسوله فيقول له : لأنك سيد الرُّسُل وخاتم الرسل ومبعوث إلى الناس كافة إلى آخر الزمان ، فلا بُدَّ أنْ تتضاعف لك المتاعبُ من قومك .

وسبق أنْ مثَّلْنا لذلك ، وقلنا : إننا شاهدنا مثلاً ثورة يوليو ١٩٥٢ وما زلنا نشهد الاحتفال بذكراها كل عام ، ونستمع إلى

---

(١) مآرب أخرى : أى حاجات وأغراض كثيرة أخرى . [القاموس القويم١/١٧] .

قصتها وما دار فيها ، لكن كل سنة نستدرك عليها شيئاً جديداً ، ونستخلص منها دروساً .

إذن : نقول جاء القصصُ القرآنى كل لقطة فى مناسبتها لتثبيت رسول الله كما قال تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً (٣٢) ﴾ [الفرقان]

يقول سبحانه : ﴿ وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٣) إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٣٤) إِلاَّ عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ (١٣٥) ثُمَّ دَمَّرْنَا الآخَرِينَ (١٣٦) ﴾ [الصافات] أى : بالقصف والرَّجْم .

كلمة (وأهله) الأهل تُطلَق على عشيرة الرجل الأقربين ، وتُطلق على الزوجة ، والحق سبحانه وتعالى أخبر هنا أنه نجَّى لوطاً وأهله أجمعين ، واستثنى منهم امرأته ﴿ إِلاَّ عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ (١٣٥) ﴾ [الصافات] ، وفى آية أخرى قال :﴿ إِلاَّ امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٣٣) ﴾ [العنكبوت] والغابرون جمع : غابر ويطلق الغابر على معنيين متقابلين . الغابر : يعنى الشىء الذى مضى وانتهى ، والغابر الباقى ، وقد اجتمع لامرأة لوط المعنيان معاً ، فهى من الغابرين الذين تركناهم للهلاك ، أو من الغابرين يعنى الباقين أيضاً للعذاب حتى يأتى .

ثم يُذكّرنا الحق سبحانه بأن القصة فى القرآن لا تُسَاق للتسلية ، إنما تُساق للعبرة والعظة ، فيقول : ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم (١٣٧) ﴾ [الصافات:] أى : على آثارهم فى سدوم ﴿ مُّصْبِحِينَ (١٣٧) ﴾ [الصافات] فى الصباح ﴿ وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٣٨) ﴾ [الصافات] نعم ، يمرون عليهم فى رحلاتهم وأسفارهم وفى تجارتهم فى رحلة الشتاء والصيف ، ويشاهدون آثارهم وما تبقَّى من ديارهم .

كانت هذه لقطةً موجزة ، وبرقية عاجلة لقصة سيدنا لوط مع قومه ومثْلها تماماً قصة سيدنا يونس :

﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ﴾

أولاً : أثبت الحق سبحانه لسيدنا يونس -- عليه السلام – أنه مُرْسَل ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٩) ﴾ [الصافات] فلنأخذ هذه الفكرة فى الاعتبار قبل الدخول فى قصته ، ولنفهم القصة فى هذا الإطار ، حتى إذا ما حدث منه شىء لا يليق برسول فى نظرك ، فاعلم أنه لا يطعن فى منزلته كرسول ، فالذى أرسله شهد له بالرسالة ولم يعزله منها ، ولم يُجرِّده من منزلته بعد ما حدث .

إذن : حين تسمع قصته لا تَقُلْ أن هذا الفعل لا يليقُ برسول ؛ لأنك لست أغيرَ على الله من الله .

وتأمل قول الله فيه ﴿ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١٤٠) ﴾ [الصافات]معنى أبق : هرب وليس الهروب المطلق ، إنما هروب العبد من سيده ، لا هروبه من مستأجره ، ولا هروب ابنى منى ، فهذا لا يُعَدُّ أبُوقاً . فكلمة (أبق) فيها ملحظ العبودية المطلقة للسيد الأعلى ، فالله سيده وهو عبده .

لأن العبد مملوك بملك اليمين فهو بذاته ملْك لى حين آخذه أسيراً ، نعم بذاته ، لأن الله حقن بهذا الملْك دمه ، فبدل أنْ أقتله فى

الحرب أسرْتُه واستعبدته ، فهو لا يصير عبداً إلا إذا أسرْته ، وما دُمْت أسرْته وقدرْت عليه تستطيع قتله ، إذن : ملّكك اللهُ رقبته ، لأنه حمى دمه أنْ يُرَاق .

فلا داعى إذن للمقارنة بين الرقِّ والحرية ، وإنْ أردتَ المقارنة ، فقارن بين رِقٍّ وقتل ، ولو خيَّرْتَ العبد نفسه بين أن يعيش عند سيد يخدمه ، وبين القتل لاختار العبودية . إذن : العبودية هنا ليست سُبَّة فى الإسلام ، إنما هى جميل أسْداه الإسلام إلى هؤلاء العبيد .

ومحمد ﷺ ما جاء ليشرِّع للرقِّ ، ويزيد من أعداد الرقيق إنما جاء ليقضى على الرِّق ، وليجفِّف منابعه ، ورسول الله ﷺ جاء والرق موجود فى المجتمع وبكثرة ، حيث كان له ثلاثة وعشرون مصدراً يأتى الرقُّ منها ، فماذا فعل الإسلام ؟

سَدَّ كل هذه المصادر ، ولم يَبْقَ منها إلا الأسير فى حرب شرعية ، ثم أخذ يُعدِّد مصارف الرق ويفتح الأبواب لتحرير الرقيق كما رأينا فى الكفَّارات وفى التطوع بتحرير الرقاب . فإنْ لم ترتكب ذنباً يستدعى كفارةً وعتْقَ رقبة ولا حاجةَ لك فى التطوع بعتق رقبة واحتفظتَ بما لديك من الرقيق فلتكرمه .

وقد وضع لنا النبى ﷺ دستوراً نسير عليه فى معاملة الرقيق ، حين قال : « هم إخوانكم ، جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن جعل الله أخاه تحت يده فليطعمه مما يأكل ، وليلبسه مما يلبس ، ولا يكلفه من العمل ما يغلبه ، فإن كلَّفه ما يغلبه فليُعنه عليه »[1] .

هكذا أمر الإسلام فى مسألة العبيد ، والإسلام أبقى على الرقِّ

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٠٥٠) من حديث أبى ذر رضى الله عنه ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٦٦١) كتاب الأيمان - باب إطعام المملوك مما يأكل .

من الحرب المشروعة ؛ لأن لى عدواً كافراً يحاصرنى ويحاربنى ، ويأخذ أولادى أسْرى عنده ، فلا بُدَّ من المعاملة بالمثل ، أسَرُوا منّا نأسر منهم ، فَدوْا أسْراهم نفدى أسْرانا ، أطلقوا السراح نطلق .. وهكذا ، إذن : المتأمل فى هذه المسألة يجد أن محمداً ﷺ ما جاء ليُشرِّع للرقِّ ، إنما جاء ليُشرِّع للعتق .

وقوله تعالى فى شأن سيدنا يونس ﴿إِذْ أَبَقَ (١٤٠)﴾ [الصافات] ليس مأخذاً على نبى الله يونس ، لأن (أَبَقَ) تعنى أنه معترفٌ بأنه عبد لربه ، هذه اللقطة لم يأتِ لها تفصيل هنا ، إنما جاء فى سورة أخرى لنعرف أن المسألة ليستْ (ميكانيكا) ، المسألة مرادات حَقٍّ تأتى فى موضعها لحكمة ، ولسيدنا يونس سورة باسمه ، ولن يُذكر اسمه إلا مرة واحدة ، ثم يذكر فى غير السورة المسمَّاة باسمه كل تاريخه .

فمعنى (أَبَقَ) هرب من سيده أو ترك قومه دون إذن من ربه ، وهذه المسألة فُصِّلَتْ فى قوله تعالى ﴿وَذَا النُّونِ (٨٧)﴾ [الأنبياء] أى : صاحب الحوت ، وهو سيدنا يونس ﴿إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا (٨٧)﴾ [الأنبياء] والمغاضب غير الغاضِب ، المغاضب : فيها مفاعلة ومشاركة ، فهو غاضب ، والمقابل له أيضاً غاضب ، فهى مثل شارك محمد علياً ، فهى شارك علىّ مُحمداً ، أما غاضب فيعنى من ناحيته هو فحسب .

لكن مُغَاضباً لمن ؟ الطرف الآخر هنا هم القوم لما كذبوه وآذوه لم يُطِقْ ، فهو ليس مُغَاضِباً لربه ، إنما مغاضباً لقومه وعنده أمل ، وظن فى ربه أن يسامحه فى هذا التصرف ؛ لذلك قال تعالى بعدها :

﴿ فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ (٨٧) ﴾ [الأنبياء] البعض[١] فهم (نقدر) من القدرة، وحاشا لله أن يظن نبى الله أن الله لن يقدر عليه ، ولن يعيده إلى قومه .

إنما معنى (نقدر) هنا أى : نُضيِّق عليه[٢]، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ (٧) ﴾ [الطلاق] فهى ثقة منه فى رحمة من أرسله ، وأنه سبحانه لن يُضيِّق عليه أنْ يُنفِّس عن عواطفه حين ترك قومه دون إذن من ربه .

ومعنى (الفُلْك) السفينة (المشْحُون) المملوء ، وهذا يدلُّنا على أن للسفينة حملاً خاصاً ، لا ينبغى أنْ يزيد ، وإلاَّ تعرضت السفينةُ للغرق حسب قاعدة أرشميدس ، وبهذه القاعدة تطفو الأشياء ، وعليها قامتْ فكرة الغوَّاصات ، معنى غواصة يعنى : تغوص تحت الماء ، لأن وزنها أثقلُ من إزاحة الماء ؛ لذلك يقولون : خِفْ تعوم .

وما دام أن الفلك مشحون ، والعدد أزيد من حمْل السفينة فقرر القبطان أن يُلقى بأحد الركاب ليَخفَّ الحملُ ، فأجروا القرعة ، فخرج سهم سيدنا يونس ، فألقَوْا به فى البحر فالتقمه الحوت ، هذا معنى ﴿ فَسَاهَمَ .. (١٤١) ﴾ [الصافات] أى : دخل معهم فى القرعة ، وألقى بسهمه مع سهامهم ، ﴿ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ (١٤١) ﴾ [الصافات] معنى ﴿ الْمُدْحَضِينَ (١٤١) ﴾ [الصافات] المدْحَض الخاسر فى الصفقة ، والمراد القرعة حيث كان من نصيبه أنْ يُلْقى هو فى البحر .

والقرعة طريقة للاختيار ، تبرىء مالك السفينة من أنْ يُتَّهم

---

(١) رواه عوف عن الحسن البصرى . وتقدير المعنى : أفظن أن لن نقدر عليه . قال ابن الجوزى فى زاد المسير فى تفسير الآية :« فعلى هذا الوجه يكون استفهاماً قد حذفت ألفه ، وهذا الوجه يدل على أنه من القدرة ، ولا يتصور إلا مع تقدير الاستفهام ، ولا أعلم له وجهاً إلا أن يكون استفهام إنكار » .

(٢) قاله عطاء فيما ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير .

بالتحيز أو المحاباة ، وعملية إلقاء السهام مسألة قدرية خالصة ، لا دَخْلَ فيها للهوى ، وهى دليلٌ على عدالة الحكم ؛ لذلك كثيراً ما نلجأ فى إجراء القرعة إلى طفل صغير ، يختار الأوراق الملقاة مثلاً ، لماذا ؟ لأنه لا يستطيع التمييز بينها ؛ لذلك يأتى اختياره قَدَراً مُنزَّهاً عن الهوى .

فقوله تعالى ﴿فَسَاهَمَ (١٤١)﴾ [الصافات] يعنى : دخل معهم فى القرعة يعطينا لقطة اجتماعية تعفينا من الحرج والضغائن ، لأنه إذا وُجد شىء لا يتسع للطالبين له ، لا يصح أنْ يميزَ القائمُ عليه بين هؤلاء الطالبين ؛ لأن تمييزَ واحد على الآخر يُورث فى النفس شيئاً ، وإجراء القرعة اختيار قدرى لا دخْلَ لأحد فيه[1] .

وهذه المسألة لجأ إليها سيدنا رسول الله ﷺ ، حينما دخل المدينة والتفَّ الناس حوله ، كُلٌّ يريد أنْ يأخذ بزمام ناقته ﷺ ليذهب برسول الله إلى بيته ، فكيف يفعل رسول الله وهو يريد ألاَّ يكسرَ خاطر أحد منهم ؟ لقد حسم رسول الله هذا الموقف ، حين قال : « دعوها فإنها مأمورة » فأخرج نفسه من الاختيار ، وتركه لله تعالى ولقدره ، وسارتْ الناقة حتى بركتْ عند ديار بنى النجار[2] .

---

(١) يذكر القرطبى عند تفسيره لهذه الآية (٥٧٦٥/٨) أمراً هاماً وهو أنه لا يجوز الاحتجاج بهذه الآية على جواز الاقتراع على إلقاء الآدمى فى البحر ، ويقول : « إنما كان ذلك فى يونس وزمانه مقدمة لتحقيق برهانه وزيادة فى إيمانه فإنه لا يجوز لمن كان عاصياً أن يُقتل ولا يرمى به فى النار أو البحر ، وإنما تجرى عليه الحدود والتعازير على مقدار جنايته » ونصَّ أبو بكر الجصاص على خصوصية هذا بيونس عليه السلام فى « أحكام القرآن » (٤٩٧/٣) طبعة دار الكتب العلمية .

(٢) أورد هذه القصة ابن هشام فى السيرة النبوية (١١٢/٢ ، ١١٣) أن كلاً من بنى عوف وبنى بياضة وبنى ساعدة وبنى الحارث أرادوا الأخذ بزمام ناقة رسول الله ﷺ ، وهو يقول لهم : « خلوا سبيلها فإنها مأمورة » حتى بركت الناقة فى أرض لبنى عدى بن النجار.

قد يقول قائل : هل تنجو السفينة أو تغرق بسبب شخص واحد خَفَّ من وزنها أو زادَ عليه ؟ نقول : نعم ألم تسمع عن القشَّة التى قصمتْ ظهر البعير ، فأنت حين تُحمِّل الجمل يتحمَّل على قدر طاقته، حتى إذا زدْتَ عليه عوداً واحداً برك بحمله ، والحقيقة أن العود الواحد أو القشة لا تقصم ظهر البعير ، إنما مجموع العيدان والقشة الأخيرة هى فقط التى رجَّحتْ الوزن ووصلتْ به إلى درجة عدم التحمُّل ، كذلك الحال فى سفينة سيدنا يونس ، حيث توقف نجاتها من الغرق على إلقاء واحد من ركابها ، وهلاك واحد خير من هلاك الجميع .

ونتعلم من هذه المسألة أنه لا مانعَ حين يحل الخطر بالجماعة أنْ يدفعه عنهم أحدهم ، والقرعة هى التى تحدد هذا الواحد .

ثم يقول سبحانه ﴿فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (١٤٢)﴾ [الصافات] أى : ابتلعه الحوت ، وقد فعل عليه السلام ما يُلاَم عليه ، واللوم نوع من العتاب ، وفَرْق بين ما تُلاَم عليه وما تُعَاقب عليه ، سيدنا يونس فعل ما يُعاتَبُ عليه من ربه - عز وجل - وكأن الله يقول له : لقد تسرعتَ حين تركتَ قومك وضقْتَ بهم لأول إيذاء تتعرَّض له ، وكان عليك أنْ تصبر ، وأنْ تتحمل الأذى فى سبيل دعوتك . فاللوم ضَرْب من العتاب ، لا يصل إلى درجة العقاب ، وغالباً ما ينشأ العتاب بين الأحبة لاستبقاء المودة ، لذلك قال الشاعر :

أمّا العِتَابُ فَبِالأَحِبَّةِ أَخْلَقُ والحبُّ يَصْلُحُ بالعِتَاب وَيَصْدُقُ[1]

---

(١) البيت من قصيدة لأمير الشعراء أحمد شوقى ، توفى ١٩٣٢م عن ٦٦ عاماً . وهو مطلع قصيدة عدد أبياتها ١٢ بيتاً من بحر الكامل . [الموسوعة الشعرية] .

ومعلوم أنك لا تعاتب إلا مَنْ تحرص عليه ليظل فى صحبتك .

إذن : يشفع لسيدنا يونس هنا عدة أشياء أولها ﴿إِذْ أَبَقَ (١٤٠)﴾ [الصافات] يعنى : كان عبداً لله تعالى ، ثم ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ (٨٧)﴾ [الأنبياء] أى : لا نُضيِّق عليه ، وهذا حُسْن ظن بالله ، ثم ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ (١٤٢)﴾ [الصافات] فالله عاتبه ولامه مجرد لَوْمٍ ، على أمر لا يصحُّ من نبى ، والعتاب دليل المحبة .

وقوله تعالى : ﴿فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤٤)﴾ [الصافات] التسبيح يعنى : التنزيه المطلق لله تعالى فكوْنه من المسبحين جعله موضعاً للَّوْم والعتاب ، لا للإيذاء والعذاب ، فلولا إيمانه وتسبيحه لَظَلَّ فى بطن الحوت إلى يوم يُبْعَثُون.

مسألة عتاب الحق سبحانه لنبيه يونس على تركه لقومه وتخلِّيه عنهم ، لمجرد أنهم عاندوه وكذَّبوه يُذكِّرنا بسنة الله تعالى فى رسُله ، وهى النُّصْرة والتأييد ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ (٥١)﴾ [غافر]

لكن قد يتأخر هذا النصر ، مع أن الله قادر أنْ ينصرهم من أول وهلة ، لكن الحق سبحانه يريد بذلك أمرين :

أولاً : أنْ يستشرىَ الفسادُ ويعُمَّ ، حتى يضيق الناس به فيتطلَّعون إلى الحق وإلى الخير ، ويَسعَوْنَ هم إليه .

ثانياً : ليُمحِّص اللهُ المؤمنين بالرسل ، ويميز منهم أصحاب

الثبات والقدرة على تحمُّل مشاقِّ الدعوة فيما بعد . إذن : تأخُّر النَّصْرة ليس خُذْلاناً للرسل ، ولا تخلياً عنهم ، فما كان الله تعالى ليرسل رسولاً ويتخلَّى عنه .

﴿ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُواْ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾ ﴾

نلحظ فى الأَخْذ ، قال ﴿ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ ﴿١٤٢﴾ ﴾ [الصافات] فنسب الفعل للحوت ، لكن هنا فى النجاة نسب الفعل إلى الله ، فقال ﴿ فَنَبَذْنَاهُ ﴿١٤٥﴾ ﴾ [الصافات] أى : ألقيناه وطرحناه ﴿ بِالْعَرَاءِ ﴿١٤٥﴾ ﴾ [الصافات] أى : فى أرض فضاء واسعة ﴿ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ ﴾ [الصافات] يعنى : مريض أو مُتْعب من الضيق الذى عاناه فى بطن الحوت ، أو سقيم من التفكير فيما حدثَ من قومه ، وفيما حدث منه ، فهى تحتمل السقم المادى والمعنوى .

ثم لم يتركه ربه بهذا العراء ، بعد أنْ ألقاه الحوت فى هذه الأرض الفضاء وهو مُتْعَب ، وأشبه ما يكون بالطفل بعد ولادته ، فأنبتَ اللهُ له شجرةَ اليقطين ﴿ وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ ﴾ [الصافات] وهى شجرة عريضة الأوراق قالوا : هى شجرة القرع تستره وتُظلُّه وتحميه من الذباب والحشرات ؛ لأنه خرج وحوله إفرازات من بطن الحوت تعوق تنفُّس جلده ، وتعوق حالته الصحية ، وتجعله لزقَ المزاج .

لذلك لما سُئل سيدنا رسول الله ﷺ عن شجرة اليقطين[١] ، قال : « هى شجرة أخى يونس »[٢] .

والهاء فى (عَلَيه) تعود إلى سيدنا يونس ، وهذا يعنى أن إنبات هذه الشجرة حدث بعد أنْ ألقاه الحوت فى العراء ، ولم تكُنْ شجرة اليقطين موجودةً فى هذا المكان من قبل .

إذن : فالتقام الحوت لسيدنا يونس - عليه السلام - كان رحمةً له من الله بدلَ أنْ يضيعَ فى البحر الواسع وتتقاذفه الأمواج لا ندرى أين تذهب به ، أما الحوت فله إرادة ويمكنه الاحتفاظ به وإلقاؤه على البرِّ . فنحن أمام سلسلة من رحمات الله ليونس عليه السلام .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (١٤٧) فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ (١٤٨) ﴾ [الصافات] كأن الحق سبحانه يقول لنا : إياكم أنْ تظنوا أن ما حدث من يونس يقدح فى رسالته ، أو يجعلنا نغير رأينا فيه كرسول ، فهو مرسل إلى ﴿ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (١٤٧) ﴾ [الصافات] والمائة ألف هنا قد تكون كناية عن العدد الكثير ؛ لأن الألف قديماً كان منتهى ما يُعرف من العدد عند الناس .

---

(١) كل شجرة لا تقوم على ساق كالدّباء والبطيخ والحنظل ونحو ذلك ، فهى عند العرب يقطين. [قاله ابن جرير الطبري فى تفسيره للآية (الجزء ٢٣)] . قال الزجاج : اشتقاق اليقطين من قطن بالمكان . أى : أقام به فهو يفعيل . وقيل : هو اسم أعجمى . [فتح القدير للشوكانى (ج ٦) فى تفسير آية الصافات ١٤٦] .

(٢) قال ابن حجر فى الفتح (كتاب الأطعمة) (حديث ٥٠٦٤) أن مسلماً أخرجه بلفظ : « وكان يعجبه القرع » وللنسائى : « كان يحب القرع ويقول إنها شجرة أخى يونس » قال ابن جزى : « إنما خصَّ القرع بالذكر لأنه يجمع كبر الورق وبرد الظل ، والذباب لا يقربه، فإن لحم يونس لما خرج من البحر كان لا يحتمل الذباب ، وكان هذا من تدبير الله ولطفه».

لذلك لما أرادوا أنْ يفدوا بنت كسرى (أظن) حين وقعت فى الأَسْر عرضوا على مَنْ جُعلَتْ فى سهمه من المسلمين كذا ألف فوافق ، فقال له أصحابه بعدَ أنْ عقد هذه الصفقة : لماذا لم تطلب أكثر من ذلك ، فهم قادرون على أنْ يفدوها بالمال الكثير ؟ قال : والله لو أعلم أن وراء الألف عدداً لَقُلْتُ .

وقوله تعالى : ﴿ أَوْ يَزِيدُونَ (١٤٧) ﴾ [الصافات] هل الحق سبحانه لا يعرف عدد هؤلاء القوم على وجه التحديد ؟ نعم يعرفهم سبحانه وتعالى ، ولو أراد لَذكَرهم لنا تحديداً ، إنما قوله ﴿أَوْ يَزِيدُونَ (١٤٧) ﴾ [الصافات] ليس للدلالة على الزيادة ، إنما لتأكيد العدد السابق المائة ألف ، كما أعطيت فلاناً حقه ويزيد ، فأنت لا تتحدثُ عن الزيادة إنما تؤكد على العدد ، وأنه غَيْرُ ناقص ؛ لأن الألفَ يُطلَق أيضاً على ما يقرب الألف مثل تسعمائة وتسعة وتسعين ، إذن : فالزيادة هنا تؤكد تمام العدد .

وقوله تعالى : ﴿فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ (١٤٨) ﴾ [الصافات] وما دام المتاعُ موقوتاً بزمن ينتهى عنده ، فهو متاع الدنيا ، ومُتعة الدنيا للمؤمن تنتهى إلى خير منها ، فلا تَقُلْ إذن : أنهى اللهُ متعةَ المؤمن ؛ لأن انقطاع متعة الدنيا يُوصِّلك بمتعة الآخرة وتمتُّعك فى الدنيا موقوت بعمرك فيها ، ومحدود بحدود إمكانياتك وقدراتك ، أما متعة الآخرة فباقية وتأتى على قدر إمكانيات المنعِم سبحانه .

إذن : هذا إكرام أنْ تُنقل من نعيم الدنيا إلى نعيم الآخرة ، فقوله ﴿إِلَىٰ حِينٍ (١٤٨) ﴾ [الصافات] يُعَد جميلاً من الله .

بعد ذلك ينتقل الحق سبحانه إلى قضية أخرى :

﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ[1] لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ ﴾

قوله : ﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ (١٤٩) ﴾ [الصافات] كلمة استفتى أى : طلب الفُتْيا ، مثل استخرج طلب الإخراج ، واستفهم طلب الفهم ، والفتية تعنى منتهى القوّة ، ومنها الفتى والفتوة . فمعنى : استفتى طلب ما يُقوِّيه فى جهة الفتوى ، فالذى لا يعرف قضيةً دينية مثلاً يسأل عنها ويستفتى يعنى : بعد أنْ كان ضعيفاً فى الدين ، يطلب أنْ يصيرَ قوياً فى أمر دينه ، ومن ذلك قوله تعالى فى سيدنا إبراهيم : ﴿ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (٦٠) ﴾ [الأنبياء]

وفى أهل الكهف :﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ (١٣) ﴾ [الكهف]

يعنى : لم يكونوا شيوخاً ، وعجيبٌ أنْ يأتى الإيمانُ مع فتوة الشباب وعنفوانه ، وهو مَظِنَّة الشهوات والرغبات ؛ لذلك ورد فى الحديث : « عَجِبَ ربُّكَ من شاب ليستْ له صَبْوة[2] »[3]

---

(١) الإفك : الكذب . وأفك يأفك : كذب وافترى باطلاً . وأفاك : صيغة مبالغة أى كثير الكذب . [القاموس القويم١/٢٢] .

(٢) الصبوة : جَهْلة الفتوة واللهو من الغزل . ومنه التَّصابى . يقال : تصابى وصبا يصبو صَبْوةً . أى : مال إلى الجهل والفتوة . فالصبوة : الميل إلى الهوى . [لسان العرب – مادة : صبا] .

(٣) أخرج أحمد فى مسنده (٤/١٥١) عن عقبة بن عامر قال قال رسول الله ﷺ : « إن الله عز وجل ليعجب من الشاب ليست له صبوة » .

والحق سبحانه بيَّن لنا فى مقاييس المجتمعات أنها لا تخلو عن اثنى عشر نوعاً ، ستٌّ منها فى المحبوبية ، وستٌّ فى المبغضين والعياذ بالله ، المحبوبون منهم المحبوب والأشدّ حباً ، والمبغضون كذلك منهم المبغَض والأشدّ بُغْضاً .

يقول تعالى فى الحديث القدسى : « أحب ثلاثاً وحُبى لثلاث أشدّ : أحبُّ الشيخ الطائع ، وحُبِّى للشاب الطائع أشدّ ، وأحب الغنى الكريم وحُبى للفقير الكريم أشدّ ، وأحب الفقير المتواضع وحُبى للغنى المتواضع أشدّ »

هؤلاء الستة المحبوبون ، وتستطيع أنت أنْ تأتى بالمقابل لهؤلاء ، وهم المبغوضون والعياذ بالله .

إذن : الشاب الطائع أكثر محبةً عند الله ؛ لأن عنده دواعىَ الشهوة ومبرراتها وعنفوانها ، ومع ذلك تغلّب عليها وسلك طريق الطاعة على خلاف الشيخ الذى ذهبتْ شهوته وقلَّتْ دواعيها عنده ، كذلك الحال فى الغنى الكريم وفى الفقير المتواضع .

هؤلاء الثلاثة يُمثِّلون قمة الرقى فى المجتمعات ، وقمة الخلافة فى الأرض ، وتصوَّر مجتمعاً شبابه طائعون ، وفقراؤه كرماء ، وأغنياؤه متواضعون . تحت هذا درجةٌ مجتمع شيوخه طائعون ، وأغنياؤه كرماء متواضعون ودون هؤلاء المبغضون ، والعياذ بالله .

فالمعنى ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ (١٤٩)﴾ [الصافات] يعنى : اطلب منهم الفتوى التى تُقوِّيك فى أمرك الجدلى ؛ لذلك نقول للمفتى الذى يقصده الناس للفتوى

الناس يريدون أنْ تُقوِّيهم برأيك ، فلا تذهب بهم ناحية المياسير ؛ لأنك بذلك تشجعهم على المياسير ، فأنت إذن لا تُقويهم إنما تضعفهم ، بل أعطهم الحكم الصحيح فهو القوة الحقيقية .

لكن ، لماذا يطلب الحق سبحانه من النبى أنْ يستفتىَ القَوْمَ ؟ قالوا : لأن القضية حين تكون معلومة الحكم عند المتكلم يقول : أنا لا أقضى فيها ، إنما خَصْمى هو الذى يقضى ، لماذا ؟ لأنك واثق أنه إذا أدار المسألة فى ذهنه لن يجدَ إلا أن يقولَ ما تريده أنت ، كما تقول لمن ينكر جميلك : أنا راضٍ حكمك ، ألم أقفْ بجانبك يوم كذا وكذا ؟ هكذا على سبيل السؤال لأنك واثق من الجواب .

أما لو جاء الكلام منك خبراً ، فالخبر يحتمل الصدق ويحتمل الكذب ؛ لذلك ناقش الحق هذه القضية بهذا الاستفهام ﴿أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ (١٤٩)﴾ [الصافات] هذا استفهام يحمل معنى الإنكار والتعجب ، يعنى : كيف تقولون ذلك ؛ لأنهم قالوا : الملائكة بنات الله ثم نسبوا لله سبحانه الولد .

لذلك يرد القرآن عليهم ﴿أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ (١٤٩)﴾ [الصافات] كيف ؟ مَن الذى خلق ؟ إنه الله خالق الذكر وخالق الأنثى ، فكيف تختارون لأنفسكم الجنسَ الأفضل وهم الذكور ، وتجعلوا لله تعالى البنات ؟

كيف وأنتم إذا بُشِّر أحدكم بالأنثى ظلَّ وجهه مُسوداً وهو كظيم يتوارى من القوم من سُوء ما بُشِّر به ، ثم يفكر : ﴿أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ[1] أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ (٥٩)﴾ [النحل]

(١) الهُون : الخزى والذل والضعف . قال الفراء : الهون فى لغة قريش الهوان . [لسان العرب – مادة : هون] .

كلمة ﴿يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ (٥٩)﴾ [النحل] يعنى : حياً ؛ لأن عاطفة الأبوة لا تتحمل أنْ يرى الوالدُ ولده وهو يموت ، أو أنْ يخنقه بيده ؛ لذلك يتخلص منه بدفنه فى التراب حتى لا يراه .

وفى آية أخرى قال سبحانه : ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (١٧) أَوَ مَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ (١٨)﴾ [الزخرف] يعنى : أتجعلون لله مَنْ يُربَّى فى النعمة والزينة ، وهم البنات ، وتجعلون لأنفسكم البنين القادرين على العمل والسعى وتحمُّل المشاق ، لذلك حكم سبحانه على هذه المسألة بأنها قِسْمة ظالمة جائرة .

فقال سبحانه : ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَىٰ (٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ (٢٢)﴾ [النجم] تأمل كلمة (ضيزى) ، والله لو كان فى غير القرآن لكانَ ثقيلاً غيرَ مستساغ ، لكنه يأتى فى سياقه من كلام الله طبيعياً سلسبيلاً ، لماذا ؟ لأنه وُضِع فى مكانه ليعبر عن هذه القسمة الجائرة العجيبة ، التى لا يعبر عنها إلا هذا اللفظ العجيب بما يحمله من جَرْس يرنّ فى الأذن .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿أَمْ خَلَقْنَا الْمَلائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ (١٥٠)﴾ [الصافات]

إذن : أنتم مخطئون ، بل جهلة أغبياء فى قضيتين : لأولى : أنكم جعلتم الملائكة إناثاً ، والأخرى : أنكم أخذتم الذكور لأنفسكم وتركتم لله البنات ، فمَنْ قال لكم إن الملائكة بنات ، فكلمة بنت وولد منشؤها الزوجية والتناسل ، والملائكة لا يتزوجون ولا يتناسلون ، ولا يتصفون بذكورة ولا أنوثة .

ثم إن الذى يحكم على الملائكة بأنهم إناثٌ لا بُدَّ أنْ يكون قد شهد خَلْقهم ، والله يقول : ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَـٰنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ (١٩) ﴾ [الزخرف]

وقال فى سورة الكهف : ﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا (٥١) ﴾ [الكهف] الحق سبحانه يخبرنا بهذه الحقيقة ﴿ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا (٥١) ﴾ [الكهف] يعنى : معاونين ومساعدين فى عملية الخَلْق ، فهو يفضح هؤلاء الذين سيأتون ويتحدّثون فى مسألة الخلق كأنهم رأوْهَا ، فيقولون : الملائكة إناث . ويقولون : الإنسان أصله قرد إلى آخر هذه الادعاءات.

الحق يُحذِّرنا منهم ليعطينا المناعة اللازمة لمواجهتهم ، ويكفى أنْ نعلم أنّ هذه مسألة غيبية لا علْمَ لهم بها ، إلا ما أخبرنا به الخالق سبحانه ، ومع ذلك ترك لنا فى الكون ما يُبيِّن صِدْقه فيما لم نشهد .

والحق سبحانه ينقض هذه الأباطيل بقوله سبحانه : ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٤٩) ﴾ [الذاريات] . فكل جنس من الأجناس قائم بذاته ، وليس هناك شىء متطور عن شىء آخر . كذلك قال سبحانه :﴿ سُبْحَانَ الَّذِى خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا (٣٦) ﴾ [يس]

أما الملائكة فَلَهُمْ طبيعة خاصة لا تصلح للزوجية ؛ لأنهم لا يتصفون بذكورة ولا أنوثة ، كما أنهم لا يأكلون ولا يشربون ولا ينامونَ .. الخ وإنْ كانت هذه مسألة مخالفة للعقل ، فخُذْها هى الأخرى ضمن الأشياء المخالفة للعقل ، والتى يختبر بها إيمانك بالمغيَّبات التى أخبرك بها ربُّكَ ، وهذه المغيَّبات التى أخبرك الله بها رصيدها أنك آمنتَ بالقائل المخْبِر بها .

ثم ينتقل الحق سبحانه إلى قضية أخرى فيقول :﴿ أَلا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ (١٥١) وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٥٢) ﴾ [الصافات] إذن : فجُرْأتهم على الله لم تَنْتَه عند حدٍّ وصفهم الملائكة بأنهم إناث ، ولا عند نسبتهم البنات لله تعالى ، بل وصلتْ جُرْأتهم إلى ذات الله سبحانه ، فقالوا : ﴿ وَلَدَ اللَّهُ (١٥٢) ﴾ [الصافات]

وكأن الحق سبحانه يُفسح للمكابر ويُرخِى له العنان حتى يقول كلمة تكشف كذبه ، وتفضح ادعاءه ، وتُظهر أن المكابر فى أمر الدين أحمقُ غبىٌّ ، لأنهم قالوا ﴿ اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا (١١٦) ﴾ [البقرة] والآن يقولون (وَلَدَ اَللهُ) وفَرْق كبير بين القولين : (وَلَدَ اللهُ) نسبوا لله الولد مباشرة إنما (اتّخَذَ اللهُ وَلَداً) يعنى : لم يلد إنما تبنَّى ولداً ، فالأصل أنه ليس له ولد ، لذلك اتخذ ولداً . وقد ردَّ الله على قولهم (وَلَدَ اللهُ) فقال : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤) ﴾ [الإخلاص]

وردَّ على قولهم : ﴿ اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا (١١٦) ﴾ [البقرة] فقال : ﴿ مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلا وَلَدًا (٣) ﴾ [الجن]

ولنبحث نحن مسألة اتخاذ الولد من خلال واقعنا : لماذا نسعى للولد ونطلبه ؟ لماذا نحزن حين يمتنع الإنجاب ونقلق حين يتأخر الولد ؟ قالوا : لأن الولد ذكْرى وامتداد لأبيه ؛ لذلك يفرح الرجل بابنه ويفرح أكثر بحفيده ؛ لأنه بالولد ضمن ذكْراه جيلاً ، وبالحفيد ضمن ذكْراه جيلين ، عجيب أمْرُنا مع الدنيا ، كيف نتمحك فيها ونتشبَّثَ بها ولو بالذكرى ، وإذا لم تَدُمْ لك الدنيا فما انتفاعُك بدُنْيا غيرك ؟

ولما تحدَّثَ شوقى - رحمه الله - فى هذه المسألة لما جاءه حفيد وفرح به قال :

فَاضْمَنْ لنفْسكَ بَعْدَ مَوتكَ ذِكْرهَا فَالذِّكْرُ للإنْسَانِ عُمْرٌ ثَانِ

ولا شكَّ أن شوقى لا يعنى بالذكْر الولد ، إنما يعنى العمل الصالح والأثر الطيب الذى يُخلِّد ذكْرى صاحبه ، إذن : تحتاج الولد لأنك ستموت وسيحمل ولدُك اسمك وذكْراك ، أما الحق سبحانه فباقٍ لا يموت ، وقد كان عبد المطلب لا يعيش له أولاد فنذرَ لله إذا رزقه أولاداً أنْ يذْبح واحداً منهم تقرُّباً لله تعالى ، فالإنسان يحتاج الأولاد ليكونوا عِزْوةً كما يقولون ، وآخر يقول إذا متُّ ، مَنْ يأخذ فىَّ العزاء ؟ سبحان الله إذن ضمنتَ أنك ستُعزى وولدك من بعدك سيُعزَّى . إذن المسألة فانٍ فى فانٍ .

نعم ، لهذه الأسباب نحتاج نحن الولد ونسعى إليه ، أما الحق سبحانه فباقٍ لا يموت ، فبماذا ينفعه الولد ولم يَتخذه ، وله سبحانه مُلْك السموات والأرض ؟

لذلك يردُّ الحق عليهم : ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴿٤﴾﴾ [الزمر] لو أراد سبحانه لاختار ما يشاء ، فهو الذى يقول ، وهو الذى يختار لا أنتم ؛ لذلك كان رسول الله مؤدباً فى عبوديته مع ربه ، فقال : ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [الزخرف] يعنى : إنْ كان للرحمن ولد أخبر هو سبحانه به ، فأنا أول المؤمنين بوجوده .

وفى موضع آخر ، قال فى الردِّ عليهم : ﴿وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾﴾ [مريم] فالحق سبحانه لم يتخذ ولداً ، ولا ينبغى له ذلك ،

ولا يناسبه أبداً ، لأن معنى الوالدية أو المولودية مفقود فى حقِّه تعالى ، لأنه باقٍ لا يموت ، فيحتاج إلى مَنْ يحمل ذكْراه ، وهو الغنى عن خَلْقه ، وله مُلْك السموات والأرض ، والعباد كلهم صَنْعته وعياله ، فلا يحتاج إلى عِزْوة كما تحتاجون .

وقال سبحانه : ﴿مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلا وَلَدًا ﴿٣﴾﴾ [الجن] يعنى : لم يكُنْ له صاحبة . يعنى : زوجة حتى يكونَ له منها ولد . إذن : هذا كله إفْكٌ وافتراء على الله ؛ لذلك وصفهم الله بالإفْك ، ثم بالكذب المؤكَّد فى ﴿أَلا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٥٢﴾﴾ [الصافات]

لكن ، لماذا هذا الإفْك وهذا الكذب ؟ قالوا : ليحتفظوا لأنفسهم بالسلطة الزمنية التى كانت لهم قبل الإسلام ، السلطة الزمنية التى جعلتْ لهم الزعامة والرياسة والجاه ، ومعلوم أن اليهودَ فى المدينة كانت لهم مكانتهم المالية والعلمية والحربية ، وكانوا يستفتحون على الكافرين برسول الله ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ﴿٨٩﴾﴾ [البقرة] لماذا ؟ لأنهم يعرفون أنه سيسلب منهم هذه السلطة .

وسمَّى الله كذبهم إفكاً ؛ لأن الإفك هو الكذب المتعمَّد ، وافتراء الكذب المتعمد إنما كان إفكاً لأنه يقلب الحقائق ، ومن ذلك سُمِّيتْ المؤتفكة ، وهى القرية التى قلبها الله بأهلها ، فجعل عاليها سافلها .

والكذب المتعمَّد قَلْبٌ للحقيقة ؛ لأن الإنسان إذا قال قضية ، هذه القضية تُسمَّى نسبة كلامية ، فإنْ سبقها نسبة وجودية تُطابق الكلام فالكلام صِدْق ، وإنْ كانت النسبة لكلام لا واقع له فهى كذب ، والكذب على درجات ، أعلاها وأشدها الافتراء على الله تعالى فى قضية واضحة ، وفى أصل من أصول العقيدة ، فليس الكذب هنا فى أمر هيِّن ، عدة جنيهات مثلاً ، بل الكذب هنا فى القمة العقدية .

﴿ أَلا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ (١٥١) وَلَدَ اللَّهُ (١٥٢) ﴾ [الصافات] فنسبوا لله تعالى الولد مباشرة ، وليس مجرد اتخاذ الولد .

لذلك يحكم الله عليهم ﴿ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٥٢) ﴾ [الصافات] لكن هذا أسلوب خبرى ، والخبر من الله تعالى صادقٌ لا شكَّ ، لكنه فى العقل قضية تحتمل الصدق والكذب ، لذلك يُطوِّقهم الله بأسلوب آخر لا يجدون منه منفذاً ، يثبت كلامهم فى أذهان قارئيه أو سامعيه ، يُطوِّقهم بهذا الإقرار ، فيقول سبحانه :

﴿ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ (١٥٣) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (١٥٤) أَفَلا تَذَكَّرُونَ (١٥٥) ﴾

الهمزة فى ﴿ أَصْطَفَى (١٥٣) ﴾ [الصافات] همزة الاستفهام لأن الفعل ﴿ أَصْطَفَى (١٥٣) ﴾ [الصافات] مبدوء بهمزة وصل ، فلما دخلتْ عليه همزة الاستفهام حُذفَتْ همزة الوصل ، وأثبتت الهمزة التى جاءتْ لمعنى الاستفهام ، فأَصله : أاصطفى . وهذا الاستفهام للتعجُّب والإنكار ؛ لأن الحق سبحانه هو خالق البنين والبنات ، فكيف يصطفى لنفسه سبحانه الجنسَ الأدنى ، وهو خالق الجنسين ؟

إذن : هذا كلام لا يُقبل حتى فى ميزان العقل فالمسألة واضحة ؛ لذلك يأتى بهذين الاستفهامين للتعجُّب من قولهم ، فيقول : ﴿ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (١٥٤) أَفَلا تَذَكَّرُونَ (١٥٥) ﴾ [الصافات] يعنى بعقولكم فالأمر واضح ، وسبق أنْ أوضحنا أن الحق سبحانه يستفهم منهم ، حتى يأتى الحكم منهم هم على سبيل الإقرار ولا يكون إخباراً ، والإقرار سيد الأدلة ، أما الخبر فيحتمل الصدق ويحتمل الكذب ، فى العقل .

هذا دليل عقلى يبطل هذا الادعاء ، إلا أن الدليل العقلى قد تختلف

فيه العقول ، لذلك ينقلنا الحق سبحانه إلى الدليل النقلى ، فلعلَّ عندهم كتاباً يدرسون فى هذه المسألة :

﴿ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾ ﴾

بعد أنْ أبطلَ اللهُ ادعاءهم بالدليل العقلى يبطله بالدليل النقلى ، فكلمة ﴿ سُلْطَانٌ ﴿١٥٦﴾ ﴾ [الصافات] إما سلطان حجة تقنع ، أو سلطان قهر وإجبار ، الفرق بينهما أن سلطان الحجة يقنع المقابل فيفعل طائعاً ، أما سلطان القهر فيجبره فيفعل كارهاً . والمعنى : ليس لديك سلطان حُجَّة ولا قَهْر.

ومثل ذلك قوله تعالى حكايةً عن إبليس يوم القيامة :﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي .. ﴿٢٢﴾ ﴾ [إبراهيم] يعنى : لا قوة عندى أقهركم بها على طاعتى ، ولا حجة أقنعكم بها ، بل كنتم أنتم على (تشويرة) يعنى : على استعداد للضلال وللمعصية .

ومعنى ﴿ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ ﴾ [الصافات] بيِّن واضح .

وقوله تعالى ﴿ فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [الصافات] يعنى : إنْ كان لكم سلطان فأتُوا بكتابكم ، أى : الذى نزل عليكم من الله يخبركم بهذا .

﴿ وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ (١)

---

(١) أكثر أهل التفسير أن الجنَّة هاهنا الملائكة . وقال أهل الاشتقاق : قيل لهم الجنة لأنهم لا يُرونَ . وقال أبو مالك : إنما قيل لهم جنَّة ، لأنهم خُزَّان على الجنان ، والملائكة كلهم جنة . قاله القرطبى فى تفسيره (٨/ ٥٧٧٤) .

كلمة (الجنة) بالكسر وكذلك الجنة بالفتح ومنها الجن ومجنون كلها مادة (جنَّ) وتفيد الاكتنان والستر و (الجنة) هنا هم الملائكة سُمُّوا بذلك لأنهم مستورون عنّا فلا نراهم ، وكذلك الجنة لأنها تستر مَنْ يسير فيها بكثرة أشجارها ، أو تستر مَنْ فيها بتوفير كل احتياجاته ، فلا يحتاج أنْ يخرج منها ، وكذلك المجنون لأنه غاب عقلُه واستتر .

والمعنى أنهم جعلوا بين الله تعالى وبين الملائكة نَسَباً حين قالوا : الملائكة بنات الله ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٥٨)﴾ [الصافات] يعنى : علمتْ الملائكة أن هؤلاء المشركين بالله مُحضَرون للعذاب ، ومُحضَر اسم مفعول يعنى : أُجبر على الحضور .

ثم يردُّ الله عليهم مُنزِّهاً نفسه سبحانه عن مشابهة الخَلْق : ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٥٩)﴾ [الصافات] فكلمة (سبحان الله) نراها دائماً فى كل شىء ، يخرج الذات إلى مشابهة الخَلْق ، والسبحانية لله أى : التنزيه لله موجود وثابت لله تعالى قبل أنْ يُوجد المنزِّه .

فكلمة (سُبْحانَ) تعنى : التنزيه المطلق لله قبل أنْ يخلق مَنْ يُنزهه ، فلما خلق الله الخَلْق سبَّحه ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١)﴾ [الحشر] وقال : ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ (١)﴾ [التغابن] أى : ما يزال مُسبِّحاً فى الحال والاستقبال إلى قيام الساعة .

وما دامت هذه السُّبْحانية ثابتةً لله تعالى قبل الخَلْق وبعده ودائمة فى الماضى والحاضر والمستقبل ، فإياك يا أشرف الخَلْق وأكرمه ومَنْ جعل الخَلْق كله من أجله ألاَّ تكون مُسبِّحاً أو تشذّ عن هذه المنظومة المسبحة ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى (١)﴾ [الأعلى] فمعنى

﴿ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٥٩) ﴾ [الصافات] يعنى : تنزَّه الحَقُّ سبحانه عن قَوْل هؤلاء المشركين وكذبهم ، وتعالى سبحانه أنْ يكونَ بينه وبين الجِنَّة نسبٌ .

﴿ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٦٠) فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ (١٦١) مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ (١٦٢) إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ (١٦٣) ﴾

مناسبة قوله تعالى هنا ﴿ إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٦٠) ﴾ [الصافات] استثناء من قوله تعالى ﴿ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٥٨) ﴾ [الصافات] فاستثنى اللهُ عباده المخلصين أنْ يدخلوا مع هؤلاء المحضرين للعذاب . وقوله : ﴿ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ (١٦١) ﴾ [الصافات] أى : من دون الله ﴿ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ (١٦٢) ﴾ [الصافات] يعنى : أنتم وما تعبدون من دون الله لا تفتنوا خَلْقى علىَّ . يعنى : لا تُفْسِدوا الخَلْق على الله تعالى ، يُقَالُ : فتن فلان على فلان زوجته . يعنى : أفسدها عليه ، والمعنى : أنتم لا تستطيعون أنْ تفسدوا بينى وبين ملائكتى .

وكيف والملائكة أنفسهم ما خُلقوا إلا لعبادتى وحبى ﴿ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ (٢٠) ﴾ [الأنبياء] كيف تفسدونهم وهم بريئون منكم ومن عبادتكم لهم ، بل ويلعنونكم . إذن: كيف تفسدونهم على الله ؟

والحق سبحانه فى موضع آخر يردُّ عليهم :﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ ..(٥٧) ﴾ [الإسراء] يعنى : هؤلاء الذين يعبدونهم من دون الله هم أنفسهم يبتغون إلى الله الوسيلة التى تُقرِّبهم إليه .

وفى موضع آخر قال :﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً (٤٢) ﴾ [الإسراء]

إذن : ما أنتم بفاتنى هؤلاء المعبودين على ربهم ؛ لأنهم أخلصوا لله العبادة ويتنافسون فى التقرُّب إليه.

وقوله : ﴿إِلاَّ مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ (١٦٣)﴾ [الصافات] أى : إلا مَنْ يرضى بالعبودية من البشر فمصيره النار ؛ لذلك لما أراد سبحانه أنْ يُبكِّتَ الذين عبدوا الحجارة قال : انظروا فلن تُعذَّبوا فى النار إلا بالحجارة لتَرَوْا معبودكم معكم ومثلكم فى النار . فإنْ قُلْت : وما ذنبُ هذه الأَحجار التى عُبِدت من دون الله ؟

يقول سبحانه :

﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ (١٦٤) وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ (١٦٥) وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ (١٦٦)﴾

إذن : هذه الحجارة حين يُحمَىَ عليها ليُعذَّب بها هؤلاء المشركون لا لأن لها ذنباً تُعاقَبُ عليه ، إنما لها مقام معلوم ، والتزام بتنفيذ أمر الله فى المخالف : ﴿وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ (١٦٤)﴾ [الصافات]

يعنى : قَدْر ومرتبة ، فالملائكة درجات ومراتب ، لا يحقد الأدنى على الأعلى ولا يزدرى الأعلى الأدنى ؛ لأن المقام المعلوم الذى جعلهم الله فيه قدر لله تعالى ، وهم يحترمون قدر الله فى خَلْق الله ، وهذا درس ينبغى أنْ نتعلَّمه ، وأنْ يُراعى كل منَّا قدر الآخرين ومنزلتهم ، فأنا حين أحترم الأعلى منى إنما أحترم قدر الله الذى جعله أعلى منى ، وإنْ كان دونى فى يوم ما ، وقُلْنا إن العالم ليس مسألة (ميكانيكا) إنما خَلْق بقدر وبحكمة مرادة لله .

فكيف نكون بنات الله ؟ وكيف نُعبَد من دون الله ونحن مُسخَّرون لعبادته سبحانه ونحن جنود مصفوفون فى انتظار أوامره تعالى

﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ (١٦٥) ﴾ [الصافات] أى : نقف صفوفاً منتظمة ، والصف دليل الانتظام وعنوان الالتزام والانضباط ؛ لذلك ورد فى الحديث : « إن الله لا ينظر إلى الصَّفِّ الأعوج »[1] لماذا ؟ لأنكم بين يدى الله سبحانه فأروا الله منكم ما يدل على المساواة والالتزام والترابط .

وفى الحرب كذلك : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ (٤) ﴾ [الصف] وهذا التشبيه له دلالته ، لأن البنيان المرصوصَ يعنى أن اللبنة فيه ليس لها إرادة فى الخروج عن الأخرى ؛ لأنها محكومة بالبناء الذى وُضِعَتْ فيه ؛ لذلك لما استعرض رسول الله ﷺ الصفوفَ فى إحدى الغزوات رأى جندياً شَذَّ عن صَفه ، فأشار إليه بعصاه أنْ يستوىَ بمثله ، وأن ينضبط فى صَفه .

ثم يقولون : ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ (١٦٦) ﴾ [الصافات] يعنى كيف نرضى أنْ نُعبدَ من دون الله ، ونحن ما خُلِقْنَا إلا لتسبيحه تعالى :

﴿ وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ (١٦٧) لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ (١٦٨) لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٦٩) فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (١٧٠) ﴾

قولهم : ﴿ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا (١٦٨) ﴾ [الصافات] أى : كتاباً ووَحْياً مُنزلاً ﴿ مِّنَ الْأَوَّلِينَ (١٦٨) ﴾ [الصافات] كالذى أُنزل على الرسل السابقين ﴿ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٦٩) ﴾ [الصافات] وعجيبٌ منهم أنْ يبرروا شركهم .

---

(١) يستحب للإمام أن يأمر بتسوية الصفوف وسد الخلل قبل الدخول فى الصلاة ، فعن أنس ابن مالك أن النبى ﷺ كان يقبل علينا بوجهه قبل أن يُكبِّر فيقول : « تراصوا واعتدلوا » رواه البخارى ومسلم . ورويا عنه أن النبى ﷺ قال : « سووا صفوفكم ، فإن تسوية الصف من تمام الصلاة » .

بهذه الحجة ، وقد جاءهم سيد المرسلين جميعاً ، فالرسل السابقون كانوا محدودى الرسالة زماناً ومكاناً ، وكانوا جميعاً قبل رسول الله مُكلَّفين بنقل حكم الله إلى الخَلْق ، أمَّا رسول الله : فهو الرسول الوحيد الذى فُوِّض من الله أنْ يُشرِّع للخلق ؛ لأن رسالته عامة فى الزمان وفى المكان إلى قيام الساعة .

إذن : كيف تريدون ذكْراً من الأولين ، ومعكم خاتم الرسل المشرِّع الذى تأتيه من الله القضية الكلية فيُبيِّنها ويشرحها ويُفصِّلها .

وقوله : ﴿فَكَفَرُوا بِهِ (١٧٠)﴾ [الصافات] يعنى : لما جاءهم الرسول الذى يطلبونه كفروا به . إذن : المسألة مسألة لَجَج وعناد وكبرياء فى قبول الحق والانقياد له ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (١٧٠)﴾ [الصافات] حَرْفا (السين) و (سوف) يدلان على الاستقبال ، لكن سوف أبعد فى الزمن من السين .

فقوله تعالى ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (١٧٠)﴾ [الصافات] احتياط زمنى من القرآن الكريم ، فالفعل ﴿يَعْلَمُونَ (١٧٠)﴾ [الصافات] مضارع للحال وللاستقبال ، أما سوف فهى للمستقبل البعيد عن مستقبل السين ؛ ذلك لأن المعاصرين لنزول القرآن منهم مَنْ سيموت قبل أنْ يرى عاقبة المشركين ، وقبل أنْ يشهد ظهور الإسلام وانتصاراته .

فإنْ كان قد مات قبل أنْ يعلمَ فسوف يعلم فى الآخرة ويرى العاقبة ، هذا لغير المؤمن ، أما المؤمن فليس فى حاجة إلى هذا العلم ؛ لأنه صدق الله فيما أخبر ، ومن ذلك قول الإمام على رضى الله عنه . لو كُشف عنى الحجاب ما ازددتُ يقيناً .

لذلك لما نزل قول الله تعالى - وكان المسلمون فى كَرْب وشدة وضيق قبل الفتح : ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥)﴾ [القمر] والسين

تدل على المستقبل القريب تعجب سيدنا عمر وما أدراك ما عمر ، كان القرآن ينزل على مقتضى ما يرى ، ومع ذلك تعجَّب وقال : أيُّ جمعٍ هذا ونحن غير قادرين على حماية أنفسنا وأهلنا ، فلما جاء الفتح وانتصر المسلمون وحدث ما حدث قال[1] : صدق الله ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ [القمر]

فالمؤمن مُصدِّق بما أخبر الله به ، لأنه أمر قُضِى أزلاً فى علم الله، وما دام قُضِى بالفعل فى الأزل ، ولا توجد قوة معارضة تنقض ما قضى الله به ، وما دام الله تعالى لا يعتريه عجْزٌ يمنعه أنْ ينفذ ما قضى فهو واقع لا محالة .

والمثال الواضح فى هذه المسألة قوله تعالى : ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴿١﴾﴾ [النحل] تعلمون أن علماء النحو يقولون : الفعل ماض وهو ما دلَّ على حدوث فعل فى زمن مضى وانتهى ، ومضارع : وهو ما يدل على الحال أو الاستقبال ، إذن : كيف نجمع بين ﴿أَتَىٰ﴾ الماضى و ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴿١﴾﴾ [النحل] . والنهى عن استعجاله يدل على المستقبل ، أى : أنه لم يَأْتِ بَعْد ؟

نقول : الذى يتكلم بهذا الكلام هو الله لا نحن ، والله تعالى لا يحكمه زمان ، فإذا أخبر بأمر فهو واقع لأنه لا رادَّ لما قضى أزلاً ، فأمْرُ الله أتى أزلاً فلا تستعجلوه واقعاً .

---

(١) قال عكرمة : لما نزلت﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ [القمر] قال عمر : أىّ جمع يُهزم ؟ أى : أى جمع يُغلب ؟ قال عمر : فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ يَثِبُ فى الدرع وهو يقول : « سيُهزم الجمع ويُولون الدبر » فعرفت تأويلها يومئذ . أورده ابن كثير فى تفسيره (٤/٢٢٦) وعزاه لابن أبى حاتم .

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣)﴾

معنى ﴿سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا (١٧١)﴾ [الصافات] يعنى : قلناها قبل الكون كله ، وهذه الكلمة لها مترادفات : سبقتْ كلمتنا ووقعتْ وحقَّتْ ، سبقتْ أى : لتحديدها قبل الحدوث ، ووقعتْ ساعة الحدوث وحقَّتْ أى : هى حَقٌّ أنْ أقضى بقدرتى ، وحَقٌّ أنْ تقع على مَنْ أريد . إذن : فهى مَعَانٍ ملتقية معاً ومتكاملة .

فما هى هذه الكلمة التى سبقتْ من الله لعباده المرسلين ؟ هى قوله :﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣)﴾ [الصافات]

هاتان قضيتان : الرسل لا محالة منصورون ، والجند لا محالة غالبون ، هذه كلمة سبقتْ من الله وقضاءٌ لا يُرَدّ ، لذلك أخذ العلماء وأهل المعرفة من هذه الآيات أن للجندية شروطاً ، مَنِ استوفاها استحقَّ الغلبةَ ، ومَنْ أخلَّ بها استحق الهزيمة .

فحين ننظر فى نتيجة معركة بين مسلمين وكافرين ، فإن انتصر المسلمون فاعلم أنهم حققوا شروط الجندية لله ، وإنْ هُزِموا فعليهم أنْ ينظروا فى أنفسهم ويبحثوا عن أسباب الخلل ، ووجه المخالفة لقانون الجندية ؛ لأنهم لو ظلُّوا على جنديتهم لله لَتحقَّق لهم وَعْدُ الله بالغلبة .

وهذه المسألة واضحة فى معركة بدر وفى أُحُد ، ففى بدر انتصر المسلمون ؛ لأنهم لم يخالفوا قانون الجندية لله تعالى ، لكن فى أُحُد لم ينتصروا مع أن رسولَ الله بينهم ، ولا تتعجب لذلك فهذا

أمر طبيعى ، ألم يخالفوا أمر رسول الله ؟ بلى خالفوا ، فكيف لو انتصروا مع هذه المخالفة ؟ والله لو نصرهم اللهُ لَهانَ عليهم أمر رسول الله بعد ذلك ، ولَقالُوا خالفناه فى يوم كذا وانتصرنا ، إذن : النتيجة يوم أُحُد انهزم المسلمون المتخاذلون ، لكن انتصر الإسلام وعلَتْ قوانينه ومبادئه .

أما الرسل فهم واثقون من وَعْد الله لهم بالنصر ، وهذه مسألة عندهم لا تُناقَش ، والدليل على ذلك من قصة سيدنا موسى ـ عليه السلام ـ ، فلما خرج من مصر ببنى إسرائيل فأتبعه فرعون وجنوده ، حتى كاد أنْ يدركه عند شاطىء البحر ، وحتى قال قوم موسى ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١) ﴾ [الشعراء] .

فبماذا رَدَّ سيدنا موسى ؟ (قال كلا) هكذا بملء فيه يُكذِّب واقعاً يمكن أن يحدث بعد لحظة واحدة ، فالبحر من أمامهم والعدو من خلفهم ، لكنه يقول ﴿ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢) ﴾ [الشعراء] .

هذه هى الثقة فى كلمة ﴿ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) ﴾ [الصافات] أى : الرسل .

﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ (١٧٤) وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٥) أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (١٧٦) فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ (١٧٧) ﴾

قوله تعالى : ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ (١٧٤) ﴾ [الصافات]

أى : اتركهم الآن فى باطلهم وأعرض عنهم ، لماذا والحق سبحانه قادر على نُصْرة دينه من أول لحظة ؟ قالوا : الحق سبحانه

يريد أنْ يستشرى الباطل ، وأنْ يعلو حتى يعضّ الناس فيكرهونه ويضيقون به .

وأيضاً ليتدرب أهل الحق على المحن والشدائد ويَقْوَى عودهم ﴿ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٥) ﴾ [الصافات] يعنى : انظر إلى حالهم وعاقبة أمرهم ، وسوف يبصرون هم هذه العاقبة ، وما يحلُّ بهم من العذاب الذى يستعجلونه ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (١٧٦) ﴾ [الصافات]

كما قال تعالى فى موضع آخر : ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٢) ﴾ [الأحقاف]

وهذا غباء منهم ، لأن هذا العذاب الذى يُكَذِّبون به ويستبعدونه واقع لا محالة ﴿ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ (١٧٧) ﴾ [الصافات] والساحة هى المكان الواسع أو الفناء الذى يجد الناسُ فيه مُتَنَفَّساً ومَنْفَذاً يُروِّح عنهم ، و ﴿ نَزَلَ (١٧٧) ﴾ [الصافات] يعنى : حَلَّ ووقع وفاجأهم .

﴿ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ (١٧٧) ﴾ [الصافات] يعنى : قَبُحَ هذا الصباح ، وبئس هذا الصباح ، والصبح هو الميعاد الحق للمعركة لمفاجأة المحارب قبل أنْ يستعد ، أو يفاجئهم العذاب فى وضح النهار فلا يستطيعون أنْ يستتروا من الفضيحة ، و﴿ الْمُنذَرِينَ (١٧٧) ﴾ [الصافات] القوم الذين أنذرناهم وحذرناهم .

﴿ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ (١٧٨) وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٩) ﴾

قوله تعالى فى الآية السابقة ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ (١٧٤) ﴾ [الصافات] يُراد به حين الدنيا ، كذلك ﴿ وَأَبْصِرْهُمْ (١٧٥) ﴾ [الصافات] أى : فى الدنيا

﴿فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٥)﴾ [الصافات] أى : فى الدنيا وهذا الحين هو الذى قال الله فيه : ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ (٧٧)﴾ [غافر] أى : من العقاب فى الدنيا ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٧٧)﴾ [غافر] فى الآخرة .

أما الحين هنا ﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ (١٧٨)﴾ [الصافات] يراد به حين الآخرة ، فليس تكراراً للحين الأول ، كذلك ﴿وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٩)﴾ [الصافات] فى الآخرة حين يُفاجئهم العذاب الذى أنكروه وكذَّبوا به ، فيقولون ساعتها : ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا (١٢)﴾ [السجدة]

﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ[1] عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٠) وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ (١٨١) وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (١٨٢)﴾

يختم الحق سبحانه السورة بالسُّبحانية التى تُثبت التنزيه لله تعالى فى ذات ليست كالذوات ، وفى صفات ليست كالصفات ، وفى أفعال ليست كالأفعال ، فكل شىء له سبحانه ولخَلْقه فيه نسبة نأخذه فى إطار ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ (١١)﴾ [الشورى]

فالمعنى ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ (١٨٠)﴾ [الصافات] أى : تنزَّه ربك عن كل نقص وعن كل مُشابهة ، فالخَلْق ذواتٌ ، لكن ليست كذاته سبحانه ، ولهم وجود ليس كوجوده سبحانه ، ولهم غِنىً ليس كغِنَاهُ ، وحكمة ليست كحكمته .. الخ .

---

(١) المعنى : رب العزة التى يتعازّ بها الخَلْق فيما بينهم فهى من خَلْق الله عز وجل ، وهى هنا صفة فعل . أما فى قوله تعالى : ﴿فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا (١٠)﴾ [فاطر] فهى صفة ذات . ولذلك كان من فرائد القرآن أنه قال : رب العزة . ولم يقل رب العلم أو رب القدرة أو رب السمع أو غيره من صفات ذات الله عز وجل . وقد نقل القرطبى فى تفسيره (٨/ ٥٧٨٠) قول بعض العلماء : « من حلف بعزة الله ، فإن أراد عزته التى هى صفته فحنث فعليه الكفارة . وإن أراد التى جعلها الله بين عباده فلا كفارة عليه » .

ومعنى ﴿رَبِّ الْعِزَّةِ (١٨٠)﴾ [الصافات] كلمة رب تفيد التربية وهى تأهيل المربى لأن ينجح فى الغاية المنوطة به المطلوبة منه ، ولكى تعده لا بُدَّ أنْ تعرف أولاً الغاية التى وُجِد من أجلها ، بعد ذلك لا بُدَّ أنْ تكون لديك حكمة تحدد له المنهج الذى يوصله إلى هذه الغاية .

إذن : مَنْ يحدد الغاية من وجود الإنسان ؟ قلنا : إن الصانع من البشر هو الذى يحدد الغاية من صنعته أولاً ، وقبل أنْ يشرع فيها فهل مخترع التليفزيون مثلاً صنعه ثم قال لنا : انظروا فى أى شىء يمكن أن يُستعمل هذا الجهاز ؟ لا بل حدَّد الهدف وحدَّد الغاية أولاً ، كذلك غايتك أيها الإنسان لا يحددها لك إلا مَنْ خلقك . فصيانة الصنعة يقوم بها الصانع ، كذلك صيانة الخَلْق لا تكون إلا بمنهج الحق .

لذلك نقول : ما فسدت الدنيا إلا حين خرج الإنسان عن هذا الإطار ، فحدَّد لنفسه الغاية ، ووضع لنفسه منهج الحياة ونحَّى صانعه ومنهج صانعه جانباً ، وقلنا : إن منهج الخالق للخَلْق مثل (الكتالوج) الذى به تُصَان الصنعة ، وبه نصلح ما فيها من عطب ، ويُشترط فى واضع المنهج أن يكون من الدقة والحكمة بحيث لا يفوته شىء ولا يستدرك عليه ، ولا نضطر إلى تعديل ما وضع ، والخالق سبحانه هو الأعلم بعباده وصنعته ، وهو الأعلم بما يصلحهم فى الدنيا وفى الآخرة ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤)﴾ [الملك]

وإلا فلماذا يستدعينا الخالق سبحانه إليه خمس مرات فى اليوم والليلة ، ويجعل الصلوات فرضاً لازماً لا يسقط عن الإنسان بحال

من الأحوال ، لذلك شُرِعَتْ صلاة السفر وصلاة المريض ، حتى أنه إذا اشتد عليه المرض صلَّى ولو بطرفة عينه أو بخاطر نفسه .

وسبق أنْ قلنا فى هذه المسألة : إنك حين تريد مثلاً مقابلة رئيس أو مسئول كبير ، فلابُدَّ لك من موعد مسبق وموافقة وإجراءات ، بل ويحدد لك ما تقوله ، ثم هو الذى يُنهى المقابلة .. الخ أما لقاؤك مع ربك فلقاء المحب الذى يترك لحبيبه أنْ يحدد وقت المقابلة ومكانها وموضوعها ، ويترك له أنْ ينهيها متى أحبَّ ، وأنْ يبدأها متى شاء ، فإنْ أردتَ لقاء ربك فما عليك إلا أنْ تستعد له وتكبِّر : الله أكبر ، كلمة تجعلك مباشرة فى حضرة ربك عز وجل .

وتصوَّر صنعة تُعرَض على صانعها خمس مرات كل يوم ، أيبقى فيها عطب أو فساد ؟ لذلك كان سيدنا رسول الله ﷺ إذا حَزَبه أمر يُهْرَع إلى الصلاة ، وكان يقول : « أرحنا بها يا بلال »[1] نعم أرحنا بها ، لا أرحنا منها

إذن : ذكر سبحانه فى الختام السبحانية ، ثم الربوبية التى تربيك وتُعدك للمهمة المرادة منك ، هذه التربية تُربِّيك لماذا ؟ تربيك للعزة ﴿رَبِّ الْعِزَّةِ ﴿١٨٠﴾﴾ [الصافات] والعزة أنْ تغلب ولا يغلبك أحدٌ أبداً ، وقلنا - ولله تعالى المثل الأعلى - الولد الصغير حين يسير فى الشارع وحده يتجرأ عليه الآخرون ، ويتحرشون به ويضربونه ، أما إنْ سار فى صحبة والده وأخذه فى يده لا يجرؤ أحد على التعرُّض له ، كذلك أنت أيها المسلم كُنْ دائماً فى حضن ربك ، وفى يده ، وفى معيته ، وعندها لن يجرؤ أحد عليك .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل فى مسنده (٥/٣٦٤) ، وأبو داود فى سننه (٤٩٨٥) عن رجل من الصحابة .

إذن : العزة التى يتصف بها الحق سبحانه ، ويفيض منها على عباده هى الغَلَبة التى لا تُقْهر ، والقدرة التى لا تحتاج إلى أحد ، وهناك عزَّة أخرى هى العزة بالإثم ، والتى قال الله عنها : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ (٢٠٦)﴾ [البقرة]

فالعزة هنا كبر بلا رصيد ولا سند .

ومنها أيضاً قوله تعالى حكايةً عن المنافقين :﴿لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ (٨)﴾ [المنافقون] نعم ، صدقوا والله ، لكن مَنِ الأعزُّ ومَنِ الأذل ؟

وقوله ﴿عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٠)﴾ [الصافات] أى : تنزَّه سبحانه عن قولهم وعن كذبهم ﴿وَسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (١٨١)﴾ [الصافات] أى : جميعاً لأنهم وإنْ كلَّفونا فى بعض الأحيان ما يشقُّ على النفس إلا أنهم أخذوا بأيدينا إلى بَرِّ الأمان والنجاة ، فعليهم منّا السلام كلما ذكرناهم نصلى ونُسلِّم عليهم ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨٢)﴾ [الصافات] الذى هدانا لاتباع المنهج بواسطة الرسل ، وأعاننا على هذا الاتباع ، والحمد لله على الجزاء الذى أعدَّه لنا من نعيمه وجناته فى الآخرة ، لذلك قال سبحانه : ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠)﴾ [يونس]

وقال العلماء روايةً عن سيدنا رسول الله ﷺ : « مَنْ أراد أنْ يُكَالَ له بالكيل الأوفى من الأجر يوم القيامة فليختم مجلسه بقوله : ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٠) وَسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (١٨١) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨٢)﴾ [الصافات]

سُورَةُ صٓ

سورة ص[١]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

صٓ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴿١﴾

سبق أنْ تكلمنا عن الحروف المقطعة فى فواتح السور ، وقلنا : إن الحق سبحانه بدأ بعضها بحرف واحد مثل : (ص) و (ن) و (ق) ، وبعضها بحرفين مثل : (طس) و (حم) وبعضها بثلاثة أحرف مثل : (الم) ، وبعضها بأربعة مثل : (المص) ، وبعضها بخمسة مثل (كهيعص) و (حم عسق) .

وقلنا : إن الحروف على قسمين : حروف مبنى وحروف معنى ، حروف مبنى هى التى تتكوَّن منها الكلمة مثل : كتب فهى مبنية من الحروف : الكاف والتاء والباء ، إنما الكاف وحدها أو التاء ليس لها معنى بمفردها . أما حروف المعنى مثل تاء الفاعل فى كتبتُ لأنها دلَّتْ على الفاعل المتكلم ، وكتبتَ الفاعل المخاطب ، وكتبتِ للمؤنثة المخاطبة .

---

(١) سورة ص سورة مكية فى قول الجميع . عدد آياتها ٨٨ آية . وهى السورة رقم ٣٨ فى ترتيب المصحف الشريف . فى الجزء الثالث والعشرين من القرآن . نزلت بعد سورة القمر ، وقبل سورة الأعراف ، ولذلك فهى السورة رقم ٣٧ فى ترتيب النزول . [راجع فى هذا الإتقان فى علوم القرآن ١/٢٧] .

وقلنا : إن حروف اللغة عبارة عن ثمانية وعشرين حرفاً ، جاء منها فى فواتح السور أربعة عشر حرفاً ، وأحسنُ ما قيل فيها إنها مادة كلمات القرآن ، ولَبنات بنائه ، ومع أن العرب يعرفون هذه الحروف وينطقونها إلا أنهم عجزوا عن محاكاة القرآن والإتيان بمثله ، مع أن هذه صنعتهم ومجال نبوغهم وتفوقهم ، نعم الحروف هى الحروف ، والكلمات هى الكلمات ، لكن المتكلِّم بالقرآن هو الله فلا بُدَّ أنْ يعجزوا .

وقوله تعالى ﴿صٓ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ۝١﴾[ص] دليل على الإعجاز وحامل الإعجاز ، فكلمة (ص) حرف من مكونات القرآن ، والقرآن مُعجز ؛ لأن العرب عجزتْ عن الإتيان بمثله ولو آية واحدة من آياته ، وهى أمة بيان وكلام وفصاحة ، وهى الأمة الوحيدة التى جعلتْ للكلمة معرضاً ، وللبلاغة أسواقاً فى عكاظ ، والمربد وذى المجنة ، وقد بلغ بهم تقديس الكلمة إلى أنْ علَّقوا الجيد منها على أستار الكعبة .

لذلك جاءتْ معجزته ﷺ من جنس ما نبغ فيه قومه .

فالمعنى (ص) أى : حرف من حروفهم[1] ﴿وَالْقُرْآنِ ۝١﴾ [ص] الذى عجزوا عنه ، والقرآن مرة يُطلَق عليه الكتاب لأنه مكتوب ، ويُطلق عليه القرآن لأنه مقروء ، فهو مكتوب فى السطور ومقروء ، ومحفوظ فى الصدور .

---

(١) حاول العلماء أن يجتهدوا فى تأويل كلمة (ص) . فقال الضحاك : معناه صدق الله . وأنه قسم أقسم الله به وهو من أسمائه تعالى . وقال محمد بن كعب القرظى : هو مفتاح أسماء الله تعالى صمد وصانع المصنوعات وصادق الوعد . وقال قتادة : هو اسم من أسماء القرآن . [نقل القرطبى فى تفسيره (٥٧٨٤/٨) هذه الأقوال] . ثم قال : وقيل : هو مما استأثر الله تعالى بعلمه .

ومعنى ﴿ذِى الذِّكْرِ ۝١﴾ [ص] أى : صاحب الذكر ، وكلمة الذكر تُطلَق على معان عدة مثل : كلمة عين تُطلق على عين الماء ، وعلى العين الباصرة ، وعلى الذهب والفضة ، وعلى الجاسوس ، وتُطلق على الوجيه من الناس ، والسياق وذكاء السامع هو الذى يُحدِّد المعنى ، فهذه المعانى بينها مشترك لفظى يجمعها ، وهذه من مميزات اللغة .

كذلك قلنا مثلاً : كلمة النجم تُطلَق على النجم فى السماء ، وتُطلَق على النبات الذى لا ساقَ له ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝٦﴾ [الرحمن]

ومن ذلك قول الشاعر :

أُرَاعِى النَّجْمَ فى سَيْرِى إليكُمُ وَيَرْعَاهُ مِنْ البَيْدَا جَوَادِى

فكلمة الذكر تطلق على القرآن الكريم ، كما فى قوله تعالى : ﴿وَقَالُوا يَـٰأَيُّهَا الَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۝٦﴾ [الحجر] ويُطلق الذكر على كتب الرسل السابقين ، كما فى قوله تعالى : ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ۝٤٣﴾ [النحل]

ويُطلق الذكر على الصِّيت والسمعة ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ۝٤٤﴾ [الزخرف] أى : القرآن .

وفى قوله تعالى :﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ..۝١٠﴾ [الأنبياء] وما ارتفع العرب ولا علَتْ لغتهم إلا لأنها لغة القرآن .

ويُطلق الذكر أيضاً على التذكُّر ، كما فى قوله تعالى :﴿فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ ..۝٤٢﴾ [يوسف]

ويُطلق الذكر على التسبيح ، كما فى قوله تعالى :﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا

بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ (٣٧) ﴾ [النور]

ويُطلق الذكر على معنى آخر ، هو العطاء الجيد من الله ، والعمل الطيِّع من العبد .

إذن : فلفظ الذكر أشبه فى القرآن بالماسة تتلألأ فى يدك ، كلما قلَّبتها وجدتَ لها بريقاً . فكلُّ هذه المعانى تدخل تحت قوله تعالى : ﴿ صٓ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ (١) ﴾ [ص]

﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ (٢) ﴾

نعرف أن (بل) حرف يفيد الإضراب عما قبله أو نفى ما قبله وإثبات ما بعده ، فـ (بل) هنا تثبت أن الذين كفروا فى عزَّة وشقَاق ، فما المنفى قبلها ؟ قبلها قوله تعالى ﴿ صٓ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ (١) ﴾ [ص] هذه معجزة محمد ﷺ، وكان من الواجب أنْ يقتنعوا بها ، وأنْ يؤمنوا بها لكنهم كفروا ، فالمعنى : بل الذين كفروا ما صدَّقوه ، بل هم فى عِزَّة وشِقاق .

بعض العلماء يرى أن ﴿ صٓ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ (١) ﴾ [ص] قَسَمٌ جوابه جاء فى آخر السورة فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ (٦٤) ﴾ [ص] لا .. لا يصح أن نُقدِّر القسم ثم نبحث له عن جواب مناسب .

ومعنى : ﴿ فِي عِزَّةٍ .. (٢) ﴾ [ص] أى : عِزَّة الإثم ، وهى التعالى والاستكبار عن الحق ، وهى عزة بلا رصيد ﴿ وَشِقَاقٍ (٢) ﴾ [ص] من الشق ، وهو حدوث فاصل بين شيئين ، ولهذه معانٍ كثيرة فى اللغة ، نقول : هذا فى شق وذلك فى شق . يعنى : لا يلتقيان ، مثل

كلمة عدو ؛ لأن العدوَّان لا يتفقان ، وكلمة عدو أصلها فى لغة العرب، ومن بيئتهم حيث توجد الوديان ، والوادى له ناحيتان ، كل واحدة تُسمَّى عُدوة .

ومنه قوله تعالى :﴿ إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ[1] الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ .. ﴿٤٢﴾ ﴾ [الأنفال] فعدو من العدوة . يعنى : كل واحد منا فى ناحية ، ومثلها كلمة جانب ، وكلمة حد كما فى قوله تعالى :﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ[2] اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴿٥﴾ ﴾ [المجادلة]

ومثلها كلمة انحرف . يعنى : هذا فى حرف ، وهذا فى حرف يعنى : على طرف وهذا على الطرف الآخر ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ .. ﴿١١﴾ ﴾ [الحج] فهذه كلها ألفاظ تؤدى معنى عدم الالتقاء ، كما فى : ﴿ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾ ﴾ [ص] عزة آثمة كاذبة وشقاق يعنى : اختلاف لا التقاءَ فيه ، والمراد بالشِّقاق عدم اتعاظهم من سوابق الأمم مع رسلهم ؛ لذلك القرآن لا يسرد لهم تاريخاً حين يقول لهم : ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾ [الصافات:] إنما يُذكِّرهم بما غفلوا عنه .

وهنا يقول :

﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾ ﴾

(كم) هنا خبرية تفيد الكثرة ، فكأن الحق سبحانه ترك

---

(١) العدوة : الناحية . قال الفراء : العدوة شاطىء الوادى ، الدنيا مما يلى المدينة ، والقصوى مما يلى مكة . [لسان العرب – مادة : عدا] .

(٢) حادَّه : عاداه ونازعه كأنه يريد أن يغلبه ويتعدَّى حدوده . أى : ينازعون ويشاقون الله ورسوله . [القاموس القويم ١/١٤٦].

للمخاطب أنْ يتصوَّر الكمية ويُحدِّد الكمية فى كم ، وأنت لا تستخدم هذا الأسلوبَ إلا وأنت واثق من هذه الكثرة ، كما تقول لمن يجحد فضلك : كم أعطيتُك أو كم صبرتُ عليك ، يعنى : مراراً كثيرة .

والقرن قلنا : إنه الفترة أو الطائفة من الزمن يحكمها مشخِّص واحد كالنبوة أو غيرها ، كما نقول قوم نوح أو قوم هود ، وقد اصطلح على أن القرن مائة سنة ، وسُمِّيتْ قرناً لأنها متقارنة بعضها ببعض .

وفى قوله تعالى ﴿مِن قَبْلِهِم ۝٣﴾ [ص] احتياط جميل لأنه بعد بعثة سيدنا رسول الله ﷺ لم يهلك الله قوماً بالجملة كما حدث قبله ﷺ ؛ لذلك خاطب الحق سبحانه رسوله محمداً بقوله : ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۝٣٣﴾ [الأنفال]

فقوله تعالى : ﴿مِن قَبْلِهِم ۝٣﴾ [ص] يعنى : هذه مسألة سبقتْ ولن تتكرر فى أمة محمد ﷺ وهذه المسألة تجد لها نظيراً فى قوله تعالى : ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ ۝٩١﴾ [البقرة]

لو لم يقُلْ الحق سبحانه (من قبل) لَظَنَّ سيدنا رسول الله أن قومه ربما قتلوه كما قتل الأنبياء قبله ، لكن الحق سبحانه يُطمئنُ رسوله بقوله ﴿مِن قَبْلُ ۝٩١﴾ [البقرة] يعنى : اطمئن ، فهذه لن تتكرر، وفى هذا تثبيت لفؤاده ﷺ .

وقوله تعالى : ﴿فَنَادَوْا ۝٣﴾ [ص] يعنى : ساعة حَلَّ بهم العذاب، ونزل بهم الهلاك العام نادوا نداءً عاماً لكل مَنْ يسمع ليُخلِّصهم ويُغيثهم وينقذهم ، لكن ينادون مَنْ ؟ لم يحدد القرآنُ المنادى ليدل على ما هم فيه من الفزع ؛ لذلك نجد أن المناداة للفزع إلى مَنْ يخلصك مما لا تقدر عليه لها مراحل على قَدْر الخطر الذى تتعرض له ، فلو رماك أحدٌ مثلاً بحجر تنادى ذاتك وتستدعى بعضك ، فتحرك يدك مثلاً أو رِجْلك لتتفادى الأذى .

فإنْ كان الخطر فوق استطاعتك تنادى أقربَ الناس إليك أباك ، أمك ، أخاك ، جارك ، مَنْ يسير معك فى الشارع .. الخ فإذا لم تجد مغيثاً فى هؤلاء تقول يا هوه . وقلنا : إنها تعنى يا هُوَ يعنى : يا الله ليس لى سواك أناديه وألجأ إليه .

وهؤلاء لما نزل بهم الهلاك نادوا نداءً عاماً لكل مَنْ يستطيع أنْ ينقذهم ويغيثهم ، لكن هيهات فمَنْ يغيثهم إنْ كان ما ينزل بهم من الله ؟ إذن : نداؤهم لا جدوى منه ﴿فَنَادَوْا وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ۝٣﴾ [ص] كلمة (لات) مكوَّنة من لا النافية زيدتْ عليها التاء ، لا للنفى عموماً فتنفى مرة المكين كما لو قلت : لا رجلَ فى الدار وتنفى المكان كما لو قلتَ : لا دارَ أسكنها ، فإذا زيدتْ عليها التاء نفتْ الزمن خاصة ؛ لذلك جاءتْ بعدها كلمة (حين) وهى مثل : ثَمَّ وثمَّة ، قال الشاعر[1] :

ثُمَّتَ قُمْنَا إلَى جُردٍ مُسَوَّمَةٍ أعْرافُهُنَّ لأَيدينَا مَنَاديلُ[2]

ومعنى (مناص) يعنى : مَفرّ ومَهْرب . فالمعنى ﴿فَنَادَوْا وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ۝٣﴾ [ص] يعنى : ليس الوقتُ وقتَ مفَر ولا مهربَ .

﴿وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ۝٤ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾

---

(١) الشاعر هو عبدة بن يزيد الطبيب ، من تميم ، من مخضرمى الجاهلية والإسلام ، كان أسود اللون شجاعاً شهد الفتوح وقتال الفرس من المثنى بن حارثة ، توفى عام ٢٥ هـ . له ١٨ قصيدة عدد أبياتها ١٥٦ بيتاً .

(٢) البيت من قصيدة عدد أبياتها ٨١ بيتاً من بحر البسيط أولها :

هَلْ حَبْلُ خَوْلَةَ بَعْدَ الهَجْرِ مَوْصُولُ أمْ أنتَ عنها بَعيد الدَّار مشْغُولُ

العجب هو الاستغراب ، إنهم يتعجبون وأمرهم أعجب ، يتعجَّبون ﴿ أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَـٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ ﴾ [ص] والعجيب حقاً أنْ يأتيهم رسولٌ من جنس آخر غير جنسهم ، لذلك قال تعالى فى موضع آخر : ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلاَّ أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولاً ﴿٩٤﴾ ﴾ [الإسراء]

كانوا يريدون الرسول ملَكاً ، ولو جاءهم ملَكٌ لجاءهم فى صورة رجل منهم ، ولو شخص لهم فى صورة رجل لَظلَّتْ الشبهة قائمة ، والحق سبحانه يردُّ عليهم : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولاً ﴿٩٥﴾ ﴾ [الإسراء]

وقال سبحانه : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الأنعام]

إذن : لابُدَّ أنْ يكون المرسَل من جنس المرسَل إليهم ، لأن الرسول حاملُ منهجٍ يُحققه ، الرسول أُسْوة وقُدوة لقومه ، وكيف تتحقق الأُسْوة بالملَك ؟ والله لو جاء الرسول ملَكاً لاعترضوا عليه ، ولقالوا إنه ملَك معصوم يقدر على ما لا نقدر نحن عليه ، ثم إن الملَك ليس له شهوة كشهوتنا .. الخ

إذن : العجب هو استغراب أنْ يكونَ الرسول واحداً منهم ومن جنسهم ، إن كَوْنَ الرسول من بينكم هو الحجة وبه تتم الأُسْوة ؛ لذلك حينما يمتنُّ الله على أمة محمد ﷺ يقول : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ .. ﴿١٢٨﴾ ﴾ [التوبة] يعنى : من جنسكم وليس غريباً عنكم ، فهذه مَيْزة لكم ، إذن : عجبكم ليس له مكان .

والجنس هنا ليس جنسَ الإنسان فحسب ، إنما من نوعهم من العرب ، بل من أوسطهم وهم قريش وأنتم تعرفونه قبل بعثته ، وتعرفون أصله ونسبه ؛ لذلك يرد الله عليهم فيقول : ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ .. (١٥) ﴾ [يونس] يعني : واضحات لا تُنكَر ﴿ قَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَـٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥) قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٦) ﴾ [يونس]

نعم لقد عاش سيدنا رسول الله ﷺ بين قومه أربعين سنة قبل بعثته ، وكانوا يعرفون عنه كل شيء ، إذن : العجب في النقيض ، وليس في الواقع الذي يتعجبون منه .

ثم يحكي الحق عنهم : ﴿ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَـٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٤) ﴾ [ص] الساحر هو الذي يُخيِّل لنا الأشياء فنراها على غير حقيقتها ، لكنه لا يغير الحقيقة ، فالسحر ليس في الشيء إنما في أعين الناس ، كما قال تعالى : ﴿ سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ .. (١١٦) ﴾ [الأعراف]

لذلك هناك فرق بين السحر وبين معجزة سيدنا موسى عليه السلام ، وقد كانت من جنس يقارب السحر لأنه سيعانده سَحَرَة ، ولما ألقى موسى عصاه فرآها السحرة تلقَفُ ما سحروا قالوا : آمنّا برب موسى ، وما ذلك منهم إلا لأنهم أيقنوا أن ما جاء به موسى ليس من قبيل السحر ، فَهُم يعرفون السحر جيداً ، ويعرفون ألاعيب السحرة ، وليس هذا الذي يروْنَهُ منها .

إنهم يروْنَ العصا حيَّة تلقف ما يأفكون ، والساحر يرى الأشياء على حقيقتها ، فيرى الحبال حبالاً ، في حين يراها الناسُ ثعابين

تسعى وتتحرك ، إذن : ما فعله موسى أمامهم ليس من السحر .

ونردّ على هؤلاء الذين يتهمون رسول الله بالسحر . ونقول : لو سلَّمنا معكم أن محمداً ساحر وسحر مَنْ آمن به ، فكيف بكم لا تزالون على كفركم ؟ لماذا لم يسحركم محمد كما سحر المؤمنين به ، وتنتهى المسألة بينكم وبينه ؟

ثم يقولون : ﴿أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَـٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾ [ص] إنهم يتعجَّبون وينكرون أنْ يدعوَهم رسولُ الله إلى التوحيد ، وإلى عبادة الله وحده لا شريك له ، وقد كانوا يعبدون آلهة عِدَّة ، فحول البيت أصنام كثيرة ، ومنهم مَنْ كان يعبد الشمس أو القمر أو الكواكب والنجوم ، ومنهم مَنْ عبد الملائكة .. الخ .

لكن من أين أتتهم هذه الشبهة ؟ جاءتْ هذه الشبهة من استعظامهم الوجود ، فهذا الكون البديع المحكم فيه أرض بها أنهار وجبال وزروع وثمار ، وفيه سماء فيها شمس وقمر ونجوم وكواكب وأفلاك .. الخ . فهذا الكون فى نظرهم لا يقدر على خَلْقه واحد بمفرده ، لا بد أن كثيرين اشتركوا فى خَلْقه .

إذن : فعظمة الوجود هى التى جعلتهم يقولون بآلهة متعددة ، وهنا لابُدَّ أن نقولَ سبحان الله ، فالعكس هو الصحيح فى هذه المسألة ، فعظمة الخَلْق دليل على أن الخالق واحد ، ولو كان الخالق متعدداً لما جاء الخَلْق على هذا النظام والتناسق ، ولو كان الخالق متعدداً لكان الحال كما وصفه الحق سبحانه : ﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ .. ۝٩١﴾ [المؤمنون]

فقولهم : ﴿أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا .. ۝٥﴾ [ص] خطأ من ناحيتين :

الأولى ظنُّهم أن عظمة الصنعة دليلٌ على تعدُّد الصانع ، فى حين أن عظمة الصنعة دليل على أن الصانع واحد ، الأخرى : أنكم قُلْتم بتعدد الآلهة ، والإله يعنى المعبود المطاع فى أوامره ونواهيه فقولوا لنا : بماذا أمرتكُم هذه الآلهة ، وعَمَّ نهتكم ؟ بل ماذا أعدَّتْ لمن أطاعها من الجزاء ، وماذا أعدَّتْ لمن عصاها ؟

إذن : قولكم آلهة كذب وهراء تقولونه بألسنتكم ما أنزل الله به من سلطان ، ولو عرفتم معنى الآلهة ومعنى العبادة وأن المعبود لابُدَّ أن يكون له منهج يسير عليه العباد ، لو عرفتُم هذا لما قُلْتم بتعدُّد الآلهة.

لذلك الحق سبحانه يضرب لهم مثلاً ، فيقول : ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ[1] وَرَجُلاً سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً .. (٢٩)﴾ [الزمر]

يعنى : هل يستوى فى العبودية عبد مملوك لسيد واحد وعبد مملوك لعدة أسياد ، وليتهم متفقون إنما متشاكسون مختلفون فيما بينهم ، كذلك لا يستوى مَنْ عبد الله وحده ومَنْ عبد آلهة متعددة .

وقولهم : ﴿إِنَّ هَـٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ (٥)﴾ [ص] فى الآية قبلها قال تعالى : ﴿وَعَجِبُوا (٤)﴾[ص] من الفعل عَجَبَ ومصدره عَجَباً . أما هنا فقال (عُجاب) وهذه الصيغة تدلُّ على المبالغة فى العجب والاستغراب، فأصل المصدر والبِنْية موجود فيها ، والزيادة دلَّتْ على المبالغة كما

---

(١) تشاكس القوم : تنازعوا واشتد خلافهم . [القاموس القويم ١/٣٥٤] . والشركاء المتشاكسون : العسرون المختلفون الذين لا يتفقون ، وأراد بالشركاء الآلهة التى كانوا يعبدونها من دون الله تعالى . [لسان العرب – مادة : شكس]

نقول : طويل وطوال . ونقول : أمر غريب وغراب[١] .

﴿ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴿٧﴾ ﴾

(الملأ) هم الذين يملأون العين مهابةً وزياً وهنْداماً ، ويملأون صدور المجالس . والمراد : الأعيان وزعماء القوم وصناديد الكفر فى قريش ، وعلى رأسهم الوليد بن المغيرة ، وأبو جهل وأُبىّ بن خلف ، وأمية بن خلف ، وعتبة بن ربيعة ، وأخوه شيبة ، والنضر بن الحارث ، وخصَّهم الله بالذكر لأنهم أهل السيادة ، ودعوته ﷺ ستسحب بساط السيادة من تحت أقدامهم ، فهم المضارُّون من دعوة رسول الله .

ولهذه المسألة قصة ، فهؤلاء الزعماء ذهبوا إلى أبى طالب عم رسول الله وقالوا له : لو كان ابنُ أخيك يريدُ مُلْكاً ملكْنَاه علينا ، وإنْ

---

(١) سبب نزول الآيات : ذكر الواحدى فى « أسباب النزول » (ص٢٠٩) : قال المفسرون : لما أسلم عمر بن الخطاب شق ذلك على قريش وفرح المؤمنون ، قال الوليد بن المغيرة لهلاص قريش وهم الصناديد والأشراف : امشوا إلى أبى طالب . فأتوه فقالوا له : أنت شيخنا وكبيرنا قد علمت ما فعل هؤلاء السفهاء ، وإنَّا أتيناك لتقضى بيننا وبين ابن أخيك ، فأرسل أبو طالب إلى النبى ﷺ فدعاه فقال : يا بن أخى هؤلاء قومك يسألونك ذا السؤال فلا تملْ كل الميل على قومك ، قال : وماذا يسألونى ؟ قالوا : ارفضنا وارفض ذكر آلهتنا وندعك وإلهك ، فقال النبى ﷺ : أتعطونى كلمة واحدة تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم ؟ فقال أبو جهل : لله أبوك لنعطينكها وعشر أمثالها ، فقال النبى ﷺ : قولوا لا إله إلا الله . فنفروا من ذلك فقاموا فقالوا : ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ﴿٥﴾﴾ [ص] كيف يسع الخَلْقَ كلهم إله واحد ، فأنزل الله تعالى فيهم هذه الآيات ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ﴿١٢﴾﴾ [ص]

كان يريد مالاً جمعنا له من المال حتى يصير أغنانا .. الخ فكلَّم أبو طالب رسول الله وقال : يا ابن أخى ، ابْقِ علىَّ وعلى نفسك ، ولا تُحمِّلنى من الأمر مَا لا أطيق ، إن قومك جاءونى وقالوا كذا ، وكذا فقال ﷺ قولته المشهورة : « والله يا عَمِّ ، لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى يسارى على أنْ أتركَ هذا الأمر ما تركتهُ حتى يُظهِره الله ، أو أهلكَ دونه »(١) .

فلما خاب سَعْيُهم ، وعلموا أن رسول الله لن يُهادنهم فى آلهتهم ، ولن يقبل عروضهم ومساوماتهم أسرعوا إلى القوم يحفزونهم على التمسك بآلهتهم والصبر عليها ﴿وَانطَلَقَ الْمَلأُ مِنْهُمْ ۝٦﴾ [ص] يعنى : إلى قومهم ﴿أَنِ امْشُوا ۝٦﴾ [ص] يعنى : سيروا على ما أنتم عليه من عبادة الأصنام ، وابْقوا على طريقتكم وعبادتكم ﴿وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ ۝٦﴾ [ص] يعنى : على عبادتها واحذروا أنْ يُضلّكم محمد عنها .

﴿إِنَّ هَـٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ۝٦﴾ [ص] أى : مسألة مدبرة لها ما بعدها من العواقب ، لأن الآلهة إنْ كفرتُم بها ستغضب عليكم فيصيبكم الجَدْب والقحط ، أو الشىء يُرادُ بنا نحن الأعيان ، فنذل بعد أنْ كُنَّا سادة ، ونصير سواسية مع باقى القوم .

وقولهم : ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ ۝٧﴾ [ص] أى : ما سمعنا

---

(١) أخرجه البيهقى فى « دلائل النبوة » (٢/١٨٧) من طريق ابن إسحاق أن أبا طالب قال لرسول الله ﷺ : يا ابن أخى ، إن قومك قد جاءونى فقالوا : إنك تؤذيهم فى ناديهم ومسجدهم ، فابق علىّ وعلى نفسك ، ولا تحملنى من الأمر ما لا أطيق أنا ولا أنت ، فاكفف عن قومك ما يكرهون من قولك . فقال ﷺ : يا عم ، لو وضعت الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى ، ما تركت هذا الأمر حتى يظهره الله تعالى أو أهلك فى طلبه. فما كان من أبى طالب إلا أن قال : امضِ على أمرك وافعل ما أحببت ، فوالله لا أسلمك لشىء أبداً ».

بأن الإله واحد ، والملة الآخرة هى أقرب الملَل إليهم ، وهى اليهودية والنصرانية ، نعم اليهودية والنصرانية نزلتْ من السماء بتوحيد الله ، لكن الذى شجَّعهم على هذا القول أن اليهود قالوا : عزير ابن الله . والنصارى قالوا : المسيح ابن الله وقالوا : إن الله ثالث ثلاثة . لذلك قال كفار مكة : ما سمعنا بتوحيد الله فى الملة الآخرة ﴿إِنْ هَـٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ (٧)﴾ [ص] يعنى : ما هذا إلا كذب وافتراء ، ومعنى الاختلاق : خَلْق الشىء بلا واقع يسانده .

﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ (٨)﴾

هذه نَقْلة أخرى فى جدالهم وتكذيبهم لرسول الله ، فقبل ذلك كانوا يعترضون على بشرية الرسول ، ويطلبون أنْ يكون الرسول ملَكاً ، والآن يتنازلون عن هذا المبدأ ويتحوَّلون إلى الذات ، كما قال تعالى فى موضع آخر : ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١)﴾ [الزخرف]

يعنى : لماذا محمد بالذات ، وفينا أناس عظماء وسادة كانوا أَوْلَى منه بالرسالة ؟ وهنا قالوا : ﴿أَؤُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا (٨)﴾ [ص] لذلك الحق سبحانه يرد عليهم ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ (٣٢)﴾[الزخرف] فجعل نبوته ﷺ رحمة بهم .

﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا (٣٢)﴾ [الزخرف]

يعنى : كيف تتدخلون فى هذه المسألة الهامة ، تريدون أنْ تقسموا رحمة الله ، والله هو الذى قَسَم لكم أمور الدنيا الهيِّنة ، فجعل منكم سادة وعبيداً وأغنياء وفقراء .. الخ إنْ كان الحق سبحانه هو الذى ينظم لكم أبسطَ أمور حياتكم ، فكيف تطمعون فى أنْ تقسموا أنتم فضل الله ورحمته ؟ ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ (١٢٤) ﴾ [الأنعام] وذلك فَضْل الله يؤتيه مَنْ يشاء .

وقوله تعالى : ﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي (٨) ﴾ [ص] الذكْر هنا يعنى القرآن ، وكأن الحق سبحانه وتعالى يُسلِّى رسوله ويطيب خاطره ، كما خاطبه فى موضع آخر بقوله : ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٣٣) ﴾ [الأنعام]

والمعنى : لا تحزن يا محمد . فقومك لا يُكذِّبونك أنت إنما يُكذّبون ما جئتَ به من الذكر ، فأنت عندهم الصادق الأمين الذى لا غبارَ عليه ، يعنى المسألة ليست متعلقة بك وبشخصك أنت ، إنما متعلقة بى أنا ، فكأن الله تعالى حملها عن رسوله ليُطمئنه ويُسلِّيه ويُخفِّف عنه ما يلاقى من عناد قومه له .

وقوله سبحانه : ﴿ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ (٨) ﴾ [ص] هذا لون من ألوان التهديد ، يعنى : لن يظلوا على هذه الحال من السلامة والنجاة فعذابهم قادم ؛ ذلك لأن (لما) تفيد نَفْى الحدث فى الماضى مع إثبات حدوثه فى المستقبل ، تقول : فلان لم يأْت يعنى فى الماضى وقد لا يأتى فى الحاضر والمستقبل ، إنما فلانَ لمَّا يَأْتى يعنى : لم يأت فى الماضى ، وسوف يأتى فى الحاضر أو المستقبل ، فمعنى ﴿ لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ (٨) ﴾ [ص] يعنى : حتى الآن لم ينزل بهم عذاب الله ، لكن سوف ينزل لا محالة .

﴿ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴿١٠﴾ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾ ﴾

بعد أن نفى الحق سبحانه قدرتهم على أنْ يقسموا رحمته تعالى ينفى هنا أن تكون مفاتيح خزائن رحمته بأيديهم ، فأمْ هنا للتسوية ، والمعنى : أهُمْ يقسمون رحمة ربك ، أم عندهم خزائن رحمته ؟ لا هذا ولا ذاك ، لأن النبوة رحمة ، وخزائن الرحمة مملوكة للرحيم والله رحمن ، فليس لهم شىء من ذلك ؛ لأن الله تعالى لم يُملِّك مفاتيح خزائنه لأحد حتى أولياء الله المقربين الذين يعطيهم ومضات إشراقية غيبية ليثبت بها اليقين بالمسلك الذى سلكوه .

حتى هؤلاء لم يُملِّكهم مفاتيح خزائنه ، إنما يفتح لهم ما يشاء من فضله ، ويعطيهم ما يريدون من الكرامات ، وتظل مفاتيح خزائنه تعالى فى يده ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ ﴿٥٩﴾ ﴾ [الأنعام] لا يسلمها لأحد . لذلك ذُيلت الآية بهذين الاسمين من أسمائه تعالى ﴿ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ﴿٩﴾ ﴾ [ص]

فالعزيز هو الذى يغلب ولا يُغلب ، فالله غالب لا يُغْلَب على أمره ، ومَنْ كانت هذه صفته كيف يأخذون منه خزائن رحمته ، وهو سبحانه : ﴿ الْوَهَّابِ ﴿٩﴾ ﴾ [ص] الذى يهب مَنْ يشاء تفضُّلاً وتكرُّماً منه سبحانه .

ثم يقول سبحانه : ﴿ أَمْ لَهُم مُّلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴿١٠﴾ ﴾ [ص] يعنى : إنْ كان لهم مُلْكُ السموات والأرض وما بينهما ﴿ فَلْيَرْتَقُوا فِي الأَسْبَابِ ﴿١٠﴾ ﴾ [ص] فليصعدوا هم إلى السماء ، وليعرجوا إليها ليتولَّوْا هم تدبير أمر الخَلْق ، والحق سبحانه يوضح هذه المسألة فى

آية أخرى : ﴿يَـٰمَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ[١] السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا لا تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ (٣٣)﴾ [الرحمن] أى : بسلطان منَّا .

لذلك لما وصل الإنسان واعتلى سطح القمر قال المتفلسفون : وصلوا بسلطان العلم ، كيف والله يقول بعدها : ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ[٢] مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلا تَنتَصِرَانِ (٣٥)﴾ [الرحمن] إذن : ليس السلطان المراد سلطان العلم كما يدَّعُون ، إنما سلطان من الله خالقها ، فهو سبحانه الذى يُنْفِذ مَنْ يشاء ، ويمنع من النفوذ مَنْ يشاء ، ولو لم تأتِ هذه الآيةُ لَكانَ الذين ينكرون معراج رسول الله على صواب .

وقوله سبحانه : ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الأَحْزَابِ (١١)﴾ [ص] المراد كفار مكة ، وأنهم مهزومون لا محالة ، كما هُزِم مَنْ قبلهم من المكذِّبين للرسل .

ثم يُسلِّى الحق - سبحانه وتعالى - نبيه بذكْر ما كان من تكذيب السابقين لرسلهم ، يعنى : يا محمد لستَ بدعاً فى هذا الأمر ، ويبدأ بأطول الرسالات عمراً ، وهى رسالة سيدنا نوح -عليه السلام- فيقول سبحانه :

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الأَوْتَادِ (١٢) وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَـٰبُ لْئَيْكَةِ أُوْلَـٰئِكَ الأَحْزَابُ (١٣) إِن كُلٌّ إِلاَّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ (١٤)﴾

---

(١) أقطار السماوات : نواحيها . [القاموس القويم ٢/١٢٤]

(٢) الشواظ : القطعة من اللهب ليس فيها دخان . [القاموس القويم ١/٣٦١].

معنى : ﴿ذُو الأَوْتَادِ (١٢)﴾ [ص] صاحب الأوتاد وهى الأشياء المثبتة ، وقيل : المراد الأهرامات . أو كانت له أوتاد مثبتة عذَّب بها خصومه ، و ﴿الأَيْكَةِ (١٣)﴾ [ص] هى الحديقة مُلتفّة الأشجار ، متشابكة الأغصان ، وأصحاب الأيكة هم قوم سيدنا شعيب ﴿أُوْلَٰٓئِكَ الأَحْزَابُ (١٣)﴾ [ص] أى : الذين تحزَّبوا على رسلهم وصادموهم وعاندوهم .

﴿إِن كُلٌّ إِلاَّ كَذَّبَ الرُّسُلَ (١٤)﴾ [ص] ما أحد من هؤلاء إلا كذَّبَ رسوله ﴿فَحَقَّ (١٤)﴾ [ص] أى : وجب له وحَقَّ عليه (عِقَابِ) إذن : فكيف يُقدِّرون لأنفسهم أنْ يقفوا منك يا محمد هذا الموقف ولا نعاقبهم ؟ كيف يفلتون منا وقد عاقبنا مَنْ هم أقوى منهم ؟

﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ (١٥)﴾

أى : ما ينتظرون ، فعذابهم بالنسبة لنا أمر يسير لا يحتاج إلى علاج ، إنما هى مجرد صيحة واحدة أى : نفخة واحدة قالوا : هى النفخة الثانية التى بها يُبعث الخَلْق ﴿مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ (١٥)﴾ [ص] يعنى : لا إفاقةَ لهم بعدها .

﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ (١٦)﴾

معنى ﴿قِطَّنَا (١٦)﴾ [ص] أى : نصيبنا وجزاءنا ، وأصلها من القطعة كانوا يكتبون فيها الجائزة . يعنى : إنْ كنا مذنبين عَجِّل لنا العذاب الآن قبل يوم القيامة ، لكن كيف يأتيكم العذاب الآن فى الدنيا والدنيا فانية ، ينتهى العذاب بفَنَائها ، فكأن عذابهم فى الدنيا لا يكفى جزاءً لهم على كفرهم ؛ لذلك يُؤخِّره الله لهم إلى يوم القيامة ، وهى

دار بقاء وإقامة لا نهاية لها .

والحقيقة أن الصيحة ليست هى التى ستُعذِّبهم ، إنما هى مجرد جرس إيذاناً ببدء هذا اليوم .

والحق - سبحانه وتعالى - يشرح لنا هذا الموقف منهم ويُوضِّحه فى قوله تعالى ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢)﴾ [الأنفال]

وهذا دليل غبائهم ، فهل يدعو عاقل بمثل هذا ؟ وكأن الحق سبحانه يريد أنْ يُدلِّل لنا على أن موقفهم فى العناد والتأبّى على الرسالات ضد نفوسهم ، فبدل أنْ يقولوا فاهدنا إليه يقولون ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢)﴾ [الأنفال]

لذلك الحق سبحانه يتعجب من استعجالهم العذاب : ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (١٧٦) فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ (١٧٧)﴾ [الصافات]

وعجيبٌ من كفار مكة أن يقولوا ﴿قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ (١٦)﴾ [ص] فهل يؤمنون بهذا اليوم ؟ إذن : لماذا ينطقون به ويعترفون بوجوده حتى يظهر فى فلتات ألسنتهم ؟ قالوا : إنه تنبُّه مواجيد الفطرة قبل أنْ يعمل العقل الماكر ، فالذى يكذب يُعمل عقله فى الكذب ، ولابُدَّ له أنْ يكون ذَكُوراً ؛ لأن الكذب ليس له واقع ثابت .

لذلك كثيراً ما يكذب الإنسانُ كذبةً اليوم ، ويكذب خلافها غداً ، فالصادق لا يتغير كلامه لأنه يحكى واقعاً ، أمَّا الكاذب فيحكى غير الواقع ؛ لذلك قالوا : إنْ كنتَ كذوباً فكُنْ ذَكُوراً ، مثل رجل كاذب يحكى ويقول : ذهبنا إلى (البندر) ليلة العيد الصغير ، وكانت الدنيا (قمر ضهر !!) كيف ؟

والمحقق الماهر هو الذى يستغل هذه المسألة ليعلم صِدْقَ الأقوال من كذبها ، فالصادق يحكى واقعاً ، فلو سأله المحقِّق ألف مرة لجاءتْ أقواله واحدة ، أمَّا الكاذب فيحكى خيالاً لا بُدَّ أنْ تتضارب فيه الأقوال فينكشف زَيْفه ، الواقع يُملى نفسه عليك ، أمَّا الكذب فيُمليه الإفك والتلفيق ، فلا تدرى على أىِّ صورة يكون .

فقولهم : ﴿ قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴿١٦﴾ ﴾ [ص] جاء منهم فَلْتة لسان كشفتْ عَمَّا يؤمنون به بين أنفسهم ، ومثلها قول المنافقين : ﴿ لا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا ﴿٧﴾ ﴾ [المنافقون]

فجعلوا النفعية هى المقياس ، فكأن أتباع محمد حين لا ينفق عليهم سينفضُّون من حوله ؛ ذلك لأن الأمور عندهم مادية ، وكل شىء عندهم له ثمن .

وقالوا : لما فَتَر الوَحْى عن رسول الله : إنَّ ربَّ محمد قَلاَه[1] ، هكذا تسرقهم المواجيد الفطرية ، ويظهر الحق فى فَلَتات الألسنة عندما تتنبه الغريزة والفطرة ، ويغيب العقل الماكر المدبر .

أو أنهم قالوا : ﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴿١٦﴾ ﴾ [ص] على سبيل الاستهزاء بالوعيد الذى توعَّدهم الله به ، فهم لا يؤمنون بهذا العذاب ولا يثقون فى وقوعه ، فاستعجالهم له استهزاء به ، فكأنهم قالوا : هات لنا العذاب فنحن مشتاقون لعذابك ، فلا تُؤخِّرْه إلى يوم الحساب ، وهذا التهكم لا يليق مع قولهم ﴿ رَبَّنَا ﴿١٦﴾ ﴾ [ص]

---

(١) ذكر ابن كثير فى تفسيره (٥٢٢/٤) من رواية سفيان بن عيينة عن الأسود بن قيس سمع جندباً قال : أبطأ جبريل على رسول الله ﷺ فقال المشركون : ودَّع محمداً ربُّه . فأنزل الله تعالى : ﴿ وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ ﴾ [الضحى] .

﴿ ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾ ﴾

الصبر : استعلاء النفس على الأحداث بمعنى ألاَّ تنال الأحداثُ من النفس ومن قوتها ، لأن الذى يُصاب بمصيبة يحتاج إلى قوة إضافية فوق قوته الطبيعية ، فلا تجعل المصيبة أو الشدة تُضعف من قوتك على تحمُّل الحدث .

وإياك أنْ تجعل المصيبة مصيبتين ، حين تضعف أمام الأحداث فيجتمع عليك المصيبة والضعف عن تحملها ، ذلك لأن المصيبة بالنسبة للمؤمن على قسمين . الأول : مصيبة للإنسان دَخْلٌ فيها كالطالب المهمل الذى يرسب فى الامتحان ، فالرسوب نتيجة إهمالك وتهاونك ، فإنْ كنت ستغضب فاغضب من نفسك ولُمها وعنِّفها ، وحاول أن تصححَ خطأها ، وتصلح فسادها ، هذه هى الرجولة التى تواجه الواقع ولا تتنصَّل من المسئولية .

---

(١) ذا الأيْد : أى صاحب القوة . [القاموس القويم ١/٤٥] قال الزجاج : كانت قوته على العبادة أتم قوة ، كان يصوم يوماً ويفطر يوماً ، وذلك أشد الصوم ، وكان يصلى نصف الليل ، وقيل : أيْده قوته على إلانة الحديد بإذن الله وتقويته إياه . [لسان العرب – مادة أيد] .

(٢) شددنا ملكه : قويَّناه . [القاموس القويم ١/٣٤٤] قال ابن منظور فى لسان العرب – مادة شدد : كان من تقوية ملكه أنه كان يحرس محرابه فى كل ليلة ثلاثة وثلاثون ألفاً من الرجال . هكذا جاء .

(٣) فصل الخطاب : القول الصائب المميِّز بين الحق والباطل . [القاموس القويم ٢/٨٣] .

الثانى : صبر على حَدَث ليس للإنسان دَخْل فيه ، وهذا هو الأمر القدرى يُجريه الله عليك ، ولا يريد لك منه إلا الخير ، وإنْ كنتَ تعتقد أنت أنه شَرٌّ .

لذلك قد يدعو الإنسان بما يراه خيراً له حَسْب قوانينه وفَهْمه للخير ، لكن لا يرى إجابة فيغضب ويقول : دعوتُ فلم يُستجب لى . وغفل أن ربه - عز وجل - أعلمُ بالخير أين هو ، لذلك لم يُجِبْهُ ، إذن : فإجابته لك ألاَّ يجيبك .

لذلك يُعلِّم الحق سبحانه المؤمنين الرّد على الذين كانوا يشمتون فى الأحداث تصيبهم ، فيقول : ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا (٥١)﴾ [التوبة] نعم ، كتب الله لنا لا علينا ، لأن المصيبة لا تأتى المؤمنَ إلا بالخير ، فهى إما تمحيص لنا وإما عُلُو لمرتبتنا ، وإما ليعلم غيرُ المؤمنين أن لأهل الإيمان جلادةً أمام الأحداث ، وصلابةً لا تلين .

ومن ناحية أخرى ، نجد المصيبة التى تصيب الإنسانَ إما مصيبة له فيها غريم ، أو مصيبة لا غريمَ فيها ، فالمصيبة التى لك فيها غريم اعتدى عليك مثلاً تحتاج إلى صبر أقوى وجَلَد وتحمُّل أكثر ، لأنك كلما رأيتَ غريمك حرَّك فيك كوامن النفس ودواعى الانتقام . أما المصيبة التى ليس لك فيها غريم ، وهى المصيبة القدرية التى أصابتْك بقدر الله فهى أهون على النفس من الأولى لأنها من الله ، فلا تملك معها إلا أنْ تقول لا حولَ ولا قوةَ إلا بالله وتصبر وتحتسب ، وإلا فماذا تفعل مثلاً أمام المرض أو الموت ؟

لذلك يقول سبحانه فى المصيبة التى لك فيها غريم : ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ (٤٣)﴾ [الشورى] يعنى : تحتاج إلى عزيمة وقوة تحمُّل تعينك على الصبر ، أو تدعوك إلى المغفرة ، أما المصيبة القدرية التى لا غريمَ لك فيها ، فيقول الحق فيها : ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا

أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٧﴾ ﴾ [لقمان] ولم يقُلْ هنا ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾ [الشورى] ، فآية لقمان فى المصيبة التى لا غريم فيها ، فأتت بدون اللام ، وآية الشورى لما فيها غريم فأتت فيها اللام .

هنا الحق سبحانه يريد أنْ يُسلِّى نبيه محمداً ﷺ ويُخفِّف عنه ما يُلاقى من قومه ، فقولهم عن رسول الله أنه ساحر وكاذب ومجنون .. الخ كل هذا يُحزن رسول الله ويشقُّ عليه ويُؤلمه ؛ لذلك مرَّتْ بنا آياتٌ كثيرة فى تسليته ﷺ ، كما فى قوله تعالى :﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَـٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأنعام]

وهنا يخاطبه ربه : ﴿اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [ص] ثم يعطيه مثلاً من موكب الرسالات السابقة ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ﴿١٧﴾ ﴾ [ص] لكن لماذا ذكر سيدنا داود بالذات فى هذا المقام ؟

قالوا : لأن قومَ سيدنا داود قالوا فى حقه ما هو أفظع مما قيل فى حَقِّ رسول الله ، فكفار مكة قالوا : ساحر ، وكاهن ، وكذاب . أما قوم داود فقد اتهموه فى شرفه وعفَّته وطهارته ، حين زعموا أنه بعث بأحد قادته إلى حرب خارج البلاد ؛ لأنه كان يحب زوجته ، ويريد أنْ يخلوَ له الجو وينفرد بها ، ومع ذلك صبر سيدنا داود .

والحق سبحانه يخاطب نبيه محمداً ويقول له : اصبر كما صبر داود . مع أن محمداً هو خاتم الرسل جميعاً ، فلا رسالةَ بعده وفوَّضَه الله فى أنْ يُشرِّع لأمته ، وهذه خصوصية لم تسبق لأحد غيره من الرسل ، وأرسل الله معه كتاباً خالداً مهيمناً على كل الكتب السابقة ومع ذلك يقول له ربه : اصبر كما صبر داود ، وكما صبر إخوانك من الرسل ليدلَّ على أن أمةَ الرسالة أمة واحدة ، كل منهم يُبلِّغ عن الله رسالة مناسبة لقومه ، فالرسل جميعاً كشخص واحد .

لذلك قال تعالى : ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ﴿١٧﴾ ﴾ [ص]وبعد ذلك ذكر عدةَ

رسُل من موكب الرسالات ولم يقُلْ عبادنا ، كأنهم تجمعوا كلهم فى مهمة واحدة فلا تفرق بينهم ؛ لذلك يقول سبحانه :﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ .. (١٣) ﴾ [الشورى]

وقال ﷺ : « لا تفضلونى على يونس بن متى »[(١)] .

لأنكم لا تعلمون مقاييس المفاضلة ، فدعوا المفاضلة لله تعالى فهو الذى يُفضِّل ، كما قال سبحانه : ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم .. (٢٥٣) ﴾ [البقرة]

وتأمَّل هذا الشرف الكبير الذى ناله سيدنا داود حين تحدَّث الحق عنه ، فقال ﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ (١٧) ﴾ [ص] كذلك ناله سيدنا محمد فى استهلال سورة الإسراء : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ (١) ﴾ [الإسراء] فليس للإسراء حيثية ، إلا أنه ﷺ عبد أخلص العبودية لله فاستحق هذا الشرف العظيم ؛ لذلك لما جَفتْ به الطائف واضطهدوه وشتموه جاء العزاء من الله ، فإنْ كانت الأرضُ لم تحتَفِ بك ، فسوف تحتفى بك السماء .

وقوله تعالى : ﴿ ذَا الْأَيْدِ (١٧) ﴾ [ص] يعنى : صاحب القوة فى العبادة ، والإيمان يحتاج فعلاً إلى قوة تُعينك على الطاعة ، وتزجرك عن المعصية ، وتكبح جماحَ النفس حين تميل بك إلى المخالفة ، أما الطاعة فتحتاج إلى قوة لأن الطاعةَ غالباً ما تكون ثقيلة على النفس ، فتحتاج إلى قوة دافعة حافزة ؛ لذلك يقول تعالى عنها : ﴿ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ (٤٥) ﴾ [البقرة]

---

(١) لفظ البخارى من حديث عبد الله بن مسعود (٣٤١٢) : « لا يقولن أحدكم إنى خير من يونس بن متى » . وكذا عن ابن عباس (٣٤١٣) : « ما ينبغى لعبد أن يقول إنى خير من يونس بن متى » .

أما المعصية فلها لذة وجاذبية وشهوات تُلِح على النفس ، فتحتاج كذلك إلى عزيمة وقوة رادعة كابحة ؛ لذلك كثيراً ما يتكرر ذِكْر القوة فى كتاب الله ، فقال عن داود ﴿ذَا الأَيْدِ ﴿١٧﴾﴾ [ص] ، وقال ليحيى عليه السلام : ﴿يَـٰيَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ﴿١٢﴾﴾ [مريم]

فالمؤمن لا بُدَّ أنْ يكون قوياً قوىَّ الإرادة والعزم ، لا بُدَّ له من قوة الدفع إلى الطاعات لأنه يكسل عنها ، وقوة الردع عن المعاصى لأنه يميلُ إليها ، والإنسان لا يكسل عن الطاعة ولا يرغب فى المعصية إلا حين يعزل العملَ عن الجزاء والعاقبة ، ولو استحضر الجزاء وتذكَّر العاقبة لَهانتْ عليه الطاعة وخَفَّتْ على نفسه وسَهُلَتْ ، ولَزهِدَ فى المعصية ، وفَرَّ منها فراره من الأسد .

وقد أوضحنا هذه المسألة بمثال قلنا : هَبْ أن شاباً طغتْ عليه الغريزة الجنسية ، وهى أعنف الغرائز فى الإنسان ، فقلنا له : تقضى ليلة مع فتاة جميلة لكن فى الصباح سنُدخلك هذا (الفرن) المتأجج لمدة ساعة ، فماذا يقول ؟ إذن : استحضار العقاب على المعصية عند المعصية يمنعك منها ، كذلك استحضار الثواب على الطاعة يدفعك إليها .

وهناك فى جبال الهملايا وعند قمة إفرست وجدوا ضحايا كثيرين ممَّنْ يحاولون اعتلاء هذه القمة ، فبعضهم مَات بعد ثلث المسافة ، وبعضهم بعد الثلثين وهكذا ، فما الذى حملهم على تحمُّل هذه المصاعب والمخاطر ؟ إنها شهوة الاستعلاء على هذه القمة التى تُعَدُّ أعلى قمة فى العالم ، إنه حب الشهرة وتخليد الذكْر فى دوائر المعارف ، إذن : استهانوا بالأخطار ليصلوا إلى هذه الغاية التى يتطلَّعون إليها .

فالذى يجعل الإنسان يزهد فى الطاعات ويتكاسل عنها أنه لم يستحضر الثوابَ عليها ولو استحضر ثوابها لَسهُلَتْ عليه ، كما قال الشاعر :[١] .

تَهُونُ عَلَيْنا فى المعَالِى نُفُوسُنَا ومَنْ يخطُب الحَسْنَاءَ لم يُغْلِهَا المهْرُ[٢]

والنبى ﷺ يشرح لنا هذه المسألة بقوله : « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، ولا يسرق السارقُ حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمرَ حين يشربها وهو مؤمن » .

يعنى : ينتفى عنه وَصْفُ الإيمان فى لحظة وقوعه فى هذه المعصية ؛ لأنه غفل عن العاقبة ، وغفل عن الله ، ولو استحضر اللهَ فى ذهنه ما أقدم .

ثم يقول تعالى فى وصف سيدنا داود : ﴿ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ ﴾ [ص] من الفعل آب فهو آيب وأوَّاب صيغة مبالغة على وزن فعَّال . يعنى : كثير التوبة والأوْب إلى الله ، وهذه الكلمة فيها إشارة إلى أن الإنسانَ عُرْضة للمعصية ، وأنه مهما تاب فهو مُعرَّض للعود مرة أخرى ؛ لأنه ليس معصوماً ، المهم أنْ تحدثَ لكل ذنب توبةٌ ، وألاَّ تكون مُصِراً على أنْ تعودَ .

لذلك تلحظ أن من أسماء الله تعالى الغفار ﴿ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ

---

(١) هو أبو فراس الحمدانى : شاعر أمير ، ابن عم سيف الدولة ، ولد ٣٢٠ هـ وتوفى ٣٥٧ هـ عن ٣٧ عاماً ، كان سيف الدولة يحبه ويستصحبه فى غزواته ، جرح فى معركة مع الروم فأسروه عدة أعوام ، حتى فداه سيف الدولة ، قتله رجال خاله سعد الدولة . له ٢٨٤ قصيدة من العصر العباسى ، عدد أبياتها ٢٧٧٦ بيتاً .

(٢) البيت من قصيدة من بحر الطويل ، عدد أبياتها ٥٤ بيتاً .

وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ [طه] ولم يقل غافر ، لماذا ؟ لأن الخَلْق فيهم غفلة ، وفيهم معصية تتكرر ، وتكرُّر المعصيه يحتاج إلى تكرُّر المغفرة ؛ لذلك من رحمة الله بنا أنه غفَّار أى : كثير المغفرة.

وقوله تعالى فى حَقِّ سيدنا داود : ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾﴾ [ص] تشرح لنا فيما بَعدْ معنى ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾﴾ [ص]

ثم يقول تعالى : ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾﴾ [ص] معنى : ﴿بِالْعَشِيِّ ﴿١٨﴾﴾ [ص] الوقت بعد الظهر إلى المغرب ﴿وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾﴾ [ص] بعد شروق الشمس وهو وقت الضحى ، ومعلوم أن الجبال جماد ، والجماد هو أدْنى الأجناس فى الكون ، فالإنسان هو سيد هذا الكون ، وهو أعلى الأجناس ، يليه الحيوان ، ثم النبات ، ثم الجماد .

الحق سبحانه يخبرنا أن الجماد يُسبِّح ، وأن للجماد حياةً فى حين يظن الإنسان أن جماد يعنى جامد لا حياةَ فيه ، نعم لا حياةَ فيه بمقياسك أنت ، لكن له حياة أخرى غير حياتك ، أنت تسعى وتجرى فى طول الدنيا وعرضها ، أما الجماد فثابت لا يتحرك .

لكن لكل جنس حياة تناسبه ، فأنت أيها الإنسان لك حياتان : حياة فى حال اليقظة ، وحياة أخرى فى حال النوم ، أقانونك وأنت نائم هو قانونك وأنت مستيقظ ؟ إنك ترى فى النوم الأشخاص والأشكال ، وتُميِّز بين الألوان ، وتعيش قصة طويلة وتَعى تفاصيلها ، كل هذا وأنت نائم مُغْمضَ العينين ، فبأىِّ حاسة رأَيتَ ما رأيت ؟ بعد ذلك لك حياة أخرى مناسبة للموت ، وحياة أخرى مناسبة للبعث .

وإنْ أردت أنْ تستدلَّ على أن كل شىء فى الوجود له حياة

تناسبه ، فاقرأ إنْ شئتَ : ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَـٰكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ..(٤٤)﴾ [الإسراء] بعض العلماء قال - ليخرج من هذا المطب - التسبيح هنا يعنى تسبيح دلالة . يعنى : هذه المخلوقات تدل على خالقها ، وليس المراد تسبيح المقال ، ولو كان التسبيح المراد تسبيح دلالة كما يقول ما قال الحق بعدها : ﴿وَلَـٰكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ (٤٤)﴾ [الإسراء] لأننا نفهم تسبيحَ الدلالة . إذن : لا بُدَّ أنْ لها تسبيحاً آخر ، لا نعلمه نحن .

كذلك فى قوله تعالى فى الطير : ﴿وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ (٤١)﴾ [النور] فليس لنا أن نبحث فى كيفية صلاة الطير ، فكل جنس يعلم كيف يصلى لله خالقه ، ألم تَرَ النملةُ جنودَ سليمانَ فتسرع لتحذر قومها : ﴿يَـٰأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (١٨)﴾ [النمل] وتأمل هذا الاحتياط فى قولها وعدالة الحكم فى ﴿وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (١٨)﴾ [النمل] فهم ليسوا ظلمة ولا جبارين ، وإنْ مرُّوا عليكم سيحطمونكم من حيث لا يدرون ولا يشعرون بكم .

ألم يعلم هدهدُ سليمانَ قضيةَ التوحيد ؟ ألم يكُنْ سبباً فى هداية قوم ضلُّوا وعبدوا الشمس من دون الله حين عاد إلى سليمان ، يقول ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (٢٢) إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣)﴾ [النمل] .

والذى أغاظ الهدهد وأثَّر فى نفسه أنْ يراهم يسجدون للشمس من دون الله : ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ (٢٤) أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (٢٥)﴾ [النمل]

إن الهدهد يفهم القضية كاملة ، بل ويجيد فى ذلك ما لا يجيده الإنسانُ العاقل .

والإنسان الذى يُدلُّ على الكون بعقله وفهمه ، ألم يُعلِّمه الغراب كيف يُوارى سَوْأةَ أخيه وجثته : ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ ..(٣١)﴾ [المائدة]

إذن : فكل كَوْن له عالمه ، وله لغته ، وله صلاته لله وخشوعه ، فلا تفرض قانوناً لتسحبه على قانون آخر ، فتحيل كثيراً من الأشياء. وإنْ أردتَ سنداً لهذا من نفس القرآن فاقرأ قوله تعالى : ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ (٤٢)﴾ [الأنفال] فالهلاك نقيض الحياة . واقرأ : ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ (٨٨)﴾ [القصص]

إذن : حين نجمع بين الآيتين نرى أن كل شىء له حياة خاصة به ، وإنْ كنا لا ندرك نحن كُنْه هذه الحياة لكنها موجودة ، بدليل أن كل شىء هالك . والآن بدأ العلماء يُسجِّلون لغة الطير ولغة الحيوان ويتوصَّلون إلى حَلِّ شفرة هذه اللغات .

ومن العجائب التى جعلها الله لتشرح لنا قدرته تعالى فى كونه أنهم لما صنعوا الصاروخ (ديسكافرى) ، وأرادوا إطلاقه إلى الفضاء ووزنه ١١٠ أطنان ، وجدوا به عُطْلاً يمنع انطلاقه ، فلما بحثوا عن العطل وجدوا طائراً وزنه أربعة جرامات اسمه نقار الخشب نقر فى الجدار العازل لخزان الوقود فى الصاروخ اثنين وأربعين ثقباً فعطَّل الصاروخ عن الانطلاق ، وهكذا سُخِّر طائر وزنه أربعة جرامات وبنى عُشَّه على هذا الصاروخ العملاق فعطَّل حركته .

وكأن الطيورَ أرادتْ أنْ تثأر لنفسها لما رأت الإنسان يزاحمها فى عالم الطيران ؛ لذلك وجدوا أن أكبر شىء يهدد الطيران هو عالم

الطيور ، وأن جماعات منها تعترض الطائرات ، وتحوم حول المطارات وكأن هناك عداوةً بينها وبين هذه المخلوقات التى تنازعها الطيران .

لذلك فكَّر علماء الطيران فى فكرة تطرد الطيور عن المطارات ، فأخذوا فكرة أصوات الطيور التى تصدرها كإنذار لغيرها عند حدوث خطر وسجَّلوا هذه الأصوات وأذاعوها حول المطارات ، لكن الطير تنبَّه إلى هذه الخدعة ، ولم تَعُدْ تزعجه هذه الأصوات ، لذلك لجأوا إلى وسيلة أخرى فقالوا : إن الطيور تخاف من الصقور ، فصنعوا لها مُجسَّمات من البلاستيك وعلَّقوها ، لكن هذه الخدعة عرفها الطير ، وسَخر منها حين وضعتْ بعض الطيور أعشاشها على أجنحة هذه الصقور .

إذن : للطير عالمه ومملكته وأسراره ، عرفنا منها شيئاً ، وغابت عنا منها أشياء .

فإذا قرأتَ عن سيدنا داود : ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾﴾ [ص] فاعلم أن الجبال تسبح على الحقيقة تسبيحاً لا يعلمه إلا ربها وخالقها . والميزة هنا لسيدنا داود ليست فى تسبيح الجبال ؛ لأن الجبال مُسبِّحة دائماً ، إنما المعجزة هنا أنها تُسبِّح معه وتردد معه نشيداً واحداً ، فالكلام فى (معه) أى تُسبِّح مع تسبيحه .

لذلك قلنا فى قولهم : سبَّح الحصى فى يد رسول الله ، قلنا : عدِّلوا العبارة ، لأن الحصى يسبح حتى فى يد أبى جهل ، فالصواب والمعجز أن نقول : سمع رسول الله تسبيحَ الحصى فى يده . هذه هى العظمة .

ومعنى ﴿بِالْعَشِيِّ .. ١٨﴾ [ص] العَشِيُّ : الفترة بعد الظهر إلى المغرب ﴿وَالإِشْرَاقِ ١٨﴾ [ص] أى : شروق الشمس ، وقد أخذ بعض الأئمة من هذه الآية دليلاً على مشروعية صلاة الضحى التى صلاها النبى ﷺ ، وبعضهم يقول عن هذه الصلاة : صلاة الإشراق[1] . لكن أىّ عشى ؟ وأىّ إشراق ؟ هذا وقت وكل مكان له عَشِيٌّ وله إشراق يخالف الآخر .

إذن : فهو وقت ممتد فى كل الوقت كما أوضحنا فى الصلاة ، فهى دائمة ممتدة لا تنقطع أبداً ، ففى مكان يُصلَّى الصبح ، وفى آخر يُصلَّى الظهر ، وفى آخر يُصلَّى العصر وهكذا . فكأن الخالق سبحانه أراد بهذه الدورة الزمنية أنْ يُعبَد سبحانه فى كل جزئيات الزمان عبادة لا تنقطع فى وقت من الأوقات .

ومن ذلك قوله ﷺ : « إن الله يبسط يده بالليل ليتوبَ مسىء النهار ، ويبسطُ يده بالنهار ليتوبَ مسئ الليل »[2] ولا يخلو الزمن أبداً من ليل أو نهار ، إذن : فالمعنى أنه سبحانه يده مبسوطة دائماً .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ ١٩﴾ [ص] معنى محشورة أى : مجتمعة حول سيدنا داود ، لأنه عليه السلام كان جميل الصوت حين يقرأ المزامير ويتغنى بها ، فكانت الطيرُ تجتمع

---

(١) روى عن ابن عباس أنه قال : كنت أمر بهذه الآية ﴿بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ ١٨﴾ [ص] ولا أدرى ما هى . حتى حدثتنى أم هانئ . أن رسول الله ﷺ دخل عليها ، فدعا بوضوء فتوضأ ، ثم صلى صلاة الضحى . وقال : « يا أم هانئ ، هذه صلاة الإشراق » ذكره القرطبى فى تفسيره (٨/٥٨٠٠) وعزاه السيوطى فى الدر المنثور (٧/١٥٠) للطبرانى فى الأوسط وابن مردويه عن ابن عباس .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٧٥٩) ، وأحمد فى مسنده (٤/٣٩٥ ، ٤٠٤) من حديث أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه .

عليه وتُردِّد معه وتُرجِّع ما يقول ، إذن : كانت منظومة إيمانيةً مُكوَّنة من سيدنا داود والجبال والطير ، جميعهم يرددون تسبيحاً واحداً ، وكأنهم كما قلنا : (كورس) واحد .

لذلك قالوا فى ﴿ كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ ﴾ [ص] أى : داود والجبال والطير ، كل منهم أواب لله خاضع له راجع إليه[1] .

وقوله : ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ ﴿٢٠﴾ ﴾ [ص] أى : قويَّناه وساندناه بالنصر والهيبة ، النصر فى كل شىء ، والهيبة أقوى أسباب القوة ؛ لذلك إذا أراد اللهُ أنْ يضعف الملك نزع الهيبةَ منه من القلوب ، وحين لا يهابه الناس يتجرأون عليه .

﴿ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴿٢٠﴾ ﴾ [ص] الحكمة : وَضْع الشىء فى موضعه المناسب له ، والذى تأتى منه الثمرة المرجوة من أقصر الطرق وأيسرها ، والحق سبحانه حين يأتى بلفظ من الألفاظ يأخذ أنْسَه بما فى اللغة ، فالحكمة مأخوذة من الحَكمة ، وهى اللجام الذى يُوضَع فى حَنَك الجواد ، فيسهل التحكم فيه وضبط حركته كما أريد، فأرخى له ليسرع ، وأجذبه فيقف .

وقالوا : الحكمة أى النبوة وسداد الرأى فى الأمور ، وقد امتاز كل من سيدنا داود وسيدنا سليمان بالذات بأنْ جمعَ اللهُ لهما الملْكَ والنبوة ؛ لذلك رأينا المخالفين لهما (فطسانين) لا وجودَ لهم ، ولا أثر ؛ لأن الملك يطمس عُنْف المخالف .

---

(١) هذا على قول من قال إن الهاء فى (له) عائدة على الله عز وجل ، أما القائلون بعودها على داود فقالوا : (أوَّابٌ) أى مطيع لداود . فتأتيه الطير وتسبح معه . وهو قول قتادة ذكره السيوطى فى الدر المنثور (١٥٣/٧) وعزاه لعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وانظر ابن كثير (٣٠/٤) ، والقرطبى فى تفسيره (٥٨٠٢/٨)

ومعنى ﴿وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴿٢٠﴾﴾ [ص] أى : علم الفَصْل فى الخصومات ، والفصل لا يكون إلا فى متجادلين ، يأتى هذا بحجة وهذا بحجة ، وعلى الحكَمِ بينهما أنْ يفصلَ بينهما ، بأنْ يُنصِفَ الحق ويبطل الباطل .

وإنْ كانت مسألة فصْل الخطاب هذه اعترض عليها ؛ لأن سيدنا سليمان فيما بعد عدّل حكماً لأبيه ، وهذه تحسب أيضاً لسيدنا داود ؛ لأن الذى عدل حكمه هو ولده ، والإنسان لا يحب لأحد أنْ يتفوَّق عليه إلا ولده ؛ لذلك سُرَّ بها سيدنا داود .

﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾﴾ (١)

حين يستفهم منك بقوله ﴿وَهَلْ أَتَاكَ ﴿٢١﴾﴾ [ص] فاعلم أنه دليلٌ على أن هذا الشىء كان يجب أنْ تعلمه ، تقول : هل أتاك كذا وكذا يعنى : أتاك ومثله قوله تعالى :﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴿١﴾﴾ [الإنسان]

المعنى : أتى على الإنسان وقت من الدهر لم يكُنْ شيئاً مذكوراً إنما أتى الأسلوبُ بصيغة الاستفهام لتأتى أنت بالمراد ، فيكون إقراراً منك ، والإقرار لا يُكذَّب على خلاف الإخبار بالمراد فالإخبار يحتمل

---

(١) جاءت (تسوروا) هنا معبرة عن الجمع تبعاً للفظ (الخَصْم) الذى يطلق على الواحد والاثنين والجماعة .

عقلاً الصدقَ ويحتمل الكذبَ .

أو : أن هذا الأسلوب للتشويق للنبأ . والنبأ ليس هو مطلق الخبر إنما هو الخبر العظيم الذى ينبغى أنْ يُعلم لذلك يُهتم به ، فليس من قبيل النبأ أنْ تقول مثلاً : أكلتُ اليوم كذا وكذا . لذلك حين يخبرنا الحق سبحانه عن أمر القيامة يقول : ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (١) عَنِ النَّبَأِ الْعَظِيمِ (٢) الَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ (٣)﴾ [النبأ]

وكلمة ﴿الْخَصْمِ (٢١)﴾ [ص] تطلق على المفرد والمثنى والجمع بنوعيه تقول : هذا خصم وهذه خصم ، وهؤلاء خَصمْ .. الخ وقد تُثنَّى مع المثنى كما فى : ﴿هَـٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِى رَبِّهِمْ (١٩)﴾[الحج] لذلك جاءت بعدها ﴿إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ (٢١)﴾ [ص] بصيغة الجمع .

ومعنى تسوروا : تسلقوا ، لأنهم لم يدخلوا من الباب ، إنما دخلوا من أعلى السور ، وهذا دليل على أن هؤلاء الخَصْم لم يأتوا من جهة الأرض ، إنما من جهة السماء ، فكانوا جماعة من الملائكة فى صورة بشر ، والمحراب : هو المكان المقدَّس الذى يجعله الإنسان لخُلْوته ومناجاته لربه ، ومن ذلك قوله تعالى فى السيدة مريم : ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ..(٣٧)﴾ [آل عمران] ونحن نُسميه الآن القبلة .

ثم يقول سبحانه : ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ (٢٢)﴾ [ص] الإشكال هنا كيف يفزع سيدنا داود لرؤية هؤلاء وهو فى حضرة الله وفى حضانته ، وبين يديه يصلى ويتعبَّد ويُسبِّح ؟ وكيف أن الحق سبحانه يُفزع عبده ونبيه ، وهو بين يديه ؟!!

قالوا : الفزع على قسمين : فزع يُحرِّك قلبك بالجزع ولكن قالبك سليم لم يتأثر . وفزع آخر ينضح من القلب على القالب فيتأثر حتى

تظهر عليه علامات الفزع .

وقد كان فزع سيدنا داود من النوع الثانى ، لماذا ؟ قالوا : لأن الملائكة حين رأوْه على هذه الحال قالوا له ﴿لا تَخَفْ (٢٢)﴾ [ص] ولا يقولون له ذلك إلا إذا انفعلَ قالبُه انفعالاً يدلُّ على الخوف ، فهذا دليل على أن الفزع تجاوز قلبه إلى قالبه .

ونفهم أيضاً من قولهم له ﴿لا تَخَفْ (٢٢)﴾ [ص] أنهم ليسوا من رعيته ، وليسوا من البشر ؛ لأن واحداً من الرعية لا يجرؤ أنْ يقول للملك : لا تخف .

وقولهم : ﴿خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ (٢٢)﴾ [ص] يدلُّ على اتفاقهم رغم خصومتهم ، فقد تكلَّموا جميعاً فى نَفَس واحد ، أو تكلَّموا بالترتيب ، أو تكلم واحد منهم وأمَّن الباقون ، والمُؤمِّن أحد الداعين ، فكونهم تكلموا بهذه الصورة المنظمة وأيديهم فى أيدى بعض ، فهذا يدلنا على أنه لا خلافَ بينهم ، ولا يطمع أحد منهم فى الآخر ، إذن : ما المسألة ؟ وما حقيقة مجىء هؤلاء على هذه الصورة ؟ لا بُدَّ أن لهم هدفاً آخر .

ومعنى (بغى) حاول أنْ يطغى وأنْ يظلم ﴿فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ (٢٢)﴾ [ص] هذا القول منهم دلَّ على جراءتهم ، ودلَّ على أنهم من ملأ آخر غير البشر من الملائكة . ومعنى ﴿وَلَا تُشْطِطْ (٢٢)﴾ [ص] يعنى : لا تبتعد عن الحق ولا تَجُرْ.

﴿وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ (٢٢)﴾ [ص] اهدنا أى جميعاً دون تمييز بين واحد وآخر ، فهم خصم لكن سواء بدل قولهم ﴿بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ (٢٢)﴾ [ص] دون أن يميزوا الباغى من الذى بُغِى عليه ، والصراط هو الطريق المستقيم ، وسواء الصراط يعنى وسطه ، والمعنى : دُلَّنا على

الحق أو عين الحق ، ثم أخذوا فى عرض قضيتهم :

﴿ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ ﴾

نلحظ فى كلمة (أخى) لَوْناً من التحنين ، فمع وجود الخصومة لكن هو أخى كما فى قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ [الشعراء] وفى أعنف ألوان العداوة ، وهى الثأر يقول سبحانه : ﴿ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ ﴿١٧٨﴾ ﴾ [البقرة] يريد أنْ يُحنِّن قلب ولىِّ الدم على القاتل .

القضية : ﴿ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ .. ﴿٢٣﴾ ﴾ [ص] كلمة نعجة تطلق فى اللغة ثلاثة إطلاقات : أنثى الضأن ، أو الشاة الجبلية ، أو البقرة الوحشية ﴿ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا ﴿٢٣﴾ ﴾ [ص] يعنى : اجعلها لى أكفلها أنا فعندى غنم كثيرة ، فاجعلها ترعى مع غنمى ، فيكفينا راعٍ واحدٌ بدل أنْ تكلف نفسك راعياً لها ، والمعنى أن كفالتها سهلة علىّ لا تكلفنى شيئاً .

﴿ وَعَزَّنِى فِى الْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ ﴾ [ص] يعنى : غلبنى بالحجة والجدال ، ومعلوم أن القاضى يحكم بالحجة والبرهان ، وسيدنا رسول الله ﷺ يقول : « إنما أنا بشر ، وإنكم تختصمون إلىَّ ، فلعلَّ أحدكم أن يكون ألحنَ بحجته فأقضى له ، فمَنْ قضيتُ له من حق أخيه شيئاً فلا يأخذه ، فإنما أُقطع له قطعةً من النار »[1] .

---

(١) أخرج البخارى فى صحيحه (٢٤٥٨) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٧١٣) عن أم سلمة عن رسول الله ﷺ أنه سمع خصومة بباب حجرته ، فخرج إليهم فقال : إنما أنا بشر وإنه يأتينى الخصم ، فلعل بعضكم أن يكون أبلغ من بعض ، فأحسب أنه صدق فأقضى له بذلك ، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هى قطعة من النار ، فلياخذها أو ليتركها » .

فالمعنى أن أخى غلبنى بحديثه وتمكُّنه من حجته ، وأنا أشعر بالظلم ونفسى غير راضية ؛ لذلك جئتُكَ أرفع أمرى إليك لتحكم فيه ، وهكذا سمع داود - عليه السلام - دَعْوى الأول ولم يسمع الطرف الآخر ، وهذه زلة من زلات القاضى .

لذلك قال أهل المعرفة فى هذه المسألة : إذا جاءك صاحب دَعْوى وقد فُقئت عينه فلا تحكم له حتى تسمعَ من الآخر ، فلعله قد فُقئت عيناه .لقد بادر سيدنا داود بالحكم ، فقال :

﴿ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾ ﴾

قوله : ﴿ لَقَدْ ظَلَمَكَ (٢٤) ﴾ [ص] نسب واحداً إلى الظلم ﴿ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ (٢٤) ﴾ [ص] أدخل شيئاً فى حيثية الحكم وليس من حيثية الحكم ، فهل لو لم يكُنْ له تسع وتسعون نعجة ، أكان يحِلُّ له أنْ يقول لأخيه : اعطنى نعجتك ؟

إذن : هذه المسألة لا دخلَ لها فى القضية لأنه ظالم ، وإنْ لم يكن له تسعة وتسعون . إذن : سيدنا داود أولاً حكم قبل أنْ يسمع من الطرف الآخر ، ثم أدخل فى حيثية الحكم ما ليس له دَخْل فيه ، وهو قوله : ﴿ إِلَىٰ نِعَاجِهِ (٢٤) ﴾ [ص] فربما هم حاقدون عليه أن يكون عنده تسع وتسعون .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ ﴿٢٤﴾ ﴾ [ص] أى : الشركاء ﴿ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴿٢٤﴾ ﴾ [ص] المعنى : أن هذه القضية ليستْ قضية فذَّة ولا مفردة ، إنما هى ظاهرة كثيرة الحدوث بين الشركاء ، فكثيراً ما يبغى شريكٌ على شريكه ويظلمه مع أنهم ما تشاركوا إلا لمحبة بينهما واتفاق وتفاهم ، لكن هذا كله لا يمنع ميل الإنسان إلى أنْ يظلم ، وما أشبه هؤلاء بالمقامرين تراهم فى الظاهر أحبَّة وأصدقاء ، فى حين أن كلاً منهم حريص على أخْذ ما فى جيب الآخر .

ثم يلفتنا الحق سبحانه إلى أن هذه المسألة ليستْ على إطلاقها ، إنما هناك نوع آخر من الشركاء لا يظلم ، فمَنْ هم ؟ هم الذين استثناهم الله بقوله : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴿٢٤﴾ ﴾ [ص] لكنهم قليلون ﴿ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ﴿٢٤﴾ ﴾ [ص] أى : أقلّ من القليل أو قليل جداً .

والنبى ﷺ يحكى عن ربه عز وجل فى الحديث القدسى : « أنَا ثَالثُ الشَّريكيْنِ مَالم يخُنْ أحدهما صاحبه ، فإنْ خان خرجتُ من بينَهما »[1] .

يعنى : إنْ تسَرَّب الظلم والخيانة إلى الشركة خرج الله تعالى منها ، فمُحِقَتْ بركتها ، وحَلَّ بها الخراب والخسران .

---

(١) أخرجه أبو داود بهذا اللفظ فى سننه (٣٣٨١) كتاب البيوع . باب فى الشركة عن أبى هريرة . قال شمس الحق فى شرحه (عون العبود ٩/١٧٠) « شركة الله تعالى إياهما على الاستعارة ، كأنه تعالى جعل البركة والفضل والربح بمنزلة المال المخلوط ، فسمى ذاته تعالى ثالثهما ، وجعل خيانة الشيطان ومحقه البركة بمنزلة المال المخلوط وجعله ثالثهما » ، أخرجه الدارقطنى فى سننه (كتاب البيوع - حديث ١٣٩) عن أبى هريرة رضى الله عنه . وفى لفظ أبى حيان التيمى (حديث ١٤٠) : « يد الله على الشريكين ما لم يخن أحدهما صاحبه ، فإذا خان أحدهما صاحبه رفعها عنهما » .

ثم يقول تعالى مبيناً حال سيدنا داود بعد أنْ مَرَّ بهذه القضية : ﴿وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ ﴿٢٤﴾﴾ [ص] يعنى : اختبرناه وابتليناه ، وظن هنا بمعنى علم وأيقن ، وكأن الحق سبحانه يُعلِّم داود علم القضاء وأصوله فامتحنه بهذه المسألة ، فكانت بالنسبة له (مطب) فى أمور ثلاثة : **الأول** : أنه خاف وفزع وهو فى حضرة ربه من خَلْق مثله يقبلون عليه ، وظن أنهم سيقتلونه . **الثانى** : أنه حكم للأول قبل أنْ يسمع من الآخر . **الثالث** : أنه أدخل فى حكمه حيثية لا دخلَ لها فى المسألة .

وكلمة ﴿فَتَنَّاهُ ﴿٢٤﴾﴾ [ص] أى : اختبرناه من قولهم : فتن الذهب على النار ليُخلِّصه من العناصر الخبيثة فيه .

فلما علم سيدنا داود بذلك لم يتأبَّ ، إنما استغفر ربه من كل ذلك ﴿فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ.. ﴿٢٤﴾﴾ [ص] أى : سقط على الأرض سقوطاً لا إرادياً ، والسقوط هنا يناسب السجود لا الركوع ؛ لذلك قال تعالى: ﴿يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾﴾ [الإسراء] فكلمة خر أعطتنا المعنيين يعنى : خرَّ ساجداً حالة كونه راكعاً قبل أنْ يسجد ومعنى ﴿وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾﴾ [ص] رجع إلى الله بالتوبة .

ثم تأتى النتيجة : ﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ ﴿٢٥﴾﴾ [ص] أى : ما كان منه ﴿وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ ﴿٢٥﴾﴾ [ص] قُرْبَى ومنزلة ، ويكفى أنْ تُسبِّح معه الجبال ، ويُردِّد معه الطير ﴿وَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٢٥﴾﴾ [ص] حُسْن مرجع ومردّ .

﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾

كلمة ﴿خَلِيفَةً (٢٦)﴾ [ص] هنا إما خليفة لله فى الأرض خلافة عامة لأن الإنسان كله خليفة لكنه عليه السلام عمدة على الخليفة ، أو خليفة الأنبياء فى حَمْل رسالاتهم إلى الناس ، وما دام هو مستخلفاً فهو موظف إنْ أحسنَ الوظيفة دامتْ له ، وإنْ لم يحسن نُزِعَتْ منه .

فآفة الإنسان أنه إذا ما استجابتْ له الأشياء وطاوعتْه الأسباب يظن أنه صار أصيلاً فى الكون ، ونسى أنه مُسْتخلف غير أصيل ، إنما لو ظَلَّ على ذكْر لخلافته فى الأرض ، وأنه من الممكن أنْ يُعزلَ عن الخلافة فى أىِّ وقت لَظلَّ مؤدباً مع ربه الذى استخلفه : ﴿كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ (٧)﴾ [العلق]

وقوله تعالى ﴿فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ (٢٦)﴾ [ص] يعنى : ما دُمْتَ خليفة لله فى الأرض تعمرها بالأحكام وتقيم فيها الحق ﴿فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ (٢٦)﴾ [ص] وهذه نصيحة غالية لكل مَنْ يحكم بين الناس ، فالحق أمامك نبراس يهديك ، فضعْهُ فى موضعه أياً كان ، ولا تتبع هواك لأن الرأى يُفسده الهوى .

لذلك وقف بعض المفكرين أمام قول الله تعالى عن سيدنا رسول الله ﷺ : ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤)﴾

[النجم]

قالوا : ما دام هو وَحْى يُوحَى ، فلماذا يُعدِّل الله له كما فى قوله سبحانه : ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ .. (٤٣)﴾ [التوبة]

وقوله تعالى : ﴿يَـٰأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ (١)﴾ [التحريم]

وقوله تعالى : ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ (١) أَن جَاءَهُ الأَعْمَىٰ (٢)﴾ [عبس]

قالوا : إن الحق سبحانه لا يعدل لرسوله ، إنما يخبر أنه لا هوى له يجعله يميل عند الحكم ، فهو ﷺ يدخل على المسألة بدون هوى ، سواء أكان الأمر من عند الله أو من المفوَّض له أنْ يشرع فيه .

والحق سبحانه حينما أراد أنْ يحدد مهمة رسوله ﷺ حدَّد مهمة كتابه بأنه كتاب مُعجز ، ويحمل أصول المنهج لا فروعه ، وأنه مهيمن على غيره من الكتب السابقة ، لأن الكتب السابقة عليه أثبتَ الله أنها بُدِّلَتْ وحُرِّفت ، فلم يأمن عليها المؤمنين بها كما قال سبحانه : ﴿بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ .. (٤٤)﴾ [المائدة]

ومعنى استحفظوا : طُلب منهم حفظه وحفظ منهجه ، فحفْظ الكتاب المنزَّل كان تكليفاً والتكليف عُرْضة أنْ يُطاع وأنْ يُعصَى ، وهؤلاء عَصَوْا وبدَّلوا وحرَّفوا ، كما قال الله ﴿وَنَسُوا حَظًّا[1] مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ (١٣)﴾ [المائدة] والذين لم ينسوا حرَّفوا ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ (١٣)﴾ [المائدة] ومنهم مَنْ جاء بكلام من عند نفسه ، وأدخله في كلام الله ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٨)﴾ [آل عمران]

إذن : مثل هؤلاء لا يُؤتَمنون على حفظ كتاب الله ، وقد ثبت ذلك بهذه التجربة ، لذلك لم يجعل الحق سبحانه حفْظ القرآن إلى المؤمنين به ، إنما تكفَّل سبحانه بحفظ القرآن ، فقال سبحانه : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩)﴾ [الحجر]

ولأن الحق سبحانه جعل لنبيه محمد هذه المنزلة أراد أنْ يُبينها ،

---

(١) الحظ : النصيب . ومنه قوله تعالى : ﴿إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٧٩)﴾ [القصص] أى : صاحب نصيب عظيم من الخير . [القاموس القويم ١/١٦١] .

فقال : « مَثَلى ومَثَل الأنبياء من قَبْلى كَمَثَل رجل بنى بيتاً فحسَّنه وأجمله ، إلا موضعَ لبنة من زاوية ، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون : هَلاَّ وُضِعت هذه اللبنة ؟ قال : فأنا اللبنة ، وأنا خاتم النبيين »(١) .

والحق سبحانه يُبيِّن منزلة رسوله فى إكمال الأديان ، فيقول ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي .. (٣) ﴾ [المائدة] ليس هذا فحسب ، إنما يعطيه مهمة أخرى ، هى صيانة هذه الأديان به وبالعلماء الذين يخلفون مَنْ بعده ، لذلك قال سبحانه : ﴿ لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا .. (١٤٣) ﴾ [البقرة]

فالرسول يشهد أنه بلغنا ، وعلينا نحن أنْ نمد رسالة رسول الله ، فنشهد أننا بلغنا الناس من بعده . لذلك يحذرنا رسول الله ﷺ من طائفة تأتى ممَّن لا يؤمنون بسنته يقولون : علينا بكتاب الله فما وجدنا فيه من حلال حللناه ، وما وجدنا فيه من حرام حرمناه .

وحين تتتبع لفظ الطاعة فى القرآن تجد أنه أتى على صور متعددة.

فمرة يقول : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ (١٢) ﴾ [التغابن] بتكرار الأمر بالطاعة .

ومرة يقول : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ (١٣٢) ﴾ [آل عمران] بدون تكرار لفعل الأمر .

ومرة يقول : ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ (٢٠) ﴾ [الأنفال]

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٥٣٥) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٢٨٦) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

فتكرار الأمر بالطاعة مرة لله ومرة لرسول الله حين يكون لله أمر فى القضية الإجمالية مثل الصلاة مثلاً ، ولرسول الله أمر فى تفصيل كيفية الصلاة . فإنْ توارد أمر رسول الله مع أمر الله جاء الأمر واحداً بدون تكرار ، فإنْ كان الأمر خاصاً برسول الله ، ولم يردْ فيه من الله شىء قال : أطيعوا الرسول .

لذلك تلحظ العظمة فى الأداء فى قوله تعالى : ﴿يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ (٥٩)﴾ [النساء] ولم يقل : وأطيعوا أولى الأمر ، لماذا ؟ ليلفتنا إلى أن طاعة أُولى الأمر من باطن طاعة الله ، وطاعة رسول الله يعنى ليس لهم طاعة خاصة بهم ؛ لأنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق .

وقوله تعالى ﴿فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ (٢٦)﴾ [ص]

أى : حكماً عاماً للناس جميعاً ليس خاصاً بك ، وهنا لا بُدَّ أنْ نذكر قوله تعالى لنبيه محمد ﷺ : ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيماً (١٠٥)﴾ [النساء]

ولهذه الآية قصة ، فقد نزلت فى كل من زيد بن السمين ، وكان رجلاً أميناً مع أنه يهودى ، وفى قتادة بن النعمان وطعمة بن أبيرق، فقد كان لقتادة درْع سرقه ابن أبيرق واتهم فيه اليهودى ابن السمين ، وبعد استقصاء الأمر وجدوا الدرع عند ابن أبيرق[1] المسلم وظهرت براءة اليهودى .

---

(١) ذكره ابن حجر العسقلانى فى « الإصابة فى تمييز الصحابة » (ترجمة رقم ٤٢٣٨) : طعمة بن أبيرق بن عمرو الأنصارى . ذكره أبو إسحاق المستملى فى الصحابة وقال : شهد المشاهد كلها إلا بدراً ، وقال أبو موسى (أظنه المدينى) : « قد تُكلم فى إيمان طعمة » .

وهنا أسرع الناس إلى رسول الله حتى لا يحكم على المسلم ، فتكون سبة فى حق المسلمين أمام اليهود ، فتردَّد رسولُ الله فى المسألة ، فأنزل الله عليه : ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ (١٠٥)﴾ [النساء] أى : الناس جميعاً اليهود والنصارى والمسلمين وفعلاً حكم رسول الله على المسلم وبرَّأ ساحة اليهودى ولم يُبَال أحد لا رسولُ الله ولا المسلمون بأنْ ينتصر اليهودى على المسلم ؛ لأن الحق أعزُّ من هذا ومن ذاك .

وحين رأى اليهودُ رسولَ الله يحكم لليهودى ويدين المسلم أقبلوا على الإسلام ، وأسلم منهم كثيرون على رأسهم (مخيريق)[1] الذى أعلن إسلامه ، ووهب كل ماله لرسول الله ، ثم خرج للغزو لما أعجله النفير قبل أن يصلى لله ركعة واحدة ، وقُتِل (مخيريق) فى هذه الغزوة شهيداً ، فقال رسول الله ﷺ عنه : « نِعْمَ مُخيريق ، دخل الجنة ولم يُصَلِّ لله ركعة » .

هذا معنى ﴿فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ .. (٢٦)﴾ [ص]

ومعنى ﴿خَلِيفَةً .. (٢٦)﴾ [ص] أن الله استخلفنا جميعاً فى الأرض ، وجعل للمستخلفين خليفة يدبر أمرهم ويحكم بينهم فيما اختلفوا فيه بمنهج من استخلف الكُلَّ . أو خليفة للرسل الذين سبقوه يُنبه إلى ما انطمس من مواكب الحق فى الخَلْق ، والحكومة بين الناس

---

(١) هو : مخيريق النضرى الإسرائيلى من بنى النضر ، وقيل : من بنى قينقاع . كان عالماً أسلم واستشهد بأحد . كان أوصى بأمواله للنبى ﷺ فجعلها النبى صدقة . وقال عنه ﷺ : « مخيريق سائق يهود ، وسلمان سائق فارس ، وبلال سائق الحبشة » انظر تمييز الصحابة لابن حجر (ترجمة رقم ٧٨٤٣) .

لا تكون إلا عن اختلاف بينهم ؛ لأنهم لو لم يختلفوا ما تحاكموا ، وما لم يختلف فيه الناس فلا دَخْلَ للحاكم فيه إلا أنْ يكونوا قد اختلفوا مع الحق الأعلى ، فعندها لا بُدَّ أنْ يتدخَّل .

وكلمة ﴿بِالْحَقِّ .. (٢٦)﴾ [ص] الحق يعنى : الشىء الثابت الذى لا يتغير ، وهذا لله تعالى ، أما الإنسان فأموره تتغير ولا تستقر على حال ، ونحن منها أغيار ، لكن الحكم الذى يحكم حركة الإنسان ما دام من الله فهو ثابت لا يتغير ، وما دام الله تعالى قد أتمَّ النعمة وأكمل الدين ورضى الإسلام ، فلا استدراك لأحد عليه فى شىء من الأشياء ؛ لأن الاستدراك طَعْنٌ فى استقصاء الله لحكمة الحكم .

والحق يقابله الباطل ، وقد يعلو الباطل فى بعض الأحيان ، لكن يظل الحق هو الحق حتى يعلوَ فى نهاية المطاف . والحق سبحانه يترك الباطلَ يعلو فى بعض الأحيان لحكمة ، هى أن يعضَّ الباطلُ الناسَ ، ويكويهم بناره لتظهر لهم حلاوة الحق ، فإذا لَذَعهم مُرُّ الباطل فزعوا هم إلى طلب الحق .

إذن : فإنْ عَلاَ الباطل فالحق أعْلَى ، وقد ضرب لنا الحق سبحانه مثلاً يوضح هذه المسألة ، فقال سبحانه : ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً[1] وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ (١٧)﴾ [الرعد]

---

(١) أى : لا يُنتفع به ويُلْقى بعيداً ، أو يذهب ضياعاً كالجُفاء . [القاموس القويم ١/١٢٤] . والجفاء هو : ما نفاه السيل من الحطام . والجفاء : الباطل أيضاً . [لسان العرب ـ مادة : جفأ] .

إذن : فالحق ثابت ، وبهذا الثبات نفهم أن المناهج الإلهية ما جاءت لتجعل كلمة الله هى العليا ، إنما جاءت لتجعلَ كلمة الذين كفروا السفلى ، وهذا المعنى واضح فى قوله تعالى : ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا .. (٤٠)﴾ [التوبة] فلم يعطف الثانية على الأولى ، ولم يقل : وكلمة الله هى العليا . لأن كلمة الله ليستْ جعلاً ، وإنما هى شىء ثابت ، وهى حَقٌّ أزلاً .

ثم يقول سبحانه مخاطباً سيدنا داود : ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ .. (٢٦)﴾ [ص] الهوى : مَيْلُ النفس إلى شىء تهواه بغَضِّ النظر عن منهج يحكمه ، والهوى يختلف باختلاف الناس ، حتى الأصدقاء الحميمون المتلازمون فى المأكل والمشرب والميول إذا ذهبوا لشراء شىء اشتروا أشياء مختلفة وألواناً متباينة .

نعم ، هناك جامعة تجمعهم هى الصداقة ، لكن الأهواء مختلفة ، فإذا كان هواى يخالف هواك ، فلا بُدَّ أنْ نرجع إلى شىء لا نختلف فيه ، فإنْ كان هذا الشىء الذى لا نختلف فيه من أعلى منّا فلا غضاضة ، الغضاضة تأتى حين تخضع لمن يساويك وتحكّمه ، وتنتهى إلى رأيه .

لذلك الحق سبحانه يحكم هذه المسألة بقوله تعالى : ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ .. (٧١)﴾ [المؤمنون]

ونحن نفهم أن اختلاف الأهواء يفسد الحياة على الأرض ، لكن كيف يفسد السماء ؟ ولماذا بدأ بفساد السموات قبل الأرض ؟

قالوا : نعم ، لأن الفساد سيتعدَّى فسادَ الأرض ، ويفسد أيضاً السماء ، بمعنى أنه سيفسد حكم الله المنزَّل من السماء ، وما دام سيفسد حكم الله المنزَّل من السماء وهو الحق ، وهذا الفساد سابق

لفساد ما على الأرض .

لذلك لم يقولوا : ﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا .. (٩٢)﴾ [الإسراء] هذا هوى ، ولو أجابهم الله فيما طلبوا لَفسدتْ فعلاً السموات والأرض ، فمن رحمة الله بالخَلْق أنْ عَصَمَ أهواءهم فى المناهج النظرية التى تحكم الناس فيما يختلفون فيه ، أما الشىء الذى لا يُختلف فيه فتركه لكم تربعون فيه كما تشاءون .

فإنْ قلتَ : فلماذا ترك لهم الأمور التى لا اختلاف فيها ؟ نقول : لأنهم سينتهون فيها إلى حَقٍّ واحد مجْمع عليه ، وهذا ما نراه مثلاً فى العلوم المادية التجريبية ، فهى مجال مفتوح للجميع ، الروس مثل الأمريكان ، بل نراهم يجعلون على هذه العلوم حواجز حديدية حتى لا تصل إلى غيرهم ، والبعض يتلصَّص ويسرق ما وصل إليه الآخرون .

إذن : فالشىء الذى سنتفق فيه لا تتدخَّل فيه السماء ، وهذه المسألة حكمها سيدنا رسول الله ، وأعطانا مثالاً فى نفسه ﷺ فى مسألة تأبير[1] النخل ، فلما اقترح عليهم عدم تأبير النخل فسد فى هذا العام ولم يثمر ، فقال ﷺ : « أنتم أعلم بشئون دنياكم »[2] .

لماذا ؟ لأنكم ستصلون بالتجربة إلى شىء واحد ، تتفقون عليه وتسرقونه من الآخرين ، أما فى الأهواء فهى مختلفة من واحد لآخر ، ويحصل منها الصدام باردًا كان أو حاراً .

---

(١) تأبير النخل : تلقيحه وإصلاحه . والنخل لا تُؤبَّر إلا بعد ظهور ثمرتها وانشقاق طلعها وكوافرها من غضيضها . [لسان العرب ـ مادة : أبر . بتصرف] .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٣٦٢) من حديث رافع بن خديج أنه قال حين أسقطت النخل ثمرها : « إنما أنا بشر ، إذا أمرتكم بشىء من دينكم فخذوا به ، وإذا أمرتكم بشىء من رأيى فإنما أنا بشر » . وفى حديث أنس (٢٣٦٣) : « أنتم أعلم بأمر دنياكم».

ثم يُبيِّن الحقُّ سبحانه العلَّة من النهى عن اتباع الهوى ، فيقول : ﴿ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ .. (٢٦) ﴾ [ص] يعنى : لا تتبع الهوى ، لأن اتباع الهوى يُضلّك عن سبيل الله ، وقد أوضح لنا النبى ﷺ هذه المسألة حين خَطَّ للصحابة خطاً مستقيماً ، وخَطَّ حوله خطوطاً متعددة ، ثم تلا : ﴿ وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ .. (١٥٣) ﴾ [الأنعام]

وتفرُّق السُّبُل ينشأ من الاختلاف مهما كان يسيراً ، (فالمللى) الواحد يُفرِّق السبل ، ولو رسمتَ خطَّيْن من مركز واحد ومال أحدهما عن الآخر (مللى) واحد لنتج عن ذلك تباعدهما بالتدريج كلما بَعُدَا عن المركز ، أرأيتَ مثلاً المحولجى الذى يقوم بتحويل مسار القطار ماذا يفعل ؟ إنه يحرك طرف القضيب الذى لا يتجاوز سمكه خمسة (مللى) متر ، فينتج عن هذه الحركة تحويل مسار القطار من الإسكندرية إلى أسوان .

وهكذا تتفرق السبل ، وينشأ عن الاختلاف اليسير اختلاف عظيم ، فالتباعد الهيِّن البسيط عند المركز ينتج عنه تباعد واسع كلما طالت المسافة ، وكما يكون التفرُّق فى السُّبُل المتعددة يكون التفرق كذلك فى الطريق الواحد حين يكون واسعاً يسمح بالتفرق .

فمثلاً الطريق الصحراوى إلى الإسكندرية طريق واسع من اتجاهين ، ويمكنك أنْ تسير فى أحدهما بطريقة ملتوية تميل مرة إلى اليمين ومرة إلى اليسار ، فينشأ عن ذلك طول الطريق ؛ لذلك قالوا سواء السبيل يعنى : أن تجعل الجانبين على سواء .

ثم يوضح الحق سبحانه عاقبة الضلال والانحراف عن جادة الطريق ، فيقول : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا

نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ (٢٦) ﴾ [ص]

إذن : فالغفلة عن هذا اليوم ونسيان العاقبة هو سبب الوقوع فى العذاب الشديد ، فلو ذكر الإنسانُ الجزاءَ على السيئة ما فعلها ، ولو ذكر ثوابَ الحسنة مَا غفل عنها ، ولا تكاسل عن أدائها .

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ (٢٧) ﴾

(١)

يعنى : ما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ، بل خلقناهما بالحق ، لذلك تجدها ثابتة لا تتغير ، كما قال سبحانه : ﴿ لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٤٠) ﴾ [يس] ولو كان هذا الخَلْق على غير ذلك لحدثَ صدام فى كل دقيقة وفى كل لحظة بين هذه الأجرام والأفلاك .

ومعنى ﴿ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا .. (٢٧) ﴾ [ص] أى : أنهم يظنون أنها خُلِقَتْ باطلاً ، ذلك ظَنُّهم وهو مجرد ظن ، ولو جاء الخَلْق كما يظنون ما كان خَلْقاً ، لأن الخَلْق لا بُدَّ أن يكون له غاية عند الخالق قبل أنْ يخلق ، كما قلنا أن الذى اخترع الغسالة أو الثلاجة قبل أنْ يخلقها حدَّدَ لها مهمتها ، لا أنه خلقها. وقال : انظروا فيما تصلح هذه الآلة .

فالذى صنع هو الذى يحدد الغاية ، وهو الذى يضع قانون الصيانة لصناعته . لذلك نقول : إن ضلالَ العالم كله ناشىء من أنهم يريدون أنْ يقننوا بأنفسهم غاية ما صنع الله ، ويريدون أنْ يضعوا

---

(١) الباطل : هو العبث الذى لا فائدة منه ، وهو ضد الحق . ولا خير فيه . [القاموس القويم ١/٧٢] .

لخَلْق الله قانون صيانته ، وأنْ يتجاهلوا ما وضع الله ، لا رد الأمر إلى صاحبه كما تفعل فى أمور الدنيا ، فكل صانع أعلم بما يُصلح صَنْعته .

ثم يأتى هذا التهديد : ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ (٢٧)﴾ [ص] كثيراً ما يُهدِّد الخالق سبحانه خَلْقه بالنار ، ويتوعَّدهم بالعذاب ، والبعض يرى فى ذلك لوناً من القسوة ، والحقيقة أنها لونٌ من ألوان الرحمة لا القسوة ، فمن رحمة الله بنا أنْ يعظم الذنب ، وأنْ يُظهر العقوبة ، ومن رحمته بنا أنْ يضعَ الجزاء قبل أنْ يقع الذنْب ؛ لأنك حين تستحضر الجزاء ترتدع ولا تفعل .

إذن : التهديد والوعيد لحكمة .

﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ (٢٨)﴾

بعد أن ذكر الحق سبحانه جزاءَ الكافرين فى النار أراد سبحانه أنْ يذكر المقابل ، وبضدِّها تتميز الأشياء ، أراد سبحانه أنْ يعقد لنا هذه المقارنة بين الكافرين والمؤمنين الذين استقاموا على منهج الحق ، وساروا على الصراط ، وسلِم الناسُ من أيديهم ومن ألسنتهم ، وأشاعوا الأمن وأشاعوا المحبة ، كيف إذن نسوِّيهم بالكافرين المفسدين ؟

وفى هذا إشارة من الحق سبحانه كأنه يقول لنا : إياكم أنْ تُسووا بين هؤلاء وهؤلاء ، إياكم أنْ تأخذكم بالمفسدين الظالمين رحمةٌ ؛ لأنكم إنْ رأفتم بهم فقد سَوَّيتُم بينهم وبين المؤمنين .

لذلك كنا نردُّ على الشيوعيين ونقول لهم : نعم لقد انتقمتم من خصومكم الرأسماليين والإقطاعيين ، وفعلتم بهم الأفاعيل ، لكن ما بال الذين ماتوا منهم قبل أنْ تدركوهم وتنتقموا منهم ؟ لا شكَّ أنهم ظلموا ثم ذهبوا دون أنْ يُعاقبُوا .

إذن : كان لا بُدَّ أنْ تعترفوا بيوم آخر يُقتصّ فيه من هؤلاء الذين لم يُقتص منهم فى الدنيا ، وإلاَّ سوَّيْنَا بين المحسن والمسىء .

وقال : ﴿ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ .. (٢٨) ﴾ [ص] لأن الله تعالى خلق الأرضَ على هيئة الصلاح ، فإنْ لم تُزدْها صلاحاً يريح الناس ويسعدهم ، فلا أقلَّ من أنْ تُبقى عليها كما هى لا تفسدها ، وأوجه الإصلاح فى الكون كثيرة ، ومثَّلْنا لذلك ببئر الماء ، إما أنْ تتركه على حال يستفيد منه الناسُ كما هو ، وإما أنْ تزيده حسناً ، كأن تبنى حولَه سوراً يحميه ، أو تجعل عليه آلة لرفع الماء .. الخ .

أما أنْ نلقى فيه بالقاذورات فهذا هو الفساد .

وقلنا : لو دخلت بستاناً أُنُفاً أى : لم يدخلْه أحد قبلك تجده على طبيعته ، لا ترى فيه شجرة كُسرت ، ولا تشُم فيه رائحة كريهة ، رغم أن فيه حشرات وحيوانات وفضلات .. إلخ لكن إنْ دخلها الإنسان ظهر فيها الخَلَل والفساد ، لماذا ؟

لأنه لا يبقى على الصلاح الذى خلق اللهُ الطبيعة عليه ؛ لأنه دخلها بغير منهج الله ، ولو دخل بمنهج الله لاستقامتْ الأمور .

ثم يؤكد الحق سبحانه هذا المعنى فيقول : ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ (٢٨) ﴾ [ص] الفاجر هو الفاسق الذى يفسق عن القانون الذى يحميه ويحمى المجتمع كما تفسق الرطبة من قشرتها ، والحق

سبحانه قبل أنْ يحمى المجتمع من الفاسق حَمَى الفاسق من المجتمع ، والفاسق واحد ، والمجتمع كثير .

إذن : فالفرد هو المستفيد من منهج الحق وهو الرابح .

وأيضاً ، الإنسان حين تمرّ المسألة بخاصة نفسه يلتفت إلى الحق قَصْراً عنه ، لأنه لن يجد حمايةً إلا فى الحق ، وسبق أنْ ضربنا مثلاً لطلاب الجامعة قلنا : هَبْ أن ثلاثةً من الشباب فى دور المراهقة اثنان منهم ساروا - كما نقول - على حَلِّ شعرهم . والآخر استقام على المنهج حتى أنهما كانا يسْخران منه ، ويقولان عنه : فلان هذا صللى فلان جردل .. قفل .. إلخ ما نسمع من هذه الكلمات .

وصادف أنْ كان عند أحدهما أخت ، بالله لمن يُزوِّجها ؟ لصاحبه المنحلّ ؟ أم لصاحبه الملتزم المستقيم ؟ لا شكَّ أنه يفضل الثانى ، لأنه يأمنه ويطمئن إليه ، إذن : لا بُدَّ أنْ يظلَّ الحق حقاً ، والفضيلةُ فضيلة ، ولا يمكن أنْ يستوى التَّقِىُّ والفاجرُ .

ثم يخاطب الحق سبحانه نبيه ﷺ ليسليه ؛ لأن قصصَ القرآن جاء تسلية له ﷺ ، وتثبيتاً لفؤاده :

﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ ﴾

الكتاب هو القرآن ، والمبارك هو الشىء الذى يعطى من الفائدة والخير فوق ما يُتصوَّر منه ، تقول : هذا الشىء نأخذ منه ولا ينقص ، نسميه مبروك كرجل يعيش على راتب محدود ، ومع ذلك تراه يُربِّى أولاده أحسن تربية ويعيش بين الناس عيشة الأغنياء ، فيقولون : إنه

رجل مبارك ، وأن الله يبارك فى راتبه القليل فيصير كثيراً ، لكن كيف يبارك الله في القليل ؟

قالوا : ينزل على القليل ، القناعة أولاً فيرضى صاحبها ، ثم يسلب المصارف فلا ينفق منها إلاَّ فى المفيد ، الناس يظنون أنَّ الرزق هو المال ، ولا يدرون أن سَلْبَ المصارف لونٌ من ألوان الرزق ، وقلنا : إن الرزق رزقُ إيجابٍ بأنْ يزيد الدَّخْل ، ورزقُ سَلْب بأنْ تقلَّ المصارف .

ومثَّلْنا لذلك بالرجل يعيش من الحلال ، وحين يمرض ولده مثلاً يكفيه كوبٌ من الشاى وقرص أسبرين ، أما الذى يعيش من الحرام ويكثُر المال فى يده حين يمرض ولده لا بُدَّ أنْ يذهبَ به إلى أفضل الأطباء ، وينفق على شفائه أضعاف ما يُنفق الأول .

والقرآن مباركٌ ، وآياته مباركة من حيث الأحكام الظاهرية ، لأنه سيربى النفس على استقامة ، هذه الاستقامة لو نظرتَ إليها اقتصادياً تجد أنها لا تُكلِّفك شيئاً ، نعم الاستقامة لا تكلفك ، أمَّا الانحراف فهو الذى يُكلِّف ، لذلك قال ﷺ : « المؤمن يأكل فى معًى واحد ، والكافر يأكل فى سبعة أمعاء »[1] .

نعم الكافر يأكل كثيراً ليشبع ، أما المؤمن فتكفيه لُقيمات يُقمْنَ صُلْبه ، ثم هو لا يأكل إلا إذا جاع ، وإذا جاع صار أىُّ طعام بالنسبة له لذيذاً ، ولو كان الخبز الجاف والملح ، لذلك قال العربى

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٠٦٠) (١٨٤) كتاب الأشربة ، من حديث جابر وابن عمر رضى الله عنهما . قال النووى فى شرحه لمسلم : « فى الرواية الأخرى أنه ﷺ قال هذا بعد أن ضاف كافراً فشرب حلابَ سبع شياه ثم أسلم من الغد فشرب حلاب شاة ولم يستتم حلاب الثانية . ومقصود الحديث التقليل من الدنيا والحث على الزهد فيها والقناعة ».

الحكيم : طعام الجائع هنيء . أما الآن فنراهم يجهزون قبل الطعام السَّلَطات والمشَهِّيات والمقبِّلات ، لماذا ؟ ليأكل الإنسان كثيراً ، يأكل حتى التخمة ، ثم بعد ذلك يحتاج إلى المسهِّلات والمهضمات .. إلخ .

وهذا ليس من صفات المؤمن ؛ لأن سيدنا رسول الله وضع لنا المنهج فى ذلك ، فقال : « نحن قوم لا نأكل حتى نجوع ، وإذا أكلنا لا نشبع »[1] فهذا المنهج يراعى الناحية الاقتصادية ، ويوفر الخير والسعادة للكل : اقتصادياً ، واجتماعياً ، وسياسياً ، وأمنياً بدون تكلفة.

ثم إن القرآن مُبَاركٌ من ناحية أخرى ، فحين تتفاعل مع المنهج ، وحين تعشقه يُبيِّن لك الحق سبحانه ألواناً من الأسرار يتعجَّب منها غيرك ، ويفتح عليك فُتُوحات عجيبة ، ألم يتعجَّبْ موسى - عليه السلام - وهو نبىّ الله من عمل العبد الصالح ، والعبد الصالح عبد الله على منهج موسى ، ومع ذلك أمر الله موسى أنْ يتبعَ العبد الصالح ، وأن يتعلَّم منه ، لكن يتبعه بإخلاص وبعشق ، فلما اتبعه موسى بعشق وإخلاص تعلَّم منه الأعاجيب ، وهذا المعنى ورد فى قوله تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الأنفال]

الفرقان هنا ليس هو القرآن ، بل هو فرقانٌ خاصٌّ لمن يتبع الفرقان الأول وهو القرآن ، ويصل به إلى درجة التقوى ، يعطيه الحق سبحانه فرقاناً خاصاً لأنه اتبع القرآن بإخلاص وبعشق .

---

(١) أخرج أحمد فى مسنده (١٣٢/٤) والترمذى فى سننه (٢٣٨٠) من حديث المقدام بن معد يكرب عن رسول الله : « ما ملأ آدمى وعاء شراً من بطن ، بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه ، فإن كان ولا بُدَّ فاعلاً ، فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنفسه » .

ومعنى ﴿لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ .. (٢٩)﴾ [ص] والتدبُّر هو ألاَّ ننظر إلى الوسيلة نظرةً سطحية ، إنما ننظر بتفكُّر وتمعُّن وحساب للعاقبة ، ننظر إلى الخلفيات واللوازم لنستنبط ما فى الشىء من العِبَر ، لذلك لما خرقَ الخضْر السفينة اعترض موسى ؛ لأنه نظر إلى سطحية المسألة والمنطق . يقول : إن السفينة السليمة أفضل من المعيبة ، إنما للعبد الصالح مقياسٌ آخر ، فهو لا يقارن بين سفينة سليمة وأخرى مخروقة ، إنما يُقارن بين سفينة مخروقة ولا سفينة أصلاً أيهما أفضل ؟ لأن الرجل الظالم كان سيأخذ السفينة ، إنْ كانت سليمة فَخُرقها هو الذى نجَّاها من هذا الظالم ، وبقيتْ السفينةُ لأصحابها ، هذا هو علم الملكوتيات والغيبيات التى يفيض الله بها على مَنْ يشاء من عباده الذين أخلصوا له سبحانه .

وقوله : ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ (٢٩)﴾ [ص] أى : أصحاب العقول الواعية ، وتأمل هنا أن الحق سبحانه يُنبِّه العقول ، ويُحرِّك الفهم إلى تأمُّل آياته فى الكون ، والمقابل لك أو الذى بينك وبينه صفقة لا ينبهك إليها ، إلا لأنه واثق أنك ستُقبل عليها وإلا أخفاها ودلَّسَ عليك ، كالذى يبيع لك سلعة جيدة تراه يشرح لك مزاياها ، ويدعوك إلى اختبارها ، والتأكد من جودتها ويُنبِّه عقلك إلى ما خَفِى عنك منها .

أما صاحب السلعة الرديئة فإنه يصرف نظرك عن عيوبها ، ويشغل عقلك بأمور أخرى ، حتى لا تتنبه إلى عيوب السلعة ، فمثلاً تدخل المحل لشراء حذاء مثلاً ، فإنْ كان ضيقاً يقول لك البائع : إنه يتسع بالمشى فيه ، وإنْ كان واسعاً سبقك هو بقول : أنا أرى أنه ضيق عليك قليلاً ، المهم عنده أن (يلف) عقلك حتى تشتريه .

فالحق ـ سبحانه وتعالى ـ يدعونا إلى تأمُّل آياته وتدبُّرها

والبحث فيها ، لأنه سبحانه واثق أننا حين ننظر وحين نبحث ونتأمل سنقتنع بها ، وسنصل من خلالها إلى الحق والصواب . ومع ذلك نرى البعض يقف أمام بعض المسائل الدينية يقول : هذه مسألة فوق البحث ولا عملَ للعقل فيها ، ونقول : لكن أمرنا بالتدبُّر والتفكّر والتأمّل فى الكون ، فلا مانع أنْ نبحث .

ثم يعود بنا السياق القرآنى مرة أخرى إلى سيدنا داود ، لا ليقصَّ علينا قصته ، إنما لأنه سيكون أباً لنبى آخر ، هو سيدنا سليمان عليهما السلام :

﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ[1] ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَىَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ ﴾

من عجائب السياق القرآنى فى ذكر داود وسليمان أنهما يشتركان فى مسألة واحدة ، فلو نظرتَ إلى أول آية ذكرت سيدنا داود تجدها فى سورة البقرة فى قوله تعالى : ﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ .. ﴿٢٥١﴾ ﴾ [البقرة]

وآخر ذكر له هنا فى سورة (ص) : ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ .. ﴿٣٠﴾ ﴾ [ص]

كذلك أول ذكْر لسيدنا سليمان ورد فى سورة البقرة فى قوله تعالى : ﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ .. ﴿١٠٢﴾ ﴾ [البقرة]

---

(١) صفن الجواد : قام على ثلاث أرجل وثنى الرابعة . وقد يراد به مطلق القيام والاصطفاف .

وآخر ذكر له فى سورة (ص) فى قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ (٣٤)﴾ [ص]

قوله تعالى : ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ .. (٣٠)﴾ [ص] الوهْب : عطاءٌ بلا مقابل ، فإنْ قُلْتَ : فالإنجاب كله يُعَدُّ عطاءً بلا مقابل ، نعم لكن الخالق سبحانه يهبك ذاتاً ، ثم يزيد عليها هبة أخرى هى الصفات التى تتوفر للذات ، مثل : الملك والحكمة وغيرها ؛ لذلك الذين يطلبون الأشياء على غير مَظانِّها من الأسباب يطلبونها بالهبة ، كما فى قوله تعالى : ﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي .. (٣٥)﴾ [ص]

وقوله تعالى : ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا (٥) يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا (٦)﴾ [مريم]

فسيدنا زكريا حين طلب من الله الولد كان شيخاً كبيراً ، وكانت امرأته عاقراً ، فالأسباب كلها ليست مُواتية وليست صالحة للإنجاب ، لذلك طلبها على سبيل الهبة من الله ، لا بالقانون والأسباب . وإنْ كانت الأسبابُ فى ذاتها هبةً إلا أنها هبة عامة ، لكن ما يلحق الذات من الصفات الخاصة تُعَدُّ هبة خاصة .

وقوله تعالى : ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ .. (٣٠)﴾ [ص] نعرف أن نِعْم تُقَالُ للمدح ، والمدح هنا بالصفة العقدية ، وهى العبودية لله تعالى . وسبق أنْ قلنا : إن كلمة عبد وعبودية كلمة ممقوتة عند الناس ولهم الحق فى مَقْتها ، لأن العبودية للبشر يأخذ فيها السيدُ خَيْر عبده ، لكن العبودية لله تعالى يأخذ العبد من خير سيده ، فهذه هى العبودية الحقة التى تُعَدُّ عِزاً للعبد ورفعة .

لذلك لما تجلى الحق سبحانه على نبيه محمد ﷺ بنعمة الإسراء والمعراج ، قال : ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ .. (١)﴾ [الإسراء] فكأن

عبوديته لربه هى التى أوصلتْه إلى هذه المنزلة .

لذلك – ولله المثل الأعلى – الرجل صاحب الصنعة (أسطى) أو معلم وتحت يده صبيان ، يُقرِّب منهم المخلص الذى يُحسن صنعته ، ويجيد الخضوع له والطاعة والخدمة ، لذلك يختصه بمواهبه ، ولا يضنُّ عليه بخفايا الصَّنْعة ودقائقها ، ويعطيه خصوصيات لا يعطيها لغيره .

ومع أنه ـ عليه السلام ـ كان مَلَكاً إلا أن ربه مدحه بصفة العبودية ﴿ نعمَ الْعَبْدُ .. ﴿٣٠﴾ ﴾ [ص] ثم بيَّن لنا مَناط المدح بالعبودية ، فقال ﴿ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ ﴾ [ص] يعنى : رجَّاع إلى الله إنْ هفت نفسه هفوة أنَّبَ نفسه عليها ، ورجع إلى ربه ، ويتوب إليه ، لذلك يقول تعالى فى بيان التوبة : ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ .. ﴿١٧﴾ ﴾ [النساء]

معنى ﴿ بِجَهَالَةٍ .. ﴿١٧﴾ ﴾ [النساء] يعنى : لم يخطط لها ولم يرتب للمعصية ، وإذا حدثتْ منه لا يفرح بها ولا يجاهر ، بل يحزن ويلوم نفسه ﴿ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾ ﴾ [النساء]

وضربنا مثلاً لهذين النوعين بطلاب العلم الذين كانوا يسافرون فى بعثات علمية إلى فرنسا ، فكان منهم المستقيم الملتزم بمنهج الله، لكن تفاجئه إحدى الفتيات المنحرفات ليلاً ، وتعرض نفسها عليه ، وتظل تغريه حتى يرتكبَ معها الفاحشة ، هذا فعلها بجهالة ودون قَصْد أو تدبير ، على خلاف الآخر الذى يسعى إلى الفاحشة ويتتبع عناوين أصحابها ، وهذا هو الذى يقصد المعصية ويسعى إليها .

وكلمة ﴿ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ ﴾ [ص] يعنى : كثير الأَوْبة والرجوع ، فهى

صيغة مبالغة بمعنى رجَّاع إلى الحق ، فهو لم يفرح بالمعصية ، وإنما ندم عليها وتدارك خطأه وصوَّب طريقه ، بدليل قوله تعالى بعدها : ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ (٣١)﴾ [ص]

العشيّ : ما بعد الظهر إلى المغرب ، وعرض عليه مثل العرض العسكرى الذى يستعرض فيه القائد جنوده وقواته . ومعنى ﴿الصَّافِنَاتُ .. (٣١)﴾ [ص] جمع صَافِن ، وهو الجَواد العريق الأصيل ، وتستطيع أنْ تلاحظ الجواد الأصيل من وقفته ، فهو لا يقف على أربع ، إنما على ثلاث فى رشاقة ، وكأنه على أُهْبة الاستعداد .

ومعنى ﴿الْجِيَادُ (٣١)﴾ جمع : جَوَاد وهو القوى السريع ، فلما عُرِضَتْ على سيدنا سليمان الصافناتُ الجيادُ من خَيْله وقواته ، قال ﴿إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ (٣٢)﴾ [ص] قالوا : الخير هنا يُرَاد به الخيل ؛ لأن النبى ﷺ قال : « الخيل مَعْقُود بنواصيها الخيرُ إلى يوم القيامة »[١] .

وقال : « خَيْر ما ربيت فرس تُمسك عِنَانه ، حتى تسمع كل صيحة تطير إليها »[٢] .

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه مسلم فى صحيحه (٩٨٧) كتاب الزكاة (رواية ٢٦) أن رسول الله قال : « الخيل فى نواصيها – أو قال : الخيل معقود فى نواصيها – الخير إلى يوم القيامة » من حديث أبى هريرة . وأخرجه البخارى فى صحيحه (٢٨٥٠) من حديث عروة بن الجعد .

(٢) عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ قال : « من خير معاش الناس لهم ، رجل ممسك عناق فرسه فى سبيل الله ، يطير على متنه ، كلما سمع هيعة أو فزعة طار عليه ، يبتغى القتل والموت مظانَّهُ ، أو رجل فى غنيمة فى رأس شعفة من هذه الشعف ، أو بطن واد من هذه الأودية ، يقيم الصلاة ويؤتى الزكاة ، ويعبد ربه حتى يأتيه اليقين ، ليس من الناس إلا فى خير » . أخرجه مسلم فى صحيحه (١٨٨٩) كتاب الإمارة – باب فضل الجهاد والرباط (١٢٥) ، وكذا ابن ماجه فى سننه (٣٩٧٧) كتاب الفتن – باب العزلة بنحوه .

لذلك لما أمرنا ربنا أنْ نستعدَّ لأعداء الدين والمنهج ، قال : ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ .. (٦٠)﴾ [الأنفال] أى : قوة عامة . ثم خَصَّ الخيل ، فقال : ﴿وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ .. (٦٠)﴾ [الأنفال]

فلما عُرِضَتْ الخيل على سليمان قال ﴿إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي .. (٣٢)﴾ [ص] يعنى : حباً ليس للتباهى والخيلاء ، كالذين يُربُّون الخيل للمظهر ودخول السباق وذياع الصيت ، إنما أحببتها حباً صادراً عن ذِكْر ربى وذكر منهج ربى ، الذى أمر بإعداد الخيل والرباط والقوة التى تستطيع أنْ تفرض منهج الله فى الأرض .

﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ (٣٢)﴾ [ص] الفاعل هنا مستتر ، والفاعل حين يأتى مستتراً لابد أنْ يكون له مرجع كما تقول : جاءنى رجل فأكرمتهُ يعنى : أكرمتُ الرجل المذكور .

وقوله : ﴿تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ (٣٢)﴾ [ص] مشهود فى الشمس حين تغيب ، فالمعنى حتى توارت الشمس وغابت .

وقالوا[1] : إنه فاتته صلاة العشى لانشغاله باستعراض الخيل ، فلما فاتَتْه الصلاة ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ .. (٣٣)﴾ أى : الخيل ، أرجعوها إلىَّ ﴿فَطَفِقَ .. (٣٣)﴾ شرع ﴿مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ (٣٣)﴾ [ص]

---

(١) قاله الحسن البصرى والكلبى ومقاتل ، وقال القشيرى : قيل ما كان فى ذلك الوقت صلاة الظهر ولا صلاة العصر ، بل كانت تلك الصلاة نافلة فشغل عنها . [ذكره القرطبى فى تفسيره ٥٨٣٧/٨] وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر عن على رضى الله عنه قال : الصلاة التى فرَّط فيها سليمان عليه السلام صلاة العصر . [ذكره السيوطى فى الدر المنثور ١٧٧/٧] .

يعنى : يمسح على سُوق الخيل وأعناقها دلالةً على إكرامها والاهتمام بها ، وخصَّ السُّوق والأعناق من الخيل لأنها أكرمُ ما فيها ، فالأعناق بها الأعراف ، والسُّوق أداة الحَمْل والجرى ، والمعنى أنه سُرَّ منها فمسح بيده على السُّوق والأعناق .

بعض المفسرين[1] لهم رأى آخر ، قالوا : المسح هنا يُراد به أنه أراد قَتْلها وذبْحها ؛ لأنها أَلْهَتْهُ عن الصلاة ، وهذا الكلام أقربُ إلى الإسرائيليات ؛ لأن الخيل لم تشغله ، بل هو الذى شغلها وشغل الدنيا كلها من حوله ، فما ذنب الخيل ؟

والعجيب أن فى الإسرائيليات أشياء كثيرة تقدح فى نبوة الأنبياء فى بنى إسرائيل ، وكثيراً ما نراهم يتهمون أنبياءهم بما لا يليق أبداً بالأنبياء ، والعلة فى ذلك أن الذى يسرف على نفسه وهو تابع لدين يريد أنْ يلتمس فيمن جاءه بهذا الدين شيئاً من النقيصة ليبرر إسرافه هو على نفسه ، من هنا اتهموا أنبياءهم وخاضوا فى أعراضهم .

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا[2] ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ ﴾

---

(١) فى هذا الأمر قولان :

- جعل يمسح أعراف الخيل وعراقيبها . قاله ابن عباس . أخرجه ابن جرير الطبرى وابن المنذر وابن أبى حاتم .
- قطع سوقها وأعناقها بالسيف . قاله أُبىّ بن كعب . أخرجه الطبرانى فى الأوسط والإسماعيلى فى معجمه وابن مردويه بسند حسن .

وفى المسألة تفصيل ، انظر تفسير ابن كثير (٤/٣٤) ، والقرطبى (٨/٥٨٣٧ - ٥٨٤٠) .

(٢) أكثر المفسرين على أن هذا الجسد هو شيطان ألقى الله شبه سليمان عليه واسمه صخر بن حرب صاحب البحر . قال ابن عباس : كان مارداً لا يقوى عليه جميع الشياطين ، ولم يزل يحتال حتى ظفر بخاتم سليمان . قاله القرطبى فى تفسيره (٨/٥٨٤١) . وراجع مناقشته لباقى الأقوال (٨/٥٨٤١ - ٥٨٤٥) . وقد ذكر ابن كثير فى تفسيره (٤/٣٤) أن القائلين بهذا القول ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير والحسن وقتادة وغيرهم . وقد روى فى هذه القصة روايات كثيرة مطولة ، قال ابن كثير : « أرى هذه كلها من الإسرائيليات » .

الفتنة معناها الاختبار ، والفتنة فى ذاتها ليست مكروهة ، إنما المكروه أنْ تُخفق فيها وتفشل فى خوضها ، فماذا عليك لو فتناك . يعنى : اختبرناك ونجحتَ فى الاختبار ؟ وأصل الفتنة من فتنة الذهب لتنقيته ، فالذهب منه المخلوط بمواد أخرى ، ونريده ذهباً إبريزاً صافياً فماذا نفعل ؟ نصهر الذهب فى النار ليخرج منه الخبث إلى أن يصير خالصاً نقياً ، كذلك تفعل الفتنة بالناس تمحِّصهم لتبين الجيد من الردىء . وقد فتن الله سليمان كما فتن من قَبْل أباه داود - عليهما السلام - فى مسألة المحراب .

ومعنى : ﴿ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا .. (٣٤) ﴾ [ص] الكرسى هو العرش الذى يجلس عليه الملك ، والجسد هو قالب الكائن الحى . ويقال لهذا القالب (جسد) إذا كان خالياً من الروح ، وللمفسرين فى هذه الآية عدة أقوال :

قالوا : إن سيدنا داود كان له ولد آخر غير سليمان ، إلا أنه كان ولداً فاسداً مثل ولد نوح ، فاحتال هذا الولدُ وقام بانقلاب على سليمان ، حتى أخذ المُلْكَ منه ، وظل مَلِكاً مدة طويلة ، فلما أراد الحق سبحانه أنْ يعيد سليمان إلى مُلْكه ألقى هذا الولد الفَاسد على كرسى عرشه جسداً هامداً لا حركة فيه ، يعنى : بعد أنْ كانَ مَلِكاً مُطاعاً مُسيطراً صار لا يسيطر حتى على نفسه وجوارحه . بَعد ذلك خرجتْ عليه رعيته فقتلوه ، وجاء بعده سليمان .

وقالوا : إن سيدنا سليمان كان لديه جَوَارٍ كثيرات . فقال : سأطوف الليلة على سبعين جارية ، وآت من كل واحدة بولد فارس

يركب فرسه فى سبيل الله[١] ، يعنى : المسألة كلها كانت فى الخير وفى الله ، إلا أنه لم يقدم المشيئة ولم يقُلْ : إنْ شاء الله ، فلم تَلِدْ منهن إلا جارية واحدة ، ولدتْ له جسداً لا حركةَ فيه ولا تصرُّفَ ؛ لأن المؤمن مُطالب بأنْ يقدم مشيئة الله إذا عزم على شىء فى المستقبل ، كما قال سبحانه : ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا (٢٣) إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ .. (٢٤)﴾ [الكهف]

لأنك حين تقول : سأفعل غداً كذا وكذا ، فقد حكمتَ على فعل لا تملك عنصراً واحداً من عناصره ، فأنت لا تضمن بقاء نفسك إلى أنْ تفعل ، ولا تضمن تغيُّر الأحوال وتغيُّر الأسباب ، فحين تعلِّق فعلَك على مشيئة الله إنما تحفظ كرامتك وتبرىء نفسك من الكذب ، فقد شئتَ ولكن الله لم يَشَأْ .

ويبدو أن المُلْكَ أغرى سليمان ، فداخله شىء من الزَّهْو ؛ لأنه متحكم فى عوالم الإنس والجن والطير والحيوان ومُطَاع من الكون كله من حوله ، لذلك لم يقُلْ إنْ شاء الله ، فجازاه الله بذلك .

وقال آخرون[٢] : إن سليمان ـ عليه السلام ـ أنجب ولداً ، وأن

---

(١) ذكره السيوطى فى الدر المنثور (١٨٢/٧) ، قال : قال ابن سعد : أخبرنا الواقدى حدثنا معشر عن المقبرى : إن سليمان بن داود قال : لأطوفن الليلة بمائة امرأة من نسائى ، فتأتى كل امرأة منهن بفارس يجاهد فى سبيل الله ولم يَسْتَثْن ولو استثنى لكان ، فطاف على مائة امرأة فلم تحمل إلا امرأة واحدة ، حملت بشق إنسان .

(٢) ذكر القرطبى هذا القول فى تفسيره (٥٨٤٣/٨) وعزاه للشعبى ، ومحصله أنه لما وُلد ولدٌ لسليمان اجتمعت الشياطين وقالوا : إنْ عاش له ابن لم ننفك مما نحن فيه من البلاء والسخرة ، فتعالوا نقتل ولده أو نخبله . فعلم سليمان بذلك فأمر الريح حتى حملته إلى السحاب ، وغدا ابنه فى السحاب خوفاً من سخرة الشياطين ، فعاقبه الله بخوفه من الشياطين ، فلم يشعر إلا وقد وقع على كرسيه ميتاً .

الجن أرادتْ به سوءاً ؛ لأنها خافت أنْ يفعل بها كما يفعل سليمان ، فأرادوا قتله ، فما كان من سليمان إلا أنْ رفعه فوق السحاب يرضع من المزْن ، فكأنه ـ عليه السلام ـ أراد أنْ يفر من قدر الله .

وقالوا[1] : إن الجسد هو سليمان نفسه ؛ لأن الإنسان العادى ، جعله الله يتحكَّم فى جوارح نفسه حين يريد اللهُ ذلك ، فيقوم بمجرد أنْ يريد القيام ، ويتحرك بمجرد أنْ يريدَ الحركةَ دون أنْ يعرفَ هو نفسه ماذا يجرى فى أعضائه ومفاصله ، فكأن الله تعالى يعطى الإنسان مثلاً فى نفسه ؛ ليقرب له المسائل المتعلقة بالحق فى إطار ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ .. (١١)﴾ [الشورى]

فإذا كنتَ أنت أيها المخلوق تفعل ما تشاء ، وتنفعل لك جوارحك وتطاوعك بمجرد الإرادة ، ودون أنْ تأمرها بشىء فهل تستبعد هذا فى حقِّ الخالق سبحانه ، حين يقول : ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٨٢)﴾ [يس]

إن الحق سبحانه يقول للشىء : كُنْ . أما أنت فلا تقول : كُنْ وقد أراحك الله منها ، وجعل الأعضاء تطاوعك دون أمر منك ، لأنك لو أمرتَها ما استجابتْ لك ، هى تستجيب للخالق سبحانه ، فإذا أراد الخالق سبحانه سلْبك هذه القدرة ، فتريد أنْ تحرك يدك فلا تستطيع؛ لينبهك إلى أنها موهوبة لك ، ليستْ ذاتية فيك .

الحق سبحانه وهب سيدنا سليمان القدرةَ على السيطرة على جوارح ذاته ، ثم عَدَّى هذه القدرة إلى السيطرة على الآخرين من جنسه ومن غير جنسه ، وجعل له سيطرةً على الكون كله ، ينفعل له

---

(١) ذكر هذا القول القرطبى فى تفسيره (٨/ ٥٨٤٤) ولم يعزه لقائل : « قيل : إن الجسد كان سليمان نفسه ، وذلك أنه مرض مرضاً شديداً حتى صار جسداً . وقد يُوصف به المريض المضنى . فيقال : كالجسد الملقى » .

ويجاوبه ، يعنى : المسألةُ كانت استعلاءً فى التسلُّط والسيطرة على جنود الله .

ويبدو أن سليمان ـ عليه السلام ـ داخله شىء فى نفسه ، فأراد الحق سبحانه أنْ يلفته إلى أن هذه القدرة ليستْ ذاتية فيك ، إنما هى موهوبة لك ، أسلبها حين أشاء ، فلا تستطيع السيطرة على جوارحك ولا السيطرة على الآخرين ، وألقاه الله فترة جسداً على كرسيه لا يقدر على شىء ، ولا يأمر بشىء .

فما دامتْ هذه النعمة موهوبةً من الله الذى أعطاك مُلْكاً لا ينبغى لأحد من بعدك ، فلا بُدَّ أنْ تظل مُتمسِّكاً بحبله ، لاجئاً دائماً إلى مَنْ ملَّكَكَ هذا الملْكَ .

لذلك ، يُرْوَى أنه ـ عليه السلام ـ ركب مرة البساط ، وسارتْ به الريح كما يشاء ، وفجأة مال به البساط ، وكاد أنْ يُوقعه فأمره أنْ يستوى به . فقال له البساط : أُمِرْنَا أنْ نطيعك ما أطعْتَ الله .

إذن : فتناه لأننا ملَّكناه مُلْكاً لا ينبغى لأحد من بعده ، لكن لا نريد له أنْ يطغى أو يتعالى ، والحق سبحانه لا يكذب كلامه ، وقد قال سبحانه : ﴿ كَلَّآ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰٓ ۝٧ ﴾ [العلق]

وسليمان ـ عليه السلام ـ إنسان ، فأراد الحق سبحانه أنْ يُثبت لنا أن الإنسان تملّك فى جوارحه ، وتملَّك فيمن حوله ، وتملَّك فى جنس آخر غير جنسه ، لكن هذا كله ليس ذاتياً فيه ، بل هو موهوب له ؛ بدليل أن الله سلبه هذا المُلْك فى لحظة ما ، وألقاه على كُرسيه جسداً لا أمرَ له ولا نهىَ ولا سلطانَ على شىء .

فلما فهم سليمان المسألة آبَ ورجع ﴿ ثُمَّ أَنَابَ ۝٣٤ ﴾[ص] يعنى :

رجع إلى ما كان عليه قبل التجربة التى مَرَّ بها .

يعنى : رجع وعاد إلى الجسد الذى فيه روح ، أو أناب ورجع إلى الله وعرف السبب فالمعنى يحتمل المعنيين : أناب فى السبب ، أو أناب فى المسبب . والجسد هو الجِرْم والهيكل الظاهرى الذى لا روحَ فيه ، والذى قال الله عنه ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ .. (٢٩)﴾ [الحجر] أى : الجسد ، ومنه قوله تعالى فى قصة السامرى : ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ .. (٨٨)﴾ [طه] يعنى : هيكل العجل وصورته الظاهرية ، لكن بدون روح .

فإنْ قُلْتَ : فهل يحدث هذا من الرسل ؟ يعنى : هل يخطىء الرسول ويُصحِّح له ؟ نعم ، العيب أنْ يصحح لك المساوى لك ، إنما ليس عيباً أنْ يصحح لك الأعلى ، فماذا فيها إنْ كان الذى يُصحِّح لسليمان ربه عز وجل لا أنت . إذن : من الشرف أنَّ الله يُعدِّل لسليمان ، لذلك لما عَدَّلَ الحق سبحانه الحكم لنبيه محمد ، فقال : ﴿يَـٰأَيُّهَا النَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ .. (١)﴾ [التحريم]

وقال : ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ (١) أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ (٢)﴾ [عبس] فهل استنكف رسول الله أنْ يُعدِّل له ربه ؟ لا لم يستنكف بدليل أنه ﷺ هو الذى أبلغ هذا التعديل وأخبرنا به ، وأنا لا أخبر إلا بما فيه شَرَفٌ لى .

﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ (٣٥)﴾

هذه الآية تعطينا لقطةً من لقطات قصة سيدنا سليمان على نبينا وعليه الصلاة والسلام ، ولسيدنا سليمان فى قَصَصه لقطات متعددة ، كل

لقطة تمثل عبرةً من العبر ، وعظةً من العظات ، وموقفاً من مواقف سيدنا سليمان فى أمر دعوته . وأول لقطة فى القصة مع أبيه داود - عليه السلام - حينما حكم فى الحرث أى : الزرع ، وكان الزرع لرجل فجاءت غنم رجل آخر فأكلت الزرع ، وقد حكى لنا الحق سبحانه قصة الحكم الذى حكمه داود ، والأمر الذى انتهى إليه الحكم من استدراك على حكم داود من كلام ولده سليمان .

وصوَّبَ الله الحكمين ، وقال سبحانه : ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ (٧٨) فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا .. (٧٩)﴾ [الأنبياء]

معنى ﴿نَفَشَتْ فِيهِ .. (٧٨)﴾ [الأنبياء] يعنى : انتشرت فيه الغنم وأكلته ، فلمَّا عُرِض الأمر على داود قضى بأنْ يأخذَ صاحبُ الزرع الغنَم .

فلما علم سليمان بهذا الحكم ردَّه . وقال : بل تعطى الأرض لصاحب الغنم ليزرعها حتى تعود كما كانت ، ونعطى الغنم لصاحب الأرض يستفيد منها ، ثم يعود كل حَقٍّ إلى صاحبه ، فكأن الله تعالى ألهم سليمان صحة الحكم ليستدرك على أبيه داود ، فانظر كيف كانت قداسة كلمة السماء مع كلمة أهل الأرض ، وبعد ذلك صوَّب الله تعالى الحكمين ، وقال ﴿وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا .. (٧٩)﴾ [الأنبياء]

إذن : فاستدراك هيئة تحكم على هيئة حكمت ليس عيباً فى الأولى ، وإنما هذا فهم فَهْماً حكم بمقتضاه ، وذاك فَهم فَهْماً آخر حكم بمقتضاه ، لذلك نجد فى المحاكم الحكم الابتدائى والاستئنافى ، وبعد ذلك حكم النقض ، فهل حكم الاستئناف يطعن فى الحكم الابتدائى ، أو حكم النقض يطعن فى حكم الاستئناف ؟ لا ، لأن

الحكم الأعلى يراعى شيئاً فاتَ صاحب الحكم الأدنى ، فلا غضاضةَ فى هذا .

ونحن حين نستعرض القصة نجد المفسرين لم يُظهروا لنا حجة داود فى الحكم الذى قضى به ، ولا حجة سليمان فى الحكم الذى قضى به ، وبالاستقراء . قلنا : الزرع قديماً لم يكُنْ فى أرض محكرة مملوكة للناس ، إنما كانت الأرض على المشاع ، ففى أى مكان تبذر الحب وتسقيه السماء حتى يثمر فتأخذ ثمره دون أنْ تمتلك أرضه ، يعنى : من سبق إلى أىِّ حقل زرعه .

إذن : الملكية كانت للزرع فحسب لا للأرض ، فعلى هذا قام حكم سيدنا داود ، وما دامت الأرض ليست مملوكة لصاحب الزرع فالمسألة زرع وغنم . أما سيدنا سليمان فرأى أن الزرع يمثل كما نقول وَضْع يد على الأرض ، ووَضْع اليد يبيح الملكية ، فأبقى لصاحب الملك ملكه فى الأرض ، فحكم بأنْ يأخذ صاحبُ الأرض الغنم ينتفع بها وأن يأخذ صاحب الغنم الأرض يزرعها إلى أنْ تعود كما كانت ، ثم يأخذ كل منهما ماله .

إذن : كان لكل منهما مَلْحظ ، وبناءً عليه حكم لذلك ؛ فقال تعالى فى حقهما : ﴿ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا .. (٧٩) ﴾ [الأنبياء]

اللقطة الأخرى هى الفتنة التى وقعتْ لسيدنا سليمان ، وقلنا : إن الأصل فى كلمة الفتنة هى صَهْر المعدن وإحراقه فى النار ليخرج منه الخَبَث والشوائب ، فيصير نقياً وتزداد صلابته ، ثم أُطلقَتْ الفتنة على مطلق الامتحان الذى يُميِّز الجيد من الردىء فى البشر ، فهى بمعنى الابتلاء .

ولو نظرتَ إلى الفتنة لوجدتها شائعة فى خَلْق الله جميعاً ، فكل واحد من الخَلْق فاتن ومفتون ، بمعنى أن الغنى فتنة للفقير ، والفقير

فتنة وابتلاء للغنى ، فالغنى يُبتلَى بالفقير ، أيضنّ عليه بالنعمة أم يعطيه منها ؟ أيحتقره لفقره أم يحترم قدر الله فيه ؟

كذلك يبتلى الفقير بالغنى ، أيحسده لغناه ويعترض على قدر الله بالفقر ؟ أم يصبر ويتمنى الزيادة لغيره . كذلك الحال فى القوى والضعيف ، وفى الصحيح والسقيم ، وفى الجاهل والمتعلم .. إلخ ، إذن : كلٌّ منَّا فاتنٌ ومفتون ، المهم مَنْ يفوز ، ومن ينجح فى هذا الابتلاء ؟

وهذا المعنى أوضحه الحق سبحانه فى قوله تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً .. (٢٠)﴾ [الفرقان] قالوا : كلمة بعض هنا ليستْ تحديداً لشخص بعينه ، إنما هى جزء من كل متساو ، لكن مُبْهَم فيه ، كما فى قوله تعالى : ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ... (٣٢)﴾ [الزخرف]

فأيُّنا مرفوع وأيُّنا مرفوع عليه ؟ قالوا : كل منَّا مرفوع فى شىء ومرفوع عليه فى شىء آخر ، فالناس كلهم إذن سواء ، أنت لك مجال تجيده وتبدع فيه ، فأنت مرفوع فى هذا المجال ، ولك مجال آخر لا تجيده ولا تعرف فيه شيئاً ، فغيرك مرفوع عليك فيه ، لأنه يُجيد ما لا تجيده أنت .

وهذه المسألة تأتى من استطراق المواهب فى الخَلْق ، لأنهم جميعاً عباد الله ، وليس منهم مَنْ هو ابن الله ، ولا مَنْ بينه وبين الله قرابة أو نسب ، لذلك نثر الحق سبحانه فضله على عباده جميعاً ، ووزّع بينهم المواهب بالتساوى ؛ لأن الله تعالى لو جعل إنساناً مجمعَ خير وفضائل ما احتاجَ أحدٌ إلى أحد .

والله يريد للعباد أن تتشابك أيديهم ، وأنْ يتعاونوا فى حركة

الحياة ، فالقوى يحتاج للضعيف ، والضعيف يحتاج للقوى ، العَالم يحتاج للجاهل ، والجاهل يحتاج للمتعلم . وهكذا يرتبط الناس ارتباطَ حاجةٍ ، لا ارتباطَ تفضُّل .

وسبق أنْ أوضحنا هذه المسألة بالباشا أو العظيم الذى يعود من عمله ، فيجد مجارى البيت مسدودة ، ويشم فى بيته رائحة كريهة ، فيسرع إلى عامل المجارى لينقذ الموقف ، وربما ركب سيارته وذهب إليه فى مكان عمله ، بل وترجاه أنْ يأتى معه ، فالعامل فى هذه الحالة مرفوع ، والباشا مرفوع عليه .

وأذكر زمان عندنا فى ميت غمر فى (بورصة) مقهى اسمها (باباه) ، العمال هناك عملوا ثورة وقالوا : لا يصح أن العامل يخدم غيره ، ولا يصح أنْ يمسح أحذية الخَلْق ، لماذا يا ناس ؟ قالوا : لأن فى ذلك مهانةً ومَذَّلةً فقلنا لهم : إذن نمسح نحن لأنفسنا ، وفعلاً عملنا إضراباً واشترى كل منا علبة ورنيش ، وصار يمسح الحذاء لنفسه ، وبعد فترة جاء هؤلاء إلى البورصة وضَجُّوا من البطالة وقِلَّة الرزق ، وراحوا يرجُونَ الناس العودة إلى ما كانوا عليه .

بعدها ناقشناهم . وقال بعض الإخوان لأحدهم : بالله أنت حين تسألنى سؤالاً وأجيبك عليه : هل آخذ منك جُعْلاً على الإجابة ؟ قال : لا ، قال : لو عرفت كم كلفنى هذا الجواب من عمرى وجدِّى واجتهادى ، ومن تعب أهلى فى تربيتى لعرفت أننى كنتُ أيامها مُسخّراً لك كما أنك مُسخَّر لى الآن ، لكنكم نظرتُمْ لنا فى وقت راحتنا ، ونظرتم إلى أنفسكم وقت عملكم ، إذن : القسمة متساوية وكُلٌّ منا مُسخَّر للآخر ، والمسألة ليس فيها إهانة ولا مَذَّلة ، بل هو التكامل فى حركة الحياة .

لذلك قال الحق سبحانه بعدها : ﴿أَتَصْبِرُونَ.. (٢٠)﴾ [الفرقان]

يعنى : أتصبرون على فتنة بعضكم ببعض ، حتى الرسل فُتنوا بالكفار يؤذونهم ويضطهدونهم ، وفُتن الكفار بالرسل .

إذن : من النعم أن الله تعالى وزَّعَ المواهب فى الكون كله ، ووزَّع فضله على الخَلْق ﴿فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ .. (٧١)﴾ [النحل]

نعود إلى سيدنا سليمان ونقول : ما يدرينا أن الملْك والنبوة معاً أغرت سليمان ، فوجد فى نفسه شيئاً من ذلك ، فأراد الله أنْ يُصحح له خواطره فى نفسه ، لأنه يريده لمهمة أعلى مما هو فيه الآن ؛ لذلك مَرَّ بهذه التجربة ، ووجد نفسه على كرسيه جسداً لا يستطيع الحركة .

لذلك سيدنا رسول الله ﷺ كان دائماً مُؤدَّباً مع ربه ومع الخَلْق ، فقد قال ﷺ : « اللهم إنى أستغفرك من كل عمل أردتُ به وجهك فخالطنى فيه ما ليس لك »[1] .

معنى هذا أن الأنبياء يمكن أنْ يخالطهم شىء ، وأنهم يمكن أنْ يُبْتَلُوا ، لكن ممن يكون الابتلاء من الله الذى أرسلهم ، والابتلاء يكون تصحيحاً لمسار المبتلَى ، وليس كرهاً له لا سمحَ الله . كذلك ابتلى اللهُ سيدنا سليمان ، لأنه يعده لأمر أسمى من هذا ، هو ملْك فى ظاهر الملك ، إنما ربه يريد أن يُعدَّه ليعطيه شيئاً من الملكوت .

لما عاد سليمان ـ عليه السلام ـ وأناب إلى ربه ، قال ﴿رَبِّ اغْفِرْ

---

(١) ذكره ابن رجب الحنبلى فى كتابه « جوامع العلوم والحكم » (ص ٢٧) من دعاء مطرف ابن عبد الله أنه كان يقول : اللهم إنى أستغفرك مما تبت إليك منه ، ثم عدت فيه وأستغفرك مما جعلته لك على نفسى ، ثم لم أفِ لك به ، وأستغفرك مما زعمت أنى أردت به وجهك فخالط قلبى منه ما قد علمت .

لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لاَّ يَنبَغِي لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ [ص]
يعنى : استغفر ربه مما وقع فيه من الغرور . يعنى : ربِّ اغفر لى ما سبَّب أن تجعلنى جسداً . وكأنه قال : يا رب ، لقد ابتليتنى بالملك والنبوة ، وهذه مسألة لم تحدث لأحد من قبلى فاغتررت بها ، فهَبْ لى مُلْكاً أعظم منه لا ينبغى لأحد من بعدى وسوف أوفى هذه المرة ولن أغتر ، وكأنه يقول لربه : يا ربِّ جربنى وأعطنى فرصة أخرى ، فلما دعا سليمان هذا الدعاء أجابه ربه وأعطاه ما طلب .

لذلك احترم سيدنا رسول الله ﷺ دعوة أخيه سليمان ، فقد ورد فى الحديث الشريف أن الشيطان عَرض لرسول الله وهو يصلى ليشغله عن صلاة ، فأمسك به رسول الله وهَمَّ أنْ يربطه فى سارية المسجد يلهو به صبيان المدينة ، لكنه ﷺ تذكّر دعاء أخيه سليمان ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لاَّ يَنبَغِي لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي.. ﴿٣٥﴾ [ص] فلم يفعل تقديراً لسليمان عليه السلام[1] .

ومعنى ﴿الْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ [ص] صيغة مبالغة ، تدل على كثرة الوهب وقلنا : الهبة عطاء بلا مقابل ، والمعنى أن منْ ضمن ما تهبه يا رب الملك ، وهذا يعنى أن الملْك لا يناله أحد بمجهوده ومهارته ، إنما هو هبة من الله ، فالله هو الذى يهَبُ الملْك ووهبه حتى للكافر الذى حَاجّ إبراهيم فى ربه ، كما قال سبحانه : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٥٤١) كتاب المساجد (باب ٨ حديث ٣٩) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « إن عفريتاً من الجن جعل يفتك علىَّ البارحة ليقطع علىَّ الصلاة ، وإن الله أمكننى منه فذعته ، فلقد هممت أن أربطه إلى جنب سارية من سوارى المسجد ، حتى تصبحوا تنظرون إليه أجمعون ثم ذكرت قول أخى سليمان : رب اغفر لى وهَبْ لى ملكاً لا ينبغى لأحد من بعدى ، فرده الله خاسئاً » .

إِبْرَاهِيمَ فِى رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ .. (٢٥٨) ﴾ [البقرة]

وقال سبحانه : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِى الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ .. (٢٦) ﴾ [آل عمران]

﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ ﴾

قال سبحانه : ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ .. (٣٦) ﴾ [ص] وكان تسخير الريح لسليمان أول نعمة أضيفتْ إلى ملكه لم تكُنْ موجودة من قبل ، ومعنى ﴿ رُخَاءً .. (٣٦) ﴾ [ص] أى : لينة ناعمة كالمطية التى تمشى براكبها مَشْياً هادئاً لا تزعجه ولا توقعه . إلا أن بعض المفسرين قالوا إن كلمة رخاء تتعارض مع قوله تعالى فى نفس القصة : ﴿ الرِّيحَ عَاصِفَةً .. (٨١) ﴾ [الأنبياء] ونقول : هى بالفعل عاصفة ، لكن فى موقف آخر ؛ لأن الريح فى القصة لها عدة استعمالات ، فالريح إنْ كانت تحمله للنزهة فهى رُخاء لينة ، وإنْ كانت لحمل الأشياء فهى عاصفة ، إذن : فالجهة فى الوصف مُنفكَّة .

وقلنا : إن الريح إنْ جاءت هكذا مفردة فهى للعذاب ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ (٤١) مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلاَّ جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ (٤٢) ﴾ [الذاريات] فإنْ كانت جَمْعاً فهى للخير كما فى : ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ .. (٢٢) ﴾ [الحجر]

ومعلوم أن الهواء هو الذى يحفظ توازن الأشياء ، بدليل أننا لو فرَّغْنَا الهواء من جهة من جهات عمارة مثلاً ، فإنها تنهار فى نفس

الجهة ، لأن الهواء هو الذى يسندها ويحفظ توازنها . فإذا أراد الله تعالى أن يدمر بالريح أتى به من جهة واحدة . فكأن الحق سبحانه يقول : الريح المفروض أنه لا يأتى إلا فى العذاب والنقمة ، لكن سخرته لسليمان بحيث لا يأتى معه إلا بالخير ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ (٣٦)﴾ [ص]

وقوله : ﴿حَيْثُ أَصَابَ (٣٦)﴾ [ص] حيث قصد وأنّى ذهب.

وهذا يعنى أن سليمان خاطب الريح التى لا لغةَ لها لكن فهمه الله ، فكأنه أصبح آمراً والريح مأمورة ، إذن : فهمتْ عنه الريح ، فالحق سبحانه جعل لكل جنس من الأجناس لغته التى يتخاطب بها فى بنى جنسه ، فإذا فَهَّم الله إنساناً هذه اللغة فهمها وتخاطب بها مع هذه الأجناس .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ .. (١٦)﴾ [النمل]

لذلك حدثونا عن التماسيح فى أعالى النيل ، وعن الانسجام والتكامل بينها وبين الطيور التى تتغذَّى على الفضلات التى بين أسنان التمساح ، فالتمساح بعد تناول طعامه يخرج إلى اليابسة ثم يفتح فمه ، فيأتى الطير وينقر ما بين أسنان التمساح فيتظفها له ، فإذا أحسَّ الطير بقدوم الصياد صوّت صوتاً خاصاً يعرفه التمساح ، فيسرع إلى الماء وينجو من الصياد ، وهكذا يكون التمساح مُقوِّمَ حياة للطير ، والطير مُبقى حياة بالنسبة للتمساح ، فتأمل الجزاء الأوْفى ، كيف يوجد فى عالم الطير والحيوان ؟

ولا يصل إلى مرتبة الفهم عن الطير والحيوان إلا مَنْ أعطاه الله هذه الخصوصية ، وقد أعطى الله هذه الخصوصية لسيدنا سليمان ، ففهم لغة الطير ولغة النمل : ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَـٰأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَـٰكِنَكُمْ

لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (١٨) فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ (١٩) ﴾ [النمل]

إذن : فهم عنها سليمان ، وأحسَّ أن هذه نعمة اختصَّه الله بها وتستوجب الشكر ، كذلك فهم عن الهدهد وخاطبه ودار بينهما حوار ، وقصة الهدهد مع سليمان تدلنا على أن كلّ مَنْ يلى أمراً عليه أن يتابعه متابعةً ، يعرف بها الملتزم من غير الملتزم .

ولولا أن سليمان تفقَّد الطير ما عرف بغياب الهدهد . وقوله : ﴿ مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ .. (٢٠) ﴾ [النمل] كأنه تصوَّر أن الهدهد موجود ، لكن المانع عنده هو أنْ يراه ؛ لذلك قال : ﴿ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ (٢٠) ﴾ [النمل] لأنه نظر فلم يَرَهُ ، ثم جاء الهدهد وقال : ﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (٢٢) إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) ﴾ [النمل]

والذى أثَّر فى نفسه أن تعبد هى وقومها الشمسَ من دون الله ﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ (٢٤) ﴾ [النمل]

وهذه اللقطة من القصة تعلمنا أن الذى يلى أمراً لا يرد مَنْ وُلِّىَ عليه فى أمر يشير به ، بل ينتظر حتى يسمع منه ، ويحترم رأيه لا يصادره ، ونتعلم أيضاً أن الهدهد كان يعلم قضية التوحيد وقضية الإيمان بالله .

ثم يُعلِّمنا الهدهد أن كل إنسان عليه أنْ يحافظ على مُقوِّم حياته ، وأنْ يظل دائماً على باله إنْ أراد أنْ يعيش عيشةً كريمة ، فمُقوِّم

الحياة هو الأَوْلَى قبل التخطيط ورسم الأهداف ، نفهم هذا من قول الهدهد : ﴿أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِى يُخْرِجُ الْخَبْءَ[1] فِى السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (٢٥)﴾ [النمل]

لكن لماذا خَصَّ الخبأ ، وهو المخبوء تحت الأرض ؟ قالوا : لأن غالب غذاء الهدهد مما خُبِىء فى الأرض ، لذلك جعل الله له منقاراً طويلاً ينقر به الأرض ، ويُخرج به غذاءه .

وقوله تعالى : ﴿وَالشَّيَـٰطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ (٣٧)﴾ [ص] أى : وسخَّرنا أيضاً له الشياطين ، منهم البَنَّاء وهو الذى يعمل ويجهد طاقته فى يابسة الأرض ويعمرها . والغواص مَنْ يجهد طاقته فى البحر ليخرج نفائسه ﴿وَآخَرِينَ .. (٣٨)﴾ [ص] أى : من الشياطين ﴿مُقَرَّنِينَ فِى الأَصْفَادِ (٣٨)﴾ [ص] أى : مقيدين ومكبَّلين بالسلاسل . والأصفاد جمع : صفد وهو السلسلة .

فهؤلاء مقيدون ليسوا مُطلقين كالبنَّاء والغوَّاص ، لكن لماذا قيَّد اللهُ هؤلاء ، وأطلق هؤلاء ؟ قالوا : لأن منهم الصالحين الطائعين ، ومنهم العصاة الذين تأبَّوْا على منهج الله ، ومن الممكن أنْ يتأبَّى أيضاً على رسول الله ، وهؤلاء هم الذين يُقيَّدون بالسلاسل ، فكأن الصالحين يخدمونه بتوجيه الإيمان ، وغير الصالحين يخدمونه بتوجيه القيود والسلاسل ، يعنى هؤلاء بالرغبة وهؤلاء بالرهبة .

ثم يقول سبحانه : ﴿هَـٰذَا عَطَاؤُنَا .. (٣٩)﴾ [ص] فالعطاء مناسب

---

(١) الخَبْءُ : ما خُبِىءَ . والخبء : كل ما غاب ، وهو كل شىء غائب مستور . وقيل : الخبء الذى فى السماوات هو المطر ، والخبء الذى فى الأرض هو النبات . [لسان العرب - مادة : خبأ بتصرف] .

لطلب سليمان حين طلب من الله مُلْكاً لا ينبغى لأحد من بعده ، قال : ﴿إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ (٣٥)﴾ [ص] فردَّ الله عليه ﴿هَـٰذَا عَطَاؤُنَا .. (٣٩)﴾ [ص] وما دمت قد وهبتك فسوف أجعلك تتصرف فيما وهبته لك لأننى أمَّنتك ﴿فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٩)﴾ [ص] يعنى : أنت حر فى أنْ تعطى أو أنْ تمسكَ وتمنع .

والحق سبحانه لم يجعل لسليمان طلاقة التصرُّف ، إلا لأنه ضمن منه عدالة التصرف ، لأن سليمان حين طلب الملْك الواسع تعهَّد لله تعالى بهذه العدالة ، لذلك قالوا عنه - عليه السلام - إنه كان لا يأكل إلا خشكار الحب يعنى الردَّة أو النخالة ، ويترك الصافى للعبيد ولعامة الناس .

فكأنه لم يطلب النعمة والملْك الواسع ليتنعم هو به ، أو يتباهى ، إنما طلبه ليسخره فى خدمة الدعوة إلى الله ، ولأنه سيجابه قوةً كانت أعظمَ القُوَى فى هذا الوقت ، ويكفى أن الله تعالى وصف هذه القوة بقوله : ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣)﴾ [النمل] أى : بلقيس .

وهنا وفى هذه المواجهة سيظهر أثر الملْك وقيمته ، فلما أغرتْه بلقيس بالمال قال : ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ (٣٦)﴾ [النمل]

وهنا تظهر الحكمة فى أن سليمان حين طلب ملكاً لا ينبغى لأحد من بعده ، طلبه حتى لا يتميَّز عليه أحد ، ولا يحاول أحد أنْ يُغريه أو يرشيه ، أو يستميله بالمال ، كما حاولت بلقيس بملْكها الواسع فى اليمن السعيد فى ذلك الوقت .

والذى دَلَّ على حصافة بلقيس فى هذا الموقف أنها استشارتْ أعيان القوم وأشرافهم وذوى الرأى عندها : ﴿قَالَتْ يَـٰأَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي

أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَـابٌ كَـرِيمٌ[1] (٢٩) إِنَّهُ مِن سُلَيْـمَـانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْـمَـٰنِ الرَّحِيمِ(٣٠) ﴾ [النمل]

أولاً : كـيف عرفتْ أنه كـتاب كـريم ؟ قـالوا : لأنها وجـدته فى مـخدعـها دون أنْ يـأتى به رسول ، أو يدخل به أحـد ، ولم يمنعـه حراس ، ولم يطـلب استئـذاناً عليهـا ، لذلك علمتْ أنه من جهـة أعلى منها ، ولا بُدَّ أن حركة صاحب الكتاب فى الحياة أقوى من حركتها ، بدليل أن الكتاب وصـلها بهذه الطريقـة ، لذلك استشـارت القوم ﴿ مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ (٣٢) ﴾ [النمل]

وانتهت القصة بقولها : ﴿ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٤) ﴾ [النمل]

إذن : دَلّ قوله تعالى ﴿ هَـٰذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٩) ﴾ [ص] على أن عطاء الله للأنبياء ليس للتباهى والتفاخر ، إنما هو عطاء لخدم الدعوة إلى الله ؛ لذلك نرى الذيـن ملّكهم اللهُ بعضَ مفاتيح الغيب لم يستغلوا معرفة الغيب لصالحهم ، وربما جَرَتْ المعجزةُ على أيديهم أو على ألسنتهم ، وهم لا يدرون بهـا ، وتظهر منهم الكرامات وهم أنفسهم لا يعرفونها ولا يشعرون بها .

ذلك لأن سـرَّ الله وهبـه لهم ، لا ليتـعـالوْا به على الناس ، إنمـا ليـزدادوا هم عبـوديةً واستطراقـاً فى العـبودية لله تعـالى ، وليكونوا نماذج لهداية الخلْق والأخذ بأيديهم إلى طريق الحق .

لذلك يُرْوى أن سـيدنا عـمر ـ رضى الله عنه ـ لمـا امتنع الغـيثُ

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيـره (٣/٣٦١) : « تعنى بكرمه ما رأته من عجيب أمره كون طائر جاء به فألقاه إليها ثم تولى عنها أدباً ، وهـذا أمر لا يقدر عليه أحد من الملوك ، ولا سبيل لهم إلى ذلك » .

وأجدبت الأرضُ خرج يستسقى ، وأخرج الضعفاء من الأطفال والشيوخ والنساء حتى أخرج البهائم وكأنه يقول يا رب إنْ كنتَ قد منعت عنَّا المطر لذنوبنا فاسْقنَا لأجل هؤلاء ، لكن لم تمطر السماء وَهمَّ عمر بالانصراف ، وبينما هو قافل إذ وجد عبداً واقفاً بين الصخور يرفع يديه ويشخص ببصره إلى السماء ، قال عمر : فو الله ما وضع يديه حتى أمطرت السماء كأفواه القِرَب .

وعندها تعجب سيدنا عمر كيف أن السماء لم تستجبْ له واستجابتْ لهذا العبد ، وتأمل عمر وجه العبد حتى عرفَ ، وذهب إلى النخَّاس ، وقال له : اعرض علىَّ عبيدك ، فظن النخَّاس أنه يريد الشراء ، فعرض عليه أفضل ما عنده من أصحاب العضلات المفتولة والقوام السليم ، لكن لم يلتفت عمر إلى واحد من هؤلاء ، فقال الرجل : والله ما عندى غير هذا العبد وهو كَلٌّ[1] على مولاه أينما توجَّه لا يأتى بخير .

فلما جاء العبد عرفه عمر ، وقال له : أهذا أنت ؟ فنظر إليه العبد ورفع بصره إلى السماء وقال : اللهم كما فضحتنى بين خَلْقك فخُذْنى غير مفتون ومضى لحاله . هكذا حال مَنْ تظهر منه الوَلاية والكرامة ، لا يرضى بها ولا يحب أنْ تنكشف أمام الناس ، فهو لا يريدها ويكفيه وُدُّ الله له بها .

﴿ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾ ﴾

(لَزُلفَى) يعنى : قُرْبى ، ودلَّ على هذه القربى أن الله تعالى أعطاه مُلْكاً لا ينبغى لأحد من بعده ، وأعطاه حرية التصرف فى هذا

---

(١) الكَلّ : العاجز الثقيل لا خير فيه . فهو عبء ثقيل على سيده لا خير فيه ولا انتفاع منه . [القاموس القويم ٢/١٦٩] .

الملْك ، يعطى مَنْ يشاء ، ويمنع مَنْ يشاء ، وقد أعطاه الله هذا العطاء مقابل أنه علم أنه لن يصرفه فى طغيان ولا فى جبروت ، ولا فى إدلال على الناس ، لكن سيضعه فى موضعه الذى يريده الله ، فأصبح مأموناً على عطاء الله .

ومعنى ﴿ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٤٠﴾ ﴾ [ص] أى : حُسْن مرجع ومَرَدّ إلى الله يوم القيامة .

ثم ينتقل بنا السياق إلى قصة نبى آخر هو سيدنا أيوب عليه السلام :

﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ(١) وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ﴾

قوله تعالى ﴿ وَاذْكُرْ .. ﴿٤١﴾ ﴾ [ص] أى : بالحمد والثناء ﴿ عَبْدَنَا أَيُّوبَ .. ﴿٤١﴾ ﴾ [ص] الوصف بالعبودية هنا شرف ، لأنه دلَّ على إعزاز الربوبية لمرتبة العبودية ، وقلنا : إن العبودية كلمة ممقوتة عند البشر ، لأن العبودية للبشر إهانة وتسخير ، يأخذ فيها السيد خير عبده وثمرة حركته فى الحياة ، أما العبودية لله تعالى فوَصْفٌ محبوب ، وكلمة محمودة ، لأن العبد فيها يأخذ خير سيده .

لذلك لما امتنَّ الله تعالى على سيدنا رسول الله ﷺ فى حادثة الإسراء والمعراج جعل حيثية ذلك العبودية له سبحانه ، فقال : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ .. ﴿١﴾ ﴾ [الإسراء] فلما ضاقتْ به حفاوة الأرض فى الطائف أراد ربه أنْ يُرِيَهُ حفاوة السماء به ، فالصفة التى رفعتْ محمداً إلى هذه المنزلة هى صفة إخلاصه فى العبودية لربه .

---

(١) النصب : الداء والبلاء والشر. [لسان العرب ـ مادة : نصب] .

ومعنى ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ (٤١)﴾ [ص] المسُّ : هو الالتقاء الهيِّن الخفيف ، يعنى هو دون اللمس ، قالوا : لأنه مرض مرضاً شديداً أثَّر فى إهابه ، فكان الشيطان يحوم حوله بخواطر السوء يقول له : كيف يفعل الله بك هذا وأنت رسول ، كيف يتركك هكذا دون أنْ يشفيك .

وهكذا اجتمع على سيدنا أيوب ألم الجلد وعذابه الجسدى ، وهواجس الشيطان فى خواطره النفسية ، لذلك قال : ﴿بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ (٤١)﴾ [ص] ونُصْب بالضم مثل نَصَب بالفتح والنَّصَّب التعب ، فهى مثل بُخْل وبَخَل ، الاثنان بمعنى واحد .

وقالوا فى مسِّ الشيطان : إن الفعل على الحقيقة لله تعالى ، فالله هو الذى يفعل ، والشيطان بوسوسته سبب ، والله تعالى هو المسبِّب ، فمَسُّ الشيطان يعنى وسوسته التى شغلتْ خاطر سيدنا أيوب ، فكأن الحق سبحانه أراد من أيوب أنْ يتنبه إلى أن هذه الوسوسة ما كان يصح أنْ تمرَّ بخاطره .

وسيدنا أيوب لما اجتمع عليه المرض ووسوسة الشيطان ضَعُفَ فتوجَّه إلى ربه يدعوه أنْ يقطعَ عن نفسه وسوسة الشيطان ؛ لأنها تحتاج إلى مدافعة ، والمدافعة تحتاج إلى قوة ، والقوة عنده موهونة بالمرض ، ولذلك دعا الله حتى لا يزدادَ ضعفه بوسوسة الشيطان ، فلما دعا الله أجابه :

﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ (٤٢)﴾

فكأن الحق سبحانه يقول له : أنا لا أبتليك كراهةً فيك ، ولا مشقَّةً عليك ، إنما أريد أنْ أسمع منك أنك تكره مَنْ يجيل لك بخاطرك

شيئاً يبعدك عنى ، ﴿ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ .. (٤٢) ﴾ [ص] يعنى : المسألة عندى سهلة يسيرة كما تقول : يا فلان الأمر هيِّن فهو تحت رجْلَيْك .

والركْض هو القذف بشدة وسرعة ، تقول : ركضتُ الفرسَ . يعنى : غمزتُه برجلى هكذا من تحت ليسرع[1] ، ثم يتجاوز السياق مسألة الركض إلى النتيجة مباشرة ﴿ هَـٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ (٤٢) ﴾ [ص] ولم يقل : فركض فخرج الماء كذا وكذا ، إنما انطوى هذا كله ، واكتفى بالأمر (ارْكُضْ) .

والمعنى : أن فى هذا الماء مغتسلاً لك وشراباً ، لأن المرض الذى أصاب سيدنا أيوب يبدو أنه كان مرضاً جلدياً يترك على بشرته بُثوراً تشوِّه جلده . والآن نرى الأطباء الذين يعالجون الأمراض الجلدية يعالجونها بالمراهم الظاهرية التى تعالج ظاهر المرض ، لكن لا تتغلغل إلى علاج سبب المرض الداخلى

فكان من رحمة الله بسيدنا أيوب أنْ جعل شفاءه الظاهرى والباطنى فى ركضة واحدة تخرج الماء ، فيغتسل منه مُغْتسلاً بارداً ، يشفى ظاهر مرضه وشراب يشفى أسباب المرض فى داخل جسمه .

ثم يتحدث الحق سبحانه عن بعض نعمه على نبيه أيوب :

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ (٤٣) ﴾

---

(١) قال الأصمعى : يقال رُكضت الدابة ولا يقال ركَضتْ هى ؛ لأن الركض إنما هو تحريك راكبها رجليه ولا فعل لها فى ذلك . [تفسير القرطبى ٥٨٥٣/٨] .

قوله تعالى : ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ .. (٤٣)﴾ [ص] يبدو أن بعض أهله بعدوا عنه لما أصابه المرض ، فلما شفاه الله وعاد إلى حال السلامة عادوا إليه ﴿وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ .. (٤٣)﴾ [ص] يعنى : وهبنا له مثل أهله أى : من الذرية والأتباع ﴿رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (٤٣)﴾ [ص] الذكرى هى الخاطر الذى يمرُّ بك ليصرفك إلى متعلق الذِّكْرى ؛ لأنك بصدد ما يبعدك عن سبب الذكرى .

ومضمون الذكرى هنا أنه لما صبر جاءه الفرج من الله ، فعاد جسمه مُعَافاً سليماً بعد أنْ برىء من المرض ومن أسبابه ، ثم عاد إليه أهله بزيادة مثلهم عليهم رفقاً بعواطفه . وهذا هو المراد بالرحمة فى قوله ﴿رَحْمَةً مِّنَّا .. (٤٣)﴾ [ص] ، فهذه عطاءات متعددة جاءت ثمرة ونتيجة لصبره عليه السلام ورضائه بما قضى الله به .

إذن الذكرى التى نذكرها فى هذه القصة أن الإنسان حين ينزل به الكرب يلجأ إلى الله ، ويفزع إليه فى كربه ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ .. (٦٢)﴾ [النمل]

والله يحب من عبده هذا اللجوء لذلك يبتليه ، وقد ورد أن الملائكة تقول : يا ربّ عبدُكَ ضَجَّ من الدعاء لك ، ولم تُجِبْه ، فقال سبحانه : إن من عبادى مَنْ أحب دعاءهم ، فأنا أبتليهم لأسمع أصواتهم .

﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ الْعَبْدُ ۖ إِنَّهُ أَوَّابٌ (٤٤)﴾

الضغث : حزمة الحشيش أو حزمة من شماريخ البلح ، وقوله : ﴿وَلَا تَحْنَثْ .. (٤٤)﴾ [ص] دلَّ على أن المسألة كان فيها يمين يريد

الله تعالى لأيوب ألاَّ يحنث فيه ، وهذه الآية تلفتنا إلى قصة بيَّنتها السنة ، قالوا[١] : إن الشيطان ذهب إلى إحدى زوجات سيدنا أيوب ، وقال لها : اطلبى من أيوب أنْ يلجأ إلىَّ وأنا أشفيه حالاً ، بشرط أنْ يقول : إن الذى شفانى الشيطان ، ولأنها كانت مُسْتشرفة لأنْ يبرأ قالت له : والله جاءنى خاطر قال لى كذا وكذا ، قال : إنه الشيطان استمعت إليه وتريدين أنْ أطيعه ، والله الذى لا إله إلا هو لأجلدنك مائة . هذا هو اليمين الذى أراد الله لأيوب ألاَّ يحنث فيه ، فقال له : ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ .. (٤٤)﴾ [ص]

والنبى ﷺ صنع مثل هذا حينما جاءه الرجل الأَحْبَن ، أحبن من (حَ بَ نَ) يعنى : كبير البطن ، أو فى بطنه استسقاء ، وقد زنى بامرأة هزيلة مريضة ، فلما اعترف بجريمته خاف عليه الرسول أنْ يموتَ لو أقام عليه الحد ، فأمر بأنْ يُضْرَبَ بحزمة من الحشيش ، أو مائة عود من شماريخ النخل يُضرب بها مرة واحدة[٢] .

ومعنى ﴿فَاضْرِب بِّهِ .. (٤٤)﴾ [ص] أى : من آليت على نفسك أنْ تجلده ﴿وَلَا تَحْنَثْ .. (٤٤)﴾ [ص] أى : فى يمينك ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا

---

(١) أخرجه أحمد بن حنبل فى كتاب « الزهد » ، وعبد بن حميد وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : إن إبليس قعد على الطريق ، فاتخذ تابوتاً يداوى الناس ، فقالت امرأة أيوب : يا عبد الله إن ههنا مبتلى من أمره كذا وكذا .. فهل لك أن تداويه ؟ قال : نعم . بشرط إن أنا شفيته أن يقول أنت شفيتنى لا أريد منه أجراً غيره . فأتت أيوب فذكرت ذلك له فقال : ويحك . ذاك شيطان لله علىَّ إن شفانى الله تعالى أن أجلدك مائة جلدة ، فلما شفاه الله تعالى أمره أن يأخذ ضغثاً فأخذ عذقاً فيه مائة شمراخ فضرب بها ضربة واحدة .

(٢) عن سعيد بن سعد بن عبادة قال : كان بين أبياتنا إنسان مخدج ضعيف لم يرع أهل الدار إلا وهو على أمة من إماء الدار يخبث بها وكان مسلماً ، فرفع شأنه سعد إلى رسول الله ﷺ فقال : اضربوه حده . قالوا : يا رسول الله ، إنه أضعف من ذلك ، إن ضربناه مائة قتلناه . قال : فخذوا له عثكالاً فيه مائة شمراخ فاضربوه به ضربة واحدة وخلوا سبيله . أخرجه أحمد فى مسنده (٥/٢٢٢) ، وابن ماجه فى سننه (٢٥٧٤) .

.. (٤٤) ﴾ [ص] فكأن هذا التيسير جزاءٌ له على صبره وعلى رجوعه إلى ربه ، فجعل الله له شيئاً يُرضيه بأنْ خفَّفَ عنه حتى الألم الذى يورثه فى الغير ، لأنه أقسم أنْ يجلد ، فكان ينبغى عليه أنْ يُجلد على الحقيقة حتى لا يحنث ، لكن خفَّفَ الله عليه حتى لا يؤلمه فى أهله .

﴿ وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ (٤٥) إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ (٤٦) وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ (٤٧) ﴾

هنا أيضاً (واذكر) أى : بالحمد والثناء (عبادنا) جمع عبد وقلنا : إن العبودية ممقوتة إنْ كانت للبشر ، لكن العبودية لله عزٌّ وشرف (إبراهيم) هو أبو الأنبياء (وإسحق) وهبه الله لإبراهيم بعد أنْ أسلم الحكم لله حين أمره بذبح ولده إسماعيل (ويعقوب) هو ابن إسحاق .

وقد وقفنا على قصة هؤلاء الأنبياء فى قوله تعالى على لسان إبراهيم يقول لولده إسماعيل : ﴿ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ .. (١٠٢) ﴾ [الصافات] فلم يشأ إبراهيم أنْ يقبل على ذَبْح ولده قبل أنْ يُبيِّن له الأمر الذى صدر إليه ، ذلك لأنه أشفق عليه أنْ يأخذه على غرَّة فيمتلىء قلب الولد على أبيه حقداً ؛ لأنه لا يعرف الحكمة من قَتْل أبيه له ، ثم أراد أن يشرك ولده معه فى التسليم لله وألاّ يحرمه الأجر .

لذلك قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا .. (١٠٣) ﴾ [الصافات] يعنى : إبراهيم وإسماعيل ﴿ وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ

الرُّءْيَا .. (١٠٥) ﴾ [الصافات] أى : استسلمتَ واستسلم ولدك ، إذن ارفع يدك ﴿ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ (١٠٨) سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (١٠٩) كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١١٠) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١١١) وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ (١١٢) وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ (١١٣) ﴾ [الصافات]

إذن : جاء إسحق وجاء من بعده يعقوب نتيجة لتسليم إبراهيم وانصياعه لأمر ربه فى ذبح إسماعيل ، فأبقى على إسماعيل ، ووهب إسحاق ويعقوب زيادةً وفضلاً من الله ؛ لأن الحق سبحانه لا يريد بالابتلاء أنْ يعذِّب الناس .

لذلك قلنا : إن لسيدنا إبراهيم فضلاً على كل مسلم ، وجميلاً فى عنق كل مؤمن ، لماذا ؟ لأن مسألة الذبح لو نُفِّذت فى إسماعيل لصارتْ ابتلاءً من الله للإنسان بأنْ يتقرَّب إلى الله بذبح ولده ، لكن سيدنا إبراهيم بإيمانه وتسليمه الأمر والحكم لله تحمل عنّا هذه المسألة ، ورفع عنا هذا الحكم ، وإلا صارتْ المسألة نُسُكاً وعبادة لازمة لكل مؤمن من بعده ، وصدق القائل[1] :

سَلِّمْ لِرَبِّك حكْمَهُ فَلِحكْمَةٍ ... يَقْضِيه حَتَّى تَسْتَرِيحَ وتغْنَما
وَاذْكُرْ خليلَ الله فى ذَبْحِ ابْنِه ... إذْ قالَ خالِقُهُ فَلَمَّا أسْلَمَا

ونتعلم من هذه المسألة أن كل أمر أو حدث يُسىء الإنسان فى ظاهره ويتعبه ويعتبره الإنسان مصيبةً لا ينبغى أنْ ننظر إليه مُنفصلاً عن فاعله ، لكن يجب أنْ نأخذَ الحدث بضميمة مَنْ أحدثه ؛ لأن الحكم على الحدث يتغير بالنظر إلى الفاعل .

وأوضحنا هذه المسألة وقلنا : هَبْ أن ولدك دخل عليك ، والدم

---

(١) من شعر الشيخ رضى الله عنه وأرضاه .

يسيل من وجهه ، فإنك لا تهتم بالإصابة بقدر ما تهتم بالفاعل ، فأول سؤال تسأله : مَنْ فعل بك هذا ؟ ثم تنتظر أن تسمع اسم الفاعل ، فإنْ قال الولد : عمى ضربنى فإنك ستهدأ وتقول : لا بُدَّ أنك فعلتَ شيئاً استوجبَ أنْ يضربك عمك ، لكن إنْ قال لك : فلان خاصة إنْ كان عدواً لك ، فإنك تقيم الدنيا ولا تقعدها .

إذن : لا يمكن أنْ تحكم على الفعل بالخير أو الشر إلا بنسبته إلى فاعله ؛ لأنه بنسبة الفعل إلى فاعل تتمحض الخيرية فيه أو يتمحَّض الشرُّ فيه .

ومعنى ﴿أُوْلِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ (٤٥)﴾ [ص] أصحاب الأيدى وهى جمع يد ، وتُطلَق اليد على الجارحة المعروفة ، وتُطلَق على ما تأتى به الجارحة من فعل ، تقول : فلان له يد علىَّ يعنى : فضل وجميل ، ولأن أغلب الأفعال تُزَاوَلُ باليد سُمِّيَتْ النعمة التى تصل بطريق اليد باسم هذه الجارحة الفاعلة ، ومن ذلك قوْل القائل[1] :

له أيادٍ علىَّ سابغة أعدّ منها ولا أعددها

وفَرْق بين الحركة الفاعلة التى تقوم بالفعل ، ومعنى آخر فى الحركة الفاعلة هو ما يُوجب عليك الحركة ، مثلاً حين نريد البَذْل والعطاء ، فمَنْ عنده مال يبذل ويعطى بيده ، أما المعدم فلا يعطى إنما ينصح مَنْ عنده المال بأنْ يبذلَ منه .

يقول تعالى : ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاء وَلا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ .. (٩١)﴾ [التوبة]

فالعمل هنا ليس باليد إنما باللسان ، لكن لما كانتْ اليد هى الآلة التى نباشر بها أكثر الأعمال نسبنا كلَّ خير يتعدَّى منك إلى غيرك

---

(١) المتنبى .

نسبناه إلى اليد ؛ لذلك يقول سبحانه :

﴿ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ .. (١٠) ﴾ [الفتح]

فإذا كان الإنسان غير واجد للمال ، وغير قادر على النصح باللسان ، فإن الله تعالى لا يحرمه أبداً من العمل الصالح فى البذل ، ويكتفى منه بأنْ يفرح بمَنْ يبذل ويسعده العطاء من غيره .

ومثال ذلك : الرجل الذى سمعوه يدعو عند الكعبة يقول : اللهم إنك تعلم أنِّى عاصيك ، لكنى أحب مَنْ يطيعك . والأصمعى يسمع رجلاً عند الملتزم يدعو ويقول : يا رب أنا أعلم أنى عاصيك وأستحى وأنا عاصيك أنْ أطلب منك ، لكن لا إله إلا أنت ، فلمن أذهب ؛ فقال له : يا هذا ، إن ربك يغفر لك لحُسْن مسألتك .

ومعلوم أن المؤمن يجتهد فى الدعاء خاصة عند الملتزم ، ويحاول أن يُحسِن الدعاء ، ويُحسِن المسألة فى هذا الموقف .

مرتبة أخرى يجعلها الله لغير الواجد حتى لا يُحْرم الأجر فى العطاء ، هى أنْ يحزن لأنه لا يجد ما يبذله ، كما جاء فى قول الله تعالى : ﴿ وَلا عَلَى الَّذِينَ[1] إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ (٩٢) ﴾[التوبة]

---

(١) قال محمد بن كعب القرظى : كانوا سبعة نفر : من بنى عمرو بن عوف سالم بن عوف ، ومن بنى واقف حرمى بن عمرو ، ومن بنى مازن بن النجار عبد الرحمن بن كعب ويكنى أبا ليلى ، ومن بنى المعلَّى فضل الله ، ومن بنى سلمة عمرو بن عتبة ، وعبد الله بن عمرو المزنى . تفسير ابن كثير (٢/٣٨١) وذكر السيوطى فى كتابه « أسباب النزول » أن ابن أبى حاتم أخرج من طريق العوفى عن ابن عباس قال : أمر رسول الله ﷺ الناس أن ينبعثوا غازين معه ، فجاءت عصابة من أصحابه فيهم عبد الله بن معقل المزنى ، فقال : يا رسول الله احملنا . فقال : والله لا أجد ما أحملكم عليه ، فولَّوْا ولهم بكاء ، وعزَّ عليهم أن يُحبسوا عن الجهاد ولا يجدون نفقة ولا محملاً ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ .. (٩٢) ﴾ [التوبة].

فالحق سبحانه لا يحرم مؤمناً أنْ يكون له موقف فى البذل ، ولو كان بَذْلاً سلبياً .

ومن معانى اليد : القوة كما فى قوله تعالى : ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ .. ﴿١٠﴾﴾ [الفتح] فالمراد ﴿أُوْلِى الأَيْدِى .. ﴿٤٥﴾﴾ [ص] أى : أصحاب القوة فى طاعة الله .

و﴿الأَبْصَارِ ﴿٤٥﴾﴾ [ص] أى : البصائر فى العلم والدين والحكمة ، أما الأبصار بمعنى حَاسَّة البصر ، فهى موجودة فى الجميع المؤمن وغير المؤمن ، إذن : المراد الأبصار التى ترى ثم تؤدى مهمة أخرى فوق البصر ، وتزيده نوراً على نور .

إذن : البصر وحده لا يكفى لأن آيات الله فى الكون هى المعطيات ، كما نقول فى المسألة الرياضية ، وهذه المعطيات تحتاج إلى بصيرة واعية لتصل بالمعطيات إلى المطلوب ، وهو الإيمان بمَنْ أعطى هذه المعطيات .

فالأبصار حينما تنظر فى الكون ، وترى معطياته ، وترى آيات الله فيه ، ثم لا تتأثر عقلياً ولا وجدانياً بها ، ولا تلتفت إلى صانعها ومبدعها ، فلا قيمة لهذه الأبصار .

فالمعنى ﴿الأَبْصَارِ ﴿٤٥﴾﴾ [ص] أى : أصحاب البصائر التى شغلتْ العقول والوجدان ، بما تراه من الآيات ، وعلمت أن هذا الكون لا يمكن أنْ يُنسَب إلا إلى قوة قادرة ظاهرة مسيطرة ، لا يوجد لها شريك ، وإلا لو كان له شريك لظهر أثره ، ولدافع عن حقه فى هذا الملْك ، وما دام لم يظهر هذا المعارض ولم يدَّعِ أحد أنه خلق ، فالقضية تَسْلَم لمن ادعاها .

لذلك يقول سبحانه : ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً (٤٢)﴾ [الإسراء]

وقدَّم الأيدى على الأبصار ، لأن عمل الأيدى نتيجة نهائية للبصر ، لأنك تبصر آيات الله فى كونه ، وتعرف أنه ربُّ الجميع ، وخالق الجميع ، ورازق الجميع ، فيرقّ قلبك للفقير وتعطيه ، لعلَّكَ تصبح مثله فى يوم ما فتجد من يعطيك ، ولا تحقد على واجد وأنت معدم ، لأن خير الواجد سينالك بأىٍّ حال .

لذلك قال تعالى : ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا (٩)﴾ [النساء]

ولنعتبر بقوله تعالى : ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا .. (٨٢)﴾ [الكهف]

ثم يقول سبحانه : ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ (٤٦)﴾ [ص]

أخلصناهم يعنى : أعطيناهم شيئاً خالصاً لهم ، والخالصة التى خصصناهم بها هى التى تلفتهم دائماً إلى دار الجزاء وهى الآخرة ، وبهذه الذكْرى يظل الإنسان دائماً مُسْتحضراً ثوابَ الطاعة وعقابَ المعصية ، وإذا استحضر الإنسان هذه العاقبة استقام على الطاعة وابتعد عن المعصية .

لذلك يقول ﷺ فى بيان هذه المسألة : « .. لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن »[1] .

لماذا نفى عنه الإيمان فى هذه اللحظة ؟ قالوا : لأنه غفل عن

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٤٧٥) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٥٧) كتاب الإيمان من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

عاقبة فعْله غفل عن الجزاء ، فالغفلة هى التى تكسلنا عن الطاعة ، وتُوقعنا فى المعصية ، وتُغرينا بها ، ولو استحضر الإنسانُ العقوبة على المعصية ما وقع فيها .

وسبق أنْ ضربنا مثلاً فقلنا : لو أن شاباً عنده شرهٌ جنسى . وقلنا له : سنوفر لك ما تريد ، لكن بعد أنْ تقضى ليلتك سنأخذك إلى هذا الفرن المسجور ، ونضعك فيه لمدة ساعة واحدة ، مثل هذا الشاب ما ظنكم به ؟ لا بُدَّ أنه سيفر من هذه المعصية ، ويهرب منها ، ويزهد فيها ، لماذا ؟ لأنه عاين العاقبة واستحضر الجزاء .

كذلك الطالب الذى يجتهد فى دروسه ، حتى أنه يهمل فى أكله وشربه ، لماذا يفعل ذلك ؟ لأنه استحضر لذة النجاح وشرف التفوق وعُلُوّ المنزلة بين أهله وزملائه ، وفى المقابل الطالب المهمل لا يهمل إلا لأنه غفل عن عاقبة الإهمال وذلّة الفشل يوم أنْ تظهر نتيجته .

فمعنى ﴿ ذِكْرَى الدَّارِ (٤٦) ﴾ [ص] أى : يظل دائماً على ذكْر لها يستحضر الثواب على الطاعة ، فيقبل عليها ، ويستحضر العقاب على المَعصية فيفرّ منها .

وقوله : ﴿ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الأَخْيَارِ (٤٧) ﴾ [ص]

أى : الذين اصطفيناهم ، ولله تعالى فى الخَلْق اصطفاءات يصطفى من الأماكن ، ويصطفى من الأزمنة ما يشاء ، كما اصطفى من الأمكنة الكعبة وبيتَ المقدس ، واصطفى من الأزمنة شهر رمضان كذلك يصطفى من الناس رسلاً ، ويصطفى من الملائكة رسلاً .

والاصطفاء ليس تدليلاً للمصطفى ولا محاباة له ، إنما ائتمان المصطفَى على ما يريده من اصطفاه أى المصْطِفى من إشاعة الخير

فى جنسه ، فاصطفاء الرسل ليس تدليلاً لهم ، إنما الاصطفاء يُحمِّلهم أعباء جسيمة فى ذواتهم وأنفسهم وفى أموالهم وأهليهم .

كذلك اصطفى رمضان لا لنعبد الله ونطيعه فى رمضان وحده ، إنما ليشيع الطاعة فى الزمان كله بأنْ تأخذ من رمضان الطاقة اللازمة للعام كله ، إذن : فاصطفاء الزمان أو المكان أو الإنسان أو الملائكة ليس تدليلاً لخَلْق على خَلْق ، إنما لإشاعة الخير فى كل الخَلْق للخَلْق .

ومعنى ﴿الأَخْيَارِ (٤٧)﴾ [ص] جمع خيِّر . والمعنى : اصطفيناهم لما فيهم من الخيرية ، التى تُؤهِّلهم لهذا الاصطفاء .

﴿وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ (٤٨)﴾

سيدنا إسماعيل معروف لنا جميعاً من خلال قصته مع أبيه إبراهيم ، والخلاف هنا بين العلماء فى سيدنا ذى الكفل ، لأن من الرسل مَنْ عدَّهم الله فى موكب الرسالات ، لكن لم يذكر لنا إلا أسماءهم وأوصافهم ، وذو الكفل ذُكر هنا بهذا الوصف .

﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الأَخْيَارِ (٤٧)﴾ [ص] فاليسع لا نعرف عنه إلا اسمه ، ولم يذكر القرآن مَنْ هو ، ولا متى بُعث ، ولا إلى مَنْ أرسل ، ولا المنهج الذى جاء به ، كذلك فى ذى الكفل لم يذكر عنه القرآن إلا اسمه ، ووصفه هنا بأنه من المصطفين الأخيار ، وفى سورة الأنبياء قال عنه الحق سبحانه : ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ (٨٥) وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ (٨٦)﴾ [الأنبياء]

فوُصف مرةً بأنه من الأخيار ، ومرة بأنه من الصابرين ، ومرة من الصالحين ، ولهذا أدخله الله فى رحمته ، وهذه التى جعلت العلماء يختلفون فى ذى الكفل ، أهو رسول أم غير رسول ؟ لكن جمهور العلماء[1] على أنه رسول ، بدليل أن الله تعالى سلكه ضمن هؤلاء الرسل .

ومما قيل فى ذى الكفل أنه فى فترة اليسع وفى رسالته أراد أن يستخلفَ على الناس رجلاً بعده ، وأراد أنْ يرى سيرته فى الرعية ، وكيف سيتصرف هذا فى أخريات حياته ؟ وحين رأى أن قوته عجزتْ عن القيام بأمر الدعوة . وكان من حرصه على الدعوة من بعده أنْ يختبر مَنْ يستخلفه وينظر ما يفعل .

فلما جلس اليسع فى قومه قال : مَنْ يتقبل منى بثلاث ؟ والباء عادة كما فى هذه العبارة تدخل على الثمن ، كما تقول : اشتريتُ كذا بكذا ، والمعنى : مَنْ يتكفل لى بثلاثة أشياء وأستخلفه على القوم ، ثم قال فى بيان هذه الثلاث : أنْ يصومَ النهار ، ويقومَ الليل ، ولا يغضبَ . فقام رجل من القوم تزدريه العين وقال : أنا ، فأعاد عليه : أنت تصوم النهار ، وتقوم الليل ، ولا تغضب ؟ قال : نعم ، فردَّه .

وفى الغد ، جلس اليسع فى مجلسه ، وعرض على القوم مقالته ،

---

(١) يرى بعض العلماء أنه ليس بنبى ، وإنما هو رجل من الصالحين من بنى إسرائيل وقد رجَّح ابن كثير نبوته لأن الله تعالى قرنه مع الأنبياء ، فقال جل وعلا فى سورة الأنبياء : ﴿ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ (٨٥) وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ (٨٦) ﴾ [الأنبياء] . قال ابن كثير فى البداية والنهاية (١/٢٢٧) : « فالظاهر من ذكره فى القرآن العظيم بالثناء عليه مقروناً مع هؤلاء السادة الأنبياء أنه نبى عليه من ربه الصلاة والسلام ، وهذا هو المشهور » .

فقام الرجل بعينه وقال : أنا ، فعرف اليسع أن الرجل عنده عزيمة وإصرار على القيام بهذه المهمة ، فاستخلفه على القوم[(١)] .

وقد تكلم العلماء فى هذه الشروط الثلاثة التى جعلها سيدنا اليسع ـ عليه السلام ـ حيثيات الاستخلاف ، قالوا : لأن الذى يصوم النهار يصوم عما أحله الله فى غير الصوم ، والذى يصوم عَمَّا أحله الله يصوم من باب أَوْلَى عما حرَّمه الله ، فضمن بذلك بُعْده عن المحرمات . والذى يقوم الليل ترك راحته وترك التنعُّم ليأنس بربه ، ومَنْ كانت فيه هذه الصفة لا يتخذ الاستخلاف للنعمة والرفاهية إنما يتخذه للقيام بأعبائه ، وإلا لو أراد التنعُّم لَنام الليل مِلْء جفونه .

أما عدم الغضب فهى صفة لا بُدَّ أنْ تتوافر فى كل مَنْ يسوس الرعية ، أو يجلس فى مجلس حكم بين الناس ، ومعلوم أن للرعية أخلاقاً شتى وصفات متباينة ، فلا بُدَّ لمن يتولّى أمرهم أنْ يكون حليماً لا يغضب ؛ لأن الغضب يستر العقل ، فلا يختار بين البدائل ، ولا يُحسن التصرف فى الحكومة .

لذلك قالوا للقاضى حين يغضب : ردَّ نفسك ، يعنى : أنت لا تصلح لمنصب القضاء . إذن : قال ولا تغضب لأن العقل يتأثر بالغضب ، فتختلف موازينه فى الحكم ، وتختلف كذلك مَلَكات النفس فلا يصح الحكم .

---

(١) أورد السيوطى هذا الخبر عن ذى الكفل مع نبى الله اليسع فى الدر المنثور (٥/٦٦١) وعزاه لابن جرير وابن أبى حاتم عن مجاهد (٥/٦٦٣) ، وعزاه لعبد بن حميد وابن أبى الدنيا فى ذم الغضب وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن عبد الله بن الحارث (٥/٦٦٣) وعزاه لابن سعيد النقاش فى كتاب القضاة عن ابن عباس .

قالوا فى مسألة عدم الغضب : إن الشيطان لم يستطع التدخُّل فى صيام النهار وقيام الليل ، فأراد أنْ يدخل إليه من ناحية عدم الغضب ، فأرسل إليه ذريته ليُغضبوه فلم يغضب ذو الكفل - عليه السلام - فقال لهم : ارفعوا أيديكم عنه وسأتولى أنا هذا الأمر ، وكان ذو الكفل لا ينام إلا نومةً واحدة فى القيلولة ، هى كل ما ينام فى الليل والنهار ، وكان يأمر خادمه ألاَّ يدخل أحد عليه فى هذا الوقت ، فكان الشيطان يتحيَّن هذا الوقت ، ويطرق على ذى الكفل الباب ، ويُحدث عنده ضجة يقول : أنا رجل ظلمنى قومى وفعلوا بى كيت وكيت وأريد أنْ تنصفنى منهم .

فقال ذو الكفل : ألاَ تعلم أن هذا الوقت هو الوقت الذى أستريح فيه ، اذهب وتعالَ فى وقت أجلس فيه للحكم بينكم ، وأنا أقضي فى أمرك .

وفى اليوم التالى ، جاء الشيطان وفعل كما فعل بالأمس ، وفى اليوم الثالث وجد الباب مغلقاً فنفذ إلى ذى الكفل بطريقته الخاصة ، قالوا : دخل من كوة فى البيت فى غفلة من الحارس ، وطرق على ذى الكفل باب مِخْدعه ، فلما رآه قال : كيف دخلتَ ؟ فتلعثم . قال : إذن : أنت هو . أى الشيطان قال : والله لقد احتلنا كثيراً على أنْ نغضبك فلم نفلح ، ثم تركه وانصرف[1] .

أما عن خلاف العلماء فى رسالة ذى الكفل ، فأنا أريد أنْ أُجلَّ العلماء عن الخلاف فى شىء يصح أن نلتقى فيه . قالوا : الكفل من التكفُّل ، كما فى قوله تعالى : ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا .. (٣٧)﴾ [آل عمران]

---

(١) أورد السيوطى هذه القصة فى كتاب الدر المنثور (٥/٦٦١) عن مجاهد وعزاه لابن جرير وابن أبى حاتم .

والكِفْل : هو النصير .

والذين قالوا برسالته استدلوا على ذلك بأمرين : الأول أن الله ذكره فى عداد الرسل ، الآخر : أن اليسع - عليه السلام - استخلفه . والحق سبحانه وتعالى سكت على هذا الاستخلاف ولم يُغيِّره ، وهذا إقرار للاستخلاف وموافقة عليه ، كما وافق الحق سبحانه لموسى - عليه السلام - لما طلب من ربه أن يُؤيِّده بأخيه هارون ، فقال :

﴿ وَأَخِي هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا[1] يُصَدِّقُنِي .. (٣٤) ﴾ [القصص]

قال آخرون : بل هو رجل متطوع بالدعوة ، فَسَد الناس فى زمانه ، ورأى أن هذا الفساد لا يصلحه إلا رجلٌ له عدالة فى الحكم ، ونزاهة فى القضاء بين الناس ، ورأى فى نفسه هذه المواهب ، فعرض على قومه أن يقوم بأمرهم ، وأنْ يسيرَ فيهم بالعدل فوافقوا عليه . إذن : ذو الكفل فى رأى هؤلاء أنه ليس رسولاً ، بل رجل متطوع بمنهج كمنهج الرسل .

﴿ هَـٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ (٤٩) جَنَّـٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الْأَبْوَابُ (٥٠) مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَـٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ (٥١) ﴾

قوله تعالى : ﴿ هَذَا ﴾ أى : ما تقدم من موكب الرسل ﴿ذِكْرٌ﴾ تذكير كما فى قوله تعالى : ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا

(١) الردء : المعين والناصر . [القاموس القويم ١/ ٢٦٠] .

الأُخْرَىٰ .. (٢٨٢) ﴾ [البقرة]

يعنى : هذا الذى ذكرناه من موكب الرسل ومن موقف الأمم معهم ، وكيف أنهم تحمَّلوا تفاهة القوم وقلَّة أدبهم مع أنبيائهم ، وتحمَّلوا الاجتراء باللسان وبالجوارح ، نذكر هذا لمحمد الذى يَلْقى من قومه ما يَلْقى من الأذى لنذكره أنه ليس بدْعاً فى الرسل ، وأن ما جرى لإخوانه المرسلين لا بُدَّ أنْ يجرى له ، وإذا كنا نقيس الابتلاء بمقدار الرسالة فنصيبُ محمد ﷺ فى هذا الإيذاء أكبر من نصيب الرسل أجمعين .

فقوله تعالى : ﴿ هَـٰذَا ذِكْرٌ .. (٤٩) ﴾ [ص] تسليةٌ لسيدنا رسول الله حتى يعلم أنه ليس بدْعاً فى ذلك ، وأن عظمته فى أنْ يتلقَّى سفاهة القوم ؛ لأن القومَ حين يسفهون على الرسول يدلُّ ذلك على أنهم منتفعون بالفساد الشائع فى قومهم ، وما جاء الرسول إلا ليقضى على هذا الفساد ، إذن : لا بُدَّ أنْ يكون الرسولُ خَصْماً لهؤلاء ، وكلما تصدَّى لفسادهم اشتدتْ عداوتهم له ، وإيذاؤهم وسخريتهم منه ، واتهامهم له بالكذب والسحر والجنون .. إلخ .

فهذه إذن سنة لله تعالى فى كل مَنْ يتصدَّى للدعوة ويجابه الفساد فى المجتمع ، لا بُدَّ أنْ يجد مَنْ يجترىء عليه ويتهمه بالباطل ، ويحاول النَّيْل منه والتشكيك فى قصده ، هذا رَدُّ فعل طبيعى إذا وجده الداعية ينبغى أنْ يُسَرَّ به ، فهو إشارة وعلامة تدلّ على نجَاحه فى مسعاه ، وأنه نال منهم وغَاظهم .

وقوله سبحانه : ﴿ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ (٤٩) ﴾ [ص] أى : مرجع حسن إلى الله يوم القيامة ، فهى تتحدث عن الآخرة وما ينتظره ﷺ من الجزاء الحسن ، ففى الآية عطاءان لرسول الله :

الأولى : تسليته ﷺ فى قوله : ﴿هَـٰذَا ذِكْرٌ ..(٤٩)﴾ [ص] ثم ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ (٤٩)﴾ [ص] كأنه تعالى يقول : هذا الذى ذكرناه ذِكْر لمحمد كى نُسَلِّيه ، لكن الأهمّ من ذلك ما ينتظره من الجزاء الحسن فى الآخرة ، الواو هنا عطفت ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ (٤٩)﴾ [ص] على ﴿هَـٰذَا ذِكْرٌ .. (٤٩)﴾ [ص]

والمتقون مادتها : وَقَى يعنى حال بين شىء يصيبه ، وبين نفسه ، واتقى الشىء جعل بينه وبين الشىء وقايةً تحميه . وإذا نظرنا إلى هذه المادة فى القرآن نجد الحق سبحانه يأمر بالتقوى تكليفاً يكلف الإنسان أنْ يقى نفسه مما يعُود عليه بالشر ، وقد أتتْ هذه المادة بلفظ : اتقوا الله ، واتقوا ربكم ، واتقونى ، واتقوا النار ، واتقوا الفتنة.

وكلها تلتقى فى معنى واحد ، لأن لله تعالى كما قلنا صفات جلال وصفات جمال ، فمعنى اتقوا الله: اجعلوا بينكم وبين صفات الجلال لله وقاية ، مثل : المنتقم الجبار القهار .. إلخ .

وهذه الصفات هى التى ترهب المخالف وتردعه ، فاتقوا صفات الجلال من الله ، لأنه سبحانه قادر أنْ يبطش بكم وليس لكم جَلَد على انتقام الله أو التعرُّض لأثر هذه الصفات .

وبنفس المعنى : اتقوا النار لأنها جُنْد من جُنْد الله ، وأثر من آثار صفات الجلال .

وفى موضع واحد من القرآن وردتْ التقوى بلفظ (واتقوا) دون ذكر للمتقَى ، وكأن هذا اللفظ جاء ليدلّ على شمول التقوى أو مطلق التقوى ، فهى تعنى : اتقوا الله ، واتقوا النار ، واتقوا الفتنة .. إلخ .

ومعنى ﴿لَحُسْنَ مَآبٍ (٤٩)﴾ [ص] يعنى : حُسْن مرجع ، لكن أىّ

مرجع ؟ للعلماء فى المرجع كلام فلسفى يقولون : أى مرجع الروح ومردّها إلى الأجساد يوم القيامة ، وهذا كلام لا وزنَ له ؛ لأننا نفهم المرجع والمردَّ إذا لاحظنا الخَلْق الأول ، والخالق سبحانه قبل أنْ يخلق الخَلْق أخذ عليهم العهد ، وهم ما يزالون فى مرحلة الذَّرِّ .

كما قال سبحانه : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِى آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣) ﴾ [الأعراف]

إذن : إيمان الفطرة فى عالم الذرِّ والشهادة لله تعالى بأنه الربُّ الخالق المُربِّى تستدعى أن يكون المرجع إليه سبحانه والمردّ إليه للحساب ، هل قابلتم هذه الشهادة بالطاعة أم بالعصيان ؟ فمن أدّى العهد القديم واستصحبه إلى العهد الجديد فقد فاز وله حُسْن مآب ، وأما مَنْ ظلم نفسه وخالف العهد الذى أخذه على نفسه فقد خاب وخسر ، وله فى الآخرة مآب الشرِّ والسُّوء .

ولما كان حُسْن المآب كلمة عامة مُجْملة أراد الحق سبحانه أن يُفصِّلها وأنْ يوضحها لنا ، فقال : ﴿ جَنَّاتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الأَبْوَابُ (٥٠) ﴾ [ص] فكلمة جنات عدن بدل من حُسْن مآب ، فكأن الحق سبحانه حصر حُسْن المآب فى جنات عدن ، والجنات جمع جنة ، وهى المكان الملىء بالأشجار المتشابكة التى تستر مَنْ يسير تحتها ، أو لأنها تجنّ مَنْ يسير فيها وتحبسه عن الخروج فيها أو الحاجة لغيره ؛ لأن فيها كلّ ما يحتاجه ، وهذا هو معنى الجنة فى الدنيا أيضاً ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ .. (٣٢) ﴾ [الكهف]

ومثَلُ الجنة التى دخلها آدم ـ عليه السلام ـ ليتلقَّى فيها من الله التجربة التكليفية بافعل ولا تفعل ، لكن نسمع مَنْ يقول أن آدم كان فى جنة الآخرة ، وأخرجه الله منها إلى الدنيا ، وهذا لا يستقيم لأن أول إخبار من الله عن آدم لم يقُلْ أنِّى خلقته للجنة ، إنما قال : ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً .. (٣٠)﴾ [البقرة]

أما مسألة دخوله الجنةَ أى جنة الدنيا ، فذلك لأنك حين تريد أنْ تدرِّب شخصاً على عمل ما فإنك لا بُدَّ أنْ تتكفَّل له بالإقامة والنفقة ، وتوفر له مُقوِّمات حياته بالطريقة التى تتيح له التدريب والقيام بالمهمة التى كلف بها ، وهكذا فعل الله تعالى لآدم ، فلما نسى ما أمره الله به واتبع الشيطان تغيَّرتْ طبيعته ، ولم يَعُدْ صالحاً للإقامة فى هذه الجنة ، كما قال سبحانه : ﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا .. (٢٢)﴾ [الأعراف]

وكانت هذه هى المرة الأولى التى يشعر فيها آدم بسوأته لأنه خالف أمر ربه ، كذلك إذا رأيتَ عورة ظهرتْ فى الأرض إلى أنْ تقوم الساعة فاعلم أنها نتيجة مخالفة لمنهج الله أو تعطيلٍ لحكم من أحكامه ، وإلا ما الذى جعل هذه الفتحة فى آدم عورة ، وهى لا تختلف عن أىِّ فتحة مثلها فى الجسم ، ما الفرق بينها وبين فتحة الفم مثلاً ؟ إذن : متى كانت عورة ؟

كانت عورة حين أصبح لها مُسْتقذرات ينفر منها طبْع الإنسان ، وكيف تكونتْ هذه المستقذرات ؟ تكوَّنت لأنه أكل على خلاف منهج ربه ، بدليل أنه لما أكل وفْق ما أمره الله لم تكُنْ له فضلات ، كان يأكل من طهى الله ، يأكل على قَدْر استبقاء الحياة .

لكن لما خالف وأكل من الشجرة تكوَّنتْ الفضلات وظهر أثرها المستقذر ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ .. (٢٢)﴾ [الأعراف] يريد أنْ يستر هذه العورة وأنْ يداريها ، لكنها أصبحتْ عادة لازمة للإنسان إلى الأبد ، سوأة لا تُستر ولا تُدفع ، إذن : صارت سوأة بالمخالفة .

لذلك نجدهم فى الحروب وميادين القتال يعطون الجنود أقراصاً مغذية تفيد الجسم ، ولا تترك فضلات ، ولا تزحم المعدة .

ولو تنبَّه آدمُ لوسوسة الشيطان ما طاوعه وما أكل من الشجرة ؛ لأنه أغواهما بقوله : ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (٢٠)﴾ [الأعراف] فى حين أنه يطلب من الله أنْ يُنظره إلى يوم يُبعثون ، ولو علم أن هذه الشجرة تبقيه وتُخلده لأكل هو منها ، أليس هو القائل :

﴿رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٧٩)﴾ [ص]

إذن : كان الشيطان كذاباً ، لكن لم يتنبه آدم لكذبه ، قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا (١١٥)﴾ [طه]

لكن لماذا يقع آدم ـ عليه السلام ـ فى هذا الابتلاء ؟ قالوا : لأن آدم سيكون أباً للبشر جميعاً ، وسيكون ممثلاً لصنفيْن منهم ، صنف معصوم من الخطأ وهم الأنبياء والرسل ، وصنف يخطىء وهم عامة الناس ، إذن : لا بُدَّ أنْ تتمثل فى حياته هاتان الصورتان ، وقد وقع منه العصيان وهو فى الجنة فى فترة الاختبار التكليفى كما قلنا ، وعصيانه هذا لا ينافى عصمة الأنبياء ، لأنه لم يكُن قد نُبِّىء بعد ، لكن تاب آدم فتاب الله عليه ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ .. (٣٧)﴾ [البقرة]

وقال : ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ (١٢٢)﴾ [طه]

إذن : كان الاجتباء والاختيار للنبوة بعد المحنة التى وقع فيها ، وبعد الاجتباء عصم آدم عصمة الأنبياء . وكلمة ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ .. (١٢٢)﴾ [طه] دلتْ على التعقيب ووجود مدة بين عصيان آدم واجتبائه.

إذن : قوله تعالى : ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ .. (٥٠)﴾ [ص] أى : فى دار الجزاء ومعنى ﴿عَدْنٍ﴾ يعنى : إقامة دائمة لا تزول ولا تنتهى ، وقال (عَدْن) لأن جنات الدنيا ينتفع بها صاحبها مدة ثم تزول ، فإما أنْ تصيبها جائحة ، كما فى قوله تعالى فى قصة أصحاب الجنة: ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا[1] مُصْبِحِينَ (١٧) وَلَا يَسْتَثْنُونَ (١٨) فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ[2] مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ (١٩) فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ[3] (٢٠)﴾ [القلم] وإما أن يموت هو ويتركها لغيره .

لذلك أراد الحق سبحانه أنْ يُطمئن أهل طاعته بأن الجنة التى أعدَّها لهم باقية دائمة لا تزول ، جنات إقامة دائمة خالدة ، لا يفوتك نعيمها ولا تفوته .

وقوله سبحانه : ﴿مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الْأَبْوَابُ (٥٠)﴾ [ص] مُفتحة اسم مفعول يدل على المبالغة وكثرة تفتيح الأبواب ، فمَنِ الذى يفتحها ؟

---

(١) يصرمنها : يقطعون ثمارها . والصرم : القطع مادياً ، كقطع الثمار ، ويكون القطع معنوياً بمعنى الهجر وقطع صلة المودة . [القاموس القويم ١/٣٧٥] .

(٢) أى : أحاط بها دمار وهلاك سلطه الله عليها . والطائف هنا العذاب المحيط . [القاموس القويم ١/٤٠٩] .

(٣) كالصريم : أى أصبحت حديقتهم بعد احتراقها كالليل المسودّ ، أو صارت كالأرض التى قُطعت أشجارها ولا نبات فيها . [القاموس القويم ١/٣٧٥] .

يجوز فتحها الخزنة ساعة يروْنَ أهل الجنة قادمين يفتحونَ لهم ويحيونهم ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ (٧٣)﴾ [الزمر]

كما نرى مثلاً فى الفنادق الكبيرة ، يقف الحراس والحُجَّاب على الباب ، وساعةَ يأتى الزائر يفتحون له الباب ، لكن لما ارتقوا بهذه المسألة رأينا الأبواب تُفتح وحدها أتوماتيكياً بمجرد الاقتراب منها ، فإنْ دخل الزائر تُغلق أيضاً تلقائياً . فيجوز أن الأبواب تُفتح بفعل الملائكة ، أو تُفتح بمجرد إرادة أهل الجنة ، فساعةَ يريد أنْ يدخل تُفتح له دون تدخُّل من أحد .

فإذا كان البشر قد توصَّلوا إلى هذه الدرجة فى مسألة فَتْح الأبواب ، فهذا التقدُّم يؤيد ما جاء به القرآن ، ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ[1] عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (٣٣)﴾ [الزخرف]

لقد رأينا هذه السُّقف وهذه المعارج ، وقد يُراد بها السلالم والأسانسيرات التى نصعد فيها الآن ، وقد نزل هذا الكلام منذ ما يزيد على أربعة عشر قرناً من الزمان على أمة أمية مُتبدية ، لا تعرف المبانى ، إنما تسكن الخيام وبيوت الشَّعر والوَبَر .

إذن : فى القرآن لقطات تدلُّك على أن فى كتاب الله رصيداً لكل ما يجدُّ فى حياة الناس ، فإنْ تعجبتَ لشىء فى كتاب الله فاعلم أن الواقع يؤيده ، وأنكم أيها الخَلْق ستصلون فى علومكم وارتقاءاتكم إلى

---

(١) المعارج : المصاعد والدَّرَج . والمعراج : السُّلَّم [لسان العرب ـ مادة : عرج] . ويظهرون فى الآية : يعلون .

مثْل ما تتعجبون منه ، فإذا كنتم قدرتم أنْ تفعلوا ذلك فاسمحوا لله تعالى أنْ يفعله من باب أوْلَى .

ثم يقول سبحانه فى وصف أهل الجنة ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا .. (٥١)﴾ [ص] المتكىء هو ما بين النائم والجالس ، أو ما بين النائم والقاعد ؛ لأن هناك فَرْقاً بين قعد وجلس - وإنْ كان المعنى واحداً - لأن قعد تكون عن قيام ، كان قائماً فقعد ، أما جلس فمن الاضطجاع ، يعنى كان مضطجعاً فجلس .

والإنسان حين يكون قائماً يحمل وزنه كله على القدمين ، فإنْ تعب من القيام قعد ، وفى القعود يكون ثقل الجسم على المقعدة ، فإنْ تعب من القعود اتكأ على جنبه .. وهذا وَضْع بين الجلوس والاضطجاع على الأرض ، ويُوزع فيه ثقل الجسم فيكون أكثر راحة للإنسان .

لذلك اختاره الله لأهل الجنة ، واختارته امرأة العزيز للنسوة اللاتى استضافتهن . قال تعالى : ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً..(٣١)﴾ [يوسف] فالمتكأ دَلَّ على أن المجلس لا يُمَلُّ ، وأن الاتكاء هو الوضع الذى يأخذ فيه الإنسان راحته .

وقال تعالى فى أهل الجنة : ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ[1] وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ (٥٤)﴾ [الرحمن]

وقال أيضاً فى سورة الرحمن : ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ[2] خُضْرٍ

(١) الإستبرق : الديباج الغليظ ، وهو من الحرير الطبيعى ، ويصلح للشتاء لأنه مدفىء وللملابس الخارجية . [القاموس القويم ١/١٨] .

(٢) الرفرف : الرقيق من الديباج (الحرير) تبسط ويُجلس عليها فى المجالس .

وَعَبْقَرِيٍّ[١] حِسَانٍ (٧٦) ﴾ [الرحمن]

وقال أيضاً في بيان مُتكأ أهل الجنة : ﴿ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ . . (٣١) ﴾ [الكهف]

إذن : أهل الجنة يتكئون إما على الفرش المُبطَّنة بالإستبرق ، وهو الحرير السميك الغليظ ، وهو يشبه ما نسميه الآن (الستان) ، وإذا كانت هذه الفرش حشوها وبطانتها من إستبرق ، فما بالك بظاهرها ؟

ومعنى (رَفْرَف) هو ما نسميه الآن الكرانيش الموجود مثلاً في الستائر . ومعنى (الأرائك) مفردها أريكة ، وهي السرير الذي تُوضع عليه الحليات والستائر أشبه (بالنموسية) مثلاً . هذه هي مُتكاءات أهل الجنة .

لكن ماذا بعد أنْ يتكىء ؟ لابُدَّ لتمام النعيم من الطعام والشراب فهو لا يتكىء ويصوم ، إنما ﴿ يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ (٥١) ﴾ [ص] فكأن التحية التي تُقدَّم لهم هي ما تشتهيه نفوسهم . يعني : لا يقدم لهم شيئاً على غير مرادهم ، إنما حسب ما يرغبون وما يشتهون ، فالتحية ليستْ مُلزمة للجميع ؛ لأنها قد لا تصادف هَوىً في النفس ، وقدَّم الفاكهة مع أنها تفكُّهٌ ورفاهية بعد القوت الطبيعي والضروري ، قالوا : وجود الفاكهة أو التفكُّه دليل على وجود الضروريات من باب أَوْلَى .

وقوله ﴿ وَشَرَابٍ (٥١) ﴾ [ص] المراد الشراب المستخرج من العنب ، وخَصَّ الفاكهة والشراب لأنها لم تكُنْ موجودة في البيئة التي نزل فيها القرآن ، فكان لها لذة عندهم ، فهم لا يعرفون في طعامهم

---

(١) عبقر : اسم موضع يزعم العرب أنه مسكن الجن ، ولذا نسبوا إليه كل شيء عجيب . وقيل: عبقر بلدة باليمن تُصنع فيها البُسط الموشَّاة وإليها يُنسب كل شيء حسن عجيب الصنعة . [القاموس القويم ٢/٥] .

إلا التمر والبُرّ والشعير ، فذكر لهم ما يشتهونه من الطعام والشراب .

وفى موضع آخر قال سبحانه : ﴿وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ (٢٠) وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ (٢١)﴾ [الواقعة]

وفى سورة البقرة يُبيِّن لهم أن فاكهة الآخرة تختلف عما يعرفونه من فاكهة الدنيا وإنْ تشابه الاثنان ، فالشكل واللون واحد ، لكن المذاق مختلف ، قال تعالى : ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٥)﴾ [البقرة]

إذن : الثمرة هى الثمرة ، تفاح مثل التفاح ، حتى أنك تقول : هذا الذى أكلتُه فى الدنيا ، والحقيقة أنه مختلف تماماً لأنه مُعَدٌّ لك بطلاقة القدرة .

وفى مواضع أخرى يوضح لنا القرآن الكريم مجلسَ أهل الجنة فيحدثنا مرة عن الفُرُش والمتكأ ، فيقول : ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ (١٣) وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ (١٤) وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ (١٥) وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ (١٦)﴾ [الغاشية]

النمارق جمع نمرقة ، وهى التكاية التى نتكىء عليها . والزرابى : جمع زربية ، وهى البساط المنقوش . وإذا حدَّثنا عن أدوات الشراب يقول مرة (أكواب) ومرة (أباريق) ومرة (كأس) .

هذه كلها أوعية للشراب ، لكن هناك فرقاً بين هذه الثلاثة : فالكوب هو الإناء الذى ليس له عُرْوة ولا خرطوم ، عروة يعنى يد يُمسك منها . والخرطوم هو الذى نسميه (البزبوز) الذى يُصَبُّ منه الماء ، فإنْ كان له عروة أو خرطوم سُمِّى إبريقاً ، فإنْ كان فى الكوب شرابٌ سُمِّى كأساً ، يعنى : الكأس هو الكوب إنْ كان ممتلئاً ، وإن كان فارغاً فهو كوب .

ومن عادات العرب فى الكاسات أن الواحد منهم لا يشرب كلَّ ما فيها ، إنما يُبقى فيها كمية من الشراب ، ثم يريقها على الأرض ، وفى هذا دلالة على عدم الشَّرَه وعدم الطمع ، أو دلالة على امتلاء العين والاستغناء .

وقد عَبَّر الشاعر[1] عن هذا المعنى بقوله :

وللأرْضِ مِنْ كَأْسِ الكِرَامِ نَصِيبُ[2]

وكنا قبل أن نذهب إلى طعام أحد الإخوان حين نُدْعَى إليه نأكل أكلةً خفيفة ، أو طبقاً نسميه طبقَ الكرامة ، حتى لا نجلس على الطعام ونحن متلهفون للطعام ، فلا يليق بالكريم أنْ يُقبِلَ على الطعام بشَرَهٍ ، كأنه لم يَرَ طعاماً من قبل .

ومن عادات العرب أيضاً فى شرابهم أنهم لا يملئون الكأس إلى آخرها ، حتى يستطيع الشارب أنْ يُميز الشراب من الكأس التى وُضِعت فيه ، وهذا يدل على صفاء الشراب أو صفاء الكأس .

لذلك قال شاعرهم :

لَوْلاَ انْتِصَافُ الكأْسِ خِلْنَا أنَّهاَ فِى كَفِّ سَاقِيهَا تقوم بِذَاتِها

يعنى : لو مُلِئت الكأس لَخِلْتَ أنها كأس بلا شراب ، أو شرابٌ بلا كأس .

---

(١) الشاعر هو : عبد الغنى النابُلسى ، شاعر عالم بالدين والأدب متصوف ، ولد فى دمشق عام ١٦٤١ م ونشأ بها ورحل إلى بغداد وفلسطين ولبنان ومصر والحجاز ، وتوفى بدمشق ١٧٣٠م عن ٨٩ عاماً ، له مصنفات كثيرة جداً منها تعطير الأنام فى تعبير المنام .

(٢) تمام البيت : شربنا وأهرقنا على الأرض جرعة وللأرض من كأس الكرام نصيب

وهو بيت من قصيدة من بحر الطويل ، عدد أبياتها ثلاثة أبيات .

لكن ماذا يطلب أهل الجنة بعد الاتكاء وبعد الأكل والشرب مما تشتهيه أنفسهم ، قالوا : الإنسان بعد أن تتوافر له هذه النعم يتطلع إلى حسناء يداعبها تكون له وحده لا يشاركه فيها غيره ، لذلك قال تعالى بعدها :

﴿ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾ ﴾

معنى ﴿ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ .. ﴿٥٢﴾ ﴾ [ص] أى : تقصر الواحدة منهن عينيها فلا تمتد إلى غير مالكها فلا يطمع أحد أن ينظر إليها ، والطرف أو العين لها أثر ولها كلام ولغة ، ومن ذلك قوله تعالى فى قصة يوسف عليه السلام : ﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ ﴾ [يوسف] إلى أن قال سبحانه حكاية عن يوسف : ﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾[يوسف]

فالقصة كانت مع امرأة واحدة هى امرأة العزيز ، فكيف يقول هنا ﴿ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ .. ﴿٣٣﴾ ﴾ [يوسف] و ﴿ كَيْدَهُنَّ .. ﴿٣٣﴾ ﴾ [يوسف] و ﴿ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ .. ﴿٣٣﴾ ﴾ [يوسف] هكذا بصيغة الجمع .

إذن : لا بُدَّ أنهن ساعةَ رأيْنَهُ نظرتْ إليه كُلٌّ منهن نظرة استدل منها على أنها تهواه ، فالنظرة إذن لغة تحمل كلاماً ، وتُعبِّر عما فى نفس صاحبها ، لذلك تكلم يوسف عنهن جميعاً ، لا عن امرأة العزيز وحدها . لذلك لما أراد العزيز أنْ يستدعيه قال : ﴿ مَا بَالُ النِّسْوَةِ

اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ .. ﴿٥٠﴾ ﴾ [يوسف] والكلام كان فى البداية عن امرأة العزيز .

ومن النظرات التى كانت لها دلالاتٌ فى أدبنا العربى ما حُكِى عن أبى دلامة[١] لما دخل على الخليفة[٢] وحوله الأعيان ، وأراد الخليفة أنْ يداعبَ أبا دلامة فقال له : يا أبا دُلاَمة ، لتهجونَّ واحداً منا أو لأقتلنَّكَ ، فوقف أبو دلامة يفكر فيما يقوله ، وجعل الحاضرون ينظرون إليه ، كُلٌّ يقول له بالنظرة لا تَهْجُنى ، ولك ما تشاء من العطاء ، فواحد يُرغِّبه وواحد يُرهِّبه .

وأخيراً ، رأى أبو دلامة أنْ يُرضِىَ الخليفة ويهجو نفسه طمعاً فيما ينتظره من عطاء هؤلاء الأعيان ، وفوجىء الجميع بأبى دلامة يقول[٣] :

أَلاَ أبلغ لديْكَ أبَا دُلاَمَةَ ... فَلَيْسَ مِنَ الكِرام وَلاَ كَرَامَه

إذَا لَبِسَ العِمَامَةَ كَانَ قِرْداً ... وَخِنْزِيراً إذَا نَزَعَ العِمَامَه

واغتنى أبو دلامة من جراء هذه الدعابة .

فمعنى ﴿قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ ﴾ [ص] أى : تَغضّ طرفها

---

(١) أبو دلامة هو : زند بن الجون الأسدى ، شاعر مطبوع من أهل الظرف والدعابة ، أسود اللون جسيم وسيم ، كان أبوه عبداً لرجل من أسد وأعتقه ، نشأ فى الكوفة ، واتصل بالخلفاء من بنى العباس فكانوا يستلطفونه ويغدقون عليه أعطياتهم ، وله فى بعضهم مدائح . كان يُتهم بالزندقة لتهتكه ، وأخباره كثيرة متفرقة . توفى عام ١٦١ هجرية .

(٢) هو : الخليفة المهدى العباسى ، محمد بن عبد الله أبو عبد الله ، المهدى بالله ، ولد ١٢٧ هـ وتوفى ١٦٩ عن ٤٢ عاماً ، أقام فى الخلافة ١٠ سنين ، كان محمود السيرة ، حسن الخُلُق والخَلْق ، كريماً ، بانى جامع الرصافة . (الأعلام للزركلى) .

(٣) البيتان من قصيدة من بحر الوافر ، عدد أبياتها ٤ أبيات ، وذكرهما أبو الفرج الأصفهانى فى الأغانى ، وابن عبد ربه فى العقد الفريد ، والنويرى فى « نهاية الأرب فى فنون الأدب».

عن غير مالكها ، وهذه للخصوصية المطلوبة فى المرأة بالذات ؛ لأنك تجد الرجل مهما كان سَمْحاً كريماً يجود بكل ما يملك على مَنْ يحب إلا المرأة ، فإنه لا يطيق مجرد أنْ ينظر أحد غيره إليها ، فهذه صفة للمؤمن فى الدنيا ، وهى أيضاً صفته فى الآخرة .

لذلك نقول : إن من عجائب ما يفعله الإيمان بأهله ومن مزاياه ، أنه لا يخلع العقائد من القلوب ولا الاختيار من العقول فحسب ، بل يخلع الاتجاه من العاطفة أيضاً ، وقد رأينا ذلك فى قصة المهاجرين والأنصار ، فالإيمان خلع من القلوب الكفرَ ، وخلع من العقول حُبَّ العناد فى الاختيار ، ثم خلع أقوى العواطف وهى عاطفة الرجل نحو امرأته .

ألم يَقُل الأنصارىُّ لأخيه المهاجر الذى جاء بغير أهله : انظر إلى زوجاتى ، فأيّهنّ أعجبتْكَ أطلقها لتتزوجها أنت[1] . إلى هذه الدرجة فعل الإيمانُ بالمؤمنين الأوائل .

ومعنى ﴿ أَتْرَابٌ (٥٢) ﴾ [ص] أى : متساويات فى الحُسْن أو فى السنِّ بحيث لا تميز منهن واحدة عن الأخرى ، فكُلُّهن جميلات فى

---

(١) آخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار بعد الهجرة إلى المدينة ، فكان أن آخى بين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع الأنصارى ، فقال له سعد : أخى أنا أكثر أهل المدينة مالاً فانظر شطر مالى فخذه . وتحتى امرأتان فانظر أيتهما أعجب إليك حتى أطلقها لك . فقال عبد الرحمن بن عوف : بارك الله لك فى أهلك ومالك ، دُلونى على السوق ، فدلوه على السوق فاشترى وباع فربح فجاء بشىء من أقط وسمن ، ثم لبث ما شاء الله أن يابث فجاء وعليه رَدْع من زعفران ، فقال رسول الله ﷺ : مهيم ؟ فقال : يا رسول الله تزوجت امرأة . قال : فما أصدقتها ؟ قال : وزن نواة من ذهب . قال : أولم ولو بشاة . قال عبد الرحمن : فلقد رأيتنى ولو رفعت حجراً رجوت أن أصيب تحته ذهباً أو فضة » . أخرجه ابن سعد فى كتاب « الطبقات الكبير» (٣/١١٦ ، ١١٧) ، وكذا الذهبى فى « سير أعلام النبلاء » (١/٩٢) .

سنٍّ واحدة ، وحُسْن واحد ، وقَوَام واحد ؛ لماذا ؟ قالوا : حتى تظل الأَعْيُنُ مقصورةً على ما تملك لا يطمع أحدٌ فى الأُخْريات ولا ينظر وتزوغ عينه على مَا ليس له ، فلو كانت النساء جميعهن على درجة واحدة ، فلمَ النظر إذن ؟

أو ﴿أَتْرَابٌ (٥٢)﴾ [ص] يعنى : مثله ومناسبة له تتقلب له فى الصورة التى يحبها .

وقوله سبحانه : ﴿هَـٰذَا .. (٥٣)﴾ [ص] أى : ما ذكرناه من الجنة ونعيمها ، هذا المذكور كله ﴿مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ (٥٣)﴾ [ص] لكن نوعد ممن ؟ نوعد ممَّنْ يملك إنفاذَ ما وعد به ، نعم لأنه سبحانه القادر العزيز الغالب ، ليس هناك قوة تعانده ، ولا قوة تعارضه فيما يريد .

فأنت تَعِد الوعد وفى نيتك الوفاء به ، هذا عند التحمل ، لكن أنت لا تملك عنصراً واحداً من عناصر الوفاء بما وعدتَ ، فيأتى وقت الوفاء فلا تُوف ؛ لأنه عَرَض لك عارضٌ حال بينك وبين الوفاء بما وعدتَ ، أما الحق سبحَانه فوَعْده حق ، لأن له طلاقةَ القدرة .

وقوله : ﴿لِيَوْمِ الْحِسَابِ (٥٣)﴾ [ص] أى : حساب المتقين ؛ لأن الحساب مطلقاً يشمل المؤمن والكافر والطائع والعاصى ، فالحساب هنا أى حساب أهل الإيمان ، كما قال سبحانه : ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ (٤٩)﴾ [ص]

ثم يقول سبحانه : ﴿إِنَّ هَـٰذَا .. (٥٤)﴾ [ص] أى : الذى ذكرناه ﴿لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ (٥٤)﴾ [ص] فلم يَقُلْ لرزقكم إنما ﴿لَرِزْقُنَا .. (٥٤)﴾ [ص] فكأنهم هم الذين يقولون ، وهم الذين يقرون أن ما هم

فيه من النعيم باقٍ لا ينفد ، لماذا ؟ لأنهم عاينوا صدْق الوعد ، وأن الله أدخلهم الجنة على الوَصْف الذى أخبرهم به ، فعلموا أن وعد الله حَقٌّ ، وأن نعيمه خالد بَاقٍ لا يزول .

وبعد أنْ تكلَّم الحق سبحانه عن المتقين الأخيار يتكلم بعدها عن الأشرار ، فالصورة الأولى ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ (٤٩)﴾ [ص] يقابلها :

﴿هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ (٥٥) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ (٥٦) هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ (٥٧) وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ (٥٨)﴾

قال هنا أيضاً (هذا) أى : الكلام السابق عن جزاء المتقين فى الجنة . وفى مقابله ﴿وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ (٥٥)﴾ [ص] لشرّ مصير وأسوأ منقلب ومرجع ، والمآب هنا أيضاً كالمآب السابق ، مآب إلى مَنْ أخذ عليهم العهد الأول ومنحهم إيمانَ الفطرة ، فكلُّ مولود يُولَد على الفطرة ، لكن هؤلاء لم يُوفوا بالعهد الذى أخذوه على أنفسهم ، إنما خالفوا ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ .. (١٧٢)﴾ [الأعراف]

وكما فَصَّلَ الحق سبحانه حُسْن المآب يُفصِّل هنا أيضاً شر المآب ، فيقول ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا .. (٥٦)﴾ [ص] أى : يصطلون بنارها ﴿فَبِئْسَ الْمِهَادُ (٥٦)﴾ [ص] أى : ساء . والمهاد : هو فراش الطفل الذى يمهد له لينام فيه نَوْمةً مريحة ، لكن ليس للطفل دَخْل فى إعداده إنما يُعدُّه له وليُّه الذى يتولى أمره ، كذلك هؤلاء الطاغون لا دَخْلَ لهم فى المهد الذى سيُلقون فيه .

إذن : استخدام المهد هنا على سبيل الاستهزاء والسخرية منهم . ﴿هَـٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ (٥٧)﴾ [ص] أى : يذوقوا العذاب (حَمِيم) هو الشىء الحار الذى تناهتْ حرارته ، و (غَسَّاق) هو صديد أهل النار الذى يسيل منهم فى جهنم والعياذ بالله ، تقول : غسقتْ عينه أى : سال دمعها .

لكن هل ينتهى العذاب بالحميم والغساق ؟ لا ، بل لهم ألوان أخرى من العذاب ﴿وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ (٥٨)﴾ [ص] آخر : يعنى عذاب آخر غير هذا ينتظرهم ﴿مِن شَكْلِهِ .. (٥٨)﴾ [ص] من مثله ومن جنسه ومن نوعه وتكوينه ﴿أَزْوَاجٌ (٥٨)﴾ [ص] أنواع وأصناف مختلفة ، وإلاَّ فأين المُهْل[1] ؟ وأين شجرة الزقوم التى طَلْعها كأنه رؤوس الشياطين ، وغيرها من ألوان العذاب الذى أعدَّه الله لهؤلاء الطاغين ؟

وبعد أن أعطانا الحق سبحانه هذه المقابلَة التوضيحية بين جزاء أهل الأخيار المتقين ، ومصير الأشرار الطاغين ، أراد سبحانه أنْ يُفرِّق بين صحبة الأخيار وصحبة الأشرار ، فصحبة الأخيار تعينك على الطاعة وتعينك على الخير ، وصحبة الأشرار تجرُّك إلى الشر وتدعوك إلى المعصية .

ففى المدارس مثلاً ، كم من تلميذ تفوق لأنه مَاشَى زميلاً له من أهل الخير أعانه على دروسه وحثَّه على المذاكرة وخَوَّفه من سوء العاقبة آخر العام إنْ أهمل ، وفى المقابل كم من تلميذ فشل لأنه صاحبَ الأشرار الذين أغروْه بالهروب من الحصص ، وأخذوه إلى

---

(١) المهل : المعدن المذاب والقطران وعكر الزيت المغلىّ والقيح ، قال تعالى : ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِى الْوُجُوهَ .. (٢٩)﴾ [الكهف]

الشارع ، وإلى السلوك غير المستقيم .

وفى النهاية ، لا بُدَّ أنْ يحمد المتفوق زميله الذى أخذ بيده إلى الخير ، ولا بدّ أن يذم الفاشل زميله الذى أغراه وأضلّه وضيَّع عليه الفرصة .

أراد الحق سبحانه أنْ يعطينا هذه الصورة ، فقال سبحانه :

﴿ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ﴿٥٩﴾
قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٦٠﴾
قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴿٦١﴾ ﴾

هذه الآيات تصور لنا موقفاً من مواقف القيامة دار بين أهل الشر الذين تعاونوا عليه واجتمعوا من أجله ، بين الأخلاء على الشر ، وهذا الحوار عناصره ثلاثة ، هم : الملائكة خَزَنة النار ، وزعماء الكفر الذين سبقوا إلى النار ، ثم أتباعهم من الذين أضلوهم ، يقول الملائكة لزعماء الكفر : ﴿ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ (٥٩) ﴾ [ص] يُنبهون أهل النار أن جماعة من أتباعكم قادمة إليكم .

ومعنى ﴿ مُّقْتَحِمٌ .. (٥٩) ﴾ [ص] يعنى : داخل النار بشدة وبسرعة ، لكن كيف يسرع الداخل وهو داخل إلى النار ؟ قالوا : لأنه لا يسير بإرادته ، إنما يُجبر على الحضور ويُدفع إلى الدخول رَغْماً عنه ، كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا (١٣) ﴾ [الطور]

والفوج هو الجماعة أو الطائفة كما نقول : فوج الحجاج ، أو فوج المسافرين .

فماذا قال زعماء الكفر الذين هم فى النار ؟ قالوا : ﴿ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ

إِنَّهُمْ صَالُواْ النَّارِ (٥٩)﴾ [ص] يعنى : لا سعةَ ولا تحيةَ ولا تكريم ، هكذا حال الأخلاء على شَرٍّ ، ففى الآخرة تنقلب هذه الخُلَّة وهذه الصداقة إلى عداء ، ويلعن كل منهم صاحبه ، المتبوع يلعن التابع ، والتابع يلعن المتبوع ، وها هم المتبوعون يقولون لأتباعهم : ﴿لا مَرْحَبًا بِهِمْ .. (٥٩)﴾ [ص] وعلام نرحب بهم ؟ أجاءوا لينقذونا مما نحن فيه ؟ أو حتى ليخففوا عنا ؟ إنهم جاءوا للنار وللاصطلاء بحرِّها.

فردَّ الفوج المقتحم الداخل على قادته وزعمائه الذين أضلوه : ﴿بَلْ أَنتُمْ لا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا .. (٦٠)﴾ [ص] أى : الكفر والضلال ، يعنى : أنتم غَشَشْتمونا وأضللتمونا وأخذتم بأيدينا إلى هذا المصير السيء ﴿فَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٨)﴾[المجادلة] الذى صرْتم وصرْنا إليه ﴿قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَـٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ (٦١)﴾ [ص]

وفى موضع آخر ، يُصوِّر القرآنُ هذا الموقفَ ، فيقول حكايةً عن الكافرين : ﴿رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاْ (٦٧) رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا (٦٨)﴾ [الأحزاب]

فطلبوا لهم ضعفين من العذاب ، لأنهم ضلُّوا فى أنفسهم ، ثم أضلُّوا غيرهم فاستوجب كل ضلال جزاءً ، إذن : لا بُدَّ أنْ يكونَ المتبوعُ أشدَّ عذاباً من تابعه ، والحق سبحانه لا يُعذِّب عبده بأكثر مما يستحق ، لكن هؤلاء يُضَاعَف لهم العذابُ ضعْفين من ناحية انفكاك الجهة ، فضعْف لأنه ضلَّ فى ذاته ، وضعْف لأنه أضلَّ غيره .

ومعنى : ﴿أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا .. (٦٠)﴾ [ص] أى : بالإغواء والتزيين وتحسين الضلال وتيسير سُبُله .

وفى موضع آخر فى سورة البقرة يُبيِّن الحق سبحانه أن الأخلاء

على الشر سيتبرأ كل منهم من الآخر : ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ (١٦٦) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً[1] فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ (١٦٧)﴾ [البقرة]

وما أشبه موقفهم هذا بموقف الشيطان حين يقول لأتباعه يوم القيامة : ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ[2] وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ .. (٢٢)﴾ [إبراهيم]

هذا إذن مصير الأخلاء على الشر ، تنتهى خُلَّتهم بالعداوة واللعن أما الأخلاَّء على الخير فهم أخلاء فى الدنيا أخلاء فى الآخرة ، وهذا المعنى واضح فى قوله تعالى : ﴿الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ (٦٧)﴾ [الزخرف]

كلمة أخلاء جمع خليل ، والخُلَّة تعنى أنهما تحابَّا فى الله ، اجتمعا عليه وتفرَّقا عليه ، تحابّا حُباً تعدَّى مرحلة اللقاء والعناق إلى أن ذوّب كلاً منهما فى الآخر ، وكأنه أحدث بينهما تداخلَ ذرات من جسم إلى جسم ، وهذا الذى عَبَّر عنه إسماعيل صبرى[3] رحمة الله عليه حين قال :

---

(١) الكَرّ : الرجوع . والكرَّة : البعث وتجديد الخَلْق بعد الفناء . [لسان العرب ـ مادة : كرر].

(٢) المصرخ : المغيث المنقذ مَنْ يستصرخه . والمصرخ : الذى يُزيل سبب الصَّريخ وسبب الصُّراخ . [القاموس القويم ١/ ٣٧٤] .

(٣) من شعراء الطبقة الأولى فى العصر الحديث ، امتاز بجمال مقطوعاته وعذوبة أسلوبه ، درس الحقوق بفرنسا ، وتدرج فى مناصب القضاء بمصر ، كان يكتب شعره على هوامش الكتب والمجلات ، وينشره أصدقاؤه خلسة ، رفض مقابلة كرومر وقال : لن أكون رئيساً للوزارة وأخسر ضميرى . ولد ١٨٥٤ م ، وتوفى ١٩٢٣ م عن ٦٩ عاماً .

وَلَمَّا التقَيْنَا قَرَّبَ الشَّوْقُ جُهْدَهُ خَلِيلَيْنِ فَاضَا لَوْعَةً وَعِتَابَا
كَأَنَّ حَبِيباً فى خلال حَبيبه تَسرَّبَ أَثْنَاءَ العِنَاقِ وَغَابَا(١)

لكن كيف يكون تحسين الضلال ؟ وكيف يقبل الناسُ الإغواءَ بالباطل ؟ قالوا : لأن أىَّ منهج من السماء لا بُدَّ أنْ يصادمَ شهوات النفس ونزواتها ، فحين تتغلب الشهواتُ والنزوات على الإنسان يلجأ إلى إله لا منهجَ له ولا أوامرَ ولا نواهىَ ، ومن هنا ضَلَّ الناسُ ، فعبدوا الأصنام والجمادات ، لأن عبادة مثل هذه الآلهة تُشعِرهم بالتديُّن الذى يميل إليه الإنسان بطبعه ، فهو إذن متدين .

وفى نفس الوقت ، ينفلت من قيود المنهج ، لأن إلهه لا يأمره بشىء ، ولا ينهاه عن شىء ؛ لأن العبادة كما قلنا : طاعة العابد للمعبود فى أمره ونَهْيه ، فالذين عبدوا الأصنام مثلاً أو الشمس أو القمر ، بماذا أمرتْهُم هذه الآلهة ، وعَمَّ نَهَتم ؟ ماذا أعدَّتْ هذه الآلهة لمن عبدها ؟ وماذا أعدَّتْ لمن كفر بها ؟

إذن : فهى آلهة باطلة ؛ لأن المعبود بحق له منهج افعل ولا تفعل ، عنده الثواب لمَن أطاع ، والعقاب لمن يعصى .

ثم يلتفت أهل النار لفتة أخرى :

﴿ وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴿٦٤﴾ ﴾

---

(١) البيتان من بحر الطويل ، وفى الموسوعة الشعرية شجيَّين بدلاً من خليلين .

﴿وَقَالُوا (٦٢)﴾ [ص] أى : أهل النار ﴿مَا لَنَا لا نَرَىٰ رِجَالاً .. (٦٢)﴾ [ص] يعنون أصحاب محمد الذين ﴿كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الأَشْرَارِ (٦٢)﴾ [ص] ، كما قال الكفار لسيدنا نوح عليه السلام : ﴿مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَراً مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ (٢٧)﴾ [هود] كذلك قال كفار مكة لأتباع محمد من العبيد أمثال بلال وخبّاب وغيرهم .

فزعماء الكفر فى النار ينظرون حولهم ، فلا يجدون هؤلاء الأشرار - معهم - فيتعجَّبون ﴿مَا لَنَا لا نَرَىٰ رِجَالاً كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الأَشْرَارِ (٦٢)﴾ [ص] أين هم ؟ فالحال أنَّا لا نراهم ، ثم يعودون إلى أنفسهم فيقولون : ﴿أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا .. (٦٣)﴾ [ص] يعنى : سخرنا منهم ، وقلنا : إنهم أشرار وهم ليسوا أشراراً ، فمصيرهم غير مصيرنا ﴿أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الأَبْصَارُ (٦٣)﴾ [ص] يعنى : هم موجودون معنا ، لكن زاغتْ أبصارنا فلا نراهم .

وكلمة (سِخْرِيّاً) من السخرية والاستهزاء ، أما سُخرياً بالضم فهى بمعنى الاستغلال والاستذلال من التسخير فى الأعمال . ومعنى ﴿زَاغَتْ عَنْهُمُ الأَبْصَارُ (٦٣)﴾ [ص] يعنى : مالتْ عنهم ، وقولهم ﴿مَا لَنَا لا نَرَىٰ .. (٦٢)﴾ [ص] مثل قول سيدنا سليمان فى قصة الهدهد : ﴿مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ .. (٢٠)﴾ [النمل] فالمعنى أن الهدهد لا بُدَّ أنْ يكونَ موجوداً ، لكن المانع عندى فى أنْ أراه ، ثم استدرك فقال : ﴿أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ (٢٠)﴾ [النمل]

ثم يقول سبحانه : ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ (٦٤)﴾ [ص] ولا بدَّ أنْ يتخاصمَ أهلُ النار لأنهم إما ضَالٌّ وإما مُضِلٌّ فيُلقى كل

منهم اللومَ على الآخر ساعةَ يرى المصير الذى صاروا إليه ، ثم مَن الذى أخبرنا بهذا التخاصم ، أخبرنا به القرآن الكريم ، والقرآن لم يَقُلْ قضية وخالَفها الواقع .

ولك أنْ تلاحظ هذه الحقيقة من واقع القرآن مع المجتمع منذ بَعْث محمد ﷺ إلى عصرنا الحالى ، أأخبر الحق سبحانه بقضية ، وجاء الواقع مخالفاً لها ؟ ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً .. (٤٣)﴾ [فاطر]

فمثلاً فى بدر انتصرنا عليهم وقتلنا منهم قَتْلى وأخذنا أَسْرى ، ولم يمر عام واحد حتى جاءتْ أُحُد ، وفيها سار الكفار من مكة إلى مقربة من المدينة ، وكانت المؤشرات تدل على انتصار المسلمين ، لكنهم خالفوا منهج الله فى عدم طاعتهم أمر رسولهم .

وقد كان رسول الله قد أمر الرُّماة ألاّ يتركوا أماكنهم مهما حدث.

فلما رأى الرماة تفوُّق المسلمين وشاهدوا بوادر النصر سالَ لعابهم على الأسْلاب والغنائم ، فنزلوا إليها ، وتركوا أماكنهم ، فاستغلَّ الكفارُ الفرصةَ ، والتفُّوا حول المسلمين ، وفعلاً (ماعت) المعركة وإنْ كنا لم نُهزم ، إلا أننا لم ننتصر ، مع أن الله تعالى وعد رسله بالنصر ووعد جنده بالغلبة ، فقال سبحانه : ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣)﴾ [الصافات]

ومع ذلك كان عدم النصر فى أُحُد ظاهرة صحية فى الإيمان ؛ لأن المسلمين لو انتصروا مع المخالفة لأمر الرسول لَهَان عليهم أمره بعد ذلك ، ولقالوا : خالفناه فى أُحُد وانتصرنا ، فإذا رأيتَ جندياً للإسلام يُهزم فاعلم أنه خالف التوجيه ، إما خالف توجيه الرسول ، أو خالف توجيه القائد الموكَّل من الرسول .

إذن : سنة الله فى النصر لم تتخلف ، إنما تخلفتْ الجندية لله تعالى ؛ لذلك قُلْنا فى أُحُد لم ينتصر المسلمون ، لكن انتصر الإسلام وانتصرتْ أوامره .

كذلك حذَّرنا الحق سبحانه من الغرور والزَّهْو بالقوة وكثرة العدد ، لأن النصر فى الحقيقة ليس بكثرة عددكم ، إنما النصر من الله ، وهذا الدرس أخذناه فى غزوة حنين ، فأبو بكر نفسه داخله شىء من ذلك حين رأى أعداد المسلمين مقارنةً بأعداد الكافرين ، فقال : لن نُهزم اليوم من قلَّة[1] ، فأعطاهم الله درساً لا يُنْسَى ، وكاد النصر أنْ يكون للكفار ، لكن أدركتهم رحمة الله ، وحَنَّ الله عليهم فى نهاية المعركة وحُسِمتْ لصالح الإسلام .

---

(١) قال تعالى : ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا .. ﴿٢٥﴾﴾ [التوبة] . وقد ذكر ابن هشام فى السيرة النبوية (٤/٧٣) أن محمد بن إسحاق قال : حدثنى بعض أهل مكة أن رسول الله ﷺ قال حين فصل من مكة إلى حنين ، ورأى كثرة مَنْ معه من جنود الله : « لن نُغلب اليوم من قلة » وزعم بعض الناس أن رجلاً من بنى بكر قالها .

إذن : فالزَّهْو والغرور مخالف لقواعد الجندية فالنصر ليس بالعدد ولا بالعُدَّة ، إنما النصر من الله كما قال سبحانه : ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ (١٤)﴾ [التوبة]

وقال : ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ .. (١٧)﴾ [الأنفال]

إذن : نقول ما دام أن الله أخبرنا بتخاصم أهل النار فهو حقٌّ واقع نؤمن بصدقه .

ثم أراد الحق سبحانه أن يعطى نبيه ﷺ حجَّة ، فقال :

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ (٦٥) رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّـٰرُ (٦٦)﴾

نفهم هذه الآيات فى ضوء ما حكاه القرآن فى أول السورة من تكذيب الكافرين لرسول الله ، ففى الآيات الأولى من السورة قال تعالى : ﴿وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَـٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٤) أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَـٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَـٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ (٥)﴾ [ص] إلى أنْ قالوا : ﴿أَؤُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ (٨)﴾ [ص]

إذن : الآيات فى صدر السورة تبين أن هؤلاء القوم عندهم خَلَل فى قضيتين الأولى فى قضية التوحيد ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَـٰهًا وَاحِدًا .. (٥)﴾ [ص] والأخرى : قضية النبوة ﴿أَؤُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا .. (٨)﴾ [ص]

فجاءت هذه الآيات لتردَّ عليهم ولتصحح هذا الخلل ، فقال هنا :

(قل) يا محمد ﴿إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ .. (٦٥)﴾ [ص] واختار هنا الإنذار مع أن الرسول ﷺ جاء بشيراً ونذيراً ، لأن الكلام هنا فى مواجهة الكافرين ، فناسبهم الإنذار ، وفى القضية الأخرى يقول سبحانه : ﴿وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلاَّ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٦٥) رَبُّ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (٦٦)﴾ [ص]

﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا عَظِيمٌ (٦٧) أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ (٦٨) مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٦٩) إِن يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٧٠)﴾

معنى (نَبأ) هو الخبر الهام الذى وراءه حقائق لا يُكذِّبها الواقع.

وقال فى سورة (النبأ) : ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (١) عَنِ النَّبَأِ الْعَظِيمِ (٢)﴾ [النبأ] ووصف بأنه عظيم لأنه سيترتب عليه أمران يتعلقان بالدنيا والآخرة . فإنْ كنتَ أخذت حظك فى اتباع شهواتك فى الدنيا ، والدنيا لها نهاية ، فستصلَى فى الآخرة ناراً لا نهاية لها .

وكان عليك أنْ تتنبه لهذه المسألة ؛ لأن الإنسان لا بُدَّ له أنْ يحدد غايته فى الوجود ، والغاية الحقيقية هى التى ليس بعدها بَعْد ، أما الغاية التى بعدها بَعْد فليست بغاية ، بل هى مرحلة تؤدى إلى ما بعدها ، كالتلميذ ينجح فى القبول مثلاً ، فيؤدى به النجاح إلى الإعدادية ، والنجاح فى الإعدادية يؤدى به إلى الثانوية ، والثانوية إلى الجامعة .

وهكذا حتى لو أخذ الدكتوراه فإنه ينتقل إلى ما بعدها من مراحل ثم الموت ، حتى الموت ليس هو نهايةَ المطاف إنما بعده ، إما إلى

نار وإما إلى جنة ، وهذه هى الغاية التى ليس بعدها بعد ، لأنها باقية خالدة لا نهاية لها .

لذلك الحق سبحانه يُنبهنا إلى هذه الغاية (قل) يا محمد ﴿هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ (٦٧) أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ (٦٨)﴾ [ص]

وكلمة مُعرِض يعنى : منصرف هى التى نقول عنها : فلان أعطانى عرض أكتافه يعنى : مال عنى وانصرف ، وهذه الكلمة تمثيل لواقع الناس حين يُدْعَوْنَ للإنفاق ، وحين يُدْعَوْنَ لعمل الخير ، فمنهم مَنْ يُعرض عنه ، ويكون الإعراض على مراحل : أولاً يميل عنك بوجهه ويلوى رقبته ، ثم يعطيك جنبه ، ثم يبالغ فيدير لك ظهره .

وقد صور لنا القرآن هذا المشهد ، فقال سبحانه فى وصف عاقبة الإعراض عن الإنفاق فى سبيل الله : ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤) يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ .. (٣٥)﴾ [التوبة]

هكذا يكون الجزاء من جنس العمل ، وبنفس ترتيب الإعراض فى الدنيا ، يكون الكى فى الآخرة ﴿هَـٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ (٣٥)﴾ [التوبة]

إذن : الأعضاء التى اشتركتْ فى الإعراض هى التى ستُكْوى ، وعلى قَدْر الإعراض يتسع الكَىّ .

ثم أراد الحق سبحانه أن يُدلل على أن محمداً لا يعلم الغيب ، فقال : ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٦٩)﴾ [ص] لأنه سبحانه سبق أنْ تكلم عن تَخَاصُم أهل النار ، فقال : ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ (٦٤)﴾ [ص] وقد أوضح سبحانه تخاصم الملأ الأعلى

من الملائكة فى المبدأ ، حين قالوا للحق سبحانه : ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ .. ﴿٣٠﴾﴾[البقرة] هذا هو خصامهم ، لا أنهم يتخاصمون كما يتخاصم البشر ؛ لأن الله قال عنهم : ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنبياء]

إنما سمَّى الحوار الذى دار بينه سبحانه وبين الملائكة (تخاصم) ، فكأنهم يغارون على الله أنْ يخلق خَلْقاً آخر هم البشر يعصونه ويفسدون فى الأرض ، كما أفسدتْ الجنُّ من قبل .

ثم يُبيِّن سبحانه أن محمداً لا يعلم الغيب ، إنما يخبره اللهُ به وَحْياً : ﴿إِن يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلاَّ أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾﴾ [ص] فالذى أعلمنى بما سبق يعلمنى بما هو آتٍ ، وهذا تَرقٍّ فى علم الغيب .

والغيب له ستار يحجبه عنا ستار يحجب الماضى وستار يحجب المستقبل ، يحجب الماضى الزمن لأن الزمن القديم مثلاً لم يكن فيه تدوين لأحداثه ، ولو كان فيه تدوين فهو تدوين مزيف ، لأنه رأى البشر فيما حدث ، وآراء البشر لا بُدَّ أن تختلف .

كذلك يحجب المستقبل زمنَ المستقبل ، فأنت لا تعلم ما سيحدث مستقبلاً ، أما الحاضر الذى نعيشه فزمنه واحد لكن مكانه مختلف ، فحجابه المكان ، فأنت تعلم الآن ما يحدث فى مكانك ، لكنك لا تعلم ما يحدث فى الأماكن الأخرى .

فالمعنى أن الذى أخبرنى أولاً بأن الملائكة قالت كذا وكذا هو الذى أخبرنى بتخاصم أهل النار ، إذن : فهو حق .

وقال هنا أيضاً ﴿نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾﴾ [ص] أى : واضح ، لأن

الحديث ليس للمؤمنين أهل البشارة ، إنما للمخالفين فناسبهم ﴿أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٧٠)﴾ [ص]

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ (٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ (٧٢) فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٧٣) إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ (٧٤)﴾

هذا الكلام جاء من الحق ـ سبحانه وتعالى ـ للملائكة على سبيل الإخبار ، لكن فهموا هم أنه استشارة ، وأن الخالق سبحانه يستشيرهم فى مسألة خَلْق الإنسان ؛ لذلك قالوا ما قالوه ، وكان عليهم أنْ يتنبهوا إلى أن المسألة مبتوتٌ فيها ، وأنها قضية منتهية ؛ لأن الله أخبر بها بقوله : ﴿إِنِّى خَٰلِقٌ .. (٧١)﴾ [ص] هكذا بلفظ التوكيد.

وهنا لا بُدَّ أنْ نشيرَ إلى أن البعض يحاول الاستدراك على كلام الله فى مسألة خَلْقِ الإنسان من طين ، يقولون : إن القرآن قال مرة : من طين. ومرة : من ماء . ومرة : من حمأ مسنون . ومرة : من صلصال ، والواقع أن هذه مراحل للشىء الواحد وليست اختلاف بدايات مأخوذ منها ، فالتراب حين يوضع على الماء يصير طيناً ، فإذا تُركَ الطين حتى عطن وتغيَّرت رائحته ، فهو الحمأ المسنون ، فإذا جَفَّ وتصلَّب فهو صَلْصَال كالفخار .

ولما خلق الله الإنسان خلقه من الطين ، بمعنى أنه جامع لكل عناصر التربة السوداء والصفراء والرملية .. إلخ وقد توصَّل العلماء

إلى أن هذه التربة هى الصالحة للزراعة ، لأن الطينة أو التربة إنْ كانت متماسكة تمسك الماء تحت الجذر فيمور ويذبل النبات ، وإن كانت رملية تسرب فيها الماء قبل أنْ يمتصَّه النبات .

إذن : نحتاج إلى تربة بين بين ، بحيث تمسك الماء بالقدر الذى يتيح للنبات أنْ يستفيد منه ويمتص عناصر الغذاء ، ثم يتسرَّب الباقى فلا يضر بالجذور.

كما توصل العلماء إلى أن عناصر جسم الإنسان عبارة عن ١٦ عنصراً ، تبدأ بالاكسوجين بنسبة ٦٧٪ وهى أعلى نسبة وتنتهى بالمنجنيز . وأن الطين يحتوى على نفس هذه العناصر الستة عشر ، وهذا يثبت صدْق الحق سبحانه فى خلْق الإنسان من الطين .

ومعنى ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ .. (٧٢)﴾ [ص] يعنى : صوَّرْتُ قالبه وشكله ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي .. (٧٢)﴾ [ص] يعنى يصير مخلوقاً كاملاً تدبّ فيه الحياة ويتحرك ﴿فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٧٢)﴾ [ص] أى : خرّوا ساجدين، ليس سجودَ عبادة ، إنما سجود طاعة لصاحب الأمر بالسجود .

إذن : سجود الملائكة لم يكن لآدم ذاته ، إنما كان لله الذى خلق آدم وأمر الملائكة أنْ تسجدَ له ، ومعنى تسجد له كما تقول : أنا أسجد للقبْلة ، فالسجود ليس للقبلة ذاتها إنما ناحيتها . ﴿فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٧٣) إِلاَّ إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٧٤)﴾ [ص]

﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ (٧٥)﴾

المتتبع لهذه القصة يجد أن القرآن استوعبها فى سبع سور ، لكن بأسلوب مختلف فى كل منها ، فمرة قال : ﴿أَبَىٰ .. (٣١)﴾ [الحجر]

ومرة قال : ﴿ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ .. ﴿٣٤﴾ ﴾ [البقرة]

المسألة الأولى التى أردنا توضيحها فى هذه القصة أن الحق سبحانه لم يجعل الجنة التى خرج منها آدم إلى الأرض هى جنة المأوى ، لأنه لم يُخلق للجنة ثم خرج منها بمعصيته ، إنما خُلق آدم للخلافة فى الأرض ، وفى أول بلاغ عنه من الله قال تعالى : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً .. ﴿٣٠﴾ ﴾ [البقرة]

إذن : هو مخلوق للأرض ، ونظراً لأنه أبو البشر جميعاً ، والبشر على صنفين : صنف معصوم هم الرسل ، وصنف غير معصوم هم عامة الناس ، فكان ولا بُدَّ أنْ يتمثَّل فى آدم ما ثبت للصنفين ، عصى آدم أولاً ، ثم اجتباه ربه وتاب عليه وعصمه الله بعدها ، إذن : لم يَعْص آدم وهو نبى ، إنما عصى قبل النبوة .

والحق - سبحانه وتعالى - لما عرض هذه المسألة وقال : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً .. ﴿٣٠﴾ ﴾ [البقرة] لم يشأ سبحانه بعدالته ورحمته أنْ يُنزلَ آدم إلى الأرض ليعمرها بغير منهج من المناهج التى تُصلح حركةَ الحياة ، ولم يشأ أنْ يُجرِّب فيه التكليف الأول ، فصنع له قطعة من الأرض فيها كل مقومات الحياة وترفها ، وأسكنه إياها ليدربه على التوجيه والتكليف بافعل ولا تفعل .

فأباح له أنْ يأكل من كل ما فى هذا البستان إلا شجرة واحدة نهاه عن مجرد الاقتراب منها ، ليمثل له الإباحة فيما أحل والحظر فيما منع ، ثم ذكَّره بعداوة الشيطان له وحذَّر منه ومن وسوسته .

لكن أغوى الشيطانُ آدمَ ، فأكل من الشجرة التى نُهى عنها ، وحدثتْ منه المخالفة التى ترتب عليها ظهور عورته لأول مرة ، وهنا إشارة رمزية إلى أن العورات لا تظهر فى المجتمع إلا بمخالفة منهج الله .

ثم نقف أيضاً عند ﴿ وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ .. (٣٥) ﴾ [البقرة] فلم يقل سبحانه : ولا تأكلا من هذه الشجرة ، بل نهى عن مجرد قربها ، لأن من حام حول الحمَى يُوشك أنْ يواقعه .

لذلك تجد الحق سبحانه حين يحدثنا عن الحدود التى أحلها الله لنا يقول : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا (٢٢٩) ﴾ [البقرة] أما فى الحدود التى حرّمها فيقول : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوهَا (١٨٧) ﴾ [البقرة]

ونلحظ فى الآية التى معنا قوله تعالى : ﴿ يَـإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ .. (٧٥) ﴾ [ص] وفى الأعراف قال : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ .. (١٢) ﴾ [الأعراف] فمرة بالإثبات ومرة بالنفى . والمعنى واحد ، لأن المتكلم بهذا الكلام هو الله رَبُّ العالمين ، معنى ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ .. (٧٥) ﴾ [ص] يعنى : أردتَ أنْ تسجد ، فعرض لك عارض ، أما ﴿ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ .. (١٢) ﴾ [الأعراف] يعنى : أمَنعكَ مانع فلم تسجد قهراً عنك؟

وقوله : ﴿ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ .. (٧٥) ﴾ [ص] بيان لشرف هذا المخلوق ، ويكفى فى شرفه أن الله تعالى نسب خَلْقه إليه سبحانه مباشرة ﴿ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥) ﴾ [ص] يعنى : السبب الذى دعاك إلى عدم السجود إما استكبارك أنْ تسجدَ لآدم ، أم كنتَ من العالين ؟

وقد اختلف العلماء فى معنى العالين ، بعضهم[1] قال : من الطاغين المتكبّرين الذين أعرضوا عن أحكام الله ومنهجه استكباراً ،

---

(١) قاله القرطبى فى تفسيره (٨ / ٥٨٧١) : « أى : المتكبرين على ربك » . وقال ابن الجوزى فى زاد المسير (تفسير سورة ص) : « أى من قوم يتكبرون فتكبرت عن السجود لكونك من قوم يتكبرون » . وقد قال الطبرى فى تفسير الآية : « أتعظمت عن السجود لآدم فتركت السجود له استكباراً عليه ولم تكن من المتكبرين العالين قبل ذلك أم كنت من العالين يقول : أم كنت كذلك من قبل ذا علو وتكبر علي ربك » .

ومن ذلك قوله تعالى فى فرعون : ﴿ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ (٨٣) ﴾ [يونس] وقال سبحانه : ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (٨٣) ﴾ [القصص] أى : عُلُواً على أحكام الله ، وعلى أوامر الله .

وقال آخرون : معنى العالين هم نوع من الملائكة ، والذين لم يشملهم الأمر بالسجود لآدم ، فالمأمور بالسجود هم الملائكة الذين لهم علاقة بهذا المخلوق وهم المدبِّرات الذين قال اللهُ عنهم ﴿ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا (٥) ﴾ [النازعات] والمعقِّبات الذين قال الله فيهم ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ .. (١١) ﴾ [الرعد] هؤلاء هم الذين أمروا بالسجود . أما العَالُون فهم ملائكة لا عملَ لهم إلا تسبيح الله ، ولا صلةَ لهم بهذا الكون ، ولا يدرون عنه شيئاً .

فالمعنى ﴿ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥) ﴾ [ص] أى الذين لم يشملهم الأمر بالسجود ، وهذا المعنى أقرب للصواب ، لأن الله تعالى قال قبلها : ﴿ أَسْتَكْبَرْتَ.. (٧٥) ﴾ [ص] فلا نفسر العالين بعدها بمعنى المتكبرين ، لأنها تؤدى نفس المعنى الأول .

وهنا ينبغى أنْ نشيرَ إلى اختلاف[1] العلماء حول طبيعة إبليس ، حيث قال بعضهم : إنه من الملائكة . وقال آخرون : من الجن . أصحاب الرأى الأول يعتمدون على قوله تعالى :﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ (٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٧٢) ﴾ [ص] فقالوا : إذن إبليس من الملائكة لأن الأمر وُجِّه إليهم ، والدليل على ذلك أنه لما خالف وامتنع عن السجود عُوقِب ، فهو إذن

---

(١) ذكر الطبرى فى تفسير الآية ٥٠ من سورة الكهف أقوال واختلافات العلماء فى طبيعة إبليس وأنه كان من قبيلة يقال لهم الجن . وآخرون قالوا : كان من خزان الجنة . وآخرون قالوا : سمى جناً لأنه استجن عن أعين بنى آدم .

داخل فى الأمر ، والله سبحانه لم يأمر إلا الملائكة ، فلو لم يكُنْ من الملائكة لم يُعاقَب .

ونقول فى الرد على أصحاب هذا الرأى : لا بُدَّ أنْ نُفرِّق بين الدليل بالالتزام أو الاستنباط ، وبين دليل النص ، فإذا وُجِدَ نَصٌّ فلا مجالَ لدليل الالتزام أو الاستنباط ، وقد قال الحق سبحانه فى سورة الكهف : ﴿ إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ (٥٠) ﴾ [الكهف] فكيف تُصرِّح الآية بأنه من الجن ونقول نحن : إنه من الملائكة ؟

أما لماذا آخذه الله على عدم السجود إنْ كان من الجن ؟ نقول : لأن الملائكة مقهورون على الطاعة ، فهى غريزة فيهم ﴿ لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٦) ﴾ [التحريم] أما الإنس والجن فهم مُخيَّرون بين الإيمان أو الكفر ، وبين الطاعة أو المعصية ، فإذا جاء منهم مَنْ ألزم نفسه بالطاعة بحيث لا يعصى فهو أفضل من الملائكة ، لأن الملائكة مقهورون على الطاعة أما هو فطائع باختياره وهو قادر على المعصية .

إذن : أخذ هذه الأفضلية ، لأنه حمل نفسه على أن يطيع ، وقد كان إبليس فى هذه المنزلة حتى قيل : إنه طاووس[1] الملائكة لأفضليته عليهم ، فلما صدر الأمر للملائكة شمله أيضاً ، لأنه إنْ كان أعلى منزلة من الملائكة وحالة الطاعة ، فكان عليه أنْ يطيعَ الأمر ، وإنْ كان أقلَّ من الملائكة ، فالأمر للأعلى يستلزم الأمر للأدنى .

ومثَّلْنا لهذه المسألة قلنا : إذا دخل رئيس الجمهورية فوقف له الوزراء ، فوقوف وكلاء الوزراء من باب أوْلَى ، وبذلك نحسم هذا

---

(١) ذكر الطبرى فى تأويل (الكهف : ٥٠) عن ابن عباس أن إبليس كان من أشراف الملائكة وأكرمهم قبيلة وكان خازناً على الجنان وكان له سلطان السماء الدنيا وسلطان الأرض . أما الحسن البصرى فقد قال : ما كان إبليس من الملائكة طرفة عين قط وإنه لأصل الجن ، كما أن آدم أصل الإنس .

الخلاف بعيداً عن الجدل الذى لا طائل منه .

وقوله تعالى :﴿ فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٧٣) إِلاَّ إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٧٤) ﴾ [ص] دليل على أنه مخلوق مختار ، كالإنسان يطيع ويعصى ، كما قال تعالى : ﴿ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ...(٢٩) ﴾ [الكهف]

ثم يحكى الحق سبحانه قولَ إبليس فى الردِّ على ربه عز وجل :

﴿ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ (٧٦) ﴾

نعم ، خُلق آدم من الطين ، وخُلق إبليس من النار ، لكن مَنْ قال إن الطين أقلُّ من النار ، أو أن النار أعلى من الطين ، لأن المخلوق لا يأخذ منزلة وميزة بجنسه ، إنما يأخذ مَيْزته ممَّن خلقه ، إذن : ليس هناك جنس أعلى من جنس ، لأن الله خلق الجميع ، وجعل لكل منهم مهمة فى الحياة ، فهم فى الخَلْق لله سواء .

لذلك قلنا : إن الله تعالى جعل الأسبابَ للمؤمن وللكافر عطاء ربوبية ، لكن لما آمن المؤمن خَصَّه الله بعطاء آخر ، هو عطاء الألوهية فى العبادة .

فإبليس لما خالف أمر الله ، وادَّعى هذه الخيرية على آدم :

﴿ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٧٧) وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ (٧٨) ﴾

الرجيم : المطرود من رحمة الله ، المحروم من كل خير ، ثم تأكد هذا المعنى فى ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ (٧٨) ﴾ [ص] إلى يوم القيامة . فردَّ إبليس بعد أنْ لعنه الله وطرده من رحمته :

﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٧٩) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (٨٠) إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٨١) ﴾

يقول إبليس لرب العزة : ﴿ فَأَنظِرْنِي .. (٧٩) ﴾ [ص] أى : أخِّر أجلى، إذن : فهو يعلم أن لكلٍّ أجلاً محدداً لا يتجاوزه ، وقولْ إبليس لربه : ﴿ فَأَنظِرْنِي .. (٧٩) ﴾ [ص] يفضح قوله لآدم لما أراد أنْ يُغويه بالأكل من الشجرة ﴿ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ (١٢٠) ﴾ [طه] فلو كانت شجرة الخلد حقاً ، فلماذا تطلب من ربك أنْ يُؤخِّر أجلك ؟ ودلَّ ذلك أيضاً على غفلة آدم ، فلو تنبَّه إلى هذه المسألة ما أكل من الشجرة .

ونفهم أيضاً من ذلك أن إبليس نفسه (المعلم الكبير) هو الذى تولَّى غواية آدم ، ولم يترك هذه المهمة لواحد من ذريته ، لماذا ؟ قالوا : لأن آدم أصبح فى صَفِّ الملائكة ، فلا يناسبه شيطان صغير من الذرية ، إنما الكبير إبليس .

ثم يجيب الحق - سبحانه وتعالى - إبليسَ فيما طلب ، فيقول له: ﴿ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (٨٠) ﴾ [ص] المؤخَّرين ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٨١) ﴾ [ص] أى : إلى يوم القيامة .

﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣) ﴾

دلَّتْ هذه الآية على أن العداوة ليست بين إبليس وربه ، إنما بين إبليس وبنى آدم ، ودلَّتْ على أن إبليس عرف كيف يُقسم حين قال : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ .. (٨٢) ﴾ [ص] أى : بعزتك يا رب عن خَلْقك وغِنَاك عنهم

وعن طاعتهم وإيمانهم ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ .. (٢٩)﴾ [الكهف]

فمن هذا الباب دخلتُ إليهم ، ومن هذا الباب لأغوينهم أجمعين ، فأنا لا آخذهم منك يا رب ، ومَنْ تريده منهم لا أستطيع الاقتراب منه ، بدليل قوله بعدها : ﴿إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣)﴾ [ص] إذن : عِزّتك عنهم هى التى أطمعتنى فيهم .

﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ (٨٤) لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٥)﴾

الكلام هنا لله عز وجل ﴿قَالَ فَالْحَقُّ .. (٨٤)﴾ [ص] أى : ما نصنع لك هو الحق ﴿وَالْحَقَّ أَقُولُ (٨٤)﴾ [ص] أى : أنا لا أقول إلا الحق ، ولا يُطلب منى إلا الحق لأنِّى أنا الحق ، ثم يُبيِّن سبحانه الحقَّ المراد الذى قاله الله وقضى به : ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٥)﴾ [ص] أى : منك ومن ذريتك ومِمَّنْ تبعك منهم ، أى : من أمة محمد أى : أمة الدعوة ، وهى من آمن أو كفر .

قالوا : أهذا حكم مُسْبق من الله تعالى على الخَلْق الذين سيجيئون بعد؟ ولو كان الأمر كذلك فالمسألة قهر وإجبار ، والحقيقة أن الله تعالى كتب عليهم هذا بعلمه بما سيكون منهم باختيارهم لا بقهره لهم على أنْ يفعلوا ، فلعلمه بما سيكون كتب ، وليس فى المسألة قهر ولا إجبار .

وقد مثَّلْنَا لهذه القضية – ولله تعالى المثل الأعلى – قلنا : إن المعلم فى الفصل يستطيع من خلال علمه بمستوى التلاميذ أن يحدد نتائجهم فيقول : فلان سينجح وفلان سيرسب ، فلعلمه بمستواهم الدراسى حكم عليهم ، ولا دخل له فى الامتحان ولا فى تصحيحه .

﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾﴾

(قُلْ) أمر لرسول الله ﷺ ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ..(٨٦)﴾ [ص] ولو قال : ما أسألكم عليه أجراً لاستقام المعنى أيضاً ، لكن قوله : ﴿مِنْ أَجْرٍ..(٨٦)﴾ [ص] من هنا دلَّتْ على أقل ما يُقَال له أجر ولو كان جنيهاً واحداً ، أو قرشاً واحداً ، فمن هنا نفت مطلق الأجر ، أما كلمة أجر فهى تعنى أجراً مُجْزياً يُعْتَدُّ به ولا تمنع وجود الأجر القليل ، كما تقول : ما عندى مال ، وما عندى من مال أى : من بداية ما يُقال له مال . ولو كان قرشاً واحداً .

وكَوْنُ الحق سبحانه يقول لنبيه ﷺ : قُلْ لهم يا محمد ما أسألكم عليه من أجر ، كأنه يقول لهم : يا قوم إنَّ ما جاءكم به محمد عمل نافع لكم فى دينكم وفى دنياكم ، وكان الواجب عليكم أنْ تُعطوه أجراً عليه ، إذن : هو يستحق الأجر لكن لن يسألكم إياه لأن ما يقدمه لكم لا يستطيع بشر أنْ يُؤدّىَ حقه أو يدفع ثمنه ، فأجره لا يأخذه إلا من الله ، فهو وحده القادر على أنْ يجازيه ، وأنْ يُعوِّضه عما قدَّم.

إذن : محمد ﷺ يستحق على هداية القوم وتبليغهم منهج ربهم أجراً ، وهو غير زاهد فى هذا الأجر ، إنما يريد أنْ يُقوِّم هذا العمل بتقويم الذى أرسله بهذه الرسالة .

وهذه العبارة ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ..(٨٦)﴾ [ص] سنة لازمة لجميع الأنبياء ، فكلهم قالوها لأقوامهم عدا سيدنا إبراهيم وسيدنا موسى عليهما السلام ، لماذا ؟

قالوا : لأن سيدنا إبراهيم أول ما دعا إلى الإيمان بالله ووحدانيته دعا أباه آزر ، ولا ينبغى له أن يطلب أجراً من أبيه ، كذلك سيدنا موسى أول ما دعا إلى الإيمان دعا فرعون الذى ربَّاه وأحسن إليه ، فكيف يقول له : أعطنى أجرى .

وقوله سبحانه : ﴿ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ [ص] المتكلِّف : هو المتصنِّع الذى يُظهر شيئاً فوق قَدْره المنوط به ، ومن ذلك قول النبى ﷺ : « لا تتكلفوا للضيف فتبغضوه »[1] يعنى : لا تُحمِّلوا أنفسكم فوق طاقتها ، كالذى يقترض ليقوم بواجب الضيافة ، ثم يذهب الضيف ويبقى عليه الدين وهذا يجعله يكره الضيف بعد ذلك ويتأذى أنْ ينزل به .

إذن : كُنْ على طبيعتك ، وقُمْ بواجب الضيافة على قَدْر طاقتك . ولِمَ لا وقدوتك ﷺ يقول : ﴿ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ [ص] لأن الأمر الذى جئتُ به لا يحتاج إلى تكلُّف إقناع لأنه أمر موافق للطبيعة .

ولك أنْ تستعرضَ أحكام الشرع ، وأنْ تنظرَ فيها ، أهى صالحة فى ذاتها أم لا ؟ الدين يقول لك : لا تكذب . فمَنْ يقول إن الخير فى الكذب ؟ الدين يقول لك لا تغش فمن يقول : إن الصلاح فى الغش ؟ الدين نهاك عن شرب الخمر فمَنْ يقول إنها تصلح ؟ ومَنْ ينكر أنها تفسد العقلَ الذى ما كُرِّم الإنسان إلا به ؟ .

إذن : كلها أحكام واضحة لا تحتاج إلى تكلُّف فى الإقناع بها ، لأنها توافق الفطرة السليمة .

---

(١) ذكره أبو حامد الغزالى فى الإحياء (١٢/٢) قال الحافظ العراقى : أخرجه أبو بكر بن لال فى مكارم الأخلاق من حديث سلمان « لا يتكلفن أحد لضيفه ما لا يقدر عليه » وفيه محمد بن الفرج الأزرق مُتكلَّم فيه . قال الذهبى عنه فى ميزان الاعتدال (٨٠٥١) : « معروف صدوق تكلم فيه الحاكم لمجرد صحبته الحسين الكرابيسى ، وهذا تعنت زائد ». قال الخطيب البغدادى (١٥٩/٣) : « أحاديثه صحاح ورواياته مستقيمة لا أعلم له فيها ما يُستنكر » .

ثم يقول سبحانه : ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ (٨٧)﴾ [ص] أى : ما هو أى القرآن ﴿ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ (٨٧)﴾ [ص] والذكر والتذكير لا ينشأ إلا من نسيان شىء سابق ونريد أنْ نُذكِّرك به ، فالقرآن ذكْر بمعنى أنْ يُذكِّرك بما نسيته من العهد الأول عهد الفطرة الذى أخذه الله عليك وأنت فى طوْر الذَّرِّ ، فقال : ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ .. (١٧٢)﴾ [الأعراف] فأقر الجميع ﴿ قَالُوا بَلَىٰ .. (١٧٢)﴾ [الأعراف]

فقال الله تعالى : إذن احفظوا هذا العهد وتذكروا هذا الإقرار ﴿أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ .. (١٧٣)﴾ [الأعراف]

إذن : الحق سبحانه لا يُكلِّفك بهذا الإقرار إنما يُذكِّرك به ، لأن التكليف أُخِذَ عليك يوم أنْ كنتَ ذرةً فى ظهر أبيك آدم ، ولم تكُنْ لك شهوة .

فقوله تعالى عن القرآن : ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ (٨٧)﴾ [ص] دلَّ على أن ما جاء به محمد ﷺ من قمة توحيد الله والإيمان به إلى فرعيات التكليف وجزئياته أمر كان فى القديم ، عرفه الجميع وأقرُّوا به ، والقرآن فقط مُذكِّر بهذا العهد الأول .

ثم تختم السورة بقوله تعالى : ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ (٨٨)﴾ [ص] أى : الذين كذَّبوا القرآن سيعلمون عاقبة هذا التكذيب ، وسيعلمون أنه خبر صادق ، سيعلمون ذلك ﴿ بَعْدَ حِينٍ (٨٨)﴾ [ص] قالوا : الحين يُرَاد به ظهور الإسلام وانتصاره على الكفر ، بداية من معركة بدر إلى أنْ قال القائل : عجبتُ لهذا الأُميِّ ، كيف يفتح نصف الدنيا فى نصف قرن ، نعم هذه عجيبة ولا تزال حتى الآن.

وقد شاهد هؤلاء المكذِّبون بأعينهم انتصارَ الإسلام واندحار الكفر ، وشاهدوا نقصان رقعة أرض الكفر ، وازدياد رقعة أرض

الإيمان ، كما قال سبحانه : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا (٤١) ﴾ [الرعد] ومع ذلك لم يأخذوا من فتوحات الإسلام عبرة .

وقالوا : الحين يراد به القيامة حين يدخل هؤلاء المكذبون النارَ ، عندها سيعلمون صدْق هذا الكلام الذى أخبرهم الله به فى قرآنه .

وكلمة النبأ لا تقال إلا للخبر العظيم الهام ، كما قال سبحانه : ﴿ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ (٦٧) أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ (٦٨) ﴾ [ص]

فما بالك بنبأ الذى وصفه بأنه عظيم هو الله ؟ وعظمة الخبر تأتى بمقدار ما يُهيىء من الخير للإنسان ، فالخبر بأنك نجحت فى القبول، غير الخبر بنجاحك فى التوجيهية ، غير الخبر بأنك أصبحت وزيراً ، فعظَم الخبر بمقدار ما يحمل لك من الخير المرجو منه للإنسان .

إذن : ما بالك بالخير الذى ينتظرك بعد قيامك بالتكاليف الربانية ، إنه خير لا يسعدك فى دنياك المنقضية فحسب ، إنما يسعدك فى آخرتك الباقية الخالدة ، فعظَم هذا الخبر أنه ضَمِن لك الحياتين الدنيا والآخرة .

وأسأل الله فى آخر السورة أنْ يجعل لنا حظاً من قوله : ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ (٨٨) ﴾ [ص]

سُورَةُ الزُّمَرِ

سورة الزمر[1]

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝١﴾

فَرْق بين تنزيل وإنزال ونزول ، النزول هو الحدث الذى يأتى بشىء من أعلى إلى أدنى ، والإنزال يدل على أن الذى أنزل أعلى من المُنزل إليه ، أما التنزيل فيدل على النزول على فترات بحسب الأحوال .

فقوله تعالى : ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ۝١﴾ [القدر] يعنى : أنزلناه جملةً واحدة فى أول رسالة محمد ، ليباشر القرآنُ مهمته فى الوجود ، ثم نُزّل بعد ذلك مُنجَّماً حَسْب الحاجة .

قال تعالى : ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝١٠٥﴾ [الإسراء]

---

(١) سورة الزمر هى السورة رقم (٣٩) فى ترتيب المصحف الشريف ، عدد آياتها ٧٥ آية . وهى مكية فى قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر بن زيد . وقال ابن عباس : إلا آيتين نزلتا بالمدينة إحداهما ﴿ الله نزل أحسن الحديث ﴾ والأخرى ﴿ قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم ﴾ . انظر القرطبى فى تفسيره (٨/٥٨٧٥) وسورة الزمر تسمى أيضاً سورة الغرف لقوله تعالى فيها : ﴿لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ .. ۝٢٠﴾ [الزمر]

يعنى : أنزلناه بالحق بداية ، وظلَّ على الحق لم يستطع أحد أنْ يُغيِّره أو يُفسده ؛ لأنه حقٌّ .

وهذه المادة نزل أو نزَّل أو أنزل ، تدل كلها على عُلُو المنزِّل ودُنُو المنزل إليه ، وتدل على أن شرف المنزَّل من شرف مَنْ أنزله ، وتدل أيضاً على أن مَنْ أنزل المنهج القويم للمخلوق يريد أنْ يكرمه وأنْ يعلوَ به . إذن : دَلَّ الإنزال على شرف المنزِّل وعلو مكانته ، وعلى شرف ما أُنزل وعلى شرف مَن اختاره الله ، وجعله أهلاً لأنْ يُوجه إليه هذا الخير .

ومن ذلك قوله تعالى فى أمة محمد : ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ (١١٠)﴾ [آل عمران]

ولما تتبعنا مادة (نزل) فى القرآن الكريم وجدناها كلها تدل على العُلو ، إلا فى عدة مواضع لم يكُن الإنزالُ فيها من العلو ، وهو قوله تعالى فى سورة الحديد : ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ (٢٥)﴾ [الحديد] فالحديد لا ينزل من عُلو إنمَا يُستخرج من الأرض ، فلماذا قال الله : ﴿ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ(٢٥)﴾ [الحديد] ؟

قالوا : نعم الحديد من الأرض ، لكن مَنْ جعله فيها ؟ الخالق سبحانه ، إذن : فهو أيضاً إنزال أى : جعل له فى الأرض ، فلا تنظر إلى جهة الإنزال ، إنما إلى مَنْ أنزل .

ثم إن إنزال الحديد تتميمٌ لرسالات الرسل لهداية الخلق إلى منهج السماء ، لأن الله تعالى قال بعدها : ﴿ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ(٢٥)﴾ [الحديد] فمن الحديد سنصنع السيوف والرماح وعُدَّة الحرب .

كذلك فى : ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ . . (٦)﴾ [الزمر]
وقوله : ﴿يَـٰبَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ (٢٦)﴾ [الأعراف]

وفى مسألة الإنزال هذه نلحظ لفتة جميلة فى أسلوب القرآن الكريم ، فى استخدام حرف الجر المتعلق بالفعل أنزل ، وكيف أنه يأتى مناسباً للمعنى المراد من الإنزال ، ففى خطاب النبى ﷺ يقول له ربُّه عز وجل : ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ (٣)﴾ [آل عمران] قال (عليك) مع أن الكتاب نزل للناس جميعاً ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ (٢٩)﴾ [ص]

لكن رُوعى هنا المخاطب المستقبل المبلَّغ عن الله ، لكن لما يتكلم على النعم التى ينتفع الناس بها مباشرة يقول (عليكم) ثم نلحظ دقة التعبير فى استخدام حرف الجر ، قال: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الأَنْعَامِ(٦)﴾ [الزمر] وفى اللباس قال : ﴿قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ(٢٦)﴾ [الأعراف] قالوا : لأن اللباس الساتر للبدن يكون على الجسم يلفه ويستره ، فناسبه الحرف (على) . أما الأنعام فهى شىء مستقل منفصل عن الإنسان .

الحق سبحانه وتعالى يعطى من علو ، ولكن الذى يعطى له هو من صنعته أيضاً ، فعلو فى خَلْق آدم الخليفة ، وعُلو فى المنهج الذى يصونه ، حتى أن بعضهم قال : إن الإنسان خليفة لله فى الأرض ، بمعنى أنه مُفَوَّض من الله بالقيام بما أراده الله ، بدليل لو كان هناك محتاج ضَنَّ الناس عليه يقول الله لهم : ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا(٢٤٥)﴾ [البقرة]

فسمَّى هذا الإعطاء للفقير قرضاً ، مع أنه سبحانه المعطى الواهب

لهذا المال ، لكن لما كان الحق سبحانه هو الخالق ، وهو الذى استدعى الإنسان للوجود وتكفَّل له برزقه ، فاعتبر المال ماله وحقه ، فإنْ بذله فهو قرض لله .

ومثَّلنا لذلك - ولله تعالى المثل الأعلى - قلنا : حين تعطى ولدك مصروفه فيجعله فى حصالة مثلاً ، ومرَّتْ بك ظروف احتجتَ لما فى حصالة الولد فقلت له : سلّفنى ما فى حصالتك لحين ميسرة ، مع أنك صاحب هذا المال .

فكأن الحق سبحانه يحترم ملكية العبد ، مع أنها من فضله ، فإنْ طلبها منه طلبها على سبيل القرض .

و(الكتاب) أى : القرآن . فمرة يقول : الكتاب . ومرة : القرآن ، دليل على أنه سيأخذ الوَصْفين معاً ، فهو كتاب بمعنى مسجل ومكتوب يعنى لا يُنكر ، وهو قرآن بمعنى مقروء ، فهو مُسجَّل فى السطور ومحفوظ فى الصدور ، وهذه ستكون حجة علينا .

وقد علمنا الدقة التى اتبعها الصَّحابة فى جمع القرآن من صدور الحفظة ، فكانوا لايكتبون آية إلا إذا قرأها اثنان من الحفظة واتفقا على صحتها ، كذلك يشهد على صحتها اثنان بعد الكتابة ، فدلَّت هذه الدقة على حيثيات قوله تعالى : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ⑨﴾ [الحجر]

وكلمة (الكتاب) هكذا بأل التعريفية تدل على أنه الكتاب الكامل فى الكتب ، ولا تنصرف هذه الكلمة إلا إلى القرآن الكريم .

وقوله تعالى : ﴿ مِنَ اللَّهِ ①﴾ [الزمر] دل على أن التنزيل من أعلى لأدنى ، لكن لماذا قال ﴿ مِنَ اللَّهِ ①﴾ [الزمر] ولم يُقْل : من

الرب؟ لأن هذا الكتاب جاء بمنهج للتربية ، والرب هو المتولى للخَلْق وللتربية . قالوا : لأن الربوبية عطاء يشمل الجميع المؤمن والكافر ، والطائع والعاصى ، فالرب خلق الجميع الخَلْق المادى وأمدَّ الجميع ، فالكل فى عطاء الربوبية سواء .

أما المنهج الذى نزل به الكتاب ، فهو منهج إيمانى وخُلُقى وتعبُّدى من عطاء الألوهية ، لا من عطاء الربوبية ، لذلك قال فى الكتاب: ﴿ مِنَ اللَّهِ ۝١ ﴾ [الزمر]

والله علَم على واجب الوجود ، أما الأسماء الحسنى فهى أوصاف بلغت العظمة ؛ لأنها لله تعالى وغلبتْ عليه ، فصارت أسماء قال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ۝١٨٠ ﴾ [الأعراف] والجامع لها كلها لفظ الجلالة الله ، فحين تقول الله كأنك ناديتَ الله بجميع أسمائه الحسنى ؛ لذلك أمرنا أنْ نبدأ العمل بقول باسم الله ، والعمل يحتاج إلى قوة وإلى علم وإلى حكمة وإلى عزة . . الخ .

فلو كنتَ مُقبلاً على عمل يحتاج إلى عشرين صفة مثلاً فهل تقول : باسم القوى ، باسم العليم ، باسم الحكيم . . لا لأن فى وُسْعك أن تجمع كلَّ هذه الصفات فى قولك باسم الله ؛ لأن لفظ الجلالة هى الكلمة الجامعة لكل صفات الكمال ، وتناسب كل ما يحتاجه العمل ، وكل ما يتعلق بالفعل ، مما تعرفه أنت ومما لا تعرفه .

لذلك قالوا : إياك أنْ تدعَ هذه الكلمة فى بداية العمل ، حتى لو كنتَ عاصياً فلا تَخْزَ من ربك ولا تخجل أنْ تقولها ، ولا تستبعد أنَّ الله يعاونك حتى وأنت عاصيه ، لأن ربك الذى تدعوه وتبدأ عملك باسمه رحمن رحيم ، وهو الذى أمرك أنْ تقولها .

إذن : قال سبحانه : ﴿ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ ۝١ ﴾ [الزمر] لأن الكتاب

نزل بمنهج وقيَم ، ولم يقل : من الرب لأن الربَّ وصفٌ خاص بالمادة وبالقالب .

وقوله : ﴿الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝١﴾ [الزمر] العزيز هو : الغنى عن الخَلْق الذى لا تنفعه طاعتهم ، ولا تضره معصيتهم ، وجاء هذا الوصف بعد ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ ۝١﴾ [الزمر] لمناسبة . فكأن الحق سبحانه يقول لنا : اعلموا أننى متطوع بهذا المنهج الذى أنزلته عليكم ، أريد به سعادتكم فى الدنيا ونعيمكم فى الآخرة ، أما طاعتكم لمنهجى فلا تزيد فى ملكى شيئاً ، لأننى الغنى عنكم ، فأنا العزيز عن خَلْقى .

لذلك فى مسألة الشرك بالله قال تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ۝٤٨﴾ [النساء]

وقال فى الحديث القدسى : « أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملاً أشرك فيه معى غيره تركته وشركه»[1] .

يعنى: أنا متنازل لهذا الشريك عن العمل كله ، لأنى عزيز عن خَلْقى ، لا مصلحة لى من طاعتهم ، إنما المصلحة تعود عليهم هم . إذن : فربُّك خلقك وأنزل عليك ما يصلحك ، فإن أطعْتَهُ أثابك ، لأن لله تعالى صفات ، وهذه الصفات تحتاج إلى متعلقات ، فحين تؤدى هذه المتعلقات لله يجازيكَ عليها .

إذن : قُلْ باسم الله واعلم أنه عزيز عن هذه ، وتذكَّر قوله سبحانه فى الحديث القدسى : « ياعبادى ، لو أنَّ أولكم وآخركم

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٩٨٥) ، وابن ماجه فى سننه (٤٢٠٢) ، واللفظ لمسلم عن أبي هريرة رضى الله عنه .

وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ، ما زاد ذلك فى ملكى شيئاً . ولو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم وشاهدكم وغائبكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ، ما نقص ذلك من مُلكى شيئاً . يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم اجتمعوا فى صعيد واحد ، وسألنى كلٌّ واحد مسألته فأعطيتُها له ما نقص ذلك من مُلكى إلا كما ينقص المخيط إذا أُدْخلَ فى البحر ، ذلك أنى جَوَادٌ ماجد واجد ، عطائى كلام وعذابى كلام ، إنما أمرى لشىء إذا أردته أنْ أقولَ له : كُنْ فيكون»[1] .

فالحق سبحانه هو العزيز الذى يَغْلِب ولا يُغلب ، وهو سبحانه يخلع من هذه الصفة على مَنْ يؤمن به ، فللمؤمن عزة من عزة الله ، أما غير المؤمن فيبحث عن عزة بالإثم استكباراً بلا رصيد ، ومن ذلك قول المنافقين[2] .

﴿لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ . .(٨)﴾ [المنافقون]

قال الله لهم : صدقتم فى هذه المقولة : ليُخرجن الأعزُّ منها الأذلَّ ، لكن مَن الأعز ؟ ومن الأذل ؟ ثم حكم الحق سبحانه أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين : ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ(٨)﴾ [المنافقون]

إذن : أنتم الأذل ، وأنتم الذين ستخرجون من المدينة لا رسول الله ، وقد تم ذلك لرسول الله ، وقد كان .

والحق سبحانه مع أنه ﴿الْعَزِيزِ . .(١)﴾ [الزمر] الذى يغلب ولا يُغلب ، فهو سبحانه ﴿الْحَكِيمِ (١)﴾ [الزمر] أى : الذى يضع الشىء

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٥/١٥٤ ، ١٧٧) من حديث أبى ذر رضى الله عنه بنحوه ، وكذا الترمذى فى سننه (٢٤٩٥) وحسَّنه ، وابن ماجه فى سننه (٤٢٥٧) .

(٢) قائل هذا القول هو عبد الله بن أُبىّ بن سلول رأس المنافقين فى المدينة ، قالها فى غزوة بنى المصطلق . ذكره الواحدى فى أسباب نزول الآية ٨ من سورة المنافقين .

فى موضعه . ومن هذه الحكمة أنه سبحانه لا يطبع المؤمنَ على العزة الدائمة ، ولا على الذِّلة الدائمة ، كذلك لا يطبعه على الرحمة الدائمة ، ولا على الشدة الدائمة ، بل ينفعل للأحداث الإيمانية ، كما قال سبحانه : ﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ (٢٩) ﴾ [الفتح] وقال : ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ (٥٤) ﴾[المائدة]

ومع أن هذه طباع فى النفس إلا أنها مُعدَّلة بمنهج مَنْ خلقها ، فإنْ كان الموقف يحتاج إلى رحمة فالمؤمن رحيم ، وإنْ كان الموقف يحتاج إلى شدة . فالمؤمن شديد . إذن : هذا مظهر من مظاهر حكمة الخالق سبحانه ، فإنْ قلتَ: هذه طباع ، نعم طباع لكن مُعدَّلة بمنهج مَنْ خلقها .

والحكمة مأخوذة من شىء حسِّىٍّ ، مأخوذة من الحكَمة التى تُوضع فى فم الفرس ، والتى نسميها اللجام ، وهو الأداة التى بها نتحكَّم فى حركة الفرس ، وفى سرعته واتجاه سَيْره ، وبها نكبح جماحه إنْ جمح .

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ (١) إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ ﴾

---

(١) الزلفى : القرب والمنزلة والدرجة . [القاموس القويم ١/٢٨٨] .

الحق هو الأمر الثابت الذى لا تأتى أغيار الزمن فتنقضه ، وما دام الحق ثابتاً لا يتغير فلا يغرنك عُلُوُّ الباطل إنْ علا يوماً من الأيام ؛ لأن عُلُو الباطل من ثبات الحق ، فالباطل حين يعلو يعضُّ الناسَ ، ويشقى به الخَلْقُ ، ويكتوون بناره ، وعندها يتطلعون للحق ويتشوَّقون إليه .

فكأن الباطل جندى من جنود الحق ، والكفر جندى من جنود الإيمان . فالله تعالى لا يسلم الحق أبداً ، ولكن يتركه فترة حتى يعلوَ الباطلُ عليه ليبلوَ غيرة الناس عليه ، فإذا لم يغاروا عليه غار هو عليه .

﴿ فَاعْبُدِ اللَّهَ ۝٢ ﴾ [الزمر] يعنى: ما دُمْنا قد أنزلنا إليك الكتاب بالحق فانظر ماذا فى الكتاب ، فيه منهج افعل كذا ولا تفعل كذا ، فيه تكليفٌ للجوارح ، ولابُدَّ أنْ يسبق العمل بالتكليف اقتناعُ القلب بالمكلف والإيمان به .

فأنت حين تقف أمام قضية صعبة تعجز عن التفكير فيها ، أو أخذ قرار تذهب إلى مَنْ شُهد له بالحكمة أو العلم والرأى ليفكر لك ويُعينك على أمرك ، فمثل هذا الرجل تأتمنه وتسلم له زمام أمرك ؛ لأن رأيه يصلحك .

إذن : لابُدَّ قبل العمل بافعل ولا تفعل أنْ تثقَ وتتيقن بمن كلَّفك ، وهذا هو الإيمان الذى ينبغى أنْ يسبق العملَ . لذلك نقول : لا ينفع إيمان بلا عمل ولا عمل بلا إيمان ، واقرأ قول الله تعالى :

﴿ قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ۝١٤ ﴾ [الحجرات]

لذلك قال تعالى : ﴿ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ﴿٢﴾ ﴾ [الزمر] فشرْطُ العبادة الإخلاص ، والعبادة تعنى طاعة العابد لأمر معبوده ونَهيه ، وهذا التحديد لمعنى العبادة يُبطل عبادةَ كلِّ ما سوَى الله تعالى ، فالذين عبدوا غير الله من شمس أو قمر أو نجوم أو أَشجار أو أحجار عبدوا آلهة - كما يزعمون - بلا منهج وبلا تكاليف .

إذن : فكلمة العبادة هنا خطأ وهى باطلة ، فماذا قالت لهم هذه الآلهة ؟ بِمَ أمرتْهُمْ وعَمَّ نَهَتْهم ؟ ماذا أعدَّتْ هذه الآلهة لمن عبدها ؟ وماذا أعدت لمن كفر بها ؟ فأول ما يُبطل عبادة غير الله أنها آلهة بلا منهج وبلا تكاليف .

أما الذين قالوا : ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ﴿٣﴾ ﴾ [الزمر] فالله سبحانه نهى عن هذه الزُّلْفى ، ونهى أنْ يكون بينه وبين عباده واسطة أو وسيلة .

ثم إن الحق سبحانه أراد أنْ ينبه الخَلْقَ إلى بديع صُنْعه ، وإلى هذا الكون المكتمل ، وهذه الهندسة الدقيقة فى كل جزئياته ، وأن هذا الكون فيه كل مُقوِّمات الحياة وكل الأنواع الواهبة للخير ، فهل ادعاه أحد لنفسه ؟

هل قالَ أحد : إنى خلقتُ هذا الكون مع كثرة الملحدين والمنكرين لوجود الله ؟ لم يحدث أبداً شىء من هذا . إذن : الدعوة تثبت لمدعيها طالما لم يقم لها معارض ، فالله تعالى هو الخالق وحده ، وهو المستحق للعبادة وحده ، وما دونه ضلال وباطل .

لذلك قال سبحانه : ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً ﴿٤٢﴾ ﴾ [الإسراء] يعنى : ذهبوا إليه ليناقشوه كيف أخذ الخَلْق منهم ؟ وكيف ادعاه لنفسه ؟

ومعنى﴿ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ﴿٢﴾ ﴾ [الزمر] يعنى : اجعل الدينَ خالصاً

لوجه الله ، وامنع الرياء لأن الذى ترائيه لا يملك لك من ثواب العمل شيئاً ، فالمرائى الذى يرائى مثلاً فى صدقته ينفع المحتاج بالصدقة ، وهو لا ينتفع بها ؛ لأن الله تركه يأخذ أجره ممَّن يرائيه ، والعبد مثلك لايملك لك شيئاً .

وفَرْق فى المعنى بين مُخْلِص بالكسر ، ومُخْلَص بالفتح : المخلَص هو مَنْ يسبق عطاء الله لَه بالإخلاص فيخلص ، أما المخلص فيصل بعطاء إخلاصه إلى عطاء الله . قلنا زمان : من الناس مَنْ يَصل بطاعة الله إلى كرامة الله يعنى : ألحَّ فى الطاعة وداوم طَرْق الباب حتى فُتِح له .

وآخر يصل بكرامة الله إلى طاعة الله ، يعنى : ربه يختاره للطاعة ويخطفه من الخلق أو من المعصية إلى الطاعة ، مثل كثيرين من المتصوفة ، ومثال دلك القاضى عياض[1] رحمه الله ، فقد كان فى بداية أمره قاطعَ طريق ، وفى يوم خرج كعادته يقطع الطريق على الناس ، فسمعهم يقولون : لا تمروا من هنا فعياض على هذا الطريق، نزلت هذه الكلمات على عياض نزولَ الصاعقة ، فكيف يهابه الناس ويخافونه لهذه الدرجة ، فأخذ يُؤنِّب نفسه وعزم على التوبة ، وقال: ياربّ تُبْ علىَّ حتى يأمنَ هؤلاء . فتاب الله عليه[2] .

---

(١) القاضى عياض هو عياض بن موسى أبو الفضل ، عالم المغرب وإمام أهل الحديث فى وقته ، ولد فى سبْتة عام ٤٧٦ هـ وتوفى بمراكش مسموماً عام ٥٤٤ هـ عن ٦٨ عاماً ، ولى قضاء سبتة ثم غرناطة . له تصانيف عدة أشهرها : الشفا بتعريف حقوق المصطفى . الأعلام للزركلى (٥/٩٩) .

(٢) ذكره ابن خلكان فى « وفيات الأعيان » فى ترجمته ، وقال : « كان فى أول أمره شاطراً يقطع الطريق بين أبيورد وسرخس ، وكان سبب توبته أنه عشق جارية فبينما هو يرتقى الجدران إليها سمع تالياً يتلو قوله تعالى : ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ .. (١٦)﴾ [الحديد] فقال : يا رب قد آن ، فرجع ، وآواه الليل إلى خربة فإذا فيها رفقة ، فقال بعضهم : نرتحل . وقال بعضهم : حتى نصبح فإن فضيلاً على الطريق يقطع علينا ، فتاب الفضيل وآمنهم .

فلما استقام سأله الناس الذين يعرفون حقيقته : ما جرى لك يا عياض ، يعنى : كيف صِرْتَ من الأولياء ، بعد أن كنتَ قاطع طريق ؟ .

قال : والله إنى لأعرف سببها ، لقد مررتُ يوماً بسوق البطيخ - أظن فى بغداد - فوجدت ورقة من المصحف ملقاةً على الأرض يدوسها الناس فأخذتها ونظفتُ ما بها من الأذى ، ثم طيَّبتها بدرهم لم يكُنْ معى غيره ، ثم وضعتها فى شق عال ، قال: والذى نفسى بيده لقد سمعتُ بعدها منادياً ينادى : لأطيبنَّ اسمك كما طيبتَ اسمى[1] وكانت هذه الحادثة أول عهد عياض بالولاية .

لذلك ورد أن النبى ﷺ قال : « إن الله أخفى ثلاثاً فى ثلاث : أخفى رضاه فى طاعته » فلا تحقرن طاعةً أبداً ، واعلم أن الله غفر لرجل لأنه سقى كلباً يلهث من العطش[2] ، وهذا العمل يدل على محبة طاعة الله وإلا فماذا يأخذ الرجل من الكلب ؟ أم تراه ينافقه ؟ إذن : ليس إلا حب الطاعة .

« وأخفى غضبه فى معصيته » فلا تحقرنَّ معصية أبداً ، وقد دخلت امرأة النار فى هرة حبستها ، فلا هى أطعمتها وسقتها ، ولا هى تركتها تأكل من خشاش الأرض[3] .

---

(١) هذه القصة ذكرها ابن خلكان فى وفيات الأعيان والصفدى فى الوافى بالوفيات ، وابن الملقن فى طبقات الأولياء ، واليافعى فى مرآة الجنان أنها حدثت مع بشر الحافى وليس القاضى عياض ، ولكن لابد أن نذكر أنه كان مصاحباً له .

(٢) عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : بينما رجل يمشى بطريق اشتد عليه العطش ، فوجد بئراً فنزل فيها فشرب ، ثم خرج فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش ، فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذى كان بلغ بى ، فنزل البئر فملأ خفه ثم أمسكه بفيه فسقى الكلب فشكر الله له فغفر له . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٠٠٩) .

(٣) أخرجه البخارى فى صحيحه (كتاب بدء الخلق - باب صفة النار) حديث (٣١٤٠) عن ابن عمر وكذا مسلم (كتاب التوبة - باب الحض على التوبة) حديث (٢٦١٩) عن أبى هريرة.

«وأخفى أسراره فى خلقه » كما أخفى أمر عياض وتاب عليه .

ثم يقول سبحانه : ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ۝٣﴾ [الزمر] بعد أنْ خاطب الحق سبحانه نبيه بقوله : ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ۝٢﴾ [الزمر] أراد سبحانه أنْ ينبه الأذهان إلى أهمية الإخلاص لله تعالى ، فجاء بهذا الحرف الدال على الاستفتاح (ألا) .

وهذا الأسلوب يتبعه العربى فى كلامه ، لأن المتكلم أمير نفسه يتكلم فى أىِّ وقت شاء ، وهو يعى ما يقول وله خيار فيما يقول أمَّا السامع فليس له خيار فربما كان مشغولاً عن المتكلم فيفوته بعض الكلام ؛ لذلك على المتكلم أنْ ينبهه من غفلته ، وأنْ يُهيِّئه لأنْ يسمع، لاسيما إنْ كان الكلام مهماً أو نفيساً لاينبغى أن يفوتك منه شىء ؛ لذلك قال سبحانه : ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ۝٣﴾ [الزمر]

ونلحظ أيضاً هنا أسلوبَ القصر فى تقديم الجار والمجرور ﴿لِلَّهِ ۝٣﴾ [الزمر] على المبتدأ الدين الخالص ، فلم يَقُلْ سبحانه الدين الخالص لله ، لأنها تحتمل أن نقول : ولغيره ، أمَّا قوله ﴿لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ۝٣﴾ [الزمر] أى : له وحده ، فقصرت إخلاص الدين على الله تعالى دون غيره ، تقول: هذا المال لزيد . ولزيد هذا المال .

لكن ، لماذا لله الدين الخالص ؟ قالوا : لأن الدينَ شرعُ الله هو الذى شرعه ، وهو سبحانه الذى يُجازى عليه ، فاحذر إذن أنْ يكون عملك بمنهج الله مقصوداً به غير الله ؛ لأن غير الله لم يشرع لك ، ولا يستطيع أنْ يعطيك أجر العمل . فكأن الله تعالى يريد أنْ يُحَصِّن حركة الإنسان فى كل شىء ، بحيث تعود عليه كل حركاته بالخير ؛ لذلك دلَّهُ على الطريق الذى يؤدى به إلى الخير ، وهو طريق إخلاص العبادة لله وحده .

ثم يذكر سبحانه مقابل إخلاص العبادة لله ، فيقول : ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ۝٣﴾ [الزمر] قائلين ومبررين موقفهم حين تبيَّن لهم كذبهم فى عبادة ما دون الله ، وحين تقول لهم إن هذه الآلهة لا ترى ولا تسمع ولا تضر ولا تنفع ، وحين تضيق عليهم الخناق يقولون ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ۝٣﴾ [الزمر]

والذى يُقرِّبك إلى الله لابُدَّ أنْ يكون مشهوداً بالتبعية لله تعالى ، وهذه الآلهة التى تعبدونها ليست مشهودة بالتبعية لله تعالى ، بل هى من صُنْعكم أنتم ومن نَحْت أيديكم ، وإذا أطاحت به الريح أقمتموه فى مكانه ، وإذا كسر ذراعه أصلحتموه .

إذن : فعبادتكم لها باطلة ، وأنتم كاذبون فى هذه العبادة ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۝٣﴾ [الزمر] كلمة الحكم لله كلمة ترهب ، لأن حكمَ الله هو الحق الذى لا يُحابى أحداً ، فالمؤمن حين يسمع هذه الكلمة يطمئن ، لأنه سيأتى يوم لا يكون الحكم فيه إلا لله كما قال سبحانه : (إن الحكم إلا لله) أى : لله وحده لا لغيره ، لذلك أنت لا تقول لخصمك : أنا حكَّمت الله بينى وبينك إلا وأنت واثق أن الحق معك .

لذلك يغضب بعض الناس لو قلت لأحدهم : الله وكيل بينى وبينك . ولو كان على الحق لا يخاف شيئاً لقال وأنا رضيتُ هذه الوكالة وقبلتُ بها ، لكن كونه يغضب حين نُحكِّم الله فيما بينكما ، فهذا دليل على أنه يخاف هذا الحكم لأنه على باطل .

ثم إن حكم الله سيأتى فى وقت لا حكمَ فيه إلا لله ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ ۝٥٧﴾ [الأنعام] .

ثم يقول سبحانه : ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ۝٣﴾ [الزمر]

نعم لا يهديه الله ، لأن الكاذب الكفَّار ليس أهلاً لعطاء الهداية ؛ لأن الله تعالى هدى الكل هدايةَ الدلالة والإرشاد ، فمَنْ آمن منهم زاده هداية المعونة والتوفيق ، قال سبحانه : ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧)﴾ [محمد]

وسبق أنْ ضربنا مثلاً لذلك قلنا : إن رجل المرور الذى يقف على مفترق الطرق ينظم المرور ويرشد الناس ، فحين تسأله أين الطريق إلى الأسكندرية مثلاً يقول لك من هنا ، فتتوجه إلى حيث أرشدك ، وقبل أنْ تفارقه قلت له : جزاك الله خيراً ، لقد كدتُ أضلّ الطريق ، وأذهب من هنا ومن هنا ، لولا أن الله يسَّر لى أنْ أقابلك ، فقال لك : والله أنت رجل طيب تستحق كل خير ، لكن فى هذا الطريق منطقة خطر سأركب معك حتى أساعدك فى المرور منها .

إذن : لما أطعتَهُ فى الإرشاد الأول زادكَ بالمعونة والمساعدة ، كذلك الحق - سبحانه وتعالى - مَنْ يستجيب لهداية الدلالة والإرشاد فيؤمن يزيده هداية أخرى ، هى هداية التوفيق والمعونة .

والكاذب الكفَّار هو الشديد الكفر الذى لا ينتفع بإرشاد ، ولا هداية .

﴿لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ سُبْحَانَهُ ۖ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٤)﴾

تحدثنا هذه الآية عن نوع آخر من الشرك ، فهؤلاء لم يعبدوا الأصنام ولا الشمس ولا القمر ، إنما اتخذوا أشياء أخرى يروْنَ بينها وبين الله تعالى صلة ، كما نقول (من ريحته) ، ورأوا أن ذلك أخفّ

وأهونُ من عبادة الأصنام ، هؤلاء كالذين قالوا عزير ابن الله ، والذين قالوا المسيح ابن الله ، أو الملائكة بنات الله . . الخ فردّ الله عليهم :

﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴿٤﴾﴾ [الزمر]

يعنى : هذه مسألة لا دَخْلَ لكم فيها ولا اختيار ، لا تختاروا أنتم لله ولداً ؛ لأن الله تعالى لو أراد ذلك - على فرض - لاختار من خَلْقه ما يشاء هو ، لا ما تختارون أنتم .

لذلك خاطب الحق سبحانه نبيه ﷺ بقوله : ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ ﴿٨١﴾﴾ [الزخرف] أى : من اختياره ويخبر هو به ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴿٨١﴾﴾[الزخرف] يعنى : أول المصدِّقين المؤمنين به ، فهو على العين والرأس ، إنما هذا أمر لم يخبر الله به ، وإنما نفاه عن نفسه سبحانه .

وقد ورد فى الحديث : « الخَلْق كلهم عيال الله ، فأحبُّهم إليه أرأفهم بعياله»[1] إذن : فالبنوة ليست لله تعالى ، وحتى فى بنوة الرسل لم يجعلها الله بنوةَ دم ، ولا بنوةَ أبدان ، إنما بنوة أديان ، وأوضح مثال على ذلك سيدنا نوح - عليه السلام - وولده .

لما أَبَى الولد وعصى أمر أبيه أيقَن الوالد أنه من الهالكين ، فدعا الله : ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [هود] لكن عدل الله له معنى البنوة ، فقال سبحانه : ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴿٤٦﴾﴾ [هود] فسيدنا نوح ظن

---

(١) أخرجه أبو يعلى فى مسنده (٦ / حديث ٣٣١٥) عن أنس بن مالك رضى الله عنه بلفظ: « الخلق عيال الله فأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله » وأخرجه الخطيب البغدادى فى تاريخ بغداد (٦ /٣٣٢) عن عبد الله بن مسعود بلفظ آخر : « الخلق عيال الله فأحب الناس إلى الله من أحسن إلى عياله » .

أن البنوة بنوة نسب ، لكن بنوة الأنبياء بنوة اتباع .

والحرف (لو) فى ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٤﴾﴾ [الزمر] حرف امتناع لامتناع ، وهو من أدوات الشرط يفيد امتناعَ وقوع الجواب لامتناع وقوع الشرط ، فالحق سبحانه لم يتخذ ولداً لأنه لم يُرِدْ ذلك ، ولو أراده لكانَ ما يريد .

وفى موضع آخر ، يناقش الحق سبحانه أصحاب هذا الافتراء ، يقول لهم بالمنطق ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ ﴿١٠١﴾﴾ [الأنعام] .

ثم لماذا يُتخذ الولد ؟ يتخذ الولد ليكون عزوةً لأبيه أو امتداداً له بعد موته ، والحق - تبارك وتعالى - هو الغنى العزيز عن خَلْقه ، وهو الدائم الباقى فلماذا يُتخذ الولد ؟ والذين نَسبوا لله تعالى الولدَ فى العصور المتأخرة من الديانات ، كالذين قالوا : المسيح ابن الله ، فهل كان الله تعالى منذ خلق هذا الكون بلا ولد إلى أنْ جاء عيسى فاتخذه الله ولداً .

وبعد أنْ أخذ عيسى من الوجود أظلَّ الله تعالى هكذا (غلبان مقطوع من شجرة) بلا ولد ؟ كيف يستقيم لكم هذا الادعاء ؟ إنها مسألة لا تصح أبداً فى حق الله تعالى ، فالله لا يحتاج إلى عزوة ، ولا يحتاج لمعونة الولد ، لأن الله تعالى خلق الخَلْق كله من ألفه إلى يائه ، خلقه بكامل قدرته ، وبصفات الكمال فيه ، فلم يزده الخَلْق شيئاً ولا صفة لم تكُنْ له من قبل .

لذلك يقول بعض أهل الشطح فى هذه الآية : ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴿٤﴾﴾ [الزمر] يقول : لو كان للرحمن ولد كنتُ أنا أَوْلَى أنْ أكونَ ولده ؛ لأننى أول العابدين .

ثم يُذيِّل الحق سبحانه هذه الآية بما يُنزِّه الله عن هذا الافتراء :

﴿ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ (٤) ﴾ [الزمر] يعنى : سبِّحه ونزِّهه عن هذه المسألة ، فإنها لا تليق به سبحانه ، ونزهه أنْ يشابه شيئاً من خلقه ، حتى لو وقفت أمام مسألة لا يدركها عقلك قُلْ سبحان الله كما قال الله :

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا (٣٦) ﴾ [يس]

وقال : ﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ (١٧) ﴾ [الروم]

وقال : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً (١) ﴾ [الإسراء]

فالحق سبحانه فى مثل هذه المواقف يُعلِّمنا أنْ نُنزِّه الله ، لأن العقل سيقف أمام هذه الأحداث حائراً ، لكن الحدث هنا منسوب إلى الله فلا عجبَ إذن ، لأن زمنَ الحدث يتناسب مع القوة الفاعلة تناسباً عكسياً ، فكلما زادتْ القوة قَلَّ الزمن ، فإذا نسبتَ الفعل إلى قوة القوى تجد لا زمن .

إذن : نزّهوا الله عن اتخاذ الولد لأنه ﴿ هُوَ اللَّهُ (٤) ﴾ [الزمر] الذى له كُلُّ صفات الكمال (الوَاحدُ) الذى ليس معه غيره (القَهَّارُ) أى : الذى لا يحتاج إلى عزْوة ، ولا يحتاج إلى مُعين .

﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ (٥) ﴾

قوله سبحانه : ﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ (٥) ﴾ [الزمر] أى : لم يخلقهما عبثاً إنما خلقهما بالحق ، والحق كما قلنا : هو الشىء

الثابت الذى لا يتغير ، كما قال سبحانه فى آية أخرى : ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [الدخان]

بل خلقهما الله بالحق وبالحكمة وبحساب دقيق وهندسة بديعة لتؤدى مهمتها التى أرادها الخالق سبحانه ، بدليل أنها لا تزال منذ خلقها الله تؤدى مهمتها دون عَطَب فيها ، أو خلاف بين أجزائها .

وقوله تعالى : ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ ﴿٥﴾﴾ [الزمر] تقول : كوَّرْتُ العمامة يعنى لَفَفتها على رأسى ، فصارت مثل الكرة مكورة ، وفى لَفِّ العمامة تغطى اللفَّةُ اللفَّةَ التى تحتها . كذلك الليل والنهار ، جزء من الليل يغطى جزءاً من النهار فيزيد الليل ، أو جزء من النهار يغطى جزءاً من الليل فيزيد النهار .

هذا هو واقع الليل والنهار ، فهل الليل والنهار يقتسمان الأربعة والعشرين ساعةً بالتساوى ، كل منهما اثنتا عشرة ساعة ؟

لا ، بل يزيد الليل فينقص من النهار فى فصل الشتاء ، ويزيد النهار فينقص من الليل فى فصل الصيف .

هذا يدل على أن الكون ليس محكوماً بقوانين ميكانيكية جامدة كما يدَّعُون ، بل محكوم بقدرة الخالق سبحانه وحكمته .

ولو تأملتَ طول الليل في الشتاء وقِصَره فى الصيف لَوجدتَ أن أمور الكون لا تسير هكذا حسبما اتفق ، إنما لكل حركة فيها حكمة ، فحين يقصر النهار فى الشتاء يحتاج العامل لأنْ يُجهد نفسه لينهى مهمته فى هذا الوقت القصير ، فيتعب نفسه ويُجهدها .

ومن الحكمة أن نعطيه فترة أطول يستريح فيها من تعب النهار ، ولا بدّ أنْ تتناسب فترة الراحة مع فترة الجهد المبذول .

أما فى فصل الصيف فيطول النهار ويوزع العمل على هذا الوقت

الطويل ، فيؤدى الإنسان مهمته بأقلّ مجهود ، بالإضافة إلى راحته فى وقت القيلولة ، فلا يحتاج إلى ليل طويل للراحة ، لذلك يأتى ليلُ الصيف قصيراً . إذن : فالخالق سبحانه يُكوِّر الليل على النهار ، ويُكوِّر النهارَ على الليل لحكمة فى حركة الحياة .

وفى موضع آخر عبَّر القرآن عن هذا المعنى بقوله تعالى : ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ (١٣)﴾ [فاطر] يعنى : يُدخل كلاً منهما فى الآخر ؛ لذلك لا يتساوى الليلُ والنهار إلا فى فترة قصيرة من العام تقتضيها الحركةُ بينهما .

ونفهم أيضاً من قوله تعالى (يُكوِّر) أن الأرض كروية ، لأن الليل والنهارَ ظاهرةٌ تحدث على سطح الأرض ، وقد أثبتَ العلم هذه الحقيقةَ بالصور التى التقطوها للأرض من الفضاء ، وصدق الله : ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ (٥٣)﴾ [فصلت]

وقوله : ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى (٥)﴾ [الزمر]

الأجل : هو يوم القيامة ، فالحق سبحانه يُطمئن الناسَ أن الشمسَ والقمر آيتان لله تعالى باقيتان خالدتان بقاءَ الدنيا وخلودها ، إلى أنْ ينتهيا معها ، ومع ذلك فكل منهما قائم بذاته بقدرة خالقه ، لا يحتاج إلى وقود ، ولا يحتاج إلى صيانة ، ولا قطعة غيار .. الخ .

﴿أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (٥)﴾ [الزمر] قلنا : (ألا) استفتاحية تفيد تنبيه السامع لما بعدها ، فكأن الله تعالى يقول لقد خلقتُ لكم هذا الكونَ المحكمَ البديع ، ووفرتُ لكم مقومات حياتكم ، وأنا الغنى عنكم ، العزيز الذى يغلب ولا يُغلب ، ولا يحتاج لأحد . لكن ما مناسبة (الغفار) هنا ؟

قالوا : لأن الله تفضّل على خَلْقه بهذه الآيات الشمس والقمر والليل والنهار ، وأعطاهم مُقوِّمات حياتهم ، ومع ذلك لا ينظر إلى ذنوبهم وتقصيرهم فى حقه تعالى لأنه الغفار ، ويعفو عن كثير .

وهذا المعنى أوضحه الحق سبحانه فى موضع آخر ، حين نتأمله نجد فيه عجباً ، إنه قول الله تعالى ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا ﴿٣٤﴾﴾ [إبراهيم] ورد هذا اللفظ فى موضعين بصدر واحد وعَجُز مختلف ، فواحدة :﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ [إبراهيم]

والأخرى :﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ [النحل]

أولاً : يُلفت أنظارنا هنا فى مسألة عَدِّ نعمة الله استخدام (إن) الدالة على الشك ، لأن عَدَّ نعمة الله مسألة لن تكون ولن تحدث ؛ لأن الإقبال على عَدِّ الشىء ناتج عن إمكانية ذلك والقدرة عليه ، أما نعمة الله فمع تقدم علم الإحصاء ودخوله فى شتى المجالات ، إلا أن نعمة الله فوق مظنة العَدِّ لكثرتها ، كما أننا لا نفكر أبداً فى عَدِّ رمال الصحراء مثلاً .

فمعنى ﴿وَإِن تَعُدُّوا ﴿٣٤﴾﴾ [إبراهيم] يعنى : على فرض أنكم ستُقبلون على عَدِّها ﴿لا تُحْصُوهَا ﴿٣٤﴾﴾ [إبراهيم]

ثانياً : كلمة (نعمة) جاءت هكذا بصيغة المفرد ، والعَدُّ لا يكون إلا للجمع الذى له أجزاء تعدّ : واحد ، اثنان ، ثلاث ، أربع .. الخ فكيف تُعَد النعمة وهى واحدة ؟ قالوا : نعم هى فى ظاهرها نعمة واحدة لكن مطمور فيها حين تتأملها نِعَم كثيرة ، فالتفاحة مثلاً ترى فى الظاهر أنها نعمة واحدة ، لكن حين تُحللها تجد فيها لوناً وشكلاً

وطَعْماً ومـذاقاً وعناصر مكونة ومواد غـذائية متعـددة ، كلها نِعْم من الله.

ثالثاً : حين تـتأمل عَجُـزَ الآيتين - وهو مـرادنا من الكلام - تجد فى الآية الأولى ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ [إبراهيم] أى : جاحد لنعمة الله ، منكر لها ، غافل عنها ، مُقصِّر فى شكرها . فهى إذن تتـحـدث عن حال الـمنعم مع المنعَـم عليـه ، وكـيف أنه قـابل النعمة بالكفران ، ولو جازاه المنعم بما يستحق لحرمه النعمة ، لكن يأتى عَجُزُ الآية الأخرى :﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ [النحل] يعنى : يغـفر لكم جـحودكم للنعـمة ونكـرانكم للجمـيل ؛ ثم بعد المـغفـرة الرحمة .

﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ(١) ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾ ﴾

تبين الآيةُ طبيعة خَلْق الإنسان الذى أراده الله خليفة فى الأرض ،

---

(١) المقصـود بالظلمات الثلاث : ظلمة البطن ، وظلمة الرحم ، وظـلمة المشيمة قـاله ابن عباس وعكرمة ومـجاهد وقتادة والضـحاك . وقال أبو عـبيدة : ظلمـة صلب الرجل ، وظلمة بطن المرأة ، وظلمة الرحم . ذكرهما القرطبى فى تفسيره (٨/٥٨٧٩) .

فقال : ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴿٦﴾﴾ [الزمر] هو آدم عليه السلام ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴿٦﴾﴾ [الزمر] أى : حواء ، ومنهما كانت الذرية وجاء التناسل.

وما دام الله تعالى خلق هذا المخلوق ليكون خليفةً يعمر الأرض فلا بُدَّ أنْ يكونوا من جنس واحد ليتم لهم الإلْف والانسجام وتجمعهم حركة الحياة .

وإلا لو كان هذا الخليفة من أجناس متعددة ، فمجموعة مثلاً من الإنس ، وأخرى من الجن ، وأخرى من الحيوان ما استقامتْ بهم الحياة ، ولا تساندتْ حركتهم . إذن : الجنس الواحد تتوفر فيه المودة والإلْف والمحبة والانسجام بين عناصره لأن لكل جنس قانونَهُ ونظامه والتقاءاته ومعاشرته ، ولو أن الإنسان خُلق من أجناس مختلفة لتعذَّر عليه الائتلاف واتحاد الحركة والأنس فى المعيشة .

وأيضاً ، فإن الخالق سبحانه خلق الإنسان من جنس واحد ليثبت التساوى فى الأصل ، فلا يكون لأحد مَزيّة على أحد ، لأنه خلق من جنس أعلى ، وإنما ليكون التفاضل والمزية بمقدار توافق هذا المخلوق مع منهج الله ، وهذه القضية أوضحها النبى ﷺ فى الحديث : « لا فضلَ لعربى على عجمى ، ولا لعجمى على عربى إلا بالتقوى »[(١)] .

والحق سبحانه يقول : ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات] يعنى : لا فضلَ لأحدكم على الآخر إلا بحسنه فيما يستقبل عن ربه .

---

(١) خطب رسول الله فى وسط أيام التشريق فقال : « أيها الناس ، ألا إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، ألا لا فضل لعربى على أعجمى ولا لعجمى على عربى ، ولا لأحمر على أسود ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى » الحديث أخرجه أحمد فى مسنده (٤١١/٥) عمن سمع رسول الله ، وفى حلية الأولياء (١٠٠/٣) أنه جابر بن عبد الله .

وإنما تأتى الألوان والأشكال مختلفة لتناسب بيئة المعيشة ، فالبيئات الحارة مثلاً يميل أهلها إلى السواد ، والبيئات الباردة إلى البياض ، كذلك الحال فى اختلاف الألسنة بحسب البيئات أيضاً . أما الأصل فنحن جميعاً نُرَدُّ إلى آدم ، وآدم خُلِق من تراب ، وذريته خُلِقَتْ من بعده بالتكاثر .

حتى فى الرسالة قال الله تعالى : ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ (١٢٨)﴾ [التوبة] يعنى : ليس غريباً عنكم ، وليس من جنس غير جنسكم ، فلم يكُنْ من الملائكة مثلاً مع أنها أعلى درجة إلا أن الرسول الملَك لا تتحقق فيه القدوة والأسوة المرادة من الرسول ، كذلك لم يأتِ فارسياً ولا رومياً يختلف لسانه عن لسانكم ، إنما جاء عربياً من أوسطكم ، ومن أعظم قبائلكم.

إذن : البشر جميعاً فى هذا الكون يعودون إلى نفس واحدة هى آدم عليه السلام ، وقد أوضح لنا الحق سبحانه كيف خلق آدم بالشكل المعروف .وقال سبحانه :﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٢٩)﴾ [الحجر]

لكن لم يذكر شيئاً عن خلق حواء ، إلا أن العلماء قالوا : خلقها الله كما خلق آدم ، وقال آخرون : بل خُلِقَتْ من ضلع من أضلاع آدم ، فهى مطمورة فى خَلْق آدم ، مما يدلُّ على أن المرأة تابعة للرجل ، محجوبة فيه ، حتى في مسألة الخَلْق .

وأصحاب هذا الرأى يعتمدون على معنى : ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا (٦)﴾[الزمر] منها أى : من جزء من أجزائه ، أو من جنسه ؛ لأن جعل لا تدل على اختلاف العنصر كما فى قوله تعالى : ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ (٩)﴾ [السجدة] . يعنى : قطعة

منا صارتْ السمع ، وقطعة صارتْ البصر ، وأخرى الأفئدة .

كذلك حين يتحدث القرآن عن العمل تأتى المرأة مستورة فى الرجل ، فيقول تعالى : ﴿وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣)﴾ [العصر] وفى مواضع كثيرة يقول تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ .. (٣٥)﴾ [المائدة] ولم يُوجِّه الخطاب إلى النسوة مباشرةً إلا فى الأمور الخاصة بهن .

ثم يقول تعالى ، وهو يُعدِّد بعض نِعَمه على خَلْقه : ﴿وَأَنزَلَ[1] لَكُم مِّنَ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ (٦)﴾ [الزمر] وسبق أن قلنا فى صدر هذه السورة : إن الإنزال لا تنظر فيه إلى جهة العلو فحسب كما فى إنزال المنهج والقيم ، إنما ينظر أيضاً إلى المنزل سبحانه ، فالإنزال يكون بمعنى الإيجاد ، والأنعام من النعم الموجودة فى الأرض لكنها من عند مَنْ ؟ من عند الله فكأنه أنزلها ، والإنزال هنا ناسبه حرف الجر ﴿لَكُم﴾ ولم يقُلْ : عليكم لأن الأنعام شىء منفصل عن الإنسان .

وقد ورد تفصيل هذه الثمانية فى سورة الأنعام ، ومع أن نِعَم

---

(١) لفظة أنزل هنا تعنى معانى كثيرة ذكرها القرطبى فى تفسيره (٥٨٧٨/٨) :
- نسبة إلى نزول الماء الذى خُلقت منه هذه الأنعام .
- أنزل : أنشأ وجعل .
- أنزل : خلق . قاله سعيد بن جبير .
- خلق الله هذه الأنعام فى الجنة ثم أنزلها إلى الأرض .
- أنزل لكم : أعطاكم .
- جعل الخلق إنزالاً ، لأن الخلق إنما يكون بأمر ينزل من السماء . فالمعنى : خلق لكم كذا بأمره النازل .

وهذه الأقوال لا تتعارض بل تتكامل فى قول واحد : أن الله خلق وأنشأ هذه الأنعام عطاءً منه لعباده بأمره النازل من السماء بأن ينزل الماء لتنبت الأرض فتحيا هذه الأنعام .

الله علينا كثيرة إلا أنه خَصَّ هنا الأنعام بالذات ، لأنها الجنسُ القريب من الإنسان من حيث الخَلْق ، بعدها النبات ثم الجماد . وكلمة الزوج . البعض يظن أنها تعنى اثنين معاً ، وهذا خطأ لأن الزوج تعنى : واحد ومعه مثله ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ (٤٩)﴾ [الذاريات] ومثلها كلمة توأم.

وقوله : ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ (٦)﴾ [الزمر] معنى ﴿خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ (٦)﴾ [الزمر] بيان لأطوار الخلق التى يمر بها الجنين فى بطن أمه ، فهو يتقلب فى بطنها بين ماء مَهين ، يستقر فى الرحم نطفةً ، ثم علقة ثم مضغة ، ثم يتكوَّن منها العظام ، ثم يكسو العظام لحماً ، هذه أطوار الخَلْق المرادة فى قوله تعالى : ﴿خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ (٦)﴾ [الزمر]

قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً[1] فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤)﴾ [المؤمنون]

هذه هى الأطوار التى يمرُّ بها الإنسان منذ أنْ يصلَ إلى رَحِم الأم ، وهذا يعنى أن هناك طَوْراً يسبق هذه الأطوار ، هو طوْر التقاء عنصر الذكورة بعنصر الأنوثة ، أو التقاء الحيوان المنوى بالبويضة

---

(١) النطفة : الماء الصافى ، وتطلق فى القرآن على ماء الرجل أو المرأة الذى يُخلق منه الولد .
العلقة : الدم الجامد الغليظ الذى يعلق بما يمسُّه .
المضغة : القطعة من اللحم تُمضغ لتماسكها ، ومنها مضغة مخلقة أى مصورة على هيئة طفل ، ومنها غير مخلقة أى غير مُشكَّلة أى غير تامة التصوير وتكون سقطاً .

وتلقيحها ؛ لأنه لا يصل إلى الرحم إلا بويضة مُلقَّحة دخلها ميكروب الذكورة .

وفى سورة الحج بيَّن سبحانه أن المضغة منها مُخلَّقة وغير مُخلَّقة :﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِى الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۝٥ ﴾ [الحج]

فالمضغة المخلّقة هى الجزء الذى خُلِّقتْ منه الأعضاء والجوارح ، وغير المخلَّقة هى الجزء الذى استقر فى الجسم بدون تخليق ليظل احتياطياً للجسم ، وكأنه (رِيزْرف) أو صيدلية صيانة ، فإذا ما حدث فى الجسم عطب قامتْ المضغة غير المخلَّقة بإصلاحه ، كما نرى مثلاً فى الجروح ، فالجرح بعد فترة يندمل وتبنى فيه أنسجته حتى تعودَ كما كانت ، من أين ؟ من المضغة غير المخلَّقة .

والعجيب أن الجسم حين تتركه على طبيعته ولا تتدخّل فى الجرح بمواد كيماوية يلتئم ويعود دون أنْ يتركَ أثراً ، إنما حين نتدخل بأدوية ومواد كيماوية لا بُدَّ أنْ تؤثر على الخلايا والأنسجة ، وتترك فيها أثراً .

لذلك أثبت العلم أن فى الإنسان مخزنين للقوت ، مخزناً لقوته اليومى ، ومخزناً آخر احتياطياً ، نأخذ منه القوت حين ينفد ما فى المخزن الأول ، لأن الإنسان يأكل على قَدْر الطاقة ثم يزيد عليها ، فتتحول هذه الزيادةُ إلى دهون فى الجسم ، وحين يجوع الإنسانُ أو يعطش يستمد قوته من الدهن الموجود فى جسمه ، ومن العجيب أن هذه المادة الدهنية تتحول إلى أىِّ مادة يحتاجها الجسم .

ولوجود هذا المخزن رأينا الإنسانَ يصبر على الجوع شهراً ، فى حين لا يصبر على العطش أكثر من عشرة أيام ، لماذا ؟ لأنه حين يجوع ولا يجد طعاماً يستمد طعامه من المخزون الاحتياطى فى جسمه .

فقوله تعالى : ﴿ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ (٦) ﴾[الزمر] أى : الخلق الثانى ، فالخَلْق الأول خلق آدم عليه السلام من تراب ، وقد أخبرنا الله به ، لأن أحداً لم يره ، كما قال سبحانه :

﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا [1] (٥١) ﴾ [الكهف]

فإذا طلع علينا مَنْ يقول إن الإنسان أصله قرد تطوَّر إلى إنسان نعلم أنه من المضلِّين الذين أخبرنا الله عنهم ، ولا بُدَّ أن نعلم كذبه ، والرد على هذا الهراء ميسور ، لأن الإنسان إنْ كان متطوراً عن قرد ، فلماذا لم تتطور باقى القرود ؟ ولماذا على مَرِّ التاريخ كله لم نَرَ قرداً تطور وارتقى حتى إلى ما يقرب من الإنسان .

إذن : هذا كذب وباطل ، لأن الخالق سبحانه خلق الأجناس كلها ، وجعل من كُلٍّ زوجين اثنين ، يتم التكاثر وليتم الانفصال ، قال تعالى : ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٤٩) ﴾ [الذاريات]

وقوله سبحانه :﴿ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ (٦) ﴾[الزمر] بيان للقرار المكين الذى يستقر فيه الإنسان فى بطن أمه ، قال تعالى : ﴿ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (٢١) إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ (٢٢) ﴾ [المرسلات] والمكين هو المستقرّ فى

---

(١) عضداً . أى : أعواناً مساعدين . [القاموس القويم ٢/٢٤] . قال الزبيدى فى تاج العروس (مادة عضد) : من المجاز : العضد : الناصر والمعين . وعضد الرجل : أنصاره وأعوانه .

المكان ، فبطن الأم مكان ، والجنين فى البطن مكين .

ولما تكلم العلماء فى معنى الظلمات الثلاث قالوا : هى : ظلمة البطن ، وظلمة الرحم ، وظلمة المشيمة . وكلمة الظلمة نفهم منها عدة أمور .

أولاً : الظلمة تعنى عدم وجود النور ، وهى مرتبطة بالليل .

ثانياً : الليل دائماً رطب عن النهار ؛ لأن النهار فيه حرارةُ الشمس وحرارةُ الأنفاس الناشئة عن الحركة ، أما الأنفاس فى الليل فهادئة ، لأنها لمجرد استبقاء الحياة ، وليست ناشئة عن حركة العمل والجهد المبذول .

ثالثاً : كذلك فى الظلمة سكون ، وهدوء لا يتوفر فى النهار .

إذن : فى الظلمة عدم نور ، وفيها برودة ، وفيها سكون ، وهذه الأمور الثلاثة ضرورية لنمو الجنين ، وتكوُّن أعضائه فى بطن أمه ، لأنه فى بطن أمه خلْقٌ ضعيف غير مكتمل الأعضاء والجوارح ، لا يَقْوى على تحمُّل الحرارة ، ولا تحمُّل الضوء ، ولا تحمُّل الأصوات المزعجة ، لذلك جعل له الخالق سبحانه عوازلَ تقيه هذه الأشياء ، لذلك قال سبحانه : ﴿فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ۝٦﴾ [الزمر]

والأقرب للصواب أن هذه الظلمات الثلاثة فى الرحم وليس منها ظلمة البطن ؛ لأن الحق سبحانه يُحدِّثنا عن القرار المكين الخاص بالجنين ، فيقول : ﴿ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ۝٦ ﴾[الزمر] بيان للظرف العام الذى يقع فيه الظرف الخاص بالجنين وهو الرحم ، فالبطن ظرف كبير يحوى الرحم والأمعاء والمعدة والكبد والطحال والبنكرياس .. الخ لذلك حدد الظرف الخاص بالجنين فقال بعدها : ﴿فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ۝٦﴾ [الزمر]

إذن : الظلمات الثلاث عبارة عن عوازل وأغشية تحمى الطفل ، وكلها داخل الرحم ، وإذا كان الإنسان المكتمل الناضج تزعجه الأصوات ، وربما أتلفت طبلة أذنه مثلاً ، وتؤذيه الأضواء العالية ، حتى لا يَقْوى نظره على مواجهتها ، فهل يطيق الجنين مثل هذه الأشياء ، وهو لم تكتمل أعضاؤه بعد ؟

ومعلوم أن الطفل يُولد بجلد رقيق لا يتحمل الحرارة ، ويُولد ولم تكتمل فيه بعض الأعضاء والجوارح ، فالجهاز العصبى مثلاً لا يكتمل إلا بعد عدة سنوات ، والجهاز العقلى لا ينضج إلا بعد سنِّ البلوغ ، والعين لا تؤدى مهمتها فى الرؤية إلا بعد ثلاثة أيام .

فالجنين يحتاج إلى حماية ؛ لذلك جعله الله فى ظرف داخل ظرف داخل ظرف ، كما أنك تجعل أوراقك المهمة مثلاً فى ملف ، والملف فى الخزينة ، والخزينة فى غرفة ، فقوله ﴿ فِى ﴾ دليل على العناية بهذا المخلوق ، وتوفير ما يناسبه من الظروف المحيطة به .

وقوله سبحانه : ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ۝٦﴾[الزمر] كلمة ﴿ذَٰلِكُمُ ۝٦﴾[الزمر] عبارة عن اسم الإشارة (ذا) وضمير المخاطبين ، والإشارة هنا للحق - تبارك وتعالى - فلو أشرتَ لخطاب المفرد تقول : ذلك ، وللمثنى ذلكما كما فى : ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي ۝٣٧﴾ [يوسف] ولجمع المذكر (ذلكُمْ) ولجمع المؤنث (ذلِكُنَّ) كما فى : ﴿فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ ۝٣٢﴾ [يوسف]

وجاءت هذه الإشارة إلى الحق سبحانه بعد أنْ تكلم عن بعض أسراره فى خَلْق الإنسان ، وعن الظلمات الثلاث فى رحم الأم ، وكلها فى مجال الخَلْق والتربية والتكوين الأول للإنسان ، وهذه المسألة يناسبها صفة الربوبية التى تتولى الخَلْق والتربية ، فالربُّ هو الخالق

وهو المربّى ، أما كلمة الله فهى للألوهية ، والألوهية تكليف ، لأن الله يعنى المعبود بطاعة أوامره واجتناب نواهيه ، والجنين فى بطن الأم بعيد عن مسألة التكليف ، فلماذا اختار هنا وفى هذا المقام لفظ الألوهية (الله) فقال : ﴿ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ ﴿٦﴾ ﴾ [الزمر]

ولم يقل : ذلكم ربكم الله - كما يقول بعض المستشرقين ؟

قالوا : لنفهم أنه سبحانه لا يخلقنا ولا يربينا لنكون مثل الدواب فى الكون ، إنما يخلقنا ويُربينا لهدف ولمنهج تكليفى نسير عليه ؛ ذلك ليجعلنا نأنس بكلمة الله قبل كلمة رب ، وفى هذا إشارة إلى أن الهدفَ من التكليف صلاح المجتمع وصلاحكم فيما بينكم ، فالخالق سبحانه لم يخلقنا عبثاً ولم يتركنا هَمَلاً وخلْقاً ضائعاً لا هدفَ له.

لذلك فى صدر سورة الرحمن يُبيِّن الحق سبحانه أن تعليمَ المنهج قبل تكوين الخَلْق ، وأن الخَلْق لا يُعَدُّ نعمة إلا إذا تَمَّ فى ظل منهج الخالق ، فصاحب الصنعة لا بُدَّ أنْ يحدد مهمتها قبل أنْ يصنعها ، قال تعالى :﴿ الرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴿٤﴾ ﴾ [الرحمن]

وقوله تعالى : ﴿ لَهُ الْمُلْكُ ﴿٦﴾ ﴾ [الزمر] مادة (ملك) منها المُلك والملك والملكوت : الملْك بالكسر هو ما تملكه ولو كان يسيراً ، والمُلْك بالضم أنْ تملكَ مَنْ يملك ، والمِلك والمُلك فى عالم المشاهدة ، أما الملكوت فهو ما لا نشاهده من مُلْك الله ، ولا يُطلع الله عليه إلا مَنْ اصطفاه من أنبيائه ورسله وأهل طاعته ممَّنْ صفَتْ فطرتهم الإيمانية وسلَمَ لهم جهاز الاستقبال عن الله ، هؤلاء يُطلعهم الله على بعض ملكوته ، لذلك لما وفَّى سيدنا إبراهيم وأذعن لأمر ربه أراه هذا الملكوت : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ .. ﴿٧٥﴾ ﴾ [الأنعام]

ومثل مُلك وملكوت نقول : رحمة ورحموت ، ورهبة ورهبوت .

ومعنى ﴿لَهُ الْمُلْكُ .. ﴿٦﴾﴾[الزمر] يعنى : إنْ كنتم قد شهدتم مُلْكاً واسعاً فاعلموا أنه لمن خلقكم ، ومن العجيب أنه مخلوق من أجلكم أنتم وقد خلقه الله لكم قبل أنْ يخلقكم ؛ لأن الإنسان الأول طرأ على كَوْن مُعَدٍّ لاستقباله بكل ما يلزمه من مُقوِّمات الحياة بدايةً من الأرض والسماء والشمس والقمر والنجوم إلى أصغر شىء فى الكون .

وقوله بعدها : ﴿لا إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ .. ﴿٦﴾﴾[الزمر] يعنى : أن هذا الخَلْق العجيب لله وحده ولم يَدَّعه أحد لنفسه ، وما دام أن أحداً لم يدَّع الخَلْقَ لنفسه فليس لأحد أنْ يدَّعى أنه واضع المنهج الذى يعيش به الإنسانُ فى الكون ؛ لأن الذى خلق هو الذى يضع المنهج ، والذى صنع هو الذى يضع قانون الصيانة لصنعته .

﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴿٦﴾﴾ [الزمر] أى : كيف تنصرفون عن عبادة الله الخالق إلى عبادة غيره ممن ليس لهم من الخَلْق شىء ؟ كيف تنصرفون عن ربٍّ خلق وربَّى ولا يزال فلم يتركنا ولم يسلم خَلْقه لأحد غيره ، وليس عنده استعداد لأنْ يسلمه أبداً .

﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾﴾

بعد أنْ حَنَّنَ الحق سبحانه الخَلْق بذكر الربوبية التى خلقت وربتْ ، وأمرتْ ، وبذكر الألوهية التى ضمنتْ صلاح البلاد والعباد ، بيَّن سبحانه أنه الغنى عن خَلْقه ، فقال تعالى : ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ ۝٧﴾ [الزمر] يعنى : غنى عن إيمانكم ولا تنفعه طاعاتكم .

فهو سبحانه جعل التكاليف لصلاح حالكم لا لمنفعة تعود عليه سبحانه ، فأنتم خَلْقه وصَنْعته ، والصانع يريد أنْ يرى صنعته على أحسن حال ، يرى العبد المؤمن فى المجتمع المؤمن الذى تتساند حركته لا تتعاند ، وتتفق توجهاته لا تتضارب ، الخالق سبحانه لا يحب أنْ يرى خَلْقه يتصارعون ، واحد يبنى والآخر يهدم .

إذن : هذا هو الهدف من الخَلْق ومن المنهج ؛ لأن الله تعالى بصفات الكمال فيه خلق الخَلْق ، ولم يُزدْه الخَلْق صفة واحدة لم تكُن له من قبل ، إذن : لا حاجة له إليكم . إنما أنتم صنعته ويريد لكم الخير ؛ لذلك لما عرض الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبيْنَ أنْ يحملْنها وأشفقْنَ منها ، وحملها الإنسان ، إنه كان ظلوماً جَهُولاً .

وإباء السماوات والأرض والجبال ليس امتناعاً على الله ، ولا اعتراضاً إنما تسليم ؛ لأن الله خيَّرهم فاختاروا أنْ يكونوا مُسيَّرين .

لكن الإنسان قَبِلها فحكم الله عليه بأنه كان ظلوماً وجهولاً ، لكن كيف يُوصَف مَن قَبِلَ كلام الله بأنه ظلوم وجهول ؟

قالوا : لأنه ظلم نفسه وجهل ما يكون منه ، لأنه مخلوق مختار له أنْ يؤمن ، وله أنْ يكفر ، وله أنْ يطيعَ وأنْ يعصى ، ولما عُرِضَتْ عليه الأمانة قبلها ؛ لأن الله هو الذى خيّره . ووثق بنفسه وقدرته على الأداء ، لكنه جهل ما يطرأ عليه وما يَجدّ من أحداث وأهواء ، فظلم نفسه عند التحمُّل وجهل بوقت الأداء ، وأسرع فى وقت الرضا

والقبول ، وكان ينبغى عليه أنْ يحسب حسابَ الإنجاز والأداء .

وفَرْق بين التحمُّل والأداء فى مسألة الأمانة ، لأن الأمانة موكولة إلى ذمة المؤتمن ، ولو كتب بها (إيصالاً) أو كان عليها شهود ما سُمِّيتْ أمانة ، والإنسان عادة يُقبل على تحمُّل الأمانة وفى نيته أداؤها ، كما لو أنك أعطيتَ صديقاً لك مبلغاً من المال يحفظه لك ، لحين عودتك من السفر مثلاً ، فتراه يرحب ويقبل لكن تعنّ له ظروف ، وتمتد يده إلى هذا المال ، وربما جئت فلم تجده ، وعندها إما ينكر أو يماطل .

إذن : ظلم نفسه ، وجهل وقت الأداء ، وجهل أنه ابنُ أغيار ، ونفسه متغيرة ، أما السموات والأرض والجبال لما خُيِّرتْ اختارت أنْ تكونَ مُسيَّرة ، لا دخْلَ لها بهذه المسألة فأخذت الأمر من قصيره .

ومعنى قوله تعالى :﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ ﴿٧﴾﴾ [الزمر] واضح فى الحديث القدسى : « يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتْقَى قلب رجل واحد منكم ، ما زاد ذلك فى ملكى شيئاً . ولو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنّكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئاً . ولو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم اجتمعوا فى صعيد واحد ، وسألنى كل واحد مسألته فأعطيتها له ما نقص ذلك من ملكى إلا كما ينقص المخْيَط إذا أُدخل البحر ، ذلك أنِّى جَوَاد ماجد واجد ، عطائى كلام ، وعَذابى كلام ، إنما أمرى لشىء إذا أردته أنْ أقول له كُنْ فيكون »[1] .

وقوله سبحانه : ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ﴿٧﴾﴾ [الزمر] دليل على

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٥/١٥٤ ، ١٧٧) ، والترمذى فى سننه (٢٤٩٥) ، وابن ماجه فى سننه (٤٢٥٧) من حديث أبى ذر رضى الله عنه . وقال الترمذى : هذا حديث حسن .

محبته سبحانه لخَلْقه ، فكأنه تعالى يقول : أنا غنى عنكم ، لكن لا أحب أنْ تكونوا كافرين ؛ لأننى أريد أن أباهى بكم ملائكتى الذين قالوا عنكم : ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ (٣٠) ﴾ [البقرة]

وورد أن الحق سبحانه يقول لملائكته : أعلمتم أن عبيدى أطاعونى ؟ فيقولون : أطاعوك لنعمتك عليهم ، فقال : ولو سلبتُ نعمتى لأطاعونى .

لذلك يُمرضهم ويطيعونه ، ويُفقرهم ويطيعونه ، ويهزمهم ويطيعونه ، وينصرهم ويطيعونه . إذن : عبادى يطيعوننى لذاتى ؛ لأنى أستحق أنْ أُحبّ ، وأنْ أُطاع بصرف النظر عن نعمى عليهم .

لذلك يقول الحق سبحانه عتاباً للخَلْق الذين يعبدونه خوفاً من ناره ، أو طمعاً فى جنته : أو لو لم أخلق جنة وناراً أما كنتُ أهلاً لأنْ أُعبد ؟

وضربنا مثلاً بالرجل الذى يعمل معه خادم يخدمه مقابل مائة جنيه فى الشهر ، لكن ضاقتْ حالُ هذا الرجل وأصبحتْ لا تتسع لهذا المبلغ ، فقال لخادمه : والله أنا لم أَعُدْ قادراً على دفع هذا المبلغ ، ولا أقدر إلا على خمسين جنيهاً ، فانظر أنت فى أمرك أو ابحث لك عن فرصة عمل أخرى ، فقال الخادم : أنا موافق على الخمسين ، لكن اشتدتْ الحالُ بالرجل مرة أخرى ، حتى أنه لم يَعُدْ قادراً على دَفْع أكثر من عشرين جنيهاً ، فرضى بها خادمه ثم عشرة فرضى بها ، إلى أنْ قال له : والله حالك معى جعلك تستحق أنْ تُخدم ، ولو بلا أجر ، هكذا أَمْر الله معنا .

فالحق سبحانه لا يرضى لعباده الكفر لأنهم خَلْقه وصَنْعته ، وهو سبحانه حريص على ما يُصلحهم ، حريص على أنْ يكونوا مؤمنين لتستقيم أمورهم ، وتمتد نِعَمه عليهم من الدنيا إلى الآخرة ، فكما أنعم عليهم فى الدنيا بنعم موقوتة يريد أنْ يُنعم عليهم فى الآخرة ونِعَم الآخرة باقية خالدة .

لذلك ورد فى الحديث القدسى : « قالت الأرض : يا رب ائذن لى أنْ أخسف بابن آدم ، فقد طعمَ خيرَكَ ، ومنع شكرك ، وقالت السماءُ : ياربّ ائذن لى أنْ أسقط كِسَفاً على ابن آدم ، فقد طَعِم خيرك ومنع شكرك إلى أنْ قال الحق سبحانه لهذه المخلوقات التى أظهرت غيرتها على ربها عز وجل : دَعُونى وخَلْقى ، لو خلقتموهم لرحمتموهم ، إنْ تابوا إلىَّ فأنا حبيبهم ، وإنْ لم يتوبوا فأنا طبيبهم»[(١)] .

﴿وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ ۝٧﴾ [الزمر] فإن تشكروا يرضى لكم الشكر ، ويعجبه منكم ، ويحبه لكم ، ويجزيكم عليه خيراً ، وإنما رضى لهم سبحانه الشكر لأنه سبب سعادتهم فى الدنيا والآخرة ، كما قال سبحانه : ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ .. ۝٧﴾ [إبراهيم] ، فالشكر على النعمة يعطينا مزيداً من النعمة ، فنشكر عليها فتعطينا المزيد ، وهكذا يظل الشكر دائماً والنعمة دائمة ..

---

(١) أورده الإمام الغزالى فى إحياء علوم الدين (٥٢/٤) من قول بعض السلف ، ولفظ : « ما من عبد يعصى إلا استأذن مكانه من الأرض أن يخسف به واستأذن سقفه من السماء أن يسقط عليه كسفاً ، فيقول الله تعالى للأرض والسماء : كفّا عن عبدى وأمهلاه فإنكما لم تخلقاه ، ولو خلقتماه لرحمتماه ، ولعله يتوب إلىَّ فأغفر له ، ولعله يستبدل صالحاً فأبدله له حسنات » .

وقوله :﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٧﴾ ﴾ [الزمر] أى : لا تحمل نفسٌ مذنبةٌ ذنوبَ نفسٍ أخرى ، يعنى : سأكون عادلاً بألاَّ أحمل أحداً ذنب غيره ، فكلّ مُعلّقٌ من عرقوبه .

وهذه الآية وقف عندها بعض المستشرقين يقول : إنها تتعارض وقوله تعالى : ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ﴿١٣﴾ ﴾ [العنكبوت] نعم ظاهر الآيتين التعارض ، لكن أنت لم تفهم مَناط الوِزر .

فالقاعدة العامة أنه لا يحمل أحدٌ ذنبَ أحد ، أما هؤلاء فيحملون أوزارهم وأوزار الآخرين ، لأن الآية هنا تتحدث عن رؤوس الضلال وقادة الكفر الذين ضلّوا فى أنفسهم ، وأضلّوا غيرهم ، فالوزر الأول وِزْر ضلالهم فى أنفسهم وأوزار الآخرين الذين أضلوهم وأغووهم وزينوا لهم الضلال . إذن : فالمعنى مختلف .

﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ ﴿٧﴾ ﴾[الزمر] يعنى : إنْ كنتُ قد بدأتُ خَلْقكم بالإكرام لكم ، وقابلتم هذا الإكرام بالجحود ، ولم تؤدوا حَقّه بالإيمان بى والطاعة لمنهجى ، فاعلموا أنكم سترجعون إلىَّ ولن تفلتوا منى ﴿ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ ﴾[الزمر] أى : يخبركم بما كان منكم .

﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾ ﴾ [الزمر] إذن : تذكروا دائماً هذه المسألة ، واحسبوا حسابها قبل فوات الأوان .

وهذه الآية تحذير من الحق سبحانه ، وبيان للعقوبة من شأنه أنْ يردع الناسَ عن الجرائم ، فلا تقع ولا تحدث العقوبة أصلاً ، وهذا من رحمة الخالق بالخَلْق ، فهو سبحانه يريد لهم الخير ، ويريد لهم أنْ ينعموا بنعمه فى الآخرة ، كما نَعِموا بنعمه فى الدنيا .

﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾ ﴾

(الضُّر) هو ما يُخرِج الإنسان عن سلامته فى نفسه ، أو فيمَنْ يعول أو فيما يملك ، والإنسان حينما يصيبه الضُّر يُفقده ركيزة التعالى ، و (العنطزة) ؛ لأنه لا يسلِّم نفسه بلا ثمن ، ويعرف أنه لا أحدَ يرفع عنه ضُرَّه إلا الله ، فيتوجه إليه وحده ولا يغشَّ نفسه .

وقد أوضحنا هذه المسألة بحلاق الصحة زمان ، وكان يقوم بدور الطبيب فى البلدة ، فلما انتشر التعليم وتخرَّج بعض الأطباء من كلية الطب خاف صاحبنا على (أكل عيشه) ، وخاف أنْ يسحب هؤلاء البساطَ من تحت قدميه ، فراح الحلاق يُهوِّن من شأن الطبيب الجديد الذى عُيِّن فى البلدة يقول : إنه لا يعرف شيئاً وو ، يريد أنْ يصرف الناسَ عنه ، لكن لما مرض ولده ماذا فعل ؟ هل غَشّ نفسه ؟

لا بل (لفَّ) الولد بالليل ، وأخذه إلى الطبيب الذى طالما تكلم فى حقه وقلَّل من قدراته أمام الناس ، أما الآن والمريض ولده فإنه

---

(١) خَوَّله كذا : ملّكه إياه متفضلاً عليه بغير عوض . [القاموس القويم ١/ ٢١٤] .

(٢) الند : المثل والنظير . وجمعه أنداد . قال تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا .. ﴿٣٠﴾ ﴾ [إبراهيم] أى : أمثالاً شركاء . [القاموس القويم ٢/ ٢٥٧] .

يعود إلى الحق ولا يخدع نفسه .

كذلك الإنسان إذا مسَّه الضر وعزَّتْ عليه أسبابه لا يلجأ إلا إلى ربه بعد أنْ انهدَّتْ فيه حيثية ﴿كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ (٧)﴾ [العلق] وبعد أنْ سقط عنه قناع التعالى والغطرسة .

وقلنا : إن هذه القضية يستطيع كلٌّ منّا أن يلمسها فى نفسه فأنت مثلاً تعطى ولدك مصروفه كل يوم عندما يذهب إلى المدرسة ، وفى يوم ما نسيت تعطيه المصروف ، ماذا يفعل ؟ يتعرَّض هو لك ويحاول أنْ يمر من أمامك وكأنه يُذكِّرك بما نسيته ، فيسلم عليك أو يقول : أنا رايح المدرسة يا بابا ، ولو أنك تعطيه مصروفه كل شهر ما فعل ذلك طوال التسعة وعشرين يوماً ، نعم ﴿كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ (٧)﴾ [العلق]

فالإنسان ساعةَ يصيبه الضر ، وهو يعلم أن الضر لا يرفعه إلا الله ، ولا يصرفه إلا خالق السموات والأرض ، فإنه لا يتوجه إلا إليه ، لمن تعتقد مواجيده أنه قادر على رَفْع هذا الضر ، حتى لو كان كافراً بالله ، غيرَ مؤمن به فإنه إذا مسَّه الضر يقول : يا رب ، والعجيب أن الله يقبله ويغيثه ولا يرده ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ (٦٢)﴾ [النمل]

ويكفيك أنك لم تجد إلا أنا ولا تقول إلا يارب . لذلك قال سبحانه : ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ (٦٧)﴾ [الإسراء] يعنى : إنْ دعوتَ غير الله لا يستطيع الوصول ، ويضل الطريق إليك ، ولا يجيبك إلا الله .

ومعنى ﴿مُنِيبًا إِلَيْهِ (٨)﴾ [الزمر] راجعاً إليه ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ (٨)﴾ [الزمر] يعنى : أعطاه ﴿نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ (٨)﴾ [الزمر] أثار العلماءُ ضجة ومعركة حول الاسم الموصول (ما) هنا

وقالوا : لماذا لم يقل نسى مَنْ لأن مَنْ تدل على العاقل ، أما (مَا) فلغير العاقل ، على معنى أن (مَا) هنا تعود إلى الله تعالى .

ونقول : القرآن يسير على غير هذا ، واقرأ : ﴿قُلْ يَـٰأَيُّهَا الْكَافِرُونَ ① لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ② وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ③﴾ [الكافرون] فـ (ما) أطلقت على الله تعالى . إذن : (ما) هنا فى معناها الصحيح ، وإنْ غابت عنكم حكمة ذلك ، نعم مَنْ للعاقل ، وما لغير العاقل ، لكن الحق سبحانه لم يصف نفسه بالعقل ؛ لأن العقل صفتك أنت ، فجاء بالصفة التى لا تمنع عدم وجود العقل ، ولو قال مَنْ لأدخل الحق سبحانه فيمن يعقل ، وهو سبحانه لم يصف نفسه بأنه عاقل ، إنما عالم وعلاَّم .

ويمكن تفادى هذا الإشكال لو وجَّهنا (ما) توجيهاً آخر ، فيكون المعنى : نسى الضر الذى كان سبباً فى رجوعه إلى الله ، لا نسى مَنْ أنقذه ، وكشف عنه ضُرَّه ، وتكون مَا بمعناها اللغوى لغير العاقل .

وقوله :﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ ⑧﴾ [الزمر] أنداد : جمع ند ، وهو الشبيه أو المثيل والنظير ، وهؤلاء الكفار رجعوا لله تعالى أنداداً مع علمهم أنه الإله الحق سبحانه ، ومع علمهم أنه ضَلَّ مَنْ تدعون إلا إياه ، ليرضوا فى أنفسهم مواجيد الفطرة الإيمانية ، فالواحد منهم يريد أنْ يكون له إله يعبده ، لكن إله على هواه ، إله ليس له تكاليف ، وليس فى عبادته مشقة على النفس ، إله بلا منهج : لا افعل ، ولا لا تفعل .

وقوله ﴿ لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ ⑧﴾[الزمر] البعض[1] قرأها بالفتح (ليَضل) ونقول : هو لم يفعل ذلك إلا لأنه ضَالٌّ فى نفسه ، فالأقرب بالضم (ليُضل) أى : يُضل غيره .

---

(١) قرأها بفتح الياء الدورى عن أبى عمرو ، أما رواية حفص عن عاصم فهى بضم الياء .

ثم يقول سبحانه (قُلْ) أى : رُدّ يا محمد . وقُلْ : ﴿ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴿٨﴾ ﴾ [الزمر] لكن ما وجه التمتُّع بالكفر ؟ قلنا : أن يعبدَ إلهاً بلا منهج وبلا تكاليف ، إلهاً لا يمنعه من شُرْب الخمر ولا يقيد شهوات نفسه إلهاً لا يأمره بالصدق ولا بالأمانة .. الخ بل يتركه يربع فى الكون يتمتع به كما يشاء .

وقال ﴿ قَلِيلاً ﴿٨﴾ ﴾[الزمر] لأن التمتُّع هنا موقوت بالدنيا ومدة بقائه فيها ، وقلنا : إن الدنيا بالنسبة للإنسان هى مدة بقائه فيها لا مدتها منذ خَلْق آدم إلى قيام الساعة .

وكلمة ﴿ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴿٨﴾ ﴾[الزمر] الصحبة هنا تدل على التعارف والمودة الحميمة بين النار وأهلها ؛ لذلك يقول تعالى فى خطاب النار :﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ [ق] يعنى : هاتوا أحبابى وأصحابى ، وإلىَّ بالمزيد منهم .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ[2] آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿٩﴾ ﴾

---

(١) ذكر الواحدى النيسابورى فى أسباب النزول (ص ٢١٠) : « قال ابن عباس فى رواية عطاء : نزلت فى أبى بكر الصديق رضى الله عنه . وقال ابن عمر : نزلت فى عثمان بن عفان . وقال مقاتل : نزلت فى عمار بن ياسر » . وذكر السيوطى فى الدر المنثور (٧/ ٢١٤) عدة روايات .

(٢) قنت فى صلاته : خشع واطمأن . وقنت : دعا وأطال الدعاء . والقنوت : الطاعة والدعاء . [القاموس القويم ٢/ ١٣٤] .

كلمة (أم) تفيد التخيير بين أمرين ، تقول هذا أم هذا ، فلا بُدّ أن يكون لها مقابل ، فما مقابل ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ .. (٩)﴾[الزمر] المقابل لذلك فى قوله تعالى قبلها : ﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ..(٨)﴾ [الزمر]

فالمعنى أيهما أحسن من صفته إذا مسَّه الضر يضرع إلى الله ، فإذا كشف عنه الضر جعل لله أنداداً ، أمَّنْ هو قانتٌ آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ، ويرجو رحمة ربه .

ومعنى : ﴿ قَانِتٌ .. (٩)﴾ [الزمر] دائم الخضوع والعبادة (آنَاءَ) جمع (إنْو) مثل حِمْل وأحمال ، فكلمة (إنْو) أى : جزء من الليل ، وهى من حيث التصريف أأْناو وقُلبتْ الهمزة إلى مَدٍّ والواو إلى همزة لأنها وقعتْ بعد الألف الزائدة ، فصارت (آناء) .

وقوله : ﴿ يَحْذَرُ الآخِرَةَ (٩)﴾ [الزمر] يعنى : يخاف منها ومن القهر فيها ﴿وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ (٩)﴾ [الزمر] لأن رحمته سبقت غضبه ، لم يقل يأمن مقابل يحذر إنما ذكر أولاً ما يُخوِّف من الآخرة إنْ عصى ، والمراد يحذر النار فى الآخرة ، لكن لما تكلّم عن رحمة الله جعلها مباشرة ، فقال ﴿وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ (٩)﴾ [الزمر] ولم يقل : ويرجو الجنة .

والمؤمن حين يرجو لا يرجو عمله وسَعْيه فى الدنيا ، إنما يرجو وينتظر رحمة الله ، لأنه لا ينجو بعمله ، لأن أىَّ إنسان مهما كان صالحاً حين تحاسبه حساباً دقيقاً لا بُدَّ أنْ يخرج بذنوب وإدانة .

إذن : فالكفيل فينا جميعاً والذى يسعنا رحمة الله ، كما جاء فى الحديث الشريف : « لا يدخل أحدٌ الجنة بعمله . قالوا : ولا أنت

يا رسولَ الله ؟ قال : ولا أنا إلا أنْ يتغمدنى الله برحمته »[١] .

فإياك إذن أنْ تغترَّ بعملك ، لأن التكاليف كلها لصالحك أنت ، ولا يعود على الله منها شىء ، فحين يجازيك عليها فى الآخرة فهو تفضُّل من الله ونعمة .

ثم يقول سبحانه : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ ﴾[الزمر] بعد أن عقد الحق سبحانه مقارنة بين الإنسان إذا مسَّه ضُر دعا ربه منيباً إليه ، ثم إذا خوَّله نعمة منه نسى ما كان يدعو إليه من قبل ، ومَنْ هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذَرُ الآخرة ويرجو رحمة ربه .

أراد سبحانه أن يؤكد هذا المعنى ، وأنْ يبين لنا أن أصحاب العلم الحقيقى لا يستوون ، وأصحاب العلم غير الحقيقى ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ ﴾[الزمر] فالذى رجع إلى الكفر بعد أنْ كشف الله عنه ضُره لم يعلم العلم الحقيقى ، لأنه لو علمه ما رجع إلى الكفر ولاستقلَّ المطلوب منه فى الدنيا إذا قارنه بما أعدّ له من جزاء فى الآخرة .

أما الذى هو قانتٌ آناءَ الليل ساجداً وقائماً ، يحذَرُ الآخرة ، ويرجو رحمة ربه ، فقد علم العلم الحقيقى ، فالقنوت بالليل فيه مسائل كثيرة : أولاً : أنه أبعد عن الرياء والسمعة ، ثانياً : أن كل جوارحه تفرغتْ للقاء ربه ، فالعين مثلاً فى ظلمة الليل تستريح من المرائى التى تشغل الإنسان وتأخذ انتباهه ؛ لأن كل مرءَى يأخذ جزءاً

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٤٦٣) ومسلم فى صحيحه (٢٨١٦) عن أبى هريرة . ومعنى تغمده الله برحمته ، أى : أدخله فيها وغمره بها .

من خواطرك ، فهذا راح وهذا جاء وهذا قال وهذا ..

أما الليل فسكونٌ لا انشغال فيه ، فالجوارح كلها خالصةٍ لوجه الله، لا تشغلها المرائى والأصوات . وهذا الجوّ يوفر لك وقفة حقيقية وخاشعة بين يدى الله .

وفى القنوت تترك النوم وتحرم نفسك راحتها ، لتقوم بين يدَىْ ربك ساجداً أو قائماً ؛ لذلك يقول الشاعر :

خَلَوْتُ إلى رَبِّى فَهِمْتُ بِقُرْبه ... وَصِرْتُ خَفِيفَ النفْسِ كَأنِّى بِلاَ جسْمِ
تَلَوْتُ كِتابَ الله فيا نعمَ ... ما عُوِّضْتُ مِنْ نعمةِ النَّوْمِ
تَمَنَّيتُ ليْلى أنْ يطُولَ لأنتهى ... إلى السِّين مِنْ والنّاسِ موصُولة باسْمِ

هذه صفة أهل القنوت الذين يقضون الليل فى مناجاة ربهم ، وهذا هو حال المرتحل فى كتاب الله الذى لا ينتهى إلى السين من والناس حتى يبدأ فى بسم الله الرحمن الرحيم فى أوله ؛ لذلك سبق أنْ قُلْنا : إن القرآن كله مبنى على الوصْل ، لا على الوقف .

فهل يستوى مَنْ هذا حاله مع مَنْ كفر بالله ؟ هذا علم وعمل ، وذلك لم يعلم أو علم ولم يُوظِّف علمه فيما ينفعه . ثم إن العبد حينما يعلم ويعمل بعلمه يُفيض الله عليه بالمزيد ، فيعطيه علمَ المكاشفة ، وعلمَ الفيض ، رحمةً منه سبحانه وفضلاً ، كما رأينا فى قصة العبد الصالح الذى صاحبه سيدنا موسى - عليه السلام - قال تعالى فى شأنه :

﴿آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عندنَا وَعَلَّمْنَاهُ من لَّدُنَّا علْمًا (٦٥)﴾ [الكهف] كذلك الرحمة هنا فى ﴿وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ (٩)﴾ [الزمر] أى : الفيوضات الخاصة التى يفيض الله بها على مَنْ ظل فى مَعيته ، ونحن نشاهد

هذا فى عالم البشر ، فحين يكون لك صديق يلازمك ويسير فى معيتك لا بُدَّ أنْ تخصَّه بفضلك وخصوصياتك ، فما بالك بمَنْ ظل فى معية ربه ؟ أيعطيك بلا خصوصية ؟ أيُسوِّيك بمَنْ يؤدى الفرض وحده ؟

لذلك قال سبحانه فى الحديث القدسى : « ما تقرب إلىَّ عبدى بمثل ما افترضتُه عليه ، ولا يزال عبدى يتقرَّب إلىَّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببتُه كنتُ سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورِجْلَه التى يمشى بها ، ولئن سألنى لأُعطينه »[1] .

وهكذا يدخل العبد فى الربانية التى تقول للشىء كُنْ فيكون ، وهذه من الفيوضات لمن كان لله ساجداً أو قائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه ، يعبده بلا رياء ولا سمعة ، ويمنع نفسه النومَ والراحة ؛ لأنه أنِسَ بربه ، واستراح فى قربه .

فقوله تعالى ﴿هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ۝٩﴾[الزمر] دلّ على أن هناك علماً اسمه علم المكاشفة ، يُفيض الله به على مَنْ يشاء من عباده الصالحين ، الذين استحقوا هذه المنزلة ، فالعبد الصالح صاحب موسى وعبد الله على منهج موسى ، وليس برسول ، ومع ذلك فاق الرسول ؛ لأن موسى - عليه السلام - أوصله بربه فتقرَّب إليه ، حتى صار من أهل المكاشفة واتصل هو بالله مباشرة ، وأطلعه الله على ما لم يُطلِع عليه نبيه موسى عليه السلام .

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٥٠٢) ، وأبى نعيم فى حلية الأولياء (٤/١) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، أوله : « إن الله قال : من آذى لى ولياً فقد آذنته بالحرب . » وقد أخرجه أحمد فى مسنده (٢٥٦/٦) من حديث عائشة ، أوله : « من أذل لى ولياً فقد استحل محاربتى » .

لذلك فى آخر قصته مع سيدنا موسى قال : ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِى ﴿٨٢﴾﴾ [الكهف] إذن : فمهمة الرسل أنْ يُوصلُوا الخَلْق بالخالق ، فإذا ما اتصلوا به كان الخط بينهما مباشراً ، وكُلٌّ بحسب قُرْبه من ربه .

وقوله سبحانه ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴿٩﴾﴾ [الزمر]

أى : أصحاب العقول المفكرة التى تبحث فى المحسَّات ، وتتأمل فى الآيات ؛ لأن للإنسان حواسَّ تدرك ، وعقلاً يرجح ويختار ، فيأخذ هذه بالسمع ، وهذه بالبصر ، وهذه بالأنف ثم يعرضها على العقل لينظرَ ما فيها من الخير وما فيها من الشر ، فإنْ كان العقل صحيحاً رجح الخير ، واختار من البدائل أجداها فائدة ، وأهمها نفعاً .

﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾

التقوى أنْ تحترز من المعاصى ، وأنْ تجعل بينك وبين صفات الجلال من الله وقاية ، فالله جبار قهار ذو انتقام ، فاجعل بينك وبين هذه الصفات وقاية تحميك .

وقوله ﴿الَّذِينَ آمَنُوا ﴿١٠﴾﴾[الزمر] للعقائد ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمْ ﴿١٠﴾﴾ [الزمر] أى : فى التكاليف ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ﴿١٠﴾﴾ [الزمر] أى : حسنة فى الآخرة ، فلم يقل : للذين أحسنوا حسنةً فى هذه الدنيا ؛ لأن الكفار يتمتعون فى الدنيا بحسنات كثيرة من المال والجاه والعلم .. الخ .

فإنْ فسَّرنا الحسنة على أنها النعيم ، فالنعيم الذى يكون سبباً فى صَرْف الإنسان عن ربه لا يُعَدُّ حسنة إنما سيئة ، إذن : فالحسنة المرادة هنا فى الآخرة ﴿وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ ﴿١٠﴾﴾ [الزمر] لكن ما علاقة ﴿وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ ..﴿١٠﴾﴾ [الزمر] بقوله ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمْ ﴿١٠﴾﴾ [الزمر]

قالوا : يعنى : إنْ صادفتَ متاعبَ فى أرضك التى تعيش فيها ، فإنَّ أرضَ الله واسعةٌ ، فالتمس حمايةَ نفسك ودينك فى أرض أخرى ، كما قال سبحانه : ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا[1] كَثِيرًا وَسَعَةً ﴿١٠٠﴾﴾ [النساء]

وقال فى نفس المعنى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا .. ﴿٩٧﴾﴾ [النساء]

إذن : حين تضيق بك أرضك ، وحين يضيق عليك الخناق بها ، فالتمس أرضاً أخرى تأمن فيها على نفسك وعلى دينك ، وعلى تطبيق منهج الله دون معاند ، ودون معارض .

ولو تنبهنا إلى آية فى سورة الرحمن لوجدنا فيها حلاً لكل مشاكل الدنيا المعاصرة ، هى قوله تعالى : ﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾﴾ [الرحمن]

يعنى : جعل الأرض كل الأرض دون تحديد تحت تصرف كل الأنام دون تحديد أيضاً ، فكلُّ إنسان له فى أرض الله نصيب ، فإذا ضاق به مكان فله حَقٌّ فى مكان آخر . لكن قوانين البشر ومصالحهم غيَّرَتْ هذه الصورة ، ووضعت العقبات والعراقيل والإجراءات المعقدة

---

(١) أى : يجد مكاناً متسعاً يراغم فيه القوم الذين راغموه واضطروه إلى الهجرة ، أو يجد مكاناً يصلح لمراغمة أعدائه أو اتقاء شرهم . [القاموس القويم ١/ ٢٧٠] .

فى طريق هذه الحرية التى كفلها الخالق سبحانه للحركة على أرضه .

لذلك وجدنا أن مشكلة العالم الاقتصادية تكمن فى وجود أرض بلا رجال ، أو رجال بلا أرض ، ولو تركنا الأرض لله كما خلقها الله لعباده ، لو جعلنا الأرض كل الأرض للأنام كل الأنام لقضيْنَا على كل مشاكل الدنيا .

وانظر مثلاً إلى السودان جارتنا من الجنوب ، بها ملايين الأفدنة لا يُسْتفاد منها ، وعندنا فى مصر ملايين من الأيدى العاملة العاطلة ، ولولا الحدود التى قيدنا أنفسنا بها لَحلَّتْ السودانُ مشكلة الغذاء فى العالم العربى كله . بل والأدهى من ذلك والأمرّ أن نختلف على الحدود ، ونتزاحم على شبر واحد ، وتنشب الحروب والأزمات بين الدول بسبب هذه المسألة ، إنها النتيجة الطبيعية لمخالفة أمر الله وسنته فى الخَلْق .

ثم يقول سبحانه : ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ (١٠)﴾ [الزمر] الحث على الصبر بعد قوله ﴿وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ (١٠)﴾ [الزمر] دلَّ على أنه لا بُدَّ أَنْ تُوجَد فى الحياة صِعَاب ومشاكل ومتاعب تحتاج إلى صبر ، والشاعر يقول :

لعمْرُكَ مَا ضَاقَتْ بلادٌ بأهلها وَلكِنَّ أَخْلاقَ الرِّجَالِ تَضِيقُ[1]

فالحق سبحانه يريد منا أنْ نتحمل منهج الله ، وأن نقوم به لنسعد أنفسنا ، ثم نتسامى فى الإيمان ، ونحاول أن نسعد غيرنا ليحدث استِطراقٌ للخير فى المجتمع ؛ لِذلك قال ﷺ : « نَضّر اللهُ

---

(١) البيت من قصيدة لابن الرومى من بحر الطويل ، وعدد أبياتها ٤ أبيات ، وابن الرومى هو على بن العباس بن جريج ، شاعر كبير من طبقة بشار بن برد والمتنبى ، ولد ببغداد (٢٢١ هـ) ونشأ بها ومات بها مسموماً (٢٨٣ هـ) عن ٦٢ عاماً .

امرءاً سمع مَقالتى فوَعاهَا ، ثُمَّ أدَّاها إلـى مَنْ لم يَسْمَعْها ، فَرُبَّ مُبلَّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ » .

إذن : فنقْلُ الخـير إلى الغـير فـيه خيـر لك أنت ، وسوف يـعود عليك نفعه ، لأنه حـين تحجب علْم الخير عن الغير سـيكون هذا الغير فى شَرٍّ ، وسوف يتعبك هذا الشـر وينالك شىء منه ، فمن مصلحتك أنت أنْ يعمَّ الخيـرُ الآخرين ، ومن مصلحتك أنْ يكون غـيرك خَـيِّراً ، لا يسرق ولا يَسُبّ ولا يخون ، ولا يعـتدى على الآخرين ، فنقْل علم الخير إلى الغير مُفيد لناقله ، ليكفّ شرَّ ذى الشر عنه على الأقل .

والصابر هو الذى يصبر على الشـدائد والمحن التى تُخرجه عن : سلامة الجوارح ، وسلامة المال ، وسلامة الأهل ، والصابر واثق بأن إيلاَمه وإيذاءه يعطيه خيراً من النعيم الذى فقده قبل الإيلام والإيذاء ، لأن الله قال : ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾ [الزمر]

وإذا كانت التكاليفُ لـها حساب عند الله ، فـالصلاة لها حـساب ، والزكاة لها حسـاب .. الخ أما الصبر فإن أجره بغـير حساب يعنى : غير معلوم ، حتى قالوا أنه فى الجنة حين يرون منازل لم يكُنْ أهلها معـروفين بالعمل الصـالح ، ومع ذلك منازلهم فى الجنة عاليـة ، فلما سـألوا عن ذلك قالوا : إنهم كـانوا من أهل الصـبر على البـلاء وعلى الشدائد والمحن ، فنالوا هذه المنزلة بصبرهم .

والصبـر عدم تشكيك فى رحمـة الله ، وعدم اعتـراض على حكمه وقضائه ، فمثلاً نرى بـعض أهل البلاء يعرضون آفاتهم وبلواهم على المجـتمع فى موسم الحج ، فبـعض هؤلاء يذهب للحج وهناك يكشف بلواه أمام الناس ، ويظـهر عاهته فـى رِجْله أو فى يده يستجـدى بها الخلق ، وكـأنه يشكو الخالق لخَلْقـه ، ولو أنه ستـر بلاءه ورضى به

لطرق الرزقُ بابه ، ولَسَاقه الله إليه دون جهد .

لذلك يقول النبى ﷺ : « إذا بُليتُمْ فاستتروا »[١] لأن مَنْ يظهر بَلْواه للخَلْق كأنه يفضح الخالق ، كأنه يقول للناس : انظروا ماذا فعل الله بى .

وفى سير الصحابة وسلف الأمة رأينا امرأة لا تقبل من زوجها أن يشكو الفقر لرسول الله ، وكانا لا يملكان إلا ثوباً واحداً يلبسه الرجل ، ويذهب به فى أول الصلاة خلف رسول الله ثم يسرع بعد الصلاة وينصرف إلى بيته لتلبسه زوجته وتصلى هى أيضاً فيه .

وقد لاحظ سيدنا رسول الله أنه يرى هذا الرجل فى أول الصلاة ، ولا يراه بعدها ، فتحيَّن رسولُ الله الفراغَ من الصلاة ، ثم التفت إليه سريعاً فوجده خارجاً من المسجد ، فناداه وقال له : أراك أول الصلاة ثم لا أراك بعدها أَزُهْداً فينا ؟ قال : لا يا رسول الله ولكن لى امرأة بالبيت تنتظر ردائى هذا لتصلى فيه ، فدعا له بالخير .

فلما ذهب قالت امرأته : لقد تأخرتَ قَدْر كذا تسبيحة - هكذا كان حساب الوقت عند هؤلاء - فقال لها : إن رسول الله استوقفنى وسألنى عن أمرى ، فلم أجد بُداً أن أقول له : إن لى امرأة بالبيت تنتظر ردائى هذا للصلاة ، فقالت له : يا هذا أتشكو ربك لمحمد ؟ هكذا كان صبر الصحابة ، صبر لا يعرف الجزع ولا الشكوى ولا الاعتراض على قضاء الله .

---

(١) أورده العجلونى فى كشف الخفاء (حديث ٢١١) بهذا اللفظ ، وقد أخرج الحاكم فى مستدركه (٤/٢٤٤) عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قام بعد أن رجم الأسلمى فقال : « اجتنبوا هذه القاذورة التى نهى الله عنها فمن ألمَّ فليستتر بستر الله وليتب إلى الله ، فإنه من يبد لنا صفحته نقم عليه كتاب الله عز وجل » وقال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه .

لذلك يقول بعض العارفين حين يرى حظ الصابرين فى الآخرة : لو علم الناسُ جزاءَ الصابرين لَتمنَّوْا أنْ يعودوا إلى الدنيا ، وتُقرض أجسادهم لينالوا هذه المنزلة .

﴿ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ ﴾

نلحظ فى هذه الآية تكرارَ الفعل أمرت ، وهذا يدل على أننا أمام أمرين ، كل منهما مستقل عن الآخر ، فالأمر الأول ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾﴾ [الزمر] وهذا أمر ليقين الإيمان وليقين العبادة ، بحيث نتوجه بها خالصة لله .

والخلوص لله على مراحل ، فواحد يعبد الله لانتظار جزائه وطمعاً فى جنته ، وآخر يعبده خوفاً من ناره ، وآخر يعبده لذاته سبحانه ، ولأنه يستحق أنْ يُعبد ، وأنْ يُحبَّ لذاته .

لذلك قال سبحانه فى آخر سورة الكهف : ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف] لا جنة ربه ولا جزاء ربه ، إنما يريد اللقاء ، ويريد الأُنْس بالله ، فلا تشغله النعمة ، إنما تشغله معية المنعم سبحانه ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف] والجنة أحد .

إذن : الأمر الأول خاصٌّ بالعقائد ، أما الأمر الآخر : ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾﴾ [الزمر] فهو للتكاليف الإسلامية بافعل ولا تفعل ، لكن كيف يقول رسول الله ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾﴾ [الزمر] أليس هو أولهم بالفعل ؟ لأن أول تكليف كان له هو ساعةَ نزل عليه الوحى ، وقبل أنْ يُبلِّغه إلى أصحابه ، إذن : مرت

عليه فترة كان هو ﷺ أول مَنْ أسلم لله ، أول مَنْ أسلم منهجه لله ، قبل أنْ يبلغ هذا المنهج ، هذا إنْ أردناها حقيقة أولية .

وأيضاً له أولية فى تنفيذ الأحكام أمام الناس بعد أنْ يبلغهم المنهج ، حتى يعلموا أن الرسالة لم تكُنْ لتدليل الرسل ، إنما كانت لإقامة الأُسْوة فيهم ، فإذا عمل الرسلُ أنفسهم على منهج الله علّموا الناس جميعاً أن هذا المنهج خير ، بدليل أنهم ألزموا أنفسهم به تطبيقاً قبل أنْ يلزموا الناس ، كالذى قال : لم آمركم أمراً أنا عنه بنَجْوة .

شىء آخر : أن الله تعالى سلب الرسول ، وسلب أهل بيته ما أعطاه لعامة المسلمين ، فالميت يرثه أهله ، ورسول الله لا يرثه أحد من أهله ، ولعامة فقراء المسلمين أن يأخذوا من أموال الزكاة والصدقة ، أما آل البيت فقد حرم عليهم الأخذ منها .

إذن : تحمَّل رسولُ الله المشاق فى سبيل الرسالة ، ولم تكُنْ بالنسبة له رفاهية ولا تدليلاً ، كذلك تحمَّل معه أهل بيته ، ونالهم جزء من هذه المشاق ، ولولا أن إشراق الجزاء فى نفوسهم يعطيهم الأمل والثقة فى الجنة ، هذه الثقة التى جعلتهم وكأنهم ينظرون إلى أهل الجنة فى الجنة ينعَّمون وإلى أهل النار فى النار يعذبون ، لولا هذا ما صبروا على هذه المتاعب والمشاق .

لذلك يقول سبحانه حينما يخاطب نساء النبى :﴿ يَـٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الأحزاب] فلأنكُنَّ نساء النبى فلا بُدَّ أنْ تكُنَّ أول مَنْ ينفذ منهج الرسول لتتحقق بكُنَّ القدوة ، وليعلم الناس أن الرسول ما جاء جباراً يأمرهم بما لا يأتمر به ، أو ينهاهم عما لا ينتهى عنه ،

بل هو فى التنفيذ سابقهم وإمامهم وقدوتهم هو وأهل بيته ، إذن : كان ﷺ أول المسلمين بالفعل .

وللعلماء كلام طويل فى مسألة أوَّل المسلمين ؛ لأنها وردتْ أيضاً على لسان سيدنا موسى عليه السلام ، قال ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣)﴾ [الأنعام] أى : مسلمى زمانه ، أما رسول الله فأول المسلمين فى زمنه وفى زمن غيره ، نقول لتقريب هذه المسألة : إن الأولية هنا أولية تفوق ، والتفوق قد يكون تفوقاً إضافياً كما نقول : فلان الأول على كلية الحقوق هذا العام ، فالتفوق هنا خاص بالعام الذى نتحدث عنه ، وربما جاء فى أعوام أخرى مَنْ تفوق عليه ، وحصل على درجات أعلى منه ، وقد يكون التفوق عاماً كما لو قلنا : فلان الأول على كلية الحقوق منذ أنشئت .

إذن : قد تكون الأولية فى الزمن ، وقد تكون الأولية فى مقارنة الأزمان بعضها ببعض ، فإذا قال رسول من الرسل : أنا أول المسلمين ، فالمراد أول المسلمين فى زمانه ، وإذا قيل لمحمد ﷺ : أنا أول المسلمين فالمراد أول المسلمين من لدن آدم إلى قيام الساعة ، يعنى : أنا وإنْ تأخر زمنى إلا أننى الأول إذا أخذنا الرتبة ساعة التكليف ، ثم إن غيرى من الرسل بُعِثَ إلى زمن بعينه فى مكان بعينه ، وأنا بُعِثْتُ للناسِ كافة فى كل زمان ومكان ، ثم إننى خاتم الرسل ، فلا رسالة بعدى ولا معقبَ من الرسل على رسالتى ، هذه كلها حيثيات الأولية عند رسول الله ، وهى حيثيات ظاهرة لا تُنكَر .

لذلك نجد الأولية دائماً على لسان رسول الله كما فى قوله تعالى : ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ (٨١)﴾ [الزخرف] يعنى : أول مَنْ يُصدِّق هذه المسألة .

﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣) قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِي (١٤) فَٱعْبُدُواْ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ (١٥)﴾

سبحان الله ، أيقول رسول الله ﴿إِنِّى أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣)﴾ [الزمر] فكأنه ﷺ يقول : أنا لم آخذ هذه المنزلة حكماً مطلقاً أننى نبى مُكرَّم ، بل أنا كعامة الناس إنْ عصيتُ ربى تعرضتُ للعقاب ، يعنى تقديم الله لى أولاً واصطفاؤه لى لا يشفع لى إنْ حدثتْ منى معصية .

ثم يقول سبحانه على لسان رسوله ﴿قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِى (١٤)﴾[الزمر] وهذه أيضاً للعقائد وليقين الإيمان ، وقد سبق قوله تعالى : ﴿قُلْ إِنِّى أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ (١١)﴾ [الزمر] وهنا ﴿قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ (١٤)﴾ [الزمر] فما الفرق بين (الله أعبد) و (أعبد الله) ؟

قوله تعالى : ﴿أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ (١١)﴾[الزمر] جاء على الترتيب الطبيعى

للجملة : الفعل ، ثم الفاعل ، ثم المفعول . والجملة بهذا الترتيب لا تمنع من العطف على المفعول كما تقول : أطع فلاناً ، فإنها لا تمنع أن نقول وفلاناً ، أما إنْ قدَّمنا المفعول به على الفعل ، كما فى قوله سبحانه : ﴿قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ ﴿١٤﴾﴾ [الزمر] فإنَّ تقديم المفعول أفاد القصر يعنى : قصر العبادة على الله وحده ، كما لو قلت : إلى الله أشكو يعنى : لا إلى غيره .

فالآية الأولى جاءتْ بالترتيب الطبيعى للجملة ، والأخرى جاءت بصيغة القصر ، كأنه قال : أنا لا أعبد غير الله ، وأنتم اعبدوا ما شئتم ﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ ﴿١٥﴾﴾ [الزمر]

ثم يُبيِّن سبحانه عاقبة الشرك فيقول :

﴿ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١٥﴾﴾ [الزمر]

نفهم أن هؤلاء المشركين خسروا أنفسهم يوم القيامة ، لأنهم ظلموا أنفسهم بالكفر وبالشرك ، لكن كيف يخسرون أهليهم أيضاً ؟ قالوا : لأن أهليهم هم أولادهم وذريتهم ؛ وهؤلاء إما أنْ يؤمنوا ، وإما أنْ يظلوا على كفرهم مع الآباء ، فإنْ ظلُّوا على كفرهم فهم خاسرون كآبائهم ، وإنْ آمنوا فلن يكونوا مع الآباء ، وسيحرمون رؤيتهم ، لأن هؤلاء فى الجنة وهؤلاء فى النار . إذن : الخسارة ملازمة لهم فى كلتا الحالتين .

وكلمة الخسارة هنا أكَّدها الحق سبحانه بالمفعول المطلق ﴿ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١٥﴾﴾ [الزمر] ثم وصف الخسران بأنه مبين أى :

بيِّن واضح ومحيط ؛ لأن التاجر متى يكون خاسراً ؟ إما أنْ يعود إليه رأس ماله دون زيادة ، وفى هذه الحالة يكون قد خسر جهده وتعبه فى تجارته ، وإما أنْ تتعدى الخسارة إلى رأس المال فيخسر تعبه وجهده ، ويخسر جزءاً من رأس المال ، وهذا هو الخسران المبين ، أى : المحيط بكل شىء فقوله تعالى : ﴿أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١٥﴾﴾ [الزمر] يعنى المحيط الذى أحاط بأهله وماله وتعبه وسَعْيه .

﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ ﴿١٦﴾﴾

يبين سبحانه عاقبة الكافرين ، فيقول :﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ﴿١٦﴾﴾ [الزمر] كلمة ظلل جمع ظلة ، وهى ما يُظلُّ الإنسان ، ويقيه حرارة الشمس ، ففى الظل يلتمس الإنسانُ الراحة وطراوةَ الهواء ، أما هؤلاء فعليهم ظُلَل لا ظلة واحدة من النار ، والنار لا تكون أبداً ظلة .

إذن : هذا أسلوب تهكم بالكافرين ، وليت هذه الظلل من جهة واحدة ، إنما من فوقهم ، ومن تحتهم ، والإنسان عادة حينما يأتيه الشر من جهة ينأى إلى الجهة المقابلة ، وفى موضع آخر قال سبحانه : ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ [1] ﴿٤١﴾﴾ [الأعراف]

---

(١) قال السيوطى فى الدر المنثور (٣/٤٥٧) : « أخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قولهم ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ .. ﴿٤١﴾﴾ [الأعراف] قال : الفرش . ﴿وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ .. ﴿٤١﴾﴾ [الأعراف] . قال : اللحف . وأخرج هناد وابن جرير وأبو الشيخ عن محمد بن كعب القرظى مثله » .

إذن : فالنار محيطة بهم لا مهربَ منها ، ولا مفرَّ ﴿ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ (١٦)﴾ [الزمر] تأمل رحمة الله بعباده ، حتى في مقام ذكر النار والعذاب ، فالنار ليس المراد بها تعذيب الخَلْق ، إنما تخويفهم وزَجْرهم حتى لا يقفوا هذا الموقف ، ولا يتعرضوا لهذا العذاب ، وأنت لا تصنع ذلك إلا مع مَنْ تحب ، كما تُخوِّف ولدك من الرسوب ، وتبين له عاقبة الإهمال ، وما سيتعرض له من الذلة والإهانة والاحتقار ، إنْ هو فشل في دراسته .

إذن : حظه تعالى من ذكر النار أنْ يُخوّف بها ، حتى لا يقع الخَلْق في الأسباب المؤدية إليها ، والعاقل ساعة تخوفه يخاف ، وساعة تزجره يتزجر ويرتدع ، ويُعد هذا التخويف نعمةً من أعظم نعم الله عليه .

وهذه المسألة واضحة في سورة الرحمن ، فالذين يحاولون أنْ يستدركوا على كلام الله يقولون : من المناسب للمعنى أنْ تختم الآيات التي تذكر النعم بقوله تعالى :

﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٣)﴾ [الرحمن]

كما في قوله سبحانه ﴿خَلَقَ الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ (١٤) وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ (١٥) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٦)﴾ [الرحمن] لكن ، ما النعمة التي لا ينبغي أن نكذب بها في قوله : ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلا تَنتَصِرَانِ (٣٥)﴾ [الرحمن]

قالوا : هذا العذاب ليس هو الواقع إنما يذكره ليرهب به يعني : إنْ حدث منكما كذا وكذا يُرْسَل عليكما شُوَاظ من نار ونحاس

فلا تنتصران ، وكونه يرهب ويخوف بالعذاب قبل أنْ يأتى حينه فإنه يحدث عندى مانع ووقاية فلا أقترف أسباب هذا العذاب ، بل أُلزم جانب الخوف من الله والتقوى .

لذلك قال بعدها : ﴿يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾﴾ [الزمر] أى : اجعلوا تخويفى لكم رحمة بكم لا إرهاباً لكم ، والإنسان حين يوازن بين المسائل ويقارن بين حال أهل الجنة وحال أهل النار لا بُدَّ أنْ يرعوى ، وأنْ يرجع إلى الجادة ، وعندها يكون أهلاً لرحمة الله ومغفرته . إذن : من نعم الله علينا أنْ يُخوِّفنا ، وأنْ يُحذِّرنا الشر قبل وقوعه ، وألاَّ يأخذنا على غِرَّة ، أو يتركنا فى غفلة .

﴿وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ(١) أَن يَعۡبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰۚ فَبَشِّرۡ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿١٨﴾﴾

كلمة الطاغوت مبالغة من طاغٍ ، والطاغوت هو الظالم الذى يزيده احترام الناس لظلمه ، أو خوفهم منه يزيده ظلماً وغطرسة ، والطاغوت

---

(١) الطاغوت : كبراء الظَّلمة من شياطين الإنس أو الأصنام ، وهو كل ما عُبد من دون الله . وهو من الطغيان أى : تجاوز الحد . [القاموس القويم ١/٤٠٢] .

لا بدّ أنْ يكون له توجيه وتعالٍ ، لذلك لا يقال للأصنام طواغيت ، لأنها لا تعلو بذاتها ، وليس لها توجيهات ، إنما يعلو بها عُبَّادها ، إذن : الطاغوت لا يكون إلا من البشر ، ولو كانوا حاكمين فقط ، وإلا فما وَجْه الطغيان فى الأصنام ؟ الأصنام لا قالت ولا ظلمت .

وفى المثل الريفى يقولون : (يافرعون إيه فرعنك ؟ قال : ملقيتش حد يردنى) إذن : لو وقف الناس فى وجهه ، ولو ردوا ألوهيته عندما ألَّه نفسه لارتدع عن هذا .

ورحم الله أحمد الزين[1] ، ففى عهد الملك أرادوا وحدة وطنية تجمع كل الأحزاب تجتمع بالملك ليفكروا فى حَلِّ مشاكل البلد ، ودَعَوا لذلك مصطفى النحاس[2]، لكنه لم يذهب ، فلما سأله أتباعه : لماذا لم تذهب لهذا الاجتماع ؟ قال : لأنى سأكون فيه أقلية . يعنى : لكثرة الموجودين ، فأخذ أحمد الزين هذا الموقف ، وقال فيه قصيدة أراد أنْ يغمز فيها الملك ، فقال[3]:

---

(١) أحمد الزين : شاعر مصرى ، كفيف البصر ، كان يقال له « الراوية » لكثرة ما يحفظ ، ولد عام ١٩٠٠ م . تعلم فى الأزهر واشتغل محامياً شرعياً ، ثم عمل موظفاً بدار الكتب نحو عشرين سنة . له « القطوف الدانية » شعراً ، و « قلائد الحكمة » رجزاً . توفى عام ١٩٤٧ م عن ٤٧ عاماً . (الأعلام ١/١٢٩) له ٨٤ قصيدة عدد أبياتها ٢٢٩٢ بيتاً .

(٢) مصطفى النحاس ، زعيم مصرى ، ولد فى سمنود عام ١٨٧٩ م ، وتعلم بها وبالقاهرة ، تخرج بمدرسة الحقوق عام ١٩٠٠ م ، عمل بالمحاماة إلى أن عين قاضياً وانتسب إلى وفد سعد زغلول وكان من طلائع شباب الاستقلال ، واعتقل مع سعد ، تولى رئاسة الوزارة خمس مرات ، لزم بيته مكرهاً بعد ثورة ١٩٥٢ حتى توفى عام ١٩٦٥ م عن ٨٦ عاماً (الأعلام للزركلى المجلد ٧) .

(٣) هذه الأبيات من قصيدة لأحمد الزين من بحر الخفيف ، عدد أبياتها ٥١ بيتاً أولها :

كلهم فى الهوى يزين دينه ألف مُفْتٍ ومالك بالمدينة

أما البيتان الآخران فهما البيتان ٤٤ ، ٤٥ من القصيدة حسب الموسوعة الشعرية .

كُلُّهم بالهَوَى يُمجِّدُ دِينَهُ أَلْف مُفْتٍ ومالكٌ بالمدينَه
كَمْ رئيس لَوْلاَ القَوَانينُ تَحْمِى جَهْلَهُ كانَ طرده قَانُونهْ
ذُو جُنُونٍ وَزَادَ فِيهِ جُنُوناً أنْ يَرىَ عَاقِلاً يُطِيعُ جُنُونَهُ

فالطاغوت ما صار طاغوتاً إلا لأن الناسَ خافوه ولم يَرُدُّوا طغيانه ، ولم يجابهوه ، بل وافقوه وداهنوه ، فاستشرى به الطغيان .

البعض يرى أن الطاغوت كل ما عُبد من دون الله ، لكن ينبغى أنْ نضيفَ إلى ذلك : وهو رَاضٍ بهذه العبادة ، وبناءً على هذا التعريف لا تُعَدُّ الأصنامُ طواغيتَ ، ولا يُعَدُّ عيسى - عليه السلام - طاغوتاً ، ولا يُعَدُّ أولياءُ الله طواغيتَ كما يدَّعى البعض ؛ لأن الناس فُتِنَوا فيهم ، ولا ذنب لهم فى ذلك .

وقوله :﴿وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ .. ﴿١٧﴾﴾ [الزمر] أى : رجعوا إلى عبادته وحده لا شريك له ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ ﴿١٧﴾﴾ [الزمر] أى : بالجنة لأنهم وقفوا فى وجه الطغيان ، وردُّوا الظلم ولم يقبلوه ، والله تعالى يريد من المجتمع المسلم أنْ يقف فى وجه كل طاغية ، وأن يُعدِّل سلوك كل منحرف ، وأنْ يقاطع أهل الفساد ويعزلهم عن المجتمع وحركة الحياة فيه .

ومثَّلنا لذلك بالفتوة الذى يحمل السلاح ويهدد الناس فى نفوسهم وفى أرزاقهم وأعراضهم ، بل ومنهم مَنْ يتحدى القانون والسلطة والنظام ، إنه ما وصل إلى هذه الدرجة إلا لأن المجتمع تخلى عن دوره فى الإصلاح والتصدى لأهل الشر .

قبل أن أبدأ لقائى فى هذه الحلقة أذكر أنه وصلنى كتاب اليوم من أحد الإخوان يطلب منى أولاً أن أذكر له القصيدة التى قيلت فى قنوت الليل ، وأنا لا أقول مَنْ قالها ، وإنما أحيله إلى رجل حجة فى هذا الباب ، هو الدكتور محمد عبد المنعم خفاجة عميد كلية اللغة العربية سابقاً ، وحجة رابطة الأدب فى مصر .

وسأل أيضاً عن اختلاف العلماء فى تحديد الليل والنهار اختلافاً ينفى بعض الليل من النهار ، وينفى بعض النهار من الليل ، وأقول وبالله التوفيق : إن اختلاف الناس فى الليل والنهار اختلاف بين الشرعيين والفلكيين ، فالشرعيون يروْنَ أن الليل يبدأ من غروب الشمس إلى مطلع الفجر ، والفلكيون يقولون : إن الليل يبدأ من غروب الشمس إلى شروق الشمس .

إذن : فهناك فترة مختلف عليها ، وهى من الفجر إلى الشروق ، فالذين نظروا إلى أنها ليستْ من الليل هم الشرعيون ، وذلك لأن المراد فى احتياط الصوم ألاَّ يجور الإنسان على شىء من الليل ، يدخل فيه شيئاً من النهار فاحتاطوا لذلك .

ووجه الاحتياط أن الشرعى نظر إلى النور الذى يبدو عند طلوع الفجر ، ولم ينظر إلى سبب النور وهو الشمس ، فنحن نرى نوراً قبل أن تطلع الشمس .

أما الفلكى فينظر إلى وجود النور ، هذا النور يكون من علامة الليل . الشرعى قال : لا ففرْقٌ بين النور يظهر وبين المنوِّر ، لأن نور الفجر إلى الشروق نور لا نرى فيه الشمس ، وهو مرتبط بغروب الشمس وشروقها ، والليل يقال فيه : ليل أَلْيَل أو ليلة لَيْلاء يعنى شديدة الظلمة وهى حينما يكون القمر فى المحاق ، أو يقال

ليلة ليلاء . يعنى : فيها تعب ومشقة .

وقد جعل المحبُّون من الليل مراحاً ومَغْدى لشعرهم ، فإن كانوا مع الأحبة تمنَّوْا أنْ يطول الليل ، وإنْ فارقوا الأحبة تمنَّوْا أن يقصرَ الليلُ .

ومن ذلك قول الشاعر[١]

طَالَ لَيْلِى وَلَمْ أَنَمْ وَنَفَى عَنِّى الكَرَى طَيْفٌ أَلَمّ[٢]

وقال آخر لما اجتمع شمله بمَنْ يحب :

يَا لَيْلُ طُلْ يَا نَوْم زُلْ يَا صُبْح قفْ لاَ تَطْلُعْ

والآخر جمع الحالين معاً ، أظنه البحترى[٣] حين قال :

وَدَّعَ الصَّبْرَ مُحِبٌّ وَدَّعَكَ ذائعٌ مِنْ سِرِّه مَا اسْتَوْدَعَكْ

يَقْرَعُ السِّنَّ علىَ أنْ لَمْ يكُنْ زَادَ فِى تِلْكَ الخُطَى إذْ شيَّعَكْ

يَا أخَا البَدْر سَناءً وَسَنا حفظ اللهُ زَمَاناً أطلعَكْ

---

(١) الشاعر هو بشار بن برد العقيلى أبو معاذ ، أشعر المولدين على الإطلاق ، ولد ٩٥ هـ ، أصله من طخارستان غربى نهر جيحون ، كان ضريراً ، نشأ فى البصرة وقدم بغداد ، وأدرك الدولتين الأموية والعباسية ، اتهم بالزندقة فمات ضرباً بالسياط ودفن بالبصرة عام ١٦٧ هـ عن ٧٢ عاماً .

(٢) البيت من قصيدة له عدد أبياتها ٧ أبيات من بحر الرمل ، وهو فى الموسوعة الشعرية :

لم يطل ليلى ولكن لم أنم ونفى عنى الكرى طيف ألم

والكرى هو النوم .

(٣) بل هو : ابن زيدون أحمد بن عبد الله الأندلسى أبو الوليد ، ولد ٣٩٤ هـ وزير كاتب وشاعر من أهل قرطبة ، وهناك من يلقبه بحترى المغرب انقطع إلى ابن جهور من ملوك الطوائف بالأندلس ، وله رسائل فى استعطافه . له قصة مع ولادة بنت المستكفى . توفى ٤٦٣ هـ عن ٦٩ عاماً .

إنْ يطُلْ بَعدَكَ لَيْلِى فلَكَمْ بِتّ أشْكُو قِصرَ الليْلِ مَعَكْ[١]

والليل يقابله النهار ، لذلك يقول سبحانه : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا[٢] إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٧٢) ﴾ [القصص]

فجعل الليل مقابل النهار ، وتحلظ هنا دقَّة الأداء القرآنى ، لأن المتكلم رب والأداء أداء إلهى ، فلما تكلم عن الليل ذيَّل الكلام بقوله : ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ (٧١) ﴾ [القصص] ولما تكلم عن النهار ذيَّل الكلام بقول : ﴿ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٧٢) ﴾ [القصص] ذلك لأن السمع وسيلة الإدراك بالليل حيث لا رؤية ، أما فى النهار فالبصر .

وقد اضطر العلماء إلى البحث فى علاقة اليوم بالليل والنهار ، فقالوا : الحق يقول : ﴿ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ (١٨) ﴾ [سبأ]

فجعل سبحانه اليوم مقابل النهار ، لكن يوم الفلكيين غير هذا ، فاليوم عندهم لا يُحسب إلا من وقت إلى مثله فى القادم ، يعنى : إنْ بدأت من العصر فاليوم إلى العصر القادم . ويقولون فى التوقيت : صباحاً ومساءً ، فلو استيقظتُ مثلاً للسحور الساعة الثانية بعد منتصف الليل أقول : تسحرت الساعة الثانية صباحاً ، مع أننى ما زلتُ فى الليل ، وبالعكس أقول فى النهار : الساعة الخامسة مساءً ، مع أننى ما زلتُ فى النهار ، هذا كله من اختلاف الفلكيين والشرعيين .

---

(١) قصيدة لابن زيدون من ٤ أبيات من بحر الرمل . (الموسوعة الشعرية) .

(٢) السرمد : الدائم الذى لا ينقطع . والسرمد هو : دوام الزمان واتصاله من ليل أو نهار [تاج العروس للزبيدى] .

ولكن اليوم اخْتُلف فى مدلوله فى كثير من المواضع ، فالحق سبحانه يقول في كتابه : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً (٣)﴾ [المائدة] فأطلق اليوم على أىِّ لحظة من لحظاته .

وقال سبحانه : ﴿ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ (٥)﴾ [إبراهيم] والمراد بأيام الله الأيام التى تُنسب إليها الأحداث ، سواء أكانت نعمة أو نقمة ، نقول مثلاً يوم بدر ، وكان يوم بدر نعمة للمؤمنين ونقمةً على الكافرين . وإلى هنا انتهت الإجابة على سؤال الأخ السائل ، ونعود إلى ما كنا بصدد الحديث عنه من قوله سبحانه : ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا .. (١٧)﴾ [الزمر]

قلنا : الطاغوت هو الذى يطغى ، ويبارك الناسُ طغيانه ، ولا يصدونه عنه ، والطاغوت جاءت هنا مُؤنَّثة بدليل ﴿أَن يَعْبُدُوهَا .. (١٧)﴾ [الزمر] ، وفى موضع آخر جاء بصيغة المذكر فى قوله تعالى : ﴿ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ .. (٦٠)﴾ [النساء]

وكلمة الطاغوت من الكلمات التى تُطلق على : المفرد والمثنى والجمع مُذكَّراً ومُؤنَّثاً ، فنقول : هذا رجل طاغوت ، وهذه امرأة طاغوت ، وهذان طاغوت ، وهؤلاء طاغوت . وهى هنا للجمع ، بدليل قوله تعالى : ﴿أَن يَعْبُدُوهَا .. (١٧)﴾ [الزمر] وهى مثل كلمة سبيل ، نقول : هذه سبيل ، وهذا سبيل .

والطاغوت - كما قلنا - لابدَّ أن تكون له توجيهات ، لذلك لا يُطلق إلا على الطاغى من البشر أو من الجن ، أما الملائكة فلم ترْضَ أنْ تُعبد من دون الله ، كذلك يُسمَّى الظالمُ طاغوتاً .

ونفهم من قوله تعالى : ﴿ وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ .. (١٧) ﴾ [الزمر] أى : رجعوا إليه ، نفهم منها أنهم كانوا مع الله أولاً ثم انحرفوا عنه ، كيف ؟ قالوا : لأن كلَّ إنسان كان مع الله على فطرة الإيمان الأولى عندما أخذ اللهُ الميثاقَ على الخلَقْ جميعاً فقال : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى..(١٧٢) ﴾ [الأعراف] لكن منهم مَنْ ظلَّ على هذا العهد وعلى هذه الفطرة السليمة ، ومنهم مَنْ انحرف عنها ونسيها .

لذلك كثيراً ما يقول القرآن (وذكر) أى : بالعهد الأول ، فمعنى ﴿ وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ (١٧) ﴾ [الزمر] يعنى : رجعوا إلى الإيمان الفطرى وإلى العهد الأول ، أو رجعوا إلى الله للجزاء يوم القيامة .

وقوله سبحانه : ﴿ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ (١٧) ﴾ [الزمر] البشرى الخبر السَّار الذى نخبر به قبل أوانه ، والبُشْرى تنقسم إلى قسمين : إزالة عطب وألم ، أو تحقيق مراد وأمل ، فالذين اجتنبوا الطاغوت فلم يعبدوها وأنابوا إلى الله تحقَّق لهم الأمران معاً ، لأنهم أولاً برئوا من النار وآلامها ، ثم تحقَّق مرادهم بدخول الجنة كما قال سبحانه :

﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ .. (١٨٥) ﴾ [آل عمران]

لذلك قال بعدها : ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ (١٧) ﴾ [الزمر] أى بهذه البشرى السارة ﴿ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ (١٨) ﴾ [الزمر] القول لابدَّ أنْ يكون من قائل ، فإذا استمعوا القول من قائل يتبعون أحسن ما قيل ، وأن ما قيل يكون من أحسن قائل ، وإذا نظرنا إلى أحسن قائل لا نجد إلا الحق سبحانه وتعالى ، فإذا أمر الله بحكم فاتبعوه فقوله أحسن القول ، وأمره أنفع أمر .

والحق سبحانه لا يستفيد من أوامره لكم ، ولا تضره معصيتكم ، فأنتم إذن المنتفعون بالمنهج ، المستفيدون من تنفيذه ،

ثم أنتم خَلْق الله وصَنْعته ، ويعز عليه سبحانه أن تنحرف هذه الصنعة أو تعذَّب .

ثم يريد سبحانه من منهجه وشرعه أنْ يُديمَ عليكم عطاءه ونعمه ، وأن تكون نعمة الدنيا موصولة لكم بنعمة الآخرة ، لذلك قال عنهم فى الحديث القدسى : « لو خلقتموهم لرحمتموهم »[(١)] .

أو : أحسن ما قيل يعنى الإسلام ، فالإسلام جاء والناس أصناف شتَّى : كفرة لا يؤمنون بإله ، ومشركون يؤمنون بإله معه غيره ، وأتباع ديانات كان لها كتب ورسل سابقون كاليهود والنصارى . فهؤلاء الذين عاصروا الإسلام إنْ يستمعوا يستمعوا لقول هذا وقول ذاك ، يستمعوا للكفار وللملاحدة وللمشركين ولأصحاب الكتب السابقة .

فكأن الحق سبحانه يقول : اعرضوا هذه الأقوال على عقولكم ، واختاروا أحسنها ولا تتعصبوا لقول دون أنْ تبحثوه وتقارنوه بغيره ، فإنْ فعلتم ذلك وإنْ توفرت لكم هذه الموضوعية فلن تجدوا إلا الإسلام أحسن الأقوال والأَوْلَى بالاتباع ، فهو الدين الذى جمع للناس كلَّ خير ، ونأى بهم عن كل شر .

وهو الدين الذى جاء مهيمناً على جميع الأديان قبله ، وكتابه المهيمن على كل الكتب قبله ، وجاء الإسلام ديناً عاماً فى الزمان وفى المكان ؛ لذلك هو الدين الخاتم الذى لا دينَ بعده ، ولا كتابَ

---

(١) أورده الغزالى فى إحياء علوم الدين (٥٢/٤) من قول بعض السلف ولفظه : « ما من عبد يعصى إلا استأذن مكانه من الأرض أن يخسف به ، واستأذن سقفه من السماء أن يسقط عليه كسفاً ، فيقول الله تعالى للأرض والسماء : كُفَّا عن عبدى وأمهلاه فإنكما لم تخلقاه ، ولو خلقتماه لرحمتماه ، ولعله يتوب إلىَّ فأغفر له ، ولعله يستبدل صالحاً فأبدله له حسنات » .

بعد كتابه ، ولا رسول بعد رسوله .

ودينٌ هذه صفاته لابدَّ أن يكون قد استوفى كلّ شروط الكمال ، كما قال سبحانه : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا .. (٣) ﴾ [المائدة] فالإسلام إذن أحسن الأديان ، وأحسن الأقوال ، وأحسن ما نتبعه .

ثم تستمر الآيات فى وَصْف المؤمنين الذين اجتنبوا الطاغوت أنْ يعبدوها ، والذين أنابوا إلى الله والذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ﴿ أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُوْلَـئِكَ هُمْ أُوْلُوا الأَلْبَابِ (١٨) ﴾ [الزمر] هداهم يعنى دلَّهم وأرشدهم ، فلما اتبعوا دلالته وإرشاده ولم يكُنْ فى نفوسهم عناد لهذه الدلالة أعطاهم هدايةَ التوفيق والإيمان فآمنوا .

وقلنا : إن الهداية نوعان : هداية الدلالة ، وهداية المعونة . وبيَّنا ذلك كما سبق برجل المرور الذى تجده على مفترق الطرق يدلّ الناس ويُرشدهم ، فإن دلَّك على الطريق فأطعْتَه وشكرته على معروفه زادك ، وسار معك حتى لا تؤذيك عقبَات الطريق ؛ لأنه وجدك أهلاً لأنْ تُعان فأعانك .

كذلك الحق سبحانه يعطى عبده هداية الدلالة والإرشاد ، وهذه للمؤمن وللكافر ، فمَنْ أطاع فى الأولى أخذ الثانية ، وهى هداية المعونة ، وهذه للمؤمن دون الكافر ، فكأن الله تعالى يقول لعبده المؤمن : أنت آمنت بى ، وسمعتَ كلامى ، وأطعتَ فسوف أعينك على الطاعة ، وأخفف أمرها عليك ، وأُعسِّر عليك أمر المعصية .

وهذه من أعظم نِعَم الله على العبد أنْ يُيسِّر له أمر الطاعة ، ويُعينه على مشقاتها ، وفى المقابل يقفل دونه أبواب المعصية

ودواعيها . وهذا معنى قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧)﴾ [محمد]

فمعنى (زادهم هدى) يعنى : أعطاهم هداية المعونة على الإيمان .

وقوله : ﴿وَأُولَـٰئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ (١٨)﴾ [الزمر] أى : أصحاب العقول المفكرة المعتبرة ، لأنهم نشروا أمامهم كل الأقوال ، وبحثوها وقارنوا بينها ، وأخذوا أحسنها الذى يحقق لهم السعادة والمصلحة والانسجام فى حركة الحياة بلا تعاند ، بل حركة مستقيمة متساندة تنفى من القلوب : الحقد والغل والحسد ، وتمنع الانحراف من : سرقة وغش ورشوة واغتصاب .. الخ

فمَنْ يصادم مثل هذا المنهج ؟ ومَنْ يرفضه ؟ إنه منهج مستقيم لا يملك العقل السليم إلا الإذعان له والسير على هَدْيه ، لذلك سمَّى الله هؤلاء الذين اختاروا هذا المنهج سماهم ﴿أُولُوا الْأَلْبَابِ (١٨)﴾ [الزمر] أى أصحاب العقول ، والعقل مهمته أن يعقل الفكر فلا يشطح ، بل يعرض المسائل ويختار من البدائل ما يصلحه ، لكن آفة الرأى الهوى ، فالهوى هو الذى يصرفك عن مقول العقل إلى مقول الهوى .

قول آخر يقول : المراد بقوله تعالى ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ (١٨)﴾ [الزمر] أنه خاصٌّ بمَنْ يستمعون أقوال الإسلام ، فيتبعون أحسن هذه الأقوال ؛ لذلك جاء بصيغة التفضيل (أحسن) فكأن فى الإسلام (قول حسن) و (أحسن) ، فهذا الرأى لا يأخذ المسألة على العموم ، إنما يجعلها خاصة بأقوال الإسلام ، وهى كلها مُتصفة بالحُسْن ، لكن منها حسن وأحسن ،

وأصحاب العقول المتأملة يختارون منها الأحسن .

ومثال ذلك : شرع الإسلامُ مثلاً القصاصَ من القاتل وشرع الدية عليه ، وشرع أيضاً العفو ، فقال سبحانه : ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ .. (١٧٨)﴾ [البقرة] فمن أخذ بالقصاص أو الدية أخذ بالحسن ، ومَنْ تسامى إلى العفو أخذ بالأحسن .

كذلك فى قوله تعالى : ﴿إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ..(٢٧١)﴾ [البقرة] فإنْ أبديتَ الصدقة فأنت غير آثم ، بل هو أمر حسن ، لكن الأحسن منه أنْ تخفيها .

ومثله قوله سبحانه : ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٤٠)﴾ [الشورى]

وفى كل هذه المواضع ، نجد الحق سبحانه يُرغِّب عباده فى التسامح ، لكن التسامح يكون فى الأمر الذى تتحمل أنت ثمنه ، ويعود عليك ضرره إنْ كان هناك ضرر ، أما إنْ عاد الضرر على المجتمع عامة فلا تسامح .

والنبى ﷺ علَّمنا هذا الدرس ، فكان ﷺ لا يغضب لنفسه قط . إنما كان يغضب إذا انتهكَ أمر الله ، إذن : تسامح فى الأمر الذى يتعلق بك ، أما إنْ تعلق الأمر بعامة المسلمين فليس لأحد الحق أن يتسامح فيه .

والحق سبحانه يلفت أنظارنا إلى أن اختيار الأحسن هو أحسن لنا نحن وأفضل ، ففى قصة الإفك ، قال تعالى : ﴿أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ..(٢٢)﴾ [النور] يعنى : لا تغضب لأنك غفرتَ لمن أساء

إليك ، لأن الله تعالى سيعاملك بالمثل فيغفر لك إنْ أسأتَ ، ومَنْ لا يحب أنْ يغفر الله له ؟ فما دُمْتَ تحب أنْ يُغفر لك فاغفر لصاحبك ، لكن شريطةَ ألاّ تهيج المجتمع ولا تضره .

﴿ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي النَّارِ (١٩) ﴾

كان النبى ﷺ مُحباً لأمته ، حريصاً على هدايتهم والأخْذ بأيديهم ، وكان يؤلمه أنْ يشذ واحد منهم عن منهجه أو يعانده ، والقرآن الكريم يعرض لنا هذه المسألة في أكثر من موضع ، ففى سورة الشعراء : ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣) ﴾ [الشعراء]

وفى الكهف : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ[1] نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَـٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا (٦) ﴾ [الكهف]

وقال : ﴿ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ .. (٨) ﴾ [فاطر]

فالحق سبحانه يُسلِّى رسوله يقول له : يا محمد ، لا تحزن على هؤلاء ، لأنهم استحقوا العذاب ، وحكم الله عليهم أنهم مُعذَّبون ﴿ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ .. (١٩) ﴾ [الزمر] حق يعنى : ثبت من الله ، كما فى قوله تعالى : ﴿ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٣) ﴾ [السجدة]

وما دام قد حقّ عليهم العذاب ، فلماذا تحزن ﴿ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي النَّارِ (١٩) ﴾ [الزمر] وأحقية كلمة العذاب هنا ليست قهراً للعبد أنْ

---

(١) بخع نفسه : قتلها غيظاً أو غماً . [المحكم والمحيط الأعظم لابن سيده] قال الفراء فى تأويل الآية : أى مخرجٌ نفسك وقاتلٌ نفسك . [لسان العرب لابن منظور] .

يفعل ، إنما علْم أنه سيفعل كذا وكذا ، فَعَلِمَ الله بما سيكون منهم وكتبه عليهم ، فالأحقية هنا ليست أحقيةً كونية أرادها الخالق سبحانه ، إنما لأنه سبحانه علم مُسْبقاً ما يختارون .

وسبق أنْ تناولنا هذه المسألة في الكلام عن قوله تعالى : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (٢) سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (٣) ﴾ [المسد] هذا حُكْم من الله على أبى لهب أنه سيَصْلَى ناراً ذات لهب ، وقد جاء هذا الحكم وبلَّغه رسول الله ، وسمعه أبو لهب وهو حَىٌّ يُرزق ، أكان محمد ﷺ يأمن أنْ يقف أبو لهب فى محفل من القوم ، ويقول : أشهد ألا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، يقولها ولو نفاقاً ، ويظهر أمام الناس على أنه مؤمن ، وفى هذه الحالة يُكذِّب كلام الله ؟

لقد كان أبو لهب كافراً ، كما كان خالد وعمرو وعكرمة كافرين ، وكان بإمكانه أنْ يؤمن كما آمنوا ، لكن علم الله أنه لن يؤمن حتى بعد أن بلغه هذا المصير فى قرآن معجز يحفظه مَنْ قاله و يُتْلَى إلى يوم القيامة ، إذن : دلَّتْ هذه الآية على أن الله تعالى علم مُسْبقاً أنه لن يؤمن ، ولم يقهره على ألاَّ يؤمن .

فالحق سبحانه يقول لرسوله : لا تذهب نفسك عليهم حسرات ، لأن الله حكم عليهم لعلمه بما سيكون منهم ، أنهم من أهل النار ، فكيف تنقذهم ، وقد حكم الله عليهم بذلك ؟

ونلحظ فى أسلوب الآية ﴿ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ .. (١٩) ﴾ [الزمر] أن الفعل حَقَّ لم تلحقه علامة التأنيث ، مع أن فاعله (كلمة) مؤنثة ، قالوا : لأن المؤنث هنا غير حقيقى ، فيجوز فى الفعل عدم التأنيث .

والاستفهام فى ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ .. (١٩)﴾ [الزمر] يحتاج إلى خبر تقديره : أفمَنْ حَقَّ عليه كلمة العذاب ، أتريد أن تنجيه أو تحميه منه ، بأن تُلح عليه أنْ يؤمن ، أتريد أنْ تنقذه من النار ، وقد حكم الله عليه أنه من أهلها ؟

﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ (٢٠)﴾

قلنا : إن من سمات الأسلوب القرآنى أن يذكر المتقابلات ، فالضِّد يُظهر حُسْنه الضد ، كما فى قوله سبحانه : ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (١٤)﴾ [الانفطار]

وهنا بعد أنْ ذكر الحق سبحانه الكافرين الذين حَقَّتْ عليهم كلمة العذاب يذكر المقابل لهم ، وهم المتقون ﴿ لكن ﴾ استدراك على ما تقدم ﴿ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ..(٢٠)﴾ [الزمر] وهذه المقابلة تهىء النفس لتفظيع المقابل الأسوأ ، وتجميل المقابل الأعلى .

والغُرَف جمع غُرْفة ، وهى المكان الخاص المقتضب من البيت ، وهى مأخوذة من غرفة الماء ﴿ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ .. (٢٠)﴾ [الزمر] ثم وصف التى فوق بأنها ﴿ مَّبْنِيَّةٌ .. (٢٠)﴾ [الزمر] لأن العادة فى الغرفة السفلية أن يُعتنى بها فى الأساس ، الذى يحمل باقى الأدوار ، فأراد أنْ يلفت أنظارنا إلى أن الغرف الفوقية هى أيضاً

مبنية مُعْتنىً بها ، لا تقل ميزةً عن الغرف السفلية ، فكل الغرف من الأدنى إلى الأعلى مميزة .

ثم تأمل الإعجاز فى قوله تعالى : ﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الزمر] من تحت أيِّهما ؟ من تحت الاثنين ، فإنْ قلتَ كيف ؟ نقول : اقرأ قوله ﷺ فى وصف الجنة : « فيها ما لا عينٌ رأتْ ، ولا أذنٌ سمعتْ ، ولا خطر على قلب بشر »[1]

وفى موضع آخر قال سبحانه : ﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [التوبة] وفَرْق بين تحتها ومن تحتها ، لو قُلْنا تجرى تحتها الأنهار ، فالمعنى أن الأنهار تأتى من مكان آخر وتمرُّ بها ، فيمكن للأعلى أنْ يحجب الماء عن الأدنى .

أما ﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الزمر] فنبع الماء يجرى من تحت هذه الغرف ، فماؤها ذاتىّ فيها ، ليس لها مَدَدٌ من خارجها ، إذن : فالمياه فيها ذاتية.

فأنت تتعجب لأنك تقيس المسائل بهندستك أنت ، ولربك سبحانه هندسة أخرى ، تأتى على غير ما تتصوَّر ؛ لأن الشىء الذى لم تره العين ولم تسمعه الأذنُ ، ولم يخطر على القلب ليس فى اللغة ما يدل عليه ، فالمعانى تُوجَد أولاً ، ثم تُوضَع لها الألفاظ الدالة عليها ، فإذا لم تُوجَد المعانى فمن أين يأتى اللفظ ؟

نحن نعرف الآن مثلاً (التليفزيون) ، ونعرف ما هو لكن قبل أن يُخْترع هل كنا نعرفه أو نعرف اسمه ؟ لذلك سبق أنْ قلنا : إن الذى

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٨٢٤) ، وأحمد فى مسنده (٢/٤٦٦) وأبو نعيم فى الحلية (٢/٢٦٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه وتمامه « أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » .

يقـول الله غيـر موجـود - والعـياذ بالله - نقـول له : كلامك مـردود بكلامك ، لأن الله مبتـدأ وغير موجود خبر ، فـمن أين عرفتَ كلمة الله إنْ كان الله غير موجود ؟ إذن : قولك : الله غير موجود دليل على أنه موجود ، لأن المـعدوم لا لفظَ له ، فالذى لا تسـمعه الأذن ، ولا تراه العين ، ولا يخطر على البال ليس له اسم .

لذلك لمـا يصف لنـا ربنا الجنة يقـول : ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ .. (١٥)﴾ [محمد] يعنى : يعطينا مثلاً لها وليست هى ، لأن لغتكم ليس بـها الألفاظ التى تعـبر عن هذه المعـانى التى فى الجنة ، ومع ذلك ساعةَ يُعطينا المثل ينفى منه ما يناقض الموجود فى الدنيا ، فحين يصف خَـمْر الآخرة يقول : ﴿لا فِيهَا غَوْلٌ[1] وَلا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ (٤٧)﴾ [الصافات]

يعنى : لا تغتال العقـل ولا تستره كما تستره خـمر الدنيا ، ففى الإنسـان غُدة مسـئولة عن توازنه ، فحين يشرب الخمـر تتسلط الخمر على هذه الغـدة فتفـقده توازنه وتستـر عقله ، فـيتمـايل هنا وهناك ، ويهذى بكلام لا يعرف معناه .

وليست كـذلك خمر الآخرة ، خـمر الآخرة تُعطيك اللذة والمـسرَّة دون أن تغتـال العقل ﴿وَلا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ (٤٧)﴾ [الصـافات] النَّزْف والنَّزْح بمعنى واحد ، تقول : نزحت البئـر يعنى : أخرجت ما فيه من الماء ، فـالنزف إخراج ما فى الجوف . والإنسـان فى تكوينه الصحى السليم يؤدى جسمـه عملية نسميـها عملية الإخراج مـثل صماخ الأذن والعرق والبول ، وهذا الإخراج فيه سلامة وفيه صحة الجسم .

---

(١) قال الشوكـانى فى فتح القدير : (لا فيهـا غول) أى : لا تغتال عقولهم فـتذهب بها ، ولا يصيبـهم منها مرض ولا صداع . (ولا هم عنهـا ينزفون) أى : يسكرون فتذهـب عقولهم من السُّكْر .

لكن هناك إخراج بلا سلامة ، كالذى يأكل ثم يتقيّأ ما أكل ، وقد يتقيأ من جارحة نفسه دماً والعياذ بالله ، وقد يخرج منه البول باستمرار كمن يعانى من سلس البول مثلاً ، ومن ذلك النَّزْف ما يحدث لشارب الخمر فينزف ما فى بطنه .

كذلك فى الدنيا ماء ، وفى الآخرة ماء ، وفى الدنيا لبن ، وفى الآخرة لبن ، لكن شتّان بين ماء الآخرة وماء الدنيا ، وبين لبن الآخرة ولبن الدنيا ، يقول تعالى فى بيان ذلك :

﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ[1] وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ .. (١٥) ﴾ [محمد]

من عجيب أمر هذه الأنهار أنها أنهارٌ بلا شُطْآن ، فهى تجرى بما فيها من ماء أو لبن أو خمر أو عسل ، ومع ذلك لا يختلط بعضها ببعض ، وهذا أمرٌ عجيب نضعه تحت مَا لا عينٌ رأتْ ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

فالحق سبحانه حين يعطينا المثل للجنة ينفى عنه المضارّ الموجودة لمثله فى الدنيا ، فآفة الماء فى الدنيا أن يأسن ، يعنى : يتغير فلا يصلح بعد ذلك للشرب ، أما ماء الآخرة فغير آسن ، لأنه ماء جَار فى أنهار ، وجريان الماء يحفظه أنْ يأسن ، كذلك فى اللبن ووَصْفُ العسل بأنه مُصفّى ، لأن عسلَ الدنيا لا يخلو من الشوائب .

---

(١) أسن الماء : تغيَّر غير أنه شروب . وتغيرت ريحه . وفى التهذيب : أسن الماء هو الذى لا يشربه أحد من نتنه . وقال الجوهرى : أسن الرجل إذا دخل البئر فأصابه ريح منتنة من ريح البئر أو غير ذلك فغشى عليه أو دار رأسه . [لسان العرب – مادة : أسن] .

أما خمر الآخرة فهى لذّة للشاربين ، يتلذذ بها شاربها ، ويرتشفها رشفاً للذة طعمها ، أما فى الدنيا والعياذ بالله فيسكبها فى فمه هكذا دفعةً واحدة ، لأنها كريهة الطعم ، كريهة الرائحة .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى فى وصف نعيم الجنة : ﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ (٢٨)﴾ [الواقعة] وشجرة السدر شجرة معروفة عند العربى ، وكانت تُعَدّ من فاكهتهم ومن الأشياء الغالية عندهم ، لكن آفتها ما فيها من شوك يؤذى الآكل منها ، فنفى الحق سبحانه عن سدر الآخرة هذه الآفة ، وقال : ﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ (٢٨)﴾ [الواقعة] أى : مقطوع ومنزوع الشوك لا يؤذى مَنْ يتناول ثماره .

إذن : الحق - سبحانه وتعالى - حين يقول فى وصف الجنة : ﴿لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ (٢٠)﴾ [الزمر] لا تتعجب من كيفية بناء غرف فوقها غرف والماء يجرى من تحتها ؛ لأن لله تعالى هندسة خاصة تدخل تحت ما لا عينٌ رأتْ ، ولا أذنٌ سمعتْ ، ولا خطر على قلب بشر ، فهى أشياء لا تدلّ عليها ألفاظ لغتنا .

لكن هناك أشياء أخرى لا اختلافَ فيها ، مثل : أباريق وأكواب وكأس ونمارق وزرابى وأرائك ، هذه من نعَم الله فى الجنة وموجودة أيضاً فى الدنيا لكن مع الفارق ، فهذه صَنْعة البشر للبشر ، وهذه صنعة خالق البشر للبشر .

لذلك لما ذهبنا إلى (سان فرانسسكو) ورأينا هناك فندقاً فخماً على رَبْوة عالية ، ووجدنا فيه كل وسائل الراحة والرفاهية أُعجب الجميع به ، فقلت لهم : تعجبون من هذا وهو صنعة البشر للبشر ، فما بالكم بصنعة الحق للخلق ؟

وهذه المسألة تلفت أنظارنا وتُوجِّهنا إلى نعيم الآخرة ، فساعة ترى نعيم الدنيا ، وساعة ترى الشيء الجميل المبهر لا تحقد على صاحبه ولا تحسده عليه ، بل تذكر به نعيم الله الذى أعدَّه لعباده فى الآخرة ، فكأن الله تعالى بنعيم الدنيا يُرغِّبنا فى نعيم الآخرة .

وهذا الذى ذكرنا من جزاء المتقين ﴿وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ (٢٠)﴾ [الزمر] الوعد : هو الإخبار بشيء مفرح سَارّ قبل أوانه ، وكوْنك تخبر بالأمر السَّار قبل أوانه ، فهذا يغرى بالعمل للوصول إلى هذا الوعد ، ومقابل الوعد الوعيد وهو الإخبار بشيء مؤلم قبل أوانه ، والهدف منه التحذير حتى لا تقع فى أسبابه ، فالحق سبحانه مراده من الوعد والوعيد أن يُشوِّق الخَلْق إلى الثواب ويُحذِّرهم من العقاب ، ويُفظع الجرائم والعقوبات عليها حتى لا نقعَ فيها .

والله سبحانه لا يخلف الميعاد فوعده حَقّ ، لأنه سبحانه بيده كل أسباب الوفاء ، ولا يوجد له معارض يصرفه عن الوفاء بوعده ، لأن الذى يُخلف الوعد تعرض له أشياء تخرجه عن إمكانية الوفاء ، والإنسانَ ابن أغيار كثير التقلب ، فيطرأ عليه ما يحُول بينه وبين الوفاء بوعده ، أما الحق سبحانه فهو الحق الذى لا يتغير ، ولا يعز عليه شيء ، وهو سبحانه القادر الذى له طلاقة القدرة .

والحق سبحانه يُرينا تحقيقَ وعده فى الدنيا لنُصدق بوعده فى الآخرة فَوعَد الله المؤمنين فقال : ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣)﴾ [الصافات]

وقال : ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ.. (٤٠)﴾ [الحج] وتحقَّق وَعْد الله للمؤمنين فانتصروا. وإن اضطهدوا أولاً ، وتحقُّق هذا الوعد يجعلنى أثق فى وعد الآخرة الذى لم يأت وقته .

لذلك سيدنا عمر - رضى الله عنه - لما سمع قول الله : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) ﴾ [القمر] قال: أىُّ جمع هذا ، ونحن غير قادرين على حماية أنفسنا ؟ فلما جاءت بدر وانتصر المسلمون قال : صدق الله ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) ﴾ [القمر]

فالحق سبحانه يُحقق لنا وعده الذى جاء وقته لنثق فى تحقّق الوعد الذى لم يأت وقته ، ومن ذلك قوله تعالى عن الكافرين : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٤١) ﴾ [الرعد] يعنى : يا كفار قريش ، يا مَنْ تعاندون محمداً وتصادموه ، ألم تروْا أن رقعتكم الواسعة تتناقص ، ويأخذ الإسلام منها كل يوم جزءاً ، فالمعنى ننقص أرض الكفر ، ونزيد أرض الإسلام .. وينبغى أن نقول صدق الله فى الأولى ، ولا بُدّ أنْ يصدق فى الثانية ، أى : يوم القيامة .

لذلك يُعلِّمنا الحق سبحانه حين نَعد بشىء أن نصحبه بالمشيئة ، فنقول : إن شاء الله : ﴿ وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا (٢٣) إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ .. (٢٤) ﴾ [الكهف] حتى إذا تعذَّر عليك الوفاء قُلْتَ شئتُ ولكن الله لم يشأْ ، فكأن الله تعالى تحملها عن عباده ، فالعبد شاء ولكنى لم أشأ .

وهكذا يعفيك الله من الحرج ، ويحميك أن تكون كاذباً ، فالحق يتحمل عنا كما تحمّل عن رسوله فى قوله : ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ .. (٣٣) ﴾ [الأنعام] أى : قولهم : ساحر وكاهن وكذاب ومجنون ﴿ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ (٣٣) ﴾ [الأنعام] لأنك عندهم صادق أمين ﴿ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٣٣) ﴾ [الأنعام]

فجعلها سبحانه فى حقه ، وتحمَّلها عن رسوله .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ(١) فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾ ﴾

الحق سبحانه وتعالى حينما يُخبر عن خيره سواء أكان هذا الخير يتعلق بمقوِّمات الحياة فى الدنيا أو بمُعدَّات النعيم فى الآخرة ، يتكلم عنه على أنه إنزال ، وكلمة أنزل تدل على جهة العلو ، وأن هذا العطاء من أعلى ، وإنْ خرج من باطن الأرض كما فى قوله سبحانه : ﴿ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الحديد]

فالنعمة من الأعلى وليست من مُساو ، وأنت فى تصريف حياتك عندما تكون لديك مسألة لا تَقْوى إمكانياتك عليها ، ولا يَقْوى عقلك على التفكير فيها تذهب لمَنْ هو أعلى منك فى هذا المجال ولمَنْ تثق فيه وفى فكره ، ليساعدك على حلِّها ، تفعل ذلك وأنت راضٍ ، لأنك أسلمتَ الأمر لمن تثق فى قدراته .

فالحق سبحانه حينما يقول : أنزلنا . يعنى : خذوا أحكامى على أنها من أعلى ، وعلى أنها الأفضل لكم ، لأنها من خالقكم الذى يعلم ما يصلحكم .

يقول تعالى هنا : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ

---

(١) قال الزبيدى فى تاج العروس (مادة هيج) : هاج البقل : يبس واصفرّ وطال . وهاجت الأرض : يبس بقلها . وأهاجه : أيبسه .

فِي الأَرْضِ .. ﴿٢١﴾ [الزمر] معنى (من السماء) أى : من جهة السماء ، وإلا فمخازن الماء فى الأرض ، فى البحار ، وهى مُعدَّة إعداداً كيماوياً بحيث تحفظ الماء فلا يتغير ولا يأسن ، ولا تعيش به الطفيليات .

لذلك نجد الماء المالح فى البحار تصونه نسبةُ الملوحة فى الماء ، ويُلقى فيه بالقاذورات والجيف ، فينفيها الموج ويبقى الماء على صلاحه ، ومن ماء البحار تتم عملية البخر التى تكوِّن السحاب والمطر الذى يسقى الإنسان والحيوان والنبات .

وماء المطر هو أنقى ما يمكن الحصول عليه من الماء ، فعملية البخر مثل عملية تقطير الماء التى نجريها فى المعامل للحصول على الماء النقى ، وتأمل كم تكلفة تقطير زجاجة ماء واحدة ، فما بالك بماء المطر الذى ينهمر من السماء ؟

لذلك ، من حكمة الخالق سبحانه أنْ جعل الماء ثلاثة أرباع الكرة الأرضية ، وجعل اليابسة الربع ، ذلك لتتسع مساحة البخر ويكفى المطر حاجة الأرض من الماء العذب ، وسبق أنْ بيّنا الفرق بين الماء الذى له عمق ، والماء الذى له سطح مُتسع ، فالبخر يعتمد على اتساع سطح الماء ، فكلما اتسع السطح زاد البخر ، ومثّلنا لذلك بكوب الماء تتركه شهراً وتعود فتجده كما هو لم ينقص منه إلا القليل ، لكن إنْ سكبْتَه فى أرض الغرفة ، فإنه يجفّ قبل أن تغادرها .

والحق سبحانه يريد للماء المالح أنْ يتبخر ليتخلّص من ملوحته ، ثم ينزل ماءً عَذْباً سائغاً للشاربين ، وعملية البخر هذه تتم ولا ندرى عنها شيئاً ، إنها آية من آيات الله ونعمة من أعظم نعمه علينا .

والماء حين ينزل من السماء لا ينزل على كل مكان ، إنما ينزل على الأماكن الباردة ، فبخار الماء المتجمِّع فى السحاب حينما يمر بمنطقة باردة يتكثف من جديد كما نكثِّف الماء المقطر ، فالماء الذى يأتينا فى نهر النيل أين يسقط ؟ يسقط على هضبة الحبشة وتحمله إلينا الأنهار ، ويتسرب منه جزء فى باطن الأرض ، ويجعل الله له فى الأرض مسالك .

هذا معنى ﴿فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ (٢١)﴾ [الزمر] يعنى : جعل له مَجارىَ خاصة ومسالك ، بحيث لا يختلط بالماء المالح ، وقد تُوجد مثلاً عَيْنٌ للماء العذب تنبع وسط الماء المالح ، ومع ذلك لا تختلط به ، وكأن الماء العَذْب يسير فى أنابيب مخصوصة أشبه ما تكون بالشرايين فى جسم الإنسان .

وقوله تعالى هنا ﴿أَلَمْ تَرَ..(٢١)﴾ [الزمر] ما دام شىء يمتنُّ الله فيه بالرؤية ، فإن كنتَ تراه فاعلم أنه كلام حقيقى ، وأنا أرى المطر ينزل من السماء ، وإنْ كنت لا تراه فصدِّق ما أخبرك الله به كما تصدق عينك فى الرؤية ، لأن إخبار الله لك أصْدَقُ من رؤية عينيك .

ومن ذلك قوله تعالى مخاطباً نبيه ﷺ : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١)﴾ [الفيل] ومعلوم أن سيدنا رسول الله وُلد فى عام الفيل يعنى : لم يَر هذه الحادثة ، فالمعنى ألم تَرَ يعنى : ألم تعلم عِلْماً منى ، يفوق علم رؤياك بالعين .

ثم يقول سبحانه : ﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ (٢١)﴾ [الزمر] فالزرع يُزرع فى تربة واحدة ، ويُسقى بماء واحد ، ومع ذلك تأتى الثمار مختلفة فى الألوان وفى الطَّعْم وفى عناصر التكوين .

لما تكلَّم العلماء فى هذه المسألة قالوا : فى النبات خاصية تُسمَّى

خاصية الانتخاب يعنى : أن النبات يمتصّ بواسطة الجذور العناصر اللازمة له من الأرض ، لكن لو جئنا مثلاً بإناء فيه ماء ، ووضعنا فيه عدة ألوان ، ثم وضعنا فيه الأنابيب الشّعرية الضيقة التى يصعد فيها الماء إلى أعلى بهذه الخاصية ، نجد هذه الأنابيب تمتص من الماء على عمومه لا تفرق بين لون ولون .

وليس كذلك امتصاص النبات للعناصر اللازمة له من التربة ، النبات لا يمتص إلا المواد اللازمة والمناسبة لطبيعته ، فالخاصية الشعرية فى الجذور تمتصّ على هدى ، فتأخذ من التربة وتدَع ، فالتربة واحدة ، والماء واحد ، ومع ذلك تختلف الطعوم والأشكال والألوان والرائحة .

إذن : ليس هو الانتخاب الذى يعنيه العلماء ، إنما هو انتخاب إلهى يقوم على الطبيعة التى أودعها الله فى الحبة والبذرة الأولى للنبات ، فأنت تزرع مثلاً الفلفل الحار بجوار قصب السكر بجوار الرمان ، فتجد هذا حاراً ، وهذا حلواً ، وهذا مُزاً .

ثم ينتقل النبات إلى مرحلة أخرى ، يصفها الحق سبحانه بقوله : ﴿ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا (٢١) ﴾ [الزمر] معنى يهيج يعنى : يجف ويتحطم ، ويصير فتاتاً . يعنى : لا يستمر على خضرته ونضارته، وكأن الحق سبحانه جعل النبات عبرةً للإنسان ، فالنبات كائنٌ حَىّ كالإنسان ، وسيمر الإنسان بهذه المرحلة فيجفّ ويتفتت كالنبات .

فالله سبحانه يضرب لنا مثلاً ، حتى لا نغترّ بذواتنا حين نجد لها قوة أو نجد لها عقلاً وتفكيراً أو سُلْطة وجاهاً أو مالاً ، يقول لك ربك : انظر إلى أمك الأرض ، وإلى الزرع يخرج منها ، إلامَ يصير ؟ فأنت كذلك ، فلا تغترّ ما دُمْتَ من أهل الأغيار .

لذلك يقولون : لا تغضب ولا تحزن إنْ تغيرتْ بك الأمور ، لأنك من أهل الأغيار ، وما دُمْتَ من أهل الأغيار ووصلتَ إلى قمة الجبل ، فماذا تنتظر ؟ تنتظر أنْ تستقرّ عليه ؟ كيف وأنت من أهل الأغيار ؟ إذن : لا بدَّ أنْ تنزل ؛ لذلك إذا تمتْ النعمة ترقَّبْ زوالها ، كما قال الشاعر :

إذَا تَمَّ شيء بدا نقْصُهُ ترقَّبْ زَوَالاً إذَا قِيلَ تَمّ[1]

فإنْ رأيت نفسك (مزهزهة) بالعلم أو بالقوة أو بأيٍّ مظهر من مظاهر النعيم ، فاعلم أنك غداً ستصير إلى كبر وإلى ضعف ، ستصير مثل الطفل يحبو وتحتاج إلى مَنْ يسندك ويعاونك ، كما قال سبحانه : ﴿ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ۚ ﴾ [الحج] فانهم هذا المعنى جيداً فى أمك الأرض وفى ذاتك .

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ .. ﴾ [الزمر] أى : ما تشهده أنت من هذا الذى ذكرنا ﴿ لَذِكْرَىٰ .. ﴾ [الزمر] يعنى : تذكرةً وعبرةً ﴿ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ [الزمر] لأصحاب العقول الواعية والمتدبرة .

﴿ أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ ۚ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ﴾

---

(١) البيت من نظم على بن أبى طالب رضى الله عنه كما فى الموسوعة الشعرية وهو من قصيدة من بحر المتقارب عدد أبياتها ١١ بيتاً ، ولفظ البيت :

إذا تم أمر بدا نقصه توقّ زوالاً إذا قيل تم

التقدير هنا ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ .. (٢٢)﴾ [الزمر] كمن ضاق صدره عن الإسلام ، إذن : لابُدَّ أنْ نذكر هذا المقابل لأنهما لا يستويان ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ ...(٢٢)﴾ [الزمر] تدل على أننا أخذنا الضيق من القسوة ، فالذى ضاق صدره عن الإسلام ضاق صدره لقسوة قلبه .

وهذه مثل قوله تعالى : ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ[1] آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ (٩)﴾ [الزمر] والمعنى : أهذا كمَنْ لم يقنت ؟ وعليك أنت أنْ تجيب : أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه ، كمَنْ قسا قلبُه ، وضاق صدره عن دين الله وهداية الله ؟

ومعنى ﴿ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ .. (٢٢)﴾ [الزمر] أى : جعل الضيق واسعاً ، وتقول لصاحبك : وسّع صدرك يعنى : اجعله مُتسعاً لمناقشة كل القضايا ، ومن معانى سعة الصدر ألاَّ تشغله بالخزعبلات ، وألاَّ تزحمه بالباطل ، حتى يكون لك أُنْس به ، وعندها يطرد الباطل الحق كما قلنا فى مسألة الحيز .

فالحيز الواحد لا يتسع إلا لشىء واحد ، فالماء مثلاً يطرد الهواء حين تملأ زجاجة بالماء .

ومن شَرْح الصدر أن يكون لديك عدالة اختيار حين تختار بين البدائل ، عليك أن تصفى قلبك ، وأن تُخرج منه كل ما يشغله ، ثم تبحث القضايا المعروضة عليك ، فما وجدته مناسباً تُدخله قلبك ليستقر فيه حتى يصير عقيدةً راسخة لا تقبل المناقشة مرة أخرى ،

---

(١) قال الزجاج : القانت المطيع . والقانت : الذاكر لله . وقيل : القانت العابد . [تهذيب اللغة للأزهرى – مادة : قنت] . وآناء الليل : ساعاته .

لأن الله تعالى خلق لنا حواسَّ تدرك : عينٌ ترى ، وأذنٌ تسمع ، ولسان ينطق .

وبهذا الحواس نأخذ المعلومات . ثم نعرضها على العقل ليختار منها ويبحث فيها ، فما وجده صالحاً أسقطه فى القلب ، وهذه هى العقيدة التى تستقر فى القلب ، ولا تطفو لتُبحث من جديد .

لذلك احذر الران[1] الذى يترسب على القلب حتى يغلقه ، فلا يكون فيه مكان للحق ، والنبى ﷺ يشير إلى هذه المسألة فى حديث أبى ذر – رضى الله عنه – قال قال رسول الله ﷺ :

« تُعرَض الفتن على القلوب كالحصير عُوداً عُوداً – وفى رواية : عَوْذاً عَوْذاً – فأيما قلب أُشربها نكتت فيه نكتة سوداء ، وأيما قلب أنكرها نُكتت فيه نكتة بيضاء ، حتى تكون على قلبين : على أبيض مثل الصفا لا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض ، والآخر أسود مُرباداً – وهذا الذى يقول الله فيه : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [المطففين] – كالكوز مُجخياً – منكوساً – لا يعرف معروفاً ، ولا ينكر منكراً »[2].

والفتن هنا هى الشُّبَه التى تعرض للناس فى الدين ، والرسول

---

(١) الران : الرين : الطبع . والران مثل الرين . قال ابن منظور فى [لسان العرب – مادة : رين] : الرين الصدأ الذى يعلو السيف والمرآة . والرين : كالصدأ يغشى القلب . وران الذنب على قلبه : غلب عليه وغطاه . وقال الحسن : هو الذنب على الذنب حتى يسْود القلب.

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٤٤) ، وأحمد فى مسنده (٥/٣٨٦ ، ٤٠٥) من حديث حذيفة بن اليمان .

ألفاظ الحديث : مثل الصفا : الصخرة الملساء العريضة . مرباداً : أسود مشوباً بغبرة . كالكوز : كلمة عربية صحيحة لا فارسية وهو كوب بعروة . مجخياً : مائلاً . أى : عن الاستقامة والاعتدال ، فشبَّه القلب الذى لا يعى خيراً بالكوز المائل الذى لا يثبت فيه شىء لأن الكوز إذا مال انصبَّ ما فيه . [انظر لسان العرب – مادة : جخى] .

ﷺ يشبهها بالحصير الذى يُنسج عوداً بجوار عود ، حتى يكون كالحصيرة التى نجلس عليها ، أو عَوْذاً يعنى : نستعيذ بالله من هذه الفتن . أو عوْداً أى مرة بعد مرة .

إذن : إنْ أردتَ بحث قضية الإيمان فاشرح صدرك أولاً ، ووسِّعه بأنْ تُخرج ما فيه من اعتقادات ، لذلك يقول سبحانه : ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ .. (٢٢)﴾ [الزمر] والنور له مصادر ، إما نور مادى كالشمس والقمر والنجوم ، وهذه الأنوار التى اكتشفها الإنسان حديثاً ، أو نور معنوى وهو المقصود هنا ، نور القيم والمنهج ﴿فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ ..﴾ أى : نور الهداية الذى عناه القرآن الكريم فى قوله : ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ .. (٣٧)﴾ [النور]

ففى هذه البيوت التى يُذكر فيها الله ، ويُسبَّح فيها الله ، مكان تلقِّى فيض النور من الله ، وتنزل الخيرات والرحمات ؛ لأن الآيات كانت تتكلم قبل ذلك عن نور الله ، ومثَّل تنويره سبحانه للسموات والأرض :

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ .. (٣٥)﴾ [النور]

الحق سبحانه لا يضرب لنا مثلاً لنوره ، إنما مثلاً لتنويره ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ .. (٣٥)﴾ [النور] أى : مُنوِّرهما بخلقه ، والمشكاة هى الطاقة غير النافذة فى الحائط ، والطاقة تكون محدودة

المساحة غير واسعة ، ثم هى غير نافذة ، لذلك تجمع الضوء ولا تبدده ، بحيث لا يبقى فى المشكاة مكان مظلم .

ثم إن المصباح ليس عادياً ، إنما فى زجاجة ، لأن من المصابيح ما ليس له زجاجة والذى نسميه نحن (الساروخ) وهو يخرج لهباً أسود ، لأن الهواء يداعبه من كل ناحية ، أمّا الزجاجة فهى تنقى اللهب وتصفيه ، حيث تمنع عنه الهواء إلا بمقدار الاحتراق ، فيأتى اللهب صافياً لا دخان له ، هذه هى التنقية الأولى .

ثم إن الزجاجة هى أيضاً غير عادية ، إنما صافية فى ذاتها ، كأنها ﴿ كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ .. (٣٥) ﴾ [النور] تعكس الضوء فى كل ناحية .

ثم إن هذا المصباح لا يُوقَد بزيت عادى ، إنما ﴿ يُوقَدُ من شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ .. (٣٥) ﴾ [النور] فهو زيت له مواصفات خاصة على أعدل المزاج .

هكذا ومثل هذا يُنوّر الله السموات والأرض ، فالمثال لتنوير الله لا لنور الله . وهذا هو النور الحسِّى ، وحين تكمل القراءة تجد النور المعنى فى : ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ .. (٣٦) ﴾ [النور] وهذا هو النور فى قوله : ﴿ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ .. (٢٢) ﴾ [الزمر]

فالحق سبحانه أعطاكم النور الحسىَّ الذى يعينكم على حركة الحياة ، ليرى الإنسانُ مواضع قدمه فلا يحطم الأشياء ولا تحطمه إذا ما اصطدم بها ، والنور المعنوى للقيم وللروح .

والحق سبحانه حين يُعطينا هذا المثل ، ويُرينا أن المصباح لا يدع فى المشكاة ظلمةً أبداً ، يعطينا بذلك إشارة إلى أن نوره

المعنوى كذلك لا يترك عيباً إلا أصلحه ، وأتاك نور يهديك وينجيك .

وقوله سبحانه : ﴿فويل لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُوْلَـٰئِكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٢٢)﴾ [الزمر] ويل لهم لأن قسوة قلوبهم حالتْ بينهم وبين الإيمان ، فويل لهم ساعةَ يعرفون أن لهم رباً كفروا به ، وتفاجئهم هذه الحقيقة التى طالما أنكروها .

وقد عبَّر القرآن الكريم عن هذه القضية فى قوله سبحانه :

﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لاَّ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ .. (١٨)﴾ [إبراهيم]

والمعنى : أنهم حبطت أعمالهم وخاب سعيهم .

وقال أيضاً : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ[1] يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩)﴾ [النور]

فويل لهم ساعة يعرفون أنهم كفروا بالله وضاق صدرهم عن أن يتسع لنور الإيمان ، فالويْل لهم حاضر قبل أنْ يأتيهم العقاب .

وقوله : ﴿أُوْلَـٰئِكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٢٢)﴾ [الزمر] أى : بيِّن واضح ، والضلال هو عدم الاهتداء فى المهيع[2] الذى يسير فيه ، كالسائر مثلاً فى صحراء وضلَّ فيها الطريق ، إن ضلاله يبدأ بانحرافه عن الطريق الصحيح ولو بسنتيمترات ، لأنها لا بدّ أنْ تنتهى

---

(١) القاع والقيعة : أرض واسعة سهلة مطمئنة مستوية لا ارتفاع فيها ولا انهباط ، تنفرج عنها الجبال والآكام ولا حصى فيها ولا حجارة ولا تنبت الشجر . وفيه يكون السراب نصف النهار . [لسان العرب - مادة : قوع] .

(٢) طريق مهيع : واضح واسع بيِّن . وبلد مهيع : واسع [اللسان : مادة هوع] .

به إلى مساحات شاسعة فى الضلال ، أرأيتم (.السيمافور) فى السكة الحديد ، وكيف يُحول القطار مثلاً لبورسعيد أو الإسماعيلية أو طنطا إنه مجرد تحويل سنٍّ القضيب عدة ملليمترات ينتج عنها أنْ يتحوَّل القطار فى سيره من مكانٍ إلى مكان آخر بعيد ، فالمعنى : ﴿أُوْلَـٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الزمر] أى: لا يهتدون إلى شىء أبداً .

﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَـٰبًا مُّتَشَـٰبِهًا مَّثَانِيَ(١) تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾

يقول الله تعالى : ما دُمتم ستتبعون الأحسن وتختارونه فأنا مُنزلٌ عليكم أحسن الحديث ، نعم هو أحسن الحديث لأنه كلامُ الله وكلام الله صفته ، وهو كامل الكمال المطلق ، وقد جعله الله مُعْجزاً ، وتولى سبحانه حفظه بنفسه ولم يكل حفظه للخلق .

وفى عُرْف البشر أن الإنسان لا يحفظ إلا ما كان حجة له ولا يحفظ الحجة عليه ، أما الحق سبحانه فيحفظ القرآن وهو حجة عليه سبحانه لخَلْقه ، فكل ما أتى فى القرآن ضمن الحق سبحانه حدوثه ،

---

(١) المثانى : الآيات القرآنية تُتلى وتكرَّر . وسمى القرآن مثانى لأن الأنباء والقصص تُثنَّى فيه وتُكرر . وقيل : سمى هكذا لاقتران آية العذاب فيه بآية الرحمة والإنذار بالتبشير . [القاموس القويم ١/١١١ ، ١١٢] .

كما أخبرنا الله به لأنه هو منزله وهو حافظه .

والمراد بأحسن الحديث القرآن الكريم ، ومعنى ﴿ مُّتَشَابِهًا (٢٣) ﴾ [الزمر] أى : يشبه بعضُه بعضاً فى الحُسْن أو فى البلاغة أو فى الموضوع ، فإياك أن تقول : هذه الآية أبلغ من هذه ، لأن كل آية بليغة فى موضوعها .

فلو أخذنا مثلاً التشابه فى الموضوع نقرأ فى قصة سيدنا موسى عليه السلام : ﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا[1] .. (٨) ﴾ [القصص]

وفى موضع آخر قال : ﴿ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي (٣٩) ﴾ [طه]

فظن البعض هنا تكراراً ، لكن المتأمل فى معنى الآيتين يجد أن كلَّ أية تؤدى لقطة لا تؤديها الأخرى ، فمعنى ﴿ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا (٨) ﴾ [القصص] العداوة هنا من موسى لآل فرعون إنما فى ﴿ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ .. (٣٩) ﴾ [طه] العداوة من جانب فرعون لموسى ، والمعركة لا يحمى وطيسها إذا كانت العداوة من جانب واحد ، لأن الجانب الآخر ربما يتساهل أو يتنازل لعدوه ، فإنْ كانت العداوة من الطرفين حميتْ المعركة .

---

(١) قال ابن الجوزى فى زاد المسير فى تفسير الآية : ﴿ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا .. (٨) ﴾ [القصص] أى : ليصير بهم الأمر إلى ذلك ، لا أنهم أخذوه لهذا وهذه اللام تسمى لام العاقبة ، وللمفسرين فى معنى الكلام قولان : أحدهما : ليكون لهم عدواً فى دينهم وحزناً لما يصنعه بهم . والثانى : عدواً لرجالهم وحزناً على نسائهم . فقتل الرجال بالغرق ، واستعبد النساء .

وسبق أنْ قلنا : إن المستشرقين وقفوا أمام قوله تعالى : ﴿ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٧) ﴾ [لقمان] وقوله : ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (٤٣) ﴾ [الشورى]

وقالوا : أيهما أبلغ من الأخرى ؟ وإنْ كانت إحداهما بليغة فالأخرى إذن غير بليغة.

ومثل هذه الاستدراكات نتيجة عدم فَهْم أسلوب القرآن ، وعدم وجود الملَكة اللغوية عندهم . ونقول لهم : كل آية بليغة فى سياقها مناسبة للمعنى الذى قِيلَتْ فيه ، فالآية الأولى وردتْ فى الكلام عن المصيبة التى لاغريمَ لكَ فيها ، والصبر فى هذه الحالة يسيرٌ لذلك لم يُؤكّد.

فمن الطبيعى أنْ تصبر على المرض مثلاً ، لأنه لا غريم لك فيه ، أما إنْ كانت المصيبة لك فيها غريم ، فالغريم يثير غضبك ويؤجج نار الغِلِّ ، ويدعو إلى الانتقام ، فناسب ذلك التأكيد باللام فى الآية الأخرى: ﴿ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (٤٣) ﴾ [الشورى]

وكذلك وقفوا أمام قوله تعالى : ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ .. (١٥١) ﴾ [الأنعام] وقوله سبحانه : ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ .. (٣١) ﴾ [الإسراء] وقالوا : ما الفرق بين الآيتين ؟ ونقول : لو نظرت إلى صدر الآية لوجدتَ أن كل عجُز يليق بصدره ، لأن القتل للأولاد كان له سببان :

الأول : الفقر ، فالعائل فقير لا يقدر على رزق نفسه ، فما بالك برزق أولاده ؟ لذلك قال سبحانه : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ[1] ..

---

(١) الإملاق : الافتقار . أملق الرجل : فقير قد نفد ماله . وأصل الإملاق الإنفاق . يقال : أملق ما معه إملاقاً : إذا أخرجه من يده ولم يحبسه ، والفقر تابع لذلك . [لسان العرب – مادة : ملق] .

(١٥١) ﴾ [الأنعام] لأن الفقر موجود ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ .. (١٥١) ﴾ [الأنعام] وقدَّم الآباء على الأولاد ؛ لانشغال نفوسهم برزقها أولاً .

والسبب الثانى : أن يكون عنده ما يكفيه ، إنما يخشى الفقر إن جاءه أولاد ، وفى هذه قال سبحانه : ﴿ وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ .. (٣١) ﴾ [الإسراء] وقدَّم الأولاد على الآباء ، فنحن نرزق الأبناء الذين تخافون الفقر بسببهم قبل أنْ نرزقكم ، إذن : فكلّ آية مُذيَّلة بما يناسبها .

كذلك قُلْنا فى مسألة السمع والبصر فى قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلا تَسْمَعُونَ (٧١) ﴾ [القصص] وذكر هنا السمع لأنه وسيلة الالتقاء فى ظلمة الليل ، وبه يستدعى الإنسان إنْ كان نائماً .

أما فى آية النهار ، فقال سبحانه : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلا تُبْصِرُونَ (٧٢) ﴾ [القصص] لأن البصر لا يكون إلا فى ضوء النهار .

ومعنى ﴿ مَّثَانِيَ .. (٢٣) ﴾ [الزمر] يعنى : مَثْنى يُقَال : مرة واثنين وثلاثة ، أو : يثنى فى الصلاة حيث نقرأ الفاتحة ثم سورة بعدها ، وفى الركعة الثانية كذلك .

وقوله : ﴿ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ .. (٢٣) ﴾ [الزمر] وهذه صفة العبد الذى يخشى ربه ويراقبه ويعمل لنظره إليه حساباً ، لأنه دائماً يعرض سلوكه على ربه ، فإنْ رأى فيه مخالفة عاد إلى كلام الله وتذكَّر وعيده فيحدث عنده قشعريرة فى جلده من خشية ربه ، وهى أنْ يجفّ الجلد ويقعقع وتحدث رعشة فى البدن من خوف

العذاب ، ومن خوف غضب الله ، ثم يعود فيتذكر رحمة ربه التى سبقتْ غضبه ، وعفوه الذى سبق عقوبته ، فيعود إلى حالته الأولى : ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ (٢٣)﴾ [الزمر]

إذن : المؤمن يجمع بين الخوف والرجاء ، وقلبه بين هذين الأمرين ، فساعةَ يتذكر العقاب على المخالفة يقشعر جلده خوفاً ، وساعة يتذكر رحمة ربه يلين جلده ويهدأ قلبه ، ولمَ لا وربه قد قال : ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣)﴾ [الزمر]

(ذلك) وهذا هو الذى يحدث للمؤمن ﴿هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٢٣)﴾ [الزمر] وقد وقف كثيرون عند هذه الآية يقولون : ما دام أن الله هو الذى يُضل فلِمَ يُعذّب الضال ؟ ومعنى ﴿وَمَن يُضْلِلِ (٢٣)﴾ [الزمر] يعنى : يعلم ضلاله ، ويعلم أنه لن يسمع كلامه ولن يتبع منهجه ، وقد خلقه الله تعالى مختاراً إنْ شاء آمن وإنْ شاء كفر ، إذن : فالكافر ما كفر غَصْباً عن الله ، إنما هل رضى الله منه ذلك ؟

وقوله : ﴿فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٢٣)﴾ [الزمر] يعنى : إياكم أنْ تستدركوا على الله بأحكام بشرية تُصنِّفها لكم عقول الذين يستنكفون أنْ يأخذوا عن الله ، فما دام الله قال فلا يصح أنْ نستدركَ عليه سبحانه ؛ لأنه لا يمكن أنْ نأتى بهدى أحسن من هُدَى الله .

ويجب على الأقل أن نفهم أن الذى يشرع شرعاً يريد أنْ يحكم به الناس لا بُدَّ أنْ يكون غير منتفع به ليكون حكمه نزيهاً وموضوعياً ؛ لأنه لو كان منتفعاً بالحكم لابدّ أن يميل قلبه إليه

ويسير هواه مع منفعته .

يعنى : مثلاً لو شرَّع العمال لاختاروا الاشتراكية ، ولو شرع الرأسماليون لاختاروا الرأسمالية ، لذلك يشترط فيمَنْ يُشرع ألاّ يكون منتفعاً بما يشرع ، وهذا الشرط لا يتحقق إلا فى الحق سبحانه .

لذلك فإن الحق سبحانه وتعالى يترك فى كونه قضايا حتى عند الكافرين به ، وعند غير المؤمنين بمنهجه ، قضايا تدل على أن شرع الله هو الأحسن ، فكثيراً ما وقفوا عند قضايا لم يجدوا لها حلاً فى قوانينهم ، فلجأوا إلى دين الله وإلى شرع الله ، لا لأنهم آمنوا به سبحانه ، ولكن لأن قضاياهم وأمور حياتهم لا تُحَلّ إلا بهذا المنهج .

﴿ أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

الاستفهام فى (أفمن) مثل سابقه فى قوله تعالى : ﴿ أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ .. ﴿٢٢﴾ ﴾ [الزمر] لذلك لا بدّ أن نقدر هنا المقابل ، فالمعنى : ﴿ أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الزمر] أى : كمن لا يعذب ، ويمكن أنْ نرقى المسألة فنقول : كمن يُنعّم ؟ ولك أنت أنْ تحكم .

ومعنى ﴿ سُوءَ الْعَذَابِ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الزمر] أى : العذاب الشديد السيىء ، وتأمل ﴿ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الزمر] معلوم أن الوجه أشرف أعضاء الإنسان ، وبه تتميز سمات الخلق ؛ لذلك يقول سبحانه : ﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم ﴿٢٩﴾ ﴾ [الفتح]

ولولا سمات الوجوه لتساوت الأبدان وتشابهت بعضها ببعض ، لذلك يهتم الإنسان بوجهه ويدافع عنه ويحميه أولاً ، ومثّلنا لذلك برجل يسير فى الطريق ، فمرّت بجواره سيارة مثلاً نثرت عليه وعلى ملابسه الطين ، بالله ما أول شىء يحرص على نظافته وإزالة الأذى عنه ؟ إنه يمسح أول ما يمسح وجهه ، ثم يلتفت إلى ملابسه ، لأن الوجه هو أشرف الأعضاء وأشهرها وأكرمها ، وهو المُحَافَظ عليه قبل كل الجوارح .

إذن : ما بالك بعذاب لا يجد الإنسان ما يتقيه به إلا وجهه ؟ نعم يتقى العذاب بوجهه ، لأن يديه مغلولة ، وقدمه مُكبلة ، فلا مهربَ له ولا خلاصَ ، فلا يملك إلا أنْ يتقى العذاب ويدفعه عن نفسه بأعزّ ما يملك ، وبأشرف أعضائه وهو الوجه .

﴿ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ (٢٤) ﴾ [الزمر] قوله فى العذاب (ذُوقُوا) تهكم بهم ، واختار الذوق وهو جارحة من الجوارح التى تؤدى مهمة فى جسم الإنسان مثل العين والأذن ، إنما اختار الذوق خاصة ، لأن الذوقَ هو الحاسة الملازمة للإنسان ، وبه قوام الحياة ، حيث بالتذوق ندخل الطعام والشراب ، ونتمتع به ونجد له لذة تفوق الملاذّ الأخرى .

أما العين والأذن مثلاً ، فقد ترَى أو تسمع ما لا يعجبك ، أما فى التذوق فإنك تختار ما يعجبك وتجد له لذة ، وهنا يريد الحق سبحانه أن يعمم الذوق فى الجسم كله ، فجميع البدن يذوق العذاب .

وقلنا : إن اللسان هو جارحة التذوق بمراحله وما حوله يذوق

ويُميِّز الطعوم ، فإذا ما تجاوز الطعامُ هذه المنطقة فلا يشعر الإنسان له بأيِّ مذاق ، ولذلك رأينا صناع الدواء يُغلفون الدواء المرّ بمادة مُستساغة مقبولة ، تساعد على مرور الدواء من منطقة التذوق دون أنْ نشعر بمرارته .

وإذا نظرتَ إلى الجوارح كلها تجد أنها مُتعلقة بالغير ، فأنا أسمع غيرى وأرى غيرى ، وألمس غيرى أو بعضى ، أما الذوق فخاص بالإنسان نفسه ، فلا يذوق إنسانٌ لآخر ؛ لذلك اختار الله سبحانه هذه الجارحة فى إظهار شدة العذاب وألمه ﴿ ذُوقُوا (٢٤) ﴾ [الزمر] وفى موضع آخر (ذُقْ) . لا رؤية ولا سماع ولا شم ولا لمس ، إنما بالذوق الذى هو خاص بصاحبه ، وكأن لكل واحد منهم مذاقاً يناسب عذابه .

وإذا كان للذوق منطقة خاصة هى اللسان بمراحله وما حوله ، فالذوق هنا أراده الله عاماً وشاملاً ، ليس فى منطقة الذوق ، ولكن الجسم كله يذوق العذاب ، بدليل قوله سبحانه : ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ .. (٥٦) ﴾ [النساء] فالإذاقة هنا تعدَّت منطقة الذوق إلى الجسم كله .

وإذا ما نظرنا إلى قوله تعالى – بالاعتبار – فى القرية التى كانت آمنة مطمئنة فكفرتْ بأنْعُم الله ، قال الله فيها : ﴿ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ .. (١١٢) ﴾ [النحل] فكأن الإذاقة تلبسهم وتحيط بهم من كل ناحية .

والشعراء عادة حينما يبالغون فى شىء يُعدّونه من منطقة الحسِّ

له إلى كل المناطق ، وقد اعتاد الشعراء على ذكر القلب ، وأنه محلُّ الحب ، ومن ذلك قول الشاعر[١] :

وَدَاعٍ دَعَا إِذْ نَحْنُ بالخيف مِنْ مِنَى ... فَهَيَّجَ أحْزَانَ الفُؤادِ ومَا يَدْرِى
دَعَا باسْمِ لَيْلَى غيرها فكَأنَّمَا ... أَهَاجَ بِلَيْلَى طَائِراً كانَ فِى صَدْرِى[٢]

وقال الآخر[٣] :

كأنَّ القلبَ لَيْلَةَ قِيلَ يُغْدَى ... بِلَيْلَى العَامِرية أوْ يُرَاحُ
قطاةٌ عزَّها شَرَكٌ فَبَاتتْ ... تجاذبه وقَدْ عَلَقَ الجنَاحُ[٤]

أما الشاعر الذى أراد المبالغة فى هذه المسألة فقال[٥] :

خَطَرَاتُ ذِكْرِكَ تَسْتَثِيرُ مَوَدَّتِى ... فَأُحِسُّ مِنْها فِى الفُؤَادِ دَبِيبا
لاَ عُضْوَ لِى إلاَّ وَفِيه صَبَابَةٌ ... فكأنّ أعْضائى خُلِقْنَ قُلُوبَا[٦]

---

(١) الشاعر هو : محمد بن عبد الله بن نمير الثقفى النميرى . شاعر غزل ، من شعراء العصر الأموى ، مولده ومنشؤه ووفاته بالطائف . توفى عام ٩٠ هـ . له ديوان شعر مطبوع .

(٢) البيتان من قصيدة للنميرى من بحر الطويل عدد أبياتها ٧ أبيات وفى الموسوعة الشعرية (لوعات الفؤاد) بدل (أحزان الفؤاد) ، وقد كان يتغزل بأخت الحجاج بن يوسف الثقفى فتهدده الحجاج ففر إلى اليمن وأقام بعدن مدة . [الموسوعة الشعرية] .

(٣) الشاعر هو : توبة بن الحمير الخفاجى أبو حرب ، شاعر من عشاق العرب المعروفين ، كان يهوى ليلى الأخيلية وخطبها فردَّه أبوها وزوّجها غيره ، فانطلق يقول الشعر مُشبِّباً بها. قتله بنو عوف بن عقيل . عام ٨٥ هـ . [الموسوعة الشعرية] .

(٤) البيتان من قصيدة من بحر الوافر ، عدد أبياتها ٤ أبيات . وفى الموسوعة (تعالجه) بدل (تجاذبه) . أما لفظ تجاذبه فقد ذكره الأصفهانى فى الأغانى ، وكذلك أبو على القالى فى أماليه ، وأبو هلال العسكرى فى ديوان المعانى .

(٥) هو : أبو المعالى ابن أبى جعفر الواعظ ، من أهل هراة ، كان له معرفة بالتفسير والأدب ، كان حسن الوعظ كثير المحفوظ . مولده سنة ٤٩٠ هـ وتوفى سنة ٥٦٠ هـ عن ٧٠ عاماً.

(٦) ذكر هذه الأبيات صلاح الدين الصفدى فى (الوافى بالوفيات) ، وابن شاكر الكتبى فى (فوات الوفيات) ، أما ابن خلكان فى وفيات الأعيان فقد عزا البيتين للأمير شمس المعالى أبى الحسن قابوس بن أبى طاهر .

فالحب عنده تَعدَّى مَنطقته ، حتى صار فى كل أعضائه وجوارحه ، وهكذا تتعدى الإذاقةُ منطقة الذَّوْق لتشملَ الجسم كله .

لذلك كان قوله تعالى : ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ .. (٥٦) ﴾ [النساء] آيةً من آيات الإعجاز العلمى فى القرآن الكريم ، مع أن الإعجاز باللغة والأسلوب والفصاحة خاص بالعرب ، أما غير العربى فله إعجاز آخر يناسبه إعجاز بأن يأتى له القرآن بأقضية ، لم تكن تخطر على البال ساعةَ نزول القرآن ، ولم يعرفها العلم طوال قرون .

والآن وبعد أكثر من أربعة عشر قرناً من نزول القرآن يثبت العلم الحديث أن ما أخبر به الحق سبحانه فى قرآنه هو الحق ، وأنه سبحانه هو العَالِم بما يكون فى كَوْنِ الله باختيار خَلْق الله .

قلنا : إنه لما انتهت الحرب العالمية الأولى وانهزمتْ ألمانيا جاء أحد علماء الاقتصاد بها ويسمى (شاخت) ، وأراد أن يرفع من شأن بلاده ، وأن ينهض بها بعد الهزيمة ، ولما لم يتمكن من الخدمة فى الجيش لأنه كان أعرجَ فأعمل عقله فى خدمة بلاده ، وشجّع البحث العلمى فيها إلى أن توصلوا إلى اختراع أسطوانة تحطيم الجوهر الفرد ، أو الجزء الذى لا يتجزأ كما يسميه الفلاسفة والمراد به الذرَّة .

فلما نجحوا فى تفتيت الذرة ، وأصبح لها أجزاء أصغر منها أخذها أعداء الإسلام فرصةً للطعن فى صدْق القرآن الكريم ، فقالوا لقد ضرب الله مثلاً لأصغر شىء بالذرة فى قوله تعالى : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨) ﴾ [الزلزلة]

وها هو العلم يكتشف ما هو أصغر من الذرة .

لكن سرعان ما فتح الله على أهل العلم فردُّوا عليهم وقالوا لهم : تمهلوا واقرأوا القرآن كله ، ولا تأخذوا منه ما يؤيد تهجمكم عليه ، ففى آية أخرى قال الله تعالى : ﴿وَمَا يَعْزُبُ(١) عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ(٢) ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٦١)﴾ [يونس]

إذن : فى القرآن احتياطٌ لهذه المسألة ، فلم يقل صغير بل أصغر من الصغير ، فمهما حدث من تفتيت ، ففى القرآن احتياط له .

ومن إعجاز القرآن لغير العرب هذه الآيات العلمية التى يكتشفونها ، فإذا بالقرآن يسبقهم إليها ، ومن ذلك مثلاً مسألة مراكز الإحساس فى الجسم ، أولاً قالوا : المخ هو مركز الإحساس . وقال آخرون : بل النخاع الشوكى ، بدليل أن الإنسان يُحس بأشياء مع أنها لم تلمس جسمه ، كما لو وضعت أصبعك مثلاً مقابل عيْن إنسان ، فإنه يغلق عينه تلقائياً .

ثم لما تأملوا الإبرة أو الحقنة تُعطَى للمريض مثلاً ، فإنه لا يشعر بالألم إلا بمقدار نفاذ الإبرة من الجلد ، فقالوا : إذن الجلد هو مركز الإحساس ، وهذا هو ما قرره القرآن الكريم فى قوله تعالى : ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا

---

(١) يعزب إذا غاب وبَعُد . وعزب عنه : ذهب . وأعزبه الله : أذهبه . [لسان العرب – مادة : عزب] .

(٢) من الإعجاز العلمى فى القرآن استخدام لفظ « ذرة » مقترناً دائماً بكلمة « مثقال » والتى يُقصد بها وزن ، وهذا التعبير القرآنى يقابله بدقة المصطلح الكيميائى « الوزن الذرى » .

الْعَذَابَ .. (٥٦) ﴾ [النساء]

وقوله تعالى : ﴿ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ (٢٤) ﴾ [الزمر] مادة (كسب) فى القرآن الكريم جاءت كما قلنا على صيغتين : كسب واكتسب ، وقد بيَّن الحق سبحانه متعلق كل منهما فى قوله تعالى : ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ .. (٢٨٦) ﴾ [البقرة] فكسب للخير واكتسب للشر ؛ لأن كسب على وزن فعل ، والخير يأتى من صاحبه طبيعياً لا تكلُّف فيه ولا افتعال ، أما اكتسب فعلى وزن افتعل فيها افتعال ، والافتعال لا يكون إلا فى الشر ، فالخير لا يحتاج منك إلى حيل وافتعال ، بل يأتى طبيعياً على خلاف الشر .

وقد أوضحنا هذه المسألة بالرجل يجلس مع زوجته وبناته ، وينظر إلى جمالهن نظراً طبيعياً لا يحتاط فيه لشىء ولا يخشى فيه شيئاً ، أما إنْ أراد أن ينظر إلى امرأة جميلة فى الشارع مثلاً ، فإنه يتلصص لذلك ويحتال ، هذا هو الافتعال .

لكن القرآن الكريم خالف هذه القاعدة فى مواضع ، منها هذه الآية ﴿ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ (٢٤) ﴾ [الزمر] ولم يقل تكتسبون ، فاستخدم كسب فى الشر ، وفى موضع آخر أيضاً قال : ﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٨١) ﴾ [البقرة]

فلماذا عَدَل القرآن عن اكتسب إلى كسب ؟ قالوا : لأن الإنسان والعياذ بالله قد يتعوّد المعصية ويألف المخالفة حتى تصير له عادة يفعلها فعْلاً طبيعياً ويأنس بها وكأنها طاعة ، وهذا الذى نسميه (فاقد) ولأنه ألفها وتعوَّد عليها بل ويفرح بها عبَّر القرآنُ عنها بكسب التى هى للخير ، ونقل الاكتساب إلى محل الكسب .

لذلك فرَّق القرآن بين مَنْ يفتعل المعصية ويقصدها ويسعى إليها ، ومَنْ تقع عليه المعصية دون إعداد لها ، واقرأ قول الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَـٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١٧) وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَـٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٨) ﴾ [النساء]

معنى (بِجَهَالَةٍ) أى : من غير قصد لها ولا ترتيب ولا بحث عنها ، وإنْ حدث منهم السوء لا يفرحون به ، بل يألمون ويندمون ، أما النوع الآخر فيرتكب السيئات عن قصد ولا يبالى ، وربما فرح بها وجاهر بها .

﴿ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (٢٥) فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ (٢٦) ﴾

قوله سبحانه : ﴿ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ .. (٢٥) ﴾ [الزمر] أى : من الأمم السابقة ﴿ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ .. (٢٥) ﴾ [الزمر] أى : عذاب الدنيا بهزيمتهم ونُصْرة الدين الذى كانوا يحاربونه ويصادمونه ، وهذه أيضاً هى التى حدثتْ للكافرين ، حيث نصر الله الإسلام ، وأظهر مبادئه وقضاياه على مبادىء الكفر ، وهذا فى حَدِّ ذاته لَوْنٌ من العذاب فى الدنيا ، فإذا ما عادوا إلى الله فى الآخرة كان لهم

عذاب آخر أشدّ وأنكى .

إذن : فهم يشبهون من سبقهم من المكذِّبين ؛ لذلك قال فى موضع آخر : ﴿ كَدَأْبِ[1] .. (١١) ﴾ [آل عمران]

لذلك قوله تعالى : (كَذَّبَ) هنا وقوله (كَدَأْبِ) هناك يتبين لنا قضية نفسية فى القرآن الكريم ، هى أن حفاظ القرآن يجب ألاّ يكونوا من العلماء ، خاصةً علماء اللغة والفصاحة ، لأن العالم إذا وقف فى القرآن أمام لفظ أمكنه أنْ يتصرَّف فيه ويكمل قراءته ، فيقول مثلاً : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا .. (٦) ﴾ [الحجرات] يقول : فتثبتوا أو فتحققوا ، ويمكن أنْ يستقيم المعنى ، لكن الحق سبحانه يريد لفظاً بعينه لا يجوز أنْ نتعداه إلى غيره ، أما الذى تخصص فى حفظ القرآن ، وليست لديْه ملكَة التصرف هذه ، فإذا نسى أو وقف فى لفظ وقف (بالأربعة) يعنى : لا يمكن له التصرف فيه ، وهذا هو المطلوب فى حَفَظة كلام الله ، وهذه من عظمة القرآن .

لذلك قلنا : إن كمال القرآن لا يتعدَّى ، كيف ؟ فمثلاً لو أردنا لإنسان أنْ يُرقِّق أسلوبه ويُقوِّيه فى الأداء الإنشائى ننصحه بأنْ يقرأ كتب الأدب عند المنفلوطى والرافعى وغيرهما ، فلما يُكثر من هذه القراءات نلاحظ تحسُّناً فى أسلوبه وأدائه .

ثم إن حافظ القرآن المتمكن منه حتى لو حفظه بالعشرة وقيل له اكتب خطاباً تجده لا يستطيع أن يكتبه فصيحاً أبداً لماذا ؟ لأن كمال

---

(١) ذكر الطبرى فى تفسيره عدة أقوال منها : كسُنتهم وعزاه للربيع . والبعض قال : كعمل آل فرعون . منهم الضحاك . وقال ابن زيد : كفعلهم كتكذيبهم حين كذّبوا الرسل . وقال عكرمة ومجاهد : كشأن آل فرعون .

القرآن لا يتعدَّى إلى غيره ، إنما بلاغة البشر تتعدى إلى البشر .

وقوله : ﴿مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ (٢٥)﴾ [الزمر] أى : من حيث لا يُقدِّرون ولا يحتسبون ، حيث يداهمهم من العذاب ما لم يكُنْ فى حسبانهم ، ولم يخطر لهم ببال ، كما فى قوله سبحانه :

﴿وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩)﴾ [النور] أى : فوجىء به ، فوجىء بحسبان آخر غير ما كان ينتظر ، لأنه كذّب فى الدنيا بالبعث وبالحساب ، والآن يُفاجئه الحساب الذى كذَّب به .

ثم يقول سبحانه : ﴿فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْىَ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. (٢٦)﴾ [الزمر] هنا نقل الإذاقة الحسية إلى الإذاقات المعنوية ، والخزى والذلة نوع من العذاب ، ولها إيلام يفوق الإيلام الحسِّىَّ ، فمن الناس مَنْ لا يؤلمه الضرب ، إنما تؤلمه كلمة جارحة تخدش عِزَّته وكرامته .

لكن لماذا أذاقهم اللهُ الخزىَ فى الدنيا قبل عذاب الآخرة ؟ أذاقهم الخزى لأنهم تكبَّروا على الحق وتجبَّروا ، وجاءوا بقَضِّهم وقضيضهم[1] فى بدر لمحاربة الإسلام ، وظنوا أنهم (العناتر) والجولة جولتهم ، المراد إذن صناديد قريش ورؤوس الكفر أمثال عتبة وشيبة والوليد وغيرهم ، جاءوا بالعدد والعُدة ، وما خرج المسلمون لقتال إنما خرجوا للعير ، ومع ذلك أعزَّ اللهُ جنده وأخزى عدوه ، فقتل منهم مَنْ قتل ، وأسر مَنْ أسر وذلّوا ، وكان الخزى لهؤلاء أنكَى من القتل .

إذن : كان لهم الخزى فى الدنيا ، أما فى الآخرة فلهم عذاب :

---

(١) بقضهم وقضيضهم : أى بجمعهم ، لم يدَعُوا وراءهم شيئاً ولا أحداً . والأصل : جاء بالقضّ والقضيض ، فالقض الحصى ، والقضيض ما تكسَّر منه ودقَّ . [لسان العرب – مادة : قضض] .

﴿ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٢٦) ﴾ [الزمر] نعم ، عذاب الآخرة أكبر من خزى الدنيا وأشدّ ﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٢٦) ﴾ [الزمر] لأن الذين علموا هذه الحقيقة انتهوا وآمنوا ، أما هؤلاء فعاندوا وكابروا وكذَّبوا .

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٧) قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٢٨) ﴾

حينما نتتبع لفظ (مَثَل) فى القرآن الكريم نجده مرة بصيغة (مِثْل) ، وهى تفيد تشبيه شىء بشىء مفرد كما تقول : زيد فى شجاعته مثل الأسد ، الرجل فى كرمه مثل الغيث ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ .. (٢٣) ﴾ [البقرة] وهى تفيد تشبيه صورة مُنْتزعة أو مُكوَّنة من عدة أشياء بصورة أخرى مُكوَّنة من عدة أشياء يعنى : تشبيه حالة بحالة .

ومن المثل فى القرآن الكريم مَثَلُ الحياة الدنيا فى قوله تعالى :

﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا (٤٥) ﴾ [الكهف]

فالحياة الدنيا ليست تشبه الماء وحده ، إنما ماء نزل من السماء واختلط بتراب الأرض فأخرج النبات لكن سرعان ما يهيج ثم يصفر ثم يجف ويتفتت ، حتى يصير هشيماً تذروه الرياح ، كذلك حياة

الإنسان فى الدنيا ، تزهو لك الحياة ثم تنتهى بالموت ، هذه صورة تمثيلية مُكوَّنة من عدة أمور تشبه عدة أمور أخرى ، وما دامت الدنيا على هذه الصورة فاحذروها ، ولا تركنوا إليها ولا تغترُّوا بها .

ومن الصور التمثيلية فى القرآن أيضاً قوله تعالى فى الذين حُمِّلوا التوراة ، ثم لم يستفيدوا منها : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا[1] .. (٥) ﴾ [الجمعة]

فهؤلاء ليسوا كالحمار وحده ، بل كالحمار الذى يحمل الكتب ، ولكنه لا يفهمها ، والحمار ليست مهمته أنْ يفهم إنما مهمته أنْ يحمل ، أما هؤلاء فمهمتهم أنْ يحملوا وأنْ يفهموا ما حملوه ، وبذلك تميّز الحمار عنهم .

ومن ذلك قوله سبحانه وتعالى : ﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ[2] فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ .. (٢٩) ﴾ [الفتح]

---

(١) السِّفر : الكتاب الذى يسفر عن الحقائق . وقيل : الكتاب الكبير ، لأنه يبين الشىء ويوضحه . والسفر : جزء من أجزاء التوراة والجمع أسفار . والمعنى : أعلم الله تعالى أن اليهود مثلهم فى تركهم استعمال التوراة وما فيها كمثل الحمار يُحمل عليه الكتب ، وهو لا يعرف ما فيها ولا يعيها . [تاج العروس - للزبيدى] .

(٢) الشطء : فرخ الزرع والنخل . وقيل : هو ورق الزرع . وقال الزجاج : أخرج شطأه : أخرج نباته . [لسان العرب - مادة : شطأ] .

تأمل هذا المثَل ، تجد الحق سبحانه مثَّل محمداً وصحبه فى التوراة بمثَل معنوى عبادى ، لأن اليهود تغلب عليهم الماديات ، وجاء بمثل مادى فى الإنجيل لأن الإنجيل ليس فيه إلا روحانيات ، فلما طغتْ المادية على اليهود ذكر لهم المثل المعنوى ، ولما طغتْ الروحانيات على النصارى جاء لهم بمثَل مادى ، فكان ولابدّ أنْ يجىء الإسلام وسطاً يراوح بين الماديات والروحانيات .

وقوله سبحانه : ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا .. (٢٧)﴾ [الزمر] الضرب قلنا : هو إيقاع شىء فوق شىء بقوة وشدة ليحدث فيه أثراً ، ومن ذلك الضرب فى الأرض أى : حرثها والاعتناء بها لتعطيك من خيرها ، وضَرْب المثل يكون لأنه فى ظاهره غريب ، فنقول لك : لا تستغربه فهو مثل كذا وكذا فيتضح المقال ويزول الاستغراب ، والمثَل يشبه المختلف فيه بالمتفق عليه . كما فى المثل السابق ﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ .. (٢٩)﴾ [الفتح]

ومادة مثل فى القرآن الكريم وردتْ إحدى وأربعين مرة بلفظ مثل ، واثنتين وعشرين مرة بلفظ مَثلاً ، وثلاث مرات بلفظ مثلهم .

ومن طريف الصور التمثيلية قَوْلُ الشاعر يصف رجلاً أحدب ، ويُصوِّره لك كأنك تراه بالفعل :

قَصُرَتْ أخادعهُ وغَاصَ قَذَالهُ ... فكأنَّهُ مُتربِّصٌ أنْ يُصْفَعَا

وكأنَّمَا صُفِعَتْ قَفَاهُ مَرَّةً ... فَأحسَّ ثانيةً لَهَا فَتجمَّعَا[1]

---

(١) ذكر هذين البيتين عبد الرحيم العباسى فى « معاهد التنصيص » . وشهاب الدين الخفاجى فى « ريحانة الألبا » من شعر عبد الله بن النطاح وأسماه العماد الأصفهانى فى « خريدة القصر » [أبو محمد عبد الله بن الطباخ الكاتب] . وفيه : وكأنه قد ذاق أول صفعة .

وقوله تعالى : ﴿مِن كُلِّ مَثَلٍ .. (٢٨)﴾ [الزمر] يفيد العموم ، يعنى : لوَّنا لهم الأمثال لنُبين لهم قواعد الدين بما يشاهدونه من الماديات ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٧)﴾ [الزمر] يعنى : يتأملون هذه الأمثال ، ويضعون كل مثَل مقابل مثاله ، وليأخذوا من المشاهد دليلاً على ما غاب ، ومن المتفق عليه دليلاً على المختلف فيه .

وقوله سبحانه : ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ .. (٢٨)﴾ [الزمر] أى : أن هذه الأمثال جاءت قرآناً عربياً مبيناً واضحاً لا عوجَ فيه ، وهو كتاب يُقرأ ويكتب وتتكرر تلاوته فى العبادة ، وهو محفوظ لا يناله تحريف أو تبديل والذى يحفظه قائله سبحانه ، إذن : فهذه الأمثال باقية ببقاء القرآن خالدة بخلوده ستظل أمامكم تفيدون منها ، كلما عرضتْ لكم قضايا الحياة وجدتم الحلّ لها .

وقوله : ﴿غَيْرَ ذِى عِوَجٍ .. (٢٨)﴾ [الزمر] ليس مائلاً إلى جهة من الجهات ، بل هو مستقيم ، لأنه التشريع الحقّ من الله الذى لا يُحابى أحداً ولا يجامل أحداً حتى رسله ، واقرأ قوله سبحانه لنبيه وخيْر رسله محمد ﴿إِذًا لأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا (٧٥)﴾ [الإسراء]

وفى سورة الكهف وصف القرآن بقوله : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا (١) قَيِّمًا .. (٢)﴾ [الكهف]

وقوله : ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٢٨)﴾ [الزمر] أى : يتقون صفات الجلال من الله تعالى ومُتعلقاتها من التعذيب بأىٍّ لون من ألوان العذاب .

﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ(١) هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾

هذا مَثَل ضربه الله لبيان قضية التوحيد ، ويوضح من خلاله الفرق بين عبد لسيد واحد ، وعبد لعدة أسياد ، وهذه صورة مكوّنة من عدة عناصر ، فالرجل مملوك لشركاء ، وليْتهم متفقون على شيء ، إنما متشاكسون مختلفون ، كل منهم يأمر بشيء ، فإنْ أرضى هذا أغضب ذاك ، وإنْ أطاع سيداً عصى الآخر .

إذن : كيف يبدد نفسه ؟ وكيف له أن يستريح فهو دائماً في حيرة من أمره ؟ أما الآخر ، فعبدٌ لسيد واحد ، أمره واحد ، وهو مرتبط بسيده ، قاصرٌ خدمته عليه .

﴿ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [الزمر] ويترك الحق سبحانه لك أنْ تجيب أنت على هذا التساؤل ﴿ هَلْ يَسْتَوِيَانِ .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [الزمر] لا نملك إلا أنْ نقول : لا يستويان أبداً ، ونُقر نحن بهذه الحقيقة ، وهذا هو مقصد القرآن أنْ نُقر نحن بها ، لا أن تُلقى إلينا كخبر من الله تعالى ، وهذا الذى نحكم به يقوله كلُّ عاقل ، ولا يردّه أحد .

---

(١) قال البغوى فى تفسيره للآية : ﴿ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [الزمر] متنازعون مختلفون سيئة أخلاقهم ، يقال : رجل شكس شرس إذا كان سيء الخلق مخالفاً للناس لا يرضى بالإنصاف . ﴿ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [الزمر] قرأ أهل مكة والبصرة (سالماً) بالألف أي : خالصاً له لا شريك ولا منازع له فيه .

فالعبد المملوك لسيِّد واحد ، كمَنْ آمن بالله تعالى وأخلص له العبادة وحده سبحانه ، والعبد المملوك لشركاء متشاكسين مثال للعبد الذى أشرك مع الله فى العبادة ، وعليك أنت أنْ تعتبر .

وقوله سبحانه : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ .. (٢٩) ﴾ [الزمر] أى : الحمد لله على أنْ ضرب لنا الأمثال ، وأوضح لنا الأمورَ لنأخذ المعقول المعنوى بالمُحَسِّ المادى ، فالذى يعبد الله وحده لا شريك له يعيش مرتاحَ البال ، هادىء النفس ، مطمئن القلب ، على خلاف مَنْ يعبد آلهةً متعددة ، فهو مشتّتُ النفس ، غير مستقر البال ، إنْ أرضى سيداً أغضب الآخر ، وليس لديه القوة التى تعينه على إرضاء الجميع ، فهو أشبه بالخادم الذى يقول (أناح أقطع نفسى ؟)

فالحمد لله الذى نزَّل القرآن عربياً ، لا عوَجَ فيه ، والحمد لله الذى ضرب لنا فيه الأمثال التوضيحية التى تُقَرِّب ما تقف فيه العقول بالذى تتفق فيه العقول .

﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٢٩) ﴾ [الزمر] أى : لا يعلمون هذه القضية ، لا يعلمون أن الإيمانَ بالإله الواحد الحق والعبودية الخالصة له سبحانه فيها سعادة العبد وراحته ، وأن العبوديةَ لآلهة شتى فى شقاوة العبد وتعبه .

وهم لا يعلمون هذه الحقيقة لأنهم ما وضعوا قضية الإيمان بالربوبية موضعَ البحث العقلى ، بل أخذوها هكذا بلا تأمُّل ، المهم عنده أنْ يكون لهم إله ليس له أوامر ولا نواه ، إله بلا منهج وبلا تكاليف ، وما أحسنَ هذا الإله الذى تأخذه على مزاجك ، ووفقاً لهواك .

وقوله سبحانه : ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٢٩) ﴾ [الزمر] طمأن أهل

الإيمان وأهل التوحيد ، فهم وإنْ كانوا القلة إلا أنهم موجودون ، فالخير لا يُعدم مهما كان قليلاً ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ (١٣) وَقَلِيلٌ مِّنَ الآخِرِينَ (١٤) ﴾ [الواقعة]

وقال فى أصحاب اليمين : ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ (٣٩) وَثُلَّةٌ مِّنَ الآخِرِينَ (٤٠) ﴾ [الواقعة] فالخير إذن فى هذه الأمة .

﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ (٣٠) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ (٣١) ﴾

كان كفار مكة إذا أصاب رسول الله ﷺ سوء أو وعكة صحية ، أو نزلتْ به شدة كما حدث فى أُحُد يفرحون لذلك ، فما بالك لو مات رسول الله ؟ لذلك يقرر القرآن لرسول الله ﷺ هذه الحقيقة ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ (٣٠) ﴾ [الزمر] فعلامَ يفرحون وهذه نهاية الجميع ، كما قال فى موضع آخر : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ (٣٤) ﴾ [الأنبياء]

لكن المسألة لن تنتهى عند هذا الحدِّ ، إنما بعد الموت حياةٌ أخرى ، فيها حساب وجزاء ووقوف بين يدى الله تعالى ، وساعتها سيكون النبى ﷺ فى أعلى مقام ، أما أنتم فسيكون موقفكم موقفَ المخالفين لله ، فماذا تقولون ؟ هذا معنى قوله سبحانه ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ (٣١) ﴾ [الزمر]

ومعنى ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ .. (٣٠) ﴾ [الزمر] هكذا بالتشديد . أى : ذاهب مُنْته إلى الموت فرقْ بين ميّت بتشديد الياء وميْت بسكونها ، ميّت يعنى من سيموت ويؤول إلى الموت ، ولو كان حيًّا ، لأن الله خاطب

رسوله وهو ما يزال حياً . أما ميْت فمَنْ مات بالفعل .

ومن ذلك قول الشاعر :

وكُلُّ أَنَامِ اللهِ فِي النَّاسِ مَيِّتٌ وَمَا اميْتُ إلاَّ مَنْ إِلَى القَبْرِ يُحْمَلُ

وقوله تعالى : ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ (٣٠)﴾ [الزمر] فيه تطمينٌ وتأسية لرسول الله ، كما خاطبه سبحانه بقوله : ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٧٧)﴾ [غافر] وهنا قال : ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ (٣١)﴾ [الزمر]

يعنى : إما أنْ ترى انتقام الله منهم فى الدنيا وإلا ففى الآخرة ، إذن : من مصلحتك أنت أنْ تنتقل إلى الرفيق الأعلى لنختصر المسافة ، وترى بعينك مصارع الكافرين المعاندين ، فلا تضعف ولا تذل ؛ لأن لك مآلاً عند الله تأخذ فيه جزاءك ، ويأخذون جزاءهم .

والحق - سبحانه وتعالى - لما تكلَّم عن الموت فى سورة تبارك ، قال : ﴿تَبَارَكَ الَّذِى بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (١) الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ .. (٢)﴾ [الملك]

فتأمل ﴿خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ .. (٢)﴾ [الملك] وجعل الموت أولاً مع أنه بعد الحياة ، ذلك لأن الحياة ستعطيك نوعاً من الغرور ، حين ترى جوارحك تستجيب لك ، والأسباب تستجيب لك والدنيا تعطيك فلا بُدَّ أن يدخلك الغرور ، فأراد الحق سبحانه ألاّ نستقبلَ الحياة بالغرور ، بل نستقبلها أولاً بهذه الحقيقة التى تناقض الحياة وهى الموت .

إذن : فالعاقل يفهم أنه صائر إلى الموت ، ويقضى رحلة حياته وهو على ذكْر لهذه النهاية .

وقوله ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ (٣١)﴾ [الزمر] وستكون أول خصومة بين الأنبياء ومَنْ كفروا بهم هى مسألة البلاغ حين يشهد الرسل أنهم بلَّغوا أقوامهم رسالة الله ، فإذا بهم يتعللون ، يقولون : اعتقدناه سحراً ، اعتقدناه كذباً ، اعتقدناه تخييلاً ، لكنهم ما فطنوا إلى أن الله أكّد هذا بقوله ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا .. (١٤٣)﴾ [البقرة]

إذن : فضّل الله أمةَ محمد ﷺ بأنها حملتْ رسالة رسولها ، وهذه مسألة لم تحدث مع الرسل السابقين ؛ لذلك قال تعالى : ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ .. (١١٠)﴾ [آل عمران] والدليل على حَمْل الأمة لهذه الرسالة أنه لم يأتِ رسول بعد رسول الله ، فكأن الله تعالى أمِن أمة محمد على رسالته ، والنبى ﷺ شهد أنه بلَّغ أمته ، وعليهم هم أنْ يشهدوا أنهم بلَّغوا الناس .

وهذا المعنى من معانى الوسطية التى قال الله فيها : ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا .. (١٤٣)﴾ [البقرة]

وإنْ كانت تتسع لغير ذلك فلأنها وسط فى كل شىء ، فقد رأينا فى غير هذه الأمة مَنْ أنكر الإله ، ومنهم مَنْ أثبت آلهة متعددة ، وكلاهما تطرف ، فجاء الإسلام وقال بعبادة إله واحد لا شريك له ، فاختار الوسطية والاعتدال وحَلّ هذا النزاع .

لذلك خاطبنا ربنا بقوله : ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا .. (١٤٣)﴾ [البقرة] أى : فيكم نواحى الاعتدال ، فإذا سمعتم مَنْ يقول بالشيوعية، ومَنْ يقول بالرأسمالية ، وإذا رأيتم مَنْ يتعصّب لمذهبه فقولوا :

نحن أمة وسط تركنا للرأسمالية أن تثمِّر طموحها ، لأنه ليس الجميع لديه طموح ، وحين تثمِّر الرأسمالية طموحها لابُدَّ أنْ تخدم المجتمع ، وانظر كم من العمال يعمل ، وكم من البيوت تُفتح .

كذلك الشيوعية فرضنا لهم ما لم يدفعوا إلى غير القادر ، إذن : أخذنا ميزة هؤلاء وميزة هؤلاء ، بدليل أن النظامين اللذين سيطرا على العالم طوال مدة من الزمن بدأتْ شراستهم تقل ، فالرأسماليون أخذوا فى التخفيف من حِدَّة الرأسمالية ، ونظروا إلى العمال فأعطوْهم حقوقهم وميَّزوهم ، وجعلوا لهم نقابات ... إلخ ، وكذلك الشيوعية قالوا : لا بُدَّ أنْ يوجد فى المجتمع طبقة تقدر أنْ تزنَ الأمور بطموحاتها ، ويجعلوا للعمال فرصاً يعملون بها ، وأخيراً انتهت الشيوعية والحمد لله عن آخرها .

إذن : فأمة الإسلام أمة الوسطية أخذت خَيْر النظامين .

نقول : سيكون فى الآخرة الاختصام الأول بين الأنبياء ومن كذَّب بهم ، واختصام بين أئمة الكفر ومَنْ تبعهم ممَّنْ أضلوهم وأغوْوهم ، بين القوم الذين أثروا فى السفهاء ، وجعلوهم تابعين لهم فى الكفر .

وقد صوَّر القرآن هذه الخصومة فى هذا الموقف ، فقال : ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ (١٦٦) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً[1] فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ (١٦٧) ﴾ [البقرة]

---

(١) الكَرّ : الرجوع . والكرَّة : البعث وتجديد الخلق بعد الفناء . [لسان العرب - مادة : كرر] .

لذلك يقول سبحانه وتعالى : ﴿الأَخِلاَّءُ[1] يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ (٦٧)﴾ [الزخرف]

إذن : لا بدّ أنْ يختلفوا الآن ، ويلعنَ بعضهم بعضاً ، ويُلقى كلّ منهم التبعية على الآخر ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ (٢٤) مَا لَكُمْ لا تَنَاصَرُونَ (٢٥) بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (٢٦) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٧) قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ (٢٨) قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٢٩)﴾ [الصافات]

هكذا يختصم التابع والمتبوع ، وتتفرّق جماعتهم ولا يتناصرون كما تناصروا على كفرهم فى الدنيا .

ويُصوِّر القرآن موقفاً آخر للكافرين ، حيث سبق قادتهم ورؤساؤهم إلى النار ، فجاء التابعون فوجدوا السادة قد سبقوهم ، يقول تعالى : ﴿هَـٰذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ (٥٥) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ (٥٦) هَـٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ[2] (٥٧) وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ (٥٨) هَـٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ (٥٩) قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ (٦٠)﴾ [ص]

وكوْنُ القادة يسبقون أتباعهم إلى النار يدلُّ على أنهم أعظم جُرْماً من التابعين لهم ؛ لأنهم ضلُّوا فى أنفسهم وأضلُّوا غيرهم ، وفيه أيضاً قطْعٌ لأمل التابعين فى النجاة والخلاص من النار ، ومَنْ

---

(١) الأخلاء : جمع خليل ، وهو الصديق . والخلالة : الصداقة والمودة . [الصحاح للجوهرى – مادة : خلل] .

(٢) الغسَّاق : ما يغسق ويسيل من جلود أهل النار وصديدهم من قيح ونحوه . وقيل : ما يسيل من دموعهم . [لسان العرب – مادة : غسق] .

يخلصهم وقد رأوا سادتهم وقادتهم قد سبقوهم إليها ؟

وفى المقابل يعرض الحق سبحانه هذا الحوار بين المؤمنين فى الجنة : ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ (٥١)﴾ [الصافات] أى : صاحب من أهل الكفر ﴿يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ (٥٢) أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ[1] (٥٣) قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ (٥٤) فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٥٥)﴾ [الصافات]

يعنى : نظر من السور فإذا بقرينه فى سواء الجحيم ، يعنى : فى وسطها . فقال : ﴿تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ (٥٦)﴾ [الصافات] تهلكنى معك ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ[2] (٥٧)﴾ [الصافات]

وقد يكون حواراً بلا خصام ، كما فى قوله تعالى :﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا (٦٦) وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا (٦٧) رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا (٦٨)﴾ [الأحزاب]

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ (٣٢) وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ (٣٣)﴾

---

(١) أى : مجزيون بأعمالنا . يقال : دنته بما صنع أى جازيته . قاله ابن الجوزى فى زاد المسير فى تفسير سورة الصافات . وقال ابن كثير فى تفسيره : « قال مجاهد والسدى : لمحاسبون . وقال ابن عباس ومحمد بن كعب القرظى : لمجزيون بأعمالنا . وكلاهما صحيح » .

(٢) أى : ولولا فضل الله علىّ لكنت مثلك فى سواء الجحيم مُحْضَر معك فى العذاب ، ولكنه تفضل علىَّ ورحمنى فهدانى للإيمان وأرشدنى إلى توحيده . [تفسير ابن كثير - سورة الصافات] .

الاستفهام فى ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ (٣٢)﴾ [الزمر] يحمل معنى التعجب والإنكار يعنى : لا أحدَ أظلمُ من هذا الذى يكذب على الله ، فلو كذب على غير الله لكان منكراً ، فما بالك وقد كذب على الله الذى لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، ويعلم حقائق الأشياء سِرَّها وعلانيتها .

إذن : فالكذب على الله خيبة ، وإنْ كنت ولا بُدَّ ستكذب فاكذب على إفسان مثلك هو أيضاً عُرْضة لأن يكذب .

لذلك جاء لفظ ﴿أَظْلَمُ﴾ على وزن أفعل التى تدل على المبالغة ، لأن أفظعَ الظلم وأعظمه أنْ تكذب على الله ، لكن مَنْ ظلم ؟ أظلم مَنْ يكذب عليه أم ظلم نفسه ؟ بل ظلم نفسه .

ولم يقف الأمر عند هذا بل ﴿وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ (٣٢)﴾ [الزمر] لأن التكذيب بالصدق ينقل القضايا إلى نقيضها ، والشىء الصدق هو الذى لا يُقال لقائله كذبت ، لأنه إخبارٌ بأحداث يُصدِّقها الواقع وسبق أنْ قلنا : إن النسبة الكلامية إذا وافقتْ نسبة الواقع كان الكلام صادقاً ، وإذا خالفت الواقع كان كاذباً .

ثم يستفهم الحق - سبحانه وتعالى - وهو أعلم : ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ (٣٢)﴾ [الزمر] يعنى : ما ظنّ هؤلاء الذين يكذبون على الله ويُكذبون بالصدق ، ألم يعلموا هذه الحقيقة وهى أن جهنم مثوى للكافرين المكذِّبين ، لو كانت هذه الحقيقة فى بالهم ما اجترأوا على الله ، إنما هم كاذبون يقولون غير الواقع ولا يؤمنون به .

وبعد ذلك ينتقل إلى خصوصية الصادق ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ (٣٣)﴾ [الزمر] وهو محمد ﷺ الذى تلقّى عن ربه وبلّغ أمته ، وقد أكد الله تعالى صِدْق رسوله فى مواضع كثيرة ، منها :﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ

عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ (٤٤) لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ(١) (٤٦) فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (٤٧) ﴾ [الحاقة]

إذن : مسألة الكذب على الله مسألة لا يُحابى فيها أحد حتى الرسل ، لذلك جاء بلاغه ﷺ عن ربه دقيقاً ، فتراه لا يبلغ مضمون المقولات ، إنما يبلغ المقولات ذاتها ، واقرأ قوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) ﴾ [الإخلاص] فكان بإمكانه ﷺ أنْ يقول لقومه : الله أحد . وبذلك يكون قد بلَّغ المراد من الآية إنما قال كما جاءه من ربه ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) ﴾ [الإخلاص] فذكر الأمر بأنْ يقول (قل) .

والعجيب أنْ يطلُعَ علينا مَنْ يقول بحذف مثل هذه الكلمة بحجة أنها لا تضيف جديداً للمعنى ، ونقول : هذا ليس كلامَ بشر ، بل هو كلام الله وقرآنه ، وقد حفظه الله بنفسه وبلّغه رسوله كما تلقَّاه عن ربه .

أرأيتَ لو أرسلتَ ابنك ليُبلِّغ عنك قضية مثلاً وقلتَ له : اذهب إلى فلان وقُلْ له كذا وكذا ، وبإمكان الولد أنْ يبلغ مضمون القضية ، لكنه حين يقول : أبى قال لى قُلْ لفلان كذا وكذا ، فهذا يعنى أنه يؤكد الكلام ويهتمّ بالرسالة كما تلقاها ، إذن : لو حُذِفَتْ كلمة (قُلْ) فقد حُذِفَتْ كلمة من القرآن ، لا كلمة زائدة عليه .

وقوله :﴿ وَصَدَّقَ بِهِ (٣٣) ﴾ [الزمر] أى : صدَّق بالصدق الذى جاء به ، صدَّق هو أولاً ولم ينتظر منا أنْ نُصدِّق نحن أو نشهد بذلك ، لقد أخذ الرسول عن ربه أنه إله واحد ولا شريكَ له فشهد بذلك أولاً

---

(١) الوتين : عرق فى القلب إذا انقطع مات صاحبه . قال ابن سيده : الوتين عرق لاصق بالصلب من باطنه أجمع يسقى العروق كلها الدم ويسقى اللحم وهو نهر الجسد . [لسان العرب – مادة : وتن] .

وصدَّق ، كذلك الحق سبحانه لم ينتظر شهادةَ العباد بوحدانيته إنما شهد بها لنفسه أولاً ، فقال سبحانه :

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ (١٨) ﴾ [آل عمران]

وبعد أنْ شهد اللهُ لنفسه بالوحدانية وجب على الرسول أيضاً أنْ يشهد بأن محمداً رسولُ الله ، إذن : جاء بالصدق وصدَّق هو به وقال هو عن نفسه : أشهد أن محمداً رسول الله . كذلك شهد الملائكة بهذه الوحدانية ، وشهد بها أولو العلم شهادةَ الحجة والدليل والبرهان .

وقالوا[1] : ﴿ وَالَّذِى جَاءَ بِالصِّدْقِ (٣٣) ﴾ [الزمر] هو رسول الله ﴿ وَصَدَّقَ بِهِ (٣٣) ﴾ [الزمر] أى : الذين صدَّقوا رسول الله فى أول بلاغ له عن ربه ، سواء أكان أبا بكر رضى الله عنه أم السيدة خديجة رضى الله عنها ، وقد اختلفوا فى هذه المسألة : أهو أبو بكر أم خديجة ؟ وليس فى المسألة خلاف . فإذا قيل : أول مَنْ آمن من الرجال نقول أبو بكر . ومن النساء : خديجة .

والواقع أن السيدة خديجة آمنتْ برسول الله وصدَّقته فى أول الأمر ، وربما قبل أنْ يبلغ أبا بكر الخبر ، وتعلمون موقفها من رسول الله حين جاءه الوحى ، وأنها ذهبتْ به إلى ابن عمها ورقة بن

---

(١) اختلف المفسرون فى الذى جاء بالصدق والذى صدَّق به على أقوال :

- الذى جاء بالصدق : النبى . وصدَّق به : أبو بكر . قاله على بن أبى طالب .
- النبى . وعلى . قاله مجاهد .
- الذى جاء بالصدق : جبريل . وصدق به : محمد . قاله السدى .
- الذى جاء بالصدق : النبى . وصدق به : المؤمنون . قاله ابن زيد ومقاتل وقتادة .

راجع الأقوال كلها فى تفسير القرطبى (٨/٥٩٠١) .

نوفل [١] ، فقال : إنه نبيُّ هذه الأمة ، ولكى يؤكد لها هذه القضية قال : وإنْ يدركنى يومك لأنصرنَّك نصراً مؤزّراً ، ليتنى أكون حياً يوم يُخرجك قومك ، قال : أو مخرجى هم ؟ قال : ما جاء أحد بمثل ما جئتَ به إلا أُوذِى ولتُخرَجُنَّ [٢] .

أما الصِّديق أبو بكر فلما أخبروه أن صاحبك يزعم أنه رسول قال : إنْ كان قال فقد صدق ،[٣] إذن : كيف صدَّق أبو بكر وهو لم يَرَ من رسول الله معجزةً تدل على رسالته ؟

قالوا : ليست المعجزة (عياقة) لا يؤمن الناس إلا بها ، إنما المعجزة جُعِلَتْ لمن يكابر فى التصديق ؛ لذلك جاءت معجزةُ القرآن تحدياً للكافرين والمعاندين المكذِّبين ، أما مَنْ آمن برسول الله أولاً فلا يحتاج إلى معجزة ، وأىُّ معجزة جعلتْ أبا بكر يؤمن ويُصدِّق برسول الله بهذه السرعة ؟

قالوا : لأنه لم يُجرِّب على رسول الله كذباً أبداً قبل ذلك ، فإذا كان صادقاً فى أموره مع الناس أيكذب على الله ؟ إذن : أخذ أبو بكر المعجزة من تاريخه مع رسول الله ، وكذلك السيدة خديجة بدليل أنها

---

(١) هو : ورقة بن نوفل بن أسد ، من قريش ، حكيم جاهلى ، اعتزل الأوثان قبل الإسلام وامتنع من أكل ذبائحها وتنصَّر ، وكان يكتب اللغة العربية بالحرف العبرانى . ابن عم خديجة أم المؤمنين . توفى عام ١٢ ق هـ .

(٢) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (١٣٩/٢ ، ١٤٠) من حديث محمد بن النعمان بن البشير . وأورده ابن هشام فى السيرة النبوية (٢٥٦/١) وفيه أن ورقة قال : « والذى نفسى بيده ، إنك لنبى هذه الأمة ، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذى جاء موسى ، ولتكذبنه ولتؤذينه ولتُخرجنه ولتقاتلنه ، ولئن أنا أدركت ذلك اليوم لأنصرن الله نصراً يعلمه » .

(٣) ذكره القرطبى فى تفسيره (٤٠١٢/٥) وتمامه أنه قيل له : أتصدقه قبل أن تسمع منه ؟ فقال : أين عقولكم ؟ أنا أصدقه بخبر السماء ، فكيف لا أصدقه بخبر بيت المقدس ، والسماء أبعد منها بكثير .

هى التى شجَّعتـه وآزرته وقالت : والله لا يُخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتَقْرى الضـيف ، وتحمل الكَلَّ ، وتعـين على نوائب الدهر [١] فمعجزة محمد لمَنْ آمن به أولاً تاريخه وسيرته بينهم .

وأنتـم تعلمـون حديث رسول الله ﷺ عن خـزيمة [٢] الذى يقول فيه : « مَنْ شهد له خـزيمة فحَسْبه » [٣] ونصاب الشهادة معروف ، فكيف جـعل رسـول الله خـزيمة نِـصاباً وحـده فى الشـهـادة ؟ وبم استحق هذه المنزلة ؟

قالوا : لأنه فـاز بجدارة فى قضيـة التصديق برسول الله حـينما اقـترض رسـول الله مـبلغـاً من المال من يهـودى ، ثم أدَّاه إليـه فى موعده ، لـكن جاء اليهودى يدَّعى أنه لم يأخـذ دَيْنه من رسول الله ، وذهب إلى رسول الله أمـام الناس يقول : يا مـحمد أو يـا أبا القاسم أعْطِنى دَيْنى ، فقال رسول الله : لقد أعطيتُك ، فقال : ومَنْ يشـهد على ذلك ؟ فقام خزيمة وقال : يا رسول الله أشـهد أنك أعطيته دَيْنه .

ولأن اليهودى كان كـاذباً فى ادعـائه صـدَّق بشـهادة خزيمة وقال

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٣) وستة مواضع أخرى من صحيحه ، وأخرجه أيضاً مسلم فى صحيحه (١٦٠) من حديث عائشة رضى الله عنها .

ومعنى « تحمل الكلّ » أى : تعين المثقل ومنه الإنفـاق على الضعيف واليتيم والعيال . و« تكسب المعدوم » أى : تستفيد المـال المعدوم وقد كان النبى ﷺ محظوظاً فى تجارته . « تقرى الضيف » أى : تطعمه طعام الأضياف . و « نوائب الحق » : حادثات الأيام . انظر: شرح النووى على مسلم (٢/٥٦١) ، وفتح البارى للعسقلانى (١/٢٤) .

(٢) هو : خزيمـة بن ثابت بن الفاكـه بن ثعلبة الأنصارى ، أبو عـمارة ، صحـابى من أشراف الأوس فى الجاهليـة والإسلام ، عاش إلى خـلافة على بن أبى طالب ، وشـهـد معه صـفين فقتل فيها عام ٣٧ هـ . [الأعلام للزركلى] .

(٣) أخرجـه الحاكم فى مستـدركه (٢/١٨) ، والطبرانى فى مـعجمه الكبـير (٤/١٠١) ، من حديث خزيمة بن ثابت . قال الهيثمى فى المجمع (٩/٣٢٠) : « رجاله كلهم ثقات » .

فى نفسه : لعله كان حاضراً ولم أرَه ، لأن اليهودى أخذ دَيْنه من رسول الله ولم يكُنْ أحدٌ موجوداً معهما ، عندها خنس اليهودى وانصرف ، فاستدعى رسول الله خزيمة ، وقال له : يا خزيمة لم يكُنْ معى أحد حين أعطيتُه حقه ، فكيف شهدتَ أنك رأيتنى أعطيه ؟

فضحك خزيمة وقال : يا رسول الله أأصدقك فى خبر السماء وأكذبك فى عدة دراهم ؟ فأعجب رسول الله باستنتاج خزيمة ، ورآه اجتهاداً جميلاً ، فقال فيه : « مَنْ شَهِدَ له خُزيمةُ فحسْبُه » .

والمسألة ليست على دراهم اليهودى ، إنما لها واقعٌ آخر ، حينما أرادوا أن يجمعوا القرآن تحرَّوْا فيه أقصى درجات الدقة ، فكان الجامع لا يكتب كلمة واحدة فى المصحف الجامع إلا إذا رآها مكتوبة ، وشهد عليها شاهدان ليتأكد من صدقها فى الصدور وفى السطور ، حتى وقف أمام آية كُتِبت وشهد عليها شاهد واحد فتوقف ، فلما رأى أن هذا الشاهد هو خزيمة تذكَّر قول رسول الله فيه : « مَنْ شهِد له خزيمة فحَسْبه » فكتبها .

ومن مواقف التصديق ما كان من الصِّدِّيق أبى بكر لما أخبروه خبر الإسراء والمعراج . وقالوا له : إن صاحبك يدَّعِى أنه أتى بيت المقدس وعُرِج به إلى السماء فى ليلة واحدة ، لم يبحث المسألة ولم يناقشها إنما صَدَّق بدايةً وقال : إنْ كان قال فقد صدق . فميزان الصدق عنده مجرد أنْ يقول رسول الله .

وقوله :﴿ أُوْلَـٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (٣٣) ﴾ [الزمر] أى : الذين أخذوها من قصيرها كما يقولون ، وجعلوا بينهم وبين صفات الجلال من الله وقاية .

﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾

قوله :﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [الزمر] أى : متوفر لهم كلّ ما يشاءون ، لكن عند مَنْ ؟ ﴿عِندَ رَبِّهِمْ ﴿٣٤﴾﴾ [الزمر] حين تكون لا عندية إلا لله وحده ، هذه العندية هى معنى قوله تعالى :﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ﴿١٦﴾﴾ [غافر]

فالعندية تكون للناس فى الدنيا ، فهذا موظف عند هذا ، وهذا خادم عند هذا ، أما فى الآخرة فالعندية لله وحده ، وفى هذه العندية ينال المؤمن ما اشتهاه فى الدنيا ولم يحصل عليه فى الآخرة يقول الله ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ﴿٣٤﴾﴾ [الزمر] ولم يقُلْ لهم ما يشاءون ، بل ما يشاءون عندى أنا . أى : بلا أسباب ، لأن الأسباب كانت فى الدنيا ، وما تريده بالأسباب قد لا يتحقق لك ، وإنْ كان فى يدك لأن الله يزاول سلطانه بواسطة خلفائه فى الأرض ، فيجعل هذا سبباً فى رزق هذا ، وهذا يعين هذا ، والأسباب قد تتخلف أما فى الآخرة فلا أسبابَ ، بل هو عطاء الله المباشر بلا سبب .

وفى سيرة أكابر الرسل أحداثٌ توضح لنا هذه العندية لله تعالى ، فسيدنا إبراهيم - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - أول ما دعا دعا عمه آزر ، وجادله فى مسألة الأصنام ، فلما رآه مُصِراً على عناده

قال له : ﴿ سَلَامٌ عَلَيْكَ .. (٤٧) ﴾ [مريم]

كلمة السلام هنا ليست سلام الأمن والطمأنينة ، ولا سلامَ التحية ، إنما سلام الموادعة لأنهما مختلفان فى الرأى ، ولن يثمر الجدل مع العناد والمكابرة ، فطول الجدال لن يُزيد المسألة إلا تعقيداً وعداوة ، ومن الأفضل فى مثل هذا الموقف أن ينسحب منه صاحب الحقِّ حتى لا تشتعل نارُ الخلافات أكثر من ذلك ، كما تقول لصاحبك فى مثل هذا الموقف : يا عم سلام عليكم لتنهى الموقف ، فالسلام عليكم هنا تعنى أننى لو لم أترك هذا المكان لن يحدث سلام . وقد يكون سلامٌ من البشر لا يقدرون على أدائه .

لذلك ، فإن السلام الحق من الله ، كما فى قوله تعالى : ﴿ سَلَامٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ (٥٨) ﴾ [يس]

الشاهد هنا أن سيدنا إبراهيم - عليه السلام - شاء أن يستغفر لعمه ، فلم يُجَبْ إلى ذلك ، شاء فى الدنيا لكن الله لم يشأ ، كذلك سيدنا رسول الله ﷺ شاء أنْ يستغفر لعمه أبى طالب بعد أنْ دعاه فلم يستجب ، وأصرَّ على دين آبائه ، فلما استغفر له رسولُ الله أنزل الله عليه :﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُوْلِي قُرْبَىٰ .. (١١٣) ﴾ [التوبة]

فقد شاء محمد ﷺ أن يستغفر لعمه ، لكن لم يُعْط ذلك ، لأن هذه المشيئة منه فى الدنيا ليستْ عند الله ، أما مشيئته عند الله فى الآخرة فمستجابة متحققة ، هذا معنى ﴿ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ .. (٣٤) ﴾ [الزمر]

فإنْ كانت للمؤمن مشيئات لا تتحقق فى الدنيا فهى مُدخَّرة له فى الآخرة عند ربه ، هذه المشيئات التى لا تتحقق يسترها شىء

واحد أن أكرم المشيئة أنْ تشاء من الله أنْ ينصر دينه ، وقد تحققت هذه المشيئة .

إذن : فالمشيئة التى لا تتحقق هى التى تعود على نفسك ، أما المشيئة التى تطابق الإيمان بمنهج الله فهى لا بُدَّ متحققة كما تحققت مثلاً فىْ بدر .

فالحق - سبحانه وتعالى - يريد منا حين نكون مؤمنين به ومُصدِّقين لرسوله ألاَّ تكون لنا مشيئة فى غير ديننا ؛ لأن المشيئة فى غير الدين يمكن أن تكون فى أيدى الناس فلا يحققوها لك ، وربما مات المؤمن قبل أنْ يرى مشيئته بنصر دين الله فيدخر له ذلك فى الآخرة .

إذن : المهم عنده أن تكونَ المشيئة خاصة بنصر دين الله على مَنْ يكذبه ويخالفه ، وهذه المشيئة متحققة بدليل : ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣)﴾ [الصافات]

وقوله : ﴿ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (٣٤)﴾ [الزمر] صحيح هناك عمل ، وهناك فضل ، وتشريع الجزاء على العمل من الفضل ؛ لأن ربنا حينما يثيبنى على شىء يعود علىَّ بالنفع يُعد هذا الجزاء زيادة ، والأصل أن يقول لى : لقد أخذتَ جزاءك منفعةً بالعمل الذى عملته ؛ لأن خالقك أعطاك كل الأسباب ، أعطاك الجوارح التى تعمل بها ، وأعطاك الأرض والمال والهواء والماء والطعام ، فإنْ أثابك على العمل كان من فضله .

والمحسن درجةٌ أعلى من المؤمن ، فالمؤمن يأخذ ما فرضه الله عليه ويُنفِّذه دون زيادة ، أما المحسن فهو الذى يؤدى ما فرض الله

عليه ويزيد عليه من جنس ما فرض الله ، فمثلاً يصلى الصلوات الخمس ثم يزيد عليها ما شاء من النوافل من صلاة الليل ، كما قال سبحانه فى المحسنين :

﴿ كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ[1] (١٧) وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩) ﴾ [الذاريات]

ولم يقل هنا (حق معلوم) لأن الحق المعلوم هو الزكاة ، أما فى هذا المقام فالعبد يُزكِّى ماله ، ثم يزيد على ذلك ما شاء من التطوع والصدقات ، وهذه الزيادات ما طلبها منك ربك ، إنما تؤديها محبةً وتقرباً إليه سبحانه .

إذن : كلمة الإحسان عند الله فيها نفس معنى الإحسان للناس . تقول : أحسنت إلى فلان حين تعطيه أكثر من حقه . وحين يجازى اللهُ المحسنَ إنما يعطيه جزاءَ إحسانه ، فإذا كان العبد يحسن فالله أوْلَى وأكرم .

والحق سبحانه أعطانا المثَل الحسِّى للإحسان فى الأرض ، وما تُخرجه من ثمراتها فأنت تضع فيها حبة القمح مثلاً ، فتعطيك فى المقابل سبعمائة حبة ، فإذا كان هذا هو عطاء الأرض المخلوقة لله تعالى ، فما بالك بعطاء الخالق سبحانه ؟ فالمعنى : ﴿ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ (٣٤) ﴾ [الزمر] لماذا ؟ لأنهم كانوا محسنين ، وهذا جزاء الإحسان .

وقوله : ﴿ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا (٣٥) ﴾ [الزمر] هذا أيضاً

---

(١) الهجوع : النوم ليلاً . وقد يكون الهجوع بغير نوم . والتهجاع : النومة الخفيفة . [لسان العرب - مادة : هجع] . والسَّحَر : آخر الليل قبيل الصبح والجمع أسحار . وقيل : هو من ثلث الليل الآخر إلى طلوع الفجر . [اللسان - مادة : سحر] .

من العطاء الخاص بدرجة الإحسان ، فكلمة أسوأ تدلّ على المبالغة وأقل منها السيئة ، فعندنا سيئة وأسوأ منها ، ولا شكَّ أن السيئة تنصرف إلى الصغائر ، والأسوأ تنصرف إلى الكبائر ، فكأن الذى دخل فى مقام الإحسان ضمن أن مقام الإحسان يكون له مثل مقاصَّة تُسقط عنه ذنوبه ، ليست الصغائر فحسب إنما الكبائر أيضاً ؛ لأن الذى يُكفّر الأسوأ يُكفِّر السيئة من باب أَوْلَى ، هذا لأنك أدخلتَ نفسك فى مقام لم يُطلب منك لمجرد المحبة لمن كلفك .

بل هناك عطاء أعظم من ذلك ، هو أن المسألة لا تنتهى عند تكفير الذنوب والسيئات ، إنما تُبدَّل إلى حسنات ، كما قال سبحانه : ﴿ فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ .. (٧٠) ﴾ [الفرقان]

فتأمّل درجات العطاء من الله ، والربح فى التجارة معه سبحانه .

وبنفس الإكرام والتفضل يجازى اللهُ المحسنين على حسناتهم ﴿ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِى كَانُوا يَعْمَلُونَ (٣٥) ﴾ [الزمر] فكما غفر لهم الأسوأ يجازيهم أحسن الذى كانوا يعملون ، أىْ : بأحسن من عملهم .

هذا العطاء من الله ، وهذا التكرم والتفضل منه على عباده شجَّع الشارد من دعوة الإيمان وحثَّه على العودة إلى حظيرة الإيمان ، فليس هناك ما يحول بينه وبين ربه ، وليس فى الطريق حجر عَثْرة مهما كَثُرت الذنوب ما دام بابُ التوبة مفتوحاً .

والحق سبحانه حينما شَرَع التوبة للعاصين المذنبين شرعها لينقذهم من شراسة المعصية ، فلو قلنا للعاصى : ليس لك توبة ماذا يفعل (يفقد) كما نقول : فلان ده فاقد . يعنى : يئس من الإصلاح فتمادى فى الفساد وبالغ فى الضلال ، والحق سبحانه لا يريد لعباده

ذلك ، فـفـتح لهم بابَ التـوبة لـيـعطفـهم إلـى دين الله ، فـلا يزداد الانحرافُ فى المجتمع ، ولا تستشرى فيه المعصيةُ .

بعد أن أخبر رسول الله القـومَ بهذا المهنج الإلهى فى الجزاء قال المعاندون لرسـول الله : نخاف عليك يا محمد أنْ تمـسَّك آلهتنا بسوء وقد أغضـبتها ، سبـحان الله يقولون هذا وهم يعلمون أنهـا حجارة لا تضر ولا تنفع ، ولما مسَّـهم الضر ما وجـدوا غير الله يلجئون إليه ؛ ولذلك نزل قوله تعالى :

﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ ﴾

يعنى : يا مـحمـد ، لا تهتم بهـذا الهراء فـالله حَسْـبك وكافـيك ، والذى يدل على ذلك أن رسـول الله كان يحرسـه القوم من المـؤمنين مخافـة أن يناله المشركـون بسوء ، ففوجئـوا فى يوم أن رسول الله يسرحهم ويُنهى هذه الحراسة ويصرفها .

ولوْ لم يكُنْ رسول الله واثقاً أن الذى أمره بصرف الحراس كفيلٌ بحفظه وحمايته لما فعل ذلك فى نـفسه ؛ لذلك رأينا المرأة الدنماركية وهى تقـرأ فى سيـرته ﷺ ، أنه أعظم العظمـاء الذين تركـوا بصمـة واضـحة فى التـاريخ ، وقلبـوا ميـزان الدنيـا ، فلما جـاءت عند هذه الحادثة وقرأت ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الزمر] وقرأت : ﴿ وَاللَّهُ

يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ (٦٧) ﴾ [المائدة] قالت : والله ما فعل محمد ذلك إلا وهو واثقٌ من حماية ربه له ، ولو خدع الناسَ جميعاً ما خدع نفسه ، وآمنتْ بسبب هذه المسألة .

قوله سبحانه : ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ (٣٦) ﴾ [الزمر] يحلو للبعض أن يقول المعنى : أليس الله كافياً عبده ، ويعتبرون الباء زائدة ، وهذا غير صحيح ، فليس فى كلام الله تعالى حرف زائد ، فالهمزة هنا استفهام إنكارى ، والإنكار يفيد النفى ، بعدها ليس للنفى ونفى النفى إثبات .

يعنى : ننكر أن الله ليس بكاف عبده ، وما دُمْنا ننكر أن الله ليس بكافٍ عبده ، فالنتيجة أن الله تعالى كافٍ عبده .

والحق سبحانه وتعالى : له اسم هو الله ، وله صفات هى التى عرفناها بالأسماء الحسنى ، ومن أسمائه الحسنى الكافى ، فالمعنى إذن : أليس الله موصوفاً بكاف عبده ، فكيف إذن نقول : إن الباء زائدة ؟

إن القول بزيادة الباء هنا يناقضُ بلاغةَ القرآن ، ولا يصح أن نقول : إن فى القرآن حرفاً زائداً ، البعض يتأدّبون مع كلام الله ويقولون : بل هو حرف صلة ، وآخرون يقولون : حرف لربط الوجود ، ولسنا فى حاجة إلى كل هذه التأويلات .

وسبق أنْ أوضحنا هذه المسألة ، فلو قلنا مثلاً : ما عندى مال ، (ما) هنا تنفى وجود المال الذى يُعتد به ، ولا تمنع أنْ يكون معى جنيه أو جنيهان مثلاً ، لكن لو قلتَ : ما عندى من مال أى : من بداية ما يُقال له مال ولا حتى مليم واحد إذن : حرف الجر هنا ليس زائداً فى الكلام ، إنما تأسيسى فى المعنى .

أما الذين قالوا بزيادة الباء فى ﴿ بِكَافٍ (٣٦) ﴾ [الزمر] فقد اعتبروا (ليس) من أخوات كان التى ترفع الاسم وتنصب الخبر ، فلفظ الجلالة اسمها مرفوع وكاف خبرها ، فالتقدير : أليس الله كافياً عبده ، وهذا ينافى جلال القرآن وبلاغته .

وقوله : ﴿ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ (٣٦) ﴾ [الزمر] أى : بالأصنام ﴿ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٦) ﴾ [الزمر] يعنى : دعهم يقولون ما يقولون فقد أضلهم الله فمَنْ يهديهم ؟ ﴿ وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ (٣٧) ﴾ [الزمر] هذا هو المقابل إذا هدانا الله الطريق ، فلن يُضلنا أحد ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى انتِقَامٍ (٣٧) ﴾ [الزمر] يعنى : أليس اللهُ موصوفاً بالعزّة ، فالباء هنا كسابقتها .

والعزيز هو الذى يغلب ولا يُغلب ، وما دام هو سبحانه غالباً لا يغلب فاحذروا انتقامه لأنه ﴿ ذِى انتِقَامٍ (٣٧) ﴾ [الزمر] فمهما صنعتم بالفكر الفاسد والتبييت والائتمار فلن تغلبوه .

وعجيبٌ من الكفار أنْ يُخوِّفوا رسول الله بالأصنام ، وهم يعلمون حقيقتها وقولهم فيها : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ (٣) ﴾ [الزمر] كلام باطل لغة ، لأن العبادة طاعة العابد للمعبود فى أمره ونهيه ، وأى أمر أو نَهْى للأصنام ؟ إذن : هذا الكلام منهم هراء وباطل . لذلك سيدنا خالد بن الوليد لما ألانَ اللهُ قلبه للإسلام أراد رسول الله ﷺ أنْ يبعثه ليهدم العُزَّى ، فلما ذهب إليها خالد وأمسك بفأسه ليكسرها قال لها[1] :

يا عُزّى كُفْرانَكِ لاَ سُبْحَانَكِ ... إنِّى رأيْتُ اللهَ قَدْ أهَانَكْ

---

(١) أورده المرزوقى فى كتابه « الأزمنة والأمكنة » - الباب الستون . وكذلك ابن الكلبى فى كتاب « الأصنام » ، والجاحظ فى كتاب « الحيوان » فى فصل نار الاحتيال .

ولو كانتْ هذه آلهةً لخوَّفته ومنعتْ نفسها .

وقف بعضُ المستشرقين عند هذه الآية ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ (٣٦)﴾ [الزمر] أى : بالأصنام ، وقالوا الأصنام : اللات والعُزَّى ومناة كلها أسماء مؤنثة ، فكيف يقول القرآن (بالذين) وهى للمذكر ولم يَقُلْ باللاتى ؟ ونقول : هناك فَرْقٌ بين اسم للصنم ومُسمَّاه ، يعنى : اسمه صنم . وهذا الصنم سُمِّىَ باللاَّت أو العُزَّى ، فمن حيث هو صنم يكون الجمع مذكراً ، ومن حيث المسمَّى مؤنثاً ، فالذين للاسم أى : للأصنام ، واللاتى للمسمَّى .

ونقف هنا عند هذه المقابلة فى قوله تعالى : ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٦) وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى انتِقَامٍ (٣٧)﴾ [الزمر] الضَّالُّ هو الذى لا يهتدى لغايته ، كالذى ضَلَّ الطريق لا يدرى أين يتجه ، هذا ضَالٌّ عن غير قصد للضلال لأنه لا يعرف .

وجاءت ضَالّ بمعنى متردد حائر ، فى قوله تعالى مُخاطباً نبيه محمداً ﷺ : ﴿وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَىٰ (٧)﴾ [الضحى] لأن النبى رأى أمته تفعل أشياء لا تعجبه ، وهو ما يزال لا يعرف الصواب الذى ينبغى فعْله ، أى : لا يعرف الحقيقة ، لا أنه يعرف ومنصرف عنها ، وفَرْقٌ بين الحالتين . إذن : الضلال هنا غير مقصود .

ويأتى الضلال بمعنى النسيان ، كما فى قوله تعالى :﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَىٰ (٢٨٢)﴾ [البقرة]

ومن الضلال أنْ ننسى العهد الفطرى القديم الذى أخذه الله علينا فى قوله سبحانه :﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِى آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ (١٧٢)﴾ [الأعراف]

ومقابل الضلال الهداية ، وهى أيضاً تأتى بمعَانٍ متعددة ، لكن الذين يتوركون على كلام الله ، ويريدون أنْ يعترضوا عليه يأخذونها على معنى واحد ، يديرونه على كل موضوعاتها ، لكن هذا لا يصح .

فالهداية تُطلَق على الدلالة المطلقة ، يعنى : يدلك وأنت حُرٌّ تطيعه أو تعرض عنه . وضربنا مثلاً لذلك برجل المرور الذى يُرشدك ويدلّك على الطريق ، بعدها أنت حر تسلك أو لا تسلك ، فإنْ سلكتَ الطريق الذى دلّك عليه وشكرته على معروفه ، وقلت له : كثر الله خيرك لولاك لَضللتُ الطريق ، فإنه ينظر إليك نظرة أخرى ، ويراك أهلاً للمزيد من الخير . فيقول لك : والله أنت رجل طيب ، وسوف أسير معك حتى تمرّ من هذه المنطقة لأن فيها أخطاراً ، وهذه تُسمَّى المعونة ، فالذى يؤمن بمَنْ هدى ودلَّ أهلٌ لأنْ يُعان ، وأنْ يُوفق للمزيد من الهداية .

وهذا معنى قول الله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧)﴾ [محمد] يعنى : زادهم بمعونتهم وتخفيف مشاقّ الطاعة عليهم ، وصَرْف أسباب الشر عنهم . إذن : فالأُولَى : هداية دلالة مطلقة . والثانية : هداية إعانة وتوفيق .

وهاتان الهدايتان أوضحهما الحق سبحانه فى خطابه لنبيه ﷺ ، فقال فى الأولى : ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِى إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٢)﴾ [الشورى] وقال فى الأخرى : ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَـٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَاءُ (٥٦)﴾ [القصص] فكيف يثبت الهدايةَ لرسول الله فى آية وينفيها فى آية أخرى ، والحديث واحد ، والفاعل واحد ؟

قالوا : لأن الجهة مُنفكة فالهداية المنفية غير الهداية المثبتة ، فالحق يقول لنبيه محمد : أنت مُبلِّغ ومُرشد ودَالٌّ فحسب ، لستَ

واضعَ مناهجَ وليست لك قدرة على أنْ ترغم الناس أنْ يؤمنوا ، إنما عليك أن تبلغ لأن بلاغك هو هداية الله للناس ، لكن ليستْ مهمتك أن تُدخِل الإيمانَ فى القلوب .

ومثلها قوله تعالى فى آية واحدة : ﴿ .. وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٦) يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. (٧) ﴾ [الروم]

هكذا أثبت لهم العلم ونفاه عنهم فى نفس الآية ، لماذا ؟ لأن الجهة مُنفكَّة ، فالعلم المنفىّ غير العلم المثبت .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٦) ﴾ [الزمر] يضلل الله يعنى : ينسبه للضلال يقول : هذا ضال . يعني : خارج عن الطريق الذى رسمته له ، هذا الذى حكم الله بأنه ضَالٌّ لا يمكن أنْ يصفه صاحب عقل بأنه مُهْتد . لأنه حين يعرض مطلوب الله منه وما يفعله يصل بالعقل الفطرى إلَى أنه ضال ، ليس بمهتدٍ .

فالحق سبحانه مثلاً قال لنا : اصدقوا فى حديثكم . ونهانا عن الكذب ، فماذا يقول العاقل حين يقارن بين الصدق والكذب ؟ لابد أنْ يقول : الصدق هداية ، والكذب ضلال لا يستطيع أنْ يقول غير ذلك ، خاصة إذا جعل الأمر فى نفسه هو : أتحب أنْ يصدُقَ الناسُ معك ، أم أنْ يكذبوا عليك ؟

إذن : فمَنْ يُضلل الله ويحكم بأنه ضَالٌّ بعد أنْ بيَّن له الطريق لا يقدر أحد أنْ يصفه بالهدى ، لأن هداية الله أمرٌ تتفق فيه كل العقول الفطرية ، خصوصاً إذا مسَّك أنت عاقبة هذا الضلال واكتويتَ بناره .

لذلك تجد الكذاب يحب الصادق ، والشرير يحب الخيِّر الشريف وضربنا مثلاً لذلك بثلاثة من الشباب بالمراهقين الذين يسيرون فى الحياة على (حَلِّ شعرهم) ، ويسلكون الطريق البطال ، واحد منهم تاب الله عليه واعتزلهم ، فراحوا يسخرون منه ويصفونه بالجردل

والقفل .. الخ . ثم أراد واحد منهما أنْ يزوج أخته ، لمن يُزوجها لزميله الذى يوافقه على الشر والفساد ، أم للآخر الذى تاب واعتزل شرهم ؟ إذن : قد يُغريك الباطل ، لكن لا بُدَّ فى النهاية أنْ يغلب الحق ، وأنْ يظهر ويعلو ، ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى انتِقَامٍ (٣٧) ﴾ [الزمر] فاصبر على طريقه .

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ (٣٨) ﴾

أراد الحق سبحانه أنْ يُسفِّه أحلامهم فى أنْ يعبدوا أصناماً ، وأراد سبحانه أنْ يقيم عليهم الدليل والحجة على بطلان هذه العبادة ، وأنْ يكون هذا الدليلُ إقراراً منهم لا خبراً منه سبحانه ، وقلنا : إن إثبات الحكم إما أن يكون خبراً منك ، أو إقراراً من المقابل . والإقرار – كما قلنا – سيد الأدلة ، وأنت لا تترك للمخاطب أنْ يحكم هو إلا إذا كنت واثقاً أنه سيقول ما تريده أنت ، كما تقول لمن ينكر جميلك : ألم أُحْسن إليك يوم كذا وكذا ؟ لا تقولها إلا وأنت واثقٌ أنه لا يستطيع أنْ ينكر .

لذلك فالحق سبحانه يسألهم هنا عن عمدة الكون فى الخَلْق أو الظرف الأعلى الذى يحوى المخلوقات كلها وهو السموات والأرض ، فالإنسان خُلق له الكون قبل أنْ يُخلق ، فطرأ على أرض فيها زرع ونبات وماء وهواء وتربة صالحة ، وطرأ على سماء فيها الكواكب والنجوم والشمس والقمر .

فقال سبحانه : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ.. (٣٨) ﴾ [الزمر] لا بدّ أنْ يقولوا الله ، والله وحده لأنهم أداروا فكرهم فلم يجدوا أحداً ادعى هذا الخَلْق ، ولم يأت ببال أحد من الكافرين أو المعاندين أو المنكرين لوجود الله لم يأت على باله أنْ يدّعى هذا الادعاء .

ولو تتبعنا خَلْق الإنسان من لَدُنْ آدم عليه السلام ومَنْ جاء من ذريته نجده طرأ على هذا الكون بسمائه وأرضه ، فلو سألناه : أأنت خلقت السماء والأرض ؟ لا يستطيع أنْ يقول : أنا خلقتهما .

فاسألهم أنت يا محمد هذا السؤال : ﴿ مَّنْ خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ (٣٨) ﴾ [الزمر] ولابدّ أنْ يقولوا (الله) لأنه ما مرّت فترة على موجود ليس فى وجوده أرض وسماء ، حتى يُقال إنه أوجدها لما جاء ، بل الجميع طارىء على هذا الكون .

ومثلها تماماً : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ (٨٧) ﴾ [الزخرف] لأن أول مخلوق خُلِق وأُوجد لا يستطيع أحد أنْ يقول له : أنا خلقتك ، ولا يقدر هو أنْ يقول خلقتُ نفسى .

وقولهم فى الجواب هنا (الله) يلفتنا إلى مسألة أخرى ، فالله لفظ دائر على ألسنتهم ويفهمون مدلوله وإلا ما نطقوا به ، ذلك لأن المعانى تُوجَد أولاً ، ثم تُوضع لها الألفاظ التى تدلّ عليها ، ومثَّلْنا لذلك (بالتليفزيون) مثلاً ، فقبل أنْ يوجد ما كنّا نعرف هذا الاسم ، لكن لما وُجِد وضعنا له الاسم ، إذن : كلمة الله كيف دخلتْ لغة الناس ؟

إذن : فلفظ الجلالة الله له مدلوله ، وهو الحق سبحانه موجود قبل أنْ يُوجد هذا اللفظ . لذلك نقول لمن ينكر وجودَ الله تعالى : كلامك متناقض ، فقولك الله غير موجود لا يستقيم ، لأن الله مبتدأ

محكومٌ عليه وغير موجود خبر محكوم به ، فكيف تقول إنه غير موجود ، والمعنى يُوجد قبل لفظه ؟

وكلمة الله ما وُجِدَتْ فى لغة إلا لأنه سبحانه موجود ، موجود قبل الاسم ونحن ما عرفنا الاسم إلا لما أخبرنا به صاحبه ؛ لأن عمل العقل فى الإيمان أنْ يدلَّك على أن وراء هذا الكون خالقاً أوجده ، لكن ما هذه القوة ؟ وماذا تريد من الخَلْق ؟ هذه ليستْ مهمة العقل ، فالعقل لا يصل إليها ، إنما نعرفها بالبلاغ عن هذا الخالق .

تذكرون أننا مثَّلنا هذه المسألة قلنا : نحن مثلاً جالسون فى منزل ثم دقَّ جرس الباب ، ساعة سمعنا الجرس اتفقنا جميعاً على أن أحداً بالباب ، لأن كل حدث لا بُدَّ أنّ له محدثاً ، لكن مَنْ هو ؟ ماذا يريد ؟ لا نعرف إلا إذا أخبرنا هو بماهيته وقال : أنا فلان ، وأريد كذا وكذا .

إذن : فالعقل بالنسبة للوجود الأعلى لا يدرك مُشخَّصات الوجود الأعلى ، إنما فقط يؤمن بوجوده ويستدل عليه ، وهو سبحانه يخبرنا باسمه وصفاته ومنهجه ومطلوباته ، فالبلاغ لا بُدَّ أنْ يكون من صاحب الشأن .

ومن خيبة الفلاسفة فى البحث أنهم أرادوا أنْ يُدخلوا العقل لا فى المعقول فقط ، إنما فى تصور المعقول ، والتصور ليس مهمتهم لأنك لا تستطيع أنْ تتصوَّر شكلَ هذا المعقول ، أنت تعقل الموجود فقط ثم تترك للوجود أنْ يتكلم عن نفسه .

لذلك (نقفشهم) حينما يقولون فى العلوم : علوم مادية وعلوم وراء المادة ، وهى التى يسمونها (الميتافيزيقا) ، ومَنْ أعلمك أن وراء المادة شيئاً يُبحث عنه ؟ والقضية أنه لا يوجد شىء إلا بشىء إلى أن

نعرف هذا الشىء ، فإن لم يستدرك عليه شىء آخر يثبت له .

فالحق سبحانه قال وأخبر أنه هو الذى خلق هذا الخَلْق ، فهذا الوجود لا يوجد إلا إذا أوجده واجد وأنا الذى أوجدته ، ولم يَقُم لهذه الدَّعْوى معارض إذن : تثبت الدعوى لصاحبها إلى أنْ يُوجدَ معارض .

لذلك سبق أنْ قلنا : إن كلمة الكفر هى نفسها دليلُ الإيمان ، لأن الكفر معناه الستر ، ولا يستر إلا موجود ، فكأن الكفر طارىء على الإيمان ، كأن الأصل فى الفطرة السليمة الإيمان ، ثم طرأ عليه الكفر ليستره .

وبعد أنْ قالوا (الله) وأقروا الحجة الأولى فى أنه سبحانه خالق السموات والأرض قال لهم ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ.. (٣٨)﴾ [الزمر] يعنى : أخبرونى فأمَّنهم أنْ يقولوا هم وأنْ يخبروا عن الذين يدعونهم من دون الله أى الأصنام ﴿إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ.. (٣٨)﴾ [الزمر] أى : الأصنام ﴿كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ.. (٣٨)﴾ [الزمر] الجواب لا يكون إلا بالنفى ، لأن الأصنام أولاً لا تسمع ضراعة مَنْ يتضرع لها ، ولا يدركون مطلوبه ، فكيف يجيبونه فى كشف الضر عنه ؟

وفى المقابل : ﴿أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ.. (٣٨)﴾ [الزمر] أى : الأصنام ﴿مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ (٣٨)﴾ [الزمر] الجواب أيضاً بالنفى ، إذن : ثبت النفع لله بإقرارهم ، وثبت البطلان لآلهتهم ، لكن إنْ تلجلجوا بعد ذلك فلم يجيبوك لأن الجواب سيلزمهم الحجة فَقُلْ : ﴿حَسْبِيَ اللَّهُ .. (٣٨)﴾ [الزمر] أى : فى إيجاد النافع فى خَلْق السموات والأرض ، وحَسْبى الله فى دفع الضر عنى ، فهو يكفينى .

وهذا معنى قوله تعالى فى الآية السابقة : ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ (٣٦)﴾ [الزمر] كافيه يعنى : يعطيه النعمة نعمة الوجود أولاً ، ثم نعمة امتداد هذا الوجود واستبقاء الحياة ، ثم نعمة استبقاء النوع ، وبعد

ذلك يرفع عنه الضر إنْ أصابه ونزل به ، والإنسان إذا مسَّه الضر فى نفسه لا يتجه إلى إله باطل أبداً ، لأنه لا يخدع نفسه ولا يكذب عليها ، لذلك قال سبحانه :﴿ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ (٦٧)﴾ [الإسراء]

وقوله : ﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ (٣٨)﴾ [الزمر] هنا أسلوب قَصْر ، يقصر التوكل على الله وحده ، وهذا هو التوكل الحقيقى ؛ لأن المتوكل على شىء يجعل لقوته رصيداً إذا ذهبتْ هذه القوة ، لذلك فالعاقل هو الذى يتوكل على مَنْ يغيثه ويُعينه وإذا احتاج إليه وجده ، وقلنا : خاب مَنْ توكل على مثله لأنك تتوكل عليه ، وتأمل عنده قضاء حاجاتك ، وبعد أيام تقرأ نَعْيه فى الجرائد ، لذلك يُعلمنا ربنا سبحانه كيف نتوكل ، فيقول : ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِى لا يَمُوتُ (٥٨)﴾ [الفرقان]

وفرْق بين التوكل والتواكل ؛ لأن يد الله مُدَّتْ قديماً بالأسباب للخَلْق ، أسباب استبقاء الحياة بالطعام والشراب ، وأسباب استبقاء النوع بالتزاوج .

الحق سبحانه حينما ضمن لنا هذه الأسباب جعل لنا دوراً فيها ، فالأرض مثلاً أمامك ، والشمس تشرق عليها ، والهواء يهبُّ عليها ، والمطر يسقيها ، وعليك أنت أنْ تستغلَّ هذه الأسباب بأنْ تحرثَ الأرضَ وتبذر البذور وترعاها لتعطيك الأرض من خيراتها ، ولا تنتظر أنْ تجلس فى بيتك والأسباب تأتيك بالطعام تضعه على مائدتك ؛ لأن ربك خلقك وخلق لك الجوارح ، وجعلها تنفعل لإرادتك فيدُكَ يمكن أن تضرب بها ، ويمكن أن تمسح بها على رأس يتيم ، لسانك يمكن أنْ تنطق به كلمة التوحيد ، ويمكن أنْ تنطق به ما ينافيها .

لكن تذكَّر أن جوارحك خاضعة لمرادك فى الدنيا فقط ، أما فى الآخرة فلا ولاية لك عليها ، لأنها ستكون فى ولاية خالقها ، يوم

يقول سبحانه : ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ (١٦)﴾ [غافر] وعندها تتحرر جوارحك من ولايتك وتشهد عليك : ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤)﴾ [النور]

هذه الأسباب وهذه الجوارح التى خلقها الله لك ما خلقها لتعطلها أنت ، فإنْ كان العمل فى إمكانك وطلبته من غيرك ، فهذا هو التواكل ، أنْ تهمل أسباب الله وتغفل عن هذه المملكة التى جعلها الله تدين لك وتطاوعك ، وتأتمر بأمرك لمجرد الإرادة ، هذه عزة متَّعكَ الله بها فى ذاتك ، فكيف تذلّ نفسك بالتوكل على مثلك ؟ وكيف ترد يد الله الممدودة إليك ؟

فإنْ أخذتَ بالأسباب ، وأعملتَ عقلك وجوارحك فيما أعطاه اللهُ لك فأنت متوكل ، وحقيقة التوكل أنْ تعمل بالجوارح وتتوكل على الله بالقلب ، وتوقَّع أنْ يصيبك الابتلاء فتعمل وتأخذ بالأسباب ولا تعطيك، كالذى يزرع الأرض وتأتى جائحة فتقضى على المحصول مثلاً .

﴿قُلْ يَٰقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٩) مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (٤٠)﴾

هنا تأمل هذا النداء : ﴿يَٰقَوْمِ (٣٩)﴾ [الزمر] فبعد عنادهم وإصرارهم على باطلهم وعدم قبولهم للحجج والبراهين ما يزال الحق سبحانه يتحنَّن إليهم ، فيأمر رسوله ﷺ أنْ يناديهم بهذا النداء الحبيب : (يا قوم) يعنى : أنا لستُ غريباً عنكم ، وأنتم أهلى وعشيرتى التى أعيشُ بينها .

لما دعاهم رسول الله فلم يستجيبوا ولم تفلح معهم الحجج والبراهين التى تثبت بطلان عبادتهم للأصنام ، أمره ربه أنْ يقول

لهم : ﴿ يَـٰقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ .. (٣٩) ﴾ [الزمر] معنى : اعملوا على مكانتكم كما تقول لمن لم يستجب لك : اعمل ما بدا لك . أو (أعلى ما فى خيلك اركبه) .

فالمعنى : اعملوا على مكانتكم . يعنى : خذوا كلّ إمكانياتكم ضدى . لماذا ؟ لأنه متوكل على ربِّه وهو كافيه ، فهو لا يقولها مجازفةً ولا استكباراً ، إنما يقولها برصيد من قوله تعالى : ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ (٣٦) ﴾ [الزمر]

وكلمة ﴿ مَكَانَتِكُمْ (٣٩) ﴾ [الزمر] عندنا مكان ومكانة ، المكان هو : الحيز الذى يشغله الشىء . والمكين هو : الذى يشغل المكان ، فالكوب مثلاً مكان والماء فيه مكين ، فأنت ذاتك لك مكان تشغله حتى لو اضطهدك أحدٌ فأخرجك منه لا بُدَّ أنْ يذهب بك إلى مكان آخر .

فإذا اتسع بك هذا المكان وصارتْ لك سلطة على مكان أوسع منه لك فيه سلطان وأمر ونهى فهذه مكانة ، فيقال لمن اتَّسع جاهه وسلطانه : له مكانة . فالتاء الزائدة هنا يسمونها تاء المبالغة . كما نقول فى المبالغة فى العلم عالم وعلاَّم وعلاَّمة . فكلمة علاَّمة هى قمة العلم وتُقال لمن بلغ فى مجاله مبلغاً بحيث لا يخفى عليه منه شىء .

فإنْ قلتَ : فلماذا وصف الحق نفسه سبحانه بعلاَّم ، ولم يُوصَف بعلامة ؟ نقول : لأن علم الله تعالى لا تفاوتَ فيه ، ليس فيه جزئى وكلى ، فلا يُوصف الحق سبحانه بهذه الصفة .

ومن المكانة قوله تعالى فى قصة سيدنا يوسف عليه السلام : ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ (٥٦) ﴾ [يوسف] أى : لم نجعل له مكاناً ، إنما جعلنا له مكانة وسلطاناً واسعاً ينقله هنا وهناك حيث يشاء ، والإنسان يكون له مكان فتأتى قوة تُمكِّنه فى

المكان ، كما في قصة سيدنا يوسف عليه السلام ، وقد يكون له المكان فتأتى قوة فتُزيله عنه كما أخذنى ورمانى فى زنزانة.

سبق أنْ قلنا : إن في اللغة همزة تسمى همزة الإزالة ، إذا دخلتْ على فعل تزيله ، كما تقول : أعجم الكلام ، يعنى : أزال عُجْمته وأبان معناه ، ومن ذلك قول رسول الله فى مناجاته لربه : « لك العُتْبى حتى ترضى »[1] يعني : إن كان حصل منى شىء يغضبك فأنا أُزيل عتابك علىَّ حتى أبلغ رضاك عنى . ونقول : عتب فلانٌ على فلان فأعتبه يعنى : أزال عتابه بأنْ يعتذر له أو يصالحه ، لأن العتب لوْم على شىء ما كان يصح بين المحبين ؛ ومن ذلك قوله تعالى فى الكلمة التى معنا (المكانة) :﴿ وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ ﴾ [الأنفال]

فمعنى (أمكن منهم) يعنى : أزال مكانهم ، ونقول : فلان تمكن من فلان . يعنى : قدر عليه وأزاله عن مكانه أو مكانته .

إذن : فكلمة المكانة هى ما لك عليه سلطانٌ وولاية تُعينك على مرادك ، فالمكان إذا بالغتَ فيه فهو مكانة والتاء للمبالغة ، وتأتى أيضاً للجاه ينبسط على ما لا يدخل فى ملْك تصرفاً ، وإنما يدخل فى ملك مهابة ؛ لذلك لما قُتل مالك[2] قالوا : مالك كان يحمى مواقع السحاب . يعنى : أينما تمرّ السَحابة وتمطر فمطرها يحميه مالك ، بحيث لا يعتدى عليه أحد ، وما كان هذا إلا لمكانته فى القوم فحمى مواقع السحاب فى غير بلاده .

---

(١) أورده ابن هشام فى السيرة النبوية فى كلامه عن رحلة الرسول ﷺ إلى الطائف لدعوة أهلها ، فتسافهوا عليه وأدموا قدميه ، فلما أوى إلى أحد البساتين رفع يديه وقال : « اللهم إليك أشكو ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس ، يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربى، إلى من تكلنى ؟ إلى بعيد يتجهمنى ؟ أم إلى عدو ملكته أمرى ؟ إلى آخر الدعاء .

(٢) ورد هذا الخبر فى العقد الفريد لابن عبد ربه ، وخزانة الأدب لعبد القادر البغدادى ، ونهاية الأرب للنويرى . وعندهم جميعاً أنه كليب بن ربيعة .

وقوله : ﴿إِنِّي عَامِلٌ (٣٩)﴾ [الزمر] يعنى : أنتم اعملوا على مكانتكم واستطاعتكم فى العناد والاضطهاد والإيذاء ، فأنا عامل على مكانتى من الدعوة والنُّصْح لكم والحرص على هدايتكم ، فهذه رسالتى ولن أتخلّى عنها ، وسوف أبالغ فى نَشْرها وأتحمل اضطهادكم لى ولأصحابى ، ولن يُثنينى شىء عن مرادى .

وقوله : ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٩)﴾ [الزمر] المعلوم هنا : ﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ (٤٠)﴾ [الزمر] أى فى الدنيا ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (٤٠)﴾ [الزمر] أى : فى الآخرة ، وتأمل هنا كلمة سوف التى تدل على الاستقبال ، فلم يَقُلْ حالاً الآن ، لأن الإسلام بدأ غريباً وانتشر أول ما انتشر بين الضعفاء والعبيد الذين اضطهدوا وماتوا وأُوذُوا وأُخْرجوا من ديارهم وأموالهم فى سبيل دعوة الحق .

فأراد الحق سبحانه أن يُمحِّصَ أهل الإيمان الذين يحملون هذه الدعوة ، وأنْ يُميز منهم ضعافَ العقيدة ، وينفى عنهم أهل الخور والنفاق الذين لا يصلحون لحمل هذه الرسالة ، لذلك كان الوحى كل فترة ينزل على رسول الله بأمر عزيز ، وكلما نزل أمر من هذه الأمور نفى بعضهم حتى لم يَبْقَ حول رسول الله إلا صِحَاح الإيمان أقوياء العقيدة .

وفى هذه الآية تهديدٌ من رسول الله للقوم المكذِّبين بأحداث سوف تأتى ، هذا التهديد دليلٌ على ثقته ﷺ بأن مَنْ أوحى إليه بهذا التهديد قادرٌ على أنْ يُبرزه كما أخبر به ، وإلا لما قاله رسول الله ، لأن الزمن سيكشف صدق هذا التهديد أو عدم صدقه .

كذلك الأمر فى الوعد يخبر به رسول الله قبل أوانه ، واقرأ هذا الوعد مثلاً : ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥)﴾ [القمر] هذا وَعْد من

الله للمؤمنين جاء فى أشد وأحلك الظروف وهم مضطهدون لا يستطيعون حمايةَ أنفسهم ، لذلك لما نزلتْ هذه الآية قال عمر رضى الله عنه : أىّ جمع هذا ونحن غير قادرين على حماية أنفسنا ؟ فلما رآها فى بدر قال : صدق ربى وصدق رسوله ، وهذا الوعد لا يطعن فى الدعوة إنما يريد أنْ يؤكدها . إذن : صِدْق فى الوعد ، وصدق فى الوعيد .

وقلنا : إن صدق الرسول فى أمور تتعلق بأمته شىء ، وصدقه فيما يتعلق بذاته شىء آخر ، صدقه فيما يتعلق بذاته آكد ، وذكرنا قصة المرأة التى أسلمتْ حينما قرأتْ تفسير قوله تعالى لرسوله : ﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ (٦٧) ﴾ [المائدة] فلما أعطاه ربه الأمان وأنه لن يُغتال من جانب الناس صرف ﷺ حُراسه ولم يُبْق عليهم مع هذا الوعد [(١)] ، فوقفتْ هذه المرأة وقفةً عقلية وقالت : لو أنه خدع الناس جميعاً ما خدع نفسه ، إذن : هذه ثقة من رسول الله بوعد الله .

وقوله تعالى : ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٩) ﴾ [الزمر] ولم يقل ترون أو تنظرون ؛ لأن العلم أوسع وأعمّ من النظر ، فالأحداث التى ستأتى ربما تكون بعيدة من مَرْآهم تَحدث فى أماكن أخرى يراها البعض ولا يراها البعض ، أما العلم فينقل إليك ما تقع عليه جوارحك ، وما تقع عليه جوارح الآخرين .

---

(١) أخرج الطبرى فى تفسيره للآية ٦٧ من سورة المائدة من حديث عائشة رضى الله عنها : كان النبى ﷺ يُحرس حتى نزلت هذه الآية : ﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ (٦٧) ﴾ [المائدة] . قالت : فأخرج النبى ﷺ رأسه من القبة ، فقال : « أيها الناس انصرفوا ، فإن الله قد عصمنى » . [حديث رقم ٩٦٦١] .

إذن : بالعلم تأخذ علم الغير ، أنت حينما ترى وتعقل تهتدى إلى الحكم بتصوّر العقل ، وبالعلم تستفيد بما عقله الآخرون . إذن : فالعلم أوسع دائرةً من معطيات العقل والجوارح .

وقوله : ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [الزمر] كلمة مقيم جاءت لترد على كلام سبق أنْ قالوه هم ، لأن الحروب عندهم كانت تستمر طويلاً حتى أربعين سنة ، وتكون بينهم سجالاً يوم لك ويوم عليك ، فربما ظنوا العذاب كذلك فترة وتنتهى ، فأراد أنْ يؤكد لهم أن العذاب إذا حلَّ بهم فليس فيه سجال كسجال الحرب ، إنما هو مقيم دائم .

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾﴾

نلاحظ أن الحق سبحانه وتعالى مرة يتحدث عن ذاته سبحانه بضمير الجمع (إنَّا) ومرة بالمفرد (إنى) أو (إننى) ، فإنْ كان الكلام فى قضية التوحيد جاء بالضمير المفرد كما فى قوله سبحانه لسيدنا موسى : ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ ﴿١٤﴾﴾ [طه] لأنه يريد أنْ يقرر قضية التوحيد ، ويؤكد سبحانه أنه إله واحد لا شريك له . فإنْ كان الكلام عن أمر لله فيه عمل و لخلفائه فى الأرض عمل يأتى بالجمع كما هنا ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ ﴿٤١﴾﴾ [الزمر]

وتأملوا حرف الجر فى (عليك) وفى (للناس) فلحروف الجر فى اللغة معَان واسعة ، كلمة (عليك) تدلُّ على أننى أحملك المسئولية أمَّا اللَّام فى (للناس) فتدلّ على النفع لهم ، كما نقول

فى الحسابات: له ، عليه ، فله تعطى نَفْعاً وعليه تعطى تبعات .

فكأن الحق سبحانه يقول : يا قوم يا مَنْ تسمعون لدعوة محمد اعلموا أنها لصالحكم وتعود عليكم بالنفع والغنيمة ، فقد أنزلنا عليه حملاً ثقيلاً سيتعبه فى ذاته وفى أهله ، وسيُعرِّضه للسخرية والإيذاء والتآمر .. الخ .

فالكتاب نزل عليك يا محمد بتبعاته ومسئولياته ، فتحمله وكُنْ من أولى العزم من الرسل الذين سبقوك ، مع أنهم أخذوا حيِّزاً محدوداً فى الزمان وفى المكان ، أما أنت فأخذتَ حيِّزاً غير محدود ، لا فى الزمان ولا فى المكان ، فحين تتحمّل المشاق فى سبيل دعوتك ، فاعلم أنك ستتحمل من الشدائد على قدر عموم رسالتك .

إذن : فدعوة الإسلام خيرها لكم ومتاعبها يتحملها رسول الله ، هذا معنى ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ (٤١)﴾ [الزمر] أى : فى صالحهم .

وحين نُوسع الحروف ونقف على معانيها نأخذ مثلاً قوله تعالى فى أول سورة البقرة : ﴿أُولَـٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ (٥)﴾ [البقرة]

فالمؤمنون على الهدى ، و (على) تفيد الاستعلاء وكأنه مطيّة تحملهم وتريحهم لا تتعبهم وتُوصِّلهم إلى غايتهم ، هكذا جاء الهدى ليريح الناس ويحملهم إلى أشرف الغايات ، فالزموه لأنه ما جاء ليُحملكم ما لا تطيقون ، إنما جاء ليخدمكم .

وقوله سبحانه : ﴿بِالْحَقِّ (٤١)﴾ [الزمر] الحق هو الشىء الثابت الذى لا يتغير ، والحق يَعنى وضع الشىء فى موضعه ، فإذا زحزحتهُ عن موضعه فأنا الطارىء عليه ، والحق لا بُدَّ أنْ يعود إلى

موضعه مرة أخرى ، وإنما هى ابتلاءات واختبارات لنُمحِّص جنود الحق لتكون عندهم الأهلية لأنْ يحملوا الدعوة إلى أنْ تقوم الساعة .

والحق سبحانه يعلمنا : إنْ رأيتَ الباطل علا وارتفع فخُذْ لك واقعة ، وخُذْ لك عبرةً من الأشياء المحسَّة التى تقع تحت بصرك فى أصل الحياة وهو الماء ، فالماء ينزل من السماء على قمم الجبال فيأخذ معه إلى الوديان القش والحصى والزبد ، فتتكون طبقة من الريم تعلو الماء وهى حقيرة لا قيمةَ لها حتى إذا ما هبَّتْ الرياح أزاحتْ هذا الزبد هنا وهناك وبقيتْ صفحة الماء نظيفة ناصعة ، هكذا يكون علو الباطل عُلواً مؤقتاً ، وسرعان ما يعود الحق إلى نصابه .

والحق سبحانه ما سمح للباطل بأنْ يعلوَ إلا يظهر للناس ميزة الحق ، فحين يُعضّ الناسُ بالباطل ، وحين يؤلمهم يضجون منه ويشتاقون للحق ، فكأن الباطل جندٌ من جنود الحق .

وقوله سبحانه : ﴿فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ ﴿٤١﴾﴾ [الزمر] أى : لصالحها ، لأن المشرع سبحانه حين شرع لنا وبعث لنا الرسل وأنزل الكتب ما انتفع من ذلك بشىء ، وهو سبحانه لا تنفعه طاعة ولا تضره معصية ، لأنه بصفات الكمال المطلق أوجدك ، بل وأوجد لك قبل أنْ يستدعيك للوجود ، فبصفة الكمال فيه خلق ، فهو سبحانه خالق قبل أنْ يخلق شيئاً ، كما تقول : فلان شاعر ، يعنى : شاعر قبل أنْ تسمع منه شعراً ، لأنه ما قال الشعر إلا لأنه شاعر .

إذن : الحق سبحانه لا ينتفع من عبادة الناس بشىء ، والفائدة كلها تعود عليهم هم ، لأنهم صنعته ، والصانع يريد لصنعته أنْ تكون على ما يرام وعلى خير حال من بدايتها إلى نهايتها إليه سبحانه .

وما دام الشرع والمنهج جاء لصالح البشر ، فمَن اهتدى فالهداية تعود إليه ، ومَنْ ضلَّ فضلاله عليه ﴿فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا (٤١)﴾ [الزمر] وتأمل هنا أيضاً معنى حرف الجر فى ﴿فَلِنَفْسِهِ (٤١)﴾ [الزمر] وحرف الجر (عليها) ، فنَفْع الهداية لك ، وضرر المعصية عليك .

وقوله : ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ (٤١)﴾ [الزمر] أى : ما أنت يا محمد، عليهم بوكيل ، والوكيل هو مَنْ يكون حُرَّ التصرف فيمن وكل عنهم ، بحيث يستطيع أنْ يجبرهم ، وأن يحملهم على ما يريد هو .

والحق سبحانه وتعالى ما أراد لنبيه ﷺ ذلك كما قال سبحانه فى موضع آخر : ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ (٤٥)﴾ [ق] إنما أراد له أنْ يكون داعياً بالحسنى ، بحيث يأتى إليه الناس بالحب طواعيةً ، ولو شاء لجعلهم كالملائكة وطبعهم على الطاعة .

لذلك الكون الذى رضى أنْ يأتمر بأمر الله بدون اختيار له فى شىء كان حكيماً واعياً ؛ لأن المتحمل قد يضمن نفسه ساعة التحمل ، لكن لا يضمن نفسه ساعة الأداء ، والفارق بين مسلك الناس فى الأمور أنهم يختلفون فى إدراك المسئولية ساعة التحمل وساعة الأداء ، وكل فساد بين الناس فى التعامل إنما منشؤه هذه المسألة .

وسبق أنْ مثّلنا لذلك بالأمانة أودعها عندك لحين عودتى مثلاً من السفر فتقبلها عندك ، وحين أعود لا أجدها ، فقد يطرأ عليك من الظروف ما يجعلك تتصرَّف فيها ، وهنا تظهر حكمة الجمادات التى أبتْ أنْ تتحمل الأمانة ، كما فى قوله تعالى : ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا (٧٢)﴾ [الأحزاب]

وقوله سبحانه : ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ (٤١)﴾ [الزمر] فيه تسليةٌ لسيدنا رسول الله ﷺ فكأنّ ربه يقول له : لا تُتعب نفسك ، ولا تُحملها فوق طاقتها ، فما عليك إلا البلاغ ، فإنْ نالك شيء من أذاهم فاعلم أنه لا يُنقص من مكانتك عندهم ، فأنت عندهم الصادق الأمين ، وهم يعلمون أنك على الحق ، ومنزلتك عندهم كبيرة ، ورأيهم فيك من أحسن الآراء ، فلا تحزن لقولهم فيك : شاعر وساحر ومجنون : ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَـٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٣٣)﴾ [الأنعام]

فكأنَّ الحق سبحانه جعل المسألة عنده سبحانه وأعفى منها رسول الله ، فأنت يا محمد لا غبارَ عليك ، وما كذبك المكذِّبون الظالمون إلا لأنهم جحدوا بآياتي .

﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٤٢)﴾

سبق أنْ قلنا : إن أحداً لم يشهد عملية الخَلْق لأن الخالق سبحانه لم يستعنْ بأحد كما قال سبحانه : ﴿مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا (٥١)﴾ [الكهف]

إذن : كيفية الخَلْق لا يعرفها أحدٌ ، ولولا أن الخالق أخبرنا بها لَظلَّتْ غيباً ، فإنْ أردتَ أنْ تعرف كيفية الخَلْق فخُذْها من خبر مَنْ خلق ، وإن ادَّعَى أحد معرفتها من غير هذا الطريق ، فاعلم أنه من

المضلين الذين أخبَر الله عنهم ، وسمَّاهم مضلين قبل أن يُوجدوا ، وأىُّ ضلال أعظم من القول بأن الإنسان فى أصله قرد وتطوَّر ؟

فكأن الحق سبحانه يعطى لخَلْقه المناعة التى تحميهم من هجمات أهل الضلال ، فيخبرهم بأمرهم أولاً ويُحذِّرهم منهم ، يعنى : تنبَّهوا فسوف يخرج عليكم أناس فى ثوب علماء أو فلاسفة يقول خُلِق الإنسان كذا وكذا فلا تُصدِّقوهم لأنهم ما شهدوا عملية الخَلْق .

والحق سبحانه وتعالى حين يطرح قضية عقدية للعقول فيها عمل ، لكن قد تقف العقول فى أشياء منها يكمل ما تقف فيه العقول بالسماع ، السماع مِمَّنْ ؟ ممن اعتقدتَ به بعقلك ، إذن : ليس بالضرورة أن يقتنع عقلك بكل شىء إنما يترك لك مسائلَ لا تقتنع بها إلا لأنها خبر ممَّنْ اقتنعت به .

لذلك قلنا فى أول سورة (يس) : إن المسائل كلها عقائد وأمور لسانية وأمور أحكام ، كل منها تأخذ العمل العقلى والعمل الغيبى ، لكن العمل الغيبى دليله من العمل العقلى .

الحق سبحانه وتعالى حينما أخبرنا عن قصة الخلق قال : إن الإنسان خُلِقَ من تراب اختلط بالماء فصار طيناً ، ثم صار هذا الطين حمأ مسنوناً ، ثم صار الحمأ المسنون صلصالاً كالفخار ، ثم نفخ فيه الحق سبحانه من روحه فدبَّتْ فيه الحياة وتحرك .

هذه أطوار الخَلْق التى أخبرنا بها الخالق سبحانه ونحن لم نرها ، لكن أوجد فى مُحسَّاتنا وفى مُدركاتنا ما يؤدى الصدق بهذه المراحل ، وعلينا نحن أنْ نأخذ مما نشاهده دليلاً على صدق ما غاب عنَّا . كيف ؟

الخالق سبحانه كما خلق الحياة خلق الموت ، ولما أخبرنا بهما جعل الموت أولاً فقال : ﴿الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ ۝٢﴾ [الملك]

وقدَّم الموت حتى لا نستقبل الحياةَ ببطر وغرور ، إنما نستقبلها ونحن نعلم أننا صائرون إلى الموت ، منتهون إليه . ويجب أنْ نعلم أن الدنيا بالنسبة للإنسان ليست هى بطولها من لدن آدم حتى قيام الساعة ، إنما الدنيا بالنسبة لك هى مقدار مُكْثك فيها ، وحتى هذا العمر مظنون وليس مضموناً ، فمن الناس مَنْ يولد ويموت بعد لحظة ، وآخر بعد شهور ، وآخر بعد سنين .

لذلك قال أحد الصالحين : وعلمت أن لى أجلاً يبادرنى فبادرته ، وعلمتُ أنى لا أخلو من نظر الله طرفةَ عَين فاستحييت أنْ أعصيه ، وعلمتُ أن لى رزقاً لا يتجاوزنى وقد ضمنه الله لى فقنعتُ به ، فهكذا ينبغى أن يكون أسلوبك فى الحياة ، فأنت فيها ضيف لستَ أصيلاً .

لذلك قال أهل المعرفة : اجعل شكرك لمن لا تنقطع نعمه عنك – الذى يُواليك بالنعم كل يوم – واجعل طاعتك لمن لا تستغنى عنه طرفةَ عين ، واجعل خضوعك لمَنْ لا تخرج عن ملكه وسلطانه .. هذه أصول يجب أنْ نسير عليها ، ومبدأ نلتزم به . والموت كما قلنا نقيض الحياة ، فإذا لم نكُنْ قد شاهدنا مراحل الخَلْق فقد شاهدنا بالتأكيد مراحل الموت ، فخُذْ من هذا دليلاً على هذا .

تعلمون أن نقضَ أىِّ بناء يكون على عكس بنائه ، فلو أردنا مثلاً هدم عمارة من عشرة أدوار ، فإننا نبدأ بهدم الدور العاشر وننتهى بالدور الأول ، على عكس البناء ، كذلك الموت يبدأ بخروج الروح ، وهى آخر شىء فى عملية الخَلْق ، ثم يتصلب الجسد ، فيكون أشبهَ

بالصلصال ، ثم يرمّ وتتغير رائحته مثل الحمأ المسنون ثم يتحلل ويعود إلى الطين والتراب .

إذن : إنْ كانت عملية الخَلْق غيباً عنا كما قال سبحانه : ﴿مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ (٥١)﴾ [الكهف] فعملية الموت شاهدناها .

وقوله تعالى : ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا (٤٢)﴾ [الزمر] الأنفس جمع النفس ، والنفس هى مجموع التقاء مادة الجسد بالروح ، بحيث تنشأ منهما الأغيار الموجودة فى الجوارح ، فالمادة وحدها لا تُسمَّى نفساً ، والروح وحدها لا تُسمَّى نفساً .

ومعنى ﴿يَتَوَفَّى الأَنفُسَ (٤٢)﴾ [الزمر] أى : يقبضها إليه سبحانه . وتوفِّى الأنفس له ظاهرتان : النوم والموت ، ففى النوم يسلب الإنسان الوعى والتمييز ، وتبقى فيه الروح لإدارة حركة الحياة فيه واستبقائها ، فإذا استيقظ من نومه عاد إليه وَعْيه وعقله وتمييزه ، أما فى الموت فالله يتوفَّى الكل : الوعى ، والتمييز ، والأصل ، وهو الروح والجسد ، فالجسم فى النوم لا يزاول شيئاً حتى المخ الذى يجب أنْ يظل عاملاً لا يعمل فى النائم إلا كلّ سبع ثوان .

ولذلك لما تتوقف حركة الجسم تنخفض فيه درجة الحرارة ويحتاج إلى تدفئة ، لذلك ننصح النائم بأنْ يتغطى لأن الحركة مفقودة ، وينبغى أن نحفظ للجسم حرارته ، البعض يظن أن الغطاء هو الذى يُدفىء النائم ، لكن العكس هو الصحيح فحرارة الجسم هى التى تُدفىء الغطاء ، وعمل الغطاء أنْ يحفظ لك حرارة الجسم حتى لا تتبدد ، بدليل أنك تذهب إلى فراشك فتجده بارداً ، وحين تستيقظ من نومك تجده دافئاً

وقلنا : إن الإنسان يمرُّ بحالات : يقظة ، نوم ، موت ، بعث . ولكل مرحلة من هذه المراحل قانونٌ خاص ، فإياك أنْ تخلط قانوناً بقانون ، فمثلاً الإنسان منا وهو نائم يفقد الوعى والتمييز ، ومع ذلك يصبح فيذكر رُؤْيا رآها فيها أشكال وأشخاص وألوان يستطيع التمييز بينها وكأنها يقظة ، فبأىِّ شىء أدرك هذه المدركات وميَّز بين الألوان وعينه مغمضة ؟

قالوا : لأن للنائم أدوات ووعياً غير التى له فى اليقظة ، فيرى لكن ليس بالعين . إذن : فى حالة الموت يكون له وعى آخر ، البعض يتعجب وربما ينكر أنْ يضم القبرُ الواحد جسدين أحدهما يُنعَّم والآخر يُعذَّب ، فلماذا لا تنكر مثل هذا فى النوم مثلاً ، فأنت تنام مع غيرك فى فراش واحد يرى هو أنه فى رحلة ممتعة فيها مَا لَذَّ وطابَ ، وترى أنت أنك فيه تُضرب أو تمر بحادث مؤلم ، لا هو يدرى بك ولا أنت تدرى به .

وقوله : ﴿فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ (٤٢)﴾ [الزمر] أى : لا تعود إلى الجسم ﴿وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ.. (٤٢)﴾ [الزمر] أى : فى حالة النوم يعود إليك الوعى والتمييز ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى..(٤٢)﴾ [الزمر] إلى الأجل المعلوم الذى قدَّره الله لك فى اللوح المحفوظ .

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٤٢)﴾ [الزمر] ساعة تجد الذى يخبرك بشىء ينبه فيك أدوات التمييز بين المقولات التى هى العقل والفكر والذكر والتدبر ، فثقْ بأنه ناصح لك لا يغشك ولا يُدلِّس عليك ، لأن الذى يريد غشَّك يأخذك على عجلة و (يكلفتك) ، حتى لا تدرى وجه الصواب ولا يعطيك الفرصة للبحث وتأمل الشىء .

وسبق أنْ مثَّلنا لذلك ببائع القماش إنْ كان صادقاً يعلم جودة

بضاعته ، فإنه يختبرها لك فيأخذ (فتلة) من الصوف مثلاً ويحرقها أمامك ، لترى بنفسك أنه صوف مائة بالمائة ، أما الآخر فيحاول أنْ يلف ويدور ويخدعك بحيله حتى لا تكتشف فساد بضاعته ، فالأول واثق من جودة البضاعة ، وأنك مهما فعلت بها فسوف تصل إلى مراده .

فساعةَ يقول الحق سبحانه (أفلا تعقلون) ، (أفلا تتذكرون) ، (أفلا تتفكرون) فاعلم أنه يهيج عندك أدوات البحث والتأمل والاختيار بين البدائل ، ولا يصنع ذلك معك إلا وهو واثق أنك لو استعملتَ هذ الأدوات فلن تصل إلا إلى مراده منك .

﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ (٤٣) قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٤٤) ﴾

قوله تعالى : ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ (٤٣) ﴾ [الزمر] استفهام إنكارى . يعنى : ما كان يصح أنْ يتخذوا من دون الله شفعاء ، فالحق ينكر عليهم بعد أن استمعوا إلى كل هذه الحجج والبراهين ، ثم يتخذون من دون الله شفعاء ، ولماذا الشفعاء من دون الله ؟ قالوا : لأن الذى يعبد غير الله يُرجِّى نفسه بأنه مُتدين ، والتديّن طبيعة فى النفس البشرية من أخْذ الله عليها العهد فى ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ .. (١٧٢) ﴾ [الأعراف]

لذلك جاء الرسل مُذكِّرين أى : يُذكِّروننا بهذا العهد الأول الذى غفلنا عنه واقرأ : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣) ﴾ [الأعراف]

فالحق سبحانه وتعالى ينكر عليهم أنْ يتخذوا الشفعاء من دون الله ، ويدعوهم أن يرتجعوا عن هذا الأمر المؤسف ، لأن اتخاذ الشفعاء من دون الله أمر فيه تناقض لأنهم شفعاء عند مَنْ ؟ عند الله ، كما قالوا : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ (٣) ﴾ [الزمر] إذن : اتخذوا الشفعاء ليشفعوا لهم عند الله ، فلماذا لا يتجهون إلى الله مباشرة دون واسطة ؟

ثم إن الشفاعة لا تُقبل إلا بشروطها ، وليس كل مَنْ أحبَّ أن يشفع تُقبل شفاعته ، فالشفاعة ليستْ بمرادك ، بل يُشترط فى الشفاعة أنْ يأذن الله للشافع أنْ يشفع ، وأنْ يرضى عن المشفوع له ، وأنْ يكون من أهل التوحيد ، إذن : هذه الشفاعة التى يرجونها شفاعة باطلة و لا تُقبل عند الله .

لكن لماذا لا يتوجَّهون إلى الله بالعبادة دون واسطة ؟ قالوا : لأن للحق سبحانه وتعالى فى عبادته تكاليف قد تشقّ على النفس ، وللمنهج قيود افعل كذا ولا تفعل كذا ، وهم يريدون تديناً بلا تكاليف ، وآلهة بلا منهج وبلا أوامر ، صحيح أنهم يعبدون الأصنام على هواهم . لكن إنْ حزبهم أمر وضاقتْ عليهم السبل فى أنفسهم لجئوا إلى الله الإله الحق ، إذن : أُوبُوا إلى الله قبل ألاَّ ينفع المآب .

وكلمة الشفاعة منها الشفع والوتر ، الشفع أنْ تضم وتراً إلى

وتر ، فيصيران شفعاً . يعنى : زوجاً . وقلنا : إن المستشرقين وقفوا عند آيتين من كتاب الله فى مسألة الشفاعة ، وحاولوا أنْ يثيروا حولهما شبهة عدم بلاغة القرآن ، وهما قوله تعالى : ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ (٤٨)﴾ [البقرة]

والأخرى : ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ (١٢٣)﴾ [البقرة]

وقالوا : أى الآيتين أبلغ من الأخرى ؟ فإنْ كانت إحداهما بليغة فالأخرى إذن غير بليغة ، ثم ما الحكمة من التقديم والتأخير فى الآيتين ، والمعنى واحد ؟

وهذا كله من هؤلاء نتيجة عدم فَهْم اللغة ، وعدم وجود الملكة التى تتذوَّق وتفهم عن الله .

ونقول : أنتم أهملتم صدر الآية ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ (٤٨)﴾ [البقرة] فعندنا نفسان : نفس جازية أو شافعة ، ونفس مجزىٌّ عنها أو مشفوع لها ، فأيّهما الشافعة وأيهما المشفوع لها ، إنْ أردتَ النفس المشفوع لها فالمشفوع لها تقدم العدل أولاً فلا يُقبل منها فتستشفع بمَنْ يشفع لها .

وهذا قوله تعالى : ﴿وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ (١٢٣)﴾ [البقرة] فإنْ أردتَ النفس الشافعة ، فالشافع يتقدم بشفاعته أولاً ، فإنْ لم تُقبل شفاعته قدَّم العدل ، يقول : فلان هذا كم تطلب منه وأنا أدفع عنه . إذن : الآيتان بليغتان كُلٌّ حَسْب المعنى المراد منها .

استُهلَّتْ هذه الآية ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ ..(٤٣)﴾ [الزمر]

بـ (أَمْ) ، وهى تفيد عطف ما بعدها على ما قبلها ، كأننا قلنا : أكان ذلك أم اتخذوا ؟ والكلام السابق هو قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ..(٤٢) ﴾[الزمر] فإذا كنتم قد وُدِعْتم بقوة حياتكم وقدرتكم على الحركة والأسباب والتحوّل فاعلموا أن الله يعطى لكم نموذجاً للموت ينتظركم من خلال النوم الذى تباشرونه .

هذا الموت وأنتم فى يقظة شىء ، وحين تنامون شىء آخر ، فالذى يقدر على سلْب الحياة من التميّز والوعى والحركة مع الخارج (أى مع الغير) قادر على أنْ يسلبها جميعاً ؛ لأن النوم يسلب منك الحركة والتميز مع الغير ، وإنْ بقيتْ لك الحركة فى ذاتك كحركة القلب والرئتين والأمعاء .. الخ فإذا كان الله قد قدر على هذه الجزئية فيك ، فهو سبحانه يقدر على الأخرى وهى الموت .

فالمعنى : أأمنتُم ذلك ؟ وإنْ لم تأمنوه وسوف تموتون وتلقوا الله ، فلماذا تتخذون الشفعاء ؟ وما الذى طمأنكم لذلك ؟ وما رصيدكم فى اتخاذكم الشفعاء ؟ يعنى : أحصل ذلك أم اتخذتم شفعاء ؟

قلنا : الشفيع من الشَّفْع ، وهى أنْ تضم شيئاً إلى شىء ، فيصير زوجاً بعد أنْ كان وحده ، والله سبحانه يريد أنْ يُنهى هذه المسألة ، وأنْ يُبيِّن لهم بطلانها ، فقال لهم : إن الذين تدعُون من دون الله لا يملكون أنْ يشفعوا وإنْ ملكوا الشفاعة كما تَدْعُون الملائكة ، وكالذين يدعون عيسى أو العُزَير فهم لا يرضون بها ولا يشفعون لكم .

وإنْ كانوا من الجمادات فهم أقرب منكم إلى الله وأعلم منكم بأصول الشفاعة ، فهى لابُدَّ أنْ تتأبى عليكم وتكرهكم ، وإنْ كنتم تملكونها وتنتفعون بها ؛ لأن هذه الجمادات مُنسجمة مع الكون مُسبِّحة لخالقها فلا تقبل إلا مُسَبحاً ، وما انقادتْ لكم هذه الجمادات

إلا لأن الله سخَّرها لكم ، وجعل لكم إرادة تسيطرون بها عليها بمراد الله وأمره كما سيطرتم على جوارحكم ، سيطرتم على اللسان فقلتم به كلمة الكفر ، وسيطرتم على الأيدى ، فبطشتُم بها وظلمتم .. الخ .

فهؤلاء جميعاً لا يرضوْنَ أنْ يشفعوا لكم لأنكم مخالفون لهم فى المنهج ؛ لذلك يكرهونكم فكيف يشفعون لكم ، لذلك قال تعالى :﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ.. (٢٩) ﴾ [الدخان]

فأثبت للسماء وللأرض بكاءً ، فإنْ كانت لا تبكى على هؤلاء المخالفين فهى ولا شكَّ تبكى على المناقضين لهؤلاء المتفقين معها فى العقيدة والمنهج ، إذن : فالسماء والأرض وغيرهما من الجمادات لها تمييز وإلا ما بكتْ على أهل الطاعة ولم تَبْكِ على أهل المعصية .

حتى نحن فى التعبير الأدبى نقول : فلان نَبَتْ به الأرض يعنى : كرهتْ إقامته عليها ، لماذا ؟ لأنه متمرد على الله مخالفٌ لمنهجه وهى مُسخَّرة مُسبِّحة ؛ لذلك إنْ مات لا تبكى عليه . بل لسان حالها يقول له : أراحنا الله منك ، أراح الله منك البلاد والعباد .

وقد فسَّر لنا الإمام على رضى الله عنه هذه المسألة حين قال : إذا مات المؤمنُ بكى عليه موضعان : موضع فى السماء وموضع فى الأرض ، أما موضعه فى السماء فمصعد عمله الطيب . أى : المكان الذى يُرفَع فيه عمله الصالح ، كما قال سبحانه ﴿ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ (١٠) ﴾ [فاطر] وأما موضعه فى الأرض فمُصلاّه .(١)

---

(١) أورد ابن كثير فى تفسيره (١٤٢/٤) وعزاه لابن أبى حاتم أن عباد بن عبد الله قال : سأل رجل علياً رضى الله عنه : هل تبكى السماء والأرض على أحد ؟ فقال له : لقد سألتنى عن شىء ما سألنى عنه أحد قبلك ، إنه ليس من عبد إلا له مصلّى فى الأرض ومصعد عمله من السماء وإن آل فرعون لم يكن لهم عمل صالح فى الأرض ولا عمل يصعد فى السماء ، ثم قرأ على رضى الله عنه : ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ (٢٩) ﴾ [الدخان]

إذن : الذى جعلهم يتكلون ولا يخافون من الموت أنهم اتخذوا الشفعاء ، وظنوا أنهم يدافعون عنهم ، لكن (نقبهم على شونة) لأن الشفاعة ليستْ بمراد الشافع إنما بمراد المشفوع عنده ، وهو سبحانه الذى يأذن للشافع ويرضى عن المشفوع له . لكن هل يحتاج مَنْ رضى الله عنه إلى شفاعة ؟

قالوا : الإنسان قد تكون نواحى الخير فيه قليلةً ، لكن يتوفر لهذا القليل شرطُ الإخلاص فينميه ويُثمِّره ويجبر الله عنده هذا النقص بأنْ يأذن لأحد المحبوبين عنده أن يشفع له .. وهذه الشفاعة ما شرعها الحق سبحانه إلا ليقبلها ويلطف بها .

لذلك قالوا : إياك أنْ تحتقرَ عملاً صالحاً مهما كان يسيراً ، فمَنْ يدريك لعله يكون سبباً فى نجاتك .

وورد فى الحديث : « إن الله أخفى ثلاثاً فى ثلاث : أخفى رضاه فى طاعته » فلا تحقرنَّ طاعة ما فقد غفر الله لرجل سَقَى كلباً يلهث من شدة العطش ، وسقاه بجهد واحتيال حين لم يجد شيئاً يخرج به الماء فخلع خُفَّه وسقى به الكلب[1] . ولو سقى هذا الرجل إنساناً لقُلْنا إنه سقاه لعلة ، أو له عنده جميل ، إنما سقى كلباً . وهذا يدل على أن العمل فيه إخلاص ، لأنه لا ينتفع من الكلب بشىء ، إنما تأصل السقاء فى نفسه ، فهو يحبه بصرف النظر عن المسْقى ، فالرجل طُبع على الخير ولا يعنيه لمن يُقدم هذا الخير .

---

(١) عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : بينما رجل يمشى بطريق اشتد عليه العطش فوجد بئراً فنزل فيها فشرب ، ثم خرج فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش ، فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذى كان بلغ بى ، فنزل البئر فملأ خفه ثم أمسكه بفيه فسقى الكلب ، فشكر الله له فغفر له ، قالوا : يارسول الله وإن لنا فى البهائم أجراً ؟ فقال : فى كل ذات كبد رطبة أجر . أخرجه البخارى فى صحيحه (١٠/٤٣٨) (حديث رقم ٦٠٠٩)، وكذا مسلم فى صحيحه كتاب السلام باب فضل ساقى البهائم المحترمة وإطعامها (٤١) حديث (١٥٣/٢٢٤٤) .

الثانية : « وأخفى غضبه فى معصيته » فقد دخلت امرأة النار فى هرة حبستها فلا هى أطعمتها وسقتها ولا هى تركتها تأكل من خشاش الأرض [(١)] . فكما أنك لا تحقر طاعة قد يكون فيها نجاتك ، كذلك لا تحقر معصية فقد يكون فيها هلاكك .

الثالثة : « وأخفى أسراره فى خلقه » ؛ فلا تحقرنّ خلقاً ما .

وقوله سبحانه : ﴿قُلْ أَوَ لَوْ كَانُوا (٤٣)﴾ [الزمر] أى : هؤلاء الشفعاء ﴿لا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلا يَعْقِلُونَ (٤٣)﴾ [الزمر] يعنى : كيف تطلبون شفاعتهم ، وهم على هذا الوصف ؟ ﴿قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا (٤٤)﴾ [الزمر] لأن الشفاعة لا تكون إلا بإذنه سبحانه ، يأذن للشافع ويرضى عن المشفوع له ، فالشفاعة كلها لله وحده ، لأن ﴿لَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٤٤)﴾ [الزمر] ؛ فالمتكبّر المتأبّى على منهجى سيرجع إليّ .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٥)﴾

كلمة (اشْمأزَّتْ) يعنى : نفرتْ . والإنسان حينما يسمع شيئاً لا يحبه يشمئز يعنى : يظهر على سحنته الامتعاض ، ثم تحدث منه نفرة وقشعريرة كئيبة ، ثم ينصرف عن هذا الشىء ، كذلك حال

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٢/٢٦١ ، ٢٦٩ ، ٤٥٧) ، ومسلم فى صحيحه (٢٦١٩) كتاب البر والصلة من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، ولفظ مسلم « دخلت امرأة النار من جراء هرة لها ربطتها فلا هى أطعمتها ولا هى أرسلتها ترمرم من خشاش الأرض ، حتى ماتت هزلاً » .

هؤلاء لما سمعوا ذكر الله وحده نفرتْ نفوسهم ، وانقبضوا عن توحيد الله ، لكن لماذا ؟

قالوا : لأنك ذكَّرته بمَنْ يثق تمام الثقة أنه يملك ضُره ونفعه ، وإلا لو لم تكُنْ لديه هذه الثقة ما أثَّر ذكر الله فى نفسه ، إذن : اشمأزتْ قلوبهم لأنهم خافوا من شىء ، وساعةَ سمعوا ذكر الله تذكّروا جلاله وقدرته وعظمته ، وتذكّروا أنهم مُقبلون عليه واقفون بين يديه ، ولم يعملوا لهذا الموقف .

وكلمة ﴿وَحْدَهُ (٤٥)﴾ [الزمر] تدل على مَيْلهم إلى الشركاء ، فالمعنى : لو ذُكر الشركاء ما اشمأزتْ قلوبهم . واشمئزاز القلوب أمر غيبى ينضح على الوجه بالانفعال ، فيبدو على الوجه أنه منقبض انقباضاً مؤلماً ، والآية لم تذكر لماذا اشمأزت قلوبهم مما يدل على أن القلبَ هو المحرك الذى يعطى الجوارحَ الانفعال بواقع الأشياء عليها ، فمثلاً تقابل شخصاً فتجد نفسك مبتهجاً ، وآخر تقابله فتجد نفسك مُهتماً أو منقبضاً عنه ، فمن أين هذه الانفعالات ؟ من القلب .

وقوله : ﴿وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ ..(٤٥)﴾ [الزمر] أى : الشركاء ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٥)﴾ [الزمر] أى : يفرحون ، لماذا ؟ لأنهم يظنون أنهم يشفعون لهم ، لكنهم خائبون فى هذه ، وخائبون فى هذه .

﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٤٦)﴾ (١)

---

(١) فطر الخلق : خلقهم وبدأهم . والفطرة : الابتداء والاختراع . قال ابن عباس : ما كنت أدرى ما فاطر السماوات والأرض حتى أتانى أعرابيان يختصمان فى بئر فقال أحدهما : أنا فطرتها . أى : أنا ابتدأتُ حفرها . [لسان العرب - مادة : فطر]

هذا أمر من الله تعالى لرسوله ﷺ بعد أن ذكر الوعد لأهل الخير ، والوعيد لأهل الشر ، واستوفى الأمرين مع الجماعتين ، قال لرسوله بعد أنْ بلغت الوعد والوعيد : ليس لك إلا أنْ تلتجىء إلى الله ، فهو سبحانه وحده الذى يحكم بينك وبين هؤلاء ، لأنك استنفدتَ معهم كل أوجه الدعوة الحسنة والبلاغ الجميل ، وما داموا مُصرِّين فدَعْهُم إلى أنْ يحكم الله بينك وبينهم يوم القيامة .

ولا تحزن يا محمد ، لأن الله لا يحكم إلا بالحق ، وثقْ أنه الذى اختارك للرسالة ، وأنه ناصرك ومُظْهر دينك ، وسوف ترى هذه النُّصْرة فى الدنيا قبل الآخرة ، وفعلاً رآها الرسول قبل موته .

واقرأ قوله تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا .. (٤١)﴾ [الرعد]

أى : ننقص أرض الكفر ونقصان أرض الكفر زيادةٌ فى أرض الإيمان ، وهذه آية رأوْهَا بأعينهم ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا (٤١)﴾ [الرعد] فكان عليهم أنْ يأخذوا من ذلك عبرة ، وأنْ ينتهوا عن عنادهم ، ويعلموا أن الله ناصرُ دينه ومُتم أمره ، فكلّ يوم يمرّ كانت أرض الإيمان تزداد ، وأرض الكفر تنقص ، ومحمد يأتيه الموالى والفقراء والمساكين ، ثم أتاه بعد ذلك الكبراء والصناديد والأعيان[1] .

الحق سبحانه وتعالى يُعلِّم رسوله ﷺ ، ويُعلِّمنا كيف ندعوه ، فقال : (قُلْ) أى : يا محمد (اللهُمَّ) يقول سيدنا سعيد بن المسيِّب[2] : لا أجد فى القرآن آية أرْجَى لداعى من قوله سبحانه :

---

(١) هذا القول هو الذى عليه جمهور المفسرين . قال ابن عباس : أولم يروا أنّا نفتح لمحمد ﷺ الأرض بعد الأرض . وذكر ابن كثير فى تفسيره (٢/٥٢٠) عدة أقوال منها : نقصان أهلها وبركتها – نقصان الأنفس والثمرات وخراب الأرض – الموت – موت العلماء والفقهاء وأهل الخير منها . ثم قال : القول الأول أوْلَى وهو ظهور الإسلام على الشرك قرية بعد قرية .

(٢) الذى فى تفسير القرطبى (٨/٥٩١٠) أن هذا القول لسعيد بن جبير ، ونصه : إنى لأعرف آية ما قرأها أحد قط فسأل الله شيئاً إلا أعطاه إياه .

﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ ..(٤٦)﴾ [الزمر] وما علمه الله أن يدعو إلا لسبقه فى القدر أنْ يجيب . إذن : الحق سبحانه لم يترك رسوله يدعوه بلفظ من عنده إنما علَّمه بِمَ يدعو ، فلا بُدَّ أنْ يُكتبَ له القبول ، كما لو أن شخصاً أعطاك المفتاح ، هذا يعنى أنه يقبلك أنْ تدخل المكان .

وهنا يجب أن نقف على روعة الأداء البيانى وعظمة الدعاء والنداء فى (اللَّهُمَّ) وهى عبارة عن لفظ الجلالة (الله) أُلحقتْ به ميم مُشدَّدة للدعاء والنداء ، ونحن نعرف أن النداء طلبُ إقبال المخاطب على المتكلم ، وللنداء حروف معروفة حسب قرب المنادى أو بُعْده من المنادَى ، فنقول فى نداء القريب : أمحمد . وفى نداء البعيد : يا محمد والأبعد : أيا محمد .. الخ .

إذن : فحرف النداء نفسه يحدد موقع المدعو ، فهل يجوز استخدام هذه الحروف فى نداء الحق سبحانه فنقول مثلاً : يا الله ؟ إنه من الأدب فى نداء الحق سبحانه ألاَّ نناديه سبحانه كما ننادى غيره لأنه سبحانه أقربُ إلينا من حبل الوريد ، فلا يصح أنْ نقول : يا الله أو أيا الله ، فهذه مراتب للبُعْد والله قريب .

لذلك لا تجد القرآن يستخدم هذه الحروف أبداً فى ندائه سبحانه ، إنما استخدم اللهم للدعاء ، وعلَّمنا أنْ ندعوه بها ، وقد ألحق بها الميم المشدَّدة بدلاً من حروف النداء قبل الاسم المنادى ، فالميم عوَضٌ عن حرف النداء المحذوف فدلَّتْ الميم المشددة على النداء ، وعلى ذِلَّة الطلب منك .

وحين نستقرئ القرآن الكريم نجد أن كلمة الله وردت بالرفع ٩٨٥ مرة ليس فيها دعاء إلا باللهم فى خمسة مواضع هى : هذه الآية التى

معنا ، ثم قوله تعالى : ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ ..(٢٦)﴾ [آل عمران]

وقوله : ﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١٤)﴾ [المائدة]

وقوله : ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢)﴾ [الأنفال]

وقوله : ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠)﴾ [يونس]

أما فى نداء الربوبية فنقول : يارب ، وفَرْقٌ بين نداء لفظ الجلالة (الله) وبين نداء لفظ الربوبية (رب) ، فالألوهية تكليف أما الربوبية فعطاءٌ ومنعم ، فما دام الربُّ معطى نعمة . فنقول فى ندائه : يارب لأن الربوبية إيجادٌ من عدم وإمداد من عُدْم وتربية ، إذن : أنت المستفيد فى عطاء الربوبية ، أما الألوهية فتكليف بافعل ولا تفعل .

وكلمة ﴿فَاطِرَ..(٤٦)﴾ [الزمر] أى : خالق ومُبدع ومُوجد الوجود من العدم على غير مثال سابق يعنى : أمر ابتكارى جديد فإنْ كان الإيجاد على مثال سابق يعنى محاكاة فلا يسمى (فاطر) .

وقوله ﴿السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ .. (٤٦)﴾ [الزمر] اختار السماوات والأرض ، لأنها الكائن الذى لا يغيب عن الإنسان ، فالأرض تُقلُّه والسماء تظله فهو لا ينفكّ عنهما لحظة من حياته ، وهناك نِعَم أخرى قد تغيب عن الإنسان فى وقت كالماء مثلاً .

﴿عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ.. (٤٦)﴾ [الزمر] يمتنُّ الحق سبحانه بعلم

الغيب ، فكيف يمتنُّ بعلم الشهادة ، وهى معلومة للناس مُشَاهدة ؟

قالوا : لأن الله غـيْبٌ ، وقد نفهم أن هذا الغـيبَ كالغيب بالنسـبة لك، فأنت تـشاهد مَنْ معك فى الـبيت ، لكن لا تشاهـد مَنْ هو خارج البيت ، فهـو بالنسبة لك غَيْبٌ ، لكن الحق سبـحانه يعلم الغيب ويعلم المشَاهد ما غاب عنكم والمشهود لكم ولغيركم .

وقوله :﴿ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٤٦) ﴾ [الزمر] هذا هو المرجع الـنهائى فى الخلاف بين الحـق والباطل ، يوم الفتح الذى كان ينتظره هؤلاء ويسـتعجلونه ، بل ويستهـزئون به كما قال سبحانه حكايةً عنهم :

﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧٠) ﴾ [الأعراف]

وقولوا : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٨) ﴾[السجدة] فيردّ عليهم الحق سبحانه : ﴿ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلا هُمْ يُنظَرُونَ (٢٩) ﴾ [السجدة] يعنى : لو جاءكم هذا اليوم فلن ترجعوا بعده مرة أخرى لتجدوا إيماناً ولا توبة .

ونلحظ هنا أن القرآن استعمل كلمة (عباد) للدلالة على الفريقين : المؤمنين ، والكافـرين ، والغالب أن تستـخدم كلمة العبـاد فى الطائعين الملتـزمين بالمنهج كـما فى قـوله سبـحانه : ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَـٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا (٦٣) ﴾ [الفرقان]

فهل يُقال للكافرين والعاصين أيضاً عباد ؟

قالوا : نعم : لأن الإنسان له وضعان بالنسبة لربه تعالى : وَضْع له فيه اختيار ، وهى قوة الاخـتيار التى خلقها الله فى الإنسان بحيث يفعل ما يشاء ، حتى إنه يفـعل ما لا يريده منه ربه سبحانه . هناك

وَضْع آخر ليس له فيه اختيار ، وهى الأمور القهرية التى لا اختيارَ للعبد فيها .

فالإنسان مثلاً قد يتمرد على منهج ربه ، وقد يخالفه ويشذ عنه ، فنقول له : ما دُمت قد ألفتَ التمرد فتمرد على كل شىء ، تمرد على المرض تمرد على الموت .. إنه لا يستطيع ، لأنها أمور قهرية لا اختيار له فيها . إذن : فهو فى هذا الوضع محكوم بالعبودية قهراً ، فهو لا يخرج عن عبوديته لله حتى لو كان كافراً ، وحين نقول للكافرين (عباد) فلأنهم فى شق من تصرفاتهم لا يتأبَّوْنَ فيه على الله ، بل هم فيه مقهورون .

لذلك قال تعالى عنهم فى الآخرة : ﴿أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَـٰؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴿١٧﴾﴾ [الفرقان]

هذا خطاب للمضلِّين فسمَّى الضالين عباداً ، لماذا ؟ لأن الكلام هنا فى الآخرة حيث يستوى الجميع ، فالكل هناك طائع صالح مؤمن ، كلهم فى الآخرة عباد وعبيد . أما فى الدنيا فكلهم عبيد وبعضهم عباد .

﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِى الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾﴾

تذكرون أننا قلنا فى الحديث عن الشفاعة أن المذْنب يُعرض على ربه عز وجل أن يدفع الفدية ليغفر له فلا يُقبل منه عدل ، فيأتى بمَنْ يشفع له فتُردّ شفاعته ، فلنفرض أن عنده الدنيا بحذافيرها يملكها ويقدمها عدلاً لسيئاته ، بل أكثر من ذلك ، عنده ما فى الأرض جميعاً

﴿وَمِثْلَهُ مَعَهُ (٤٧)﴾ [الزمر] مع أن هذه الحالة لم تحدث لأحد ، لكن على فرض أنها حدثت وقدَّم العاصى ذلك كله ليفتدى نفسه من عذاب يوم القيامة فلن يُتقبل منه .

وقوله سبحانه :﴿لافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ (٤٧)﴾ [الزمر] يدل على أن الإنسان قبل أن يُؤمِّنَ لنفسه النعيم يريد أنْ ينجوَ من العذاب فهذا هو الأهم ؛ لذلك الرجل المغرور صاحب الجنتين فى سورة الكهف لما اغترَّ بعمله وظنَّه صالحاً قال :﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا (٣٦)﴾ [الكهف] يعنى : سيعطينى أفضلَ مما كان عندى ، وهذا غرور والعياذ بالله .

لذلك تجد الغنى حين يُصيبه مرض شديد والعياذ بالله يقول : خذوا كلَّ ما أملك وأعيدوا إلىَّ عافيتى ، يريد أن يتخلص مما هو فيه من المرض أولاً ، كذلك حال أهل المعاصى فى الآخرة .

ومعنى ﴿مِن سُوءِ الْعَذَابِ (٤٧)﴾ [الزمر] أى : من العذاب السيء ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ (٤٧)﴾ [الزمر] ثم يُفاجئهم ما لم يكُنْ فى حُسْبانهم ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ (٤٧)﴾ [الزمر] بدا يعنى : ظهر لهم ؛ لأن الإنسان مهما تخيل فى الدنيا فلن يتسع تخيُّله لما يأتى الله به فى الآخرة .

لذلك سيدنا محمد بن المنكدر [(١)] قال : لقد خوَّفتْنى هذه الآية لأننى أخشى حين أموت أن يبدو لى ما لم أكن أحتسب [(٢)] ذلك لأن

---

(١) هو أبو عبد الله القرشى التيمى المدنى محمد بن المنكدر بن عبد الله ، كان من معادن الصدق يجتمع إليه الصالحون ، حافظ سيد القراء ، مُجمع على ثقته وتقدمه فى العلم والعمل ، توفى سنة ١٣٠ هـ (تذكرة الحفاظ ١/١٢٧، ١٢٨)

(٢) ذكر هذا الخبر القرطبى فى تفسيره (٨/٥٩١١) أن محمد بن المنكدر جزع عند موته جزعاً شديداً ، فقيل له : ما هذا الجزع ؟ قال : أخاف آية من كتاب الله ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ (٤٧)﴾ [الزمر] فأنا أخشى أن يبدو لى ما لم أكن أحتسب . وذكره أيضاً الذهبى فى تذكرة الحفاظ (١/١٢٧) .

الإنسان كثيراً ما يفعل سيئات دون أن يشعر بها ، أو دون أنْ يعلمَ أنها سيئات ، أو قد يفعلها وينساها ، وهذه التى قال الله فيها ﴿أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ (٦)﴾ [المجادلة]

وقد يُزيِّن لك الشيطانُ السوءَ فتراه حسناً وما هو بحسن ، كل هذا ستُفاجأ به فى الآخرة .

وأول ما يفاجئ الكافرين يوم القيامة أنهم لن يجدوا الآلهة التى عبدوها من دون الله ولن تشفع لهم ، حتى سادتُهم وقادتهم الذين أضلوهم سيتبرأون منهم : ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ (١٦٦)﴾ [البقرة]

بل إن السادة المضلين سيسبقون الأتباع إلى النار كما حكاه القرآن : ﴿هَـٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ (٥٩) قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ (٦٠) قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَـٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ (٦١)﴾ [ص]

ولو دخل التابع قبل سيده لتعلَّق فكره به وظنَّ أنه سيأتيه ويُخلِّصه ، لكنه سيدخل فيجده قد سبقه ، وعندها تنقطع منهم الآمال ، وتكتمل الحسرة والندامة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٤٨)﴾

قوله ﴿ وَبَدَا لَهُمْ ﴾ أى : ظهر لهم وبَانَ لهم (سَيِّئَاتُ) هل الذى يظهر لهم فى الآخرة السيئات ، أم عقوبة السيئات ؟ قالوا :

الذى يروْنَه فى الآخرة هو عقوبة السيئات ، لكن قال ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا (٤٨)﴾ [الزمر] لأن الجزاء من جنس العمل ، فالعقوبة هى أيضاً سيئات ، كما قال سبحانه : ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا .. (٤٠)﴾ [الشورى] لأن معنى السيئة هو الأمر الذى يسوء ، فكما أساء هو فى العمل فى الدنيا نُسيئه فى الآخرة .

وكلمة ﴿ مَا كَسَبُوا (٤٨)﴾ [الزمر] سبق أنْ أوضحنا هذه المسألة وقُلْنا : إن القرآن يستخدم كسب فى الخير واكتسب فى الشر ؛ لأن الخير يأتى من الإنسان طبيعياً لا تكلُّفَ فيه ولا احتيال ، فيأتى على وزن (فعل) . أما الشر فيحتاج من فاعله إلى تكلّف وسَتْر واحتيال ، فعبَّر عنه بما يدل على الافتعال وهو (افتعل) أو اكتسب .

ومثَّلْنا لذلك بالإنسان حين ينظر إلى أهل بيته أو محارمه وفيهن الجميلات مثلاً ، فهو ينظر نظرةً طبيعية لا يسترها ، ولا يخاف فيها شيئاً ، أما إنْ أراد أنْ ينظر إلى امرأة أجنبية عنه فإنه يُخفِى هذه النظرة ، ويحتال لذلك بكل وسيلة .

إذن : لماذا استخدم القرآن هنا لفظ كسب فى مجال السيئات ، وهى كما أوضحنا اكتساب ؟ ومثله قوله تعالى : ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ .. (٨١)﴾ [البقرة]

قالوا : استخدم القرآنُ كسب فى السيئات لأن صاحبَ السيئة قد يتعوَّد عليها حتى تصبح طبْعاً فيه وعادة ودُرْبة ، بل وتصبح بالنسبة له مهارة تصل إلى حَدِّ التباهى بها والعياذ بالله ، وهؤلاء يفعلون السيئة دون تكلّف ودون سَتْر ، فهى فى حقه كسبٌ لا اكتساب ، ومثال ذلك المجرمون الذين اعتادوا الجريمة وتمرَّسوا بها ، فهى

بالنسبة لهم عملية طبيعية ، وساعة يعمل السيئة يعدّها مكسباً له .

وقوله :﴿وَحَاقَ بِهِم (٤٨)﴾ [الزمر] أى : نزل بهم ﴿مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٤٨)﴾ [الزمر] هذا المعنى أوضحه الحق سبحانه وتعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٣٠) وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ (٣١) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَـٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ (٣٢) وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ (٣٣) فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٣٤) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ (٣٥) هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦)﴾ [المطففين]

نعم .. كثيراً ما نرى ونسمع استهزاء أهل الباطل من أهل الحق وسخريتهم منهم وتندّرهم عليهم ، ويصل الأمر إلى أنْ يتهموهم بأنهم على ضلال ، سبحان الله ؟ لكن عزاء أهل الحق أن هذا الاستهزاء فى الدنيا الفانية ، وإنْ صبروا عليه كان لهم الأجر ، وسوف يُرد هذا الاستهزاء وهذه السخرية فى الآخرة الباقية ، حيث يسخر أهل الحق من أهل الباطل ويضحكون منهم ، بل ويخاطبهم الحق سبحانه ليطيب خاطرهم : ﴿هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦)﴾[المطففين] يعنى : هل قدرنا أنْ نُجازيهم بما يستحقون ؟

قالوا : استهزاء الشرير بالخيِّر ، وسخريته منه ثأر من طيبته لشريرته ، لأنه لا يستطيع ولا يقدر أنْ يكون مثله فيسخر منه ويستهزئ به لعله ينصرف عمَّا هو فيه من الخير ويذهب إلى الشر ، لكن العاقل يفهم هذه المسألة ويعلم أن هذا الاستهزاء غيظ وحقد وحسد فيصبر عليه وهو يعلم أنَّ له بكل سخرية وبكل استهزاء منزلةً عند الله ، وله على ذلك عِوَض .

﴿ فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ[(١)] نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾

رأينا المشركين الذين اتخذوا مع الله آلهة أخرى وقالوا : إنما نعبدهم ليقربونا إلى الله زُلْفى .. إذا ما طرأ لهم طارئ أو جَدَّ فى حياتهم شىء فوق طاقة أسبابهم لا يلجئون إلى الأصنام ، ولا إلى الآلهة التى عبدوها من دون الله ، إنما يلجئون إلى الله ويضرعون إليه سبحانه ليكشف عنهم ما هم فيه ، وليرفع عنهم البلاء ، لماذا ؟

لأن هذه هى الفطرة السليمة التى فطر اللهُ الناسَ عليها ، والعهد الذى أخذه الله علينا جميعاً ونحن فى عالم الذرِّ حين قال سبحانه : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ ﴿١٧٢﴾ ﴾ [الأعراف] والإنسان لا يخدع نفسه ولا يسلمها ، فإذا أحاط به شر لا تنهض الأسباب لدفعه قال : يا رب وعندها ينسى كبرياءه ، وينسى عناده ، وينسى تكذيبه للرسل ولا يجد إلا ربه وخالقه وإلهه الحق .

وصدق الله :﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِى الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا

---

(١) خوَّله كذا : ملَّكه إياه متفضلاً عليه بغير عوَض . [القاموس القويم ١/ ٢١٤] . وخوَّلك الله مالاً . أى : ملَّكك . وخوَّله المال : أعطاه إياه . وقيل : أعطاه إياه تفضّلاً . [لسان العرب – مادة : خول] .

نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنسَانُ كَفُورًا (٦٧)﴾ [الإسراء]

ونلحظ أيضاً أن الإنسان حينما يقع فى كرب لا يقدر على دفعه بنفسه ينادى مَنْ حوله ، فإذا لم يُجِبْه أحدٌ يقول يا هوه ، ومعناها : يا هو يا مَنْ ليس هناك غيره ، والمراد الله سبحانه وتعالى .

وقوله ﴿ ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ (٤٩)﴾ [الزمر] أى : أعطيناه ﴿نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ (٤٩)﴾ [الزمر] يعنى : إنْ أعطيناه نعمة بعد هذا الضر الذى مسَّه سرعان ما ينسى ويعود إلى صلَفه وغروره الحياتى ، لأنه يخاف أن مسألة رفع الضر عنه تُقربه من ربه الذى دعاه ، وأن هذا الجميل الذى ساقه إليه ربُّه يعيده إلى الجادة وإلى الاستقامة .

فالاستقامة تكاليف ومسئولية هو يكرهها ، ولا يريد أنْ يُقيِّد نفسه بها ، لأن التكليف معناه مَنْع النفس عن شهواتها ، وحملها على الطاعات فهو يخاف أن تأسره هذه المسألة ، أو تقيد حريته فى الشهوات ، لذلك قال الحق سبحانه عن الصلاة : ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ (٤٥)﴾ [البقرة]

وقوله :﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ (٤٩)﴾ [الزمر] لها وجهان : إما على علم من الله أنِّى أستحق هذا الخير وإلا ما أعطانى - هذا إنْ كان يعتقد أن الله هو الذى يعطى - أو على علم منى ، لأن عندى دقَّةً فى التعامل ويقظة ، وعندى تجربة ودراية بالأمور ودراسة للنتائج .

وهنا يصحح له ربه ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ .. (٤٩)﴾ [الزمر] يعنى : هذه النعمة فتنة من الله ، فلا هى لعلم الله أنك تستحق ، ولا هى نتيجة لعلمك ومهارتك ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ .. (٤٩)﴾ [الزمر] يعنى : ابتلاء واختبار . كما قال سبحانه : ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً (٣٥)﴾ [الأنبياء] نبلو

بالشر لنرى مَنْ يصبر ، ونبلو بالخير لنرى مَنْ يشكر ومَنْ يطغى .

وفى موضع آخر قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا (٢٠) ﴾ [الفرقان]

يعنى : كلُّ بعض منا فتنة للبعض الآخر ، فالغنى فتنةٌ للفقير ، والقوىُّ فتنة للضعيف ، والعكس صحيح ليختبر الحق سبحانه خَلْقه : مَنْ يصبر ومَنْ يجزع ، مَنْ يشكر ومَنْ يكفر ، مَنْ يرضى ومَنْ ينقم.

إذن : ينبغى على الإنسان أنْ يقوم فى حركة حياته ما أقامه الله ، فكل ما يُجْريه عليه خير ، فإذا رأيتَ نعمة عند غيرك وليست عندك فاعلم أن الله ما فضّل هذا عليك ، وأنت بصبرك على ما قُدِّر لك وعدم حقدك على أخيك تستطيع أنْ تكون أفضل منه .

وتختم الآية بقوله تعالى : ﴿ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٤٩) ﴾ [الزمر] أى : هذه الحقائق التىٰ ذُكِرتْ لا يعلمها الكثيرون ، وهذا يعنى أن القلة تعلم .

ثم يوضح الحق سبحانه أن هذه المسألة ليستْ كلمة نظرية ، إنما هى حقيقة لها واقعٌ فى تاريخ السابقين ، فيقول : ﴿ قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٥٠) ﴾ [الزمر] نعم قالها قارون ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِى (٧٨) ﴾ [القصص]

ونقول : ما دمتَ قد أوتيته على علم ، سواء علم من الله أنك أهلٌ لهذا الخير أو علم عندك ومهارة فى العمل والتناول ، فها هى النعمة بين يديك ، وما عليك إلا أنْ تحفظها ، وحِفْظ الشىء الموجود بين يديك أيسَرُ من إيجاده من العدم ، فهل تستطيع ؟

والمعنى أننى لا أقول لكم كلاماً نظرياً ، بل هو واقع يؤيده التاريخ ، فقد قالها قارون واغترَّ بها ، ثم خسفنا به وبداره الأرض.

وهنا نشأتْ قضية : إذا كنتَ قد أوتيته على علم فاحفظه أيضاً على علم ، لكن ما دام الأمر قد تخلَّى عنك فى الحفظ وهو يسير ، فأنت فى الإيجاد أشدّ تخلياً .

نعم ﴿قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٥٠)﴾ [الزمر] لأن الله خسف بقارون وبداره أيضاً ، فلم تذهب النعمة والثروة فحسب ، بل طال الانتقام حتى الأرض والمكان الذى يعيش عليه ويبيت فيه ويستريح عليه .

﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا ۚ وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَٰؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ (٥١)﴾

قوله تعالى ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا (٥١)﴾ [الزمر] أى : السابقون الذين قالوا هذه الكلمة من قبل ، أصابهم ونزل بهم ما كسبوا من السيئات ، يعنى : هم فعلوه بأنفسهم ، وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴿وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَٰؤُلَاءِ (٥١)﴾ [الزمر] أى : المعاصرين ﴿سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ (٥١)﴾ [الزمر]

والمعجز هو الذى يعمل عملاً يتحداك به ، وتعجز أنت عن الإتيان بمثله ؛ لذلك نسمى آية صدق الرسل فى البلاغ عن الله معجزةً ، لأنها أعجزتْ المكابر المكذِّب ، أما الذى آمن بمجرد البلاغ وصدَّق به فلا يحتاج إلى معجزة ، والمعجزة يُشترط لها أن تكون مقرونة بالتحدى ، لماذا ؟

قالوا : لأنك حين تتحدَّاه وتخبره أنك ستعمل عملاً لا يقدر هو عليه فإنك بذلك تشحن مواهبه ليستعدَّ للمواجهة ، وعندها تستطيع أن

تقيم عليه الحجة ، أما إنْ فـاجأته بالتحدى فله أنْ يقول لك : والله لو فكرت فى المسألة ، أو لو كانت فى بالى لفـعلتُ . إذن : معجز يعنى يصيب الغير بالعجز عن مجاراته .

وقلنا فى المعـجزة : إنها ينبـغى أن تكون من جنس ما نبغ فـيه القومُ ، ومناسـبة للعـصر الذى نتـحدى فيـه ، لأنك لو تحديتَ قـوماً بشىء لا علمَ لهم به ولا دُرْبة لكان لهم أنْ يقـولوا : لو كنا نعلم هذا لفعلناه ، وإلا لما كان للتحدى موضع .

وقد أعطانا القـرآن الكريم نموذجـاً للتحدى حـينما تحـدّى العرب وهم أهْلُ اللغة وأرباب الفصاحة والبـيان ، تحدَّاهم أنْ يأتوا بمثل هذا القرآن ، وحين نتـأمل هذا التحدى نجده يتدرج تـنازلياً ، وكلما تنازل فى تحدّيه يعلو فى إعـجازه ، لأنه أول ما تحدَّاهم تحـدَّاهم بمثل هذا القرآن ، ثم بعشر سور ، ثم بسورة واحدة من مثله .

ليس هذا وفقط ، إنمـا يُخرج التـحدى من الإنس إلى الجن ؛ لأن العرب وإنْ كانوا أمـة كلام وفصاحة إلا أنهم نسـبوا للجن قدرةً أعلى على الفصاحة والبلاغة ، بدليل أنهم إذا نبغ منهم شاعر وأجاد قالوا : إن الجن يُوحى إليـه بهـذه المعـانى ، واعتـقـدوا أن هذا الجن يسكن وادى عبقر [1] كما يقولون .

لذلك أخـرج القـرآن التـحـدِّى من دائـرة الإنس إلى دائرة الجن ، فقال سبحانه :﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَـٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (٨٨) ﴾ [الإسراء] أى : معينا ومساعداً .

---

(١) قال ابن الأثير : عـبقر قرية تسكنها الجن فـيما زعموا ، فكلما رأوا شـيئاً فائقاً غريبـاً مما يصعب عمله ويدق أو شـيئاً عظيماً فى نفـسه نسبوه إليهـا فقالوا : عبقـرى . ثم اتسع فيه حتى سمى به السيد والكبير . [نقله ابن منظور فى لسان العرب – مادة عبقر] .

لذلك كانت معجزة سيدنا موسى عليه السلام نوعاً من السحر ، لأن قومه نبغوا فيه ، وكانت معجزة سيدنا عيسى أنْ يبرئ الأكمه [(١)] والأبرص بإذن الله ، لأن قومه نبغوا فى الطب .

وكلمة ﴿وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ (٥١)﴾ [الزمر] أى : فى الهرب والإفلات من العقوبة ، لأنهم فعلوا أشياء تستحق العقوبة ، فإذا أخذناهم للعقاب فلن يُعجزونا . يعنى : لن يفلتوا منا ؛ لأن المسألة بالنسبة لنا قد يكون غريمك فى يدك وفى نفس مكانك ، وقد يهرب منك إلى مكان آخر ، لكن بالنسبة للحق سبحانه فهو فى كل مكان ، وإلا فدلَّنى على مكان ليس فيه الله سبحانه وتعالى ، إذنِ : كيف الهرب ؟ وإلى أين ؟! فإنْ تواجدتم معه فلن يعجز عنكم ، وإنْ هربتم فلن يعجز عن الإتيان بكم .

﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥٢)﴾

لأن قارون اغترَّ بماله وجاهه ، وما كان فيه من غنى وزَهْوة فى قومه ، حتى قال ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِى (٧٨)﴾ [القصص] فأراد الحق سبحانه أنْ يُصحح له المسألة ولمَنْ كان على شاكلته ، فقال سبحانه : ﴿أَوَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ (٥٢)﴾ [الزمر] يبسط يعنى : يُوسِّع على مَنْ يشاء ، ويقدر يعنى : يُضيق على مَنْ يشاء ويقبض ، وكما نقول : يعطى مَنْ لا حيلَةَ له ليتعجب مَنْ له حيلة.

---

(١) الأكمه : مَنْ وُلد أعمى ، أو فقد بصره فهو أكمه . [القاموس القويم ٢/١٧٥] . أما البرص فهو مرض جلدى يُحدث بقعاً بيضاء فى الجلد تشوهه وهو من أعراض مرض الجذام الكثيرة .[القاموس القويم ١/٦٤] .

إذن : المسألة فى الرزق والعطاء ليست شطارة ومهارة فى تناول الأشياء ، إنما هى قدر قدَّره الرازق سبحانه .

وقد ورد فى الحديث القدسى قوله تعالى : « يا ابن آدم .. خلقتُك للعبادة فلا تلعب ، وقسمتُ لك رزقك فلا تتعب ، فإنْ أنت رضيتَ بما قسمتُه لك أرحتُ قلبك وبدنك وكنتَ عندى محموداً ، وإنْ لم ترْضَ بما قسمتُه لك فوعزّتى وجلالى لأُسلطنَّ عليك الدنيا تركض فيها ركْضَ الوحوش فى البرية ، ثم لا يكونَ لك منها إلا ما قسمتُه لك وكنتَ عندى مذموماً » [١]

فالرزق قسمه الرازق سبحانه ، ولا يُشترط له مهارة ولا رجاحة عقل وحُسْن تفكير ، لذلك قال أبو العتاهية[٢] :

يُرزَقُ الأحْمَقُ رزْقاً واسعاً وَتَرى ذَا اللُّبِّ محرُوماً نَكِد [٣]

والحق سبحانه وتعالى يرزق الإنسان من حيث لا يحتسب ، لذلك يُحكى أن رجلاً راعياً وهو يسير فى الطريق إذ عثرتَ رجْله بحجر ، فوجد عنده بئراً فجعل يتحسَّس ما فى البئر ، فوجد شَيئاً له صوت (شخشخة) كصوت الذهب والفضة ، فبحث عنه فوجدها غرارة[٤]

---

(١) ما وجدته فى نحو هذا ما أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٥/٢٤) من حديث عرفجة بن أسعد أن الله تبارك وتعالى يبتلى عبده بما أعطاه ، فمن رضى بما قسم الله عز وجل له بارك الله له فيه ووسعه ومن لم يرْضَ لم يبارك له .

(٢) هو : إسماعيل بن القاسم أبو إسحاق الشهير بأبى العتاهية ، شاعر مكثر سريع الخاطر ، فى شعره إبداع ، كان ينظم المئة والخمسين بيتاً فى يوم ، ولد عام ١٣٠ هـ فى عين التمر قرب الكوفة ونشأ فى الكوفة وسكن بغداد ، يُعد من مقدمى المولدين من طبقة بشار وأبى نواس. توفى ببغداد عام ٢١١هـ عن ٨١ عاماً [الأعلام للزركلى ١/٣٢١] .

(٣) البيت لأبى العتاهية من قصيدة عدد أبياتها ١٢ بيتاً من بحر الرمل ، أولها :

ما رأيت العيش يصفو لأحد دون كد وعناء ونكد
كن لما قدمته مغنِّماً لا تؤخر عمل اليوم لغد

[الموسوعة الشعرية]

(٤) الغرارة : بكسر الغين الظرف (كجوال) مثلاً يُحمل فيه التبن وما أشبهه . قاله أبو حيان التوحيدى فى (البصائر والذخائر) .

مملوءة بالذهب والفضة فأخذ منها ما يملأ جيوبه وما يستطيع حمله ، وترك الباقى فى مكان يعلمه ليعود إليه حين الحاجة .

وبعد فترة نفد ما معه من المال ، فجاء إلى نفس المكان ليأخذ من هذا المال فوجد شخصاً آخر قد سبقه إليه وأخذ ما تبقّى منه ، فلما رآه يحمله على ظهره نظر إليه . فقال الرجل : رزقنى الله ما ظننته أنه لك ، لكن هو لى .

لكن نلحظ فى مسألة الرزق أن الناس يُخطئون حين يظنون ويُحجِّمون الرزق فى المال وحده ، فالرزق عندهم هو الغنَى وكثرة المال ، لكن الصواب أن نقول : الرزق هو كل شىء يُنتفع به وتستفيد منه ، وعليه فالعلم رزق ، والحلم رزق ، والأمانة رزق ، والصحة رزق .. الخ .

لذلك ينبغى على الغنى الذى رُزِق المال الوفير أنْ يسأل نفسه حين يرى فقيراً : يا ترَى ما رزق هذا الفقير ؟ وبم تميَّز عنى ؟ ربما كان رزقه فى عقله أو فى أدبه أو فى حلمه أو فى سمعته الطيبة بين الناس أو فى عافيته .

وسبق أنْ قلنا : إن مجموع المواهب عند أىِّ إنسان تساوى مجموع المواهب عند الآخر ، فهذا عنده المال بنسبة عشرة على عشرة ، لكنه حُرِم نعمة الولد بنسبة صفر على عشرة وهكذا ؛ لأن الخَلْق جميعاً عيالَ الله ، ولا يوجد منهم مَنْ هو ابن الله أو بينه وبين الله نسب .

إذن : علام يوجد التمييز بين واحد وآخر ؟ نقول : الرزق يحتاج إلى جهات متعددة ؛ لذلك يوزع الرازق سبحانه الأسباب فلا تستقيم الحياة إنْ كان الناس جميعاً أغنياء ، أو كان الناسُ جميعاً عقلاء أو

علماء ؛ لأن العقل الواحد مثلاً يحتاج إلى أكثر من جارحة من الجوارح تخدم تفكيره ، فالمهندس مثلاً حين يرسم تصميماً لعمارة سكنية ، هو مهندس واحد لكن يحتاج إلى كم عامل لتنفيذ هذا العمل ، ولخدمة هذه الفكرة الهندسية ، فالعامل البسيط الذى يحفر الأرض لوضْع الأساس عنده من المواهب ما ليس عند المهندس ، وهكذا تُوزَّع المواهب وتُوزَّع الأرزاق .

والرزق قد يكون بزيادة الدخل ، وقد يكون سلباً بنقص المنصرف ، فنجد مثلاً رجلاً راتبه الشهرى مائة جنيه ويتعجب الناس كيف يعيش بهذا المبلغ ، ونسوا أن المهم فى الرزق أن يكون من الحلال ، فالله يبارك فى القليل منه ، حتى يحلّ محل الكثير ، فتجد هذا الرجل مثلاً إذا مرض ولده يكفيه قرص أسبرين والأم تعد له كوب شاى ويُشفى الولد بإذن الله .

بينما نجد آخر يحصل على أضعاف هذا المبلغ ، لكنه لا يتحرَّى الحلال فى كسبه ، فإذا مرض ولده ذهب به إلى الطبيب ، وأجرى التحاليل وأوهم نفسه أن المرض خطير ، حتى يصرف على الولد مبالغ كبيرة .

لذلك ورد فى الحديث الشريف : « مَنْ أصاب مالاً من مهاوش[١] أذهبه الله فى نهابر[٢] »[٣] .

---

(١) المهاوش : مكاسب السوء ، فهو كل مال يصاب من غير حله ولا يُدرى ما وجهه كالغصب والسرقة ونحو ذلك .[لسان العرب - مادة : هوش] .

(٢) النهابر : المهالك . أى : أذهبه الله فى مهالك وأمور متبددة . [اللسان - مادة : نهبر] .

(٣) أورده العجلونى فى كشف الخفاء (٢/٣١٣) وعزاه للقضاعى عن أبى سلمة الحمصى مرفوعاً ، وأبو سلمة ضعيف ولا صحبة له . قال التقى السبكى : لا يصح .

إذن : رزق الإيجاب أنْ يزيد المورد ، ورزق السلب أنْ يقلَّ المنصرف ، لذلك نلحظ مثلاً موظفاً من أصحاب الرواتب العالية وزميله له راتب متواضع يذهبان إلى السوق ، الأول يشترى الرومى أو السمك الكيلو بعشرة جنيهات ، أما الآخر فيشترى السمك العادى الكيلو مثلاً بأربعة جنيهات ، ذهب كل منهما إلى بيته وأكل كل منهما سمكاً ، لكن الأول صرف أضعاف أضعاف الآخر ، وربما النتيجة واحدة ، وكل منهما راضٍ بما أخذ وبما أكل ، هذا نسميه رزق السلب .

والمؤمن ينبغى له دائماً أنْ يضع مسألة الاقتصاد فى النفقات فى باله ، وأنْ يعلم أن رزق السلب أوسع من رزق الإيجاب ، لأن رزق السلب منع ألماً ، أمَّا رزق الإيجاب فقد يأتى بالألم .

وقوله سبحانه : ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥٢)﴾ [الزمر] أى : يؤمنون بالرازق الذى سمَّى نفسه الباسط ، وسمى نفسه القابض ، وما دام الحق سبحانه سمَّى نفسه الباسط وسمى نفسه القابض فلا بدَّ أنْ يكون لكل صفة متعلق ، ولا بدَّ أنْ يوجد فى الخَلْق مَنْ يبسط الله له الرزقَ ، ومَنْ يقبض عنه ويُضيِّق عليه ، وهذا وذاك بحكمته تعالى وقدره سبحانه .

فمَنْ وسَّع الله له رزقه ، وبسط له عليه أنْ يشكر ، ومن قُدِر عليه رزقه وضُيِّق عليه يجب أنْ يصبر وأنْ يرضى ، وأنْ يسير فى حركة حياته على قدر رزقه ، ولا يفتح على نفسه أبواب المسألة ، فمَنْ رضى بقدره أعطاه الله على قدره سبحانه ؛ لذلك تجد عظماء العالم وأصحاب الكلمة والصِّيت لو نظرت إليهم فى أوليات حياتهم لوجدتهم رَضُوا بقدر الله فيهم وعاشوا فى مستوى دخولهم ، فتحقق فيهم قوله : « مَنْ رضى بقَدَرى أعطيته على قَدْرى » .

ثم يقول الحق سبحانه[١] :

﴿ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ ﴾

الإسراف هو تجاوز الحدّ ، نقول : فلان مسرف يعنى : يتجاوز الحدَّ فى الإنفاق بما لا يتناسب مع دخله ، وهؤلاء أسرفوا على أنفسهم ولم يقل : أسرفوا لأنفسهم . إنما أسرفوا عليها . مما يدلّ على أن هذا الإسراف يجر عليهم الوبال ، فهو إسراف فى المعاصى والذنوب والعياذ بالله .

قلنا : الإسراف تجاوز الحدّ ، الحد إنْ كان بعد أمر فلا تتجاوزه ، وإنْ كان بعد نهىٍ فلا تقربه مجرد القرب منه ؛ لذلك يقول تعالى فى الأوامر : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ﴿٢٢٩﴾ ﴾ [البقرة] يعني : قفْ عندها . أما فى النواهى فيقول سبحانه : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ﴿١٨٧﴾ ﴾ [البقرة] لأن قربك من الشىء يغريك به . وكما ورد فى الحديث الشريف : « مَنْ حام حول الحِمَى يوشك أنْ يُواقعه »[٢] .

---

(١) سبب نزول الآية : ورد فى سبب نزول هذه الآية عدة روايات .. منها :

- قال ابن عباس : نزلت فى أهل مكة قالوا : يزعم محمد أن من عبد الأوثان وقتل النفس التى حرم الله لم يغفر له ، فكيف نهاجر ونسلم وقد عبدنا مع الله إلهاً آخر وقتلنا النفس التى حرم الله ؟ فأنزل الله هذه الآية .
- وقال ابن عمر : نزلت فى عياش بن ربيعة والوليد بن الوليد ونفر من المسلمين كانوا أسلموا ثم فتنوا وعذبوا ففتنوا ، وكنا نقول : لا يقبل الله من هؤلاء صرفاً ولا عدلاً أبداً ، قوم أسلموا ثم تركوا دينهم بعذاب عذّبوا به ، فنزلت هذه الآيات .
- وعن ابن عباس وعطاء : نزلت فى وحشى قاتل حمزة ، لأنه ظن أن الله لا يقبل إسلامه ، فأتى وحشى إلى النبى فقال : يا محمد أتيتك مستجيراً فأجرنى حتى أسمع كلام الله . فقال رسول الله : « قد كنت أحب أن أراك على غير جوار » .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٠٥١) من حديث النعمان بن بشير أن رسول الله ﷺ قال : « الحلال بيِّن والحرام بيِّن وبينهما أمور مشتبهة ، فمن ترك ما شبه عليه من الإثم كان لما استبان أترك ومن اجترأ على ما يشك فيه من الإثم أوشك أن يواقع ما استبان ، والمعاصى حمى الله من يرتع حول الحمى يوشك أن يواقعه » ومسلم فى صحيحه (١٥٩٩) .

لذلك حينما نهى الحق سبحانه سيدنا آدم عن الأكل من الشجرة لم يقل له : لا تأكل منها ، إنما قال سبحانه : ﴿وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ (١٩)﴾ [الأعراف]

لذلك تجد أن لفظ الاجتناب أقوى من لفظ التحريم وأشدّ ، وعجيبٌ أنْ نسمع من الذين يسرفون على أنفسهم يقولون : لم يردْ لفظ يحرم الخمر فى كتاب الله ، نقول : كيف وقد ورد ما هو أشدّ من التحريم وهو الاجتناب فى قوله سبحانه : ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ [1] وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٩٠) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ (٩١)﴾ [المائدة]

لأن معنى (فَاجْتَنِبُوهُ) يعنى : ابتعدوا عنها بالكلية فجانبوا مجلسها ، وجانبوا شاربها ، وجانبوا بائعها ، وجانبوا ناقلها .. الخ فهذا أبلغ فى التحريم من قولنا لا تشرب الخمر ، بدليل أن القرآن استخدم لفظ الاجتناب فى قمة الإيمان العقدى ، فقال سبحانه : ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ (٣٠)﴾ [الحج]

فإذا تناولنا الإسراف فى الإنفاق نجد أن الحق سبحانه وتعالى يريد أن تسير حركة الحياة فى المجتمع الإيمانى حركةً متوازنة متساوية تتوسط فى الأمور ، بمعنى أنك تعرف دخلك ورزقك الذى يسوقه الله إليك ، والله لا يريد منك أنْ تقبض هذا الرزق وتمسكه فلا تنفق منه ، ولا يريد منك أن تنفقه كله أو تسرف فيه بل يريد

---

(١) الأنصاب جمع نُصب وهو ما ينصب ليعبد من دون الله أو ليذبح عنده الذبائح تقرباً إليه أو إلى الأصنام [القاموس القويم ٢/٢٦٧] والأزلام جمع زلم وهو قطعة من الخشب تشبه السهم يقترعون بها ، فيقسمون بها الذبائح يكتب على كل زلم عدد الأنصباء يأخذه من المقامرين مَنْ يخرج له وهو نوع من الميسر المحرم شرعاً . [القاموس القويم١/٢٨٩] .

الوسطية ، كما بيَّن سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا (٦٧) ﴾ [الفرقان] فالإسراف والتقتير كلاهما مذموم منهيٌّ عنه ، فمَن اتخذ سبيلاً غير سبيل الوسط أضرَّ بنفسه وبالمجتمع ، لأنه إنْ أمسك المال قلَّتْ قوة الشراء وقوة البيع فى الأسواق ، ويترتب على ذلك ركود فى الحركة التجارية والصناعية وبوار للسلع وكساد فى السوق .

وإنْ أسرف وبذَّر فأنفق كل دَخْله لم يجد شيئاً يدخره لينمى به حياته ويُحسِّن من مستواه ويرتقى بحياته ، وعندها يلوم نفسه لأنه يرى غيره يرتقى ويُرفّه حياته وهو لا يستطيع .

وهذا المعنى أوضحه الحق سبحانه فى قوله تعالى :

﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا (١) (٢٩) ﴾ [الإسراء]

والمعنى : ملوماً حين تمسك وتضنّ ، محسوراً حين تسرف وتبذر ، لأنه سيجد أهل الوسطية يعيشون عيشة السعداء ، لا لومَ ولا حسرة . والعاقل هو الذى يُخضع مصرفه لدخله ، لا أنْ يُخضع دخله لمصرفه ، لأنك حين تخضع دخلك لمصرفك فلابدَّ أنْ تمتدَّ يدك للاقتراض من الناس ، وهذا سيتعبك ويشقّ عليك ، وسوف تُعييك الحيل ، ويقبض الناس عنك نفوسهم ، وتهون فى أعينهم حتى تعيشَ بسبب ذلك فى كرب .

إذن : نقول : الإسراف تجاوز الحدّ فيما يعود عليك بالشر والضرر ، لذلك قال تعالى : ﴿ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ (٥٣) ﴾ [الزمر] أما

---

(١) المحسور : هو الحسير والحسران إذا اشتدت ندامته على أمر فاته . والحسرة : أشد الندم حتى يبقى النادم كالحسير من الدواب الذى لا منفعة فيه . [لسان العرب - مادة : حسر].

الإسرافُ الذى يعود عليك بالخير فهو إسراف لك لا عليك كالذى يدفع زكاة ماله عشرة بالمائة بدلاً من ٢,٥ بالمائة ، لأنه أيقن أن هذا هو الباقى له والمدَّخر عند الله ، فواحد يعمل لأمر دنياه فحسب ، وواحد يعمل للدنيا وللآخرة .

لذلك لما سُئل الإمام على رضى الله عنه : يا إمام أريد أنْ أعرف أنا من أهل الدنيا ، أم من أهل الآخرة ؟ قال : ليس عندى جواب هذا السؤال ، إنما جوابه عندك أنت ، قال : كيف ؟ قال : إذا دخل عليك اثنان : واحد بهدية ، والآخر يريد صدقة أو معونة ، فانظر إلى أيِّهما تبشّ ، وبأيهما ترحب ، فإنْ رحبتَ بصاحب الهدية فأنت من أهل الدنيا ، لأنك تحب مَنْ يعمر لك دنياك ، وإنْ كانت الأخرى فأنت من أهل الآخرة ، لأنك تحب مَنْ يعمر لك آخرتك .

وتعرفون قصة الشاة التى أهديتْ لسيدنا رسول الله ﷺ فتصدقت بها السيدة عائشة ولم تبْق منها إلا كتفها ، فلما سألها رسول الله : « ماذا صنعت بالشاة » ؟ قالت : كلها ذهب إلا كتفها - وكان ﷺ يحب من الشاة الكتف - فقال ﷺ : « بل بقيت كلها إلا كتفها »[(١)]

إذن : الباقى هو ما تصدَّقنا به ، والذاهب ما أكلناه ، ويؤيد هذا الحديث قوله ﷺ فى الحديث : « يا ابن آدم ، ليس لك من مالك إلا ما أكلتَ فأفنيتَ ، أو لبستَ فأبليتَ ، أو تصدقتَ فأبقيتَ »[(٢)]

ثم يفتح الحق سبحانه طاقةَ الأمل لمنْ أسرف على نفسه ، فيقول

---

(١) حديث صحيح . أخرجه أحمد فى مسنده (٦/٥٠) والترمذى فى سننه (٢٤٧٠) ، وقال : هذا حديث صحيح ، وأخرجه أبو نعيم فى الحلية (٥/٢٣) ولفظ الحديث عن عائشة أنهم ذبحوا شاة فقال النبى ﷺ : ما بقى منها ؟ قالت : ما بقى منها إلا كتفها . قال : بقى كلها غير كتفها .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٤/٢٤، ٢٦) ومسلم فى صحيحه (٢٩٥٨) والترمذى فى سننه (٢٣٤٢) وصححه .

لهم : ﴿لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ (٥٣)﴾ [الزمر] القنوط هو اليأس من رحمة الله ، لكن لماذا نيأس من رحمة الله ؟ قالوا : لأنهم أسرفوا على أنفسهم وبالغوا فى المعصية وتمادَوْا فيها ، وحين يعود المسرف ويرجع يلوم نفسه ويؤنبها وتعظم ذنوبه فى نظره ، ولا يرى نفسه أهلاً للمغفرة ولا للرحمة فيداخله اليأس والعياذ بالله .

والمتأمل يجد هذا اللوم للنفس وهذا اليأس من الرحمة هو من جهة أخرى ظاهرة صحية فى الإيمان ، لأن استعظامَ الذنوب وكوْن المسرف لا يرى نفسه أهْلاً للرحمة ، هذا يدل على سلامة إيمانه وعلى خوفه من ربه .

قوله سبحانه : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣)﴾ [الزمر]

قال عنها ابن عباس أنها أرْجَى آية فى كتاب الله لأنها تعطى الأمل لكل مذنب مهما كانت ذنوبه . ولولا أن الله تعالى أعقبها بقوله : ﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ (٥٤)﴾ [الزمر] لأورثتْ الناسَ التهاون وأطمعتهم فى رحمة الله طمعاً يُنسيهم عذابه ونقمته ، فالمؤمن يتقلَّب فى حركة حياته بين الخوف والرجاء ، ولا بدَّ له منهما معاً .

نعم ربك غفور رحيم ، لكن لا بدَّ لكى تكون موضعاً لهذه الرحمة ومُتعلّقاً لهذه المغفرة ، لا بدَّ أنْ تنيب إلى الله ، وأنْ ترجع إليه رجوعاً صادقاً مخلصاً ، لأن الذى يذنب ويتوب ، ثم يذنب ويتوب كالمستهزئ بربه ، نعوذ بالله من هذا .

لما قال ابن عباس عن هذه الآية أنها أرجى آية فى كتاب الله قال أحد جلسائه : وأنا أرى أن أرجى آية فى كتاب الله هى قوله تعالى ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ (٦)﴾ [الرعد] وأنا أنتقد العلماء

الذين يفسرون ﴿عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۝٦﴾ [الرعد] بمعنى : مع ظلمهم ، وهذا لا يستقيم ، ومعنى الآية بحيث نقول عنها أنها أرجى آية فى كتاب الله ، ونلاحظ هنا أن (مع) حرفان أما (على) فثلاثة حروف ، فلا بدّ أن المعنى الذى تؤديه على لا تؤديه مع ، لأنه ما دامت هنا مغفرة للذنب ، والذنب يتطلب صفة القهار والجبار والمنتقم ، لكن مغفرة الله تعلو على الذنب فتمحوه ، وهذا المعنى لا تؤديه مع[1] .

وهنا وقفة للمستشرقين الذين يحاولون النَّيْل من أسلوب القرآن ، وقد رأوْا تعارضاً بين قوله تعالى هنا : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۝٥٣﴾ [الزمر] وبين قوله سبحانه : ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ ۝٤٨﴾ [النساء]

ونقول لهؤلاء : جهلكم بلغة القرآن ومعطيات الأسلوب أوقعتكم فى هذا الخطأ ، لأن الذنب يعنى ارتكاب جُرم جرَّمه الله وجعل له عقوبة ، والشرك بالله ليس ذنباً بهذا المعنى ، لأن الشرك يُخرج صاحبه من الملة أصلاً ، وعليه فليس بين الآيتين تعارض كما تظنون .

قالوا[2] : نزلت هذه الآية : ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ..۝٥٣﴾ [الزمر] نزلتْ فى شأن وحشى قاتل سيدنا حمزة فى أُحُد لما أخذت هندٌ كبد سيدنا حمزة ولاكتْها .

---

(١) ممن قال أن على هنا بمعنى مع ابنُ كثير فى تفسيره (٢/٥٠١) ، قال : « أى : أنه تعالى ذو عفو وصفح وستر للناس مع أنهم يظلمون ويخطئون بالليل والنهار » وقد قاله ابن هشام فى « مغنى اللبيب » (١/١٢٦) أن معنى على هنا المصاحبة وذكر هذا الشاهد من الآية .

(٢) قاله عبد الله بن عباس وعطاء . قاله القرطبى فى تفسيره (٨/٥٩١٤) وقال الواحدى النيسابورى فى أسباب النزول (ص٢٩٢) ، « ويروى أن الآيات نزلت فى وحشى قاتل حمزة» وذكر الرواية بسنده إلى ابن عباس (ص١٩٣) .

ونقول : لقد قُتل حمـزة فى أُحُد ولم يُسلم وحشى بعدها ، إنما أسلم بعد فـترة طويلة ، لذلك قـال الذين يريدون أنْ يُوفِّقـوا بين الأقوال : لعل وحشياً لما قتل حـمزة وتذكر مكانته فى الإسلام ، وأنه أسد الله قنطَ من رحـمـة الله ، وهذا القنوط قـد يدعوه إلى المـزيد من الشـر والفجور ، وقـابله أحد الصالحين وقـال له : لا تقنط من رحمة الله ، فقد قال الله تعالى :﴿ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣) ﴾ [الزمر]

لمـا سمع وحـشىٌّ هذا الكلام أسلم ، فمـا منعه مـن الإسلام إلا الخوفُ مـما فعل ، فـإذا كان أمر المـغفرة على هذا النحـو فلماذا لم يسلم ، وقـد ضمن لـه ربه المغـفرة ؟ إذن : الآيـة سابقـة على هذه القصة ، ولم تنزل فى شـأنه خاصة إنما نزلتْ قبلـه ، لكنها قيلتْ له وقُرئت عليه ، فكانت سبباً فى إسلامه .

وكلمة ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣) ﴾ [الزمر] قـصرت المـغفـرة والرحـمة عليـه سـبحـانه وتعـالى ، لأن كل ذنب من الذنوب حَقٌّ لله تعالى ، وما دام الذنب حـقاً من حقوق الله فـهو وحده الذى يملك أن يغفره وأن يرحم صـاحبه ، وله سبحـانه أنْ يُؤاخذ ويعاقب ، لأن له سبحانه طلاقة القدرة ، وليس معه سبحانه إله آخر يعترض عليه .

وهذا المعنى واضح فى قصة سيدنا عيسى عليه السلام فى قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَـٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِى أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلا أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِى بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ

وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي[1] كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١١٧) إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨) ﴾ [المائدة]

نلحظ هنا فى تذييل هذه الآية أنه لم يقل : فإنك أنت الغفور الرحيم فهو المناسب للمغفرة إنما قال : ﴿ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨) ﴾ [المائدة] فقوله (العزيز الحكيم) دلَّ على أن عيسى عليه السلام يرى أنهم يجب أن يجازوا فى هذه القرية ، ولكن الحق سبحانه له طلاقة القدرة فى أنْ يغفر أو يُعذب ، ولو كان له سبحانه شريك فى هذه المسألة ما قال ذلك ، إنما هو سبحانه عزيز حكيم لا يُعقِّب أحدٌ على ما تصرَّف فيه ، فهو سبحانه الذى يغفر لهم لا لأنه غفور رحيم ، إنما هم يستحقون العقوبة ، وإذا غفر الله لهم فلأنه عزيز حكيم .

﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ (٥٤) ﴾

الإنابة : هى التوبة والرجوع إلى ساحة الإيمان بالله إلهاً واحداً لا شريكَ له . والإسلام : أنْ تنفذ مطلوبَ الله منك فى الأمر والنهى بافعل ولا تفعل .

لكن هل تعنى الإنابة أنهم كانوا مع الله ثم انصرفوا عنه إلى

---

(١) يأتى التوفى بمعنى الإماتة وقبض الروح مثل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ (٩٧) ﴾ [النساء] ، ويأتى بمعنى يجعلكم تنامون بالليل نوماً يشبه الموت فى العجز عن الحركة وعن الوعى مثل قوله ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ (٦٠) ﴾ [الأنعام] .

الكفر ، فيطلب منهم العودة والرجوع إلى ساحة الإيمان مرة أخرى ؟ نقول : لا بل معنى الإنابة هنا الرجوع إلى العهد الأول الذى أخذه الله على عباده وهم فى عالم الذر ، وهم فى ظهر آدم عليه السلام ، هذا العهد الذى قال الله فيه : ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢)﴾ [الأعراف]

فالمعنى ﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ (٥٤)﴾ [الزمر] ارجعوا إلى إيمانكم به الإيمانَ الفطرى الذى أخذ عليكم العهد به . هذا الإيمان الفطرى هو الذى يصحب الإنسان فيستيقظ ضميره بعد المعصية فيتوب أو بعد الكفر فيؤمن ، هذا الإيمان الفطرى المستقر فى قرار النفس البشرية هو الذى ينبهها إنْ غفلت ، هذا الإيمان هو الذى نبَّه خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وغيرهما ، فآمنوا حينما رجعوا إلى العهد الأول والإيمان الفطرى .

﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ (٥٤)﴾ [الزمر] ما معنى النُّصْرة هنا والكلام عن الآخرة ؟ أى : لا يتناصر أهل الباطل ولا يدافع أحدٌ منهم عن الآخر لا التابع ولا المتبوع ، كما قال سبحانه فى موضع آخر : ﴿مَا لَكُمْ لا تَنَاصَرُونَ (٢٥) بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (٢٦) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٧) قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ (٢٨) قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٢٩) وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ (٣٠)﴾ [الصافات]

نعم ، لا يتناصرون لأن الموقف هنا موقف خصومة ولوم ، حيث يُلْقى كل منهم التبعة على الآخر ، ويتبرأ كل منهم من الآخر ؛ لذلك

قال سبحانه : ﴿الأَخِلاَّءُ[1] يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ (٦٧)﴾ [الزخرف]

﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٥٥)﴾

كلمة (أحسن) أفعل تفضيل يدلّ على المبالغة ، ونفهم منه أن الأقل فى الخير حسن ، نقول : هذا حسن وهذا أحسن منه . والأمر هنا باتباع الأحسن ، فمثلاً الحق سبحانه يُنزِّل من الأحكام ما يرضى النفس البشرية كى لا تمتلىء غيظاً وكرهاً للناس ، فيقول سبحانه : ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ (١٢٦)﴾ [النحل]

يعنى : إياك أنْ تتجاوز المثلية إنْ أردتَ أن تعاقب ، فإنْ قدرتَ على هذه المثلية دون أن تتجاوزها فهذا حسن ، لكن الأحسن منه أنْ تعفو كما قال سبحانه فى آية أخرى : ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ..(١٧٨)﴾ [البقرة]

وقال : ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ (٤٣)﴾

[الشورى]

هذا هو الأحسن ومن ذلك قوله تعالى فى مسألة التبنى : ﴿ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ (٥)﴾ [الأحزاب] تعرفون قصة تبنِّى رسول الله ﷺ لزيد بن حارثة ، وأن زيداً خُيِّر بين أهله وبين رسول الله فاختار البقاء مع رسول الله ، وقال : ما كنتُ لأختار على رسول

---

(١) الأخلاء جمع خليل ، وهو الصديق المخلص .[القاموس القويم١/٢٠٨] .

الله أحداً ؛ لذلك كافأه رسول الله ونسبه إلى نفسه ، فقال : زيد بن محمد.(١)

فلما أراد الحق سبحانه أن يحرم التبنى وأنزل ﴿ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ ۝﴾ [الأحزاب] أنصف سيدنا رسول الله وجعل فعله حسناً ، لكن مراد الله أحسن وفعل رسول الله قسْط ، واختيار الله أقسط ﴿هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ ۝﴾ [الأحزاب] والحكمة من ﴿ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ ۝﴾ [الأحزاب] حتى لا تهدروا سبب الوجود وهو الأب ، لأن إهدار سبب الوجود المباشر وهو الأب يُجرِّئك أنْ تنكر سببَ الوجود الأعلى سبحانه .

أو نقول : معنى ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم ۝﴾ [الزمر] أن القرآن نزل وفى القوم ديانتان اليهودية وكتابها التوراة ، والنصرانية وكتابها الإنجيل ، ولما نزلتْ هذه الكتب وغيرها كان لها أناس آمنوا بها ، وآخرون كفروا وأشركوا ، بل ومنهم ملاحدة .

فالأمر فى (وَاتَّبِعُوا) أمر للجميع يعنى : يا مَنْ آمن بموسى ، ويا مَنْ آمن بعيسى ، لقد كان هذا الدين فى وقته حسناً ، أما الآن فقد جاء الإسلام الدين الخاتم المهيمن على كل الأديان ، وأصبح هو الأحسن الواجب عليكم اتباعه .

ومرة يكون أفعل التفضيل يعطى للواقع ، لكنه لا ينظر إلى المقابل وهو الأقبح ، إنما ينظر إلى المساوى فى الصفة بالقلة ، إلا فى شىء واحد لاحظناه فيما يتعلق بالحق سبحانه وتعالى . فمن أسمائه الكبير وليس من أسمائه الأكبر ، مع أنه كان المفروض حسب

---

(١) أخرج الترمذى فى سننه (٣٨١٥) من حديث جبلة بن حارثة أخو زيد قال : قدمت على رسول الله ﷺ فقلت : يا رسول الله ابعث معى أخى زيداً ، قال : هو ذا . قال : فإن انطلق معك لم أمنعه ، قال زيد : يا رسول الله والله لا أختار عليك أحداً . قال : فرأيت رأى أخى أفضل من رأيى . قال الترمذى : هذا الحديث حسن غريب .

القاعدة أن نقول الأكبر لأنها مبالغة من الكبير ، فلماذا إذن ؟

نقول : كلمة أكبر وردتْ على أنها صفة للحق سبحانه نسمعها كل يوم فى كل أذان وفى كل إقامة للصلاة ، والصلاة عبادة لها خصوصيتها ومنزلتها فى الدين ، فهى العبادة التى تتكرر خمس مرات كل يوم ، وهى العبادة التى لا تسقط بحال عن المؤمن ما دام فيه نفَسٌ يتردّد ، وهى العبادة التى لم تُشرع بالوحى كباقى العبادات ، إنما شُرعت بالمباشرة فى رحلة المعراج ، هذه العبادة حين ننادى لها نقول : الله أكبر ولم يقل : الله كبير .

وهنا موضع العظمة مع أن أكبر أبلغ فى المعنى من كبير ، لأن التكاليف من الحق سبحانه لا تريد منك مجرد الصلاة والصيام والحج .. الخ إنما تريد منك أنْ تؤدى كل حركة نافعة فى الحياة مُعينة للتدين ؛ لذلك قالوا فى القواعد الشرعية : ما لا يتم الواجبُ إلا به فهو واجب .

ولك أنْ تتأمل مثلاً فريضة الصلاة ، كم من الأعمال لا بدّ منها لتؤدى هذه الفريضة ؟ خُذْ مثلاً ستر العورة وهى واجب لا تتم الصلاة إلا به ، لكى تستر عورتك لتصلى تحتاج إلى ثوب تلبسه ، كيف يتوفر لك هذا الثوب ؟ إنه يحتاج إلى خياط يخيطه ، ويحتاج لتاجر التجزئة الذى تشترى منه القماش ، ثم تاجر الجملة ، ثم مصنع النسيج والغزل والصباغة والمحلج ، ثم الفلاح الذى يزرع القطن ويجمعه .

كل هذه العملية تحتاج إلى عُدَد وماكينات وآلات وأيد عاملة ، كذلك الحال فى الطعام الذى لا بدَّ لك منه لتقوى على أداء الفرائض ، كل هذه الحركة من أجلك ، تخدمك وتعينك ، فهذه الأعمال الدنيوية

التى لا تقوم الديانة إلا بها هى واجبة لا يُستهان بها ، بل ينبغى المحافظة عليها وتقديسها ، لأنها فى منزلة الواجب .

وحين يأخذك ربك من هذه الأعمال إلى الصلاة مثلاً لا يأخذك من عمل تافه هيِّن لا قيمة له ، إنما يأخذك من عمل هو فى حَدِّ ذاته عبادة ، لذلك جعله كبيراً أما الذى يناديك للصلاة فأكبر من هذا كله ، لذلك لم يُناد الحق سبحانه المؤمن فى صلاة إلا فى صلاة الجمعة ، حيث قال سبحانه : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ .. (٩) ﴾ [الجمعة]

وخَصَّ البيع دون سائر الأعمال ، لأنه ثمرة باقى الأعمال من تجارة وزراعة وصناعة ، والإنسان أحرص على البيع منه على الشراء ، لأن البيع هو الصفقة عاجلة الربح ؛ لذلك نجد الإنسان حريصاً أن يبيع على خلاف المشترى ، فالمشترى مثلاً حين لا يجد السلعة التى يريدها يقول (بركة يا جامع) لأنه سيدفع من جيبه ، أما البائع فيأخذ ويربح .

فإذا ما انتهتْ الصلاة ردَّك ربك إلى العمل الذى استدعاك منه وأعادك إلى دنياك : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ .. (١٠) ﴾ [الجمعة]

إذن : لا تستهنْ بعمل الدنيا ولا تظنه بعيداً عن الدين ، بل هو جزء منه ، وما لا يتم الواجب الدينى إلا به فهو واجب ، والذى يعصى فى هذا مثل الذى يعصى فى هذا ، فحين نقول فى النداء للصلاة : الله أكبر تذكَّر أن غيره كبيرٌ لا يُستهان به ، لكن الذى يعطيك الطاقة أكبر من هذا الكبير ، فلا تنشغل بالكبير عن الأكبر .

والآن تتضح الحكمة من أن الله تعالى سمَّى نفسه الكبير لا

الأكبر ، فحين نقول : الله كبير هذا يعنى أن ما عداه صغير ، لكن لو قلنا أكبر فما عداه كبير .

إذن : فحين تقف فى أحكامه تعالى أمام (حسن) و(أحسن) فاتبع الأحسن مما أنزل : ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم ..(٥٥)﴾ [الزمر]

وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ (٥٥)﴾ [الزمر]

كلمة (بغتة) يعنى فجأة ، والعذاب لا يفاجئ إلا الغافلَ اللاهى الذى يعيش ، وليس فى باله هذه المسألة ، وإلا لو كان فى باله لاتقاه وتجنَّب أسبابه ، وحين يأتى لا يكون بغتة .

لكن كيف يفاجئه العذاب ؟ نقول : ما الفارق بين أن يعيش الإنسانُ فى حياته الدنيا وبين أنْ يلاقى العذاب ؟ الفارق بينهما أن يموت ، مجرد أن يموت وتخرج روحه ينتقل من سعة الدنيا إلى عذاب الآخرة إنْ كان من أهل العذاب والعياذ بالله .

ومعلوم أن خروج الروح ليس له ميعاد ولا يعلمه أحد ، لأن النفَس ربما فى أىِّ لحظة يدخل ولا يخرج ، هذه المسألة ينبغى أن تكون على بال المؤمن لا يغفل عنها أبداً .

﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ (٥٦)﴾

هذا نموذجٌ للنفس حين تتحسَّر وتلوم نفسها ، لماذا أوصلتَ نفسك إلى هذا الموقف ، طلبنا منك أنْ تنيبَ إلى الله ، وأنْ تسلمَ له فى أحكامه ، وأن تتبع أحسن ما أُنزل إليك لترفع عن نفسك الحرج

وتُجنِّبها اللوم ، ولا تقف هذا الموقف لكنك لم تستجب .

كلمة ﴿ يَـٰحَسْرَتَىٰ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الزمر] هذا أسلوب نداء ، فأىُّ شىء ينادى العبد ؟ ينادى الحسرة والحزن والأسى يقول : يا حسرتى احضرى تعالَىْ ، فهذا أوانك ، يتحسَّر على نفسه بعد أنْ فاتته الفرصة ، ومعلوم فى النداء أنه لا ينادى إلا النافع لكن الموقف هنا موقف تحسُّر وندم ، والحسرة هنا مضافة لياء المتكلم والألف للإطلاق .

ومعنى ﴿ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنبِ اللَّهِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الزمر] على ما قصَّرت فى حق الله وفى طاعته[1] ، والتفريط هو إهمال ما يجب أنْ يتقدم ، لأن الفرصة إنْ فاتت لا تُعوّض ، كالتلميذ الذى يهمل دروسه ونراه يهتم مثلاً ليلة الامتحان . نقول له : يا بنى (قبل الرِّماء تُملأ الكنائن)[2] هذا مَثَلٌ يُضرب لمن لا يستعد للأمر قبل أوانه ، فالصياد يخرج للصيد وقد أعدَّ له أدواته ، حتى إذا ما وجد صيده بادره قبل أنْ يهرب ، لأن الغزالة مثلاً لا تنتظر الصياد حتى يملأ كنانته أو يُعدّ سهمه .

إذن : أنت تتحسَّر على نفسك وتلومها ، لأنك لم تستغل الفرصة وأهملتَ حتى فاتتك وهى لا تُعوَّض ، فليس أمامك إذن إلا التحسُّر وعضّ أصابع الندم ، فكأن الأمرين اللذين سبقا هذه الآية وهما : ﴿ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ .. ﴿٥٤﴾ ﴾ [الزمر] ﴿ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ

---

(١) ذكر القرطبى فى تفسيره (٥٩١٦/٨) لمعنى (جنب الله) أقوالاً كثيرة ، منها :
- طاعة الله . قاله الحسن - ذكر الله . قاله الضحاك .
- ثواب الله . قاله أبو عبيدة - طلب جواره وقربه وهو الجنة . قاله الفراء .
- طريق الله الذى دعانى إليه . قاله الزجاج .

(٢) ذكره أبو هلال العسكرى فى جمهرة الأمثال ، وقال : يضرب مثلاً فى الاستعداد للنوائب والأمور قبل حلولها . والكنائن جمع كنانة ، وهى الجعبة ، وكذا ذكره الزمخشرى فى المستقصى فى أمثال العرب .

إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم .. (٥٥) ﴾ [الزمر] كان ينبغى العمل بهما ليحموا أنفسهم من أنْ يقولوا ساعةَ يرون العذاب ﴿ يَـٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنبِ اللَّهِ .. (٥٦) ﴾ [الزمر] فرحمته تعالى ورفقه بعباده لا يحب منهم أنْ يقولوا هذه الكلمة ، فالله لا يريد لعبده أنْ يقف موقف التحسُّر ، ولا يرضى له ذلك ، فحين يقول لنا : لا تقنطوا من رحمة الله ، وأنيبوا ، وأسلموا ، وابتغوا أحسن ما أنزلَ إليكم يريد أن ينبه الغافل ويحذر مَنْ يفكرُ فى الكفر ويُذكِّره بالعواقب ، وبما سيكون منه حين يرى العذاب من حسرة .

والحسرة أسف وندم على خير فات لا يمكن تداركه ، والكافر لا يتحسَّر حسرةً واحدة إنما حسرات كثيرة ملازمة له ، فكلما رأى العذاب الذى ينزل به تحسَّر ، وكلما رأى المؤمنين فى نعيم تحسَّر ، وكلما تذكَّر دُنياه تحسَّر .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّـٰخِرِينَ (٥٦) ﴾ [الزمر] يعنى : الأمر لم ينته عند حَدِّ التفريط والتقصير فى جنب الله ، إنما تعدَّاه إلى السخرية ممَّنْ يقفون فى جنب الله ، فالذنب مُضَاعف ، وسبق أنْ ذكرنا نموذجاً من سخرية أهل الباطل بأهل الحق ، واستهزائهم بهم فى قوله تعالى من سورة المطففين :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٣٠) وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ[1] (٣١) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَـٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ (٣٢) وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ (٣٣) فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٣٤) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ (٣٥) هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦) ﴾ [المطففين]

---

(١) الفكه : كثير المزاح والاستهزاء بالآخرين ، ومنه قوله تعالى ﴿ وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ (٣١) ﴾ [المطففين] يسخرون من المؤمنين ويتندرون بهم . [القاموس القويم ٢/٨٨] .

وكثيراً ما نسمع أهل الباطل يسخرون من أهل الحق : يقولون فلان هذا صُللى ، يا عم خذنا على جناحك .. الخ لكن يكفى أهل الإيمان أن الله هو الذى سيأخذ لهم حقهم فى دار البقاء ، فإنْ سخروا منكم فى الدنيا الفانية فسوف تسخرون منهم فى الباقية الدائمة ، وإنْ ضحكوا منكم ضحكاً موقوتاً منقطعاً فسوف تضحكون منهم ضحكاً أزلياً باقياً .

وفى هذه الآية ملحظ ﴿وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ (٥٦)﴾ [الزمر] حين نتتبع كلمة النفس فى القرآن الكريم نجد أنها تأتى دائماً مؤنثة ، كما فى قوله تعالى :

﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ (٥٣)﴾ [يوسف] وقوله : ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨)﴾ [الشمس]

أما هنا فغلَّب التذكير ، فقال حكاية عن النفس : ﴿وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ (٥٦)﴾ [الزمر] ولم يقل الساخرات ، لماذا ؟ قالوا : النفس مؤنثة ، فإن أُريد بها الإنسان تُذكَّر .

وبعد أن حذرنا الحق سبحانه من موقف التحسُّر والندامة فى الآخرة يحذرنا من شىء آخر تتعرض له النفس حين ترى العذاب ، فيقول سبحانه :

﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٥٧) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٨)﴾

قوله تعالى : ﴿أَوْ تَقُولَ (٥٧)﴾ [الزمر] أى : النفس ﴿لَوْ أَنَّ اللَّهَ

هَدَانِي (٥٧) ﴾ [الزمر] أى : فى الدنيا ﴿ لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٥٧) ﴾ [الزمر] وهذا عجيب ، عجيبٌ أنْ تكذب حتى فى الآخرة ، لأن معنى ﴿ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي (٥٧) ﴾ [الزمر] أنه سبحانه لم يهدك وهذا كذب .

يقول الإنسان مدافعاً عن نفسه : إن عدم وجودى فى صَفِّ المتقين أن الله لم يهدنى ، هذه كذبة لأن الله هداك ودلَّكَ وأرشدك إلى طريق الخير وبيَّن لك الحلال والحرام ، لكنك لم تتبع هَدْيه ولم تَسر على منهجه ﴿ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً (٥٨) ﴾ [الزمر] يعنى : عودة ورجعة إلى الدنيا مرة أخرى .

كما قال سبحانه فى موضع آخر : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) ﴾ [المؤمنون] هذه كلها أمانى كاذبة فلا تُصدِّقوهم ، فلو رجعوا لعادوا لما كانوا عليه وكما كذبوا فى الأولى ﴿ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي (٥٧) ﴾ [الزمر] كذبوا فى ﴿ فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٨) ﴾ [الزمر]

والكذب قد يُتصوَّر من الإنسان فى الدنيا ، لكن عجيبٌ أنْ يكذب فى الآخرة ، وهو بين يدَىْ ربه عز وجل ، لذلك سيقول الحق بعدها : ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ (٦٠) ﴾ [الزمر]

والظاهر أن الكذب (علق) معهم وتعوَّدوا عليه حتى أخذوه معهم فى الآخرة .

ثم يردُّ الحق على هذا الكذب فيقول سبحانه :

﴿ بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٥٩) ﴾

كلمة (بَلَى) حرف جواب لا يأتى إلا بعد نفى ، فيفيد إثباتَ

المعنى المنفى قبله ، كما فى قوله تعالى :﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ (١٧٢) ﴾ [الأعراف] فيأتى الجواب ﴿ قَالُوا بَلَىٰ (١٧٢) ﴾ [الأعراف] يعنى : لا ، أنت ربنا ، والقاعدة أن نفى النفى إثبات ، ومثله : ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ (٨) ﴾ [التين] على مَنْ يسمعها أن يقول : بلى يا رب ، يعنى : لا .. أنت أحكم الحاكمين .

إذن : فأين النفى السابق على قوله هنا ﴿ بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي (٥٩) ﴾ [الزمر] قالوا : كَوْنه نفى الهداية فى قوله : ﴿ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي (٥٧) ﴾[الزمر] لذلك جاء الجواب (بلى) يعنى : لا بل هديناك ﴿ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا (٥٩) ﴾ [الزمر] والآيات جمع آية ، وهى الشىء العجيب الملفت للنظر الداعى إلى التأمل والتفكر للعقل وللبصيرة .

والآيات كما ذكرنا على ثلاثة أنواع : آيات كونية تدل على قدرة المكوِّن سبحانه كقوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ (٣٧) ﴾ [فصلت]

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ (٢٣) ﴾ [الروم]

وهذه الآيات الكونية التى تلفتنا إلى المكوِّن الأعلى هى الوسيلة الأولى للإيمان بالله ، لذلك كلما استنبط العلماء فى الكون شيئاً جديداً أو اكتشفوا جديداً وجدنا له أصلاً فى كتاب الله ، قالها الحق سبحانه منذ أربعة عشر قرناً من الزمان .

هذه الآيات الكونية يُظهرها الحق سبحانه حتى على أيدى الكافرين به ، لذلك حذَّرنا أنْ يتدخل علماء الشرع والفقهاء فى علوم الدنيا والكونيات؛ لأن الكونيات لها علماء اختصُّوا بها ، وسوف يخدم هؤلاء الدين وقضية الإيمان بالله ، وسيُظهرون لكم الأسانيد والأدلة على وجوب الإيمان بالله صاحب هذا الكون ومُكوِّنه .

إذن : فهؤلاء العلماء يتعبون ويفكرون ويبحثون فى الكونيات لخدمة المؤمن بالله وخدمة الدين ، فهم - وإن كانوا كافرين بالله - جند من جنود الحق ، وصدق الله تعالى : ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِى الآفَاقِ[1] وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ (٥٣)﴾ [فصلت]

والعجيب أنهم سيُحرمون الأجر على هذا الجهد المبذول ، لأنهم فعلوا ذلك وتوصَّلوا إلى ما توصَّلوا إليه ، وليس فى بالهم الحق سبحانه ، إنما فى بالهم خدمة الإنسانية ، فليأخذوا أجورهم من الإنسانية ، وفعلاً كرَّمتهم الإنسانية وصنعت لهم التماثيل ، واحتفلت بهم ؛ لذلك ليس لهم نصيب فى الآخرة .

وينطبق عليهم قوله تعالى : ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا (٢٣)﴾ [الفرقان]

وقوله : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ[2] يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩)﴾ [النور]

يعنى : فوجىء بأن للكون إلهاً خالقاً ، فوجىء بالحساب والجزاء، وهذه أمور لم تكُنْ على باله فى الدنيا .

النوع الثانى من الآيات هى المعجزات التى تصاحب الرسالات ، لتدلَّ على صدق الرسول فى البلاغ عن ربه ، ومنها قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ .. (١٠١)﴾ [الإسراء]

---

(١) الآفاق : جمع أفق . وهو الناحية ، وخط التقاء السماء بالأرض فى رأى العين ، ويستعار لمدى الاطلاع والذكاء فيقال هو واسع الأفق . ومنه قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ (٢٣)﴾ [التكوير] أى : ما بين السماء والأرض .

(٢) القيعة : الأرض الواسعة السهلة المطمئنة المستوية الحرة التى لا حزونة فيها ولا ارتفاع ولا انهباط ، لا حصى فيها ولا حجارة ولا تنبت الشجر . [لسان العرب - مادة : قوع] .

أما النوع الأخير فهى الآيات القرآنية التى تحمل أحكام الدين ، والتى قال الله فيها هنا : ﴿بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٥٩)﴾ [الزمر]

وقوله تعالى : ﴿وَاسْتَكْبَرْتَ (٥٩)﴾ [الزمر] استكبر يعنى : طلب أنْ يكون كبيراً ، يعنى : لم يتكبر فحسب ، إنما طلب ذلك وسعى إليه لكنه لم يُجبْ لذلك ؛ لأن الذى يستكبر لابدَّ أن يكون فى غنىً عمَّنْ استكبر عليه ، وإذا كنتَ فى مُلْك الله وتحت سلطانه وتأكل من رزقه وتعيش فى خيره ، فكيف تتكبر عليه ؟

ثم إن المتكبر ينبغى أن يتكبر بشىء ذاتى فيه لا يسلب منه ؛ لذلك الذين يتكبرون فى الدنيا إنما ينازعون الله صفته ؛ لأنهم يتكبّرون بلا رصيد ، ومَنْ من الخلق عنده ذاتية لا تُسلب منه ، لذلك نرى مَنْ يتكبر بعزٍّ يُذله الله ، ومَنْ يتكبر بغنىً يُفقره الله ، ومَنْ يتكبر بصحته وعافيته يُمرضه الله .

إذن : التكبّر الحق أنْ تتكبر بشىء تملكه لا يُسلب منك ، وشرُّ المتكبرين مَنْ يتكبر على ربه وخالقه والقادر على أن يسلب منه كل شىء ، أما الذى يتكبر على الخلق فغافلٌ عن عظمة ربه وكبريائه ؛ لأنه لو عرف عظمة ربه وكبرياءه لاستحى أنْ يتكبر وأنْ ينازع الله صفة من صفاته .

﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ (٦٠)﴾

قوله سبحانه :﴿الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ (٦٠)﴾ [الزمر] أى : فى

قولهم : ﴿لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي (٥٧)﴾ [الزمر] وفى غيرها ؛ لأن الله هداك ودلَّكَ وأرشدك حين بعث لك الرسل مُؤيَّدةً بالمعجزات ، وأنزل لك الكتب وبيَّن لك الحلال والحرام ، وكذبوا فى غير ذلك كالذين قالوا : ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ (١٨١)﴾ [آل عمران] وكالذين قالوا : ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ (٦٤)﴾ [المائدة] ومثلهم الذين ادعوا أن مع الله آلهة أخرى .

كل هؤلاء كذبوا على الله ؛ لذلك يأتون يوم القيامة ﴿وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ (٦٠)﴾ [الزمر] نعم مسودة لأنهم الآن يواجهون الحق الذى كذبوا عليه ، فلابُّد أنْ تكون وجوههم مُسْوَدة عليها غبرة [1] ترهقها قترة [2] مما فعلوه .

وهذا ليس ذماً للسواد فى ذاته ، لأن السواد خَلْق من خَلْق الله لا يُذَمُّ فى ذاته ، فقد ترى الرجل أبيض اللون ، لكن تعلوه قتامة وقتر ، فتجد وجهه مظلماً والعياذ بالله ، وهذا أثر المعاصى والذنوب على الوجه فى الدنيا قبل الآخرة .

وترى العبد الزنجى كأن وجهه زبيبة ، لكن يعلوه ضياء وإشراق، وتجد على وجهه علامات الصلاح ، وكأن وجهه يتلألأ نوراً ولا تزهد أبداً فى النظر إليه ؛ لذلك يقول سبحانه وتعالى : ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ (٣٨) ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ (٣٩) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤٠) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (٤١) أُولَـٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ (٤٢)﴾ [عبس]

إذن : الوصف لا يُمدح ولا يُذم لذاته ، والسواد والبياض هنا

---

(١) الغبرة : ما دقَّ من التراب . قال تعالى : ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤٠)﴾ [عبس] أى : عليها غبار وتراب كناية عن الذل والشقاء . [القاموس القويم ٢/٤٧] .

(٢) القترة : غبرة يعلوها سواد كالدخان . [لسان العرب - مادة : قتر] قال ابن عباس : ﴿تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (٤١)﴾ [عبس] أى : يغشاها سواد الوجوه . نقله ابن كثير فى تفسيره (٤/٤٧٤).

ليس هو السواد كما نعرفه فى الدنيا فهى عملية نسبية ، وكنت أرى بعض الصالحين وكأن فى وجهه كشافاً يُضىء ، وتبدو الفرحة على وجهه وكأن نورَ اليقين وبشاشة الإيمان تعدَّتْ داخله ونضحَتْ على وجهه نوراً ونضارة ، وهو صاحب بَشْرة سوداء مثل الأبنوس .

ومثل هذا نجده فى قوله تعالى : ﴿إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ (١٩)﴾ [لقمان] فهل يُذمّ صوت الحمير إنْ صدر منها ؟ لا لأن الخالق خلقه على هذه الصورة ، وعُلو صوت الحمار لحكمة لأنه قد يختفى مثلاً وراء جبل أو تَلٍّ عالٍ ، فلا يهتدى إليه صاحبه إلا من خلال صوته ، لكن يُذمُّ عُلو الصوت فى الإنسان ، فهو أنكر الأصوات إنْ صدر منه ما يشبه صوت الحمار .

كذلك فى : ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا[1] (٥)﴾ [الجمعة] فليس هذا ذماً للحمار ، لأن الحمار فى الحمل يؤدى مهمة وهى الحمل فحسْب ، فهو يحمل حمله دون تبرُّم ودون اعتراض ، لكن يُذمُّ الإنسان إنْ تشبَّه بالحمار فارتضى لنفسه أنْ يحمل فقط دون أنْ يعى ما يحمله ، ودون أنْ يفهم ، وأنْ يُطبق ما علم .

وقوله : ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى[2] لِّلْمُتَكَبِّرِينَ (٦٠)﴾ [الزمر] هذا استفهام منفى نجيب عليه فنقول : بلى يا رب ، يعنى : لا بل لهم مثوى فى جهنم ، والمعنى : ماذا يظنون ؟ أيظنون أنه لا محلَّ لهم

---

(١) الأسفار : جمع سفر ، وهو الكتاب الكبير . وسفرت الكتاب : كتبته والسافر : الكاتب ، وجمعه سفرة أى كتبة . والسِّفر عند أهل الكتاب : جزء من التوراة أو من الكتب المقدسة . [القاموس القويم ١/٣١٥]

(٢) ثوى بالمكان : حله وأقام فيه واستقر به . والثاوى : المقيم مثل قوله تعالى : ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ (٤٥)﴾ [القصص] أى : مقيماً .

فيها ولا مكان ، إن مكانهم جاهز ومُعَدٌّ بأسمائهم ينتظرهم ويشتاق إليهم ، فليس فى جهنم أزمة مساكن كما قلنا .

فالحق سبحانه خلق أزلاً الخلق ، وجعل لكل واحد منهم مكاناً فى الجنة على اعتبار أن الخلق جميعاً سيؤمنون بالله ، وجعل لكل واحد منهم مكاناً فى النار على اعتبار أن الخلْق سيكفرون ، فإذا ما دخل أهل الجنة الجنةَ ، ودخل أهلُ النار النارَ وُزِّعَتْ أماكن أهل النار المعدة لهم لو آمنوا على أهل الجنة ، كما قال سبحانه : ﴿ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٧٢) ﴾ [الزخرف]

ومعنى (مَثْوَى) أى : مكان إيواء وإقامة دائمة ﴿ لِّلْمُتَكَبِّرِينَ (٦٠) ﴾ [الزمر]

﴿ وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦١) ﴾

هذا هو المقابل ، فالكافرون مثواهم وإقامتهم فى جهنم ، أما المؤمنون فينجيهم ربهم ﴿ بِمَفَازَتِهِمْ (٦١) ﴾ [الزمر] أى : بفوزهم ونَيْلهم لمرادهم . ونعيم الآخرة يُنال بشكلين : إما أنْ يدخل المؤمنُ الجنةَ بدايةً ، وإما أنْ يكون من أهل النار لكن تتداركه رحمة الله فيُزحزح عنها إلى الجنة .

كما قال سبحانه : ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ (١٨٥) ﴾ [آل عمران] نعم فاز الفوز الأكبر ؛ لذلك يسمون الصحارى مفازةً مع أنها مُهلكة ينقطع فيها السائر ، لكن سمَّوْهَا مفازة تيمناً أن ينجو سالكها ، وكما يسمون اللديغ من الثعبان أو الحية يسمونه السليم ، أملاً فى أنْ يَسْلم من لدغتها .

وإذا ما نجاهم الله وكتب لهم الفوز فقد سلموا من مجرد مَسِّ العذاب ﴿لا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦١)﴾ [الزمر] لأن كل المشاهد التى يرونها تفرحهم ، ولا شىء يُحزنهم أبداً ، كما قال سبحانه فى موضع آخر : ﴿لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ هَـٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ (١٠٣)﴾ [الأنبياء]

﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ (٦٢)﴾

بعد أن ذكر الحق سبحانه وعده ووعيده وبيَّن عاقبة الكافرين وعاقبة المؤمنين عاد إلى قضية عقدية أخرى ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ (٦٢)﴾ [الزمر] وكأنه يقول : ما الذى صرفهم عن أنْ يؤمنوا بالله الإله الحق ، وهو سبحانه خالق كل شىء ؟

بعضهم أخذ هذه الآية ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ (٦٢)﴾ [الزمر] ونسب كل الأفعال إلى الله ، فالله فى نظرهم خالق كل شىء ، خالق الإيمان وخالق الكفر ، وخالق الطاعة وخالق المعصية ، وبالتالى قالوا : فلم يعذب صاحبها ؟

نقول : هناك مَنْ يتعصب لقدرة الحق فيقول : كل شىء بقدرته تعالى ، وهناك مَنْ يتعصب للعدالة فيقول : إن الإنسان هو الذى يفعل وهو الذى يسعى لنفسه ، لذلك يُثاب على الطاعة ويُعاقب على المعصية . وهذا خلاف ما كان ينبغى أنْ يُوجد بين علماء ؛ لأن الطاعة أو المعصية فعلٌ ، والفعل ما هو ؟

الفعل أداء جارحة من الجسم لمهمتها . فالعين ترى ، لكن الخالق سبحانه وضع للرؤية قانوناً ، وجعل لها حدوداً ، فالعين ترى ما أُحلَّ

لها وتغضّ عما حُرِّم عليها ، كذلك الأذن واليد والرِّجْل واللسان ... الخ فإن وافقتَ فى الفعل أمر الشرع فهو طاعة ، وإنْ خالفتَ أمر الشرع فهى معصية .

فمثلاً الرجل الذى يرفع يده ويضرب غيره ، بالله هل هو الذى جعل جارحته تفعل أم أنه وجَّه الجارحة لما تصلح له ؟ إنه مجرد مُوجِّه للجارحة ، وإلا فهو لم يخلق فيها الفعل ، بدليل أنه لا يعرف العضلات التى تحركتْ فيه ، والأعصاب التى شاركتْ فى هذه الضربة .

إذن : نقول إن الفعل شىء ، وتوجيه الجارحة إلى الفعل شىء آخر ، فالفعل كله مخلوق لله ، فهو سبحانه الذى أقدر الأيدى أنْ تضرب ، وهو الذى أقدرها أنْ تمتد بالخير للآخرين ، الخالق سبحانه هو الذى أقدر لسان المؤمن أن يقول : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، وأقدر لسان الكافر أن ينطق بكلمة الكفر والعياذ بالله ، العين فى استطاعتك أنْ تنظر بها إلى الحلال ، وفى استطاعتك أن تنظر بها إلى الحرام .

إذن : أقدر الله كلَّ جارحة على المهمة التى تؤديها ، فإنْ كانت هذه المهمة موافقة للشرع فهى طاعة ، وإنْ كانت غير موافقة له فهى معصية . وعليه نقول : إن الله تعالى هو خالق الفعل على الحقيقة . إذن : ما فعل العبد فى المعصية حتى يُعاقب عليها ؟ وما فِعْله فى الطاعة حتى يُثابَ عليها ؟

إن فعل العبد ودوره هنا هو توجيه الطاقة التى خلقها الله فيه ، هذه الطاقة التى جعلها الله صالحة لأنْ تفعل الشىء وضده ، فالقدرة

على الفعل ليستْ من عندك ، إنما من عند الله ، وعليك أنت توجيه الطاقة الفاعلة .

فمَنْ نظر إلى الفعل فالفعل كله لله ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ (٦٢)﴾ [الزمر] ومَنْ نظر إلى التوجيه والاختيار فهو للعبد ؛ لذلك نقول : إن العاصى لم يعْصِ غصْباً عن الله ، والكافر لم يكفر بعيداً عن علم الله وإرادته ، لأن الحق سبحانه لو شاء لجعل الناس جميعاً أمة واحدة على الطاعة والإيمان ، لكن ترك لهم الاختيار وتوجيه الأفعال ليرى سبحانه – وهو أعلم بعباده – مَنْ يأتيه طواعية وباختياره .

لذلك تأمل قوله سبحانه : ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً (٧٢)﴾ [الأحزاب]

فمن الخطأ أن نقول : إن الإنسان وحده هو المخيَّر ، إنما الكون كله مُخيَّر أمام الحق سبحانه ، لكن الفرق بين اختيار السماوات والأرض واختيار الإنسان أن السماوات والأرض لما خُيِّرت اختارت أنْ تتنازل عن مرادها لمراد خالقها سبحانه ، فهى اختارتْ بالفعل ، اختارت ألاَّ تكون مختارة ، وأن تكون مقهورة لمراد ربها ، أما الإنسان فقَبِلَ الأمانة واختار أن يكون مختاراً أمام خيارات متعددة .

وسبق أن أوضحنا الفرق بين تحمُّل الأمانة وأداء الأمانة ، وأن العبد قد يضمن نفسه عند التحمل ، لكن لا يضمن نفسه عند الأداء ، فهى إذن أمر ثقيل ، لذلك وصف الحق سبحانه الإنسان فى تحمله وتعرُّضه للأمانة بأنه ظلوم وجهول .

إذن : إياك أن تدخل فى متاهة فتفهم قوله تعالى : ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ (٦٢)﴾ [الزمر] على غير وجهه ، فتقول : خالق كفر الكافر

وعصيان العاصى ، فلماذا يعذبهم ؟ لأن الكافر هو الذى اختار الكفر ووجَّه طاقة الله لغير ما أراد الله ، والعاصى كذلك وجَّه طاقة الله إلى خلاف ما أمر به الله .

وهناك مَنْ يقول فى ﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ (٦٢) ﴾ [الزمر] أن الكلية هنا إضافية ، كما فى قوله تعالى فى قصة بلقيس : ﴿ وَأُوتِيَتْ[1] مِن كُلِّ شَيْءٍ (٢٣) ﴾ [النمل] يعنى : لم تُؤْتَ بكل شىء فمن هنا للتبعيض ، والمعنى : أنهم يريدون أنْ يُخرِجوا فعل العباد من هذه المسألة ، وهذا لا يجوز .

وقوله تعالى : ﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ (٦٢) ﴾ [الزمر] خبر أخبر به الحق سبحانه يحتمل ويحتمل ، لكن أدلة صدْق هذا الخبر نشأتْ حتى من الكافرين بالله ، كما قال سبحانه : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ (٨٧) ﴾ [الزخرف]

وقال سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ (٢٥) ﴾ [لقمان]

إذن : فالظرف والمكان والمكين من خَلْق الله ، والله قد أخبر هذا الخبر وبلَّغه رسول الله ، وفى القوم مَنْ جحدوا الله وأنكروه وادَّعوْا له شركاء ، ومع ذلك لم ينقض أحدٌ هذه الدعوى ولم يقُلْ أحد : إنى خالق هذا الكون . والدعوى تَسْلم لصاحبها ما لم يَقُمْ لها معارض ، ومعلوم أن الإنسان يدَّعى ما ليس له ، فلو كان له شىء من الخَلْق ما سكت عنه .

ثم إن الإنسان طرأ على هذا الكون ، فوجده كما هو الآن بسمائه

---

(١) أى : أنها أوتيت من متاع الدنيا مما يحتاج إليه الملك المتمكن . أما عرشها فكان عظيماً مزخرفاً بالذهب وأنواع الجواهر واللآلىء . [ابن كثير فى تفسيره ٣/٣٦٠] .

وأرضه ، فكيف يدَّعى أنه خالقه وهو أقدم منه ، بل وخَلْقه أعظم من خلقه ﴿لَخَلْقُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٥٧)﴾ [غافر]

فإذا ما جاءنا رسول نعلم صدقه يخبرنا بأن لهذا الكون خالقاً صفته كذا وكذا كان يجب علينا أنْ نرهف له الآذان لنسمع حَلَّ هذا اللغز ، ومثَّلْنَا لذلك برجل انقطع فى صحراء مُهلكة حتى شارف على الموت وفجأة وجد مائدة عليها أطايب الطعام والشراب ، بالله ماذا يفعل قبل أن تمتدَّ يده إلى الطعام ؟ إنه لابدَّ أنْ يسأل نفسه : من أين جاءت هذه المائدة ؟

إذن : ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ (٦٢)﴾ [الزمر] خبر عليه دليل من الوجود ، ودليل من المعاندين للخالق سبحانه ، والحقيقة أنهم لا يعاندون الحقَّ من أجل مسألة الخلق ، إنما يعاندونه اعتراضاً على شرعه وأحكامه ، لأن هذه الأحكام ستقيد نفوسهم فلا تنطلق فى شهواتها ، والإيمان له تبعات ووراءه حساب وعقاب وجزاء ، وإلا لماذا عبدوا الأصنام ؟

عبدوها لأنها آلهة لا منهجَ لها ولا تكاليف ، فهى تُرضى فطرة التديُّن عندهم بأن يكون له معبود يعبده ، وما أجملَ أن يكون هذا المعبود لا أمرَ له ولا نهىَ ولا تكاليف . إذن : قولهم :﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ[1] (٣)﴾[الزمر] لفظ العبادة هنا لفظ خاطىء ، لأن معنى العبادة : طاعة العابد لأمر معبوده ونَهْيه ، وهذه الأصنام ليس لها أمر ولا نهى .

وقوله سبحانه : ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (٦٢)﴾[الزمر] الوكيل : هو الذى تُوكله أنت فى العمل الذى لا تقدر عليه كما فى قصة سيدنا موسى

(١) الزلفى : القربة والدرجة والمنزلة ، وأزلف الشىء : قرَّبه [لسان العرب – مادة زلف] .

– عليه السلام – لما قال له قومه : ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١)﴾ [الشعراء] وهم ساعتها على حقٍّ ، لأن البحر من أمامهم ، وفرعون وجنوده من خلفهم ، فكل الدلائل تؤيد قولهم ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١)﴾ [الشعراء]

لكن لموسى عليه السلام نظرة أخرى وشأن آخر ، إنه موصولٌ بربه معتمد عليه ومتوكل عليه ، يعلم علم اليقين أن الله وكيله فيما يعجز هو عنه ؛ لذلك ردَّ عليهم وقال (كلا) لم يقلها من عندياته ، إنما قالها برصيد من إيمانه بربه وثقته بنصره ﴿كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢)﴾ [الشعراء]

ويقول تعالى فى التوكل عليه : ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ .. (٦٢)﴾ [النمل]

وقال سبحانه : ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ[1] مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ ..(٦٧)﴾ [الإسراء] فالله وكيل لعباده جميعاً حتى الكافر منهم ؛ لذلك نرى مَنْ كفر بالله حين لا تسعفه أسبابه ، أو تضيق عليه أموره ، يقول : يا رب لأنه لا يخدع نفسه ولا يغش نفسه .

فكما صدق الحق سبحانه فى الإخبار بأنه ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ (٦٢)﴾ [الزمر] صدق فى الإخبار بأنه ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (٦٢)﴾ [الزمر] ألا ترى الزرع مثلاً يزرعه الفلاح ويرعاه ، فتراه نَضِراً جميلاً لكن قبل الحصاد تجتاحه جائحة[2] أو تحل به آفة فتهلكه ، بالله من عند مَنْ هذه الآفة ؟ من عند خصومك وأعدائك ؟ ! لا .. بل هى من عند الله .

---

(١) ضل الشيء : خفى وغاب ، ومنه قوله تعالى : ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٧٥)﴾ [القصص] أى : غاب عنهم ما عبدوه . [القاموس القويم ١/٣٩٥] .

(٢) الجوح : الاستئصال من الاجتياح . والجائحة : الشدة والنازلة العظيمة التى تجتاح المال من سنة أو فتنة . والجائحة المصيبة تحل بالرجل فى ماله فتجتاحه كله . [لسان العرب – مادة : جوح]

وما دام أن الله تعالى هو خالق كل شيء وهو وكيل على كل شيء ، فلا بدَّ أن يكون له مُلْك السماوات والأرض ؛ لذلك قال بعدها :

﴿ لَهُۥ مَقَالِيدُ[1] ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾

القرآن عربى نزل بلغات العرب المتداولة ساعة نزوله ، ومع ذلك ففى القرآن كلماتٌ وألفاظ فارسية أو حبشية أو رومية[2] وهذه الألفاظ لا تخرجه عن كونه عربياً ، لأنها دخلتْ لغة العرب قبل نزول القرآن واستعملها العربى وعرفها ، وصارت جزءاً من لغته .

ومن هذه الكلمات (مقاليد) فلله ﴿ مَقَالِيدُ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ ﴿٦٣﴾ ﴾ [الزمر] وهى جمع مِقلاد على وزن مفتاح ، أو جمع مقليد ، وفى لغة أخرى يقولون أقاليد جمع إقليد . ومعناها التملُّك والتصرف والحفظ والصيانة ، فلله تعالى مُلْك السماوات والأرض ، وله مُطلق التصرف فى أمورهما ، وله سبحانه حفظهما وتدبير شئونهما .

وهذه هى القيومية التى لله تعالى ليظل كل شيء من خَلْقه فى مهمته ، فالحق سبحانه خلق من عدم ، وأمدَّ من عُدم ، وشرع الشرائع ، وسَنَّ القوانين ، ثم لم يترك الخَلْق هكذا يسير بهذه القوانين كما يدَّعى البعض ، إنما هو سبحانه قائم على خلقه قيُّوم

---

(١) مقاليد : جمع مفرده مقليد مقلاد ، إقليد . قال ابن عباس وغيره : المقاليد المفاتيح ، وقال السدى : خزائن السماوات والأرض . وقال غيره : خزائن السماوات المطر وخزائن الأرض النبات .[نقله القرطبى فى تفسيره ٨/ ٥٩٢٠] .

(٢) عقد السيوطى فى كتاب «الإتقان فى علوم القرآن» فصلاً عما وقع فى القرآن بغير لغة العرب (ص ١٠٥-١٢٠) . ومن أمثلة الألفاظ الفارسية : أباريق - جهنم - دينار . ومن أمثلة الحبشى : سينين ، شطر ، الطاغوت ، وما جاء من الرومية : القسط ، القسطاس ، طفقا .

عليهم ، لا يغفل عنهم لحظة واحدة ، واقرأ :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا وَلَئِن زَالَتَا [1] إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ .. (٤١) ﴾ [فاطر]

ولو أن الكون يسير بالقوانين التى خلقها الله فيه - كما يقول الفلاسفة - لكانت الأمور تستقر على شىء واحد لا يتغير ، بمعنى أنْ يظلَّ الصحيحُ صحيحاً ، ويظلَّ العزيز عزيزاً ، والغنىُّ غنياً .. الخ لكن الأمر غير ذلك ، لأن لله فى خَلْقه قيومية وتصرُّفاً .

وقد سأل سيدنا عثمان - رضى الله عنه - سيدنا رسول الله ﷺ عن مقاليد السماوات والأرض ، فقال : « يا ابن عفان ، ما سألنى أحدٌ قبلك عنها ، مقاليد السماوات والأرض هى : لا إله إلا الله ، والله أكبر ، وسبحان الله وبحمده ، وأستغفر الله العظيم ، ولا حَوْلَ ولا قوةَ إلا بالله العلى العظيم ، هو الأول والآخر والظاهر والباطن ، بيده الخير يُحيى ويميت ، وهو على كل شىء قدير . تلك مقاليد السماوات والأرض » [2]

هكذا فسَّر رسول الله كلمة مقاليد السماوات والأرض بأنها كلمات ذِكْر ، كأن الكون كله قائم بهذه الكلمات العقائدية .

فكلمة لا إله إلا الله تعنى أن الله واحدٌ لا شريكَ له ، فإذا قضى أمراً لا يعارضه معارضٌ ، ولا يعترض عليه معترض ، إنْ أعطى لا أحدَ يمنع

---

(١) إن : هنا بمعنى ما نافية . أى : ما أمسكهما .

(٢) أخرجه العقيلى فى الضعفاء الكبير (٤/٢٣١) ترجمة مخلد أبو الهذيل (١٨٢٥) وقال : فى إسناده نظر لا يتابع عليه إلا من طريق يقاربه ، وذكره الكنانى فى « تنزيه الشريعة المرفوعة » (١/١٩٢) وذكر الاختلاف فى وضعه وإن اتفق على نكارته . قال ابن حجر : عندى أنه منكر من جميع طرقه ، وأما الجزم بكونه موضوعاً فأتوقف عنه إذ لم أر فى رواته من وُصِف بالكذب انتهى .

عطاءه ، وإنْ منع فلا مُعطى لما منع ؛ لذلك يقول سبحانه : ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ (٧٣)﴾ [الحج] بل ما هو أيسر من عملية الخَلْق ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ (٧٣)﴾ [الحج] وهل تستطيع أنْ تسترد من الذبابة ما أخذته من العسل مثلاً إنْ وقعتْ عليه ﴿ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣)﴾ [الحج]

لذلك هذه الكلمة (لا إله إلا الله) قالها الحق سبحانه أولاً وشهد بها لنفسه سبحانه شهادةَ الذات للذات ، وهذه الشهادة تعنى أنه لا يتأبَى على الله شىء من الخَلْق أبداً ؛ لذلك يقول للشىء : كن فيكون . ثم شهدتْ بذلك الملائكة شهادةَ المشاهدة ، ثم شهد بها أولو العلم شهادة استدلال ، قال تعالى : ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ (١٨)﴾ [آل عمران] فكلمة لا إله إلا الله مِقلاد من المقاليد التى لله تعالى .

كذلك كلمة (الله أكبر) من مقاليد السموات والأرض ، وسبق أنْ بينَّا أن كلمة الله أكبر هى شعارنا فى النداء للصلاة ، مع أن أكبر ليس من أسمائه تعالى إنما من أسمائه تعالى الكبير ، فلماذا لم يستخدم الاسم واستخدم فى النداء للصلاة الصفة (أكبر) .

قلنا : إنها أفعل تفضيل من كبير ؛ لأن ربك حين يستدعيك للصلاة يُخرجك من عمل الدنيا ، هذا العمل ليس أمراً هيِّناً ولا تافهاً إنما هو عظيم وكبير ، لأن به تقوم أمور الدنيا ، وبه تستعين على أمور الدين ، فهو وإن كان كبيراً فالله أكبر ، فاترك العمل إلى الصلاة ، أما الاسم الكبير لأن ما سواه صغير .

وكلمة (سبحان والله وبحمده) من مقاليد السماوات والأرض ، لأنك ستتعرض لأمور هى فوق إدراكك ولا يقدر عليها إلا الله ، فإياك

أنْ تقف أمامها لتقول : كيف ؟ إنما حين يُنسب الفعل إلى الله فقُلْ سبحان الله ، وهذه المسألة أوضحناها فى قصة الإسراء ؛ لذلك بدأت بهذه الكلمة ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا ﴿١﴾ ﴾ [الإسراء]

ولا غرابة فى ذلك ، لأن الفعل نُسب إلى الله ولم يقُلْ محمد ﷺ : « سريتُ إنما قال : أُسْرِى بى »[1] ومعلوم أن الفعل يتناسب وفاعله قوةً وزمناً ، فإذا كان الفاعل هو الله فلا زمنَ يُذكر .

ومثَّلنا لذلك قلنا : لو أنك تريد السفر إلى الإسكندرية مثلاً تركب حماراً أو جواداً أو سيارة أو طائرة أو صاروخاً ، هل سيكون الزمنُ نفس الزمن ؟ لا لأن الزمن يتناسب مع قوة الوسيلة ، فكلما زادتْ القوة قَلَّ الزمن ، فإذا كان الفاعل فى الإسراء هو قوة القوى وهو الله ، فلا شكَّ أن الفعل لا يحتاج إلى زمن .

حين تتأمل الدم يجرى فى الشرايين لابدَّ أنْ يكون على درجة معينة من السيولة ليجرى ، فإنْ قلَّتْ هذه السيولة تجلَّط وتجمد فى مجاريه ، وقد تسد الشرايين فيموت الإنسان ، لكن إذا سال الدمُ خارجَ الجسم يتجلَّط ، أما فى العروق فيظل على سيولته .

تأمل حرارة الجسم تجد الحرارة الطبيعية ٣٧° سواء أكنتَ تعيش فى بلاد الإسكيمو أو بجوار خط الاستواء حرارتك ثابتة عند ٣٧° ،

---

(١) عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لما كذبتنى قريش حين أسرى بى إلى بيت المقدس قمت فى الحجر . فجلا الله لى بيت المقدس فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه » أخرجه أحمد فى مسنده [٣/٣٧٧] والبخارى فى صحيحه (٤٧١٠) ومسلم (١٧٠) ، فوصف لهم رسول الله بيت المقدس باباً باباً ونافذة نافذة وأعمدته والطريق إليه ، وهذا لا يُعقل أن يكون حُلماً أو رؤيا مهما كانت رؤيا صادقة أن تكون دالة على كل هذه التفاصيل .

ومع ذلك ففى جسم الإنسان أعضاء تختلف فى حرارتها وهى فى الجسم الواحد ، فالعين مثلاً حرارتها الطبيعية تسع درجات ، والكبد أربعون درجة ، ولو طغتْ حرارة الجسم على حرارة العين لفقد الإنسان بصره .

ومن المعروف أن من خصائص الحرارة أو البرودة خاصية الاستطراق ، فكيف لا تُستطرق الحرارة والبرودة داخلَ الجسم الإنسانى ؟ هذه كلها أمور يجب أن نقول فيها : سبحان الله صاحب هذه القدرة ومُبدعها .

إذن : قُلْ دائماً سبحان الله فى كل أمر مُستغرب ؛ لذلك علَّمنا القرآن هذه الكلمة فى كل فعل لا يقدر عليه إلا الله . قال سبحانه : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ ① ﴾ [الإسراء] وقال :﴿ سُبْحَانَ الَّذِى خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ ㊱ ﴾ [يس]

وكلمة (سبحان الله) ينبغى أنْ تُقرن بحمده سبحانه ، فكأنك تحمد الله أنه مُنزَّه عن مماثلة الخَلْق أو مشابهة الخَلْق ، الحمد لله أنه لا مثيل له ولا نظيرَ له ولا ندَّ له ، لأن هذا التنزيه تعود ثماره عليك أنت أيها المؤمن .

وكلمة (أستغفر الله العظيم) من مقاليد السماوات والأرض ، فإنْ غفلتَ عنى فمن مقاليدى أنْ أغفر لك إن استغفرت حتى لا أحرمك من التوبة والإنابة إلىَّ ومغفرة الدنيا مَحْوٌ للذنب ، فهى مظهر من مظاهر رحمته تعالى بنا ؛ لأن العبد إن أغلقنا فى وجهه باب التوبة استشرى فى العصيان ، وتمادى فى الاعتداء على الآخرين .

إذن : فمشروعية التوبة رحمتْ البشر من شرور البشر .

وكلمة « لا حول ولا قوة إلا بالله » هى أيضاً من مقاليد السماوات والأرض ، فإذا أقبلت على شىء : فإياك أن تظن أنك تقبل عليه بحولك وقوتك ، إنما لا حولَ ولا قوةَ لك إلا بالله ، لأنه سبحانه هو الذى يستطيع أن يسلب منك الحول ، وأنْ يسلب منك القوة .

أما تفكرتَ فى يدك .. كيف تحركها كيفما تشاء فى يُسْر وسلاسة ، وهى تنقاد لك وتطاوعك ، وأنت لا تعرف حتى العضلات والأعصاب التى تشارك فى هذه الحركة ولا تدرى بها ؟

إنها قدرة الله فيك ، فإذا أراد سبحانه أن يسلب منك هذه القوة منع السيال الكهربى القادم من المخ إلى هذا العضو فتحاول رفعه فلا تستطيع . إذن : اجعل هذه المسألة دائماً فى بالك كلما أقبلتَ على عمل ، واعلم أنه لا يتم لك بقوتك إنما بقوة الله .

وكلمة « هو الأول والآخر والظاهر والباطن » من مقاليد السماوات والأرض ، فهو سبحانه الأول بلا بداية ، والآخر بلا نهاية ، كما قلنا فى دعاء رمضان : يا أول لا قبل آخر ، ويا آخر لا بعد أول ، لكن ذاك فى ذاك فقفْ أيها العقل عند منتهاك .

ومعنى : الظاهر أى الظاهر فى مُلْك الله مما يقع تحت إدراك البصر ، والباطن : أى الخفىّ فى ملكوت الله الذى لا تراه ، فلله تعالى مُلْك ظاهر وملكوت غير ظاهر لا يُطْلع عليه إلا مَنْ شاء من عباده فى الوقت الذى يريده سبحانه .

وكلمة « بيده الخير » هى أيضاً من المقاليد ، وبعض العلماء [1] قالوا : بيده الخير والشر ونظروا إلى قوله تعالى :﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ

---

(١) قال ابن عباس فيما ذكره ابن الجوزى فى (زاد المسير) فى تفسير آية ٢٦ آل عمران . قال : بيدك الخير والشر فاكتفى بأحدهما ، لأنه المرغوب فيه .

الْمُلْكَ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦)﴾ [آل عمران]

فلما جمعتْ الآية بين الشيء ونقيضه جرَّأتهم أنْ يقولوا بيده الخير والشر وهذا لا يجوز ، تعم رسول الله ﷺ قال « بيده الخير » تأدباً مع الله ولم ينسب الشر لله ، ونحن كذلك لا ننسب الشر إلى الله تعالى ، لذلك أنا منذ عام ١٩٢٨ وأنا معترض على قولنا فى الدعاء : « واكفنا شر ما قضيت »[1] وقلت : لابد أنْ يُعدَّل هذا الدعاء ، ثم هدانا الحق سبحانه لحلها فقلنا : إن شر ما قضيتَ ألاَّ ترضى بالقضاء .

ولو تأملنا لفظ « بيده الخير » وفى الآية ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ (٢٦)﴾ [آل عمران] نجد أن الخير هنا مطلق بمعنى أن كل أفعال الحق سبحانه خير ، ولا يأتى الشر إلا من الخَلْق ، واقرأ :﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ (٧٩)﴾ [النساء]

فإنْ قلتَ : كيف نجمع بين مثل هذه الآية وبَيْن قوله تعالى : ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ (٧٨)﴾ [النساء] نقول : سبق أنْ أوضحنا حلَّ هذه الفزورة وقلنا : نعم كُلٌّ من عند الله بمعنى أن الله تعالى هو خالق الفعل بمعنى خالق القوة والطاقة التى تفعل ، لكن أنت توجه هذه الطاقة إما إلى الخير وإما إلى الشر ، وعليه نقول : الخير من الله والشر منّا نحن .

وقوله : « يحيى ويميت » أيضاً من المقاليد والموت والحياة هما أول ظاهرة فى وجود الإنسان ، والخالق سبحانه خلق الحياة وخلق الموت ، ولما حدثنا عن ذلك قال تعالى : ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ

---

(١) الحديث أخرجه أبو داود فى سننه (٢/٦٣) حديث (١٤٢٥) باب القنوت فى الوتر ، وأحمد فى مسنده (١/١٩٩ ، ٢٠٠) من حديث الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنهما .

لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ (٢)﴾ [الملك]

فذكر الموت أولاً حتى لا نستقبل الحياة بغرور البقاء ، بل نستقبلها وفى الأذهان أننا سننتهى إلى الموت فنعمل لهذه النهاية ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٥٠)﴾ [الروم] يعنى : يفعل ما تعجز أنت عن فعله ، وله سبحانه القدرة المطلقة فلا يعجزه شىء ، ولا يستعصى عليه شىء ، لذلك حين تطلب من ربك الرزق اطلب أنْ يرزقك من حيث لا تحتسب ، لأن لله تعالى أسباباً للرزق لا تعرفها أنت ، لذلك قال أهل المعرفة : الأسباب ستر ليد الله فى العطاء .

إذن : فقوله تعالى ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ (٦٣)﴾ [الزمر] أى : بقدرته الخالقة وبقيوميته الدائمة ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ (٦٣)﴾ [الزمر] سواء أكانت آيات كونية أو معجزات رسل ، أو آيات الكتاب حاملة الأحكام ، ومعنى كفروا بها أى : استعلوا على تنفيذها ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٦٣)﴾ [الزمر] يعنى : صفقتهم خاسرة ، وتجارتهم بائرة ، لأنهم آثروا الشهوة العاجلة على النعيم الدائم الذى لا يفوتك ولا تفوته.

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ (٦٤)﴾

تذكرون ما كان من أمر كفار مكة لما عاندوا رسول الله وصادموه وتأبَّوْا على دين الله ، ومع ذلك انتشر الإسلام وزاد

---

(١) سبب نزول الآية : ذكر ابن كثير فى تفسيره (٤/٦١) فى سبب نزول هذه الآية ما رواه ابن أبى حاتم وغيره عن ابن عباس أن المشركين من جهلهم دعوا رسول الله ﷺ إلى عبادة آلهتهم ويعبدوا معه إلهه .

أتباعه ، فحاول الكفار مهادنة رسول الله فقالوا له : يا محمد تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة[1] ، فردَّ الله عليهم (قُلْ) يا محمد رداً عليهم ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [الزمر] والاستفهام هنا للتعجب والإنكار ، أتريدون مني وأنا رسول الله وأمينه على وَحْيه ورسالته أنْ أعبد غيره ، وكلمة (تأمرونِّي) ورد فيها عدة قراءات[2] : تأمرونِّي بتشديد النون وتأمرونني ، والنون هنا للوقاية يعني : تقي الفعل من الكسر ، وتأمرونى بياء واحدة .

وكلمة (أعبدُ) أصلها أن أعبد فلما حُذفَتْ (أنْ) جاء الفعل على طبيعته بالرفع ، وهذه الكلمة دلَّتْ على أن عبادة الأصنام أو عبادة غير الله باطلة أصلاً فى العقل ، لأن العبادة كما ذكرنا طاعة العابد للمعبود ، والأصنام لا منهجَ لها نطيعها أو نعصيها .

لذلك وصف عابديها بالجهل ﴿أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [الزمر] ولابد أن نفرق بين الجاهل والأمى : الأميّ أفضل من الجاهل ، لأنه خالى الذِّهْن ليست عنده قضية يتمسك بها ، لذلك يسهل عليك إقناعه ، أما الجاهل فليس خالى الذهن بل لديه قضية خاطئة مخالفة للواقع وهو متمسك بها ؛ لذلك يحتاج إلى جهد مضاعف ، أولاً لتُخرج من عنده

---

(١) ذكر الواحدى فى أسباب النزول (ص٢٦١) فى سبب نزول سورة (الكافرون) أن رهطاً من قريش قالوا : يا محمد هلم اتبع ديننا ونتبع دينك ، تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة ، فإن كان الذى جئت به خيراً مما بأيدينا قد شركناك فيه وأخذنا بحظنا منه ، وإن كان الذى بأيدينا خيراً مما فى يدك قد شركت فى أمرنا وأخذت بحظك . فقال : معاذ الله أن أشرك به غيره ، فأنزل الله تعالى : ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾﴾ [الكافرون] .

(٢) وردت عدت قراءات ، منها :

- تأمرونىَ : بنون واحدة مخففة وفتح الياء ، قراءة نافع
- تأمرونَنى : بنونين مخففتين على الأصل . قراءة ابن عامر
- تأمرونِّى : بنون واحدة مشددة على الإدغام . الباقون واختاره أبو عبيد وأبو حاتم لأنها وقعت فى مصحف عثمان بنون واحدة . [تفسير القرطبى ٥٩٢٢/٨]

القضية الخاطئة ، ثم تُدخل عليه القضية الصحيحة .

لذلك قال الحق سبحانه وتعالى :﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ﴿٤﴾﴾ [الأحزاب]

وسبق أنْ تكلمنا فى مسألة الحيز وأن الحيز الواحد لا يتسع إلا لشىء واحد ، لذلك نلاحظ مثلاً حين نملأ القُلَّة بالماء تخرج فقاعات الهواء أولاً قبل أن يدخل الماء ، كذلك القضية الفاسدة فى قلب الجاهل لا بدَّ أنْ تخرج أولاً حتى يقبل الصواب ، وكلما وافقتْ القضية هواه كان خروجها أصعب ، ومن هنا كان الجاهل أشقَّ على المعلم من الأمى .

ومسألة الحيز هذه قضية فطرية ينتهى إليها الفيلسوف والطفل وراعى الشاة ، ألا ترى الطفل الصغير يجلس مثلاً بجوار والده فإنْ أراد أخوه أنْ يجلس مكانه قام له وأجلسه ، لماذا ؟ لأنه يعرف هذه القضية ، وأن المكان الواحد لا يتسع إلا لشىء واحد .

إذن : وصف الكفار بالجهل لأنهم مؤمنون بقضية خاطئة متمسكون بها ، ومن الصعب زحزحتهم عنها وهى قضية الشرك بالله ، وأىُّ جهل بعد عبادة الأصنام ؟

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾

هذه الآية تبين علة الاستفهام والتعجب فى : ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [الزمر] يعنى : كيف تأمروننى بذلك ، وأنا

الرسول المؤتَمن على الدين والوحي ، وقد أوحى الله إلىَّ وإلى الذين من قبلى ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٥)﴾ [الزمر] هذه علَّة تجهيلهم فى قولهم لرسول الله : نعبد إلهك سنة وتعبد آلهتنا سنة .

ومعنى ﴿وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ (٦٥)﴾ [الزمر] أى : الرسل السابقين ، لأن كل واحد منهم قُوبل بهذه القضية ، لكن هل يُعقل من الرسل أنْ يشركوا بالله ؟ قالوا : هذا فَرْض ، يعنى : لو فرضنا ذلك فسيكون هذا جزاءهم ، فهى أشبه بقولهم : (إياك أعنى واسمعى يا جارة) فإذا كان هذا الوعيد مُوجَّهاً إلى الرسل فهو مُوجَّه من باب أوْلَى إلى العامة .

قال بعض العلماء فى هذه الآية ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ (٦٥)﴾ [الزمر] أنت تتكلم هنا عن عصمة الرسل ، لكن هذه العصمة بقدر الله ، وقدر الله لا يملكه أحد ، ألم يَقُلْ رسولٌ من الرسل : ﴿قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ...(٨٩)﴾ [الأعراف]

فالمعنى أنه أعطى للقدرة طلاقة أنْ تفعل ما تريده ، وإنْ كان هذا لا يحدث .

ومضمون الوحى إليك وإلى الذين من قبلك : ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ (٦٥)﴾ [الزمر] لكن الآية جعلت الموحَى إليهم فى جانب ، ورسول الله ﷺ فى جانب ، فخصَّ اللهُ رسوله بالخطاب فى ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ (٦٥)﴾ [الزمر] والخطاب لرسول الله دلَّ على أنه مُوجَّه أيضاً إلى الرسل السابقين .

ومعنى ﴿لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ (٦٥)﴾ [الزمر] يفسد ويضيع بلا جدوى ﴿وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٥)﴾ [الزمر] نعرف فى التجارة أن الخسارة

هى أنْ يقلَّ رأس المال ذاته ، فالتاجر حين لا يربح زيادة على رأس المال لا يُسمَّى خاسراً ما دام سلِم له رأس ماله .

كذلك المؤمن ، رأس ماله فى تجارته مع الله إيمانه وعمله الصالح ، فربُّك خلقك من عَدَم وأمدَّك من عُدم ، وأرسل لك رسلاً وأنزل لك كتباً ، فجعل لك بذلك صفقة رابحة معه سبحانه ، وعليك أنت أيها المؤمن أنْ تستغلَّ هذه الفرصة لتربح مع الله ، لأن العمل الذى تعمله فى الدنيا عملٌ موقوت بحياتك وعمرك فى الدنيا .

أما الجزاء على العمل ففى الآخرة وهى غير موقوتة ، بل دائمة باقية ، وهنا تكمن مَيْزة التجارة مع الله ؛ لذلك قال سبحانه : ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٦٤) ﴾ [العنكبوت]

﴿ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ (٦٦) ﴾

كلمة (بل) حرف يفيد الإضراب عن الكلام السابق وإثبات ما بعدها ، يعنى : اعرض عن دعوتهم لك أنْ تعبد آلهتهم ، وإياك أنْ تميلَ إليهم ﴿ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ (٦٦) ﴾ [الزمر] وليؤكد عبادة الله وحده جاء بهذا الأسلوب (بل الله فاعبد) وقدَّم المفعول به على الفعل ، وهذا يُسمَّى أسلوبَ قصر . يعنى : قصر العبادة على الله وحده دون سواه ، كما فى قوله تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ (٥) ﴾ [الفاتحة]

فتقديم الضمير المنفصل العائد على الحق سبحانه على الفعل نعبد يعنى : نعبدك أنت فقط لا نعبد غيرك ، أما لو قُلْنا : نعبدك تحتمل ونعبد غيرك . وقوله : ﴿ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ (٦٦) ﴾ [الزمر] الشاكرين الله على الهداية والتوفيق ، لأنْ تعبده وحده وتشكره على ما تقدم لك من النعم ، وما هذه النعم إلا (عربون) للنعيم الدائم الذى ينتظرك .

ومن عجائب لطفه تعالى بنا أنْ شرع لنا من الأحكام افعل ولا تفعل ما فيه الخير لنا فى دنيانا ، ثم يُثيبنا عليه فى الآخرة إنْ أطعنا ويُخوِّفنا بالعذاب إنْ عصينا ، فهو سبحانه لطيف بنا حريص على نجاتنا ، مع أنه سبحانه لا ينتفع من ذلك بشىء ، فلا تنفعه طاعة ولا تضره معصية .

واقرأ الحديث القدسى عند رب العزة سبحانه : « يا عبادى .. لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك فى مُلكى شيئاً ، ولو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكى إلا كما ينقص المخيط إذا أُدخِلَ البحر »(١)

فاعلم أيها العبد أن ربك يحبك ويريد لك الفوز والنجاة فأنت عبده وأنت صنعته ، والصانع يريد لصنعته أنْ تكون على أحسن حال .

﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾(٢)

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٩٩٤/٤) كتاب البر والصلة (حديث ٢٥٧٧) باب تحريم الظلم من حديث أبى ذر رضى الله عنه . والمخيط : هو الإبرة والمقصود التقريب إلى الأفهام بما شاهدوه ، فإن البحر من أعظم المرئيات عياناً وأكبرها والإبرة من أصغر الموجودات .

(٢) القبضة ملء اليد مضمومة الأصابع ، ولكنها فى حق الله سبحانه وتعالى معناها أن الأرض فى حوزته وتحت سيطرته كالشىء المقبوض عليه باليد الواحدة وفى ذلك ما يدل على صغر العالم وضآلته بجانب قدرة الله وعظمته (القاموس القويم ٩٧/٢) وهذا يتوافق مع ما قاله القرطبى فى تفسيره (٥٩٢٤/٨) « عبارة عن قدرته وإحاطته بجميع مخلوقاته » ، وهو ما ذهب إليه هنا فضيلة الشيخ الشعراوى رحمه الله .

معنى ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ (٦٧) ﴾ [الزمر] يعنى : ما قدروه وما عظَّموه التعظيم المناسب له سبحانه ، يعنى : ما عرفوا لله قيمته ، ولذلك أشركوا به ، والشرك فى حَدِّ ذاته يعنى عدم تقدير الله حَقَّ قدره . وقد فعلوا ذلك والحال أن ﴿ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ (٦٧) ﴾ [الزمر] إذن : كيف يحدث منكم ذلك ؟ أغفلتم عن هذه الحقيقة ؟ إنكم سوف تروْنَ عاقبة فعلكم فى الآخرة .

ومعنى ﴿ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ (٦٧) ﴾ [الزمر] نقول : هذا الأمر فى يدى يعنى : أنا مُتمكن منه تمكُّناً بحيث لا يفلت منِّى ، وليس من الضرورى بالنسبة لله تعالى أن يكون فى المسألة قبضة أو يد ، فهنا كناية عن القوة والتمكُّن ، كما نقول مثلاً قبضنا على المجرم يعنى : أصبح فى حوزتنا ولم يَعُدْ مطلق السراح فى الحياة يفعل ما يشاء .

وسبق أنْ قلنا : إذا ذُكر للحق سبحانه وصفٌ له مثيل فى عباده فخُذْه فى إطار ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ (١١) ﴾ [الشورى] ومن ذلك صفة السمع والبصر واليد والعلم .. الخ .

وكلمة ﴿ وَالأَرْضُ جَمِيعًا (٦٧) ﴾ [الزمر] أى : أرضنا التى نعيش عليها وأمثالها من الأراضين لأن الحق سبحانه قال : ﴿ الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ (١٢) ﴾ [الطلاق] هذا كله فى مجموعتنا الشمسية ، فما بالك بباقى المجموعات والمجرَّات التى تحوى الملايين مثل أرضنا : ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ (٢٩) ﴾ [الشورى]

وقوله : ﴿ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ (٦٧) ﴾ [الزمر] يطويها

بقدرته تعالى ، واليمين عندنا هى الفاعلة فى الأشياء وهى مصدر القوة ؛ لذلك قال سبحانه : ﴿قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ (٢٨)﴾ [الصافات] أى من جهة القوة ، وفى موضع آخر قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿يَوْمَ نَطْوِى السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ (١٠٤)﴾ [الأنبياء]

لكن أىّ أرض نعنى فى قوله تعالى : ﴿وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ (٦٧)﴾ [الزمر] ؟ قالوا : هى أرض غير الأرض التى نعرفها ، لأن الأرض ستُبدل فى الآخرة ، كما قال تعالى : ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ (٤٨)﴾ [إبراهيم] لأن أرض الدنيا أرضُ أسباب ، نعيش عليها ونأكل من ثمرها ونزاول فيها حياتنا ، أما فى الآخرة فالحياة فيها بالمسبِّب سبحانه .

أرض الآخرة لا زرعَ فيها ولا حرثَ ولا حصادَ ، إنما تأكل وتشرب بمجرد إرادة الأكل أو الشرب ، فما يخطر على بالك تجده بين يديْكَ لا بأسباب ، إنما بقدرة المسبِّب سبحانه ، كذلك السماء فى الدنيا سماء أسباب ينزل منها المطر وتشرق فيها الشمس ، ويُنوِّرها القمر ، أما فى الآخرة فلا شىء من ذلك لا مطرَ ولا شمسَ ولا قمر ، إنما تُنوِّر الأرض بنور ربها .

وقوله تعالى فى ختام هذه الآية ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٧)﴾ [الزمر] أمر بأن نقول سبحان الله ، وأنْ نُنزِّهه تعالى عن مشابهة خَلْقه فى مسألة القبضة وفى طَىِّ السماء ، لأنه ليس كالطَّىِّ الذى نعرفه نحن ، إنما ينبغى أن نأخذ هذه الصفات فى إطار ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ (١١)﴾ [الشورى] فنزه الله عما يقوله المشركون .

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ (١)

الحق سبحانه وتعالى بعد أنْ تكلَّم عن العقائد وذكر الوعد للطائعين والوعيد للعاصين ، أراد سبحانه أنْ يُحدِّثنا عن الآخرة وهى دار الجزاء على الأعمال فى الدنيا ، والدنيا فيها أموات وفيها أحياء ، ولن تقوم الساعة إلا إذا مات الجميع ليتحقق البعث ، وإلاَّ فكيف يكون البعث فى حَقِّ مَنْ لم يَمُتْ ؟ لذلك يُحدِّثنا الحق سبحانه هنا عن النفْخ فى الصور ، هذه النفخة التى تُميت كل مَنْ هو حَىٌّ .

الفعل (نُفِخ) جاء بصيغة الفعل المبنى للمجهول ، الذى لم يُسَمَّ فاعله ، لكن السُّنة هى التى بيَّنت الفاعل وأنه إسرافيل ، و (الصُّور) بوق مثل القربة ينفخ فيه إسرافيلُ النفخةَ الأولى التى تُميت كلَّ الأحياء ، لأن القيامة ستقوم وعلى الأرض أحياء لابد أنْ يموتوا ،

---

(١) اختُلف فى المستثنى ، مَنْ هم ؟ على أقوال أوردها القرطبى فى تفسيره (٨/٢٩٢٥) :

- هم الشهداء متقلدين أسيافهم حول العرش . روى مرفوعاً من حديث أبى هريرة فيما ذكر القشيرى ، ومن حديث عبد الله بن عمر فيما ذكر الثعلبى .
- هم جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت . حديث أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ . ذكره الثعلبى والنحاس من حديث ابن إسحاق عن يزيد الرقاشى عن أنس . وقال القرطبى : حديث أبى هريرة فى الشهداء أصح .
- هم : رضوان والحور ومالك خازن النار والزبانية ، قاله الضحاك .
- عقارب أهل النار وحيَّاتها .
- هو الله الواحد القهار وما يدع أحداً من أهل السماء والأرض إلا أذاقه الموت . قاله الحسن .
- يموت من فى السماوات والأرض إلا مَنْ سبق موته ، لأنهم كانوا قد ماتوا .

ليكون لهم بعث كالذين ماتوا من لدن آدم عليه السلام وحتى قيام الساعة .

والحق سبحانه يقول : ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ (٥٧)﴾ [العنكبوت]

لكن : هل النفخة الأولى هى التى تُميت ؟ أو النفخة الثانية هى التى تحيى الموتى ؟

نقول : النفخة ذاتها لا تحيى ولا تميت ، إنما هى إيذانٌ لمن بيده الأمر أنْ يبدأ عمله ﴿فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ (٦٨)﴾ [الزمر] كلمة صعق تأتى بمعنيين .

صعق بمعنى هلك كما فى قوله تعالى : ﴿فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ (٤٥)﴾ [الطور] يعنى : يهلكون .

وتأتى صعق بمعنى أُغمى عليه وفقد الوعى ، كما حدث لسيدنا موسى عليه السلام حين تجلَّى ربُّه للجبل ، فلما دعا موسى ربه قال : ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي (١٤٣)﴾ [الأعراف] وليس المعنى هنا أننى لا أُرى ، إنما أنا أُرى لكنك فى تكوينك الحالى لا تستطيع أنْ ترانى ، إذن : قد يتغيَّر الحال على صورة يمكنك فيها أنْ ترانى .

وإذا كان البشر قد توصَّلوا لطرق وأساليب وأسباب تُمكِّن من رؤية ما لم تقدر على رؤيته ، فرأينا النظارة والنظارة المعظمة والتليسكوبات .. الخ . إذن : فالحق سبحانه من باب أَوْلَى قادر على أنْ يجعلك ترى ما لم تكُنْ تراه من قبل .

ثم يقول سبحانه فى تمام هذه القصة : ﴿وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي (١٤٣)﴾ [الأعراف] الحق سبحانه يريد أنْ

يؤكد لموسى عليه السلام هذه القضية لا بالقول إنما بالفعل ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا (١٤٣)﴾ [الأعراف]

وكأن الحق سبحانه يقول لنبيه موسى : إذا كنت صُعِقْتَ - يعنى : فقدتَ الوعى - من رؤية المتجلَّى عليه وهو الجبل ، فكيف بك إذا رأيتَ المتجلِّى سبحانه ؟

وقوله : ﴿إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ (٦٨)﴾ [الزمر] أى : شاء ألاَّ يُصعق ، وهذه المشيئة مؤقتة لأن من لم يَمُتْ فى هذه النفخة الأولى لابدَّ وأنْ يموت فيما بعد ، وآخر مَنْ يموت هو ملك الموت حيث يقول له الحق سبحانه : مُتْ يا ملَكَ الموت فيموت . بعدها يصير الخلود بلا انتهاء .

قالوا : الذين استثناهم الله من هذه النفخة هم الملائكة الموكَّلون جبريل وميكائيل وعزرائيل وإسرافيل ، وقد أخبرنا النبى ﷺ أن موسى عليه السلام فيمَنْ استثنى من هذه الصعقة ، فقد ورد فى الحديث [1] أن الصَّعْقة حدثتْ وحصل للناس غَشْية ، وكان رسول الله أول مَنْ أفاق منها فوجد أخاه موسى عليهما السلام ممسكاً بالعرش ، ورسول الله ﷺ لم يدْر أَصُعِق موسى فيمن صُعِق وأفاق قبلى ، أم لم يُصعق .

وما دام أنه أفاق فوجد موسى بجوار العرش إذن هو لم يُصعق ، ويدخل فى هؤلاء الذين استثناهم الله فى قوله ﴿إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ (٦٨)﴾ [الزمر] أو أنه صُعِق لكنه أفاق من الصَّعْق قبل غيره ، وهنا قال العلماء : لماذا لم يُصعق سيدنا موسى ؟ أو لماذا قَصُرَتْ مدة

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تخيرونى على موسى . فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق ، فإذا موسى باطش بجانب العرش ، فلا أدرى أكان موسى فيمن صعق فأفاق قبلى ، أو كان ممن استثنى الله عزوجل » . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٥١٧) كتاب الرقاق .

صَعْقته عن مدة الآخرين ؟ قالوا : لأنه عليه السلام سبق أنْ صُعِقَ فى الدنيا لما تجلَّى ربُّه للجبل ، فشاء الله أنْ تُحتسبَ له هذه الصعقة ، وأنْ تُخفَّفَ عنه صَعْقَةُ القيامة .

وقوله ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ ﴿٦٨﴾﴾ [الزمر] أى : نفخة البعث ، فالنفخة الأولى أماتت مَنْ لم يكُنْ قد مات ، والنفخة الثانية هى البعث والخروج من القبور ﴿فَإِذَا هُم مِّنَ الأَجْدَاثِ[1] إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾﴾ [يس] هذا تصوير لهيئة الصعقة ، وكيفية الخروج من القبور ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [الزمر]

وكلمة (ينسلون) دلَّتْ على تفرُّق بعد اجتماع ، كما نقول للقماش (نسِّل) يعنى : بعد أنْ كانت خيوطه مُتضَامَّةً متماسكة تفككتْ ، وهذا تصوير دقيق وتعبير بليغ يُصوِّر الحالة التى كانت تُوجد فى القبور حين يلتقى الأموات فى باطن الأرض ، لأن الناس فى الدنيا وهم فى سَعَة الحياة دائماً ما يتخاصمون ويتشاجرون وتكثر بينهم العداوات والمنافسات .

وقد عبَّر الشاعر[2] عن هذا المعنى فقال :

رُبَّ لَحْدٍ قَدْ صَارَ لَحْداً مِرَاراً ... ضَاحِكٍ مِنْ تَزَاحُمِ الأَضْدَادِ[3]

فإذا ما ماتوا وضمتهم الأرض امتصَّتْ ما كان بينهم

---

(١) الأجداث : جمع جَدَث ، وهو القبر . [لسان العرب – مادة : جدث] .

(٢) هو : أبو العلاء المعرى ، أحمد بن عبد الله بن سليمان ، شاعر وفيلسوف ولد (٣٦٣هـ) ومات (٤٤٩هـ) فى معرة النعمان عن ٨٦ عاماً . قال الشعر وهو ابن ١١ سنة ، لما مات وقف على قبره ٨٤ شاعراً يرثونه ، كان يحرم إيلام الحيوان وأكل اللحم ، له : (لزوم ما لا يلزم) ، (سقط الزند) [الموسوعة الشعرية] .

(٣) البيت من قصيدة لأبى العلاء المعرى من ١٦ بيتاً من بحر الخفيف ، أولها :

غير مُجد فى ملتى واعتقادى ... نوْحُ باكٍ ولا ترنم شادِ .

من أحقاد وعداوات ، فخلصت عناصرهم خُلُوصاً مكَّنهم من اللقاء والاجتماع ، فيقولون : ما ألذَّ العناق قبل دقَّات الفراق .

وكأنهم يفرحون بهذا الاجتماع وبهذا العناق لأنه يُعوِّضهم ما كان بينهم من شقاق فى الدنيا ، فإذا ما جاءتْ النفخة الثانية تفكَّك هذا الاجتماع وتفرَّق ، هذا معنى ﴿يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾﴾ [يس] أى : كُلٌّ على حدة بمفرده وشخصه كما (ينسِّل) الخيط من مكانه فى النسيج ؛ ذلك لأن الجزاء أمر شخصى وكُلٌّ مُرْتهن بعمله .

ومعنى ﴿يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [الزمر] أى : ينتظرون ما يقع بهم ، أو ينظرون ما حولهم من أهوال تشخَصُ لها الأبصار ، كما قال تعالى فى آية أخرى حكايةً عنهم : ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا ﴿١٢﴾﴾ [السجدة] قالوا : هذه هى الآية الوحيدة التى تقدم فيها البصر على السمع ، لماذا ؟ لأن الموقف هنا فى الآخرة حين يُبعث الناس من القبور ، وحين تحيط بهم الأهوال والكروب من كل ناحية ، وهذه الحالة تسبق فيها الأبصار الأسماع فيبصرون قبل أنْ يسمعوا .

وبنفخة البعث تبدأ أهوال القيامة ويشتد الكرب على الكافرين فيرتعدون ، فإذا ما صَدَق اللهُ وعده ووعيده فى قيام الساعة بأول مراحلها عندها يعلمون صدق ما كذبوه وكفروا به ، هؤلاء الذين طالما كذَّبوا بالبعث وقالوا : ﴿أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَ آبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [الصافات]

إذن : صدق الله فى البعث وفى إحياء الموتى ، وسيصدق سبحانه فيما يتلو ذلك من حساب وجزاء ، والويل لكم أيها الكافرون المكذِّبون .

﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا[1] وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِاْيٓءَ بِالنَّبِيِّـۧنَ وَالشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾﴾

هذه الآية تنقلنا إلى عالم آخر ، إلى الآخرة حيث تُبدَّل الأرض غير الأرض والسماوات غير السماوات ، كنا فى الدنيا نعيش على الأرض بنور الشمس نقول : أشرقت الشمس أما وقد انتقلنا إلى الآخرة فالأرض هى نفسها تشرق ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا .. ﴿٦٩﴾﴾ [الزمر] وكأن النور شىء ذاتى فيها ، فليس هناك شمس تشرق عليها إنما هى التى تشرق بذاتها .

ولم لا ؟ وأنت الآن فى عالم فيه ما لا عينٌ رأتْ ، ولا أذنٌ سمعتْ ، ولا خطر على قلب بشر ، وقال تعالى : ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾﴾ [الإنسان] لأن الدنيا كانت بالأسباب ، فالشمس تشرق لتنير الأرض بالنهار والقمر بالليل ، أما فى الآخرة فلا نعيش بالأسباب ، إنما بالمسبِّب سبحانه حيث كل شىء فيها يكون بلا علاج ، فلسنا - إذن - فى حاجة إلى زراعة الأرض ،

---

(١) وردت عدة أقوال فى معنى قوله تعالى : ﴿بِنُورِ رَبِّهَا .. ﴿٦٩﴾﴾ [الزمر] ذكرها القرطبى فى تفسيره (٥٩٢٨/٨) :

- بعدل ربها . قاله الحسن وغيره .
- بحكم ربها . قاله الضحاك .
- قال القرطبى : « المعنى واحد . أى أنارت وأضاءت بعدل الله وقضائه بالحق بين عباده . والظلم ظلمات والعدل نور .. وقد ضلَّ قوم ها هنا فتوهموا أن الله عز وجل من جنس النور والضياء المحسوس وهو متعال عن مشابهة المحسوسات ، بل هو مُنوِّر السماوات والأرض ، فمنه كل نور خلقاً وإنشاءً .

ولا إلى الشمس تنير النهار ، ولا إلى القمر ينير الليل .

وكما تُبدَّل الأرض غير الأرض ، والسموات غير السموات ، كذلك أنتم تُبدَّلون على هيئة أخرى تناسب الآخرة ، فستأكلون ولا تتغوطون ، وتعيشون ولا تهرمون .

وحين تشرق الأرضُ بنور ربها تراها مشرقةً دون أنْ ترى مصدر هذا الإشراق ، وهذا ما رأينا شيئاً منه فى الدنيا ، ففى طرق الإضاءة الحديثة توضع الأنوار فى أماكن تخفى مصدر الضوء فيأتى النور غير مباشر فلا يؤذى العين ، كما يأتيك ضوء الشمس فينير لك الغرفة فى حين لا ترى شعاع الشمس المباشر .

وقد ضرب لنا الحق سبحانه مثلاً لتنويره للسماء والأرض ، وذلك فى سورة النور ، حيث قال سبحانه : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. (٣٥) ﴾ [النور] أى : مُنوِّرهما ، ولما أراد سبحانه أن يعطينا مثلاً لذلك أتىْ بمثل من المشاهد لنا المرئى الذى ندركه فقال : ﴿ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ .. (٣٥) ﴾ [النور] أى: كيفية تنويره وأثر نوره سبحانه حتى لا نظن أن هذا المثل يوضح لنا نور الله ، لا بل يوضح كيفية تنويره لخلقه وإلا فنوره تعالى لا نعرفه ولا ندرك كُنْهه .

والمشكاة هى الطاقة غير النافذة فى الجدار يسمونها كُوَّة ، وتوجد حتى الآن فى المبانى القديمة الفطرية ، وهذه المشكاة هى التى يوضع فيها المصباح ، وليست هى المصباح كما يظن السطحيون ويستعملونها بهذا المعنى . وميزة المشكاة أنها غير نافذة ومحدودة المساحة ، بحيث تجمع ضوء المصباح فلا يتبدد إنما يتركز لتنوير الحجرة التى توجد فيها هذه المشكاة .

ثم يصف المصباح بأنه ليس مصباحاً عادياً إنما ﴿الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ .. (٣٥)﴾ [النور] والزجاجة تنقى ضوء المصباح وتمنع عنه الهواء الزائد فلا يحدث دخان يُكدِّر صفْو ونقاء الضوء .

ثم إن هذه الزجاجة هى أيضاً غير عادية إنما ﴿الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ .. (٣٥)﴾ [النور] والكوكب الدرى هو الذى يضىء بنفسه ، وهذا يعنى أن ضوء هذا المصباح مضاعف .

ثم إن الزيت الذى يُوقد به المصباح ليس زيتاً عادياً ، إنما زيت مأخوذ من شجرة معتدلة المزاج ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ .. (٣٥)﴾ [النور]

البعض يعترض على هذا المثل ويقول : كيف يضرب الله مثلاً لنوره بمشكاة فيها مصباح ؟ قلنا : إن المثَل هنا ليس مثلاً لنور الله إنما هو مثَل لتنويره للكون ، وقد عبَّر الشاعر أبو تمام[1] عن هذا المعنى فى قوله مادحاً :

إِقْدَام عَمْرو فِى سَمَاحَةِ حَاتِمٍ ... فِى حِلْمِ أَحْنَفَ فِى ذَكَاءِ إِيَاسِ[2]

فاعترض عليه أحد جلساء الممدوح . وقال له : كيف تُسوِّى

---

(١) أبو تمام : هو حبيب بن أوس بن الحارث الطائى ، أحد أمراء البيان ، ولد بجاسم من قرى حوران بسورية عام ١٨٨ هـ ، رحل إلى مصر ، كان أسمر طويلاً فصيحاً حلو الكلام يحفظ ٤١ ألف أرجوزة غير القصائد . فى شعره قوة وجزالة . له كتب : فحول الشعراء ، ديوان الحماسة . [الموسوعة الشعرية] .

(٢) ذكر الصولى هذه الأبيات فى كتابه « أخبار أبى تمام » فصل أخباره مع أحمد بن المعتصم ، وكان ينشده هذه القصيدة حتى إذا وصل إلى هذا البيت قال له الكندى وكان حاضراً وأراد الطعن عليه : الأمير فوق من وصفت . فأطرق قليلاً ثم زاد فى القصيدة بيتين لم يكونا فيها وهما الآتيان بعد .

الأمير بأجلاف العرب ، الأمير فوق مَنْ وصفت ، فردَّ أبو تمام بعد أنْ أطرق هنيهة :

لاَ تُنكروا ضَرْبِى لَهُ مَنْ دُونَهُ مثلاً شَرُوداً فِى النَّدَى وَالبَاسِ
فَاللهُ قَدْ ضَرَبَ الأقَلَّ لِنورِهِ مَثلاً مِنَ المشْكاة وَالنِّبرَاسِ(١)

هكذا يُنوِّر الله للخَلْق النور الحسىّ الذى يصون مادتهم ، ويحفظ سلامة حركتهم فى الحياة ، لأن الإنسان إنْ سار على غير هدى اصطدم بالأشياء من حوله ، والصدام يعنى أن يحطم القوىُّ الضعيفَ ، لذلك نحرص على وجود ضوء خافت (وناسة) مثلاً بالليل لتحمى حركتنا من الصدام .

فإذا كان الخالق سبحانه جعل لنا النور الحسىَّ لحماية مادتنا من أن تحطم أو تتحطم ، فلا بدَّ أنْ يجعل لنا نوراً معنوياً يحمى فينا القيم ، فلا نحطم بظلم ، ولا نحطم باضطهاد ، وهذا هو نور الوحى والشرع الذى تحيا به القلوب ، وينظم حركتنا المعنوية فى رحلة الحياة .

وكما بيَّن لنا الحق سبحانه النور الحسِّى بيَّن لنا النور المعنوى فقال خذوه من بيوت الله ، فقال تعالى : ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاَةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ

---

(١) الأبيات من قصيدة لأبى تمام من بحر الكامل عدد أبياتها ٣٤ بيتاً فى مدح الخليفة المعتصم . الندى : الكرم . الباس : القوة والشدة فى الحرب . المشكاة : الكوة . النبراس : المصباح والسراج . وهو تأكيد لما قبله يقصد قوله تعالى : ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ .. (٣٥)﴾ [النور] .

الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ (٣٧) ﴾ [النور]

إذن : خُذ النور المعنوى من بيوت الله ففيها تلتقى بالله تعالى ، فهذا اللقاء يضفى عليك نوراً من نور الله يملأ قلبك ويهدى جوارحك ويصلحك ، وبيَّن سبحانه أن نور القيم أعلى من نور المادة ، بدليل أن الإنسان حين يكون مكفوف البصر يمكنه أن يمشى وأنْ يزاول أعماله فى الدنيا ، أما فاقد النور المعنوى ، أو أعمى البصيرة كما يقولون فلا يمكن أبداً أنْ يُوفَّق فى حركته للصواب ؛ لذلك قال تعالى فى ختام آية : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. (٣٥) ﴾ [النور] قال : ﴿ نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ .. (٣٥) ﴾ [النور]

وبعد أنْ أشرقت الأرضُ بنور ربها ﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ .. (٦٩) ﴾ [الزمر] وفى موضع آخر جاء تفصيل وشرح ذلك ، فقال سبحانه : ﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَـٰذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً (٤٩) ﴾ [الكهف]

هكذا فصّل الحق سبحانه ما أجمل فى ﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ .. (٦٩) ﴾ [الزمر] ومعلوم أن آيات القرآن الكريم تفسر بعضها بعضاً ، والكتاب هنا كتاب خاص بكل إنسان على حدة ، كما قال سبحانه : ﴿ وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ[1] فِى عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُوراً (١٣) اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً (١٤) ﴾ [الإسراء]

---

(١) طائره : الطائر : الحظ من الخير أو من الشر ، قال تعالى : ﴿ وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِى عُنُقِهِ .. (١٣) ﴾ [الإسراء] . أى : نصيبه من الخير والشر فى كتاب حسناته وسيئاته . [القاموس القويم ١/٤١٣] .

وهذا الكتاب الذى يُحصى عليك أعمالك كتاب صدق ، لأن كاتبه ملَك موكَّل بك ﴿كِرَامًا كَاتِبِينَ (١١) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ (١٢)﴾ [الانفطار] وقال : ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (١٨)﴾ [ق]

فهذا الكتاب ليس فى علم الله فحسب ؛ لأن علم الله كلامٌ من عنده ، إنما هذا كتاب بمعنى أنه مكتوب مقروء يقرؤه صاحبه ويطلع عليه ، فيرى فيه عمله الصالح والطالح ؛ لذلك ساعةَ يراه المجرمون يرتعدون خوفاً لأنه أحصى عليهم إجرامهم ، ولم يترك منه كبيرة ولا صغيرة ، عندها لا يملكون إلا أنْ يدعوا على أنفسهم بالويل والثبور .

وبعد أنْ يأخذ كلٌّ كتابه يأتى الله بالرسل ﴿وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ .. (٦٩)﴾ [الزمر] ليشهد كل نبى أنه بلَّغ أمته ، يقول تعالى : ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ .. (١٠٩)﴾ [المائدة]

وبعد أن يشهد الرسل يشهد الشهداء وهم مَنْ حملوا العلم بعد الرسل ، كما ورد : « يحمل هذا العلمَ من كل خلف عُدُوله ، ينفون عنه تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين»[1] .

فهؤلاء العلماء أيضاً يشهدون أنهم بلَّغوا غيرهم ؛ لذلك امتازت أمة محمد ﷺ بعلمائها ، لأنهم امتدادٌ لرسالته ﷺ ، لذلك فخيريتنا على الأمم بهذه المسألة .

ويشهد أيضاً الشهداء الذين قُتلوا فى سبيل الله ، وهؤلاء

---

(١) أخرجه البزار فى مسنده ، انظر كشف الأستار عن زوائد البزار للهيثمى (١/٨٦) حديث (١٤٣) قال البزار : خالد بن عمرو منكر الحديث قد حدّث بأحاديث لم يتابع عليها وهذا منها . وذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد (١ / ١٤٠) وقال : فيه خالد بن عمرو القرشى كذَّبه يحى بن معين وأحمد بن حنبل ونسبه إلى الكذب . وهو من حديث أبى هريرة وابن عمر . وقد أخرجه العقيلى فى الضعفاء الكبير (١/٩) فى التقدمة من حديث أبى أمامة .

يشهدون أيضاً[١] لمكانتهم عند الله ، هذه المكانة التى نالوها بالشهادة، ويكفى أن الشهيد يدخل المعركة وهو يعرف أنه إنْ هُزم سيقتل ، فهو يتقدم إما للنصر وإما للشهادة ، فهو يعلم أنه سيدفع حياته ثمناً ، ولولا أنه واثق كل الثقة بما وعده الله من الجزاء ما خرج .

لذلك قال تعالى عن الشهداء : ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩)﴾ [آل عمران]

وعجيبٌ أنْ نسمع مَنْ يقول على سبيل الإنكار : يعنى لو أخرجنا الشهيد من قبره سنجده حياً ؟ نقول : اقرأ الآية وتدبَّر معناها ، فالله يقول : ﴿أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ .. (١٦٩)﴾ [آل عمران] لا عندك أنت ، بدليل أنه جاء بعدها بمادة الطلب للحياة فقال : (يُرْزَقُونَ) ذلك لأن الشهيد لما ضحَّى بحياته ضمن له ربه حياة أخرى أفضل وأعظم وأبقى مما كان فيها فى الدنيا ؛ لذلك قال الشاعر[٢] فى حق سيدنا حمزة سيد الشهداء :

أَحْمَزَةَ عَمَّ المصْطفَى أنتَ سَيِّدٌ عَلَى شُهَداء الأرْضِ أجمعهم طُرًّا

---

(١) قول الشيخ رحمه الله هنا (أيضاً) يدل على ثاقب نظره وعظيم علمه الذى لا يحتاج لشهادة ، فإن من المفسرين عند تأويل كلمة (الشهداء) اقتصروا على قولهم إنهم الشهداء من الملائكة الحفظة على أعمال العباد ، كابن كثير فى تفسيره (٤/٦٤) ، ومن المفسرين من ذكر عدة أقوال مثل القرطبى فى تفسيره (٨/٥٩٢٨) الذى ذكر فيها ثلاثة أقوال وكأنها متضادة متعارضة :

- هم الذين شهدوا على الأمم من أمة محمد ، قال تعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ .. (١٤٣)﴾ [البقرة] .
- هم الذين استشهدوا فى سبيل الله فيشهدون يوم القيامة لمن ذبَّ عن دين الله . قاله السدى .
- هم الحفظة الذين يشهدون على الناس بأعمالهم .

أما الشيخ الشعراوى فذهب إلى أن كل هؤلاء يشهدون فالأقوال متعاضدة وليست متعارضة . [عادل أبو المعاطى]

(٢) من شعر الشيخ رضوان الله عليه .

وحَسْبُكَ مِنْ تلْكَ الشَّهادةِ عِصْمةٌ مِنَ المَوْتِ ، موصول الحياة إلى الأخرى

المعنى : أنك قدمتَ حياتك وضحيت بها فعُصِمْتَ من الموت ، لأنك بعد أنْ متَّ صِرْتَ حياً فوصلتَ حياتك فى الدنيا بحياتك فى الآخرة ، وهبتَ الحياة فوُصِلتْ الحياة .

والشهادة على العبد يوم القيامة لا تنتهى عند هذا الحد ، فبعد أنْ شهدت عليه الملائكة بالكتاب الذى سطّروه ، وشهد عليه الأنبياء والشهداء ننقل الشهادة إلى ذاتك أنت ، فهذا تدرّج فى الشهادة من الملائكة وهم من جنس غير جنسك ، إلى الأنبياء والشهداء وهم من جنسك ، إلى جوارحك وهى قطعة منك : ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٦٥)﴾ [يس]

وقال سبحانه : ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤)﴾ [النور]

وقال تعالى : ﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٠) وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢١)﴾

[فصلت]

لكن كيف تشهد الأعضاء والجوارح على صاحبها وكانت فى الدنيا هى أداة الفعل ، فاللسان هو الذى قال ، واليد هى التى بطشتْ ، والرِّجْل هى التى سعتْ .. إلخ ؟ قالوا : لأن الله تعالى خلق لعبده الجوارح وسخرها لمراده ، وأمرها أنْ تطيعه فيما يريد ، فاللسان مُسخَّر لخدمة صاحبه إنْ أراد أن يقول لا إله إلا الله قالها . وإنْ أراد أنْ ينطق بكلمة الكفر نطق بها ، وهكذا بقية الجوارح .

إذن : طالما الإنسان فى الدنيا فالولاية على الجوارح لمراد الإنسان المخيَّر ، والجوارح تابعة لمراده ، فإذا ما بُعثنا وعُرضنا على الخالق سبحانه انحلَّتْ هذه الإرادة وسُلبت فلا إرادةَ لأحد إلا لله ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦)﴾ [غافر] وعندها تتحرر الأعضاء وتقف موقف الشاهد الصدق .

وقوله تعالى : ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (٦٩)﴾ [الزمر] أى : قضى اللهُ بين الناس وأهل المشهد وحكم بين الخلائق ، والذى يقضى هو الله . إذن : فهو قضاء بالحق لا يُظلم فيه أحدٌ ، فليس لأحد فى هذا اليوم إرادة ، وليس لأحد حكم ولا هوى ، إنما الأمر كله لله إنْ شاء اقتصَّ للمظلوم من الظالم ، وإنْ شاء أرضى المظلوم وعفا عن الظالم .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ (٧٠)﴾ [الزمر] أى : يجازيها بما عملت إنْ خيراً فخير ، وإنْ شراً فشر .

وهذه الآية وقف عندها المستشرقون يتهمون سياقها بعدم التناسق ، فالتناسق فى نظرهم أن نقول : ووُفيت كل نفس ما عملت وهو أعلم بما يعملون . وهم يقولون ذلك لأنهم لا يدركون الفرق بين الفعل والعمل ، فالفعل مقابل القول ، فاللسان وحده له مهمة القول وباقى الجوارح تفعل ، العين ترى ، والأذن تسمع ، واليد تبطش ، والرِّجْل تسعى .. إلخ.

كل جارحة لها مهمة وهذه كلها أفعال ، أما العمل فيشمل القول والفعل ، كل منهما يُسمَّى عملاً ، لذلك يقول تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ (٢)﴾ [الصف]

لكن لماذا خصَّ اللسان بالشطر وباقى الجوارح بالشطر الآخر ؟ قالوا : لأن القول يتم به البلاغ والتبليغ ، فاستحق أنْ يكون عمدة الجوارح .

فما نتيجة هذه التوفية للأعمال ؟ نتيجة توفية الأعمال أن تنال كل نفس ما تستحقه على عملها فى الدنيا ، لذلك بعد أنْ تتم التوفية ويتم الحساب يُساق أهل الإيمان إلى الجنة ، ويُساق أهل الكفر إلى النار :

﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ ﴾ (١)

نلحظ هنا أن الفعل (وَسِيقَ) جاء مبنياً لما لم يُسمَّ فاعله ، وفى موضع آخر قال تعالى : ﴿ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ ﴾ [ق] فمَن هو السائق ؟ قالوا : هم الملائكة يسوقون أهل النار إلى جهنم والعياذ بالله ، والسائق هو الذى يحثّ المسوق على الإسراع ، كراكب الدابة الذى ينهرها ويحثُّها لتسرع به ، كذلك تفعل الملائكة بالمجرمين وتحثهم إلى جهنم ليسرعوا إليها .

وهذا يدل على أن الملائكة مغتاظون منهم ، كارهون لهم ،

---

(١) خزنة جهنم : حراس النار من الملائكة الغلاظ الشداد . [القاموس القويم ١/١٩٢]

متضايقون من أعمالهم فى الدنيا ، لذلك يزجُّون بهم إلى جزائهم العادل فى جهنم ، بلا هوادة وبلا رحمة ، أرأيتم رجال الشرطة حينما يمسكون بالمجرم ماذا يفعلون به ؟ إنهم يضربونه ويُعذبونه ويهينونه لأنه عضو فاسد فى المجتمع يريد الجميع التخلص منه ، ومعلوم أن الملائكة عباد مكرمون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .

والقرآن يصور هذا الموقف في آية أخرى ، فيقول سبحانه : ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا (١٣)﴾ [الطور] يعنى : يزجرونهم إليها ويدفعونهم فيها رغماً عنهم .

ومعنى (زُمَراً) يعنى : جماعات ، فكل أصحاب مخالفة لمنهج الله معاً فى جماعة ، فالتاركون للصلاة جماعة ، والتاركون للزكاة جماعة ، والآكلون للربا جماعة وهكذا الظلمة والمرتشون والسارقون والزناة والمختلسون يجمع الله كل واحد منهم مع صاحبه ، فيُحشرون معاً يتقدمهم كبيرهم .

والفتوة فيهم كما قال سبحانه : ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ .. (٧١)﴾ [الإسراء] وقال سبحانه : ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا[1] (٦٩)﴾ [مريم]

وقال في حق فرعون : ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ (٩٨)﴾ [هود]

وكَوْن كبراء الضلال وقادة الكفر يتقدمون أتباعهم يدل ذلك على قطع أمل الآخرين فى النجاة ، فلو دخل التابع فلم يجد متبوعه لتعلق قلبه به ، وظن أنه سيأتى ويُخلصه ، لكن الحال أنه سيدخل فيجد

---

(١) عتياً : أى تمرداً واستكباراً . عتا : استكبر وجاوز الحد فى القسوة والشدة والطغيان . [القاموس القويم ٢/٦] .

أستاذه وقدوته فى الضلال قد سبقه إلى جهنم .

حتى إذا ما وصلوا إلى أبواب جهنم فتح لهم ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا..(٧١)﴾ [الزمر] لأن باب الغضب (مش مفندق) بل مغلق يُفتح للضرورة ، على خلاف باب الرحمة فهو مفتوح دائماً ، وهذا من رحمة الله ، لأن رحمة الله سبقتْ غضبه[١] .

وهذه النهاية التى انتهى إليها أهل النار كُتبتْ عليهم ، وعلمها الحق سبحانه من بداية الحياة ، واقرأ إنْ شئتَ قوله تعالى : ﴿يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ (١٠٥) فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ[٢] وَشَهِيقٌ (١٠٦) خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ (١٠٧) وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ[٣] (١٠٨)﴾ [هود]

أولاً : لا بدَّ لفهم هذه الآية أن تعرف أولاً معنى الخلود : الخلود هو المكث الطويل ، وهذا المكث سُمِّى خلوداً لأن له بداية وليس له نهاية ، والكلام هنا عن الذين سُعدوا وهم أهل الجنة ، والذين شقوا وهم أهل النار ، لكن الحق سبحانه استثنى من هؤلاء ومن هؤلاء ، والذين استثناهم الله ستنقص مدة خلودهم ، كيف ؟

الكافر بعد أنْ حُوسب وسيق إلى جهنم تُفتح له ويظل خالداً فيها

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « لما قضى الله الخلق كتب فى كتابه ، فهو عنده فوق العرش : إن رحمتى غلبت غضبى » أخرجه البخارى فى صحيحه (٣١٩٤ ، ٧٤٠٤ ، ٧٤٢٢) وكذا مسلم فى صحيحه (٢٧٥١) كتاب التوبة .

(٢) الزفير : إدخال النفس والشهيق إخراجه . قال الزجاج : الزفر من شدة الأنين وقبيحه . والشهيق : الأنين الشديد المرتفع جداً . [لسان العرب – مادة : زفر] .

(٣) الجذ : القطع . والانجذاذ : الانقطاع . قال أبو عبيد : غير مجذوذ . أى : غير مقطوع . [لسان العرب – مادة : جذذ] .

خلوداً كاملاً من البداية إلى ما لا نهاية ، كذلك المؤمن الذى تداركته رحمة ربه بعد أنْ يُحاسب يُساق إلى الجنة فيظل فيها خلوداً كاملاً من البداية إلى ما لا نهاية .

أما الاستثناء فللمؤمن العاصى الذى لم يَتُبْ عن معاصيه أو تاب ولم تُقبل توبته ، هذا لابدَّ أن يأخذ جزاء هذه المعاصى ، وأنْ تناله لفحة من لفحات النار والعياذ بالله ، هذا فى البداية ، فيدخل النار ما يشاء الله له ثم يُخرجه إلى الجنة وبذلك تكون فترة خلوده فى الجنة نقصتْ عن إخوانه المؤمنين ، والنقص هنا من البداية ، كذلك نقص خلود فى النار عن أهل النار الخالدين فيها .

وقوله تعالى : ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا .. (٧١)﴾ [الزمر] أى : خزنة النار قالوا لهم على سبيل التقريع والتوبيخ ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا .. (٧١)﴾ [الزمر] هذا الاستفهام ألزمهم الحجة وأفحمهم ، فربهم عز وجل لم يأخذهم على غِرَّة ، إنما أرسل لهم رسلاً ، وهؤلاء الرسل (مِنكُمْ) من جنسكم ومن أوسطكم والأقرب إليكم لتسهل القدوة به .

ومع هؤلاء الرسل حجج وبراهين ووَعْد ووعيد ، لذلك لم يستطيعوا الإنكار ﴿قَالُوا بَلَىٰ .. (٧١)﴾ [الزمر] يعنى : حدث هذا ، فأقرّوا على أنفسهم بإسقاط الحجة ، وأن الله بعث لهم الرسل الذين أنذروهم هذا اليوم .

إذن : الإنذارات التى تحدث للناس فى حياتهم من تمام رحمة الله بالخلق ، والإنذارات التى سبقت فى الحياة بما سيكون بعدها من تمام رحمة الله بالخلق ، أرأيتَ حين تُبصِّر ولدك بعاقبة الإهمال وتُخوِّفه من الرسوب آخر العام ، فإنك تعينه على المذاكرة والاجتهاد حتى

لا يلاقى هذه العاقبة ، وحتى لا يفاجأ بشىء غفل عنه .

لذلك وقف المستشرقون عند سورة الرحمن وقالوا : قوله تعالى ﴿خَلَقَ الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ (١٤) وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ[1] مِّن نَّارٍ (١٥) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٦) رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ (١٧) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٨) مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (١٩) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَّ يَبْغِيَانِ (٢٠) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢١) يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ (٢٢) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٣) وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ[2] (٢٤) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٥)﴾ [الرحمن] قالوا : نعم هذه نعم يناسبها ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٥)﴾ [الرحمن] لكن أىّ نعمة فى قوله : ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ[3] مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلا تَنتَصِرَانِ (٣٥) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٦)﴾ [الرحمن]

نعم الإنذار بالشر قبل أن يقع والتحذير منه قبل أوانه نعمة ، بل من أعظم نعم الله على الإنسان ليحتاط للأمر ، فالتهديد والوعيد والتبصير والتخويف إنما لنحذر المخوف منه فلا نقع فيه .

وقوله : ﴿وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٧١)﴾ [الزمر] يعنى : وجبتْ لهم رغم الإنذار والتبصير ، والكلمة التى حقَّتْ هى قوله تعالى : ﴿لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٣)﴾ [السجدة] فماذا تنتظرون بعد ذلك ؟ والعجيب أننا باختياراتنا الخائبة نساعد القدر ويمهد القدر لقدر .

---

(١) المارج : الشعلة الساطعة ذات اللهب ، أو اللهب المختلط بسواد النار . [القاموس القويم ٢/٢٢١] .

(٢) الأعلام : الجبال . مفرده علم . فمن نعم الله تلك السفن الضخمة المنشأة تجرى فى البحر كأنها الجبال .

(٣) الشواظ : القطعة من اللهب ليس فيها دخان .

والكلمة قولٌ مفرد لا يؤدى إلا معنىً فى ذاته ، إنما لا يؤدى معنى إسنادياً ، فكلمة السماء مثلاً لا تؤدى معنىً وحدها يحسنُ السكوت عليه ، لكن حين تقول : السماء صافية تعطى معنى مفهوماً يحْسن السكوت عليه ، قالوا : لكن قد تفيد الكلمة الواحدة ، فلو قلت : مَنْ عندك ؟ تقول : زيد . فأفادت : زيد عندى . ولولا تقدير كلمة عندى ما أفادتْ ، فالكلمة - إذن - لا تؤدى معنىً يحسن السكوت عليه إلا بضميمة غيرها .

وقد بيَّن علماء النحو ذلك حين قسَّموا الكلمة إلى اسم وفعل وحرف وكل منها تُسمَّى كلمة ، والفرق بينها أن الاسم يعطى فى ذاته معنىً مستقلاً بالفهم ، والفعل يعطى معنىً فى ذاته ، لكنه مرتبط بزمن أو الزمن جزء منه ، تقول : أكل أى فى الماضى . يأكل فى المضارع . وكُلْ فى المستقبل ، أما الحرف فهو لا يعطى معنى مستقلاً بالفهم ، إنما لا بدَّ له من ضميمة تبين معناه .

وتطلق الكلمة ويُراد بها الكلام تقول : ألقيت كلمة فى الحفل والمراد خطبة ، وقد استخدم القرآنُ الكلمة بهذا المعنى فى قوله تعالى : ﴿ كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا .. (١٠٠) ﴾ [المؤمنون] والمراد بالكلمة قوله : ﴿ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ .. (١٠٠) ﴾ [المؤمنون]

وكذلك هنا : ﴿ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٧١) ﴾ [الزمر] الكلمة هى ﴿ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٣) ﴾ [السجدة]

﴿ قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ (٧٢) ﴾

كلمة (بِئْسَ) للذم والمذموم ﴿مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (٧٢)﴾ [الزمر] أي : إقامتهم ونهايتهم ، ووصفهم بالمتكبرين خاصة لأنهم ما وصلوا إلى هذه النهاية إلا بتكبرهم ، تكبرهم على مَنْ ؟ على ربهم وخالقهم ، وعجيب من العبد أن يتكبر أول ما يتكبر على خالقه سبحانه الذى خلقه من عدم وأمده من عُدم .

ونلحظ فى هذه الآية مظهراً من مظاهر رحمته تعالى حتى بالكافرين ، وكأن الحق سبحانه يفتح لهم باب الأمل فى النجاة ، ويلمح لهم بإمكانية التوبة ، ومهما كان منهم فالباب مفتوح ، نفهم ذلك من قوله تعالى ﴿خَالِدِينَ فِيهَا .. (٧٢)﴾ [الزمر] ولم يقُلْ هنا أبداً كما قال مثلاً فى قوله تعالى : ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا (٢٣)﴾ [الجن]

ولما أحصى العلماء لفظ الأبدية بالنسبة للكافرين وجدوه فى آيتين (هما الأحزاب ٦٥ - الجن ٢٣) ، إذن : ذكر كلمة أبداً فى بعض الآيات وتركها فى البعض الآخر ، وفى هذا إطماع لمن لم يصل إلى الحقيقة التى تنجيه ربما تدارك الأمر وأنقذ نفسه وعاد إلى الجادة ، أما حين يتكلم الحق سبحانه عن الجنة فتجد كلمة ﴿خَالِدِينَ فِيهَا .. (٢٣)﴾ [الجن] غالباً مقرونة بالأبدية .

ونلحظ أيضاً قوله تعالى : ﴿ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ .. (٧٢)﴾ [الزمر] ولم يقل : ادخلوا جهنم . فما الفرق بين التعبيرين ؟ قال تعالى : ﴿ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ .. (٧٢)﴾ [الزمر] لأن العذاب يبادرهم ويسرع إليهم بمجرد أنْ يدخلوها فهو يستقبلهم على بابها .

بعد ذلك ينتقل السياق إلى المقابل ، إلى أهل الجنة ، لكن لماذا بدأ بأهل النار فقال : ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ..(٧١)﴾

[الزمر] قالوا : بدأ بهم لأنهم هم المنكرون المكذِّبون بالبعث والحساب ، فبدأ بهم تعجيلات بعقابهم ومساءتهم ، أما المتقون فهم مُصدِّقون بهذا اليوم مؤمنون به ، وبما سيكون فيه من حساب وجزاء ، ثم إن الختام بالوعد والبشارة فيه استبشارٌ وحُسْن ختام .

يقول تعالى :

﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾

هنا أيضاً ساقتهم الملائكة مع الفارق بين سَوْق الكافرين وسَوْق المتقين ، فالكافرون ساقتهم الملائكة ليعجلوا لهم العذاب سَوْقاً فيه زجر وقسوة ، أما المتقون فيُساقون سَوْق المحب لحبيبه ليعجلوا لهم النعيم .

وقوله (زمراً) يعني : جماعات كل جماعة على حدَة ، فهؤلاء الزهاد وهؤلاء العلماء وهؤلاء المجاهدون وهؤلاء الأمناء ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا .. ﴿٧٣﴾ ﴾ [الزمر] هناك قال (فُتِحَتْ) وهنا (وَفُتِحَتْ) قالوا فى أهل النار (فُتِحَتْ) هى جواب الشرط ، أما هنا (وَفُتِحَتْ) ليستْ جواباً للشرط ، بل جواب الشرط فى النعيم المذكور بعدها ، لأن فتح الأبواب ليس هو الغاية ، إنما الغاية ما يتبع ذلك من النعيم .

فالواو هنا عاطفة وجملة ﴿ وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا .. ﴿٧٣﴾ ﴾ [الزمر] معطوفة

على ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا .. (٧٣)﴾ [الزمر] ذلك لأن المؤمنين ما كانوا يشكّون فى هذا اليوم ، أما الكفّار فيشكونَ فيه لذلك جعل ﴿فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا .. (٧١)﴾ [الزمر] جواباً للشرط قبلها .

أما فى المتقين فجواب الشرط أسمى من مجرد فتح الأبواب لهم ، ففتحت هذه مداخل الرحمة التى سيذكرها بعد ، ويذكر مكوناتها ، وكيف أنها تتدرج بدايةً من تحية الملائكة لهم : ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ .. (٧٣)﴾ [الزمر] لأنكم طهرتم أنفسكم من دنس المعاصى والشركِ ﴿فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ (٧٣)﴾ [الزمر] إلى آخر السورة ، حيث يرونَ الملائكة حافّين من حول العرش ، وهذا هو جواب الشرط الذى يليق بهم .

جماعة أخرى من العلماء[1] قالوا : إن جواب الشرط هو (وفتحت) والواو هذه واو الثمانية ، فما المراد بواو الثمانية ؟ قالوا : كان منتهى العدد عند العرب سبعة ، فإذا جاء شىء بعد السبعة يعدُّونه كلاماً جديداً فيعطفونه بالواو ، ومن ذلك قوله تعالى فى أهل الكهف : ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ .. (٢٢)﴾ [الكهف] فقبل الثامن يذكر الواو .

---

(١) قاله أبو بكر بن عياش فيما نقله القرطبى فى تفسيره (٥٩٣١/٨) ثم قال : وقد استدل بهذا من قال إن أبواب الجنة ثمانية ، وذكروا حديث عمر بن الخطاب قال قال رسول الله « ما منكم من أحد يتوضأ فيسبغ الوضوء ثم قال أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء » خرجه مسلم وغيره ، وقد خرَّج الترمذى حديث عمر هذا وقال فيه : « فتح له من أبواب الجنة ثمانية أبواب يوم القيامة » بزيادة من وهو يدل على أن أبواب الجنة أكثر من ثمانية . وقد ذكرنا ذلك فى كتاب « التذكرة » وانتهى عددها إلى ثلاثة عشر باباً .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ[1] الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٢) ﴾ [التوبة] فكلمة الناهون هى الثامنة لذلك سُبقت بالواو .

وقال بعضهم : إن من ذلك قوله تعالى فى سورة التحريم : ﴿ عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا (٥) ﴾ [التحريم]

نعم كلمة (أبكاراً) هنا هى الثامنة ، لكن الواو جاءت هنا للفصل بين الاثنين ، فالثيبات لا يكُنَّ أبداً أبكاراً . إذن : فهذه الآية لا يُحتجّ بها فى هذا الموضوع ، إنما يُحتج بآية الكهف وآية التحريم ، على أن العدد سبعة هو منتهى العدد عند العرب ، وكذلك العدد ألف .

لذلك لما وقعتْ ابنة كسرى فى الأَسْر وذهبتْ لتفدى نفسها ، فقالوا لمن أخذها فى حصته : كم تطلب فيها ؟ قال : ألف دينار ، فقالوا له : إنها بنت كسرى . يعنى : كان بإمكانك أن تزيد على ذلك فقال : والله لو كنتُ أعلم أن وراء الألف عدداً لقُلْته .

ونحن لا نرى هذا الرأى ، فكلمة (وَفُتِحَتْ) ليستْ هى جواب الشرط هنا ، لأن جواب الشرط بالنسبة للمتقين أسمى من فتح الأبواب لهم وأسمى من قَوْل الملائكة لهم ﴿ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ .. (٧٣) ﴾ [الزمر] وأسمى من ﴿ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ (٧٣) ﴾ [الزمر] لأن الحق

---

(١) السائحون : المنقطعون للعبادة لأنهم متجهون إلى الله . والعابدات السائحات فسرت بالصائمات والمهاجرات أو هى من السياحة لله والفرار إليه والمجاهدة ليلاً ونهاراً فى سبيل الوصول إلى كامل محبته وعظيم رضاه بالعبادة الخالصة وبالطاعة الدائمة . [القاموس القويم ١/٣٣٩] .

سبحانه سيقول بعد ذلك : ﴿وَتَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ .. (٧٥)﴾ [الزمر] فذكر العرش هنا والملائكة تطوف به مُسبِّحة بحمد ربهم فيه إشارة إلى منتهى النعيم الذى سيلاقيه المتقون ، حيث يرونَ الحق سبحانه الذى استوى على هذا العرش ، هذه هى الغاية التى يناسب أن تكون جواباً للشرط السابق .

لكن لماذا أخفى اللهُ جوابَ الشرط هكذا ؟ قالوا : لأنه لو قالها أى : « فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر »[1] لو قالها الآن لكانت قد سمعت ، إنما أراد سبحانه أن تكون مفاجأة على أنها مما لا يخطر على قلب بشر ، يعنى : لا تأتى على البال .

فمثلاً فى فاكهة الجنة يأتى لى بالفاكهة التى أعرفها كالتفاح والمانجو مثلاً نحن نعرفها فى الدنيا ، لأنه لو أتى بفاكهة جديدة لم نعرفها فى الدنيا لَقُلْنا : لو كانت فى الدنيا لكانت مثل هذا شكلاً وطعماً ، لذلك تأتى الفاكهة مما نعرفه فى الدنيا ، لكن بمواصفات أخرى يتحقق فيها ما لا عين رأتْ ، ولا أذن سمعتْ ، ولا خطر على قلب بشر .

إذن : التفاضل يأتى من كَوْنها فى الجنة ، ثم لو جاءت لى الفاكهة فى الجنة فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، فكيف لو جاءت للمرة الثانية ؟ لا بد أننى سأكون قد رأيتها من قبل وخطرتْ على بالى ، فحين أرى المانجو مثلاً أقول : أنا

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٨٢٤) وأحمد فى مسنده (٢/٤٦٦) وأبو نعيم فى الحلية (٢/٢٦٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

أكلتُها قبل ذلك . قالوا : لا بل ستكون على هيئة أخرى ، ولون آخر ، وطعم آخر غير الذى أكلتُه فى المرة الأولى ، وهكذا يتحقق فى نعيم الجنة ما لا عين رأتْ ، ولا أذن سمعتْ ولا خطر على قلب بشر .

لذلك يقول تعالى : ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَـٰذَا الَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا .. (٢٥)﴾ [البقرة]

﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (٧٤)﴾

قولهم : ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ .. (٧٤)﴾ [الزمر] أهو حَمْد على صدق الله فى الوعد ، أم لأنكم بتوفيق الله صدقتم الله فيما وعدكم به ؟ المعنى : الحمد لله الذى جعلنا أهلاً لأنْ يصدق وعده فينا لأننا صدَّقنا به ، وإلا فوَعْد الله صادق صادق .

﴿وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ .. (٧٤)﴾ [الزمر] الإرث هنا له معنىً غير معناه الذى نعرفه بأنْ يرث شخصٌ غيره بعد موته .. فالميراث هنا فى الجنة كما قال تعالى فى آية أخرى : ﴿وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣)﴾ [الأعراف]

وبيانُ ذلك كما قلنا أن الحق سبحانه قضى أزلاً أنْ يخلق خلقاً ، وأن يترك لهم الاختيار فى أشياء ، ويجبرهم فى أشياء أخرى ليظلوا عبيداً له سبحانه رغم أنوفهم من ناحية وعبيداً فيما يختارون من ناحية .

فإنْ آثروا جانب الله تعالى وآثروا مراده على ما وكل فيهم من الاختيار فازوا بمنزلة العبودية لله ، وكانوا وقتها أفضل من الملائكة لأن الملائكة جُبلوا على الطاعة أمّا الإنسان فأعطى الاختيار يُطيع أو يعصى ، فإنْ أطاع فله أنْ يزهوَ حتى على الملائكة .

لذلك كان إبليسُ قبل أنْ يعصى يزهو على الملائكة ، وكان يُسمَّى طاووس الملائكة لأنه مخلوق مختار ، ومع ذلك أطاع كما أطاعتْ الملائكة فأصبح له مَيْزة عليهم إلى أنْ زلَّ الزلة الأخيرة فأُبعِد وطُرِد من رحمة الله .

نقول : لما خلق الله الخَلْق مختارين ، لهم أنْ يطيعوا ، ولهم أنْ يعصوا أعدَّ لهم دار الجزاء فى الجنة على اعتبار أنهم جميعاً سيطيعون ، فلكل واحد منهم منزلة فى الجنة ، كذلك أعدَّ لهم فى النار أماكن تسعهم جميعاً لو عصوا ، فحين يذهب أهل النار إلى النار تخلو أماكنهم فى الجنة فأين تذهب ؟ يأخذها أهل الجنة أو يرثونها كما قال القرآن .

وقوله تعالى : ﴿ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ .. (٧٤) ﴾ [الزمر] نقول : تبوأ المكان يعنى : نزل به ، ومن ذلك قوله تعالى فى قصة يوسف عليه السلام : ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ (٥٦) ﴾ [يوسف] فالمعنى : ننزل ونسكن ، لكن المسألة ليست بالقوة ، كل يذهب حيث يشاء ، وليس فيها تعدياً على حقوق الآخرين ، فالمعنى : نسكن ما نشاء ، كل فى جنته وما خصص له لا فى جنة غيره ، وهذا دليل على أن الجنة الخاصة به

واسعة ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (٧٤)﴾ [الزمر] نعم للمدح يعنى : أجر كبير نالوه بأعمالهم الصالحة .

﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٧٥)﴾

قوله تعالى : ﴿حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ .. (٧٥)﴾ [الزمر] يعنى : يطوفون حوله ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ..(٧٥)﴾ [الزمر] فليس لهم عمل إلا التسبيح بحمد ربهم ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ ..(٧٥)﴾ [الزمر] أى : قضى الله بينهم ، بين مَنْ ؟ بين الملائكة لأنهم أقسام : منهم العالون ، وهم المهيمون فى الحق سبحانه ، وهم لا يدرون شيئاً عن دنيانا ولا عن آدم وذريته .

ومنهم المسخرون لخدمة الإنسان وهم الملائكة الحافظون ، الذين قال الله عنهم : ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ .. (١١)﴾ [الرعد] وهؤلاء الذين أمرهم الله بالسجود لآدم لا كل الملائكة ، فكأن هذا السجود دليلُ خضوع وطاعة لهذا المخلوق الذى ستكونون فى خدمته .ومنْ الملائكة الكرام الكاتبون : ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (١٠) كِرَامًا كَاتِبِينَ (١١) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ (١٢)﴾ [الانفطار]

فمعنى : ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ .. (٧٥)﴾ [الزمر] يعنى : أخذ كلٌّ منهم منزلته والجزاء الذى يستحقه .

﴿ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٧٥) ﴾ [الزمر] مَن القائل ؟ قالوا[١] : قالها المؤمنون من البشر ، وقالوا[٢] : قالها جميع الخلائق ، وقالوا : قالها الحق سبحانه ، فهى ثناء من الله تعالى على ذاته سبحانه ، كما شهد سبحانه لنفسه بأنه ﴿ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ .. (١٨) ﴾ [آل عمران]

فالحق سبحانه حمد نفسه على أنه رب العالمين ، لذلك قال النبى ﷺ فى الحديث : « ..... لا نحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك »[٣] فهذا ثناء من الله على الله ، اللهم اجعلنا دائماً من القائلين الحمد لله رب العالمين .

---

(١) قاله القرطبى فى تفسيره (٨/٥٩٣٣) : « أى يقول المؤمنون الحمد لله على ما أثابنا من نعمه وإحسانه ونصرنا على من ظلمنا . وقيل : من قول الملائكة ، فعلى هذا يكون حمدهم لله تعالى على عدله وقضائه » .

(٢) قاله ابن كثير فى تفسيره (٤/٦٩) : « أى : نطق الكون أجمعه ناطقه وبهيمه لله رب العالمين بالحمد فى حكمه وعدله ولهذا لم يسند القول إلى قائل بل أطلقه فدل على أن جميع المخلوقات شهدت له بالحمد » .

(٣) أخرجه أحمد فى مسنده (٦/٥٨ ، ١٢٠) وكذلك مسلم فى صحيحه (٤٨٦) من حديث عائشة رضى الله عنها قالت : فقدت رسول الله ﷺ ليلة من الفراش فالتمسته فوقعت يدى على بطن قدميه وهو فى المسجد وهما منصوبتان وهو يقول : « اللهم أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك ، لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك » .

سُورَةُ غَافِرٍ

سورة غافر[1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾

هذه السورة بداية (الحواميم) أى : السور المفتتحة بقوله تعالى (حم) نقول فى الجمع (الحواميم) وهذا الجمع على غير القاعدة ، فالأصح أن نقول (آل حم) و (حم) من الحروف المقطعة التى ترد فى أوائل السور ، وسبق أنْ تكلمنا عليها فى أكثر من موضع ، والحقيقة أننا نحوم حول معانيها مما يتيسر لنا فهمه واستنباطه منها ، والجميع فى النهاية يقول : الله أعلم بمراده لأن معانيها فوق الإحاطة .

قلنا : إن الحرف له اسم وله مُسمّى ، نقول : ألف للحرف (أ)

---

(١) سورة غافر وتسمى سورة المؤمن نسبة إلى مؤمن آل فرعون فى قوله تعالى : ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ .. ﴿٢٨﴾﴾ [غافر] . وتسمى أيضاً سورة الطوْل لقوله تعالى : ﴿غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ .. ﴿٣﴾﴾ [غافر] أى : ذى الغنى والسعة والإنعام . وهى سورة مكية فى قول الحسن وعطاء وعكرمة وجابر . وعن الحسن إلا قوله ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ .. ﴿٥٥﴾﴾ [غافر] لأن الصلوات نزلت بالمدينة . وقال ابن عباس وقتادة : إلا آيتين منها نزلتا بالمدينة وهما ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ .. ﴿٥٦﴾﴾ [غافر] والتى بعدها . عدد آياتها ٨٥ آية وترتيبها فى المصحف الشريف (٤٠) وهى السورة (٥٩) فى ترتيب النزول نزلت بعد سورة الزمر كما هى فى المصحف وبعد سورة السجدة . [راجع تفسير القرطبى ٥٩٣٥/٨] . و[الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى ٢٧/١] .

وباء للحرف (ب) هذا اسم الحرف ، أما المسمَّى لو قلت مثلاً (كتب) أنا لا أنطقها كاف تاء باء ، فهذه أسماء الحروف إنما أنطقها كتب وهذا هو المسمى : مُسمّى الكاف كَ ، ومسمّى التاء تَ ، ومسمّى الباء بَ ، إذن : نحن فى كلامنا ننطق بمسمّى الحروف .

لكن فى (حم) ننطق باسم الحرف فنقول : ح م ولو نطقنا المسمّى لَقُلْنا حمَّ . ومن هنا تأتى أهمية السماع فى قراءة القرآن . فبالسماع تُقرأ فى أول البقرة (الم) هكذا ألف لام ميم ، فى حين تُقرأ نفس الحروف فى سورة الشرح ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١﴾ [الشرح] ولولا السماع ما كُنا نعرف هذا النطق .

بعض العلماء أخذوا يحومون حول معانى هذه الحروف فى أوائل السور فقالوا : القرآن معجز لأمة العرب ولما نبغ العرب فى البيان والفصاحة جاءتْ المعجزة من جنس ما نبغوا فيه ليكون الإعجاز فى محله ، وإلا فليس هناك أمة من الأمم جعلتْ للكلمة أسواقاً ومعارض كما فعل العرب فى عكاظ والمربد وذى المجاز[1] وغيرها . وكان تحدِّى القرآن لهم عين الشهادة بتفوقهم فى هذا الميدان ، وأنهم حجة فيه .

لكن من أين أتى إعجاز القرآن ؟ وبِمَ تميز عن كلام العرب والحروف هى الحروف والكلمات هى الكلمات ؟

قالوا : حروف اللغة منها حروف مَبْنى أى : تُبنى الكلمة وهذه الحروف ليس لها معنى فى ذاتها ، وحروف معنى وهى حروف لها

---

(١) عكاظ : سوق للعرب كانوا يتعاكظون فيها بالمفاخرة بالأنساب والآباء والجاه . وهى بقرب مكة كان العرب يجتمعون بها كل سنة فيقيمون شهراً . ذو المجاز : موضع بمنى كانت به سوق فى الجاهلية . [راجع لسان العرب – مادة : عكظ ، جوز] .

معنى وحدها ، فمثلاً الكاف حرف مبنى لأنه يدخل فى بناء كلمة كتب ، ولو أخذ الكاف من كتب ما كان لها معنى وحدها ، أما الكاف فى الجندى كالأسد فهى حرف معنى أفاد وحده معنى التشبيه ، ولم يدخل فى بناء كلمة الأسد ، كذلك الباء حرف مبنى فى كتب وحرف معنى فى (بالله) لأنه أفاد معنى القسم .

ومن هذه الحروف تتكوَّن الكلمات ، ومن الكلمات تتكوَّن الجمل والعبارات ، والعبارات تكوِّن الأسلوب والأداء المتميز الجذاب الذى يستميل الأذن ويؤثر فى النفس ، ومن هنا تأتى بلاغة الكلام وفصاحته حين يكون موافقاً لقواعد اللغة ، فإذا كانت الحروف العربية والكلمات هى هى فى القرآن ، فبمَ تميَّز عن كلام العرب ؟ قالوا : تميَّز بنسيجه الخاص ، وأن الذى تكلم به هو الله سبحانه .

وسبق أن قلنا : إننا إذا أردنا أن نختبر جماعة من النساجين فى جودة النسج ورقته لا يصح أنْ نعطى أحدهم خيوط الصوف والآخر القطن والآخر الحرير ، لأن المادة الخام مختلفة فلا نستطيع تمييز الأجود ، بل لابد أن تكون المادة واحدة ليتم التمييز .

فمعنى ﴿حمٓ (١) تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٢)﴾ [غافر] أو ﴿حمٓ (١) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢)﴾ [الدخان] أو ﴿الٓمٓ (١) ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ .. (٢)﴾ [البقرة] أى : من هذه الحروف تكوَّن القرآن وأعطى سر الإعجاز والتحدى ، لأن الله تعالى هو الذى نطق به وبلَّغه رسوله ﷺ ، وهو رسول أمى لا يعرف القراءة أو الكتابة .

لذلك نطق بالقرآن كما أوحى إليه لم يُغيِّر فيه حرفاً واحداً ؛ لذلك كانت الأمية عيباً وقُبْحاً إلا فى رسول الله كانت شرفاً وميزة ، وكأنه يقول بأميته : أنا لم أتعلم من أحد شيئاً ، وكل ثقافتى من ربى .

كذلك كانت الأمة كلها أمة أمية مُتبدِّية لا تعرف الحضارة ولا يحكمها قانون عام ، ولو كانت أمةُ العرب حينها أمةً متحضرة لقالوا عن الإسلام أنه وَثْبة حضارية ، لكن جاء الإسلام فى جزيرة العرب وهم أمة بدوية ليس لها قانون ولا دستور حكمها إلا قانون القبيلة وعصبيتها ، الحاكم فيها شيخ القبيلة ، بيوتهم على ظهر جمالهم أنَّى وجدوا الكلأ نزلوا وضربوا خيامهم ، وأنَّى وجدوا الماء حلوا بجواره ، فهم غير مرتبطين بوطن ولا مكان .

ناهيك عَمَّا كان بينهم من صراع قبلى وحروب تنشب على أيسر الأسباب ، وتعرفون مثلاً حرب داحس والغبراء التى استمرت بينهم أربعين سنة ؛ لذلك لما أراد رسول الله أن يكون للدولة الوليدة جيش ما فتح مدرسة لتعليم فنون القتال والحرب لأنه فى أمة تجيد هذه الفنون إجادةً تامة ، والعربى بطبعه مستعدّ للحرب كلما سمع هَيْعة[1] طار إليها .

إذن : فكيف لمثل هذه الأمة أن تقود العالم كله أن تفتح بلاد الدنيا ، وهى بهذا الوصف ؟

فكأن الله تعالى أراد أنْ يعدهم للسياحة فى الأرض بهدى الله لخلق الله فلم يرتبطوا بشىء ، ثم بعث فيهم رسولَ الله فجعل من العبيد سادة ، ومن رعاة الشاة قادة ومنارات للأمم كلها . إذن : كانت الأمة العربية مُعدَّة لساناً وأمية وبدوية لأنْ تقودَ العالم المتحضر ليعرف الجميع أن ما جاء به محمد ليس من عند البشر ، إنما من عند الله .

---

(١) الهيعة : الصوت الذى تفزع منه وتخافه من عدو . والهيعة : الصوت الشديد . [لسان العرب – مادة : هيع] ومنه حديث رسول الله ﷺ : « خير الناس رجل ممسك بعنان فرسه فى سبيل الله كلما سمع هيعة طار إليها » أخرجه مسلم فى صحيحه (١٨٨٩) كتاب الإمارة ، وأحمد فى مسنده (٤٤٣/٢) عن أبى هريرة بغير هذا اللفظ .

نعود إلى مسألة الحروف المقطعة ، فنقول : قد تأتى هذه الحروف على حرف واحد مثل (ق ، ص) وعلى حرفين مثل (طس ، حم) وعلى ثلاثة أحرف مثل (طسم ، الم) وعلى أربعة أحرف مثل : (المص ، المر) وعلى خمسة أحرف مثل : (كهيعص) إذن : ليس لها نسق واحد .

وحين نتأمل مجموع هذه الحروف نجده أربعة عشر حرفاً يعنى نصف حروف الهجاء الثمانية والعشرين ، وكونه يأتى بالنصف بالذات يعنى أنها مسألة مقصودة لم تأتِ هكذا كما اتفق ، ودليل أن هذه الحروف الأربعة عشر تصرفتْ تصرفاً يوحى بأن لها ملحظاً وحكمة ولم تأتِ اعتباطاً ، فهذه الحروف الثمانية والعشرون منها تسعة حروف من أول ألف باء إلى حرف الذال لم يأخذ منها فى الحروف المقطعة إلا حرفين هما الألف والحاء وترك الباقين . وهى سبعة أحرف .

ثم تأمل التسعة الأحرف الأخيرة تجد أن الحق سبحانه أخذ منها سبعة أحرف وترك حرفين على عكس الأولى فأخذ منها : القاف والكاف واللام والميم والنون والهاء والياء وترك الفاء والواو . هذه ثمانية عشر حرفاً ، يبقى العشرة الأحرف فى الوسط ، وتبدأ من الراء إلى الغين .

ونلحظ فى هذه الأحرف أنه أخذ الحروف غير المنقوطة وترك الحروف المنقوطة ، أخذ الراء وترك الزاى ، وأخذ السين وترك الشين ، وأخذ الصاد وترك الضاد ، وأخذ الطاء وترك الظاء ، وأخذ العين وترك الغين .

إذن : هذا النظام فى الحروف المقطعة دلَّ على أنها ليست على

نسق واحد ، وأن لها حكمة مقصودة ولم تأت هكذا اعتباطاً ، وعلينا نحن أن نستنبط هذه الحكَم ونفهم هذه الدلالاتَ كلّ حسب ما تيسّر له ، وما زلنا (نفتش) فى هذه الحروف لعلنا نصل .

لكن كونك تبحث عن الحكمة فهذا اجتهاد محمود ، ولك أنْ تريح عقلك وتأخذها من الله كما هى كما تأخذ المفتاح مثلاً ممن صنع الطبلة ، فلا يعنيك أن يكون بسنَّة واحدة أو اثنتين أو ثلاثة أو أربعة، المهم أن يفتح لك ، ويكونَ سرّ المفتاح مع مَنْ صنعه .

لكن للعقل أنْ يأنس بأشياء ، كيف ؟

قالوا : الحق سبحانه وتعالى يريد فى دينه ثلاثة أمور : عقائد ، وأحكام ، ومادة تؤدى هذه العقائد والأحكام وهى كلامه فى القرآن ، وكلٌّ من هذه الثلاثة فيه غيب وفيه مشهد .

فالعقائد وأولها الإيمان بالله وهو غَيْب لكن يمكنك الوصول إليه والاستدلال عليه بالمشاهد من مخلوقاته وعظيم صنعته وهندسته فى الكون المرئى ، لأن هذا الكون البديع لم يدَّع أحدٌ خَلْقه ولم ينسبه لنفسه . إذن : هو لله وحده ، إذن نصدق هذا الغيب بالمشاهد ، أما الغيب الذى ليس له مشهد كالصفات التى للحق سبحانه فنأخذها مما نسمع من كلامه سبحانه .

كذلك الفرائض والأحكام فيها مشهد وفيها غيب ، فالصلاة والزكاة والحج والصيام كلها مشهد ، وفيها غيب لا نعرف حكمته حتى الآن ، فالصلاة فيها استطراق عبودية ، والصيام فيه استدامة التكليف ، والزكاة لاستطراق المال فى المجتمع ، والحج لإعلان الولاء للبيت الذى هو بيت الله ، هذه أمور تستطيع أنْ تعرفها بالعقل ، لكن

ما الحكمة مثلاً من جَعْل الصبح ركعتين والظهر أربعاً والعصر أربعاً والمغرب ثلاثاً ، والعشاء أربعاً ، هذه لا نعرفها .

إذن : مع كل غيب مشهد ، ومع كل مشهد غيب ، كذلك كلام الله تعالى فيه غيب وفيه مشهد ، أما المشهد فهو الكلام الذى نعرفه ونقرؤه ونسمعه ونكتبه ونعرف معناه وتفسيره ، وفيه غيب كما فى (الم ، ن ، ق ، ص) .

فكل غَيْب محروسٌ بمشهد يساعدنا على الإيمان بالغيب ؛ لأن المسائل كلها لو كانت مشهداً ما كان للإيمان مجال ، فنحن الآن أنا وأنتم نجلس مجلسَ علم فى مسجد الشيخ سليمان ، فهل هذا المشهد لنا محل إيمان ، لا بل مشهد . أما الإيمان فمحلّه الغيب ، لذلك قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ .. (٣) ﴾ [البقرة]

لكن هذا الغيب لابدَّ أنْ تكون له شواهد من المشاهدة ومقدمة تؤدى إليه ، أرأيتَ مثلاً لرحلة الإسراء والمعراج ؟ هذا غيب لم يَرَهُ أحد غير سيدنا رسول الله ، رحلة الإسراء كانت رحلة أرضية ، ورحلة المعراج كانت رحلة سماوية ، الناس شاهدتْ ما على الأرض من معالم لكن لم تشاهد ما فى السماء .

لذلك لما أراد سيدنا رسول الله أن يقدم لهم دليلاً على صدقه وصف لهم معالم رآها على الأرض فوصف لهم بيت المقدس[1] ،

---

(١) أخرج البيهقى فى دلائل النبوة (٣٦٣/٢) من حديث ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : إنى أسرى بى الليلة . قالوا : إلى أين ؟ قال : إلى بيت المقدس . قالوا : ثم أصبحت بين ظهرانينا ؟ فقال : نعم . قال : فمن بين مصفق وواحد واضع يده على رأسه مستعجب للكذب .. قال : وفى القوم من قد سافر إلى ذلك البلد ورأى المسجد فقال : هل تستطيع أن تنعت لنا المسجد ؟ قال : فذهبت أنعت فما زلت حتى التبس علىَّ بعض النعت . قال : فجىء بالمسجد حتى وُضع دون دار عقيل قال : فنعتُّه وأنا أنظر إليه . فقالوا : أما النعت فقد والله أصاب . وأخرجه أحمد فى مسنده (٣٠٩/١) .

والقبيلة التى رآها مسافرة ومتى ستصل ، وأن بها جملاً صفته كذا وكذا ، فهذه رحلة أرضية من الممكن أنْ يُقام عليها دليل .

وبصدقه ﷺ فيما أخبر من مشاهدات أرضية صارتْ هذه الرحلة مشهداً ووسيلة لتصديق المشهديات المخالفة للقوانين ، فإنْ أخبر أنه صعد إلى السماء فصدِّقوه وخذوا من صدقه فى المشَاهَد دليلاً على صدقه فيما غاب ؛ لأن كلَّ غيب كما قلنا محروس بمشهد .

ثم يقول سبحانه :

﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٢﴾ ﴾

مادة نزل وردتْ فى القرآن بصيغ عدة : أنزلنا ، نزَّلنا ، تنزيل نزل . وكلها تعطى معنى العلو للذى نُزِّل ، وصفة العلو تدل على أن المنزَّل ليس من صُنْع البشر ، وتدل على عظمة المنزَّل ومنزلته ، حتى إنْ كان من جهة الأرض لا من جهة السماء ، كما قال تعالى فى الحديد : ﴿ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ .. ﴿٢٥﴾ ﴾ [الحديد]

ومعلوم أن الحديد يُستخرج من الأرض لا ينزل من السماء ، فالمعنى : أنزلناه على أنه هبة العالى للأدنى ، ولا بدَّ أن يكون الأعلى أعظم من الأدنى . ونقول ذلك حتى فى الأحكام والقوانين حين نريد أنْ نشرع ونُقنِّن القوانين .

لا تتركوا قوانين الأعلى وتأخذوا بقوانين الأدنى ، لأن المقنِّن الأعلى سبحانه غير المقنِّن من البشر ، فمهما بلغ من العلم والحكمة فلن يخلو من هوى ولن يتنزَّه عن غرض ، فإنْ كان من الأغنياء يُقنِّن للرأسمالية ، وإنْ كان فقيراً قنَّن للشيوعية .

لذلك يُشترط فيمن يُقنِّن ألاَّ يكون له هوىً ، وألاَّ يكون منتفعاً بما يقنن ، وأنْ يكون محيطاً بالأمور كلها بحيث لا يستدرك عليه ولا ينسى جزئية من جزئيات الموضوع ، وهذه الشروط كلها لا تتوفر إلا فى الحق سبحانه ، لذلك لا يجوز لنا أن نترك قانون الله وشرعه ونتحاكم إلى قانون البشر .

لذلك تعرَّض الإسلامُ لحملات ضارية وانتقادات من غير المسلمين كان آخرها الضجة التى أثاروها فى الفاتيكان على الطلاق فى الإسلام ، لأنهم قننوا لأنفسهم بعدم الطلاق ، لكن الطلاق فى الإسلام مَنْ شرعه ؟ الله لا البشر .

إذن : فهو الصواب وغيره خطأ ، لأنك لا تستطيع أبداً أنْ تديمَ علاقة بين زوجين يكره كل منهما الآخر وهو مأمون عليها وهى مأمونة عليه ؟ كيف تحكم علىَّ أن أعيش مع امرأة لا تثير غرائزى .

إذن : شُرِع الطلاق فى الإسلام لحكمة ، لأن المشرِّع سبحانه أعلم بطبائع الخَلْق ، ومرتْ الأيام وألجأتهم أقضية الحياة ومشاكل المجتمع لأنْ يُشرعوا هم أيضاً الطلاق ، ما أباحوه لأن الإسلام أباحه ولا محبةً فى دين الله ولا إيماناً بشرع الله ، إنما أباحوه لأن الحياة فرضتْ عليهم قضايا لا تُحلُّ إلا بالطلاق .

وهذه المسألة هي التى أجبنا بها حين سُئلنا فى سان فرانسيسكو عن قوله تعالى : ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٨)﴾ [الصف] وقال : ﴿هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٣٣)﴾ [التوبة]

يقولون : مرَّ على الإسلام أربعة عشر قرناً من الزمان وما يزال أغلب الناس غير مسلمين ، والإسلام ليس هو الدين الغالب بل مُهدَّد

ومُحارَب . قلنا : لو تأملتم معنى الآية لعرفتم أن إظهار الدين لا يعنى أن يؤمن كل الناس ، إنما يظهر على غيره من الشرائع والقوانين ويضطر غير المسلمين لأنْ يأخذوا بالإسلام فى حَلِّ قضاياهم ، وقوله تعالى : ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٣٣)﴾ [التوبة] ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٣٢)﴾ [التوبة] دليلٌ على وجود الكفار والمشركين مع وجود الإسلام .

وكلمة (الكتَاب) أى : القرآن ، سماه الله كتاباً لأنه مكتوب ، وقرآناً لأنه مقروء ، أو هو كتاب إيذاناً بأنْ يكتب ، وهو قرآن إيذاناً بأن يُقرأ ، والقراءة إما من السطور وإما من الصدور الحافظة ، وسمَّاه وحياً لأنه أُوحِى به إلى نبيه ﷺ : ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤)﴾ [النجم] إذن : لكل تسمية ملحظ .

ولما أرادوا جمع القرآن اشترطوا أن تتوافق فيه الصدور والسطور ، فما كتبوا آية واحدة إلا إذا وجدوها مكتوبة فى الرقاع وشهد شاهدان بصحتها ، ورحم الله سيدنا الشيخ محمد عبد الله دراز[1] الذى قرن بين هذه المسألة وقوله تعالى : ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَىٰ .. (٢٨٢)﴾ [البقرة]

ثم يقول سبحانه : ﴿مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٢)﴾ [غافر] فهذا الكتاب مُنزَّل من عند الله المتصف بصفات الكمال المطلق ، وله سبحانه طلاقة قدرة وطلاقة حكمة وطلاقة رحمة وطلاقة رحمانية ، وما دام الكتاب جاء ممَّنْ هذه صفاته فلا يمكن أنْ يستدرك عليه ، وما دام لا

---

(١) محمد عبد الله دراز : فقيه متأدب مصرى أزهرى ، كان من هيئة كبار العلماء بالأزهر . له كتب منها : الدين - دراسة تمهيدية لتاريخ الإسلام توفى عام ١٩٥٨م . [الأعلام للزركلى ٦/٢٤٦] .

يستدرك عليه فصدِّقوا الآية : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا .. (٣)﴾ [المائدة]

لذلك نعجب من الذين ينادون الآن بعصرنة الإسلام ، ونقول لهم : بدل أنْ تُعصرنوا الإسلام دَيِّنوا العصر .

وصفة (العَزِيز) أى : الغالب الذى لا يُغلب ، وما دام أن هذا الكتاب نزَّله عزيز لا يُغلب ، فلا بدَّ لهذا الكتاب أنْ يعلو وأن يُنشر وأنْ يسمعه الناس لا يغلبه أحد ، لأن مُنزله عزيز ، ولأن الله تعالى ما كان ليبعث به رسولاً ويتركه أو يخذله ، فمهما عاندوا ومهما تكبروا وجحدوا سيغلب هذا القرآن ، ولن يُغلبَ أبداً فى أىِّ مجال من المجالات .

وكأن الحق سبحانه يقول للكفار وعبدة الأصنام : خذوا لكم عبرة من واقع الأشياء حولكم ، فمحمد وأتباعه بعد أنْ كانوا مُحاصرين مضطهدين أصبحوا فى ازدياد يوماً بعد يوم ، وأرض الإسلام أصبحتْ فى ازدياد وزيادة أرض الإسلام نقصٌ من أرض الكفر : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٤١)﴾ [الرعد]

وقال الحق سبحانه وتعالى : ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ (١٥)﴾ [الحج]

يعنى : مَنْ كان يشك فى نصر الله وتأييده فليبحث له عن مسلك آخر وليأت بحبل يُعلِّقه فى السماء ويجعل رقبته فيه ثم ليقطع ،

فلينظر هل يُذهب هذا غيظه ؟ وقد قال الله تعالى فى بيان سنته فى نصرة رسله وعباده الصالحين : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) ﴾ [الصافات]

إذن : فالحق سبحانه ما كان ليكبت دينه ، ولا يخذل رسله ، أو يتخلىٰ عن نُصْرة أوليائه .

وقوله تعالى : ﴿ الْعَلِيمِ (٢) ﴾ [غافر] تعنى : أن عزته سبحانه ليست (فتونة) بلا رصيد ، إنما هى عزة بعلم ، وعزة بحكمة ، وعزة برحمانية ورحيمية ، فله سبحانه كل صفات الكمال المطلق .

ثم يقول سبحانه :

﴿ غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ (١) لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ (٣) ﴾

يريد الحق سبحانه ألاَّ ينفصل خَلْقه عنه مهما كثرتْ ذنوبهم وغلبتهم شهواتهم ، يريد سبحانه أنْ يعطفهم إليه ويجمعهم فى ساحته ، لذلك فتح لهم باب التوبة والمغفرة وبسط لهم يَدَ العفو والتسامح ، ثم لوَّح لهم بعصا العقاب حتى لا يغتروا ، وهذا المنهج يعود نفعه على الكون كله وعلى الفرد خاصة ؛ لأن صاحب الذنب لو

---

(١) الطول : الفضل والغنى والقدرة . [القاموس القويم ١/٤١١] والطَّوْل مأخوذ من الطول كأنه طال بإنعامه على غيره . وقيل : لأنه طالت مدة إنعامه . [تفسير القرطبى ٨/٥٩٣٩] .

علم أن ذنبه لن يُغفر لتمادى فيه وأكثر وعربد فى الكون وأفسد ، وساعتها سيشقى به المجتمع وخاصة أهل الإيمان .

لذلك كانت هذه الآية من أرْجَى الآيات فى القرآن الكريم كما قال سبحانه فى أواخر سورة الزمر : ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِىَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣)﴾ [الزمر]

وقلنا : إن هذه الآيات وأمثالها لا تتعارض وقوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ .. (٤٨)﴾ [النساء] لأن الكفر ليس ذنباً ، لأن الذنب أنْ تخالف أمراً مأموراً به أو منهياً عنه من المشرِّع الأعلى سبحانه ، أما الشرك بالله فهو خروج عن الإيمان أصلاً فلا يُقال له مذنب .

والحق سبحانه كثيراً ما يذكر عباده بمغفرته وقبوله للتوبة حتى لا ييأس أحدٌ من رحمته تعالى ، فقوله تعالى : ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِىَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ .. (٥٣)﴾ [الزمر] لم يقلها الحق سبحانه إلا وهناك مَنْ أسرف على نفسه ويَئِس من رحمة ربه ، لأنه بالغ فى الذنوب حتى ظن أنها لن تُغفر .

من هؤلاء وحشىّ قاتل سيدنا حمزة ، لأنه بعد أن قتله أحسَّ بذنبه وعِظَم جُرْمه ، وأيقن أنه هالك لن يغفر الله له ، لذلك البعض يقول إنه ذهب لرسول الله يسأله فى هذه المسألة وكذا وكذا ، لكن الواقع أنه كان فى مكة والآية نزلت فى المدينة لكن نُقلت إليه فلما سمعها آمن وأسلم .

ويُروى[١] أن وحشياً قابل النبى ﷺ فقال له ﷺ : ما كنتُ أود أنْ أراك لولا أنك جئت مستجيراً وربى يقول : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ .. (٦) ﴾ [التوبة]

فقال : وأنا مستجير بك حتى أسمع كلام الله ، فقرأ عليه رسول الله : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣) ﴾ [الزمر]

فقال : لكن الله يقول : ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا .. (٧٠) ﴾ [الفرقان] وأنا لا أضمن أنى أعمل عملاً صالحاً ، فقرأ عليه رسول الله هذه الآية : ﴿ غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ .. (٣) ﴾ [غافر]

ومن هؤلاء الذين أصابهم اليأس من رحمة الله عياش بن أبى ربيعة ، فيُروى أن سيدنا عمر رضى الله عنه لما أراد أن يهاجر اتفق

---

(١) روى ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس قال : أتى وحشى إلى النبى ﷺ قال فقال : يا محمد أتيتك مستجيراً فأجرنى حتى أسمع كلام الله . فقال رسول الله ﷺ : « قد كنت أحب أن أراك على غير جوار فأما إذ أتيتنى مستجيراً فأنت فى جوارى حتى تسمع كلام الله . قال : فإنى أشركت بالله وقتلت النفس التى حرم الله وزنيت ، هل يقبل الله منى توبة ؟ فصمت رسول الله ﷺ حتى نزلت ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ .. (٦٨) ﴾ [الفرقان] إلى آخر الآية فتلاها عليه ، فقال : أرى شرطاً فلعلى لا أعمل صالحاً ، أنا فى جوارك حتى أسمع كلام الله . فنزلت ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ .. (٤٨) ﴾ [النساء] فدعا به فتلاها عليه . قال : فلعلى ممن لا يشاء أنا فى جوارك حتى أسمع كلام الله . فنزلت ﴿ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ .. (٥٣) ﴾ [الزمر] فقال : نعم الآن لا أرى شرطاً ، فأسلم . أورده القرطبى فى تفسيره (٨/٥٩١٤) .

مع عياش[١] وهشام بن العاص بن وائل السهمى[٢] على أن يهاجروا معاً وأن يجتمعوا عند بئر غفار ، فإذا حُبس واحد منهم انتظروه ، فلما جاء الموعد لم يأت عياش حيث حبسه أهله عن الهجرة ثم فتنوه ففُتن ولم يهاجر مع صاحبيه ، فحصل له يأس من رحمة الله[٣] .

فلما نزلت هذه الآية : ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِىَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ﴿٥٣﴾﴾ [الزمر] تذكر عمر صاحبه عياشاً الذى فُتن وتذكر أنه التقى معه على الإيمان فى يوم ما ، وأنه كان ينوى الهجرة إلا أن أهله فتنوه فرقَّ له قلبه وبعث إليه بهذه الآية ليطمئن ويعود إلى الإيمان .

قوله تعالى : ﴿غَافِرِ الذَّنبِ ﴿٣﴾﴾ [غافر] أى : الذى سلف ﴿وَقَابِلِ التَّوْبِ ﴿٣﴾﴾ [غافر] أى : عن المعصية التى استقبلها ﴿شَدِيدِ الْعِقَابِ ﴿٣﴾﴾ [غافر] لحكمة يقرن الحق سبحانه بين المغفرة والعقاب حتى لا يتواكل الناس وحتى لا يغتروا برحمة الله ، فالدين يقوم على الخوف والرجاء ، وهما كالجناحين للطائر لابدَّ منهما معاً ﴿ذِى الطَّوْلِ ﴿٣﴾﴾ [غافر] كما تقول يعنى (إيده طايلة) يفعل ما يشاء ، فالله ذو الطوْل

---

(١) اسمه عمرو ويلقب ذا الرمحين وهو ابن عم خالد بن الوليد . كان من السابقين الأولين وهاجر الهجرتين ثم خدعه أبو جهل إلى أن رجعوه من المدينة إلى مكة وحبسوه وكان النبى ﷺ يدعو له فى القنوت . مات سنة ١٥ هـ بالشام فى خلافة عمر وقيل استشهد باليمامة وقيل باليرموك . [الإصابة فى تمييز الصحابة ٤٧/٥] .

(٢) كان هشام بن العاص يكنى أبا العاص فكنّاه النبى ﷺ أبا مطيع . كان قديم الإسلام هاجر إلى الحبشة . ذكره أصحاب السير فيمن استشهد بأجنادين . وذكر الواقدى أن هشاماً كان رجلاً صالحاً فرأى من بعض المسلمين بأجنادين بعض النكوص فألقى المغفر عن وجهه وجعل يتقدم فى نحر العدو ويصيح : يا معشر المسلمين إلىَّ إلىَّ أنا هشام بن العاص أمن الجنة تفرون ؟ حتى قتل . [راجع الإصابة ٢٨٦/٦] .

(٣) ذكر ابن حجر العسقلانى هذا الخبر فى الإصابة (٢٨٦/٦) وقال : أخرج ابن السكن بسند صحيح عن عمر . وذكره .

أى صاحب الفضل والإنعام يعطى ويتفضَّل بما يشاء على مَنْ يشاء لا يردّ عطاءه أحدٌ ، لذلك ورد فى الدعاء : « لا معطى لما منعْت ، ولا مانع لما أعطيت » .

فإذا قال الحق سبحانه : ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٢)﴾ [غافر] فهمنا من كلمة تنزيل عُلو المنزل والواسطة المنزل إليه والمنزل إليهم ليكون منهجاً لحركة حياتهم ، وهذا العلو إنما نشأ لأن المنزل كتابٌ من الله واجب الوجود الذى له الكمال المطلق فى قولنا لا إله إلا الله والله أكبر من كل شىء التى فسرناها فى قوله تعالى ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ (٦٣)﴾ [الزمر]

فلا إله إلا الله مقلاد ، والله أكبر مقلاد ، وسبحان الله مقلاد ، وبحمده مقلاد ، ونستغفر الله مقلاد ، ولا حول ولا قوة إلا بالله مقلاد ، وهو الأول مقلاد ، وهو الآخر مقلاد ، وهو الظاهر مقلاد ، وهو الباطن مقلاد ، بيده الخير مقلاد ، وهو على كل شىء قدير مقلاد . ولن تجد شيئاً فى كَوْن الله يخرج عن هذه المقاليد أبداً ، وكل شىء فيها إنما هو بيد الله ، كما قال سبحانه : ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ (٥٩)﴾ [الأنعام]

وبعد ذلك تكلم الحق سبحانه ، فقال ﴿الْعَزِيزِ (٢)﴾ [غافر] أى : عن خَلْقه . والعزيز هو الذى يغلب ولا يُغلب ، وهذه إشارة إلى أنه إذا أنزل اللهُ كتاباً على رسول فلن يوجد مَنْ يقف أمام هذا الكتاب لأنه غالبٌ لا يُغلب ، وقوله ﴿الْعَلِيمِ (٢)﴾ [غافر] أى : يضع الأشياء فى أماكنها بما يعلم أنها تؤدى مهمتها بصلاحها .

وبعد ذلك طمأن خَلْقه الذين أسرفوا على أنفسهم فى بعض الأشياء ، فذكر التخلية فى ﴿غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ (٣)﴾ [غافر]

ولكنه سبحانه مع غفرانه للذنب وقبوله للتوب ﴿شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِى الطَّوْلِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿٣﴾﴾ [غافر] فجمع فى هذه الآية صفات جلاله كلها وصفات جماله كلها .

ونفهم من (لا إله إلا هو) أنه لا استدراك لأحد على شيء من قوله ﴿إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿٣﴾﴾ [غافر] فلا مرجع ولا مردَّ إلا إليه.

ثم يقول سبحانه لرسوله ﷺ :

﴿مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٤﴾﴾

الرسول ﷺ جاء رسولاً من عند الله بما يُخرج الجاهلية إلى مقام العلم عن الله ، وبذلك تتطهر حركة حياتهم من كل ما يعطى فى الكون ذبذبة أو كلّ ما يعطى فى الكون تعانداً حتى يصير الكون كله متسانداً متعاضداً ، بحيث لا يبنى واحد ويهدم الآخر ، فيقول سبحانه : ﴿مَا يُجَادِلُ فِى آيَاتِ اللَّهِ إِلاَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴿٤﴾﴾ [غافر]

الجدل : إبرام الشىء إبراماً حقيقياً بحيث يستحيل أنْ ينقض ، وهذه المسألة مثل عملية فَتْل الحبال عندنا فى الفلاحين ، حيث يأخذ الرجل شعيرات التيل المعروف ويظل يبرم فيها ، إلى أنْ تتداخل الشعيرات وتتماسك وتتداخل ، لذلك نرى الحبل قوياً متيناً .

وسُمِّى المراءُ بين الناس جدلاً ، لأن كل واحد من الطرفين يريد أن يُحكِّم منطقه وحجته ليغلب الآخر ، فكلٌّ منهم يجادل لحساب نفسه ، صاحب الحق يجادل لإظهار حقه ، وصاحب الباطل يجادل ليُحِقَّ باطله . أى : يُظهره فى صورة الحق .

لكن هل الجدل مذموم فى ذاته ؟ لا ، لأن الجدل بحسب الغاية منه ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴿٤٦﴾﴾ [العنكبوت] فدلَّ ذلك على أن فى الجدل ما هو حسن وأحسن ، والجدل الحسن هو الذى يسعى لإيجاد الحجة على أن الحق حق والباطل باطل[1] ، فإنْ كان العكس فهو جدل باطل مذموم .

لذلك نفهم من قوله تعالى : ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلاَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴿٤﴾﴾ [غافر] أن هذا هو الجدل الباطل لأن الجدل يكون عنها لا فيها ، يجادل عنها أى : يدافع عنها ليثبت صدقها ويُظهر الحق الذى جاءتْ به ، أما يجادل فى الآيات . أى : يحاول التشكيك فيها وتكذيبها .

وقلنا : إن آيات الله على ثلاثة أنواع ، وهذه هى التى يحدث فيها الجدل : الآيات الكونية التى تشهد بوجود الخالق الأعلى سبحانه ، والآيات البينات المعجزة التى تثبت صدق الرسول فى البلاغ عن ربه ، والآيات القرآنية التى تحمل الأحكام .

فالآيات الكونية التى تثبت قدرة الله الخالق الأعلى سبحانه هى التى نشاهدها فى الأرض وفى السماء ، فى الشمس والقمر والنجوم والماء والهواء .. الخ وهذه الآيات أوجدها الخالق سبحانه على هيئة الصلاح ، وعلى قانون ثابت لا يتخلف ، ولا دَخْلَ للإنسان فى حركتها .

وسبق أنْ قلنا : إن الفساد فى الكون يطرأ من تدخل الإنسان وامتداد يده إلى مخلوقات الله بغير قانون الله الذى خلق ، ولو تدخَّل الإنسان فى الأشياء بقانون الخالق ما رأينا هذا الفساد الذى يعمّ الكون الآن ؛ لذلك يوضح لنا الحق سبحانه هذه القضية ، فيقول :

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٨/٥٩٣٩) : « أما الجدال فيها لإيضاح ملتبسها وحل مشاكلها ومقادحة أهل العلم فى استنباط معانيها ، ورد أهل الزيغ بها وعنها ، فأعظم جهاد فى سبيل الله » .

﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا (٥٦)﴾ [الأعراف]

والمعنى : أن الحق سبحانه خلق الأرض على هيئة الصلاح ، فإياكم أنْ تفسدوها ؛ لذلك يرجع الحق سبحانه الفساد الحادث فى الأرض إلى الناس ، فيقول : ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ (٤١)﴾ [الروم]

نعم ، لوَّثنا المياه وألقينا فيها النفايات والمخلَّفات فماتت الأسماك وظهرت الأمراض ، أفسدنا الهواء وأفسدنا التربة الزراعية .. الخ ذلك لأننا تدخَّلنا فى مخلوقات الله بغير قانون الله ، وبغير منهج الله الذى وضعه لصلاح الكون .

لكن أىّ هذه الآيات الثلاث يجادل فيها الكافرون ؟ بالطبع هم لا يجادلون فى الآيات الكونية ولا يتعرضون لها ، لأنهم أولاً ينتفعون بها ويروْنَ فيها نظاماً دقيقاً محكماً لا يشذّ ولا يتخلف ، فلا مجالَ إذن للجدل فيها . إنما يجادلون فى الآيات الأخرى فى آية المعجزة ، وفى آيات الكتاب حاملةً الأحكام فيُشككون فيها .

أما المعجزة فقالوا : ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ[1] عَظِيمٍ (٣١)﴾ [الزخرف]

إذن : اعتراضهم هنا ليس على القرآن فى ذاته إنما فى مَنْ أنزل عليه ، فالقرآن فى نظرهم لا غبارَ عليه لولا أنه نزل على محمد ، لكن كفرهم يُوقعهم فى التناقض فيقولون : ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ

---

(١) اختلف فى تحديد هذا الرجل الذى كان يريدون نزول الوحى عليه . فقيل : الوليد بن المغيرة وعروة بن مسعود الثقفى . وقيل عمير بن عمرو بن مسعود الثقفى ، وقيل : عتبة ابن ربيعة . وقيل : حبيب بن عمرو الثقفي . أما القريتان فهما مكة والطائف . قال ابن كثير فى تفسيره (١٢٧/٤) : « الظاهر أن مرادهم رجل كبير من أى البلدتين كان » .

عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢) ﴾ [الأنفال]

وكان المفترض بالعقل أنْ يقولوا : فاهدنا إليه ، فهذا دليل على شكِّهم فى القرآن وعدم تصديقهم لما جاء به ؛ لذلك حكى القرآن عنهم قولهم : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَـٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ (٢٦) ﴾ [فصلت]

وتأمل هنا النهى عن مجرد السماع للقرآن ، لماذا ؟ لأنهم عرب ولهم فطرة لغوية وخبرة بالأداء والبيان ، فلو استمعوا للقرآن لابدَّ أنْ يتأثروا به ، وكل من استمع القرآن بقلب خَالٍ من ضده لابد أنْ يقتنع به ، وإلا فلماذا كان نهيهم عن مجرد السماع ؟

لذلك لا يكتفون بالنهى عن السماع بل يُشوِّشون عليه حتى لا يتمكن السامع من السماع ﴿ وَالْغَوْا فِيهِ (٢٦) ﴾ [فصلت] هذا دليلٌ على أن القرآن لو تُرك ليصل إلى الآذان لابدَّ أنْ ينفذ إلى القلوب فيعمرها ويلفتها إلى الحق إنْ كان الذهن خالياً من الباطل ، فإنْ كان القلب مشغولاً بعقيدة مخالفة لا يتأثر ، بدليل قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا (١٦) ﴾ [محمد]

وقال فيمَنْ يؤثر فيه سماع القرآن : ﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـٰذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٤) ﴾ [التوبة]

فإنْ قلتَ : كيف يكون للشىء الواحد أثران متضادان ؟ نقول : لأن القابل للفعل مختلف ، وسبق أنْ أوضحنا هذه المسألة بالنفخ فى الأيدى للتدفئة فى البرد ، والنفخ فى كوب الشاى الساخن ليبرد ، فالنفَس واحد لكن القابل للنفَس مختلف ، ولا شكَّ أن حرارة النفَس

أقلُّ من حرارة كوب الشاى ، لكنها أشدُّ من الحرارة فى الأيدى وقت الشتاء ، كذلك يختلف أثر القرآن بالنسبة للسامع .

لذلك ينبغى عند سماع القرآن ألاَّ توجد حُجب تحجبه عن القلب ، والحق سبحانه وتعالى يمنع لغط الجماهير فى الجدل البيانى ، ففى الضوضاء تختلط الأصوات وتتداخل ، وتُستر عيوب الشخص فى الآخرين ، وهذا يحدث مثلاً فى المظاهرات فلا نستطيع أن نسند الصوت إلى صاحبه ، وهذه المسألة توضح لنا الحكمة من قوله تعالى : ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ (١١٠)﴾ [الأنبياء]

وقد وقف المستشرقون عند هذه الآية يقولون : ما الميزة فى علم الجهر والجميع يعلمه ، فلماذا يمتنّ الله بعلمه ؟ نقول : قوله تعالى : ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ (١١٠)﴾ [الأنبياء] دلَّ على أن الجهر أيضاً من الجماعة بمعنى : ويعلم ما تجهرون ، فالحق سبحانه هو الذى يعلم كلَّ صوت ويعلم صاحبه ، ويميز الأصوات ويردها إلى أصحابها ، وهذه العملية فى ذاتها أصعب من علم الكتمان .

ومن جدالهم فى آيات الله قولهم عن رسول الله ﷺ أنه ساحر وكاهن ، وقولهم عنه شاعر .. الخ وهذه أقوال باطلة مردودة على أصحابها والرد عليها يسير ، فلو كان محمد ساحراً سحر مَنْ آمن به ، فلماذا لم يسحركم أيضاً كما سحرهم ؟

إذن : بقاؤكم على حالتكم هذه دليلٌ على كذبكم فى هذا الاتهام ، أما كاهن فما جربتم عليه قبل ذلك شيئاً من الكهانة ، ولا سمعتم منه كلاماً كالذى يقوله الكهان .

والأعجب من ذلك أنْ يتهموا رسولَ الله بأنه شاعر ، وأن ما يقوله شعر ، وهم أمة الشعر وفرسان هذا الميدان ، وهم أدرى الناس

به ، ومَنْ كان عنده أدنى دراية باللغة يستطيع أنْ يُفرِّق بين الشعر والنثر وأن يتذوَّق كلاً منهما ويشعر به إذا انتقل مثلاً من الشعر إلى النثر ، أو من النثر إلى الشعر .

فحين تقرأ مثلاً : هذا العتب محمود عواقبه ، وهذه الجفوة غمرة ثم تنجلى ، ولن يريبنى من سيدى أنْ أبطأ سيبه أو أخطأ غير ضنين غناؤه ، فأبطأ الدِّلاء فَيْضاً أملؤها ، وأثقل السحائب مَشياً أحفلها ، ومع اليوم غد ولكل أجل كتاب .

فإنْ يكُنْ الفعْلُ الذى سَاءَ وَاحِداً فَأفْعَالُه اللاَّئى سُررْنَ أُلُوفُ[1]

لابدّ إذن أن تفرق ههنا بين الشعر والنثر ، فكيف بهم وهم أمة البلاغة والفصاحة ، الأمة التى جعلت للحكمة أسواقاً ومعارض ، ومع ذلك لا يفرِّقون بين الشعر والقرآن .

القرآن ليس شعراً ، بل هو نسيج فريدٌ وحده ، واقرأ مثلاً : ﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ[2] وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (٣١) قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ .. (٣٢) ﴾ [يوسف]

هكذا كلام نَثْر كله لا تشعر فيه بشىء من الشعر ، ومع ذلك لو

---

(١) البيت لابن نباتة المصرى ، وهو محمد بن محمد أبو بكر جمال الدين ، أصله من ميا فارقين ومولده ووفاته فى القاهرة ، ولد ٦٨٦ هـ وتوفى ٧٦٨ هـ كان صاحب سر السلطان الناصر حسن . له ديوان شعر . والبيت من قصيدة من بيتين من بحر الطويل [الموسوعة الشعرية] .

(٢) أكبرت الشىء أى : استعظمته . أكبرنه : أعظمنه . [لسان العرب – مادة : كبر] قال فى القاموس القويم للقرآن الكريم (٢/ ١٥٠) : « أكبر الشىء : عدَّه كبيراً أو عظم تأثره به فرآه كبيراً » .

أخذت مثلاً : ﴿فَذَٰلِكُنَّ الَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ (٣٢)﴾ [يوسف] لوجدتها على وزن من أوزان الشعر ، كذلك فى قوله تعالى : ﴿نَبِّئْ عِبَادِى أَنِّى أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٤٩)﴾ [الحجر] لو حَوَّلتها إلى تفعيلات تعطيك بحراً من بحور الشعر ، لكن لا تشعر أبداً أنك انتقلتَ من شعر إلى نثر ، أو من نثر إلى شعر ، ذلك لأن القرآن كما قلنا نسيج وحده .

لذلك قلنا : إن كماله لا يتعدى إلى غيره ، فالفقيه الحافظ للقرآن تجده يجيد القراءات السبع ، ومع ذلك لا يجيد كتابة خطاب ، ونحن ننصح الطلاب بقراءة كتب الأدب مثل كتب المنفلوطى أو العقاد مثلاً ليستقيم أسلوبهم ويتمكنوا من الكتابة والتعبير السليم ؛ ذلك لأن القرآن لا يتعدَّى إلى غيره ، أما كتب الأدب فتتعدَّى إلى الأسلوب وتحسنه ، القرآن يظل كماله فى ذاته .

وكان من جدالهم فى آيات الله أنْ قالوا عن رسول الله : ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ .. (١٠٣)﴾ [النحل] وحددوا شخصاً بعينه[1] ، لكن ردَّ عليهم القرآن بما يعنى : إنْ كنتَ كذوباً فكُنْ ذكوراً ﴿لِّسَانُ الَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ (١٠٣)﴾ [النحل]

ثم قالوا : مجنون ، وعجيب منهم أن يتهموا رسول الله بالجنون وهم يعلمون أدبه وخلقه قبل بعثته ، وصاحب الخلق الكريم لا يكون أبداً مجنوناً ، لكن هذه كلها شبهات المفلسين الذين لا يجدون حجة تقدح فى رسالة محمد ، فماذا يقولون غير هذا التخبّط الأعمى ؟ هذا جدل فى شخص رسول الله ، وكانوا يقولون : ابن أبى كبشة ، لكن

---

(١) كان رسول الله يُعلم قيناً (حداداً) بمكة وكان اسمه بلعام وكان أعجمى اللسان وكان المشركون يرون رسول الله ﷺ يدخل عليه ويخرج من عنده فقالوا : إنما يعلمه بلعام فأنزل الله هذه الآية ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ (١٠٣)﴾ [النحل] قاله ابن عباس فيما نقله عنه ابن كثير فى تفسيره (٢/٥٨٦) .

هيهات أنْ تنال هذه الافتراءات من شخص رسول الله .

ثم يجادلون فى أحكام الله ، فيقول مثلاً : لم يحرم الله الميتة ؟ وكيف أن التى ماتت وحدها يعنى أماتها الله مُحرَّمة ، والتى تميتها أنت - أى : بالذبح - مُحلَّلة ؟ يعنى فى نظرهم أن الموت واحد ، فلماذا تحرم هذه وتحلّ هذه ؟

وهم يعترضون على آيات الأحكام لأنها تأتى عامة لا تفرق بين السادة والعبيد ، فالحكم واحد للجميع وهم قد ألفوا السيادة .

وقوله : ﴿إِلاَّ الَّذِينَ كَفَرُوا .. (٤)﴾ [غافر] أى : ستروا واجب الوجود الأعلى الذى خلقهم وخلق الكون كله من حولهم ، بدليل إقرارهم هم بذلك فى الآيات الكونية : ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ .. (٢٥)﴾ [لقمان] فهم وإنْ كانوا يؤمنون بهذه الآيات الكونية إلا أنهم كفروا بخالقها سبحانه ، وستروا الواجب الأعلى الذى ينظم حركة الحياة لخَلْقه جميعاً بحيث تتساند حركة الحياة ولا تتعاند لتظل عمارة الكون التى أرادها الخالق سبحانه .

وسبق أنْ أوضحنا أن كلمة كفروا فى ذاتها دليل الإيمان ، لأن الكفر يعنى الستر والستر يقتضى مستوراً ، فالمستور إذن وُجِد أولاً قبل الساتر ، وما دام ستروا بالكفر وجودَ الله ، فالأصل أنه موجود .

وقوله : ﴿فَلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلادِ (٤)﴾ [غافر] أى : لا يخدعنَّك أن لهم فى البلاد سيادة وتمكيناً وعلواً ومهابة ، بحيث لا يستطيع أحد أنْ يتعرَّض لهم فى تقلّبهم من مكان لمكان ، وفى أسفارهم فى رحلة الشتاء والصيف .

ولو أنهم عرفوا حقيقة هذه المكانة ، ومَنْ الذى بوّأهم هذه المنزلة

ما وقفوا منك يا محمد هذا الموقف ، لقد أخذوا هذه المهابة ونالوا هذه المنزلة لجوارهم لبيت الله ، والله هو الذى أرسلك إليهم ، فكان عليهم أنْ يؤمنوا بك وأنْ يُصدقوك .

وكلمة (تَقَلُّبهم) تدل على حركتهم وانتقالهم من مكان لآخر ، وتدل على قوة الأبدان ؛ لذلك كانت كل قبائل العرب تهابهم ، جاءت هذه المنزلة لقريش من موسم الحج ، حيث تأتى إليهم كل القبائل من جزيرة العرب فتكون فى حماية قريش فى الموسم ، ومن هنا أمنوا فى تنقلاتهم وكان عليهم أنْ يراعوا هذه النعمة ، لكنهم جحدوا بها فصدق عليهم قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (٢٨)﴾ [إبراهيم]

كيف ذلك ؟ اقرأ : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣) تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ (٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ[1] مَّأْكُولٍ (٥)﴾ [الفيل]

تعرفون قصة أبرهة لما جاء ليهدم الكعبة ليصرف الناسَ عن بيت الله ويبنى كعبة أخرى فى صنعاء يحجّ الناس إليها ، وتعرفون ما كان مِن أمر هذا الجيش ، وكيف ردَّه الله بقدرته حتى قيل إن الفيل الضخم الذى كان يتقدم الجيش توقف عن السير نحو الكعبة ، فى حين يسير فى أىِّ اتجاه آخر وأن أحدهم اقترب من الفيل وقال له : ابرك محمود وارجع راشداً فإنك ببلد الله الحرام[2] . فانصرفوا بعد أنْ أمطرهم الله

---

(١) العصف الماكول : التبن أو ورق الشجر الذى أصابه مرض الأكال فتآكلت منه أجزاء . [القاموس القويم ٢/٢٣] .

(٢) ذكره ابن كثير فى تفسيره (٤/٥٥٠) أن نفيل بن حبيب اقترب من الفيل حتى قام إلى جنبه ثم أخذ بأذنه وقال : ابرك محمود وارجع راشداً من حيث جئت فإنك فى بلد الله الحرام ثم أرسل أذنه فبرك الفيل مكانه .

بحجارة من سجيل ، وهزمهم بقدرته تعالى . المهم ماذا قال سبحانه بعد هذه السورة مباشرة ؟

قال : ﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ۝١ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ۝٢ ﴾ [قريش] فكأن فى بقاء الكعبة بقاءً لسيادة قريش ، وبقاءً لأمنها وسلامتها بين القبائل العربية ، فأبقى الله لهم بذلك أنْ يألفوا رحلة الشتاء والصيف .

إذن : العلة من ﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝٥ ﴾ [الفيل] جاءت فى ﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ۝١ ﴾ [قريش]

وإلا لكانَ لك أن تتعجب من أول السورة : ﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ۝١ ﴾ [قريش] وتسأل عن العلة ، فإنْ فصلتَ العلة هنا عن المعلول ، فجاء كل فى سورة إلا أنهما فى نسَق واحدٍ ، وسبق أن أوضحنا أن سور القرآن كله قائمة على الوصل فتقرأ : ﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝٥ ﴾ [الفيل] بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ۝١ ﴾ [قريش]

فإنْ قلتَ : لماذا لم تأتِ فى سورة واحدة ؟ لماذا جاءت العلة فى سورة والمعلول فى سورة أخرى ؟ قالوا : الفصل بين الشىء وسببه ليكون الشىء له حكم ، والسبب له حكم .

إذن : جعلهم كعصف مأكول لئلا تزولَ الكعبة ولو زالت الكعبة لزالتْ سيادة قريش ومهابتها ، فأبقى الله لهم السيادة والمهابة ليتنقلوا بين الشمال والجنوب لا يجرؤ أحد على التعرض لهم ، وسوف يترتب على ذلك قوام حياتهم فيطعمهم من جوع ، ويُؤمّنهم من خوف ، يُطعمهم بالتجارة وحركة البيع والشراء ، ويُؤمنهم بألاَّ يتعرض لهم أحدٌ بسوء .

ثم يوضح علة ذلك فيقول : ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَـٰذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِى أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ (٤)﴾ [قريش] فهم يتقلبون فى نعمة الله ، وكان عليهم ألاَّ يكفروها .

فقوله تعالى : ﴿فَلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى الْبِلادِ (٤)﴾ [غافر] لأن الله تعالى لم يهملهم إنما فقط يمهلهم . فإنْ قلتَ : فما حكمة الإمهال ؟ يعنى : ما دام أن الله تعالى لم يهملهم ، فلماذا لم يأخذهم من البداية ؟

قالوا : لأن الله تعالى أرسل رسوله ﷺ خاتم الرسل وجعل دينه خاتم الأديان ومهيمناً على الزمان والمكان ، فلا نبىَّ بعده وللرسول مدة ينتهى فيها دوره فى الحياة ، وينتقل إلى الرفيق الأعلى ، ثم يحمل رسالته من بعده جنود الحق الذين محَّصتهم الشدائد .

لذلك قلنا : إن صناديد الكفر الذين عذّبوا المسلمين الأوائل واضطهدوهم كانوا فيما بعد من جنود الإسلام ، لماذا ؟ لأن هذا الاضطهاد وهذا التعذيب هو الذى محَّص المسلمين وأبعد ضعاف الهمة وضعاف الإيمان الذين فتنهم التعذيب ، وأرهبهم الاضطهاد حتى لم يَبْقَ فى ساحة الإيمان إلاَّ الأقوياء الجديرون بحمل هذه الرسالة وتحمُّل تبعاتها ، لأنها رسالة خالدة باقية فى الزمان والمكان كله .

فالحق سبحانه ما أهمل الكفار إنما أمهلهم لمهمة ، هى أنهم سيساهمون فى تربية هذا الجيل الذى سيحمل دعوة الله : ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلاَّ اللَّهَ .. (٣٩)﴾ [الأحزاب]

هؤلاء هم الجيل المحمدى الذى حمل راية الإسلام ، وساح بها

فى كل الأنحاء لا ينتظر على ذلك أجراً مُقدماً إنما ينتظر الأجر من الله فى الآخرة .

وهذا هو الفرق بين دعوة الحق ودعوة الباطل ، فأهل الحق لا ينتظرون أجراً مقدماً ، أما أهل الباطل فيأخذون أجرهم قبل البدء فى العمل ، لذلك كل رسل الله قالوا هذه الكلمة : ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٩)﴾ [الشعراء]

نعم أجرهم على الله لأنه غالٍ لا يقدر عليه إلا الله ، فلا أحد يستطيع أنْ يجازى الرسولَ على رسالته فى هداية قومه ولو أعطاه مال الدنيا كلها .

والتقلُّب فى البلاد أى : التنقُّل من مكان لمكان فيها لا يتم إلا بعدة أشياء أهمها : سلامة الأبدان لتحمُّل مشقة السفر ، ثم الأمن من خوف الطريق ، ثم وجود كفايات له فى المنازل التى ينزل فيها فى طريقه ، لذلك يقول تعالى فى موضع آخر : ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ (٤٥) أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ (٤٦)﴾ [النحل]

يعنى : فى أوْج قوتهم وتمكّنهم من الحركة والتنقل يأخذهم الله بالعذاب ، هذا لون من الأخذ ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ .. (٤٧)﴾ [النحل] أى : يخيفهم أولاً ويفزعهم قبل أنْ يأخذهم وهذا لون آخر ، كالذين نزلت بهم الصاعقة فأفزعتهم قبل أنْ يحلّ بهم عذاب الله ، هذان لونان من أخْذ الله للكافرين .

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِن بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ (١) وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ ﴾

المعنى : أنهم ليسوا بدعاً فى الوجود ، كما أنك لستَ بدعاً فى الرسل ، فقد سبقك إخوانك من الرسل فكُذِّبوا كما كَذَّبك قومك ، لكن ماذا كانت نتيجة التكذيب ؟ أبعث الله رسولاً وتركه وأسلمه ؟ كلا والله بل سُنة الله فى رسله أنْ ينصرهم وأنْ يخذل أعداء دعوته ، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) ﴾ [الصافات]

وهذا ليس كلاماً نظرياً نُسليك به يا محمد ، إنما له واقع وله نظائر تؤيده فى موكب الرسالات ، كما قال سبحانه عن المكذِّبين : ﴿ فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً .. (٤٠) ﴾ [العنكبوت] أى : ريحاً ترميهم بالحجارة المحمية ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ .. (٤٠) ﴾ [العنكبوت] وهم قوم ثمود ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ .. (٤٠) ﴾ [العنكبوت] كما خُسف بقارون ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا .. (٤٠) ﴾ [العنكبوت] كما فعل بقوم نوح وبقوم فرعون .

---

(١) ليأخذوه : أى ليحبسوه ويعذبوه . وقال قتادة والسدى : ليقتلوه . والأخذ يرد بمعنى الإهلاك ، كقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٤٤) ﴾ [الحج] [تفسير القرطبى ٨/٥٩٤٠] .

فسُنة الله فى الرسالات أنْ ينصر رسله وأنْ يهزم عدوه ، لذلك قلنا : إذا رأيتَ الأمة الإسلامية تنهزم فى معركة ، فاعلم أنه اختل فيها شرط الجندية لله ، ولو بقيتْ على شرط الله فى الجندية ما انهزمتْ أبداً .

فقوله تعالى : ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ .. (٥)﴾ [غافر] أى : قبل قومك الذين كذبوك (قوم نوح) وهذه تسلية لرسول الله وتخفيف عنه ، فليس التكذيب للرسالات شيئاً جديداً ، واختار قوم نوح بالذات لأن رسالة نوح عليه السلام كانت أطولَ رسالة ، حيث لبث فى دعوة قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً ، كل هذا العمر الطويل وهم يجادلون رسول الله نوحاً ويكذبونه ويعاندونه ، لذلك يئس من صلاحهم ودعا عليهم : ﴿رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا[1] (٢٦) إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا (٢٧)﴾ [نوح]

أما القلة التى آمنتْ معه فقد دعا لهم حيث بدأ بنفسه : ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ .. (٢٨)﴾ [نوح] ثم ﴿وَلِوَالِدَيَّ .. (٢٨)﴾ [نوح] لأنهما سببُ وجودى ﴿وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا .. (٢٨)﴾ [نوح] وهم ما لهم صلة به ، ثم لعامة المؤمنين والمؤمنات ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ .. (٢٨)﴾ [نوح]

إذن : ذكر تكذيب قوم نوح بالذات لأنه العمدة فى هذه المسألة وهو الأوضح والأعنف ، ولا تخفى عليكم المواقف التى تعرَّض لها نوح عليه السلام من تكذيب قومه وإيذائهم له واستهزائهم به ، وهو

---

(١) الديَّار : من يسكن الدار أو من يتحرك فيها ويدور فيها بحرية ، ويقال : ما بالدار ديَّار . أى : ما فيها أحد . قال نوح فى دعائه : ﴿رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (٢٦)﴾ [نوح] أى : لا تذر أحداً منهم حياً [القاموس القويم ١/٢٣٧] .

يصنع السفينة[١] .

وقوله : ﴿ وَالأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ .. (٥) ﴾ [غافر] المراد عاد قوم هود عليه السلام وثمود قوم صالح عليه السلام ، وهذا ليس كلاماً نظرياً بل هو واقع يروْنَهُ ويمرون بهذه الديار الخربة : ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٣٨) ﴾ [الصافات]

إنهم يمرون فى أسفارهم بالأحقاف وبمدائن صالح ، وعندنا فى مصر آثار الفراعنة كلها تشهد بصدق الله فى هذا البلاغ ، وها هى أكثر دول العالم تقدماً الآن وحضارة تقف عاجزة أمام حضارة الفراعنة ، وكيف أنهم وصلوا إلى هذه الدرجة من التقدم منذ أكثر من سبعة آلاف عام ، ومع ذلك فاتتهم هذه الحضارة لأنهم لم يصلوا إلى الحد الذى يصونها لهم .

واقرأ إن شئت قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ (٨) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ (١٠) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (١٤) ﴾ [الفجر]

يعنى : القضية لم تنته عند عاد وثمود وقوم فرعون ، بل هى عامة فى كل مكذِّب ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (١٤) ﴾ [الفجر]

والأحزاب : هم الذين يتحزَّبون ويجتمعون على مبدأ واحد ، والمراد هنا الذين يتحزّبون ضد الدعوة وضد الهداية ويُسمونهم لذلك حزب

---

(١) يقول تعالى فى هذا : ﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ .. (٣٨) ﴾ [هود] فكانوا يقولون له : أأصبحت نجاراً ؟ ولأى شىء تصنع سفينة فى أرض ليس بها ماء أتمشى على اليابسة ؟ ونحو هذا من عبارات الاستهزاء به والسخرية منه .

الشيطان ويقابله حزب الله ، وهم الذين يؤيدون الرسل وينصرون دعوة الحق .

﴿ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ .. (٥) ﴾ [غافر] أى : ليقتلوه ، وهذه المسألة جاءت مُفصَّلة فى قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ .. (٣٠) ﴾ [الأنفال] أى : يحبسوك أو يقيدوك فلا تتحرك هنا وهناك ﴿ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٣٠) ﴾ [الأنفال]

والكلام هنا أنهم هَمُّوا بذلك لكن لم يفعلوه ولم يقدروا عليه ، فكلمة (هموا) تعنى تَوجُّهٌ وهَمٌّ مراد لم يحدث على الحقيقة ، ومن ذلك قوله تعالى فى الطائفتين فى غزوة أحد : ﴿ إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا .. (١٢٢) ﴾ [آل عمران] لكن لم يحدث الفشل ، فالهَمُّ شغْلُ القلب بفعل الشىء ، لكن لا يحدث الفعل . لذلك قال سبحانه : ﴿ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا .. (٧٤) ﴾ [التوبة]

إلا الهم الذى كان من سيدنا يوسف عليه السلام ، لأن المسألة هنا تتعلق بعصمة نبى كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا .. (٢٤) ﴾ [يوسف] البعض يُحمِّل هذه الآية معانى لا تليق بعصمة نبى الله يوسف ، يقول : كيف يَهمّ بها وهو نبى ؟

قلنا : الهم تعلُّق الخاطر بالفعل أو تعلّق استجابة الجارحة للفعل ، لكن ينفعل أو لا ينفعل هذا هو المهم ، والآية فيها هَمَّان ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ .. (٢٤) ﴾ [يوسف] ثم سكوت ، ثم ﴿ وَهَمَّ بِهَا .. (٢٤) ﴾ [يوسف] لاحظ أن هَمَّها هى لم تَنَلْ منه شيئاً لذلك قالت : ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ (٣٢) ﴾[يوسف]

هذا دليل على أن همّها هى لم يأتِ بنتيجة ، فكيف لا يأتى الهَمّ

معها بشىء مع عصيانها ، ثم يأتى الهَمّ بشىء مع يوسف ؟ إذن : همتْ به ولم يحدث شىء وهى المريدة ، كذلك وهَمَّ بها ولم يحدث شىء لأنه لا يريد .

وتأمل هنا دقة الأداء القرآنى فى استخدام نون التوكيد الثقيلة فى ﴿لَيُسْجَنَنَّ..(٣٢)﴾ [يوسف] ونون التوكيد الخفيفة فى ﴿وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ (٣٢)﴾ [يوسف] لأن السجن أمر فى يدها وبأمرها يُسجن يوسف ، فاستخدم نون التوكيد الثقيلة الدالة على التمكُّن من الفعل ، أما أنْ يكون من الصاغرين فهذا أمر ليس بيدها فلربما سجنته وعطف عليه الحراس وأكرموه ، فاستخدم هنا نون التوكيد الخفيفة لعدم تمكُّنها من هذا الفعل .

والجواب الذى نحسم به مسألة الهم فى هذه القصة ونوضح به براءة سيدنا يوسف مما يقوله عنه المفترون نقول : ولقد همت به ، نعم أأدتْ هذا الهم أم لم تُؤده ؟ لم تُؤدِّه بدليل قولها ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ .. (٣٢)﴾ [يوسف] ﴿وَهَمَّ بِهَا .. (٢٤)﴾ [يوسف] نعم هَمَّ ولم يفعل بنفس الدليل السابق ، فلماذا تحرصون على إلصاق التهمة بنبى الله وهمّه كهمّها لم يأتِ بشىء .

ثم إن الهَمَّ منه هنا أمر طبيعى لأنه استعداد الطبيعة للوقوع فى هذا الفعل ، يعنى : هو أمر ممكن بالنسبة له عليه السلام ، فطبيعته صالحة لأنْ يفعل وإلا لقُلْنا إنه حَصُور ليس له فى هذا الأمر ، لا بل هو صالح له قادر عليه ، فما الذى منعه إذن ؟ نقول : منعه ﴿لَوْلا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ .. (٢٤)﴾ [يوسف]

أى : فى أن هذا حرام . كما تقول : أزورك لولا أن فلاناً عندك ، فالمعنى أننى لم أزُرْكَ ، إذن : ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ ..

(٢٤)﴾ [يوسف] يعنى : هَمَّ ولم يفعل فالحكم هنا براءة ليوسف عليه السلام حتى من الهَمِّ .

نعود إلى قوله تعالى : ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ .. (٥)﴾ [غافر] حدث ذلك لكنهم لم يفعلوا ولم يأخذوه ﴿وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ .. (٥)﴾ [غافر] أى : يزيلوا ويهزموا الحقَّ بالباطل ، فماذا كانت النتيجة ؟ ﴿فَأَخَذْتُهُمْ .. (٥)﴾ [غافر] أى : أهلكتُهم بالفعل لا بالهَمِّ كما فعلوا هم ، وهذا ما يليق بالقدرة العليا ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (٥)﴾ [غافر] يعنى : هل عرفنا ؟ هل قدرنا على عقابهم ؟

وهذه مثل قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٣٠) وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ (٣١) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَـٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ (٣٢) وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ (٣٣) فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٣٤) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ (٣٥) هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦)﴾ [المطففين]

يعنى : هل قدرنا أنْ نجازيهم على أفعالهم وإجرامهم ؟ وكأن الحق سبحانه يريد أن ينبه أهل الإيمان ، وأن يطمئنهم إلى عدله سبحانه ، فلن يفلت هؤلاء من العقاب ، ولا شكّ أن عقاب أهل الإجرام وأهل الكفر يريح أهل الإيمان .

وتأمل هنا أيضاً دقة الأداء القرآنى فى قوله تعالى : ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ.. (٥)﴾ [غافر] ولم يقُلْ برسولها قياساً على أن الأمة مفرد مؤنث ، إنما قال ﴿بِرَسُولِهِمْ .. (٥)﴾ [غافر] فأضاف الرسول إلى جمع المذكر ، ذلك لأن المواجهة بين الإسلام والكفر كانت بالرجال ولم تكُنْ المرأة طرفاً فى هذه المواجهات بدليل أنهم لما بيَّتوا لرسول الله ليلة الهجرة كانوا جميعاً من الرجال ولم يكُنْ بينهم امرأة

واحدة ، كذلك الحال فى ﴿وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ .. ﴿٥﴾﴾ [غافر] فهذه أمور لا دخْلَ للمرأة فيها .

﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى
ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٦﴾﴾

(حَقَّتْ) أى : وجبتْ وثبتت ولم يأت واقع لينقضها ، لماذا ؟ لأن الذى قالها يعلم ما يكون بعدها ، وخاصة إذا كان الذين يعملون لهم اختيار فى أنْ يعملوا أو لا يعملوا .

فالله تعالى قالها وحكم بها عليهم وهم فى بحبوحة الدنيا وفى زمن الاختيار ، ومع ذلك لم يخالفوها ، وهنا موضع العظمة فى كلام الله ، العظمة أنْ أتحداك فى أمر لك فيه اختيار ، ومع ذلك لا تخرج عما حكمت عليك به .

ومثل هذا قلناه فى قوله تعالى فى شأن أبى لهب وزوجته : ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا (١) حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾﴾ [المسد]

فالحق سبحانه وتعالى حكم عليهما بالكفر ، وأن مصيرهما النار مع أن الإيمان والكفر أمر وكَلَ اللهُ اختياره للعبد بدليل أن أمثال أبى لهب من كفار مكة أسلموا مثل : خالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص ، وعكرمة وغيرهم ، وكان فى إمكان أبى لهب بعد أن نزلت هذه السورة أنْ يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، يقولها ولو نفاقاً ، لكن لم يحدث

---

(١) جيدها : عنقها . والمسد : حبل من ليف أو خوص أو شعر أو وبر أو صوف أو من أى شىء كان . [لسان العرب – مادة مسد] .

وصدق فيه قول الله تعالى .

وهذه المسألة شرحها الحق سبحانه فى قوله : ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ .. (٢٤)﴾ [الأنفال] فقلبه يُحدِّثه بالشىء إنما العظمة الإلهية تحوله عنه .

لذلك قال تعالى لأم موسى : ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي .. (٧)﴾ [القصص] فالقياس العقلى لا يقبل هذا الحل وأى عاقل يقول : إن المرأة إذا خافت على وليدها تلقيه فى البحر ؟ لكن هنا أم موسى لم تسمع لصوت العقل ولا تأثرتْ بعاطفتها نحو وليدها ، إنما سمعت لقول ربها ، سمعت لهذا الوارد الأعلى الذى لا يعارضه أىُّ وارد شيطانى أسفل فلم تتردد أبداً فى أنْ تلقى بوليدها فى البحر ، لأن الله تعالى حَالَ بينها وبين عاطفة قلبها .

كذلك الحال فى قصة سيدنا موسى مع فرعون ، فقد أخبر الكهنة فرعون أن زوال مُلْكه سيكون على يد غلام من بنى إسرائيل ، فماذا فعل فرعون - لتعلموا كيف كانت عقلية الذين ادَّعَوْا الألوهية ، وكيف أن الله تعالى يحول بين المرء وقلبه ، ماذا فعل فرعون ؟ راح يبحث عن الأطفال ويقتلهم ، وهو لا يعلم أن الله يدَّخر له هذا الغلام فيأتيه ويطرق بابه وهو فى مهده على الهيئة التى تعرفونها ، ومع ذلك يطمئن إليه ويتخذه ولداً له ، وتقول زوجته ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ .. (٩)﴾ [القصص] فيأخذه ويُربِّيه فى بيته ، هذا معنى ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ .. (٢٤)﴾ [الأنفال]

إذن : فقوله تعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ (٦)﴾ [غافر] ما حقتْ عليهم بقهر وجبروت ، إنما حقَّتْ عليهم باختيار منهم ، والحق سبحانه وتعالى بعلمه الأزلى علم

اختيارهم ، فحكم عليهم بسابق علمه فيهم ، ولا يمكن أنْ يأتى واقعٌ يخالف هذا الحكم لأن المتكلم بهذا الكلام هو الله .

وسبق أنْ أوضحنا أن الكلمة تُطلق على اللفظ المفرد ، وتُطلق على الكلام ومن ذلك قوله تعالى : ﴿كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا .. (١٠٠)﴾ [المؤمنون] وقوله سبحانه فى الذين قالوا ﴿اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا .. (٦٨)﴾ [يونس] قال : ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا (٥)﴾ [الكهف] ونحن نسمى الخطبة الطويلة كلمة .

فالكلمة التى حقَّتْ ووجبتْ وثبتتْ ليسَت مطلق كلمة ، إنما هى ﴿كَلِمَةُ رَبِّكَ .. (٦)﴾ [غافر] وكلمة الله لابدَّ أنْ تحقّ ولابدَّ أنْ تثبت ، وما كان الله تعالى ليقول كلمة ، ثم يأتى واقع الأحداث ويكذبها ، والكلمة التى حقّتْ على الذين كفروا هى ﴿أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ (٦)﴾ [غافر]

﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ (٧)﴾

هؤلاء هم الملائكة الذين خلقهم الله لتسبيحه سبحانه ، فلا عملَ لهم غير تسبيح الله وهم حملة العرش ومَنْ حوله . والتسبيح كما قلنا من المقاليد ، ومعنى ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ .. (٧)﴾ [غافر] أى : يُنزهونه سبحانه عن مشابهة خَلْقه فى الأسماء والأفعال والصفات .

لذلك قلنا : إذا اشترك الحق سبحانه مع خَلْقه فى شىء فلا بدَّ أنْ نأخذه فى إطار ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ .. (١١)﴾ [الشورى]

فلله فعل ولك فعل ، لكن لا تَقِسْ فعلك بفعل ربك سبحانه ، و هذه المسألة أوضحناها فى شرح أول سورة الإسراء ، فلما كان الحدث مُستغرباً بدأ الله تعالى السورة بالتسبيح ﴿سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ .. (١)﴾ [الإسراء] قالها بداية حتى لا نقيس فعل الله على فعل البشر ولا قدرة الله بقدرة البشر ، فلله تعالى فعل ولك فعل ، لكن فعل الله ليس كفعلك ، فإياك أنْ تقول المسافة والزمن .

وكلمة (سبحان الله) تعنى تنزيه الله تعالى عن كل ما يشبه البشر ، لذلك قالوا : كلُّ ما يخطر ببالك فالله خلاف ذلك ، وهذا التنزيه ليس طارئاً بوجود مَنْ ينزه الله إنما هو أزلىّ قبل أنْ يخلق الله مَنْ ينزهه ، فهو سبحانه مُنزَّه فى ذاته قبل أنْ يوجد مَنْ ينزهه .

لذلك لما وُجدَتْ السماء والأرض قال : ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. (١)﴾ [الحديد] أى : سبِّحوا الله ساعة خُلقوا فقالوا : سبحان الله الخالق العظيم ، ولا يزالون يُسبِّحون ، كما قال : ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ .. (١)﴾ [الجمعة] فالتسبيح موصول دائم ، فإذا كان الكون كله سبَّح لله ولا يزال يُسبِّح ، والكون مخلوق لك أيها الإنسان فأنت أَوْلَى بالتسبيح منه ، لذلك قال : ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى (١)﴾ [الأعلى]

وتسبيح الله تنزيه له سبحانه فى أفعاله وفى صفاته ، فحين تتأمل مثلاً مسألة الخلق تجد خَلْق الإنسان من طين ، فهل يمكنك أنْ تأخذ قطعة من الطين فتُسويها على هيئة إنسان ثم تنفخ فيها أنت الروح ؟ هذه العملية لا يقدر عليها إلا الخالق سبحانه .

لذلك سيدنا عيسى عليه السلام لما أراد الله أنْ يجعل له آية ومعجزة فى مسألة الخَلْق قال : ﴿أَنِّى أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ .. (٤٩)﴾ [آل عمران] فقال فى نفخ الروح ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ .. (٤٩)﴾ [آل عمران] لأنه بذاته لا يستطيع هذه العملية ، إنما كونى أُصوِّر تمثالاً على هيئة إنسان أو طائر فهذه مسألة سهلة .

إذن : كان عليك أيها الإنسان الذى كرَّمه الله ، كان عليك أن تسبح ، لأن الكون والجماد الذى خلقه الله لك سبَّح وما يزال .

وقوله تعالى : ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ .. (٧)﴾ [غافر] هم الملائكة حملة العرش . إذن : العرش محمول ، وهؤلاء الملائكة حتى عددهم فيه إعجاز ، فالحق سبحانه أخبر أنهم ثمانية ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ (١٧)﴾ [الحاقة]

فلماذا لم يجعلهم أربعة فيكون كما تعوّدنا فى أىِّ بناء له أربعة أركان ، ولماذا لم يكونوا خمسة مثلاً . إذن : لابدَّ أن فى هذا العدد بالذات حكمة وإعجازاً .

وهذا الإعجاز العددى واضح أيضاً فى قوله تعالى : ﴿عَلَيْهَا[1] تِسْعَةَ عَشَرَ (٣٠)﴾ [المدثر] فلماذا تسعة عشر بالذات ؟ لماذا لم يجعلهم عشرين مثلاً ، هذا دليل على أن وراء هذا العدد حكمة ، وقد أخبر الله تعالى أن هذا العدد فتنة ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلاَّ مَلائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا .. (٣١)﴾ [المدثر]

---

(١) عليها : أى على النار ، فهم خزنة جهنم . وهم تسعة عشر ملكاً بيد كل ملَك منهم مرزبة لها شعبتان فيضرب الضربة فيهوى بها سبعين ألف خريف . ذكره القرطبى فى التذكرة (ص ٤٥٥) وقد أخرج الترمذى عن جابر بن عبد الله أن اليهود سألوا رسول الله ﷺ : كم عدد خزنة جهنم ؟ فأهوى رسول الله بكلتا كفيه إلى الأرض مرة عشرة ومرة تسعة قبض فيها الإبهام . قالوا : نعم .

والإيمان يقتضى التصديق بما أخبر به الحق سبحانه وألاَّ تناقش مثل هذه المسائل ، المهم قال أو لم يَقُل ، حدث الشىء أو لم يحدث ، لذلك سيدنا أبو بكر لما أخبروه أن صاحبك يدَّعى أنه رسول ، ماذا قال ؟ قال : ألا وقد قالها ؟ قالوا : نعم ، قال : فقد صدق ولم يبحث فى المسألة ، كذلك نحن فى كل أمر يقف فيه العقل ، ما دام قد جاءنا فيه خبرٌ من عند الله فعلينا أنْ نقبله ونؤمن به ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا (٨٧) ﴾ [النساء]

وكوْن عقلك يستوعب هذا الخبر أو لا يستوعبه فهذا موضوع آخر ، لأن هناك فرقاً بين الوجود وكيفية الوجود ، فقد يوجد الشىء لكنك لا تعرف كيف وُجِد .

تأمل فى قصة أبى الأنبياء سيدنا إبراهيم عليه السلام حين قال : ﴿ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي .. (٢٦٠) ﴾ [البقرة]

تجد السطحيين فى الفهم عن الله يتهمون القرآن فى هذه المسألة بالتعارض ، كيف ؟ يقولون : معنى (بلى) يعنى آمنت والإيمان يقتضى اطمئنان القلب إلى العقيدة ، فلماذا يقول بعدها : ﴿ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي .. (٢٦٠) ﴾ [البقرة] ؟

ونقول له : أنت معذور ، لأنك لم تفهم معنى السؤال ، ولو فهمتَ معناه ما اتهمتَ القرآن ، هل قال إبراهيم لربه : أتحيى الموتى أم قال ﴿ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي .. (٢٦٠) ﴾ [البقرة] فهو إذن لم يسأل عن إمكانية الفعل ولم يشُكّ فى قدرة الله ، ولكنه يسأل عن الكيفية ﴿ كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ .. (٢٦٠) ﴾ [البقرة] إذن : فإحياء الموتى أمر سابق يسأل إبراهيم عن كيفيته ، فلو قلت لك : كيف بنيتَ هذا البيت ؟ فهذا يعنى أن البيت قائم بالفعل .

إذن : فقوله (بَلَى) يعنى : آمنت يا رب أنك تحيى الموتى ، وطلب

الاطمئنان بعد ذلك للكيفية والسؤال عن الكيفية أمر ضرورى فى مسألة الخَلْق وكيفية الإيجاد لأنها عملية لا تتأتى كلاماً ، لأن فِعْل الله تعالى ليس علاجاً كفعل البشر .

فلو قلت لك : كيف بنيت هذا البيت ؟ تقول : حفرتُ الأساس وأحضرتُ الحديد والأسمنت وفعلتُ كذا وكذا ، فلان صمم ، وفلان نفّذ ، وفلان بنى ، وفلان (غفق) .. إلخ فأعطيك كيفية الفعل بحيث تستطيع تطبيقها إنْ أردت ولا تجد فيها اختلافاً ، لكن إنْ أردنا أنْ نُبين كيفية الإحياء ، فكيف نبنيها ؟

إنها مسألة لا تتأتى بالكلام ، ولا بدّ من إجراء العملية بالفعل ، وتأمل أن الله تعالى أراد أنْ يُجريها إبراهيم بنفسه ، وألاَّ تجرى له إنما يمارسها بنفسه . وفَرْقٌ بين أنْ تُعدِّى قدرتك لغيرك فتنفعل له ، وأنْ تُعدِّى قدرتك لغيرك فتجعله يفعل بنفسه ، فمثلاً قد تعجز عن حمل شىء فأحمله عنك وهذا أمر طبيعى ، لكن العظمة فى أن أجعلك تقدر أنت بنفسك على حمله .

وهذا ما فعله الحق سبحانه مع نبيه إبراهيم عليه السلام : ﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ .. (٢٦٠)﴾ [البقرة] أى : ضُمهن إليك واعرف أوصافهن ﴿ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا .. (٢٦٠)﴾ [البقرة] يعنى : اذبحهن وفرِّقْ أجزاءهن على الجبال ﴿ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا .. (٢٦٠)﴾ [البقرة]

إذن : هو الذى يذبح ، وهو الذى يُقطِّع الأجزاء ، وهو الذى يُفرِّقها ، وهو الذى ينادى عليها بنفسه فتتجمع بقدرة الله ويأتينَ سَعْياً كما كُنَّ من قبل ، فإذا كنت أقدرت ما لا يقدر على القدرة ألا أقدر أنا عليها ؟

والعرش هو سمة استتباب الملْك والسيطرة على الحكم والاستيلاء

عليه ، وليس من الضرورى أنْ يقعد على العرش بالفعل ، لذلك لما تكلم الهدهد عن ملكة سبأ قال : ﴿ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) ﴾ [النمل] لأن الملك لا يقعد على العرش إلا عندما تستقر له الأمور ، وتدين له البلاد ، فإنْ كانت هناك منطقة معترضة أو مشاغبة للملك تفرغ لها حتى تدين له ، وعندها يستقر له الملْك .

ولما تكلم الحق سبحانه عن استوائه على العرش قال سبحانه : ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِى أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ (١٠) ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا .. (١٢) ﴾ [فصلت]

إذن : فاستواؤه سبحانه على العرش جاء بعد أن انتهى من الخَلْق وتَمَّ له كل شىء من أمور الملك والسيطرة الكاملة .

فقوله سبحانه : ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ .. (٧) ﴾ [غافر] هم الملائكة الثمانية حملة العرش . ﴿ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا .. (٧) ﴾ [غافر] وهؤلاء نوع آخر من الملائكة ، وهم الكروبيون الذين لا عملَ لهم إلا تسبيح الله ، وليس فى بالهم هذا الكون كله ، ولا يدرون عنه شيئاً ، فقط ﴿ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ .. (٧) ﴾ [غافر]

لكن هؤلاء الكروبيين الذين يحيطون بالعرش ويُسبِّحون الله ولا عملَ لهم غير ذلك ، هل يرونَ الله سبحانه وهو على العرش ؟ قال علماؤنا رحمهم الله : أنهم رغم منزلتهم هذه إلا أنهم لا يرونَ الله تعالى ، وأظهر

هذه الأقوال قول الفخر الرازى[١] رحمه الله ، فلما تكلم فى هذه الآية ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ .. (٧) ﴾ [غافر] استأنس برأى صاحب الكشاف[٢] الذى سبقه وقال : إن معنى ﴿ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ .. (٧) ﴾ [غافر] أنهم لا يرونه سبحانه لأن المشهديات ليس فيها إيمان ، الإيمان للغيبيات ، فلو أنهم شهدوا الله وهو على العرش ما قال فى حقهم ﴿ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ .. (٧) ﴾ [غافر] ثم قال الفخر الرازى : ولو لم يكُنْ للإمام صاحب الكشاف إلا هذه لكفتْهُ طيلة حياته[٣] ، هذا مع ما بين الإمامين من خلاف فى الرأى .

إذن : لا نفهم من مكانة هؤلاء الملائكة وقربهم من ذى الجلال سبحانه أنهم يرونَه ، لا بل هو سبحانه بالنسبة لهم غيب لا يرونه ، يؤكد هذا قوله سبحانه ﴿ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ .. (٧) ﴾ [غافر] فأنت الآن فى هذا

---

(١) هو : محمد بن عمر فخر الدين الرازى . مولده فى الرى (طهران حالياً) عام ٥٤٤ هـ إمام مفسر يقال له ابن خطيب الرى . له « مفاتيح الغيب » فى التفسير و « محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين » وغيرها كثير له شعر بالعربية والفارسية ، وكان واعظاً بارعاً باللغتين . توفى بهراة عام ٦٠٦ هـ عن ٦٣ عاماً (الأعلام للزركلى ٣١٣/٦) .

(٢) صاحب الكشاف فى التفسير هو الزمخشرى محمود بن عمر جار الله أبو القاسم ولد فى زمخشر من قرى خوارزم عام ٤٦٧ هـ . سافر إلى مكة فجاور بها زمناً فلقب بجار الله . من أئمة العلم بالدين والتفسير واللغة والأدب توفى بالجرجانية (خوارزم) عام ٥٣٨ هـ . من كتبه « أساس البلاغة » كان معتزلى المذهب مجاهراً شديد الإنكار على المتصوفة . الأعلام (جزء ٧) .

(٣) نص كلام الزمخشرى فى تفسيره الكشاف فى قوله تعالى : ﴿ ويؤمنون به ﴾ هى التنبيه على أن الأمر لو كان كما تقول المجسمة لكان حملة العرش من حوله مشاهدين معاينين ولما وصفوا بالإيمان لأنه إنما يوصف بالإيمان الغائب فلما وصفوا به على سبيل الثناء عليهم علم أن إيمانهم وإيمان من فى الأرض وكل من غاب عن ذلك المقام سواء فى أن إيمان الجميع بطريق النظر والاستدلال لا غير وأنه لا طريق إلى معرفته إلا هذا وأنه منزه عن صفات الأجرام » . وقد أثنى الفخر الرازى على هذا فى تفسيره للآية فى « مفاتيح الغيب » وقال : « قد أحسن فيه صاحب الكشاف جداً .. فلو لم يحصل فى كتابه إلا هذه النكتة لكفاه فخراً وشرفاً » .

المجلس لا تقول مثلاً : آمنتُ بأن الشيخ الشعراوى جالس وحوله مُحبِّوه ويتكلم فى كذا وكذا ، لأن ما نحن فيه الآن مشهد لا دخْلَ للإيمان فيه ، الإيمان لا يكون إلا بأمر غيبى وهذه ميزة الإيمان ، لذلك كثيراً ما يتكرر قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ .. (٣)﴾ [البقرة]

وسبق أنْ ضربنا مثلاً قلنا : هَبْ أننى أخاف من اللصوص فأخذت مالى الذى أخاف عليه وذهبتُ إلى مكان بعيد فى الحديقة مثلاً ووضعت المال وفوقه حجر ثقيل ، ولما احتجتُ لهذا المال ناديتُ العامل : يا فلان ارفع هذا الحجر ، فقال : لا أستطيع وحدى فهو ثقيل ، فقلت له : تدرى ماذا تحت هذا الحجر ؟ تحته المال الذى سأعطيك منه راتبك ، عندها يتقدم إلى الحجر ويرفعه ، إذن : المهم ليس إطاعة الأمر الذى عُلِم منفعته ، إنما إطاعة الأمر وهو غيب عنك .

ومعنى ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ .. (٧)﴾ [غافر] أى : تسبيحاً مقروناً بالحمد ، لأن التسبيح ثناءٌ على الله ، أما الحمد فشكرٌ لله على نعمه التى سبقتْ ، ومن أجلِّ النعم أنه سبحانه لا يشبهه شىء ولو وجد له شبيه لحدثَ تعارض فى الكون : ﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ .. (٩١)﴾ [المؤمنون] فهو وحده المعبود ، وهو وحده المستحق للحمد .

ثم بعد ذلك ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا .. (٧)﴾ [غافر] أى : أن هؤلاء الملائكة من ضمن مهمتهم أنهم يستغفرون للمؤمنين ، كما حكى عنهم القرآن يقولون : ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (٧)﴾ [غافر] .

هذا من دعاء الملائكة للذين آمنوا ، والدعاء عادة بـ (ربنا) محذوف الياء التى للنداء فلم يقُلْ : يا ربنا لأن النداء بالياء يدل على بُعْد

المنادَى ، أما الأبعد فيُنادى بأيا ، والقريب يُنادى بالهمزة مثل : أمحمد .

أما الحق سبحانه وتعالى فهو من القرب بحيث لا نستخدم فى ندائه أىَّ حرف من حروف النداء ، لأنه أقربُ لعبده من حبل الوريد ، لذلك نناديه سبحانه مباشرة (ربنا) ، ولك أنْ تستقرئ القرآن كله فلن تجد فى ندائه سبحانه حرفاً من أحرف النداء .

حتى الكفار لما نادوا الحق سبحانه قالوا : ﴿ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ .. ﴿٣٢﴾ ﴾ [الأنفال] ومعلوم أن الميم فى آخر لفظ الجلالة هنا عِوَضٌ عن ياء النداء ، فلم يقولوا : يا الله إنما قالوا : اللهم .

ثم يتابع الحق سبحانه ذكر دعاء الملائكة للذين آمنوا ، فيقول :

﴿ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ[1] وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٨﴾ ﴾

معنى ﴿ جَنَّاتِ عَدْنٍ .. ﴿٨﴾ ﴾ [غافر] أى : إقامة دائمة .

وتأمل ثمرة الإيمان بالله ، ثمرة لا إله إلا الله ، فلا يضر مع الإيمان معصية ، فالملائكة فى أعلى عليين يذكرونك وينشغلون بك أيها المؤمن ، ويدعون لك لأنك آمنتَ بالله ، وهذه تسلية لسيدنا رسول الله

---

(١) عدن بالمكان : أقام به واستوطنه . وقوله تعالى : ﴿ جَنَّاتِ عَدْنٍ .. ﴿٨﴾ ﴾ أى : جنات إقامة دائمة واستقرار ثابت . [القاموس القويم ٢/١١] .

ولأمته الذين تحمَّلوا مشاقّ الدعوة ومَنْ تبعهم إلى يوم الدين .

فيا محمد إن كان كفار مكة قد وقفوا منك ومن أتباعك هذا الموقف المعاند فلا تحزن ، ويكفيك وأمتك أنْ تستغفر لك الملائكة ، وأىّ ملائكة ؟ حملة العرش والذين يحيطون به .

وحين تقرأ هذا الدعاء من الملائكة تجد فيه إشارات ووقفات تستحق التأمل أولها أنك أيها المؤمن مذكورٌ بين حملة العرش ، وأنت موضع اهتمامهم مع دُنُوِّ منزلتك وعُلُوِّ منزلتهم ، هؤلاء الملائكة لا عملَ لهم إلا أن يسبحوا بحمد ربهم ويستغفروا للذين آمنوا .

وتأمل فى دعائهم مسألة التخلية ثم التحلية يقولون : ﴿ فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (٧) ﴾ [غافر] هذه هى التخلية أولاً من المؤلم ، ثم تأتى التَّحلية بالنعمة التى تسرّ ، وذلك فى ﴿ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ .. (٨) ﴾ [غافر] لأن التخلية والنجاة من العذاب أوْلى من التنعم ، والقاعدة أن دفع الضرر مقدم على جَلْب النفع ، لذلك قال تعالى : ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ .. (١٨٥) ﴾ [آل عمران]

ثم إن دعاءهم لم يخص المؤمنين فحسب ، إنما يشمل العائلة كلها ﴿ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ .. (٨) ﴾ [غافر] فذكروا الشجرة كلها ، لأن الآباء يُسرُّون بوجودهم مع الأبناء فلم يقطع عليهم هذه النعمة .

وفى موضع آخر ذكر حيثيات هذه النعمة ، فقال سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ .. (٢١) ﴾ [الطور] إذن : المقصود هنا الإيمان ، والإلحاق دلَّ على أن أحدهما كامل والآخر أقل ، وإلا لو كانوا متساوين فى العمل لأخذ كل منهم (بفتحة ذراعيه) .

ومعنى : ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ .. (٢١)﴾ [الطور] لا يقصد بها أنْ نأخذ المتوسط الحسابي يعنى : ما عمله الآباء وما عمله الأبناء ويقسم على الاثنين ، لا ﴿وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ .. (٢١)﴾ [الطور] يعنى : ما نقصنا شيئاً من أجورهم ، فالإلحاق تفضُّل من الحق سبحانه لقُرَّة عيون الآباء بالأبناء لكن بشرط الإيمان ، لماذا ؟ لأنهم لو لم يكونوا مؤمنين لكره الآباءُ معيَّتهم ومصاحبتهم .

فإنْ قلت : إذن يكون للإنسان ما لم يَسْعَ به . يعنى : يأخذ ثمرة عمل الغير ، نقول : لا لأنه آمن والإيمان من عمله ، صحيح ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ (٣٩)﴾ [النجم]

لكن لا تنظر لسعيه هو ، إنما وسع الدائرة وانظر لمن جعله يسعى هذا السَّعْى الطيب ، إنها التربية الصالحة ، لذلك ورد فى الحديث الشريف « إذا مات العبد انقطع عمله إلا من ثلاث ، منها : أو ولد صالح يدعو له »[1] فكلمة (صالح) هذه من عمل مَنْ ؟ من عمل الآباء .

إذن : حين نعطى الأب ثواب الدعاء الصالح من الابن إنما نعطيه حقه وثمرة عمله وسَعْيه فى هذا الابن ، والأب إذا كان صالحاً تحرَّى أنْ ينفق على ولده من حلٍّ ، وحين يتحرى ذلك ربما يضيق عليه فى النفقة ، لأن بعض الأغنياء الذين لا يتحرَّوْن الحلال فى الكسب ينفقون على أولادهم ببذخ وإسراف فى الملبس والمأكل والسيارات الفارهة .. إلخ لأنهم جمعوا هذه الأموال من مهاوش[2] .

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٢/٣٧٢) والترمذى فى سننه (١٣٧٦) وأبو داود فى سننه (٢٨٨٠) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، وتمامه « إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، وعلم ينتفع به ، وولد صالح يدعو له » .

(٢) المهاوش : مكاسب السوء ، فهو كل مال يُصاب من غير حله ولا يُدرى ما وجهه كالغصب والسرقة ونحو ذلك . [لسان العرب - مادة هوش] .

وقد أورده العجلونى فى كشف الخفاء (٢/٣١٣) وعزاه للقضاعى عن أبى سلمة الحمصى مرفوعاً وأبو سلمة ضعيف ولا صحبة له . قال التقى السبكى : لا يصح .

والرجل الصالح ينأى بنفسه وأولاده عن الحرام ، لذلك ربما يشقى الصالح بالصلاح فى الدنيا ويصبر على هذا الشقاء وهذا الحرمان ، وهذا كله من عمله .

لذلك كانوا كثيراً ما يناقشوننا فى قوله تعالى : ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ (٣٩)﴾ [النجم]

يقصدون كيف ينتفع الإنسان بعمل غيره ؟ وقلنا لبيان ذلك مثلاً : إننا نُؤْمر بالصلاة على الميت ، هذه الصلاة تفيده أم لا ؟ إنْ كانت لا تفيده فهى إذن عبث ، وإنْ كانت تفيده فهل استفاد بعمل غيره ؟

نعم يستفيد الميت بدعاء الحى له فى صلاة الجنازة ، لكن هذا الدعاء فى حَدِّ ذاته يُعتبر من عمل الميت . لأنه ثمرة إيمانه بالله ، ولولا أنه مؤمن ما صلَّينا عليه ، فأنت حين تصلى صلاة الجنازة لا تصلى على مطلق ميت ، إنما على ميت آمن بربه عز وجل ، والإيمان من عمله ، وبالتالى صلاتك عليه أيضاً من عمله .

أو نقول فى قوله تعالى : ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ (٣٩)﴾ [النجم] أى : ليس للإنسان حَقٌّ ، فهى منعت العدل ولم تمنع الفضل من الله ، وفَرْق بين العدل والفضل ، فالعامل عندك مثلاً أجره خمسون وهذا الاتفاق بينكما لا يمنع أن تعطيه سبعين مثلاً .

ثم تُذيل الآية بقوله تعالى : ﴿إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٨)﴾ [غافر] ولم يَقُلْ مثلاً : إنك أنت الغفور الرحيم لتناسب الدعاء المذكور فى الآية .

وهذه مثل قوله تعالى فى قصة سيدنا عيسى عليه السلام : ﴿أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ (١١٦)﴾ [المائدة] ثم

يقول : ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨)﴾ [المائدة]

فلم يقل : فإنك أنت الغفور الرحيم ، لماذا ؟ لأنهم استحقوا العذاب ، إنما لو غفرت لهم لا يجرؤ أحد على نَقْض هذه المغفرة لأنه لا معقِّبَ لحكمه سبحانه ولا رادَّ لفضله ، فعزتك يا رب وحكمتك هى التى جعلتْك تغفر لهم مع أنهم يستحقون العذاب .

إذن : فالمغفرة لم تأت من ناحية أنك أنت الغفور الرحيم ، إنما من ناحية أنك أنت العزيز الحكيم . والعزيز هو الغالب الذى لا يُغلب ولا يُعَارض .

لذلك قلنا : إن إبليس كان ناصحاً حين قال : ﴿فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢)﴾ [ص] والمعنى : فبعزتك عن خَلْقك وغنَاك عنهم ، مَنْ شاء فليؤمن ومَنْ شاء فليكفر ، بهذه العزة لأغوينهم ، إنما لو أردتهم جميعاً مؤمنين ما تعرضتُ لهم ولا جرؤتُ على إغوائهم ، بدليل أنه استثنى فقال : ﴿إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣)﴾ [ص] فهؤلاء لا سلطانَ لى عليهم ولا قدرةَ لى على إغوائهم ، إذن : المسألة ليست بين إبليس وربه عز وجل ، إنما هى بين إبليس وبنى آدم .

ثم يقول الحق سبحانه من دعاء الملائكة للمؤمنين :

﴿وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٩)﴾

قوله سبحانه (وَقِهِمُ) فعل أمر أو دعاء هنا من الفعل وَقَى أى : يا ربِّ جنِّبهم المعاصى ، ويصح أنْ نقول : قِهِم السيئات . يعنى :

جنِّبهم عقوبةَ المعاصى ، أو جنِّبهم المعاصى ذاتها ، وعين الرحمة أنْ يجنبك الله المعاصى والسيئات ، لذلك قال : ﴿ وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ .. (٩) ﴾ [غافر]

وهذه مثل قوله تعالى فى شأن القرآن الكريم : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ .. (٨٢) ﴾ [الإسراء] فالشفاء يكون للداء الموجود بالفعل فى النفس الإنسانية ، فالقرآن يعالج مثلاً داءات الشُّح والجُبْن والكذب .. إلخ ، أما الرحمة فهى ألا يأتى الداء أصلاً ، ولا شكَّ أنْ تجنُّب الداء بدايةً أفضلُ من معالجته كما يقولون : الوقاية خير من العلاج .

﴿ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٩) ﴾ [غافر] نعم ، وأىُّ فوز أعظم من أنْ يُجنِّبك الله السيئات فلا تقع فيها ؟ كلمة الفوز تعنى الفلاح والنجاح ، ووُصف بأنه عظيم لأنك قد تفوز فى الدنيا بالمال أو بالمنصب أو بالأولاد ، هذا فوز لكن الفوز العظيم فى الآخرة لأنه فوز باقٍ ودائم ، أما فوز الدنيا فمآله أن ينتهى .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ (١٠) ﴾

لو تتبعنا هذه المسألة من أولها نجد أن الحق سبحانه دعا الخلق بواسطة رسله ومنهجه إليهم ، فمنهم مَن استجاب فآمن ، ومنهم مَنْ كفر ﴿ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ (١٠) ﴾ [غافر] وهؤلاء الذين لم يستجيبوا لداعى الحق أرادوا ألاَّ يرتبطوا بمنهج الله فى افعل ولا تفعل

وألاَّ يُضيِّقوا على أنفسهم بالالتزام بالمنهج ، وأنْ يسيروا فى الدنيا على هواهم ، هذا الذى دعاه إلى أنْ يكفر .

فحين يعاين العذاب فى الآخرة يندم ساعةَ لا ينفع الندم ، ويكره نفسه أشد الكره ، لأنها لم تتبع منهج الإيمان .

هذا معنى قوله سبحانه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ (١٠) ﴾ [غافر] والمقت أشد البغض . أراد الحق سبحانه أن يقول لهم : إنْ كنتم كرهتم أنفسكم أشد الكره لأنها لم تؤمن بمحمد وبمنهج الحق الذى جاء به ، فاعلموا أن مقْتَ الله لكم لكفركم به أشدّ وأعظم من مقتكم لأنفسكم ، إنكم مقتّم أنفسكم لأنها حرمتكم الخير وجلبتْ لكم الشر حين كفرتْ بالله .

والحق سبحانه يمقتكم لأنكم أبعدتم أنفسكم عن مجال الخير منه وخرجتم من حضنه ودائرة رحمته ، لأنه سبحانه يغضب أشدّ الغضب حين يخرج عبده عن ساحته ويحرم نفسه من خيره ، وهذا يعنى أنَّ ربك يحبك ويحب لك الخير ويريدك فى جنبه وفى معيته ويَغار عليك حين تشرد أو تشذ عن منهجه ، فأنت عبده وصنعته .

فكَأن مقته سبحانه للكافر رحمةٌ به وغيرة عليه . لذلك قال سبحانه فى الحديث القدسى : « لو خلقتموهم لرحمتموهم »[1]

إذن : الحق سبحانه أثبت أولاً بُغْضهم لأنفسهم ، ثم بيَّن لهم بُغْضه سبحانه للكافر أشدّ من هذا .

---

(١) أورده أبو حامد الغزالى فى إحياء علوم الدين (٤/٥٢) من قول بعض السلف ، ولفظه : « ما من عبد يعصى إلا استأذن مكانه من الأرض أن يخسف به ، واستأذن سقفه من السماء أن يسقط عليه كسفاً ، فيقول الله للأرض والسماء : كُفَّا عن عبدى وأمهلاه فإنكما لم تخلقاه ، ولو خلقتماه لرحمتماه ولعله يتوب إلىَّ فأغفر له ، ولعله يستبدل صالحاً فأبدل له حسنات ».

﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾﴾

لنفهم معنى﴿أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ ﴿١١﴾﴾ [غافر] لابدَّ أن نعرف ما هو الموت أولاً ، الموت هو إذهاب الحياة بعد أنْ كانت موجودة ، فما دام سيكون الموت فهو دليل على الحياة قبله ، والموت أيضاً يعنى عدم الحياة مطلقاً ، يعنى : عدم لم تسبقه حياة مطلقاً .

لذلك قال سبحانه : ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ ﴿٢٨﴾﴾ [البقرة] وهذا استفهام للتعجب يعنى : قولوا لنا كيف يتأتَّى منكم الكفر ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ﴿٢٨﴾﴾ [البقرة] أى : كنتم عدماً فوهبكم الحياة ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ﴿٢٨﴾﴾ [البقرة] أى : يُذهب الحياة الموجودة ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴿٢٨﴾﴾ [البقرة] أى : فى الآخرة .

إذن : فالموت مرتان والحياة مرتان كذلك ، والخلاف فى هذه المسألة : أيكون الموت بعد حياة ؟ أم يكفى أن يكون عدمٌ تأتى بعده الحياة ؟ نقول : الموت هو العدم المطلق ، سواء كان قبله حياة أم لم تكن قبله حياة ؟ وأنت مثلاً ترى البعوضة صغيرة ، والفيل ضخماً كبيراً فتقول : سبحان مَنْ صغّر البعوضة وكبّر الفيل ، أكانت البعوضة كبيرة ثم صغّرها الله أم خُلقت هكذا ؟ إذن : الموت ليس من الضرورى أن يسبقه حياة ، فيكفى أنه لم تكُنْ فيه حياة ، بعد ذلك أحيانا الله واستوفينا الأجل فى الدنيا ثم يأتى الموت .

إذن : الآية جمعت بين المعنيين : الموت المطلق أو العدم الذى لم تسبقه حياة ، والموت بمعنى نَقْض الحياة الموجودة بالفعل ، فقال

سبحانه : ﴿أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ (١١)﴾ [غافر]

بعضهم [١] يرى أن الموت الأول هو إذهاب الحياة بعد انقضاء الأجل ، ثم يحيا فى القبر للسؤال ثم يموت فى القبر ثم يُبعث يوم القيامة ، والأول [٢] الذى اخترناه أليق .

وقوله سبحانه : ﴿فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ (١١)﴾ [غافر] الاستفهام فى ﴿فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ (١١)﴾ [غافر] استفهام للتمنى لكن هيهات ، فلو رُدُّوا لَعَادوا لما كانوا عليه ، فلا فائدةَ من تكرار هذه التجربة ، والحق سبحانه بيَّن هذه المسألة فى قوله تعالى : ﴿كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا (١٠٠)﴾ [المؤمنون]

ولو رُدُّوا لعادوا بطباع الشر فيهم وكفروا ، والخروج أى من المأزق الذى نحن فيه ومن العذاب الذى نعاينه ﴿مِّن سَبِيلٍ (١١)﴾ [غافر] من طريق للخروج وللنجاة .

هذا الذى ذكرناه خاصٌّ بحياة القوالب وموتها ، أما حياة القلوب والأرواح فلها طريق آخر ، ذكره الحق سبحانه فى قوله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ (٢٤)﴾ [الأنفال]

لا شكَّ أنه سبحانه يخاطبهم وهم أحياء الحياة المادية إذن : هناك حياة أخرى يدعوهم إليها ، إنها حياةُ المعنويات التى لا يأتى

---

(١) هذا القول قاله السدى فيما نقله عنه القرطبى فى تفسيره (٥٩٤٥/٨) قال القرطبى : « إنما صار إلى هذا لأن لفظ الميت لا ينطلق فى العرف على النطفة ، واستدل العلماء بهذا فى إثبات سؤال القبر » .

(٢) القول الأول الذى يقصده الشيخ الشعراوى هو أنهم كانوا أمواتاً فى أصلاب آبائهم ثم أحياهم ، ثم أماتهم الموتة التى لابد منها فى الدنيا ، ثم أحياهم للبعث والقيامة ، فهاتان حياتان وموتتان . وهذا هو قول ابن مسعود وابن عباس وقتادة والضحاك . انظر تفسير القرطبى (٥٩٤٥/٨) .

بعدها موت وهى الحياة فى الجنة .

إذن : عندنا حياة للمادة بها تحيا وتتحرك وتأكل وتشرب وتنشط ، وهناك حياة أخرى معنوية بها تدخل الجنة حيث نعيمٌ بلا فَوْت ، وحياة بلا موت . الحياة المادية لها روح تناسبها وهى حياة تنتهى بالموت ، أما حياة القيم والمعنويات فلا بدَّ لها من روح عُلْوية تأتى بالالتزام بالمنهج فى : افعل ولا تفعل ، لذلك يسميها الله روحاً : ﴿أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا (٥٢)﴾ [الشورى] وسمَّى مَنْ يحملها روحاً : ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣)﴾ [الشعراء]

وكل من الحياتين لها ما يناسبها من البقاء ، فالأولى موقوتة بالأجل ، والأخرى ممتدة باقية ؛ لذلك قلنا فى الشهيد الذى جاد بنفسه وأنهى حياته فى سبيل منهجه أن الله يُجازيه على ذلك بأنْ يعصمه من الموت بعد ذلك .

﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ (١٢)﴾

الحق سبحانه وتعالى حينما تكلَّم عن العقائد وأيَّدها بالمعجزات ، كان من الواجب أن نستقبل أحكامه تعالى فيها بالرضا والقبول ، فلم يكلفنا سبحانه بحكم افعل ولا تفعل إلا بعد أنْ قدَّم حيثيات الإيمان الأعلى بالإله الأعلى ، وآمن مَنْ آمن به وكفر مَنْ كفر رغم كل مصالحنا فى تنظيم حركة الحياة بمنهج الله .

فإذا حكم علينا بحكم فيجب أن نطيعه ، وإذا استقر فى أذهانكم شىء يخالف ذلك فإنَّ واقعكم يؤيد أنكم لم تؤمنوا بقلوبكم ﴿ذَٰلِكُم

(١٢) ﴾ [غافر] أى : ما يحدث منكم من مواجهة الدعوة ومصادمتها ووقوفكم هذا الموقف المعادى ناشىء من ﴿ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ (١٢) ﴾ [غافر] أى : كفرتم به .

وفى موضع آخر قال سبحانه : ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٥) ﴾ [الزمر]

أى : ظهر عليه الامتعاض والضيق لما سمعوا كلمة الله ، لماذا ؟ لأنهم يعلمون معنى الإيمان وما يترتب عليه من تكليف بمنهج : افعل كذا ولا تفعل كذا ، يعلمون أن هذا المنهج يقيد شهواتهم فينهاهم عن أشياء مُحبَّبة إليهم ويدعوهم إلى أشياء أخرى ثقيلة على نفوسهم ، لذلك إذا ذكَّرتهم بالله وبمنهج الإيمان امتعضوا فى حين إذا ذكر غيره سبحانه من آلهتهم ﴿ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٥) ﴾ [الزمر] ويفرحون ، لماذا ؟

لأن هذه الآلهة التى اتخذوها من دون الله ليس لها مطلوب ولا تكاليف بافعل ولا تفعل . إذن : أنتم مع هذه العبادة متروكون على هواكم ، وعلى سيئات نفوسكم ، هذا معنى الاستبشار ومعنى ﴿ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا (١٢) ﴾ [غافر]

لكن بقيتْ حقيقة ينبغى ألاَّ تغيب عن أذهانكم : ﴿ فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ (١٢) ﴾ [غافر] فافرحوا بآلهتكم المزعومة كما تشاؤون ، فأنا سأحكمكم بقدرى قهراً عنكم فأمرضكم كما أحب ، وأميتكم متى أشاء وأُفقركم وأغنيكم .. الخ فلن تخرجوا أبداً بشىء عن ملكى إلاَّ فيما جعلتُ لكم فيه اختياراً .

فأنتم مختارون فى الإيمان والكفر فمَنْ شاء فليؤمن ومَنْ شاء

فليكفر ، مَنْ شاء فليطع ومن شاء فليعص ولن تنفعنى طاعتكم ، ولن تضرنى معاصيكم ، ومهما تمردتم فى الأمور التى لكم فيها اختيار فإنَّ مردكم إلىَّ ومنتهاكم عندى .

﴿ فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ (١٢) ﴾ [غافر] الذى لا يمكن أبداً لأحد أنْ يتمرد على قدره ، فإن كنتم ألفتم التمرد فى الإيمان وفى الطاعة فأرُونى كيف تتمرَّدون على الله فيما لا اختيارَ لكم فيه .

ثم يذكر الحق سبحانه حيثيات العلو والكبرياء له سبحانه :

﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ (١٣) ﴾

الآيات جمع آية وقلنا : إنها على أنواع ثلاثة : آيات كونية تدل على القدرة العالية والحكمة الفائقة للإله الحق صاحب العلو والكبرياء ، وآيات المعجزات التى يمنحها سبحانه لتثبيت الرسل والإيمان بصدق بلاغهم عن الله ، ثم آيات الأحكام التى تحمل أحكام الله .

يقول سبحانه : ﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ (١٣) ﴾ [غافر] أى : الكونية لتؤمنوا بالإله الأعلى ويُريكم المعجزات على أيدى الرسل ، ثم يُنزِّل لكم آيات الأحكام التى تحمى أديانكم وعقائدكم ، لأننى كما حميت أبدانكم بما أنزلتُ من ماء السماء وما نشأ عنه من رزق لكم تقتاتون به وتعيشون عليه ، فكذلك خذوا منى الشىء الآخر الذى جعلتُه لقوام أديانكم ، وهو الأحكام التى تحمى عقيدتكم فى الحركة الحُكْمية بافعل ولا تفعل .

فقوله سبحانه : ﴿هُوَ الَّذِى يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا ﴿١٣﴾﴾ [غافر] يُراعى الأمرين معاً بحيث لا تهمل أحدهما على حساب الآخر .

﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلاَّ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾ [غافر] أى : يرجع إلى الله ويخلع عن نفسه كبرياء الجحود بذلك الإله ، وينفض عن نفسه غبار الغفلة حتى يرجع إلى إيمان الفطرة التى أرادها الحق سبحانه فى قوله : ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴿١٧٢﴾﴾ [الأعراف] وكانت الإجابة أن قال الجميع (بَلَى) أى : أنت ربنا الحق .

﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿١٤﴾﴾

الدعاء : هو إظهار الذلة والخضوع لله تعالى ، لماذا ؟ لأن من الناس مَنْ تمرَّد على الله وتكبَّر على الطاعة ، وتعالى على أنْ يظهر لله الخضوع فحين يرى منكم الذلةَ والخضوع لله ويرى الإخلاص فى العبادة يعلم أن هذا التمرد ليس طَبْعاً فى الإنسان ، بل هو طبْع هواه بدليل أن من الناس مَنْ ذلَّ وخضع ، ومن الناس مَنْ يدعو ربه ويخلص له ويطيعه .

إذن : ليس التمردُ خاصية لازمة للإنسان بل هو خاصية فى المتمرد فقط ، إنما الإنسان حينما يكون على طبيعته وفطرته لابد له أنْ يلجأ إلى الله ويستعين به ، لذلك ادعوا الله مخلصين له الدين ، ولو كره الكافرون منكم هذا الدعاء .

وقلنا فى فضل الدعاء أنه « مخ العبادة »[(١)] ، والدعاء ما هو إلا ذلة عابد لعزة معبود ، مجرد إظهار الذلة بصرف النظر عما يترتب على الدعاء ، وإلا فالحق سبحانه أعطاك قبل أنْ تدعوه ، وخلق لك قبل أن توجد ، لذلك ليس من اللازم أن يستجيب الله لكل مَنْ يدعوه ، وكأنه سبحانه يقول لنا : تنبَّهوا إلى أن منكم مَنْ يدعو فلا أستجيب له ، وأنا حين لا أستجيب له أمنحه العطاء الأعلى لأنه قد يدعو بالشر دعاءه بالخير ، ويطلب الشىء وهو لا يعرف أن فيه هلاكه .

وسبق أنْ ضربنا لذلك مثلاً بالأم التى تدعو على ولدها حين الغضب تقول (إلهى أشرب نارك) ، فما موقف هذه الأم لو أن الله استجاب لها ؟

إذن : الحق سبحانه علم أنها حمقاء فى دعائها ، وأنها دَعَتْ بشَرٍّ تظنه خيراً فصوَّب لها الدعاء ؛ لذلك قلنا فى الثناء عليه سبحانه : سبحانك يا مَنْ تُصوِّب خطأ الداعين بألاَّ تجيب ، وبذلك حميتنا من الضر ، فكَمْ يدعو الإنسان بالشر دعاءه بالخير ؟

وفى هذه الآية ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (١٤)﴾ [غافر] حَثٌّ لنا على كيد الكافرين وإغاظتهم بإظهار الذلة لله والخضوع له سبحانه ، فهذه المسألة تكيدهم ، لأنها تظهر لهم عزَّ الربوبية والكبرياء لله تعالى الذى كفروا به ، وتعالَوْا على طاعته ، وتكبَّروا عليه سبحانه ، لذلك داوموا على الدعاء أمامهم وأروُهُمْ من أنفسكم منتهى الذلة لله .

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه (حديث ٣٣٧١) من حديث أنس رفعه لرسول الله . قال الترمذى : غريب من هذا الوجه لا نعرفه إلا من حديث ابن لهيعة ، وقد أخرجه مسلم وأحمد والبخارى فى الأدب المفرد عن النعمان بن بشير بلفظ « الدعاء هو العبادة » انظر كشف الخفاء للعجلونى (١/٤٨٥) .

﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾﴾

كلمة (رَفيع) على وزن (فـعيل) من الفعل رفع ، وهذا الوزن يأتى بمـعنى فاعل مثـل (رحيم) مبـالغة من راحم ، وتأتى بمـعنى مفعول مثل قتيل يعنى مـقتول ، كذلك كلمة (رفيع) يصح أنْ تكون بمعنى رافع . أى : أنه سبحانه رافع لغيره ، كما يرفع سبحانه بعض الخلق على بعض .

ويصح أنْ تكون (رفـيع) بمعنى مـفعول أى مـرتفع فى ذاته ، والرافع لا يرفع غيره إلا إذا كان مرتفـعاً فى ذاته ، فرفيع هنا بمعنى مرتفع عن كل شىء ، كما نقول : الله أكبر والله أعلى وأجلّ .

فـالله تعالى مـرتفع الوجـود لأن وجـوده أزلىٌّ لا عن عدم ، أمـا وجودنا نـحن فعن عـدم ، ووجوده سبـحانه إلى دوام ووجـودنا إلى عدم ، وهو موجود سبحـانه بذاته ووجودنا نحن به سبحانه ، إذن : فهو سبحانه أحسن مرتفع فى الوجود ، نعم .

والله سبـحانه مـرتفع فى قيـوميتـه ، فنحن نعمل ونتـعب وننام

---

(١) قال ابن عباس والكلبى وسـعيد بن جبير : رفيع السماوات السـبع وقال يحيى بن سلام : هو رفعة درجة أوليائه فى الجنة . [القرطبى فى تفسيره ٥٩٤٧/٨] .

(٢) الروح : الوحى أو أمر النبـوة ، قال أبو العـباس : سُمّى روحـاً لأنه حياة من مـوت الكفر فصار بحياته للناس كالروح الذى يحيا به جسد الإنسان . [لسان العرب – مادة : روح] .

لنرتاح ، أما هو سبحانه فلا يُتعبه عمل ولا ينام ليستريح ، لذلك قال سبحانه : ﴿ اللَّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْحَىُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ (٢٥٥) ﴾ [البقرة] وكأن الحق سبحانه يقول لنا : ناموا أنتم مِلْءَ جفونكم لأنى لا تأخذنى سِنَةٌ ولا نوم ، يريد أنْ نطمئن ونحن فى معيته سبحانه .

وبهذه القيومية يرفع الله مَنْ يشاء ، وبطلاقة قدرته سبحانه يُبقى مَنْ يشاء فى الرفعة ويُنزل مَنْ يشاء إلى الضِّعَة ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِى الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ (٢٦) ﴾ [آل عمران]

وقوله : ﴿ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ (١٥) ﴾ [غافر] لأن الرفع يقتضى منزلة أعلى من منزلة ، وهذه هى الدرجات أى : ما بين كل منزلة وأخرى ، والدرجات لا تكون إلا فى العُلُو ، أما النزول إلى أسفل فتسمى مراحله دركات .

والحق سبحانه يرفع من خَلْقه ما يشاء على ما يشاء ، كما رفع من الزمان رمضان على غيره من الشهور ، ورفع من المكان البيتَ الحرام وبيت المقدس ، ورفع من الملائكة كما فى قوله تعالى على لسان الملائكة : ﴿ وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ (١٦٤) ﴾ [الصافات]

ورفع من الرسل أُولى العزم منهم ، كما قال تعالى : ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ (٢٥٣) ﴾[البقرة] ويرفع من عامة الخَلْق كما قال سبحانه : ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ (١١) ﴾ [المجادلة] وكما رفع الله سبحانه أُولى العلم كذلك رفع أصحاب الحركة فى الحياة الذين ما أُوتوا علماً ، إنما عندهم حركة تنفذ هذا العلم وتُطبِّقه وتحقق مطلوبه فى الحياة ، فالعلم يحتاج فى تنفيذه ليد

عاملة كأصحاب الحرَف والعمال والصُّناع ، لذلك قال سبحانه : ﴿وَهُوَ الَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ (١٦٥)﴾ [الأنعام]

إذن : عندنا رفعةٌ للزمان ، ورفعة للمكان ، ورفعة للملائكة ، ورفعة للأنبياء ، ورفعة للمؤمنين ، ورفعة لأُولى العلم ، وأخيراً رفعة للخلائق فى الأرض ، وتأمل العدالة الإلهية فى رفعة الخلائف بعضهم على بعض .

فالحق سبحانه لم يقُلْ لنا أىَّ بعض مرفوع وأىَّ بعض مرفوع عليه ، ليبين لنا أن كل بعض مرفوع فى شىء ومرفوع عليه فى شىء آخر ، إذن : لا يرفع الغنى على الفقير ، ولا الجميل على القبيح ، ولا الذكى على الغبى ، إنما يُرفع كلٌّ بحسْب عمله ، كما ورد فى قوله تعالى :

﴿يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (١٣)﴾ [الحجرات]

فكل الخَلْق غير ما تقدم ممَّنْ رفعهُ الله مرفوعٌ فى شىء ومرفوع عليه فى شىء آخر ، فالنجار الذى يصنع لى المكتب مرفوع علىَّ فى هذا العمل ومُفضَّل علىَّ فيه ، لأنه يعرف هذه الصَّنعة ويتقنها وأنا لا أعرفها .

فإذا ما جاء هذا العامل يسألنى فى مسألة كنت أنا مرفوعاً عليه فيها ، لأننى أعرفها وهو لا يعرفها ، وقلنا : إن الحق سبحانه أراد لحركة الحياة بين الخلق أنْ تُبْنى على الحاجة لا على التفضل ، فكُلٌّ منا يحتاج الآخر ولا تكتمل حركةُ حياته إلا به .

ولو قامتْ حركة الحياة على التفضّل لتعطلتْ أكثر المصالح ولما استقامتْ الحياة ، وتصور أننا جميعاً تخرَّجنا فى الجامعة وصرْنا علماء ، مَنْ سيؤدى لنا الأعمال الأخرى ؟ مَن يكنس الشارع ؟ ومَنْ

يعمل فى المجارى ؟ ومن يبيع فى الأسواق ؟ .. الخ وهذا هو مقصود الشاعر[١] الذى قال :

النَّاس لِلنَّاسِ مِن بَدْوٍ وَحَاضِرَةٍ بَعْضٌ لِبَعْضٍ وإنْ لَمْ يَعْلَمُوا خَدَمُ[٢]

فليس منا مَنْ هو مُسخَّر فقط ، بل كل منا مُسخَّر فى شىء ومُسخر له فى شىء آخر ؛ لذلك يقول تعالى وهو يُعلِّمنا هذا الدرس : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ (١١) ﴾ [الحجرات]

لذلك لا تنظر إلى عمل على أنه أفضل من عمل ، إنما هناك عامل أفضل من عامل ، والأفضل هو الذى يتقن عمله أكثر ، فالعامل الذى يتقن عمله فى الأدنى أفضل من العامل الذى لا يتقن عمله فى العمل الأعلى[٣] .

لذلك قال الإمام على كرَّم الله وجه : (قيمة كل امرىء ما يُحسنه)[٤] فمَنْ أراد من العلو الأفضلية فليتقن عمله مهما كان هذا

---

(١) هو : أبو العلاء المعرى أحمد بن عبد الله ، شاعر وفيلسوف . ولد عام ٣٦٣ هـ وتوفى ٤٤٩ هـ فى معرة النعمان ، عمى فى السنة الرابعة من عمره ، قال الشعر وهو ابن إحدى عشرة سنة ، كان يحرم إيلام الحيوان ولم يأكل اللحم ٤٥ عاماً ويلبس خشن الثياب ، له (لزوم ما لا يلزم) ، وسقط الزند . [الموسوعة الشعرية].

(٢) البيت من قصيدة لأبى العلاء المعرى من بحر البسيط عدد آياتها ٥ أبيات ونصه فى الموسوعة :

والناس بالناس من حضر وبادية بعض لبعض وإن لم يشعروا خدم

(٣) أورد العجلونى فى كشف الخفاء (١/٢٨٥) : « إن الله يحب إذا عمل أحدكم العمل أن يتقنه » وفى لفظ عملاً بالتنكير . وقال : رواه أبو يعلى والعسكرى عن عائشة رفعه ورواه العسكرى أيضاً بلفظ « أن يحكمه » ، وصنيع الأئمة يقتضى ترجيحها (أى هذه الروايات وغيرها) .

(٤) أخرج ابن الشجرى فى كتابه « الأمالى الشجرية » بسنده أن على بن أبى طالب قال : قلت أربعاً أنزل الله تعالى تصديقي بها فى كتابه ، ذكر منها : قلت : قدر – أو قال – قيمة كل امرىء ما يحسنه ، فأنزل الله تعالى فى قصة طالوت : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِى الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ (٢٤٧) ﴾ [البقرة]

العمل حقيراً - أى : فى نظر البعض منا - فليس فى الإسلام عمل حقير ، إنما هناك عامل حقير ، وهو المتهاون الذى لا يجيد ولا يتقن ما فى يده ولا يخلص فيه .

وسبق أنْ ضربنا مثلاً من فرنسا ومن مناقشات مجلس الشعب الفرنسى ، وقد كانوا يعرضون علينا بعض المواقف الحاسمة فى هذه المناقشات ، منها أن نقيب العمال كان كثير المطالب لصالح العمال ، وكان يسرف فى ذلك ، لكن كان الوزير المسئول عن تنفيذ هذه المطالب تحكمه ميزانية وأرقام وحسابات .

ومرَّت الأيام وصار نقيب العمال هذا وزيراً للعمل ، ووقف نقيب العمال الجديد يقول له : لا أطلب منك إلا ما كنت تطلبه أنت من سابقك ، فقال : لكن تحكمنى ميزانيات وحسابات ، فأراد أن يثير عاطفته نحو العمال ، أو أراد أنْ يحرجه فقال له : لا تنْسَ أنك كنتَ فى يوم من الأيام ماسح أحذية ، فأخذها الوزير بصدر رَحْب وروح رياضية وردَّ عليه : نعم نعم لكننى كنتُ أجيدها . إذن : العظمة ليست فى العمل إنما فى إجادته .

لذلك نقول : لو علم العامل المخلص فى عمله والمتقن له عن غيب من صاحب العمل يعنى يتقنه ويجيده لله ، لو علم هذا العامل ما أدَّاه لمواجيد الإيمان بالله لافتخر بهذا العمل على العلماء . قالوا : كيف ذلك ؟ وماذا يؤدى العامل لمواجيد الإيمان ؟ نقول : لأن كل مَنْ يرى عمله المتقن يقول : الله ، فكأن العمل المتقن يُشيع كلمة الجمال فى الكون ، ويؤدى إلى ذكر الله ، وفى هذا من الثواب ما لا يَخْفى على أحد .

وقوله تعالى :﴿ ذُو الْعَرْشِ ﴿١٥﴾ ﴾ [غافر] يعنى : الذى يملك كوناً

استقر له بدون شغب عليه ، وهو المستقر فى كمال قدرته وألوهيته ، والملك لا يُتاح له الجلوس والاستواء على عرشه إلا بعد أن يستتبَّ له الأمر مع الفارق بين جلوسه سبحانه واستوائه على عرشه وبين جلوس ملوك الدنيا على عروشهم ، فنحن نؤمن بهذا الجلوس دون تكييف أو تشبيه ، وما دام وجوده تعالى ليس كوجودنا فكذلك جلوسه ليس كجلوسنا ، وقلنا : إننا نأخذ هذه المسائل فى إطار ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ (١١)﴾ [الشورى]

والحق سبحانه وتعالى استتبَّ له الأمر فى الكون دون منازع ، بدليل قوله سبحانه : ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١)﴾ [فصلت]

ولأنه سبحانه رفيع الدرجات ، وهو سبحانه ذو العرش أراد سبحانه أنْ يضفى من رفعته على المؤمنين به ، وأن يرفعهم على غيرهم ، وألاَّ يتركهم هَمَلاً وهمجاً بدون منهج ، لذلك أنزل عليهم رُوحاً منه سبحانه :

﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ (١٥)﴾ [غافر]

فما كان سبحانه ليستعبد الخَلْق ثم يتركهم ، إنما أنزل لهم المنهج الذى يحكم حركتهم فى الحياة بافعل كذا ، ولا تفعل كذا ، وهذا هو قانون الصيانة الذى يضمن للبشر الصلاح والرِّفْعة وعُلُوَّ المنزلة ، وجعل هذا المنهج اختياراً ، مَنْ شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ، مَنْ شاء أطاع ومَنْ شاء عصى ، ليرى المؤمن أثر رفعة الله له فى الآخرة حين يُدخله الجنةَ دار النعيم الباقى ، حيث لا فَوْتَ للنعمة ، ولا مَوْتَ للوجود .

وهذا المنهج جاءنا فى كتاب الله وفى سنة رسوله ﷺ ، ينظم حركة حياتنا حتى تتكامل الحركات ولا تتصادم ، فحين ترى شرع الله يقيد حركتك فى شىء ، فاعلم أنه قيَّد حركات الملايين من أجلك ، فحين ينهاك عن السرقة مثلاً يُقيِّد حركتك وأنت فرد ويمنع يدك أنْ تمتد لما لا تملك ، وفى المقابل قيَّد ملايين الأيدى حتى لا تمتد إلى مالك أنت ، حين أمرك بغضِّ البصر وحفظ المحارم أمر الخَلْق جميعهم أنْ يغضُّوا أبصارهم عن محارمك .. الخ فتأمل مَنِ المستفيد من تطبيق هذا المنهج ؟

وقوله : ﴿يُلْقِي الرُّوحَ (١٥)﴾ [غافر] الروح لها معَانٍ عدَّة . فالذى يتبادر إلى الذِّهْن أنها هى الروح التي تدبّ فى المادة فتمنحها الحياة والحركة ، وهذه هى الروح التى ألقاها الخالق سبحانه فى آدم فتحرَّك وأدت كل الجوارح وظائفها بعد أنْ كانت طيناً .

ثم أراد سبحانه أنْ يحرس حركة المادة حتى لا تنطلق فى شهواتها ، فأنزل روحاً أخرى من عنده سبحانه هى المنهج القيِّمى فى القرآن الكريم ؛ لذلك قال سبحانه : ﴿يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ (٢٤)﴾ [الأنفال]

كيف يُحييهم وهم أحياء مخاطبين بهذا الكلام ؟ نعم هم أحياء حياةَ المادة بالروح التى دبَّتْ فى أجسامهم فتحركوا بها ، إنما المراد هنا حياة أرقى من حياة المادة هى حياة القيم التى تُرقِّى حركة الإنسان وتجعلها دائماً فى الخير لنفسه ولمن حَوْله ، وكما أن حياة المادة لها روح كذلك حياة القيم لها روح .

لذلك سمَّى القرآنَ روحاً ، وسمَّى الذى نزل به من الملائكة رُوحاً، فقال سبحانه : ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا (٥٢)﴾ [الشورى]

وقال : ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣)﴾ [الشعراء]

هذه هى حياة القيم والمثُل الرفيعة ، الحياة التى تُؤهلك لحياة أخرى باقية لا تفنى ، ولك أنْ توازن بين حياة تُؤهِّلك للدنيا الفانية وحياة تؤهلك للآخرة الباقية ، لابدَّ أنك ستجد الروح الثانية أعظم وأفضل من الأولى .

ويكفى فى التفريق بينهما أن الروح الأولى ، وهى روح المادة تسرى فى المؤمن والكافر ، وبهذه الروح يأتى كفر الكافر ومعصية العاصى ، أمَّا روح المنهج والقيم فلا تكون إلا للمؤمن ، ولا تُحرِّكه إلا فى الخير حركةً سويّة تُسعده وتسعد مَنْ حوله فى الدنيا قبل الآخرة .

لذلك قال سبحانه : ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٦٤) ﴾ [العنكبوت] ومعنى (الحيوان) يعنى : الحياة الحقيقية الدائمة الباقية التى لا ينتهى نعيمها ولا يدركها فناء ، وإنْ كان نعيم البشر فى الدنيا على قَدْر حركتهم وإمكاناتهم فنعيمهم فى الآخرة على قدر المنعم سبحانه .

ثم أنت تعيش فى الدنيا عُرْضة للموت يهددك فى كل لحظة ، وربما يهجم عليك بغتة فليس له وقتٌ ولا سنٌّ معين ، وليس له سبب يرتبط به ، فمنا مَنْ يموت بعد عام ، ومنا مَنْ يموت بعد مائة عام ، ومنا مَنْ يموت وهو فى بطن أمه ، الموت لا يفرق بين كبير أو صغير ، ولا بين مريض أو سليم . لذلك أبهمه الله ، لماذا ؟ لنظلَّ دائماً ذاكرين له منتظرين هجمته ، فكأن الإبهام هنا هو عَيْن البيان .

لذلك الحق سبحانه ينبهنا إلى هذه المسألة فى قوله تعالى : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِى بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (١) الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً (٢) ﴾ [الملك]

تأمل ﴿خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾ [الملك] فبدأ بالموت وقدَّمه على الحياة ، وكأنه سبحانه يقول لنا : لا تستقبلوا الحياة إلا وفى أذهانكم الموت ، لماذا ؟ لأن ذكر الموت يمنع الغرور بالدنيا والركون إليها ويضبط سلوك الإنسان ، فلا يتحرك إلا فى الخير لأنه دائماً يعمل حسابَ العواقب التى تنتظره .

وقوله سبحانه : ﴿عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ (١٥)﴾ [غافر] يعنى : على مَنْ يختاره ويصطفيه لهذه المنزلة ، وهذا مثل قوله تعالى ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ (٧٥)﴾ [الحج]

وقوله تعالى : ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ (١٢٤)﴾ [الأنعام]

ثم يوضح الحق سبحانه العلة من قوله : ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ (١٥)﴾ [غافر] لماذا ؟ ﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلاقِ (١٥)﴾ [غافر] يعنى : إياك أنْ تفهم أن المسألة تنتهى بنهاية الحياة الدنيا ، ويفلت أهل المعاصى بمعاصيهم وأهل الظلم بظلمهم لا ، إنما هناك مرجع ومردٌّ إلى هذا الإله الذى كفرت به أو الذى عصيته وتجرأت على محارمه ، تذكّر هذه الحقيقة مهما نفرت عنه بالكفر أو نَبَا جانبك عن جانب ربك ، فأنت مردود إليه رغماً عنك ، موقوفٌ بين يديه ، لا مهربَ لك منه أبداً ، ولا مفرَّ .

وقلنا : إن الإنذار يعنى التخويف من شرٍّ قبل أوانه لتستعدَّ له بأنْ تتجنب دواعى ما يخيف لتسلم منها ، ولا معنى للإنذار ساعة وقوع الحدث ، لابدَّ أنْ يكون قبل الحدوث بفترة كافية تمكننى من أن أتدارك الأمر وأعمل حسابى .

وقوله ﴿يَوْمَ التَّلاقِ (١٥)﴾ [غافر] أى : التلاقى ، والتلاقى لا ينشأ إلا عن تباعد كان موجوداً بين شيئين ، فبين أىِّ الأشياء يكون هذا

التلاقى ؟ قالوا : التلاقى هنا والمراد يوم القيامة سيكون فى عدة صور ، ففى الآخرة سترى الملائكة الذين آمنتَ بهم فى الدنيا إيماناً غيبياً وتلتقى بهم مشهداً .

وفى الآخرة سترى رحمك وأسرتك الكبيرة من لَدُنْ أبيك آدم حتى آخر ولد له فى الدنيا ، ستلتقى بهم جميعاً ، وسترى هذا الرحم الذى قطعته فى الدنيا ، ستتمثل لك هذه الشجرة الكبيرة متشابكة الأغصان متداخلة الفروع ، وعندها ستقول : كيف قطعتُ هذه الرحم؟ وكيف جفوتُ هذه القربات لسبب وبدون سبب ، لذلك يقول النبى ﷺ : « كلكم لآدم ، وآدم من تراب »[(١)] .

ويقول الحق سبحانه فى الحديث القدسى : « أنا الرحمن ، وهذه الرحم اشتققتُ لها اسماً من اسمى ، فمَنْ وصلها وصلْتُه ، ومَنْ قطعها قطعتُه »[(٢)] .

وسيدنا معاوية بن أبى سفيان[(٣)] رضى الله عنه دخل عليه حاجبه فى يوم من الأيام وقال : يا أمير المؤمنين رجل بالباب يقول أنه أخوك ، فقال له : ألاَ تعرف إخوتى ؟ قال : هكذا يقول الرجل ، قال أدْخِلْه ، فلما دخل على معاوية قال له : أىّ إخوتى أنت ؟ قال : أنا

---

(١) أخرج أحمد فى مسنده (٣٦١/٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ولفظه : « الناس بنو آدم وآدم من تراب » .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (١٩١/١ - ١٩٤) والترمذى فى سننه (١٩٠٧) وقال : حديث حسن صحيح . وكذا أخرجه أبو داود فى سننه (١٦٩٤) كلهم من حديث عبد الرحمن ابن عوف .

(٣) معاوية بن أبى سفيان هو : صخر بن حرب بن أمية ، مؤسس الدولة الأموية فى الشام وأحد دهاة العرب ولد بمكة قبل الهجرة بعشرين عاماً وأسلم يوم فتح مكة توفى عام ٦٠ هجرية عن ٨٠ عاماً ، بلغت فتوحه المحيط الأطلنطى وهو أول مسلم ركب البحر لغزو الروم ، [الأعلام للزركلى المجلد ٧] .

أخوك من آدم ، فضحك معاوية ، وقال : رحمٌ مقطوعة ، والله لأكُونَنَّ أول مَنْ وصلها ، ثم قرَّبه وأعطاه ما يريد[١] .

ومن التلاقى الذى سيكون فى الآخرة أنْ يلتقى المظلومُ بظالمه ، والخصمُ بمخصومه ، نعم وعند الله تجتمع الخصومُ ، وعلى العاقل أن يحسب لهذا اللقاء ألف حساب ، ومَنْ تدبَّر العواقب نجا .

ومن التلاقى فى الآخرة أنْ يلتقى الإنسان بصحيفة أعماله التى أحصتْ عليه كل صغيرة وكبيرة ﴿أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ (٦)﴾ [المجادلة]

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا (٣٠)﴾ [آل عمران]

يوم يقول لك ربك : ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (١٤)﴾ [الإسراء]

ثم يرتفع التلاقى إلى قمته ، فيلتقى المؤمنون بربهم عز وجل حين يتجلَّى عليهم سبحانه فيرونَه ، وتكون هذه أعظم النعم تفضلاً من الله وكرماً واقرأ : ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ[٢] (٢٤) تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ[٣] (٢٥)﴾ [القيامة]

وإذا كانت رؤية الحق سبحانه هى أعظم النعم للمؤمنين فهى أشدّ

---

(١) ذكر نور الدين اليوسى (١١٠٢ هـ) فى كتابه (المحاضرات فى الأدب واللغة) إن إنساناً دخل على معاوية فقال له : أسألك بالرحم التى بينى وبينك إلا ما رفدتنى (أى أعطيتنى) فقال : أنت من عبد مناف ؟ قال : لا ، قال : أنت من قريش ؟ قال : لا قال : أنت من العرب ؟ قال : لا ، قال : أى رحم بينى وبينك ؟ قال : رحم آدم . فقال معاوية : رحم مجفوة لأكونن أول من وصلها ، فأعطاه . وذكره الأبشيهى فى كتابه (المستطرف فى كل فن مستظرف) وعزاه لأبى على القالي فى كتابه الأمالى .

(٢) وجوه يومئذ باسرة . أى : كالحة عابسة كناية عن الهم والغم والخوف الشديد [القاموس القويم ١/٦٦] .

(٣) فاقرة : داهية تكسر الظهر . قاله الليث فيما نقله ابن منظور عنه فى [لسان العرب – مادة : فقر] ، وقال أبو إسحاق : المعنى : توقن أن يفعل بها داهية من العذاب .

ألوان العذاب للكافرين لأنهم سيُحرمون منها ﴿كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ (١٥)﴾ [المطففين] يومها ستشتد حسرتهم وأسفهم : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ[1] يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩)﴾ [النور]

وجد اللهَ الذى كفر به فى الدنيا ، ووجد العاقبة التى طالما حذَّرناه منها وذكّرناه بها .

وقوله تعالى : ﴿يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ (١٦)﴾ [غافر] أى : فى هذا اليوم يوم التلاقى يأتون بارزين علانية بعد أنْ كانوا مُستترين بسيئاتهم في الدنيا ، اليوم يُفتضح أمرهم ويُكشف سترهم ﴿لا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ (١٦)﴾ [غافر] الجميع فى ساحة واحدة : الملوك والسُّوقة ، السادة والعبيد ، الرؤساء والمرؤوسون ، الجميع فى مقام العبودية .

لذلك سينادى الحق سبحانه :﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ (١٦)﴾ [غافر] يقولها الحق سبحانه لأنه تعالى كان يُملِّك بعضنا فى الدنيا ، أما فى الآخرة فلا مُلْك إلا لله وحده ، لذلك يجيب على هذا السؤال المؤمن والكافر ، الجميع يقولون ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦)﴾ [غافر] نعم لأنه لا إله غيره ولا ملك سواه .

ومعنى﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ (١٦)﴾ [غافر] أن المُلْك لله اليوم وقبل اليوم ، فهذه الحقيقة التى أنكرها الكفار فى الدنيا اعترف بها المؤمنون الذين رضوا بالله رباً ، يُؤتى الملك مَنْ يشاء ، وينزع الملْك

---

(١) القيعة والقاع : أرض سهلة مطمئنة واسعة مستوية لا حزونة فيها ولا ارتفاع ولا انهباط ، وقيل : هو ما استوى من الأرض وصلب ولم يكن فيه نبات . [الزبيدى فى تاج العروس من جواهر القاموس . مادة : قوع] .

ممَّنْ يشاء ، ويُعز مَنْ يشاء ويُذلُّ مَنْ يشاء .

فكلمة ﴿الْيَوْمَ﴾ مُوجَّهة هنا إلى الكافرين الذين أنكروا هذه الحقيقة فى دنياهم ، لكنهم اعترفوا بها فى الآخرة فأقرّوا ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦)﴾ [غافر]

﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾﴾

﴿الْيَوْمَ﴾ يعنى : يوم القيامة ﴿تُجْزَىٰ﴾ تُحاسب ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ (١٧)﴾ [غافر] قلنا : إن كسب تأتى للخير واكتسب للشر ، وعلماء اللغة يقولون : إن كل زيادة فى بنية الكلمة لابدَّ أن يقابلها زيادة فى المعنى ، لذلك كسب غير اكتسب . كسب على وزن فعل أىْ يأتى الفعل منك طبيعياً لا تكلّف فيه ، إنما اكتسب يعنى افتعل ففيه افتعال ومحاولة .

فالخير لا يحتاج منك إلى تعب ، على خلاف الشر فيحتاج إلى تعب ومشقة وتلصُّص ، يقول تعالى : ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ (٢٨٦)﴾ [البقرة] وقد أوضحنا هذه المسألة بالرجل الذى يجلس بين أهله وفيهم جميلات زوجته وبناته وخالاته وعماته .. الخ فينظر إلى هذا الجمال دون تكلُّف ولا تحرّج ، أمّا فى غير المحارم فإنه يختلس النظرة وينفعل لها ويحاول ألاَّ يراه أحد .

كذلك نلحظ هذه المسألة فى المرأة تحمل من حلال والأخرى من الحرام ، وكيف أن الأولى تُدِلّ بحملها وتتباهى به ، أما الأخرى

فتحاول جاهدة أنْ تُخفيه وأنْ تتخلص منه ، ففرحة الأولى وحسرة الأخرى هو الفرق بين الحلال والحرام .

كذلك الإنسان إذا أخذ شيئاً من بيته يأخذه علانية بلا تكلّف وبلا تخطيط ، إنما إنْ أراد أنْ يسرق من بيوت الآخرين فإنه يحتال لذلك ويخطط له ، إذن : نقول الحلال لا يُتعب صاحبه إنما الحرام هو الذى يتعب الدنيا كلها .

أما فى قوله تعالى : ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً .. (٨١)﴾ [البقرة] فقد استعملت كسب هنا فى الشر ، فلماذا ؟ قالوا : هذا حين تصير السيئةُ عند صاحبها إلْفاً وعادة يفعلها بلا تكلُّف وبلا مشقة على نفسه وكأنها حسنة ، فلما تعوَّد عليها صارتْ فى حقه كسْباً لا اكتساباً ، وهذا الذى نسميه (الفاقد) أى : الذى تجرّأ على الحرام وألِفَ المعصية حتى صارتْ له عادة .

ومثل ذلك فى النظر فى قوله تعالى :﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ [1] الْأَعْيُنِ (١٩)﴾ [غافر] إذن : هناك خائنة أعين ، وهناك أمينة أعين ، أمينة أعين حين تنظر إلى الحلال ، وخائنة أعين حين تنظر إلى المحرم .

حتى فى الناحية الاقتصادية التى تحكم الشعوب وبها يُقاس تقدُّم الأمم ورُقيها نقول : الحلال لا يكلِّف إنما الذى يكلف الحرام - هذا من الناحية الاقتصادية - لأن الأصل فى الحلال ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا (٣١)﴾ [الأعراف] وفى الحديث الشريف : « نحن قوم لا نأكل

---

(١) يعلم خائنة الأعين : قال المؤرج : فيه تقديم وتأخير أى يعلم الأعين الخائنة ، وقال ابن عباس : هو الرجل يكون جالساً مع القوم فتمر المرأة فيسارقهم النظر إليها ، وعنه : هو الرجل ينظر إلى المرأة فإذا نظر إليه أصحابه غضَّ بصره ، فإذا رأى منهم غفلة تدسس بالنظر ، فإذا نظر إليه أصحابه غضَّ بصره ، وقد علم الله منه أنه يود لو نظر إلى عورتها. [تفسير القرطبى ٨/٥٩٥١] .

حتى نجوع ، وإذا أكلنا لا نشبع »[١] .

ولو عشْنا على هذه الأصول لكفَانا القليل ، ولك أنْ تجرب نفسك فلا تأكل إلا على جوع ، وساعتها ستجد اللقمة لذيذة ولو كانت بملح، فكأن استقامتك على دين الله تُريحك وتسترك ولا تتعبك فى حركة الحياة ، ولا تحتاج منك لمزيد من العمل ولمزيد من المال .

كذلك إذا أكلنا لا نشبع ، وأنتم تروْنَ الذى يأكل حتى التخمة وحتى يحتاج إلى مهضم ، فشقَّ على نفسه وكلفها فى الطعام وفى تصريف الطعام .

ثم يقول سبحانه : ﴿لا ظُلْمَ الْيَوْمَ ﴿١٧﴾﴾ [غافر] نعم لأن الحاكم فى هذا اليوم هو الله العدل المطلق ، وكأن الحق سبحانه يقول : الظلم عندكم أنتم أيها البشر ، فقد أمهلناكم فى الدنيا تربعون فيها بالظلم . يظلم القوى الضعيف ، ويظلم الغنى الفقير ، ويظلم الحاكم المحكومين إنما اليوم ﴿لا ظُلْمَ الْيَوْمَ ﴿١٧﴾﴾ [غافر] لقد وصل بكم الظلم فى الدنيا إلى غايته حين أشركتم بالله .

لذلك قال سبحانه : ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان] نعم ظلم بيِّنٌ واضح ؛ لأن الظلم معناه أنْ تأخذ حقَّ الغير لك ، أو تأخذ الحق من صاحبه وتعطيه لغير صاحبه ، وهذا هو ما حدث منكم حين أشركتم بالله فأخذتم منه سبحانه الألوهية ، وجعلتموها للأصنام .

الظلم يأتى من عدة وجوه . فمن الظلم أنْ تعمل خيراً ولا تجزى

---

(١) عن المقدام بن معد يكرب قال النبى ﷺ : « ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطن ، بحسب ابن آدم أكلات يُقِمْنَ صلبه ، فإن كان لا محالة فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنفسه » أخرجه أحمد فى مسنده (١٣٢/٤) ، والترمذى فى سننه (٢٣٨٠) وابن ماجه فى سننه (٣٣٤٩) .

به خيراً ، ومن الظلم أنْ تعمل الحسنة تستحق عليها عشرة فيعطيك خمسة ، ومن الظلم أن تعمل السيئة ولا تُحاسب عليها ، ومن الظلم ألاَّ تعمل سيئة وتُحاسب عليها .

إذن : كل اختلال فى موازين الملكية والنفعية من العمل تُعَد ظلماً ؛ لذلك قال تعالى فى الحديث القدسى : « يا عبادى ، إنى حرمتُ الظلم على نفسى فلا تظالموا »[(١)] .

كان هذا فى الدنيا ، أما فى القيامة فأنتم أمام الحاكم العادل وفى رحاب العدل المطلق الذى لا يُحابى أحداً على حساب أحد ، وليس له ولد ولا صاحبة فيميل عن الحق لأجلهما .

لذلك قلنا : إن الجن كانوا أصدق استقبالاً منا حين قال : ﴿ وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ[(٢)] رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ ﴾ [الجن] لأن معظم الفساد يأتى من هذين : الصاحبة والولد .

وقوله سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٧﴾ ﴾ [غافر] إشارة إلى طلاقة قدرته تعالى فى الفصل بين الناس وفى مجازاتهم على أعمالهم ، وكأنه يقول لنا : إياكم أنْ تظنوا أن موقف الحساب يشقّ علينا ، أو أنه سيأخذ وقتاً طويلاً ، لا فعندنا حسابات أخرى ليس عندنا جلسة تطول ولا جلسة تتأجل .

﴿ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٧﴾ ﴾ [غافر] لأن الله تعالى فعلَ فِعْله بكُنْ

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٥٧٧) وأحمد فى مسنده (٥/١٦٠) ، والبيهقى فى سننه الكبرى (٦/٩٣) والبخارى فى الأدب المفرد (ص١٧٢ ، ٤٩٠) من حديث أبى ذر رضى الله عنه ، ولفظه : « يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا ».

(٢) قوله : ﴿ وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا ﴿٣﴾ ﴾ [الجن] أى : أنه تعالت عظمة ربنا وتعالى مجد ربنا . [القاموس القويم ١/١١٨] .

لا يفعل بعلاج كما تفعلون ، والدليل على ذلك أن فى دنيا الناس آلاف وملايين القضاة يحكمون بين الناس بالحق فى آلاف وملايين البلاد فى وقت واحد فى بلاد مختلفة ومحاكم مختلفة ، والحق الذى يحكمون به ليس حقاً يتنقّل بين القضاة من قاض لآخر ، إنما هو موهبة ذابتْ فى نفوسهم جميعاً وصبغة صبغتْ أحكامهم جميعاً .

فإذا كان المخلوق لله وهو الحق يمكنه أنْ يستولى على نفوس القضاة فى مختلف الأرض فى وقت واحد ، فالذى خلق هذا الحق أَوْلَى بأنْ يحكم بين الخلائق فى وقت واحد .

لذلك لما سُئل الإمام على رضى الله عنه هذه المسألة : كيف يُحَاسب الناس فى وقت واحد على كثرتهم ؟ قال : كما يرزقهم جميعاً فى وقت واحد[1] .

﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ ﴾

قلنا : الإنذار هو الإخبار والتحذير من الشر قبل وقوعه و (الآزفة) من أزف الشىء يعنى : دنا وقرب ، والمراد بيوم الآزفة الموت لأنه يأتى بغتةً ، لا يعلم أحد موعده ، أو هو يوم القيامة[2] ، وهو أيضاً قريب لأن الله تعالى يقول فيه : ﴿ أَتَىٰ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ .. ﴿١﴾ ﴾ [النحل] فجاء بالفعل الماضى (أتى) للدلالة على تحقّق وقرب وقوعه ، لأن كل آتٍ قريب .

---

(١) ذكر ابن عبد البر القرطبى فى كتابه « بهجة المجالس » : « قيل لعلى بن أبى طالب : كيف يحاسب الله العباد على كثرتهم ؟ قال : كما قسَّم بينهم أرزاقهم » .

(٢) تفسير الآزفة بأنه يوم القيامة ذكره ابن كثير فى تفسيره (٤/٧٥) والقرطبى فى تفسيره (٨/٥٩٥٠) .

فى هذا اليوم يوم الآزفة ﴿إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ.. (١٨)﴾ [غافر] تخيل أن القلب انخلع من مكانه فى الصدر ، وخرج من حَيِّزه حتى وصل الحناجر حتى كتم الأنفاس من شدة الهول والبؤس والشقاء والضيق ، كما قال سبحانه فى موضع آخر : ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ[1] وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (١٠)﴾ [الأحزاب]

ومعنى ﴿كَاظِمِينَ.. (١٨)﴾ [غافر] الكظم أنْ تحاول كتم الشىء فى داخلك بحيث لا يخرج ، ومنه كَظْم القِرْبة إذا انخرقت حتى لا يتسرب منها الماء بأنْ تربط مكان الخُرْق وتُحكم رباطه ، ومنه كَظْم الغيظ حتى تتحكم فى غيظك وتكتمه فى نفسك ولا تُنْفذه ، كما قال تعالى :

﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ .. (١٣٤)﴾ [آل عمران] فهذا ترقٍّ فى مراتب العمل الصالح ، أولها كظم الغيظ ، وأحسن منه التخلص من الغيظ بالعفو ، وأحسن منه ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤)﴾ [آل عمران]

وقوله : ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطَاعُ (١٨)﴾ [غافر] هذا ساعة يجمع الله الظالمين معاً فى جهنم والعياذ بالله ، هؤلاء اجتمعوا فى الدنيا على معصية الله ، وساروا فيها على هواهم ، والآن فى الآخرة يفرّ بعضهم من بعض ويهرب المتبوع من تابعه ، كما قال سبحانه : ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٣٧)﴾ [عبس]

كذلك لا يجدون شفيعاً يشفع لهم ولا يدافع عنهم ، وقد أوضح

---

(١) زاغ البصر : اضطرب ولم يحقق ما يرى ، أو انحرف عن القصد فلم ير شيئاً . وقد وصف الله فزع بعض الناس فى المدينة حين أحاطت بهم الأعداء فى غزوة الأحزاب : ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ (١٠)﴾ [الأحزاب]

الحق سبحانه أن هؤلاء الشفعاء ورؤساء القوم وأئمة الكفر سيسبقون أتباعهم إلى جهنم ، فإذا دخلوا وجدوهم قد سبقوهم إليها ، فيكون ذلك أقطع لأملهم في النجاة وأشدّ لحسرتهم ، لذلك قال تعالى عن فرعون : ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ (٩٨)﴾ [هود]

ومعنى (الحميم) أى : الصديق الحميم ، وهو الذى يخلص لك ويحميك حين يُراد بك الضر ويقف بجانبك وقت الشدة ، الظالم فى الآخرة لا يجد هذا الصديق ولا يجد مَنْ يشفع له ، فأصدقاؤهم فرُّوا منهم لأنهم اجتمعوا فى الدنيا على المعصية .

والله يقول : ﴿الأَخِلاَّءُ[1] يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ (٦٧)﴾ [الزخرف] أى : يوم القيامة حيث يتبرأ كل منهم من صاحبه ويلقى عليه باللائمة ويكرهه ﴿وَلا شَفِيعٍ يُطَاعُ (١٨)﴾ [غافر] حتى إنْ قام للظالم شفيع يشفع له لا يطاع ، لأن الشفاعة فى الآخرة لها شروط : أنْ يأذن اللهُ للشافع أنْ يشفع ، وأنْ يرضى الله عن المشفوع له ، والله لا يأذن فى الشفاعة لظالم ولا يرضى عنه .

لذلك لا تُقبل مثل هذه الشفاعة ، ولا يُطاع صاحبها لأنه يطلب من الله الذى يملك العذاب أنْ يطيعه وأنْ يعفو عن المشفوع له ، فكيف ينقلب الحق سبحانه مطيعاً لعبده ؟

﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ (١٩)﴾

---

(١) الأخلاء : جمع خليل ، وهو الصديق المخلص . [القاموس القويم ١/٢٠٨] والخلة : الصداقة . قال الزجاج : الخليل المحب الذى ليس فى محبته خلل . [لسان العرب – مادة : خلل] من هنا جاء إعجاز الآية المتحدثة عن شدة يوم القيامة التى تجعل الصديق المخلص المحب الذى ليست فى محبته خلل لصاحبه إلا أنه يوم القيامة لن يتخلى وينشغل عن خليله فحسب ، بل سيكون له عدواً .

يعني : اعلموا أن علْمَ الله شامل ولا يخفى عليه شيء مهما دَقَّ ، فإنْ عمَّيتم على خلق الله في الدنيا واختلستُم النظرات فيما لا يحل لكم فاعلموا أنكم لا تخفَوْنَ على الله ، ولو أيقن المؤمن بشمول علم الله وبنظره إليه ما كانت له خائنة أعين .

لذلك رأينا القاضي وهو يحكم بين الناس ويتحرَّى العدل في حكمه وجد بحاسة الحق عنده أنَّ الشهود يشهدون زوراً ، لكن ماذا يفعل وهم متفقون في أقوالهم جميعاً مهما حاورهم وقلّب لهم المواقف ليكشف زيفهم وباطلهم وجدهم على لسان واحد ؟ ذلك لأن المحامي مثلاً حفّظهم الجواب ، فماذا يفعل ؟ غضب وانفعل للحق الذي يحكم به وقال كلمة هزَّتْ الشهود جميعاً ، وجعلتهم ينطقون بالحق قال لهم : والله لو عميتم على قضاء الأرض فلن تُعمُّوا على قضاء السماء . كلمة أنطقه الله بها ، فأعادتْ إليهم رشدهم وهزَّتهم من الأعماق ، فرجعوا إلى الحق .

وقوله : ﴿وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴿١٩﴾﴾ [غافر] يعني : علم سبحانه مكنونات الصدور وخباياها ، وهذه لا يعلمها إلا الله .

﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾﴾

معنى : ﴿يَقْضِي .. ﴿٢٠﴾﴾ [غافر] أي : يحكم بالحق ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ﴿٢٠﴾﴾ [غافر] أي : الأصنام وغيرها مما عبدوه من دون الله ﴿لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ .. ﴿٢٠﴾﴾ [غافر] لا يحكمون بشيء ، فليس لهم مركز في القضاء أبداً ولا حتى في الظلم ، ليس لهم أهلية لأنْ يقضوا ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾﴾ [غافر]. السميع لكل قول

خارج عن منهجه ، العليم بكل فعل يخرج عن منهجه المشاهد لكل شيء .

فالحق سبحانه وتعالى يكون هو الشاهد وهو القاضى والحاكم وهو المنفذ ، فإذا كانت السلطات عندكم متعددة فى الدنيا ، فالسلطة فى الآخرة لله وحده لا شريكَ له .

بعد ذلك يقول سبحانه : ما بال هؤلاء الكفار الذين يعاندون الدعوة ويصادمون الرسول الذى أرسله الله لهم رحمة ، ألم ينظروا فى تاريخ سابقيهم من الأمم التى كذَّبت وما جرى لهم من العقوبة ، وما حلَّ بهم من هلاك يرونَ هم آثاره .

لقد سجَّل الحق سبحانه على نفسه ، فقال : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) ﴾ [الصافات]

نعلم أن الإنسان يحفظ السند الذى له ولا يحفظ الذى عليه ، أما الحق سبحانه فحفظ وسجَّل هذا الوعد عليه سبحانه ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩) ﴾ [الحجر] فالحق سبحانه ضمن لرسله النصرة والتأييد ، وما كان سبحانه وتعالى ليقول كلمة ويأتى واقع الحياة ليكذِّبها . إذن : فنُصرة الرسل سُنة من سُنَن الله فى كونه ، يقول سبحانه :

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ (٢١) ﴾

يعنى : ألم يقفوا موقف المشاهد لآثار الأمم المكذِّبة وهم يمرون بهم فى رحلة الشتاء والصيف ، كما قال سبحانه : ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٣٨)﴾ [الصافات] ألم تروا مدائن صالح(١) وقرى عاد وثمود وغيرهم ممَّنْ كذَّب الرسل ؟

إن آثارهم تدل على أَخْذ الله لهم ، وعلى العقاب الذى نزل بهم فخذوا منهم عبرةً ، واعلموا أن مصيركم كمصيرهم ، ولن تُعجزوا الله فى ذلك ، لأن هذه الأمم التى أخذها الله كانت أشدَّ منكم قوة وآثاراً فى الأرض ، أأنتم أشد من إرم ذات العماد ، وفرعون ذى الأوتاد .. أين هم الآن ؟ هل استطاعوا رغم حضارتهم حماية هذه الحضارة ؟ إن قوتهم وحضاراتهم لم تُغْنِ عنهم من الله شيئاً ، ونزل بهم عذاب الله فى الدنيا قبل عذاب الآخرة ولم يمهلهم .

لذلك قال سبحانه لرسوله : ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٧٧)﴾ [غافر] يعنى : إذا لم تَرَ ما نعدهم من العذاب فى الدنيا ومتَّ قبلهم فسوف ترى عذابهم فى الآخرة . كما قال سبحانه فى موضع آخر : ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢١)﴾ [السجدة]

والحق سبحانه يريد من سَيْرنا فى الأرض أمرين : سياحة فى الأرض للاعتبار وأَخْذ العظة ، وسياحة للانتفاع والاستثمار ، إذن : فالسياحة فى الأرض والسير فيها مطلوب إيمانى ، لذلك قال تعالى

---

(١) مدائن صالح : هو اسم أطلق على الحجر التى هى ديار ثمود ، وهو ما جاء فى القرآن الكريم : ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ (٨٠)﴾ [الحجر] وهى تقع شمال المدينة المنورة على مساحة ٢٥ كيلومتراً تتكون من تكتلات جبلية متباينة الحجم مع قصور منحوتة بدقة هندسية يصل عددها إلى ٨٠ . والبعض يرجع هذه المنطقة للأنباط والداديين وليس إلى الثموديين .

فى سياحة الاعتبار : ﴿أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ (٢١)﴾ [غافر] وقال فى سياحة الاستثمار : ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ .. (٢٠)﴾ [العنكبوت]

وقال : ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا .. (٩٧)﴾ [النساء]

إذن : لا مانع أن تجمع فى سَيْرك فى أرض الله بين سياحة الاعتبار وسياحة الاستثمار والانتفاع ، فلا تحرم نفسك من نظرة الاعتبار فى خَلْق الله الجديد عليك ، ولا تُلهكَ التجارة والاستثمار عن الاعتبار .

وهنا ملحظ فى قوله تعالى : ﴿فِي الأَرْضِ ..(٢١)﴾ [غافر] هذا الملحظ أخذناه من العلم الحديث أخيراً ، فقد كان العلماء يفسرون ﴿فِي الأَرْضِ .. (٢١)﴾ [غافر] على الأرض أى : الأرض والتربة التى نمشى عليها ، إلى أن عرفنا مؤخراً أن الأرض تشمل غلافها الجوى ، فهذا الهواء الذى فوق الأرض هو العنصر الأساسى والضرورى لاستمرار الحياة عليها ، وبدونه لا تكون على الأرض حياة ، لأن الإنسان لا يستغنى عنه بمقدار شهيق أو زفير ، وعليه فنحن نسير فى الأرض كما جاء نصّ القرآن الذى سبق العلم الحديث إلى هذه الحقيقة .

وحين تسير فى أرض الله للاعتبار بمخلوقات الله ترى ألواناً شتى لم تَرَها من قبل من الناس والأماكن والمزروعات والنعم التى لا تُحصى ، وتعلم أن الخالق سبحانه يعطى لكل مكان ما يناسبه ، ولكل بيئة ما يصلح لها من الغذاء ، لذلك تجد بعض المزروعات تجود فى أماكن دون أخرى ، فبيئة يكثر فيها الموز مثلاً ، وأخرى يكثر فيها البطاطس ، وأخرى القمح .

لذلك قال البعض : إن كثرة الأمراض وتعدّيها من بيئة لأخرى منشؤه أن الناس يعيشون على غير أقوات بيئتهم ، فسكان البيئات الحارة يستوردون أقوات البيئات الباردة والعكس ، ومن هذا الخلط نشأتْ الأمراض .

وقوله : ﴿ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ .. (٢١) ﴾ [غافر] أى : عاقبة تكذيبهم الرسل ووقوفهم أمام الدعوة ليُطفئوا نور الله بأفواههم ، فأخذهم الله ولم تمنعهم منه قوتهم ولا آثارهم فى الأرض ﴿ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ (٢١) ﴾ [غافر] يعنى : لم يقهم من الله وَاقٍ ، ولم يدافع عنهم مدافع ، ولم تُغْنِ عنهم حضاراتهم ، لأنهم حينَ أقاموا هذه الحضارات لم يجعلوا لها قانوناً يصونها .

ثم يُعلِّل الحق سبحانه لأخْذهم أخْذ عزيز مقتدر :

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ ۚ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢٢) ﴾

﴿ بِالْبَيِّنَاتِ .. (٢٢) ﴾ [غافر] بالآيات الواضحات وبالمعجزات الباهرات الدالة على صدق الرسول ، والآيات التى عجزوا هم عن مثلها رغم أنها كانت مما نبغوا فيه ، وقد كانت هذه الآياتُ كافيةً لأنْ يؤمنوا بالله وبرسول الله إليهم الذى جاء لهدايتهم ، لكنهم كفروا ﴿ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ .. (٢٢) ﴾ [غافر] وكلمة (أخذهم) تدل على التناول بقوة ﴿ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢٢) ﴾ [غافر]

ولا شكَّ أن الأَخْذ يتناسب وقوة الآخذ . فأخْذة الطفل غير أَخْذة الشاب غير أَخْذة الفتوة ، فما بالك إنْ كان الآخذ هو الله القوى شديد العقاب ، إذا كان الله سبحانه هو الآخذ فلا قوة لمأخوذ على المكابرة أو الامتناع .

لذلك قال فى موضع آخر : ﴿أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ (٤٢)﴾ [القمر] هذه هى القوة العليا ، فالعزيز هو الذى يَغلب ولا يُغلب ، والمقتدر هو القادر على كل شىء ، والذى لا يعجزه شىء .

ثم يقصُّ الحق سبحانه بعض قصص الرسل ممَّنْ كُذِّبوا وأُوذُوا ، وهنا يقص علينا طرفاً من قصة سيدنا موسى عليه السلام :

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٢٣) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٢٤) فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (٢٥)﴾

الحق سبحانه يذكر هنا قصة سيدنا موسى عليه السلام لأنها امتازت على قصص الرسل السابقين له ، من حيث إنهم جاءوا ليشفوا الناس من بعض الأمراض العقدية ، ويخرجوهم من جاهلية افعل ولا تفعل ، ويعيدوهم إلى الجادة ، أمَّا سيدنا موسى فقد جاء ليجابه رجلاً ادعى الألوهية وتكبَّر وتجبَّر فكانت مهمته أصعب ، لذلك كان أكثر الرسل قصصاً فى القرآن الكريم .

قوله تعالى : ﴿بِآيَاتِنَا .. (٢٣)﴾ [غافر] المراد الآيات الواضحات التسع التى أُوتيها موسى عليه السلام ، تأييداً له وبرهاناً على صدْق رسالته وأولها العصا ، وللعصا فى قصة سيدنا موسى تاريخ

ومواقف ، فبها ضرب البحر فصار كل فرْق كالطود[١] العظيم بها انفلق البحر وتجمد الماء ، وبنفس العصا ضرب الحجر فانفجرتْ منه اثنتا عشرة عيناً ، إذن : المسألة ليست فى الماء والجبل ، إنما معجزة خالق الماء وخالق الجبل الذى يقول للشىء : كُنْ فيكون .

لذلك وقف المستشرقون عند قصة سيدنا موسى ، ورأوا أنها أخذتْ النصيب الأوفر بين موكب الرسالات وفصَّلها القرآن تفصيلاً ظنوه تكراراً معاداً ، خاصة فى مسألة العصا ، حيث ذُكرت فى ثلاثة مواقف ، هى فى الحقيقة ليست تكراراً إنما هى لقطات مختلفة لحدث متجمع ، فأول ما أعطى الله موسى العصا معجزةً سأله عنها : ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ[٢] بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ[٣] أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ ﴾ [طه]

وقلنا : إن موسى لم يرد على قدر السؤال لأن الذى يسأله ربه فأراد أنْ يطيل أَمَد الحديث مع ربه عز وجل ، فلم يَقُلْ عصا أو عصاى . فلما أحسَّ أنه أطال أجمل وقال : ﴿ وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ ﴾ [طه]

الموقف الثانى الذى ذُكرت فيه العصا لما أراد الحق سبحانه أن يدرب موسى على استخدامها ، وأنْ يجربها هو بنفسه ليكون على استعداد ودُرْبة حينما يواجه مُدَّعى الألوهية فرعون فقال له : ﴿ قَالَ أَلْقِهَا يَـٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ

---

(١) الطود : الجبل الثابت العالى . [القاموس القويم ١/٤٠٨] والانطياد : الذهاب فى الهواء صعداً . ومنه المنطاد الذى يرتفع فى السماء ، والجبل أيضاً يرتفع فى السماء .

(٢) أهش بها على غنمى : قال الفراء : أى أضرب بها الشجر اليابس ليسقط ورقها فترعاه غنمه . أما الليث فقال : هو جذب الغصن من الشجر إليك . والقول ما قاله الفراء لا ما قاله الليث . [لسان العرب – مادة : هشش] .

(٣) مآرب أخرى : أى أغراض وحاجات كثيرة أخرى كاتقاء ضر أو غير ذلك . [القاموس القويم ١/١٧] .

سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الأُولَىٰ (٢١) ﴾ [طه]

هذا هو المطلوب من إجراء هذه التجربة أمام موسى ، أن يخاف منها ، وأنْ يراها على حقيقتها وهى حية ، ولو أنها ظلتْ على حالتها عصا ما خاف منها موسى ، ولما قال له ربه ﴿ وَلَا تَخَفْ .. (٢١) ﴾[طه]

ثم كان الموقف الأخير للعصا حين التقى موسى بسحرة فرعون وفى حضرته حين جابه سِحْرهم بعصاه التى ألقاها فراحتْ تلقف ما صنعوا ، وعن هذا الموقف قال تعالى : ﴿ قَالُوا يَـٰمُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ (٦٥) قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ (٦٦) فَأَوْجَسَ[1] فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ (٦٧) قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ (٦٨) ﴾ [طه]

إذن : ليس فى ذكر عصا موسى تكرار ، إنما هى مواقف مختلفة وحالات عدَّة للشىء الواحد .

وقوله ﴿ وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٢٣) ﴾ [غافر] السلطان هو الحجة الواضحة ، والسلطان هو القوة ، إما قوة البرهان والحجة ، وإما قوة القهر والغلبة ، كما ورد فى حوار الشيطان يوم القيامة : ﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي .. (٢٢) ﴾ [إبراهيم]

يعنى : لم يكن لى سلطان حجة تقنعكم ، ولا سلطان قهر وقوة ترهبكم وتجبركم على المعصية ، بل كنتم على (تشويرة) مجرد أن

---

(١) أوجس : أضمر الخوف فى نفسه حين رأى أعمال السحرة . وقال فى قصة إبراهيم عليه السلام مع الملائكة ﴿ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً .. (٢٨) ﴾ [الذاريات] أى : أحسَّ الفزع والخوف . [القاموس القويم ١/٣٢١] .

دعوتكم استجبتم ﴿فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ .. (٢٢)﴾ [إبراهيم] نقول : صرخ فلان فأصرخته يعنى : أزلتُ أسباب صراخه .

وقوله : ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ .. (٢٤)﴾ [غافر] نعم كان فرعون هو رأس الفتنة ومُدَّعى الألوهية ، لكن ذكر معه هامان لأنه كان وزيره ومساعده ، وقارون لأنه كان صاحبَ خزانته ، فكان الثلاثة شركاء ، لذلك اشتركوا أيضاً فى اتهام موسى ﴿فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٢٤)﴾ [غافر]

﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا .. (٢٥)﴾ [غافر] أى : بالآيات ﴿قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ .. (٢٥)﴾ [غافر] مسألة قَتْل الأبناء جاءت من فرعون مرتين : الأولى : أيام كان موسى طفلاً ، وعلم فرعون من المنجِّمين أن زوال ملْكه سيكون على يد أحد أبناء بنى إسرائيل ، فأخذ يقتل الأبناء الصغار مخافةَ هذا الولد الذى سيُولد ويزول مُلْكه على يديه .

والعجيب أن نرى هنا غباء فرعون وتغفيله فى قتل أبناء بنى إسرائيل وحرصه على ألاَّ يفلت منهم أحدٌ ، حتى أن رجاله كانوا يدخلون البيوت يبحثون فيها عن الأطفال الصغار .

وقد أظهر هذا الموقف غباءه من ناحيتين ، أولاً : أنه يقتل الأبناء الصغار مع أن النبوءة تقول : إن زوال مُلْكه سيكون على يد واحد منهم ، ثم يأتيه غلام بهذه الطريقة المريبة : صندوق فى البحر بداخله غلام صغير جاءه إلى باب بيته ، فيطمئن إليه ويأخذه ويُربِّيه على عينه ويغفل عما يُراد به .

وهذا الموقف يوضحه قوله تعالى : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ[1] بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ .. (٢٤) ﴾ [الأنفال] نعم إن القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يُقلِّبها كيف يشاء .

وقوله : ﴿ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ .. (٢٥) ﴾ [غافر] أى : اقتلوا الأبناء الذكور ، لأنهم مصدر الخوف ، ومنهم يكون التمرد ، ومنهم مَنْ يزول مُلْك فرعون على يديه ، أمَّا النساء فاتركوهن أحياء للخدمة وللإذلال .

وهذا يفسر لنا : لماذا كان العرب إذا خرجوا للحرب أخذوا معهم نساءهم ، لكى يكُنَّ معهم فى مصير واحد ، فإن انتصروا عادوا سالمين ، وإنْ قُتلوا قُتِلوا جميعاً حتى لا يبقى النساء بعدهم للأَسْر والسَّبى والإذلال .

﴿ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ (٢٥) ﴾ [غافر] نعم كان هذا كيداً من فرعون وأعوانه ، لكن هل أنفذ كيده ببنى إسرائيل ؟ لا بل ردَّ الله كيده عليه وباء بالضلال والخسران .

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ (٢٦) ﴾

قول فرعون ﴿ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ .. (٢٦) ﴾ [غافر] يعنى : اتركونى أقتله (سيبونى عليه) دَلَّ على وجود تيار من القوم يمنع فرعون من قَتْل موسى ، وإلا لما قال (ذَرُونى) فمَنْ هؤلاء ؟ ربما كانوا من أتباع

---

(١) قال ابن عباس : يحول بين المؤمن والكفر ، وبين الكافر والإيمان . وقال السدى : يحول بين الإنسان وقلبه فلا يستطيع أن يؤمن ولا يكفر إلا بإذنه . [تفسير ابن كثير ٢/٢٩٨] .

فرعون المؤمنين بصدق موسى ، وبما جاء به ، فأحبُّوا أنْ يدافعوا عنه بطريقة لا تثير شكَّ فرعون ، فاحتالوا عليه .

وهذا دليل على أن أصحاب الخير يجوز لهم أنْ يحتالوا على أهل الشر لنصرة الخير وأن الله يعينهم . جاء هؤلاء وقالوا لفرعون : إنْ قتلتَ موسى سيقول الناس أنه على حق ، وأنك لم تقدر على رَدِّ حجته فقتلته لتستريح منه ، وعندها سيقفون ضدك .

ومن هؤلاء المدافعين عن موسى الرجل المؤمن من آل فرعون الذى كان يكتم إيمانه خوفاً من بطش فرعون ، والذى دافع عن موسى دفاعاً قوياً وقدَّم الحجج ، فقال : ﴿وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِى يَعِدُكُمْ .. (٢٨)﴾ [غافر]

وتأمل هنا سُخْرية فرعون واستهزائه ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُ .. (٢٦)﴾ [غافر] أى : ربه الذى يدعو إليه لينادِيه كى ينقذه ولو لم يكُنْ مستهزئاً لقال : وليدْع ربَّنا ﴿إِنِّى أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى الأَرْضِ الْفَسَادَ (٢٦)﴾ [غافر] سبحان الله انظر كيف يحاول أهل الباطل قَلْب الحقائق ، ففرعون يخاف من موسى أنْ يُبدِّل دين قومه ودينهم هو الإيمان بفرعون إلهاً لهم يعبدونه من دون الله .

﴿أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى الأَرْضِ الْفَسَادَ (٢٦)﴾ [غافر] ينشأ الفساد من أين ؟ من وجود فريقين فى المجتمع : فريق يؤمن بفرعون إلهاً ، وفريق يؤمن بموسى وربه الحق ، فالرعية كلها فى شقاق ونزاع ، وأصحاب مراكز القوى المستفيدون من ألوهية فرعون لن يسكتوا ، ولا شكَّ أن هذه فتنة ستُحدِثُ فساداً فى نظره .

﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾﴾

هنا يؤكد موسى على ربوبية الحق سبحانه بعد أنْ هدده فرعون بالقتل ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ .. ﴿٢٦﴾﴾ [غافر] ثم استهزأ بربه ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُ .. ﴿٢٦﴾﴾ [غافر] لذلك جاء ردّ موسى (إِنِّي) وفيها تأكيد واستحضار لعبوديته أمام عزِّ الربوبية التى يستهزىء بها فرعون ، فلما يقُلْ مثلاً : أعوذ بالله من فعلك ، إنما أكد أن الله ربه بل ﴿وَرَبِّكُمْ﴾ أيضاً .

ومعنى ﴿عُذْتُ .. ﴿٢٧﴾﴾ [غافر] أى : لجأتُ إليه وهو القادر على نُصْرتى وحمايتى ، فقوله ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي .. ﴿٢٧﴾﴾ [غافر] يبين لنا منزلة الاستعاذة بالله ، فالإنسان حين يستعيذ بالله من شىء لا يَقْوَى عليه فقد أفاض وأنصف ، لأنه سلط على مَنْ آذاه وليستْ له قدرة على أنْ يردَّه ، سلَّط عليه مَنْ يقدر على أنْ يفعل .

لذلك قال سبحانه : ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾﴾ [النحل]

لماذا ؟ لأنك حين تقرأ القرآن تنفعل به ، وتكون معه فى حضرة الله يكلمك وأنت تسمع ، وحين تنفعل بالقرآن وتتدبر معانيه تحدث عندك إشراقات ومواجيد ترقى بك ، وهذا كله يغيظ الشيطان فيسارع إليك ليصرفك عن القراءة ، كما يحدث لنا كثيراً فى الصلاة مثلاً ، ويشكو الكثيرون منا من الانشغال فى الصلاة بسبب وسوسة الشيطان .

لكن لا عجبَ فى ذلك إذا تأملنا قوله تعالى يحكى لنا موقف الشيطان منا : ﴿لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦)﴾ [الأعراف] نعم ، وأىّ صراط أقوم من الصلاة وقراءة القرآن ، لذلك قلنا : إن الشيطان ليس فى حاجة لأنْ يذهب إلى الخمارة مثلاً ، إنما يذهب إلى المسجد ليفسد عليك صلاتك ويشغلك عن منهج الهداية ، لذلك أمرك الله بالاستعاذة منه ليكون لك حصناً ووقاية .

هنا يقول موسى عليه السلام : إنى أعوذ بالله منك يا فرعون وهو أقوى منك وقادر على حمايتى من كيدك ، فهو (ربى) أى : الذى خلقنى وربَّانى وأنا مسئول منه ، فهو أوجدنى بقدرته ويصوننى بقيوميته ، ألاَ ترى أن كلَّ صانع يحفظ صنعته ، ويجعل لها ضماناً للصيانة ؟

أليس الخالق سبحانه أَوْلى بأنْ يضمن لى حياتى التى خلقها ؟ بلى بشرط أنْ تقولها : (عُذْتُ بِرَبِّى) .

وكان يكفى أنْ يقول (إنِّى عُذْتُ بِرَبِّى) فلماذا قال (وَرَبِّكُمْ) ؟ قالوا : ليؤكد على ربوبية ربه عز وجل ، ويؤكد سعادته بهذه الربوبية ، فهو ربى وربُّ الآخرين وربكم جميعاً ليقولوها معه : إنَّا عُذْنا بربنا من فرعون وعمله ، وكأنه يريد أن يستجمع قُوىَ الخير والإيمان ويُقوِّى جانبه بالجماعة المؤمنة ، ليكون الدعاء أَدْعَى للقبول وأَوْلى .

هذه المسألة تفسر لنا أهمية الجماعة وروح الجماعة فى الإسلام ، إننا مثلاً فى الصلاة نقرأ بفاتحة الكتاب ، نقول : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥)﴾ [الفاتحة] هكذا بالجمع ، فلماذا لم يَقُلْ : إياك أعبد وإياك

أستعين . لأن دعاء الجماعة أقوى ، الجماعة تُدخلك فى زمرة الصالحين ، فإذا لم تكُنْ صالحاً فجاور الصالحين لعله ينالك ما ينالهم من الثواب والقبول . لذلك احذر أنْ تحتقر أهل التقوى وأهل الصلاح ، فلعلَّك تُؤخذ فى محضِ الفضل معهم .

إذن : دعاء الجماعة أَوْلَى بالقبول من دعاء الفرد ، لذلك كانت صلاة الجماعة تفوق صلاة الفرد بسبع وعشرين درجة[1] ، أنت ترى التاجر مثلاً يبيع السلعة فيها المعطوبة وفيها السليمة ، فإذا ناقشته وقلتَ له لا آخذ المعطوبة مثلاً يقول لك : هذه صفقة واحدة المعطوبة فى السليمة ، كذلك نحن فى صلاة الجماعة نداري المعطوبة فى السليمة أملاً فى أنْ تُقبل الصفقة كلها .

فمن أىِّ شىء استعاذ سيدنا موسى ؟ ﴿مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لاَّ يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ (٢٧)﴾ [غافر] هكذا بصيغة الجمع وبالوصف ﴿مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ .. (٢٧)﴾ [غافر] ولم يصرح باسم خصمه فرعون صاحب القضية ومُدَّعى الألوهية ومهدده بالقتل ، فلماذا ؟

قالوا : لم يُذكْر فرعون فى هذا المقام لأمرين :

الأول : حتى لا يجعل فرعون فى مقابل الله لو قال : إنى عُذْتُ بربى من فرعون ، ثم إن فرعون لم يكُنْ وحده ، بل كان معه آخرون على شاكلته ، فأراد أنْ يجمعهم بكلمة تشمل كل متكبر .

---

(١) عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال : « صلاة الجماعة تفضل صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة » أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٤٥) وكذا مسلم فى صحيحه (٦٥٠) .

الأمر الآخر : أن سيدنا موسى هنا يراعى حقَّ التربية ويحفظ لفرعون هذا الجميل فلم يصرح باسمه ، ويكفى أنه داخلٌ ضمن هذا الوصف ﴿مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لاَّ يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ (٢٧)﴾ [غافر]

لذلك نجد القرآن الكريم جعل التربية شقيقة الولادة ، يعنى الابن فى الدم مثل الابن فى التربية ، فقال سبحانه : ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ .. (١٤)﴾ [لقمان] ثم خصَّ الأم بالحيثية ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا[1] عَلَىٰ وَهْنٍ .. (١٤)﴾ [لقمان] لماذا يذكر القرآنُ هذه الحيثية للأم ؟

قالوا : لأن هذه الحيثية لا يدركها الولد وهو طفل ، فى حين يدرك بعد ذلك فضلَ والده فذكَّره الله بفضل أمه لأنه لم يشهده ، ثم يقول سبحانه : ﴿وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (٢٤)﴾ [الإسراء] فعلَّة الدعاء هنا التربية ، سواء أكانت للأم التى ولدت ، أم للأم التى ربَّتْ ، فمن ربَّى غير ولده كان أهلاً لأنْ يدعى له هذا الدعاء ﴿وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (٢٤)﴾ [الإسراء]

وقوله : ﴿مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لاَّ يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ (٢٧)﴾ [غافر] يعنى : اجتمعتْ فيه خَصْلتان من خصال الشر ، فهو متكبر يعنى قاسى القلب ، وقسوة القلب لا تردعه عن القهر والجبروت ، ثم هو لا يؤمن بالحساب فلا يخاف من القصاص ، ولا يعمل حساباً للعواقب ، ومثل هذا لا أملَ فى إصلاحه .

---

(١) الوهن : الضعف . أى : ضعفاً على ضعف ، فالضعف يتزايد كلما ثقل الحمل . [القاموس القويم ٢/٣٦٢] .

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ[(١)] أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَـٰدِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾﴾

لما لجأ موسى عليه السلام إلى ربه عز وجل فقال : ﴿إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى .. ﴿٢٧﴾﴾ [غافر] استجاب الله له وأعاذه ، لا برسول ولا ملك ولا بأحد من أتباعه المؤمنين ، إنما برجل مؤمن من آل فرعون كان يكتم إيمانه خوفاً من بطش فرعون قام مدافعاً عن موسى ، وهذا أوضح فى الحجة وأبلغ .

لكن لماذا ﴿يَكْتُمُ إِيمَانَهُ .. ﴿٢٨﴾﴾ [غافر] ما دام مؤمناً ؟ قالوا : كانوا يغلفون إيمانهم ويسترونه لأنه ليس لديهم القوة التى يَدْفعون بها الطغيان ، فالإيمان فى النفس حتى يجد الفرصة فيظهر ويجاهر ، وها هو يظهر على لسان هذا الرجل المؤمن الذى يعلن أمام فرعون وجبروته أنه مؤمن ، ويدعو بدعوة هى أشبه بدعوة الرسل ، ويخبر بمنهج كأنه رسول .

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٤/٧٧) : « المشهور أن هذا الرجل المؤمن كان قبطياً (أى مصرياً) من أهل فرعون . قال السدى : كان ابن عم فرعون ويقال : إنه الذى نجا مع موسى عليه السلام . واختاره ابن جرير ورد قول من ذهب إلى أنه كان إسرائيلياً لأن فرعون انفعل لكلامه واستمعه وكف عن قتل موسى عليه السلام ، ولو كان إسرائيلياً لأوشك أن يعاجل بالعقوبة لأنه منهم » .

وكلمة ﴿يَكْتُمُ إِيمَانَهُ .. (٢٨)﴾ [غافر] لها فى الإسلام ملحظ وتاريخ ، ومعنى كَتْم الإيمان أن الإيمان يحاول أنْ يبرز فى تصرفات الرجل لكنه يكتم إيمانه ، فهو حريص على أنْ يجعل إيمانه سراً بينه وبين ربه فقط ليستطيع أن يقول كلمة الحق ويجهر بها أمام القوم وهو غير مؤمن حتى لا يُؤذَى .

إذن : فالإيمان عمل وجدانى له نضح على جميع جوارح النفس الإنسانية ، فالمؤمن تجده متواضعاً منكسراً يستجيب للحق ويخضع له ، المؤمن عطوف كريم حليم رحيم ، تلحظ إيمانه من تصرفاته ، ولكنه يحاول أن يكتم هذا حتى يقف الموقف الذى يمكنه من الجهر بالإسلام جهراً قوياً عنيفاً .

لذلك يقولون : إن الإيمان عملية قلبية وهو سرٌّ بين العبد وربه ، ثم له أمر ظاهرى بين المؤمن والناس ، وقد يلتحم الأمران السر والجهر بينه وبين ربه ، وبينه وبين الناس ، فقد يكون مؤمناً بينه وبين الله أما بينه وبين الناس فهو مؤمن أو غير مؤمن ، لأن العملية الإيمانية يُبدى فيها فوق ما يظهر إيمانه ، والرسول ﷺ شرع هذا ، كيف ؟

قالوا : فى غزوة الأحزاب حين اجتمعتْ قريش وغطفان[1] واليهود ، حيث استدرج اليهود كلاً من قريش وغطفان ليحاربوا معهم محمداً ليثأروا منه ﷺ بعد مسألة بنى قينقاع[2] لما أذاهم رسول الله .

---

(١) غطفان : قبيلة ضخمة تنتمى إلى غطفان بن سعد بن قيس عيلان إلى عدنان ، شكلت فى العهد الجاهلى والإسلامى كتلة مهمة ضمن القبائل القيسية التى بسطت سيطرتها على البوادى العربية ، انتقل الكثير من القبائل الغطفانية إلى مصر ويتركزون فى ليبيا ومنهم فى فلسطين فى جبال نابلس وكذلك العراق (ويكيبيديا) .

(٢) كان بنو قينقاع أول يهود ينقضون ما بينهم وبين رسول الله ﷺ فحاربوا رسول الله بين بدر وأُحد ، فحاصرهم رسول الله حتى نزلوا على حكمه ﷺ . (دلائل النبوة ٣/١٧٤) ثم كانت غزوة بنى النضير وكانت قبل أُحد فقد رفضوا معاهدة رسول الله ﷺ فقاتلهم حتى نزلوا أن يجلوا عن ديارهم ولهم ما حملت إبلهم من الأمتعة وأبواب بيوتهم وخشبها . [دلائل النبوة ٣/١٧٩] .

فلما ذهب حيى[١] ومعه سلام بن مشكم[٢] إلى مكة ليستثيروا قريشاً وغطفان على رسول الله ، قال لهم : يجب أن نقف جميعاً يداً واحدة فى مواجهة محمد ، لأننا إنْ تركناه سيستذلنا ويستذلكم ، فلا بُدَّ أنْ تنجدونا بقوتكم ، لكن قريشاً يعلمون أن اليهود أهلُ كتاب ، فقالوا لهم : نريد أنْ نسألكم أولاً : أمحمد على حق أم نحن ؟

وهم يعلمون موقف اليهود من قبل من رسول الله ، وأنهم كانوا يستفتحون به على الذين كفروا ، ويقولون : سيأتى نبىّ أطلَّ زمانه سنتبعه ونقتلكم به قَتْل عاد وإرم[٣] . المهم أنهم قالوا لهم : إنكم على حق ومحمد على باطل . وفعلاً اتحدوا فى محاربة رسول الله ﷺ ، هذه الحرب التى قال الله فيها عن المؤمنين : ﴿ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ .. (٢١٤) ﴾ [البقرة]

---

(١) هو : حُيى بن أخطب النضرى ، جاهلى من الأشداء العتاة ، كان يُنعت بسيد الحاضر والبادى ، أدرك الإسلام وآذى المسلمين فأسروه يوم قريظة ثم قتلوه .. توفى عام ٥ هجرية - ٦٢٦ م . الأعلام للزركلى ٢/٢٩٢ .

(٢) سلام بن مشكم القرظى : شاعر يهودى ، يكنى أبا غنم ، كان سيد بنى النضير فى زمانه وكان صاحب كنزهم ، كان ممن يقول أن عزير ابن الله . وكانت امرأته زينب بنت الحارث اليهودية هى التى حاولت سمّ رسول الله .

(٣) يقول تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٨٩) ﴾ [البقرة] أخرج أبو نعيم الأصبهانى فى دلائل النبوة (١/٥٢) عن ابن عباس أن يهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله قبل مبعثه ، فلما بعثه الله من العرب كفروا به وجحدوا ما كانوا يقولون ، فقال لهم معاذ بن جبل وبشر بن البراء : يا معشر اليهود اتقوا الله وأسلموا ، وقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد وإنّا أهل الشرك ، وتخبرونا بأنه مبعوث وتصفونه بصفته ، فقال سلام بن مشكم : ما هو بالذى كنا نذكر لكم ما جاءنا بشىء نعرفه ، فأنزل الله الآية .

وسُميت هذه الغزوة غزوة الأحزاب أو الخندق ، ويأتى جند من جنود الله ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ .. (٣١) ﴾ [المدثر] ويذهب إلى رسول الله ﷺ ويقول له : يا رسول الله لقد أُشْرِب قلبى الإيمان ولا يعلم أحدٌ بإيمانى وأنا أشهد أنك رسول الله ، واسم هذا الرجل نُعيم بن مسعود الأشجعى[١] فقال له رسول الله : « أنت رجل واحد وما غناؤك لى ، لكن اكتم إيمانك وخذِّل عنا »[٢] .

هذه أول مسألة فى قضية كتم الإيمان ، إذن : فَكتْم الإيمان جائز وله مهمة . فقال الرجل : لكن يا رسول الله سأضطر لأنْ أقول غير الحقيقة - أكذب يعنى - قال : (افعل ما تحب) .

فما كان من نُعيم بن مسعود إلا أن ذهب إلى قريش وغطفان وقال لهم : أنتم تعلمون وُدِّى لكم ومحبتى إياكم وقد جئتكم بنصيحة لأبرىء ذمتى من الوفاء لكم . إن اليهود ندموا على معاداة محمد وهم يريدون أنْ يتراجعوا ولن يتراجعوا إلا بشىء تكون لهم يد يطمئنون إلى معاهدة محمد .

فإذا أردتم أنْ تناجزوا[٣] محمداً مع هؤلاء وتضمنوا عدم خيانتهم

---

(١) هو : نعيم بن مسعود بن عامر الأشجعى ، صحابى من ذوى العقل الراجح ، قدم على رسول الله سراً أيام الخندق واجتماع الأحزاب وكتم إسلامه ، فألقى الفتنة بين قبائل قريظة وغطفان وقريش سكن المدينة ومات فى خلافة عثمان . وقيل : قُتل يوم الجمل قبل قدوم على إلى البصرة . توفى نحو ٣٠ هجرية . الأعلام للزركلى (٨/٤١) .

(٢) أورده الأبشيهى فى كتابه « المستطرف فى كل فن مستظرف » أن رسول الله ﷺ قال له : خذِّل عنا فإن الحرب خدعة . وأخرجه الطبرى فى تهذيب الآثار (٤/١٧٥) وأبو نعيم الأصبهانى فى معرفة الصحابة (حديث ٥٧٩٧) .

(٣) المناجزة فى القتال : المبارزة والمقاتلة ، وهو أن يتبارز الفارسان فيتمارسا حتى يقتل كل واحد منهما صاحبه أو يُقتل أحدهما . وتناجز القوم : تسافكوا دماءهم كأنهم أسرعوا فى ذلك . [لسان العرب - مادة : نجز] .

فسوف يطلبون منكم سبعين رجلاً رهينة من قريش وغطفان مخافةَ أنكم إذا اشتدتْ الحرب وحميَتْ تتركوهم وترجعوا إلى بلادكم ويظلُّون هم فى مواجهة محمد ويكونون هم أعداءه .

ثم ذهب إلى اليهود فقال لهم : أنتم تعلمون مودتى لكم ومحبتى إياكم ، وإن هؤلاء القوم يعنى قريشاً وغطفان ليسوا من بلدكم ولهم مكانتهم فى بلادهم ، ولهم أموالهم وأهلوهم ، فإن استشعروا شيئاً فرُّوا وتركوكم فى مواجهة محمد ، فلتأخذوا منهم سبعين رجلاً رهينة حتى تضمنوهم .

فلما جاء أبو سفيان وقال : لقد طال بنا الموقف وتعب الخُفّ والحافر وطالت المدة ، فيا معشر يهود هيا لننجز مهمتنا ، قالوا : هذا يوم السبت ولا نقاتل فيه ، ونحن لا نقاتل الرجل إلا أن نضمن أنكم معنا إلى نهاية المعركة فأعطونا سبعين رجلاً منكم رَهْناً .

عندها علم أبو سفيان أن كلام نعيم صحيح ، فقال : ليس لنا إلا أن نعود إلى بلادنا ، ثم قال : يا قوم لينظرْ كل واحد منكم مَنْ عن يمينه ومَنْ عن شماله لأننا سنقول كلاماً مهماً .

وكان النبى ﷺ قد أرسل إليهم سيدنا حذيفة ، فكان بين صفوفهم فبادر مَنْ عن يمينه وسأله : مَنْ أنت ؟ ومنْ عن شماله وسأله : مَنْ أنت ؟ وكانت فطنةً ولباقة منه حتى لا يسأله أحد ولا ينكشف أمره[1] .

بعد ذلك قال أبو سفيان : لم يَعُدْ أمامنا إلا الرحيل حتى لا نقع فى مخالب اليهود فهيا ، وضرب راحلته فقامت وهى معقولة فانقطع العقال .

---

(١) أورده السهيلى فى كتابه « الروض الأُنُف » (٣/٤٣٣) ، فى قصة الأحزاب وتجمعهم لغزو المدينة .

الشاهد هنا أن نعيم بن مسعود كتم إيمانه عن القوم ليتمكن من القول الذى قاله ، وإنْ كان غير الواقع ، وهو لم يفعل ذلك إلا بعد أن استأذن فيه رسول الله ، وهذا دليلٌ على أن كتم الإيمان جائز وأن له مُهمة .

كذلك سيدنا العباس رضى الله عنه لا شكَّ أنه كان قد آمن برسول الله ، لأنه ساعة أخذ العهد[1] لرسول الله وكان لم يعلن إسلامه بعد ، ذهب وقال : هذا محمد فى مَنَعة من قومه ، فإنْ شئتم أنْ تأخذوه فعاهدوه على كذا وعلى كذا وإلا فاتركوه ، فكيف يأخذ العهد لرسول الله وهو ما يزال على دين قريش ؟

إذن : لابدَّ أنه كان يكتم إيمانه حتى لا تجرؤ قريش على إيذاء رسول الله الإيذاء البالغ إكراماً لعمه العباس . فهذه مهمة كتم الإيمان ، لذلك يقول تعالى : ﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَـٰكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٦)﴾ [النحل]

وفى غزوة خيبر كان فى اليهود رجل اسمه الحجاج بن علاط السُّلَمى[2] جاء فى هذه الغزوة وذهب إلى رسول الله ﷺ وقال : يا رسول الله ، لقد شرح الله صدرى للإسلام وأشهد ألا إله إلا الله وأنك

---

(١) أخرج البيهقى فى دلائل النبوة (٢/٤٤٦) من حديث كعب بن مالك من حديث طويل أنه لما كانت الليلة التى واعدنا فيها رسول الله ﷺ بمنى أول الليل مع قومنا فلما استثقل الناس فى النوم تسللنا من قريش تسلُّل القطا ، حتى إذا اجتمعنا بالعقبة ، فأتانا رسول الله ﷺ وعمه العباس ليس معه غيره ، أحب أن يحضر أمر ابن أخيه فكان أول متكلم فقال : « يا معشر الخزرج : إن محمداً منا حيث قد علمتم ، وهو فى منعة من قومه وبلاده قد منعناه ممن هو على مثل رأينا فيه ، وقد أبى إلا الانقطاع إليكم وإلى ما دعوتموه إليه ، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه فأنتم وما تحملتم ، وإن تخشون من أنفسكم خذلاناً فاتركوه فى قومه فإنه فى منعة من عشيرته وقومه .

(٢) هو : الحجاج بن علاط بن خالد بن ثويرة ، له صحبة . السلمى ثم الفهرى يكنى أبو كلاب ، قدم على النبى ﷺ وهو بخيبر فأسلم وسكن المدينة واختط بها داراً ومسجداً الإصابة فى معرفة الصحابة (١/٢١٢) .

رسـول الله ، وأنا ذاهبٌ الآن إلـى مكة لأمـوال لى هـناك وأمـانات أستردها ؟ وسوف يسـألوننى فاسمح لى أنْ أقول[1] قال له (قُلْ ما تشاء) .

وذهب الحـجـاج إلى قريـش فقـالوا : لابدَّ أن عند هذا الخـبـر ، وسألوه : هـل ذهب القاطع إلى خـيبـر ؟ يقصدون رسـول الله لأنهم كانوا يتهمونه بقطع الأهل والعشيـرة بعد بعثته ﷺ فقال : نعم وهُزِم هناك هزيمةً منكرة وقُتِل أصحابه ، وسيأخذه اليهود أسيراً ويأتون به إليكم ليـصنعوا معكـم يداً تظل عليكم لهم طوال العمـر ، وقد جـئتكم لآخـذ أموالى التـى عند الناس حتـى أذهب إلى السَّبْـى قبل أنْ تُبـاع فأشترى منه ، فأخذوا يساعدونه فى جمع أمواله ويُيسِّرون له مهمته .

بلغتْ هذه المـقالة العبـاس فذهب إليه وقـال له : يا حجـاج ماذا تقـول ؟ قال : هو مـا سـمـعت ، قال : أو حَقٌّ ذلك ؟ قـال : أفـتكتُم علىَّ ؟ قال : والذى نفسى بيده أكـتم عليك ، قال : أمهلنى حتى يخلو موضعى من الناس ، فجلس مُدة ثم ذهب إليه فقال : والله الخبر الذى بلغك عنى لم يحدث منه شىء ، بل تركتُ مـحمداً منتصراً فى خـيبر وعروساً على صفية بنت حيى بن أخطب ، ولكنى احتلتُ لآخذ أموالى من هؤلاء ، فاكتُمْ أمرى واستر علىَّ ثلاثة أيام حتى أُعجز القوم وأفرّ ثم أشِعْ ذلك ما شئتَ .

وبعـد ثلاثة أيام تطيَّب العبـاس بالطِّيب وأمـسك عصـاه ثم طاف بالبيت فلقـيه واحد منهم وقال : والله لهذا هو التـجلُّد يا أبا الفضل . يقصد بذلك الـمصيبة التى وقـعت لابن أخيه ، فقال الـعباس للرجل :

---

(١) أى : أن يقول مـا يستطيـع به أن يخدع المشـركين إلى أن يأخـذ ماله الذى عنـد امرأته . فأذن له رسول الله .

والذى حلفتَ به ما هو تجلّد ولكنه حقيقة الأمر ، لأن صاحبكم أخبركم بخلاف الواقع وابن أخى انتصر على أعدائه وهو عروسٌ على بنت حُيى بن أخطب فى خيبر ، قال : أو يكون ذلك ؟ قال : هكذا ، قال : أفلتنا الخبيث فأوْلَى له[1] .

نقول : كتم هؤلاء إيمانهم ليتمكنوا من نُصْرة الدين وليكونوا جنداً من جنوده ، وللإسلام جنديات مختلفة : جندية العلانية ، وجندية الكتمان ، وجندية التجسس على الأعداء .

بعض المفسرين[2] قال : ﴿يَكْتُمُ إِيمَانَهُ (٢٨)﴾ [غافر] أى : من آل فرعون ، وهذا غير صحيح بدليل أنه سيقول ويخبر بهذا الإيمان ويُفصله كأنه رسول ، ولو كان الكتمان من آل فرعون لَقَال : يكتم إيمانه آل فرعون لأن الفعل (كتم) يتعدى بنفسه إلى مفعولين ، كما فى قوله تعالى : ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا (٤٢)﴾ [النساء]

لكن ماذا قال الرجل المؤمن ؟

قال : ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ (٢٨)﴾ [غافر] تأمل جرأة الحق من هذا المؤمن ، فهو يجهر بهذا الاستفهام الإنكارى ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً (٢٨)﴾ [غافر] يجهر به أمام فرعون . ﴿أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ (٢٨)﴾ [غافر] أى : بسبب قوله ربى الله فلا جريرةَ له غير هذا ، يقولها الرجل المؤمن علانية أمام فرعون ، وما أدراك ما فرعون ، إنه الوحيد

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده من مسند أنس بن مالك ، والبيهقى فى السنن الكبرى (١٥١/٩) وعبد الرزاق فى مصنفه (حديث ٩٧٧١) (٤٦٦/٥) وابن سعد فى الطبقات الكبرى (١٠٨/٢) .

(٢) ما ذهب إليه ابن كثير فى هذا الأمر أنه قال (٧٧/٤) : « قد كان هذا الرجل يكتم إيمانه عن قومه القبط فلم يظهر إلا هذا اليوم حين قال فرعون : ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ .. (٢٦)﴾ [غافر] » .

الذى ادعى الألوهية وقال لقومه ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى (٣٨)﴾ [القصص] فلا شكَّ أن كلمة الرجل المؤمن تغيظه وتهدم أركان ألوهيته المدَّعاة .

وقوله : ﴿وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ (٢٨)﴾ [غافر] أى : بالآيات الواضحات فكيف يُقتل ؟ ولنفرض أنه كذاب فلا يضيركم كذبه ، لأنه كذب على الله وسوف يتحمل عاقبة هذا الكذب ﴿وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِى يَعِدُكُمْ (٢٨)﴾ [غافر] يعنى : وإنْ كان صادقاً لم تُحرموا خيره وأصابكم بعض هذا الخير . إذن : لماذا تقتلونه ؟ فالاحتياط ألاَّ يُقتل .

لكن ، هل معنى ذلك أن نترك كلَّ ملحد يقول ما يحلو له ويخوض فى أمور الدين ولا نمنعه اعتماداً على ﴿وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ (٢٨)﴾ [غافر] قالوا : لا بل يجب أنْ نُقدِّر هنا جملة : امنعوه أن يقول لكن لا تقتلوه . كثيراً ما نسمع عن الزنادقة الذين يخوضون فى دين الله الآن ، فماذا نفعل ؟ أنتركهم ونقول : عليهم كذبهم ؟

لا إنما يجب أنْ نتصدَّى لهم ونمنعهم من هذا الهراء ، ونأخذ على أيديهم حتى لا يُحدثوا ما يضر بدين الله . كذلك قال الرجل المؤمن من آل فرعون يدافع عن سيدنا موسى عليه السلام كأنه يريد أنْ يستبقى حجة الحق لعله تُوجَد آذان فيما بعد تنصره .

ثم يقرر الحق سبحانه هذه الحقيقة : ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ (٢٨)﴾ [غافر] هذا الكلام يُعَد تعريضاً وطَعْناً فى فرعون ، فالحق سبحانه لا يترك أحداً يكذب عليه دون أنْ يفضح كذبه ، لماذا ؟ لأن سَتْر هذا الكذب يُعتبر تدليساً فى منهج السماء ، وحاشا لله تعالى ذلك ، لذلك نرى كلَّما ادَّعى أحدٌ النبوةَ افتُضِح أمره

وعلم الناس كذبه ، لأنه لا يصح أنْ يدَّعى كذابٌ النبوة ، ولا يظهر الله للناس كذبه ، وهذا مُتضمَّنٌ فى قوله تعالى وفى وعده : ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا (٥١)﴾ [غافر]

وفى قوله : ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣)﴾ [الصافات]

﴿يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ(١) فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ (٢٩)﴾

قوله : ﴿يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ (٢٩)﴾ [غافر] هذا كلام الرجل المؤمن ينصح قومه . نعم لهم المُلْك أى : مُلْك فرعون وجبروته وسطوته وادعاؤه للألوهية .. إلخ و﴿ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ (٢٩)﴾ [غافر] يعنى : منتصرين وعالين على غيركم ، لكن احذروا فهذا حال موقوت لا يدوم لكم فهو مُقيَّد ﴿لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ (٢٩)﴾ [غافر] وكأنه يقول لهم : احذروا أنْ يضيع هذا الملْك من أيديكم .

فربما كان هذا الرجل - أى موسى عليه السلام - صادقاً فيجمع حوله الأتباع والأنصار ، ويقضى على هذا الملك ، فاستبقوا إذن ولو الضلال الذى أنتم عليه ولا تدخلوا معه فى صدام لا تعلمون عاقبته ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا (٢٩)﴾ [غافر] لا أحدَ ، لأن بأسَ الله وانتقامه فى تأييد رسله بأسٌ لا يُرَدّ ولابدَّ أنْ يدمر المخالف

---

(١) ظاهرين : أى عالين ذوى مكانة ورفعة . [القاموس القويم ١/ ٤٢٠] فلان ظاهر على فلان أى غالب عليه . وقوله تعالى : ﴿فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ (١٤)﴾ [الصف] أى : غالبين عالين . [لسان العرب - مادة : ظهر] .

فاحذروا ، هكذا يتحدث الرجل المؤمن بمنطق الإيمان الراسخ فى نفسه ويصدق قومه لا يغشهم .

وهنا لا بُدَّ أنْ ينتفضَ فرعون ، وأنْ يحاول القبض على زمام الأمور لصالحه : ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ (٢٩)﴾ [غافر] لاحظ منطق التسلط فى ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَىٰ (٢٩)﴾ [غافر] ومنطق التزييف فى ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ (٢٩)﴾ [غافر]

لكن هذا من فرعون لم يمنع الرجل المؤمن أنْ يستمر فى دعوته ولم يصدَّه أنْ ينصح قومه :

﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ (٣٠) مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ (٣١)﴾

هنا يستمر الرجل المؤمن فى نُصْحه لقومه ، فكلمة فرعون لم تُخفهُ ولم تصدّه عن دعوته ، فيقول : ﴿يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ (٣٠)﴾ [غافر] يعنى : إنْ كنتم ظاهرين الآن فى الأرض ولكم الغلبة ، فلستم أظهر ممن سبقوكم فى موكب الرسالات من أول نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم ﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ (٣١)﴾ [غافر]

وقد أرانا الله العجب فيمن كذَّب الرسل ﴿فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم

---

(١) دأب على الأمر : اعتاده . والدأب والدأب : العادة والشأن . فقوله تعالى : ﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ .. (٣١)﴾ [غافر] أى : عادتهم وشأنهم . [القاموس القويم ١ / ٢١٩] .

مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا[١] وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ[٢] وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا [٣] وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٠) ﴾ [العنكبوت]

إذن : عليكم أنْ تأخذوا ممن سبقوكم فى التكذيب عبرة ، خاصة وأنتم تشاهدون آثارهم فى الأرض التى تدل على أنهم كانوا أقوى منكم وآثاراً فى الأرض ، ومع ذلك لم تنفعهم قوتهم ، ولم تمنعهم آثارهم من بأس الله حين نزل بهم ، وما أبقى الله على هذه الآثار إلا لتكون عبرة لمن بعدهم ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٣٨) ﴾ [الصافات]

ولو انطمستْ آثارهم لم تكُنْ هناك حجة واقع ، فبقاء الآثار إلى الآن تبين لنا أن الذين صنعوا هذه الحضارات وتركوا هذه الآثار لم يستطيعوا أنْ يحموا حضاراتهم ، وكانوا أكثر منكم قوة وآثاراً فى الأرض وعمروها أكثر منكم ، فما دام قد حدث هذا فى الواقع وأنتم تشاهدونه فخذوه قولاً من الرسول وواقعاً أمامكم فى الكون .

ونلاحظ هنا أن كلمة (يَوْم) جاءت مفردة و (الأحزاب) جمع فلماذا لم يَقُل مثلاً (أيام الأحزاب) ، والحزب هم الجماعة المناهضون للرسول المكذبون له ، فحزب مناهض لنوح ، وحزب مناهض لهود ، وآخر لصالح .. الخ .

---

(١) الحاصب : ريح صرصر باردة شديدة البرد عاتية شديدة الهبوب جداً تحمل عليهم حصباء الأرض فتلقيها عليهم وتقتلعهم من الأرض فترفع الرجل منهم من الأرض إلى عنان السماء ثم تنكسه على أم رأسه وهم قوم عاد . [تفسير ابن كثير ٤١٣/٣] .

(٢) الصيحة : عذاب يصحبه صوت شديد يخمد أصوات المعذَّبين ويشلهم عن الحركة . [القاموس القويم ٣٨٦/١] قال ابن كثير فى تفسيره : « هم قوم ثمود » .

(٣) المقصود بمن أُغرقوا : هم فرعون وجنوده وملؤه ، الذين أغرقوا فى البحر بعد انطباقه عليهم .

إذن : فالأيام هنا متعددة ، ومع ذلك قال : ﴿مِّثْلَ يَوْمِ الأَحْزَابِ (٣٠)﴾ [غافر] فوحَّد اليوم وجمع الأحزاب ، لماذا ؟ لأن العملية كأنها حدثٌ واحد مُتحد فى الجميع ، وإنْ تعددتْ الأحزاب بتعدُّد الرسل فهو يوم الأحزاب لا أيام الأحزاب ، لأننا لو قلنا : أيام الأحزاب لكان لهذا يوم بسبب ، ولهذا يوم بسبب آخر وهكذا ، لكنه سبب واحد فى جميع الحالات ، ألا وهو التكذيب فى مقام العقيدة ، وفى مقام تشريع الحق سبحانه للخلق .

ثم بعد ذلك يُفصل ما أجملته كلمة الأحزاب : ﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ (٣١)﴾ [غافر] يعنى : لم يأخذهم هذه الأَخْذة ظلماً لهم ، وكلمة (للعبَاد) يعنى : كيف يظلمهم وهم عباده وصنعته ، إنما أخذهم جزاءً أفعالهم وتكذيبهم لرسلهم ليكونوا عبرة واقعية فى الكون يعتبر بها كل مَنْ يعارض منهج الحق .

﴿وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ (١) (٣٢) يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٣)﴾

---

(١) التناد (بكسر الدال) بمعنى المناداة . ومنه الأمثلة التى سيوردها فضيلة الشيخ من آيات نداء أصحاب الجنة لأصحاب النار ، وكذلك نداء أهل النار أهل الجنة أن يفيضوا عليهم من الماء ، وكذلك مناداة أصحاب الأعراف .

وقد ورد فى هذه الكلمة قراءتان أخريان :

« التنادى » بإثبات الياء فى الوصل والوقف على الأصل . وهى قراءة الحسن وابن السميقع ويعقوب وابن كثير ومجاهد .

أما القراءة الأخرى فهى « التنادّ » بتشديد الدال . قال أبو جعفر النحاس : القراءة بها حسنة على معنى يوم التنافر . قال الضحاك : ذلك إذا سمعوا زفير جهنم ندّوا هاربين ، فلا يأتون قطراً من أقطار الأرض إلا وجدوا صفوفاً من الملائكة فيرجعون إلى المكان الذى كانوا فيه .

يوم الأحزاب كان فى الدنيا ، أما يوم التناد فيوم القيامة ، فكأنه حذَّرهم بيوم الأحزاب من المصائب التى تأتيهم فى دنياهم ، ثم حذرهم بيوم الجزاء يوم القيامة فقال : ﴿ وَيَـٰقَوْمِ إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ (٣٢) ﴾ [غافر] والتناد تفاعل يعنى : تناديني وأناديك ، والتنادى يوم القيامة سيكون من وجوه عدة ، يقول تعالى : ﴿ يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ (٧١) ﴾ [الإسراء] وهذا أول نداء ، يقول : يا أمة محمد ، يا أمة عيسى ، يا أمة موسى .. الخ أو أن ينادى بعضهم بعضاً .

وقد ذكر الحق سبحانه صوراً متعددة من هذه النداءات ، فقال سبحانه : ﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا (٤٤) ﴾ [الأعراف]

وقال : ﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ .. (٥٠) ﴾ [الأعراف]

وقال : ﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالاً يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ ..(٤٨) ﴾ [الأعراف] وأصحاب الأعراف جماعة استوت حسناتهم وسيئاتهم ولم يدخلوا الجنة ، ومع ذلك يشمتون في الكفار .

أو : أن التناد ليس من مناداة بعضنا لبعض ، إنما هو من الفعل (ندَّ) يعنى : بعُد وشرد ، يعنى : يوم التناد يوم تشرد مني وأشرد منك ، وهذا مثل قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) ﴾ [عبس] والمراد : يفر منهم وهم كذلك يفرون منه ، فكلٌّ يهرب من الآخر لانشغاله بنفسه .

لكن ماذا يقصد الرجل المؤمن بذلك ؟ قالوا : يريد أن يقول لهم : إنْ كنتم تظاهرون بعضاً على الباطل فى الدنيا فاعلموا أنكم ستفرون من بعض فى الآخرة ﴿ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ (٣٣) ﴾ [غافر]

وتأمل هنا حبكة الأداء القرآنى ، فحينما يأتى بلفظ يحمل معنيين أو يجمع بين معنيين يأتى بما يدل على كل منهما ، فهنا مثلاً قال ﴿ يَوْمَ التَّنَادِ (٣٢) ﴾ [غافر] بمعنى المناداة . وقال : ﴿ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ (٣٣) ﴾ [غافر] بمعنى الفرار ، فجمع بين المعنيين فى كلمة (التناد)

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى فى سورة الرحمن ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥) وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (٦) ﴾ [الرحمن] فالشمس والقمر مخلوقات علوية ، والشجر أرضى وبينهما كلمة (النجم) ولها معنيان : الأول : المتبادر إلى الذِّهْن هو النجم العالى فى السماء من جنس الشمس والقمر ، والآخر (النجم) بمعنى : العُشْب الذى لا ساقَ له ، وهو جنس الشجر .

وقوله : ﴿ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٣) ﴾ [غافر] (مِنْ عَاصِمٍ) يعنى : لا أحد يستطيع أن يمنعكم من الله ، ولا يدفع عنكم بأساً إنْ نزل بكم ﴿ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٣) ﴾ [غافر] يعنى : من يحكم الله بضلاله لا يهديه أحد ، لماذا ؟ قالوا : لأن الله تعالى سيعينه ويُمكنه من الضلال .

لذلك قلنا : إذا أحبَّ العبدُ شيئاً قال الله لعبده : أحببته يا عبدى سأبليك به ، كمن مات له عزيز مثلاً فحزن عليه حزناً شديداً وبالغ فيه واستمرأ الحزن ، فيقول الله له : أحببتَ الحزن وعشقته ، سوف أزيدك منه ، كلما تقادم جددته لك .

لذلك قال أهل المعرفة : أغلقوا أبواب الحزن بمسامير الرضا ، لأنكم إنْ ألفتم الحزن وعشقتموه أدامه الله عليكم ، لأنه سبحانه ربكم والمتولى لأموركم ، ويعطى كلاً منكم بُغْيته ، حتى الكافر الذى أحب الكفر وعده الله أنْ يعينه عليه ، لذلك يختم على قلبه بحيث لا يدخله الإيمان ولا يخرج منه الكفر .

ثم يستمر الرجل المؤمن من آل فرعون فى نصحه لقومه فيقول[١] :

﴿ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ﴾

لما جاء يوسف عليه السلام لم يكُنْ فى زمنه فرعونٌ على مصر ، إنما كان هناك ملك هو العزيز ، لذلك لما تقرأ قصة سيدنا يوسف عليه السلام لا تجد ذكراً لفرعون أبداً كما فى قصة سيدنا موسى ، ولما عرفنا أحداث التاريخ المتعاقبة واستطعنا أن نُرجع الأحداث إلى أزمانها عرفنا أن يوسف كان فى فترة ملوك الرعاة (الهكسوس) ، وهؤلاء بعد أنْ دخلوا مصر قضوا على حكم الفراعنة وألغوا الفرعونية وجعلوا أنفسهم ملوكاً ، لذلك يقول فى القصة ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ﴿٤٣﴾ ﴾ [يوسف] ولم يقُلْ فرعون .

ولما عادتْ الفرعونيةُ مرة أخرى أخذوا يضطهدون بنى إسرائيل لأنهم كانوا يناصرون الملك ويؤيدونه .

قوله ﴿ بِالْبَيِّنَاتِ ﴿٣٤﴾ ﴾ [غافر] أى : الآيات الواضحات الدالة على صدقه فى البلاغ عن الله ﴿ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ ﴿٣٤﴾ ﴾ [غافر]

---

(١) ذهب القرطبى فى تفسيره (٨/٥٩٦١) إلى أن هذا القول من كلام موسى عليه السلام لقومه . ولكنه قال : « وقيل : هو من تمام وعظ مؤمن آل فرعون ذكَّرهم قديم عتوهم على الأنبياء » .

أى : تشكُّون فى صدق رسالته[1] ﴿حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ ﴿٣٤﴾﴾ [غافر] يعنى : مات ﴿قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا ﴿٣٤﴾﴾ [غافر] قالوا : ذلك لأنهم ينكرون الرسالة ، فهم فى أنفسهم منافقون ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ ﴿٣٤﴾﴾ [غافر] يعنى : متجاوز للحد ﴿مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾﴾ [غافر] شاكٌّ فى الرسالة مُكذِّب لها .

﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾﴾

وهل هناك جدل فى الله وله سلطان يؤيد ؟ قالوا : نعم الجدل المقصود جدلٌ فى الله . يعنى : فى أمر الله للإثبات ، وجدل من المقابل لنفيه . وقلنا : إن الآيات تأتى على معانٍ ثلاثة : آيات كونية تدل على طلاقة قدرة الخالق سبحانه ، وآيات لإثبات صدْق الرسل فى البلاغ عن الله وهى المعجزات وآيات القرآن التى تحمل الأحكام . ففى أىِّ هذه الأنواع كانوا يجادلون ؟

أولاً : جادلوا فى آيات المعجزات وقالوا عنها سحر ، والرد على هذا الادعاء سهل ، إذ نقول لهم : الذى سحر الناس فآمنوا به ، لماذا لم يسحركم أنتم أيضاً لتؤمنوا به وعندها تنتهى المسألة ؟

كذلك جادلوا فى آيات الأحكام ، لماذا ؟ لأن كل حكم يُنزله الله

---

(١) ذكر ابن كثير فى تفسيره (٤/٧٩) لفتة فى مسألة أن المصريين ظلوا فى شك مما جاءهم به يوسف عليه السلام ، فقال : « كان يوسف رسولاً يدعو إلى الله تعالى أمته بالقسط ، فما أطاعوه تلك الطاعة إلا بمجرد الوزارة والجاه الدنيوى » .

على عباده يمنع طغيان جيل فى جيل أو فرد فى فرد ، وهذا ينافى مصلحة أهل التسلط والكبرياء فى الأرض ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (٨٣)﴾[القصص]

أما الآيات الكونية التى تثبت قدرة الخالق سبحانه كالشمس والقمر والنجوم وغيرها فليست مجالاً للجدل ، لذلك لم يجادلوا فيها .

ومعنى ﴿كَبُرَ مَقْتًا (٣٥)﴾ [غافر] أى : أن هذا الجدل فى آيات الله بغير حَقٍّ جدلٌ ممقوت يبغضه الله بغضاً كبيراً ، ويبغضه الذين آمنوا الذين يحرصون على دين الله وتقوية دواعى الإيمان به فى النفوس .

﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ[1] اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ (٣٥)﴾ [غافر] معنى ﴿يَطْبَعُ﴾ أى : يختم على قلبه . والمتكبر : هو الذى يفتعل الكبر ويدعيه وليس عنده مبرراته ، فهو يتكبر بلا رصيد عنده للكبر . لذلك ورد الحديث القدسى الذى يوضح هذه المسألة ، ويقسم المجتمع الإيمانى إلى اثنى عشر قسماً ، ست منها فى المحبوبية : منها ثلاثة للمحبوبية العليا ، وثلاثة للمحبوبية الأقل . وستٌّ أيضاً للمبغضين منها ثلاثة للمبغضين ، وثلاثة للمبغضين أقلّ ، فانظر فى أيِّها يكون المتكبر .

قال تعالى فى الحديث القدسى : « أحب ثلاثاً وحبى لثلاث أشدّ : أحب الفقير المتواضع وحبى للغنى المتواضع أشدّ ، وأحب الشيخ الطائع وحبى للشاب الطائع أشدّ ، وأحب الغنى الكريم وحبى للفقير الكريم أشدّ . وأبغض ثلاثاً وبغضى لثلاث أشدّ : أبغض الغنى المتكبر وبغضى للفقير المتكبر أشدّ ، وأبغض الشاب العاصى وبغضى للشيخ

---

(١) الطبع فى أصل اللغة : الختم وهو التأثير فى الطين ونحوه . وأصل الطبع الصدأ يكثر على السيف وغيره . قال أبو إسحاق النحوى : معنى طبع فى اللغة وختم واحد ، وهو التغطية على الشىء والاستيثاق من أن لا يدخله شىء . [لسان العرب – مادة : طبع] .

العاصى أشدّ ، وأبغض الفقير البخيل وبغضى للغنى البخيل أشدّ »[١]

ففى ضوء هذا الحديث نتعلم أن المجتمع الإيمانى ينبغى أن يكون غنيه متواضعاً ، وفقيره كريماً ، وشبابه طائعاً . هذه صورة أرقى المجتمعات وأعلاها يأتى بعده فى المرتبة مجتمع : فقيره متواضع ، وغنيه كريم ، وشيخه طائع .

إذن : قلنا إن المتكبر مَنْ يتكبّر وليس عنده مبررات الكبر ، فماذا لو كان عنده مبررات الكبر ؟ نقول : إنْ كان عنده مبررات الكبر فإنه ينقصه أنه يتكبر بشىء غير ذاتى فيه ومن الممكن أنْ يُسلب منه ، كمن يتكبر بعافيته فقد يسلبها الله منه لأنها عَرَضٌ زائل عنك ، ثم إن المتكبر حينما يرى مَنْ هو أكبر منه يتضاءل فى كبريائه ، ولو أنه رأى ببصيرته كبرياء ربه لما تكبَّر .

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا[٢] لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾

---

(١) أورد أبو الليث السمرقندى نحو هذا فى كتابه « تنبيه الغافلين » الباب ١٩ فى الحسد والنهى عنه (ورقة ٥٨ مخطوط الأزهرية ٣٠٧٠٧١) أورده بلفظ يقال بصيغة التمريض وهى صيغة تضعيف ، ولم يذكر له راوياً أو سنداً ولفظه : « إن الله يبغض ثلاثة وبغضه لثلاثة أشد ، يبغض الفاسق وبغضه للشيخ الفاسق أشد ، ويبغض البخلاء وبغضه للغنى البخيل أشد ، ويبغض المتكبرين وبغضه للفقير المتكبر أشد . ويحب ثلاثة نفر وحبه لثلاثة منهم أشد ، يحب المتقين وحبه للشاب التقى أشد ، ويحب الأسخياء وحبه للفقير السخى أشد ، ويحب المتواضعين وحبه للغنى المتواضع أشد » .

(٢) الصرح : القصر العالى ، قال تعالى فى قصة سليمان عليه السلام وبلقيس ﴿قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ..﴿٤٤﴾﴾ [النمل] [القاموس القويم ١/٣٧٣] والصرح أيضاً وهو المقصود من أمر فرعون لهامانَ ببناء صرح : بيت واحد يُبنى منفرداً ضخماً طويلاً فى السماء . [لسان العرب – مادة : صرح].

يأمر فرعونُ وزيره ومعاونه هامان أنْ يبنى له بناءً شامخاً يصعد عليه ، لعلَّه يرى هذا الإله الذى يدعو موسى إلى عبادته ، كأن الصَّرْح سيُوصلّه لرؤية الإله ، والله الإله الذى تراه من صرح لا يصح أنْ يكون إلهاً ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ [غافر] أى : ضلال وخُسْران ، فلن يظل كذلك ، ولكن سيعلو ويعلو إلى أنْ يفضحَ اللهُ أمره يوم الغرق .

﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿٣٩﴾﴾

هذا قوْل الرجل المؤمن من آل فرعون يعظ قومه وكأنه نبىّ ، فإنْ قُلْتَ : وماذا أسكته عن فرعون حتى وصل بضلاله إلى أنْ يدَّعى الألوهية ؟ قالوا : هذه من ضمن قولنا إن للحق صَوْلة لكن لها وقتها المناسب ، وساعةَ ينطق الحق على لسان هذا المؤمن فكأن الحق سبحانه هو الذى يتكلم ، لذلك لم يعارضه أحدٌ لأن وارد الرحمن لا يُعارَض إنما يُعارض وارد البشر .

لذلك لما قال الحق سبحانه :﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ[1] وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ﴿٧﴾﴾ [القصص] لم تعارض هذا الرأى ، ومَنْ يقول للمرأة : إنْ خافت على وليدها ألقيه

---

(١) اليم : يطلق على ما كان ماؤه ملحاً شديد الملوحة ، وعلى النهر الكبير العذب الماء ، والمقصود هنا هو نهر النيل بمصر، وقد خطَّأ ابن منظور فى لسان العرب (مادة يمم) الليث فى قوله : اليم البحر الذى لا يدرك قعره ولا شطّاه ، فإن الله قال : ﴿فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ..﴿٣٩﴾﴾ [طه] فجعل له ساحلاً أى : شاطئاً .

فى اليم ؟ والله لو قالها أحدٌ غير الحق سبحانه لَعُورضت لكن قبلتها أم موسى ولم تعترض ، لأن وارد الرحمن لا يُعارض ولا يُناقَش ، وإلا لَكانَ لها أنْ تقول : أأنجيه من موت مظنون إلى موت مُحقَّق ؟

إذن : لا عجبَ أنْ يقول الرجل المؤمن هذا الكلام على مَرْأىً ومَسْمع من فرعون ، ومع ذلك لم يعارضه .

﴿ يَـٰقَوْمِ إِنَّمَا هَـٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِىَ دَارُ الْقَرَارِ (٣٩) ﴾ [غافر] هذه تلفتنا إلى أن الإنسان فى أحداث الحياة معه لابدَّ له أن يخدم غاية ، ويُشترط فى الغاية التى تخدم ألاَّ يكون بعدها غاية أخرى ، فإنْ كان بعدها غايةٌ أخرى فليستْ بغاية ، بل هى مرحلة مُوصِّلة للغاية ، مثل الولد تعلمه ليأخذ الإعدادية مثلاً ، فهل الإعدادية غاية ؟ لا إنما هى مرحلة مُوصِّلة إلى مرحلة أخرى هى الثانوية ، كذلك الثانوية مرحلة مُوصِّلة إلى ما بعدها . فالشىء ما دام له بَعْد فليس بغاية ، الغاية هى التى ليس لها بَعْد ، لذلك يقول لهم الرجل المؤمن : إن الدنيا كلها بما فيها متاع مجرد متاع ليست غاية ، إنما الغاية الحقيقية هى الآخرة .

والنظرة المتأملة ترى أن الإنسان له عمر مظنون فى الكون غير مُحدَّد أبهمه الله ، وجاء هذا الإبهام عين البيان وأرفع درجاته ، لأنه سبحانه حين أبهمه فى الزمان وفى المكان جعلنا نتوقعه وننتظره فى كل لحظة وفى أىِّ مكان ، لذلك قالوا[1] : الموت سهمٌ أُرسِل إليك وهو فى الطريق إليك بالفعل وعمرك بقدر سفره إليك .

---

(١) من أقوال عبد الله بن المعتز ، عزاه إليه أبو منصور الثعالبى فى « الإعجاز والإيجاز » : « الموت سهم مرسل إليك ، عمرك بقدر سفره إليك » ، وكذلك الحصرى القيروانى فى كتابه « زهر الآداب وثمر الألباب »

وحين تتأمل الكون من حولك تجد الخالق سبحانه خلق لك كوناً منسجماً يخدمك ، شمس وقمر ونجوم وهواء وماء ونبات .. الخ فانظر يا مَنْ خُلقت له هذه الأكوان كيف تفنى أنت وتبقى هى ، تموت أنت والشمس كما هى والقمر والنجوم والهواء والماء ، لم يتغير فى كون الله شىء ، حتى الماء الذى نظنه ينقص هو فى الكون كما هو منذ خلقه الله لا يزيد ولا ينقص .

فالماء الذى أخذته من الكون فى حياتك خرج منك مرة أخرى فى صورة عرق وفضلات ، حتى النسبة التى تبقى فينا بعد الموت تخرج وتمتصها الأرض ، كذلك الماء فى الوردة مثلاً وفى كل الكائنات ، إذن : فالكون كله كذلك عبارة عن تغيُّرات فى مُتحد .

لكن أيُعقل أن يكون الخادمُ أطولَ عمراً من المخدوم ، أموت وتبقى الشمس التى تخدمنى والتى خُلقت من أجلى ؟ نعم لتعلم أنَّ خادمك أطول عمراً منك فى الدنيا مع أنك المكرَّم المخدوم ، إذن : لا بدَّ أن لى عمراً آخر يناسب هذا التكريم ، عمراً يبقى بعد فناء هذه المخلوقات حيث تنتهى الشمس والقمر والنجوم .. وأبقى أنا ، وهذا لا يكون إلا فى الآخرة ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (٤٨)﴾ [إبراهيم]

ولا بدَّ للمؤمن أن يقول بهذا اليوم ، وأنْ يؤمن به ليكون هو المكرّم حقاً وهو الأطول عمراً . حتى الموت نفسه يموت وتبقى أنت فى الآخرة خالداً لا تفوتك النعمة ولا يدركك الموت .

لذلك يريد منا الحق سبحانه أن ننظر إلى هذه الغاية ، لا أن ننظر تحت أقدامنا ، ونعيش فقط للحظة التى نحن فيها ، فالغاية الحقيقية لكل مؤمن هى الآخرة لأنها ليس لها بَعْد ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ

لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٦٤) ﴾ [العنكبوت] والحيوان مبالغة من الحياة . أى : الحياة الحقيقية .

وهنا يقول الرجل المؤمن : ﴿ يَـقَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ (٣٩) ﴾ [غافر] أى : المستقر التى لا عدولَ عنها ، ولا سُكْنى غيرها ، ولا بُدَّ أن نعمل لها :

﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ (٤٠) ﴾

نعم ما دامت الآخرة هى دار القرار والمستقر فلابدّ من الرجوع إلىَّ والوقوف بين يدىّ أُجازى كُلاً بعمله ، وأنا لستُ جباراً عليكم إنما أنا رحيم بكم أجازى السيئة بمثلها ، أو أغفر وأضاعف الحسنة أضعافاً كثيرة .

والوقفة هنا عند قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ (٤٠) ﴾ [غافر] فهذا الشرط لا يمنع غير المؤمنين من فعل الخير والعمل الصالح ، وقد بيَّن الحق سبحانه هذه المسألة فى قوله تعالى : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ (٢٠) ﴾ [الشورى]

والكافر حين يفعل الخير يأخذ حظه منه فى الدنيا ، ولا نصيبَ له فى ثواب الآخرة ، يأخذه فى الدنيا شهرةً وصيتاً وسُمعة طيبة على ألسنة الناس ، يأخذه فى صورة تكريم واحتفال ، ألاَ تراهم يقيمون لهم التماثيل ويُخلِّدون ذكراهم .. الخ .

إذن : أخذوا حظهم فى الدنيا ، لذلك يقول تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا

أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩) ﴾ [النور]

تأمل ﴿ وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ.. (٣٩) ﴾ [النور] يعنى : فوجىء به لأنه لم يكُنْ فى باله فى الدنيا وما عمل من أجله قطّ ، ومعلومٌ أن الإنسان يأخذ أجره ممَّنْ عمل له .

وقد سُئِلْنا فى هذه المسألة فى سان فرانسيسكو : أيضيع أجر الكافر الذى عمل الخير فى الدنيا ؟ قلت : أعملَ للخير لله أم للإنسانية ورُقيِّها ؟ قالوا : عمل للإنسانية ورُقيِّها وخدمتها ، قلت : فليأخذ أجره منها وقد أخذه شهرةً وصيتاً وتخليداً ، قال تعالى : ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً (١) مَّنثُورًا (٢٣) ﴾ [الفرقان]

لذلك نقول : إن الكافرين الذين عملوا لرقى المجتمع وتقدمه نحن ننتفع بأعمالهم ومخترعاتهم ومكتشفاتهم ، بل ونطوعها لخدمة الإيمان والدعوة إلى الله ، فهذا المسجِّل وهذا الميكرفون وغيرها ثمرة جهدهم ، لكن لا حَظَّ لهم فى ثوابه ، لذلك نقول : إن هؤلاء خُدَّام حَرْف واحد من حروف القرآن ، ما هو ؟ هو السين فى قوله تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ (٥٣) ﴾ [فصلت]

فهم يتعبون ويعيشون حياة قاسية فى تقشُّف ليتفرغوا للبحث والدراسة للوصول إلى سرٍّ من أسرار الله فى كونه ، وفى النهاية ينتفع الناس بأعمالهم ، ويُحْرمون هم ثواب هذا العمل .

وقوله : ﴿ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ (٤٠) ﴾

---

(١) الهباء : الغبار المتطاير فى الجو هنا وهناك ، وقوله : ﴿ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا (٢٣) ﴾ [الفرقان] أى : جعلنا كل عمل عملوه كالهباء المنثور لا يعتد به ولا قيمة له . [القاموس القويم ٢/٢٩٧] .

[غافر] الرزق كل ما ينتفع به الإنسان ، وليس محرد المال كما يظن البعض ، فالعافية رزق ، والسلامة رزق ، والعلم رزق ، واا حلم رزق ، كلُّ ما تنتفع به رزقٌ لك ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾﴾ [غافر] كلمة حساب تعنى : أنك تحسب للشىء حساباً على قدره .

أما فى الآخرة فالرزق فيها بغير حساب ، أى : بغير حساب من أحد لأن المعطى الرازق هو الله ، والله حين يعطيك لا يعطيك على قدر عملك ، إنما يعطيك على قدره هو سبحانه .

وحين يأتيك الخير غير المظنون تقول : لم أكُنْ أعمل له حساباً ، فمعنى ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾﴾ [غافر] يعنى : طلاقة قدرة فى العطاء ، قدرة تعطى للمعطى بلا حساب مُسبَّب منه ، وبلا حساب على قدرك ، فالمسألة إذن واسعة .

قالوا : ومن غير الحساب فى الجنة أنك تأكل ولا تتغوط[1] ، كيف ؟ لأنك تأكل بطهى الله لك ، وما دُمْت تأكل بطهى الله الخالق فلا بدَّ أنْ يعطيك الغذاء على قدر مقومات الحياة دون زيادة ، فمن أين تأتى الفضلات إذن ؟ ولماذا ننكر هذه المسألة أو حتى نتعجب منها ونحن نراها فى الدنيا رغم إمكاناتنا المحدودة ؟

ألا تراهم فى الحروب مثلاً يعطون الجنود حبوباً خاصة تحلُّ محلَّ الغذاء تعطيهم الطاقة اللازمة دون زيادة ، ولا تترك فى الجسم

---

(١) عن زيد بن أرقم قال : « جاء رجل من أهل الكتاب إلى النبى ﷺ فقال : يا أبا القاسم تزعم أن أهل الجنة يأكلون ويشربون ؟ قال : نعم ، والذى نفس محمد بيده إن أحدهم ليعطى قوة مائة رجل فى الأكل والشرب والجماع والشهوة . قال : فإن الذى يأكل ويشرب تكون له الحاجة وليس فى الجنة أذى . قال : تكون حاجة أحدهم رشحاً يفيض من جلودهم كرشح المسك فيضمر بدنه ، أخرجه أحمد فى مسنده والنسائى فى سننه بإسناد صحيح على شرط الصحيح . [انظر : حادى الأرواح لابن القيم ص ١٧٧] .

فضلات للتغوط ؟ فإذا كان المخلوق فعل هذا فما بالك بالخالق سبحانه ؟

وقد تأكل فى الجنة بغير حاجة للطعام ، تأكل لمجرد التمتع بالأكل ، وقد لا تحتاج إلى الطعام أصلاً ؛ لذلك قالوا : أفضل درجات الجنة وأحسن نعيمها فى عليين لأنها مرتبة ليس فيها شىء من مُتَع الحياة إلا أنْ ترى ربك عز وجل وكفى بها نعمة ، فأنت فى حضرته تعالى لا تحتاج أصلاً إلى هذه المتع .

لذلك لما ذهب الشَّعبى[1] إلى ملك الروم وسأله الملك : أنتم تدّعون أنكم فى الجنة تأكلون ولا تتغوطون ، فكيف ذلك ؟ قال : وما العجب فى ذلك ؟ ألم تر إلى الطفل فى بطن أمه كيف يتغذَّى وينمو ، فهل يتغوَّط فى بطنها ، إنه لا يتغوط ولو تغوَّط لاحترق فى مشيمته ، كذلك المؤمن فى الجنة .

فقال الملك : وتدَّعُون أنكم تأكلون من الطعام فى الجنة فلا ينقص ، وكل شىء تأخذ منه لا بدَّ أنْ ينقص . قال : نعم ينقص إذا لم يكُنْ له مدد يكمل نقصه ، هات لى شمعة فأتى له بشمعة فأشعلها ثم قال للموجودين فى المجلس : ليأتِ كل واحد منكم بشمعة ويشعلها من هذه فأشعلوا جميعاً شموعهم ، فقال لهم : أنقص من ضوء الشمعة شىء ؟ كذلك عطاء الله لأهل الجنة لا ينفد ولا ينقص.

---

(١) هو : عامر بن شراحيل الشعبى الحميرى أبو عمرو ، راوية من التابعين يضرب المثل بحفظه ، ولد عام ١٩ هجرية ونشأ ومات فجأة بالكوفة عام ١٠٣ هـ عن ٨٣ عاماً ، اتصل بعبد الملك بن مروان فكان نديمه ورسوله إلى ملك الروم ، وكان ضئيلاً نحيفاً ، ولد لسبعة أشهر . من رجال الحديث الثقات . [الأعلام للزركلى ٣/٢٥١] .

ومن عجائب الجنة أن فيها أنهاراً ، نهراً من لبن ، ونهراً من عسل ، ونهراً من خمر ، ونهراً من ماء ، وهذه الأنهار ليس لها شطوط ولا حواجز ، بل هى متداخلة ومع ذلك لا تختلط ، ويجب أن نؤمن بذلك ولا ننكره ، بل لا نعجب له لأن رسول الله أخبرنا « أن فى الجنة ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر »[1] فلِمَ العجب إذن ؟

لذلك حين يصفها لنا الحق سبحانه يخبرنا أنه لا يصف لنا الجنة ذاتها ، إنما يعطينا مثالاً لها ، فيقول سبحانه : ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ..(١٥)﴾ [محمد]

ثم إن الحق سبحانه حينما يعطينا هذا المثل للجنة ليقربها لأفهامنا لا بدَّ أنْ ينقى هذا المثل من شوائبه عندنا فى الدنيا ، تأمل : ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى (١٥)﴾ [محمد]

فماء الجنة غير آسن لا يتغير كماء الدنيا ، ولبن الجنة لا يتغير طعمه كما يتغير لبن الدنيا ، وخمر الآخرة لذة ولا يذهب بالعقل ، أما خمر الدنيا فكَرِية ويذهب بالعقل ، وعسل الآخرة مُصفّى من الشوائب على خلاف عسل الدنيا .

ثم يقول مؤمن آل فرعون ، فيما يذكره لنا الحق سبحانه فى قرآنه :

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٨٢٤) وأحمد فى مسنده (٢/٤٦٦) وأبو نعيم فى حلية الأولياء (٢/٢٦٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

﴿ وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ ﴾

هذا كلام الرجل المؤمن من آل فرعون ، كأنه كلام الأنبياء ، وإنى حتى الآن لم أهْتد إلى سبب يقنعنى كيف سكت فرعون على هذا الكلام ، ولا أستطيع إلا أن أقول : إن الله سبحانه قادر على أنْ يجمع بين الشىء ونقيضه ، فالمؤمن يجهر بهذا الكلام الإيمانى لكن الحق سبحانه يُدخله فى أذن فرعون غير ذلك ، وإلا لما سكت عنه وتركه يتكلم بهذا المنطق الإيمانى الذى يهدم ألوهية فرعون المدَّعاة ، أو كما قلنا أن وارد الرحمن لا يُعارض .

وقوله ﴿ مَا لِي ﴿٤١﴾ ﴾ [غافر] يستفهم عن شىء فى نفسه : كيف أدعوكم إلى النجاة وأنتم تدعوننى إلى النار ؟ أى : إلى ما يؤدى إلى النجاة وما يؤدى إلى النار ، قالوا : لأن الخير لا يكون خيراً إلا إذا أحببته لسواك ، لذلك قال ﷺ : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه »[1] .

ثم يوضح معنى ﴿ أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ﴿٤١﴾ ﴾ [غافر] فيقول : ﴿ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ﴿٤٢﴾ ﴾ [غافر] فأنتم تحثوننى على الكفر بالله والشرك به ، وأنا أحثكم على الإيمان به .

---

(١) حديث متفق عليه ، أخرجه البخارى فى صحيحه (١٣) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٤٥) كتاب الإيمان عن أنس بن مالك بلفظ : « والذى نفسى بيده ، لايؤمن عبد حتى يحب لجاره - أو قال لأخيه - ما يحب لنفسه » .

﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٤٣﴾﴾

كلمة (لاَ جَرَمَ) أى : لا شك ولا محالة ﴿أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴿٤٣﴾﴾ [غافر] أى : إلى عبادته من دون الله ﴿لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ ﴿٤٣﴾﴾ [غافر] أى : دعوة مستجابة لأنهم لا يسمعون الدعاء ولو سمعوا ما استجابوا ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَا ﴿٤٣﴾﴾ [غافر] أى : مرجعنا ومصيرنا ونهاية المطاف بنا ﴿إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٤٣﴾﴾ [غافر] أى : المستحقُّون لها الجديرون بها كأنهم أصحابها .

ومعنى ﴿الْمُسْرِفِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [غافر] أى : المتجاوزين للحدِّ فى الكفر والطغيان ، وأشدهم المسرف على نفسه الذى تجاوز الحدَّ الذى ينبغى أنْ يقفَ عنده ، وهذا الحد إما أنْ يكونَ فى المأمورات أو فى المنهيات .

والحق سبحانه يوضح لنا هذه القضية فى قوله تعالى : ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ﴿٢٢٩﴾﴾ [البقرة] أى : فى المأمورات ، ويقول فى المنهيات : ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ﴿١٨٧﴾﴾ [البقرة]

ففى الأوامر احرص على ألاَّ تتعدَّاها وفى النواهى لا يقول لك : لا تفعلها بل لا تقربها ، لا تقترب منها ولا من الأسباب المؤدية إليها لأنه مَنْ حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه[1] ، ولا بدَّ للمؤمن أن يحترم

---

(١) قطعة من حديث النعمان بن بشير رضى الله عنه ، وتمامه : « إن الحلال بيِّن وإن الحرام بيِّن ، وبينهما مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس ، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام كالراعى يرعى حول الحمى ، يوشك أن يرتع فيه ، ألا وإن لكل ملك حمى ، ألا وإن حمى الله محارمه » أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٠٥١) ومسلم فى صحيحه (١٥٩٩) .

هذا الاحتياط من ربه ، لأنه سبحانه خالقه ، وأعلم به من نفسه .

والرجل المؤمن حينما يُذيل موعظته للقوم بقوله ﴿وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ (٤٣)﴾ [غافر] كأنه يريد أنْ يُعرِّض بفرعون الذى بلغ القمة فى الإسراف على نفسه ، لأن قضية الإسراف فى الدين أنك قد لا تسمع لنداء الحق وتلغى أوامره وتعرض عن نواهيه ، قد تلغى الإيمان بالله كلية ، لكن هذا الطاغية زاد على هذا كله حيث ادَّعى هو الألوهية ، وقال لقومه : ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ (٢٤)﴾ [النازعات] وأىُّ إسراف بعد هذا ؟

﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (٤٤)﴾

قوله ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ (٤٤)﴾ [غافر] يعنى : إنْ كنتم تكذبوننى الآن وأنا أريد أنْ أُخرجكم ممَّا تعودتم عليه من عبوديتكم لفرعون فسوف تذكرون ما أقوله لكم من النصح ؛ والمراد تذكرونه فى الدنيا أو تذكرونه فى الآخرة ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِى إِلَى اللَّهِ (٤٤)﴾ [غافر] أى : أردّ أمرى إليه سبحانه فهو وليِّى .

وكأنه استشعر أن هذا الكلام الذى قاله سيُغضب فرعون ، ولا بدَّ أنه سيُبيِّت له لينتقم منه دون مجابهة أو مواجهة حتى لا يُؤلب عليه القوم ، فقال ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِى إِلَى اللَّهِ (٤٤)﴾ [غافر]

يعنى : إنْ كنتَ قد بُليتَ بأمر نتيجة ما أفضت فيه من شرح منهج الله والدفاع عن نبيه موسى والاستماع إلى المنهج الحق والسير عليه ، فأرجو أنْ يعطينى من العمل ما ينفعنى فى الآخرة ﴿إِنَّ اللَّهَ

بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (٤٤)﴾ [غافر] فكانت نتيجة تفويض أمره لله :

﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ (٤٥) ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ (٤٦)﴾ (١)

قوله تعالى : ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا (٤٥)﴾ [غافر] يعنى : لم يحدث له مكروه ، وهذا أمر يدعو للعجب ، لأن هذا الرجل يقف أمام مَنْ ؟ أمام فرعون ومع ذلك لم يُصِبْه مكروه ولم تضره محاولات فرعون للانتقام منه . لكن ولِمَ العجب ؟ الوقاية من الله ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا (٤٥)﴾ [غافر] لأن الفعل لا يُترك لذاته ولا يُؤخذ لذاته ، إنما الفعل بمقارنة فاعله ، لا بدَّ من مصاحبة الفعل للفاعل ، فالفعل قد يكون واحداً لكن يختلف الحكم فيه سعادةً به أو شقاءً بالنظر إلى الفاعل .

قلنا : هَبْ أن ولدك دخل عليك والدم يسيل من وجهه ، ما أول سؤال تبادره به ؟ مَنْ فعلَ بك هذا ؟ إذن : فأنت لم تنشغل بالدم الذى يسيل منه بقدر انشغالك بمَنْ فعل هذا . فلو قال لك : عمى فلان ضربنى تهدأ وتقول له : لا بدَّ أنك فعلتَ شيئاً يستحق العقاب فضربك ، لكن إنْ قال لك : ابن فلان ضربنى تقول : نعم لأنه يكرهنا وكذا وكذا . وتقيم الدنيا ولا تقعدها .

---

(١) حاق به العذاب أى نزل به وأصابه وأحاط به من كل جانب ، فلا يمكنه الفرار منه . [القاموس القويم ١/١٨١] مع زيادات .

إذن : فكل فعل لا يُحكم عليه لذاته إنما بضميمة فاعله ، ومعرفتك للفاعل هى التى يترتب عليها ردُّ الفعل منك .

وهذه المسألة حلَّتْ لنا الإشكال فى قضية الإسراء والمعراج ، وفسَّرتْ لنا قوله تعالى : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا (١) ﴾ [الإسراء] فما دام أن الذى أسرى هو الله فلا عجبَ إذن ، فالفعل يتناسب وفاعله ، ونزه الله عن الزمان والمكان وعن كل ما يشبه الخَلْق . ولو قال : محمد سَرَى لكان لنا كلام وجدال ، أمَا وقد أسرى اللهُ به فلا عجبَ فى ذلك . كما لو قلت : صعدتُ بابنى الرضيع قمة الهملايا ، أيقول قائل : كيف صعد الرضيعُ قمة الهملايا ؟

كذلك الحال هنا ، وحين تكون الوقاية من الله فأىُّ قوة إذن وأىُّ طاغية أو جبار يستطيع أنْ يُؤذيك ، والله واقيك منه . وقد جاءت هذه الوقاية إجابةً ورداً لتفويض الأمر لله تعالى ، فالرجل المؤمن قال : ﴿ وَأُفَوِّضُ أَمْرِى إِلَى اللَّهِ (٤٤) ﴾ [غافر] فجاء الرد فوراً ﴿ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا (٤٥) ﴾ [غافر]

وهذه الآية وقف عندها الإمام جعفر الصادق[1] واستنبط منها بعض اللطائف والحكَم حين قال :

عجبتُ لمن خاف ولم يفزع إلى قوله تعالى : ﴿ حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) ﴾ [آل عمران] لأنِّى سمعت الله بعقبها يقول : ﴿ فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ .. (١٧٤) ﴾ [آل عمران]

---

(١) هو جعفر بن محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسن بن بنت رسول الله الهاشمى القرشى ، أبو عبدالله الملقب بالصادق ، كان من أجلاء التابعين ولد عام ٨٠ هـ وتوفى بالمدينة عام ١٤٨ هـ أخذ عنه الإمامان أبو حنيفة ومالك ، كان جريئاً مع خلفاء بنى العباس . [الأعلام للزركلى ٢/١٢٦] :

وعجبتُ لمن مُكر به ولم يفزع إلى قوله تعالى : ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِى إِلَى اللَّهِ ﴿٤٤﴾﴾ [غافر] فإنِّى سمعت الله بعقبها يقول : ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا ﴿٤٥﴾﴾ [غافر]

وعجبتْ لمن طلب الدنيا وزينتها ولم يفزع إلى قوله تعالى ﴿مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ ﴿٣٩﴾﴾ [الكهف] فإنِّى سمعت الله بعقبها يقول : ﴿فَعَسَىٰ رَبِّى أَن يُؤْتِيَنِى خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ ﴿٤٠﴾﴾ [الكهف]

وعجبتُ لمن اغتمَّ - والاغتمام انقباضُ الصدر وضيق النَّفَس دون أنْ تعرف له سبباً - ولم يفزع إلى قوله تعالى : ﴿لاَّ إِلَـٰهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الأنبياء] فإنِّى سمعت الله بعقبها يقول : ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ[1] وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنجِى الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبياء] يعنى : ليست خاصة به وحده .

هذه من دقائق كتاب الله ولطائفه ، ومَنْ أخذها وِرْداً له لا يمر به شىء من هذا ، ونجَّاه الله منه ووقاه من الخوف ومن المكر ومن الفقر ومن الغَمِّ .

ثم إن استجابة الحق سبحانه لعبده المؤمن لم تقف عند حَدِّ الوقاية من عدوه ، إنما تعدَّتْ إلى العدو نفسه حيث انقلب الحال ودارتْ الدائرة عليه تأمل : ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾﴾ [غافر] أى : نزل بهم وحَلَّ بهم سوء العذاب ، والمراد عذاب الدنيا قبل الآخرة ، لأن الإنسان له فى حياته ثلاث مراحل : الحياة الدنيا التى نعيشها الآن ، ثم حياة البرزخ بعد أن يموت إلى أنْ يُبعثَ يوم القيامة ، ثم حياته بعد البعث .

---

(١) أى : استجبنا ليونس عليه السلام وهو ذو النون صاحب الحوت ، فالضمير فى (له) يعود على يونس ، فاستجاب له ربه ونجَّاه من الغم الذى كان فيه بابتلاع الحوت له .

فقوله : ﴿وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ (٤٥)﴾ [غافر] أى : نزل بهم قبل الحساب وقبل الآخرة ، أما قوله : ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ (٤٦)﴾ [غافر] فالعرض على النار إذن ليس فى الآخرة لأنه قال بعدها : ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ (٤٦)﴾ [غافر]

عندنا عَرْضٌ ودخول ، العرض على النار قبل دخولها ، فهو إما فى الدنيا أو فى البرزخ ، وما داموا لم يُعرَضُوا على النار فى الدنيا فلم يَبْقَ إلا حياةُ البرزخ يُعرَضُون فيها على النار إلى قيام الساعة ، وهذا ما نسميه عذاب القبر ، ثم يأتى دخولهم النارَ بعد البعث والحساب .

وهكذا جمع الله على المسرفين عذاباً فى الدنيا ، وعذاباً فى البرزخ ، وعذاباً أشدّ وأنكَى فى الآخرة .

وكلمة ﴿أَشَدَّ الْعَذَابِ (٤٦)﴾ [غافر] تثبت أيضاً عذابَ القبر ، ففيه عذابٌ شديدٌ لكن عذابَ الآخرة أشدّ ، عافانا الله وإياكم من العذاب .

﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ (١) فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ (٤٧) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ (٤٨)﴾

---

(١) يتحاجون : يتجادلون ويتخاصمون فى النار ، كُلٌّ يلقى باللائمة على الآخر ويحاول تبرئة نفسه ويُحمل الآخر الوزر والذنب فيما وصلوا إليه من مصير مؤلم .

معنى : ﴿يَتَحَاجُّونَ (٤٧)﴾ [غافر] أى : يُحاج بعضهم بعضاً فى النار ، ويُلقى كلٌّ منهم التبعة على الآخر ، يقول (الضُّعَفَاءُ) أى : الأتباع ﴿لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا (٤٧)﴾ [غافر] أى : الزعماء والرؤساء ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا (٤٧)﴾ [غافر] يعنى : تابعين لكم نفعل كما تفعلون ، كنا نسير خلفكم ونقتدى بكم ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ (٤٧)﴾ [غافر] يعنى : هل أنتم مدافعون عنا أو دافعون عنا عذاب النار ، أو هل تحملون عنا ذنوبنا ؟

والقرآن يعطينا صوراً عدة للمحاجَّة وللجدال يوم القيامة ، نقاش بين المؤمنين والكافرين ، بين الأقوياء المتبوعين والضعفاء التابعين ، قال تعالى : ﴿هَـٰأَنتُمْ هَـٰؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَن يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا (١٠٩)﴾[النساء]

ثم يردّ المتبوعون : ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ (٤٨)﴾ [غافر] ومادام الله قد حكم بين العباد فقد قُضِى الأمر ، ولا رادَّ لقضاء الله ، ولا ناقضَ لحكمه ، وكيف يدافعون عنهم وقد سبقوهم إلى النار ، اقرأ قوله تعالى فى موضع آخر : ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ[1] مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَـٰنِ عِتِيًّا (٦٩)﴾ [مريم]

وقال عن فرعون : ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ (٩٨)﴾ [هود]

---

(١) نزع الشىء : جذبه واقتلعه . [القاموس القويم ٢/٢٥٩] قال ابن كثير فى تفسيره (٣/١٣١) : « عن ابن مسعود قال : يُحبس الأول على الآخر حتى إذا تكاملت العدة أتاهم جميعاً ثم بدأ بالأكابر فالأكابر جرماً . وقال قتادة : ثم لننزعن من أهل كل دين قادتهم ورؤساءهم فى الشر » .

﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ (٩٨)﴾ [هود] يعنى : يتقدمهم ويسبقهم إلى النار حتى يقطع عنهم الأمل فى النجاة ، ولو تقدَّموا هم لَقالُوا : سيأتى زعيمنا ويُخلِّصنا مما نحن فيه ، فكيف وقد سبقهم إليها ، ففى هذا تيئيسٌ لهم وقَطْعٌ لآمالهم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ (٤٩) قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۚ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ (٥٠)﴾

نفهم من قوله تعالى على لسان أهل النار : ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ (٤٩)﴾ [غافر] كأنهم أقروا بأنفسهم أنهم ليسوا أهلاً لأنْ ينادوا الله أو يدعوه . لذلك نادوا الملائكة ، فردَّ الملائكة عليهم : ﴿أَوَ لَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ (٥٠)﴾ [غافر] أى : بالحجج والبراهين الدالة على صدق الرسل ﴿قَالُوا بَلَىٰ (٥٠)﴾ [غافر] أى : جاءتنا الرسل بالبينات ، فأقروا على أنفسهم .

﴿قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ (٥٠)﴾ [غافر] أى : دعاؤهم هباء لا يُجدى ولا ينفعهم - ولا يَخْفى ما فى الآية من التبكيت والتقريع للكافرين والاستهزاء بهم .

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٥٢﴾﴾

هذا وعد منه سبحانه أنْ ينصر رسله وأنْ ينصر الذين آمنوا ، كما قال سبحانه : ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣)﴾ [الصافات] لذلك قلنا : إذا رأيت قوماً نسبوا إلى الإسلام وانهزموا ، فاعلم أنه قد اختلَّتْ فيهم شروط النصرة ، وما داموا قد اختلت فيهم شروط النصرة فلابدَّ أن يلقوا جزاء ذلك فى الدنيا ، لأنها سنة لله لا تتبدل .

قوله تعالى : ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ (٥١)﴾ [غافر] جاءت بعد أن قام الرجل المؤمن من آل فرعون يؤيد موسى عليه السلام ، ويدعو بدعوته ، ويجهر بمنطق الحق أمام فرعون ، والمعنى : إنَّا لننصر رسلنا بأىِّ وسيلة من الوسائل ، لأن الله تعالى ما كان ليرسل رسولاً بمنهج جديد يهدى به الضالين ثم يُسلمه .

لكن الحق سبحانه قد يترك أمر الدعوة فى أولها تُضطهد وتُعاند من الخلق ليمحص أهل الدعوة وحتى لا يثبت من حملتها إلا الأقوياء الصناديد ، لأنهم هم الذين سيحملون هذه المهمة على أكتافهم يسيحون بها فى الكون كله ، فلا غرابةَ أنْ يُمحَّصُوا ، وأنْ يختبر إيمانهم ومدى ثباتهم على المبدأ .

رأينا هذا فى المؤمنين الأوائل الذين حملوا راية الإسلام مع رسول الله ، فهاجروا إلى الحبشة ، ثم إلى المدينة ، قال تعالى : ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ (٢)﴾ [العنكبوت]

أبداً ، والفتنة معناها عَرْض الناس على مِحَن وشدائد لا يثبت أمامها إلا أقوياءُ العقيدة الواثقون فى الله وفى نصرة الحق ، والمؤمن الحق هو الذى يرى أن ما بشر به من الوعد والوعيد فى الآخرة أمر واضح لا شكَّ فيه ، لأن الإنسان دائماً لا يخدع نفسه وإنْ خدع الآخرين .

لذلك لما سأل رسول الله ﷺ سيدنا حذيفة[١] : « كيف أصبحتَ يا حذيفة » ؟ قال : أصبحتُ بالله مؤمناً حقاً . ولما كانت كلمة (حقاً) هنا كلمة كبيرة المعنى سأله رسول الله : « وما حقيقة إيمانك » ؟ قال : عزفتْ نفسى عن الدنيا فاستوى عندى ذهبها ومدرها[٢] ، وكأنى أنظر إلى أهل الجنة فى الجنة يُنعَّمون ، وإلى أهل النار فى النار يُعذَّبون ، فقال له : « عرفتَ فالزم »[٣]

ومعنى ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا (٥١)﴾ [غافر] أى : ينصرهم فى الدنيا بأن يغلب حقهم على باطل خصومهم ، لذلك قال سبحانه : ﴿فَإِمَّا

---

(١) هو : حذيفة بن حسل اليمان بن جابر العبسى صحابى من الولاة الشجعان الفاتحين ، كان صاحب سر رسول الله فى المنافقين ، توفى بالمدائن عام ٣٦ هـ ، له فى كتب الحديث ٢٢٥ حديثاً [الأعلام للزركلى ٢/١٧١] .

(٢) المدر : قطع الطين اليابس المتماسك . ومنه قول رسول الله : « لنا الوبر ولكم المدر » عنى به المدن أو الحضر ، لأن مبانيها إنما تُبنى بالمدر أما البدو فمساكنهم الأخبية والخيام

(٣) أورده الهيثمى فى مجمع الزوائد (١/٥٧) وعزاه للطبرانى فى معجمه الكبير من حديث الحارث بن مالك الأنصارى وليس حذيفة ، وقد عزا ابن حجر العسقلانى الحديث لابن المبارك فى الزهد ، انظر « الإصابة فى تمييز الصحابة » (١/٣٤٣) .

نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٧٧)﴾ [غافر] إذن : فهناك نُصْرة فى الدنيا ونصرة فى الآخرة .

ثم يبين سبحانه أن ما يحدث فى الآخرة عليه شهود متعددون يشهدون عليكم فى الآخرة ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ (٥١)﴾ [غافر] والأشهاد جمع شهود ، فالشهود يومئذ كثيرون ، تشهد الرسل والأنبياء : ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ (١٠٩)﴾ [المائدة]

والمؤمنون يشهدون أنهم بلَّغوا مَنْ بعدهم : ﴿هَـٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ .. (٧٨)﴾ [الحج] وتشهد الأبعاض والأعضاء على صاحبها .

وكذلك يشهد علينا الحفظة ، ويشهد الشهداء الذين قاتلوا فقُتلوا ، لأن الإنسان قد يُدلس فى حياته الدنيا لينعم عيشه لكنه لا يخدع نفسه أبداً بعد أنْ يموت ، فهو حريص أن يذهب به الموت إلى خير مما ترك ، ولذلك يجازيه الله .

فلو تطوع إنسان لكى يجاهد فى سبيل الله وهو يعلم أنه سيموت فى سبيل الله يقول الله له : أنت متّ فى الدنيا من أجلى فلا بدَّ أن تكون حياً عندى ؛ لذلك قلنا فى فلسفة الشهادة لما تكلمنا عن سيدنا حمزة[1] أن الشهادة جعلتْ لك من الموت عصمة ، كيف ؟ لأنك حين تختار الموت على الحياة وتستشهد تصير حياً عند الله ، فوصلتَ

---

(١) هو : حمزة بن عبد المطلب ، عم رسول الله ، ولد عام ٥٤ ق هـ ، وتوفى فى غزوة أحد شهيداً عام ٣ هجرية عن ٥٧ عاماً ، هاجر إلى المدينة وحضر بدراً وأحداً . [الأعلام ٢/٢٧٨] .

حياتك الأولى بحياتك عند الله بحياة البعث ، فكأنك لم تمُتْ .

أحَمْزَة عَمّ المصْطفَى أنتَ سَيِّدٌ عَلَى شُهَداء الأرْضِ أجْمعهم طُرّا
وَحَسْبُكَ مِنْ تلْكَ الشَّهادة عِصْمَةٌ مِنَ الموْتِ فى وَصْلِ الحيَاتَيْنِ بالأُخْرى

فمَنْ ضحَّى بحياته لله فكأنه قدَّمها تحيةً لربه وإعلاءً لمنهجه ، فبماذا يُحييك الله ؟ يحييك بأنْ يعصمك بعدها من الموت .

ثم يقول سبحانه : ﴿ يَوْمَ لا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ (٥٢) ﴾ [غافر] يعنى : إن اعتذروا لا يُقبل منهم عذر ، وفى موضع آخر قال : ﴿ وَلا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ (٣٦) ﴾ [المرسلات] كأنها مواقف متعددة ، مرة يعتذرون حين قالوا : ﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ (٣٧) ﴾ [فاطر] ومرة لا يُؤذَن لهم فى الاعتذار ﴿ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (٥٢) ﴾ [غافر]

بعد ذلك يتكلم الحق سبحانه عن موكب رسالة سيدنا موسى عليه السلام .

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ (٥٣) هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ (٥٤) ﴾

(الهُدَى) يعنى : الدلالة على الطريق الموصِّلة إلى الغاية النافعة ، كما قال تعالى فى أول البقرة : ﴿ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ (٥) ﴾ [البقرة] فالدين لم يأت ليكلفكم أو يشقّ عليكم ، إنما جاء الدينُ رحمةً بكم وليكون مركبَ النجاة والهداية الذى تركبونه فيحملكم ويُوصِّلكم إلى الغاية النافعة لكم ﴿ وَأَوْرَثْنَا بَنِى إِسْرَائِيلَ

الْكِتَابَ (٥٣) ﴾ [غافر] أى : التوراة والإنجيل والزبور .

كل هذه الكتب ﴿ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (٥٤) ﴾ [غافر] معنى (ذِكْرى) أى : تذكرةً لأن الإنسان إذا استمر على طبيعته الأصيلة بدون تأثر بعوامل الفساد تظل مناعة العهد[1] القديم ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ (١٧٢) ﴾ [الأعراف] موجودة عنده تحميه ، لكنه قد ينسى هذا العهد وينحرف عن الجادة ، والإنسان من طبيعته النسيان ؛ لذلك تأتى الرسل للتذكرة بهذا العهد الأول . ومعنى ﴿ الْأَلْبَابِ (٥٤) ﴾ [غافر] أى العقول المفكرة المتأملة .

﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ (٥٥) ﴾

كلمة ﴿ فَاصْبِرْ (٥٥) ﴾ [غافر] دليل على أنه ﷺ خُوطب بها فى مواطن شدَّة ، هذه المواطن قال الله فيها : ﴿ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ (٢١٤) ﴾ [البقرة]

وقوله : ﴿ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ (٥٥) ﴾ [غافر] الوعد هو : الإخبار بالخير قبل أوانه ، ووعد الله حق . يعنى : متحقق لأن الوعد أنْ تعدَ إنساناً وتُبشِّره بالخير والنعيم والسعادة ، فهل تقدر وتضمن أن تفىَ بوعدك ؟ لا فربما تموت قبل أنْ يأتى أوانه ، أو تضعف قدرتك التى

---

(١) هو العهد الأول الذى أخذه الله على ذرية بنى آدم ، وقال عنه : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) ﴾ [الأعراف] فأشهدهم على أنفسهم أن الله ربهم وأنه لا إله إلا هو كما أنه تعالى فطرهم على هذا وجبلهم عليه .

تفعل بها فلا تستطيع ، أما إذا جاء الوعد من القيوم القادر الذى لا يُعارَض ، وهو سبحانه بَاقٍ لا يزول ، فهو إذن وعد حَقٌّ لابدَّ أنْ يتحقق .

لذلك يُعلمنا الحق سبحانه ألاَّ تجزم بوعد ، ولا تقوله بصورة القطع لأنك من الأغيار ، يقول تعالى : ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا (٢٣) إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ (٢٤)﴾ [الكهف]

فتعليق الوفاء على المشيئة يعفيك من الاتهام بالكذب لو لم تفعل فلو قلت أفعل كذا وكذا غداً ، هل تملك أسباب الوفاء ؟ هل تملك الزمن أو تضمن القوة الفاعلة ؟ أبداً لا تضمن بقاء شىء من هذه الأسباب ، إذن فَقُلْ : إنْ شاء الله ونزِّه نفسك عن الكذب لو لم تفعل .

وقوله : ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ (٥٥)﴾ [غافر] يعنى : اطلب المغفرة ، وكلمة ﴿لِذَنبِكَ (٥٥)﴾ [غافر] هل تعنى أن الرسول فعل ذنباً ؟ قالوا : رسول الله ﷺ بشر يُوحَى إليه ، وله رأى ببشريته فى الأمور التى لم يأتِ فيها حكم من الله ، حتى إنْ كان رأيُه صواباً فرأى الحق سبحانه أصوب .

لذلك يصوب له ربه ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ (٥٥)﴾ [غافر] فمن أىِّ شىء يستغفر رسول الله ؟ يستغفر الله من استبطاء النصر فى قوله تعالى : ﴿حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ (٢١٤)﴾ [البقرة] فالنصر آتٍ ، فلم استبطاؤه ؟

لذلك وردتْ فى القرآن آيات تثبت أن الرسول ﷺ فعل شيئاً يُعاتَب عليه ، والحق سبحانه صحَّح له وصوَّب له فعله ، لكن كيف جاء هذا العتاب ؟ تأمل قوله تعالى : ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ

(٤٣) ﴾ [التوبة] فقبل أن يعاتبه قدَّم العفو عنه[١].

لكن لماذا أذن الرسول لهؤلاء ؟ قالوا : إن الذى شغل رسول الله فى هذه المسألة أنه قال فى نفسه أن الذى يطلب الإذن منى فى ألاَّ يقاتل إما صادق العذر فلا مانع من الإذن له ، وإما كاذب العذر وهذا لا خيرَ فيه ، وعدمه أفضل من وجوده بين الصفوف ، كما قال تعالى : ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً [٢] وَلأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ (٤٧) ﴾ [التوبة]

ثم إن هذا العتاب لرسول الله ﷺ : ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ (٤٣) ﴾ [التوبة] لم نعلمه إلا من رسول الله نفسه ، ولولا إخباره به ما علمناه ، فهو ﷺ لا يستنكف أنْ يعاتبه ربه ، وأنْ يُصوِّب له اختياره .

وقد أوضحنا هذه النقطة فى مسألة التبنى التى كانت بين سيدنا رسول الله وزيد بن حارثة ، وكيف أن الحق سبحانه لما أراد إبطالَ عادة التبنى جعل نبيه محمداً ﷺ وزيد بن حارثة نموذجاً لهذا الحكم الجديد .

فزيد كان عبداً عند خديجة ووهبته لرسول الله ، ولما علم أهله بوجوده بمكة عند رسول الله جاءوا واستأذنوا فيه رسول الله ، فما كان من رسول الله إلا أنْ خيَّره بين البقاء معه أو الذهاب مع أهله ، فاختار زيدٌ البقاءَ مع رسول الله ، فأراد ﷺ أنْ يكرم زيداً لموقفه منه

---

(١) ذكر ابن أبى حاتم بسنده عن مسعر عن عون قال : هل سمعتم بمعاتبة أحسن من هذا ؟ نداء بالعفو قبل المعاتبة . وكذا قال مورق العجلى وغيره . [تفسير ابن كثير ٢/٣٦٠] قال مجاهد : نزلت هذه الآية فى أناس قالوا : استأذنوا رسول الله (أى فى التخلف عن الجهاد) فإن أذن لكم فاقعدوا وإن لم يأذن لكم فاقعدوا . أى : أنهم فى كل الحالات لن يخرجوا مع رسول الله ، لذلك كان عتاب الله لنبيه محمد فى الإذن لهم ، بل انتظر حتى يتبين لك الصادق من الكاذب

(٢) خبالاً : نقصاناً وخسارة وهلاكاً ، وخبله : أفسد عقله . [القاموس القويم ١/١٨٦] .

وحُبه للبقاء فى صحبته فتبنّاه ونسبه إليه ، فصار زيد من يومها يُعرف بزيد بن محمد .

لكن أراد الحق سبحانه أنْ يبطل هذه العادة ، وأنْ يُحرّم التبنى فأنزل : ﴿ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ (٥)﴾ [الأحزاب]

فمعنى ﴿أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ (٥)﴾ [الأحزاب] أن ما فعله رسول الله قسط وعدل ، لكن حكم الله أقسط وأعدل ، فهل هذا التصويب يُغضب رسول الله ؟ أبداً بدليل أنه ﷺ هو الذى أخبرنا به ولو كتمه رسول الله ما عرفناه .

كذلك فى قوله تعالى فى أسرى بدر : ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ[1] فِي الْأَرْضِ (٦٧)﴾ [الأنفال] لما اختلفوا[2] فى أخذ الفداء من الأسرى ، وعاتب الله رسوله بهذه الآية ، لكن هل تغير الحكم بعد ذلك ؟ لا بل ظل كما هو وقال تعالى : ﴿لَّوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٦٨)﴾ [الأنفال]

---

(١) يثخن فى الأرض : يحارب فيهزم أعداءه ويُعجزهم عن القتال وعن المقاومة . [القاموس القويم ١/١٠٦] .

(٢) كان هذا الأمر فى يوم بدر ، قال ابن مسعود : قال رسول الله ﷺ « ما تقولون فى هؤلاء الأسارى ؟ فقال أبو بكر : يا رسول الله قومك وأهلك استبقهم واستتبهم لعل الله أن يتوب عليهم ، وقال عمر : يا رسول الله كذبوك وأخرجوك فقدمهم فاضرب أعناقهم ، وقال ابن رواحة : يا رسول الله أنت فى واد كثير الحطب فاضرم الوادى عليهم ناراً ثم ألقهم فيه . فسكت رسول الله فلم يرد عليهم شيئاً ثم قال فدخل غرفته ثم خرج عليهم فقال : إن الله ليلين قلوب رجال حتى تكون ألين من اللبن ، وإن الله ليشدد قلوب رجال فيه حتى تكون أشد من الحجارة ... ثم قال : أنتم عالة فلا ينفكنَّ أحدٌ منهم إلا بفداء أو ضربة عنق ، فأنزل الله الآية يعتب عليه ﷺ أنه أخذ بالفداء .

فكان لرسول الله ﷺ أن ينكر هذه المسألة ، خاصة وأن الحكم كما هو لم يتغير ، إذن : نحن لم نعلم معتبة الله على رسوله إلا من الرسول نفسه ، والمتأمل فى عتاب الحق سبحانه لرسوله يجد أنه إما عتاب لمصلحته هو ﷺ ، أو عتاب لأنه جانبَ الصواب الذى حكم به الحق سبحانه ، كما فى هذه المسألة التى ذكرناها .

أما العتاب لمصلحته ﷺ فمثل قوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا النَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ[1] تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ ① ﴾ [التحريم] وهذا كما تعاتب ولدك على كثرة سهره فى المذاكرة وإجهاده لنفسه ، كذلك الحق سبحانه يعاتب رسوله أنه ضيَّق على نفسه وشقَّ عليها طلباً لمرضاة أزواجه .

كذلك عاتبه فى مسألة الأعمى[2] فقال : ﴿ عَبَسَ[3] وَتَوَلَّىٰٓ ① أَن

---

(١) قال السيوطى فى أسباب النزول (ص٢٨٠) : « أخرج الطبرانى بسند صحيح عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ يشرب عند سودة العسل ، فدخل على عائشة فقالت : إنى أجد منك ريحاً ، ثم دخل على حفصة فقالت مثل ذلك ، فقال : أراه من شراب شربته عند سودة ، والله لا أشربه ، فنزلت ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ ① ﴾ [التحريم] وله شاهد فى الصحيحين » .

(٢) هو : عمرو بن قيس بن زائدة بن الأصم (يعرف بابن أم مكتوم) صحابى شجاع ، كان ضريراً ، أسلم بمكة وهاجر إلى المدينة بعد وقعة بدر ، كان يؤذن لرسول الله فى المدينة مع بلال ، حضر حرب القادسية ، ومعه راية سوداء فقاتل وهو أعمى ورجع بعدها إلى المدينة فتوفى فيها قبيل وفاة عمر بن الخطاب عام ٢٣ هجرية . [الأعلام للزركلى ٨٣/٥] .

(٣) عبس الرجل : قطَّب وجهه لضيق صدره من شىء يكرهه . والرجل العبوس : الدائم التقطيب . [القاموس القويم ٤/٢] . وسبب نزول السورة فيما رواه ابن جرير وابن أبى حاتم من طريق العوفى عن ابن عباس أنه بينما رسول الله ﷺ يناجى عتبة بن ربيعة وأبا جهل بن هشام والعباس بن عبد المطلب وكان يتصدى لهم كثيراً ويحرص عليهم أن يؤمنوا=

جَاءَهُ الأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ[1] ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾﴾ [عبس]

والعتاب هنا لأنه ﷺ شقَّ على نفسه حين ترك هذا الأعمى وانصرف عنه لأنه مؤمن ، وذهب إلى صناديد الكفر يدعوهم ، ورأى أنهم أولَى بالدعوة منه .

بعض العلماء[2] أخذوا من قوله تعالى ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ ﴿٥٥﴾﴾ [غافر] دليلاً على عدم عصمة الأنبياء ، وقالوا آخرون : إن حسنات الأبرار سيئات المقربين ، وقد ورد أنه ﷺ قال فى دعائه : « اللهم

= فأقبل إليه رجل أعمى يقال له عبد الله بن أم مكتوم يمشى وهو يناجيهم فجعل عبد الله يستقرىء النبى ﷺ آية من القرآن وقال : يا رسول الله علِّمنى مما علمك الله فأعرض عنه رسول الله ﷺ وعبس فى وجهه وتولى وكره كلامه وأقبل على الآخرين فلما قضى رسول الله نجواه وأخذ ينقلب إلى أهله فأمسك الله بعض بصره وخفق برأسه ثم أنزل الله تعالى : ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١﴾ أَن جَاءَهُ الأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ ﴿٤﴾﴾ [عبس] فلما نزل فيه ما نزل أكرمه رسول الله ﷺ وكلّمه وقال له رسول الله ﷺ : ما حاجتك ؟ هل تريد من شىء ؟ وإذا ذهب من عنده قال : هل لك حاجة فى شىء ؟ » .

(١) لعله يزكَّى : أى لعله يحصل له زكاة وطهارة فى نفسه .

(٢) ذكر القرطبى فى تفسير قوله تعالى : ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ..﴿٥٥﴾﴾ [غافر] عدة أقوال :

- استغفر لذنب أمتك . حذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه .
- استغفر لذنب نفسك . على من يُجوِّز الصغائر على الأنبياء .
- من قال لا تجوز الصغائر على الأنبياء قال : هذا تعبّد للنبى عليه السلام بالدعاء .
- استغفر الله من ذنب صدر منك قبل النبوة .

[القرطبى فى تفسيره ٨/٥٩٧٤]

إنى أستغفرك من كل عمل أردتُ به وجهك فخالطنى فيه ما ليس لك »[١] .

والبعض له فى الآية ملحظ آخر قال : ﴿ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ (٥٥) ﴾ [غافر] لا تدل على وقوع الذنب منه بالفعل ، والمعنى : إنْ فعلتَ ذنباً . أى فى المستقبل استغفر ، مثل قوله تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّبِىُّ اتَّقِ اللَّهَ (١) ﴾ [الأحزاب] فهل معنى هذا أنه ﷺ لم يكُنْ يتقى الله ؟ لا بل هو أمر ابتدائى بالتقوى .

ولا يعنى أنه ﷺ خالف منهجه فأمره الله بتقواه ، كما نرى نحن الآن مخالفاً لمنهج الله فنقول له : يا فلان اتق الله ، يعنى : استقم على منهجه ، واترك المخالفة ، واجعل بينك وبين الله وقاية .

لذلك قال : الأمر فى : ﴿ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ (٥٥) ﴾ [غافر] أمر تعبُّدى ، كما جاء فى قوله سبحانه : ﴿ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ (١٩٤) ﴾ [آل عمران] الأمر هنا أمر تعبُّدى لأننا نقول آتنا ، وهو سبحانه قد وعد رسله بذلك ، فهو أمر متحقق واقع .

ثم نقول للذين يقولون بوقوع الذنب من الرسل : هل خلعهم الله من الرسالة لأنهم ارتكبوا الذنب ؟ أم تركهم رسلاً ؟ بل تركهم وأبقى على رسالاتهم ، إذن : ما قولك أنت إذا كان ما فعله الرسولُ لا ينافى رسالته ، وهو مرضىٌّ عند مَنْ خالفه وأذنب فى حقه ؟

---

(١) ذكره ابن رجب الحنبلى فى كتابه « جامع العلوم والحكم » (ص٢٧) من دعاء مطرف بن عبد الله أنه كان يقول : اللهم إنى أستغفرك مما تبت إليك منه ، ثم عدت فيه ، وأستغفرك مما جعلته لك على نفسى ثم لم أف لك به ، وأستغفرك مما زعمت أنى أردت به وجهك فخالط قلبى منه ما قد علمت .

وقوله : ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ (٥٥)﴾ [غافر] العشى : الوقت من بعد صلاة الظهر إلى آخر النهار ، والإبكار من الفجر إلى الضحى ، فالمعنى : كُنْ دائماً مُسبِّحاً بحمد ربك .

وإذا كان الأمر هنا للرسول ﷺ ومَنْ معه من المؤمنين الذين اشتركوا معه فى العشىِّ والإبكار ، فهو من ناحية أخرى أمرٌ للناس كافَّة فى الزمان وفى المكان لعموم رسالته ﷺ .

إذن : فالعشىُّ والإبكار هنا شائع فى الزمان كله والمكان كله ، فكلٌّ له عشىٌّ وإبكار يناسب زمانه ومكانه ، وهذا يعنى أنْ يظلَّ تسبيحُ الله شائعاً فى الزمان والمكان مستمراً لا ينقطع أبداً ، هذا إذا نظرنا إلى اختلاف الأوقات من مكان لمكان .

لذلك قلنا : إن رَبْط التكاليف والعبادات بدورة الهلال يُراد بها استدامة دورة العبادة لله تعالى ، فلو كانت مرتبطة بالشمس كانت تتحد الأوقات عند الناس ، إنما بحساب الهلال ترى أن هذا يصلى الصبح ، فى نفس الوقت الذى يصلى فيه آخرُ الظهر ، وآخرُ العصرَ ، وآخر المغرب ، وهكذا ، إذن : فالحق سبحانه معبود فى كلِّ وقت بكل وقت .

ومعنى ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ (٥٥)﴾ [غافر] يعنى : تسبيحاً موصولاً بالحمد ، لأن التسبيحَ تنزيهٌ لله تعالى ، وما دام الحق مُنزَّهاً عن كل النقائص فثمرة هذا التنزيه عائدة عليك أنت ، أنت المستفيد من كوْن ربك الذى آمنت به واحداً مُنزَّهاً عن النقائص .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ ﴾

الجدل : هو المراء والأخذ والردّ ، مأخوذ من جَدْل الحبل وفَتْله ، والفتْل عملية تتماسك فيها الخيوط ، وتتداخل بعضها فى بعض بعد أنْ كانت هشَّة متفرقة ، فالجَدْل يحمل معنى التقوية ، تقوية الرأى بالرأى .

والجدل منه جدل بنَّاء يهدف للوصول إلى الحق ، وجدل مراء لا فائدةَ منه ، جدل الحق جدل بسلطان يعنى : حجة وبرهان ، وجدل المِراَء بالباطل . يعنى : بدون سلطان ولا حجة ، والسلطان إما أن يكون سلطانَ قهر يحملك ويُرغمك ويقهرك على الشىء ، وإما سلطان حجة وإقناع ، سلطان القهر يجعلك تفعل وأنت كاره مُجبر ، وسلطان الإقناع والحجة يجعلك تفعل وأنت رَاضٍ مقتنع .

لذلك قال عدو الله إبليس : ﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم ﴿٢٢﴾ ﴾ [إبراهيم]

يعنى : لم يكن عندى سلطان قهر أقهركم به على المعصية ، ولا سلطان حُجة وإقناع أقنعكم به .

لذلك قلنا فى آية السجود لآدم أن الحق سبحانه قال مرة ﴿ مَا

مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ (٧٥)﴾ [ص] وفى موضع آخر قال : ﴿مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ (١٢)﴾ [الأعراف] فواحدة بالإثبات والأخرى بالنفى ، كيف ؟ يعنى : هل جئتَ لتسجد فجاءت قوةٌ منعتك من السجود ؟ أم قوةٌ أقنعتك بعدم السجود فلم تسجد وأنت رَاضٍ مُقتنع بذلك ؟

ومعنى ﴿فِي آيَاتِ اللَّهِ (٥٦)﴾ [غافر] قلنا : إنها على ثلاثة أقسام :

آيات كونية لإثبات الوجود الأعلى وقدرته وبديع صنعه ، ومن هذه الآيات الكونية الشمس والقمر والنجوم والأرض والهواء والماء .. الخ .

الثانية : هى المعجزات التى يجعلها الله للرسل لإثبات صدق الرسول فى البلاغ عن الله .

والثالثة : هى آيات القرآن الكريم التى تحمل أحكام الله إلى الناس ، وتحمل منهج الله بافعل ولا تفعل .

ففى أىٍّ هذه الأنواع يجادلون ؟ قالوا : يجادلون فى المعجزات ، وفى آيات الأحكام ، أما الآيات الكونية فليستْ مجالاً للجدل .

وقوله :﴿بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ (٥٦)﴾ [غافر] هل يعنى هذا أن هناك جدلاً فى آيات الله بسلطان ؟ قالوا : بل المعنى أنه ممتنع أى : ليس فى آيات الله جدل ، المسألة ﴿إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ (٥٦)﴾ [غافر] هذا هو السبب ، ومصدر الجدل فى آيات الله ، كِبْر فى صدورهم يمنعهم من قبول الحق ، ويمنعهم أنْ ينقادوا لرجل منهم ربما ظنوا أنهم أفضل منه .

لذلك فى بعض الآيات يوضح الحق سبحانه أنهم يؤمنون بالقرآن ، لكن اعتراضهم هو على رسول الله كشخص جاء بالرسالة ، وهو واحد من عامة القوم ليس بأعظمهم ولا أغناهم ، يقول تعالى يحكى على لسان الكفار : ﴿وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١)﴾ [الزخرف]

وفى موضع آخر ينكرون الجميع ويقولون : ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢)﴾ [الأنفال] وكان المنطق أن يقولوا : فاهدنا إليه .

وهذا القول منهم دليلٌ على أنهم كارهون للدين جملة ، لأن قلوبهم مشغولةٌ بقضية مخالفة هى شركهم بالله وعبادتهم الأصنام ، هذه العبادة التى شَبُّوا عليها وتوارثوها ، وإذا شُغِل الإنسان بالباطل لا يمكن أن يهدى للحق إلا إذا أخرجتَ القضية الباطلة من قلبه أولاً ، عندها يسمح للحق أنْ يدخل .

لذلك يوضح لنا الحق سبحانه أن مسألة العقائد لا تُنَاقش فى جمهرة الناس ، إنما تتأملها بينك وبين نفسك ، وإنْ كان لا بدَّ من المشاركة ، فواحد فقط ، لماذا ؟ لأنك حين تجلس بمفردك أو مع شخص واحد معك يثمر النقاش ولا تتسع دائرة الخلاف ، فيكون أدْعَى للوصول إلى الصواب ، وإذا انهزم واحدٌ منكما فلن ينهزم أمام جمهرة الناس ، وساعتها لن يكابر ولن يعاند وسيعود إلى الحق ويرجع إليه دون حرج .

لذلك يقول سبحانه : ﴿إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ

وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ[1] (٤٦)﴾ [سبأ] يعنى : لا تبحثوا مسائل العقيدة جماهيرياً ؛ لأن الجماهير لا ضابط لها ، وتفكيرها الجماعى يؤدى إلى الخَلْط والغوغائية ، فكُنْ بمفردك حتى لا يداخلك هَوَىً فتميل معه .

والكبر فى قوله تعالى :﴿إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ (٥٦)﴾ [غافر] إنْ بمعنى ما فى صدورهم إلا كِبْر . يعنى : تَعَالٍ على الحق الذى يأتى به الرسول ، هذا الكبر أو التكبر هو الذى منعهم من الاستماع للرسول ، وجعلهم يتعالوْنَ عليه ، ذلك لأنهم كانوا فى مجتمعهم سادةً ، واستماعهم لرسول الله وطاعتهم له سيجعلهم مسُودين لمن يسمعون منه ويطيعونه .

ومعلوم أن قريشاً كان لها السيادة على كافة العرب ، هذه السيادة جعلتهم متمكنين من رحلاتهم التجارية بالشتاء والصيف ، ويتنقلون بها دون أنْ يتعرَّض لهم أحد ، لماذا ؟

لأن قبائل العرب جميعها تأتى إلى قريش فى مكة موسم الحج ، ويكونون فى ضيافة قريش ورعايتها وفى باطنها ، فالبيت الحرام وحجه هو الذى أعطى قريشاً هذه المكانة وهذه المهابة ؛ لذلك قال سبحانه : ﴿لإِيلافِ قُرَيْشٍ (١) إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (٢) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ (٤)﴾ [قريش]

وقال سبحانه : ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ .. (٦٧)﴾ [العنكبوت]

---

(١) الجِنَّة : الجنون . وتجنن عليه وتجانن وتجانّ : أرى من نفسه أنه مجنون . قاله الأزهرى فى الصحاح مادة جن .

والدليل على ذلك أنهم لما رأوا فى الأصنام آلهةً لا أوامرَ لها ولا تكاليفَ رَضُوا بها وعبدوها من دون الله ، ومع ذلك لما أرادوا مكاناً يكرمون به هذه الآلهة لم يجدوا إلا الكعبة يضعون أصنامهم حولها ، إذن : فالكعبة لها قداسة عندهم رغم كفرهم بالله .

هذا هو الكِبْر الذى منعهم من قبول الحق ، وهذا الكبر وصفه الله بقوله ﴿مَّا هُم بِبَالِغِيهِ (٥٦)﴾ [غافر] يعنى : ليس عندهم دواعى الكبر ، فهو كِبْر كاذب لأن الذى يتكبَّر ينبغى أن يتكبر بشىء ذاتى فيه لا بشىء عارض ربما يُسلب منه ، فهو كبر كاذب كمَنْ يتكبّر بقوته وعافيته أو بماله أو بسلطانه .

وقوله تعالى : ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ (٥٦)﴾ [غافر] لأن الاستعاذة بالله تعنى أن شيئاً جاء فوق أسبابك المادية فلا تقفْ أمامه مكتوفَ الأيدى ، إنما توجَّه إلى ربك الذى أرسلك وقُلْ له : إن هذا الأمر أعجزنى وفاقَ طاقتى فاحمله عنى ، لذلك قال سبحانه : ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ (٦٢)﴾ [النمل]

فإذا عزَّتْ الأسباب فتوجَّه إلى المسبِّب ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (٥٦)﴾ [غافر] هذان من صفات الكمال المطلق لله تعالى السمع والبصر ؛ لأن كل حركات جوارح الإنسان عملٌ ، فاللسان له عمل ، واليد لها عمل ، والرِّجْل لها عمل .

وهذا العمل ينقسم إلى قسمين : إما قول وإما فعل ، القول أخذ وحده شطر العمل وهو عمل اللسان ، وباقى الجوارح عملها يُسمى (فعل) .

لذلك قال تعالى : ﴿يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ

(٢) ﴾ [الصف] فذكر القول والفعل ، وكله يُسمَّى عملاً ، فالسمع لما يُقال ، والبصر لما يُفعل ، فالحق سبحانه يُبيِّن لرسوله ﷺ منزلة الاستعاذة ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ (٥٦)﴾ [غافر] لأنه سميع لكل ما يُقال ، بصير بكلِّ ما يُفعل .

﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٥٧)﴾

اللام فى (لَخَلْقُ) تدل على القسم ، وكأن الحق سبحانه يقول : وعزَّتى وجلالى لخَلْق السموات والأرض أكبر من خَلْق الناس ، كيف ؟ قالوا : لأن الناس فى الدنيا أعمارهم متفاوتة : واحد عمره لحظة ، وواحد عمره ساعة ، وواحد عمره مائة عام إلى عمر نوح عليه السلام ، فأين عمرى من عمر الشمس مع أنها خُلقتْ لخدمتى ، أيكون الخادم أطولَ عمراً من المخدوم ؟

إذن : لا بدَّ أن لك عمراً آخر باقياً بعد ذهاب الشمس وغيرها من المخلوقات التى تخدمك ، وهذا لا يكون إلا فى الآخرة . قالوا : العمر له طول لا يعلمه إلا الله وله عَرْض قد يفوق الطول ، وكذلك جعل له حجماً وعمقاً ، فالله الذى حدد العمر زمناً من الممكن أن الإنسان يأخذ عمره طولاً ، لكن يمكنه أن يزيد فى عرضه فيكون العرض هو البُعد الأطول ، بمعنى أن يوسع دائرة نشاطه لينفع نفسه وينفع مجتمعه ويبقى له ذكرى طيبة بعد موته ، فكأنه أضاف بنشاطه إلى عمره أعماراً .

لذلك نقول : إن أوطان الناس تتحدد على قدر هممهم ، فواحد وطنه نفسه يريد كل شىء له وهو ليس لأحد ، وهذا هو الأنانى ،

وواحد وطنه أسرته ، وآخر وطنه قبيلته ، وآخر وطنه بلده ، وواحد وطنه العالم كله ، فكلما ازدادت الهمّة اتسعتْ دائرة الوطن وزادتْ رقعته .

وحين نقول : إن الشمس أطولُ عمراً منى نلاحظ أنك أيها الإنسان كائن حَىّ تأكل وتشرب ، أما الشمس فجماد لا تأكل ولا تشرب ، أنت لك قانونُ صيانة ويعتريك المرضُ وغيره لأنك ابنُ أغيار ، أما الشمس فليس لها شىء من هذا فليس لها قانون صيانة ولا يعتريها ما يعتريك ؛ وهى منذ خلقها الله تعمل دون توقّف ودون خَلَل ودون صيانة ، والآلة التى بهذا الوصف تدل على قدرة خالقها وعظمة مبدعها .

لذلك نقول : إذا نظرنا إلى خَلْق السموات والأرض لوجدناه فعلاً أكبر من خَلْق الناس : ﴿ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [غافر] لكن ما معنى (لاَ يَعْلَمُونَ) الكون يقع تحت حواسِّنا ، ونراه بأعيننا ، وكان ينبغى حين نرى هذا الكون بما فيه من إبداع أن نفكر فيه ، وفى عظمة خَلْقه ودقَّة نظامه ، وكم هو محكم منضبط لا يتخلف أبداً .

ألسنا الآن بالعلم نستطيع أنْ نحدد وقت الكسوف مثلاً بالدقيقة والثانية ؟ وكأن الحق سبحانه جنَّد حتى غير المسلمين لإظهار صدق آياته الكونية ، وكيف أنها منضبطة انضباطاً لا يمكن لأحد أنْ يفسده، لذلك قلنا : إنك إذا رأيت خللاً أو فساداً فى الكون فاعلم أن يد الإنسان المختار تدخلتْ فيه ، والشىء الذى نتركه على طبيعته لا يمكن أنْ نرى فيه خللاً أو فساداً .

﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓـُٔ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾

نعم لا يستوى مَنْ يهمل آيات الله ولا يتأملها مع مَنْ يفكر فيها ويستنبط منها ويهتدى بها ، فالذى لا يتفكر فى هذه الآيات مثل الأعمى لأنه لا يتنبه لآيات الكون التى هى أكبر من خَلْق الناس ، وإذا كانت هذه الآيات الكونية أكبر فى الخَلْق وأعظم من خلق الناس ، فكيف تغفل عنها ، ومنها يمكن أن تأخذ الدليل على وجود واجب الوجود الأعلى سبحانه ، وعلى طلاقة قدرته وإبداع صنعته .

وكما أنه لا يستوى الأعمى والبصير ، كذلك لا يستوى عند الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات مع المسىء ، وهذا مظهر من مظاهر عَدْله سبحانه :﴿قَلِيلاً مَّا تَتَذَكَّرُونَ (٥٨)﴾ [غافر] يعنى : قليلٌ منكم مَنْ يتذكر ذلك .

﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (٥٩)﴾

يُذكِّرنا الحق سبحانه بهذه الحقيقة التى طالما تغيب عن الأذهان ، وكان يجب عليكم ألاَّ تغفلوا عنها ، لأن المسألة ليستْ مجرد علم بشىء ، إنما المسألة أبعد من ذلك ، إنه احتياط لما سيحدث ولما سيأتيكم .

﴿إِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ (٥٩)﴾ [غافر] أى : القيامة ﴿لاَّ رَيْبَ فِيهَا (٥٩)﴾ [غافر] لا شكَّ ، وما دام أن الساعة آتية لا شكّ فيها فلا بدَّ أن نستعدّ لها ، فلو كنتَ قد خُلقت وتُركتَ هكذا وانفلتَّ من الله لكانَ لك أنْ تفعل ما تشاء ، لكن ماذا وأنت لك مرجع إلى ربك ومردٌّ إلى

خالقك ، وموقفٌ للحساب والجزاء ؟ إذن : لا مفر لك من أن تحمى آخرتك ، وهى الغاية العظمى التى ليس بعدها بعد .

وقوله : ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ (٥٩) ﴾ [غافر] أى : لا يعلمون هذه الحقائق أو يغفلون عنها ، مع أن العقل المجرد لا بدَّ أنْ يهتدى ويعتقد بوجود الساعة والحساب والجزاء ، لماذا ؟ لأنك حين تنظر إلى الكون تجد المرتبط فيه بمنهج افعل ولا تفعل ، ويسير وفْق هذا المنهج تجده مُؤدَّباً مع الكون منْ حوله لا يأتى منه فساد ولا تعدٍّ ، وتجد المنحلَّ الذى انفلتَ من هذا المنهج مصدرَ إزعاج وفساد للكون من حوله ، فهل يستويان فى العقل مجرد العقل ؟

هل يستوى المصلح والمفسد ؟ مَنْ عربد فى الكون وآذى خَلْق الله وأتعب الدنيا كلها ومَنْ أصلح الكون وأسعد الناس وأعانهم ؟ ثم ألسْنَا فى عملية التعليم نُجرى للتلاميذ اختبارات آخر العام ونقول : هذا ناجح ، وهذا راسب ؟ ألسنا نضع فى دنيانا قواعدَ للثواب والعقاب تقضى بمكافأة المحسن ومعاقبة المسىء ؟

إذن : فلماذا ننكر الحساب يوم القيامة يوم يُجازى كُلٌّ بما عمل ، حتى الناس الذين لا يؤمنون بالآخرة يؤمنون بمبدأ الثواب والعقاب ، وعندهم عقوبات على الجرائم ضد المجتمع لتأديب الخارجين على القانون ، فإذا كنتَ فى دنياك جعلتَ العقوبات وجرَّمت بعض الأفعال وعاقبتَ عليها لتستقيم حركة حياتك الدنيا ، فلم تنكر هذا المبدأ مع الله فى الآخرة ؟

أيُعقل أن تكون حركة الناس جميعاً فى الدنيا من أولها إلى آخرها متروكة هكذا دون حساب ، دون ثواب للمحسن وعقاب للمسىء .

والله ، لو كان الأمر كما يدَّعُون وينكرون فقد فاز المنحرفون المجرمون ، وربح المخالفون الخارجون على القانون والدين ، حيث فعلوا ما فعلوا ، وظلموا ما ظلموا ، وأفلتوا بجرائمهم ، وما خسر فى هذه الصفقة إلا المؤمنون والمستقيمون الذين ألزموا أنفسهم بمنهج دون فائدة .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ (٥٩) ﴾ [غافر]

يعنى : أن المسألة ليستْ قائمة على العقل إنما على الإيمان ، فلو تركتْ للعقل لقلنا ما قلناه الآن ، لكن أمرَ الساعة قائمٌ على الإيمان والعقيدة ، والذى يريد ألاَّ يرتبط بالإيمان وأنْ ينفلت من قيوده يريد ألاَّ يقيد حركته فى الوجود بمنهج افعل ولا تفعل ، يريد أن يكون حُراً يسير فى الحياة على هواه .

لذلك قلنا : إن الذين عبدوا الشجر والحجر عبدوها لأنها آلهة لا منهج لها ولا تكاليف ، وهذه العبادة فى معناها باطلة ، لأن العبادةَ تعنى : طاعة العابد لأمر المعبود ، فهذه الآلهة التى تزعمونها بِمَ أمرتكم ؟ وعمَّ نهتكم ؟ ماذا أعدَّتْ لمن عبدها ؟ وماذا أعدتْ لمن كفر بها ؟

إذن : أنتم ما ارتضيتُم هذه الآلهة إلا لتسيروا فى الحياة بلا قيود ، وبلا تكاليف ، وبلا منهج وبلا ضابط لشهواتكم .

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ (٦٠) ﴾

معنى ﴿رَبُّكُمُ (٦٠)﴾ [غافر] من تولى تربيتكم ، والتربية هنا تعنى الإيجاد من العدم والإمداد من عُدْم ، وما دام هو ربى فأنا مسئولٌ منه يضمن لى رزقى وعيشى فى الدنيا ، وقبل ذلك أعطانى الجوارح التى تعمل ، والأعضاء التى بها أعيش ، فهو ربى وخالقى الذى استدعانى للكون ، ووفَّر لى فيه أسبابَ الحياة .

لذلك لما أراد سبحانه أنْ يجعل نموذجاً فى الكونِ جعله بحيث يتعاطف الكونُ مع ذاته ويتكامل فى نفسه ، فجعل هذا قوياً ، وهذا ضعيفاً ، هذا صحيحاً وهذا مريضاً .

فالقوى حركته فى الحياة حركة كاملة قوية تزيد عن حاجته ، وقال له : ما زاد عن حاجتك اجعله للضعيف الذى لا يقدر على الحركة ، والخالق سبحانه قادر على جَعْل الناس جميعاً أقوياء ، لكن أراد أنْ يرتبط الخَلْق فى حركة الحياة ارتباطَ حاجة لا ارتباطَ تفضُّل ؛ لأن الارتباط لا يأتى بقانون التفضُّل ، فالتفضل لا إلزامَ فيه ، والمتفضل بالشىء حُرٌّ ، يفعل أو لا يفعل .

وقوله : ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ (٦٠)﴾ [غافر] يعنى : فيما عجزتُم عن أسبابه ولن تقدروا عليه ، ولم تجدوا من بيئتكم عَوْناً عليه ، فليس لكم إلا التوجُّه إلىَّ تدعوننى ، فأستجيب ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ (٦٢)﴾ [النمل] فأنا ربكم وخالقكم استدعيتُكم إلى الوجود ومنحتكم الأسباب والجوارح ، واستخلفتكم فى الأرض ، فليس لكم ملجأ غيرى تلجأون إليه إنْ عزَّت عليكم الأسباب .

أما إنْ كانت الأسبابُ ميسَّرة لكم ، وقام كلٌّ مكلَّف بدوره ، فلا تتركوا الأسباب وتقولوا : يا ربِّ ، عليكم بما فى أيديكم من الأسباب

أولاً ، زاولوها فإنْ ضاقتْ بكم فاذهبوا إلى المسبِّب .

لكن نلحظ فى هذه المسألة أن الله تعالى أمرنا بالدعاء ووعدنا الإجابة ، ومع ذلك منا مَنْ يدعو فلا يُستجاب له ، فلماذا ؟ قالوا : لأنك تدعو وأنت غير مُضطر ، فلو كنتَ فى حالة الاضطرار لاستُجيبَ لك . أنت تسكن فى مسكن محترم وتدعو الله أن يكون لك (ڤيلا) أو قصر ، فإنْ أعطاك القصر قلت : أريد عمارة تصرف على القصر ، هذا دعاء عن ترف لا عن اضطرار ، والإجابة هنا مشروطة بالمضطر.

والحق سبحانه وتعالى لا يُعفى عبداً من مسئولية استطراق النفع للعباد ، قالوا : لأن الواجد يبذل ، وغير الواجد ينصح الواجد ، فإنْ نصحت دون جدوى فلن تبرأ ذمتك حتى بعد ذلك .

ولو قرأتَ القرآن تجد قوله تعالى : ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٩١)﴾ [التوبة]

متى هذا ؟ قالوا : إذا لم يكن عندك مال لا بدَّ أنْ تنصح ﴿إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ (٩١)﴾ [التوبة] نصحت ولم يستجب لك . قالوا : اقدر على نفسك ، كيف ؟ ﴿وَلا عَلَى الَّذِينَ[1]

---

(١) قال الواحدى فى كتابه « أسباب النزول » (ص ١٤٨) : « نزلت فى البكائين وكانوا سبعة : معقل بن يسار وصخر بن خنيس وعبد الله بن كعب الأنصارى وسالم بن عمير وثعلبة بن غنمة وعبد الله بن مغفل أتوا رسول الله ﷺ فقالوا : يا نبى الله إن الله عز وجل قد ندبنا للخروج معك ، فاحملنا على الخفاف المرفوعة والنعال المخصوفة نغزُ معك ، فقال لا أجد ما أحملكم عليه ، فتولوا وهم يبكون » .

إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ (٩٢)﴾ [التوبة] فهل أعفى أحداً ؟ لا بل حثَّ الجميع على أنْ يفعلوا : إما بذل المال ، وإما بذل المقال ، فإذا لم تستطع هذا ولا ذاك فيجب أنْ تحزن لأنك لم تشارك ، ولا يكفى هنا الألم الوجدانى ، بل لا بدَّ أنْ يصحبه انفعال عاطفى ينتج عنه بكاء ، تبكى أنك لم تجد شيئاً تنفقه فى سبيل الله .

إذن : المسألة استطراق نفعى فى الكون ، هذا الاستطراق لا يدعُ أحداً منا فى حاجة .

وبعد ذلك نقول له : أأنت فقير عَجْز أم احتراف ؟ إنْ كان فقير احتراف لا يُحسب ولا يُؤْبه له ، وإنْ كان فقير عجز فله أنْ يجلس فى بيته مُعززاً مكرَّماً ، والغنى هو الذى يذهب إليه ويعطيه حقَّه ، فالقادر إذن أصبح فى خدمة غير القادر .

وقوله : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ (٦٠)﴾ [غافر] معنى : ﴿يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي (٦٠)﴾ [غافر] أى : عن دعائى والذلة لى ، وإظهار الحاجة إلىّ ، لذلك قال أهل المعرفة : لا يكُنْ حظك من الدعاء أنْ تُجاب ، لكن اجعل حظك من الدعاء ذلةَ محتاجٍ لمن معه الخير ، هذه هى معنى العبادة هنا ؟

لذلك تجد ربك عز وجل دائماً يُصحِّح لك خطأك فى الدعاء : ﴿وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً (١١)﴾ [الإسراء]

فقد تدعو أنت لنفسك بشرٍّ تحسبه خيراً ، ومن رحمة الله بك ألاّ

يستجيب لك ، لذلك قلنا فى الثناء على الله تعالى : سبحانك يا مَنْ تُصوِّب خطأ الداعين بألاَّ تستجيب ، وبذلك حميتنا من الضر ، فكم يدعو الإنسان بالشر دعاءه بالخير .

وقلنا فى ذلك : ما حال المرأة التى نسمعها تدعو على ولدها تقول : إلهى أشرب نارك ؟ فمن رحمة الله بها ألاَّ يستجيب لها ، إذن فى المتع هنا عطاء .

لكن لماذا ﴿سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [غافر] أى : منكسرين صاغرين أذلاء ، قالوا : لأنك لا تدعو واحداً إلا إذا كنتَ مطيعاً له ، لأن الدعاء والعبادة متساويان ، لذلك قال ﷺ : « كل أمر لا يُبدأ باسم الله فهو أبتر »[1] يعنى : لا بركة فيه .

وعلمنا أن نقول : بسم الله الرحمن الرحيم . يعنى : أنا أبدأ عملى ببسم الله لكى تكون يد الله معى فى الفعل ، فما معنى (الرحمن الرحيم) هنا ؟

قالوا : ربما كنت عاصياً فأذكر له سبحانه صفة الرحمة ، لأنه سبحانه لا يتخلَّى عن عبده حتى لو كان عاصياً ، فهؤلاء سيدخلون النار داخرين أذلاء لأنهم استنكفوا[2] أنْ يدعوا الله واستكبروا عن عبادته ، فالنار جزاء الاستكبار .

---

(١) أخرج أحمد فى مسنده (٣٥٩/٢) عن أبى هريرة رضى الله عنه : « كل كلام أو أمر ذى بال لا يفتح بذكر الله عز وجل فهو أبتر . أو قال : أقطع » .

(٢) استنكفوا : أى امتنعوا وأنفوا وكرهوا واستكبروا أن يدعوا الله ويعبدوه .

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ[١] لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ﴾

الحق سبحانه يذكر هنا آيتين من آياته الكونية هما آية الليل وآية النهار ، الليل نعلمه وهو من مغيب الشمس إلى شروقها ، والنهار نعلمه وهو من شروق الشمس إلى غروبها ، هذا زمن والزمن وعاء الأحداث ، وما دام الزمن وعاءَ الأحداث فلكلِّ حدث زمنٌ يقع فيه .

فالحدث الذى يحتاج عملاً له وقت ، فحين تعمل بالنهار تتعب جوارحك وتحتاج إلى وقت للراحة ، فجعل لك الخالق سبحانه الليل تستريح فيه والنهار تعمل فيه ، تستريح بالليل لتستعيد قوتك ونشاطك للعمل فى النهار التالى ، وهكذا .

فإنْ طرأتْ عليك ظروف منعتْك من راحة الليل ، فكيف تكون بالنهار ؟ تكون متعباً لا توجد لك قوة تعالج بها شيئاً ، فكأن الله تعالى يريد أن يُعلِّمنا أن من خلقه متقابلات ، ومن حُمْق البشر أنْ جعلوها متعاديات ، وهى فى الحقيقة متكاملات .

واقرأ إنْ شئتَ قوله تعالى : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ[٢] ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣﴾ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾ ﴾ [الليل]

---

(١) جعل هنا بمعنى خلق . والعرب تفرق بين جعل إذا كانت بمعنى خلق وبين جعل إذا لم تكن بمعنى خلق فإذا كانت بمعنى خلق فلا تعديها إلا إلى مفعول واحد ، وإذا لم تكن بمعنى خلق عدَّتها إلى مفعولين . نحو قوله ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا .. ﴿٣﴾ ﴾ [الزخرف] . [تفسير القرطبى ٥٩٧٨/٨] .

(٢) تجلى : ظهر ظهوراً قوياً وتبدى وتكشَّف . [القاموس القويم ١٢٦/١] وقال ابن كثير فى تفسيره (٥١٨/٤) : ﴿ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ ﴾[الليل] أى : بضيائه وإشراقه .

وهذا يعنى أن لليل مهمة ، وللنهار مهمة ، وللذكر مهمة ، وللأنثى مهمة ، فلا تظنوا عداءً بين الليل والنهار ، ولا بَيْنَ الذكر والأنثى ، فكُلٌّ منهما مكمِّل للآخر وبينهما تساند لا تعاند كما يظن البعض .

لذلك يقول تعالى فى آية أخرى : ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا[1] إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٧٢)﴾ [القصص]

وتأمل تذييل الآية هنا وهنا : ففى الليل قال ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ (٧١)﴾ [القصص] لأن الليل تتعطل فيه حاسة البصر ، وتبقى الأذن تسمع ، وهى آلة الاستدعاء ليلاً ، أما فى النهار فقال : ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٧٢)﴾ [القصص] لأن البصر يكون فى النهار .

كلمة سرمد ، بعض المفسرين يرى أن الليل ليس سرمداً ، كذلك النهار بمعنى أنه ليس دائماً مضطرداً ، لكن إذا نظرنا إلى حركة الأرض وتعاقُب الليل والنهار وجدنا فيهما سرمدية ، لأن الليل حين يغادرنا يذهب إلى آخرين لا أنه سرمد وينتهى .

فهما إذن دائمان سرمديان ، لكن السرمدية المنفعية هى السرمدية بالنسبة للمكان الواحد ، فلهما سرمدية فى ذاتهما سرمدية فى كل مكان ، أمَّا سرمدية المكان الواحد فتنتهى لتبدأ فى مكان آخر .

لذلك يقول تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن

---

(١) السرمد : دوام الزمان من ليل أو نهار . وليل سرمد : طويل . وقال الزجاج : السرمد الدائم فى اللغة . والسرمد : الدائم الذى لا ينقطع . [لسان العرب – مادة : سرمد] .

يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً (٦٢)﴾ [الفرقان] خلفة : يعنى يخلف كلّ منهما الآخر ، فالليل يخلف النهار ، والنهار يخلف الليل ، هذا الآن واضح لنا كآية كونية ، لكن ماذا عن بَدْء الخَلْق أيّهما كان أولاً وخلفه الآخر؟

قالوا : فى البدء خلقهما الله معاً فى وقت واحد ، لأن الشمس خُلقت مواجهة للأرض ، فما كان من الأرض ناحية الشمس كان نهاراً ، وما حُجِب عنها فى الناحية الأخرى كان ليلاً ، ثم دارتْ الأرض فى فلكها فتعاقب الليل والنهار ، وهذا دليل على كروية الأرض ولو كانت مسطحة ما أمكن ذلك .

والعظمة فى قوله : ﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِراً (٦١)﴾ [غافر] أى : مُبصَراً فيه ، وقديماً كانوا يعتقدون أن شعاع الرؤية يخرج من العين إلى المرئى ، إلى أنْ جاء العالم المسلم الحسن بن الهيثم[1] وأثبت عكس ذلك ، وبيَّن أن الشعاع يأتى من الشىء المرئى إلى العين فتراه ، بدليل أنك لا ترى ما فى الظلام وترى ما فى النور حتى لو كنتَ أنت فى ظلام ، لأن الشعاع ينعكس من المرئى فتراه .

وعليه فالنهار نفسه (مُبْصراً) : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ (٦١)﴾ [غافر] نعم الله صاحب الفضل والتفضل على الناس جميعاً ، لأنه سبحانه أعطاهم بلا حَقٍّ لهم عليه سبحانه ، فهو متفضل فى

---

(١) الحسن بن الهيثم : محمد بن الحسن بن الهيثم أبو على ، مهندس من أهل البصرة ، يلقب ببطليموس الثانى ، له تصانيف فى الهندسة ، بلغ خبره الحاكم بأمر الله الفاطمى ونقل إليه : لو كنت بمصر لعملت فى نيلها عملاً يحصل به النفع فى حالتى زيادته ونقصه فدعاه إلى مصر ووصل إلى جنوب أسوان وأشار ببناء سد هناك ولكنه لم يستطع تنفيذه . كتبه كثيرة تزيد على السبعين منها المناظر . ولد ٣٥٤ هـ وتوفى نحو ٤٣٠ هـ . [الأعلام للزركلى ٨٣/٦] .

الإيجاد من عَدَم ، ومتفضل فى الإمداد من عُدْم ، ومتفضل فى التكليف ، نعم حتى فى التكليف متفضل ، كيف ؟

قالوا : لأنه حين كلّفك كلّفك بشىء يعود نفعه عليك أنت ، ولا ينتفع هو منه بشىء ، ثم بعد ذلك جازاك عليه ، وجعل لك ثواباً ، فكأنه سبحانه تفضَّل عليك فى التكليف مرتين .

وقوله : ﴿ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ (٦١) ﴾ [غافر] هذا يعنى أن القلة هى الشاكرة ، ويُعرف الشكر بزيادة النعم ، فالشكر وزيادة النعمة متلازمان ، وقد وعد الحق سبحانه : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ (٧) ﴾ [إبراهيم]

﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ
لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٦٢) كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ
ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ (٦٣) ﴾

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكُمُ (٦٢) ﴾ [غافر] إشارة إليه سبحانه . أى : الذى فعل لكم كذا وكذا ، وتفضَّل عليكم هو الله ربكم ﴿ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ (٦٢) ﴾ [غافر] وهذه مسألة لم ينكرها أحد ، ولم يدَّعها أحدٌ لنفسه ﴿ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ (٦٢) ﴾ [غافر] هكذا حكم بها الحق سبحانه لنفسه بأنه لا إله إلا هو .

إذن : فأنت تؤمن بالله ، والله سبحانه آمن بذاته ، وشهد لنفسه بهذا ، شهد لنفسه أنه لا إله إلا هو قبل أنْ يشهد بها أحد ، لذلك يطلق سبحانه كلمة كُنْ ، ويعلم أنها نافذة لأنها كلمته وليس لها معارض ، وليس هناك إله آخر يردّها أو يُعدِّلها أو يعترض عليها .

قال تعالى : ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٨)﴾ [آل عمران] قالوا : شهد الله لنفسه سبحانه شهادةَ الذات للذات ، وشهدت الملائكة شهادةَ المشهد ، وشهد أولو العلم شهادة الاستدلال .

والحق سبحانه ساعة يقول ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ (٦٢)﴾ [غافر] يطلقها هكذا قضية عامة على إطلاقها ، نقول : إما أنْ تكون قضية صادقة أو غير ذلك - وحاشا لله - فإنْ كانت صادقة فقد ثبتت الحجة ، وإنْ كانت غير ذلك فأين خالق كل شيء ؟

أين خالق هذا الكون إذا لم يَكُنْ الله هو خالقه ؟ مَنْ هو ؟ ولماذا سكت ولم يخبر عن نفسه ؟ إنْ كان لا يدرى بوجود الله فهو إله نائم غافل لا يصلح للألوهية ، وإنْ كان يدرى بوجود الله الذى أخبر هذا الخبر ولم يعارضه فهو عاجز ، والإله لا يكون أبداً عاجزاً .

لذلك قال سبحانهُ مؤكِّداً على صحة هذه القضية : ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لاَّبْتَغَوْا إِلَى ذِى الْعَرْشِ سَبِيلاً (٤٢)﴾ [الإسراء] يعنى : لذهبوا إلى الإله الحق ليناقشوه كيف أخذ منهم الخَلْق ؟ وكيف ادعاه لنفسه ؟ وهذا لم يحدث .

وقوله : ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٦٢)﴾ [غافر] أى : تُصرفون عن الحق الذى يقول به العقل وتثبته الحجج والبراهين والواقع ، فالحق فى هذه القضية واضح ، وقد أطلقت هذه القضية وأخبرت بها ولم يَقُمْ لها معارض ، ولم يدَّعها أحدٌ لنفسه ، ومعلوم أن القضية تثبت لصاحبها ما دام ليس لها معارضٌ .

وسبق أنْ أوضحنا هذه المسألة وقلنا : هَبْ أن جماعة جلسوا فى

مكان ، ولما انصرفوا وجد صاحب المكان محفظة نقود فقال لخادمه : ابحث عن صاحب هذه المحفظة ، فأخذ الخادم يتصل بهم واحداً واحداً فلم يقُلْ أحد منهم أنها لى ، ثم طرق البابَ واحدٌ منهم . وقال : والله لقد نسيتُ محفظتى هنا ، فلمن تكون إذن ؟ تكون لمن ادَّعاها إلى أنْ يظهر مُدَّعٍ آخر .

وقوله : ﴿ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٦٣) ﴾ [غافر] أى : يُصرفون عن هذا الحق الواضح البيِّن ، ومعنى يجحدون الآيات . أى : ينكرونها كِبراً واستعلاءً ، فهم لا يجحدونها ولا ينكرونها لدليل عندهم ولا لمنطق يعتمدون عليه ، إنما يجحدونها لأنها آياتُ الله وهم لا يريدون الله ، ولا يريدون منهج الله .

إنهم يخافون هذا المنهج الذى يُؤدِّب حركتهم فى الحياة ويُقيد شهواتهم ، إنهم يريدون أنْ ينطلقوا فى الحياة بشراسة القوة والبطش بالناس وبشراسة الشهوات التى لا ضابط لها ، فجحود الآيات هو سبب الانصراف عن الحق ، فكأنه أمر غير طبيعى منهم .

لذلك رأينا كفار قريش تكبروا عن قبول الحق وعاندوا رسول الله ، ولم ينطقوا أبداً بلا إله إلا الله ولو مجرد النطق بها ككلمة ، لماذا ؟ لأنهم يعرفون معناها تماماً ويعلمون مطلوباتها ، ولو كانوا يعلمون أنها مجرد كلمة تُقال لَقالوها ، لكنهم وهم العرب أصحاب هذه اللغة يعرفون أن معنى لا إله إلا الله : لا معبود إلا الله ، ولا سيادة ولا رأْىَ إلا لله ، ولا حكم ولا خضوع إلا لله ، وكيف يقبلون بذلك وهم قد ألفوا السيادة على قبائل العرب ؟

وكلمة ﴿ يُؤْفَكُ (٦٣) ﴾ [غافر] من الإفك ، وهو الكذب وقَلْب

الحقائق ، والكذب أنْ تقول قضية مخالفة للواقع فكأنك تقلب الحقيقة ؛ لذلك قال تعالى : ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾﴾ [النجم] المؤتفكة : هى القرى[1] التى قَلَبها الله رأساً على عقب ، كذلك الكذب يقلب الحقائق ، فينكر الموجود ويثبت غير الموجود .

وقوله تعالى : ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [غافر] أى : تُصرفون عن الحق الواضح كأن هذا أمر فطرى ، فبالفطرة يصل الإنسان إلى الله ، وما كان ينبغى أنْ يقف الإنسان أمام هذه القضية لأنها واضحة وعليها دليل ، وكل تعاليم العقائد كذلك أمور فطرية أولاً ، إنما ضَبَّب هذه الفطرة هوى النفوس والغفلة وأغيار الزمن .

فما جاء به الدليل والعقيدة أمور يصل إليها العقل بالفطرة والطبيعة الصافية ، بدليل أن الناس الذين لم يؤمنوا برسول فكَّروا فى هذه المسائل، وتوصَّلوا إلى وجود الخالق سبحانه لما تأملوا آياته فى كونه .

لذلك تجد مثلاً الفلاسفة الذين كانوا لا يحبون كلمة رسول ويقولون : نحن مهتدون بطبيعتنا ولسنا فى حاجة إلى رسل ، قالها سقراط[2] ، لذلك

---

(١) المؤتفكة هى قرى ومدائن قوم لوط قلبها عليهم فجعل عاليها سافلها وأمطر عليهم حجارة من سجيل منضود ولهذا قال : ﴿فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾﴾ [النجم] يعنى : من الحجارة التى أرسلها عليهم [ابن كثير فى تفسيره (٤/٢٥٩)] . قال ابن منظور فى لسان العرب (مادة : أفك) : « الائتفاك عند أهل العربية : الأنقلاب كقريات قوم لوط التى ائتفكت بأهلها أى انقلبت » .

(٢) سقراط : فيلسوف ومعلم يونانى ، ولد ٤٦٩ قبل الميلاد وعاش فى أثينا ، عُرِف عنه تواضعه فى مأكله ومشربه وملبسه ، وكان يعلم الناس فى الشوارع والأسواق والملاعب معتمداً على توجيه الأسئلة إلى مستمعيه ، أعدم بحتساء السم بتهمة إفساد الشباب على حكامه ، توفى عام ٣٩٩ قبل الميلاد عن ٧٠ عاماً . (موسوعة ويكيبيديا) .

ناقشه فيها تلميذه (أرسطودين)[١] وعرض عليه من المسائل والآيات كما يعرض الدين تماماً .

قال له : انظر إلى نفسك وإلى تكوينك فى ذاتك ، وتأمل ما فيك من جوارح ، لا أقول لك : انظر إلى الآيات الكونية من حولك بل إلى نفسك وجوارحك فى ذاتك ، أليس لك حواس ؟ قال : بلى ، قال : اذكرها . قال : لى عين تبصر ، وأذن تسمع ، ولسان يتكلم ، ويد تلمس .. الخ .

قال : فلماذا خُلِق لك عينان وأذنان ولسان واحد ، أليس وراء ذلك حكمة ؟ تأمل هذه الحواس وتأمل الحكمة من خَلْقها على هذه الصورة ، خلق لك عينين لاستيعاب المرئيات من هنا ومن هنا ، وأذنين لاستيعاب المسموعات من هنا ومن هنا .

أما اللسان فيكفى فى القيام بمهمته لسان واحد به تتكلم وتعبِّر ، وبه تتذوق المطعومات ، اللسان على صغَر حجمه تتذوَّق به الحار والبارد ، والحلو والمر ، ثم إذا التذَّ به ابتلعه ، وإذا لم يلتذ به يلفظه وكأنه (كنترول) على كل ما تتناوله ، ثم إن التذوق يحفزك على الأكل ويُرغِّبك فيه ، لأن به استبقاءَ الحياة والقوة التى نُحقِّق بها مطلوب الله منَّا .

---

(١) المقصود هو أرسطوقليس الملقب والمشتهر بـ (أفلاطون) بسبب ضخامة جسمه وهو أشهر فلاسفة اليونان على الإطلاق ، ولد فى أثينا فى عائلة أرسطوقراطية (عاش بين ٤٢٧ قبل الميلاد – ٣٤٧ ق.م.) ارتبط بمعلمه سقراط فى العشرين من عمره . تأثر كثيراً بإعدام معلمه بحكم جائر وبُنيت فلسفته على كيفية سياسة الدولة بالفلسفة فكتب كتابه (جمهورية أفلاطون) [انظر : قاموس ناتان الفلسفى – تأليف : جيرار دوروزوى وأندريه راسيل – تعريب : أكرم أنطاكى] .

ثم ألا ترى حكمة فى قُرْب مدخل الطعام من الأنف الذى يشمُّ ، والعين التى تبصر ؟ لقد خلقه الله على هذه الصورة البديعة لتتمكن من رؤيته ، ومن شَمِّ رائحته قبل أنْ تتناوله ، أما مخارج الطعام فأين هى ؟ بعيدة عن العين ، بعيدة عن الأنف ، حتى لا تؤذيك الفضلات . نعم ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٢١)﴾ [الذاريات]

ثم تأمل العين الواحدة تجد لها جَفْناً ينقبض ، وينفتح حسب إرادتك ، وفوق العين حاجبٌ يمنع تساقط العرق داخل العين وتحت أهداب ورموش تدفع عن العين ما يؤذيها منْ الغبار والأتربة ، فإذا نفذ إلى العين شىء بعد ذلك ، جاءت الدموع لتمسح العين وتُطهِّرها كما تفعل (المسَّاحة) التى تمسح زجاج السيارة .

والأنف الذى نشم به الروائح الطيبة فى الطبيعة وبه نميز الأشياء ، والآن نستخدمه ونُوظف حاسة الشم عند الكلب مثلاً للكشف عن الجرائم والمجرمين .

هذا كله كلام نظرى يقوله بالفطرة إنسانٌ صَفَتْ نفسُه ، وسلمت فطرته ، فتوصَّل إلى الحق بقليل من التأمل .

إذن : فقوله تعالى ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٦٢)﴾ [غافر] تحمل معنى التعجب من الانصراف عن الحق ، لأنه أمر لا ينبغى أن يكون وما كان يصح من أصحاب العقول أن ينصرفوا عن الحق وهو واضح .

لذلك قال تعالى فى سورة البقرة : ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ.. (٢٨)﴾ [البقرة] هذا استفهام تعجبىّ إنكارىّ ، يعنى : قولوا لنا كيف يتأتى منكم الكفر مع وجود هذه الآيات الواضحات الدالة على قدرة الله تعالى ؟

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ قَرَارًا ﴿٦٤﴾ ﴾ [غافر] أى : مستقراً لكم تعيشون عليها ، وكلمة (لَكُمْ) أى : لكل العباد ، وهذه يشرحها قوله تعالى فى سورة الرحمن : ﴿ وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ ﴿١٠﴾ ﴾ [الرحمن] هكذا على العموم ، فأىّ أرض وأى أنام ؟ لم يحدد .

إذن : فالأرض كل الأرض للأنام كل الأنام[1] ، لكن أهذا المبدأ هو واقع حياتنا ؟ لا ، وما حَلَّ الفساد بالعالم ، وما وقع الناسُ فى الأزمات وضيق العيش إلا بسبب عدم تطبيق هذا المبدأ .

ففى الكون الآن أرض بلا رجال ، وفى مناطق أخرى رجال بلا أرض ، والسبب فى ذلك تلك الحواجز التى وضعها البشر تحُول بين عباد الله وأرضه .

ولك أنْ تقرأ قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا .. ﴿٩٧﴾ ﴾ [النساء]

لكن يا رب ، كيف لنا أن نهاجر وقد جعلوا على الأبواب حواجزَ

---

(١) الأنام : الخَلْق . والأنام ما ظهر على الأرض من جميع الخلق . وقال المفسرون : هم الجن والإنس . [لسان العرب – مادة : أنم] .

وسدوداً وحدوداً وقوانينَ للدخـول ما أنزل الله بها من سلطان ؛ لذلك انظر إلى الخريطة وتأمل حدود الدول المختلفة تجدها حدوداً متداخلة وغـير منظمـة ، وفى بعض المناطق تجـد الحـدود غيـر واضحـة أو مُختلفاً عليها ، وفى بعض الـبلاد تجد الحدود بؤراً للخلاف والنزاعات بين الدول .

هذا إنْ دلَّ فإنمـا يدلّ على أن الأرض أرضٌ واحدة للجمـيع ، لما طرأ عليهـا الإنسان قسَّـمها وجـعل عليهـا حدوداً ، خلقهـا الله واحدة منفتحة واسعة ، حتى إذا ضـاقتْ عليك الأسبابُ فى بقعة منها فاذهب إلى أخرى وانطلق فى أرض الله ، وإذا لم يطبق هذا المبدأ الإلهى فلن تحلّ مشاكلنا ، وسوف تظلّ الأزمات تطحن الناس .

والاستقـرار فى الأرض على نوعين : استقرار للحيـاة والحركة ، واستقرار للراحة والهدوء ، فالواحد منا له بيت يعيش فيه ويأوى إليه وهو مُستقره ومكان راحته ومبيته ، لذلك نسميه بيتاً .

وله أرض يسعى فيـها ويطلب الرزق والحركة ؛ لذلك قـال سيدنا إبراهيم : ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ (٣٧)﴾ [إبراهيم] وقـال : ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا آمِنًا (١٢٦)﴾ [البقرة] فـالأولى قرار للـمبـيت وللراحـة ، والأخرى قـرار للحركة والسعى .

وتلحظ أن قـرار المبـيت والراحة خـاصّ بك ، أما قـرار الحركـة فمـشترك مع غـيرك ، وأن الأرض ليست قـراراً لك فى حيـاتك الدنيا فحـسب ، إنما هى قـرار لك حتى بعـد موتك ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ (٥٥)﴾ [طه]

وقوله تعالى : ﴿وَالسَّمَاءَ بِنَاءً (٦٤)﴾ [غافر] أى : بناءً محكماً لا اختلالَ فيه ، والبناء معروف أنه يقوم على عمد تحمله ؛ لذلك قال تعالى : ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا (٢)﴾ [الرعد] إما بغير عمد موجودة أصلاً ، أو يوجد عمد تحملها لكنكم لا ترونها ، فالعمد موجودة لكن لا تدركها حواسُّكم .

فالسماء محمولة بقدرة الله سبحانه ، ولم لا والأرض التى نعيش عليها ما هى إلا كُرة مُعلّقة فى الهواء ، فلَمَ لا تقع رغم ثقلها ؟

اقرأ : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ (٤١)﴾ [فاطر] يعنى : لا أحدَ يمسكهما بعد الله .

ثم يعطينا الحق سبحانه مثلاً حسّياً يقرب لنا قدرة الله فى حمل السماء والأرض ، فيقول : خذوا من الحسِّيات التى تدركونها دليلاً على ما غاب عنكم ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ[1] وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ الرَّحْمَنُ (١٩)﴾ [الملك]

نعم ، نحن نرى الطير فى جو السماء يقف فى الجو بلا حركة هكذا ، ومع ذلك لا يقع ، فمَنْ يمسكه ؟ يمسكه ربه عز وجل بقدرته ، كذلك يمسك السموات والأرض بقدرته .

وقوله : ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ (٦٤)﴾ [غافر] بعد أنْ تكلم سبحانه عن الأشياء الكونية الخارجة عنَّا كالليل والنهار

---

(١) صافات : باسطات أجنحتها . وصفَّت الطير فى السماء تصف : صفت أجنحتها ولم تحركها . [لسان العرب – مادة : صفف] .

والسماء والأرض يتكلم هنا عن شيء في أنفسنا ، لأنه قال سبحانه : ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ[1] وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ (٥٣)﴾ [فصلت]

قوله : ﴿وَصَوَّرَكُمْ (٦٤)﴾ [غافر] أي : جعل لكم شكلاً مميزاً تتميَّزون به ، ثم جعل لكم سماتٍ خاصة تتميز بها الأشخاص ليتم التعريف بحيث لا يفعل أحد فعلاً ويستتر منه في آخر .

فتمييز الأشخاص هنا مهم حتى يُنسب الفعل إلى صاحبه ﴿فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ (٦٤)﴾ [غافر] أي : جعلها أحسن صورة بين المخلوقات ، وكان سبحانه قادراً على أنْ يُصوِّر الإنسان على أية صورة ، كأنْ يمشي على أربع مثلاً مثل الحيوانات ، لكنه كرَّمه وأحسن شكله ، وجعله يمشي معتدلاً مرفوعَ القامة .

يقول تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (٦) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (٧) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ (٨)﴾ [الانفطار] يعني : في أحسن صورة وأجمل شكل وأعدله .

بعد ذلك ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ (٦٤)﴾ [غافر] ذلك لاستبقاء الحياة بالقوت ، لكنه لم يذكر هنا الزواج الذي به استبقاء النوع ، فأعطانا هنا لمحةً وترك الأخرى لموضع آخر حتى لا يخلوَ مكان من كتابه من إعجاز في خَلْقه .

﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٦٤)﴾ [غافر] يعني : تنزَّه وتقدَّس

---

(١) الآفاق : جمع أفق وهو الناحية . وخط التقاء السماء بالأرض في رأي العين . ويستعار لمدى الاطلاع والذكاء . فيقال : هو واسع الأفق . [القاموس القويم ١/٢٢] .

وجاء منه البركة ، وجاء منه الفضل ، وجاء منه الإمداد .

وكلمة (تَبَارَكَ) أخذتْ حظّها من كتاب الله[١]، نجدها للأمور المادية الحسِّية ، ونجدها للمعنويات وللمنهج الذى وضعه اللهُ لاستقامة حركة الحياة ، فالله جعل لك الجسمَ المادى ، وجعل لك الروح التى يعيش بها هذا الجسم .

﴿ هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ۗ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ هُوَ الْحَيُّ ﴿٦٥﴾ ﴾ [غافر] كأن كلّ صفات الكمال الأصل فيها أنْ توجد بحياة ، فلا يمكن أنْ توجد قوة إلا بحياة ، ولا سمع إلا بحياة ، ولا بصر إلا بحياة . وكلمة (الحى) تعنى أن الله تعالى ليس من الأغيار ، فأنتم لكم وجود وحياة مرتبطة بهذا الوجود ، أما الحق سبحانه فحىٌّ بذاته ، الحىُّ صفة ذاته ، والمحيى صفة فعله ، وما دام الحىُّ صفة الذات ؛ فما بالذات لا يتخلف ، فهو حَىٌّ أى : لا يموت ، لكن صفة المحيى يقابلها صفة المميت ؛ فيُحيى هذا ويُميت هذا .

---

(١) ذكرت كلمة تبارك فى القرآن ٩ مرات : (الأعراف ٥٤) - (المؤمنون ١٤) - (الفرقان ١ ، ١٠ ، ٦١) - (غافر ٦٤) - (الزخرف ٨٥) - (الرحمن ٧٨) - (الملك ١) قال السيوطى فى [الإتقان فى علوم القرآن ١٨٨/٢] : « تبارك : فعل لا يُستعمل إلا بلفظ الماضى ولا يُستعمل إلا لله » . ومعنى تبارك الله : تقدس وتنزه عن كل نقص ، أو كثر خيره على عباده . [القاموس القويم ٦٥/١] .

لذلك قالوا : الاسم الذى له مقابل (صفة فعل) ، والاسم الذى ليس له مقابل (صفة ذات) فقالوا فى الثناء عليه سبحانه : يا حى صفة ذاته ، ويا محيى صفة فعله ، وما بالذات لا يفوت ، وما بالفعل يحيا ويموت .

وما دام أنه سبحانه حَىٌّ ولا إله إلا هو ﴿ فَادْعُوهُ (٦٥) ﴾ [غافر] بشرط ﴿ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ (٦٥) ﴾ [غافر] يعنى : حين تدعوه لا يكون فى بالك غيره ، فإذا لم يكن فى بالك غيره حين تدعوه كان معك واستجاب لك .

نعم ﴿ فَادْعُوهُ (٦٥) ﴾ [غافر] لأنه قيوم يقول لك : نَمْ واسترح لأن ربك قيُّوم لا ينام ﴿ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ (٢٥٥) ﴾ [البقرة] وكأنه سبحانه (بيدلع) مَنْ آمن به ﴿ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ (٦٥) ﴾ [غافر] فإياك أنْ تقول : توكلت على الله وعليك ، أو توكلت على الله ثم عليك ، هذا كله كذب ، استكفِ بالله وكفى به وكيلاً .

وحين تدعوه مخلصاً له الدين فقد وضعتَ أمرك فى يد واحد ، هو الذى يملك أنْ يفعل ، لا أنْ تذبذبه فى يد مَنْ لا يستطيع ، ثم لاحظ فى الدعاء أن ربك أعطاك واستجاب لك قبل أنْ تدعو ، بل وقبل أن تعرف الدعاء ، بل وأعطاك قبل أنْ توجد أصلاً ، إذن : كل ما يريده منك هو إظهار ذل العبودية لعزِّ الربوبية .

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٦٥) ﴾ [غافر] يعنى : احمدوا الله أنْ تفضَّل عليكم بكلِّ هذه النعم بداية ، أوجدكم من عدم وأمدكم من

عُدْم ، إلى أنْ ينتهى بكم المطاف فى الجنـة إنْ شاء الله ؛ لذلك ساعة ندخل الجنة نقول كما قال سبحانه : ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠)﴾ [يونس]

﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٦٦)﴾

(قل) الخطاب لسيدنا رسول الله ﷺ ﴿إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ .. (٦٦)﴾ [غافر] يعنـى : المسألة ليستْ من عندى ، إنمـا هى نَهْى مـن الله جـاءنى فى آيـات بينات واضـحـات ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٦٦)﴾ [غافر] أى : أُسْلم قـيادى وأمرى لرب العالمين سبحانه ..

نعم ، لأن الإنسان منا حتى فى دنيا الناس حينما يكون لا يحسن شيئاً ولا تسعفه أسبابه يلجأ إلى مَنْ يقضى له حاجته ويقدر عليها ، كما نذهب مـثلاً للمحامى فى رَفْع قضيـة أو نذهب للطبيب للتداوى .. الخ لأنك لا تستطيع أنْ تدافع عن نفسك أمـام القاضى ، ولا تستطيع أن تداوى مرضك ، فـإذا ما ذهبتَ إلى واحـد من هؤلاء فلا شكَّ أنك تسلم له زمـام أمرك ، وتُفـوِّضـه أنْ يفعل مـا يراه صالحـاً دون أنْ تناقشه أو تعترض عليه .

إذن : معنى ﴿أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٦٦)﴾ [غافر] يعنى : إسلام الزمام من عاجز عن شىء لقادر على هذا الشىء ، فإذا أمرك ربك أمراً فخذ الأمر من منطلق إيمانك به ، كيف ؟ قال : مثل حالى مع الطبيب حين يصف لى الدواء المناسب لحالتى لا أناقشه فيه ، ولا أقول له : لم كتبت كذا وتركت كذا ؟ حتى حين أسأل عن الدواء أقول : والله كتبهُ لى الطبيب ، وألقى التبعة والمسئولية عليه .

فإذا كنت تُسلم أمرك وزمامك للطبيب وهو بشرٌ مثلك يخطىء ويُصيب ؛ لأنك رأيت له حكمة فوق حكمتك وعلماً ليس عندك ، كيف تفعل هذا معه ولا تفعله مع الله عز وجل ، وهو العليم الحكيم القادر ؟

إذن : ما أمرك به ربُّكَ فامتثل للأمر ونفِّذ دون نقاش أو اعتراض أو تبرُّم بما قضى عليك به . والحق سبحانه يعلمنا درس التسليم له سبحانه فى قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام ، وكيف أنه أسلم وجهه ، وألقى زمام أمره لربه تعالى ، حينما أمره بذبح ولده إسماعيل الذى لم يُرزق به إلا على كبر[1] وبعد يأس ، لذلك قال : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى الْكِبَرِ .. (٣٩)﴾ [إبراهيم]

أراد المفسرون تقريب هذا المعنى ، فقالوا : المراد الحمد لله الذى

---

(١) ذُكِر فى العهد القديم – سفر التكوين أن عمر إبراهيم عليه السلام حين ولد له إسماعيل كان ٨٦ عاماً . [تكوين أصحاح ١٦ : ١٦] وقد كان بين إسماعيل وإسحاق ٤١ عاماً ، وكان عمر إبراهيم حينها ١٠٠ عام [تكوين ٢١ : ٥] .

وهب لى على الكِبَر ، فجعلوا على بمعنى مع[١] ، وفرْقٌ بين كلمة من حرفين ، وكلمة من ثلاثة أحرف ، ولا يعدل القرآن الكريم عن الحرفين ويختار الثلاثة إلا لملحظ يحتاجه المعنى ، فما هو ؟ قالوا : معنى (مع الكبر) أى : مظنة ألاَّ ينجب ، لكن مراد الله تعالى فوق هذه المظنة ، يعنى : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى الْكِبَرِ .. (٣٩)﴾ [إبراهيم] لا مع الكبر .

كذلك فى قصة سيدنا زكريا عليه السلام قال : ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِى عَاقِرًا[٢] وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا (٨) قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ (٩)﴾ [مريم]

إذن : فمعنى ﴿عَلَى الْكِبَرِ(٣٩)﴾ [إبراهيم] أن الكبر كان يقتضى عدم الإنجاب لكن مراد الله أعلى من الكبر وفوقه . ونفهم هذا المعنى أيضاً من قوله تعالى : ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ (٦)﴾ [الرعد] البعض قال : يعنى مع ظلمهم ، وهذا لا يصح بل على ظلمهم كما أرادها الحق سبحانه ، لأن الظلم يقتضى العقاب ، لكن تأتى مغفرة الله وتعلو على الظلم ، وعلى قانون مجازاة الظالم بظلمه .

وقوله : ﴿نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ (٦٦)﴾ [غافر]

---

(١) ذكر جمال الدين بن هشام الأنصارى تسعة معان لـ (على) منها المصاحبة كـ (مع) نحو : ﴿ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ .. (١٧٧)﴾ [البقرة] ونحو ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ..(٦)﴾ [الرعد] .

(٢) عقرت المرأة : أصيبت بالعقم فهى لا تلد فهى عاقر . [القاموس القويم ٢/٣٠] .

نهى لأنه مُحبّ له ، فقال له : وجِّه عبادتك لمن يقدر أنْ يفعل لك ، وهذا النصح لا يكون إلا من مُحب كما تنصح صاحبك وتدلّه على الخير ، ولولا حبك إياه ما نصحته .

وقوله : ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٦٦)﴾ [غافر] أسلم قيادى وزمام حركتى فى الحياة لربى أفعل ما أمر بفعله ، وأنتهى عما نهانى عنه ، أمر سكت عنه ولم يقل لى فيه : افعل ولا تفعل فأدخله فى مقام المباح ، ولو كان أمراً النفس العادية تنفر منه .

وحتى إنْ حكم عليك حكماً ترى فيه مشقة ظاهرية على نفسك فاعلم أنه يريد لك الخير من حيث لا تدرى ، كما قلنا فى قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام .

وتعلمون أن سيدنا إبراهيم ابتلاه ربه بأمور كثيرة كلها مشقة : ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ[1] فَأَتَمَّهُنَّ (١٢٤)﴾ [البقرة] ولما أتمهن ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا (١٢٤)﴾ [البقرة] فى شبابه ابتُلى بالإحراق ، ولما كبر سنه ابتُلى بذبح ولده ، وهو فى حال ابنه أعزّ

---

(١) اختلف العلماء فى الكلمات التى ابتلى بها إبراهيم على أقوال ، منها :

- ابتلاه الله بالمناسك . ابن عباس .
- ابتلاه بالطهارة : خمس فى الرأس وخمس فى الجسد ، فى الرأس : قص الشارب والمضمضة والاستنشاق والسواك وفرق الرأس . وفى الجسد : تقليم الأظفار وحلق العانة والختان ونتف الإبط وغسل أثر الغائط والبول بالماء . [ذكرهما ابن كثير فى تفسيره ١/١٦٥] .

عليه من نفسه ، لأن الإنسان حين يتقدم به سِنُّه ويقبل على الآخرة والنهاية يودّ أنْ يكون له امتداد فى ولده من بعده .

فابتُلِى إذن فى أول حياته فى ذاته بالإحراق ، ثم ابتُلى عند وجود الولد وبعد كِبَر السنِّ بقتل الولد .

والابتلاء هنا ابتلاء مبالغة ، فلو أنه سيموت موتاً طبيعياً لكان ابتلاءً ، فما بالك حين يقول له : اذبحه بيديك ، عندها يكون الابتلاء أشدّ ، وهذا الابتلاء لم يأتِ بأمر مباشر ، إنما برؤيا منامية قابلة للتأويل ، ومع ذلك أذعن إبراهيمُ لمجرد الرؤيا لأنه يعلم أنها من الله .

لكن كيف أقبل سيدنا إبراهيم على تنفيذ هذا الأمر ؟ أأخذ ولده على غِرَّة ؟ لا بل أحب أنْ يُدخِله معه فى مجال الابتلاء ، وألاَّ يحرمه ثواب التسليم معه لله ، فقال له : ﴿يَـٰبُنَىَّ إِنِّى أَرَىٰ فِى الْمَنَامِ أَنِّى أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ (١٠٢)﴾ [الصافات]

وقوله : ﴿فِى الْمَنَامِ (١٠٢)﴾ [الصافات] أراد أنْ يعطيه فرصة لأنْ يقول : كيف تذبحنى يا أبى برؤيا منام ، فيكون له مجال لأنْ يعترض لكنه لم يفعل ﴿قَالَ يَـٰأَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ (١٠٢)﴾ [الصافات]

وتصوَّر لو أن سيدنا إبراهيم أخذ ولده دون أنْ يخبره بشىء وألقاه على الأرض وأمسك بالسكين ليذبحه . ماذا سيكون شعور الولد نحو والده ؟ سيكرهه ويكره فعله ويغضب عليه ، وفى هذه

الحالة لا نصيبَ له فى ثواب هذا الابتلاء .

وتأمل قول إسماعيل فى الرد على أبيه : ﴿يَـٰأَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ (١٠٢)﴾ [الصافات] فيُذكِّره بالآمر يعنى : يا أبت افعل ما دام الأمر من أعلى منك ، وسبق أن قلنا : إن الفعل فى ذاته ينبغى ألاَّ يترتب عليه فرحٌ به ولا غضبٌ منه إلى أنْ تعرف الفاعل ، فإذا عرفتَ أن ربك هو الآمر ، فقد انتهتْ المسألة وليس إلا التسليم للأمر .

وهكذا رأينا التسليم منهما معاً ، لذلك قال : ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا (١٠٣)﴾ [الصافات] هكذا بصيغة المثنى ﴿وَتَلَّهُ[1] لِلْجَبِينِ (١٠٣)﴾ [الصافات] يعنى : بدأ التنفيذ والانقياد بشكل عملى قال له ربه : ارفع يدك فقد نجحتَ فى الامتحان ﴿وَنَادَيْنَاهُ أَن يَـٰإِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّءْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧)﴾ [الصافات]

هكذا رفع البلاء ولا يُرفع قضاء حتى يُرْضَى به ، رفع عن إسماعيل القتل ونزل له الفداء وعوَّضه ربه عن الفزع الذى أصابه ، فبشّره بغلام آخر[2] ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَـٰقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّـٰلِحِينَ (١١٢)﴾ [الصافات] يعنى : كنا نريد أَخْذ إسماعيل ، فلما رضيتَ بقضائنا فيه

---

(١) تلَّه : ألقاه على وجهه على الأرض ، أى : ألقاه وجبينه ووجهه إلى الأرض [القاموس القويم ١/١٠١] .

(٢) بشر الله إبراهيم عليه السلام بإسحاق وكان عمر إسماعيل حينئذ ثلاثة عشر عاماً . وقال سعيد بن المسيب : بشَّر الله إبراهيم بولد يكون نبياً بعد هذه القصة جزاءً لطاعته وصبره . [زاد المسير لابن الجوزى – سورة الصافات] .

زدناه بآخر ، ثم جعلناهما من الأنبياء ومن ذريتهما الأنبياء ، فتأمل ماذا جرَّ لك التسليمُ بالقضاء والرضا به ؟

إذن : أنت فى التسليم لله لا تأخذ الفعل لذاته ، إنما بضميمة صاحبه ، الآمر به .

﴿ هُوَ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ(١) ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٦٧) ﴾

الحق سبحانه يعود بنا مرة أخرى إلى مسألة الخلق الأول ﴿ هُوَ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ .. (٦٧) ﴾ [غافر] معلوم أن لنا خَلْقين : خلقاً من تراب لما خلق الله آدم وحواء ، وخلقاً من النسل الذى تناسل منهما .

لاحظ أن الله تعالى قال ﴿ مِّن تُرَابٍ .. (٦٧) ﴾ [غافر] وقال ﴿ مِّن طِينٍ .. (٢) ﴾ [الأنعام] و ﴿ مِّنْ حَمَأٍ مَّسْنُونٍ (٢٦) ﴾ [الحجر] وقال ﴿ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ (١٤) ﴾ [الرحمن] ، وهذه كلها مراحل للشىء الواحد ، فالتراب حين نضح عليه الماء يصير طيناً ، فإذا تركناه فترة

---

(١) العلقة : الدم الجامد الغليظ الذى يعلق بما يمسُّه . [القاموس القويم ٣٢/٢] . فالعلقة : قطعة دم منعقد غليظ .

تعطّن وتغيَّرتْ رائحته ، وهذا هو الحمأ المسنون[١] ، فإذا تركناه يجف يصير صلصالاً[٢] .

وقوله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ .. (٦٧)﴾ [غافر] لا يعنى أبانا آدم وحده ، إنما كلنا من تراب حتى مَنْ خُلقوا بالزواج والتناسل ، لماذا ؟ لأن الميكروب الذى ستنشأ منه جرثومة الرجل وبويضة المرأة إنما تأتى مما نأكله من طعام ، والطعام يُؤخذ إما من نبات أو حيوان ، والنبات والحيوان منشؤهما تراب الأرض .

ولذلك رأينا فى عملية التحليل الكيماوى لعناصر الإنسان أنها هى نفسها عناصر التراب ، وهى العناصر الستة عشر المعروفة ، فكَوْنُ الإنسان خُلق من طين لها دليلٌ مادى معلوم لنا الآن ، إذن : كلنا من تراب ، وإنْ جئنا من زوجين ، لذلك قال ﷺ : « كلكم لآدم ، وآدم من تراب »[٣] .

---

(١) الحمأ : الطين الأسود المنتن . (تاج العروس من جواهر القاموس – مادة : حمأ) وقال : « وفى كتاب المقصور والممدود لأبى على القالى : الحمأ : الطين المتغير » . والمسنون : المتغير المنتن . فكأنه تأكيد للمعنى الذى فى الحمأ .

(٢) الصلصال : الطين الجاف لم تحرقه النار . [القاموس القويم ١/٣٨١] . فإذا مسته النار فهو حينئذ فخار . فالصلصال طين يابس يصِلّ من يبسه أى : يُصوِّت . [لسان العرب – مادة : صلل] .

(٣) أخرج الترمذى فى سننه أن ابن عمر قال : خطب رسول الله ﷺ الناس يوم الفتح فقال : يا أيها الناس إن الله قد أذهب عنكم عيبة الجاهلية وتعاظمها بآبائها ، فالناس رجلان : بر تقى كريم على الله ، وفاجر شقى هيِّن على الله ، الناس بنو آدم وخلق الله آدم من تراب . [سنن الترمذى حديث ٣٢٧٠] .

لذلك الحق سبحانه لما تكلم عن الخَلْق قال : ﴿مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَـٰوَاتِ والأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ.. (٥١)﴾ [الكهف] لأن خَلْق السموات والأرض سابقٌ على خَلْق الإنسان ، والإنسان طارىء عليهما ، ولما خُلِق آدم لم يكُنْ له تمييز ليعرف كيف خُلق .

ثم يأتى سبحانه بكلام يدل على الإعجاز وإفحام المعاندين ، فيقول : ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا (٥١)﴾ [الكهف]

يعنى : ما أخذت منهم مساعدين لى ، ولا معينين لى فى عملية الخلق ، والمضلون هم الذين يُضللون الناس ، ويقدمون لهم الباطل فى ثوب الحق ، ويُراد بالمضلين المضلين فى مسألة الخلق كمَنْ يقول لنا الآن : إن الإنسان فى أصل خَلْقه الأول كان قرداً وتطور كما قال داروين[1] .

لكن الحق سبحانه يقطع عليهم طريق الضلال ، ويقول لهم : أنتم ما شهدتم الخَلْق لتخبروا الناس به ، وأنا الخالق وحدى ولم يكُنْ معى أحدٌ غيرى خبر بما حدث ، فإذا أردتُم أنْ تعرفوا كيفية الخلق فاسمعوا منى أخبركم به ، وقد أخبرنا الله به فى آيات كثيرة فى كتابه .

فإنْ قلت : هذا كلام أخبر الله به ولم نشهده ، نقول : تأمل واقع

---

(١) داروين : عالم حيوان ، إنجليزى الجنسية اشتهر بنظرية التطور حول نشأة الإنسان ، ولد فى انجلترا فى ١٢ فبراير ١٨٠٩ م وتوفى ١٩ أبريل ١٨٨٢ م عن ٧٣ عاماً ، درس الطب واللاهوت ، له كتاب « أصل الأنواع » ، « سلالة الإنسان » ، « دودة الأرض » .

الحياة فإنه يدلّ على صدق الله فيما قال ، فأنت لم تَرَ الخَلْق لكن رأيتَ نقيضه وهو الموت ، ونَقْض الشيء يأتى على عكس بنائه ، فحين تبنى مثلاً بيتاً من أربعة أدوار تبدأ بالأول ، فإنْ أردتَ أنْ تهدم تهدم الرابع .

كذلك الموت ، يبدأ بخروج الروح وهى آخر شيء فى خَلْق الإنسان بعد خروج الروح يتصلَّب الجسد ، ثم يرمّ ويتغيَّر مثل الجيفة ، ثم يتبخَّر منه الماء الموجود فيه ، ثم يتحلل الباقى إلى تراب ، فجاء الموت ليصدق ما غاب عنك فى بداية الخَلْق .

قوله : ﴿مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا .. (٦٧)﴾ [غافر] هذه مراحل فى الخَلْق ، ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً .. (٦٧)﴾ [غافر] قالوا : هو طفل طالما هو فى مراحل النمو ، فإذا استوى وأخذ شكله النهائى واستقر على صورة كاملة فقد وصل إلى مرحلة البلوغ التى يستكمل فيها كلَّ أجهزة الوجود ، لأنه بالبلوغ أصبح قادراً على إنجاب مثله .

يقول تعالى : ﴿وَإِذَا بَلَغَ الأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ[1] فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ .. (٥٩)﴾ [النور] فالطفولة هى مرحلة النمو . ومرحلة البلوغ هى الأشد ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ .. (٦٧)﴾ [غافر] أى :

---

(١) الحُلم : البلوغ مبلغ الرجال . وهو أيضاً الاحتلام وهو الإنزال حال النوم . وغلام حالم إذا بلغ الحلم ، ومنه قول رسول الله . « غُسْل الجمعة واجب على كل حالم – وفى رواية : محتلم » . [جمهرة اللغة لابن دريد] .

قوتكم ﴿ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا .. (٦٧)﴾ [غافر] أى : تنحدرون مرة أخرى من القوة إلى الضعف وإلى الشيخوخة ، وهى مرحلة ضعف وهُزَال فى الجسم .

فإذا انتهتْ مرحلة النمو والزيادة بدأتْ مرحلةُ الضعف والهزال ، فى مرحلة النمو تجد أن ما يدخل له من الغذاء أكثرُ مما يخرج منه من الفضلات لذلك يزيد ، أما فى مرحلة الشيخوخة فتكون الفضلاتُ أكثر ، فيحدث له النقص والهزال ، وتأخذ قوته فى الانحدار وعضلاته فى الضمور ، إلى أنْ يصلَ إلى المخزن الأخير فى الجسم وهو العظام ، فتحدث فيها هشاشة وتتكسَّر لما يُمتص منها .

لذلك قال سيدنا زكريا : ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ[1] الرَّأْسُ شَيْبًا . (٤)﴾ [مريم] فذكر آخر مراحل الشيخوخة وهى وَهَن العظام . هذا فى الناحية الجسمية المادية ، أما فى الذاكرة والأشياء المعنوية فيعتريه النسيانُ ، كما قال سبحانه : ﴿لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا .. (٥)﴾ [الحج] فيصل به النسيانُ كأنه لم يعلم شيئاً فى حياته ، ثم نراه يحبو ويُحمل كما يُحمل الأطفال : ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ[2] فِي الْخَلْقِ

---

(١) اشتعل الرأس شيباً : معناه انتشر فيه الشيب كالنار فى الحطب . [القاموس القويم ١/٣٥٠] . قال ابن منظور فى اللسان [مادة : شعل] : دخل فى قوله الرأس شعر الرأس واللحية لأنه كله من الرأس .

(٢) ننكسه فى الخلق : أى أنه يرجع إلى حالة ضعفه جسمياً وعقلياً حينما كان طفلاً ، أو ننكس رأسه بانحناء ظهره . [القاموس القويم ٢/٢٨٧] .

أَفَلا يَعْقِلُونَ (٦٨) ﴾ [يس]

وقوله : ﴿ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ .. (٦٧) ﴾ [غافر] يعنى : منكم مَنْ يعاجله الموت فلا يصل إلى هذه المراحل ، ربما يموت الإنسانُ فى بطن أمه أو بعد ولادته أو فى طفولته ﴿ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُّسَمًّى .. (٦٧) ﴾ [غافر]

فالأجل مختلف ومكتوب عند الله ، منا مَنْ عمره لحظة ، ومَنْ عمره دقائق ، ومَنْ عمره ساعات ، ومَنْ عمره أيام أو شهور ، ومن الخَلْق مَنْ لا يصل إلى تمام مراحل الخلق ، فيُؤخذ وهو علقة أو مضغة ولا يستكمل الخلق .

وقوله : ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٦٧) ﴾ [غافر] يعنى : افهم أن الله حين يعطيك الأشدَّ ، وتصل إلى مرحلة القوة أنها ليستْ ذاتية فيك ، إنما هى موهوبة لك وكلُّ نعمة عندك موهوبة ليست ذاتية ، ويمكن أنْ تُسلبَ منك فى أىِّ لحظة ، وما دمت قد عرفتَ أنها موهوبة وقد تُسلَب منك فى أىِّ وقت ، فالزم أدبك مع مَنْ وهبك هذه النِّعم .

﴿ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٦٨) ﴾

عرفنا أن الإنسان فى خَلْقه يمرُّ بمراحل عدة ، وأن عمره مظنون قد يموت فى أىِّ مرحلة من هذه المراحل ، فكيف نفهم قوله تعالى :

﴿كُن فَيَكُونُ (٦٨)﴾ [غافر] بالنسبة لمَنْ عمره لحظة مثلاً ، أو لمَنْ يموت فى بطن أمه ؟

قالوا : كُنْ هنا تُقَال لما يوجد عليه الإنسانُ ساعتها علقة أو مضغة أو غيرهما ، كأنه يقول له : كُنْ حياً . ثم تؤخذ الحياة منه بقانونها فى أزمانها التى لا يعلمها إلا الله .

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ (٦٩) الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٧٠)﴾

قلنا : يجادلون فى آيات الله ، وهى على ثلاثة أنواع : آيات كونية كالشمس والقمر . وآيات المعجزات التى تصاحب بعثة الرسل . وآيات القرآن حاملة الأحكام . ورأينا أنهم جادلوا فى المعجزات فقالوا عنها : سحر . وقالوا : شعوذة . وجادلوا فى آيات الأحكام وقالوا : إنها غير مناسبة ، أما الآيات الكونية ، فليستْ محلاً للجدال .

قوله : ﴿أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ (٦٩)﴾ [غافر] أى : يُصرفون عن الحق وهو واضح فأين عقولهم المفكرة ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٧٠)﴾ [غافر] قال ﴿كَذَّبُوا .. (٧٠)﴾ [غافر]

بزمن الماضى ، لكن فى الجزاء قال ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٧٠)﴾ [غافر]

يعنى : فى المستقبل ، قالوا : لأن الجزاء ليس بالضرورة أن يكون فى نفس الوقت أو وهم موجودون فى سعة الحياة الدنيا ، يصح أن نؤخر لهم الجزاء فى الآخرة .

وكلمة سوف دلَّتْ على المستقبل سواء القريب فى الدنيا أو البعيد فى الآخرة ، فإذا لم يدركهم العذاب فى الدنيا فهو ينتظرهم فى الآخرة ، كما قال تعالى : ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٧٧)﴾ [غافر]

الحق سبحانه وتعالى يريد أنْ يصلنا دائماً به وَصْلاً بحيث لا يأتى غيره على بالنا ، هذا الوصل يجعلك حينما تأتى الأشياء لا تظن أنك أخذتها بذاتيتك ، إنما هى موهوبة لك ، وللواهب أن يرجع فى هبته .

ولذلك ينبهنا سبحانه فيقول : ﴿كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ (٧)﴾ [العلق] ثم يقول بعدها : ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ (٨)﴾ [العلق] يعنى : تذكَّر مردّك إليه ووقوفك بين يديه .

وقوله (الكتاب) أى : الذى أنزله الله حاملاً لمنهجه ﴿وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا.. (٧٠)﴾ [غافر] أى : على ألسنة رسله ، فإنْ قلت الكتاب هو ما أرسلنا به رسلنا ، نقول : لا .. هناك فرق ، فالكتاب هو المنهج ، أما الرسول فقد أُرسل يحمل المنهج ويُبلِّغه وأُسْوة

تطبيقية لذات المنهج كما قال سبحانه : ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ .. (٢١)﴾ [الأحزاب]

﴿إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ (٧١) فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ (٧٢)﴾

أى : ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٧٠)﴾ [غافر] متى ؟ يوم القيامة ﴿إِذِ الأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلاسِلُ يُسْحَبُونَ (٧١)﴾ [غافر] تأمل مدى ما هم فيه من الإهانة ﴿فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ (٧٢)﴾ [غافر]

الأغلال جمع غل ، وهى قيود تُوضع فى الأيدى وتضمها إلى العنق ، والسلاسل أى : من حديد تُقيَّد بها الأرجل ، أىّ ذلة بعد هذا ؟

ومعنى الحميم أى : الماء الذى تَنَاهى حَرُّه ، يعنى : بلغ الدرجة القصوى فى حرارته ، ثم بعد ذلك يُسْجرون فى النار يعنى تُحْمى بهم ويصيرون وقوداً لها .

﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ (٧٣) مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُو مِن قَبْلُ شَيْئًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ (٧٤)﴾

تأمل هذا التبكيت للمشركين فى هذا الموقف العصيب : أين شركاؤكم الذين أشركتموهم مع الله ؟ ادعوهم فليدفعوا عنكم هذا العذاب ، والله إنْ كانوا عبدوا أشخاصاً أمثالهم فسوف يرونَهُم وقد سبقوهم إلى النار ، وإنْ كانوا عبدوا حجارة فسيرونَها أمامهم وقوداً لجهنم .

لذلك هم الذين سيقولون : ﴿ضَلُّوا عَنَّا .. (٧٤)﴾ [غافر] يعنى : لم يهتدوا إلينا ولم يعرفوا طريقنا ، ثم يرونَ أن الموقف أكبر من شركائهم فيكذبون ﴿بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُو مِن قَبْلُ شَيْئًا .. (٧٤)﴾ [غافر] سبحان الله يكذبون حتى فى هذا الموقف ، كما سبق أنْ أقسموا بالله أنهم ما أشركوا : ﴿قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ (٢٣)﴾ [الأنعام]

لذلك يقول تعالى يصف هؤلاء الكذبة : ﴿وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ[1] الْعَظِيمِ (٤٦)﴾ [الواقعة] إذن : فهم ألفُوا الكذب ، حتى إن موقف الحساب لم يردعهم عنه فيقولون : ﴿لَّمْ نَكُن نَّدْعُو مِن قَبْلُ شَيْئًا .. (٧٤)﴾ [غافر] يعنى : ما أشركنا مع الله أحداً ، وقد يكونون صادقين فى هذا لأنهم لم يدعوا هذه الآلهة لأنهم يعرفون أنها لا تضر ولا تنفع ، وما عبدوها إلا ليُرضوا رغبة التديُّن عندهم بآلهة لا منهجَ لها ولا تكاليف .

---

(١) الحنث : الخُلْف فى اليمين ونقضها والنكث فيها . وهو من الحنث الإثم . وحنث فى يمينه أى : أثم . وحنث اليمين إذا لم تبرّ . والحنث : الذنب العظيم والإثم . فهم يصرون عليه ويدومون عليه . [لسان العرب – مادة – حنث] .

﴿ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ (٧٤) ﴾ [غافر] نعم الحق لا يُضل أىّ إنسان إنما يضل مَنْ كفر ، فمَنْ كفر كيف يهديه الله ؟ سبق أنْ مثَّلنا لذلك ولله المثل الأعلى قلنا : إن رجل المرور مثلاً حين تسأله عن الطريق يدلُّك ، فإنِ اعترضتَ عليه ولم تطاوعه أو سخرتَ من رأيه . وقلتَ له : أنت لا تعرف هذا المكان . تركك وتخلَّى عن إرشادك ، فإنْ أذعنتَ لرأيه وشكرته على صنيعه معك قال لك : لكن والله أمامك هناك على بُعد كذا كيلو عقبة أو تحويلة ، سأذهب معك حتى تمرّ منها ، إذن : هداه أولاً بالدلالة ، فشكره أنه هداه فلمَّا شكره استحقَّ معونته .

كذلك الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧) ﴾ [محمد] وهنا ﴿ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ (٧٤) ﴾ [غافر] أى : الذين لا يستحقون الهداية ، لذلك قلنا أن مَنْ عشق الكفر وركن إليه واختاره لنفسه ، يقول الله له : أنا رَبٌّ أعطيك ما تريد ، وما دُمْت أحببتَ الكفر فسوف أُعينك عليه وأختم على قلبك ، بحيث لا يدخله الإيمانُ ، ولا يخرج منه الكفر .

﴿ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ (٧٥) ﴾

﴿ ذَٰلِكُم ﴾ إشارة إلى ما وقع بهم من العذاب بالأغلال والسلاسل

والنار ، سببه ﴿بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ[1] (٧٥)﴾ [غافر]

الفرح : انبساط النفس بما يسرُّها ويُسعدها ، لكن الفرح الحقيقى أن تسعد وتسر بما يُعينها على غايتها الأصيلة ، فهناك فرح بأىِّ شىء ربما كان بالمعصية ، وفرح بحق هو أنْ تفرح بما يُعينك على غايتك ، أما الشىء الذى لا يعيننى على هذه الغاية ، بل يصادمها ، فهذه لذَّة عابرة تعقبها حسراتٌ ربما تفوق أضعاف اللذة التى حصلتْ من هذا الشىء .

واقرأ مثلاً فى الفرح الحقيقى قوله تعالى : ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ .. (١٧٠)﴾ [آل عمران]

نعم هذا هو الفرح بحقٍّ ، بل يتعدَّى الفرح للآخرين : ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠)﴾ [آل عمران] فهذا فرح يتعدَّاك إلى غيرك فرح حقيقى ، لأنه يحقق الغاية الأصيلة فى الوجود .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٥٨)﴾ [يونس] هذا فرح بالفضل

---

(١) تمرحون : أى تبطرون وتأشرون . قاله مجاهد وغيره . وقال الضحاك : الفرح السرور والمرح العدوان . [تفسير القرطبى ٥٩٨٣/٨] .

وبالرحمة من الله لا بعملهم ، وهذا فرح مشروع .

ومن الفرح المشروع : ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ .. (٣٦)﴾ [الرعد] لأنه جاء مُصدّقاً لما معهم ومؤيداً لمنطقهم فى الحق ، وهذا تفرح به لأنه يُعينك على الغاية الأصيلة فى الوجود .

ويقول تعالى : ﴿الٓمٓ (١) غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ اللَّهِ .. (٥)﴾ [الروم] فكم فرح مشروع إذن ؟ فرح الشهداء بفضل الله وبرحمته ، وفرح الذين أوتوا الكتاب برسول الله ، وفرح المؤمنين بنصرة منهج السماء على منهج الأرض .

وما عدا الفرح المشروع فرح أحمق ، ومنه قوله تعالى عن الكافرين : ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ (٥٠) قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا .. (٥١)﴾ [التوبة] يعنى : ما أصابنا من الله محسوب لنا لا علينا .

وقال : ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (١٢٠)﴾ [آل عمران]

وقال تعالى أيضاً فى الفرح غير المشروع أو الأحمق كما قلنا : ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً .. (٤٤)﴾ [الأنعام]

وقال تعالى : ﴿لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا .. (١٨٨)﴾ [آل عمران] يفرحون بأنهم آذوا المؤمنين وسخروا منهم ﴿وَيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ[1] مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٨٨)﴾ [آل عمران]

وقال : ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ (٩) وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ (١٠)﴾ [هود]

وقال : ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا[2] كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٥٣)﴾ [المؤمنون]

وما دامت قد تعددت الأحزاب ، وفرح كُلٌّ بما عنده ، فهو فرح باطل غير مشروع .

وقال أيضاً : ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ

---

(١) المفازة : سميت الصحراء مفازة تفاؤلاً بالفوز فى اجتيازها والنجاة من أخطارها ، ومعنى الآية : فلا تحسبنهم بمكان فوز يفوزون فيه بالنجاة من العذاب أى : لا تحسبنهم بمنجاة منه . [القاموس القويم ٢/٩١] .

(٢) زُبُراً : جمع زُبْرة بمعنى القطعة . أى : تفرقوا فى دينهم . [لسان العرب – مادة : زبر] .

الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ[1] بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦) ﴾ [القصص]

إذن : عندنا فرح مشروع فى أربعة مواضع ، وفى تسعة مواضع ، فرح غير محمود وغير مشروع .

هنا يقول تعالى : ﴿ ذَلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ .. (٧٥) ﴾ [غافر] هذا دليلٌ على أن هناك فرحاً بالحق وفرحاً بغير الحق ﴿ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ (٧٥) ﴾ [غافر] المرح : هو المبالغة فى الفرح والسَّيْر به فى بَطَر وتفاخر وخيلاء .

﴿ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (٧٦) ﴾

﴿ مَثْوَى ﴾ مرجع ومستقر ﴿ الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ الذين تكبَّروا على الله الذى وهبهم الحياة ، ومع ذلك لم يؤمنوا به ، وهؤلاء تكبَّروا على الله فلم يؤمنوا به ، وتكبَّروا على رسله فلم يُصدِّقوهم ، وتكبَّروا على منهجه فلم يعملوا به ، اختاروا هواهم وأسلموا إليه قيادهم بدل أنْ يُسلموه لله .

---

(١) ناء الحمل بالبعير إذا أثقله . وقال ابن عباس : كانت خزائنه يحملها أربعون أقوياء ، وكانت أربعمائة ألف ، يحمل كل رجل عشرة آلاف . [البحر المحيط] وقال الشوكانى فى فتح القدير (٤٢١/٥) : « ناء بحمله : إذا نهض به مثقلاً . والمعنى : يثقلهم حمل المفاتح . قال أبو عبيدة : هذا من المقلوب . والمعنى : لتنوء بها العصبة . أى : تنهض بها ، وقال الفراء : تميلهم بثقلها » .

بعد ذلك يلتفت إلى رسوله ﷺ يقول له : ستواجه كثيراً من المتاعب تحتاج منك إلى صبر ، لأن مهمتك شاقة ، وسوف تُؤْذَى بكل لون من الإيذاء :

﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٧٧) ﴾

نعم ﴿ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ .. (٧٧) ﴾ [غافر] أى : وعده بنصرة رسله وهو حق ، لأنه تعالى قادر على إنفاذ وعده ، وبيَّنا الفرق بين وعدك ووعد الله ، وعدك أنت غير الحق لأنك لا تملك أسباب الوفاء به وتضمنها ، أما الحق سبحانه فله صفات الكمال ، ولا يمنعه شىء من تحقيق وعده .

وقوله : ﴿ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ .. (٧٧) ﴾ [غافر] أى : من العذاب فى الدنيا . ﴿ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ .. (٧٧) ﴾ [غافر] تموت قبل أن ترى فيهم آية ﴿ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٧٧) ﴾ [غافر] أى : فى الآخرة حيث لا يفلتون من العذاب ؛ لذلك قال تعالى : ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢١) ﴾ [السجدة]

العذاب الأدنى ما يقع لهم فى الدنيا ، والعذاب الأكبر يوم القيامة ، يعنى : لا مفرَّ لهم .

ثم يُوضح سبحانه لنبيه ﷺ حقيقة الرسالة ، يقول له : اعلم يا

محمد أنك لستَ بدعاً من الرسل ، ولستَ أول مَنْ أُوذِى فى سبيل دعوته ، فكل مَنْ سبقك من إخوانك فى موكب الرسالات أُوذِى بقدر رسالته ، لذلك فأنت أشدّهم إيذاءً ، لأنك نبىٌّ آخر الزمان ، ورسالتك عامة للناس كافة فى كل زمان ومكان ، فلا بُدَّ أنْ يكون ابتلاؤك أشدَّ ممَّنْ سبقوك .

يقول سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ (١) وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾

نعم ذكر الحق سبحانه لرسوله ﷺ أسماء بعض الرسل ، وعددهم فى القرآن خمس وعشرون ، قال الناظم :

فِى تِلْك حجتنا منهم ثمانيةٌ من بَعْد عشر ويَبْقَى سَبْعةٌ وَهُمُو

---

(١) ذكر السيوطى فى (الدر المنثور فى التفسير بالمأثور) فى تفسير آية غافر ٧٨ : أخرج الطبرانى فى الأوسط وابن مردويه عن على بن أبى طالب قال : بعث الله عبداً حبشياً نبياً ، فهو ممن لم يقصص على محمد ﷺ ، وقال الزمخشرى فى تفسيره الكشاف : قيل : بعث الله ثمانية آلاف نبى : أربعة آلاف من بنى إسرائيل ، وأربعة آلاف من سائر الناس .

إدْريس هُود شُعَيْب صَالح ذُو الكِفْل آدم بالمخْتَارِ قَدْ خُتِموا

لكن الحق سبحانه يقول فى موضع آخر : ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ (٢٤)﴾ [فاطر] وهذا يعنى أن الذين لم يُذكروا من الرسل كثيرون .

﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ .. (٣٨)﴾ [الرعد] ما مناسبة هذه هنا ؟ قالوا : لأنهم كانوا يقترحون عليه الآيات ، كما قال سبحانه : ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا (٩١)﴾ [الإسراء] يعنى : لتستديم هذه الجنة ﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا[1] أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ .. (٩٣)﴾ [الإسراء] فماذا كان جوابه : ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ

---

(١) الكِسْفة والكُسْفة من السحاب والثوب : القطعة منه . والتكسيف : التقطيع . [الصحاح للجوهرى] . وقد حدث من رؤساء قريش فى حوار طويل مع رسول الله ذكره ابن هشام فى السيرة النبوية ، وفيه أنهم قالوا له : أسقط السماء علينا كسفاً كما زعمت إن ربك إنْ شاء فعل فإنا لا نؤمن لك إلا أن تفعل . فقال رسول الله : ذلك إلى الله إن شاء أن يفعله بكم فعل . قالوا : يا محمد أفما علم ربك أنّا سنجلس معك ونسألك عما سألناك عنه ونطلب منك ما نطلب فيتقدم فيعلمك ما تراجعنا به ويخبرك ما هو صانع فى ذلك بنا ، إذا لم نقبل منك ما جئتنا به ، إنه قد بلغنا أنك إنما يعلمك هذا رجل باليمامة يقال له الرحمن وإنا والله لا نؤمن بالرحمن أبداً فقد أعذرنا إليك يا محمد ، وإنا والله لا نتركك وما بُعث منا حتى نهلكك أو تهلكنا .

كُنتُ إِلاَّ بَشَراً رَّسُولاً (٩٣)﴾ [الإسراء] يعنى : ما أنا إلا رسول من الله أبلغ ما أرسلت به .

والحق سبحانه أوضح لنا حينما لا يجيبهم إلى ما طلبوا من الآيات أنهم لم يكتفوا بما عندهم ولم يقنعوا به ، فطلب الآيات بعد ذلك يُعَد طعناً فى الآية السابقة هذه واحدة ، وأيضاً هناك أُنَاس طلبوا الآيات فأجابهم الله ، ومع ذلك كفروا بها . إذن : كَوْنى أجاريهم فى طلب الآيات عبثٌ لا فائدة منه ، لذلك قال سبحانه : ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ .. (٥٩)﴾ [الإسراء] أى : الآيات المطلوبة .

وقوله سبحانه : ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ (٧٨)﴾ [غافر] معنى ﴿قُضِيَ بِالْحَقِّ .. (٧٨)﴾ [غافر] ما دام القضاء بالحق ، فقد فاز المؤمنون وخسر ﴿هُنَالِكَ .. (٧٨)﴾ [غافر] أى : فى الآخرة ﴿الْمُبْطِلُونَ (٧٨)﴾ [غافر] الكافرون أهل الباطل ، وهذه هى النهاية الطبيعية والجزاء من جنس العمل .

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟
مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٧٩) وَلَكُمْ فِيهَا
مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ
وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (٨٠)﴾

﴿ الأنْعَام ﴾ هى : الإبل والبقر والغنم والماعز وهذه لها مهمة ﴿لِتَرْكَبُوا مِنْهَا .. (٧٩)﴾ [غافر] يعنى : منها ما يُركب وهو الإبل ، فلا نركب الخروف مثلاً ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٧٩)﴾ [غافر] أى : اللحوم ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ .. (٨٠)﴾ [غافر] أى : منافع أخرى غير الركوب . والأكل ، كأن ننتفع منها بالجلود والأصواف والأوبار ، وكانوا يصنعون منها الملابس والأغطية والمفروشات والخيام ... الخ .

وتأمل هنا عظمة الأداء القرآنى ، ففى الركوب قال : ﴿لِتَرْكَبُوا مِنْهَا .. (٧٩)﴾ [غافر] وفى الأكل قال : ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٧٩)﴾ [غافر] قالوا : لأن الأكل من المباحات ، أما الركوب فمن الضروريات .

وقوله : ﴿وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ .. (٨٠)﴾ [غافر] أى : أنها تُبلغكم حاجتكم فى السفر للحج مثلاً أو للتجارة وحمل الأثقال ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (٨٠)﴾ [غافر] عليها نعم لأننا نركبها ونضع عليها الأحمال .

أما ﴿عَلَى الْفُلْكِ .. (٨٠)﴾ [غافر] أى : السفن . فمعلوم أننا نركب فى السفينة كما قال تعالى فى سفينة سيدنا نوح عليه السلام : ﴿قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا .. (٤٠)﴾ [هود] ولم يَقُلْ عليها ، كيف ؟ قالوا : لأن الحق سبحانه كأنه يُعطينا المراحل التى تمر بها صناعة السفن وكيفية الاستفادة منها ، فسفينة نوح كانت أولَ سفينة فكانتْ على صورة بسيطة ، فأراد الحق سبحانه أنْ يُعلمنا

أن صناعة السفن ستتطور ، ويكون بها طوابق مختلفة فنركب عليها .

لذلك كنا سألناهم فى سان فرانسيسكو[١] عن السفن العملاقة هذه ، متى صُنِعت ؟ وكانوا لا يعرفون سنة بالتحديد ، فقال أحد الحضور : اعتبر أنها منذ قرن مثلاً ، قلت : نعم ، وفى القرآن الكريم إخبار بها ووصفٌ دقيق لها ، فهى متسعة من أسفل تضيق فى كل دور من الأدوار إلى أعلى ، فتراها عملاقة على صفحة الماء مثل الجبل .

فكيف يقول الحق سبحانه فى قرآنه وهو يُعدِّد نعمه علينا فى سورة الرحمن : ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ (٢٤)﴾ [الرحمن] يعنى : كالجبال ، ومعلوم أن محمداً ﷺ لم يركب البحر ولم يَرَ مثل هذه السفن العملاقة ، إنه دليلٌ على صدق محمد ﷺ فى البلاغ عن ربه .

ثم قولوا لى : متى صُنِعت هذه (الأسانسيرات) وهذه المصاعد الحديثة ؟ قالوا : من خمسين عاماً مثلاً ، قلت : فالحق سبحانه يقول فى القرآن الكريم : ﴿وَلَوْلا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ

---

(١) سان فرانسيسكو مدينة أمريكية فى ولاية كاليفورنيا على المحيط الهادى ، سميت بهذا الاسم فى ٣٠ يناير ١٨٤٧ م ، وهى المركز المالى والبنكى لشاطىء الولايات المتحدة الغربى ، وهى مدينة ليبرالية ويسارية أكثر من معظم مدن الولايات المتحدة . (موسوعة ويكيبيديا) .

بِالرَّحْمَـنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ[1] عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (٣٣) ﴾ [الزخرف]

معارج يعنى : مصاعد كالتى عندكم منذ خمسين سنة ، أخبرنا الله بها منذ ما يزيد على أربعة عشر قرناً من الزمان .

هذه كلها لقطات من كتاب الله ذكرها الحق سبحانه لتكون دليلاً على الإعجاز : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ .. (٥٣) ﴾ [فصلت]

﴿ وَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ (٨١) ﴾

يعنى ﴿ آيَاتِه ﴾ فى هذه المخلوقات ، وآياته فى البحر حين تركبون السفن وترونَ عوالمَ أخرى فى البحر ، وآيات هى أعظم مما ترونَهُ على البر . والآن وبعد التقدم العلمى الحاصل رأيناهم يصنعون للفُلْك نوافذ من زجاج تحت سطح الماء ، ويصنعون زوارق زجاجية تُمكِّنك من رؤية الأعماق وما فيها من بديع صُنْع الله وآياته الدالة على قدرته ، لدرجة أنك تقول : سبحان الله ، كيف يكفر الكافر بعد رؤية هذه العوالم ؟

كذلك حين تركب الإبل فى البر وتتنقل بها عَبْر المسافات ترى كثيراً من آيات الله فى كونه ، فى الجمل الذى تركبه والصحراء

---

(١) المعارج : جمع معراج ومعرج : المصعد . والمعراج : الطريق الذى تصعد فيه الملائكة . والمعراج شبه سلَّم أو درجة تعرج الأرواح فيه إذا قبضت . [العين - للخليل بن أحمد الفراهيدى - مادة : عرج] .

والجبال التى تمر بها ، فى كل ما حولك ترى آية ، لذلك تجد الحق سبحانه وتعالى يطلب منَّا السير فى الأرض .

فيقول سبحانه : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا .. (٦٩) ﴾ [النمل]

ويقول سبحانه فى موضع آخر : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا .. (١١) ﴾ [الأنعام]

فكأن السير فى الأرض لاعتبارين : السير فى الأرض للاعتبار (فانظروا) والسير فى الأرض للتجارة والاستثمار فقال لكم : سيروا فى الأرض وابتغوا الرزق والاستثمار ، لكن لا تحرموا أنفسكم لذَّة الاعتبار والتأمل فى بديع خلق الله ، فقال : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا .. (١١) ﴾ [الأنعام] ومعلوم أن الفاء للترتيب والتعقيب ، وثم للترتيب والتراخى[1] .

وقوله : ﴿ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ (٨١) ﴾ [غافر] يعنى : هذه الآيات التى ترونها أيها تنكرون ، وكيف تنكرونها وهى واضحة

---

(١) تحقيق هذه المسألة أن الحق سبحانه :

- استخدم (الفاء) فى ٣ آيات للسير فى الأرض للاعتبار كيف كان عاقبة المكذبين والمجرمين والذين من قبل ، (النحل ٣٦) (النمل ٦٩) (الروم ٤٢) ، واستخدم (ثم) فى التعبير عن نفس المعنى فى آية واحدة ، وهى قوله تعالى : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١١) ﴾ [الأنعام] .

- وأيضاً استخدم الفاء للتعبير عن المعنى الآخر وهو التأمل فى بديع خلق الله ، فى قوله ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ .. (٢٠) ﴾ [العنكبوت] . ولم يستخدم (ثم) كما قال الشيخ رحمه الله هنا ، فالآية الوحيدة التى وردت فيها (ثم) خاصة بالاعتبار بما حدث للمكذِّبين كما قلنا .

الدلالة على قدرة الله ، كما قال سبحانه فى سورة الآلاء (الرحمن) : ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٣) ﴾ [الرحمن] كررها الحق سبحانه بعد كل نعمة من النعم ، والمراد أنها آيات لا ينبغى أن تُكذَّب ، ولا ينبغى أنْ تُنكَر .

لذلك قال النبى ﷺ لصحابته : لقد قرأتُ سورة الآلاء على إخوانكم الجن ، فكانوا أحسن استجابةً منكم ، كانوا إذا قرأتَ عليهم ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٣) ﴾ [الرحمن] نطقوا جميعاً : ولا بشىء من نعمائك ربنا نكذب[1] .

وجاء بلفظ (أى) للمذكر مع أن (آيات) مؤنث ولم يقُلْ آية قالوا : لأنها مؤنث مجازى جاء بصيغة الجمع ، فيجوز فيه التذكير ، كما فى قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَـٰذَا رَبِّي .. (٧٨) ﴾ [الأنعام] فقال : هذا مع أن الشمس مؤنث .

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢) ﴾

هذا سير كما قلنا للاعتبار ، والاعتبار هنا بمَنْ سبقهم من

---

(١) أورده السيوطى فى الدر المنثور (٧/ ٦٩٠) وعزاه للترمذى وابن المنذر وأبى الشيخ فى العظمة والحاكم وابن مردويه والبيهقى فى الدلائل عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه .

الأمم ، يُبين لهم الحق سبحانه أن مَنْ سبقكم من الأمم المكذِّبة كانوا أكثر منكم عدداً ، وأشدّ منكم قوة وآثاراً فى الأرض ، والآثار هى ما يتركه القوم بعدهم كالأهرام بالنسبة للفراعنة ، مثلاً يبقيها الله شاهدةً عليهم .

وهناك آثار أخرى لم نَرَها لأنها مطمورة ، لكن أخبرنا الله عنها كما فى قوله سبحانه : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (٨)﴾ [الفجر] هذه آثار باقية ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٣٨)﴾ [الصافات]

فأين أنتم أيها العرب من هذه الحضارات الذاهبة ؟ لقد كان عليكم أن تفهموا الدرس من السابقين الذين كذَّبوا الرسل وعاندوهم ، أخذهم الله وهم أقوى منكم وأشدّ ونصر رسله ومنهجه ، وأنتم دون هؤلاء ولن تُعجزوا الله ، بل إن مسألتكم أسهل .

وقوله : ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢)﴾ [غافر] يعنى : هذه الحضارات وهذه العمارة التى تُعدُّ إعجازاً لم نصل إلى سِرِّه حتى الآن ، لم تنفع أصحابها .

ولنتكلم عن آثارهم فى مصر مثلاً ، عندنا آثار الفراعنة فى المعابد وفى الأهرام ، رأينا الألوان على الجدران كما هى وكأنها منقوشة فى العصر الحديث ، رأينا بعض الحبوب كما هى وقالوا إنها صالحة للإنبات بعد هذه الآلاف من السنين ، وتعلمون ما فى بناء

الأهرام من الأسرار التى لم نتوصل إليها حتى الآن .

كل هذا التقدم لم يستطع أصحابه حمايته ، ولم يستطيعوا الإبقاء على هذه الحضارة ، ولا حتى استطاعوا أنْ يتركوا لنا ما يُفسِّرها ، ولولا شامبليون[1] فكَّ لنا رموز حجر رشيد لما استطعنا التوصل إلى هذا التاريخ ولا معرفته .

﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾

أى : جاءتهم رسلهم بالآيات الواضحات وبالمعجزات قال : لسنا فى حاجة إلى الرسل كما قلنا أن سقراط الفيلسوف قالها على الفطرة ، نحن قوم مهتدون بطبيعتنا ولسنا فى حاجة إلى رسل ، ومع ذلك حكموا عليه بالقتل .

لذلك قلنا : إنهم حكموا عليه ظلماً لأنهم لم يحتكموا فى ذلك إلى شىء منطقى ، فأنت سوىّ السلوك فى ذاتك ، لكن هل منع عنك سىء السلوك ؟ فكان يجب أنْ يوجد طرف محايد يراعى ما لى وما علىّ .

---

(١) هو : جان فرانسوا شامبليون ، ولد ١٧٩٠ م وتوفى عام ١٨٣٢ م عن ٤٢ عاماً ، عالم فرنسى ، كان صبياً عمره ٨ سنوات حين جاء مع الحملة الفرنسية على مصر عام ١٧٩٨ م ، قضى ثلاث سنوات فى دراسة اللغات الشرقية والقبطية على يد كبار علماء ذلك العصر ، وشغل وظيفة أستاذ كرسى الآثار المصرية فى الكوليج دى فرانس .

قوله : ﴿فَرِحُوا[1] بِمَا عِنْدَهُم مِّنَ الْعِلْمِ .. (٨٣)﴾ [غافر] هذا نوع من الفرح الذى ذكرناه ، وقلنا : إنه غير مشروع وفرح أحمق . والمراد : فرحوا بما عندهم من العلم الذى يُحاجُّون به القرآن كقولهم : ﴿مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ .. (٢٤)﴾ [الجاثية] وهكذا يقول العلمانيون ، ومثل قولهم : ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا .. (١٤٨)﴾ [الأنعام]

فكل قضية تُعرض عليهم يريدون أنْ يعارضوها معارضةً هم مقتنعون بها رغم بطلانها ، وهذا نوع من العلم عندهم .

أو المعنى : فرحوا بما عندهم من العلم بظواهر الحياة والحضارات التى أقاموها ، فقالوا : لسنا فى حاجة إلى الرسل ، لأن ما عندنا من العلوم أى المادية فيه كفاية . ونقول : أنتم نظرتم إلى سطحيات الأمور وإلى الأشياء التى تبررون بها فكركم ، فقلتم : ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا .. (١٤٨)﴾ [الأنعام] يعنى : تتهم الله ، وهذا دليلٌ على أنك تريد ذلك .

---

(١) قال ابن الجوزى فى زاد المسير فى تفسير الآية :

المشار إليهم قولان :

- القول الأول : أنهم الأمم المكذِّبة قاله الجمهور ، ثم فى معنى الكلام قولان : أحدهما : أنهم قالوا : نحن أعلم منهم لن نُبعث ولن نحاسب ، قاله مجاهد . والثانى : فرحوا بما كان عندهم أنه علم ، قاله السدى .
- والقول الثانى : أنهم الرسل ، والمعنى : فرح الرسل لما هلك المكذبون ونجوا بما عندهم من العلم بالله إذ جاء تصديقه ، حكاه أبو سليمان وغيره .

والبعض يقول أن ﴿فَرِحُوا..(٨٣)﴾ [غافر] تعود على الرسل ، يفرحون أنْ جعلهم الله هُداة مهديين ، لكن هذا القول فيه خروج عن مقتضيات السياق فى الآية ، ويتعارض مع تذييل الآية ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٨٣)﴾ [غافر] أى : حَلَّ بهم ونزل بهم ﴿مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٨٣)﴾ [غافر] يعنى : جزاءَ استهزائهم ، ومن الاستهزاء قولهم : ﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٠٦)﴾ [الأعراف]

وقالوا : ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧٠)﴾ [الأعراف]

ومعنى ﴿يَسْتَهْزِئُونَ (٨٣)﴾ [غافر] من هُزْء الباطل من الحق ، لماذا ؟ قالوا : لأن الباطل حين يرى حقاً يدفعه فلا بُدَّ له أنْ يفُتَّ فى عَضُد مَنْ يؤمن به ، لأنه لو لم يَفُت فى عضده جذبه هو إلى الحق ؛ ولذلك سمعناهم يقولون : ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَـٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا[1] فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (٢٦)﴾ [فصلت]

والله لو لم يكونوا يعلمون حلاوة القرآن وأخْذه لمن سمعه واستيلاءه على الأسماع والقلوب ، ولولا خوفهم من أنْ يأخذ

---

(١) قال السمرقندى فى بحر العلوم فى تفسير الآية ٢٦ من سورة فصلت : « نزلت الآية فى أبى جهل وأصحابه فإنه قال : إذا تلا محمد القرآن فارفعوا أصواتكم بالأشعار والكلام فى وجوههم حتى تُلبِّسوا عليهم ، فذلك قوله ﴿وَالْغَوْا فِيهِ .. (٢٦)﴾ [فصلت] يعنى : الغطوا واللغط هو الشغب والجلب » .

القرآنُ منهم سيادتهم لما قالوا هذا الكلام ، ولما حذَّروا الناس من سماعهم ، ولو كان كلاماً عادياً ما وقفوا منه هذا الموقف . إذن : فهموا أن القرآن حَقٌّ ، ومَنْ سمعه لا بدَّ أنْ يهتدى به . ومعنى سمعه يعنى : بمواجيده .

سمعنا كثيراً قصة إسلام[1] سيدنا عمر بن الخطاب ، وكان جباراً فى الجاهلية عنيداً غليظ القلب ، فماذا حدث له بعد سماع القرآن ؟ لقد سمعه أولاً من أخته فغضب ولطمها على وجهها ، فسال الدم من وجهها ، وعندها تحركت عاطفته نحو أخته ، فلما تحركت عاطفته غطتْ على لدد الخصومة عنده للإسلام ، ولما غطَّت على لدد الخصومة للإسلام وصل القرآنُ إلى قلبه بدون لدادة فأثَّر فيه فآمن .

وقد صوَّر لنا القرآنُ فى موضع آخر نموذجاً لاستهزاء أهل الباطل بأهل الحق ، قال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٣٠) وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ (٣١) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَـٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ (٣٢) وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ (٣٣)﴾ [المطففين]

---

(١) كان إسلام عمر بن الخطاب فى ذى الحجة سنة ست من بعثة رسول الله وعمره حينئذ ست وعشرون سنة فيما ذكره ابن سعد عن ابن المسيب . وقال أبو نعيم : كان إسلامه بعد إسلام حمزة بثلاثة أيام . قال ابن إسحاق : كان المسلمون قريباً من أربعين من رجال ونساء . [انظر : سبل الهدى والرشاد - الباب ١٧ فى إسلام عمر بن الخطاب] .

ثم يذكر الحق سبحانه عاقبة هذا الاستهزاء ، واللقطة الأخيرة فى هذا الموقف ﴿ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٣٤) عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ (٣٥) ﴾ [المطففين] ثم يسألنا ربنا ﴿ هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦) ﴾ [المطففين] يعنى : هل قدرنا أنْ نجازيهم بما يستحقون ؟

﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ (٨٤) فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ (٨٥) ﴾

هذه الآية تُمثِّل نفس الموقف الذى مرَّ به فرعون لما أدركه الغرق ﴿ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠) ﴾ فردَّ الله عليه ﴿ آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٩١) ﴾ [يونس]

يعنى : لا ينفعك الآن إيمانك . إذن : هناك فترة لا يمكن الرجوع فيها من الكفر إلى الإيمان ، وهى ساعة يحيق به الموتُ ، إنما يقبل منه الإيمان وهو فى سَعَة من أمره حين يؤمن وفى مكْنته ألاَّ يؤمن .

كذلك هؤلاء ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا .. (٨٤) ﴾ [غافر] أى : عذابنا حلَّ بهم فى الدنيا ﴿ قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ (٨٤) ﴾

[غافر] فهل هذا وقت يُقبَل منهم فيه إيمان ؟

يقرر الحق سبحانه : ﴿ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا .. (٨٥) ﴾ [غافر] يعنى : ما كان يصح فى عُرْف العقل ، ولا فى عرف الحق أن ينفعهم هذا الإيمان ، وكيف والآن لم تعُدْ لهم حيلة فى أنْ يُصادموا منهج الله ولا قوةَ ، الآن ليؤمنوا ؟

ما كان ينبغى أبداً أنْ ينفعهم هذا الإيمان ، وهذا الإيمان بظنهم هم ، وإلا فهو إيمان باطل مردود ، ولا معنى له لأنه فى غير وقته .

وهذه ﴿ سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ .. (٨٥) ﴾ [غافر] يعنى : مضتْ ﴿ فِي عِبَادِهِ .. (٨٥) ﴾ [غافر] وقد رأينا هذه السُّنة على مرِّ التاريخ ، فكما أخذ أقواماً بذنوبهم ، ولم يقبل منهم إيمانهم ساعةَ غرغرتهم ، أو ساعة نزول العذاب بهم ، كذلك أنتم ولن تتغير هذه السُّنة لأنها ثابتة ﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً (٦٢) ﴾ [الأحزاب] ، وستظل سُنةُ الله جاريةً على الخَلْق أجمعين .

﴿ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ (٨٥) ﴾ [غافر] وهذا هو الأمر الطبيعى والنهاية التى يستحقونها .

سورة فُصِّلَتْ(١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ ﴾

قلنا : (حم) من الحروف المقطعة ، وقد حام العلماء حول معانى هذه الحروف وهذه المحاولات إرضاءً لشهوة البحث فى العقل ، ولكن الإيمان غير ذلك ، فالإيمان يأخذ القضية مُسلَّمة ، وما دام الله قد قالها فقد انتهت المسألة .

ولذلك سيدنا أبو بكر الصديق ساعةَ قالوا له : إن صاحبك يدَّعى أنه فعل كذا وكذا قال : أَو قَاله رسول الله ؟ قالوا : نعم ، قال : فقد صدق(٢) يعنى : هذه مسألة فوق البحث ، ولا مجالَ لإعمال العقل فيها

---

(١) سورة فصلت هى السورة رقم (٤١) فى ترتيب المصحف الشريف نزلت بعد سورة غافر ، وهى ٥٤ آية ، قال القرطبى فى تفسيره (٦٠٠١/٩) : « سورة فصلت مكية فى قول الجميع » . ومعنى فصلت : أى بينت وفُسرت . قال قتادة : ببيان حلاله من حرامه وطاعته من معصيته .

(٢) ذكره القرطبى فى تفسيره (٤٠١٢/٥) وتمامه أنه قيل له : أتصدقه قبل أن تسمع منه ؟ فقال : أين عقولكم ؟ أنا أصدقه بخبر السماء ، فكيف لا أصدقه بخبر بيت المقدس ، والسماء أبعد منها بكثير ؟!

لأن لها رصيداً من الصدق يجعلها فوق البحث .

ولقد ذكرنا سابقاً خلاصة القول فى هذه الحروف ، وهذه الحروف هى التى يذكر الله فيها اسم الحرف ، لأن كلَّ حرف له اسم وله مُسمَّى ، فالألف مثلاً اسمه الألف ومُسمَّاه أ - أُ - إِ . الاسم لا يَنطق به إلا المتعلم ، فالأمى لا يَعْرف الباء والتاء والثاء ، لكنه ينطق بها حين يتكلم .

إذن : ينطق الأُمىّ مُسمَّى الحرف ، ولا يعرف اسمه بدليل أننا حينما نُعلِّم الأولاد نقول لهم : تهجّ هذه الكلمة ، فيقول : ك ت ب . أما الأمى فينطقها كتب دون أنْ يعرفَ حروفها ولا هجاءها . اتفقنا على هذه المسألة .

اذكروا أن رسول الله ﷺ كان أُمياً ، فما الذى أفهمه أن (ح) اسمها حاء ، و (م) اسمها ميم ، بدليل أنك تقرأ فى أول سورة البقرة (الم) ألف لام ميم . أما فى أول الشرح فتقول ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ①﴾ [الشرح] فلماذا قرأتها فى البقرة هكذا ، وفى الشرح هكذا ؟

أنت قرأت فى البقرة اسم الحرف ، أما فى الشرح فقرأتَ مُسمَّى الحرف ، وهذه لا يفرق بينها إلا متعلم ، فمَنْ علَّم محمداً هذه المسألة ، والحروف هى نفس الحروف بنفس الترتيب ؟

شىء آخر : أن الحروف المقطعة فى القرآن أخذت نصف حروف الهجاء ، حروف الهجاء معروف أنها ثمانية وعشرون حرفاً ، أخذتْ منها الحروفُ المقطعة أربعة عشر حرفاً موزَّعة توزيعاً عجيباً ، وما زال العلماء حائرين فى فهم معانيها .

ففى الحروف التسعة الأولى لم يذكر منها إلا حرفين : الألف

والحاء . وفى الحروف التسعة الأخيرة جاء منها سبعة فقط ، ولم يأتِ حرفان على عكس الأولى ، أما العشرة فى الوسط فقد أخذ منها غير المنقوط وترك المنقوط ، فأخذ السين وترك الشين ، وأخذ الصاد وترك الضاد ، وأخذ الطاء وترك الظاء ، وأخذ العين وترك الغين ، إذن : هى مسألة مدروسة ليست رتابة ، إنما هى بنظام وحكمة مثل أسنان المفتاح ، فهى دقة مقصودة .

ثم ترى أنه سبحانه مرة يأتى فى أول السورة بحرف واحد مثل : ص ، ق . ومرة حرفين مثل : حم ، ومرة ثلاثة مثل : الم ، ومرة أربعة مثل : المر ، وخمسة مثل حمعسق ، كهيعص . إذن : المسألة حكمة مقصودة ليستْ هكذا دون نظام ، لها مقصد ، مقصد يضع الله فيه حَدَّ الخلاف بين الحروف وباقى الكلام ، كيف ؟

قالوا : الحروف المقطعة تنطقها أسماء ، ولا بدَّ أنْ تقف فيها فلا تقول مثلاً : ألفٌ لامٌ ميمٌ هكذا بالوصل . إنما تقول : ألف وتسكت . لام وتسكت . ميم وتسكت ، مع أن القرآن كله فى مُجْمله مَبنىٌّ على الوصل لا على الوقف ، تقول فى سورة (الرحمن) : ﴿مُدْهَامَّتَانِ (٦٤)﴾ [الرحمن] هكذا بالكسر ليتم الوصل بما بعدها ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٣)﴾ [الرحمن]

حتى آخر كلمة فى القرآن فى سورة (الناس) تقول : ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ (٦)﴾ [الناس] لتبدأ بعدها وتُوصلها بـ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ (١) الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢)﴾ [الفاتحة]

أما الحروف المقطَّعة فجاءت مبنية على الوقف ، لذلك قال ﷺ :

« لا أقول الم حرف . ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف »[١]

إذن : فى الحروف المقطَّعة مقاصد وحِكَم ما يزال العلماء يحاولون التوصل إلى شىء منها ، كلٌّ حسب ما فتح الله عليه منها ، أما هى فكنز باقٍ لا ينفد يعطينا منه الحق سبحانه على قدرنا .

يقولون : القرآن جاء معجزةً أسلوبية بلاغية ، وأمة العرب مشهورة بالفصاحة والبلاغة ، ومع ذلك ما استطاعوا محاكاة القرآن ولا الإتيان بمثله ، مع أن الله جاء به بلغتهم وبنفس حروفهم وتعبيراتهم ، وتحدَّاهم بهذا كله ، فلم يستطيعوا الإتيان ولو بآية واحدة من مثله .

وكأن الله يقول لهم : معكم نفس الحروف ونفس الكلمات ، فلماذا لم تنسجوا منها مثل نسجى ؟ إذن : وجه الإعجاز هنا أنه سبحانه وتعالى هو المتكلم بالقرآن ، هو الذى صاغه وتكلم به .

وأيضاً ، والمعنى الذى يجب أنْ يسودَ فى هذا كله ، أن الحق سبحانه أنزل لنا عقائد وأحكاماً صدرتْ ممن اعتقدته وآمنتَ به ، وقرآن يدل على ذلك ، هذه ثلاثة : العقائد وهى الإيمان بالوجود الأعلى وواجب الوجود ، وأن له صفات الكمال المطلقة : الأول والآخر والظاهر والباطن .. الخ لأن هذه يُقام عليها دليل عقلى .

فهذا الكون البديع المحكم لا بدَّ له من خالق قادر حكيم عليم ..

---

(١) عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة ، والحسنة بعشر أمثالها ، لا أقول ألم حرف ، ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف » أخرجه الترمذى فى سننه (٢٩١٠) وقال : حديث حسن صحيح .

الخ .. فالعقل يؤيد هذه العقيدة ويثبتها ، لكن ليست هذه كل العقائد ، بل هناك سمعيات لا يقوم عليها دليل عقلى لأنها غيبيات كما نقول مثلاً : فى الجنة كذا وكذا ، وصفتها كذا وكذا .

ومثلها كذلك عذاب القبر ، هذه غيبيات ، نعم لا يقوم عليها دليل من العقل ، إنما هى محمية فيما له دليل عقلى ، فما دُمتَ قد آمنتَ بهذا الإله ، ودلَّكَ العقل عليه ، فخذ ما أخبرك به دون أنْ تناقشها ، فقط تقف عند سماعها .

كذلك الأحكام مثل الصلاة ، وأنها إدامة الولاء لله تعالى ، والزكاة للاستطراق المالى والاقتصادى فى المجتمع ، كذلك الحج لبيت الله الحرام . وهكذا . فالأحكام أيضاً فيها جانب عقلى وجانب سمعى ، فالصلاة كعبادة لله ودليلِ ولاء للمعبود سبحانه هذا أمر عقلىٌّ ، أما كيفيتها وعدد ركعاتها فهذا أمر سمعى نأخذه كما هو ولا نناقشه ، كذلك كل العبادات .

والأحكام فيها أمر عقلى يُفهم ، وأمر سمعى يُؤخذ مُسلَّماً به ، فإنْ قلت : كيف نقف عند أمور فى الدين لا تُناقش . نقول : نعم لأن هذا الوقوف فى أمور الغيبيات هو دليلُ إيمانك بالله ، لأن الأمور العقلية يستوى فيها كل الناس .

قلنا : لو عندك مبلغ تخاف عليه السرقة مثلاً ، ووضعتَه تحت حجر فى الحديقة ، وجاء آخر الشهر وأردتَ مثلاً أن تعطى خادمك راتبه من هذا المال . تقول له : يا فلان ارفع هذا الحجر وهاتِ ما تحته ، فيقول لك : لا أقدر على رفعه وحدى ، وسأنتظر فلاناً يرفعه معى ، تقول له : اعلم أن تحته الكيس الذى به النقود التى ستأخذ منها راتبك ، عندها يذهب ويرفع الحجر وحده .

أما إنْ قلتَ لشخص آخر : ارفع هذا الحجر فرفعه دون علة . فهل يستوى فى طاعتك هذا وهذا ؟

كذلك أمر العقائد ، فَرْق بين مَنْ يؤمن بالأمور العقلية الحسية ، ومَنْ يؤمن ويصدق حتى بالأمر الغيبى الذى تخبر به .

كذلك الحال فى العقائد وفى الأحكام وفى القرآن كُلٌّ فيه الأمر العقلى والأمر الغيبى ، وعليك أنْ تحمل الأمور الغيبية على الأمور العقلية . والقرآن الكريم - وهذا هو موضوعنا - فيه كلام عقلى يُفهم بالعقل ، وحروف لا يُفهم معناها إلا أن الله قالها ، ولذلك نقول فيها : والله أعلم بمراده .

وقوله : ﴿ حمٓ (١) تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ (٢) ﴾ [فصلت] أنا أقول أن (حم) هذه هى التى يقول الله عنها ﴿ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ (٢) ﴾ [فصلت] وما دامتْ تنزيلاً من الرحمن الرحيم ، فإياك أنْ تخوض فيها وتقول : ماذا تعنى ، أو أنها مبهمة .. الخ لا بل قف عندها وخُذْها على أن لله فيها مراداً هو أعلم به .

واعلم أنه سبحانه يقول بعدها : ﴿ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ .. (٣) ﴾ [فصلت] ففى القرآن إذن الأمران : الأمر الغيبى الذى ينبغى الوقوف عنده مثل (حم) ، وهذه الغيبيات هى مجالُ اختبار الإيمان ، ثم يعطيك أيضاً الأمر العقلى المفهوم يُفصِّله لك تفصيلاً .

كلمة ﴿ تَنزِيلٌ .. (٢) ﴾ [فصلت] من نزول الشىء ، والنزول يكون من مكان عَالٍ إلى مكان منخفض عنه ، أو من مكانة عليا إلى مكانة أدنى ، وهذه المادة جاءت كثيراً تدل على نزول القرآن والمنهج من أعلى ، وجاءت بكل الاشتقاقات : تنزيل ، نزل ، ننزل ، نزَّلناه ، أنزلنا ﴿ وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ .. (١٠٥) ﴾ [الإسراء] وقال :

﴿ تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ[1] فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ (٤) ﴾ [القدر]

لذلك ساعة تسمع كلمة ﴿ تَنزِيلٌ .. (٢) ﴾ [فصلت] تعلم أن الذى جاءك من أعلى منك منزلة حتى لو كانت مكانته عندك ، وتحت رجليك كما قال فى الحديد : ﴿ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ .. (٢٥) ﴾ [الحديد] فالحديد معلوم أنه من الأرض من حيث نشأته وتكوينه، لكنه مُنزَّل من أعلى من حيث خالقه وواهبه لك .

إذن : فكل هذه الاشتقاقات من (نزل) تدل على علو الشىء المنزَّل ، ومُنزَّل مِنْ مَنْ ؟ ﴿ مِّنَ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ (٢) ﴾ [فصلت] فيجب أن تتلقى هذا المُنزَّل إليك بالتسليم المطلق والقبول ، لذلك سيدنا أبو بكر لما قالوا له : إن صاحبك يدَّعى أنه أُسرىَ به إلى بيت المقدس وعُرِج به إلى السماء لم يناقش هذه المسألة عقلياً . إنما قال لهم : إنْ كان قال فقد صدق .

فجعل قَوْل رسول الله هو الأساس ، فإنْ حدث منه القول فهو صادق ، لذلك منذ هذا اليوم لُقِّب بالصدِّيق . مع أن الإسراء آية أرضية وفيه جانب عقلى ، لأن المسافة معلومة لهم ، وكيفية السفر إلى بيت المقدس معلومة زماناً ومكاناً ، ومع ذلك لم يناقش فيها . أما المعراج فهو أمر غيبىٌّ ، فكأنه جعل تصديق محمد فيما يعلمون فى الأرض وسيلةً لتصديقه فيما لا يعلمونه فى السماء .

ونفهم أيضاً من قوله تعالى : ﴿ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ (٢) ﴾ [فصلت] أن التكليف الذى نزَّله الله لك لم يأتِ ليشقَّ عليك ، إنما هو

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٤/٥٣١) : « أما الروح فقيل : المراد به هنا جبريل عليه السلام فيكون من باب عطف الخاص على العام . وقيل : هم ضرب من الملائكة » .

من رحمن بك واسع الرحمة ، رحمته وَسِعَتْ كل شىء المؤمن والكافر .

و (الرحيم) يعنى : دائمَ الرحمة لأن رحمته تعالى تنسحب وتدوم حتى فى الآخرة ، فإنْ رأيتَ فى التنزيل تكليفاً تظنه يشق عليك ، فلا تفهم أنه من قاسٍ عليك ، إنما هو من رحمن رحيم .

رحمن بك ، لأنه يدلُّك على ما يسعد دنياك ويسعد آخرتك ، بدليل أنه سبحانه حين يكلفنا بأمور قد تشقّ على النفس العادية لا يستفيد من هذا التكليف ، فسواء أن تكفر أو أن تؤمن ، تصلى أو لا تصلى ، لأنه سبحانه بصفة القدرة موجود ، وإنْ لم تؤمن به وإنْ لم تُصَلِّ .

فعملك إذن لا علاقة له بالله من حيث النفع ، العملية لصالحك أنت كما تقول لولدك مثلاً : إذا نجحتَ هذا العام سأشترى لك كذا وكذا .

﴿ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ﴾

سماه ﴿ كِتَابٌ .. ﴿٣﴾ ﴾ [فصلت] لأن الكتاب تعنى الجمع . والكتيبة جمع الجنود ، فالكتاب تجمع الكلمات إلى بعضها ، والكتاب يعنى : مجتمع فيه أشياء ، وفى القرآن اجتمع كل خير فى الدنيا والآخرة ، وهو كتاب لأنه مكتوب ومُسجَّل تستطيع أن تقرأه .

ولذلك لما أرادوا جمع القرآن وضع الجامعُ مبدأ ، وهو ألاَّ يكتب آية إلا إذا وجدها مكتوبة بالفعل على الرِّقاع أو العظام أو غيره ، مما كانوا يكتبون عليه ، ثم يشهد على صحتها اثنان من القراء ، فهو كتاب لأنه مكتوب فى السطور ، وقرآن لأنه مقروء محفوظ فى الصدور .

الحق سبحانه وتعالى أراد بذلك كما قال الشيخ المرحوم محمد عبد الله دراز[١] : أنْ تُذكِّر إحداهما الأخرى ، فالمكتوب مع المقروء يتعاونان فى تسجيل كتاب الله تسجيلاً دقيقاً لا يتطرق إليه الشك .

والدليل على ذلك أن جامع القرآن وجد آية مكتوبة ، وطلب لها شاهدين فلم يجد إلا واحداً يشهد على صحتها فتوقف عن كتابتها ، وكان هذا الشاهد هو سيدنا حذيفة[٢] رضى الله عنه ، وجاء للكاتب مَنْ ذكَّره بحديث سيدنا رسول الله فى شأن خزيمة حين قال : « من شهد له خزيمة فحَسْبه »[٣] فجعل شهادة خزيمة بشهادتين ، وأخذ عنه الآية وكتبها .

ولها قصة : قالوا إن رسول الله ﷺ كان قد استدان مالاً من يهودى ، وأدَّاه لَهُ دون شاهد بينهما ، ثم جاء اليهودى مرة أخرى يطالب رسول الله بالسداد فقال له رسول الله : لقد أديتك . قال : لا ، قال : أدَّيْتُك ، قال : إذن ابغنى شاهداً ، فقام أحدُ الصحابة وقال : أنا يا رسول الله شهدتُ ذلك ، عندها سكت اليهودى لأنه كاذب .

---

(١) محمد عبد الله دراز : فقيه متأدب مصرى أزهرى ، كان من هيئة كبار العلماء بالأزهر ، له كتب منها « الدين » دراسة تمهيدية لتاريخ الإسلام . توفى عام ١٩٥٨م . [الأعلام للزركلى] .

(٢) هو : خزيمة بن ثابت بن الفاكه بن ثعلبة الأنصارى ، أبو عمارة ، صحابى من أشراف الأوس فى الجاهلية والإسلام ، حمل راية بنى خطمة يوم فتح مكة ، عاش إلى خلافة على ابن أبى طالب وشهد معه صفين فقتل فيها ، توفى ٣٧ هجرية . روى له البخارى ومسلم وغيرهما ٣٨ حديثاً [الأعلام للزركلى] .

(٣) أخرجه الحاكم فى المستدرك على الصحيحين (١٨/٢) والطبرانى فى المعجم الكبير (١٠١/٤) من حديث خزيمة بن ثابت . قال الهيثمى فى مجمع الزوائد (٣٢٠/٩) : « رجاله كلهم ثقات » .

وبعد نهاية الموقف استدعى رسول الله الصحابى وقال له : كيف شهدتَ بذلك ولم يكُنْ معنا أحد ؟ فقال له : يا رسول الله ، كيف أُصدقك فى خبر السماء وأُكذِّبك فى كذا درهم ..

نعم : نقول هنا نعْمَ الاستنباط ، لذلك استحق هذه المكانة من رسول الله « من شهد له خزيمة فَحَسْبُه » .

ومعنى ﴿فُصِّلَتْ آيَاتُهُ .. (٣)﴾ [فصلت] يقولون فى الفعل (فُصِّلت) مبنى للمجهول أو لما لم يُسَمَّ فاعله ، والمعنى هنا أن الله فصَّلها أولاً فـفُصِّلت أى : صارتْ مُفصَّلة ، فلما بلَّغها رسول الله للناس أصبحت هى مُفصِّلة لأمورهم ولأحكامهم .

ومعنى ﴿فُصِّلَتْ آيَاتُهُ .. (٣)﴾ [فصلت] لأن القرآن مُقسَّم ومُفصَّل إلى سور ، كل سورة قائمة بذاتها ، وداخل السُّور آيات ، كل آية بذاتها ، ففى السُّوَر الطويل والقصير ، كذلك فى الآيات تجد كلمة واحدة آية ، وتجد آية من عدة أسطر ، كذلك فصَّل الكلمات من حيث مادتها ، كذلك فصَّل الحلال والحرام ، وفصَّل الطاعة والمعصية ، ألم يفصل بين الوعد والوعيد ، بين الثواب والعقاب .

لقد فَصَلَ القرآن بين كل هذه المسائل ، أو فُصلت فيه كل آيات الكون إلى قيام الساعة ، لذلك قالوا : « خطبنا رسول الله خطبة بليغة ، ما ترك فيها شيئاً ، وما ترك من ورقة تسقط إلا حدَّثنا عنها إلى أنْ تقوم الساعة ، حفظها مَنْ حفظها ونسيها مَنْ نسيها »[(١)] .

نعم كما قال تعالى : ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ .. (٣٨)﴾

---

(١) عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : خطبنا رسول الله ﷺ خطبة بعد العصر إلى مغيربان الشمس ، حفظها منا من حفظها ونسيها منا من نسى ، فحمد الله فقال ما هو كائن إلى يوم القيامة ...» الحديث أخرجه أحمد فى مسنده (٣/١٩) .

[الأنعام] يعنى : أن الأمور التى تحدث فى الكون موجودة عندكم فى هذا الكتاب .

ولذلك لما سُئلنا فى إحدى رحلاتنا إلى أوربا من أحد المستشرقين قال : عندكم فى القرآن : ﴿هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ .. (٩)﴾ [الصف]

وفيه : ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٨)﴾ [الصف]

ومع ذلك وبعد مرور أربعة عشر قرناً على ظهور الإسلام ، ما يزال اليهود والنصارى والملاحدة والمشركون موجودين ، ولم يظهر عليهم الإسلام ، فكان الرد الذى وفقنا الله إليه أن الإسلام ظهر بالفعل عليهم رغم وجودهم ، والمراد بالظهور هنا ظهور الحجة ، فالإسلام ظهر على هؤلاء بالحجة من أعدائهم .

وفرْق بين أن تظهر الحجة من مُعتقده ، وبين أن تظهر الحجة من معاند ، كيف ؟ قالوا : ستظهر فى الكون أقضية من صُنْع البشر لا يجدون لها حلاً ، إلا أن يرجعوا إلى حكم القرآن .

إذن : ظهر القرآن عليهم وعلى أفكارهم وعلى أحكامهم وعلى حضارتهم ، وإلا لما رجعوا إليه .

ومثَّلنا لذلك بقضية الطلاق فى الإسلام ، وهى من أهم القضايا التى عارضوها وانتقدوها ، وبعد ذلك اضطرّ الفاتيكان نفسه إلى إباحة الطلاق عندهم ، وهذا هو ظهور الإسلام ، لا بأنْ يكونوا مسلمين ، إنما بأنْ تظهر حجته ويشهد له منهم مَنْ لم يؤمن به .

وقوله : ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا .. ﴿٣﴾﴾ [فصلت] أى : بلسان عربى وفى أمة عربية ، لكن كيف ذلك وهو رسالة عالمية لكل البشر ولكل اللغات ؟ ولماذا لم ينزل بكل اللغات ؟ قالوا : إذن لم يكُنْ هناك لغة (اسبرانتو) فالقرآن نزل على محمد فى بيئته العربية ، لأن الله تعالى يريد أن يظهر هذا الدين فى أمة أمية ، وعلى لسان رسول أُميٍّ حتى لا يقول أحد : إن القرآن وثبة حضارية .

فالعرب كانوا أمة لا دولةَ لها تحكمها ولا نظام ولا قانون ، كانوا مجموعة من القبائل كل قبيلة لها قانونها ، كل واحد منهم (شوكته من ظهره) ومع ذلك تأتى مثل هذه الأمة وتوحد العالم كله بما فيه من دول متحضرة من فارس فى الشرق إلى الروم فى الغرب .

فمن أين أتت هذه الأمة بذلك ؟ كان عليهم أنْ يفهموا أنه قانونُ السماء جاء من أعلى ، وإلا ما كان العرب ليقوموا بهذا الدور لولا رسالة محمد ﷺ .

إذن : لا مجالَ لأنْ نقول عن الإسلام إنه وثبة حضارية ، لذلك لما أراد الحق سبحانه إعلاءَ دينه جعل محمداً ﷺ يجهر بهذا الدين فى مكة ، لماذا مكة بالذات ؟ لأن فيها قريشاً وهى موضع السيادة فى الجزيرة كلها ، وفيها الصناديد الذين لا يجرؤ أحد على مواجهتهم .

فبين هؤلاء صاح محمد بالإسلام وجهر به ، ومع ذلك لم ينصر الدين هؤلاء السادة ، إنما نصره المستضعفون والعبيد فى المدينة ، وقلنا : إن لهذه المسألة حكمة ، هى ألاَّ يظهر أحد أن العصبية لمحمد هى التى خلقتْ الإيمان بمحمد ، ولكن الإيمان بمحمد هو الذى أوجد العصبية لمحمد .

فالقرآن عربى لأنهم أمة الدعوة الذين سيحملون لواءها ويسيحون بها فى أنحاء العالم كله ، فالعرب أمة تقوم على الترحال ليس لهم بيوت ولا يسكنون الڤيلات والعمارات ، إنما هى الخيمة يحملها معه أينما سار ، فوطنه إذن العالم كله وبيته على ظهر جمله ، كما أنها أمة قبلية يتعصب كُلٌّ لقبيلته ، لذلك كثرت بينهم الحروب حتى أن بعضها استمر أربعين سنة .

هذه الحروب درَّبتهم على القتال ، وزرعت فيهم الشجاعة والتضحية بالنفس فى سبيل المبدأ ، لذلك لما أراد رسول الله أنْ يُعدَّ جيشاً لم يفتح له مدرسة حربية ، إنما وجد جيلاً من الرجال جاهزاً مُعداً يعلم كل فنون الحرب ، كلما سمع أحدهم هيعة طار إليها .

هؤلاء هم الرجال الذين سيتلقوْنَ الدعوة من رسول الله ، هم الذين سينشرونها . إذن : لا بُدَّ أنْ يكون الكلامُ بلسانهم ، والدعوة بلغتهم ، ليستطيعوا حملها .

لذلك قال تعالى فى موضع آخر : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ .. (٤)﴾ [إبراهيم] نعم لأنهم هم الذين سيسمعون منه أولاً .

لكن كيف تكون عالمية الدين ؟ قالوا : حين يسمع منه قومه يؤمنون به ، ثم يحملون دعوته إلى الناس لا ألفاظاً ، لكن يحملونها منهجاً وسلوكاً وقدوةً ، ومعلوم أن المناهج لا تختلف فيها اللغات ، لذلك غزا المسلمون العالم كله ، ليس بالقرآن وآياته إنما بالسلوك وبالمبادىء التى أرساها القرآن .

إذن : نزل القرآن بلسان عربى ، لأن العرب هم المعَدُّون لهذه المهمة ، القادرون على حملها ، والسياحة بها فى العالم كله لكونهم

أمـة بدوية غيـر متـوطنة ، وأمة قـتال ، وهى أمـة أميـة لا يمكن أن نتهمها باختلاق هذا الدين ، أو أنه وثبة حضارية .

وقوله : ﴿ لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [فصلت] أى : يعلمـون أساليب العربيـة ، بل ويُجوِّدون فيـها ، فهـم أعلى قمة الفـصاحة والبـلاغة ، بدليل أنك لن تجد أمة فى الأرض صنعتْ معارض للأدب وللكلمة كما صنع العرب فى عـكاظ والمربد وذى المجـاز والمجنة ، فـفيهـا كانوا يعرضون إنتاجهم الأدبى ويُقيِّمونه ، وما استحسنوه منه يكرمونه بأن يضعوه على أستار الكعبة .

إذن : ﴿ لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [فصلت] العربية وينبغون فيها نبوغاً ، بحيث نزل القـرآن المعجز بلسـانهم . والإعجاز لا يتأتى لمن لا يـجيد مجال الإعـجاز ، فالذى يجهل شيئـاً لا يصح أنْ تقول له : أتحداك فى هذا الشىء ، إنما يكون الإعـجاز للمُجـيد فى الشىء المتـحدَّى به ، لأن الجاهل له أن يقول لك : والله لو كنت أعلم الشىء الفـلانى لغلبتك فيه . ومن هنا تحدى الله العرب بالقرآن .

ولذلك الحق سـبحـانه وتعـالى لا يُنزل آية مع رسـول من رسُله لإثبـات صدقـه فى الدعوة إلا من جنس مـا نبغ فـيه القـوم ، فكانت معجزة سيدنا عيسى فى الطب ، فكان يبرئ الأكمه[1] والأبرص[2] بإذن الله ، وسيدنا مـوسى عليه السلام كانت مـعجزته العصـا ، لأن قومه نبغـوا فى السحر ، وجاءت مـعجزة محـمد ﷺ فى البلاغة والبـيان ، فتحدَّى القوم بالقرآن ، وبذلك يتأتَّى الإعجاز .

---

(١) الأكمه : الأعمى ، سواء وُلد أعمى أو فقد بصره [القاموس القويم ٢/١٧٥] .

(٢) البرص : بياض يصيب الجلد يحدث بقعـاً بيضاء فى الجلد تشوهه وهو من أعراض مرض الجذام الكثيرة . [القاموس القويم ١/٦٤] .

لذلك نسمع مَنْ يقول : إن العرب انهزموا أمام القرآن ، وهذا غير صحيح ، لأن العرب لم ينهزموا بل انتصروا أمام القرآن ، كيف ؟ لأن الله تعالى لا يتحدى إلا قوياً ، فتحدِّى الله لهم دليلٌ على أنهم قوة ، لديهم القدرة على البيان ويمتلكون ناصية اللغة .

﴿ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ بَشِيراً وَنَذِيراً .. ﴿٤﴾ ﴾ [فصلت] هذا أول شىء فى التفصيل ، كما قلنا : فصَّل الحق والباطل ، والحلال والحرام ، هنا بشيراً ونذيراً ﴿ فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [فصلت] إعراض الكثرة يدل على أن القلة هى التى آمنتْ وهى القلة المستضعفة ، أما أكثرهم فكانوا أهل السيادة وأهل القوة الذين لم يقبلوا الدعوة الجديدة التى تسويهم بهؤلاء الضعفاء والعبيد .

لذلك سيدنا أبو بكر لما تولى الخلافة ، وجاءه جماعة من هؤلاء الصناديد ، وكان عنده جماعة من المستضعفين السابقين للإسلام أخّر الصناديد والكبراء حتى يفرغ ممَّنْ عنده فشقَّ ذلك عليهم ، ووجدوا فى أنفسهم شيئاً ، كيف يُقدِّم أبو بكر عليهم العبيد والضعفاء ، فقال الصِّدِّيق : ما بال هؤلاء ؟ كلهم ورم أنفه[1] أنْ قدَّمتُ عليه فلاناً وفلاناً ، فما بالهم إذا قدَّمهم الله عليهم يوم القيامة فى الجنة ؟

لكن ما وجهة الإعراض فى قوله تعالى : ﴿ فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ .. ﴿٤﴾ ﴾ [فصلت] قالوا : وجهة الإعراض أنهم يفهمون مطلوب الدين الجديد

(١) ورم أنفه : امتلأ من ذلك غضباً . [المبرد فى الكامل فى اللغة والأدب] .

بقولهم : لا إله إلا الله .

وأن السيادة لن تكون إلا لهذه الكلمة ، ولن تكون سيطرة إلا لهذه الكلمة ، وأن العباد سيكونون سواء أمامها ، إذن : كيف يقولون لا إله إلا الله ، وهم يعرفون مطلوبها ؟ لذلك لم يقولوها ، ولو كانت مجرد كلمة تُقال لقالوها ، لكنهم يعرفون معناها فوقفوا .

وقوله : ﴿فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾﴾ [فصلت] أى : لا يسمعون سماعاً نافعاً ، وسماعاً واعياً مقبولاً ، وإلا فقوله تعالى : ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ ﴿٤﴾﴾ [فصلت] دلَّ على أنهم سمعوا دعوة رسول الله ، سمعوها بالآذان فقط ، ولم يستفيدوا بهذا السماع ، لذلك قال تعالى فيهم : ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا .. ﴿١٦﴾﴾ [محمد]

لذلك يختلف الناس فى تلقِّى القرآن ، فواحد يسمع وينفعل ويسجد لعظمة القرآن ، وآخر يسمع ويقول : ماذا قال !! على سبيل الاستهزاء والاستقلال . لأنه لا يسمع بأذن الاعتبار والتأمل ، لماذا ؟ لأن منافذ القلب من العقل مُضببة بالمطلوب الذى يطلبه الإيمان منهم ، فقد ألفوا السيادة ، فساعةَ يسمعون ما يعارض سيادتهم وسلطتهم الزمنية يعرضوا .

لذلك قلنا فى قصة إسلام سيدنا عمر أنه لما سمع القرآن أولاً عاند وثار ، لأن قلبه لم يكُنْ مُعداً للاستقبال السليم ، فلما لطم أخته وسال الدم منها رقَّ قلبه ولاَنَ ، وزال عنه الضباب ، فلما سمع القرآن تأثر به وانفعل به فآمن .

﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ[1] وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ۝٥﴾

معنى ﴿أَكِنَّةٍ .. ۝٥﴾ [فصلت] يعنى : أغطية جمع كنان أى : غطاء . والغطاء يغلف الشىء بحيث لا ينفذ إليه النور ، وفى آية أخرى قال سبحانه : ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ ..۝٥٧﴾ [الكهف] فالأكنة مرة من جَعْل الله ومرة منهم ، فأيهما أسبق ؟ أجعل الله لهم أكنة أولاً ثم أصابتهم الغفلة ، أم أن إعراضهم عن دين الله هو الذى جعل الأكنة على قلوبهم ؟

وقلنا : إن الإنسان إذا أَلِفَ الكفر وأَنِس به زاده الله منه وختم على قلبه ، بحيث لا يدخله الإيمان ولا يخرج منه الكفر .

إذن : يأتى منهم الكفر أولاً ، وبعد ذلك يختم الله على القلب ، كذلك فى مسألة الأكنة جاءتْ منهم أولاً ، فزادهم الله ، وجعل على قلوبهم الأكنة وزادهم مرضاً على مرض .

إذن : المراد بالأكنّة أى الأغطية التى تمنعهم فَهْمَ وتدبُّرَ ما يسمعون ، وما يُلقى عليهم ﴿وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ .. ۝٥﴾ [فصلت] وقر يعنى : صَمَم يمنع السماع . وفى سورة البقرة قال : ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ .. ۝١٨﴾ [البقرة]

ومعلوم أن البكم ينشأ عن الصمم ، لأن الأصم الذى لا يسمع كيف يتكلم ؟ لأن اللغة ظاهرة اجتماعية وهى بنت المحاكاة ، فما تسمعه الأذن يحكيه اللسان ، فإذا لم تسمع الأذن شيئاً لا ينطق

---

(١) الوقر : ثقل فى السمع . وقيل : هو أن يذهب السمع كله . والثقل أخف من ذلك [لسان العرب – مادة : وقر] . يقول الكافرون ذلك سخرية وإصراراً على العناد والكفر والتكذيب . [القاموس القويم ٢/٣٥٠] .

اللسان بشىء ، فاللغة ليست جنساً ، اللغة سماع ومحاكاة ، بدليل أنك تأتى بالطفل الإنجليزى مثلاً فى بيئة عربية ينطق العربية .

والأصم عنده القدرة على الكلام ، بدليل أنه ينطق ببعض الأصوات غير المفهومة كما نسمع من الأخرس مثلاً ، حتى الإنسان السَّوى الفصيح لا يستطيع أنْ يتكلم بكلمة لا يعرفها من لغته هو ، من أين يأتى بها ؟ من السماع أولاً .

ولذلك أخذنا من هذه المسألة أدلة مادية على وجود الخالق الأعلى سبحانه ، نقول : أنت كيف تتكلم ؟ يقول : أتكلم لأننى سمعتُ فى صِغَرى أبى وأمى ومَنْ حولى يتكلمون ، فقلت كما يقولون ، إذن : لا تنشأ لغة إلا بالسماع .

وكذلك الحال فى الآباء وفى الأجداد ، وارْتَقِ بهذه السلسلة إلى آدم عليه السلام وقُلْ : كيف تكلم آدم وليس قبله أحدٌ يسمع منه ؟ لا بُدَّ أنه سمع ، سمع من مَنْ ؟ سمع من الله تعالى حين علَّمه الأسماء كلها .

منافذ الخواطر التى ترد الآذان ، ومنافذ الخواطر التي تصدر من اللسان ، ولأن هؤلاء صُمٌّ لا يسمعون لم يأخذوا شيئاً ، وبالتالى لم يُخْرِجوا شيئاً ، لذلك قال سبحانه : ﴿ قُلُوبُنَا فِى أَكِنَّةٍ .. ﴿٥﴾ ﴾ [فصلت] يعنى : أغطية تمنع عنهم الاستفادة ﴿ وَفِى آذَانِنَا وَقْرٌ .. ﴿٥﴾ ﴾ [فصلت] يعنى : صمم ، ولم يأتِ هنا بذكر اللسان لماذا ؟ لأنهم لن يتكلموا فى الدين لأنهم لم يسمعوه ، فكوْنه لم يأت بالكلام هنا دلَّ على أنهم لن يسمعوا ولن يتكلموا ، تأمل هنا الدقة لأنه كلامُ ربٍّ .

وقولهم : ﴿ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ .. ﴿٥﴾ ﴾ [فصلت] أى : ستر

غليظ يحجبك ، فأنت تكون مع جليسك تُحدِّثه ويُحدِّثك ، تسمعه ويسمعك ، تراه ويراك ، تأنس به ويأنس بك .. الخ لكن إنْ كان بينك وبينه حجاب امتنع ذلك كله .

هذا الحجاب قد يكون معنوياً ، تقول : بين فلان وفلان جفوة أى : جفوة صغيرة سرعان ما تزول . لكن إنْ قلتَ : بين فلان وبين فلان جفوة ، وكررتَ ظرف المكان دلَّ ذلك على أنها جفوة كبيرة ليس من السهل إزالتها .

كذلك قالوا : ﴿ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ .. (٥) ﴾ [فصلت] يعنى : كثيف غليظ يستر كل شىء ، من هنا إلى هنا ، يعنى : يملأ كل ما بيننا من مسافة . قالوا : لما كان سيدنا رسول الله ﷺ يكلم القوم ، ويعرض عليهم دين الله كان أبو جهل يأخذ ثوبه ويضعه على وجهه حتى لا يرى رسول الله .

وما دام أن بيننا وبينك حجاباً ، فلن نتفق وكُلٌّ منا فى طريق ، وما دام أن لكل طريقه ﴿ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ (٥) ﴾ [فصلت] وهذه القضية أوضحها الحق سبحانه فى سورة الكافرون : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ (٤) وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (٦) ﴾ [الكافرون] هذه هى النتيجة الطبيعية للحجاب بينهما .

بعض الناس حين يقرأون هذه السورة يظنون بها تكراراً ، وهذا ليس تكراراً ، بل فى السورة قَطْع علاقات ، وقطع العلاقات له ظرف يحكمه ، ألم تر إلى الدول تقطع إحداها علاقتها بالأخرى ، ثم تصفو الأجواء مرة أخرى ، وتعود العلاقات أحسن مما كانت ، ففرْقٌ فى الدبلوماسية بين الماضى والحاضر .

لكن فى مسألة الكفر والإيمان الأمر مختلف فهما ضدان لا يلتقيان ، مهما حدث فى المستقبل . فلن تعود العلاقاتُ بينهما ، لذلك قال سبحانه : ﴿ لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) ﴾ [الكافرون] أى : فى الزمن الحاضر الآن ﴿ وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ (٤) وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) ﴾ [الكافرون] أى : فى المستقبل ، فلا تظنوا أن العلاقات بيننا قد تتحسن وتعود بيننا علاقة ، لا .. لا التقاء بيننا .. لا فى الحاضر ولا فى المستقبل .

هذه هى قطع العلاقات ، وما دام بيننا حجاب وحاجز ، فكُلٌّ منا فى طريقه (والحَمْرة فى خيله يركبها) .

﴿ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ (٥) ﴾ [فصلت] اعمل ما يروق لك ، وما يأتيك من إلهك وإسلامك ، ونحن نعمل على قدر آلهتنا وديننا وعبادتنا ، اعمل لإلهك الذى أرسلك ، ونحن نعمل لآلهتنا التى نعبدها ، أو اعمل لآخرتك ونحن نعمل لدنيانا ، فالمسألة من الرسول إصرار ، ومنهم معاداة ، إلى أنْ يستقيم الميسم[1] ، ويأبى الله إلا أن يُتمَّ نوره .

لذلك نرى تدرُّج الإسلام وانتشاره فى بطء ، أمر أتباعه بالهجرة إلى الحبشة وإلى المدينة ، تدرج بهم إلى أنْ تقوى شوكتهم ، بدأ ضعيفاً بالضعفاء ، ثم قوى حتى دخله الأقوياء ، كان منحصراً فى مكة ثم اتسعتْ دائرته ، وكانت تزيد كل يوم بحيث تزيد أرض الإسلام وتنقص أرض الكفر .

لذلك لما رأى خالد بن الوليد وعمرو بن العاص انتشار الإسلام

---

(١) أصل الميسم : المكواة أو الشىء الذى يُوسم به سمات الدواب . والميسم : أثر الجمال فى المرأة . وهو من الوسامة ، ومنه قوله تعالى ﴿ سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ (١٦) ﴾ [القلم] .

على هذه الصورة قال خالد لعمرو : والله لقد استقام الميسم . يعنى : استقام أمر هذا الدين فهيا بنا نسلم[١] .

وأخذ صناديد الكفر يعودون إلى الجادة ، ويدخلون فى دين الله ، فهذا عكرمة بن أبى جهل الذى قاد المعركة فى فتح مكة يوم الخندمة[٢] ثم أسلم وأبلى فى الإسلام بلاءً حسناً ، حتى مات فى إحدى المعارك ، وقال قبل أنْ يموت : أهذه ميتة تُرضِى عنى رسول الله ؟

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٧﴾﴾

(قل) أى : فى الرد عليهم ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَىَّ ..

---

(١) ذكر ابن هشام فى السيرة النبوية قصة إسلام عمرو بن العاص وخالد بن الوليد ومبدؤها أن النجاشى أقنعه أن محمداً على الحق قائلاً له : ويحك يا عمرو أطعنى واتبعه فإنه والله على الحق وليظهرن على من خالفه كما ظهر موسى على فرعون وجنوده . قلت : أتبايعنى له على الإسلام ؟ قال النجاشى : نعم فبسط يده فبايعته على الإسلام وكتمت أصحابى إسلامى . ثم خرجت عامداً إلى رسول الله لأسلم فلقيت خالد بن الوليد وذلك قبيل الفتح وهو مقبل من مكة فقلت : أين يا أبا سليمان ؟ قال : والله لقد استقام الميسم وإن الرجل لنبى أذهب والله فأسلم فحتى متى ؟ قلت : والله ما جئت إلا لأسلم . فقدمنا المدينة على رسول الله فتقدم خالد بن الوليد فأسلم وبايع ثم دنوت فقلت : يا رسول الله إنى أبايعك على أن يغفر لى ما تقدم من ذنبى ولا أذكر ما تأخر . فقال رسول الله : يا عمرو بايع فإن الإسلام يجبُّ ما كان قبله ، وإن الهجرة تجبُّ ما كان قبلها .

(٢) الخندمة : جبل منه بنيان مكة . [الأمكنة والمياه للزمخشرى] فهو أحد جبال مكة وهو المستعلى على جبل ابي قبيس من ناحية المشرق وهو جبل أحمر محجر فيه صخرة كبيرة بيضاء كأنها معلَّقة . [الروض المعطار فى خبر الأقطار - لابن عبد المنعم الحميرى] .

(٦) ﴾ [فصلت] يعنى : لماذا تقفون منى ومن دعوتى هذا الموقف المعاند ؟ لماذا تجعلون بينى وبينكم الحُجُب ، وأنا واحد منكم عربى مثلكم تعرفون صِدْقى وتاريخى قبل ذلك بين ظهرانيكم .

ومن رحمة الله بكم أنْ أرسلنى إليكم بشراً من جنسكم ، ولم يرسل إليكم ملَكاً : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ (٩) ﴾ [الأنعام] ، وتعلمون سوابقه فى الصدق والأمانة والعفة . ثم لو جاءكم ملَكٌ ، أكنتم تقتدون به على ملَكيته ؟ إن الأسوة لا تكون من الملَك للبشر .

وتأمل الأدب والتواضع من رسول الله فى قوله : ﴿ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ .. (٦) ﴾ [فصلت] يعنى : لا كبرياء ولا تعالٍ ، لكن فضلنى الله عنكم بأنه ﴿ يُوحَىٰ إِلَيَّ .. (٦) ﴾ [فصلت] ومضمون هذا الوحى ﴿ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ .. (٦) ﴾ [فصلت] وما دام يُوحى إلىَّ فأنا مُبلِّغ لا ذنبَ لى تؤاخذوننى عليه ، أنا بشر مثلكم ومن أنفسكم لا أمتاز عليكم إلا بما ميَّزنى الله به من الوحى .

لذلك نجد الحق سبحانه كثيراً ما يصحح لرسول الله ويُعدِّل له الحكم ويعاتبه ، ورسول الله هو نفسه الذى يخبرنا بذلك ، وهذا دليلٌ على أنه أمين فى البلاغ عن ربه ، لذلك يقول تعالى : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ[1] (٤٦) ﴾ [الحاقة]

وقال : ﴿ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ .. (٦) ﴾ [فصلت] ولم يقل ربكم لأنهم

---

(١) الوتين : عِرْق فى القلب إذا انقطع مات صاحبه ، وهو لاصق بالصلب من باطنه يسقى العروق كلها الدم ويسقى اللحم وهو نهر الجسد ، وهو نياط القلب [لسان العرب – مادة : وتن] .

يؤمنون بوجود الله الخالق الرازق ، المشكلة عندهم فى الإله المعبود ، فالإله المعبود له أوامر ومطلوبات الإله يقتضى الطاعة فى الأمر وفى النهى ، فهم مسلمون بالربوبية مشركون فى الألوهية ، فأراد أنْ يبين لهم : ﴿أَنَّمَا إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ .. ﴿٦﴾﴾ [فصلت] ليس متعدداً ، مرة يقول ﴿إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ .. ﴿٦﴾﴾ [فصلت] وفى سورة الإخلاص قال : ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾﴾ [الإخلاص] واحد يعنى ليس له ثانٍ ، وأحد يعنى أحد فى ذاته غير مركّب من أشياء فهى تنفى التجزؤ .

وقد اتخذ الكفارُ آلهةً متعددة ليُرضوا ما فى أنفسهم من عاطفة التديُّن ، وليكون لهم إله معبود بلا منهج وبلا تكاليف ، لذلك قلنا : إن من الوسطية فى ديننا أنه يؤمن بإله واحد ، فى حين يوجد مَنْ يؤمن بآلهة متعددة ، ويوجد مَنْ ينكر الإله بالمرة ، فجاء الدين الإسلامى وبيَّن أن الإله واحد .

وما دام هو إله واحد ﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ .. ﴿٦﴾﴾ [فصلت] استقم يعنى : سِرْ على حدّ الاستقامة لا تميل هنا ولا هناك . قالوا : كان رجل من طىء ، اسمه ابن بندر رأى شاباً بيته هنا ، لكن لا يذهب إليه من الطريق المعتاد المستقيم ، إنما يدور فى طرقات القرية ليذهب إلى بيته .

فعرف من ذلك أن الشاب يقصد بدورانه فى الطرقات شيئاً مريباً ، فقال له : يا هذا استقم إلى بيتك يعنى : اذهب إليه من الطريق المستقيم ، عندها عرف الشاب أن الرجل (فقسه) وعرف قصده غير الشريف فارتدع .

كذلك قوله تعالى : ﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ .. ﴿٦﴾﴾ [فصلت] يعنى : اقصدوه من طريق الاستقامة ، وسمَّى طريقه الصراط المستقيم ، وقد

أثبت العلم أن الطريق المستقيم هو أقصر مسافة بين نقطتين ، ثم إن الطريق المستقيم قد يكون ضيقاً يجبرك على الاستقامة عليه ، وقد يكون واسعاً يسمح بالميل يميناً ويساراً (أوتوستراد) .

فإنْ كان واسعاً فاستقم فيه أيضاً لتقصر على نفسك مسافة الوصول ، لأنك حين تميل تزيد المسافة ، لذلك قال : ﴿سَوَاءَ السَّبِيلِ (١٠٨)﴾ [البقرة] يعنى : فى وسطه دون ميل ، بحيث يكون ما على يمينك مثل ما على شمالك ، فمرة قال ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦)﴾ [الفاتحة] ومرة قال ﴿سَوَاءَ السَّبِيلِ (١٠٨)﴾ [البقرة]

فقوله تعالى : ﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ .. (٦)﴾ [فصلت] أى : بدايةً ، فإنْ أصابتكم غفلة عن المنهج واقترفتم شيئاً ﴿وَاسْتَغْفِرُوهُ .. (٦)﴾ [فصلت] أى : اطلبوا منه المغفرة .

﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ (٦) الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ .. (٧)﴾ [فصلت] لأن الاستغفار طلب مَحْو الشىء السابق ، والقاعدة الشرعية تقول : إن درء المفسدة مُقدَّم على جَلْب المصلحة . ومثَّلْنا لذلك بواحد يريد أنْ يرمى لك تفاحة ، وواحد يريد أن يرميك بحجر فأيهما أوْلى ، الأَوْلَى دَفْع الحجر ، فقال ﴿وَاسْتَغْفِرُوهُ .. (٦)﴾ [فصلت] ليتم لكم مسْح الذنوب ، ولتُنشئوا مع الله علاقة جديدة قائمة على الطاعة والاستقامة .

كلمة ﴿وَوَيْلٌ .. (٦)﴾ [فصلت] يعنى : هلاك ﴿لِّلْمُشْرِكِينَ (٦) الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ .. (٧)﴾ [فصلت] وهل فُرِضَتْ الزكاةُ على مشرك ؟ الزكاة لم تكُنْ فُرضت حتى على المؤمنين فى هذا الوقت . قالوا : المراد بالزكاة هنا تطهير المال فى حالة نموه ، وكان

المشركون يفعلون ذلك بالفعل ، لكن يفعلونه من منطق الكرم والسمعة الطيبة ، ولم يكُن الله فى بالهم .

لذلك حُكِى أن المطعم بن عدى[١] كان له قِدْرٌ يطعم فيه كذا وكذا ، حتى أن رسول الله ﷺ قال : « كنت أستظل من وهج الشمس بظل قِدْر المطعم بن عدى »[٢]

ومثله حاتم الطائي[٣] وغيرهم من كرماء العرب ، لكنه قال : ﴿ الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ (٧) ﴾ [فصلت] لأن الإنسان عادة يحب ماله ، والحق سبحانه يقول : ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٩) ﴾[الحشر] لأن للإنسان مطالبَ كثيرة فى الحياة .

كان البيع والشراء تبادلاً عينياً . يعنى : تعطينى سلعة ، وأعطيك مقابلها سلعة أخرى ، وقت لم يوجد النقد بَعْد تعطينى قمحاً ، وأعطيك تمراً مثلاً ، فكل شىء من هذه الأشياء ثمن وسلعة ، فالقمح عندك سلعة ، والتمر عندى ثمن . فكل واحد منا بائع ومُشْتَرٍ .

لذلك قال تعالى فى قصة سيدنا يوسف : ﴿ وَقَالَ الَّذِى اشْتَرَاهُ مِن

---

(١) المطعم بن عدى بن نوفل من قريش رئيس بنى نوفل فى الجاهلية وقائدهم فى حرب الفجَار عام ٣٣ ق. هـ ، وهو الذى أجار رسول الله بعد أن آذاه أهل الطائف ، وكان أحد الذين مزقوا الصحيفة التى كتبتها قريش على بنى هاشم وقد كان كافراً ، مات قبل وقعة بدر وله بضع وتسعون عاماً . توفى عام ٢ هجرية . [الأعلام للزركلى] .

(٢) ما وجدته فى هذا أن رسول الله ﷺ قال : « لقد كنت أستظل بظل جفنة عبد الله بن جدعان فى الهاجرة » وفى لفظ « صكة عُمَىّ » . أورده ابن كثير فى السيرة النبوية (١/١١٧) والسهيلى فى الروض الأنف (١/٢٤٤) .

(٣) هو : حاتم بن عبد الله الطائى القحطانى ، أبو عدى ، فارس شاعر جواد جاهلى . يُضرب المثل بجوده ، كان من أهل نجد وزار الشام فتزوج ماوية بنت حجر الغسانية ، مات فى عوارض جبل فى بلاد طىء عام ٤٦ هجرية . أخباره كثيرة متفرقة فى كتب الأدب والتاريخ . [الأعلام للزركلى ٢/١٥١] .

مِّصْرَ لامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ .. (٢١) ﴾ [يوسف] فقال : اشتراه يعنى أخذه وقال عن الآخرين : ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ[1] دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ .. (٢٠) ﴾ [يوسف] يعنى : باعوه . إذن هذه مبادلة ، كل واحد منهم بائع ومشترٍ فى نفس الوقت .

﴿ الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٧) ﴾ [فصلت] أم أن هذه كلمة عامة ، فبإشراكهم لم يأخذوا حكم الله فى الزكاة ، فلم يَعُدْ فيهم خير لبيئاتهم ولا لمواطنيهم ، لأن الله تعالى يريد من الإيمان أنْ ينشر الاستطراق العبودى فى البشر ، بأن يعين القوى الضعيف ، والصحيح يعين المريض ، والغنى يعين الفقير ، والعالِم يعين الجاهل .

ولكن أهم زاوية من زوايا الحياة هى زاوية استبقاء الحياة بالقوت ، والقوت يحتاج إلى المال ، لذلك الحق سبحانه وتعالى حين يتكلم فى هذه المسألة عن المؤلَّفة قلوبهم ، وهم قوم نريد أنْ نُرقق قلوبهم ناحية دين الله ، ونجذبهم إليه ليُحسنوا التمعن والاختيار ، لا أن نشتريهم للدين كما يدعى البعض .

ومن الطرق إلى هذه الغاية أنْ نحسن إليهم ، لذلك جعلهم الله تعالى مصرفاً من مصارف الزكاة ، ولما جعلهم الله مصرفاً من مصارف الزكاة وأعطاهم من مال الله لانتْ قلوبهم .

وحين تُحسن إلى شخص ماذا فعلتَ به ؟ أولاً نفضت عنه البغض ، وما دُمْتَ نفضتَ عنه البغض ، فلا ينظر إليك وهو كاره لك

---

(١) الثمن البخس : القليل الناقص عن مثله . [القاموس القويم ١/٥٦] . قال ابن منظور فى لسان العرب [مادة : بخس] : « جاء فى التفسير أنه بيع بعشرين درهماً ، وقيل باثنين وعشرين ، أخذ كل واحد من إخوته درهمين . وقيل : بأربعين درهماً » .

ولا حاقد عليك ، وعلى الأقل يسمع منك ، وهذا ما حدث للمؤلَّفة قلوبهم .

لذلك لما انتقل رسول الله ﷺ ارتد جماعة من العرب عن دين الله، لماذا ؟ أول شيء ارتدوا من أجله فريضة الزكاة ، ومن أجلها كانت حروب الردة ، لذلك سمعنا أن سجاح[1] مدعية النبوة ومسيلمة[2] أول ما قالوا فى دعواهم قالوا : نسقط عنكم الزكاة . لينالوا بذلك الرضا عن نبوتهم المزعومة ، يريدون بذلك تخفيف التكاليف التى تشق على النفس .

وبعضهم قال : نسقط عنكم نصف الصلاة ، وكل مُخفف لشرع الله باطل وفيه إيذاء ، لأنه ينزل من منهج الله إلى منهج التخفيف ، والله سبحانه حين يريد التخفيف والتيسير يأتى بالتيسير من عنده سبحانه ، ومنهج الله لا يُستدرك عليه .

وفى شرع الله أحكام كثيرة تدل على هذا التخفيف ، كصيام المريض والمسافر ، وصلاة المريض والمسافر ، وغير ذلك كثير فى الشرع ، فالله المشرِّع لك هو الذى يحدد لك التخفيف ، لا أنت ، وهو سبحانه أعلم بمدى المشقة التى تحتاج إلى تخفيف الحكم .

لذلك نسمع مَنْ يقول : نريد أنْ نُجدد الإسلام ، نقول : سبحان الله ، يا قوم اتقوا الله كيف نُجدد الإسلام ؟ وكيف نستدرك على

---

(١) هى سجاح بنت الحارث بن سويد التميمية من بنى يربوع أم صادر ، متنبئة مشهورة ، ادعت النبوة بعد وفاة النبى ﷺ وكان لها علم بالكتاب أخذته عن نصارى تغلب ، فتبعها جمع من عشيرتها بينهم بعض كبار تميم ، فنزلت باليمامة فأقبل مسيلمة عليها فى جماعة من قومه فتزوجها ثم انصرفت . توفيت ٥٥ هجرية . [الأعلام للزركلى] .

(٢) هو مسيلمة بن ثمامة الحنفى الوائلى أبو ثمامة ، متنبىء ولد ونشأ باليمامة بوادى حنيفة فى نجد ، وتلقب فى الجاهلية بالرحمن وعُرف برحمان اليمامة ، سماه رسول الله بـ (مسيلمة الكذاب) ، ألَّف كلاماً هزلياً ليعارض به القرآن ، نحو قوله : إنَّا أعطيناك الوحواح . فصلِّ لربك وارتاح . إن شانئك هو العجل النطاح .

أحكام الله ؟ ونقول : يا شيخ جدِّد ما شئتَ فلن يلبس مسلم جديدك ، والعلة أن لباسَ التقوى من الخالق لا يَخْلَقُ حتى يُجدده مخلوق ، أريحوا أنفسكم .

لكن لماذا جعل الله تعالى من الناس الغنىَّ والفقير المحتاج ؟ لماذا لم يجعلهم جميعاً فى سَعَة ولا داعى للزكاة إذن ؟ قالوا : لأن الله تعالى يريد أنْ يُشيع بين خَلْقه التراحم والتوادّ ، وحين يجد الفقير الغنى لا يتكبر عليه بغناه ، بل يأتى إليه ويطرق عليه بابه ، ويعطيه حقه فى مال الله ، ساعتها يحبه ويحب له الخير والمزيد ولا يحقد عليه ، ولا يتمنى زوال النعمة من بين يديه .

إذن : حين تعطى إنما تستل الغضب والحقد من النفوس ، فتجعل مالك عُرْضة للمزيد . والحق سبحانه قادر على أنْ يجعل الناس جميعاً أغنياء ، إنما الحكمة فى أن يوجد الغنى والفقير ، وأن تتداول هذه المسألة ، فقد لا يدوم للغنى غنَاه ، ولا يدوم للفقير فقره ، فالأحوال تتقلب ، بحيث يرتبط كُل بكُلٍّ ارتباطَ محبة ومودة ، والارتباط هنا ليس ارتباطَ تفضل ، إنما ارتباط حاجة .

إننا لو تخرَّجنا جميعاً فى الجامعة ، فمَنْ يكنس الشارع ، ومَنْ يقود السيارة ، ومَنْ يصنع لنا كذا وكذا ؟ تقول : يمكن أنْ نتفق على أن يقوم كلٌّ منا بعمل فى يوم محدد .

نقول : نعم لكن يكون العمل هنا تفضُّلاً ، والتفضل لا يلزم أحداً إنما تلزمه الحاجة ، والله يريد أن ترتبط مصالح الناس بالحاجة ، ولذلك تجد الرجل يعمل العمل الشاقّ ، وربما فيه أذى ، قد لا تتحمله أنت ، وقد ترى هذا العمل حقيراً ، فما الذى حمله عليه ؟ حملته

الحاجة ، وألجأته إليه ضروريات الحياة ، وأكْل العيش ومسئولية الأسرة والأولاد ، وإلا ما أهان نفسه هكذا .

ووالله لقد شاهدنا فى بيت واحد رجلاً يعمل (صرماتى) ، وأخاه يبيع العطور ، وتأمل ماذا يشم كل واحد منهما .

وكان سيدنا الشيخ موسى رضى الله عنه كثيراً ما يدعو ويقول : اللهم أفقر الصنَّاع وأغْنِ العلماء ، وكنا نغضب من هذا الدعاء ونقول له : ماذا تقول يا سيدنا ؟ كيف ذلك ؟ فيقول : والله لو افتقر العلماء لزلُّوا فى الفتوى ، ولو اغتنى الصناع لما انتفعنا منهم بشىء .

نعم رأينا فعلاً العامل إنْ كان فى جيبه عشرة جنيهات قعد عن العمل حتى يصرفها . إذن : لا بدَّ من الحاجة لتُقضَى مصالح الخَلْق .

الحق سبحانه وتعالى جعل استطراق المال فى المجتمع أهمَّ قضية فى الإسلام ، لذلك جعلها من أركان الإسلام ، فالحق سبحانه لم يعْفِ أحداً من أنْ يمدَّ يد الاستطراق الاقتصادى للغير ، إنْ كان واجداً يبذل ، وإنْ كان غير واجد مالاً فليجد مقالاً ينصح به مَنْ يجد .

قال تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ .. (٩١) ﴾ [التوبة]

فإذا لم يكُنْ لديه المال ولا المقال الذى يُرقِّق به القلوب ، فلا أقلَّ من أنْ يفعل ذلك فى ذاته : ﴿ وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ .. (٩٢) ﴾ [التوبة] أى فى الجهاد ﴿ قُلْتَ لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ (٩٢) ﴾ [التوبة]

وهذه هى المرحلة الثالثة : إنْ كان واجداً فليبذل ، وإنْ كان غير

واجد فليبذل المقال الذى يُرقِّق به قلوب الواجدين ، وأخيراً إذا لم يجد هذا ولا هذا يحزن فى نفسه أنه لا يجد ، فنفسه تتوق للبذل لكنه لا يجد ، ويصل به الوَجْد فى هذه المسألة إلى أنه يبكى ألماً وحزناً لشوقه إلى العطاء .

هذا كله لاستطراق المال والاقتصاد فى المجتمع الإسلامى لأنه عَصَبُ الحياة وبه تُسْتبقى الحياة ، وبه يكون القوت .

وقوله سبحانه : ﴿وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٧)﴾ [فصلت] يعنى : كفروا فى البداية حين أشركوا بالإله الواحد ، وكفروا فى النهاية بالآخرة ، كفروا فى المنبع والمصب .

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٨)﴾

ذِكْر المقابل سِمَة من سمات الأسلوب القرآنى ، فبعد أنْ ذكر المشركين ذكر بعدهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، فلم يترك المسألة هكذا عائمة ، بل وضع أمامك الصورتين لتقارن أنت وتحكم كما فى : ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (١٤)﴾ [الانفطار]

وقال ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً .. (٨٢)﴾ [التوبة]

ذلك لتتم المقارنة فى وقتها .

معنى ﴿مَمْنُونٍ (٨)﴾ [فصلت] أى : غير منقطع ، أو (ممنون) يعنى : لا يمتن به عليهم ، كما فى ﴿وَإِنَّ لَكَ لأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ (٣)﴾ [القلم] وفيها ملحظ آخر أن الذى يعمل عملاً صالحاً ، ثم تُعجزه

أموره عن عمله يقول الله له : العجز فيك منى ، ولذلك سأعطيك أجر ما كنت تعمله أولاً ، ويظل لك أجره إلى يوم القيامة ، هذا معنى ﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ (٨)﴾ [فصلت]

﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩)﴾

انتقل السياق هنا إلى النظر فى آيات الكون ، لأنها هى الوسيلة للإيمان بالمكوِّن سبحانه ، فالكون كَوْن عجيب بديع مُتقن فى نظامه وفى هندسته ، هذا النظام مُستقر لا يتخلف ولا يطرأ عليه ما يُخرجه عن هذا الإتقان ، فإنْ أردتَ أنْ تُرقِّق قلوب الناس فذكِّرهم بالآيات الكونية الطبيعية التى لا دخْلَ للإنسان فيها .

لذلك نجد كثيراً فى القرآن : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ .. (٣٢)﴾ [الشورى]

وهنا يحدثنا عن الخلق الأول وبداية نشأة هذه الأرض ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ .. (٩)﴾ [فصلت] والهمزة هنا أفادتْ الاستفهام الإنكارى الذى ينكر عليهم كفرهم بالخالق سبحانه ، وكأنه يقول لهم : إن هذا العمل منكم معلوم لنا وهو لا يجوز ، فيريد سبحانه أنْ يلفتهم إلى المقابل .

ثم لم يكتفُوا بالكفر بالخالق بل ﴿وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا .. (٩)﴾ [فصلت] يعنى : شركاء . مع أنهم يعلمون أنه سبحانه الخالق وحده ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٨٧)﴾ [الزخرف] ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٢٥)﴾ [لقمان]

هكذا يعترفون بها عندما يغيب عنهم اللَّدد والعناد .

وقوله : ﴿ فِي يَوْمَيْنِ .. (٩) ﴾ [فصلت] أى : اليوم المعروف لنا ، واليوم عندنا من الوقت إلى مثله ، ويشمل الليل والنهار لأن الله يخاطبنا بما نعرفه ﴿ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا .. (٩) ﴾ [فصلت] شركاء لم يخلقوا شيئاً ﴿ ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) ﴾ [فصلت] أى : هذا الذى تجعلون له أنداداً هو ربُّ العالمين ، وهو ربّ العالمين بإقراركم أنتم ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ .. (٢٥) ﴾ [لقمان]

﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ (١٠) ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) ﴾

تكلم الحق سبحانه عن خَلْق الأرض ، وأخبر أنه خلقها فى يومين ، فهل معنى هذا أن خَلْق الأرض استغرق مُدَّة يومين بيومنا نحن ؟ لا ، إياك أنْ تظنَّ أن خَلْق الأرض استغرق يومين ، أو أنه كان معالجة تحتاج إلى وقت .

فالمسألة كما تقول مثلاً : أريد أنْ أصنع الزبادى عندى فى البيت ، فأقول لك : هات اللبن وضَعْ عليه المادة المعروفة لعمل الزبادى ، ثم اتركه فى درجة حرارة معينة لمدة معينة ، وبعدها يصير اللبن زبادى بعد عدة ساعات مثلاً ، فهل يعنى هذا أن صناعة الزبادى استغرقتْ منك عدة ساعات ؟ لا بل دقائق أعددتَ فيها المادة وتركتها تتفاعل لتصبح زبادى .

مثلاً حين تذهب للخياط ليخيط لك ثوباً ، يقول لك : تعالَ خُذْه بعد أسبوع ، فهل استغرق الثوب فى يده أسبوعاً ؟ كذلك مسألة الخَلْق هذه .

وبعد أنْ خلق اللهُ الأرض جعل فيها الرواسى ، وهى الجبال الراسية الثابتة المستقرة ، والتى بها تستقر الأرض ، كما قال سبحانه : ﴿ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا (٧) ﴾ [النبأ] ولو أن الأرضَ مستقرةٌ بطبيعتها ما احتاجتْ إلى الجبال ، إذن : دلَّتْ الرواسى على أن الأرض تدور ، فهذا دليل على دوران الأرض .

﴿ وَبَارَكَ فِيهَا .. (١٠) ﴾ [فصلت] قلنا : البركة أنَّ الشىء يعطى من الخير فوق مظنَّة حجمه وفوق المنتظر منه ، كأن تجدَ الطعام مثلاً الذى تظنه يكفى خمسة يكفى لعشرة فتقول : فيه بركة .

وقوله ﴿ وَبَارَكَ فِيهَا .. (١٠) ﴾ [فصلت] فى أى شىء ؟ فى الأرض حيثُ ذُكرت أولاً ؟ أم فى الجبال وهى آخر مذكور ؟ قالوا ﴿ وَبَارَكَ فِيهَا .. (١٠) ﴾ [فصلت] أى : فى الرواسى ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا ..(١٠) ﴾ [فصلت] أى : فى الجبال أيضاً .

وقد أثبت الواقع ذلك ، وأثبت العلم أن الجبال هى مصدر الخير لباقى الأرض ، ومنها عناصر الخصوبة والغذاء الذى لا بدَّ منه لبقاء حياة الكائن الحى ، ومعلوم أن العناصر فى التربة تنقص وتحتاج إلى مَدَد وتجدُّد من حين لآخر .

وهذا ما يحدث فعلاً ، حين يسقط المطر على الجبال فيفتت قشرتها ، ويحمل السيل هذا الفتات ويسير به ليوزعه على الأرض

المسطحة المنزرعة ، كما فى طمى النيل زمان وقبل بناء السد العالى ، هذا الطمى من أين جاء ؟ من منابع النيل فى أعلى الجبال .

وكنا نرى ماء النيل مثل الطحينة ، ويظل كذلك إلى المصبِّ فى البحر المتوسط ، ومن هذا الطمى نشأتْ الدلتا ، فالبحر كان يمتد حتى دمياط ، والآن انظر لما بين دمياط ورأس البر مثلاً .

كذلك الحال فى الوديان حول الجبال ، حيث تؤثر عوامل التعرية فى القشرة الخارجية من الجبال ، ويجرفها السيل إلى الوديان ، فتجدد التربة وتزداد خصوبتها ، فكأن الجبال بالفعل مخازن قوت البشر ، لذلك قال عنها ﴿ وَبَارَكَ فِيهَا .. (١٠) ﴾ [فصلت]

وتأمل أيضاً الحكمة والهندسة الكونية العالية ، فالجبل قاعدته أسفل وقمته أعلى على عكس الوادى بين الجبلين ، فرأس المثلث فيه إلى أسفل وقاعدته إلى أعلى ، وكلّ عام يأتى المطر ليأخذ من قمة الجبل ويعطى لقاعدة الوادى ، وكأنه تجدد واتساع للوادى يناسب الزيادة البشرية .

فالله تعالى يعطى من نعمه على قدر الزيادة التى تخيفنا الآن ، يعنى : اطمئنْ فالرزق عند الله مضمون ؛ لذلك قال بعدها ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا .. (١٠) ﴾ [فصلت]

هذه المراحل : ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا .. (١٠) ﴾ [فصلت] جاءت فى ﴿ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ .. (١٠) ﴾ [فصلت] هذه الأربعة أيام ﴿ سَوَاءً .. (١٠) ﴾ [فصلت] أى : أيام متساوية ﴿ لِّلسَّائِلِينَ (١٠) ﴾ [فصلت] أى : الطالبين للرزق .

أو ﴿ فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ .. (١٠) ﴾ [فصلت] يعنى : فى تتمة أربعة أيام

﴿سَوَاءً .. (١٠)﴾ [فصلت] أى : استوت وتمتْ . وحين نضيف هذه الأربعة أيام ، إلى اليومين السابقين تعطينا ستة أيام هى مجمل خلق السماوات والأرض فى ستة أيام ، كما قال سبحانه فى موضع آخر : ﴿الَّذِى خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ .. (٥٤)﴾[الأعراف]

بعد ذلك يتكلم سبحانه عن خَلْق السموات على وجه التفصيل ، فيقول : ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١)﴾ [فصلت]

كلمة ﴿اسْتَوَىٰ .. (١١)﴾ [فصلت] عملت معارك بين العلماء ، ولما حصرنا مادة استوى فى القرآن الكريم وجدنا أنها وردتْ اثنتا عشرة مرة ، سبعة منها فى الاستواء على العرش واثنتان للسماء وللأرض ، هذه الآية التى معنا ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِىَ دُخَانٌ .. (١١)﴾ [فصلت] وواحدة فى البقرة : ﴿فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَـٰوَاتٍ .. (٢٩)﴾ [البقرة]

هذه تسعة ، ويبقى ثلاثة مواضع ، واحد خاص بالوحى فى قوله تعالى عن جبريل : ﴿ذُو مِرَّةٍ[1] فَاسْتَوَىٰ (٦)﴾ [النجم] يعنى : بلغ مداه .

وواحدة فى موسى : ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ (١٤)﴾ [القصص] يعنى : بلغ سنَّ الرشد .

وواحدة فى التمثيل لهذه الأمة فى الإنجيل ، قال تعالى : ﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا

---

(١) ذو مِرّة : ذو قوة . المِرّة : القوة والشدة . [اللسان – مادة : مرر] وقاله مجاهد والحسن وابن زيد . وقال ابن عباس : ذو منظر حسن . وقال قتادة : ذو خَلْق طويل حسن . ولا منافاة بين القولين فإنه عليه السلام ذو منظر حسن وقوة شديدة . [تفسير ابن كثير ٤/٢٤٧] .

يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ[١] فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ .. (٢٩) ﴾ [الفتح]

هذه صورة أمة محمد فى التوراة ، فهم قوم أشدَّاء على الكفار رحماءُ على المؤمنين ، وهم رُكَّع سُجَّد لهم سيمة وعلامة يُعرفون بها ، وهذه كلها قِيَمٌ معنوية لم يأتِ فيها شىء مادى ، ذلك لأن اليهود كانوا يؤمنون بالماديات ، حتى أنهم أرادوا أنْ يخلعوا الماديات على الخالق الأعلى ، لذلك قالوا لموسى عليه السلام : ﴿ أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً .. (١٥٣) ﴾ [النساء]

أما مثلُهم فى الإنجيل فلم يأتِ بقيم ولا روحانيات ، إنما جعله مثلاً مادياً بحتاً ، لماذا ؟ لأن المسيحية كلها مواجيدُ دينية روحية ، ليس فيها شىء من مادة الأرض ، لذلك سُئل سيدنا عيسى عن مسألة ميراث . فقال : لم أُرسَل مُورِّثاً .

لذلك جاء مثل أمة محمد عنده مثلاً مادياً ، فالمثل عند اليهود جاء روحانياً لأنها مفقودةٌ عند اليهود ، وجاء مادياً لأن المادية مفقودة عند النصارى ، فقال : ﴿ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ[٢] فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ .. (٢٩) ﴾ [الفتح] هذا مثَلٌ مادى صِرْف ، فالمثل المادى مفقود فى المسيحية ، والعنصر الروحى مفقود فيما اتخذه اليهود ، فجاء الإسلام ليجمع بين العنصرين معاً فى دين واحد .

---

(١) السيما : العلامة . سيماهم فى وجوههم : أى علامة إيمانهم نور فى وجوههم . [القاموس القويم ٢/٣٣٧] .

(٢) شطء الزرع : ما خرج وتفرَّع منه من ورق وأغصان وفروع . [القاموس القويم ١/٣٤٨] . فآزره : فقوَّاه . قال فى اللسان (مادة أزر) : أى آزر الصغار الكبار حتى استوى بعضه مع بعض .

هذه اثنتا عشرة موضعاً ذُكرتْ فيها مادة الاستواء ، وكان الخلاف بين العلماء فى المواضع السبعة التى تتكلم عن الاستواء على العرش ، وهذه المواضع السبع فى سبع سور جمعها الناظم فى قوله :

فَفِى سُورَةِ الأعْرَافِ ثمَّةَ يُونُسٌ وَفِى الرعْدِ مَعْ طَهَ فَلَلعدِّ أكِّدْ
وَفِى سُورَةِ الفُرْقَانِ ثُمةَ سَجدةٌ كَذَا فِى الحديدِ فَافهَمُوا فَهْمَ مُؤيِّد

كلمة ﴿اسْتَوَىٰ .. ﴿١١﴾﴾ [فصلت] إنْ كانت للعرش يقول : استوى على ، وإنْ كانت للسماء قال : استوى إلى ، البعض فَهِمَ استوى على أنه كاستواء المخلوق على الكرسى فوقعوا فى التشبيه والتجسيم ، أما استوى إلى السماء يعنى : قصدها وتوجَّه إليها بإرادته سبحانه .

ذلك لأن العرش فى الموجودات سمة التمكُّن من الحكم واستتباب الأمر للحاكم ، فالحاكم إنْ كان عليه مشاغبات لا يستقر على العرش ولا يستتب له أمر الملْك إلا إذا دَانَ له الجميع وخضعوا .

لذلك قال فى بلقيس[1] : ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ [النمل] يعنى : استتبَّ لها الأمر ، فكلمة (استوى على العرش) دلتْ على أن الكون كله استجاب له وانقاد لأمره دون منازع ؛ لذلك قال هنا عن السماء والأرض ﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾﴾ [فصلت]

وللعلماء فى الاستواء عدة مقالات جمعها الناظم فى قوله :

وَلَهُمْ مَقَالاَتٌ عَلَيْهَا أرْبَع قَدْ حُصِّلَتْ للفَارسِ الطَّعَّانْ

---

(١) بلقيس : هى ملكة سبأ ، أرسل لها النبى سليمان الهدهد برسالة يدعوها للتوحيد ، وكانت بلقيس وشعبها يعبدون الشمس ، وهى من بنى يعفر بن سكسك من حِمْيَر ، يمانية من أهل مأرب ، دفنت بتدمر . [الأعلام للزركلى ٢/٧٣] .

وَهْيَ اسْتَقرَّ وَقَدْ عَلاَ وكَذاكَ قَدْ صَعَدَ الذى هُوَ رابِعْ

فالمعنى هنا ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ .. (١١)﴾ [فصلت] أى : قصدها وتوجَّه إليها بإرادته تعالى ، واستوى على العرش يعنى : استقر له الأمر واستتبَّ ، لأن كل الوجود استجاب له وانقاد ، فلما قال للأرض وللسماء : ﴿ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١)﴾ [فصلت]

لذلك قلنا : إن الحق سبحانه لم يُقبل على قوله (كُنْ) إلا لعلمه تعالى أن شيئاً من مُلْكه لن يتخلف عن الاستجابة لأمره ؛ لذلك قال ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ[1] (٢)﴾ [الانشقاق] يعنى : فقط تسمع النداء فتستجيب فوراً ، لذلك شهد الله لذاته بذلك : ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ .. (١٨)﴾ [آل عمران] وبشهادته سبحانه لنفسه أنه لا إله إلا هو قال لكل شىء : كُنْ فكان . وبعد ذلك شهدتْ الملائكة ، وشهد أولو العلم .

وقوله : ﴿وَهِيَ دُخَانٌ .. (١١)﴾ [فصلت] أى : على هيئة الدخان الذى يسميه العلماء السَّديم[2] ، والمراد أن الكون كان على هيئة غازية ، ومن هذه المادة الغازية تكوَّنت الأرض والصخور والجبال . وبعد أنْ تكوَّنتْ السماء والأرض أمرهما الخالق سبحانه ﴿ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا .. (١١)﴾ [فصلت] فكان الردّ ﴿أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١)﴾ [فصلت]

---

(١) حق الأمر : ثبت ووجب . وحقَّ له : ثبت له . (حقت) : أى كان حقاً ثابتاً عليها أن تخضع لأمر الله . [القاموس القويم ١/١٦٤] .

(٢) السديم : تجمعات مضيئة وكثيفة نسبياً ، وهناك سدم متشتتة تظهر على شكل سحابات غير منتظمة أو ضباب دقيق ، وسدم كوكبية منتظمة ، وسدم مجرِّية تكون فى الغالب غازاً وغباراً . [الموسوعة الفلكية – تأليف فايجرت ، تسمرمان – الهيئة العامة للكتاب – ص ٢١٠] .

وهذا الرد دَلَّ على سرعة الاستجابة للأمر ، وعلى انقياد الكون كُلِّه لخالقه تعالى ﴿أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١)﴾ [فصلت] وهل نملك المخالفة ، ولماذا نأتى كارهين ؟ هذا يعطيك دليلاً على انقياد الكون لله ، لأنه ليس له هَوىً فى نفسه يُغير الموقف ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَـٰكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. (٤٤)﴾ [الإسراء]

أما الإنسان فكلٌّ له هَوىً ، لذلك جاء فى الحديث الشريف : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعٌ لما جئتُ به »[1] وما دام سيكون هواك تبعاً لما جاء به النبى ، وأنا هواى تبعٌ لما جاء به النبى ، فالهوى إذن واحد ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَـٰوَاتُ وَالأَرْضُ .. (٧١)﴾ [المؤمنون]

﴿أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١)﴾ [فصلت] هذا كلام السماء والأرض ، وكان القياس أنْ يقول : طائعيْن بالمثنى إنما قال ﴿طَائِعِينَ﴾ [فصلت] بصيغة الجمع . والسماء والأرض مؤنَّث ، فكان القياس أنْ يقول : طائعات . إذن : خالف فى أمرين ، لماذا ؟ قالوا : لأن الشىء يكون مفرداً لكنه تحته . فإذا نظرتَ إلى المفرد جئتَ بالمفرد ، وإذا نظرتَ إلى ما تحته جئتَ بالجمع .

قال تعالى : ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا .. (٩)﴾ [الحجرات] فلم يقل : اقتتلتا بالمثنى المؤنث ، إنما ﴿اقْتَتَلُوا .. (٩)﴾ [الحجرات] لأن أمر القتال راجعٌ إلى رؤساء كل طائفة ، هم الذين يقررون القتال أو عدم القتال ، وساعةَ القتال لا يمسك كل فريق بسيف واحد يقاتل به الفريق الآخر ، إنما يمسك كلٌّ فرد بسيفه .

---

(١) أخرجه ابن أبى عاصم فى كتاب السنة (١٢/١) من حديث عبد الله بن عمرو ، وأورده ابن رجب الحنبلى فى « جامع العلوم والحكم » (ص ٤٦٠) وضعَّفه .

فالطائفة هنا مفرد تحته جمع ، فقال في القتال ﴿ اقْتَتَلُوا .. (٩) ﴾ [الحجرات] لكن عند الصلح قال : ﴿ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا .. (٩) ﴾ [الحجرات] لأن أمر الصلح لا يكون مع أفراد الجيش ، إنما يكون مع القادة لكل طائفة الذين يُصرِّفون الأمر حرباً أو سِلْماً .

﴿ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ (١٢) ﴾

قوله ﴿ فَقَضَاهُنَّ .. (١٢) ﴾ [فصلت] أى : جعل السماء وأبدعها وخلقها ﴿ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ .. (١٢) ﴾ [فصلت] فى مدة (يومين) حين نجمع هذين اليومين إلى الستة أيام السابقة تعطينا ثمانية أيام ، إذن : خَلْق السماء والأرض كان فى ثمانية أيام ، لا فى ستة كما قالت الآية .

هذا جعل بعض المستشرقين يظنون هنا مأخذاً وتناقضاً فى كلام الله ، ولكن حاشا لله أن يكون فى كلامه تناقض ، لأن الإجمال ستة والتفصيل ثمانية ، وحين تجد إجمالاً وتفصيلاً ، فالتفصيل حجة على الإجمال لأنها أيام متداخلة ، كيف ؟

قالوا : لأن الله تعالى خلق الأرض فى يومين ، ثم جعل فيها رواسىَ ، والرواسى من الأرض ، وبارك فيها وقدَّر فيها أقواتها ، هذا كله فى الأرض ، فحين يقول ﴿ فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ .. (١٠) ﴾ [فصلت] أى : فى تتمة أربعة أيام .

فمُجمل خَلْق الأرض فى أربعة أيام ، فاليومان الأولان داخلان فى

الأربعة أيام . كما تقول مثلاً : سرْتُ إلى طنطا فى ساعتين ، وإلى الإسكندرية فى أربع ساعات ، فالساعتان الأُوليان داخلتان فى الأربع .

إذن : خلق الله تعالى الأرض بما فيها من الرواسى فى أربعة أيام ، فإذا أضفنا يومين فى خَلْق السماء كان المجموع ﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ .. (٥٤)﴾ [الأعراف]

وقوله : ﴿وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا .. (١٢)﴾ [فصلت] أى : جعل فيها ودبَّر فيها أمرها . يعنى : بيَّن مهمتها وما فيها من وجوه الخير ، ومَن الرسول الذى سيكون فيها .. الخ وبيَّن مهمتها التى تقوم عليها فى هداية حركة الحياة .

﴿وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ .. (١٢)﴾ [فصلت] وهى الكواكب والنجوم التى تضىء فى السماء كالمصابيح ومنها الشمس والقمر ، وتجد أن نور الشمس غير نور القمر ، نور الشمس يُسمَّى ضياءً . يعنى : نور مع حرارة أما القمر فلَه نور فقط ، لذلك يُسمُّونه النور الحليم ، لأنه خَال من الحرارة ، لذلك قال تعالى : ﴿هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا .. (٥)﴾ [يونس]

وقال : ﴿سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا (٦١)﴾ [الفرقان]

وقوله : ﴿وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا .. (١٢)﴾ [فصلت]

السماء الدنيا هى السماء التى نباشرها نحن ونرى فيها النجوم ، والمصباح يُقاد من ضوء الشمس حين ينعكس ، فيعطى ضوءاً هادئاً نسميه (ضوء حليم) يعنى : لا حرارة فيه .

والحق سبحانه الذى خلق الخَلْق وهو أعلم بما يُصلحه علم أن له زمنين : زمناً للكدح والحركة ، وزمناً للراحة والسكون ، فالليل للسكون ، والنهار للحركة ، ولا يمكن أنْ تتحرك حركة قوية رشيدة

إلا إذا كنتَ قد استوفيتَ أولاً نوماً هادئاً ، وإلا من لم ينم ويسترح لا يقدر على العمل فى الصباح ، لكن بعض الحركات لا تكون إلا ليلاً .

لذلك جعل لنا الخالق سبحانه ضوءاً يهدينا فى ظلمة الليل مثل الونَّاسة كما نقول ، فلا يمكن أن يتركنا فى ظلمة نتخبط فيها ، فنحطم الأضعف منا ، أو يُحطمنا الأقوى .

لذلك قال سبحانه عن النجوم : ﴿وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (١٦)﴾ [النحل] الحق سبحانه صنع ذلك لتصويب حركة الحياة ، لأن الله خلق الخليفة آدم ، وأمره أنْ يعمر الأرض ، يعمرها بما أعطاه الله من مادة وعقل يختار بين البدائل ، وبما أعطاه الله من جوارح تنفذ مرادات العقل ، فأراد سبحانه أن يضمن سلامة الكون مع نفسه ، هذا فى المادة .

وللنجوم مهمة أخرى فى القيم ، قبل بعثة رسول الله .

وقال تعالى : ﴿وَحِفْظًا .. (١٢)﴾ [فصلت] وفى موضع آخر قال : ﴿وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ (٧)﴾ [الصافات] فقد كان الجنُّ يتسمَّع إلى الملأ الأعلى فى السماء ، فيأخذ شيئاً من أمور الخَلْق يسمعها من الملائكة وينزل بها إلى الكهنة ، فيخبرون الناس بها على أنهم يعلمون الغيب ، وفعلاً تصدُق هذه الأخبار فيظن الناس أنهم يعلمون الغيب ، ويأتى الكاهن بالشىء الصادق صدفة ، ومعه أشياء كثيرة كذب[1] .

---

(١) عن عائشة رضى الله عنها قالت : سأل رسولَ الله ﷺ ناسٌ عن الكهان . فقال : ليس بشىء فقالوا : يا رسول الله إنهم يحدثونا أحياناً بشىء فيكون حقاً ، فقال رسول الله ﷺ : « تلك الكلمة من الحق يخطفها من الجنى فيقرها فى أذن وليه فيخلطون معها مائة كذبة » أخرجه البخارى فى صحيحه (الكهانة) .

كان هذا قبل بعثته ﷺ ، لكن لما جاء سيدنا رسول الله حفظ الله السماء من استراق السمع ، لذلك قال : ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا (٩)﴾ [الجن]

لذلك رأينا أن العرب كانوا يحتكمون إلى الكهَّان ويُصدِّقونهم ، يُرْوَى أن هنداً[١] امرأة أبى سفيان كانت قد تزوجتْ قبله رجلاً اسمه الفاكه بن المغيرة[٢] وكان سيداً من سادات قريش ، وبيته مفتوح للقوم يأتيه كل محتاج لشىء ، يقولون : اذهبوا إلى الفاكه ، لأن بيته كان قريباً من نادى القوم .

وفى يوم من الأيام نزلتْ هندٌ تباشر أمورَ بيتها ، فوجدتْ رجلاً نائماً فى ساحة البيت فرجعتْ ، وفى هذه اللحظة دخل الفاكه ورأى الرجل النائم فداخله الشَّكّ فى امرأته ، فقال لها : الزمى بيت أبيك فذهبت إلى أبيها عتبة ، وشاع عند العرب أن الفاكه اتهم امرأته بكذا وكذا .

جاء أبوها عتبة وقال للفاكه : يا فاكه لقد جُنَّتْ ابنتى ، يعنى : رُميتْ بشىء ، ولا أرى إلا أنْ نحتكم إلى الكاهن ليقضى لنا فى هذه المسألة ، فاجمع من رجالك ومن نسائك مَنْ شئتَ ، وتكون ابنتى فى وسطهم ، ونذهب إلى الكاهن ونسأله .

---

(١) هند بنت عتبة : صحابية قرشية من بنى عبد شمس أسلمت بعد فتح مكة ، زوجة أبى سفيان وأم معاوية ، أمضت أول حياتها كافرة تتآمر على قتل النبى ، وهى التى حرضت وحشياً على قتل حمزة عم رسول الله ، أسلمت فى العام الثامن من الهجرة ، توفيت عام ١٤ هجرية ، فى خلافة عمر بن الخطاب .

(٢) الفاكه بن المغيرة : أحد الفصحاء المقدَّمين من قريش فى الجاهلية ، كان نديماً لعوف بن عبد عوف الزهرى (أبى عبد الرحمن) وهو عم خالد بن الوليد ، عَدّه ابن حبيب فى « أشراف العميان » وقال : قُتِل بالغميصاء .

كانت هند امرأة عاقلة ، فقالت : يا أبى إنك تأتى إلى بشر يخطئ ويصيب ، وربما رمانى بشىء ليس فىَّ ، فتظل سُبَّة لى وسُبَّة لك ، فقال لها : اطمئنى فأبُوك ليس أحمقَ إلى هذا الحدِّ ، ولن أعرض أمرك عليه إلا إذا أخبرنى بالخبىء الذى خبَّأته له ، وقبل أن يصلَ إلى الكاهن ، وكان يركب مُهْراً فنزل فى خلاء وصفر للمهر فأدلى المهر متاع مائه ، ففتح عتبة فتحة متاع المهر ووضع فيها حبة قمح ، ثم ركبه إلى الكاهن .

ثم قال له : لن أعرض عليك أمرى حتى تخبرنى بخبء خبأته لك . قال له الكاهن : حبة بُرٍّ فى إحليل مُهْر . قال : أعد ، قال : بُرَّة فى كمرة ، فأخبره عتبة بأمر ابنته وهى فى وسط النساء فمرَّ الكاهن يمسك برؤوس النساء واحدة بعد الأخرى حتى وصل إلى هند وتوقَّف عندها ، ولم يكلم الأخريات ، وعند هند قال لها : قومى غير رسحاء[1] ولا زانية ، وستلدين ملكاً اسمه معاوية[2]

هذ أخبار صَحَّتْ ، وهى من استراق السمع لا تدلُّ أبداً على معرفة الكاهن للغيب . فلما برئتْ هندٌ وارتفعتْ رأسها بين القوم أراد الفاكه أنْ يتمحك فيها ، يعنى : عفا الله عما سلف ، وهيا بنا إلى البيت ، فقالت له : والله لقد غرَّك مُلْك معاوية ، ولأحرصنَّ أن يكون من غيرك .. اذهبْ عنى ،. وبعدها تزوجتْ أبا سفيان وولدتْ له معاوية .

أنهى الله هذه المسألة لأن رسول الله ﷺ لا يمكن أنْ يسترقَ

---

(١) الرسحاء : القبيحة من النساء . [لسان العرب – مادة : رسح] .

(٢) أورد هذه القصة أبو الفرج الأصبهانى فى كتابه (الأغانى) فى باب ذكر مسافر بن أبى عمرو ونسبه ، خبر طلاق هند من الفاكه . وأورده كذلك ابن حمدون فى (التذكرة الحمدونية) الباب ٣٦ فى الكهانة . وفيه أن الكاهن قال لهند : انهضى غير خساء ولا زانية ولتلدن ملكاً اسمه معاوية .

شيطانٌ سمعاً بعد بعثته ﷺ ، يقول تعالى : ﴿ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ .. (٩) ﴾ [الجن] يعنى : قبل البعثة ﴿ فَمَن يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا (٩) ﴾ [الجن] وبذلك حمى الله منهجَ السماء أنْ تُدنِّسه شهوات الشياطين .

﴿ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (١٢) ﴾ [فصلت] العزيز الذى لا يُغلَب ، وما دام لا يُغلَب ، فلن يستطيع شيطانٌ أن يسترق السمع ، ويأخذ شيئاً من الأخبار ، وهو سبحانه عليم بمصالح الخلق .

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ (١٣) ﴾

أعرضوا ، يعنى بعد كل هذه الآيات ، وبعد أنْ أقرُّوا هم بأنه سبحانه خالقهم وخالق السموات والأرض ، خاصة وهذه مسألة لم يدَّعها أحدٌ لنفسه ، فما دام أن مسألة الخَلْق هذه لم يدَّعها أحد فقد سلَمتْ لله وحده ، لذلك قال تعالى : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ .. (١٨) ﴾ [آل عمران] شهد الله لنفسه وأعلنها ، فهل اعترض أحد عليها ؟ لم يعترض أحد .

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا .. (١٣) ﴾ [فصلت] بعد هذه الآيات الواضحات ﴿ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ (١٣) ﴾ [فصلت] الإنذار يكون بشىء مخيف مُروِّع قبل حدوثه ، لا بعد أن يكون حدوث المُنذَر به ليُجْدى الإنذار ونحتاط له ، فلو وقع الأمر المروّع لم يُجْدِ الإنذار به .

كذلك قلنا فى البشارة بالأمر السَّارّ قبل أوانه لنقبل عليه ، إذن : البشارة والنذارة لا بدَّ أنْ يكون كل منها قبل الحدث المبشَّر به أو المنذَر به .

فقل يا محمد للذين كذَّبوا بآياتنا : ﴿أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ (١٣)﴾ [فصلت] أنذرتكم أى الحق سبحانه هو المنذر ، وهو سبحانه عزيز لا يُغلب ، وما دام أنذر بشىء فلا بدّ أنْ يقع وأنْ يتحقق .

وقوله : ﴿صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ (١٣)﴾ [فصلت] يعنى : المسألة ليستْ كلاماً ، إنما واقع حدث بالفعل وسوابق ، كما حدث مع عاد وثمود وأنتم على علم بها وتشاهدون آثار هؤلاء .

هنا كان عتبة بن ربيعة ، وهو سيد من سادات قريش حينما أسلم سيدنا عمر وأسلم حمزة والعباس ، قال صناديد الكفر : إن أمر محمد فى اتساع ، فلا بدَّ أنْ نتدارك الأمر ونحدد موقفنا منه لنمنع هذا الاتساع ، فعلينا أن نختار واحداً منا على علم واسع باللغة والشعر ، وكاهناً يجيد أساليب الكهان ، وكذلك يكون ساحراً ، يعنى : يجيد كل ما نتهم محمداً به .

فقال عتبة : أنا أعلم الناس بكل ذلك فدَعُونى أذهب إلى محمد ، فلما ذهب إلى سيدنا رسول الله ﷺ قال له : يا محمد أنت خير أم جدُّك هاشم ؟ أنت خير أم جدّك قصى ؟ أنت خير أم جدّك عبد المطلب ؟ هؤلاء لم يُسفِّهونا فى عبادتنا ، فهل أنت خير منهم لتأتى بدين جديد غير دين آبائنا ؟

إنْ كنتَ يا محمد تريد مالاً جمعنا لك المال ، وإنْ كنتَ تريد مُلْكاً ملَّكناك علينا ونجعلك سيدنا ، وإنْ كنتَ تريد الزواج زوّجناك بأفضل نسائنا ، واسكت عن هذا الأمر الذى تدعو إليه ، وانْتَه ، عن سَبِّ آلهتنا .

فقال له رسول الله ﷺ : أتسمع ؟ قال : نعم أسمع فقرأ عليه من أول سورة فُصِّلت إلى أن وصل ﴿فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ

وَثَمُودَ (١٣) ﴾ [فصلت]

وعندها قام عتبة ووضع يده على فم رسول الله ، وقال : سألتُكَ بالرحم ألاَّ تكمل ما قرأتَ [(١)] ، لماذا ؟ لأنه علم أن محمداً لا يقول شيئاً إلا وقع ، وبعدها اعتزل عتبة قومه حتى قالوا : لقد صبأ عتبة ، لقد طمع فيما عند محمد من الخير ، يعنى : افتقر إلى ما عند محمد من المال ، وسمع عتبة هذا الكلام لكنه لم يُجِبْ .

وبعد ذلك قال لهم : لا والله ما صبأت ولكنى خِفْتُ على قومى إنذارَ محمد بصاعقة تحلّ بهم مثل صاعقة عاد وثمود ، لأننى أعلم أن كل شىء يقوله محمد لا بد أنْ يقع ، فأنا أنجيكم من هذا بأنْ أجعله لا يكمل هذه الآية .. وظل رسول الله يقرأ السورة إلى السجدة .

الحق سبحانه وتعالى حينما يعطى كلاماً نظرياً يُؤيده بواقع ، وقريش تعلم قصة عاد وثمود ، لكن ما هى الصاعقة ؟ الصاعقة هى الشىء الذى يصعق ما تحته ، قد يكون ريحاً مدمرة ، وقد يصطحب معه ناراً محرقة ، والقرآن قال : صاعقة ، وسمَّاها صيحة وقال : ريحاً صرصراً عاتية .

﴿ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ قَالُواْ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ (١٤) ﴾

---

(١) ساقه البغوى فى تفسيره بسنده عن محمد بن فضيل عن الأجلح وقد ضعِّف بعض الشىء عن الذيال بن حرملة عن جابر فذكر الحديث إلى قوله ﴿ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ (١٣) ﴾ [فصلت] فأمسك عتبة على فمه وناشده بالرحم أن يكف . وكذا ذكره القرطبى فى تفسير الآية ، والسمرقندى فى بحر العلوم باب ١٣ .

قوله : ﴿جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ.. (١٤)﴾ [فصلت] هكذا بالجمع مع أن الكلام عن عاد وثمود ولكل منهما رسول واحد ، فلماذا جمع وقال الرسل ؟ قالوا : لأن كل رسول يأتى يُؤمر من الله أنْ يأمر قومه بأنْ يؤمنوا بالرسل السابقين ، وأنْ يؤمنوا كذلك بمَنْ يأتى من الرسل بعده ، فكأن عاداً وثمود حينما يؤمنون برسولهم يؤمنون كذلك بكل الرسل ، أو أنهم كانوا متفرقين فى المواقع ، بحيث يكون لكل موقع رسول خاص ، فتعدد الرسل بتعدّد المواقع .

وقوله ﴿أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ .. (١٤)﴾ [فصلت] هذا ملخص دعوة كل الرسل وقضية كل رسول من عند الله ﴿قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لأَنزَلَ مَلائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ (١٤)﴾ [فصلت] يعنى : أنتم بشر مثلنا ، وإنْ أراد الله هدايتنا لأرسل لنا رسولاً من الملائكة . وهذا دليل غبائهم ؛ لأن الرسول جاء مبلِّغَ منهج وأُسْوة سلوك ، فلو كان الرسول ملكاً ما تحققتْ فيه مسألة القدوة والأسوة ، وما استطاع أنْ يأمر قومه بما يقوم هو به ، ولَقالَ له قومه : كيف نفعل وأنت ملَك ونحن بشر ؟

فالأسْوة هنا غير موجودة أصلاً . إذن : فلا بدّ أنْ يكون الرسول من جنس المرسَل إليهم ، حتى لو جئنا به مَلَكاً كما تريدون لجاءكم فى صورة بشر ، لأنكم لا تروْنه على هيئته الملائكية ، ولا تستطيعون الاستقبال منه على هذه الهيئة ؛ لذلك قال تعالى : ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ (٩)﴾ [الأنعام] ولظلتْ الشبهة كما هى ، إذن : لا بدّ أنْ يكونَ الرسولُ رجلاً من جنس القوم .

وقولهم : ﴿فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ (١٤)﴾ [فصلت] تأمل ، إنهم يعترفون برسالة الرسل ، ويُقرون بذلك ، ونحن لا نريد منكم أكثر

من هذا أنْ تعترفوا بأنهم مُرْسَلُون ، وعجيب بعد ذلك أنْ يكفروا .

قالوا : ويجوز أنْ يكون المعنى ﴿فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ .. (١٤)﴾ [فصلت] أى : كما تقولون أنتم بأفواهكم ، أو أرسلتم على سبيل الاستهزاء بهم ، كما فى قوله تعالى فى المنافقين : ﴿لا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ .. (٧)﴾ [المنافقون] وقالها فرعون ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (٢٧)﴾ [الشعراء]

مجنون ؟ والله أنت المجنون ، فما دام أنه أُرسل فلم تعاند ؟ إذن : المسألة كلها كفر وعناد ، والكفر هو الجنون بعينه ، جنون على جنون .

ثم أراد الحق سبحانه أنْ يُفصِّل القول فى أمر عاد وثمود ، فقال سبحانه :

﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِى الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (١٥)﴾

قوله عن عاد : ﴿فَاسْتَكْبَرُوا فِى الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ.. (١٥)﴾ [فصلت] هل يعنى أن هناك استكباراً بالحق ؟ قالوا : نعم تستكبر فى قومك ليكونَ لهم كبير يردعهم إنْ مالوا ، لأن عادة الناس إنْ لم يكُنْ لهم كبير يُهَاب ويُرْجَع إليه اختلطتْ عندهم الأمور وماجوا فى بعض وتعدّوْا .

وهذا استكبار بحق ، لأنه يُصوِّب حركة الأفراد ، ولا بدّ أنْ يكون من كبير كما يقولون عندنا فى الريف (اللى ملوش كبير يشترى له

كبير) لماذا ؟ لتعتدلَ الأمور ، ولا تكون فوضى ، وصدق القائل[١] :

لاَ يَصلُح النّاسُ فوضى لا سَراة [٢] لهُمْ

وَلاَ سَـراةَ إذَا جُـهَّـالُـهـمْ سَـادُوا[٣]

هذا استكبار بالحق ، لأن له رصيداً يسمح له بالاستكبار ، أما الاستكبار بغير الحق فهو الاستكبار بلا رصيد وبلا داعٍ كالذى يستكبر بقوته أو سلطانه أو غير ذلك من العوارض التى تنزع من الإنسان .

﴿ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً .. ﴿١٥﴾ ﴾ [فصلت] وكذبوا فى هذه أيضاً ، وظهر جهلهم لأن الله تعالى أشدّ منهم قوة ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً .. ﴿١٥﴾ ﴾ [فصلت] قولهم : ﴿ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ..﴿١٥﴾ ﴾ [فصلت] استفهام إنكارى يعنى : لا أحدَ أشدّ منا يأمرنا فنطيعه لأننا الأقوى .

نعم ، لكم حق فى هذه ، لكن ما قولكم فى أن الله الذى خلقكم هو أشدّ منكم قوة ، أليس ذلك دليلاً على وجوب طاعتكم له ؟ إذن : المنطق كان يقتضى أنْ تتصاغروا لمن أرسله الله إليكم ، وأنْ تطيعوه طاعةً لله الذى أرسله .

نعم لا يصح للقوىِّ أنْ يرضخ لطاعة الضعيف ، لكن نسألكم :

---

(١) الشاعر هو : أبو الأسود الدؤلى ، ظالم بن عمرو ، تابعى ، واضع علم النحو ، كان من الفقهاء والأعيان والأمراء والشعراء والفرسان ، ولد عام ١ قبل الهجرة وتوفى ٦٩ هجرية ، فى صبح الأعشى أن أبا الأسود وضع الحركات والتنوين ، وهو فى أكثر الأقوال أول من نقط المصحف مات بالبصرة . [الموسوعة الشعرية] .

(٢) سراة القوم : هم أعيانهم ورؤساؤهم وأشرافهم .

(٣) البيت من قصيدة لأبى الأسود الدؤلى من بحر البسيط ، عدد أبياتها ثلاثة أبيات .

أنتم أقوى أم الله ؟ لا بدَّ أنْ يقولوا الله لأنهم معترفون له بالخَلْق ، فلماذا عاندتموه وصادمتم رسله ؟ أنتم صحيح أقوى على بعض الخَلْق ، لكنكم ضعافٌ أمام مَنْ خلق الخَلْق .

وقوله : ﴿ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (١٥) ﴾ [فصلت] الجحود هو إنكار الشيء لجاجةً وعناداً كما قال تعالى : ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا .. (١٤) ﴾ [النمل] ففى حين يستيقنون بالآيات ويؤمنون بها فى أنفسهم يجحدونها بظاهرهم ، فما الجزاء ؟

﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ (١) لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ (١٦) ﴾

وُصِفَت ريح العذاب هنا بأنها (صرصر) هكذا من مقطعين صرصر ، وهناك صرّ مقطع واحد . وهى الريح الشديد المزعج الذى يهدد ويكون فيه برودة شديدة ، والبرودة من شأنها شدة الرطوبة التى تُجفف إلى درجة الإحراق .

وهذه الظاهرة يعرفها الفلاحون فى فصل الشتاء عندما يشتد البرد لدرجة أنه يحرق الزرع .

وهكذا يجمع اللهُ فعلَ النار فى الماء لأن الحق سبحانه لم يخلق

---

(١) النحس : الشؤم ضد اليُمن وضد السعد قال تعالى : ﴿ فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ (١٩) ﴾ [القمر] أى : يوم شؤم وعذاب دائم . [القاموس القويم ٢/٢٥٦] .

الكون بحركة ميكانيكية ثابتة ، إنما خلقه بصفة القيومية التى تجمع بين الأضداد ، أرأيتم لموسى عليه السلام حينما ضرب بعصاه الماء ، فصار كل فِرْقٍ كالطوْد العظيم ، وجمع الله بين الشىء ونقيضه فى وقت واحد ، كذلك ضرب الجبل فانفجرتْ منه اثنتا عشرة عيناً ، وفى قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام ألقاه القوم فى النار ، فجعلها عليه برداً وسلاماً ، وعطَّل فيها قانون الإحراق .

فالصّر هى الريح الشديد المزعج ، لكن يهبُّ لمرة واحدة ، فإنْ تكرر فهو صرصر ﴿فِى أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ .. (١٦)﴾ [فصلت] النحس : هو الشؤم ، وحينما يأتى اليوم بشىء من الشر يتشاءمون منه ، وكما قال فى موضع آخر : ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا .. (٧)﴾ [الحاقة] يعنى : حاسمة تستأصلهم ، وتنتهى منهم . أى : سبع ليالٍ وثمانية أيام حاسمة ، حسمتْ الجدل بين الرسل وبين المكابرين المعاندين .

وفى الشعر العربى قال الشاعر[١] :

أَوْقِدْ فَإِنَّ اللَيلَ لَيْلُ قَرّ ... والريح يا غُلامُ رِيحٌ صِرُّ

عَلَّ يَرَى نَارَكَ مَنْ يمُرُّ ... إنْ جَلَبْتَ ضَيْفاً فَأنتَ حُرّ[٢]

﴿لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْىِ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. (١٦)﴾ [فصلت] هناك

---

(١) الشاعر هو : حاتم بن عبد الله الطائى القحطانى ، أبو عدى ، شاعر جاهلى فارس جواد . يُضرب المثل بجوده ، ، كان من أهل نجد وزار الشام فتزوج ماوية بنت حجر الغسانية ، مات فى عام ٤٦ قبل الهجرة فى عوارض (جبل فى بلاد طىء) [الموسوعة الشعرية] .

(٢) البيت من قصيدة لحاتم الطائى من بحر الرجز عدد أبياتها بيتان . ولفظه فى الموسوعة الشعرية (يا موقد) بدل (يا غلام) ، و (عسى) بدل (عَلَّ) وعزاه ابن حمدون فى (التذكرة الحمدونية) للأفوه الأودى . وكذلك الثعالبى فى (التمثيل والمحاضرة) .

عذاب يؤلم ، وعذاب يخزى ويهين المتكبر ، ليس الغرض منه الإيلام ، إنما الإهانة والخزى والذلة ، لأنه تكبَّر بلا رصيد ذاتى عنده ، ولو عذَّبناه عذاباً يؤلم ربما تحمّل الألم ، لذلك نعذبه عذاباً يخزيه ويُرغم أنفه ويهدم كبرياءه ، فالخزى فى تأديب النفس أقوى من الإيلام فى الحسِّ .

ومعلوم أن من الناس مَنْ يؤذيه الاستهزاء به والسخرية منه أكثر مما يؤلمه الضرب الحسى . وهذا الخزى وهذه الإهانة ﴿فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. (١٦)﴾ [فصلت] أمَّا الآخرة فلها شأنٌ آخر فى الآخرة أخزى ، لأن الخزى فى الدنيا له وقت ينتهى فيه .

أمَّا فى الآخرة فخزىٌ دائم باقٍ فهو مُعذَّب وخزيان ﴿وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَخْزَىٰ..(١٦)﴾ [فصلت] لأنه دائم مستمرٌّ ﴿وَهُمْ لا يُنصَرُونَ (١٦)﴾ [فصلت] يعنى : لن يأخذ أحد بأيديهم ، ولن ينجيهم من العذاب شىء ، فلا أملَ لهم فى النصرة ، فهم لا ينصرون ولا يردُّون .

لذلك قلنا فى الحشر : إن الحق سبحانه يحشر الناسَ جميعاً مرة واحدة ، لا يكونون على هيئة طابور مثلاً ، كلٌّ ينتظر دوره ، إنما يُحشرون جميعاً بعضهم مع بعض ، الظالم والمظلوم ، والتابع والمتبوع ، وهو يقطع أملَ الكافرين فى النجاة ، فربما انتظروا قادتهم لينقذوهم ؛ لذلك قال تعالى فى شأن فرعون : ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ .. (٩٨)﴾ [هود] أى : يتقدمهم ويسبقهم إلى النار .

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٧)﴾

هنا وقفة لعلماء الكلام ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ .. (١٧)﴾ [فصلت] الهُدَى هو الدلالة على طريق الخير الموصِّل إلى غاية خير ، نقول : دلَّه على الطريق ، وحين تدل الناس منهم مَنْ يستمع لك ويطيعك ، ومنهم مَنْ لا يستمع إليك ، فالأول تزيده هداية وإرشاداً حتى يصل إلى غايته ، والآخر تتخلى عنه .

لذلك قال تعالى : ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧)﴾ [محمد] أى : اهتدوا لطريق الدلالة . زادهم هدىً . أى : بالمعونة والتوفيق للعمل الصالح وكراهية عمل الشر ، إذن : هناك هداية للدلالة ، وهداية للتوفيق والمعونة . وهل تعين إلا مَنْ أطاعك وآمن بك ؟

وسبق أنْ ضربنا لذلك مثلاً برجل المرور الذى يقف على مفترق الطرق ، وتحتاج إلى أنْ تسأله عن الطريق الذى تقصده ، يقول لك : الطريق من هنا ، فإنْ شكرته على صنيعه وتوجهتَ إلى الطريق الذى دلَّك عليه زادك إرشاداً وبيَّن لك ما فى الطريق من عقبات أو مصاعب . وربما صحبك حتى تمرَّ من هذه الصعاب .

فأنت سألته فدلَّكَ فاتبعْتَ دلالته وشكرته فقال : أنت أهلٌ لمعونتى وإرشادى ، أما إنْ خالفتَ رأيه وسرْتَ فى طريق آخر غير طريق دلالته فلا بُدَّ أنْ يتخلى عنك ، وأنْ يدعك وشأنك .

كذلك الحق سبحانه وتعالى يدل الجميع على طريق الخير ، كل الخلق دلَّهم الله ، فمَنْ أطاع فى هداية الدلالة كان أهلاً للزيادة ، وأهلاً لهداية المعونة والتوفيق ، ومَنْ عصى وخالف فى هداية الدلالة لم يكُنْ أهلاً لهداية المعونة .

كذلك كان شأن ثمود ﴿فَهَدَيْنَاهُمْ .. (١٧)﴾ [فصلت] هداية دلالة ﴿فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ .. (١٧)﴾ [فصلت] أى : استحبُّوا العمى

عن فعل الخير ، لأنهم ارتاحوا للمخالفة وأرادوا الخروج من قيود التكاليف الشرعية ، وإلا لماذا عبدوا الأصنام وهم يعلمون ما هى ، وصنعوها بأيديهم ؟

عبدوها لأن فى عبادتها إرضاءً للنفس بأنْ يكون لها إله تعبده ، وما أجملَ أنْ يكون هذا الإله بلا تكاليف وبلا منهج بافعل ولا تفعل ، إذن : مشقة تكاليف الطاعة وحلاوة إتيان المعصية تأتى من التكليف ، فإن وُجدَ إله بلا تكاليف مالتْ إليه النفس وأحبته ، لأن ذلك يُرضى غريزة الفطرة الإيمانية فى الإنسان ، وهو أن كلَّ إنسان آمن بالعهد الأول فى مرحلة الذر ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ .. (١٧٢)﴾ [الأعراف]

إذن : فبضعة الإيمان فى كل إنسان موجودة فيه من عهد الذر ، ولكن يختلف الناسُ فى قبول التكاليف والمنهج ، فمن الناس مَنْ يرى فى المنهج قيْداً لشهواته ، فلا يرتاح إليه ويسعى إلى التديّن الخالى من التكليف كهؤلاء الذين استحبوا العمى على الهدى ، ومن الناس مَنْ يحب الهداية والطاعة ويرتاح إلى المنهج ويأنس به .

وتأمل قوله تعالى : ﴿فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ .. (١٧)﴾ [فصلت] استحبَّ غير أحب . استحبَّ يعنى : تكلّف حبه ، وهذا دليل أنه شىء لا يُحبّ أصلاً وطبيعة ، لكنه تكلف حبه ليحقق مراده من الشهوة ، ولك أنْ تنظر إلى أىِّ سيئة نهاك الله عنها وهَبْهَا أنها واقعة عليك ، هل تحبها ؟ لا تحبها ، إذن : هى لا تُحَبُّ .

وفى موضع آخر ، لما تكلَّم الحق سبحانه عن المؤمنين قال عنهم :

﴿أُولَـٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ .. (٥)﴾ [البقرة] وعلى تدل على الاستعلاء ، فكأنهم مستوون على الهدى ، وكأنه دابة يركبونها

توصِّلهم إلى غايتهم ، فالهدى لم يأت ليشق عليكم ، إنما جاء ليحملكم ويُوصِّلكم إلى غاية الخير ، فالمؤمنون على الهدى فوقه يوصلهم ، ليس الهدى فوقهم يشق عليهم أو يكلفهم ما لا يطيقون ، فالهدى إذن خدمة لكم وفى مصلحتكم .

وحين تتتبع لفظة (على) فى القرآن الكريم تجدها لا بدَّ أنْ تعطى الحكم من باب القوة والفضل ، فمثلاً قوله تعالى : ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا (٨) ﴾ [الإنسان] بعض المفسرين[1] قال : على حبه يعنى : مع حبه فجعل على بمعنى مع ، وهذا مخالف للصواب ؛ لأن الإنسان لا يحب الطعام إلا إذا كان جائعاً ، أما الشبعان فلا يلتفت للطعام .

فالمعنى : ويُطعمون الطعام رغم أنهم فى حاجة إليه ، فكأن الجوع يطلب أنْ تأكل لكن حبّ الخير والصدقة يعلو عندك على الجوع وحب الطعام ، لماذا ؟ لأنك قدَّرْتَ الجزاء الأوفى عليه ، وما دُمْتَ قدَّرت الجزاء الأوفى على إطعام الطعام ، فقد غلَبتَ حبك للطعام وعلوت عليه ، لذلك قال سبحانه : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ[2] .. (٩) ﴾ [الحشر]

كذلك فى قوله تعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ .. (٣٩) ﴾ [إبراهيم] (على) هنا لا تعنى وهب لى مع أنّى كبير

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٤/٤٥٤) : « قوله تعالى : ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ .. (٨) ﴾ [الإنسان] قيل : على حب الله تعالى ، وجعلوا الضمير عائداً إلى الله لدلالة السياق عليه ، والأظهر أن الضمير عائد على الطعام . أى : ويطعمون الطعام فى محال محبتهم وشهوتهم له . قاله مجاهد ومقاتل واختاره ابن جرير كقوله : ﴿ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ..(١٧٧) ﴾ [البقرة] .

(٢) خصاصة : فقر واحتياج . والخصاصة : الفقر وسوء الحال والحاجة . [لسان العرب - مادة : خصص] .

لا أصلح للإنجاب ، إنما المعنى : وهب لى على الكِبرَ ، فكأن الكبر ضعف يقتضى عدم الإنجاب ، ولكن هبة الله وفضله علا على الضعف وعلا على الكبر كما جعل زكريا ينجب يحى عليهما السلام !!

كذلك فى قوله تعالى : ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ .. (٦)﴾ [الرعد] فكأن الظلم كان يقتضى العقوبة ، لكن مغفرة الله علَتْ على الظلم .

ثم يقول سبحانه : ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٧)﴾ [فصلت] الصاعقة قلنا : هى كلُّ ما يصعق ويدمر ، سواء كان بالريح أو النار ، أو الصيحة المدمرة ، والعذاب الهون أى : المصحوب بالإهانة والخزى ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٧)﴾ [فصلت] يعنى : وقع لهم هذا بسبب ما كسبوا ، وما اقترفته أيديهم . يعنى : جزاءً وفاقاً ، لا ظلماً وعدواناً .

﴿وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (١٨)﴾

كثيراً ما نجد أسلوب القرآن الكريم يجمع بين الشىء ونقيضه ليبرز المعنى وبضدها تتميز الأشياء ، يقول تعالى : ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (١٤)﴾ [الانفطار] هذه مقابلة يوضح فيها كلّ معنى المعنى المقابل ، كذلك هنا بعد أنْ حدَّثنا الحق سبحانه عن بعض المكذِّبين المعاندين أردف ذلك بالكلام عن المؤمنين المتقين ، وما آلوا إليه من الفوز والنجاة ، فقال سبحانه : ﴿وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (١٨)﴾ [فصلت]

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١) ﴿١٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾﴾

الحشر : يعنى جمع المختلفين ، والمختلفون كان فيهم التابع والمتبوع ، ضالِّين ومضلين ، لا بدَّ أنْ يجمعهم الله جميعاً فى وقت واحد يتقدمهم الزعماء ورؤوس الكفر .

﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾﴾ [مريم] يعنى : نأتى بالفتوات ونقدمهم إلى النار قبل الضعفاء ، وكأن الله يقول لهم : هؤلاء قادتكم يسبقونكم إلى النار ، يعنى : لا أملَ لكم فى النجاة ، حتى الوحوش يجمعها الله ويجمع المختلفين منها .

﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾﴾ [التكوير] والوحوش هى الحيوانات غير المستأنسة كالأسد والنمر وغيره ، وكأن الحق سبحانه يريد أن يقول لنا : أنا الذى أذلل لك الخلق ، ولولا أننى ذللته لك ما استطعتَ أنت تذليله ، نعم ذلَّل لك الجمل رغم حجمه الكبير ، لكن لم يذلل لك الثعبان الصغير ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [يس]

والله لولا أن الله ذلَّل لنا هذه المخلوقات ما انتفعنا منها بشىء ، لذلك نقول على غير المذلل : حيوان متوحش ، ألاَ ترى الطفل والولد

---

(١) يُوزعون : يُجمعون فى مكان واحد ويحبسون عليه ويمنعون من التفرق . [القاموس القويم ٢/٣٣٤] بتصرف . قال ابن منظور فى [لسان العرب – مادة : وزع] ، أى : يُحبس أولهم على آخرهم .

الصغير يقود الجمل الكبير ويحمله ويُنيخه ويُسيِّره حيث يريد ، وأنت يزعجك البرغوث الصغير فى الفراش ويمنعك النوم ، إنها رسالة من الخالق سبحانه بأن الأمر أمرُ تذليل من الله .

﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٩) ﴾ [فصلت] فى الدنيا الوحوش تفر من الإنسان ، ونحن نفرُّ من الوحوش ، أما فى القيامة فيجمع الله الجميع معاً فى موقف واحد ، كيف ؟ لأنه لم يَعُدْ لأحد منا قوة تصرُّف ﴿ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦) ﴾ [غافر] فلما صار الملك لله لم يَبْقَ فينا نحن المخلوقين تفاوت قوة تستضعف .

وقوله ﴿ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٩) ﴾ [فصلت] يعنى : يُساقون ويُقادون جميعاً إلى النار من أولهم إلى آخرهم ﴿ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٠) ﴾ [فصلت]

الله .. السمع وظيفة الأذن ، والإبصار وظيفة العين ، والأنف للشم ، والكف للمس ، فكل جارحة من جوارح الإنسان لها مهمة فى حياته ، لكن لم يذكر الحق منها هنا إلا ثلاثة فقط : السمع ، والأبصار والجلود . ولم يذكر اليد ولا الأنف .

قالوا : لأن التكليف فى أمر الأنف نادر وقليل ، كأنْ تشمّ رائحة الخمر مثلاً ، والعياذ بالله ، أو تشم رائحة امرأة متعطرة ، إذن : فالأنف دوره محدود ، أما السمع فهو أهم الحواس ، لأنك تستقبل به الدعوة إلى الله ، والبصر هو الذى تبصر به آيات الله فى كونه وعجائبه فى خَلْقه .

أما الجلود فعامة فى السمع والبصر وفى كل الحواس ، فكأن الجلد أعمّ شىء فى الحس ، ولذلك لما بحثوا فى وظائف الأعضاء

ليعرفوا مهمة كل عضو فى الإنسان وجدوا أهمها الجلد ، لأنه وسيلة الإحساس بالألم خاصة فى الطبقة الخارجية منه ، ألاَ ترى أنك مثلاً حين تأخذ حقنة تشعر بألم الإبرة حين تدخل جسمك وتخترق الجلد ، تؤلمك بقدر نفاذها فى الجلد كأنَّ الجلد هو محلُّ الإذاقة ، وما دام هو محل الإذاقة فهو إذن مستوعب لجميع الحواس .

ولذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ **كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ** .. (٥٦) ﴾ [النساء] إذن : فالجلد محلّ إذاقة العذاب والعياذ بالله ، وهو المستوعب لكلِّ الحواس .

﴿ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢١) ﴾

هم يتعجبون كيف تشهد عليهم جلودهم وهى منهم ، والسؤال هنا كان ينبغى أنْ يكون عن الكيفية : كيف شهدتم علينا لا عن السبب ، فالسؤال بهذه الصيغة غير وارد ليدل هذا على التضارب فى الكلام .

وكان الجواب ﴿ **قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ** .. (٢١) ﴾ [فصلت] فالسؤال عن شىء والجواب عن شىء آخر ، فلو أجابوا عن السؤال : لم شهدتم علينا ؟ لقالوا : شهدنا عليكم لأننا أقوى حارس عليك فى جميع الأوقات ﴿ **قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ** .. (٢١) ﴾ [فصلت] يعنى : الأمر ليس بملكنا ، نحن لم نشهد من عندنا ، إنما أنطقنا الحقُّ بالحق ، ولا حيلةَ لنا فى هذا .

ومعنى ﴿الَّذِى أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ .. (٢١)﴾ [فصلت] أن كل شىء فى الوجود له لغة خاصة به ، لغة يتكلم بها ، لغة تدل وتُفهم ، كما رأينا فى قصة سيدنا سليمان لما تكلمتْ نملة وحذَّرتْ قومها ، وقالت : ﴿ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (١٨)﴾ [النمل]

ودَلّ قول النملة على أن للنمل لغة يتفاهمون بها ، ودلَّ على يقظتها وعلى عدالتها فى الحكم حين قالت : ﴿وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (١٨)﴾ [النمل]

كذلك حديث الهدهد فى نفس القصة حين قال : ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَأٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ (٢٢)﴾ [النمل] ثم يتكلم بكلام فى صُلْب العقيدة ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ .. (٢٤)﴾ [النمل] فالهدهد ليس مجرد متكلم بلغة ، إنما فاهم لأهمّ قضايا الإيمان ومسائل التوحيد .

إذن : لكل شىء لغة ، لكن لا يعرفها إلا مَنْ علَّمه الله وأطلعه على هذه اللغة ، وهذا فضل الله يؤتيه مَنْ يشاء ، لذلك قال سيدنا سليمان ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ .. (١٦)﴾ [النمل] ولولا أن الله علّمه ما فهم عن الهدهد .

كذلك فى الجماد له لغة ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ (١٨)﴾ [ص]

لذلك يقول تعالى فى إجمال هذه المسألة : ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَـٰكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. (٤٤)﴾ [الإسراء]

وورد أن الحصى سبَّح[1] فى يد رسول الله ﷺ على أن هذه معجزة من معجزاته ﷺ ، وقلنا فى تصويب هذه المسألة : أن الحصى مُسبِّح فى يد رسول الله كما هو مُسبِّح فى يد أبى جهل ، فالصواب والمعجز أنْ نقول : سمع رسول الله تسبيح الحصى فى يده ، هكذا يكون الكلام .

بعض العلماء يقول عن هذا التسبيح أنه تسبيحُ دلالة على خالقها لا تسبيحٌ على الحقيقة ، وهذا كلام مخالف لنصِّ القرآن الكريم لأنه لو كان تسبيحَ دلالة كما تقول فقد فهمته والله يقول : ﴿وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. (٤٤)﴾ [الإسراء] إذن : فهو تسبيح على الحقيقة ، تسبيح بلغة لا يعلمها إلا خالقها ، أو مَنْ علَّمه الله واختصَّه بمزيد من فضله .

والعجيب فى مسألة الهدهد أنه ذكر سبباً واحداً لوجوب الإيمان بالله وتوحيده تعالى ، فقال : ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِى يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِى السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (٢٥)﴾ [النمل] فذكر الأمر الخاص به وهو إخراج خبأ الأرض ، ومعلوم أن للهدهد منقاراً طويلاً ، يُخرج به الدود من تحت سطح التربة ويتغذى عليه .

وقوله : ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢١)﴾ [فصلت] يعنى : لا تظنوا أن الله خلقكم وترككم هملاً ، إنما خلقكم لغاية ولا بدّ

---

(١) أورده الأصبهانى فى دلائل النبوة (١/٤٧) فصل فى تسبيح الحصى فى يده . عن أبى ذر أن أبا بكر وعمر وعثمان اجتمعوا عند رسول الله فى خلوة فتناول النبى سبع أو تسع حصيات فسبَّحن حتى سمعت لهن حنيناً كحنين النحل ثم وضعهن فخرسن ، ثم أخذهن فوضعهن فى يد أبى بكر فسبحن حتى سمعت لهن حنيناً كحنين النحل ثم وضعهن فخرسن ، ثم تناولهن فوضعهن فى يد عمر فسبَّحن حتى سمعت لهن حنيناً كحنين النحل ثم وضعهن فخرسن ، ثم تناولهن فوضعهن فى يد عثمان فسبحن حتى سمعت لهن حنيناً كحنين النحل ثم وضعهن فخرسن .

لكم من الرجوع إليه ، والمثول بين يديه يحاسبكم على النقير[١] والقطمير[٢] ، والقليل والكثير ، ويجازيكم بأعمالكم فلن تنفلتوا منه سبحانه ، ستقفون بين يديه للحساب يُعدِّد عليكم نعمه ، ويرى مَنْ شكرها ومَنْ كفرها .

﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾

يعنى : لقد فاتكم شىء هام ما تنبهتم إليه ، وهو أنكم كنتم تستترون عن الخَلْق أنْ يراك أحد حال المعصية ، ونسيتم أن الله مُطَّلع عليكم يراكم ويرقب أفعالكم وما كنتم تستترون عن أنفسكم وجوارحكم ، وغاب عنكم أن الجوارح شاهدة عليكم يوم القيامة .

فاليد التى ضربتَ بها ، والرِّجْل التى سعيتَ بها ، واللسان والأذن والعين ، كل الجوارح ستأتى شاهدة عليك يوم القيامة ، هذه الجوارح التى أمرها الله أنْ تنفعل لمراداتك فى الدنيا وتطيعك فى كل ما تريد ستتحرر من هذا القيد يوم القيامة ، فلا يكون لك سلطان عليها ، ساعتها ستشهد عليك .

---

(١) النقير : نقطة غائرة فى ظهر النواة منها تنبت النخلة . ويضرب مثلاً للتعليل . قال تعالى : ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾﴾ [النساء] أى : لا يعطون أحداً جزءاً ضئيلاً من النواة وهذه كناية عن شدة البخل والحرص على المال . [القاموس القويم ٢/٢٨٢] .

(٢) القطمير : القشرة الرقيقة الملتفة على النواة ، ويُضرب بها المثل فى القلة ، قال تعالى : ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾﴾ [فاطر] من شىء قليل لا قيمة له .

فإنْ أطاعتك فى المعاصى فى الدنيا ، لأن الله سخرها لك فقد أطاعتك وهى كارهة لفعلك بريئة منه ، أما وقد عاد الجميع إلى الله ، وصار الملْك كله لله ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾﴾ [غافر] فلا عجبَ إذن أنْ تشهد عليكم جوارحكم ، وأنْ تكون خصماً لكم أمام خالقها عز وجل .

وسبق أنْ مثَّلْنا لهذه المسألة بقائد الكتيبة فى الجيش يأمر جنوده فيأتمرون بأمره ينفذون الأوامر حتى لو كانت خاطئةً ، حتى إذا ما جاءوا إلى القائد الأعلى شكوْا إليه تعسُّف القائد المباشر ، وقالوا : فعل بنا كذا وكذا .

كذلك جوارح الإنسان أمرها الله أنْ تطيعه حتى فى المعصية ، وأنْ تنفعل لمراداته ، فجوارحك تطيعك فى كل شىء تريده ، فى الخير وفى الشر

وقوله : ﴿وَلَكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لا يَعْلَمُ كَثِيراً مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [فصلت] الحق سبحانه وتعالى يقول فى حديث قدسى : « يا عبادى إن كنتم تعتقدون أنى لا أراكم فالخلل فى إيمانكم ، وإن كنتم تعتقدون أنى أراكم فلِمَ جعلتمونى أهون الناظرين إليكم »[1] إذا كنتَ لا تستطيع أنْ تفعل فى إنسان مثلك عملاً يسوؤه على مرأى ومسمع منه عينى عينك هكذا ، فكيف تفعلها مع الله عز وجل ؟

---

(١) بالبحث فى كتب الحديث تبين عدم ثبوت حديث بهذا اللفظ ، وإنما ثبتت جملة من هذا الحديث على لسان بعض العارفين حيث جاء فى كتاب (حلية الأولياء) (١٤٢/٨) قال رجل لوهيب بن الورد : عظنى . قال : اتق الله أن يكون الله أهون الناظرين إليك ، وجاء فى كتاب جامع العلوم والحكم (٣٦/١) قال بعض العارفين : اتق الله أن يكون أهون الناظرين إليك .

﴿ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾

قوله : ﴿ وَذَٰلِكُمْ ﴾ [فصلت] أى : أفعالكم التى فعلتموها ﴿ ظَنُّكُمُ الَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ .. ﴿٢٣﴾ ﴾ [فصلت] يعنى : ظننتم أنه سبحانه لا يعلم ما تفعلون ﴿ أَرْدَاكُمْ .. ﴿٢٣﴾ ﴾ [فصلت] يعنى : أهلككم هذا الظن ﴿ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [فصلت]

﴿ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ (١)

أى : فإنْ يصبروا على ما هم عليه ويصروا على الكفران والجدل مع الرسل ، ماذا يحدث ﴿ فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [فصلت] أمر من اثنين . الإنسان حين يخالف أوامر خالقه ويأتيه رسول يقول له ، لا تفعل فإنْ كفّ فهو خير له ، وإنْ أصرَّ وتمادى فالنار مثوىً له .

ومعنى ﴿ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [فصلت] يستعتبوا يطلبون العتبى . يقال : عتب فلان على فلان . يعنى : لامه على أمر ما كان يصح أنْ يكون منه ، يقول : مثلاً أنا مرضتُ فلم تزرنى ، هذا عتاب ، فيقول : معذرة فقد كنت مشغولاً بكذا وكذا فساعة يُبيِّن له العذر فقد أعتبه يعنى أزال عتبه ، وهذا لا يكون لهم فى الآخرة

---

(١) استعتبته فأعتبنى أى : استرضيته فأرضانى . واستعتب فلان : إذا طلب أن يُعتب أى يُرضى . [لسان العرب مادة : عتب] .

فإن طلبوا العتاب لم يعتبوا .

لذلك جاء فى حديث الرسول ﷺ وهو عائد من الطائف بعد أن آذاه قومها ، قال فيما قال ﷺ وهو يناجى ربه : « لك العُتْبى حتى ترضى »[١] يعنى : إنْ كان بدر منى شىء يغضبك فأنا أزيله وأعترف أننى ضعيف أطلب قبول العتاب .

لذلك قال الشاعر[٢] :

أمَّا العتَابُ فَبالأحبّةِ أخْلَقُ والحُبُّ يصلُح بالعتَابِ ويصْدُقُ[٣]

إذن : أنت لا تعاتب إلا إذا كنتَ محباً لمن تعاتبه ، حريصاً على علاقتك به . نقول : عتبت عليه فأعتبنى يعنى : أزال عَتْبى ، أما هؤلاء فى الآخرة فلن يقبل اللهُ منهم عتاباً ولن يزيل عتبهم . والهمزة فى أعتب تسمَّى همزة الإزالة ، والإزالة تكون بالهمزة أو بالتضعيف تقول : مرَّضتُ فلاناً يعنى : أزلتُ مرضه . وقشرتُ الفاكهة يعنى : أزلتُ قشرتها .

﴿ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾

---

(١) أورده ابن هشام فى السيرة النبوية (٢/٤١٩ ، ٤٢٠) ، والبيهقى فى (دلائل النبوة) (٢/٤١٥) .

(٢) الشاعر هو : أحمد شوقى أمير الشعراء ، مولده ووفاته بالقاهرة عام ١٩٣٢ م ، نشأ فى ظل البيت المالك بمصر ، أرسله الخديوى توفيق سنة ١٨٨٧ م إلى فرنسا ، نظم شعراً فى المديح والغزل والرثاء والوصف . [الموسوعة الشعرية] .

(٣) البيت لأحمد شوقى من قصيدة من بحر الكامل ، عدد أبياتها ١٢ بيتاً .

معنى ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ .. (٢٥)﴾ [فصلت] يعنى : أعددنا لهم وهيّأنا لهم ﴿قُرَنَاءَ .. (٢٥)﴾ [فصلت] أصحاباً يلازمونهم ، وأصل المقايضة فى البيع والشراء كأنْ تدفع الثمن وتأخذ السلعة ؛ لأن الله تعالى يريد للعبد أنْ يسير على طريق الخير الذى رسمه الله له ، وطريق الخير المرسوم لك من الله يريد منه أنْ يؤكد صدقك فى التوجه إليه ، فيأتى بقرناء يعترضون طريقك ويحاولون صَرْفك عنه .

فإنْ أطعتَ هؤلاء القرناء ملْتَ معهم وضللتَ طريقك الذى اختاره الله لك ، وإنْ عصيتهم فقد نجوْتَ وخابت معك حيل الشيطان الذى يُزِّين لك سواء من شياطين الإنس أو من شياطين الجن .

فكأن الشيطان ما جاء إلا ليختبر إيمان المؤمن فهو يُوسوس للجميع ، ويُزيِّن الشر للجميع ، لكن قوىّ الإيمان يقف أمام هذه الوسوسة ويعرف مصدرها فلا يطيع ، أما ضعيف الإيمان فينقاد ويقع فى المخالفة ، ولولا وجود الشيطان لكان الإيمانُ رتابةً لا معارضَ لها ، لكن وُجِد المعارض ، ومع ذلك ثبت أهل الإيمان على إيمانهم .

قوله : ﴿فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ .. (٢٥)﴾ [فصلت] ما بين أيديهم : الموجود الحالى من الشهوات . وما خلفهم : أى : ما ينتظرهم من أمر القيامة والحساب ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (٢٥)﴾ [فصلت]

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (٢٦)﴾

تميَّز العربُ قديماً بملَكة عربية تتذوَّق اللغة وتجيد أساليبها وفنونها ، بدليل أنهم جعلوا للكلمة مؤتمرات وأسواقاً ، ففى حين كانت البلاد الأخرى تقيم المعارض والأسواق لترويج بضاعتهم ، لم يكُنْ عند العرب بضاعة غير الكلام والفصاحة ، فجعلوا لها سوقاً ينشد فيها أجود أشعارهم ثم يختارون أفضله ، ويُعلقونه على أستار الكعبة ، وهو أشرف مكان على الأرض ، وهذا أمر لم يحدث فى أى أمة أخرى .

لذلك اختار الحق سبحانه أمة العرب لتتلقى منهجه ، وتبلغ دعوته سبحانه إلى خَلْقه ونزل عليها القرآن لأنها الأمة الوحيدة التى ستفهم لغته وتتذوقها .

إذن : جاء القرآن على أمة لها نبوغٌ فى اللغة والبيان لتكون مجالاً للتحدى ، وحين تعجز أمام تحدِّى القرآن فعَجْز غيرها من باب أَوْلَى ، وأيضاً فلم يجعل الله لهم تقدُّماً فى شىء غير تقدمهم اللغوى والبيانى ؛ لأن مفتاح الدين ومعجزة الرسالة ستكون هى القرآن .

ولو كانت هذه الأمة أمةَ تقدُّم وحضارة فى أىِّ مجال من المجالات غير اللغة لقالوا عن الإسلام ثورة حضارية ، لا ليست أمة حضارية بل أمة أمية ورسولها أيضاً أُمِّى .

ومن هنا كانت الأمية ميْزةً وشرفاً لرسول الله ، لكنها ليستْ شرفاً فينا نحن لأنَّ أمية رسول الله تعنى أنه لم تدخل عليه معلومة من البشر ، وإنما كلّ معلوماته من الله ، فمَنْ إذن ربَّاهُ ، ومَنْ أدَّبه ، ومَنْ علّمه ؟ الله .

فإذا كانت الأمة أُميّة ، ورسولها أمياً ، فهذا دليلٌ على أن كلَّ منافذ الخير فى هذه الأمة ليستْ من عند البشر .

وأيضاً تميزتْ هذه الأمة بأنها أمة ليس لها وطن ، فالعربى موطنه خيمته يضعها حيث وُجد الماء والعشب ويحملها على بعيره إلى أىِّ مكان آخر حين يجفّ الماء أو ينتهى الكلأ ، ليس له وطن ولا بناء يعزّ عليه أن يفارقه ، فبيته على ظهر جمله ، لذلك قال تعالى : ﴿مِّن جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ[1] وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ .. ﴿٨٠﴾﴾ [النحل]

شىء آخر ، وهو الأهمّ أن العرب كانوا دائماً فى محلِّ قتال ، وتظل الحربُ دائرةً بين القبائل إلى أربعين سنة ، هذه الحروب جعلتهم كلهم أهل خبرة فى فنون الحروب والقتال ؛ لذلك ساعة احتاج رسولُ الله إلى جنود لنشر دعوته لم يُدرِّب أحداً على القتال ، إنما وجد جنوداً جاهزين على أُهْبة الاستعداد للقتال ، لذلك لم يكُنْ هناك مدارس حربية ولا معسكرات للتدريب .

فإذا أخذنا فى الاعتبار أن العربى لم يكُنْ له وطن يرتبط به ، وأنه ذو قدرة وكفاءة فى فنون القتال ، علماً أنه من السهل تكوين الجيش ، ومن السهل إرسال جماعة هنا وجماعة هناك يحملون راية الإسلام ، وقد أرسلهم رسول الله بالفعل إلى فارس وإلى الروم وإلى الحبشة .. إلخ فسَهُلَ ذلك عليهم .

لذلك لم يكُنْ لرسول الله جيشٌ مُعَدٌّ وموقوف للقتال ، لأنه ليس فى حاجة إلى هذا الجيش ، فإنْ أراد القتال نادى فقط (حىَّ على الجهاد) فيجتمع عليه الصحابة خاصة الشباب منهم يتسابقون إلى الخروج مع رسول الله ، لدرجة أن رسول الله كان يختار منهم فيقول : هذا يخرج وهذا لا يخرج ، فكان الذى لا يقع عليه اختيار

---

(١) الظعن : الانتقال من مكان إلى مكان أى المسافرة . [القاموس القويم ١/٤١٥] .

رسول الله يغضب وربما بكى لأنه لم يخرج للجهاد مع رسول الله .

إذن : تميَّزَتْ هذه الأمة بعدة خصال أهَّلَتْهَا لأنْ تكون محلاً لمنهج الله وتبليغ رسالته ، **أولاً** : كانت أمة بلاغة وفصاحة . **ثانياً** : كانت أمة ترحال لا توطن لهم . **الثالث** : أنهم كانوا على دراية بفنون الحرب والقتال ولم يحتاجوا إلى تدريب فى معسكرات ، بل كانوا على استعداد تام ، كلما سمعوا هَيْعة طاروا إليها ، وبذلك كانوا بطبيعتهم مُعدَّين لحَمْل هذه المهمة .

قوله تعالى حكاية عن كفار قريش : ﴿ **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَـٰذَا الْقُرْآنِ** .. (٢٦) ﴾ [فصلت] جاء نتيجة تمكُّن العربى من اللغة ، وتذوّقه لها ، وفَهْمه لمعانيها ، فلو تركوا القوم يستمعون لمحمد وهو يقرأ القرآن لا بدَّ أنْ يتأثروا به ، ولا بدَّ أنْ يميلوا وينجذبوا إليه ، فما الحل ؟

الحل عندهم ﴿ **لا تَسْمَعُوا لِهَـٰذَا الْقُرْآنِ** .. (٢٦) ﴾ [فصلت] لأنهم علموا علمَ اليقين أنهم لو سمعوا لأخذهم القرآن بجمال أسلوبه ، وجلال معانيه ، وقوة أدائه ، ولو كانوا يعلمون خلافَ ذلك ما نَهَوْا قومهم عن سماعه .

ولم يقف الأمر عند النهى عن السماع ، بل وشوَّشوا عليه حين يقرأ ﴿ **وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ** (٢٦) ﴾ [فصلت] إذن وسيلة الغلبة ألاَّ تسمعوا للقرآن ، وأنْ تُشوِّشوا عليه حين يقرأ حتى لا تُعْطوا فرصة لمَنْ يسمع أن يتدبر وقولهم ﴿ **لَعَلَّكُمْ** .. (٢٦) ﴾ [فصلت] يعنى : احتمال تكُون لكم الغلبة ، إنْ فعلتم ذلك فهو أمر غير مؤكد عندهم .

والدليل على ذلك أنهم آمنوا ببلاغة القرآن وإعجاز القرآن ، وآخر

المطاف لما ضاقتْ بهم الحيَل قالوا عن رسول الله ﷺ إنه مجنون وردَّ الله عليهم ، فقال لرسوله : ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [القلم] وهل للمجنون خلق ، وخلق عظيم ؟

قالوا ذلك وهم يعلمون صدق رسول الله وأمانته وحُسْن سيرته فيهم ، فقالوا : ساحر والرد على هذا سهل ، فلو أن محمداً سحر مَنْ آمن به ، فلماذا لم يَسْحركم كما سحرهم ، وتنتهى المسألة ؟ وقال : شاعر وكذبوا أيضاً ، لأنهم أمة كلام وبيانٍ ، ويعلمون جيداً ما الشعر ، وما جرَّبوا على محمد شيئاً من هذا .

وفى نهاية الأمر اعترفوا بصدق القرآن وبلاغته وإعجازه ، لكن اعترضوا على أنْ ينزل على محمد بالذات ، فقالوا : ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الزخرف]

فالآفة ليستْ فى القرآن ، فالقرآن لا غبار عليه ، الآفة فى نزوله على محمد وهو فقير من عامة القوم ، ليس سيِّداً من ساداتهم من عتبة وشيبة وغيرهما ، وبذلك أقروا وشهدوا للقرآن بأنه كتاب كامل يستوعب كلَّ وجوه الخير وكمالات الخلْق اللازمة لصلاح الدنيا والآخرة ، فاعتراضهم إذن على شخص رسول الله لا على القرآن .

لكنهم لم ينتبهوا إلى أنَّ شهادتهم للقرآن وإقرارهم بإعجازه أَوْلى عند رسول الله من شهادتكم له هو ؛ لأن الذين آمنوا بالله وآمنوا بوحى الله كانوا أقربَ لرسول الله ممَّنْ أنكروه .

فالرومان لم يُصدِّقوا محمداً ، لكنهم يؤمنون بكتاب ويؤمنون بوحى وبرسل ، وفارس لم يكُنْ عندها هذا الإيمان الذى عند الرومان ، فكانت قلوبُ رسول الله والمؤمنين تميل إلى الرومان ،

لأنهم أهلُ كتاب ويؤمنون بالله ؛ لأن عصبية رسول الله لربه فوق عصبيته لنفسه ، ألاَ ترى أن المسلمين حزنوا لما غُلِبَتْ الروم وفرحوا لما انتصروا بعد ذلك ؟

﴿ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾

الحق سبحانه وتعالى لم يترك عذابَ الذنوب إلى الآخرة حتى لا يستشرى أهلُ الباطل فى باطلهم ، لكن يُعجِّل الله لأهل الباطل لوناً من العذاب فى الدنيا قبل عذاب الآخرة ، وعذاب الآخرة أشد ؛ لذلك قال تعالى مخاطباً رسوله ﷺ : ﴿ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [غافر]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

﴿ ذَلِكَ ﴾ يعنى ما سبق ذكره من العذاب ، والجحود هو الإنكار الشديد ، فالذين كفروا حينما وقفوا موقفهم من الإسلام ، وتبيَّن لهم كذب مَنْ دعوهم إلى الضلال وأضلوهم أصبح لهم ثأر ليس عند المؤمنين ، إنما عند الكافرين الذين أضلوهم وأبعدوهم عن الإيمان ؛ لذلك يوم القيامة يبحثون عنهم لينتقموا منهم ، وليجعلوهم تحت أقدامهم ، وتقوم معركة وجدال بين الفريقين التابعين والمتبوعين :

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

الحق سبحانه وتعالى فى أكثر من موضع من القرآن يُصوِّر لنا هذه المعركة الكلامية التى تدور بين الضالِّين والمضلِّين ، وكيف أن كلَّ واحد منهما يُلْقى باللائمة على الآخر ويتنصل هو من المسئولية .

لذلك إبليس سيغلب مَن اتبعه فى الضلال ، وستكون له الحجة الأقوى ، كما قال تعالى حكايةً عنه : ﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ[1] وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ .. ﴿٢٢﴾ ﴾ [إبراهيم]

يعنى : لا سلطانَ حجة تقنعكم ، ولا سلطانَ قوة تُرغمكم على الفعل ، وعجيبٌ أن يقول الكافرون هنا فى موقف القيامة ﴿ رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلاَّنَا .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [فصلت] الآن يقولون ربنا ، ويعترفون له سبحانه بالربوبية ، ومعنى ﴿ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [فصلت] يعنى : نعذبهم نحن أولاً قبل أنْ تعذبهم أنت يا رب . وقولهم ﴿ تَحْتَ أَقْدَامِنَا .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [فصلت] يعنى : عذاب إهانة لا عذابَ إيلام .

---

(١) المصرخ : المغيث المنقذ مَنْ يستصرخه . والصريخ : الاستغاثة والمستغيث والمغيث . [القاموس القويم ١/٣٧٣] .

ثم يقول سبحانه[1] :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

قالوا : ربنا الله ، هناك لَفْظَا رب وإله . ولكل لفظ منهما مجالٌ ومعنىً : فالربُّ هو الذى يُربِّى ويخلق ويتعهَّدنا بالنعم والأفضال ، ومنه قولنا : نربيه . يعنى : نعطيه ما يُؤهله لمهمته ، فالله ربٌّ خلق من عدم وأمدَّ من عُدم ، وظل يأخذنا بحنان يُوضع لبعضنا فى بعض ، إلى أنْ نقوى ويشتد ساعدنا ، ثم يكلفنا بعد ذلك تكليف الألوهية .

إذن : فعطاء الربوبية عطاء عام يعمُّ المؤمنَ والكافرَ ، والطائعَ والعاصى . فالله رَبُّ الجميع وَسِع فضله كلَّ خَلْقه ، خلقك وخلق لك مقومات حياتك قبل أنْ يخلقك ، وجعل لك عقلاً تُميِّز به وتختار بين البدائل ، فإنْ أحسنتَ التصرف بعقلك فيما أعطاك من مقومات تأخذ ثمرتها ، وإنْ لم تحسن فأنت الخاسر ، إذن : عطاء الربوبية للجميع ، والأسباب مُتاحة للجميع تعطى مَنْ يستحق العطاء حتى لو كان كافراً .

---

(١) سبب نزول الآية : عن ابن عباس قال : نزلت هذه الآية فى أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، وذلك أن المشركين قالوا ربنا الله والملائكة بناته وهؤلاء شفعاؤنا عند الله فلم يستقيموا . وقال أبو بكر : ربنا الله وحده لا شريك له ومحمد ﷺ عبده ورسوله . فاستقام . ذكره القرطبى فى تفسيره (٩/٦٠٢٣) .

ولذلك تجد فى قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام حينما قال : ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ .. (١٢٦)﴾ [البقرة] إذن : طلب الرزق فقط لمَنْ آمن ، فصحَّح اللهُ له هذه المعلومة ، وقال : ﴿وَمَن كَفَرَ .. (١٢٦)﴾ [البقرة] لأن رزقى لكل خَلْقى ، سواء آمن أو لم يؤمن لأنه خَلْقى وصنعتى ، وأنا الذى استدعيتُه للوجود ، فعلىَّ رزقه وعلىَّ مقومات حياته ، هذا عطاء الربوبية .

وسيدنا إبراهيم طرق بابه ليلاً طارقٌ يريد أنْ يبيتَ عنده ، فسأله أولاً عن دينه ، فعلم أنه غير مؤمن ، فأغلق الباب فى وجهه ، فانصرف الرجل ، وعاتب الله نبيه إبراهيم ، وقال له : يا إبراهيم وسعتُه فى مُلْكى ولم أقطع عنه رزقى مع كفره بى ، وأنت تريد أنْ تغير دينه فى ليلة تستضيفه فيها ؟

فأسرع سيدنا إبراهيم خلف الرجل حتى لحق به وأخذه فى ضيافته فتعجب الرجل وقال : لقد جئتك فرددتنى . فقال له : لكن ربى عاتبنى فيك ، فقال الرجل : أعاتبكَ ربك فى شأنى ؟ قال : نعم ، قال : فنعْم الربُّ رَبٌّ يعاتب أنبياءه فى أعدائه ، ثم قال : أشهد ألاَّ إله إلا الله ، وأنك رسول الله .

لذلك كثيراً ما نتعجَّب من عطاء الله الواسع لغير المؤمنين ، وأن فى أيديهم كلَّ نعيم الدنيا وزخرفها فى حين يُحرم منها المؤمن ، ولا عجبَ فى ذلك لأن هذا عطاءُ الربوبية ، وهؤلاء أحسنوا استغلالَ الأسباب فأعطتْهم ، ولو أحسنتم أنتم كذلك لأعطتكُمُ الأسباب .

واقرأ قول الله تعالى : ﴿وَلَوْلا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَـٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (٣٣) وَلِبُيُوتِهِمْ

أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ (٣٤) وَزُخْرُفًا .. (٣٥)﴾ [الزخرف]

وتأمل ، ما المعارج ؟ هى المصاعد التى لم نعرفها نحن إلاَّ فى القرن العشرين ، أخبرنا القرآن بها قبل أربعة عشر قرناً ، هذه من معجزات القرآن التى ينثرها علينا من حين لآخر .

فقوله : ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ .. (٣٠)﴾ [فصلت] يعنى : اعترفوا له سبحانه بالربوبية ، وأقرُّوا أنه سبحانه هو الذى خلقنا وربَّانا وأعطانا وأنعم علينا ، ومن العجيب أنه لم يُكلِّفنا إلا بعد أنْ بلغنا أشدّنا ، يعنى : تركنى أربع فى الدنيا وأنعم بنعمه خمسة عشر عاماً دون أنْ يُكلّفنى بشىء ، لماذا ؟

لأنه لا يكلفك إلا بعد تمام تكوينك واكتمال قوتك ، لأنه لو كلفك قبل ذلك ثم طرأ عليك تغيير فى الخِلْقة وزيادة فى نمو بعض أعضائك لقلت له : يا رب لقد كلَّفتنى ثم حدث لى تغيير فى كذا وكذا ، ولم أعُدْ صالحاً لهذا التكليف .

ومتى تبلغ أشدّك ؟ قالوا : حين تكون صالحاً لإنجاب مثلك ، عندها يكون اكتمال الخَلْق وتمام الرجولة ، ونحن نلاحظ هذا فى الثمار ، فالثمرة الناضجة تعطى بذرة ناضجة لو وُضعَتْ فى الأرض لأنبتتْ شجرة ، خُذْ مثلاً بطيخة قبل نضوجها تجد لُبَّها أبيض وطعمها مائعاً ، لماذا ؟ لأنها لم تنضج بَعْد ولو زُرعت بذرتها لم تنبت .

فكأن الله يحرس الثمرة حتى تنضج البذرة ، وتصير صالحة لإنبات شجرة جديدة ، هذا نُسَميه استبقاء النوع ، وإلا لانقرضَ النوعُ ولو نضجتْ البطيخة وحلاَ طعمها قبل بذرها لأكلناها وما سألنا فى مسألة البذرة والإنبات من جديد ، ولَمَا كان هناك بقاءٌ للنوع .

ولذلك إذا غفلتَ عن الثمرة حتى استوتْ على عُودها ولم تقطفها وقعتْ لك هى على الأرض ، وكأنها تقول لك : خُذْنى لأنها ستؤدى مهمة اللذة فى الطعم لك ، ومهمة إنبات شجرة جديدة من نفس النوع .

والخَلْق على نوعين : خَلْق أول ، وخَلْق ثَان . **الأول** : خلق أصول الأشياء . **والثانى** : خلق فروعاً من أصول الأشياء ؛ لذلك السيدة مريم لمَّا قال لها يوسف النجار بعد أنْ ظهرت عليها علامات الحمل : يا مريم ، أتوجد شجرة بلا بذرة ؟ قالت : نعم الشجرة التى أنبتتْ أول بذرة . هذا هو الخَلْق الأول كخلق آدم عليه السلام خُلِق أولاً ، ومنه تناسل الناس .

إذن : التكليف لا يكون إلا بعد سنِّ البلوغ واكتمال الرجولة ، والذى يُكلِّفنا هو الله ، فالربُّ خلق ورزق وربَّى ، والله كلَّف وأمر بالعبادة ، فالله هو المعبود يعنى : مُطاع فى أمره ونَهْيه ، وقبل أنْ يكون مُطاعاً فى أمره ونهيه أعطاك عطاءَ ربوبية ، فكأنه قدَّم الخير لك أولاً قبل أنْ يأمرك بعبادته ، فلا أقلَّ من أنْ تقدم الخير بأنْ تطيع مَنْ رباك .

ولذلك جعل منزلة خاصة للأبوين ، وأوصى ببرِّهما ، وحذَّر من عقوقهما ، وجعل عقوق الوالدين من أكبر الكبائر ، لماذا ؟ قالوا : لأن الله أراد أنْ يروِّضك ويعلمك أنْ تحترم مَنْ كان سبباً مباشراً فى وجودك ، ثم بعد ذلك ينقلك إلى احترام سبب وجودك غير المباشر ، وهو الله سبحانه ؛ لذلك قال : ﴿ **وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا** .. (٣٦) ﴾ [النساء]

فالحق سبحانه حينما يأمرنا ببرِّ الوالدين إنما يدربنا على عرفان الحق لله تعالى ، فالله أوجد الخَلْق الأول ، والوالدان أوجدا الخلق الثانى ، وجعل احترام سبب الإيجاد الثانى وسيلةً لاحترام سبب الإيجاد الأول .

إذن : نقول الربوبية عطاء ، والألوهية تكليف ، لكنه تكليف يعطيك أولاً لأنك فى الدنيا ، وعمر الدنيا هو مقدار وجودك أنت فيها ، ولا دخْلَ لك فى عمر الدنيا من لدُن آدم حتى قيام الساعة ، لأن هذا الزمن كله لا يعنيك وهذه محكومة من الله طولاً ، هذا يعيش عشرة أعوام ، وهذا خمسين ، وهذا مائة ، فَطُول الأجل لا دخلَ لأحد فيه .

فبعد أن ذكر الحق سبحانه لنا طرفاً من الأمم المكذبة المعاندة للرسل وما آل إليه أمرهم من العذاب ، يذكر سبحانه المقابل وهم أهل الإيمان والاستقامة على الجادة ، فيقول تعالى :

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا .. ﴿٣٠﴾﴾ [فصلت] قلنا : العمل قول وفعل . فالقول عمل اللسان ويقابله الفعل ، وهو عمل باقى الجوارح : فالرؤية للعين ، والسمع للأذن ، واللمس لليدين ، والسعى للقدمين .. الخ وكلٌّ من القول والفعل يُسمى عملاً .

فما عمل القلب ؟ القلب من الناحية المادية هو الوعاء المسئول عن ضخ الدم ، وهو سائل الحياة إلى باقى أجزاء الجسم ، وهو وعاء الإيمان والاعتقاد ، فإذا ما عمر باليقين والإيمان أشاع ذلك فى كل ذرة من ذرات الجسم ، لذلك نقول : عمل القلب الاعتقاد ، والعقيدة هى الشىء المعقود الذى لا يُحَلُّ ، الشىء الذى استقر فى القلب فلا يخرج ليناقشه العقل من جديد .

قنا : إن الفكرة تُعرض أولاً على العقل ليبحثها ويناقشها ، فإن اطمأن إليها ألقاها إلى القلب لتستقرّ فيه عقيدة راسخة ، فالقلب إذن لا يستقبل إلا عقائدَ ثابتة ، وهذه العقائد هى التى ستكون مبدأ لك فى حركات حياتك .

ومن هنا نعلم أهمية دور اللسان وخطورته ، فله نصف العمل ، ولباقى الجوارح النصف الآخر ، ثم هو المعبِّر عنك المفصح عَمَّا بداخلك ، والجوارح كلها ينبغى أنْ تتفاعل مع الكون تفاعلاً إيجابياً ، فالأذن تسمع ، والعين ترى ، والأنف يشم ، واليد تلمس ، فالجوارح تعطينى مادة الفكر وبها يصل المؤمن إلى آيات الله فى الكون ، بها يُعرف النافع ويُعرف الضار فيأخذ منها النافع ويبتعد عن الضار ، فالأذن تسمع كل شىء ، وعليك أن توجهها لسماع الخير وتبتعد بها عن سماع الشر ﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا (٧٢) ﴾ [الفرقان]

والعين تنظر بها إلى بديع صُنْع الله فى كونه ، وتغضُّها عن محارمه ، وها هو الكون أمامك كتاب مفتوح ، وما عليك إلا أن تقرأ ما فيه من آيات ومعجزات ، والسماء وما فيها من شمس وقمر ونجوم وأجرام ومجرَّات كلها تَسير بنظام دقيق محكم ، والأرض وما فيها من عناصر وما تنبته لنا من خيرات .

والحق سبحانه حينما يُحدِّثنا عن هذه الخيرات ويمتنُّ علينا بهذه النِّعم يُذكِّرنا بقدرته تعالى على زوالها ونقضها ، وكيف أنه لو شاء سبحانه لحرمنا ، بل ولحوَّل لنا هذه النعم إلى نقم والعياذ بالله ، لذلك لنا وقفة مع قوله سبحانه عن الزرع : ﴿ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (٦٤) ﴾ [الواقعة] نعم نحن نحرث ونروى ونباشر ، لكن الإنبات بيد مَنْ ؟ ثم يُذكِّرنا سبحانه بقدرته على نقض هذه النعمة ﴿ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (٦٥) ﴾ [الواقعة]

ثم يُحدِّثنا عن نعمة الماء ، وكيف ينقضها : ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِى تَشْرَبُونَ (٦٨) أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ[1] أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ (٦٩) لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا[2] فَلَوْلا تَشْكُرُونَ (٧٠)﴾ [الواقعة]

لكن حين يُحدِّثنا الحق سبحانه عن نعمة النار يتركها دون أنْ يذكر ما ينقضها : ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِى تُورُونَ[3] (٧١) أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ (٧٢)﴾ [الواقعة]

هكذا دون أنْ يذكر ما ينقضها كسابقها ، لماذا ؟ قالوا : لأن هذه هى النار النافعة الصحية التى لا ضررَ فيها نوقدها لننتفع بها ، وكل نار بعدها لها ضرر ، لذلك لم يقل الحق سبحانه مثلاً : لو نشاء لجعلناها رماداً ، ذلك لتظل النار باقية تُذكِّرنا بنار الآخرة .

ثم لك أنْ تلحظ عظمة الأداء القرآني ودقته فى التعبير ، فلما تكلم عن الزرع قال : ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا (٦٥)﴾ [الواقعة] هكذا بلام التوكيد ، لماذا ؟ ليؤكد قدرته تعالى على الذهاب بالزرع مهما كان ، والزرع للإنسان دور فيه وتدخّل ، فهو يحرث ويروى ويباشر ، إنما حين تكلم عن خَلْق الإنسان وعن الماء لم يذكر فى ذلك توكيداً ؛ ذلك لأن مسألة الخلق ومسألة نزول الماء من السماء لا دخْلَ للإنسان فيها .

---

(١) المزن : جمع مُزْنة . وهى السحابة البيضاء . قاله الجوهرى فى الصحاح ، وقال ابن الأثير : المزن وهو الغيم والسحاب .

(٢) الأجاج : الشديد الملوحة . وقيل : المرارة ، وقيل : الشديد المرارة ، قاله ابن سيده فى (المحكم والمحيط الأعظم) مادة : أجج .

(٣) تورون : تقدحون من الزناد وتستخرجونها من أصلها . قاله ابن كثير فى تفسير الآية (الواقعة ٧٢) قال السمرقندى فى (بحر العلوم) : الزند خشبة يُحَكّ بعضه على بعض فيخرج منه النار .

والآيات فى كَوْنِ الله كثيرة صنَّفها العلماء إلى ثلاثة أقسام :

آيات كونية : تثبت قدرة الخالق سبحانه كالليل والنهار والشمس والقمر ، ثم آيات معجزات : صاحبتْ رسل الله لتثبتَ صدقه فى البلاغ عن الله ، وآخرها آيات الأحكام : وهى آيات القرآن الكريم التى تحمل منهج الله للناس . وهذه كلها تخدم قضية اليقين والإيمان بالله .

فإذا أُشْرِبَ الإنسان العقيدة الإيمانية أعلنها بلسانه فرحاً بها . وهنا يأتى دور اللسان المعبِّر عما فى القلب والقائد لباقى الجوارح ، لذلك ورد فى الحديث الشريف أن سيدنا رسول الله ﷺ قال : « ما من يوم إلا وتنادى الجوارحُ اللسانَ تقول : اتق الله فينا ، فإنما نحن بك ، فإذا استقمتَ استقمنا ، وإذا اعوججتَ اعوججنا »[(١)]

فقوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ﴿٣٠﴾﴾ [فصلت] دلَّ على قَوْل المؤمنين الذى رسخ الإيمانُ فى قلوبهم ، فعبَّرت عنه الألسنة ﴿رَبُّنَا اللَّهُ ﴿٣٠﴾﴾ [فصلت] مُوجدنا ومربِّينا الذى خلقنا من عدم ، وأمدنا من عُدْم ، وأعطانا الأمن والأمان ، لأنه القائل : ﴿لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ ﴿٢٥٥﴾﴾ [البقرة]

فالإنسان إنْ أراد حارساً استأجر له حارساً ، فكيف به إذا نام حارسه ، أما أنت أيها المؤمن ففى حراسة الله فنَمْ مطمئن القلب ، لأن حارسك لا تأخذه سِنَة ولا نوم .

فالمؤمن حين يباشر كل هذا النعيم ، وحين يرى مقومات حياته فى متناول يده من طعام وشراب ، وأمن وسلام ، هواء يتنفسه

---

(١) أخرج أحمد فى مسنده (٣/٩٦) ، والترمذى فى سننه (٢٤٠٧) من حديث أبى سعيد الخدرى ولفظه : « إذا أصبح ابن آدم فإن أعضاءه تُكفِّر اللسان تقول : اتق الله فينا ، فإنك إن استقمتَ استقمنا ، وإن اعوججت اعوججنا » .

وأرض تعطيه كل ما يشتهى ، يفرح بعطاء الله له ولا يملك إلا أنْ يقول (رَبُّنَا اللهُ) لأنها أصبحت عقيدة ثابتة فى القلب .

وما دام ربك الله ، فلا تحزن ولا تهتم لأمر الدنيا فالله مُتولِّى أمرك ، إنك ترى الولد فى حياة أبيه لا يحمل هَمَّ شىء ، ولا يفكر فى غلاء الأسعار ، ولا فى توفير القوت والسلع والملابس .. الخ لأن والده موجود ، فما بالك إنْ كان الله هو الذى يتولاك ؟ والله إن المؤمن الحق ليستحى أنْ يحمل همَّ الرزق أو العيش ، وهو يعلم أن ربه الله .

وما دام ﴿رَبُّنَا اللَّهُ (٣٠)﴾ [فصلت] فلا كَرْبَ وأنت رَبٌّ . ربك سيتولاك ، ويبعد عنك كل سوء ، ويكفيك كل ما أهمك .

تذكرون قصة سيدنا موسى عليه السلام مع فرعون ، فلما اتبعه فرعون بجنوده ﴿قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١)﴾ [الشعراء] هكذا يقول واقع الأحداث ، فأمامهم البحر وخلفهم جنود فرعون ولا مفرّ ، لكن ماذا قال موسى ؟ قال : (كلا) يعنى : لن يدركونا ولن ينالوا منا . قالها من رصيده الإيمانى وثقته فى ربه وحمايته له ، فما كان الله ليرسل رسولاً ثم يُسلمه لعدوه .

﴿قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢)﴾ [الشعراء] لذلك جاءه الفرج من ربه فى التو : ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٣)﴾ [الشعراء]

تأمل هنا حراسة الله لأوليائه ، وتأمل هذه المعجزة ، وهذه الربوبية ، فما أنْ قال موسى قولته بصدق الإيمان إلا وجاءه الردُّ ، فسلب الله من الماء خاصية السيولة وتجمد الماء فسار على الجانبين ، كل فِرْق كالطود العظيم ، وفى الوسط طريق جاف يابس عبر منه

موسى وجنوده .

حتى إذا ما وصل الشاطىء الآخر أراد أنْ يضرب البحر مرة أخرى ليعود إلى سيولته ويغلق الطريق فى وجه فرعون . فأرشده ربه وصحَّح له وجهة نظره فلله تدبير آخر ، والموقف لم ينته بعد ، فقال الله لموسى : ﴿ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا (١) إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ (٢٤) ﴾ [الدخان]

بعد أن نجَّى الله موسى وقومه وذهب بهم إلى الصحراء جعل لنفس العصا دوراً آخر : ﴿ وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ..(٦٠) ﴾ [البقرة] فالعصا واحدة يضرب بها الماء فيصير جبلاً ، ويضرب بها الجبل فيتفجر بالماء ، فالأثر مختلف لأن الفاعل هو الله القادر .

فقوله تعالى : ﴿ رَبُّنَا اللَّهُ (٣٠) ﴾ [فصلت] تعطينا فكرة إجمالية عن عطاء الربوبية للمادة وللقيم ، فربُّك الذى أمدك بمقومات المادة ما كان ليتركك بدون مقومات الروح والقيم ، فكما أخذتَ نعَمه فى المطعم والمشرب والمسكن فخُذْ نعمه فى التكليف ، لأنه بالتكليف يربى فيك الروح والقيم .

وهنا ينبغى أن نتأمل مثلاً قوله تعالى : ﴿ يَـٰبَنِى آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِى سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (٢٦) ﴾ [الأعراف]

فالله تعالى أعطاك الضرورى من اللباس وهو ما يستر عورتك ، ثم زادك الرياش وهو ترف اللباس والزينة التى يتباهى بها الإنسان ،

---

(١) رهواً : سهلاً ساكناً . [الجوهرى فى الصحاح] قال ابن سيده فى كتاب المحكم : « كل ساكن لا يتحرك : راهٍ » . وقال الزجاج : رهواً هنا : يبساً .

لذلك نقول (فلان ده متريش) .

لكن لا تنسَ أن لباس التقوى ذلك خير ، يعنى : أفضل من اللباس الأول ، فلباس المادة يستر عورتك فى الدنيا ، أما لباس التقوى فيسترك فى الدنيا وينجيك فى الآخرة .

إذن : فهو عطاء ممتدّ باق خالد فى الآخرة . فهو إذن خير لباس لمن وعى وفهم . فربُّك بربوبيته لنا أعطانا ما يقيم مادتنا وما يسعد دنيانا ، وما كان سبحانه ليترك قلوبنا خالية من الأخلاق والقيم الروحية التى تُسعدنا فى الآخرة .

واقرأ إنْ شئت قوله تعالى : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ[1] وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (١٤) ﴾[آل عمران]

فما عند الله فى الآخرة هو الباقى ، والمادة تفنى وتزول ، والدنيا كلها ما هى إلا مرحلة إعداد للآخرة الباقية ، حيث يعطيك ربك العطاء الحق ، العطاء الممتد . انظر إلى الولد الصغير نعلمه (ابتدائى وإعدادى وثانوى وجامعة) ، لماذا كل هذا التعب ؟ للثمرة المرجوة بعد ذلك ليكون عضواً بنَّاءً فى حركة الحياة ، كذلك نحن فى الدنيا نعمل لهدف أسْمى هو الآخرة ، حيث النعيم الباقى الذى لا يُنغصه شىء .

وتأمل هذا الإقرار من المؤمنين حين قالوا ﴿ رَبُّنَا اللَّهُ (٣٠) ﴾ [فصلت] إقرار يجمع بين عطاء الربوبية والاعتراف به وعطاء الألوهية ،

---

(١) قال الطبرى فى تفسير الآية [آل عمران ١٤] : اختلف أهل التأويل فى معنى المسوَّمة . فقال بعضهم : هى الراعية ، أى السائمة . وقال آخرون : الحسان ، وقال آخرون : المعلَّمة . وقال آخرون : المعدَّة للجهاد .

فالرب هو نفسه الإله المعطى هو نفسه سبحانه المكلف ، ومَنْ قَبلَ من ربه عطاء الربوبية وأخذ نعمه إيجاداً من عدم وإمداداً من عُدْم لا يليق به أنْ يترك تكاليفه ، خاصة وهى تكاليف تسعد الإنسان فى الدنيا والآخرة ، ما جاءت لتضيق عليه أو تشق عليه .

فعطاء الربوبية موجود أيضاً فى عطاء الألوهية ، ومعلوم أن التكاليف جاءتْ بافعل ولا تفعل ، وعليك أن تفعل فى الأمر ، وأنْ تنتهى عند النهى ، وما لم يردْ فيه نصّ فأنت فيه حُرٌّ و تفعل أو لا تفعل .

ثم يقول تعالى حكايةً عن المؤمنين بعد أنْ قالوا ربنا الله وأقروا لله تعالى بالربوبية والألوهية ، واستقرتْ عندهم هذه العقيدة راسخة ثابتة يقول : ﴿ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ﴿٣٠﴾ ﴾ [فصلت] يعنى : بعد القول جاء العمل .

وتأمل هنا حرف العطف ثم ، فهو يفيد فى اللغة الترتيب والتراخى ، ولم يقلْ سبحانه فاستقاموا لحكمة ، وكأن الحق سبحانه أراد أنْ يعطيك فرصة لتتأمل فيها هذه العقيدة وتبحثها وتقتنع بها ، أعطاك فرصة لتراجع هذه العقيدة فى نفسك لتؤمن بها عن رضاً ، وتعمل بها عن اقتناع ، لتقبل عليها فى حب قد يصل بك إلى درجة العشق لهذه الاستقامة .

ومعنى الاستقامة : أخْذ الشىء على قوامه ، وهى تتطلب سَيْراً على خط مستقيم ، الذى سمَّاه الله الصراط المستقيم ، فالله يريد منك أيها المؤمن أنْ تجعل الوسيلة إلى الغاية من عمل التكليف مثل الصراط لا تميل عنه قيد شعرة ، ولا تنحرف عن جادته .

فأنت حين تسير فى شارع متسع يمكن فى السير أن تذهب هنا مرة وهنا مرة ، نعم يجوز لك ذلك ، لكن لا تنْسَ أنه يطيل عليك المسافة ويزيد المشقة .

لذلك سمَّى الله طريقه الموصِّل إلى جنته ﴿الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦)﴾ [الفاتحة] وفى موضع آخر قال ﴿سَوَاءَ السَّبِيلِ (١٠٨)﴾ [البقرة] يعنى : فى وسطه دون انحراف .

فإذا كانت الغاية بعيدة احتاجت منك للوصول إليها إلى الإسراع فى الحركة لتدرك ما تريد ، فما بالك بمن كانت غايته الجنة ؟ لا شكّ أنه يسرع إليها ولا يدخر فى سبيل الوصول إليها وُسْعاً .

لذلك نقول : لا ينبغى للمؤمن أنْ يكره الموت لأنه سيُوصِّله إلى غايته ، إنما يكرهه إنْ كان عمله غير صالح ، نعم يكره أنْ يلقى الله وهو على غير الصلاح . فعند ظهور النتيجة مثلاً ترى الطالب المجتهد يُسرع إليها ، لماذا ؟ لأنه مطمئن إليها ، أما الكسول فتراه بطيئاً غير مهتم .

لذلك ربنا تبارك وتعالى يُعلِّمنا : ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣)﴾ [آل عمران]

وقال فى وصف المؤمنين : ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ (٩٠)﴾ [الأنبياء] والمعنى : إياك أنْ تشغلك دنياك ، أو تقيد حركتك إلى الآخرة ، بل سارع اجْرِ فى اتجاهها ، لأنك لا تعرف كم تقطع من الطريق قبل أنْ يدركك الموت .

ومن عدالته سبحانه مع عبده أنْ أخذ لنفسه عمر العبد طولاً ، لكن ترك له بُعدين آخرين هما العرض والعمق ، كيف ؟ قالوا : عمرك من حيث الزمن طولاً لا يعلمه إلا الله ، ولا يملك نهايته إلا الله وحده ، لكن ترك لك أنْ تمد فى العرض كما شئتَ ، فيمكنك أنْ تستثمر اللحظة التى تعيشها وتُوسِّع دائرة الخير فيها ، وبذلك يكون العرضُ أكبر من الطول فليستْ العبرةُ بطول العمر ، ولكن بقدر العمل الصالح فيه .

فمن الناس مَنْ يعمل فى العمر القصير أعمالاً جليلة لا يعملها صاحب العمر الطويل ، لذلك لما وصف الله لنا الجنة قال :

﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا[1] السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣) ﴾ [آل عمران]

فذكر العرض ، وإذا كان عرضها السموات والأرض ، فما بالك بطولها ؟

ثم أعطاك بُعداً آخر هو العمق ، والعمق فى العمر يكون للإنسان بعد موته وانقطاع عمله فى الدنيا ، وذلك بأن يبقى أثر خيره من بعده ممتداً فى عمق الزمان .

والحق سبحانه حين يأمرنا بالسير على الصراط المستقيم ، وحين يأمرنا بالمسارعة فى الخيرات إنما يريد لنا أيسرَ السُّبل التى تُوصِّلنا إلى أشرف الغايات بأقلِّ مجهود ، ومعلوم عند علماء الهندسة أن الخطَّ المستقيم هو أقربُ طريق وأقصر مسافة بين نقطتين .

فالله لا يريد منا حركات طويلة بلا جدوى ، وفى نفس الوقت

---

(١) أخرج البزار عن أبى هريرة رفعه قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : أرأيت قوله تعالى : ﴿ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ .. (١٣٣) ﴾ [آل عمران] فأين النار ؟ قال : أرأيت الليل إذا جاء لبس كل شىء فأين النهار ؟ قال : حيث شاء الله . قال : وكذلك النار تكون حيث شاء الله ..

قال ابن كثير فى تفسيره (١/٤٠٤) : « وهذا يحتمل معنيين :

أحدهما : أنه لا يلزم من عدم مشاهدتنا الليل إذا جاء النهار أن لا يكون فى مكان وإن كنا لا نعلمه ، وكذلك النار تكون حيث شاء الله وهذا أظهر .

الثانى : أن النهار إذا تغشَّى وجه العالم من هذا الجانب فإن الليل يكون من الجانب الآخر فكذلك الجنة فى أعلى العليين فوق السماوات تحت العرش وعرضها كما قال الله ، والنار فى أسفل سافلين فلا تنافى بين كونها كعرض السماوات والأرض وبين وجود النار .

يأمرنا أن نسارع ليظل لدينا النشاط اللازم للوصول . لذلك قال تعالى فى أول سورة الكهف : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا ① قَيِّمًا .. ②﴾ [الكهف]

والاستقامة التى يريدها الله لنا لها أركان بيَّنها النبى ﷺ فى قوله : « بُنِى الإسلام على خمس : شهادة ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت من استطاع إليه سبيلاً »(١)

وإياك أن تظن أن الدين فى هذه الأركان الخمسة فحسب ، لا ، هذه هى القواعد والأُسُس التى يقوم عليها بناء الدين ، أما الدين تفصيلاً فيتغلغل فى كل حركة من حركات الحياة .

وهذه المسألة واضحة فى الحديث الشريف : « الإيمان بضع وستون شعبة أو بضع وسبعون شعبة ، أعلاها قَوْل لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان »(٢)

فالأركان ليست هى كلّ الإسلام بل هى أسسه وقواعده ، فالشهادتان إقرار لله تعالى بالألوهية ، وإذعانٌ له سبحانه بالطاعة ، وتصديق برسوله ﷺ ، وفى الصلاة التى هى كل يوم خمس مرات إعلانٌ للولاء الدائم لله تعالى .

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٨) ومسلم فى صحيحه (١٦) من حديث ابن عمر رضى الله عنهما قال قال رسول الله : « بنى الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والحج وصوم رمضان » .

(٢) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى في صحيحه (٩) ومسلم في صحيحه (٣٥) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

وفى الزكـاة تهذيبٌ للنـفس وتعويدٌ لهـا على العطاء والمـشاركـة والنظر إلى الفقير ، فـقير الإعاقة عن الحركة لا فقـير الاحتراف ، فى الزكـاة تكافلٌ فأنت اليـوم قوىٌّ قـادر على العطاء ، فـمَنْ يدريك لعلَّك تصيـر إلى الضعف وعدم القـدرة فتجـد فى المجتـمع مَنْ يمد لك يد العون .

ثم إنَّ الزكاةَ تنـزع من المجتـمع فتـيل الحقد والحـسد والغـيرة ، وكـيف يحسـد الفقـيرُ الـغنى أو يحقـد عليه وهـو يعطيه ثمـرة عرقـه ويشركه فى ماله ؟ إذن : فى الزكاة تأمينٌ للفرد المؤمن أعظمَ تأمين .

لذلك قلنا فى المجتمع الإيمانى : إنك لا تعمل بقدر حاجتك ، إنما تعمل بقدر طاقتك ، فـما احتجتَ إليه فخُـذْه ، وما لم تحتجْ إليه وزاد عنك فتـصدَّق به على غيـر القادر ، أنت تتصـدَّق وأنت تذهب بنفسك إلى باب الفقـير لتعطيه لتـحفظ لأخيك ماءَ وجـهه ، وتُعفيـه من مذلّة السؤال ولتنال أنت هذه الدرجة .

ثم يأتى الحج ليضيـفَ إلى هذه المعانى معنىً إيمانيـاً آخر ، فربُّكَ الذى خلقك وأعطاك وأمدَّك ومنحك القدرة والاسـتطاعة ألاَ يستحق منك أنْ تذهبَ إليه فى بيته الذى اختاره لنفسه ، ولو مرة واحدة فى العمر ؟

إنها زيارة ليست بإرادة الضيف وإنما بدعوة من المضيف ، لذلك حيـن تذهب إلى بيت ربك فى هذه الفريضـة فسـوف تُعرِّض نفـسك لعطاء آخر ما له حدود ، ثم فى الحـج منافع أخرى دينية ودنيوية لا تَخْفى على المتأمل .

أما الصـوم فيـعطيك بُعداً آخـر للطاعة ، فـأنت قبل الفـجر تأكل وتشرب ، وبعـد الفجر يحـرمُ عليك أنْ تأكل وتشرب ، فبـين الحلال والحرام هنا لـحظة . وأنت حين تصوم تصـوم عن شىء أحلّه الله لك

قبل الصيام ، فأنت حين تصوم تصوم عن شىء حلال أصلاً ؛ لأن الإسلام حرَّم عليك أشياء تحريماً مطلقاً كالخمر مثلاً .

فنحن والحمد لله لا نشربها ولا نفكر أبداً فى شربها ، حتى صار ذلك طبعاً وعادة ، فأراد سبحانه أنْ يُخْرجنا من إلْف هذه العادة ، وأنْ يديم على عبده حلاوة التكليف من الله فى شىء حلال الآن ، وبعد لحظة واحدة يكون حراماً ، فأخرجنا الحق سبحانه من إلف العادة إلى شرف العبادة .

أما الركن الدائم الذى لا يسقط عن المؤمن إلا فى حالة فقدان العقل فهو الصلاة ، فهى خمسُ صلوات فى اليوم والليلة يُراد بها دوام الحضور فى معية الله ، فهى تختلف فى دوامها عن باقى الفروض ، فالزكاة مرتبطة بالمحصول أو بدورة المال السنوية ، والصوم مرتبط بشهر واحد فى السنة هو رمضان ، والحج مرة واحدة فى العمر .

وكَوْن الصلاة خمس مرات فى اليوم والليلة رحمةٌ من الله بعباده ، فأنت صنعةُ الله ويستدعيك إلى حضرته تعالى خمس مرات ليُصلح ما فسد فيك ، وما بالك بصنعة تُعرَضُ على صانعها خمس مرات كل يوم وليلة ؟

وإذا كان المهندس مثلاً يصلح الآلة بقطعة سلك أو قطعة غيار ، فكذلك ربك يصلحك ، ولكن المهندس مادة يصلح بالمادة ، والله غيب يُصلحك بالغيب ، فلا تتعب نفسك فى بحث هذه المسألة ودَعْها لله ، فقط عليك أنْ تعرض نفسك عليه سبحانه فى الخمس صلوات فى أوقاتها ، وأنْ تُتمَّ لها ركوعها وسجودها وشروطها .

ولا شكَّ أنك ستلحظ هذا الإصلاح فى نفسك ، وفى روحك ، وفى مادتك ، وفى مالك ، وفى أهلك ، ستحس أن للصلاة أثراً فى حياتك

وراحة فى بدنك ، لذلك كان سيدنا رسول الله يقول لبلال : « أرحنا بها يا بلال »[(١)] نعم أرحنا بها ، لا أرحنا منها .

ولأهمية الصلاة فى حياة المسلم جعلها رسول الله ﷺ أُمَّ الاستقامة وعنواناً لها ، واقرأ إن شئت قوله تعالى : ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ .. (٤٥)﴾ [العنكبوت]

وفى الحديث الشريف : « أول ما يُحاسب العبدُ عليه يوم القيامة الصلاة ، فإنْ صلُحت صلُح سائر عمله ، وإنْ فسدتْ فسد سائر عمله »[(٢)]

لذلك كان للصلاة هذه المنزلة الخاصة ، فأنت ترى الفقير لا زكاةَ عليه ولا حج ، وترى المريض لا يصوم ، على خلاف الصلاة التى تلازم المسلم فى صحته ومرضه ، فى غناه وفى فقره ، فى سفره وفى إقامته ، فقط الجنون هو الذى يرفع عن صاحبه الصلاة .

إذن : فهى الركن الملازم لك ، ومن هنا كان للصلاة خصوصية فى فرضيتها ، فكل العبادات فُرِضَتْ بالوحى إلا الصلاة فقد فُرضتْ على سيدنا رسول الله بالمباشرة فى رحلة الإسراء والمعراج ، وهذا يدل على

---

(١) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل فى مسنده (٥/ ٣٦٤) وأبو داود فى سننه (٤٩٨٥) عن رجل من الصحابة.

(٢) هذا الحديث ورد بروايات كثيرة وبألفاظ كثيرة منها :

- عن أبى هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة من عمله صلاته ، فإن صلحت فقد أفلح وأنجح ، وإن فسدت فقد خاب وخسر » الترمذى فى سننه (٣٧٨) وقال : حديث حسن غريب . والنسائى فى سننه (٤٦١) .

- وعن أبى هريرة أيضاً : « إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة صلاته ، فإن وجدت تامة كتبت تامة ، وإن كان انتقص منها شىء قال : انظروا هل تجدون له من تطوع يكمل ما ضيع من فريضة من تطوعه . ثم سائر الأعمال تجرى على حسب ذلك » . أخرجه النسائى حديث (٤٦٢ ، ٤٦٣) ، وابن ماجه فى سننه (١٤١٥) ، وأحمد فى مسنده (٩١٣٠) .

- أما اللفظ الذى أورده الشيخ فقد أخرجه الطبرانى فى المعجم الأوسط حديث (١٩٢٩) عن أنس بن مالك . فى سنده القاسم بن عثمان الراوى عن أنس . قال البخارى : له أحاديث لا يتابع عليها . وفيه إسماعيل بن عيسى ضعفه الأزدى . وهى طريق ضعيفة كما قال الألبانى ، ولكنه قال بعد أن سرد جميع طرق الحديث : الحديث صحيح بمجموع طرقه .

أهميتها بين باقى العبادات .

وسبق أنْ أوضحنا أن الرئيس فى العمل قد يرسل لك ورقة أو يُحدِّثك فى التليفون فى أمر من الأمور ، لكن إنْ كان الأمر ذا أهمية وخصوصية استدعاك إلى مكتبه ليكلمك مباشرة ، وهكذا كانت الصلاة فقد أخذتْ قيمتها من هذه المباشرة حين فرضيتها .

ثم إن الصلاةَ ركنٌ يجمع باقى الأركان ففيها الشهادتان ، والشهادة التى هى قمة الإيمان والعقيدة يكفى أنْ يقولها المسلم ولو مرة واحدة ، أما فى الصلاة فيقولها عدة مرات ، وفيها صيام أبلغ من صيام رمضان فأنت فى رمضان تصوم عن الطعام والشراب والمفطرات ، أما فى الصلاة فأنت تصوم عن أكثر من ذلك ، تصوم عن الحركة وتصوم عن الكلام .

وفيها حج لأنك لا تصلى إلا إذا اتجهتَ بوجهك ناحية بيت الله الحرام وتمثَّلته أمامك ، كأنك تنظر إليه . وفى الصلاة زكاة لأنك تُضحِّى فى سبيلها بما هو أغلى من المال وهو الوقت .

لذلك بيَّن سيدنا رسول الله ﷺ أن الفرق بين المؤمن والكافر الصلاة ، فقال : « العهد الذى بيننا وبينهم الصلاة ، فمَنْ تركها فقد كفر »[1] فإذا دعاك ربك إلى الصلاة فلم تُجبْ فأنت عَاصٍ ، أرأيتَ رئيسك فى العمل إذا دعاك إلى مكتبه فلم تُلَبِّ ، ماذا يحدث ؟

ومن عظمة هذه الفريضة أنها لقاءٌ مع الله ، لك أنت أيها العبد الحرية التامة فيه وتملك كل عناصره ، فأنت تُحدد اللقاء مكانه وزمانه ، وماذا تقول فيه ، ومتى تُنهى هذا اللقاء ، فقط تسمع النداء فتذهب وتتوضأ ، ترفع يديك إلى السماء : الله أكبر . أنت إذن فى حضرة ربك ، وفى رحاب خالقك ، أنت معه

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٣٤٦/٥) ، وابن ماجه فى سننه (١٠٧٩) كتاب إقامة الصلاة ، والترمذى فى سننه (٢٦٢١) من حديث أبى موسى الأشعرى . وقال : هذا حديث حسن صحيح غريب .

على (خط مباشر) ، ليس بينك وبينه حاجب ولا دونه حُرّاس ولا واسطة .

لذلك يقول بعض الصالحين :

حَسْبُ نَفْسِى عِـزّاً بأنِّى عَبْـدُ ... يَحْتَفِـى بِى بلاَ مَواعيدَ رَبُّ
هُـوَ فِى قُدْسِـهِ الأَعَزِّ ولكِـنْ ... أنا ألْقَـى متَى وأيْـنَ أُحِـبُّ

فربُّك لا ينتظرك أنْ تأتيه ، إنما يدعـوك لزيارته ، يُقبل عليك قبل أنْ تُقبل عليـه ، ألم يقُلْ فى الحديث القدسى الشـريف : « مَنْ ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، ومَنْ ذكرنى فى ملأ ذكرتُه فى ملأ خير منهم ، ومَنْ أتانى يمشى أتيتُه هرولةً ، ومَنْ تقرَّب منى ذراعاً تقربت منه باعاً »[1] .

إذن : فالـزمام فى يدك أنت ، ونعْم الربُّ رَبٌّ يعـامل عبـاده هذه المعاملة ، ويُحسن إليهم كلَّ هذا الإحسان .

ومن كـرمـه سبـحانـه أنْ يُثيبَ العـبد علـى كل حـركة خـيـر فى دنيـاه ، لأن هذه الحـركـةَ مـطلوبةٌ للإيمـان ؛ لذلك يـقـول تعـالى فى سورة (الجمعة) : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ﴿٩﴾ ﴾ [الجمعة]

وبعد الصلاة قال : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِى الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ ﴿١٠﴾ ﴾ [الجمعة] فأخذك من عمل وأعادك إلى عمل ، لأن العـمل فى ذاته طاعة ، والمـؤمن لا بدَّ أنْ يسـهم فى حركـة الحيـاة مساهمةً إيجابية بنَّاءة .

الإسلام إذن لا يقتـصر على هذه الأركان الخمس ، بـل يمتد إلى

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٧٤٠٥ ، ٧٥٠٥ ، ٧٥٣٧) وأحمد فى مسنده (٢ / ٢٥١ ، ٣٥٤ ، ٤٠٥) والترمذى فى سننه (٣٦٠٣) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه . قال الترمذى : حديث حسن صحيح .

كل حركة من حركات الحياة ، فأنت تؤسس بيتاً مثلاً وتقيمه على أعمدة ، لكن بعد ذلك تُقسمه إلى : حجرة نوم ، وحجرة للسفرة ، وحجرة للصالون ، وحجرة للمطبخ وهكذا .

والإسلام يهدف إلى سلامة حركة الحياة وخُلوها من الصراع ، ومن التصادم ، يريد أن تتساند حركة الجماعة لا تتعاند ، لا يريد واحداً يبنى والآخر يهدم ، بل كلنا يبنى ولا أحدَ يهدم ، فالحق سبحانه أعطانا هذا الكون الذى نعيش فيه وهو على حالة الصلاح وعلى هيئة الجمال والتناسق ، وأوصانا أنْ نحافظ عليه ، وأن نزيد فى صلاحه ، وعلى الأقل نتركه على صلاحه ولا نفسده .

وعلَّمنا حين نصلح أنْ نصلح بحركة محسوبة العواقب ، وألاَّ ندخل فى شىء لا نعرف الخروج منه ، وألاَّ تغرَّنا ظواهر الأشياء ، هذه صفات العقلاء الذين يتصرفون فى الأمور بحكمة ، ويزنون الخير والشر فيقبلون على أسباب الخير وينصرفون عن أسباب الشر .

ونضرب مثلاً فى عصرنا الحالى بدودة القطن التى كانت تعبث بغالب ثروة مصر من هذا المحصول الهام ، إلى أن اخترع العلماءُ مبيداً حشرياً لها سموه الـ (D.D.T) فتسابق الناسُ إلى استخدامه ، وظنوا أنه سيقضى على الدودة بلا رجعة ، وأن المشكلة قد انتهت ، وبعد عدة سنوات أخذت الدودة حصانةً من هذا السُّم ، وأصبحت كما نقول (كيفة) (D.D.T) وبقيتْ الدودة كما هى ، وبقيتْ معها آثار جانبية أصابت الماء والزرع والتربة ولوَّثتْ كل شىء فى حياتنا ، وها نحن الآن نعانى أشدَّ المعاناة بسبب المبيدات الحشرية .

لذلك الحق سبحانه وتعالى يحذرنا من رعونة الابتكار ، ومن الاغترار بالخير الظاهرى دون حساب للعواقب ، فإياك أنْ تدخل فى

أمر يُعيـيك الخروج منه ، تأمل قول الله تعالى وهو يمـتنُّ على عباده ببعض نعمه عليهم : ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ (٨)﴾ [النحل]

نعم ، كنا لا نعرف من وسائل النقل والركوب إلا الخيل والبغال والحمير ، ثم اخترع الإنسـانُ بعد ذلك ما لم يكُنْ يعلمه من السيارات والطائرات والصواريخ ، وهذه الوسائل المستخدمة لا شكَّ أنها خدمتْ الإنسان ويسَّرَتْ عليه، لكن مع ذلك كان لها أضرار ومعاطب لم تكُنْ فى حُسْبان مَن اخترعها .

عندمـا ظهـرت السيـارات كنا نذهب بـها إلى دمـيـاط ، ولم تكُنْ الطرق مرصوفـة كما هى الآن ، فكان السائق ينطلق بهـا بسرعة على الطريق الترابى فتـثير الغبار خلفها بشـدة ، غبار يؤذى الناس ويؤذى المزروعات ، فـضلاً عن عادم الوقود ومـا يُسبِّبه من أضـرار للجهاز التنفسى .

ثم كـانت تُحـدث كـثيـراً من التـصـادمـات ، وينتج عنهـا قـتلى ومصـابون تترك فى المجـتمع مآسىَ ، وإذا انتـهى (البنزين) منها تقف مكانها لا تتحرك ؟

فإذا مـا قارنتَ هذه الوسيلة بالـوسائل الطبيـعية التى خلقـها الله وجدنا خَلْق الله أفـضل وأسْلم ، فالجمل أو الحـمار يوصلك وينقل لك متاعك دون أنْ يُسبب لك هذه المعاطب ، ففضلاته سماد للتربة ، وإذا جماع لا يتوقف إنمـا يكمل بك المـشوار ، ثم هل رأيتم مـثلاً جـملين اصطدم أحدهما بالآخر .

إذن : علينا قبل أنْ نخترع شيئاً أن نحسب عواقبه ، وغلبة الخير فيه على الشر ، والنفع على الضرر .

ثم يُبيِّن الحق سبحانه جزاء هؤلاء المؤمنين الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ، ما جزاؤهم ؟ ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا (٣٠)﴾ [فصلت] نعم ملائكة الله فى السماء هذه المخلوقات النورانية التى لا عملَ لها إلا تسبيح الله ، فلا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يُؤمرون ، فحين تنزل بالمؤمن شدةٌ أو يصيبه مكروه تتنزَّل عليه هذه الملائكة تُثبِّته فيعود إلى ما يجب أنْ يعودَ إليه من الصبر . فيقول : لا كربَ وأنت رب ، أنا لى رَبٌّ قوىٌّ قادر سيُفرِّج هَمِّى ويُزيل كَرْبى .

وهذا حال المؤمن حين يحزبه أمر وتضيق به أسبابه يلجأ إلى المسبِّب سبحانه ، فيأتيه الإلهام من الله أنِ اصبر واحتسب ، وربما كانت المصيبة امتحاناً من الله ، أو كانت تكفيراً لذنب بدر منى فعاقبنى الله به فى الدنيا وعافانى منه فى الآخرة ، وهذه علامة حب الله للعبد أنْ يُعجِّل له العقوبة فى الدنيا ، ويغفرها له فى الآخرة .

لذلك كان الكفار يفرحون حين تصيب المؤمنين مصيبة ، فعلَّم اللهُ نبيه ﷺ أنْ يقول : ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا (٥١)﴾ [التوبة] فأنتم تفرحون إنْ نزلتْ بنا مصيبة ، ونحن كذلك نفرح بها لأنها من الله ، والمصيبة للمؤمن إما يُكفِّر اللهُ بها من خطاياه ، وإما يرفعه بقدرها درجات .

وعجيبٌ أن نرى البعض إذا أصابتْه مصيبة أو نزل به ما يكره لا يعالج أسبابها ، ولا يفكر فى تفاديها بعد ذلك ، إنما يلجأ إلى نسيانها ويذهب إلى شُرْب المسكر الذى يساعده على النسيان .

وهذا خطأ فادح ، فالنسيان لا يحلُّ مشكلة ، إنما يحلُّها التفكير فى أسبابها ومعالجة هذه الأسباب ، فالمخدِّرات والمسْكرات تذهب

بعقلك وتُفسده فى وقت أنت فى أشدِّ الحاجة إليه ، حين يمرُّ الإنسانُ منا بمشكلة يحتاج إلى مزيد فكر ، فكيف تذهب بعقلك فى وقت أنت فى أمسِّ الحاجة إليه ؟ ألاَ ترى أنك تستعينُ بغيرك وتستشيره فى حَلِّ مشاكلك حينما تضيقُ بك الأسبابُ ؟

إذن : انظر إلى المصيبة ، ما سببها إنْ كان لك دَخْلٌ فيه ، وهى نتيجة تصرُّف خاطئ منك فأنت الملُوم ، وعليك أنْ تُعدِّل من تصرفاتك وتعمل حساباً للعواقب ، وهذه أول خطوة فى طريق الإصلاح ، كالطالب يذهب لمعرفة النتيجة آخر العام فيقولون له : أنت راسب فتعيده الصدمةُ إلى صوابه ، ويصيح بأعلى صوته هذه الصيحة العقلية الواعية : أنا السبب ، أنا المهمل ، أنا أستحق .

أما إنْ كانت المصيبة لا دخْلَ لك فيها كالطالب الذى ذاكر دروسه واجتهد ، لكن جاءه وقت الامتحان دَوار أو أصابه نسيان فلم يُوفّق ، فهذا قدر الله لا بدَّ أنَّ له حكمة ، فهو شَرٌّ فى طياته خير ، هو ابتلاء من الله ينبغى أنْ نرضى به ، وأنْ نتلمس له حكمة .

فنحن دائماً نحوم حولها ، وصلنا أو لم نصلْ ، قُلْ ربما كنت مغروراً فأراد الله أنْ يكسرَ فىَّ عُنْفوانَ الغرور ، ربما لو وفقت كنتُ سأحسد ، أو ربما لم آتِ بالمجموع المطلوب الذى كنتُ أرجوه ، وهذه كلها نماذج يُؤيِّدها واقع الحياة .

والفعل لا يُؤخذ لذاته إنما بمصاحبة الفاعل ، مَنْ هو ؟ قلنا : لو دخل عليك ولدُك يسيل دمه لا يشغلك الدمُ بقدر ما يشغلك مَن الفاعل ؟ لذلك تسأله أولاً : مَنْ فعل بك هذا ؟ فإنْ قال لك عَمِّى مثلاً ، تهدأ ثورتُك ، وتقول له : لا بدَّ أنك فعلتَ شيئاً يستحق العقاب فعاقبك . أما إنْ قال لك :

فلان ، تغضب وتقيم الدنيا ولا تقعدها .

إذن : نقول خُذ الفعلَ بمصاحبة فاعله ، فإنْ كان من الله فارْضَ وابحث عن حكمته ، ولا بدَّ أنك ستتوصل إليها وستحمد الله . كُنْ أمام الشدائد كالضرس ثابتاً فى مكانه يمضغ لا يعنيه حُلواً ولا مُراً ، فإنْ كان البلاء فى نفسه يتأدب ، وإنْ كان فى غيره يتعلم ، فلا بدَّ أن لله حكمة .

سمعتم قصة الرجل الصينى الذى كان يتأمل الأحداث ويرى الحكمة فيها ، قالوا : كان هذا الرجل مُحباً لتربية الخيول فكانت عنده مزرعة خيول ، وفى يوم شرد منها حصان من أجود الأنواع ، كانوا يسمونه (الطلوقة) وضَل فى المزارع ، فجاءه الناس يُواسونه . فقال لهم : وما أدراكم لعل فى هذا الخير ، ويكفى أننى لستُ سبباً فى فَقْد هذا الحصان ؟

وبعد أيام جاء الحصان يصطحب سِرْباً من الخيول حتى دخل المزرعة ، فجاءه بعض الجيران يُهنئونه ، فقال لهم : وما أدراكم أن فى هذا نعمة ؟ ولم يَمْضِ وقت طويل حتى ذهب ابنه يركب هذا الحصان ، وكان مُغرماً به فأوقعه الحصان فكسر رِجْله ، فجاءه الناس يُواسونه فقال لهم : لعل فى ذلك خيراً ، وفعلاً جاء المسئول عن التجنيد فوجد الشاب قد كُسرتْ رجله فتركه .

إذن : علينا أنْ نفهم أن لله فى أقداره حكَماً ، عرفها مَنْ عرفها ، وجهلها مَنْ جهلها . لذلك نقول : إياك أنْ تأخذ شيئاً بالإكراه لأنك لا تدرى أن الخير لك ، وتذكَّر دائماً : ﴿وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا (٢١٦)﴾ [البقرة] ﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا (٢١٦)﴾ [البقرة] لذلك يُعلمنا النبى ﷺ

هذا الدرس فيقول : « اطلبوا الأمور بعزة الأنفس ، فإنها تجرى بمقادير »[(١)] .

ويقول أحد العارفين فى مناجاته لله : أحمدك على كُلِّ قضائك وجميل قدرك حمدَ الرضا بحكمك ، لليقين بحكمتك .

وهكذا يريح الإنسان نفسه ويريح الدنيا من حوله ، وهذه كلها من تنزُّلات الملائكة فى قوله سبحانه ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا ﴿٣٠﴾﴾ [فصلت]

كذلك من تنزُّلات الملائكة أنها تنزل على المؤمن ساعةَ يحلُّ الموتُ بساحته فيخاف ويحزن ، لأنه سيترك نعيم الدنيا ، فتتنزل عليه الملائكة تُطمئنه وتُبشِّره بنعيم آخر دائم وباقٍ فى الآخرة ، لا يزول كما يزول نعيم الدنيا .

﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا ﴿٣٠﴾﴾ [فصلت] يعنى : مما أنتم مُقبلون عليه من أمور الآخرة ، حتى إنْ قصُرَتْ بكم أعمالكم فأنتم مُقبلون على ربٍّ غفور رحيم ، فلا تخافوا ولا تحزنوا ﴿وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [فصلت]

قلنا : البشارةُ الإخبارُ بخير وبما يسرُّ قبل أوانه ، ومَن الذى يُبشِّرك بالجنة ؟ والله لو إنسانٌ مثلك لكنتَ تشُكّ فى قدرته على الوفاء ، لكن إنْ كان الذى يُبشِّرك هو الله فثِقْ بما بُشِّرت به ، فالذى

---

(١) ذكره العجلونى فى كشف الخفاء (حديث رقم ٣٩٩) بلفظ : « اطلبوا الحوائج بعزة الأنفس فإن الأمور تجرى بمقادير » وقال : رواه تمام وابن عساكر بسند ضعيف عن عبد الله بن بسر ، لكن يقويه ما رواه الطبرانى وأبو نعيم من حديث أبى أمامة أن روح القدس نفث فى روعى « لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب » ورواه البزار عن حذيفة ، وفى الباب عن جابر كذا فى تخريج أحاديث مسند الفردوس للحافظ ابن حجر العسقلانى .

بشَّرك بالجنة هو وحده القادر على الوفاء ، حيث لا قوةَ تحولُ بينه وبين الوفاء بالبُشْرى .

﴿ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ ﴾

يعنى : أنصاركم المقربين منكم والمؤيدين لكم فى الدنيا وفى الآخرة ، قالوا : لأن الملائكة جُبلَتْ على الطاعة ؛ لذلك عند خَلْق آدم قالوا : ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [البقرة] ردَّ الله عليهم ﴿ قَالَ إِنِّى أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [البقرة]

يعنى : خلقتُ الملائكة مجبولين على الطاعة ﴿ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [التحريم] والذى أريده طائعاً لا يملك أنْ يعصى ، لكني أريد خَلْقاً آخر لا يأتُون إلىَّ بالإكراه ، إنما يأتوننى طواعيةً ويُقبلون علىَّ محبة وهم يملكون أنْ يعصوا ، يأتون إلىَّ بالاختيار لا بالقهر والإجبار .

وسبق أن ضربنا لذلك مثلاً قلنا : هَبْ أنَّ لك عبدين تربط أحدهما وتشدُّه إليك بسلسلة ، والآخر حر طليق ، وتنادى عليهما فيسرعان إليك . أيهما يكون أطوَع لك من الآخر ؟

فقوله : ﴿ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ ﴿٣١﴾ ﴾ [فصلت] يعنى : نأتيكم فى الشدة فننصركم ، وفى البلاء فنُصبِّركم .

لذلك ورد فى الحديث الشريف أن واحداً[١] من صحابة رسول الله ﷺ جلس يقرأ القرآن وبجواره خَيْلٌ فسمع لها صياحاً وهمهمة ، ورأى منها حركة غريبة ، ورأى فوق رأسه نوراً ، فذهب إلى سيدنا رسول الله وحكى له ذلك ، فقال رسول الله ﷺ : « هؤلاء هم الملائكة ، جاءوا لسماع الذكر ، والله لو صبرْتَ لصافحوك »[٢] .

هذا من ولاية الملائكة لنا فى الدنيا ، أما فى الآخرة فهم أولياء لأنهم سيكونون مندوبين عن الله فى البعث وفى الحساب ، وفى استقبال أهل الجنة بالسلام كما حكى الحق سبحانه : ﴿ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ (٧٣) ﴾ [الزمر]

وقال : ﴿ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (٢٤) ﴾ [الرعد]

هذا سلام الملائكة ، ثم يُسلِّم الله عليهم كذلك ، كما فى سورة (يس) : ﴿ سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ (٥٨) ﴾ [يس]

---

(١) هو أسيد بن حضير . وهو أحد نقباء الأنصار ، قال عنه رسول الله ﷺ : نعم الرجل أسيد ابن حضير ، وعن أنس أن أسيداً وعباد بن بشر كانا عند النبى فى ليلة مظلمة فخرجا من عنده فأضاءت عصا أحدهما فكان يمشيان بضوئهما فلما افترقا أضاءت عصا هذا وعصا هذا . (سير أعلام النبلاء للذهبى ١/ ٢٩٩) .

(٢) قال ابن حضير : بينما هو يقرأ من الليل سورة البقرة وفرسه مربوطة عنده إذ جالت الفرس فسكت فسكتت فقرأ فجالت الفرس فسكت وسكتت الفرس ، ثم قرأ فجالت الفرس فانصرف .. فلما أصبح حدَّث النبى فقال : اقرأ يا بن حضير .. فرفعتُ رأسى إلى السماء فإذا مثل الظلة فيها أمثال المصابيح فخرجت حتى لا أراها . قال رسول الله : وما تدرى ما ذاك ؟ قال : لا . قال : تلك الملائكة دنت لصوتك ولو قرأت لأصبحتْ ينظر الناس إليها لا تتوارى منهم . [أخرجه البخارى فى صحيحه (باب نزول السكينة والملائكة) ومسلم فى صحيحه (١٣٢٧) من حديث أبى سعيد الخدرى] .

﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (٣١) ﴾ [فصلت]

قالوا : ما تطلبه النفس من النعيم تجده أمامك بمجرد أن يخطر على بالك ، فأىُّ رفاهية هذه ؟ لقد ذهبنا إلى دول كثيرة ودخلنا أكبر الفنادق هناك ، فكان قصارى ما وصلوا إليه أنك تضغط على زر معين يعطيك قهوة مثلاً ، وعلى زر آخر يعطيك شَايـاً ، فهل هناك أعظم مما أعدَّه الله لك فى الجنة ؟ مجرد أنْ يخطر ببالك الشىء تجده بين يديك ، ثم إن فيها من النعيم « ما لا عينٌ رأتْ ، ولا أذنٌ سمعتْ ، ولا خطر على قلب بشر »[1] .

لذلك لما أراد سبحانه أن يُصوِّر لنا الجنة لم يصفها صراحة ، إنما قال سبحانه : ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ (١٥) ﴾ [محمد] مثلها ، ليستْ هىَ ، لماذا ؟ قالوا : لأن ألفاظ اللغة توضع لمَعانٍ ومُسمَّيات ، ولا بُدَّ أنْ يُوجد المعنى أولاً ثم نضع له اللفظ الدالَّ عليه ، فالمعدوم ليس له لفظ يدل عليه ، (فالتليفزيون) مثلاً قبل أنْ يخترعوه ماذا كان اسمه ؟ لم يكُنْ له اسم ، كان معدوماً .

كذلك نعيم الجنة لا توجد فى اللغة ألفاظ تدل عليه الآن ، لأننا لا نعرفه ولا نعرف أسماء هذه الأشياء ، فهى أشياء لم تَرَهَا عينٌ ، ولم تسمعها أذن ، ولم تخطر على قلب بشر ، فمن أين الألفاظ الدَّالة عليها ؟

وقوله : ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا (٣١) ﴾ [فصلت] أى : فى الجنة ﴿ مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ (٣١) ﴾ [فصلت] المراد النفوس الإيمانية التى استقامت على طريق الله ، فليس فى الجنة محرَّم ، وليس فى الجنة مَنْ يشتهى

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٨٢٤) ، وأحمد فى مسنده (٢/٤٦٦) ، وأبو نعيم فى حلية الأولياء (٢/٢٦٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

المحرَّمات ، فالنفس تشتهى الحلال ، حتى محرَّمات الدنيا إنْ وُجدت فى الآخرة فهى شىء آخر نُزِعَ منه سببُ التحريم .

فالخمر فى الدنيا معروف أنها تُذهب العقلَ ، وأنه لا لذةَ فى شربها ، أمَّا خمر الآخرة فقال الله عنها : ﴿وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ (١٥)﴾ [محمد]

وأنت تشاهد فى (الأفلام) مثلاً مَنْ يشرب الخمر كيف يشربها ؟ يصبُّها فى فمه هكذا مرة واحدة ، لماذا ؟ لأن طعمها كريه يريد أنْ يُمرره من منطقة الذوق بسرعة ، أما الذى يشرب كوباً من عصير المانجو مثلاً تراه يرشفه رشفةً رشفةً نقول (يمزمز)[1] فيها ، لأن طعمها لذة ورائحتها لذة .

كذلك فى كل نعيم الجنة الذى له مثيل فى الدنيا تجد الحق سبحانه يُنقِّيه من الشوائب ويُخلِّصه من الأضرار التى نعرفها فى الدنيا ، تأمل قوله تعالى عن ماء الآخرة : ﴿وَأَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ (١٥)﴾ [محمد] يعنى : لا يتغير ولا يصيبه عَطَن كماء الدنيا ، وفى اللبن قال : ﴿وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ (١٥)﴾ [محمد] وقال عن العسل : ﴿وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى (١٥)﴾ [محمد]

إذن : لا تقُلْ : خمر كخمر الدنيا ، ولا ماء كماء الدنيا ، ولا لبن كاللبن الذى تشربه ، لا إنما هى نعيم من نوع آخر نقّاه الخالق سبحانه ، وصفّاه من شوائبه .

---

(١) أصلها اللغوى : التمزُّز أىْ شرب الشراب قليلاً قليلاً . ومزَّه : مصَّه . والمزمزة : التحريك الشديد . وقد مزمزه إذا حرَّكه وأقبل به وأدبر . [لسان العرب – مادة : مزز] .

﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (٣١) ﴾ [فصلت] يعنى : لكم فى الجنة كل ما تتمنونه ، وكل ما تطلبونه .

﴿ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ (٣٢) ﴾

النُّزُل هو المكان الذى أُعدَّ للضيف ينزل فيه ، ولا بدَّ أنْ يعد هذا المكان بحيث يجد فيه الضيفَ كل ما يريد ، فهو موطن الكرم ، لذلك نسمى الفندق نُزُل ، نعم نُزُل أعدَّه البشر للبشر ، لكن الجنةَ نُزُل أعدَّه ربُّ البشر وخالقهم ، أعدَّه لهم الغفور الرحيم بهم .

لذلك قلنا : إننا لما ذهبنا إلى (سان فرانسيسكو) وجدنا هناك فنادق على درجة عالية من الرقى وجودة الخدمة ، ورأيت الإعجاب بها فى أعين زملائى فأردتُ أنْ ألفتهم لفتةً إيمانية ، فقلت لهم : تعجبون مما ترونه ، انظروا إليه نظرةَ تأمل ، فهذا ما أعدَّه البشر للبشر ، فكيف بما أعدَّه الله ربُّ البشر للبشر ؟

وبهذه النظرة يُخرج المرء نفسه من دائرة الحقد أو الحسد أو الاعتراض ، فكلُّ نعيم تراه ، وكل جمال تقع عليه عينك ينبغى أنْ يُذكِّرك بنعيم الآخرة .

كثيراً عندما نرى مثلاً عمارة عالية أو ڤيلا جميلة نقول : من أين كل هذه الأموال ؟ ويساورنا شىء من الحقد على صاحبها ، أو نحسده على فضل الله الذى اختصَّه به ، لكن لو نظرنا إلى الموضوع من ناحية أخرى لوجدنا أن الله تعالى سخَّر هذا الرجل وسخَّر ماله لخدمة المجتمع كله ، فقد أتعب نفسه فى جمع هذه الأموال ثم أخرجها ليوزعها على العمال والصُّناع وأصحاب الحرف من طوائف

المجتمع المختلفة .

فهو - إذن - يُسهم فى بناء المجتمع ، ويُسهم فى حركته ؛ لذلك علَّمنا ربنا تبارك وتعالى حين نرى شيئاً يعجبنا أن نقول : ﴿مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ (٣٩)﴾ [الكهف]

يعنى : هذا عطاء الله وفضله ، يعطيه مَنْ يشاء من عباده ، وحين تُسَرُّ بالنعمة عند غيرك ، وتحبها له تحبك النعمة ، لأن النعمة أعشقُ للمنعَم عليه من عِشْقه لها ، أما إنْ كرهتَ النعمة عند الناس كرهتْكَ النعمة ، وقالت له : والله لا تحضرك نعمة كرهتَها عند غيرك .

ثم إن النعمة قدر ، وعلى المؤمن أنْ يرضى بقدر الله ، ولا يعترض عليه ، وعليه أنْ يعلم أن لكل قدر حكمة إيمانية .

وقوله : ﴿نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ (٣٢)﴾ [فصلت] دل على أن هذا النُّزل وهذا النعيم لا يناله العبد بعمله ، إنما يناله بمغفرة الله ورحمته ، وهذا يُفسِّر لنا الحديث النبوى الشريف : « لا يدخل أحد الجنة بعمله . قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمدنى[1] الله برحمته »[2] .

وقد تُستعمل كلمة النُّزل على سبيل الاستهزاء ، فالنزُل قد يكون فى أحد الفنادق ، وقد يكون فى السجن ، يقول تعالى فى سورة

---

(١) تغمده الله برحمته : أدخله فيها وغمره بها . قال أبو عبيد : قوله « يتغمدنى » : يُلبسنى ويتغشّانى ويسترنى . [لسان العرب - مادة : غمد] .

(٢) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٤٦٣) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٨١٦) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

الكهف : ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلاً (١٠٢)﴾ [الكهف]

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾

بعد أنْ تكلم الحق سبحانه عن الكمال الذاتى للمؤمن الذى استكمل الإيمان وأعلنها : ربى الله ، ثم استقام على طريقة ، يقول بعد أن استقبل المؤمنُ الإيمانَ وباشرتْ حلاوتُه قلبه يفيض هذا الإيمان منه إلى غيره ، وهذه مهمة من مهمات المؤمن أنْ ينقلَ الإيمان ، وأنْ ينقلَ الخير إلى الغير .

المؤمن يحب لأخيه ما يحب لنفسه[1] ، ويحرص على إصلاح المجتمع من حوله ، المؤمن لا يقف عند ذاته ، ولا يكون أبداً أنانياً .

والحق سبحانه يمدح منزلة الدعوة إلى الله ، ويجعلها أحسن ما يقوله الإنسان : ﴿وَمَنْ[2] أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ (٣٣)﴾ [فصلت]

---

(١) حديث متفق عليه ، أخرجه البخارى فى صحيحه (١٣) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٤٥) كتاب الإيمان عن أنس بن مالك رضى الله عنه بلفظ : « والذى نفسى بيده ، لا يؤمن عبد حتى يحب لجاره - أو قال : لأخيه - ما يحب لنفسه » .

(٢) أورد القرطبى فى تفسير هذه الآية عدة أقوال فى المقصود بالآية :

١ - هو رسول الله : قاله ابن سيرين والسدى وابن زيد والحسن البصرى ، وكان الحسن إذا تلا هذه الآية يقول : هذا رسول الله ، هذا حبيب الله ، هذا ولىُّ الله ، هذا صفوة الله ، هذا خيرة الله ، هذا والله أحب أهل الأرض إلى الله ، أجاب الله فى دعوته ودعا الناس إلى ما أجاب إليه .

٢ - نزلت فى المؤذنين : قالته عائشة وعكرمة وقيس بن أبى حازم ومجاهد . قال ابن العربى : الأول أصح لأن الآية مكية والأذان مدنى ، وإنما يدخل فيها بالمعنى ، لا بأنه كان المقصود وقت القول .

٣ - هذه الآية عامة : فى كل من دعا إلى الله . قاله الحسن وقيس بن أبى حازم . قال القرطبى : هذا القول هو أحسنها . [تفسير القرطبى ٦٠٢٦/٩] .

فأشرف الأعمال للذى تشبَّع قلبه بالإيمان أنْ يعدى هذا الإيمان إلى غيره ، وأن ينقل له الصورة الإيمانية ، فالمؤمن يصنع الخير لنفسه وللناس ؛ ذلك لأن خير الناس عائد إليه أيضاً ، كما أن شرَّهم لا بدَّ أنْ يناله وأنْ يصيبه من نصيب .

إذن : منْ مصلحتك أيها المؤمن أنْ يؤمن الناسُ ، ومن مصلحتك أيها المستقيم على الجادة أنْ يستقيم الناسُ ، لذلك حمَّلَ اللهُ أمانة الدعوة إليه لكل مؤمن ، لأنه سبحانه يريد أنْ يُعدَّى الإيمان ممَّنْ ذاقه إلى مَنْ لم يَذُقْه لتتسعَ رقعة الإيمان ، ويعمّ الخير الجميع .

وأول عناصر الدعوة إلى الله أنْ ندعوَ إلى العقيدة أولاً وإلى الإيمان بالله ، أن نقول : ربنا الله ، نُقِرُّ بها ونعلنها خالصةً بلا تردد ، ثم نلفتهم إلى آيات الله فى الكون ، إلى الآيات الكونية إنْ كانوا لا يتأملونها ، وإلى آيات المعجزات المصاحبة للرسل إنْ كانوا لا يعلمونها، ثم إلى آيات الذكر الحكيم التى تحمل منهج الله بافعل ولا تفعل .

وتأمل قوله تعالى : ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً (٣٣)﴾ [فصلت] الحق سبحانه أراد أنْ يُبيِّن لنا منزلة الدعوة إلى الله وفضل الداعية ، لكن لم يأت بذلك فى أسلوب خبرى يُقرر هذه المنزلة إنما جاء بهذا السؤال ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً (٣٣)﴾ [فصلت] استفهام غرضه النفى ، يعنى : لا أحدَ أحسنُ من هذا الذى يدعو إلى الله ، ولا قوْلَ أحسن من قوله .

قالها الحق سبحانه فى صورة سؤال لأنه سبحانه يعلم أنه لا جوابَ لها إلا أنْ نقول : لا أحدَ أحسنُ قوْلاً ممَّنْ دعا إلى الله ، فجعلنا نحن نعلن هذه الحقيقة ونُقِرُّ بها ، والإقرار كما يقولون سيد الأدلة .

وأول داعية إلى الله هو سيدنا رسول الله ﷺ ، وكل داعية من

بعده يأخذ من معينه ﷺ ويسير على خُطاه ، ولما كان ﷺ هو آخر الأنبياء فقد ترك لأمته هذه الرسالة ، رسالة الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، فخيْر رسول الله لم ينقطع ، بل ممتد فى أمته من بعده ، وكلُّ داعية بعده إنما يأخذ مقاماً من مقامه ﷺ .

ومن رحمة الله بهذه الأمة أنْ جعل لها رادعاً من نفسها ، جعل فيها فئةً باقية على الحق تُقوِّم المعْوج ، وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وسوف تظل هذه الفئة إلى يوم القيامة ، لذلك جاء فى حديث سيدنا رسول الله ﷺ : « لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق لا يضرهم مَنْ خالفهم ، حتى يأتى أمر الله وهم كذلك » (١)

لذلك قال سبحانه : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ (١١٠) ﴾ [آل عمران]

وهذه خاصية اختصَّ الله بها أمة محمد لأنه خاتمُ الرسل ؛ لذلك لن يعم الشرَّ هذه الأمة ، ولن يطمّ فيها الفساد ، ففيها حصانة من ذاتها . لقد كانت الأمم السابقة يستشرى فيها الفساد حتى يعمَّها ، فلا يكون فيها آمر بمعروف ولا نَاه عن منكر ، وعندها كان لا بدَّ من إرسال رسولٍ جديد ، يعيد الناس إلى الطريق المستقيم .

أما أمة محمد فلن يأتى فيها رسول جديد ، لذلك جعل الله فيها هذه الحصانة ، وجعلها خليفة لرسول الله فى الدعوة إلى الله ، وجعلها أمينة على هذه الدعوة ، لذلك يقول النبى ﷺ : « الخيرُ فىَّ وفى أمتى إلى يوم القيامة » (٢) .

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٩٢٠) كتاب الإمارة من حديث ثوبان رضى الله عنه . وأخرجه البخارى فى صحيحه (٧٣١١) ، وكذلك مسلم فى صحيحه (١٩٢١) من حديث المغيرة بن شعبة .

(٢) قال ابن حجر العسقلانى : لا أعرفه . ولكن معناه صحيح . ذكره القارى فى « الأسرار المرفوعة » (٤٥٧) وكذا السيوطى فى « الدرر المنتثرة » (٢٢٠) والعجلونى فى كشف الخفاء (١/٤٧٦) .

وقد بيَّن الله تعالى أن الرسول سيشهد أنه بلَّغ أمته هذه الدعوة ، وهذه الأمة ستشهد أنها بلَّغتْ دعوة رسولها إلى كلِّ الأمم ، قال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا .. (١٤٣) ﴾ [البقرة]

فشهادتنا على الأمم دليلٌ على أن الخير بَاقٍ فينا ولن ينقطع أبداً .

وقد حثَّنا رسولنا ﷺ على حمل هذه الأمانة ورغَّبنا فيها حين قال ﷺ : « نضَّر[1] الله امرءاً سمع مقالتى فوعاها ، وأدَّاها إلى مَنْ لم يسمعها ، فرُبَّ مُبلَّغ أوْعَى من سامع »[2] .

والدعوة إلى الله مجال واسع يكون بالقول وبالفعل وبالقدوة الحسنة ، يكون ببيان العقائد والعبادات والأحكام للناس بأسلوب شيق ممتع جذاب ، لا يُنفِّر الناس ، ولا يذهب بهم إلى يأس أو قنوط من رحمة الله .

الدعوة إلى الله فَنٌّ ، اقرأ قوله تعالى يخاطب نبيه ﷺ : ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ .. (١٥٩) ﴾ [آل عمران]

أين دعاتنا من قوله تعالى : ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ .. (١٢٥) ﴾ [النحل]

لا بدَّ أنْ نعلم أنَّ الدعوة إلى الله ليستْ مهمة علماء الدين

---

(١) النضرة : النعمة والعيش والغنى ، ونضَّر الله وجهه : وهو حُسْن الوجه والبريق . وقال الحسن المؤدب : ليس هذا من الحُسْن فى الوجه إنما معناه حسَّن الله وجهه فى خُلقه أى جاهه وقدره . [لسان العرب – مادة : نضر] .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (١/٤٣٧) ، والترمذى فى سننه (٢٦٥٧ ، ٢٦٥٨) ، وابن ماجه فى سننه (٢٣٢) والحميدى فى مسنده (١/٤٧) من حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه .

المختصين فحسب ، إنما مهمة كل مسلم فى كل زمان وفى كل مكان ، كُلٌّ فى مجال عمله يستطيع أنْ يكون داعيةً ، نعم داعية بفعله والتزامه وتفانيه وإخلاصه .

لقد أجمع علماء الأمة على أن الإسلام ما انتشر بحدِّ السيف ، وما انتشر بالقوة بقدر ما انتشر بسيرة المسلمين الطيبة ، وما تحلَّوْا به من تسامح وحُبٍّ للآخرين ، ولنا فيهم قدوة .

الدعوة إلى الله مهمة كل مسلم ذاق حلاوة الإيمان ولذة التكاليف وأحبَّ للناس ما يحب لنفسه من الخير فينقله إليهم . والحق سبحانه ساعة يُكلِّفنا بالخير لا يترك أحداً ولا يحرم أحداً أنْ يكونَ له نصيبٌ من هذا الخير ، ومن ذلك الآن نجد مثلاً المشكلة الاقتصادية والحرب على الاقتصاد وعلى الرغيف وعلى المياه ، كيف تُحلُّ هذه المشكلات فى المنظور الإسلامى ؟

الحق سبحانه وتعالى دائماً يُحنِّن الواجد على المعدم ، وبعد أنْ فرض الزكاة فى مال الأغنياء للفقراء ترك الباب مفتوحاً لأريحية الغنى وحبه للعطاء ، فجعل الصدقة نفلاً وزيادة لمن ذاقَ حلاوة التكليف .

لذلك قال تعالى مرة : ﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ (٢٤) لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (٢٥) ﴾ [المعارج] والمراد بالحق المعلوم الزكاة المفروضة ، وقال فى الذاريات : ﴿ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩) ﴾ [الذاريات] هكذا بإطلاق الكلمة ، والمراد الزيادة على الزكاة المفروضة ، وهذه نوافل مَنْ فعلها أخذ ثوابها ، ومَنْ تركها فلا شىء عليه .

قال تعالى فى سورة الذاريات وهو يُبيِّن لنا سبحانه منزلة

الإحسان : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) ﴾ [الذاريات] ولم يقل مؤمنين ، فما هى درجة الإحسان ؟ قالوا : المحسن هو الذى يلزم نفسه بأمر لم يُفرض عليه لكن من جنس ما فرض الله عليه ، إذن : فدرجة الإحسان أعلى من درجة الإيمان ، فالفرض فى الصلاة خمس صلوات ، المحسن يُؤديها ويزيد عليها ، وإن كان مقدار الزكاة الواجبة فى المال ٢,٥٪ يخرجها ٥٪ وهكذا فى كل أبواب الخير .

وفى آيات سورة الذاريات تفصيلٌ لهذه الزيادة التى يتطوع بها أهل الإحسان .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ[1] (١٧) ﴾ [الذاريات] وهل فرض الله عليك قيام الليل حتى أنك لا تهجع منه إلا قليلاً ؟ لا بل لك أنْ تصلى العشاء وتنام حتى الفجر .

أما المحسن فله مع الليل شأنٌ آخر ، إنه ذاقَ حلاوة السهر لله والقيام لله ، وشعر بالفيوضات تتنزَّل عليه ، ورحمة الله تغشاه ، فعشق العبادةَ ووجد فيها لذته وراحته ، كذلك ﴿ وَبِالأَسْحَارِ[2] هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩) ﴾ [الذاريات] ولم يقل هنا حق معلوم ، لأن الحق المعلوم هو الزكاة ، أما الحق المطلق هنا فيراد به الصدقة وهى متروكة لاختلاف حب الناس ودرجاتهم وأريحيتهم فى العطاء .

---

(١) الهجوع : النوم ليلاً . وقد يكون الهجوع بغير نوم . والتهجاع : النومة الخفيفة . [لسان العرب – مادة : هجع] وأتيت فلاناً بعد هجعة . أى : بعد نومة خفيفة من أول الليل .

(٢) الأسحار : جمع سَحَر : أى قبيل الصبح آخر الليل . قال الزمخشرى : إنما سُمِّى السَّحَر استعارة لأنه وقت إدبار الليل وإقبال النهار فهو متنفس الصبح . ومن المجاز : « السَّحَر البياض يعلو السواد » . [تاج العروس للزبيدى – باب : سحر] .

وإذا أحبَّ المؤمنُ الطاعة آثرها على أى شىء آخر ، لذلك لو أجريتَ إحصاء للحجاج لوجدتَ أن العوَّادين ثلاثة أضعاف البادئين ، وما ذلك إلا لعشق الناس لهذه الفريضة .

لذلك جعل الله فى العباد استطراقاً إحسانياً ، كلٌّ حسب مرتبته فيه ، والقرآن الكريم يعطينا صورة للمؤمن المحبِّ للبذل مع أنه لا يجد شيئاً ، قال تعالى : ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٩١) وَلا عَلَى الَّذِينَ[1] إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ (٩٢)﴾ [التوبة]

تبين هذه الآيات أن الله تعالى أشاع الخير بين كل الناس ، فالواجد عليه أنْ يعطى ، وغير الواجد يكفيه أنْ ينصح الواجد وأنْ يحثه على العطاء ، فإذا لم يستطع لا هذا ولا ذاك يكفيه أنْ يكون محباً فى نفسه للعطاء يشتاق إليه ، بل ويبكى أنْ فاتته الفرصة . وهؤلاء صدقتهم هذا الشوق وهذا البكاء . وهكذا لم يحرم الخالق سبحانه أحداً من خيره ، ولم يغلق الباب فى وجه أحد .

هناك قضية تتعلق بالدعوة إلى الله ، هى أن الإنسان منَّا قد يكون عاصياً لربه فى ناحية ما ، فهل يمنعه هذا العصيان أنْ يكون داعية إلى الله ؟ قالوا : ينبغى ألاَّ تمنعك المعصية عن الدعوة ، فلعلَّ الذى

---

(١) قال القرطبى : « روى أن الآية نزلت فى عرباض بن سارية . وقيل : نزلت فى عائذ بن عمرو . وقيل : نزلت فى بنى مقرِّن – وعلى هذا جمهور المفسرين – وكانوا سبعة إخوة ، كلهم صحبوا النبى ﷺ » وهناك أقوال أخرى كثيرة ذكرها القرطبى فى تفسيره (٣١٥٣/٤) .

تدعوه يفعل ما لم تفعله أنت ، ولعل هذه عملية جَبْر لما فيك من نقص .

يُحكَى أن رجلاً كان يطوف بالبيت ، فسمع آخرَ يقول : اللهم إنك تعلم أنّى عاصيك ولكنِّى أحب مَنْ يطيعك ، فاجعل اللهم حُبِّى لمن أطاعك شافعاً فى معصيتى .

قالوا : حتى الذى يتكاسل عن الصلاة لا يمنعه ذلك من أن يدعو غيره إلى الصلاة ، لأنها خير يشيعه فى الناس لن يُحرَم أجره ، فكل مَنْ أشاع خيراً له (عمولة) عند الله ، وهكذا لا يخلو مخلوق من أنْ يصيبه فضل الله الواسع ، ولا يخلو مخلوق من خصلةِ خيرٍ لذاته أو لغيره ، وهذه الإشاعة للخير فى ذاتها دعوة إلى الله .

وقوله : ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا .. (٣٣)﴾ [فصلت] يعنى : دعا إلى الله بالقول ثم بالفعل ، ودائماً ما يقرن القرآن بين القول والعمل ، وعرفنا أن قدوةَ الفعل أعظمُ أثراً فى النفوس من قدوة الكلام ، وليس من الصواب أنْ تدعو الناس إلى شىء وأنت عنه بنجوى ، يقول تعالى : ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ (٤٤)﴾ [البقرة]

ويقول سبحانه فى سورة العصر : ﴿وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣)﴾ [العصر]

والتواصى تفاعل بين الناس ، بحيث يوصى كلٌّ منهم الآخر ، فالطائع يوصى العاصى ، وكلٌّ واحد منا مُوص فى موقف ، ومُوصَىً فى موقف آخر ، لأن الانفعال النفسى بطاعة أو بمعصية لا يدوم ،

فساعة تنفعل نفسُك للطاعة أوْص مَنْ يعصى ، وساعة تنفعل نفسك للمعصية ستجد مَنْ يوصيك وهكذا ، لأن النفس ليس لها سيال دائم ، وكلٌّ منا يَجْبر ما عند صاحبه ، هذا معنى (وتواصوا) أى : فيما بينكم ﴿بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣)﴾ [العصر]

الحق سبحانه يقسم (والعصر) يعنى : والزمن المعدود ، يقسم على ماذا ؟ ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لَفِى خُسْرٍ (٢)﴾ [العصر] يعنى : جنس الإنسان كُلُّه فى خُسْر وضياع وضلال لا يستثنى من ذلك ﴿إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣)﴾ [العصر]

كأن الحق سبحانه يقول لنا : استقرئوا الزمن وتأملوا التاريخ ، انظروا إلى الحضارات الغابرة من قديم الزمان ، أين هى ؟ ماذا بقى منها ؟ حضارة الفراعنة فى مصر وما وصلتْ إليه من تقدم فى علوم لم نتوصَّل إلى أسرارها حتى الآن مع أننا فى عصر التقدم العلمى ، حتى الأمريكان عجزوا أن يصلوا إلى أسرارها .

ومع ذلك بادتْ وذهبتْ كلُّ هذه العلوم ، لأن أصحابها لم يجعلوا لها صيانة تحميها وتضمن لها البقاء ، وكان طغيانُ القوم سببَ هلاكهم ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِى الأَوْتَادِ[1] (١٠) الَّذِينَ طَغَوْا فِى الْبِلادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (١٤)﴾ [الفجر]

بل هناك حضارات أعظم من حضارة الفراعنة ، لكنها مطمورة تحت التراب لا نعرف عنها شيئاً ، حتى القرآن لما أخبر عنها أعطانا

---

(١) الأوتاد : جمع وتد . وهو ما ثُبِّت فى الحائط أو الأرض من الخشب ، وأوتاد فرعون أنه كانت له حبال وأوتاد يُلعب له بها . [لسان العرب – مادة : وتد] .

صورة مجملة عبرتْ عن هذه العظمة ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ[١] (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (٨)﴾ [الفجر]

نعم هذه حضارات كانت فى يوم من الأيام ملءَ السمع والبصر ، لكنها لم تملك أسباب البقاء مع هذا التقدم الذى عاشت فيه ، ويكفى أن الله قالَ عنها ﴿لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (٨)﴾ [الفجر] ، فكيف كانت إذن ؟

وصدق شوقى حين قال :

وَالعِلْمُ إنْ لَمْ تكْتنِفْهُ شَمَائِلُ تُعليه كَانَ مَطيَّةَ الإخْفَاقِ[٢]

إذن : العمل حين تأخذه من الباقى يبقى ، وحين تأخذه من الفانى يفنى .

والذى يبقى هو القِيَم ، فكما أخذنا عطاء الله فى المادة ينبغى أن نأخذ عطاءه فى القيم ، فهى الصيانة التى ستُبقِى الأعمال وتجعلها خالدة وتجعل لها معنى وقيمة .

وقوله تعالى : ﴿وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٣)﴾ [فصلت] هذا إعلانٌ يعلنه المسلم ويفخر به ، وسام على صدره ، أنا مسلم ، وإسلامى هو المنطلق الذى من خلاله تكون حركتى فى الحياة ، وهذه

---

(١) قال جمهور المفسرين : إرم مدينة لعاد عظيمة كانت على وجه الدهر باليمن . وقال محمد ابن كعب : هى الإسكندرية . وقال ابن المسيب : هى دمشق . [الروض المعطار فى خبر الأقطار – لابن عبد المنعم الحميرى] .

(٢) البيت لحافظ إبراهيم وليس لأحمد شوقى ، من قصيدة من بحر الكامل عدد أبياتها ٤٦ بيتاً ، وهو الـ (١٣) فيها . وحافظ ولد عام ١٨٧١ بديروط ، نشأ بالقاهرة يتيماً ، نظم الشعر فى أثناء الدراسة ، تخرج من المدرسة الحربية ، أحيل للاستيداع ، اشتغل محرراً بالأهرام ولقب بشاعر النيل ، توفى ١٩٣٢ م (الموسوعة الشعرية) .

فى حَدِّ ذاتها دعوةٌ إلى الله ونشرٌ لدين الله وإعلاءٌ لكلمة الله حين لا تنشغل بنفسك إنما تنشغل بدينك .

فإنْ أنجزتَ عملاً تنسبه إلى دين الله ، تقول : لأن الله أمرنى ، فترفع دينَ الله عند الناس ولا تهتم بذاتك الفاعلة ، وحين ترفع دين الله ثِقْ أنه رافعك معه .

إذن : فمن صفات المؤمن أنْ ينسبَ خيره وصلاحه لدينه وإسلامه .

لذلك نقف كثيراً عند قول قارون لما أعطاه الله المال والجاه والسلطان ، فقال : ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِى .. (٧٨)﴾ [القصص] فردَّ الله عليه : ما دمتَ أوُتيته على علم عندك فاحفظه بعلمك ، وكانت النتيجة ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ .. (٨١)﴾ [القصص] فحين تصل إلى ابتكار أو اختراع أو صلاح فى الكون فاجعله من منطلق الدين والمنهج ، انسبه إلى دينك .

وتذكَّر الحديث الشريف : « ومَنْ كانت الآخرة همَّه جمع اللهُ عليه شمله ، وجعل غِنَاه فى قلبه ، وأتتْه الدنيا وهى راغمة »[1] .

لذلك أتعجَّب حينما أسمع أسماء رنَّانة لنَواد وجمعيات خيرية يقوم عليها الأعيان ووجهاء القوم وسيدات المَجتَمع ، صحيح نراهم يُقدمون المساعدات ويفعلون الكثير من الخير ووجوه البر ، لكن حين تسألهم عن المنطلق الذى يعملون من خلاله تسمع مصطلحات أخرى مثل (الماسونية) .

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه (٢٤٦٥) من حديث أنس بن مالك بلفظ « من كانت الآخرة همه جعل الله غناه فى قلبه وجمع له شمله وأتته الدنيا وهى راغمة ، ومن كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه وفرَّق عليه شمله ولم يأته من الدنيا إلا ما قُدِّر له » .

ولما عرفوا أن أصلها يهودى قالوا (الروتارى) ، أنا أفعل هذا لأنى روتارى ، سبحان الله قل : لأننى مسلم ، لأن إسلامى أمرنى بذلك ، لماذا لا ترفع نفسك بِرفعة دينك ، ولماذا تُفوِّت على نفسك ثواب هذا الخير فى الآخرة .

قلنا : إن العمل إما أن يكون لله ، وإما أن يكون للناس ، العمل لله شرطه الإخلاص وجزاؤك على الله فى الآخرة ، أما العمل للناس فيعطيك منزلة عندهم ووجاهة ورفعة ، هذا جزاؤك وقد أخذته فى الدنيا فلا حظَّ لك فى ثواب الآخرة ، فالإنسان يطلب أجره ممَّنْ عمل له .

لذلك ما سُئِلْنَا عن علماء خدموا البشرية باختراعاتهم وإنجازاتهم وابتكاراتهم : هل لهم نصيب فى الآخرة ؟ نقول : لا ليس لهم نصيب لأنهم فعلوا للناس وللبشرية ولتقدم المجتمع ، وأخذوا أجورهم صيتاً وسُمْعة وشهرة وتخليداً لذكراهم .. إلخ .

أما الله فلم يكن أبداً على بالهم حين فعلوا هذه الأشياء ، واقرأوا قوله تعالى فى شأن هؤلاء : ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً[1] مَّنثُورًا (٢٣)﴾ [الفرقان]

وفى موضع آخر قال : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩)﴾ [النور]

هكذا أعمال الكافرين فى الآخرة كالسراب تحسبه شيئاً ، فإذا ما ذهبتَ إليه لم تجده ، وليْتَ أمرهم ينتهى عند هذا الحد إنما تفاجئهم

---

(١) الهباء : هو الذرات التى تراها فى المخروط الضوئى حين ينفذ إلى حجرتك ولا تراها بالعين المجردة لدقتها .

الحقيقة التى طالما أنكروها فى الدنيا ﴿وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ .. (٣٩)﴾ [النور] نعم الله الذى أنكره أو كفر به يُوقفه ويحاسبه : أنت فعلتَ : ليقال وقد قيل فلا أجرَ لك عندى ، ويبقى لك جزاء كفرك وعنادك .

إذن : نقول : ساعة تعلن أنك تعمل وتبتكر من منطلق إسلامك . ساعة تقول عملت لأننى مسلم ، تُعلى شأن الإسلام وتلفت غير المسلمين إلى جمال هذا الدين ، وأنت فى ذلك داعية إلى الله ، أنت على نهج نبيك محمد ﷺ ، فإنْ قابلتْكَ بعضُ الصعاب فاصبر ، لأن رسولك أُوذِى فى سبيل دعوته فصبر .

فالذى يحمل أمانة الدعوة ويعلنها : أنا مسلم ، وإسلامى هو الضابط لكل حركاتى فى الحياة ويصيبه سوءٌ يعلم أنه أخذ طرفاً من ميراث النبوة ، فما من نبى إلا أوذى وكان له أعداء ، فلا بدَّ لحَمَلَة هذه المسئولية أنْ يكون لهم أعداء ، وأنْ يُشتموا وأن تُكال لهم التهم ، هذا أمر طبيعى فى مسيرة الدعوة إلى الله .

يقول تعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا .. (١١٢)﴾ [الأنعام]

هذا يعنى أن الداعية الذى يَسْلم من هذا الإيذاء ينقص حظُّه من ميراث النبوة ، وحظه من تركة النبى ﷺ ، إذن : اصبر ، وهل تابعُ محمدٍ خيرٌ من محمد حتى يَسْلم من الأذى ؟

فإذا لم يكُنْ لك أعداء فى طريق الدعوة فاعلم أنك لستَ على الطريق الذى رسمه لك صاحبُ الدعوة ، وعليك أنْ تراجع نفسك .

الكلام هنا عن الدعوة إلى الله بحقٍّ وتجرُّد وإخلاص ، وعن الكلمة تُقال فى سبيل الله لا فى سبيل جاه أو سلطان أو منصب من متاع الدنيا الزائل ، الدعوة إلى الله لا تكون أبداً قنطرة .

لذلك نقول : ما الذى يحمى الدعاة إلى الله الآن ، وها نحن نقول بأعلى صوت ونكتب فى كل وسائل الإعلام ، والله هو الحامى ، والحمد لله لم نُؤخذ ولم نُسْجن ، ولم يتعرض لنا أحد ، كثير من علماء الدين يعلنون كلمة الحق مجردة من الهوى والمصلحة ، وساعة يعطى لهم الحاكم أذنه يُسمعونه من الكلام ما يرعشه ، ومع ذلك نسمع عن اضطهاد رجال الدين .

ونقول : إذا اضطهد رجل الدين فلا بُدَّ أنه استعمل وسائل محرمةً فى الدعوة إلى الله ، كهؤلاء الذين يميلون إلى حَلِّ المشاكل بالقتل والدماء ، أنت على خلاف مثلاً مع وزير من الوزراء تضربه بالنار ؟ هل هذا هو الحل ؟ وما ذنب الحراس الذين تُهدر دماؤهم وتُيتَّم أطفالهم ؟

أنت صاحب كلمة ، قُلْ ما شئتَ وأصلح بالكلمة الطيبة ، أسمعهم ما يكرهون ، وسبق أنْ قلنا لهم ما لم يستطع أحدٌ أنْ يقوله عندهم ، لأن الشجاعة الإيمانية فى الدعوة إلى الله ليستْ كلمة حَقٍّ تُقَال على سلطان ، إنما كلمة حق تقال عند سلطان جائر ، نعم عنده فى حضوره .

وهذا تطبيق عملى لقول رسول الله ﷺ : « أعظم الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر »[(١)] .

نحن لا نتاجر بالكلمة ، إنما نواجه بها كل حاكم ظالم ، نقول له : نحن لا نكرهك ولا نطمع فيما فى يدك من الحكم ، بل نحن

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٣/١٩ ، ٦١) ، والترمذى فى سننه (٢١٧٤) وحسَّنه . وأبو داود فى سننه (٤٣٤٤) من حديث أبى سعيد الخدرى . ولفظ الترمذى : « إن من أعظم الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر » .

نحبك ونريد أنْ نعينك على مهمتك ، فقط نريد منك أنْ تحكمنا بالإسلام ، أريد أنْ أُحْكَم بالإسلام ، لا أن أُحْكُمَ بالإسلام .

﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) ﴾

بعد أنْ حدَّثنا الحق سبحانه عن مهمة الدعوة إلى الله ، وأنها ميراث الأنبياء وتركة رسول الله لنا من بعده ، يُعلِّمنا هنا فناً من فنون الدعوة ودرساً من دروسها ، ألاَ وهو مقابلة السيئة بالحسنة ﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ .. (٣٤) ﴾ [فصلت]

نعم لا أحدَ يُسوِّى بين الحسنة والسيئة والعقل يؤيد ذلك ، تعالَ إلى اللص الذى يسرق أموال الناس ، ويسرق ثمرة عرقهم وقُلْ له : أتحب أنْ يسرق الناسُ منك ؟ يقول : لا ، نقول : إذن لا تحب لهم ما لا تحبه لنفسك ، يقول لك : أنت تقيد حريتى وأنا حُرٌّ .

نقول له : لا تنسَ أن الله قيَّد حريتك فى سرقة الآخرين وأنت فرد واحد ، وقيَّد حركة الدنيا كلها فى أنْ تسرق منك ، فمَن المستفيد ؟ كذلك فى كل أمور الشرع التى حرَّم الله فيها أنْ تعتدى على الآخرين حرَّم عليهم جميعاً الاعتداء عليك ، قال لك : لا تنظر إلى ما حرَّم الله عليك بشهوة . وأمر الناس جميعاً أن لا ينظروا إلى محارمك .

والنبى ﷺ يعطينا نموذجاً فى حكمة الدعوة ، حين جاءه شاب صادقُ الإيمان ، لكن عنده أمر ومسألة لا يستطيع الإقلاع عنها ، وهى شهوة النظر وشهوة الميل إلى النساء ، فجاء وقال لرسول الله

ﷺ : يا رسول الله ، إئذن لى بالزنا .

وتأمل هنا حكمته ﷺ ، قال للشاب دون أنْ ينهره أو يقسو عليه ، إنما تبسَّم فى وجهه وطمأنه أنه أمام داء له دواء ، طالما أنه صادق الإيمان يواجه النبىَّ بدائه ، لم يغُشّ رسول الله ولم يغُشّ نفسه .

لذلك وصف له رسول الله ﷺ الدواء الذى اجتثَّ هذا الداء من جذوره ، وقام الشاب من عند رسول الله وأشدَّ ما يكرهه الزنا .

قال له رسول الله : « يا هذا أتحب ذلك لأمك ؟ قال : لا يا رسول الله ، قال : أتحبُّ ذلك لأختك ؟ قال : لا يا رسول الله ، قال : أتحبُّ ذلك لزوجتك ؟ قال : لا يا رسول الله ، قال : أتحبُّ ذلك لابنتك ؟ قال : لا يا رسول الله ...

وما زال الرسول يذكر له النساء من أهله حتى ذكر العمة والخالة ، وحتى قال الشاب : لا يا رسول الله جُعلْتُ فداكَ ، فقال رسول الله : كذلك الناسُ يا أخا العرب لا يحبونه لأمهاتهم ولا لأخواتهم .... »[(١)] .

عندها قال الشاب : والله ما هممتُ بشىء أنظر إليه إلا تذكرتُ أمى وأختى وزوجتى وبنتى .

إذن : الدين يحتاج فى الدعوة إليه إلى لينٍ وحكمة وموعظة حسنة حتى يُقبل منك ما تقول ، لأن الذى تنصحه بأمر من أمور الدين وهو على غير دينك ، أو على دينك لكنه ألفَ المعصية وثقُلَتْ

---

(١) عن أبى أمامة أن رجلاً أتى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ائذن لى فى الزنا ، فهمَّ من كان قُرْب النبى ﷺ أن يتناولوه فقال النبى : دعوه . ثم قال له : أتحب أن يُفعل هذا بأختك ؟ قال : لا . قال : فابنتك ؟ قال : لا ، فلم يزل يقول فبكذا فبكذا ، كل ذلك يقول : لا . فقال النبى : فاكره ما كره الله وأحب لأخيك ما تحب لنفسك . أورده المتقى الهندى فى منتخب الكنز (٢/٣٩٧) وعزاه لابن جرير الطبرى .

عليه الطاعة ، ينبغى عليك أنْ تُخرجه مما ألفَ بأسلوب لا يكرهه ، حتى لا تجمع عليه المعاناة حين تخلعه مما يحب ، وقسوة الأسلوب وفظاظته ، يكفى أن تُخرجه مما أحب بما لا يكره ، وبذلك تمنع عنه شراسة الجدل وثورة العناد والمكابرة .

وكذلك فى المعاملة ، عليك أنْ تواجه السيئة بالحسنة ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ .. (٣٤)﴾ [فصلت] يعني : رُدّ باللين وبالحسنى ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤)﴾ [فصلت] العداوة المدمرة هى التى تكون بين اثنين عدوين ، كل منهما عدو للآخر ، وفى هذه الحالة يستشرى العداء ويستحكم ، ولا نصل فيه إلى حَلٍّ ، فمتى تنكسر حِدَّة العداوة ؟

تنكسر حِدَّتها حينما تكون من جانب واحد ، جانب عدو وجانب متسامح لا يرد السيئة بالسيئة ، إنما يعفو ويصفح ، وفى هذه الحالة تهدأ نفسُ العدو ، ولا يجد مجالاً لعداوته ، وهذه أولى خطوات الإصلاح أنْ تأخذ عدوك فى جانبك ، لذلك يقولون : لا تكافئ مَنْ عصى الله فيك بأكثر من أنْ تطيع الله فيه .

وبهذه الطريقة ينقلب العدو إلى ﴿وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤)﴾ [فصلت] يعنى : صديق قريب مُحب مخلص كيف ؟ لا تقل كيف ، بقدرة الله خالق هذه النفوس وهذه القلوب ومُقلِّبها .

جاء رجل يشكو قسوةَ أحد الأقارب ، فقلنا له : يا شيخ اصبر عليه وقابله بالتى هى أحسن ، وتودَّدْ إليه عَلَّ الله يصلح ما بينكما ، بعدها جاء وقال : دفعتُ بالتى هى أحسن فلم يزدد إلا قسوةً وصار أشدَّ مما كان ، قلت له : إذن راجع نفسك لأن كلام الله قضية مُسلّمة ، وابحث عن السبب عندك ، فلعلك ظننتَ أنك دفعتَ بالتى هى أحسن ،

والحقيقة أنك لم تدفع بالتى هى أحسن ، أو أنك أردتَ أنْ تُجرِّب مع الله ، والله تعالى لا يُجرَّب ، التجربة مع الله شكٌّ ، فلو صدقتَ مع الله لصدَقَ الله معك .

وما أجمل قول الشاعر[1] فى هذا المعنى :

يا مَنْ تُضايقه الفعَالُ منَ التى ومنَ الذى
ادْفَعْ فَدَيتُكَ بالتى حَتَّى تَرَى فَإذَا الذِى

﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾

أى : هذه الخصلة وهذه المنزلة منزلة الدفع بالتى هى أحسن ، هذه الخصلة لا ينالها ولا يتحلَّى بها إلا الذين صبروا على الأذى ، ولا يصل إليها إلا ذو حظ عظيم . يعنى : نصيب وافر من العطاء ، لماذا ؟ لأنه كبتَ نفسه وأمسكها عن الردِّ بالمثل ، فلما كبتَ نفسه من أجل الله جعل اللهُ عاقبته خيراً ، وأجزل له العطاء .

ونلحظ هنا على الأداء القرآنى تكرار عبارة ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا .. ﴿٣٥﴾﴾ [فصلت] فلم يقُلْ الحق سبحانه : وما يُلقاها إلا الذين صبروا وذو حظ عظيم .. قالوا : تكررت العبارة لأن التلقى مختلف ، هذا تلقى صبر ، وهذا تلقى جزاء . وكثيراً ما يقف المستشرقون وأهل البصر بالقرآن أمام مواطن التكرار فى كتاب الله باحثين عن الحكمة منه ، لأن كتاب الله محكم ، ليس فيه حرف زيادة أو عبث .

ومن هذه المواطن وقفوا عند التكرار فى قصة سيدنا يوسف لَمَّا قال لأبيه سيدنا يعقوب عليهما السلام : ﴿إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا

---

(١) من قول الشيخ يرحمه الله .

وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ (٤) ﴾ [يوسف] قالوا : ما فائدة تكرار الفعل (رأى) هنا ؟ نقول : يعنى ساعة رأى الشمس والقمر رآهم ساجدين ، وهذا لا يتأتَّى إلا إذا رآهم أولاً غير ساجدين ثم رآهم يسجدون أمامه .

إذن : فالرؤيا الأولى رأى أحد عشر كوكباً ورأى الشمس والقمر فى غير هيئة السجود ، ثم رأى الشمس والقمر له ساجدين ، وهذا المعنى لا يكون إلا بتكرار الفعل .

كذلك هنا ﴿ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا .. (٣٥) ﴾ [فصلت] صبروا على الإيذاء ، وصبروا على ضبط النفس ، وصبروا على مغالبة الشيطان الذى يُوسوس لهم بالانتقام ويُزيِّن لهم الردَّ بالمثل . وكانت عاقبة الصبر الجزاء والحظ الوافر .

وينبغى ألاَّ نغفل دور الشيطان فى هذه القضية ، فمهمته أن يلهب نار العداوة بين الناس ، وأن يشعل الفتن ليلهيهم بها عن مطلوبات الله فسوف يوسوس لك : لماذا تتسامح وقد أُسِيء إليك ، لماذا تقبل الذل ؟ أهو أفضل منك ؟

لأن إبليس منذ أُمر بالسجود لآدم فأبَى ، وكانت النتيجة أنْ صار ملعوناً مطروداً من رحمة الله منذ هذا الموقف ، والعداء مُستحكم بينه وبين ذرية آدم ، ولن يتركهم حتى يُوردهم نفس مورده .

لذلك أقسم : ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣) ﴾ [ص] يعنى : يا رب أنا لستُ متمرداً عليك إنما على ذرية آدم ، فالذى تريده طائعاً لا يمكن لى أنْ أغويه ، فليس لى سلطانٌ على المخلصين منهم .

ومن خيبة إبليس أنه أفشى سره ، وأعلن عن وسائله فى غواية

بنى آدم ، ومعلوم أن الذى يصنع مكيدة أو مؤامرة يحتفظ لنفسه بالتفاصيل ، أمَّا إبليس فأعلن عنها ، فأعطانا الله الاحتياط .

قال تعالى حكايةً عن إبليس : ﴿ لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ﴾ [الأعراف] أقعد لهم على الصراط . يعنى : على طريق الاستقامة وفعل الخير لأشغلهم عنه وأفسده عليهم . ولذلك قلنا : إن الشيطان لا يذهب إلى الخمارة مثلاً ، إنما يذهب إلى المسجد .

وفى موضع آخر قال : ﴿ ثُمَّ لآتِيَنَّهُمْ مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ .. (١٧) ﴾ [الأعراف]

﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ (١) فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٦) ﴾

ومن رحمة الله بنا أنه سبحانه لم يتركنا نهباً لهذا العدو الذى يتربص بنا ، إنما أعطانا الحصانة التى نتحصَّن بها منه ، فقال تعالى : ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ .. (٣٦) ﴾ [فصلت] ذكَّره بالله القوى ، فإنْ كنتَ أنتَ ضعيفاً أمامه فاستعنْ عليه بالإله القوى ، وساعةَ يراك فى جنب الله لا يجرؤ أبداً عليك ، لأنك داخل فى هؤلاء الذين استثناهم ﴿ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣) ﴾ [ص]

وانتبه أنه لن يأتيك إلا على الصراط المستقيم ليفسده عليك ، يأتيك فى صلاتك ويُذكِّرك بما لم يكُنْ لك على بال ، وبأهم الأمور

---

(١) النزغ : أن تنزغ بين قوم فتحمل بعضهم على بعض بفساد بينهم . وهو الكلام الذى يغرى بين الناس . ونَزْغ الشيطان : وساوسه ونَخْسه فى القلب بما يُسوِّل للإنسان من المعاصى . [اللسان – مادة : نزغ] .

عندك فى الدنيا ، المهم عنده أنْ يفسد عليك الآخرة بأى ثمن .

فإذا وجدتَ فى نفسك شيئاً من نَزْغه ووسوسته فقل : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، قُلْها فى كل حال يأتيك فيه إبليس وأنت تصلى ، وأنت تقرأ القرآن ، وأنت فى أىّ عبادة من العبادات .

لك أنْ تقول هذه الكلمة وهى لا تُخرجك من عبادتك على أىِّ حال ، وعندما تداوم على هذه الكلمة سييأس منك ويبتعد عنك ، ويعرف أنك صَلْبٌ قوىٌّ تستمد قوتك من الله ، عندها سينصرف عنك ، ولم لا وأنت تعرف ألاعيبه وتكشف حيله ؟

لكن الخيبة أن كثيرين منا ينساقون وراء الشيطان ، ويُسْلمون له قيادهم ، وما يفعله الشيطان مع هؤلاء أنه يعطيهم أول الخيط ويتركهم هم (يكرُّون) الباقى دون جهد منه ودون عناء ، وهؤلاء هم الذين استزلّهم الشيطان وأخضع رقابهم ، فهم يسيرون فى رَكْبه دون تفكير أو تأمُّل .

هَبْ أن لصاً جاء يحوم حول بيتك . فقلت : إحم . تريد أن تُسمعه ويعرف أنك يقظ ، لا بدَّ أنه ينصرف ، وقد يعتبر أنها مصادفة فيعاود مرة أخرى فتقول : إحم ، إذن : ليست مصادفة بل أنت له بالمرصاد فأنت متيقظ ، لذلك ينصرف عنك بلا رجعة ، كذلك الشيطان .

قلنا : من غباء إبليس وغفلته أنْ يعلن لنا عن خططه فى غواية بنى آدم ويعلن عن أساليبه ، والغباء يكون أعظم لمن عرف هذه الخطط وهذه الأساليب ، وانساقَ وراءها ولم يأخذ الحيْطة .

وحين نتأمل قول إبليس : ﴿ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ .. (١٧)﴾ [الأعراف] تلحظ أنه ترك جهتين لم يذكر أنه يأتى منهما : جهة أعلى وجهة أسفل ، لماذا ؟ قالوا : لأن العُلو جهة التوجه إلى الله ، جهة عزِّ الربوبية ، وجهة الأسفل تمثل ذُلَّ العبودية ساعة تسجد لله ذلاً وخضوعاً له سبحانه ، فهاتان الجهتان لا يأتى منهما الشيطان .

وقوله : ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٦)﴾ [فصلت] الذى لا يغيب عن سَمْعه شىء ، فإنْ وسوس لك الشيطان بكلام سمعه وعلمه .

بعد أن بيَّن لنا القرآن هذا البيان ، يعود ليلفتنا ثانياً إلى بعض آيات الله فى الكون ، فبهذه الآيات نستدل على وجود الخالق سبحانه وعلى قدرته تعالى ، حيث لو جاءت هذه الآياتُ على أيدى علماء كافرين بالله إلا أننا ننتفع بها ، والله مساكين هؤلاء العلماء ينفعون البشرية كلها ولا ينفعون أنفسهم ، لأنهم - كما قلنا - لا ينطلقون فى اختراعاتهم وابتكاراتهم من منطلق الإيمان بالإله تبارك وتعالى ، فهم كالمطايا ينتفع الناس بخيرهم ، ولا ينالهم من ذلك شىء ، اللهم إلا متاع الدنيا الزائل .

وأقرب آيات الله للإنسان نفسه لو تأملها ، مثلاً درجة الحرارة الطبيعية للجسم ٣٧° تجدها ثابتة فيمَنْ يعيش عند خط الاستواء ، وفيمن يعيش عند القطب الشمالى ، وأنتم تعرفون نظرية الاستطراق الحرارى ، لكن قدرة الله تحتفظ للجسم بهذه الدرجة بصرف النظر عن الجو المحيط به .

ثم فى داخل الجسم ذاته تجد حرارة الأعضاء مختلفة ، فالعين لا

تزيد درجة حرارتها عن ٩° ، والكبد لا يؤدى مهمته إلا عند ٤٠° ، وهما فى جسم واحد وغلاف واحد ، ومع ذلك لا يحدث استطراق للحرارة ، وهذه آية ومعجزة لا يقدر عليها إلا الخالق سبحانه .

تأمل الدم سائل الحياة الذى يجرى بداخلك لا بدَّ له من درجة سيولة معينة داخل الجسم ، فإنْ قلَّتْ هذه السيولة تجلط وحدث شلل للجزء الذى تحدث به الجلطة والعياذ بالله ، وإنْ زادتْ سيولته أدَّى إلى نزيف ، فمَنْ يحفظ له هذه الدرجة من السيولة ؟ الله !!

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ .. ﴿٣٧﴾ ﴾ [فصلت] (من) هنا تفيد التبعيض يعنى : هذه بعضُ آياته تعالى فى الكون ، وإلا فآيات الله فى كونه كثيرة لا تتناهى ، والآية هى الشىء العجيب فى تكوينه وخَلْقه الدالّ على قدرة الله وحكمته وبديع صُنْعه .

﴿ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ .. ﴿٣٧﴾ ﴾ [فصلت] آيتان من آيات الله الكونية ، والليل والنهار يكونان معاً اليوم الذى نعرفه ، وهو من الوقت إلى مثله ، قال تعالى : ﴿ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا .. ﴿٧﴾ ﴾ [الحاقة]

هذه الآيات الكونية المذكورة هنا ﴿ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ .. ﴿٣٧﴾ ﴾ [فصلت] أخذتْ حظاً واسعاً فى موكب الرسالات وفى العقائد ،

فـفى قصـة سيـدنا إبراهيم - عليـه السلام - وهو يبـحث عن الحق والحقـيقة لما نظر فى الكون من حـوله ، فرأى كوكبـاً قال : ﴿هَـٰذَا رَبِّى فَلَمَّا أَفَلَ[1] قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا[2] قَالَ هَـٰذَا رَبِّى فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَـٰذَا رَبِّى هَـٰذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَـٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨)﴾ [الأنعام]

إذن : فالشـمس والقمـر مرتبطان بالليل والنهـار لهمـا مدخل فى العقيدة ، هذا المدخل فى العقيدة ينتقل من قسم العقيدة وهى الإيمان بالإله الواحد إلى شىء آخر ، هذا الشىء جُعل دليـلاً إيمانياً على أمر شكَّ العربُ فيه لما نزل القرآن على رسول الله ﷺ ، إذن : كانت هذه الآيات الكونية مدخلاً أولاً للعقـيدة والإيمان بالله ، ثم كانت دليلاً على عدم انقطاع الوحى عن سيدنا رسول الله ﷺ .

تعلمون قـصة نزول الوحى على سيدنا رسـول الله لأول مرة فى غـار حراء ، وأنه ﷺ كـان يعـانى ويتـعب من لقاء الـملَك لاختـلاف الطبيعة الملائكية عن الطبـيعة البشرية ، وأنه ﷺ كان يذهب إلى أهله يقـول مـرة : زمِّلونى زمِّلونى ، ومـرة : دثِّرونى دثِّـرونى لمـا كـان يحـدث فـى طبـيعـتـه ﷺ من تغـيير ، لذلك كان الوحى فى بدايتـه ثقـيلاً على رسـول الله ، وقـد قـال تعـالـى : ﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً (٥)﴾ [المزمل]

---

(١) أفل الكوكب وأفلت الشـمس : غابت . وأفل الشىء : ذهب . [المـحيط فى اللغـة للصاحب ابن عباد . مادة : أفل] .

(٢) بزغ القمـر والشمس : طلعتْ . والبـزوغ : ابتداء الطلوع . فـبزوغ القمـر : طلوعه منتـشر الضوء . [تاج العروس للزبيدى - مادة : بزغ] .

وروى الصحابة أنه ﷺ كان يتفصَّد[١] جبينه عرقاً لما ينزل عليه الملَك ، والصحابى الذى كان يجلس بجوار رسول الله ﷺ يسند فَخذَه عليه ، كان يجد ثِقَلاً لا يطيقه حينما ينزل الوحى على رسول الله[٢] .

لذلك أراد الحق سبحانه أن يخفف عن رسوله ﷺ هذه المعاناة ، فانقطع الوحى لمدة ستة أشهر ، ليستريح رسول الله وتذهب عنه متاعب التلقِّى الأولى ، وليشتاق إلى لقاء الملَك من جديد ، وإلى كلام الله الذى انقطع عنه ، ولا شكَّ أن هذا الشوق سيعطيه طاقةً لتحمُّل أمر الوحى والدعوة بعد ذلك .

رأى كفار مكة فى انقطاع الوحى عن رسول الله مأخذاً ، فقالوا : إن ربَّ محمد قلاه[٣] يعنى : تركه وهجره ، وهم لا يعلمون أن فتور الوحى ليس هَجْراً ، إنما هو وداع الحبيب لحبيبه إلى لقاء آخر أعظم وأطول ، ولذلك أنزل الله تعالى : ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ[٤] ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾ [الضحى]

هذا هو موضع الشاهد ، أن الحق سبحانه أقسم لهم بالضحى

---

(١) يتفصد عرقاً : يسيل عرقه . قالت عائشة رضى الله عنها : لقد رأيته ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢) كتاب بدء الوحى ، وأحمد فى مسنده (٦/٢٥٧) .

(٢) ذكر البخارى فى صحيحه - كتاب الصلاة ، باب ما يُذكر فى الفخذ (١٢) قول زيد بن ثابت كاتب الوحى موقوفاً عليه : أنزل الله على رسوله ﷺ وفخذه على فخذى ، فثقلت علىَّ حتى خفت أن تُرضَّ فخذى (فتح البارى ١/٤٧٨) .

(٣) عن جندب بن عبد الله البجلى أنه قال : أبطأ جبريل على رسول الله ﷺ ، فقال المشركون : ودع محمداً ربه . أورده ابن كثير فى تفسيره (٤/٥٢٢) .

(٤) سجا : سكن ودام . وقال الفراء : إذا أظلم وركد فى طوله . وليلة ساجية : إذا كانت ساكنة البرد والريح والسحاب غير مظلمة . [لسان العرب - مادة : سجا] .

وهو النهـــار ، وبالليل إذا حلَّ بظلامـــه ، وجـعل من هاتيـن الآيتـين الكونيـتين دليلاً على أن الـوحى ما انقطع ، إنمـا أراد الله لرسوله أن يرتاح من تعبه ، وأنْ يعاود نشاطه لتلقِّى الوحى من جديد ، كما أنكم تتعبون فى النهار وترتاحون فى الليل .

﴿وَالضُّحَىٰ (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣)﴾ [الضحى] ومعروف أن الضـحى للشمس والليل للقمر ، إذن : فـفترة فتور الوحى عن رسول الله يُراد بها التخفـيف عنه ، كما قال سبحانه : ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (١) وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ (٢) الَّذِى أَنقَضَ ظَهْرَكَ (٣)﴾ [الشرح]

والمراد : نشرح صدرك لنزول القرآن عليك فتشتاق إليه ، ويكون عندك طاقـة لاسـتـقـبـاله ، فكأن القـرآن أخـذهم من الآيات الكونيـة المحسوسة إلى المعـنويات ، وجعل ما يرونه دليلاً على ما ينكرونه ، يعنى : إذا كنتم فى حركة حياتكم اليومية تحتاجون لليل تسكنون فيه وترتاحون من عناء النهـار ، فكذلك رسول الله يحتاج إلى هذه الـفترة ليرتاح فيها من عناء وثِقَل الوحى فى بدايتـه ، ليجدد نشاطه ويشتاق إلى لقاء الملَك من جديد .

لذلك قال تـعـالى بعـــدها ﴿وَلَلآخِرَةُ خَيْـرٌ لَّكَ مِـنَ الأُولَىٰ (٤)﴾ [الضحى] فمعاودة الوحى سـتكون أعظمَ من الأولى وخير منها ، لأن المعاودة ستكون أطولَ وأقوى .

وكمـا دخلتْ هذه الآيات الكونيـة التى هى الليل والنهار والـشمس والقمـر فى العقيدة فـى قصة سيـدنا إبراهيم وفى الوحى المنزَّل على سيـدنا رسول الله ، كـذلك دخلتْ فى حلِّ بعض الإشكالات فى قـضايا اجتماعية اهتم الإسلام بها ، وهى قضية المساواة بين الرجل والمرأة .

وهذه قضية كَثُر الجدل فيها ، وأخذها المغرضون ذريعة للهجوم على الإسلام ، مع أن الإسلام أعظم دين أنصف المرأة وأعطاها حقوقها ، وألزم المجتمع باحترامها ، الإسلام ينظر إلى الرجل والمرأة على أنهما نوعان من جنس واحد يعنى : هما فى الأصل شىء واحد .

إذن : لا بدَّ أنْ يكون بينهما قدر مشترك ولما انقسما إلى قسمين ذكر وأنثى ، صار بينهما قدر غير مشترك ، وصار لكل منهما مهمته فى حركة الحياة ، ولكى يوضح لنا السياق القرآنى هذه المسألة قال تبارك وتعالى :

﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ (١) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ (٢) وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ (٣) إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ (٤) ﴾ [الليل] فكما أن الليل والنهار متكاملان متعاونان غير متعاندين ، وكما أن لكل منهما مهمته فى الحياة ، هذا للعمل وهذا للراحة ، فكذلك حال الرجل والمرأة ، عنصران لشىء واحد ، وهما يتكاملان ويتعاونان لا يتعاندان كالليل والنهار ، فحين تنظرون إلى الرجل والمرأة لا تنظروا إليهما على أنهما نوعان مختلفان فى الجنس قد يكون بينهما تعاند ، لأنهما من جنس واحد ، والجنس الواحد لا يُصادم بعضه بعضاً ، الجنس الواحد رسالتُه واحدة ، الكلّ يتعاون فى حملها كُلٌّ بما يناسبه وبما خلقه الله له ، وبما أعطاه من قدرات وإمكانيات .

وهذه قضية اختلفوا فيها ، خاصة الملاحدة الذين نظروا إلى الجنس ، ولم ينظروا إلى ما تحته من الذكر والأنثى ، فرغم الاختلاف بين النوعين إلا أنهم أرادوا أن يكون لهما مهمة واحدة لا اختلاف بين الذكر والأنثى .

لذلك الحق سبحانه يعطينا هذا المثل التوضيحى : الليل والنهار ،

وهل مهمة الليل كمهمة النهار ؟ لكلٍّ مهمته وطبيعته ، ومَنْ يعاند هذه الطبيعة يتعب فى حركة حياته . كذلك جُعل الرجلُ للعمل وللقوة والسعى ، وجُعلَتْ المرأة للعاطفة واستقبال الأبناء وتربيتهم ، خاصة وطفولة الإنسان هى أطول طفولة فى الكائنات ، والإشراف عليها مهمة المرأة ولا يجيدها الرجل .

فالحق سبحانه حينما يعطينا هذا المثل يعلِّمنا أن نرد ما اختلفنا فيه إلى ما اتفقنا عليه ، فكما أننا لا نختلف فى مهمة الليل ومهمة النهار ، كذلك ينبغى ألاَّ نختلف فى مهمة الرجل والمرأة ، وألاَّ نُردد كلمة المساواة هكذا دون فَهْم لطبيعة كُلٍّ من الرجل والمرأة ودور كلٍّ منهما الذى خلقه الله له .

وفى موضع آخر يعلمنا الحق سبحانه هذه الحكمة من خلق الليل والنهار ، فيقول سبحانه : ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٧٢)﴾ [القصص]

وبعد ذلك ، جعل سبحانه وتعالى للزمن مدخلاً آخر غير الليل والنهار ، وهو فترات الزمن : الساعات والدقائق والثوانى ، وبها يتم ضبط الزمن ، والساعة التى تضبط لك الوقت لا تؤدى هذه المهمة إلا إذا كانت هى نفسها منضبطة تماماً ، لذلك جعل الله تعالى للشمس وللقمر مهمة أخرى هى مهمة ضبط الوقت ، لذلك جعلهما منضبطتين فى حركتهما بإحكام .

يقول تعالى : ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥)﴾ [الرحمن] يعنى : بحساب دقيق محكم لا يختلف أبداً ولا يدخله فساد ، ومن حركة

الشمس والقمر نحسب الوقت خاصة الأمور الدينية التى لا نستطيع أنْ نضبطها إلا بهذه الحركة .

قال تعالى : ﴿لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ .. (٥)﴾ [يونس]
فمن حركة الشمس أعرف الليل والنهار ، ومن حركة القمر أعرف بدايات الشهور ونهاياتها .

إذن : من حركة الشمس والقمر والليل والنهار أستطيع أن أضبط حركة التكليف فى الصلاة بأوقاتها المختلفة ، هذه الأوقات التى تضمن دوام إعلان الولاء لله تعالى فى كل وقت وفى كل مكان نتيجةً لاختلاف المشارق والمغارب على مدار اليوم الكامل .

لذلك قال تعالى : ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ.. (٢٨)﴾ [الشعراء]
وفى موضع آخر قال : ﴿بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ .. (٤٠)﴾ [المعارج]
وقال : ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ (١٧)﴾ [الرحمن]

نعم ، هى مشارق متعددة ومغارب متعددة ، لأن كلَّ مكان له مشرق وله مغرب ، وكل مشرق فى مكان مغرب فى مكان آخر وهكذا ، ألاَ ترونَ فى الصيام مثلاً أننا نفطر فى القاهرة قبل الإسكندرية بخمس دقائق ، لماذا ؟ لأن مشرق القاهرة غير مشرق الإسكندرية ، ومغرب القاهرة غير مغرب الإسكندرية ، لذلك نسمع المذيع يقول : مع مراعاة فروق التوقيت ، أى : الفروق الزمنية بين مكان ومكان .

إذن : المتأمل فى حركة الشمس يجدها فى لحظة لها شروق ولها غروب ، وعليه فذكْر الله فى الصلاة وفى الأذان يسيح فى الزمن كله بلا انقطاع ، لذلك يقول أهل التصوف : يا زمن وفيك كُلُّ الزمن ، فأنت حين تصلى الفجر ، هناك غيرك يصلى الظهر ، وغيره يصلى العصر ، وغيره يصلى المغرب ، وغيره يصلى العشاء فى الوقت

نفسه وفى اللحظة نفسها ، فتجد الحق سبحانه معبوداً فى كل وقت بكل أنواع العبادة .

وإنْ أردتَ الدقة أكثر فاجعل هذه المسألة مرتبطةً بعقرب الثوانى فى ساعتك لا عقرب الدقائق ولا الساعات ، ففى كل ثانية لله مؤذن يُؤذِّن : الله أكبر . وغيره يقول : أشهد ألاَّ إله إلا الله ، وغيره فى نفس اللحظة يقول : أشهد أن محمداً رسول الله وهكذا . فكأن شهادة ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله دائمة بدوام الزمن لا تنقطع من الوجود أبداً .

ثم يعطينا الحق سبحانه ملحظاً آخر للشمس والقمر ؛ لأنهما من أعظم المخلوقات ، وعُرف عنهما الثبات والدقة والعظمة فى الخَلْق ، حتى أن بعض الناس عبد الشمس أو القمر ، فأراد الحق سبحانه أن يلفت الخلق إلى عظمة الخالق الذى هو أَوْلَى بالعبادة من مخلوقاته .

فجعل الشمس والقمر يعتريهما تغيير هو الكسوف والخسوف ، فمهما كانتْ الشمس ، ومهما كان القمر هما مخلوقان متغيران ، والمتغير لا يكون معبوداً أبداً ؛ لذلك قال سبحانه فى الآية التى معنا : ﴿لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (٣٧)﴾ [فصلت]

الحق سبحانه فى أول الآية قال : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ.. (٣٧)﴾ [فصلت] والآية هى الشىء العجيب فى الخَلْق البديع فى نظامه وإحكامه ، وهذا الخَلْق العظيم ينبغى أنْ يُعظّم بتعظيم الله له ، لكنْ لا يجوز أنْ يتعدَّى هذا التعظيم إلى حَدِّ العبادة ، وإلى حَدِّ السجود للمخلوق مهما كان عظيماً ، لأنه مخلوق مُتغيِّر ، والإله لا يتغير من أجل العباد ، لكن العبادَ يتغيرون من أجل الله .

وهذه المسألة تُفسِّر لنا قضية سجود الملائكة لآدم عليه السلام ، فلم يكن سجودَ عبادة ، إنما كان امتثالاً لأمر الله لهم بالسجود لآدم ، لكن لماذا أسجد اللهُ الملائكة لآدم ؟

قالوا : لأن آدم سينزل إلى الأرض ، وستكون له حركة إعمار فيها ، وستكون الملائكة فى عَوْنه تساعده على أداء مهمته فى الأرض ، الملائكة الموكلون بأمور الناس وهم المدبِّرات أمراً ، وكما قال تعالى فى وصفهم : ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ .. (١١)﴾ [الرعد]

فالملائكة الذين أُمروا بالسجود ليس هم كلّ الملائكة ، إنما الذين لهم علاقة بالإنسان ، فكأن الحق سبحانه يُعرِّفهم على هذا المخلوق الجديد ، الذى سيكونون فى خدمته ، فاسجدوا له سجودَ خضوع وامتثال ، ليعلموا أنهم فى خدمته يُدبِّرون له الأمور .

لذلك ورد فى الحديث الشريف[1] « يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون فى صلاة الصبح وصلاة العصر فيصعد إليه الذين باتوا فيكم فيسألهم وهو أعلم بكم : كيف تركتم عبادى فيقولون : أتيناهم وهم يصلون ، وتركناهم وهم يصلون » يعنى : على هيئة ورديات دائمة لا تنقطع .

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٦٣٢) والبخارى فى صحيحه (٥٥٥) من حديث أبى هريرة . قال النووى فى شرحه على صحيح مسلم (٣/١٣٩) طبعة دار القلم بيروت : « أما اجتماعهم فى الفجر والعصر فهو من لطف الله تعالى بعباده المؤمنين وتكرمة لهم أن جعل اجتماع الملائكة عندهم ومفارقتهم لهم فى أوقات عباداتهم واجتماعهم على طاعة ربهم ، فتكون شهادتهم لهم بما شاهدوه من الخير » .

ومن الملائكة نوعٌ آخر لا دَخْلَ له بالإنسان ، ولا علاقةَ له به ، بل لا يدرون عن عالمنا هذا شيئاً ، وهم العَالُون الذين قال الله فيهم فى الحديث عن إبليس : ﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥)﴾ [ص]

إذن : إذا كان السابقون عظموا الشمس والقمر حتى سجدوا لهما ، فاعلموا أن خالقهما أَوْلَى بالسجود : ﴿لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (٣٧)﴾ [فصلت] يعنى : إن كنتم تأتمرون بأمره .

ملحظ آخر نأخذه من الشمس يُوقفنا على شىء غريب لم نكُنْ نعرفه من قبل ، ففى سورة الكهف يحكى لنا القرآن سياحة ذى القرنين ، فيقول سبحانه : ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِى الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا (٨٣) إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِى الأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا (٨٤) فَأَتْبَعَ سَبَبًا (٨٥) حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ .. (٨٦)﴾ [الكهف]

أى : مغرب الشمس فى مرأى العين ، لأنك لو وصلتَ إلى العين الحمئة فسوف تجد الشمس ما زالتْ بعيدة ﴿وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا (٨٦)﴾ [الكهف] ذلك لأنه رجل مُمكَّن فى الأرض ، له منزلة وسلطان .

والمُمكَّن فى الأرض مهمته أنْ يقيم فيها موازين العدالة ومعايير الصواب والعقاب ، لأن حركة الناس فى الدنيا لا تستقيم إلا إذا أُثيب المحسن وعُوقب المسىء .

﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا (٨٧)

وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ [الكهف]

ثم تكلم عن مطلع الشمس ، فقال : ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾﴾ [الكهف] يعنى : ليس بينهم وبينها حجاب يسترها ، ولم يذكر لنا شيئاً بعد مطلع الشمس كما ذكر الدرس السابق عند مغرب الشمس ، حيث كان له عمل ودور مع مَنْ أحسن ومن أساء ، أما فى مطلع الشمس فقال : ﴿لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾﴾ [الكهف] وسكت ، فكأن الهدف أنْ نعرف أن ذا القرنين وصل إلى مكان ، نهاره طويل لا شىء يحجب الشمس فيه .

وبعد أن اكتشف العلماءُ خطوطَ الطول وخطوط العرض عرفنا أن بعض الأماكن عند القطبين يطول النهار حتى يصل إلى ثلاثة أشهر أو ستة أشهر ، وهذه لقطة من إعجاز القرآن العلمى .

فإنْ قلتَ : فكيف يفعل مَنْ يعيش فى هذه الأماكن ؟ كيف يصلى وكيف يصوم ؟ نقول : يُقدِّر لليوم العادى مقداره ، ولليل مقداره فيقسم الوقت إلى ليل ونهار كالمعتاد ، وكذلك مَنْ كان ليله ثلاثة أشهر أو ستة أشهر .

ملحظ أخير يتعلق بصياغة الآية وما فيها من دقة بيانية ، فالحق سبحانه بدأ بآية الليل ثم النهار ، وبدأ بالشمس ثم القمر ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ .. ﴿٣٧﴾﴾ [فصلت] وكانت المناسبة تقتضى أنْ يقول : والقمر ليناسب الليل ، والشمس لتناسب النهار .

لكن لصياغة القرآن حكمة ودقة بيانية ، فالحق سبحانه يبدأ بالأهم فى حركة الحياة ، فالليل جُعِل للراحة والنهار للعمل ، لأن الخالق سبحانه خلق الإنسانَ لإعمار الأرض ، وللسعى فى مناكبها ، ولا إعمارَ إلا بحركة ، والحركة تحتاج إلى زمنين : زمن للراحة ، وزمن للعمل .

فقدَّم الليل وقت الراحة لأنك لا تنتج ولا تكدّ إلا إذا أخذتَ حظك من الراحة أولاً ، فكأن الراحة أولاً هى أصلٌ يأتى بعدها العمل ، وإلا فالمتعَب المكدود لا ينتج ولا ينجز ، كذلك قدَّم الشمس على القمر ، لأنها الأعظم والأهم ، ومنها تستمد كل النجوم والكواكب نورها .

وما دُمْنا بصدد الحديث عن الليل والنهار ، فلا بدَّ أن يواجهنا هذا السؤال : أيهما أوَّلٌ فى الخَلْق ؟ البعض يقول : الليل أولاً . بدليل أننا نثبت مثلاً دخولَ رمضان بليله لا بنهاره ، فحين نرى الهلال نقول : غداً رمضان ، والذين يعتقدون أن الليل وُجد أولاً لابدَّ أن لديهم قضية أخرى هى أن النهار غير سابق لليل .

الحق سبحانه يُنهى هذه المسألة ، فيقول سبحانه : ﴿ لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ[1] يَسْبَحُونَ (٤٠) ﴾ [يس]

وننتهى بذلك إلى حقيقة كونية أثبتها الحق سبحانه هى : لا النهار يسبق الليل ، ولا الليل يسبق النهار ، لأنهما كما بيَّنا وُجِدَا فى بداية الخَلْق معاً ، فى وقت واحد ، ثم دار كل منهما مع الآخر .

---

(١) الفَلَك : مدار النجوم . والجمع أفلاك . وأهل النجوم يقولون : الفلك سبعة أطواق دون السماء قد رُكِّبت فيها النجوم السبعة ، فى كل طوق منها نجم وبعضها أرفع من بعض يدور فيها بإذن الله [اللسان – مادة : فلك] .

﴿ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ[1] يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا .. (٣٨) ﴾ [فصلت] أى : عن طاعة الله فى أمره ونَهْيه فى الآية قبلها ﴿ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِى خَلَقَهُنَّ .. (٣٧) ﴾ [فصلت] ، والاستكبار هنا يدلُّ على عدم الإيمان بالله الآمر الناهى ، لأنهم سجدوا للشمس وسجدوا للقمر سجودَ عبادة ، والعبادة تعنى طاعة العابد لأمر المعبود ، والشمس والقمر ليس لهما أوامر ولا نَوَاه ، فعبادتهما باطلة ، وتدل على غباء مَنْ عبدها وعلى كذبه فى هذه العبادة ، لأنها مخلوقات لا أمرَ لها ولا نهى ولا تكاليفَ ، لا تثيب مَنْ أطاعها ، ولا تعاقب مَنْ عصاها .

لذلك قلنا : إن كلمة العبادة هنا كذب وباطلة (فنطزية) يعنى ؛ المهم يكون لهم معبودٌ يُرضى عنده رغبته فى التدين ، وما أسهلَ أنْ يتخذَ الإنسانُ معبوداً لا تكاليفَ له .

لذلك لما قالوا : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ .. (٣) ﴾ [الزمر] قلنا : كلمة نعبدهم هنا كذب ، بدليل أنكم إذا نزل بكم الضر لا تلجئون إلى الشمس ولا إلى القمر ، إنما تلجئون إلى الله : ﴿ وَإِذَا

---

(١) قال الرازى فى تفسير هذه الآية (فصلت ٣٨) : تمسك المشبهة بقول ﴿ فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ (٣٨) ﴾ [فصلت] فى إثبات المكان والجهة لله تعالى ، والجواب : أنه يقال عند الملك من الجند كذا وكذا . ولا يراد به قرب المكان . فكذا ههنا . ويدل عليه قوله « أنا عند ظن عبدى بى » « وأنا عند المنكسرة قلوبهم لأجلى فى مقعد صدق » .

مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ .. (٦٧) ﴾ [الإسراء]

وقال : ﴿ وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ .. (٣٣) ﴾ [الروم]

وقوله تعالى : ﴿ فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لا يَسْأَمُونَ (٣٨) ﴾ [فصلت]

المعنى : أن الحق سبحانه مُستغْنٍ عن طاعة هؤلاء المستكبرين وعن عبادهم ، فله سبحانه ملائكة مُكرمون ، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يُؤمرون ، يُسبِّحون الليل والنهار لا يفترون ، ولا عملَ لهم سوَى التسبيح ، وهم لا يسأمون ولا يملّون ولا يتعبون .

قالوا فى العندية هنا ﴿ فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ .. (٣٨) ﴾ [فصلت] أنها عندية مكانة ، لا عندية مكان ، عندية تكريم وشرف ، كما قال سبحانه عن الشهداء : ﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) ﴾ [آل عمران]

وقال سبحانه : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (٥٤) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ (٥٥) ﴾ [القمر]

فهؤلاء الملائكة ليسوا عند الله فى مكان واحد ، ولا هم قاعدون معه سبحانه ، إنما هى مثلنا تماماً لا يروْنَ الله سبحانه ، ويؤمنون به مثلنا بالغيب ، والله بالنسبة لهم غَيْبٌ ، وبعض التفسيرات وأنا أشجعها تميل إلى أن الله تعالى ليس له مكان لأنه فى كل مكان ، فكل مكان عند الله .

ولذلك اقرأ قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ فَلَوْلا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ (٨٣) وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ (٨٤) وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لاَّ تُبْصِرُونَ

(٨٥) ﴾ [الواقعة] البعض يقول : العندية هنا عندية علم ، ولو كانت كذلك لم يقُلْ ﴿ وَلَـٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ (٨٥) ﴾ [الواقعة] فما دام قال ﴿ وَلَـٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ (٨٥) ﴾ [الواقعة] فهى عِنْدية حقيقية شائعة فى كل مكان .

﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَـٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (٣٩) ﴾

ما يزال السياق القرآنى يأخذنا إلى الآيات الكونية التى تثبت قدرة الخالق سبحانه ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ .. (٣٩) ﴾ [فصلت] من هنا قلنا للتبعيض . يعنى : هذه بعض آيات الله (آياته) أى : الكونية الدالة على قدرته تعالى ، وهى الشىء العجيب الدالّ على بديع الصنعة ﴿ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً .. (٣٩) ﴾ [فصلت] أى : ساكنة مستقرة لا شىء عليها من زرع مثلاً ، لأن الأرض خُلقت لتكون تربة للنبات ، وكأنَّ الأرض التى لا زرعَ عليها أرضٌ حزينةَ خاشعة ساكتة ساكنة لأنها لم تنبت ، وربما شابهت فى ذلك المرأة التى لا تنجب .

﴿ فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ .. (٣٩) ﴾ [فصلت] اهتزَّتْ : تحركت (وَرَبَتْ) زادت وانتفشتْ ، تروْنَ حبة الفول النابت مثلاً تكون جافة جامدة ، فإذا بللتها بالماء زادتْ فى الحجم وانتفشَتْ ، والمراد : اهتزتْ وتحركت بما يخرج منها من نبات .

﴿ إِنَّ الَّذِى أَحْيَاهَا .. (٣٩) ﴾ [فصلت] أى : أحيا هذه الأرض الساكنة بالنبات وحوَّلها إلى هذا البساط الأخضر النضر ﴿ لَمُحْيِى الْمَوتَىٰ .. (٣٩) ﴾ [فصلت] إذن : خُذْ من هذه الآية الحسّية المشاهدة

لك دليلاً علَى صدْق ما غاب عنك وأخبرك الله به من أمر إحياء الموتى ، فيا مَنْ تكذِّب بالبعث وإحياء الموتى ، أما لك عبرةٌ فى إحياء الأرض القَفْر الجدباء بالنبات .

﴿ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٩) ﴾ [فصلت] يعنى : قدرة الله فيها طلاقة ، لأنه سبحانه لا يعجزه شىء ، والذى خلق الخَلْق الأول من عدم أقدرُ على إعادته ؛ لأن بعث الميت يبعث شيئاً موجوداً وهذا أهون لو قلنا تجاوزاً فى حَقِّ الله تعالى هيِّن وأهون ، لكى نفهم نحن ، يقول تعالى : ﴿ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ (١٥) ﴾ [ق]

الحق سبحانه وتعالى أخبرنا عن كيفية خَلْق الإنسان والذى يعرف كيفية البناء يعرف منها كيفية الهدم ، وقلنا : إنها عكس البناء ، فما بُنِى أولاً يُهدم آخراً ، وآخر شىء فى البناء أول شىء فى الهدم وهنا الروح .

ولا بدَّ أن نذكر هنا أن الحق سبحانه حذَّرنا من المضلين الذين يضلون الناس فى مسألة الخَلْق . فقال : لا تُصدِّقوا مَنْ يخبركم بشىء فى هذا الموضوع لأنه لم يشهد عملية الخَلْق : ﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا[1] (٥١) ﴾ [الكهف]

إذن : فكأن الذين قالوا إن الإنسان أصله قرد جنودٌ لهذه الآية

---

(١) عضداً . أى : أعواناً مساعدين . ومنه قول الحق سبحانه : ﴿ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ (٣٥) ﴾ [القصص] أى : سنقويك به على سبيل المجاز المرسل فتقوية العضد تقوية للإنسان كله . [القاموس القويم ٢/٢٤] .

ودليل على صدقها ، فالحق سبحانه يعلم ذلك ويتنبأ لنا به ، وها هو يحدث فلا تُصدِّقوهم ، إنهم كاذبون بدليل أن الإنسان عاش على هذه الأرض آلاف السنين لم يَرَ إنساناً تحوَّل إلى قرد ، ولا قرداً تحوَّل إلى إنسان .

ولقد توصَّل العلم الحديث إلى صدق القرآن فى مسألة خَلْق الإنسان من طين الأرض ، حيث وجدوا أن عناصر تكوين الإنسان هى نفس عناصر تكوين الأرض ، وهى ستة عشر عنصراً ، وحين يموت الإنسان تتحلّل هذه العناصر وتذوب فى الأرض ، فأجزاؤه موجودة يعلمها الله ويُحصيها وهو وحده القادر على إعادتها .

واقرأ : ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ (٤) ﴾ [ق] فالمسألة صعبة بالنسبة لك ، لكنها سهلة هيِّنة على الخالق سبحانه ، فهو عز وجل يعلم كم نقص منك من عناصر ومقدار هذه العناصر ونحن بنو البشر نختلف فى أشكالنا وألواننا ، لكن المادة واحدة هى الستة عشر عنصراً فى الكل ، لكن الأجزاء تختلف ، ونسبة هذه العناصر تختلف من إنسان لآخر ، ولذلك تختلف شخصياتنا .

فقوله : ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ .. (٤) ﴾ [ق] يعنى : كم أخذتْ منك من الأكسوجين ، وكم أخذت من الكربون ، وكم أخذت من الحديد .. وهكذا فهى إذن مقادير معلومة فى علم الله سبحانه وفى هذا الكتاب الحفيظ الذى يحفظ كل شىء بكل دقَّة ، وحفيظ فعيل يعنى : صيغة مبالغة من الحفظ . فلا تُكذِّب بالبعث ، وخُذْ مما ترى دليلاً على صِدْق ما أخبرك ربُّك به من الغيبيات .

قلنا : لو أن إنساناً يزِنُ مائة كيلو مثلاً ثم مرض ، فنزل وزنه إلى ستين ، فكم فقد من وزنه ؟ فقد أربعين ، أين هى ؟ نزلتْ

فضلات إلى الأرض ، نعم ، ثم ذهب إلى الطبيب فعالجه وشفاه الله وبدأ يأكل حتى عاد إلى وزنه الأول .

هل أخذ نفس العناصر ذاتها التى فقدها ؟ لا بل أخذ مثلها ، مثل المريض مثلاً بنقص الحديد فيعطيه الطبيب دواء غنياً بالحديد حتى تعتدل عنده نسبة الحديد فى الدم ، إذن : أخذ نفس العناصر التى فقدها من عنصر الحديد ، لكن ليستْ هى هى التى فقدها من قبل .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ يُلْحِدُونَ .. ﴿٤٠﴾ ﴾ [فصلت] : أى : يميلون بآيات الله عن الحق والاستقامة إلى باطل يروْنَهُ هم حقاً ، أو يُحرِّفون الآيات تبعاً لأهوائهم ؛ لأن آيات الله لها معانٍ ، فهم يُلحدون فيها . يعنى : يُخفونها ويُظهرون لها معانىَ أخرى باطلة ، كما نلحد نحن الميت فى باطن الأرض ، بعد أنْ كان يسيرُ عليها ، فالمعنى يُخْفُون حقائقها ليُرضُوا كفرهم وهواهم .

ومن الإلحاد فى آيات الله ما وقع فيه البعض من التشبيه أو التمثيل فى أسماء الله وصفاته ، فحين يقفون عند صفة لله تعالى يُوجد مثلها فى البشر يُشبِّهون ، فالله له سمع ليس كسمعنا ، وله يد ليست كأيدينا ، وله بصر ليس كبصرنا ، إذن : لا بدَّ أنْ نأخذ هذه الصفات فى إطار عام للآيات الكلية ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ .. ﴿١١﴾ ﴾ [الشورى]

ومنه قولهم عن المعجزة سحْر فى قصة سيدنا موسى - عليه السلام - مع فرعون وفَرْق بينَ السحر والمعجزة ، المعجزة حقيقة والسحر تخييل بعيد عن الحقيقة ، صحيح أن معجزة موسى عليه السلام كانت من جنس السحر لأنه المجال الذى نبغ فيه قومه لكنها لم تكُنْ سحراً .

فالحبال التى رماها سحرة فرعون رآها موسى ثعابينَ تسعى ، أما السَّحَرة أنفسهم فيروْنَها حبالاً ، فالسحر يُخيل لك الشىء أنه غيره مع أنه ليس كذلك فى الحقيقة إنه مجرد خيال ، لذلك قال تعالى : ﴿ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ (٦٦) ﴾ [طه] تخييل لا حقيقة .

لكن لما ألقى موسى عصاه ، ماذا حدث ؟ تحولتْ إلى حية حقيقية ، بدليل قوله تعالى : ﴿ فَأَوْجَسَ[1] فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ (٦٧) ﴾ [طه] ولا يمكن أنْ يخاف موسى من عصاه وهى عصاً لا بدّ أنها انقلبتْ إلى حية بالفعل وهو يراها كذلك ، وبدليل أيضاً أن سحرة فرعون وكانوا كثرةً ، ولهم تمرُّس بأساليب السحر ويستطيعون التمييز بين السحر والحقيقة ، رأيناهم يرفعون راية التسليم لموسى ويؤمنون معه ، لماذا ؟

لأنهم رأوا معجزة هم أخْبَرُ الناس بها ، وأنها ليست سحْراً من جنس سحرهم ، ولا تخييل كما يفعلون هم ، ولو كان فعْل موسى تخييلاً ما قال الله له : ﴿ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ (٢١) ﴾ [طه]

---

(١) أوجس فى نفسه : أضمر الخوف فى نفسه حين رأى أعمال السحرة ، وقال فى قصة إبراهيم مع الملائكة : ﴿ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً .. (٢٨) ﴾ [الذاريات] أى : أحسَّ الفزع والخوف . [القاموس القويم ٢/٣٢١] .

وكما قالوا فى موسى – عليه السلام – أنه ساحر قالوها فى سيدنا محمد ﷺ ، والردّ عليها كما أوضحنا بسيط ، نقول لهم : لو كان محمد ساحراً سحر مَنْ آمن به ، فلماذا لم يسحركم أنتم وتنتهى المسألة ؟

ومن إلحادهم فى آيات الله قولهم عن رسول الله ﷺ أنه مجنون مع أنهم ما جرَّبوا عليه شيئاً من ذلك ، وعُرف بينهم بالصادق الأمين ، واتصف فيهم بكريم الأخلاق ، وصاحب الخلق لا يكون أبداً مجنوناً ، وقد ردّ الله عليهم ﴿مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (٢)﴾ [القلم]

ومن إلحادهم فى القرآن أنهم قالوا عنه إنه شعر ، وعجيبٌ منهم ذلك لأنهم أعرفُ الناس بأساليب الشعراء وتعبيرات الشعراء ، هم يعرفون أن القرآن مُعْجز ، وأنه من عند الله ، وأن أسلوبه لا يُضاهَى ، وأنه فريدٌ من نوعه ومع ذلك يكذبون ، وهذا هو الإلحاد .

ومعلوم أنَّ من عظمة القرآن الكريم أنه ليس له أسلوبٌ يُحتَذى ، وأن له مذاقاً خاصاً ، وتقرأ الحديث النبوى تجد له مذاقاً آخر ، وتقرأ الحديث القدسى تجد له مذاقاً آخر ، فمَنْ يجمع كلّ هذه الأساليب بهذا التميز ، وكل منها يفيض عليك بفيض غير الآخر ، وقد ردّ الله عليهم هذا الإلحاد فقال : ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ (٤١)﴾ [الحاقة]

ومن إلحادهم أنْ يُغيروا فى الأشياء المطلوبة منهم ، وأنْ يُحرِّفوا الكلمات ، يقول تعالى : ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا[1] يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى الدِّينِ .. (٤٦)﴾ [النساء]

---

(١) الهَوْد : التوبة والرجوع إلى الحق . هُدْنَا : معناه تبنا إليك ورجعنا وقربنا من المغفرة . هذا هو الأصل اللغوى للكلمة . والتهويد أن يصير الإنسان يهودياً . [لسان العرب – مادة : هود] .

فكانوا يقولون (راعنا) يلوون بها ألسنتهم يعنى : من الرعونة ، لذلك نهى الله المؤمنين أن يقولوها ، فقال سبحانه فى سورة البقرة : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٠٤) ﴾ [البقرة]

ومن ذلك إلحادهم فى السلام على رسول الله ﷺ ، فبدلَ أنْ يقولوا : السلام عليكم قالوا : السام عليكم .

إذن : فوُجُوه إلحادهم فى آيات الله كثيرة ، وقد أخبر اللهُ عنهم أنهم نَسُوا حظاً مما ذُكِّروا به ، والذى لم ينسوه حرَّفوه ، والذى لم يُحرِّفوه كتموه ، وليْتهم وقفوا عند هذا الحد ، بل وصلتْ جُرأتهم على الله أن يكتبوا الكتاب بأيديهم ويقولون : هذا من عند الله ، وما هو من عند الله ، وهذا كله ألوان مختلفة لإلحادهم .

لذلك الحق سبحانه يخبر هنا : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا .. (٤٠) ﴾ [فصلت] نعم لا يخفوْنَ عن علم الله ، فعدم الخفاء شىء لازم ، لكن المراد أنْ نخبرهم بجريمتهم حتى نعاقبهم عليها ، لأن الجريمة شىء والعقوبة عليها شىء آخر ، فالحق يُعرِّفهم بجريمتهم حتى يكون للعقوبة موضعٌ ، كما يقول أهل القانون : لا تجريمَ إلا بنصٍّ . فكأن الحق سبحانه لا يأخذهم على غِرَّة ، ولا يتركهم فى عَمَىً ، إنما يُوضح لهم قبل أنْ يُؤاخذهم .

﴿ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ .. (٤٠) ﴾ [فصلت] هذا سؤال معلوم الإجابة عنه ، والحق يسألنا وهو يعلم أن الجواب سيكون كما يريد سبحانه ، فكأن الحق سبحانه يقول لنا من خلال هذا السؤال : احرصوا على أوامر الله نفّذوها ، وإياكم والنواهى فاجتنبوها ، فهذا هو سبيل الأمن والنجاة من النار ، وهل يستوى مَنْ

يُلْقى فى النار ومَنْ يأتى آمناً سالماً ؟

وما دام أن هذا السؤال جاء بعد الكلام عن الإلحاد فى آيات الله فيكون المعنى : الذين يلحدون فى آيات الله لهم النار يُلْقَوْنَ فيها يوم القيامة ، والذين لا يُلحدون فى آيات الله يأتون آمنين .

ومن الغباء أن الإنسان يُلحد فى آيات الله لينالَ بذلك سلطةً زمنية أو مكانة مؤقتة ، مآلُها إلى زوال مُحقق ، ثم يلاقى بعد ذلك مصيراً مؤلماً فى نار خالدة لا نهايةَ لها .

تعالَ إلى أعظم الناس نعيماً فى الحياة ، أخذ منها الغنَى والقوة والسلطان والمهابة والعز كله ، واسأله هل يُنغِّص شىء هذه النعمة ؟ سيقول لك : أخاف ألاَّ تدوم ، نعم يُنغصها على أصحابها عدم دوامها ، فإما أنْ تتركهم النعمة وهم أحياء يُرزقون ، وإما أنْ يتركوها هم بالموت .

لذلك يخبرنا سيدنا رسول الله ﷺ عن حال هؤلاء المنعَّمين فى الدنيا من أهل الكفر كيف هم فى الآخرة ؟ يقول الرسول : « أن الواحد منهم يُغمس غمسةً واحدة فى النار - والعياذ بالله - ثم تسأله الملائكة : هل رأيتَ فى الدنيا نعيماً قط ، يقول : لا والله ما رأيتُ فيها نعيماً قط ! »[١] .

---

(١) عن أنس بن مالك قال قال رسول الله ﷺ : « يؤتى يوم القيامة بأنعم أهل الدنيا من الكفار فيُقال : اغمسوه فى النار غمسة فيُغمس فيها ثم يقال له : أى فلان هل أصابك نعيم قط ؟ فيقول : لا ما أصابنى نعيم قط . ويؤتى بأشد المؤمنين ضراً وبلاء فيقال : اغمسوه غمسة فى الجنة فيغمس فيها غمسة فيقال له : أى فلان هل أصابك ضر قط أو بلاء فيقول : ما أصابنى قط ضر ولا بلاء » . أخرجه ابن ماجه فى سننه (حديث ٤٣١٢) .

فمَنْ إذن يترك نعمةً باقية خالدة لنعمة مُنغصة زائلة فانية ، ثم أنت تتنعَّم فى الدنيا على قدر إمكاناتك وقدراتك ، وفى الآخرة تتنعم على قَدْر قدرة الله وكرمه وعطائه فى جنة فيها ما لا عَيْنٌ رأيت ، ولا أُذن سمعتْ ، ولا خطر على قلب بشر .

وما دُمْنا أمام أمرين لا يستويان ، ووجه الصواب فيهما واضح ، وما دُمْنا قد بيَّنا لكم هذا البيان فأنتم أحرارٌ اختاروا لأنفسكم ﴿ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٤٠) ﴾ [فصلت] والأمر هنا للتهديد وللتحذير ، يعنى : اعملوا ما شئتم فالله يراكم ، والله مُطلع على أعمالكم ، وقادر على أنْ يُجازيكم عليها جزاءً وفاقاً .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ (١) وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (٤١) لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (٤٢) ﴾

الكفر هنا بمعنى الستر أى : ستر الإيمان بواجب الوجود ، لأن الستر يقتضى مستوراً ، فما هو المستور فى عملية الكفر ؟ الكفر يستر مقابله ، يستر الإيمان ، فكأن الإيمان أمرٌ فطْرى وهو الأصل والكفر طارىء عليه ليستره ، وكأن الكفرَ بهذا المعنى جُنْد من جنود الإيمان ودليلٌ عليه .

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٩/٦٠٣٢) : « الذكر هاهنا القرآن فى قول الجميع ، لأن فيه ذكر ما يحتاج إليه من الأحكام » .

وكلمة ﴿بِالذِّكْرِ .. (٤١)﴾ [فصلت] هنا بمعنى القرآن الذى نزل على قلب رسول الله ﷺ ، قال تعالى ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩)﴾ [الحجر] ويُطلق الذكر أيضاً على الكتب السابقة على القرآن : ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٤٣)﴾ [النحل]

وقال تعالى : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ (٤٨)﴾ [الأنبياء] ويُطلق الذكر ويُراد به الصِّيت والمنزلة . ﴿وَإِنَّهُ (٤٤)﴾ [الزخرف] أى : القرآن ﴿لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ .. (٤٤)﴾ [الزخرف] وقال سبحانه : ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ .. (١٠)﴾ [الأنبياء]

ويُطلق الذكر على تسبيح الله : ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ .. (٩١)﴾ [المائدة]

ويُطلق الذكر على ذكر الله بالطاعة ، وذكر الله للعبد بالفيوضات والمغفرة : ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ .. (١٥٢)﴾ [البقرة]

وقوله سبحانه : ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (٤١)﴾ [فصلت] كلمة عزيز لها معَانٍ منها العزيز أى : النادر الثمين . والعزيز : الغالب الذى لا يُغلب . ومنه قوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ (٤)﴾ [آل عمران] فالقرآن غالبٌ يعلو ولا يُعْلَى عليه ، يأخذ بالقلوب ويستولى عليها ، بدليل قولهم[1] : ﴿لا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (٢٦)﴾ [فصلت]

---

(١) أى : كفار مكة . قال ابن عباس : قال أبو جهل : إذا قرأ محمد فصيحوا فى وجهه حتى لا يدرى ما يقول . [تفسير القرطبى ٩/٦٠٢١] .

ذلك لأن الذى يسمع كلام القرآن ، لا بُدَّ أن ينبهر به شريطة أنْ يستقبله بقلب صَاف ووجدان غير جامد ، فإنْ صادف حُسْنَ الاستقبال كان له هذا الأثر الذى رأيناه فى قصة إسلام سيدنا عمر رضى الله عنه ، وكان من ألدِّ خصوم الإسلام إلى اللحظة التى علِم فيها بإسلام أخته وزوجها[١] ، فجاء إليها ولطمها حتى سَالَ الدَّمُ من وجهها ، فكان هذا الدمُ سبباً فى رِقَّة قلبه رِقَّةً غلبتْ جهله ، فلما سمع القرآنَ منها سمعه هذه المرة بقلب ومواجيد وعاطفة صافية فتأثر به وأسلم .

إذن : فالقرآن عزيز غالب ، لذلك ورد فى الحديث الشريف أن رسول الله ﷺ قال : « إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ، فإن المُنبتَّ [٢] لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى »[٣] .

وقال : « ولن يُشَادَّ الدِّين أحدٌ إلا غَلَبه »[٤] .

فإذا أردتَ أنْ تختار بين أمرين أو توازن بينهما ينبغى أن تكون

---

(١) هو : خبَّاب بن الأرت بن جندلة بن سعد ، من تميم ، أبو يحى التميمى من نجباء السابقين ، شهد بدراً والمشاهد . قيل : مات فى خلافة عمر وصلى عليه عمر . بل مات بالكوفة عام ٣٧ هجرية وصلى عليه على ، وقيل : عاش ثلاثاً وسبعين سنة . [الأعلام للزركلى ٢/٣٢٣] .

(٢) المنبت : الذى انقطع فى سفره أى أصاب دابته الإعياء والتعب وبلغ بها مبلغاً كبيراً ، فلا هو أراح دابته لتصل به إلى حيث يشاء ، ولا هو وصل إلى المكان الذى يريده .

(٣) أخرجه البيهقى فى السنن الكبرى (٣/١٨) من حديث جابر بن عبد الله أن النبى ﷺ قال : « إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ، ولا تُبغِّض إلى نفسك عبادة الله ، فإن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى » وأخرجه البيهقى أيضاً فى شعب الإيمان (٣٧٢٨) من حديث عائشة ، (٣٧٢٩) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص .

(٤) أخرج البخارى فى صحيحه (٣٨) عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « إن الدين يُسْر ولن يُشادَّ الدين أحد إلا غلبه ، فسددوا وقاربوا وأبشروا » ، وكذا النسائى فى سننه (حديث ٤٩٤٨) .

خالىَ الذِّهْن تماماً وتُخرج ما فى قلبك من هَوىً لأيِّهما ، ثم تُوازن بينهما ، فما ارتحتَ له فامْض فيه ، لذلك قال تعالى : ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ .. (٤) ﴾ [الأحزاب]

إذن : هو قلب واحد ، إنْ عُمر بالشر كيف يستقبل الخير ؟ لابد أنْ تُخرج الشر أولاً لأن الشر سيطرد الخير .

يقول تعالى عن تلقِّى المنافقين والكافرين للقرآن : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا .. (١٦) ﴾ [محمد] يعنى : كأنهم لم يتأثروا به ولم يفهموه ، أى : كبْراً وعناداً ، فردَّ الله عليهم ﴿ قُلْ هُوَ .. (٤٤) ﴾ [فصلت] أى : القرآن ﴿ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ[1] وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى .. (٤٤) ﴾ [فصلت]

فالقرآن واحد ، لكن أثره مختلف باختلاف المتلقى ، فهو هدى وشفاء لأهل الإيمان ، وعَمىً لأهل الكفر والنفاق .

إذن : الحق سبحانه يريد منَّا عدالة الاختيار وعدالة البحث والموازنة بين الأمرين ، فإنْ توفَّرتْ هذه العدالة فالقرآن غالبٌ لا محالةَ ، القرآن لا يزاحمه ولا ينافسه شىء إذا استُقبل الاستقبالَ السليم ، حتى فى الأمور التى يقف فيها العقل تجد الوجدان يصدقها .

لذلك قلنا : إن واردَ الرحمن لا يطارده واردُ الشيطان ، وهل عارضت أم موسى وارد الرحمن لما قال لها : ﴿ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي .. (٧) ﴾ [القصص] العقل لا

---

(١) وقرت أذنه : ثقل سمعها أو صُمَّت وقراً . فالوقر : ثقل فى السمع أو صمم . [القاموس القويم ٢/٣٥٠] .

يقبل هذا ، لكن يقبله الوجدان الصافى ، والذين سمعوا القرآن فلم يتأثروا به ولم يثمر فى أنفسهم ثمرته ، إنما استمعوه وهم مشغولون بضده .

فنحن إذن فى حاجة إلى عدالة الاختيار ثم حماية الاختيار ، لذلك نقول فى الرد على مَنْ يدَّعى أن الإسلام نُشر بحدِّ السيف ، هذا غير صحيح ، فالسيف فى تاريخ الإسلام ما جاء ليفرض عقيدة ، إنما جاء لحماية الاختيار ، وحماية حرية الدين فى الإعلان عن نفسه ، وحرية العقيدة أمر كفله الإسلامُ بدليل أنه ترك فى بلاد الإسلام ناساً على كفرهم وعلى ديانتهم ، وقال : ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ..﴾ (٢٩) [الكهف]

ولأن الإسلام انطلق من حرية الاعتقاد وجعل الدين اختياراً حكَمَ على المرتد بالقتل[1] ، والعجيب أن أعداء الإسلام يأخذون هذه المسألة مطعناً فى دين الله ، ويقولون : إن الإسلام يحارب حرية الاعتقاد ويُجبر الناس على اعتناقه .

وهذا اتهام باطل ، فالمتأمل يجد أنَّ الإسلام يعلن هذا الحكم لمن لم يؤمن بَعْد ، يقول له : انتبه قبل أنْ تدخلَ الإسلام ، ولاحظ أنك

---

(١) قال رسول الله ﷺ : « من بدل دينه فاقتلوه » . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٧٩٤ ، ٦٤١١) وأبو داود فى سننه (٣٧٨٧) والترمذى فى سننه (١٣٧٨) وقال : صحيح حسن والعمل على هذا عند أهل العلم فى المرتد . وكذا النسائى فى سننه (٣٩٩١ ، ٣٩٩٢ ، ٣٩٩٣ ، ٣٩٩٤ ، ٣٩٩٥) وكذا ابن ماجة فى سننه (٢٥٢٦) ، وكذا أحمد فى مسنده (١٧٧٥ ، ٢٤٢٠ ، ٢٤٢١ ، ٢٨١٣ ، ٢١٠٠٧) ، فهذا الحديث حديث صحيح . وقول الجمهور على أن المرتد يُستتاب ثلاثة أيام لعله يتوب فإن لم يتب يقتل ، وذهب على إلى أنه يستتاب شهراً . أى : أن لكل مرتد حالته التى يتم فيها تقدير وضعه .

تُقتل لو ارتددتَ عنه ، وهذه عقبة فى طريق الإسلام تُمحِّص أهله بحيث لا يُقبل عليه إلا مَنْ اقتنع به واستقرَّ الإسلام فى قلبه بلا منازع ، فالحكم بقتل المرتد يحمى إقبالك على الاختيار ويُنبهك ، فإما أنْ تنصرف ، وإما أنْ تعرف أنه الحق فتؤمن به .

وقوله تعالى : ﴿لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ .. (٤٢)﴾ [فصلت] يعنى : لا يأتيه الباطل من أىِّ جهة ؛ لذلك حاول المستشرقون أنْ يتلمسوا فى القرآن مأخذاً .. وهيهات لهم ذلك .. فوقفوا مثلاً عند قوله تعالى : ﴿وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ[1] نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ .. (١٥١)﴾ [الأنعام] وفى موضع آخر قال سبحانه : ﴿وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ .. (٣١)﴾[الإسراء]

ورأوا أن فى الموضعين تكراراً فقالوا : إذا كان القرآن بليغاً فأىُّ الآيتين أبلغ ؟ وإنْ كانت إحداهما بليغة فالأخرى غير بليغة ، وهؤلاء يفتقدون الملكة التى تساعدهم على فَهْم كلام الله واستقبال هَدْيه ، ولو نظروا إلى السياق لوجدوا أنَّ الآيتين مختلفتان موضوعاً ، فليس فيهما تكرار وكُلٌّ منهما بليغة فى التعبير عن موضوعها .

فقوله تعالى : ﴿وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ .. (١٥١)﴾ [الأنعام] فكأن الفقر موجودٌ عنده ، فهو مشغول أولاً برزق نفسه قبل أنْ يُشغَل برزق أولاده ، لذلك ذُيلَتْ الآية بقوله سبحانه : ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ .. (١٥١)﴾ [الأنعام] أما فى الأخرى فقال ﴿خَشْيَةَ إِمْلاقٍ .. (٣١)﴾ [الإسراء] يعنى : الفقر غير موجود لكن يخشاه حين يأتيه الولد ، فطمأنه الله أن الولد سيأتى ومعه رزقه ،

---

(١) الإملاق : الفقر . وأملق : افتقر بعد غِنىً كأنه أملق ماله وأذهبه . [القاموس القويم ٢/٢٣٤] .

فقال : ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ .. (٣١) ﴾ [الإسراء] إذن : فكلُّ آية بليغة فى موضعها .

كذلك وقفوا عند قوله تعالى فى سورة البقرة : ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ (٤٨) ﴾ [البقرة] وفى الآية الأخرى : ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ (١٢٣) ﴾ [البقرة]

النظرة المتعجلة لا ترى فرْقاً بين الآيتين ، لكن المتأمل وصاحب الملكَة اللغوية يلحظ الفَرْق ، فالآيتان تتحدثان عن نفسيْن : نفس جازية ، ونفس مجزى عنها . النفس المجزىّ عنها تعترف بذنبها وتقول : خذوا العدل واتركونى ، فنقول لها : لا ، فتذهب إلى مَنْ هو أكبر منها ليشفع لها . إذن : عُرِضَ العدل أولاً ، فلما لم ينفعها عُرِضَتْ الشفاعة .

أما النفس الجازية وهى الشفيع ، أول ما يقف بين يدى الله تعالى يقول : يا رب أنا أشفع فى فلان ، فإذا لم تقبل شفاعتى فيه فخُذ العدل منى ، إذن : فكُلُّ آية بليغة فى موضعها ، لكن ماذا نفعل مع هؤلاء الذين لا يفهمون عن الله ولا يحسنون التلقى ، ومع ذلك يتهمون كلام الله ؟! يقولون : ربكم قال كذا وكذا ، نعم هو ربنا والحمد لله ، وكنا نحب أنْ يكون ربكم أيضاً .

ومن الآيات التى وقفوا عندها أيضاً قوله تعالى : ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٨) ﴾ [الصف] يقولون : أين ظهور الإسلام على الدين كله وبعد أربعة عشر قرناً من الزمان ما يزال فى العالم يهود وملاحدة ومسيحيون وغير ذلك من

الديانات . وهذا القول أيضاً يدل على عدم فهمهم لآداء القرآن الكريم ومعانيه .

ومعنى ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ .. (٩)﴾ [الصف] لا تعنى أن يصبح الناسُ جميعاً مسلمين ، لأن معنى الظهور هنا ظهور حجة يعنى : يعلن حجته القوية ، وبعد ذلك لهم الحرية يؤمن مَنْ يؤمن ، ويكفر مَنْ يكفر ، هذا موضوع آخر .

ولو كنتَ تقرأ القرآن ببصيرة لعرفتَ أن ظهور الإسلام على الأديان الأخرى سيكون مع بقاء الشرك والكفر بدليل لفظ الآية ، فمرة قال سبحانه : ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٩)﴾ [الصف] ومرة ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٨)﴾ [الصف] .

إذن : فهما موجودان مع الإسلام ، ويكفى فى ظهور الإسلام على الأديان الأخرى أنهم يُضطرون للأخْذ بقضاياه وأحكامه وهم غير مسلمين ، وتُلجئهم ظروفهم الحياتية فلا يجدون حلاً لها إلا فى الإسلام ، وهذه هى العظمة فى الظهور .

تعلمون أن الفاتيكان كانت تعارض مسألة الطلاق التى جاء بها الإسلام ، لكن مع مرور الوقت وكثرة المشاكل عندهم اضطروا إلى العمل به كحلٍّ لقضاياهم ، أخذوا حكم الإسلام وهم غير مسلمين .

إذن : صدق الله : ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا (٨٢)﴾ [النساء] هذه الآيات وغيرها تدلنا على سلامة كلام الله وخُلُوِّه من الباطل ومن الاختلاف ﴿لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ .. (٤٢)﴾ [فصلت] لأن الباطل لا يأتى إلا إذا كان المتكلم غير مُحقٍّ ، والذى يتكلم بالقرآن مَنْ ؟ الله .

لذلك قال بعدها ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (٤٢)﴾ [فصلت] وحكيم وحميد فعيل من صيغ المبالغة من الحكمة والحمد ، الحكمة تقتضى وضع الشىء فى موضعه المناسب ، والحمد يعنى أنه تعالى يُحمد على : كل أفعاله ، وكُلِّ قضائه ، وكل قدره ، فالحمد لله موصول أوله بآخره .

لذلك قلنا فى قوله تعالى : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢)﴾[الفاتحة] أن من رحمته تعالى بنا أنْ علَّمنا صيغة حمده على نعمائه ، فجاء بها بصيغة المبتدأ والخبر (الحمد لله) لأنه سبحانه لو لم يضع لعباده صيغة الثناء عليه سبحانه لاختلف فيها العباد ، وتفاوت فيها الناس ، ولكان للأديب البليغ ثناءٌ لا يقدر عليه الأُمّى وراعى الغنم .

لو كان الأمر فى هذه المسألة متروكاً لقدرات الناس لم يكُنْ هناك تكافؤ فرص فى حمد الله ، إذن : من رحمته سبحانه بنا أنْ قال لنا ارفعوا أيديكم عن الصيغة وأنا أضعها لكم ليستوى فى حمدى والثناء علىَّ جميع خَلْقى ، فالكل يقول كلمة واحدة (الحمد لله) فقط ، ولا أريد منكم أكثر من ذلك .

لذلك علّمنا سيدنا رسول الله ﷺ أن نقول فى الثناء على الله : « سبحانك لا نحصى ثناء عليك أنت كما أثنيتَ على نفسك »[1] فالذى تعلَّم هذه الصيغة (الحمد لله) وهُدى لأن يقولها ينبغى أنْ يَحمد الله عليها ذاتها ، يحمد الله أنْ علّمه كيفَ يحمده ، وهكذا يظل الحمد من العبد لله تعالى موصولاً ، ويظل العبد حامداً لربه حمداً لا نهاية له .

---

(١) أخرج أحمد فى مسنده (٥٨/٦ ، ١٢٠) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٤٨٦) من حديث عائشة رضى الله عنها قالت : فقدتُ رسول الله ﷺ ليلة من الفراش فالتمسته فوقعت يدى على بطن قدميه وهو فى المسجد وهما منصوبتان وهو يقول : « اللهم أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك ، لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيتَ على نفسك » .

وكلمة ﴿تَنزِيلٌ (٤٢)﴾ [فصلت] ساعة تسمعها تشعر أنه مُنزَّل من أعلى ، حتى وإنْ كان المنزَّل من مادة الأرض ، كما فى قوله سبحانه فى سورة الحديد : ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ (٢٥)﴾ [الحديد] فالحديد وإنْ كان فى الأرض لكنه مُنزل من عُلو القدرة الخالقة لخدمة العباد فى الأرض .

ثم يُعزِّى الحق سبحانه رسوله ﷺ ويُخفِّف عنه ما يلاقى من عَنَتِ وعناد المشركين ، فيقول تعالى :

﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ (٤٣)﴾

كأن الحق سبحانه يقول لنبيه محمد ﷺ : يا محمد أنت سيد الرسل ، والرسل أُوذُوا ، فلو كان الإيذاء على قَدْر المنزلة لكان إيذاء قومك لك أضعاف إيذاء الرسل السابقين ، وما يُقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك ، فلستَ بدعاً فى الرسل .

والذى قيل للرُّسُل من قبلك : ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣)﴾ [الصافات] وأنت يا محمد واحد منهم ، فأبشر بنصر الله لك ولجندك ولمن تابعك .

ويصح أيضاً أنْ يكون المعنى ﴿مَا يُقَالُ لَكَ (٤٣)﴾ [فصلت] أى : من أعدائك والمعاندين لك ﴿إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ (٤٣)﴾ [فصلت] أى : من أعدائهم والمعاندين لهم . يعنى : لا تحزن فهذه سنة الله فى أهل الدعوات وحَمَلة الرسالات ، وأنت واحد منهم فلا تُتعِبْ نفسك ، ولا تُحمِّل نفسك فى سبيل دعوتك ما لا تطيق .

﴿ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٧٧) ﴾ [غافر]

ذلك لأن سيدنا رسول الله ﷺ لما ذاق حلاوة الإيمان بالله أحبه الناس جميعاً ، وكانت عنده غيرة على ربه ، يريد أن يسلم الناسُ جميعاً لا يفلت منهم أحد ، ولا يشذ منهم عن الإيمان بالله أحد ، لذلك كان يجهد نفسه وكثيراً ما عاتبه ربه على ذلك عتاب المحبِّ لحبيبه ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ[1] نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا (٦) ﴾ [الكهف]

وبيَّن له ﷺ ﴿ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ (١٨) ﴾ [العنكبوت]

وكثيراً ما نرى القرآن الكريم يقصُّ على سيدنا رسول الله قصص الأنبياء السابقين تسليةً لرسول الله وتخفيفاً عنه ، فسيدنا نوح – عليه السلام – عمّر فى قومه يدعوهم إلى الله ألفَ سنة إلا خمسين عاماً ، ومع ذلك ما آمن معه إلا قليل .

وحكى القرآن عنه قوله : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَارًا (٥) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلاَّ فِرَارًا (٦) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا[2] ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (٧) ﴾ [نوح]

قوله : ﴿ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ (٧) ﴾ [نوح] مبالغة فى الإعراض وسدِّ الآذان عن السماع ، فالذى يُوضع فى الأذن الأنملة لا الأصبع ، وأكثر من ذلك ﴿ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ (٧) ﴾ [نوح] يعنى :

---

(١) بخع نفسه : قتلها هماً وغيظاً وحزناً . [القاموس القويم ١/٥٦] . قال الفراء : باخع نفسك أى مُخْرِج نفسك وقاتلها . [لسان العرب – مادة : بخع] .

(٢) استغشوا ثيابهم : تغطوا بها واستتروا كناية عن شدة نفورهم وإعراضهم عن رسولهم . [القاموس القويم ٢/٥٤] .

غطُّوا بها وجوههم ، وبذلك سَدُّوا كل منافذ الإدراك والتلقى كأنهم لا يريدون سماعه ولا حتى رؤيته . إذن : اصبر يا محمد فلستَ جديداً فى الإيذاء ولا فى الإعراض والعناد .

وقوله سبحانه :﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ (٤٣) ﴾ [فصلت] تأمل هذا الكلام الذى نُسمِّيه (كلام سياسى) ويسميه العلماء (ترغيب وترهيب) ، فالحق سبحانه وتعالى يراعى أحوال هؤلاء المعاندين لرسوله ﷺ ، ويخاطبهم بما يناسب كلَّ الاحتمالات ، فمَنْ عاد منهم إلى الحق وإلى الصراط المستقيم فبابُ التوبة مفتوح والله غفور رحيم ، ومَنْ أصرَّ وتمادى فى عناده فالله ذو عقاب أليم .

وتلحظ هنا أن المغفرة سبقت العقاب ، بل إن الحق سبحانه يَعد مَنْ يؤمن ويَحسُنُ إيمانه أنْ يُكفِّر عنه ذنوبه ، وأن يزيده بأنْ يُبدِّل سيئاته حسنات تفضّلاً منه وكرماً ، وكأن الحق سبحانه يُؤنس عباده ويُحنِّنهم إليه ، وهو الغنى عنهم .

وتاريخ الإسلام حافلٌ بهؤلاء الذين صادموا الإسلام ودعوته وعاندوا رسول الله والمؤمنين معه ، وكانوا ألدَّ الأعداء ، ثم صاروا بعد ذلك حملة لوائه ، وقدَّموا نفوسهم رخيصة فى سبيله ولو أغلق الباب فى وجوههم ما دخلوا فى دين الله ، وأنتم تعرفون قصة إسلام عمر وحمزة وعكرمة بن أبى جهل وخالد وعمرو وغيرهم ممَّنْ كانوا صناديد فى الكفر .

حتى أهل الكتاب من اليهود والنصارى الذين أخذوا دين الله على أنه دينٌ لا سلطة زمنية أنصفهم القرآن ، فقال فيهم : ﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ

إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ﴿٧٥﴾ [آل عمران]

وبعد ذلك يأتى القرآن ويحكم على أُنَاس أنهم لن يؤمنوا ولن يهتدوا ، وهم فى سَعَة الدنيا وفى وقت الاختيار ، مَنْ شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ، ومع ذلك ظلُّوا على كفرهم ولم يؤمنوا حتى نفاقاً ، ولو رغبةً منهم فى تكذيب القرآن لم يحدث .

ومن هؤلاء أبو لهب عم النبى ﷺ ، وكان يمشى وراء رسول الله ويقول للناس : إنه كذاب ، فحكم الله عليه بأنه سيموت على كفره ، وأن مصيره النار والعياذ بالله ، وفيه نزلتْ : ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾﴾ [المسد]

وقد سمع أبو لهب هذه السورة ، وكان بوُسْعه أن يقف أمام نادى القوم وتجمُّعهم ، ويقول بأعلى صوته : أشهد ألاَّ إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، ولو كذباً ، لكنه لم يفعل لأن الله تعالى حكم عليه أنه لن يقولها أبداً .

فالله تعالى ﴿لَذُو مَغْفِرَةٍ ﴿٤٣﴾﴾ [فصلت] لكل كافر ولكلُ مُكذِّب ولكل معاند ، رجع إلى الجادة وتاب وأناب ﴿وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾﴾ [فصلت] لمن أصرَّ على كفره وتمادى فى عناده ومصادمته لدعوة الحق .

ولا يخفى أن الجمع بين المعنى وضده فى موضع واحد سمةٌ من سمات الأسلوب القرآنى ، لأن الضدَّ يُظهره الضد ، وبضدِّها تتميَّز الأشياء ، وربك يخبرك ويترك لك أنْ تختار لنفسك دواعى المغفرة أو دواعى العقاب .

﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾﴾

قوله تعالى : ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ (٤٤)﴾ [فصلت] أى : القرآن وسُمِّى قرآناً لأنه يُقرأ (أَعْجَمِياً) أى : بلغة الأعاجم وهم غير العرب كالإنجليزية والفرنسية وغيرها من اللغات غير العربية .

﴿لَّقَالُوا لَوْلا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ (٤٤)﴾ [فصلت] يعنى : جاءتْ بالعربية ؛ ذلك لأن التوراة نزلتْ بالعبرية وهى لغة سيدنا موسى - عليه السلام - وأصله ، فقال بعضهم : لولا كان القرآن باللغة العبرية مثل التوراة ، لكن النبى محمداً عربىٌّ الأصل واللغة فنزل عليه القرآن بلغته ولغة قومه .

فالحق سبحانه يُبيِّن أن القرآن لو نزل أعجمياً لطلبوا وتمنوا أنْ يكون عربياً ، لكن بصرف النظر عن اللغة التى نزل بها هو فى ذاته هُدىً وشفاء ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ (٤٤)﴾ [فصلت] أى : الذين لا يؤمنون به فى آذانهم صمم ، فهم لا يسمعون السماع النافع المثمر ﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى (٤٤)﴾ [فصلت] يعنى : ظلمة وشبهات يتخبَّطون فيها .

إذن : فالقرآن واحد لكن النتيجة مختلفة ، لأن استقبال القرآن يختلف باختلاف نية المستقبل ، فالذى يسمعه بأذن واعية وقلب صَاف غير مشغول بنقيضه يجده هُدىً ، ويجده شفاءً ، والذى يسمعه باستكبار وقلب غير مُهيىء للإيمان يجده عَمىً ، والأعمى يتخبط

لا يدرى أين يتجه .

فهذا يقرأ القرآن أو يسمعه فلا يفهمه ولا يتأثر به ، وهؤلاء قال الله فيهم : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا (١٦) ﴾ [محمد]

وسبق أنْ أوضحنا نظرية الفاعل والقابل ، فالفاعل يقوم بالفعل والقابل يتأثر به ، ففَرْق بين الفلاَّح الذى يضرب الأرض بفأسه وبين مَنْ يضرب بها صخرة مثلاً ، الأرض تنفعل للفأس وتتأثر بها وتثمر وتنتج ، أما الصخرة فلا تقبل ولا تتأثر .

إذن : لا تحكم على الشىء إلا إذا حدث هذا التفاعل بين الفاعل والقابل ، تذكرون أننا ضربنا مثلاً فى هذه المسألة بكوب الشاى الساخن ننفخ فيه ليبرد ، وتنفخ فى يديك لتُدفئها ، فالنفخة واحدة لكن الأثر مختلفٌ لاختلاف القابل .

وقوله تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ (٤٤) ﴾ [فصلت] لأنهم سمعوا فلم يتأثروا به ، شبَّههم الله بمَنْ ينادَى من بعيد فلا يَسْمع .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ (٤٥) ﴾

القرآن هنا يقصّ على رسول الله ﷺ طرفاً من قصة سيدنا موسى – عليه السلام – ، وهذا من ضمن ﴿ مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ (٤٣) ﴾ [فصلت] وموسى من الرسل الذين تحملوا العنت والعناد وأتعبه قومه ، فقصَّته هنا تسلية لرسول الله ﴿ وَلَقَدْ

آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ (٤٥) ﴾ [فصلت] أى : التوراة ﴿ فَاخْتُلِفَ فِيهِ (٤٥) ﴾ [فصلت] أى : كانت مجالاً لاختلافهم ، فمنهم مَنْ حرَّفها ، ومنهم مَنْ نسى بعضها ، ومنهم مَنْ كتب الكتاب من عنده . وقال : هذا من عند الله .

﴿ وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ (٤٥) ﴾ [فصلت] أى : سبقتْ كلمة الله وحكمه بنهاية عذاب الاستئصال الذى يأخذ المكذِّبين جملة ، كما رأينا فى عاد وثمود وقوم نوح وقوم لوط ، أما هذه الأمة فلن يأخذها الله بمثل هذا فى الدنيا ، بل يُؤخِّر لها الجزاء إلى يوم القيامة .

﴿ وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ (٤٥) ﴾ [فصلت] أى : فى الدنيا كما فعل بالأمم السابقة ممَّنْ كذَّب الرسل (وإنهم) أى : قومك يا محمد ﴿ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ (٤٥) ﴾ [فصلت] يعنى : تردد يأخذهم إلى القلق والريبة .

والشكُّ نسبة من النِّسب السِّت المعروفة التى تعترى الأحداث : **أولها** : العلم وهو أن يكون عندك قضية واقعة وأنت مقتنع بها وتستطيع أنْ تقدم عليها الدليل .

ثم **التقليد** : وهو أن يكون لديك قضية واقعة يعنى مطابقة للواقع وأنت مقتنع بها ، لكن لا تستطيع أنْ تُقدم الدليل عليها ، مثل الطفل الصغير نُلقِّنه مثلاً أن الله واحد فيؤمن بها لثقته فى والده الذى يلقنه ، لأنه يعلم أن والده يريد له الخير ولا يُعلِّمه إلا الصواب ، لكن الوالد لا يستطيع أن يقيم الدليل على أن الله واحد .

ثم **الجهل** : وهو أن يكون عندك قضية غير مطابقة للواقع وأنت مقتنع بها . لذلك قلنا فى هذه المسألة : إن الجاهل أشقُّ على مُعلِّمه من الأُميِّ ؛ لأن الجاهل عنده قضية باطلة كاذبة وهو مؤمن بها فيحتاج منك مجهوداً مرتين : مرة لتخرجه من جهله ، ومرة لتقنعه

بالصواب . أما الأمى فهو خالى الذهن ليس عنده قضية ما يدافع عنها ، لذلك تراه طيِّعاً يقبل ما يُلْقَى إليه دون أنْ يجادل .

ثم بعد ذلك **الشك** ، وهو أن يكون لديك قضية واقعة لكن يقينك بها مُساو لشكِّك فيها ، فأنت غير متأكد منها ، ثم إنْ كان الثبوت والتأكيد أوضحَ فهو الظن ، وإنْ كان الشكُّ أوضحَ من اليقين فهو الوهم .

فقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ (٤٥) ﴾ [فصلت] يعنى : لم يصلوا إلى درجة العلم ، ولا درجة التقليد ، ولا درجة الجهل .

﴿ مَّنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (٤٦) ﴾

الحق سبحانه يقرر هنا حقيقة واقعية ، يريد سبحانه للعباد أن يؤمنوا بها ، حتى يرسخ فى أذهانهم أن كلاً منهم يعمل لصالح نفسه ، وأن إيمان المؤمنين لا يعود على الله تعالى بشىء ، ولا يزيده سبحانه صفة لم تكُنْ له .

كذلك لا تضره معصية العاصين ، ولا جحد الجاحدين ، ولا إنكار المنكرين ، لأنه سبحانه مُسْتوف كلَّ صفات الجلال والجمال والكمال قبل أنْ يخلق هذا الخَلْق ، فالله تعالى ليس فى حاجة أبداً إلى طاعة الطائعين ولا إيمان المؤمنين ، بل العباد هم المستفيدون من أعمالهم الصالحة .

وما أمور التكاليف الشرعية إلا حرصاً من الله تعالى على خَلْقه ، ورحمةً من الصانع بصَنْعته ، فكُلُّ صانع يريد لصنعته الصلاح ،

ويربأ بها عن الفساد وأسباب الهلكة .

وتذكرون الحديث القُدسىّ : « يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم ، وشاهدكم وغائبكم ، كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ، ما زاد ذلك فى مُلكى شيئاً ، ولو أنَّ أوَّلكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم ، وشاهدكم وغائبكم ، كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ، ما نقص ذلك من مُلْكى إلا كما ينقص المخْيَط إذا أُدخِلَ البحر ذلك أنى جواد ماجد ، عطائى كلام ، وعذابى كلام ، إنما أمرى لشىء إذا أردتُه أنْ أقول له : كُنْ فيكون »[(١)] .

إذن : أنتم أحرار ، يؤمن مَنْ يؤمن ، ويكفر مَنْ يكفر ، فكلٌّ مُجازَى بعمله ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ (٤٦)﴾ [فصلت] هو المستفيد ، وليس لى من عمله شىء ﴿وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا (٤٦)﴾ [فصلت] أى : على نفسه تحسب إساءته ، هذه قضية يقررها ربك عز وجل ، ولك أن تختار لنفسك ، وأنْ تُوردها المورد الذى يُسعدها لا الذى يُشقيها .

ومن العجيب أن الإنسان بعد أنْ عرف هذه الحقيقة يورد نفسه موارد الهلاك ، لذلك وصفه الحق سبحانه بأنه ظلوم وجهول[(٢)] .

والحق سبحانه حين ينذرنا بالعقوبة ، وحين يشددها ليس من

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه (٢٤٩٥) من حديث أبى ذر رضى الله عنه وقال : حديث حسن . وكذا أخرجه أحمد فى مسنده (٥/٧٧ ، ١٥٤) وابن ماجه فى سننه (٤٢٥٧) .

(٢) قال تعالى فى سورة الأحزاب ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً (٧٢)﴾ [الأحزاب] . قال ابن عباس : الأمانة الطاعة . وقال : الأمانة الفرائض . وقال زيد بن أسلم : الأمانة ثلاثة الصلاة والصوم والاغتسال من الجنابة . وقال قتادة : الأمانة الدين والفرائض والحدود . قال ابن كثير فى تفسيره (٣/٥٢٢) بعد سرد هذه الأقوال : « كل هذه الأقوال لا تنافى بينها بل هى متفقة وراجعة إلى أنها التكليف وقبول الأوامر والنواهى بشرطها وهو أنه إن قام بذلك أثيب وإن تركها عوقب ، فقبلها الإنسان على ضعفه وجهله وظلمه لنفسه إلا من وفق الله ».

حظه أنْ يُوقع هذه العقوبة بالعباد ، إنما أراد سبحانه أنْ يصرفنا نحن عن أسبابها ويُخوِّفنا منها حتى لا نقع فيها ، الله تعالى مُنزَّه عن الظلم ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (٤٦)﴾ [فصلت]

إنه يُخوِّفك حمايةً لك ، بالله حين يقول لنا : مَنْ قتل يُقتل ، أيريد أنْ يقتل الناس ، أم يريد أنْ يحقن الدماء ويحفظها ؟ ومَنْ يقدم على القتل وهو يعرف أن مَنْ قتل يُقتل ؟

لذلك تجد القرآن فى مسألة القوة العسكرية يقول : ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ .. (٦٠)﴾ [الأنفال]

العجيب أن أعداء الإسلام يأخذون من هذه الآية دليلاً على أن الإسلام يؤيد الإرهاب لأنه ذكر كلمة (تُرْهِبُونَ) وهذا فَهْم خاطئ لأسلوب القرآن ، لأن معنى إعداد القوة التى ترهب أننى لا أريد المعركة ولا أريد المواجهة ، فحين يعرف عدوى أنِّى مستعد يخاف ولا يُقدِم على القتال .

نسمعهم فى المسائل العسكرية يقولون : توازن القوى ، هذا التوازن هو الذى يحفظ السلام فى المجتمع الدولى كله ، وأيام كان فى العالم قوتان متكافئتان هى روسيا وأمريكا كان هناك استقرارٌ عسكرىٌّ ، فكلٌّ منهما تخشى الأخرى حتى كانوا يقولون على الحروب بينهما (الحرب الباردة) لكن لما تفككتْ قوة روسيا أصبح لأمريكا الغَلَبة ، فهى القوة الوحيدة الآن ، ونراها تعمل ما تريد دون رادع من قوة أخرى .

إذن : نقول : الحق سبحانه وتعالى حين يأمرنا بإعداد القوة

العسكرية لا يعنى أنه سبحانه يدفعنا إلى ساحة القتال ، إنما يعنى حفظ السلام بيننا وبين غيرنا ، ومعلوم أنك لا تُقدم أبداً على مهاجمة مَنْ هو أقوى منك ، فالآية تريد السلام ، لا تريد الإرهاب كما يدَّعُون .

وقوله سبحانه : ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (٤٦)﴾ [فصلت] كلمة (ظَلَّام) على وزن فعَّال ، وهى صيغة مبالغة من ظالم مثل : قاتل وقتَّال ، والآية حينما تنفى صيغة المبالغة لا يقتضى ذلك نَفْىَ الأصل وهو ظالم ، فالوصف الأقلّ موجود ، لأنك لو قلت فى الإثبات فلان علَّام دلَّ ذلك على أنه عالم من باب أَوْلَى ، لكن فى النفى لو قلت : فلان ليس بعلَّام ، فلا يمنع أنْ يكون عالماً .

إذن : فهل يعنى نَفْى المبالغة ظلَّام إثبات ظالم - تعالى الله عن الظلم - قالوا : لا ، لأن لفظ الآية ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (٤٦)﴾ [فصلت] ولم يقل للعبد ، فصيغة المبالغة جاءت من تكرار الفعل . يعنى : ظلم عبداً واحداً يعنى ظالم ، فإنْ ظلم الكل فلا بدَّ أن عنده قوة كبيرة تُحوله إلى ظلَّام .

فنَفْى ظلَّام بهذا المعنى نَفْىٌ لظالم أيضاً ، ثم مَنْ يريد أن يظلم يظلم على قدر قوته ، فعلى فَرْض أن الحق سبحانه وتعالى يظلم فهو ظلَّام ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (٤٦)﴾ [فصلت]

الحق سبحانه وتعالى حين ينفى صفة الظلم عن نفسه تعالى بعد قوله ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا (٤٦)﴾ [فصلت] كأنه يقول سبحانه : أنا حكَم عَدْلٌ بينكم وبين أنفسكم ، أجزى كل نفس بما عملت وبما سعَتْ دون ظلم ، فأنا أحكم لكم وعليكم ، فأنتم لستُمْ خصوماً لى .

﴿ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا[١] وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ (٤٧) ﴾

قوله تعالى : (إِلَيْهِ) أى : إليه سبحانه وتعالى ﴿ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ (٤٧) ﴾ [فصلت] الساعة هى القيامة وعِلْمها يعنى وقتها ، وهذه من الأمور التى استأثر الله تعالى بعلمها ، ولم يُطلع عليها أحداً من خلقه ﴿ لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِى السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ لا تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ[٢] عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (١٨٧) ﴾ [الأعراف]

وفى إخفاء وقت الساعة حكم عظيمة ، أهمها ألاَّ يتكل الناسُ وألاَّ يتمادى أهل الباطل وأهل النزوات والشهوات فى شهواتهم ، بل يستعد الجميع لها ، ويبادر الجميع بالأعمال الصالحة لأن أحداً لا يضمن ميعاد موته وخروجه من دنيا العمل إلى دار الحساب وقلنا : إنه مَنْ مات قامتْ قيامته[٣] .

---

(١) الأكمام : جمع كِم . وهو الغلاف الذى يغطى الزهرة والحب والثمرة . [القاموس القويم ٢/١٧٤] .

(٢) عن عبد الله بن مسعود قال : سألت رسول الله ﷺ : أى العمل أفضل ؟ قال : « الصلاة لوقتها » . أخرجه مسلم فى صحيحه (٨٥) كتاب الإيمان .

(٣) ذكره العجلونى فى كشف الخفاء (حديث رقم ٢٦١٨) عن أنس بن مالك رضى الله عنه وتمامه : « أكثروا ذكر الموت ، فإنكم إن ذكرتموه فى غنى كدَّره عليكم ، وإن ذكرتموه فى ضيق وسّعه عليكم ، الموت القيامة ، فمن مات قامت قيامته » وأخرجه الديلمى فى مسند الفردوس (حديث ١١١٧) عن أنس رفعه بلفظ : « إذا مات أحدكم فقد قامت قيامته فاعبدوا الله كأنكم ترونه واستغفروه كل ساعة » .

لذلك قلنا : إن الموقوتات العبادية لها زمنٌ من كذا إلى كذا ، فالظهر مثلاً من استواء الشمس إلى ظل المثلين ، والذى يصلى فى كل هذه المدة أدَّى الفرض ، لكن يفضل المبادرة لماذا ؟ لأنك لا تضمن عمرك إلى آخر الوقت ، فربما أتتْك منيّتك بعد لحظة من دخول الوقت فتكون قد أثمتَ .

لذلك لما سُئِلَ سيدنا رسول الله عن خير الأعمال قال : « الصلاة لوقتها »(١) .

وقال تعالى : ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا (١٠٣)﴾ [النساء] كذلك فى الحج ترى الرجل مُوسراً وقادراً على تكاليف الحج ، لكنه لا يحج تسأله يقول لك : إنْ عشتُ لعام كذا وبعد كذا وكذا أحج ، سبحان الله هل ضمنتَ عمرك أنْ تعيش إلى هذا الوقت ؟

فالحق سبحانه لحكمة أبهمَ وقت قيام الساعة ، وأبهم وقت الموت ، واستأثر سبحانه بعلمها ، والقيامة حَقٌّ والموت حَقٌّ وسَهْم أُرسِلَ إليك بالفعل ، وعمرك بقدر سفره ووصوله إليك .

قالوا : وإبهام علم الساعة والأجل هو عَيْن البيان ، فإشاعته فى الوقت كله تجعلك مُستعداً له تتوقعه وتنتظره فى كل لحظة ، لذلك قال تعالى فى سورة تبارك : ﴿تَبَارَكَ الَّذِى بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا (٢)﴾ [الملك]

فقدّم الموت فى الخلق على الحياة مع أن الحياة كائنة أولاً ، قدَّم الموت ليكون دائماً فى الذِّهْن وعلى البال ، قدَّم الموت لتستقبل الحياة

---

(١) عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : سألت رسول الله ﷺ : أىُّ العمل أفضل ؟ قال : الصلاة لوقتها . أخرجه مسلم فى صحيحه (٨٥) كتاب الإيمان .

على حذر ولا تغتر بها ، تستقبل الحياة بمصاحبة نقيضها الموت ، لتنتظره فى أىِّ لحظة .

ومن رحمة الله بعباده أنْ جعل للقيامة علامات يُستدل بها على قُرْبها ، علامات صغرى وعلامات كبرى ليُخوِّف الناس ، ويُوقِظهم من غفلتهم عن الآخرة .

وقوله ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا (٤٧)﴾ [فصلت] الأكمام : جمع كِمّ . وهو القشرة الخضراء التى تغلف الثمرة ، ثم تنفلق قليلاً قليلاً لتخرج الثمرة منها ، كما ترى مثلاً الوردة قبل أنْ تتفتح تجدها داخل غلاف أخضر مغلق عليها كأنها مُغمضة ، ثم تتفتح وتخرج من هذا الغلاف .

﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلا تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ (٤٧)﴾ [فصلت] هذه كلها من الأمور التى تغيب عن علم الناس لكنها لا تغيب عن علم الله ، كلمة ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ (٤٧)﴾ [فصلت] الحمل معروف ، وهو التقاء البويضة الأنثوية بالحيوان المنوى للذكر ، ومن هذا الالتقاء يحدث الحمل ، وهو هِبَةٌ من الله على أية حال .

قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩)﴾ [الشورى]

فكأن العُقْمَ نفسه هبةٌ لمن تدبَّر وبحث عن الحكمة ، حين تنظر إلى الولد الذى قتل أباه أو قتل أمه ، والولد الذى جلب العار لأهله حتى تمنَّوا أن الموت يُريحهم منه ، حين تنظر فى عقوق الأبناء تعرف أن العقمَ نعمة وهِبَةٌ من الله تستوجب الشكر كما تستوجبه نعمة الولد .

ثم تجد السياق القرآنى يُقدِّم الأنثى ، لأنها كانت مكروهة عند العرب قديماً وغير مرغوب فيها ؛ لذلك جعل الله منزلة خاصة لمن يُربى البنات ويحسن إليهن ، ولمن يحترم قدر الله فى إنجاب البنات ، وكأن هاتفاً من الله يناديه : عبدى ما دُمْتَ قد قبلتَ هبتى ونعمتى ، وعزَّتى وجلالى لآتينَّكَ لكل بنت منهن بزوج يحقق لك آمالك فيها ، ويكون أبرَّ لك من أبنائك .

وفى مسألة الإنجاب هذه رأينا عجائب تؤكد قدرة الله تعالى وطلاقة هذه القدرة ، رأينا زوجيْنِ لم يُرزَقا الإنجاب فافترقَا ، ثم تزوَّج الرجل بأخرى فأنجب منها وتزوجتْ المرأة بآخر وأنجبتْ منه ، فكأن الإنجاب كان ممتنعاً بين هذين بالذات .

ثم حين تتأمل القسمة العقلية لمسألة الخَلْق هذه ، تجد أن قدرة الله تعالى قد استوعبتْها بصورها الأربعة ، فالإنجاب الطبيعى يأتى من ذكر وأنثى ، لكن قدرة الله جاءتْ بآدم بلا زوج ولا زوجة ، وجاءتْ بحواء من أب بلا أم ، وجاءت بعيسى من أم بلا أب ، وقد يتوفر الأب والأم ولا يحدث الإنجاب ، هذه كلها صور تؤكد طلاقة القدرة الإلهية فى مسألة الخَلْق .

وقوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي (٤٧) ﴾ [فصلت] هو سبحانه الذى يقول (شُرَكَائِي) أى : فى زعمكم ، لأنه قال فى موضع آخر ﴿ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٢٢) ﴾ [الأنعام] فأجابوا - والكلام هنا يحكى موقفاً من مواقف القيامة ﴿ قَالُوا آذَنَّاكَ (٤٧) ﴾ [فصلت] يعنى : أخبرناك وأعلمناك ، والأذن هى وسيلة السمع ، وإليها يصل الكلام ، ويحصل العلم فكأن الأذن هى أول وسائل العلم .

لذلك قال تعالى عن الأرض : ﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٢) ﴾

[الانشقاق] يعنى : استمعتْ للأوامر ، ﴿ قَالُوا آذَنَّاكَ (٤٧) ﴾ [فصلت] أخبرناك ﴿ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ (٤٧) ﴾ [فصلت] لا أحد منا يشهد أن لك شركاء ، فالحق سبحانه قال ﴿ شُرَكَائِي ﴾ ولم ينفِ الشركاءَ لينفُوهم هم .

فبعد فوات الأوان يُقرُّونَ بأن الله تعالى ليس له شريكٌ ، وكأن كلمة الشريك هذه لم تَرِدْ يوماً على لسان واحد منهم .

﴿ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَدْعُونَ مِن قَبْلُ وَظَنُّوا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ (٤٨) ﴾

معنى ﴿ وَضَلَّ عَنْهُم ﴾ غاب وانصرف عنهم فهو غير موجود معهم ﴿ مَّا كَانُوا يَدْعُونَ مِن قَبْلُ (٤٨) ﴾ [فصلت] من أوليائهم الذين أشركوهم مع الله ﴿ وَظَنُّوا ﴾ هنا بمعنى أيقنوا وتأكدوا ﴿ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ (٤٨) ﴾ [فصلت] ما لهم من مفرٍّ ولا مهرب يُنجيهم من العذاب ، فهو ينظر هنا وهناك ، فلا يجد مَلْجئاً ولا مَنْجى ، فالمصيبة طَامّة لا نجاةَ منها ؛ لذلك حتى نحن فى العامية نقول : (فلان حايس) يعنى : حائر لا يجد مكاناً يهرب إليه .

﴿ لَّا يَسْأَمُ الْإِنسَانُ مِن دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ (٤٩) ﴾

قوله تعالى : ﴿ لا يَسْأَمُ ﴾ لا يملّ ﴿ الإِنسَانُ ﴾ المراد الكافر ﴿ مِن دُعَاءِ الْخَيْرِ ﴾ من طلب الخير لنفسه ، الخير فى ماله فى أولاده ، فى صحته وعافيته ، ترى الرجل يقول : يا رب شقة أسكن فيها ، فإنْ أعطاه الله الشقة قال : يا رب (ڤيلا) صغيرة فإنْ أعطاه

الله قال : يا رب عمارة تصرف على (الثيلا) .

فالإنسان جُبِلَ على حب الخير وعلى الطمع (ولا يملأ عين ابن آدم إلا التراب ، ويتوب الله على من تاب)[١] ، وقليل من الناس مَنْ يأخذ الأمور على قدرها .

سيدنا داود عليه وعلى نبينا السلام أعطاه اللهُ من الخيرات الكثير ومع ذلك جلس فى يوم من الأيام على سطح بيته فوجد سِرْباً من جراد من ذهب فثنَى ثوبه وأخذ يجمع فيه الجراد ، فتجلَّى الله له وقال : يا داود أَلَمْ أُغْنِكَ ؟ قال : بلى يارب لكن لا غِنَى لى عن فضلك[٢] .

فإذا كان هذا حال نبى الله داود ، فما بال المؤمن العادى ؟ وما بال غير المؤمنين ، أمثال مَنْ نزلت فيهم هذه الآية ، ومن قال الله فيه ﴿ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا (٣٦) ﴾ [الكهف] أو : ﴿ إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ (٥٠) ﴾ [فصلت]

إذن : فالإنسان هنا يعنى الكافر[٣] ، لأن الحق سبحانه أراد

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (حديث ٦٤٣٨) كتاب الرقاق ، وأبو نعيم الأصبهانى فى حلية الأولياء (٣٣٧/١) من حديث عبد الله بن الزبير أنه قال على المنبر بمكة فى خطبته : يا أيها الناس إن النبى ﷺ كان يقول : « لو أن ابن آدم أعطى وادياً ملآن من ذهب أحب إليه ثانياً ، ولو أعطى ثانياً أحب إليه ثالثاً ، ولا يسد جوف ابن آدم إلا التراب ، ويتوب الله على من تاب » .

(٢) ما وجدته فى هذا يخص أيوب عليه السلام ، أخرج الإمام الرافعى فى كتابه « التدوين فى أخبار قزوين » عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « بينما أيوب يغتسل عرياناً خر عليه جراد من ذهب ، فجعل يحثى فى ثوبه فناداه ربه : يا أيوب ألم أكن أغنيتك عما ترى ؟ قال : بلى يا رب ولكن لا غنى بى عن بركتك» .

(٣) قاله السدى . وقيل : المقصود به الوليد بن المغيرة . وقيل : عتبة وشيبة ابنا ربيعة وأمية ابن خلف . [ذكره القرطبى فى تفسيره ٦٠٣٩/٩] وانظر زاد المسير لابن الجوزى فى تفسير الآية .

للمؤمن أنْ يكون قَنُوعاً ، هذه القناعة التى علَّمنا إياها رسول الله ﷺ حين قال للصحابى الجليل عمه العباس بن عبد المطلب : « قليل يكفيك خير من كثير يطغيك »(١) .

وفى حديث آخر قال ﷺ : « نحن قوم لا نأكل حتى نجوع ، وإذا أكلنا لا نشبع »(٢) وقال : « فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنفَسه»(٣) .

وفى الحديث القدسى : «مَنْ رضى بقَدَرى أعطيته على قَدْرى»(٤).

الرسول ﷺ يُعلِّمنا هنا طرق الوقاية من أمراض كثيرة ، ويُعطينا الحلول الشافية لاقتصاديات الشعوب ، قديماً كان الأطباء لا يروْنَ علاقة بين ضيق التنفس والمعدة ، يقولون : التنفس فى الرئتين ، والطعام فى المعدة ، والآن تأكدوا أن العلاقة بينهما وطيدة ، فإذا امتلأتْ المعدة بالطعام ضغطتْ على الحجاب الحاجز وضيَّقتْ على الرئة وأرهقتْ القلب .

---

(١) أخرجه الطبرى فى تهذيب الآثار (٤٧٨/٥) حديث (٢٤٩٤) عن عبد الله بن بسر المازنى قال قال رسول الله لعمه العباس : « يا عم قليل يضنيك خير من كثير يطغيك » . أى : قليل يتعبك . وأخرج البيهقى فى دلائل النبوة (٣٧٥/٥) عن أبى أمامة الباهلى قال : جاء ثعلبة بن حاطب إلى رسول الله فقال : يا رسول الله ادع الله أن يرزقنى مالاً ، قال : ويحك يا ثعلبة : قليل تؤدى شكره خير من كثير لا تطيقه » فى حديث طويل .

(٢) هو قول مشهور على الألسنة ولكن لم تثبت نسبته للرسول ﷺ وإن كان معناه صحيحاً .

(٣) عن المقدام بن معد يكرب قال النبى ﷺ : « ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطن ، بحسب ابن آدم يقمن صلبه ، فإن كان لا محالة فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنفسه » أخرجه أحمد فى مسنده (١٣٢/٤) والترمذى فى سننه (٢٣٨٠) وابن ماجة فى سننه (٣٣٤٩) .

(٤) أورد أبو حامد الغزالى فى كتابه (إحياء علوم الدين) (٣٤٤/٤) فى الرضا بقضاء الله وقدره أحاديث منها : « من رضى من الله تعالى بالقليل من الرزق رضى الله تعالى منه بالقليل من العمل » ، « إذا أحب الله تعالى عبداً ابتلاه فإن صبر اجتباه فإن رضى اصطفاه ». أما ما أورده الشيخ رحمه الله فلم تثبت نسبته لرسول الله ﷺ ولا هو فى شىء من الكتب المعتبرة . [عادل أبو المعاطى] .

لذلك وجدوا تصحيح هذه المعلومة فى حديث سيدنا رسول الله الذى يُعلِّمنا فيه كيفية الجمع بين مُقوِّمات الحياة المختلفة من طعام وماء وهواء ، وألاَّ يكون المؤمن نَهِماً « ما ملأ ابنُ آدم وعاءً شراً من بطنه »[(١)] .

قلنا : إنك إذا عُدْتَ من عملك جائعاً لا تنتظر الطعام حتى ينضج وربما تجد أمامك بقايا طعام سابق ، كِسْرة خبز وعود جرجير وجبنة ، فتأكل وتجد لهذا الطعام البسيط طعماً ولذة ، لماذا ؟ لأنك أكلتَ وأنت جائع ، والجوع يجعلك تقبل أىّ شىء وتستسيغه .

لذلك قال الرجل العربى صاحب الفطرة السليمة : نِعْم الإدامُ الجوع [(٢)]، وقال : طعام الجائع هَنِىء ، وفراش المتعَب وطىء يعنى مريح ، نعم تجد المتعَب ينام ملء عينيه ، ولو نام على الحصى والحصير ، وغير المتعب يتقلَّب فى فراشه مُؤرقاً ، حتى لو نام على الحرير . إذن : نقول تأملوا الإسلام ، ففيه حَلٌّ لمشكلاتنا الاقتصادية وأزماتنا المتتالية .

الإسلام يُعلِّمنى أنْ أقنع بما فى يدى ، وألاَّ أتطلع إلى ما هو فوق إمكاناتى ، لأن الذى ينظر إلى ما هو فوق إمكاناته ، كالذى يشرب من ماء البحر ، كلما شرب ازداد عطشاً .

---

(١) هو حديث المقدام بن معد يكرب ، سبقت الإشارة إليه ، أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٤/١٣٢) والترمذى فى سننه (٢٣٨٠) وابن ماجه فى سننه (٣٣٤٩) .

(٢) ذكر الأصمعى عن عثمان الشحام عن أبى رجاء العطاردى قال : لما بلغنا أن النبى ﷺ قد أخذ فى القتل هربنا فاشتوينا فخذ أرنب دفيناً ، وألقينا عليها جمالنا فلا أنسى تلك الأكلة . وكان الأصمعى إذا حُدِّث بهذا الحديث قال : نعم الإدام الجوع ، ونعم شعار المسلمين التخفيف . أورده الجاحظ فى (البخلاء ١/ ٧٦) .

ثم يكمل الحق سبحانه الصورة : ﴿وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ[1] فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾﴾ [فصلت] إنْ أصابه الشر (فَيَئُوسٌ) هذه صيغة مبالغة من اليأس والعياذ بالله ، واليائس هو مَن انقطع أمله ورجاؤه ، واليأس صفة الوجدان ، أما (قَنُوطٌ) فهى أيضاً صيغة مبالغة من قانط ، وهذه صفة الأبدان ، قالوا : لأن القنوط أثر اليأس الذى يظهر على الأبدان وعلى الوجه خاصة ، فتراه مُغبراً مُكشراً مقشعراً والعياذ بالله من حال هؤلاء . أما المؤمن فتعلو وجهه سيما الصلاح ونور الإيمان تجده هاشاً باشاً مُنشرحَ الصدر مُبتسماً مُستبشراً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً[2] مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾﴾

قوله : ﴿لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي ﴿٥٠﴾﴾ [فصلت] هذا من حقى ، أستحقه بعملى ومجهودى ، يعنى : ينكر أن هذا من الله ، وهذا القول قاله قارون ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي ﴿٧٨﴾﴾ [القصص] فردَّ الله عليه : ما دُمتَ قد أوتيته على علم عندك فاحفظه بعلم عندك ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ

---

(١) الشر هنا بمعنى الفقر والمرض . [تفسير القرطبى ٩/٦٠٣٩] وقال ابن كثير (٤/١٠٤) : البلاء والفقر .

(٢) الرحمة هنا : العافية والرخاء والغِنَى . قاله القرطبى فى تفسيره (٩/٦٠٣٩) ولذلك جاء مقابلاً لها الضراء . قال القرطبى : الضراء : الضر والسقم وشدة الفقر .

الأَرْضَ (٨١) ﴾ [القصص]

وصدق الله حين قال : ﴿ كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ (٧) ﴾ [العلق]

ثم يتمادى فى غروره فيقول ﴿ وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي (٥٠) ﴾ [فصلت] يعنى فى الآخرة . والمعنى : على فرض أن هناك بعثاً وحساباً ﴿ إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ (٥٠) ﴾ [فصلت] الجزاء الأحسن ، فكما أعطانى فى الدنيا سيعطينى أحسن منه فى الآخرة .

﴿ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا (٥٠) ﴾ [فصلت] إذن : تنبيه المسىء إلى إساءته وتعريفه إياها أول مراحل العذاب ، نقول له : عملتَ كذا وكذا ونُحصى عليه سيئاته تمهيداً لمحاسبته عليها ، وهو يعلم أنه لا رجعةَ ليصلحَ ما بينه وبين ربه .

لذلك حكى القرآن عنهم ﴿ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ (١٠٠) ﴾ [المؤمنون] فردَّ الله عليه ﴿ كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٠٠) ﴾ [المؤمنون]

وقال :﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ (٢٨) ﴾ [الأنعام]

وقوله ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٥٠) ﴾ [فصلت] عذاب شديد ، والعذاب يُوصف بأوصاف كثيرة ، فمرة يقول ﴿ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٨) ﴾ [الملك] يؤلم و ﴿ عَذَابٌ مُّهِينٌ (١٦) ﴾ [المجادلة] فيه إهانة وإذلال ، فمن المعذبين مَنْ يناسبه ويناسب جريمته ويناسب طبيعته العذاب المؤلم ، ومنهم مَنْ يؤثر فيه العذاب المهين الذى يكسر عنفوان كبريائه ، حتى وإنْ لم يكُنْ مؤلماً .

﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ[1] أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ ﴿٥١﴾ ﴾ [فصلت] يعنى : انصرف عن المنعم سبحانه ، لأنه أخذ حاجته ونال بُغْيته ، وهذه الصفة كثيراً ما نجدها فى البشر ، فالرجل يلجأ إليك فى قضية من القضايا أو مشكلة من المشكلات ، ويقف ببابك صباحاً ومساءً ، فإذا قضيتَ حاجته ربما ينسى حتى أنْ يقول لك شكراً .

ولقد أجاد الشاعر[2] الذى صوَّر لنا هذه المسألة ، فقال :

يَسيُر ذَوُو الحَاجَاتِ خَلْفَكَ خُشَّعاً ... فَإنْ أدْرَكُوهَا خَلَّفُوكَ وَهَرْوَلُوا
وَأفَضلُهم مَنْ إنْ ذُكِرْتَ بِسَيِّىءٍ ... تَوقَّفْ لاَ يَنْفِى وَلاَ يَتَقَوَّلُ
فَلا تَدعِ المعروف مهْما تنكَّروا ... فَإنَّ ثَوَابَ الله أرْضَى وَأجْزَلُ

وتذكَّر دائماً أن الذين ينكرون يدك عليهم هم أربح الناس لك ، لأن الذى سيتولى الردَّ على جميلك هو الله عز وجل ، وعطاء الله على قَدْر الله ، وعطاء الناس على قَدْر الناس .

لذلك رأينا سيدنا نوحاً عليه السلام يقول لقومه : ﴿ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٥١﴾ ﴾ [هود] المعنى : أن العمل الذى أقوم به كان ينبغى أن تعطونى عليه أجراً ، إنما أنا لا أريد أجرى منكم ، بل من

---

(١) كلمة الإنسان هنا فسرها القرطبى (٩/ ٦٠٤٠) بأنه الكافر الذى أعرض عن الإسلام فتجده يعرف ربه فى البلاء ولا يعرفه فى الرخاء . ولكن قد نجد مثل هذه الصفة عند بعض من أسلم ولكن لم يتحقق قلبه بشكر نعمة الله ، حينها يكون الكفر كفر نعمة لا يُخرج من الملة ، لا كفر جحود . [عادل أبو المعاطى] .

(٢) من قول الشيخ يرحمه الله .

ربى ، فهو القادر على أن يعطينى الجزاء ، ويُقدِّر علمى .

ونلحظ فى سياق هذه الآية التدرج فى عملية الإعراض ﴿ أَعْرَضَ ﴾ يعنى : انصرف بوجهه ، ثم ﴿ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ ﴾ يعنى استدار بظهره ، إذن : أعرض بوجهه ثم بجنبه ثم بظهره ، وهذا الترتيب تجده نفسه فى قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤) يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَـٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ (٣٥) ﴾ [التوبة]

قالوا : نزلت فيمَنْ ردَّ السائل المحتاج فأعرض عنه أولاً بوجهه ، ثم بجنبه ، ثم بظهره ، فكأن الجزاء من جنس العمل ، وبقدر الكنز يكون الكَىّ ، والعياذ بالله .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ (٥١) ﴾ [فصلت] مسَّه مجرد مَسٍّ ﴿ فَذُو دُعَاءٍ (٥١) ﴾ [فصلت] يعنى هو صاحب دعاء ﴿ عَرِيضٍ ﴾ مستمر[1] ونلحظ أنه لم يقُل دعاء طويل ، الشىء له طول وله عرض ، والطول أكبر من العرض ، لكن القرآن يستخدم العرض للدلالة على كبَر الشىء كما فى قوله تعالى فى وصف الجنة : ﴿ عَرْضُهَا السَّمَـٰوَاتُ وَالْأَرْضُ (١٣٣) ﴾ [آل عمران] فإذا كان عَرْضها السموات والأرض وهى أوسع ما نراه ، فما بالك بطولها ؟

---

(١) قال ابن منظور فى لسان العرب (مادة عرض) : عريض أى كثير ، فوضع العريض موضع الكثير لأن كل واحد منهما مقدار . ومثله قاله القرطبى فى تفسيره (٩/٦٠٤٠) . وقال ابن عباس : (ذو دعاء عريض) أى : ذو تضرع واستغاثة .

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ ﴾

قوله تعالى ﴿ قُلْ ﴾ أى : قل لهم يا محمد ﴿ أَرَأَيْتُمْ ﴾ أخبرونى ، واحكموا أنتم ﴿ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِ ﴿٥٢﴾ ﴾ [فصلت] أى : كفرتم بالمنعم ﴿ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ ﴾ [فصلت] يعنى : لا أحدَ أضلُّ ممن زرع الشقاق والخلاف بين النعمة والمنعم ، فأخذ النعمة وكفر بالمنعم ، فمن هنا استفهامية أفادت التعجب والإنكار ، فالنعمة تقتضى شكر المنعم وحمده .

والحق سبحانه فى آيات أخرى يعرض علينا نعمه عرضاً كريماً رحيماً ، ويمتن علينا بها فيقول : ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا ﴿٣٤﴾ ﴾ [إبراهيم] كلمة ﴿ إِنْ ﴾ أفادتْ الشك لأن الإنسان لا يقبل على عدِّ شىء إلا إذا كان مظنة العد والإحصاء والحصر ، فعلى فرض إنْ حدث وأقبلتم على عَدِّ نعمة الله فلن تحصوها ، وسماها نعمة بالإفراد ولم يقُلْ نعم لأنك حين تتأمل النعمة الواحدة تجد فى طياتها نِعَماً كثيرة .

وهذه الآية وردت فى موضعين ، لكن تذييل كل منهما مختلف عن الأخرى فواحدة : ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ [إبراهيم] والأخرى : ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ ﴾ [النحل]

لأن عناصر الإنعام ثلاثة : نعمة ومُنعِم ومُنعَم عليه ، فمن ناحية النعمة فهى كثيرة لا تُعدُّ ولا تُحصَى ، ومن ناحية المنعم فهو

سبحانه غفور رحيم ، ومن ناحية المنعَم عليه فظلوم كفار .

فكأن ربَّك عز وجل يقول لك : يا عبدى لا تيأس من رحمتى ، ولا تزهد فى دعائى مهما كنتَ ظلوماً كفاراً ، لأن ربك غفور رحيم .

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ (١) وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ (٢) أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾

قلنا : إن السين فى ﴿ سَنُرِيهِمْ ﴾ تفيد الاستقبال ، لذلك ستظل هذه الكلمة لها موضع إلى يوم القيامة ستظل صادقة فى كل زمان ﴿ آيَاتِنَا ﴾ أى : الآيات الكونية الدالة على قدرة الله وبديع صُنْعه ﴿ فِى الآفَاقِ ﴾ جمع أفق وهو متسع امتداد نظرك إلى أن تنطبق السماء على الأرض .

والآفاق هنا تعنى السماء والأرض ، ومنه قولنا فلان أُفقه واسع إذا كان بعيد النظر فى المسائل المعنوية ، وبقدر ما تتسع البصائر تتسع الرؤية .

---

(١) الآفاق جمع أفق . وله عدة معانٍ :

- الآفاق : الفتوحات وظهور الإسلام على الأقاليم والأقطار وسائر الأديان . ﴿ وفى أنفسهم ﴾ أى فتح مكة . قال القرطبى فى تفسيره (٩/٦٠٤١) : هذا اختيار الطبرى . وقاله المنهال بن عمرو والسدى .
- الآفاق : وقائع الله فى الأمم . (وفى أنفسهم) يوم بدر . قاله قتادة والضحاك .
- الآفاق : أقطار السماوات والأرض من شمس وقمر وغيرهما . (وفى أنفسهم) فى خلق الإنسان من لطيف الصنعة وبديع الحكمة . قاله عطاء وابن زيد .

(٢) الضمير فى (أنه) فيه أربعة أوجه ذكرها القرطبى فى تفسيره (٩/٦٠٤٢) :

- أنه القرآن .
- أنه الإسلام جاءهم به الرسول ودعاهم إليه .
- أن ما يريهم الله ويفعل من ذلك هو الحق .
- أن محمداً هو الرسول الحق .

قوله تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ ﴾ يعنى : فى المستقبل هل تعنى أن الله تعالى لم يُرهم آياته من الماضى ؟ لا بل أراهم آيات كثيرة ، لكنهم غفلوا عنها وأغمضوا أعينهم عنها ، غفلوا عن قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) ﴾ [الصافات]

إذن : هذه سنة الله فى عباده المرسلين ، وهذا وعد من الله بنصرتهم وغلبهم ، والحق سبحانه لا شريكَ له ولا مناوىء يخالف هذا الوعد .

وقد علَّمتنا هذه الآية أصول الجندية ، وأن للنصر شروطاً فمَنْ توفرت فيه شروط الجندية استحق النصرة ، ومَنْ خالف شروط الجندية فلا بدَّ أن تتحقق فيه سنة الله ؛ لذلك قلنا : إذا رأيتَ المسلمين قد خسروا معركة ما فاعلم أنهم خالفوا هذه الشروط ، وساعة يُهزَمون لا يقال هُزِم الإسلام لا ، إنما هُزِم المسلمون الذين خالفوا أمر القائد وخالفوا شروط النصر ، لا بدَّ أن تكون الهزيمة لتعلمهم وتُربِّيهم على الطاعة لأمر القائد ، لأنهم لو انتصروا مع المخالفة للجندية لهَانَ عليهم أمر القائد بعد ذلك .

هذا الدرس تعلمناه فى أحُد يوم خالف الرماةُ أمر رسول الله بالبقاء فى أماكنهم العالية مهما كانت نتيجة المعركة[1] ، لكنهم نظروا

---

(١) أمَّر رسول الله على الرماة عبد الله بن جبير ، والرماة يومئذ خمسون رجلاً ، فقال : « انضح الخيل عنا بالنبل لا يأتونا من خلفنا إن كانت لنا أو علينا فاثبت مكانك لا نؤتين من قِبَلك » (السيرة لابن هشام ٣/١٠) وأورده البيهقى فى دلائل النبوة (٣/٢٢٩) أن الرماة بعد انهزام المشركين تركوا مواضعهم للفوز بالغنائم فقال لهم ابن جبير : أنسيتم ما قال لكم رسول الله ؟ قالوا : لنأتين الناس فلنصيبن من الغنيمة ، فمال الكافرون على المسلمين حتى لم يبق مع رسول الله إلا اثنا عشر رجلاً » .

إلى متاع الدنيا الزائل وأغرتهم الغنائم لما رأوا بشائر النصر ، فنزلوا وتركوا أماكنهم ، فما كان من خالد بن الوليد إلا أن التفَّ وطوَّق جيش المسلمين من الخلف وحدثت الهزيمة أو على الأقل لم يكتمل الانتصار . فهل يجوز إذن أن نقول هُزِم الإسلام ؟

إذن : ينبغى أنْ نُصحِّح فهمنا لهذه المسألة ، فقد يُهزَم جيش المسلمين وفيه رسول الله لأنه لم يأخذ بأسباب النصر ، وحينها لا نقول هُزِم الإسلام ، بل خالف المسلمون فاستحقوا الهزيمة ، ابحثوا إذن فى أسباب الهزيمة وفى أسباب التخلف ، فتِّشوا عن عيوبكم وعن مخالفتكم لمنهج الله فهى السبب ، والتاريخ شاهد بذلك .

فيوم حنين قالوا[1] : لن نُهزم اليوم من قلة ، ومَنْ قالها ؟ قالها أبو بكر نفسه لما رأى المسلمين يبلغ العشرة آلاف مقاتل ، فلما داخلهم شىء من الغرور بالعدد أدَّبهم الله وأعطاهم درساً ، فهُزموا أول الأمر ، لكن أدركتهم رحمة ربهم فأعاد إليهم معنوياتهم وكتب لهم النصر فى النهاية .

﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ (٢٥) ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (٢٦) ﴾ [التوبة]

فمقدمات الهزيمة التى رآها المسلمون فى هذه الحرب كانت نوعاً

---

(١) أخرج البيهقى فى دلائل النبوة (١٢٣/٥) عن الربيع بن أنس أن رجلاً قال يوم حنين : لن نُغلب من قلة ، وكانوا اثنى عشر ألفاً فشق ذلك على رسول الله ﷺ فأنزل الله : ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ .. (٢٥) ﴾ [التوبة] وأورده السيوطى فى أسباب النزول (ص ١٣٨) .

من التربية ليست كُرْهاً من الله لعباده على حَدِّ قول الشاعر[١] :

فَقَسَا لِيَزْدجِرُوا وَمَنْ يَكُ حَازِماً فَلْيَقْسُ أحْيَاناً عَلَى مَنْ يَرحَمُ[٢]

إذن : نقول إن وعد الله بالنصر لا يتخلف ، وإنما تخلف المسلمون عن أنْ يكونوا أهلاً لتحقيق الوعد ، وأنْ يكونوا على مستوى النصر الذى وعدهم الله به .

لكن لماذا يعاند المشركون كلّ هذا العناد ويغمضون أعينهم عن آيات الله وهى واضحات ؟ يعاندون لأنهم سادة ولهم سلطة زمنية ، وجاء الإسلام ليسلبهم هذه السيادة ويُنهى هذه السلطة الزمنية ، ويجعل الناس سواسية كأسنان المشط لا فضلَ لعربى على عجمى ولا لعجمى على عربى إلا بالتقوى .[٣]

فسلمان الفارسى وصهيب الرومى وبلال الحبشى كلهم فى الإسلام سادة وفى الصفوف الأولى ، لذلك قال رسول الله ﷺ : « سلمان منا أهل البيت »[٤] .

---

(١) هو : أبو تمام حبيب بن أوس بن الحارث الطائى ، ولد بحوران بسورية عام (١٨٨ هـ) نزل مصر واستقدمه المعتصم إلى بغداد وقدَّمه على شعراء عصره ، فى شعره قوة وجزالة : له كتب : فحول الشعراء ، وديوان الحماسة . توفى بالموصل عام (٢٣١ هـ) عن ٤٣ عاماً . الموسوعة الشعرية .

(٢) هذا البيت من قصيدة لأبى تمام من بحر الكامل عدد أبياتها ٦٠ بيتاً ، ولفظه فى الموسوعة :

فقسا لتزدجروا ومن يَكُ حازماً فليَقْسُ أحياناً وحيناً يرحم

(٣) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٤١١/٥) عن أبى نضرة عن رجل من أصحاب النبى ﷺ ، وأخرجه أبو نعيم فى حلية الأولياء (١٠٠/٣) عن أبى نضرة عن جابر بن عبد الله قال : خطبنا رسول الله فى وسط أيام التشريق فقال : يأيها الناس ألا إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، ألا لا فضل لعربى على أعجمى ، ولا لعجمى على عربى ، ولا لأحمر على أسود ، ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى » .

(٤) عن عمرو بن عوف المزنى قال : خط رسول الله ﷺ الخندق عام الأحزاب من أجم السمر طرف بنى حارثة حين بلغ المداد ، ثم قطع أربعين ذراعاً بين كل عشرة ، فاختلف المهاجرون والأنصار فى سلمان الفارسى ، وكان رجلاً قوياً فقالت الأنصار : سلمان منا . وقالت المهاجرون : سلمان منا . فقال رسول الله ﷺ : « سلمان منا أهل البيت » أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٤١٨/٣) والحاكم فى مستدركه (٥٩٨/٣) وضعَّف الذهبى إسناده من أجل كثير بن عبد الله .

فالنسب للإسلام والقرابة لدين الله ، ففى الوقت الذى جعل فيه سلمان واحداً من أهل البيت كان أبو لهب كافراً مطروداً من رحمة الله !!

وقد تعلَّمنا هذا الدرس من قصة سيدنا نوح مع ابنه ، وكم كان نوح عليه السلام حريصاً على نجاة هذا الابن ، وكم دعا الله له ، لكن الحق سبحانه يعلمه هذا الدرس ﴿قَالَ يَـٰنُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّى أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٤٦)﴾ [هود]

فالبنوة هنا والأهلية ليست للنسب والدم ، إنما للدين وللمنهج وللعقيدة ، بنوة عمل صالح واتباع .

فالجماعة الذين صادموا الإسلام وحاربوه كانوا يدافعون عن سيادتهم ومكانتهم فى الجزيرة العربية ؛ لذلك تكتَّلوا واتحدوا ضد رسول الله ومَن اتبعه من المؤمنين ، ورأينا ذلك فى الحصار الذى ضربوه على رسول الله فى الشِّعْب ، وكيف أنهم أغلقوا عليهم كل المنافذ ، وقطعوا دونهم كل سُبُل العيش حتى اضطروا لأكل الميتة وورق الشجر .(١)

ثم حاولوا أن يقتلوا رسول الله أكثر من مرة ، وآذوه أشد الإيذاء فى نفسه وفى أهله وفى صحابته ، لكن هيهات لهم أن ينالوا من رسول الله ، وهو بعين الله وفى حفظه وكلاءته ، وكأن الحق سبحانه أراد أن يقول لهم : إياكم أنْ تفهموا أن محاولاتكم هذه ستعوق أمر الدعوة فى الجزيرة العربية ، إن أمر الدعوة سينتشر

---

(١) ذكره البيهقى فى دلائل النبوة (١/ ٣١٥) وذكر ما بلغوا فيه من الجهد الشديد « حتى كان يسمع أصوات صبيانهم يتضاغون من وراء الشِّعب من الجوع » .

لا فى الجزيرة وحدها ، إنما فى كل آفاق الدنيا ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ (٥٣)﴾ [فصلت]

وكانت دعوة الإسلام مؤهلة لهذا الانتشار من عدة جوانب .

أهمها : أن العرب أمة حروب وقتال بطبيعتها لا تحتاج إلى تدريب ، لذلك لما أراد رسول الله أنْ يحارب لم ينشىء كلية حربية ولا درَّب أحداً على فنون القتال ، بل وجد قوماً جاهزين للقتال ، خبراء بفنونه وأساليبه ، كان الواحد منهم كلما سمع هيعة[1] طار إليها ، ذلك لأن القبائل العربية كما تعلمون كانوا فى قتال مستمر ، ومن الحروب بينهم ما استمر أربعين سنة .[2]

ثانياً : كان العرب أهل ترحال وتنقل ، لا يعرفون التوطن ولا الاستقرار ، فبيت العربى على ظهر جمله يضربه أينما حَلَّ وحيثما وُجد الماء والكلأ ، فعدم تعلّق العربى بموطن جعله مستعداً لأنْ يسيح بالإسلام فى كل آفاق الدنيا وكل أرجاء العالم .

ولم تكُنْ مصادفةً أن يكون النبى ﷺ أمياً فى أُمّة أمية لا تعرف القراءة ولا الكتابة ، ولم يكُنْ لها ثقافة ولا حضارة . وهذه الصفات كلها وإنْ كانت عيوباً فى الأمم الأخرى إلا أنها فى أمة الإسلام وفى نبى الإسلام شرفٌ وميْزة ، ولو كان العرب أمة علوم وثقافة وأمة حضارة ورُقىٍّ لقالوا عن الإسلام قفزة حضارية .

هذه أمور ثلاثة مهدت لنصرة الإسلام ولانتشاره فى كل آفاق

---

(١) الهيعة : صوت الصارخ للفزع . وقيل : هى الصوت الذى تفزع منه وتخافه من عدو . ومنه قوله ﷺ : « خير الناس رجل ممسك بعنان فرسه فى سبيل الله كلما سمع هيعة طار إليها » .

(٢) ذكرها أبو عبيدة معمر بن المثنى فى كتابه (الديباج) قال : « حرب ابنى بغيض عبس وذبيان فى مجرى داحس وغبراء كانت بينهم نحواً من أربعين سنة » ، وكان ذلك بسبب سباق خيل عُقِد على داحس والغبراء نظير رهان مائة بعير . [قاله ابن عبد ربه فى العقد الفريد] .

الأرض ، وكأن الله تعالى يقول للكافرين ولمن صادم دين الله وعاند رسوله وغفل عن قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣)﴾ [الصافات] سنريهم آيات أخرى لن تغفلوا عنها فى نصرة الإسلام وسياحته فى آفاق الأرض شرقاً وغرباً .

لذلك يأتى لنا بصورة تُضحكنا عليهم وتغيظهم ، حيث يقول سبحانه : ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ (١٥)﴾ [الحج]

يعنى : يربط نفسه بحبل إلى السماء ، ثم يقطع هذا الحبل لينزل مثل المشنوق ، ثم ينظر هل يُذهِب غيظه أم لا ، والمعنى أنه سينتهى ويموت وغيظه لن ينتهى .

وانظر إلى الإسلام فى بداية أمره كيف بدأ وقام بالضعفاء والعبيد ، تلاهم الكبار والسادة ، ولما ذهب الرسول ﷺ ليدعو أهل الطائف فلاقى منهم ما لاقى من الإيذاء والاستهزاء ، ولم يجد أحداً يحميه أو ينزل بجواره إلا المطعم بن عدى[1] وهو كافر ، لكن سخَّره الله تعالى لحماية رسوله ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ (٣١)﴾ [المدثر] كذلك فى رحلة الهجرة اتخذ عبد الله بن أريقط[2] دليلاً على الطريق ، وكان أيضاً كافراً .

---

(١) المطعم بن عدى ، كان من حلفاء قريش وساداتهم ، وهو الذى أجار رسول الله حين رجع من الطائف ، وهو الذى أطلق سعد بن عبادة من أيدى قريش بعدما تعلقوا به فى قدومه معتمراً . [نسب قريش لمصعب الزبيرى] وهو الذى قام إلى صحيفة قريش التى قاطعوا فيها بنى هاشم وحصروهم فى الشِّعب ليمزقها . [النويرى فى نهاية الأرب فى فنون الأدب] .

(٢) هو دليل رسول الله وأبى بكر لما هاجرا إلى المدينة وكان على دين قومه ولم أر من ذكره فى الصحابة إلا الذهبى فى التجريد وقد جزم عبد الغنى المقدسى فى السيرة بأنه لم يعرف له إسلاماً وتبعه النووى فى تهذيب الأسماء . [الإصابة فى معرفة الصحابة ٢/١٠٠] .

ثم يقول لهم : انظروا إلى أرض الإسلام وأرض الكفر ، فالإسلام بدأ وانطلق من أم القرى وما حولها ، وهو الآن يغزو الأرض كلها من المشرق إلى المغرب ، فأرض الإسلام تزداد اتساعاً ، وأرض الكفر تزداد تناقصاً : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ (٤١)﴾ [الرعد] أو لم يأخذوا من ذلك عبرة ﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ (٤١)﴾ [الرعد]

فهل بعد ذلك شك فى نُصْرة الله لدينه ؟ ألم تغزُ هذه الأمة الأمية أعظم حضارتين على وجه الأرض آنذاك ، هما حضارة فارس فى الشرق ، وحضارة الروم فى الغرب ، وفى وقت واحد وزمن متقارب ، حتى أن هؤلاء كان عندهم طرق للحرب وفنون لا يعرفها العرب ولا يجيدونها ، ومع ذلك انتصروا عليهم .

رووا أنهم كانوا يستخدمون الأفيال فى الحروب ، ولم يكُنْ العرب يعرفون شيئاً عنها ، لكن ألهم الله تعالى سيدنا سعد بن أبى وقاص إلى حيلة يتغلب بها على الفيل ، واهتدى إلى أن خرطوم الفيل نقطة ضعف فيه ، فصنع لذلك سيوفاً خاصة يضرب بها خراطيم الأفيال فتسقط .[1]

ثم يدخل الإسلام هذه البلاد شرقاً وغرباً فى نصف قرن من الزمان ، ويجد له هناك أنصاراً ومحبين ، منهم مَنْ دخل الإسلام طواعية اقتناعاً ، ومنهم مَنْ وجد فى الإسلام ضالته حيث عدالة الإسلام وسماحته فى مقابل جَوْر الحكام هناك وكثرة المظالم والفساد .

---

(١) ذكر الجاحظ فى كتابه الحيوان فى كلامه عن خرطوم الفيل : « قال زهرة بن جؤية يوم القادسية : أما لهذه الدابة مقتل ؟ قالوا : بلى خرطومه فشد عليهم حتى خالطهم ودنا من الفيل ، فحمل كل واحد منهما على صاحبه فضرب خرطومه فبرك وأدبر القوم» .

هذه كلها آيات نفهمها من قوله تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ (٥٣) ﴾ [فصلت] فالفتح الإسلامى الذى عَمَّ العالم كله آية من الآيات ، هذا الانتشار الواسع للإسلام لم تستطيعوا أن تصدوه ، لأن الله وعد به عباده المؤمنين ووعد به رسله ، والحق سبحانه لما وعد الرسل بالنصرة لم يعدهم سراً إنما فى قرآن يُتلى إلى يوم القيامة ويُجهر به ، قرآن تكفَّل الله بحفظه وصيانته ، والعادة أنك تحفظ ما لك لا ما عليك ، أما الحق سبحانه فيحفظ وعده الذى تكفل به لأنه واثق أنه واقع لا محالة .

ومن المعانى التى نفهمها من الاستقبال فى ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ (٥٣) ﴾ [فصلت] أن المسلمين كانوا فى بداية الأمر مضطهدين غير مأمورين بقتال ، وربما مات بعضهم قبل أن يتحقق وعد الله بالنصر ، فلما قرأوا : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ (٥٣) ﴾ [فصلت] علموا أن النصر قادم حتى ولو ماتوا قبل أنْ يروا فرحته .

وتعلمون أن الله لم يأمر المسلمين بالقتال إلا بعد أنْ تمكَّن الإيمان من نفوسهم ، واستقرتْ العقيدة فى قلوبهم ، حتى أن بعضهم يقول لسيدنا رسول الله : يا رسول الله ، أليس بينى وبين الجنة إلا أنْ أقاتل هؤلاء فيقتلوننى ؟ فيقول له رسول الله : بلى فيلقى الرجل تمرة كان يمضغها ويبادر بنفسه إلى ساحة القتال ، ويُعجِّل المسير إلى الشهادة لما استقر فى نفسه من عقيدة علَّمته أنه ذاهب إلى أفضل مما هو فيه ومُقبلٌ على جنة عَرْضُها السموات والأرض .(١)

---

(١) أخرج البخارى فى صحيحه (حديث ٣٧٤٠) من حديث جابر بن عبد الله قال قال رجل للنبى ﷺ يوم أُحد : أرأيتَ إن قتلت فأين أنا ؟ قال : فى الجنة . فألقى تمرات فى يده ثم قاتل حتى قُتِل . وكذا أخرجه مسلم فى صحيحه (٣٥١٨) .

وسوف تظل هذه السين الاستقبالية ﴿سَنُرِيهِمْ﴾ باقية تمدنا بعطاء لا ينتهى حتى قيام الساعة التى ستكون هى الآية الكبرى سنريهم آيات فى كل زمان ، آيات فى صالح هذا الدين ونُصْرة أهله فى كل الآفاق .

وقوله تعالى : ﴿وَفِي أَنفُسِهِمْ (٥٣)﴾ [فصلت] يعنى : آيات فى الأنفس ، فى الأشخاص ، فى لحمك ودمك وروحك ، فى أعضائك وأجزائك ، فى كل شىء فيك آية لو تدبرت .

الحق سبحانه وتعالى خلق الإنسان من طين ، وأخبرنا بكيفية الخلق ومراحله ، ومحمد ﷺ لم يكُنْ عالماً من علماء التشريح ولا يعرف علم الأجنة إنما علّمه ربه الأعلى ، وجاء العلم الحديث ليثبت صدق ما أخبر به فى مسألة خلق الإنسان من طين ، وأن نسله من سلالة من ماء مهين ، وأنه كان نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظاماً ، ثم كسى العظام لحماً .

وها هو العلم يكشف لنا كل يوم عن جديد فى أنفسنا وعن عجائب لم نكُنْ نعرفها فى أنفسنا من قبل ، إنك حين تقرأ آخر ما توصلتْ إليه العلوم فى جسم الإنسان تعلم أنك فى ذاتك عالمٌ عجيب وبناء محكم دقيق ، وصدق القائل(١) :

وَتحسَبُ أنَّكَ جِرْمٌ صَغِيرٌ وَفِيكَ انْطَوَى العَالَم الأكْبَرُ(٢)

وسبق أنْ تحدثنا عن بعض عجائب الخَلْق وقلنا مثلاً : أن حرارة

---

(١) هو : عبد اللطيف بن على فتح الله ، أديب من أهل بيروت ، تولى القضاء والإفتاء . يعرف بـ (المفتى فتح الله) له نظم جيد فى ديوان مطبوع ومقامات ومجموعة شعرية بخطه ألقاها فى صباه سنة ١٢٠٠ هـ . توفى عام ١٢٦٠ هـ . [الموسوعة الشعرية] .

(٢) البيت من قصيدة من بحر المتقارب عدد أبياتها ٦ أبيات .

الجسم العادية ٣٧° تجدها حرارة مَنْ يعيش عند خط الاستواء ، وحرارة مَنْ يعيش عند القطبين ، ومع ذلك لا يحدث استطراق حرارى داخل الجسم ، فتجد كل عضو من الأعضاء يحتفظ لنفسه بالحرارة التى تناسبه ، فالكبد درجة حرارته ٤٠° والعين لا تزيد عن ٩° ، وهما فى جسم واحد ، ولا يحدث بينهما استطراق حرارى .

تأمل الدم سائل الحياة فى الجسم كله وكيف يحتفظ لنفسه بدرجة من السيولة لو زاد عنها يحدث نزيف ، ولو قلَّتْ تحدث جلطة وشلل والعياذ بالله .

تأمل الكليتين وما فيهما من أسرار وقدرة وإبداع ، فالكلية لو حدث لها فشل عن أداء وظيفتها تقوم الأخرى بمهمتها ، ويكفى الجسم أن يعيش بكلية واحدة لو فُقدت الأخرى ، لذلك قلنا بتحريم نقل الكلية من شخص لآخر ؛ لأن الخَالق سبحانه جعل لنا كليتين ، كل كلية منهما فيها مليون خلية مستعدة للعمل لا يعمل منها سوى مائة ألف فقط ، فإن توقفت هذه المائة تبعتها المائة الثانية وهكذا .

فكيف إذن يحدث الفشل الكلوى ؟ قالوا : يحدث من أن المائة ألف أدَّتْ مهمتها ثم توقفتْ ولم تتنبه المائة ألف الثانية لكى تقوم بمهمتها ، فحين نأخذ من شخص كليته ونعطيها لشخص آخر نقول : هذا إجرام وانتحار ، لأن الكلية الباقية لو توقفتْ لا بدَّ أن يموت الإنسان .

ومن العجائب وآيات الخَلْق سبحانه فى الإنسان آية الجلد وما فيه من أسرار ، فهمناها من قوله تعالى فى الحديث عن عذاب الكافرين : ﴿ **كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ** (٥٦) ﴾ [النساء]

تعلمنا من هذه الآية أن الجلد هو موضع الإحساس ، فلو حُرِق

لا يحدث الإحساس ؛ لذلك الحق سبحانه يُجدد لهم جلودهم ليذوقوا العذاب وليستمر الإيلام ، والعالم لم يعرف هذه المسألة إلا بعد الحرب العالمية ، فقد توصل الألمان إلى أن الجلد هو آلة الإحساس فى الجسم ، بدليل أنك حين تأخذ مثلاً حقنة لا تؤلمك إلا بمقدار نفاذ الإبرة من طبقة الجلد بعدها لا تشعر بالألم ، فالقرآن سبق العالم كله إلى هذه الآية .

ومن آيات الله فى الأنفس أنك تجد بداخل الجسم صيدلية طبيعية تعالج ما يحدث فى الجسم من خلل ، هذه الصيدلية أخذناها من قوله تعالى : ﴿مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ ۝٥﴾ [الحج] فالمخلَّقة : هى التى تكوَّن منها الجسم بأعضائه وجوارحه المشاهدة ، وغير المخلقة الموجودة داخل الجسم كاحتياط له تكمل ما نقص منه وتعالج ما مرض فيه ، لذلك رأينا أحدث علاج للجروح والدمامل مثلاً أنْ تتركها لمقاومة الجسم الطبيعية حيث تلتئم دون تدخل بمواد كيماوية تضر وتترك أثراً فى الجلد .

تأمل أىّ عضو من أعضائك ، وأىَّ جهاز من أجهزة جسمك ، تأمل كيفية بناء هذا الإنسان على هذه الهيئة المعتدلة المستقيمة ، وكيف يسير معتدلاً مرتفع الهامة ، تأمل كَفَّ يدك وما فيه من أصابع وما فيه من تناسق وتناسب وانسيابية .

انظر إلى جهازك الهضمى أو التنفسى ، انظر إلى قلب هذه العضلة التى لا تزيد عن قبضة اليد الواحدة ، كيف أنها تعمل دون توقف منذ الميلاد وحتى الوفاة ، كلها آيات وعجائب وأسرار دالة على قدرة الخالق وبديع صنعته سبحانه فى الأنفس .

ويظل عطاء هذه الكلمة ﴿سَنُرِيهِمْ﴾ ممتداً فى الزمان كله وكل

يوم نشاهد جديداً وآية وعجيبة من عجائب الخلق فى الآفاق وفى الأنفس ، ولما تستقرئ القرآن تجده قد استوعب فى هذه المسألة الماضى والحاضر والمستقبل ، فقال : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ..(٤١)﴾ [الرعد] وقال فى المستقبل ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ (٥٣)﴾ [فصلت]

باقى فى الاستقبال سوف وهى للمستقبل البعيد ، قالوا : هي لأمور الآخرة كما في قوله تعالى : ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (٣٩)﴾ [هود]

وفَرْق بين استقبال الفعل من الله تعالى واستقباله من البشر ، نحن نقول : ماضى ومضارع ومستقبل . أما بالنسبة للحق سبحانه فيستوى عنده الزمن كله ، اقرأ قوله تعالى : ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ (١)﴾ [النحل] والمراد هنا القيامة .

لذلك وقف المستشرقون عند هذه الآية يتهمون القرآن بالتناقض ﴿أَتَىٰ﴾ تدل على الماضى و﴿لا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ تدل على المستقبل ، لكن يجب أنْ علم أن المتكلم هنا هو الله عز وجل الذى يملك الزمن كله ، فحين يقول (أتى) يقولها برصيد قدرته ووحدانيته ، حيث لا يوجد له معارض يمنع حدوث الفعل ، فالقيامة لأنها حَقٌّ واقع لا محالة عبَّر عنه بالماضى كأنه أتى بالفعل .

قوله تعالى : ﴿سَنُرِيهِمْ﴾ دلَّتْ على أن هذه الآيات مُوزَّعة على الزمن ، بحيث يجد كل جيل فى القرآن عطاءً جديداً ، فنحن الآن نعرف من آيات الله فى الكون وفى الأنفس ما لم يكُنْ يعرفها أحد على زمن رسول الله مع أنها موجودة وأخبر الله بها فى القرآن .

سألتُ مرة بعض إخواننا المختصين بالنواحى الاقتصادية فى

العالم قُلْت لهم : متى عرف الإنسانُ (الأسانسير) ؟ قالوا : سنة كذا يعنى فى القرن العشرين ، قلت : فاقرأوا قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَـٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (٣٣) ﴾ [الزخرف] والمعارج أى : ما نعرفه الآن بـ (الأسانسير) .

كذلك البواخر والسفن العملاقة المكوَّنة من طوابق ، والتى تظهر فى البحار وكأنها مدينة متحركة لم تكُنْ بهذه الصورة على عهد النبى ﷺ ، وقد أخبر الله بها فى سورة الرحمن : ﴿ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِى الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ [1] (٢٤) ﴾ [الرحمن] إذن : الحق سبحانه خلق وعلم ما سيحدث لخلقه فى المستقبل .

فإنْ قلتَ : فلماذا لم تظهر هذه الآيات فى زمن النبى ﷺ وفى زمن صحابته ؟ قالوا : لو ظهرت هذه الآيات الكونية معاصرة لزمن النبى وصحابته لأفرغ القرآن معجزاته وآياته فى قرن واحد ، واستقبلت القرون التالية القرآن بدون عطاء جديد ، وبدون آيات تبهرهم وتدلهم على قدرة الخالق سبحانه .

فالله تعالى أراد أنْ يظلَّ استقبال الأجيال للقرآن استقبالاً جديداً ، بحيث يكون لكل جيل نصيب من عطاء القرآن ليثبت لنا أن الذى أنزل القرآن قديماً أخبر فيه بما يحدث فى المستقبل ، وأنه سبحانه إله واحد ليس معه شريك يردُّ عليه ما قال .

وقوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ (٥٣) ﴾ [فصلت] أى : يتضح

---

(١) الأعلام : الجبال . مفردها علم . والعلم : الجبل الطويل (أى المرتفع) وقد يكون الطويل فى طوله . [انظر لسان العرب – مادة : علم] .

لهم أن القرآن حق وأن الله حق ، والحق هو الشىء الثابت الذى لا يتغير ، وضده الباطل ، والباطل متغير زاهق ، الحق أبلج ، والباطل لجلج .

الله تعالى يُصوِّر لنا الحق والباطل فى مثال مادى مشاهد ، فيقول سبحانه :

﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا[1] وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً[2] وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ (١٧)﴾ [الرعد]

فالله تعالى هو الحق ، ما يقوله حق ، ومن الناس مَنْ يعرف وجه الحق فيه ، ومنهم مَنْ يرتاب وتَخْفى عليه الآيات لفترة ثم تصل بهم الأحداث إلى أنْ يعرفوا أنه الحقُّ من الله الحق ، فعلاً ووجوداً .

وقد ينتصر الباطل ويعلو فى فترة من الفترات ، لكن لا بُدَّ أن تكون الجولة الأخيرة للحق ؛ لذلك قالوا : دولة الباطل ساعة ودولة الحق إلى قيام الساعة ، والمؤمن الواعى الواثق بنصر الله لا يبالى لانتصار الباطل فهو موقوت ، وينتظر اللحظة التى يعلو فيها الحق ويزهق فيها الباطل .

المؤمن يعلم أن الباطل حين يعلو يكون جندياً من جنود الحق ، فالباطل يُظهر الحق لمن لا يعرفه ، والضد يظهر حُسْنه الضد ، ولولا أن الناس شَقُوا بالباطل وعضَّتهم الأحداث ما عرفوا الحق وما اشتاقوا إليه .

---

(١) زبد الماء : ما يعلوه عند جيشانه واضطرابه من الرغوة وحطام الأشياء . [القاموس القويم ١/٢٨٣] .

(٢) فيذهب جُفاء : أى لا ينتفع به بل يتفرق ويتمزق ويذهب فى جانبى الوادى ويعلق بالشجر وتنسفه الرياح . [تفسير ابن كثير ٢/٥٠٨] .

لذلك لما تتأمل النسق القرآني في قوله تعالى : ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ﴿٤٠﴾﴾ [التوبة] تعلم أن الحق ثابت ، وأنه الأصل الذى عليه قامت أمور الخَلْق كلها ، فكلمة الذين كفروا قد تعلو لكن ينتهى بها الأمر إلى أنْ تكون هى السفلى ، جعلها الله سفلى فهى جَعْل من الله .

أما ﴿وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ﴿٤٠﴾﴾ [التوبة] تجد (كلمة) هنا مبتدأ ، فهى فى أصلها عليا ، ليست جَعْلاً كالأولى ، يعنى لم تكُنْ أبداً سفلى ، ثم جعلها الله عُلْيا بل هى بطبيعتها عليا . إذن : نقول : إن الباطل يعلو ليعض الناس بأحداثه فيتنبهوا للحق .

ثم يقول سبحانه ﴿أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ [فصلت] بلى كفى به سبحانه شاهداً ومطلعاً لا تَخْفى عليه خافية ، كأن الحق سبحانه يقول لهم ما كان يصح منكم أنْ تنتظروا الآيات لتُصدِّقوا الرسول ، بل كان عليكم أنْ تصدقوه بمجرد أن يقول لأن الله شهيد عليه ، والله سبحانه ليس له معارض يعارضه ويرد حكمه .

لذلك قلنا : لماذا أصبح الصِّدِّيق صدِّيقاً ؟ لأنه لما قيل له إن صاحبك يدَّعى أنه نبى لم يزدْ على أن قال لتوِّه : إنْ كان قال فقد صدق ، هكذا دون أن يناقش المسألة ، كذلك لما بلغه خبر الإسراء والمعراج قال نفس قولته الأولى ، ولم ينتظر حتى ينزل القرآن ، فيخبرهم بذلك وبعدها يُصدِّق .

فالقرآن إنما ينزل يقنع الكافر المعاند أو الشّاكّ المرتاب ، والصِّديق رضى الله عنه كان فى أعلى درجات اليقين والإيمان ، وكَفَاه تاريخ محمد سيرته فيما مضى ، فأخذ من صِدْقه فى الماضى دليلاً على صِدْقه فى الحاضر .

كلمة ﴿ شَهِيدٌ (٥٣) ﴾ [فصلت] هنا تحمل معنى الشاهد الذى يثبت الحق ، والقاضى الذى يحكم فيه ، والمنفذ الذى ينفذ الأحكام .

﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌۢ (٥٤) ﴾

كلمة ﴿ أَلا ﴾ أداة استفتاح لكلام جديد ، فالمتكلم يريد ألاَّ يفاجئ المخاطب فينبهه لكى ينتبه إليه ولا يفوته شىء من كلامه ، وكأنه يقول له : استعد واسمع ما أقوله لك فهو كلام مهم .

والكلام المهم هو قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ (٥٤) ﴾ [فصلت] أى : الكفار فى شكٍّ من البعث بعد الموت يظنون أن المسألة خلقهم الله فى الدنيا وانتهتْ المسألة ، فهم يشكُّون فى أن هناك رجعة ، ويرتابون فى الحساب والجزاء ، ولا يعملون حساباً لهذا اليوم ، لماذا ؟

لأنهم لم يعملوا مقدمة لهذا اللقاء لذلك يتغافلون عنه ، يُمنِّى الواحد نفسه أن هذا الكلام كذب ، وليس هناك بعْث ولا حساب ولا جزاء ، ومَنْ يعترف منهم بهذا اللقاء يملؤه الغرور ، فيقول ﴿ وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ (٥٠) ﴾ [فصلت] وقال آخر : ﴿ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا (٣٦) ﴾ [الكهف]

إذن : فهم فى (مِرْية) من هذا اليوم أى شك وارتياب وتردد ، والمِرْية أيضاً من المِراء ، وهو الجدال بالباطل والعناد والمكابرة على قبول الحق والانصياع له ؛ لذلك قالوا : الجدل هو النقاش الموصِّل إلى شىء بين طرفين ، إلى نتيجة ، أما المراء فهو جدل ينتصر فيه كل طرف لنفسه ، ولا يعنيه الوصول إلى الحق .

والله تبارك وتعالى يُعلِّمنا كيفية الاختلاف ، وكيفية النقاش ،

وأصول الجدل فى قوله تعالى : ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ (٤٦)﴾ [سبأ] ما هى يا رب ؟ ﴿أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ (٤٦)﴾ [سبأ] يعنى : لا تبحثوا بحثاً جماعياً جماهيرياً ، بل مَثْنى وفرادى ، لأن حكم الجماهير غير منضبط ، فكل طرف فيه يريد أن ينتصر لرأيه ، ولا يقبل أن يُهزَم أمام الجمع فيتمادى فى الباطل .

وسبق أن قلنا : إن هتاف الجماهير تتوه فيه الأصوات وتختلط فلا تتميز ، ومثَّلنا لذلك بقول شوقى فى كيلوباترا لما انهزمتْ فى أكتيوم[1] :

اسْمع الشَّعْبَ ديُون ... كيْفَ يُوحُونَ إليْه
مَلأَ الجوَّ هتَافـاً ... بحيَاتىْ قَاتليْه
أثَّر البُهتانُ فيه ... وَانطَلى الزُّور عليْه
يَالَهُ من بَبْغَاءَ ... عَقلُه فى أُذُنيْه

والأمر المخزى هنا أنهم فى مرية ، لم يقل من الجنة وإنما ﴿فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ (٥٤)﴾ [فصلت] فهذا هو الكسوف الكبير والخجل والخزى ، كما قالوا : موقف يتساقط فيه لحم الوجه خجلاً من الحق سبحانه ، وقد عادوا إليه هذا العَوْد المؤسف ، وجدوا أنفسهم أمام الحق سبحانه وقد كفروا به فى الدنيا وجحدوه وأنكروه ، ثم تفاجئهم هذه الحقيقة ﴿وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩)﴾ [النور]

والله لو قال فى مرية من نعيم ربهم لكانت مقبولة ، والناس تتفاوت مراتبهم ودرجاتهم فى العمل الصالح ، فمنهم مَنْ يعمل خوفاً

---

(١) هى معركة حدثت فى شهر سبتمبر من عام ٣١ قبل الميلاد وانتصر فيها أوكتافيين وريث يوليوس قيصر . [ويكيبيديا] .

من النار ، ومنهم مَنْ يعمل طمعاً فى الجنة ، ومنهم مَنْ يعمل حباً فى الله الذى كلَّفه وإرضاءً له سبحانه ، لا خوفاً من ناره ، ولا طمعاً فى جنته ، إنما يعمل لذات الله .

لذلك ورد أن السيدة رابعة العدوية[1] قالت فى مناجاتها لله تعالى : اللهم إنْ كنتَ تعلم أنِّى أعبدك طمعاً فى جنتك فاحرمنى منها ، وإنْ كنتَ تعلم أنِّى أعبدك خوفاً من نارك فاحرقنى بها ، إنما أحبك لأنكَ تستحق الحب ، واقرأ قوله تعالى : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (١١٠) ﴾ [الكهف] والجنة أحد .

وقوله سبحانه : ﴿ أَلا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ (٥٤) ﴾ [فصلت] تقرير لحقيقة أخرى بدأت أيضاً بـ ﴿ أَلا ﴾ الاستفتاحية . والمعنى أنه سبحانه يحيط علمه بكل شىء إحاطةً تامة لا يفلت أحدٌ منها ، ولا يغيب عنها مثقالُ ذرة فى السموات ولا فى الأرض ، والمحيط هو الدائرة التى تلفُّ الشىء من كل جوانبه .

---

(١) رابعة بنت إسماعيل العدوية أم الخير ، البصرية ، صالحة مشهورة مولدها بالبصرة ، لها أخبار فى العبادة والنسك ، ولها شعْر ، توفيت بالقدس عام ١٣٥ هجرية وقيل : ١٨٥ هجرية . الأعلام للزركلى (٣/١٠) .

سُورَةُ الشُّورَىٰ

سورة الشورى (١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿حمٓ ١ عٓسٓقٓ ٢﴾

هذه الحروف من الحروف المقطَّعة التى تقع فى بدايات بعض سور القرآن الكريم ، وقد سبق الحديث عنها فى أكثر من موضع ، ولكنا نُذكّر بأن القرآن كله مبنىّ على الوصل ، الوصل فى آياته ، والوصل فى سُوره ، والوصل فى آخره بأوله .

فأنت تقرأ : ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ٦﴾ [الناس] هكذا بالكسر لتصلها ببسم الله الرحمن الرحيم فى الفاتحة . أما الحروف المقطعة فهى مبنية على الوَقْف ، بحيث يُقرأ كلّ حرف على حِدَة تقول هنا (حا ميم عين سين قاف) .

وأنت تقرأ فى أول البقرة (ألف لام ميم) وتقرأ نفس الحروف

---

(١) سورة الشورى هى السورة رقم (٤٢) فى ترتيب المصحف الشريف ، نزلت بعد سورة فصلت . وهى سورة مكية فى قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر . وقال ابن عباس وقتادة : إلا أربع آيات منها أنزلت بالمدينة هى قوله تعالى : ﴿قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ ..٢٣﴾ [الشورى] إلى قوله : ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ..﴾ [الشورى]

فى أول سورة الشرح : ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١﴾ [الشرح] لتعلم أن القرآن ليس كأىٍّ كتاب آخر ، وأن قراءته تعتمد أولاً على السماع ، قال تعالى : ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ۝١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ۝١٩﴾ [القيامة]

إذن : حين تتدبر القرآن تجد للقراءة بالوصل حكمة ، وللقراءة بالوقف حكمة ، ومعلوم أن الحرف هو اللبنة الأولى فى بناء الكلمة وبالتالى العبارة ، وقد بيَّن لنا الرسول ﷺ أهمية الوقف على هذه الحروف ، فقال : « لا أقول الم حرف ، ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف »[(١)] .

وحروف اللغة قسمان : حروف مبنى وهى اللبنات التى تدخل فى بناء الكلمات والعبارات ، فكلمة كتب تكوَّنت من الكاف والتاء والباء ، وهذه الحروف لا تعطى معنىً إلا إذا تركبت مع بعضها لتكوِّن الكلمات . والأخرى حروف معنى مثل كاف التشبيه فى الجندى كالأسد ، فالكاف هنا أفادت معنى التشبيه ، وهذه الحروف لا تعطى معنىً إلا إذا رُكِّبتْ مع غيرها من الكلمات .

واللغة عامة ظاهرة اجتماعية ، وهى ألفاظ يُعبِّر بها كل قوم عن أغراضهم ، وبها يتفاهمون ، واللغة كما قال العلماء بنت المحاكاة ، فما سمعتْه الأذن يحكيه اللسان ، فالولد الذى ينشأ فى مجتمع عربى يتكلم العربية ، ولو كان فى مجتمع إنجليزى لتكلَّم الإنجليزية .

إذن : ليست اللغة جنساً ولا دماً ، بل ظاهرة اجتماعية تعتمد على

---

(١) عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة ، والحسنة بعشر أمثالها ، لا أقول الم حرف ، ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف » أخرجه الترمذى فى سننه (٢٩١٠) وقال : « حديث حسن صحيح » .

السماع ، حتى فى داخل اللغة الواحدة قد تسمع الكلمة لأول مرة فلا تفهمها ولا تعرف معناها ، مع أن ألفاظها عربية لكنها لم تمرّ بسمعك من قبل .

يُرْوى أن أبا علقمة [١] النحوى كان مُغرماً بالفصحى ، ولا ينطق إلا بها ، فكان يأتى بألفاظ غريبة حتى شَقَّ ذلك على خادمه الذى كان لا يفهم كثيراً من هذه الألفاظ ، وفى إحدى الليالى استيقظ من نومه وسأل الخادم : يا غلام أصقعتْ العتاريف [٢] ؟ لم يفهم الغلام إلا أنه ردَّ فى ضيق وقال له : زِقْ فَيْلم فتعجَّب أبو علقمة وقال له : وما زِقْ فَيْلم ؟ قال الغلام : وما صقعت العتاريف ؟ قال : أردتُ أصاحتْ الديكَة ؟ قال : وأنا أردتُ لم تَصِحْ ؟

ومن نوادر اللغة أن أحدهم ذهب إلى الطبيب ، فقال له الطبيب وكان اسمه أعين : ما بك ؟ قال : أكلت من لحوم هذه الجوازئ فطسأت منها طسأة أصابنى منها وجع من الوابلة إلى دأْية العنق ولم يزل يَنْمى حتى خالط الحلْب وأَلِمَتْ منه الشراسيف ، فقال الطبيب : أعِدْ علىَّ فوالله ما فهمتُ منك شيئاً ، فأعاد كالأولى ، فردَّ الطبيب وقال له : خُذْ حرقفاً وسلقفاً وسرقفاً وزهزقه وزقزقه بماء روث ثم اشربه ، فقال الرجل : أعِدْ علىَّ فوالله ما فهمتُ منك شيئاً . فقال

---

(١) وردت هذه القصة فى كتاب (معجم الأدباء) لياقوت الحموى نقلاً عن أبى بكر محمد بن خلف بن المرزبان فى كتاب الثقلاء . وأبو علقمة النحوى وهو النميرى قال ياقوت الحموى : أراه من أهل واسط .

(٢) العتاريف : عُتْرُف . أى الديك . [تاج العروس مادة : عترف] وأصقعت : أى: أصاحت . وسمى الخطيب مصقعاً لرفع صوته فى التبليغ .

الطبيب : لعن الله أقلَّنا إفهاماً لصاحبه .[١]

إذن : نقول إن اللغة بنت المحاكاة ، فهى تعتمد أولاً على السماع ، فما تسمعه الأذن يحكيه اللسان ، فالولد الصغير يتعلم الكلام من أسرته وممن حوله ، أما الأخرس فإنه لا يتكلم لأنه لم يسمع ؛ لذلك قال تعالى : ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ (١٨)﴾ [البقرة] فالبكَم لا يأتى إلا بعد الصَّمم ، ولو سلسلنا مسألة تعلُّم الكلام هذه سنصل بها إلى أبينا آدم عليه السلام ، فكُلٌّ منا تعلم الكلام من أبيه وأمه وممن حوله ، أما آدم عليه السلام فعلَّمه ربه ، كما قال سبحانه : ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا (٣١)﴾ [البقرة] يعنى أسماء الأشياء ، فالله سبحانه هو المعلم الأول .

وفى الحروف المقطعة هذه ملحظ هام ، فهى تُعلِّمنا الإيمان بالغيب ، كيف ؟ الحق سبحانه وتعالى له فى خَلْقه غيب ومشهد ، وقد جعل سبحانه للغيب مشهداً يدل عليه ، ففى مجال العقائد مثلاً أنا معتقد أن لهذا الكون إلهاً خالقاً ، وهذه العقيدة يمكن أنْ أدلِّل عليها بالآيات الكونية الموجودة المشاهدة .

لكن يأتى فى العقيدة أيضاً مسائل غيبية ليس لها دليلٌ من المشهد المُحَسِّ ، مثل الإيمان بالملائكة وهى غيب ، وما دام هناك تكاليف وطاعة ومعصية فلا بدَّ أنْ توجد جنة ونار ، وقبلها مرحلة القبر وما فيه من نعيم أو عذاب ، كل هذه أمور سمعية لا يُقام عليها دليل عقلى ، إنما

---

(١) هذا الخبر أيضاً لأبى علقمة النحوى ذكره ابن الجوزى فى أخبار الحمقى والمغفلين فصل فى عدم مخاطبة العوام بالإعراب . والجوازم أى : الإبل أى أكل من لحم جمل . فطسأت : أى اتخمت بالطعام من الدسم ؛ فأصابه رجع من الوابلة وهى رأس عظم الخفذ إلى العنق والظهر ولم يزل الألم يزيد حَتى خالط الحِلب وهو حجاب بين القلب والكبد فتألمت منه أطراف الأضالع .

نؤمن بها لأن الإله الذى آمنا به أخبرنا بوجودها ونحن نثق فى خبره .

إذن : كل إيمان عقدى مُشَاهد يأخذ بجانبه إيماناً غيبياً ، والإيمان بالغيب هو الأهم لأنه المحكّ فى مسألة الإيمان ، وهو الدليل على قوة العقيدة ، لأن الإيمان بالمشهد يستوى فيه الجميع .

قلنا : هَبْ أن عندك خادماً وقلتَ له : يا فلان ارفع هذا الحجر فى الحديقة مثلاً فيقول لك : إنه ثقيل لا أقدر على رفعه تقول له : إنَّ تحته كيس النقود الذى سأعطيك منه راتبك فيسرع إليه ويرفعه ، هذا آمن بالغيب أم بالمشهد ؟ آمن بالمشهد . لم يثق بك وإنما بكيس النقود .

إذن : المحك الحقيقى للإيمان هو الغيب ، لذلك قال تعالى فى صفات المؤمنين ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ③﴾ [البقرة] لأن المحسَّ والمشَاهد الكل يعرفه ويؤمن به ،

كذلك الحال فى كلام ربِّ العالمين وفى قرآنه الكريم كلام وحروف لها معنى ، وحروف أخرى ليس لها معنى واضح نعرفه ونفهم تفسيره ، وهذه هى الحروف المُقطَّعة نؤمن بها ونُصدِّق بها على أنها من الغيب .

وسبق أنْ أوضحنا أن الحروف المقطعة فى بدايات السور أخذت نصف حروف المعجم يعنى أربعة عشر حرفاً ، والمتأمل فى هذه الحروف يجد لها نظاماً ورتابة لم تُؤخذ هكذا كيفما اتفق ، فلو قسَّمنا حروف الهجاء إلى تسعة حروف فى أولها وتسعة فى آخرها ويتبقى عشرة فى الوسط نجد الحروف المقطعة أخذت فقط حرفين من المجموعة الأولى هما الألف والحا وترك سبعة ، وأخذت سبعة من المجموعة الأخيرة وتركت اثنين ، وأخذت من الوسط الحروف غير المنقوطة وتركت المنقوط ، إذن : لها موازين ولها حكمة .

ونحن نحاول ونفكر فى معانى هذه الحروف ، ويحوم العقل حول هذه المعانى قد يبلغ بعضها ، وقد يقف عاجزاً يقول : الله أعلم بمراده ، وكُلُّ عالم يحاول فَهْم هذه الحروف أو استجلاء الحكمة منها مجتهد ومُثَاب ، أصاب أو جانبه الصواب .

المهم أن الحق سبحانه يريد منا أن نؤمن بهذه الحروف ، وأن نقبلها كما هى ، عرفنا معانيها أو لم نعرف ، فهى أشبه بأسنان المفتاح الذى يعنيك منها أنْ تفتح لك دون أنْ تعرف لها نظاماً ، ويكفى أن صاحبها يعرف أسرارها ، وأنها تؤدى لك مهمتها على ما هى .

فصحيح أننا نحوم حول هذه المعانى وقد نصل إلى شىء منها ، لكن يظل للقرآن إعجازه ، وتظل هذه الحروف محتفظة بعطاء متجدد لا ينفد . والقرآن لما تحدَّى العرب وأعجزهم ، البعض فهم من ذلك أنه تقليل من شأن العرب ، لكن هذا التحدى يعنى براعتهم فى هذا المجال وتمكّنهم منه وإلا ما تحداهم القرآن ، إذن : تحدِّى القرآن لهم شرف لهم وإعلاء لشأنهم ، ويكفى أن الله جعلهم المقياس فى هذه المسألة .

والقرآن حين تحدَّى العرب لم يأت بكلمات جديدة ولا بحروف جديدة ، فهى نفس الحروف ونفس الخامات التى تتكوَّن منها لغتهم ، ومع ذلك ظل كلام الحق سبحانه هو المعجز ، ولم يستطيعوا الإتيان بمثله ، فوجه الإعجاز هنا أن القرآن كلام الله ، الله هو الذى يتكلم ، فكلامه مُعْجز لأنه سبحانه يضفى عليه من قدرته ، وكلامك أنت أيها العبد غير معجز لأن فيه شيئاً من عجزك .

وسورة الشورى من سُوَر الحواميم[١] . يعنى : السور التى بدأتْ بقوله تعالى (حم) وقد رأينا أن هذه الحروف جاءت بحرف واحد مثل (ن) و (ق) و (ص) . وجاءت بحرفين مثل (طس) . وجاءت على ثلاثة أحرف مثل (الم) و (طسم) وجاءت على أربعة أحرف مثل (المر) و (المص) . وعلى خمسة أحرف مثل (حم عسق)[٢] و(كهيعص) وهذه الحروف لا تُعرف معانيها ، ونؤمن أنها من الغيب الذى يجب علينا التسليم به ، وأن نقول فى تفسيرها : الله أعلم بمراده .

﴿ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٣ ﴾

الكاف فى ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ حرف معنى يفيد التشبيه و ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ إشارة إلى الحروف المقطعة السابقة ، يعنى بمثل هذه الحروف ﴿ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٣ ﴾ [الشورى] فهذه الحروف من وحى الله إلى نبيه محمد ، وما يأتى بعدها أيضاً من وحى الله .

والوحى : هو إعلام بخفاء من المتكلم للسامع ، فلو جاءك ضيف

---

(١) الحواميم هى السور التى تبدأ بقوله (حم) وهى سبع سور : غافر ، فصلت ، الشورى ، الزخرف ، الدخان ، الجاثية ، الأحقاف . وصفها على بن أبى طالب : عرائس القرآن . وقال ابن عباس : لباب القرآن . وقال ابن مسعود : الحواميم ديباج القرآن . [انظر : العقد الفريد لابن عبد ربه (قولهم فى حملة القرآن)] .

(٢) نقل القرطبى فى تفسيره (٦٠٤٣/٩) أن الحسين بن الفضل سئل : لم قطع « حم » من « عسق » ولم تُقطع (كهيعص) ؟ فقال : لأن « حم . عسق » بين سور أولها « حم » فجرت مجرى نظائرها قبلها وبعدها ، فكأن « حم » مبتدأ و « عسق » خبره .

وتريد أن تخبر خادمك بأمر دون أنْ يُحسَّ به الضيف ، فإنك تنظر إلى الخادم أو تهمس إليه بطريقة ما يفهم منها ما تريد ، فكأنك أوحيتَ إليه بهذا الأمر .

والوحى يقتضى : مُوحياً ، ومُوحَىً إليه ، ومُوحىً به ، وقد أخبرنا الحق سبحانه أنه يوحى لمن يشاء من مخلوقاته ، يوحى إلى الملائكة : ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا .. (١٢)﴾ [الأنفال]

ويوحى للرسل : ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ..(١٦٣)﴾ [النساء]

ويوحى إلى الصالحين من عباده ، كما أوحى إلى الحواريين ، وكما أوحى إلى أم موسى ، وأوحى للنمل ، وأوحى إلى الأرض وهى جماد : ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا (٥)﴾ [الزلزلة]

كذلك أخبرنا الحق سبحانه أن الشياطين يوحى بعضهم إلى بعضهم ، ومثلهم شياطين الإنس ، قال تعالى : ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ ..(١٢١)﴾ [الأنعام] أى : من الإنس وقال : ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ[1] الْقَوْلِ غُرُورًا (١١٢)﴾ [الأنعام] والوصف العام لكلمة الوحى أنه بخفاء ، هذا فى المعنى العام لكلمة الوحى ، وهو يكون بالخير ويكون بالشر .

أما الوحى الشرعى المقصود هنا فالذى يكون من الله تعالى لرسوله ﷺ بواسطة الملَك جبريل عليه السلام ، قال تعالى : ﴿وَمَا

---

(١) زخرف القول غروراً . أى : القول المرقَّش بالخداع وبالكذب الذى يوحى بالغرور لمن يسمعه . [القاموس القويم ١/٢٨٥] وقال ابن الأعرابى فيما نقله عنه ابن منظور فى لسان العرب (مادة : زخرف) : أى حسن القول بترقيش الكذب .

كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ (٥١) ﴾ [الشورى]

إذن : الوحى الشرعى : إعلام من الله لمن اختاره من الرسل بإحدى هذه الوسائل : أن يرسل إليه مَلَكاً أو عن طريق الإلهام ، وسبق أنْ أوضحنا أن وارد الرحمن لا يصطدم بوارد الشيطان ، لأن وارد الرحمن أقوى لا ينازعه شىء .

ففى قصة أم موسى ، قال تعالى ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ (٧) ﴾ [القصص] الوحى هنا بمعنى ألهمها ، أو نفث فى روعها ، أو مرَّر بخاطرها ﴿ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ (٧) ﴾ [القصص] هذا أمر العقل لا يقبله ، لكنه لما كان من الله لم يعارضه اختيار آخر وأذعنتْ له أم موسى ونفَّذته على الفور .

لذلك لما أراد الحق سبحانه أنْ يعلِّم صحابة رسول الله أمور دينهم أنزل إليهم جبريل فى صورة رجل ، وأخذ يسأل رسول الله عن الإيمان وعن الإسلام وعن الإحسان وكان يسأل ويصدق ؛ لذلك تعجب منه الصحابة : كيف يسأل ويصدق ، ولما انتهى الدرس قال رسول الله ﷺ : « إنه جبريل جاء يعلمكم أمور دينكم »(١)

---

(١) عن عمر بن الخطاب قال : بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم ، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ، لا يُرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منا أحد ، حتى جلس إلى النبى ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ، ووضع كفيه على فخذيه ، وقال : يا محمد أخبرنى عن الإسلام ، فقال ﷺ : « الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إنِ استطعت إليه سبيلاً . قال : صدقت . قال : فعجبنا له يسأله ويُصدِّقه قال : فأخبرنى عن الإيمان ؟ قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره . قال : صدقت . قال : فأخبرنى عن الإحسان . قال : أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك ... » . الحديث أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٠) ومسلم فى صحيحه (٨) .

وتبين هذه الآية : ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣﴾﴾ [الشورى] أن الموحى هو الله عز وجل ولم تقل مثلاً ربك ، فاختارت لفظ الألوهية لماذا ؟ الله هو المعبود بحقٍّ ، والمعبود يعنى له منهج وله تكاليف فيها أوامر وفيها نواه ، فعطاء الألوهية كما قلنا عطاء تكليف ، أما عطاء الربوبية فتربيةً ورعاية ومنح دون مقابل .

فالحق سبحانه وتعالى فى العطائيْن لا يعود عليه من العباد شىء ولا ينتفع منهم بشىء ، لا تنفعه طاعة الطائعين ، ولا تضره معصية العاصين ، وما جعل التكليف والمنهج إلا لإسعاد العباد وسلامة المجتمع .

كأن الله يقول لنا : أريدكم سعداء فى مجتمع نظيف طاهر يقوم على المحبة والسلام ، ويخلو من الغل والحسد والنفاق ، مجتمع يقول وينبه على الفضيلة ويخلو من الرذيلة ، ذلكم لأنكم عبادى وصنعتى ، وكل صانع يريد لصنعته الصلاح ، ويربأ بها عن الفساد .

لذلك قلنا : إن الرجل العاقل لا يحقد على مَنْ هو أعلى منه فى ناحية من النواحى ولا يحسده ، وإذا اصطدم بظالم لا يدعو عليه إنما يدعو له ، وإذا رأى فساداً أصلحه ، وإذا رأى غير المسلمين تمنى لو كانوا مسلمين ، لماذا ؟ لأنه سيسعد بإصلاح هؤلاء ، وسيجنى ثمار صلاحهم واستقامتهم ، وسيعود عليه خيرهم .

وقوله تعالى : ﴿اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣﴾﴾ [الشورى] إشارة إلى أن الموحِى بهذا الوحى والمنزِل لهذا الكتاب ولهذا المنهج (الله) أى : صاحب التكاليف والآمر بها .

الله : علَم على واجب الوجود ، بعضهم قال : هو مشتق من أله من العبادة ، ومألوه يعنى معبود ، وبعضهم قال : الله علَم على

الذات ، لا تجد فيه إلا صفة العَلَمية على واجب الوجود ، وهذا العلم موصوف بكل صفات الكمال ، فهو القوى العزيز الجبار المتكبر الرحيم الحكيم الغفور الوهاب القهار . هذه من أسماء الحق سبحانه وهى صفات كمال لاسم الله ، لذلك قال تعالى : ﴿ **قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ** (١١٠) ﴾ [الإسراء]

الحق سبحانه يُعلِّمنا كيف ندعوه فى شتى أمورنا ، فمَنْ أراد العلم يدعو العليم ، ومَنْ أراد القوة يقول يا قوى قوِّنى ، ومَنْ أراد الحكمة يقول : يا حكيم ألهمنى الحكمة ، ومَنْ أراد سعة الرزق قال : يا باسط ابْسُطْ لى الرزق ، فإذا أراد كلّ هذه الصفات قال : يا الله . فهو الاسم الجامع لكل صفات الكمال .

وهو سبحانه فى تكاليفه لكم ﴿ **العزيز** ﴾ يعنى : غالب لا يغلب ، وله صفات العزة والجبروت والغنى والاستغناء عن الخلق .

ثم هو سبحانه ﴿ **الحكيم** ﴾ يعنى : حين كلّف كلّف بقدر وبحكمة . ذلك لأن القرآن به تكاليف قد يراها البعض شاقة ، لكن إذا أخذنا هذه التكاليف بمصاحبة ثمرتها والثواب عليها نجدها سهلة يسيرة لأنها تُدِر عليك نفعاً تهون أمامه كل المشاق .

ألاَ تراك تتعب فى الدنيا ثم تجنى من الثمار على قدر تعبك ، ألاَ ترى أن نفاسة النتيجة على مقدار الكَدِّ ؟ أنت فى الدنيا مثلاً تزرع الفجل تجده فجلاً ، وتستطيع أنْ تأكل منه بعد عدة أيام ، وتزرع مثلاً الخيار وتأكل منه بعد أربعين يوماً والأرز مثلاً بعد عدة شهور ، وتزرع المانجو فلا تعطيك إلا بعد عدة سنوات .

إذن : إذا كلّفك الله بشىء فيه مشقة ، فاعلم أن الثمرة على قدرها ،

واعلم أن الذى أوحى إلى النبى بهذا التكليف عزيز حكيم ، فإنْ كان شاقاً فى نظرك فمُكلِّفك به غنىٌّ عنك وعن طاعتك لا يستفيد منه بشىء بل أنت المستفيد ، وهو حكيم يعنى كلَّفك بما يؤدى إلى سلامة حركتك فى المجتمع .

وهذه العزة لله تعالى فهمها إبليس حين قال : ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢)﴾ [ص] يعنى : بغناك عنهم ، وترك الاختيار لهم ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ (٢٩)﴾ [الكهف] وإلا فالذى تريده وتستخلصه لك لا أستطيع أنْ أقترب منه : ﴿إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٤٠)﴾ [الحجر]

إذن : المعركة ليست بين الحق سبحانه وبين إبليس ، إنما بينه وبين بنى آدم ، وهى معركة ممتدة منذ مسألة الأمر بالسجود لآدم وإلى قيام الساعة ، وقد ظهر غباء إبليس فى الحوار الذى دار بينه وبين الحق سبحانه ، ثم بينه وبين سيدنا آدم ، ففى قوله : ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦)﴾ [الأعراف] كشف عن خططه وطريق إغوائه لبنى آدم ، وأنه سيأتيهم فى أماكن الطاعات ليفسدها عليهم .

لكن الحق سبحانه وتعالى علَّمنا كيفية التعامل مع هذا العدو ، وعلَّمنا كيف نرده ، فقال تعالى : ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ[1] مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ (٢٠٠)﴾ [الأعراف] يعنى الجأ إلى الله ، وذَكِّره بالله لأنه خنَّاس إذا ذكر الله خنس ، وهذه وصفة إياك أن تغفل عنها .

وظهر أيضاً غباؤه وتغفيله فى قوله لآدم وحواء وهما فى الجنة : ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ

---

(١) نزغه الشيطان : وسوس له بالشر . ونزغ بين الرجلين : أفسد ما بينهما . [القاموس القويم ٢/٢٦٠] .

الْخَالِدِينَ (٢٠)﴾ [الأعراف] فلو كان يعلم أنها شجرة الخلد لأكل منها من باب أوْلى ، ولم يسأل الله أنْ يُنظره إلى يوم يبعثون ، وهذه غفل عنها آدم أيضاً ، وقد قال الله فى حقه : ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا (١١٥)﴾ [طه] ؛ ولذا لا نعتب على من نَسِىَ؛ فإن المُوَصَّيْن بنو سَهْوان .

﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٤﴾﴾

أى : لله تعالى ما فى السموات وما فى الأرض ملكاً لا يتصرف فيه الخليفة ، هذه منطقة حرام أنْ يتصرَّف أحد فى مُلْك هو لله تعالى وحده ، إنما يتصرف الخليفة فيما دون ذلك من الأحداث .

وحين نستقرىء هذه الآية وأمثالها فى القرآن نجد الحق سبحانه يقول مرة : ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ (٤)﴾ [الشورى] ويقول مرة ﴿وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ (٥٢)﴾ [النحل] ذلك لأن الخلق متفاوت ، فهناك خلْق موجود فى السماء وفى الأرض وهم الملائكة ، وهناك خلق للسماء فقط ، هم الملائكة العالون وهناك خَلْق للأرض فقط هم : الجن والإنس .

فحين يقول : ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ (٤)﴾ [الشورى] يذكر الجنسين ، وحين يقول : ﴿وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ (٥٢)﴾ [النحل] يذكر الجنس المشترك بينهما .

نفهم من ذلك أن الكون الذى نعيش فيه ليس ملْكاً لأحد على الحقيقة ، فالملكية لله تعالى وإنْ ملَّك بعضاً شيئاً فهو موقوت ، ومن باطن ملكه تعالى حتى لا يغترَّ أصحابُ الأملاك بأملاكهم ، أنت

مجرد خليفة لستَ مالكاً ، هذه الأرض عبارة عن ملعب نحن جميعاً فقط نلعب فيه ولا يملكه منا أحد ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ (١٢٠)﴾ [المائدة]

وقالوا : اللام للملك كما فى : القلم لزيد . وللاختصاص كما لو قلتَ : الحبل للفرس ، فالفرس لا يملك الحبل إنما يملكه صاحب الفرس ، فالحبل يخص الفرس .

وفى قوله تعالى : ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ (٤)﴾ [الشورى] تفيد المعنيين ، فهى للملك وللاختصاص أو القصر بتقديم الخبر الجار والمجرور له ، فالملك هنا لله وحده لا يشاركه فى ملكه أحد ، تقول : لزيد القلم يعنى خاص به ومقصور عليه ، أما (القلم لزيد) يمكن أن تقول : ولعمرو .

والهاء ضمير الغائب فى (له) تعود على الحق سبحانه ، والغيبة هنا هى عين الظهور والحضور ، ومن عظمته سبحانه أنه غيب لا يُدرَك بالحواس ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٠٣)﴾ [الأنعام]

فمن عظمته أنه غيب ، كما نقول : الحق هذه الكلمة التى يدعيها الجميع أنه على الحق ، وكذلك العدل .. هذه معانٍ نتحدث عنها لكن لا نعرف ما هى ؟ ما شكلها ؟ فلو كنا لاندرك مجرد المعانى العالية ، فكيف نطمع فى إدراك ذات الحق سبحانه ؟

وفى موضع آخر قال سبحانه : ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ (٤٩)﴾ [الشورى] إذن : فالله يملك السموات والأرض ، وهى ظرف فيه أشياء هى أيضاً ملك لله ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ (٤)﴾

[الشورى] وما فى السماء أثمن من السماء ، وما فى الأرض أثمن من الأرض ، والعادة أن المظروف أنفسُ من الظرف الذى يحتويه .

فكل ما فى السموات وما فى الأرض مِلْكٌ لله ومُسخَّر لخدمة خليفته فى أرضه ، فالحق سبحانه خلق لك قبل أنْ يخلقك ، وأعدَّ لك كَوْناً جاهزاً لاستقبالك فيه مُقوِّمات حياتك ، هذا قلنا : إنه عطاء الربوبية .

فربك ربَّاك بالمنهج الذى أنزله من السماء على يد الرسل ، وحفظ لك أسباب الحياة واستبقاء الحياة بماء ينزل من السماء ، وأرض تنبت لك مختلفَ الأطعمة والقوت ، وجعل لك الأنهار ، وجعل لك الهواء .

وبهذه العناصر الثلاث يتم لك استبقاء الحياة وقلنا : من رحمته تعالى بخَلْقه أنْ جعل حاجتك للطعام ، غير حاجتك للشراب ، غير حاجتك للتنفس ، فالإنسان يصبر على الطعام مثلاً شهراً ، ويصبر على الماء عدة أيام ، لكنه لا يصبر على الهواء ولو لِنفَس واحد .

لذلك ملَّك الله الطعام لبعض البشر ، فإنْ منعه عنك تعيش على المخزون فى جسمك ، إلى أنْ تحتال عليه بأىِّ وسيلة ، وملَّك الماء قليلاً ، لأن الصبر عليه أقل من الصبر على الطعام ، أما الهواء فلم يُملكه لأحد ، تصور لو غضب عليك صاحب الهواء ، والله لمتَّ قبل أنْ تنال رضاه .

وبعد ذلك أعطاك ترف الحياة وما تتحلى به وتتزيَّن ، لذلك قال عن البحر : ﴿وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴿١٤﴾﴾ [النحل] وقال :

﴿ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا (٢٦) ﴾ [الأعراف] فالضرورى فى اللباس ما يستر العورة ثم يأتى الرياش ، وهو ما يكون للزينة .

﴿ وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ (٢٦) ﴾ [الأعراف] لأن لباس الدنيا يستر عورتك وتحميك فى الدنيا ، أما لباس التقوى فيسترك فى الدنيا وفى الآخرة ، ويعطيك حياة أخرى أبقى وأدوم .

هذا كله من ملك الله الذى فى الأرض ، فإنْ نظرتَ إلى أعلى تجد الهواء وهو نعمة فى طياتها نِعَم كثيرة ، فالهواء عنصر هام فى بقاء الحياة للكائنات الحية ، وهو المادة الموصّلة التى ينتقل بها الصوت والصورة التى نراها فى (التليفزيون) مثلاً .

ثم تأمل فى السماء من شمس وقمر ونجوم وكواكب ومجرات ، كلها آيات كونية مِلْكٌ لله تعالى لا يتصرف فيها غيره سبحانه .

﴿ وَهُوَ الْعَلِىُّ الْعَظِيمُ (٤) ﴾ [الشورى] العلى لا تعنى أنه عَالٍ فى المكان فقط ، إنما العلى يعنى المتعالى عن كل شىء فى الوجود ﴿ الْعَظِيمُ ﴾ أيضاً لا تعنى ضخامة الحجم ، إنما العظيم بقيوميته وقدرته وصفات كماله .

﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ۚ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ (٥) ﴾

قوله تعالى : ﴿ تَكَادُ السَّمَـٰوَاتُ .. (٥) ﴾ [الشورى] أى : تقترب

وتوشك ﴿يَتَفَطَّرْنَ ۝٥﴾ [الشورى] يتشققن إما هيبةً لله ومن عظمته سبحانه ، كما ورد في الحديث الشريف : « أطتْ السماء وحُقَّ لها أن تئط »[1] وإما تشققت غضباً من الذين قالوا اتخذ الله ولداً .

﴿مِن فَوْقِهِنَّ .. ۝٥﴾ [الشورى] يجوز من فوق ملائكة الملأ الأعلى ، حيث هيبة الملائكة من الله ، وتعظيمهم له سبحانه ، أو من فوق الأرض حيث البشر أصحاب الذنوب والذين قالوا اتخذ الله ولداً ، لأن الحق سبحانه ردَّ عليهم : ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ۝٨٩﴾ [مريم] أى : عجيباً وغريباً لا يقبله العقل ﴿تَكَادُ السَّمَٰوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ۝٩٠﴾ [مريم]

فالولد إنما يُطلب إما للمعونة فى وقت الضعف والشيخوخة ، وإما لبقاء الذكْر . وهذه أمور لا تجوز ، ولا تنبغى للحق سبحانه لأنه غَنى عنها ، لذلك قال تعالى : ﴿وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ۝٩٢﴾ [مريم] أى : أن الحق سبحانه لو أراد أن يتخذ ولداً لفعل ، حيث لا يمنعه من ذلك مانع ، إنما جلال الله وعظمته وقيوميته تعالى لا ينبغى لها ذلك ، لا يجوز ولا يصح أنْ يكون له ولد ، ونَفْى الانبغاء يدل على الكمال .

ومثال ذلك قوله تعالى فى شأن نبيه محمد ﷺ : ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ ۝٦٩﴾ [يس] عندما اتهمه الكفار بأنه شاعر ، والمعنى : أنه لا يقول الشعر ليس لأنه عاجز عن قوله ، بل عنده أدوات الشعر ويستطيعه ، لكنه لا ينبغى أنْ يقوله ولا يصح ، لأن الله يُعده لأمر أعظم من شعركم .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (حديث ٢٠٥٣٩) والترمذى فى سننه (٢٢٣٤) والبيهقى فى السنن الكبرى (٥٢/٧) وعبد الرزاق فى مصنفه (٤٤٠/٩ - حديث ١٧٩٣٤) وتمامه : « ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجداً لله » .

فقوله سبحانه ﴿وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَـٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾﴾ [مريم] تأكيد أنه تعالى لو أراد له ولداً لفعل ، لكن هذا أمر لا ينبغي في حقه تعالى لأنه مُنزَّه عنه ، لذلك قال في موضع آخر : ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [الزخرف] يعني : على فرض إن اتخذ ولداً فسأكون أول المؤمنين به .

وقوله : ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ[1] بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴿٥﴾﴾ [الشورى] الملائكة من الغيبيات ، والسماء والأرض من الحسيات ، فالحسيات غاضبة تكاد تتشقق من هذا القول ، أما الملائكة فيسبحون بحمد ربهم ويُنزِّهونه عن اتخاذ الولد ، وجاء التسبيح قبل التحميد ، التسبيح يعني نفي المماثلة لأيِّ كائن مَنْ كان ، أما التحميد فيجب لله تعالى على نعمه ومنحه ، فالتسبيح أَوْلَى من التحميد ومُقدَّم عليه .

وقوله تعالى : ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ ﴿٥﴾﴾ [الشورى] فهم لا يستغفرون لأنفسهم ، بل يستغفرون لمن في الأرض ، وهذا يعني أنهم بلا ذنوب ، ولو كان لهم ذنوب لاستغفروا لأنفسهم من باب أوْلَى . والاستغفار هنا عام لكل مَنْ في الأرض بما فيهم الكفار .

وفي موضع آخر قال : ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴿٧﴾﴾ [غافر] أما هنا فقال : ﴿لِمَن فِي الْأَرْضِ ﴿٥﴾﴾ [الشورى] فشمل الجميع ، والاستغفار لغير المؤمنين طلب المغفرة لهم وطلب الهداية ، وأنْ يلهمهم الله الإيمان به .

أما الحديث الشريف الذي ورد فيه : « ما من يوم تطلع فيه

---

(١) يسبحون : أي ينزهونه عما لا يجوز في وصفه وما لا يليق بجلاله . وعن علي رضي الله عنه : أن تسبيحهم تعجُّب مما يرون من تعرضهم لسخط الله . وقال ابن عباس : تسبيحهم خضوع لما يرون من عظمة الله . [تفسير القرطبي ٩/٦٠٤٦] .

الشمس إلا وينادى مُنَاد من قِبَل الله تعالى يقول : اللهم أعْطِ منفقاً خلفاً ، وأعط ممسكاً تلفاً »[١]

قالوا : الدعاء بالتلف للممسك هنا لا يتعارض مع استغفار الملائكة لمن فى الأرض ، لأن المنفق يستغنى عن ماله وينفقه فى سبيل الله ، فحبه لله تعالى أعظم من حبه للمال ، أما الممسك فيحب ماله ويبخل به ، وحين يدعو عليه الملَك بالتلف فإنما ليُخلصه من مال صرفه عن الله ، فتلَفُ هذا المال نعمة أو مصيبة يُثَاب عليها .

إذن : هو دعاء بالخير فى كلتا الحالتين .

﴿ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۝٥ ﴾ [الشورى] قلنا : إن ألا أداة استفتاح وتنبيه ، لأن المتكلم حُرّ يتكلم متى شاء ، أما السامع فليس حراً فى السماع ، وقد يغفل عن سماع بعض الكلام ، لذلك ينبغى للمتكلم أنْ ينبه السامع وأن يُخرجه من غفلته ، لا سيما إنْ كان الكلام مهماً يحرص على أنْ يسمعه السامع دون أنْ يفوته منه شىء ، لذلك يقول (ألا) فى البداية يعنى : انتبه واسمع منى .

ومن ذلك قول الشاعر الجاهلى[٢] :

أَلاَ هُبِّى بِصَحْنِكِ فَاصْبَحِينَا ... وَلاَ تُبْقِى خُمُورَ الأَنْدَرِينَا[٣]

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٠١٠) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، قال النووى فى شرحه : « قال العلماء : هذا فى الإنفاق فى الطاعات ومكارم الأخلاق ، وعلى العيال والضيفان والصدقات ونحو ذلك . بحيث لا يذم ولا يسمى سرفاً . والإمساك المذموم هو الإمساك عن هذا » .

(٢) هو : عمرو بن كلثوم أبو الأسود من بنى تغلب ، شاعر جاهلى من الطبقة الأولى ، ولد فى شمالى جزيرة العرب فى بلاد ربيعة ، ساد قومه تغلب وهو فتى وعمّر طويلاً . مات فى الجزيرة الفراتية عام ٣٩ قبل الهجرة . أشهر شعره معلقته التى مطلعها البيت الذى ذكره الشيخ هنا .

(٣) البيت من قصيدة من المعلقات وهو مطلع القصيدة من بحر الوافر عدد أبياتها ١٢٥ بيتاً .

وتذييل الآية : ﴿أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۝٥﴾ [الشورى] يناسب مسألة استغفار الملائكة لمن فى الأرض ويقول لك : انتبه فالذى تستغفره غفور ورحيم ، غفور يغفر الذنب ويمحو آثاره ورحيم : يعنى يرحمك بعده من الوقوع فى ذنب آخر .

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ۝٦﴾

معنى﴿مِن دُونِهِ ۝٦﴾ [الشورى] أى من دون الله ﴿أَوْلِيَاءَ﴾ يوالونهم ويعبدونهم من دون الله ، كالذين عبدوا الشمس والقمر أو الشياطين أو الملائكة ﴿اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ ۝٦﴾ [الشورى] يعنى : رقيب يعلم ما فعلوا ، ويحصى عليهم ما قالوا ، ويحاسبهم على هذا ويجازيهم بما يستحقون ، لأنه تعالى إليه المرجع وإليه المصير .

وما دام الأمر كذلك فلا تحزن يا محمد ، ولا تُهلك نفسك أسفاً عليهم ، فليس عليك هداهم ، إنما عليك البلاغ ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ۝٦﴾ [الشورى] وكيل : فعيل بمعنى مفعول ، وما أنت عليهم بموكول أنْ يؤمنوا ، إنما عليك البلاغ وعلينا الحساب .

ومعلوم أن صيغة فعيل تأتى بمعنى فاعل مثل رحيم بمعنى راحم ، وبمعنى مفعول مثل قتيل بمعنى مقتول .

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ۝٧﴾

قوله تعالى (كذلك) أى : كهذا الوحى الذى سبق ﴿أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ۝٧﴾ [الشورى] سُمى قرآناً لأنه مقروء ، وسُمِّى الكتاب لأنه مكتوب مُسطر فى كتاب ، ووصف بأنه عربى لأنه بحروف وبلسان عربى مبين ، وعربى منسوب إلى العرب ، وقلنا : إن اللغة ألفاظ يعبر بها كل قوم عن أغراضهم ، وأنها بنت المحاكاة ، فما سمعتْه الأذن يحكيه اللسان .

وليست اللغة جنساً ولا دماً ، بدليل أن الولد العربى لو عاش فى بيئة أجنبية يتكلم نفس لغتها ، لأن اللغة تقليد ومحاكاة تعتمد على التلقِّى والتقليد ، حتى فى لغتك التى تتكلم بها يطرأ عليك اللفظ فلا تعرف معناه ، لماذا ؟ لأنك لم تسمعه من قبل .

لذلك نقول : إن التلقين فى اللغة دليل على صدق الحق سبحانه فيما قال : ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ۝٣١﴾ [البقرة] فالله تعالى هو أول معلم للبشر ، وإلا فمَنْ علَّم آدم الأسماء والحروف والكلمات ؟

بعض المستشرقين وقف عند هذه الآية ، وقال : كيف يكون القرآن عربياً وفيه كلمات كثيرة من غير العربية ، فيه من لغة الرومان ومن لغة الفرس والحبشة ؟ ونقول : معنى ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا ۝٧﴾ [الشورى] أى : نزل بكلمات دارتْ على ألسنة العرب وتُدُوولَتْ بينهم قبل نزول القرآن ، فصارت من لغتهم ، ثم كم هى هذه الكلمات بالنسبة لكلمات القرآن ؟

إذن : فالقرآن عربى ، والله تعالى يقول : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۝٤﴾ [إبراهيم] يعنى : يتلقون عنه ويفهمون منه ، وإلا ما تم البلاغ عن الله .

فإنْ قلتَ : كيف ذلك ومحمد ﷺ مُرسَلٌ للناس كافة فى كل مكان ،

وفى كل زمان ؟ نقول : هذه مهمة أمة محمد من بعده ، أنْ تتعلم هذه اللغات ، وأن تحمل إليها دين الله فى أىِّ مكان ، لأن محمداً خاتم الرسل وآخر الأنبياء ، فلا بدَّ أن تحمل الأمة من بعده هذه المهمة ، وأنْ تسيح بها فى أنحاء العالم .

فالقرآن نزل بالعربية لأنه سبحانه اختار العرب لحمل هذه الرسالة ، وسبق فى موضع قريب أن تكلمنا عن اختيار العرب بالذات لهذه المهمة ، والحكمة من كَوْن رسول الله أمياً فى أمة أمية ، وإذا كان القرآن معجزاً للعرب بلفظه وأسلوبه ، فهو معجز لغير العرب بمعناه ، ومعجز بآياته الكونية التى تظهر للناس وتبهرهم من حين لآخر .

تصوَّروا لو أن محمداً كان متعلماً فى أمة متعلمة ذات حضارة ، ماذا كانوا يقولون ، مع كثرة الكفرة والمعاندين والملحدين ، والله لو كان الأمر كذلك لقالوا : إن الإسلام قفزة حضارية كالتى حدثتْ فى كثير من الأمم .

إذن : نقول : الأمية عيب فى كل أمى إلا فى رسول الله فهى شرف ، لماذا ؟ لأنها تعنى أنه تلقى كل علومه وكل ثقافاته من أعلى ، فهى شرف لارتقاء مصدرها إلى الحق سبحانه .

والعجيب أن من أعداء الإسلام مَنْ يقول بأن محمداً كان متعلماً ، وهو الذى كتب القرآن من عنده سبحان الله ، أأنتم متعصبون لمحمد أكثر من أتباعه ؟ والقرآن صريح فى الرد عليهم : ﴿ **وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ** (٤٨) ﴾ [العنكبوت]

وبعد هذه الأمية جاء محمد ﷺ بمنهج أخضع له حضارات العالم ، ودانتْ له أعظم حضارتين فى هذا الزمن ، حضارة فارس فى الشرق

وحضارة الروم فى الغرب ، أخضعها له لا بالقوة إنما بأساليبه ومعانيه الراقية التى تنظم حركة الحياة والمجتمع كله ، وتنظفه من كل القاذورات والسلبيات التى كانت منتشرة بين هؤلاء .

وقوله تعالى : ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۝٧﴾ [الشورى] الإنذار هو الإخبار بشرٍّ قبل أوانه والتخويف به قبل موعده ، والحكمة أننى حين أخوفك من الأمر قبل حدوثه أعطيك فرصة لتتجنبه .

﴿أُمَّ الْقُرَىٰ ۝٧﴾ [الشورى] هى مكة ، فهى أم القرى ، أو أصل القرى ، لأن بها أول بيت وُضع للناس ، وآدم من الناس فالبيت إذن وُضع قبل آدم لذلك فالقول الذى قال بأن الملائكة هى التى وضعتْ هذا البيت قول صحيح .

والمراد بمن حولها : ما حول مكة من قرى وقبائل وتجمُّعات عربية ، ولأن مكة هى أم القرى وأصلها ، أخذت قريش مكان الصدارة بين قبائل العرب فى شبه الجزيرة العربية ، وكانت قريش لها شرف خدمة البيت فهم سدنته القائمون على أمره تأتيهم كل القبائل فى موسم الحج ، فتوفر لهم الأمن والحماية والمؤنة ، لذلك كانت قوافل قريش التجارية تحظى بالاهتمام والحماية فى كل أنحاء الجزيرة فى رحلتَى الشتاء والصيف .

إذن : فالبيت هو الذى منح قريشاً هذه المهابة وهذه المنزلة ، يقول تعالى : ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ۝١ إِيلَافِهِمْ[1] رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ۝٣ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ

(١) قال أبو عبيد : ألفت الشىء وآلفته بمعنى لزمته . والإيلاف : من يؤلفون أى يهيئون ويجهزون . قال ابن الأعرابى : كان هاشم يؤلف إلى الشام ، وعبد شمس يؤلف إلى الحبشة ، والمطلب إلى اليمن . [لسان العرب – مادة : ألف] .

﴿٤﴾ [قريش] فسيادة قريش من سيادة البيت ومن جوارهم له وقيامهم على خدمة حجاجه ، ولو انهدم البيت لزالتْ مهابة قريش ، وفقدت هذه المكانة .

وقوله تعالى : ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لا رَيْبَ فِيهِ ﴿٧﴾﴾ [الشورى] أى : تخوفهم من هذا اليوم وهو يوم القيامة والجمع فى هذا اليوم يكون من عدة وجوه : أولاً : البعث حيث يجمع بين الجسم والروح ، ويجمع الملائكة فى الملأ الأعلى بالبشر ، ويجمع الظالم والمظلوم ، والتابع والمتبوع .

ونلحظ على هذا التعبير القرآنى ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ ﴿٧﴾﴾ [الشورى] أنه سكت ولم يذكر مفعول الفعل (تنذر) وهو يتعدَّى إلى مفعولين كما فى قوله تعالى : ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾﴾ [فصلت] فذكر المخوف منه على العموم ولم يذكر مفعول أنذر لماذا ؟ لأنه سيأتى لها شرح آخر ، ففى قوله تعالى ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الآزِفَةِ ..﴿١٨﴾﴾ [غافر] أى : أنذر الكافرين وهذا مفعول أول ، ويوم الجمع مفعول ثان .

وقوله : ﴿لا رَيْبَ ﴿٧﴾﴾ [الشورى] لا شك ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴿٧﴾﴾ [الشورى] فما دام هناك تكليف فلا بدَّ أن توجد الطاعة ، وأنْ توجد المعصية ، الطائع يُثاب والعاصى يُعاقب ، وهذه سنة حتى عند البشر فى أمور حياتهم ، بدليل أنهم جعلوا لها قانوناً للثواب والعقاب ، كذلك فى يوم الجَمْع الذى لا ريبَ فيه سيكون الناس على قسمين : فريق فى الجنة ، وفريق فى السعير .

فى اللغة أسلوب يُسمَّى أسلوب (الاحتباك) أى : الأمر المحبوك ، وهو أن يحذف من الشىء ما يدل عليه غيره على التقابل ، ومن ذلك

قوله تعالى : ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ (١٣)﴾ [آل عمران] يعنى : أمر عجيب ﴿فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا (١٣)﴾ [آل عمران] يعنى فى حرب ﴿فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ (١٣)﴾ [آل عمران] وهى الفئة المؤمنة ﴿وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ (١٣)﴾ [آل عمران] أى : تقاتل فى سبيل الشيطان .

تأمل هذا النسق القرآنى تجده حذف الوصف (مؤمنة) لأنه دلَّ عليها قوله ﴿تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ (١٣)﴾ [آل عمران] وفى الأخرى ذكر الوصف (كافرة) وحذف المقابل أى تقاتل فى سبيل الشيطان ، فحذف من إحديهما ما دلتْ عليه الأخرى بالتقابل ، وهذا يُسمى الاحتباك .

وقوله تعالى : ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ (٧)﴾ [الشورى] تفريق بعد الجمع فى قوله : ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ (٧)﴾ [الشورى] والتفريق بعد الجمع أسلوب آخر من أساليب القرآن ، وهناك الجمع والتفريق والتقسيم .

ومن ذلك قوله سبحانه : ﴿يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ (١٠٥)﴾ [هود] هذا جمع ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ (١٠٥)﴾ [هود] هذا تفريق ، ثم يقسم ويُفصِّل القول فى كل فريق : ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ (١٠٦) خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ (١٠٧) وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ[1] (١٠٨)﴾ [هود]

لكن لماذا هذا التفريق ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ (٧)﴾

---

(١) جذ الشىء : قطعه أو كسره أو فتته . والمجذوذ : المقطوع قال تعالى : ﴿عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ (١٠٨)﴾ [هود] أى : دائم غير مقطوع . [القاموس القويم ١/١١٩] .

[الشورى] قالوا : لأن الحق سبحانه خلق الخَلْق وخيَّرهم حين عرض عليهم الأمانة ، وهى أمانة التكليف فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً (٧٢) ﴾ [الأحزاب]

يعنى : تركنا لهم حرية الاختيار لحمل الأمانة فأشفقتْ كل المخلوقات من حملها ، فاختارت أنْ تكون مُسيَّرة يتصرف فيها ربها كيف شاء إلا الإنسان والجن ، فقد اختار حمل الأمانة .

﴿ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا (٧٢) ﴾ [الأحزاب] أى : لنفسه ﴿ جَهُولاً ﴾ بالعواقب ، لأنك قد تضمن نفسك ساعة التحمل ، لكنك لا تضمن ساعة الأداء ، فقد تحُول ظروفك بينك وبين أداء الأمانة ، فلأن الإنسانَ اختار حملَ الأمانة واختار الاختيار كان لا بدَّ أنْ يسأل عن أمانته ، وأنْ يحاسب عليها ، أحفظَ أم ضيَّع ، وكان لا بدَّ له من دار جزاء وحساب ، ففريق فى الجنة وفريق فى السعير .

﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٨) ﴾

يعنى : لا تتعجب من أمر الله ، فله المشيئة المطلقة فى خَلْقه ، ولو كانت مشيئته مشيئة قَهْر ما استطاع أحدٌ الخروجَ عليها ، ولكانَ الناسُ جميعاً مؤمنين ، لكن فَرْقٌ بين الإيمان عن قهر وإجبار ، والإيمان عن حب واختيار .

الحق سبحانه لا يريد منا القوالب الجامدة ، إنما يريد القلوب المحبَّة ، يريدها طواعية مختارة ، وسبق أنْ مثَّلنا لذلك ولله المثل

الأعلى برجل عنده عبدان أحدهما حُر طليق ، والآخر مربوط إلى سيده بحبل ، فحين ينادى السيد يأتيانه ويجيبان نداءه ، فأيهما أطوعُ وأيهما مُحبٌّ ؟

الحق سبحانه وتعالى حين عرض الأمانة على الخَلْق كله وخيَّرهم أثبت الجانبين القهر والقدرة وأثبت المحبة ، أثبت القدرة والقهر فى أنْ جعل خَلْقاً من خَلْقه هو السموات والأرض وكل الكائنات عدا الإنس والجن تأتى طائعةً مؤمنةً ، وتتنازل عن اختيارها لاختيار ربها وخالقها . ثم أثبت الحب فى اختيار الإنس والجن ، لأنهم آمنوا حباً وكانوا يقدرون على الكفر .

﴿ وَلَـٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ ﴿٨﴾ ﴾ [الشورى] وهم المؤمنون يُدخَلون الجنة بفضل الله وبرحمته لا بأعمالهم ، فالأعمال سبب فى دخول الجنة . وفى المقابل ﴿ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾ ﴾ [الشورى] يعنى : سيدخلون النار ، لأن الفريق الذى دخل الجنة دخلها بفضل الله ورحمته ، وهؤلاء ظالمون ، والظلم جزاؤه النار .

﴿ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ ﴿٨﴾ ﴾ [الشورى] يعنى : قريب يُواليهم ويدفع عنهم ﴿ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾ ﴾ [الشورى] ينصرهم ولو من بعيد ، يراهم مغلوبين ، فيحنّ عليهم وينصرهم .

ثم يبيِّن الحق سبحانه علَّةَ ذلك ، وأنهم أعرضوا عن عبادة الله الواحد الأحد ، واتخذوا من دونه أولياء فاستحقوا هذا الخذلان :

﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾ ﴾

بعد أنْ قرر الحق سبحانه أن الظالمين ما لهم من ولى ولا نصير يسوق هذا السؤال : ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ﴿٩﴾﴾ [الشورى] هل لهم أولياء لا نعلمهم ، فالاستفهام هنا للنفى والإنكار ، وما داموا ليس لهم أولياء فلماذا لم يتخذونى ولياً لهم ، أو يكون المعنى : بل اتخذوا من دونه أولياء ، وعليهم أن يتفكروا فى ذلك ، وأنْ يراجعوا أنفسهم .

﴿فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ ﴿٩﴾﴾ [الشورى] الولى الحق لمَنْ أراد ولياً وناصراً ﴿وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾﴾ [الشورى] جاء هنا بصفتين لا يستطيعهما أحد من أوليائهم إحياء الموتى والقدرة ، وهذه الصفات الخاصة به سبحانه نجدها فى القرآن دائماً مقرونةً بضمير الفصل للتأكيد على أنها لله وحده لا يشاركه فيها غيره ، لذلك قال : ﴿فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾﴾ [الشورى]

وقال سبحانه : ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾﴾ [النجم] فهذه أفعالٌ لا يقدر عليها إلا الله وحده ، فمعنى أضحك وأبكى أوجد فيك غريزة الضحك وغريزة البكاء ، بدليل أنها موجودة فى كل بنى آدم وفى كل الجنسيات ، الضحك واحد عند العرب ، وعند الهندى ، وعند الروسى ومثله البكاء فهى إذن غريزة ، وكذلك مسألة الحياة والموت هى لله وحده لا يقدر عليها أحدٌ سواه .

وفى قصة سيدنا إبراهيم يقول وهو يُعدِّد نعمَ الله عليه : ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾﴾ [الشعراء]

ففى الأمور التى فيها شبهة فعْل لغير الله يأتى بضمير الفصل (هو) لتأكيد أن الفعل لله وحده كما فى ﴿فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾﴾ [الشعراء] لأن الهداية قد تأتى على يد أحد من البشر ، وفى ﴿يُطْعِمُنِي

وَيَسْقِينِ (٧٩) ﴾ [الشعراء] فالأب مثلاً قد يظن فيه أنه الذى يُطعمنى ويَسْقين ، كذلك فى ﴿ يَشْفِينِ (٨٠) ﴾ [الشعراء] لأن الطبيب قد يظن البعض أن بيده الشفاء ، أما فى الأفعال التى لا شبهة لتدخّل أحد فيها فيأتى بها دون توكيد لأنها خالصة لله تعالى دون منازع ﴿ وَالَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١) ﴾ [الشعراء]

وإحياء الموتى يُراد به البعث فى الآخرة ، وقد رأينا مثالاً له فى الدنيا كقصة العُزَير[1] التى حكاها القرآن : ﴿ أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِى هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٥٩) ﴾ [البقرة]

ذلك لأن الشعور بالزمن يأتى من الأحداث ، فحين تنعدم الأحداث ينعدم الشعور بالزمن ، لذلك لما مات عُزير مائة عام قال لما أحياه الله : لبثتُ يوماً أو بعض يوم ، فأراد الحق سبحانه أنْ يُثبتَ له صدقه فى يوم أو بعض يوم بنظره إلى طعامه الذى كان معه حيث وجده كما هو لم يتغير ولم يتلف ، وأن يثبت صدق الحق سبحانه فى المائة عام ، فقال له : انظر إلى حمارك وكيف صار عظاماً بالية ، وهذا لا يحدث إلا فى مائة عام .

وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٩) ﴾ [الشورى] دلتْ

---

(١) كان عزير عبداً صالحاً حكيماً ويقول ابن كثير فى قصص الأنبياء : « المشهور أن عزيراً من أنبياء بنى إسرائيل وأنه كان فيما بين داود وسليمان وبين زكريا ويحيى وأنه لما لم يبق فى بنى إسرائيل من يحفظ التوراة ألهمه الله حفظها فسردها على بنى إسرائيل فأتاهم بالتوراة من غير كتاب فادعوا أنه ابن الله » .

على طلاقة القدرة لله تعالى ، وهذه القدرة مُشَاهدة فى آياته الكونية فى السموات وفى الأرض وفى الأنفس ، كلها تشهد لله بالقدرة المطلقة .

نعم ، الله على كل شىء قدير وقد أرانا نماذجَ من إحياء الموتى فى الدنيا لنأخذ منها دليلاً على صدقه تعالى فى إحياء الموتى فى الآخرة ، مرت بنا قصة إحياء العزير الذى أماته الله مائة عام .

نموذج آخر فى قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ (٢٤٣)﴾ [البقرة]

ومن عظمة الحق سبحانه وقدرته على كل شىء أنْ يُعدى إلى خلقه شيئاً من قدرته ، فيجعل مثلاً سيدنا إبراهيم قادراً على إحياء الموتى بإذن الله ، القوى من البشر مثلاً حين يرى ضعيفاً يعينه ويعدى إليه أثر قوته فيحمل له متاعه ويظل الضعيف ضعيفاً .

أما الحق سبحانه فإنه حين يُعدِّى قوته إلى عبده يجعله يفعل بنفسه وينقل إليه شيئاً من قدرته ومن صفاته تعالى فتصير القوة فيك ذاتية . تعرفون قصة سيدنا إبراهيم لما أراد أنْ يرى عملية إحياء الموتى بنفسه فطلب من ربه ذلك : ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي (٢٦٠)﴾ [البقرة]

يعنى : يا رب أنا مؤمن ومصدِّق لكن أريد الاطمئنان ، أريد الترقى إلى مرتبة أعلى فى الإيمان ، بعض المستشرقين يقولون فى التعليق على هذه الآية : هل الإيمان غير اطمئنان القلب ؟ وما دام طلب اطمئنان القلب فالإيمان إذن ناقص .

نقول : سيدنا إبراهيم عليه السلام لم يقُلْ : رب هل تحيى

الموتى أم لا ؟ لقد قال : ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ (٢٦٠)﴾ [البقرة] فهو مؤمن بإحياء الله للموتى ومُصدِّق بقدرة الله على ذلك ويريد أن يعرف الكيفية ، فالاطمئنان للكيفية لا لإثبات الصفة لله تعالى ، كما لو قلتُ لك : كيف بنيتَ هذا المسجد ، هل أنا أشكّ فى بنائه ؟ لا فهو موجود بالفعل لكن أريد أن أعرف الكيفية .

لذلك الحق سبحانه ردَّ على نبيه إبراهيم رداً منطقياً ، فكيفية إحياء الموتى لا تُعرف بالكلام إنما بالفعل والممارسة ، فجعله يمارس هذا الفعل بنفسه ويزاول عملية إحياء الموتى ويعاينها ﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ [1] إِلَيْكَ (٢٦٠)﴾ [البقرة] يعنى : تأكد منهن ومن علاماتهن ثم اذبحهن ﴿ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ .. (٢٦٠)﴾ [البقرة] إذن : أنت الفاعل بنفسك ، وهذه من عظمة الخالق سبحانه .

إذن : ﴿وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ (٩)﴾ [الشورى] يعنى : عملية مقصورة عليه سبحانه ، حتى وإنْ عداها لمن يشاء من عباده فهو صاحبها ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٩)﴾ [الشورى] تجد بعض المخلوقات لها قدرة كما فى بعض البشر مثلاً ، أو بعض الملائكة التى اتخذوها من دون الله ، لكنها قدرة محدودة فإنْ قدرتْ الملائكة مثلاً على فعل شىء عجزتْ عن أشياء ، أما الحق سبحانه فقدرته مطلقة لا يعجزها شىء ، قدرة كاملة على كل شىء .

﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (١٠)﴾

---

(١) فصرهن إليك : أى : قطعهن وضمهنَّ إليك . [القاموس القويم ١/٣٨٦] .

الاختلاف هو عدم التقاء الآراء فى قضية ما ، وينقسم الجمع إلى فريقين أو أكثر ، كُلٌّ يؤيد رأيه ويعارض رأى الآخر ، ويقابله الوفاق والآراء تختلف إما فى نقاش جاد مُثمر يُراد منه الوصول للحقيقة ، وإما جدل ولجاجة لا فائدةَ منها ومِراءٌ بالباطل .

لذلك يُعلمنا الحق سبحانه ماذا نفعل حين نختلف ، أنْ نردَّ الأمر والحكم لله ، لذلك لما اختلفوا مثلاً فى الروح وسألوا عنها رسول الله ﷺ أنزل الله تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً (٨٥) ﴾ [الإسراء]

كذلك علَّمنا الحق سبحانه أدبَ الخلاف وألاَّ نتعجل فى الحكم ، وأن نبحثه بموضوعية ، فقد يكون المختلفون متفقين فى واقع الأمر وهم لا يعلمون وجه هذا الاتفاق ، ففى غزوة الأحزاب بعد أن عادت قريش إلى مكة ، واليهود إلى أماكنهم أخبر الحق سبحانه نبيه ﷺ أن اليهود هم سبب هذه الحرب ، وأصل هذه البلوى ، فاذهب إليهم ولا تخلع لباس الحرب ، فذهب رسول الله إلى جيشه العائد من الحرب وقال لهم : « مَنْ كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يصلين العصر إلا فى بنى قريظة »[(١)] .

يريد الحرب ، فعاد الصحابة وتوجَّهوا إلى بنى قريظة ، فدخل عليهم وقت المغرب وهم فى الطريق فاختلفوا فى صلاة العصر ، فريق يقول يجب أن نصليها الآن قبل فوات وقتها ، وفريق يقول : لا بل نصليها فى بنى قريظة كما أمر رسول الله .

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٤١١٩) وكذلك مسلم فى صحيحه - كتاب الجهاد والسير (ح ٦٩) من حديث ابن عمر رضى الله عنهما أن النبى ﷺ نادى فيهم يوم انصرف عنهم الأحزاب : « ألا يصلين أحد الظهر إلا فى بنى قريظة » وفى لفظ « العصر » .

إذن : رأى تعصَّب للزمـان ، ورأى تعصَّب للمكان ، فـمَنْ تعصَّب للزمان صلى فى الطريق ومن تعـصَّب للمكان صلى فى بنى قريظة ، حتى إذا ما الـتقوْا برسول الله عرضـوا عليه هذا الخلاف ، فـأقرَّ كلاً منهم على رأيه ، ولم يعارض هذا ولا ذاك.

إذن : كان اختلافاً شكليـاً ، وهم لا يدرون أنهم جميعاً على الحق ، وأنهم فى وفاق ، إذن : حين نخـتلف علينا أنْ نردَّ الأمر إلى الله وإلى رسول الله ، وأنْ نكون مـوضوعـيين دون تعصُّب ، هـذا فى الخلاف بين المؤمنين .

كذلك إنْ كان الخلاف مع أهل الكتـاب اليهود أو النصارى ، رُدُّوا خلافكم معهم إلى الله ، لأن عندهم كتـباً سماوية : التوراة والإنجيل ، وفيها تصديق بمحمد خاتم الرسل ، وفـيها بشارة به ، وفيها صفاته وعـلاماتـه ، بدليل أن منهم مَنْ آمن بعـد بعـثـة رسول الله ، فـرُدوا خلافكم معهم إلى الله لتقطعوا عليهم طريق اللجج والعناد والخصومة .

ومعنى ﴿فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ (١٠)﴾ [الشورى] وأيضاً إلى رسول الله لأنه نائب عن الله فى الأحـكام ، وقـد أعطاه الله حَقَّ التـشـريع بدليل قوله تعالى : ﴿وَمَـا آتَاكُـمُ الرَّسُـولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا (٧)﴾ [الحشر] وهذه مَيزة لم ينَلْها أحـدٌ من الرسل قبل رسول الله ، حيث كان عليهم البلاغ فقط ، أما سيدنا رسول الله ﷺ فقد فوّضه ربه فى التشـريع . لذلك لما قـال أحد المـجادلين : ما الدليل عـلى أن الصبح ركعتـان ، والظهر أربع ، والمغرب ثلاث ؟ قال : الـدليل قوله تعالى : ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا (٧)﴾ [الحشر]

وكوْنك تحكِّم الحق سـبحانه فى مـسألة خلافـية وتعرضـها على قول الله وقول رسول الله ، هذه الرجعة تُنهى الخلاف وتُنهى المراء ،

ولا غضاضةَ على أحد أنْ يحتكم إلى قوة أعلى تلتقى عليها القلوب فى صفاء ورضا بحكمه تعالى ، الأ تَرى أن الحكم عليك إنْ جاء من بشر مثلك ربما لا تقبله حتى لو كان صواباً ، أما حين يكون الحكم لله فلا غضاضةَ ولا حرج .

﴿ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴿١٠﴾ ﴾ [الشورى] ﴿ ذٰلكم ﴾ اسم إشارة للتعظيم ، فـ ﴿ ذا ﴾ إشارة ، واللام للبُعْد ، والكاف للخطاب ﴿ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبِّى ﴾ تقولها وأنت فخور بها ، مُعتز بالانتساب إليه سبحانه ، وكأنه شىء عالٍ فوق كل تصوُّر ، والرب قلنا : هو الذى يتولَّى التربية والعطاء ، ومنه الفضل والإنعام ، وعليه أتوكل فى كل أمرى ﴿ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ ﴾ [الشورى] أرجع وأعود فى الآخرة للحساب والجزاء .

وحين أقول ﴿ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبِّى ﴿١٠﴾ ﴾ [الشورى] فأنا معتز بالربوبية التى تُربى وتعطى ، ومعتز بالألوهية التى تكلف ، لأن التكليف من تمام التربية ، ومقتضى تربيتى أن تكون دنياى سعيدة ، لكن الدنيا موقوتة ومنتهية ، فالتربية الحقة إذن أنْ أربيك لشىء أبقى وأدوم وهى الآخرة التى لا ينقطع نعيمها ولا أغادرها بموت ولا تغادرنى بفناء .

البعض يقول : التربية هنا للمادة ، نقول : للمادة وللقيم والروح أيضاً ، لذلك يقول تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الأنفال] ما معنى (يحييكم) هنا ألم يخاطبهم وهم أحياء يسمعون ؟ إذن : المراد حياة أخرى غير حياة المادة ، المراد حياة القيم والروح ، الحياة الخالدة التى لا تفوتك ولا تفوتها .

لذلك يُسمَّى المنهج الذى يمنحك هذه الحياة روحاً قال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا (٥٢) ﴾ [الشورى] نعم روحاً ، تعطيك الحياة الأبدية أما الروح الأولى فتعطيك فقط الحياة الدنيا ، ويُسمى كذلك الملك الذى ينزل بالمنهج روحاً : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) ﴾ [الشعراء]

إذن : نفهم أن الحياة المطلوبة ليستْ هى الحياة الدنيا ، إنما الدنيا وسيلة وأداة مُوصِّلة إلى غاية أفضل منها ، ولكى أصل إلى هذه الغاية ينبغى علىَّ أنْ أستقيم على منهج مَنْ سيعطينى هذه الحياة .

إذن ﴿ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي (١٠) ﴾ [الشورى] جمعت بين لفظ الألوهية والعبادة والتكليف وبين لفظ الربوبية التى تُربِّى وتعطى وتمنح .

وتأمل آداء القرآن فى مسألة التوكل (عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ) أهل اللغة يسمون هذا الأسلوب أسلوبَ قصر بتقديم الجار والمجرور (عَلَيْه) مُقدَّم على الفعل (توكَّلْتُ) وهذا يفيد القصر والحصر ، فتوكّلى على الله لا على سواه على الله فحسب ، أما لو قلت : توكلت على الله يجوز أنْ تزيد عليها : وعلى فلان . فأسلوب القصر يقصر التوكل على الله وحده .

قالوا : والتوكل على الله رصيدُ مَن فقد الأسباب وخرج من حَوْله وقوته إلى قوة ربه وخالقه ؛ لأن الله تعالى جعل لكل شىء أسباباً ، فإذا عزَّتْ الأسباب نلجأ إلى المسبِّب سبحانه : ﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ (٦٢) ﴾ [النمل]

والمضطر هو الذى استنفد كل الأسباب المتاحة ، وعندها لا يُسلِم نفسه للأحداث ولا ييأس ، إنما يقول : إن لى رباً فوق الأسباب ،

فهو خالقها ومُسبِّبها ولن يتخلى عنى حين ألجأ إليه .

وسبق أن ذكرنا لكم قصة سيدنا موسى عليه السلام لما أدركه فرعون وجنوده وحاصروهم عند شاطىء البحر ، حتى قال أصحاب موسى ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١)﴾ [الشعراء] فواقع الأحداث أن البحر أمامهم والعدو خلفهم ولا مفرّ ، لكن لموسى مع ربه حسابات أخرى ، فقال رداً عليهم : ﴿قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢)﴾ [الشعراء]

وهذا هو التوكل الذى يعتمد على الثقة بالله ، توكل المضطر الذى عزَّتْ عليه أسبابه ، ولم يَبْقَ له إلا أنْ يلجأ إلى الله ، لذلك جاء الجواب من الحق سبحانه معجزةً خالدة باهرة : ﴿أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٣) وَأَزْلَفْنَا[1] ثَمَّ الآخَرِينَ (٦٤) وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ (٦٥) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ (٦٦)﴾ [الشعراء]

كذلك فى ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (١٠)﴾ [الشورى] أسلوب قصر بتقديم الجار والمجرور على الفعل يعنى : أرجع إليه وحده لا إلى أحد سواه . وتلحظ على الأسلوب هنا أن التوكل جاء بصيغة الماضى ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ (١٠)﴾ [الشورى] أما الإنابة فجاءت بصيغة المضارع ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (١٠)﴾ [الشورى] هذه الدقة فى التعبير ، لأن المتكلم بهذا الكلام هو الله .

فطبيعى أن تجد هذه الحبكة والدقة اللغوية ، ذلك لأن التوكل

---

(١) ﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الآخَرِينَ (٦٤)﴾[الشعراء] أى قرَّبنا من موسى وقومه هناك الآخرين وهم فرعون وقومه ليطمعوا فى إدراكهم فيدخلوا البحر مثلهم ليغرقوا . [القاموس القويم ١/٢٨٨] .

عقيدة راسخة من أول الأمر وقبل أنْ تتكلم فى التوكل ، فهو ناشىء أولاً وموجود ، أما الإنابة إليه والرجوع فيكون وقت الحدث فى المستقبل حينما نرجع إليه سبحانه .

ثم يتحدث عن حيثية أخرى من حيثيات قدرته تعالى وأنه هو الولى الحق :

﴿ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ ﴾

وقال تعالى فى أول سورة فاطر : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴿١﴾ ﴾ [فاطر] الفاطر هو الخالق الذى يخلق الشىء على غير مثال سابق ، ولا نموذج يُحتذى ، كما يحدث مثلاً فى عالم الصناعة الآن ، فهناك دول متقدمة صناعياً فتأتى دول أقلّ منها تأخذ صناعاتها وتُقلِّدها وتصنع على مثالها ، صحيح تُطوِّر فيها وتُجدِّد وتضيف لكن للدولة الأولى السَّبْق فى النموذج الأول .

فمعنى ﴿ فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴿١١﴾ ﴾ [الشورى] خالقهما ومبدعهما على غير مثال سابق ﴿ جَعَلَ لَكُم ﴿١١﴾ ﴾ [الشورى] دلتْ على أن كل الأشياء مخلوقة لخدمة بنى آدم هذا الخليفة الذى استخلفه الله فى الكون ؛ لذلك ورد فى الحديث القدسى : « يا ابن آدم خلقت الأشياء من أجلك ، وخلقتُك من أجلى ، فلا تنشغل بما هو لك عما أنت له »[(١)] .

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٢٣٨/٤) : « ورد فى بعض الكتب الإلهية : يقول الله تعالى : ابن آدم خلقتك لعبادتى فلا تلعب ، وتكفلت برزقك فلا تتعب ، فاطلبنى تجدنى ، فإن وجدتنى وجدت كل شىء ، وإن فتُّك فاتك كل شىء ، وأنا أحب إليك من كل شىء » وقد أخرج أحمد فى مسنده (٣٥٨/٢) عن أبى هريرة رفعه : « قال الله : ابن آدم تفرغ لعبادتى أملأ صدرك غنىً وأسدُّ فقرك وإلا تفعل ملأت صدرك شغلاً ولم أسد فقرك » .

وقوله تعالى : ﴿ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا (١١) ﴾ [الشورى] يراد بالأزواج هنا الذكورة والأنوثة ، كما فى قوله تعالى : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ (٣٦) ﴾ [يس]

وهذه حقيقة أثبتها العلم الحديث أن الزوجية موجودة فى كل شىء حتى فى الجمادات ، فَهِمْنَاهَا فى الموجب والسالب فى الكهرباء ، ورأيناها فى ذرات المادة ، قديماً كانوا يعرفونها فى الأحياء فى الإنسان والحيوان والنبات ، وبالتقدم العلمى وجدناها فى كل شىء خلقه الله .

وهذا دليل صِدْق قوله تعالى : ﴿ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ (٣٦) ﴾ [يس]

ومن عجائب الخلق فى هذه المسألة أنْ ترى نباتاً يحمل خصائص الذكورة وآخر للأنوثة ، ويتم التلقيح بينهما عن طريق الهواء أو الفراشات مثلاً ، وفى نبات آخر تجد فيه خصائص الذكورة والأنوثة معاً فى شجرة واحدة ، فشجرة الجميز مثلاً منها ذكر وأنثى والنخل كذلك ، أما شجرة المانجو فهى واحدة تُلقِّح نفسها ، ومثلها سنبلة القمح وعود الذرة ، فهذه كلها تُلقِّح نفسها ، لأن فيها عناصرَ للذكورة وأخرى للأنوثة فى نفس النبات .

ومعنى ﴿ مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا (١١) ﴾ [الشورى] يعنى : من نفس النوع ومن نفس جنسكم ، والطبيعة تجذب كلاً من النوعين الذكر والأنثى إلى الآخر فيحدث تعايش بينهما ينشأ عنه غريزة هى غريزة الجنس ، وهذه يصاحبها متعة . ومن التقاء الذكر والأنثى يحدث

النسل ، فالإنسان أخذها للنسل وللمتعة معاً ، أما الحيوان فأخذها للنسل فقط ، فترى الذكر منجذباً إلى الأنثى حتى يحدث الحمل ، بعدها لا يقربها .

أما الإنسان فغير ذلك ، الإنسان أخذها متعة وبعد ذلك يتهم الحيوان ويقول : شهوة بهيمية ، هى فى الواقع شهوة إنسانية ، فلِمَ نظلم البهائم ؟

ومن نعمه تعالى على خَلْقه أنْ جعل الأزواج من جنس واحد ليتم التوافق والانسجام بين النوعين ويحدث التناسل وبقاء النوع ؛ لذلك امتنَّ الحق سبحانه على أمة محمد ﷺ بأن جعل لهم رسولاً من أنفسهم يحمل إليهم منهج الله ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ[1] حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٢٨)﴾ [التوبة]

نفهم من ذلك حرص الإسلام على الحياة الأسرية ، وأن هذه الحياة ينبغى أن يسودها الوُدّ والوفاق والأُنْس ، وأنْ تُبنى على المحبة ، لذلك قال سبحانه : ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً (٢١)﴾ [الروم]

والأزواج جمع زوج ، وزوج لا تعنى الاثنين كما يفهم البعض ، إنما تعنى (فَرْدا) معه مثله ، كذلك كلمة توأم .

﴿وَمِنَ الأَنْعَامِ أَزْوَاجًا (١١)﴾ [الشورى] سبق فى سورة الأنعام : ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٤٣) وَمِنَ

---

(١) العنت : المشقة . وقال أبو إسحاق : العنت فى اللغة المشقة الشديدة . ومعنى (عزيز عليه ما عنتم) أى : شديد عليه ما وقعتم فيه من المشقة . [لسان العرب – مادة : عنت] .

الإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ ..(١٤٤)﴾ [الأنعام]

إذن : ما دام قال لنا ثمانية أزواج ، ثم عدّد أربعة فكلُّ نوع مكوَّن من زوجين زوج وزوج ﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ (١١)﴾ [الشورى] أى : فى الجعل ويذرؤكم يعنى يكثركم ، نلحظ أنه تعالى لم يقُلْ يذرأكم به يعنى : يُكثركم بالجعل ، إنما ﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ (١١)﴾ [الشورى] وفيه تأتى بمعنى بسببه .

كما فى الحديث الشريف « دخلتْ امرأةٌ النارَ فى هرَّة حبستْها »[1] يعنى : بسبب هرة ونقول مثلاً لما واحد فتوة يعمل جريمة نقول (أهو راح فيها) يعنى : بسببها .

وقوله تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ (١١)﴾ [الشورى] له مناسبته هنا ، فلما تكلم الحق سبحانه عن الأزواج فى كل شىء أراد سبحانه أن يُنزِّه ذاته تعالى عن هذه المسألة ، فقال ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ (١١)﴾ [الشورى] ولنفى المماثلة نقول : ليس مثله شىء ، أما هنا فقال : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ (١١)﴾ [الشورى]

إذن : جعل لنفسه مثلاً ، لأن العرب تنطق بالمثل وتريد به الإنسان نفسه ، فإذا حدث من شخص أمرٌ ما يقولون له : مثلك لا يفعل هذا ، يعنى : أنت لا يصح أنْ تفعله ، لأن مثلك لا يفعله ، مثلك

---

(١) عن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال : « دخلت امرأة النار فى هرة ربطتها فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض » أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٣١٨) قال ابن حجر فى الفتح (٣٥٧/٦) : « المراد (بخشاش الأرض) هوام الأرض وحشراتها من فأرة ونحوها » .

لا يجبُنُ عند الحرب ، لكن لماذا لا يقولون أنت لا تجبن عند الحرب وأتى بالمثل ؟

تأمَّل هنا المرحلية اللغوية ، حين تقول : زيد مثل الأسد هذا يعنى أنه دون الأسد ، فأنت شبَّهته بالأعلى فى الصفة . إذن : المثل أقلّ من الأصل ، ولو فُرض أن الحق له مثل لا نقول : إن الله له مثل لأن مثله أدنى منه . إذن : لا مثْلَ له ، وهذا معنى قول الشاعر[1] :

وَلَمْ أَقُلْ مِثْلَكَ أَعْنِى بِهِ سِوَاكَ يَا فَرْداً بلاَ مُشبهِ[2]

إذن : الأسلوب هنا فى نفى المثلية أن يقول ليس مثله شىء ، إنما أراد سبحانه أن يؤكد هذه المسألة ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴿١١﴾﴾ [الشورى] يعنى : لو كان هناك مثل لله لا يكون له شبه ، فكيف بالله تعالى ؟ وكلمة ﴿شَيْءٌ ﴿١١﴾﴾ [الشورى] تطلق على جنس الأجناس يعنى : كل ما يُقال له شىء فكل ما يُطلق عليه شىء ليس كمثله .

﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى] أتى هنا بصفتين شركة بين الحق سبحانه وبين خَلْقه ، فأنت تسمع والله يسمع ، وأنت تبصر والله يبصر ، لكن ينبغى أن نأخذ هذه الصفات لله تعالى فى إطار ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴿١١﴾﴾ [الشورى] فليس السمع كالسمع وليس

---

(١) هو أبو الطيب المتنبى أحمد بن الحسين ، ولد بالكوفة (٣٠٣ هـ /٩١٥ م) شاعر حكيم ، نشأ بالشام ثم تنقل فى البادية ، قال الشعر صبياً ، تنبأ فى بادية السماوة ، وأُسر وسُجن حتى تاب ورجع ، مدح سيف الدولة بن حمدان صاحب حلب ، قُتل ببغداد عام (٣٥٤هـ/٩٦٥م) عن ٥١ عاماً .

(٢) البيت من قصيدة للمتنبى من بحر السريع ، عدد أبياتها ٣٥ بيتاً ، وهذا هو الأخير فيها .

البصر كالبصر . معنى ﴿ السَّمِيعُ (١١) ﴾ [الشورى] أى : للأصوات ﴿ الْبَصِيرُ (١١) ﴾ [الشورى] للمرئيات .

وفى موضع آخر يقول سبحانه : ﴿ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (٧١) ﴾ [المائدة] فالسمع نفسه عمل ، والقول عمل والبصر عمل ، وسبق أن أوضحنا أن العمل قول وفعل ، والقولُ خاصٌّ باللسان ، والفعل يشمل عمل كل الجوارح عدا اللسان ، وبذلك يكون اللسانُ وحده قد أخذ شطر العمل ، لأن القول به البلاغ ، وبه إعلان الإيمان ، وبه يُعبِّر المرء عن نفسه .

وهذه الآية ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ (١١) ﴾ [الشورى] تُعلِّمنا كيف نُنزِّه الله تعالى عن كل شبيه أو نظير أو مثيل ، وتُعلِّمنا أن نأخذ كل وصف مشترك بين الحق وبين الخَلْق فى هذا الإطار الإيمانى .

ولمَ لا ونحن حتى فى صفات البشر نتفاوت ، وفى إمكانياتنا نتفاوت ، فتجد مثلاً (شيخ الغفر) له بيت و (مصطبة) لاستقبال الضيوف ، وشيخ البلد والعمدة كل واحد له بيت وله مصطبة أو حجرة جلوس على قدره ، أما المأمور مثلاً فهو أعلى من هؤلاء جميعاً ، وعنده ما ليس عندهم ، هذا تفاوت بين البشر ، فما بالك بالصفات المشتركة بيننا وبين ربنا عز وجل ؟

﴿ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ (١٢) ﴾

أولاً : لاحظ هنا أسلوب القصر فى ﴿ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ (١٢) ﴾ [الشورى] بتقديم الجار والمجرور ، فمقاليد السموات والأرض له وحده وملْكه وحده ، ومقصورة عليه سبحانه لا يشاركه فيها أحد .

كلمة ﴿ مَقَالِيدُ (١٢) ﴾ [الشورى] جمع مقلاد وهو المفتاح ؛ لذلك قال تعالى فى موضع آخر ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ ..

﴿٥٩﴾ [الأنعام] فله سبحانه مفاتيح الخير فى السموات وفى الأرض ، ومعنى مفاتيح أنها تغلق على شىء نافع ومفيد .

والغيب خزينة من هذه الخزائن المغلقة ، فحين يعطى الله مفتاحها لأحد ويُطلعه على شىء من الغيب يُجريه على لسانه مكرمة وفضلاً منه تعالى عليه ، ولا يعنى هذا أنه أصبح عالماً للغيب ويفتح مكتبَ علم الغيب ، بل يأخذ حاجته التى أكرمه الله بها ويعطى المفتاح لصاحبه ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ .. ﴿٥٩﴾﴾ [الأنعام] فمَنْ يدَّعى علم الغيب لا يعرف كيف يتأدب مع الله .

ونحن نستخدم هذه الكلمة (مَقَاليد) فى لغتنا العامة الآن فنقول : فلان بيده مقاليد الحكم أو مقاليد الأمور فى الشركة أو المصنع ، يعنى : هو المسئول الذى يملك القرار وبيده مفاتيح العمل وأسراره .

وقوله تعالى : ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ .. ﴿١٢﴾﴾ [الشورى] أى : هنا بمفتاح ومقلاد من هذه المقاليد هو مفتاح الرزق ، يبسطه سبحانه لمن يشاء ويُوسعه ويُيسِّره ، وأيضاً يقبضه ويُضيقه على مَنْ يشاء من عباده ، والمقاليد على الأرزاق تشرح لنا قوله تعالى : ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾﴾ [الحجر] يعنى : بسط الرزق أو يقبضه بعلم وبقدر وبحكمة .

لا تظن أن الأرزاق توزع هكذا كما اتفق لا ، لأن الموزِّع لها عليم بخَلْقه وخبير بأسرارهم وخفاياهم ، حكيم يضع الشىء فى موضعه ، لذلك لا تتعجب حينما ترى الغنى المترف الذى يملك الملايين وجاره لا يجد قوت يومه ، لا تتعجب حينما ترى مثلاً أصحاب المحلات

التجارية ، هذا يبيع ويشترى وعنده رزق وفير وبجواره محل مثله لا يدخله أحد ، لا تتعجب لأن وراء هذا وذاك حكمة عرفها مَنْ عرفها وجهلها مَنْ جهلها .

ويكفى أنْ تقرأ : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ (٢١) ﴾ [الحجر] وهنا ذيَّل الآية بقوله : ﴿ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٢) ﴾ [الشورى] يعلم مَنْ يعطى ومن يمنع ، ولذلك يقول سيدنا رسول الله ﷺ وهو يجلى لنا هذه الحِكَم ، يقول : قال الله عزوجل فى الحديث القدسى : « إن من عبادى مَنْ إذا أغنيته لَفسد حاله ، ومنهم مَنْ إذا أفقرتُه لصلح حاله »[1] .

والحق سبحانه يقول : ﴿ كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ (٧) ﴾ [العلق]

ففَقْر الفقير لحكمة ، والغِنَى عند الغنى لحكمة ، فلا تعترض وتأمل فربما كان المال عندك أداة سطو وبطش وتعدٍّ وطغيان ، وربما دعاك المال إلى العصيان أو ولَّد عندك نزوعاً للشر ، فحين يمنعك الله هذه الأداة فإنما منعك ليرحمك بالفقر ، فالغنَى لا يناسبك ، وصلاحك فى الفقر ، وفى شىء من الرضا بما قَسَمَه الله لك ، وألاَّ تمدّ عينيك إلى مَنْ هو أعلى منك فى متاع الدنيا وزخرفها .

كثيراً ما نرى أولاد الأغنياء فاسدين بسبب كثرة المال فى أيديهم ،

---

(١) أخرجه البيهقى فى (الأسماء والصفات) (ص ١٢١ - مصر) والبغوى فى شرح السنة (١٤٢/١) وأبو بكر الكلاباذى فى مفتاح المعانى (١٩٠) . وأورده الألبانى فى السلسلة الضعيفة والموضوعة (٢٥٦/٤) وقال : ضعيف جداً . وأوله : « من أهان لى ولياً فقد بارزنى بالمحاربة » الحديث بطوله .

فى حين تجد ابن الفقير مُعَافى من هذا ، وربما يكون أحسنَ حالاً من ابن الغنى ، وفى واقعنا نماذج كثيرة من ذلك .

والمؤمن مُطَالب أن يعيش فى حدود إمكانياته المادية ، والذى يتعب الناس الآن أنك تجد الواحد منا يفرض لنفسه مستوى معيشة معين قبل أن يفرض لنفسه دخلاً يوازى هذا المستوى الذى اختاره لنفسه ، فلما يحدث العجز يُضطر للحرام للغش وللسرقة وللرشوة وغيرها من وسائل الكسب الحرام ليغطى نفقات معيشته .

قال تعالى ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا (٧) ﴾ [الطلاق]

المؤمن يدخل السوق فيجد فيه ما لذَّ وطاب ، الرومى واللحوم والأسماك والفاكهة ، وقد تشتاق نفسه إليها لكن يتحلَّى بالرضا ويَقْنع بما فى مقدوره ، فيشترى كيلو فول أخضر ونصف كيلو جبنة ، ويذهب ليأكل فى وسط أولاده فيجد لهذه الأكلة البسيطة طعماً ولذة ربما لا يجدها الغنى .

أما إن امتدتْ عينه إلى فوق مستواه فتراه يشترى بالدَّيْن ويأكل كما يأكل الأغنياء ، بل ربما أسرف على نفسه ودخل فى منطقة التبذير ، ثم بعد أيام يأتى مَنْ يطرق بابه يطالبه بدَيْنه فيجد من مذلة المطالبة أضعاف ما وجد من لذة الطعام .

لذلك الحق سبحانه يخاطب ابن آدم : « يا ابن آدم ، خلقتُكَ للعبادة فلا تلعب ، وقسمتُ لك رزقك فلا تتعب - ولا يعنى هنا تعب الجوارح إنما تعب الفكر والهَمّ وشغل البال - فإنْ رضيتَ بما قسمتُه لك أرحْتُ قلبك وبدنك وكنتَ عندى محموداً ، وإنْ أنت لم تقنع بما

قسمتُه لك فوعزتى وجلالى لأسلطنّ عليك الدنيا تركض فيها ركْضَ الوحش فى البرية ، ثم لا ينالك منها إلا ما قسمتُه لك وكنتَ عندى مذموماً . يابن آدم خلقتُ السموات والأرض ولم أَعْىَ بخلقهن أيُعيينى رغيفٌ أسوقه إليك ، يابن آدم لا تطلب منى رزق غَد كما لا أطالبك بعمل غد ، يابن آدم أنا لك مُحِبٌّ فبحقى عليك كُنْ لى مُحباً »[١] .

وحين يرضى الفقير بما قسمه الله له ، ولم يتطلع إلى أعلى من مستواه يقول الله له : رضيتَ بقدرى ، فالآن أعطيك على قَدْرى . لذلك تجد كل عظماء العالم وقادته بدأوا حياتهم فى فاقة وفقر مدقع[٢] وقد حدثونا عن تاريخ بعض هؤلاء ، وكيف أنهم جاءوا من قاع المجتمع .

ولما تتأمل مسألة تضييق الرزق على بعض الخَلْق تجد له حكمة اجتماعية ، هذا التفاوت يؤدى إلى نوع من التكامل بين عناصر المجتمع ، وتصور لو أن المجتمع كله أغنياء مبسوط لهم الرزقَ ، مَنْ سيقوم على خدمتهم ؟

مَنْ يصنع لهم ويزرع ويقضى المصالح الأدنى ؟ إذن : لا بدَّ من وجود طبقة الفقراء لتقوم بهذا الدور ، لا عن تفضُّل إنما عن حاجة يحتاج العامل أجره فيعمل ، ويحتاج الخادم أجره فيخدم ويمسح

---

(١) أورده ابن كثير فى تفسيره (٤٢٦/٧ طبعة دار الشعب المحققة) وعزاه لبعض الكتب الإلهية مختصراً ، وأورده إسماعيل حقى (ت١٧١٥م) فى تفسيره (روح البيان فى تفسير القرآن) (٥٩/٧) سورة النحل آية ٧١ ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ ﴿٧١﴾﴾ [النحل] أورده بطوله .

(٢) الدقعاء : التراب الدقيق على وجه الأرض . والمدقع : الفقير الذى قد لصق بالتراب من الفقر . [لسان العرب مادة : دقع] .

ويكنس ، فالحاجة والمنفعة هى التى تربط عناصر المجتمع .

ومن العجيب أنك ترى الآن رجال الأعمال وأصحاب المصالح يشتكون من العمال ، يقول لك العامل ما دام معه فلوس وجيبه (مليان) لا يعمل إلى أن ينتهى ما معه من نقود فيعود إلى العمل ، وهكذا ..

وأذكر من نوادر أستاذنا الشيخ موسى شريف رحمه الله أنْ كان يقول ذات مرة : اللهم ارزق العلماء واغْنهم وافقر الصّناع ، فلما سألناه قال : لأن العالم إنْ لم يكُنْ غنياً ربما أذلته فتوى ، أما الصانع أو العامل فإنه لا يعمل إلا إذا كان محتاجاً للمال .

وسبق أنْ قلنا : إن الإنسان منا إذا اجتهد فى عمله وأخلص له مدة عشر سنين يعيش مرتاحاً باقى عمره ، وإنِ اجتهد عشرين سنة ارتاح وأراح أولاده من بعده ، وإنِ اجتهد ثلاثين سنة أراح أحفاده ، إذن : على قَدْر العمل يكون العطاء .

ثم ينبغى أن نظل على ذكر لتقلُّب الأحوال ، والحق سبحانه يقول : ﴿ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ .. (١٤٠) ﴾[آل عمران] فالنعمة وبسطة الرزق عندك اليوم ، وقد تصبح عند غيرك أو تمسى .

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ (١٣) ﴾

هذه الآية هى المذكرة التفصيلية أو التفسيرية للآية الثالثة فى

أول السورة : ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣﴾﴾ [الشورى] والتفصيل بعد الإجمال أسلوب من أساليب القرآن الكريم .

قوله تعالى : ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ .. ﴿١٣﴾﴾[الشورى] يعنى : سَنَّ لكم وبيَّن ووضَّح ، ومن هذه المادة شَرَعَ شَرَّع وشريعة يعنى طريقة واضحة ، والإنسان فيه جانبان المادة والروح . فكما أن الحق سبحانه ضمن له بقاء حياة المادة بالماء والطعام والهواء ، كذلك جعل له حياة لروحه حياة بالقيم والأخلاق .

هذه القيم هى منهج الله الذى نزل على قلب رسوله ﷺ ، وبهذا المنهج تحيا القلوب والأرواح كما تحيا الأبدان بالطعام والشراب ، وهذا الشرع وهذه القيم ليست جديدة فى موكب الرسالات ، بل هى سنة الله فيمَنْ سبق كان لهم دين وشرع ، كل بما يناسبه .

لذلك قال بعدها : ﴿مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا .. ﴿١٣﴾﴾[الشورى] يعنى : ما أمر به نوحاً وألزمه من التكاليف ، واختار نوحاً لأنه كان أول رسول فى العموميات ، وقد قال بعض العلماء أن نوحاً أُرسل كذلك للناس كافة على اعتبار أن الناس فى زمنه كانوا هم ركاب السفينة ، فعموميته خاصة بالموجودين معه على السفينة ، أما عمومية رسالة محمد ﷺ فكانت عامة للناس فى كل مكان على وجه الأرض .

ثم تأمل هنا دقة الأداء القرآنى فى ﴿مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا .. ﴿١٣﴾﴾[الشورى] ما هنا اسم موصول بمعنى الذى ، وكان المنطق أن يقول بعدها : وما أوحينا إليك . باسم الموصول (ما) لكن هنا الكلام عن الوحى إلى رسول الله ﷺ ، فجاء بالذى وهى أم

الموصولات كلها ، ومع غيره جاءت (ما) وهى كما يقول النحويون اسم موصول بمعنى الذى ، ثم تلاحظ الفعل (وصى) هكذا بالمفرد ، إنما مع رسول الله قال : ﴿ وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ .. (١٣) ﴾[الشورى] بنون الجمع ويسمونها نون العظمة .

ثم بعد ذلك يعود السياق إلى استخدام (ما) مرة أخرى : ﴿ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ .. (١٣) ﴾ [الشورى] وهذه تدل على خصوصية لسيدنا رسول الله من بين سائر الرسل عليهم جميعاً السلام .

قوله تعالى شرع ووصى ، بماذا ؟ تأتى بعده (أنْ) ويسمونها أن التفسيرية ، يعنى : تفسر لنا مدلولَ شرع ووصى ﴿ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ .. (١٣) ﴾ [الشورى] ومثله قوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ .. (٧) ﴾ [القصص] إذن : وصَّى الله هؤلاء الأنبياء بأن يقيموا الدين وبعدم التفرق فيه والاختلاف .

وإقامة الشىء أى جَعْله قائماً ، والقيام هو العمدة فى الدلالة على القوة والمقدرة ، فالإنسان لا يقوم إلا حال قوته ، فإن تعب من القيام قعد ، فإنْ تعب من القعود يضطجع ، فالحق يريد منا أنْ نجعل الدين قائماً يعنى : نقوم به لا نقعد ولا ننام ، فالقيام هنا كناية عن الاهتمام به والمحافظة عليه ﴿ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ .. (١٣) ﴾ [الشورى] نهى عن الاختلاف فيه .

كلمة التفرق هذه وردتْ فى قصة سيدنا يوسف عليه السلام ، اقرأ : ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا

نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٣٦)﴾ [يوسف] قوله : ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٣٦)﴾ [يوسف] دلَّتْ على أن الحسْن مُقدَّر حتى عند المسيء فالمعنى : ما جئناك إلا لأنك من المحسنين ، ودرجة الإحسان لا تأتى منحة من الله إنما تأتى بالعمل والاستقامة على المنهج .

وقد بيَّن لهم هذا المنهج الذى رفعه إلى درجة الإحسان فقال : ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٣٧) وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ (٣٨)﴾ [يوسف]

لذلك أراد سيدنا يوسف عليه السلام أن يُفهمنا أن الوصول إلى درجة الإحسان يسير ، وأن يشرح لهما الطريق أولاً ، فلم يُحدِّثهما أولاً عن تفسير الرؤيا إنما استغل الموقف لصالح دعوته ورسالته كداعية إلى الله ورآهما فى حاجة للتوجيه والوعظ والنصح .

ثم إن حاجتهم إليه لتفسير الرؤيا ستجعل الآذان مُصغية لكلامه ، لذلك دخل معهما فى هذا الحوار الإيمانى الدعوى : ﴿يَـصَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٣٩)﴾ [يوسف] ثم راح يُحدِّثهم فى العقيدة وتصفيتها من شوائب الشرك ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٤٠)﴾ [يوسف]

وبعد أن أنهى مهمته كداعية ، أخذ يفسر لهما الرؤيا : ﴿يَـصَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ (٤١)﴾ [يوسف]

ولو أن يوسف عليه السلام قدَّم تفسير الرؤيا على النصيحة ما كان أخذ من صاحبيه الاهتمام المطلوب ، لأن العادة أن يكون الإنسان رَهْن حاجته فإنْ قضاها انصرف عنك ، وهذه المسألة تعلمنا : إذا كان لك حاجة عند المحتاج إليك فابدأ بها لتجد الاهتمام المطلوب ، لأنه فى مجيئه إليك شعور بأنك الأعلى .

إذن : قوله سبحانه :﴿ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ .. (١٣) ﴾[الشورى] لا تأخذوا أرباباً من دون الله ، أو لا تتفرقوا فى الدين شيعاً وأحزاباً ، كما فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ .. (١٥٩) ﴾ [الأنعام] فساعة تتشتت الجماعة فرَقاً اعلم أنهم جميعاً جانبوا الصواب ، لأن الحق واحد يجب أنْ نلتفَّ جميعاً حوله .

﴿ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ .. (١٣) ﴾[الشورى] كلمة كبُر بالضم يعنى عَظُم عليهم وشَقَّ عليهم ، أما كبَر بالفتح فتُقال للسنِّ ، فالمشركون عَظُم عليهم ما تدعوهم إليه من التوحيد وإخلاص العبادة لله تعالى ، وشَقَّ عليهم أنْ ينطقوا بكلمة الشهادة لا إله إلا الله ، وهم يفهمون جيداً معناها ومقتضاها ، فهى عندهم ليستْ كلمة تقولها الألسنة إنما هى منهج حياة لها متطلبات ، وإلا لكانوا قالوها .

عَظُم فى أنفسهم وشَقَّ عليهم أنْ يكون الناسُ سواسيةً كأسنان المشط لا فرقَ بينهم إلا بالتقوى والعمل الصالح ، وهم السادة أصحاب السلطة الزمنية من قديم ، فكيف يأتى الإسلام ويُسوِّى بين السادة والعبيد فكبُر عليهم ذلك ، وعَظُم فى أنفسهم .

لذلك وقفوا فى وجه رسول الله وعادوه وأخذوا منه موقفَ اللدد والخصومة ، لكن الحق سبحانه يُطمئن رسوله فيقول بعدها :

﴿ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ ﴾ [الشورى]

الحق سبحانه وتعالى يطمئن رسوله ﷺ يقول له : لا تهتم بموقفهم العدائى لك ومصادمتهم لدعوتك ، فهذا أمر طبيعى فَوُقُوفُهُم فى وجهك شهادة لك أنك على حق ، لأنك ستأخذ منهم وتسلبهم السيادة التى كانت لهم ، وتمنع الفساد المنتشر فى مجتمعهم وهم منتفعون بهذا الفساد ، والناس مُستكينة لهم لأنهم مُسْتضعفون لا حيلةَ لهم .

إذن : عداؤهم لك أمر طبيعى ، فهم يسيرون وفق طبيعتهم وأنت تسير وفق طبيعتك ، يعنى من شيمتهم الأعتداء والعناد والمكابرة ، ومن شيمتك التحمُّل للأذى .

فكأنَّ قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ ﴾[الشورى] إشارة إلى أن هؤلاء الصناديد المعاندين للدعوة سوف يكون منهم أنصار لها وأعلام فى سمائها ، فلا تعجل ولا تحزن ولا تهتم ، سوف نأخذهم إلى ساحة الإيمان واحداً تلو الآخر ، وبالفعل صدق الله فيما أخبر به رسوله ، فقد دخل فى الإسلام عمر وخالد وعمرو وعكرمة وغيرهم .

كلمة (يجتبى) بمعنى يختار ويصطفى من عباده مَنْ يشاء لنصرة دينه ، وهذا الاصطفاء كأنه مقدمة للهداية ، لذلك قال بعدها : ﴿ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ ﴾ [الشورى] فيصطفيهم أولاً بأن يبعدهم عن عداوة الدعوة ، ويُحبِّب إليهم الإيمان كأنه يجهزهم لهذه المهمة .

قرأنا فى تاريخ الغزوات مثلاً أن أحد الصحابة يعود من الحرب

حـزيناً لأنه أفلت منه خـالد أو عـمرو أو عكرمـة ويقـول : كنتُ على وشك أنْ أقـتله لولا كذا وكـذا ، وهو لا يدرى أن الله يدخره لنصـرة دينه وإعـلاء كلمـتـه ، فـالله تعالى كـان يدخـر هؤلاء وكـان يُعـدهم ويجتـبيـهم ، ثم بعد فـترة هداهم للإسـلام ، فكانوا هم حَمَلَـة رايته وقادة مسيرته .

وقبل أن نتـرك هذه الآية ينبغى أن نشـير إلى الفـتنة التى أثارها بعض المستشرقين حول قوله تعالى ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ .. (١٣) ﴾ [الشورى] يقولون : ما الضرورة إذن لمجىء الرسالة الآخرة ما دامت الوصـية لجـميـع الرسل واحدة ، ثانيـاً : قـالوا بوجود تعـارض بين الآيات ، لأن الله تعالى قال فى موضع آخر : ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا .. (٤٨) ﴾ [المائدة]

إذن : فلكل نبى شريعة ، وعند محمد أشياء غير ما وصى به .

وللرد على الشـبهـة الأولى نقول : إن الحق سـبحانه وتعـالى له أشياء ضـرورية ، ألزم بها جميع الرسل فى مـوكب الرسالات ، فهم جميعاً متفقون فى هذه الأمور ، أولها التوحيد وعدم الشرك بالله ، ثم الإيمان بالكتب السماوية وبالرسل ، ثم الإيمان بالبعث .

فهذا قَدْر مشترك عند جـميع الرسل لا يتغير ، لأنها ثوابت الدين وأعـمدته ، وهى المـرادة فى قوله تعـالى : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ .. (١٣) ﴾ [الشورى]

فـالوصـيـة هنا بالأشـيـاء الضـروريـة والثـابتـة فى كل الأديان

السماوية ، فالتوحيد دعوة كل رسل الله ، والصلاة وجدناها فى كل الشرائع السابقة ، وكذلك الزكاة ، لذلك لا يمكن أبداً أنْ تخلو رسالة من الرسالات من هذين الأمرين .

ففى قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام عندما أسكن من ذريته بواد غير ذى زرع علَّلَ ذلك بقوله : ﴿ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ (٣٧) ﴾ [إبراهيم] ويقول تعالى فى نفس القصة : ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا[1] لإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لاَّ تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (٢٦) ﴾ [الحج]

وفى قصة سيدنا شعيب عليه السلام يقول له قومه : ﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا .. (٨٧) ﴾ [هود]

وفى قصة سيدنا زكريا عليه السلام : ﴿ فَنَادَتْهُ الْمَلائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ .. (٣٩) ﴾ [آل عمران]

والزكاة كذلك من الثوابت التى جاءت فى كل الأديان ، اقرأ مثلاً قوله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ (١٤) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ (١٥) بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (١٦) وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ (١٧) إِنَّ هَـٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَىٰ (١٨) صُحُفِ[2] إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ (١٩) ﴾ [الأعلى]

---

(١) بوَّأنا : هيَّأنا له ومكنَّا منه . ومنه قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ .. (١٢١) ﴾ [آل عمران] أى : تنزلهم وتمكنهم من مقاعد للقتال لا يفارقونها . [القاموس القويم ١/٨٨ - بتصرف] .

(٢) روى الآجرى من حديث أبى ذر قال قلت يا رسول ، فما كانت صحف إبراهيم ؟ قال : كانت أمثالاً كلها .. أيها الملك المتسلط المبتلى المغرور إنى لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها على بعض ولكن بعثتك لترد عنى دعوة المظلوم ، فإنى لا أردها ولو كانت من فم كافر » الحديث أورده القرطبى فى تفسيره (٢٠/٢٥) [سورة الأعلى ١٩] .

كذلك اتفقت كل الأديان السماوية فى تطهير النفس والجوارح من الآثام والمعاصى التى تضر بالنفس وبالمجتمع ، لأن التخلية من الآثام تسبق التحلية بالطاعات .

خذ الجوارح من أول القلب إلى القدم تجد كل الأديان السماوية تدعو إلى تطهيرها ، فالقلب وهو قائد الجوارح والأم بينها ، لذلك قال عنه سيدنا رسول الله ﷺ : « ألا إن فى الجسد مُضْغة إذا صلُحتْ صلُح الجسد كله ، وإذا فسدتْ فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب »[(١)] .

ومطلوب للقلب عدة أشياء : أولاً : عدم الإشراك بالله ، ثم عدم الإصرار على المعصية ، ثم لا يأمن مكر الله ولا يقنط من رحمة الله . هذه كلها عقيدة ينبغى أن تستقر فى القلب .

كذلك اللسان وهو عمدة البيان والتبليغ يجب أنْ يتطهر من عدة أشياء : أولها : شهادة الزور ، ثم قَذْف المحصنات ، ثم اليمين الغموس[(٢)] وهو يمين ليس له كفارة ، ثم يتطهر اللسان من أنْ يقول الطلاسم التى يقولها السحرة .

تعالَ إلى البطن ينبغى أنْ تتطهر وتبرأ من عدة أشياء : شرب الخمر ، أكل الربا ، أكل مال اليتيم .

وكذلك اليدان تبرأ من السرقة ومن القتل . وكذلك العورات تبرأ

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٢) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير رضى الله عنه .

(٢) اليمين الغموس : أى التى تغمس صاحبها فى الإثم ثم فى النار . وقيل : هى اليمين الكاذبة التى تُقتطع بها الحقوق . وقال ابن مسعود : أعظم الكبائر اليمين الغموس وهو أن يحلف الرجل وهو يعلم أنه كاذب ليقتطع بها مال أخيه . [لسان العرب – مادة : غمس].

من الزنا وغيره مما حرَّمه الله عليها ، وكذلك الرِّجْلان تبرأ من التولى يوم الزحف ، ومن السعى إلى كل ما هو محرَّم .

ومن هذه الثوابت عقوق الوالدين ، فهو محرم فى كل الأديان كذلك وهو عام فى كل الجوارح ، وقد حرمه الحق سبحانه لأن بر الوالدين تدريب ورياضة لطاعة الله ، ذلك لأن الوالدين سبب الوجود المباشر ، والحق سبحانه وتعالى سبب الوجود غير المباشر .

فكأن طاعة الوالدين وبرَّهما باب ومدخل لطاعة الله . وهذا البر محفوظ لهما ، حتى وإنْ كانا مشركين : ﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا .. (١٥) ﴾ [لقمان]

لذلك الحق سبحانه وتعالى يُعلِّمنا بر الوالدين فى موكب الرسالات كلها ، ففى قصة سيدنا عيسى عليه السلام ، ولأنه جاء من أم بلا أب ، وقد تكون هذه المسألة مدخلاً من مداخل الشيطان على سيدنا عيسى ، فيُوصيه ربه بأمه فقط :﴿ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢) ﴾ [مريم] حتى يقطع على الشيطان مدخله .

أما فى قصة سيدنا يحيى عليه السلام فقال : ﴿ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا (١٤) ﴾ [مريم] بوالديه يعنى : أباه وأمه ، ونلحظ فى القصتين أن سيدنا عيسى عليه السلام هو الذى يتكلم عن أمه ويقول ﴿ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي .. (٣٢) ﴾ [مريم] فهذا إقرار واعتراف منه .

أما فى قصة سيدنا يحيى ، فالحق سبحانه هو الذى يحكى عنه أنه كان براً بوالديه ، ونصَّ على البر فى قصة سيدنا يحيى ، لأن السببية فى والديه مفقودة ، فأبوه قد بلغ من الكبر عتياً ، وأمه

كانت عاقراً ، إذن : كيف يأتى الولد وهذا أيضاً مدخل من مداخل الشيطان على سيدنا يحيى .

إذن : فالحق سبحانه يريد للجميع أنْ يكون نظيفاً طاهراً من كل هذه الآثام ، لذلك طهَّر الجوارح كلها وجعلها أداة بناء ومودة وتراحم ، وبنى المجتمع على أسس قويمة تكفل لأفراده الحياة السعيدة المطمئنة ، وهذا قاسم مشترك فى كل ديانات السماء ، وهذه الأمور هى المرادة بقوله سبحانه : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا .. (١٣) ﴾ [الشورى]

أما قوله تعالى : ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا .. (٤٨) ﴾ [المائدة] فيُراد بها الشرائع والأحكام الخاصة بكل ديانة ، وهذه الشرائع تختلف باختلاف المجتمعات والبيئات والداءات الموجودة والآفات المنتشرة بين القوم ، فالشرائع تأتى لمعالجة الآفات فى مجتمعها ولذلك تختلف من دين لآخر .

فجماعة انتشرت بينهم الرذيلة والفاحشة ، وجماعة طففوا[1] المكيال والميزان ، وجماعة عبدوا الأصنام ، وآخرون عبدوا الكواكب أو الملائكة . وهكذا ، فلا بد إذن أنْ تختلف الشرائع فى هذه الأمور الاجتماعية .

من هذا نعلم أن اعتراض المستشرقين لا محلَّ له ، فلكل آية موضوعها .

---

(١) طفف الكيل : طوَّل أعلاه وجعل له طفاً فوقه ، وذلك حين يضع يده أو يديه بجانبه فيمنع الحَبَّ الزائد من التساقط ثم يسرع بوضعه فى إنائه ليأخذ أكثر من حقه ويظلم من يبيع له السلعة . [القاموس القويم ١/٤٠٣] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا (١) بَيۡنَهُمۡۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى لَّقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ (١٤) ﴾

البيئة المكيَّة كان بها كفار مكة وهم وثنيون يعبدون الأوثان ، وكان فيها أهل كتاب يهود أو نصارى ، وكان الخلاف بينهما قائماً ومستمراً ، ومن غيظ أهل الكتاب من الكفار كانوا يقولون لهم : لقد أطلَّ زمانُ نبى منكم سيأتى ونتبعه ونقتلكم به قتْل عاد وإرم .

والحق سبحانه يخبر عن أهل الكتاب : ﴿ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا ﴾ أى : محمد ﴿ كَفَرُوا بِهِ .. (٨٩) ﴾ [البقرة]

نعم لقد بشرتْ الكتب السماوية بمجىء محمد وزمانه ومكانه ، وكان أهل الكتاب يعرفونه وعندهم أوصافه ، وقد اعترف منهم كثيرون بأن محمداً على الحق ، وأنه نبى مرسل ، ومن هؤلاء عبد الله ابن سلام .

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٩/٦٠٥٥) : « (بَغْيًا بَيْنَهُمْ) أى : بغياً من بعضهم على بعض طلباً للرياسة ، فليس تفرقهم لقصور فى البيان والحجج ، ولكن للبغى والظلم والاشتغال بالدنيا » .

الحق سبحانه يقول عنهم وعن معرفتهم لرسول الله بأوصافه : ﴿ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ .. (١٤٦) ﴾ [البقرة] لذلك يقول أحدهم[١] : والله إنى لأعرف محمداً كمعرفتى لابنى ، ومعرفتى لمحمد أشد[٢]، ذلك لأن أوصافه مذكورة فى كتبهم . ومع ذلك لما جاءهم بالحق كفروا به وعاندوه .

يقول تعالى : ﴿ وَمَا تَفَرَّقُوا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ .. (١٤) ﴾ [الشورى] أى : العلم به فى كتبهم التى بشَّرتْ به وذكرتْ أوصافه ﴿ وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ ..(١٤) ﴾ [الشورى] وهى وعْده سبحانه بإمهالهم ﴿ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى .. (١٤) ﴾ [الشورى] هو يوم القيامة ﴿ لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ .. (١٤) ﴾ [الشورى] أى حُكِم بينهم بهلاك الكافرين واستئصالهم ونجاة المؤمنين ، والحق سبحانه لم يقْضِ بإهلاكهم واستئصالهم ، بل أخَّرهم لأنه سيكون منهم مَنْ يؤمن ويصير جندياً من جنود الحق .

﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ (١٤) ﴾ [الشورى] قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ..(١٤) ﴾ [الشورى] هم اليهود والنصارى المعاصرون للنبى ﷺ ﴿ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ .. (١٤) ﴾

---

(١) هو : عبد الله بن سلام بن الحارث الإسرائيلى أبو يوسف ، صحابى أسلم عند قدوم النبى ﷺ المدينة وكان اسمه الحصين فسماه رسول الله عبد الله وشهد مع عمر فتح بيت المقدس . أقام بالمدينة إلى أن توفى عام ٤٣ هـ . (الأعلام للزركلى ٤/٩٠) .

(٢) قال ابن كثير فى تفسيره (١/١٩٤) : « قال القرطبى : يُروى عن عمر أنه قال لعبد الله ابن سلام : أتعرف محمداً كما تعرف ولدك ؟ قال : نعم وأكثر ، نزل الأمين من السماء على الأمين فى الأرض بنعته فعرفته ، أما ابنى فإنى لا أدرى ما كان من أمه » .

[الشورى] أى من كتابهم ﴿مُرِيبٍ (١٤)﴾[الشورى] يدعو إلى الريبة والتردد والحيرة ، ذلك لأنهم أخذوا فى كتابهم مآخذ عدة أدت بهم إلى هذا الشك وإلى هذه الريبة .

أولاً : نَسُوا بعضه كما أخبر الحق عنهم : ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ..(١٤)﴾ [المائدة] كما أخبر عن اليهود فى الآية التى قبلها : ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ .. (١٣)﴾ [المائدة]

والنسيان يعنى عدم الاهتمام بالمنسىِّ ، فلو كان مهماً لكانَ على بالهم دائماً وفى بؤرة اهتمامهم ، وما لم يُنْسَ من الكتاب تناولوه بالتحريف ، ولو كان لهم عذر فى النسيان ، فما عذرهم فى التحريف ؟

ثم بعد ذلك كتموا ما أنزل الله ، قال تعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ (١٨٧)﴾ [آل عمران]

ويا ليتهم وقفوا بمسخ كتابهم عند هذا الحد ، إنما تمادوا فى مسخه إلى أنْ يؤلفوا الكلام من عند أنفسهم ، ويقولون هو من عند الله ، قال تعالى فى حقهم : ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ (٧٩)﴾ [البقرة]

﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾ (١)

الإشارة فى قوله تعالى : ﴿فَلِذَٰلِكَ .. ﴿١٥﴾﴾ [الشورى] إشارة للكلام السابق ، فلأنهم تفرقوا واختلفوا وكتموا الكتاب وحرفوه ، ما داموا فعلوا ذلك ، فقُمْ أنت بمهمة الدعوة لتصلح ما أفسد هؤلاء ، وتقيم ميزان الحياة بالحق وبالعدل ، وترد هؤلاء عَمَّا هم فيه .

ولاحظ هنا أن التعبير يجمع بين القول والعمل ﴿فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ .. ﴿١٥﴾﴾ [الشورى] يعنى : ليكُنْ قولك موافقاً لحركتك ، كما قال فى موضع آخر : ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا .. ﴿٣٠﴾﴾ [فصلت]

وسبق أنْ قلنا : إن الخط المستقيم هو أقرب طريق بين نقطتين ، فاستقم يعنى كُنْ على الجادة وعلى الطريق السَّوىِّ ، وقد سمَّاه القرآن (الصراطَ المستقيم) وسمَّاه (سواء السبيل) (٢) وهو الذى

---

(١) ذكر القرطبى فى تفسيره (٩/٦٠٥٥) فى قوله تعالى : ﴿فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ .. ﴿١٥﴾﴾ [الشورى] أى : إلى ذلك فادع . فاللام بمعنى إلى ، كقوله تعالى : ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾﴾ [الزلزلة] أى : إليها .

(٢) وصفه بالصراط المستقيم كما فى قوله تعالى : ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾﴾ [الفاتحة] . وسماه (سواء السبيل) كما فى قوله تعالى : ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾﴾ [البقرة] وسواء السبيل وسطه فكلمة سواء تدل على معنى التوسط ، أى وسط الطريق الموصِّل للخير .

يُوصِّلك إلى غايتك من أقرب طريق .

فكأن الحق سبحانه حينما يأمر نبيه محمداً ﷺ بذلك إنما يقول له : استقم ، لأن استقامتك على المنهج الذى جئتَ به أدْعَى إلى القبول وإلى تصديقك والاستماع لك .

ومعلومٌ أن التعليم والنصح بالعمل أجْدَى وأنفع من الكلام النظرى ؛ لذلك لما سأل أحد الصحابة رسول الله فقال : يا رسول الله ، قُلْ لى فى الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك قال له : « قُلْ آمنتُ بالله ثم استقم »[1] .

وهذا من جوامع كلمه ﷺ .

وبعد أنْ أمره ربُّه بالاستقامة على منهج الحق نهاه عن اتباع أهواء القوم : ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ .. ﴿١٥﴾ ﴾ [الشورى] فالهوى سبيل الاختلاف والتفرق ، ومن هذه الأهواء قولهم لرسول الله : تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة[2] ، وفيها نزلت سورة الكافرون : ﴿ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ .. ﴿١٥﴾ ﴾ [الشورى] كتاب هنا نكرة أفادتْ الشمول ، يعنى : آمنتُ بكل كتاب أنزله الله من قبل .

وكأنها رسالة إلى أهل الكتاب من اليهود والنصارى : لماذا آمنتم بالديانات السابقة عليكم ، ولم تؤمنوا برسالة محمد ، وهى ديانة كباقى

---

(١) عن سفيان بن عبد الله الثقفى قال : قلت يا رسول الله قل لى فى الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك ، قال : قل آمنت بالله ثم استقم ، أخرجه مسلم فى صحيحه (٣٨) وأحمد فى مسنده (٤/٣٨٥) .

(٢) ذكر الواحدى فى أسباب النزول (ص٢٦١) فى سبب نزول سورة الكافرون أن رهطاً من قريش قالوا : يا محمد هلم اتبع ديننا ونتبع دينك ، تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة ، فإن كان الذى جئت به خيراً مما بأيدينا قد شركناك فيه وأخذنا بحظنا منه ، وإن كان الذى بأيدينا خيراً مما فى يدك قد شركت فى أمرنا وأخذت بحظك ، فقال : معاذ الله أن أشرك به غيره ، فأنزل الله ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ ﴾ [الكافرون] .

الديانات ، إذن : لكم سوابق فى الإيمان ، فلماذا وقفتم عند رسالتى وكذبتم ؟ كذَّبوا لأن عندهم مسائل يجادلون بها الضعاف من المسلمين .

مثلاً يقولون لهم : ديننا أقدم من دينكم ، وكتابنا أقدم من كتابكم ، ورسولنا أقدم من رسولكم ، وقرآنكم يشهد لنا ، ألم يقل القرآن : ﴿ يَـٰبَنِى إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِىَ الَّتِى أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٢٢) ﴾ [البقرة] فنحن إذن مُفضلون على العالمين بشهادة القرآن .

والأفضلية هنا ليستْ على إطلاقها ، بل هى مُقيدة بزمانهم . يعنى : فضلتكم على العالمين من أهل زمانكم ، وإلا كانوا أفضل من إبراهيم وإسحق ، وهم لا يقولون بذلك .

وقوله تعالى : ﴿ وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ .. (١٥) ﴾ [الشورى] العدل أنْ تزن بميزان غير جائر ، فكل واحد منهم يأخذ حقه ، وأنْ يكون الجميع أمامك سواسية ، فمثلاً لا تَنْهَ واحداً وتترك الآخر ، ولا تفضل أحداً على أحد فى مرآك ولا فى مجلسك ولا فى نظرك .

لذلك كان ﷺ إذا جلس بين أصحابه يُوزِّع نظره عليهم جميعاً ، فلا يهتم بواحد دون الآخر .

فالجميع أمامه سواسية ، ولو اهتم بواحد بعينه لظنّ أن له أفضلية أو سلطة زمنية أو قوة مركزية ، أبداً كانوا جميعاً فى نظره سواء ، هذه كلها من عدالته ﷺ بين الناس .

وقوله : ﴿ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ .. (١٥) ﴾ [الشورى] يعنى : ليس ربنا وحدنا ، إنما هو ربكم أيضاً ، وما دام ربنا وربكم فلا بد أن تكون

التربية واحدة لنا جميعاً ، وقد أنزل لكم منهجاً له زمن ، وأنزل عليَّ منهجاً خاتماً .

ومن كمال التربية : ﴿لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ .. (١٥)﴾[الشورى]فكلٌّ مُجازَى بعمله ﴿لا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ .. (١٥)﴾ [الشورى] لا حجاج ولا جدال ، لماذا ؟ لأن الجدل معهم يوصل إلى اللدد والعناد والخصومة ولا يُوصل إلى الحق ، والمعنى : أننا لن نلتقى فكُلٌّ منا له طريق .

والحق سبحانه قد تناول هذه المسألة فى سورة (الكافرون) : ﴿قُلْ يَـأَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ (٤) وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (٦)﴾ [الكافرون]

إذن : لا مجالَ للجدال لأن المسألة منتهية ، الآن علَّمتنا السياسة أن الدول قد تختلف فتقطع العلاقات بينها وبين بعض ، ثم تضطرهم ظروف الحياة إلى إعادة العلاقات مرة أخرى وإلى التصالح ، أما فى مسألة الإيمان والكفر فهما نقيضان لا يمكن أبداً أن يلتقيا .

لذلك لما تدقق فى سورة (الكافرون) تجدها تنفى هذا الالتقاء فى الحاضر الآن وفى المستقبل ، اقرأ : ﴿لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣)﴾[الكافرون] أى : فى الحاضر ﴿وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ (٤) وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (٦)﴾ [الكافرون] أى : فى المستقبل .

وقوله : ﴿اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (١٥)﴾[الشورى] يعنى : ما دُمْنا لم نجتمع على الحق فى الدنيا فسوف يجمعنا الله جميعاً يوم

القيامة للحساب ، حيث يجازى كلاً بعمله ، ويعطى كل ذى حَقٍّ حقه ، وكوْنك تردُّ الأمر فى الحكومة إلى عادل ، فهذا دليل على أنك على الحق ، وكفى بالله حكماً ﴿وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾ [الشورى] المرجع والمآب .

﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ(١) دَاحِضَةٌ(٢) عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾﴾

قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ .. ﴿١٦﴾﴾ [الشورى] أى يجادلون فى دين الله ، يجادلون مَنْ ؟ يجادلون الذين استجابوا لدعوة الحق ﴿مِن بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ .. ﴿١٦﴾﴾ [الشورى] يقولون لهم : ديننا أقدم من دينكم ، ورسولنا أقدم من رسولكم ، والقرآن يشهد لنا أننا الأفضل فى العالمين ، يريدون من ذلك الجدل أنْ يردوهم عن إيمانهم .

هؤلاء ﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ .. ﴿١٦﴾﴾ [الشورى] يعنى : حجة باطلة لا تُقبل عند الله تعالى ، ولا يصح أنْ يُلتفت إليها أبداً

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٦٠٥٦/٩) : « الهاء فى (له) يجوز أن يكون لله عز وجل ، أى من بعد ما وحَّدوا الله وشهدوا له بالوحدانية ، ويجوز أن يكون للنبى ﷺ أى : من بعد ما استجيب لمحمد ﷺ فى دعوته من أهل بدر ونصر الله المؤمنين » . وقد جمع ابن كثير فى تفسيره (١١٠/٤) بين القولين فقال : (أى : يجادلون المؤمنين المستجيبين لله ولرسوله) .

(٢) حجتهم داحضة : باطلة . ودحض الحجة : أبطلها [القاموس القويم ٢٢٢/١] ودحضت الشمس عن كبد السماء زالت . [تفسير القرطبى ٦٠٥٧/٩] .

﴿وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ .. ﴿١٦﴾﴾ [الشورى] أى : غضب من الله ، لماذا ؟ لأنهم لم يكتفوا بأنهم كافرون فى أنفسهم ، إنما أرادوا أنْ يأخذوا غيرهم إلى الكفر ، وبذلك يحملون أوزارهم وأوزار مَنْ أضلوهم ، فاستحقُّوا هذا المصير ، وهو غضب الله عليهم ، والغضب هو أول مراحل العذاب .

لذلك فى حديث قدسى بيَّن الحق سبحانه حال جماعة غضب الله عليهم ، ثم أمر بالحجاب عنهم ، ثم لعنهم ثم طردهم من رحمته تعالى ، ولتوضيح هذه المسألة نقول - ولله المثل الأعلى - مثل رجل عنده شركة فيها موظفون وفيها عمال ، فواحد منهم ارتكب خطأ أغضب صاحب الشركة فتغيَّر قلبه من ناحيته لكن تركه فى عمله ثم ارتكب خطأ آخر ، فقال له : ابتعد عنى لا تجعلنى أرى وجهك وكأنه ضرب بينه وبينه حجاباً حتى لا يراه ، ثم فى المرحلة الأخيرة قال : هذا الموظف لا بدَّ أنْ يُطرد من العمل .

كذلك الحق سبحانه غضب على هؤلاء ، ثم ضُرب دونهم حجابٌ ثم لعنهم ثم طردهم من رحمته تعالى ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾﴾ [الشورى] أى : فى الآخرة .

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾﴾

قوله تعالى : ﴿بِالْحَقِّ .. ﴿١٧﴾﴾ [الشورى] الحق هو الشىء الثابت الذى لا يتغير ، والحق غالب لا محالة ، وإنْ عَلاَ عليه الباطل

فى فترة من الفترات فإنما لحكمة ، هى أنْ يعض الباطل الناس ليشحنهم بالحمية للحق ويُشوقهم إليه ، فالعاقبة للحق مهما طال الباطل وصَالَ وجَالَ ، لذلك قلنا : إن الباطل جندى من جنود الحق .

واقرأ هذه الصورة التى رسمها الحق سبحانه يوضح لنا بها الحق والباطل ، يقول تعالى : ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾﴾ [الرعد]

فالحق هو الباقى ، والباطل زائل زاهق .

لذلك نرى بعض أعداء القرآن يحاولون أنْ يعيبوا أسلوبه ، فيقولون مثلاً فى قوله تعالى : ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ﴿٤٠﴾﴾ [التوبة] أنه أسلوب غير سليم ، لأن القياس أن يقول : وكلمة الله العليا كما قال فى الأولى : كلمة الذين كفروا السفلى ، وهذا الاعتراض نتيجة عدم الفهم عن الله وعدم وجود الملَكة التى تُمكِّنهم من فَهْم أساليب اللغة .

فكلمة الذين كفروا السفلى أى : جعلها الله سفلى فهى مفعول جعل ، أما كلمة الله هى العليا فليست جَعْلاً كالأولى ، بل هى فى أصلها عليا ، يعنى : لم تكُنْ سفلى وجعلها الله عليا ، بدليل أنها جاءتْ بالرفع على أنها خبر .

وقوله : (والميـزان) أتى بشىء حسِّى وهو الميـزان ، والميزان هو أداة إقامـة الحق ، فالمـسألة ليـستْ هكذا (بالزوفة) إنمـا هناك ميزان حساس قائم على العدل والمساواة .

والميـزان يختلف باخـتلاف الموزون ، فـميزان القـمح أو البطاطا مثلاً غـير ميزان الذهب ، تجد الآن عنـد الصائغ ميزاناً حاسـاً يضعه فى صندوق من زجـاج ، لماذا ؟ ليـحـجز عنه الهـواء لأن الهواء قـد يتلاعب بالميزان ، فيُـخرجه عن الدقة المطلوبة فى الوزن ، وأقل ميل فى ميزان الذهب له ثمن بخلاف ميزان البطاطا مثلاً .

إذن : كلمـة المـيزان تعنى الضـوابط التى تضـبط مـا بين الحق والباطل[1] نقرأ فى سـورة الحديد ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ .. (٢٥)﴾ [الحديد] يعنى : بالعدل والحق ، إذن : جاء الميزان ليـعطى كل ذى حق حقه ، ويضبط الحقوق لأصحابها ، فلا يأخذ أحدٌ أكثر من حقه ، ولا يغتصب أحدٌ حقَّ الآخر ، ولا يطمع فيما ليس له .

---

(١) هذا هو المـعنى الجـامع فى معنـى هذه الكلمة فى هـذا السيـاق ، وقد ذكـر القـرطبى فى تفسيره (٦٠٥٨/٩) عدة أقوال :

- الميزان : العدل . قاله ابن عباس وأكثر المفسرين .
- الميزان : ما بُيِّن فى الكتب مما يجب على الإنسان أن يعمل به .
- الميزان : العدل فيما أمر به ونهى عنه . قاله قتادة .

قال القرطبى : وهذه الأقوال متقاربة المعنى .

- الميزان : هو الجزاء على الطاعة بالثواب وعلى المعصية بالعقاب .
- الميزان : هو المـيزان نفسه الذى يوزن به ، أنزله من السماء وعلَّم العـباد الوزن به لئلا يكون بينهم تظالم وتباخس . قاله مجاهد .
- وقيل : الميزان محمد ﷺ يقضى بينكم بكتاب الله » .

وقوله سبحانه : ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ (١٧)﴾ [الشورى] لأنهم سبق أنْ طلبوا من الرسول أن يأتى بها ، كما حكى القرآن عنهم : ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣٨)﴾ [الأنبياء] طلبوها على وجه الاستهزاء والسخرية والتكذيب بها . والفعل دَرَى يدرى أتى مرة بصيغة المضارع هنا ﴿وَمَا يُدْرِيكَ .. (١٧)﴾ [الشورى] وأتى بصيغة الماضى فى قوله تعالى : ﴿الْحَاقَّةُ (١) مَا الْحَاقَّةُ (٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ (٣)﴾ [الحاقة]

معنى ﴿وَمَا أَدْرَاكَ (٣)﴾[الحاقة] فى الماضى يعنى شىء قديم لم تعرفه من زمان ، لكن تعرفه الآن . أما ﴿وَمَا يُدْرِيكَ .. (١٧)﴾ [الشورى] يعنى : لا أحدَ يخبرك بها إلا نحن ﴿لا يُجَلِّيهَا[1] لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ .. (١٨٧)﴾ [الأعراف] ، أما صيغة المستقبل فلم تأتِ أبداً .

﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ ۗ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ[2] فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (١٨)﴾

---

(١) جلا فلان الأمر يجلوه : أظهره . وجلاَّه بالتضعيف للمبالغة : أظهره أيضاً ، قال تعالى : ﴿لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ .. (١٨٧)﴾ [الأعراف] أى : لا يظهر الساعة فى ميعادها إلا الله . [القاموس القويم ١/١٢٦] .

(٢) يمارون : يشكُّون ويخاصمون فى قيام الساعة . [تفسير القرطبى ٩/٦٠٥٩] . وامترى فى الشىء : شك فيه ولم يستيقن . وتمارى القوم به : تجادلوا . وتمارى فى الشىء : تشكك فيه [القاموس القويم ٢/٢٢٤] .

قوله تعالى ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا .. (١٨)﴾ [الشورى] أى : بالساعة ﴿الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِهَا .. (١٨)﴾ [الشورى] ولأنهم لا يعرفونها ولا يؤمنون بها ولا يعرفون ما يحصل فيها يطلبونها من رسول الله ، يقولون له : هَاتِ لنا هذه القيامة نريد أنْ نراها ، هذا على وجه الاستهزاء بها ، ولو علموا شيئاً عن أهوالها ما تجرَّأوا على طلبها وما تهكَّموا بها . هذا حال غير المصدِّقين بيوم القيامة .

أما المؤمنون بها فلهم شأن آخر ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا .. (١٨)﴾ [الشورى] خائفون من أهوالها لما يعلمونه من صدقها ودقة الحساب فيها وشدة كربها ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ .. (١٨)﴾ [الشورى] ولم يُقلْ حق إنما قال (الحق) يعنى : هى الحق بعينه ، فلا مجالَ فيها للتكذيب ، ولا حتى للشكِّ فى أمرها .

لذلك وصف الذين يجادلون فيها مجرد جدال بأنهم فى ضلال بعيد ﴿أَلا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلالٍ بَعِيدٍ (١٨)﴾ [الشورى] والمراء : هو الجدل العقيم الذى لا يوصل إلى الحقيقة .

ووصفهم بأنهم فى ضلال بعيد ، لأن مجرد النظر العقلى يثبت يوم القيامة وضرورته بالنسبة للحياة الدنيا ، فلو تأملوا واقع حياتهم لوجدوا أنهم فى أمور دنياهم يأخذون بمبدأ الثواب والعقاب ، فلا بدَّ لتستقيم الأمور من مجازاة المحسن بإحسانه ، ومعاقبة المسىء على إساءته .

فى واقع حياتهم تعليم وتلاميذ فى المدارس يُجرون لهم اختبارات شهرية يُصوَّب فيها الخطأ بالأحمر ليعرف التلميذ خطأه ويُصححه ، أما فى امتحان آخر العام فلا تُصوَّب الأخطاء ، إنما

تُعطى عليها درجة يترتب عليها نجاح أو رسوب ، هذا هو الحساب والجزاء .

فإذا كنتم تفعلون ذلك فى أمور دنياكم ، فلِمَ تكذبون به مع الله عز وجل ، وفى البشر فى رحلة الحياة المؤمن والكافر والطائع والعاصى والمجرم والمحسن ، كيف إذن يتساوى كُلُّ هؤلاء ؟

الرجل الذى قال : لن يموت ظَلُومٌ حتى ينتقم الله منه ، لأن العقل يقول ذلك ولا يصح أنْ يفلت بجرائمه دون عقاب ، فلما رأى ظالماً مات سالماً لم يُصِبْه شىء قال ماذا ؟ قال : لا بدّ أن وراء هذه الدنيا حياةً أخرى يُعاقب الظالم على ظلمه ، لا بدَّ وإلا فقد فاز المجرمون الظالمون وأفلتوا بجرائمهم ، وضاع حَقُّ المظلومين والضعاف فى الدنيا وفى الآخرة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿١٩﴾ ﴾ (١)

معنى ﴿ لَطِيفٌ .. ﴿١٩﴾ ﴾ [الشورى] أى رفيق فى معاملة العباد ،

---

(١) ذكر القرطبى فى معنى (اللطيف) أقوالاً كثيرة ذات معانٍ قلبية طيبة ، فمنها أنه : البارّ بعباده ، الرفيق بهم ، اللطيف بالبر والفاجر حيث لم يقتلهم جوعاً بمعاصيهم . هو الذى يجبر الكسير وييسر العسير . وهو الذى لا يعاجل من عصاه ولا يخيب من رجاه . وهو الذى لا يرد سائله ولا يوئس آمله . وهو الذى يعفو عمن يهفو . [تفسير القرطبى ٩/٦٠٦٠] .

يعفو عن الكثير ولا يُؤاخذ عبده بأول جريمة ؛ لذلك لما جاءوا بامرأة سرقتْ فى عهد عمر . قالت له : والله ما سرقت قبل ذلك وهذه أول مرة ، فقال لها : كذبت ما كان الله ليفضحك من أول جريمة[1] .

ويقول عز وجل : ﴿وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الشورى] يعنى : عن كثير من سيئاتكم ولا يؤاخذكم إلا على البادى منها .

ومن معانى اللطيف أنه الدقيق الذى يتغلغل فى الأشياء ، وسبق أنْ قلنا فى الماديات : إن الشىء كلما دَقَّ وصَغُر عَنُف وصَعُب التحصُّن منه ، ومثَّلنا لذلك بمَنْ بنى بيتاً فى الخلاء ووضع على الشبابيك شبكةً من الحديد تمنع الذئاب والوحوش ، ثم وجد فى البيئة ذباباً وناموساً فجاء بشبكة أخرى أدق وأضيق .

وهكذا ، فمن صفاته تعالى أنه لطيف يعنى : لا يحتجب دونه شىء ، ولا يخفى عليه شىء مهما دَقَّ ومهما صَغُر ، ونحن نقول للإنسان المهذَّب صاحب الخُلُق : فلان لطيف يعنى ليِّن فى التعامل .

فمن لطفه سبحانه بنا أنْ جعل لنا توبةً مقبولة ، وجعل لنا مواسم للعبادة تُضَاعف فيها الحسنات وتُمحى السيئات ، وكأنها (أوكازيونات) للطاعة وتحصيل الحسنات ، من لطفه تعالى بنا أنْ

---

(١) أخرج البيهقى فى السنن الكبرى (٢٧٦/٨) من حديث أنس أن عمر أُتى بسارق فقال : والله ما سرقت قط قبلها . فقال : كذبت ما كان الله ليسلم عبداً عند أول ذنب . فقطعه . وأخرجه كذا أبو داود فى الزهد (٥٨/١) وكذا المتقى الهندى فى كنز العمال مسند عمر (حديث ١٣٩٤٩) قال ابن حجر فى أطرافه : « رواه ابن وهب فى جامعه وهو موقوف حكمه الرفع لنبيه لصحة سنده » .

جعل الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، أما السيئة فواحدة[١] .

وقوله تعالى : ﴿ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (١٩) ﴾[الشورى] يرزق لأنه الخالق ، وهو سبحانه الذى استدعى هذا الخلق لذلك تكفل له برزقه ، وهو سبحانه القوى لأن اللطف لا يكون إلا من قوة ، وهو سبحانه العزيز الغالب الذى لا يمتنع عنه شىء ولا يغلبه شىء .

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ (٢٠) ﴾

المعنى السطحى لكلمة الحرث هى حرث الأرض بالمحراث وإثارتها لبذر النبات فيها ، ذلك لأن النبتةَ الصغيرة لا تَقْوى على شَقِّ التربة الجامدة فنشق لها التربة ليسهل عليها النمو ، ثم هى فى حاجة إلى الهواء ، والحرث يُقلِّب التربة ، ويجعل الهواء يتغلغل فيها .

ولما كان الحرث هو سبب الثمرة سُمِّى بها ، فالحرث معناه الثمرة المرجوة من الزرع ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ (٢٠٥) ﴾ [البقرة] وقوله تعالى : ﴿ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى الْحَرْثِ إِذْ

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٣٠) كتاب الإيمان ، وأحمد فى مسنده (٦٨٩٨ ، ٨٩٥٧ ، ١٠٠٦١) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه بلفظ : « من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة ، فإن عملها كتبت له عشر حسنات ، ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب عليه فإن عملها كُتبت عليه سيئة واحدة » .

نَفَشَتْ[1] فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ .. ﴿٧٨﴾ ﴾ [الأنبياء] أى : فى الزرع .

فمعنى : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ..﴿٢٠﴾ ﴾ [الشورى] يعنى : ثوابها الدائم ونعيمها الخالد فى جنات عدن ، فالحق سبحانه يوضح لنا الأمور الدينية بصور من واقع حياتنا ليُقرِّبها للأذهان ، اقرأ مثلاً : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ﴾ [المؤمنون] أفلح مَن أفلح الأرض إذا حرثها وأعدَّها للزراعة ، فهو يوشك أنْ يجنى الثمرة ، كذلك المؤمن فاز بالثواب الدائم والنعيم المقيم .

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِى حَرْثِهِ.. ﴿٢٠﴾ ﴾ [الشورى] يعنى : يجده فى الآخرة أزيد مما كان ينتظر ، وأيضاً لا يُحرم من ثمرتها فى الدنيا ﴿ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا .. ﴿٢٠﴾ ﴾ [الشورى] أى : من ثمرات الدنيا ، فالإنسان لا يُحرم ثمرةَ جهده وتعبه فى الدنيا ﴿ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً ﴿٣٠﴾ ﴾ [الكهف]

فمَنْ عمل للدنيا لا يُحرم مُتعتها ولذَّتها ، لكن حين تُعجَّل له الطيبات فى الدنيا يُحرَم منها فى الآخرة ﴿ وَمَا لَهُ فِى الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الشورى] أى لا حظَّ له فى ثواب الآخرة ، لأنه عمل فى دنياه للجاه وللشهرة أو للغنى والثروة ، فطالما أخذ بأسباب الشىء يناله حتى لو كان كافراً بالله ، والمؤمن إنْ تكاسل وقعد عن السعى يُحرم لأنه لم يأخذ بالأسباب .

---

(١) نفشت : انتشرت فى المرعى بغير راعٍ ولا ضابط . [القاموس القويم ٢/٢٧٩] .

والحق سبحانه لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصاً ، ومَنْ كان يريد حرث الدنيا لم يكُنْ الله أبداً فى باله ، لذلك كثيراً ما يسأل الناس عن العلماء والمخترعين الذين خدموا البشرية باختراعاتهم واكتشافاتهم ، ما مصيرهم ؟ نقول : مصيرهم النار لأنهم عملوا للبشرية لا لله ، عملوا للشهرة وقد أخذوها فى الدنيا .

﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ ﴾

يعنى : لماذا كذَّبوا محمداً ولم يؤمنوا بما جاء به ؟ ألهم شركاء وضعوا لهم شرعاً ومنهجاً يتبعونه ، وديناً يدينون به ويتركون دين محمد ؟ والشركاء أى : الأشياء التى عبدوها من دون الله ، منهم مَنْ عبد الشمس ، ومنهم من عبد القمر أو الشجر أو الحجر أو الملائكة ، فهل هذه الآلهة المدَّعاة لها شرع ؟ هل قالت لهم : افعلوا كذا ولا تفعلوا كذا ؟

إذن : آلهة بلا منهج وبلا تكاليف فعبادتها باطلة ، وهم ما عبدوها إلا لذلك ، لأنها بلا منهج وبلا تكاليف ، فقط تُرضِى ما فى نفوسهم من الرغبة فى التديُّن ، وما أسهلَ أن يكونَ للإنسان دينٌ بلا تكاليف . والعبادة ما هى إلا طاعة العابد للمعبود فى أمره ونهيه ، ثم ماذا أعدَّتْ هذه المعبودات لمن أطاعها ، وماذا أعدَّتْ لمَنْ عصاها ؟

إذن : هذه جمادات لم تقُلْ لكم شيئاً ، ولم تأمركم بشىء ، ولم تشرع لكم ديناً ، بل أنتم شرَّعتم لأنفسكم واتبعتم أهواءكم لإرضاء عاطفة فى نفوسكم ، آلهتكم من صُنْع أيديكم أو أفكاركم السقيمة الضالة .

لذلك يقول تعالى : ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (١٠٣) ﴾ [المائدة]

نعم هؤلاء قوم يفترون على الله الكذب ، ويختلقون من عند أنفسهم أشياء ما أنزل الله بها من سلطان ، فمن أين أتوا بالبحيرة والسائبة والوصيلة والحام ؟ هذه أشياء اخترعوها من عندهم افتراءً على الله وكذباً .

فالبَحيرة هى الناقة التى ولدتْ خمس مرات ، فهى عندهم أدَّتْ ما عليها ، فيشقون أذنها ويتركونها سائبة لا تُركب ولا يُشرب لبنها ، ولا تُدفع عن الماء ولا عن المرعى ، وهذه أمور ما شرعها الله ، وقد أحلَّ الله لهم حتى الانتفاع بلحمها .

كذلك السائبة : كانوا إذا اشتكى الواحد منهم من وجع أو نزلتْ به نازلة قال : إذا حصل كذا وذهب المشكو منه أجعل ناقتى هذه سائبة لا تُركب ولا يُشرب لبنها ، ولا تُرد عن الماء ولا عن المرعى .

والوصيلة هى الشاة كانت إذا ولدتْ ذكراً جعلوه للآلهة وذبحوه للخدم والسَّدنة ، وإذا ولدت أنثى أخذوها لهم لتُنجب عندهم ، أما إذا ولدتْ ذكراً وأنثى احتفظوا بهما لأن الأنثى وصلتْ أخاها ، فلم يُؤخذ للآلهة بل يظل معها .

والحام : هو البعير حمى ظهره من أنْ يركب إذا أنتج عشرة أبطن فيقولون : إنه أدى ما عليه ، فلا يُركب ولا يُردّ عن الماء ولا عن المرعى .

هذه كلها أمور أحلَّها الله لهم وحرَّموها على أنفسهم ، لذلك قال سبحانه فى سورة الأنعام : ﴿ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٤٣) وَمِنَ الإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَـٰذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٤٤) ﴾ [الأنعام]

فالحق سبحانه يقول لهم : أخبرونى مَنْ حرَّم هذه الأشياء ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَـٰذَا .. (١٤٤) ﴾ [الأنعام] أى : بهذا التحريم الذى شرَّعتموه من عندكم افتراءً على الله ، إذن : أنتم جعلتم المشرَّع له مُشرِّعاً ، شرع لنفسه بدل أنْ يتلقى التشريع من الله .

﴿ وَلَوْلا كَلِمَةُ الْفَصْلِ .. (٢١) ﴾ [الشورى] أى : الحكم بعدم إهلاكهم وتأخير عذابهم إلى الآخرة ﴿ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ .. (٢١) ﴾ [الشورى] يعنى : حُكِم عليهم بالعذاب العاجل .

حين ننظر فى الأشياء التى أحلَّها الله والأشياء التى حرَّمها نجدها تعتمد على مراعاة المنفعة ودفع المضرة عن الإنسان ، فالحلال فيه نفع والحرام فيه ضرر ، لذلك نجد بعض المستشرقين يعترضون على أشياء حرَّمها الحق سبحانه على بنى إسرائيل مثلاً وهى غير ضارَّة ، وغيرهم يأكلها ولا تضره .

نعم حـرَّم الله على بنى إسرائيل كُلَّ ذى ظفـر من البقـر والإبل ، وغيـر مشـقوقـة الأصابع مثل : البـط والأوز والنعام ، وحرَّم علـيهم الدهون ﴿إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا[1] أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ .. (١٤٦)﴾ [الأنعام] وهذه كلها أشـياء حـلال لغير بنى إسـرائيل وليس فيـها ضرر ، إنما حُـرِّمت عليـهم عقاباً لهم وتأديبـاً فليستْ العلة فى التحريم الضرر .

قال تعالى : ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ .. (١٦٠)﴾ [النساء] فلمـا ظلمـوا أدَّبهم الله بأنْ حرّم علـيهم مـا أحلَّ لغيرهم .

ثم نلحظ علـى الآية أنهـا عبَّـرتْ عن بـاطلهم الذى جـاءوا به من عنـد أنفسـهم بأنه دين ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ .. (٢١)﴾ [الشورى] فسمى البـاطل ديناً تجاوزاً ، لأنهم مؤمنون به ويعـتبرونه ديناً ، كما قـال تعالى : ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (٦)﴾ [الكافرون] على اعتقادهم ، والدين ما يدين به الإنسان .

﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢١)﴾ [الشـورى] الظالم إمـا يظلم غيـره ، وإما يظلم نفسـه ، وهذا أشنع أنواع الظلم ، فقـد يعقل أن يظلم الإنسان عـدوه ، إنما يظـلم نفسـه التى بين جنبيـه ؟! فكيف يكون ظلم الإنسان لنفسـه ؟ يظلمها حين يُعرِّضـها للعقوبة ، ويحرمـها من الثواب والنعيم ، وأشد أنواع ظلم الإنسان لنفسه أنْ يظلمـها فى مسألة العقيدة والإيمان بالله ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣)﴾ [لقمان]

---

(١) الحوايا : الأمـعاء ، وهى مشقـقة من حوى يحوى لأنهـا تحتوى على الطعام . [الـقاموس القويم ١/١٧٩] .

﴿ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعُۢ بِهِمْۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ﴾

كلمة ﴿ ترى .. ﴿٢٢﴾ ﴾ [الشورى] تدل على كل ما يتأتى منه الرؤيا ﴿ مُشْفِقِينَ .. ﴿٢٢﴾ ﴾ [الشورى] خائفين مرعوبين ﴿ مِمَّا كَسَبُوا .. ﴿٢٢﴾ ﴾ [الشورى] مما فعلوا من السيئات ، قلنا : إن الفعل كسب يكسب من الزيادة على رأس المال أى الربح ، وأنها دائماً تأتى فى كسْب الخير ، أما اكتسب فهى على وزن افتعل فيها افتعال ومحاولة وتأتى فى الشر ، لكن هنا استخدم كسب للسيئات .

وكما فى قوله تعالى : ﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ .. ﴿٨١﴾ ﴾ [البقرة] قالوا : استخدم كسب هنا لأن السيئة أصبحتْ عنده عادةً وأمراً طبيعياً يشبه فعل الخير عند أهل الخير ، فهو يفعل السيئة فلا تتعبه لأنه ألفها .

قوله : ﴿ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا .. ﴿٢٢﴾ ﴾ [الشورى] تصوير لموقفهم يوم القيامة ، لأنهم فى الدنيا ما خافوا وما عملوا لهذا اليوم حساباً ﴿ وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ .. ﴿٢٢﴾ ﴾ [الشورى] يعنى : لا محالة فى ذلك لأنه وَعْد الله وحكمه الذى أخبر به .

أو خائفين وهم ما يزالون فى سعة الدنيا ، وفى هذا دليل على وجود الضمير والنفس اللوامة فى الإنسان ، فهو يعرف السيئة

ويعرف جُرْمه ، ويعرف أنه محاسب عليه ، لذلك يخاف منه ويؤنبه ضميره .

وفى المقابل ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٢٢) ﴾ [الشورى] هذا إخبار من الله تعالى وهو حق ، فعاقبة الإيمان والعمل الصالح روضات الجنات يعنى ملاذها وأطيب أماكنها يجدونها يوم القيامة ، ويجدونها حتى فى الدنيا بالتخيل لها والشوق إليها .

فالشهيد الذى يجود بنفسه فى سبيل الله لم يُقدم على ذلك إلا لثقته فى هذا النعيم ، وأنه إذا قُتِل فى سبيل الله سيذهب إلى خير من هذه الحياة .

وقد ذكرنا قصة الصحابى الذى سمع من رسول الله جزاء الشهداء ، فقال : يا رسول الله أليس بينى وبين الجنة إلا أنْ أقاتل هؤلاء فأُقتل ؟ قال ﷺ : بلى . فألقى الصحابى تمرة كانت فى فمه وبادر إلى الشهادة ، ولم ينتظر حتى يمضغ التمرة التى كانت فى فمه[1] ، لماذا ؟ لأنه واثق من صدق الجزاء فى قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) ﴾ [آل عمران]

نعم الشهداء أحياء ، وأحياء عند مَنْ ؟ عند ربهم ، وهذه قمة

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (حديث ٣٧٤٠) عن جابر بن عبد الله قال : قال رجل للنبى ﷺ يوم أحد : أرأيت إن قُتلت فأين أنا ؟ قال : فى الجنة . فألقى تمرات فى يده ثم قاتل حتى قُتِل . وكذا أخرجه النسائى فى سننه (حديث ٣١٠٣) وأحمد فى مسنده (حديث ١٣٧٩٤) .

الشرف والعز والنعيم ، وهى خصوصية لم ينلْهَا غيرهم ، فالشهادة نقلتهم من حياة لحياة ، فلا يموتون بعد ذلك ، ويُبعثون مع الناس وهم أحياء .

وقد عبَّر الشاعر[1] عن هذا المعنى حين قال فى سيد الشهداء حمزة ابن عبد المطلب عم رسول الله :

أَحَمْزَةُ عَمّ المصْطفى أنتَ سَيِّدٌ ... عَلَى شُهَداء الأرض أجمعِهِمْ طُرّا

وحَسْبُكَ مِنْ تلْكَ الشَّهادة عِصْمَةٌ ... مِنَ الموت فى وصْلِ الحياتين بالأُخْرى

وقوله : ﴿فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ .. (٢٢)﴾ [الشورى] روضات جمع روضة ، وهى الحديقة أو البستان الملىء بالخضرة والنضرة والأزهار والثمار ، بحيث إذا دخلتها تنفحك بأريج عطرها ، وفى خلال ذلك أنهار تجرى بالماء العذب .

فالذين آمنوا وعملوا الصالحات فى روضات الجنات يعنى : فى أفضل أماكنها وأطيبها ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ .. (٢٢)﴾ [الشورى] فهذه العندية أشرف وأعظم من أىِّ نعيم آخر ، فهم فى نعيم الجنات وملاذِّها ، يفوق ذلك كله أنهم عند ربهم ، لذلك ختم الآية بقوله : ﴿ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٢٢)﴾ [الشورى] أى : تفضُّلاً من الله وتكرُّماً عليهم .

والإنسان منا حين يتأمل هذا النعيم الدائم المقيم الذى أعده الحق سبحانه لعباده المؤمنين تهون عليه كلُّ مشاق الطاعات والعبادات ،

---

(١) من شعر الشيخ رحمه الله .

ويرى أنها يسيرة إذا ما قُورنت بالجزاء عليها .

فالإنسان يتعب فى الدنيا ويجتهد فى طلب العلم عشرات السنين ، أو فى تعلُّم صنعة أو مهنة ويتحمل مصاعبها وأخطارها ، كلّ ذلك ليوفر لنفسه مجرد ضروريات الحياة ، فإن اجتهد أكثر وعرق وبذل الجهد ، ربما يصل إلى مرحلة الرفاهية ، فيكون له خادم يخدمه أو طباخ مثلاً يُعد له الطعام ، وهؤلاء يعملون عنده بأجر وربما قصَّروا فى أعمالهم ، وربما أغضبوك وتمردوا عليك .

لكن حين تعمل للآخرة تجد الأمر مختلفاً تماماً ، فالعبادة أمرها يسير ، لا تحتاج منك إلى كل هذا الجهد وهذا العرق وسهر الليل وعمل النهار وانشغال البال والذهن ، ومع يُسْرها وسهولتها فالجزاء عليها عظيم لا تحدُّه حدود ولا يخطر على بال .

قلنا : إن قصارى ما توصَّل إليه البشر فى التقدم العلمى فى مجالات الخدمة الفندقية مثلاً أنْ تضغط على زر فى ماكينة ينزل لك منها الشاى أو القهوة ، وهذه آلة يمكن أنْ تتعطل وخلفها عامل يُعدُّ لك الشاى أو القهوة ، أمَّا فى الجنة فالنعيم هناك صَافٍ لا يُنغِّصه شىء ودائم لا ينقطع ، لا يحتاج منك إلى طلب ولا ضغط على زر ولا مناداة على خادم ، مجرد أن يخطر الشىء ببالك تجده بين يديك ، وصدق رسول الله ﷺ : « فيها ما لا عَيْن رأت ، ولا أذن سمعتْ ، ولا خطر على قلب بشر »[1] .

واقرأ مثلاً فى سورة البقرة : ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٨٢٤) وأحمد فى مسنده (٤٦٦/٢) وأبو نعيم فى الحلية (٢٦٢/٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَـٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ[1] وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٥)﴾ [البقرة]

فـفى الجنة إنْ شـاء الله سنجـد أشـيـاء كنا نأكلهـا فى الدنيـا ، فنتصور أنهـا مثل نعيم الدنيا ، لكن حين نتـذوقها نجدها شيـئاً آخر ﴿قَالُوا هَـٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا .. (٢٥)﴾ [البقرة] ذلك لأن كـمالات الحق سـبحـانه لا تتناهى ، فـلا تظل على حالة واحـدة رتيبة ، إنما فيها ارتقاء فى النعمة .

إذن : نحن أمام نعيم دائم يهون فى سبيله كلُّ تعب وكلُّ مشقة ، ووالله لو لم يكُنْ للطاعة جزاء إلا سلامـة الإنسان وسعادته فى الدنيا لكانتْ كافية ، يكفينا من الطاعة راحة البال وهدوء النفس والطمأنينة ، وقد عبَّر الشاعر عن هذا المعنى فقال[2] :

قَـالَ المنجِّمُ وَالطَّبيبُ كلاَهُمَا ... لاَ تُبْـعَثُ الأجْسَـادُ قُلْتُ إليكُمَا

إنْ صَحَّ قولكُما فَلَستُ بخاسِرٍ ... أَوْ صَحَّ قَوْلِى فَالخَسَارُ عليكُمَا[3]

---

(١) قال الطبرى فى تفسيره (١/٣٩٥) : « قوله (مطهرة) أنهن طُهرن من كل أذىً وقذى وريبة ، مما يكون فى نساء أهل الدنيا من الحيض والنفاس والغائط والبول والمخاط والبصاق والمنى وما أشبه ذلك من الأذى والأدناس والريب والمكاره » .

(٢) الشاعر هو : أبو العلاء المعرى ، أحمد بن عبد الله ، شاعر وفيلسوف ولد فى معرة النعمان عام (٣٦٣هـ/٩٧٣م) ، قال الشعر وهو ابن ١١ سنة رحل إلى بغداد عام ٣٩٨ ، لما مات وقف على قبره ٨٤ شاعراً يرثونه . كان يحرم أكل اللحم . له (لزوم ما لا يلزم) ، (سقط الزند) (ضوء السقط) . توفى عام (٤٤٩ هـ / ١٠٥٧هـ) .

(٣) هذان البيتان من قصيدة من بحر الكامل ، عدد أبياتها ٧ أبيات .

لذلك الحق سبحانه وتعالى لما أراد أنْ يصف لنا الجنة لم يصف الجنة ذاتها إنما مثلاً لها ، لأن الجنة وما فيها فوق تصور البشر ، وإذا كان فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، فكيف إذن تُوصَف لنا على حقيقتها ؟ لأن الإنسان لا يضع اللفظ إلا لمسمى معلوم عنده ، أما الشيء الذى لا نعرفه فلا نعرف بالتالى اللفظ الدالَّ عليه ، فليس فى لغتنا ألفاظ تصف هذا النعيم ، لذلك اقرأ : ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ .. (٣٥)﴾ [الرعد] فيها كذا وكذا .

ثم إن هذا النعيم المقيم جزاء لمن ؟ لمن آمن وقرن الإيمان بالعمل الصالح ، ودائماً يقرن القرآن بين الإيمان والعمل الصالح ، قال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠)﴾ [فصلت]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾﴾

قوله تعالى : ﴿ذَلِكَ .. (٢٣)﴾ [الشورى] إشارة إلى نعيم الجنة ﴿الَّذِى يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ .. (٢٣)﴾ [الشورى] والبشارة هى الإخبار بالخير قبل أوانه ، ثم ينتقل السياق إلى قضية

أخرى متعلقة برسول الله ﷺ وأمر الدعوة ﴿قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً .. (٢٣)﴾ [الشورى] يعنى : قل لهم يا محمد : إننى لا أريد منكم أجراً على الدعوة والمهمة التى أقوم بها من أجلكم ، وأنت لا تقول هذه الكلمة إلا إذا كنت قد عملتَ عملاً تستحق عليه أجراً بالفعل .

فالمعنى كأنه يقول : إن العمل الذى أقوم به من أجلكم كان يجب أن يكون لى عليه أجر ، لأننى أنصحكم وأدلكم على ما ينفعكم ، ومع ذلك لا أريد منكم أجراً .

وكل رسل الله قالوا هذه الكلمة ، لأن الإنسان عادة يجازى مَنْ أسدى إليه جميلاً أو دلَّه على خير أو أشار عليه مشورة تريحه ، لذلك فى كثير من مواكب الرسالات نقرأ : ﴿وَيَـٰقَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِىَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ .. (٢٩)﴾ [هود] نعم على الله ، لماذا ؟ لأنه عمل عظيم نفيس وشريف ، لا يمكن لبشر أنْ يُقدره قدره ، أو يعطى عليه ما يستحق من أجر ، إذن : لا يعطينى أجرى إلا الله الذى بعثنى .

قلنا : كل الرسل قالوا هذه الكلمة إلا سيدنا إبراهيم وسيدنا موسى عليهما السلام ، لماذا ؟ قالوا : لأن سيدنا إبراهيم أول ما دعا دعا أباه آزر ، فكيف يطلب منه أجراً ؟ كذلك سيدنا موسى أول ما دعا دعا فرعون ، وكان له عليه فضل التربية .

إذن : لا أريد منكم أجراً على مهمة الدعوة التى أقوم بها ، فأجرى فيها على الله الذى بعثنى ، وهو الذى يُقدِّرها قدرها ، شىء واحد أريده منكم ﴿إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِى الْقُرْبَىٰ .. (٢٣)﴾ [الشورى] يعنى : مودتكم لقرابتى . والمودة : ميل القلب إلى مَنْ تواده ثم معاملته بما يستحق من تكريم وتقدير .

فكأن رسول الله ﷺ يقول لهم : لقد أُرسلْتُ إلى الناس كافة ، وقد قابلتمونى بالإيذاء وجابهتمونى بالعداء واضطهدتم أصحابى ، وألجأتمونى إلى غيركم مرة إلى الطائف ، ومرة إلى القبائل الأخرى ، وألجأتم أصحابى إلى أن يتركوا بلادهم وديارهم ، وأنا لى فى كل بطن من بطون قريش قرابة حتى فى المدينة حيث أخوالى من بنى النجار ، فلا أقلَّ من أنْ تعطونى حقى فى قرابتى ، وحق القرابة ألاَّ تؤذونى ، فأنا لا أجبركم على الإسلام ولا أفعل ما يدعو إلى الإيذاء ، كذلك من حق القرابة ألاَّ تُسْلمونى لعدوى ، فهذا حقى عليكم .

أو يكون المعنى ﴿إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ .. (٢٣)﴾ [الشورى] يعنى : أقاربى وأهل بيتى ، ذلك لأن أقارب رسول الله ﷺ حرموا من مُعين على العيش ، فليسوا كباقى المسلمين ، حيث حُرِّمتْ عليهم أموال الزكاة التى يستحقها الفقير من غيرهم ، فلا أقلَّ من أن تعاملوهم بالحسنى وبالمعروف ، وتراعوا منزلتهم منى .

لذلك نجد لهم أحاديث كثيرة فى إكرام أهل البيت يقولون أن غيرهم قالها ، من ذلك : مَنْ مات على حب آل بيت رسول الله مات شهيداً ، مات مغفوراً له ، مات وتُحيِّيه الملائكة فى قبره ، مات وفى قبره باب يؤدى به إلى الجنة ، ومن أبغض آل محمد فهو آيس من رحمة الله[1] .

---

(١) أورده القرطبى فى تفسيره (سورة الشورى آية ٢٣) بلفظ : « من مات على حب آل محمد مات شهيداً ، ومن مات على حب آل محمد جعل الله زوار قبره الملائكة والرحمة ، ومن مات على بغض آل محمد جاء يوم القيامة مكتوباً بين عينيه أيس اليوم من رحمة الله ومن مات على بغض آل محمد لم يرح رائحة الجنة ، ومن مات على بغض آل بيتى فلا نصيب له فى شفاعتى » . وأورده الزمخشرى مطولاً فى تفسيره (الكشاف) (٩٩٢) وذكره الألبانى فى السلسلة الضعيفة (٤٩٢٠) وقال : « باطل موضوع » .

قالوا هذا لأن النبى ﷺ قال كلاماً مثل هذا ، قال : « أحبوا الله لما يغذوكم من النعم وأحبونى بحبِّ الله ، وأحبوا أهل بيتى لحبى »[(١)] وهذا معنى آخر من معانى ﴿ إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ .. (٢٣) ﴾ [الشورى]

أو يُراد بها معنى ثالث ﴿ إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ .. (٢٣) ﴾ [الشورى] قرباكم أنتم يعنى كل منكم يودُّ قريبه ويعطيه ويرعى حَقَّ قرابته ، ولو أن كل إنسان واجد عنده سعةٌ من الرزق يعطى قرابته ويكفيهم ويساعدهم على المعيشة الكريمة ما وُجد بيننا فقير ولا محتاج ، والمجتمع عبارة عن دوائر متداخلة ، فلو فعلنا ذلك لَعمَّ خير الله جميع خَلْق الله .

ثم إن الأقارب لهم حَقّ فى مالك غير الزكاة ، لذلك قال أحد الأغنياء : أنا أعطى أخى الفقير من مال الزكاة ، فقلنا له : والله لو يعلم أنك تعطيه من مال الزكاة ما قبلها ، إذن أعطه من نسبة ٩٧,٥٪ لا من ٢,٥٪ اترك هذه النسبة اليسيرة للفقراء الأباعد عنك .

وآخر يقول : أضع مال الزكاة فى بناء مدرسة ، وآخر يقول : فى بناء مستشفى أو مسجد ، سبحان الله وهل نسبة ٢,٥٪ تكفى كل هذا ؟ اجعلوها لأصحابها كما فرضها الله ليستقيم حال المجتمع ، ثم لو فعلنا كل هذا من مال الزكاة ماذا سنفعل فى نسبة ٩٧,٥٪ .

إن وضع مال الزكاة فى موضعه كما علَّمنا الحق سبحانه يحمى المجتمع ويستر عوراته ، فلا تجد فيه عارياً ولا جائعاً ولا مريضاً لا يجد ثمن العلاج ، لكن لما عطلنا أحكام الشرع فى هذه المسألة ظهرت عورات المجتمع المسلم كما نرى ونشاهد .

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه (٣٧٢٢) والحاكم فى مستدركه (٤٦٩٩) والطبرانى فى المعجم الكبير (٢٥٧٣ ، ١٠٥١٦) والبيهقى فى شُعب الإيمان (٤٣٧ ، ١٣٦٨) كلهم من حديث ابن عباس رضى الله عنه ، كلهم من طريق يحى بن معين بسنده إلى ابن عباس . قال الترمذى : هذا حديث حسن غريب إنما نعرفه من هذا الوجه .

الحق سبحانه وتعالى وزَّع خَيْرَهُ على كل خَلْقه و (هندس) اقتصاد المجتمع ، بحيث لو نُفِّذت تعاليمه فى هذه المسألة لعاشَ الفقير فى نفس مستوى معيشة الغنى .

ومن هذه العدالة فى توزيع الخير على الناس تجد مثلاً رجلاً غنياً فى بلدة ما هى موطنه منذ مولده ، ومع ذلك يحنُّ إلى موطن آخر فيذهب إليه ويعمر فيه ويفيض من خيره على أهله ، قالوا : إذا رأيتَ مثل هذا الرجل فاعلم أن وجوده فائضٌ عن حاجة أهل بلده ، فنقله الله إلى مكان آخر محتاج إليه .

وإذا كنا نفعل هذا مع أقاربنا ، فرسول الله أَوْلَى بالمؤمنين من أنفسهم ، فقرب رسول الله أَوْلى ، لأن رسول الله علم أنه سوف تأتى عهود يُضطهد فيها أهل بيته ، والتاريخ شاهد على ذلك ، وقد رأيتم آل البيت وقد تشتتوا فى سائر البلاد ، بل وقُتل منهم مَنْ قُتل ، وتعلمون مدى حبِّ شعب مصر لآل بيت رسول الله ﷺ ، كذلك نحب أبا بكر وعمر ، وليس بيننا شيعى واحد .

والمودَّة والقربى أول ما تكون تكون لله تعالى ولرسوله ﷺ ، وإذا كانت المودة ميل القلب لمن تهواه ، فهذا الميْل له تبعات ، فلا تراه محتاجاً وأنت واجد ، ولا تراه جاهلاً وأنت متعلم ، وهكذا .

ومن المودة فى القربى بر الوالدين . وقلنا : إن الحق سبحانه وتعالى جعل بر الوالدين دُرْبة ورياضة للإيمان بالله ، لأنهما سبب الوجود المباشر ، وهو سبحانه سبب الوجود الأعلى ، فقال سبحانه : ﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا .. (٨) ﴾ [العنكبوت] وفى آية أخرى ﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا .. (١٥) ﴾ [الأحقاف]

حتى فى حالة عصيانهما فى أعلى منطقة وهى منطقة العقيدة والتوحيد أمَرَ ببرهما ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا .. (١٥)﴾ [لقمان] وأعطى الاهتمام الأكبر للأم فى قوله تعالى : ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ .. (٨)﴾ [العنكبوت] أى : الاثنين ولم يذكر حيثية للأب ، إنما ذكر حيثية الأم فقال ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ .. (١٤)﴾ [لقمان] لأن دور الأم كان فى حال الصِّغر وعدم التعقُّل لما تفعل ، فدورها غائب عنك ، سابق لوعيك وإدراكك للأمور ، فلما كبرت عرفت دور الأب ، لذلك ذكَّرك الحق سبحانه بدور الأم الذى غاب عنك .

ثم نجد القرآن يحتاط فيراعى حقَّ التربية ، حتى إنْ ربَّى غير الوالدين فيقول : ﴿وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (٢٤)﴾ [الإسراء] فمَنْ ربَّى كان فى منزلة الوالدين واستحقَّ البر مثلهما تماماً .

وقوله تعالى : ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ[1] حَسَنَةً .. (٢٣)﴾ [الشورى] يعنى : يفعل طاعة لله ﴿نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا .. (٢٣)﴾ [الشورى] فالأمر لا يقف عند حد المودة ، إنما أيضاً ترعاهم فيما يحتاجون إليه ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ (٢٣)﴾[الشورى] غفور وشكور صيغة مبالغة من غافر وشاكر ، فالحق سبحانه واسع المغفرة كثير الشكر ، يغفر لمن تاب إليه ويشكر مَنْ أطاعه ، والشكر يكون بالزيادة كما قال سبحانه : ﴿لَئِن

---

(١) يقترف : أى يكتسب . والاقتراف : الاكتساب . [تفسير القرطبى ٦٠٦٧/٩] واقترف الذنب : أتاه وفعله . واقترف الحسنة : فعلها . ومثله قوله تعالى : ﴿وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ (١١٣)﴾ [الأنعام] أى : وليرتكبوا ما يشاؤون من الآثام . [القاموس القويم ١١٤/٢] .

شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ .. (٧) ﴾ [إبراهيم]

﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ (٢٤) ﴾

الكلام هنا عن كفار مكة الذين اتهموا رسول الله ﷺ بأنه كذب القرآن من عند نفسه ونسبه إلى الله ﴿ أَمْ يَقُولُونَ .. (٢٤) ﴾ [الشورى] أى الكفار ﴿ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا .. (٢٤) ﴾ [الشورى] يعنى : جاء بالقرآن من عنده . والافتراء منهم هم ، فهم أهل الكلام وأصحاب القصائد والخطب ، وما عرفوا عن محمد - وقد عاش بينهم - أنَّ له ريادة فى هذا المجال .

إذن : أنتم أصحاب هذا الفن ولسانكم طويل ، فلماذا لم تأتوا بمثل ما جاء به ؟ ولو حتى بسورة واحدة ؟ فلو أن الافتراء وارد فى حق محمد فأنتم أوْلَى ، فلماذا تحداكم القرآن ولم تأتوا بشىء ؟ لا بعشر سور ولا بسورة واحدة .

وفى موضع آخر يرد القرآن عليهم بالمنطق وبالحسنى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ (٣٥) ﴾ [هود]

لذلك ينتقل سياق الآية من الحديث عن الكافرين وافترائهم على رسول الله إلى مخاطبة الرسول ﴿ فَإِن يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ .. (٢٤) ﴾ [الشورى] يعنى : إنْ حدث منك أن افتريت القرآن وجئتَ به

من عند نفسك ، فالله قادر أنْ يختم على قلبك يا محمد فتنسى الذى تحفظه ، وهل حدث ذلك لرسول الله ﷺ ؟ لا بل ظل القرآنُ فى صدره يتلوه آناء الليل وأطراف النهار ويُعلِّمه للناس .

إذن : محمد لم يكذب القرآن ، ولم يفتر على الله بل أنتم المفترون . والقرآن فى مواضع كثيرة يكشف افتراءهم ويردُّ عليهم بالعقل وبالمنطق وبالتى هى أحسن ، فيحكى كيف يتمحكون فى هذه المسألة : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ .. (١٠٣) ﴾ [النحل] فقد اتهموا رسول الله أنه يختلف إلى رجل أعجمى يُعلِّمه القرآن ، فيرد عليهم الحق سبحانه ﴿ لِّسَانُ الَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ (١٠٣) ﴾ [النحل]

فالرجل الذى تقولون إن محمداً يتردد عليه ليُعلمه القرآن رجل أعجمى والقرآن بلسان عربى واضح ، فأين عقولكم ، وإنْ كنتَ كذوباً فكُنْ ذَكُوراً حتى لا ينكشفَ زيفُك وباطلك .

ويحكى القرآن عنهم لوناً آخر من التعنت والعناد : ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَـٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِى أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِى إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَىَّ إِنِّى أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥) قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٦) ﴾ [يونس]

نعم جاء محمد بالقرآن بعد الأربعين ، وهو بين أظهرهم ، وما رأوه خطيباً ولا شاعراً ، ولم يُعرف عنه شىء من ذلك .

فلما يئسوا قالوا : القرآن لا بأس به ، لكن يعيبه أنه نزل على

محمد بالذات : ﴿وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ (١) عَظِيمٍ (٣١)﴾ [الزخرف]

ثم يفضح الحق سبحانه موقفهم ويُبيِّن غباءهم ولَدَدهم فى الباطل ، وأن هذه الخصومة ما هى إلا عناد وتكبُّر عن قبول الحق ، فيقول : ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢)﴾[الأنفال] ، فهل هذا كلام عقلاء ، أم هو الحقد على محمد بذاته ؟

ثم يقول سبحانه : ﴿وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٢٤)﴾ [الشورى] الفعل يمحو وحُذفت الواو تخفيفاً ، والذى يُمحَى هو الباطل الذى قالوه ، والافتراء الذى كذبوه على رسول الله ، هذا يمحوه الله وفى المقابل ﴿وَيُحِقُّ الْحَقَّ .. (٢٤)﴾ [الشورى] يثبته ويُقويه ﴿بِكَلِمَاتِهِ .. (٢٤)﴾ [الشورى] أى المنزلة على قلب سيدنا رسول الله ﷺ فى القرآن الكريم .

أو يُراد بالكلمات كلمة كُنْ فيكون ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٢٤)﴾ [الشورى] يعنى : عليم بخفاياها والذى لا يستطيع الإنسان التعبير عنه باللسان فيكتمه فى نيته وفى نفسه ، كما قال سبحانه ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ (١٩)﴾ [غافر]

---

(١) القرية : البلدة الكبيرة تكون أقل من المدينة ، أو هى مكان اتصلت به الأبنية . والمقصود بالقريتين هنا : مكة والطائف . [القاموس القويم ٢/١١٥] . وقد ذكر غير واحد منهم قتادة أنهم أرادوا بذلك الوليد بن المغيرة وعروة بن مسعود الثقفى . وعن ابن عباس أنهم يعنون الوليد بن المغيرة وحبيب بن عمرو الثقفى . قال ابن كثير فى تفسيره (٤/١٢٧) : « الظاهر أن مرادهم رجل كبير من أى البلدتين كان » .

إذن : ظلَّ هؤلاء القوم يعاندون رسول الله ويحقدون عليه ويصادمون دعوته ويتهمونه ، إلى أن كشف الله باطلهم وأزهقه ، وانتهى أمرهم إما بالإسلام أو الهزيمة أو شملهم عفو رسول الله يوم فتح مكة يوم أنْ قال لهم : « ما تظنون أنى فاعل بكم » قالوا : خيراً أخ كريم وابن أخ كريم ، قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء »[(١)] .

إذن : جاء نصر الله والفتح ، وزهق الباطل ، وثبت الحق ، وعلا وانتصر ، وهل يُعقل أنْ يرسل الله رسولاً لهداية الخلق ، ثم يُسلمه لأعدائه أو يخذله فى مواجهته للباطل ؟

قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) ﴾ [الصافات]

وأخيراً نلحظ على هذه الآية أن البعض ظنَّ أن الفعل يمحو معطوف على (يشأ) وأنه مجزوم مثله بعد إنْ الشرطية وهذا غير صحيح ، لأن (الفعل يمحو) جاء كلاماً جديداً مستقلاً بدليل تكرار لفظ الجلالة ورفع (ويحقُّ) ، فهو فعل مرفوع وحُذِف الواو تخفيفاً أو لالتقاء ساكنين .

﴿ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (٢٥) ﴾

من لُطْف الله بعباده ورحمته بهم أنْ شرع لهم التوبة وجعل بابها

---

(١) قال ابن إسحاق : حدثنى بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ قام فى خطابه على باب الكعبة فقال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده . إلى أن قال : ما ترون أنى فاعل فيكم ؟ قالوا : خيراً أخ كريم وابن أخ كريم قال : فاذهبوا فأنتم الطلقاء . [السيرة النبوية لابن هشام ٤/٤١٢] .

مفتوحاً لا يُغلق ، والتوبة أمل يتعلق به المسىء ويجد فيه حبل النجاة فيعود وتحسن سيرته ويتقوَّم سلوكه وينتفع به مجتمعه ، أما إنْ أغلقنا باب التوبة فى وجهه وألجأناه إلى اليأس تمادى فى عصيانه فشَقِى وشَقِى به مجتمعه .

والتوبة تعنى رجوع المسىء إلى الله ، ولها مراحل : شرع الله التوبة ومجرد مشروعيتها فضل من الله ، ثم إذا تاب العبد قبلَ الله منه توبته ، لذلك قال تعالى ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا (١١٨)﴾ [التوبة] تاب عليهم . يعنى : شرع لهم التوبة ليتوبوا فيقبل توبتهم .

والتوبة ليست كلمة تقال : أستغفر الله العظيم الذى لا إله إلا هو وأتوب إليه ، إنما التوبة منهج متكامل ، وقد بيَّنها لنا الإمام على رضى الله عنه عندما أقيمت الصلاة فسمع رجلاً فى الصف يقول : أستغفر الله العظيم ، الله أكبر ، فلما انتهى من الصلاة قال له : لقد استعجلتَ فى التوبة فتوبتك تحتاج توبة[1] .

إذن : ليست مجرد كلمة ، إنما منهج وبرنامج تستعرض فيه أولاً ما فاتك من سيئات وما حدث منك من تفريط ، فتندم أولاً على ما بدر منك ، وقد ورد فى الحديث : « الندم توبة »[2] .

---

(١) ذكره الرازى فى تفسيره مفاتيح الغيب (١٣/٤٣٤) تفسير آية ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ .. (٢٥)﴾ [الشورى] روى جابر أن أعرابياً دخل مسجد رسول الله ﷺ وقال : اللهم إنى أستغفرك وأتوب إليك وكبَّر ، فلما فرغ من صلاته قال له على بن أبى طالب : يا هذا إن سرعة اللسان بالاستغفار توبة الكذابين فتوبتك تحتاج إلى توبة » .

(٢) أخرجه ابن ماجه فى سننه (٤٢٤٢) ، وأحمد فى مسنده (٣٣٨٧ ، ٣٨٠٩ ، ٣٨١١ ، ٣٩١٤) والبيهقى فى سننه (١٠/١٥٤) والحاكم فى مستدركه (٧٧٢٠) والبيهقى فى شُعب الإيمان (٦٧٧٠ ، ٦٧٧١) كلهم من حديث عبد الله بن مسعود .

وفى قصة ابنى آدم : ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٣٠)﴾ [المائدة] فعندما هدأتْ عنده سَوْرة الشر والخصومة عاد إلى الصواب فندم على ما فعل ، ثم تتذكر ما فاتك من فروض الصلاة فتقضيها أو تجبرها بصلاة النوافل .

ثم ترد المظالم إلى أهلها . فهذه شروط ينبغى توافرها ، ثم زدْ على ذلك أن تذوب فى الحسنة كما ذُبْتَ فى السيئة ، وأنْ تذوق مرارة مشقة الطاعة كما ذقتَ حلاوة المعصية .

والقياس فى اللغة أن نقول : يقبل التوبة من عباده ، لكن الحق يقول ﴿عَنْ عِبَادِهِ .. (٢٥)﴾ [الشورى] فكأن الحق سبحانه يرد عنهم ذنوبهم حين يقبل منهم التوبة ، فتكون النتيجة مغفرة الذنوب التى ارتكبوها لكن الذنوب التى ارتكبوها لها صفات من الحق تطلب حقَّها فيه .

فحين يفعل العبد الذنب تأتى صفة القهار والجبار والمنتقم وهى صفات الجلال ، وهذه الصفات تقتضى العقاب ، ثم تأتى صفات الجمال من الحق سبحانه صفة الغفور الرحيم التواب .. الخ .

لذلك قال فى حديث آخر رمضان : « شفع المؤمنون ، وشفع النبيُّون ، وشفعتْ الملائكة ، وبقيت شفاعة أرحم الراحمين »[(١)] .

فإذا كان المؤمنون والنبيون والملائكة سيشفعون عند الله تعالى فعند مَنْ يشفع أرحم الراحمين ؟ قالوا : لأن لله صفات جلال وصفات

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٦٩) وأحمد فى مسنده (١١٤٦٣) عن أبى سعيد الخدرى أن الله قال : شفعت الملائكة وشفع النبيون وشفع المؤمنون ولم يبق إلا أرحم الراحمين فيقبض قبضة من النار فيُخرج منها قوماً لم يعملوا خيراً قط قد عادوا حمماً فيلقيهم فى نهر فى أفواه الجنة » الحديث بطوله .

جمال ، فإذا أخذتْ صفات الجلال حقَّها من المذنب العاصى تأتى صفات الجمال لتشفع له عند صفات الجلال فى نَفْى مستحقاتها عنده .

إذن ﴿ وَهُوَ الَّذِى يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ .. (٢٥) ﴾ [الشورى] عبَّر بـ (عَنْ) مع أن التوبة منهم ، فقال عنهم ليحملها عنهم . لذلك تجد دقة فى استخدام هذه الحروف فى القرآن الكريم ، ولكل منها معنى لا يؤديه غيره ، اقرأ مثلاً قوله تعالى : ﴿ فَلأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ النَّخْلِ .. (٧١) ﴾ [طه]

ومعلوم أن الصَّلْب يكون على الجذوع ، لذلك قال بعض المفسرين أى : على جذوع النخل ، لكن لماذا عدل القرآن عن (على) إلى (فى) لابدَّ أنَّ لها معنى لا تؤديه (على) . إذن : المراد لأصلبنكم تصليباً شديداً مُحكماً ، بحيث تدخل بعض أجزاء المصلوب فى المصلوب عليه ، لذلك قال ﴿ فِى جُذُوعِ النَّخْلِ .. (٧١) ﴾ [طه]

كذلك فى قوله تعالى ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ .. (٣٩) ﴾ [إبراهيم] بعضهم قال : يعنى مع الكبر . كيف و (على) ثلاثة أحرف و (مع) حرفان . فلا بدَّ أن لها معنى لا تؤديه مع ، ما هو ؟

قالوا : (على) تفيد الاستعلاء ، فالكبر كان مانعاً من الإنجاب ، لكن قدرة الله وإرادته علَتْ وغلبتْ هذا المانع . ومثلها تماماً قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ .. (٦) ﴾ [الرعد] فكأن المعصية التى فعلوها كانت تستوجب العقوبة ، لكن عفو الله ومغفرته ورحمته بعباده علَتْ على العقوبة .

وقوله : ﴿ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ .. (٢٥) ﴾ [الشورى] أى : يمحوها

﴿ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (٢٥) ﴾ [الشورى] لأن علمه تعالى محيط شامل لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ، فإذا كنتَ قد اقترفت سيئة ولا يعلم بها أحد فالله يعلمها ولا بدَّ أنْ تتوب عنها ، حتى خواطرك التى تجول فى نفسك ولم تظهر على جوارحك يجب أنْ تتوب عنها .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ (٢٦) ﴾

أي : ويستجيب الله للذين آمنوا وعملوا الصالحات . والفعل ﴿ وَيَسْتَجِيبُ .. (٢٦) ﴾ [الشورى] دل على سرعة الاستجابة ، لذلك لم يَقُلْ يجيب ﴿ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ .. (٢٦) ﴾ [الشورى] تدل أيضاً على أن الاستجابة من الله لهم ، وفى المقابل ﴿ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ (٢٦) ﴾ [الشورى] والعذاب الشديد للكافرين هو نهاية المطاف ، لأن أول ما يُقابلون به : الغضب من الله ، ثم الحجاب ، ثم اللعنة والإبعاد من رحمته ، ثم العذاب .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ (٢٧) ﴾

---

(١) سبب نزول الآية : نزلت فى قوم من أهل الصُّفَّة تمنوا سعة الدنيا والغنى . قال خباب بن الأرت : فينا نزلت هذه الآية ، وذلك أنَّا بطرنا إلى أموال قريظة والنضير فتمنيناها . فأنزل الله هذه الآية [أسباب النزول – الواحدى النيسابورى ص ٢١٣ – طبعة المكتبة الثقافية – بيروت] .

هذه الآية تقرر طبيعة فى النفس الإنسانية ، كما قال سبحانه فى موضع آخر : ﴿ كَلَّا إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝٦ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ۝٧ ﴾[العلق] لأن الرزق عندما يكون مبسوطاً ميسَّراً لا يشغل المرء به ولا بالحركة من أجله ، فلا يكد ولا يتعب ويتفرغ لأمور أخرى تشغله ومنها البغى .

لذلك لما تحدَّث القرآن عن قارون ، وهو أوضح مثال للغنَى الطاغى ، قال سبحانه : ﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ .. ۝٧٦ ﴾ [القصص] إذن : النعمة والثراء قد يدعوان الإنسان إلى الطغيان والبغى بغير الحق ، وبسطة الرزق تعنى سعته وتيسير سُبُله ، وهى فى هذه الحالة نوع من الابتلاء .

وقوله : ﴿ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ۝٢٧ ﴾ [الشورى] أى : يسوق الرزق بقدر معين وبحساب على مقتضى علمه سبحانه وحكمته فى تدبير شئون خلقه ، فيعطيهم بحساب بحيث لا يصل العبد إلى مرحلة الطغيان والبغى ، وهو سبحانه أعلم بطباع عباده وأعلم بما يصلحهم ، لذلك ورد فى الحديث القدسى : « إن من عبادى مَنْ إذا أغنيته لفسد حاله ، ومنهم إذا أفقرته لصلح حاله »[1] .

وقد اهتم الإسلام بالجانب الاقتصادى فى حركة الحياة وفرضَ الزكاة من أجل استطراق الخير فى المجتمع ، وعلَّمنا أن نُفرِّق بين الفقر عن عجز واحتياج ، والفقر عن حرفة وخداع ، فمَنْ يتخذ الفقر حرفة ليس له نصيب ، ولا يصح أنْ تعينه على التكاسل والقعود عن العمل .

---

(١) أورده الألبانى فى السلسلة الضعيفة والموضوعة (٢٥٦/٤) وقال : أخرجه البيهقى فى (الأسماء والصفات) (ص ١٢١ - مصر) والبغوى فى شرح السنة (١٤٢/١) وأبو بكر الكلاباذى فى مفتاح المعانى (١٩٠) وقال : ضعيف جداً ، وأوله : « من أهان لى ولياً فقد بارزنى بالمحاربة » الحديث بطوله .

أما العاجز فمستحق ، لأنه غير قادر على الكسب ، لذلك جعل الله له جزءاً فى مال القادر يصل إليه ، وهو مُعزَّز لا يريق ماء وجهه للقمة العيش ، بل يحفظ له الحقُّ سبحانه كرامته ، ويجعلك أنت أيها الغنى القادر تذهب إليه وتطرق عليه بابه وتعطيه ليعلم أن الله حين سلبه قدرته سَخَّر له قدرات الآخرين .

كذلك مثلاً فى فريضة الحج ترى غير المستطيع حزيناً لأنه لم يحج ، والواقع أنه أحظُّ عند الله من المستطيع الذى يحج ؛ لأن المستطيع قد يؤدى ولا يقبل منه ، أما غير المستطيع فقد سقط عنه الفرض أصلاً . ويقولون : إن نسبة تسعين بالمائة من الناس لم يروا البيت يعنى لم يطوفوا به ، فهل يعنى هذا أن الله يحرمهم رؤيته ؟ لا بل لهم منه نصيب كما قيل : « من الناس مَنْ يطوف بالبيت ، ومن الناس مَنْ يطوف بهم البيت »[1] .

ثم إن حالة الفقر هذه أو العجز لا تدوم لأنها مداولة بين الناس ، كما قال سبحانه : ﴿ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا[2] بَيْنَ النَّاسِ .. (١٤٠) ﴾ [آل عمران]

وسبق أنْ بيَّنا أن الفقر فى المجتمع له حكمة ، لأن حركة المجتمع ومصالح الناس لا يمكن أنْ تقوم على التفضُّل ، إنما تقوم على الحاجة ، فحين تُلجئك الحاجة تعمل ولا تستنكف من العمل

---

(١) وقفت على بيت شعر لعبد القادر الجيلانى المتصوف (ت ٥٦١هـ/١١٦٦م) :

كل قطب يطوف بالبيت سبعاً وأنا البيت طائف بخيامى

(٢) دالت الأيام : تحولت من قوم إلى قوم آخرين . والدُّولة : الشىء المتداول بين القوم . وقد قال تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ .. (١٤٠) ﴾ [آل عمران] أى : نصرفها بينهم فيجعل الله تعالى النصر فيها لهؤلاء مرة ولغيرهم مرة أخرى . [القاموس القويم ١/٢٣٧] .

الشاق أو الحقير ، وإلا فمَنْ سيقوم بهذه الأعمال .

ورأينا العامل حين يرضى بقدر الله فيه ويخلص فى عمله يقول الله له : رضيتَ بقدرى فسأعطيك على قدرى . فتراه بعد فترة أصبح صاحب عمل بعد أنْ كان أجيراً ، لأنه أخلص لصاحب العمل ولم يحقد عليه ، ولم يكره النعمة عنده .

إذن : الحق سبحانه لا يضيق الرزق ولا يعطى بقدر إلا فى مظنة الضرر ، فمَنْ علم الله منه أنَّ بسطة الرزق تفسده يُضيِّق عليه منافذ الرزق ليصلحه بالفقر . فالأصل أنه تعالى جواد كريم يبسط رزقه لعباده ، لذلك يقول فى الآية بعدها :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ(١) مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ ﴾

﴿ الْغَيْثَ .. ﴿٢٨﴾ ﴾ [الشورى] المطر ينزل بعد انقطاع وجفاف ، فيغيث الناس وينقذهم من الجفاف والجوع والقحط الذى هم فيه ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا .. ﴿٢٨﴾ ﴾ [الشورى] يئسوا من نزوله .

﴿ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ .. ﴿٢٨﴾ ﴾ [الشورى] يبسطها لعباده جميعاً ﴿ وَهُوَ الْوَلِيُّ .. ﴿٢٨﴾ ﴾ [الشورى] المتولى أمور عباده المحسن إليهم ﴿ الْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الشورى] أى : المحمود على

---

(١) الغيث : المطر . وسُمى الغيث غيثاً لأنه يغيث الخلق .. والغيث ما كان نافعاً فى وقته ، والمطر قد يكون نافعاً وضاراً فى وقته وغير وقته . قاله الماوردى . [تفسير القرطبى ٦٠٧٢/٩] .

نعمه التى أسداها إلى الناس وتفضَّل بها عليهم ، لأنه أنعم عليك قبل أن يوجدك فخلق لك السماء والأرض والكون كله سخَّره فى خدمتك ، فطرأتَ على كوْنٍ مُعَدٍّ وجاهز لاستقبالك ، فيه كُلُّ مقومات حياتك .

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ ﴾

كلمة ﴿ آيَاتِهِ .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [الشورى] مفردها آية ، وهى الشىء العجيب الذى يدعوك إلى التأمل ، كما نقول : فلان آية فى الأدب أو فى العلم . وقلنا : إن الآيات فى القرآن الكريم وردتْ بمعانٍ ثلاثة : آيات كونية تدل على قدرته تعالى وبديع صُنْعه كالشمس والقمر والليل والنهار ، وآيات معجزات تدل على صِدْق الرسل فى البلاغ عن الله ، ثم الآيات الحاملة للأحكام وهى آيات القرآن الكريم .

الحق سبحانه وتعالى هنا يُحدِّثنا عن بعض آياته الكونية ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [الشورى] فهما شىء عجيب فى الخَلْق دلَّ على قدرة الله وحكمته وطلاقة قدرته ، وفى موضع آخر قال : ﴿ لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [غافر]

نعم أكبر ، لأن الإنسان يُولد ويموت ، يموت طفلاً ويموت شاباً ، بل ويموت فى بطن أمه ، وحتى لو عاش مائة عام سيموت ، فأين هو إذن مَنْ خلق السموات والأرض وما فيهما من آيات كونية تعمر ما يشاء الله ؟

إذن : على الإنسان أنْ يتذكر هذه الحقائق ويقول لنفسه : هل يُعقل أن تكون هذه الآيات أطول عمراً منى وهى مُسخَّرة فى خدمتى ؟ إذن : لا بدَّ أن لى عمراً آخر يناسب منزلتى ، وما فضَّلنى الله به على هذه المخلوقات ، إذن : لى حياة أخرى أبقى فيها وأخلد حين تفنى كل هذه المخلوقات .

وقوله : ﴿السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. (٢٩)﴾ [الشورى] يعنى : وما فيهما لأنهما ظرف مظروف فيه مخلوقات كثيرة ، لذلك قال فى موضع آخر : ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ .. (٢٨٤)﴾ [البقرة]

ومعنى ﴿وَمَا بَثَّ .. (٢٩)﴾ [الشورى] أى نشر ﴿فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ .. (٢٩)﴾ [الشورى] أى : فى السموات وفى الأرض ، فما يدب فى الأرض أى : ما يمشى عليها من إنسان وحيوان وطير ، وما يدبّ فى السماء يقصد به الملائكة .

﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ .. (٢٩)﴾ [الشورى] يعنى : يوم القيامة ﴿قَدِيرٌ (٢٩)﴾ [الشورى] أى : قادر ، كما قال : ﴿يَوْمَ الْجَمْعِ لا رَيْبَ فِيهِ .. (٧)﴾[الشورى]

بعض العلماء ذهب إلى وجود مخلوقات أخرى فى العلو ، وهم أمثالنا مكلَّفون ، ففى المجموعة الشمسية عوالم أخرى غير الأرض مثل عطارد والزهرة والمريخ والمشترى وغيرها . والعظمة فى جمع كل هؤلاء .

﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ (٣٠)﴾

كلمة أصاب مأخوذة من إصابة السهم للهدف ، فإذا كان الرامى حاذقاً أصاب الهدف دون انحراف ، فكأن المصائب فى الدنيا سهام أُطلقتْ بالفعل ، وهى لا بدَّ صائبة أصحابها . لذلك يقولون : إن المصيبة ليست ناشئة حال وقوعها ، إنما هى مُقدَّرة أزلاً ، وسهم أُطلق بالفعل ، فوقتها هو مسافة سفر السهم إليك ، كما سبق أنْ قُلْنا فى مصيبة الموت .

فهو إذن مسألة مفروغ منها وأمر مُسجَّل ومكتوب عليك أزلاً ليس حادثاً ، فالكون كله له (ماكيت) مُسجَّل ومُوضَّح به كل شىء . لذلك قال تعالى : ﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَبْرَأَهَا[1] إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٢٢) ﴾ [الحديد] إذن : لا مفرَّ أبداً من المصيبة ولا مهربَ منها ، ولا يمكن أبداً أنْ نحتاطَ لها ، لأن السهم الذى أُطلِق لا يُرد .

والمصائب التى تصيب الإنسان على نوعين : نوع لك فيه دَخْل ويد ، ونوع لا دخلَ لك فيه ، فمثلاً التلميذ الذى يرسب آخر العام لأنه أهمل دروسه ولم يجتهد لا شكَّ أن له دخلاً فى هذه المصيبة التى حلَّت به آخر العام ، فإذا كنت لا تريد أن تصيبك هذه المصيبة فخُذْ بأسباب النجاح واحذر أسباب الفشل وسوف تجد النجاح .

الأخرى : مصيبة لا دخْلَ لك فيها ، كالتلميذ يذاكر ويجتهد ويحفظ دروسه لكن يصيبه دوار ساعة الامتحان أو مرض مفاجىء

---

(١) برأ الله النسمة وخلق السماوات والأرض . قال ابن سيده : برأ الله الخلق : خلقهم . [لسان العرب – مادة : برأ] .

فلا يستطيع إكمال الامتحـان فيرسب ، هذا حدث بقدر الله والذى أجرى عليه القـدر ربه عز وجل ، ولا بُدَّ أنَّ له فيه حكمـة ، لذلك يجب الرضا بهذه المصيبـة على أنها قضاء الله وقدره ، والمصيبة تهـون مهما كانت عظيمة حينما يؤمن المصاب بها أنها من الله لا من أحد سواه .

وسبق أنْ أوضحنا هذه المسألة بمثال من الواقع . قلنا : هَبْ أنك جالس فدخل عليك ابـنك الصغير ووجهـه يسيل منه الدم ، إن أول ما يتبـادر إلى ذهنك أن تسأله : مَنْ فـعل بك هذا ؟ إذن : لم تحكم على الحدث إنـما سألتَ عـن صاحبـه ؛ لأن الحدث فى ذاته لا يُـحزن ولا يُفرح إلا بمصاحبة الفاعل .

فإنْ قال لـك الولد : عمِّى فلان ضربنى تهـدأ . وتقول له : لا بدَّ أنك فعلتَ شيئاً يستحق العقاب ، أما إنْ قال لك : ضربنى فلان جارنا تغضب وتقيم الدنيا ولا تقعدها .

إذن : الحدث إنْ كان من مُحبٍّ قبلناه ، وعلمنا أن وراءه مصلحة ورضينا به ، وإنْ كان من عدو فلا مصلحةَ فيه واعترضنا عليه .

فالحق سبـحانه يريد أنْ يُعلِّمـنا كيـفية استـقبـال المـصائب وأنَّ كلَّ مصـيبـة تأتى لها سـبب ، فـإنْ عرفـناه كان بـها ، وإنْ جهلنـاه قلنا لابدَّ أن لله فيه حكمـة ودخلنا من باب الرضـا والتسليم بـدل أنْ ندخل من باب السخط والاعتراض .

فالطالب الذى أصابه دوار ولم يُؤدِّ الامتحان يقـول فى نفسه : لعلّنى كنت مغروراً ، فأراد الله أنْ يقضى على غرورى ، أو لعلّنى كنت سأحصل على مجموع أقل مما أريد ، أو لعلَّ الله دفع عنى بذلك عيون الحاسدين .

ألم يقل الحق سبحانه فى حق نبيه ﷺ : ﴿وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ (١) بِأَبْصَارِهِمْ .. (٥١)﴾ [القلم]

والحق سبحانه وتعالى فى سورة الكهف يعطينا مثالاً ونموذجاً يُعلِّمنا كيف نستقبل الأحداث ؟ وكيف نتقبل المصائب ؟ فما دام أنه لا دخْلَ لك فيها فلا بدَّ أن لله فيها حكمة ، تقرأون قصة العبد الصالح (٢) مع سيدنا موسى عليهما السلام ، فالعبد الصالح لم يكُنْ نبياً ومع ذلك تعلَّم منه النبى وطلب مصاحبته ، فالعبد حينما يرتقى فى علاقته بربه يفتح الله عليه فتوحات من عنده ويعلمه علماً لا يعطيه إلا لخاصته .

العبد الصالح كان يعبد الله على منهج سيدنا موسى ، ومع ذلك تبعه موسى ليتعلم منه ، لأن مهمة الرسول أن يصل المرسل إليه بربه ، فإذا ما وصله بربه تركه وشأنه مع الله ، وعندها يكون كل عبد (وشطارته) فى علاقته بالله تعالى ، فهذا العبد الصالح تقرَّب إلى الله ودخل معه سبحانه فى وُدٍّ ، فكان له معه شأن خاص .

انظر سيدنا موسى يقول للعبد الصالح : ﴿قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا (٦٦) قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا

---

(١) أزلقه : جعله يزلق كأن أبصارهم أدوات إزلاق لشدة حسدهم وحقدهم . [القاموس القويم ٢٨٩/١] قال أبو إسحاق : مذهب أهل اللغة فى مثل هذا أن الكفار من شدة إبغاضهم لك وعداوتهم يكادون بنظرهم إليك نظر البغضاء أن يصرعوك . [لسان العرب – مادة : زلق] .

(٢) العبد الصالح هو الخضر عليه السلام ، تُنسج حوله القصص والروايات والأساطير وأنه حى موجود وليس هناك دليل قط على هذا ، والأظهر أنه نبى لقوله تعالى : ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي .. (٨٢)﴾ [الكهف] ولا يصح عنه إلا ما ذكره القرآن .

(٦٧) ﴾ [الكهف] ذلك لأنك سترى أموراً لا تعجبك وأفعالاً لا تدرك أنت حكمتها ﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا (٦٨) قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا (٦٩) قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا (٧٠) ﴾ [الكهف]

ثم تبدأ الرحلة وينطلق موسى فى صحبة العبد الصالح ، وأول حدث بينهما كانت السفينة ﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا[1] (٧١) ﴾ [الكهف]

هذا أول اعتراض من موسى ، لأن الفعل فى ظاهره غريب يستحق الاعتراض .

﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٢) قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا (٧٣) فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا (٧٤) ﴾ [الكهف] يعنى : منكراً .

نعم موسى لم يستطع أن يصبر وهو يرى هذا الفعل العجيب المنكر فى نظره ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٥) قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا (٧٦) فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا (٧٧) ﴾ [الكهف]

وكانت هذه هى الثالثة ، وتحقق الشرط الذى قطعه موسى على

---

(١) الإمْر (بكسر الهمزة) : الأمر المنكر والخطأ الجسيم والأمر العظيم . [القاموس القويم ١/٣١] . قال أبو إسحاق : أى جئت شيئاً عظيماً من المنكر . وقيل : الأمر الشنيع . وقيل : العجيب . [لسان العرب - مادة : أمر] .

نفسه ، فقرر العبد الصالح مفارقته ، لكن قبل أنْ يفترقا قال له : تعالَ أوضح لك ما لم يحتمله صبرك فى هذه الأحداث :

﴿ قَالَ هَـٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا (٧٨) أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا (٧٩) ﴾ [الكهف] أى : يأخذ كل سفينة صالحة .

ولا شكَّ أن خرق السفينة مصيبة لأصحابها فى ظاهر الأمر ، لكن لله تعالى فيها حكمة ، حيث كان وراء هؤلاء المساكين ملك ظالم يأخذ كل سفينة جيدة ويغتصبها ، فأردتُ أنْ أُحدِثَ بها عيباً حتى لا يأخذها .

إذن : فنحن هنا لا نقارن بين سفينة مخروقة وسفينة صالحة ، إنما بين سفينة مخروقة وعدم وجود سفينة أصلاً ، فخرْق السفينة أهونُ بالنسبة لأصحابها من أخذها كلية ، ثم بإمكانهم أنْ يُصلحوها بعد ذلك ، المهم أنْ تسلم لهم من هذا الملك .

﴿ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا (٨٠) فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا (٨١) ﴾ [الكهف] ففى علم الله تعالى أنه سيكون ولداً عاقاً يُحدث فتنة لأبويه ، كما قال سبحانه : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ .. (١٤) ﴾ [التغابن] فكان فى القضاء عليه حكمة .

فإنْ قلت : فما ذنبُ الغلام يُقتل وهو صغير ؟ قالوا : لا ذنب له لكنه لم يخْلُ من مصلحة وخير يلحقه هو أيضاً حيث أُخِذ وهو صغير ،

فقد اختصرنا له الحياة فلم يُعانِ فيها ، ولم يقترف شيئاً من سيئاتها ، ومات قبل سِنِّ التكليف فلن يُحاسب على شىء ، ثم سيكون فى عداد الشهداء ، ومسكنه فى الجنة يتجول فيها حيث أراد ويدخل منها أىَّ مكان حتى على رسول الله ، فهو من (دعاميص)[1] الجنة ، إذن : فقتله جاء رحمة به .

﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِى ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا (٨٢) ﴾ [الكهف]

أولاً عرفنا أن هذه القرية فيها ناس لئآم لا خير فيهم ، بدليل أنهم منعوهما الطعام ومَنْع الطعام فيه لُؤْم وخِسَّة ، لأن الذى يسأل الطعام غير الذى يسأل المال ، الذى يسألك مالاً ربما ليكنزه ، أمَّا سؤال الطعام فلا يكون إلا عن حاجة .

لذلك قالوا : أصدق سؤال مَنْ يسألكم طعاماً ، فلما منعوهما الطعام كان أمراً عجيباً أنْ يبنى لهم العبد الصالح الجدار ، فما قصته ؟ كان الجدار لغلامين يتيمين فى المدينة ، وتصوَّر حال اليتيمين بين هؤلاء اللئام ، كيف لو ظهر لهم هذا الكنز ؟

---

(١) الدعاميص جمع دعموص ، والدعموص : دويبة صغيرة فى مستنقع الماء . قيل : والدعموص الدخَّال فى الأمور أى أنهم سيَّاحون فى الجنة دخَّالون فى منازلها لا يُمنعون من موضع . وقد جاء فى الحديث : « عن أبى حسان قال قلت لأبى هريرة : إنه قد مات لى ابنان فما أنت مُحدِّثى عن رسول الله ﷺ بحديث تُطيِّب به أنفسنا عن موتانا . قال : نعم صغارهم دعاميص الجنة يتلقى أحدهم أباه أو قال أبويه فيأخذ بثوبه فلا ينتهى حتى يدخله الله وأباه الجنة » أخرجه مسلم فى صحيحه (٤٧٦٩) .

وقد فهمنا من هذه المسألة أن صلاح الآباء ينفع الأبناء ، وأن الغلامين كانا توأماً ، بدليل قوله تعالى ﴿أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا .. (٨٢)﴾ [الكهف] فلو كان أحدهما أكبر من الآخر ربما أخذه لنفسه ، وأن العبد الصالح بنى الجدار بناء موقوتاً ، بحيث يعيش فقط حتى سِنِّ البلوغ لهذين الغلامين ، ثم ينهار فيجدا الكنز ويستطيعا حمايته من هؤلاء اللئام ، ثم فى بناء الجدار عقاب لهؤلاء البخلاء وقصاص منهم على بخلهم ، حيث منعهم من أخذ أموال هذا الكنز .

وأخيراً لم يَفُتْ العبد الصالح أنْ يُبيِّن لسيدنا موسى أنَّ ما فعله لم يكُنْ من عنده ، إنما بأمر من الله ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِى .. (٨٢)﴾ [الكهف] إنما عن أمر الله ، إذن : حين تنزل المصيبة وليس لك فيها دَخْل فابحث عن الحكمة منها ، ولا بدَّ أنك ستجدها وتهتدى إليها .

والخطاب فى ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ .. (٣٠)﴾ [الشورى] خطاب للعموم يشمل المؤمنين والكفار ، الكافر لأنه دخل المعركة فهُزم فإنْ أخذ ماله أو قتل فبكفره ، أما المؤمن فقد يكون ارتكب مخالفات ومعاصىَ تستوجب أنْ يعاقب كما فى حدّ الزنا ، وحدّ شرب الخمر مثلاً ، أو أن يُعزَّر .

والحق سبحانه وتعالى أوحى إلى رسوله ﷺ أنْ يُنبِّه أمته ، وأنْ يُعلِّمها كيف تستقبل المصائب ، فقال ﷺ : « ما يصيب المؤمن من نصب ولا [(١)] وصب حتى الشوكة يُشاكها إلا كفَّر الله بها من خطاياه » [(٢)] .

---

(١) النَّصَب : التعب والإعياء والمرض والداء والبلاء والشر . أما الوصب فهو : الوجع والمرض . وشدة التعب مع دوام واستمرار [لسان العرب – مادتا : نصب ، وصب . بتصرف] .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٢١٠) ، وأحمد فى مسنده (٧٦٨٤ ، ٨٠٧٠ ، ١٠٧١٤، ١١٠٢٤) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

لذلك يقول أحد العارفين : إنِّى لأعرف مقامى عند ربى من خُلُق دابتى ، يعنى : حين تحرَن منه دابته أو تتعثَّر يسأل نفسه : ماذا فعلتُ حتى تحرنَ الدابة ؟ وسيدتنا أسماء[1] بنت سيدنا أبى بكر كان يلازمها شىء من الصداع ، فكانت تمسك برأسها وتقول : بذنبى ويعفو الله عن كثير .

ولتوضيح هذه المسألة قلنا : إن الحق سبحانه خلق الإنسان وحدَّد مهمته فى الحياة ، ووضع له منهجاً يحميه ويُنظم حركته فيها ، فإنْ خالف هذا المنهج لا بدَّ أنْ يحدث له عطب ، مثل الآلة يصنعها الإنسان ، ويضع لها (كتالوجاً) يوضح كيفية استخدامها ، فإنْ خالفت هذه التعليمات تعطلتْ الآلة .

فالحق سبحانه يريد منَّا أنْ نعىَ هذه القضية ، ليطمئن المؤمن حين تصيبه مصيبة أو تنزل به نازلة ، فيصبر ولا يجزع ولا يتسخط ، بل يبحث عن الحكمة أو ينظر فى نفسه : ماذا فعلتُ لتنزل بى هذه المصيبة ، فهى ولابدَّ تغسل عنى شيئاً اقترفتُه وذنباً ارتكبته .

هذا حال المؤمن الناصح أنْ يعود لنفسه وأنْ يحاسبها ؛ لأنه يعلم مما علَّمه الله أن الدنيا دارُ عمل لا دار جزاء ، الجزاء فى الآخرة ﴿ الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ .. ﴿١٧﴾ ﴾[غافر] إذن : ما يقع لى

---

(١) هى : أسماء بنت أبى بكر الصديق ، ولدت عام ٢٧ قبل الهجرة : أمها قتيلة بنت عبد العزى ، أسلمت قديماً بمكة وكان إسلامها بعد سبعة عشر شخصاً وكان عمرها ١٥ سنة ، كان لها دور كبير فى حادث الهجرة إلى المدينة وسميت ذات النطاقين . تزوجت الزبير بن العوام ، روت عن النبى ﷺ ٥٨ حديثاً . توفيت عام ٧٣ هجرية بعد قتل الحجاج لابنها عبد الله بن الزبير .

فى الدنيا من ابتلاءات ومصائب ليس جزاءً ، إنما لفْتُ نظر للعمل الصالح ، ولأتعلم من مادية الأشياء أنَّ المخالفة لا بدَّ أنْ يكون لها عقاب .

ثم نحن نشاهد المصائب تحلُّ بالصديق وبالزنديق وتعمُّ الجميع حتى الأنبياء ، لذلك ورد فى حديث سيدنا رسول الله ﷺ : « أشدُّ الناس بلاءً : الأنبياء ، ثم الأولياء ، ثم الأمثل فالأمثل »[(١)] .

فالابتلاءات للأنبياء ليستْ لذنوب ارتكبوها ، إنما امتحان فى التكليف وأُسْوة للغير ، أُسْوة تصلح حال القوم وتُعلِّمهم الصبر عند المصيبة ، فحين تنزل بنا المصائب نتذكر مصائب الأنبياء ، وكيف أنهم صبروا فنصبر مثلهم ، ونُصحِّح من سلوكنا مع الله .

وقوله : ﴿ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الشورى] يعنى : كثير من ذنوبنا وخطايانا ، ولولا عفوه تعالى ورحمته بخَلْقه ما نجا أحد .

لذلك نقول لمن تصيبه مصيبة (كفارة إنْ شاء الله) يعنى : جعلها الله كفارةً لذنوبك ، وقد ورد فى الحديث القدسى : « وعِزَّتى وجلالى لا أُخرِج عبدى من الدنيا وقد أردتُ به الخير حتى أُوفيه ما عمله من السيئات ، من مرض فى جسمه ، أو خسارة فى ماله ، أو فَقْد ولده ، فإذا بقيتْ عليه سيئة ثقَّلْتُ عليه سكرات الموت حتى يأتى كما ولدتْه أمه . وعزتى وجلالى لا أُخرج عبدى من الدنيا وقد أردتُ

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (١/١٧٢) والترمذى فى سننه (٢٣٩٨) وابن ماجه (٤٠٢٣) من حديث سعد بن أبى وقاص . قال الترمذى : حديث حسن صحيح . وتمام الحديث : « ويُبتلى الرجل على حسب دينه ، وما زال البلاء بالعبد حتى يمشى على الأرض ليس عليه خطيئة » .

به الشر حتى أُوفّيه ما عمله من الحسنات : من صحة فى جسمه ، وكثرة فى ماله ، وسلامة فى ولده حتى يأتى يوم القيامة ، وليس له عندى حسنة ، لأننى قلت : لا أضيع أجر من أحسن عملاً »[1] . نعم يغدق الله عليه الخير فى دار الفناء لأنه لا حظَّ له فى دار البقاء .

﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾ ﴾

الحق سبحانه وتعالى يخاطب القوم الذين عاندوا رسول الله ﷺ ، وصادموا دعوته وجادلوه ، يقول لهم : لن تُفلتوا من عدالة السماء ، ومَنْ أفلت من عقاب الدنيا منكم لن يفلت من عقاب الآخرة ، كما قال سبحانه مخاطباً نبيه ﷺ : ﴿ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [غافر]

وهنا يقول لهم ﴿ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى الأَرْضِ .. ﴿٣١﴾ ﴾ [الشورى] المُعْجز هو الذى ينسبنى للعجز ، ويُعجزنى يعنى : يأتى بأمر لا أقدر أنا عليه ، فالحق يقول لهم : لن تعجزونا ولن تهربوا منا أبداً ، فأينما كُنتم سنأتى بكم .

لذلك اتضح لنا ذكاء الجن ، حينما قالوا : ﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعْجِزَ اللَّهَ فِى الأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا ﴿١٢﴾ ﴾ [الجن] فالجن وهم أقدر على

---

(١) أورده الألبانى فى ضعيف الترغيب والترهيب : عن أنس أن رسول الله ﷺ قال : إن الرب سبحانه وتعالى يقول : وعزتى وجلالى لا أخرج أحداً من الدنيا أريد أغفر له حتى أستوفى كل خطيئة فى عنقه بسقم فى بدنه وإقتار فى رزقه » ذكره رزين ولم أره قاله المنذرى ولم يذكر الألبانى درجة ضعفه .

الهرب من الإنس ، ومع ذلك يعترفون أنه لن يستطيع أحد منهم أنْ يهرب أو يفر من الله عز وجل .

لذلك مدح سيدنا رسول الله المؤمنين من الجن لما قرأ سورة الرحمن على بعض صحابته ، ثم قال لهم : « لقد قرأتُ هذه السورة على الجن ، فكانوا أحسن استجابةً منكم ، كانوا كلما سمعوا ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾ [الرحمن] قالوا : ولا بشيء من نعمائك ربنا نُكذِّب فلك الحمد »[1] .

ثم إن الحق سبحانه يُملى للظالم ويُمهله ، حتى إذا أخذه لم يُفْلته ، فكوْن الحق سبحانه يُملى لهؤلاء لا يعنى أنه عاجز عن أَخْذهم ، لأنه سبحانه قوى قادر وله طلاقة القدرة ، بحيث يأتى بهم متى شاء ، أما الضعيف فإنه يستغل أول فرصة للانتقام ولا يُفوِّتها ، لأنه يعرف أنها لن تعود ، كما قال الشاعر[2] :

وَضَعِيفَة فإذا أصَابَتْ فُرصَةً قَتَلَتْ كذلك قدرة الضُّعَفاء[3]

وقوله تعالى : ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾﴾ [الشورى] الولى : القريب أو الصديق المقرَّب منك دائماً ،

---

(١) أورده السيوطى فى الدر المنثور (٧/ ٦٩٠) وعزاه للترمذى وابن المنذر وأبى الشيخ الأصفهانى فى العظمة والحاكم وابن مردويه والبيهقى فى دلائل النبوة عن جابر بن عبدالله.

(٢) الشاعر هو أبو تمام ، حبيب بن أوس الطائى ، أحد أمراء البيان ، ولد بجاسم من قرى حوران بسوريا عام (١٨٨هـ/٨٠٣ م) فى شعره قوة وجزالة ، له تصانيف منها : فحول الشعراء ، وديوان الحماسة . نزل مصر واستقدمه المعتصم إلى بغداد ثم ولى بريد الموصل فلم يتم سنتين حتى توفى بالموصل عام (٢٣١م/٨٤٥م) عن ٤٤ عاماً .

(٣) البيت من قصيدة لأبى تمام من بحر الكامل ، عدد أبياتها ٣٠ بيتاً .

والمفروض فيه أن يدفع عنك المصيبة قبل أن تقع ، والنصير : المعين الذى ينصرك ويُعينك إذا وقعتْ بك المصيبة . فالحق سبحانه يُعلمنا أنْ يستقيم فينا أمر التكليف ، وأنْ تكون صلتنا بالله مباشرة ، وألاَّ نعتقد أننا نَفوت منه سبحانه ، وألاَّ نعتقد فى أحد من خَلْقه أن يكون ولياً لنا أو نصيراً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ ﴾

الجوار فى البحر صفة لشىء معروف هى السفن ، فهى التى تجرى على صفحة الماء ، والآن نرى سفناً عملاقة وبواخرَ ذات أوزان عالية يحملها الماء بإذن الله ، كما نجد سيارات النقل والحاويات ذات الأوزان العالية تُحمل على الهواء فى العجلات ، وهذه من آيات الله أنْ يحمل الخفيف الثقيل .

ومعنى ﴿ كَالْأَعْلَامِ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الشورى] الأعلام : مفردها علَم ، وهو الجبل ، سُمِّى علماً لعُلوِّه وظهوره ، لذلك قالت الخنساء[1] فى رثاء أخيها صخر :

كَأنهُ علَمٌ فِى رأْسِهِ نَارٌ[2]

---

(١) الخنساء : هى تماضر بنت عمرو بن الحارث ، من بنى سُليم ، أشهر شواعر العرب من أهل نجد ، عاشت أكثر عمرها فى العهد الجاهلى ، وأدركت الإسلام فأسلمت ، لها ديوان شعر وكان لها أربعة بنين شهدوا حرب القادسية واستشهدوا جميعاً . توفيت عام (٢٤هـ/ ٦٤٤م) .

(٢) البيت من قصيدة للخنساء من بحر البسيط عدد أبياتها ٣٦ بيتاً ، وتمامه فى الموسوعة الشعرية :

وإن صخراً لتأتم الهداة به كأنه علَم فى رأسه نار

فقوْل الخنساء عن أخيها : كَأنه علَم فى رأْسه نَارٌ . كناية عن أنه مشهور معروف للجميع ، ولما سمع سيدنا رسول الله ﷺ هذا البيت قال : « قاتلها اللهُ ، ما اقتنعت تجعله كالجبل فجعلتْ فوقه ناراً »[(١)] .

وفى هذه الآية مظهر من مظاهر الإعجاز وآية للنبى ﷺ ، فلو سألنا رجال الاقتصاد والصناعة : متى وُجدت السفن العملاقة المكوَّنة من عدة أدوار والتى تشبه جبلاً يتحرك على صفحة الماء ؟ قالوا : فى القرن الثامن عشر ، إذن : محمد لم يَرَ مثل هذه السفن ، فمَنْ أخبره بهذا التطور ؟ ومَنْ قال له أنها ستكون كالأعلام ؟ إنه الله الذى يعطينا الآيات الدالة على صدق نبيه ﷺ .

ثم إن الجَوارىَ[(٢)] التى تجرى فى البحر تحتاج إلى طاقة تُجريها ، فمن أين هذه الطاقة ؟ لما بدأتْ السفن كانت تجرى بقوة الهواء أو بقوة دَفْع الماء لها ، فإنْ كانت تسير فى نفس اتجاه التيار أجراها التيار معه ، وإنْ كانت تسير ضد اتجاه التيار استخدموا الهواء فى دَفْعها باستخدام القِلْع ، فإنْ سكن الريح يظللن رواكد على ظهره .

إذن : هى تجرى بأمر الله وتسكن بأمر الله ، وإن كانت تسير فى نهر وتسبح ضد تيار الماء جاءوا بالعمال وبالحبال ليشدُّوا السفينة وهم على الشاطئ ويسيرون بها :

---

(١) أورد هذا الخبر الألوسى فى تفسير هذه الآية (١٨/ ٢٨٠) : « قاتلها الله تعالى ما رضيت بتشبيهه بالجبل حتى جعلت على رأسه ناراً » . وكذا الرازى فى مفاتيح الغيب (١٣/ ٤٤٠) .

(٢) الجوارى : جمع جارية ، وهى السفن الجارية فى البحر ، سُميت جارية لأنها تجرى فى الماء . والجارية : المرأة الشابة ، سُميت بذلك لأنها يجرى فيها ماء الشباب [تفسير القرطبى ٩/ ٦٠٧٦] .

﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾﴾

معنى ﴿فَيَظْلَلْنَ .. ﴿٣٣﴾﴾ [الشورى] أى السفن ﴿رَوَاكِدَ .. ﴿٣٣﴾﴾ [الشورى] ثوابت ساكنة لا تتحرك ، قد يُحرِّكها الموج فى مكانها لكنها ثابتة لا تسير ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ .. ﴿٣٣﴾﴾ [الشورى] صبار فعَّال وهذه صيغة مبالغة من صابر لأن جريان السفن يحتاج إلى مجهود وإلى مشقة ، فلا بدَّ له من الصبر الطويل .

وكذلك ﴿شَكُورٍ ﴿٣٣﴾﴾ [الشورى] على وزن فعُول ، وهى أيضاً صيغة مبالغة من شاكر ، فجريان السفن من آيات الله التى تستوجب شكره عليها .

ثم إن هذه الآية جاءتْ بعد قوله تعالى ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ .. ﴿٣٠﴾﴾ [الشورى] فالمصائب أيضاً تحتاج إلى الصبَّار الشكور ؛ لأن المصيبة حين تنزل بالمرء لا تصيب كلَّ الأعضاء ولا تأتى عليه كله ، فالله يصيبك فى شىء ويُعافيك فى أشياء ، فالمصاب يحتاج إلى صبر والمعافى يحتاج إلى شكر .

لذلك رُوِى أن سيدنا عبد الله بن جعفر[1] لما ذهب إلى الشام

---

(١) هو : عبد الله بن جعفر بن أبى طالب ، صحابى ، ولد بأرض الحبشة عام ١ هجرية لما هاجر أبواه إلى الحبشة ، وهو أول من وُلِد بها من المسلمين وأتى البصرة والكوفة والشام ، كان أحد الأمراء فى جيش على يوم « صفين » ومات بالمدينة عام (٨٠هـ/ ٧٠٠م) [الأعلام للزركلى ٤/٧٦] .

جُرحَتْ رِجْله وهو فى الطريق ، ولم يجد مَنْ يعالجه لطول المسافة ، فقاحتْ وحدث بها تلوث وأصابتها الغرغرينة ، فلما بلغ دمشق ونزل فى ضيافة الخليفة أتوا له بالأطباء . فقرروا بترها والتمسوا له (مُرقِّد) وهو مثل البنج الآن كى لا يُحس بالألم ، لكنه رفض ذلك وقال : والله ما أحبُّ أنْ أغفل عن ربى طرفة عين ، وفعلاً قطعوا رِجْله دون تخدير ، لأن الذى يتمتع بهذه المعية ويشعر بهذا الشعور حقيقٌ ألاَّ يشعر بألم وهو فى معية الله .

هذه المعية التى احتمى بها سيدنا رسول الله وصاحبه فى الغار حين قال له : لا تحزن إن الله معنا ، أبو بكر يقول : يا رسول الله لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا ، فيقول له ﷺ : « يا أبا بكر ، ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟ »[1] ذلك لأنهما فى معية الله ، والله لا تدركه الأبصار ، وكذلك من كان فى معية الله منحه الله شيئاً من هذه الصفة .

فلما قال سيدنا عبد الله بن جعفر : ما أحبُّ أن أغفل عن ربى طرفة عين قطعوا رِجْله وهو فى هذه الحالة فلم يشعر بألمها ، فلما أرادوا أنْ يدفنوها أمسك بها وقال : اللهم إنْ كنتَ ابتليتَ فى عضو فقد عافيتَ أعضاء . إذن : هذا مثال للعبد الصبار الشكور ، صبار على المصيبة شكور على النعمة .

وفى قوله سبحانه : ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ .. (٣٣)﴾ [الشورى] لون آخر من الإعجاز القرآنى ، لأن السفينة قديماً كانت لا تسير إلا

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٦٦٣) ومسلم فى صحيحه (٢٣٨١) من حديث أبى بكر الصديق رضى الله عنه .

بالهواء ، فكيف وهى الآن تسير بقوة الوقود أو بالكهرباء ولا تحتاج إلى الريح ، فهل يعنى استغناء السفن عن الريح أن الآية لم يَعُدْ لها مجال الآن ؟ قالوا : لا بل هى خالدة باقية لها معنى يُعتبر إلى قيام الساعة ، لأن من معانى كلمة الريح أى القوة أياً كانت .

واقرأ إنْ شئتَ قوله تعالى ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ..(٤٦)﴾ [الأنفال] أى : قوتكم ، فإن استغنيتم عن الريح بقى معنى القوة ، سواء أكانت بالبخار أو غيره

وقوله ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣٣)﴾ [الشورى] بعد ﴿فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ .. (٣٣)﴾ [الشورى] إشارة لأصحاب السفن وركابها ، أنها إذا توقفت عن السير بسبب سكون الريح فلا تحزن ، واستقبل هذه المسألة بشىء من الصبر ، واشكر الله أنْ جاءت الشدة على هذه الصورة ، ولم تكُنْ أكثر من ذلك كأن يصيبها عطب أو إعصار أو غير ذلك من المصائب ، يعنى : اصبر على ما فاتك واشكر على ما بقى لك .

﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ(١) عَن كَثِيرٍ (٣٤)﴾

معنى ﴿يُوبِقْهُنَّ .. (٣٤)﴾ [الشورى] يعنى إما أن يظللن رواكد على

---

(١) فعل يعفو هنا مجزوم أى محذوف منه حرف العلة . وهى القراءة الفاشية كما قال القشيرى . وبسبب هذا الجزم قد يفهم البعض أن معنى الآية هى تعليق العفو بالمشيئة وكأن يعف معطوفة على (إن يشأ) . قال القرطبى فى تفسيره (٩/٦٠٧٧) : « وليس المعنى ذلك بل المعنى الإخبار عن العفو من غير شرط المشيئة ، فهو إذاً عطف على المجزوم من حيث اللفظ لا من حيث المعنى . وقد قرأ قوم (ويعفو) بالرفع وهى جيدة فى المعنى » .

ظهره أو يُغرقهن ﴿بِمَا كَسَبُوا .. (٣٤)﴾ [الشورى] بما فعلوا من المعاصى كشرب الخمر ولعب القمار وغيره ﴿وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ (٣٤)﴾ [الشورى] أى : يعفو عن كثير من ذنوبهم فلا يؤاخذهم بها .

وفى موضع آخر يشرح الحق سبحانه هذه المسألة : ﴿هُوَ الَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِى الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٢٢) فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ .. (٢٣)﴾ [يونس]

ثم يقول سبحانه :

﴿وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ (٣٥)﴾ (١)

يعنى : ما لهم من ملجأ ولا مهرب من عذاب الله ، فالذين يجادلون رسول الله فى آيات الله ويكذبونه يعلمون قدرة الله عليهم ، وأنه سبحانه إنْ شاء أخذهم أخْذ عزيز مقتدر .

و « حاص » فى المكان . أى : ذهب إلى هنا أو هناك ، ولا يجد راحة ، ونجد فى تعبيرنا العامى ما يُصور ذلك وهو قولنا « فلان حايص » أى : لا يجد مكاناً يرتاح فيه . ولا يعرف إلى أين يذهب ، فلا مهربَ ولا مَنْجى .

﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٣٦)﴾

---

(١) ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ (٣٥)﴾ [الشورى] أى : لا مفر لهم ولا ملجأ . والمحيص : المهرب . [القاموس القويم ١/١٨١] .

قوله : ﴿مِّن شَيْءٍ .. (٣٦)﴾ [الشورى] يعنى : كل ما يقال له شىء من مُتَع الحياة ، كالمال والأولاد والزوجات والمناصب والصحة والجاه .... إلخ . كل هذا متاع الحياة الدنيا فحسب تتمتع به فى الدنيا ، والدنيا بالنسبة لك ليست هى الفترة من آدم إلى قيام الساعة ، بل هى مدة بقائك أنت فيها لا دَخْلَ لك بمدة حياة الآخرين ، فأنت لا تمر على الدنيا إنما الدنيا هى التى تمر عليك .

إذن : مهما كان متاعك فهو موقوت بعمرك فى الدنيا وينتهى ﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٣٦)﴾ [الشورى] لأنك فى الدنيا تتمتع على قدر جهدك فيها وعلى قدر إمكانياتك ، أما فى الآخرة فالمتعة على قدْر الحق سبحانه ، وإنْ كان متاع الدنيا يزول فمتاع الآخرة باقٍ دائم خالد .

إذن : عندما تقيس مستوى النعمة التى تعيشها فى الدنيا بمستوى النعمة فى الآخرة تعلم أن ما عند الله خيرٌ وأبقى ، وحين تعلم هذه الحقيقة ينبغى عليك أنْ تعمل لها ، لأن هذه الخيرية ، وهذا البقاء موقوفٌ على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ، فهنا عقيدة وعمل بالأسباب .

وفَرْق بين مَنْ يتوكل على الله بأن يأخذ أولاً بالأسباب ثم يتوكل على الله ، ومن يتواكل أى يقول توكلت على الله ويترك السَّعْى والأخْذ بالأسباب . إذن : المؤمن يتوكل بقلبه ويعمل بجوارحه .

وقد نزلتْ هذه الآية ﴿فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. (٣٦)﴾ [الشورى] فى جماعة من صناديد قريش وعلى رأسهم الوليد ابن المغيرة ، لما حسدوا رسول الله وحقدوا عليه لما اصطفاه الله للرسالة فقالوا :

﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١)﴾ [الزخرف] يعنى : عنده كذا وكذا ، فردَّ الله عليهم أن هذا كله متاع دنيوى زائل ،

وما عند الله خير منه وأبقى .

﴿ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾

معنى ﴿ يَجْتَنِبُونَ .. ﴿٣٧﴾ ﴾ [الشورى] أى : يبتعدون عن الأسباب المؤدية إلى ﴿ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ .. ﴿٣٧﴾ ﴾ [الشورى] الكبائر هى الذنوب الكبيرة التى توعَّد اللهُ فاعلها وجعل لها عقوبة . والفواحش كل ما عظُم فُحْشه وقُبْحه ، وهذه كلها ذنوب تُوجب إقامة الحدِّ على فاعلها .

وسبق أنْ قلنا : إن مواكب الرسل المختلفة اتفقتْ فى تحريم هذه الكبائر ، وحثَّتْ الجوارح النفسية أنْ تتبرأ من عيوبها ، فالقلب يتبرأ من الشرك ومن الإصرار على المعصية ، وألاَّ يأمن مكر الله ، وألاَّ ييأس من رحمة الله .

واللسان يبرأ من شهادة الزور وقوْل الزور وقَذْف المحصنات واليمين الغمُوس الذى يُغمس صاحبه فى النار ، وهو الحلف كذباً على شىء حصل فى الماضى ، وهذا اليمين ليس له كفارة ، لكن إنْ حلف على شىء فى المستقبل ، وظهر له ما هو أفضل يسمح الله له أنْ يأتى الأفضل ويُكفِّر عن يمينه .

كذلك البطن تبرأ من شرب الخمر وأكْل مال اليتيم وأكْل الربا . والفَرْج يبرأ من كل اتصال لا يحلّ ، واليد تبرأ من السرقة والقتل ، والرِّجْل تبرأ من التولِّى يوم الزحف . وفوق هذا كله تبرأ كلُّ هذه الجوارح من عقوق الوالدين .

وقوله تعالى : ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ (٣٧)﴾ [الشورى] الغضب فوران الغريزة الغضبية من شيء أغضبك أو أتعبك ، وهذا الشيء حدث من شخص ما فتتولد لديك رغبة الانتقام أو مشاعر الحقد والحسد نحوه .

فالحق سبحانه يُعلِّمنا كيف نغفر ونعفو ونصفح ، وإذا كنتَ تحب أن يغفر لك فاغفر لمَنْ أساء إليك ، وإذا تأملنا أحوال الناس نلاحظ أن عاقبة الصفح والغفران حميدة ، وعاقبة البطش والانتقام وخيمة .

لذلك الحق سبحانه وتعالى يرشدنا إلى أن نأخذ جانب العفو ، ونحذر سَوْرة الغضب ، وألاَّ ننساق معها ، وألاَّ نتجاوز الحدود حين تأخذنا هذه السَّوْرة حتى فى مسألة القصاص : ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى ..(١٧٨)﴾ [البقرة]

فبعد أنْ يُشرع لنا القصاص يُذكِّرنا بما هو أَوْلَى بنا وأرشد وهو العفو ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ..(١٧٨)﴾ [البقرة] فشرع القصاص ليحفظ الحق لصاحبه ، ثم فتح باب العفو .

لذلك نجد الدين يمنع أى شخص أنْ يشفع فى حَدّ من حدود الله إلا القتل تجوز فيه الشفاعة ، لأن ولىَّ المقتول حين يعفو عن القاتل يُفشى الودَّ فى المجتمع ، ويصير القاتل مُداناً له لأنه يعلم أن روحه رَهْن بهذا العفو .

واقرأ قول الله تعالى : ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٣٥)﴾ [فصلت]

هذه حقيقة يقررها الخالق سبحانه وهو أعلم بعباده ، لذلك نجد البعض فى هذه المسألة يقول لك : والله أنا دفعتُ بالتى هى أحسن

دون فائدة ، نقول له : عليك أنْ تراجع نفسك ومدى صدْقك فى تصرفاتك ، فأنت تظن أنك دفعتَ بالتى هى أحسن ، لكن الواقع غير ذلك ، فأنت تجرِّب مع الله والتجربة مع الله شكٌّ ، فلو صدقتَ لصدقتْ الآية معك . وصدق القائل[1] :

يا مَنْ تُضَايِقُكَ الفعَـ ـالُ مِنَ التى وَمِنَ الذى
ادْفَع فَدَيْتُكَ بالتى حَتَّى تَرَى فَإذَا الذى

ثم تأمل لماذا أكَّدتْ الآية الفاعل فى ﴿يَغْفِرُونَ (٣٧)﴾ [الشورى] بذكر الضمير المنفصل (هم) ؟ فقال تعالى[2] : ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ (٣٧)﴾ [الشورى] قال : هم ليؤكد أنهم أصحاب القرار ، فالغفران منهم هم ، ليس مجاملة لأحد ، ولا إجباراً من أحد ، لأنك قد ترسل لصاحب الحق مَنْ يشفع لك عنده ، فحين يغفر صاحب الحق يكون الجميل للشافع ، فلماذا إذن تحرم نفسك الثواب ، لماذا لا تجعلها لك خالصة ؟

﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣٨)﴾

قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ (٣٨)﴾ [الشورى] أى :

---

(١) من شعر الشيخ محمد متولى الشعراوى رحمه الله .

(٢) نقل القرطبى فى تفسيره (٩/٦٠٧٩) أقوالاً أن هذه الآية نزلت فى كبار الصحابة ، قال : نزلت فى عمر حين شُتم بمكة . وقال ابن عباس : شتم رجل من المشركين أبا بكر فلم يرد عليه شيئاً فنزلت الآية . وعن على قال : اجتمع لأبى بكر مال مرة فتصدق به كله فى سبيل الخير فلامه المسلمون وخطَّأه الكافرون فنزلت الآيات : ﴿فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ (٣٦)﴾ [الشورى] إلى قوله : ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ (٣٧)﴾ [الشورى]

بالإيمان وهذه تمثل العقيدة ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الشورى] تمثل العمل والتطبيق .

هذه آية من آيات كثيرة قرنتْ بين الصلاة والزكاة ، لأن بهما يستقيم حال المجتمع المؤمن ، الزكاة تنازلٌ عن بعض مالك للمحتاجين فأنت إذن تضحى فيها بالمال ، كذلك فى الصلاة زكاةٌ أبلغ من زكاة المال ، لأنك فى الصلاة تُضحِّى بالوقت الذى هو مجال العمل وسبب كسب المال .

الجديد فى هذه الآية فى مسألة الجمع بين الصلاة والزكاة ذكْر مسألة الشورى بينهما ، والمتحدِّث بهذا هو الحق سبحانه ، فلا بدَّ لنا أنْ نقف هنا ونتلمَّس الحكمة : لماذا جعل الشورى بين هذين الأمرين اللذين اجتمعا دائماً فى آيات الذكر الحكيم ؟

نقول : معنى (أقاموا الصلاة) يعنى : أدَّوْهَا على أكمل وجه ، وهذا يكون فى جماعة المسجد ، فكأنه ينتهز فرصة الاجتماع هذه ويأمرهم بأنْ يكون أمرهم شورى بينهم ، والشورى لا تكون فى أمر وصَّانا الله به ، ولا فى أمر وصَّانا به رسوله ﷺ ، إنما تكون فى الأمور الخلافية التى لم يأت فيها نصٌّ ، فيكون الحكم فيها شورى بين أهل الاختصاص كما نرى فى مسألة الفتوى (١) .

لذلك ندعو إلى أن تكون الفتوى جماعية لا فردية ، فلما تتناقش

---

(١) من جميل مواقف الشورى مشاورة عمر رضى الله عنه للهرمزان حين وفد عليه مسلماً ، فشاوره فى أمر المغازى ، فقال له الهرمزان : مثلها ومثل من فيها من الناس من عدو المسلمين مثل طائر له ريش وله جناحان ورجلان ، فإنْ كُسِر أحد الجناحين نهضت الرِّجْلان بجناح والرأس ، وإنْ كُسر الجناح الآخر نهضت الرجلان والرأس ، وإنْ شُدخ الرأس ذهب الرِّجْلان والجناحان . والرأس كسرى والجناحان واحد قيصر والآخر فارس ، فَمُرِ المسلمين فلينفروا إلى كسرى . [تفسير القرطبى ٩/٦٠٨١] .

الجماعة لا بدَّ أنْ يصلوا إلى الصواب ، ولا مانع أن تدافع عن رأى الجماعة حتى لو كان لك رأى مخالف .

ثم تأمل ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ.. (٣٨) ﴾ [الشورى] ولم يقل : تشاور . فعبّرَ بالمصدر ليؤكد أن أمرهم هو نفسه الشورى ، كما تقول : رجل عادل ورجل عَدْل ، فجعلته العدل ذاته ، وقد ورد أن الإمام علياً رضى الله عنه قال لرسول الله ﷺ : يا رسول الله ترد علينا أمور لا نَرَى لله فيها حكماً ، ولا نرى لسنة نبيه فيها حكماً ، فماذا نصنع ؟ قال ﷺ : اجمعوا العباد ، واجعلوها شورى ولا تقتدوا برأى واحد[١] .

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ (٣٩) ﴾

معنى ﴿ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ (٣٩) ﴾ [الشورى] لحقهم ظلم واعتداء والبغى : مجاوزة الحد فى الظلم ﴿ هُمْ يَنتَصِرُونَ (٣٩) ﴾ [الشورى] أى : ينتقمون من الظالم بنفس القدر دون زيادة ، وهذه الآية تُقرِّر حكماً لله عز وجل هو جواز الانتقام من الظالم[٢] ، لكن لا تنتهى المسألة عند هذا الحكم ، إنما يُتبِعه الحق سبحانه بحكم آخر لتكتمل

---

(١) أخرجه الطبرانى فى المعجم الكبير (حديث ١١٨٧٤) من حديث ابن عباس أن على بن أبى طالب قال : يا رسول الله أرأيتَ إن عرض لنا أمر لم ينزل فيه قرآن ولم يخصص فيه سنة منك ؟ قال : « تجعلونه شورى بين العابدين من المؤمنين ولا تقضونه برأى خاصة » . وعزاه السيوطى له فى الدر المنثور فى تفسير ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) ﴾ [النصر] قال الهيثمى : فيه عبد الله بن كيسان . قال البخارى : منكر الحديث .

(٢) هناك حالتان للظالم أو الباغى قالهما القاضى أبو بكر بن العربى ونقلهما القرطبى فى تفسيره (٦٠٨٢/٩) : **الأولى** : أن يكون الباغى معلناً بالفجور وقحاً فى الجمهور مؤذياً للصغير والكبير فيكون الانتقام منه أفضل . **الثانية** : أن يكون ظلمه فلتة أو يقع ذلك ممن يعترف بالزلة ويسأل المغفرة ، فالعفو ها هنا أفضل .

الصورة ، فيقول تعالى فى الآية بعدها :

﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَاۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾

الحق سبحانه وتعالى رحيم بعباده لطيف بهم ، وحينما أجاز لهم الرد بالمثل فى القصاص وفى المظالم أراد سبحانه أنْ يُرضى مواجيد المظلوم وعواطفه ، وأنْ يريحه بالانتقام من ظالمه ، لكن ضيَّق هذا الباب فى حين أوسع باب العفو ورغّب فيه ، ضيَّق عليك باب الانتقام حينما قال : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾ [النحل]

فالحق سبحانه حينما قال ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ..﴿٤٠﴾ ﴾ [الشورى] إنما ليريح قلبك ويُنهى العداوة والبغضاء بين الطرفين ، لكن أتضمن حين تنتقم أنْ ترد بالمثل ؟ إن المثلية هنا أمر شاقّ جداً لا يقدر أحد عليه ، ففى أبسط الأمور لو شخص ضرب الآخر ضربة ، أو لطمه لطمة على وجهه ، أيستطيع أنْ يردَّ بمثلها دون زيادة ؟ ولو زاد عليها لكان هو الآخر ظالماً . إذن : فى العفو سَعة ومخرج من هذا الحرج ومن هذا التضييق .

لذلك يُحكى أنه كان فى إيطاليا رجل مُراب[1] أقرض شخصاً لأجَل ، لكن اشترط عليه إذا لم يُؤدّ فى الموعد المحدد بينهما أنْ يقطع رطلاً من لحمه مقابل هذا الدَّيْن ، فلما جاء الموعد ولم يدفع المدين ما عليه

---

(١) هو رجل يهودى اسمه شايلوك ، والقصة كلها مسرحية لشكسبير الكاتب الإنجليزى (تاجر البندقية) - دار الشروق - ترجمة حسين أحمد أمين - ١٩٩٤م .

رفع الدائنُ أمره إلى القاضى ، فأقره القاضى على شرطه وقال له من حقك أنْ تأخذ رطلاً من لحمه لكن تذكَّر إنْ زاد أخذنا الزيادة من لحمك أنت ، وإنْ نقص أكملناه من لحمك أنت ، فلم يملك المرابى إلا التراجع عن شرطه .

لذلك يقول تعالى : ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٤٠)﴾ [الشورى] وكأن الانتقام لا بدَّ وأنْ يجر صاحبه إلى منطقة الظلم .

وعن الإمام على رضى الله عنه قال رسول الله ﷺ : « إذا كان يومُ القيامة نادى مُنادٍ يقول : مَنْ كان أجره على الله فليقُم للجنة ، فلم يرد أحد ، فقال : من كان أجره على الله فليقم للجنة - يعنى بغير حساب - فقالوا : ومَنْ الذى أجره على الله ؟ قال : العافى عَمَّنْ أساء إليه »[1] .

ورُوى أن سيدنا رسول الله ﷺ كان ذات يوم بين أصحابه فضحك فسأله عمر رضى الله عنه : ما أضحكك يا رسول الله ؟ قال : رأيتُ ربى يفصل فى خصومة بين اثنين . فقال أحدهما : ربّ إن هذا أساء إلىَّ فخُذْ من حسناته وأعطنى بقدر إساءته ، فقال له : ليس له حسناتٌ ، لكن انظر ، فنظر فإذا بقصور وأشياء عجيبة ، فقال : لمَنْ هذه يا ربّ ؟ قال : لمن عفا عن أخيه . فقال : عفوت عنه ، فقال :

---

(١) أخرج الطبرانى فى المعجم الأوسط (٢٠٧٢) عن أنس بن مالك أن النبى ﷺ قال : « ... ثم نادى مناد : ليقم من أجره على الله فليدخل الجنة . ثم نادى الثانية : ليقم من أجره على الله فليدخل الجنة قال : ومن ذا الذى أجره على الله ؟ قال : العافين عن الناس ... » وأورده القرطبى فى تفسيره الآية ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ (١٣٤)﴾ [آل عمران] وقال : ذكره الماوردى .

فخُذْ بيد أخيك وادخُلا الجنة[١] .

ولك أنْ تتأمل كيف يصلح الخالق الخَلْق بهذه القيم ، وما علينا إلا أنْ نُخرجها من المجال النظرى إلى التطبيق والعمل .

والسيئة فى قوله تعالى : ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا .. (٤٠) ﴾ [الشورى] يعنى : عمل فيه إساءة لك بقول أو فعل ، وليست سيئة الذنوب والمعاصى فى حَقِّ الله تعالى .

﴿ وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ (٤١) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٢) ﴾

قوله تعالى ﴿ وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ .. (٤١) ﴾ [الشورى] يعنى : انتقم من ظالمه ﴿ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ (٤١) ﴾ [الشورى] يعنى : لا مؤاخذة عليهم لأنهم ما تعدَّوْا حدود الانتصار للنفس والانتقام لها

---

(١) أخرجه الحاكم فى مستدركه (حديث ٨٨٦٩) عن أنس بن مالك قال :« بينما رسول الله ﷺ جالس إذ رأيناه ضحك حتى بدت ثناياه . فقال له عمر : ما أضحكك يا رسول الله بأبى أنت وأمى ؟ قال : رجلان من أمتى جثيا بين يدى رب العزة . فقال أحدهما : يا رب خذ لى مظلمتى من أخى ، فقال الله تبارك وتعالى للطالب : فكيف تصنع بأخيك ولم يبق من حسناته شىء ؟ قال : يا رب فليحمل من أوزارى . قال : وفاضت عينا رسول الله بالبكاء . ثم قال : إن ذاك اليوم عظيم يحتاج الناس أن يحمل عنهم من أوزارهم . فقال الله تعالى للطالب : ارفع بصرك فانظر فى الجنان فرفع رأسه . فقال : يا رب أرى مدائن من ذهب وقصوراً من ذهب مكللة باللؤلؤ لأى نبى هذا أو لأى صدِّيق هذا أو لأى شهيد هذا ؟ قال : هذا لمن أعطى الثمن . قال : يا رب ومَنْ يملك ذلك ؟ قال : أنت تملكه . قال : بماذا ؟ قال ؟ بعفوك عن أخيك . قال : يا رب فإنى قد عفوت عنه . قال الله : فخذ بيد أخيك فأدخله الجنة » قال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه (أى البخارى ومسلم) .

﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ .. (٤٢)﴾ [الشورى] أى : سبيل المؤاخذة ﴿عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٢)﴾ [الشورى]

ثم يأخذ الحق سبحانه بأيدى العباد إلى طريق أسلم من الانتقام وأحمد فى العاقبة ، فيقول تعالى :

﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (٤٣)﴾

جاء فى وصية لقمان لابنه : ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٧)﴾ [لقمان] هكذا دون توكيد باللام التى هنا ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (٤٣)﴾ [الشورى]

صحيح أن المعنى العام واحد وهو الدعوة إلى الصبر ، لكن فرْق بين الصبر على مصيبة ليس لك فيها غريم ، والصبر على مصيبة لك فيها غريم ، فوجود الغريم يحتاج إلى قوة فى الصبر وتحمُّل ، لأنك كلما رأيتَ غريمك هاجتْ عندك دواعى الانتقام ، فلقمان يوصى ولده بالصبر على مصيبة ليس فيها غريم ، فلم يحتج إلى توكيد .

أمَّا هنا فالكلام عن الصبر حينما يكون لك غريم تفكر فى الانتقام منه وردّ السيئة بمثلها ، فأنت فى حاجة إلى قوة تُعينك على الصبر وطاقة تأخذك من مجال الانتصار للنفس إلى مجال العفو والصفح ، لذلك أكَّد الكلام باللام مرتين فى الآية .

وقوله تعالى : ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ .. (٤٣)﴾ [الشورى] يعنى : أننا أمام مرحلتين : الصبر على الإساءة ثم غفران الإساءة ، فكثير من الناس يصبر على مَنْ أساء إليه لكنه لا يغفر له إساءته ، لأن مرحلة الغفران تحتاج إلى قوة إيمان وقوة عزيمة ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ

الأُمُورِ (٤٣) ﴾ [الشورى]

يعنى : الأمور المهمة التى تحتاج منك إلى عزيمة وثبات وقوة تطفىء بها نار الحقد والثأر والانتقام ، وقوة أخرى تستمد منها طاقة للمغفرة ، وهذه لا تكون إلا للمؤمن الواثق بأن ما عند الله خيرٌ وأبْقى ، وأنه سينال بالعفو ما لم يَنلْهُ بالانتقام .

إذن : الحق سبحانه أباح لك أنْ تنتقم لنفسك ، ثم دعاك إلى العفو ورغَّبك فيه ، فمتى يكون الانتقام ؟ ومتى يكون العفو ؟ قالوا : العفو أولَى من الانتقام والانتصار للنفس ، إلا إذا كان المسىء الظالم من الجاهلين الذين لا يزيدهم العفو إلا تمادياً فى الظلم ، ولا يزيده حِلْمك عليه إلا طمعاً فيك ، فهذا لا بدَّ له من المعاملة بالمثل ليرتدع ولا يتمادى فى ظلم الناس .

وقد تنبه إلى هذه الحقيقة كثير من الشعراء العرب القدماء ، يقول المتنبى[1] :

مِنَ الحِلْم أنْ تستْعمِلَ الجهْلَ دُونَه إذَا اتَّسَعَتْ فى الحِلْم طُرقُ المظَالِمِ[2]

وقال أيضاً :

إذَا أنْتَ أكْرمْتَ الكَريمَ ملكْتَهُ وإنْ أنتَ أكْرمْتَ اللئيمَ تَمرَّدا

---

(١) المتنبى هو : أحمد بن الحسين أبو الطيب شاعر حكيم ولد (٣٠٣هـ / ٩١٥م) بالكوفة فى كندة وإليها نسبته ، ونشأ بالشام ، قال الشعر صبياً وتنبأ فى بادية السماوة ، وسُجِن حتى تاب ورجع عن دعواه . قتل فيما بعد على يد فاتك بن أبى جهل الأسدى عام (٣٥٤هـ / ٩٦٥م) .

(٢) البيت من قصيدة لأبى الطيب المتنبى من بحر الطويل ، عدد أبياتها ٣٦ بيتاً . [الموسوعة الشعرية] .

وَوَضعُ النَّدى فِى مَوْضِعِ السَّيْفِ بِالعُلا مُضِرٌّ كوضْعِ السَّيْفِ فِى موْضعِ النَّدى[١]

وقال آخر[٢]:

ولاَ خَيْر فى حِلْم إذَا لم تكُنْ لَهُ بَوَادِرُ تَحمِى صَفْوَهُ أنْ يُكدَّرا[٣]

وفى تاريخ قبائل العرب ما يؤكد ذلك ، فبعض القبائل كانت شرسة وقوية لا تقبل الضيم مثل بنى مازن ، كانت حجة فى الانتصار لنفسها ، فصار الناس يرهبونها ، ولا يجرؤ أحد على التعدى عليها ، ومن القبائل التى كانت تجهل وتغتر بعفو مَنْ عفا عنها قبيلة بنى اللقيطة من بنى ذهل .

أما طىء فكانت قبيلة مسالمة تعفو وتصفح وتقابل السيئة بالإحسان ، لذلك طمع فيها بنو ذهل وتمادوا فى التعدى عليها حتى فاض بشاعرهم بعد أنْ استباحوا أرضه وأخذوا إبله ، فضاق بما عليه قبيلته من العفو عمَّنْ لا يستحق العفو ، فقال فى وصفهم :

كَأنَّ ربَّكَ لَمْ يخلُقْ لخَشْيتِهِ سِواهُمُ مِنْ جَمِيعِ النَّاسِ إنْسَانَا

---

(١) البيتان من قصيدة للمتنبى من بحر الطويل أيضاً ، عدد أبياتها ٤٢ بيتاً ، وهما البيتان (٢٩ ، ٣٠) من القصيدة . [الموسوعة الشعرية] .

(٢) الشاعر هو النابغة الجعدى ، قيس بن عبد الله أبو ليلى العامرى ، ولد ٥٤ قبل الهجرة وتوفى ٥٠ بعد الهجرة ، عاش ١٠٤ عاماً ، سُمى النابغة لأنه أقام ثلاثين سنة لا يقول الشعر ثم نبغ فقاله ، كان ممن هجر الأوثان ونهى عن الخمر قبل الإسلام ، وفد على النبى ﷺ فأسلم .

(٣) البيت للنابغة الجعدى من قصيدة من بحر الطويل ، عدد أبياتها ٨٥ بيتاً : هو البيت (٨٠) فيها . [الموسوعة الشعرية] .

وَيَجْزُونَ مِن ظُلْمِ أَهْلِ الظُّلْمِ مَغْفِرَةً وَمِنْ إِسَاءَةِ أَهْلِ السُّوءِ إِحْسَانَا[١]

ثم قال[٢] قصيدته المشهورة فى الأدب العربى :

صَفَحْنَا عَنْ بَنِى ذُهْلٍ[٣] وَقُلْنَا القَوْمُ إِخْوَانُ
عَسَى الأَيَّامُ أَنْ يرجعْنَ قَوْماً كَالذِى كَانُوا
فَلَمَّا صَرَّحَ الشَّرُّ وَأَمْسَى وَهْوَ عُرْيَانُ
مَشَيْنَا مِشْيَةَ اللَّيْثِ غَدَا وَاللَّيْثُ غَضْبَانُ
بِضَرْبٍ فِيهِ تَوْهِينٌ وَإِضْعَافٌ وإِقْرَانُ
وَطَعْنٍ كَفَمِ الزِّقِّ[٤] غَدَا وَالزِّقُّ مَلآنُ

---

(١) هذان البيتان :

- ذكرهما ابن داود الأصفهانى فى (الزهرة) وعزاهما لرجل من بنى العنبر ، من قصيدة أولها : لو كنت من مازن لم تسبح إبلى بنو اللقيطة من ذهل بن شيبانا

ولكنه خلف ترتيب البيتين . ونحوه عند العبيدى فى (التذكرة السعدية) وذكر اسمه (قريط ابن أنيف) .

- وذكر الجاحظ فى (الحيوان) البيت الأول فقط وقال : قال آخر حين اعتل عليه قومه فى القتال بالورع .

- وذكرهما ابن عبد ربه الأندلسى فى العقد الفريد كما هو فى النقطة الأولى وقال : قال رجل من العرب يذم قومه وأغارت بنو شيبان على إبله فاستنجدهم فلم ينجدوه وكان فيهم ضعف ، فقال ما قاله . وكذا عبد القادر البغدادى فى (خزانة الأدب) .

- وذكرهما ابن قتيبة الدينورى فى عيون الأخبار تحت فصل : شعر لرجل من بنى العنبر يمدح بنى مازن ويهجو قومه يُعيرهم بجنبهم .

(٢) القائل هو : الفند الزمانى واسمه سهل بن شيبان بن ربيعة ، من بكر بن وائل ، شاعر جاهلى كان سيد بكر فى زمانه وفارسها وقائدها ، شهد حرب بكر وتغلب وقد ناهز عمره المائة ، سمى الفند لعظم خلقته تشبيهاً بفند الجبل وهو القطعة منه . [الموسوعة الشعرية] .

(٣) ذُهْل : قبيلة . وذهل : حى من بكر وهما ذهلان كلاهما من ربيعة . أحدهما ذهل بن شيبان ، والآخر ذهل بن ثعلبة . [لسان العرب – مادة : ذهل] .

(٤) الزق : السقاء . والزق من الأهُب (الجلود) : كل وعاء اتخذ لشراب ونحوه . وقال أبو حنيفة : الزق هو الذى يُنقل فيه . [لسان العرب – مادة : زقق] .

وَبَعْضُ الحِلْمِ عِنْدَ الجَهْلِ لِلذِّلَّةِ إِذْعَانُ
وَفِي الشَّرِّ نَجَاةٌ حِينَ لاَ يُنْجِيكَ إِحْسَانُ[1]

وما أجمل قول الإمام على رضى الله عنه :

لَئِنْ كُنْتُ مُحتَاجاً إلى الحِلْمِ إنّنى إلَى الجَهْلِ فى بَعْضِ الأحَايِينِ أحْوَجُ
وَلى فَرَسٌ للحِلْمِ بِالحِلْمِ مُلْجَمٌ وَلِي فَرَسٌ لِلْجَهْلِ بالجهْلِ مُسْرَجُ
فَمَنْ رامَ تَقْوِيمى فإنِّى مُقَوِّم وَمَنْ رامَ تَعْوِيجِى فَإِنِّى مُعْوَجُ[2]

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾﴾

قوله تعالى ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ .. ﴿٤٤﴾﴾ [الشورى] يعنى : يحكم الله عليه بالضلال ، لأن الهدى هدى الله ، وهو سبحانه قد بيَّن للناس طريق الخير وطريق الشر بالدلالة على الخير والنهى عن الشر .

وهذه الهداية التى نسميها هداية الدلالة والإرشاد جعلها الحق سبحانه للمؤمن وللكافر ، فالله دلَّ الجميع ، المؤمن أخذ هذه الهداية

---

(١) الأبيات من قصيدة للفند الزمانى ، من بحر مجزوء الوافر ، عدد أبياتها ٢٦ بيتاً ، مع اختلاف كبير فى ألفاظ الأبيات عما أورده الشيخ الشعراوى رحمه الله ، ففى بعضها (صفحنا عن بنى ذهل) وفى بعضها (كففنا عن بنى هند) .

(٢) هذه الأبيات وردت فى الموسوعة الشعرية منسوبة لاثنين من الشعراء :
- محمد بن حازم الباهلى بصرى سكن بغداد ومات فيها عام ٢١٥ هـ
- محمد بن وهيب الحميرى ، بصرى عاش ببغداد توفى عام ٢٢٥ هـ ولكنى أظنهما شخصاً واحداً .

فعمل بما فيها وسار على نهجها فى الأمر وفى النهى ، فزاده الله هدى .

أما الكافر فتجاهل هذه الهداية ولم يعمل بها فزاده اللهُ من الضلال الذى اختاره لنفسه ، فالذى يريد شيئاً ويعشقه يزيده الله منه سواء المؤمن أو الكافر ، لذلك قال عن المؤمن : ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧)﴾ [محمد] أما الكافر فقد ختم على قلبه حتى لا يخرج منه كفره ولا يدخله نور الإيمان .

وقوله : ﴿فَمَا لَهُ مِن وَلِيٍّ .. (٤٤)﴾ [الشورى] أى : يُواليه وينصره ﴿مِنْ بَعْدِهِ .. (٤٤)﴾ [الشورى] أى : من بَعْد الله تعالى ﴿وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ (٤٤)﴾ [الشورى] هل من طريق للرجوع إلى الدنيا مرة أخرى لنتوب ونعمل العمل الصالح ؟ استفهام العاجز الذى لا حيلة له ، وما حيلتهم للرجوع وقد عاينوا العذاب الذى طالما كذَّبوه وكفروا به فى الدنيا .

والحق سبحانه يُكذِّبهم فى هذا الزعم ، ففى آية أخرى يقول سبحانه : والخطاب لسيدنا رسول الله :﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٧) بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٢٨)﴾ [الأنعام]

وفى موضع آخر قال سبحانه فى الرد عليهم ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٠٠)﴾ [المؤمنون]

﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ
يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ
ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ
ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾﴾

قوله سبحانه : ﴿وَتَرَاهُمْ (٤٥)﴾ أى الكفار ﴿يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا (٤٥)﴾ على النار ﴿خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ (٤٥)﴾ أى : خاضعين أذلاء من شدة الخوف ، لذلك ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ (٤٥)﴾ [الشورى] يعنى : يختلسون النظرة ولا يستطيعون المواجهة بأعينهم ، فما هم فيه من خزى يكسر أعينهم .

لذلك تقول لخصمك الذى يفترى عليك كذباً (هات عينى فى عينك) لماذا ؟ لأن المواجهة بالأعين تُظهر الحق ، فصاحب الحق عينه قوية جريئة ، تستمد قوتها من قوة الحق الذى يُدافع عنه ، أما عين المبطل فمُنكسرة ذليلة تتوارى من شعاع الحق الذى يكشف زيفها .

﴿وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ (٤٥)﴾ [الشورى] هذه المقولة يُردِّدها المؤمن الذى نجا من العذاب وفاز بالجنة ، يقول : إن الخسارة الحقيقية هى ما فيه هؤلاء ، لأنهم خسروا كل شىء ﴿أَلا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ (٤٥)﴾ [الشورى] يعنى : دائم لا ينقطع .

﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ
ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾﴾

الكلام هنا عن يوم القيامة ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَاءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ (٤٦)﴾ [الشورى] أى : يدفعون عنهم العذاب الذى حَلّ بهم ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن سَبِيلٍ (٤٦)﴾ [الشورى] يعنى : ما له من طريق للهداية لأن الله تعالى هو الذى يهدى ، يضع نموذجاً للهداية .

وسبق أنْ بيّنا أن الهداية على ضربين : هداية الدلالة والإرشاد ، وهداية التوفيق والمعونة ، لذلك رأينا بعض المستشرقين يقفون أمام بعض الآيات يتهمون القرآن بالتعارض بين آياته ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ (١٧)﴾ [فصلت] وقوله تعالى : ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ (٥٦)﴾ [القصص] وفى موضع آخر : ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِى إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٢)﴾ [الشورى]

فأثبت الهداية مرة ونفاها مرة أخرى ، والخطاب هنا لسيدنا رسول الله ﷺ ، واعتراض هؤلاء على أسلوب القرآن ناتج عن عدم فهمهم لكلام الله ، فالنفى والإثبات هنا لأن الجهة مُنفكة ، فمتعلق إثبات الهداية له معنى ، ومتعلق نَفْيها له معنى آخر .

وسبق أنْ أوضحنا أن الهداية نوعان : هداية إرشاد وهداية معونة وتوفيق ، فرسول الله يملك هداية الإرشاد والدلالة ، ولا يملك هداية التوفيق والمعونة ، هذه بيد الله وحده يهدى إليه مَنْ يشاء .

فقوله : ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ (٥٦)﴾ [القصص] نفى عنه هداية التوفيق والمعونة لأنها لله تعالى ، وقوله : ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِى إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٢)﴾ [الشورى] أثبت له هداية الإرشاد والدلالة . إذن : الجهة منفكة وليس هناك تعارض بين الموضعين .

واقرأ مثلاً قوله تعالى مخاطباً رسوله ﷺ : ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ﴿١٧﴾﴾ [الأنفال] فى الفعل وأثبته فى موضع واحد ، لأن الجهة أيضاً منفكة ، ولكل فعل منهما معنى .

وكذلك فى قوله تعالى : ﴿وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴿٧﴾﴾ [الروم] يعنى : لا يعلمون حقائق الأشياء إنما يعلمون ظاهرها .

وفى واقعنا اليومى نستخدم هذا الأسلوب فى نفى الفعل وإثباته فى موضع واحد ، فلما ترى ولدك يفتح الكتاب وينظر فى سطوره وهو منشغل عنه ، أو تسأله بعد المذاكرة فلا يجيب فتقول له : ذاكرتَ وما ذاكرتَ ، يعنى : ذاكرتَ شكلاً ولم تذاكر موضوعاً أو مضموناً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾﴾

هنا أمر بالاستجابة لأمر من ؟ لأمر الرب ﴿لِرَبِّكُم ﴿٤٧﴾﴾ [الشورى] والرب هو الذى خلقك من عدم وأمدَّك من عُدْم ، وتولَّى تربيتك ورعايتك وتفضَّل عليك ، وهو سبحانه صاحب المنهج ومالك الجزاء وقادر عليه ، فإليه وحده المرجع والمآب . إذن : فهو حقيق بالاستجابة إذا أمر وأَوْلى بالطاعة ، فالعاقل هو الذى يسارع بالاستجابة لله تعالى .

ونلاحظ هنا أن القرآن عبَّر بالاستجابة ، بدل الإجابة ، لأن الاستجابة فرع الطلب ، لذلك قال سبحانه : ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴿٢٦﴾﴾ [الشورى] أى : يستجيب الله للذين آمنوا وعملوا الصالحات .

فالحق سبحانه حينما يناديك ويدعوك للصلاة مثلاً يجب أنْ تجيب النداء ، لأنه دعاك لمصلحتك أنت ، دعاك ليعطيك شحنة إيمانية لوجودك فى معية الله ، فنداء الله أكبر يعنى : تعال حَىَّ على الصلاة ، حَىَّ على الفلاح ، تعالَ قابلنى .

فالرب سبحانه هو الذى يدعوك للمقابلة ، ويرحب بك فى بيته وفى معيته ليصلحهم ، فإذا لم يجيبوا كانوا آثمين مذنبين عاصين يستحقون العذاب ، والحق سبحانه لا يستفيد من ذلك بشىء .

ولو عقدنا مقارنة بين لقاء الحق سبحانه ولقاء رئيس أو مسئول لكان الفرق واضحاً ، فأنت الذى تطلب المقابلة ، ولو أُتيحت لك حدّد لك الموعد وموضوع الحديث ومكان اللقاء ونهاية اللقاء ، فأنت لا تملك من عناصره شيئاً .

أما لقاؤك بربك عز وجل فهو الذى يدعوك لحضرته لا مرة بل خمس مرات فى اليوم والليلة ، ويفتح لك الباب لأنْ تقول كل ما تريد ، وتُنهِى اللقاء متى تحب .

وفى اللقاء يمنحك شحنة إيمانية تُعينك على أمر دينك ودنياك وتصلح ما فسد فى نفسك أو خواطرك ، وتغفر ما كان منك من صغائر الذنوب وتشرح صدرك ويطمئن بها قلبك .

وقد يسأل سائل : وكيف يحدث لى هذا كله ؟

نقول : الله سبحانه غيب ، فحين يصلحك يصلحك بغيبه ، وحين يعطيك يعطيك بغيبه من حيث لا تشعر ومن حيث لا تحتسب . لذلك سيدنا رسول الله ﷺ كان إذا حزبه أمر قام إلى الصلاة [(١)]

وكان ﷺ يقول عن الصلاة : « أرحنا بها يا بلال »[(٢)] وعليك أن تقتدى به ، فإذا ضاقت بك الأسباب ، وإذا ألمَّ بك هَمّ أو غَمّ فاهرع إلى الصلاة .

وطبيعى أن تكون الاستجابة لأمره تعالى موقوتة بالحياة الدنيا فهى مجال العمل ، لذلك قال ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ (٤٧)﴾ [الشورى] أى : يوم القيامة الذى لا يرده أحد ، ولا يُؤخِّره عن وقته .

﴿مَا لَكُم مِّن مَّلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ (٤٧)﴾ [الشورى] أى : تلجئون إليه ويحميكم من العذاب ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ (٤٧)﴾ [الشورى] ينكر عذابكم أو يعارضه ويستنكره .

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ ۗ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ (٤٨)﴾

---

(١) أخرجه أبو داود فى سننه (١١٢٤) ، وأحمد فى مسنده (٢٢٢١٠) والبيهقى فى دلائل النبوة (١٣٣٥) والبيهقى فى شعب الإيمان (٣٠٣١ ، ٣٠٣٢) وأبو عوانة فى مستخرجه (٥٥٠٥) وأبو نعيم فى معرفة الصحابة (٤٢١٦) من حديث حذيفة بن اليمان .

(٢) أخرجه أبو داود فى سننه (٤٣٣٣) وأحمد فى مسنده (٢٢٠٠٩) وابن أبى عاصم فى الآحاد والمثانى (٢١٢٠) والطبرانى فى الكبير (٦٠٩١) عن رجل من أسلم .

قوله تعالى : ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا ..(٤٨)﴾ [الشورى] أى : عن كل هذه المسائل وتركوك وانصرفوا عن المنهج الذى جئتهم به ، ومنه قوله سبحانه : ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ (٨٣)﴾ [الإسراء] فإن انصرفوا عنك يا محمد ﴿فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاغُ .. (٤٨)﴾ [الشورى]

هذه تسلية لسيدنا رسول الله ﷺ ، لأنه كان دائماً حريصاً على هداية القوم يحزنه إعراضهم وانصرافهم عن الهدى الذى جاء به ، وقد كان يشق على نفسه فى هذه المسألة حتى يكاد أن يهلكها ، لذلك خاطبه ربه فى أكثر من موضع يُسلِّيه ويُخفِّف عنه وينهاه أنْ يُحمِّل نفسه فوق طاقتها .

قال تعالى : ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣)﴾ [الشعراء] وقال فى الكهف : ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَـٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا (٦)﴾ [الكهف]

وهنا يقول له : ﴿فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا .. (٤٨)﴾[الشورى] يعنى : مراقباً لهم مَنْ آمن ومَنْ كفر ، فمهمتك يا محمد هى مجرد البلاغ ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاغُ ..(٤٨)﴾ [الشورى] وليس لك أنْ تجبر أحداً على الإيمان .

ثم يُقرر الحق سبحانه حقيقة طبع عليها الإنسان ﴿وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا .. (٤٨)﴾ [الشورى] هذا أمر منطقى أنْ يفرح الإنسانُ بالرحمة وبالخير يُساق إليه ، والفرح هنا بمعنى البطر ، والإنسان هنا اسمُ جنس يفيد العموم .

﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الإِنسَانَ كَفُورٌ (٤٨)﴾

[الشورى] لاحظ أن الرحمة لم تُنسب إلى الإنسان لأنها ليستْ من عمل يده ، إنما نُسبت إليه السيئة لأنها نتيجة سَعْيه وجنى يديه .

إذن : لا تُنسب السيئة إلى الله لأنها بعملك أنت ، فإنْ نسبتَها لله فقد كفرتَ به ﴿ فَإِنَّ الإِنسَانَ كَفُورٌ (٤٨) ﴾ [الشورى] كفور لنعمة الله عليه ، ومن كفران النعمة أنْ تنسب الأسباب لغير المسبب .

وكفران النعمة وجحودها طَبْع فى الإنسان إلا مَنْ رحم الله ، فمثلاً يأتيك رجل يطرق بابك لتتوسط له فى مصلحة فتقف إلى جواره وتساعده حتى يقضى مصلحته ، الحقيقة أن الله هو الذى يقضى ويُيسِّر ، وما أنت إلا سبب ، وقد صادف تدخلك فيها وقت قضائها . يعنى : كانت ستُقضى بدون واسطة .

إذن : شفاعتك لم تأتِ بالمصلحة للغير إنما صادفتْ القبول ، العجيب بعد ذلك أنْ تجد الإنسان مُتغطرساً لا يعترف بالجميل لصاحبه وينسبها لنفسه : أنا عملتُ كذا وكنتُ على استعداد لكذا وكذا ، لماذا ؟ لأن الجميلَ إحسانٌ ، والإحسانُ يجعلك ذليلاً لمن أحسن إليك .

أحسِنْ إلَى النّاسِ تستعبِد قُلُوبَهُم فَطَالَما اسْتَعْبدَ الإنْسَانَ إحْسَانُ[1]

فمَنْ ينكر الجميل يريد أنْ يتحرر من هذه الذِّلة ، وما أشبه مُنكر الجميل بقارون الذى قال : ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي.. (٧٨) ﴾

---

(١) قائل البيت هو أبو الفتح البستى على بن محمد ولد فى بُست قرب سجستان له ديوان شعر صغير فيه بعض شعره ، توفى عام ٤٠٠ هجرية . والبيت من قصيدة شهيرة له مطلعها : زيادة المرء فى دنياه نقصان وهى من بحر البسيط عدد أبياتها ٦٤ بيتاً . [الموسوعة الشعرية] .

[القصص] وقديماً قالوا : اتَّقِ شر مَنْ أحسنتَ إليه ، لماذا ؟ لأنك تُذكِّره بحال ضعفه وحاجته للمساعدة .

إذن : ﴿فَإِنَّ الإِنسَانَ كَفُورٌ (٤٨)﴾ [الشورى] أى : للنعمة يحب أنْ ينسبها لنفسه ، وفى ذات الوقت يُبعد عنها الشر والسيئة ، وكلاهما كُفرانٌ لنعمة الله .

والحق سبحانه حينما يُحدِّثنا عن نعمته يقول : ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا (٣٤)﴾ [إبراهيم] أولاً : استخدام (إنْ) التى تفيد الشك ، لأن نِعَم الله من الكثرة بحيث لا تُعَدّ ، ولا يُقدم أحد على عَدِّها لأنك لا تقبل على العَد إلا لشىء مظنة الإحصاء ، فلا أحدَ يقول مثلاً : أعد حبَّات الرمال .

كذلك نِعَم الله فوق إمكان العَدِّ والإحصاء ، ثم جاء بلفظ ﴿نِعْمَتَ (٣٤)﴾ [إبراهيم] بصيغة المفرد ولم يقل نِعَم ، فالنعمة الواحدة لا تُعدُّ ، فما بالك بالنِّعَم ؟

وهذه الآية ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا (٣٤)﴾ [إبراهيم] جاءت بهذا اللفظ فى موضعين من كتاب الله ، واحدة خُتِمتْ بقوله تعالى : ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤)﴾ [إبراهيم] والأخرى بقوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٨)﴾ [النحل]

فاختلاف تذييل الآيتين له معنى ، لأن أمر النعمة له عناصر ، مُنعِم وهو الله عز وجل ، ومُنعَم عليه وهو العبد ، ثم النعمة وهى التى لا تُعَدُّ ولا تُحصَى .

فصفة المنعِم سبحانه أنه كريم يعطى عبده ويتفضَّل عليه حتى

وإنْ جحد النعمة أو كفر بها ، لذلك قال : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٨)﴾ [النحل] والمنعَم عليه من صفته أنْ يجحد النعمة ، وأنْ يكفرَ بها ظلماً وعدواناً ، لذلك قال فى الأخرى : ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤)﴾ [إبراهيم]

﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٥٠)﴾

الحق سبحانه يتكلم هنا عن ملكيته تعالى للسماوات وللأرض كظرف للأشياء ، وفى أول السورة تكلم عن ملكيته تعالى لما فى السماوات وما فى الأرض ، فقال : ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (٤)﴾ [الشورى]

إذن : لله تعالى مُلْك السموات والأرض وما فيهما من شىء ، وهذا الأسلوب ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ (٤)﴾ [الشورى] و﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ .. (٤٩)﴾[الشورى] يُسمى أسلوب قَصْر ، حيث قدّم الجار والمجرور على المبتدأ لإفادة القصر ، فالمعنى : لله وحده ما فى السموات وما فى الأرض مقصور عليه ، ولله وحده مُلْك السماوات والأرض ، فالملكية هنا ليس لها شريكٌ ولا منازعٌ .

ومادة (م ل ك) تُنطق فيها الميم على وجوه ثلاثة : الفتح والضم والكسر ، كلمة ملك بالكسر هو كل ما فى حوزتك وتتصرَّف فيه ، وبالضم وهو التصرّف فى ملك مَنْ يملك ، وهو المعروف فى

نظام المملكة ، وبالفتح مثل قوله تعالى : ﴿مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا .. (٨٧)﴾ [طه] يعنى : غصْباً عنا وبغير إرادتنا .

أما اللام فى ملك فتأتى أيضاً بالكسر ملِك ، وهو مَنْ يُملَّك فى غيره فى تصرفه وفى إرادته ، وبالفتح ملك وهو المخلوق الأعلى من الملائكة . وملاَك الأمر . يعنى ؛ جوهره وحقيقته .

وقوله تعالى : ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. (٤٩)﴾ [الشورى] يعنى : هو صاحبها وهو خالقها ومُبدعها ، لأنك قد تملك ما لا تعمل .

﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ (٤٩)﴾ [الشورى] يعنى : خلقه وفق إرادته ومشيئته هو ، وله طلاقة القدرة فى مسألة الخلق لا يعجزه فيها شىء ولا يستعصى عليه أمر .

لذلك يعطينا الدليل على ذلك من واقع حياتنا المشاهد فى المجتمع وكلنا يعرفه ، اقرأ : ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا .. (٥٠)﴾ [الشورى] أولاً لاحظ أن هذه المسألة هبة من الله الخالق سبحانه ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ (٤٩)﴾ [الشورى] يعنى : ليستْ حقاً لأحد ، وليست حقاً لكل مَنْ ملَك أسبابها ، فقد تتوافر الحياة الزوجية ولا يأتى لها ثمرة إنجاب ويُبتلَى الزوجان بالعقم وهو أيضاً هبة من الله .

والذى يرضى بهذه الهبة ويؤمن أنها من الله يُعوِّضه الله ويرى من أولاد الآخرين من البر ما لا يراه الآباء ، ويتمتع بهذا البر دون تعب ودون مشقة فى تربية هؤلاء الأولاد ، وفى واقع حياتنا قد يأتى الابن ويكون عاقاً لوالديه .

ثم تلاحظ أن الحق سبحانه قدّم الإناث على الذكور ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩)﴾ [الشورى] لماذا ؟ لأن الإناث كان النوعَ المبغوض غير المرغوب فيه فى الجاهلية ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم

بالأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ[1] (٥٨) يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٥٩) ﴾ [النحل]

ولم ينته الأمر عند حَدِّ الكراهية للبنات ، بل تعدَّاه إلى قتلهن ووأدهن كما قال سبحانه : ﴿ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ (٨) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ (٩) ﴾ [التكوير] ذلك لأن البنت ضعيفة لا تَقْوى على العمل ولا تشارك قومها فى حروبهم المستمرة ، وهى عِرْض ينبغى المحافظة عليه .

فلما جاء الإسلام غيَّر هذه الصورة تماماً ، ورفع من شأن الأنثى ، وجعل النساء شقائق الرجال ؛ لذلك قدَّم هنا الإناث على الذكور ﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩) ﴾[الشورى] ورقَّق قلوب هؤلاء الغلاظ نحو الأنثى ، وحبّبهم فيها وعلّمهم أنها وعاؤكم الذى خرجتم منه ، فهى صاحبة فضل على كل ذكَر .

علَّمهم أن الأنثى لا يستقيم أمرها فى مجتمعها إلا حين تُرْعى ويحافظ عليها ويهتم بها وليُّها ؛ لأن كراهية الأنثى تحملها على الاعوجاج وتُرغمها على التخلِّى عن دورها ، فالبنت حين يحبها أهلها ويكرمونها ويحنُّون عليها تتعود على الكرامة وعزة النفس ولا تقبل الإهانة من أحد ، لأنها شبَّت على أنها غالية عند أهلها عزيزة لديهم ، فلا يجرؤ أحد على التعدِّى عليها ولو بكلمة .

على خلاف البنت التى هانت على أهلها ، وشبَّت بينهم على

---

(١) كظيم : مكظوم . من كظمه الغيظ أى كربه وأحزنه وأسكته وشقَّ عليه . [القاموس القويم ١٦٣/٢] . ورجل مكظوم وكظيم : مكروب قد أخذ الغم بكظمه فهو يتجرع الغيظ ويحتمل سببه ويصبر عليه . [لسان العرب – مادة : كظم] .

مشاعر الكراهية والاحتقار ، فنراها تهون على نفسها ، ونراها رخيصة تفرط فى كرامتها وتستميلها ولو بكلمة .

ثم يُرقِّى الحق سبحانه عطاءه للعبد ، فيقول ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا .. (٥٠)﴾ [الشورى] يعنى : يزاوج بين النوعين ، فيهب لك الذكور ويهب لك الإناث .

﴿وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا (٥٠)﴾ [الشورى] يعنى : يحرم هذه الهبة لحكمة أرادها الله .

وحتى لا يفخر أحد على أحد ، ولا يتعالى أحد على أحد يُعلِّمنا ربنا عز وجل أن مُسألة الإنجاب هذه أو عدم الإنجاب لا تؤثر على منازل العباد عند الله تعالى ، فحين أهَب الذكور أو الإناث أو أزاوج بينهما لا يعنى هذا رضاى عن عبدى ، وحين أحرمه لا يعنى هذا سخطى على عبدى ، إنما هى سنتى فى خَلْقى أنْ أهبَ الذكور وأنْ أهبَ الإناث ، وأنْ أجعل مَنْ أشاء عقيماً .

لذلك تجدون هذه السُّنة نافذة حتى فى الرسل الذين هم أكرم الخَلْق على الله ، فسيدنا لوط وسيدنا شعيب وهبهما اللهُ الإناثَ ، وسيدنا إبراهيم وهبه الله الذكور ، وسيدنا محمد وهبه الله الذكور والإناث ، فكان له عبد الله والقاسم وإبراهيم وزينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة .

إذن : لكم فى رسول الله أسْوة حسنة . والذين يستقبلون أقدار الله فى هذه المسألة بالرضا ، ويرتفع عندهم مقام الإيمان والتسليم ، ويؤمنون أن هذه هبة من الله حتى العقم يعتبرونه هبة ، هؤلاء يُعوِّضهم الله ، فحين ترضى مثلاً بالبنات وتُربِّيهن أحسن تربية ، وتُحسن إليهنَّ يجعل الله لك من أزواجهن مَنْ يُعوِّضك عن الولد ، وربما كانوا أبرَّ بك من الأبناء بآبائهم .

وتختتم الآية بقوله تعالى : ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾ [الشورى] والعليم يهب على قَدْر علمه بالأمور ، وبما يصلح عبده وما لا يُصلحه ، فهو وحده سبحانه الذى يعلم أن هذا يصلح هنا ، وهذا يصلح هنا ، ثم هو سبحانه ﴿قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾ [الشورى] له القدرة المطلقة فى مسألة الخَلْق ، لا يعجزه شىء ولا تقيده الأسباب .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾﴾

نعم . هذه وسائل ثلاث لا بدَّ من وجود واحدة منها ليتمَّ اتصال الحق سبحانه بالبشر ، ذلك لأن للبشر طبيعة تكوينية لا تَقوَى على مباشرة الأعلى سبحانه ، فلله صفات الجلال والكمال المطلق ، ولا يمكن أنْ يلتقى الأعلى بالأدنى دون وسائط ، منها الإلهام مثل الزبور الذى نزل على سيدنا داود ، فلم ينزل عليه بوحى من الله بواسطة رسول كما نزل القرآن ، إنما جاء إلهاماً قذفه الله فى روع سيدنا داود .

يقول تعالى : ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ

---

(١) سبب نزول الآية : ذكر الواحدى فى أسباب النزول (ص ٢١٤) أن اليهود قالوا للنبى ﷺ : ألا تكلم الله وتنظر إليه إن كنت نبياً كما كلم الله موسى ونظر إليه ؟ فإنَّا لن نؤمن بك حتى تفعل ذلك . فقال : لم ينظر موسى إلى الله . وأنزلت الآية . وذكره أيضاً القرطبى فى تفسيره (٩/٦٠٩٧) وقال : « ذكره النقاش والواحدى والثعلبى » .

حِجَابٍ .. (٥١) ﴾ [الشورى] كما كلم سيدنا موسى ﴿ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً .. (٥١) ﴾ [الشورى] يعنى : يرسله بالوحى ، والرسول هنا من الملائكة ، كما أرسل الله جبريل بالقرآن ، وإنْ نزل فى صورة بشر ليكون أقربَ إليهم وآنسَ لهم .

فقوله : ﴿ إِلاَّ وَحْيًا .. (٥١) ﴾ [الشورى] أى : إلهاماً يقذفه الله فى قلب مَنْ يشاء ، فإنْ قلتَ : فكيف نعرف الإلهام من وسوسة الشيطان ؟ قالوا : الإلهام من الله لا يناقضه مخالفة ، بل يدخل عليك مُسلَّمة لا جدالَ فيها ، وقلنا : إن وارد الرحمن لا يزاحمه وارد الشيطان أبداً .

ومثَّلنا لذلك بقوله تعالى فى قصة سيدنا موسى وأمه : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى الْيَمِّ وَلا تَخَافِى وَلا تَحْزَنِى إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧) ﴾ [القصص]

هذا وحى من الله بطريق الإلهام ، لذلك لم تناقشه أم موسى ولم تجادل فيه ، بل أقبلتْ على تنفيذه راضية مطمئنة ، وإلاَّ فأىُّ قياس عقلى يقول للأم ، إذا خِفْتِ على ولدك فألقيه فى اليمِّ .

ونذكر هنا وقفة للمستشرقين حاولوا فيها أنْ يجدوا على القرآن مأخذاً ، فقالوا بتكرارها ، لأن الحق سبحانه قال فى موضع آخر : ﴿ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ (٣٨) أَنِ اقْذِفِيهِ فِى التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِى الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِى (٣٩) ﴾ [طه]

والمتأمل فى الموضعين يجد الآية الأولى كانت تمهيداً للحدث بدليل ﴿ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ .. (٧) ﴾ [القصص] فإذا للمستقبل ، أما قوله تعالى : ﴿ أَنِ اقْذِفِيهِ فِى التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِى الْيَمِّ .. (٣٩) ﴾ [طه] فكان وقت التنفيذ .

وقوله ﴿أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ .. (٥١)﴾ [الشورى] قلنا : كما كلَّم الله سيدنا موسى عليه السلام ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ .. (٥١)﴾ [الشورى] الوحى هنا ليس إلهاماً كالأول ، إنما وحى مباشر بواسطة رسول من الملائكة ، كما حدث فى نزول القرآن الكريم على قلب سيدنا رسول الله بواسطة أمين الوحى جبريل ، وكان يأتى رسول الله مباشرة ويعطيه ما شاء الله من القرآن .

إلا أن الله تعالى أراد أنْ يُثبِّت هذه المسألة عندهم ، فمرة يأتيهم جبريل فى صورة رجل حسن المنظر لا يُرى عليه أثر السفر ، كما ورد فى الحديث ، ويسأل رسول الله ويُصدِّقه ليتعلّم الناسُ منه أمور الدين ، فلما انصرف قال سيدنا رسول الله « إنه جبريل أتاكم يُعلِّمكم أمور دينكم »[(١)] .

وهذه المسألة نرد بها على الذين طلبوا أنْ يكونَ الرسولُ من الملائكة ، لأن الرسول لو جاء ملَكاً لجاءهم فى صورة رجل ليتمكنوا من التلقِّى منه ، ثم إن الرسول أسْوة وقدوة سلوك ، والقدوة لا تتم بالملائكة لأنه إنْ قال لى افعل كذا وكذا لى أن أقول له لا أقدر على ذلك ، فأنت ملَك وأنا بشر لى قدرة محدودة .

إذن : نقول إن القرآن لم يأْت إلهاماً ولا نَفْثاً فى الرَّوع ، ولم يأتِ من وراء حجاب ، إنما جاء بالوحى المباشر بواسطة الملَك ، وقد رأى سيدنا رسول الله جبريل على صورته الحقيقية ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً

---

(١) حديث صحيح متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٨ ، ٤٤٠٤) ومسلم فى صحيحه (١٠ ، ١١) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه . وكذا أحمد فى مسنده (٩١٣٧) ، وورد عند أحمد من حديث ابن عمر (٣٥٢) .

أُخْرَىٰ (١٣) عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ (١٤) ﴾ [النجم] ومسألة الوحى والتلقى عن الحق سبحانه تقوم كلها على الاصطفاء ﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ (٧٥) ﴾ [الحج]

فليستْ كل الملائكة تتلقَّى عن الله ، بل مَن اصطفاه الله لذلك ، ثم يصطفى من الناس رسلاً تتلقَّى عن الملَك ، فالمصطفى من الملائكة ومعه المصطفى من البشر يُمكنهما التلقّى عن الله ، وتذكرون أننا مثَّلنا لذلك بـ (الترانس) أى المحول الذى يعطى الجهاز الكهرباء على قدْر حاجته وإمكانياته ، ولو ارتفع التيارُ لاحترق الجهاز ، كذلك البشر لا يمكن أنْ يتلقوا عن الله مباشرة .

لذلك خُتمَتْ الآيةُ بقوله سبحانه : ﴿ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ (٥١) ﴾ [الشورى] يعنى : أعلى من أن يخاطب البشر مباشرة ، فالله أعلى من ذلك ﴿ حَكِيمٌ (٥١) ﴾[الشورى] فى اختياره فيمن يصطفيه للتلقِّى عنه سبحانه .

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٢) ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ ..(٥٢) ﴾ [الشورى] إشارة إلى ما سبق بيانه فى الآية السابقة من وسائل الوحى الثلاثة ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ (٥٢) ﴾ [الشورى] يا محمد ﴿ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا (٥٢) ﴾ [الشورى]

الروح هنا : هو جبريل عليه السلام أمين الوحى فسمَّى الله جبريل روحاً كما سمى القرآن نفسه روحاً ، فشبَّهه بالروح التى يلقيها الحق سبحانه فى الإنسان فتدبّ فيه الحياة والحركة بعد أنْ كان قطعة لحم لا حِرَاكَ فيها ولا حياة .

تعرفون أن الإنسان خلقه اللهُ من طين ، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ، وحين يتكوَّن الجنين فى بطن أمه يرسل الله له ملَكاً ينفخ فيه من روحه تعالى بعد ١٢٠ يوماً من حمله ، فتسرى فيه الحياة ، وتعمل الجوارح ، وتتحرك الأعضاء .

فكما كانت الروحُ حياةً للأبدان كان القرآنُ حياةً للقلوب وللقيم ، من هنا سمَّى اللهُ جبريلَ روحاً ، وسمَّى القرآنَ روحاً ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ .. (٢٤) ﴾ [الأنفال]

فالحق سبحانه يخاطبهم وهم أحياء حياةَ البدن والمادة ، إذن : الحياة هنا حياة الروح ، والقلب ، حياة القيم والمبادىء ؛ لأن الحق سبحانه ما كان ليعطى عبده روحاً تُحرِّك مادته وتُسيِّر جوارحه ، ثم يترك قيامه بدون منهج وبدون قيم وبدون أخلاق .

ومن كرامة الإنسان على الله تعالى أن يمنحه هذه الروح التى يحيا بها قلبه وقيمه وأخلاقه ؛ لأن حياة البدن والمادة حياة موقوتة فانية تفنى بفناء البدن .

أما حياة القيم والمنهج فحياة باقية دائمة تصل حياتك فى الدنيا بحياتك فى الآخرة ، وهذه هى الحياة المقصودة فى قوله سبحانه وتعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ .. (٢٤) ﴾ [الأنفال]

وقوله تعالى : ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ .. (٥٢)﴾ [الشورى] أى : لا تعرف شيئاً عن القرآن أو لا تعرف الكتابة ، ولا تعرف الإيمان يعنى الشرائع التفصيلية ، وقلنا : إن الأمية شرف فى حق رسول الله ، وشرف فى حَقِّ أمته ، فالأمية مذمومة إلا فى رسول الله وفى أمة رسول الله .

ولو كان محمد متعلماً يقرأ ويكتب لقالوا إنه جاء بالقرآن من عند نفسه ، ولو كانت أمته أمةَ تعليم وحضارة لَقالُوا عن الإسلام قفزة حضارية يريدون أنْ يسودوا بها العالم .

فمن عظمة محمد أنْ يقول له ربه : ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ (٥٢)﴾ [الشورى] ويُرْوى أن الخليفة المأمون[1] قال لرجل يريد الذم : أنت أمى ، فقال الرجل : إن رسول الله أمى ، فقال له المأمون : الأمية فى رسول الله شرف ، وفيك تلف[2] .

لذلك أمر الحق سبحانه نبيه فى موضع آخر أنْ يقول : ﴿قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلا

---

(١) المأمون : هو عبد الله بن هارون الرشيد ، سابع الخلفاء العباسيين في العراق ، أحد أعاظم الملوك في سيرته وعلمه وسعة ملكه . ولد ١٧٠ هجرية وتوفى ٢١٨هـ عن ٤٩ عاماً . [الأعلام للزركلى ٤/١٤٢] .

(٢) أورد ابن الأبار فى (إعتاب الكتاب) أنه قيل للمأمون : إن من أعظم آيات النبى أنه أدى عن الله رسالته ، وحفظ عنه وحيه وهو أمى لا يعرف من فنون الخط فناً ، ولا يقرأ من سائره حرفاً فبقى عمود ذلك فى أهله ، فهم يشرفون بالشبه الكريم فى نقص الخط كما يشرف غيرهم بزيادته ، وإن أمير المؤمنين أخص الناس برسول الله والوارث موضعه والمتقلد لأمره ونهيه ، فعلقت به المشابهة الجليلة وتناهت إليه الفضيلة فقال المأمون : يا محمد لقد تركتنى لا آسى على الكتابة ولو كنت أمياً .

تَعْقِلُونَ (١٦) ﴾ [يونس]

نعم أين عقولكم ، فلقد لبث محمد بين أظهركم عمراً قبل الرسالة ، وأنتم أدْرَى الناس به ، وتعلمون أنه أُمى لا يعرف القراءة ولا الكتابة ولم تَرَوْهُ من قَبْلَ خطيباً ولا شاعراً ، لذلك كان من غبائهم وعنادهم أن اتهموا رسول الله أنه يختلف إلى رجل أعجمى يعلمه القرآن ، فكشف القرآن زيفهم وقال : ﴿ لِّسَانُ الَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ (١٠٣) ﴾ [النحل]

إذن : ما نزل على محمد شىء جديد ليس من صنع بشر ﴿ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَـٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا .. (٥٢) ﴾ [الشورى] كلمة ﴿ جَعَلْنَاهُ .. (٥٢) ﴾ [الشورى] أى : القرآن ﴿ نُورًا .. (٥٢) ﴾ [الشورى] ضياءً يزيح ظلام الجهل والكفر ، وهذا النور هو الذى يهدى مَنْ يشاء الله له الهداية فيسير فى الأرض على هدى وعلى بصيرة بحيث لا يصطدم بشىء .

والتصادم يعنى الخسارة والهلاك فإن اصطدمتَ بما هو أقوى منك حطَّمك ، وإن اصطدمتَ بما هو أضعف منك حطمته ، لذلك قلنا : إننا فى واقع حياتنا لا بدّ أنْ نحتفظ بشىء من الضوء ، حتى حال النوم نترك (ونَّاسة) خافتة لنهتدى بها فى ظلمة الليل حتى لا نتخبط إذا قُمْنا بالليل .

ومن نور المادة نرتقى إلى نور الروح والقلب ، وإلى المنهج الذى يُنير حياتنا المعنوية ، هذا النور الذى قال الله عنه : ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ (٤٠) ﴾ [النور]

قلنا : والإنسان ينير مجال حركته فى الحياة على قدره ، فواحد يُنوِّر حياته بشمعة ، وآخر بلمبة جاز ، وآخر بالكهرباء وهكذا ، لكن

إذا سطعتْ الشمس غطى نورها على كل الأنوار كأنها تقول لنا : أطفئوا أنواركم فقد جاءكم نور الله ، وحين نرتقى من النور المادى إلى النور القيمى نقول : إذا جاءكم نور المنهج من الله فأوقفوا كل مناهجكم .

وإذا جاءكم الحكم من الله فأوقفوا كلَّ أحكامكم وكل آرائكم ومقترحاتكم ، ففى شرع الله ما يغنيكم عن كلٍّ هذا ، فكما أنك لا تحتاج إلى ضوء مصباحك أثناء النهار ، كذلك لا تحتاج إلى أىٍّ منهج آخر مع منهج الحق سبحانه فاستغنوا به عن غيره .

فإذا ما قارنت نور الله بنور البشر ظهر لك الفرقُ واضحاً ، فى النور المادى أو المعنوى ، فأنت تأتى بالشمعة مثلاً وتضع فيها فتيلاً ، وتأتى بالكبريت لتشعلها ، ومع ذلك لو هبَّتْ عليها ريح تُطفئها ، واللمبة الكهرباء تحتاج إلى أدوات لصناعتها وإلى (ترانس) ينظم الكهرباء وخلافه وبعد شهر تحتاج غياراً ، ولو زاد عليها التيار تحترق وهكذا .

أما الشمس فتضىء العالم كله ، لا تحتاج منك إلى مزاولة شىء ولا إلى قطعة غيار ولا صيانة ، ثم إن ضوءك يعمر بقدر عمرك ، أما ضوء الشمس فباقٍ دائم دوامَ الكون وبقاء الدنيا من قبل آدم وإلى قيام الساعة .

كذلك الفرق واضح فى النور المعنوى ، فأنتم ترونَ مناهج البشر وقوانينهم لا تخلو من أخطاء ومن سلبيات ، فإنْ ناسبتْ جماعة تعارضتْ مع جماعة أخرى ، لذلك نراهم يلجأون إلى تغيير هذه القوانين من حين لآخر ، فهى مناهج قاصرة قصور البشر .

أما مناهج السماء فهى كاملة خالية من الأخطاء تراعى كل الظروف ، وتصلح لكل زمان ولكل مكان ، لأنها جاءتْ من الله العليم بحال خَلْقه ، الخبير بما يُصلحهم ، وبما يقيم حياتهم .

إذن : الحق سبحانه مَا كان ليمنحنا النور المادى ويحرمنا النور المعنوى لأنه أهمُّ وأقوى فى حياتنا من النور المادى ، ألاَ ترى أن الأعْمى يستطيع أنْ يتحسَّس طريقه ، ويستطيع أنْ يأتى بمَنْ يقوده ويُوصِّله إلى غايته .

أما مَنْ فقد النور المعنوى فتراه يتخبط فى متاهات الحياة دون هدى ، وينتهى به الحال لا محالة إلى الضياع ، ثم إن نور المادة مرتبط بها ويفنى بفنائها ، أما نور القيم فبَاقٍ ممتدّ من الدنيا إلى الآخرة ، وهو أصل الخلافة فى الأرض .

لذلك الحق سبحانه يشرح لنا هذه المسألة فى سورة النور ، فيقول سبحانه : ﴿نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ (٣٥)﴾ [النور]

فمعنى ﴿نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ (٣٥)﴾ [النور] يعنى : نور الهداية والقيم على نور المادة لتسير فى دنياك على هدى وعلى بصيرة ، وتسلم من الانحراف والضلال فى الدنيا ، ثم يُوصِّلك هذا النور إلى سلامة الآخرة والفوز فيها ، وهذا مثل ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ (٣٥)﴾ [النور] ليوضح لهم ما خَفِى عليهم ، فالنور المادى دليل على المعنوى ، والمؤمن يرتقى من النور المادى إلى النور المعنوى .

ثم يُبيِّن لنا الحق سبحانه مصدر هذا النور فى الآية التى بعدها : ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ

وَالآصَالِ (٣٦)﴾ [النور] يعنى : يا مَنْ أردتَ هذا النور المعنوى فالتمسْه فى بيوت الله فهى مصدر إشعاعه ، التمسْه فى الصلاة وفى ذكر الله وفى تنفيذ المنهج الذى جاءك من الله .

فالقرآن إذن نور عام حين نُوظِّفه يعطينا نوراً آخر هو نور الطاعات والعبادات ، وأسْمَى مصدر لهذا النور هو المسجد .

لذلك العلماء لمَّا بحثوا فى متعلق الجار والمجرور فى ﴿فِي بُيُوتٍ .. (٣٦)﴾ [النور] قالوا هو مُتعلِّق بقوله ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ (٣٥)﴾ [النور] كأنك تقول : نور على نور فى بُيوت أذن الله أن تُرفع وهى المساجد . وهذه البيوت متصل فيها تسبيح الصباح بتسبيح المساء ، وعُمَّار هذه المساجد يُوصفون بأنهم ﴿رِجَالٌ (٣٧)﴾ [النور] نعم ومَنِ الرجال إذا لم يكن هؤلاء ؟

إذن : الحق سبحانه يعطينا النور المعنوى المتمثل فى منهجه تعالى بافعل ولا تفعل ، وبهذا المنهج تستقيم بالبشر أمور الحياة ، لكن سرعان ما يحدث منهم غفلة أو نسيان أو انفلات من هذا المنهج فيقعون فى المعصية ، وتطرأ عليهم أقضية جديدة ومشاكل بقدر انفلاتهم وما يُحدثون من الفجور ومخالفة المنهج .

لذلك رأينا الرسل جاء الواحد بعد الآخر بمناهج مُترقِّية ، كل منهج منها يناسب القوم ويُصلح العلل الموجودة فى هذا الوقت ، مع أن هذه الشرائع اتحدتْ جميعها فى أمور العقائد والأخلاق ، وفى ثوابت الدين مثل الصلاة والزكاة ، ثم بعد ذلك يأتى الرسول بأحكام خاصة تناسب حال قومه وتعالج أدواءهم .

والمتأمل فى موكب الرسالات يجد أنها تتطور بتطوُّر حركة

الحياة وما يستجد فى حياة الناس من أقضية ، نحن مثلاً فى الريف نجعل بين الحقول سكة ضيقة تسع مثلاً مرور شخص واحد ، أو حماراً محملاً ويُسمُّونها (مدقّ) غرضه أنْ نصل من خلاله إلى حقولنا لكن إنْ أردنا طريقاً بين قريتين نُوسعه بعض الشىء ليسع سيارة مثلاً ، فإن كان بين مدينتين كان أوسع .

وهكذا رأينا تطوراً كبيراً فى إنشاء الطرق تطوراً يناسب حركة الحياة التى تطورتْ ، انظر مثلاً طريق مصر الإسكندرية الصحراوى تجده طريقاً متسعاً واسعاً ليسع حركة المرور عليه ، وهو اتجاهان ذهاب وإياب ، به استراحات فيها كل ما تحتاجه لأنه طريق طويل .

الحق سبحانه حدَّثنا عن هذه المسألة فقال : ﴿ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً .. (٥٣) ﴾ [طه] وسيدنا عمر لما أرادوا أنْ يُخططوا مدينة البصرة[1] قال لهم : اجعلوا الطريق متسعاً لجملين محملين متقابلين ، وهذا هو ما نفعله فى العصر الحديث .

وفى سورة سبأ قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِى بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ (١٨) ﴾ [سبأ]

القرى الظاهرة هى المحطات فى الطريق الطويل والاستراحات التى تجد فيها حاجتك وترتاح فيها ، فالطريق الطويل لا بدَّ أنْ يُقسَّم إلى مراحل ليكون السفر مريحاً غير شاق ، وكلما ارتقتْ حركة الحياة ترتقى معها هذه الوسائل ، حتى أننا نرى فى بعض الاستراحات أماكن للراحة وللنوم .

لذلك الحق سبحانه يحكى عن الذين تعدَّوْا وظلموا أنفسهم من

---

(١) البصرة : مدينة عراقية تقع فى أقصى الجنوب الشرقى على رأس الخليج العربى يتجاوز سكانها ٢,٦ مليون نسمة ، هى المنفذ البحرى الوحيد للعراق على العالم ، بها أعراق وديانات كثيرة بين مسيحيين وسريان وأشوريين وصابئة والمسلمين . [موسوعة ويكيبيديا] .

الأعيان وأصحاب المراكب الفارهة حتى قالوا : ﴿ رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا .. (١٩) ﴾ [سبأ] لماذا مع أن السفر وبُعْد السفر مشقة ؟ قالوا : لأنهم أصحاب غِنى ومراكب لا تتوافر لغيرهم ، فأرادوا بذلك ألاَّ يقدر على السفر غيرهم ، ولا يسلُك هذه الطرق للتجارة إلا الأغنياء .

هذا مثل للارتقاء أيضاً فى التشريع ، فكلما جَدَّ جديد وكلما وجد أقضية جديدة ارتقى التشريعُ من رسول لآخر ليعالج هذه الأقضية ، إلى أنْ جاء التشريع الخاتم الصالح لكل زمان ومكان ، والذى قال الله عنه : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا .. (٣) ﴾ [المائدة]

وقوله تعالى : ﴿ وَلَـٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٢) ﴾ [الشورى] الكلام هنا عن القرآن ، جعله الله نوراً يهدى الله به مَنْ يشاء من عباده ، فأثبت أن الهداية لله بهذا النور المنزَّل فى الكتاب المحكم .

ثم أثبت أيضاً الهداية لرسول الله وفوَّضه فى أنْ يُشرِّع للناس بدليل قوله تعالى : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا .. (٧) ﴾ [الحشر]

فهداية الحق سبحانه فى الأصول والثوابت وهى ما ورد فى آيات الذكر الحكيم ، ثم هداية الرسول فى الفروع ، وفى بيان هذه الأصول وشرحها ، فإنْ جَدَّ فى حياتكم جديد ، وطرأ عليها من المسائل ما لم يأت بشأنه نَصٌّ ، لا من الكتاب ولا من السنة فأجمعوا أمركم وليكون الرأى شورى بينكم ، ولا تقضوا فى هذه المسائل برأى الفرد ، إنما برأى الجماعة .

لذلك ورد فى الحديث : « لا تجتمع أمتى على ضلالة »[(١)]

وما أجمل ما قاله شوقى[(٢)] رحمه الله :

رَأْىُ الجماعَةِ لاَ تَشْقَى البلادُ بِهِ ... رَغْمَ الخِلاَفِ ورأْىُ الفَرْدِ يُشْقِيها[(٣)]

لذلك جعلوا الإجماع هو المصدر الثالث من مصادر التشريع الإسلامى .

فهذه الآية أثبتت الهداية لله تعالى بالقرآن ﴿وَلَـٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ..(٥٢)﴾ [الشورى] وهذه خاصة بالأصول وثوابت الدين التى ورد بها نص فى كتاب الله .

ثم أثبتت هداية أيضاً لرسول الله فى الفروع ، وفى توضيح ما أُجملَ فى كتاب الله ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِى إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٢)﴾ [الشورى] وأعطتْ سيدنا رسول الله الحق وفوّضته فى التشريع للناس ، لذلك كانت سنته ﷺ هى المصدر الثانى للتشريع .

وقلنا : إن هداية الحق سبحانه للعبد هدايةُ بيان وإرشاد ودلالة ،

---

(١) أخرج أبو داود فى سننه (٣٧١١) قال رسول الله : « إن الله أجاركم من ثلاث خلال : أن لا يدعو عليكم نبيكم فتهلكوا جميعاً ، وأن لا يظهر أهل الباطل على أهل الحق ، وأن لا تجتمعوا على ضلالة » عن أبى مالك الأشعرى . وأخرج ابن ماجة فى سننه (٣٩٤٠) عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : « إن أمتى لا تجتمع على ضلالة ، فإذا رأيتم اختلافاً فعليكم بالسواد الأعظم » .

(٢) هذا البيت لحافظ إبراهيم وليس لأحمد شوقى . وحافظ وُلِد (١٨٧١م) وتوفى عام ١٩٣٢م . نشأ يتيماً ونظم الشعر فى أثناء الدراسة ، تخرج فى المدرسة الحربية عام ١٨٩٢م ، لقب بشاعر النيل .

(٣) البيت من قصيدة من بحر البسيط ، عدد أبياتها ٨ أبيات ، أولها :

يا رافعاً راية الشورى وحارسها ... جزاك ربك خيراً عن مُحبيها

فإنْ أطاع استحقَّ هداية التوفيق والمعونة ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧)﴾ [محمد] وهداية رسول الله هداية إرشاد وبيان فقط ، وقد أوضحنا هذه المسألة .

قوله تعالى : ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٢)﴾ [الشورى] أى : ترشد وتدل ، والصراط المستقيم هو الطريق السَّوى المستقيم الذى يُوصِّلك إلى غايتك فى أسرع وقت وبأقل مجهود ودون عناء ، لأن الطريق كلما اعوج ازداد زمنه ومشقته ، ثم إن هذا الطريق صراط يعنى محدد مثل الشعرة ، وهذا يعنى أنك لا بدّ أنْ تسير عليه بانضباط ، لا تنحرف عنه يميناً ولا شمالاً ، لذلك قال فى موضع آخر ﴿سَوَاءَ السَّبِيلِ (١)﴾ [الممتحنة] يعنى : وسطه .

والمراد بالصراط المستقيم المنهج الذى جاء به سيدنا رسول الله ، هذا المنهج الذى يصحبك فى الدنيا لتستقيم به أمور حياتك ، ثم يعطيك الجزاء فى الآخرة ، لذلك الحق سبحانه علّمنا أنْ ندعو ونقول : ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ .. (٧)﴾ [الفاتحة]

ثم يوضح الحق سبحانه طبيعة هذا الصراط :

﴿صِرَاطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ (٥٣)﴾ (١)

قوله تعالى : ﴿صِرَاطِ اللَّهِ .. (٥٣)﴾ [الشورى] أضاف الصراط

---

(١) صراط الله . قال على بن أبى طالب : هو القرآن . وقيل : هو الإسلام . ورواه النواس بن سمعان عن النبى ﷺ . (ذكره القرطبى فى تفسيره ٩/٦١٠٤) .

إليه سبحانه ، فهو صاحبه وواضعه ليس من إنشائكم . يعنى : لا دَخْلَ للعبد فيه ، وطالما أنه من الله فينبغى عليكم اتباعه والحذر من الانحراف عنه .

ثم يصف الحق سبحانه نفسه بهذه الصفة ﴿الَّذِى لَهُ مَا فِى السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ ..(٥٣)﴾ [الشورى] يعنى : صاحب هذا الصراط له ملْك ما فى السماوات وما فى الأرض ، يعنى فى الدنيا ، ثم تصير الأمور إليه وحده فى الآخرة .

﴿أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ (٥٣)﴾ [الشورى] وهذا أسلوب قصر يعنى : إلى الله وحده لا إلى أحد غيره .

إذن : هذا الصراط وهذا المنهج وضعه لكم الذى يملك الدنيا ويملك الآخرة ، فمَنْ سار على منهجه فى الدنيا لم يُحرم الجزاء فى الآخرة .

فالدنيا كلها (من) بداية صائرة إلى غاية هى الآخرة ، والغاية هذه إلى الله وحده ، فما بين (من) و (إلى) أحسنوا أموركم فيها لأنكم صائرون منها إلى الله ، وتذكّروا أن دار العمل موقوتة ، وأن دار الجزاء خالدة باقية ، هذه دار شَقاء وعَنَت ، وهذه دار نعيم ، فيها ما لا عَيْنٌ رأت ، ولا أذن سمعتْ ، ولا خطر على قلب بشر ، ومَنْ يخطب الحسناء يُغْلها المهر .

وتأمل كيف خُتمتْ هذه السورة بقوله تعالى : ﴿أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ (٥٣)﴾ [الشورى] (أَلاَ) أداة تنبيه . والتنبيه لا يكون إلا لأمر مهم ينبغى الاهتمام به ولا نغفل عنه ، قلنا : لأن المتكلم هو الذى يعى كلامه ووقته ولا يغفل عنه ، أما المخاطب فقد يغفل عما يُقال

فيحتاج إلى تنبيه فى الأمور المهمة .

هذا الأمر المهم ما هو ؟ هو ﴿أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ (٥٣)﴾ [الشورى] هذه برقية موجزة فى ختام السورة فى طياتها كلام كثير ، حتى فى البشر حينما يوصى الإنسان أولاده مثلاً قبل موته لا يُوصيهم بكل تفاصيل حركة الحياة ، إنما بالأمور المهمة .

فقوله سبحانه ﴿أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ (٥٣)﴾ [الشورى] يعنى : تنبهوا أنّ المسألة كلها من الله وإلى الله ، من الله منهج ، وإلى الله مرجع ومصير .

فانظر فى حركتك واجعلها موافقة لهذا المنهج ، واعلم أنك راجع إليه ، وأمرك صائر إليه وحده ، لأنه سبحانه لم يخلقنا عبثاً ، ولن يتركنا سُدى . هذه حقيقة ينبغى ألاَّ تغيب أبداً عن عقولنا .

• • •

سُورَةُ الزُّخْرُفِ

سورة الزخرف(١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾

سبق أنْ تحدثنا عن الحروف المقطعة فى بدايات بعض سور القرآن ، وأن لها حكمة مرادة من الحق سبحانه نحوم حولها ، ثم نقول : والله أعلم بمراده(٢) .

---

(١) سورة الزخرف هى السورة رقم ٤٣ ، عدد آياتها ٨٩ آية ، وهى مكية بإجماع كما قال القرطبى فى تفسيره . والزخرف : الزينة . وقال ابن سيده : الزخرف الذهب هذا الأصل ثم سُمِّى كل زينة زخرفاً ثم شبه كل مُموه مزوَّر به .

(٢) اختلف المفسرون فى الحروف المقطعة التى فى أوائل السور :

- فمنهم من قال : هى مما استأثر الله بعلمه . فردوا علمها إلى الله ولم يفسرها . حكاه القرطبى فى تفسيره عن أبى بكر وعمر وعثمان وعلى وابن مسعود . وقاله عامر الشعبى وسفيان الثورى والربيع بن خيثم واختاره أبو حاتم بن حبان .
- ومنهم من فسَّرها ، واختلف هؤلاء فى معناها :
- فقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، إنما هى أسماء السور .
- وقيل : هى اسم من أسماء الله .

قال ابن كثير فى تفسيره (١/٣٧) : مجموع الحروف المذكورة فى أوائل السور بحذف المكرر منها أربعة عشر حرفاً وهى (أ ل م ص ر ك هـ ى ع ط س ح ق ن) يجمعها قولك : نص حكيم قاطع له سر .

﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢﴾

الواو هنا للعطف ، يعنى ﴿حمٓ ۝١ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝٢﴾ [الزخرف] هما شىء واحد ، وهما قرآن يُقسم الله به ، لكن فصل بينهما بالعطف ، لأن ﴿حمٓ ۝١﴾ [الزخرف] نقرؤها ونؤمن بها ولا نعرف معناها ، بل نردها إلى المتكلم بها سبحانه ، أما ﴿ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝٢﴾ [الزخرف] أى : الواضح البيِّن المظهر للأشياء ، لذلك نفهمه ونعرف معانيه

﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٣﴾

هذا هو المقسَم عليه ، فالحق سبحانه يقسم بهذه الحروف العربية ، وبالكتاب المكوّن من هذه الحروف أنه جعله ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٣﴾ [الزخرف] سماه كتاباً لأنه مكتوب فى السطور ، وسماه قرآناً لأنه مقروء ، ووصفه بأنه عربى ليؤكد على أنه نزل بلسان القوم ، كما قال سبحانه : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ .. ۝٤﴾ [إبراهيم]

إذن : لابدَّ أنْ يكون الرسول بلسان قومه ليفهموا عنه ولتتم عملية البلاغ . فإنْ قلتَ : فكيف إذن أُرسِل محمد ﷺ إلى الناس كافة على اختلاف لغاتهم ؟

نقول : أُرسِل بلسان قومه الذين عاصروه وباشروا تلقِّى توجيهاته الأولى ، فلما فهموها واقتنعوا وآمنوا بصدقها حملوها إلى

غيرهم من الأمم ، وساحوا بها فى أنحاء الأرض حركةً وعملاً وسلوكاً وتطبيقاً .

هذا معنى الرسالة إلى الناس كافّة ، فالإعجاز فيها فى السلوك العملى والتطبيق ، لذلك يقول لنا التاريخ : إن الإسلام انتشر فى البلاد بالسلوك القويم الذى بهر الناس جميعاً فدخلوا فى دين الله أفواجاً ، واقرأ : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٣) ﴾ [فصلت]

ويقول سبحانه عن هذه الأمة : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا .. (١٤٣) ﴾ [البقرة]

وهكذا كلف الخلفاء جميعاً بحمل هذه الرسالة ، فالرسول يشهد أنه بلَّغنا ، والأمم الأخرى تشهد أننا بلَّغناهم .

إذن : باللغة فهمتْ هذه الأمة وترجمتْ هذا المنهج إلى عمل ، فتحوَّلَتْ من أمة أمية جاهلة لا نظام لها ولا قانون إلى أمة راقية جذبتْ إليها أرقى أمم الأرض مثل فارس فى الشرق ، والروم فى الغرب ، لقد زلزلوا هاتين الحضارتين حينما طبَّقوا تعاليم المنهج الذى جاءهم به محمد ﷺ ، هذا هو الذى لفتَ الأنظار إلى الإسلام .

لذلك لما نتأمل فى سورة سيدنا يوسف عليه السلام نجد هذا النموذج العملى التطبيقى للإيمان ، اقرأ : ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٣٦) ﴾ [يوسف]

لقد نال يوسف هذه المنزلة وصار مقصداً للسائلين ، لماذا ؟ لأنه وصل

إلى درجة الإحسان ، وهى القمة فى التطبيق العملى للمنهج الذى جاء به ، ثم يُوضح هو هذا المسلك العملى الذى أوصله إلى منزلة التأويل ، فيقول :

﴿ قَالَ لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٣٧) وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ (٣٨) ﴾ [يوسف]

يعنى : لو فعلتم مثلى لأصبحتم قادرين على فهم الرؤيا وتأويلها مثلى تماماً .

هذا المسلك العملى هو نفسه الذى جعل سيدنا يوسف عليه السلام يستغل الفرصة ليؤدى مهمته الدعوية ، فقبل أن يعطى السائلَيْن ما أرادا أعطاهما ما أراد هو أولاً من الدعوة إلى الله ، وهما فى وقت الحاجة إليه ، والاستماع لكل كلمة يقولها .

لذلك نراه يسرع بهذا الملخص الإيمانى العقدى فيقول : ﴿ يَـٰصَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٣٩) مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٤٠) ﴾ [يوسف] ثم بعد ذلك يفسر لهما الرؤيا .

إذن : سلوك يوسف هو الذى لفت إليه الأنظار ، وكذلك السلوك الحق المستقيم فى كل زمان ومكان هو الذى يلفت إليك الأنظار ، ويجذب إليك القلوب .

﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾﴾

قوله تعالى : ﴿وَإِنَّهُ ﴿٤﴾﴾ [الزخرف] أى : الكتاب المبين الذى سبق وَصْفه ، وهو القرآن الكريم ﴿فِى أُمِّ الْكِتَابِ ﴿٤﴾﴾ [الزخرف] أم الكتاب يعنى : الكتاب الأصل أو اللوح المحفوظ الذى أخذتْ منه كل رسالات السماء ، وسجَّل فيه كل الأحداث ﴿لَدَيْنَا ﴿٤﴾﴾ [الزخرف] عندنا : عند الله . يعنى : لم يُعطه لأحد ، وهذا يعنى أنه مَصُون محفوظ .

﴿لَعَلِىٌّ ﴿٤﴾﴾ [الزخرف] أى : فى ذاته ، والعلو الارتقاء ، لأنه هو الكتاب الخاتم لجميع الرسالات قبله والمهيمن عليها .

وهيمنة القرآن على الكتب السابقة أنه اتفق معها فى الثوابت العقدية والأعمال العبادية والأخلاق ، ثم نسخ من الرسالات مثله ما لا يناسب العصر ، ونفض عنها الفساد الذى لحق بها من تبديل وتغيير أو تحريف .

فالقرآن حكى عنهم أنهم نَسُوا حظاً مما ذُكِّروا به ، وما لم ينسوه كتموه ، وما لم يكتموه حرَّفوه ، بل زادوا على ذلك كله ولم يقفوا عند حدِّ التحريف ، إنما جاءوا بكلام من عندهم وقالوا : هو من عند الله ، واقرأ : ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ .. ﴿٧٩﴾﴾ [البقرة]

هذه هى هيمنة القرآن على ما سبقه من الكتب وعُلُوِّه عليها .

وقوله ﴿حَكِيمٌ ﴿٤﴾﴾ [الزخرف] الحكيم هو الذى يضع الشىء

فى موضعه من حيث زمنه ومكانه الذى يناسبه ، فترى كل شىء فيه منضبطاً ، والقرآن هو الكتاب الذى خُتِمتْ به الكتب السماوية ، ومحمد ﷺ هو خاتم الرسل جميعاً .

فإنْ قلتَ : فلماذا يحفظ الحق سبحانه كلامه فى أم الكتاب ، وهو سبحانه لا يضل ولا ينسى ، ويحيط علمه بكل شىء ولا تَخْفى عليه خافية ؟

قالوا : حفظ الله تعالى كلامه فى أم الكتاب من أجل الملائكة ، فحينما يروْنَ اللوح المحفوظ يجدون فيه كلاماً قديماً تُصدِّقه الأحداث ومواقف الناس فى الكون ، ويأتى الواقع وفْقَ ما أخبر الحق فى كلامه ، فيزدادوا حباً فى الله وعنايةً به ، ويحكموا بأن الله هو العليم الحكيم .

هذا سرُّ الكتابة ؛ لأنهم أى الملائكة سبق أنْ قالوا فى مسألة خَلْق الإنسان : ﴿ قَالُوا أَتَجْعَلُ[1] فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ (٣٠) ﴾ [البقرة]

بعضهم قال فى ﴿ أُمِّ الْكِتَابِ (٤) ﴾ [الزخرف] ليس هو اللوح المحفوظ لقوله تعالى عن القرآن : ﴿ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ .. (٧) ﴾ [آل عمران] فأم الكتاب هنا أى : الآيات

---

(١) بعض غير المسلمين الذين يستهويهم الطعن فى القرآن يقولون : كيف يخاطب الملائكة الله بهذا الاستفهام يستنكرون به أن يخلق الله آدم ويجعله خليفة فى الأرض ؟ وقول الملائكة هذا ليس على وجه الاعتراض على الله ولا على وجه الحسد لبنى آدم ، وقد وصفهم الله بأنهم لا يسبقونه بالقول أى : لا يسألونه شيئاً لم يأذن لهم فيه ، وإنما سؤالهم سؤال استعلام واستكشاف عن الحكمة فى ذلك . [عادل أبو المعاطى] .

المحكمات . فقد يكون فى هذا المعنى تنبيه لنا بأن هذه السورة (الزخرف) من الآيات المحكمات ، ليس فيها آية واحدة من المتشابهات .

وقد بيَّن لنا الرسول ﷺ حُكْم المحكم والمتشابه ، فقال : « ما عرفتم منه فاعملوا به ، وما لم تعرفوا فآمنوا به »[(١)] .

قال تعالى فى المتشابه : ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ.. ﴿٧﴾﴾ [آل عمران] ونقف ، ثم ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ ﴿٧﴾﴾ [آل عمران] إذن : نعمل بالمحكم ونؤمن بالمتشابه .

﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴿٥﴾﴾

الهمزة هنا تحمل معنى الاستفهام الإنكارى ، ومعنى ﴿أَفَنَضْرِبُ ﴿٥﴾﴾ [الزخرف] أى : نترك . نقول : ضربتُ عن العمل وأضربتُ عن العمل أى : تركتُه وامتنعتُ عنه . ومنه : أضرب العمال عن العمل .

فالحق يقول لهم : أنترك تذكيركم ، ونُعرض عنكم ونترككم هكذا هَمَلاً ، لأنكم أسرفتُم على أنفسكم وكذَّبتم بالذِّكْر وكفرتم به ؟

لا بل سنُوالى لكم التذكير والبيان ، ونلزمكم الحجة والبرهان ،

---

(١) أخرج الحارث فى البغية (١٨) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ قال : « يا قوم لا تجادلوا بالقرآن فإنما ضل من كان قبلكم بجدالهم ، إن القرآن لم ينزل ليُكذب بعضه بعضاً ، ولكن نزل ليصدق بعضه بعضاً ، فما كان من محكمه فاعملوا به ، وما كان من متشابهه فآمنوا به » . وكذا فى الآحاد والمثانى لابن أبى عاصم (٧٤٩) .

فإنْ لم تؤمنوا بالحجة ولم تُصدِّقوا جاء دور الغزو والفتح والنصر عليكم حتى تؤمنوا . وهذه رحمة من الله بهم لأنهم عباده وصنعته ويريد لهم النجاة ، وهو أرحم بهم من الوالدة بولدها حتى وهم كافرون به .

فلو تركهم وما أرادوا لتمادوا فى فسادهم ، واستحقوا الهلاك والعذاب ، والكافر حينما يؤمن يرحمه الله بالإيمان ، ويرحم المجتمع من شرِّه وفساده إنْ ظلَّ على كفره ، فالذكْر والمراد به هنا الوحى رحمةٌ من الله وخير يُقدِّمه لعباده رحمة بهم .

لذلك قالوا : إنْ كان لك عدو فلا تَدْعُ عليه بالهلاك ، إنما ادْعُ له بالهداية لأنك لا تنتفع بهلاكه ، إنما تنتفع بسلوكه ويعود عليك خيره إن اهتدى ، فثمار الخير تفيد المجتمع كله ، ومن هذا المنطلق نهانا الإسلام عن كَتْم العلم لأنك حين تكتم علماً تحرم مجتمعك من خيره ، فحين تُعلِّم غيرك تنتفع بخيره وتأمن شرَّه .

إذن : من رحمة الله بهم أنْ يُوالى لهم نزول القرآن رغم عنادهم وكفرهم وتماديهم فى الضلال ، وفعلاً مع مرور الوقت وتتابع نزول الوحى أسلم صناديد الكفر واحداً بعد الآخر ، أسلم عمر ، وأسلم عمرو وخالد وعكرمة وغيرهم كثير .

ثم يقول لهم الحق سبحانه : أنتم فى حاجة إلى قراءة التاريخ وأَخْذ العبرة من موكب الرسالات لتروْا عاقبة المكذِّبين للرسل ، فتاريخ الرسالات يؤكد انتصار رسل الله على المكذِّبين لهم ، لأن هذه سنةُ الله فى الرسل أنْ ينصرهم الله فى النهاية ، وأن تكون العاقبة لهم على مُكذِّبيهم ، يأخذهم الله على قدر تكذيبهم : ﴿ فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ .. (٤٠) ﴾ [العنكبوت]

وقد خاطبهم الحق سبحانه بقوله : ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٣٨) ﴾ [الصافات] يعنى : المسألة ليستْ كلاماً نظرياً ، إنما واقع مُعَاش ومُشَاهد عليكم أنْ تعقلوه ، وأنْ تتعلموا منه الدرس حتى لا ينزل بكم من العذاب مثل ما نزل بهم .

﴿ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ ۝٦ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ۝٧ ﴾

كم هنا تفيد الكثرة[1] ﴿ فِي الْأَوَّلِينَ (٦) ﴾ [الزخرف] فى الأمم السابقة الذين كانوا يُكذِّبون الرسل ويستهزئون بهم .

﴿ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ۝٨ ﴾

يعنى : يا كفار قريش خذوا عبرة من الأمم السابقة ، وممن أهلكهم الله وكانوا أشد منكم قوة فلم تمنعهم قوتهم ، ولم تدفع عنهم عذاب الله ﴿ وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ (٨) ﴾ [الزخرف] يعنى : قصتهم وما حلَّ بهم ؛ لأن هذا وعد الله للرسل .

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) ﴾ [الصافات] فلابدَّ أن تجدوا عاقبة هذا التكذيب : إما أنْ تُهزموا فى الدنيا ، وإما أنْ يُدَّخر لكم العذاب فى الآخرة .

---

(١) كم : تأتى على وجهين : خبرية بمعنى كثير . واستفهامية بمعنى أى عدد . وهى هنا خبرية تفيد الكثرة . ويقول تعالى فى سورة النساء ﴿ وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ .. (١٦٤) ﴾ [النساء] .

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا(١) وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾﴾

الحق سبحانه يريد أنْ يُبيِّن لهم أنهم يُكذِّبون رسول الله ، ويُصادمون دعوته استكباراً وعناداً ، ولا يعتمدون فى ذلك على منطق العقل والحكمة ، ويأخذ هذه الحقيقة ويُثبتها من لسانهم هم : ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (٩)﴾ [الزخرف]

وفى موضع آخر : ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ .. (٨٧)﴾ [الزخرف] فهذه حقيقة لا ينكرونها ويعترفون بها ، لأن مسألة الخَلْق هذه لم يدَّعِها أحدٌ لنفسه ولم يقُمْ لها منازع .

أولاً عجيبٌ منهم أنْ يؤمنوا بأن الله هو الخالق ، وأنه عزيز وعليم ، ومع ذلك يقفون من رسول الله هذا الموقف المعاند ، ثم لماذا لم يقولوا مثلاً خلقهنَّ الله لأنه ليس له منازع ، ووصفوا الحق سبحانه بالعزيز العليم ؟ قالوا : لأنهم اتبعوا مناهج آبائهم وظنوا أنها الأحسن ، فقالوا : ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا .. (١٧٠)﴾ [البقرة] فصدَّهم هذا عن اتباع الحق .

---

(١) مهد الشىء مهْداً : وطَّأه وجعله سهلاً ليناً . [القاموس القويم ٢/٢٤٢] وقال القرطبى (٩/٦١٠٨) : مهداً فراشاً وبساطاً . وقال ابن كثير فى تفسيره (٤/١٢٣) : « أى فراشاً قراراً ثابتة تسيرون عليها وتقومون وتنامون وتتصرفون مع أنها مخلوقة على تيار الماء لكنه أرساها بالجبال » .

ومعنى ﴿ الْعَزِيزُ ﴾ [الزخرف] أى : الغالب الذى لا يُغلب ، فهم إذن ردُّوا على أنفسهم ، فهم مهما عملوا فلابدَّ أنْ يُغلبوا .

وقولهم فى وَصْف الحق سبحانه ﴿ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (٩) ﴾ [الزخرف] من باب أن المتكلم يمكن أنْ يزيد من عنده ما لم يُلْقَ إليه ، كما لو أنك أرسلتَ شخصاً برسالة وقلتَ له : اذهب إلى فلان . هكذا بدون ألقاب وبدون أوصاف - وقُلْ له كذا وكذا .

فحين يذهب الرسول يقول : والله فلان قال لى اذهب إلى الشيخ فلان ، أو الأستاذ فلان ، وقُلْ له كذا وكذا فيزيد الوصف من عند نفسه ، كذلك هؤلاء يقولون ﴿ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (٩) ﴾ [الزخرف] لأنهم يعلمون أن الله تعالى عزيز وعليم .

ثم أراد سبحانه أنْ يُبيِّن لهم قدرته وعلمه ، فقال : ﴿ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا .. (١٠) ﴾ [الزخرف] والمهد فى الأصل هو الفراش الممهَّد الذى يستريح فيه الطفل جُلُوساً أو نوماً ، ومنه نقول طريق مُمهَّد يعنى : مُعد ومُسوَّى بحيث يريح مَنْ يمشى عليه .

فالحق يُشبِّهنا بالأطفال ، والطفل لا يستطيع أنْ يُمهِّد لنفسه ، فلولا أن الله مهَّد لنا الأرض ما قدرنا نحن على تمهيدها .

﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً .. (١٠) ﴾ [الزخرف] يعنى : طرقاً تسلكونها وتنتقلون عليها من مكان لآخر ، لأن مصالح الخَلْق تقتضى الانتقال من مكان إقامتهم إلى أماكن مصالحهم ﴿ لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠) ﴾ [الزخرف] أى : فى سيركم إلى مصالحكم وأغراضكم .

الحق سبحانه حين يمتنُّ عليهم ببعض نِعَمه عليهم إنما ليُرقِّق

قلوبهم ويستميلهم إلى ساحته ، لعلهم يهتدون إليه ويؤمنون به ويُصدِّقون برسوله .

﴿ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ ﴾ (١)

قوله ﴿ مِنَ السَّمَاءِ .. ﴿١١﴾ ﴾ [الزخرف] أى : من جهة السماء ﴿ بِقَدَرٍ .. ﴿١١﴾ ﴾ [الزخرف] بحساب معين ومقدار محدَّد حسب ما تقتضيه حكمة الله ، بحيث ننتفع بهذا الماء ونُحيى به الأرض دون مُنغِّصات ، لأن الماء قد يكون وسيلة إهلاك ودمار كما رأينا فى قصة سيدنا نوح .

لذلك قيَّد نزول الماء هنا بقوله ﴿ بِقَدَرٍ .. ﴿١١﴾ ﴾ [الزخرف] يعنى : على قدْر حاجتكم وعلى قدر ما يُصلحكم ، لذلك علَّمنا سيدنا رسول الله ﷺ أن نقول عند نزول المطر . « اللهم حوالينا لا علينا ، اللهم على الآكام(٢) والجبال والآجام والظراب والأودية ومنابت الشجر »(٣) .

---

(١) فأنشرنا به بلدة ميتة : أى أحييناها بماء المطر لأنها كانت ميتة من قبل . [القاموس القويم ٢/٢٦٦] .

(٢) الآكام : جمع أكمة ، وهى التل دون الجبل ، وهو الموضع الذى هو أشد ارتفاعاً مما حوله . [لسان العرب مادة : أكم] . والآجام : منابت الشجر الملتف . [مادة أجم] . والظراب جمع ظرب : وهو الجبل المنبسط الصغير وقيل الروابى الصغار . [مادة ظرب] .

(٣) أخرجه البخارى فى صحيحه (٩٥٧ ، ٩٥٨ ، ٩٦٠) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٤٩٣) من حديث أنس بن مالك .

ومعنى ﴿فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا .. (١١)﴾ [الزخرف] أى : أحييناها بالنبات ، كما قال سبحانه فى موضع آخر : ﴿وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٥)﴾ [الحج]

فالأرض الميتة التى لا نباتَ فيها ، لذلك فى الفقه تجد باب إحياء الموات ، وفى الحديث الشريف قال رسول الله ﷺ : «مَنْ أحيا أرضاً مَوَاتاً فهى له »[1] .

وهذه قاعدة لو أخذتْ بها دول العالم لَقضيْنا على الفقر ولعَمَّ الخير كُلَّ بقاع الأرض ، ولمَا وجدنا شبراً واحداً صحراء .

وعندنا فى مصر مثال واضح : لما ضيَّقتْ الحكومة على الناس ومنعت انتشارهم فى الصحراء ازدحم الناس فى الوادى والدلتا وحدثتْ الفاقة ، ولم نستطع أنْ نُوفر الاكتفاء الذاتى من المحاصيل الزراعية .

ولما سمحتْ الدولة بزراعة الصحراء وشجعتْ الناس عليها ماذا حدث ؟ رأينا الصحراء تخضر وتُخرِج لنا مَا لَذَّ وطابَ من الخضر والفاكهة ، ومَنْ يسير فى الطريق الصحراوى يرى ذلك .

وقد بيَّن الحق سبحانه أن الماء ينزل من السماء فينتفع الناسُ به فى زراعة الأرض وما زاد عن حاجتهم تمتصُّه الأرض حتى يتكوَّن بداخلها أنهار تحت سطح الأرض ، قال تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ .. (٢١)﴾ [الزمر]

---

(١) أخرجه أبو داود فى سننه (٢٦٧٢) عن عروة قال : أشهد أن النبى ﷺ قضى أن الأرض أرض الله ، والعباد عباد الله ، ومن أحيا مواتاً فهو أحق به ، جاءنا بهذا عن النبى ﷺ الذين جاءوا بالصلوات عنه . وأخرج الطبرانى فى المعجم الكبير (١٥٢١٧) من حديث فضالة بن عبيد قال : قال ﷺ : « الأرض أرض الله ، والعباد عباد الله ، من أحيا مواتاً فهى له » .

كلمة (ميـتاً) ميْت بالسكون . يعنى : ما جرى عليـه الموت بالفعل ، أما ميِّت بالتشديد فهو ما يُحكم عليه بالموت وإنْ كان على قيد الحياة .

وتسألنى تفسير ميْـت وميِّت فدونك قد فسرت إن كنـت تَعْقِلُ
فمن كان ذا روح فذلك ميّتٌ وما الميْت إلا من إلى القبْر يُحملُ

ومن ذلك قوله تعالى مخاطباً نبيه ﷺ :

﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الزمر]

وقال الشاعر[1] فى مدح سيدنا رسول الله :

أَخُوكَ عِيسَى دَعَا مَيْتاً فَقَامَ لَهُ وأَنْتَ أحييْتَ أَجْيَالاً مِنَ العَدَمِ[2]

وقوله تعالى : ﴿كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾﴾ [الزخرف] كذلك يعنى : مثلما نُحيى الأرض المـيتة نحييكم ونخرجكم من قبوركـم فخذوا مما تشاهدونه فى الأرض دليلاً على ما غاب عنكم من أمور البعث وإحياء الموتى ، فحين نقول لكم أن الله يُحييكم بعد موتكم فصدِّقوا .

﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾﴾

كلمة ﴿الأَزْوَاجَ .. ﴿١٢﴾﴾ [الزخرف] جمع : زوج . والزوج كـما قلنا هو المفرد الذى مـعه مثله ، والزوجان كل متـقابلين مثل : أبيض وأسود ، حُلو وحامض ، فوق وتحت ، يمين وشمال .

---

(١) الشاعر هنا هو أحـمد شوقى ، أشهر شعراء الـعصر الحديث أمير الشعـراء ، مولده ووفاته بالقاهرة (١٨٦٨ - ١٩٣٢ م) نشأ فى ظل البيت المالك فى مصر ، أُرسل إلى فرنسا عام ١٨٨٧ م لمتابعة دراسة الحقوق ، مارس أكثر فنون الشعر مديحاً وغزلاً ورثاء ووصفاً .

(٢) البيت من قصيدة لأحمد شوقى ، من بحر البسيط ، عدد أبياتها ، ١٩٠ بيتاً وهو البيت رقم (١١٦) فيها . أولها : ريم على القاع بين البان والعلم .

والزوجية كما أخبر الحق سبحانه موجودة فى كل شىء ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٤٩) ﴾ [الذاريات] ومنها ما نعلمه ومنها ما لا نعلمه ؛ لذلك قال هنا ﴿ وَالَّذِى خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا .. (١٢) ﴾ [الزخرف] كلمة ﴿ كُلَّهَا ﴾ أى : مما نعلمه كالذكر والأنثى ومما لا نعلمه .

وأهل الفكر والتدُّبر يقفون عند هذه الآية يلتمسون ما فيها من حكمة ، فالحق سبحانه يمتنُّ بأنْ خلق الأزواج كلها ليُثبتَ لنا أنه سبحانه فرْد لا زوجَ معه ، فقانون الاستقصاء العلمى يقول : إن الزوج يعنى الاثنين ، أو ما يقبل القسمة على اثنين .

فحين نأخذ الترتيب من أوله نقول : إن الواحد الذى ليس له ثانٍ ، واثنان يعنى واحداً انضمَّ له واحد آخر .

إذن : الاثنان كرقم يحتاج إلى الواحد ، أما الواحد فلا يحتاج إلى شىء ، إذن : المفرد الحق هو الذى لا يحتاج لشىء ، وهذه لا تكون إلا لله عز وجل .

إذن : الزوج يحتاج إلى الفرد ، والفرد لا يحتاج إلى الزوج .

وما دام أنه سبحانه خالق الأزواج كلها . إذن : هو فرد لا مثيلَ له ، والمتأمل يجد أنَّ الزوجين مختلفان فى الصفات مثل الذكر والأنثى ، لكل منهما صفاته مع وجود صفات مشتركة بينهما .

فالصفات المشتركة تعنى أن لكل زوج منهما مثلاً ، والصفات المختلفة تعنى أن كلاً منهما فيه نقص عن الآخر ، والله سبحانه وتعالى فرد لا مثْلَ له ، وكامل لا نقصَ فيه ، فكأن الآية تثبت أن الله تعالى فرد خالق لا يحتاج إلى شىء ، ويحتاج إليه كلُّ شىء .

وقوله : ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ (١٢)﴾ [الزخرف] الفلك . أى : السُّفن . ومن الأنعام التى تُركب مثل الإبل ، كما قال سبحانه : ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ .. (٧)﴾ [النحل]

فالمعنى : خلق لكم من الفلك والأنعام ما تركبونه ، لكنه قال ﴿مَا تَرْكَبُونَ (١٢)﴾ [الزخرف] ولم يقل ما تركبونها ليطمر الفلك فى الأنعام ، والسفن لا نركبها إنما نركب فيها ، لذلك سماها ﴿الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١٤٠)﴾ [الصافات] وقال : ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ .. (٢٢)﴾ [يونس]

إذن : نحن نركب على الأنعام ونستوى على ظهورها ، ونركب فى السفن ، حتى السفن القديمة كان لها جدران وبداخلها مقاعد ، فما بالُكَ بالسفن المكوّنة من أدوار مثل البيوت والتى وصفها القرآن بأنها كالأعلام[1] .

لكن لماذا غلَّب الأنعام وطمر فيها السفن ؟ لابدَّ أنَّ هنا حكمة ، لأن الحق سبحانه هو الذى يتكلم ، لذلك تجد كل لفظة فى موضعها بدقة تعبيرية ، فغلَّب الأنعام وقال ﴿مَا تَرْكَبُونَ (١٢)﴾ [الزخرف] لأننا نركب على الأنعام ، أما السفن ففى السفن .

ثم لأن الأنعام خَلْقُ الله المباشر ، والفلك خَلْق الإنسان ، كما أن الحق سبحانه يخاطب بهذه الآية العرب فى المقام الأول ، والعرب لم يكُنْ عندهم دراية بالسفن ولا يركبونها ، إنما كانت وسائلهم فى الانتقال والحمل هى الأنعام ، فهى معهودة لهم .

---

(١) الأعلام : جمع علم وهو الجبل : فالأعلام الجبال ، قال تعالى فى وصف السفن الضخمة الحجم : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ (٣٢)﴾ [الشورى] ، وقال : ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ (٢٤)﴾ [الرحمن] فهى تمخر البحر كأنها جبل يسير على صفحة الماء .

﴿ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ .. ﴿١٣﴾ ﴾ [الزخرف] الاستواء هنا يدل على الراحة ، فبعد أنْ كنتَ تسير وتتحمَّل مشقة السير ركبت على دابة مُذللة لك ، لذلك طلب منك أنْ تتذكر أنها نعمة من الله عليك تستوجب شكره وذكره ، والحذر من الغفلة عن تذكُّر النعم وشكْر المنعم ، والدابة تسير بك على أربعة قوائم تجعلها مُمهَّدة لك سهلة السير .

والسفن تحتاج فى سَيْرها إلى ثلاثة عناصر : السفينة ، والبحر الذى تسير فيه ، والهواء الذى يُحركها ، فساعة تسير بك تتذكر كلّ هذه النعم التى اجتمعتْ لك لتسير بك حيث تريد .

ثم يُعلِّمنا ربنا عز وجل كيفية الذكْر المناسب لهذه النعمة ، وهو أن نقول كما جاء فى القرآن : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ [الزخرف]

والنبى ﷺ علَّمنا دعاء السفر[1] والركوب ، وعلَّمنا أن نذكر الله كلما باشرنا عملاً جديداً ، لذلك قال سبحانه فى قصة السفينة ﴿ بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا .. ﴿٤١﴾ ﴾ [هود] وذكر الله هو الطاقة التى

---

(١) كان رسول الله ﷺ إذا وضع رِجْله فى الغرز وهو يريد السفر يقول : باسم الله اللهم أنت الصاحب فى السفر ، والخليفة فى الأهل ، اللهم ازْوِ لنا الأرض وهوِّن علينا السفر ، اللهم إنى أعوذ بك من وعثاء السفر وكآبة المنقلب ، ومن سوء المنظر فى المال والأهل ، [أخرجه مالك فى الموطأ بلاغاً] .

نستمد منها العون ، القوة على السفر أو على أداء العمل .

وأنت حين تدعو بدعاء الركوب وتقول « سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين »[١] إنما تنفى عن نفسك الغرور ، وتعترف أنك تركب هذا المركب لا بقدرتك عليه ، إنما بقدرة الله الذى سهَّله لك وسخَّره لخدمتك ، ولولا أن الله سخّره ما استطعتَ السيطرة عليه ولا اعتلاء ظهره .

فالسفينة ربما تغرق بمَنْ فيها ، والدابة ربما تَنْفَق منك فى وسط الطريق ، إذن : تذكَّر دائماً قدرة الله فى هذه المسألة ، وبادر بذكر الله عند الركوب .

هذه الدوابّ التى تركبها وتحمل عليها ، ألَكَ فَضْلٌ فيها ؟ حتى السفن التى هى صناعة يدك لولا أن الله علَّم نوحاً صناعة السفن ما كان الإنسان عرفها ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ[٢] (١٣)﴾ [القمر] وقال : ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا .. (٣٧)﴾ [هود] فالفكرة الأولى فيها من الله عز وجل .

تذكر أن الحصان الذى تركبه ، والجمل الذى تحمل عليه أقوى منك ، وإذا حَرِنَ[٣] لا تستطيع السيطرة عليه ؛ لذلك قال تعالى فى هذه الدواب ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٣٩٢) وأبو داود فى سننه (٢٢٣٢) والترمذى فى سننه (٣٣٦٩) وأحمد فى مسنده (٦٠٢٩ ، ٦٠٨٦) كلهم من حديث ابن عمر .

(٢) الدسُر : جمع دسارٍ وهو المسمار أو حبل من ليف تُشدُّ به ألواح السفينة . [القاموس القويم ١/٢٢٧] .

(٣) حرنت الدابة وهى حرون : وهى التى إذا استُدِرَّ جرْيُها وقفت . وإنما ذلك فى ذوات الحوافر خاصة . ونظيره فى الإبل اللجان والخلاء . [لسان العرب - مادة : حرن] .

مَالِكُونَ (٧١) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (٧٢) ﴾ [يس] فلولا أن الله ذلَّلها ما ذللناها .

وسبق أنْ قلنا : إن الطفل الصغير يقود الجمل ويركبه ويُنيخه ، والجمل يطاوعه فى يُسْر وسهولة ، صحيح منظر يدعوك إلى التأمل فى قدرة الله الذى سخَّر هذا المخلوق الضخم لخدمة هذا الطفل الصغير الذى لا يقدر على شىء .

وفى المقابل ، تجد البرغوث مثلاً يقُضّ مضجعك ويُقلقك طوال الليل ، ولا تستطيع أن تفعل له شيئاً ، لماذا ؟ لأن الخالق سبحانه سخَّر لك هذا ولم يُسخِّر لك ذاك ، فتأمل ولا تظن أنك تركب هذه المراكب بقوتك ولا بقدرتك عليها .

ومعنى ﴿ وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ (١٣) ﴾ [الزخرف] أى : مطيقين أو غالبين ، يعنى : ليس لنا قدرة عليه ولا سيطرة ولا تحكّم إلا بتسخير الله له ﴿ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ (١٤) ﴾ [الزخرف] أى : راجعون وآيبون .

﴿ وَجَعَلُوا لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ (١٥) ﴾

قوله سبحانه ﴿ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا .. (١٥) ﴾ [الزخرف] إشارة إلى الذين نسبوا إلى الله تعالى الولد ، تعالى الله عن ذلك عُلواً كبيراً ، ذلك لأن الولد جزء من أبيه ، وفى الحديث الشريف قال ﷺ : « فاطمة بضعة منى »[1] يعنى : قطعة منى .

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٤٣٧ ، ٣٤٥٠ ، ٣٤٨٣ ، ٤٨٢٩) ومسلم أيضاً فى صحيحه (٤٤٨٢ ، ٤٤٨٣) وقد ورد الحديث بألفاظ كثيرة : « فاطمة بضعة منى ، فمن أغضبها أغضبنى » « إن فاطمة بضعة منى وإنى أكره أن يسوءها » « فإنما هى بضعة منى ، يريبنى ما أرابها ويؤذينى ما آذاها » .

ولما نسبوا لله تعالى الولد مرة سمَّوْهُ ابن الله ، ومرة قالوا : الله ، ومرة قالوا : ثالث ثلاثة . والعجيب أنهم وقعوا فى هذا الخطأ مع مَنْ ؟ مع النبى الذى أرسله الله إليهم ، فجعلوا النبى ذاته وسيلة للشرك .

الأمر الثانى : أن الجزء المنفصل عن الأبوين إما ذكر وإما أنثى ، ومعلوم أن الذكر عندهم أشرف من الأنثى ومُقدَّم عليها ، بدليل قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (٥٨) يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ .. (٥٩) ﴾ [النحل]

وهؤلاء لما نسبوا لله تعالى الولد نسبوا له الأنثى ، وهى مذمومة عندهم ، تعلمون قصة أبى حمزة لما تزوج من امرأة لا تلد ذكراً ، فهجرها إلى غيرها ، فقالت تُنفِّس عن نفسها[1] :

مَا لأَبِى حَمْزَةَ لاَ يأْتينَا ... يَظَلُّ فِى البَيْتِ الذِى يَلِينَا
غَضْبَانَ ألاَّ نلدَ البَنِينَا ... تَاللَّه مَا ذَلِكَ فِى أَيْدِينَا
فنَحنُ كَالأَرْضِ لِغَارِسِينَا ... نُعطِى الذى غَرَسُوه فِينَا[2]

وهكذا أخبرتْ المرأة العربية قديماً ما أثبته العلم الحديث من أن

---

(١) هى زوجة أبى حمزة الضبى ، شاعرة عباسية ، هجرها زوجها عندما ولدت له بنتاً ، ومر يوماً بخبائها فسمع منها أبياتاً من الشعر فرقّ لها وصالحها .

(٢) هذا البيت جاء فى الموسوعة الشعرية هكذا :

وإنما نأخذ ما أعطينا ... ونحن كالأرض لزراعينا
ننبت ما قد زرعوه فينا

والأبيات من بحر الرجز ، عدد أبياتها أربعة أبيات .

المرأة غير مسئولة عن الذكورة أو الأنوثة فى الولد ، فهى مُتلقية وحاضنة فقط ، والرجل هو المسئول عن هذه المسألة .

والقرآن يقول : ﴿ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ (٤٥) مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ (٤٦) ﴾ [النجم] والنطفة هى ماء الرجل الذى يُلقح البويضة ، ويتحكم فى الذكورة والأنوثة .

ولأن نسبة الولد إلى الله تعالى أمرٌ عظيم وفادح ذُيِّلَتْ الآية بقوله سبحانه : ﴿ إِنَّ الإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ (١٥) ﴾ [الزخرف] تأمل دقة التعبير هنا الذى يناسب فداحة الاتهام ، فـ﴿ إِنَّ ..(١٥) ﴾ للتوكيد و ﴿ لَكَفُورٌ (١٥) ﴾ [الزخرف] صيغة مبالغة من كافر . و﴿ مُّبِينٌ (١٥) ﴾ [الزخرف] يعنى : بيِّن وواضح الكفر ، فكفره لا يَخْفى على أحد .

﴿ أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ (١٦) ﴾ (١)

الحق سبحانه يرد عليهم بهذا الاستفهام الذى يفيد التعجب ﴿ أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ (١٦) ﴾ [الزخرف] يعنى : أيُعقل وهو سبحانه الخالق أنْ يصطفيكم بالبنين وهم الجنس الأعلى ويختصُّ نفسه بالبنات وهُنَّ الجنس الأدنى ؟

وفى موضع آخر يقول سبحانه : ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ

---

(١) أصفاكم : اختصكم وأخلصكم بالبنين . يقال : أصفيته الود أخلصته له . وصافيته وتصافينا : تخالصنا . [القرطبى ٩/٦١١٤] .

وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لا جَرَمَ[١] أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ (٦٢) ﴾ [النحل]

ثم يعطينا الحق سبحانه الدليل على كذبهم وافترائهم عليه :

﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (١٧) ﴾

قوله تعالى ﴿ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلاً .. (١٧) ﴾ [الزخرف] كناية عن البنات اللاتى نسبوها إلى الله وجعلوها مثيلاً له سبحانه ؛ لأن الولد كما قلنا مثيلٌ لأبيه وجُزْءٌ منه ، وهم فى حين ينسبون لله البنات يكرههن ويسودّ وجه الرجل منهم إذا بُشِّر بالبنت .

﴿ وَهُوَ كَظِيمٌ (١٧) ﴾ [الزخرف] يعنى : يملؤه الغيظ والنكد والغم .

إذن : كيف تنسبون لله ما لا تقبلونه لأنفسكم ، لذلك عبَّر القرآن عن هذه المسألة بأنها قسْمة جائرة ظالمة ، فقال تعالى فى سورة النجم : ﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ (٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ (٢٢) ﴾ [النجم]

واختار هذا اللفظ الغريب الذى لم يأت فى القرآن إلا مرة واحدة ليدلّ بغرابة اللفظ على غرابة القول الذى قالوه .

﴿ أَوَمَن يُنَشَّؤُا[٢] فِى الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ (١٨) ﴾

---

(١) لا جرم : أى لا محالة ولابُدَّ ، وتحولت إلى معنى القسم فصارت بمنزلة قولنا حقاً . [القاموس القويم ١/١٢١] .

(٢) يُنشَّأ : يُربَّى ويشب . والنشوء : التربية . يقال : نشأت فى بنى فلان نشوءاً إذا شببت فيهم . والمعنى يُربَّى ويكبر فى الحلية . [القرطبى ٩/٦١١٦] .

الهمزة هنا أيضاً للاستفهام ، يقول سبحانه : أتستوى عندكم البنت التى تُنشَّأ فى الحلية بالولد . ومعنى ﴿أَوَ مَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ (١٨)﴾ [الزخرف] يعنى : تُربَّى فى الزينة والرفاهية ، فالبنت عندنا مثلاً نهتم بها وبملبسها ومظهرها ، نُلبسها الحلَق والأسْورة والثياب الجميلة على خلاف الولد .

﴿وَهُوَ فِي الْخِصَامِ .. (١٨)﴾ [الزخرف] أى : فى مواقف الجدل والدفاع ﴿غَيْرُ مُبِينٍ (١٨)﴾ [الزخرف] يعنى : ليس له قوة فى إظهار الحجة .

إذن : البنت التى نسبوها لله تُربَّى على الرفاهية والنعمة ، ولبس الحرير والذهب والزينة ، لأنها خُلقَتْ للاستمالة ، ونحن نحرص على مظهر البنت وشكلها ونُزيِّنها أولاً وأخيراً لتتزوج .

وفى الغالب نلجأ للزينة وللجمال الصناعى حينما لا يتوفر للبنت الجمال الطبيعى ، بدليل أن العرب كانت تسمى المرأة الجميلة غانية . يعنى : استغنت بجمالها الطبيعى عن أىِّ زينة .

أما الذكر فعلى خلاف ذلك ، الذكر مع أبيه فى الحقل وفى المصنع ، وفى الخصام والجدال ، وفى كل عمل شاقّ ، فهل يستويان ؟

وهذا لا يعنى أن هذه قاعدة عامة فى الجنس كله ، فقد نجد فى النساء صاحبة الرأى السديد والحجة القوية التى فاقتْ الرجال . تذكرون لما مُنع الرسول ﷺ وصحابته من دخول مكة للعمرة وهم على مشارفها ، واضطرَّ رسول الله لأنْ يبرم معاهدة الحديبية مع كفار مكة على أنْ يعودَ هذا العام ويحجّ فى العام الذى يليه .

عندها غضب الصحابة وثاروا وعزَّ عليهم أنْ يُمنعوا من البيت

وهم على مشارف مكة ، حتى أن سيدنا عمر ثار وقال : يا رسول الله ألسنا على الحق ؟ قال : بلى ، قال : أليسوا على الباطل ؟ قال : بلى ، قال : فلِمَ نعطى الدَّنية[1] فى ديننا ؟

وكان القوم يخرجون عن طاعة رسول الله ويعصون أوامره ، حتى دخل خباءه على السيدة أم سلمة وهو مُغْضَب ، فقالت له : ما لى أراك مُغْضباً يا رسول الله ؟ فقال : هلك القوم ، أمرتُهم فلم يمتثلوا .

فقالت : يا رسول الله ، اعذرهم فهم قوم مكروبون ، وقد جاءوا من المدينة على شوق للبيت ، ويشقّ عليهم أنْ يُمْنَعوه وهم على مشارف مكة ، فاذهب يا رسول الله إلى ما أمرك الله ، فافعله أمامهم ، فلو رأوْكَ تفعل علموا أن الأمر عزيمة لا جدالَ فيه ، فلما فعل الرسول أمامهم فعلوا مثله ، وانتهت المشكلة وعادوا إلى المدينة[2] .

ورحمةً بغيرة المسلمين على دينهم نزل الوحى على سيدنا رسول الله وهو فى الطريق وقبل أنْ يصلوا المدينة يوضح لهم الحكمة

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٥٢٩ ، ٢٩٤٥ ، ٤٤٦٦) وكذا مسلم فى صحيحه (٣٣٣٨) وأحمد فى مسنده (١٥٤٠٨) من حديث سهل بن حنيف . والدنية : أى الخصلة المذمومة بمعنى الضعيف الخسيس [لسان العرب - مادة : دنا] .

(٢) لفظ البخارى فى صحيحه (٢٥٢٩) أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه : قوموا فانحروا ثم احلقوا . فوالله ما قام منهم رجل حتى قال ذلك ثلاث مرات ، فلما لم يقم منهم أحد دخل على أم سلمة فذكر لها ما لقى من الناس . فقالت أم سلمة : يا نبى الله أتحب ذلك ؟ اخرج ثم لا تكلم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بُدنك وتدعو حالقك فيحلقك فخرج فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك ، نحر بُدنه ودعا حالقه فحلقه ، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضاً حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غماً » .

الإلهية من عودتهم هذا العام ، فقال تعالى :

﴿ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا[1] أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٢٥) ﴾ [الفتح]

إذن : الحكمة من العودة هذا العام أن مكة كان بها كثير من المسلمين الذين أخفوْا إسلامهم ، فلو دخلتم مكة عُنْوة ، وحدث بينكم وبين الكفار قتال فسوف يصيب إخوانكم المسلمين ، وسوف تُلحقون بهم الضرر دون علم منكم . وهكذا علموا صواب رأى رسول الله ، وأنه ﷺ على الحق .

هذا مثال لسداد الرأى فى النساء ، والتاريخ ملىء بنماذج من نساء تفوقن على الرجال فى الجدل وقوة وسداد الرأى لأن الخالق سبحانه لا يخلق بطريقة ميكانيكية ، إنما بقدرة وحكمة فليس شرطاً أن يكون الرجال جميعاً عندهم قوة فى الجدال ، والنساء جميعاً عندهُنَّ ضعف فى الرأى وعدم قدرة على الجدال ، فالقاعدة لابدَّ أنْ يكون لها شواذ .

فإذا كانت القاعدةُ فى النساء ﴿ أَوَ مَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ (١٨) ﴾ [الزخرف] فطلاقة القدرة لله عز وجل تجعل من هذا الضعف قوة تتفوق على قوة الرجال ، فنرى من النساء مَنْ كانت ملكة على قومها ، مثل ملكة سبأ مثلاً التى قصَّ القرآنُ قصَّتها مع سيدنا سليمان .

---

(١) معكوفاً : محبوساً عن أن يبلغ محله (الطبرى ٢٢/٢٣٩) . أى : محصراً ممنوعاً من الوصول إلى البيت العتيق (القرطبى ٢/٣٧٩) .

فهل وصلت للمُلْك لعدم وجود الرجال ؟ أبداً ، بل تفوقتْ بذكائها وقوة رأيها حتى سلَّم لها الرجال وقدَّموها عليهم .

وحين نقرأ قصتها فى سورة النمل نجد ما يدل على هذا الذكاء وهذه الفطنة والسياسة والقدرة على الجدل ، فلما وصفها الهدهد قال : ﴿ إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ[1] وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) ﴾ [النمل]

ولما وصلها كتاب سليمان لم تستأثر بالرأى ، إنما شاورت أهل الرأى : ﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (٢٩) ﴾ [النمل] وأخذت بمبدأ الشورى ﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ (٣٢) ﴾ [النمل]

ثم تحاول حَلَّ المسألة بطريقة ودية بعيدة عن العنف وإراقة الدماء لأنها تعلم طبيعة الملوك : ﴿ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ (٣٤) وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ (٣٥) ﴾ [النمل]

وتأمل لباقتها وسياستها فى الرد لما نكّروا[2] لها عرشها

---

(١) تملكهم : أى تتصرف بهم ولا يعترض عليها أحد ، وهى بلقيس بنت شراحيل . [الألوسى فى تفسيره روح المعانى] .

(٢) نكّروا لها عرشها : التنكير هنا التغيير يقول : غيّروا سريرها إلى حال تنكره إذا رأته . [فتح القدير للشوكانى] وقال ابن الجوزى فى زاد المسير : للمفسرين فى كيفية تغييره ستة أقوال :

أحدها : أنه زيد فيه ونقص منه ، رواه العوفى عن ابن عباس .

والثانى : أنهم جعلوا صفائح الذهب التى كانت عليه مكان صفائح الفضة .

والثالث : أنهم نزعوا ما عليه من فصوصه وجواهره .

الأقوال الثلاثة السابقة قالها ابن عباس .

الرابع : أنهم جعلوا ما كان منه أحمر أخضر ، وما كان أخضر أحمر . قاله مجاهد .

الخامس : أنهم جعلوا أسفله أعلاه ومُقدَّمه مؤخره وزادوا فيه ونقصوا منه . قاله قتادة .

السادس : أنهم جعلوا فيه تماثيل السمك . قاله أبو صالح .

وسألوها : ﴿أَهَكَذَا عَرْشُكِ ..(٤٢)﴾ [النمل] ؟ ﴿قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ .. (٤٢)﴾ [النمل] ولما انتهى الأمر بإسلامها قالت : ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٤)﴾ [النمل] فهى لم تُسلم خوفاً من سليمان ، ولا إرضاء له ، إنما أسلمتْ معه لله ، فأنا وهو سواء فى إسلام الوجه لله تعالى .

وعندنا فى مصر (شجر الدر)[١] ، وكان لها رأى سديد وحنكة سياسية مكنَّتها من تجاوز الأزمة لمَّا مات زوجها فأخفتْ نبأ موته ، وأدارت هى دفّة الحكم حتى لا تفُتّ فى عَضُد الجيش الذى كان خارج البلاد فى مهمة حربية (شجر الدر) هى التى أوصلتنا بالكعبة وهى التى كسَتْهَا ، وهى امرأة .

وهذه الأمثلة ليستْ فى تاريخ الإسلام فحسب ، إنما أيضاً فى الجاهلية وجدنا نساء بارزات لهُنَّ رأى وحكمة تفوق الرجال .

ويُروَى أن أُمامة[٢] بنت الحارث بن عمر تزوجتْ من عوف بن مُحلِّم الشيبانى[٣] وأنجبتْ له بنتاً اسمها أم أُناس ، وكانت جميلة ،

---

(١) هى أم خليل الملقبة بعصمة الدين ملكة مصر ، أصلها من جوارى الملك الصالح نجم الدين أيوب ، اشتراها فى أيام أبيه وحظيت عنده وولدت له ابنه خليلاً فأعتقها وتزوجها . كانت معه فى الشام مدة طويلة ، ثم لما انتقل إلى مصر ، كانت تدير أحياناً أمور الدولة ، كانت ذات عقل وحزم كاتبة قارئة ، أخفت وفاته وتوفيت عام ٦٥٥ هجرية . (الأعلام للزركلى ١٥٨/٣) .

(٢) هى : أمامة بنت الحارث الشيبانية ، فصيحة نبيلة جاهلية ، كانت زوجة عوف بن محلِّم الشيبانى (الأعلام للزركلى ١١/٢) .

(٣) من أشراف العرب فى الجاهلية ، كان مطاعاً فى قومه قوياً فى عصبيته وكانت تُضرب له قبة فى سوق عكاظ . توفى عام (٤٥ هـ / ٥٨٠م) (الأعلام للزركلى ٩٦/٥) . وكانت قبته لا يدخلها جائع إلا شبع ولا خائف إلا أمن . (كتاب المحبَّر)

تسامع العرب بجمالها وفصاحتها ، فأراد أنْ يتزوجها عمرو بن حُجْر أمير كندة ، وكان سيِّداً من سادات العرب .

فقال عمرو لصاحبه ابن سنان : أرأيتَ يا بن سنان لو أنِّى خطبتُ من أىِّ حَىٍّ من العرب أيردُّوننى ؟ قال : نعم ، أعرف مَنْ يردك ، قال : مَنْ ؟ قال : عوف بن مُحلِّم ، قال : فهيا نذهب إليه .

فلما ذهبا ودخلا عليه قال : مرحباً بك يا عمرو ، ماذا جاء بك ؟ قال : أتيتُكَ خاطباً ، قال له : ولكنك لستَ هنالك - يعنى : لستَ كُفؤاً لأنْ تتزوج ابنتى . سمعت امرأة عوف هذا الحوار فقالت له : يا عوف ما رجلٌ جاء إليك راكباً فلم يُطِلْ معك الكلام ؟

فقال : إنه عمرو بن حجر سيد من سادات العرب ، فقالت : ولماذا لم تستنزله ؟ يعنى : تستضيفه وتكرمه - قال : لأنه استهجننى ، قالت : بماذا ؟ قال : أتانى خاطباً ، قالت : إنْ كان سيداً من سادات العرب وجاءك خاطباً ، فمَنْ تُزوِّج بناتك إنْ لم تُزوِّجهن سادات العرب ؟ الحق به واسترضه .

لحق عوفٌ بعمرو وصاحبه ابن سنان وناداه : يا عمرو اربع علىَّ ولك عندى ما تحب ، فرجع عمرو وصاحبه ، فقال عوف : أتيتنى وأنا مُغْضَب وقلتُ لك ما قلتُ ، ولكن راجعتُ نفسى ، وأخذه إلى البيت .

وكان عند عوف ثلاث بنات : كبرى ووسطى وصغرى . فجاء إلى الكبرى . وقال لها : يا ابنتى إن عمرو بن حُجْر جاء يخطبك ، فقالت : لا يا أبى ، قال : لم ؟ قالت : إنِّى امرأة فىَّ ردة - يعنى فى وجهى شىء يردُّ الناظر إليها - وفى خُلُقى شدة ، والحارث ليس بجار لك

ولا أنا بنت عمه ، وأخشى إنْ حدث شيء منى أنْ يطلقنى فيصبح ذلك سُبَّة لى ، قال : قُومى بارك الله فيك .

ثم ذهب إلى الوسطى فقال لها ما قال لأختها ، فقالت : لا يا أبى إنِّى امرأة لستُ جميلة ولا صَنَاع[1] وأخشى أنْ يُطلِّقنى فيصبح ذلك سُبَّة لى .

فقال لها : قومى بارك الله فيك .

ثم جاء بالصغرى وقال لها مثل ما قال لأختيْها ، فقالت له : نعم يا أبى ، فأنا الحسنة خُلُقاً ، والجميلة خَلْقاً ، والصَّنَاع يداً ، فإنْ طلَّقنى فلا باركَ الله له ولا أخلف عليه .

فخرج عوف وقال لعمرو : زوَّجتُكَ ابنتى الصغرى بهيسة ، ثم أعدَّ له خباءً فى بيته ليدخل فيه على عروسه ، فلما دخل عليها قالت له : لقد كنتُ أحببتُك واحترمتُك ، لكنى الآن زهدتُ فيك ، قال : لم ؟ قالت : أيكون هذا عند أبى وبين إخوتى ، والله لا يكون أبداً .

فقال : إذن نرحل إلى ديارنا .

وأمر صاحبه ابن سنان أنْ يسير مع الركْب ، وتخلَّف هو فى جانب الطريق ودخل عليها ، فقالت : أهكذا كما يُفعل بالسَّبية الأخيذة ، والله لا يكون أبداً إلا حين تذهب إلى حَيِّكَ وتنحر وتذبح وتُطعم الناس ، وتصنع ما يصنع مثلُك لمثلى .

فلما وصل إلى حَيِّه ذبح الذبائح وأطعم الناس ، ثم أراد أنْ يدخل

---

(١) المرأة الصَّناع : أى الحاذقة الماهرة بعمل اليدين . وقال ابن السكيت : امرأة صناع إذا كانت رقيقة اليدين تُسوى الأشافى المثاقب وتخرز الدلاء وتفريها . [لسان العرب مادة : صنع] .

عليها ، فقالت : يا عمرو أترغب فى النساء وفى العرب حَيَّانِ يقتتلان ، اذهب فأصلح بينهما أولاً ، ثم لا يفوتك من أهلك شىء .

خرج عمرو وأصلح بين الحيَّيْن ودفع دِيَة القتلى من الجانبين ثلاثة آلاف بعير من ماله ، ثم عاد إلى زوجته فلما علمتْ بما فعل قالت له : الآن يا حارث[١] . هذه أمثلة من النساء اللاتى كان لهُنَّ عقل راجح ورأى سديد وقدرة على الجدل .

ولما أراد عمر خطبة أم أُناس[٢] بنت عوف دعا امرأة من كندة اسمها عصام ، وقال لها : اذهبى حتى تعلمى لى عِلْمَ ابنة عوف ، فذهبتْ إلى بيت عوف وقابلتْها أمامة ، وعرفتْ منها سبب مجيئها ، جعلتْ أُمامة لبنتها خيمة وقالت : اجلسى فيها وستدخل عليك عصام فلا تسترى عنها شيئاً أرادت النظر إليه من وجه وخَلْق ، وناطقيها فيما استنطقتك به ، لأنها جاءت لكذا وكذا .

دخلتْ عصام على أم أُناس فوجدتها كما أرادتْ ، لم تُخْفِ عنها شيئاً . فقالت : تَرَكَ الخداع من كَشَف القناع[٣] ، فصارت مثلاً عند العرب حتى الآن .

---

(١) ذكر هذه القصة بكاملها أبو الفرج الأصبهانى فى كتاب (الأغانى) ، وابن حمدون فى (التذكرة الحمدونية) الباب الثالث فى الشرف والرياسة .

(٢) أم أُناس بنت عوف ، كان أبوها قد أراد أن يئدها ثم قال : دعها لعلها أن تلد أناساً فسُمِّيت أم أناس .

(٣) هذا المثل ذكره ابن عبد ربه فى (العقد الفريد) والزمخشرى فى (المستقصى فى أمثال العرب) ، وأبو حاتم السجستانى فى (المعمرون والوصايا) وأبو هلال العسكرى فى (جمهرة الأمثال) ، والميدانى فى (مجمع الأمثال) .

فلما انتهت إلى عمرو قال لها : ما وراءك يا عصام ؟ قالت : أبدى المخض عن الزبد - يعنى : الرحلة جاءتْ بالنتيجة المرضية - فقال لها : ناطقينى ، قالت : أخبرك حقاً وصدقاً ، ثم أخذتْ تصف له أم أُناس (من ساسها لرأسها) ونكتفى هنا بوصف ما لا يحرم .

قالت : رأيتُ جبهة كالمرآة الصقيلة ، يُزينها شعر كأذناب الخيل المضفورة ، إن مشطته خلْتَه السلاسل ، وإنْ أرسلتْهُ قلتَ : عناقيد كَرْم جَلاَها الوابل[١] ، تحتَه حاجبان مُتقوِّسان كأنما خُطَّا بقلم أو سُوِّدا بحمم ، قد تقوَّسا على عينى الظبية العبهرة[٢] التى لم يرعها قانص[٣] ، ولم يُفزعها قسورة[٤] .

بينهما أنف كحدِّ السيف المصقول لم يخنس به قِصَر ، ولم يُمعن به طول ، حلَّقت به وجنتان كالأرجوان فى بياض محض كالجُمان ، فيه فم كالخاتم لذيذ المبتسم ، ذو ثنايا غُرّ ، وفيه لسان مُلىء بياناً ، يزينه شفتان حمراوان كأنهما الورد ، يجلبان ريقاً كالشهد ، وتحته عنق كإبريق الفضة اتصل به عضدان ممتلئان .. إلى آخر ما قالتْ عصام فى الوصف[٥] .

---

(١) عناقيد كرم جلاها الوابل : أى عناقيد عنب قد جلاها ماء المطر .

(٢) العبهرة : الممتلئة الجسم وجمعت الحسن والجسم والخلق . [لسان العرب - مادة : عبهر] . والعبهرة : المرأة الحسناء . (خزانة الأدب) لعبد القادر البغدادى .

(٣) القانص : الصائد . ولم يرعها قانص : أى لم يفزعها ، فعين الغزالة التى لم يفزعها صائد تجدها واسعة حالمة من الهدوء والدعة والراحة ، كذلك هذه المرأة .

(٤) القسورة : الأسد . وقيل : هم الرماة من الصيادين . وفى القرآن الكريم ﴿فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾﴾ [المدثر] .

(٥) أورده ابن عبد ربه الأندلسى فى (العقد الفريد) فصل : صفات النساء وأخلاقهن . والمحب الدمشقى (ت ١٦٩٩ م) فى كتابه (خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر) والميدانى فى مجمع الأمثال (مثل ما وراءك يا عصام) والنويرى فى (نهاية الأرب فى فنون الأدب) حرف الميم : قولهم ما وراءك يا عصام .

وقبل أنْ تغادر أم أُناس بيت أبيها إلى بيت زوجها لم يَفُتْ أمامة بنت الحارث أنْ توصى ابنتها هذه الوصية الغالية التى تضمن لها السعادة الزوجية ، إنْ هى التزمت بها ، واسمع أمامة تقول[1] :

أىْ بُنيَّة .. إن الوصية لو تُركَتْ لفضل أدب تُركت لذلك منك ، ولكنها تذكرة للغافل ومعونة للعاقل ، ولو أن امرأة استغنتْ عن الزوج لِغنَى أبويها وشدَّة حاجتهما إليها كنتِ أغنى الناس عنه ، ولكن النساء للرجال خُلِقْنَ ، ولهُنَّ خُلِق الرجال .

أى بنية .. إنك مفارقة الجو الذى منه خرجتِ ، وخلفتِ العُشَّ الذى فيه درجْتِ ، إلى وكْر لم تعرفيه ، وقرين لم تألفيه ، فاحفظى له خصالاً عشراً يكُنْ لكِ ذُخراً :

أما الأولى والثانية : فالرضا له بالقناعة ، وحُسْن السمع له والطاعة . وأما الثالثة والرابعة : فالتفقُّد لمواقع عينيه وأنفه ، فلا تقع عينُه منكِ على قبيح ، ولا يشُمّ أنفه منكِ إلا أطيب ريح .

وأما الخامسة والسادسة : فالتفقد لوقت منامه وطعامه ، فإنَّ تواتُرَ الجوع مَلْهبة ، وتنغيص النوم مَغْضبة . وأما السابعة والثامنة : فالإحراز لماله ، والإرعاء على حَشَمه وعياله ، ومِلاك الأمر فى المال حُسْن التدبير وفى العيال حُسْن التقدير .

وأما التاسعة والعاشرة : فلا تَعصِينَّ له أمراً ، ولا تُفشِينَّ له سراً ، فإنك إنْ خالفت أمره أوغرتِ صدره ، وإن أفشيتِ سِرَّه لم تأمنى غدره .

---

(١) ذكر هذه الوصية الأبشيهى فى كتابه (المستطرف فى كل فن مستظرف) باب : ذكر النساء وصفاتهن – الفصل الأول .

ثم إياك والفرح بين يديه إنْ كان مُهتماً ، والكآبة بين يديه إنْ كان فَرحاً ..هذه نماذج من النساء صاحبات العقل الراجح والتفكير السديد . ولو أخذت الزوجاتُ بهذه النصيحة لكفَتْنَا شراً كثيراً من الخلافات الزوجية التى نعانى منها اليوم .

﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا ۚ أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴿١٩﴾ ﴾

هذه دعوى أخرى من دعاواهم وافتراءاتهم على الله ، وتأتى هذه الآية بعد أنْ نسبوا إلى الله الولد ﴿ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا ..(١٥) ﴾ [الزخرف] ثانياً نسبوا إلى الله البنات واستأثروا لأنفسهم بالبنين ، وقد أوضح الحق سبحانه فساد معتقداتهم وردَّ عليهم بالحجة وبالدليل من واقعهم المعاش .

وهنا يصفون الملائكة الذين هم عباد الرحمن بالأنوثة وهذا افتراء آخر ، يردّ الله عليهم ﴿ أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ .. (١٩) ﴾ [الزخرف] يعنى : كيف يحكمون هذا الحكم على الملائكة ، أشهدوا خلق الملائكة وعلموا أنهم إناث ، ثم يهددهم ﴿ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ (١٩) ﴾ [الزخرف] ستُكتب وتُسجَّل عليهم ويُسألون عنها يوم القيامة ، ويُحاسبون على كل هذه الافتراءات .

وفى موضع آخر يقول سبحانه ﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا (٥١) ﴾ [الكهف]

وجاء الواقع ليثبت صدق هذه الآية ، ورأينا المضلين فى كل زمان يُضلون الناس ويصرفونهم عن الحق ، بدايةً من الذين نسبوا لله الولد ، ونسبوا لله البنات ، ووصفوا الملائكة بأنهم إناثٌ إلى الذين

قالوا بأن الإنسان أصله قرد وتطور .

ونسأل كل هؤلاء : أشهدتُم خلق الله ؟ الله الخالق يقول : ﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ (٥١) ﴾ [الكهف] إذن : لا تُصدِّقوا هؤلاء فهم كذابون ومُضلون ، وقد سخرهم الله تعالى لخدمة الحق ، وجعلهم دليلاً على صدق كلامه .

ومن هؤلاء المضلين قوم أنكروا سنة رسول الله ﷺ وقالوا : نأخذ بما فى القرآن فقط ولا نعترف بالسنة ، وقد جاءت هذه الجماعة دليلاً على صدق سيدنا رسول الله الذى أخبر بمجيئهم قبل أربعة عشر قرناً ، فقال ﷺ :

« يوشك رجل منكم يتكىء على أريكته يقول : بيننا وبينكم كتاب الله فما وجدنا فيه من حلال حللناه ، وما وجدنا فيه من حرام حرَّمناه ، ألاَ وإنَّ ما قال رسول الله كما قال الله »[1] .

﴿ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَـٰنُ[2] مَا عَبَدْنَاهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (٢٠) ﴾

هذه دعوى أخرى من دعاواهم وافتراءاتهم على الله ، لذلك يرد الله

---

(١) عن المقدام بن معد يكرب أن رسول الله ﷺ قال : « يوشك الرجل يتكىء على أريكته يُحدَّث بحديثى فيقول : بينى وبينكم كتاب الله ، فما وجدنا فيه حلالاً استحللناه وما كان فيه حراماً حرمناه ، وإن ما حرم رسول الله ﷺ كما حرم الله » . أخرجه أحمد فى مسنده (٤/١٣٢) والترمذى (٢٦٦٤) وابن ماجه (١٢) والدارقطنى (٤/٢٨٦) فى سننهم ، واللفظ للدارقطنى .

(٢) علَّقوا كفرهم وشركهم على أنه مشيئة الله وقدره ، ولو أراد الله ما عبدنا ما عبدنا . وهى دعوى باطلة صحيح أنه لا يحدث شىء فى كونه إلا بعلمه ولكنه لا يريد لعباده الكفر ولا يرضاه لهم .

عليهم بأن هذا الكلام كذب وافتراء تقولونه دون وعى ودون علم ﴿إِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ[1] (٢٠)﴾ [الزخرف] يعنى : ما هم إلا يكذبون فى هذا الادعاء .

﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ (٢١)﴾

لماذا يفعلون هذا ؟ هل جاءهم بذلك رسول يقول لهم هذا الكلام ، أو يجيز لهم أنْ يعبدوا الأصنام ﴿فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ (٢١)﴾ [الزخرف] يعنى : بقوة .

﴿بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ (٢٢)﴾

إذن : القضية قضية تقليد أعمى دون تفكير أو تأويل ، فقالوا ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ (٢٢)﴾ [الزخرف] يعنى : على دين أو على ملَّة أو طريقة مقصودة من الفعل (أمَّ) يعنى : قصد ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم (٢٢)﴾ [الزخرف] على طريقتهم ﴿مُّهْتَدُونَ (٢٢)﴾ [الزخرف] يعنى : هذه الطريقة هى التى تدلنا وتهدينا .

والقرآن الكريم تناول هذه القضية بتفصيل فى مواضع أخرى ، ففى آية قال سبحانه : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ (١٧٠)﴾ [البقرة]

---

(١) يخرصون : يكذبون . والخرَّاص : الكذاب . [القاموس القويم ١/١٩١] . والخرْص : الحزْر والحدْس والتخمين بما لا علم لهم به .

وفى آية أخرى قال سبحانه : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ (١٠٤)﴾ [المائدة]

وتأمل دقة الأداء القرآنى فى هاتين الآيتين ، وكيف خُتمت كل آية بما يناسبها ، أولاً تجد أن المعنى العام للآيتين واحد ، لكنهم فى الأولى قالوا : ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا (١٧٠)﴾ [البقرة] وفى الأخرى قالوا : ﴿حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا (١٠٤)﴾ [المائدة]

فاستخدموا أسلوب القصر والحصر ، وقصروا عبادتهم على ما وجدوا عليه الآباء ، فالإعراض فى هذه أقوى من الأولى ، لذلك جاء ذيل الآية بما يناسب إعراضهم .

ففى الأولى قال تعالى رداً عليهم بهذا الاستفهام التعجبى ﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ (١٧٠)﴾ [البقرة] وقال فى الأخرى : ﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ (١٠٤)﴾ [المائدة] فما الفرق بين ﴿لا يَعْقِلُونَ (١٧٠)﴾ [البقرة] و ﴿لا يَعْلَمُونَ (١٠٤)﴾ [المائدة] ؟ يعقلون يعنى : هو الذى يستنبط المسائل بنفسه وبعقله ، أمَّا يعلمون . أى : لا يقدر على الاستنباط إنما يعلم من استنباط غيره .

﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ (٢٣)﴾ (١)

---

(١) الترف : التنعُّم . والمترفون : المتنعمون المتمادون فى الترف فأدى إلى طغيانهم وبطرهم . [القاموس القويم ١/٩٩ بتصرف] .

قوله تعالى : ﴿مِّن نَّذِيرٍ (٢٣)﴾ [الزخرف] يعنى : من رسول ، فما من رسول أُرسل إلا وُوجه بهذا التكذيب وبهذا العناد ﴿إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا (٢٣)﴾ [الزخرف] المترفون هم المنعَّمون المنغَمسون فى الشهوات ، فهم دائماً قادة الكفر وقادة التكذيب للرسل ﴿عَلَىٰ أُمَّةٍ (٢٣)﴾ [الزخرف] على ملَّة أو على طريقة ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ (٢٣)﴾ [الزخرف] يعنى : سائرون وسالكون نفس طريقتهم .

﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ ۖ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ (٢٤)﴾

هذا يدل على تصميمهم على الإعراض وتمسكهم بالضلال الذى هم عليه وآباؤهم .

﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (٢٥)﴾

لأن هذه سُنة الله فى الرسل وفى كل مُكذِّب للرسل ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣)﴾ [الصافات]

ثم يأتى الحق سبحانه بما يفسد عملية التقليد هذه ويبطلها ويُبيِّن كذبهم فيها ، فيقول تعالى :

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦)﴾

يريد الحق سبحانه أنْ يكشف زيفهم ويفضح كذبهم فى قولهم ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا (١٧٠)﴾ [البقرة] ويسوق لهم الدليل الواقعى من واقع حياتهم ، فها هو سيدنا إبراهيم الخليل أبو الأنبياء ومحطّ أنظار العرب جميعاً يُقدِّسونه ويفتخرون بالانتساب إليه .

يقولون : نحن من نسل إبراهيم ، وإبراهيم لم يُقلِّد أباه فى عبادته للأصنام ، فلماذا تُقلدون أنتم آباءكم ولم تقلدوا إبراهيم ؟

فالحق سبحانه ينقض مسألة التقليد عملياً فى قصة سيدنا إبراهيم وينقضها فلسفياً أيضاً ، فلو تتبعتَ الوجود الأول لم نجد إلا آدم عليه السلام ، وآدم جاء بمنهج وسار عليه وسار عليه أولاده من بعده ، فكيف حدث الانحراف عن هذا المنهج ؟

إذن : لا بدَّ أنه جاء مع مرور الزمان أُنَاسٌ خرجوا على المنهج وقلبوا الحقائق لهوىً فى أنفسهم ، ومن هؤلاء جاء جيل يعبد الأصنام ، لأنهم غير محكومين بمنهج السماء ولا بقضية التكاليف : افعل ولا تفعل ، فناسبهم عبادة آلهة لا تكليفَ عندها ، لذلك عبدوا الأصنام .

قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ (٢٦)﴾ [الزخرف] دار حولها جدلٌ واسع بين العلماء[1] : أهو أبوه الحقيقى أو هو عمه آزر ؟

---

(١) قال الألوسى فى تفسيره (روح المعانى) [الأنعام - ٧٤] : « أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس أن اسم أبى إبراهيم يازر واسم أمه مثلى . وإلى كون آزر ليس اسماً له ذهب مجاهد وسعيد بن المسيب وغيرهما . واختلف الذاهبون إلى ذلك فمنهم من قال : إن آزر لقب لأبيه . ومنهم من قال : اسم جده . ومنهم من قال : اسم عمه والعم والجد يُسميان أباً مجازاً . ومنهم من قال : هو اسم صنم . ومنهم من قال : هو وصف فى لغتهم ومعناه المخطىء أو الأعوج أو الشيخ الهرم » .

المتتبع لكلمة (أبيه) فى القرآن يجد أنها وردت ثمانى مرات ، أولها فى سورة الأنعام ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ (٧٤)﴾ [الأنعام] وآخرها فى سورة الممتحنة ، ولم تأت كلمة (لأبيه) بعد ذلك إلا مرة واحدة فى قصة سيدنا يوسف ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ (٤)﴾ [يوسف]

إذن : لم تأتِ آزر إلا فى آية الأنعام فقط ، وهى أول الآيات الثمانية ، فكأن الحق سبحانه حسم الخلاف فى هذه المسألة ، فأراد أنْ يُبيِّن لنا أن آزر عمه ، بدليل أنه قال ﴿لأَبِيهِ آزَرَ (٧٤)﴾ [الأنعام] وفى باقى المواضع قال (لأبيه) أى : الذى عرفتموه أولاً . أى : فى سورة الأنعام .

وهذا أمر شائع فى لغتنا أن نقول للعم أب ، فحين يسأل رجل : أبوك موجود ؟ تفهم أنه يريد الأب الحقيقى ، إنما لو قال لك : أبوك محمد موجود ؟ فهو يقصد عمك لأنه حدَّده بالعَلَم بعد الوصف .

والقرآن يُدخل العَمَّ ضمن الآباء فى قوله تعالى : ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ (١٣٣)﴾ [البقرة]

فكلمة ﴿آبَائِكَ (١٣٣)﴾ [البقرة] جمع يشمل إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ، وإذا اجتمع جمع فى حكم جمع تكون القسمة مفردة ، فتأخذ أب هو إبراهيم ، وأب هو إسماعيل ، وأب هو إسحاق ، فهؤلاء الثلاثة آباء ليعقوب ، وإسماعيل أخو إسحاق ، وإنْ كان إسماعيل هو الأب إذن إسحاق ليس أباً ، بل هو عَمّ . إذن : سُمِّىَ العَمُّ أباً .

لذلك الحق سبحانه فى أول آية تتكلم عن سيدنا إبراهيم ذكر ﴿لأَبِيهِ آزَرَ (٧٤)﴾ [الأنعام] ليُبيِّن أن آزر الذى جادله إبراهيم وناقشه

فى مسألة التوحيد ليس أبا إبراهيم الحقيقى ، إنما هو عمه .

ونجد دليلاً على ذلك من سنة سيدنا رسول الله ﷺ حيث قال فى الحديث عن أصله ﷺ : « ما زلتُ أنتقل من أصلاب الطاهرين إلى أرحام الطاهرات ، فأنا خِيارٌ من خيار »[1] .

وسلسلة النسب النبوى تصل إلى أبيه إبراهيم ، فلا يصح إذن أنْ يكون أبو إبراهيم كافراً عابداً للأصنام .

وقوله : ﴿ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) ﴾ [الزخرف] براء بمعنى برىء ، والفرق بينهما أن براء تُقَال للمفرد وللمثنى وللجمع ، وللمذكر والمؤنث ، أما برىء فتُثنَّى وتُجمع ، وتُذكَّر وتُؤنّث ، وفى موضع آخر وصفهم بالعدو : ﴿ فَإِنَّهُمْ (٧٧) ﴾ [الشعراء] أى : الأصنام ﴿ عَدُوٌّ لِّي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٧٧) ﴾ [الشعراء] فما دام فى المسألة شِرْك أو كفر بالله فأنا أتبرّأ منه .

﴿ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ (٢٧) ﴾

معنى : ﴿ فَطَرَنِي (٢٧) ﴾ [الزخرف] خلقنى وأبدعنى ﴿ فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (٢٧) ﴾ [الزخرف] دلَّتْ على أن المنهج لا بدَّ أن يكون من الذى خلق ، فهو الذى يضع المنهج ، وهو الذى يهدى ، ولا يصح أن الله يخلق والناس تضع المنهج .

كما قلنا فى مسألة الصانع الذى يضع (كتالوج) لصيانة

---

(١) هذا الحديث بهذا اللفظ ذكرته معظم كتب التفسير ولم يذكروا له سنداً أو راوياً أو من أخرجه ولم يعزه أحد منهم إلى أى كتاب . ولكن ورد عند ابن عساكر فى تهذيب تاريخ دمشق (٢٧٨/١) عن أنس قال : قرأ رسول الله ﷺ ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة] بفتح الفاء وقال : « أنا أنفسكم نسباً وصهراً وحسباً ليس فى آبائى من لدن آدم سفاح ، كلنا نكاح ».

صَنْعته لأنه الأدْرى بها الخبير بما يُصلحها .

هنا قال : ﴿فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (٢٧)﴾ [الزخرف] بالسين الدالة على الاستقبال ، وفى موضع آخر قال ﴿فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨)﴾ [الزخرف] بالمضارع ، وهذا يدل على الهداية من الله متصلة فى الحاضر والمستقبل .

ولأن الهداية والمنهج لا يكون إلا من الذى خلق ؛ استخدم أسلوب القصر : ﴿فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (٢٧)﴾ [الزخرف] وفى آية الشعراء ﴿الَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَالَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠)﴾ [الشعراء]

فقدَّم الضمير المنفصل على الفعل ، ليدل على قَصْر الفعل على الله تعالى ، لأن هذه الأفعال بها شُبْهة المشاركة مع الله تعالى ، أما فى الأفعال التى لله وحده لا شبهةَ للمشاركة فيها ، فتأتى بدون قَصْر : ﴿وَالَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١)﴾ [الشعراء]

﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٨)﴾ (١)

قوله تعالى ﴿وَجَعَلَهَا (٢٨)﴾ [الزخرف] أى سيدنا إبراهيم جعل كلمة البراءة من الشرك ، أو كلمة التوحيد التى وردتْ فى قوله تعالى : ﴿وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٣٢)﴾ [البقرة]

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٦١٢٢/٩) أن الضمير فى (جعلها) عائد على قوله ﴿إِلَّا الَّذِى فَطَرَنِى .. (٢٧)﴾ [الزخرف] . وضمير الفاعل فى (جعلها) لله عز وجل ، أى : وجعل الله هذه الكلمة والمقالة باقية فى عقبه وهم ولده وولد ولده . أى : أنهم توارثوا البراءة عن عبادة غير الله .

جعل هذه الكلمة ﴿ بَاقِيَةً (٢٨) ﴾ [الزخرف] سائرة ﴿ فِي عَقِبِهِ (٢٨) ﴾ [الزخرف] فى ذريته من بعده ، وما زالت هذه الكلمةُ باقيةً ودائرة على ألسنة الناس حتى يوم القيامة ، لأنها كلمةٌ طيبة ، والكلمة الطيبة ضَمنَ الحق سبحانه لها البقاء فى قوله تعالى : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكُلَهَا (١) كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا (٢٥) ﴾ [إبراهيم]

وسماها كلمة مع أنها كلام ، لأن الكلمة فى اللغة تُطلق على الكلام ، كما نقول : ألقى فلانٌ كلمة فى الحفل ، وابنُ مالك فى الألفية يقول :

وكَلِمَةٌ بِهَا كَلاَمٌ قَدْ يُؤَمّ .

يعنى : نقصد بالكلمة الكلام الكثير .

﴿ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ (٢٩) وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ (٣٠) ﴾

قلنا : إن المنهج ينطمس وينصرف الناسُ عنه بمرور الزمن حتى تدعوَ الحاجةُ لنبى جديد يُعيد الناس إلى الجادَّة ، لأن الحق سبحانه خلق فى النفس البشرية مناعة طبيعية لأنه خليفة الله فى أرضه ، فهو الذى سيعمر هذه الأرض ، فلا بدَّ أن يُوفر له أسباب الاستقامة

---

(١) الأُكل : ما يُؤكل أو الثمر الصالح للأكل . [القاموس القويم ١/٢٣] والأكل : ثمر النخل والشجر ، وكل ما يُؤكل فهو أُكل . [لسان العرب مادة : أكل] .

والحركة الإيجابية التى يعمر بها الأرض .

لذلك نرى الإنسان السَّوى حينما يفعل المعصية حين غفلة منه عن منهج ربه يُسرع بالتوبة والندم ، لأن الاستقامة وبذرة الإيمان فى ذاته ، فإذا أصيب المرْءُ فى ذاته وفقد هذه المناعة تأتى المناعة من المجتمع ، المجتمع الواعى المدرك لدوره الجماعى فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فإذا فقد المجتمع هو الآخر هذه المناعةَ لم يَبْق إلا أن تتدخَّل السماء برسول جديد ومنهج جديد .

إذن : حدث الانصرافُ عن المنهج بعد إبراهيم وإسماعيل ، فكانت رسالة محمد ﷺ ، فسيدنا إبراهيم جعل كلمة التوحيد باقية فى عقبه ﴿لَعَلَّهُمْ (٢٨)﴾ [الزخرف] أى : ذريته من بعده ﴿يَرْجِعُونَ (٢٨)﴾ [الزخرف] أى : إلى الله .

لكن لم يحدث ، فقال سبحانه : ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَـٰؤُلَاءِ (٢٩)﴾ [الزخرف] أى : كفار مكة ﴿وَآبَاءَهُمْ (٢٩)﴾ [الزخرف] بالجاه والسلطان والنعيم والأمن ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ (٦٧)﴾ [العنكبوت] وجعل لهم منزلة وقداسة بين العرب لمكانتهم من البيت ، وظلَّتْ لهم هذه المنزلة ﴿حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ (٢٩)﴾ [الزخرف] أى : القرآن ﴿وَرَسُولٌ مُّبِينٌ (٢٩)﴾ [الزخرف] أى : محمد ﷺ و ﴿مُّبِينٌ (٢٩)﴾ [الزخرف] يعنى : يظهر الحقَّ على يديه وفى كل شىء فيه .

لكن هل آمنوا بهذا الحق ، وصدَّقوا بهذا الرسول ؟ لا ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَـٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ (٣٠)﴾ [الزخرف] أى : أن القرآن سحرٌ يَسحر مَن استمعه ، وفى موضع آخر قالوا عن الرسول أنه ساحر .

وقلنا : إن الرد على هذا الافتراء سهلٌ ، فلو كان القرآن سحراً ولو كان محمدًا ساحراً سحر المؤمنين به ، فلماذا لم يسحركم أنتم أيضاً ، وتنتهى المسألة ؟ إذن : وجودكم على الكفر دليلُ صدق محمد ، وأنه نبى ليس بساحر .

ولما لم تفلح هذه الشبهة قالوا : ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ (١٠٣)﴾ [النحل] أى : أن رسول الله يختلف إلى رجل فارسى[1] يُعلِّمه القرآن ، فرد الله عليهم ﴿لِّسَانُ الَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ (١٠٣)﴾ [النحل]

فقالوا عنه ﷺ : مجنون ، فردَّ الله عليهم : ﴿مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (٢) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ (٣) وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤)﴾ [القلم] والمجنون لا يكون صاحب خُلْق عظيم ، لأن الخُلُقَ يضبط سلوك صاحبه .

فلما أبطل الحق سبحانه دعاواهم وافتراءاتهم وردّ عليهم بما يُظهر غباءهم قالوا :

---

(١) ذكر ابن الجوزى فى زاد المسير (تفسير آية ١٠٣ النحل) تسعة أقوال فيمن ادعوا أنه كان يُعلم رسول الله :

- غلام لبنى المغيرة يقال له « يعيش » يقرأ التوراة . ويقال : كان رومياً .
- فتى كان بمكة يسمى «بلعام» وكان نصرانياً أعجمياً .
- أنه نزلت فى كاتب كان يكتب لرسول الله .
- أنه غلام أعجمى لامرأة من قريش يقال له « جابر » وكان جابر يأتى رسول الله فيتعلم منه فقال المشركون : إنما يتعلم محمد من هذا .
- أنهم عنوا به سلمان الفارسى . وفيه بُعْد من جهة أن سلمان أسلم بالمدينة وهذه الآية مكية.
- أنهم عنوا به رجلاً حداداً كان يقال له « بُحنَّس » النصرانى .
- أنهم عنوا به غلاماً لعامر بن الحضرمى وكان يهودياً أعجمياً واسمه يسار ويكنى أبو فكيهة.
- أنهم عنوا غلاماً أعجمياً اسمه « عايش » وكان مملوكاً لحويطب وكان قد أسلم . قاله الفراء والزجاج .
- أنهما رجلان يقال لأحدهما « يسار » وللآخر « جبر » وكانا يصنعان السيوف بمكة ويقرآن الإنجيل .

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾ (١)

وهذا إقرار منهم بأن القرآن حَقّ ولا اعتراضَ عليه ، إنما اعتراضهم على شخص رسول الله ، وأنه من أوسط الناس وليس عظيماً من عظمائهم ، ولا سيداً من ساداتهم فى القريتين أى : مكة والطائف . وقد كان فى الطائف عروة بن مسعود الثقفى ، وفى مكة الوليد بن المغيرة وغيرهم . فردَّ الله عليهم :

﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ (٢)

يعنى : إذا كنا قسمنا بينهم أبسط الأشياء وهى معايشهم فى الدنيا أيريدون هم أنْ يقسموا رحمة الله وفضل الله حسْب أهوائهم ، ورحمة الله يختصُّ بها مَنْ يشاء من عباده ، فهى فى يده سبحانه لا دخَلْ لأحد فى توزيعها .

---

(١) رُوى أن الوليد بن المغيرة - وكان يسمى ريحانة قريش - كان يقول : لو كان ما يقوله محمد حقاً لنزل علىَّ أو على أبى مسعود (يقصد عروة بن مسعود الثقفى من الطائف) . [تفسير القرطبى ٦١٢٨/٩] .

(٢) قال قتادة : تلقاه ضعيف القوة قليل الحيلة عيى اللسان وهو مبسوط له ، وتلقاه شديد الحيلة بسيط اللسان وهو مُقتَّر عليه . [ذكره القرطبى فى تفسيره ٦١٢٨/٩] .

فقوله تعالى ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ (٣٢)﴾ [الزخرف] دلَّ على عجز الإنسان ، وأن حركة الحياة لا تنصلح إلا بمنهج الله الذى ينظمها .

ومن حكمة هذه القسمة أنْ جعل بعضَ الناس أغنياء وبعضهم فقراء ، بعضهم سادةٌ وبعضهم خَدَم ، ولولا هذه القسمة ما استقامتْ حركة المجتمع وما وجدنا مَنْ يقوم بالأعمال الشاقة أو الأعمال الحقيرة .

وسبق أنْ أوضحنا أن حركة المجتمع وتقدمه لا يقوم على التفضُّل ، إنما على الحاجة ، فحاجة الفقير هى التى تدفعه للعمل .

والرحمة المرادة هنا ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ (٣٢)﴾ [الزخرف] هى النبوة ، فهم يطمعون فى أنْ يجعلوها اختياراً يختارونه من ساداتهم وكبراء القوم فيهم ، فالحق سبحانه يُصحِّح لهم ويقول : كيف تطمعون فى ذلك وأنتم لا تقدرون على قسمة أبسط الأشياء ؟

ثم تلاحظ أن كلمة ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ (٣٢)﴾ [الزخرف] كلمة مبهمة تعنى أن الكلّ مرفوع ومرفوع عليه ، مرفوع فى شىء ، ومرفوع عليه فى شىء آخر .

وهكذا يتكامل الخَلق ، وتتم المصالح ، وتُقضى حاجات المجتمع كما قال الشاعر :

النَّاسُ للناسِ مِنْ بَدْوٍ وحَاضِرةٍ بَعْضٌ لبعْضٍ بمَا لاَ يعلموا خَدَمُ

فأنت مرفوع فيما تُحسنه من الأعمال ، ومرفوع عليك فيما لا تجيده ، هذا معنى قوله تعالى ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا (٣٢)﴾ [الزخرف]

﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٣٢)﴾ [الزخرف] المراد برحمة ربك هنا الرسالة والمنهج الذى يهدى الخَلْق إلى طريق الحق ، هذه الرحمة فى الحقيقة خيرٌ من هذا المتاع الزائل الذى تتنافسون عليه فى الدنيا ، لأن الإنسان مهما وصل فى الدنيا إلى الرفاهية والترف والنعيم فسوف يموت ويتركه ولن يبقى له منه شىء .

أما منهج الله فيُورثك فوزاً باقياً تسعد به فى الدنيا وتفوز به فى الآخرة . إذن : هو خير وهو أبْقى ، وهو أنفع لك وأدوم ، هذا المنهج يضمن لك صلاحَ الدنيا وسلامة الآخرة ؛ لذلك كان هو ﴿خَيْرٌ (٣٢)﴾ [الزخرف] من كل ما تراه من بريق الدنيا .

ثم يتكلم الحق سبحانه عن الكافرين الذين ملكوا الدنيا ، وأخذوا كل مظاهر الزينة والترف والنعيم ، وتحكموا حتى فى قوت ومصائر المسلمين ، وبيَّن أن هذا الزخرف شكلٌ ظاهرى زائل ، والعاقبة لا بدَّ أنْ تكون لأهل الإيمان فى النهاية :

﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ (١) عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (٣٣) وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ (٣٤) وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ (٣٥)﴾

---

(١) معارج : جمع معراج ، ومعنى ﴿وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (٣٣)﴾ [الزخرف] أى : يركبونها ويصعدون فيها إلى أعلى وقد تحقق ذلك بالمصاعد الكهربية فى البيوت العالية . [القاموس القويم ١٣/٢] .

معنى ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً (٣٣)﴾ [الزخرف] يعنى : على دين واحد مجتمعين على الكفر ، ولولا أن الناس يروْنَ الكافرين مُنعَّمين فيفتنون بهم لجعلتُ لهم كلَّ هذا النعيم ، بحيث لا يكون أحدٌ أفضلَ منهم لأن هذا النعيم نعيم الدنيا ينتهى بنهايتها ولا يدوم ، وإنْ كانت الدنيا لحساب الكافرين فالآخرة للمتقين .

والقرآن هنا يخبر بارتقاءات البشر التى عرفوها بعد أربعة عشر قرناً من نزول القرآن ، فالمعارج يعنى : المصاعد أو السلالم التى يُصعد عليها ﴿وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (٣٣)﴾ [الزخرف] يعنى : يصعدون ويرتقون .

فكأن الحق سبحانه يُهوّن من أمر تنعُّم الكافرين ، حتى لا نغتر نحن بهم ، ولا نتمنى ما هم فيه من زخرف زائل .

وبعد ذلك يُبيِّن لنا أن المنعَّمين والمترفين يأتى عليهم وقت يحبون فيه الرجوع إلى الأصل الأول وإلى بساطة الطبيعة ، فتراهم مثلاً فى نهاية الأسبوع يخرجون إلى الخلاء ويرتمون فى أحضان الطبيعة يأكلون مما تنبت الأرض ويعيشون على الكفاف ، لماذا ؟ لأنهم ملُّوا حياة الرفاهية الزائدة ، ملُّوا حياة التحضر وما فيها من عيوب وسلبيات .

﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (٣٦)﴾

معنى : ﴿يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ (٣٦)﴾ [الزخرف] يعنى : يُعرض

عنه أو يتعامى ويغفل عنه ، ولأنه غفل عن شيء هام لا ينبغى أن يغفل عنه أو يعرض يعاقبه الله ﴿ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا (٣٦) ﴾ [الزخرف] نعد له شيطاناً ونهيء له شيطاناً ﴿فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (٣٦) ﴾ [الزخرف] يعنى : ملازم له يضله ويوسوس له .

قلنا : لأن الحق سبحانه الغنى عن خَلْقه ، وهو ربّ المؤمن وربّ الكافر ، لذلك يُعين كلاً على ما يريد ، فمَنْ أراد الهداية أعانه عليها وزاده منها ، ومَنْ أراد الكفر ختم على قلبه بحيث لا يدخله إيمان ولا يخرج منه الكفر ، لذلك أتَى هنا بصفة (الرحمن) .

لذلك أكثر ما يجيء الشيطان للإنسان وقت الصلاة ليفسد عليه علاقته بربه ، قلنا : إنه يأتى المسجد ولا يأتى الخمارة ، لذلك قال كما حكى عنه القرآن : ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ﴾ [الأعراف]

ذكرنا قصة الرجل الذى وضع مالاً فى مكان ما ، ثم نسيه ، فقال له صديقه : اذهب إلى أبى حنيفة[1] فعنده مَخْرج لكل المسائل ، لأننى ذهبتُ إليه استفتيتُه فى طلاق زوجتى لأننى قلت لها وهى على السُّلم : أنت طالق إنْ نزلتِ ، وطالق إنْ صعدت ، فقال له أبو حنيفة : قُلْ لها تُلقى بنفسها من على السُّلم .

المهم ذهب صاحبنا إلى أبى حنيفة وقال له : لقد وضعتُ مالاً فى مكان كذا ، ونسيتُ موضعه ، فماذا أفعل ؟ قال أبو حنيفة : ليس

---

(١) أبو حنيفة إمام الحنفية هو النعمان بن ثابت فقيه مجتهد محقق ، أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة ، قيل : أصله من فارس ، كان يبيع الخز ويطلب العلم فى صباه ولد ٨٠ هجرية وتوفى ببغداد عام ١٥٠ هجرية عن ٧١ عاماً .

فى هذا علم ، لكنّى سأحتال لك : إذا جاء الليل اذهب وصلِّ لله ركعتين لأن رسول الله ﷺ كان إذا حزبه أمر يُهرع إلى الصلاة[١] .

وفعلاً ذهب الرجل ، وهو فى صلاته جاءه الشيطان يُوسوس إليه بمكان المال حتى ذكَّره به ، وفى الصباح قابل الرجلُ أبا حنيفة وقصَّ عليه ما حدث ، فضحك أبو حنيفة وقال : والله لقد علمتُ أنه لنْ يدعك تُتم ليلتك مع ربك ، فهلا أتممتها شُكراً لله ؟ قال : سأفعل إن شاء الله .

﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾

أى : هؤلاء القرناء قرناء السوء ﴿ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الزخرف] يعنى : يصرفونهم ويمنعونهم عن الحق وعن الطريق المستقيم ﴿ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الزخرف]

لذلك قال فى موضع آخر : ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً ﴿٢٧﴾ يَـٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلاَنًا خَلِيلاً ﴿٢٨﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِى وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً ﴿٢٩﴾ ﴾ [الفرقان]

وقرناء السوء قرناء فى الدنيا فحسب ، أما فى الآخرة فسيكونون أعداء ، يلوم كُلٌّ منهم صاحبه ﴿ الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٥/٣٨٨) وأبو داود فى سننه (١٣١٩) من حديث حذيفة رضى الله عنه . وحزبه الأمر يحزبه : نابه واشتد عليه . وأمر حازب : شديد . والمقصود إذا نزل به أمر شديد أو أصابه غم .

الْمُتَّقِينَ (٦٧) ﴾ [الزخرف]

كذلك الشيطان سيتبرأ من أتباعه ويخذلهم فى الآخرة : ﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم (٢٢) ﴾ [إبراهيم]

وقد علَّمنا ربنا سبحانه وتعالى كيف نتحصَّن من الشيطان ، فقال : ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ (٢٠٠) ﴾ [الأعراف]

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ (٣٨) ﴾

قوله تعالى : ﴿ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ (٣٨) ﴾ [الزخرف] بُعْد المشرق من المغرب ، وهذا الأسلوب يُسمَّى فى اللغة (التغليب) ، لأن المشرق يقابله المغرب ، والعرب فى المتقابلات تُغلب أحدهما على الآخر ، كما يقولون مثلاً فى الشيخين أبى بكر وعمر يقولون (العمرين).

وحينما نتامل فى المشرق والمغرب من الناحية الفلكية الجغرافية نجد أن المشرق مغرب آخرين ، والمغرب مشرق آخرين ، إذن : كلاهما مشرق ، وكلاهما مغرب .

﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (٣٩) ﴾

لأن هذه بلوى عامة تشمل الجميع ، فالبلوى حينما تصيب رجلاً

واحداً من بين الناس يعز عليه ذلك ، ويشق عليه أن يحزن والآخرون سعداء ، لكن لمَّا تعمُّ البَلْوى تهون ويخفّ وَطْؤها على الجماعة لمشاعر المشاركة ، حتى ولو كانت المشاركة فى الحزن .

وهذا المعنى عبَّرتْ عنه الخنساء[1] فى رثائها لأخيها صخر حين قالت :

وَلَوْلاَ كَثْرَةُ البَاكِينَ حَوْلى ... عَلَى إخْوانهمْ لَقتلْتُ نَفْسى
وَمَا يَبْكُونَ مِثْلَ أَخِى وَلكِنْ ... أُعَزِّى النَّفْسَ عَنْهُ بِالتَّأسِّى[2]

وقال آخر :

وَهوَّنَ فجَعَاتِ المصَائِب أنَّنى ... وَإنْ هَصَرَتْنى لَسْتُ فى مُرِّهَا وَحْدِى

نعم ، إذا عمَّتْ المصائب هانتْ ، لكن هذا فى مصائب الدنيا ، أما مصيبة الآخرة فلا تهون ولا تُخفَّف ﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ (٣٩) ﴾ [الزخرف] أى : يوم القيامة ﴿ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (٣٩) ﴾ [الزخرف]

﴿ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِى الْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٤٠) ﴾

---

(١) الخنساء : هى تماضر بنت عمرو بن الحارث من بنى سليم من أهل نجد ، عاشت أكثر عمرها فى الجاهلية أدركت الإسلام فأسلمت ووفدت على رسول الله ، أكثر شعرها وأجوده رثاؤها لأخويها صخر ومعاوية ، كان لها أربعة بنين شهدوا حرب القادسية (عام ١٦ هجرية) فجعلت تحرضهم على الثبات حتى قتلوا جميعاً فقالت : الحمد لله الذى شرَّفنى بقتلهم ، توفيت ٢٤ هجرية (الأعلام للزركلى) .

(٢) البيتان من قصيدة للخنساء من بحر الوافر عدد أبياتها ١٥ بيتاً . وهى قالت البيت الأول ثم تخيلت أن قائلاً قال لها : لقد ساويت أخاك بالهالكين من إخوان الناس ، فكيف أفرطت فى الجزع عليهم دونهم ؟ فاحترست من ذلك بقولها : وما يبكون مثل أخى ولكن أعزى النفس عنه بالتأسى .

المعنى - والخطاب هنا لسيدنا رسول الله ﷺ - وفِّر نفسك يا محمد ، ولا تُجهدها ولا تُحملها مَا لا تُطيق فى سبيل هداية هؤلاء .

ووصفهم بالصمم وبالعمى مع أنهم فى واقع الأمر يُبصرون ويسمعون ، يسمعون الحق ولا يتبعونه ، ويرونَ الطريق المستقيم ولا يسلكونه ، فصار مثل الأصم الذى لا يسمع ، ومثل الأعمى الذى لا يرى .

لذلك قال سبحانه فى موضع آخر : ﴿ فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَـٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (٤٦) ﴾ [الحج] إذن : هم مُعرضون معاندون متكبِّرون عن قبول الحق .

وهذا هو معنى الضلال فى ﴿ وَمَن كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٤٠) ﴾ [الزخرف]

وهل هناك ضلال أبْيَن وأوضح من ضلال مَنْ يرى الحق ولا يتبعه؟

والحق سبحانه وتعالى لا يخاطب نبيه ﷺ هذا الخطاب إلا إن كان فعلاً يشقُّ على نفسه ، ويكاد أن يهلكها فى سبيل دعوته ؛ لذلك خاطبه ربه بقوله : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَـٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا (٦) ﴾ [الكهف] وخطابه بقوله ﴿ إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاغُ (٤٨) ﴾ [الشورى] ذلك لأن رسول الله كان محباً لرسالته ، ومحباً لمنهجه ، محباً لأمته جميعاً يريد أنْ يُذيقهم ما ذاق من حلاوة الإيمان ، يريد أنْ يُطبِّق فى نفسه أنْ تحب لأخيك ما تحبّ لنفسك .

﴿ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ (٤١) أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ (٤٢) ﴾ (١)

---

(١) قال ابن عباس : قد أراه الله ذلك يوم بدر ، وهو قول أكثر المفسرين . وقال الحسن وقتادة : هى فى أهل الإسلام يريد ما كان بعد النبى ﷺ من الفتن . [تفسير القرطبى ٦١٣٩/٩] .

يعنى : يا محمد اطمئن ، فإنْ متّ فسوف نُريك عذابهم وانتقامنا منهم فى الآخرة ، وإنْ كنتَ موجوداً على قيد الحياة سنُريك عذابهم المعجَّل لهم فى الدنيا .

ومعنى ﴿ الَّذِى وَعَدْنَاهُمْ (٤٢) ﴾ [الزخرف] يعنى : عذاب الدنيا قبل عذاب الآخرة ﴿ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ (٤٢) ﴾ [الزخرف] مقتدرون : مبالغة من قادر ، يعنى : نحن مقتدرون عليهم متمكِّنون من إنزال العذاب بهم ، ولن يُفلتوا منا .

﴿ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِى أُوحِىَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٤٣) ﴾

يعنى : تمسَّك بقوة بما يُلْقَى إليك من الوحى ، ولا يغرنك إعراضهم عن دين الله ، لأنك أنت على الحق وهم على الباطل ﴿ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٤٣) ﴾ [الزخرف] طريق قويم معتدل .

﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْئَلُونَ (٤٤) ﴾

قوله تعالى ﴿ وَإِنَّهُ (٤٤) ﴾ [الزخرف] أى : القرآن الكريم الذى أُرسلْتَ به يا محمد ، هذا الكتاب منهج حياة وهو معجزة باقية خالدة إلى قيام الساعة ، وهذا القرآن ﴿ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ (٤٤) ﴾ [الزخرف] يعنى : شرف وعزَّة وفَخْر لك ولقومك - أى العرب - لأنه نزلَ بالعربية ، وكم عَزَّ أقوام بعزِّ لغات .

فشرفٌ للعربية ، وشرفٌ لكلِّ عربى أنْ ينزل القرآن بها ، والإنسان فى طبْعه يحب الفخر ، ويحب الشهرة وذيوع الصيت ،

ولا يخفى على أحد الآن أن القرآن هو الذى أعطى العربية مكانتها بين لغات العالم .

ولولا القرآن لاندثرتْ العربية كما اندثر غيرها من اللغات ، ونجد الآن كثيرين من أمم أخرى يُقبلون على تعلُّم العربية وإجادتها ليتمكَّنوا من حفظ القرآن وتفسيره وفهْم معانيه .

﴿ وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾

هنا وقفة تأمل لنفهم الآية ﴿ وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا ﴿٤٥﴾ ﴾ [الزخرف] كيف يسألهم رسول الله وهم أموات ، لماذا يأمره ربه عزَّ وجل هذا الأمر ؟ وإذا أمر الحق سبحانه رسوله أمراً وجب عليه أن يطيع .

وقد هيَّأ الحق سبحانه هذه الفرصة لنبيه ﷺ فى رحلة الإسراء والمعراج حيث التقى فعلاً بإخوانه الأنبياء السابقين ، واجتمع بهم وصلى بهم إماماً فى بيت المقدس وهم أموات بقانون الموت وهو حَىٌّ بقانون الأحياء .

وثبت أنه خاطب بعضهم ، وتحدث معه كما تحدث مع سيدنا موسى عليه السلام ، وأنه راجعه فى أمر الصلوات الخمسين ، إلى أنْ جعلها الله خمساً[1] .

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٣٦) من حديث أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : فرض الله على أمتى خمسين صلاة فرجعت بذلك حتى مررت على موسى فقال : ما فرض الله لك على أمتك ؟ قلت : فرض خمسين صلاة . قال : فارجع إلى ربك فإن أمتك لا تطيق ذلك .. إلى أن قال الله : هى خمس وهى خمسون لا يبدل القول لدىَّ . وهو أيضاً فى صحيح مسلم (حديث ٢٣٤) .

فإنْ قلتَ : كيف يجتمع الضِّدان (ميت) و (حى) ويكون بينهما كلامٌ وتفاهم ؟ نقول : يجوز ذلك لأنه فعل القدرة وطلاقة القدرة لله تعالى ، فطلاقة القدرة لا ترتبط بقوانين الحىِّ والميت .

وسبق أنْ قلنا : إنه ينبغى أنْ ننسب الفعل للفاعل لنستريح ، فهذه المسألة غَيْبٌ نؤمن به وننسب كلَّ عجيب فيها إلى مُنشىء هذا العجب .

تذكرون قصةَ سيدنا إبراهيم لما ألقوْهُ فى النار ، ماذا حدث ؟ القانون أن النار تحرق ، لكن ماذا إنْ أرادها الله بَرْداً وسلاماً وهى ما زالت ناراً مشتعلة ؟ لما أرادها الله كانت بَرْداً وسلاماً على إبراهيم ، وتعطَّل فيها قانون الإحراق .

ولو شاء سبحانه لسخَّر لهذه النار سحابة تمطر عليها حتى تنطفىء ، ولو شاء ما تمكَّنوا من إبراهيم ولا أمسكوا به ، لكن لتتم المعجزة مكَّنهم الله من إبراهيم وألقوه بالفعل فى النار وهى تشتعل ، ومع ذلك لم تحرقه ، فهذه هى طلاقة القدرة .

كذلك رأينا طلاقة القدرة فى قصة عصا سيدنا موسى لما ضرب بها البحرَ فانفلقَ ، وتجمَّد فيه الماءُ حتى صار كل فِرْق كالطوْد العظيم ، وهى نفس العصا ضرب بها الحجر فانفجرتْ منه اثنتا عشرة عيناً ، فالحق يعطينا لقطاتٍ لطلاقة القدرة وخَرْق العادة والقوانين لنقيسَ عليها .

بعض المفسِّرين يستبعدون هذه المسألة . أى : اللقاء بين الحى والميت - ويُؤوِّلون المعنى بما يوافق ميولهم ، فيقولون : المراد

واسأل أتباع الرسل قبلك لأنهم أخذوا الدين عنهم . وأصحاب هذا الرأى يريدون أنْ يُفلتوا من مسألة التقاء الحىِّ بالميت ، ومن إثبات هذه المعجزة الخارقة للعادة ، لكن لا غرابةَ فى ذلك ولا عجبَ لأن الفاعل مَنْ ؟ الله .

أو : أن المراد بالسؤال فى ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ (٤٥)﴾ [الزخرف] ليس السؤال فى ذاته ولا الجواب فى ذاته ، إنما المراد العظَة والاعتبار على حَدِّ قول الخطيب مثلاً فى خطبة الجمعة : سَل الأرض مَنْ أجرى فيها الأنهار ، ومَنْ أنبت فيها الأشجار ، سَل الروض مُزدانًا ، سَل الماء جاريًا .. الخ . إذن : ليس المراد أنْ نسأل الأرض ، إنما نسأل أنفسنا ونتفكر ونتأمل .

كذلك فى قوله سبحانه : ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا (٤٥)﴾ [الزخرف]

لكن أسألَ رسولُ الله مَنْ قبله من الرسل عن هذه المسألة[1] ﴿أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ (٤٥)﴾ [الزخرف] ؟ الواقع أنه لم يسأل ، لماذا ؟ لأن عنده من اليقين ما يجعله فى غِنىً عن هذا السؤال ،

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٦١٤٢/٩) : (اختلف أهل التأويل فى سؤال النبى للأنبياء من قبله على قولين :

أحدهما : أنه سألهم فقال الرسول : بُعثنا بالتوحيد . قاله الواقدى .

الثانى : أنه لم يسألهم ليقينه بالله عز وجل . وقد قال ابن عباس وابن زيد أن رسول الله لما فرغ من الصلاة بالأنبياء فى مسجد بيت المقدس ليلة الإسراء والمعراج قال له جبريل : (سل يا محمد من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يُعبدون) فقال رسول الله : « لا أسأل قد اكتفيت ») . وذكره ابن الجوزى فى زاد المسير وقال : رواه عطاء عن ابن عباس . وهذا قول سعيد بن جبير والزهرى وابن زيد .

فرسولُ الله ليس فى حاجة لمَنْ يؤكد له أنه ليس مع الله آلهةٌ تُعبد .

لذلك ورد عن الإمام على كرَّم الله وجهه أنه قال : لو كُشفَ عنى الحجاب ما ازددتُ يقيناً . يعنى : أنا مؤمن بالغيبيات إيماناً راسخاً مستقراً ، وكأنى أطلع عليه وأراه ، ولو كُشف لى ما زاد فى يقينى شىء ، لأن إخبار الله لرسوله بالشىء أصدقُ من رؤيتنا له .

اقرأ : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ①﴾ [الفيل] ومعلوم أن الرسول وُلد عام الفيل ، يعنى لم يَرَه ، لكن أخبره الله ﴿أَلَمْ تَرَ ①﴾ [الفيل] يعنى : ألم تعلم ، تعلم بأى وسيلة ؟ تعلم بحواسك ، أو تعلم بخبر خالق هذه الحواس . إذن : إخبار الحق آكد وأصدق من رؤية العين .

والاستفهام فى ﴿أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ④⑤﴾ [الزخرف] يُراد منه النفى والإنكار ، فعبادةُ غير الله أمر غير وارد من الرسل ، إذن : هو من صُنْع البشر ، استحدثوه لإرضاء أهوائهم فى أنْ يكونَ لهم معبود ، لكن معبودٌ على هواهم ، معبود لا يُقيد شهواتهم ورغباتهم بمنهج (افعل كذا) و (لا تفعل كذا) .

ومن هنا عبدوا الأصنام وعبدوا الشمس والقمر والكواكب وغيرها ، وكلها معبوداتٌ بزعمهم هم - ما أنزل الله بها من سلطان ، ولا شرَّعها فى أىِّ شريعة من الشرائع .

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ④⑥﴾

قلنا : الآيات هى المعجزات الدالة على صدق الرسول فى البلاغ عن الله ، وسيدنا موسى عليه السلام كان من أكثر الرسل حيازةً للمعجزات وخوارق العادات ، وهذا يعنى أن قومه كانوا أكثر خَلْق الله عناداً وإعراضاً عن المنهج ، قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ (١٠١)﴾ [الإسراء]

ما مناسبة أنْ يأتى القرآنُ بلقطة من قصة سيدنا موسى فى هذا الموضع ؟ قالوا : لأن كفار مكة كانوا قد اجتمعوا ووقفوا فى وجه الدعوة ، واعترضوا على أنْ تأتى الدعوة على يد محمد بالذات ، فقالوا : ﴿وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١)﴾ [الزخرف]

يقصدون مكة وكان فيها الوليد بن المغيرة ، والطائف وكان بها عروة بن مسعود الثقفى ، وغيرهما من سادة القوم أصحاب المال والجاه والهيبة فى القوم .

إذن : لم يكُنْ الاعتراض على القرآن ، إنما الاعتراض على مَنْ جاء القرآنُ على يديه .

لذلك أراد الحق سبحانه أنْ يعطيهم مثلاً من موكب الرسالات ، فهذا موسى - عليه السلام - لم يكُنْ صاحبَ مال ، ولا صاحبَ جاه ولا سلطان ، وأرسله الله إلى مَنْ هو أشدّ كفراً من أهل مكة وصناديدها ، أرسله إلى فرعون الذى لم يكُنْ يعارض الدعوة إلى الله فقط ، إنما كان يقول : أنا إله .

إذن : لا عجبَ فى إرسال محمد ، وهو من عامة القوم وفقرائهم إلى السادة الأغنياء ، وهل الوليد وعروة وغيرهما من رؤوس الكفر كانوا أشدَّ من فرعون .

فالرسالة إذن لا يُطلب فيها أنْ يكون الرسولُ صاحبَ مال ولا صاحبَ جاه ولا سلطان ، ثم هذه رحمة الله يقسمها كيف يشاء ، ويختار لها مَنْ يشاء ، ويصطفى من عباده .

والمتأمل فى رسالتَىْ موسى ومحمد يجد أن حياة موسى فى مجتمعه أقل من حياة محمد فى مجتمعه ، لأن موسى تربَّى فى بيت فرعون إلى أنْ شبَّ وحدَثتْ حادثة القتل التى قَتلَ فيها موسى واحداً من القوم ، ثم جاء رجل من أقصى المدينة ، وقال ﴿ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ (٢٠) فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ (٢١) ﴾ [القصص]

بعد ذلك وصل إلى مديْنَ وهناك وجد : ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ[1] وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ[2] وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (٢٣) فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (٢٤) ﴾ [القصص]

أولاً : نقول إن هذه الأيام تعطينا منهجاً ودستوراً للتعامل مع المرأة المسلمة ، وكيف ومتى تخرج من بيتها ، فالعلة فى خروج هاتين المرأتين أن أباهما شيخ كبير ، ولا يوجد مَنْ يقضى لهما حاجتهما .

---

(١) مدين مدينة وتسمى أيضاً بايلة وهى مدينة كانت موجودة فى شمال غرب الجزيرة العربية وكان أهلها يعملون بالتجارة ، وقد بعث الله فيهم نبيه شعيباً عليه السلام لكى يحضهم على المتاجرة الشريفة .

(٢) الرعاء : جمع راعٍ . ومثله : الرعاة والرعيان . وهو مأخوذ من الرعاية والحفظ وإحاطة الراعى بما يرعاه من دواب . [القاموس القويم ١/٢٦٩] .

إذن : لا تخرج المرأة من بيتها إلا لضرورة ، وإذا خرجتْ تحشَّمتْ وتحجبتْ ولم تخالط الرجال ، ثم مهمة المجتمع الإيمانى أنْ يراعى حَقَّ المرأة وأنْ يأخذ بيدها فيما تريده من عمل ، لأنه مجتمع الرحمة والقربى بين المسلمين جميعاً .

وأذكر أننا أول مرة سافرنا مكة سنة ١٩٥٠ كنا نسكن فى بيت رجل مُوسِر ، كان يتطوع ويُوصِّلنا إلى العمل بسيارته الخاصة ، وفى مرة ونحن نسير وجد أمام أحد البيوت لوحاً من الخشب الذى يُوضع عليه العجين ، وكان بابُ البيت مغلقاً فنزل وأخذ اللوح فى سيارته وذهب .

فلما سألتهُ عن ذلك قال : والله عندنا عادة لما نرى البابَ مُغلقاً ، وأمامه شىء مثل هذا ، نعرف أن صاحبَ البيت غائبٌ وأهلُ البيت يحتاجون شيئاً فنقضيه لهم ، المهم أخذ الرجل لوحَ العجين وملأه بالخبز ، وبما قدَّره الله عليه ، وأعاده إلى أصحابه .

وهذا هو المعنى الذى تعلّمناه من قصة سيدنا موسى ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا (٢٤)﴾ [القصص] ونعود إلى القصة ﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (٢٤)﴾ [القصص] يعنى : موسى كان رجلاً فقيراً ، لا يملك من الدنيا سوَى قوته البدنية ، فهذا الذى يجلس تحت ظل شجرة ليس له مأوى ، أبعد ذلك مسكنة وضعف ؟

هذا يدل على أنه كان رجلاً (غلبان) لا يملك من حطام الدنيا شيئاً ، ولو قارنّا بينه وبين محمد نجد محمداً أطولَ إقامة فى قومه ، فقد نشأ بينهم منذ مولده ، وكان يرعى الغنم لأهله بأجرة ، ولما كبر اشتغل بالتجارة ، وكان كما نقول (مدير أعمال) السيدة خديجة ،

وكان يكسب ومعه مالٌ .

ومع ذلك أرسل اللهُ موسى الذى هو أضعف من محمد إلى فرعون الذى هو أقوى وأشدّ من الوليد وعروة وغيرهم . وبهذا نفهم لماذا أتى ذكْرُ سيدنا موسى فى هذا الموضع : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ (٤٦)﴾ [الزخرف]

ثم هناك نقطة ضَعْف أخرى فى رسالة سيدنا موسى أنه أُرسلَ إلى فرعون الذى تربّى فى بيته ، لذلك الحق سبحانه يُعلِّمه كيفية الدخول إليه فى أمر الدعوة لأنه كان يمتنُّ عليه .

﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (١٨)﴾ [الشعراء] فعلَّمه الله أن يقول له القول اللين ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ (٤٤)﴾ [طه]

وقوله : ﴿بِآيَاتِنَا (٤٦)﴾ [الزخرف] أى : بالمعجزات الظاهرات التى صاحبتْ دعوة سيدنا موسى لتؤيده وتُثبت للقوم صدْقه فى البلاغ عن الله ، وقلنا : إنه يُشترط فى المعجزة أنْ تكون موضعاً للتحدى ، بحيث لا يقدر أحدٌ على الإتيان بمثلها ، وأنْ تكونَ من جنس ما نبغ فيه القوم ليكون التحدى له معنى ، وإلا كيف أتحدَّاك بشىء لا تعرفه أنت ولا تجيده ؟

ولأن قوْم موسى نبغوا فى السحر كانت معجزةُ العصا من المعجزات التى أعطاها الله تعالى لسيدنا موسى ، وقد درَّبه ربُّه عز وجل على استخدام هذه العصا وعرَّفه ما فيها من أسرار قبل لقائه بفرعون .

واقرأ : ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ (١٧) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ[1] بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ (١٨) قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ (١٩) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ (٢٠) ﴾ [طه]

كان هذا الموقف تدريباً لموسى على استخدام معجزته أمام فرعون ، وعندها علم موسى أنه إذا كانت مآربه من عصاته أنْ يتوكأ عليها ويهشَّ بها على غنمه ، فلله تعالى مآربُ أخرى غير هذه المآرب الظاهرة .

لذلك رأينا بعض المستشرقين يقولون : إن القرآن كرَّر قصة عصا موسى هذه فى أكثر من موضع ، والواقع أن القصة لا تكرارَ فيها ، بل هى مواقف مختلفة للعصا مع موسى ، فالمرة الأولى كما قلنا كانت تدريباً لموسى حتى لا يُفاجأ بما تفعله العصا إذا ألقاها أمام فرعون .

وكانت المرة الثانية أمام فرعون ، والثالثة لما جمع فرعونُ السَّحرةَ .

إذن : ليس فى المسألة تكرار ، إنما هى مواقفُ مختلفة لشىء واحد ، والقرآن حينما عرض لنا هذه القصة علَّمنا الفرق بين السحر والمعجزة ، السحر : تخييل وخداع للنظر إنما المعجزة حقيقة واقعة .

لذلك قال عن العصا : ﴿ فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ (٢٠) ﴾ [طه] يعنى : على وجه الحقيقة ، ولما تكلَّم عن حبال السحرة قال : ﴿ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ (٦٦) ﴾ [طه] والدليل على ذلك أن السَّحرة وأهل التمرُّس والخبرة فى هذا المجال لما رأوا العصا ساعة انقلبت حيَّة

---

(١) هش الشجر : ضربه بعصا ليسقط ورقه لتأكله الماشية ، فكان موسى يضرب الشجر بعصاه فتسقط أوراقها على غنمه فتأكله . [القاموس القويم ٢/٣٠٣] .

خرُّوا سُجّداً وآمنوا بموسى وبما جاء به ، لأنهم أدْرى القوم بهذه المسألة ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَـٰرُونَ وَمُوسَىٰ (٧٠)﴾ [طه]

والحق سبحانه في موضع آخر يقول ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ[1] (١١٦)﴾ [الأعراف] معنى : سحروا أعين الناس أن الأمر في السحر موقوف عند العين وعند النظر ، فهو تخييل في مرأى العين فحسب .

وواقع حياتنا أيضاً يشهد بذلك ، فأذكر أنني كنتُ رئيس بعثة الأزهر في الجزائر ، وهناك تعرفتُ على سفير السعودية بالجزائر الشيخ رياض الخطيب بن فؤاد الخطيب[2] الشاعر العظيم ، وحدث بيني وبينه مودة ، وصادف أنه نُقِلَ من الجزائر إلى باكستان ، وبعدها سافرتُ أنا إلى باكستان ونزلتُ على الشيخ رياض .

وفي يوم تحدَّثنا عن السحر فقال : سأريك مسألة غريبة ، هنا ساحر هندي يفعل كذا وكذا . فقلت : والله فرصة نرى ماذا يفعل ، وفي الصباح ذهبنا إلى قرية وأتوْا بالساحر الهندي ، فقعد وعمل (نصبة) وأتى بقطن جعله على هيئة حبل ولَواه هكذا ، وكان معه ولد صغير ، أشار إليه أنْ يصعد على هذا الحبل حتى رأى جميعُ

---

(١) أرهبه ورهَّبه واسترهبه : أخافه وفزَّعه . واسترهبه : استدعى رهبته حتى رهبه الناس . وبذلك فسّر قوله تعالى : ﴿ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ (١١٦)﴾ [الأعراف] . أي أرهبوهم . [لسان العرب – مادة : رهب] .

(٢) هو فؤاد بن حسن بن يوسف الخطيب ، شاعر نقي الديباجة محكم المعاني من أعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق ، ولد ١٨٧٩ م ، ولد قرب بيروت ، استكمل دراسته في الجامعة الأمريكية عام ١٩٠٤ م ، لقب بشاعر ثورة الحجاز ، توفي ببلدته شحيم عام ١٩٥٧ م . [سيرته بالتفصيل في الأعلام للزركلي ٥/ ١٦٠] .

الجالسين الولد فعلاً طالعاً على الحبل .

فى اليوم التالى وبعد أنْ راجعتُ آيات السحر فى كتاب الله أخذتُ معى كاميرا فوتوغرافيا وأحببتُ أنْ أُصوِّر هذا المشهد ، وفعلاً صوَّرته ، فى اليوم التالى وجدت الصورة بعد تحميضها بيضاء ليس بها شىء أبداً .

فقال لى صاحبى : إذن بمَ تفسِّر هذا التخييل الذى رأيناه ؟ قلت : والله من حديث القرآن عن الجن نعلم أنه يتشكل بكل الصور ، ولا مانعَ أبداً أن الساحر يستعين بالجن ، قال تعالى : ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا (٦)﴾ [الجن]

إذن : لا مانع عقلاً أنْ يُسخِّر الساحر من الجن مَنْ يساعده فى هذه المسألة ، ويتشكل له كما يريد .

والقرآن الكريم نصَّ على أن الآيات والمعجزات التى أُرسلَ بها سيدنا موسى كانت تسع آيات : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا (١٠١)﴾ [الإسراء]

وقال فى موضع آخر : ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلاَّ هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا .. (٤٨)﴾ [الزخرف] وهذا يعنى أنها كانت آيات كثيرة واضحة ظاهرة بينة .

وقوله سبحانه ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ (٤٦)﴾ [الزخرف] الملأ : هم القوم ، خاصةً الوجهاء منهم ، وأصحاب المنزلة من قولنا : فلان ملءَ العين . وفى آية أخرى قال : ﴿وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ (٣٩)﴾ [العنكبوت]

وقوله تعالى : ﴿فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٦)﴾ [الزخرف] ملخص لرسالته وموجز لما جاء به .

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ (٤٧)﴾

فى آية العنكبوت السابقة بينت رد فعلهم وهو الاستكبار ، والاستكبار هنا يعنى أنهم علموا أن موسى على الحق ، وأنه صاحب معجزات ومع ذلك استكبروا على أنْ يؤمنوا به ، وهنا بينتْ الآيةُ وجهاً آخر للاستكبار .

﴿إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ (٤٧)﴾ [الزخرف] يضحكون إما إعجاباً بالمعجزة وللآية التى رأوها ، وأنها خارقة للعادة وخلاف كل ما رأوْهُ من السحرة ، أو يضحكون سُخرية واستخفافاً .

﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤٨)﴾

معنى ﴿ آيَةٍ (٤٨)﴾ [الزخرف] يعنى : معجزة ﴿إِلاَّ هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا (٤٨)﴾ [الزخرف] يعنى : كل معجزة أعظم وأوضح من سابقتها ، وهذا يعنى أن الإعجاز واضح فى جميع الآيات على كثرتها ، فكل آية كبيرة من جهة ما ؛ لأن المقصود من الآيات الإعجاز وإثبات شىء ليس فى مقدور البشر ولا طاقتهم ، وما دام أن كل آية تؤدى هذا الغرض فهى آية كبيرة .

وقوله :﴿وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ (٤٨)﴾ [الزخرف] أى : عاقبناهم على تكذيبهم بالعذاب ، وقد أوضح الحق سبحانه هذا العذاب فى موضع

آخر ، فقال : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ[١] وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (١٣٠) ﴾ [الأعراف]

وتأمل تذييل هاتين الآيتين ، مرة : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤٨) ﴾ [الزخرف] ومرة ﴿ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (١٣٠) ﴾ [الأعراف] فالحق سبحانه لا يُعذِّب خَلْقه لأنه يحب أن يعذبهم إنما يعذبهم ليعودوا إليه ، فحتى العذاب هنا رحمة بهم .

فَقَسَا لِيَزْدَجِرُوا وَمَنْ يَكُ حَازِماً فَلْيَقْسُ أَحْيَاناً عَلَى مَنْ يَرْحَمُ[٢]

وقوله : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤٨) ﴾ [الزخرف] أى : عن المكابرة والجدال والعناد ، لكن هل رجعوا ؟ أبداً ظلُّوا على كفرهم وجحودهم ، حتى بعد أنْ أخذهم اللهُ بالسنين يعنى : القحط وجَدْب الأرض وجفافها ، فنتج عن ذلك نقص الثمرات وضيق العيش .

ثم بعد ذلك كله . ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ[٣]

---

(١) السِّنون : بالقحط والجدوب عاماً بعد عام . قاله الفراء . وقال قتادة : أما السنون فكانت فى بواديهم ومواشيهم ، وأما نقص الثمرات فكان فى أمصارهم وقراهم . قال ابن الجوزى فى زاد المسير « إنما أخذهم بالضراء لأن أحوال الشدة ترق القلوب وتُرغِّب فيما عند الله وفى الرجوع إليه » .

(٢) البيت من قصيدة لأبى تمام من بحر الكامل عدد أبياتها ٦٠ بيتاً هو البيت ٣٩ منها . وأبو تمام هو حبيب بن أوس الطائى ولد بسورية عام ١٨٨ هـ ، فى شعره قوة وجزالة له كتب : فحول الشعراء ، وديوان الحماسة ، ونقائض جرير والأخطل . توفى عام ٢٣١ هجرية . [الموسوعة الشعرية] .

(٣) قال ابن الجوزى فى زاد المسير (الأعراف ١٣٣) فى القمَّل ٧ أقوال :

- أنه السوس . - أنه الدَّبى قاله مجاهد وعطاء وابن عباس . والدبى هو أولاد الجراد
- دواب سود صغار - أنه الجعلان .
- أنه القمل . - أنه البراغيث - أنه الحمنان وهو نوع من القردان . قاله أبو عبيدة .

وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ (١٣٣) ﴾ [الأعراف] يعنى : آيات واضحة الدلالة بيِّنة ، فأصبحوا فى ضيق وهُزَال مشغولين بلقمة العيش ، فذهبوا إلى موسى عليه السلام بعد أنْ يئسوا وقالوا :

﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ (٤٩) ﴾

كلمة الساحر هنا لا تعنى اعترافهم بتفوقه فى مجال السحر فحسب ، إنما تعنى الرجل الماهر فى كل شىء ، المتفوق عليهم فى السحر وفى العلم وفى الإحاطة بأمور الحياة ، يعنى لا مثيل له .

وهذا يُذكِّرنا بموقف من سيرة سيدنا رسول الله ﷺ حيث وفد عليه الزبرقان بن بدر[١] وعمرو بن الأهتم[٢] وهما من سادة العرب ، فقال النبى ﷺ لعمرو بن الأهتم : ما تقول فى الزبرقان بن بدر ؟ فقال : يا رسول الله مطاع فى ناديه شديد العارضة[٣] ، مانع لما وراء ظهره . فقال الزبرقان : يا رسول الله والله إنه ليعلم منى أكثر مما وصفنى به ولكنه حسدنى .

فقال عمرو : والله يا رسول الله إنه زَمِرٌ[٤] المروءة ضيق العطن[٥] لئيم الخال أحمق الموالد ؛ فقال رسول الله ﷺ لعمرو بن الأهتم : وما

---

(١) الزبرقان بن بدر التميمى السعدى صحابى من رؤساء قومه ، ولاه رسول الله ﷺ صدقات قومه فثبت إلى زمن عمر وكفَّ بصره فى آخر عمره وتوفى فى أيام معاوية عام ٤٥ هجرية ، كان فصيحاً شاعراً فيه جفاء الأعراب . [الأعلام للزركلى ٣/٤١] .

(٢) عمرو بن الأهتم هو عمرو بن سنان التميمى المنقرى أبو ربعى : أحد السادات الشعراء الخطباء فى الجاهلية والإسلام من أهل نجد ، وفد على النبى ﷺ فأسلم ، شعره جيد . توفى عام ٥٧ هجرية . [الأعلام للزركلى ٥/٧٨] .

(٣) ذو جَلَد وقدرة وبديهة ورأى جيد .

(٤) قليلها .

(٥) قليل الصبر والحيلة عند الشدة .

حملك على أنْ تقولَ ما قُلْتَ ؟ فقال : يا رسول الله رضيت . فقلت أحسن ما أعلم ، وغضبتُ فقلتُ أسوأ ما أعلم ، فقال رسول الله ﷺ : « إنَّ منَ البيَانِ لسحْراً »[1] .

الشاهد هنا أن السحر يأتى بمعنى التفوق عامة فى أىِّ ناحية من نواحى الحياة . إذن : لما رأوا تصرُّفات موسى خضعوا له وسلَّموا له بالتفوق عليهم ، وإنْ كانوا لم يؤمنوا به ، ولكن لأنهم مقتنعون بتفوقه بل وبصدق دعوته ذهبوا إليه وطلبوا منه أنْ يدعو لهم ، وأنْ يُفرِّج عنهم ما هم فيه من ضَنْك العيش .

فقالوا ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلسَّـٰحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الزخرف] إذن : يعترفون بصلته بربه ، لكن ربه هو لا ربهم أيضاً بدليل ﴿ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الزخرف] ولم يقولوا مثلاً : ربنا .

﴿ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الزخرف] لأن ربك يطاوعك ويفعل لك ما تريد ، ووعدك بكشف العذاب عمَّنْ آمن بك ﴿ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الزخرف] يعنى : لو كشفتَ عنَّا ما نحن فيه فسوف نهتدى ونؤمن بك .

﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾

إذن : قولهم ﴿ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الزخرف] كانت مجرد كلمة تُقال نفاقاً من طرف اللسان ، ليس لها رصيد من صدق الواقع ؛ لأن الحق سبحانه كشف عنهم العذاب فعادوا لما كانوا عليه ، ومعنى

---

(١) أخرجه الحاكم فى مستدركه (٦٦٤٥ ، ٦٦٤٦) من حديث ابن عباس ومن حديث أبى بكرة الأنصارى وعنده أن رسول الله قال : « إن من البيان لسحراً ، وإن من الشعر لحكمة » . وأخرجه أيضاً الطبرانى فى المعجم الكبير (١٨٢٠) (قطعة من المفقود) وكذا فى المعجم الصغير (٧٨٨٦).

﴿ يَنكُثُونَ (٥٠) ﴾ [الزخرف] يرجعون إلى ما كانوا عليه ، وينقضُون العهد الذى قطعوه على أنفسهم بأنْ يهتدوا .

﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ (١) أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٥١) ﴾

هنا يشعر فرعون بالخطر ، وتهتز مكانته أمام قومه ، يشعر أن موسى يسحب البساط من تحت قدميه حيث تتجه إليه الأنظار خاصة بعد حادثة السحرة الذين آمنوا بربِّ هارون وموسى ولم ينتظروا إذناً من فرعون .

وبعد أنْ نزل بهم القحط ، وأصابهم الجَدْب حتى يئسوا فتوجَّهوا إلى موسى وطلبوا منه كشْف ما هم فيه ، لذلك نرى فرعون يحاول أنْ يعيد مكانته ويُحسِّن صورته أمام قومه .

﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ (٥١) ﴾ [الزخرف] بماذا نادى مُناديه ؟

﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلا تُبْصِرُونَ (٥١) ﴾ [الزخرف] يعنى : انتبهوا إلى مكانتى ومُلْكى وقدرتى عليكم ولا تهتموا بأمر موسى ، فأنا لا أزال مَلِك مصر ، والأنهار تجرى من تحتى . يعنى : لا أزال ولىَّ نعمتكم .

---

(١) ورد فى معنى كلمة الأنهار هنا أقوال كثيرة ، منها :

- أنها فروع أربعة للنيل : نهر الملك ، ونهر طولون ، ونهر دمياط ، ونهر تنيس .
- أنها القواد والرؤساء والجبابرة يسيرون تحت لوائى . قاله الضحاك .
- أنها الأموال وعبَّر عنها بالأنهار لكثرتها وظهورها . [تفسير القرطبى ٩/٦١٤٥] .

وللشيخ الشعراوى رحمه الله كلام قيم فى هذه الآية يأتى قريباً .

﴿أَفَلا تُبْصِرُونَ (٥١)﴾ [الزخرف] لكن نلاحظ فى ندائه هذا أنه لم يقُلْ شيئاً عن ألوهيته . ولم يقُلْ : أنا ربكم الأعلى فقد تنازل عن هذه الشعارات التى لم يَعُدْ لها موضع بعد ما حدث مع موسى .

ثم تأمل صيغة النداء ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ (٥١)﴾ [الزخرف] بهذا الاستفهام التقريرى ، يعنى : قُولوا لى ألم أزل ملكاً عليكم ، ولم يأت مثلاً بأسلوب الخبر : أنا ملك مصر .

إذن : يتحدثُ فرعون الآن من موقف الضعف ، نعم لأنه كان يقول ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ (٢٤)﴾ [النازعات] والآن يقول : ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ (٥١)﴾ [الزخرف]

كلمة ﴿مُلْكُ (٥١)﴾ [الزخرف] مادتها م ل ك ، نلاحظ أن الميم تأتى مرة بالكسر ، ومرة بالفتح ، ومرة بالضم ، فالميم المكسورة مِلك . يعنى : كل ما تمتلكه ولو حتى اللباس الذى تلبسه يسمى مِلك .

ومُلْك بالضم تعنى الإدارة والسيطرة على مَنْ له مِلك . يعنى : يملك مَنْ يملك ، ومَلَك بالفتح يعنى الإرادة والاختيار ، كما فى قوله تعالى : ﴿مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا (٨٧)﴾ [طه] أى : بإرادتنا .

وفى اسم الفاعل نقول ملك ومالك ، مالك تقال لكل منا يُسمَّى مالك ، حتى لو كان يملك مجرد ملابسه . أما ملك فلا تُقال إلا لمَنْ يملك ويتحكم فى المالك .

لكن حين نقرأ مثلاً فى سورة الفاتحة : ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤)﴾ [الفاتحة] ولم يقُلْ مَلِك ، صحيح هى فى إحدى

القـراءات[1] ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ لكن الأشهر (مَالِك) ، فما الحكمة أنْ يعدل عن اللفظ الأقوى إلى الأقل منه ؟

قالوا : اخـتار الحق سبـحانه لفظ مالك ليقـول أنه سبحـانه مالكٌ ليوم القيامة ، وغيره يملك الأرض وما عليها ، فقوله ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤)﴾ [الفاتـحة] يعنى : غيـره لا يملك هذا اليوم ، فـهى لله وحده ، لذلك قال : ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦)﴾ [غافر]

هكذا بالقـصر عليه سـبحـانه دون غيره . إذن : لفظـة مالك هى المطلوبـة هنا ، وهى التى تؤدى المـعنى المـراد ، فـهى الأدلُّ على المعنى وإنْ كانت أدْنى من ملك .

كـما قلنا مـثلاً فى كلمـة (كبـير) و (أكـبر) ، أكـبر : أفـعل تفضيل من كـبير فهى أقوى ، ومع ذلـك فى نداء الصلاة نقول : الله أكبـر وليس فى أسمـاء الله أكبر ، بل من أسـمائه سبـحانه الكبـير ، فلماذا عدل عن الكبير إلى أكبر ؟

قالوا : قال الله أكبـر لحكمة ، هى أنَّ الأقلّ هنا له موضـع ؛ لأنك حين تدعو الناس إلى الـصلاة تُخرجهم من عمل وسَـعْى مشروع هو قوام حـياة الناس ومعايشـهم ومصالح الناس وأعـمالهم ليس بالشىء

---

(١) هذه الكلمة (مالك) قرئت فى سورة الفاتحة بعدة قراءات :

- مالك : قرأها عاصم والكسائى وخلف ويعقوب : مالك بألف .
- مالكَ : قرأها ابن السميقع وابن أبى عبلة كذلك إلا أنهما نصبا الكاف .
- ملْك : قرأها أبو هريرة وعاصم الجحدرى بإسكان اللام من غير الألف مع كسر الكاف .
- مَلِك : قرأها أبو عثمان النهدى والشعبى بكسر اللام ونصب الكاف من غير ألف .
- مَلَكُ : قرأها سعد بن أبى وقاص وعائشة ومورِّق العجلى إلا أنهم رفعوا الكاف .
- مليك : قرأها أبو رجاء العطاردى . [زاد المسير لابن الجوزى - سورة الفاتحة] .

التافه الذى لا قيمةَ له فى دين الله ، إنما هو من الأمور المطلوبة للشرع .

فهو إذن مهم وكبير ، لكن إذا جاء وقت الصلاة فاعلم أن الله أكبر . يعنى : أكبر من العمل ومن السَّعْى .

وهذه المسألة بيَّنها لنا الحق سبحانه فى سورة الجمعة : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ (٩) ﴾ [الجمعة] ثم بعد انقضاء الصلاة قال : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِى الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ (١٠) ﴾ [الجمعة]

إذن : أخذك للصلاة من العمل ، ثم أعادك إليه مرة أخرى ، لأن به يتم إعمار الأرض وقضاء مصالح الخَلْق . إذن : أكبر هى الأنسب فى أداء المعنى المراد .

قوله : ﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِ (٥١) ﴾ [الزخرف] فرعون لم يُنادِ هو ، إنما أمر مَنْ ينادى فى القوم بهذا النداء ، فلما كان النداء بأمره نسب إليه ، وقوله ﴿ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ (٥١) ﴾ [الزخرف] يعنى : القطر كله لا العاصمة ، كما نقول نحن اليوم (مصر) على القاهرة ، فمصر التى ملكها فرعون كانت من الأسكندرية إلى أسوان .

ومصر علَم على هذه البقعة ، وهى مُكوَّنة من ثلاثة أحرف . أولها : كسرة ، ووسطها ساكن والسكون يعطى خفَّةً فى النطق ، فهى اسم سهل فى النطق ، وجاء على أقلِّ صيغ تكوين الاسم فى اللغة ، لأن الاسم فى العربية أقلُّه ثلاثة أحرف ، وأكثره خمسة إذا كان مُجرداً من أحرف الزيادة .

والمتأمل يجد أن مكةَ وهى بلدُ الله الحرام ومحلُّ بيته المقدس

ذُكِرَتْ فى كتابه الكريم مرتين : ﴿وَهُوَ الَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ (٢٤)﴾ [الفتح]

وجاءتْ بلفظ بكة فى قوله تعالى : ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ (٩٦)﴾ [آل عمران]

أما مصر فذكرها الحق سبحانه فى كتابه خمس مرات : ﴿أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ .. (٥١)﴾ [الزخرف] وفى : ﴿وَقَالَ الَّذِى اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ (٢١)﴾ [يوسف] وفى ﴿ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ (٩٩)﴾ [يوسف] وفى ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا[1] لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا (٨٧)﴾ [يونس] وفى ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ (٦١)﴾ [البقرة]

وجاءت مصر فى الآية الأخيرة هكذا بتنوين الفتح . وقال المفسرون : يعنى أىَّ مصر من الأمصار يكون فيه ما تريدون ، ولو اعتمدنا هذا التفسير فمصر فى هذه الحالة داخلة فيه لأنها مصرٌ من الأمصار .

وقوله : ﴿وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِى مِن تَحْتِى (٥١)﴾ [الزخرف] كلمة ﴿مِن تَحْتِى (٥١)﴾ [الزخرف] تدل على التمكُّن والسيطرة ، وبالفعل كانت قصوره على النهر مباشرة وكأن النهر يمرُّ من تحتها .

وجَمَع الأنهار ، مع أننا نعرف أن فى مصر نهراً واحداً هو نهر النيل ، وأنه يتفرع إلى فرعين دمياط ورشيد ، فلماذا قال ﴿وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ (٥١)﴾ [الزخرف]

---

(١) تبوأت المنزل : اتخذته سكناً . ومعنى قوله ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا .. (٨٧)﴾ [يونس] أى : انزلا واتخذا منها بيوتاً أى مساكن . [القاموس القويم ١/٨٨] .

قالوا : كانت على أيام الفراعنة خمسة أنهار ، أى : أنهم فرَّعوا من النهر خمسة فروع ليزيدوا من الشواطىء ، وبهذا كان لديهم عشرة شواطىء تُبنى عليها قصورهم .

وأذكر فى هذا المقام أنه كان لنا شيخٌ فاضل اسمه الشيخ عمر العمروسى من طنطا الجزيرة ، وكنت أجلس إليه وأستفيد من علمه ، ومعى الشيخ سيد شرف والدكتور ياسين عبد الغفار[١] .

وفى يوم من الأيام سألنى ، وهو يعرف أننى فى الأزهر فقال لى : يا شعراوى ، ماذا فعلتُم فى مسألة : ﴿وَهَـٰذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِى مِن تَحْتِى (٥١)﴾ [الزخرف]

قلتُ له : فى قراءة التاريخ وجدنا أن مصر فى أيام الفراعنة كان بها خمسة أنهار ، نهر اسمه الملك لأن على شاطئه قصر الملك ، ونهر اسمه دمياط ، ونهر اسمه تنِّيس[٢] والعجيب أن منها نهراً يسمى طولون ، ونحن نعرف أحمد بن طولون[٣] وكان فى القرن التاسع

---

(١) الدكتور ياسين عبد الغفار هو مؤسس معهد الكبد (١٩٩٠م) وهو من أبناء محافظة المنوفية ، مواليد ٢٦ يناير ١٩١٧م ، توفى مايو ١٩٩٩ م عن ٨٢ عاماً ، حاصل على بكالوريوس الطب والجراحة ١٩٤٠ م وعضوية الكلية الملكية بلندن ١٩٤٤ ، الدكتوراه من جامعة القاهرة ١٩٤٥م ، والدكتوراه الفخرية من اسكوتلاندا ١٩٩١ ، تولى عدة مناصب ونال العديد من الأوسمة .

(٢) تنيس : مدينة قديمة وهى كلمة هيروغليفية تعنى صناعة الحرير ، وهى الآن مدينة المنزلة أحد مراكز محافظة الدقهلية فى الشمال الشرقى لمصر .

(٣) أحمد بن طولون أبو العباس الأمير صاحب الديار المصرية والشامية والثغور تركى مستعرب ولد ٢٢٠ هجرية ، كان شجاعاً حسن السيرة موصوفاً بالشدة على خصومه ، بنى الجامع المعروف بالقاهرة وقلعة يافا بفلسطين . يؤخذ عليه أنه كان حاد الخلق . توفى بمصر بعد مرضه عام ٢٧٠ هجرية عن ٥١ عاماً . [الأعلام للزركلى ١/ ١٤٠] .

الميلادى فكيف سُمِّى باسمه ، وبعد البحث عرفنا أن ابن طولون هو الذى ردم هذا الفرع من النهر فسُمِّى باسمه .

والنهر الخامس كان يسمى الخليج. إذن : زادوا من تفريعات النهر الرئيسى لتزداد فُرَص البناء المطلّ على النهر ، وهذا إنْ دَلَّ فإنما يدلُّ على ترف الحياة حين ذاك .

أما الشيخ عمر فكان له فى تفسير الأنهار رأىٌ آخر ، قال : اسمع يا ابنى أنت وهو ، الفراعنة جعلوا مصر على هيئة نموذج للجنة ، فجعلوا بها أربعة أنهار . واقرأوا القرآن : ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى (١٥) ﴾ [محمد]

لكن من أين عرف الفراعنةُ هذه الصورة عن الجنة فحاكوها على أرض مصر ؟ قالوا : لأنهم كانوا يسيرون فى أمور حياتهم وفى سياستهم خلف الكهنة ، والكهنة كانوا على علم ، وقرأوا الكتب السماوية السابقة .

حتى أنهم قالوا : إن العلوم التى عرفها الفراعنة وبنوا بها الأهرامات وأبا الهول والمعابد الموجودة الآن والتى لم نصل بعد تطور العلوم إلى أسرار بنائها ، وعملية تحنيط الموتى وغيرها من الأسرار عرفوه من الكهنة .

وما دامت من الكهنة فمصدرها وَحْى السماء ، بدليل أنه لما انتهى عصر الكهنة ولم يَعُدْ لهم وجود لم نجد لهذه العلوم أثراً حتى الآن .

وأذكر أننى فى أثناء تولِّى المهندس حسب الله الكفراوى[١] اقترحتُ عليه إعادة حفر هذه الأنهار ، بحيث تلتقى كلها عند القناطر الخيرية ، ونزيد مساحة الشاطىء عندنا ، واقترحتُ عليه لحلِّ أزمة البناء ، وبدلاً من البناء على الأرض الزراعية أن نبنى المساكن والمرافق الحكومية فوق فروع الترُّع والرياحات ، لأنها تحتل مساحات واسعة .

ومعظمها عليه طرق من اليمين ومن الشمال ، ويمكن أنْ نقيمَ أعمدة مسلَّحة على هذه الرياحات ، ونبنى فوقها كُلَّ مؤسسات الدولة بدل التكدُّس فى العاصمة ، فوعدنى بدراسة هذه المقترحات لكن لم يُنفذ منها شىء .

المفسرون يقولون فى ﴿ وَهَـٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِى مِن تَحْتِى ﴿٥١﴾ ﴾ [الزخرف] أن الأنهار كانت تجرى من تحت قصوره بالفعل ، قالوا : حتى أنه جعل من تحت سريره الذى ينام عليه مجرى مائياً كالنهر[٢] .

---

(١) من مدينة كفر سليمان مركز كفر سعد محافظة دمياط بمصر ، حاصل على بكالوريوس الهندسة قسم مدنى جامعة الإسكندرية عام ١٩٥٠م ، وهو وزير إسكان أسبق ولمدة ١٦ عاماً من ١٩٧٧ إلى ١٩٩٣ عين محافظاً لدمياط عام ١٩٧٦م وهيئة المجتمعات العمرانية عام ١٩٨٠م ، ونقيباً للمهندسين عام ١٩٩١م .

(٢) ذكره الألوسى فى تفسيره (روح المعانى) قال : قال غير واحد : كانت أنهار تخرج من النيل وتجرى من تحت قصره وهو مشرف عليها . وقيل : كان له سرير عظيم مرتفع تجرى من تحته أنهار أخرجها من النيل .

﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾﴾ (١) (٢)

فرعون يُجرى هذه المفاضلة بينه وبين موسى فيقول : أنا خير من هذا يقصد موسى ، واكتفى بالإشارة إليه امتهاناً به (مَهين) يعنى : ضعيف حقير ، حيث لا قوةَ تحميه ، وليس له جند يُدافعون عنه .

﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾﴾ [الزخرف] أى : يُبين عن نفسه ويفصح عنها . والمعنى : لا يستطيع الكلام بإبانة وطلاقة ، ذلك لأن موسى عليه السلام كان به لثغة فى لسانه .

لذلك قالوا أنه طلب من ربه عز وجل أنْ يُعينه على هذه المسألة بأن يرسل معه أخاه هارون ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِي (٣) رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾﴾ [القصص]

---

(١) فى كلمة (أم) هنا قولان :

الأول : أنها بمعنى بل . أى : بل أنا خير من موسى الذى هو مهين . قاله السدى وبعض نحاة البصرة .

الثانى : أنها للاستفهام . تبعاً للاستفهام فى الآية قبلها .

قال ابن كثير فى تفسيره (٤/ ١٣٠) : وعلى كل تقدير فإنما يعنى فرعون بذلك أنه خير من موسى وقد كذب فى قوله .

(٢) وصفه لموسى بأنه (مهين) يقصد به أنه حقير قاله سفيان . وقال قتادة والسدى يعنى ضعيف . وقال ابن جرير : يعنى لا ملك له ولا سلطان ولا مال . وذهب القرطبى إلى معنى هو مقتضى هذه الأقوال فقال : أى لا عز له فهو يمتهن نفسه فى حاجاته لحقارته وضعفه . وهو يلمس طبيعة النظرة الفرعونية إلى الناس والبشر .

(٣) الردء : المعين والناصر . [القاموس القويم ١/ ٢٦٠] وأردأه : أعانه وترادأ القوم : تعاونوا . وفلان ردء لفلان أى ينصره ويشد ظهره . [لسان العرب – مادة : ردأ] .

ويُروى أن سبب هذه اللثغة فى لسانه أنه وهو صغير قال كلمة فيها جرأة على فرعون حتى شكَّ فى أمره وتخوَّف منه ، فقالوا له : إنه صغير لا يعرف شيئاً . وليثبتوا لفرعون ذلك أتوا لموسى بتمرة وجمرة ، فأخذ الجمرة فلسعتْه فى لسانه ، وأحدثتْ به هذه اللثغة[1] .

﴿ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾

هذه هى الصورة المادية التى يتصوَّرها فرعونُ للرسول أنْ يأتى يرتدى الأسْورة من الذهب ، وهى دلالةٌ على القوة والسيطرة والعظمة ، أو يأتى ومعه ملائكة مصاحبون له يُؤيدونه ويشهدون بصدقه .

﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾

الاستخفاف يعنى العجلة والطيش وعدم التدبّر فى المسائل ، أى : استخفهم فرعونُ بهذا الكلام فأطاعوه على الضلال الذى هو فيه ووافقوه على الفساد ، ولا يوافق على الفساد إلا المنتفع به ، أو وجدهم أهلَ طيش ورعونة وعدم تفكّر فى الأمور ، فضحك عليهم بهذا الكلام .

---

(١) ذكره ابن كثير فى تفسيره فى قوله تعالى : ﴿ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا .. (٣٤) ﴾ [القصص] وقد أخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله ﴿ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ (٥٢) ﴾ [الزخرف] قال : كانت بموسى لثغة فى لسانه . ذكره الشوكانى فى فتح القدير والسيوطى فى الدر المنثور .

﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾
فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾

معنى ﴿آسَفُونَا (٥٥)﴾ [الزخرف] أغضبونا فكانت النتيجة ﴿انتَقَمْنَا مِنْهُمْ (٥٥)﴾ [الزخرف] كيف ﴿فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٥)﴾ [الزخرف] وبالغرق جعلهم الله (سَلَفاً) السلف مَنْ تقدَّم . أى : جعلهم الله قدوة وعبرةً لمنْ يأتى بعدهم ﴿وَمَثَلاً لِّلآخِرِينَ (٥٦)﴾ [الزخرف] عبرةً لغيرهم من الكافرين .

﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا
إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ ﴾

هنا الفعل (ضُرِب) مبنى لما لم يُسَمَّ فاعله ، فمَنِ الذى ضرب ابن مريم مثلاً ؟ الحق سبحانه وتعالى هو الذى جعل ابن مريم مثلاً ، لأنه وُلِد لأم بلا أب ، وجاء من نفخة الحق سبحانه فى مريم ، فنسبوه إلى الله ، تعالى الله عن ذلك عُلواً كبيراً ، فردَّ الله عليهم بأن عيسى فى الخَلْق مثل آدم .

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٥٩)﴾ [آل عمران] فإذا كان عيسى بلا أب ، فآدم بلا أب وبلا أم ، والذى يقدر على الأعلى يقدر على الأدنى من باب أَوْلَى ، فلا تُفتنوا فيه .

وبعد أن نزل قوله تعالى : ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ

حَصَبُ[١] جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ (٩٨) ﴾ [الأنبياء] تبيَّن أنه الضّال بعبادة غير الله هو ومعبوده فى جهنم معاً ﴿ حَصَبُ جَهَنَّمَ (٩٨) ﴾ [الأنبياء] يعنى : وقودها .

وجاء رجل اسمه عبد الله بن الزبعرى[٢] قبل أنْ يسلم إلى رسول الله ﷺ وقال له : يا محمد أهذه الآية لنا أم لجميع الخَلْق ؟ قال ﷺ : لجميع الخَلْق ، فقال له : كيف وعيسى عُبد من دون الله ، والعُزير عُبد من دون الله ، والملائكة عُبدوا من دون الله ، أيذهب هؤلاء مع عابديهم إلى النار[٣] ؟

فلم يُجبْه رسولُ الله إلى أنْ نزل قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ (١٠١) ﴾ [الأنبياء]

ولما بلغتْ هذه المسألة سيدنا علياً رضى الله عنه قال : (ما)

---

(١) الحصب : كل ما يُلقى فى النار لتسعّر به . [القاموس القويم ١/١٥٥] والحصب : الحجارة والحصى . [لسان العرب - مادة : حصب] .

(٢) هو عبد الله بن الزبعرى بن قيس السهمى القرشى أبو سعد ، شاعر قريش فى الجاهلية ، كان شديداً على المسلمين إلى أن فتحت مكة فهرب إلى نجران فقال فيه حسان أبياتاً ، فلما بلغته عاد إلى مكة فأسلم واعتذر ومدح النبى ﷺ توفى عام ١٥ هجرية . [الأعلام للزركلى] .

(٣) ذكر الرازى فى تفسيره « مفاتيح الغيب » فى تفسير سورة الأنبياء (٢١) : « أن عبد الله ابن الزبعرى أقبل فرأى مشركى قريش يتهامسون فقال : فيم خوضكم ؟ فأخبره الوليد بن المغيرة بقول رسول الله ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ .. (٩٨) ﴾ [الأنبياء] فقال عبد الله : أما والله لو وجدته لخصمته فدعوه ، فقال ابن الزبعرى : أأنت قلت ذلك ؟ قال : نعم . قال : قد خصمتك ورب الكعبة أليس اليهود عبدوا عزيراً والنصارى عبدوا المسيح وبنو مليح عبدوا الملائكة . ثم روى فى ذلك روايتان : إحداهما أن رسول الله سكت ولم يُجبْ فضحك القوم . والثانية أنه أجاب وقال : بل هم عبدوا الشياطين التى أمرتهم بذلك » .

هنا لغير العاقل ، فلا يدخل فى هذا الحكم عيسى ولا العُزير ولا الملائكة ، وهذه من حكمة الإمام على الذى تربَّى فى حضن النبى وتعلَّم فى مدرسته منذ صِغَره ، وجاءت ثقافته من نور النبوة .

لذلك ورد فى الحديث الشريف قوله ﷺ : « أنا مدينة العلم ، وعلىٌّ بابها »[١] .

وكان من الفقهاء أصحاب الاستنباط الواعى حتى أمام كبار الصحابة ، حتى إن عمر بن الخطاب الذى كان ينزل القرآن وفْق رأيه يقف فى مسألة لا يحلُّها إلا على ، حيث عُرِضَتْ عليه مسألة المرأة التى ولدتْ لستة أشهر فقال بإقامة الحدِّ عليها ، لأن المشهور فى أشهر الحمل تسعة أشهر .

فقال : يا أمير المؤمنين لا شىء عليها لأن الله يقول : ﴿ وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ[٢] ثَلاثُونَ شَهْرًا (١٥) ﴾ [الأحقاف] ويقول : ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ (٢٣٣) ﴾ [البقرة] إذن : مدة الحمل يمكن أن تكون ستة أشهر[٣] .

---

(١) أخرجه الحاكم فى مستدركه (٤٦١٢) والطبرانى فى المعجم الكبير (١٠٨٩٨) والطبرى فى تهذيب الآثار (١٤١٥) . قال الحاكم : حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه . وتمام الحديث : « فمن أراد المدينة فليأت الباب » . وفى لفظ : « فمن أراد العلم فليأته من بابه».

(٢) الفصال : الفطام لأن الطفل ينفصل به عن أمه . [القاموس القويم ٢/٨٣] فمجموع الحمل والفطام ثلاثون شهراً ، لذلك قال ابن عباس : إذا وضعت المرأة لتسعة أشهر كفاه من الرضاع أحد وعشرون شهراً ، وإذا وضعت لسبعة أشهر كفاه من الرضاع ثلاثة وعشرون شهراً ، وإذا وضعته لستة أشهر فحولين كاملين . ذكره ابن كثير فى تفسيره (٤/١٥٧) .

(٣) قال ابن كثير فى تفسيره (٤/١٥٧) : « أقل مدة للحمل ستة أشهر ، وهو استنباط قوى صحيح ووافق علياً عليه عثمان وجماعة من الصحابة » .

ومرة دخل على سيدنا عمر ومعه درّة ، يريد أن يضرب بها سيدنا حذيفة فقال له : ما لى أراكَ مُغضباً يا أمير المؤمنين ؟ قال : سألتُ حذيفة كيف أصبحتَ ؟ فقال : أصبحتُ أحب الفتنة ، وأكره الحق ، وأصلى بغير وضوء ، ولى فى الأرض ما ليس لله فى السماء . فقال على : صدق والله يا أمير المؤمنين .

فقال عمر : أتقولها يا أبا الحسن ؟ قال : أما الفتنة فقال تعالى : ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنفال] والحق الذى يكرهه هو الموت ، ويصلى على النبى ﷺ بغير وضوء ، وله فى الأرض زوجة وولد وليس لله زوجة ولا ولد .

عندها قال عمر : بئس المقام بأرض ليس فيها أبو الحسن[1] .

ومن لطائف ما رُوِى عنه رضى الله عنه أنه مرّ بجماعة اختلفوا فى أىِّ مخلوقات الله أشد وأكثر قوة ، فسألوه : ما أشدَّ جنود الله يا أبا الحسن ؟ فكانه كان على علم مُسْبق بهذه المسألة ، وأنه سيُسأل عنها ، لذلك قال - وحصر العدد قبل المعدود : وأشار بيده أنها عشرة : الجبال الرواسى ، والحديد يقطع الجبال ، والنار تذيب الحديد ، والماء يطفىء النار ، والسحاب يحمل الماء ، والريح يحمل السحاب ، وابن آدم يغلب الريح يستتر بالثوب ويمضى إلى حاجته ، والسُّكْر يغلب ابن آدم ، والنوم يغلب السُّكْر ، والهم يغلب النوم ، فأشدُّ جنود الله الهَمُّ .

---

(١) أورده إسماعيل حقى فى تفسيره قال : حُكى أن رجلاً أتى عمر فقال : إنى أحب الفتنة وأكره الحق وأشهد بما لم أره فحبسه عمر فبلغت قصته علياً فقال على ما ساقه هنا ، حتى أن عمر بن الخطاب قال : « لولا على لهلك عمر » .

وفى بعض أحاديثنا مع الإخوان طلبوا منى أنْ أذكر لهم خطبة الإمام على التى قالها لما ماتتْ فاطمة بنت محمد ، وكنتُ كلما ذكرتها لهم قالوا أعِدْ مرة أخرى ، قلتُ : لما ماتت فاطمة دُفنَتْ بجوار رسول الله والصحابة .

وبعد أنْ دُفنَت قالوا له : يا على لو أننا أبحنا لكل أولاد الرسول أنْ يُدفنوا إلى جواره لضاقَ المسجد بالناس ، فقال : ضعوها نهارنا وسوف أنقلها ليلاً كى لا تحدث فتنة ، وبالليل نقلها إلى البقيع .

وكان مما قاله الإمام على وهو يدفن فاطمة إلى جوار أبيها ، قال : السلام عليك يا رسول الله ، منى ومن ابنتك النازلة فى جوارك السريعة اللحاق بك ، قَلَّ يا رسول الله عن صفيتك صبرى ، ورَقَّ عنها تجلُّدى[١] ، إلا أن لى فى التعزِّى بمصيبتك موضعَ سَلْوى[٢] .

فقد وسَّدتُك يا رسول الله فى ملحودة قبرك ، وفاضتْ بين سَحْرى ونحرى نفسُك ، أما ليلى فمسهَّد[٣] ، وأما حزنى فسَرْمد[٤] إلى أنْ يختار الله لى داره التى أنت فيها مقيم ، وستخبرك ابنتك عن حال أُمتك فأصْفِهَا السؤال ، واستخبرها الحال - هذا ولم يطل منك العهد، ولَم يخل منك الذكر .

---

(١) الجلد : القوة والشدة والصلابة والجلادة . والتجلُّد : إظهار الجلد وقوة التحمل وشدة الصبر . [لسان العرب - مادة : جلد بتصرف] فرغم محاولة على رضى الله عنه إظهار الجلد والتحمل إلا أنه لم يستطع .

(٢) السلوى : التصبر والتسلى عن المصيبة بما يصرفنا عنها .

(٣) سَهِد يسْهد : لم ينم . ورجل سهد : قليل النوم . والسُّهاد : الأرق . وقد سهَّده الهم والوجع . [لسان العرب - مادة : سهد] .

(٤) السرمد : الأبدى الدائم الذى لا ينقطع . وقد قال تعالى : ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا (٧٢)﴾ [القصص] .

فلما أراد أنْ ينصرف قال : والسَّلام عليكما سلامَ مُودّع لا قال ولا سَئم ، فإنْ أنصرف فلا عن ملالة ، وإنْ نُقِم فلا عن سوء ظنٍ بما وعد الله به عباده الصابرين .

ومعنى ﴿يَصِدُّونَ (٥٧)﴾ [الزخرف] أى : يرفعون أصواتهم بالضحك والسخرية من رسول الله .

﴿وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ (٥٨)﴾

يعنى : كان هدفهم من الحديث عن عيسى والعُزَير والملائكة ، وسؤالهم : أيدخلون النار مع عابديهم ، مجرد جدل ، وهذا جدل مذموم ، لأنهم يريدون أنْ يُبرروا باطلهم . إذن : جدل باطل ممنوع ، أما الجدل المحمود الذى شرعه الشارع فهو الجدل البنَّاء الموصِّل إلى الحق .

لذلك قال الحق عنهم : ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ (٥٨)﴾ [الزخرف] معنى (خصم) يعنى : مبالغة فى الخصومة ، وهى الجدل بالباطل ، واللَّدد والعناد . نقول : خاصمنى فلان فخصْمتُه يعنى : انتصرتُ عليه .

﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا عَبۡدٌ أَنۡعَمۡنَا عَلَيۡهِ وَجَعَلۡنَٰهُ مَثَلٗا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ (٥٩)﴾

﴿إِنْ هُوَ (٥٩)﴾ [الزخرف] هنا تفيد النفى يعنى : ما هو أى سيدنا عيسى ﴿إِلاَّ عَبْدٌ (٥٩)﴾ [الزخرف] عبد لله كسائر الخلْق يعنى ليس إلهاً كما يدَّعُون ﴿أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِّبَنِى إِسْرَائِيلَ (٥٩)﴾

[الزخرف] مثلاً يعنى عبرة أو عجيبة من عجائب الخَلْق تظل باقية أبد الدهر ، أليس عجيباً أن يتكلم عيسى فى المهد ؟

فلما سُئِلَتْ عنه أمه لم تشأ أنْ تتكلم ، لأن كلامها لن ينفى عنها تهمة القوم ، فأشارت إليه ، عندها تعجبوا ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (٢٩)﴾ [مريم] فنطق عيسى وهو فى مهده : ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ (٣٠)﴾ [مريم]

فكان أول كلامه أنْ أثبت عبوديته لله ، وهذه المسألة يُخفيها بعض النصارى ، لأنها تتعارض ومعتقداتهم فى المسيح .

وعجيب أنْ يقول بعد ذلك ﴿آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠)﴾ [مريم] هكذا بصيغة الماضى وهو ما يزال فى مهده ، كيف ؟ لقد آتاه اللهُ الكتابَ وجعله نبياً بعد أنْ كبر وبلغ مبلغَ التكليف وحمل الرسالة ، إذن : ما يريده الله سوف يحدث لا محالة ، وقد أخبره الله بذلك وهو فى مهده .

وكلمة ﴿عَبْدٌ (٥٩)﴾ [الزخرف] محل العطاء الأوفى من الله ، ما دُمْتَ تخلص العبودية لله . هذا الإخلاص الذى رفع العبد الصالح إلى أنْ يسير موسى عليه السلام فى ركابه ويتعلم منه ، وقال الله عنه : ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا (٦٥)﴾ [الكهف]

وفى الإسراء قال تعالى : ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ (١)﴾ [الإسراء] فكأن العبودية هى محلُّ العطاء ، عطاء الرسالة وما هو فوق الرسالة .

وهنا أيضاً كانت عبودية المسيح هى محلُّ ﴿أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ (٥٩)﴾

[الزخرف] بماذا ؟ أنعمنا عليه بالاصطفاء للرسالة ، وخلقناه على غير مثال سابق فى الخلق ؛ لذلك قال سبحانه : ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً (٥٠)﴾ [المؤمنون] أى : معجزة عجيبة دالة على طلاقة القدرة .

وقال هنا ﴿وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ (٥٩)﴾ [الزخرف] لأنهم قوم ماديون لا يؤمنون بالغيبيات ، ودائماً يطلبون الشىء المادى الذى تقع عليه حواسّهم .

ألم يقولوا لموسى : ﴿أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً (١٥٣)﴾ [النساء] وهو سبحانه غَيْب ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ (١٠٣)﴾ [الأنعام]

ولما أنزل الله عليهم المنَّ والسَّلْوى ، وهو من أجود الطعام وأحسنه قالوا : ﴿يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا[1] وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ (٦١)﴾ [البقرة]

﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾﴾

يعنى : لو أراد الحق سبحانه لجعل بدلاً منهم - أى : بنى إسرائيل - ملائكة يخلفونهم فى عمارة الأرض ، ولا يكون ذلك إلا بهلاكهم وإبادتهم ، فهذا الأمر ليس بعسير على قدرة الله ، وفى الآية دليلٌ على طلاقة القدرة ، وأنه سبحانه يفعل ما يريد ، فلو شاء لَفعلَ .

---

(١) فى الفوم ثلاثة أقوال :

- أنه الحنطة . قاله ابن عباس والسدى عن أشياخه .
- أنه الثوم . وهو قراءة عبد الله وأبىّ . واختاره الفراء .
- أنه الحبوب . ذكره ابن قتيبة والزجاج . [زاد المسير لابن الجوزى] .

﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾

﴿وَإِنَّهُ ﴿٦١﴾﴾ [الزخرف] أى : عيسى عليه السلام ﴿لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ ﴿٦١﴾﴾ [الزخرف] يعنى : علامة من علاماتها يدلُّ على قرب وقوعها ﴿فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا ﴿٦١﴾﴾ [الزخرف] لا تشكُّون فيها ولا تجادلون فى وقوعها لأنها حق لا مرية فيه .

﴿وَاتَّبِعُونِ ﴿٦١﴾﴾ [الزخرف] كونوا تابعين لى مقتنعين بكلامى مُقلِّدين لى ، لأنى أُسْوة لكم فى حركة الحياة وفى العبادة ﴿هَٰذَا ﴿٦١﴾﴾ [الزخرف] أى : ما جئتكم به ﴿صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ [الزخرف]

والحق سبحانه وتعالى جعل للساعة علامات واضحة تدل عليها ، لأنها من الغيب الذى لا يطلع عليه أحدٌ إلا الله ولا يعرفها أحد ، وكلُّ ما نعرفه عن الساعة علاماتها الدالة عليها .

والذى نعتقده فى سيدنا عيسى أنه حَىٌّ فى السماء ، وأنه سينزل

---

(١) الضمير فى (وإنه) يعود على :

- القرآن . قاله الحسن وقتادة وسعيد بن جبير . لأن القرآن يدل على قرب مجىء الساعة . أو به تُعلم الساعة وأهوالها وأحوالها .

- خروج عيسى عليه السلام . قاله ابن عباس ومجاهد والضحاك والسدى وقتادة أيضاً . وذلك من أعلام الساعة لأن الله ينزله من السماء قبيل قيام الساعة ، كما أن خروج الدجال من أعلام الساعة .

- محمد . قاله القرطبى [٩/٦١٥٤] قال : [ويحتمل أن يكون المعنى (وإنه) وإن محمداً ﷺ لعلم للساعة بدليل قوله عليه السلام : « بُعثت أنا والساعة كهاتين » . وقال الحسن : أول أشراطها محمد] .

إلى الأرض .

وفى حديث الإسراء أنه نزل وصلَّى خلف رسول الله ، وهو وإنْ كان حياً فى السماء إلا أنه سينزل إلى الأرض ويموت ويُدفن .

ونقول لمن يعارض هذه المسألة ، وكيف أن عيسى حَىٌّ فى السماء : لقد أُسرِى برسول الله ﷺ وعُرِج به إلى السماء ، وظل هناك فترة من الزمن طالتْ أم قصرتْ ، فحين نقول : إن عيسى فى السماء ، فالخلاف فقط فى مسألة الفترة ، والذى يمكث فى السماء ساعة أو ساعتين يمكث أكثر .

﴿ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ ﴾

يعنى : لا يمنعكم ولا يصرفكم عن الحق والهدى ﴿ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ ﴾ [الزخرف] يعنى : واضح العداوة ، وعداوته لكم راسخة وقديمة منذ أبيكم آدم ، فلا تعطوه الفرصة لأنْ يصدكم عن الحق أو يفتح لكم أبواب الشبهة ، لأنه يتصيَّد مواطن الخلاف ويحوم حولها حتى يُوقعكم فى الضلال .

فهو القائل : ﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ﴾ [الأعراف] أى : فى أماكن الطاعة ليفسدها عليهم ، والحق سبحانه يُعلِّمنا كيف نتحصّن منه ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ﴿٢٠٠﴾ ﴾ [الأعراف] فاسم الله هو الذى يطرد عنك وساوسَ الشيطان ونزغاته ، لأن وارد الشيطان لا بقاء له أبداً مع وارد الرحمن .

قلنا : لو أن لصاً يحوم حول بيتك فسمعك تقول إحم ، فإنه يتراجع وينصرف ولو قلتها حتى مصادفة ، فأىُّ نزغ من الشيطان

ساعةَ تشعر بأنه يحوم حولك ، ما عليك إلا أنْ تذكر الله وتستعيذ به من وساوسه .

تقول : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم تقولها بصوت عَالٍ ، وقد اعترف الشيطان نفسه بأنه لا سلطانَ له على الذين آمنوا وأخلصوا لله تعالى : ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣)﴾ [ص]

﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ (٦٣)﴾

﴿بِالْبَيِّنَاتِ (٦٣)﴾ [الزخرف] الآيات والمعجزات ﴿قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ (٦٣)﴾[الزخرف] يعنى : الإنجيل وما فيه من أحكام ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ (٦٣)﴾ [الزخرف] والذى اختلفوا فيه قبل عيسى أو بعد أن انتقل عيسى ، فقالوا عنه : ابن الله . وقالوا : ثالث ثلاثة . واليهود قالوا أكثر من هذا .

الحق سبحانه يقول : أنا أعطيتُه الحكمة يعنى : الإنجيل . والحكمة تعنى : وضع الشىء فى موضعه ، وعيسى عليه السلام جاء بعد اليهودية ، وكانت اليهودية مسرفة فى المادية ومنها ينطلقون فى كل شىء .

وقلنا : إن هذه المادية هى التى دعتهم إلى أنْ يطلبوا من رسولهم رؤية الله ﴿فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً (١٥٣)﴾ [النساء] فلا مجالَ للغيبيات فى حياتهم ، حتى فى طعامهم وشرابهم لما أنزل الله عليهم

المنّ والسَّلْوى لم يقتنعوا به ، وأرادوا طعاماً يصنعونه بأيديهم ، فقال لهم : ﴿ اهْبِطُوا مِصْراً[1] فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ (٦١) ﴾ [البقرة]

لذلك حينما تقرأ التوراة لا تجد فيها ذكراً لليوم الآخر وكذلك التلمود ، مع أن اليوم الآخر والإيمان به ركن من أركان الإيمان ، لكنهم لماديتهم لا يُصدقون به ؛ لذلك لما جاءت رسالة عيسى عليه السلام جاءت كلها روحانيات لتَجْبُرَ النقص الروحى فى اليهودية ولتستوى كفّة الاعتدال فى الخَلْق .

لذلك لا نجد فى الإنجيل شيئاً عن تقنينات المجتمع ، فإنْ أرادوا شيئاً من ذلك أخذوه من التوراة ، وقد اضطروا - مع ما بينهم من عداء - إلى أنْ يجمعوا التوراة والإنجيل فى كتاب واحد وأسْموه العهد القديم ؛ لأن عيسى عليه السلام سُئِلَ مرة عن الميراث فقال : أنا لم أُبعث مُورِّثاً .

إذن : لما طغَتْ المادية قابلها بروحانية ، ليحدثَ الاعتدالُ فى حركة الحياة لأن الروحانيةَ هى التى تدفع الحركة المادية ؛ لذلك جاءت رسالة عيسى تُربِّى المواجيد الدينية وترتفع بالروحانيات .

فالحياة تحتاج للجانبين معاً الحركة المادية التى تتفاعل مع الكون والطبيعة ، ففى الكون أشياء تعطيك دون أنْ تتفاعل معها كالشمس والقمر والنجوم والماء والهواء ، فأنت فقط مُستقبل ، وأشياء أخرى

---

(١) (اهبطوا مصراً) بالتنوين ، فيه قولان :

- أنه اسم لمصر من الأمصار غير معين . قاله ابن مسعود وابن عباس . وإنما أُمروا بالمصر لأن الذى طلبوه فى الأمصار .
- أنه أراد البلد المسمى مصر . وهذا قول أبى العالية والضحاك . [زاد المسير لابن الجوزى] .

لا تعطيك إلا حين تتفاعل معها ، كالأرض تزرعها وتحرثها وترعاها فتعطيك الزرع .

ولأن اليهودية بالغتْ فى المادية بالغتْ كذلك المسيحية فى الروحانية ، ومن أقوال السيد المسيح عليه السلام أنه لما رآهم يرجمون امرأة قال[1] : « مَنْ كان منكم بلا خطيئة فليرجمها » ، وقال[2] : من ضربك على خدِّك الأيمن أعطه خدك الأيسر .

وهذه رهبانية لم يكتبها الله عليهم ، إنما تطوعوا بها ، وآفة ذلك أنهم ما رعوْهَا حَقَّ رعايتها ، يقول تعالى : ﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ (٢٧) ﴾ [الحديد]

إذن : الذى أُخذ عليهم ليس الرهبانية ، إنما أُخذ عليهم أنهم ما رَعوْهَا حَقَّ رعايتها ، وما دامت اليهودية بالغتْ فى المادية ، وجاءت المسيحية روحانية صِرْفة ليس فيها شىء من قوانين تنظيم المجتمع ، كان لابدَّ من إصلاح الحالتين ، واحتاجت حركة الحياة لدين جديد ورسالة جديدة تراعى الجانبين الروحانى والمادى ، فكانت هى رسالة الإسلام .

---

(١) جاء هذا فى إنجيل يوحنا ونصه (يوحنا ٨ : ٧) : « من كان منكم بلا خطيئة فليرمها أولاً بحجر » .

(٢) وذلك فى إنجيل متى أصحاح ٥٥ عدد ٣٩ ونصه : « لا تقاوموا الشر بل من لطمك على خدك الأيمن فحوِّل له الآخر أيضاً » .

وتأمل كيف ضرب القرآن مثلاً لمحمد وأمته ، مرة فى التوراة ، ومرة فى الإنجيل :

﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ(١) فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ (٢٩) ﴾ [الفتح]

هكذا جمعتْ أمة الإسلام بين الروح والمادة ، فالمسلم لم يُطبع على الشدة ، ولم يُطبع على الرحمة ، بل يُشكِّله الموقف ، لكن أشداء على مَنْ ؟ ورحماءُ لمَن ؟

وتأمل دقة التعبير القرآنى فى إعطاء مَثَل لأمة الإسلام فى التوراة وفى الإنجيل ، فلأن اليهود كانوا قوماً ماديين أعطاهم الجانب الروحى فى الإسلام : ﴿ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ (٢٩) ﴾ [الفتح]

أما فى الإنجيل فذكر الجانب المادى فى الإسلام : ﴿ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ (٢٩) ﴾ [الفتح]

فكأن الإسلام بجمعه بين المادية والروحية هو المنهج المناسب

---

(١) شطء الزرع : ما خرج وتفرع منه من ورق وأغصان وفروع . [القاموس القويم ٣٤٨/١] . (فآزره) أى : قوّاه . والأزْر : القوة . [القاموس القويم ١٨/١] . قال ابن كثير فى تفسيره (٢٠٤/٤) : « فكذلك أصحاب رسول الله ﷺ آزروه وأيدوه ونصروه فهم معه كالشطء مع الزرع » .

الصالح لقيادة حركة الحياة ، فالروحية لا تستقيمُ أبداً بدون المادية ، فالعابد مثلاً لا يقيم عبادته إلا برغيف يقيم أوْده وثوب يستر عورته ، فمن أين يأتى بالرغيف ؟ ومن أين يأتى بالثوب ؟ الرغيف يحتاج إلى فلاح يزرع ويحصد ، ويحتاج إلى مطحن ، وإلى مخبز وعمال .. إلخ وكذلك الثوب وكلها حركة مادية .

لذلك جعل الحق سبحانه القرآن مهيمناً على الكتب السابقة ﴿ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ (٤٨) ﴾ [المائدة] وقال : ﴿ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ (٤) ﴾ [الزخرف] أى : يعلو على كُلِّ الكتب السماوية .

وقوله تعالى : ﴿ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ (٦٣) ﴾ [الزخرف] مثل الأشياء المحرمة على اليهود ، والتى أحلَّها الله لهم مثل الإبل ، كما قال تعالى : ﴿ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ (٥٠) ﴾ [آل عمران] وقال : ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا[1] أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ (١٤٦) ﴾ [الأنعام]

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ ﴾

نلاحظ هنا استخدام الضمير المنفصل ﴿ هُوَ (٦٤) ﴾[الزخرف] الذى يفيد القصر ، فالله هو ربى ، ليس غيره رباً لى ولا لكم ﴿ فَاعْبُدُوهُ (٦٤) ﴾[الزخرف] لأنه حَق ﴿ هَٰذَا (٦٤) ﴾[الزخرف] أى : ما أدعوكم إليه ﴿ صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٦٤) ﴾ [الزخرف] طريق سوىّ لا عِوجَ فيه .

---

(١) الحوايا : الأمعاء وهى مشتقة من حوى يحوى لأنها تحتوى على الطعام [القاموس القويم ١/١٧٩] .

وقلنا : إن الصراط المستقيم هو الطريق (العدل) الذى يُوصِّلك للغاية من أقرب مسافة وبأقل مشقَّة ، وإذا كان الطريق يوصلك من إلى ، فالطريق إلى الله يُوصِّلك من الله إلى الله ، من الله تكليفاً ، وإلى الله ثمرة وأجْراً ، حيث الرجوع إليه وحده .

﴿ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ(١) مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾ ﴾

﴿ الأَحْزَابُ (٦٥) ﴾ [الزخرف] جمع : حزب وهم الجماعة من الناس يجمعهم فكرٌ واحد واعتقاد واحد ، واختلاف الأحزاب يدل على أنها على خطأ وأنها أحزابُ الشيطان ، لأن حزبَ الله واحد يأخذ فكره ومعتقداته من كتاب الله : ﴿ أُوْلَـٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٢٢) ﴾ [المجادلة]

﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ (٦٥) ﴾ [الزخرف] ويل يعنى : هلاك ، هلاك ممَّنْ ؟ من الله والفعل كما قلنا يُقاس بقوة الفاعل ، فما بالك إنْ كان العذابُ والهلاكُ من الله ؟

وقالوا : ويْلٌ وادٍ فى جهنم ﴿ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا (٦٥) ﴾ [الزخرف] أى : ظلموا أنفسهم بالشهوات وبالمعاصى ، أو ظلموا غيرهم من الناس

---

(١) المقصود بالأحزاب هنا أحد قولين ذكرهما القرطبى فى تفسيره (٩/٦١٥٦) :
- أنهم أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، خالف بعضهم بعضاً . قاله مجاهد والسدى .
- أنهم فرق النصارى من النسطورية والملكية واليعاقبة (أى : الكاثوليك والأورثوذكس والبروتستانت بتعبير العصر الحديث) الذين اختلفوا فى عيسى فقالت النسطورية : هو ابن الله . وقالت اليعاقبة : هو الله . وقالت الملكية : ثالث ثلاثة أحدهم الله . قاله الكلبى ومقاتل.

﴿مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ (٦٥)﴾ [الزخرف] فما بالك بالعذاب نفسه ، إذا كان اليوم الذى يحدث فيه العذاب يوماً مؤلماً ، فكيف يكون العذاب ؟

والعذاب يُوصف بأنه أليم يعنى : مؤلم للحسن . ويوُصف بأنه مقيم يعنى : دائم لا ينقطع . ويُوصف بأنه عظيم وشديد ، ويُوصف بأنه مُهين لمَنْ أراد الله إهانته وإذلاله فوق العذاب ، إذن : لكل مُجَرَّمٍ ما يناسبه من العذاب .

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٦٦)﴾

أى : لا ينتظرون إلا الساعة أى القيامة ﴿أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً (٦٦)﴾ [الزخرف] أى : فجأة ﴿وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (٦٦)﴾ [الزخرف] فإذا علم أنها تأتى فجأة وجب الاستعدادُ لها ، حيث لا أحَد يعرف موعدها ﴿لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ (١٨٧)﴾ [الأعراف]

وقلنا : إبهام القيامة وإبهام الموت هو عين البيان وغاية التوضيح ، فالإبهام الزمنى يُوسع العظة فتستعد وتنتظره فى كلِّ وقت ، كذلك إبهام السبب وإبهام المكان . ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ (٣٤)﴾ [لقمان] والموت من دون أسباب هو السبب .

﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ (٦٧)﴾

الكلام هنا عن يوم القيامة ، حيث تنقلب موازين الإخاء والخُلَّة ، قوله تعالى : ﴿الأَخِلاَّءُ (٦٧)﴾ [الزخرف] جمع : خليل ، وهو الصاحب الذى تودّه وتحبه حتى كأنك تداخلتَ فى أعضائه واختلط بلحمه ودمه ، كما قال الشاعر[١] :

وَلَمَّا التقيْنَا قَرَّبَ الشَّوْقُ جَهْدَهُ خَلِيلَيْنِ ذَابَا لَوْعَةً وَعِتَابَا

كَأَنَّ خَلِيلاً فِى خِلالِ خَلِيلِهِ تسرّب أَثْنَاءَ العِنَاقِ وَغَابَا[٢]

والخُلَّة إمَّا أنْ تكونَ فى الخير ، وإما أنْ تكون فى الشر ، خُلَّة الخير هى التى تُعينك على منهج الله ، والخليل الحق هو الذى إنْ رآك على الخير أعانك ، وإنْ رآك على غير ذلك نصحك وأخذ بيدك .

يقول تعالى فى وصف الذين آمنوا : ﴿إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣)﴾ [العصر]

وهذان هما الخلان اللذان عَنَاهُمَا رسول الله فى الحديث الشريف : « سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله ، ومنهم : ورجلان تحابَّا فى الله اجتمعا عليه وتفرَّقا عليه »[٣] وهذه خُلة الحق وخُلَّة

---

(١) هو إسماعيل صبرى باشا من شعراء الطبقة الأولى فى العصر الحديث ، امتاز بجمال مقطوعاته وعذوبة أسلوبه ، ولد ١٨٥٤ م ، درس الحقوق فى فرنسا ، كان يكتب شعره على هوامش الكتب والمجلات ، توفى بالقاهرة عام ١٩٢٣ م عن ٦٩ عاماً . [الموسوعة الشعرية] .

(٢) البيتان لإسماعيل صبرى وهما قصيدة من بحر الطويل ، وفي لفظهما فى الموسوعة الشعرية اختلاف بسيط ، ففيها (شجيين فاضا) بدل (خليلين ذابا) وكذلك (كأن حبيباً في خلال حبيبه) بدل (كأن خليلاً فى خلال خليله) .

(٣) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٠٣١) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه . وأول السبعة : إمام عادل . وكذا أخرجه الإمام مالك فى موطئه (١٥٠١) ، والبخارى فى صحيحه (٦٢٠ ، ١٣٣٤ ، ٦٣٠٨) .

الصدق التى تدوم فى الدنيا وتتصل مودَّتها إلى يوم القيامة ، فهُم أخلاء فى الدنيا ، أخلاَّء فى الآخرة .

أما الأخلاَّء فى الشَّر الذين يجتمعون على الشهوات وعلى انتهاك حُرمات الله ، فهؤلاء تنقلب خُلَّتهم فى الآخرة إلى عداوة وبغضاء ، حيث يلوم كلٌّ منهم صاحبه ، فالشر الذى اجتمعوا عليه فى الدنيا أهلكهم فى الآخرة ، والمعاصى التى تحابُّوا من أجلها هى التى ألقتْهم فى العذاب المقيم .

فكلُّ واحد منهم يرى فى الآخر عدواً له لأنه لم يزجره ولم ينهه . ومن هنا اهتمَّ الإسلام باختيار الصديق والصاحب ، وعلَّمنا كيف نختار الجليس الصالح والرفيق الصالح .

إذن : ساعة الجزاء ينكشف زَيْفُ العلاقات ، ولا تبقى إلا وشائج الخير التى تربط الأخ بأخيه ، والقرآن الكريم فى أكثر من موضع يُصوِّر لنا ما يدور بين هؤلاء الأخلاء فى الدنيا الأعداء فى الآخرة .

من ذلك قوله تعالى : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلاَّنَا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الأَسْفَلِينَ (٢٩)﴾ [فصلت]

﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾﴾

كلمة عبد تُجمع على : عبيد وعباد ولكل منهما معنى ، عبيد تشمل كل الناس المؤمن والكافر والطائع والعاصى ، لأنهم جميعاً عبيد بمعنى خاضعين لله فى قَهْريات لا يمكنهم أبداً الفكاك عنها كالمرض والموت وغيره ، كلنا مشتركون فيها ، وكلنا عبيد بهذا المعنى .

أما العباد فَهُم الخاصَّة الذين اختاروا الله ، وأخلصوا له العبادة ، وتنازلوا عن اختيارهم لاختيار ربهم ومراده فاستحقوا هذه المنزلة .

﴿ يَـٰعِبَادِ (٦٨) ﴾ [الزخرف] فنسبهم الله إليه وأضافهم إلى ذاته تعالى ، ولم يأت لفظ عباد خلاف هذا المعنى إلا فى موضع واحد فى معرض الحديث عن يوم القيامة : ﴿ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَـٰؤُلاءِ (١٧) ﴾ [الفرقان] فسمَّاهم عباداً مع أنهم ضالون . قالوا : لأن الكلام هنا عن يوم القيامة حيث لم يَعُدْ لأحد اختيار فى أنْ يؤمن أو يكفر ، فالجميع هنا طائع لا اختيارَ له فسمَّاهم عباداً .

فالحق سبحانه يكرمنا بهذا النداء ﴿ يَـٰعِبَادِ (٦٨) ﴾ [الزخرف] ويشرفنا بالانتساب إليه سبحانه على حَدِّ قول الشاعر[1] :

وَمِمَّا زَادَنِى شَرَفاً وَعِزاً ... وَكِدْتُ بِأَخْمُصِى أَطَأُ الثُّرَيَّا

دُخولِى تحتَ قولْكَ يا عَبادِى ... وَأَنْ صيَّرتَ أحمدَ لى نبيّا[2]

وقوله : ﴿ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ (٦٨) ﴾ [الزخرف] نعم فأىُّ خوف ونحن عباد الله ؟ أىُّ خوف يصيبنا بعد أن التحمنا به تعالى ، ألسنا فى الدنيا نقول : لا كرب ، وأنت ربّ ؟ إذن : ﴿ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ (٦٨) ﴾ [الزخرف] أى : على ما فاتكم من نعيم الدنيا لأنكم مُقبلون على ما هو خير وأبقى من نعيم الدنيا .

---

(١) هو : محمد الهلالى الحموى ، شاعر من شعراء العصر الحديث ، له المنظومات الهلالية . ولد ١٨٢٠ م وتوفى ١٨٩٤ م عن ٧٥ عاماً . له ٣٠٨ قصيدة ، عدد أبياتها جميعاً ٦٠٥٩ بيتاً . [الموسوعة الشعرية] .

(٢) البيتان من قصيدة من بحر الوافر ، عدد أبياتها ٦ أبيات . [الموسوعة الشعرية] .

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ مُسۡلِمِينَ ٦٩﴾

هذه الآية تبين أن هناك فرقاً بين الإيمان والإسلام ، الإيمان عمل القلب ، والإسلام عمل الجوارح التى تنفذ المنهج الذى أمرك به الله ، لذلك رأينا المنافقين هم أسبقُ الناس إلى الصلاة ، مع أن قلوبهم ليست كذلك .

واقرأ قوله تعالى : ﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَـٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا ١٤﴾ [الحجرات] لذلك كانوا يقفون فى الصف الأول لينفوا عن أنفسهم تهمة النفاق ، ومن العجيب أن يظهر النفاق فى المدينة وهى بلد الأنصار ومنطلق الإسلام ، ولم يظهر فى مكة معقل الكفر والأصنام ، وأشد البلاد عداءً للإسلام .

ولما تأملنا هذه الظاهرة قلنا : إن النفاق لا يظهر إلا أمام قوة ترهب فيظهر مَنْ ينافقها ، وقد أصبح رسول الله فى المدينة قوة ترهب ، وله شوكة وأنصار وجيش ، أما فى مكة فكان فى موقف ضعف واضطهاد ، فعلامَ يُنَافَق ؟

قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا ٦٩﴾ [الزخرف] أى : اقتنعتْ قلوبهم بها ، والاقتناع له مراتب : علم اليقين حين يخبرك مَنْ تثق فى صدقه ، وعين اليقين حين تشاهد الشىء بعينك ، وحق اليقين حين تباشره وتُجرِّبه بحواسِّك أنت .

أذكر أننى سافرت مرة إلى أندونيسيا ، ورأيت هناك أصابع الموز الأصبع الواحد نصف متر ، فتعجبتُ وأخذت منها معى حين عودتى

إلى مصـر ليراها أولادى ، فلما عدت قلتُ لهم تصـوَّروا لقد رأيت فى إندونيسيا كذا وكذا ، طبعاً تعـجبوا وهم يعرفون أنِّى لا أكذب عليهم ، هذا يُسمَّى علم اليقين .

ثم قلتُ لهم : افتحوا هذه الحقيبـة ، ففتحوها ووجدوا بها أصابع الموز كما أخبرتهم ، هذا يسمى عـين اليقين ، فلما أخرجوها وتذوَّقوا طعمها وباشروا ملمسها ولونها أصبح الأمرُ حق اليقين ، وهكذا .

فالذى يؤمن علـمَ اليقين هل يُنفـذ ما آمن به ، الذى يعـمل وينفذ مسلم ، والذى لا ينفذ منافق ، لأنه آمن باللسان ولم يعمل بما آمن به .

والأعراب لمـا سمـعوا هذه الآية اطمـأنوا إلى أنهم سيـؤمنون فى المسـتقـبل ، لأنهم يعرفون مـعنى (لما) ، فـهى تفيد نـفى الماضى والحاضر دون المستقبل .

فـقوله تعـالى : ﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَـكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴿١٤﴾﴾ [الحـجرات] إذن : سيدخل فيما بعد .

﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ (١) ﴿٧٠﴾﴾

---

(١) وردت عـدة أقوال فى مـعنى قـوله تعـالى ﴿ تحـبرون ﴾ ذكـرها القـرطبى فى تفـسيـره (٩/٦١٥٩) :

- تُكرمون . قاله ابن عباس . والكرامة فى المنزلة .
- تفرحون . قاله الحسن . والفرح فى القلب .
- تُنعمون . قاله قتادة . والنعيم فى البدن .
- تُسرون . قاله مجاهد . والسرور فى العين
- تعجبون . قاله ابن أبى نجيح . والعجب هاهنا دَرْك ما يُستطرف .
- هو التلذذ بالسماع . قاله يحى بن أبى كثير .

قلت : هى حالة من الفرح والسرور تجمع كل هذه المعانى التى ذكرها المفسرون تلازم المؤمن فى الجنة فهو تنعُّم يشمل كل حواسه وجوارحه وقلبه [عادل أبو المعاطى] .

هذا هو الجزاء ، جزاء الذين آمنوا وكانوا مسلمين ، يقول الله لهم أى يوم القيامة : ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ (٧٠)﴾ [الزخرف] وخصَّ الأزواج لأن كلَّ متعة يتمتعها الإنسان ويُسَرُّ بها تدبُّ فيه غرائز المراهقة ، ويميل إلى أنْ تكونَ له زوجة تشاركه متعته وسروره ، وهى كذلك .

فالزوج إذن - سواء الزوج أو الزوجة - هو المرافق المشتهى أولاً ، والمعين ثانياً سكناً ومودَّة ورحمة ، السكن والمودة معروفة بين الزوجين ، أما الرحمة فمتى تكون ؟

الرحمة نراها بين الزوجين فى فترة الكِبَر والشيخوخة حينما يكون كلٌّ منهما فى حاجة إلى الرحمة من الآخر ، الرحمة قبل أىِّ مشاعر أخرى .

ومعنى ﴿تُحْبَرُونَ (٧٠)﴾ [الزخرف] الحبور : شدة السُّرور ، وهو شىء من الصفاء والوضاءة والبهاء تعلو وجه الإنسان حينما يفرح فرحاً لا يُنغّصه شىء ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ (٢٤)﴾ [المطففين]

﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٧١)﴾

الحديث هنا عن نعيم الجنة ، والصحاف : جمع صحفة وهى (الطبق) الواسع الذى تأكل فيه الأسرة كلها ، والأكبر منها قصعة ، والأكبر من القصعة جفنة ، لذلك ورد فى الحديث الشريف أن رسول

الله أخبر عن ابن جدعان[١] أنه كان له جَفْنة كبيرة حتى أنه كان يُستظلُّ بظلها من حَرِّ الشمس[٢] .

وفى قصة سيدنا سليمان والجن الذى سخَّره الله لخدمته ، قال تعالى : ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوابِ[٣] وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ .. (١٣) ﴾ [سبأ]

كذلك فى الجنة صحاف لكن من ذهب .

﴿ وَأَكْوَابٍ (٧١) ﴾ [الزخرف] جمع كوب ، وهو إناء يُشرب فيه ليستْ له عُرْوة ، وهناك الأباريق جمع إبريق ، وهو إناء يُشرب فيه له عروة وفتحة من أعلى ، وهناك الكأس وهى الكوب إذا كان ملآناً بالشراب .

﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ (٧١) ﴾ [الزخرف] هذا وَصْف مُوجز للمتعدِّد الذى يطول المقام بذكر تفاصيله ، فالذى يُقدَّم فى هذه الصحاف وفى هذه الأكواب مما تشتهيه الأنفسُ من الطعام والشراب ، هذا من حيث الطعم .

﴿ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ (٧١) ﴾ [الزخرف] يعنى : لونه رائقٌ لك جميل فى

---

(١) عبد الله بن جدعان التيمى القرشى ، أحد الأجواد المشهورين فى الجاهلية أدرك النبى قبل النبوة ، له أخبار كثيرة أورد الأصفهانى وغيره بعضها وسماه اليعقوبى بين حكام العرب فى الجاهلية . [الأعلام للزركلى ٤/٧٦] .

(٢) قال إسماعيل حقى فى تفسيره : « كان لعبد الله بن جدعان من رؤساء قريش وهو ابن عم عائشة رضى الله عنها جفنة يُستظل بظلها ويصل إليها المتناول من ظهر البعير ووقع فيها صبى فغرق ، وكان يطعم الفقراء كل يوم من تلك الجفنة » .

(٣) الجفان جمع جفنة وهى القصعة الكبيرة ، والجوابى جمع جابية وهى الحوض الكبير يُجْبى فيه الماء . [زاد المسير لابن الجوزى] .

عينك ، مجرد النظر إليه فيه لذة ، فما بالك بطعمه ومذاقه ، لذلك حينما تستضيف مثلاً عزيزاً لديك تقول له : ماذا تحب أن تأكل ، لماذا ؟ لتصنع له ما يشتهيه وما تميل إليه نفسه .

يعنى : المسألة ليست (حشو بطن) فحسب . وتلحظ أنه ذكر الصِّحاف أولاً ، ثم الأكواب ، لأن الإنسانَ عادة يأكل ثم يشرب ، ففيها ترتيب للأهمية .

وذكر لذة الأعين بالطعام ، لأنك تجد بالنظر إليه متعة ربما تفوق متعةَ الأكل ، لذلك قال تعالى فى موضع آخر ﴿انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ[1] (٩٩)﴾ [الأنعام] فجمع إلى لذة الطعام لذة النظر إليه .

وقوله : ﴿وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٧١)﴾ [الزخرف] لأن هذه دارُ بقاء وخلود ، ليس فيها موت ، وليس فيها انقطاعٌ للنعمة فلا تفوتك النعمة ولا تفوتها ، يعنى : لذة صافية لا يُنغّصها شىء ، كما قال تعالى : ﴿لا مَقْطُوعَةٍ وَلا مَمْنُوعَةٍ (٣٣)﴾ [الواقعة] لأنها عطاء الله ، وعطاءُ الله دائمٌ لا ينقطع .

﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٧٢)﴾

قوله ﴿أُورِثْتُمُوهَا (٧٢)﴾ [الزخرف] أخذتموها إرثاً ، والإرث يكون بعد موت صاحبه كالميت يموت ويترك ملكه وتركته لمن بعده من أولاده وأقاربه ، إذن : هؤلاء يملكون التركةَ بدون عقد وبدون ثمن ، لكن ورثوا مَنْ ؟

---

(١) أينع الثمر : أدرك ونضج وحان قطافه . والوصف منه يانع أى ناضج قال تعالى : ﴿انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ (٩٩)﴾ [الأنعام] أى : ونضجه واختلاف طعمه بعد نضجه . [القاموس القويم ٢ /٣٧٣] .

يقول تعالى فى آية أخرى : ﴿أُوْلَـٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (١٠) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١١)﴾ [المؤمنون] قالوا : الحق سبحانه وتعالى حين خلق الخَلْق أحصاه عدداً وكتب فى الميقات الأزلى كل شىء ، وقد صحَّ أن القلم قد جَفَّ على ذلك(١) .

ولما سُئل المأمون : ما شُغل ربك الآن وقد صَحَّ أن القلم قد جَفَّ ؟ قال : أمور يُبديها ولا يبتديها ، يرفع أقواماً ، ويخفض آخرين(٢) .

قالوا فى مسألة الإرث هذه أن المؤمنين فى الجنة ورثوا الكافرين وأخذوا أماكنهم فى الجنة ، لأن الحق سبحانه جعل لكل إنسان مكاناً فى الجنة ومكاناً فى النار ، حتى إنْ جاء كُلُّ الخَلْق مؤمنين طائعين كانت لهم أماكن تكفيهم فى الجنة ، وكذلك إنْ كفروا جميعاً وُجدتْ لهم أماكن فى النار .

فساعة يدخل أهلُ النار النارَ تخلُو أماكنهم فى الجنة فيجعلها الحق سبحانه من حَقِّ المؤمنين ويُورثهم إياها تفضّلاً منه وتكَرُّماً أولاً ، ثم جزاء تفوقهم فى الإيمان والعمل الصالح فى الدنيا .

---

(١) أخرج الترمذى فى سننه (٢٥٦٦) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص قال قال رسول الله ﷺ : « إن الله عز وجل خلق خلقه فى ظلمة فألقى عليهم من نوره ، فمن أصابه من ذلك النور اهتدى ، ومن أخطأه ضل فلذلك أقول : جف القلم على علم الله » . قال الترمذى : حديث حسن . وكذا أحمد فى مسنده (٦٣٥٦ ، ٦٥٥٩)

(٢) أورده الشوكانى فى فيض القدير (٢/٢٩٢) أن عبد الله بن طاهر أمير خراسان سأل المأمون الحسين بن الفضل عن قوله تعالى ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ (٢٩)﴾ [الرحمن] فقال : هى شئون يبديها ولا يبتديها ، فقام إليه وقبَّل رأسه . وذكره الزمخشرى فى الكشاف ، وكذلك [الفواكه الدوانى على رسالة ابن أبى زيد القيروانى ١ / ١٥٦] .

لذلك قال : ﴿ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٧٢) ﴾ [الزخرف] فالعمل الصالح إذن هو المعوّل الأساس فى دخول الجنة ، وفى إرث أماكن أهل النار .

ونلاحظ فى مسألة الإرث أنه ينقل ملكية الشىء من المورِّث إلى وارثه ، ويكون هذا الإرث حلالاً للوارث بصرف النظر عن مصدره من أين ، من حلال أو من حرام ، فلو أن رجلاً كسب مالاً من حرام فيتحمَّل هو وزره وحده ويُطوَّق به يوم القيامة .

فإن انتقل إلى الوارث كان بالنسبة له حلالاً لا شىء عليه فيه ، لأن المسئولية هنا لا تتعدى ، وقد حسم سيدنا رسول الله ﷺ هذه المسألة لما قال : « شرّكم مَنْ ماتَ بشرٍّ ، وتركَ عياله بخير »[1] .

لذلك الوارث ليس له أنْ يسأل عن مصدر هذا المال الذى ورثه ، فهو مثل الزوجة لا تسأل زوجها عن مصدر النفقة التى يدفعها لها ، ومثل الولد دون البلوغ ليس له أنْ يسألَ والده من أين يأتى بالمال الذى ينفقه عليه .

لكن للولد ذلك لما يبلغ ويصبح قادراً على الكسب ، فله أنْ يسأل لأنه أصبح قادراً على الكسب من الحلال بنفسه .

ذلك قياساً على قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا بَلَغَ الأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ (٥٩) ﴾ [النور] فبعد البلوغ لم يبْق له حَقٌّ على أبيه ، بل انتقل الحقُّ منه لأبيه إلا أنْ يتفضل الأب .

وقلنا : إن قضية تفضُّل الأب عندنا أثَّرتْ بالسلب على

---

(١) أخرجه القضاعى فى مسنده (الشهاب) (٢/٢٤) (٣٠٤) من حديث ابن عمر بلفظ : «الويل كل الويل لمن ترك عياله بخير وقدم على ربه بشرٍّ » . وعزاه العجلونى فى كشف الخفاء للديلمى (ح ٢٩٧٧) . وقد حكم الألبانى فى السلسلة الضعيفة والموضوعة (١٥٧/٤) بوضعه .

اقتصادياتنا ، لأن حنانَ الآباء الزائد وتدليلَ الأولاد جعل فترة الطفولة تمتدُّ فى شبابنا إلى سنِّ الخامسة والعشرين بل والثلاثين ، والولد فيها عَالةٌ على أبيه يريد منه كل شىء ، حتى الشقة والجهاز والزواج ، ركن الشباب عندنا إلى الراحة وألقوْا بالمسئولية على الآباء ، وهذا يضيع علينا طاقات كثيرة لا تُستغل .

لذلك تفوَّق علينا الغرب فى هذه المسألة ، ففى مثل هذه السِّنِّ يخرج الشابُّ عندهم إلى الحياة وإلى ساحة العمل ، ويتحمَّل مسئوليته بنفسه ، ويستقل كليةً عن الأسرة ، صحيح أنهم وقعوا فى خطأ فى هذا الموضوع أنهم سَوَّوْا بين الفتى والفتاة ، لأن الفتاة لها وَضْع آخر ، لذلك هنا نحتضنها إلى أنْ تتزوج ، فلا تخرج من بيت أبيها إلا إلى بيت زوجها .

﴿ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾

سبق أنْ ذكر الحق سبحانه الطعام والشراب فى الجنة وأنها فى صحَاف وفى أكواب وهذه معروفة للعرب ، وهنا يذكر أن من نعَم الجَنة الفاكهة ، والعرب لم تكُنْ تعهد الفاكهة ولا تعرف الكثير منها ، لذلك خَصَّ الفاكهة بعد ذكر الطعام والشراب ، والفاكهة بعد الطعام والشراب دليل على الرفاهية والمتعة التامة ، والفاكهة من التفكّه . يعنى : ليست من الضروريات بل من الرفاهية (فنطظية يعنى) .

الحق سبحانه وتعالى أعطانا ضروريات الحياة من المأكل والمشرب والملبس ، ثم زادنا ما نُرفِّه به حياتنا ، اقرأ مثلاً : ﴿ يَـٰبَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَلِكَ خَيْرٌ .. ﴿٢٦﴾ ﴾ [الأعراف] فاللباس الذى يُوارى السوءة من الضروريات ورياش للزينة والترفّه ، ثم نبَّه إلى ما هو أهمّ من اللباس المادى ،

إنه اللباس المعنوى الذى يسترك فى دنياك وأُخْراك ، إنه لباسُ التقوى .

وبعد أنْ أعطانا الحق سبحانه صورة موجزة لأهل الجنة وبعض ما فيها من نعيم ليعطينا المقابل لتتضح الصورة أكثر ، وهذه سمَة من سمات الأسلوب القرآنى ، لأن النفسَ حين تذكر لها ما تنبسط له ، ثم تذكر ما تنقبض له يظهر لها الفرق ، مثل قوله تعالى : ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (١٤)﴾ [الانفطار]

وهنا يقول تعالى :

﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ (٧٤) لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (٧٥)﴾

الحق سبحانه يقرر لنا حقائق ثلاث عن المجرمين : أنهم خالدون فى العذاب فهو عذاب ممتدٌّ لا نهاية له ، ثم ﴿لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ .. (٧٥)﴾ [الزخرف] يعنى : لا يُخفف عنهم ﴿وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (٧٥)﴾ [الزخرف] يعنى : متحسِّرون يائسون من النجاة ، يائسون من الخير لا أملَ عندهم فى الخروج منها ، وهكذا جمع عليهم كلَّ جوانب الألم والحسرة واليأس وقَطْع الرجاء .

﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ (٧٦)﴾

لأن ما صاروا إليه من العذاب جزاءَ عملهم ليس ظُلْماً لهم ، لأننا هديناهم وبينَّا لهم الخير والشر ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (١٠)[1]﴾ [البلد]

---

(١) النجدان : أى طريق الخير وطريق الشر . كذا فى معظم المعاجم اللغوية . وقال الزجاج : أى الطريقين الواضحين . قال فى تهذيب اللغة : فالمعنى ألم نُعرفه طريق الخير وطريق الشر بيِّنين كبيان الطريقين العاليين .

وقال : ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) ﴾ [الشمس] ومع ذلك ظلموا أنفسهم حين تعجَّلوا لها الشهوات ، وأخذوها فى الحرام فحرمهم الله من المتعة الحلال الأبدية فى الآخرة ، وشَرُّ الظلم أنْ يظلمَ الإنسانُ نفسه ، وظُلم النفس حُمْق وتَعدٍّ .

﴿ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ (٧٧) لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ (٧٨) ﴾

الكلام هنا عن أهل النار والعياذ بالله ينادون مالكَ خازن النار ﴿ يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ .. (٧٧) ﴾ [الزخرف] يعنى : بالموت لنستريحَ ممَّا نحن فيه من العذاب الدائم الذى لا ينتهى ، لأن الحق سبحانه يقول ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ .. (٥٦) ﴾ [النساء]

وقلنا : إن العلوم الحديثة أثبتتْ أن الجلد هو موضع الإحساس ، بدليل أنك حين تأخذ حقنة مثلاً لا تشعر بالألم إلا بمقدار نفاذ الإبرة من الجلد ، وقد سبق القرآن كل العلوم فى بيان هذه الحقيقة ، لذلك يطلب أهل النار الموتَ لينقذهم من هذا العذاب .

لكن نلحظ أن الفعل ﴿ لِيَقْضِ .. (٧٧) ﴾ [الزخرف] جاء بصيغة الأمر ، واقترنَ أيضاً بلام الأمر ، فهل الحق سبحانه وتعالى يُؤمر وخاصةً من أهل النار ؟ قلنا : إن الطلب إنْ كان من الأعلى للأدنى فهو أمر ، وإنْ كان من المساوى لك فهو التماس ، وإنْ كان من الأدنى للأعلى فهو دعاء ، فنحن إذن لا نأمر الله إنما ندعوه .

(قال) أى مالك ﴿ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ (٧٧) ﴾ [الزخرف] باقون فى النار خالدون فيها ، لأنه لا عذرَ لكم ﴿ لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ .. (٧٨) ﴾ [الزخرف] أى : الدين الحق والمنهج الحق ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ (٧٨) ﴾ [الزخرف]

وهذا معنى ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ (٧٦) ﴾ [الزخرف]

ثم يُوجه السياقُ الحديثَ إلى سيدنا رسول الله ، وكثيراً ما يخاطبه ربه ليُسلِّيه ويُخفِّف عنه لأنه لاقى من عَنَت قومه وعنادهم الكثير ، وآذوه فى نفسه وذاته حينما أغروا به سفهاءهم ورَمَوْه بالحجارة حتى أدْموا قدميه[١] ، وألقوا سقط البعير والقاذورات على ظهره وهو يصلى[٢] .

وآذوه فى معنوياته فقالوا عنه : ساحر وكاهن وكذاب وشاعر ومجنون ، فالحق سبحانه يُبيِّن له أنه جاء على فترة من الرسل بعد أنْ فسدَ الخَلْق وانتشر الشرُّ ، ووراء هذا الفساد قومٌ يستفيدون منه ويدافعون عنه ، وطبيعى أنْ يصادموك وأنْ يقفوا فى وجه دعوتك ، لأنهم يريدون الإبقاء على مكانتهم وانتفاعهم بهذا الفساد .

وقد وصل كُرْه هؤلاء لرسول الله أنْ بيَّتوا للقضاء عليه والخلاص من دعوته ، قال تعالى : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ[٣] أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٣٠) ﴾ [الأنفال]

---

(١) أورده ابن القيم فى كتابه زاد المعاد (٣ / ٢٨) فصل الخروج إلى الطائف ، قال : « فخرج رسول الله إلى الطائف رجاء أن يؤوه وينصروه على قومه .... ولكنهم أغروا به سفهاءهم فوقفوا له سماطين (أى صفين على الجانبين) وجعلوا يرمونه بالحجارة حتى دميت قدماه » .

(٢) أورده صاحب (سبل الهدى والرشاد) فى كتابه (٢/٤٣٦) وعزاه للشيخين والبزار والطبرانى عن ابن مسعود أنه قال : ما رأيت رسول الله ﷺ دعا على قريش غير يوم واحد ، فإنه كان يصلى ورهط من قريش جلوس وسلا جزور نحرت بالأمس قريباً ، فقال أبو جهل : من يأخذ سلا هذا الجزور فيضعه على كتفى محمد إذا سجد فانبعث أشقاهم عقبة بن أبى معيط فجاء به فقذفه على ظهره فضحكوا وجعل بعضهم يميل إلى بعض والنبى ﷺ ما يرفع رأسه وجاءت فاطمة فطرحته عن ظهره ودعت على من صنع ذلك .

(٣) قوله (ليثبتوك) للمفسرين فيه قولان (زاد المسير لابن الجوزى) :

الأول : ليثبتوك فى الوثاق ، قاله ابن عباس والحسن .

والثانى : ليثبتوك فى الحبس . قاله عطاء والسدى وآخرون .

وهنا يخاطب الحق سبحانه رسوله ﷺ[(١)] :

﴿أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾﴾

يعنى : أحكموا كيداً لك يا محمد وبيَّتوه واتفقوا عليه ، فلا تهتمَّ لأننا لهم بالمرصاد ﴿ فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [الزخرف] يعنى : نحكم كيداً كما أحكموا كيداً . ونحن نعلم ما يُبيِّتونه ولا يخفى علينا ، وهم لا يعلمون ما نُبيِّته لهم ، إذن : أىُّ الفريقين أقوى ؟

﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾﴾

أيظنون أنَّا لا نسمع ما يُبرمونه وما يُحكمون تخطيطه لإيذاء رسول الله ، ولا نسمع سرهم ، والسر هو الحديث تُسرُّ به إلى آخر ، أو السرُّ إذا سمعتَ شيئاً وبقى سراً فى صدرك لا يطلع أحدٌ عليه .

والنجوى هى الحديث الخافت بين اثنين بحيث لا يسمعهما ثالث لكن الله يسمع سرَّهم ويسمع نجواهم ، ولا يخفى عليه شىء من أمرهم ، بل وأكثر من ذلك ﴿وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [الزخرف] يعنى : نسمعهم ونُحصى عليه ما قالوا ، فلنَا رسل وملائكة تكتب

---

(١) ذكر القرطبى فى تفسيره (٦١٦٦/٩) فيما نقله عن مقاتل قال : نزلت فى تدبيرهم بالمكر بالنبى ﷺ فى دار الندوة حين استقر أمرهم على ما أشار به أبو جهل عليهم أن يبرز من كل قبيلة رجل ليشتركوا فى قتله فتضعف المطالبة بدمه ، فنزلت هذه الآية ، وقتل الله جميعهم ببدر .

وتسجل ما يقولون وما يفعلون .

فلو قلتَ : إذا كان الحق سبحانه يعلم ويسمع ولا يخفى عليه شىء من أمرهم ، فما فائدة التسجيل عليهم وكتابة سِرِّهم ونجواهم ؟

قلنا : الكتابة تفيد الملائكة فهى من أجلهم ، حتى إذا ما رأوا الأحداث تحدث كما سُجِّلتْ فى اللوح المحفوظ يعلمون أن الله عليم حكيم فيزدادوا يقيناً فوق يقينهم ، وإيماناً على إيمانهم .

﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾

هذا أمر لسيدنا رسول الله ﷺ (قُلْ) يا محمد لمنْ يدَّعى أن للرحمن ولداً ﴿ قُلْ ﴿٨١﴾ ﴾ [الزخرف] أى على سبيل الفرض ﴿ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ [الزخرف] وعلى اعتبار (إنْ) شرطية فالمعنى[1] إنْ كان للرحمن ولد وهو سبحانه الذى يخبرنى بهذه الحقيقة فأنا أولُ العابدين له ، لأننى آخذ ثقافتى وآخذ أوامرى من ربى لا منكم .

وبعضهم[2] قال (إنْ) هنا نافية ، مثل قوله تعالى : ﴿ مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلاَّ اللاَّئِي وَلَدْنَهُمْ ﴿٢﴾ ﴾ [المجادلة] فالمعنى : قُلْ ما كان للرحمن ولد فأنا أول مَنْ ينفى ذلك لأننى أول العابدين ، وأول

---

(١) هذا معنى افتراضى للحوار معهم فقط ، فإنه يستحيل أن يكون له ولد ، وهو كما تقول لمن تناظره : إذ ثبت ما قلت بالدليل فأنا أول من يعتقده ، وهذا مبالغة فى الاستبعاد ، أى : لا سبيل إلى اعتقاده .

(٢) منهم ابن عباس والحسن والسدى . أى : قل ما كان للرحمن ولد . فيكون الكلام على هذا تماماً ثم تبتدئ (فأنا أول العابدين) أى : الموحدين من أهل مكة على أنه لا ولد له .

المؤمنين بوحدانية الله تعالى .

الحق تعالى وصف نفسه سبحانه بوصفين ، البعض يظن أنهما بمعنى واحد ، لكن طالما هما لفظان مختلفان فلا بدَّ أن لكل منهما معنىً خاصاً لا يؤديه الوصفُ الآخر ، الحق وصف نفسه بأنه واحد أحد .

قلنا : واحد يعنى فرد لا ثانىَ له فهى تنفى التعددية ، أما أحد أى واحد فى ذاته ليس له أجزاء ، لأن الشىء المكوَّن من أجزاء يكون كل جزء فيه محتاجاً إلى الأجزاء الأخرى .

وطالما أنه تعالى أحد فى ذاته إذن ليس له ولد لأن الولد جزء من أبيه ، وفى الحديث الشريف قال ﷺ : « فاطمة بضعة منى »[(١)] يعنى : جزء منى .

وإذا أخذنا بهذا المبدأ وسلْسَلْنا نسب كلٍّ منا لا بدَّ أنْ نصلَ إلى أبينا آدم عليه السلام ، وعرفنا أن كلاّ منَّا فيه بضعة أو ذرة من أبيه آدم ، هذه الذرة هى التى شهدت العهد الأول الذى أخذه الله تعالى على بنى آدم وهم فى مرحلة الذَّرِّ :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣) ﴾ [الأعراف]

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٤٣٧ ، ٣٤٥٠ ، ٣٤٨٣) وكذا مسلم فى صحيحه (٤٤٨٣) من حديث المسور بن مخرمة ، ولفظ مسلم : « إنما فاطمة بضعة منى يؤذينى ما آذاها » .

وهذه الذرّة هى بذرة الخير وموضع الإيمان فى الإنسان ، ومنها تنطلق حركةُ الخير ، ألا تراه يندم على الذنب ويعزم على التوبة ؟ إنه عملُ هذه الذرة وأثرها فى النفس الإنسانية لأنها أول مَنْ سمع نداء الله وبلاغٌ عن الله .

والقرآن الكريم أفاد أن الجنَّ أوعى من الإنس فى هذه المسألة ، فإذا كان الإنسانُ قد تجرأ على الحق سبحانه وتعالى ونسب له الولدَ ؛ فالجنُّ نفتْ ذلك ونزَّهتْ الله عن الولد وعن الصاحبة ، واقرأ قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ[1] رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ ﴾ [الجن]

يعنى من عظمته تعالى أنه لم يتخذ لا صاحبة - يعنى زوجة - ولا ولداً ، والمتأمل يجد أن الصاحبة والولد من أسباب الفساد فى الكون ، يقول تعالى : ﴿ إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ﴿١٤﴾ ﴾ [التغابن]

ونحن نقول مثلاً فى أعراف البشر : تزوج مبكراً لتنجبَ ولداً يعولك فى شيخوختك ، وهل الحق سبحانه يتخذ الولد لأنه فى حاجة إليه كما نحتاجه نحن ؟ ثم الذين قالوا إن عيسى ابنُ الله ما قولهم فى الزمن قبل عيسى ألم يكُنْ لله فيه ولد ؟ وما بعد عيسى أين الولد الذى اتخذه الله ؟ إذن : هذا كله افتراءٌ على الله .

﴿ سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

---

(١) الجدُّ : العظمة والمجد . ومعنى الآية أى : أنه تعالت عظمة ربنا وتعالى أى مجد ربنا . [القاموس القويم ١/١١٨] .

من المناسب أنْ تبدأ هذه الآية بكلمة ﴿سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ (٨٢)﴾ [الزخرف] بعد الحديث فى الآية السابقة عن نَفْى الولد عن الله تعالى ، كلمة (سُبْحان) يعنى : تنزيهاً لله تعالى عن كلّ ما يدور بخاطرك .

لذلك لا تأتى كلمة سبحان الله إلا مقترنة بشىء عجيب فوق تصوّر العقل البشرى : ﴿سُبْحَانَ الَّذِى خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ (٣٦)﴾ [يس] . ﴿سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا (١)﴾ [الإسراء]

يعنى : حينما تقف عقولكم عند هذه المسائل قولوا سبحان الله ، ونزِّهوا الله عن مشابهة الخَلْق ، ولا تقيسوا قوته بقوتكم ، ولا فعله بفعلكم ، ولا قدرته بقدرتكم ، نزِّهوا الله فى أسمائه وفى صفاته وفى أفعاله .

ثم تأمل كيف يأتى الحق سبحانه فى هذه الآية بالصفات التى تناسب نَفْى الولد عنه سبحانه ، فيقول ﴿رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ.. (٨٢)﴾ [الزخرف] وهل مالك السموات ض ومَنْ فيهن بحاجة إلى الولد ؟ وفى آية أخرى يقول : ﴿لَخَلْقُ مَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٥٧)﴾ [غافر]

وأعظم من السموات والأرض العرش (رب العرش) إذن : هو سبحانه فى غنىً عن اتخاذ الولد . وقوله : ﴿عَمَّا يَصِفُونَ (٨٢)﴾ [الزخرف] عمَّا يكذبون فيه ، أو عمّا يصفون اللهَ به من اتخاذ الولد .

وقلنا : إن تسبيح الله دائرٌ فى الزمن كله وثابتٌ لله تعالى قبل الزمن ، فالله مُنزَّه وهى صفة ذاتية فيه سبحانه قبل أنْ يخلقَ مَنْ يُسبِّح ، فكلمة (سبحان) ذاتية لله قبل أنْ يخلق الخَلْق . فلما أوجد

هـذا الكـون سبَّح الكونُ لله ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ (١)﴾ [الحشر]

وهذا التسبيح مستمر فى الحاضر والمستقبل ﴿يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ (٢٤)﴾ [الحشر] وطالما أن الكونَ منظومة واحدة مُسبِّحة لله تعالى فلا تشذ أيها الإنسان عن هذه المنظومة وكُنْ أنت أيضاً مُسبِّحاً : ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى (١)﴾ [الأعلى]

﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (٨٣)﴾

هذا أمر لسيدنا رسول الله ﷺ ﴿فَذَرْهُمْ (٨٣)﴾ [الزخرف] اتركهم يا محمد وما يخوضون فيه من هذا الحديث الكاذب ، وكلمة ﴿يَخُوضُوا (٨٣)﴾ [الزخرف] من الخوض . وأصلها خَوْض الإنسان فى لُجة الماء الكثير ، ثم استُعملَتْ مجازاً فيمَنْ يخوض فى الحديث دون دراية .

وأكثر استعمالها فى الحديث الباطل ، والخوض توحى بالتخبط والمشى فى أماكن مجهولة لا تدرى ما يقابلك فيها من أخطار ، فتكون أنت الجانى على نفسك . إذن : لا بدَّ أن تتحسَّس قبل أنْ تخوضَ ، واحذر الخوض فى الباطل .

وقوله :﴿وَيَلْعَبُوا (٨٣)﴾ [الزخرف] لأنى أمرتهم أنْ يجدُّوا فى الحياة ، فإذا هم يلعبون فيها.، فالجدّ يقابله اللهو واللعب ، والفرْق بين اللهو واللعب أن اللعب أنْ تعمل شيئاً لا فائدةَ منه إلا التسلية ، وهذا قبل

أوان التكليف ، فإذا كان مُكلَّفاً وفعل ما لا فائدةَ منه فهو لهو .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا (١١) ﴾ [الجمعة] إذن : اللهو أنْ تنشغلَ بلعب لا يفيد عن واجب طُلبَ منك .

وقوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (٨٣) ﴾ [الزخرف] إذن : أوعدهم الله بهذا اليوم ولم يتركهم هملاً ولم يخلقهم عبثاً ، بل بيَّن لهم الحق والباطل ، ووعدهم الجزاء كلٌّ بما يستحق ، فالفعل ﴿ يُوعَدُونَ (٨٣) ﴾ [الزخرف] من أوعد من الوعيد ، وهو الإنذار بالشر قبل أوانه لتتجنبه .

وهناك وَعَد من الوعْد ، والوعد لا يكون إلا بالخير .

إذن : الذين يدخلون النار لم يظلمهم اللهُ ولم يأخذهم على غِرَّة ، بل أوعدهم وحذرهم من هذا المصير . والقرآن مليء بالوعد والوعيد ، واقرأ : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ (٦) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ (٧) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ[1] (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ (٩) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ (١٠) ﴾ [الليل]

فالحق سبحانه وتعالى قدَّم لعبده الخير فى وعده وفى وعيده ، نعم حتى الوعيد فيه خير لأن الذى يحذرك من الشر قبل أنْ تقع فيه يُسدى لك جميلاً يستحق عليه الشكر .

وفى ضوء ذلك فهمنا قوله تعالى وهو يُعدِّد نعمه علينا فى سورة الرحمن ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ[2] مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ (٣٥)

---

(١) استغنى هنا بمعنى أنه إذا رأى نفسه غنياً فإنه يغتر ويطغى ، وذلك مثل قوله تعالى ﴿ إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ (٧) ﴾ [العلق] . [القاموس القويم ٢/٦٢] .

(٢) الشُّواظ (بضم الشين وكسرها) : القطعة من اللهب ليس فيها دخان . [القاموس القويم ١/٣٦١] .

فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٦) ﴾ [الرحمن] فهل النار والشواظ والنحاس يمكن أن يكون فى عداد نعم الله ؟ نعم هى نعمة من الله لأنه يحذرك من أسباب الوقوع فيها ويبعدك عنها .

فالآية إذن ﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِى يُوعَدُونَ (٨٣) ﴾ [الزخرف] دعوة لرسول الله أنْ يُهوِّن الأمر على نفسه ولا يشقّ عليها بسبب عناد قومه وتماديهم فى ضلالهم .

فالحق سبحانه يُسلِّى رسوله ويُخفف عنه ، كما خاطبه فى آيات كثيرة بهذا المعنى مثل قوله سبحانه : ﴿ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٨) ﴾ [فاطر]

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ (٨٤) ﴾

البعض يظن أن الله تعالى فى السماء ، فإذا دعاه دعاه بصوت عَالٍ ليسمعه . والله سبحانه فى كل مكان وفى كل زمان ، ليس له مكانٌ يَسَعه ولا زمانٌ يحتويه ، لأنه سبحانه خالق الزمان وخالق المكان ، والمخلوق لا يسع الخالق .

لذلك لا نستعمل أين ولا متى مع الله ﴿ وَهُوَ الَّذِى فِى السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِى الأَرْضِ إِلَٰهٌ (٨٤) ﴾ [الزخرف] إذن : فهو فى كل مكان ، وهذه الصفة (إله) ذاتية فيه سبحانه ، وهى صفة كمال لا تفارقه ولا تنفكّ عنه ، لا فى السماء ولا فى الأرض .

وكان للمستشرقين وقفة عند هذه الآية بسبب تكرار النكرة ﴿ وَهُوَ

الَّذِى فِى السَّمَاءِ إِلَـٰهٌ وَفِى الْأَرْضِ إِلَـٰهٌ ﴿٨٤﴾ [الزخرف] فكلمة (إله) نكرة كُرِّرَتْ ، والقاعدة اللغوية أن النكرة إذا كررتْ كانت الثانية غير الأولى كما لو قلتَ : لقيتُ رجلاً ، وأكرمتُ رجلاً ، فرجل الثانية غير الأولى .

أما المعرفة إذا كُررتْ كانت الثانية هى عَيْن الأولى كما لو قُلت : لقيتُ الرجل فأكرمتُ الرجل ، إذن : هو هو . وهذه القاعدة وضعتْنا فى إشكال مع هذه الآية ، ومَنْ يقول بإله فى السماء وإله آخر فى الأرض ؟!

وفى حديث سيدنا رسول الله ﷺ ما يُؤكِّد هذه القاعدة ، لأنه حين قرأ : ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾﴾ [الشرح] قال : « ولن يغلب عُسْرٌ يُسْرَيْنِ »[1] فالعُسْر جاءت معرفة ، واليُسْر جاءتْ نكرة .

وهذه الآية لها معنا قصة مع الناس الدراويش فى المسجد الأحمدى بطنطا ، ففى يوم من الأيام جاءنا الشيخ محمود شلتوت[2]

---

(١) أخرج الحاكم فى مستدركه (حديث ٣٩١٠) من حديث الحسن البصرى مرسلاً قال : خرج النبى ﷺ يوماً مسروراً فرحاً وهو يضحك وهو يقول « لن يغلب عسر يُسْرين ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾﴾ [الشرح] » وكذا أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان (٩٦٥٧) .

(٢) الشيخ محمود شلتوت ، فقيه مفسر مصرى ، ولد فى منية بنى منصور بالبحيرة عام ١٨٩٣ م ، وتخرج بالأزهر (١٩١٨م) وتنقل فى التدريس إلى أن نقل للقسم العالى بالقاهرة (١٩٢٧) وكان داعية إصلاح نير الفكرة يقول بفتح باب الاجتهاد ، أعيد إلى الأزهر (١٩٣٥) حتى أصبح شيخاً للأزهر (١٩٥٨) إلى وفاته (١٩٦٣ م) . له ٢٦ كتاباً مطبوعاً منها التفسير . (الأعلام للزركلى ١٧٣/٧) .

وكان شيخاً للأزهر ليزور مدينة طنطا ، وجاء المسجد الأحمدى ليصلى ، وبعد الصلاة سأله الشيخ أبو العينين وكان أستاذاً للتفسير وقال له : الحمد لله يا مولانا أننى وجدتك هنا لأننى فى درس التفسير أمس وقفتُ أمام الآية : ﴿وَهُوَ الَّذِى فِى السَّمَاءِ إِلَـٰهٌ وَفِى الأَرْضِ إِلَـٰهٌ (٨٤)﴾ [الزخرف] والقاعدة أن النكرة إذا كُرِّرتْ كانت الثانية غير الأولى ؟

وبمجرد أنْ بدأ الشيخ شلتوت فى الجواب وقال : والله العلماء قالوا إن القاعدة أغلبية ، وعندها دخل رجل لا نعرفه قبل ذلك ولا عرفناه بعدها ، وكان عارىَ الرأس وفى يده عصا ، وقال : يا علماء أنتم نسيتم اسم الموصول ﴿وَهُوَ الَّذِى (٨٤)﴾ [الزخرف] اسم الموصول معرفة وما بعده صلته ، إذن : الكلمة المكررة صلةٌ لموصول واحد ، يعنى هو هو ، ثم انصرف الرجلُ وجلسنا نحن لم يتكلم منا أحدٌ لمدة نصف ساعة .

وقوله : ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (٨٤)﴾ [الزخرف] الحكيم : الذى يضع الشىء فى موضعه بحكمة ، والعليم بما يصلح خَلْقه وبما يُعينهم على معايشهم وعلى معَادهم ، فما كان سبحانه ليُعطيهم مُقوِّمات المادة بالطعام والشراب والهواء ثم يتركهم دون منهج ودون قيم تُغذِّى أرواحهم كما غذَّى أبدانهم .

لذلك سمَّى هذ المنهج روحاً ، فهو للقلوب مثل الروح للأبدان ، والفرق بين الروحين أن الروح التى فى البدن لها موعد تفارق فيه البدنَ بالموت ، أما روح القيم والمنهج فهى باقية خالدة تلازمه فى الدنيا ، وتصاحبه إلى الآخرة .

﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾﴾

كلمة ﴿وَتَبَارَكَ ﴿٨٥﴾﴾ [الزخرف] كلمة جامدة لا اشتقاقَ فيها ، تعنى : تعالى قَدْره وكَثُر عطاؤه . وتبارك من البركة يعنى : كثرة الخير حيث يُعطيك القليلُ الكثيرَ الذى ما كنتَ تنتظره .

وقوله سبحانه : ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴿٨٥﴾﴾ [الزخرف] وفى آية أخرى قال : ﴿لَهُ مَا فِى السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ ﴿٦٤﴾﴾ [الحج] يعنى : له الظرف والمظروف .

وفى سورة طه قال سبحانه : ﴿لَهُ مَا فِى السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ ﴿٦﴾﴾ [طه]

وهكذا استوعبتْ الآياتُ الكونَ كله ، وجعلته ملكاً لله تعالى ، الكون كله بسمائه وأرضه ، ما فى السماء وما فى الأرض ، وما بين السماء والأرض وما تحت الأرض كله ملْك الله .

وأخيراً عرفنا أن الخير كلَّه مطمورٌ تحت الثرى يُطلع اللهُ عباده عليه إذا شاء حَسْب تطور حياتهم ورُقيها ، ففى باطن الأرض الآن الماء والبترول والمعادن والأحجار الكريمة والأشياء النفيسة .

وكأن الحق سبحانه ينبهنا بقوله ﴿وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ ﴿٦﴾﴾ [طه] إلى الاهتمام بباطن الأرض وحَفْرها ، والتنقيب فيها لاستخراج خيراتها .

لذلك نرى علماء الجيولوجيا وعلماء الحفريات والبترول يجوبون

البلاد من أقصاها إلى أقصاها بحثاً عن هذه الخيرات حتى فى البحار ، لأنها تدخل فى هذا المعنى ، فهى من الأرض وإنْ كانتْ تمثل ثلاثةَ أرباع الأرض .

ثم يأتى قوله تعالى : ﴿وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٥)﴾ [الزخرف] هكذا بأسلوب القصر فى الموضعين ، حيث قدَّم الجار والمجرور ليفيد قصر علم الساعة على الله وحده دون سواه .

كذلك ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٥)﴾ [الزخرف] إليه هو دون سواه ، لا ترجعون إلا إليه ، وكأنها رسالة موجزة إلى الإنسان أنْ تذكّر نهايتك وآخرتك ، وتذكَّر الجزاء على العمل ، ولا تغرنّك النعمة فبعدها حسابٌ وجزاء .

﴿كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ (٧) إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ (٨)﴾ [العلق] فكلُّ شىء من الله وإلى الله : من الله خَلْقاً وإمداداً وتربيةً ، وإلى الله مرجعاً ومآباً .

﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٨٦)﴾

أىَ : الذين يدعونهم من دون الله كالشمس والقمر والنجوم والأصنام ، هذه المعبودات معبودات باطلة ، بدليل أنهم لا يملكون الشفاعة ولا يملكون دَفْع الضّر عنهم ، وهم لا يملكون الشفاعة لأن الشفاعة عند مَنْ ؟ عند الله .

وكيف يقبل اللهُ شفاعتهم ، وهم السبب فى ضلال هؤلاء ﴿إِلاَّ مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٨٦)﴾ [الزخرف] هذا استثناء يعنى : لا يشفع

عند الله إلا مَنْ شهد بالحق[١] .

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾

إذن : هؤلاء يؤمنون ويعترفون بأن الله هو خالقهم ، وفى آية أخرى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٦١) ﴾ [العنكبوت] وعجيب منهم بعد هذا الاعتراف ألا يؤمنوا بالله ولا يصدقوا رسوله .

لذلك ذيَّل الآية بقوله تعالى : ﴿ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٨٧) ﴾ [الزخرف] كيف يُصرفون عن هذا الحق وهم يعترفون به ويشهدون لله بأنه خالقهم وخالق السموات والأرض .

لذلك يتعجب الحق سبحانه فى سورة البقرة من كفرهم ، الذى لا مبرر له ولا حيثيات ، يقول تعالى : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٨) ﴾ [البقرة]

﴿ وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾

كلمة (قِيله) مصدر لقال ، نقول : قال قولاً ومقالاً وقيلاً ، فمعنى (قيله) يعنى قوله ، قول مَنْ ؟ قول سيدنا رسول الله

---

(١) يقول رسول الله ﷺ : « إذا رأيت مثل الشمس فاشهد وإلا فدَعْ » وفى لفظ « على مثلها فاشهد أو فدع » أخرجه البيهقى فى شُعَب الإيمان (حديث ١٠٥٣٩) من حديث ابن عباس أن رسول الله سُئل عن الشهادة فقال : هل ترى الشمس : قال : نعم .

يخاطب ربه ﴿يَا رَبِّ إِنَّ هَـٰؤُلَاءِ (٨٨)﴾ [الزخرف] كفار مكة ﴿قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ (٨٨)﴾ [الزخرف]

لاحظ أنه ﷺ أُوذى من هؤلاء القوم فى نفسه إيذاءاً وفى معنوياته برميه بما ليس فيه من السحر والشعر ، والكهانة والجنون ، وفى أهله ، ولاقى منهم الأمرَّيْن ، ومع ذلك لم يذكر شيئاً عن هذا كله ، وكل ما اهتم به هو مسألة إيمان القوم ، فلم يقُلْ : يا رب إن قومى آذونى وفعلوا كذا وكذا ، إنما قال ﴿يَا رَبِّ إِنَّ هَـٰؤُلَاءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ (٨٨)﴾ [الزخرف]

هذا الذى حَزَّ فى نفسه وأغضبه ﷺ ، وقد ثبت فى الحديث الصحيح أنه ﷺ ما انتقم لنفسه قطّ ولا غضب لنفسه قط ، إنما كانت غَيْرته وغضبه لله وللحق الذى جاء به ودعا الناس إليه .

هذا المعنى الذى عبَّر عنه أحمد شوقى فى قوله[1] :

فَإِذَا غَضِبْتَ فَإِنما هِىَ غَضْبَةٌ ... لِلحقِّ لاَ ضِغْنَ ولاَ شَحْنَاء

ومعنى الواو فى أول الآية (وَقِيله) هذه الواو بمعنى القسم ، فكأن الحق سبحانه يقسم بقول رسول الله ﴿يَا رَبِّ إِنَّ هَـٰؤُلَاءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ (٨٨)﴾ [الزخرف] يقول : وبحق هذا القول .

وجواب القسم هنا محذوف للعلم به ، أى : لأُعذبنهم عذاباً يشفى صدرك منهم ، فلا تهتم بعدم إيمانهم ولو شئت لأرغمتهم على الإيمان ولخلقتهم على هيئة الملائكة ، وكُلُّ ما عليك يا محمد أنْ تصفح عنهم .

---

(١) لفظ البيت فى الموسوعة الشعرية :

وإذا غضبت فإنما هى غضبة ... فى الحق لا ضغن ولا بغضاء

وهو من قصيدة لأمير الشعراء أحمد شوقى ، وهو من قصيدة نهج البردة من بحر الكامل عدد أبياتها ١٣١ بيتاً ، والبيت الذى معنا هو البيت رقم (٣٣) .

﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلامٌ (٨٩)﴾ [الزخرف] لأن الصفح عنهم سيجذبهم إلى ساحة الإيمان بك ، وسوف يكون من هؤلاء جند من جنود الإسلام ، وبالفعل رأينا خالد بن الوليد وعكرمة بن أبى جهل وعمرو بن العاص وغيرهم من صناديد الكفر يصيرون قادةً فى صفوف المسلمين .

وفى آية أخرى قال سبحانه : ﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ (٨٥)﴾ [الحجر] لأنك قد تصفح عَمَّنْ أساء إليك ، لكن يبقى عندك شىء من الغيظ والغضب أو الحقد عليه ، أما الصفح الجميل فهو الصفح الذى يصاحبه تسامح يقتلع كلَّ جذور الغضب والغيظ والحقد .

وكأن الحق سبحانه يقول لرسوله ﷺ : اصفح عنهم صَفْحاً جميلاً ولا تغضب ، لأن غضبك يؤثر فيك ويؤثر فى تكوينك ووراءك رَبٌّ يغضب لك فلا تغضب أنت ، وهذا أدب عَالٍ يُعلِّمنا إياه الإسلام .

معلوم أن الشارع الحكيم لا يحاسبك على خواطر نفسك وخلجات صدرك طالما لم تُترجم إلى عمل ونزوع ، وبعد ذلك يسمو بك فيدعوك إلى التخلّص من مجرد هذه الخواطر إنْ كانت خواطر شَرٍّ تجاه الآخرين .

وهذه مراحل تعلّمناها من قوله تعالى : ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤)﴾ [آل عمران] فالمرحلة الأولى كظم الغيظ ، والثانية العفو ، وفى هذه المرحلة تتخلص من كلِّ خواطر الشر فى نفسك ، بحيث تراها صافية ليس فيها بقايا من غيظ أو كُرْه أو حقد .

ثم المرحلة الأخيرة وهى أنْ تُحسن لمَنْ أساء إليك ، وهذه مرحلة

الخواصّ الذين عرفوا سماحة الشرع ونظروا إلى ما عند الله . كثير من الناس يتعجَّبون من مسألة أنْ تُحسن إلى مَنْ أساء إليك ، كيف يلزمنا بها الشرع ؟

نقول : هَبْ أن أحد أولادك ضرب الآخر ، وجاء المضروب يبكى ويشتكى ، فإلى مَنْ تحنُّ وعلى مَنْ تعطف ؟ على الضارب أم على المضروب ، كذلك الحق سبحانه يكون فى جانب الضعيف المتسامح الذى يُحسن إلى مَنْ أساء إليه .

والحسن البصرى رضى الله عنه بلغه أن رجلاً شتمه فأرسل إليه هدية طبقاً من الرُّطَب ، فلما سُئِل عن ذلك قال : لأنه أهدى إلىَّ حسناته[1] .

وقوله : ﴿وَقُلْ سَلَامٌ (٨٩)﴾ [الزخرف] والتقدير : قُلْ لهم سلام عليكم . ونفهم من هذا أن كلمة (سلام) هكذا بدون (عليك) وحدها تُقال لمَنْ كان بينك وبينه خصومة وتريد أنْ تفارقه ، ونحن نقولها فى واقع حياتنا حينما تختلف مع شخص آخر ولا تصل معه إلى حَلٍّ تقول له سلام ، لذلك سيدنا إبراهيم فى جداله مع أبيه قال له : ﴿سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّى (٤٧)﴾ [مريم] أى : سلام وَدَاع ومفارقة لا سلامَ تحية .

وقوله : ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٨٩)﴾ [الزخرف] يعنى : لما تفعل هذا سوف يعلمون عاقبةَ ما قُلته ، وسوف يعلمون كيف أُعاقبهم على تكذيبهم لك .

---

(١) ذكره أبو حامد الغزالى فى إحياء علوم الدين (٣/١٥٤) أن رجلاً قال للحسن : إن فلاناً قد اغتابك فبعث إليه رطباً على طبق ، وقال : قد بلغنى أنك أهديت إلىَّ من حسناتك ، فأردت أن أكافئك عليها فاعذرنى فإنى لا أقدر أن أكافئك على التمام .

سُورَةُ الدُّخَانِ

سورة الدخان(١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ حمٓ ۝١ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝٢ ﴾

سورة الدخان من سور الحواميم . أى : التى تبدأ بالحروف المقطَّعة (حَم) وقد تحدَّثنا فى هذه الحروف بما يُغنى عن الإعادة هنا ، وهذه الحروف تقف العقول عند حدِّ النطق بها كما هى ، وكما نطق بها رسول الله ، ولا نسأل أنفسنا عن معانيها ، ولا حَجْرَ على العقول أنْ تحوم حولها محاولةً استنباطَ بعض المعانى ، ولو لنقنعَ أنفسنا بشىء من الصواب حول معانيها ثم نقول والله أعلم بمراده منها .

ذلك لأن الدين منه أمور تتصل بالعقيدة ، وأمور تتصل بالأحكام ، وأمور تتصل بالقرآن المعبِّر عن العقيدة والأحكام .

---

(١) سورة الدخان سورة مكية باتفاق إلا قوله تعالى : ﴿ إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلاً .. ۝١٥ ﴾ [الدخان] وهى سبع وخمسون آية . وهى السورة رقم (٤٤) فى ترتيب المصحف الشريف . وقد ورد فى فضلها عن أبى رافع قال : « من قرأ الدخان فى ليلة الجمعة أصبح مغفوراً له ، وزُوِّج من الحور العين » أخرجه الدارمى فى مسنده .

وفى كل واحدة من هذه الثلاثة غَيْبٌ ومَشْهد ، الغيب ويُوكل العلم به إلى الله تعالى حتى يظلّ الإنسانُ عاجزاً أمام علم الله وأمام مسائل لا يفهمها ، ولكن يؤمن بها لمجرد أن الله أخبر بها فى كتابه ، أو على لسان رسوله ﷺ ، وهو لا ينطق عن الهوى .

ففى العقائد مثلاً مسألة الإيمان بإله واحد ، هذا غيْب لكن يمكن للعقل أنْ يُدلِّلَ عليها لأنه لو كان فيهما آلهةٌ إلا الله لفسدتا ، ولو كانت آلهةً متعددةً يختصُّ كلّ واحد منها بشىء من الخَلْق لكانَ كل واحد منها محتاجاً إلى الآخرين ولا يصلح لأن يكون إلهاً .

إذن : يمكن بالعقل أنْ نثبتَ أن الله إله واحد . لكن هناك فى العقائد أمور غيبية لا يمكن للعقل التدخّل فيها ، ويقف فيها عند ما سمعه مثل أمور : القبر والبرزخ والحساب والآخرة .

وكذلك فى الأحكام غيْبٌ ومشهد ، فالصلاة فى ظاهرها المشَاهد أنها تُحدث استطراقاً عبودياً فى الكون ، فساعة نسمع الله أكبر نذهب إلى المساجد ، ونُقيم أنفسنا بين يدى ربنا رُكعاً وسُجَّداً يستوى فى ذلك الرئيس والمرؤوس ، الغنى والفقير ، القوى والضعيف ، الكل ضارع لله .

هذا جانب مُشاهد فى الصلاة ، وفيها أيضاً غَيْب لا دخْلَ للعقل فيه ، فالصلاة من حيث عدد ركعاتها غيْب لا نعرف له تفسيراً ، لماذا كان الصبح ركعتين ، والظهر أربعاً ، والمغرب ثلاثاً ؟ لذلك فالسؤال الذى يدور حول عدد الركعات سؤال باطل .

كذلك الحال فى القرآن ، فيه غَيْبُ لا مجالَ للعقل فيه ، وهو هذه الحروف المقطَّعة التى نَكِلُ العلم فيها إلى قائلها سبحانه وتعالى .

وقوله سبحانه : ﴿وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾﴾ [الدخان] أى : الظاهر الواضح المحيط بكل شىء ، وهذا يُمثِّل المشهد أى الذى نعرفه ويتدخَّل فيه العقل . إذن : جمع الحق سبحانه فى صدر هذه السورة بين الغيب فى (حم) والمشهد فى ﴿وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾﴾ [الدخان] كلاهما من الله ؛ فلا قسم على هذا .

أو أن الأسلوبَ هنا أسلوبُ قسم ، أقسم بحم ، وأقسم بالكتاب المبين الظاهر الذى تفهمه العقول ، وهما الاثنان من الله . والمقسم عليه :

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾﴾

مسألة الإنزال تعنى إنزال شىء من أعلى إلى أسفل ، وتقتضى : مُنزِل ، ومُنزَل ، ومُنزَل إليه ، فالذى أنزل هو الله ، وما دام أن المنزلَ هو الله فالإنزال من جهة العلو بصرف النظر عن المكانية ، لأنه قال عن

---

(١) الليلة المباركة ليلة القدر لقوله تعالى : ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾﴾ [القدر] قال قتادة وابن زيد : أنزل الله القرآن كله فى ليلة القدر من أم الكتاب إلى بيت العزة فى سماء الدنيا. وقال عكرمة : الليلة المباركة هنا هى ليلة النصف من شعبان . قال القرطبى (٦١٧٥/٩) : الأول أصح أنها ليلة القدر . وقال القاضى أبو بكر بن العربى : جمهور العلماء على أنها ليلة القدر . ومنهم من قال : إنها ليلة النصف من شعبان ، وهو باطل لأن الله تعالى قال فى كتابه الصادق القاطع ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ .. ﴿١٨٥﴾﴾ [البقرة] فنصَّ على أن ميقات نزوله رمضان . [نقله القرطبى فى تفسيره ٦١٧٦/٩] .

(٢) يُفرق أى : يُفصل ويُحدَّد ويُميَّز . وقيل : يكتب . والقرآن أمر حكيم أُنزل فيها ومُيِّز من غيره . [القاموس القويم ٧٩/٢] . قال ابن كثير فى تفسيره (١٣٧/٤) : ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [الدخان] أى : فى ليلة القدر يفصل من اللوح المحفوظ إلى الكتبة أمر السنة وما يكون فيها من الآجال والأرزاق وما يكون فيها إلى آخرها » .

الحديد : ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ (٢٥)﴾ [الحديد] والحديد فى باطن الأرض ، والإنزال يُشْعِر بعُلوّ المنزل .

ثم الشىء المنزَل هو القرآن الكريم ﴿أَنزَلْنَاهُ (٣)﴾ [الدخان] إلىَ مَنْ أنزل إلى الناس ﴿فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ (٣)﴾ [الدخان] هى ليلة القدر يعنى : زمنَ النزول العام للقرآن .

وقال ﴿فِي لَيْلَةٍ (٣)﴾ [الدخان] لأن الليل محل السكون والهدوء ، حيث لا لَغَطَ ولا ضوضاء ولا صَخَب يُمكن أنْ يُشوّش على المنزَل ، كذلك يكون الإنسان ساكناً غيرَ منشغل الجوارح بشىء .

إذن : فى الليل يتوفر للعقل كُلُّ مُقوِّمات الانتباه والاستيعاب وصفاء النفس ، لذلك اقرأ فى أول سورة المزمل : ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١) قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً (٢) نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً (٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً (٤) إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً (٥) إِنَّ نَاشِئَةَ[1] اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلاً (٦)﴾ [المزمل]

إذن : نزل القرآن ليلاً لأنه أنسبُ وقت لنزوله ، ونزل على قلب رسول الله بمكة ، فهى ليلة مكة لا غيرها ، ومكة وسط العالم[2] ومركزه ، لذلك قال تعالى : ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا

---

(١) ناشئة الليل هى النفس الناهضة فيه للعبادة ، أو هى العبادة الناشئة الحادثة فى الليل . [القاموس القويم ٢/٢٦٥] . وقال الزجاج : ناشئة الليل ساعات الليل كلها ، ما نشأ منه أى ما حدث فهو ناشئة . [لسان العرب - مادة : نشأ] .

(٢) توصل الدكتور حسين كمال الدين أستاذ الهندسة المساحية والفلك الكروى بجامعة الملك سعود إلى أن مكة المكرمة تتمركز فى قلب دائرة تمر بأطراف كل القارات السبع التى تكوِّن اليابسة . وقد ثبت بعد الدراسات أن أقصى أطراف الأرض فى أفريقيا وأوروبا وآسيا ، كل الأطراف . تقع على مسافة ٨ آلاف كيلو متر من مكة .

شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا (١٤٣) ﴾ [البقرة]

البعض قال عن هذه الليلة : هى ليلة القدر لقوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (١) ﴾ [القدر] وآخرون قالوا : بل هى ليلة النصف من شعبان ، والمسألة هذه تحتاج منا إلى تمحيص لأنه نزل فى واحدة منها .

نقول : القرآن قبل أنْ ينزل ويباشر مهمته فى الوجود كان فى أىِّ مكان ؟ كان فى اللوح المحفوظ ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (٧٧) فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ (٧٨) لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ (٧٩) ﴾ [الواقعة] وقال : ﴿ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ (٤) ﴾ [الزخرف]

فالنزول الأول للقرآن كان جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا ، لكن هل نزل ما سُجِّل فى اللوح المحفوظ أو نسخة منه ؟ قالوا : بل نسخة منه بعد استنساخه .

ثم بعد ذلك نزل مُنجَّماً حسْب الأحوال والأحداث ، نزل به الملَكُ جبريل على قلب سيدنا رسول الله ، كل نَجمْ منه فى مناسبة .

إذن : عندنا مراحل ثلاث لنزول القرآن : الأولى استنساخه من اللوح المحفوظ ، وهذا له زمن ، ثم نزوله جملةً واحدة إلى سماء الدنيا وله زمن ، ثم نزوله مُنجماً حسْب الأحوال ، وهذا النزول له زمن ممتدّ على مدى الأحداث استغرق عدة سنوات .

ومن الممكن أنْ نجد فى هذه المراحل الثلاث مخرجاً من إشكال : أهو فى ليلة القدر أم فى النصف من شعبان ؟ ولا مانع من اشتراك الليلتين فى هذا الفضل فى أىِّ مرحلة من مراحله .

ثم إن ليلة النصف من شعبان لها شرفها وكرامتها الخاصة بها ،

وهى مسألة تحويل القبلة التى هى متجه المسلمين جميعاً فى كلِّ بقاع الأرض ، ثم إن الاتجاه إلى بيت المقدس كان له زمن وله حكمة ، ثم التحول إلى الكعبة كان أيضاً له زمن وله حكمة .

فليستْ المقارنة هنا بين حَقٍّ وباطل ، بل الفرق بين أمرين حكيمين ، لكن هذا له زمن وهذا له زمن ، لذلك الحق سبحانه لم يشأ أنْ يجعل تحويل القبلة فى فرض من أوله ، إنما فى أثناء الفرض قسمه الأمر بالتحويل قسمين ، فصلى نصف الصلاة الأولى إلى بيت المقدس ، ونصفها الآخر إلى الكعبة[1] .

وهذا إنْ دَلَّ فإنما يدلّ على أن بيتَ المقدس داخلٌ فى مقدسات المسلمين كالكعبة تماماً ، وحادثة الإسراء من بيت المقدس تؤكد ذلك .

إذن : شاء الله تعالى أنْ يكون متجه الصلاة مرة إلى بيت المقدس ، ومرة إلى الكعبة لحكمة فى كليهما . الأولى : أنْ يكون بيتُ المقدس من مقدَّسات المسلمين . الثانية : أن رسول الله ﷺ كان له أُلْفة بقبلة إبراهيم عليه السلام .

لذلك قال تعالى : ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ .. (١٤٤)﴾ [البقرة]

والصلاة فُرضَتْ على رسول الله بعد معراجه إلى السماء من بيت المقدس ، والصلاة هذه بها متجه القبلة ، فالقبلة لابدّ أنْ تأخذَ الاثنين

---

(١) عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : بينما الناس فى صلاة الصبح بقباء إذ جاءهم آتٍ فقال : إن رسول الله ﷺ قد أُنزل عليه الليلة وقد أُمر أن يستقبل الكعبة فاستقبلوها وكانت وجوههم إلى الشام فاستداروا إلى الكعبة . أخرجه مسلم فى صحيحه (٨٢٠) والبيهقى فى السنن الكبرى (٢/٢) .

مبدأ التشريعى ومبدأ الاستبقائى ، وهذا جعله الله فتنةً[١] للمسلمين ولغير المسلمين ، لأن القِبْلَةَ لما كانت إلى بيت المقدس قالوا : ما الذى حوَّله عن قبلة إبراهيم إلى قبلة داود وسليمان ، وقلنا : لكى تدخل فى مقدسات الإسلام ولا يستبدوا بها .

واليهود التقطوا هذه المسألة وجعلوها شبهة وقالوا : إذا كان محمد رافضاً لديننا فكيف يتبع قبلتنا ؟ إذن : كانت فتنةً للطرفين لكى يلتزم الإنسانُ التوجيهات الإلهية بدون تدخّل للعقل فيها .

وقالوا فى الليلة المباركة : إنها ليلة البراءة وليلة الصّك وليلة الرحمة ، ليلة البراءة مأخوذة من البراءة التى كان يُعطيها العامل على الزكاة للمموِّل حين يعطيه حَقَّ الله فى المال وهو الزكاة ، فيعطيه العامل صكَ البراءة الذى يدلّ على أدائه للزكاة وبراءة ذمته منها ، والصَّك بنفس المعنى .

وليلة الرحمة ، قالوا : رحمة برسول الله ﷺ أولاً ، لأن نفسه كانت تتُوق للتوجُّه نحو قِبْلة إبراهيم .

وقوله سبحانه : ﴿ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ ﴾ [الدخان] بعد أنْ ذكر الإنزال ذكر الإنذار ، فالإنزال للإنذار ، لأن القاعدةَ الشرعية أنَّ درْءَ المفسدة مُقدَّم على جلب المصلحة[٢] فذكر (منذرين) قبل مبشِّرين .

---

(١) جعله الله فتنة أى : امتحاناً وابتلاء واختباراً .

(٢) من أدلة الفقه وأصوله قول الفقهاء (درء المفاسد أولى من جلب المصالح ودفع أعلاها) يعنى أن الأمر إذا دار بين درء مفسدة وجلب مصلحة كان درء المفسدة أولى من جلب المصلحة ، وإذا دار الأمر أيضاً بين درء إحدى المفسدتين وكانت إحداهما أكثر فساداً من الأخرى ، فدرء العليا منهما أولى من درء غيرها .

وسبق أنْ قلنا : هَبْ أن واحداً يرمى لك تفاحة ، وفى ذات الوقت آخر يرميك بحجر ، فبأيِّهما تنشغل ؟ لا شكَّ أنك تحرص أولاً على دَفْع الحجر عنك وتُقدِّمه على استقبال التفاحة .

كذلك الحال فى هذا الأسلوب القرآنى ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣﴾ [الدخان] كلمة (كُنَّا) دلتْ على الماضى مع أن الإنذار مستمر ولا يزال ، لأن الحق سبحانه لا يحكمه زمن معين ، لأنه سبحانه خالق الزمن ، وما دام الزمن من خَلْق الله فالمخلوق لا يتحكم فى الخالق .

فالماضى والحاضر والمستقبل فى حقنا نحن البشر ، أمَّا فى حَقِّ الله تعالى فالزمن كله سواء ، فحين تقرأ مثلاً ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٥٠﴾ [الأحزاب] تقول : كان ولا يزال وسيكون فى المستقبل ، لأنه ما دام كان فى الأزل ، وهو سبحانه لا يعتريه تغيير فهو من الأزل إلى الأبد غفور رحيم .

وقوله تعالى : ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤﴾ [الدخان] أى : فى هذه الليلة ﴿يُفْرَقُ ۝٤﴾ [الدخان] بمعنى يُوضَّح ويُفصَّل ويُبيَّن ، والفرق هنا ليس بين حق وباطل ، إنما بين أمرين كلاهما حق ، وله حكمة فى زمنه .

وتأمل وصف الأمر ذاته بأنه (حكيم) لأنه أمر الله ﴿أَمْرًا[1] مِّنْ عِندِنَا ۝٥﴾ [الدخان] يعنى : ليس هناك حكمة ترتقى إلى هذا الأمر

---

(١) كلمة (أمراً) هنا ذكر فيها القرطبى (٦١٧٧/٩) معنيين :

الأول : هو القرآن أنزله الله من عنده . قاله النقاش .

الثانى : هو ما قضاه الله فى الليلة المباركة من أحوال عباده . قاله ابن عيسى .

وقال ابن كثير فى تفسيره (١٣٨/٤) : ﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا .. ۝٥﴾ [الدخان] أى : جميع ما يكون ويُقدره الله تعالى وما يوحيه فبأمره وإذنه وعلمه .

الذى يأتى من قِبَل الحق سبحانه ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝٥﴾ [الدخان] يعنى : لم نترك خَلْقنا هملاً إنما خلقناهم وأرسلنا لهم مَنْ يأخذ بأيديهم إلى الصراط المستقيم ويدلُّهم على الهدى ويُبيِّن لهم .

فالحقّ أول ما خلق الخَلْق أرسل الرسل لهدايتهم ، لذلك كان آدم عليه السلام وهو أول البشر رسولاً ، لأن الخالق سبحانه خلق الإنسانَ ، لماذا ؟

لأنه خلقه لعمارة الأرض ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ..۝٦١﴾ [هود] يعنى : طلب منكم عمارتها ، والعمارة تقتضى الصلاح وتمنع الفساد ولا أقلَّ من أنْ نترك الصالح على صلاحه إذا لم نَزد فى الصلاح .

وقد أوضحنا هذه المسألة بالبئر فى الصحراء . وقلنا : إذا لم تَرْتَق به بأنْ تبنى حوله سوراً وحافَّة تحميه من زَحْف التراب عليه ، أو تجعل عليه آلة لرفْع الماء ، فلا أقلَّ من أنْ تتركه على حاله ولا تهدمه .

كذلك حالُ الإنسان فى عمارة الأرض عليه أنْ يُعملَ عقله فى البدهيات ليصل منها إلى نظريات ترتقى بها حياته ، عندنا مثلاً الصوف والوبر والشعر ، لكلٍّ منها صفاته الخاصة وما يصلح له ، لذلك قال القرآن ﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا [1] وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ۝٨٠﴾ [النحل]

ومعلوم أن الوبر للجمال ، والصوف للغنم ، والشعر للماعز ، ولكل نوع منها خصائصُ يستخدمه الإنسان فى ثيابه ومسكنه ، وهذا

---

(١) الأثاث هو المال وقيل المتاع وقيل الثياب . والصحيح أعم من هذا كله فإنه يُتخذ من الأثاث البُسُط والثياب وغير ذلك ويتخذ مالاً وتجارة . قاله ابن كثير فى تفسيره (٣/ ٥٨٠).

من عمارة الأرض ، حتى لو نظرنا إلى القواعد الهندسية والنظريات نجدها تعتمد فى بدايتها على أمر بديهى موجود فى الكون .

إذن : كلُّ ارتقاء فى الكون أتى من أمر بديهى موهوب من الله ، وعمل العقول فى البدهيات من عمارة الأرض .

لذلك عندما تتأمل أسلوبَ القرآن فى مخاطبة الناس تجده يبدأ بأمور بسيطة بعيدة عن التعقيد الفكرى ، فيُحدِّثهم أولاً عن أصل المنهج وما به تستقيم حياتهم وتنسجم حركاتهم فى الحياة ، ويُحدِّث العقول بما يناسب ارتقاءها الفكرى .

فإذا ما نضج الفكر الإنسانى وتمكّن المنهج فى الناس سلوكاً وتطبيقاً بدأ يُحدِّثهم عن نظريات عقلية ويقول لهم : إن الأرض كروية ، وأنها تدور حول الشمس لأن العقول أصبح عندها استعداد للبحث والتقصِّى .

انظر مثلاً إلى الطرق ، وكيف كانت بدائية ، مجرد مدقّ فى الصحراء يسع البعير الواحد ؟ وكيف تطورتْ الآن وما توفّر لها من أسباب الراحة والأمان والسرعة والسلامة وغيرها ، إنه العقل حينما يعمل ليرتقى .

ألم يتعلّم الإنسان من الغراب كيف يدفن الموتى ؟ ألم نتعلم من الكلاب ونستخدمها الآن رغم التطور العلمى فى تقصِّى الأثر والتعرف على المجرمين باستخدام حاسة الشم ؟ إذن : أخذنا الأمور الفطرية التى وهبها الله لنا وبنيْنَا عليها ، وطوَّرناها لعمارة الأرض .

وعمارة الأرض لا تقوم إلا إذا استقام المنهجُ أولاً ، فهو أساس

الارتقاء وأساس الإصلاح ، لأن الخالق سبحانه لما خلق الخَلْق جعل له منهجاً يحكمه ويُنظم حركته فى الحياة بافعل كذا ولا تفعل كذا .

فإن استقام على منهج ربه وخالقه استقامتْ حياته ، وإنْ شذَّ وانحرف ظهرتْ عورة المجتمع وبدَتْ مظاهر الفساد تدبُّ فى أوصاله .

وسبق أنْ مثَّلنا ذلك (بالكتالوج) الذى يضعه الصانع لحماية صنعته وصيانتها ، كذلك أنت إنْ سرْتَ على منهج خالقك لا يصيبك عَطَبٌ أبداً . ومن هنا كانت مهمة الرسل ، للبيان وللتذكير بالمنهج (افعل كذا) و (لا تفعل كذا) ، حتى سيدنا آدم ماذا حدث له لما خالف المنهج ؟ ربنا قال له : كل من الجنة كما شئت إلا هذه الشجرة فأكلا منها[1] ، ماذا حدث ؟

لما خالف حدث له العطب ، وظهرت عورته لمَّا أكل من الشجرة واضطر لما لم يعهده من قبل من خروج الريح والغائط واضطراب البطن ، وهذه أمور لم يكن يشعر بها قبل المخالفة .

وقوله سبحانه : ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝٥﴾ [الدخان] يعنى : مرسلين رسلاً إلى مَن استخلفناه فى الأرض حتى تسلَم حركةُ الحياة من العطب ، وحتى يسلَمَ المجتمعُ من الشرور ، ويتساند ولا يتعارض .

﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٦﴾

---

(١) قال تعالى : ﴿وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۝٣٥﴾ [البقرة] .

أى : أن الإرسال رحمة من الله بالعباد ، لأنه أمر لنا أنا وأنت من أعلى منا ، لا نجد غضاضة فى ذلك ، فلا أحدَّ منَّا يتعالى على الآخر ، لأننا نتلقى أوامرنا من الله ، ولذلك الناس البسطاء فى الفلاحين يقولون (الأصبع الذى يجرحه الشرع ميخرش دم) لأن الكل يُذعن لأمر الله ويخضع لحكمه ويرضى به .

إذن : تستقيم بنا الحياةُ حين نسير على المنهج ، لذلك سماه (الصراط المستقيم) وسماه (سواء السبيل) يعنى : فى الوسط لا يميل هنا ولا هنا ، لأنه يريد أنْ يُوفر عليك المجهود ويوفر الوقت ، كل هذا ثمرة المنهج والسير على الصراط المستقيم .

وهذه رحمة من الله بنا ، نعم رحمة بنا ألاَّ يتركنا للتجربة يموج بعضُنا فى بعض حتى نصلَ إلى الصواب وإلى الحق وإلى الصراط المستقيم ، من رحمته بنا ألاَّ يتركنا نتعاند ونتصادم بعضُنا ببعض ، بل جعل لنا قوانين ، وجعل لنا منهجاً نسير عليه من بداية الطريق .

وفرْق بين أمر يُلجئك إلى أنْ تُعدِّل مسارك وبين أمر معتدل من البداية ، من رحمة الله بنا أنْ يجعلنا نسير فى اتجاه واحد بحيث تكون كُلُّ الحركات فى اتجاه البناء ، وكل المجهودات إلى غاية واحدة ، يتعاون فيها كل الأفراد ، ويتساند فيها كل الأفراد .

وإلاَّ لو كانتْ الحركاتُ متصادمة فهى تهدم وتدمر ، وما فائدة أنْ تبنى وغيرُك يهدم ، على حَدِّ قول الشاعر[1] :

---

(١) الشاعر هو : بشار بن بُرْد العقيلى ، ولد ٩٥ هجرية ، أشعر المولدين على الإطلاق ، أصله من طخارستان ونسبته إلى امرأة عقيلية قيل إنها أعتقته من الرق ، كان ضريراً ، نشأ فى البصرة وقدم بغداد ، أدرك الدولتين الأموية والعباسية ، اتهم بالزندقة فمات ضرباً بالسياط ودفن بالبصرة عام ١٦٧ هجرية عن ٧٢ عاماً . (الموسوعة الشعرية) .

مَـتَى يبلُغ البُنْيَـانُ يَوْمـاً تَمـامَـهُ إذَا كُنْتَ تَبْنيـه وَغَـيْـرك يَهْـدِمُ[1]

وتأمل لفظ القـرآن ﴿رَحْـمَـةً مِّن رَّبِّكَ ۚ﴾ [الدخـان] ولم يقُلْ رحمة من الله ، لأن الربّ هَو مُتولِّى التـربية والرعاية ، وسبق أنْ قلنا إن الألوهية تكليف والربوبية عطاء ، فهـذه الرحمة رحمة الرب الراعى الرحيم كالأم تربى طفلها الصغير وتحنو عليه وتُقوِّيه .

وما دام هو سبحانه ربكـم ومُربِّيكم وخالقكم كان يجب عليكم أنْ تطيعوه وألاَّ تخرجوا عن منهجه ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝﴾ [الدخان] السـميع لكل آلام الناس وشكاواهم إنْ جـهروا بهـا ، وهو (العليم) بأحوالهم وما يختلج فى صدورهم إنْ كـتموها فى أنفسهم ، وإنْ كان الخطاب هنا بصيغة المفرد ومُوجهاً إلى سيدنا رسول الله .

﴿رَحْـمَـةً مِّن رَّبِّكَ ۚ﴾ [الدخان] أى : يا مـحمـد . وهذه عناية خاصة من الله برسوله وبيان لمنزلتـه ﷺ من الله ، فعيْنُ الله تحرسه ، وعزيزٌ عليه أنْ يصيبه أذىً أو ألم من قومه ، فهو أغلى البشر عنده ، لذلك ربَّاه التربيةَ التى تجعله لا مهدياً فى نفسه فحسب ، إنما وهادياً للناس .

﴿رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ۝﴾

بعد أنْ قال سبحانه ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ﴾ [الدخان] أكَّدها بقوله ﴿رَبِّ السَّمَـوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ﴾ [الدخان] ثم ردَّ الأمر إلى يقـينهم ﴿إِن كُنتُم مُّـوقِنِينَ ۝﴾ [الدخـان] كـأنه واثقٌ أنهم عندمـا

---

(١) البيـت وحده قصـيدة لبـشار بن برد من بحـر الطويل . وهو عند صـالح بن عبـد القدوس (توفى ١٦٠ هـ) بتمامه ضمن قصيدة له من بحر الطويل ، عدد أبياتها ٨ أبيات .

يُسألون لن يقولوا إلا هذا ، فما دُمتم موقنين بأن الله هو خالق السموات والأرض وما بينهما ، فلماذا كذَّبتم رسوله ؟!!

إن الآيات الكونية واضحة الدلالة على خالقها عز وجل ، هذه السماء التى تُظلكم ، وهذه الأرض التى تُقلكم[1] وما بينهما من خيرات وأسرار ، بل وما تحت الثرى من ثروات كلها تدل على الله . وإذا كان هذا الذى نراه فى الأرض والسماء عالم الملك ، فما بالك بعالم الملكوت ؟

عالم الملك تستطيع أن تقف عليه بحواسِّك ، أما عالم الملكوت فغيْبٌ لا نعرف منه إلا ما أخبرنا الله به ، كما قال تعالى فى شأن سيدنا إبراهيم : ﴿ وَكَذَلِكَ نُرِى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. (٧٥) ﴾ [الأنعام]

وقوله ﴿ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ (٧) ﴾ [الدخان] اليقين استقبال القضية بدون شك علماً أو عَيْناً أو حقيقة ، كما سبق أنْ أوضحنا علم اليقين ، ثم عين اليقين ، ثم حقيقة اليقين ، فاليقين هو الاعتقاد الثابت الذى لا يتغيَّر بالحكم عليه فى الوجود علماً وعَيناً وحقيقة .

وهذه المراحل الثلاث ذُكرَتْ فى قوله تعالى : ﴿ كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (٥) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (٦) ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ (٧) ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ (٨) ﴾ [التكاثر]

وقال فى سورة الواقعة : ﴿ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ (٩٢) فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ (٩٣) وَتَصْلِيَةُ[2] جَحِيمٍ (٩٤) إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ (٩٥)

---

(١) تُقلكم : تحملكم . وأقلَّ الشىء واستقلَّه : حمله ورفعه . [لسان العرب – مادة : قلل] .

(٢) صلاَّه الله النار تصلية : أدخله إياها . فتصلية جحيم أى إدخال الجحيم . [القاموس القويم ٣٨٢/١] وقد أعطى ابن كثير (٣٠١/٤) المعنى زيادة فقال : « وتصلية جحيم أى : وتقرير له فى النار التى تغمره من جميع جهاته » . فليس الأمر أمر إدخال فقط .

فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٩٦) ﴾ [الواقعة]

لكن أكان هؤلاء القوم فعلاً موقنين بأن الله رَبُّ السموات والأرض وما بينهما ؟ القرآن يقول لهم : ﴿ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ (٧) ﴾ [الدخان] وإنْ هنا أفادت الشكَّ فى يقينهم ، لأنهم لو كانوا موقنين لآمنوا برسول الله وصدَّقوه ، فهم يعترفون بأن الله خالقهم وخالق الكون كله ، ومع ذلك صادموا دين الله ، لماذا ؟

لأن الدين يُقيِّد حركتهم ويحرمهم من الشهوات ومن الاستفادة بالفساد الموجود فى مجتمعهم الدين الحق يحرمهم من السيادة ، ويُسوِّى بينهم بين السادة والعبيد ، إذن : كرهوا الدين الحق للمنهج الذى جاء به ، ومالوا لدين باطل لأنه خَالٍ من المنهج ، ليس فيه أوامر ولا نَواهٍ .

﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۖ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ (٨) ﴾

الحق سبحانه وتعالى يريد منا أنْ تنسحب مقولتنا على أفعالنا ، كلمة ﴿ لا إِلَـهَ (٨) ﴾ [الدخان] الإله هو المعبود الحق ، لأنهم لما عبدوا الأصنام سمَّوْها آلهة ، نعم آلهة بزعمهم وفى تصورهم هم ، لكنها آلهة باطلة وتسمية باطلة ، لأن الإله هو المعبود بحقٍّ والذى له منهج ويقوم على ذلك الدليل .

أما دعواهم فدعوى ليس لها دليل ، اللهم إلا أنها عبادةٌ تُرضى ما فى نفوسهم من ميْل للتدين حتى لو كان المعبودُ صنماً لا تكاليفَ له ولا منهجَ عنده .

فالتدين كما قلنا فطرة فى الإنسان ، والواقع والتجربة تُثبت ذلك ، فلما تضيق الأسباب بالإنسان حتى الكافر يقول : يا رب ويلجأ إلى المعبود الحق ولا يخدع نفسه ، لأن الشدة التى نزلت به يعرف أنها لا كاشفَ لها إلا الله .

لذلك لم يقُلْ أحدٌ يا لات ولا يا عزى ، لكن للأسف حين يكشف الله عنهم ويُفرج كربهم يعودون إلى ما كانوا عليه ، وكثيراً ما تحدَّث القرآن حول هذا المعنى ، قال تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢) ﴾ [يونس]

ويغيب عن أذهان الناس أن الدين عندما يُقيد حركتك فيما لا يجوز وأنت فرد يُقيد حركة الناس جميعاً من أجلك . فقال لك : لا تسرق من الناس . وقال للناس جميعاً أن لا يسرقوا منك . إذن : أنت المستفيد الأول من تطبيق منهج الله .

وبعد أن قال : ﴿ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ .. (٨) ﴾ [الدخان] أتى بالدليل عليها ﴿ يُحْيِي وَيُمِيتُ .. (٨) ﴾ [الدخان] لأن مسألة الإحياء والإماتة لله وحده لا منازع له فيها ، والذين يتمتعون بالحياة لا يعكر عليهم صفو هذه المتعة إلا أنهم يروْنَ الموت حولهم يحوم ويوشك أنْ يصيبهم .

إذن : الحق سبحانه وتعالى أتى هنا فى الشىء الذى يحبه ، فالذى يملك حياتك ويملك موتك هو الله ، فلا يليق بك أنْ تغفلَ عنه ، أو أنْ تنصرفَ عن منهجه وسبيله إلى سبيل غيره .

وقوله ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ .. (٨)﴾ [الدخان] واقع بالفعل على الغير وإنْ كان من صفاته أنه حَيٌّ قيوم ، كما فى آية الكرسى : ﴿اللَّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ .. (٢٥٥)﴾ [البقرة] والبعض يقول : الحى اسم الله الأعظم لأنه أصلٌ ، وكل صفة أخرى أو اسم آخر فرع منه .

قالوا : الحى هو الاسم الأعظم فى العطاء ، والله الاسم الأعظم فى العبودية ، لأن معنى كلمة الله المعبود المطاع فى كُلِّ أوامره .

وما دام مطاعاً فى كل أوامره . إذن : أنت عندما تسأل الله تقول : بسم الله ، يعنى : بسم الله أقبل على هذا العمل ، لأن العمل يحتاج إلى طاقة ، ويحتاج إلى عقل يفكر قبل أنْ تشرعَ فى العمل ، ويحتاج إلى حكمة .

وهذه الأشياء ممَّن تستمدها ؟ من الله ، لأنه وحده الذى يجمع كلَّ صفات الكمال ويفيض عليك من صفاته فوجبَ الاستعانة به والتوكل عليه ، فالذى قال : إن الاسم الأعظم (الحى) نظر إلى العطاء ، والذى قال (الله) نظر إلى التكليف .

وقوله سبحانه : ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ (٨)﴾ [الدخان] أراد سبحانه أنْ يجادل الكفار المعاصرين للرسول ﷺ لأنهم قالوا : ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ [1] وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ (٢٣)﴾ [الزخرف] فأراد

---

(١) على أمة : أى على طريقة ومذهب . قاله عمر بن عبد العزيز . وكان يقرأ هو ومجاهد وقتادة (على إمة) بكسر الألف . وقال قتادة وعطية (على أمة) أى على دين . قاله القرطبى فى تفسيره (٦١١٩/٤) ورجح ابن كثير فى تفسيره (١٢٦/٤) المعنى الأخير .

أنْ يُبيِّن كذبهم فى هذه المقولة ، فلو أنهم مقتدون فعلاً بالآباء لسَاروا على منهج آدم عليه السلام ، لكنهم شذُّوا عنه وانحرفوا عن هديه حتى تغيَّر منطق الدين ، وتعددتْ رسلُ الله لهدايتهم .

﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴿٩﴾ ﴾

الحق سبحانه وتعالى هنا جمع لهم وصفين : أنهم فى شَكٍّ من دين الله ، وأنهم يلعبون يعنى : غير جادين فى هذه المسألة ، ولو كان وصف واحد منهما لكان كافياً لإبعادهم عن ساحة الإيمان .

﴿ هُمْ فِي شَكٍّ.. ﴿٩﴾ ﴾ [الدخان] لنعرف معنى الشك نقول : إن النسب العقلية فى القضايا ستٌّ نسب . منها : **العلم** : وهو أن تعتقد قضية يُؤيدها الواقع . **والجهل** : أنْ تعتقد قضية مخالفة للواقع . **والتقليد** : وهو أنْ تعتقد قضية ولا تستطيع التدليلَ عليها كالطفل يُقلّد أباه فيقول : الله أحد لكنه لا يقيم الدليل عليها . ثم **الشك** وهو أنْ يستوى عندك أمران لا ترجح أحدهما على الآخر ، فإنْ رجحت أحدهما فالراجح ظنّ ، والمرجوح وَهْم .

فالشك إذن أنْ يستوىَ عندهم الكفر والإيمان ، وليتهم فى شَكٍّ فقط ، إنما أيضاً ﴿ يَلْعَبُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الدخان] فلو كانوا فى شَكٍّ وجادِّين فى البحث والتأمل لوصلوا إلى الحق ، لكنهم هازلون لاعبون ، لا حرصَ عندهم للوصول إلى الحق .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ١٠ يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ١١ رَّبَّنَا ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ إِنَّا مُؤۡمِنُونَ ١٢﴾ (١)

الحق سبحانه يُبيِّن أنه لن يترك هؤلاء الشّاكِّينَ المكذِّبين لرسوله ، اللاهين اللاعبين وأن لهم يوماً يقتصّ فيه منهم ، فيقول ﷺ ﴿فَارْتَقِبْ ﴿١٠﴾﴾ [الدخان] انتظر ﴿يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾﴾ [الدخان] أى : دخان ظاهر وكثيف .

والدخان : غازات تتداخل وتملأ الجو مثل الشبورة التى نراها فى الصباح ، ولكثافتها تؤدى إلى حَجْب الرؤية ، لأن تداخلَ الذرات يسُد الفجوات التى ينفذ منها البصر ، ثم تُسبب ضيقاً فى الهواء وفى التنفس ، فإذا جمعتَ عدم الرؤية مع ضيق التنفس تجد أن الكرْبَ عظيم لا يتحمله الإنسان .

قالوا : إن الدخانَ هنا دلالةٌ على الجدب الذى أصابهم والقحط الذى نزل بهم ، لأنهم لما بالغوا فى تكذيب رسول الله واشتدُّوا فى إيذائه وإيذاء أصحابه دعا عليهم وقال « اللهم اشْدُدْ وطأتَكَ على مُضَر ، واجعلها عليهم سنين كسِنى يوسف » (٢) .

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٩/٦١٧٩) : « فى الدخان ثلاثة أقوال :

١ - أنه من أشراط الساعة لم يجىء بعد ، وأنه يمكث فى الأرض أربعين يوماً يملأ ما بين السماء والأرض ، فأما المؤمن فيصيبه مثل الزكام ، وأما الكافر والفاجر فيدخل فى أنوفهم فيثقب مسامعهم ويضيق أنفاسهم ، وهو من آثار جهنم يوم القيامة . قاله على وابن عباس وابن عمر وأبو هريرة وغيرهم كثير .

٢ - أنه ما أصاب قريشاً من الجوع بدعاء النبى ﷺ حتى كان الرجل يرى بين السماء والأرض دخاناً . قاله ابن مسعود .

٣ - أنه يوم فتح مكة لما حجبت السماء الغبرة . قاله عبد الرحمن الأعرج .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه (٧٦٢ ، ٩٥١ ، ٢٧١٥ ، ٣١٣٤) وكذا مسلم فى صحيحه (١٠٨٢ ، ١٠٨٣) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

فأصابهم القحط والجدب حتى أكلوا الجِيَف والكلاب الميتة ، حتى أكلوا العلهز وهو الصوف أو الوبر المخلوط بالدم الجاف . إلى أنْ ضجُّوا وذهبوا إلى رسول الله يطلبون منه أنْ يدعوَ الله لهم أنْ يكشف عنهم ما نزل بهم .

وقد بيَّنَ الله لرسوله كذبهم ، فلو كشفنا عنهم العذابَ فلسوف يعودون إلى ما كانوا عليه من الكفر والتكذيب .

ومعنى ﴿ يَغْشَى النَّاسَ (١١) ﴾ [الدخان] يعنى : يحيط بهم ويُغطيهم ﴿ هَـٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (١١) ﴾ [الدخان] لأنه يمنع عنهم الرؤية ويُضيق التنفس فيجأرون ﴿ رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ (١٢) ﴾ [الدخان] والله يعلم أنهم كاذبون فى هذه المقولة .

لذلك يقول بعدها :

﴿ أَنَّىٰ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ (١٣) ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ (١٤) ﴾

قوله : ﴿ أَنَّىٰ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ (١٣) ﴾ [الدخان] من أين لهم التذكُّر والاتعاظ ؟ ومن أين لهم الإيمان الذى يدَّعونه وقد جاءهم ﴿ رَسُولٌ مُّبِينٌ (١٣) ﴾ [الدخان] بأكبر من هذا الدخان : بينات معجزات قائمة ، كتاب حكيم معجز ، حكمة تسيّر الكون على نظام بديع ، يسعد الفرد والمجتمع واضح الحجة ، واضح البيان ، كثير الخيرات ، محيط بكل وجوه الخير التى تعود عليهم ، فما كان منهم إلا الإعراض والتكذيب .

﴿ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ (١٤) ﴾ [الدخان] أعرضوا ﴿ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ (١٤) ﴾ [الدخان] يعنى لم يُعرضوا عنه ويتركوه فى حاله ، إنما

تعدَّوْا علـيه بالقول والاتهـام الكاذب ﴿مُعَلَّمٌ .. (١٤)﴾ [الدخان] أى : يعلمه غيره .

كما قال سبـحانه فى موضع آخر : ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ (١٠٣)﴾ [النحل] فيـردّ الله عليهم ويُبطل اتهـامهم ﴿لِّسَانُ الَّذِى يُلْحِدُونَ[1] إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ (١٠٣)﴾ [النحل]

وقد قالوا أنه ﷺ يختلف إلى رجل فـارسى يُعلّمه القرآن ، وردّ عليهم فى قولهم (مجنون) فقـال سبـحانه ﴿وَمَا صَـاحِبُكُم بِمَجْنُـونٍ (٢٢)﴾ [التكوير] . وقال : ﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (١) مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (٢) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ (٣) وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤)﴾ [القلم]

وما دام على خُلُق عظيم فهو لا يتعدى مقاييس الفضيلة ، ولا تصدر عنه الأفعال إلا عن تدبّر وتعقّل وأدب ، وما أبعد هذا عن الجنون !!.

﴿إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَائِدُونَ (١٥)﴾

أى : عـذاب الدنيا الذى نزل بهـم ، والذى سمَّـاه القرآن العـذاب الأدنى ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢١)﴾ [السجدة] سنكشف عنهم عذاب الدخـان والقحط والجوع الذى اضطرهم لأنْ يأكلوا المـيتـة ، سنكشـفه عنكم قلـيلاً لنثـبتَ لكم أنكم كاذبون ولو أمام أنـفسكم لتقتنعـوا بهذه الحقيقـة ؛ لأن المؤمنين بى يعرفونها ويشـهدون بها ، أما أنتم فتنكرونها .

---

(١) يلحدون هنا بمـعنى : يميلون إليه ويشـيرون . [القامـوس القويم ٢/١٨٩] وهم فى هذا يميلون عن القصد والصواب أى ينحرفون عنه .

أو يكشف كذبهم أمام الناشئة ، منهم الذين لم يتمكن منهم الكفر فيحدث خلخلة فى صفوفهم ، ويظهر الكافرون على حقيقتهم فلا يُقلدهم أبناؤهم الذين يتابعون هذه المواقف ، ويشاهدون كذبَ الآباء والأجداد .

وفعلاً رأينا من أبناء الكافرين مَنْ أسلم وأبلى فى الإسلام بلاءً حسناً أمثال عكرمة بن أبى جهل وغيره ، ممَّنْ عاينوا كذب الآباء وعدم وفائهم مع الله .

من هؤلاء مصعب بن عمير فتى قريش المدلّل ، وأغنى أغنيائها ، وكان يتقلَّب فى ألوان النعيم لما رأى ما عليه القوم من التناقض ، ترك الكفر إلى الإسلام ، وتركَ كلَّ مظاهر النعيم ورَضى بعيش التقشُّف .

وقد رآه سيدنا رسول الله ﷺ فى المدينة بعد أنْ هاجر يرتدى جلد شاة على كتفه ، فتعجَّب وقال : انظروا إلى صاحبكم ، كيف فعل الإيمان به[1] ؟ ولما مات مصعب لم يجدوا ما يكفنونه به[2] . هؤلاء شبابٌ اختطفهم الإيمان من براثن الكفر .

وقوله : ﴿ إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [الدخان] يعنى : راجعون مرة أخرى إلى كفركم وعنادكم وتكذيبكم لرسول الله .

---

(١) عن عمر بن الخطاب قال : : نظر النبى ﷺ إلى مصعب بن عمير مقبلاً وعليه إهاب (جلد) كبش قد تمنطق به فقال ﷺ : « انظروا إلى هذا الرجل الذى قد نوَّر الله قلبه ، لقد رأيته بين أبوين يغذوانه بأطيب الطعام والشراب ، فدعاه حب الله ورسوله إلى ما ترون » أخرجه أبو نعيم فى حلية الأولياء (١/١٠٨) قال العراقى في تخريجه لأحاديث الإحياء (٤/٢٩٥) : إسناده حسن .

(٢) قُتل مصعب بن عمير يوم أُحُد ، ولم يترك إلا نمرة ، كنا إذا غطينا رأسه بدت رجلاه ، وإذا غطينا رجليه بدا رأسه ، فقال رسول الله ﷺ : « غطوا رأسه واجعلوا على رجليه من الإذخر » أخرجه الترمذى فى سننه (٣٧٨٨) وأحمد فى مسنده (٢٠١٦٥ ، ٢٥٩٥٦) والبيهقى فى سننه (٤/٧) ومشكل الآثار للطحاوى (٣٤١٩) .

﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾﴾ (١)

يعنى : اذكروا هذا اليوم ولا تغفلوا عنه ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ ﴿١٦﴾﴾ [الدخان] البطش : الأخْذ بقوة والضربة القوية التى تستوعب كلَّ جوارح الجسم ولا تبالى على أىِّ عضو وقعتْ ، نقول : فلان بطش بفلان يعنى : ضربه بقسوة وعنف دون أنْ يراعى على أىِّ عضو وقع الضرب ، وبعد هذا الوصف سماها (الكبرى) تأكيداً على قسوتها وشدَّتها على الكافرين .

﴿إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الدخان] والانتقام يدل على التكافؤ ، فالبطشة ليستْ اعتداءً منا ، بل جزاءَ ما قدّمتم من تكذيب وإيذاء لرسول الله .

فالبطشة إذن جزاءٌ من جنس العمل ، ولولا هذه البطشة لم تتحقق عدالة السماء بين المؤمنين والكافرين ، ولكانتْ مساواة بين المؤمنين الذين تحمَّلوا الإيذاء والعَنت والاضطهاد ، وبين الكافرين الظالمين المعتدين .

كان لا بدَّ أنْ تحدثَ هذه البطشةُ بالكافرين ليرى المؤمنون ثمرةَ إيمانهم ، وكيف أن الله نجَّاهم بالإيمان فيفرحون ، ويرى الكافرون ثمرةَ كفرهم وعنادهم فيتحسَّرون ويندمون ويتألمون .

---

(١) فى المقصود بالبطشة الكبرى عدة أقوال :

- أنها يوم بدر . قاله ابن مسعود وابن عباس وأبىّ بن كعب .
- أنها عذاب جهنم يوم القيامة . قاله الحسن وعكرمة وابن عباس أيضاً واختاره الزجاج .
- أنها دخان يقع فى الدنيا ، أو جوع وقحط يقع قبل يوم القيامة .
- أنها قيام الساعة . قاله الماوردى لأنها خاتمة بطشاته فى الدنيا . [تفسير القرطبى ٦١٨٣/٩] .

وفى أكثر من موضع حكى لنا القرآن الكريم حواراً بين أهل الجنة وأهل النار يُوضِّح فرح المؤمنين وندم الكافرين وتحسُّرهم : ﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ (٥٠) ﴾ [الأعراف]

فقوله تعالى ﴿ إِنَّا مُنتَقِمُونَ (١٦) ﴾ [الدخان] إشارة إلى عدالة السماء وكأن الله تعالى يقول لهم : لا تلومونا على أنْ أخذناكم هذه الأخْذَةَ ، فأنتم صَنْعتنا ، ونحن أرأفُ بكم من الوالدة بولدها ، لكن لا بدَّ من الانتقام لتستوى الكفة ، وحتى لا تكون فتنةٌ .

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ (١٧) أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٨) ﴾

كأنه يقول لهم : لستُم بدعاً فى ذلك ، فقد سبقكم أمم كذَّبوا الرسول فنزل بهم مثلُ ما نزل بكم ، كلمة ﴿ فَتَنَّا (١٧) ﴾ [الدخان] يعنى : ابتلينا واختبرنا ، والفتنة لا تُذمُّ لذاتها ، وإنما تُذم لنتيجتها مثل الامتحان لا يُمدح ولا يُذم لذاته ، إنما حسْب ما يترتب وما ينتج عنه .

وتعرفون قصة قوم فرعون ﴿ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ (١٧) ﴾ [الدخان] هو سيدنا موسى عليه السلام ، فهو كريم على الله الذى أرسله ، ومن كرامته جعله كليماً يُكلِّمه من وراء حجاب ، ذلك لأنه سيتعرَّض لا لفساد خُلُقى ولا لفساد اجتماعى ، إنما لفساد عَقَدىّ .

وكأنَّ الله تعالى يُعد للقائه مع رأس الكفر ، وهو فرعون الذى وصل به الضلال إلى أنْ يدَّعى الألوهية ، ويقول للناس : أنا ربكم الأعلى .

ومن هنا كانت مهمة موسى عليه السلام مهمة صعبة وشاقة ، لذلك درَّبه ربه عز وجل على استخدام الآيات والمعجزات قبل أنْ يُظهرها أمام فرعون .

اقرأ : ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ (١٧) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ (١٨) قَالَ أَلْقِهَا يَـٰمُوسَىٰ (١٩) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ (٢٠) ﴾ [طه]

فالحق سبحانه عرَّف موسى مهمة العصا فى المعركة العقدية التى سيخوضها مع فرعون ودربه على التعامل معها ، حتى إذا واجه فرعون واجهه بثقة وثبات واطمئنان إلى نصر الله وتأييده له ، لذلك قلنا : إن المستشرقين تصيّدوا هذه القصة ، واتهموا القرآن بالتكرار .

وهذا يدل على عدم فهمهم للآيات فى سياقها ، فقصة العصا فعلاً وردتْ ثلاث مرات ، مرة بين موسى وربه عز وجل كتدريب ومران على هذه المسألة ، والمرة الثانية كانت أمام فرعون ، والمرَّة الثالة كانت أمام سحرة فرعون .

إذن : كان لكلِّ مرحلة حكمة ، والمسألة ليستْ فيها تكرار ، إنما هى مواقف مختلفة ، كلٌّ فى موعدها .

وقوله سبحانه :﴿ أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ (١٨) ﴾ [الدخان] ساعة تسمع ﴿ أَدُّوا إِلَيَّ (١٨) ﴾ [الدخان] تعرف أن هناك أمانة يجب تأديتها ، فما الأمانة التى يطلب موسى من قومه أنْ يؤدوها إليه ؟

قالوا : الحق الذى طالب به موسى قوم فرعون هو أنْ يأخذ بنى إسرائيل ، وأنْ يخرجهم من العذاب المهين الذى يُلاقونه من قوم فرعون وهذه هى مهمة موسى الأولى ، أما دعوته لفرعون فكانت

على هامش المهمة الأساسية ، وكلامه مع فرعون زائد على مهمته وعن التشريع الذى أتى به بنى إسرائيل .

وسبب اضطهاد قوم فرعون لبنى إسرائيل أن الهكسوس[1] لما دخلوا مصر عاثوا فيها فساداً ، وكان بنو إسرائيل يعاونون الهكسوس ويساعدونهم ، فلما خرج الهكسوس من مصر لم يَعُدْ لهم عدو إلا بنى إسرائيل لذلك اضطهدوهم .

وكما حكى القرآن : ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ (٤٩)﴾ [البقرة] فجاء سيدنا موسى أصلاً لإنقاذ بنى إسرائيل من العذاب وليُخرجهم من مصر .

فالحق سبحانه وتعالى لطف ببنى إسرائيل لأنهم كانوا هم المؤمنين فى هذا الوقت وكان الآخرون وثنيين .

إذن معنى : ﴿أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ (١٨)﴾ [الدخان] يعنى : اعطونى بنى إسرائيل الذين تُعذِّبونهم واتركُونى وشأنى .

ومن إعجاز القرآن أنه لما تكلَّم عن حاكم مصر سمَّاه فرعون ، إلا فى فترة سيدنا يوسف عليه السلام سماه الملك : ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ (٤٣)﴾ [يوسف]

وقد ثبت أن الهكسوس أثناء وجودهم فى مصر غيَّروا اسم الفرعون وقالوا (الملك) وكان وجودهم فى مصر أيام سيدنا

---

(١) الهكسوس هم قوم ينحدرون من الأموريين نزحوا من العراق إلى مصر قبل حوالى ١٧٨٩ سنة قبل الميلاد ، وقد حكموا مصر ما بين ١٦٤٨ إلى ١٥٤٠ ق. م أى أنهم حكموا مصر ١٠٨ سنة . عُرفوا باسم الملوك الرعاة شكلوا حكام الأسرتين ١٥ ، ١٦ . اتخذ الهكسوس عاصمة لهم فى شرق الدلتا أطلقوا عليها اسم (أواريس) . وهم أصحاب بشرة بيضاء ساميون . [موسوعة ويكيبيديا] .

يوسف عليه السلام .

وقوله : ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٨) ﴾ [الدخان] يعنى : مؤتمن على رسالتى من الله أؤديها كما يجب أن يكون الآداء .

﴿ وَأَن لَّا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (١٩) وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ (٢٠) ﴾

قوله : ﴿ وَأَن لاَّ تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ (١٩) ﴾ [الدخان] أرجع الأمر إلى مصدره الأول ، فلم يقُلْ أنْ لا تعلوا علىَّ إنما على الله ، يعنى : افهموا أن المعركة ليست بينى وبينكم ، بل بينكم وبين الله الذى أرسلنى ، فحين تعلون وتعاندون لا تعلون علىَّ ، إنما على الله الذى كلّفنى وأرسلنى إليكم .

﴿ إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (١٩) ﴾ [الدخان] يعنى : بحجة واضحة وآية بينة وهى العصا ، والعصا آية من جنس السحر الذى نبغ فيه قومُ فرعون ، ولكنها ليستْ من نوعه ؛ لأن السحر فى حقيقته تخييلٌ للأعين كما قال سبحانه : ﴿ سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ (١١٦) ﴾ [الأعراف]

لذلك لما رأى السَّحرةُ عصا موسى تلقَفُ ما صنعوا خرُّوا ساجدين لا لموسى ، بل لربه دون أن ينتظروا إذناً من فرعون ؛ لماذا ؟

لأنهم رأوا شيئاً غير السِّحْر ليس تخييلاً للأعين ، إنما حقيقة واقعة ، وهم أدرى الناس بماهية السحر .

وقوله ﴿ وَأَن لاَّ تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ (١٩) ﴾ [الدخان] يعنى : لا أتكلم من عند نفسى إنما بأمر السماء ، وفيه إشارةٌ أيضاً إلى إبطال ألوهيتهم

المدّعـاة ، يعنى : أنتم بينكم وبين أنفـسكم تعلمون أنكم لسـتم آلهة ، وأن هذا ادعاء كاذب ، لذلك خوَّفهم بالإله الحق .

﴿ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ (٢٠) ﴾ [الدخان] يعنى : لجأتُ إليه وتـحصَّنتُ به من أذاكم ، وتأمل سـاعة قـالها موسى وكـيف أنه استعاذ بمعاذ ، ولجأ إلى ركن شديد لا يُضام مَن التجأ إليه .

مـاذا حدث بعـد أن استـعـاذ بالله ؟ سخَّـر الله له رجلاً من قـوم فرعون يُصدق موسى ويدافع عنه .

وهذه الاستعاذة أيضاً ستنفعه فى المستقبل فى قضية انفلاق البحر ، لما أدركـه فرعـون وجنوده عند شاطىء البـحر ، حـتى قال أصـحاب موسى ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١) ﴾ [الشعراء] حيث لا أمل فى النجاة .

أما موسى فلديه رصيدٌ من الثقة بربه ، فقال : ﴿ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢) ﴾ [الشعراء] قالها وهو واثق بها لأنـه جرَّبها قبل ذلك وأفلح بها .

إذن : لمَّـا حـزبه الأمـر وضاقتْ به أسـبـابه لجـأ إلى الله لجـوءَ الـواثق المطمـئن فأوحـى الله إلـيـه ﴿ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ (٦٣) ﴾ [الشعراء] لم يُكذِّب موسى الأمر ولم يتـردد فيه مع أنها كانت شـيئاً عجيباً يفوق تخيُّل العـقل ، لكنّ صِدْقَ الله معه فى الأولى ، شجَّعه أنْ يطيع الأمر وألاَّ يتردد فيه .

﴿ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ (٦٣) ﴾ [الشعراء] فكانت المعجزة أن انفلق البحرُ ، فكان كل فِرْق كـالطوْد العظيم ، ونجَّى الله موسى ومَنْ معه ، وأهلك فرعون وجنوده ، وهذا من طلاقـة القدرة أنْ يهلك ، وأنْ ينجى بالشىء الواحد ، لأن الأشياء لا تنفعل لذاتها ، إنما لإرادة الله .

وقوله ﴿أَن تَرْجُمُونِ (٢٠)﴾ [الدخان] دلَّ على أن الرجم كان موجوداً فى الأمم السابقة التى كانت تكذِّب رسولها .

﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ (٢١) فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ (٢٢)﴾

يعنى : إنْ لم تُصدِّقونى فيما أقول ؛ فلا أقلَّ من أن تعتزلونى وتتركونى وشأنى فلا تؤذوننى .

وقوله ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ (٢٢)﴾ [الدخان] فيه إشارة إلى يأسه من صلاحهم حتى شكاهم إلى الله ، وطلب الخلاصَ منهم .

﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ (٢٣) وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ (٢٤)﴾

الحق سبحانه وتعالى يقى أولياءه ويعطيهم الحصانة اللازمة ، فالأمر لموسى أنْ يخرج ببنى إسرائيل ليلاً ، ويخبره بما سيحدث من فرعون وقومه ، وأنهم سيتبعونهم فلم يتركه للمفاجأة بل أعطاه حقنة وقاية بالعلم بالشىء ، وهذه من أسباب النصرة والتأييد .

---

(١) أسْرِ (بهمزة قطع) هو قراءة الجمهور من أسرى . وقرأ أهل الحجاز (فاسر) بوصل الألفَ وكذلك ابن كثير من (سرى) . ذكره القرطبى فى تفسيره (٦١٨٥/٩) .

(٢) رهواً : أى اترك البحر ساكن الأمواج ليغتروا وينزلوا فيه . أو أن تكون أنت يا موسى هادىء النفس مطمئناً إلى النجاة . [القاموس القويم ٢٧٩/١] . ولـ (رهواً) معنى ثالث هو : الفرجة بين الشيئين . يقال : رها ما بين الرِّجْلَيْن أى فرج . فقوله (رهواً) أى منفرجاً . [القرطبى فى تفسيره ٦١٨٧/٩] .

وهذا هو الذى شجَّعه أنْ يقول (كلا) لن يدركونا ولن ينتصروا علينا ، ونحن مُؤيَّدون من الله ، والذى أمرنى أنْ أسرى بعباده ، وأخبرنى ما سيكون من عدوى لن يخذلنى .

إذن : كل لقطة فى هذه القصة دلَّتْ على طلاقة القدرة التى تعمل فى الأشياء كلها ، وتنقل الشىء إلى ضده . وقوله : ﴿وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا (٢٤)﴾ [الدخان] هذا الأمر جاء بعد الأمر بضرب البحر بالعصا فى موضع آخر .

إذن : هى لقطات متفرقة بين الآيات تتكامل لتخدم فكرة واحدة ، وتكون نسيجاً واحداً للقصة ، فهناك قال له ﴿اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ (٦٣)﴾ [الشعراء] وهنا أمره ﴿وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا (٢٤)﴾ [الدخان] كلمة (رَهْوًا) مصدر من رها يرهو رهواً . مثل : عدا يعدو عدواً . عدا يعنى : جاوز المكان جرياً . وضده رها يعنى : سكن فى مكانه .

فموسى حين ضرب البحر تجمَّد الماء وسكن فى مكانه على شكل جبلين كبيرين بينهما يابس ، ورأى موسى هذا اليابس طريقاً مُمهداً فعبره إلى الجانب الآخر .

وطبيعى وحسْب تفكير العقل أنْ يفكر أنْ يضرب البحر مرة أخرى ليعود إلى سيولته ، ويمنع فرعون وجنوده من اللحاق به ، لكن لله تعالى فى الأمر تدبير آخر ، فقال له : ﴿وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا (٢٤)﴾ [الدخان] أى : على سكونه .

موسى يفكر ببشريته ، والحق سبحانه يأمر بحكمته ، وهذه ليس فيها غضاضة على موسى ، لأن الذى يُصوِّب له هو ربُّه عز وجل ، وهذا شرف لموسى وعظمة .

وسيدنا رسول الله ﷺ الذى نقل لنا هذا التصويب حين يُخطئ الرسل فى أمر لم يردْ فيه نصّ ، كذلك صوَّب الله له فى قوله : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا النَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ﴿١﴾ ﴾ [التحريم] وعاتبه ربه بقوله : ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ ﴿٤٣﴾ ﴾ [التوبة] فمَن الذى أخبرنا بهذا التصويب وبهذا العتاب ؟ إنه رسول الله الصادق فى البلاغ عن ربه .

إذن : الحق سبحانه صوَّب لنبيه موسى عليه السلام وقال له ﴿ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ﴿٢٤﴾ ﴾ [الدخان] لأنِّى أريد أنْ أُهلك فرعون وجنوده بنفس الشىء الذى نجيَّتك به ، وهذه من طلاقة قدرة الله ، ففرعون لا بدّ أنْ يغترّ بهذا الطريق اليابس الذى يراه وسوف يعبره خلفك .

وفعلاً ما أنْ وصل موسى إلى الناحية الأخرى من البحر حتى كان فرعونُ فى وسطه ، وعندها أمر الله الماء أنْ يعود إلى استطراقه وسيولته ، وأغرق فرعونَ وجنوده ﴿ إِنَّهُم جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الدخان] ؛ فبطلاقة القدرة أنجى الله سبحانه وأهلك بالشيء الواحد .

ثم يُبيِّن لنا الحق سبحانه ما كان فيه هؤلاء من النعمة ، وما آلوا إليه من النقمة والعذاب :

﴿ كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ(١) كَانُوا۟ فِيهَا فَـٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾

---

(١) النَّعمة (بفتح النون) : التنعيم والتقلب فى حُسْن النِّعمة وغضارتها . أما النِّعمة فهى اليد البيضاء الصالحة والصنيعة والمنَّة وما أنعم به عليك . [لسان العرب – مادة : نعم] بتصرف . وقال ابن عمر : المراد بالنعمة نيل مصر . وقال ابن لهيعة : المقصود بها الفيوم . وقال ابن زياد : أرض مصر عامة لكثرة خيرها . [تفسير القرطبى ٦١٨٨/٩] .

يعنى : بعد أنْ أغرقهم الله تركوا هذا النعيم ، (كَمْ) خبرية تفيد الكثرة ﴿مِن جَنَّاتٍ (٢٥)﴾ [الدخان] حدائق وبساتين نضرة ﴿وَعُيُونٍ (٢٥)﴾ [الدخان] يعنى : عيون الماء العذب الذى يجرى خلال هذه البساتين .

﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٢٦)﴾ [الدخان] مَقام بفتح الميم اسم مكان القيام إذا كنت جالساً ، قمت ، واسم مكان الإقامة مُقام بضم الميم لموضع الإقامة ، والمُقام لا يُوصف بأنه كريم إلا إذا توفرتْ لمن يقيم فيه سُبل الراحة والرفاهية ، فالمقام نفسه فيه كرم . يعنى : يجمع لصاحبه كلَّ وسائل الخير حين يقوم وحين يجلس .

وكأن الخير تابع له مطيع لأوامره ، ولا يكون ذلك إلا إذا كان له تابعون وهو متبوع ، وهؤلاء التابعون يؤدون له أوامره فى قيامه وفى قعوده .

والإنسان حينما يكون قاعداً أو نائماً أو مضطجعاً ما الذى يجعله يقوم ؟ أمر جَدَّ عليه فأقامه ، وهذا الأمر نوعان : إما خير يُفرحه ويهشّ إليه فيقوم له مثل حبيب أو صديق غائب وهو يعود ، أو أمر يُحزنه ويفزعه فيقوم له .

كما وردتْ كلمة (مُقام) بضم الميم ، وهى بمعنى مكان الإقامة فى قوله تعالى : ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٦٦)﴾ [الفرقان] ، وفى قوله تعالى : ﴿خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٧٦)﴾ [الفرقان]

وقوله : ﴿وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ (٢٧)﴾ [الدخان] كلمة (نعمة) أيضاً وردتْ بفتح النون مرتين كما هنا ، ووردت بكسر النون مثل ﴿ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ .. (٤٠)﴾ [البقرة] فى ٣٤ موضعاً إما مُفردةً وإما مُضافةً إلى الله ، ووردتْ نعمتى ونعمتك ونعمته للغائب .

والفرق بينهما أن نعمة بالكسر تعنى : ما يتنعَّم به ، ولكن يلاحظ أن المتنعم به أشياء خارجة عن الذات ، فمرة توجد النِّعمة وتُوجد القدرة على التنعُّم بها ، ومرة توجد النِّعمة ولا توجد القدرة على التنعّم بها . أما النَّعمة بالفتح فتعنى وجود النِّعمة ، ووجود القدرة على التنعُّم بها .

وقوله ﴿كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ (٢٧)﴾ [الدخان] من التفكُّه والتلذُّذ ، مأخوذة من الفاكهة وهى تدلُّ على الرفاهية ، لأن الطعام منه أشياء ضرورية أساسية ، وهى التى بها قِوَام الحياة واستبقاؤها ، وطعام آخر للترف والمتعة كالفاكهة تُؤكل بعد الطعام .

وهذه الأشياء التى تؤكل للترف والمتعة يمكن الاستغناء عنها لأنها ليستْ من الضروريات ، بدليل أن كثيراً من الناس لا يعرفون أكل الفاكهة وهم أحياء يُرزقون . إذن : كانوا فى رفاهية من العيش وفى متعة فضلاً عن الضروريات .

﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ (٢٨)﴾

﴿كَذَٰلِكَ (٢٨)﴾ [الدخان] يعنى : مثل هذا ، سلبها الله منهم وأعطاها لغيرهم ، ولو سُلِبَتْ منهم فقط لكانتْ أخفَّ عليهم ، إنما سُلِبَتْ منهم وأُعطيَتْ لغيرهم فهذا أنكى .

لذلك الذى جعل الحسد مذموماً أن الحاسد يتمنى زوال النعمة عن الغير ولو لم تأتِ إليه ، المهم أنْ تذهبَ عن فلان لأنه يكره النعمة عنده ، وحين يكره النعمة تكرهه ولا تأتيه .

ومقابل الحسد الغبطة ، وهى أنْ تحبَّ النعمة عند الغير ، وتتمنَّى

مثلها لنفسك ، وحين تحب النعمة تحبك وتأتيك ساعة تقول : « اللهم بارك له فيها ، وأنعِمْ عليَّ بمثلها » .

لكن مَنْ هم القوم الآخرون الذين ورثوا النعمة بعد قوم فرعون ؟ هم بنو إسرائيل القوم الذين عُذِّبوا ، الذين ذبحتم أبناءهم واستحييْتُم نساءهم ، ومطلق التذبيح فيه إذلال وإهانة ، وأفظع منها ما يُفعل بالنساء بعد موت الرجال ؛ لذلك كان العرب إذا خرجوا للحرب أخذوا معهم نساءهم كيْلا يتركُوهنّ للأعداء لو نزلتْ بهم الهزيمة .

﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

تثبت هذه الآية أن للجمادات عاطفةً ، وأنها تحب وتكره ، وتبكى وتفرح ، فالعاطفة إذن موجودة فى كُلِّ المخلوقات على قدْر الحاجة ، فالعاطفة فى الإنسان باقية ، فتراه مثلاً يحب ولده ، حتى لو كان الولد غبياً أو مشاغباً ، ويستمر معه هذا الحب ، وربما يعطف عليه أكثر من السَّوىِّ .

لذلك لما سألوا الأعرابى[1] : منْ أحبّ بنيك إليك ؟ قال : الصغير حتى يكبر ، والغائب حتى يعود ، والمريض حتى يشفى[2] .

أما الحيوان فعاطفته على قدْر الحاجة ، فترى الحيوان يعطف على ولده الصغير ويدافع عنه ، فإذا ما كبر تركه وكأنه لا يعرف عنه شيئاً ، ولو ذُبح أمامه ما شعر نحوه بشىء ، لأن عاطفته بقدر حاجة الصغير للتربية .

---

(١) هو غيلان بن سلمة الثقفى (ذكره الأصفهانى فى الأغانى) ، وهو هوذة بن على الحنفى (عند الميدانى فى مجمع الأمثال ، وابن عبد ربه فى العقد الفريد) .

(٢) أورد هذا القول الأصفهانى فى الأغانى (٣/٤٧٧) أخبار غيلان .

كذلك الجماد ، الحق سبحانه يرتقى به ويجعل له عاطفة ، ومن هذه العاطفة أن السماء والأرض ما بكتْ على هؤلاءء المهلكين لأنهم خالفوا منهج الله .

لذلك خاطب اللهُ الجمادات ، وجعلها فى منزلة أُولى الألباب المستنيرين الذين يفهمون ويعقلون ، بدليل أن الله تعالى خيَّر السماوات والأرض والجبال فى مسألة حَمْل الأمانة :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا .. (٧٢) ﴾ [الأحزاب]

فدلَّ ذلك على أن لها اختياراً وتعقلاً ، وبعضهم قال : إن السماء والأرض مُسخّران ومقهوران على العبادة ، قلت : لا بل كل شىء فى الوجود عدا الله خُيِّر ، فمنها مَنْ تنازل عن اختياره لاختيار ربه ، وعن مراده لمراد خالقه ، ومنها من اختار أنْ يكون مختاراً وهو الإنسان .

وقلنا : فَرْق بين وقت التحمل ووقت الأداء ، فأنت تضمن وقت التحمل وتثق به ، لكنك لا تضمن وقت الأداء ، إذن : كانت الجمادات أكثر موضوعيةً من الإنسان فى هذه المسألة لأنها اختارتْ بداية أنْ تكون مقهورةً لربها ، أما الإنسانُ فاختار أنْ يكون مُخيّراً ، وعند الأداء منهم مَنْ آمن ومنهم مَنْ كفر ، منهم مَنْ أطاع ، ومنهم مَنْ عصى .

فإنْ قلتَ : فبأىِّ لغة تتكلم الأرض والسماء ؟ وكيف تفهم ؟ نقول : يخاطبها ويفهم منها خَالقها سبحانه ، فهو الذى يعلم لغتها ؛ لذلك يعطينا الحق سبحانه أمثلةً لكلام هذه المخلوقات وتسبيحها لله تعالى ، فقال : ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ (٧٩) ﴾ [الأنبياء] وقال : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَـٰكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. (٤٤) ﴾ [الإسراء]

وفى قصة سيدنا سليمان عليه السلام تكلَّم الهدهد كلاماً دلَّ على علمه وفَهْمه لقضية التوحيد كأحسن ما يكون الفهم ، وتكلَّمت نملة ووجدنا عندها مقاييس الحق والعدالة .

ووالله إن الإنسان ليتعجب حينما يقرأ قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ (١٨) ﴾ [الحج]

فكلُّ الكائنات تُسبِّح على إطلاقها ودون استثناء ، إلا الإنسان هو المخلوق الوحيد الذى يشذ عن هذه المنظومة المسبِّحة .

لذلك قلنا : إن المخلوقات الأخرى غير الإنسان كانتْ أكثر فهماً منه حين رفضتْ التخيير وتنازلتْ عن مرادها لمراد ربها . إذن : لا تغترّ أيها الإنسان ، واعلم أن المخلوقات من حولك لها دور ولها منزلة عند الله ، وقد خُلِق فيها مثل ما خُلِق فيك من الفهم والعاطفة .

وقد ورد فى الحديث الصحيح عن سيدنا رسول الله ﷺ ما يُؤيد هذه المسألة ، فقال عن أُحُد : « أُحُد جبل يُحبنا ونُحبه »[1] .

وثبت أن الجبل اهتزّ به هو وصحابته ، فقال له « اثبُتْ أُحُد ، فإنما عليك نبىٌّ وصدِّيق وشهيدان »[2] .

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (١٣٨٧) حديث أبى حميد الساعدى ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٤٦٦) ، والبيهقى فى دلائل النبوة (٢٠٢٠) . ولفظه أن أبا حميد قال : أقبلنا مع النبى ﷺ من غزوة تبوك حتى إذا أشرفنا على المدينة قال هذه طابة وهذا أُحُد جبل يحبنا ونحبه .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٣٩٩ ، ٣٤١٠) وأبو داود فى سننه (٤٠٣٢) والترمذى فى سننه (٣٦٣٠) وقال : حديث حسن صحيح . « أن النبى ﷺ صعد أُحداً وأبو بكر وعمر وعثمان فرجف بهم فقال : اثبت أحد فإنما عليك نبى وصدِّيق وشهيدان » أما النبى فهو رسول الله ، وأما الصِّديق فهو أبو بكر ، وأما الشهيدان فهما عمر وعثمان .

وقال : « والله إنِّى لأعرف حجراً كان يُسلِّم علىَّ بمكة قبل البعثة »[١] .

وثبت أيضاً فى الحديث أن الأرض تبكى لموت المؤمن وتفرح لموت الكافر[٢] . والعرب تقول (نبَتْ به الدار) يعنى : كرهته .

وما هذا إلا لأن هذه الجمادات لها فَهْم وتعقّل على كيفية ما ، وأنها مُنسجمة تماماً مع منهج الله ، فهى طائعة مُسبِّحة ، لذلك تحب مَنْ كان على شاكلتها من البشر وتكره مَنْ شذَّ منهم عن منهج الله وقضية التوحيد .

لذلك سيدنا الإمام على لما سُئلَ : أتبكى السماء والأرض ؟ قال : نعم ، إذا مات المؤمن بكى عليه موضعان : موضع فى الأرض وموضع فى السماء . أما موضعه فى الأرض فموضعُ سجوده أو مُصلاّه ، وأما موضعه فى السماء فمصعد عمله[٣] » فكأن هناك صحبة بين المكان والمكين فيه ، بين المكان والإنسان المؤمن .

وبهذا نفهم ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ (٢٩)﴾ [الدخان] وكيف تبكى السماء على هلاك عدو الله فرعون بعد أنْ بارز الحق سبحانه وادَّعى أنه إله من دون الله ؟

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٤٢٢٢) ، وأحمد فى مسنده (١٩٩١٢ ، ١٩٩٨٨) والطبرانى فى المعجم الكبير (١٨٧٤ ، ١٩٢٨ ، ٢٠٨٧) من حديث جابر بن سمرة .

(٢) عن أنس بن مالك قال قال رسول الله ﷺ : « ما من مؤمن إلا وله فى السماء بابان : باب ينزل منه رزقه ، وباب يدخل منه كلامه وعمله ، فإذا مات فقداه فبكيا عليه ، ثم تلا ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ .. (٢٩)﴾ [الدخان] أخرجه الترمذى فى سننه (٣١٧٨) وقال : هذا حديث غريب .

(٣) أورده السمرقندى فى تفسيره بحر العلوم (١٢٣/٤) من قول ابن عباس أنه سُئل : أتبكى السماء والأرض على أحد ؟ قال : نعم إذا مات المؤمن بكت عليه معادنه من الأرض التى كان يذكر الله تعالى فيها ويصلى وبكى عليه بابه الذى كان يُرفع فيه عمله . وأورده السيوطى فى الدر المنثور (سورة الدخان) من عدة طرق عن عدة من الصحابة .

وقوله : ﴿وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الدخان] يعنى : مُؤخَّرين ومُؤجَّلين عن موعدهم الذى جعله الله نهاية لهم ، لأن أجل الله إذا جاء لا يُؤخّر .

﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾ (١)

قوله تعالى : ﴿مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿٣٠﴾﴾ [الدخان] العذاب هو المؤلم للمادة ويكون بالنار وبغيرها ، كقَطْع جزء من الجسم أو الجلد مثلاً ، وقد يُضاف إلى العذاب الحسىِّ عذابٌ آخر معنوى وهو الإهانة والإذلال ، وبعض الناس يتحمل العذاب الحسىَّ ، ولا يتحمل أنْ تُهينه بكلمة ربما كانتْ أشدَّ عليه من العذاب .

وبنو إسرائيل كانوا يعانون العذاب بتذبيح الأبناء ، ويعانون الإهانة باستحياء(٢) النساء ، والنساء نقطة ضعف عند الرجل ، وعِرْض ينبغى المحافظة عليه ، لذلك كان التعدِّى على نساء الرجل أعظمُ إهانةَ له .

وقد تدارك الحق سبحانه برحمته بنى إسرائيل ونجَّاهم من العذاب المهين ﴿مِن فِرْعَوْنَ ﴿٣١﴾﴾ [الدخان] فهو سببُ هذا العذاب .

﴿إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا ﴿٣١﴾﴾ [الدخان] يعنى : مُتكبراً على الناس مُسْتعلياً عليهم ﴿مِّنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الدخان] أى : المسرفين على أنفسهم ،

---

(١) أى : نجينا بنى إسرائيل من العذاب الذى كان يُنزله بهم الأقباط - أى المصريون - بأمر من فرعون من قتل الأبناء وترك النساء أحياء واستخدامهم واستعبادهم إياهم وتكليفهم بالأعمال الشاقة . [القرطبى ٦١٩١/٩ بتصرف] .

(٢) استحياه : استبقاه حياً ولم يقتله ، فهم كانوا يقتلون الذكور فقط ويتركون البنات والنساء على قيد الحياة . [القاموس القويم ١٨٣/١] .

والمسرف هو الذى يتجاوز الحدَّ الذى وضعه الله فيه إلى غيره ، ففرعون كان مُستكبراً ومسرفاً فى استكباره ، ويكفيه إسرافاً أنْ يدَّعى الألوهية ، ويقول للناس : أنا ربكم الأعلى ، وأنْ يخدع قومه ويُغرر بهم .

وقلنا : فرْقٌ بين أنْ يكونَ الإنسان ضالاً فى نفسه ، وأنْ يكون ضالاً ومُضلاً للآخرين . وفرعون ضلَّ وأضلَّ أمة بأكملها واستعبدها ، وصدق القائل[1] : متى استعبدتم الناس وقد ولدتْهم أمهاتُهم أحراراً ؟

﴿ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾

الكلام هنا عن بنى إسرائيل ، وهم يتمسكون بهذه الآية ويبنون عليها أنهم شعب الله المختار ، فيقولون : إن الله الذى خلقكم وبعث إليكم رسولاً هو الذى اختارنا على العالمين .

وهذا ادعاء باطل لأن معنى ﴿ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الدخان] أى : العالمين فى زمانهم والمعاصرين لهم من قوم فرعون وغيرهم ، وهؤلاء كانوا فى الغالب وثنيين ، ففضَّل الله بنى إسرائيل عليهم لأنهم يؤمنون بالله وكانوا فى هذا الوقت خيرة خَلْق الله جميعاً .

لكنهم أرادوا أنْ يسحبوا هذا الحكم على الناس جميعاً ، وعلى العالمين فى كل زمان ومكان ، وهذا لا يجوز ، بدليل أنهم لما خالفوا منهج الله قطَّعهم فى الأرض أمماً ، وبعثرهم فى كل مكان عقاباً لهم .

حتى أنك تجد فى كل بلد من البلاد حارة باسمهم تسمى

---

(١) هو من قول عمر بن الخطاب ، ذكره صاحب كتاب (الولاية على البلدان) وذلك أن ابناً لعمرو بن العاص ضرب غلاماً قبطياً اعتماداً على سلطان أبيه ، فكتب أمير المؤمنين عمر لعمرو أن يحضر صحبة ابنه والقبطى ، فناول عمر القبطى سوطاً وأمره أن يقتص لنفسه من ابن عمرو ، ثم التفت إلى عمرو وقال قولته .

(حارة اليهود) ، تراهم مجتمعين ومنغلقين على أنفسهم لا ينسجمون ولا يذوبون فى المجتمع من حولهم .

حتى أن القرآن عبَّر عن هذا المعنى بقوله تعالى ﴿ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأَرْضِ أُمَمًا (١٦٨) ﴾ [الأعراف] فكل جماعة منهم فى مكان تمثل أمة بذاتها ، لأنهم لا يذوبون فى غيرهم من الأمم .

والذى ينفى ادعاءهم هذا قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ[1] رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ (١٦٧) ﴾ [الأعراف] وهذا هو الذى يحدث بالفعل ، فمن حين لآخر يُسلِّط الله عليهم مَنْ يسومهم سوء العذاب .

ثم يقول تعالى :

﴿ وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ (٣٣) ﴾

وقوله : ﴿ وَآتَيْنَاهُم مِّنَ الآيَاتِ مَا فِيهِ بَلاءٌ مُّبِينٌ (٣٣) ﴾ [الدخان] الآيات هى : المعجزات التى صاحبتْ دعوة سيدنا موسى ، وبهذه الآيات نجَّاهم الله من الغرق ، ونجَّاهم من قوم فرعون .

والعجيب أنهم بمجرد أنْ نجَّاهم الله من الغرق ومن فرعون ، وبمجرد خروجهم سالمين رأوا قوماً يعبدون أصناماً لهم ، فقالوا لموسى عليه السلام ﴿ اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ (١٣٨) ﴾ [الأعراف] فأشركوا بالله ، وما تزال أقدامهم مُبتلة من عبور البحر .

وفى فترة التيه أكرمهم الله ، وأنزل عليهم المنَّ والسَّلْوى ، وهما

---

(١) تأذنَّ ليفعلن كذا . أى : أعلم على وجه التأكيد المؤيَّد بالقسم . [القاموس القويم ١/١٦] .

من أرْقى ما يكون الطعام ، وألذّ ما يُؤكل ينزل عليهم دون تعب ودون مجهود ، لكنهم لماديتهم اعترضوا على المنِّ والسَّلْوى .

وقالوا لموسى : ﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ .. (٦١)﴾ [البقرة] يريدون الشىء المادى الذى يباشرونه بأنفسهم ويعلمون مصدره ، بل بلغتْ بهم المادية إلى أنْ قال لنبى الله موسى : ﴿أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً (١٥٣)﴾ [النساء]

البعض قال : إن موسى عليه السلام هو الذى فتح لهم هذا الباب حينما قال : ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ (١٤٣)﴾ [الأعراف]

وكلمة ﴿وَبَلَاءٌ (٣٣)﴾ [الدخان] يعنى : امتحان واختبار لنعلم ردود أفعالهم ، بعد أنْ رأوا الآيات أو بعد أنْ رأوا النعم ، وقلنا : الابتلاء والامتحان لا يُذم ولا يُمدح لذاته ، إنما حسب النتائج المترتبة عليه .

﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ (٣٤) إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ (٣٥)﴾ (١)

الإشارة فى ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ (٣٤)﴾ [الدخان] قد يُراد بها بنى إسرائيل ، لأنك لو نظرتَ إلى التوراة أو التلمود لا تجد فيه شيئاً عن اليوم الآخر ، مع أنه عنصر أساسى من عناصر الإيمان ، لكنهم قوم لا يؤمنون بهذا اليوم .

---

(١) ذكر الألوسى فى روح المعانى فى تفسير (الدخان ٣٤) : المقصود بهم كفار قريش لأن الكلام فيهم . وكذا قاله الطبرى فى تفسيره .

والمسألة عندهم كما حكى القرآن قولهم : ﴿لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ (٢٤)﴾ [آل عمران] يعني : ثم تنطفىء عنَّا وتنتهى المسألة . وقالوا فى آية أخرى : ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ (١٨)﴾ [المائدة]

أو يُراد بهؤلاء منكرو البعث عموماً ، سواء بنو إسرائيل أو غيرهم ، وقولهم ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ مَوْتَتُنَا الأُولَىٰ (٣٥)﴾ [الدخان] يريدون بالموتة الأولى العدم الذى سبق الخَلْق ، فيعتبرون العدم موتة ، ثم خلق الله آدم ومنه جاء سائر الخلق .

كما قال تعالى ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ (٢٨)﴾ [البقرة] يعنى : لن نموت إلا هذه الموتة ، وليس هناك موتة أخرى بعدها بعث ولا حساب ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ (٣٥)﴾ [الدخان] يعنى : مبعوثين أحياء بعد الموت .

﴿فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣٦)﴾

قلنا : إن الإيمان يعتمد على آيات الغيب فتؤمن بوجود الله وبالجنة والنار دون أنْ تراها ، هذا موطن الإيمان ، أما الآيات المشاهدة فلا إيمانَ فيها ، لا تقول : أؤمن بأن الشمس طالعة ، لكن هؤلاء للمادية التى تحكمهم يريدون آية الغيب مشاهدة ، فيقولون ﴿فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣٦)﴾ [الدخان] وليس مع العين أين .

هم لا يُصدِّقون إلا بالأمر الحسىِّ ، لذلك يريدون إعادة آبائهم من بعد الموت ليؤمنوا بأن البعث حقٌّ ، ونقول لهم : إنْ كنتم تريدون ذلك فعندكم كتب التاريخ والرسالات السماوية تحكى لكم مثل هذا الذى تريدونه مثل قصة العُزير :

﴿أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ (١) وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِى هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ (٢) وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا (٣) ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٥٩)﴾ [البقرة]

كذلك فى قصة أهل الكهف ، يقول تعالى الذين أحياهم الله بعد ثلاثمائة سنة وتسع ، أيضاً ساعة قاموا من نومهم أو موتهم قالوا ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ (١١٣)﴾ [المؤمنون] لأن هذه هى الفترة المعتادة لنوم الإنسان .

وهذه وغيرها وقائع حدثتْ فى فترات رسل سابقين ، هم يعرفونهم ويؤمنون بهم ، كذلك فى قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ (٢٤٣)﴾ [البقرة]

وهؤلاء الذين أحياهم الله بعد الموت لا يعيشون إلا بقدر المعجزة

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (١/٣١٤) : « المشهور أن القرية هى بيت المقدس » . ثم اختلف فى المارِّ عليها فقال على : هو عزير . وهذا القول هو المشهور . وقيل : هو أرميا ابن حلقيا . قاله وهب بن منبه . وقيل : هو حزقيل بن بوار . وقال مجاهد بن جبر : هو رجل من بنى إسرائيل (دون تحديد) .

(٢) لم يتسنَّه : أى لم يتغير بعد مُضىّ زمن عليه . وتسنَّه الطعام : تغيَّر . [القاموس القويم ١/٣٣٢] .

(٣) نُنشزها : نرفع بعضها إلى بعض . فالإنشاز تركيب العظام بعضها على بعض . [لسان العرب – مادة نشز] ، وذكر ابن كثير فى تفسيره (١/٣١٤) عن السدى قوله : « تفرقت عظام حماره حوله يميناً ويساراً فنظر إليها وهى تلوح من بياضها فبعث الله ريحاً فجمعتها من كل موضع من تلك المحلة ثم ركَّب كل عظم فى موضعه حتى صار حماراً قائماً من عظام لا لحم عليها (أى هيكل عظمى) ثم كساها الله لحماً وعصباً وعروقاً وجلداً. وذلك بمرأى من العزير . فعند ذلك لما تبين له هذا كله ﴿قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٥٩)﴾ [البقرة] .

ثم يموتون . إذن : لا حجةَ لهؤلاء فى طلب إحياء آبائهم ، بدليل أن الله أحيا الموتى وبلَّغهم ذلك على لسان الرسل ، ومع ذلك لم يؤمنوا ، ولو أحيا الله لهم الآباء أيضاً لم يؤمنوا .

﴿ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ(١) وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾

الحق سبحانه وتعالى يريد أنْ يقارن بين هؤلاء وبين مَنْ سبقهم من الأمم المُكذِّبة ، ويقول لهم : لستُم بدْعاً فى ذلك ولستم بمنجىً عن هذا المصير الذى حاقَ بمَنْ كذَّب قبلكم .

﴿ أَهُمْ خَيْرٌ .. ﴿٣٧﴾ ﴾ [الدخان] يعنى : بنو إسرائيل ﴿ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الدخان] تبع الحميرى من ملوك اليمن ، واليمن قديماً كانت تُسمى الأرض الخضراء أو اليمن السعيد لكثرة خيراته .

وكان تُبع رجلاً صالحاً لكن خالفه قومه وكذَّبوه ، فأخذهم الله أخْذَ عزيز مقتدر بعد أنْ دمَّر السد الذى كان يُوفِّر لهم الماء للزراعة فبتدمير السدِّ دُمرت حياتهم كلها .

وهذه القصة ذكَّرتنى بأيام كنا فى الجزائر ، وهناك بنوْا سداً يحجز ماء المطر ، وسَمَّوه سدّ مأرب ، ولما ذهبنا مع الرئيس لافتتاحه قام أحدهم خطيباً ، وقال فيما قال : والآن بُنى السد ، وسوف ترون

---

(١) هو تُبع الحميرى ، سار بالجيوش حتى حير الحيرة ثم أتى سمرقند فهدمها وذُكر أن كعباً كان يقول : نُعت نعت الرجل الصالح ذم الله قومه ولم يذمه . وكانت عائشة تقول : لا تسبوا تُبعاً فإنه كان رجلاً صالحاً . وقال الألوسى فى تفسيره (الدخان ٣٧) : هو تُبع الأكبر الحميرى واسمه أسعد بهمزة ، وفى بعض الكتب سعد بدونها وكنيته أبو كرب ، وكان رجلاً صالحاً .

أرضكم وزراعاتكم ، أمطرتْ السماء أم لم تمطر .

فاستوقفنى هذا الكلام ورأيتُ فيه مخالفةً ، لا للدين فحسْب بل للعقل وللمنطق ، فقلت لوزير خارجيتهم : قُلْ للسيد الخطيب : لو لم تمطر السماء ماذا يحجز هو أو السد ؟

وقوله : ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (٣٧)﴾ [الدخان] كلمة مجرم لا تُقال إلا لمَنْ بالغ فى المعصية وارتكاب الآثام مبالغة عظيمة . ومجرم يعنى : يأتى بالجُرْم الفاحش . هنا جاء بكلام على وجه العموم ﴿وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ (٣٧)﴾ [الدخان]

وفى موضع آخر فصَّل الكلام فى هذا الإهلاك ، فقال : ﴿فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُم[1] مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ..(٤٠)﴾ [العنكبوت]

وفى سورة الفجر : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ (٨) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ (١٠)﴾ [الفجر]

هذه كلها أمم كان لها حضارات ، لكن لم تُمكِّنهم حضاراتهم أنْ يحتفظوا بها ، وأن يمنعوها من الزوال بحيث تنتهى كأنْ لم تكن . الحق سبحانه وتعالى كان يأخذ الأمم المكذِّبة أخْذَ عزيز مقتدر ، لأن الرسل

---

(١) أربعة عذابات مختلفة :

١ - إرسال الحاصب وهى ريح شديدة عاصفة تحمل حصباء الأرض فتلقيها عليهم وتقتلعهم من الأرض ثم تنكسهم على أم رؤوسهم ، وهم قوم عاد .

٢ - الأخذ بالصيحة ، فهى صرخة أخمدت الأصوات منهم والحركات . وهؤلاء قوم ثمود قاتلى ناقة صالح .

٣ - الخسف : وهذا كان من نصيب قارون الذى طغى وبغى فخسف الله به وبداره الأرض .

٤ - الإغراق بالماء : وهذا قد لحق فرعون ووزيره هامان وجنودهما عن آخرهم أُغرقوا فى صبيحة واحدة .

السابقين لم يُطلَب منهم القتال ، فقط تبليغ رسالات الله .

وكانت السماء هى التى تتولَّى تأديب المكذِّبين والانتقام منهم ، ولم يُؤذَن فى القتال إلا لنبينا محمد ﷺ ، لأنه هو المأمون على أنْ يسود البشر برأيه المشْبع بمنهج الله ، لذلك لم يأت بعده رسول ، وكونه لم يأتِ بعده رسول دليلٌ على شهادة الخير لأمته ، وسيظل فيها هذا الخير إلى قيام الساعة .

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾

يريد الحق سبحانه أنْ يلفت الأنظار إلى قضية كونية تستوعب الزمن كله فى الماضى وفى الحاضر ، هذه القضية هى صفة الثبات فى خَلْق السماوات والأرض ، فهى منذ خلقها الله تعالى تسير على نظام مُحكم لا يتخلَّف ولا يتبدَّل ولا يتغير .

هذا الثبات يعنى أنها خُلِقَتْ على الحق وبالحق ، فالحق هو الثابت أما الباطل فيتغير ، لذلك قلنا : لو نظرتَ إلى شاهد الزور أمام القاضى لا بدَّ أنْ تتضاربَ أقواله ، ويظلّ المحقق يحاوره حتى يُوقعه فى تناقض ويكشف الزُّور الذى يحاول أنْ يلبسه ثوب الحق .

ويأتى التناقض فى أقواله لأنه يستوحى باطلاً من نسج خياله ، أما الذى يستوحى الحق وينطق به ، فإنَّ أقواله لا تتغير ما دام متمسكاً بالحق ، فالحق ثابت وهو الواقع ، فيمن أين يأتى التناقض ؟

وللمحققين طرق وأساليب يكشفون بها الزور ، ويصلون بها إلى الحق ، لذلك قالوا : إنْ كنت كذوباً فكُنْ ذكوراً . لكن لا بدَّ فى مرة من المرات أنْ

تخونك الذاكرة ، ولا بدَّ أنْ ينتصر لسانُ الحق على لسان الباطل .

وأذكر عندنا فى دقادوس[1] أحد المزارعين وكان رجلاً (فشاراً) ، وفى مرة كنَّا عائدين من البندر (ميت غمر) وكان صاحبنا هذا يحكى بعض قصصه ، فقال : حدث هذا فى ليلة العيد الصغير والدنيا قمر ضهر .

سبحان الله ، كيف يكون القمر ظهراً فى ليلة العيد الصغير ؟ وحتى الناس العامة يقولون فى أمثالهم : (الكذب ملوش رجلين) ، نعم .

الحق هنا يقول : ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ (٣٨)﴾ [الدخان] إذن : خلقناهما بالجد لا باللعب ، وبالحق لا بالباطل ، وفى آية بعدها قال : ﴿مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ (٣٩)﴾ [الدخان] وهذا الثبات دلَّ على الدقة فى الخَلْق ، وأنها خُلقت بعناية وهندسة دقيقة محكمة ، وبقوانين لا تتعارض منذ خلقها الله وإلى قيام الساعة .

تأمل مثلاً الشمس فى مشرقها وفى مغربها ، وفى حركتها وسرعتها بالنسبة للأرض ، تأمل القمر وما يحدث من ظاهرتى الكسوف ، كل هذه الآيات تحدث بدقة متناهية وموازينَ لا تتخلَّف أبداً ولا تتعارض ، وهاتِ لى أىَّ آلة بشرية تعمل وتظل على هذه الدقة طوال الوقت .

والذى خلق السماوات والأرض على نظام دقيق لا يتعارض خَلْقها لغاية ، هذه الغاية هى هى منذ آدم عليه السلام وإلى آخر الدنيا .

قلنا ﴿إِلاَّ بِالْحَقِّ .. (٣٩)﴾ [الدخان] الحق : الشىء الثابت الذى لا يتغير ، ويقول سبحانه : ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧) أَلاَّ تَطْغَوْا

---

(١) قرية دقادوس تابعة لمركز ميت غمر محافظة الدقهلية بمصر ، ودقادوس فى الجهة الشمالية الغربية يُطلق عليها (حى ثانى ميت غمر) نظراً لارتباطها الشديد بالمدينة ، يوجد فيها مستشفى ميت غمر العام ومنزل الإمام محمد متولى الشعراوى وضريحه (موسوعة ويكيبيديا) .

فِي الْمِيزَانِ (٨) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (٩) ﴾ [الرحمن]

فى هذه الآية إشارة لطيفة من الحق سبحانه . يقول : انظروا إلى السماء وما فيها من كواكب وأجرام ، هل رأيتم فيها خللاً أو تعارضاً ؟ أبداً لأنها مخلوقة بالحق وبالميزان وبالدقَّة كذلك ، إنْ أردتم أنْ تعتدل أمور حياتكم وتستقيم ، فخذوا بميزان الحق فى كلِّ حياتكم ، وعندها لن تجدوا فى المجتمع تناقضاً ولا تصادماً .

ولأن الحق هو الثابت فهو الباقى وهو الأعلى ؛ لذلك قالوا : الحق أبلج والباطل لجلج ، والحق لا ينطمس أبداً وإنْ علا الباطل عليه فلحين ، فالحق سبحانه يجعل للباطل جولة يعلو فيها حتى يعضّ الناس ويُشعرهم بأهمية الحق .

فكأن الباطل نفسه جندىّ من جنود الحق ، والكفر جندى من جنود الإيمان ، ولو لم يذُقْ الناسُ بطشَ الباطل وقسوته ما عرفوا لذة الحق ، لذلك لما جاء الإيمان ما أسرع إليه إلا أشدّ الناس معاناة من الكفر .

وقوله : ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٣٩) ﴾ [الدخان] لا يعلمون هذه الحقائق لأنهم مُعرضون عن آيات الله فى الكون ، مُعرضون عن التأمل ، كما قال سبحانه : ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥) ﴾

[يوسف]

﴿ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤٠) يَوْمَ لا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا وَلا هُمْ يُنصَرُونَ (٤١) إِلَّا مَن رَّحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٤٢) ﴾

فإنْ كانوا مُعرضين عن آياتنا فى الدنيا فسوف يُعرضون علينا فى الآخرة فى يوم الفصل ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤٠)﴾ [الدخان] يوم القيامة هو موعدهم حيث يجمعهم الله جميعاً ، التابع والمتبوع ، المؤمن والكافر ، الطائع والعاصى ، المكذِّبين والمصدِّقين بالرسل .

الكل سيجتمع ﴿يَوْمَ لا يُغْنِي مَوْلًى (٤١)﴾ [الدخان] لا ينفع صديقٌ صديقه ﴿عَن مَّوْلًى شَيْئًا (٤١)﴾ [الدخان] ولا يدفع قريبٌ عن قريبه .

وفى آية أخرى قال سبحانه : ﴿الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ (٦٧)﴾ [الزخرف] المتقون فقط هم الذين تبقى أُخوّتهم وخُلتهم ، أما الأخلاء على حطام الدنيا ومصالحها فسوف يكونون أعداء يوم القيامة ، يُلْقى كلٌّ منهم بالتبعة على صاحبه لأنه رآه فى يوم ما على معصية فلم يزجره عنها ولم ينصح له .

﴿وَلا هُمْ يُنصَرُونَ (٤١)﴾ [الدخان] لا يجدون مَنْ ينصرهم من دون الله ﴿إِلاَّ مَن رَّحِمَ اللَّهُ (٤٢)﴾ [الدخان] رحمه أولاً فى الدنيا بأنْ أنقذه من الكفر ، وجعله مؤمناً به مُصدِّقاً برسوله ، رحمه بأنْ جعله على منهجه وعلى صراطه المستقيم حتى يلقاه ، وهذه الرحمة تمهيد للرحمة الكبرى يوم القيامة .

وكلمة (مَوْلَى) تتسع لتشمل الأولاد والأقارب والأصدقاء والخِلاَّن ، وبعض الناس يتخذ العبيد والخدم ، ويدخل فيها كلُّ تابع لك ، وكل هؤلاء ﴿لا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا .. (٤١)﴾ [الدخان] يعنى : لا يدفع عنه ضُراً ، ولا يتحمل عنه وزراً ، لأن كلَّ واحد مشغول بنفسه ، ينوء بحمله هو ، هذا فى البشر ، وكذلك فى الأصنام لن تنفع عابديها . وفى كلِّ معبود سِوَى الله تعالى .

لـذلك قـال تعالى عن فرعون : ﴿يَقْدُمُ قَـوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .. (٩٨)﴾ [هود] يعنى : يسبقهم إلى النار .

﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ (٤٣) طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ (٤٤) كَٱلْمُهْلِ(١) يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ (٤٥) كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ (٤٦)﴾

الحق سبـحانه وتعالى هنا يعطـينا صورةً لطعام أهل النار والعـياذ بالله ، وفى موضـع آخر يعطينا صـورة لشرابهم ، لأن الطعام والشراب هما قِوَام الحيـاة ، فطعامهم الزقوم ، وهو شجرة صغيرة مُنتنة الرائحة ، وطعمها مُرٌّ .

أما شكـلها ، فقـال عنه سبـحانه فى آيـة أخرى : ﴿طَلْعُهَا(٢) كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ (٦٥)﴾ [الصافات] وهو تشبيـه يؤدِّى المراد منه بدقة ، فالمراد إظهار بشاعتها وقُبح منظرها .

لذلك وجـدنا بعض المسـتشـرقين يعتـرضـون على هذا التـشبـيه يقولون : كيف يُشبِّه مجهولاً بمجهول لأن أحداً لم ير رؤوس الشياطين ، والأصل فى التشبيه أنْ تُشبه مجهولاً بمعلوم ليتم الإيضاح .

يقولون هذا لأنهم لا يعرفون شيـئاً عن إعجاز القرآن وطريقة أدائه للمـعنى ، فلو أننا أجرينا مـسابقـة بين رسـامى الكاريكاتير فى العـالم وقلنا لهم : ارسـموا لنا صـورة الشيطان ، فكلٌّ واحـد سيـرسمـها من

---

(١) المهـل بضم الميم : المـعدن المـذاب والقطران وعكر الزيت المغلـى والقيح . [القـاموس القويم ٢/٢٤٢] .

(٢) طلع النخلـة : هو نَوْرُها الذى هو أصل ثمـارها ، ويكـون صغـيـر الحـجـم أبيض منظمـاً منضوداً. ومن طلعها يخرج القنوان المملوءة بالبلح . [القاموس القويم ١/٤٠٥] .

تخيُّله للقُبْح فى نظره هو .

وهكذا سيكون عندنا صور متعددة ، كلها قبيح مع أنها مختلفة ، لأن القُبْح له ألوان مختلفة ، والشىء البشع عند البعض قد لا يكون كذلك عند آخرين ، مثل مقاييس الجمال نجدها نسبية بين الناس ، فمثلاً البعض يرى الجمال فى الشفاه الرقيقة ، وآخر يراه فى الشِّفاه الغليظة .

وهكذا تختلف مقاييس القُبْح فى الذِّهْن الإنسانى ، والصورة التى تُفزع شخصاً قد لا تفزع الآخر ، فأراد الحق سبحانه بهذه الصورة أنْ يشيع قبحها وبشاعتها ، وأنْ يُقبِّحها قُبْحاً عاماً يستوعب كل نواحى القبح والبشاعة عند مختلف الناس .

إذن : الإبهام هنا أفضل ، لأنه يجعلك تذهب فى تصوُّر القبح كلَّ مذهب ، لذلك نستطيع أن نقول : إن الإبهام هنا هو غاية الإيضاح وعَيْن البيان .

إذن : هى شجرة كريهة فى شكلها وفى طعمها وفى رائحتها ، ثم يزيد على ذلك فيُشبِّه طعمها بأنه ﴿كَالْمُهْلِ يَغْلِى فِى الْبُطُونِ (٤٥)﴾ [الدخان] المُهْل هو : المعدن المذاب الذى بلغ الغايةَ فى الحرارة ، أو هو الزيت المغلى .

فمثلاً نرى صانع (الطعمية) يغلى الزيت لفترات طويلة ، حتى يتحوَّل إلى مواد سامة سوداء اللون يُسمُّونها الدُّرْدى ، هذا الذى يسمونه المهل إذا كان من أصول ليِّنة ، وقد يكون من أصول صلبة كالمعادن مثل : الذهب والحديد والنحاس .

ومعنى﴿يَغْلِى فِى الْبُطُونِ (٤٥)﴾ [الدخان] أن درجة حرارته – والعياذ بالله – لا تنخفض بشُرْبه ، فنحن مثلاً حين نشرب الشاى

ساخناً نشعر بلسْعة الحرارة فى الفم أثناء تناوله ، لكن حين ينزل إلى المعدة تنخفض هذه الدرجة .

أما الزَّقوم والعياذ بالله فيظلُّ يغلى حتى فى بطونهم ﴿كَغَلْيِ الْحَمِيمِ (٤٦)﴾ [الدخان]

مثل غليان الماء الذى بلغ أقصى درجة ، وتناهتْ حرارته .

﴿خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٤٧) ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ (٤٨) ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (٤٩)﴾ (١)

لو تأملتَ فعل الأمر هذا ﴿خُذُوهُ .. (٤٧)﴾ [الدخان] والآمر هو الحق سبحانه وتعالى تجده مُخيفاً مرعباً ، ووالله لو قالها ضابط شرطة لمجرم لكانتْ مخيفة ، فما بالكم لو قال الحق سبحانه ﴿فَاعْتِلُوهُ .. (٤٧)﴾ [الدخان] ؟ يعنى : جُرُّوه بشدة وغِلْظة ودون رحمة أو هوادة ، إلى أين ؟

﴿إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٤٧)﴾ [الدخان] ولم يقلْ إلى الجحيم ، فسواء الجحيم يعنى : وسطها لأنه لو كان متطرفاً هنا أو هناك ربما أعطاه أملاً فى الخروج منها ، أو جاءه نسمة هواء تُخفِّف عنه ، إنما فى وسطها بحيث تكون الجحيم حوله من كل ناحية مُطبقة عليه .

ليس هذا وفقط ﴿ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ (٤٨)﴾ [الدخان] فالغليان فى جوفه وفوق رأسه ، وبعد هذا العذاب الحسىّ

---

(١) ذكر الواحدى النيسابورى فى (أسباب النزول ص ٢١٤) : قال قتادة : نزلت هذه الآية فى أبى جهل وذلك أنه قال : أيوعدنى محمد ، والله لأنا أعز من بين جبليها . وقال عكرمة (مرسلاً) ، لقى النبى ﷺ أبا جهل . فقال أبو جهل : لقد علمت أنى أمنع أهل البطحاء وأنا العزيز الكريم . قال : فقتله الله يوم بدر وأذلَّه وعيَّره بكلمته ونزل فيه ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (٤٩)﴾ [الدخان].

يأتى العذاب المعنوى والسخرية والاستهزاء .

﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (٤٩) ﴾ [الدخان] لأن الذَّوق يستوعب جميع أعضاء الجسم ﴿ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (٤٩) ﴾ [الدخان] أى : فى الدنيا وظننتُ أنك ستكون كذلك فى الآخرة ، كما قال سبحانه : ﴿ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا (٣٦) ﴾ [الكهف]

وقوله : ﴿ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (٤٩) ﴾ [الدخان] على سبيل التهكُّم به والسخرية منه .

﴿ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ (٥٠) ﴾

﴿ هَذَا .. (٥٠) ﴾ [الدخان] أى : العذاب الذى نزل بهم ﴿ مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ (٥٠) ﴾ [الدخان] يعنى : تشكُّون فيه وتُكذِّبونه أصبح حقيقة واقعة .

ثم يذكر الحق سبحانه الصنف المقابل ، فيقول تعالى :

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ (٥١) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٢) يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ[1] وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَابِلِينَ (٥٣) كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ (٥٤) ﴾

الجمع بين المتقابلات من أساليب الأداء القرآنى ، لأن التقابل يُزيد الصورة وضوحاً .

---

(١) السندس : رقيق الديباج وهو الحرير الذى يتلوَّن ألواناً . [القاموس القويم ١/٣٣١] .
والإستبرق : هو الديباج الخشن الغليظ ، فارسى معرَّب . [لسان العرب – مادة : برق] .

وقد فَطِن الشاعر العربى إلى هذا المعنى فقال[١]:

فَالوَجْهُ مِثْلُ الصُّبْحِ مُبْيضٌّ وَالشَّعْرُ مِثْلُ اللَّيْلِ مُسْوَدّ
ضِدّانِ لمَّا استجْمعَا حَسُنَا وَالضِّدُّ يظهرُ حُسْنَهُ الضدّ[٢]

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (١٤)﴾ [الانفطار] وعليك أنت أنْ تعقد مقارنة وأنْ تختار ، لذلك الحق سبحانه بعد أنْ حدثنا عن مصير المجرمين وما أعدَّه لهم من ألوان العذاب يذكر سبحانه مصير المتقين وما أعدَّه لهم من النعيم .

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ (٥١)﴾ [الدخان] والمتقى هو الذى يجعل بينه وبين صفات جلال الله وقايةً صفات الجلال ، مثل : القهار الجبار المنتقم ذى البطش الشديد ، فاجعل أيها المؤمن بينك وبين هذه الصفات من الله وقايةً ، لأنك لا تحتمل صفات الجلال من الله .

لذلك قال تعالى ﴿يَـأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ .. (٢٧٨)﴾ [البقرة] وقال : ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ .. (٢٤)﴾ [البقرة] لأنها جندى من جنود صفات القهر والجلال . إذن : هما يُؤدِّيان نفس المعنى .

---

(١) عزَتْ الموسوعة الشعرية هذين البيتين إلى ثلاثة من الشعراء : أبو الشيص الخزاعى (توفى ١٩٦ هجرية) من أهل الكوفة - والثانى هو على بن جبلة - العكوك عراقى (توفى عام ٢١٣ هجرية) - والثالثة هو دوقلة المنبجى تنسب إليه القصيدة المشهورة باليتيمة التى منها هذان البيتان ثم غلب عليها اثنان هما أبو الشيص والعكوك العباسيان ، وتنسب فى بعض المصادر إلى ذى الرمة .

(٢) قصيدة أبى الشيص ٦٦ بيتاً من بحر أحذّ الكامل (الـ ١٥ ، ١٦ منها) ، أما قصيدة العكوك فهى ٦٥ بيتاً من نفس البحر (الـ ١٥ ، ١٦ منها) ، أما قصيدة دوقلة فهى ٦٠ بيتاً من نفس البحر (الـ ١٥ ، ١٦ منها) .

وقوله ﴿ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ (٥١) ﴾ [الدخان] المقام هو مكان الإقامة أو المسكن الذى تسكن فيه وله أجزاء ، تقعد فى جزء وتنام فى جزء وهكذا ، لكن من أهم مُقوِّمات المسكن أنْ يكون آمناً تأمن فيه على نفسك ومالك .

لذلك حينما نفكر فى إقامة مدينة سكنية لا بدَّ أنْ نوفر لها أولاً مقوِّمات الأمان لساكنيها ، وأول هذه المقوِّمات أنْ تكونَ بعيدةً عن مراتع الوحوش والحيوانات المفترسة ، كذلك آمناً من السرقة أو الخائن ، وهو البشر الذى يتغلغل فيك فى بيتك ، ويزعجك بحيث إذا كنت نائماً أو قاعداً قمتَ ووقفتَ له .

فالمكان الأمين أو المقام الأمين هو الذى تأمن فيه من كل شىء إذن : الأمن فى المَقام ، فوق الأمن فى المُقام بالضم . لذلك سيدنا إبراهيم دعا ربه ﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا آمِنًا .. (١٢٦) ﴾ [البقرة] يعنى : أمناً عاماً كما يشترط فى أىِّ بلد .

فلما أعطاه هذه دعا بالأمن الخاص ، فقال : ﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَـٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا .. (٣٥) ﴾ [إبراهيم] ثم أعطاه الحق سبحانه أمناً فوق هذا كله ، وهو حرمة البيت الحرام فقال : ﴿ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا .. (٩٧) ﴾ [آل عمران] حتى أن الرجل كان يَلْقى فيه قاتلَ أبيه فلا يتعرَّض له لحرمة البيت .

لذلك لما حدثتْ أحداثُ البيت الحرام ، وأُطلقَ فيه النار وفُزِّع فيه الآمنون ، خرج علينا من الملاحدة مَن انتهز هذه الفرصة وأخذ يُشكِّك فى قوله تعالى : ﴿ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا (٩٧) ﴾ [آل عمران] لأن ما حدث يتعارض مع هذه الآية .

وينبغى هنا أنْ نُفرِّق بين أسلوبين من أساليب الأداء القرآنى ، فقوله تعالى : ﴿ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا (٩٧) ﴾ [آل عمران] لا يعنى الإخبار

بأن مَنْ دخله كان آمناً ، إنما المراد منه : أطلب منكم أنْ تُؤمِّنوا مَنْ دخله ، فهو أمر شرعى يحتمل أنْ نُطيعه فنُؤمِّن مَنْ دخله ، ويحتمل ألاَّ نطيع فنُروِّع مَنْ دخله .

إذن : الآية فيها إنشاء طلبى ، وليستْ خبراً ، ومعلوم أن الخبر يحتمل الصدق أو الكذب ، أما الإنشاء فلا يحتمل الصدق ولا يحتمل الكذب .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ .. (٢٦)﴾ [النور] البعض يفهم الآية على أن فيها إخباراً من الله تعالى بأن الخبيثات من النساء لابدّ أنْ يكُنَّ للخبيثين من الرجال ، ثم يرى فى واقع المجتمع خلافَ ذلك فيشكّ فى صدق الآية .

لكن المعنى غير ذلك ، المعنى تشريعى : أعطوا الخبيثات للخبيثين ، وأعطوا الطيبات للطيبين ، فهذا أمر شرعىّ قد يُطاع من البعض ، وقد يُعصَى من آخرين .

والحكمة والصواب فى اتباع أوامر الله ليحصلَ التكافؤ بين الاثنين ، وتعتدل كفَّة الحياة الزوجية ، فلو تصوَّرنا رجلاً طيباً يتزوج بامرأة خبيثة ماذا يحدث ؟ يحدث خلاف وعدم توافق ثم يُعيِّرها الزوج بماضيها ويُذلها بسيئاتها السابقة ، أما إنْ أخذ الخبيثُ الخبيثةَ حدث التوافق ، وإنْ قال لها : أنت كنت ، قالت له : وأنت كنتَ .

إذن : الحق سبحانه فرض أشياءَ كونيةً لا تختلف أبداً ، ولا يعارضها واقعُ الحياة ، وفرْض أشياء شرعية متروكة لاختيار المكلّف يعمل بها أو لا يعمل ، فهذه الآية وأمثالها ليستْ أمراً كونياً ، إنما هى أمر شرعى ، كأن الله يقول : يا مَنْ تؤمن بأمر شرعى نفِّذ هذا الكلام .

وقوله تعالى : ﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٢)﴾ [الدخان] الجنات هى البساتين والحدائق ، وهى عند العرب شىء جميل ونعمة كبرى ، فإنْ كان الأمن من الضروريات فالجنات والعيون من الترف وزيادة النعمة .

وقال ﴿وَعُيُونٍ (٥٢)﴾ [الدخان] لأن الجنات لابدَّ لها من عيون تروى زرعها ، وتُغذِّى ثمارها ، وبعد أنْ ضمن لهم الأمن وترف الحياة يضمن لهم الملبس الحسن ﴿يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَابِلِينَ (٥٣)﴾ [الدخان]

السندس هو الحرير الرقيق ، والإستبرق الحرير السميك الغليظ ، وهذا يدل أيضاً على الرفاهية والرِّياش الدَّال على الفخفخة ؛ لأن اللباسَ منه الضرورىّ الذى يستر العورة ، ومنه الرياش ، لأنهم كانوا يُزينون اللباس بريش النعام ، لذلك يقولون حتى الآن (فلان متريش) يعنى : عنده رفاهية فى عيشه .

قال تعالى : ﴿يَـٰبَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ .. (٢٦)﴾ [الأعراف]

إذن : هذه ثلاثة أنواع من اللباس : لباس ضرورى يُوارى العورة ، ولباس الترف والزينة ، ولباس التقوى ، وهو أفضلها وخيرها ، لأن قُصارى ما تأخذه من اللباس هو ستْر عورتك فى الدنيا وإظهارك بمظهر حسن بين الناس ، فهو لباس موقوت بعمرك فى الدنيا ، وربما يموت الإنسان بعد أنْ ينزل من بطن أمه مباشرة ، فلا يكون له نصيب من هذا اللباس ، ولا يكون له عورة تُستر .

أما لباس التقوى فهو زينةٌ لك فى الدنيا ونجاةٌ لك فى الآخرة دار البقاء ودار الخلود ؛ لذلك قال سبحانه : ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ .. (٢٦)﴾ [الأعراف]

نلاحظ أن الحق سبحانه بعد أنْ ذكر ما أعدَّه للكافرين من عقاب ذكر ما أعدَّه للمؤمنين به المُصدِّقين برسله ، وجعل يوم القيامة يوماً للفصل بينهما ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤٠)﴾ [الدخان]

والفصل يكون بين شيئين اتحدوا فى أمر واختلفا فى آخر ، فالمؤمنون والكافرون اتحدوا فى الوجود وفى عطاء الربوبية والتمتُّع بنعم الله تعالى فى الدنيا ، فالله تعالى جعل مُقوِّمات الحياة للجميع : الماء والهواء والطعام .

فهم فيه سواء لأنه ربُّهم جميعاً وخالقهم ، وهو الذى استدعاهم للوجود ، فلابدَّ أنْ يضمَنَ لهم مُقوِّمات حياتهم ، لكن جعل هذه المقومات على مراتب ، فلما تكلَّم عن اللباس قال : ﴿يَـٰبَنِى آدَمَ .. (٢٦)﴾ [الأعراف] ولم يخُصَّ المؤمنين ، لأن هذا العطاء عطاء ألوهية .

﴿قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِى سَوْءَاتِكُمْ .. (٢٦)﴾ [الأعراف] إذن : هما شركاء فى اللباس الضرورى الذى يُوارى العورة ، وفى الرياش الدال على الأُبَّهة والزينة الزائدة عن الضرورة ، وهذه كلها من مُتع الحياة الدنيا ، أما لباس التقوى ففصلَه عن سابقيه ، لأنه لباسٌ خاصٌ بأهل الإيمان .

إذن : بعد أنْ سوَّى الله بيننا جميعاً فى عطاء الربوبية لأن الجميع عباده جاء يوم الفَصْل ، حيث يأخذ كلٌّ منا ما يستحقه ، فالأمر فى الآخرة مختلف ، فللكافرين شجرة الزقوم التى تغلى فى البطون كغَلْى الحميم ، أما المتقون ففى جنات وعيون فى مقام أمين .

كلمة (سُنْدس) و (إستبرق) من أصل فارسى دخلتْ العربية ، واستعملها القرآن الكريم على أنها كلمة عربية سارتْ على ألسنة العرب ؛ لذلك وقف المستشرقون عند هذه الكلمات ومثلها القسطاس وغيرها ، ولا غضاضةَ أنْ تستخدم اللغةُ ألفاظ لغة أخرى .

وما دامتْ هذه الكلمات دخلتْ على العربى ، واستخدمها وفهم معناها حتى أصبحتْ جزءاً من لغته التى يتفاهم بها ، فما المانع من استخدامها ككلمات عربية ؟ ونحن الآن مثلاً نستخدم كلمة (بنك) وهى غير عربية ، وربما نجدها أخفَّ وأرقّ من كلمة مصرف العربية .

وقوله تعالى : ﴿ مُّتَقَابِلِينَ (٥٣) ﴾ [الدخان] فى وَصْف أهل الجنة وكيفية إقامتهم فيها ، والتقابل يدلُّ على الأُنْس حين تكون الوجوه متقابلة متواصلة متقاربة ، وضدها متدابرة ، والتدابر لا يكون إلا فى الخصام ، فكلمة ﴿ مُّتَقَابِلِينَ (٥٣) ﴾ [الدخان] تدل على أُنْس أهل الجنة بعضهم ببعض ، ومحبتهم وتآلفهم .

ثم يقول سبحانه : ﴿ كَذَٰلِكَ .. (٥٤) ﴾ [الدخان] يعنى : مثل هذا النعيم وزيادة عليه ﴿ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ (٥٤) ﴾ [الدخان] الفعل زوَّج يتعدَّى بنفسه ويتعدَّى بالباء ، تقول : زوَّجته فلانة يعنى : جعلتُها زوجة له ، وهو الزواج الشرعى المعروف بين الذكر والأنثى .

أما زوَّجته بكذا يعنى : أضفتُ إليه فرداً مثله يُكوِّن معه زوجاً ، وليس من الضرورى أن يكون أنثى ، فقوله تعالى ﴿ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ (٥٤) ﴾ [الدخان] تعدَّتْ بالباء .

فالمعنى انتقل من مسألة الزوجية التى نعرفها إلى الأُنْس بالجمال الذى هو قمة ما نعرف من اللذات ، وليس بالضرورى العملية إياها[1] ؛ لأننا فى الآخرة سنُخلق خَلْقاً جديداً غير هذا الخَلْق الذى نعيشه ، بدليل أنك تأكل فى الجنة ولا تتغوَّط .

---

(١) هذه النقطة ترد على الذين يطعنون فى الإسلام من غير المسلمين ومن يتبعهم ويصورون الأمر على أن جنة المسلمين كلها جنس ومعاشرة وليس فيها سمو روحى ولا ارتقاء ، فقول الشيخ الشعراوى رحمه الله هنا قاطع فى أن الأمر أُنْسٌ ومصاحبة ، ثم إن الباء هنا تفيد المصاحبة والمزاوجة وليس مقصوداً بها فعل الجنس [عادل أبو المعاطى] .

وعليه فالمعنى المزاوجة بين اثنين ، بصرف النظر عن الذكَر والأنثى ؛ لأن المتعة هناك متعة النظر ، ومتعة الكلام ، ومتعة الأُنْس بقيم أخرى غير التى نعرفها الآن .

وقوله ﴿ بِحُورٍ عِينٍ (٥٤) ﴾ [الدخان] حور : جمع حوراء وهى من نساء الجنة ، والحَوَر صفة فى العين تعنى : شدة البياض وشدة السواد فى العين (وعِين) جمع عَيْناء ، وهى الواسعة العينين مع جمالهما .

إنك إذا نظرتَ إلى فمها لوجدتَ أنه أصغر من عينها مرتين ، لذلك يصفون جمال الفم بأنه مثل خاتم سليمان ، ولك أنْ تتخيَّل هذا المنظر .

ولما كان زواجُ الرجل بالمرأة من أعظم مُتَع الدنيا ، ويحرص عليه كلٌّ من الرجل والمرأة حينما يبلغان الرشد جعله الله من مُتع الآخرة ، لكن على صورة أخرى أنقى ، جعله الله من متع الآخرة بصرف النظر عن العملية الجنسية إياها ، فالمسألة إيناسٌ بما كنتم تعتبرونه نعمةً فى الدنيا ، أما فى الآخرة فمقاييس أخرى ، فى الآخرة أنقى لكم الأشياء من مُنغِّصاتها التى كانت فى الدنيا .

أرأيتم مثلاً ما فى الدنيا من خمر وعسل ولبن ، لكم منها فى الآخرة ، لكن بعدَ أنْ نُصفِّيها لكم مما يُنغِّصها ، فجعل خمر الآخرة لذةً للشاربين ، وخمر الدنيا لا لذةَ فيه ، وجعل اللبن لا يتغيَّر طعمه ، وجعل الماء غير آسن .

كذلك جعل الزواج نقياً من شوائبه فى الدنيا ومُنغِّصاته ، حتى أزواج الدنيا حينما يجمعهم الله فى مُستقر رحمته فى الجنة يجد الزوجُ زوجته فى الدنيا على هيئة أخرى ؛ لأن الله تعالى طهَّرها له ونقَّاها من عيوبها التى كان يأخذها عليها فى الدنيا .

فلو كانتْ مثلاً غير جميلة وجدها على أجمل ما تكون النساء ، ولو كانت فى الدنيا طويلة اللسان وجدها على أحسن ما يكون ، لأن الله سيُنشئهنَّ نشأةً جديدة : ﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً (٣٥) فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا (٣٦) عُرُبًا[1] أَتْرَابًا[2] (٣٧) لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ (٣٨)﴾ [الواقعة] وقال ﴿وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ .. (١٥)﴾ [آل عمران]

إذن : قوله سبحانه : ﴿وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ (٥٤)﴾ [الدخان] هذه الباء نفهم منها أنه زواجٌ غير الذى نعرفه فى الدنيا بين الرجل والمرأة ، وأنه بعيد عن المسألة إياها ، لأن الحياة الأخرى لها نعيمٌ آخر ومقاييس أخرى غير ما نعرفه فى الدنيا .

وكلمة (حور عين) تلفت الأذهان إلى متعة النظر والتلذذ به ، كما ينظر الإنسان إلى صديق يحبه ، فإذا اقتنع واكتفى بهذه النعمة فأهلاً وسهلاً ، وإذا لم يقنعه النظر ، ففى الجنة ما تشتهيه الأنفسُ ويلذّ الأعين .

﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ (٥٥) لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ ۖ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (٥٦)﴾

معنى ﴿يَدْعُونَ .. (٥٥)﴾ [الدخان] يطلبون ﴿فِيهَا .. (٥٥)﴾ [الدخان] أى : فى الجنة ، فإنْ قلتَ : فلماذا يطلبونها وفى الجنة يأتيك

---

(١) العُرُب : جمع عَرُوب : المرأة المتحببة إلى زوجها . [القاموس القويم ١٣/٢] وقال ابن عباس : العُرُب : العواشق لأزواجهن وأزواجهن لهن عاشقون . ذكره ابن كثير فى تفسيره (٢٩٢/٤) .

(٢) الأتراب جمع ترب وهو المساوى فى السِّن للذكر والأنثى . قال ابن عباس : يعنى فى سن واحدة ثلاث وثلاثين سنة . (ابن كثير فى تفسيره ٢٩٢/٤) .

الشىء بمجرد أنْ تريده ، قالوا : المسألة أنه أكل الأكل الطبيعى أو الضرورى ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ (٢١) ﴾ [الواقعة]

وبعد أنْ أكل يريد التفكه ، وما دام تشتهيها نفسك تأتيك حتى لو كانت ﴿ بِكُلِّ فَاكِهَةٍ .. (٥٥) ﴾ [الدخان] يعنى : من كلِّ الأنواع ومن كلِّ الأشكال ، فالواحد منا مهما بلغ من نعيم الدنيا يأكل بعد وجبته الأساسية نوعاً أو نوعين من الفاكهة ، أما فى الجنة فيدعون بكل فاكهة يعنى يا رب هَات لنا بكلِّ الفواكه .

وهنا نسأل : ما البطن التى تتحمل وتتسع لكلِّ هذا ؟ وما هى النفس التى تستقبل كلَّ هذه الأشياء المتماثلة ؟ والله لو كنا فى الدنيا لحدثتْ لنا مشاكل فى المعدة وفى الأمعاء وغيرها ، أما فى الجنة فالأمر مختلف .

وانظر إلى ذيل الآية ﴿ آمِنِينَ (٥٥) ﴾ [الدخان] فجاءت كلمة آمنين لتزيل كل استغراب وتعجُّب ، فهناك كُل كُلَّ ما تحب ، وكُلْ ما تشتهيه نفسُك .

إنه أكْل آمنٌ من معاطب الطعام التى عرفتها فى الدنيا ، أكْلٌ أعدَّه لك ربُّك عز وجل ونقَّاه من كُلِّ ما يُنغِّصه ، ومن كُلِّ عيوب الطعام التى عرفتها فى الدنيا ، ويكفى فى نقائه أنك تأكل منه ما شئتَ ولا تتغوَّط . إذن : نعمة الجنة مُصفاة وخالصة من الشوائب ومن المتاعب .

وقوله سبحانه : ﴿ لا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلاَّ الْمَوْتَةَ الأُولَىٰ ..(٥٦) ﴾ [الدخان] أى : فى الجنة أيضاً ، فالجنة ظرف وليس فى الجنة موت ، إذن : كيف يستثنى فيها ﴿ إِلاَّ الْمَوْتَةَ الأُولَىٰ ..(٥٦) ﴾ [الدخان] إذن : المعنى أنهم لا يذوقون فى الجنة الموت ، فالموتُ بالنسبة لهم انتهى بالموتة الأولى التى حدثت لهم فى الدنيا ، أما فى الجنة فلا موت .

وكلمة ﴿يَذُوقُونَ .. (٥٦)﴾ [الدخان] جعلتْ حاسَّة الذوْق التى تقتصر على اللسان والمنطقة التى حوله المسئولة عن تذوُّق الأشياء ، جعل هذه الحاسة عامة فى كُلِّ الجسم تستوعب كلَّ الحواس الأخرى .

كما قال سبحانه فى عذاب أهل النار ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (٤٩)﴾ [الدخان] فهو يذوق العذاب لا بلسانه ، ولكن بكلِّ عضو فيه ، وقال سبحانه فى آية أخرى : ﴿فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١١٢)﴾ [النحل] فجعل حاسَّة التذوُّق هنا كاللباس الذى يستوعب الجسم كله ، فكأن كلَّ جزء من جسمه يذوق طَعْم العذاب .

وقوله : ﴿وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (٥٦)﴾ [الدخان] أى : أولاً وقبل هذا النعيم وقاهم عذابَ الجحيم ، فالوقاية من العذاب سابقة لدخولهم الجنة ومقدمة عليه ، لأن القاعدة كما قلنا : التخلية قبل التحلية ، لذلك قال سبحانه : ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ .. (١٨٥)﴾ [آل عمران]

﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٥٧)﴾

أى : أن الجنة وما فيها من النعيم وقبل ذلك الوقاية من العذاب ، كل هذا ﴿فَضْلاً مِّن رَّبِّكَ .. (٥٧)﴾ [الدخان] أى : تفضُّلاً منه سبحانه علينا وتكرُّماً منه على خَلْقه ليس بأعمالهم .

وهذه المسألة موضع خلاف بين العلماء ، لأن الحق سبحانه قال فى آية أخرى ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٢)﴾ [النحل] وقال أيضاً : ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٥٨)﴾ [يونس]

إذن : عندنا آيات تقول بفضل الله ، وآيات تقول بالعمل ، ولا بدَّ

أنْ يتصيَّد خصوم الإسلام مثل هذه المسائل ، ويحاولوا أنْ يُشكِّكوا فى كلام رب العالمين ، وأنْ يتهموه بالتناقض ، تعالى اللهُ عن ذلك عُلواً كبيراً .

ولبيان هذه المسألة نقول : أنت حين تهتم بولدك وتنفق عليه وتعطيه دروساً ليتفوق ، تفعل ذلك لصالحه أم لصالحك أنت ؟ وحين يتفوَّق تأتى له بجائزة تحفزه على الاستمرار فى النجاح . إذن : أنت كلفتَ نفسك بأشياء ونفقات لا تعودُ عليك ، إنما تعود على ابنك .

كذلك الحق سبحانه وتعالى يتعامل مع خَلْقه ، فالله خلقنا وخلق لنا مُقوِّمات حياتنا ، ثم أعطانا المنهج وأثابنا عليه فانتفعنا بالاستقامة عليه فى الدنيا وبالثواب عليه فى الآخرة .

والحق سبحانه يفعل ذلك وهو الغنىُّ عنَّا ، فله سبحانه كلُّ صفات الكمال قبل أنْ يخلق هذا الخَلْق ، إذن : لا تنفعه طاعة ، ولا تضرُّه معصية .

وإياك أنْ تظنَّ أنك بطاعتك لله وعبادتك له سبحانه أنك تسند عرشه جَلَّ وعلا أو تزيد فى خلقه ، فأنت المستفيد أولاً وأخيراً بمنهج الله ، وشرفٌ أنْ تنتسبَ إلى هذا المنهج ، وأنْ تكونَ عبداً لله تعالى .

لذلك ورد فى الحديث القدسى : « يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قَلْب رجل واحد منكم ما نقصَ ذلك من مُلكى شيئاً . يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك فى ملكى شيئاً . يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم اجتمعوا فى صعيد واحد وسألنى كلُّ واحد مسألته فقضيتُها له ما نقصَ ذلك فى

ملكى شيئاً إلا كما ينقص المخْيَطُ إذا أُدخلَ البحر ، ذلك أنِّى جواد ماجدٌ واجد ، عطائى كلام ، وعذابى كلام ، إنما أمرى لشىء إذا أردتُه أنْ أقول له كُنْ فيكون »[(١)] .

إذن : التكليف الذى يأتينا من الله تعالى لا ينتفع الله منه بشىء ، إنما يعود نفعه علينا ، ولو أخذنا المسألة بالعقل لقُلْنا أنه كان علينا أنْ ندفع الثمن ، فالثواب على الطاعة إذن محْضُ فضل من الله ، بل مجرد التشريع والمنهج الذى كلَّفك الله به محض فضل منه سبحانه .

لذلك قال تعالى : ﴿فَضْلاً مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٥٧)﴾ [الدخان] الفوز العظيم أننى حين أسير على وفْق منهج الله أنتفع به فى الدنيا وأُثاب عليه فى الآخرة .

أما قوله سبحانه : ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٢)﴾ [النحل] قالوا : يعنى بسبب أعمالكم الصالحة ، فالعمل الصالح ليس ثمناً للجنة ولكنه سببٌ لدخولها ، وقد أوضح سيدنا رسول الله ﷺ هذه المسألة حين قال : « لا يدخل أحدٌ منكم الجنةَ بعمله ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا إلا أنْ يتغمَّدنى الله برحمته »[(٢)] .

وفى ضوء هذا الحديث نفهم قوله تعالى : ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٥٨)﴾ [يونس]

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٥٨)﴾

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه (٢٤١٩) ، وابن ماجه فى سننه (٤٢٤٧) وأحمد بن حنبل فى مسنده (٢٠٤٠٥ ، ٢٠٥٦٠) كلهم من حديث أبى ذر الغفارى رضى الله عنه ، قال الترمذى : هذا حديث حسن .

(٢) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٢٤١) ومسلم فى صحيحه (٥٠٣٧ ، ٥٠٣٨ ، ٥٠٤٠) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

الحق سبحانه يعود هنا لمخاطبة نبيه ﷺ وبيان نعمته عليه ، ومن هذه النعم أنه سبحانه يسَّر له القرآن يقرؤه بلسان عربى مبين ، فالضمير فى ﴿يَسَّرْنَاهُ .. (٥٨)﴾ [الدخان] يعود على القرآن بدليل قوله ﴿بِلِسَانِكَ .. (٥٨)﴾ [الدخان] فهذا إمداد لغوى ؛ حيث جعله الله بلسان ولغة عربية وهو لسان الرسول ﷺ ولغته التى ينطق بها .

وقوله : ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٥٨)﴾ [الدخان] دل على أنه بلسانك وبلسان قومك ، قال تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ (٤)﴾ [إبراهيم] فهو بلسانك تبليغاً وبلسانهم تلقياً واستقبالاً ، ثم بلاغاً أيضاً لأنهم هم الذين سيقومون بمهمة البلاغ بعد رسول الله .

﴿فَارْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ (٥٩)﴾

﴿فَارْتَقِبْ .. (٥٩)﴾ [الدخان] يعنى : انتظر ﴿إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ (٥٩)﴾ [الدخان] منتظرون ، فماذا ينتظر رسول الله ؟ وماذا ينتظر الكافرون ؟ رسول الله صاحبُ دعوة وهدى ، جاء بنور يهدى به هؤلاء القوم ، وهم مناهضون لدعوته يُناصبونه العداء ، ويريدون أنْ يُطفئوا هذا النور ، هو حريصٌ عليهم مُحب لهدايتهم رغم إيذائهم له وسخريتهم منه ، حتى إنه ليكاد أنْ يهلك نفسه فى سبيل دعوته .

لذلك كثيراً ما خاطبه ربه مُسلِّياً له مُخفِّفاً عنه ، يخبره ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاغُ .. (٤٨)﴾ [الشورى] ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣)﴾ [الشعراء]

وقال : ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَـكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٣٣)﴾ [الأنعام] يعنى : لا تحزن

يا محمد لما يقولونه عنك ، لأنهم يحبونك ، ويُقدِّرونك ويعلمون صدْقك ومكانتك ، فأنت عندهم أعلى من أنْ تكذبَ عليهم ، ولكن المَسألة أنهم يجحدون بآياتى ، فالمسألة عندى أنا .

كلمة ﴿فَارْتَقِبْ .. (٥٩)﴾ [الدخان] جاءت فى هذه السورة مرتين هنا ، وفى قوله سبحانه : ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ (١٠)﴾ [الدخان] لما دعا رسول الله عليهم وقال : « اللهم اشْدُدْ وطأتك على مُضر ، واجعلها عليهم سنين كسِنِي يوسف »[(١)] .

فنزل بهم من القحط والجدب ما نزل حتى أكلوا الجيف والعِلْهز[(٢)] وضجّوا يدعون الله أنْ يكشف عنهم ، والله يعلم أنه لو كشف عنهم لَعادوا لما كانوا عليه من التكذيب لرسوله .

لذلك خاطب الله رسوله بقوله : ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٧٧)﴾ [غافر]

فمعنى ﴿فَارْتَقِبْ .. (٥٩)﴾ [الدخان] أى : انتظر ما يحلُّ بهم من العذاب لأنهم يرتقبون ما يُريحهم منك ويُخلِّصهم من دعوتك ، لذلك ربنا سبحانه وتعالى يُعلِّم رسوله كيف يجادلهم ، فيقول لهم : ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ (٥٢)﴾ [التوبة]

يعنى : قلْ لهم يا محمد : أنتم تتربصون بنا إحدى الحسنيين ،

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٧٦٢ ، ٩٥١ ، ٢٧١٥ ، ٣١٣٤) وكذا مسلم فى صحيحه (١٠٨٢ ، ١٠٨٣) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

(٢) العلهز : وبر يُخلط بدماء الحَلَم كانت العرب فى الجاهلية تأكله فى الجدب . قال ابن الأثير : هو شىء يتخذونه فى سنى المجاعة يخلطون الدم بأوبار الإبل ثم يشوونه بالنار ويأكلونه . [لسان العرب مادة : علهز] .

إما النصر عليكم ، وإما أنْ نموت شهداء ، فإن انتصرنا عليكم عَلا منهجُ الله وساد ، وإنْ متْنَا كنا شهداء أحياء عند ربنا نُرزق .

ونَحن نتربَّص بكم أنْ يُصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا ، إذن : نحن تربَّصنا بكم بشرٍّ لكم ، وأنتم تربصتم بنا بخير لنا .

سُورَةُ الجَاثِيَةِ

سورة الجاثية(١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝٢﴾

هذه السورة أيضاً من الحواميم ، وهى السور التى افتُتحت بقوله تعالى (حم) ، وسبق الكلام فيها ، لكن ما دام أن الحق كرَّرها فلا بدَّ لنا أنْ نتعرَّض لها بما يفتح الله به ولا يُعد هذا تكراراً .

فإذا نظرنا إلى الحياة التى نراها وجدنا فيها مُلكاً مشاهداً ، وملكوتاً غير مشاهد ، وكل ما غاب عن حواسِّك فهو غَيْبٌ لا يعلمه إلا الله ، خُذْ مثلاً العقائد والعبادات تجد أنها تقوم على هذين الجانبين

---

(١) سورة الجاثية هى السورة رقم ٤٥ فى ترتيب المصحف الشريف ، وهى سورة مكية كلها فى قول الحسن وجابر وعكرمة . وقال ابن عباس وقتادة : إلا آية هى ﴿قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ .. ﴿١٤﴾﴾ [الجاثية] نزلت بالمدينة فى عمر بن الخطاب ذكره الماوردى . ولكن قال المهدوى والنحاس عن ابن عباس أنها نزلت بمكة أن رجلاً شتم عمر قبل الهجرة فأراد أن يبطش به فأنزل الله الآية . وهى سبع وثلاثون آية . ذكره القرطبى فى تفسيره (٦٢٠٦/٩) وترتيب نزولها هو نفس ترتيب وجودها فى المصحف نزلت بعد الدخان وقبل الأحقاف ، وهى السورة رقم ٦٤ فى ترتيب النزول .

الغيب والمشهد .

فأنت تستطيع بالعقل أنْ تبرهن على وحدانية الله ، وعلى وجوده سبحانه ، وأنه خالق هذا الكون كله ، فالإنسان طرأ على هذا الكون ووجده كما هو الآن ، الشمس والقمر والنجوم ، السماء والأرض ، الماء والهواء .

لذلك لم يدَّع أحدٌ أنه خلقه ، قال سبحانه ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ .. (٢٥) ﴾ [لقمان] وقال : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ .. (٨٧) ﴾ [الزخرف]

هذا مشهد ، وفى العقائد أمور أخرى غَيْبٌ نؤمن بها لأن الله أخبرنا بها ، كأمور الآخرة والبعث والحساب والجنة والنار ، خُذْ مثلاً من العبادات الصلاة نستطيع أنْ نفهم لها عللاً عقلية ، فنقول : إن الله فرضها علينا خمْس مرات فى اليوم والليلة ليتردد العبدُ على خالقه ، وليستمدَّ منه القوة والعوْن ، وليأنس بلقائه ، وليأخذ من فيض عطائه وإشراقاته .

والصلاة كذلك تُسوِّى بين العباد الغنى والفقير ، الرئيس والمرؤوس الكل ساجد لله ، هذا استطراقٌ عبودىّ فى الكون ، هذا كله مشهد ، لكن بالله قُلْ لى : لماذا كان الصبحُ ركعتين ، والظهر أربعاً ، والمغرب ثلاثاً ؟ هذه غيْبٌ نؤمن به كما هو ، وكما أخبرنا به رسول الله المؤتمن على شرع الله .

كذلك فى القرآن الكريم غيب ومشهد ، غيب فى هذه الحروف المقطَّعة التى استأثر اللهُ بعلم معناها ، وباقى القرآن بعد ذلك مشهدٌ لأنه بيِّن واضح المعنى ظاهرُ المقصد ، لأن الحق سبحانه يريد أنْ يتعبَّدنا بالغيب كما تعبَّدنا بالمشهد .

والغيب هو محلُّ الإيمان ، أما المشهد فليس مجالاً للإيمان أو الكفر ، فلا تقول مثلاً : أومن بأن الشمسَ طالعةٌ ، لكن أقول : أومن باليوم الآخر .

فقوله تعالى هنا (حَم) يعنى : حروف مُقطَّعة فى بداية بعض سور القرآن هى غيب نؤمن به ونترك معناه لمنْزله سبحانه ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ .. (٢)﴾ [الجاثية] هذا هو المشهد ، وفى السورة قبلها (حم) غَيْب ﴿وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢)﴾ [الدخان] مشهد .

﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ ..(٣)﴾ [الدخان] يعنى : الاثنان الغيب والمشهد مُنزّل من عند الله ، فهما سواء فى التعبد لله تعالى ، فكما تعبَّدك بالواضح المفهوم تعبَّدك بالغيب الذى لا تفهمه ، وكُل ما هنالك أننا نحوم حولها ، نحاول أنْ نستشفّ بعض أسرارها .

لذلك نقول : إن القرآن كله مبنىٌّ على الوَصْل فى الآيات وفى السور ، حتى أن آخر كلمة فى سورة الناس موصولة بأول كلمة فى الفاتحة ، فنقول : ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وهكذا .

لذلك نُسمِّى قارئ القرآن (الحالّ المرتحل) يعنى : ما يكاد ينتهى من القرآن حتى يبدأ من أوله .

أما الحروف المقطّعة فى أوائل السور فمبنيةٌ على الوقْف تقول : حا ، ميم ، ألف لام ميم ، فى حين أنك لا تقف على نفس الحروف فى ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (١)﴾ [الشرح]

إذن : لكل نطق علَّة وله أسرار ، فهو أشبه بأسنان المفتاح الذى يفتح لك ، فمفتاح يفتح لك بسِنٍّ واحد ، ومفتاح يفتح لك بسنِّيْن ، ومفتاح يفتح لك بثلاثة .

وقوله :﴿مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝٢﴾ [الجاثية] اختار هنا اسم العزيز ، لأن القرآن سينزل وسوف تجد من القوم مَنْ يكذِّبه ، فلا تهتم لذلك ولا يغرنَّك تكذيبهم ، فالله مُنزل هذا الكتاب عزيز لا يُغلب ، وهذه العزة ليستْ بقهر ، إنما عزة بحكمة ﴿الْحَكِيمِ ۝٢﴾ [الجاثية] والحكيم : هو الذى يضع الشىء فى موضعه المناسب .

﴿إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٣﴾

قوله تعالى ﴿إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ .. ۝٣﴾ [الجاثية] جعل السموات والأرض ظرفاً فلا تنظر إلى السموات والأرض فى ذاتها ، بل انظر لما فيهما من الآيات والأسرار ، فهى مليئةٌ بالآيات التى يجلِّيها الله لوقتها ، وكلما تفتحتْ العقول وتطوَّرتْ العلوم ظهر لنا آية من آيات الله فى السماوات والأرض .

انظر مثلاً إلى الثورة فى مجال الاتصالات ، وما فى الهواء من ذبذبات وبثٍّ (للتليفزيون) ، ومع ذلك لا تختلط ولا تتداخل ، انظر إلى الفضاء الواسع وما توصَّل إليه الإنسان من غزو الفضاء وإطلاق سفن وصواريخ تصل إلى كواكب أخرى وتستقرّ عليها وترسل لنا صُوراً منها ، كلُّ هذه آياتٌ من آيات الله يُجلِّيها سبحانه لنا فى وقتها المناسب .

إذن : آياتُ الله كثيرة فى السماوات والأرض بل وتحت الأرض ، لذلك يمتنُّ الله بنعمه علينا ، فيقول : ﴿لَهُ مَا فِى السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ ﴿٦﴾﴾ [طه]

لذلك سيدنا عبدالله بن مسعود يقول[1] : أثيروا القرآن . يعنى (هيجوه) مثل الأرض حينما نحرثها لنأخذ ما فيها من خيرات ، كذلك كل شىء منسوب إلى الله تعالى فيه ما لا يُحصَى من كنوز الخير .

وإذا كانت السمواتُ والأرض ظرفاً فلنا أنْ نسأل : أيهما أثمن الظرف أم المظروف فيه ؟ فالخطاب أو الرسالة أثمن أم الظرف الذى تُوضَع فيه ؟ الخزينة أو ما يوضع فيها أنفس .

كذلك السماوات والأرض مع عظمهما وقُوتهما ، فما فيهما من آيات وعجائب أعظم منهما وأنفس ، لذلك تذكرون أننا حرَّمنا أنْ نضع شيئاً بين أوراق المصحف ، لماذا ؟ حتى لا يكون كتاب الله تعالى ظرفاً لشىء ، مهما كان غالياً وثميناً عندك ، لأن القرآن أثمن وأغلى من أى شىء آخر ، فلا تجعله ظرفاً لشىء .

وقوله : ﴿لآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾ [الجاثية] آيات جمع آية ، وهى الشىء البالغ فى الحُسْن مَبْلغاً كما نقول : فلان آيةٌ فى الحسن أو فى البلاغة ، أو فى الكرم ، إذن : آية تعنى الشىء العجيب فى بابه .

وبيَّنا أن كلمة آية تُطلق على معَانٍ ثلاثة : آيات كونية تثبت قدرة

---

(١) أورد القرطبى فى تفسيره (١/٤٥٣) حديث : أثيروا القرآن فإنه علم الأولين والآخرين . وفى رواية أخرى : من أراد العلم فليثوِّر القرآن . ومثله فى تفسير اللباب لابن عادل (١/٣٧٥) [تفسير آية ٧١ البقرة] وذكره معزواً لابن مسعود ابنُ منظور فى لسان العرب مادة ثور . وصاحب تاج العروس وكذلك ابن الأثير فى « النهاية فى غريب الأثر » .

الخالق سبحانه وحكمته ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ .. (٣٧)﴾ [فصلت]

فإنْ كان هذا الشيء مُتفرداً بشيء عجيب دالٍّ على القدرة سُمِّى آية وحده ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ .. (١٢)﴾ [الإسراء] فكلٌّ منهما آية وحده .

وقال في عيسى بن مريم عليه السلام وأمه مريم : ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً .. (٥٠)﴾ [المؤمنون] فهما آية واحدة ، لأن وجه العجب فيهما واحد ، والجامع بينهما في الإعجاز أمر واحد ، فكانا آية واحدة.

ثم بعد ذلك آيات معجزات تأتى مصاحبة للرسل لتؤيدهم وتُثبت صدقهم في البلاغ عن الله مثل : عصا موسى ، وناقة صالح .

ثم النوع الثالث من الآيات هى آيات الذكر الحكيم في القرآن الكريم ، ويُسمُّونها حاملة الأحكام .

فمعنى : ﴿لآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٣)﴾ [الجاثية] يعنى : أيها المؤمنون بى تنبهوا لهذه الآيات لتُقنعوا بها غيركم ممَّنْ لم يؤمن من الكافرين والملاحدة ، لذلك نقعد (ندادى) فيهم ونقول لهم : انظروا كذا وانظروا كذا ، تأملوا قدرة الله في كذا وكذا .

هذه رسالتنا أنْ ندعو الناسَ ، وأنْ ندلَّهم على الله بماذا ؟ بآياته في الكون ، لذلك ربنا سبحانه يُعلِّمنا كيف ندلُّ الناسَ بالآيات فيقول : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (٣٧)﴾ [فصلت]

يعنى : لا تغرنكم عظمة هذه الآيات ؛ فخالقها أعظم ، وأحلى من

الحُسْن مَنْ خلق الحسن ، فايَّاكم أنْ تنصرفوا بإعجابكم بالليل والنهار والشمس والقمر عن خالقها ، فهو المستحق للعبادة وليس هى ، وهذا يعنى أن الخالق سبحانه حريصٌ على صَنْعته ، حريصٌ على هداية الناس ونجاتهم مما يهلكهم .

فكأن هذه الآية تقول للمؤمنين بالله إنَّ هذه الآيات الكونية جعلها اللهُ لتقنعكم أولاً ، ثم تقنعون بها غيركم .

لذلك لو نظرنا إلى علماء الدين وعلماء الطبيعة فى مجالات الإنسان والحيوان والنبات والجمادات وجدنا علماءَ الطبيعة أسبقَ لأن علماء الدين يُبيِّنون للناس الحلال والحرام ، إنما ينطلقون أولاً من الإيمان بالله ، فبيان الأحكام فرعُ الإيمان ، فكأن النظر فى الآيات الكونية والاستدلال بها على خالقها عز وجل أهمّ .

ومن عجائب صُنْع الله فى خلقه أنهم فى أواخر العشرينيات قالوا عن السموات السبع أنها الكواكب السبع التى تدور حول الشمس ، وفى العام الذى يليه اكتشفوا كوكباً آخر إلى أنْ وصل عددهم إلى عشرة ، ثم اكتشفوا كوكب الزُّهرة ، وهكذا تغيرتْ كلّ النظريات القديمة .

ومن عجائب الخَلْق فى هذه الكواكب أننا نعرف أن اليوم أقلُّ فى الزمن من السنة ، لأن اليوم $\frac{١}{٣٦٥}$ من السنة ، وبعد أنْ عرفنا علم الهندسة الفراغية وجدنا الزهرة وهو ثانى نجم بعد الشمس ، وقبله عطارد ..

ومن العجيب أنهم وجدوا أن يوم الزهرة أطولُ من عام الزهرة ، فاليوم عندنا هو دورة الأرض حول نفسها ، والسنة دورتها حول الشمس ، فلما لاحظوا يوم الزهرة قياساً على يوم الأرض وجدوا أن

اليوم أطولُ من السنة ، فيوم الزهرة ٢٤٤ من أيام الأرض ، والسنة ٢٢٥ من أيام الأرض .

وهذا صحيح لأن الجهة مُنفكّة ، فلكلٍّ نجم حركته ، وهذه الحركة قد تكون سريعة فى دورانه حول نفسه ، وبطيئة فى دورانه حول الشمس أو العكس ، ومن هنا يأتى الاختلاف ولا مانعَ أنْ يكونَ اليومُ أطولَ من السنة ، وآخر هذه الكواكب بلوتو وجدوا أن يومه يساوى ٦,٥ يوم من أيام الأرض ، وسنته ٢٦٨ يوماً من أيام الأرض .

نفهم من هذا قدرة الخالق سبحانه ، وأن هذا الكون خُلِقَ بدقّة وإحكام ليس مصادفةً ، وليس مجرد نظام رتيب مثل القوالب الجامدة ، إنما طلاقة قدرة وقيومية تحرك هذا الكون وتديره بكلِّ دقَّة وإحكام .

ثم لو نظر الإنسانُ فى نفسه لوجد عالماً آخر مليئاً بالآيات ، انظر إلى الناس واختلاف لغاتهم ولهجاتهم وتكوينهم وبصماتهم : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ (٢٢) ﴾ [الروم]

ولو شاء سبحانه لَجعلَنا على لون واحد ، ولسان واحد ، لكن من حكمته تعالى فى الخَلْق أنْ يجمعك بغيرك فى شىء متفق ، ثم يُميِّزك عنه بشىء آخر مختلف تماماً .

كنا نعرف فى التمييز بين الناس بصمة الإصبع ، الآن وجدوا بصمة للصوت ، وبصمة للفكِّ ، وبصمة للرائحة ، كل هذه البصمات تميز الإنسان ، بمعنى أنها لا تتكرر فى شخص آخر على كثرة العدد ، أليس هذا إعجازاً فى الخَلْق يدعونا إلى الإيمان بالخالق جلَّ وعلا ؟

قلنا : من عجائب الخَلْق فى جسم الإنسان أنه لا يحدث فيه استطراقٌ حرارىٌّ كما يحدث فى باقى الأجسام ، فحرارة الجسم العادية ٣٧° تجدها فى الإنسان عند خَطِّ الاستواء وفى الإنسان فى القطب المتجمد ، لأن الجسم يحتفظ فى داخله بهذه الدرجة ، ثم تجد لكل عضو من أعضاء الجسم حرارته المناسبة له كى يؤدى مهمته .

فتتعجب حين تعلم أن العين لا تزيد حرارتها عن ٩° ، فى حين أن الكبد لا تقلّ درجة حرارته عن ٤٠° ، وهما فى جسم واحد متصل ، ومع ذلك لا يحدث فيه استطراقٌ حرارىٌّ فتتعدَّى حرارة الكبد إلى حرارة العين مثلاً .

لذلك كما اهتمَّ الإسلام بتشريع الحلال والحرام وبيانه للناس اهتمَّ بدرجة أكبر ببيان آيات الله الكونية فى كُلِّ أنواع المخلوقات إنسان وحيوان ونبات وجماد .

واقرأ إن شئت : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ[1] بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ[2] سُودٌ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ (٢٨)﴾ [فاطر]

هل هنا حكم شرعى فى الصلاة أو الحج أو الصيام ؟ كلها دعوة للنظر وللتأمل فى الكون ، والعلماء هنا هم علماء الكونيات لا علماء الدين ، فهم أعرفُ الناس بآيات الله ، وهم أعرفُ الناس بالله وهم أكثرُ الناس لله خشيةً ، لماذا ؟

---

(١) الجدد : أجزاء وقطع ذات ألوان مختلفة . والجدَّة من الشىء : الجزء منه يخالف لونه لون سائره . [القاموس القويم ١/١١٨] .

(٢) الغرابيب : جمع غربيب ، وهو الشديد السواد . [القاموس القويم ٢/٥٠] .

لأنهم وقفوا على آياته بأنفسهم ، فهم أعرفُ الناس بها ، لذلك لم يهمل الدين علماً من العلوم أبداً ، لأن العلم يخدم قضية الإيمان وقضية التوحيد .

الحق سبحانه وتعالى يعطينا فى القرآن كلَّ هذه الأمثال لنأخذ منها الدليل على وجوده تعالى ، ونأخذ منها صفات القهر والحكمة والعزة والرحمة .. الخ بل نأخذ من الآيات الكونية ما تستقيم به حياتنا وما نُصحِّح به مفاهيمنا عن الأشياء .

فمثلاً خُذْ علاقة الرجل بالمرأة ، البعض يرى أن الرجل ضد المرأة ؛ وأنهما على طرفى نقيض ، فنسمع أنصارَ المرأة ويقابلهم أنصار الرجل وكأنها معركة ، فى حين أننا نقرأ القرآن فنجد قوله تعالى : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣﴾ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾ ﴾ [الليل]

فالمخلوقات المتقابلة لا تعنى أنها متضادة ، وإياك أنْ تظنَّ أن الليل ضدُّ النهار ، نعم هو يقابله فى طبيعة الأشياء لكن لا يضاده ، فالليل يساند النهار ويساعده ، والنهار يساند الليل ويساعده فهما متكاملان ، الليل للراحة والنهار للعمل ، وكلاهما مُهم للآخر ، وكلاهما له مهمة فى الحياة ودَوْرٌ .

كذلك الحال فى الذكر والأنثى . إذن : هذه الآية الكونية تُعلِّمنا درساً فى حياتنا الاجتماعية ، وأنه لا داعىَ لكلِّ هذه الضجة حول علاقة الرجل بالمرأة ، وعودوا إلى القرآن ففيه الشفاء ، وفيه حلول كل مشاكلنا .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ ﴾

السياق القرآنى هنا ينقلنا من النظر فى آيات السموات والأرض إلى النظر فى ذات أنفسنا ، كما قال سبحانه : ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ (٢١)﴾ [الذاريات] فالدليل على الوجود الأعلى لا يقتصر على آيات السماوات والأرض ، فالإعجاز فى الذرَّة كما هو فى المجرَّة ، وفى جسم الإنسان وأعضائه آيات وعجائب .

وقد عبَّر الشاعر[1] عن ذلك حين قال :

وَتحسَبُ أنَّكَ جرْمٌ صَغيرٌ وَفيكَ انْطَوَى العَالَمُ الأكبر[2]

وكلمة ﴿خَلْقِكُمْ .. (٤)﴾ [الجاثية] ساعة تسمع كلمة الخَلْق تفهم منها الإيجادَ من العدم ، كان الشىء معدوماً فأوجده الله ، والخَلْق لا يُطلق على الحدث إنما يُطلق على المخلوق ؛ لذلك قال تعالى : ﴿هَـٰذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ .. (١١)﴾ [لقمان] فمعنى خَلْق هنا يعنى مخلوق . وبمعنى الحدث فى ﴿مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ .. (١١)﴾ [لقمان]

فقوله : ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ .. (٤)﴾ [الجاثية] أى : من الآيات الكونية خلقكم أى البشر . عملية الخَلْق لها مراحل هى التى مَرَّ بها سيدنا آدم حيث لم يكُنْ موجوداً فأوجده الله من العدم ، فكان طيناً فسوَّاه

---

(١) هو الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه ابن عم رسول الله وزوج ابنته فاطمة ورابع الخلفاء الراشدين .

(٢) نص أبياته فى الموسوعة الشعرية من قصيدة من بحر المتقارب من أربعة أبيات

أتزعم أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

وهو فيها أيضاً من قول المفتى فتح الله من قصيدة من ٦ أبيات من بحر المتقارب أيضاً .

وقد توفى المفتى فتح الله عام ١٢٦٠ هجرية .

ونفخ فيه الروح فدبَّتْ فيه الحياة وصار إنساناً ، ثم جعل نسله من بعده بالتزاوج بين الذكر والأنثى .

إذن : فى خَلْقنا مرحلتان مرحلة الخَلْق الأول لأبينا آدم ، ومرحلة البَثِّ والنشْر عن طريق التكاثر ، لذلك قال سبحانه فى آية أخرى : ﴿ يَـأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً .. (١) ﴾ [النساء]

إذن : لنا خَلْق من عدم وبَثٌّ أى نشر ، وانتشار من التناسل ، أما الدواب فلم يذكر فيها إلا مرحلة البث ﴿ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ .. (٤) ﴾ [الجاثية] أى : ينشر ، فأين مرحلة خَلْقها ؟

أولاً : الدابة هى كلُّ ما يدبّ على الأرض غير الإنسان ، وفى اللغة لونٌ من الأسلوب يُسمُّونه (الاحتباك)[1] وهو باب من أبواب البلاغة يعرفه المتخصصون فيها .

والاحتباك أن يكون فى الكلام شيئان يُوضح أحدهما الآخرَ ، ويغنى عنه ، وأوضح مثال على ذلك فى القرآن قوله تعالى : ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِى فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ .. (١٣) ﴾ [آل عمران]

فقوله ﴿ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ (١٣) ﴾ [آل عمران] دلَّ على أن الأولى مؤمنة ، أى : فئة مؤمنة تقاتل فى سبيل الله ، وأخرى كافرة تقاتل فى سبيل الشيطان ، فدلَّ المذكور على المحذوف بالمقابلة .

---

(١) نقل السيوطى فى الإتقان فى علوم القرآن (١/٢٩٩) فى الإيجاز والإطناب قال : قال الأندلسى فى شرح البديعية : من أنواع البديع الاحتباك وهو نوع عزيز وهو أن يحذف من الأول ما أثبت نظيره فى الثانى ، ومن الثانى ما أثبت نظيره فى الأول ، كقوله تعالى : ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ (١٧١) ﴾ [البقرة] وتقديرها : ومثل الأنبياء والكفار كمثل الذى ينعق والذى يُنعق به .

فالمعنى فى قوله تعالى : ﴿وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ (٤)﴾ [الجاثية] أتى بالخَلْق فى الأولى وترك البث ، وأتى بالبثِّ فى الثانية وترك الخَلْق ، وعليه يكون المعنى : وفى خلقكم وما بثَّ منكم ، وفى خلق الدواب وما بثَّ منها .

﴿آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٤)﴾ [الجاثية] فالحق سبحانه عرَّفنا كيفية الخَلْق الأول من العدم بخلقه لآدم ، وأخبرنا بمراحل هذا الخَلْق حتى استوى آدمُ إنساناً كاملاً يتحرَّك ويسعى فى الأرض ولم يذكر تفاصيل خَلْق غيره لنقيسَ نحن على ما عرفناه .

فلما تكلَّم عن حواء قال : ﴿الَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا .. (١)﴾ [النساء] يعنى : على طريقتها ، كذلك لم يتكلم فى خَلْق الدواب لأنها تُقاس على خَلْق آدم .

ولا شكَّ أن المتأمل فى خَلْق الإنسان والدوابّ يجد الكثير من الآيات والمعجزات الدالَّة على طلاقة القدرة للخالق سبحانه ، ففى الخَلْق الأول طلاقَةُ قدرة حيث خلق من العدم وعلى غير مثال سابق ، فأوجد آدم بلا أب وبلا أم ، ثم خلق منه حواء فكانت من أب بلا أم ، وخلق عيسى عليه السلام من أم بلا أب ، وخلق عامة الخَلْق من أب وأم .

إذن : طلاقة القدرة استوعبتْ كُلَّ احتمالات المسألة عقلياً ، حتى ولو مرة واحدة ليحدثَ بها الدليلُ والإعجاز وليثبت الحقّ لنفسه سبحانه : ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٨٢)﴾ [يس]

والذى يملك العطاء يملك المنع ، فقد تتوافر دواعى الخَلْق والإنجاب لكن لا يحدث ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ

(٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا .. (٥٠) ﴾ [الشورى]

وتعرفون من قصة سيدنا زكريا عليه السلام كيف أنه لم يُنجب حتى بلغ من الكِبر عتياً ، وكانت امرأته عاقراً حتى إنه يئس من هذه المسألة ، فلما أراد الله أنْ ينجب طَوَّع له الأسباب وبشَّره بولد وأيضاً سمَّاه له .

هذه كلها آياتٌ من آياتِ الخَلْق ، وهى كثيرة وممتدة ، ففى كل مرحلة من مراحلها إعجازٌ وقدرة ، بدايةً من اللقاء بين الزوج والزوجة والتقاء الحيوان المنوى الذكرى بالبويضة الأنثوية ، فإنْ تمَّ تخصيب البويضة حدث الحمل وتحوَّل الدم فى غذاء للجنين فهو رزقه حتى يُولد ، وإن لم يحدث الحمل نزل هذا الدم فى فترة الحيْض .

وهذا يعنى أن الخالق سبحانه حين يخلق الإنسانَ يخلق معه رزقه ، فالجنينُ لا يتغذَّى بغذاء أمه إنما بغذائه الخاص ، بدليل أن الأم لا تستفيد بهذا الدم إنْ لم يحدث حمل .

وقوله سبحانه : ﴿آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٤) ﴾ [الجاثية] من اليقين وهو الإيمان والعقيدة الراسخة التى استقرتْ فى القلب ، بحيث لا يتطرق إليها شك ، وبحيث لا تطفو إلى العقل ليناقشها مرة أخرى ، فهى عقيدة يعنى القلب معقود عليها .

وسبق أنْ بيَّنا هذه المسألة بأن الحواسَّ تنقل المحسَّات والقضايا إلى العقل الذى يُفاضل بينها ويُغربلها ، فما اقتنع به استقرَّ فى القلب عقيدةً ومبدأ يسير عليه ويؤمن به بحيث لا يطفو للعقل مرة أخرى .

هذا اليقين درجاتٌ أولها علم اليقين ، وعين اليقين ، ثم حَقُّ

اليقين ، فعلم اليقين حين يُخبرك بالخبر صادقٌ لا تشكّ فى صدْقه ، وعين اليقين حين تراه بعينك ، وحَقُّ اليقين هو أنْ تباشره بنفسك .

وقلتُ : أننا ذهبنا مرة إلى إندونيسيا ، ورأينا هناك أصبع الموز قرابة نصف المتر ، فلما عُدْتُ أخبرتُ أولادى بذلك ، فصار عندهم علم بذلك لأنهم يثقون بى ويعرفون أنِّى لا أكذب .

فلما رأيتُهم مندهشين من الخبر فتحت (الشنطة) وأخرجتُ منها أصابع الموز ، فلما رأوْها صار عندهم عَيْنُ اليقين بهذه القضية ، لكن لعله شىء آخر غير الموز أو نموذج من مادة أخرى ، فأخذنا الموز وقطَّعناه وأكلنا منه فتحوَّلت المسألة إلى حق اليقين .

وهذه المراحل الثلاث ذُكرَتْ فى القرآن الكريم فى سورة التكاثر : ﴿ كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (٥) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (٦) ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ (٧) ﴾ [التكاثر] وفى سورة الواقعة : ﴿ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ (٩٥) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٩٦) ﴾ [الواقعة]

﴿ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ (١) ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾ ﴾

---

(١) تصريف الرياح : تحويلها من جهة إلى جهة . قال ابن منظور فى لسان العرب [مادة صرف] : تصريف الرياح جعلها جنوباً وشمالاً وصَبا ودبوراً فجعلها أنواعاً وضروباً فى أجناسها .

أى : من آياته الكونية الدالة على قدرته تعالى اختلافُ الليل والنهار ، وفى آيات أخرى عرفنا أن الليل وحده آية والنهار وحده آية ، والكلام هنا عن اختلاف الليل والنهار ، ومجرد اختلافهما آية من آيات الله .

فالليل والنهار مختلفان من عدَّة وجوه : مختلفان فى ظلمة الليل ونور النهار ، ومختلفان طولاً وقصَراً ، وكذلك مختلفان فى المهمة ، وهما ظرفان لزمن الأحداث ، وقد يطول الليل ويقصر النهار ، أو يطول النهار ويقصر الليل ، ثم يتساويان فى المدة .

فمثلاً نجد الليلَ يطولُ فى الشتاء ويقصر فى الصيف ، وهذا لحكمة ، فنحن نعمل طوال يوم الشتاء حيثُ اعتدال الجو الذى يساعد على العمل ؛ لذلك نحتاج إلى فترة أطول للراحة ، فنجد ذلك فى ليل الشتاء الطويل .

ثم لو نظرتَ إلى الليل والنهار بصورة أوسع تشمل الكرةَ الأرضية كلها وجدتَ أنهما مُتداخلان ، فالنهار عندك ليلٌ عند غيرك ، والليل عندك نهارٌ عند غيرك ، فهما موجودان معاً ، لكن فى أماكن متباعدة من الأرض .

وهكذا تجد كلَّ لحظة من لحظات الزمن يبدأ فيها ليلٌ وينتهى نهار ، أو يبدأ فيها نهارٌ وينتهى ليل ، إذن : هى حركة دائرة لا تنتهى ، ومواقيت مختلفة فى الزمن كله .

فلو أخذنا مثلاً الأذان لوجدناه يدور فى كلِّ لحظة من لحظات الزمن بكلِّ لفظ من ألفاظه ، ففى اللحظة التى تقول فيها (الله أكبر) غيرك يقول (أشهد ألا إله إلا الله) وغيرك يقول (أشهد أن محمداً

رسول الله) وهكذا .

والأمر كذلك فى الصلاة ، فحين تُصلى الظهر ، غيرُك يصلى العصر ، وغيرُك يصلى المغرب ، وآخر يُصلى العشاء فى اللحظة ذاتها . إذن : نستطيع أنْ نقول بوجود كلِّ الأوقات فى كلِّ الأوقات ، وأن الحق سبحانه يُعبد فى كلِّ لحظة بكلِّ أنواع العبادات ، وأن ألفاظ الأذان دائرةٌ فى سَمْع الدنيا كلها ، تستوعب كلَّ الزمان وكلَّ المكان .

وهذا كلُّه من اختلاف الليل والنهار طُولاً وقِصَراً ، والطول والقصَر ناتج عن حركة الشمس ، وهذه مسألة أخرى تحتاج إلى دِقّة فى الملاحظة ، فالشمس حين تشرق عندك تغيب عند غيرك ، فكلُّ مشرق عند قوم مغربٌ عند آخرين .

وهذه تفسر لنا قوله تعالى : ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ (١٧)﴾ [الرحمن] فقال مشرقين ومغربين ، لأن المشرق عندك مغرب عند غيرك فى نفس الوقت .

فإذا نظرتَ إلى امتداد الزمان فى جزئياته الدقيقة بالثانية وجدتَ مشارق ومغارب ، كما قال سبحانه : ﴿بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ .. (٤٠)﴾ [المعارج] فإذا نظرتَ إلى المكان الواحد وجدتَ مشرقاً ومغرباً ، وقد قال سبحانه ﴿رَّبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ .. (٩)﴾ [المزمل] إذن : فهو صادق فى كُلِّ ما أخبرنا به سبحانه .

ومن آيات الليل والنهار أيضاً أن الله جعلهما خِلْفةً ، يعنى : الليل يخلُف النهارَ والنهارُ يخلُف الليلَ ، قال تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا (٦٢)﴾ [الفرقان]

وقد فهمنا من هذه الآية أن الأرض كُروية ، فهذه النظرية العلمية الحديثة أثبتها القرآنُ وسبق بها ، فمعنى أن الليلَ والنهار خلفةٌ أن الأرض مثل الكرة بحيث فى الخَلْق الأول خُلقت الأرض مواجهةً فى ناحية منها للشمس .

فكانت هذه الناحية النهار والمقابلة لها الليل ، إذن : خُلقَ الليل والنهار معاً ، ووُلدا معاً ، ثم لما دارتْ الأرضُ خلفَ الليلُ النهارَ ، وخلفَ النهارُ الليلَ ، ولو لم تكن الأرض مُكوَّرَة ما حدث هذا .

وهذه الحقيقة أكَّدها الحق سبحانه بصورة أوضح فى قوله تعالى : ﴿لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يس] لأن العرب كانوا يعتقدون أن الليل أسبقُ من النهار ، لذلك كانوا يُؤرِّخون للمناسك بدورة القمر ، فالشمس نعرف منها اليوم ، والقمر نعرف منه الشهر ، ومن الشهر تكون السنة .

كذلك رمضان يثبتُ بليله لا بنهاره ، لأنه يعتمد على ظهور الهلال ؛ لذلك اعتقدوا أن الليلَ أسبقُ من النهار فصوَّب لهم القرآن هذا الاعتقاد فقال : ﴿وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ .. ﴿٤٠﴾﴾ [يس] فوافقهم فى أن النهار لا يسبق الليل وعدَّل لهم ﴿وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ .. ﴿٤٠﴾﴾ [يس]

إذن : خُلقا فى وقت واحد ، وهذا لا يكون أبداً إلا إذا كانتْ الأرضُ مكوَّرَة . فلا سبْقَ لأحدهما على الآخر .

وقوله سبحانه : ﴿وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا .. ﴿٥﴾﴾ [الجاثية] أنزل الله من السماء آيات كثيرة منها المادى ومنها المعنوى ، المعنوى هو الكتاب الذى أنزله على رسول الله

لهداية الخلق ، والمادى مثل المطر وسماه رزقاً لأنه سببُ الرزق حين ينزل على الأرض فيُحييها بالنبات والثمار .

وكل رزق جاء من جهة العلو الخالقة فهو مُنزَّل ، حتى لو كان فى باطن الأرض ؛ لذلك قال سبحانه عن الحديد : ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ .. (٢٥)﴾ [الحديد] لذلك جعله اللهُ أداةً لإثبات قدرته تعالى للمعاندين للدين ، فقال فى ختام الآية : ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ .. (٢٥)﴾ [الحديد]

وقوله : ﴿مِنَ السَّمَاءِ .. (٥)﴾ [الجاثية] معلوم أن السماء ليستْ محلاً للماء ، الماء فى السحاب وهو كما قلنا ضاحية من ضواحى الأرض وتابعٌ لها ، أما السماء فشىء آخر أبعد من أنْ يتصوّره العقل ، والمراد : من جهة السماء .

والمتأمل فى دورة الماء فى الطبيعة يجد أنه فى الأرض حيث ثلاثة أرباع الكرة الأرضية ماء ، وغالبه الماء المالح ، وهذا لحكمة أنَّ نسبة الملح فى الماء تحفظه من التغيُّر والعطن ، وبالبخر تتكوَّن السُّحُب وينزل المطر يحمل الماء العَذْب الصالح للشرب وللزراعة وغيرها .

ومن آيات الله فى الماء أنْ تتسعَ رقعة الماء المالح لتتسع رقعة البخر ، وبالتالى تزيد مساحة تبخُّر الماء العَذْب الذى يكفى بعد ذلك لحياة الأحياء على الأرض ، ثم تجد مُلوحة الماء فى البحار والمحيطات بالقدر المناسب الذى يحفظ الماء من الفساد ويسمح بمعيشة الأسماك والحيوانات البحرية الأخرى .

ولو زادتْ الملوحة عن هذا الحد لماتتْ فيها الثروة السمكية ، كما نجد مثلاً فى البحر الميت ، حيث تزيد فيه نسبة الملوحة لأنه مُغلَق

ولا يأتيه مَددٌ من روافد أخرى تُقلِّل من ملوحته .

ولنعرف قدرة الله فى إنزال الماء العذب من السحاب هذا الماء الذى يكفى للشرب ولزراعة الأرض ، انظر كم تتكلَّف زجاجة الماء المقطر حين تُعدُّها فى المعمل ، هذا الماء ينزل لك من السماء عَذْباً صافياً زلالاً[1] دون مجهود منك ودون نفقات .

هذا الماء فى حَدِّ ذاته آية من آيات الله ، لأن به تكون الحياة ، لذلك سمَّاه القرآن رزقاً ، البعض قال : يعنى سبب فى الرزق والبعض قال : لا بل هو نفسه رزق ، هو سبب فى الرزق حينما نروى به الزرع ، لكن هو رزقٌ حينما نشربه أو نُدخله فى الطعام .

وقوله : ﴿فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا .. ۝٥﴾ [الجاثية] وهذه آية أخرى ، والأرض الميتة هى الجرداء القاحلة التى لا نبْتَ فيها ، فالله يُحييها بالنبات كما قال فى آية أخرى : ﴿وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ[2] .. ۝٥﴾ [الحج]

ثم ينتقل إلى آية أخرى ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ .. ۝٥﴾ [الجاثية]

تصريف الرياح يعنى : تغيير اتجاهها من هنا إلى هناك ، أو تغيير أحوالها ، فهى مرة نسيم لطيف ، ومرة ريح عاصف ، ومرة تكون حارة ، ومرة باردة ، مرة مُعمِّرة ومرة مدمرة . هذه كلها أحوال للرياح يُصرِّفها خالقها عز وجلّ كيف يشاء ، ولا يُصرِّفها غيره .

---

(١) الماء الزلال السريع النزول والمرّ فى الحلق . وماء زلال : بارد . وقيل : عذب . وقيل : صاف خالص . وقيل : الزلال الصافى من كل شىء . [لسان العرب – مادة : زلل] .

(٢) اهتزت وربت : شبَّه الله الأرض التى تهيأت لإنبات الزرع بالإنسان الحى يهتز وينشط ويتحرك حركة الحياة والعمل لإنتاج الخير أو بذل المعروف .

وحين تُدقِّق وتتأمل فى عملية تصريف الرياح تجد فيها مظهراً من مظاهر الإعجاز للخالق سبحانه ، انظر إلى هذه الأبراج وناطحات السحاب ، واسأل نفسك مَنْ يقيم هذه الأبنية العملاقة ؟ ومَنْ يسندها فلا تميل رغم هبوب العواصف عليها ؟

الذى يسندها هو الهواء الذى يحيط بها من كُلِّ ناحية ، ولو فرَّغْتَ جانباً منها من الهواء لانهارتْ فى هذا الجانب الفارغ من الهواء .

إذن : الهواء هو الذى يحفظ توازنها ، لذلك ساعة تجد القرآن يستعمل كلمة (الريح) بصيغة الجمع فاعلم أنها للعَمَار وللخير ، وساعة تكون مفردة فهى للدمار وللخراب .

الريح الواحدة تُدمر ، والرياح تسند وتُعمر ، لأن هذه تأتى من ناحية واحدة ، وهذه تأتى من جميع النواحى فتحدث التوازن المطلوب .

واقرأ هنا فى سياق الحديث عن آيات الله وتعداد نعمه : ﴿ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ .. (٥) ﴾ [الجاثية] وفى آية أخرى قال سبحانه : ﴿ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا .. (٢٥) ﴾ [الأحقاف] وقال : ﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ[1] الْعَقِيمَ (٤١) مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلاَّ جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ (٤٢) ﴾ [الذاريات]

وقوله : ﴿ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٥) ﴾ [الجاثية] لأن العقل هو الذى يستقبل الأحداث ويناقشها ويُفاضل بين القضايا ، ويستخلص منها الحقَّ ، ويُلقيه إلى القلب فيصير عقيدةً راسخة لا تقبل الشَّكَّ .

---

(١) الريح العقيم : الريح التى لا خير فيها بل هى تهلك وتدمر [القاموس القويم ٢/٣١] وقال فى لسان العرب : هى ريح لا تلقح الشجر ولا تنشىء سحاباً ولا تحمل مطراً . [مادة عقم] .

ورحم الله الفخر الرازى[1] الذى أجرى مقارنة علمية دقيقة بين هذه الآيات فى الجاثية بداية من قوله تعالى : ﴿إِنَّ فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٣)﴾ [الجاثية] إلى ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٥)﴾ [الجاثية] وبين الآية ١٦٤ من سورة البقرة :

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٦٤)﴾ [البقرة]

أولاً وجد الاختلافَ الأول بين الموضعين أن الجاثية فيها ﴿إِنَّ فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ ..(٣)﴾ [الجاثية] أما البقرة ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. (١٦٤)﴾ [البقرة] وهما بمعنى واحد ، لأن الخَلْق حدثُ الإيجاد ، فالحدث نفسه يسمى خَلْقاً ، ويطلق أيضاً على المخلوق بدليل قوله تعالى : ﴿هَـٰذَا خَلْقُ اللَّهِ (١١)﴾ [لقمان] أى : مخلوقه .

إذن : المعنى فى الموضعين واحد .

ثانياً : عدَّ الآيات الكونية المذكورة فى الجاثية فوجدها ست آيات ، وفى البقرة ثمانى آيات ، فلما بحث الزيادة فى البقرة وجدها فى قوله تعالى : ﴿وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ.. (١٦٤)﴾

---

(١) هو : محمد بن عمر أبو عبد الله فخر الدين الرازى ، إمام مفسر ، قرشى النسب ، ولد ٥٤٤ هجرية ، أصله من طبرستان ومولده فى الرى (هى طهران الآن) توفى فى هراة عام ٦٠٦ هجرية ، له تفسيره (مفاتيح الغيب) و (معالم أصول الدين) و (محصل أفكار المتقدمين) .

[البقرة] ﴿ والسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ .. (١٦٤) ﴾ [البقرة]

فقال : هاتان الآيتان فى الفلك وفى السحاب أغنى عنهما قوله تعالى فى الجاثية ﴿ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ (٥) ﴾ [الجاثية] لأنهما يجريان بحركة الرياح .

الاختلاف الأخير بين الموضعين أن آية البقرة خُتمتْ بمقطع واحد هو ﴿ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٦٤) ﴾ [البقرة] أما آيات الجاثية ففيها ثلاثة مقاطع هى : ﴿ لآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٣) ﴾ [الجاثية] ﴿ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٤) ﴾ [الجاثية] ﴿ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٥) ﴾ [الجاثية]

المؤمن ساعة يسمع من الله يُصدِّق ويؤمن بما أخبر الله به ، واليقين يكون لدى طالب الحقيقة الذى يبحث عنها فى قضية علمية يريد أن يصل إلى اليقين من خلالها .

والإنسان إذا لم يكُنْ مؤمناً واثقاً ولا طالباً للحقيقة فلا أقلَّ من قَدْر من العقل يُميِّز به بين الأشياء ، ويعرف به ماذا يأكل ؟ وماذا يشرب ؟ وماذا يأخذ ؟ وماذا يدع .

إذن : هذه المقاطع الثلاثة تمثل مراحلَ الإدراك السليم . والتعقُّل هو أدْنى مرتبة ، لذلك خُتمَتْ بها آية البقرة[1] .

﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ (٦) ﴾

---

(١) قال الرازى بعد عقد المقارنة : أنه تعالى ذكر فى سورة الجاثية ثلاثة مقاطع أولها (يؤمنون) وثانيها (يوقنون) وثالثها (يعقلون) وأظن أن سبب هذا الترتيب أنه قيل : إن كنتم من المؤمنين فافهموا هذه الدلائل ، وإن كنتم لستم من المؤمنين ولا من الموقنين فلا أقل من أن تكونوا من زمرة العاقلين فاجتهدوا فى معرفة هذه الدلائل .

﴿ تِلْكَ .. ﴿٦﴾ ﴾ [الجاثية] إشارةٌ إلى آيات القرآن ، أو إلى الآيات الكونية التى سبقتْ ﴿ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ .. ﴿٦﴾ ﴾ [الجاثية] والحق كما قلنا هو الشىء الثابت الذى لا يتغيَّر ويقابله الباطل ، الحق هو الحكم بقضية مطابقة للواقع ، والباطل الحكم بقضية مخالفة للواقع .

لذلك قلنا : إن شاهد الحق لا تتغيَّر أقواله مهما أعدْتَ عليه السؤال ، أما شاهد الزور فهو لا بدَّ أنْ يُغيِّر فى أقواله ، ذلك لأن شاهد الحق يُصوِّر واقعاً فيأتى واحداً لا يتغير ، وشاهد الزور يُصوِّر أوهاماً وتخيُّلات فلا بدَّ أنْ تتغيَّر .

لذلك الحق سبحانه يريد منَّا أنْ نأخذَ بالحقِّ ، وأن نجعله مقياساً للأشياء كلها كما نتخذ المتر مثلاً وحدةً للقياس ولا نخرج عنها .

يريد منا أنْ نحكم بالحقِّ وأنْ نجعله أساساً فى بناء الأشياء ، فالساعة لا تضبط لك التوقيت إلا إذا كانتْ هى فى ذاتها منضبطة .

لذلك قال تعالى فى آيتى الشمس والقمر : ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ ﴾ [الرحمن] يعنى : مخلوقان بحساب دقيق ، ولأنهما خُلِقا بحسبان جعلهما الله تعالى آلةً لحساب الزمن ، فالشىء الذى تعتبره مقياساً لا بدَّ أنْ تقيسه أولاً على الحق وتُقيمه على الحق .

لذلك أخبر سبحانه أنه خلق السماوات والأرض بالحقِّ ، فهى تسير بميزان دقيق محكم لا يتخلف أبداً منذ خلق اللهُ هذا الكونَ وإلى قيام الساعة .

وقلنا : لأن الحق هو الشىء الثابت الذى لا يتغيَّر فهو الباقى ، وهو المنتصر ، وهو الذى يعلو فى نهاية الصراع ، وإنْ علاَ الباطل فلحين وليعطىَ فرصةً للباطل حتى يعضَّ الناس ويَشْقى به المجتمع فيعود الناسُ إلى ساحة الحق .

لذلك نقول : إن الباطل جندىٌّ من جنود الحق ، وإذا كان الإسلامُ قد عَلاَ فى جزيرة العرب لإعجاز القرآن ، فكيف علاَ وانتشر فى بلاد فارس والروم .

قالوا : لأنهم كانوا فى ذلك الوقت مقهورين بالباطل ، فلما رأوا عدل الإسلام وسماحته أسرعوا إليه ؛ لذلك فتح الإسلامُ نصف الدنيا فى نصف قرن من الزمان ، لأن الناسَ كانت مُتشوِّقة إلى مثل هذا الدين الحق .

والحق سبحانه يريد أنْ يعطينا صورة محسوسة تُصوِّر الحق وتصور الباطل فى لوحة واحدة ، فيقول عز وجل : ﴿ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا[1] وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً[2] وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ (١٧) ﴾ [الرعد]

وقوله سبحانه : ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ (٦) ﴾ [الجاثية] يعنى : إذا لم تقنعهم كلُّ هذه الآيات الكونية وكلُّ هذا

---

(١) زبد الماء : ما يعلوه عند جيشانه واضطرابه من الرغوة وحطام الأشياء . [القاموس القويم ٢٨٣/١] .

(٢) فيذهب جفاء : أى لا ينتفع به بل يتفرق ويتمزق ويذهب فى جانبى الوادى ويعلق بالشجر وتنسفه الرياح . [تفسير ابن كثير ٥٠٨/٢] .

الإعجاز ، وإذا لم يقنعهم كلام الله فبأىٍّ شىء يؤمنون بعد ذلك . إذن : المسألة بالنسبة لهم عناد ولَدد ، فإذا لم يُقنعهم حديثُ الله فأىُّ حديث بعده يقنعهم .

ونسألهم : أهناك حديث أصدق من حديث الله ؟ أو إخبار أصدق من إخباره ؟ إنه سبحانه يتودَّد إليكم ببيان آياته فى كونه لتؤمنوا وليأخذ بأيديكم إلى ساحة الإيمان وهو الغنى عنكم ، فقط يحرص عليكم لأنكم عباده وصَنْعته ويريدكم فى أحسن حال .

لذلك أرسل لكم الرسل ، وأنزل لكم الكتب ، وبيَّن لكم الحلال والحرام والحق والباطل فلِمَ اللدد ؟ ولِمَ العناد فى الإيمان ؟

مع أن الإيمان بالله شَرَفٌ ، والعبودية له سبحانه عزة ، كلمة عبودية كلمة ممقوتة تدل على الذلة والانكسار ، أما مع الله فهى شرف وكرامة وعزة .

﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٧ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٨ ﴾

كلمة (ويل) قالوا : وَاد فى جهنم ، أو هلاك لا مفرَّ منه ولا نجاة ، وكلمة الويل تختلف حَسب قائلها المنذِر بها ، فحين يقول لك واحد مثلك : ويلٌ لك . تتوقع أن يكون الويل على قدره ، ويتناسب مع قدرته عليك ، وتمكّنه من تنفيذ ما هدَّدك به من بطشه وفتكه .

فإذا كان المتكلم بذلك التهديد هو الحق سبحانه فهمنا أنه هلاكٌ مُحتَّم لا قِبَلَ لأحد به ، ويل كبير لا يُردُّ ولا يُدفع .

فلمَن هذا التهديد ؟ ﴿لِّكُلِّ أَفَّاكٍ .. (٧)﴾ [الجاثية] الأفَّاك من الإفك ، وهو قَلْب الشيء على وجهه أو قلْب الحقائق عَمْداً ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ (٥٣)﴾ [النجم] وهى القرى التى قَلَبها الله تعالى رأساً على عقب وجعل أعلاها سافلها .

ومن ذلك أيضاً قصة الإفك فى حَقِّ السيدة عائشة ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ .. (١١)﴾ [النور] إذن : الإفك هو أفظع أنواع الكذب ؛ لأنه كذب متعمد يصرف الناسَ عن الحق إلى الباطل .

وهو لا يضر واحداً ، إنما يقع ضرره على جَمْع من الناس فشرُّه يتعدَّى ويلزمه عقوبة تناسب هذا التعدِّى على الخَلْق ، لذلك ساعة تسمع كلة (ويل) فاعلم أنها لذنب كبير .

وكلمة ﴿أَفَّاكٍ ..(٧)﴾ [الجاثية] صيغة مبالغة على وزن فعَّال ، ولو كذب مرة واحدة لكان (آفك) إنما تكرر منه هذا الذنب حتى بالغ فيه ومثله فى المبالغة ﴿أَثِيمٍ (٧)﴾ [الجاثية] يعنى : كثير الإثم . فهى صيغة مبالغة أيضاً على وزن فعيل . أى : مُبالغ فى الآثام . تقول : آثم وأثيم . مثل : عالم وعليم .

فالمرء لو فهم علماً من العلوم سُمِّى عالم ، أما عليم فيعنى العلم فى ذاته ، لذلك لا تُقال إلا لله تعالى ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ (٧٦)﴾ [يوسف] فكأن هذا الآثِم قد تمرَّس فى الإثم حتى صار طبعاً له وديدناً .

ثم يصف الحق سبحانه هذا الأفاك الأثيم ، فيقول : ﴿يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا .. (٨)﴾ [الجاثية] كأن الحق سبحانه يريد أنْ يُعرفنا الإفك على حقيقته ، فالكذاب يكذب على مثله ، أو يكذب على أسرة أو جماعة ، لكن هذا يكذب على الدنيا كلها حين يُزوِّر الحقائق ويقلبها وهو متعمد .

وهذا معنى ﴿يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا .. (٨)﴾ [الجاثية] ولذلك فى القانون يقولون مع سَبْق الإصرار والترصُّد ﴿مُسْتَكْبِرًا ..(٨)﴾ [الجاثية] أى : متعالياً على الحق .

وفى الحديث الشريف « الكبر بَطر الحقِّ ، وغَمْط الناس[1] » فهو يتكبَّر لأنها تأتى له أى الآيات بواسطة من كان يعتقد أنه دونه ، وبذلك اعتدى على الحق واعتدى على مُحقٍّ ، كما حكى القرآن عنهم : ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١)﴾[الزخرف]

إذن : المشكلة عندهم ليستْ فى القرآن ، لأنهم أهل فصاحة وبلاغة ويعلمون إعجاز القرآن وصِدْقه لكن يحسدون الرجل الذى جاء القرآنُ على يديه ، يقيسونه بمقاييس الجاه والثراء عندهم .

فالرسالة فى نظرهم ينبغى أنْ تأتىَ على يد رجل غنى من عظماء القوم وأهل السيادة ، وهذا عجيبٌ منهم لأن رسول الله ﷺ كان له مكانة عظيمة بينهم قبل البعثة ، وكانوا يتحدثون بصدقه وأمانته ،

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٣١) باب تحريم الكبر من حديث عبد الله بن مسعود بلفظ (غمط الناس) وعند أبى عوانة (حديث ٦٨) (غمص الناس) وفى مسند الشاميين (حديث ٧٢٨) (غمض الناس) بالضاد . والغمص إذا لم يشكر النعمة واستصغر الشىء واحتقره ولم يره شيئاً ، ومثله غمط . [الصحاح فى اللغة] .

بدليل أنهم حكَّموه[١] فى أمر الحجر الأسود حينما أرادوا وضعه فى مكانه واختلفوا عليه ، فالتناقض فى مواقفهم نحوه ظاهر ، كانوا يقولون عنه ساحر وكاهن وكذاب وشاعر ، فلما فَتَر عنه الوحى قالوا : إن رب محمد قلاه[٢] .

وقوله تعالى : ﴿ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ ﴾ [الجاثية] معلوم أن البشارة إخبارٌ بخير قبل أوانه ، وسمَّاها بشارة لأنها تُظهر البشْر والسعادة على الوجوه ساعة تسمع خبراً يسرُّك ، فاستخدام البشارة فى العذاب تكون على سبيل التهكُّم والسخرية وهى لَوْنٌ من ألوان العذاب والإهانة ، مثل رجل كان يحثُّ ولده على المذاكرة والجد ، ولكن الولد خالف أوامر أبيه ، فلما ظهرتْ النتيجة وجد ولده راسباً فقال له : أبشر لقد رسبت ، يريد أنْ يتهكَّم به ويعاقبه على إهماله .

﴿ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ ﴾

لأنه بعد أنْ أصرَّ على الإعراض عن آيات الله ، وبعد أنِ استكبر عليها لا بدّ أنْ يعود فى لحظة ما إلى نفسه ويُعمل عقله فيما يسمع

---

(١) أورده ابن كثير فى السيرة النبوية (١/٢٧٣) قالوا : نُحكِّم بيننا أول رجل يخرج من هذه السكة ، فكان رسول الله أول من خرج عليهم فقضى بينهم أن يجعلوه فى مرط ثم ترفعه جميع القبائل كلهم .

(٢) ذكره الطبرى فى تفسيره من قول قتادة فى قوله تعالى : ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ ﴾ [الضحى] قال : أبطأ عليه جبريل فقال المشركون : قد قلاه ربه وودَّعه . وكذا ذكره عن الضحاك .

فيصله بعض العلم عن آيات الله ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا ..(٩)﴾ [الجاثية] جعلها مجالاً للسخرية والاستهزاء ﴿أُوْلَـٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (٩)﴾ [الجاثية] وقبل ذلك بشَّره رب العزة بأن له عذاباً أليماً .

وهذه ألوان مختلفة من العذاب والعياذ بالله ، فالعذاب الأليم الذى يُؤلم الحواسَّ ويُوجع وتتألم له المادة والأعضاء ، وهذا غير العذاب المهين ، فالجهة كما يقولون مُنفكَّة ، والعذاب المهين هو عذاب النفس حيث يُهينها ويُذلّها ويهدم كرامتها ، لأن بعض الناس قد لا يُؤلمه الضرب الحسِّى ولكن يُؤلمه أنْ تجرح كرامته ولو بكلمة .

وهناك فى آيات أخرى (عذابٍ عظيم) يعنى : مبالغ فيه ، وهكذا جمع عليهم الحق سبحانه كلَّ ألوان العذاب جزاء استكبارهم ولددهم وعنادهم فى آيات الله ، وهى أوضح من أنْ ينكرها منكر .

وهنا استخدم المصدر ﴿هُزُوًا (٩)﴾ [الجاثية] ليدل على المبالغ ، وأن الاستهزاء أصبح صفةً لازمة له لاصقة فيه كما نقول : فلان عادل ، وفلان عدل كأنك جعلْتَه هو والعدل شيئاً واحداً .

وفى الآية دليلٌ على أن الإنسان إذا تجرَّد للحق وأخْلى فكره ثم فكَّر بعقله فى الأشياء بموضوعية لا بدَّ أنْ يصلَ إلى الخيط الذى يُوصِّله إلى الحق ، فالعودة الصادقة إلى النفس تُؤدى إلى الحق .

لذلك الحق سبحانه يُعلِّم الناس كيفية التفكير السليم وكيفية البحث عن الحق ، فيقول : ﴿إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ..(٤٦)﴾ [سبأ] يعنى : اتركوا

تفكير الجماهير وتعصُّبهم لأنه غير مُنظم ، يؤدى إلى فوضى يتوه فيها الحق .

والفكر عمل العقل ، والعقل هو السلطان الذى يعصمك من الآراء الضالة ويُرشدك ويأخذ بيدك إلى الحق ، والعقل حتى فى اسمه من العقال الذى يعقل الدابة حتى لا تشرد من صاحبها ، كذلك العقل يعقل صاحبه .

إذن : هؤلاء لما عادوا إلى أنفسهم واستعملوا عقولهم عقلوا ووصلوا إلى شىء من الحق ، لكن كبرياءهم وعنادهم منعهم من اتباعه ، وأدلُّ شىء على ذلك قول بعضهم لبعض : ﴿لا تَسْمَعُوا لِهَـٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (٢٦)﴾ [فصلت]

ولولا أنهم واثقون من صدق القرآن وتأثيره فى النفوس ما قالوا هذا الكلام ، لكن أسلوب القرآن أسَرهم وتغلغل فى أعماقهم ، ولو تركوا أنفسهم على طبيعتها لآمنوا ، لكنهم استقبلوا القرآن بنفوس تملؤها نوازع الشر وحُب الانفلات من قيود المنهج الحق الذى أتى به هذا القرآن .

﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا شَيْـًٔا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَآءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠)﴾

كلمة (وراء) فى اللغة لها معانٍ متعددة ، أوضحها فى المعنى قوله ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ .. (١٨٧)﴾ [آل عمران] يعنى : خلف ظهورهم . وهذا هو المعنى المشهور لكلمة وراء .

لكن تأتى بمعنى الشىء الذى سيأتيك فى المستقبل كما فى هذه

الآية ﴿مِن وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ .. (١٠)﴾ [الجاثية] فهى تنتظرهم فى المستقبل .

وتأتى (وراء) بمعنى أمام[١] كما فى قوله تعالى فى آية الكهف : ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا (٧٩)﴾ [الكهف] فأحداث القصة تقول أن الملك كان ينتظرهم على الشاطئ ليستولى على كل سفينة صالحة فهو أمامهم لا وراءهم .

والوراء هو الشىء الذى يوجد دونه ما يُواريه ، والذى يُوارى العلم إما حجاب الزمان وإما حجاب المكان ، فنحن مثلاً نجلس الآن فى مكان واحد ، ويرى كلٌّ منا الآخر لكنَّا لا نرى مَنْ هو خارج هذا المكان ، فالذى يواريه عنا إذن حجاب المكان .

ولما أحدثك عن المستقبل تجد الزمن المستقبل أيضاً محجوباً عنك بحجاب الزمن المستقبل ، كذلك فى الزمن الماضى حجبه عنك حجاب الزمن الماضى .

وعِلْم الحق سبحانه يخرق كلَّ هذه الحُجُب ، والزمن عنده سواء الماضى أو الحاضر أو المستقبل ، لذلك يأتى بالماضى ، ويتحدث عنه كأنه حاضر ، ويقول سبحانه مخاطباً نبيه محمداً ﷺ : ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ[٢] أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٤٤)﴾ [آل عمران]

---

(١) قال ابن الجوزى فى زاد المسير [الكهف ٧٩] : فيه قولان :

أحدهما : أمامهم . قاله ابن عباس وقتادة وأبو عبيدة وابن قتيبة .

الثانى : خلفهم . قال الزجاج : وهو أجود الوجهين . فيجوز أن يكون رجوعهم فى طريقهم كان عليه ولم يعلموا بخبره فأعلم الله تعالى الخضر خبره .

(٢) الأقلام : سهام الاقتراع . وهو جمع قلم : سهم أو خشبة تشبهه يكتب عليه رمز يدل على مقداره يُعطى لمن يخرج باسمه . [القاموس القويم ١٣٢/٢] .

لذلك يخرق حجاب الزمن المستقبل كما فى قوله سبحانه فى الصراع بين فارس والروم : ﴿الٓمٓ (١) غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي بِضْعِ سِنِينَ ..(٤)﴾ [الروم] لأن المسلمين حزنوا لانتصار فارس على الروم .

فالفرس كانوا مجوساً ليس لهم علاقة بالسماء ، أما الروم فكانوا أهلَ كتاب ، ويؤمنون بالرسل ، فكان حَظُّ الإسلام أنْ ينتصر الرومُ فبشَّرهم الله بذلك الانتصار قبل أنْ يحدث ببضع سنين ، والبضع فى اللغة من ثلاث إلى تسع سنين .

فالحق يخبر نبيه بأحداث المستقبل فى قرآن يُتلَى ويُتعبَّد به فى كلِّ صلاة ، فكيف يُعلن الرسولُ هذه البشارة ويسمعها الناسُ فى فارس وفى الروم ؟ إذن : يعلنها وهو واثق أنها حَقٌّ وصِدق ، ولا بدَّ أنْ تتحقق .

هذا خَرْق لحجاب المستقبل ، وفعلاً بعد بضع سنين انتصر الروم على فارس ، وصادف ذلك انتصارَ المسلمين على الكافرين فى بدر ، فقال سبحانه : ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ اللَّهِ ..(٥)﴾ [الروم]

فقوله سبحانه : ﴿من وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ ..(١٠)﴾ [الجاثية] يعنى : تنتظرهم فى المستقبل ، فهى أمامهم وهذا من خَرْق حجاب الزمن المستقبل .

﴿وَلا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا شَيْئًا ..(١٠)﴾ [الجاثية] يعنى : لا يدفع عنهم شر ما هم فيه بسبب ما اكتسبوه فى الماضى من عبادة الأصنام وتأليه لخَلْق الله ، وهل يغنى الصنم عن عابده وهو الذى صنعه ؟ وهو الذى يقيمه إذا قلبه الهواء وأطاح به ؟ كذلك مَنْ

عبدوهم من البشر سوف يسبقونهم إلى جهنم . إذن : لا ناصرَ لهم ولا دافعَ عنهم .

واستخدم هنا الفعل المجرد (كسب) فى الشر ، ولم يقل اكتسبوا . وسبق أنْ بينَّا أنَّ كسب للخير واكتسب للشر ، لأن الخير والطاعة تأتى طبيعية لا افتعال فيها ، على عكس المعصية فهى تحتاج إلى افتعال واحتيال .

ولا تُستخدم (كسب) فى الشر إلا إذا أصبح الشرُّ عادة وأخذ عند صاحبه حكم الكسب ، فلم يَعُد يأنف منه وهَانَ عليه أنْ يقع فيه مرة بعد مرة حتى أصبح الشر عادته .

فقال ﴿مَّا كَسَبُوا .. (١٠)﴾ [الجاثية] أى : من الشر ﴿وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠)﴾ [الجاثية] أى : الآلهة التى عبدوها من دون الله ، كذلك هى لا تُغنى عنهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠)﴾ [الجاثية] فالأمر لا ينتهى عند خذلانهم وعدم الدفاع عنهم ، بل ولهم عذاب عظيم . يعنى : شديد ومُبالغ فى الإيلام .

﴿هَٰذَا هُدًى ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ (١١)﴾

﴿هَٰذَا .. (١١)﴾ [الجاثية] إشارة إلى الهدى ، وهو المنهج الذى جاء به سيدنا رسول الله ﷺ فى هذا القرآن ، والهدى هو الذى يهديك يعنى يدلُّك على الطريق الموصِّل للغاية من أقرب الطرق وأسهلها وأكثرها أمناً دون مشقة على النفس .

وفى أول سورة البقرة ﴿أُولَـٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ .. (٥)﴾ [البقرة] فكأن الهدى مَركب يحملك إلى غايتك ، ودابة تسير بك حتى تنجيك .

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ .. (١١)﴾ [الجاثية] قال (ربهم) مع أنهم كافرون به ، لأنه تعالى رَبٌّ يتودَّد إليهم حتى مع كفرهم وجحودهم ، وهذا كما قلنا عطاء الربوبية الذى لا يُفرِّق بين مؤمن وكافر فيعطى الكل ويتحنَّن إلى الجميع ، فهم جميعاً عباده وصَنْعته .

﴿لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ (١١)﴾ [الجاثية] مرة يقول : عذاب أليم ، ومرة ﴿عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ (١١)﴾ [الجاثية] والرجز هو أشد ألوان العذاب ، والعذاب إيلام الحىِّ .

وكلمة (العذاب) هذه حلَّتْ كثيراً من الإشكالات بين العلماء ، حيث قال البعض : إنه لا يوجد رَجْم فى القرآن إنما يوجد الجَلْد ، واستدلوا بقوله تعالى فى الأمة : ﴿فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ .. (٢٥)﴾ [النساء]

الكلام هنا على الحد يُقام على الحرَّة وعلى الأَمَة ، معنى المحصنات يعنى : الحرائر ، فقالوا : إن الرجم لا يُنصَّف والذى يُنصَّف هو الجَلْد ، تُجلد هذه مائة ، وهذه خمسين ، وما دام الرجم لا يُنصَّف . إذن : فى الآية كلام .

ونقول : قد يكون كلامكم صحيحاً إذا قال تعالى ﴿نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ .. (٢٥)﴾ [النساء] وسكت ولكنه قال بعدها ﴿مِنَ الْعَذَابِ .. (٢٥)﴾ [النساء] والعذاب إيلامُ الحىِّ ولكن الرجم إماتة . إذن : إيلامُ الحىِّ فى أنْ يُجلد ، إنما الرجم يذهب بالحياة فلا تتعذب .

بدليل أن الحق سبحانه لما تكلم عن هدهد سيدنا سليمان – عليه السلام – قال : ﴿ لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ .. (٢١) ﴾ [النمل] إذن : العذاب غير الذبح .

ومعنى ﴿ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ .. (١١) ﴾ [الجاثية] يعنى : ستروها وجحدوها ، إذن : هى موجودة لكنهم أخفوْهَا ، ومثله كفروا بالله يعنى : ستروا وجوده سبحانه ، فالسَّتْر لا يكون إلا لموجود أولاً ثم يُستر ، فكأن الإيمانَ موجودٌ وأصله فى النفس ، ثم يأتى الكفر فيستره .

﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢) ﴾

التسخير يعنى التذليل وأن يكون المسخّر رَهْنًا لخدمة المسخّر له ، وزمان كان فى مصر نظام السُّخرة ، وهو أنْ يعملَ العمال بدون أجر ، فالحق سبحانه سخَّر لنا البحر وذلَّله لخدمتنا ، ولولا ذلك ما استطعنا أبداً ركوبه ، ولا السير فيه ولا الانتفاع به .

ومن تسخير البحر ما عرفناه من قصة سيدنا موسى لما ألقتْه أمه فى البحر تنفيذاً لأمر الله ، قال سبحانه : ﴿ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى الْيَمِّ وَلا تَخَافِى وَلا تَحْزَنِى إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧) ﴾ [القصص]

إذن : صدرت الأوامر إلى البحر أن يلقيه بالساحل ، وألاَّ يأخذه إلى الداخل ، كما قال سبحانه : ﴿ فَاقْذِفِيهِ فِى الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ .. (٣٩) ﴾ [طه]

فالحق سبحانه كما يأمر العاقل يأمر الجمادات فتأتمر وتطيع ،

لذلك قال عن السماء : ﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ[1] (٢) ﴾ [الانشقاق]

والتسخير تكليف الشىء تكليفاً قهرياً أنْ يكونَ فى خدمة الخليفة وهو الإنسان ، فالكون كله مُسخَّر له . يعنى : يطيعه ويأتمر بأمره ، ومن هذا التسخير سخَّر للإنسان جوارحه تُطيع مراده وتنفعل لإرادته انفعالاً تلقائياً سهلاً لا تكُّلفَ فيه

فاللسان ينطق بلا إله إلا الله لمجرد أنْ أردت ذلك وينطق بكلمة الكفر والعياذ بالله أيضاً لمجرد الإرادة ، اليد والعَيْن والرِّجْل ، وكلُّ جوارحك لا تعصى لك أمراً ، تنفعل لك من حيث لا تدرى لأن خالقها سخَّرها لك وذلَّلها لخدمتك .

وقال لها : أطيعى عبدى ، لأننى أريد أنْ أحاسبه بعد أنْ أعطيه الاختيار فى أنْ يفعلَ أو لا يفعل ، ولو كان الإيمانُ قهراً لقهرتُه عليه كما قهرتُ الملائكة ، لكننى لا أريد قوالبَ تخضع ، إنما أريد قلوباً تخشع ، أريدك أنْ تأتى إلىَّ طواعية وأنت قادر على الإعراض والانفلات .

لذلك قلنا : إن السيف فى الإسلام لا ليفرض على الناس عقيدة ، إنما ليحميَ اختيارهم لعقائدهم ، وبعد ذلك يتشدَّقون بأن الإسلام فُرِضَ بحدِّ السيف ، وهذا غير صحيح بدليل بقاء كثيرين على دينهم بعد الفتح الإسلامى .

والحق سبحانه حينما سخَّر كل شىء فى الوجود لخدمة الإنسان

---

(١) أذنت لربها وحقت : أى استمعت لأمر ربها واستجابت وأطاعت وخضعت راضية . [القاموس القويم ١/١٦] . وحقت : أى كان حقاً ثابتاً عليها أن تخضع لأمر الله . [القاموس القويم ١/١٦٤] .

قال سبحانه فى الحديث القدسى : « يا ابن آدم خلقت الأشياء من أجلك وخلقتُك من أجلى ، فلا تنشغل بما هو لك عما أنت له »[١] يعنى : لا تنظر إلى عبيدك بل انظر أنت عبد لمن ومَنْ سيدك .

وهذا التسخير للجوارح موقوتٌ بالحياة الدنيا ، أما فى الآخرة فسوف تنطلق الجوارح من هذه القيود وتنفك من هذا القهر وهذا التسخير ، لأنه كان مرتبطاً بإرادة العبد ، وحيث لا إرادة له فى الآخرة .

وأصبحت الإرادة للمريد الأعلى سبحانه ، فلا طاعةَ له ولا خضوعَ لأوامره ، فالأمرُ كله يومئذ لله ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦)﴾ [غافر]

لذلك تتحول الأعضاء والجوارح إلى شهود ، يشهدون بالحق أمام الواحد الأحد ، فاللسان يقول : قُلْتُ . واليد تقول : بطشْتُ . والرِّجْل تقول : مشيتُ . والعينُ : رأيت ، وهكذا .

وقد شبَّهنا هذه المسألة بقائد الكتيبة يأمر الجنود ، فيطيعون حتى لو كان الأمر خطأ ، ثم حين يعودون للقائد الأعلى يقولون حدث من قائدنا كذا وكذا ، ولم نخالف أوامره لأننا مأمورون بطاعة الأوامر ولو خطأ .

والحق سبحانه حينما يُسخِّر لنا جوارحنا وأعضاءنا إنما ليعطينا

---

(١) أخرج أحمد فى مسنده (٢/٣٥٨) عن أبى هريرة رفعه : قال الله : ابن آدم ، تفرغ لعبادتى أملأ صدرك غنى وأسُد فقرك وإلا تفعل ملأت صدرك شغلاً ولم أسد فقرك » . وقد أورده صاحب (إيقاظ الهمم) (١/٢٤٧) وهو بعض الآثار المروية عن الله . وأورده ابن عربى فى الفتوحات المكية بلفظ « أنزل الله فى التوراة : يابن آدم خلقت الأشياء من أجلك وخلقتك من أجلى فلا تهتك ما خلقت من أجلى فيما خلقت من أجلك » .

مثالاً ونموذجاً لقيوميته تعالى على كل شيء ، وأنه إذا أراد شيئاً أنْ يقول له كُنْ فيكون ، فيقول للمكابر : قُلْ لى بالله ما هى العضلات التى تُحركها لتتكلم أو تقوم أو تقعد ؟ ما هى الحركة التى تحدث بداخلك لتفعل ؟ ما الأعصاب التى تشارك فى هذه الحركات ؟

أنت لا تعرف شيئاً عنها ولا تأمرها ، بل مجرد أن تريدَ تنفعل لإرادتك وتطيع ، فإذا كان هذا عطاء الله لك ، ونعمة من نعمه عليك ، فكيف تستبعده فى حَقِّ الله عز وجل ؟ وكيف تنكر أنه إذا أراد شيئاً أنْ يقول له كُنْ فيكون ؟

وأول مظاهر تسخير البحر أنْ جعله الله صالحاً لسيْر السفن على ظهره ، كما قال سبحانه : ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ .. (١٤)﴾ [النحل] وأول سفينة فى الكون هى سفينةُ سيدنا نوح عليه السلام صنعها بأمر الله ووَحْيه إليه ، حيث علَّمه كيفية صناعتها من ألواح ودُسر : ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ (١٣)﴾ [القمر]

والسفينة لا تسير على صفحة الماء إلا إذا توفرتْ لها بعض القوانين ، وهذا هو التسخير . أولاً : لا بدَّ أنْ يكون الماء سائلاً ليسمحَ بجريان السفينة حين يُحرِّكها الهواء ويدفعها ، ولو كان جامداً ما حصل السير .

ثانياً : يكون الماء خالياً من اللزوجة . ثالثاً : تكون كثافة الماء أقلَّ من كثافة السفينة ، فلو أخذتَ مثلاً قطعة من المعدن ورميتَ بها فى الماء فإنها تغرق فيه ، إنما لو طرقتَ هذه القطعة وجعلتَها مفلطحة ووسَّعتَ مساحتها فإنها تعوم .

فمن تسخير الله للبحر أنْ جعله صالحاً لسير السفن ﴿الَّذِى سَخَّرَ

لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ .. (١٢) ﴾ [الجاثية] كما قال فى موضع آخر : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا .. (٤١) ﴾ [هود]

ومن تسخير الله للبحر أنْ جعله مصدراً لكثير من المأكولات والأرزاق ﴿ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ .. (١٢) ﴾ [الجاثية]

ففضْلُ الله فى البحر كثيرٌ ، فيه القوت اللازم لاستبقاء الحياة ، وفيه الترف والزينة مثل اللؤلؤ والمرجان وغيرهما من الأشياء الثمينة حتى قالوا : إن الثروات فى أعماق البحار أكثر من الثروات فوق سطح الأرض .

ثم على سطح الماء تسير بكم السفن إلى مواطن الأرزاق فى أى مكان .

وفى آيات أخرى فصَّل الحق سبحانه قوله : ﴿ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ .. (١٢) ﴾ [الجاثية] فقال : ﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا .. (١٤) ﴾ [النحل] وهو أنواع الأسماك والحيوانات البحرية التى تُؤكل : ﴿ وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا .. (١٤) ﴾ [النحل]

والمراد اللؤلؤ والمرجان والأحجار الكريمة التى تُستخرج من أعماق البحار ؛ لذلك قال العلماء : إن حلية البحر غير مُحرَّمة مع أنها أغلى من الذهب ، لكن لم يأتِ النصُّ بتحريمها على الرجال كما فعل فى الذهب[1] ، لماذا ؟

لأن الذهب نَقْد يتعامل الناسُ به على شكل عملات وجنيهات نقدية ، فغرضه أساساً التعامل بين الناس فى البيع والشراء ، وهو واسطة

---

(١) أخرجه أبو داود فى سننه (٣٥٣٥) والنسائى فى سننه (٥٠٥٣) وابن ماجه فى سننه (٣٥٨٥) وأحمد فى مسنده (٧١١ ، ٨٩١) عن على بن أبى طالب رضى الله عنه .

بين الإنتاج والاستهلاك ، وليست حلية البحر كذلك .

وقوله : ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢) ﴾ [الجاثية] أمر بالشكر على النعمة ، فكلما رأيتَ مظهراً من مظاهر نعمة الله قُل الحمد لله واعترف لله بالفضل ، لذلك علَّمنا سيدنا رسول الله ﷺ دعاء الركوب للسُّفن أو غيرها ، ومن هذا الدعاء : « سبحان الذى سخر لنا هذا ، وما كنا له مقرنين ، وإنَّا إلى ربنا لمنقلبون »[1] .

﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١٣) ﴾

الحق سبحانه وتعالى ينقلنا من تسخير البحر إلى تسخير السموات والأرض ، فهى مسخَّرة للإنسان منذ خلقها الله ، لكن لم يعلم الإنسان وجوه هذا التسخير مرة واحدة ، إنما يعلمها بمرور الزمن وتطوُّر العلوم .

كما قال سبحانه : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ .. (٥٣) ﴾ [فصلت]

فأنت مثلاً حين تقرأ قوله تعالى فى الفُلْك ﴿ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ (٢٤) ﴾ [الرحمن] لا بد أنْ تُعملَ العقل وتسأل كما سألنا : متى عرف الناس السفن ذات الأدوار ؟ فكلمة المنشآت تدل

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٣٤٢) كتاب الحج من حديث ابن عمر أن رسول الله ﷺ كان إذا استوى على بعيره خارجاً إلى سفر كبَّر ثلاثاً ، ثم قال « سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنَّا إلى ربنا لمنقلبون » وكذا أخرجه أحمد فى مسنده (٢/١٤٤ ، ١٥٠) .

على البناء ، وكالأعلام يعنى : عالية ومرتفعة كالجبال ، قالوا : عرف الإنسانُ السفنَ ذات الأدوار فى أواخر القرن الثامن عشر ، وكانت قبل ذلك عبارةً عن سطح لا شئَ عليه .

فمَنْ أخبر سيدنا رسول الله بأن السفن سيكون منها منشآت كالأعلام ، كذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَـٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (٣٣) ﴾ [الزخرف]

والمعارج جمع معراج ، وهو بلغة اليوم (الأسنسير) والحضارة الحديثة لم تعرف (الأسنسير) إلا فى أواخر القرن العشرين ، إذن : هذه مظاهر لإعجاز القرآن وصِدْقه وصِدْق المبلِّغ للقرآن ، فصدق اللهُ وصدق رسوله .

وهذا يدلُّ على أن هذه المستحدثات موجودة فى علمه تعالى ولها (ماكيت) قبل أنْ يصل إليها فكر البشر ، والله يظهرها لعباده حسْب حاجتهم ومع مرور الزمن وتطور العلوم ، وهذا معنى ﴿ سَنُرِيهِمْ .. (٥٣) ﴾ [فصلت]

قوله تعالى : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ .. (١٣) ﴾ [الجاثية] قلنا : كلٌّ من السموات والأرض ظَرْف لأشياء كثيرة ، منها ما نعلمه ، ومنها ما لم نتوصل إليه حتى الآن ، فالسماء ننظر إليها من جهة العلو ، ولا نرى من مخلوقات الله فيها إلا الشمس والقمر والنجوم والسحاب ، وهذا كله فى السماء الدنيا .

لذلك قال سبحانه : ﴿ وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ .. (١٢) ﴾ [فصلت] أما السموات السبع فشىء آخر لا نعرف عنه شيئاً ، ويكفى أنْ تعرف

أن بينك وبين الشمس ثمانىَ دقائق ضوئية ، وهناك مخلوقات بينك وبينها مائة سنة ضوئية اضربها فى ٣٦٥ يوماً فى ٢٤ ساعة فى ٦٠ دقيقة فى سرعة الضوء .

إذن : فوقك عالم آخر فوق ما يتصوَّره عقلك ، لذلك قال تعالى : ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ (٤٧)﴾ [الذاريات] بأيد : أى بقوة .

فيكفى أنْ تتأمل فى مجال تسخير الكون لك أنْ تنظر إلى الشمس ، وكيف سخَّرها الخالق لك فتعطيك النور والدفء والطاقة والأشعة المختلفة دون أنْ تبذل فى سبيل ذلك شيئاً ، ودون صيانة ، ودون وقود ، ودون أنْ تصلَ إليها أصلاً .

فهى تعمل فى خدمتك منذ خلقها الله وإلى أنْ تقوم الساعة لا تحتاج منك إلى شىء ، فقط عليك أنْ تستفيد منها ، وأنْ تفكر فى طبيعتها وكيفية استغلالها فيما ينفعك . ومثلها القمر يعطيك النور الحالم الهادىء ، وبه نهتدى فى ظلمة الليل : ﴿وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (١٦)﴾ [النحل]

والشمس والقمر خلقهما الله على هيئة الحركة ، فهما متحركان منذ خلقهما الله وإلى قيام الساعة ، يتحركان دون وقود وبلا طاقة بقانون العطالة كما قلنا ، وهو أنْ يظلَّ المتحركُ متحركاً ما لم تُسكنه ، ويظل الساكن ساكناً ما لم تحركه . وهذه الحركة قلنا بحساب دقيق محكم ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥)﴾ [الرحمن]

والأرض كذلك ظرف لأشياء كثيرة وأجناس متعددة ، ففيها الجماد وهو أدنى الأجناس ، فإذا أضيفَ إليه النمو كان النبات ، فإذا أضيف إليه الإحساسُ كان الحيوان ، فإذا أضيف إليه العقل كان

الإنسان وهو أعلى هذه الأجناس وأكرمها على الله .

لذلك سخَّر الله له كلّ هذه الأجناس وجعلها فى خدمته ، وجعله سيداً عليها وخليفة له فى أرضه .

والحق سبحانه عندما تكلم عن الجماد قال : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (٢٧)﴾ [فاطر] فقدَّم الثمار وهى من النبات قدَّمها على الجماد ، لأننا لا نأكل الجماد وإنما نأكل النبات والثمار هى محصلته وما يهمنى منه ، وهى من مُقوِّمات الحياة .

ثم تكلم عن الجبال وهى مصدر الخيرات والثروات والمعادن والأحجار الكريمة ؛ لذلك قال عنها فى آية أخرى : ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا .. (١٠)﴾ [فصلت] أى : فى الجبال .

وسبق أنْ بيَّنا أن الجبال هى مصادر القوت ومخازنه فى الأرض ، ذلك لأنها مصدر التربة الغنية الخصْبة التى تنساب مع ماء المطر ، وتنتشر فى أنحاء الأرض فتزيد من خصوبتها : ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ (٢١)﴾ [الحجر]

فأجناس الخلق كلها فيها آيات ، فالجماد انظر مثلاً إلى الجبال وما فيها من خيرات وألوان شتَّى فيها الرخام والجرانيت والمرمر وغيرها ، والنبات ويمثل المصدر الأساسى للقوت ، انظر مثلاً إلى النخلة العربية وقارنها بالنخلة الأفرنجى ، فالنخلة عندنا مصدرٌ للقوت وننتفع بكل شىء فيها بحيث لا يُرمى منها شىء أبداً .

لذلك تجد لها درجاً يمكنك من الصعود عليها لتقليم جريدها أو جمع ثمارها ، أما النخلة الأفرنجى فهى للزينة ، لذلك تجدها ملساء يصعب الصعود عليها ، هذا من حكمة الخلق ودقته ، فتبارك الله أحسن الخالقين .

تأمل جريدة النخيل تجدها عريضة من أصلها ونحيفة رفيعة من طرفها ، والورق فيها على عكس ذلك فهو مسطَّح منبسط من أعلى ، ثم يأخذ (ينبرم) إلى أنْ يصيرَ شوكاً عند أصل الجريدة ، القريب من الثمر ، وذلك لأن هذه الأشواك تحمى الثمار من الفئران ، ثم تأمل أن هذه الأشواك تنتهى عند أصل الجريدة ، ولا تمتد إلى الشماريخ التى تحمل الثمار .

ثم تأمل الساق فهى فى النخلة طويلة مستقيمة على خلاف الأشجار الأخرى تجدها قصيرة ومتفرعة ، لأن الثمار عليها صغيرة يسهل حملُها على الفروع ، أما ثمرة البطيخ مثلاً فهى على ساق رفيع لولبىٍّ يتمدد على الأرض ، لأن الثمرة ثقيلة .

إذن : المسألة قدرة ليست (ميكانيكا) ، وفى الأكل تأكل مثلاً قشرة المشمش وتترك اللبّ بعكس اللوز فتأكل اللب وتترك القشرة ، هذه طلاقة قدرة وحكمة عالية للخالق عز وجل ، ثمرة التين تأكلها كلها فليس لها قشرة ، أما البرتقال أو اليوسفى فله قشرة ، ثم تأمل اختلاف الألوان والطعوم فى النباتات وهى تُسْقى بماء واحد . وقُلْ : سبحان الخالق .

تأمل الأشجار تجد منها أشجاراً خضراء ليس لها ثمار وتظن أنها لا فائدة منها ، لكن لا بدَّ أن يكون لها فائدة إما لك وإما لغيرك من

المخلوقات ، ويكفى أنها زينة وجمال ومصدر للأكسوجين وربما كانت لها فوائد أنت لا تعرفها ، تجد مثلاً من هذه الأشجار لها أزهار مختلفة الأشكال والألوان والروائح .

وهذا عالم آخر من الإبداع الجمالى فى الطبيعة ، ولهذه الألوان والروائح المختلفة حكمة لأنها تجذب الفراشات والحشرات التى تقوم بعملية التلقيح للمزروعات ، ولكل فراشة أو حشرة مزاج فى اللون وفى الرائحة .

لذلك لما انتشرت المبيدت الحشرية قلَّتْ هذه الظاهرة ولم نعُد نرى الأزهار فى الحقول لماذا ؟ لأن المبيدات قتلتْ الفراشات التى تقوم بمهمة التلقيح .

وحين تتأمل عملية التلقيح ذاتها تجد فيها آية من آيات الخَلْق وبديع صُنْع الله تعالى ، فمن المزروعات ما نعرف كيفية تلقيحه كالنخيل مثلاً ، ونعرف أن منه الذكر ومنه الأنثى ، وهذا واضح فى شكل الشجرة لكن شجرة المانجو مثلاً لا نعرف كيف تتم فيها عملية التلقيح ؟

وحين ترى كل هذا الجمال فى الخَلْق ، عليك أنْ تذكر الخالق وتقول : تبارك الله أحسن الخالقين . وأجمل من الحُسْن مَنْ خلق الحُسْن .

وكلمة ﴿ جَمِيعًا مِّنْهُ .. (١٣) ﴾ [الجاثية] كلمة جميع من كلمات التوكيد ، فهى تعنى كل ما فى السموات وما فى الأرض من الله بلا استثناء ، فكل صغيرة وكل كبيرة من الذرَّة إلى المجرَّة من فضل الله ، ما تعرفه وما لم يُحط به علمك .

وكلمة (مِنْهُ) قرأها بعضهم[1] (منة) والمعنى لم يبعد عن المراد فهى من الله ، وهى منة من الله .

وأنتم تعرفون أن القرآن أول ما جُمع جُمعَ بدون نقط وبدون تشكيل اعتماداً على الملَكة العربية فى فهم المعانى واستنباطها ، ويُروى أن حماداً الراوية كان لا يحفظ القرآن ، فلما جاءوا له بالمصحف قرأ : ﴿ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ .. (١٥٦) ﴾ [الأعراف] وبالسين يظل المعنى صحيحاً ، لكن لفظ القرآن (أشاء) .

وقرأ : صنعة الله ومن أحسن من الله صنعة . فنطق الغين عيناً وهى نفس المعنى .

إذن : عطاء القرآن عطاء ممتد ، ويستطيع المتذوّق للعربية أنْ يصلَ إلى معانيه وحكمه . لكن لما فسدتْ الملكات اضطروا للنَّقْط والتشكيل ليتضح المعنى ، مع أنهم كانوا زمان يعتبرون تشكيلَ الكتاب سُوءَ ظنٍّ بالمكتوب له ، لأن فى ذلك اتهاماً له بعدم الفهم .

ثم يقول سبحانه : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ .. (١٣) ﴾ [الجاثية] أى : فى هذه المخلوقات المسخّرة لكم ﴿ لَآيَاتٍ .. (١٣) ﴾ [الجاثية] عجائب ودلائل ﴿ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١٣) ﴾ [الجاثية]

إذن : هذه دعوة للإيمان ، فالحق سبحانه يعرض علينا صنعته وإبداعه فى الكون ، ويدعونا أنْ نتأمل فيه ، وأنْ نُعملَ فيه عقولنا ، والصانع لا يفعل هذا بصنعته إلا إذا كان واثقاً من جودتها .

---

(١) المقصود ببعضهم هنا : عبد الله بن عمرو وابن عباس وأبو مجلز وابن السميقع وابن محيصن والجحدرى . وقرأها سعيد بن جبير (مَنُّهُ) . ولكن القراءة الأشهر : (جميعاً منه) أى : ذلك التسخير منه لا من غيره فهو من فضله . [زاد المسير لابن الجوزى] .

قلنا : لو أنك ذهبتَ إلى بائع القماش تشترى منه مثلاً بدلة صوف فتراه يعرض عليك أثوابَ القماش ، ويُبيِّن لك جودتها ، ثم يأخذ منها (فتلة) ويشعل فيها النار أمامك ليظهر لك حقيقة هذه الجودة ، وهو لا يفعل ذلك إلا لثقته فى بضاعته .

أما الآخر صاحب البضاعة الفاسدة المغشوشة (فيُدوّك) عليك ويُوهمك بالكلام والتدليس والزور ، ولا يجرؤ أنْ يبينَ لك حقيقة ما عنده .

إذن : حينما يخاطبك ربك : اعقل ، تدبَّرْ ، تذكَّرْ ، فهذا يعنى أنك لو أعملتَ الفكر فى هذه الآية لأوصلتْكَ إلى الحق وإلى مراده منك ، لذلك يحذر الحق عباده من الإعراض عن الآيات ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥) ﴾ [يوسف]

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿ قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٤) ﴾

---

(١) سبب نزول الآية : قال ابن عباس فى رواية عطاء : يريد عمر بن الخطاب خاصة ، وأراد بالذين لا يرجون أيام الله عبد الله بن أبى . وذلك أنهم نزلوا فى غزاة بنى المصطلق على بئر يقال له المريسيع فأرسل عبد الله غلامه ليستقى الماء فأبطأ عليه ، فلما أتاه قال : ما حبسك ؟ قال : غلام عمر قعد على قف البئر ، فما ترك أحداً يستقى حتى ملأ قرب النبى وقرب أبى بكر وملأ لمولاه ، فقال عبد الله : ما مثلنا ومثل هؤلاء إلا كما قيل : سمِّن كلبك يأكلك . فبلغ قوله عمر رضى الله عنه ، فاشتمل بسيفه يريد التوجه إليه . فأنزل الله تعالى هذه الآية . أسباب النزول للواحدى (ص ٢١٥) .

كلمة (قُلْ) دلَّتْ على دقَّة رسول الله فى البلاغ عن الله ، وأنه ﷺ لا يأتى بشىء من عند نفسه ولا يبلغ كلام الله بالمعنى إنما بالحرف ، وإلا فقد كان بإمكانه فى قوله تعالى : ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص] أنْ يقول للناس : الله أحد .

وأنت مثلاً حين ترسل ولدك إلى عمه وتقول له : قُلْ لعمِّك : أبى يريدك ، فالولد يذهب ويقول لعمه : أبى يريدك ، فالمعنى وصل بهذا الفظ وتم التعبير عنه بدون قُلْ .

أما رسول الله فينطق بما نطق الله به ، ولا يتدخل فى نصٍّ ما أُلقى إليه ، كأنه يقول لنا : هذا الكلام ليس من عندى إنما هو كلام الله يبلغه كما سمعه .

والعجيب أنْ نسمع مَنْ ينادى بحذف هذه الكلمة من المصحف ويدَّعى أنها لا تضيف شيئاً للمعنى ، ونقول له : يكفى أن الله نطق بها ونطق بها رسوله ﷺ ، ثم إن لها مهمةً كما بيَّنا .

﴿قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا .. ۝١٤﴾ [الجاثية] أى : يصفحوا ويتجاوزوا ولا يؤاخذوهم على التفاهات ما دام أنها لا تتجاوز القول إلى الفعل .

﴿لِلَّذِينَ لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ .. ۝١٤﴾ [الجاثية] أى : الذين لا يخافون أيام الله ولا يعتبرون بها ولا يعملون لها حساباً ، والرجاء نوع من الطلب ، وفيه معنى تمنٍّ والطمع فى حصول ما ترجوه ، فالرجاء طلب الشىء المتوقَّع الحدوث .

والممكن على خلاف التمنِّى ، وهو طلب المحال البعيد المنال ،

كما قال الشاعر[١] :

أَلاَ لَيْتَ الشَّبَابَ يَعُودُ يَوْماً فَأُخبرُه بمَا فَعَلَ المشيبُ[٢]

أما الرجاء فهو مظنة أنْ يتحقق ، تقول : أرجو أنْ أُوفق أو أسافر .

ومعنى ﴿ أَيَّامَ اللَّهِ .. (١٤) ﴾ [الجاثية] كما نقول مثلاً أيام العرب يعنى : وقائعهم والأحداث الكبار التى مـرَّتْ بهم ، فأيام الله يعنى وقائعه بأعدائه ، فأيام الله على المؤمنين نَصْره لهم وعلى الكافرين هزيمتهم ، فهم لا يقفون عند هذه الأحداث ولا يتأملونهـا ولا يأخذون منها عبرةً ويمرُّون علـيها مَرَّ الكرام أو مرورَ الغافل عن حكم الأشياء ، وهؤلاء هم المنافقون .

ولهذه الآيـة قصة ، فـفى غزوة بنى المـصطلق[٣] كان هنـاك بئر يشربون منه اسمـه المريسيع ، وعلى هذا البئر اجتـمع غلامٌ لعمر بن الخطاب وغلام لعبد الله بن أُبىٍّ رأس المنافقين ، فغلام عمر منع الآخر ، وقال : لا حتى أسقى لرسول الله أولاً ، فـقال الآخر : أفرغتَ ؟ قال : لا ، لا يزال دَلْو أبى بكر ، ثم دَلْو عمر ، قال : هذا لعلمه أنه منافق .

فأبطأ العبـد على عبد الله بن أُبىٍّ فقال : مـا أبطأك ؟ قال : مولىً لعمـر بن الخطاب فعل كذا وكـذا ، فهزّ رأسـه هزَّة المنافق وقال : إنّا وإياهم كما قال القائل : سَمِّنْ كلبك يأكلك ، قال هذه الكلمة ليشفى بها

---

(١) الشاعـر هو أبو العتاهيـة ، إسماعيـل بن القاسم ولد قرب الكوفـة (١٣٠ هجرية) وسكن بغداد ، كـان يجيـد القول فى الزهد والمـديح ، كان يبـيع الجرار ثم اتصل بالخلفـاء وعلت مكانته عندهم ، توفى ببغداد عام (٢١١ هجرية) [الموسوعة الشعرية] .

(٢) البيت من قصيدة من بحر الوافر ، عدد أبياتها ٤ أبيات ، ونصُّه فى الموسوعة الشعرية :

فيا ليت الشباب يعود يوماً فأخبره بما صنع المشيب

(٣) أورد هذه القـصة الواحـدى النيسـابورى فى أسـباب النزول [سـورة الجاثيـة آية ١٤] ، وأشار إليها فى نواسخ القرآن (١/٢٢٥) وقال : رواه عطاء عن ابن عباس .

ما فى صدره ، ووصلتْ هذه الكلمة إلى عمر فأخذ سيفه وأراد أنْ يقتله فأنزل الله هذه الآية : ﴿قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ .. (١٤)﴾ [الجاثية]

نعم يغفرون لهم ويتجاوزون عن هذه الهفوات لأنها فى حَيِّز القول ولم تصل إلى مستوى الأفعال ، فإذا وصلتْ إلى الفعل كان لها شأنٌ آخر كما حدث فى مسألة المرأة المسلمة فى بنى قَينُقاع لما رفع واحد منهم ذيْلَ ثوبها إلى أعلى ، فلما قامت انكشفتْ عورتها فكان لا بدَّ من قول يؤدبهم [(١)] .

أما الكلام فلا بأسَ من التسامح فيه مع هؤلاء المنافقين ، وحسبك فى المنافق أنه يذل نفسه بالنفاق لأنه يفعل ما لا يعتقده ولا يؤمن به . ثم إن النفاق فى حَدِّ ذاته دليلٌ على قوة الإيمان ، حيث أصبح الإيمان قوةً تُنافَق ، وهذه من عزة الإيمان وذلة النفاق .

ولذلك حكى القرآن قولهم : ﴿لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ .. (٨)﴾ [المنافقون] فصدَّق الله على قولهم أنْ يُخرج الأعز الأذل ، لكن مَن الأعز ومَن الأذل ؟ فقال سبحانه : ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ .. (٨)﴾ [المنافقون]

---

(١) أخرجه الواقدى فى المغازى (١/٦٥) فصل (غزوة قينقاع) قال : « جاءت امرأة نزيعة من العرب تحت رجل من الأنصار إلى سوق بنى قينقاع فجلست عند صائغ فى حلى لها ، فجاء رجل من يهود قينقاع فجلس من ورائها ولا تشعر فأدخل درعها إلى ظهرها بشوكة ، فلما قامت المرأة بدت عورتها فضحكوا منها ، فقام إليه رجل من المسلمين فاتبعه فقتله فاجتمعت بنو قينقاع وتحايشوا فقتلوا الرجل ونبذوا عهد رسول الله » .

يكفى أن هؤلاء المنافقين كانوا يقفون فى الصلاة فى الصف الأول ليَستروا بذلك نفاقهم ، ففى داخلهم تناقض وتردد ، وهذه ذلة أمام أنفسهم أولاً .

ورُوى أن فنحاص[1] اليهودى لما نزل قوله تعالى : ﴿مَن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا .. (٢٤٥)﴾ [البقرة] ضحك وقال : افتقر رب محمد ويطلب منا السلف ، وهى كلمة شفى بها ما فى صدره من غِلٍّ ، ومع ذلك كانوا فى كل معركة وفى كل صلاة فى الصف الأول .

فالحق سبحانه وتعالى حين أمر المؤمنين أنْ يغفروا لهؤلاء المنافقين إنما ليُذلَّ المنافق أمام نفسه ، لذلك أثار المستشرقون ضجة حول قوله تعالى : ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ .. (١)﴾ [المنافقون] فكيف يقول بعدها ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (١)﴾ [المنافقون]

ذلك لأن هناك فرقاً بين القول ومقول القول ، فهم صادقون فى مقول القول ، وهو ﴿إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ .. (١)﴾ [المنافقون] لكنهم كاذبون فى القول لأنهم منافقون .

فالحق سبحانه لم يُكذِّبهم فى إنك رسول الله . إنما كذَّبهم فى قولهم ﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ .. (١)﴾ [المنافقون] لأن الشهادة تعنى موافقة القلب للسان ، والمنافق قلبه فى وَادٍ ولسانه فى وادٍ آخر .

---

(١) كان فنحاص من علماء يهود وأحبارهم ، وقد قال له أبو بكر رضى الله عنه : ويحك يا فنحاص اتق الله وأسلم ، فو الله إنك لتعلم أن محمداً رسول الله قد جاءكم بالحق من عند الله تجدونه مكتوباً عندكم فى التوراة والإنجيل . قال فنحاص : والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله من فقر وإنه إلينا لفقير ، وما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا وإنَّا عنه لأغنياء ، ولو كان عنَّا غنياً ما استقرض منا كما يزعم صاحبكم ، يشير إلى قوله تعالى : ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا .. (٢٤٥)﴾ [البقرة] [راجع تفسير الطبرى] .

إذن : معنى ﴿أَيَّامَ اللَّهِ .. ﴿١٤﴾﴾ [الجاثية] الأحداث المشهورة مثل يوم بدر وأُحُد والحديبية ، وهذه الأيام فيها نصْر للمسلمين يُفرحهم ويُثلج صدورهم ، وفيها هزيمة للكافرين تحزنهم وتكدر حياتهم ، ومثلها الوقائع التى حدثت فى الأمم المكذِّبة للرسل .

وهؤلاء المنافقون لا يخافون هذه الوقائع بمعنى لا يعتبرون بها ، لذلك لم تصرفهم عن اللدد والجدال والعناد ، وهذه المسألة شرحها الحق سبحانه فى قوله : ﴿فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا .. ﴿٤٠﴾﴾ [العنكبوت]

وقوله سبحانه : ﴿لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الجاثية] فكأن الحق سبحانه يقول لنبيه : اتركهم لى . إذن : الأمر بالمغفرة لهؤلاء ليس إكراماً لهم ولا رحمةً بهم إنما ليُوقع بهم عذاباً أكبر وأشدّ ، وليتولى الحق سبحانه تأديبهم بقوته سبحانه.

إذن : خلوا ساحتهم لانتقام الله منهم ، لأنهم فى واقع الأمر لا يقفون ضدكم ، إنما يقفون ضد الحق سبحانه .

ثم إن المغفرة لها أصولٌ ولها حدودٌ ؛ فأنت تغفر لمن أساء وتغفر وتغفر ، ولا تجد فى المقابل إلا اللدد والجحود ، وعندها لا بدَّ أنْ تتحول من الحلم إلى الجهل فهو أنفع وأنسب فى هذا الموقف .

وقد فطن الشاعر[1] العربى إلى هذا المعنى ، فقال :

---

(١) الشاعر هو : أحمد بن الحسين أبو الطيب المتنبى ، ولد ٣٠٣ هجرية ، شاعر حكيم وأحد مفاخر الأدب العربى ، له أمثال سائرة ، ولد فى محلة تسمى كندة وإليها نسبته ونشأ بالشام ثم تنقَّل فى البادية يطلب الأدب وعلم العربية وأيام الناس . تنبأ فى بادية السماوة ، توفى ٣٥٤ هجرية .

مِنَ الحِلْم أنْ تستعملَ الجَهْل دُونَهُ إذَا اتسَعتْ فى الحِلْم طُرْقُ المظالم[١]

وقال الآخر[٢] .

صَفَحْنا عَنْ بَنى ذُهْلٍ وقُلْنَا القَوْمُ إخْوانُ
عَسَى الأيامُ أنْ يرجعْنَ قوْماً كالذى كَانُوا
فلمّا صرّح الشرّ وأمسَى وهْوَ عرْيانُ
مشيْنا مِشْيةَ الليْثِ غَدَا وَالليْثُ غضبانُ
بضربٍ فيه تَوْهينٌ وإضعافٌ وإقرانُ[٣]
وطعْنٍ كفم الزِّقِّ[٤] غَدَا والزِّقُّ مَلآنُ
وبعْضُ الحِلْم عِنْدَ الجَهْل للذلَّة إذْعَانُ
وفى الشرِّ نجاةٌ حينَ لا يُنجيكَ إحسَانُ[٥]

وقوله تعالى ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الجاثية] سبق أنْ أوضحنا أن كسب تُقال فى الخير واكتسب للشر ، لأن فيها افتعالاً ،

---

(١) البيت من قصيدة للمتنبى من بحر الطويل ، عدد أبياتها ٣٦ بيتاً ، والبيت هو التاسع فى القصيدة .

(٢) هو الفند الزمانى واسمه شهل بن شيبان شاعر جاهلى ، من أهل اليمامة سُمى الفند لعظم خلْقته تشبيهاً بفند الجبل وهو القطعة منه ، توفى نحو ٧٠ قبل الهجرة . [الأعلام للزركلى] .

(٣) الإقران : قوة الرجل على الرجل . وقد ورد هذا البيت فى بعض المصادر :

بضرب فيه توهين وتخضيع وإقران

والتخضيع هو تقطيع اللحم .

(٤) الزق ، السقاء : وهو كل وعاء اتخذ لشراب ونحوه ، وتزقيقه سلخه من قبل رأسه . [لسان العرب – مادة : زقق] والسلخ : الكشط .

(٥) أورد أبو على القالى هذه الأبيات فى أماليه (١/٣٠٩ ، ٣١٠) .

فالخير يأتى من فاعله طبيعياً لا تكلّف فيه والكسب فى اللغة هو الزيادة فى ثمن البيع عن ثمن الشراء ، وهذا أمر محمود .

لكن قد يتعود المرء المعصية ويألفها ، ولا يأنف من ارتكابها ، وربما تباهى بها فتصير فى حقه كسباً فيفعل المعصية كما تفعل أنت الطاعة ، يعنى لا يندم على فعلها ولا تُؤنبه نفسه عليها ، فكأن هؤلاء يعتبرون المعصية كسباً يفرحون به ، لذلك قال : ﴿ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٤) ﴾ [الجاثية] ولم يقُل : يكتسبون .

إذن : أمر الحق سبحانه المؤمنين أنْ يغفروا الزَّلَّة الخفيفة دفعاً بالتى هى أحسن لعل المقابل يرتدع ، قال تعالى : ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) ﴾ [فصلت]

فالشارع الحكيم يحرص كل الحرص على الإبقاء على الروابط بين الناس ، حتى فى أعنف معارك العداوة وهى القتل تراه يبيح القصاص ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ .. (١٧٩) ﴾ [البقرة]

وفى ذات الوقت يدعو إلى العفو : ﴿ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ .. (١٧٨) ﴾ [البقرة] تأمل كلمة (أخيه) هنا ، فرغم العداوة هم إخوة : ﴿ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ .. (١٧٨) ﴾ [البقرة]

وكثيراً ما نسمع مَنْ يقول : دفعتُ بالتى هى أحسن ولم أجد النتيجة التى أخبر الله بها ، نقول له : أنت فى الواقع لم تدفع بالتى هى أحسن لأنك لو فعلتَ لوجدتَ الجواب كما أخبر الله ، لكنك تخيلت أنك دفعتَ بالتى هى أحسن وجعلتها تجربة مع الله ، والتجربة مع الله شكّ.

ثم يرتقى الحق سبحانه بالنفس الإنسانية إلى مرتبة أعلى من الغفر ، لأنك قد تغفر لمن أساء إليك ، لكن يبقى فى نفسك منه شىء

فيدعوك إلى أنْ تتخلص من آثار الإساءة ثم ينقلك إلى مرتبة أعلى ، وهي أنْ تحسن لمن أساء إليك : ﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤) ﴾ [آل عمران]

وقد سُئل الحسن البصرى[1] فقال : لأن الذى يسيىء إليك يجعل ربك فى جانبك ، والذى يجعل ربى فى جانبى يستحق أنْ يُكافأ ، ثم هو بعد ذلك نقل إلىَّ حسناته .

لذلك الرجل الصوفى لمَّا بلغه أن رجلاً سبّه فى مجلس أرسل إليه هدية طبقاً من الرطب وقال لخادمه : اذهب به إلى فلان وقُل له : سيدى يُهديك هذا لأنك أهديتَ إليه حسناتك بالأمس .

ونحن نرى فى واقع حياتنا العملية حينما يضرب أحدُ الأولاد أخاه تجد الوالد يعطف على المضروب و(يطبطب) عليه وينهر الضارب ويُؤنِّبه ، فكأن الضرب جاء فى مصلحة المضروب .

إذن : الحق سبحانه يريد أنْ يُحنِّن الخلق بعضهم على بعض ، ومعنى ذلك أن الحياة تُبنى على المودة والمحبة لا على البغضاء والشحناء ، تُبنى على التساند لا على التعاند .

لذلك العلماء لما عالجوا هذه المسألة جعلوا المصيبة التى تصيب المرء على قسمين : مصيبة تصيبك ولك فيها خصمٌ ، ومصيبة ليس لك فيها خصم ، الأولى يتسبّب فيها شخص فتأخذه خصماً لك ، وهذه تكون أشد على النفس لأنها تدعوك إلى الانتقام .

والأخرى هى التى تكون من الله لا دخلَ لإنسان فيها ، وهذه

---

(١) هو الحسن بن يسار البصرى أبو سعيد ، تابعى كان إمام أهل البصرة وحبْر الأمة فى زمنه ، وهو أحد العلماء الفقهاء النُّساك ، ولد بالمدينة المنورة عام ٢١ هجرية وشبَّ فى كنف على بن أبى طالب. توفى ١١٠ هجرية عن ٩٠ عاماً .

أهون وأخفّ على النفس حيث لا خصم فيها ، فالخصم من شأنه أنْ يحرِّك فى نفسك نوازع الانتقام كلما رأيته .

لذلك جاء في وصية لقمان لولده : ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٧﴾﴾ [لقمان] والمراد هنا المصيبة تصيبك من الله ، لذلك لم يأت أمر بالمغفرة والتسامح ، وحينما يتكلم عن المصيبة تصيبك من البشر يقول ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ.. ﴿٤٣﴾﴾ [الشورى] أى : غفر للخصم .

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾ [الشورى] فزاد هنا التأكيد باللام فى ﴿لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾ [الشورى] لأن الصبر فى هذه الحالة أشقّ ، ويحتاج إلى مجهود ومجاهدة أكثر من الأولى .

وقوله تعالى فى آخر الآية : ﴿لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الجاثية] دلَّ على عدالة الجزاء ، وأنه من جنس العمل ، وقد أوضح الحق سبحانه هذه المسألة فى الآية بعدها :

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾﴾

فتأمل ﴿فَلِنَفْسِهِ ..﴿١٥﴾﴾ [الجاثية] فى العمل الصالح وعليها فى الإساءة ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الجاثية] فكأن الجزاء السابق له وعليه قبل الرجوع إلى الله فى الآخرة .

نعم هذا فى الدنيا ليعتدلَ ميزانُ حركة الحياة ، لأن الجزاء كله لو أُخِّر إلى الآخرة لاستسهل الناسُ الذنبَ ، وهان عليهم الوقوع فيه

فاستشرى الباطل وزاد الشر .

لذلك لا بدّ من حدوث شيء من العقاب الدنيوى لتستقيم الأمور ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ ..(٤٧)﴾ [الطور]

وقال عن عذاب أهل النار : ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ ..(٢١)﴾ [السجدة] يعنى : القريب فى الدنيا ﴿دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢١)﴾ [السجدة] أى : فى الآخرة .

وهذا المبدأ واضح في سورة الكهف فى قول ذى القرنين : ﴿أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا[1] نُّكْرًا (٨٧)﴾ [الكهف]

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٦)﴾

هذه تسلية لسيدنا رسول الله ﷺ فى وقت عانى فيه أشد المعاناة من المعاصرين له من صناديد الكفر عناداً وجحوداً واستكباراً وإيذاءً بالقول وبالفعل وبالمكر والتآمر ، فلم يتركوا شيئاً يؤذى رسول الله إلا فعلوه .

لذلك يُسلِّيه ربه يقول له : لستَ بدْعاً فى ذلك ، فقد واجه إخوانك الأنبياء السابقون مثل هذا العنت والتكذيب ، فخُذْ من تاريخ الدعوة قبلك سلْوى ، لأنك جئتهم بالحق وهم يريدون الباطل ، فلا بدَّ أنْ يصادموك .

---

(١) كان عذاب ذى القرنين لمن ظلم بشركه أن يقتله . قاله قتادة . وعن السدى : كان عذابه أن يجعلهم فى قِدْر من صفر (نحاس) ثم توقد تحتهم النار حتى يتقطعوا فيها . فكان عذاباً منكراً . (انظر الدر المنثور للسيوطى) فى تفسير سورة الكهف – آية ٨٧ .

يقول تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ .. (١٦) ﴾ [الجاثية] أى : التوراة كما أنزلنا عليك القرآن ﴿ وَالْحُكْمَ ..(١٦) ﴾ [الجاثية] أى : مقاييس العدل التى بها تستقيم أمور الخلق .

والحكم فى بنى إسرائيل مثل السُّنة عندنا مثلاً ؛ لذلك خاطب الحق سبحانه نساء النبى بقوله : ﴿ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ ..(٣٤) ﴾ [الأحزاب] أى : القرآن ﴿ والحِكْمَة ﴾ أى : أحاديث رسول الله .

﴿ وَالنُّبُوَّةَ .. (١٦) ﴾ [الجاثية] حيث جعل الحق سبحانه النبوة فى بنى إسرائيل أكثر من أىٍّ أمة أخرى ، حتى إنهم ليفتخرون على باقى الأمم بهذه المسألة ، والواقع أنها ليستْ مجالاً للفخر بل دلتْ على عيب فيهم ومأخذ يُؤخذ عليهم ، لأن كثرة الأنبياء تدل على فساد الخلق ، فالأمة لا تحتاج إلى رسول جديد إلا إذا استشرى فيها الفساد .

إذن : كثرة الأنبياء دلتْ على كثرة الفساد فيهم . إذن : كثرة الأنبياء فيهم ليست شهادة لهم ، بل عليهم ، لذلك وجدناهم يكثرون من قتْل الأنبياء بما لم يحدث فى أى أمة أخرى ، لذلك وجدناهم يتآمرون لقتل محمد هو الآخر لكن هيهات .

الحق سبحانه وتعالى بيَّن لهم أن هذه المسألة خاصة بكم أنتم ومقتصرة على أنبيائكم فقط فحبسها عليهم ، فقال تعالى : ﴿ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ .. (٩١) ﴾ [البقرة] يعنى : هذا الكلام كان زمان ، أما الآن فلا ولن تتمكنوا منه أبداً .

وقوله تعالى : ﴿ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ..(١٦) ﴾ [الجاثية] ومن هذه الطيبات المنّ والسّلْوى التى أنزلها الله عليهم فى فترة التيه ، حيث لا استقرار ولا أرض تُزرع ، فأنزل الله عليهم المنّ وهو سائلٌ

يشبه العسل ينزل على أوراق الشجر حبيبات شفافة تتساقط فى الصباح ، طعمه حلو كأنه خليط من العسل والقشدة .

أما السلوى فهو طائر مهاجر مثل السمان ويتوافر فيه البروتين ، إذن : من المن والسلوى أعطاهم الغذاء الكامل ، ومع ذلك غلبت عليهم ماديتهم ، وأرادوا أنْ يأكلوا مما تحت أيديهم مما تُخرج الأرض ، يقولون : إن هذا الطعام الجاهز قد لا يأتى ، فقد لا ينزل المنّ ولا يأتيهم السلوى .

لذلك قالوا لموسى : ﴿ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا [1] وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا .. (٦١) ﴾ [البقرة]

بل وصلتْ بهم مادّيتهم إلى أنْ طلبوا من موسى عليه السلام رؤية الحق سبحانه فقالوا : ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً .. (٥٥) ﴾ [البقرة]

وقوله سبحانه : ﴿ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٦) ﴾ [الجاثية] قالوا : عالَمى زمانهم ، ليست على إطلاقها ، لأن بنى إسرائيل عاشوا فى زمن ساد فيه الكفر والوثنية ، وكانوا هم أهلَ كتاب يؤمنون بالله ، فكانوا هم أفضلَ ممَّنْ عاصرهم .

﴿ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٧) ﴾

---

(١) الفوم : الثوم . وفى قراءة عبد الله : وثومها . ويرجح أنه الثوم ذِكْر البصل بعده ، وهما من مُشهِّيات الطعام . [القاموس القويم ٢/٩٢] .

قد يسأل سائل : ما مناسبة هذا الحديث عن اليهود هنا ؟

قالوا : يريد الحق سبحانه أنْ يقول : اذكر يا محمد أن أمتك قريش وغيرها عندهم شيء من طباع اليهود ، وفعلوا كثيراً من أفعالهم ، فأنزلَ الله بهم مثل ما أنزل بسابقيهم .

قال تعالى : ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ .. (٦٧)﴾ [العنكبوت]

فكان أيّ واحد يخرج فقط عن مكة يخطفونه ويغتالونه ويأخذون ماله ومتاعه ، لكن أهل مكة لم يجرؤوا على هذا لمكانتهم من البيت ، وحرصاً على سلامة قوافلهم التجارية التى تسافر بين اليمن والشام وتمر بمعظم القبائل .

ثم إن خدمة قريش للبيت وزواره أمَّنت تجارتهم وحمتْ قوافلهم ، ولم لا وهم يستقبلون عندهم فى مكة ضيوفَ الرحمن ويقومون على خدمتهم .

لذلك نجد أن هذه المسألة هى الرابط بين سورة الفيل وسورة قريش ، اقرأ : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣) تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ[1] (٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ[2] مَّأْكُولٍ (٥)﴾ [الفيل]

فلو قلت : لماذا ردّ الله أصحابَ الفيل وجعلهم كعصف مأكول نجد الجواب فى أول سورة قريش : ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ (١) إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ

---

(١) السجيل : الطين المتحجر . [القاموس القويم ١/٣٠٤] .

(٢) العصف المأكول : التين أو ورق الشجر الذى أصابه مرض الأكال فتآكلت منه أجزاء . [القاموس القويم ٢/٢٣] .

الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (٢) ﴾ [قريش] فلو هُدم البيت لهدمتْ معه مكانة قريش ، ولضاعت مهابتها من قلوب أهل الجزيرة العربية ، فلم يتمكّنوا من رحلة الشتاء والصيف .

فكأن الحق سبحانه يقول لنبيه ﷺ : أنا عملتُ مع هؤلاء كذا وكذا ، ودافعتُ عنهم ، وجعلتُ لهم مكانة ومنزلة ، ومع ذلك يقفون من دعوتك موقفَ العداء ، لأنك ستسلبهم السيادة المتجبرة والسيادة الطاغية التى اعتادوا عليها .

فقوله تعالى : ﴿ وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الأَمْرِ .. (١٧) ﴾ [الجاثية] أى : دلائل وعلامات فى صفة النبى ﷺ ، فما ذهب اليهود إلى مدينة رسول الله إلا لعلمهم بقدومه ، وعلمهم بصفاته وبزمن بعثته ، وكانوا يفتخرون بقدومه ويستفتحون به على الكفار والوثنيين .

يقولون : لقد أظلَّ زمانُ نبيٍّ من العرب ، سنتبعه ونقتلكم به قتلَ عاد وإرم[1] ، فلما بُعث رسول الله صادموه وكفروا بدعوته ، كما قال تعالى : ﴿ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ .. (٨٩) ﴾ [البقرة]

وقال تعالى عن معرفتهم لرسول الله : ﴿ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ .. (٢٠) ﴾ [الأنعام]

---

(١) ذكر ابن كثير فى تفسيره (١/١٢٤) نقلاً عن ابن إسحاق عن أشياخ من الأنصار قالوا : كنا قد علوناهم قهراً دهراً فى الجاهلية ونحن أهل شرك وهم أهل كتاب وهم يقولون : إن نبياً سيُبعث الآن نتبعه قد أظل زمانه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم ، فلما بعث الله رسوله من قريش واتبعناه كفروا به . وأخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (١/٤٥٩) (٢/٣٠٢) .

لذلك رأينا عبد الله بن سلام[١] وهو أحد أحبار اليهود ، يقول : والله لقد عرفتُه حين رأيته كمعرفتى لابنى ومعرفتى لمحمد أشدّ[٢] ، ومع هذه المعرفة أنكروا رسالته وكفروا به ، وأغفلوا ما عندهم من علاماته ودلائل نبوته .

﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا .. (١٤) ﴾ [النمل]

لذلك لما هدى اللهُ عبد الله بن سلام للإسلام ذهب إلى سيدنا رسول الله وقال له : يا رسول الله لقد شرح الله صدرى للإسلام لكنى أخشى إنْ أسلمت أنْ يذمنى اليهود ويتهمونى عندما يعلمون ذلك ؛ فاسألهم عنى يا رسول الله قبل أنْ يعلموا بإسلامى .

وفعلاً سألهم رسول الله : ماذا تقولون فى ابن سلام ؟ فقالوا : هو سيدنا وابن سيدنا وحَبْرنا وابن حَبْرنا ، وعندها نطق عبد الله بن سلام بالشهادتين وقال : أشهد أنْ لا إله إلا الله وأنك رسول الله . فقالوا : بل هو كذا وكذا وأخذوا يسبُّونه ويشتمونه ، فقال عبد الله : ألم أخبرك يا رسول الله أنهم قوم بُهْت ؟[٣] .

ومن العجيب أن كفار مكة حين سألوا اليهود : أنحن أهدى أم

---

(١) هو عبد الله بن سلام بن الحارث الإسرائيلى أبو يوسف صحابى . قيل : إنه من نسل يوسف بن يعقوب ، أسلم عند قدوم النبى وكان اسمه الحصين فسماه رسول الله (عبدالله) ، لما كانت الفتنة بين على ومعاوية اتخذ سيفاً من خشب واعتزلها ، وأقام بالمدينة إلى أن مات عام ٤٣ هجرية . [الأعلام للزركلى ٤/٩٠] .

(٢) ذكره ابن كثير فى تفسيره (١/١٩٤) وعزاه السيوطى فى الدر المنثور (١/٣٥٧) للثعلبى من طريق السدى الصغير عن الكلبى عن ابن عباس .

(٣) أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٠٨٢ ، ٣٦٤٥ ، ٤١٢٠) وكذا أحمد فى مسنده (١١٦١٥ ، ١٣٣٦٥) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه .

محمد ؟ قالوا : بل أنتم أهدى من محمد[١] ، كل هذا لأن لهم سلطة زمنية يريدون الاحتفاظ بها ، وقبل أنْ يدخل رسول الله ﷺ المدينة كانوا يُعدون ابن أبىّ ليكون ملكاً عليهم ، وقد جهزوا له تاج الملْك[٢] ، لكن سبقه رسول الله ، وما إنْ وصل إلى قباء واستقبله أهل المدينة لم يجدوا مجالاً لذلك ، وظل ابن أبىّ يكظمها فى قلبه إلى أنْ مات .

وقوله : ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا .. ﴿١٧﴾﴾ [الجاثية] أى : فى رسول الله ﴿إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ .. ﴿١٧﴾﴾ [الجاثية] برسول الله ﴿بَغْيًا بَيْنَهُمْ .. ﴿١٧﴾﴾ [الجاثية] لأن بعضهم صدَّق برسول الله وأسلم ، وبعضهم كذَّبه وأنكره .

وكان منهم مَنْ أثنى عليه رسول الله ، فقال : نِعْمَ اليهود (مخيريق)[٣] وهو رجل شرح الله صدره للإسلام ، وصادف ذلك

---

(١) أخرجه الطبرى فى تفسيره (٩٧٩١) عن مجاهد قال : نزلت فى كعب بن الأشرف وكفار قريش قال : كفار قريش أهدى من محمد . وقال ابن جريج : قدم كعب بن الأشرف فجاءته قريش فسألته عن محمد فصغَّر أمره ويسَّره وأخبرهم أنه ضال . ثم قالوا له : ننشدك الله نحن أهدى أم هو ؟ فإنك قد علمت أننا ننحر الكوم ونسقى الحجيج ونعمر البيت ونطعم ما هبَّت الريح ؟ قال : أنتم أهدى . ومثله فى تفسير ابن أبى حاتم (٥٤٩٧) .

(٢) ذكره ابن هشام فى السيرة النبوية (٢/٥٨٤) « أن قومه كانوا قد نظموا له الخرز ليتوجوه ثم يملكوه عليهم فجاءهم الله تعالى برسوله وهم على ذلك ، فلما انصرف قومه عنه إلى الإسلام ضغن ورأى أن رسول الله قد استلبه ملكاً ، فلما رأى قومه قد أبوا الإسلام دخل فيه كارهاً مُصراً على نفاق وضغن » .

(٣) مُخيريق النضرى الإسرائيلى من بنى النضير ، أسلم واستشهد فى أُحد وكان عالماً ، وقد أوصى بأمواله للنبى ﷺ فجعلها النبى ﷺ صدقة . انظر : الإصابة فى تمييز الصحابة (٦/٧٣) وسيرة النبى (٣/٨٨) ولفظ الحديث : مُخيريق سابق يهود . وفى رواية : مُخيريق خير يهود ، دلائل النبوة لأبى نعيم (حديث ٣٩) والمتقى الهندى فى كنز العمال (٤٦١٥٤) .

خروج الرسول لغزوة من الغزوات فخرج مع رسول الله ، ووهب له كلَّ ما يملك دون أنْ يعلن عن ذلك ، وفى هذه الغزوة قُتِل (مخيريق) دون أنْ يصلى لله ركعة[1] .

وقوله سبحانه : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٧) ﴾ [الجاثية] أى : فى قضية الإيمان برسول الله ﷺ

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (١٨) ﴾[2]

أى : جعلناك يا محمد على الطريق المستقيم ، والشريعة هى الطريق الموصل إلى الماء الذى هو أصل الحياة ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ .. (٣٠) ﴾ [الأنبياء] فسمَّى الدين شريعة .

فكما أن الماءَ حياةُ الأبدان ، فالدين حياةُ الأرواح والقلوب ، وهو الذى يمنحهم الحياة الأخرى الباقية ، حيث لا يفوتهم النعيم ولا يفوتونه ، وهذه هى الحياة الحقيقية التى قال الله عنها : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ .. (٢٤) ﴾ [الأنفال] فلا شك أنه يخاطبهم وهم أحياء فى حياتهم الدنيا ، إذن : معنى يحييكم ، أى : الحياة الآخرة الباقية .

---

(١) أورده ابن كثير فى السيرة النبوية (٣/٧٢) .

(٢) الشريعة فى اللغة : المذهب والملة . والشريعة : ما شرع الله لعباده من الدين ، وقال ابن عباس : (على شريعة) أى : على هدى من الأمر . وقال قتادة : الشريعة الأمر والنهى والحدود والفرائض . وقال مقاتل : البينة لأنها طريق إلى الحق . [تفسير القرطبى ٩/٦٢١٤] .

وكأن الحق سبحانه يقول لنبيه ﷺ : دعْكَ مما يفعل هؤلاء من التكذيب والعناد ، فهذا أمر معروف منهم ، وله سوابق فى مواكب الرسل قبلك ، فتحمَّل أنت ما يعترض طريقك من الإيذاء .

لذلك فى أول بعثته ﷺ لما ذهبتْ به السيدة خديجة إلى ابن عمها ورقة بن نوفل[١] وقصَّتْ عليه ما حدث لسيدنا رسول الله ، فقال : إن هذا هو الناموس الذى كان ينزل على موسى . وقال لرسول الله : إنك نبىُّ هذه الأمة ، وإنْ يدركنى يومك أنصرْك نصراً مؤزراً ، وليتنى أكون حياً يوم يخرجونك .

فقال ﷺ : أو مُخرجىّ هم ؟ قال : نعم ، ما جاء أحدٌ بمثل ما جئتَ به إلا أخرجه قومه[٢] .

إذن : فالهجرة كانت موجودة منذ الخطوات الأولى للبعثة ، لأنها تمامٌ لإشراق الإسلام فى مكة .

وقوله : ﴿ فَاتَّبِعْهَا .. (١٨) ﴾ [الجاثية] أى : اتبع هذا الطريق المستقيم وهذه الشريعة ﴿ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ (١٨) ﴾ [الجاثية] أهواء الكافرين لأنهم اقترحوا على رسول الله وقالوا : تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة ، فنهاه الله عن اتباعهم ، وفى هذه

---

(١) هو : ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى قريشى ، حكيم جاهلى ، اعتزل الأوثان قبل الإسلام وامتنع من أكل ذبائحها وتنصَّر ، أدرك أوائل عصر النبوة ولم يدرك الدعوة ، ابن عم خديجة ، توفى نحو ١٢ قبل الهجرة ، وكان شيخاً كبيراً قد عمى . [الأعلام للزركلى ٨/١١٤ ، ١١٥] .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٣١) ، وأحمد فى مسنده (٢٤٦٨١) من حديث عائشة رضى الله عنها ، وأبو عوانة فى مستخرجه (حديث ٢٤٥) ولفظ مسلم : لم يأت رجل قط بما جئت به إلا عودى ، وإن أدركنى يومك أنصرك نصراً مؤزراً .

المسألة نزلتْ سورة الكافرون[١].

﴿إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾﴾

أى : كفار مكة لأنهم ذهبوا إلى عمه أبى طالب وقالوا : لو كان ابن أخيك يريد المال جمعنا له من أموالنا حتى يصير أغنانا ، وإنْ كان يريد الملْك ملّكناه علينا ، فقال سيدنا رسول الله قولته المشهورة : « والله يا عم ، لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أنْ أترك هذا الأمر ما تركتُه حتى يُظهره الله أو أهلك دونه »[٢] .

﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ .. ﴿١٩﴾﴾ [الجاثية] أى : يعين بعضهم بعضاً ويساند بعضهم بعضاً ، فقد جمعهم الظلم ووحّد أهدافهم ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾﴾ [الجاثية] أى : فى المقابل الله ، هو ولىُّ المتقين يُعينهم ويُؤيّدهم وينصرهم ، فهذه من المقابلات التى تزيد المعنى وضوحاً .

---

(١) أورده السيوطى فى تفسيره (الدر المنثور فى التفسير بالمأثور) سورة (الكافرون) وعزاه لابن جرير الطبرى وابن أبى حاتم والطبرانى عن ابن عباس أنهم قالوا لرسول الله : إنَّا نعرض عليك خصلة واحدة ولك فيها صلاح . قال : ما هى ؟ قالوا : تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة .

(٢) أوردته كتب السيرة ، فقد أورده صاحب (عيون الأثر) (١/١٣٢) وكذا ابن كثير فى السيرة النبوية (١/٤٧٤) والسهيلى فى (الروض الأنف) (٢/٦) كلهم من طريق محمد بن إسحاق .

﴿هَٰذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾

كلمة ﴿بَصَائِرُ .. ﴿٢٠﴾﴾ [الجاثية] جمع بصيرة ، وهى ما يُوجد فى وجدان الإنسان من نور الحق ، فالبصر يرى الماديات ، والبصيرة ترى المعنويات والقيم وتميزها .

إذن : محلها القلب ، فهى نور يقذفه الله تعالى فى قلب عبده ، نقول : فلان عنده بصيرة . يعنى : نظر ثاقب للأمور ، ويمكنه أنْ يتنبأ بالشىء فيأتى وفْقَ تنبؤه .

والهدى أو الهداية أنْ تصلَ إلى الحق من أقرب طريق وأيسره عليك ، فليس فى الهدى مشقَّة ؛ لذلك وصف اللهُ المؤمنين بقوله : ﴿أُولَـٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ .. ﴿٥﴾﴾ [البقرة] فهم على الهدى كأنه دابةٌ تحملهم إلى غايتهم ، وإلى مراد الحق منهم .

﴿وَرَحْمَةٌ .. ﴿٢٠﴾﴾ [الجاثية] هذه كلها أوصاف للقرآن الكريم ، فهو بصائر للناس وهو هدى وهو رحمة ، وفى آية أخرى قال سبحانه : ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ .. ﴿٨٢﴾﴾ [الإسراء]

وقلنا : هناك فَرْق بين الشفاء والرحمة ، فالشفاء يعنى وجودَ داء يعالجه القرآن أو اعوجاج يُقوّمه القرآن ويُصحِّح مساره ، فالقرآن يجبر ما فينا من نقص ، ومن تقصير ، ومن غفلة ، ومن انحراف ويُعدل مسارنا إلى الطريق الصحيح وإلى الحركة البناءة .

مثل التلميذ حين ينصرف عن دروسه ، فإنه يرسب ويفشل فإنْ عاد إلى الصواب وذاكر ينجح كذلك ، فنحن إنْ غفلنا عن كتاب ربنا وعن منهجه أصابتنا الأمراض فإنْ عُدْنا إليه شفانا . أما الرحمة فتعنى ألاَّ يأتى الداءُ أصلاً .

وقوله سبحانه : ﴿ هَـٰذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٢٠) ﴾ [الجاثية] أى : أن هذا الأثر للقرآن لا يكون إلا للموقنين المؤمنين به وبصدقه ، وأنه هو المنهج الحق الذى يحوى النور والهداية والشفاء والرحمة .

﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٢١) ﴾ (١)

الفعل ﴿ حَسِبَ .. (٢١) ﴾ [الجاثية] بكسر السين يعنى : ظنَّ ، وهناك حسب بالفتح من الحساب والعدِّ . ومعنى ﴿ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ .. (٢١) ﴾ [الجاثية] يعنى : فعلوها واكتسبوها لذلك نُسمِّى الجوارح من الطيور (الكاسبات) لأنها تُستخدم للصيد ، فهى كواسب . والسيئة هى كل ما يسوء صاحبه ، يسوءه عقاباً أو ذماً .

وفى الآية استفهامٌ يفيد الإنكار والتعجب من هذا الظن ، فكيف نُسوِّى بين الكافرين والمؤمنين ، أو بين الطائعين والعاصين ، فالذين انصرفوا عن دعوتك يا محمد ، وظنوا أنْ نُسوِّيهم بالذين آمنوا ظنهم خاطىء .

---

(١) اجترحوا السيئات : عملوها . [القاموس القويم ١/١٢٠] وأصله استخدام جوارح الإنسان من يد ورِجْل وغيره .

فشتَّان بين هذا وذاك ، ولن نعاملهم كما نعاملكم ، بل نعاملهم فى الدنيا بالهزيمة ، ونعاملكم بالنصْرة والتمكين ، ونعاملهم فى الآخرة بالعذاب ، ونعاملكم بالنعيم والثواب .

﴿ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ .. (٢١) ﴾ [الجاثية] يعنى : لا نُسوِّى بينكم وبينهم ، لا فى الحياة الدنيا ولا فى الآخرة ﴿ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٢١) ﴾ [الجاثية] فمَنْ يحكم بالمساواة هنا ساء حكمه وبطل ، لأنه حُكْم جائر مُنَافٍ للحق وللعدل .

فكأن ظنهم هذا هو الذى أرداهم وأغراهم بعدم الإيمان بك ، وإلا لو أيقنوا أن الغاية مختلفة ، وأن الجزاء مختلف لآمنوا وعملوا الصالحات .

﴿ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢٢) ﴾

بعد أنْ تكلَّم الحق سبحانه أن الظن الجائر والخاطىء من الكافرين ، وهو أنْ نُسوِّيهم بالذين آمنوا .

وبعد أنْ بيَّن سبحانه وجه الظلم فى هذا الظن يُحدِّثنا هنا عن عدله سبحانه ، وعن ميزان الحق الذى به قامتْ السموات والأرض بداية ، وقبل أنْ يخلقَ الإنسان ، وقبل أنْ يوجد المؤمن والكافر .

فبالحق خلق الله السماوات والأرض ، وأنشأهما بحساب دقيق وعدل مطلق ، فعدالة السماء لا تقتصر على جزاء الآخرة كُلٌّ بعمله ، إنما هى عدالة أزلية بها قامتْ عملية الخلق .

﴿ وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ

وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (٢٢) ﴾ [الجاثية] والحق هو الشىء الثابت الذى لا يتغير ، ونحن نرى آيات الله فى الكون سمائه وأرضه نجدها آيات ثابتة تسير بنظام محكم دقيق لا يتخلف أبداً ولا يتبدل ، لأنها بُنيت بدايةً على الحق .

وكأن الله تعالى يعطينا إشارة ويلفت أنظارنا إلى أن حركة حياتنا فى هذه الدنيا لن تستقيم ولن تسير فى سلام إلا إذا قامتْ على الحق وبُنيت بميزان الحق ، الذى به قامتْ السموات والأرض .

اقرأ مثلاً : ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥) ﴾ [الرحمن] أى : خُلقَتْ بحساب دقيق ﴿ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (٦) وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧) ﴾ [الرحمن]

وتأمل ختام الآية : ﴿ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (٢٢) ﴾ [الجاثية] فما دام الأمر قائماً على الحق ، فلا بدَّ أنْ تتحقق العدالة فى الجزاء ، وأنْ ينتفى الظلم .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٢٣) ﴾

---

(١) سبب نزول الآية : حكى ابن جريج أنها نزلت فى الحارث بن قيس وحكى النقاش أنها نزلت فى الحارث بن نوفل بن عبد مناف . وقال مقاتل : نزلت فى أبى جهل ، وذلك أنه طاف بالبيت ذات ليلة ومعه الوليد بن المغيرة ، فتحدثا فى شأن النبى ﷺ ، فقال أبو جهل : والله إنى لأعلم أنه لصادق . فقال له : مه . وما دلَّك على ذلك ؟ قال : يا أبا عبد شمس كنا نسميه فى صباه الصادق الأمين ، فلما تم عقله وكمل رشده نسميه الكذاب الخائن . والله إنى لأعلم أنه لصادق . قال : فما يمنعك أن تصدقه وتؤمن به ؟ قال : تتحدث عنى بنات قريش أنى قد اتبعت يتيم أبى طالب من أجله كسرة ، واللات والعزى إن اتبعته أبداً . فنزلت ﴿ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ .. (٢٣) ﴾ [الجاثية]

الإله هو المعبود الذى تكرِّس كلّ حياتك لخدمة مراده منك ، وكلمة المعبود كلمة عامة تُطلق على المعبود بحق ، وهو الله تعالى الخالق الرازق المبدع لهذا الكون وتُطلق على المعبودات بالباطل كالذين عبدوا الأصنام أو الشمس أو القمر .

هذه وغيرها معبودات باطلة لا تضر ولا تنفع ، وما عبدها الجهلاء إلا لإرضاء عاطفة التدين عندهم ، فهم يريدون ديناً بلا تكاليف ، وإلهاً بلا أوامر ولا نَواهٍ .

ومن هذه الآلهة الباطلة الهوى ، فمن الناس مَنْ يتخذ إلهه هواه ، والهوى فى حدِّ ذاته مذموم ، لذلك قالوا : آفة الرأى الهوى .

ولما مدح الحق سبحانه رسول الله قال : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ ﴾ [النجم] حتى وإنْ عدَّل له ربه تعالى بعض الأحكام لأنها ساعة الحكم الأول لم تصدر منه عن هوى فى نفسه ، لذلك قال عن نفسه ﷺ : « أدَّبنى ربى فأحسن تأديبى »[1] .

ثم يُبيِّن الحق سبحانه أن الذى اتخذ إلهه هواه إنسانٌ ضال ﴿ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ .. ۝٢٣ ﴾ [الجاثية] أى :حكم بضلاله لأنه جعله مختاراً ، فاختار هواه ، ولو جعله مقهوراً كالسماء والأرض ما استطاع المخالفة ، وقلنا : إن الله يريد منا القلب لا القالب ، يريدنا أنْ نذهب إليه طواعية .

---

(١) قال عبد الرحمن بن على الشافعى الشيبانى فى كتابه « تمييز الطيب من الخبيث فيما يدور على ألسنة الناس من الحديث » (ص ١٧) عن هذا الحديث : أخرجه العسكرى فى الأمثال عن على رضى الله عنه مرفوعاً فى حديث طويل . قال شيخنا : سنده ضعيف ، ولكن معناه صحيح .

يقول الحق سبحانه :

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) ﴾ [الشمس]

إذن : لما اختار الضلال ووجده الله تعالى ضالاً حكم عليه أزلاً بأنه ضالّ ، وجاء الواقع كما حكم الحق سبحانه ، وكما علم الله منه . لذلك قلنا : إن الملائكة تظلّ تتعجَّب حينما يرونَ واقع الحياة وفْق ما كتب فى اللوح المحفوظ فيقولون : نِعْم الرب .

معنى ﴿ أَفَرَأَيْتَ .. (٢٣) ﴾ [الجاثية] يعنى : أعلمتَ سَواء أكنتَ رأيت بعينك أو لم تَرَ ، كما فى قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) ﴾ [الفيل] أى : ألم تعلم ، لأن رسول الله وُلد فى هذا العام ولم يَرَ حادثة الفيل .

وقوله تعالى : ﴿ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً (٢٣) ﴾ [الجاثية] معنى ختم يعنى : ضرب وطمس ، وهنا جمع كل وسائل الإدراكَ فى النفس الإنسانية ، الأذن التى تسمع آيات الله تسمع بلاغة كلام الله ووعده ووعيده ، والبصر الذى يرى الآيات الكونية ويتأملها ويستدل بها على خالقها ومُبدعها ، والقلب محل الاعتقاد .

وما ختم الله على كل هذه الوسائل إلا لأن صاحبها أحبَّ الكفر وارتاح إلى الضلال ، فأعانه الله على ما يحب ، وختم على هذه الجوارح حتى لا يخرج منها الكفر ولا يدخلها الإيمان ، وكيف يؤمن مَنْ لا يسمع كلام الله ولا يرى آياته فى الكون ولا يميل قلبُه إلى لذة الإيمان بالله .

لذلك قال فى ختام الآية : ﴿ فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ (٢٣) ﴾ [الجاثية] لا أحد يملك هدايته كما قال فى موضع آخر : ﴿ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ

مِنْ هَادٍ (٣٣) ﴾ [غافر]

﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (٢٤) ﴾

هـذا إنكـار منهم لليـوم الآخـر ، ولكن الحق لا بدّ وأنْ يظهر فى (فلتات) الألسنة ، فـوصفهم للحياة الـتى يعيشونها بأنهـا دنيا دليل واعتراف منهم بأن هناك حياة أخرى أشرف وأعلى من هذه .

كما جاء فى قولهم : ﴿ لا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُـولِ اللَّهِ .. (٧) ﴾ [المنافقون] فيعترفون أنه ﷺ رسـول الله مع أنهم مُعادون له كافرون بدعوته .

وقولهم : ﴿ نَمُوتُ وَنَحْيَا .. (٢٤) ﴾ [الجاثية] يقصدون نموت نحن ويحيا أبـناؤنا من بعدنا ، وهذا لأنهم لا يؤمنون بالحياة بـعد الموت ، فالحياة التى يقصدونها هى امتداد أبنائهم من بعدهم .

﴿ وَمَـا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ .. (٢٤) ﴾ [الجـاثيـة] أى : الزمن هو الذى يميـتنا ، ومعلوم أن الزمن ظرف للأحداث ، وهو مـخلوق لله تعالى لا يميت ، إنمـا الذى يميتُ هو الله ، وفى الحديث القدسى : « لا تـسبُّوا الدهر فأنا الدهر[1] » أى : خالقه ومالكه .

﴿ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ (٢٤) ﴾ [الجاثية] وما دام

---

(١) أخرجـه البيهـقى فى شعب الإيمـان من حديث أبى هريرة (حـديث ٥٠١٤) أنه قال : « لا تسبوا الدهر . قـال الله عز وجل : أنا الدهر الأيام والليالى أجددها وأبليـها وآتى بملوك بعد ملوك » . وقد أخرجـه مسلم (حديث ٤١٦٩) من حديث أبى هريرة « لا تسـبوا الدهر فإن الله هو الدهر » .

ليس لهم علم بذلك ، فلماذا يُعاقبهم الله ؟ قالوا : يعاقبهم لأنهم ردُّوا العلم الذى جاءهم من ربهم على ألسنة الرسل ﴿إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ (٢٤)﴾ [الجاثية] ما هم إلا يظنون أى فى قولهم : ﴿مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ .. (٢٤)﴾ [الجاثية]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (٢٥)﴾ (١)

لم تستقم للكافرين حجة واحدة ، بل كانت لهم حجج كثيرة يسوقونها للتملص من الإيمان بالله ورسوله وقرآنه ، لذلك نجدهم عندما تُتلى عليهم آيات الله أى : آيات القرآن نجد لهم حججاً كثيرة متنوعة .

يقول تعالى : ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا .. (٣١)﴾ [الأنفال]

وفى آية أخرى يقول : ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ .. (١٥)﴾ [يونس]

فهم يطلبون طلبين . الطلب الأول : يريدون قرآناً غير الذى أنزله الله . والطلب الثانى : أنهم يريدون تبديل آية مكان آية . وهم قد طلبوا

---

(١) قال الزمخشرى : « فإن قلت لم سمّى قولهم حجة وليس بحجة ؟ قلت : لأنهم أدلوا به كما يُدلى المحتج بحجته وساقوه مساقها فسمُيت حجة على سبيل التهكم . أو لأنه فى حسبانهم وتقديرهم حجة . أو لأنه فى أسلوب قوله : تحية بينهم ضرب وجيع . كأنه قيل : ما كان حجتهم إلا ما ليس بحجة . والمراد نفى أن تكون لهم حجة البتة » [نقله القرطبى فى تفسيره (٦٢٢٣/٩)] .

حذف الآيات التى تهزأ بالأصنام ، وكذلك الآيات التى تتوعدهم بسوء المصير .

وكما طعنوا فى القرآن وأرادوا تبديله وتغييره طعنوا فى رسول الله الذى أُنزل عليه هذا القرآن ، فقالوا : ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَـٰذَا إِلاَّ رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ مُّفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَـٰذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ (٤٣)﴾ [سبأ]

حجج تتلوها حجج ، ومقصدهم أن لا يؤمنوا ، و هم يعلمون أن كل حججهم ساقطة لا أساس لها ، وقد يسأل سائل : إذا كان الله يسوق حججهم فى عدة آيات من قرآنه ، فلماذا يقول فى آية سورة الجاثية ﴿مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا .. (٢٥)﴾ [الجاثية]

فلماذا حصر حجتهم هنا بـ (ما كان) و (إلا) ؟

ولو تأملنا كل الحجج السابقة سنجدها مجرد (تلاكيك) لأنْ لا يؤمنوا ، ولكن حجتهم الرئيسية التى كانت أصيلة فيهم وفى تفكيرهم هى أنهم لم يكونوا يؤمنون بالبعث بعد الموت .

لذلك قال تعالى : ﴿مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا .. (٢٥)﴾ [الجاثية]

وقد قال الحق سبحانه ﴿إِنَّ هَـٰؤُلاءِ لَيَقُولُونَ (٣٤) إِنْ هِيَ إِلاَّ مَوْتَتُنَا الأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ (٣٥) فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣٦)﴾ [الدخان]

وكان منهم من أمسك عظاماً بالية فى يده وفركها حتى أصبحت

رماداً ويتطاير ﴿وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٤٩)﴾ [الإسراء]

لقد كانوا يستبعدون البعث بعد الموت ، لأنهم غفلوا عن بداية الوجود وبداية خلق الإنسان ، ولو أحصينا تعداد العالم لوجدناه يتزايد فى الاستقبال ويقل فى الماضى ، وهكذا إلى أن نصل بأصل الإنسان إلى الأصل الأصيل وهو آدم وحواء ، فمن أين أتيا إلى الوجود ؟ فهذه قضية غيبية كان لا بد أن يفكروا فيها .

ولقد رد عليهم القرآن إنكارهم للبعث وقولهم : ﴿أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٤٩)﴾ [الإسراء] بقوله تعالى : ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٣٤)﴾ [يونس]

إن الله سبحانه هو وحده القادر على ذلك ، فكيف تقلبون الحقائق لأنكم تعرفون الواقع وتُكذِّبونه كذباً متعمداً ؟

هؤلاء ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا .. (٢٥)﴾ [الجاثية] أى : إذا تُتْلى عليهم آيات القرآن (بينات) واضحات الدلالة .

﴿مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ .. (٢٥)﴾ [الجاثية] يعنى : لم يجدوا حجة يحتجون بها على عنادهم وإنكارهم ﴿ إِلاَّ أَن قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا .. (٢٥)﴾ [الجاثية] أى : الذين ماتوا إن كنتم صادقين .

وهذا طلب يدل على إفلاسهم وعنادهم ، فليس عندهم منطق ولا حجة تبرر هذا العناد .

لذلك ردَّ الله عليهم بقوله :

﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يَجۡمَعُكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾

أى : قُلْ لهم يا محمد ﴿اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ .. (٢٦)﴾ [الجاثية] أى : فى الدنيا ﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ .. (٢٦)﴾ [الجاثية] بعد البعث والنشور ﴿إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ .. (٢٦)﴾ [الجاثية] لا شكَّ فيه ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٢٦)﴾ [الجاثية] فنفى عنهم العلم .

إن علمهم قاصر عن أنْ يدرك حقائق الأمور ، فكما أن الخلق آية من آيات الله فكذلك الموت آية من آيات الله نراها ونلمسها كل يوم ، وما دُمْت تصدق بآية الخلق وآية الموت وتراهما ولا تشك فيهما .

فحين نقول لك إن بعد هذه الحياة حياة أخرى فصدِّق ، لأن صاحب هذه الآيات واحد ، والمقدمات التى تحكم أنت بصدقها يجب أن تؤدى إلى نتيجة تحكم أيضاً بصدقها ، وها هى المقدمات بين يديك صادقة .

﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ .. (٢٦)﴾ [الجاثية] أى : يعطى المحى ما يُحييه قوة يؤدى بها المهمة المخلوق لها ، والإحياء الأول فى آدم حين خلقه ربه وسوَّاه ونفخ فيه من روحه ثم أوجدنا نحن من ذريته .

وفى آية أخرى يقول الحق سبحانه :﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ .. (٢٨)﴾ [البقرة]

فكفركم لا حجةَ لكم فيه ولا منطق ، فقضية الإحياء من عدم والخلق قضية لا تحتمل الجدل ، فأين كان آدم قبل أن يخلقه الله ،

وأين كنتم ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا (١)﴾ [الإنسان] أى : لم يكن له وجود .

فقضية الحياة والموت لا يمكن لأحد أن يجادل فيها ، فالله سبحانه وتعالى خلقنا من عدم ، ولم يدَّعِ أحد قط أنه خلق الناس أو خلق نفسه .

وقوله تعالى ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ .. (٢٦)﴾ [الجاثية] فإن أحداً لا يشك فى أنه سيموت ، فالموت مُقدَّر على الناس جميعاً ، والخَلْق من العدم واقع بالدليل ، والموت واقع بالحسِّ والمشاهدة .

ولذلك فمن رحمة الله بالعقل البشرى بالنسبة للأحداث الغيبية أن الله سبحانه قرَّبها لنا بشىء مشاهد .. كيف ؟ فالحق تبارك وتعالى أخبرنا عن مرحلة فى الخلق لم نشهدها ، ولكن الموت شىء مشهود لنا جميعاً .

وما دام الموت مشهوداً لنا ، فالحق سبحانه يأتى به كدليل على مراحل الخلق التى لم نشهدها ، فالموت نقض للحياة .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ .. (٢٦)﴾ [الجاثية] فالجمع هنا أى بعد البعث والإعادة والإحياء من الموت ، إنه يوم الجمع ، قال تعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لا رَيْبَ فِيهِ ..(٧)﴾ [الشورى]

أى : تُخوفهم من هذا اليوم وهو يوم القيامة ، والجمع فى هذا اليوم يكون من عدة وجوه : البعث حيث يجمع بين الجسم والروح ، ويجمع الملائكة فى الملأ الأعلى بالبشر ، ويجمع الظالم والمظلوم ، والتابع والمتبوع .

يقول تعالى : ﴿اللَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا رَيْبَ

فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا (٨٧) ﴾ [النساء]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ (٢٧) ﴾

هنا أسلوب قصر بتقديم الجار والمجرور ، أفاد قصر ملكية السموات والأرض على الله وحده لا شريك له : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ .. (٢٧) ﴾ [الجاثية] تقوم القيامة كأنها كانت نائمة وقامتْ ، وأبهم الساعة لننتظرها فى أىِّ لحظة .

فالإبهام هنا كما قُلنا عَيْن البيان ، لأنه يجعلنا دائماً على استعداد لها ، كما أبهم الله تعالى أجل الإنسان ليستحضره دائماً فى أىِّ وقت ولا يغفل عنه ، ومَنْ لا يملك لنفسه البقاء طرفة عيْن جدير ألاَّ يغفل عن آخرته ويحذر أنْ يأتى أجله وهو على معصية الله .

فمَنْ مات على شىء بُعِث عليه[1] خاصة إذا كان الموت لا ينتظر أسباباً ، فالموت من دون أسباب هو السبب ، مات لأنه يموت وقد حان أجله ، وقد تنبه الشعراء لهذا المعنى فقال أحدهم[2] :

فِى الموْتِ مَا أعياَ وَفِى أسْبَابِهِ ... كلُّ امرىءٍ رهْنٌ بطَىِّ كِتَابِهِ

(١) أخرجه الحارث فى (البُغية) باب : من مات على شىء بُعث عليه (١٢) حديث (٣٢) عن فضالة بن عبيد الأنصارى عن رسول الله ﷺ أنه قال : « من مات على مرتبة من هذه المراتب بعثه الله عليها يوم القيامة » .

(٢) الشاعر هو أحمد شوقى ، أمير الشعراء ، ولد ١٨٦٨ م وتوفى ١٩٣٢ م عن ٦٤ عاماً .

أَسَـد لَعَـمـرِكَ مَنْ يمـوتُ بظُفْـرِه ... عندَ اللقَـاء كَـمَنْ يمـوتُ بنَابِه
إنْ نـامَ عنْـكَ فأىُّ طَلَـب نافـعٌ ... أَوْ لم ينَمْ فالطـبُّ من أذْنابه(١)

نعم يدخل غرفة العمليات فلا يخرج منها ويكون الطب هو سبب موته . إذن : الحق سبحانه يبهم لحكمة وهدف . ومن رحمته تعالى بخَلْقه أنه لما أبهم الساعة جعل لها علامات تنبّه الغافل حتى لا تُفاجئ الناس .

من رحمته بنا أن جعل لها علامات صغرى وعلامات كبرى ، هذا حنان من الله على خَلْقه : ﴿ لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَـوَاتِ وَالأَرْضِ لا تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً .. (١٨٧) ﴾ [الأعراف]

وقوله : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ (٢٧) ﴾ [الجاثية] أى : المستمرون فى الباطل ، وكلمة (يخسر) من الخسارة التى يقابلها المكسب ، وهذه مسألة يعرفها التجار ، فكل تاجر يريد المكسب أى : الزيادة على رأس المال .

إذن : كل عمل من الأعمال يجب أنْ يُحسبَ من حيث المكسب والخسارة ، فالكافر فى الدنيا يظن أن عمله يعود عليه بالمكسب فى الدنيا ، لكن سيُفاجأ يوم القيامة حيث انتهى وقت العمل أنَّ عمله عاد عليه بالخسران .

﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً .. (٣٠) ﴾ [آل عمران]

ومعنى الخسارة هنا أن يجد أن كل أعماله ذهبتْ هباء منثوراً

---

(١) الأبيات من قصيدة لأحمد شوقى ، عدد أبياتها ٥٥ بيتاً من بحر الكامل .

دون فائدة : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩) ﴾ [النور]

لذلك لما سُئلنا عن أصحاب الاختراعات والابتكارات التى خدمت البشرية ويسَّرتْ على الناس حركة الحياة ، وخفَّفتْ آلام المتألمين : كيف بعد هذا كله يدخلون النار ؟

قلت : نعم ، لأنهم عملوا هذه الأعمال لخدمة الإنسانية ولم يكُنْ الله فى بالهم ، لذلك أخذوا أجورهم من البشرية تكريماً وتخليداً لذكراهم وتمجيداً لهم ، فعملوا لهم التماثيل وألّفوا فيهم الكتب .. الخ .

إذن : لا نصيبَ لهم فى ثواب الآخرة ، ولو عملوا لله لوجدوا الأجر عند الله ، لأن الأجير لا يطلب أجره إلا ممنْ عمل له .

لذلك سيُفاجأ الكافر بهذه الحقيقة ، هذه المفاجأة نفهمها من قوله تعالى : ﴿ وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ .. (٣٩) ﴾ [النور] فُوجىء بإله لم يكُنْ فى باله ، أو كان مُنكراً له كافراً به .

﴿ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا ۖ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٨) ﴾

أى : يوم القيامة ترى كل أمة جاثية ، من الفعل جثا جثواً أى : برك على ركبتيه ، أو قام على أطراف أصابعه ، وهذا وضْع الخائف الخاضع الذليل ، ومنه قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا (٦٨) ﴾ [مريم]

وقريب منه الفعل جثم جثوماً أى : لزم مكانه أو لصق بالأرض ، ومنه قوله تعالى : ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩٤)﴾ [هود]

إذن : فالموقف موقف عصيب ، موقف رعب وهَوْل وهلع بحيث لا يتمكن الناسُ من القعود على مقاعدهم فيقعدون على رُكَبهم ، فإنْ اشتدَّ الهول وقفوا على أطراف أصابعهم ، وهى وقفة مَنْ ينتظر الخطر والهول ، أما القعود الطبيعى فيُمكِّن الإنسان مقعدته من الأرض ويكون فى حال الاطمئنان .

وفرْقٌ بين القعود والجلوس وإن كانت المحصلة واحدة ، إلا أن القعود يكون بعد الوقوف . نقول : كان قائماً فقعد ، أما الجلوس فيكون من حال الاضطجاع . كان مضطجعاً فجلس .

إذن : هنا مسألة فلسفية : القعود يكون من وضع أعلى وهو القيام ، والجلوس من وضع أدْنى وهو الاضطجاع ، والجلوس أو القعود يضمن للإنسان الراحة حيث يكون معظم جسمه على الأرض فيرتاح على خلاف القائم مثلاً فتحمله قدماه .

لذلك إذا وقفتَ مدة طويلة تتعب وتبادل بين قدميك فى الوقوف ، ثم يزيد الحِمْل على القدمين إنْ أضفت إلى القيام المشى ، ثم يزيد إذا أضفتَ على المشى شيئاً تحمله ، وهكذا .

فإذا تعب الإنسانُ فأول شىء يضع الحِملَ الذى يحمله ليخفّ الحمل على القدمين ، ثم يتوقف عن المشى ليقلّل المجهود ، ثم يقعد، وبعد ذلك يضطجع فيلقى بكل جسمه على الأرض ، وهذا الوضع يضمن منتهى الراحة للبدن .

لكن هذا التصوير القرآنى فى جاثية أو جاثمة لا يدل على الراحة، إنما يدل على الخضوع والذلّة والانكسار وشدة الخوف الذى يجعل الإنسان والعياذ بالله يلتصق بالأرض ، أو يجثو على ركبتيه من شدة الخوف .

فالحق سبحانه يُصوِّر هذا الموقف تصويراً لفظياً يُشعرك بفظاعة الموقف وشدة كربه ، ولك أنت أنْ تتخيل الموقف ، وأنْ تأخذه تجربة مررت بها بالفعل فى موقف رهيب ينشغل فيه كل امرىء بنفسه .

فالقيامة قامت ، قامت يعنى : لن تقعد والأمة جاثية ، الكل المؤمن والكافر ، الكل جَاثٍ ينتظر ما سيحدث ، لا أحدَ هنا فوق القانون (مفيش جستنة) فالفزع والهول يَغشى الجميع ، والكل ينتظر كلمة الحق .

﴿ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ[1] كِتَابِهَا .. (٢٨) ﴾ [الجاثية] فنسب الكتاب إلى الأمة ، لذلك وقف المستشرقون عند هذه الآية يعترضون ، لأن الحق سبحانه يقول فى آية أخرى : ﴿ هَٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ .. (٢٩) ﴾ [الجاثية]

فمرة أسند الكتاب إلى الأمة ، ومرة أسنده إليه سبحانه ، ولو

---

(١) كلمة (كتابها) هنا تعنى معانى عدة ، منها :

- تُدعى إلى حسابها . قاله يحى بن سلام .
- تُدعى إلى كتابها الذى كان يستنسخ لها فيه ما عملت من خير وشر . قاله مقاتل . وهو معنى قول مجاهد .
- تُدعى إلى كتابها المنزّل عليها لينظر : هل عملوا بما فيها ؟
- تُدعى إلى الكتاب وهو هنا اللوح المحفوظ . [ذكر القرطبى هذه الأقوال فى تفسيره (٩/٦٢٢٤) .

فهموا عن الله ما وجدوا فى ذلك وجهاً للاعتراض .

فمعنى (كتابنا) أى : الذى طلبنا من الحفظة أنْ يكتبوه ليكون حجةً على صاحبه يوم القيامة ، فنقول له : ﴿ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ ﴾ [الإسراء]

وهو أيضاً كتابهم أى الذى كُتب عليهم فيه ، وسجّل فيه أعمالهم ، إذن : لكل لفظ معناه ودلالته ، ومعلوم فى أسلوب القرآن أنه يستعمل اللفظ هنا بمعنى وهناك بمعنى آخر .

والقرآن مُجمله يحتاج فى فهمه إلى تأمل وتدبّر وعلم بأسباب النزول وملابسات الآيات : اقرأ مثلاً قوله الله تعالى : ﴿ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ .. ﴿٥﴾ ﴾ [النساء] السّفيه : هو الذى لا يحسن التصرف فى ماله ، لذلك لم يجعل له الشارع مالاً ، إنما المال فى حال السَّفه ملْك لوليه .

لذلك قال ﴿ أَمْوَالَكُمُ .. ﴿٥﴾ ﴾ [النساء] مع أنها من حَقِّ هذا السَّفيه ، لأن المؤمنين تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم[1] .

إذن : نأخذ مال السفيه ونحافظ له عليه حتى نأنس منه رُشداً فندفع إليه ماله ليتصرف هو فيه ، لذلك قال تعالى فى إعادته : ﴿ فَإِنْ آنَسْتُم[2] مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ .. ﴿٦﴾ ﴾ [النساء] ونسبها

---

(١) رواه عمرو بن العاص عن رسول الله ﷺ قال : « المسلمون تتكافأ دماؤهم يسعى بذمتهم أدناهم ، ويجير عليهم أقصاهم ، وهم يد على من سواهم » الحديث (٢٣٧١) سنن أبى داود ، والنسائى (حديث ٤٦٥٤ ، ٤٦٦٤ ، ٤٦٦٥) ولكن من حديث على بن أبى طالب .

(٢) آنس الشىء : أدركه وأحسَّه ببصره أو بعلمه وفكره . فقوله : ﴿ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا .. ﴿٦﴾ ﴾ [النساء] أى : علمتم وأدركتم إدراكاً . [القاموس القويم ١/٣٧] .

إليهم لأنها صارتْ ملكاً لهم ، ولهم حرية التصرف فيها .

وقوله سبحانه : ﴿ الْيَوْمَ .. ﴿٢٨﴾ ﴾ [الجاثية] أى : يوم القيامة ﴿ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الجاثية] فالجزاء من جنس العمل .

﴿ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ[1] مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾

قوله : ﴿ هَٰذَا كِتَابُنَا .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [الجاثية] أى : كتاب الأعمال ﴿ يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [الجاثية] معلوم أن النطق يكون باللسان لأنه وسيلة البيان الأولى ، واللسان هنا لسان الحال مع أن الكتاب فى الواقع يُقرأ ولا يَنْطِق ، لكن هذا الكتاب لشدة إظهاره للحق كأنه ينطق ويشهد على صاحبه .

﴿ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الجاثية] معنى نستنسخ نثبت ، أو نأخذ منه نسخة أخرى نعطيها لصاحب الكتاب ليقرأها وليطلع على ما قدّم فى دنياه .

كما نقول مثلاً : أصل وصورة ، فنعطيه صورة من كتابه ومن أعماله لتكونَ حجة عليه .

ومن معانى النسخ الإثبات الذى لا يترك شيئاً ، ولا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، قال تعالى : ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا

---

(١) كنا نستنسخ : أى نكتبه ونكلف الملائكة أن يكتبوه لنحاسبكم به بدقة بغير زيادة ولا نقص . [القاموس القويم ٢/٢٦٢] .

عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا .. (٣٠) ﴾ [آل عمران] وقال : ﴿ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (١٨) ﴾ [ق]

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (٣٠) ﴾

ما دمنا بصدد الحديث عن كتاب الأعمال الذى يقرأه الإنسان ، فهذه الآية تتحدث عن النوع الأول وهو المؤمن الذى عمل صالحاً ، فأخذ كتابه بيمينه ووجده على أحسن صورة ففرح به وتباهى .

فهذه الآية أوضحها الحق سبحانه فى آية أخرى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ (١٩) إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسَابِيَهْ (٢٠) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ (٢١) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (٢٢) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (٢٣) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (٢٤) ﴾ [الحاقة]

وتأمل هنا كلمة ﴿ فِي رَحْمَتِهِ .. (٣٠) ﴾ [الجاثية] فكأن الرحمة ظرف لهم يُدخلهم فيه ويعمُّهم به ، فالرحمة تغمرهم وتحيط بهم من كلِّ جانب ، فليس لهم هنا إلا الرحمة لأنهم شَقُوا فى الدنيا وتحمَّلوا أعباء العبادة والعمل الصالح وتقلَّبوا بين نعمة وشقاء ، ومكسب وخسارة ، وصحة ومرض ، أما هنا فلن يجدوا إلا رحمة الله تعمُّهم وتشملهم .

وكلمة ﴿ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ .. (٣٠) ﴾ [الجاثية] دلتْ على أن الإيمان القلبى وحده لا يكفى ، بل لا بدَّ له من ثمرة ، وثمرة الإيمان

وفائدته أنْ توظفه لخدمة من آمنتَ به .

لذلك دائماً يقرن القرآن بين الإيمان والعمل الصالح ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ .. (٣) ﴾ [العصر] لأن الإيمان بالله وبالبعث والحساب والقضاء والقدر يجعل الإنسان على يقين من أنه محاسبٌ مسئول عن كلِّ تقصير .

وما دام أنك ستُسأل فلا بدَّ أنْ تكون يقظاً لا تستهين بالذنب مهما كان صغيراً ، ولا تزهد فى الخير مهما كان يسيراً ، فمَنْ كانت نهايته الحساب كان جديراً ألاَّ تُفلتَ منه هذه المسائل إلا سَهْواً أو نسياناً ، فالسهو والنسيان يجبرهما الاستغفار والتوبة .

وقلنا : من رحمة الحق بالخلْق أنْ شرع لهم التوبة مجرد مشروعية التوبة ، وفَتْح بابها للناس رحمة ، رحمةٌ بالمقصِّر المذنب ، ورحمة بالمجتمع الذى يَشْقى بذنوب المذنبين .

وقوله سبحانه : ﴿ ذَلِكَ .. (٣٠) ﴾ [الجاثية] إشارة إلى دخول أهل الإيمان والعمل الصالح فى رحمته ﴿ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (٣٠) ﴾ [الجاثية] الواضح المحيط بالنفع الكامل ، بحيث لا يتسرب إليه شىء يناقض الحق فى الرحمة . ثم فى المقابل :

﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ (٣١) ﴾

هؤلاء فى مقابل الذين آمنوا ، وهؤلاء يأخذون كتابهم بشمالهم ،

قال تعالى : ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ (٢٥) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ (٢٦) يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ (٢٧)﴾ [الحاقة]

إذن : جزاء هؤلاء النار ، لكن قبل أنْ يدخلوها لا بدّ أنْ يُعاتبهم أو يُؤنِّبهم هذا التأنيب ، ويُبيِّن لهم أنه لا عذرَ لهم فى عدم الإيمان ، فقد جاءتْهم الآيات البينات وجاءتهم الرسل فما قصّرنا فى حقِّهم ، وما تركناهم هَملاً ، ولم نأخذهم على غِرَّة ، وطالما دعوناهم وتحنَّنا إليهم .

ونلاحظ أن هؤلاء جمعوا بين الاستكبار عن الحق وبين الإجرام ، فالاستكبار يعنى ردّ الحق وعدم قبوله من صاحبه الذى جاء به وهو الرسول ، ولَيْتَهم وقفوا عند هذا الحد وتركوا الناس فى حالهم إنما تجاوزوا ذلك إلى الإجرام ، وهو أن تهزأ بمَنْ آمن وتسخر منه .

وهذه المسألة شُرِحَتْ فى قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٣٠)﴾ [المطففين] أى : سُخريةً واستهزاء .

ثم ﴿وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ[1] (٣١)﴾ [المطففين] وهذا يدل على أنه وأهله فى الإجرام سواء ، وأن الفساد يعمُّ الجميع .

ونحن نرى هذا الصنف من البشر فى كلِّ زمان نراهم يسخرون ممَّنْ يصلى أو ممَّنْ يتشبَّه بسيدنا رسول الله ، ونسمع منهم كلمات السخرية مع أنهم يقرأون معنا هذه الآية .

---

(١) فكهين : الفكه الكثير المزاح والاستهزاء بالآخرين ، فكانوا يسخرون من المؤمنين ويتندرون بهم . [القاموس القويم للقرآن الكريم ٢/٨٨] .

لكن الحق سبحانه يُطمئن أهل الإيمان ويقول لهم : لا تهتموا بهذا الذى ينالكم منهم فى الدنيا ، وانتظروا ما يحدث فى الآخرة : ﴿ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٣٤) عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ (٣٥) هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦) ﴾ [المطففين] نقول : نعم يارب لقد جازيتهم بما يستحقون .

﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ (٣٢) ﴾

هؤلاء نوع آخر من المكذّبين بالبعث ، فالنوع الأول متيقن ومُصدِّق أنه لا يوجد بعْث ولا حساب ، وهؤلاء لم يصلوا إلى مرحلة اليقين ، إنما هم يظنون أن هناك بعثاً ، والظن أنْ ترجح شيئاً على شىء .

وسبق أن أوضحنا : أن النِّسَب خمسة : علم ، وجهل ، وشكٌّ ، وظنٌّ ، ووهم . الظن أنْ تغلب الشىء الذى تظنه . والوهم : أن تغلب الباطل .

فهناك شىء أنت تجزم به ، وشىء لا تجزم به ، وما تجزم به وتُدلِّل عليه هو علم يقين ، أما ما لا تستطيع التدليل عليه فليس علم يقين ، بل تقليد ، كأن يقول الطفل : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) ﴾ [الإخلاص]

وهذا حق ، لكن الطفل لا يستطيع أن يدلل عليه أو أن يقال شىء ومن يقوله جازم به وهو غير واقع ، فذلك هو الجهل .

والعلم هو القضية المجزوم بها ، وهى واقعة وعليها دليل على

عكس الجهل الذى هو قضية مجزوم بها وليس عليها دليل .

والظن هو تساوى نسبتين فى الإيجاب والسلب ، بحيث لا تستطيع أن تجزم بأى منهما ، لأنه إن رجحت كفة كانت قضية مرجوحة ، والقضية المرجوحة هى شك أو ظن أو وهم ، فالظن هو ترجيح النِّسب على بعضها ، والشك هو تساوى الكفتين .

﴿ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

يعنى : ظهر لهم عملهم السىء فى الدنيا ﴿ وَحَاقَ بِهِم .. ﴿٣٣﴾ ﴾ [الجاثية] يعنى : أحاط بهم فلا يجدون منه مفراً ولا مهرباً ﴿ مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الجاثية]

﴿ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾

هنا تأمل لطف الله ورحمته حتى بأعدائه والكافرين به ، فالفعل ﴿ وَقِيلَ .. ﴿٣٤﴾ ﴾ [الجاثية] مبنى للمجهول فلم يقُلْ قال الله ، فمن رحمته بهم ألاَّ يُواجههم بهذه الحقيقة ﴿ الْيَوْمَ .. ﴿٣٤﴾ ﴾ [الجاثية] أى : يوم القيامة ﴿ نَنسَاكُمْ .. ﴿٣٤﴾ ﴾ [الجاثية]

الحق سبحانه وتعالى لا ينسى ، فالمعنى نترككم فى العذاب مُهملين ، ولا نلتفت إليكم بالرحمة ، كما يترك الناس الأمر فلا يخطر ببالهم ، لأنه لو خطر بباله ربما أخذتْه الرحمة بهم .

ثم يُبين الحق سبحانه علة هذا النسيان ﴿ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا .. ﴿٣٤﴾ ﴾ [الجاثية] يعنى : ننساكم فى العذاب كما نسيتم هذا

اليوم وكما تركتم العمل له ﴿وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ .. (٣٤)﴾ [الجاثية] المأوى : هو المكان الذى يأوى إليه الإنسان ليرتاح من التعب ، أو يأمن من الخوف ، فما بالك إنْ كان مأوى هؤلاء النار ومُستقرهم ونهايتهم ، ماذا يكون حالهم ؟

وفوق هذا كله ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ (٣٤)﴾ [الجاثية] هذا قَطْعٌ للأمل فى النجاة ، وتيئيس لهم ، فهُمْ فى هذا المأوى لن يجدوا مَنْ يُخلِّصهم منه أو يعطف عليهم ويخفف عنهم العذاب ، بل بالعكس سيتبرأون منكم ويتركونكم فى العذاب ، بل ويسبقونكم إليه ، كما قال فى فرعون : ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ .. (٩٨)﴾[هود]

﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ۚ فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٣٥)﴾

﴿ذَٰلِكُم .. (٣٥)﴾ [الجاثية] أى : الذى نزل بكم وحاق بكم من العذاب ، سببه أعمالكم السيئة فى الدنيا ، فهو جزاء وفاقٌ ولم نظلمهم مثقال ذرة ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا .. (٣٥)﴾ [الجاثية] أى : مهزوءاً بها ، فهم أنكروها وكذَّبوا بها وسخروا منها .

وكلمة ﴿هُزُوًا .. (٣٥)﴾ [الجاثية] مبالغة فى الاستهزاء كما تقول: فلان عادل وفلان عدل . يعنى : هو العدل نفسه .

﴿وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا .. (٣٥)﴾ [الجاثية] أى : خدعتكم بزخرفها وبهجتها وبهرجها فعملتم لها ونسيتم العمل للآخرة ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا .. (٣٥)﴾ [الجاثية] أى : من النار .

﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الجاثية] من الفعل عتب ، والعتاب لا يكون إلا بين الأحبَّة ، لذلك قالوا : ويبقى الود ما بقى العتاب ، فإذا أسأتَ مثلاً إلى صديق لك فيأتى هو إليك ويُعاتبك ، ويريد أنْ يسمع منك اعتذاراً أو عذراً ليستديم مودتك ، لأنه لا يريد القطيعة بينكما .

فيُقال : استعتب فلان فأعتبه . يعنى : أزال سبب عتابه ، وهذه الهمزة تسمى همزة الإزالة ، قال الشاعر :

أمَّا العتَابُ فَبالأحبَّةِ أخْلَقُ والحُبُّ يصلُح بالعتَاب ويصْدُقُ[1]

لذلك سيدنا رسول الله ﷺ عندما عاد من الطائف بعد أنْ آذاه أهلها جلس يناجى ربه : إنْ لم يكُنْ بك علىَّ غضبٌ فلا أبالى ، ولكنه تذكر فقال : لكن عافيتك هى أوسع لى ، لك العتبى حتى ترضى[2] .

يعنى : لك عندى يا رب ما أزيل به عتابك ، يعنى : لام على شىء ظنه تقصيراً .

إذن : أعتبه أزال عتابه ، مثل : أعجم الحرف يعنى أزال عُجْمته ، وتعرفون أن الحروف العربية كانت تُكتب أولاً بدون نقط اعتماداً على الملَكة العربية الصافية التى تستطيع أنْ تستشفّ الحرف المراد ، فلما ضعُفَتْ هذه الملَكة عند الناس احتاجوا إلى النقْط لفهم المعنى المراد .

فالحق سبحانه يقول عن هؤلاء ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الجاثية] لا يُقبل منهم عتاب ، ولا يُقبل لهم عذرٌ ، ولا يُقبل فيهم شفاعة ، فإنْ

---

(١) البيت من قصيدة لأمير الشعراء أحمد شوقى ، عدد أبياتها ١٢ بيتاً من بحر الكامل .

(٢) أورده ابن كثير فى السيرة النبوية (٢/١٥٠) والسهيلى فى الروض الأنف (٢/٢٣١) وابن القيم فى زاد المعاد (٣/٢٨) وابن هشام فى السيرة النبوية (١/٤٢٠) وهو مُسَاق فى خروج رسول الله إلى الطائف .

طلبوا إرضاء الله تعالى بأىِّ وسيلة تُرد ولا تُقبل ، حتى التوبة لأنها لا تفيد فى هذا اليوم .

﴿ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾

أولاً : كلمة (لله الحمد) جملة من مبتدأ وخبر قُدِّم فيها الخبر لإفادة قصر الحمد على الله وحده ، فالحمد واجب لله تعالى قبل كل شىء ، واجب لله على أنه خلَق من عدم وأمدَّ من عُدم ، وهدى الناس بآياته البينات إلى سبيل الحق .

الحمد واجب لله على قيومته ، وعلى المنهج الذى هدانا به ، وعلى دار الجزاء التى يثيب فيها المؤمن ويعاقب فيها الكافر ، الحمد واجب لله على أنْ أحيانا بروح منه أحيت مادتنا فى الدنيا ، وروح منه أحيَتْ قيمنا فى الآخرة .

لذلك خاطبنا ونحن أحياء فقال : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ .. ﴿٢٤﴾ ﴾ [الأنفال] فالمراد بالحياة هنا حياة القيم التى تمنحك الحياة الباقية الخالدة فى الآخرة .

﴿ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [العنكبوت]
يعنى : الحياة الحقيقية التى تستحق أن نعمل لها .

ومن نِعَمه تعالى التى تستوجب الحمد أنْ علَّمنا كيف نحمده سبحانه بهذه الكلمة الخفيفة على اللسان التى يستوى فى نُطْقها العالم والأمى . الكل يقول : الحمد لله . الكل يثنى على الله بلفظ واحد ، ولو لم تكُنْ هذه المساواة لَفَاز المتعلمون والبُلغاء وأصحاب الفصاحة

والبيان وخسر الأمـى الذى لا يحسن الكلام والعيى الذى لا يقدر على التعبير .

لذلك سيدنا رسول الله ﷺ نبَّهنا إلـى هذه المسألة ، حين قال فى الثناء على الله تعـالى : « سـبحـانك لا نحصى ثـناء عليك ، أنت كمـا أثنيتَ على نفسك »[(١)]

ومعنى ﴿ فَلِلَّهِ الْحَمْدُ .. (٣٦) ﴾ [الجاثية] أن الحمد حقٌّ لله دائم لا ينقطع ولا ينتهى ، لا من الحامد ولا من المحمود عليه .

ثم يأتى الحق سبحانه بالحيثية على الحمد لله ﴿ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٣٦) ﴾ [الجاثية] والرب هو المُربِّى والمالك والمعطى ، فكيف لا يُحمد ؟

﴿ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (٣٧) ﴾

وهذه حيثيـة أخرى لوجوب الحمد لله ، أنْ يتصف سبـحانه بصفة الكبرياء ، والكبرياء هو العظمة والجـلال والقهر ، وأيضاً الأسلوب هنا أسلوب قَـصْر ﴿ وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ .. (٣٧) ﴾ [الجاثية] يعنى : له وحده ، وهذه من أعظم نِعَم الله علينا حتى لا نكون عبيداً لغيره .

فـالله ما جـعلك عبـداً له إلا ليكفـيك العبـودية لغيـره ، ولولا هذا

---

(١) أخرجه الإمـام مالك فى موطئه (حـديث ٤٤٨) أن عائشة أم المؤمنين قـالت : كنت نائمة إلى جنب رسـول الله ﷺ ففقـدته من الليل فلمسـته بيـدى فوضـعت يدى على قدمـيه وهو ساجـد يقول : أعوذ برضـاك من سخطك ، وبمعـافاتك من عقـوبتك ، وبك منك ، لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثـنيتَ على نفسك » . وكذا مسلم فى صحـيحه (٧٥١) ، وأبو داود فى سننه (٤٧٥) ، والترمذى فى سننه (٣٤١٥) وقال : هذا حديث حسن صحيح .

الكبرياء لله تعالى لكنّا عبيداً لكل ذى قوة ولكل مَنْ نحتاج إليه ، حتى الحداد والنجار الذى يقضى لك مصلحة يمكن أنْ يستعبدك .

إذن : معنى ﴿وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. (٣٧)﴾ [الجاثية] كأنه يقول لك : اطمئن يا عبدى فلن تكون عبداً لغيرى ، فالعظمة والجلال والكبرياء لى وحدى وأنا لكم جميعاً ، والخلق كلهم عيالى ، وأحبُّهم إلىَّ أرأفهم بعيالى [(١)].

ألسْنا فى المثل الشعبى نقول : اللى ملوش كبير يشترى له كبير ، كذلك الحق سبحانه مع المؤمنين به ، الذين يعبدونه وحده يكون فى جانبهم يُيسِّر لهم أمورهم ، ويقضى لهم حوائجهم ، يستعينون به فُيعينهم ، ويلجأون إليه فيحميهم ويؤيدهم . إذن : هذه الصفة لله تعالى تُعدُّ من أعظم نِعَمه على عباده .

والحديث القدسى يؤكد هذه الصفة لله تعالى وحده ، فقال سبحانه فى الحديث القدسى : « الكبرياء ردائى ، والعظمة إزارى ، فمَنْ نازعنى واحداً منهما قذفتُه فى النار » [(٢)]

لماذا ؟ لأنه لم يخلق هذا الخَلْق ولا يُؤتمن عليه ، لذلك الإنسان لا يتكبَّر على الخَلْق إلا إذا حُجبت نفسه عن استحضار كبرياء الحق سبحانه ، إنما الذى يستحضر فى نفسه دائماً كبرياء الله يستحى أنْ

---

(١) أخرج نحوه من حديث عبد الله بن مسعود أبو نعيم فى حلية الأولياء (٢٣٧/٤) وابن الجوزى فى العلل المتناهية (٥١٩/٢) وضعَّفه ، وأورده العجلونى فى كشف الخفاء (٤٥٧/١) .

(٢) حديث قدسى ، أخرجه أبو داود فى سننه (٣٥٦٧) وكذا ابن ماجه فى سننه (٤١٦٤) وأحمد فى مسنده (٧٠٧٨ ، ٨٥٣٩ ، ٨٩٩١ ، ٩١٤٣ ، ٩٣٢٦) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

يتكبَّر ، وأنْ ينازع ربَّه فى هذه الصفة .

والكبرياء مادتها كبر تقال بفتح الباء للدلالة على الكبر والزيادة فى المادة ، وبالضم تدل على العظَم ، ومنه قوله تعالى : ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا (٥) ﴾ [الكهف] فى حادثة الإفك .

والحق سبحانه أخبرنا أن من أسمائه تعالى الكبير ولم يَقُلْ الأكبر ، مع أن الأكبر تعطى ميزة على الكبير ، لكن جعلها الله تعالى صفة له فى شعار الصلاة ، فنقول : الله أكبر . لأنها تعنى أن الصلاة تخرج من الكبير إلى الأكبر ، وكأنه تعالى يريد أنْ يقول لنا : إن أعمال الحياة وحركتها شىء مهم وهو كبير لكن الله أكبر .

ولأهمية العمل والسعى فى حركة الحياة ترى أنه فى سورة الجمعة أخرجك من العمل لتؤدى الصلاة ، ثم بعد الصلاة أمرك بالعودة إلى السعى والعمل : ﴿ يَـأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ .. (٩) ﴾ [الجمعة]

فأخذنا من قمة العمل وهو البيع ليعطينا الشحنة الإيمانية التى تُعيننا على الاستمرار فى مسيرة الحياة ، فلما انقضتْ الصلاة قال لنا : ﴿ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠) ﴾ [الجمعة]

إذن : لا نحقر العمل لأنه عند الله كبير ، وبه قوام الحياة واستمرارها ، لكن إذا ما قُورن العمل والسعى بالصلاة فالصلاة أكبر وأهمّ وأعظم ، فإذا عُدْنا إلى التسمية نجد أن الله اختار لنفسه سبحانه الكبير لا الأكبر ، لأن الأكبر ما دونه كبير ، أما الكبير فما دونه صغير ، فكلُّ شىء دون الله صغير .

وقوله : ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣٧)﴾ [الجاثية] العزيز هو الغالب الذى لا يُغلب ، والحكيم هو الذى يضع الشىء فى موضعه ، فصفة الكبرياء لله تعالى لا تعنى القهر والجبروت والفتونة بلا ضابط ، بل هو أيضاً سبحانه حكيم يُصرِّف الأمور وفق حكمة مطلقة .

والمتأمل فى سورة الجاثية يجد أنها بدأتْ بقول الله تعالى : ﴿حمٓ (١) تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (٢)﴾ [الجاثية] وختمتْ أيضاً بقوله تعالى : ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣٧)﴾ [الجاثية]

وكأن السورة وُضعتْ بين قوسين من العزة والحكمة لله تعالى والكبرياء والحمد لله سبحانه ، ومن العجيب أن الأحقاف بعدها بدأتْ أيضاً بقول الله تعالى : ﴿حمٓ (١) تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (٢)﴾ [الجاثية]

فكأن الله تعالى يؤكد على هذه الصفات ويُرسِّخها فى نفوس المؤمنين ليزيدهم اطمئناناً به سبحانه وبمنهجه .

وكأنه سبحانه يقول لهم : اطمئنوا ، فالذى أنعم عليكم قديماً بأنْ أوجدكم من عدم وأحيا مادتكم بروح منه ، ثم أمدَّكم بمقوِّمات الحياة واستبقائها وهداكم إليه بآياته التى تُحيى قلوبكم وتعطيكم الحياة الباقية يوم القيامة .

فهو سبحانه كما ضمن لكم الماضى يضمن لكم المستقبل ، فنِعَمه لا تُسلب ، وعطاؤه لا ينفد ، لأن له الكبرياء فى السموات والأرض ، فلا تُوجد قوة غيره سبحانه تنقض هذا الخير أو تمنعه عنكم .

والحق سبحانه وتعالى حينما يجمع بين صفتى العزة والحكمة إنما ليقول لنا : انتبهوا إذا أصابتكم أحداثٌ تناقض هذه العزة فى مشوار الدعوة ، فاعلموا أنها ما حدثتْ إلا لحكمة .

فقد يقول قائل مثلاً : إذا كان الله عزيزاً لا يغلب ، فلماذا ترك رسوله لأهل الطائف يؤذونه ويسبُّونه ويقذفونه بالحجارة حتى أدموْا قدميه الشريفتين .

نقول : ابحثوا عن الحكمة ، فمن الحكمة المرادة لله تعالى حين يعلو الشر أنْ يُمحص أهل الخير ، وأنْ يُصفى قاعدة الإسلام بحيث لا يثبت عليه إلا الأشداء فى العقيدة الثابتون على الحق ، فلا يحيدون عنه ، فعلى أكتاف هؤلاء سيُحمل الدين وتنتشر الدعوة ، فلا بدَّ من التمحيص وتمييز المؤمنين من المنافقين .

تذكرون قصة الحديبية عندما ردَّ الكفارُ رسول الله والمؤمنين الذين جاءوا معه لزيارة البيت الحرام ومنعوهم من دخول مكة وهم على مَقْربة منها ، وقد وافق رسول الله ﷺ على العودة دون أنْ يدخل مكة ، ودون أنْ يعتمروا وعقد معهم صلح الحديبية .

لذلك غضب المسلمون وكادوا أنْ يخالفوا أمر رسول الله ﷺ بالعودة إلى المدينة ، حتى إن عمر بن الخطاب يجادل رسول الله يقول له : يا رسول الله ألسْنا على الحق ؟ يقول رسول الله : بلى ، يقول : أليسوا على الباطل ؟ يقول : بلى . يقول : فلم نعطى الدَّنية فى ديننا ، فيقول له الصِّديق : الزم غرزك يا عمر ، إنه رسول الله .[1] يعنى :

---

(١) أخرج نحوه مسلم فى صحيحه (١٧٨٥) كتاب الجهاد ، والبخارى فى صحيحه (٤٨٤٤) فى تفسير سورة الفتح من حديث سهل بن حنيف رضى الله عنه .

الزم حدودك واعرف مركزك .

ذلك لأن المسلمين كانوا على شوق للبيت وتحمَّلوا مشقة السفر إليه حتى كانوا على بُعْد عشرين كيلو متراً من مكة ، وساقوا معهم هَدْيهم واستعدوا للعمرة فشقَّ عليهم أنْ يُمنعوا منها ، لذلك تململوا من قرار الرجوع .

حتى إن سيدنا رسول الله يقول لزوجته السيدة أم سلمة[١] رضى الله عنها : هلك الناس يا أم سلمة . فتقول : ولِمَ ؟ قال : أمرتُهم فلم يطيعوا ، قالت : يا رسول الله اعذرهم فقد جاءوا على شوْق للبيت، لكن اذهب يا رسول الله وافعل ما أمرك الله به ، فإذا رأوْك تفعل عرفوا أن الأمر عزيمة وفعلوا مثلك ، فطابت نفسُ رسول الله وذهب ففعل[٢] .

فلما رآه القوم فعلوا مثله وهدأتْ نفوسهم إلى قرار رسول الله ، وعادوا إلى المدينة دون عُمرة ، وقبل أنْ يصلوا إلى المدينة نزل الوحى على سيدنا رسول الله يُبيِّن لهم الحكمة التى غابتْ عنهم ويُعطيهم الدرس فى أن العزة مقرونةٌ بالحكمة .

---

(١) أم سلمة : هى هند بنت سهيل القرشية المخزومية ، تزوجها رسول الله فى السنة الرابعة للهجرة ، ولدت عام ٢٨ قبل الهجرة (أى كان عندها ٣٢ سنة عند زواجها برسول الله) وتُوفيت ٦٢ هجرية عن ٩٠ عاماً . من أكمل النساء عقلاً وخلقاً . [الأعلام للزركلى ٩٧/٨] .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (١٨١٥٢) من حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم فى ذكر صلح الحديبية ، وفيه أنه ﷺ قال لأم سلمة : يا أم سلمة ما شأن الناس ؟ قالت : يا رسول الله قد دخلهم ما قد رأيتَ فلا تكلمنَّ منهم إنساناً واعمد إلى هديك حيث كان فانحره واحلق فلو قد فعلت ذلك فعل الناس ذلك ، فخرج رسول الله ﷺ لا يكلم أحداً حتى أتى هديه فنحره ، ثم جلس فحلق فقام الناس ينحرون ويحلقون .

قال تعالى : ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا[١] أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا[٢] لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٢٥)﴾ [الفتح]

فالحكمة إذن فى منعهم من دخول مكة هذا العام ، لأن فيها إخواناً لهم آمنوا سراً وستروا إيمانهم ، فلو دخلوا معهم فى معركة لالتقى المؤمنون وجهاً لوجه ، ولقتلتُم إخوانكم وأصابتكم معرّة بسبب ذلك . يعنى : إثم أو سُبَّة وعار .

---

(١) معكوفاً : محبوساً عن أن يبلغ أماكن نحره . وعكفه : منعه وحبسه وكفَّه عن قضاء حاجاته . ومنه الاعتكاف أى ملازمة المسجد وحَبْس نفسه عليه للعبادة .

(٢) تزيَّل القوم : تفرقوا وزالوا عن مكانهم . ومعنى الآية : أى لو تفرق المؤمنون الذين يعيشون فى مكة ولو فارقوا أهلها لعذَّب الله أهل مكة بهزيمتهم أمامكم . [القاموس القويم ١/ ٢٩٤] .

سُورَةُ الأَحْقَافِ

سورة الأحقاف(١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢﴾

هذه واحدة من الحواميم السبع ، وهى السور التى بدأتْ بقوله تعالى (حم) ، وهى سبع سور مُتصلة فى القرآن الكريم أولها غافر : ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۝٢﴾ [غافر] أى : العليم بما يصلحكم ، ولا تَخْفى عليه منكم خافية .

ثم فصِّلت : ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝٢﴾ [فصلت] ثم الشورى : ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢ كَذَٰلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٣﴾ [الشورى] ثم الزخرف : ﴿حمٓ ۝١ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝٢﴾ [الزخرف] ثم الدخان : ﴿حمٓ ۝١ وَالْكِتَابِ

---

(١) سورة الأحقاف سورة مكية ، عدد آياتها ٣٥ آية . روى العوفى وابن أبى طلحة عن ابن عباس أنها مكية . وبه قال الحسن ومجاهد وعكرمة وقتادة والجمهور . وروى عن ابن عباس وقتادة أنهما قالا : فيها آية مدنية وهى قوله ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ .. ۝١٠﴾ [الأحقاف] [قاله ابن الجوزى فى زاد المسير] .

الْمُبِينِ ﴿٢﴾ [الدخان] ثم الجاثية : ﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾﴾ [الجاثية] ثم الأحقاف : ﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾﴾ [الأحقاف] . وهى آخر الحَواميم .

ونلاحظ أن هذه السُّور تسير فى بدايتها على نظام واحد يؤكد على أن (حم) وغيرها من الحروف المقطَّعة مُنزَّلة من عند الله ، وهى وحْى يعلم الله مراده ، وهى فى التنزيل مثل باقى القرآن وباقى الآيات الواضحات ، لذلك مرة يقول ﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾﴾ [فصلت] أى : هى ذاتها مُنزلة .

وفى آية أخرى يقول : ﴿حمٓ ﴿١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾﴾[الزخرف] يعنى : حم والقرآن الظاهر الواضح المعنى ، كلاهما تنزيل مُنزَّل من عند الله ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ ﴿٣﴾﴾ [الدخان]

ونحن نؤمن بأن كل هذه الآيات من عند الله الذى نعرف معناه والذى لا نعرف معناه . قلنا : لأن الله تعالى يريد أنْ يحرس كلَّ إيمان بمشهد ، فالإيمان لا يكون إلا فى الغيبيات ، ولا يكون الإيمانُ فى المُشَاهد لنا .

فمثلاً لا يصح أنْ نقول : نحن نؤمن بأننا نجلس الآن مع الإخوان فى مسجد الفردوس ونُلقى درساً ، لكن نقول : نؤمن بأن الله موجود ، بأن الجنة حَقّ ، ومن رحمة الله ولُطفه بنا أنْ يحرس الإيمان الغيبى بأمر مُشاهد لنأخذ من المشاهد لنا دليلاً على صدقه فيما غاب عنا .

إذن : هذه الحروف المقطَّعة التى لا نعرف معناها نزلتْ هكذا لحكمة .

خُذْ مثلاً رحلة الإسراء والمعراج تجد فيها غيباً يحرسه مشهد ، كيف ؟ تعرفون أن سيدنا رسول الله ﷺ تعرّض لكثير من الأذى وضُيّق عليه وعلى دعوته وعلى المؤمنين به ، وكان آخر ذلك فى الطائف حيث آذاه أهلها حتى شقَّ عليه ما يلاقى . وقلنا : إنه جلس يناجى ربه ويشتكى إليه قسوة هؤلاء ويطلب منه النُّصْرة .

بعدها جاء حادث الإسراء والمعراج ، وكأنه رحلة تخفِّف عن رسول الله ورسالة تقول له : يا محمد إنْ جفاك أهل الأرض فسوف أحتفل بك فى أهل السماء وأذهب بك إلى مكان لم يذهب إليه أحدٌ قبلك ، وأريك من آياتى ما لم يره أحد قبلك .

والمتأمل فى سَيْر هذه الرحلة يجد أن الحق سبحانه مهَّد بالإسراء للمعراج ، فجعل رحلة الإسراء آية أرضية وهى آية مشاهدة معروفة أبعادها وتفاصيلها ، وكثيرٌ من أهل مكة يذهبون فى هذه الرحلة من مكة إلى بيت المقدس ، ويمكن أن يقام عليها دليل عقلى لمن لا يؤمن بها ؟

لذلك لما كذَّبه قومه وقالوا : أتزعم أنك أتيتَ بيت المقدس فى ليلة ونحن نضرب إليها أكباد الإبل شهراً [1] ؟ ثم طلبوا من رسول الله أنْ يصف لهم بيت المقدس ، وأنْ يعطيهم علامات فى الطريق ، ولو كانوا على يقين من هذه الرحلة ما سألوا رسول الله ذلك .

فهم إذن يريدون تعجيز رسول الله ، لكن الله أيَّد رسوله وعرض أمامه صورة تفصيلية لبيت المقدس فأخذ رسول الله يصفه لهم ، ثم

---

(١) أورده البقاعى فى نظم الدرر [تفسير سورة الإسراء آية ١] ، وكذا السيوطى فى الدر المنثور (٦/٢٠٤) وعزاه لأبى يعلى وابن عساكر عن أم هانئ رضى الله عنها .

أخبرهم بالعير[1] التى لهم فى طريق التجارة ، وأنها بمكان كذا ، وفيها كذا كذا ، ولما وصلتْ قوافلهم التجارية وجدوها كما أخبر رسول الله .

إذن : أمكن إقامة الدليل على صدقه ﷺ فى رحلة الإسراء لتكونَ مقدمة للمعراج ، وهو رحلة سماوية لا يطلع عليها أحد ، ولا يمكن إقامة الدليل العقلى عليها ، لكن الذى خرق القوانين الكونية لمحمد فى رحلة الإسراء يمكن أنْ يخرق له القوانين فى رحلة المعراج .

إذن : جعل الغيب الذى يُقام عليه دليلٌ مقدمة للغيب الذى لا دليلَ عليه .

ثم إن كلمتهم التى اعترضوا بها على رسول الله لمَّا قالوا : كيف ونحن نضرب إليها أكباد الإبل شهراً ، هذه الكلمة نفعتنا فيما بعد ونردّ بها على دعاة التنوير والفلسفة الفارغة الذين يقولون إن الإسراء كان بالروح لا بالجسد .

فنقول لهم : لو كان الإسراء بالروح ما قال كفار مكة هذه الكلمة ، وما قالوها إلا لعلمهم أنه كان حقيقة بالروح وبالجسد ، وأن رسول

---

(١) أورده البيهقى فى (دلائل النبوة) (٢/٣٥٦) أن رسول الله قال : « ثم انصرف بى فمررنا بعير لقريش بمكان كذا وكذا قد أضلوا بعيراً لهم فجمعه فلان فسلَّمت عليهم فقال بعضهم : هذا صوت محمد ثم أتيت أصحابى قبل الصبح بمكة ... إن من آية ما أقول لكم أنى مررت بعير لكم بمكان كذا وكذا قد أضلوا بعيراً لهم فجمعه فلان ، وإن مسيرهم ينزلون بكذا وكذا ويأتونكم يوم كذا وكذا يقدمهم جمل آدم عليه مسح أسود وغرارتان سوداوان ، فلما كان ذلك اليوم أشرف الناس ينظرون حتى كان قريب من نصف النهار حتى أقبلت العير يقدمهم ذلك الجمل الذى وصفه رسول الله . قال البيهقى : هذا إسناد صحيح .

الله ذهب إليها وقطع المسافات على وجه الحقيقة .

فالله تعالى يُنطق ألسنتهم بما يُؤيِّد الحق دون أنْ يشعروا ، وبما يثبت عنادهم وتغفيلهم كما فعل اليهود فى حادثة تحويل القبلة ، علم الله ما سيقولونه وأخبر به نبيه ﷺ : ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا .. (١٤٢) ﴾ [البقرة]

وأعلن محمد ﷺ هذه الآية وتلاها على الملأ وتداولتها الألسنة ومع ذلك قالوها ، ولو كان عندهم قليلٌ من التعقل الدينى لا الدنيوى لتوقَّفوا عن قولها .

ومن ذلك أيضاً قولهم : ﴿ لا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ .. (٧) ﴾ [المنافقون] فالحق ينطلق من ألسنتهم دون أنْ يشعروا به .

كذلك الحال فى آيات القرآن الكريم فيها مشهد وغيب ، فنأخذ المشهد دليلاً على صِدْق الغيب ، نأخذ الآيات الواضحة المعنى دليلاً على الآيات ذات الحروف المقطَّعة التى لا نعرف معناها ونقف عندها ونقول : الله أعلم بمراده منها ، لكن هى حَقٌّ وهى من عند الله نزلتْ كما نزلت باقى الآيات لكن معناها غير واضح .

لذلك الحق سبحانه يعطينا إشارة إلى هذه المسألة إشارة تفرق بين (حم) ﴿ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) ﴾ [الزخرف] حم الآيات الغامضة التى لا تعرفون لها معنى ﴿ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) ﴾ [الزخرف] البيِّن الواضح المعنى .

فجعل الآيات الواضحات المعنى مبنية كلها على الوصل من أول بسم الله الرحمن الرحيم فى الفاتحة إلى ﴿ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ (٦) ﴾ [الناس]

فالقرآن فى مُجْمله مبنىٌّ على الوَصْل إلا هذه الحروف المقطَّعة

الأربعة عشر فهى مبنية على الوقف ، فتقرأ : (ألف لام ميم) (حاميم) وكأن هذا الوقفَ إشارة من الحق سبحانه أنْ لا تأخذوا هذه الحروف على نفس نسَق القرآن فى النطق لأنها شىء آخر له خصوصية .

صحيح أنها جميعاً من معين واحد ، وكلها من عند الله لكن قفُوا عند هذه الحروف وأرجعوا معناها إلى مُنزلها سبحانه ، فقد استَأثر بها لنفسه ليستديم إيماننا بالغيب ، وليصلنا دائماً به إيماناً وإسلاماً .

وسيدنا رسول الله ﷺ يشرح لنا هذه المسألة فيقول : « ولا أقول ألم حرف ، ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف[1] » فكأن هذا الحرف وحده قائم بذاته له مدلول وله معنى يحسُن السكوت عليه ، وإلا لما بُنيتْ هذه الحروف على الوقف .

وطالما أنها مختلفة عن باقى آيات القرآن فى النطق ، فلا بدَّ أن لها خصوصية ، وأنَّ فيها أسراراً وكلّ ما بأيدينا أن نحوم حولها .

ونلاحظ أيضاً أن الحروف فى اللغة تنقسم إلى حروف مبنى وحروف معنى ، فالكاف مثلاً حرف مبنى يعنى يدخل فى بناء الكلمة ، ولا معنى له فى (كتب) لكنه حين ينضم إلى غيره يعطى معنى كتب .

أما الكاف فى ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ..(١١) ﴾ [الشورى] فالكاف هنا حرف معنى يفيد التشبيه ، كذلك الباء حرف مبنى فى (كتب)

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه (٢٨٣٥) وقال : هذا حديث حسن صحيح غريب من حديث ابن مسعود . وكذا البيهقى فى شُعَب الإيمان (١٩٢٨) وأبو نعيم فى معرفة الصحابة (٤٠١٢) .

وحرف معنى فى (بالله) لأنه يفيد القسم ، كذلك فى الحروف المقطَّعة فى أوائل السور هى حروف مبنى فى شكل نطقها ، لكنها حروف معنى عند قائلها الذى يعلم معناها .

وقد يُطلِع بعض عباده على هذه المعانى أو شىء منها فيفهمون منها معانى ، لذلك نقول فى تفسيرها : والله أعلم بمراده ، لأن حديثنا عنها مجرد اجتهاد ومحاولة للفهم .

وقلنا : إن هذه الحروف أربعة عشر حرفاً من حروف الهجاء الثمانية والعشرين ، يعنى أخذ نصف حروف المعجم ، ولكن أخذها بنظام محكم لا يمكن أن يأتى عَفْواً ، فأخذ من التسعة أحرف الأولى الألف والحاء وأخذ من التسعة الأخيرة سبعة وترك اثنين على عكس التسعة الأولى ، فلم يترك منها إلا الواو والفاء .

إذن : ليس لها نسق معين ، لكن هندسة مقصودة لغاية مقصودة ، ثم العشرة الباقية فى الوسط أخذ منها غير المنقوط ، وترك المنقوط ، فأخذ الراء وترك الزاى ، وأخذ السين وترك الشين ، وأخذ الصاد وترك الضاد ، وأخذ الطاء وترك الظاء ، وأخذ العين وترك الغين .

فإنْ قال قائل : كيف وإعجام الحروف أى نقطها لم يأتِ إلا فى عصر الدولة الأُموية .

نقول : ربُّها وقائلها الناطق بها يعلم ما تصير إليه ، فكلها داخلة فى العلم الأعلى ، لذلك نقف عندها ونأخذها بالكمال الذى وضعه قائلها فيها ، فهى كما قلنا مثل أسنان المفتاح التى تفتح لك ، فإذا تغيَّر المفتاح لا يفتح .

إذن : كل شىء فى القرآن وُضع بحكمة ، حتى فى القراءة سواء المتعلم الذى يعرف المعنى أو الأمى الذى لا يعرف تجد القراءة على نوعين قراءة تأمل وتعبد وقراءة استنباط ، وهذه ينبغى أنْ تُعملَ فيها عقلك .

وإنْ قرأت للتعبد فإياك أنْ تُعملَ عقلك ، وخذ الكلمة أو الحرف بمراد قائله منه ، وأنت حين تأتى بالمعنى الذى على قدرك سوف تحدد كمال الله وكمالاته التى لا تتناهى .

لذلك وجدنا أسرع الناس حفْظاً للقرآن هم الذين يقرأونه دون توقُّف عند معناه ، بل يقرأونه كما هو بفَهْم أو بغير فهم .

وقوله تعالى ﴿ تَنزِيلُ .. (٢) ﴾ [الأحقاف] أى : الذى نزّل حم نزّل ﴿ الْكِتَابِ .. (٢) ﴾ [الأحقاف] أى : القرآن ﴿ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (٢) ﴾ [الأحقاف] وتأمل هنا الوصف بالحكمة ، فكل شىء نزل بحكمة حتى فى هذه الحروف التى لا نعرف لها معنى .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ (٣) ﴾

قوله تعالى : ﴿ إِلاَّ بِالْحَقِّ .. (٣) ﴾ [الأحقاف] يعنى : ما خلقتُ عبثاً ، إنما خلقتُ بنظام دقيق محكم لا يتغير ، وقلنا : (الحق) هو الشىء الثابت الذى لا يتغير ، كذلك خلقتُ لغاية ، لذلك انظر إلى السماء مثلاً ، خلقها الله من غير عَمَد .

وهى كذلك منذ خلقها الله ، وسوف تظل إلى قيام الساعة على هذا

الاستقرار ، وعلى هذا الثبات ، وعلى هذا الحق الذى خلقتْ به .

كذلك الشمس هى الشمس ما احتاجت إلى صيانة ولا إلى قطعة غيار ولم يُصبها عطل ولا عطب ، لماذا ؟ لأنها خُلقتْ بالحق وبالعدل الذى لا يتغير أبداً ، لأنه بُنى من أساسه على الحكمة ، ولو بُنى هذا الكون منذ نشأته على غير الحكمة لأصابه العطب والخلل .

إذن : خلقتُ السموات والأرض من البداية على الحق ، حَقٌّ مطلق لم يسبقه باطل ولم يسبقه خَلْق آخر تم تعديله ، بل هو منذ نشأته الأولى كذلك ، كما سبق أنْ قُلْنا فى قوله تعالى وهو يحاور أعداء الإسلام ، فقال : ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا .. (٤٠)﴾ [التوبة]

فالأولى جعل ، جعلها الله سفلى ، أما الأخرى فهى بطبيعة الحال ومنذ البداية هى العليا ، لذلك لم يقُلْ : وجعل كلمة الله هى العليا ، لأنها لم تكُنْ أبداً دنيا فجعلها الله عُلْيا .

إذن : الباطل جعل ، والحق هو الحق ثابت منذ خلقه الله .

وقوله : ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى .. (٣)﴾[الأحقاف] يعنى : وقت معلوم هو يوم القيامة ، فهذا الخَلْق لم يخلقه الله ويتركه هملاً ، إنما لأجل محدود هو القيامة ، يوم يتغيَّر هذا الكون الثابت ، ويهدم كل ما فيه وينقض بناءه لبنةً لبنةً .

﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ .. (٤٨)﴾ [إبراهيم] يوم تكوَّر الشمس ويضيع القمر ، وتهدم كل أسباب العيش على الأرض .

أما فى الآخرة : ﴿وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا .. (٦٩)﴾ [الزمر] فليس هناك شمس ولا قمر ، فأنت فى الدنيا تعيش بالأسباب ، أما فى الآخرة فتعيش بالمسبِّب سبحانه .

وقوله : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ (٣)﴾[الأحقاف] أى : منصرفون ، وقُلْنا الإنذار : التخويف من الشر قبل أوانه ، وهو مظهر من مظاهر رحمة الله بعباده ولطفه بهم وحرصه على نجاتهم .

فالذى يحذرك من الشر قبل أنْ تقع فيه محسن إليك . إذن : من رحمة الله بالناس أنْ أرسل إليهم الرسل مُبشِّرين ومنذرين ، وأنزل إليهم الكتب وبيَّن لهم العاقبة ، لكن ماذا تفعل فيمَنْ أعرض وانصرف عن هذا الإنذار ولم يلتفتْ له ؟

لذلك فى سورة الرحمن جعل الحق سبحانه وتعالى الإنذار والتخويف نعمة من نعَم الله التى تستوجب الشكر ، فقال سبحانه : ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ [1] مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلا تَنتَصِرَانِ (٣٥) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٦)﴾ [الرحمن]

فالتخويف بهذه الألوان من العذاب نعمة ، لأنك حين تخاف من العاقبة لا ترتكب الفعل الذى يؤدى إليها ، كما يقولون فى الطب : الوقاية خير من العلاج ، كذلك البُعْد عن المعصية خير من مقاساة العقاب عليها .

---

(١) شواظ : الشواظ القطعة من اللهب ليس فيها دخان . [لسان العرب ، مادة : شوظ] .

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾ ﴾ (١)

الحق سبحانه وتعالى يريد أنْ يثبت أن الذين اتخذوا من دون الله أولياء اتخذوهم بلا سابقة كمال أو سابقة نفْع ، فاتخذوا الأصنام آلهةً يعبدونها من دون الله وهم صانعوها بأيديهم .

لذلك سيدنا إبراهيم عليه السلام قال لقومه : ﴿ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾ [الصافات]

ومعنى ﴿ أَرَأَيْتُم .. ﴿٤﴾ ﴾ [الأحقاف] أخبرونى ، إنْ كنتم رأيتم فأخبرونى ﴿ مَاذَا خَلَقُوا .. ﴿٤﴾ ﴾ [الأحقاف] أى : هذه الآلهة المدَّعاة ﴿ مِنَ الأَرْضِ .. ﴿٤﴾ ﴾ [الأحقاف] وأتى بالأرض أولاً لأنها محلُّ إقامتهم ومسرح حركتهم ﴿ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى السَّمَٰوَاتِ .. ﴿٤﴾ ﴾ [الأحقاف] أى : مشاركة مع الله فى عملية الخَلْق .

الحق سبحانه وتعالى هو الذى أعلن : أنا خالق السموات والأرض ، وهذا الإعلان سمعه هؤلاء المعاندون فهل عارضه أحد ؟ هل ادَّعى أحد أنه خلق هذا الكون ؟

إذن : لو كان لله شريك فى الخَلْق لأعلن عن نفسه ، والعقل يقول

---

(١) أثارة من علم : بقية من علم تُحفظ وتُروى . [القاموس القويم ١ / ٦] وأثرة العلم وأثارته : بقية منه تُؤثر أى تُروى وتُذكر . [لسان العرب - مادة : أثر] .

إن الدعوى تثبت لصاحبها ما لمْ يقُم لها معارض .

الحق سبحانه قال : لا إله إلا أنا ، ولا خالقَ غيرى ولم نسمع مَنْ يعارض هذه المقولة ، إذن : هى لله وحده لا شريك له ولا منازع .

ولو تأملتَ الخَلْق وما فيه من حِكَم ودقائق لعرفتَ أنه خَلْق الله وحده ، ولا يقدر غيره على هذا الإبداع ، فالخالق سبحانه خلق الصغير وخلق الكبير ، خلق الضخم وخلق النحيف ومع ذلك تجد فى الصغير كلَّ خواصّ الكبير ، فالفيل يأكل ويتحرك ، والبعوضة تأكل وتتحرك .

بل ربما قدرتَ على الفيل ، ولم تقدر على البعوضة ، لذلك قال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ .. (٧٣)﴾ [الحج] نعم هل تستطيع أنْ تسترد ما أخذتْه الذبابة من طعامك ؟ ﴿ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣)﴾ [الحج]

ومن مظاهر العظمة فى الخَلْق أن الله خلق لنا هذه المخلوقات وذللها لخدمتنا ، ولولا أن الله ذلَّلها لنا ما قدرنا عليها ، تتعجب حينما ترى الطفل الصغير يقود الجمل ويحمل عليه الأشياء ، والجمل يطاوعه ، فى حين أنك لا تقدر على البرغوث ولا تسيطر عليه ، وقد يُؤلمك ويقضّ مضجعك طوال الليل ، لماذا ؟

لأن الخالق سبحانه ذلَّل لك هذا ولم يُذلل لك ذاك . إذن : العظمة فى الخلق التذليل ، لذلك قال تعالى : ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (٧١) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (٧٢)﴾ [يس]

وأنت حين تتأمل خَلْق الله تجد العظمة فى كل شىء فى الكبير والصغير ، لذلك كان المعارضون ينتقدون الحق سبحانه فى أنه يتكلم عن البعوض والذباب والعنكبوت .

فردَّ الله عليهم : ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا .. (٢٦)﴾ [البقرة] قالوا : ما فوقها فى الصغر لا فى الكِبَر ، يعنى : الميكروبات والفيروسات ودقائق المخلوقات التى لا تُرى بالعين المجردة .

لذلك نجد الحق سبحانه يتحداهم : ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ.. (٧٣)﴾ [الحج]

وقوله : ﴿ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَـٰذَا .. (٤)﴾ [الأحقاف] أى : من قبل القرآن أخبركم بهذا ﴿أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ .. (٤)﴾ [الأحقاف] يعنى : بقية من العلم الذى يُؤثر عن السابقين ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٤)﴾ [الأحقاف] فى دعواكم أنهم آلهة ، وأنهم شاركوا الحق سبحانه فى مسألة الخَلْق .

﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ (٥)﴾

معنى ﴿وَمَنْ أَضَلُّ .. (٥)﴾ [الأحقاف] استفهام غرضه النفى . يعنى : لا أحدَ أشدُّ ضلالاً من هذا الذى يدعو من دون الله مَنْ لا يستجيب له ، لا الآن ولا فى المستقبل ولا يوم القيامة خاصة ، وهو يعلم أن إلهه الذى يدعوه لا يستجيب له .

الله سبحانه وتعالى هو المعبود بحقٍّ ، وهو الكبير المتعال ، لذلك الكافر حين يصيبه خير لا يلجأ إلى آلهته الباطلة ، فلا ينادى يا هُبل أبداً . لا يقولها فى وقت الشدة ، لأنه يعلم أن هُبل لا يسمعه ولن يجيبه ، وهو لا يخدع نفسه ولا يكذب عليها فى هذه الحالة ، فتراه يلجأ إلى الله ويدعوه رغم أنه كافر به .

يقول تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ .. (٦٧) ﴾ [الإسراء] نعم ساعة الضيق يبحث عن الإله الحق الذى يملك له النفع ويملك له الضر ، فيقول : يا رب لكن ساعةَ يكشف الله عنه ضُرّه يعود إلى كفره وعناده .

يقول تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ .. (١٢) ﴾ [يونس]

لماذا ؟ لأن الدين أصبح عند هؤلاء (فنطظية) آمنوا بإله لا منهجَ له ولا تكاليف ، لم يقُل لهم : افعل ولا تفعل ، لذلك كانت آلهة باطلة حتى فى التسمية ، لأن الإله هو المعبود المُطاع فى أمره ونهيه ، إذن : هذا كله كذب وضلال .

الحق سبحانه حين يُوضِّح لنا هذه المسألة أتى بها فى صورة هذه السؤال لنُجيب نحن ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ .. (٥) ﴾ [الأحقاف] فنقول : لا أحدَ أضلّ من هذا ، فيكون إقراراً منا وشهادة بهذا .

وقوله ﴿ وَهُمْ .. (٥) ﴾ [الأحقاف] أى : الآلهة المدَّعاة ﴿ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ (٥) ﴾ [الأحقاف] لا يدرون بمن يدعوهم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٦﴾﴾

﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ .. ﴿٦﴾﴾ [الأحقاف] أى : يوم القيامة ﴿كَانُوا .. ﴿٦﴾﴾ [الأحقاف] أى : الآلهة ﴿لَهُمْ أَعْدَاءً .. ﴿٦﴾﴾ [الأحقاف] نعم فى هذا الموقف تظهر العداوة بين هؤلاء جميعاً ويتبرأ كل منهم من الآخر ، ويلعن بعضهم بعضاً ، قال تعالى : ﴿الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزخرف]

وقال سبحانه : ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ [1] وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الصافات]

هذا تصوير للحوار الذى يدور بين هؤلاء الظالمين وما يدور بينهم من لوم وعتاب ، حيث يلقى كُلٌّ منهم التبعة على الآخر ، ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلاَّنَا مِنَ

---

(١) قال ابن الجوزى فى تفسير (زاد المسير) [سورة الصافات ٢٢] : فى أزواجهم أربعة أقوال :

أحدها : أمثالهم وأشباههم وهو قول عمر وابن عباس ومجاهد .

الثانى : أن أزواجهم المشركات . قاله الحسن .

والثالث : أشياعهم . قاله قتادة .

والرابع : قرناؤهم من الشياطين الذين أضلوهم . قاله مقاتل .

الْجِنِّ وَالإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الأَسْفَلِينَ (٢٩) ﴾ [فصلت]

وهذه هى حجة الشيطان يوم القيامة . يقول : ﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم .. (٢٢) ﴾ [إبراهيم]

وقلنا : معنى ﴿ سُلْطَانٍ .. (٢٢) ﴾ [إبراهيم] يعنى : حجة ، وهى نوعان : إما حجة تقنعك بأنْ تفعل ، أو قوة تُرغمك على أنْ تفعل ، وأنا ليس عندى لا هذه ولا هذه ﴿ مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ .. (٢٢) ﴾ [إبراهيم] من أصرخ . يعنى : نادى واستغاث . وأصرخه يعنى : أغاثه .

إذن : يوم القيامة العداوة واضحة بين الظالمين والكافرين بين العابد والمعبود ، ومأواهم جميعاً فى النار : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ (٩٨) ﴾ [الأنبياء]

البعض يُعلِّق على هذه الآية ، فيقول : كيف ومنهم مَنْ عبد عيسى عليه السلام من دون الله ، فكيف يكون عيسى حصبَ جهنم ؟ وهؤلاء غفلوا عن (ما) وهى لغير العاقل ، ولم يقُل : مَنْ .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ (٧) ﴾

معنى ﴿ بَيِّنَاتٍ .. (٧) ﴾ [الأحقاف] يعنى : واضحات ظاهرات ، ومع ذلك ﴿ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ .. (٧) ﴾ [الأحقاف]

قالوا عن الحق ، فاللام هنا بمعنى (عن) ، أو أنهم بالغوا فبدلَ أنْ يواجهوا مَنْ آمن بالحق واجهوا الحقّ ذاته ، فقالوا : ﴿هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ (٧)﴾ [الأحقاف]

وإبطال هذا الادعاء سهلٌ ميسور ، وهو أنْ نقول لهم : لو صدّقناكم فى أنه سحر ، وأن محمداً سَحر به مَنْ آمن به ، فلماذا لم يسحركم كما سحرهم ، وتنتهى المسألة ؟

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٨)﴾

بعد أنْ قالوا عن القرآن أنه سِحْر سَحَر به محمد أصحابه فآمنوا به . قالوا : إنه افتراء افتراه محمد ، والافتراء هو الكذب المتعمد ، فردَّ الله عليهم ﴿قُلْ .. (٨)﴾ [الأحقاف] قل لهم يا محمد ﴿إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا .. (٨)﴾ [الأحقاف]

يعنى : لا تدفعون عنى عذابَ الله إن افتريت عليه وكذبت فى البلاغ عنه ، لذلك يقول سبحانه فى آية أخرى تُوضح هذه المسألة : ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ (٤٤) لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ[1] (٤٦) فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (٤٧)﴾ [الحاقة]

فكيف يكذب رسول الله على الله بعد هذه الكلمة ، وسيدنا رسول الله ﷺ

---

(١) الوتين : عرق فى القلب إذا انقطع مات صاحبه . وقال ابن سيده : الوتين عرق لاصق بالصلب من باطنه أجمع يسقى العروق كلها الدم ويسقى اللحم وهو نهر الجسد . [لسان العرب مادة : وتن] وهو ما يُعرف بالشريان الأورطى .

حتى قبل بعثته عُرِف بين قومه بالصادق ، لأنهم لم يُجرِّبوا عليه كذباً قط .

تعرفون قصة الصحابى الجليل خزيمة بن ثابت[١] مع رسول الله عنددما اشترى رسول الله فرساً من يهودى اشتراه نسىء[٢] الثمن ، وفى يوم لقيه رسول الله وأعطاه الثمن دون أنْ يكون بينهما شاهد على السداد ، فاستغل اليهودى هذه الفرصة وادعى على رسول الله أنه لم يُعطه ثمن الفرس .

فلما كلَّمه رسول الله قال : هَات لى شاهداً ، فقام خزيمة ، وقال : أنا أشهد يا رسول الله أنك أعطيتَهُ ثمن الفرس ، فبُهت اليهودى وظنَّ أن خزيمة كان موجوداً لكن لم يره .

بعدها استدعى رسول الله خزيمة ، وقال له : يا خزيمة ، ما حملكَ على أنْ قلتَ ما قلتَ ولم تكُنْ موجوداً ، ولم تشهد هذه المسألة ؟

فضحك خزيمة وقال : يا رسول الله أُصدِّقك فى خبر السماء وأكذِّبك فى عدة دراهم ؟ فتبسَّم رسول الله وأعطاه (نيشاناً) غالياً ، فقال : « مَنْ شهد له خزيمة فحسبه »[٣] ومن يومها وشهادة خزيمة تعدل شهادةَ رجلين .

---

(١) هو خزيمة بن ثابت بن الفاكه بن ثعلبة الأنصارى أبو عمارة ، صحابى من أشراف الأوس فى الجاهلية والإسلام ومن شُجعانهم ، كان مدنياً حمل راية بنى خطمة يوم فتح مكة . عاش إلى خلافة على بن أبى طالب وشهد معه صفين فقتل فيها . روى له البخارى ومسلم وغيرهما ٣٨ حديثاً . توفى عام ٣٧ هجرية [الأعلام للزركلى ٢/٣٠٥] .

(٢) ما وجدته فى هذا أنه أعرابى من بنى محارب وليس يهودياً والله أعلم . فهو سواء بن الحارث المحاربى وفد سنة عشر للهجرة ضمن وفد بنى محارب المكوّن من عشرة أنفس فأسلموا [الإصابة فى معرفة الصحابة ١/٤٧٦] وذكره ابن حبان فى الثقات ، وقال : له صحبة .

(٣) أخرج هذا الحديث البيهقى فى السنن الكبرى (الجزء ١٠) بلفظ : « من شهد له خزيمة أو شهد عليه فهو حَسْبه » . وكذا ابن أبى عاصم فى (الآحاد والمثانى) (حديث ١٨٣٨) وكذا الحاكم فى مستدركه (٢١٤٩) والطبرانى فى المعجم الكبير (٣٦٤٢) وعندهم أن اسم الرجل هو سواء بن الحارث المحاربى .

وهذا (النيشان) انتفع به المسلمون فى مسألة جَمْع القرآن ، حيث كان جامعو القرآن لا يكتبون الآية إلا إذا وجدوها مُسجَّلة فى الرِّقاع ، وشهد على صحتها اثنان من العدول ، حتى جاءوا فى آخر سورة التوبة ، فوجدوا آية مكتوبة[1] وليس لها إلا شاهد واحد هو خزيمة ، فأخذوا بشهادته وحده ، لأن شهادته تعدل شهادة رجلين .

وتأمل أدب الحوار حتى مع المخالفين لرسول الله ومع الذين يتهمونه بالكذب اتهاماً صريحاً ، يقول لهم : ﴿إِن افْتَرَيْتُهُ .. ﴿٨﴾﴾ [الأحقاف] وإنْ تفيد الشك ﴿فَلا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا .. ﴿٨﴾﴾ [الأحقاف] يعنى : لا تدفعون عنى عذاب الله ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ .. ﴿٨﴾﴾ [الأحقاف] بما تكثرون فيه الكلام والاتهام ، وادعاء أن القرآن مكذوب .

﴿كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٨﴾﴾ [الأحقاف] يرجع الأمر إلى الله ويُفوّض أمره إليه ، ويرضى بشهادته بينه وبين خصومه ، وشهادة الله هى شهادة الحق وشهادة الصدق .

لذلك شهد الله بها لنفسه سبحانه شهادةَ الذات للذات : ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ .. ﴿١٨﴾﴾ [آل عمران] وشهدتْ بها الملائكة ، شهادةَ مشهد ، وشهد بها أولو العلم شهادةَ استدلال ﴿وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ﴿١٨﴾﴾ [آل عمران]

إذن : فى هذه القضية رسول الله لا يستطيع أنْ يأتى بشاهد على

---

(١) هى آية ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ .. ﴿٢٣﴾﴾ [الأحزاب] قال أبان بن سعيد : استعرضت المهاجرين أسألهم عنها فلم أجدها عند أحد منهم ، ثم استعرضت الأنصار أسألهم عنها فلم أجدها عند أحد منهم حتى وجدتها عند خزيمة بن ثابت فكتبتها . أورده الطبرى فى تفسيره (١/ ٦٠) وابن كثير فى مقدمة تفسيره (١/ ٢٨) .

صدقه فى تبليغ القرآن عن الله ، فيكتفى بأنْ يجعل الله شاهداً بينه وبينهم .

وهذا من أدب الحوار الذى تأدَّب به سيدنا رسول الله ، فهم يتهمونه بتعمُّد الكذب وهو يتودد إليهم ، وفى موضع آخر يرد عليهم فيقول الحق سبحانه على لسان نبيه ﷺ : ﴿قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ (٣٥)﴾ [هود]

وقوله فى ختام الآية ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٨)﴾ [الأحقاف] كأنه يتحنن إليهم ، ويستميل قلوبهم ، فرغم هذا الادعاء الكاذب فما يزال باب المغفرة والرحمة مفتوحاً أمامكم .

ثم يقول الحق سبحانه [(١)]:

﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٩)﴾

---

(١) ذكر الواحدى النيسابورى فى أسباب النزول (ص ٢١٥) سبب نزول هذه الآية فقال : (قال الثعلبى عن أبى صالح عن ابن عباس : لما اشتد البلاء بأصحاب رسول الله ﷺ رأى فى المنام أنه يهاجر إلى أرض ذات نخل وشجر وماء ، فقصَّها على أصحابه فاستبشروا بذلك ورأوا فيها فرجاً مما هم فيه من أذى المشركين .

ثم إنهم مكثوا برهة لا يرون ذلك ، فقالوا : يا رسول الله متى نهاجر إلى الأرض التى رأيتَ ، فسكت رسول الله فأنزل الله تعالى ﴿وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ ..(٩)﴾ [الأحقاف] يعنى : لا أدرى أخرج إلى الموضع الذى رأيته فى منامى أو لا ، ثم قال : إنما هو شىء رأيته فى منامى ما أتبع إلا ما يُوحى إلىَّ) .

﴿قُلْ .. (٩)﴾ [الأحقاف] أى : قُلْ لهم يا محمد ﴿مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ .. (٩)﴾ [الأحقاف] البدع هو الشىء الجديد المستحدث الذى لم يسبق له مثال .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿بَدِيعُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٠١)﴾ [الأنعام] أى : خالقهما على غير مثال سابق ، نقول : فلان مبدع يعنى : جاء بشىء لم يسبقه أحد إليه .

والمعنى : ما جئتُ على سنة غير التى جاء عليها مَنْ سبقنى من الرسل ، أو ما كنتُ مبتدعاً ما أدعوكم إليه ، لستْ أول رسول يُقابَل بالتكذيب ويُواجَه بالكفر والعناد والاضطهاد ، بل سبقنى إلى ذلك كلّ الرسل السابقين ، أُوذوا وكُذبوا وصبروا حتى نصرهم الله ، كما قال تعالى : ﴿فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ .. (٤٠)﴾ [العنكبوت]

فكانت سنة الله فى الرسل السابقين أنْ تتولى السماءُ تأديب المكذِّبين للرسل المعارضين لدعوة الحق ، أما فى رسالة محمد ﷺ فقد أمَّن الله محمداً وأمَّن أمته على أنْ يتولوا هم تأديب المكذِّبين للدعوة المصادمين لها ، وأن ينصروا الحق ، وأنْ يكونَ أهلاً له إلى قيام الساعة .

لذلك قال ﷺ : « الخير فىَّ وفى أمتى إلى يوم القيامة »[1]

---

(١) أورده السخاوى فى (المقاصد الحسنة) ، وقال : قال شيخنا (أى ابن حجر العسقلانى) : لا أعرفه ولكن معناه صحيح . وكذا ذكره السيوطى فى الدرر المنتثرة (١/١٠) وذكره العجلونى فى كشف الخفاء (١٢٦٧) وقال : قال ابن حجر المكى فى الفتاوى الحديثية : لم يرد بهذا اللفظ . قلت : هو مما اشتهر على ألسنة الناس .

والمراد الخير فيَّ حصراً وفى أمتى نثراً ، بحيث يأخذ كل جيل أو كل واحد منهم جزءاً من هذه الخيرية .

وقوله :﴿ وَمَا أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلا بِكُمْ .. (٩) ﴾ [الأحقاف] أى : الآن لا أدرى لكن لعله يدرى فى المستقبل بما يُوحيه الله إليه ، كما حدث فى مسألة محاربة الكفار والجهر بالدعوة ، حين طلب بعض مَنْ أسلم مع رسول الله محاربة الكفار ، فكان يقول لهم ﷺ : ما أُمرت ، ما أُمرت .

فلما هاجر ﷺ إلى المدينة وافقهم على القتال . إذن : جهر بدين الله فى مكة ولم يحارب إلا فى المدينة ، وهنا حكمة ، فمكة كانت موطن قريش ومحلّ سيادتها ، وقريش كانت موضعَ اهتمام واحترام من كل قبائل العرب لمكانتها من بيت الله الحرام وخدمتها لحجاجه .

ولتوسط مكة طريقَ التجارة بين اليمن والشام فى رحلة الشتاء والصيف ، فكان لا بدَّ من مراعاة هذه المكانة لقريش ، وعدم إعلان الحرب عليها فى هذا الوقت .

وحين نقرأ مثلاً سورة الفيل : ﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ[1] (٣) تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ[2] (٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ[3] (٥) ﴾ [الفيل]

---

(١) أبابيل : جماعات متفرقة لا واحد لها من لفظها . [القاموس القويم ١ / ٤] ولكن قال ابن منظور فى اللسان (مادة أبل) واحدها إبِّيل وإبَّوْل . وقال الزجاج : أى جماعات من هنا وجماعات من هنا . وقيل : طير أبابيل يتبع بعضها بعضاً إبيلاً . إبيلاً أى : قطيعاً خلف قطيع . [لسان العرب] .

(٢) السِّجيل : الطين المتحجر الصلب الشديد . [لسان العرب ، مادة : سجل] والبعض أخذه من التسجيل والكتابة بأنها حجارة مما كتب الله أنه يعذبهم بها . وقال الجوهرى : حجارة من طين طبخت بنار جهنم مكتوب فيها أسماء القوم . فجمع بين الأقوال كلها .

(٣) العصف المأكول : التبن أو ورق الشجر الذى أصابه مرض الأكال فتآكلت منه أجزاء . [القاموس القويم ٢/٢٣] .

لو قلت : لماذا ؟ تجيبك سورة قريش : ﴿لإِيلافِ[1] قُرَيْشٍ (١) إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (٢)﴾ [قريش]

يعنى : فعل الله هذا لمصلحة قريش ، ولتظلّ لهم المكانة والمهابة بين قبائل العرب ، ولتظلّ آمنة مطمئنة فى رحلة تجارتها بين اليمن والشام .

لذلك قال بعدها : ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَـٰذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِى أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ (٤)﴾ [قريش]

والمعنى فى ﴿وَمَا أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلا بِكُمْ ..(٩)﴾ [الأحقاف]

يعنى: ما أدرى أيأمرنا الله أنْ نقاتلَ هؤلاء ؟ أم يأمرنا بترك مكة إلى مكان آخر نلتمس فيه نُصْرته ، لذلك بعدها أمرهم رسول الله بالهجرة إلى الحبشة ، وقال : « إنَّ فيها ملكاً لا يُظلم عنده أحد »[2] .

وكأن سيدنا رسول الله كانت عنده خريطة للعالم من حوله ، وفعلاً لما ذهبوا إلى الحبشة أكرمهم النجاشى ، ومنعهم حينما أرسلت قريش عَمْراً فى طلبهم ، فردَّ عَمْراً وردَّ هدايا قريش ، وآمن بمحمد ودعوته ، لذلك وكله رسول الله فى أنْ يُزوِّجه من أم حبيبة[3] ، ولما

---

(١) إيلافهم : اعتيادهم وتجهيزهم وتهيئتهم الذهاب فى رحلتى الشتاء والصيف . شتاء إلى اليمن وصيفاً إلى الشام .

(٢) أورده ابن كثير فى السيرة النبوية (٤/٢) والسهيلى فى الروض الأُنُف (٨٩/٢) وابن هشام فى السيرة (٣٢١/١) من طريق محمد بن إسحاق أن رسول الله قال : « لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد وهى أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجاً » .

(٣) أم حبيبة هى رملة بنت أبى سفيان بن أمية صحابية من أزواج النبى ﷺ وهى أخت معاوية كانت من فصيحات قريش ومن ذوات الرأى والحصافة ، ولدت ٢٥ قبل الهجرة . زوَّجه إياها النجاشى ملك الحبشة وأصدقها من عنده أربع مئة دينار سنة ٧ هجرية (كان عمرها ٣٢ عاماً) توفيت ٤٤ هجرية عن ٦٩ عاماً . [الأعلام للزركلى ٣٣/٣] .

مات النجاشى صلى عليه رسولُ الله .[١]

والهجرة إلى الحبشة كانت مرحلة انتقالية يحتمى فيها المضطهدون من المسلمين عند هذا الرجل الذى لا يُظلم أحد عنده ، وحتى يأذن الله لرسوله فى الهجرة إلى المدينة ، حيث تأتى نُصْرة الإسلام وإعلاء كلمته هناك .

والحكمة أن الصيحة الأولى للدعوة كانت فى مكة ، أما نُصْرة الدين وتأييده فكانت فى المدينة ، ذلك لأن قريشاً كانوا سادةَ العرب وأصحاب السيطرة فى الجزيرة العربية .

ولو أن النُّصْرة جاءتْ فى مكة لَقالوا إنها بسبب سيادة قريش وسُلطتها التى تعدَّت الجزيرة إلى العالم من حولها ، فكانت الحكمة أن تكون الصيحة الأولى للإسلام فى أذن هؤلاء السادة تهزُّهم وتُقبِّح أفعالهم ، وتُبطل ما هم عليه من عبادة الأصنام .

لكن النُّصرة تُؤجل إلى المدينة لينتصر الدين بالمهاجرين والأنصار ، حتى لا يظن ظانٌّ أن العصبية لمحمد هى التى خلقتْ الإيمان بمحمد ، بل إن الإيمان بمحمد هو الذى خلق العصبية لمحمد .

وقوله : ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾﴾ [الأحقاف] انظر هنا إلى العظمة فى شخصية رسول الله ﷺ ، فهو يتكلم بما عنده كأنه يقول : « يرد علىّ فأقول : أنا لستُ كأحدكم ،

---

(١) عن عمران بن حصين أن رسول الله ﷺ قال : « إن أخاكم النجاشى قد مات فقوموا فصلوا عليه . فقال : فقمنا فصففنا عليه كما يُصف على الميت ، وصلينا عليه كما يُصلى على الميت » . أخرجه أحمد فى مسنده (٤/٤٣٩ ، ٤٤٦) والترمذى فى سننه (١٠٣٩) وصححه ، والنسائى فى سننه (٤/٧٠)

ويُؤخذ منى فاقول ما أنا إلا بشر مثلكم » .

إذن : سيدنا رسول الله لم يأتِ بشىء من عنده إلا فى المسألة التى لم يرد فيها حكم ، فإن اجتهد فى مسألة لم يردْ فيها حكم وأخطأ قبل أنْ يُعدِّل الله له ، وأنْ يُصحَّح له ولا يأنف من ذلك ، وهو الذى يخبرنا بهذا التعديل ، كما فى قوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا النَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١) ﴾ [التحريم]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ (١٠) ﴾

معنى ﴿ أَرَأَيْتُمْ .. (١٠) ﴾ [الأحقاف] أخبرونى أنتم إن كنتم شاهدتم ﴿ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِ .. (١٠) ﴾ [الأحقاف] الجواب تقديره : ماذا يحدث لكم ؟ والجواب معلوم : إنْ كان هذا القرآن من عند الله ومع ذلك كفرتُم به فلن تنالوا إلا غضبَ الله فى الدنيا وعقابه فى الآخرة .

﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِى إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ .. (١٠) ﴾ [الأحقاف] الشاهد الذى شهد على صدق القرآن ، وأنه من عند الله هو عبد الله بن سلام ، وهو أحد أحبار اليهود وأسلم وشهد لمحمد وللقرآن .

﴿عَلَىٰ مِثْلِهِ .. (١٠)﴾ [الأحقاف] على مثل القرآن من الكتب السابقة كالتوراة والإنجيل ، فهو مثلها من عند الله يدعو إلى ما دعتْ إليه من عبادة الله وتوحيده ، فكما نزلت التوراة على موسى ، والإنجيل على عيسى نزل القرآنُ على محمد ﷺ ، وصفته ثابتة عندهم فى التوراة .

لذلك كان يقول عن رسول الله : والله لقد عرفته حين رأيته كمعرفتى لولدى ومعرفتى لمحمد أشد [1] . نعم عرفه من العلامات التى وردت فى كتبهم .

يقول تعالى :﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ .. (٨٩)﴾ [البقرة] أى : القرآن ﴿ وَكَانُوا مِن قَبْلُ .. (٨٩)﴾ [البقرة] أى : من قبل نزول القرآن ﴿ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ .. (٨٩)﴾ [البقرة] لماذا ؟ لأنه سيسحب بساط السيادة والسلطة من تحت أقدامهم .

وقال أيضاً فيهم : ﴿ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ .. (١٣)﴾ [المائدة] وإنْ كان لهم عذر فى النسيان فليس لهم عذر فى كتمان الكتاب وتحريفه ، بل كان منهم صنف ﴿ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ (٧٩)﴾ [البقرة]

إذن : اليهود نسُوا وكتموا وحرّفوا وبدّلوا ، لكن الحق سبحانه وتعالى لا بُدَّ أنْ يُوقعهم فى أشياء تدل على فعلهم وتكون منافذ للحق ،

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (١/١٩٤) : « قال القرطبى : يُروى عن عمر أنه قال لعبد الله ابن سلام : أتعرف محمداً كما تعرف ولدك ؟ قال : نعم وأكثر ، نزل الأمين من السماء على الأمين فى الأرض ينعته فعرفته ، وإنى لا أدرى ما كان من أمه » .

فمثلاً فى مسألة الذبيح عارضوا وقالوا : الذبيح إسحق لا إسماعيل .

والرد على هذا الادعاء أنْ نقول لهم : إنْ كان الذبيح إسحاق ، فلِمَ شُرعتْ مناسك الفداء ورَمْى الجمرات هنا ، ولم تُشرع فى موطن إسحق .

وارجعوا إلى كتبكم أنتم ، ففى التوراة فى الأصحاح الرابع والعشرين قال الله لإبراهيم : يا إبراهيم اصعد بابنك الوحيد جبل المرية وقدِّمه قرباناً لله ، وهل كان إسحق وحيداً ؟

وفى الأصحاح الذى بعده مباشرة يقول : لقد وُلد إسحق وعُمْر إسماعيل أربعة عشر عاماً . إذن : كلامهم متناقض تماماً مع ما فى كتبهم ، وهذه منافذ للحق يُقيم بها الحجة عليهم .

وقوله : ﴿ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ .. (١٠) ﴾ [الأحقاف] أى : آمن هذا الشاهد فى حين استكبرتم أنتم على قبول الحق ، وسبق أن ذكرنا قصة إسلام عبد الله بن سلام ، وأنه أتى النبى ﷺ وقال : يا رسول الله لقد أُشربَ قلبى حُب الإسلام ، ولكن اليهودَ قومٌ بهْت[1] ، فإذا علموا ذلك قالوا : فىَّ ما ليس فىَّ ، فاسألهم عنى قبل أنْ أسلم .

فلما اجتمعوا عند رسول الله سألهم : ماذا تقولون فى ابن سلام ؟ فقالوا : هو سيدنا وابن سيدنا وحَبْرنا وابن حَبْرنا ومدحوه . عندها قال : أشهد ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فقالوا : بل كذاب وكذا وكذا ، فضحك ابنُ سلام وقال : ألم أقُلْ لك يا رسول الله أنهم قوم بُهْت ؟[2]

---

(١) البهت والبهتان : الباطل والكذب . وبهت الرجل فهو بهَّات أى : قال عليه ما لم يفعله . [لسان العرب بتصرف – مادة : بهت] .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٠٨٢ ، ٣٦٤٥ ، ٤١٢٠) وأحمد فى مسنده (١١٦١٥ ، ١٣٣٦٥) والنسائى فى سننه (٨٢٥٤) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه .

وقوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠)﴾ [الأحقاف] هذه الكلمة حلَّتْ لنا إشكالاً وبيَّنتْ معنى الهداية ، لأن البعض يقول : إذا كان الله قد حكم على الكافر بالكفر ولم يهْد القوم الظالمين فلِمَ يُعذّبهم ؟

وهذه مغالطة ، ولو كان السؤال منطقياً لأكمل الصورة ، فقال : ولِمَ يثيب الطائع وقد كتب له الطاعة ؟

وسبق أنْ أوضحنا فى هذه المسألة أن الله تعالى هدى الجميع هدايةَ دلالة وإرشاد ، وهذا القسم يشمل المؤمن والكافر ، والطائع والعاصى ، فقد دلّ الله الجميع وبيَّن لهم الطريق المستقيم ، فمن أخذ بهذه الهداية وسار على نورها استحقَّ من الله المزيد .

﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧)﴾ [محمد] وهذا النوع هو النوع الثانى من الهداية ، وهى هداية المعونة والتوفيق .

فقوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠)﴾ [الأحقاف] يعنى : لا يهديهم هدايةَ معونة ، لذلك قال عن ثمود : ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ .. (١٧)﴾ [فصلت] أى : هديناهم هدايةَ دلالة وإرشاد فاستحبُّوا العمى والضلال وفضّلوه على الهدى فأعانهم الله عليهم ، كما أعان أهل الهدى على هداهم .

وتذكرون المثل الذى ضربناه سابقاً لتوضيح هذه القضية قلنا : لو أنك سألتَ رجل المرور مثلاً عن الطريق فدلَّك عليه فأخذتَ بقوله وشكرتَه فإنه يزيدك إرشاداً ، وربما ذهب معك حتى يُوصِّلك إلى غايتك .

إذن : الحق سبحانه لا يهدى القوم الظالمين بسبب ظلمهم ، ولا يهدى القوم الفاسقين بسبب فِسْقهم ، ولا يهدى القوم الكافرين بسبب كفرهم .

وقبل أن نتجاوز هذه الآية ينبغى أنْ نذكر هنا أن عبد الله بن سلام قبل أنْ يعلن إسلامه سأل رسول الله عن أشياء ثلاثة ، أراد بها أنْ يستوثق من صدق رسول الله ، فقال له : ما شرط الساعة أو علامتها ؟ قال : نار تخرج من قِبَل المشرق فتحشرهم إلى المغرب .

قال : ما أول ما يأكل أهل الجنة ؟ قال : زيادة كبد الحوت ، قال : متى ينزع الولد إلى أبيه ؟ ومتى ينزع إلى أمه ؟ أو : متى يأتى الولد ومتى تأتى الأنثى ؟ قال ﷺ : إذا سبق ماءُ الرجل نزع الولد إلى أبيه ، وإذا سبق ماءُ المرأة نزع الولد إلى أمه[1].

وهذه المسألة الأخيرة أثبتها العلم الحديث وأثبتتها الأبحاث ، ودلَّتْ على الإعجاز فى الحديث النبوى الشريف وعلى صدقه ﷺ ، ذلك لأن الرجل والمرأة شركة فى عملية الإنجاب .

البعض يتصور أن العملية الجنسية هى التى تأتى بالولد ، لا فما هى إلا إثارة تُمكِّن الرجل من إخراج الميكروب المنوى ، أما ماء المرأة فلا دخْلَ له فى الإنجاب ، كيف ؟

لأن البويضة التى تحتضن الميكروب ، لها مواعيد تنزل فيها بصرف النظر عن العملية الجنسية ، فهى موجودة إذن بطبيعة الحال ، فإنْ صادفت وجودها عملية جنسية تسابق ماءُ الرجل إليها وهى فى مكانها . إذن : لا دخْلَ للبويضة فى تحديد النوع كما أثبت العلم الحديث .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (حديث ١٣٣٦٥) عن أنس بن مالك أن عبد الله بن سلام قال لرسول الله أول هجرته إلى المدينة : إنى سائلك عن أشياء لا يعلمها إلا نبى ، فسأله عن الشبه وعن أول شىء يأكله أهل الجنة ، وعن أول شىء يحشر الناس . وكذا أخرجه ابن حبان فى صحيحه (٧٥٤٦) .

وإذا فهمنا المعنى اللغوى لكلمة (سبق) تأكدنا من موافقة الحديث النبوى للعلم ، فالسبق يعنى انطلاق المتسابقين من مكان واحد ، فنقطة الاندفاع واحدة إذن .

نفهم من هذا أن التسابق بين الحيوان المنوى الذى يُمثِّل الذكورة والحيوان المنوى الذى يُمثِّل الأنوثة ، فأيهما سبق كان النوع له ، وعليه فدوْر المرأة أنها حاضنة لما يُلقيه الرجل .

صحيح أن القرآن جاء كتابَ عقائد ومنهج وتشريع ، وهو أيضاً كتابُ إعجاز يمسّ الكونيات بقدر ما تتسع له العقول ، وخصوصاً أنه نزل فى أمة أمية ، وهل بالله كان من الممكن أنْ يُقال فى هذه الأمة إن الأرض كروية ، لو قلنا هذا فى هذا الوقت لقالوا : كذب .

لذلك يأتى القرآن بهذه الحقائق الكونية يُغلفها ليُؤجل فهمها إلى أنْ تنضج العقول وتستطيع إدراك هذه الحقائق ، ويترك للزمن وأحداثه أنْ يشرح هذه الآيات ، فإذا ما توصَّلنا إليها وجدنا لها دليلاً ونصاً من كلام الله .

وهل فهم العرب الذين استقبلوا القرآن معنى قوله تعالى :﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً[1] وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ .. (٨٨) ﴾ [النمل] ؟ الجبال نراها فى الواقع ثابتة مستقرة ، فمعنى مرورها أنها تدور بدوران الأرض.

ونقرأ : ﴿ يُكَوِّرُ[2] اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ .. (٥) ﴾

---

(١) تحسبها جامدة . أى : قائمة ساكنة . وهى تمر مر السحاب . أى : وهى تسير سيراً حثيثاً كسير السحاب التى تُسيِّرها الرياح . قال القتيبى : وذلك أن الجبال تجمع وتسير وهى فى رؤية العين كالقائمة وهى تسير .

(٢) يكور الليل على النهار : أى يُدخل هذا على هذا ، وأصله من تكوير العمامة وهو لفُّها وجمعها، وكورت الشمس جُمع ضوؤها ولُفَّ كما تُلفّ العمامة . [لسان العرب – مادة : كور] .

[الزمر] إذن : الأرض شبه كرة تدور . أعطانا الحق سبحانه هذه المعانى مغلفة حتى لا تفاجىء الناس فينصرفوا عن القرآن .

فهذا الكون كله بآياته الكونية هو الذى يشرح لنا معنى قوله تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ .. (٥٣) ﴾ [فصلت] والسين كما تعلمون تدل على الاستقبال .

وهذا يعنى أن هذه الآية سيظلّ معناها قائماً وله مددٌ من الآيات إلى قيام الساعة ، بحيث تتجلى الآيات وفقَ ما يتناسب وعقول الناس وتطوّر علومهم وإمكاناتهم .

وقد شرح القرآن الكريم مسألة خَلْق الإنسان ، وشرح معنى كلمة الرسول ﷺ « إذا سبق ماءُ الرجل .. » واقرأ قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ (٣٧) ﴾ [القيامة]

والنطفة هى الميكروب الذى يحمل الذكورة أو الأنوثة ، والمنىُّ هو السائل الذى يعيش فيه هذا الميكروب ، والمنى من الرجل لا من المرأة . وهذا ما أثبته العلم ، لذلك سماه العلماء X Y ، X يعنى : الاثنان من الرجل .

ثم يقول الحق سبحانه [1] :

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٦٢٣٨/٩) : اختُلف فى سبب نزولها على ستة أقوال ، منها :

- أن أبا ذر الغفارى دعاه النبى ﷺ إلى الإسلام بمكة فأجاب ، واستجار به قومه فأتاه زعيمهم فأسلم ، ثم دعاهم الزعيم فأسلموا فبلغ ذلك قريشاً فقالوا : غفار الحلفاء لو كان هذا خيراً ما سبقونا إليه ، فنزلت هذه الآية . قاله أبو المتوكل .
- أن الذين كفروا من اليهود قالوا للذين آمنوا يعنى عبد الله بن سلام وأصحابه : لو كان دين محمد حقاً ما سبقونا إليه . قاله أكثر المفسرين . حكاه الثعلبى . وقال مسروق : إن الكفار قالوا : لو كان خيراً ما سبقتنا إليه اليهود . فنزلت هذه الآية .

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾﴾

القائل هنا الذين كفروا . قالوا لمن ؟ للذين آمنوا ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا .. ﴿١١﴾﴾ [الأحقاف] أى : الإسلام ﴿مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ .. ﴿١١﴾﴾ [الأحقاف] وللعلماء ملحظ فى هذه الآية يتوقف على معنى كلمة ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا .. ﴿١١﴾﴾ [الأحقاف]

فمَنْ أخذها بمعنى اللام اعتبر هذا القول مواجهة من الكافرين للمؤمنين ، فقالوا لهم وهم حضور : لو كان خيراً ما سبقتمونا إليه هكذا بتاء الخطاب ، ومن اعتبر اللام بمعنى (عن) المؤمنين يعنى : وهم غائبون عن مجلس القول : لو كان خيراً ما سبقونا إليه .

فكأن السياق عدلَ عن الحرف (عن) إلى (اللام) ليعطينا المعنيين : معنى الإيذاء فى المواجهة ، والإيذاء فى الغَيْبة ، ويجمعهما فى نصٍّ واحد .

وقوله تعالى : ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [الأحقاف] الإفك : هو أقبح الكذب ﴿قَدِيمٌ﴾ يعنى : معروف ومعهود منذ القِدم . أى : عند الأولين .

﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾﴾

قوله تعالى : ﴿وَمِن قَبْلِهِ .. (١٢)﴾[الأحقاف] من قبل القرآن ﴿ كِتَابُ مُوسَىٰ .. (١٢)﴾ [الأحقاف] التوراة ﴿ إِمَامًا وَرَحْمَةً .. (١٢)﴾ [الأحقاف] يعنى : فى زمنه وحال كونه إماماً وقدوة يهتدون به ويؤدى إلى رحمة مَنْ تمسَّك به .

﴿وَهَٰذَا .. (١٢) ﴾ [الأحقاف] أى : القرآن ﴿كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ..(١٢)﴾ [الأحقاف] أى : للكتب السابقة كما جاءتْ من عند الله ، وقبل أنْ تُحرّف أو تُبدَّل ، وفى موضع آخر بيَّن سبحانه أن القرآن جاء مُصدِّقاً لهذه الكتب ومهيمناً عليها جميعاً ﴿ لِّسَانًا عَرَبِيًّا .. (١٢) ﴾ [الأحقاف] بلسان عربى ﴿لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا .. (١٢) ﴾ [الأحقاف] يُخوِّفهم عاقبة ظلمهم ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ (١٢) ﴾ [الأحقاف] والبشرى : الإخبار بالخير قبل أوانه .

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٣)﴾

هذه الآية لها نظير فى سورة فُصّلت : ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠)﴾ [فصلت]

نعم ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٣)﴾[الأحقاف] فأىُّ خوف يُصيبهم ، وأىّ حزن ينزل بهم وقد قالوا هذه الكلمة ﴿رَبُّنَا اللَّهُ .. (١٣)﴾[الأحقاف] وهى لُبُّ العقيدة ثم لم يقولوها كلمةً جوفاء ، إنما قرنوها بالعمل بمقتضى هذا الإيمان .

﴿ثُمَّ اسْتَقَامُوا .. (١٣)﴾ [الأحقاف] أى : على أوامر العقيدة ونواهيها ، ومعنى الاستقامة : السير على الطريق المستقيم الذى رسمه لك مَنْ آمنتَ به .

وهذه الاستقامة تُصلح لك حركة حياتك وحركة الآخرين معك ، والاستقامة بمفهوم الهندسة هى أقصر الطرق التى تُوصِّلك إلى غايتك .

لذلك قلنا : إن الهدى مطيَّة تحملك وتُوصِّلك ، الهدى ليس عبئاً على صاحبه بل أنت حِمْل عليه ، يقول تعالى : ﴿أُوْلَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ .. (٥)﴾ [لقمان] فهم يعتلون الهدى وهو يحملهم .

إذن : مَنْ نطق بهذه الكلمة ﴿رَبُّنَا اللَّهُ .. (١٣)﴾[الأحقاف] ثم استقام عليها فى حركة حياته ضمن الله له عدم الخوف وعدم الحزن ، ولم يُؤجله إلى الآخرة ، بل جعله بُشْرى تُبشِّرهم بها الملائكة فى آية فُصِّلت : ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠)﴾ [فصلت]

أى : تتنزَّل عليهم ساعة الموت تُبشرهم وتُطمئنهم ، فلا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون ، الخوف توقُّع أمر يُؤذى ويضرّ ، والحزن الفجيعة والألم لفقد شىء محبوب ، فهم فى أمن من هذا وذاك . وما دام الأمر كذلك فلا تخافوا من أعدائكم فلن ينالوا منكم شيئاً أبداً .

لذلك كان عندهم قضية يقولونها لأعدائهم بشجاعة : ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ (٥٢)﴾ [التوبة]

يعنى : إنْ تواجهنا فى قتال فنحن ننتظر أحد أمرين ، إما أنْ

ننتصر عليكم ونكسر شوكتكم ونُذلكم ، وإما أنْ نُقتل فنظفر بالشهادة، فنحن رابحون على أيِّ حال ، أما أنتم فننتظر أنْ يُصيبكم اللهُ بعذاب من عنده أو بأيدينا ، لذلك دخل المسلمون على هذه المسألة بثقة ويقين لا يخالطه شكّ .

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ أُوْلَئِكَ .. ﴿١٤﴾ ﴾ [الأحقاف] إشارة للذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ، فالحق يُحدِّثنا عن جزائهم وعاقبة إيمانهم واستقامتهم ، فهم ﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ .. ﴿١٤﴾ ﴾ [الأحقاف] أصحابها إما مالكوها ، وإما أنها مصاحبة لهم وهم مصاحبون لها ، يعنى : بينهما علاقة وُدٍّ وتفاهم وميْل ، كلٌّ منهم يميل إلى الآخر ويشتاق إليه .

والصاحب هو مَنْ تصطفيه من خلق الله ممَّنْ توافق أخلاقه أخلاقك ، وطباعه طباعك ، وسلوكه سلوكك . فهؤلاء الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا اختاروا الجنة واختارتهم واتخذتهم أصحاباً وأصفياء .

وقد ورد أن الجنة تشتاق إلى أهلها وتنتظرهم وتسأل عنهم[1] ، كما أن النار تشتاق إلى أهلها وتنتظرهم . ولا غرابةَ فى ذلك ، فكلٌّ مخلوق له لغته التى يعبر بها ، حتى الجمادات .

وقال تعالى : ﴿ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ .. ﴿٤١﴾ ﴾ [النور] فكلّ يُسبِّح بلغته هو أنت لا تفهمها لأنه لا يتحدث بلغتك ، إنما الذى خلقها أعطاها لغة خاصة تتفاهم بها مع جنسها .

---

(١) مما ورد فى هذا حديث رسول الله الذى أخرجه الترمذى فى سننه (٣٧٣٢) عن أنس بن مالك « إن الجنة لتشتاق إلى ثلاثة : على وعمار وسلمان » .

والقرآن يُخبرنا أن النملة تكلمتْ مع بنى جنسها وتفاهمتْ معهم ، وسمع سليمان كلامها وشكر الله أنْ أعطاه نعمة الفهم عن هذه المخلوقات ، لذلك صوَّبنا مقولة : إن الحصى سبَّح فى يد رسول الله .

فهذه ليستْ ميزة لأن الحصى مُسبّح بطبيعة الحال ، فهو يُسبِّح حتى فى يد أبى جهل ، لكن الصواب أنْ نقول : سمع رسول الله تسبيح الحصى فى يده .

﴿ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا .. (١٤) ﴾ [الأحقاف] لأن نعيم الجنة باقٍ خالد لا ينتهى ولا يُنغصه ما يُنغص نعمة الدنيا ، فلا يفوتك ولا تفوته ﴿ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤) ﴾ [الأحقاف] قالوا : هذا الجزاء أهو حَقٌّ للعبد ؟ أم هو تفضل من الله ؟

قالوا : الجنة تفضل من الله ، والعمل ما هو إلا سببٌ لا ثمنٌ لدخولها ، لأن الحق سبحانه وتعالى حينما شرع لنا الشرائع إنما شرعها لمصلحتنا ولسلامتنا واستقامة أمور حياتنا على مستوى الفرد وعلى مستوى الجماعة .

فنحن نجنى ثمرة العمل الصالح ونسعد به فى دنيانا ، ومع ذلك يثيبنا الله عليه بثواب الآخرة دون أنْ يعود منه شىء على الله تعالى ، ودونَ أنْ ينتفع منه بشىء . إذن : دخول الجنة زيادة وتفضّل من الله .

وقوله : ﴿ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤) ﴾ [الأحقاف] فيه لفتة : ما هو العمل ؟ العمل انفعال الجارحة لمهمتها ، فاليد تتحرك واللسان ينطق والعين ترى وهكذا ، لكن لو تأملتَ العمل تجده على قسمين : قول وفعل ، فأخذ اللسانُ وحده شطر العمل ، وأخذتْ باقى الجوارح الشطر الآخر ؛ ولذلك : يقولون ، ويفعلون ؛ ولأن بالقول بلاغ المنهج الذى تنفعل له الجوارح طاعة أو معصية .

﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (١٥) ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ .. (١٥) ﴾ [الأحقاف] أمرناه بذلك وألزمناه به ، والوصية أن تطلب ممَّنْ توصيه عملاً خيِّراً يفيده فى حياته وآخرته ، ويعينه على آداء مهمته ، لذلك تجد معظم الوصايا بالأمور المهمة تأتى فى أخريات العمر ، وكأنه يقول لأهله ولمن يوصيه : الحقوا خذوا منى نتيجة تجاربى فى الحياة .

وهذه المادة أتت فى القرآن بلفظ : وصَّى وأوصى . وصى تفيد تكرار الفعل ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ ..(١٥) ﴾ [الأحقاف] وفى قوله تعالى : ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ .. (١٣٢) ﴾ [البقرة]

أما أوصى فهى للتعدية ، كما فى قوله تعالى على لسان المسيح عليه السلام : ﴿ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١) ﴾ [مريم] فهى مثل أنزل ونزَّل ، أنزل أى مرة واحدة ، ونزَّل يعنى تباعاً .

---

(١) الفصال : الفطام لأن الطفل به ينفصل عن أمه . [القاموس القويم ٢/٨٣] . ومعنى أن حمله وفصاله ثلاثون شهراً ، أى : أن مدى حمل المرأة إلى منتهى الوقت الذى يفصل فيه الولد عن رضاعها ثلاثون شهراً . [لسان العرب – مادة : فصل] .

وكلمة ﴿ الإِنسَانَ ..(١٥) ﴾ [الأحقاف] وهو الموصَّى تفيد الإطلاق والعموم أى الإنسان على إطلاقه من آدم إلى قيام الساعة فى اسم جنس تقابل فى الخلق المختار كلمة الجن ، نقول : الإنس والجن ، الإنس يعنى الإنسان من الأُنس . يعنى : يأنس بعضنا إلى بعض .

أما الجن فلا أنْسَ بيننا وبينه ، لأننا لا نراهم ولا نتفق معهم فى الطبيعة ، قال تعالى : ﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ .. (٢٧) ﴾ [الأعراف]

إذن : هذه الوصية مُوجّهة من الحق سبحانه للناس كافة وللإنسان عموماً ، فتشمل المؤمن والكافر ، والكبير المكلف والطفل دون التكليف ، فإنْ فعل بالوصية يُثاب عليها ، وإنْ تركها لا يُعاقب .

يمكن أنْ نقيس هذه المسألة على الصلاة ، ففى الحديث الشريف قال ﷺ : « مُروا أولادكم بالصلاة لسبع ، واضربوهم عليها لعشر »[1] .

إذن : الأمر منكم وكذلك العقوبة منكم أيضاً ، لأنه ما يزال دون سِنِّ التكليف الشرعى .

والصلاة فى هذه السنِّ تدريب له وتعوّد ليرتاد ويألف الصلاة منذ صِغَره فيشب عليها ، حتى إذا بلغ التكليف كانت سهلة عليه ومعتادة عنده .

وكلمة (الوالدين) أى : الأب والأم ، وهما السبب المباشر للوجود ، لأن هناك سبباً غير مباشر ، وهو الوجود الأعلى الذى أوجد

---

(١) أخرجه أبو داود فى سننه (٤١٨) عن عبد الله بن عمرو بن العاص ولفظه : « مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين ، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر ، وفرِّقوا بينهم فى المضاجع » .

آدم وحواء ، وهذا الوجود كان عن عدم ، أما وجودنا نحن بالتناسل ، فكان عن سبب وهو (الوالدان) .

ولبقاء النوع وعمارة الأرض ربط الله تعالى - ولحكمة عملية - الإنجابَ بأقوى غرائز الإنسان وأقوى لذة عنده ، كيف ؟ قالوا : أنت حين تنظر إلى منظر جميل تستمتع به عينُك أو تشمّ رائحة طيبة يستمتع بها أنفُك . كذلك حين تأكل أكلة مُحبّبة إليك .

إذن : كلّ جارحة من جوارحك لها متعة خاصة ، أما العملية الجنسية فتُحدث لذة ومتعة تستوعب الجوارح كلها ، وتشارك فيها الجوارح كلها ، لذلك شرع الله الغُسْلَ بعدها لاشتراك جميع الجوارح فى هذه العملية ، وأيضاً لأنك تغفل فى هذه الأثناء عن الله فاستوجب ذلك الغسل .

وأيضاً لأن الحق سبحانه وتعالى علم أن الأولاد يُمثلون عبئاً على الأهل ومشقة فى التربية والإنفاق والسعى عليهم ، لذلك أقسم الله بهذه المسألة فقال : ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ۝٣﴾ [البلد]

ولولا أن الله ربط الإنجاب بهذه اللذة لربما زهد فيها كثير من الناس ، تروْنَ المرأة كم تعانى من آلام الحمل والولادة ، حتى أنها تقول توبة لن أعود ، ثم تنسى آلامَها ومقاساتَها وتحِنّ من جديد للحمل .

إذن : ربط الإنجاب بهذه اللذة لحكمة ، لكن العجيب أن الناس تسرف فيها وتبالغ وتخرجها عن حدِّها فتجعل اللذة هى الأصل .

ونحن نرى الحيوانات مثلاً تمارسها لبقاء النوع فقط ، لذلك ساعة يأتى الفحل للأنثى يشمّها أولاً ، فإنْ وجدها حاملاً لا يقربها ، وهى

أيضاً لا تُمكّنه من نفسها ، والعجيب أننا نعيب الحيوانات ونقول : شهوة بهيمية .. سبحان الله !!

ثم إننا نلاحظ فى هذه المسألة أن طفولة الإنسان هى تقريباً أطول فترة طفولة إذا ما قُورنت بباقى المخلوقات ، فالحيوان مثلاً يلد ثم تُرضع الأم ولدها ، وبعد فترة الرضاعة لا تعرفه ولا تهتم به .

أما فى الإنسان فهو طفل حتى سنِّ البلوغ ، اقرأ : ﴿وَإِذَا بَلَغَ الأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ [1] .. (٥٩)﴾ [النور] ذلك لأن الإنسان مرتبطٌ ومكلّف تكليفاً أعلى من الحق سبحانه ومطلوب منه أنْ يأتمر بأمره ، وأنْ ينتهى عن نَهْيه .

إذن : طبيعة الإنسان وتكريمه بصلته بالله جعلتْ فترة تربيته طويلة تناسب مهمته فى الحياة . انظر مثلاً إلى البقرة تلد فينزل ولدها يتحرك وينفض عن نفسه البلل ، ثم يقف بعد دقائق ثم ينهض واقفاً ، ثم يجرى حولها كل هذا فى ساعة من الزمن .

أما الولد عندنا فيستطيع الجلوس مثلاً بعد عدة أشهر ثم يحبو ثم يقف ثم يمشى بعد سنة أو أكثر ، بل وعندنا مَنْ يمد فترة الطفولة لأبنائه إلى سن ٢٥ سنة ، وهو فى حكم الطفل يعوله وينفق عليه ولا يُحمِّله المسئولية .

والتوصية بالوالدين وردتْ فى القرآن فى أربعة مواضع مقرونة بعبادة الله : ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا .. (٣٦)﴾ [النساء] وقال : ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ

---

(١) حلم الصبى يحلم حُلماً : أى بلغ مبلغ الرجال . [القاموس القويم ١ / ١٦٩] . أى : بلغ أن يحتلم والاحتلام الجماع ونحوه فى النوم . والمحتلم : البالغ المدرك . [لسان العرب - مادة : حلم] .

وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا .. (٨٣) ﴾ [البقرة]

وفى سورة الأنعام : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا .. (١٥١) ﴾ [الأنعام] وفى سورة الإسراء : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا .. (٢٣) ﴾ [الإسراء]

هذه أربعة مواضع يأمر فيها الحق سبحانه الأولاد بالإحسان إلى الوالدين ، ويقرن هذا لأهميته بعبادة الله وكأنهما فى الميزان سواء ؛ لأن الوالدين كما ذكرنا هما سببُ الوجود المباشر ، وبرّهما والإحسان إليهما تمهيد وتدريب يُذكِّرك بالسبب الأعلى لوجودك ، وهو الخالق سبحانه وتعالى .

وهذه الوصية يلزمنا الله بها حتى إنْ كان الوالدان كافريْن كما قلنا فى وصية عامة ، يقول تعالى : ﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٨) ﴾ [العنكبوت]

وقال سبحانه : ﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا .. (١٥) ﴾ [لقمان] فإذا كان الله تعالى يُوصينا بالوالدين حتى إنْ كانا مشركين لأنهما سبب الوجود المباشر ، فما بالك بسبب الوجود الأعلى سبحانه ؟

وقد اعترض بعض المستشرقين هنا وقالوا : القرآن يقول :

﴿ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا .. (١٥) ﴾ [لقمان] وفى آية أخرى يقول : ﴿ لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ .. (٢٢) ﴾ [المجادلة]

فرأى تعارضاً بين الآيتين ، وهذا ناتج عن عدم فهم اللغة وعدم الإلمام بأساليبها وأسرارها ، فهناك فرْق بين الود والمعروف . الود منشؤه الحب والعاطفة القلبية ، أما المعروف فجميلٌ تصنعه مع مَنْ تحب ومع مَنْ تكره .

والحق سبحانه حينما يأمرنا ببرِّ الوالدين إنما ليعطينا دُرْبة ورياضة على أن تبرَّ مَنْ خلقك وخلقهم ، وهو الموجِد الأعلى سبحانه .

وكلمة (إحساناً) مصدر أحسن . والإحسان فى الشرع أنْ تصنع من الخير والمعروف فوق ما فرض عليك ومن جنس ما فُرِض عليك ، وهذا المعنى شرحه لنا الحق سبحانه فى سورة الذاريات : ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦)﴾ [الذاريات]

ثم يصفهم ويعطينا حيثيات الإحسان : ﴿كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ[1] (١٧) وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩)﴾ [الذاريات]

وواضح أن هذه المسائل الثلاثة المذكورة ليست فرضاً على المسلم ، بل هى زيادة من جنس ما فرض عليه ، ألاَ تراه يقول فى الأموال : ﴿حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩)﴾ [الذاريات] لكن عندما يتحدَّث عن فريضة الزكاة يقول ﴿حَقٌّ مَّعْلُومٌ (٢٤)﴾ [المعارج]

فالحق المعلوم هو الزكاة الواجبة ، لكن (حق) هكذا مطلقة ، فهى للصدقات التى تخرج زيادة على الفريضة ، ومَنْ يقدم هذه الزيادة فى

---

(١) الهجوع : النوم ليلاً . وقد يكون الهجوع بغير نوم . والهجيع : طائفة من الليل . [لسان العرب – مادة : هجع] .

الطاعة تدخله فى دائرة الإحسان التى هى أعلى مراتب العبادة .

كذلك الحق سبحانه يأمرنا ببرِّ الوالدين والإحسان إليهما ، لأن لهما فضلاً علينا فى الإيجاد وفى التربية وفى الإنفاق ، فيجب أنْ نعطيهم أكثر مما يستحقون ، وحين تعطى أكثر مما يجب عليك فأنت مُحسن إليهما .

إذن : الأمر فى بر الوالدين لا يتوقف عند الواجب الضرورى إنما يتعداه إلى مرتبة الإحسان .

لذلك الحق سبحانه حينما يُحدِّثنا عن حَقِّ الوالدين يقول : ﴿ فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا (٢٣) ﴾ [الإسراء] وأف : اسم فعل مضارع بمعنى أتضجر ، وهى تدلّ على الضيق .

فاحذر أنْ تقول لهما هذه الكلمة أو تتأفف منهما خاصة حال كبرهما عندما يُردَّان إلى أرذل العمر ويكونان فى أمسِّ الحاجة للحنان والرعاية .

ففى هذه السنِّ يعود الإنسان إلى الطفولة مرة أخرى ، فيحتاج مَنْ يحمله ويُقعده ويؤكله ، وربما حدث منه ما يدعو إلى التأذِّى ، فإياك أنْ تتأذى منه فى هذه الحالة .

ربما ارتعشتْ به قدماه فوقع على الأرض أو كسر (فازة) مثلاً ، فاحذر أنْ تظهر له ما يؤذيه ، واعلم أنك مُثابٌ على هذا ، وأنه مُدَّخر لك ودَيْن سيُؤدَّى ، ومَنْ برَّ والديه برَّه أبناؤه .

ويكفى أنك حين تبره وتتحمل أذاه تفعل ذلك وأنت تتمنى موته ، وقد فعل معك أكثر من هذا وكان يتمنى لك طول العمر .

وفى ضوء هذه العلاقة بين الآباء والأبناء نفهم حديث سيدنا

رسول الله ﷺ : « يا معشر الشباب ، مَنْ استطاع منكم الباءة[١] فليتزوج ، فإنه أغضّ للبصر ، وأحصن للفرج[٢] » .

فالزواج المبكر فوق أنه عصمةٌ لصاحبه هو أيضاً ، كما قال العربى : أقرب طريق لإنجاب أب يرعاك فى طفولة شيخوختك ، حيث يصير الولد فى هذه الحالة فى منزلة الأب الذى يرعى ولده .

وفى موضع آخر قال الحق سبحانه : ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا .. (٨)﴾ [العنكبوت] وفرْق بين حُسن وإحسان ، فالإحسان أن تفعل معهما فعلاً حسناً ، أما الحُسن فهو مصدر هذا الفعل واسم هذه العملية التي تقوم بها ، كما تقول فلان عادل ، وفلان عدل . يعني : بلغ الغاية في تحقيق العدل حتى جعلته هو والعدل شيئاً واحداً .

إذن : الحُسن أبلغ من الإحسان ، وردُّ الإحسان بأحسن منه مبدأ إسلامى ، لذلك قال تعالى : ﴿وإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا .. (٨٦)﴾ [النساء]

والحق سبحانه لم يأت بحيثية : ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا .. (٨)﴾ [العنكبوت]

وإنما قال بعدها : ﴿وإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا .. (٨)﴾ [العنكبوت] يعنى : حتى فى وضع المخالفة العقدية حفظ لهما هذا الحق وأكدّ ووصَّى على برِّهما على أحسن ما يكون

---

(١) الأصل فى الباءة المنزل ثم قيل لعقد الزواج باءة لأن من تزوج امرأة بوَّأها منزلاً ، والباءة : النكاح والتزويج . [لسان العرب – مادة بوأ] .

(٢) حديث صحيح متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٦٧٧ ، ٤٦٧٨) ومسلم فى صحيحه (٢٤٨٥) من حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه .

البر : ﴿إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ [العنكبوت]
وفى الآية الأخرى قال : ﴿فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا .. ﴿١٥﴾﴾ [لقمان]

قالوا : لأن الآباء على قسمين : أب يكون فى حاجة إلى ولده ليعيش ، وأب لا يحتاج لولده يعنى : غنى بنفسه ، فمَنْ كان فى حاجة فعليك أنْ تصاحبه بالمعروف يعنى : تُعينه وتقيم حياته إقامة كريمة ، ومَنْ كان غنياً بنفسه فهو وشأنه ، ومردُّ الجميع إلى الله .

وهنا فى الآية التى معنا لم يقل حُسْناً ولا إحساناً ، بل ذكر حيثية الوصية فقال : ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا .. ﴿١٥﴾﴾ [الأحقاف] فحدَّد هنا مُدة الحمل مع الرضاعة جملة واحدة ، وفى آية أخرى قال عن الرضاعة وحدها : ﴿وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ ..﴿١٤﴾﴾ [لقمان]

إذن : كلّ آية أخذتْ لقطة ، وبجمع الآيتين أمكننا أنْ نحلَّ بعض الإشكالات فى مسألة مدة الحمل ومدة الرضاعة .

فقد رُوى أن سيدنا علياً رضى الله عنه دخل على سيدنا عمر وعنده امرأة يريد أنْ يقيم عليها حد الزنا لأنها ولدت لستة أشهر وهى فى بيت زوجها ، والمشهور عندهم أن مدة الحمل تسعة أشهر .

فقال على : على رسْلك يا ابنَ الخطاب ، ثم قرأ عليه هذه الآية : ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا .. ﴿١٥﴾﴾ [الأحقاف] وقال فى الآية الأخرى : ﴿وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ ..﴿١٤﴾﴾ [لقمان]

وبطرح العامين من الثلاثين شهراً يكون من الجائز أنْ تكون فترة الحمل ستة أشهر ، وهى أقل فترة ممكنة للحمل .

لذلك قال عمر : بئس المقام بأرض ليس فيها أبو الحسن[1] ، نعم لأن علياً رضى الله عنه اشتُهر بالعلم والفتوى ، لأنه دخل الإسلام وهو صبىّ ، وشرب من معين النبوة منذ صغره ، فكانت ثقافته من بدايتها ثقافة إسلامية ، فكأن الخميرة الثقافية عنده منذ صِغَره إسلامية ، فى حين كان غيره أصحاب ثقافة جاهلية .

ومن فقه الإمام على وإلمامه بمسائل الشرع لما انتقل سيدنا رسول الله إلى ربه عز وجل ، اجتمع المهاجرون والأنصار فى السقيفة ، ودارت بينهما مناقشات كُلٌّ يريد أنْ تكون له الخلافة بعد رسول الله ، وتطلَّع الأنصار إلى ذلك ، ثم قالوا : منا أمير ومنكم أمير .

فلما بلغ ذلك سيدنا علياً قال : لم تُحسنوا حجاجهم . قولوا لهم أى للأنصار : ألم تسمعوا قول رسول الله « إذا ملكتم فاستوصوا بالأنصار خيراً[2] » إذن : لو كانت الإمارة فيهم لم تكُنْ الوصية بهم .

---

(١) أخرج الحاكم فى مستدركه (٤٥٧/١) والبيهقى فى شعب الإيمان عن أبى سعيد الخدرى قال : « حججنا مع عمر رضى الله عنه ، فلما دخل الطواف استقبل الحجر فقال : « إنى أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع » وهو حديث طويل وفيه أن عمر رضى الله عنه قال : أعوذ بالله تعالى أن أعيش فى قوم لست فيهم يا أبا الحسن . وذلك بعد أن قال له علي : بل إنه يضر وينفع ، ألبس يشهد يوم القيامة لمن قبَّله ؟

(٢) ما وجدته فى هذا أن أبا بكر الصديق خاطبهم فى السقيفة فقال : قال النبى ﷺ : « أوصيكم بالأنصار خيراً » ولو كان لكم من الأمر شىء ما أوصى بكم » . [أحكام القرآن لابن العربى ٤٠٤/٢] و [١٤٦/٤] قال « لو كان لكم فى الأمر شىء ما رأيتم أثرة ولا وصَّى بكم » .

ومن المسائل الطريفة التى كانت بين على وعمر أن علياً دخل عليه فوجده مُغْضباً ، فقال : ما أغضبكَ يا أمير المؤمنين ؟ قال : سألتُ حذيفة : كيف أصبحتَ يا حذيفة ؟ فقال : أصبحتُ أحب الفتنة ، وأكره الحق ، وأصلى بغير وضوء ، ولى فى الأرض ما ليس لله فى السماء .

فضحك علىّ وقال : صدق يا أمير المؤمنين ، فقال : أتقولها يا أبا الحسن ؟ قال : نعم ، هو يعنى : أصبح يحب ماله وولده ، وقرأ : ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ .. (١٥)﴾ [التغابن]

ويكره الحق ، يعنى : الموت ، ومَنْ منَّا يُحبه يا أمير المؤمنين ، ويصلى بغير وضوء . يعنى : يصلى على النبى ﷺ .

وله فى الأرض ما ليس لله فى السماء . أى : له زوجة وولد[1] . والعجيب أنْ نسمع فى زماننا مَنْ يُقلل من شأن هؤلاء ، بل ويريد أنْ يلغى شخصيات أبى بكر وعمر وعلى من تاريخنا .

ثم نلاحظ أيضاً فى هذه الآية أن الحق سبحانه قال : ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ..(١٥)﴾ [الأحقاف] أى : كارهة أو على مشقة ، وفى الآية الأخرى : ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ .. (١٤)﴾ [لقمان]

والوهَن أى الضعف نتيجة الحمل والولادة ، أما الكراهية لهذه المسألة فتأتى من أن النساء لها طبائع مختلفة ، فمنهن مَنْ تحب هذه

---

(١) أورده صاحب « التحرير والتنوير » (١٥ / ١٣٢) قال : ذكر ابن عطية أن عمر قال لحذيفة : كيف أصبحت ؟ فقال : أصبحت أحب الفتنة وأكره الحق ، فقال عمر : ما هذا ؟ فقال : أحب ولدى وأكره الموت ، ومثله جاء فى المحرر الوجيز (٣٦٦/٦) .

العملية ، ومنهن مَنْ تكرهها لكن تطيع زوجها وهى كارهة ثم تتحمّل بعد ذلك مشاقّ الحمل والوحم ثم آلام الوضع ، وبعد الولادة تنشغل بالمولود وتحنو عليه .

فى حين ينشغل الوالد بالسَّعى وطلب الرزق ، لذلك يغلب على الرجل العقلانية وعلى المرأة العاطفة كلّ حسب مهمته فى الحياة .

لذلك يخطىء البعض فى فهم حديث النبى ﷺ عن المرأة وأنها خُلِقَتْ من ضلع أعوج ، وأعوج ما فى الضلع أعلاه فإنْ رُحْتَ تقيمه كسرته ، وكسْرها طلاقها[1] .

وحين نتأمل هذا الحديث نجد اعوجاج الضلع لحكمة ، لأن الضلوع خُلِقَتْ لتصون أثمن وأهم جهازين فى الجسم هما القلب والرئتان ، ولو كان الضلع معتدلاً ما أدَّى هذه المهمة .

وهل نقول مثلاً عن الخطاف أنه أعوج ، أو أن اعوجاجه عَيْب فيه ؟ أبداً لأن طبيعة عمله ومهمته تقتضى أنْ يكون على هذا الشكل ، إذن : شبّه رسول الله ﷺ المرأة بالضلع ، لأن مهمتها العطف والحنان .

الحق سبحانه لمَّا وصانا بالوالدين أتى بحيثيات الوصية بالأم ، ولم يذكر شيئاً من حيثيات الوصية بالأب ، قالوا : لأن دور الأم جاء فى زمن ليس للطفل فيه إدراك يدرك به دور أمه وفضلها فى مرحلة الحمل والولادة والرضاعة .

---

(١) أخرج البخارى فى صحيحه (٣٠٨٤ ، ٤٧٨٧) وكذا مسلم فى صحيحه (٢٦٧٠ ، ٢٦٧١) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « استوصوا بالنساء ، فإن المرأة خُلقت من ضلع ، وإن أعوج شىء فى الضلع أعلاه ، فإن ذهبتَ تقيمه كسرته ، وإن تركته لم يزل أعوج فاستوصوا بالنساء » .

أمـا دور الأب من الإنفاق والرعـاية فـيأتى فى زمـن الطفلُ فيـه مدركٌ لجميل والده ، فاهم لدوره فى تربيـته والقيام على أمره ، لذلك احتـاج الولد أنْ نُذكِّره بدور أمه وفضـلها ، لأنه غير مـدرك له ، أما دور الوالد فهو يعرفه .

وما دُمْنا بصـدد الحديث عن دور الوالـدين فى التـربيـة فـلا بدّ أنْ نذكـر قـوْلَ الحـق سـبـحانه : ﴿وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (٢٤)﴾ [الإسراء] فهـذه الآية تعـطينا منهج التربيـة العام لكل الأطفال .

فالوالدان استحقا هذه الوصية لأمرين أنهما سببُ الوجود المباشر الذى يُذكِّرك بسبب الوجـود الأعلى ، وهما يقومان بالتربية فـيُذكِّرانك بالمربِّى الأعلى سبحانه .

فالله ربّ ومُربٍّ ، خلقنا من عدم وأمدَّنا من عُدْم ، فهو الذى ربّانا وأمدنا بأسباب التربيـة . إذن : الوصية بالإحسان إلى الوالدين تُعطينا دُرْبة على الإحسان فى علاقتنا بالله خالقنا ومُربِّينا .

ثم نفـهم من هذه الآية أيضاً أن التـربية وحـدها سببٌ وحـيثـيةٌ للإحسان ، فـقد يُربِّى الطفل غير والديه فيكـون لمَنْ ربَّاه فضل عليه يستوجب الإحسان لأنه قام بشطر العملية .

فالوالد والوالدة لهما فضل الإيجاد ، والمربِّى له فضل التربية وله نصف الثـواب ، وهذه المسـألة تُشجِّع على كـفالة الأيتـام وتربيتـهم ابتغاء وجه الله .

فمَنْ مات أبوه فـالمجتمع كله أبوه ، لذلـك قال ﷺ : « أنا وكافل

اليتيم كهاتين فى الجنة » [١]

لأن الأب لو مات وترك أولاداً إذا لم يجدوا من المجتمع مَنْ يرعاهم ويكون لهم والدا بدلاً عن والدهم ، إذا لم يجدوا هذا نشأ عندهم حقدٌ على باقى الأولاد وحقد على المجتمع كله ، وربما تعدَّى ذلك إلى التمرد على الله الذى كتب عليهم اليُتْم .

وكلمة ﴿كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيراً ﴿٢٤﴾﴾ [الإسراء] تعنى أن التربية لها وقت هو وقت الصِّغَر ، لذلك أذكر أننى دُعيت لإلقاء محاضرة بعنوان . تربية الشباب ، وكانت فى إحدى جامعاتنا لكن قبل أنْ أبدأ المحاضرة قُلت : أستأذن السيد مدير الجامعة فى تغيير عنوان المحاضرة لأن الشباب لا يُربَّى ، الشباب طاقة تُستغل فى حركة الحياة ، الشباب تربَّى بالفعل .

فلو قُلْنا تربية الشباب كان هذا العنوان غير صحيح ، بل تربية الطفولة أو النشء ، لأن الطفولة هى العجينة التى تقبل التشكيل دون أنْ تعترض ، أما الشباب فقد تم تشكيلهم ، لذلك يعترضون ولهم (تتنيحة) حين تُوجه له نقداً أو توجيهاً .

لكن الشباب الموجودين بالجامعة قالوا : نحن رُبِّينا خطأ فاستأنفوا تربيتنا من جديد . فقلت لهم : إذن فاستأنفوا معنا طفولتكم

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٠٠٥) من حديث سهل بن سعد ، وأخرجه مسلم فى صحيحه (٢٩٨٣) من حديث أبى هريرة ، وتمام الحديث : وقال بأصبعيه السبابة والوسطى . ومعنى السبابة : لأنه يسب بها الشيطان حينئذ وفى رواية (السبَّاحة) لأنها يُسبَّح بها فى الصلاة فيشار بها فى التشهد لذلك . قاله ابن حجر العسقلانى فى فتح البارى (١٠/٤٣٦) .

وتقبَّلوا التوجيه والنقد دون أن تعترضوا ، كونوا مثل المريض بين يدى الطبيب يقبل ما يقول دون مناقشة .

ومن أخطائنا فى التربية أننا نطيل فترة الطفولة عند أولادنا ، فالأسرة تظل تحتضن الابن وتُنفق عليه حتى سنِّ العشرين والخامسة والعشرين . لذلك فاقنا الغرب فى هذه المسألة ، فالولد عندهم حين يصل سِنَّ البلوغ يستقل عن أسرته وينفق على نفسه حتى لو كان أبوه مليونيراً .

وبذلك كثُرتْ الأيدى العاملة ، وقلَّتْ البطالة ، وزاد الإنتاج ، وهذه كلها وسائل للتقدم نفتقدها نحن ، ولم نتمكن حتى الآن من استغلال طاقات الشباب .

إنك لو ذهبتَ إلى عاصمة من عواصم الغرب فلن ترى هناك الشباب يملأ الشوارع والنواصى ، ولن تجد (قهاوى) تمتلىء بالعاطلين ، لكن تراهم فى وقت الراحة يخرجون كالجراد لتناول الغداء ، لكن الخطأ الذى وقعوا فيه أنهم عمَّموا هذا الحكم على الفتى والفتاة .

وكلمة ﴿رَبَّيَانِي .. (٢٤)﴾ [الإسراء] للمثنى يعنى : الوالد والوالدة، فلكلٍّ منهما دوره فى التربية ، فالأب يجلب ، والمرأة تدبر وتقوم على شئون بيتها .

فهما إذن شركاء فى هذه المسألة ، ووجود المرأة بصفة عامة فى البيت يجعل تأثيرها أقوى من تأثير الرجل فى عملية التربية ، لذلك حينما نهتم بالتربية النوعية نعطى الولد ما يناسبه ، ونعطى البنت ما يناسبها .

لذلك يجمل بنا الآن أنْ نذكر وصية الأم العربية لابنتها ، وهى تُجهِّزها للانتقال إلى بيت الزوجية ، فتقول لها : أىْ بُنية إن الوصية لو تُركت لفضل أدب لتركت لذلك منك ، ولكنها تنبيه للغافل ومعونة للعاقل .

أىْ بُنية ، إنك غداً تفارقين البيت الذى فيه نشأتِ والعش الذى فيه درجتِ[1] إلى بيت لم تألفيه ، وقرين لم تعرفيه ، فكونى له أَمَة يكُنْ لك عبداً .

أىْ بُنية ، لو أن المرأة استغنتْ عن الرجل لغنَى أبويها وعدم حاجتها إلى غيرهما لكنت أغنى الناس عنه ، ولكن النساء للرجال خُلِقْن ، ولَهُنَّ خُلِق الرجال .

أىْ بُنية احفظى عنى عَشْر خصال تكُنْ لك ذخراً : أما الأولى والثانية : فالمعاشرة له بالقناعة وحُسْن السمع له والطاعة ، وأما الثالثة والرابعة فالتفقد لمواقع عينيه وأنفه ، فلا تقع عينه منك على قبيح ، ولا يشم منك إلا أطيب ريح .

وأما الخامسة والسادسة فالتفقد لوقت منامه وطعامه ، فإنَّ تواتر الجوع مَلْهبة ، وتنغيص النوم مغضبة ، وأما السابعة والثامنة فالاحتراس لماله والإرعاء على حَشَمه وعياله .

ومِلاك الأمر فى المال حُسْن التقدير ، وفى العيال حُسْن التدبير .

وأما التاسعة والعاشرة فلا تعصِنَّ له أمراً ولا تُفشِنَّ له سراً ، فإنك إن خالفتِ أمره أوغرتِ صدره ، وإنْ أفشيتِ سِره لم تأمنى غدره .

---

(١) درجتِ : مشيت مشياً ضعيفاً ودبًا . [لسان العرب – مادة : درج] .

ثم إياك والفَرح بين يديه إذا كان مُهتماً[١] أو الكآبة بين يديه إذا كان فَرِحاً .

هذه وصية أمامة بنت الحارث لابنتها أم أُناس[٢] بنت عوف بن مُحلِّم الشيبانى ، وهذه الوصية كانت قبل الإسلام ، ومع ذلك فيها من الآداب والنصائح ما إنْ أخذت به الزوجة فى عصرنا الحاضر لحُلَّتْ معظم المشاكل الأسرية التى تمتلىء بها المحاكم اليوم .

ولو ربّتْ كلُّ أم ابنتها على هذه الآداب لانصلح حالنا ، لكن الواقع أننا تركنا هذه النصائح وغفلنا عن العمل بها فى بيوتنا ، بل وتركنا البيوت للخادمات ، وتركنا التربية لغير أهلها حتى صِرْنا إلى ما نحن فيه .

وقوله سبحانه :﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي[٣] أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ .. (١٥) ﴾ [الأحقاف] هذا طور آخر من أطوار الحياة هو طور البلوغ ﴿ بَلَغَ أَشُدَّهُ .. (١٥) ﴾ [الأحقاف] أى : بلغ الغاية فى اكتمال الجسم والقوة والعقل .

ومن ذلك قوله تعالى فى سيدنا يوسف : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ

---

(١) مُهتماً : أى أصابه الهمّ والغم والاستياء . وقد يكون بمعنى الاهتمام بالأمر وجعله شغله الشاغل .

(٢) هى امرأة الحارث بن عمرو . أراد أبوها أن يئدها (يدفنها حية) ثم قال : دعها لعلها أن تلد أناساً فسميت أم أناس . (الإكمال) وهى أم الحارث بن حجر وهند بنت حجر . (الأغانى للأصفهانى ٤/٣٦٤) .

(٣) أوزعنى : أى رغّبنى ووفّقنى من أوزعته بكذا أى : جعلته مولعاً به راغباً فى تحصيله . الألوسى فى روح المعانى (فى تفسير الآية) وقال ابن عباس : أى ألهمنى .

حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ (٢٢) ﴾ [يوسف] وقال فى سيدنا موسى : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ (١٤) ﴾ [القصص]

إذن : بلوغ الأشُدّ والاستواء واكتمال البدن والجسم والقوة واكتمال العقل هو بداية إلقاء الحكمة وهو بداية التكليف ، فلو كلّف قبل البلوغ ثم طرأ عليه البلوغ ومرحلة المراهقة وما تفعله من تغيرات بالجسم ربما يقول العبد : لقد طرأ علىَّ تغيرات لم تكُنْ فى بالى عند الإيمان بك ؛ لذلك أجّل العملية كلها حتى سنِّ البلوغ ، وهو منتهى النضج .

ومنتهى النضج فى الإنسان أنْ يصيرَ قادراً على إنجاب مثله ، كذلك الحال فى الثمار مثلاً ، قلنا : إن البطيخة لا تحلو للأكل إلا إذا استوى لُبُّها واسودّ بحيث إذا زرعْتَه يعطيك نباتاً جديداً ، فإذا أكلتَ هذه ضمنت لك وجود غيرها .

لكن إذا حلت ولبُّها غير مُستو أكلتها ثم تزرع اللب فلا ينبت ، إذاً هنا حكمة لبقاء النوع .

لذلك يقول تعالى : ﴿ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ .. (٩٩) ﴾ [الأنعام] كلمة (ينعه) أنك تضمن أنْ تأتى بشجرة جديدة . كما أنك تلاحظ فى الشجر المثمر أنك إذا لم تقطف الثمار تقع هى بطبيعتها .

ومن حكمة الخالق سبحانه وعجائب الخلق أنك فى مرحلة النمو وقبل سنِّ البلوغ تجد أن عملية النمو تتم بحساب وإعجاز محكم ، فأشياء فى الجسم تنمو ومثيلاتها فى الجسم لا تنمو .

خذ مثلاً الشعر ينمو ونقصه من حين لآخر ، أما شعر الحاجبين مثلاً والرموش فلا ينمو ، كذلك العظام تنمو بنمو الطفل إلى أنْ يبلغ الأشُدّ ، فى حين أن الأسنان وهى أيضاً عظام تقف عند شكل معين ولا تنمو ، ولو كانت تنمو كنمو باقى العظام لصارتْ مثل ناب الفيل .

إذن : المسألة ليستْ كما قلنا (ميكانيكا) إنما هى (هندسة) من مبدع هذا الكون سبحانه .

﴿ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ .. (١٥) ﴾ [الأحقاف] لأن سنَّ الأربعين هى السنّ التى ينبغى أنْ يقف الإنسان عندها ويحاسب نفسه ويُصحِّح مساره .

سنّ الأربعين هو قمة النضج العقلى ، وهى أيضاً بداية الانحدار نحو النهاية ، لذلك يلفت الحق سبحانه نظرنا إلى الأربعين بالذات لنقف ونتدارك ما كان .

كلمة ﴿ أَوْزِعْنِي .. (١٥) ﴾ [الأحقاف] يعنى : ألهمنى وأعنِّى وقوِّنى ﴿ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ .. (١٥) ﴾ [الأحقاف] بداية من نعمة الإيجاد ، ونعمة السلامة والعافية ، ونعمة الإسلام ، ونعمة التوفيق للطاعة ، ونعمة أن جعلت لى أباً وأماً قاما على تربيتى .

ثم يُعدّى الشكر إلى الوالدين ﴿ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ .. (١٥) ﴾ [الأحقاف] لأن النعمة عند الوالد نعمة عند ولده ﴿ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ .. (١٥) ﴾ [الأحقاف] أى : وفِّقنى وأعنّى على العمل الصالح .

والعمل الصالح هو الاستقامة بتنفيذ الأمر واجتناب النهى فيما ورد فيه نصّ ، أما ما لم يرد فيه نصّ فلَكَ الحرية تفعل أو لا تفعل .

﴿ تَرْضَاهُ .. (١٥) ﴾ [الأحقاف] يعنى : بأنْ يكون هذا العمل وفق المنهج الذى شرعتَ ، أو ترضاه فتقبله ، أو تثيبنى عليه .

﴿ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِى ..(١٥) ﴾ [الأحقاف] دعاء بأنْ يجعل صلاحه ممتداً فى ذريته ، أو أننى يا رب أسرفتُ على نفسى وقصّرْتُ ، ولا أريد ذلك لذريتى ، أريد لها الصلاح الذى لم يتحقق لى .

وهذا مبدأ معروف أن الأب يحب أنْ يتدارك ما فاته فى حياته يُحقِّقه فى حياة أولاده ، وذريته من بعده ، يريد أنْ يحقق فيهم الكمال الذى لم يصل هو إليه ، لذلك يكون الإنسان سعيداً لو تفوّق ولده عليه .

وتأمل الفعل ﴿ وَأَصْلِحْ .. (١٥) ﴾ [الأحقاف] تجده يتعدّى بنفسه ، فلماذا ذكر (فى) فقال ﴿ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِى ..(١٥) ﴾ [الأحقاف] ولم يقل : وأصلح لى ذريتى ؟ ما الضرورة لذلك ؟ الأسلوب هنا كأنه جعل الذرية ظرفاً للإصلاح ، وظرفُ الإنسان قَلْبه .

لذلك ورد فى الحديث الشريف : « ألا إن فى الجسد مُضغة إذا صلُحَتْ صلَح الجسد كله ، وإذا فسدتْ فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب »[1] إذن : عدّاها بـ (فى) ليجعلها ظرفاً ومظروفاً .

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٠) ومسلم فى صحيحه (٢٩٩٦) من حديث النعمان بن بشير رضى الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « إن الحلال بيِّن وإن الحرام بيّن ، وبينهما مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس ، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام كالراعى يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه ... » الحديث .

وقوله : ﴿ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (١٥) ﴾ [الأحقاف] التوبة باب مفتوح إلى آخر العمر ، لكن ينبغى ألاّ تُؤخر وألاّ نغفل عنها إذا كنا أسرفنا على أنفسنا ، لكن البعض منا تأخذه الدنيا وتنسيه نفسه فيؤخر التوبة والتصالح مع ربه إلى هذه السن .

لذلك ورد فى الأثر : « إن الله يجرى يده على وجه العبد بعد الأربعين إنْ لم يتب فيقول : أمَا آنَ لهذا الوجه أنْ يستحى » .

وفى معنى حديث آخر يقول : « مَنْ بلغ الأربعين ولم يكُنْ خيره أكثر من شرِّه ، فليجهز نفسه - والعياذ بالله - لجهنم »[1] .

لماذا ؟ لأنك أخذتَ راحتك فى شبابك ، وأشبعتَ رغبتك ممّا تريد ، لكن إذا وافيتَ الأربعين فاستح أنْ تعصى الله بعدها ، واستحِ أن تؤجل التوبة وأنت لا تضمن عمرك بعدها .

وكلمة ﴿ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (١٥) ﴾ [الأحقاف] تعنى : أن العطل أو التقصير لم يكُنْ فى العقيدة ، إنما فى تنفيذ مطلوب العقيدة فى الأحكام .

﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ (١٦) ﴾

---

(١) أخرج أبو الفتح الأزدى من طريق جويبر عن الضحاك عن ابن عباس مرفوعاً : « من أتى عليه الأربعون سنة فلم يغلب خيره شره فليتجهز إلى النار » [ذكره الألوسى فى تفسيره الأحقاف ١٥] . وكذا ذكره السيوطى فى الدر المنثور . قال ابن الجوزى فى [الموضوعات] (١/١٧٨) : هذا حديث لا يصح عن رسول الله . وذكره العجلونى فى كشف الخفاء (٢٣٤٤) .

وكلمة ﴿أُوْلَـئِكَ .. (١٦)﴾ [الأحقاف] إشارة لمن سبق ذكرهم وأوصافهم ﴿الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا .. (١٦)﴾ [الأحقاف] المشهور عن الفعل تقبل أنه يتعدَّى بمَنْ ، كما جاء فى قول سيدنا إبراهيم : ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا .. (١٢٧)﴾ [البقرة]

وفى موضع آخر : ﴿وَهُوَ الَّذِى يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ .. (٢٥)﴾ [الشورى]

إذن : يتعدى مرة بـ (من) ومرة بـ (عن) ولكلٍّ معنى ، فقوله تعالى ﴿أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا .. (١٦)﴾ [الأحقاف] يعنى : أن التوبة تحمل عنك عبءَ المعاصى وثقلها ، لأنها تزحزحها عنك .

لذلك قال ﴿عَنْهُمْ .. (١٦)﴾ [الأحقاف] لأن مجىء حرف مكان حرف لا بدَّ أن له حكمة ، وأنه يضيف معنى لا يعطيه الحرف الآخر ، وسبق أنْ أوضحنا هذه المسألة فى قول الحق سبحانه : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ .. (٣٩)﴾ [إبراهيم] ورأينا كلّ المفسرين يقولون : (على) هنا بمعنى : مع الكِبَر .

وبتأمل الآية نجد (مع) حرفان و (على) ثلاثة أحرف ، فلماذا عدل القرآن عن (مع) وجاء بـ (على) ؟ كيف يترك السهل فى حرفين إلى الثلاثة ؟

ولما نتأمل مسألة كِبَر سيدنا إبراهيم نجد أن المعيّة التى تفيدها (مع) لا تكفى ، فالمراد حرف يعطى المعية المتغلّب عليها ، فالكِبَر موجود مع سيدنا إبراهيم ومصاحب له ، لكنه كِبَر مُتغلَّب عليه بقدرة الله .

فكأن طلاقة القدرة علَتْ على قانون الكبر ، وخرقتْ الناموس فجاء إسماعيل على هذا الكبر ، وهذا المعنى لا يقوم باستخدام (مع) بل (على) .

كذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ (٦) ﴾ [الرعد] فكأن الذنب يقتضى العقوبة ، لكن مغفرة الله علَتْ على العقوبة وتغلّبت عليها . إذن : حينما يستخدم حرفاً مكان حرف فلا بدَّ أنه يضيف معنىً لا يضيفه الحرف الأول .

إذن : ﴿ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا .. (١٦) ﴾ [الأحقاف] حملنا عنهم عبء ما كان قبل التوبة ، وفى موضع آخر يشرح الحق سبحانه هذا المعنى : ﴿ فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ .. (٧٠) ﴾ [الفرقان] حتى قال أحدهم : والله لقد أسفتُ أنِّى لم ارتكب الكبائر ، لأن الله كان سيُبدلها حسنات ، وهذا خطأ ، فمَنْ يدريك أنك ستعيش حتى تتوب ؟

وقوله : ﴿ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ .. (١٦) ﴾ [الأحقاف] أى : نعفو عنها ونتسامح ﴿ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ .. (١٦) ﴾ [الأحقاف] سبق أنْ قلنا : أصحاب الجنة يعنى بينهم وبينها مصاحبة أو صداقة ، أو أصحابها يعنى المالكين لها .

لكن هنا يقول ﴿ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ .. (١٦) ﴾ [الأحقاف] فكأن هؤلاء الذين نتحدث عنهم فى وسط الجنة ، وأهل الجنة محيطون بهم ، فهم فى المركز ، هذا الفهم جاء من معنى (فى) هنا ، لكن لماذا استحقّ هؤلاء أنْ يكونوا فى الوسط وفى المركز وأهل الجنة حولهم ؟

قالوا : لأن الذى أَلِفَ المعصية ثم يذهب إلى الطاعة تشقّ على نفسه بعد أنِ استهوى المعصية وارتاضَ عليها ، فهو يجاهد نفسه للاستمرار على الطاعة ، على خلاف مَنْ لم يُجرب المعصية ، فالطاعة عنده طبيعية لا تحتاج إلى مجاهدة كالأول ، لذلك يعاملهم الله بهذا التساهل وهذا الفضل فيُبدِّل سيئاتهم حسنات ، وهذا منتهى الكرم .

ثم يُطمئنهم الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِى كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾﴾[الأحقاف] فكأنهم لا يُصدِّقون أن الله يعاملهم بكلِّ هذا الفضل ، فيُذكِّرهم أن هذا وعد الله ، ووَعْد الله وعد صدق لا يُخلَف أبداً ، ولا يوجد مَنْ ينقضه أو يفسخ هذا الوعد .

والحق سبحانه يعطى عباده كلّ هذه التسهيلات والإغراءات ، فيقبل توبة التائبين ويعفو عن المسيئين ، ويُبدِّل سيئاتهم حسنات ، لا لنجاة التائب وحده ، وإنما لنجاة المجتمع كله ، فلو لم تشرع التوبة لشَقِىَ المجتمع بكلِّ عاصٍ سُدّ فى وجهه بابها ، ولاستشرى الشر وساد .

﴿وَالَّذِى قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾﴾

القرآن الكريم أعطانا عدة لقطات للوالدين مع الأولاد ، وهذه اللقطات تختلف باختلاف الأحوال ، ولأهمية هذه العلاقة بين الوالد

والولد قرنَ اللهُ الوصية بالوالدين بعبادته سبحانه ، وأعطاها نفس الأهمية والقداسة .

فقال سبحانه : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا .. (٢٣) ﴾ [الإسراء] لأن الوالد والولد هما الخلية الأساسية لبناء المجتمع ، فإذا صلحتْ صلُح المجتمع ، وإذا فسدتْ فسد المجتمع ، وصلاح هذه الخلية يقتضى منا أن نعلم منزلة الوالدين ، وأنهما السبب المباشر فى الوجود فلهما حَقُّ السَّببية فى الإيجاد ، يعنى : لولاهما ما وجد الولد .

وحين نبرهما ونحترمهما تكون دُرْبة لنا على تعظيم واحترام المُوجِد الأول سبحانه والأصل الأصيل فى المسألة .

لذلك جاءت هذه الوصية عامة ، لا فرق بين مؤمن وكافر ، فالحق يُوصى بالوالدين حتى إنْ كانا كافريْنِ ، لأنه تعالى ربُّ الجميع يتكفل بالجميع حياة ورزقاً وإقامة ، لأنه عبده وصَنْعته .

وقُلْنا : يجب أنْ نلحظ الفرق بين الألوهية والربوبية : فالربوبية عطاء وتربية ، والألوهية تكليف وتعبُّد بطاعة الأمر واجتناب النهى .

فهو أيضاً عطاء ، لكن عطاء تكليفى بافعل ولا تفعل ، عطاء لأن فائدته تعود على العبد ولا ينتفع الله منها بشىء ، ولا تزيده طاعة الطائعين صفةً لم تكُنْ له سبحانه ، ولا تسلبه معصية العاصين صفةً ثابتة له سبحانه .

فالله له صفات الكمال المطلق قبل أنْ يُوجد هذا الخلق ، لذلك نرى الإنسان حين يحزبه أمر لا يقدر عليه من أمور حياته يقول : يا رب ، فيدعو بصفة الربوبية يعنى يا رب ، يا من تتولى رعايتى وتربيتى خُذْ بيدى وأعنِّى .

لكن إذا أراد أنْ يستعين على أمر تكليفى لله تعالى يقول : يا الله ، يعنى يا إلهى ، يا مَنْ كلَّفتنى أعنِّى على طاعتك فيما كلَّفتنى .

إذن : الحكمة من التكليف لا تعود على الله إنما تعود على المكلَّف ، والحق سبحانه يريد مجتمعاً مؤمناً صالحاً يبنى ويُعمر ، ويكون على أحسن حال ، كما تحثّ ولدك الصغير على المذاكرة وتقول له : إنْ نجحت سأشترى لك عجلة أو بدلة ، فأنت تريد له الخير ولن تنتفع أنت بما ستشتريه له .

لذلك ورد فى الحديث القدسى : « يا عبادى ، إنكم لن تبلغوا نفعى فتنفعونى ، ولن تبلغوا ضُرِّى فتضرونى ، يا عبادى لو أن أولكم وآخركم ، وحيّكم وميّتكم ، وإنسكم وجنَّكم ، وشاهدكم وغائبكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ، ما زاد ذلك فى مُلكى شيئاً . ولو أن أولكم وآخركم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من مُلكى شيئاً .

يا عبادى لو أن أولكم وآخركم .. اجتمعوا فى صعيد[1] واحد ،

---

(١) الصعيد هى الأرض المستوية . وقال الشافعى : لا يقع اسم صعيد إلا على تراب ذى غبار فأما البطحاء الغليظة والرقيقة والكثيب الغليظ فلا يقع عليه اسم صعيد وإن خالطه تراب أو صعيد . [لسان العرب] .

فسألنى كلُّ واحد مسألته فأعطيتُها له ما نقص ذلك مما عندى إلا كما ينقص المخيط إذا أُدخلَ البحر .

ذلك أنِّى جواد ماجد ، عطائى كلام ، وعذابى كلام ، إنما أمرى لشىء إذا أردته أنْ أقول له : كُنْ فيكون »[1] إذن : حظ التكليف صلاح المكلف .

وقد أوضحنا هذه المسألة فى بيان معنى قوله تعالى : ﴿أُولَـٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ .. ﴿٥﴾﴾ [البقرة] فكأن الهدى دابة ومطيّة تحمل المهتدى وتُوصِّله إلى غايته التى يسعى إليها ، فالهدى ليس حِمْلاً وليس ثِقَلاً على صاحبه إنما مُعين له .

والآية التى معنا ﴿وَالَّذِى قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا .. ﴿١٧﴾﴾ [الأحقاف] تعطينا لقطة للوالدين حينما يكونان مؤمنين والولد غير مؤمن ، وتصور لنا حرص الوالدين على نجاة الولد ، كما رأينا مثلاً فى قصة سيدنا نوح وولده .

وهذه الآية نزلتْ فى عبد الرحمن بن أبى بكر[2] وكان أبواه قد أسلما ، وأبَى هو أنْ يسلم ، فكانا يدعوانه إلى الإيمان بالله والإيمان

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه (٢٤١٩) وابن ماجه فى سننه (٤٢٤٧) وأحمد فى مسنده (٢٠٤٠٥ ، ٢٠٥٦٠) من حديث أبى ذر رضى الله عنه . قال الترمذى : هذا حديث حسن .

(٢) يُكنى أبا عبد الله . وقيل : يكنى أبا محمد ، وهو شقيق عائشة زوجة النبى فأمه هى أم رومان بنت الحارث . شهد بدراً وأحداً مع قومه كافراً . صحب النبى فى هدنة الحديبية . قال أهل السيرة : كان اسمه عبد الكعبة فغيَّر رسول الله اسمه وسماه عبد الرحمن . [الاستيعاب فى معرفة الأصحاب ١/٢٤٨] .

بالبعث ، فيقول لهما : أين فلان ؟ وأين فلان ؟ ممَّن ماتوا فى السابقين[١] .

ثم أسلم عبد الرحمن بعد ذلك وحَسُن إسلامه . وإنْ كانت هناك روايات عن السيدة عائشة أنها نفَتْ ذلك ، وقالت : إنما نزلت الآية فى شخص آخر وذكرتْ اسمه[٢] .

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِى قَالَ لِوَالِدَيْهِ .. ﴿١٧﴾ ﴾ [الأحقاف] أى : اذكر الذى قال لوالديه ﴿ أُفٍّ لَّكُمَا .. ﴿١٧﴾ ﴾ [الأحقاف] و (أفّ) اسم فعل

---

(١) قوْل أنها نزلت فى عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق . قاله ابن عباس والسدى وأبو العالية ومجاهد . وقيل : بل هو عبد الله بن أبى بكر . نقله القرطبى فى تفسيره (٦٢٤٦/٩) قال ابن كثير فى تفسيره (١٥٨/٤) : « من زعم أنها نزلت فى عبد الرحمن بن أبى بكر فقوله ضعيف لأن عبد الرحمن بن أبى بكر رضى الله عنهما أسلم بعد ذلك وحسُن إسلامه وكان من خيار أهل زمانه » .

وقال الزجاج : كيف يقال نزلت فى عبد الرحمن قبل إسلامه والله عز وجل يقول بعدها : ﴿ أُوْلَـٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِى أُمَمٍ .. ﴿١٨﴾ ﴾ [الأحقاف] أى العذاب ومن ضرورته عدم الإيمان ، وعبد الرحمن من أفاضل المؤمنين ، فالصحيح أنها نزلت فى عبد كافر عاق لوالديه .

(٢) قال عبد الله بن المدينى : إنى لفى المسجد حين خطب مروان فقال : إن الله تعالى قد أرى أمير المؤمنين (يقصد معاوية) فى يزيد رأياً حسناً ، وإن يستخلفه فقد استخلف أبو بكر عمر فقال عبد الرحمن بن أبى بكر : أهرقلية ؟ إن أبا بكر والله ما جعلها فى أحد من ولده وأحد من أهل بيته ولا جعلها فى معاوية إلا رحمة وكرامة لولده . فقال مروان : ألست الذى قال لوالديه : أف لكما ؟ فقال عبد الرحمن : ألست ابن اللعين الذى لعن رسول الله ﷺ أباك . وسمعتهما عائشة رضى الله عنها فقالت : يا مروان أنت القائل لعبد الرحمن كذا وكذا ، كذبتَ ما فيه نزلت ولكن نزلت فى فلان بن فلان (وفى رواية : ولو شئت أن أسمى الذى أنزلت فيه لسمَّيته) . ثم انتحب مروان ثم نزل عن المنبر حتى أتى باب حجرتها فجعل يكلمها حتى انصرف . [ذكره ابن كثير فى تفسيره ١٥٩/٤] .

مضارع بمعنى أتضجر ، يقولون : فلان يتأفّف . يعنى : يقول أف ويُظهر الضيق والضجر من شىء قذر أو مُنتن أو فعل لا يعجبك .

وقوله ﴿لَّكُمَا﴾ دلَّ على غضبه منهما لأنها يُلحان عليه .

فقال ﴿أُفٍّ لَّكُمَا .. (١٧)﴾ [الأحقاف] أنتما ليس بعيداً عنكما .

لكن لماذا يتأفف ؟ قالوا : لأن الوالدين يُلحان عليه أنْ يؤمن وهو لا يريد الإيمان ، فلما أكثرا عليه تأفّف ، وقال : ﴿أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ .. (١٧)﴾ [الأحقاف] يعنى : أُبعث بعد الموت ، والهمزة هنا استفهام للتعجب أو الإنكار فهو ينكر البعث .

ثم يأتى بالدليل الذى يؤيد وجهة نظره ﴿وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي .. (١٧)﴾ [الأحقاف] أى : مضتْ القرون ومات كثيرون ممَّنْ سبق ، ولم أرَ أحداً منهم قام من قبره .

لكن من قال أن البعث سيكون فى الدنيا ، البعث موعده الآخرة بعد أنْ يموت الجميع ولا يبقى إلا الله .

لكن الوالدين بعد أنْ سمعا هذا الكلام ، ولمسَا هذا التصميم على الكفر لم يجدا مُنقذاً سوى الله فتوجها إليه : ﴿وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ .. (١٧)﴾ [الأحقاف]

وهذا تصوير لطبيعة الوالدين وشدة حرصهما على نجاة الابن ، فهما يتضرعان ويُلحان على الابن أن يؤمن ، وأنْ يذوق حلاوة الإيمان التى ذاقاها .

وكلمة ﴿وَيْلَكَ آمِنْ .. (١٧)﴾ [الأحقاف] حَثٌّ له على أنْ يؤمن ، أو الويل لك إنْ لم تؤمن ، ونلاحظ هنا أن الفعل يستغيث يتعدى بالباء

فيقول : يستغيث فلان بالله ، فلماذا حذف الباء وعدَّى الفعل بنفسه فقال : ﴿ يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ .. (١٧) ﴾ [الأحقاف]

قالوا : هذا يدل على أنهما أمام أمر صعب ، وأمام قلب قاس متحجر معاند ، لا يقبل الدعوة ولا يستجيب لنداء الوالدين ، ولا يُقدِّر مشاعرهما .

لذا توجَّها إلى الله مباشرة أنْ يهدى هذا الولد ، وأنْ يشرح صدره ، وأن يلين هذا الطبع القاسى ، ليسمع ويطيع وينجو ، لذلك قلنا : لا تجد إنساناً يحب لك الخير كما يحبه لك والدك ، يحب أنْ تكون أحسن حالاً منه ، وهذه لا تتوافر إلا فى الوالد والولد .

إذن : أمام هذا العناد ليس أمام الوالدين إلا التوجّه إلى الله مُقلِّب القلوب ومُسبِّب الأسباب ، فما ضاقتْ به أسباب الخَلْق دَعْهُ للخالق سبحانه ، فالقلوب بين أصبعين من أصابعه سبحانه يُقلِّبها كيف يشاء .

وسبق أن قلنا ذلك فى قصة أم موسى لما قال الله لها : ﴿ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي .. (٧) ﴾ [القصص] بالله أتقبل أم تخاف على ولدها أنْ تلقيه فى البحر ؟

تقبل أنْ تنجيه من موت مظنون بموت مُحقَّق ؟ لكنها آمنَتْ وصدقتْ ونفذت ، لأن الله قلَب قلبها ، ووارد الرحمن لا يعارضه ولا يعطله وارد الشيطان ، لذلك قال تعالى : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ .. (٢٤) ﴾ [الأنفال]

وهذه المسألة حدثتْ مع فرعون ، فحال اللهُ بينه وبين قلبه وما

يريد ، فهو يبحث عن الأطفال ويقتلهم ، ومع ذلك جاءه طفل فى صندوق مُلقى فى البحر ، وعلى هيئة مريبة تدعو إلى الشك ، ومع ذلك استقبله واحتضنه وربَّاه وصدَّق امرأته لما قالتْ عن الولد ﴿ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ .. (٩) ﴾ [القصص]

إذن : هذا غباء ، ممَّنْ ؟ من فرعون الذى ادَّعى الألوهية وقال للناس : أنا ربكم الأعلى .

ثم لما نتأمل القصة نجد دلالات أخرى لغباء هذا الرجل ، فقد قال له السحرة : إن زوال مُلْكك سيكون على يد طفل يُولَد من بنى إسرائيل ، فما دُمْت قد صدَّقت بهذه النبوءة ، فلماذا تقتل الأطفال ؟

إذن : أقدار الله لا بدَّ أنْ تتحقق ، وأنْ يُهيء لها أسبابها ، وهذا هو معنى ﴿ وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ .. (١٧) ﴾[الأحقاف] يقولان : يارب أنت قادر على كل شيء وأنت فوق الأسباب ، وليس لنا حيلة مع هذا الولد ويعز علينا أنْ نتركه على كفره فيهلك .

وقد علّمنا سيدنا رسول الله ﷺ أن نلجأ إلي الله ، فكان إذا حزبه أمر يعنى : غلبه وضاقتْ عنه أسبابه قام إلى الصلاة[1] ليقف بين يدى ربه ، فيحلّ له كل شَاقٍّ ويُهوِّن كلَّ عسير .

وكلمة ﴿ آمِنْ ﴾ يعنى : انطق بالشهادة واعترف بأن الله إله واحد . ومادة (أمن) لها فى القرآن معان متعددة ، تقول : آمنتُ بالله . وهذا الفعل مُتعدٍّ بالباء يعنى : شهدتُ وصدّقتُ ، وآمنتُ له :

---

(١) عن حذيفة رضى الله عنه قال : « كان النبى ﷺ إذا حزبه أمر صلى » أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٥/٣٨٨) وأبو داود فى سننه (١٣١٩) وحزبه أمر : أصابه . أى نزل به هم أو أصابه غم واشتد عليه .

صدقته كما فى قوله تعالى : ﴿وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا .. (١٧)﴾ [يوسف] يعنى : مُصدِّق ، وأمنته يعنى أعطيته الأمان .

وقولهما : ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ .. (١٧)﴾ [الأحقاف] يؤكدان له هذه الحقيقة ، وما دام حقاً فسوف يحدث ولا مفرَّ منه ، لأن الله إله واحد لا شريك له ، ولا أحدَ ينقض هذا الوعد أو يعارضه ، وهو سبحانه القادر القوى الذى يملك إنفاذ ما وعد به .

لذلك قال تعالى فى شأن الساعة : ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١)﴾ [النحل] هكذا بالفعل الماضى ، لأن وَعْد الله يستوى فيه الماضى والحاضر والمستقبل ، فهو سبحانه خالق الزمن ومالكه والمتصرّف فيه ، فيعبر عن المستقبل بالماضى لأنه يعلم أنه لا توجد قوة تعارضه .

إذن : فالقيامة التى ستأتى فى المستقبل أتتْ بالفعل وهى حادثة لا شكَّ فيها ، لذلك يتصرف فى الكون بشهادته سبحانه لنفسه ، فأول مَنْ آمن آمنَ اللهُ بذاته سبحانه ، فقال : ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ .. (١٨)﴾ [آل عمران]

فقد شهد الله لذاته قبل أنْ يشهد بذلك أحدٌ من خلقه ، وكأنه سبحانه بهذه الشهادة يقبل على كل شىء يريده وهو يعلم أنه لن يتخلف ، وما هى إلا كُنْ فيكون .

كذلك سيدنا رسول الله يشهد لنفسه بالرسالة قبل أنْ يشهد بها أحد ، ففى رواية أن سيدنا جابر بن عبد الله كان عليه دَيْن لرجل يهودى ، ووعده حين يثمر النخل أنْ يجز نخله ويقضيه دَيْنه ، فلما جاء أوان الثمر (خاب) ولم يُعط الثمر المرجو منه ، وعجز جابر عن السداد .

فذهب بعض إخوان جابر وحكوا القصة لرسول الله ﷺ ، فبعث لليهودى وقال له : أنظِرْ جابراً حتى يقضى ما عليه . فقال : لا يا أبا القاسم ، فأعاد الرسول عليه : أنظِرْ جابراً . فقال : لا يا أبا القاسم .

فتركه رسول الله وذهب إلى بستان جابر ومرَّ خلاله ، ثم قال : أين عريشك[1] يا جابر ؟ فأخذ جابر رسول الله وأجلسه فى عريشه ، فقال : دَعْنى هنا يا جابر واذهب فجُذَّ واقضِ ما عليك ، فذهب جابر إلى نخله فجذَّ منه حتى قضى ما عليه وبقى له ما يكفيه ، فجاء بطبق من الرطب إلى رسول الله وقال له : يا رسول الله قضيتُ ما علىَّ وبقى لى ما لم يكُنْ يبقى فى أىّ عام سابق ، عندها ضحك سيدنا رسول الله وقال : أشهد أنى رسول الله[2] .

فقوله تعالى : ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ .. (١٧)﴾[الأحقاف] يعنى : صادق لا يتخلف ، والحق هو الشىء الثابت الذى لا يتغير ، لأن الله هو الذى قضاه وحكم به ، فلا أحدَ يُغيره ، لذلك يقول سبحانه : ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً (٢٣)﴾ [الفتح]

وقوله تعالى : ﴿فَيَقُولُ مَا هَـٰذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ (١٧)﴾[الأحقاف]

أى : يقول هذا الولد المعاند لوالديه ، وهما يدعوانه للإيمان بالبعث والنشور : إن ما تقولانه ما هو إلا أساطير الأولين ، وهى

---

(١) العريش : ما يُعرَّش من الكروم وغير ذلك . يقال : عروشها أبنيتها ، وقال فى لسان العرب : العريش شبه الهودج تقعد فيه المرأة على بعير وليس به .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٠٢٣) من حديث جابر بن عبد الله رضى الله عنه . وفيه أن رسول الله ﷺ قال : « أشهد أنِّى رسول الله » .

أكاذيبهم وقصصهم التى جاءتْ فى كتبهم ، يعنى : ما تدعوانى إليه كذب أشبه بالأساطير والخرافات .

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ١٨ ﴾

نلاحظ أن الكلام كان فى الآية السابقة عن مفرد ، وهو الذى قال لوالديه (أفٍّ لكما) لكن هنا يشير إليه الحق سبحانه بصيغة الجمع ﴿ أُوْلَـئِكَ .. ١٨ ﴾ [الأحقاف] فيأتى بالقرار ويخبر عنه ﴿ أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ .. ١٨ ﴾ [الأحقاف]

كأن (الذى) لا يفهم منها المفرد إنما يفهم منها الجمع ، كما فى قوله تعالى :﴿ وَالْعَصْرِ ١ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ٢ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا .. ٣ ﴾ [العصر] فاستثنى الجمع من المفرد .

وقالوا فى هذه الآية ما قالوا فى الآية السابقة . أى : أنها نزلت فى عبد الرحمن بن أبى بكر ، وهذا القول لا يستقيم مع معنى الآية لأن سيدنا عبد الرحمن أسلم وحسُن إسلامه ، وهذه الآية تتحدث عمَّنْ حَقَّ عليهم العذاب . إذن : نزلت فى شخص آخر غير عبد الرحمن .

وقد ورد لهذه المسألة قصة فى كتب التاريخ ، فالذى قال أنها نزلت فى عبد الرحمن هو مروان بن الحكم ، وكان أميراً على المدينة .

فلما بايع معاوية ابنه يزيد بالخلافة طلب من مروان أنْ يأخذ البيعة ليزيد ، فاعترض على ذلك عبد الرحمن بن أبى بكر .

وقال : أجعلتموها هرقلية ؟ يعنى : ملكية يخلف الولدُ والده ؟ فقال : اسكت يا هذا ، ثم قال : أتعلمون من هذا ؟ هذا الذى قال الله فيه ﴿ وَالَّذِى قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا .. ﴿١٧﴾ ﴾ [الأحقاف]

وبلغتْ هذه المقولة السيدة عائشة رضى الله عنها فقالت : والله ما هو ، ولو شئتُ أنْ أُسمِّى الذى قيلتْ فيه لقُلْته ، ولكن قولوا لمروان : إن الله قد لعنك فى ظهر أبيك .

ذلك لأن الحكمَ بنَ العاص كان يوماً يُقلِّد رسول الله فى مشيته استهزاءً به ، فالتفت النبى ﷺ فرآه[1] ، فأشار إليه بيده فنُفى إلى الطائف ، وبعد العزِّ الذى كان فيه فى المدينة صار يرعى الغنم ، إلى أنْ جاء سيدنا عثمان وتشفَّع له عند رسول الله فأذن له .

ولكن الصحابة قالوا : لم نسمع من الرسول ، فقال عثمان : أنا سمعته .

ومعنى ﴿ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ .. ﴿١٨﴾ ﴾ [الأحقاف] يعنى : وجب وثبت لهم العذاب الذى حذرناهم منه ﴿ فِى أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم .. ﴿١٨﴾ ﴾ [الأحقاف] يعنى : مضتْ وذهبت ﴿ مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿١٨﴾ ﴾ [الأحقاف] لأن الله قال عن المؤمنين ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ﴾ [المؤمنون]

---

(١) ذكره الرازى فى تفسير (مفاتيح الغيب) فى تفسير آية ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ ﴾ [الهمزة] وذكره أبو حامد الغزالى فى إحياء علوم الدين أن الحكم بن العاص حكى مشية رسول الله مستهزئاً به فقال : كذلك كُنْ . فلم يزل يرتعش حتى مات » . قال الحافظ العراقى : « أخرجه البيهقى فى الدلائل من حديث هند بن خديج بإسناد جيد ، وللحاكم فى المستدرك من حديث عبد الرحمن بن أبى بكر نحوه ولم يسم الحكم وقال : صحيح الإسناد » .

ففى المقابل ، وخسر الكافرون المكذبون .

وهذه الآية تدل على أن الجن أيضاً مكلّف ، ومنهم الطائع والعاصى ، والمؤمن والكافر ، لذلك قال فى سورة الجن : ﴿ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ[1] فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا (١٥) ﴾ [الجن] إذن : سيُعذَّبون بما يناسب طبيعتهم .

﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا ۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١٩) ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلِكُلٍّ .. (١٩) ﴾ [الأحقاف] لكلّ من الصنفين : المؤمنين الذى سبق ذكرهم فى قوله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا .. (٣٠) ﴾ [فصلت] والكافرين الذين قال الله عنهم : ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ .. (١٨) ﴾ [الأحقاف]

فلكُلٍّ من المؤمن والكافر والطائع والعاصى ، كُلٌّ له جزاء على قدر درجته ومنزلته ﴿ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا .. (١٩) ﴾ [الأحقاف]

ومعلوم أن الجنة درجات ، وأن النار - والعياذ بالله - دركات ، لذلك قال تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ .. (١٤٥) ﴾ [النساء] لكن هنا جعلها درجات للمؤمنين وللكافرين ، فكيف ؟

قالوا : هذا نوع من السخرية والاستهزاء بهم والتأنيب لهم ، كما فى قوله سبحانه : ﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٤) ﴾ [الانشقاق]

---

(١) قسط : ظلم أو عدل ، من الأضداد وتُفهم بالقرائن والسياق ، واستعمله القرآن بمعنى ظلم وجار فى قوله ﴿ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا (١٥) ﴾ [الجن] . [القاموس القويم ١١٦/٢] .

ومعلوم أن العذاب لا يُبشَّر به ، البشارة لا تكون إلا بشيء سارّ مفرح . إذن : هذا تهكُّم كما فى ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (٤٩)﴾ [الدخان] وهو فى هذا الموقف مُهان مُعذَّب مُحتقر ، أو : أنه يسميها (درجات) لإغاظتهم ليزدادوا تحسُّراً وألماً .

وقوله تعالى : ﴿وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ .. (١٩)﴾ [الأحقاف] من الوفاء ، وهو أنْ تعطى الجزاء كاملاً غير منقوص كما تقول : وفيت فلاناً دينه . يعنى : أعطيتُه كاملاً ﴿وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (١٩)﴾ [الأحقاف] يعنى : لا ينقصون من أجورهم شيئاً .

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ (٢٠)﴾

التقدير هنا : واذكر يا محمد يوم يُعرض الذين كفروا على النار ، فساعة ترى الظرف فابحث عن الحدث الذى فيه ، لأن الزمن لا يُمدح ولا يُذمُّ لذاته ، إنما بحسب الفعل الذى يحدث فيه .

والحدث هنا أنْ يُعرض الذين كفروا على النار ، لكن مَنْ يُعرض على مَنْ ؟ النار غير عاقل والكافرون عُقلاء ، فالنار تُعرض عليهم كما تقول : عرضتُ القماش على المشترى ، لكن يوم القيامة سيتبين لهم أن النار عاقلة وهم الذين سيُعرضون عليها .

واقرأ :﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ (٣٠)﴾[ق]

وثبت فى الحديث الشريف أنها تشتاق لأهلها من الكافرين والعاصين وأنها ستتكلم وتنطق [(١)].

والحق سبحانه يخاطب ما شاء بما شاء . إذن : لا نفهم هذه الآية بقوانين البشر ، لأن لله قوانين أخرى مع الأشياء ، لذلك لو علّمها الله لأحد من خَلْقه لعلمها وتعامل بها ، كما رأينا فى قصة سيدنا سليمان عليه السلام ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ .. (٧٩)﴾ [الأنبياء]

فكان يفهم لغة الحيوان والطير ، لذلك لما سمع النملة وفهم منها تبسَّم ضاحكاً من قولها ، وشكر المنعم عليه بهذه النعمة .

ومنهم من قال : إن فى الآية قلباً كما تقول : عرضتُ الحوض على الناقة ، والواقع أنك تعرض الناقة على الحوض لتشرب منه .

وقوله تعالى : ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا .. (٢٠)﴾ [الأحقاف] أى : يقال لهم هذا الكلام فى الآخرة بعد أنْ تقوم الساعة ، لكن هناك آية أخرى يظن البعض أنها تتعارض مع هذه .

وهى قوله تعالى : ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ (٤٦)﴾ [غافر] ففهموا منها أن العرض يكون فى الدنيا لأنه عطف عليها بقوله ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ .. (٤٦)﴾ [غافر]

---

(١) عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « ثلاثة تشتاق إليهم الجنة : على وعمار وسلمان » . أخرجه أبو يعلى الموصلى فى مسنده (٢٧١٦ ، ٢٧١٧) وكذا أبو نعيم فى معرفة الصحابة (٢٩٥٥) .

لكن المتأمل فى هذه الآية يجد أن هذا العرض ليس فى الدنيا ولا فى الآخرة ، إنما فى مرحلة البرزخ ، كيف ؟ لأن الغدو والعشى ناشىء من حركة الشمس ووجود الليل والنهار ، والآخرة ليس فيها شىء من هذا .

فالآخرة ليس فيها شمس ولا قمر ، ولا ليل ولا نهار ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَـٰوَاتُ .. (٤٨)﴾ [إبراهيم] فنحن فى الدنيا نعيش بالأسباب ، أما فى الآخرة فنعيش بالمسبِّب سبحانه الشمس تُنير لنا فى الدنيا ، أما الآخرة ﴿وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا .. (٦٩)﴾ [الزمر]

إذن : العرض هنا فى البرزخ ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ (٤٦)﴾ [غافر] فالعرض ليس فى الآخرة بل الدخول ، فالعرض فى الأولى غير العرض فى الثانية ، وما يدريك أنهم قبل أنْ يدخلوا النار يُعرضون عليها ، لأن الصراط مضروب على متن جهنم ، فيُعرضون على النار قبل أنْ يدخلوها .

وقوله تعالى : ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا .. (٢٠)﴾ [الأحقاف] هذه الآية حلَّتْ لنا إشكالاً ، حيث نرى أهل الكفر والإلحاد أكثر منا مالاً وزينة فى الدنيا ، والبعض يسأل عن المخترعين والمكتشفين من غير المسلمين الذين خدموا البشرية بعلومهم ، هل لهم جزاء على ذلك ؟

الجواب هنا ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا .. (٢٠)﴾ [الأحقاف] ولم يبق لهم نصيب فى الآخرة ، فهذه سنة الله التى لا تتبدل ، فالله

تعالى أعطى الأسباب للمؤمنين وللكافرين .

فمَنْ أحسن فى الأسباب لم يُحرم ثمرة إحسانه . حتى لو كان كافراً ، ومَنْ قعد وتخاذل حُرم ولو كان مؤمناً ، لأن هذا عطاء الربوبية .

والذين قدَّموا للبشرية هذا العطاء وخدموها هذه الخدمة ، أكان فى بالهم الله ؟ أبداً كان فى بالهم الحضارة والتقدم وخدمة التاريخ والإنسانية ، وقد أخذوا منها جزاءهم سمعة وصيتاً وتخليداً لذكراهم ، أقاموا لهم التماثيل وألَّفوا فيهم الكتب .

إذن : أخذوا أجورهم ممَّنْ عملوا لهم وانتهت المسألة .

لذلك يقول تعالى فى وصف حال هؤلاء : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩) ﴾ [النور]

فوجىء بإله يحاسبه لم يكُنْ فى باله ساعة العمل ، هذا حال الكافر ، أما المؤمن فيعمل العمل فى الدنيا وعَيْنه على الآخرة .

يُروى أن سيدنا رسول الله مرّ على أهل الصُّفَّة[1] فوجدهم يلبسون الملابس المخرَّقة ولا يجدون ما يُرقِّعونها به ، فقال لهم : أىُّ أيامكم خير ؟ أهذا اليوم أو يوم يُغدى عليكم بجفَانٍ[2] ويُراح عليكم بجفان ، وتغدون فى حلة وتروحون فى حُلة أخرى ، وعلى أبوابكم

---

(١) الصُّفَّة : موضع مظلل فى مسجد المدينة كان يأوى إليه المساكين . والصُّفة : الظلّة . [لسان العرب – مادة : صفف] . وكان من أهل الصفة : أبو هريرة .

(٢) الجفان : جمع جفنة وهى القصعة الكبيرة جداً . [القاموس القويم مادة : جفن] .

ستائر مثل ستائر الكعبة[١] .

وسيدنا عمر بن عبد العزيز كان قبل الخلافة مشهوراً بأنه الفتى المدلَّل الذى يتقلب فى النعيم ليل نهار ، حتى إنه كان يلبس الحرير ، وكان الخدم الذين يغسلون له ملابسه يأخذون من الناس رشوة ليغسلوا ملابسهم فى الماء الذى غسل فيه ثياب عمر لكثرة ما بها من العطر والطيب .

فلما تولى الخلافة زهد فى هذا النعيم وعاش حياة الزهد والتقشف ، وارتدى الثياب الخشنة ، فلما سألوه عن ذلك قال : والله لو شئتُ لكنتُ أطيبكم طعاماً وأحسنكم ثياباً ، لكنى أستبقى طيباتى للآخرة[٢] ، وإن لى نفساً توَّاقة - يعنى : عندها طموح للأحسن -

---

(١) أخرجه بنحوه الطبرانى فى المعجم الكبير (٨٠٨٦) عن طلحة بن عمرو قال : كان الرجل إذا قدم على رسول الله ﷺ فلم يكن له بالمدينة عريف ينزل عليه نزل مع أصحاب الصُّفة وكان لى بها قرناء وكان يجرى علينا من رسول الله كل يوم بين اثنين مدان من تمر ، فبينما رسول الله فى بعض الصلوات إذ ناداه مناد من أصحابه : يا رسول الله أحرق التمر بطوننا وتحرقت عنا الحتف ، فلما قضى رسول الله قام فحمد الله وأثنى عليه ثم ذكر ما لقى من قومه من الشدة . فكنت أنا وصاحبى بضعة عشر يوماً ما لنا طعام إلا البرير حتى قدمنا على إخواننا من الأنصار فواسونا فى طعامهم وعظيم طعامهم التمر والذى لا إله إلا هو لو أجد لكم الخبز واللحم لأطعمتكموه وإنه لعله أن تدركوا زماناً أو من أدركه منكم يلبسون فيه مثل ستار الكعبة يغدى عليكم ويُراح بالجفان » وانظر أيضاً كنز العمال (٦٢٢٦ - ٦٢٣٦) .

(٢) هذا القول مذكور فى المصادر والمراجع منسوباً لعمر بن الخطاب وليس ابن عبد العزيز . نسبه إليه الطبرى والقرطبى والرازى والنسفى والنيسابورى والزمخشرى والسيوطى وأبو بكر الجزائرى والجصاص كلهم فى تفاسيرهم .

تاقتْ للإمارة ، فلما نلْتها تاقتْ للخلافة ، فلما نلتها تاقت للجنة[١] .

لذلك رُوِىَ عن السيدة عائشة رضى الله عنها أنها قالتْ : كان يمرُّ الهلال ثم يمر الهلال ، ثم يمر الهلال . يعنى : ثلاثة أشهر ما يُوقد فى بيت محمد نار . قيل : فما طعامكم ؟ قالت : الأسودان الماء والتمر[٢] .

إلا أنه قد كان لرسول الله ﷺ جيران من الأنصار كانت لهم منائح ، وكانوا يمنحون رسول الله ﷺ من ألبانهم فيسقينا . إذن : كان بيت سيدنا رسول الله نموذجاً ومثالاً وأُسْوة للفقراء .

وقوله ﴿ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا .. (٢٠) ﴾ [الأحقاف] بالله ساعة تفكر فى معنى كلمة الدنيا ، هل تجد لها وصفا أدنى وأقل من هذا ؟ وساعة تسمع الدنيا لا بد أنْ تتذكر المقابل ، وأن هناك حياة مقابلة تُوصف بأنها العليا ، وهى التى فيها الجزاء .

﴿ فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ .. (٢٠) ﴾ [الأحقاف] أى : يوم القيامة تُجزون على أعمالكم عذاب الهون . يعنى : الهوان والذلة ، لأنكم استكبرتم فى الدنيا عن قبول الحق .

ومن الهُون هذه أُخِذتْ كلمة (الهون) ، وهو الآلة التى ندقُّ فيها

---

(١) ذكره أبو الفرج الأصفهانى فى كتابه (الأغانى) أن عمر بن عبد العزيز قال لِدُكَيْن : إن نفسى لم تنل شيئاً قط إلا تاقت لما هو فوقه ، وقد نلت غاية الدنيا فنفسى تتوق إلى الآخرة ، والله ما رزأت من أموال الناس شيئاً ولا عندى إلا ألف درهم فخذ نصفها . وكذلك ابن حمدون فى التذكرة الحمدونية ، وابن قتيبة الدينورى فى (الشعر والشعراء) فى فصل (دكين الراجز)

(٢) حديث صحيح متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٣٧٩ ، ٥٩٧٨) وكذا مسلم فى صحيحه (٥٢٨٢) من حديث عائشة رضى الله عنها .

الأشياء فى المطبخ ، فهو آلة الطحن والدقّ وسحق المادة التى تُوضع فيه .

فكأن العذاب الذى سيلاقونه سيسحق كبرياءهم ويجعلهم أذلةً مُهانين ﴿ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ .. (٢٠) ﴾ [الأحقاف] يعنى : بسبب استكباركم وتعاليكم عن قبول الحق ﴿ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ .. (٢٠) ﴾ [الأحقاف] دل على أن هناك استكباراً بالحق ، وهو أنْ تتكبَّر على المتكبر ؛ لذلك قيل : الكبر على أهل الكبر صدقة[١] .

لذلك كان سيدنا حمزة فى الحرب يرتدى عصابةَ الموت ، وهى عصابة حمراء ويرفع سيفه ، ثم يسير بين الصفوف يتبختر مزْهُواً بنفسه ، فنظر إليه سيدنا رسول الله ﷺ وقال : هذه مِشْية يبغضها الله إلا فى هذا الموقف[٢] . وقال : رحم الله امرءاً أبدى لهم من نفسه قوة[٣] .

---

(١) مما ذكره ابن شرف القيروانى فى (رسائل الانتقاد ١/ ٩) : « فعامل هذا الصنف بعطفك عنهم للعطف ورفعك عليهم الأنف وأعرض عنهم بالفكر والذكر ، كبراً وإن لم تكن من أهل الكبر » . أما من يأخذه على أنه حديث فليس بصحيح .

(٢) ما وجدته فى هذا أن رسول الله ﷺ قال هذه العبارة فى حق أبى دجانة وليس حمزة ، فإن أبا دجانة أعلم رأسه بعصابة حمراء يوم أُحُد فنظر إليه رسول الله ﷺ وهو مختال فى مشيته بين الصفين فقال : « إنها مشية يبغضها الله إلا فى هذا الموضع » [أخرجه الطبرانى فى معجمه الكبير ٦٣٨٨] وكذا أبو نعيم فى معرفة الصحابة (٣٢٢٠) .

(٣) قوله ﷺ هذا كان فى أول عمرة اعتمرها رسول الله هو وأصحابه بعد أن صُدّ عن مكة العام الذى قبله وكان صلح الحديبية . قال ابن إسحاق : حدثنى من لا أتهم عن عبد الله بن عباس قال : صفوا (أى المشركين) له عند دار الندوة لينظروا إليه وإلى أصحابه ، فلما دخل رسول الله ﷺ المسجد اضطبع بردائه وأخرج عضده اليمنى ثم قال : « رحم الله امرءاً أراهم اليوم من نفسه قوة » ثم استلم الركن ثم خرج يهرول ويهرول أصحابه معه . [السيرة النبوية لابن كثير ٤/ ٤٣٠] وفى سبل الهدى والرشاد (٥/ ١٩٢) والسهيلى فى الروض الأُنُف (٤/ ١١٣) .

ونفهم من آيات القرآن الكريم أن المؤمن مِنْ وصفه فى القرآن أنه غير مطبوع على طبع واحد ولا قالب واحد ، إنما الموقف الذى يعيشه هو الذى يملى عليه الطبع المناسب للموقف .

واقرأ : ﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ .. (٢٩)﴾ [الفتح] وقال : ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ .. (٥٤)﴾ [المائدة]

إذن : هو عزيز فى موقف ، وذليل فى موقف آخر ، شديد فى موقف ، ورحيم فى موقف آخر ، فهو يجمع بين المتناقضيْن لأن المقام مختلف .

وقوله : ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ (٢٠)﴾ [الأحقاف] إذن : هناك استكبار وهناك فسق ، الاستكبار : التعالى عن قبول الحق ، والفسق : من فسقَتْ الرُّطبة يعنى : خرجت عن قشرتها .

والبلح له فى استوائه أعمار ، فلما يكتمل الحجم يبدأ اللون أحمر أو أصفر ثم يرطب وتكون له قشرة ، فإذا كان فى بيئة جافة جَمُدَ وجَفّ ولصقتْ القشرة فى لحم البلحة ، وهذا أجود أنواع التمر .

فمعنى الفسق هنا يعنى الخروج عن وعاء الطاعة ، ولما تتأمل الاستكبار والفسق تجد أنهما يجمعان بين عمل القلب وعمل الجوارح .

فالإنسان له قلبٌ وقالب ، القلب محلُّ الأسرار والغيبيات ، ومحل الإخلاص أو الرياء ، ومحلُّ التواضع أو التعالى ، فالاستكبار من أعمال القلب ، قال تعالى : ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا .. (١٤)﴾ [النمل]

أما الفسق فهو الخروج عن الطاعة التى هى عمل الجوارح .

﴿ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ (١) إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ (٢) وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٢١) ﴾

قوله تعالى ﴿ وَاذْكُرْ .. (٢١) ﴾ [الأحقاف] أى : اذكر يا محمد ، كأن هذا الذكر جاء لتذكير رسول الله بمواقف إخوانه من الرسل فى موكب الإيمان ، يعنى : انظر لمَنْ سبقك منهم ولما تحمّل فى سبيل دعوته ، فأنت لستَ بدعاً فى الرسل .

نعم تحمّلوا المشقة والأذى ، لكن صدق اللهُ وعده بنُصْرتهم فى النهاية ، لذلك تلاحظ على أسلوب القرآن تعدُّد القصة الواحدة بتعدُّد الأحداث التى تمرُّ بالرسول ، يقول تعالى : ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ .. (١٢٠) ﴾ [هود]

فكلّما حدث لرسول الله أمر مع قومه يُذكِّره الله بموقف من مواقف الرسل السابقين ليُطمئنه وليُثبِّت فؤاده على الحق ، وإذا كان كل رسول يتعرض للأذى على قدر مهمته فلا شكَّ أنك ستكون أشدَّ

---

(١) أخا عاد : هو هود عليه السلام بعثه الله إلى عاد الأولى وكانوا يسكنون الأحقاف . وقد ذكر القرطبى فى تفسيره (٦٢٥١/٩) : « هو هود بن عبد الله بن رباح عليه السلام ، كان أخاهم فى النسب لا فى الدين » .

(٢) الأحقاف جمع حِقف وهو الجبل من الرمال . قاله ابن زيد . وقال عكرمة : الأحقاف الجبل والغار . وقال على بن أبى طالب : الأحقاف وادٍ بحضرموت . وقال قتادة : ذكر لنا أن عاداً كانوا حياً باليمن أهل رمل مشرفين على البحر بأرض يقال لها الشحر . [تفسير ابن كثير ١٦٠/٤] .

الرسل إيذاء لأنك الرسول الخاتم .

وقوله : ﴿أَخَا عَادٍ .. (٢١)﴾ [الأحقاف] المراد سيدنا هود ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا .. (٦٥)﴾ [الأعراف] كلمة أخ تُجمع على إخوة وإخوان ، إخوة تعنى أخوة النسب ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ ..(٥٨)﴾ [يوسف]

أما إخوان فيُراد بها أخوة المنهج والدين والقيم كما فى قوله تعالى : ﴿إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ (٤٧)﴾ [الحجر] فقوله ﴿أَخَا عَادٍ ..(٢١)﴾ [الأحقاف] أخاهم فى النسب ، وعاد هى القبيلة أو الأمة التى أُرسِلَ فيها سيدنا هود عليه السلام .

والإضافة فى ﴿أَخَا عَادٍ ..(٢١)﴾ [الأحقاف] تحنينٌ لهم وإثارة لمشاعر الرحمة والدم الواحد ، فالذى جاءهم ليس غريباً عنهم ، إنما هو أخ لهم ، وإنْ جاءهم منهج مخالف لما هُمْ عليه وأراد أنْ يُخرجهم عمَّا ألِفُوه من الضلال والفساد ، والأخ لا يغشّ أخاه سواء أكانتْ أخوتهم له للنسب ، أم للدين والمنهج والقيم .

إذن : عليهم أنْ يستقبلوا دعوته بالحنان الذى تقتضيه الأخوة .

﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالأَحْقَافِ .. (٢١)﴾ [الأحقاف] عاد كانت جماعة من العرب البائدة ، وكانت تسكن الأحقاف فى جنوب شبه الجزيرة العربية ، والأحقاف جمع حقف : وهو الرمل المستطيل الذى يعلو وينخفض ويتحرك يميناً وشمالاً ، وهنا وهنا .

والرمل لنعومته تُحركه الرياح والأعاصير بسهولة ، حتى إن الهبَّة الواحدة من الإعصار فى هذا المكان كانت تطمر قافلة وتغطيها فى

هذا الوادى ، لذلك لم تظهر آثار قوم عاد حتى الآن لأنها مطمورةٌ على مسافات بعيدة تحت الرمال .

كذلك الآثار القديمة فى كل مكان لا توجد إلا تحت الأرض فى حفريات ، لأن عوامل التعرية تطمرها . لذلك ترى الواحد منا إذا سافر مثلاً وترك بيته لعدة شهور مثلاً يعود فيجده مُغطى بطبقة من التراب ، مع أنه مغلق بإحكام ، فما بالك فى الخلاء مع هبوب الرياح والأعاصير ؟

وفى سورة الفجر ، الحق سبحانه يعطينا طرفاً من تاريخ هذه الأمم وما حلَّ بها من العذاب : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى الْبِلادِ (٨) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا[1] الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِى الأَوْتَادِ[2] (١٠) الَّذِينَ طَغَوْا فِى الْبِلادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (١٤)﴾ [الفجر]

ونحن حتى الآن لا نعرف أين ديارهم ، ولا نعرف آثارهم إلا ما أخبرنا الله به ، ذلك لأنها تحت مسافات فى باطن الأرض .

---

(١) جابه يجوبه : قطعه . أى : قطعوا الصخر ونحتوه وصنعوا منه بيوتهم وأصنامهم . [القاموس القويم ١/١٣٥] .

(٢) الأوتاد : جمع وتد وهو قطعة مستطيلة من الخشب أو الحديد تُثبَّت فى الأرض ثم يُشدّ بها حبل يمسك الدابة أو سقف الخيمة ، وشبهت الجبال بالأوتاد لأنها تحفظ توازن الأرض وتثبتها . و ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِى الأَوْتَادِ (١٠)﴾ [الفجر] قيل : هم الجنود الذين يثبتون مُلْكه . وقيل : إنها أوتاد حقيقية كان يشد إليها من يريد تعذيبهم من الناس . ولعل المراد بها الأهرام التى بناها فرعون .

وقوله تعالى : ﴿وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ .. (٢١)﴾ [الأحقاف] فهو ليس أول الرسل إليهم ولا هو آخرهم ، فقد مضتْ الرسل ﴿مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ ..(٢١)﴾ [الأحقاف] يعنى : قبله ﴿وَمِنْ خَلْفِهِ .. (٢١)﴾ [الأحقاف] يعنى : من بعده .

والنُّذر جمع نذير ، وهو الذى يُخوّفك ويُحذِّرك من الشر قبل حلوله ، وفائدة الإنذار أنه ينبهك من الخطر قبل أنْ تقعَ فيه فتتجنبه ، ويجب أنْ يكون الإنذار قبل حدوث الشر بمدة كافية تمكِّنك من تدارك الأمر وتجنب الوقوع فيه .

وقوله : ﴿أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ .. (٢١)﴾ [الأحقاف] يعنى : هذه القضية اتفق عليها جميع الرسل من قبل هود ومن بعده ، فكل الديانات ما جاءتْ إلا لخدمة هذه القضية ودعوة الناس إليها .

والعبادة كما بيّنا طاعة العابد لأوامر المعبود ونواهيه ، وهذا المعنى ينقض ويبطل عبادة غير الله ، فكلها آلهة باطلة وعبادتها باطلة لأنها آلهة بلا منهج وبلا أمر ولا نهى .

فالشمس ، ماذا قالت لمَنْ عبدها ؟ بمَ أمرته وعمّ نهَتْ ؟ ماذا أعدتْ لمن عبدها من الجزاء ؟ وماذا أعدّت لمَنْ كفر بها ؟ فإنْ سألتَ لماذا عبدها الناس وعبدوا غيرها من الأشياء ؟

نقول : لأن التديّن غريزة فى الإنسان منذ خلقه الله ومنذ كان فى عالم الذر ، لكن التدين الحق له مطالب ومسئوليات تكبح جماح النفس وتُقيد شهواتها .

لذلك لجأ البعض إلى عبادة تُرضى عندهم غريزة التدين وتُعفيهم

من مطالب الدين الحق ، فراحوا إلى الآلهة الباطلة وعبدوها ، لأنها لا تلزمهم بشىء ولا تكلفهم شيئاً ، وتُطلق العنان لشهواتهم .

وقوله : ﴿ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٢١) ﴾ [الأحقاف] هذا الخوف هو مقتضى الأخوة ، فالأخ حريص على مصلحة أخيه ، حريص على نجاته ، لذلك قال تعالى فى سيدنا رسول الله : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ[1] حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٢٨) ﴾ [التوبة]

وهنا وصف يوم العذاب بأنه يوم عظيم ، أنتم فى دنياكم تصفون بعض الأشياء بأنها عظيمة ، وهذه العظمة فى وجودكم المادى مردودة إلى الفناء مهما طال أجلها ، كذلك كل نعيم فى الدنيا يُنغِّصه على صاحبه أمران : أنْ يفوته النعيم ، أو يفوت هو النعيم ويتركه بالموت . فوصف هذا اليوم بأنه عظيم لأنه دائم لا يزول ، ولا يموت صاحبه فيستريح منه .

﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٢) ﴾

الكلام هنا عن قوم هود ، فلما دعاهم إلى عبادة الله وحده ﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا .. (٢٢) ﴾ [الأحقاف] يعنى : تصرفنا ﴿ عَنْ آلِهَتِنَا ..(٢٢) ﴾ [الأحقاف] أى المدَّعاة . والإفك : قَلْب الشىء على وجهه ، وصرف الحق إلى الباطل ، والصدق إلى الكذب .

---

(١) العنت : المشقة . ما عنتم : أى ما شقَّ عليكم . [القاموس القويم ٢/٣٨] .

ومنه قوله تعالى : ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ (٥٣)﴾ [النجم] وهى القرى التى قلبها اللهُ رأساً على عَقب ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا.. (٢٢)﴾ [الأحقاف] أى : من العذاب ﴿إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٢)﴾ [الأحقاف] والعذاب الذى يعدهم به لا يأتيهم فى الحال إنما يوم القيامة لكنهم يستعجلونه .

لذلك خاطبهم بقوله : ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنتُم بِهِ آلآنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (٥١)﴾ [يونس] ، وقال : ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ (١٣) ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَـٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (١٤)﴾ [الذاريات]

فهم يستعجلون العذاب لأنهم لا يؤمنون به ويُكذِّبونه ، ولو أنهم يؤمنون به ما استعجلوه .

ثم يرد عليهم بالجواب الطبيعى :

﴿قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَـٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٣)﴾

أى : علم الساعة عند الله ﴿لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ .. (١٨٧)﴾ [الأعراف] وما أنا إلا رسول أُبلغكم ما أُرسلْتُ به من ربى ﴿وَلَـٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٣)﴾ [الأحقاف]

وهذه خلاصة الأمر أنكم تجهلون . يعنى : عندكم جَهْل بالأمور ، والجهل هو المشكلة الكبرى التى تقابل الرسل ، البعض يفهم أن الجهلَ عدمُ العلم ، لكن الجهل علمٌ يناقض الحق .

لذلك قلنا : إن الأميَّ الذى لا يعلم شيئاً وليستْ لديه قضية أهون من الجاهل ، لأنه فارغ الذِّهْن فتلقى إليه بالمعلومة فيقبلها ، أما الجاهل فعنده قضية مُناقضة للحق فيحتاج إلى إخراجها أولاً ، فتكون دعوتُه للحقِّ أصعبَ .

وقوله : ﴿ وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ .. (٢٣) ﴾ [الأحقاف] أى : أننى ما جئتُ من تلقاء نفسى ، إنما جيء بى لأدعوكم إلى الله فلا بدّ أنْ يُنسبِ الفعلُ إلى فاعله . ﴿ أُرْسِلْتُ .. (٢٣) ﴾ [الأحقاف] أى : من الله ، كما قلنا فى ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا .. (١) ﴾ [الإسراء] فمحمد ﷺ لم يقل سريتُ إنما قال : أُسْرِى بى .

وهذا يعنى أنهم كذابون فى قولهم ﴿ أَجِئْتَنَا .. (٢٢) ﴾ [الأحقاف] لأنه لم يأت من عند نفسه ، إنما أرسله الله للبلاغ ﴿ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ (١٨) ﴾ [العنكبوت] فأنا مرسل فقط للبلاغ ، ولا أعرف متى يأتى العذاب ، إنما يعرفه الذى يقدر عليه .

﴿ وَلَـٰكِنِّى أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٣) ﴾ [الأحقاف] أى : تجهلون أن الرسول جاء مُبلِّغاً ، ولا عَلمَ عنده بحلول العذاب بمَنْ كذَّبه .

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَـٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) ﴾

يعنى : بعد أن استعجلوا العذاب ، وقالوا ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٢) ﴾ [الأحقاف] فجاءهم العذاب فى صورة سحاب

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا .. (٢٤) ﴾ [الأحقاف] يعنى : سحاباً يعترض فى جو السماء ﴿ مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ .. (٢٤) ﴾ [الأحقاف] مقبلاً عليهم ﴿ قَالُوا هَـٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا .. (٢٤) ﴾ [الأحقاف] يعنى : ظنوه سحاباً عادياً سيمطر على أوديتهم ويأتيهم بالخير .

إذن : الهاء فى ﴿ رَأَوْهُ .. (٢٤) ﴾ [الأحقاف] تعود على السحاب ، لأنه هو المعلوم فى الكلام بدليل قولهم (ممطرنا) ولا يمطر إلا السحاب ، فالقرينة دلّتْ على أنه السحاب .

وكثيراً ما يعتمد القرآن فى أسلوبه على القرائن التى تبين مرجع الضمير اعتماداً على أن العقلَ يدرك بذاته المسألة .

اقرأ : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ .. (٤٥) ﴾ [فاطر] والمراد : ظهر الأرض مع أنها لم تُذكر فى السياق ، لكن هى التى تأتى فى الذهن ، ولا يُفهم من الكلام إلا هذا .

فالقاعدة أن الضمير لا بدَّ أنْ يكون له مرجع ، ولا يوجد ضمير غائب ليس له مرجع إلا شىء واحد هو إذا كان الضمير الغيبى للغيب المطلق وهو الحق سبحانه وتعالى ، واستدلوا بقوله سبحانه : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) ﴾ [الإخلاص] هو من ؟ الله لأنها لا تنصرف إلا إليه سبحانه .

تقول : جاء زيد فأكرمته - أى زيداً ، وجاءت فاطمة فأكرمتُها . الهاء تعود على فاطمة وهكذا ، ومرجع الضمير يكون لذات الشىء كما لو قلت : جاءنى رجل فأكرمته - أى : أكرمتُ الرجل ، وقد يعود على غير ذات الشىء كما لو قلت : تصدَّقْتُ بدرهم ونصفه ، فالهاء فى نصفه لا تعود على الدرهم المذكور إنما على درهم مثله ، أى على نصف درهم مثله .

لكن ، لماذا ظنُّوا السحاب المعترض ممطراً ؟ قالوا : لأنهم كانوا فى جَدْب وقحط ينتظرون الماء ، فرأوا سحاباً يعترض أفق السماء رأوه داكناً بطيئاً فى سيره وهذه علامات السحاب الممطر ، لأن أبطأ الدِّلاء فيضاً أملؤها ، وأثقل السحب مشْياً أحفلها ، فبُطء السحاب دلالة على أنه مُحمَّل بالماء وهم مُستشرفون للمطر ، فظنوْه مطراً .

إذن : أعطاهم الأمل فى نزول المطر ، فكلُّ العلامات تدل عليه ، وفجأة تقطع عنهم هذا الأمل ، وبين بسْط النفس بالأمل وقمْعها بقطع الأمل نوعٌ من النكاية والحسرة ، يُسمُّونه (يأس بعد طمع) .

وهذا نوع من التعذيب فى حَدِّ ذاته يستعمله مثلاً القائمون على التعذيب فى السجون ، فيمنعون الماء عن المسجون حتى يشتدَّ به العطش ويتوسَّل إليه ليشرب ، فيأتيه العسكرى بكوب ويُقرِّبه منه حتى يكون على شفتيه فيرميه على الأرض ، وهذا إيلام وتعذيب ، فليْته ما جاء بالماء أصلاً ، لأن مجىء الماء أمامه بلاء فوق بلاء العطش .

كذلك الحال فى هؤلاء ، استشرفوا للمطر وقالوا : يخلّصنا مما نحن فيه من الجدب ، فإذا به يُنزل عليهم العذاب بدلاً من الماء ، إذا به العذاب الذى سبق لهم أنْ كذّبوا به واستعجلوه ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ .. (٢٤)﴾ [الأحقاف] أى : من العذاب جاء متمثلاً فى صورة ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤)﴾ [الأحقاف]

قلنا : إن كلمة الريح إذا جاءت هكذا مفردة دلَّتْ على أنها تحمل العذاب والشر ، فقوله (ريح) أى : عذاب مُجمَل ثم يُفصِّله ﴿فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤)﴾ [الأحقاف] أما إذا جمعتْ (رياح) فإنها تدل على الخير ، كما فى قوله تعالى : ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ .. (٥)﴾ [الجاثية] لأن تصريفها يسوق السحاب ويُجرى السفن ويلقح الزهر .. الخ .

لذلك ورد فى الحديث الشريف فى دعاء هبوب الريح : « اللهم اجعلها رياحاً ، ولا تجعلها ريحاً »[(١)] .

وسبق أنْ بيَّنا أن الرياحَ طاقةٌ وقوة تصلح وتنفع إذا جاءتْ من جميع الجهات ، وتدمر إذا جاءتْ من جهة واحدة ، وتفريغ الهواء الآن عِلْم له قواعدُ يستخدمونه فى التدمير .

ثم إن الهواء نفسه مُقوِّم من مُقوِّمات الحياة وبدونه لا توجد حياة ، لذلك جعله الله عاماً شائعاً فى الكون لا يملكه أحد كما يملكون الطعام مثلاً ، لأن مالك الهواء لو منعه عنك لحظة تموت ، على خلاف الماء والطعام مثلاً .

ثم بعد ذلك يُفصِّل القول فى كلمة ﴿فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤)﴾ [الأحقاف] فيقول :

﴿تُدَمِّرُ[(٢)] كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (٢٥)﴾

---

(١) عن ابن عباس قال : كان النبى ﷺ إذا هاجت ريح استقبلها بوجهه وجثا على ركبتيه ومدَّ بيديه وقال : اللهم إنى أسألك خير هذه الريح وخير ما أرسلت به ، وأعوذ بك من شرها وشر ما أرسلت به ، اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها عذاباً ، اللهم اجعلها رياحاً ولا تجعلها ريحاً » [أخرجه الطبرانى فى المعجم الكبير ١١٣٦٨] .

(٢) أخرج البخارى فى صحيحه (٤٤٥٤) عن عائشة رضى الله عنها زوج النبى ﷺ قالت : ما رأيت رسول الله ضاحكاً حتى أرى منه لهواته إنما كان يتبسم . قالت : وكان إذا رأى غيماً أو ريحاً عُرف فى وجهه . قالت : يا رسول الله الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر وأراك إذا رأيته عرف فى وجهك الكراهية ؟ فقال : يا عائشة ما يؤمننى أن يكون فيه عذاب ، عُذِّب قوم بالريح ، وقد أرىَ قومٌ العذاب فقالوا : هذا عارض ممطرنا » .

كلمة ﴿تُدَمِّرُ .. (٢٥)﴾ [الأحقاف] تهلك ﴿كُلَّ شَيْءٍ .. (٢٥)﴾ [الأحقاف] يعنى : لا تُبقى لهم شيئاً ﴿بِأَمْرِ رَبِّهَا .. (٢٥)﴾ [الأحقاف] خالقها ومُجريها ، فهى لا تُهلك بطبيعتها إنما بأمر الله لها ، فبدل أنْ تأتيهم بالخير أتتهم بالشر ، فتحتاج هنا إلى أمر زائد من الله بأنْ تتحول إلى الشر ، وتُهلك بدل أنْ تعمِّر .

ولا يملك هذا الأمر إلا الله ، ولا يُخرجها عن طبيعتها إلا خالقها سبحانه ، كما أخرج النار عن طبيعتها فى قصة سيدنا إبراهيم ، فقال لها : ﴿يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰٓ إِبْرَاهِيمَ (٦٩)﴾ [الأنبياء]

إذن : استجابتْ الريحُ لأمر ربها ، وأهلكتهم هلاكاً لم يُبْقِ لهم شيئاً من متاعهم إلا بقايا بيوتهم ﴿فَأَصْبَحُوا لا يُرَىٰٓ إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ .. (٢٥)﴾ [الأحقاف] ولماذا أبقتْ على مساكنهم ؟

قالوا : لتكون عبرة لغيرهم ، وأثراً من آثارهم الدَّالة عليهم وعلى نزول العذاب بهم ، وإنْ كانت هذه القرى مطمورة تحت الأرض ، لأنهم كما قلنا : كانوا فى وادٍ من الرمال هو (الأحقاف) ، وهذه الرمال هى التى طمرتهم .

قالوا : لما أراد اللهُ إهلاكهم وسلَّط عليهم الريح العاصف ، فأوَّل مَنْ رأى العذاب امرأةٌ منهم ، رأتْ بيتها يطير فى الهواء مثل الطير .

ولما فاجأهم العذاب دخلوا البيوت يحتمون بها من شدة العواصف ، فدخلتْ الريح وراءهم البيوت ، ودخلت عليهم الرمال حتى دفنتهم فيها ، ونفس الريح التى طمرتهم هى التى كشفتْ عنهم وأظهرتْ جيَفهم ليعتبر الناسُ بها ثم أُلقُوا فى البحر .

﴿ كَذَٰلِكَ .. (٢٥) ﴾ [الأحقاف] أى : بمثل هذا ﴿ نَجْزِى الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (٢٥) ﴾ [الأحقاف] فالجزاء ليس ظلماً ولا عدواناً ، إنما جزاء من جنس العمل ، فما استحقوا هذا العذاب إلا لأنهم مجرمون .

أما الذين آمنوا بسيدنا هود وصدَّقوا دعوته فقد حصَّنهم من العذاب بأنْ خَطَّ حول مساكنهم خطاً ، وكأن لسانَ حاله يقول : يا ربّ هؤلاء هم المؤمنون بدعوتى ، فنجِّهم واحرسهم فنجّاهم الله .

وقوله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ نَجْزِى الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (٢٥) ﴾ [الأحقاف] إنذار وتحذير لكفار قريش ، يعنى : يا كفار قريش خُذُوا عبرة ممَّنْ كذّب الرسل قبلكم ، فهذا جزاء كلِّ كافر مخالف لمنهج الله مكذِّب لرسله ، وهذه هى الصورة أمامكم .

ثم يُوجِّه الخطاب إليهم :

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ (٢٦) ﴾

هذا خطاب لقريش ولَفْتٌ لهم أن هؤلاء المعذّبين من قوم عاد كانوا أقوى منكم وأحسن أثاثاً ورئياً ، وأكثر منكم أموالاً ، وأثاروا الأرض وعمروها ، ولهم حضارة من أعظم حضارات الدنيا.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ (٨)﴾ [الفجر]

ومع ذلك كان هذا مصيرهم فلم تُغْن عنهم قوتهم ، ولم تدفع عنهم الحضارة شيئاً من عذاب الله وأنتم لستُم أقوى منهم ، فاحذروا ما وقعوا فيه من تكذيب الرسول ، واحذروا أنْ يُصيبكم ما أصابهم .

فقوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ .. (٢٦)﴾ [الأحقاف] يعنى : مكنَّا قوم عاد . والتمكين يعنى : أعطيناهم القوة والاستطاعة ، وبسْطنا لهم فى أسباب الدنيا حتى عملوا ما لم يعمله غيرهم من الأمم .

﴿فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ .. (٢٦)﴾ [الأحقاف] إن هنا نافية كما فى قوله تعالى : ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلاَّ اللاَّئِي وَلَدْنَهُمْ ..(٢)﴾ [المجادلة] ما أمهاتهم إلا اللائى ولدْنَهم ، وهنا مكنَّا لهم ما لم نُمكِّن لكم ، وبسطنا لهم ما لم نبسط لكم من الأسباب .

ثم ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصَارُهُمْ وَلا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ .. (٢٦)﴾ [الأحقاف]

السمع والأبصار والأفئدة هى وسائل الإدراك الرئيسية فى الإنسان ، وقد وردتْ فى كُلِّ مواضعها فى القرآن بهذه الصيغة : السمع مفرد ، والأبصار والأفئدة جمع .

وهذه من دقائق التعبير فى القرآن ، فالسمع لا تُجمع لأن الصوت يسمعه الجميع كأننا فى السماع واحد ، ترى مصدر الصوت أو لا

تراه لكن تسمعه .

أما البصر فيختلف من شخص لآخر ، فواحد يرى والآخر لا يرى ، واحد نظره حَادّ ، وآخر نظره كليل ، وآخر أعور . إذن : الأبصار مختلفة ، كذلك تختلف الأفئدة فى استقبال الأشياء .

وقد ثبت فى علم وظائف الأعضاء أن الأذن هى أول جهاز يعمل فى الطفل بعد ولادته مباشرة ، أما العين فترى بعد ثلاثة إلى عشرة أيام ، ثم بعد ذلك تعمل الأفئدة .

إذن : هذا هو الترتيب الطبيعى لعمل الجوارح التى هى وسائل الإدراك ، ولأهمية السمع جعله اللهُ أول هذه الجوارح عملاً ، فهو أول ما يستقبل من مُدركات بعد الولادة ، وهو الحاسَّة التى لا تنتهى مهمتها حتى فى النوم .

فالعين مثلاً لا ترى أثناء النوم ، أما الأذن فتسمع لأنها وسيلةُ الاستدعاء للنائم ، فلا بدّ أنْ تكون مستعدة دائماً للتلقِّى والسماع .

وهذه المسألة رأيناها فى قصة أهل الكهف فى قوله تعالى : ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ﴾ [الكهف] لأن الكهف فى صحراء يكثر بها الأصوات المزعجة ليلاً بالإضافة إلى أصوات الرعد والبرق والريح ، فلو كانت الأذنُ على طبيعتها لأزعجتْهم هذه الأصواتُ ، لكن ضرب الله عليها حتى لا تسمع .

ولأن السمع هو وسيلة التلقِّى واستقبال البلاغ عن الله جعلها الله سبحانه أول هذه المدارك عملاً ، لذلك سَنَّ لنا سيدنا رسول الله ﷺ

أنْ نُؤذِّن فى أذن الطفل بمجرد أنْ يُولد[١] .

ولو كانت الأذن لا تعمل فى هذا الوقت كان التكليف عبثاً ، فإذا قلت مثلاً : وهل يفهم الطفل هذا ؟ نقول : نعم يفهم بما فيه من العهد الذى أُخذ على آدم ونحن فى مرحلة الذر .

إذن : أول ما يجب أنْ يُعنى به الوالدان أنْ يُسمعا الطفل هذا النداء : الله أكبر الله أكبر من كل شىء آخر ، وهذه هى الخميرة الإيمانية التى تدور حولها كل خمائر الإيمان .

ما زلتم تذكرون حديثنا عن قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِى قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا .. (١٧) ﴾ [الأحقاف] فماذا يشغل هذين الوالدين فى هذه المرحلة من عمر الابن ؟ لم ينشغلا بالقبول ثم الثانوية ثم الجامعة ، أبداً إنما بالأمر الأحق والأهم ، وهو مسألة الدين والعقيدة ، فهذه أَوْلى بالاهتمام فى الصِّغَر حتى يشبّ عليها .

لذلك نستقبل المولود بألفاظ الأذان لنغرسها فيه وفى تكوينه وهو صافى الذهن نقى القلب ، فترسخ عنده ، وتتمكن منه ولا تفارقه ، على حَدِّ قول القائل[٢] :

---

(١) روى أحمد وأبو داود والترمذى وصححه عن أبى رافع قال : رأيت النبى ﷺ أذَّن بالصلاة فى أذن الحسن بن على حين ولدته فاطمة رضى الله عنهم . وروى ابن السنى عن الحسن ابن على أن النبى ﷺ قال : « من وُلِد له وَلَدٌ فأذَّن فى أذنه اليمنى وأقام فى اليسرى لم تضره أم الصبيان » ذكرهما الشيخ سيد سابق فى فقه السنة (٣/٣٢٩) .

(٢) الشاعر هو قيس بن الملوّح بن مزاحم العامرى ، شاعر غزل من أهل نجد يلقب بـ (مجنون ليلى) لهيامه فى حب ليلى بنت سعد الأخيلية وحجبها أبوها عنه حتى وُجد مُلْقى بين أحجار وهو ميت فحُمِل إلى أهله عام ٦٨ هجرية . [الموسوعة الشعرية] .

أتَانِى هَوَاهَا قَبْلَ أنْ أعرِفَ الهَوَى فَصَادفَ قَلْباً خَالياً فَتمكنَّا[١]

قلنا : إن السمع مُقدّم على البصر ، هذا فى الدنيا ، أما فى الآخرة قالوا : ﴿أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا .. (١٢)﴾ [السجدة] فقدَّم البصر على السمع ؛ لأنه حين تقوم القيامة يُفاجأ الإنسان بمنظر رهيب ، فيرى قبل أن يسمع .

ثم يقول تعالى فى وصف قوم عاد : ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ .. (٢٦)﴾ [الأحقاف] إذن : سمعوا وكأنهم ما سمعوا ، وأبصروا وكأنهم ما أبصروا لم يستفيدوا من هذا ، كما قال تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً[٢] أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا .. (٤٦)﴾ [الإسراء]

وبالتالى أصبحت أفئدتهم خالية ، كما قال سبحانه : ﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ (٤٣)﴾ [إبراهيم]

وقال : ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا[٣] لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٧٩)﴾ [الأعراف]

لكن ، ما العلاقة بين السمع والبصر والفؤاد أى القلب ؟ ولماذا

---

(١) البيت من قصيدة من بحر الطويل ، عدد أبياتها بيتان ، البيت الأول منها يقول :

برغمى أطيل الصد عنها إذا نأت أحاذر أسماعاً عليها وأعينا

(٢) أكنة : جمع كنان . وكنان الشىء : غشاؤه الذى يستره ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً .. (٤٦)﴾ [الإسراء] . أى : أغلفة تحجبها . [القاموس القويم ٢/١٧٥] .

(٣) ذرأ الله الخلق وخلقهم وبثَّهم وكثَّرهم . [القاموس القويم ١/٢٤٢] .

جمع بينهم ؟ قالوا : لأن السمع يدرك المسموع ، والبصر يدرك المرئى ، ومن هذه الإدراكات يُكوِّن الإنسان الفكر ثم يعرضه على العقل ليختار منه ويفاضل بين مكوِّناته ، فيأخذ الطيب ويترك الخبيث ، يأخذ الصواب ويترك الخطأ ، يأخذ ما وافق الشرع ويترك ما خالفه .

فإذا استقر على أمر ألقاه إلى القلب ليثبت فيه ، ويكون عقيدة راسخة لا تتزحزح ، وإيمان لا يتذبذب ولا يطفو إلى العقل ليُناقش مرة أخرى ، فالقلب إذن هو محلُّ العقائد .

لذلك قال عنه سيدنا رسول الله ﷺ : « ألا إن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدتْ فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب »[(١)] .

لأنه الوعاء الذى حمل سائل الحياة ويضخه لجميع أجزاء الجسم ، وحين يمتلئ بالإيمان يضخ هذا الإيمان مع الدم إلى جميع أجزاء الجسم ، فتأتى التصرفات والأفعال على وفق هذا الإيمان ، وتؤدى كل حاسة مهمتها بدقة .

وهكذا تجد أن واهب الحياة لك لا يعطيك ما يُعوِّقك عنه ، ولا ما يعطل عندك أداء منهجه . لذلك اقرأ : ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِى

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٠) وكذا مسلم فى صحيحه (٢٩٩٦) وابن ماجة فى سننه (٣٩٧٤) كلهم من حديث النعمان بن بشير وأوله « الحلال بيِّن والحرام بيِّن ، وبينهما مشتبهات لا يعلمها كثير من الناس ، فمن اتقى المشبهات استبرأ لدينه وعرضه » الحديث .

الْجَاهِلِينَ (٥٥)﴾ [القصص]

وقال : ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا (١٤٠)﴾ [النساء]

إذن : إذا تمكَّن الإيمان من قلب العبد لا يصدر منه إلا ما يوافق مقتضيات الإيمان قولاً وعملاً ، وانطبعت كُلُّ حركاته فى الحياة بهذا الطابع . أما قوم عاد الذين نتحدث عنهم فلم ينتفعوا بما سمعوا من رسولهم ، ولا بما رأوا من آيات الكون ، ولم يذوقوا إذن طعم الإيمان بالله .

﴿إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ .. (٢٦)﴾ [الأحقاف] وينكرونها وينصرفون عنها ، ولو آمنوا لشرح اللهُ صدورهم ، لكن ختم الله على قلوبهم ، وعلى سمعهم ، وعلى أبصارهم ، لأنهم اختاروا الكفر وأحبُّوه فأعانهم الله عليه ، لأنه رَبٌّ يعطى عبده ما يريد .

لذلك قلنا للمرأة التى تبالغ فى الحزن على فَقْد عزيز عليها : احذرى من ذلك ، واخرجى من دائرة الحزن ولا تألفيه ، وانظرى لا إلى ما أُخِذ بل إلى ما أبقى ، وإلا أدام الله عليك الحزن وأخذ منك الباقى .

وهنا درس مهم ، وهو إذا أصابك مكروه فى شىء عزيز عليك فلا تنظر إلى ما أخذتْ المصيبة ، لكن انظر فيما أبقتْ لك ، حتى تهون وحتى لا تدخل من باب الجزع واليأس ، وسوف تجد أن ما بقى أكثر ، وأن مصيبتك أهون من غيرك .

لذلك حكيم الصين لما جاءه الناس يشكُون إليه متاعب الحياة

وهمومها ، قال لهم : فليكتب كلٌّ واحد منكم همومه ومتاعبه فى ورقة ، ثم يلقى بها فى هذا الصندوق وليأتنى بعد أسبوع ، وبعد أسبوع جاء الشاكون فقال للأول : مدّ يدك وخُذْ ورقة مما فى الصندوق فأخذ ورقة .

ولما نظر فيها قال : لا أريد ورقتى ، لماذا ؟ لأنه وجد مصيبته أهون من مصيبة غيره . وقد ترجم العامة هذا المعنى فقالوا (اللى يشوف بلاوى الناس تهون عليه بلوته) .

ويُرْوَى أن سيدنا عروة بن الزبير[١] سافر إلى الخليفة الأموى[٢] فى الشام ، وفى الطريق جُرحت رجْله ولم يجد مَنْ يداويها حتى وصل إلى دمشق فوجدوها قد قاحتْ ولم يجدوا حلاً إلا قطعها ، فبحثوا له عن مُرقِّد يعنى (بنج) قال : لا فأنا لا أحب أنْ أغفلَ عن ربى طرفة عين ، لكن اتركونى حتى أدخل فى الصلاة .

فلما دخل فى صلاته قطعوا رِجْله فلم يشعر بها ، ثم أخذوها وكفَّنوها فقال لهم : أعطونى إياها ، فأمسك بها وقال : اللهم إنْ كنتَ قد ابتليتَ فى عضو فقد عافيتَ فى أعضاء[٣] .

---

(١) هو : عروة بن الزبير بن العوام القرشى الفقيه ، أحد الفقهاء السبعة ، وهو ابن أسماء بنت أبى بكر الصديق ، ولد عام ٢٤ هجرية وتوفى عام ٩٤ هجرية عن ٧٠ عاماً . [الوافى بالوفيات ٦/٣٥٩] .

(٢) أما الخليفة الأموى الذى وفد عليه عروة ، فهو الوليد بن عبد الملك .

(٣) وقعت فى رجله قرحة فأشاروا عليه فى مجلس الوليد بأن يقطعها وإلا أفسدت جميع جسدك فدعى الجزار ليقطعها وقالوا : نسقيك الخمر حتى لا تجد ألماً . فقال : لا أستعين بحرام الله على ما أرجوه من عافيته ، فقالوا : نسقيك مرقداً . فقال : ما أحب أن أسلب عضواً من أعضائى وأنا لا أجد ألم ذلك فأحتسبه . ودخل عليه قوم أنكرهم فقال : ما هؤلاء؟ قالوا : يمسكونك فإن الألم ربما عزب معه الصبر . فقال : دعونى أصلى فإنه كان إذا صلى اشتغل عن نفسه بالصلاة . فقُطعت وهو يصلى . [الوافى بالوفيات ٦/٣٥٩] .

نعم ، وهل الذى يغيب فى معيَّة الله يشعر بألم ، ويجب أنْ نصدق بهذه الأخبار ولا نستبعدها ، لأنه من أسرار الأذن أنك إذا أحكمتَ سدَّها لا تشعر بالألم ، فإن حاولتَ وشعرت بشىء من الألم فاعلم أنك لم تُحكِم سدَّها تماماً .

ونداء الله أكبر هو الذى يُخرجك من عمل الدنيا ويُوقفك بين يدى الله ، وهو تكبيرة الإحرام للدخول فى الصلاة ، سبق أنْ بيَّنا أن معنى الله أكبر أن العمل والسعى يعتبر كبيراً ، لكن الله أكبر ، فلا يُستهان أبداً بعمل الدنيا والسَّعى فيها واستنباط خيراتها ، فالدنيا أهم من أنْ تُنسى ، ولكنها أحقر من أنْ تكون غاية .

والمتتبع لقصة قوم عاد يجد أنها وردتْ فى عدة سُور ، وردت هنا على وجه الإجمال والإيجاز ، وجاء تفصيل هذه القصة فى سورة هود ، وفى سورة الحاقة فصَّل لقطة العذاب التى جاءت هنا ، فقال سبحانه :

﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ(١) عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً(٢) فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنْ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾ ﴾ [الحاقة]

فالريح التى أهلكتهم ريح صرصر . يعنى : شديدة لها صوتٌ مزعج تأتيهم من أعلى فى سبع ليالٍ وثمانية أيام حسوماً ، والحسوم

---

(١) الريح الصرصر : هى الشديدة البرد ، مأخوذ من الصر وهو البرد . وقيل : هى الشديدة الصوت . وقال مجاهد : الشديدة السموم . [فتح القدير للشوكانى تفسير آية ٦ الحاقة] .

(٢) حسمه يحسمه : قطعه واستأصله . وقوله تعالى : ﴿ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً .. ﴿٧﴾ ﴾ [الحاقة] أى : مهلكات مستأصلات . [القاموس القويم ١/١٥٤] .

جمع حاسم فهى حاسمة يعنى : حسمتْ الموقف وأنهتْ المسألة ، فلم تُبْق لهم على شىء .

فإنْ قلتَ : فلماذا قال ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ .. ﴿٧﴾﴾ [الحاقة] مع أن العادة فى التشريع أن الليالى تسبق الأيام ، والزمن يدخل بليله لا بنهاره ، بدليل أننا فى رمضان نثبت دخوله بليله ، فقبل أنْ نصوم نصلى القيام .

لذلك جعلوها لغزاً فقهياً : ما السّنة التى تسبق الفرض ؟ ويبدو أن العذاب نزل بهم فى الصبح فاستقبل النهار وانتهى عند المغرب ، وبذلك استمر سبع ليالٍ وثمانية أيام .

وقد وقف المستشرقون عند هذه الآية يعترضون على طريقة القرآن فى تأنيث العدد مع المذكر ، وتذكيره مع المؤنث ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ .. ﴿٧﴾﴾ [الحاقة] وقالوا : متى يلبس الذُّكران قلائد النسوان ؟ ومتى تبرز ربَّات الحجال فى عمائم الرجال ؟

والقاعدة فى علم النحو أن تأتى الأعداد من الثلاثة إلى التسعة على خلاف المعدود من حيث التذكير والتأنيث ، ولهذا علة ، فالأصل فى الكلمة التذكير تقول (كاتب) ، أما المؤنث فيحتاج إلى علامة تميزه فوضعوا له تاء التأنيث نقول (كاتبة) .

فالتأنيث فرع التذكير ، لذلك احتاج إلى ما يُميزه ، أما ألفاظ الأعداد من الثلاثة إلى التسعة فهى أصلاً موضوعة على التأنيث نقول : ثلاثة أربعة خمسة .

فلما جاء مع المذكر جاء على أصله ، ومع المؤنث احتاج إلى

علامة ، فبدل أنْ يأتوا بعلامة أخرى قالوا بحذف العلامة الموجودة فى المؤنث .

وهكذا أتى العدد مُخالفاً للمعدود فى التذكير والتأنيث ، فقال تعالى : ﴿ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ .. (٧) ﴾ [الحاقة]

ثم إن اليوم عند الفلكيين يُحسب من الوقت إلى مثله من اليوم التالى ، لذلك نراهم عند الساعة الواحدة بعد الظهر يقولون : الواحدة مساءً . ونحن ما نزال فى وسط النهار ، وكذلك فى الواحدة بعد منتصف الليل يقولون : الواحدة صباحاً ونحن ما نزال فى الليل . أما اليوم فى التشريع ، فمن طلوع الشمس إلى غروبها ، والليل من غروب الشمس إلى طلوعها .

نلاحظ أن هذه السورة جاءت ببعض اللقطات من القصة ، لكن لها تفصيل فى سورة سُمِّيتْ باسمه ، هى سورة (هود) تعرضتْ لكثير من اللقطات التى لم ترد هنا .

فنى هذه السورة ركز السياق على ثلاث لقطات أو مسائل ، هى : الدعوة إلى عبادة الله وحده ، ثم التحذير من عبادة غيره ، لأنهم إنْ عبدوا غير الله عرَّضُوا أنفسهم للعقاب ، وهو أخوهم وحريص على نجاتهم ، ثم ردُّوا عليه ﴿ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٢) ﴾ [الأحقاف]

أما سورة (هود) فقد زادتْ على ذلك لقطات أخرى ، فقال تعالى هناك : ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَـٰقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُ .. (٥٠) ﴾ [هود] وهذه متفقة مع التى معنا ، وقال هنا :

﴿إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٥٩)﴾ [الأعراف] وهناك قال : ﴿إِن أَنتُمْ إِلاَّ مُفْتَرُونَ (٥٠)﴾ [هود] والافتراء ينشأ عنه العذاب العظيم .

إذن : تكلَّم هنا عن المسبِّب وهناك عن السبب ، فالعذاب العظيم سببه أنكم افتريتم على الله بأن اتخذتم له شركاء .

ثم ذكر زيادة أخرى فى هود هى قوله تعالى : ﴿يَـٰقَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِىَ إِلاَّ عَلَى الَّذِى فَطَرَنِى أَفَلا تَعْقِلُونَ (٥١)﴾ [هود]

فكأن المسألة فى العقل وبقانون المبادلات أننى أستحق أجراً على دعوتى لكم ، لكن أنا لا أريد منكم أجراً فأنتم لا تقدرون عليه لأنه عظيم وفوق قدرتكم ، لذلك لا أطلبه إلا من الله الذى أرسلنى وانتدبنى لهذا الأمر .

وقوله :﴿الَّذِى فَطَرَنِى .. (٥١)﴾[هود] أى : خلقنى وأنشأنى ، ولم يقل الذى أرسلنى ، فالمراد أنه تعالى خلقنى لأكونَ رسولاً وأصلح لأنْ أحمل دعوته سبحانه ، وأكون سفيراً له إلى خَلْقه .

حتى اسمه جاء موافقاً لهذه المهمة ، فكلمة (هود) من هَادَ يعنى : رجع وتاب وأناب إلى ربه ، ومنه قوله تعالى : ﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ .. (١٥٦)﴾ [الأعراف] يعنى : تُبْنا ورجعنا إلى الله .

ثم فى (هود) يأمرهم بالاستغفار والتوبة : ﴿وَيَـٰقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ .. (٥٢)﴾ [هود] والاستغفار للذنب الذى مضى ، أما التوبة فهى عدم الرجوع إلى الذنب مرة أخرى فهى للمستقبل ، ثم

يُبيِّن لهم ثمرة ذلك : ﴿ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا[1] وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ (٥٢) ﴾ [هود] وهذه لم تأت فى الأحقاف .

ومن التفاصيل التى وردت فى (هود) ولم تأت هنا قولهم : ﴿ إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) ﴾ [هود]

وهنا نلاحظ أنه لم يرد الدعوى عن نفسه ، إنما ردها عن الله فيتبرأ من هذا القول ، ثم يقول لهم : ﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٦) ﴾ [هود]

فيظهر فى حديثه هنا ثقة المؤمن بربه ، فيقول متحدياً لهم : افعلوا ما شئتم فما جئتكم من نفسى ولا أواجهكم بجاهى ولا قوتى ولا عزوتى ، إنما أواجهكم بالله الذى أرسلنى وعليه توكلتُ فى دعوتى .

وهنا درس عقدى مهم إذا نزل بك بلاءٌ فلا تيأس ولا تغضب وعُدْ إلى رصيد الإيمان فى نفسك ، فإنْ توقفتْ قوانينك فقوانينُ الله لا تتوقف ، وإنْ خذلتْكَ الأسبابُ فالمسبِّب موجود فارجع إليه .

وفى (هود) يعطينا لقطة لنجاة المؤمنين به لم تُذكر هنا ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٥٨) ﴾ [هود] هذه آية كونية خرقتْ النواميس كلها ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا .. (٥٨) ﴾ [هود] أى : بهلاكهم وبالعذاب الذى كانوا يستعجلونه نجَّينا هوداً والذين آمنوا معه ، بماذا ؟

﴿ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا .. (٥٨) ﴾ [هود] فقط رحمة الله هى التى تداركتهم ،

---

(١) مدراراً : صيغة مبالغة أى كثير غزير متتابع . ﴿ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا .. (٦) ﴾ [الأنعام] أى : تدر عليهم مطراً غزيراً . [القاموس القويم ١/٢٢٦] .

لأن ما حدث كان ثورة طبيعية وغضبة للطبيعة على المخالفين لخالق هذه الطبيعة ، الريح هى الريح عاصفة مدمرة مزعجة صرصر عاتية ، ومع ذلك خالفتْ كُلَّ نواميس التكوين البيئى ، فأهلكت هؤلاء وتركت هؤلاء .

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٧) ﴾

الخطاب هنا لقريش يريد أنْ يلفت أنظارهم إلى مصير الأمم المكذبة حولهم ﴿ مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ .. (٢٧) ﴾ [الأحقاف] يعنى : حول مكة .

وقد خاطبهم فى موضع آخر : ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٣٨) ﴾ [الصافات] نعم يمرون على مدائن صالح وعلى قوم نوح ، وعلى الأحقاف على عاد وثمود ، ويشاهدون آثارهم وما لحقهم من عقاب الله .

وفى موضع آخر قال سبحانه : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٤١) ﴾ [الرعد]

يعنى : يا قريش تنبهوا ولا تغتروا بما لكم من سيادة على العرب وسيطرة على قبائل شبه الجزيرة ، وأنَّ لكم منزلة فى قلوب الناس ، لأن قوة الإيمان التى تتغلغل فى قلوب الناس سوف تسحب بساط السيادة من تحت أقدامكم .

وها أنتم ترون كل يوم زيادة أرض الإيمان وتراجع مساحة الكفر

فخذوا عبرة من ذلك ، وهذه المسألة هى سببُ إيمان خالد بن الوليد وعمرو بن العاص[١] وغيرهم من قادة وزعماء الكفر ، حين رأوا أمر محمد فى ازدياد فقالوا : لقد ظهر أمر محمد واستقام ، وأصبحت له قوة لا يقف فى وجهها أحد ، وفعلاً آمنوا بدعوته .

وقوله سبحانه : ﴿وَصَرَّفْنَا الآيَاتِ .. (٢٧)﴾ [الأحقاف] حولناها وقلَّبنا لهم البراهين على كُلّ وجه وبأساليب مختلفة ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٧)﴾ [الأحقاف] يعنى : عن كبريائهم وغطرستهم وعنادهم ، يرجعون عن كفرهم وجحودهم لنِعَم الله ، فبعد أنْ أخذوا النعمة كفروا بالمنعم وجعلوا له شركاء .

لذلك قال فى الآية بعدها :

﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً ۖ بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٨)﴾

يعنى : هذه الآلهة التى اتخذوها من دون الله ﴿فَلَوْلا .. (٢٨)﴾ [الأحقاف] يعنى : هلا ، وهى تفيد الحضّ ، وفى المعنى تهكّم بهم

---

(١) أسلم خالد وعمرو فى وقت واحد ، وقد عزم خالد على الإسلام فتوجه إلى المدينة فوجد عمراً فى طريقه ، فقال له عمرو : إلى أين مسيرك ؟ قلت : وما أخرجك ؟ فقال : وما أخرجك ؟ قلت : الدخول فى الإسلام واتباع محمد . فقال عمرو : وذاك الذى أقدمنى . وقد كان هذا عام ٧ هجرية أى بعد بدر وأُحُد والخندق وغزوات كثيرة وقبل فتح مكة . وقد قال عمرو صراحة : لما انصرفنا مع الأحزاب عن الخندق قلت لأصحابى : إنى أرى أمر محمد يعلو علواً منكراً .

أى : هلاّ نصروهم ووقفوا إلى جوارهم فى مصائبهم ، ومعنى ﴿قُرْبَانًا .. (٢٨)﴾ [الأحقاف] يعنى : تقربهم إلى الله ، وهذا كله لم يحدث لماذا ؟ لأنها آلهة باطلة مُدَّعاة ، لا تضر ولا تنفع .

بل هى من صُنْع أيديهم ، وباشروا صناعتها بأنفسهم فأقاموا الحجر وجعلوا له ذراعين ورِجْلَيْن وأنف وأذن ، وإذا وقع رفعوه ، وإذا كُسِر ذراعه أصلحوه ، بالله هل هذه عقول ؟

وقولهم ﴿قُرْبَانًا .. (٢٨)﴾ [الأحقاف] كما قالوا فى موضع آخر : ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ .. (٣)﴾ [الزمر]

وعجيبٌ منهم هذا الكلام وهم أمة الفصاحة والبيان ، ويعلمون جيداً معنى العبادة ، فلو قالوا ما نحترمهم إلا ليُقرِّبونا إلى الله لكانَ معقولاً ، لكن ﴿نَعْبُدُهُمْ .. (٣)﴾ [الزمر] وأنتم تعرفون أن العبادة طاعة أمر المعبود فى أمره ونهيه ، وهل للآلهة هذه أوامر أو نواهٍ ؟

لذلك يردُّ اللهُ عليهم ﴿بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ .. (٢٨)﴾ [الأحقاف] يعنى : تاهوا وغابوا عنهم ، من قولنا : ضلّ فلان الطريق ، ومنه قوله تعالى : ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِى الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ .. (٦٧)﴾ [الإسراء] لماذا ؟ لأن المسألة هلاك .

والإنسان لا يخدع نفسه ، ففى وقت الشدة يترك الآلهة المدعاة ، ويلجأ إلى الإله الحق الذى يملك النفع ويملك الضر ، ففى هذا الموقف لا يقول أبداً : يا هُبل ، لأنه يعلم أن (هبل) لن ينقذه لكن يقول : يا الله .

﴿وَذَٰلِكَ ..(٢٨)﴾ [الأحقاف] إشارة إلى اتخاذهم آلهةً من دون

الله ﴿إِفْكُهُمْ .. (٢٨)﴾ [الأحقاف] الإفك هو الكذب المتعمَّد ، وهو أشد أنواع الكذب ﴿وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٨)﴾ [الأحقاف] يختلقون من الكذب من قولهم أن هذه آلهة ، فكأن المعنى العام للآية : أن عدم النصرة نتيجة الإفك والافتراء على الله باتخاذ آلهة من دونه .

﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ (٢٩) قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ (٣٠)﴾

ينتقل السياق بنا إلى مجال آخر من مجالات الدعوة ، فبعد أنْ حدَّثنا عن موقف الإنس وما كان منهم من تصديق لرسول الله أو تكذيب يُحدِّثنا عن الجن ، وهم الجنس المقابل للإنس فى الدعوة .

---

(١) هم نفر من أشراف جن نصيبين على الأرجح ، وكان رسول الله قد خرج إلى الطائف بعدما يئس من أهل مكة . فخرج يدعو أهل الطائف إلى الإسلام ، فلما صده أهل الطائف وانصرف عائداً إلى مكة وكان ببطن نخل قام يقرأ القرآن فى صلاة الفجر فمر به الجن فسمعوا القرآن وعرفوا أن ذلك هو سبب حراسة السماء عن أن يتسمع الجن وحى السماء [الرازى فى مفاتيح الغيب بتصرف فى تفسير الآية] . وقيل : أنهم كانوا سبعة . وقيل : تسعة .

(٢) قالوا : (من بعد موسى) لأنهم كانوا يهوداً فأسلموا . قاله عطاء . وقال ابن عباس : إن الجن لم تكن سمعت بأمر عيسى عليه السلام . [تفسير أبى السعود] وقال ابن كثير فى تفسيره للآية : « لم يذكروا عيسى لأنه أنزل عليه الإنجيل فيه مواعظ وترقيقات وقليل من التحليل والتحريم » .

حيث أُرسل سيدنا رسول الله ﷺ إلى الثقلين الإنس والجن ، إذن : الجن جنس مكلّف مثلنا ، لكنه غيب عنا فلا نراه ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ .. (٢٧)﴾ [الأعراف]

والجن له خِفَّة فى الحركة وتغلغل فى الأشياء لطبيعته النارية ، لذلك لو أشعلت النار خلف هذا الجدار بعد لحظات تُحس بها هنا . إذن : صدِّق أنه من نار ، وأنه يتغلغل خلال الأشياء ، وأن له طبيعة غير طبيعة الآدمى .

الحق سبحانه يريد أنْ يُبيِّن لنا أن الجن وإنْ كان غائباً عنَّا إلا أنه مثلنا فى التكليف وأنه مثلنا مُخاطب بالقرآن ، ومنه المؤمن والكافر والطائع والعاصى .

ونحن نعلم قصة الصراع بين الجن والإنسان ، منذ خلق آدم عليه السلام وأمر إبليس بالسجود له فأبى واستكبر ، وكانت حجته أنه خُلق من نار ، وآدم خُلق من طين ، فكيف يسجد له وهو أفضل منه على حَدِّ قوله : ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ (١٢)﴾ [الأعراف]

صحيح أن آدم هو أيضاً وقع فى المعصية ، لكن فرْقٌ كبير بين معصية آدم ومعصية إبليس ، آدم عصى ربه حين أكل من الشجرة التى نهاه الله عن الأكل منها ، عصى عن غفلة وتغلب النفس ووسوسة الشيطان .

ثم لما عرف معصيته اعترف بها وتاب عنها واعترف بأنه أخطأ فى حَقِّ ربه وظلم نفسه ﴿قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣)﴾ [الأعراف] وقال فى البقرة : ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ

مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٣٧) ﴾ [البقرة]

إذن : قُبلت توبة آدم لأنه لم يرد حكم الله ، أما إبليس فردّ الحكم ولم يخضع له فطُرد من رحمة الله وأُبْعد ، وفرْق بين أنْ تعصى الحكم وأنت معترف به ، مُصدِّق بأنه من الله ، وبين أنْ ترده .

لذلك نقول هذا الكلام لمن يجادل مثلاً فى مسائل من الدين الحكم فيها واضح ، كالربا مثلاً أو إطلاق اللحية فيقول : التعامل بالربا الآن حلال ، نقول لهذا : أنت بهذا القول ترد حكم الله فى الربا ، والأسلم لك أن تقول أنه حرام لكن ظروفى تجبرنى عليه مثلاً .

ثم لك أنْ تقتدى بأبيك آدم فتتوب ، تستغفر لعل الله يغفر لك ، بدل أنْ تعاند ربك فى حكمه ، وهذه لا تقدر عليها ، وتذكَّر قول الشيطان ﴿ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ .. (١١٩) ﴾ [النساء]

فاحذر هذه المسألة ، وأنت تعلم أن إبليس كان فى يوم من الأيام (طاووس الملائكة)[1] فلما عاند واستكبر وردَّ حكم الله جعله ملعوناً مطروداً من رحمة الله .

ولنا ملحظ هام فى أمر الله لآدم بعدم الأكل من الشجرة ﴿ وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ .. (٣٥) ﴾ [البقرة] فالنهى عن مجرد قربها ، وهكذا كل أمر فى ما حرَّمه الله ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوهَا .. (١٨٧) ﴾ [البقرة]

أما ما أحلَّ الله لك فقال فيه : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تعتدوها ..

---

(١) ذكر الألوسى فى تفسيره (٢٧٢/١) عن أبى العالية فى معنى (من الكافرين) ثم الظاهر أن كفره كان عن جهل بأن استرد سبحانه منه ما أعاره من العلم الذى كان مرتدياً به حين كان طاووس الملائكة .

(٢٢٩) ﴾ [البقرة] يعنى : لا تتعدوا ما أحلَّ الله ، أما الحرام فلا تقربوه لأن مَنْ حام حول الحِمَى يوشك أنْ يقع فيه[١] .

وذرية إبليس تسير على نهجه فى إغواء بنى آدم ، ونحن لا نراهم كما لا نرى الملائكة ، مع الفارق بينهما ، فالملائكة من نور ، والشياطين من نار .

وهنا ينقل الحديث فى شأن رسالة محمد ﷺ من الإنس إلى الجن ، والإخبار بأن الجن مُكلف ، وبأنه يستمع القرآن لم يأتِ به محمد ﷺ من عند نفسه ، إنما يحكى لنا ما أخبره الله به من أن الجن يستمعون القرآن .

فقال فى سورة الجن : ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ .. (٢) ﴾ [الجن]

وكأن الحق سبحانه يقول لنبيه محمد : أنا لم أبعثك لتذهب إلى الجن وتخاطبهم لأنك لا تراهم ، لذلك صرفتهم إليك ، وأتيتُ بهم إليك ليستمعوا القرآن وأنت لا تشعر بهم ، ولولا إخبارى لك بذلك ما كنت تعلمه .

وهنا يقول : ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ .. (٢٩) ﴾ [الأحقاف] فأنت تقرأ وهم حولك يستمعون .

وقولهم فى سورة الجن ﴿ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ .. (٢) ﴾ [الجن]

---

(١) حديث صحيح متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٠) وكذا مسلم فى صحيحه (٢٩٩٦) وابن ماجة فى سننه (٣٩٧٤) كلهم من حديث النعمان بن بشير عن رسول الله ﷺ : « الحلال بيِّن والحرام بيِّن وبينهما مشتبهات لا يعلمها كثير من الناس ، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع فى الشبهات كراع يرعى حول الحمى يوشك أن يُواقعه ، ألا وإن لكل ملك حمى ، ألا إن حمى الله فى أرضه محارمه » الحديث .

وهنا قالوا ﴿كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ .. ﴿٣٠﴾﴾ [الأحقاف] دلّ على أن للجن صلة بالأنبياء السابقين ، وأنهم مكلفون مثلنا .

وفى سورة الرحمن : ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلانِ ﴿٣١﴾﴾ [الرحمن] يعنى : نفرغ لحسابكم ، فبعد أنْ تركناكم على راحتكم تفعلون ما تريدون ، لا تظنوا أن هذه غفلة منا عنكم ، إنما أمهلناكم لنؤكد أمر الاختيار الذى خلقناه فيكم ومنحناكم إيّاه .

فالثقلان : الجن والإنس سواء فى الحساب ، كما هم سواء فى التكليف .

رُوى عن سيدنا أنس رضى الله عنه أنه قال : كنت مع رسول الله ﷺ فى جبل من جبال مكة ، فإذا رجل عجوز يُقبل علينا معه عكاز يتكىء عليه ، فلما رآه رسول الله عرفه . وقال : كأنها مِشْية جِنِّى ونظمته ، فقال الرجل : نعم أنا من الجن ، فقال له رسول الله : من أنت ؟ قال : أنا هامة بن هيم بن لاقيس بن إبليس ، فقال له : بينك وبين أبيك إبليس أبوان اثنان ؟ قال : نعم ، ولقد أدركتُ من الزمن أكثره وبقى أقلُّه ، ولقد شاهدتُ قابيل وهو يقتل هابيل[1] .

فهذه الرواية دليلٌ على طول أعمارهم ، وأنهم يتشكلون بأشكال

---

(١) ذكره فخر الدين الرازى فى تفسيره (مفاتيح الغيب) فى تفسير هذه الآية وفيه « وكنت وقت قتل قابيل هابيل أمشى بين الآكام » . وأخرجه العقيلى فى الضعفاء الكبير (حديث (١٨٠٩) وفيه طول وغرابة ونكارة .

قال العقيلى : فيه محمد بن عبد الله الأنصارى أبو سلمة منكر الحديث .

قال ابن الجوزى فى كتاب (الموضوعات) : « هذا حديث موضوع لا يُشك فيه . وله طريقان : الأول : من طريق إسحاق بن بشر وكان كذاباً يضع الحديث . والآخر : فيه محمد ابن عبد الله الأنصارى منكر الحديث » .

مختلفة ، كما يتشكل الملَك ، فنحن لا نرى الملَك على حقيقته ، ولا نرى الجنى على حقيقته ، إلا إذا تشكَّل فى صورة إنسى .

وأنتم تعرفون حديث جبريل الطويل لما جاء مجلس النبى ﷺ فى صورة رجل غريب ، لكن لا يُرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه من الجالسين أحد ، حتى جلس بجوار رسول الله ، وأخذ يسأله عن الإسلام والإيمان والإحسان والرسول يجيب ، ثم انصرف فلما سأل الصحابة عنه قال رسول الله ﷺ : إنه جبريل ، جاء يُعلِّمكم أمور دينكم[(١)] .

لذلك رأينا بعض أعداء الدعوة المحمدية يثيرون حولها بعض الإشكالات ، ومنها قولهم أنْ يكون الرسول ملكاً وهذا إشكال مردود ، فلو جاء الرسول ملَكاً لجاءهم فى صورة رجل ، وإلا كيف يُبلِّغهم وكيف يكون التلقى عنه ؟

إذن : سيظل الإشكال قائماً ، ثم إن الملَك لا تصح الأسوة به ، لأنهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، فكيف يكون أُسوةً لمَنْ فى طبيعته الخطأ والغفلة والنسيان ؟

إذن : شرط فى النبى الرسول أنْ يكون من جنس مَنْ أُرسل إليهم لتقوم به الأُسوة .

والحق سبحانه أعطانا صورة تفصيلية لحال الجن ، وأن منهم المؤمن والكافر ، فقال حكايةً عنهم : ﴿ وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٨) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٩) وفيه أن رسول الله قال : « هذا جبريل جاء يُعلِّم الناس دينهم » . وعند مسلم قال : « فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم » .

فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَـٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا (١٤) وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا (١٥) ﴾ [الجن]

لذلك النبى ﷺ قال : لقد قرأتُ سورة الرحمن على إخوانكم الجن ، فكانوا أشدَّ استجابة منكم ، كانوا إذا سمعوا ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٣) ﴾ [الرحمن] ينطقون فى نَفَس واحد : لا بشىء من نَعْمائك ربنا نكذب[1] ، فلك الحمد ، يكررونها بتكرار الآية .

واسمعهم يقولون : ﴿ وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ[2] رَبِّنَا .. (٣) ﴾ [الجن] يعنى : تعالتْ عظمته ، ولهذه العظمة ﴿ مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلا وَلَدًا (٣) ﴾ [الجن] إذن : الجن يعلمون قضايا الإيمان وقضايا التوحيد ، وربما كانوا أدقَّ منا فى التعبير عنها ، ويكفى أنهم حكموا على إبليس بالسَّفَه ، فقالوا : ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا (٤) ﴾ [الجن]

نعود إلى ما كنا بصدده من قوله تعالى : ﴿ إِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ .. (٢٩) ﴾ [الأحقاف] النفر : هم الجماعة من الثلاثة إلى الأربعين ، صرفناهم إليك يعنى : أتينا بهم إليك بدل أنْ تذهبَ أنتَ إليهم .

﴿ فَلَمَّا حَضَرُوهُ .. (٢٩) ﴾ [الأحقاف] حضروا القراءة ﴿ قَالُوا أَنصِتُوا

---

(١) أخرج البيهقى فى (دلائل النبوة) (٢/١٠٧) (حديث ٥٣٢) عن جابر بن عبد الله قال : لما قرأ رسول الله ﷺ الرحمن على الناس سكتوا فلم يقولوا شيئاً . فقال رسول الله ﷺ : « لَلجن كانوا أحسن جواباً منكم ، لما قرأت عليهم ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٣) ﴾ [الرحمن]. قالوا : ولا بشىء من آلائك ربنا نكذب » .

(٢) الجدُّ : العظمة والمجد . (جد ربنا) أى : أنه تعالت عظمة ربنا ، وتعالى مجد ربنا . [القاموس القويم ١/١١٨] .

.. ﴿٢٩﴾ [الأحقاف] استمعوا باهتمام وتدبُّر يعنى : وصَّى بعضهم بعضاً بالإنصات ﴿فَلَمَّا قُضِيَ .. ﴿٢٩﴾ [الأحقاف] انتهتْ القراءة ﴿وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ [الأحقاف] ذهبوا إلى قومهم ينذرونهم ويُبلِّغونهم ما سمعوه .

﴿قَالُوا يَـٰقَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ ..﴿٣٠﴾ [الأحقاف] أى : القرآن ، وقولهم ﴿مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ ..﴿٣٠﴾ [الأحقاف] يدل على أنهم كانوا على صلة بالرسل السابقين ، وأنهم كانوا مؤمنين بسيدنا موسى يعنى : كانوا من اليهود .

وذكروا موسى دون عيسى - عليهما السلام - لأن كتاب موسى هو المنهج الذى ينظم حركة الحياة وفيه شرائع وأحكام ، أما كتاب عيسى فكان مجرد وجدانيات ووصايا ، لذلك تنبهوا لهذه المسألة وجمعوا بين الإنجيل والتوراة فى كتاب واحد مع وجود عصبية بينهما ، وأسمَوْهُ الكتاب المقدس .

ومعنى ﴿مُصَدِّقًا .. ﴿٣٠﴾ [الأحقاف] أى : القرآن مُصدِّق ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ .. ﴿٣٠﴾ [الأحقاف] لما قبله من الكتب السماوية ، وما دام مُصدِّقاً لها إذن جاء بما جاءتْ به ولكن يزيد عليها أنه ﴿يَهْدِى إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ [الأحقاف] بما يناسب عالمية التدين .

فكلّ رسول قبل محمد كان يأتى ليعالج أمراض مجتمعه فى زمن محدود ومكان محدود ، وقد يتعاصر الرسولان ، كما رأينا فى سيدنا إبراهيم ، عاصره سيدنا لوط ، وسيدنا موسى عاصر سيدنا شعيب .

فالعالم فى هذا الوقت كان فى انعزال ووحدة ، لم يكُنْ هناك

الالتقاء الموجود الآن ، والذى يجعل العالم كله كقرية صغيرة ، فهذه الحياة المنعزلة تجعل كلَّ مجتمع لا يدرى بغيره .

لذلك كان لهم مفاسد خاصة تحتاج كلٌّ منها إلى رسول ليُصلحها ويأخذ بأيدى قومه إلى الله ، فقوم عبدوا الأصنام من دون الله ، وآخرون طفَّفوا المكيال والميزان ، وآخرون انحرفوا جنسياً عن الطبيعة التى خلقها الله ، وكل جماعة من هؤلاء تحتاج إلى رسول .

لكن لما التقى العالم ، ووُجدتْ بينه وسائل انتقال كان لا بُدَّ من رسول واحد ، لأن المفاسد والآفاق ستتحد ، لا بد من رسول واحد يصلح لكلِّ زمان ومكان ، لذلك شرف كل زمان ومكان بالجامع للخير فى كل زمان ومكان محمد بن عبد الله ﷺ .

إذن : من الجن جماعة سمعوا وتحمَّلوا مهمة البلاغ ، لذلك يقول سيدنا رسول الله ﷺ : « نضَّر الله امرأ سمع مقالتى فوعاها ، وأدَّاها إلى مَنْ لم يسمعها ، فرُبَّ مُبلَّغ أوعى من سامع »[١] .

نعم ومن يدريك لعل المبلَّغ يكون أحرصَ على التطبيق من السامع ، وقد فطن الشاعر العربى إلى هذا المعنى فقال[٢] :

فَخُذْ بِعِلْمِى وَلاَ تَنْظُرْ إِلَى عَمَلِى ... وَاجْنِ النِّمارَ وَخَلِّ العُودَ للنارِ[٣]

---

(١) أخرجه أبو داود فى سننه (٣١٧٥) والترمذى فى سننه (٢٥٨٠ ، ٢٥٨١) وحسَّن الأول وقال عن الثانى (حديث ابن مسعود) : حسن صحيح . وكذا أخرجه ابن ماجه فى سننه (٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨) ، وأخرجه أيضاً من حديث أنس بن مالك (حديث ٢٣٢) .

(٢) هو الشيخ الفقيه الإمام خلف بن أبى القاسم محمد الأزدى القيروانى البرادعى ، وقيل : البرادعى . لم يعرف تحديداً سنة ولادته وكذلك وفاته [تهذيب المدونة ٢/١] .

(٣) هذا البيت قاله لطلبته عن نفسه . والمقصود أخذ العلم عنه ولا تحفل بناقله ، فلتأكل الثمار اليانعة ولتلقى بعيدان الحطب فى النار .

ثم يستمر هؤلاء الجماعة من الجن فى تبليغ قومهم وإنذارهم بما سمعوه :

﴿ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ ﴾

معنى ﴿ دَاعِيَ اللَّهِ .. ﴿٣١﴾ ﴾ [الأحقاف] الأصل فيه رسول الله ثم المبلّغ عنه منهج الله للقوم ﴿ وَآمِنُوا بِهِ .. ﴿٣١﴾ ﴾ [الأحقاف] أى : بما جاء به ﴿ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾ [الأحقاف] قال ﴿ مِّن ذُنُوبِكُمْ .. ﴿٣١﴾ ﴾ [الأحقاف] فأفادت (من) التبعيض . يعنى : يغفر لكم بعض الذنوب ، وهذه المغفرة ثمرة الإيمان .

ولم يقل كل الذنوب ، لأن الحق سبحانه يغفر بعضها ويترك بعضها للتوبة والإنابة إليه ، فمثلاً من الذنوب ما تغفرها الصلاة إلى الصلاة ، أو الجمعة إلى الجمعة ، أو رمضان إلى رمضان[1] .

لكن هناك ذنوب لا بُدَّ لها من توبة ، ويكون لمغفرتها شروط أخرى كما لو كانت فى حَقِّ العباد ، وهناك مظالم ومتعلقات لا بُدَّ أنْ تُردَّ إلى أصحابها ﴿ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾ [الأحقاف] إذن :

---

(١) أخرج أحمد فى مسنده (٦٨٣٢) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « الصلاة المكتوبة إلى الصلاة التى بعدها كفارة لما بينهما . قال : والجمعة إلى الجمعة ، والشهر إلى الشهر . يعنى : رمضان إلى رمضان كفارة لما بينهما » .

الذنوب ينشأ عنها العقاب فى النار ، وإذا غفر الذنوب أجار صاحبها من النار ، وهذه قاعدة التخلية قبل التحلية كما ذكرنا .

لكن لم يقُلْ هنا أنهم يدخلون الجنة ، وهذا يفرض علينا سؤالاً : هل يدخل الجنُّ المؤمن الجنة ؟ البعض يرى أنهم بعد الحساب سيتحوَّلون إلى تراب وتنتهى المسألة ، بدليل أنه لم يقُلْ هنا أنهم يدخلون الجنة بعد أنْ يُجيرهم من النار .

لكن ما داموا مكلّفين مثلنا ، ومنهم المؤمن والكافر ، إذن : لا بُدَّ من الجزاء بالجنة أو بالنار ، فإنْ وقفت عند مسألة أنهم خُلقوا من النار ، فكيف يُعذَّبون بها ؟ هذا أمر بعيد فى أذهاننا نحن ، لكنه يسير على الخالق سبحانه ، فله قوانين أخرى .

وسبق أنْ قلنا : أنت مخلوق من طين ، فهل معنى ذلك أنك إذا نزلتَ البحر مثلاً (تبوش) ثم اقرأ إنْ شئتَ : ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ (٦٤)﴾ [الصافات] فكيف تنبت شجرة فى أصل الجحيم ؟ إذن : لا تتكلم فى هذه المسألة والله أعلم بخلقه .

وقوله سبحانه : ﴿وَمَن لاَّ يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الأَرْضِ .. (٣٢)﴾ [الأحقاف] معجز يعنى : يُعجز غيره . والعجز ضعف لا يُمكنك من الفعل تقول : أعجز فلانٌ فلاناً يعنى : سبَّب له ما يعجز عنه ، ومنه قولنا : القرآن مُعجز يعنى : أعجز العربَ عن الإتيان بمثله .

فؤلاء الذين عصوْا الداعى إلى الله وكفروا به لن يُعجزونا ، ولن يجدوا لهم مهرباً من عقابنا ولا مفرَّاً منه .

﴿وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ .. (٣٢)﴾ [الأحقاف] من دون الله ﴿أَوْلِيَاءُ ..

(٣٢) ﴾ [الأحقاف] يعنى : يتولونهم ويدافعون عنهم أو يشفعون لهم ، ولا قوة تمنع عنهم عذاب الله ﴿ أُوْلَـٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٣٢) ﴾ [الأحقاف] يعنى : هؤلاء الأولياء ضلُّوا عنهم ، تاهوا فلا وجود لهم .

﴿ مُّبِينٍ (٣٢) ﴾ [الأحقاف] محيط ، كما يفعل التائه الذى ضلَّ طريقه ، فيذهب إلى هنا ويذهب إلى هناك ، فلا يهتدى للغاية التى يريدها .

ثم يعود السياق ويلفتهم إلى الآيات الكونية لعلهم يتدبرونها ، لأنهم جحدوا وأنكروا ولم يستفيدوا بما خلقه اللهُ فيهم من وسائل الإدراك من سمع وبصر وتعقُّل ، والحديث مرة أخرى عن الآيات الكونية وإظهارها لهم من باب تلوين العظات .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (٣٣) ﴾

الحق سبحانه هنا ذكر آية من أعظم آيات الخَلْق ، وهى ﴿ خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ .. (٣٣) ﴾ [الأحقاف] لذلك قال فى موضع آخر : ﴿ لَخَلْقُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ .. (٥٧) ﴾ [غافر]

فأتى بخَلْق السموات والأرض ولم يذكر خَلْق الإنسان لأنها الآية الأكبر ، وأين عمر الإنسان الذى يعيش عدة سنوات ، أو حتى مائة

---

(١) عىَّ عن الأمر يعيا : عجز عن النهوض به . قال تعالى : ﴿ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ .. (٣٣) ﴾ [الأحقاف] أى : لم يعجز . [القاموس القويم ٢/٤٦] .

سنة من عمر السماوات والأرض .

﴿ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ .. (٣٣) ﴾ [الأحقاف] لم يتعب تعالى اللهُ عن ذلك ، كما قال فى آية أخرى : ﴿ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ[1] (٣٨) ﴾ [ق] فمَنْ كانت هذه صفاته ، وهذه آيات خلْقه ، أليس بقادر على أنْ يُحيى الموتى ؟

ويأتى الجواب (بلى) يعنى : نعم قادر ، وجاءت (بلى) هنا لإفادة الإثبات ، لأن السؤال سؤالٌ منفىّ ، والقاعدة أن نفىَ النفى إثباتٌ ﴿ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٣) ﴾ [الأحقاف] تذييل يؤكد قدرة الله لا على إحياء الموتى فحسب ، إنما قدرته تعالى على كل شىء .

﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٤) ﴾

هذه لقطة أخرى لمسألة العرض على النار والعياذ بالله ، فقبل هذه قال سبحانه : ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا .. (٢٠) ﴾ [الأحقاف] فذكر لهم علة عَرْضهم على النار ، وهى استنفاد الطيبات كلها فى الدنيا ، بحيث لم يبق لهم شىء فى الآخرة .

لذلك قلنا : إن النعمة التى تشغل صاحبها عن المنعم هى فى

---

(١) اللغوب : التعب والإعياء . لغب يلغُب : أعيا أشد الإعياء . [لسان العرب – مادة : لغب] .

الحقيقة نقمة عليه ووبال ، والنعمة حقيقة هى التى تُذكِّرك بالمنعم ، لذلك علَّمنا سيدنا رسول الله حينما نرى نعمة عندنا أو عند غيرنا أن نقول : ما شاء الله لا قوة إلا بالله[(١)] .

فترد الفضل إلى صاحبه وتبرىء نفسك من الغرور ، ونسبة النعمة إلى نفسك ، وأنها جاءت بفضل مهارتك وشطارتك ، كما حصل من قارون فقال : ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي .. (٧٨)﴾ [القصص]

فكانت النتيجة ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ .. (٨١)﴾ [القصص]

وكأن الحق سبحانه يقول له : ما دُمْتَ أوتيته على علم عندك فاحرسه بعلم من عندك أيضاً .

يُرْوى أن سيدنا عمر رضى الله عنه دخل على سيدنا رسول الله ﷺ ، فوجده ينام على حصير قد أثَّر فى جنبه ، ولم يجد عنده شيئاً يلفت نظره من متاع الدنيا ، فتألم لحال رسول الله ولم يستطع إخفاءَ ما فى نفسه .

فقال : يا رسول الله ادع الله أنْ يُوسِّع على أمتك كما وسّع على فارس والروم ، فنظر إليه رسول الله وقال : « أفِى شكّ أنت يا بن الخطاب ؟ هؤلاء قوم عجلتْ لهم طيباتهم فى حياتهم الدنيا »[(٢)] .

---

(١) أخرج الطبرانى فى معجمه الكبير (١٤٢٧٥) عن عقبة بن عامر قال قال ﷺ « من أنعم الله عليه بنعمة فأراد بقاءها فليكثر من قول لا حول ولا قوة إلا بالله . ثم قرأ رسول الله ﴿وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ .. (٣٩)﴾ [الكهف] .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٢٨٨) وكذا مسلم فى صحيحه (٢٧٠٧) فى حديث طويل عن ابن عباس أن عمر بن الخطاب رفع رأسه فى بيت رسول الله وقال : فوالله ما رأيت فيه شيئاً يرد البصر إلا أهباً ثلاثة . فقلت : ادع الله يا رسول الله أن يوسع على أمتك فقد وسَّع على فارس والروم وهم لا يعبدون الله فاستوى جالساً ثم قال : أفى شك أنت يا ابن الخطاب أولئك قوم عُجلت لهم طيباتهم فى الحياة الدنيا . فقلت : استغفر لى يا رسول الله .

وذكرنا قول عمر بن عبد العزيز : والله لو شئتُ أنْ أكون أطيبكم طعاماً ، وأحسنكم لباساً لفعلتُ ، ولكنى أستبقى[1] ، لذلك قال تعالى : ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (٢٤) ﴾ [الحاقة]

إذن : من ذكر الجزاء واستحضر نعيم الآخرة هانتْ عليه مشقةُ الطاعة فى الدنيا ، كالتلميذ الذى يذاكر ويسهر ويحرم نفسه لذة الراحة شَوْقاً إلى لذَّةٍ أعظم هى لذة النجاح .

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ .. (٣٤) ﴾ [الأحقاف] الخطاب هنا لرسول الله ﷺ . و(يوم) ظرف زمان يعنى : اذكر يوم يُعرض الذين كفروا على النار وذكِّرهم به . وقُلْ لهم : ﴿ أَلَيْسَ هَـٰذَا بِالْحَقِّ ..(٣٤) ﴾ [الأحقاف] أى : الحق الذى كنتم تُكذِّبونه ها هو أصبح واقعاً .

وسبق أنْ بيَّنا أن العلم ثلاث مراحل : علم اليقين ، وعين اليقين ، وحق اليقين ، فالإخبار عن الآخرة وما فيها من ثواب وعقاب علم يقين ، ثم حين نرى هذا الجزاء يصير عين اليقين ، ثم حين نباشره ويدخل أهلُ الجنة الجنةَ وأهلُ النار النار يصير حقّ اليقين .

وهذه المراحل ذُكرتْ فى موضعين فى قوله تعالى : ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ (١) حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ (٢) كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣) ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٤) كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (٥) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (٦) ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ (٧) ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ (٨) ﴾ [التكاثر]

---

(١) هذا القول هو لعمر بن الخطاب وليس ابن عبد العزيز ، أورده القرطبى فى تفسيره لقوله تعالى : ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا .. (٢٠) ﴾ [الأحقاف] وكذا الرازى فى تفسيره ، والنسفى فى تفسيره ، والسيوطى فى الدر المنثور .

أما حق اليقين فذُكر فى قوله تعالى : ﴿وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ (٩٢) فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ (٩٣) وَتَصْلِيَةُ[1] جَحِيمٍ (٩٤) إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ (٩٥) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٩٦)﴾ [الواقعة]

وقوله : ﴿قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا ..(٣٤)﴾ [الأحقاف] هذا جوابهم على السؤال ﴿أَلَيْسَ هَـٰذَا بِالْحَقِّ .. (٣٤)﴾ [الأحقاف] والجواب بـ (بَلَى) هنا يعنى نعم ، لأن نفى النفى إثبات ، نعم هذا هو الحق الذى كُنَّا نكذبه ولا يكفيهم الإقرارُ به ، بل ويُقسمون أيضاً لتأكيد المسألة .

﴿بَلَىٰ وَرَبِّنَا ..(٣٤)﴾ [الأحقاف] لأنهم عاينوه وباشروه ، ثم يأتى الحكم النهائى ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٤)﴾ [الأحقاف] أى : بسبب كفركم .

﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَـٰغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ (٣٥)﴾

الخطاب هنا لرسول الله ﷺ ، الحق سبحانه يُسلِّيه ويثبته ليتحمل الإيذاء من الكافرين ، فليس هو بدعاً فى ذلك ، فقد سبقه كثير من إخوانه الرسل ، فليصبر محمد كما صبروا .

تعرفون أن سيدنا رسول الله تعرَّض لكثير من أذى قومه ، آذوه

---

(١) أصلاه الله النار : أدخله إياها . ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (٢٦)﴾ [المدثر] أى : سأدخله النار . وقوله ﴿ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (٣١)﴾ [الحاقة] أى : أدخلوه . وقال : ﴿تَصْلِيَةُ جَحِيمٍ (٩٤)﴾ [الواقعة] أى : إدخال الجحيم . [القاموس القويم ١/٣٨٢] .

بالقول فقالوا : ساحر وشاعر ومجنون وكاهن وكذاب . ثم تعدّى الإيذاء إلى الإيذاء بالفعل ، فاعتدوا عليه فى الطائف حتى أدموا قدميْه ، وكُسرت رباعيته[١] فى أُحد ، ورموا على ظهره سلى البعير وهو يصلى[٢] .

آذوه فى نفسه ، وآذوه فى أهله وفيمن آمن معه ، بل تآمروا على قتله ، وضيَّقوا عليه حتى اضطروه لترك مكة والهجرة إلى المدينة ، والنبى ﷺ يتحمل ذلك كله لكنه بشر ويشقّ عليه ذلك .

فأراد الحق سبحانه أنْ يضع أمامه أسوة ونموذجاً لمَنْ صبر من الرسل السابقين ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ .. (٣٥) ﴾ [الأحقاف]

فسيدنا إبراهيم عليه السلام وصل الأمر به إلى أنْ أُلقِىَ فى النار ، ومع ذلك لم يُفقده الموقف ثقته بربه ، بدليل أن جبريل عليه السلام لما عرض عليه أنْ يطفىء هذه النار قال له : أما إليك فلا[٣] فجاء الأمر من

---

(١) الرباعية : إحدى الأسنان الأربع التى فى مقدَّم الفك تلى الثنايا بين الثنية والناب . والجمع رباعيات . [لسان العرب – مادة : ربع] .

(٢) ذكره الطحاوى فى مشكل الآثار (حديث ٣٣٢٧) عن عبد الله بن مسعود قال : بينما رسول الله يصلى وقريش قعود وسلى جزور قريب منه فلما سجد قالوا : من يأخذ هذا السلى فيلقيه على ظهره فكأنهم هابوه . فقال عقبة بن أبى معيط : أنا . فقام فألقاه على ظهره وهو ساجد فلم يزل ساجداً حتى جاءت فاطمة وهى جارية فألقته عن ظهره . قال عبد الله : فما سمعت رسول الله ﷺ دعا على قريش غير يومئذ . قال : « اللهم عليك بالملأ من قريش ، اللهم عليك بأبى جهل ، اللهم عليك بعتبة بن ربيعة ، اللهم عليك بشيبة بن ربيعة ، اللهم عليك بعقبة بن أبى معيط ، اللهم عليك بأمية بن خلف . قال ابن مسعود : لقد رأيتهم قُلبوا يوم بدر جميعاً ، ثم سحبوا حتى ألقوا فى القليب غير أبى جهل أو أمية ، فإنه كان رجلاً بديناً فتقطع » .

(٣) أخرج ابن جرير الطبرى عن معتمر بن سليمان التيمى عن بعض أصحابه قال : جاء جبريل إلى إبراهيم وهو يُوثق ليلقى فى النار قال : يا إبراهيم ألك حاجة ؟ قال : أما إليك فلا . [أورده السيوطى فى الدر المنثور ٥/٦٤١] .

السماء ﴿يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰٓ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾ [الأنبياء]

فى صِغَره ابتُلى فى نفسه ، وفى كبره ابتُلى بذبح ولده الوحيد ، وصبر على الابتلاء ففدى الله الذبيح إسماعيل ، وزاده على ذلك بولد آخر هو سيدنا إسحاق ومن بعده سيدنا يعقوب ، وكلهم كانوا أنبياء .

وجاء هذا العطاء نتيجة التسليم لله فى قضائه وقدره والرضا به . ولنا فى أبى الأنبياء أُسوة فى الرضا بالقضاء ، وأنْ نربى أجيالنا على ذلك ، لأن التسليم والرضا بقضاء الله أول أسباب رفع القضاء ، فلا يُرفع قضاء حتى يرضى صاحبه به ، وإلا ظلَّ البلاء نازلاً به .

والذين يطول عليهم قضاء الله هم سبب ذلك ، لأنهم فى الواقع معترضون ، ولو رضُوا لرفعه الله عنهم ، مثل الأب الذى يضرب ولده على خطأ ارتكبه ، فإنْ خضع وانصاع لوالده تركه ، بل ويحنو عليه ويرضيه . فإن اعترض زاده ضرباً .

إذن : الله تعالى يريد أنْ يُربى عبده بالابتلاء ، لذلك ورد فى الحديث القدسى : « مَنْ رضى بقدرى أعطيته على قَدْرى »[1] .

كذلك من أولى العزم سيدنا نوح عليه السلام وظل يدعو قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً ، ومع ذلك ما آمن معه إلا قليل وكانوا يضربونه حتى يُغمى عليه .

---

(١) أخرج الترمذى فى سننه (٢٣٢٠) وابن ماجة فى سننه (٤٠٢١) والبيهقى فى شُعب الإيمان (٩٤٤٤) والقضاعى فى مسند الشهاب (١٠٤١) عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : « إن عظم الجزاء مع عظم البلاء ، وإن الله عز وجل إذا أحب قوماً ابتلاهم ، فمن رضى فله الرضا ، ومن سخط فله السخط » .

انظر إلى الابتلاءات التى مر بها سيدنا يوسف ، ففى صغَره أُلقىَ فى الجُبِّ ، وبيع رقيقاً ، وفى كبره ابتُلىَ بامرأة العزيز وألقى فى السجن ، لكنه صبر فمكَّن الله له ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ .. (٥٦)﴾ [يوسف]

وسبق أنْ بيَّنا أن الأقدار لا تخلو من حكمة ، وأن الحدث لا ينفصل عن فاعله ، فقبل أنْ تعترض انظر من الفاعل . والنبى ﷺ حين يتأمل مواكب إخوانه من الرسل السابقين وما تعرضوا له يهون عليه إيذاء قومه ، ويكون ذلك تسلية له .

وقوله تعالى : ﴿وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ..(٣٥)﴾ [الأحقاف] يعنى : لا تستعجل عذابهم ، خاصة وأنهم كانوا يستعجلون العذاب جهلاً وعناداً منهم ، لذلك خاطبه ربه بقوله : ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٧٧)﴾ [غافر] يعنى : إنْ مُت يا محمد قبل أنْ ترى انتقام الله منهم فموعدهم الآخرة .

وقوله : ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ ..(٣٥)﴾ [الأحقاف] يعنى : يوم القيامة ﴿لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ..(٣٥)﴾ [الأحقاف] يعنى : تمر مرحلة البرزخ كأنها ساعة من نهار ، فمنذ مات سيدنا آدم وإلى أنْ تقوم الساعة وهو لا يشعر بهذا الوقت ، وما هو بالنسبة له إلا ساعة من نهار ، لأن الوقت كما قلنا فرعُ الحدث ، فإذا لم يوجد الحدث لا يوجد الوقت ، كما عند النائم مثلاً .

وهذا رأيناه فى قصة أهل الكهف ، فقد ألقى اللهُ عليهم النوم فناموا ﴿ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا (٢٥)﴾ [الكهف] ومع ذلك لمَّا قاموا قالوا : ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ..(١٩)﴾ [الكهف] لماذا لانعدام

الأحداث التى تشعر بالزمن ، إذن : لا تستعجل لهم العذاب لأنها مجردُ ساعة مهما طال الزمنُ .

وتعرفون قصة العُزير ﴿أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا[1] قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِى هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ .. (٢٥٩)﴾ [البقرة]

وقوله سبحانه : ﴿بَلَاغٌ .. (٣٥)﴾ [الأحقاف] البلاغ : هو الوصول للغاية يقول تعالى : ﴿هَٰذَا بَلَاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ .. (٥٢)﴾ [إبراهيم] يعنى : نهاية ما يمكن أن أعظكم به .

وما دام قال سبحانه (هذا) إذن : لا بد أن يحدث ولا يمنعه شىء لأنه إله واحد لا شريك له ولا معارض ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ (٣٥)﴾ [الأحقاف]

الفسق : الخروج عن الطاعة ، وهو سبب الهلاك فى الآخرة أو حتى فى الدنيا .

---

(١) وهى خاوية على عروشها : « أى سقوفها » . [القاموس القويم ٢/١٤] . وقال فى لسان العرب [مادة : عرش] : يعنى : سقط بعضه على بعض ، وأصل ذلك أن تسقط السقوف ثم تسقط الحيطان عليها . قال : وهذه الصفة فى خراب المنازل من أبلغ ما يوصف .

سُورَةُ مُحَمَّدٍ

سورة محمد (١)

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿١﴾ ﴾

تأمل هنا ما أحسن التقاء وتناسب نهاية السورة مع بداية الأخرى ، ففى نهاية الأحقاف ﴿ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الأحقاف] وهنا ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿١﴾ ﴾ [محمد] فكأن الفاسقين هم الذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله .

عرَّفنا الكفر أنه الستر سَتْر الحقيقة ، أو ستر آثار الحقيقة ، فكلمة (كفر) تقتضى بمدلولها وجود مستور ، والكفر ماذا يستر ؟ يستر نقيضه وهو الإيمان ، إذن : وُجد الإيمان أولاً ، ثم جاء الكفر ليَستره .

فكلمة الكفر أول دليل من أدلة الإيمان ، لأن الإيمان أمر فطرىّ ،

---

(١) سورة محمد هى السورة رقم (٤٧) فى ترتيب المصحف الشريف ، عدد آياتها ٣٨ آية . وهى سورة مدنية نزلت بعد سورة الحديد ، وقبل سورة الرعد فهى السورة رقم (٩٤) فى ترتيب النزول . وتسمى أيضاً بسورة القتال . [الإتقان فى علوم القرآن (١/٢٧)] ، وسميت سورة القتال لأجل آية (٤) منها والآية (٢٠) .

وغريزة فى النفس البشرية وهى ما تزال فى عالم الذر لما أخذ الله عليها العهد ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ .. (١٧٢)﴾ [الأعراف]

وقد لا يستر الكفر الشىء ، إنما يستر آثاره ، كما فى قوله تعالى : ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا[1] مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ .. (١١٢)﴾ [النحل]

إذن : كفرت بالله شىء ، وكفرت بأنعم الله شىء آخر .

والكفر بالنعمة يكون من عدة وجوه ، فمن كُفر النعمة الغفلة عنها وعدم البحث عن أسبابها ، وعدم استنباطها فى الكون بما فيه من أسباب : الماء والهواء والأرض .

اقرأ مثلاً : ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا .. (١٠)﴾ [فصلت]

إذن : ربنا أعطانا الأسباب وأمرنا بالبحث فيها واستنباطها ، وعدم التكاسل عن استخراج ما فى الطبيعة من خيرات ، فبعد أنْ أعطاك الله أسباب النعمة فلا تتهاون فى شأنها وتعيش شحاذاً عالة على غيرك .

وقد يبحث الإنسان عن النعمة ويستنبطها لكن يسترها عن مستحقيها ويكنزها عنهم ، وهؤلاء قال الله فيهم :

﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤) يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا

---

(١) رغد العيش : اتسع وطاب . ورغداً : أى أكلاً طيباً مُوسَّعاً عليكم فيه . [القاموس القويم ١/٢٦٩] .

جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَـٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ (٣٥) ﴾ [التوبة]

إذن : الكفر إما كفر بالله بإنكار وجوده سبحانه ، أو كفر بنعمه وآلائه .

وقوله تعالى ﴿ وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ .. (١) ﴾ [محمد] يعنى : منعوا الناس أنْ يؤمنوا بالله ، أو منعوا آذانهم أنْ تسمع إنذار الدعوة إلى الله ، وصدُّوا أبصارهم ومنعوها أنْ ترى آيات الله فى الكون وأنْ تتخذ منها دليلاً على الخالق سبحانه ، وصدُّوا قلوبهم عن الإيمان بالله وقبول اليقين .

فهذه كلها مفعولات لصدُّوا ، إذن : هؤلاء كفروا ولم يقتنعوا بكفر أنفسهم ، بل حاولوا أنْ يجرُّوا غيرهم إلى ساحتهم .

لذلك وقف المستشرقون عند هذه المسألة يقولون : أنتم تقولون آيات محكمة ، ثم بعد ذلك نجد فيها شبهة التناقض ، مثل قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ .. (٧) ﴾ [الزمر]

ويقول فى موضع آخر : ﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ .. (٢٥) ﴾ [النحل] الواقع أنه لا تناقضَ بين الآيتين ، لأن الحدث مختلف ، لأنهم لما ضلوا فى أنفسهم حملوا أوزارهم ، ولما أضلوا غيرهم حملوا وزر ضلالهم ، ووزر إضلالهم للغير .

ومعنى ﴿ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (١) ﴾ [محمد] أبطلها وجعلها غير ذات فائدة ، لأن معنى الضلال عدم الاهتداء إلى الطريق الموصّل للغاية

وهؤلاء عملوا أعمالاً لا تعود عليهم بالنفع ، وما النفع فى الكفر وصدّ الناس عن الإيمان ؟

حتى الذين يفعلون الخير وهم خارج ساحة الإيمان لا يُقبل منهم ولا يشفع لهم هذا الخير فى الآخرة ، لأنهم ما فعلوه من منطلق الإيمان ، إنما فعلوه من منطلق الشهرة والسمعة والحضارة وخدمة البشرية إلى آخر هذه الشعارات .

لذلك يقول تعالى : ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا (٢٣) ﴾ [الفرقان]

ويقول : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩) ﴾ [النور] فهؤلاء هم الذين يُقال لهم يوم القيامة : ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا .. (٢٠) ﴾ [الأحقاف]

وفى المقابل يقول سبحانه :

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ (٢) ﴾

قلنا : إن المتقابلات يُظهر بعضها بعضاً ، وذكر المتقابلات من أسلوب القرآن ؛ ليحدث مقارنة بين الأمرين فتتضح الصورة كما فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (١٤) ﴾ [الانفطار]

وهنا يقول فى مقابل الذين كفروا ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا .. ﴿٢﴾﴾ [محمد] ولم يقل آمنوا بمَنْ ، لأن الإيمان أمر فطرى ، وساعة يُطلق ينصرف إلى الإيمان بالله ، لأنه هو الإيمان الأول .

والفعل آمن يتعدى بالباء تقول آمن به يعنى : اعتقد وجوده ، ويتعدَّى باللام ، تقول آمن له : يعنى صدَّقه ، وقد يتعدَّى بلا حرف كما فى ﴿وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴿٤﴾﴾ [قريش] وكلها تؤدى معنى الأمان والاطمئنان والسلام .

وقوله : ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ .. ﴿٢﴾﴾ [محمد] دائماً ما يقرن القرآن بين الإيمان والعمل الصالح ، لأن الإيمان عمل القلب ، أما العمل الصالح فعمل القالب والجوارح ، فمن القلب والقالب يكون الامتثال إيمان قلب للعقيدة ، وإيمان قالب لطاعة الأمر ممن يعتقد به .

وسيد الجوارح كلها فى الإنسان هو القلب ، لأنه الآلة التى تضخ الدم وهو سائل الحياة إلى جميع أجزاء الجسم ، فإذا عَمُر القلب بالإيمان ضخَّه إلى كل الأعضاء فاستقامتْ .

لذلك قال ﷺ : « إن فى الجسد مضغة ، إذا صلُحتْ صلُح الجسد كله ، وإذا فسدتْ فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب »[1] .

عمل القلب أنْ يؤمن بالله وبما يخبر الله به من الغيبيات : يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، ويؤمن بالقدر خيره وشره ، ثم يأتى عمل الجوارح ، فالعين لا تمدها إلى محارم غيرك ، واللسان

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٠) وكذا مسلم فى صحيحه (٢٩٩٦) من حديث النعمان بن بشير ، وهو ضمن حديث « إن الحلال بيّن وإن الحرام بيّن وبينهما مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه » الحديث .

لا تشهد به زوراً ، ولا تغتب به الناس ، ولا تقذف به المحصنات ، ولا تحلف به يميناً كاذبة .

والبطن لا تملؤها إلا من الحلال ، واليد لا تسرق بها ، ولا تقتل النفس التى حرَّم الله إلا بالحق ، والرِّجْل لا تسعى بها إلى محرم .

إذن : كل جارحة لها عمل صالح ، ويجب أنْ تجنبها الحرام ، وهناك من العمل الصالح ما يشمل كل الجوارح وهو بر الوالدين . لذلك قرنه الله بعبادته فقال : ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا .. (٣٦)﴾ [النساء]

وفى سورة العصر بيان لأهمية العمل الصالح بعد الإيمان بالله ، فقال تعالى : ﴿وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ .. (٣)﴾ [العصر]

وقوله تعالى : ﴿وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ .. (٢)﴾ [محمد] قوله تعالى : ﴿وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ .. (٢)﴾ [محمد] بعد ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ .. (٢)﴾ [محمد] دل على وجوب الإيمان بالرسل السابقين .

لذلك قال تعالى : ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ .. (١٣)﴾ [الشورى]

ذلك لأن أصل الدين واحد وهو عبادة الله وحده ، فقضية الإيمان واحدة عند كل رسل الله ، ومن الإيمان بالله يتفرع الإيمان بالكتب وبالرسل وبالآخرة والحساب ، لأنك آمنتَ بالله .

لكن هل يخاطبك اللهُ وحدك ويقول لك : افعل كذا ولا تفعل كذا ؟ لا إنما يختار للبلاغ عنه مَنْ يصطفيه من الرسل ﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ .. (٧٥) ﴾ [الحج]

اصطفى من الملائكة جبريل ليكون أمين وحيه ، واصطفى من الناس الرسل والأنبياء ، ففرع الإيمان بالله أنْ نؤمن برسل الله كلهم ، وأنْ نُسوِّىَ بينهم فى التعظيم .

وأذكر أن أحد المستشرقين سألنى فى سَان فرانسيسكو : كيف تبيحون للمسلم أنْ يتزوج كتابية ، ولا تبيحون للكتابى أنْ يتزوج بمسلمة ؟ لماذا لم تجعلوها كالطعام والشراب[1] ؟ قلت لهم : لأن المسلم مؤمن برسول الكتابية ، أما الكتابىّ فهو غير مؤمن برسول من يريد أن يتزوجها (المسلمة) .

وقوله : ﴿ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ .. (٢) ﴾ [محمد] أى : ما نزل على محمد هو الحق ، والحق هو الشىء الثابت الذى لا يتغيّر ولا يتبدَّل ، ثم تأتى ثمرة الإيمان ﴿ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ (٢) ﴾ [محمد]

من رحمة الله بعباده أنْ شرعَ لهم التوبة ، وفتح لهم باب الاستغفار ، فهو سبحانه خالقهم وأعلم بهم وبما يصلحهم ، يعلم أن الإنسان من طبيعته الغفلة .

لذلك قال : ﴿ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ .. (١٥) ﴾ [المائدة] وشرع لنا الكفارات ، فالصلاة إلى الصلاة ، والجمعة إلى الجمعة ، ورمضان إلى

---

(١) قال تعالى فى حل طعام أهل الكتاب : ﴿ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ..(٥) ﴾ [المائدة] .

رمضان ، كلها مُكفِّرات للذنوب وكأنها (أوكازيونات) للمغفرة حتى لا نيأس من رحمة الله ، ولا نتمادى فى المعصية .

فالمغفرة للذنوب رحمة يرحم اللهُ بها عباده حتى لا يدخلوا من باب اليأس وتنتشر المعصية وتستشرى بين الناس .

وقوله : ﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۝٢﴾ [محمد] كل المفسرين[1] يقولون يعنى : أصلح حالهم كله النفسىّ والمعنوى والمادى ، لكن فَرْق بين بال وحال : البال هو فى الواقع الخاطر الذى يخطر فى العقل ، تقول : هذا الشىء فى بالى يعنى : فى عقلى لا يفارقنى ، والإنسان عادة ما يشغل باله بالحالة التى هو فيها ، فالطالب مثلاً : يشغل باله بالنجاح والرسوب والكلية والعمل بعد التخرج ، فمَنْ أصلح الله باله انصلح حاله .

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ۝٣﴾

قوله تعالى : ﴿ذَٰلِكَ .. ۝٣﴾ [محمد] إشارة إلى الجزاء الذى تقدم جزاء الكافرين الذين أضل أعمالهم ، وجزاء المؤمنين الذين كفَّر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم ، هنا يُبيِّن علة ذلك وسببه ، فالكافرون

---

(١) للمفسرين أقوال فى معنى ﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۝٢﴾ [محمد] :

- أى : أصلح شأنهم . قاله مجاهد وغيره .
- أى : أصلح حالهم . قاله قتادة .
- أى : أصلح أمورهم . قاله ابن عباس .

قال القرطبى فى تفسيره (٩/٦٢٧٥) : « والثلاثة متقاربة وهى متأولة على إصلاح ما تعلق بدنياهم . وحكى النقاش أن المعنى : أصلح نياتهم . وهو على هذا التأويل محمول على صلاح دينهم » .

اتبعوا الباطل ، والمؤمنون اتبعوا الحق ، الباطل معدوم والحق ظاهر وثابت ، فمَن اتبع المعدوم ينعدم عنده كُلُّ خير ، ومن اتبع الحق الثابت الموجود يُوجد عنده كل خير .

لكن لماذا اتبع أهلُ الباطل الباطلَ ؟ اتبعوه لأنه ليس له تكاليف تُقيد شهواتهم ، وليس عنده محاذير ينبغى الوقوف عندها ، الباطل يطلق للنفس العنان لتخوض فى شهواتها وملذاتها ورغباتها .

بالباطل يسرق ويعيش على عرق بل دماء الآخرين ، بالباطل يحقد على غيره ويحسده ويقتله ، أما الحق فيمنعك من هذا كله ويُقيِّد عندك كل حركة منافية لمقتضيات الإيمان .

وإلا لماذا عُبدت الأصنام ، وعُبدتْ الشمس والقمر والنجوم ؟ نعم هم يعلمون أنها لا تضر ولا تنفع ، لكن ليس لها تكاليف تقيدهم ، لذلك عبدوها .

وقوله تعالى : ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ (٣)﴾ [محمد] ضَرْب الأمثال لَوْنٌ من ألوان البيان لتوضيح المعنى فى القرآن الكريم ، ففى المسائل التى تقف فيها الأفهام يُوضحها الحق سبحانه للناس بالمثل ليُقربها للأذهان .

كما ضرب لنا مثلاً للذين يتخذون الشركاء مع الله ، فقال سبحانه : ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً .. (٢٩)﴾ [الزمر]

وأنت حين تقرأ هذا المثل يتضح لك مغبة الشرك وسلامة التوحيد ، فهما نقيضان لا يستويان ، كما لا يستوى عبد لعدة أسياد ، وليتهم متفقون إنما مختلفون فيما بينهم ، بحيث لا يستطيع إرضاء أحد منهم، وآخر عبدٌ لسيد واحد .

وكما ضرب اللهُ لنا مثلاً لنوره أو لتنويره للكون فى سورة النور :

﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ .. (٣٥) ﴾ [النور]

ومن الأمثال التوضيحية : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٤١) ﴾ [العنكبوت]

﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ (١) فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً (٢) حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا (٣) ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَـٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ (٤) ﴾

---

(١) أثخنتوهم : أعجزتموهم عن الحركة أو عن القتال بسبب جراحهم التى أصبتموهم بها .

(٢) اختلف العلماء فى نسخ وإحكام هذه الآية على خمسة أقوال :

الأول : أنها منسوخة . وهى فى أهل الأوثان لا يجوز أن يفادوا ولا يمن عليهم . قاله قتادة والضحاك والسدى وابن جريج والعوفى عن ابن عباس .

الثانى : أنها فى الكفار جميعاً وهى منسوخة على قول جماعة من العلماء وأهل النظر منهم قتادة ومجاهد .

الثالث : أنها ناسخة . قاله الضحاك وغيره . ناسخة لقوله تعالى : ﴿ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ .. (٥) ﴾ [التوبة] .

الرابع : قول سعيد بن جبير : لا يكون فداء ولا أسر إلا بعد الإثخان والقتل بالسيف . فإذا أسر بعد ذلك فللإمام أن يحكم بما رآه من قتل أو غيره .

الخامس : أن الآية محكمة والإمام مخير فى كل حال . رواه على بن أبى طلحة عن ابن عباس وقاله كثير من العلماء منهم ابن عمر والحسن وعطاء وهو مذهب مالك والشافعى والثورى والأوزاعى وأبى عبيد وغيرهم وهو الاختيار لأن النبى ﷺ والخلفاء الراشدين فعلوا كل ذلك. [تفسير القرطبى ٩/٦٢٧٩] .

(٣) وضعت الحرب أوزارها أى أثقالها من آلة حرب وسلاح وغيره . وقيل : يعنى تضع أثقال=

قوله تعالى : ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا .. ﴿٤﴾﴾ [محمد] أى : فى ساحة القتال ، ودارتْ بينكما رحَى الحرب ﴿فَضَرْبَ الرِّقَابِ .. ﴿٤﴾﴾ [محمد] المصدر ضرب بمعنى : اضربوا رقابهم .

والمراد : القتل سواء بضرب الرقاب أو غيره ، لكن ذكر ضرب الرقاب لأنه الآكد فى القتل ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ .. ﴿٤﴾﴾ [محمد] يعنى : أذهبتم حركتهم وأضعفتموهم عن المقاومة ، ومادة ثخن هى نفسها تخن ، أى : تماسك وصار ثقيلاً لا يتحرك .

نفهم هذا المعنى حينما نتأمل مثلاً ربة البيت وهى تطبخ أرزاً باللبن أو بصارة أو تغلى العسل لتصنع منه المربى ، فمع الغليان يتبخر الماء وتبقى مادة تخينة ثقيلة ، لذلك لا تتحرك مع الغليان ، وتكون حرارتها شديدة ، نقول : ثخن الشىء أو تخن .

﴿فَشُدُّوا الْوَثَاقَ .. ﴿٤﴾﴾ [محمد] يعنى : قيّدوهم واربطوهم بالسلاسل والحبال ، وأحكموا قيدهم ليكونوا أسرى فى أيديكم ولا يفروا . وهذا يعنى أنك إذا تمكنتَ منه لا تتركه ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً .. ﴿٤﴾﴾ [محمد]

إما أنْ تُطلقوهم وتُسرحوهم (مناً) بلا مقابل أو (فداءً) أى : تأخذون منهم الفدية . لكن متى ؟ تطلقون سراحهم بلا مقابل فى

= الشهداء لأنه عز وجل يمحصهم من الذنوب . وقال الفراء : أوزارها آثامها حتى لا يبقى إلا مسلم أو مسالم . أى : انقضى أمر الحرب وخفت أثقالها فلم يبق قتال . [لسان العرب - مادة : وزر] .

حالة ما إذا تركوا أسرانا عندهم بلا مقابل ، وتأخذون الفدية إذا طلبوا هم أخْذ فدية لأسرانا عندهم .

وهذه يسمونها المعاملة بالمثل ، وهى ما انتهتْ إليه الأمم المتحدة الآن فى مثل هذا الموقف .

وقوله سبحانه : ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ..(٤)﴾ [محمد] الحرب هنا مجاز عن أصحابها وأهلها المشتركين فيها ، فالمعنى : افعلوا ذلك حتى تقف رَحَى الحرب ، ومعنى ﴿أَوْزَارَهَا .. (٤)﴾ [محمد] أى : يضعوا أثقال الحرب ، فالحرب ثِقَل على أهلها ومشقة .

لذلك قال الله فيها : ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ .. (٢١٦)﴾ [البقرة] نعم فأنت فى الحرب مُعرَّض لأنْ تفقد مالك ، ولأنْ تفقد أهلك ، ولأن تفقد حياتك كلها إلى جانب ما فيها من متاعب ومشاق الكَرِّ والفَرِّ والضَّرْب والجَرْح .. إلخ .

﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لانتَصَرَ مِنْهُمْ .. (٤)﴾ [محمد] غلبهم وانتقم منهم بقدرته ودون قتال منكم ، فهذا أمر هيِّن على الله ، كما وقع للأمم السابقة أهلكهم الله بعذاب من عنده وببأسه الذى لا يُردُّ عن القوم الكافرين ، فهذه ليستْ عجيبة ، بل واقع يشهد به التاريخ .

واقرأ : ﴿فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا .. (٤٠)﴾ [العنكبوت]

إذن : لماذا شُرع القتال وهو مكروه وفيه مشقة ؟ قال تعالى : ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ

مُّؤْمِنِينَ (١٤) ﴾ [التوبة]

فشرع القتال لإظهار قوة المؤمنين ، ثم لاختبار إيمانهم وثباتهم على الحق ، وتمييز المؤمنين من المنافقين ﴿ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ .. (٤) ﴾ [محمد]

أى : يبلو المؤمنين بالكافرين والكافرين بالمؤمنين ، ليمحص إيمان المؤمن لأنه صاحبُ رسالة وصاحبُ منهج ، وسيحمل مسئولية الدعوة يسيح بها فى كل أنحاء الأرض ، فكان لابُدَّ من تمحيصه ليظهر الغَثَّ والثمين .

مَنْ سيصبر على آلام الحرب ويصمد ولا يفر ، مَنْ سيضحى بماله ونفسه ، والله حين يختبر يختبر ، لا ليعرف هو سبحانه ، فهو يعلم كل شىء لكن لنعرف نحن ، لتظهر ميْزة هذه الأمة وميْزة هذه الرسالة ، وعظمة هذا النبى الخاتم الذى بُعِثَ للناس كافّة فى كل زمان وفى كل مكان .

ولا بد أنْ يكون أتباعه على مستوى هذه المسئولية وأهلاً لتحمُّل أعباء الرسالة بعد سيدنا رسول الله ﷺ .

ولذلك رُوى أن سيدنا مصعب بن عمير[1] كان فتى قريش المدلل ،

---

(١) هو مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف القرشى من بنى عبد الدار صحابى من السابقين إلى الإسلام ، أسلم فى مكة وكتم إسلامه فعلم به أهله فأوثقوه وحبسوه ، هاجر إلى المدينة فكان أول من جمع الجمعة فيها أسلم على يده أسيد بن حضير . وسعد بن معاذ . كان فى الجاهلية فتى مكة شباباً وجمالاً ونعمة ، كان يلقب [مصعب الخير] توفى عام ٣ هـ [الأعلام للزركلى ٢٤٨/٧] .

وكان يغدو ويروح عدة مرات ، كلَّ مـرة بثوب جديد تفوح منه رائحة العطر ألواناً ، فلما أسلم تـغيَّر حاله ، وأرسله رسـول الله إلى المدينة ليعلم الناس ، فارتدى الثـياب الخشنة ، وزهد فيما كـان فيه من نعيم الدنيا .

فلما علمـتْ أمه بحاله حـزنتْ عليه وأضربتْ عن الـطعام وجلست فى حَـرِّ الشـمس لتثنـى ابنها عـمـا هو فـيه وتعـيـده إلى دين الآباء والأجداد ، فلما علِمَ مصعبٌ بصنيع أمه قال لهم قولوا لأمى : والله لو كان لـها مـائة نفس خرجتْ نفـساً نفـساً على أنْ أترك هذا الديـن ما تركـته ، ودعـوها فإنْ عـضَّهـا الجوع أكلتْ ، وإن أحـرقتـها حـرارة الشمس استظلت[1] .

وأقام مصـعب بالمدينة حتى جاء رسـول الله ﷺ فرآه يلبس جلد كبش ، فقال : « انظروا ما فعل الإيمان بصاحبكم » .

إذن : الحرب فى الإسلام لحكمة ، فهى مثل النار التى تنفى خبث الذهب والحديد فيصير صلباً ، لذلك أعدَّ الله هذه الأمة لتكون أمة قتال وشجاعة حتى قبل بعثته ﷺ .

فلما اضطر سيدنا رسـول الله للحرب لم يدرب جنوداً ، ولم يفتح كليـة حربيـة ، إنما وجـد رجالاً مـتـمرسـين فى فنون القتـال ، لأن

---

(١) ذكره الشامى فى سـبل الهدى والرشـاد (٣١٥/١١) والذهبى فى (سير أعلام النبلاء) (١٠٩/١) وابن عسـاكر فـى تاريخ دمـشـق (٣٣١/٢٠) وابن الأثير فى أسـد الغـابة (٤٣٩/١) وابن كثير فى البداية والنهاية (٨١/٨) ولكن فى حق سعد بن مالك بن أبى وقاص وليس مصعب بن عمير .

الحروب التى كانت تنشب بين القبائل وتستمر زمناً يصل إلى أربعين سنة[١] جعلتْ من هذه الأمة جيشاً على أُهْبة الاستعداد ، فكانوا كلما سمعوا هيعة طاروا إليها .

ثم إنها كانت أمة بدوية تعيش على الترحال ، بيوتهم على ظهور الجمال يتبعون مساقط الأمطار ومنابت العُشْب ، وكأن الله تعالى كان يُعدهم لحمل هذه الرسالة .

﴿ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ (٤) ﴾ [محمد] الذين قُتلوا فى سبيل الله هم الشهداء ﴿ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ (٤) ﴾ [محمد] لن يبطلها بل يُوفيهم أجورهم ويُثيبهم عليها ، لأن الشهيد وهب حياته لله وضحى بأغلى ما يملك فى سبيل الله ، لذلك يجازيه بما لا يخطر على باله من الإكرام والتفضيل .

يجازيه بقاعدة ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا .. (٨٦) ﴾ [النساء] فلأنه جاد بنفسه فى سبيل الله يُبرئه الله من الموت مرة أخرى إذن : حياته موصولة بحياة الآخرة ، فالشهيد بعد أنْ يقتل فى الدنيا يصير حياً عند الله إلى أنْ يُبعث بهذه الحياة فى الآخرة .

وهذا المعنى تنبه إليه الشاعر العربى وهو يمدح حمزة سيد الشهداء فقال :[٢]

أَحْمَزَةَ عَمّ المصْطَفى وسَيّد الشُّهَداء أَجْمعهم طُرّا
وَحَسْبُكَ مِنْ تِلكَ الشَّهادةِ عصْمةٌ مِنَ الموت فى وَصْل الحياتيْنِ بالأُخْرى

---

(١) مثل هذه الحروب حرب داحس والغبراء وكانت قبل الإسلام بخمسين عاماً ، وقد كانت بين قبيلتى عبس وفزارة .
(٢) من شعر الشيخ رضى الله عنه .

لذلك الذين يعترضون على حياة الشهيد ويقولون : هل لو فتحنا القبر على شهيد سنجده حياً ؟ لا ستجده ميتاً ، لكن هذه نظرة ضيقة لمسألة الحياة والموت ، ولتريح نفسك اقرأ : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) ﴾ [آل عمران]

وتأمل كلمة ﴿ عِندَ رَبِّهِمْ .. (١٦٩) ﴾ [آل عمران] ولم يقل عندكم : إنما عند ربهم أحياء بحياة لا يعلمها إلا هو سبحانه ، فهذه من الغيبيات التى يجب التسليم بها ، فهو حَيٌّ عند ربه وإنْ كان ميتاً عندكم .

ثم فى قوله ﴿ يُرْزَقُونَ (١٦٩) ﴾ [آل عمران] دليل آخر على حياته ، لأن الرزق من أسباب استبقاء الحياة .

﴿ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ (٥) وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ (٦) ﴾

كيف سيهديهم وهم مهتدون ؟! وما نالوا الشهادة إلا وهم مهتدون ، فالهداية هنا من باب ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى .. (١٧) ﴾ [محمد] يهديهم إلى الجنة أو إلى الاعتراف بفضله وشكره على نعمته .

لذلك حكى عن أهل الجنة : ﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ .. (٧٤) ﴾ [الزمر] وقال عن أهل النار والعياذ بالله : ﴿ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ (٢٣) ﴾ [الصافات]

فهؤلاء يهدون إلى النعيم وهؤلاء يهدون إلى الجحيم .

ومن هذه الهداية يعرف الشهيد قصره فى الجنة بدون عنوان ، فهو يعرفه لا يدله أحدٌ عليه[1] لذلك قال سبحانه بعدها : ﴿ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝٥ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا[2] لَهُمْ ۝٦ ﴾ [محمد] ومعنى ﴿ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝٥ ﴾ [محمد] أى : يصلح حالهم .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝٧ ﴾

هذه قضية معاركية قتالية بالنسبة للمسلمين ، وهى قضية واقعة ومبدأ لا يتخلف ، وسنة من سنن الله لا تتبدّل ما دام شرط الجندية قائماً لله ولنصرة دين الله .

لذلك قلنا : إذا رأيتَ انهزام المسلمين فى معركة فاعلم أنهم لم يحققوا شرط الجندية لله ، وابحث فيهم هم عن سبب الهزيمة ، لأن سنة الله فى نصرة الفئة المؤمنة سنة ثابتة .

قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ۝١٧١ إِنَّهُمْ لَهُمُ

---

(١) عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « يخلص المؤمنون من النار فيُحبسون على قنطرة بين الجنة والنار ، فيقضى لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم فى الدنيا ، حتى إذا هذبوا ونُقُّوا أذن لهم فى دخول الجنة ، فو الذى نفس محمد بيده لأحدهم أهدى بمنزله فى الجنة منه بمنزله فى الدنيا » [أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٠٥٤) وأحمد فى مسنده (١٠٦٧٣، ١١١٢٣ ، ١١١٧٥، ١١٢٨١) والبيهقى فى شعب الإيمان (٣٥٠) وعبد بن حميد فى مسنده (٩٣٨)] . وقال القرطبى (٦٢٨١/٩) : « أى : إذا دخلوها يقال لهم : تفرقوا إلى منازلكم فهم أعرف بمنازلهم من أهل الجمعة إذا انصرفوا إلى منازلهم » . قال معناه مجاهد وأكثر المفسرين .

(٢) (عرَّفها لهم) أى بينها لهم حتى عرفوها من غير استدلال ، قال الحسن : وصف الله تعالى لهم الجنة فى الدنيا فلما دخلوها عرفوها بصفتها ، وقال ابن عباس : (عرفها لهم) أى : طيَّبها لهم بأنواع الملاذ . مأخوذ من العرف وهو الرائحة الطيبة ، وطعام مُعرَّف أى مُطيَّب . [القرطبى ٦٢٨٢/٩] .

الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) ﴾ [الصافات] لذلك رأينا ما حدث فى غزوة أحد عندما خالف الرماة أوامر رسول الله ﷺ وخرجوا عن شرط الجندية[١] .

كذلك الحال يوم حنين الذى قال الله فيه : ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ (٢٥) ﴾ [التوبة]

حتى إن الصِّديق نفسه لم يسْلَم من مشاعر الإعجاب بالعدو ، فقال : لن نُهزم اليوم عن قلة ، فلما داخلهم الغرور بالعدد والإعجاب بالكثرة حلَّتْ بهم الهزيمة فى أول الأمر .

لكن تداركتهم رحمة الله ، فانتصروا فى نهاية المعركة ، وكأنه كان تأديباً من الله لعباده المؤمنين ودرساً عملياً حتى يدخلوا الحرب ، وليس فى بالهم إلا الله ، ونُصْرة دين الله .

وقوله : ﴿ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ (٧) ﴾ [محمد] تثبيت الأقدام كنايةٌ عن الثبات فى المعركة ، وكناية عن القوة ، لأن الأقدام هى أداة الفرار من الحرب ، فإذا ثبَّتها الله ثبتت ولم تفر ، لذلك أمانة القدم ألاّ تفرَّ يوم الزحف .

---

(١) أخرج البخارى فى صحيحه (٣٧٣٧) عن البراء قال : لقينا المشركين يومئذ وأجلس النبى ﷺ جيشاً من الرماة وأمَّر عليهم عبد الله وقال : « لا تبرحوا إن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا ، وإن رأيتموهم ظهروا علينا فلا تعينونا فلما لقينا هربوا حتى رأيت النساء يشتددن فى الجبل رفعن عن سوقهن قد بدت خلاخلهن فأخذوا يقولون الغنيمة الغنيمة فقال عبد الله : عهد إلىَّ النبى ﷺ أن لا تبرحوا فأبوا فلما أبوا صرف وجوههم فأصيب سبعون قتيلاً » الحديث بتمامه . وكذا أخرجه أبو داود فى سننه (٣٢٨٨) وأحمد فى مسنده (١٧٨٥٣) ، (١٧٨٥٩) .

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٨﴾﴾

هذا هو المقابل ، فبعد أنْ ذكر المؤمنين ووعدهم بالنصرة ذكر الكافرين وما يحل بهم من التعس ، والتعس هو الانكباب على الوجه[1] الذى هو أشرف ما فى الإنسان ، لذلك فى التعبير عن الذلة والانكسار يقولون : مرَّغ أنفه فى التراب .

إذن : ﴿فَتَعْسًا لَّهُمْ .. ﴿٨﴾﴾ [محمد] يعنى : ذلة أو هلاكاً لهم . وإهانة الوجه هى أشد ما يمكن أن يُهانَ به المرء ، لذلك قال سبحانه : ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ .. ﴿٧﴾﴾ [الإسراء]

وقوله : ﴿وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٨﴾﴾ [محمد] أحبطها وأبطلها بحيث لا فائدة منها ، لأنهم ما عملوها لله .

والمراد أن أعمالهم الطيبة تذهب هَباء لا يستفيدون منها بشىء : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾﴾ [النور]

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٩﴾﴾

قوله : ﴿ذَٰلِكَ .. ﴿٩﴾﴾ [محمد] إشارة إلى ما تقدم من جزاء الكافرين من التعس وإحباط الأعمال ﴿بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ .. ﴿٩﴾﴾ [محمد] هذا سبب إحباط الأعمال . لكن لماذا كرهوا ما أنزل الله ؟

---

(١) قاله ابن السكيت : التعس أنْ يخر على وجهه . والنكس أن يخر على رأسه . وقد أورد القرطبى فى تفسيره (٦٢٨٣/٩) عشرة أقوال فى معنى قوله ﴿فَتَعْسًا لَّهُمْ .. ﴿٨﴾﴾ [محمد] وكلها أقوال متقاربة المعنى تدور حول الهلاك والشقاء والخيبة .

كرهوا ما أنزل الله ، لأن منهج الله سيسحب بساط السيادة والجبروت من تحت أقدامهم ، سيُسوِّى بينهم وبين عبيدهم بعد أنْ ألفوا السيادة والمكانة بل والتسلط على الخَلْق ، لذلك كرهوا الحق لما جاءهم به رسول الله .

ولما ذهب سيدنا رسول الله ﷺ إلى المدينة ، كانوا يجهزون عبد الله بن أُبى ليتوِّجوه ملكاً على المدينة[١] فلما وصل رسول الله انفضَّ عنه القوم وشُغلوا بمقدم رسول الله ، وظلت هذه فى نفس عبد الله واستمر فى عدائه للرسول حتى بعد أنْ أعلن إسلامه لم يخلص فيه وكان منافقاً مشهوراً نفاقه .

ومع ذلك له ابن أسلم وحَسُن إسلامه وصحب رسول الله ، فلما علم أن رسول الله أمر بقتل هذا المنافق جاء لرسول الله ، وطلب منه أنْ يأذن له فى قتله حتى لا يقتله رجلٌ آخر من الصحابة ، فيجد فى نفسه شيئاً منه ، فلما قال هذا أبى رسول الله إلا أنْ يرحمه ، وأنْ يُعفيه من هذا فقال : لا تقتلوه وأرجئوه إلى الله[٢] .

---

(١) ذكره السهيلى فى (الروض الأنف) (٣/١٨) أن الأنصار كانوا قد نظموا الخرز لعبد الله بن أبى بن سلول ليتوجوه ويملكوه عليهم .

(٢) ذكره ابن كثير فى (البداية والنهاية) (٤/١٨١) قال قال ابن إسحاق : حدثنى عاصم ابن عمر بن قتادة أن عبد الله بن عبدالله بن أبىّ بن سلول أتى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله إنه بلغنى أنك تريد قتل عبدالله بن أبى فيما بلغك عنه فإن كنت فاعلاً فمر لى به فأنا أحمل إليك رأسه فو الله لقد علمت الخزرج ما كان بها من رجل أبر بوالده منى ، وإنى أخشى أن تأمر به غيرى فيقتله ، فلا تدعنى نفسى أن أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبى يمشى فى الناس فأقتله فأقتل رجلاً مؤمناً بكافر فأدخل النار ، فقال رسول الله ﷺ : « بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقى معنا » .

وقوله : ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (٩)﴾ [محمد] قلنا : أبطلها ، إما أعمالهم وتدبيرهم وكيدهم للمسلمين بأن انتصر المسلمون عليهم وجعل الله كيدهم فى نحورهم . أو : أحبط أعمالهم الصالحة لأنهم ما ابتغوا بها وجه الله .

ومعلوم أنه كان من هؤلاء مَن له أعمال صالحة لها وزنها فى مجتمعهم ، فيُروى أن ابن جدعان والمطعم بن عدى كانت لهما قدور للطعام يمكن أنْ يستظل الرجل بظلها ، فكانت لهم مآثر فى الكرم والشجاعة وإغاثة الملهوف وغير ذلك ، لكن ما فعلوا هذا لله فذهب هباءً .

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا (١٠) ﴾

قوله تعالى : ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ .. (١٠)﴾ [محمد] استفهام غرضه التعجب من صنيع الكافرين ، كيف يكفرون بالله وهم أمة ترحال وأسفار ، ويمرون فى أسفارهم على بقايا ديار الأمم المكذّبة ، ويرون ما نزل بها من العذاب وكيف أخذها الله ، أفلم يأخذوا منها عبرة !!؟

قال تعالى فى آية أخرى : ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٣٨)﴾ [الصافات] وقال : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ

أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٤١)﴾ [الرعد]

وفى آية أخرى : ﴿أَفَلا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ (٤٤)﴾ [الأنبياء] يعنى : خذوا عبرة من واقع الحياة ، أرأيتم رسولاً انهزم أمام خصومه ؟

إذن : فليأخذوا عبرة من الأمم السابقة ﴿فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ .. (١٠)﴾ [محمد] ماذا فعل الله بهم ﴿دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ .. (١٠)﴾ [محمد] دمرهم الله لها معنى . يعنى : أهلكهم فى أنفسهم ، إنما دمَّر عليهم يعنى : خرب عليهم وأطبق عليهم العذاب ، فدمّرهم ودمَّر أموالهم ودمَّر أهلهم ولم يُبْق لهم على شىء .

﴿وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا (١٠)﴾ [محمد] يعنى : هذا المصير ليس ببعيد عنكم يا كفار مكة فاحذروا ، كما قال فى آية أخرى : ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ (٨٣)﴾ [هود]

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ (١١)﴾

قوله تعالى : ﴿ذَلِكَ .. (١١)﴾ [محمد] أى : ما حدث من انتقام الله من الكافرين ونجاة المؤمنين ونُصْرتهم ﴿بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا .. (١١)﴾ [محمد] مولاهم يعنى : الذى ينصرهم ويلى أمورهم ، وهو سبحانه عزيز لا يُغلب ﴿وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَىٰ لَهُمْ (١١)﴾ [محمد]

---

(١) قال قتادة : نزلت يوم أحد والنبى ﷺ فى الشِّعب ، إذ صاح المشركون : يوم بيوم ، لنا العزى ولا عزى لكم . فقال النبى ﷺ : « لا قولوا الله مولانا ولا مولى لكم » . [ذكره القرطبى فى تفسيره ٩/٦٢٨٥] .

لا ناصر ولا معينَ ، لأنهم عبدوا آلهة لا تضرّ ولا تنفع .

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾﴾ (١)

الحق سبحانه وتعالى يحدثنا هنا عن عمل أهل الإيمان وعاقبته ، وعمل أهل الكفر وعاقبته ، فالمؤمن عمر قلبه بالإيمان ، وعَمُرت جوارحه بالعمل الصالح ، فكان العاقبة ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ .. ﴿١٢﴾﴾ [محمد] حيث النعيم الدائم الذى لا ينفد أبداً .

ومعنى ﴿مِن تَحْتِهَا .. ﴿١٢﴾﴾ [محمد] أن ماءها ذاتى فيها متوفر لها لا يأتيها من بعيد ولا يخشى انقطاعه .

أما الكافرون فيأكلون ويتمتعون بالطعام والشراب يملأون به بطونهم وقوالبهم ، أما القلوب فهى خاوية خراب من المعانى ومن الإيمان .

إذن : فهم يعيشون عيشة أشبه ما تكون بعيشة الحيوانات والبهائم ، فعندهم تخمة فى المادة ، وعندهم فقر فى المعانى والقيم ، هذا حالهم فى الدنيا ، ثم تأتى العاقبة والجزاء الطبيعى ﴿وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾﴾ [محمد] يعنى : مآلهم ومرجعهم ومستقرهم ومصيرهم .

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾﴾

---

(١) النَّعم : كل ما يؤكل لحمه ويُشرب لبنه وجمعه أنعام . [القاموس القويم ٢/٢٧٥] .

قوله تعالى : ﴿ وَكَأَيِّن .. (١٣) ﴾ [محمد] يعنى : كثير من القرى ﴿ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلا نَاصِرَ لَهُمْ (١٣) ﴾ [محمد] المراد هنا مكة ، فهى التى أخرجتْ رسول الله ﷺ ، وأين هى من القرى التى أهلكها الله وكانت أشد منها وأكثر عدداً وحضارة وعمارة .

كما قال الحق سبحانه وتعالى عنهم : ﴿ أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا .. (٩) ﴾ [الروم]

أين هم من عاد التى لم يُخلق مثلها فى البلاد ، وثمود الذين جابوا الصخر بالواد ، وفرعون ذى الأوتاد ، أين هم من هؤلاء المهلكين ؟ ﴿ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلا نَاصِرَ لَهُمْ (١٣) ﴾ [محمد] فلا مدافع عنهم يردُّ عنهم العذاب .

﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم (١٤) ﴾

الحق سبحانه وتعالى يريد أنْ يقرر هذه الحقيقة ، لكن يأتى بالقضية على صورة سؤال : هل يستوى هذا وذاك ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ .. (١٤) ﴾ [محمد] يعنى : على هُدى وعلى حجة ونور من ربه .

والرب هو الخالق وهو المربِّى ، وما بالك بالتربية إنْ كانت من الله ، لذلك قال ﷺ فى سياق بيان فضل ربه عليه : « أدَّبنى ربى فأحسن تأديبى »[(١)] .

---

(١) ذكره السخاوى فى المقاصد الحسنة (١/١٦) وعزاه للعسكرى فى الأمثال . وقال : سنده ضعيف جداً وإن اقتصر شيخنا [يقصد ابن حجر العسقلانى] على الحكم عليه بالغرابة فى بعض فتاويه ولكن معناه صحيح . وقال ابن تيمية : لا يُعرف له إسناد ثابت . وذكره ابن الجوزى فى الأحاديث الواهية من حديث على وقال : لا يصح .

ومعنى ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ .. (١٤)﴾ [محمد] على أمر واضح ، ويقين ثابت ، ومنهج مستقيم ، يضمن له الخير فى الدنيا والسلامة فى الآخرة . هل يستوى هذا مع مَنْ زُيِّن له سوء عمله واتبع الشهوات والأهواء ؟ لا بد أنك ستقول : لا يستويان .

ومن أشدّ الفتن التى يقع فيها الإنسان أنْ يُزين له هواه سوء عمله فيراه حَسَناً ، والهوى هو الميل والرغبة التى تميل بك عن الطريق المستقيم ، لذلك قالوا[1] : آفة الرأى الهوى ، لذلك مدح الحق سبحانه نبيه ﷺ بقوله : ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣)﴾ [النجم]

ثم يعود السياق مرة أخرى إلى ضرب الأمثال ، فيقول سبحانه :

﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ[2] وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا[3] فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ (١٥)﴾

كلمة ﴿مَثَلُ .. (١٥)﴾ [محمد] تقال بكسر الميم ، حينما تُشبِّه مفرداً بمفرد . تقول : هذا مِثل هذا ، وبالفتح حينما تُشبِّه صورة لها

---

(١) قاله أكثم بن صيفى ضمن خطبة له فى وفوده على كسرى ، ذكره ابن عبد ربه فى العقد الفريد (١/٩٧) .

(٢) أسن الماء يأسن : تغيرت رائحته فهو آسن . [القاموس القويم ١/٢٠] .

(٣) حمَّ الماء : اشتدت حرارته فهو حميم أى ساخن شديد الحرارة . [القاموس القويم ١/١٧٣] .

أجزاء بصورة أخرى لها أجزاء ، لذلك هنا يقول تعالى : ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ .. (١٥)﴾ [محمد] بفتح الميم ، لأنها تمثل جمعاً وصورة كلية لها عناصر وأجزاء متعددة .

اقرأ قوله تعالى : ﴿مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا..(٤٥)﴾ [الكهف] أى : بما فيها من الميلاد إلى الموت ﴿كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا (٤٥)﴾ [الكهف]

والمثل تشبيه تلحق فيه مجهولاً لك بمعلوم عندك ، لذلك سيدنا رسول الله لما سُئِلَ عن أوصاف سيدنا موسى وسيدنا عيسى عليهما السلام شبَّههما بما هو معلوم للصحابة ، فقال : أما موسى فرجل طوال كأنه من رجال أزد شنوءة [(١)] ، وهى معروفة عندهم ، وأما عيسى فكثير خيلان الوجه - يعنى فى وجهه حسنات كثيرة - يقطر وجهه ماءً كأنما خرج من ديماس [(٢)] يعنى : من حمام ، وأشبهه من أصحابى عروة بن مسعود الثقفى ، إذن : شبَّه المجهول بما هو معلوم .

كذلك ضرب رسول الله لنا الأمثال ليوضح لنا أمور الدين ، فقال فى حديثه : « إنما مثلى ومثلكم كمثل رجل أوقد ناراً فجعل الجنادب

---

(١) أزد شنوءة : هم أبناء كعب بن عبد الله بن مالك بن نصر بن الأزد . وهم حالياً قبائل غامد وأبناء عمومتهم من زهران . وشنوءة بالهمز من الشنآن وهو التباغض . قال ابن دريد : وبه سمى أبو هذا الحى من الأزد . وقال الخفاجى : سموا بهذا لعلو نسبهم وحسن أفعالهم . من قولهم : رجل شنوءة أى طاهر النسب ذو مروءة . أصلهم من اليمن .

(٢) الديماس : الحمَّام . وبهذا جاء الحديث فى وصف المسيح عليه السلام أنه سبط الشعر كثير خيلان الوجه كأنه خرج من ديماس ، يعنى : فى نضرته وكثرة ماء وجهه . وقال فى وصفه : كأن رأسه يقطر ماء .

والفراش يقعن فيها وهو يذبُّهن عنها وأنا آخذ بحجزكم عن النار وأنتم تفلّتون من يدى »[١] .

وكلمة ﴿الْجَنَّةِ .. (١٥)﴾ [محمد] فى أصلها تعنى الشىء المستور ومنها الجن ، وجنَّ الليل ، حتى جنة الدنيا تحمل هذا المعنى ، لأنها قطعة الأرض المليئة بالأشجار متشابكة الأغصان بحيث تستر وتُخفى ما فيها ، أو تجنّ صاحبها يعنى تستره وتمنعه من الخروج منها حيث توفر له كلَّ متطلبات حياته .

والحق سبحانه ضرب المثل بها : ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ[٢] فَطَلٌّ .. (٢٦٥)﴾ [البقرة]

وقال : ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ .. (٣٢)﴾ [الكهف]

والفرق بين الجنتين أن جنة الدنيا من صُنع البشر ومباشرة الأسباب فى الحرث والزرع ، أما جنة الآخرة التى وعدها الله المتقين فهى قائمة بلا أسباب ، قائمة بقدرة المسبِّب ، لذلك حدث اختلاف فى الجنة التى دخلها سيدنا آدم عليه السلام : أهى جنة الدنيا ، أم جنة الآخرة ؟

حينما نقرأ هذه القصة فى كتاب الله نعلم أنها جنةُ الله جنة الآخرة ، بدليل أنه لم يحرث فيها ولم يزرع ، ولم يباشر أسباباً ، إنما أكل مما

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٠٠٢) وكذا مسلم فى صحيحه (٤٢٣٤ ، ٤٢٣٥) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه . وأخرجه مسلم (٤٢٣٦) والترمذى فى سننه (٢٧٩٩) من حديث جابر بن عبد الله .

(٢) الوابل : المطر الغزير . إذا كثر وعظم قطره . [القاموس القويم ٢/٣١٧] .

أعده اللهُ له ، وكان فى أمـان ذاتى مدة إقامتـه على طاعة أمر الله فى الأكل .

فلما أغواه الشيطان أنْ يأكل من الشجرة التى نهاه الله عنها حدث له تغيُّر فى الوضع الطبـيعى الذى كان فيه ، ورأى من نفســه مسألة الإخـراج التى لم يألفهـا من قبـل ، وتنبه إلى عـورته وراح يستـرها بورق الأشجار هو وزوجه .

وكانت هذه المسألة عمليـة تدريب لآدم على احترام المنهج وعدم الخروج عليه ، ونحن نفهم أيضاً كذلك أنه لا تظهر عورة فى المجتمع المـسلم إلا حين يحـدث انحراف عـن المنهج ، وآدم عليه السـلام لم يكُنْ رجـلاً عادياً ، إنما كـان نبيـاً رسولاً ، فـأراد الحق سبـحانه أنْ يعلمه الدرس بصورة عملية .

وقوله تعالى : ﴿وُعِدَ الْمُتَّقُونَ .. (١٥)﴾ [محمد] أى : وعدهم الله بها ووَعْـد الله حَقٌّ نافذ ، لأنه إله واحد ليس مـعه شريك يعـارضه ، ولا توجد قوة تـحول بينه سبحانـه وبين إنفاذ ما وعد ، كـما يحدث مثلاً فى وعد البـشر بعضهم لبعض ، لأن البشر يطرأ عليهم الـتغيير ويلحق بهم الموت .

أما الحق سبحانه فهو الدائم الباقى وهو الحق .

والجنة وَعْد الله لا يعـد بها غيره ، يعـد مَنْ ؟ يعد بها المتـقين ، والمتـقى هو الذى يسير وفق منهج الله ، وأنْ يَجـعل بينه وبين عذاب الله وقـاية ، ولا يكون ذلك إلا باتبـاع المنهج وعـدم اتبـاع الشـيطان والهوى .

قال تعالى : ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦٨)﴾ [البقرة]

ووَعْد الله وعد الصدق ووعد الحق قال تعالى : ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً (١٢٢)﴾ [النساء]

قوله تعالى : ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ .. (١٥)﴾ [محمد] يعنى : أن هذا الوصف ليس وَصْفاً للجنة ، لكن مثل يُقربها للأذهان ، لأنه لو أراد أنْ يعطينا وصفاً للجنة على حقيقتها لن يصل إلى ذلك إلا من خلال الألفاظ التى تعبر عن المعانى .

ومعلوم فى اللغة أن المعنى يُوجد أولاً ، ثم نضع له اللفظ الدال عليه ، والنبى ﷺ لما وصف لنا الجنة قال : « فيها ما لا عين رأتْ ، ولا أذن سمعتْ ، ولا خطر على قلب بشر »[1] .

أولاً : تأمل فى الحديث هذا الترقى فى الحواس والإدراكات ، فالعين ترى ما كان فى مجال الرؤية ، أما الأذن فتسمع ما تراه أنت وما يراه غيرك ، وأوسع من هذا كله ما يخطر بالبال أو القلب .

فإذا كنا لا نصل بإدراكاتنا إلى ما فى الجنة ، ولا حتى يخطر لنا على بال ، فكيف نصفه ؟ وكيف نضع له الألفاظ المعبِّرة عنه ؟

إذن : هذا ليس وصفاً لحقيقة الجنة ، إنما مجرد مثل يقربها من أفهامنا ، لذلك قال تعالى عن الجنة : ﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ .. (١٧)﴾ [السجدة]

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٠٠٥ ، ٤٤٠٦ ، ٤٤٠٧ ، ٦٩٤٤) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٥٠٥٠ ، ٥٠٥١ ، ٥٠٥٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

إذن : فيها أشياء لا نعرفها ، فكيف نضع لها أسماء ؟ لذلك نقربها بمثَل مما نعرفه فى الدنيا .

ففيها كما فى الدنيا ماء ولبن وخمر وعسل ، لكنه مُشذّب ، ومُصفّى من كل ما يشوبه ، فلا يشبه نعيم الدنيا إلا فى الأسماء ﴿ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ .. (١٥) ﴾ [محمد]

فماء الدنيا يأسن ويعطن وتتغير رائحته ، أما ماء الجنة فماء غير آسن ، وبدأ بالماء لأنه الأصل فى الارتواء من العطش ، وبه ينضج الطعام ، وبه تتم نظافة الإنسان ، بل هو عنصر أساسى فى خلق كل كائن حى ، قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ .. (٣٠) ﴾ [الأنبياء]

وإذا كنا نعرف أن مصدر الماء العذب فى الدنيا هو البحار ، وبعملية البخر وتكوّن السحب يُنقّى من الملوحة فيصير عذباً صالحاً ، فماء الجنة لا نعرف مصدره .

قال الله عنه ﴿ مَاءً طَهُورًا (٤٨) ﴾ [الفرقان] لا تشوبه شائبة ، ولا تلحق به مُلوِّثات تفسده ، إذن : نعمة لا يُنغِّصها شىء ولا تشوبها شائبة ، لأنك فى الدنيا تعيش بأسبابك التى خلقها الله لك .

ومنا مَنْ يعكر صفو هذه الأسباب ، أما فى الآخرة فأنت تعيش بالمسبِّب سبحانه مباشرة ، أنت تستضىء فى الدنيا بالشمس نهاراً ، وبالقمر والنجوم ليلاً ، أما فى الآخرة فلا شمسَ ولا قمر ولا نجوم ، إنما تعيش بنور الله ﴿ وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا .. (٦٩) ﴾ [الزمر] يعنى : بلا أسباب .

كذلك الماء تأخذه فى الدنيا بالأسباب ، وفى الجنة بلا أسباب ،

واقرأ قوله تعالى عن الماء فى الدنيا : ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ[1] فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ .. (٢٢)﴾ [الحجر]

وقال عن ماء الجنة : ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا (٢١)﴾ [الإنسان]

وفرْق فى المعنى بين (أسقى) و(سقى) : أسقى : أوجد الماء الذى نستقى منه إنْ أردنا السُّقْيا . فينزل الماء من السحاب فنحجزه وراء السدود حتى نحتاج إليه ، لكن (سقى) باشر السُّقيا بالفعل .

ومن العجيب فى أنهار الجنة أنها ليس لها شُطآن ، وأنها متداخلة دون أنْ يختلط بعضُها ببعض ، ولا تسأل هنا عن كيفية ذلك ، لأن هذا النعيم لا يقوم بالأسباب التى نعرفها ، بل بالمسبِّب سبحانه ، فلا يحكم عليها حكمك على مثلها فى الدنيا . وقوله : ﴿فِيهَا .. (١٥)﴾ [محمد] أى : أنها ظرف لهذه الأنهار .

﴿وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ .. (١٥)﴾ [محمد] ولبن الدنيا يتغير طعمه بمرور الوقت ويفسد ﴿وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ .. (١٥)﴾ [محمد] نعم أنهار من خمر مُعدَّة وجاهزة ، ليس هناك عنب يُعصر ، إنما بكُنْ فيكون .

وإذا كانت خمر الدنيا مُحرَّمة ، وتذهب بالعقل ولها رائحة كريهة ، فخمر الآخرة لها لذة عند شربها ولا تذهب بالعقل ، فليس لها من خمر الدنيا إلا اسمها .

وليس فى الدنيا أنهار من خمر لأن خمر الدنيا بالأسباب ، فهو كميات قليلة بمقدار ما يُعصر من العنب أو غيره ، والحق سبحانه لما

---

(١) أرسلنا الرياح لواقح : حوامل ، مفردها لاقح ، فهى تحمل الماء والسحاب وتقلبه وتصرِّفه . [لسان العرب - مادة : لقح] .

تكلم عن خمر الدنيا قال : ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا .. (٢١٩)﴾ [البقرة]

فالمنافع لا قيمة لها إذا ما قورنت بالمضار والحرمة ، صحيح هى تُشعرك بشىء من النشوة أو السعادة ، وتضحك وتفرح وتنسى همومك ، لكنها بعد ذلك تغتال عقلك وتسلبك وقارك .

فإذا أضفتَ إلى ذلك أنها محرمة ، وأنها من أكبر الكبائر بان لك ضررها . صحيح فيها ربح لمَنْ يتاجر فيها ، لكنه ربح حرام ، لذلك جعل الله خمر الدنيا قليلة ، أما خمر الآخرة فأنهارٌ لأنها فى الآخرة لذة للشاربين .

﴿لا فِيهَا غَوْلٌ وَلا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ (٤٧)﴾ [الصافات] يعنى : لا تغتال العقل ، ولا ينتج عن شُرْبها أضرار ، والنزف هو إخراج شىء من شيء كمن يقيىء مثلاً بعد شربها ، أو يصيبه دوار أو صداع .

﴿وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُصَفًّى .. (١٥)﴾ [محمد] إذن : ذكر الماء أولاً لأهميته بالدرجة الأولى ثم اللبن ، لأنه يُحمل محمل الماء حتى يوجد الماء ، وهو عنصر أساسى فى الغذاء ، ثم ذكر الخمر ، لأن الإنسان بعد أنْ يأكل ويشرب يحتاج فى كمال السعادة كأساً من هذه الخمر .

أما العسل فيأتى فى آخر هذه القائمة لأن الله تعالى قال فيه : ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ (٦٩)﴾ [النحل] إذن : الميزة التى تُميّز العسل ليست فى طعمه وحلاوته ، بل فى كونه شفاء ، والجنة لا مرض فيها . إذن : يشرب فى الجنة للذته وجمال طعمه .

ومعنى ﴿مُصَفًّى .. (١٥)﴾ [محمد] ليفرِّق بينه وبين عسل الدنيا

الذى لا يخلو من شوائب ، لأن الإنسان يجمعه من الجبال ، فهى أول مسارح النحل ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (٦٨)﴾ [النحل]

والعالم الأمريكى الباحث فى حياة النحل وجد أن نحل الجبال هو أقدم أنواع النحل ، وما دام من الجبال فلا يخلو من شوائب ، أما عسل الجنة فمصفًّى بقدرة الذى أعدَّه سبحانه .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ .. (١٥)﴾ [محمد] بعد أنْ ذكر الحق سبحانه ما فى الجنة من السوائل يذكر ما فيها من الثمرات دون أنْ يسميها لأننا لا نعرفها .

لذلك قال فى آية أخرى : ﴿وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا ..(٢٥)﴾ [البقرة] يعنى : ثمار متشابهة ، لكن مختلفة المذاق ، حتى لما أعطانا مثالاً بالعنب والعموميات ، فهى فى الجنة غير الذى نعرفه فى الدنيا .

وإذا كانت الثمار عندنا لها بيئات تجود فيها ولها مواسم ، فثمار الجنة موجودة فى كلِّ الأوقات ، فالبيئات فى الدنيا من الأسباب ، أما الآخرة فبالمسبِّب سبحانه .

وقوله تعالى : ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ .. (١٥)﴾ [محمد] بعد أنْ أعطانا ربنا سبحانه لذة المادة والقالب فى الجنة يعطينا لذة أعلى هى لذة نَيْل المغفرة من الله كرماً وتفضلاً ، لأنهم ما دخلوا الجنة إلا بالمغفرة ، لكن قد يذكر أحدهم ذنبه فيقول له : أنت مغفور لك .

وقد ورد فى الحديث القدسى أنه بعد أنْ يدخل أهل الجنة الجنة يسألهم ربُّ العزة سبحانه : أرضيتم يا عبادى ؟ فيقولون : وما لنا لا

نرضى يا رب ، وقد أعطيتنا كذا وكذا فيقول : الآن أُحِلُّ عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم بعده أبداً[(١)] .

ثم يضعنا الحق سبحانه أمام هذه المقارنة بين أهل الجنة وأهل النار ، فيقول : ﴿كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا [(٢)] فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ (١٥)﴾ [محمد] يعنى : أيهما أفضل ، واحكم أنت وسنرتضى حكمك .

هذه هى الجنة أو مثل لها : أتستوى مع مقابلها وهو الخالد فى النار ؟ ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ (١٥)﴾ [محمد] فكما ذكر الماء أولاً فى الجنة ذكره أيضاً أولاً فى النار والعياذ بالله .

وكلمة ﴿سُقُوا .. (١٥)﴾ [محمد] ولم يقُلْ شربوا لأن الشرب طواعية واختيار ، إنما ﴿سُقُوا .. (١٥)﴾ [محمد] يعنى : رغماً عنهم ودون إرادتهم ، مثل ما تعطى الولد الصغير الدواء فتسقيه له على كُرْه منه .

﴿مَاءً حَمِيمًا .. (١٥)﴾ [محمد] الماء معروف أنه يُشرب للارتواء ويُشرب بارداً ، أما ماء جهنم والعياذ بالله فهو حميم يعنى : تناهتْ حرارته ، فكيف بهم وهم فى النار ويريدون أنْ يُبردوا حرارة أجوافهم فيسقوْن الحميم الذى يزيدهم حرارة فوق حرارة النار .

لذلك قال تعالى فى آية أخرى : ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٠٦٧) ، (٦٩٦٤) وكذا مسلم فى صحيحه (٥٠٥٧) من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه ، ولفظه عند مسلم أن النبى ﷺ قال : إن الله يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة فيقولون : لبيك ربنا وسعديك والخير فى يديك . فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : وما لنا لا نرضى يا رب وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك ، فيقول : ألا أعطيكم أفضل من ذلك ؟ فيقولون : يا رب وأى شىء أفضل من ذلك ؟ فيقول : أحل عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم بعده أبداً .

(٢) حَمَّ الماء : اشتدت حرارته فهو حميم أى : ساخن شديد الحرارة [القاموس القويم ١/١٧٣] .

يَشْوِي الْوُجُوهَ ..(٢٩)﴾ [الكهف]

ثم يبين أثر هذا الماء الحميم ﴿فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ (١٥)﴾ [محمد] وليتها قطعتْ وانتهت المسألة ، إنما هم فى عذاب مقيم دائم لا يُفتَّر عنهم .

﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ .. (٥٦)﴾ [النساء] والأمعاء جمع معى بكسر الميم ، وقد ورد فى الحديث الشريف قول سيدنا رسول الله : « المؤمن يأكل فى معىً واحد ، والكافر يأكل فى سبعة أمعاء »[1] يعنى : المؤمن يأكل على قدر حاجته أو فى أكله وفى طعامه بركة ، أما الكافر فيأكل حتى تمتلىء بطنه .

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ (١٦)﴾

قوله تعالى : ﴿وَمِنْهُم .. (١٦)﴾ [محمد] ممَّنْ ؟ ستعرف بعد أن تقرأ أوصافهم ﴿مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ .. (١٦)﴾ [محمد] يستمع إلى رسول الله وهو يقرأ القرآن ﴿حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ .. (١٦)﴾ [محمد] يا محمد ﴿قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ .. (١٦)﴾ [محمد] أمثال ابن مسعود وابن عباس ﴿مَاذَا قَالَ آنِفًا .. (١٦)﴾ [محمد] يعنى : ما الجديد فيما قاله محمد ، كأنهم يحتقرون ما سمعوه من رسول الله .

---

(١) حديث صحيح . أخرجه مالك فى موطئه (١٤٤٢) والبخارى فى صحيحه (٤٩٧٧ ، ٤٩٧٨) وكذا ابن ماجه فى سننه (٣٢٤٧) وأحمد فى مسنده (٧١٨٤ ، ٩٠٠٨ ، ٩٢٤٨ ، ٩٤٩٦) كلهم من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، وفى الباب عن ابن عمر وأبى موسى الأشعرى .

هذه إذن ليست صفات الكافرين ، لأن الكافرين لم يكونوا يستمعون للقرآن ، إنما هى صفات المنافقين الذين كانوا يشاركون المسلمين صلاتهم ومجالسهم ويذوبون فيهم بخبث ودهاء ، لكن كان القرآن ينزل على رسول الله فيكشفهم .

لذلك كان النفاق أسوأ وأضرَّ على المسلمين من الكفر ، فالكافر معلوم أنه عدو ظاهر العداوة ، ويمكن أنْ تحتاط له ، أمَّا المنافق فواحد من الجماعة المسلمة يعلن الإسلام ويبطن الكفر ، فعداوته غير ظاهرة وخطره أعظم .

والذى يتتبع تاريخ النفاق فى الإسلام يجده لم يظهر فى مكة إنما ظهر فى المدينة ، فرغم العداء الشديد بين الإسلام والكفار فى مكة إلا أنه كان عداءً ظاهراً مُعلناً يمكن مواجهته ، فلم يوجد فيها نفاق ، لم يظهر إلا فى المدينة ، لماذا ؟

لأن النفاق لا يكون إلا مع القوى ، فالضعيف لا يُنافق الضعيف ، تعلن العداء فى وجهه ، أما القوى فتنافقه لتتغلب عليه .

إذن ما الداعى للنفاق فى مكة والمسلمون فيها قلَّة مستضعفة ، هذا يعنى أن النفاق ظاهرة تدل على قوة الإيمان ، وأنه أصبح له شوكة تُنَافَق ، وهذا حدث فى المدينة .

لذلك قال سبحانه وتعالى فى حقهم : ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ ..(١٠١)﴾ [التوبة]

كلمة ﴿يَسْتَمِعُ .. (١٦)﴾ [محمد] وردتْ هذه المادة فى القرآن بلفظ : سمع واستمع وتسمَّع ، سمع أى : دون إرادة منه للسماع،

واستمع لمن يحب أنْ يسمع شيئاً محبوباً لديه ، أما تسمع ففيها تفعُّل وتكلُّف للسماع ومحاولة .

إذن : قال : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ .. (١٦) ﴾ [محمد] يعنى : برغبته وإرادته وهو محب لأنْ يسمع ، وهكذا كان حال المنافقين يجلسون فى الصفوف الأولى ويُبدون من الاهتمام ما لا يُبديه غيرهم ، فلا تفوتهم كلمة ولا تفوتهم صلاة ليحبكوا خطتهم ويُخْفوا نفاقهم .

﴿ أُوْلَـٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ .. (١٦) ﴾ [محمد] لأنهم سمعوا الكلام ولم يؤمنوا به ولم يعملوا بمقتضاه ، فكان الجزاء أنْ ختم الله على قلوبهم وطبع عليها ، وكأن الله يقول لهم : ما دُمتم أحببتم النفاق فسوف أزيدكم منه وأختم على قلوبكم حتى لا يخرج منها النفاق ولا يدخلها الإيمان .

﴿ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (١٦) ﴾ [محمد] الهوى أنْ يميل قلبك إلى شىء تعتقد أنه سارّ ومُفرح لك ، فرح عاجل ولذة وقتية دون النظر فى العواقب بعد هذه اللذة .

إذن : اجعل لهواك ضوابط ، واختر الهوى الأبقى أثراً والأدوم نفعاً ، اجعلْ هواك فيما ينفعك لا فيما يضرك ، كالذى يأكل (شطة) مثلاً ، لأنها تجعل للأكل لذة وطعماً هو يرغب فيه الآن حين يأكل ، لكنه غفل عن مسألة إخراج هذا الطعام ، وأنه سيجُر عليه ألماً يفوق لذة الأكل .

إذن : على العاقل أنْ يتدبر عواقب هواه ، ويحذر أنْ يميل به الهوى ، لذلك يقول تعالى : ﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَـٰوَاتُ وَالأَرْضُ .. (٧١) ﴾ [المؤمنون]

والحق سبحانه أتى لنا بالمنهج ليحمينا من الهوى ، لأن أهواء النفوس متضاربة ومتعارضة ، فهى أداة اختلاف وتنافر ، والله يريد لنا أن نتفق ، وأنْ نتساند لا أنْ نتعاند .

وفى الحديث الشريف يقول ﷺ : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئتُ به »[1] .

البعض يقف عند قوله تعالى : ﴿أُوْلَـٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ .. (١٦)﴾[محمد] فيقول ما دام أن الله طبع على قلوبهم وأراد لهم الضلال ، فلماذا يعذبهم ؟ نقول : الله يهدى العباد لا يضلهم ، وهم الذين يختارون الضلال ولا يهتدون بالإيمان .

لذلك نقرأ : ﴿وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٢٦٤)﴾[البقرة] و﴿وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (١٠٨)﴾[المائدة] و ﴿وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٢٥٨)﴾[البقرة]

فالضلال إذن وعدم الهداية ناشىء عنهم هم ونتيجة مسلكهم غير المستقيم ، فالله لم يهدهم لأنهم إما كافرون أو فاسقون أو ظالمون .

وإلا فالحق سبحانه فى واقع الأمر هدى الجميع ، المؤمن والكافر ، لأنه نادى الجميع فى قوله سبحانه : ﴿يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ (٢١)﴾[البقرة] فدلَّ الجميع وأرشدهم إلى منهجه وعاقبة السَّيْر على هذا المنهج ، وأنذرهم عاقبة الخروج عنه .

---

(١) أخرجه ابن بطة فى كتابه (الإبانة الكبرى) (٢٩١) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ، وذكره السيوطى فى الدر المنثور (٣٠٨/٢) وعزاه للأصبهانى فى الترغيب بلفظ « لن يستكمل مؤمن إيمانه حتى يكون هواه تبعاً لما جئتكم به » . وأخرجه الفسوى فى الأربعين (٨) وابن أبى عاصم فى السنة (١٤) .

وبيَّن لهم أن المنهج ما وُضع إلا لمصلحتهم باستقامة أمورهم فى الدنيا وسلامتهم فى الآخرة ، وأنه سبحانه لا تنفعه طاعة ، ولا تضره معصية ، فهو سبحانه غنى عنهم مُستغن عن عبادتهم ، لأن له صفات الكمال قبل أنْ يخلقهم ، يقول لعبده : يا عبدى أقبل علىَّ أعْطكَ خيرى .

واقرأ قوله تعالى فى قوم ثمود : ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ ..(١٧)﴾ [فصلت] يعنى : دللناهم وأرشدناهم إلى طريق الخير ﴿فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ ..(١٧)﴾ [فصلت] فلما استحبُّوا العمى أعماهم الله .

ثم إن الذين يقولون : لماذا يعذبهم الله وهو أضلهم ؟ لماذا لا يذكرون المقابل فيقولون : ما دام كتب عليهم الطاعة ، فلماذا يثيبهم عليها ؟ .

لذلك ورد فى الحديث القدسى : قالت السماء : يا رب إئذن لى أنْ أسقط كسفاً على ابن آدم فقد طعم خيرك ومنع شكرك ، وقالت الأرض : يا رب إئذن لى أنْ أخسف بابن آدم فقد طعم خيرك ومنع شكرك ، وقالت الجبال : يا رب إئذن لى أنْ أسقط على ابن آدم فقد طعم خيرك ومنع شكرك ، فقال الله لهم : دعونى وخلقى لو خلقتموهم لرحمتموهم ، فإنْ تابوا إلىَّ فأنا حبيبهم ، وإنْ لم يتوبوا فأنا طبيبهم ، أبتليهم بالمصائب لأطهرهم من المعايب[(١)] .

وسبق أنْ مثَّلنا مسألة الهداية – ولله المثل الأعلى – برجل المرور

---

(١) أورده الغزالى فى إحياء علوم الدين (٤/٥٢) من قول بعض السلف ولفظه : « ما من عبد يعصى إلا استأذن مكانه من الأرض أن يخسف به ، واستأذن سقفه من السماء أن يسقط عليه كسفاً فيقول الله للأرض والسماء : كفا عن عبدى وأمهلاه فإنكما لم تخلقاه ولو خلقتماه لرحمتماه ، ولعله يتوب إلىَّ فأغفر له ، ولعله يستبدل صالحاً فأبدل له حسنات » .

حين تذهب إليه فتسأله عن الطريق ، فيقول لك : الطريق من هنا ، فإنْ أطعته زادك وقال لك : إن فى الطريق عقبة فى المكان الفلانى فانتبه لها ، أو يأخذك بنفسه حتى تبلغ ما تريد .

وهكذا الحق سبحانه دلَّ الجميع وأرشد الجميع ، فمنْ سمع وأطاع زاده هداية ، ومَنْ أعرض وتمرد زاده ضلالاً بأنْ ختم على قلبه .

لذلك قسَّم العلماء الهداية إلى نوعين : هداية الدلالة وهى للمؤمن وللكافر ، وهداية التوفيق والمعونة ، وهى خاصة بالمؤمن ، لذلك قال فى الآية بعدها :

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ (١) ﴿١٧﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ زَادَهُمْ هُدًى .. ﴿١٧﴾ ﴾ [محمد] أى : بالتوفيق وبالمعونة على الطاعة ﴿ وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾ ﴾ [محمد] فكأن التقوى هى التى تأتى إليهم لا يذهبون هم إليها ، يسَّرها لهم وحبَّبها إليهم ، فى حين أن البعض يظن أن التكليف مشقة على النفس وقيْد يقيدها لكن أبداً .

المتأمل يجد فى التكليف راحة وطمأنينة للنفس والبال ، التكليف

---

(١) آتاهم تقواهم : أى ألهمهم إياها . وفى معناه ستة أقوال :

- آتاهم الخشية قاله الربيع .
- آتاهم ثواب تقواهم فى الآخرة . قاله السدى .
- وفقهم للعمل الذى فرض عليهم . قاله مقاتل .
- بيَّن لهم ما يتقون . قاله ابن زياد والسدى أيضاً .
- أنه ترك المنسوخ والعمل بالناسخ . قاله عطية .
- أنه ترك الرخص والأخذ بالعزائم . ذكره القرطبى فى تفسيره (٩/ ٦٢٩٠) .

عصمة للنفس ووقاية لها من المعاطب ، لذلك اقرأ مثلاً : ﴿أُولَـٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ .. ۝٥﴾ [البقرة]

ومعنى ﴿عَلَىٰ هُدًى .. ۝٥﴾ [البقرة] أن الهدى مطيَّتهم إلى الغاية التى يقصدونها ، فهو ليس عبئاً على العبد لأن الخالق سبحانه لم يكلفنا أبداً ما لا نطيق ، وما استعبدنا إلا لمصلحتنا نحن فى استقامة الدنيا وسلامة الآخرة .

لذلك قلنا : إن العبودية لغير الله ذل وهوان ، والعبودية لله عزّ وشرف ، فالعبودية للبشر تعطى السيد خير عبده لكن العبودية لله تعطيك خير الله .

وحين يفهم العبدُ العبادةَ بهذا المعنى يحبها ويتشوَّق إليها ويجد فيها لذة لا تُدانيها لذة ، لذلك يقول النبى ﷺ لبلال مؤذنه : « أرحنا بها يا بلال »[1] أى : بالصلاة ، فكم هى سهلة خفيفة على قلب المؤمن ، وكم هى ثقيلة على قلب المنافق .

إذن : من الهدى أنْ تصلى كما يصلى عامة الناس ، ومن زيادة الهدى أنْ تتشوق للصلاة وتنتظرها وتجد فيها راحتك ، لأنك فى حضرة ربك عز وجل ، والله غيْب ويصلح عبده أيضاً بالغيب ، فالصلاة تصلحك وتصلح حالك من حيث لا تدرى .

ومن ثمرات التقوى قوله تعالى : ﴿يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٥/٣٦٤) وأبو داود فى سننه (٤٩٨٥) عن رجل من الصحابة ، وذلك أن رجلاً (من خزاعة) قال : ليتنى صليت فاسترحت فكأنهم عابوا عليه ذلك فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يا بلال أقم الصلاة أرحنا بها » .

يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا[١] وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢٩) ﴾ [الأنفال]

فمنْ يتقى الله بموجب الفرقان الذى جاءه من الله وهو القرآن يزيده ، بأنْ يجعل له هو فرقاناً آخر خاصاً به ، فرقاناً يهديه وينير له الطريق ويُميز به بين الأشياء .

إذن : ما عليك فى مسألة التقوى إلا أنْ تسير إليها تقصدها لتفعل وتطيع ، ثم ستجدها هى التى تسعى إليك وتطلبك .

﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ (١٨) ﴾

الحديث هنا عن الكافرين الذين لا يلتفتون إلى أدلة وجود الله فى الكون ، ولا إلى معجزات الرسل فيؤمنون بهم ويصدقونهم ، ولا إلى أحكام الله فيعملون بها ، هؤلاء القوم ماذا ينتظرون ؟

﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ .. (١٨) ﴾ [محمد] أى : ينتظرون ﴿ إِلَّا السَّاعَةَ .. (١٨) ﴾ [محمد] الساعة بالنسبة لهم يعنى الموت ، لأن الزمن ينتهى بالنسبة للإنسان بالموت ، فمَنْ مات قامت قيامته ، والمرء لا يعرف أجله ولا متى يموت ، لأن الله أخفاه واحتفظ به لنفسه سبحانه ، فلا يطلع عليه أحد .

---

(١) الفرقان : الفرق والفصل بين أمرين واستعير للحجة الفاصلة والبرهان القاطع ، وقوله ﴿ إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا .. (٢٩) ﴾ [الأنفال] أى : حجة وبرهاناً . [القاموس القويم ٢/٧٨] .

إذن : طول العمر وقصره نحن لا دخْلَ لنا به ، ولا نتحكم فيه ، لأنه متروك لمن بيده الأعمار والآجال ، لكن بيدك عرضه بأنْ تشغل عمرك بعمل الخير ، وتوسِّع دائرة الخير فى حياتك وتنفع الآخرين ، كما يمكنك أنْ تضيف لحياتك بُعداً آخر ، بأنْ تفعل من الخير ما يبقى ذكراً لك بعد موتك ، وذُخْراً لك عند ربك .

فإذا علمتَ أن العمر نفسٌ يدخل ولا يخرج ، أو طرفة عين لا تعود كنت على حذر من أنْ تموت على معصية الله ، على حذر من أنْ تؤخر التوبة أو تسوِّف فيها ، لأنك لا تضمن متى يداهمك الموت .

فحين تسمع نداء الصلاة قُمْ ولبِّ النداء ، ولا تقل الوقت طويل ، وسوف أصلى ، معك مال وتقدر أنْ تحج لا تقل أحج العام القادم ، لأنك إذا كنتَ لا تضمن عمرك لحظة ، فكيف تضمنه بعد عام ؟ صحيح ليس فى تأخير هذه الأعمال عقوبة لكن يفوتك بالتأخير فضل الصلاة لوقتها وفضل الجماعة .

لذلك ورد فى الحديث الشريف : « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً »[1] .

البعض فهم من الحديث « اعمل لدنياك » أى : ما يكفيك طوال العمر ، لكن المراد بالعمل هنا : اعمل للدنيا على رسلك ولا تستغرق فيها ، وما فاتك منها اليوم تدركه غداً . يعنى على مهل ولا تأخذ المسألة من أول صفقة .

---

(١) ليس بحديث وإن اشتهر على الألسنة ، ولكنه منسوب إلى بعض الصحابة مثل عمرو بن العاص (ذكره ابن عبد ربه فى العقد الفريد ١/٢٦١) والجاحظ فى البخلاء ، وقال الألبانى فى السلسلة الضعيفة : لا أصل له .

والذى يُعاب فى السَّعى من أجل الدنيا أنْ تستحوذ الدنيا على كلِّ اهتمامك وتأخذ كل وقتك وتريدها على عجل . والأخطر من ذلك أنْ نستعين بالنعمة وبالمال على المعصية أو نروج السلعة بشىء محرم شرعاً ، فتنقلب النعمة فى أيدينا إلى نقمة .

لذلك يقول تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا .. (٢٨)﴾ [إبراهيم] ككثيرات من بناتنا الآن نراهن كاسيات عاريات يُظهرنَ ما حباهن الله من جمال ، وبدل أنْ تشكر النعمة بصيانتها تَكْفُرها بتبرجها .

وياليت الضال يضل فى نفسه ، إنما الأدهى من ضلاله أنْ يكون مثالاً لغيره فتشيع الفتنة فى المجتمع ، لذلك يقول تعالى فى تتمة الآية : ﴿وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (٢٨)﴾ [إبراهيم] ما هى دار البوار ؟ ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ (٢٩)﴾ [إبراهيم]

فهذه الفتن تعصف بالشباب خاصة فى مراحل المراهقة وعدم وجود فرصة عمل وهم ما يزالون عالة على أهاليهم ، لذلك نقول لبناتنا : اتقين الله فالشباب معذور غلبان كفاه أنْ يدافع سُعار المراهقة ، فلا تُهيجنَّ فيه سعاراً جديداً بما تفعلْنَ من التبرج والسُّفور وعدم التحشم .

وأذكر مرة أنهم أرادوا أنْ يكرموا أحد رجالهم البارزين فأقاموا له حفلاً وأحضروا فيه الراقصات وما إلى ذلك ، فقلت : سبحان الله أهكذا يكون تكريم البارزين عندنا ، ثم أمسكت بصاحبنا وقلت له (يا سلام الرقص الليلة كان حلواً ، فالبنت كانت (تتشخلع) بورع وتتثنَّى بتقوى) !! إيه حكايتكم بالضبط ؟

نعم :

﴿ وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (٢٨) ﴾ [إبراهيم]

وقوله تعالى : ﴿ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً .. (١٨) ﴾ [محمد] يعنى : فجأة ﴿ فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا .. (١٨) ﴾ [محمد] أى : علاماتها وسماتها المميزة لها المنذرة بقربها ، وقد ذكر لنا سيدنا رسول الله ﷺ طرفاً من هذه العلامات ، فقال : « نساء كاسيات عاريات مميلات مائلات رؤوسهن كأسنمة[1] البخت المائلة لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها ، وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا »[2] .

صحيح ، فالرأس على شكل (مش عارف إيه والشفايف حمَّروها) ، والحواجب دقَّقوها .. إلخ يُغيِّرنَ خَلْق الله ويستعنَّ بنعمة الله على معصية الله ، وهذه من علامات الساعة .

لذلك نسأل الله الهداية لبناتنا ، وأنْ تحفظ كُلٌّ منهن جمالها ، وأنْ تجعل حمد الله على النعمة طاعةً له سبحانه ، وألاَّ تجعل نعمة الله عليها مُسمَّمة بمعصيته وأقول لأولياء الأمور : اتقوا الله فى البنات ولا تضطروهن للعمل فى الإعلانات الخليعة لأنها محرمة ، ومَنْ يأكل منها إنما يأكل سُحْتاً من حرام .

كذلك من أشراط الساعة التى أخبر بها سيدنا رسول الله ﷺ « إذا رأيت شُحاً مطاعاً ، وهَوى مُتبعاً ، وإعجابَ كل ذى رأى برأيه

---

(١) سنام البعير والناقة : أعلى ظهرها . والبخت : جمع بُختىّ وهى أنثى الجمال وهى جمال طوال الأعناق . [لسان العرب - بتصرف] .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه (٣٩٧١ ، ٥٠٩٨) والإمام مالك فى موطئه (١٤٢١) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، وكذا أحمد فى مسنده (٨٣١١ ، ٩٣٠٣) .

فانتظر الساعة »[١] .

وقال : « إذا وُسِّد الأمر لغير أهله فانتظر الساعة »[٢] وغير ذلك من العلامات .

وقوله سبحانه : ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ ﴿١٨﴾﴾ [محمد] يعنى : كيف أو من أين لهم التذكُّر وقد فات أوانه وباغتتهم القيامة ، أنّى لهم التذكر ، وأنّى لهم أنْ يستأنفوا عملاً صالحاً .

ثم يختمها بقضية القضايا التى إنْ صلُحَتْ صَلُح للإنسان كلُّ شىء ، فيقول :

﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ﴿١٩﴾﴾

معنى ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ اللَّهُ .. ﴿١٩﴾﴾ [محمد] لا تطلب بأى

---

(١) أخرج أبو داود فى سننه (٣٧٧٨) من حديث أبى ثعلبة الخشنى أن رسول الله ﷺ قال : « بل ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر حتى إذا رأيت شحاً مطاعاً وهوى متبعاً ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذى رأى برأيه فعليك بنفسك ودع عنك العوام فإن من ورائكم أياماً الصبر فيها مثل قبض على الجمر ، للعامل فيهم مثل أجر خمسين رجلاً يعملون مثل عمله » . وكذا الترمذى فى سننه (٢٩٨٤) وابن ماجه فى سننه (٤٠٠٤) .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٧) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : « بينما النبى ﷺ فى مجلس يحدث القوم جاءه أعرابى فقال : متى الساعة ؟ فمضى رسول الله يحدث فقال بعض القوم : سمع ما قال فكره ما قال . وقال بعضهم : بل لم يسمع حتى إذا قضى حديثه . قال : أين أراه السائل عن الساعة ؟ قال : ها أنا يا رسول الله . قال : فإذا ضُيعت الأمانة فانتظر الساعة . قال : كيف إضاعتها ؟ قال : إذا وُسِّد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة » .

شيء سبباً غير الله ، ولا يجوز لك أنْ تلجأ لغير الله ، فاللجوء لغير الله لا يفيد ، وقوله ﴿فَاعْلَمْ .. (١٩)﴾ [محمد] العلم إما علم يقين إذا أخبرك به مَنْ تثق فى صدقه ، وعَيْن يقين حينما تراه بعينك وترى أثره ، وحَقَّ اليقين حينما تباشره بنفسك .

والحق سبحانه حينما يقول لنبيه ﷺ ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ اللَّهُ .. (١٩)﴾ [محمد] هل يعنى هذا أنه لا يعلمها ؟ لا بل المراد داوم عليها ، وكما علمتها فى الماضى فاجعلها فى الحاضر وفى المستقبل . وهذا من باب قوله تعالى : ﴿يَـأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا .. (١٣٦)﴾ [النساء] فيأمرهم بالإيمان وقد ناداهم به .

قالوا : إذا أمر الله أمراً وهو موجود بالفعل فى المأمور فالمراد داوم عليه ، فأنت مؤمن لكن مطلوب منك أنْ تداوم على إيمانك فى المستقبل .

والحق سبحانه حينما يأمر نبيه هذا الأمر إنما ليُطمئنه على أنه إنْ جُحد وعُودِىَ وأُوذِىَ بشتَّى أنواع الإيذاء والاستهزاء لا يحزن ولا يهتم ، لأن الله بجواره ينصره ويؤيده ، ومهما فعل البشر فلن يمنعوه من إنفاذ دعوته .

فسُنة الله فى الرسل أنْ ينصرهم : ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣)﴾ [الصافات] لذلك قلنا : إذا رأيتَ جندياً منتسباً للإسلام وغُلِب ، فاعلم أن شروط الجندية اختلَّتْ عنده وإلاَّ ما هُزم .

وأخذنا مثالاً على ذلك بما حدث للمسلمين يوم أُحُد من مخالفة أمر رسول الله فهُزموا وهو بينهم ، وهذه سنة الله ولن تجد لسنة الله

تبديلاً ، ولو انتصروا بعد أنْ خالفوا أمر الرسول لهان عليهم أمره بعد ذلك ، ولقالوا فى أنفسهم : لقد خالفناه وانتصرنا .

إذن : جاءت الهزيمة لتردهم إلى الصواب وتوقظ غفلتهم فى مسألة طاعة أمر رسول الله .

وقوله سبحانه : ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ..(١٩)﴾ [محمد] فهل يعنى هذا أن للرسول ذنباً يجب الاستغفار منه ؟ هذه من المسائل التى دار حولها جدل كثير ، والمعنى هنا : إذا سَهتْ نفسك فأذنبتَ فاستغفر لا أنه أذنب بالفعل ، يقول له ربه : إذا حصل منك ذنب فاستغفر له ، وكذلك استغفر للمؤمنين والمؤمنات .

وفى آية أخرى قال تعالى : ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا (١) لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ .. (٢)﴾ [الفتح] فذكر الذنب فى حق الرسول رغم أنه معصوم . والعلماء حينما بحثوا مثل هذه الآيات قالوا : هى من باب : حسنات الأبرار سيئات المقربين[١] .

ومعلوم أن المقربين درجة من درجات الطاعة والامتثال لله أعلى من درجة الأبرار ، لأن الأبرار هم الذين يطيعون الله ويفعلون الخيرات وينفذون الأوامر .

أما المقربون فهم الذين يزيدون على ذلك تقرباً إلى الله ، حتى فى عُرْف الناس المقرَّب منك هو الصديق الملازم لك الذى لا يفارقك

---

(١) ذكره القرطبى فى تفسيره فى عدة مواضع (١/٣٠٩) (١١ / ٢٥٥) وعزاه للجنيد رحمه الله . وذكر السخاوى فى المقاصد الحسنة (١/١٠٣) أنه من كلام أبى سعيد الخراز وقال : رواه ابن عساكر فى ترجمته ، وذكر العجلونى فى كشف الخفاء مثل هذا (١١٣٧) ومثله الفتنى فى تذكرة الموضوعات (١/١٨٨) .

ويحبك ويخاف عليك .

كذلك المقرب من الله ، له قانون آخر فى التعامل غير قانون الأبرار ، ومقياس آخر للحسنات والسيئات يناسب درجة قُربه من ربه عز وجل .

ترى لو أنك مثلاً مرضت لا قدر الله وجاءك أحد معارفك وزارك فى مرضك ولو مرة واحدة ماذا تفعل ؟ تشكره وترى أنه أدى الواجب .

أما صديقك المقرب لو زارك مرة واحدة مثله ماذا تفعل ؟ تعاتبه وتلومه لأنك كنت تنتظر منه أكثر من زيارة ، هذا هو معنى : حسنات الأبرار سيئات المقربين .

إذن : الحسنة من الإنسان العادى قد تُعدُّ سيئة بالنسبة للنبى ، فالنبى مقرب وللمقرب حساب آخر ، ولهذه القربى ثمن ، وكأن الله يقول لك : حافظ على هذه الدرجة من القرب منى ، وإياك أنْ يحدث منك ولو شىء بسيط بالنسبة لغيرك .

أو أن سيدنا رسول الله كما قال : « رُفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه »[1] فقوله (عن أمتى) يعنى : أنه غير داخل فى هذا الحكم ، فلا يجوز منه النسيان الذى يجوز من غيره والنسيان فى حقه إذن يُعدُّ ذنباً .

لذلك لما صلَّى النبى ﷺ صلاة رباعية وسلَّم منها بعد ركعتين

---

(١) لفظ الحديث هو : « إن الله تجاوز عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » . أخرجه ابن ماجه فى سننه (٢٠٣٣ حديث أبى ذر الغفارى) ، (٢٠٣٥ حديث ابن عباس) ، وقد أخرجه البيهقى فى سننه الكبرى (٨٤/٦) من حديث ابن عمر بلفظ (وضع عن أمتى) الحديث .

قال له أحد الصحابة وهو ذو اليدين : أقصرتْ الصلاة أم نسيتَ يا رسول الله ؟ قال : كل ذلك لم يكُن ، قال : بل بعض ذلك كان[١] . انظر عظمة الصحابى فى السؤال ، وعظمة رسول الله فى الرد ، وعظمة الإيمان الذى ربَّى هؤلاء .

إذن : من الممكن أنْ ينسى رسول الله ويُعد نسيانه ذنباً لماذا ؟ لأنه رسولٌ وصاحبُ رسالة مكلَّف بتبليغها وإشراقات النبوة لا تفارقه فكيف ينسى ؟ لذلك لما سأل أحد العامة العالم العابد المنقطع لله وقال له : ما حكم مَنْ سها فى الصلاة ؟ قال له : عندنا أم عندكم ؟ قال : بل عندنا . قال : يسجد للسهو ، قال : وعندكم ؟ قال : نقتله .

ولماذا نذهب بعيداً وقصة معصية سيدنا آدم معروفة للجميع ، قال تعالى – فى حق آدم ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ (١٢١)﴾ [طه] فسمى نسيان آدم معصية ، لماذا ؟

قالوا : لأن آدم خلقه الله بالمباشرة ، خلقه الله بنفسه ونفخ فيه من روحه ، فله ميزة فى الخَلْق ليستْ لغيره ، ولم يكلف إلا تكليفاً واحداً هو عدم الأكل من الشجرة ، فأىّ شىء ينساه وأى شىء يذكره وهو أمر واحد .

---

(١) أخرجه مالك فى الموطأ (١٩٦ ، ١٩٧) ، وأبو داود فى سننه (٨٥٨) والنسائى فى سننه (١٢١١) وعبد الرزاق فى مصنفه (٣٤٤٨) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : صلى رسول الله ﷺ صلاة العصر فسلم فى ركعتين فقام ذو اليدين فقال : أقصرت الصلاة يا رسول الله أم نسيت ؟ فقال رسول الله ﷺ : كل ذلك لم يكن . فقال : قد كان بعض ذلك يا رسول الله . فأقبل رسول الله ﷺ على الناس فقال : أصدق ذو اليدين فقالوا : نعم فقام رسول الله فأتم ما بقى من الصلاة ثم سجد سجدتين بعد التسليم وهو جالس .

لذلك كان النسيان فى حقه معصية ، لأنه نبى رسول وهو أبو البشر ، لذلك معصية آدم جاءت لحكمة لأنه أبو البشر ، والبشر على قسمين : معصوم وغير معصوم ، المعصوم هم الرسل . وغير المعصوم هم بقية الخلق فلا بدّ أنْ يتمثل فى آدم القسمان .

فحينما يخاطب الحق سبحانه نبيه ﷺ ويقول له : ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ .. (١٩)﴾ [محمد] أى : من النسيان الذى تجاوزتُ عنه لأمتك استغفر أنت منه لأنه لا يغفر لك كما يغفر لأمتك .

ثم تعال وانظر فى المواضع التى عاتب الله فيها نبيه محمداً ، اقرأ مثلاً : ﴿يَـٰأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ[1] تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١)﴾ [التحريم] مجرد أن واحدة من زوجاتك غضبت من شىء تحرمه على نفسك وقد أحله الله لك ، فعدّ هذا ذنباً .

كذلك لما أذن لبعض الصحابة فى التخلف عن القتال عاتبه ربّه : ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ (٤٣)﴾ [التوبة] إذن : عاتبه على ذلك ، لكن بدأه بالعفو عنه .

---

(١) اختلف فى سبب نزول صدر هذه السورة فقيل : نزلت فى شأن مارية وكان رسول الله ﷺ قد حرَّمها على نفسه ، وأخرج ابن جرير الطبرى أن رسول الله ﷺ أصاب أم إبراهيم فى بيت بعض نسائه (فى رواية : أنها بيت حفصة) فقالت : أى رسول الله فى بيتى وعلى فراشى ؟ فجعلها عليه حراماً ، قالت : أى رسول الله كيف يحرم عليك الحلال ؟ فحلف لها بالله لا يصيبها فأنزل الله ﴿يَـٰأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ .. (١)﴾ [التحريم] . قال ابن كثير فى تفسيره (٣٨٧/٤) : « الصحيح أن ذلك كان فى تحريمه العسل أنه كان يشرب عسلاً عند زينب بنت جحش فتواطأت عائشة وحفصة رضى الله عنهما أن قالا له : أكلت مغافير (أى عسلاً) فقال : لن أعود له » نزلت الآية .

ثم إن الرسول فيه جانبان جانب البشرية وجانب الرسالة ، فآدم عليه السلام عصى ببشريته بدليل قوله تعالى : ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ (١٢١) ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ (١٢٢)﴾ [طه] إذن : ما جاءته الرسالة إلا بعد أنْ خاض هذه التجربة ، وكان منه ما يكون من البشر ، ثم اجتباه ربه بالرسالة .

وحين نتأمل القضايا التى عاتب الله فيها نبيه محمداً نجدها مسائل عامة ليس فيها نصّ ولا حكم شرعى خالفه رسول الله ، فكان يجتهد فيها برأيه كبشر وكما يمليه الموقف .

فمثلاً فى قصة عبد الله بن أم مكتوم[1] الذى عاتب الله رسوله من أجله ، فقال : ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ (١) أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ (٢)﴾ [عبس] تجد هذا العتاب ليس اعتراضاً على ما فعله رسول الله إنما رحمة به وشفقة عليه .

لأنه ترك عبد الله وهو مؤمن جاء ليسأله عن حكم من أحكام الشرع ، وأعرض عنه ليتفرغ لبعض صناديد الكفر ، فهو ﷺ بتفكيره البشرى حريص على هداية هؤلاء ، أما عبد الله فهو مؤمن بطبيعة الحال .

إذن : رسول الله يشقّ على نفسه فى سبيل دعوته ، ثم اقرأ إلى نهاية القصة ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ (٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ (٤) أَمَّا

---

(١) هو : عمرو بن قيس بن زائدة بن الأصم صحابى شجاع كان ضرير البصر ، أسلم بمكة وهاجر إلى المدينة بعد وقعة بدر ، وكان يؤذن لرسول الله ﷺ فى المدينة مع بلال وكان النبى يستخلفه على المدينة يصلى بالناس فى عامة غزواته ، حضر حرب القادسية فقاتل وهو أعمى ورجع بعدها إلى المدينة فتوفى فيها قبيل وفاة عمر بن الخطاب عام ٢٣ هـ (الأعلام للزركلى ٥ / ٨٣) .

مَنِ اسْتَغْنَىٰ (٥) فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ (٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلاَّ يَزَّكَّىٰ (٧) وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ (٨) وَهُوَ يَخْشَىٰ (٩) فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ (١٠)﴾ [عبس]

فكأن الحق سبحانه يقول لنبيه : يا محمد ليست مهمتك أنْ يؤمن الناس ، مهمتك أنْ تدلهم وأنْ ترشدهم فقط ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ .. (٢٠)﴾ [آل عمران] وخاطبه فى موضع آخر بقوله : ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣)﴾ [الشعراء]

وفى الكهف : ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَـٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا (٦)﴾ [الكهف] يعنى : ما عليك إلا أن تُبلغ ، أما مسألة الإيمان فأريدهم مؤمنين قلباً لا قالباً ، طواعية لا إجباراً .

وقاال تعالى : ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ (٤)﴾ [الشعراء] أى : أجبرناهم على الإيمان .

وقوله سبحانه : ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ (١٩)﴾ [محمد] معنى ﴿مُتَقَلَّبَكُمْ .. (١٩)﴾ [محمد] ذهابكم إلى أعمالكم وسعيكم فى أنحاء الأرض الواسعة طلباً للرزق . و ﴿وَمَثْوَاكُمْ (١٩)﴾ [محمد] مرجعكم إلى بيوتكم ومأواكم إلى مضاجعكم بالليل .

والمعنى : أنه سبحانه يعلم كل أحوالكم ولا يخفى عليه شىء من أموركم . وسبق أنْ تحدَّثنا عن فَضل السعى فى مناكب الأرض واستنباط خيراتها ، لأنك فى بيئتك ستأخذ خيرات هذه البيئة وحدها ، أمَّا حين تتنقل فى شتى نواحى الأرض فإنك تجد ألواناً أخرى من الخيرات .

الخالق سبحانه وزَّع خيره على جميع أرضه ، فكل أرض ولها

عطاء ، الصحراء لها عطاء ، والأرض الزراعية لها عطاء ، ليس هناك أرض فقيرة وأخرى غنية ، بحيث لو أخذتَ قطاعاً طولياً من الكرة الأرضية لوجدتَ فيه من الخيرات مثل ما فى القطاعات الأخرى .

وقد كنا نظن أن الصحراء الجرداء لا خير فيها ، والآن هى مصدر الرزق الوفير لأصحابها الذين صبروا على شظف العيش فيها أعماراً طويلة .

لذلك يقول تعالى : ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا .. (٦٩)﴾ [النمل] وقال : ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا .. (١١)﴾ [الأنعام] أى : تأملوا ما فيها من آيات وعبر ، والإنسان يسافر ويتنقل إما للسياحة ، وإما لطلب الرزق ، وفى كلتا الحالتين ينبغى ألاَّ يغفل عن الاعتبار والنظر فى آيات الكون .

وفى موضع آخر قال تعالى : ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا .. (٩٧)﴾ [النساء] فالتقلُّب هو الخروج من المكان الذى تستوطنه إلى مكان لا تستوطنه ، وهذا يحتاج إلى قدرة مالية وصحبة وقوة ، لذلك قال سبحانه ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ (٤٦)﴾[النحل]

فالتقلُّب إذن دليل القوة ، فالرجل الغنى هو الذى يسافر كل يوم إلى مكان يتقلب فى أنحاء الأرض ، أما الفقير فيلزم مكانه لا يبرحه .

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا
أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ
الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ
الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ (٢٠)﴾

كلمة ﴿لَوْلا نُزِّلَتْ سُورَةٌ .. ﴿٢٠﴾﴾ [محمد] ساعة تسمع كلمة (لو) كأنها تمنٍّ للشيء أنْ يحدث ، فهم يتمنون أن تنزل على رسول الله سورة تأمرهم بالقتال ، والسورة نزلت بالفعل لكن نزلتْ تأمرهم بالصبر وتحمّل المشاق وعدم التعرض لأعدائهم .

لكن كل شيء له أوانه ، وهذا يعنى أن حركة المؤمن أصبحت منضبطة بأوامر الحق ، وعناد الكفار ووقوفهم فى وجه الدعوة لا يعنى أن نهجم عليهم ونقاتلهم من تلقاء أنفسنا إنما ننتظر الأوامر .

﴿فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ .. ﴿٢٠﴾﴾ [محمد] الذى تريدونه ﴿رَأَيْتَ الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ .. ﴿٢٠﴾﴾ [محمد] أى : المنافقين ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ .. ﴿٢٠﴾﴾ [محمد] هذا تشبيه كنظر المغشى عليه من الموت . يعنى : المغمى عليه خوفاً وهلعاً .

والمنافق سهل عليه أنْ يذهب ويصلى مع الجماعة فى المسجد ، بل ويقف فى الصف الأول ، لكن إذا وصلتْ المسألة للقتال اختلف الأمر وانكشف المستور من النفاق .

﴿فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ .. ﴿٢٠﴾﴾ [محمد] واضحة الدلالة على المعنى المراد ﴿رَأَيْتَ الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ .. ﴿٢٠﴾﴾ [محمد] يقال : جاءك الموت يا تارك الصلاة ، هل أذهب للقتال وأضيع نفسى ؟!

﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾﴾ [محمد] أى : الأوْلى أنهم يطيعون الأمر ويخرجون للقتال ، والعلماء فسروا هذه الآية وقالوا ﴿ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾﴾ [محمد] يعنى : الهلاك لهم ، وهذا تهديد إنْ لم يرجعوا عن نفاقهم .

﴿ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ (٢١) ﴾

قوله تعالى : ﴿ طَاعَةٌ .. (٢١) ﴾ [محمد] بعد ﴿ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ (٢٠) ﴾ [محمد] تجعلنا نصرف نظرنا عن إثبات الهلاك لهم ونقول : طاعة منهم لأمر الله ، وقول معروف أوْلَى من موقفهم وأوْلَى من نفاقهم .

﴿ فَإِذَا عَزَمَ الأَمْرُ .. (٢١) ﴾ [محمد] يعنى : صمم وجنّد عزيمته للعمل ، كما قال سبحانه : ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ .. (١٥٩) ﴾ [آل عمران] لكن هل الأمر هو الذى يعزم أم صاحبه ؟

إذن : هنا مبالغة جعلتْ من الأمر المعنى شخصاً يعزم ويصمم ويعقد العزم على العمل ، ذلك لأن الحديث هنا عن القتال ، والقتال هو أشقّ ما يمكن أنْ يتحمله المرء ، لأنه يعنى إما الشهادة وإما النصر على العدو .

﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ (٥٢) ﴾ [التوبة]

إذن : ﴿ فَإِذَا عَزَمَ الأَمْرُ .. (٢١) ﴾ [محمد] أبلغ فى التعبير عن المعنى من : عزمت أنت على الأمر ، فكأن الأمر نفسه هو الذى يُلح عليك ، ولا يلح عليك الأمر إلا إذا كان فيه خير كثير لك ، وهل هناك أفضل من الشهادة فى سبيل الله ؟

وقصة مخيريق[1] اليهودى مشهورة ، فبعد أنْ أعلن إسلامه نُودى للقتال فخرج وقاتل حتى قُتل ودخل الجنة وهو لم يُصَلِّ لله ركعة واحدة .

لذلك قال عنه الرسول ﷺ : « مُخيريق خير يهود »[2] . صحيح احرص على الموت توهب لك الحياة ، الحياة الباقية مع الله فى الجنة .

وقوله : ﴿ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ (٢١) ﴾ [محمد] أى : صدّقوه فى أوامره ومنهجه لكان خيراً لهم ، والخير هنا هو البراءة من الموت بعد ذلك ؛ لأنه جاد بنفسه طواعية فى سبيل الله ؛ فوهبه الله الحياة عنده .

﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ[3] أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (٢٢) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ (٢٣) ﴾

---

(١) هو : مخيريق النضرى من بنى النضير صحابى كان من علماء اليهود وأغنيائهم ، أسلم وأوصى بأمواله للنبى ﷺ واستشهد بأحد توفى عام (٣ هـ) . [الأعلام للزركلى ٧/ ١٩٤] وقد قال : « إن أصبت فأموالى لمحمد يضعها حيث أراه الله » . وقد كانت سبعة بساتين فى بنى النضير وكانت أول وقف فى الإسلام .

(٢) ذكره المتقى الهندى فى كنز العمال (٤٦١٥٤) وأن رسول الله ﷺ قالها بعد استشهاد مخيريق فى غزوة أحد . وكذا السهيلى فى الروض الأنف (٢/ ٣٧٥) وابن هشام فى السيرة النبوية (٢/ ٨٨) وابن سعد فى الطبقات الكبرى (١/ ٥٠١) وابن كثير فى البداية والنهاية (٣/ ٢٩١) زاد المسير .

(٣) ذكر ابن الجوزى قولين فى معنى (إن توليتم) :

أحدهما : أنه بمعنى الإعراض : فالمعنى : إن أعرضتم عن الإسلام ﴿ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ (٢٢) ﴾ [محمد] بأن تعودوا إلى الجاهلية يقتل بعضكم بعضاً ويغير بعضكم على بعض . ذكره جماعة من المفسرين .

الثانى : أنه من الولاية لأمور الناس . قاله القرظى . فعلى هذا يكون معنى ﴿ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ . . (٢٢) ﴾ [محمد] بالجور والظلم ، [زاد المسير ٥/ ٣٧٨] .

هذا استفهام من الله بهل ، ورجاء من الله بعسى ، والله لايستفهم ليعلم إنما يستفهم ليقرر حقيقة واقعة .

كلمة (عسى) فعل يدل على الرجاء وبعدها الشىء المرجو ، والرجاء يكون لأمر محبوب متوقع الحدوث وممكن الحدوث ، على خلاف التمنى فهو لشىء محبوب ، لكن مستحيل أنْ يتحقق كقول الشاعر :

ألاَ لَيْتَ الشَّبَابَ يَعُودُ يَوْماً فَأُخبرهُ بمَا فعَلَ المشِيبُ

أما الرجاء فتقول : عسى إنْ ذاكرتَ أنْ تنجح ، لكن يختلف الرجاء باختلاف القائل والمقول له ، فعندما أقول لك : اذهب إلى فلان عسى أن يقضى حاجتك ، أو عسانى أفعل لك شيئاً فالرجاء هنا فى بشر ، فإذا كان الرجاء فى الله كان أقوى كأنْ تقول : عسى الله أن يغفر لى .

فقوله تعالى : ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (٢٢) ﴾ [محمد] لعلكم يحدث منكم هذا ويتوقع منكم ، إذن : ظلوا على ما أنتم عليه من الإيمان والطاعة ولا تدخلوا من باب الذنوب والمعاصى .

﴿ إِن تَوَلَّيْتُمْ .. (٢٢) ﴾ [محمد] أى : أعرضتم عن الإيمان ، أو توليتم بعض المناصب كالرئاسة مثلاً تأتى لك بالمصيبة إليك .

﴿ أَن تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ .. (٢٢) ﴾ [محمد] يعنى : مع الخَلْق جميعاً ﴿ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (٢٢) ﴾ [محمد] رقَّى المسألة إلى الأقارب والأرحام يعنى : يتعدى فسادكم الناس جميعاً إلى الأقارب والأرحام .

أو نقول : ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ .. (٢٢)﴾ [محمد] ما الذى صرفكم عن الحق الذى جاء به محمد ، ولماذا تضعون فى طريقه العقبات ؟ ، وأولها أنْ تسخروا منه ، وأنْ تصفوه بما ليس فيه من قولكم : ساحر ، وكاهن ، وشاعر ، وكذاب .

ثم آذيتموه فى نفسه بالسب وفى بدنه وفى أهله وفى أصحابه ، بل بيَّتم له لتقتلوه ، ما الذى جعلكم تفعلون ذلك ؟ هل ظننتم ورجوتم أنكم إذا فعلتُم ذلك تصبحون على حَلٍّ شعوركم للإفساد فى الأرض وقطع الأرحام .

والحق سبحانه يريد أنْ يُعلمنا أن الرسل لا تتدخل ولا تأتى السماء بمنهج جديد إلا إذا عَمَّ الفسادُ المجتمع كله ، لأن الفساد له مراحل : أولها : فساد النفس وهذا له رادع من النفس اللوّامة ، وهى مناعة فى النفس الإنسانية تعود بها إلى الجادة وتُقوِّم سلوكياتها .

فإذا فسدتْ النفس وتلاشى دور النفس اللوامة جاء دور الرَّدْع من المجتمع بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فإذا لم يكُنْ رادع من المجتمع وعَمَّ الفساد الجميع هنا تتدخل السماء برسول جديد يأتى بمعجزة ليقنع الناس ليؤمنوا بما جاءهم به .

فأنتم حين توليتم عن الدعوة وأعرضتم عنها ووضعتم فى طريقها العراقيل تنتظرون أنْ تظلوا على الفساد الذى نشأتم عليه فى الأرض عموماً أو فى تقطيع الأرحام ، لا فأنتم تجنون على أنفسكم ، ألم تنظروا إلى مَنْ سبقكم من الآباء والأجداد أين ذهبوا ، إن مصيركم كمصيرهم ، فاحذروا ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (٦٦)﴾ [الزخرف]

وقال : ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ

الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ (٥٥) أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَـٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ (٥٦) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٥٧) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً[1] فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٨)﴾ [الزمر] إذن : لماذا لا تعملون حساباً لهذا اليوم ؟

والذين استشروا فى الفساد ظنوا أنه ينفعهم ، لكن الفساد فى الكون يضر الجميع ، فالذين ينهبون أموال الناس سيأتى مَنْ هو أقوى منهم وينهب أموالهم ، فأنت إذن لست بمنجى عن أنْ يطولك الفساد وتكتوى بناره ، لأن المجتمع مركب واحد يضم الجميع .

ثم إن القيم ثابتة لا اختلاف عليها ، فالخير خير حتى عند أهل الشر ، والدليل على ذلك لو أن هناك صحبة من الأشرار ، وأراد واحد منهم أنْ يتزوج أخت الآخر ، فقال له : لا لا أزوجك أختى (أنا ملقتش غيرك أنت يا حرامى) إذن : القيم هى القيم . فالكذاب يحترم الصادق ، والمنحرف يحترم المستقيم ، وهكذا .

إذن : الحق سبحانه يقول لهم لا تفسدوا فى الأرض ، واحرصوا على إنهاء الإفساد فى مجتمعكم ، فإنْ كانت لكم الآن قوة تفرضون بها الفساد على الناس فسوف يأتى مَنْ هو أقوى منكم ، ويفرض عليكم مثله وأكثر .

وكلمة ﴿تَوَلَّيْتُمْ .. (٢٢)﴾ [محمد] أى : أعرضتم تدل على أنهم سمعوا كلاماً لا يعجبهم ، فلو أعجبهم لَسمعوا وما أعرضوا عنه ، لكن كيف وهم يريدون الفساد الذى يحقق لهم شهواتهم ، فالفساد سبقه تولٍّ وإعراض .

---

(١) لو أن لى كرَّة : أى عودة ورجوعاً إلى الحياة الدنيا . [القاموس القويم ١٥٨/٢] .

لذلك يقول تعالى : ﴿ أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (١٣) ﴾ [العلق] كذب لأن الكلام لا يوافق هواه ، لا أنه لا يوافق الواقع ، إذن : أنت مخطئ فى هذه المسألة ومخطئ فى تكذيبك .

ثم نشأ عن هذا الخطأ خطأ آخر بأنْ توليت وظننتَ وتوقعت أنْ تظل على حالك فى الإفساد فى الأرض وتقطيع الأرحام .

والإفساد فى الأرض أنْ تجعل الصالح فيها غير صالح ، لأن الخالق سبحانه خلق الكون على هيئة الصلاح المطلق قبل أنْ يخلق الإنسان ، إذن : عليك أنْ تزيد فى صلاح الكون بما لديك من طموح للأفضل وللأرقى ، أو أنْ تيسِّر الصلاح للناس ، وإذا لم تزد فى صلاح الكون فلا أقلَّ من أنْ تتركه على صلاحه لا تفسده .

لذلك رأينا أن عورات المجتمع ظهرت بظهور الفساد فى الأرض والملوِّثات فى البيئة التى أفسدتْ الماء والهواء والطعام وكل شىء ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ .. (٤١) ﴾ [الروم]

والحق سبحانه وتعالى حينما يحذرنا من الإفساد فى الأرض إنما يريد منا أنْ يستطرق الخير فى المجتمع كله ويعمّ الجميع .

وقال بعدها : ﴿ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (٢٢) ﴾ [محمد] لأن الإفساد فى الأرض يكون عاماً لكل الناس أقارب وغير أقارب ، فخصّ الأقارب لأنهم الأَوْلى بالمعروف والإحسان لا بالقطيعة والهجر ، والأقارب إما ذكور وإما إناث ، الذكور لهم قوة تحمل ، أما النساء ففيهم ضعف وحاجة .

لذلك كانت قطيعتهم أشدّ وأعظم عند الله .

لذلك يصل المجتمع إلى قمة الفساد حين يصل الفساد إلى هذه المرحلة ، مرحلة إهانة المرأة أو قطيعتها وهى من رحمك .

وإذا رأيتَ المرأة فى مجتمع مهيضة الجناح ، أو وقع عليها ظلم أو تُركتْ لكسب العيش والسعى على المعيشة ، فاعلم أن هناك خللاً فى الأسرة ، وأن الرجل فيها لا يقوم بدوره ، أو قُلْ ليس عنده شهامة ولا نخوة ، فترك زوجته للشقاء ولم يكْفها مؤنة لقمة العيش ، لكن متى تخرج المرأة للعمل ؟ وكيف تخرج ؟

نجد الجواب فى قصة سيدنا موسى مع ابنتىْ سيدنا شعيب عليهما السلام ، اقرأ : ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ[1] وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ[2] قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ[3] الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (٢٣) ﴾ [القصص]

إذن : علة الخروج أن أباهما سيدنا شعيب شيخ كبير لا يقدر على القيام بهذه المهمة ، ثم لما اضطرتهما الظروف للخروج لم يتخليا عن الوقار والحشمة ولم يختلطا بالرجال ﴿ لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ .. (٢٣) ﴾ [القصص] يعنى : حين ينصرف الرجال .

ثم يأتى دور المهمة الإيمانية فى المجتمع ﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا .. (٢٤) ﴾ [القصص] لابد أن يوجد هذا النموذج الشهم فى المجتمع ، وأن يكون

---

(١) مدين : اسم قرية على بحر القلزم [البحر الأحمر] أو هو اسم قبيلة فى هذا المكان أرسل إليهم النبى شعيب عليه السلام [القاموس القويم ٢/٢٢٠] .

(٢) تذودان : تسوقان أغنامهما أو تدفعان الغنم عن التفرق أو عن الزحام . ذاده يذوده : ساقه وطرده ودفعه . [القاموس القويم ١/٢٤٧] .

(٣) الصَّدَر : الرجوع والانصراف . يقال : ورد إلى البئر ثم صدر عنها أى رجع . وصدر دوابه : أرجعها بعد ورودها . وأصدرها : أرجعها . [القاموس القويم ١/٣٧٠] .

للرجولة دور ، ذكرت لكم زمان لما سافرتُ للسعودية سنة خمسين ، وفى يوم ركبتُ السيارة للذهاب إلى الكلية ، وفجأة نزل السائق وأخذ طاولة عليها عجين من أمام أحد البيوت ، فسألته : لماذا أخذته والباب مغلق ؟ فقال : هذا العجين يعنى أن صاحب البيت غير موجود ، وعلى مَنْ يراه أنْ يأخذه ويخبزه ويعيده إلى مكانه .

وقوله تعالى : ﴿أُولَـٰئِكَ .. (٢٣)﴾ [محمد] أى : الذين ارتضوا التولِّى والإعراض عن دعوة الحق وتكذيب الداعى ؛ ليفسدوا فى الأرض ويقطعوا الأرحام .

﴿الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ .. (٢٣)﴾ [محمد] يعنى : طردهم من رحمته وأبعدهم عن رضوانه ، والذين يلعنهم الله تلعنهم كذلك الملائكة ، ويلعنهم اللاعنون فى كل زمان ومكان ، ويلعنهم كل مَنْ شقى بفسادهم .

﴿فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ (٢٣)﴾ [محمد] هذه نتيجة طبيعية لمنْ لعنه الله أنْ يصم آذانهم عن سماع الحق ويُعمى أبصارهم عن رؤية الآيات فلا يتدبرونها .

إذن : هم يسمعون ويبصرون ، لكن لا يسمعون إلا الشر ، ولا يرون إلا الباطل ، فقد حجبهم الله عن كل خير ، وفتح عليهم باب كل شرٍّ جزاء وفاقاً ، لأنهم أغلقوا قلوبهم عن الحق وأحبوا الباطل فأعانهم الله عليه ويسَّر سُبله لهم .

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (٢٤)﴾

قوله تعالى : ﴿أَفَلا .. (٢٤)﴾ [محمد] استفهام يفيد الحض والحث على التدبر ﴿يَتَدَبَّرُونَ .. (٢٤)﴾ [محمد] يتأملون معانيه وينظرون فى آياته ومعجزاته ويتبصرونها ﴿الْقُرْآنَ .. (٢٤)﴾ [محمد] هو كلام الله المنزل على قلب رسوله والذى يحمل منهجه إلى الناس ، وهو معجزة تدل على صدق رسول الله ﷺ .

وتدبره يعنى تأمله ، بحيث لا نقف عند ظاهر الآيات وسطحيتها ، بل نغوص فى أعماقها ونتأمل معطياتها ، ونتلمس أسرارها ، ففى القرآن كنوز نكتشف منها كل يوم جديداً .

بَيِّنٌ فيه كل شىء ومنه آخذ قدر ذهنه كل تالى

وقوله : ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (٢٤)﴾ [محمد] يعنى : لا يتدبرون القرآن بل على قلوبهم أقفال فلا تفهم ولا تتأمل ، على قلوبهم مغاليق تحول بينهم وبين التفاعل مع كلام الله . والله غنى عن إيمان المؤمنين ، وغنىّ عن طاعة الطائعين ، فهو سبحانه لا تنفعه طاعة ولا تضره معصية ، وله صفات الكمال المطلق قبل أنْ يخلق هذا الخلق .

فبصفات الكمال فيه سبحانه خلق ، وبصفات الكمال فيه ربى ورزق ، وبقيوميته أبقى نعمه على خَلْقه حتى الكافر منهم .

تذكرون قصة سيدنا إبراهيم - عليه السلام - حينما جاءه ضيف يطرق بابه يريد حاجة ، فخرج له سيدنا إبراهيم وسأله بداية عن دينه ، فقال : أنا مجوسى فأغلق الباب فى وجهه .

ولما انصرف الرجل عاتب الله تعالى نبيه إبراهيم فى هذا الرجل ، وقال له : أمن أجل بيتوتة ليلة تريد منه أنْ يغير دينه وأنا أسعه

طوال عمره وهو كافر بى ، فخرج سيدنا إبراهيم فى أثر الرجل حتى لحق به وقال له : تعال فقد عاتبنى ربى فيك ، فقال : نعم الرب الذى يعاتب أنبياءه فى أعدائه وشهد ألا إله إلا الله .

إذن : الحق سبحانه وسع كلّ الخَلْق بعطاء الربوبية ، أما عطاء الألوهية فقد خصَّ به المؤمنين به .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ۙ ٱلشَّيْطَـٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ ﴾

الحديث هنا عن المنافقين ، وقد بيَّنا أن النفاق لم يظهر فى مكة رغم عدائها للدين ، لكنه ظهر فى المدينة التى احتضنته ، ومنها انطلق للعالم كله ، والسبب فى ذلك أن الضعيف لا يُنَافَق إنما يُنَافَق القوى ، فلما قوى المسلمون فى المدينة وُجد بينهم النفاق .

يقول تعالى عنهم : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم .. (٢٥) ﴾ [محمد] يعنى : كانوا مؤمنين باللسان إنما قلوبهم ليستْ مؤمنة ﴿ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى .. (٢٥) ﴾ [محمد] ظهر لهم الحق والرشاد والصراط المستقيم الذى جاء به محمد .

﴿ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ .. (٢٥) ﴾ [محمد] سول لهم يعنى : هيأ لهم وزيَّن لهم وحسن فى نظرهم هذا المسلك المنحرف عن الحق فسوَّل بمعنى وسوس ، كما قال تعالى حكاية عنه : ﴿ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي

لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ﴾ [الأعراف] وقال : ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) ﴾ [ص]

ثم يلزم حدوده فيقول ﴿ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣) ﴾ [ص] فهؤلاء لا سلطان لى عليهم ولا مدخل لى إليهم .

والعجيب أن يكشف إبليس عن خططه فى الإغواء ، فيقول : ﴿ لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ﴾ [الأعراف] يعنى : فى طريق الطاعة ليفسدها عليك ، لذلك قلنا : الشيطان يأتى المسجد ولا يأتى الخمارة .

وقال : ﴿ ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ .. (١٧) ﴾ [الأعراف] من كل ناحية ، وبأىّ شكل ومن أىّ باب يجد فيه ضعفاً منك يأتيك من باب المال وحب التملك ، أو من باب النساء ، أو من باب الشهرة وحب الظهور .. إلخ فلكل واحد من الناس مفتاح يدخل إليه من خلاله .

ومن رحمة الله بنا أن علَّمنا كيف نتحصّن منه ، فقال تعالى : ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ .. (٢٠٠) ﴾ [الأعراف] لأنك لا تقدر على ردِّه بنفسك فاستعن عليه بمَنْ خلقه ، فإذا استعذت بالله منه خنس وتضاءل ، لذلك سماه الوسواس الخناس .

أما إنْ حاولت ردّه عنك بنفسك فإن المعركة بينكما ستطول ، لأنه أقوى منك وصاحب خبرة فى الغواية والإضلال يُلوّن لك الوسائل ويلف حولك الحبال من حيث لا تدرى حتى يُوقعك فى مصائده .

ومن غباء الشيطان أنْ يكشف لنا خططه فى الإغواء ، فالذى يدبر

لك خطة ليوقعك بها لا يكشف عنها ، لكنه أراد من ذلك أنْ يقيم الحجة على كل مَنْ طاوعه وسمع كلامه ، لذلك سيقول بعد ذلك : ﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ[1] وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ .. (٢٢) ﴾ [إبراهيم]

والإنسان يستطيع أن يعرف مصدر الوسوسة ، أهى من نفسه أم من الشيطان ؟ فالشيطان يريدك عاصياً على أىّ لون وبأىٍّ طريقة ، فإذا لم يفلح معك من باب المال جاءك من باب الشهرة ، فإنْ لم يفلح جاءك من باب النساء ، وهكذا حتى يوقعك .

أما النفس فلها شهوة بعينها تقف بك عندها وتلح عليك .

ثم تلاحظ أن الشيطان - كما قال - يأتيك من كل اتجاه إلا من جهتين ، هما أعلى وأسفل ، لماذا ؟ قالوا : لأنهما يمثلان العلاقة بين العبد وربه ، حيث سمو الألوهية حين يتجه بنظره إلى أعلى وذل العبودية حين يسجد واضعاً جبهته على الأرض اعترافاً لربه بالعبودية ، لذلك لا يأتى من ناحيتهما الشيطان .

وقوله : ﴿ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ (٢٥) ﴾ [محمد] أمهلهم وأمد لهم الأمانى ليستمروا فى ضلالهم ويتمادوا فى شهواتهم ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ .. (٢٦) ﴾ [محمد] هم اليهود : بنو النضير وبنو قريظة ﴿ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الأَمْرِ .. (٢٦) ﴾ [محمد] أى : نؤيدكم ونساندكم فى بعض الأمور التى تعرقل مسيرة دعوة محمد .

---

(١) المصرخ : المغيث المنقذ من يستصرخه . والمصرخ : الذى يزيل سبب الصريخ وسبب الصُّراخ . [القاموس القويم ١/٣٧٣] .

وفى آية أخرى بيَّن الحق سبحانه ما أبهمه فى كلمة (بعض الأمر) حيث قال سبحانه : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١١) لَئِنْ أُخْرِجُوا لا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يُنصَرُونَ (١٢) ﴾ [الحشر]

﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ (٢٦) ﴾ [محمد] أى : ما يُسرون وما يُخْفُون من الكيد للإسلام ، وما دام أن الله يعلم ذلك فسوف يبطله .

﴿ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ (٢٧) ﴾

يعنى : ما حالهم وهم يفعلون ذلك ؟ وكيف بهم إذا جاءتهم الملائكة يتوفونهم ويضربون وجوههم وأدبارهم ؟ كيف بهم عند ذلك ؟ أيستطيعون أنْ يدفعوا عن أنفسهم ؟ إذن : لماذا يعاندون ؟ ولماذا يقفون فى وجه الدعوة ويتآمرون عليها ؟ وكان أَوْلَى بهم أنْ يساندوها .

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (٢٨) ﴾

قوله تعالى : ﴿ذَٰلِكَ .. (٢٨)﴾ [محمد] إشارة إلى سوء عاقبتهم وما يكون من ضرب الملائكة وجوههم وأدبارهم ، لماذا ؟ ﴿بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ .. (٢٨)﴾ [محمد] اتبعوا الباطل الذى أسخط الله عليهم وأكثر من ذلك ﴿وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ .. (٢٨)﴾ [محمد] كرهوا الحق الذى يؤدى إلى رضوان الله ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (٢٨)﴾ [محمد] أبطلها وجعلها بلا فائدة .

فهل كان لهم أعمال تستحق الثواب فأبطلها الله ؟ قالوا : نعم كانوا يُكرمون الضيف ويُغيثون الملهوف وأمثال ذلك من خصال الخير ، لكن فعلوا الخير وليس فى بالهم الله ، فعلوه للشهرة والسمعة وحديث الناس إذن ، فليأخذوا أجورهم ممَّنْ فعلوا له ، حيث لا نصيبَ لهم فى ثواب الآخرة .

قال تعالى : ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا (٢٣)﴾ [الفرقان] وقال : ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ..(١٨)﴾ [إبراهيم]

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ (٢٩)﴾

يعنى : أظن هؤلاء الذين فى قلوبهم ﴿مَّرَضٌ .. (٢٩)﴾ [محمد] نفاق ﴿أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ (٢٩)﴾ [محمد] أى : يُظهر أحقادهم

ويكشف خباياهم ، بل هو قادر سبحانه على ذلك ، وقد كشفهم لرسوله وبيّنهم له ، وعرّى أحقادهم الدفينة ، لذلك قال فى الآية بعدها :

﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾ ﴾ (١)

والأعمال تشمل الأقوال والأفعال .

فلا يخفى على العاقل أن يعرف المنافق من سيما وجهه وملامحه ، فالكذاب له سيما تدل عليه ، والصادق فى وجهه من التألق ما يدل على صدقه وهكذا .

وقوله ﴿ فِى لَحْنِ الْقَوْلِ .. ﴿٣٠﴾ ﴾ [محمد] أى : فى زلة اللسان أو فى ليِّه بالألفاظ والتلاعب بها كما قال اليهود له ﷺ : السام عليك يا محمد ، وقد فطنتْ لها السيدة عائشة فردَّتْ عليهم بما يستحقون (٢) ، لذلك قال الشاعر الجاهلى :

وَمَهْمَا تَكُنْ عِنْدَ امْرِئٍ مِنْ خَلِيقَةٍ وَإِنْ خَالَهَا تَخْفَى عَلَى النَّاسِ تُعْلَمِ

---

(١) لحن القول : أى أنك ستعرف المنافقين فى أسلوبهم فى القول بإخفائه وتحريفه ، أى ستعرفهم فى خطأ القول وزلات اللسان . وأصل المعنى : كلّمه كلاماً يفهمه دون غيره لما فيه من تورية أو تعريض أو إشارة خفية . [القاموس القويم ٢/١٩١] .

(٢) أخرج البخارى فى صحيحه (٥٥٦٥) أن عائشة رضى الله عنها قالت : دخل رهط من اليهود على رسول الله ﷺ فقالوا : السام عليكم . قالت عائشة : ففهمتها . فقلت : وعليكم السام واللعنة . فقال رسول الله ﷺ : مهلاً يا عائشة إن الله يحب الرفق فى الأمر كله فقلت : يا رسول الله أو لم تسمع ما قالوا ؟ قال رسول الله ﷺ : قد قلت وعليكم . وكذا أخرجه مسلم فى صحيحه (٤٠٢٧) .

وقد فضحهم الله تعالى فى قوله : ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦١)﴾ [التوبة]

قولهم عن رسول الله ﴿هُوَ أُذُنٌ .. (٦١)﴾ [التوبة] كما نقول نحن : فلان ودَنى يعنى : كثير السماع ، فردَّ الله عليهم ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ .. (٦١)﴾ [التوبة] نعم هو أذن ، لكن أذن خير يسمع الخير ويدلكم عليه .

قوله : ﴿بِسِيمَاهُمْ .. (٣٠)﴾ [محمد] أى : بعلاماتهم الواضحة على وجوههم ﴿فِي لَحْنِ الْقَوْلِ .. (٣٠)﴾ [محمد] صرفهم للألفاظ عن معانيها المتعارف عليها .

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ (٣١)﴾

الكلام هنا للمؤمنين الذين آمنوا بالله وصدَّقوا برسول الله ، يقول الله لهم ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ .. (٣١)﴾ [محمد] نختبركم ونمتحنكم بالشدائد والمشاق .

﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ (٣١)﴾[محمد] لنعرف مَنْ يثبت مع البلاء ممنْ هو فى شكٍّ وتردد ، يريد الله أنْ يمحص المؤمنين ، وأنْ يختبر قوة إيمانهم وصبرهم وتحملهم للمشاق ، فعلى أكتاف هؤلاء ستقوم الدعوة وهى دعوة عالمية لا يصمد لها إلا

راسخُ الإيمان ثابت العقيدة لا يتزعزع على حد قول القائل :

وَلَسْتُ أُبَالِى حِينَ أُقتَلُ مُسْلِماً عَلَى أىِّ جَنْبٍ كَانَ فِى اللهِ مَصْرَعِى

هؤلاء الذين حرصوا على الموت حرْصَ غيرهم على الحياة ، فأعطاهم الله منزلة الشهادة وبرّأهم من الموت بعد أنْ ضحوا بأرواحهم فى سبيله ، ووصل حياتهم فى الدنيا بحياتهم فى الآخرة .

وقوله : ﴿وَالصَّابِرِينَ .. (٣١)﴾ [محمد] أى : على المشاق مشاق الدعوة ومشاق التكليف ، وحين تتأمل حال هذه الأمة قبل الإسلام تجد كأن الله تعالى يُعدها لحمل رسالة الإسلام ، فهى أمة حرب وقتال ، تعلم فنونه وتجيد الكرّ والفر ، وهى أمة بدوية لا تستقر فى مكان ، بل بيوتهم على ظهور الدواب ، وهى أمة أمية ليس لها نظام ولا قانون ولا منهج حياة .

كل هذا أهَّلها لأن تحمل دعوة الحق إلى الدنيا كلها ، تحارب الباطل وتفقه الناس فى دين الله ، قال سبحانه وتعالى : ﴿فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ .. (١٢٢)﴾ [التوبة]

إذن : الإسلام فى صراعه مع أعدائه يحتاج إلى قوتين للجهاد : قوة تجاهد لحفظ الكلمة ، وقوة تجاهد لإثبات صدق الكلمة ، لذلك كان الاختبار والابتلاء ضرورة . والاختبار ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ .. (٣١)﴾ [محمد] لا يُمدح ولا يُذم لذاته إنما بحسب نتيجته ، فالذى يدخل الاختبار وينجح نمدحه والذى يفشل نذمه .

وقوله : ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ .. (٣١)﴾ [محمد] الله يقول ذلك وهو يعلم ،

إذن : المراد نعلم علم الواقع بالفعل ليكون الواقع حجة على صاحبه ، حتى لا يقول لو دخلت الاختبار لنجحت .

وكلمة ﴿ وَالصَّابِرِينَ .. (٣١) ﴾ [محمد] دلتْ على أن فى التكاليف مشقة وتضييقاً على النفس ، لذلك بعض الناس يتحملها ويصبر ، وبعضهم يضيق بها ويجزع .

قال تعالى : ﴿ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ .. (١٢٧) ﴾ [النحل] فالله هو الذى يعينك على الصبر بأن يبين لك عاقبته الحميدة .

وقال سبحانه : ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣) ﴾ [العصر] تواصوا يعنى يُوصى كلٌّ منكم الآخر به ، لأن الإنسان مرة يصبر ويتحمل ، ومرة يضعف ويجزع ، فمرة توصينى ومرة أوصيك ، وكلمة الوصية بلفظها لا تكون إلا فى الشىء الغالى الثمين الذى يستحق الاهتمام ، ويستحق أنْ نحرص عليه .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ (٣٢) ﴾

إذن هؤلاء لم يكتفوا بأنْ كفروا فى أنفسهم ، بل تعدَّوْا ذلك ﴿ وَصَدُّوا عن سبيل الله .. (٣٢) ﴾ [محمد] منعوا الناس أنْ يؤمنوا بالله ووقفوا فى وجه الدعوة وحاربوها .

ثم ﴿ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ .. (٣٢) ﴾ [محمد] يعنى : خالفوه وعادوه ، بحيث كانوا فى شق وهو فى شق ﴿ مِن بعد ما تبين لهم الهدى .. (٣٢) ﴾ [محمد] أى : الحق الواضح . والنتيجة ﴿ لن

يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا .. (٣٢) ﴾ [محمد]

فهذه كلها محاولات فاشلة لن تغنى عنهم شيئاً ، ولن تؤثر فى مسيرة الدعوة ، لماذا ؟ لأن الحق سبحانه ما كان ليبعث رسولاً إلى الخلق ثم يُسلمه إليهم ليقتلوه ، هذه سنة من سنن الله فى الكون لم يقتل رسول .

نعم أخبرنا الحق سبحانه عن بنى إسرائيل أنهم كانوا يقتلون الأنبياء ، ولم يُقلْ الرسل : ﴿ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٩١) ﴾ [البقرة] وتأمل هنا كلمة ﴿ من قبل ﴾ فليس لأحد من اليهود أو حتى من المسلمين أنْ يقول أنه من الممكن أن اليهود يقتلون رسول الله كما قتلوا أنبياءهم ، لأن هذا القتل كان قبل محمد .

إذن : اطمئنوا لن ينالوا من رسول الله شيئاً ، فهذه الآية أحدثتْ اطمئناناً عند المسلمين ويأساً عند الكافرين من هذه المسألة ، وهم بالفعل قد حاولوا لكن هيهات لهم ذلك .

ثم إن كفره فى نفسه له جزاء ، وصده لغيره عن الإيمان له جزاء آخر ، لأنه ضَلَّ وأضل ، ونفهم من كلمة ﴿ وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ .. (٣٢) ﴾ [محمد] أن سبيل الله طريقٌ معتدل مستقيم يجذب الناس إليه بالمنطق المعتدل ، وبحلو الكلام ، وبالأسلوب الجميل الشيق الذى تلين له القلوب رغم غلظتها .

فطبيعى من الكافرين أنْ يقفوا على هذه الطريق يمنعون الناس عن الإيمان وعن سماع القرآن ، لذلك حكى القرآن عنهم قولهم : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَـٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (٢٦) ﴾ [فصلت] فهم على يقين من أن سماع القرآن سيؤثر فيهم ويعطف قلوبهم إليه .

ولم يكتفوا بعدم السماع ، إنما ﴿ وَالْغَوْا فِيهِ .. (٢٦) ﴾ [فصلت] شوِّشوا عليه حتى لا يصل إلى أسماع الآخرين ، ذلك لأنهم أهل لغة وأهل فصاحة يتذوّقون الألفاظ والأساليب وينفعلون لها .

وقوله تعالى : ﴿ وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ (٣٢) ﴾ [محمد] يعنى : يبطلها ويجعلها غير ذات جدوى ، ومعنى (أعمالهم) أى : أعمالهم فى الصدِّ عن سبيل الله ، أو أعمالهم الخيِّرة التى فعلوها فى الدنيا ، ومن أعمالهم أنهم كانوا ينفقون الأموال ؛ ليصدُّوا الناسَ بها عن الحق .

وفى هذا يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ .. (٣٦) ﴾ [الأنفال]

فقد أنفقوا أموالهم دون فائدة أخذها الناسُ منهم وضحكوا عليهم ، كما يحدث عندنا مثلاً فى الانتخابات ، يشترون الأصوات بالأموال ، فيأخذ الناسُ الأموالَ ولا يعطونهم أصواتهم لأنهم لا يستحقونها .

القسم الثانى من أعمالهم بعد المال هو القتال ، والقتال له واقع فى صراعهم مع الحق ، والله يدعوهم : يا مَنْ تحملون السلاح لتشاقّوا الرسول ، اعتبروا من الواقع الذى أمامكم : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا .. (٤١) ﴾ [الرعد] ألم يروا أنَّ أرض الإسلام كلّ يوم فى ازدياد ، وأرض الكفر كل يوم فى انحسار ونقصان .

وفى بدر يقول سبحانه : ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ .. (٧) ﴾ [الأنفال] طائفة العير التى تحمل البضائع والأموال وكان حُراسها قليلين ، وطائفة النفير التى خرجتْ لحماية القافلة والتى كان يقودها أبو سفيان .

فكان المسلمون يريدون طائفة العير التى فيها الأموال ، لكن لله تعالى شأن آخر ، هم يريدون المال ، والله يريد إحقاقَ الحق وإعلاء كلمته ودحر الكفر ، وحتى لا تكون هناك شبهة تُؤخذ على المسلمين ، وأنهم ما خرجوا إلا للمال والغنائم التى تُعوِّض خسارتهم فى مكة .

يقول تعالى : ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ .. (٧)﴾ [الأنفال] أى العير ﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ (٧) لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (٨) إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ (٩)﴾ [الأنفال]

نعم لجأ الرسول ﷺ إلى ربه واستغاثه : « اللهم نصْرك الذى وعدتنى ، اللهم إنْ تهلك هذه العصابة لن تعبد فى الأرض »[(١)] وسيدنا أبو بكر يقول للرسول : يا رسول الله بعض مناشدتك ربك .

وكان ﷺ يتطلع إلى النصر على طائفة النفير ذات الشوكة لأنه لا يريد المال ، إنما يريد أنْ يُحقَّ الحق ويُزهقَ الباطل ، وعلى مقدار الصبر يكون المدد من الله ، فإنْ أردتَ أنْ تكبِّر المدد فكبّر الصبر وكبّر الرضى وكبّر العزيمة .

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٣٣٠٩) وكذا الترمذى فى سننه (٣٠٠٦) وأحمد فى مسنده (٢٠٣ ، ٢١٦) من حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وكذا أخرجه عبد بن حميد فى مسنده (٣١) ولفظ مسلم أن رسول الله جعل يهتف يوم بدر : اللهم أنجز لى ما وعدتنى ، اللهم آت ما وعدتنى ، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد فى الأرض » .

الله تعالى لو شاء لانتصر منهم بدون قتال ، لكن أراد أنْ تُقاتلوهم لتُظهروا قوتكم وتفوّقكم عليهم ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ (١٤)﴾ [التوبة] ولو هزمهم بآية كونية من عنده سبحانه لقالوا : ظاهرة طبيعية كونية ، لا قدرة لنا عليها .

كذلك فى يوم حنين ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ (٢٥)﴾ [التوبة]

فلما اغتر المسلمون بكثرة العدد لقَّنهم درساً يُؤدِّبهم به ، وتفوق عليهم أعداؤهم ، ثم تداركهم برحمته ، وكتب لهم النصر فى نهاية المعركة ، ففى نفس اللقاء أدَّب المؤمنين برسول الله ، وأدَّب الذين شاقوا رسول الله .

وهذا يُعلِّمنا درساً هو أن الهزيمة للمؤمنين ، ليست لهوانهم على الله ، إنما تربية لهم ليُصحِّحوا المفاهيم ويُعدِّلوا المسيرة ، وهذا الدرس واضح فى غزوة أُحُد كما تعلمون .

فلما خالفوا أوامر القائد هُزموا ، ولو انتصروا فى هذه الغزوة لَهانَ عليهم بعد ذلك أمر رسول الله . ولقالوا : خالفنا أوامره فى أُحُد وانتصرنا .

لذلك يقولون فى هذه الغزوة : هُزِم المسلمون وانتصر الإسلام . إذن : أحبط اللهُ أعمالهم فى الجانبين : جانب المال ، وجانب القتال .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾ ﴾

النداء هنا للذين آمنوا ، فالإيمان هو حيثية الأمر فى ﴿أطيعُوا اللَّهَ وَأَطيعُوا الرَّسُولَ .. ﴿٣٣﴾﴾ [محمد] وفى النهى ﴿وَلا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٣﴾﴾ [محمد] فالمؤمن هو الذى يسمع النداء ويطيع الأوامر ، لأنه يعلم أنها من رب حكيم هو الخالق والرازق والقيوم .

الخير فى طاعته ، والخسران فى مخالفة أمره ، لذلك المؤمن حين ينزل به بلاء أو شدة يعود إلى نفسه . ويقول : ماذا فعلت ؟ لا بدّ أننى خالفتُ منهج ربى فيُصحح ما كان منه .

ونقف هنا عند تكرار فعل الأمر ﴿أَطِيعُوا .. ﴿٣٣﴾﴾ [محمد] مرة معه الله ، ومرة مع رسول الله ، لابد أن لها ملحظاً ، نعم قالوا : لأن الله يُشرِّع المبدأ العام على سبيل الإجمال ، والرسول يُشرِّع ما يُبيِّن وما يُفصِّل هذا الإجمال كما فى الصلاة مثلاً ؛ فالله فرضها إجمالاً والرسول بيَّن لنا أوقاتها وعدد ركعاتها ، وكلَّ ما يتعلّق بها .

إذن : لله تعالى طاعة فى المبدأ المجمل ، وللرسول طاعة فى التفصيل ، فإذا لم يكرر الفعل كما فى ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ .. ﴿١٣٢﴾﴾ [آل عمران] فالأمر واحد توارد عليه كلامُ الله وكلامُ رسول الله .

ويأتى الأمر بصورة أخرى : ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِى الأَمْرِ مِنكُمْ .. ﴿٥٩﴾﴾ [النساء] فلم يقل : وأطيعوا أولى الأمر منكم ، لكن جعل طاعتهم من باطن طاعة الله وطاعة رسول الله ، فلا طاعةَ لهم خاصة ، ولا طاعةَ لهم منفصلة عن طاعة الله وطاعة رسول الله ، لأنه كما تعلمون لا طاعةَ لمخلوق فى معصية الخالق ، وهذه قاعدة شرعية .

وقوله : ﴿ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ (٣٣) ﴾ [محمد] لأنكم تعملون أعمالاً حسنة وأفعالاً طيبة ، فحافظوا عليها ولا تبطلوها بفعل السيئات ، على حَدِّ قوْل الشاعر :

وَلَمْ أَرَ فِى عيوب النَّاسِ عَيْباً كَعَجْزِ القَادِرِينَ عَلَى التمَامِ

والإمام الشافعى[1] يقول :

إذَا كنتَ فِى نِعْمَةٍ فَارْعَهَا فَإنَّ المَعَاصِى تُزِيلُ النِّعَم

فمن العيب أنْ ينتكس المسلم ويفعل السيئة بعد أنْ وُفِّق للحسنة ، ويقول تعالى : ﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ (١١٤) ﴾ [هود]

وفى الحديث الشريف « وأتبع السيئة الحسنة تَمْحُها »[2]

فمن رحمة الله بنا أن الحسنة تمحو السيئة ، لكن السيئة لا تمحو الحسنة لكن يلزمها الاستغفار . ومن أخطر الأمراض التى تبطل العمل الصالح أنْ يداخله رياءٌ أو سُمعة أو نفاق أو شبه شرك ، والعياذ بالله .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ (٣٤) ﴾

---

(١) هو الإمام محمد بن إدريس الشافعى توفى ٢٠٤ هجرية ، أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة وإليه نسبة الشافعية كافة، ولد فى غزة عام (١٥٠ هجرية) زار بغداد مرتين وقصد مصر سنة (١٩٩ هجرية) فتوفى بها ، كان أشعر الناس وآدبهم وأعرفهم بالفقه والقراءات . [الأعلام للزركلى ٢٦/٦] .

(٢) أخرجه الترمذى فى سننه (١٩١٠) وأحمد فى مسنده (٢٠٣٩٢ ، ٢٠٤٣٥ ، ٢٠٥١٢، ٢٠٥٥٦) والحاكم فى مستدركه (١٦٥) والبيهقى فى شُعَب الإيمان (٧٧٩٥) والقضاعى فى الشهاب (٦١١) كلهم عن أبى ذر الغفارى، وفى الباب عن معاذ بن جبل .

قوله تعالى : ﴿ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ .. (٣٤)﴾ [محمد] يعنى : ماتوا على الكفر ولم يستدركوا الأمر بالتوبة قبل أنْ يداهمهم الموت ﴿فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ (٣٤)﴾ [محمد] هذا يعنى أنهم لو تابوا قبل الغرغرة وفى فسحة الدنيا لغفر لهم .

وفى آية أخرى يقول تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ .. (٤٨)﴾ [النساء] والموت على الكفر بعد أنْ بان الهدى وظهر للناس دليلٌ على الإصرار ، فكيف تناله رحمة الله ؟!

﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ(١) أَعْمَالَكُمْ (٣٥)﴾

معنى ﴿فَلا تَهِنُوا .. (٣٥)﴾ [محمد] لا تضعفوا فى مواجهة الأعداء لأنكم أمامهم فى معركة ، ولو لمسوا فيكم بوادر الضعف لتجرأوا عليكم وطمعوا فيكم ، ومن مظاهر الضعف أن تدعوهم إلى المسالمة والموادعة ﴿وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ .. (٣٥)﴾ [محمد] فتصرفوا من هذا المنطلق ، ومن هذا الاعتقاد أنكم الأعلوْنَ عليهم .

ولم لا ﴿وَاللَّهُ مَعَكُمْ .. (٣٥)﴾ [محمد] يُقوِّيكم ويحمى ظهوركم ، وهو سبحانه الركن الشديد الذى لا يخذل أبداً مَنْ لجأ إليه ، وهو صاحب هذا المنهج الذى تقاتلون من أجله ، فكيف يتخلى عنكم أو يُسلمكم لأعدائكم ؟!

إذن : إذا حمىَ الوطيس واشتدَّتْ الحرب فاثبتوا ، ولا ترهبكم

---

(١) وتره حقه : نقصه حقه . قال تعالى : ﴿وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ (٣٥)﴾ [محمد] أى : لن ينقصكم ثوابها بل سيوفيكم أجور أعمالكم كاملة . [القاموس القويم ٢/٣١٨] .

منهم عدة ولا عدد ولا حيلة ولا مكر ، لأن الله معكم .

لذلك فى قصة سيدنا موسى عليه السلام لما كاد فرعون أنْ يلحقه هو وجنوده ، حتى كان البحر من أمامه وجنود فرعون من خلفه ، وقال أحد جنود موسى : ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١)﴾ [الشعراء] ماذا قال موسى ؟ ﴿قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢)﴾ [الشعراء] قالها بملء فيه وهو واثق من نصر الله .

ونفهم من قوله تعالى ﴿وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ .. (٣٥)﴾ [محمد] نهى عن أن نطلب نحن السلام ولا نرفع نحن الراية البيضاء ، بل نتركهم يطلبون هم ، لذلك يقول سبحانه فى الآية الأخرى : ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا .. (٦١)﴾ [الأنفال] ذلك لأنهم يفهمون أن السلام من طرفكم ضعفٌ واستسلام ، وأيضاً لا تطلبون السلام لأنكم الأعلون والأعز والأقوى .

﴿وَاللَّهُ مَعَكُمْ .. (٣٥)﴾ [محمد] ومَنْ كان فى معية الله يخلع الله عليه من صفاته ، أرأيتم فى قصة الغار كيف وقفوا على فتحة الغار ، حتى قال الصِّديق : يا رسول الله لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا ، فقال له النبى ﷺ : يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما[1] .

وما دام الله ثالثهما ، فهم فى معيته تعالى ، وما دام الله لا تدركه الأبصار ، فكذلك مَنْ كان فى معيته لا تدركه الأبصار .

ومعنى ﴿وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ (٣٥)﴾ [محمد] وتر الشىء يعنى : فقده ، والمعنى : لن ينقصكم من أجور أعمالكم شيئاً ، بل سيُوفِّيكم إياها وزيادة .

---

(١) حديث صحيح متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٢٩٥) وكذا مسلم فى صحيحه (٤٣٨٩) وكذا أخرجه الترمذى فى سننه (٣٠٢١) وأحمد فى مسنده (١١) كلهم من حديث أبى بكر الصديق رضى الله عنه .

﴿إِنَّمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾﴾

القرآن الكريم أعطانا صوراً متعددة للحياة الدنيا تدل فى مجملها على أنها حياة قصيرة هيِّنة تغرُّ الناس وتخدعهم ، من هذه الصور قوله تعالى : ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا[1] تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ ﴿٤٥﴾﴾ [الكهف]

وهنا : ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ .. ﴿٣٦﴾﴾ [محمد] وهذا أسلوب قصر يؤكد أن الدنيا ما هى إلا كذلك لعب ولهو ، فليحذرها العاقلُ ولا يغترُّ بها .

اللعب أنْ تنشغل بشىء لا يضر لكنه لا ينفع ، لذلك أخذتْ بعض المجتمعات المتقدمة تُرشِّد لعب الأطفال ، بحيث تؤدى الغرض فى تسلية الطفل ، وأيضاً تعلمه شيئاً للمستقبل .

لذلك قال النبى ﷺ : « علِّموا أولادكم السباحة والرماية وركوب الخيل »[2] .

---

(١) الهشيم : الحطب والخشب المحطَّم . وهشم الخبز : كسره وفتَّه . [القاموس القويم ٢/٣٠٣] وتذروه الرياح : تطيره وتبدده .

(٢) عن بكر بن عبد الله بن ربيع الأنصارى قال : قال رسول الله ﷺ : « علِّموا أبناءكم السباحة والرماية ، ونعْم لهو المؤمنة فى بيتها المغزل ، وإذا دعاك أبواك فأجب أمك » أخرجه أبو نعيم فى معرفة الصحابة (باب مَنْ اسمه بسر) . وأورده المتقى الهندى فى كنز العمال (٤٥٣٤٣) وعزاه لابن منده فى المعرفة وأبو موسى فى الذيل والديلمى فى الفردوس ، وضعفه الألبانى فى السلسلة الضعيفة (٣٨٧٦) وجاء فى فتاوى اللجنة الدائمة أن فى سنده سليم بن عمرو الأنصارى، قال الذهبى فى الميزان : روى عنه على بن عياش خبراً باطلاً وساق هذا الحديث .

واللعب بالنسبة للطفل يكون قبل التكليف ، أما اللهو فهو الانشغال بعمل لا يفيد ولا ينفع ويلهيك عن عمل مفيد نافع ، كالذى يجلس على القهوة مثلاً يلعب الشطرنج ، ويؤذن للظهر فلا يقوم للصلاة .

وفى سورة الجمعة : ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١) ﴾ [الجمعة]

والمتتبع لآيات القرآن يجدها تصف الدنيا فى أكثر من موضع بهذا الوصف، لعب ولهو بهذا الترتيب الوجودى ، لأن اللعب للأطفال واللهو للكبار إلا فى سورة العنكبوت ، فيقول : ﴿ وَمَا هَـٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٦٤) ﴾ [العنكبوت] لأن الكلام هنا عن الفتن التى تضرُّ بالآخرة وتبعدك عن ثوابها ، فذكر اللهو قبل اللعب .

ثم يكفى فى تحقير الدنيا وهوان شأنها اسمها ﴿ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا .. (٣٦) ﴾ [محمد] فلا أقل من هذا الوصف ، وأنت حين تقول (الدنيا) تتذكر المقابل لها وهى (الآخرة) ، فإنْ كانت هذه دنيا فهذه عُلْيا ، وإنْ كانت هذه فانية فهذه باقية .

ومع ذلك لا تُذمُّ الدنيا عموماً ، وإنما تُذمُّ إنْ حدث فيها ما يُذم ، وتُمدح إنْ حدث فيها ما يُمدح ، وهى مزرعة الآخرة ولا تدخل الجنة إلا بعمل الدنيا ، فالدنيا موضوع الدين أما الآخرة فجزاء ، والجزاء على الشىء ليس هو الشىء .

وسبق أنْ قلنا : إن الدنيا فى نظر المؤمن أهم من أنْ تُنسى لأنها تُوصِّلك للآخرة ، ولكنها أتفه من أنْ تكون غاية لأن غاية الشىء نهايته والدنيا ليست نهايتك ، إنما وراءك غاية أهم منها هى الآخرة ، هى الغاية الحقيقية التى ليس بعدها بعد .

وقوله سبحانه : ﴿وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا .. (٣٦)﴾ [محمد] أى : تؤمنوا بالله وتُطبقوا منهجه فى افعل ولا تفعل ﴿يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ (٣٦)﴾ [محمد] يعنى : يعطيكم أجور الأعمال كاملة دون نقصان ، ولا يأخذ منك الأموال التى تفضل بها عليكم .

بدليل أنه سبحانه حين يأمرك بأنْ تتصدَّق يعتبر هذه الصدقة قرضاً يرده إليك مع الزيادة ﴿مَن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً .. (٢٤٥)﴾ [البقرة]

وقوله تعالى : ﴿إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ (٣٧)﴾ [محمد] الحق سبحانه لا يسألنا أموالنا ، لأن الإنسان جُبل على حب المال ويشق عليه أن يؤخذ منه ، فالله يقول : لو سألتكم الأموال سيحتاج السؤال إلى إلحاح .

﴿فَيُحْفِكُمْ .. (٣٧)﴾ [محمد] يلح عليكم فى السؤال وأنتم تكرهون ذلك ؛ لأنه يُظهر ما عندكم من البخل ، ويُظهر ما فى نفوسكم من ضغائن وأحقاد .

وحين تظهر أضغان النفوس تفسد العلاقات بين أفراد المجتمع وقد رأيتم ذلك مثلاً فى مسألة التأميم التى حدثتْ ؛ لأن المال عادة تكسبه بتعب وعرق فيعزّ عليك أنْ يؤخذ منك ويُعطى لغيرك ، وهنا يظهر الضغن .

وقوله تعالى : ﴿إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ .. (٣٧)﴾ [محمد] كما فى قوله سبحانه : ﴿لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا .. (٢٧٣)﴾ [البقرة]

وقالوا فى ﴿وَلا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ (٣٦)﴾ [محمد] أنها تفيد عموم السلب لا سلب العموم ، كيف ؟ كما نقول مثلاً : لم ينجح كل الطلاب ، هذا يعنى أن البعض نجح ، فالسلب هنا للعموم على خلاف لو قلت :

كل الطلاب لم ينجحوا . هذا عموم السلب حيث لم ينجح منهم أحد .

كذلك ﴿لا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ (٣٦)﴾ [محمد] أى : كلها ، فالمعنى أنه يسألكم بعضها كما يحدث فى الزكاة والصدقات والفدية والكفارات .

﴿هَآأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم (٣٨)﴾

قوله تعالى : ﴿هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَاءِ .. (٣٨)﴾ [محمد] (ها) أداة تنبيه لجذب الانتباه ، و(أنتم) ضمير للخطاب، و(هؤلاء) إشارة لهذا المخاطب أنتم ، فالمخاطب هو عَيْن المشار إليه ، إذن : جمعتْ الآية بين أدوات ثلاث لتأكيد التنبيه ولمزيد الاهتمام .

جاء بـ هاء التنبيه لأن المتكلم حر يتكلم فى الوقت الذى يريده فهو يملك زمام الأمر ، أما المخاطب فلا يملك ذلك ولا يدرى متى تتكلم ليسمع ، لذلك نأتى بأداة التنبيه ليستعد ولا يفوته شىء من الكلام .

فالحق سبحانه وتعالى يخاطبهم بكل هذه الأدوات ليؤكد نداءه لهم ودعوته لهم لينفقوا ﴿تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ .. (٣٨)﴾ [محمد] مَنْ الذى يدعو ؟ الله يدعوهم لينفقوا .

تأمل هنا كيف أن الحق سبحانه يحترم ويُقدِّر مجهودات البشر ؟ فرغم أنه هو سبحانه الخالق الرازق مُسبِّب الأسباب منحك القوة التى تعمل بها ، والعقل الذى تفكر به ، والمادة التى تستعملها ، ومع ذلك

احترم دورك فى أنْ تُوجِّه الطاقة المخلوقة لله فى شىء نافع مفيد وقال لك : أنفق كأن المالَ مالك وهو يقترضه منك قرضاً حسناً .

كما أنك تعطى ابنك مصروفه اليومى فيدخره مثلاً فى حصالة ، ثم يطرأ عليك ظروف تحتاج فيها ما فى حصالة الولد . فتقول له : أعطنى ما فى الحصالة سلف وسوف أرده إليك لما أقبض .

يقول تعالى : ﴿مَن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ .. (٢٤٥)﴾ [البقرة] فالحق سبحانه حرَّم الربا فى التعامل بين البشر ، لكن أحله لنفسه تعالى حين يقترض منهم ، وهذا فضل وتكرُّم من الله على الخَلْق فى الأولى وفى الآخرة .

وقوله : ﴿لِتُنفِقُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ .. (٣٨)﴾ [محمد] فى كل الوجوه التى يحبها الله فى الإنفاق من خَلْقه لخلقه ، وهو سبحانه قادر أنْ يغنى الجميع فلا يحتاج أحد لأحد ، إنما أراد سبحانه أنْ تتواصل القلوب وتتشابك المصالح ويترابط الخَلْق بمشاعر الإيمان ، حيث يعطف الغنى على الفقير ، ولا يحقد الفقير على الغنى ، وحيث يرحم القوى الضعيف .

لكن لما دعاهم الله للإنفاق كان منهم قسم يبخل ﴿فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ .. (٣٨)﴾ [محمد] وهؤلاء هم الذين لا يفهمون فلسفة التجارة مع الله ولا عاقبة الإنفاق ، لا يعرفون أن النفقة بهذا الشكل تزيد المال ولا تنقصه ، واقرأ : ﴿مَن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٤٥)﴾[البقرة]

الإنفاق فى سبيل الله مثل رجل حصد القمح وأدخل المخزن عنده عشرة أرادب مثلاً عندما يأخذ أردباً منها ليزرع به الأرض من جديد ، هل يقول أن القمح نقص أردباً ؟ لا لأنه سيأخذه مضاعفاً .

إذن : لا تنظر إلى ما يخرج لكن انظر أيضاً إلى ما سيأتى لتكتمل الصورة ويكون الحساب صحيحاً ، حتى الربا فى تعاملات الناس يعطيك بزيادة خمسة أو عشرة فى المائة .

أما ربك عز وجل فيعطيك سبعين أو سبعمائة أو أضعاف ذلك ، واقرأ : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦١) ﴾ [البقرة]

لذلك وقف المستشرقون عند حديث سيدنا رسول الله ﷺ : « مكتوب على باب الجنة أن الصدقة بعشر أمثالها ، والقرض بثمانية عشر »[1] وقالوا : هذا مناقض للقرآن الذى يقرر أن الحسنة بعشر أمثالها ، والواقع أنه لا يوجد بينهما تناقض أبداً ، لأننى حين أُخرج الدرهم قرضاً يعطينى عشرة منها الدرهم الذى دفعته . إذن : أعطانى تسعة فحين تُضاعف تكون ثمانية عشر .

والحق سبحانه وتعالى لما حثَّنا على القرض علَّمنا كيف نتعامل مع المقترض ، فقال : ﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ[2] إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٨٠) ﴾ [البقرة]

---

(١) ذكره المتقى الهندى فى كنز العمال (١٥٣٨٢) وعزاه للطبرانى فى الكبير والحكيم فى نوادر الأصول عن أبى أمامة : « رأيت على باب الجنة مكتوباً : القرض بثمانية عشر والصدقة بعشر » ، وأخرجه الطبرانى فى المعجم الأوسط من حديث أنس قال قال رسول الله : رأيت ليلة أسرى بى مكتوب على باب الجنة : الصدقة بعشر أمثالها والقرض بثمانية عشر ، قلت : يا جبريل ما بال القرض أفضل من الصدقة ؟ فقال :« إن السائل يسأل وعنده ، والمستقرض لا يستقرض إلا من حاجة » .

(٢) النظرة : الإمهال والتأخير وعدم الاستعجال . وأنظره : أخَّره وأمهله وتأنَّى عليه . [القاموس القويم ٢/٢٧٢] .

فالمرحلة الأولى أنْ تنظره لحين يتيسر له السداد ، ثم لك بعد ذلك أن تكمل إحسانك وتتسامح فى هذا القرض أو بعضه على سبيل الصدقة ، وهذا هو الخير لمن تتوق نفسه إلى معالى الأمور .

ثم فى قوله تعالى : ﴿فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ..(٣٨)﴾ [محمد] إنصاف لأمة محمد ﷺ وبيان لشرفها ، فالكثرة تنفق والقلَّة تبخل ، فى الأمة مَنْ أنفق كل ماله فى سبيل الله ، ومَنْ أنفق شطر ماله فى سبيل الله .

وقد بلغ البذل والعطاء فى هذه الأمة مبلغاً لا مثيل له فى التاريخ ، حيث كان الأنصارى يقول لأخيه المهاجر : انظر إلى نسائى أيّهن أعجبتْك أطلقها لتتزوجها أنت ، مع ما هو معلوم من مكانة المرأة خاصة عند الرجل ، لكنها السماحة والتضحية .

وفى المقابل تجد هذا الصحابى المهاجر ، وهو سيدنا عبد الرحمن بن عوف[١] رضى الله عنه يرفض هذا العرض السخى ويدعو لأخيه[٢] ويقول له : لا يا أخى ، بارك الله لك فى نسائك ، لكن دُلّنى على السوق[٣] .

وذهب عبد الرحمن إلى السوق وتاجر ، حتى كان أغنى صحابة

---

(١) هو : عبد الرحمن بن عوف أبو محمد الزهرى القرشى صحابى ، أحد العشرة المبشرين بالجنة ، وأحد الستة أصحاب الشورى الذين جعل عمر الخلافة فيهم وأحد السابقين إلى الإسلام ، ولد عام (٤٤ ق . هـ) وتوفى عام ٣٢ هجرياً ، عن ٧٦ عاماً ، كان يحترف التجارة والبيع . [الأعلام للزركلى ٣/٣٢١] .

(٢) المقصود بأخيه هنا هو سعد بن الربيع الخزرجى الأنصارى وليس أخاه حقيقة ، ولكن رسول الله آخى بينهما بعد الهجرة إلى المدينة [انظر سيرة ابن هشام ١/٥٠٤] .

(٣) ذكره ابن كثير فى السيرة النبوية (٢/٣٢٧) عن أنس قال : قدم عبد الرحمن بن عوف فآخى النبى ﷺ بينه وبين سعد بن الربيع الأنصارى ، فعرض عليه أن يناصفه أهله وماله فقال عبد الرحمن : بارك الله لك فى أهلك ومالك ، دلنى على السوق . فدلوه فذهب فاشترى وباع فربح فجاء بشىء من أقط وسمن .

رسول الله ، حتى قالوا : إنه لو تاجر فى التراب لربح فيه[١] .

وكان عنده ألفُ عبد ، وجاء رجل يسأل أحدهم : ما حال ابن عوف فيكم ؟ فقال : والله لو أقبلت علينا وهو معنا لا تعرفه من بيننا لأنه يُلبسنا مما يلبس ، ويُطعمنا مما يأكل .

فرغم ما ركز فى النفس الإنسانية من حب المال وحب التملك إلا أنه يوجد من الناس من جبل على الجود والكرم ، يعطى بلا حدود ، يعطى عطاء مَنْ لا يخشى الفقر ، انظر مثلاً إلى كرم حاتم الطائى[٢] وهو يقول لغلامه :

أَوْقِدْ فَإِنَّ اللَيْلَ لَيْلُ قُرّ
وَالرِّيحُ يَا غُلامُ رِيح صُر
عَلَّ يَرَى نَارَك مَنْ يَمُرّ
إنْ جلبتَ ضَيْفاً فَأنتَ حُر

ويُروى أنه جلس جماعة من القوم فى ساحة مكة يتحدثون عن

---

(١) هذه العبارة وردت فى كل المصادر التى رجعت إليها فى حق عروة بن الجعد البارقى أن النبى ﷺ أعطاه ديناراً يشترى له به شاة فاشترى له به شاتين ، فباع إحداهما بدينار وجاءه بدينار وشاة ، فدعا له بالبركة فى بيعه ، وكان لو اشترى التراب لربح فيه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٣٧٠) وابن ماجه فى سننه (٢٣٩٣) وأحمد فى مسنده (١٨٥٤٩) والبيهقى فى سننه الكبرى (٦/١١٢) والحميدى فى مسنده (٨٨٢) . [عادل أبو المعاطى] .

(٢) حاتم الطائى هو : حاتم بن عبد الله بن سعد بن الحشرج الطائى القحطانى أبو عدى ، فارس شاعر جواد جاهلى ، يُضرب المثل بجوده ، كان من أهل نجد وزار الشام فتزوج ماوية بنت حجر الغسانية ومات فى عوارض (جبل فى بلاد طىء) شعره كثير ضاع معظمه بقى منه ديوان صغير مطبوع . توفى عام ٤٦ هجرية . [الأعلام للزركلى ٢/١٥١] .

أجود أهل زمانهم ، واختلفوا فى ذلك ، واحد قال : أجودهم سعيد بن سعد بن عُبادة . وآخر قال : بل عبد الله بن جعفر . وآخر قال : عرابة الأوسى[١] فى المدينة أجود منهما . وكادوا يقتتلون ، فقال رجل عاقل منهم : ابعثوا إلى كل واحد من هؤلاء رجلاً يدخل عليه على أنه عابر سبيل وله حاجة ، وانظروا كيف يقابله .

فبعثوا رجلاً إلى عبد الله بن جعفر ، فوجده يركب للصيد ، وقد وضع رِجْلاً فى الركاب والأخرى على الأرض ، فقال له : يا ابن بنت رسول الله ، عابر سبيل وطالب حاجة فأنزل رجْله من الركاب ، وقال له : اركب وهذه حقيبة فيها أربعة آلاف دينار وفيها كسوة كذا وكذا ، وفيها سيف على بن أبى طالب فاحرص عليه .

وذهب آخر لسعيد بن سعد بن عُبادة وطرق الباب فردَّتْ الخادمة : مَنْ ؟ قال : عابر سبيل ، وطالب حاجة . فقالت : إن صاحب البيت نائم ، فماذا تريد ؟ فقال : طالب حاجة ، فقالت : حاجتُكَ أهون من أنْ أوقظه ، والله ما عنده إلا سبعمائة دينار خُذها واذهب إلى معاقل الإبل ، واختر لك راحلة وخادماً يخدمها ، فلما استيقظ سعيد قالت له : حدث كذا وكذا ، فقال : أفعلتِ ذلك ؟ قالت : نعم ، قال : فأنتِ حرة .

ثم تلاحظ أن الأمر بالنفقة هنا لمن ؟ للذين آمنوا خاصة الذين ناداهم : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ .. (٣٣) ﴾ [محمد] ذلك لشرف الإنفاق ومنزلته وثوابه المضاعف يريد ألاّ يحرم المؤمن نفسه من هذا الخير .

---

(١) عرابة الأوسى : هو عرابة بن أوس بن قيظى الأوسى الحارثى الأنصارى ، من سادات المدينة الأجواد المشهورين ، أدرك حياة النبى ﷺ وأسلم صغيراً . وفد الشام فى أيام معاوية وله أخبار معه ، توفى بالمدينة عام ٦٠ هجرية [الأعلام للزركلى ٤/٢٢٢] .

حتى كلمة (نفقة) مأخوذة من سوق نافقة . يعنى : رائجة رابحة لأنها تجارة مع الله ، فلا تظن أنها تجارة كاسدة خاسرة ، نعم سوق أقامها الحق سبحانه بين عباده لحكمة أرادها ، فجعل منهم الغنى والفقير ، والقوى والضعيف ، واختبر كلاً منهما بالآخر ليحدث هذه الحركة التكاملية فى مجتمع الإيمان .

لذلك قلنا : إن الله تعالى يريد من المؤمن أنْ يعمل على قدر طاقته لا على قدر حاجته ، لأنه لو عمل على قدر حاجته وحاجة مَنْ يعول لن يبقى شىء للضعيف الذى لا يقدر على العمل ، ثم إن الأيام دُوَل ، وقد يصير القوى إلى حال الضعف فيحتاج ، أو يصير الغنى إلى حال الفقر ، عندها يجد مَنْ يعطيه ، والإنسان ابن أغيار .

إذن : نستطيع أن نقول : إن الإنفاق الذى أمرنا الله به يمثل التأمين لمستقبل المؤمن ، فلا يخاف على نفسه ولا على أولاده من بعده إنْ ألجأتْه الظروف إلى الحاجة ، ويكون على ثقة بأن المجتمع المؤمن سيمدُّ له يد العون .

والعجيب فى أمر النفقة أن الحق سبحانه لم يعف منها أحداً ، فمَنْ لا يقدر على نفقة المال تلزمه نفقة المقال ، اقرأ قول الله تعالى :

﴿ لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٩١) ﴾ [التوبة]

فمَنْ كان واجداً وبخل على غير الواجد أنْ ينصحه وأنْ يوقظ غفلته ، فإذا لم يفعل كان آثماً ، فإذا لم يكُنْ لديه هذا ولا ذاك ،

شرحها الحق سبحانه فى قوله : ﴿ وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ .. (٩٢) ﴾ [التوبة] ماذا يصنعون ؟ ﴿ تَوَلَّوْا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ (٩٢) ﴾ [التوبة] (١)

فهذا الذى لا يملك شيئاً إلا البكاء والعواطف الجيَّاشة التى تعبر عن شوقه إلى الإنفاق ورغبته فيه ، لكنه لا يملك فيكفيه هذه العواطف ، وتُحسب له الأعمال بالنيات ، وقد يشجعه هذا الموقف على أنْ يسعى ليفعل شيئاً ليعطى أىَّ شىء .

وليحذر الغنى أنْ يكون فتنة للفقير حين يمنعه حقه فيتذمر ويعترض على قضاء الله الذى حكم عليه بالفقر وعلى غيره بالغنى ، لا تجمع عليه الفقر وعدم الرضا بالقضاء .

واقرأ : ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤) يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ (٣٥) ﴾ [التوبة]

والعاقل مَنْ خفف حمله يوم تثقل الأحمال على أصحابها ، فلا يحملها عنهم أحد ، ومن أراد أنْ يُخفِّف عن نفسه فلا أقلَّ من أنْ يعطى الزائد عن حاجته لمَنْ يستحق .

كلمة ﴿ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ .. (٣٨) ﴾ [محمد] البخل هو قَبْض اليد عن الإنفاق ، وهو عملية حركية تنشأ نتيجة مواجيد راسخة فى

---

(١) نزلت هذه الآية فى البكائين وهم ستة : عبد الله بن مغفل وصخر بن سلمان وعبدالله بن كعب الأنصارى وعلبة بن زيد الأنصارى وسالم بن عمير وثعلبة بن عتمة أتوا رسول الله ليحملهم ويجهزهم للغزو فقال : لا أجد ما أحملكم عليه . فانصرفوا باكين . وقد كانوا يريدون أحد ثلاثة أشياء : دواب أو زاد أو نعال . [زاد المسير لابن الجوزى فى تفسير سورة التوبة – آية ٩] .

النفس الإنسانية هى مشاعر الشح التى تدعو صاحبها لعدم الإنفاق .

لذلك قال تعالى : ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٩)﴾ [الحشر] أى : يتغلب على هذه الطبيعة فيه ، ويكبت جماح نفسه حتى تطاوعه فينفق .

ثم يُبيِّن الحق سبحانه عاقبة البخل : ﴿وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ .. (٣٨)﴾ [محمد] يعنى : بخله ناشىء من شُحِّ نفسه ، أو يبخل عن نفسه يحرمها ثواب الصدقة والإنفاق ويحرمها مضاعفة الأجر .

إذن : قوله (عن) أعطتنا معنيين : إما بيان مصدر البخل وهو شح النفس ، أو بيان عاقبة البخل ، وهى حرمان النفس من الثواب لا حرمان أحد آخر .

وقد فهم العلماء العارفون هذا المعنى ، فالإمام على رضى الله عنه لما سُئل : أريد أنْ أعرف أنا من أهل الدنيا أم من أهل الآخرة ، قال للسائل : الجواب عندك أنت ، قال : كيف ؟ قال : إذا دخل عليك شخصٌ بهدية وآخر يطلب عطية ، فلأيِّهما تبَشُّ وبأيهما تفرح ؟

إن كنتَ تفرح بحامل الهدية فأنت من أهل الدنيا ، وإنْ كنتَ تفرح بطالب العطية فأنتَ من أهل الآخرة .

لذلك كان بعض الصالحين إذا دخل عليه سائل يقف له ويُرحِّب به ويقول : مرحباً بمَنْ جاء يحمل زادى إلى الآخرة بغير أجرة .

وقوله سبحانه : ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ .. (٣٨)﴾ [محمد] لأن اليهود قالوا : إن الله فقير ونحن أغنياء ، لأنه يقترض منا ، فالله يرد عليهم بل الغنى لله ، غنى فى ذاته عن خَلْقه ، ويفيض من غناه فيغنى الخلق بأنْ يزرع بينهم المودة والرحمة ويُحببهم فى النفقة ، فلا يتكبر الغنىُّ بغناه ، ولا يحقد الفقير على الغنى بسبب فقره ، فالكل راضٍ

يقول : الحمد لله ، فكأن الغنى كله مصدره الحق سبحانه وتعالى .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا .. (٣٨)﴾ [محمد] أى : تعرضوا وتمتنعوا عن الإنفاق الذى أمركم الله به ، ولا تُصدقوا ما وعدكم الله به من الزيادة ، فاعلموا أن الله لن يترك الضعيف والفقير والعاجز عن الكسب ، إنما سيستبدلكم بمَنْ هو خير منكم فيستجيبوا لأمر الله وينفقوا على خَلْق الله .

﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ (٣٨)﴾ [محمد] لا يكونوا أمثالكم فى البخل والشح وقَبْض اليد عن العطاء ، لأنك عبدى وموظف عندى ، فإنْ خالفتنى آتى بغيرك يكون أفضل منك ، فإذا لم تجد الخير فى قوم ستجده فى آخرين ، وإذا لم تجده فى بلد ستجده فى بلد أخرى .

ومعلوم أنه لما انتشر الإسلام فى المشارق والمغارب كثر أهل الجود فى شتى بلاد الإسلام ، ولهم فى جودهم قصص وحكايات .

سُورَةُ الفَتْحِ

سورة الفتح (١)

بسم الله الرحمن الرحيم

(٢)
﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ ﴾

الحق سبحانه وتعالى هنا يتكلم بصيغة الجمع (إنَّا) الدال على العظمة ، ذلك لأن الله تعالى يزاول مُلكَه لا بصفة واحدة ، إنما بصفات متعددة وكمالات شتى ، فى القدرة والعلم والحكمة وغيرها من صفاته سبحانه .

---

(١) سورة الفتح سورة مدنية بالإجماع وهى ٢٩ آية ، نزلت ليلاً بين مكة والمدينة فى شأن الحديبية من أولها إلى آخرها . قاله المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم . قال عنها رسول الله ﷺ : « لقد أنزلت علىَّ الليلة سورة هى أحب إلىَّ مما طلعت عليه الشمس » . وهى السورة رقم (٤٨) فى ترتيب المصحف . نزلت بعد سورة الصف وقبل سورة المائدة وثلاثتها سورة مدنية . [راجع تفسير القرطبى ٩ / ٦٣١٠] والإتقان فى علوم القرآن (١/ ٢٧) .

(٢) سبب نزول الآية : عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم قال : نزلت سورة الفتح بين مكة والمدينة فى شأن الحديبية من أولها إلى آخرها . وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : لما رجعنا من غزوة الحديبية وقد حيل بيننا وبين نسكنا فنحن بين الحزن والكآبة أنزل الله عز وجل ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ ﴾ [الفتح] فقال رسول الله ﷺ : « لقد أنزلت علىَّ آية هى أحب إلىَّ من الدنيا وما فيها كلها » . أوردهما الواحدى النيسابورى فى أسباب النزول (ص ٢١٦ ، ٢١٧).

لكن حينما يتكلم عن ذاته سبحانه يتكلم بصيغة المفرد الواحد ، فيقول مثلاً : ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ أَنَا .. (١٤)﴾ [طه] ليثبت لنفسه تعالى الوحدانية ، فإنْ تكلم عن فعل من أفعاله قال : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩)﴾ [الحجر]

ونلاحظ هنا أنه سبحانه أكد ضمير المتكلم (إنَّا) بقوله (نحن) ثم كرر الضمير فى (نزلنا) وفى ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩)﴾ [الحجر] ذلك ليؤكد أهمية المنهج الذى جاء به القرآن ، وأنه منهج سماوى من عنده سبحانه ، وأنه مُعجز للخلق ، وفى هذا بيان لفضل القرآن الكريم .

ومادة (فتح) تأتى بمعانٍ متعددة ، نقول : فتح الباب . وهذا المعنى يدل على فتح المغاليق ويكون فى الأمر الحسى ، كما فى قوله تعالى فى قصة سيدنا يوسف عليه السلام : ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ .. (٦٥)﴾ [يوسف]

وهناك فتح معنوى فى الأمر الذى يأتى بالخير كما فى قوله تعالى فى المنافقين : ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم[1] بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ .. (٧٦)﴾ [البقرة] أى : ما أعطاكم فى التوراة من صفات النبى ﷺ المذكورة فى التوراة . وهناك فتح بمعنى : حكم وفصل كما فى قوله تعالى : ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ (٨٩)﴾ [الأعراف]

ومن معانى الفتح : النصر كما فى الآية التى معنا ، بدليل قوله تعالى بعدها : ﴿وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا (٣)﴾ [الفتح] لأن الدعوة

---

(١) حاجّه : نازعه الحجة فهى مفاعلة من الجانبين . أى : قدم كل منهما حجته ليغلب بها الآخر . [القاموس القويم ١/١٤٣] .

حين قامت ، وعارضها كفار مكة وصَمُّوا آذانهم عنها وعاندوها استهزاءً برسول الله ﷺ وإيلاماً له ولمَنْ آمن بدعوته .

كان الحال كأن الباب مغلق فى وجه الدعوة ، فقال الله له ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ① ﴾ [الفتح] أى : فتح ظاهر واضح ، فتح لباب انتشار الدعوة وقوتها بحيث يكون لها قوة وشوكة ومنعة ، فبعد أنْ كانت قريش تحاصرها لتقضى عليها فتح لها الباب فجابت الجزيرة العربية كلها ، وبعد أنْ كانت قريش تضيق على الدعوة الخناق أصبح العربُ كلهم يحتضنونها ويدافعون عنها .

وفى آية أخرى شرح لنا مسألة الفتح هذه ، فقال سبحانه : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ .. ④① ﴾ [الرعد] يحكم بنصرة الإسلام وانتشاره فى بقاع الأرض ، وإذا حكم الله وقضى فلا رادَّ لقضائه ، ولا مُعقبَ لحكمه ﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا .. ② ﴾ [فاطر] وما دام أن الله فتح فلا يضرك أنْ يغلق البشر .

الفعل (فتح) يتعدى بنفسه فى الفتح الحسىِّ نقول : فتح الباب ويتعدى باللام كما فى ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ .. ① ﴾ [الفتح] أى : نصرناك ويتعدَّى بـ (على) فى الأمور المعنوية ، وفى الخيرات يسوقها الله إليك ويُنزلها عليك .

لذلك مشهور فى الدعاء أن نقول : فتح الله عليك ، كأن الخيرات ستنزل عليك كالمطر ينزل على رأسك ، ومن ذلك قوله تعالى مع الفارق بين الحالين : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ .. ④④ ﴾ [الأنعام] يعنى : أتيناهم بالخيرات من كل ناحية

﴿ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا .. (٤٤) ﴾ [الأنعام] أى : فرح البطر والتعالى ﴿ فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (٩٥) ﴾ [الأعراف]

لأنه كما سبق أنْ قلنا : إذا أردتَ أنْ تُوقع برجل لا تُوقعه من على الحصيرة مثلاً ، إنما ترفعه إلى أعلى ليزيد الإيلام ، كذلك هؤلاء فتح الله عليهم أبواب الخيرات من كل ناحية ليؤمنوا ، لكنهم نسوا ما ذكِّروا به ، فأخذهم أخْذ عزيز مقتدر .

والنعمة إذا لم تُقابل بالشكر انقلبتْ إلى نقمة ﴿ كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ (٧) ﴾ [العلق] والأخذ حال النعمة والرفاهية أنكى وأوجع من الأخذ حال الفقر ، فالأخذ مع النعمة فيه يأسٌ بعد إطماع ، مثل السجين الذى يطلب الماء لشدة عطشه ، فيأتى له الحارسُ بكوب الماء حتى يقترب من فمه فيُريقه على الأرض .

وقوله تعالى :

﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا (٢) وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا (٣) ﴾

سبق فى سورة محمد أنْ بيَّنا معنى الذنب فى حق النبى ﷺ لأنه معصوم وقلنا : إنه من باب : حسنات الأبرار سيئات المقربين[1] ،

---

(١) ذكره القرطبى فى تفسيره (١/٣٠٩) وعزاه للجنيد رحمه الله ، وكذا فى تفسير أضواء البيان . وقال السخاوى فى المقاصد الحسنة (١/١٠٣) وقال : إنه من كلام أبى سعيد الخراز رواه ابن عساكر فى ترجمته . فهو ليس بحديث .

لذلك عدّ النسيان فى حقه ذنباً لأنه نبى موصول بالوحى ، مؤتمن على منهج الله ، فلا يُتصوَّر منه النسيان الذى يحدث من باقى أمته .

لذلك تجاوز الله لهم عن النسيان فى حين لم يتجاوز عنه لرسول الله ، ومثّلنا لذلك بنسيان سيدنا آدم ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا (١١٥) ﴾ [طه] وسمّى هذا النسيان معصية .

فالمغفرة لرسول الله من هذه الأمور أمثال عتاب الله له : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ .. (١) ﴾ [التحريم] وقوله : ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٣٣) ﴾ [الأنعام] وقوله : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ[1] نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا (٦) ﴾ [الكهف]

فالله يعاتب رسوله شفقة عليه ورحمة به ﷺ ، وكأنه يقول له : يا محمد لا تحزن ولا تُحمِّل نفسك فوق طاقتها ، لأن لك رصيداً من الله فالاستغفار من مثل هذه الأمور ، لا أنه أذنب ذنباً فيه مخالفة للمنهج حاشاه ﷺ أنْ يكون منه ذلك .

وكلمة ﴿ لِيَغْفِرَ .. (٢) ﴾ [الفتح] من غفر والغفر هو الستر ، وسَتْر الذنب إما أنْ يكون بعده بمنع العقوبة عليه أو يستر الذنب قبل أنْ يحدث فلا يحدث أصلاً ، هذا معنى ﴿ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ .. (٢) ﴾ [الفتح] ما تقدم يستر عقوبته ، وما تأخر يستر الذنب نفسه فلا يقع .

﴿ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ .. (٢) ﴾ [الفتح] تمام النعمة على رسول الله أنْ بعثه الله للناس كافة لكل زمان ولكل مكان ، وكان الرسلُ قبله

---

(١) بخع نفسه : قتلها هماً وغيظاً وحَزناً . [القاموس القويم ١/٥٩] .

يُبعث الرسولُ إلى قوم معينين فى زمن معين ، أما سيدنا رسول الله فقد جاء على موعد مع التقاء حضارات الدنيا كلها واتصال بين المشرق والمغرب ، فجاء رسولاً عاماً وخاتماً للرسالات ، لذلك نقول : سيد الرسل وخاتم الأنبياء .

ومن تمام النعمة أن الله فتح له ، وأزال من أمامه العقبات التى كانت تعرقل مسيرة الدعوة حتى دانتْ له الجزيرة العربية كلها وشملها الإسلام ، وعلى يديه هدى اللهُ هذه الأمة فحملت رسالته من بعده وساحت بها فى شتى بقاع المعمورة .

فجذب إليه أعظم حضارتين فى هذا الوقت ، هما : حضارة فارس فى الشرق ، وحضارة الروم فى الغرب ، حتى إنهم ليقولون : من عجائب هذا الدين أنه فتح نصف الكرة الأرضية فى نصف قرن من الزمان ، وهذه لم تحدث من قبل .

والحق سبحانه يشرح لنا مسألة تمام النعمة هذه فى قوله تعالى : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا .. (٣)﴾ [المائدة]

لذلك لما سمع سيدنا أبو بكر هذه الآية قال : لقد نعى محمد نفسه بهذه الآية[1] . لأنه لا شىء بعد التمام إلا النقصان ، فأخذوا من

---

(١) ما وجدته فى هذا هو عن عمر بن الخطاب وليس أبا بكر . فقد روى هارون بن عنترة عن أبيه قال : لما نزلت هذه الآية بكى عمر ، فقال له النبى ﷺ : ما يبكيك يا عمر ؟ فقال : أبكانى أنّا كنا فى زيادة من ديننا . فأما إذا كمل فإنه لم يكن شىء قط إلا نقص . قال : صدقت . أورده البغوى فى تفسيره (٣/١٣) والألوسى فى روح المعانى (٤/٣٧٥) والبقاعى فى نظم الدرر (٢/٣٣) وابن عادل فى تفسير اللباب وأبو السعود فى تفسيره (٢/٢٠٢) .

هذه إشارة إلى قرب موته ﷺ وانتقاله إلى الرفيق الأعلى لينال الجزاء .

لذلك لما جاءه ملك الموت وخيّره ﷺ قال : بل الرفيق الأعلى[(١)] . فاختار جوار ربه ليس هرباً من المسئولية بل لعلمه بتمام الأمر واستوائه ، وأنه ليس له مهمة بعد ذلك ، بعد أنْ أدَّى الأمانة وبلَّغ الرسالة ، ونصح الأمة ، وأظهر أمر الدين ، وأرسى قواعده .

وقوله : ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا (٢)﴾ [الفتح] فبعد أنْ رأى النعمة قد تمتْ ، وليس هناك مغاليق اطمأن إلى أن الله لا يتخلى عنه .

وقوله تعالى : ﴿وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا (٣)﴾ [الفتح] هل النصر هو العزيز أم المنصور ؟ المنصور هو العزيز ، إنما وصف النصر بالعزة فكأن نصر الحق يُسعد النصرَ نفسه ويعزه وليقول له : إنك بهذا النصر أخذتَ ما لم يأخذه مثلك أبداً .

وفى موضع آخر بيَّن الحق سبحانه أنه ناصر رسوله فى وقت الرخاء كما فى فتح مكة ، وناصره وقت الشدة كما فى حنين : ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ[(٢)] إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ (٢٥) ثُمَّ أَنزَلَ

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٢٥١٤٢ ، ٢٥١٤٣) ولفظه عن عائشة رضى الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ كثيراً ما أسمعه يقول : إن الله لم يقبض نبياً حتى يخيره . قالت : فلما حُضر رسول الله ﷺ كان آخر كلمة سمعتها منه وهو يقول : بل الرفيق الأعلى من الجنة قالت عائشة : قلت : إذاً والله لا يختارنا وقد عرفت أنه الذى كان يقول لنا : إن نبياً لا يقبض حتى يُخير .

(٢) حنين : معركة وقعت بين المسلمين وقبيلتى هوازن وثقيف العربيتين فى وادى حنين ويقع بين مكة والطائف ، وكانت معركة شديدة على المسلمين بسبب أنهم دخلوا هذا الوادى وهم لا يعلمون أن مالك بن عوف وضع جيشه على شكل كمائن فى مداخل ومضايق وشعاب وادى حنين برماة للسهام ، فكان أن ارتبك المسلمون ارتباكاً عنيفاً وتراجعوا بدون نظام ، ولكن المسلمين تمالكوا أنفسهم عندما نادى عليهم رسول الله قائلاً « أنا النبى لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب » فاستطاعوا هزيمة المشركين . [موسوعة ويكيبديا بتصرف واختصار] .

اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (٢٦)﴾ [التوبة]

فلما اغتروا بالكثرة أدَّبهم ، ثم تداركهم برحمته ونصرهم ، وما كان الله لينصرهم فى فتح مكة ثم يخذلهم فى حنين ، وكأن الله يقول لرسوله : اعلم أن الله وراءك وناصرك ومؤيدك ، لكن عليك وعلى أمتك ألاَّ تغتروا بنصر أو بقوة أو بعدد ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ .. (٢٤٩)﴾ [البقرة]

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾﴾

قوله تعالى ﴿هُوَ الَّذِى أَنزَلَ السَّكِينَةَ .. (٤)﴾ [الفتح] أى : الطمأنينة والأمان بعد أن اشتدَّ الكرب عليه ، وبعد أنْ كانوا فى ذلة ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (١٠) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيدًا (١١)﴾ [الأحزاب]

نعم إذا اشتد الكرب هان ، ومع الضيق يأتى الفرج وتدخلت السماء وجاء نصر الله ﴿لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ .. (٤)﴾ [الفتح] ولينفى عنهم ما خالطهم وما ساورهم من الغرور بالعدد ومخالفة قواعد الجندية لله تعالى .

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ .. (٤)﴾ [الفتح] يعنى : لا تظنوا أنكم أنتم جنود الله فقط ، بل لله جنود كثيرة ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ

هُوَ .. (٣١) ﴾ [المدثر] فمن جنود الله الملائكة المدبِّرات أمراً أى التى تُدبر شئون الكون بأمر الله .

﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ(١) مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ .. (١١) ﴾ [الرعد] وقد أقسم الله بهم فقال : ﴿ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا (٥) ﴾ [النازعات] هؤلاء جنود الله فى السماء .

نعم لله جنود فى السموات وجنود فى الأرض ، أهلك الله بهم الأمم المكذِّبة ، اقرأ : ﴿ فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُم (٢) مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا .. (٤٠) ﴾ [العنكبوت]

هذه كلها من جنود الله : الحاصب والصيحة والخسْف والغرق وغيرها . وهذه الجنود لا يعلمها إلا الله من حيث كيف تعلم وكيف تدبر لتحارب أعداء الله لأنها تعمل فى خفاء .

ومع ذلك لما أراد الحق سبحانه نُصْرة رسوله ﷺ لم ينصره بآية من هذه الآيات الكونية ، إنما نصره بقوة إيمان المؤمنين به وثباتهم فى مواجهة أعدائهم وإلا لقالوا لولا الظواهر الطبيعية لم يقدروا علينا .

لكن جعل الحق سبحانه النصر منسوباً إلى الجنود الخفية بالفعل ، أما الظاهر فمنسوب إلى هؤلاء المؤمنين لكى تظل رهبتهم فى قلوب أعدائهم .

---

(١) معقبات : أى ملائكة حفظة يتتبعونه يحفظونه ويحصون أعماله . أو المعنى : تتعاقب الملائكة ليلاً ونهاراً . [القاموس القويم ٢/٢٩] .

(٢) هذه أربعة أنواع من العذاب : (الحاصب) وهى ريح شديدة البرد عاتية شديدة الهبوب جداً تحمل حصباء الأرض فتلقيها على الناس وتقتلعهم من الأرض وقد عذب الله بها قوم عاد . و(الصيحة) التى أخذت قوم ثمود فقضت عليهم ، و(الخسف) الذى عاقب الله به قارون . و(الغرق) الذى قضى الله به على فرعون وجنوده وعلى الكافرين من قوم نوح عليه السلام .

لذلك نقرأ فى حادثة الهجرة : ﴿ إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا .. (٤٠) ﴾ [التوبة]

فجند الله كانوا فى هذا الموقف ، لأن الصِّديق يقول لرسول الله : لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا[١] ، إذن : هناك جنود منعت رؤيتهم ، الحمام الذى عشش والعنكبوت الذى نسج خيوطه لم يكُن إلا جندياً من جنود الله .

سراقة بن مالك[٢] لما ساخت قوائم فرسه فى الرمال ، فكانت الرمال جنداً من جنود الله ، والأعجب من ذلك أنْ يُسخِّر الله من الكفرة أنفسهم من يساعد فى إتمام الهجرة وهو الدليل عبد الله بن أريقط[٣] وكان كافراً لا يعرف رسول الله ﷺ ، ذلك لأن الله غالبٌ على أمره ؛ فجعل هادىَ المادة يهدى هاديَ المعنى !!

وقال : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ .. (٢٤) ﴾ [الأنفال]

قلنا : لأن وارد الرحمن لا ينازعه ولا يعارضه وارد الشيطان ، وهذه

---

(١) حديث متفق عليه ، أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٢٩٥) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٤٣٨٩) من حديث أنس بن مالك أن أبا بكر الصديق حدَّثه قال : نظرت إلى أقدام المشركين على رؤوسنا ونحن فى الغار فقلت : يا رسول الله لو أن أحدهم نظر إلى قدميه أبصرنا تحت قدميه ، فقال : يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟ واللفظ لمسلم .

(٢) سراقة بن مالك بن جعشم المدلجى الكنانى أبو سفيان ، صحابى له شعر ، له فى كتب الحديث ١٩ حديثاً . كان فى الجاهلية قائفاً (يقتفى الأثر) أخرجه أبو سفيان ليقتاف أثر رسول الله ﷺ حين خرج إلى الغار مع أبى بكر . أسلم بعد غزوة الطائف سنة ٨ هجرية توفى ٢٤ هجرية . [الأعلام للزركلى ٣/ ٨٠] .

(٣) كان دليلهم فى رحلة الهجرة ، وكان ماهراً خريتاً ، ليثى ديلى ، استأجره أبو بكر ، وكان كافراً ولكنهما أمناه ، وفى كتاب (المحبر) أنه عبد الله بن أريقط العدوى حليف العاص بن وائل السهمى . [بتصرف من كتب التراجم] .

رأيناها فى قصة أم موسى لما أوحى الله إليها أنْ تلقيه فى البحر ، مع أنها أُمٌّ تخاف على وليدها ومع ذلك ألقتْه ، ورأيناها فى فرعون الذى يقتل الذكور من بنى إسرائيل يأتيه موسى على هذه الصورة ، ومع ذلك لم يشكّ فى أمره وربَّاه فى بيته ، فالله تعالى ربُّ القلوب خالقها ومُقلّبها كيف يشاء ، يجعلها تقبل حكمه دون مناقشة .

وقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ ﴾ [الفتح] عليماً بجنوده ، وهو سبحانه حكيم فى توجيهها فى أوقات مخصوصة وإلى قوم بعينهم ، فالمسألة ليست قوة باطشة بلا حساب ولا بلطجة ولا ظلم ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿ لِّيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ ﴾

يُروى أنه لما نزلت : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ ﴾ [الفتح] قال الصحابة : هنيئاً لك يا رسول الله ، هذا ما أعده الله لك ، فماذا أعدَّ لنا ؟ فنزلت : ﴿ لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن

---

(١) سبب نزول الآية : عن أنس رضى الله عنه قال : أنزلت هذه الآية على النبى ﷺ ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ ﴾ [الفتح] عند رجوعه من الحديبية نزلت وأصحابه مخالطون الحزن وقد حيل بينهم وبين نسكهم ونحروا الهدى بالحديبية ، فلما أنزلت هذه الآية قال لأصحابه : لقد أنزلت علىّ آية خير من الدنيا جميعها فلما تلاها النبى ﷺ . قال رجل من القوم : هنيئاً مريئاً يا رسول الله قد بيَّن الله ما يفعل بك ، فماذا يفعل بنا ؟ فأنزل الله تعالى ﴿ لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ .. ﴿٥﴾ ﴾ [الفتح] .

تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا .. ﴿٥﴾ ﴾ [الفتح] هذا ما لهم .

وقد وقف المستشرقون عند قوله سبحانه : ﴿ وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ .. ﴿٥﴾ ﴾ [الفتح] وقالوا : كيف يُكفِّر عنهم سيئاتهم وقد أدخلهم الجنة بالفعل ؟ إنهم لا يدخلون الجنة إلا بعد أنْ كفَّر عنهم سيئاتهم .

نقول : المعنى يسترها عليهم حتى لا تُنغِّص معيشتهم فى الجنة ولا موقفهم من ربهم عز وجل ، أو يسترها عنهم فينسوها حتى لا يخجلوا منها ، كما لو أنك أحسنتَ إلى مَنْ أساء إليك .

فكلما زدتَ فى الإحسان إليه زاد تأنيباً لنفسه ، لذلك يستر اللهُ عنهم سيئاتهم ، فلا يذكرونها حتى لا تُنغص عليهم ما هم فيه من لذة النعيم .

وهنا ملحظ فى ﴿ لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ .. ﴿٥﴾ ﴾ [الفتح] أولاً اللام هنا للتعليل كما فى قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الذاريات] فالعلة فى الخَلْق هى العبادة ، أما القول بأن أفعاله تعالى لا تُعلل نقول : لا تُعلل بعلة ترجع إلى نفعه سبحانه إنما إلى نفع غيره ، إذن تعلل .

ثم ذكر المؤمنات هنا بعد المؤمنين ، فلماذا خصَّهن بالذكْر مع أن العادة أن النساء يُذكرنَ فى الحكم فى طَيِّ الرجال فى أغلب آيات القرآن ، كما فى ﴿ يَـأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا .. ﴿١٠٤﴾ ﴾ [البقرة] ولم يقُلْ : يأيتها المؤمنات ، لأن المرأة مستورة فى الرجل ، ولا تُذكر إلا إذا كان لها حكم خاص بها ، فلماذا إذن ذكرها هنا ؟

قالوا : لأن المقام مقامُ حديث عن الجهاد بدليل قوله تعالى : ﴿وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا (٣)﴾ [الفتح] والمرأة لا تجاهد ، لذلك ذكرها الحق سبحانه ليؤكد على أن لها أجراً فى الجهاد ، ولينزع عنها الشكّ فى هذه المسألة .

وقوله سبحانه : ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ .. (٥)﴾ [الفتح] بيّنا أن هذه الآية أتتْ بلفظ ﴿تَجْرِى تَحْتَهَا الأَنْهَارُ .. (١٠٠)﴾ [التوبة] وهذا ليس تكراراً للمعنى الواحد إنما لكل منهما معنى ، فالماء حينما يجرى من تحتك تطمئن إلى استمراره ، فلن يقدر أحدٌ أنْ يمنعه عنك لأنه ناشىء فى ملكك .

إنما ﴿تَجْرِى تَحْتَهَا .. (١٠٠)﴾ [التوبة] ربما كان يجرى من مكان بعيد عنك ويمر عليك ، فتخشى أنْ يُمنع عنك .

وقوله : ﴿خَالِدِينَ فِيهَا .. (٥)﴾ [الفتح] ليُذهب ما فى نفسك من الخوف من فوات النعيم ، لأن نعيم الدنيا مهما كان يُنغِّصه عليك مخافة أنْ يفوتك أو تفوته أنت ، فالله يطمئنك على أن نعيم الجنة دائم لا ينقطع وخالدٌ لا يفنى ، فلا يفوتك بأنْ يذهب عنك ، ولا تفوته أنت بالموت .

لذلك سمَّاه فوزاً عظيماً ﴿وَكَانَ ذَلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا (٥)﴾ [الفتح] ما بالك حين يُوصف الفوز بالعظمة ؟ وما بالك إنْ كان هذا كله عند الله ؟ فالعطاء يكون على قدر المعطى ، إنك تُسر وتسعد حينما يرضى عنك مسئول كبير مثلاً ، وتُسر حينما تحسن إلى شخص فيعطيك هدية أو مكافأة ، فكيف إذا كافأك الله ؟

لذلك دائماً أذكر يوم أنْ ذهبنا مع بعض الوزراء إلى سان

فرانسيسكو وذهبنا إلى فندق فخم تعجَّب الجميع من هيئته وجمال تصميمه وما فيه من إمكانيات ، فلما رأيت الإعجاب فى أعينهم قُلْتُ لهم : خذوها دليلَ إيمان وقولوا : هذا ما أعدَّه البشر للبشر ، فكيف بما أعدّه ربُّ البشر للبشر ؟

﴿ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ ﴾ (١)

تأمل هنا المقابلة التى تظهر الفرق وتضعك أمام مقارنة بين ما أعدَّه الله للمؤمنين من الجزاء وما أعده للمنافقين والكافرين ، والجمع بين المتقابلات أسلوبٌ من أساليب القرآن لكى تبدو المفارقة ، لذلك الشاعر العربى قال فى وصف محبوبته :

الوَجْه مِثل الصُّبْح مُبْيضّ وَالشَّعْر مثْلُ الليْلِ مُسْودّ
ضِدَّانِ لَمَّا اسْتجْمَعَا حَسُنَا وَالضِّدّ يُظهِرُ حُسْنَهُ الضِّدُّ

ونلاحظ هنا أنه ذكر المنافقين والمنافقات قبل المشركين والمشركات فى مقاساة العذاب ، نعم لأن المنافق أشد جُرْماً من المشرك ، المنافق ستر كفراً وأظهر إيماناً فتسلَّل إلى صفوف المؤمنين وانطوى تحت لوائهم ، وهو فى حقيقته مشرك معاند يكيد للمؤمنين تحت ستار .

---

(١) (عليهم دائرة السوء) فى الدنيا بالقتل والسبى والأسر ، وفى الآخرة بجهنم . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو «دائرة السُّوء » بالضم . وفتح الباقون . [تفسير القرطبى ٩/٦٣١٦] .

أما المشرك فظاهره مثل باطنه وعداوته معروفة ، ومن اليسير أنْ تأخذ حذرك منه ؛ لذلك قال تعالى عن المنافقين ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ[1] الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً (١٤٥)﴾ [النساء] يعنى : هم تحت المشركين وأدْنى منهم .

وقوله تعالى : ﴿الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ .. (٦)﴾ [الفتح] الظن : الحكم بشىء على غير حقيقة ، وحين تقول : أظن كذا يعنى أنا غير مُتيقِّن منه . وأقلّ من الظن الوهم . لكن ما الظن الذى ظنوه ووصفه الله بأنه ظن السوء ؟

قالوا : إن محمداً لن ينتصر علينا أبداً ، وقد بيَّن الحق سبحانه هذا المعنى فى قوله تعالى : ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ (١٥)﴾ [الحج]

يعنى : الذى يظن هذا الظن ليس أمامه إلا أنْ يمد حبلاً إلى السماء ويتعلق به كالمشنوق ، ثم ليقطع هذا الحبل ، وينظر هل يُذهبَ هذا غيظه ؟

وهذا الظن فى الله سبحانه وتعالى ، وأول ظنهم فى الله أنْ قالوا : ليس له وجود . وآخرون قالوا : موجود وله شريك . وآخرون قالوا : القرآن ليس من عند الله بل من عند محمد . وآخرون أنكروا البعث والقيامة .

وهذا كله ظَنُّ سَوْء بالله ، لذلك يقابله الحق سبحانه بعذاب أيضاً

---

(١) الدَّرْك : أسفل كل شىء ذى عمق كالبئر ونحوها . ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ .. (١٤٥)﴾ [النساء] أى فى الطبق الذى فى قعر جهنم ، والنار سبع دركات . [القاموس القويم ١/٢٢٧] .

سوء فيقول : ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ .. (٦)﴾ [الفتح] والدائرة منطقة لها محيط مغلقة ، فكأنهم لا يقدرون على الإفلات منها لأنها محيطة بهم .

وفى موضع آخر قال سبحانه : ﴿وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ (٢٠)﴾ [البروج] ليس هذا وفقط ، بل أيضاً ﴿وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٦)﴾ [الفتح] سبحان الله ، كم جمع عليهم من ألوان النكال[1] والعذاب والغضب واللعنة ؟!

الغضب انفعال يثير الغاضب على المغضوب عليه فينتقم منه ، الحق سبحانه وتعالى غنىٌّ عن الانفعال ، إنما يُحدِّثنا على قدر فهمنا ، وعلى قدْر ما فى لغتنا من وسائل التعبير .

﴿وَلَعَنَهُمْ .. (٦)﴾ [الفتح] طردهم من واسع رحمته وأبعدهم عنها ، ثم بعد ذلك تلعنهم الملائكة ويلعنهم اللاعنون ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ .. (٦)﴾ [الفتح] أعدها بالفعل فهى موجودة الآن ﴿وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٦)﴾ [الفتح] وقوله ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ..(٦)﴾ [الفتح] هى الجزاء الطبيعى لظنِّ السَّوْء الذى ظنوه بالله .

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ[2] وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (٧)﴾

---

(١) النكال : التنكيل والعقوبة الشديدة الزاجرة . قال تعالى : ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ (٢٥)﴾ [النازعات] أى : عذبه الله عذاباً شديداً يعد عبرة لغيره فى الدنيا والآخرة . [القاموس القويم ٢/٢٨٨] .

(٢) قال ابن عباس : جنود السماوات الملائكة . وجنود الأرض المؤمنون . [تفسير القرطبى ٩/٦٣١٦] .

ذكر هنا أيضاً جنود الحق سبحانه لأنها تنزل على قسمين : جنود رحمة تنزل بالخير كالملائكة ينزلون بالتنزيل وبالوحى ، وأخرى بالماء ، وهناك جنود تنزل بالنقمة والطمس والعذاب والإذلال .

ونفهم من قوله تعالى ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (٧) ﴾ [الفتح] أن المراد بالجنود هنا جنود العذاب ، فهى التى تناسب وصف العزة . والعزيز هو الذى يغلب ولا يُغلب ، وهذه العزة مقيَّدة بالحكمة مُنزَّهة عن البطش أو الظلم ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٨) لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ[1] وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً[2] وَأَصِيلًا (٩) ﴾

الخطاب هنا لسيدنا رسول الله ﷺ ، يقول له ربه تعالى : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ .. (٨) ﴾ [الفتح] يا محمد ﴿ شَاهِدًا .. (٨) ﴾ [الفتح] أى : على أمتك وعلى مَنْ سبقك من الرسل أنهم قد بلَّغوا الرسالة ، نعم شاهد عليهم بما أخبره الله به فى القرآن .

وفى آية أخرى قال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا .. (١٤٣) ﴾ [البقرة] أى : تشهدون على الناس أنكم قد أبلغتموهم ، لأن هذه الأمة ورثت الدعوة

---

(١) عزّروه : أحاطوه بالعناية أو وقروه وعظموه . قال تعالى : ﴿ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ .. (٩) ﴾ [الفتح] أى : لتحيطوه بالعناية وتنصروه . [القاموس القويم ٢ / ٢٨] .

(٢) البكرة : أول النهار . وقوبلت فى القرآن بالأصيل وبالعشى . قال تعالى : ﴿ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٩) ﴾ [الفتح] .

عن رسول الله وحملتها من بعده .

لذلك ورد فى الحديث الشريف قوْل سيدنا رسول الله ﷺ « نضَّرَ الله امرءاً سمع مقالتى فوعاها وأدَّاها إلى مَنْ لم يسمعها ، فرُبَّ مُبلَّغ أوعى من سامع »[(١)] .

وقوله : ﴿وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٨﴾ [الفتح] مبشراً بالخير ونذيراً بالعذاب ، وقلنا : البشارة أو النذارة تكون قبل وقوع الحدث . لكن لماذا بشيراً ونذيراً ؟ قال : ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٩﴾ [الفتح]

إذن : علة الإرسال لتؤمنوا بالله ورسوله ﴿وَتُعَزِّرُوهُ .. ۝٩﴾ [الفتح] تعظموه وتنصروا دينه وتُعْلوا كلمته ﴿وَتُوَقِّرُوهُ .. ۝٩﴾ [الفتح] أى : تُعظمونه وتُقدرونه حقَّ قدره ، لأنه سبحانه جعل لخلقه منهجاً يحرس حركة حياتهم من الطيش .

فلما خلق اللهُ آدمَ وسوَّاه على صورته ونفخ فيه من روحه دبَّتْ فيه الحياة واستوى مخلوقاً كاملاً ، بمعنى أنه لم يكُنْ طفلاً ثم كبر فصار شاباً فرجلاً .

لا بل دبَّتْ فيه الحياة ، وهو رجل كامل الرجولة ، وطرأ آدم على كوْنٍ أعدَّه الله له فيه كل مُقوِّمات حياته من ماء وهواء وأرض وشمس وقمر ، وبعد أنْ أعطاه قوام مادته أعطاه القيم التى هى قوام الروح .

---

(١) عن زيد بن ثابت رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « نضَّر الله امرءاً سمع منا حديثاً فحفظه حتى يبلغه فرُبَّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه ، ورب حامل فقه ليس بفقيه » . أخرجه أبو داود فى سننه (٣١٧٥) ، والترمذى فى سننه (٢٥٨٠) ، وابن ماجه فى سننه (٢٢٦) وأحمد فى مسنده (٢٠٦٠٨) .

لذلك بعد أنْ مَنَّ الله عليه بروح المادة أعطاه روحاً أخرى للقيم ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا .. (٥٢) ﴾ [الشورى] لذلك سمَّى القرآن روحاً ، وسمَّى الملَك الذى نزل به روحاً ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣) ﴾ [الشعراء] وخاطب الأحياء بقوله : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ..(٢٤) ﴾[الأنفال] فعلم أن هناك حياتين حياة المادة وحياة الروح وهى المنهج .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ(١) فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (١٠) ﴾

الحديث هنا عن بيعة الحديبية التى كانت عند شجرة الرضوان التى قال الله فيها فى نفس هذه السورة ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا (١٨) ﴾ [الفتح]

إذن : الفتح الذى نحن بصدده ظهرت بشائره فى هذه البيعة فى بداية الفتح الأعظم ، لذلك لما اعترض سيدنا عمر وقال لسيدنا رسول الله : لمَ نُعط الدنية(٢) فى ديننا ؟ نهره الصِّديق أبو بكر وقال له : الزم غَرزك يا عمر(٣) . يعنى : لا تتعد حدودك واعرف مكانك .

وكان الصِّديق يقول : والله ما كان فَتْحٌ فى الإسلام أعظمَ من

---

(١) نكث العهد : نقضها ولم يف بشروطها . [القاموس القويم ٢/ ٢٨٤] .

(٢) الدنية : الخصلة المذمومة . ورجل دنى من قوم أدنياء ، وهو الضعيف الخسيس الذى لا غناء عنده المقصِّر فى كل ما أخذ فيه . [لسان العرب – مادة : دنا] .

(٣) أخرج نحوه مسلم فى صحيحه (١٧٨٥) كتاب الجهاد ، والبخارى فى صحيحه (٤٨٤٤) فى تفسير سورة الفتح ، من حديث سهل بن حنيف رضى الله عنه .

فتح الحديبية ، لماذا ؟ لأنه الذى مهَّد لفتح مكة ، ولكن الناس وقتها لم يتسع ظنهم لما بين محمد وربه ، ومن طبيعة الناس العجلة .

أما الحق سبحانه فلا يعجل بعجلة العباد حتى تبلغ الأمور ما أراد ، وتعلمون قصة السيدة أم سلمة[١] لما دخل عليها سيدنا رسول الله مُغْضباً ، فقالت له : ما أغضبك يا رسول الله ؟ قال : هلك المسلمون يا أم سلمة أمرتهم فلم يمتثلوا . قالت : يا رسول الله إنهم مكروبون جاءوا على شوق لرؤية الكعبة ، ثم يُمنعون عنها وبينهم وبينها كذا وكذا ، اعذرهم يا رسول الله وانظر إلى ما أمرك الله به فافعله ولا تكلم أحداً ، فإنهم إنْ رأوك فعلتَ فعلوا[٢] .

ونجحت خطة أم سلمة ونجى المسلمون من فتنة كادت تهلكهم ، صحيح هى عصبية إيمانية وأمر فى ظاهره يُرضى رسول الله ، لكن إنْ كان الأمر الأعلى من الله فهو أَوْلى بالسمع والطاعة .

لذلك قالوا : من الشجاعة أن تجبن ساعة ، هَبْ ونحن جالسون فى مكان وبيننا أكابر وعظماء ودخل علينا مجرم وفى يده مسدس وأمرنا بالقيام وهددنا ، ماذا نفعل ؟ لابدّ أنْ نمتثل لأمره فى هذا الموقف حتى لا نخاطر بأنفسنا .

---

(١) أم سلمة هى : هند بنت سهيل القرشية المخزومية من زوجات النبى ﷺ ، تزوجها فى السنة الرابعة للهجرة ، من أكمل النساء عقلاً وخلقاً (ولدت عام ٢٨ قبل الهجرة) وتوفيت عام ٦٢ هجرية عن ٩٠ عاماً . روت عن رسول الله ٤٠٠ حديثاً . [الأعلام للزركلى ٨/٩٧] .

(٢) أخرج أحمد فى مسنده (١٨١٥٢) من حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم أن رسول الله قام فقال : « يأيها الناس انحروا واحلقوا . قال : فما قام أحد . قال : ثم عاد بمثلها ، فما قام رجل حتى عاد بمثلها ، فما قام رجل ، فرجع رسول الله ﷺ فدخل على أم سلمة فقال : يا أم سلمة ما شأن الناس ؟ قالت : يا رسول الله قد دخلهم ما قد رأيت فلا تكلمنَّ منهم إنساناً واعمد إلى هديك حيث كان فانحره واحلق ، فلو قد فعلت ذلك فعل الناس ذلك ، فخرج رسول الله لا يكلم أحداً حتى أتى هديه فنحره ، ثم جلس فحلق فقام الناس ينحرون ويحلقون » . الحديث .

فهناك شجاعة على الغير ، وشجاعة على النفس ، وهذه من الحنكة والسياسة ، وهذا ما فعله رسول الله وما رآه بما لديه من نورانية موصولة بالحق سبحانه .

وكان هذا الصلح رفعة للإسلام وإعلاءً لرايته مع أنهم عادوا ولم يدخلوا مكة ، ذلك لأن قريشاً كانت تتخذ من الإسلام عدواً ، ولا تسمح له بأنْ يُعبِّر عن نفسه ، والآن تفتح معه باب الحوار والمناقشة . إذن : أصبح للإسلام كيان وكلمة تُسمع ، وارتفع عن ذلّة الماضى وهوانه .

كذلك كان الصلح تهدئة لقريش وإزالة لما لديها من حقد وشحناء ضد المسلمين ، فبالصلح معهم نأمن جانبهم لنتفرغ لنشر الدعوة فى باقى جزيرة العرب ، وقبل أنْ يصل المسلمون فى طريق عودتهم إلى المدينة بيَّن الحق سبحانه لرسوله ﷺ المسألة ، فقال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ .. (١٠) ﴾ [الفتح]

والمبايعة عقد بين طرفين واتفاق ، والبيع أمر محبوب للإنسان على خلاف الشراء ، لذلك قال تعالى فى الجمعة ﴿ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ .. (٩) ﴾ [الجمعة] لأنك تحب أن تبيع ، أما الشراء فلا تحرص عليه كما تحرص على البيع وقد تشترى وأنت كاره .

إذن : يبايعونك يعنى : يعقدون معك عقد بيع ، هذا العقد شرحه الحق سبحانه فى قوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ .. (١١١) ﴾ [التوبة]

إذن : عقدوا هذه الصفقة مع الله ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ .. (١٠) ﴾ [الفتح] لأنك يا محمد لا تأخذ شيئاً لنفسك ، إنما تأخذ لمنهج الله الذى أرسلك به وبعثك من أجله .

فبيعة الرسول هى فى الحقيقة بيعة لله ، لذلك قال ﴿ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ .. (١٠) ﴾ [الفتح] أى : فوق الأيدى التى امتدتْ لتبايع رسول الله ، فكانت يد الله فوق يد الجميع ، لأن المنة هنا من الله فلا تظنوا المنة منكم بأنْ بايعتم ، بل المنة من الله عليكم ، ويده فوق أيديكم وهو الذى ساق لكم هذا الخير الذى يُسعدكم فى الدنيا وفى الآخرة .

واليد هنا ليست هى اليد التى نعرفها كأيدينا ، بل هى يد المنَّة والمعروف ، كما تقول مثلاً : فلان له علىَّ يد . يعنى : نعمة أو مكْرمة وجميل .

وقوله : ﴿ فَمَن نَّكَثَ .. (١٠) ﴾ [الفتح] أى : نقض عهده ﴿ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ .. (١٠) ﴾ [الفتح] فهو المضار ، لأن الله تعالى لا يضره شىء من أفعال العباد ، لا تنفعه طاعة ولا تضره معصية .

وفى المقابل : ﴿ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ .. (١٠) ﴾ [الفتح] يعنى : وفَّى وكان عند العهد الذى أخذه على نفسه ﴿ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (١٠) ﴾ [الفتح]

ذكر البخارى ومسلم هذه القصة ، وأن الحديبية مكان يبعد عن مكة حوالى ٢٢ كم عند شجرة كانت مائلة فسميت الحديبية[١] ، أو عند عين ماء كانوا يرتوون منها ، وأن عددهم كان ألفاً وأربعمائة ، فى رواية البخارى روى سيدنا سلمة بن الأكوع[٢] أنهم بايعوا رسول الله على الموت ، وفى رواية مسلم أنهم بايعوه على ألاَّ يفروا من المعركة[٣] .

---

(١) الحديبية : بئر سمى المكان بها . وهو موضع قريب من مكة .

(٢) أخرج البخارى فى صحيحه (٣٨٥١) عن يزيد بن أبى عبيد قال : قلت لسلمة بن الأكوع : على أى شىء بايعتم رسول الله ﷺ يوم الحديبية ؟ قال : على الموت . وقد أخرج مسلم فى صحيحه (٣٤٦٢) كتاب : استحباب مبايعة الإمام .

(٣) أخرجه أحمد فى مسنده (١٣٦٠٠) من حديث جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال : بايعنا نبى الله ﷺ يوم الحديبية على أن لا نفر . وعند أحمد أيضاً (١٤٢٩٥) عن جابر قال : بايعناه على أن لا نفر ولم نبايعه على الموت .

﴿ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ (١) ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ ﴾

هذا إخبار من الله تعالى بغيب يخبر به نبيه ﷺ ويعلمه بما سيقوله هؤلاء ، والمخلّفون جمع مُخلّف وهم الذين طلب منهم الخروج مع رسول الله لأداء العمرة فلم يخرجوا وتعللوا بعدها بهذه الحجج التى كشف القرآنُ زيفها وكشف نواياهم وما كان يدور فى نفوسهم .

والأعراب هم البدو وسكان البادية ، وقولهم : ﴿ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا .. ﴿١١﴾ ﴾ [الفتح] يعنى : عن الخروج معك .

وقولهم : ﴿ فَاسْتَغْفِرْ لَنَا .. ﴿١١﴾ ﴾ [الفتح] دلَّ على أنهم أذنبوا وأخطأوا ، وإلا ما طلبوا من رسول الله أن يستغفر لهم .

والواقع أنهم كاذبون فى هذا ، فما شغلتهم الأموال ولا الأولاد إنما خافوا على أنفسهم الخروج ، لأنهم ظنوا فى أنفسهم أن رسول

---

(١) ينقلب : يرجع ويتحول إلى موضعه الأول فى المدينة ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ .. ﴿١٧٤﴾ ﴾ [آل عمران] أى : رجعوا إلى المدينة . [القاموس القويم ٢ / ١٢٩] .

الله لن يرجع من هذه العمرة ولن يعود إلى أهله ، لأن قريشاً تتربص به ومعهم جماعات من الأحابيش[١] ومن ثقيف وكنانة وغيرها .

فقالوا فى أنفسهم ما أخبر الله به ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا .. (١٢)﴾ [الفتح] لذلك بُهت من قال هذا الكلام لما سمع الله يخبر به ويكشف مكنونات صدورهم .

والعجيب أن هذا الإخبار ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ .. (١١)﴾ [الفتح] نزل فى قرآن يُتلى علانية ويسمعه هؤلاء المخلفون ، وكان بأيديهم ألاَّ يتعللوا بهذه الحجج لكن صدق الله وقالوا بالفعل ما أخبر القرآن به .

هذه كما حدث تماماً فى قوله تعالى فى مسألة تحويل القبلة ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا .. (١٤٢)﴾ [البقرة]

سمع اليهود هذا الكلام وسمعوا هذا الوصف ، ومع ذلك قالوا ما أخبر الله به وصدقوا على أنهم سفهاء ، فهذه وأمثالها من علامات صدق القرآن الكريم ، فالذى يتكلم به هو الذى يعلم ما سيحدث فى المستقبل ويخبر به قبل أنْ يقع ثم يأتى الواقع موافقاً لما قال .

قالوا : كان هؤلاء المخلَّفون من سبع قبائل[٢] أظن ، منها أشجع ومزينة وهوازن وبخع وأسلم وغيرها . هؤلاء قالوا : إن محمداً ألقى

---

(١) الأحابيش : حلفاء قريش تحالفوا تحت جبل يسمى حبيشاً فسموا الأحابيش ، ذكره ابن دريد فى جمهرة اللغة (١/١١٥) والحباشة : الجماعة من الناس ليسوا من قبيلة واحدة والجمع الأحابيش . [تاج العروس للزبيدى] .

(٢) ذكر ابن عباس ستة منهم هم : غفار ومزينة وجهينة وأشجع والديل وأسلم . [ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير] . وذكرهم أيضاً مجاهد وغيره [قاله الشوكانى فى فتح القدير] .

بنفسه فى التهلكة ، ولن يعود من هذه العمرة لما يعلمون من القوة التى تواجهه فتخلَّفوا ، فى حين أنهم كانوا يتمنون الخروج إلى خيبر ، حيث الغنائم والأموال التى لا حَصْرَ لها هناك .

وقوله تعالى : ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ .. (١١)﴾ [الفتح] أى فى قولهم : ﴿فَاسْتَغْفِرْ لَنَا .. (١١)﴾ [الفتح] فهذه الكلمة باللسان فقط ، فهم لا تهمهم المغفرة ولا يفكرون فيها .

ثم يُبيِّن لهم الحق سبحانه حقيقة الأمر : ﴿قُلْ .. (١١)﴾ [الفتح] يعنى : قُلْ لهم يا محمد ﴿فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا .. (١١)﴾ [الفتح]

هذا استفهام للتعجب أو للتوبيخ يقول لهم : مَنْ يردُّ عنكم قضاء الله ومَنْ يدفع عنكم الضر إنْ أصابكم فى أموالكم أو فى أهليكم ، من ؟ لا أحد .

كذلك لا أحد يمنع عنكم النفع إنْ أراده الله لكم ، إذن : هذه حجة باطلة لا تُجدى ، وكذب لا فائدة منه ﴿بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (١١)﴾ [الفتح] يعنى : لا يَخْفى عليه من أموركم شىء .

ثم يُؤدبهم بأنْ يكشف عن الكلام الذى أسرُّوه بعضهم إلى بعض فيقول : ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ .. (١٢)﴾ [الفتح] أى : يرجع ﴿الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا .. (١٢)﴾ [الفتح] ويُؤكدون ظنهم لاقتناعهم به ﴿وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ .. (١٢)﴾ [الفتح] أى : زيّنه بعضكم لبعض ، أو لقى استحساناً منكم .

﴿وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ .. (١٢)﴾ [الفتح] أى : الظن الفاسد والمراد

به أن رسـول الله لن يعود إلى أهله ولا المـؤمنون معـه ، وهذا يعنى النهاية لمسيرة الدعوة .

﴿ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴿١٢﴾ ﴾ [الفتح] يعنى : مثل الأرض البور التى لا خَيْرَ فيها ، فأنتم مثل هذه الأرض أهل فساد لا خيرَ فيكم .

﴿ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ ﴾

الكلام هنا فـيه إشـارة مفـهومـة تعنى هؤلاء المـخلَّفين ، وقـوله ﴿ أَعْتَدْنَا .. ﴿١٣﴾ ﴾ [الفتح] أى : أعـددناها بالفعل فـهى موجـودة ، فالسعير لا تُعدُّ لهم بعد حـضورهم إليها ، إنما هى مُعدَّة لهم من الآن تنتظرهم وتتشوق إليهم .

وسبق أنْ أوضحنا أن الحق سبحـانه أعدَّ الجنة بحيث تكفى جميع الخَلْق على اعتـبار أنهم جميـعاً مؤمنون ، كذلك أعـدَّ النار بحيث تكفى جميع الخَلْقْ لو كفروا .

فإذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار بقيتْ أماكن أهل النار خالية فى الجنة ، لذلك يُورثها الحق سبحـانه لأهل الجنة ، وهذا قوله تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [المؤمنون]

﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾ ﴾

يقول البلاغيون : فى الآية أسلوب قصر بتقديم الخبر الجار والمجرور على المبتدأ ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. (١٤)﴾ [الفتح] أى : لله وحده وملكيتها مقصورة عليه سبحانه دون شريك ، ومادة ملك تأتى بضم الميم وفتحها وكسرها ، أما اللام فساكنة .

نقول : ملك بالكسر يعنى : ما تملكه وتملك التصرف فيه ، إنما مُلك بالضم فهو لمَنْ يملك الشىء ويملك مالك الشىء ، وهذه لله عز وجل .

أما مَلك بالفتح فهى بمعنى المقدرة كما جاءت فى قوله تعالى : ﴿مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا .. (٨٧)﴾ [طه] أى : بإرادتنا ولكننا كنا مجبرين .

وهذه الآية جاءت هنا للظرف ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. (١٤)﴾ [الفتح] وجاءت فى موضع آخر للمظروف ﴿لِلَّهِ مَا فِى السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ .. (١)﴾ [التغابن] لأن السموات والأرض ظرف لأشياء كثيرة .

ومعلوم أن المظروف يكون أنفسَ من الظرف الذى يحفظه ، كما قلنا : إن ما فى الخزنة أنفسُ منها وأغلى ، وإلا ما حُفظ فيها .

فإذا كانت السموات والأرض فيها من العجائب ما لا يُحصى ، فما بالك بما فيها من مخلوقات لله تعالى ، وها نحن كل يوم يكتشف العلماء شيئاً جديداً فى خَلْق الله فيه من الإعجاز ما فيه .

خذ مثلاً الهواء الذى كنا نظنه فقط لعملية التنفس ، الآن عرفنا أنه مجال واسع لموجات صوتية وضوئية ، والأثير الذى حولنا ملىء بما لا حدَّ له من هذه الأشياء .

إذن : ابحثوا فى الظرف عن نفاسة المظروف ، ألا نراهم الآن يتجهون إلى باطن الأرض حيث الثروات الثمينة من الماس والذهب

والمعادن والبترول .. كذلك فى الجبال الأحجار الكريمة والجرانيت والمرمر والرخام ، وفى البحار فى أعماقها اللؤلؤ والمرجان .

إذن ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ .. (١)﴾ [التغابن] فيه توجيه وإشارة للبحث فى المظروف ، لكن ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. (١٤)﴾ [الفتح] فيه إشارة إلى وجوب النظر والتأمل فى عجائب السماوات والأرض فى ذاتها .

وقوله تعالى : ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ .. (١٤)﴾ [الفتح] البعض يفهم هذه الآية فهماً خاطئاً . يقول : إذن أين الاختيار ؟ والمعنى : أن الله يغفر للمؤمن الذى اهتدى لمنهج الله ، ولا يغفر للكافر الذى أعرض عن منهج الله .

إذن : ساعة يقول ﴿وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٢٦٤)﴾ [البقرة] أى : لا يهديهم بسبب كفرهم ، لأن الكافر قلبه مُلىء كفراً حتى لم يعُد فيه مجال للإيمان ، لأن الحيز الواحد لا يسع إلا شيئاً واحداً ، فكان عليه أنْ يُخرج الكفر من قلبه قبل أنْ يبحث قضية الإيمان .

فإذا تجرَّد قلبه من الهوى وناقش نفسه ، وقارن بين الكفر والإيمان ، ثم يُدخل ما اطمأن إليه منهما كان ولابدَّ أنْ يختار الإيمان ، لذلك نقول : إن الكافر لم يترك للمناظرة العقلية بينه وبين نفسه مجالاً .

واقرأ فى ذلك قوله تعالى : ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ .. (٤٦)﴾ [سبأ] ما هى ﴿أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ .. (٤٦)﴾ [سبأ]

إذن : الحق سبحانه لا يرضى لنا غوغائية التفكير ، ولا يرضى لنا المراءَ والجدلَ العقيم ، لذلك حدد كيفية النظر والتأمل والبحث ، إما

أن تكون بمفردك وتناقش نفسك ، أو على الأكثر يكون الاثنان معاً ، هذا يقول وهذا يُعدِّل له ، فهما بعيدان عن المراء وعن العصبية ، وقريبان من الوصول إلى الحق .

ومع أن الآية تتحدث عن المغفرة وعن العذاب ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ .. (١٤)﴾ [الفتح] إلا أنها تُختم بالمغفرة والرحمة فهما الأغلب ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (١٤)﴾ [الفتح]

﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا (١٥)﴾

هنا أيضاً الحق سبحانه وتعالى يخبر بما سيقوله المخلفون ، والمغانم يراد بها مغانم خيبر ﴿ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ .. (١٥)﴾ [الفتح] يعنى : لنأخذ منها كما تأخذون ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ .. (١٥)﴾ [الفتح] يعنى : حكمه عليهم بعدم الخروج إليها .

وقد بيَّن الحق سبحانه ذلك فى قوله : ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ[1] وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ (٤٦) لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا[2] وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ

---

(١) ثبَّطه : عوَّقه وبطَّأ به . يقول تعالى : ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ .. (٤٦)﴾ [التوبة] أى : ولكن كره الله خروج المنافقين للقتال فى غزوة تبوك فعوَّقهم عنه بالجبن . [القاموس القويم ١/١٠٦] .

(٢) الخبال : النقصان والخسارة والهلاك . والخبال فساد العقل . فهم يفسدون أفكاركم بكلامهم وشبهاتهم وشهواتهم ونفاقهم .

سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٤٧) ﴾ [التوبة]

فالمراد بكلام الله هنا حكمه عليهم بعدم الخروج لخيبر ، وحكم الله لا يُنقض ، وكلمة الله لا ترد ، وقد أرجأهم الله لفرصة أخرى ، قادمة يمكنهم الاشتراك فيها وهى حروب الردة .

ثم جاء الرد عليهم : ﴿ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ .. (١٥) ﴾ [الفتح] أى : قبل رجوعنا ﴿ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا .. (١٥) ﴾ [الفتح] أى : على أنْ نأخذ معكم من الغنائم ﴿ بَلْ كَانُوا لا يَفْقَهُونَ إِلاَّ قَلِيلاً (١٥) ﴾ [الفتح] نعم لا يفقهون إلا قليلاً ، لأن المسألة ليستْ مسألة غنائم .

﴿ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ (١) تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ (٢) فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٦) ﴾

---

(١) فى تأويل وتحديد (قوم أولى بأس شديد) أقوال كثيرة :

- أنهم أهل فارس . قاله ابن عباس وعطاء بن أبى رباح ومجاهد وابن أبى ليلى وعطاء الخراسانى .
- أنهم الروم . قاله كعب والحسن وعبد الرحمن بن أبى ليلى .
- أنهم فارس والروم . قاله الحسن البصرى .
- أنهم هوازن وثقيف . قاله ابن جبير .
- أنهم هوازن وغطفان يوم حنين . قاله قتادة .
- أنهم بنو حنيفة أهل اليمامة أصحاب مسيلمة . قاله الزهرى ومقاتل .

(٢) قال القرطبى فى تفسيره (٩/٦٣٢٣) : « فى هذه الآية دليل على صحة إمامة أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ، لأن أبا بكر دعاهم إلى قتال بنى حنيفة وعمر دعاهم إلى قتال فارس والروم . وأما قول عكرمة وقتادة أن ذلك فى هوازن وغطفان يوم حنين فلا ، لأنه يمتنع أن يكون الداعى لهم الرسول عليه السلام لأنه قال : ﴿ لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا .. (٨٣) ﴾ [التوبة] .فدلَّ على أن المراد بالداعى غير النبى ﷺ ، ومعلوم أنه لم يدع هؤلاء القوم بعد النبى إلا أبو بكر رضى الله عنه » .

يعنى : يا جماعة المخلَّفين عن الخروج مع رسول الله فى عمرة الحديبية ، لقد منعكم الله من الخروج إلى خيبر ، لأن لها أُناساً هم أَوْلَى بها منكم ، وهم الذين أطاعوا رسول الله فى الخروج إلى الحديبية .

أما أنتم فالفرصة أمامكم فى حروب الردة ، حيث تقاتلون قوماً ﴿أُوْلِى بَأْسٍ شَدِيدٍ .. (١٦)﴾ [الفتح] أصحاب قوة وتمرُّس فى الحروب : ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا .. (١٦)﴾ [الفتح] تعْرضوا وتتخلفوا ﴿كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ .. (١٦)﴾ [الفتح] أى : فى الحديبية ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٦)﴾ [الفتح]

﴿لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا (١٧)﴾

أى : ليس على هؤلاء إثم ، ولا مؤاخذة فى تخلُّفهم عن الخروج إلى الجهاد لأنهم أصحابُ أعذار[1] وليس لديهم وسائل الجهاد . ثم يضعنا السياق أمام هذه المقارنة بين الفعل والجزاء عليه ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ .. (١٣)﴾ [النساء] أى : فى الأمر بالخروج ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ

---

(١) قال ابن عباس : لما نزلت ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٦)﴾ [الفتح] قال أهل الزمانة : كيف بنا يا رسول الله ؟ فنزلت ﴿لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ .. (١٧)﴾ [الفتح] . [ذكره القرطبى فى تفسيره ٩/ ٦٣٢٤] .

تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَن يَتَوَلَّ .. ﴿١٧﴾ ﴾ [الفتح] يُعرض ﴿ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾ ﴾ [الفتح]

﴿ لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ(١) فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا(٢) ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ ﴾

هذه بيعة الرضوان وهى بيعة الحديبية ﴿ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ .. ﴿١٨﴾ ﴾ [الفتح] من الشوق لرؤية البيت وآداء العمرة ﴿ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ .. ﴿١٨﴾ ﴾ [الفتح] السكون والطمأنينة لأنهم انصاعوا لأمر رسول الله .

﴿ وَأَثَابَهُمْ .. ﴿١٨﴾ ﴾ [الفتح] جازاهم ﴿ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ ﴾ [الفتح] وهو صلح الحديبية الذى كان بمثابة التمهيد للفتح الأكبر فتح مكة ﴿ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً .. ﴿١٩﴾ ﴾ [الفتح] هى مغانم خيبر .

---

(١) قال بكير بن الأشج : كانت الشجرة بفج نحو مكة . ويقول عبد الله بن مغفل : كان رسول الله ﷺ تحت الشجرة يبايع الناس وإنى لأرفع أغصانها عن رأسه . [زاد المسير لابن الجوزى] وهى نفس الشجرة التى قطعها عمر بن الخطاب عندما رأى الناس يأتون الشجرة فيصلون عندها .

(٢) الفتح القريب : فتح خيبر . قاله قتادة وابن أبى ليلى . وقيل : فتح مكة . [ذكره القرطبى فى تفسيره ٩/٦٣٢٩] .

﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ (١) وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾﴾

قوله تعالى : ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ .. ﴿٢٠﴾﴾ [الفتح] أى : مغانم خيبر ﴿وَكَفَّ أَيْدِىَ النَّاسِ عَنكُمْ .. ﴿٢٠﴾﴾ [الفتح] كفَّ عنكم أيدى أعدائكم من اليهود وغيرهم ممَّنْ كانوا حول المدينة ، حيث ألقى فى قلوبهم الرعب .

﴿وَأُخْرَىٰ (٢) لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾﴾

---

(١) كلمة الناس هنا ، اختلف المفسرون فى تأويلها :

– هم أهل مكة ، كفَّهم عنكم بصلح الحديبية . قاله ابن عباس .

– هم اليهود . كف أيديهم عن المدينة بعد خروج النبى إلى الحديبية وخيبر . وهو اختيار الطبرى ، لأن كف أيدى المشركين بالحديبية مذكور فى آية أخرى ﴿وَهُوَ الَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ .. ﴿٢٤﴾﴾ [الفتح]

– هم عيينة بن حصن الفزارى وعوف بن مالك النضرى ومن كان معهما ، إذ جاءوا لينصروا أهل خيبر والنبى ﷺ محاصر لهم ، فألقى الله فى قلوبهم الرعب وكفهم عن المسلمين . [تفسير القرطبى ٩/ ٦٣٢٩] .

(٢) قال ابن عباس : هى الفتوح التى فتحت على المسلمين كأرض فارس والروم وجميع ما فتحه المسلمون . وهو قول الحسن ومقاتل وابن أبى ليلى ، وعن ابن عباس أيضاً والضحاك : هى خيبر وعدها الله نبيه قبل أن يفتحها ولم يكونوا يرجونها حتى أخبرهم الله بها .[تفسير القرطبى ٩/ ٦٣٣٠] باختصار .

أى : مغانم أخرى ، والمراد بها مغانم غزوة حنين يبشرهم الله بها فى المستقبل ، وقد جاءتْ بالفعل بعد الفتح .

﴿ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ ﴾

قوله : ﴿ لَوَلَّوُا الأَدْبَارَ .. (٢٢) ﴾ [الفتح] أى : فرُّوا وانهزموا ﴿ ثُمَّ لا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلا نَصِيراً (٢٢) ﴾ [الفتح] لا يجدون صديقاً ولا معيناً . وهذه ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ .. (٢٣) ﴾ [الفتح] أى : طريقته وعادته فى خلقه أن ينصر أهل الحق ويخذل أهل الباطل ﴿ الَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ .. (٢٣) ﴾ [الفتح] أى : مضتْ فى الأمم السابقة .

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ ﴾

---

(١) قوله ﴿ بِبَطْنِ مَكَّةَ .. (٢٤) ﴾ [الفتح] فيه ثلاثة أقوال :

– أحدها : أنه الحديبية . قاله ، أنس . والثانى : وادى مكة . قاله السدى . و الثالث : التنعيم . حكاه أبو سليمان الدمشقى .

[انظر زاد المسير لابن الجوزى فى تفسير آية ٢٤ الفتح] .

(٢) أخرج الواحدى النيسابورى فى هذه الآية عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن ثمانين رجلاً من أهل مكة هبطوا على رسول الله ﷺ من جبل التنعيم متسلحين يريدون غرّة النبى ﷺ وأصحابه فأخذهم أسراء فاستحياهم . فأنزل الله ﴿ وَهُوَ الَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ .. (٢٤) ﴾ [الفتح] .

بطن مكة مكان قريب من الحديبية ﴿ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ .. (٢٤) ﴾ [الفتح] نصركم عليهم وأظهركم عليهم ، وهذه القوة هى التى أجبرت كفار مكة على الجلوس مع رسول الله للتفاوض ، فقد أصبح للمسلمين كلمة تُسمع ورأى يُحترم ، لذلك جاءتْ قريش لتعقد معهم معاهدة .

﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ(١) مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٢٥) ﴾

الحق سبحانه وتعالى يبين لهم الحكمة من الصلح وعدم الدخول مع الكفار فى قتال فى هذا الوقت ، صحيح أنهم صدوكم عن الكعبة ومنعوكم من دخول مكة وأنتم على شوق للبيت ومعكم الهدى تسوقونه للبيت .

والهدى دليل السلام ، وأنكم ما جئتم للحرب ، بل لعمل دينى تعبدى ﴿ وَالْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ .. (٢٥) ﴾ [الفتح] الهدى ما يُهدى لفقراء الحرم من الأنعام ﴿ مَعْكُوفًا .. (٢٥) ﴾ [الفتح] مقيداً ومحبوساً لهذا الغرض و ﴿ مَحِلَّهُ .. (٢٥) ﴾ [الفتح] أى : المكان الذى يُذبح فيه .

---

(١) الهَدْى : واحدته هَدْية ، وهى الذبيحة تهدى إلى الحرم فى الحج . ومعكوفاً : اسم مفعول أى : محبوساً عن أن يبلغ أماكن نحره . [القاموس القويم ٢/٣٢] .

ثم يكشف لنا عن واقع أهل مكة فى هذا الوقت ، ففى مكة إخوان لكم مُسلمون يكتمون إسلامهم ، بين الكفار هناك مؤمنون ومؤمنات لا تعرفونهم ، فلو تواجهتم معهم فى حرب لقتلتموهم ، وأنتم لا تعلمون هذه الحقيقة .

﴿ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ .. (٢٥) ﴾ [الفتح] معرة يعنى ضرر وتكون سُبَّة فى حقكم أنكم قتلتم إخوانكم .

﴿ لَوْ تَزَيَّلُوا .. (٢٥) ﴾ [الفتح] تفرقوا وتميَّز المؤمن من الكافر ﴿ لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٢٥) ﴾ [الفتح] يعنى : عذّبناهم بأيديكم وسمحنا لكم فى قتالهم[1] .

﴿ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ[2] فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٢٦) ﴾

---

(١) استدل الإمام مالك بهذه الآية على حرمة إذاية الكافر إذا تترس بمسلم واحتمى به ، أو كان هناك مسلمون داخل حصن يسيطر عليه الكافرون . وإن فعل ذلك فاعل فأتلف أحداً من المسلمين فعليه الدية والكفارة ، فإن لم يعلموا فلا دية ولا كفارة . أما أبو حنيفة وأصحابه والثورى فقد جوزوا الرمى فى حصون المشركين وإن كان فيهم أسارى من المسلمين وأطفالهم . [عادل أبو المعاطى] .

(٢) قال الزهرى : حميتهم أنفتهم من الإقرار للنبى ﷺ بالرسالة والاستفتاح ببسم الله الرحمن الرحيم ومنعهم من دخول مكة . وقال ابن بحر : حميتهم وعصبيتهم لآلهتهم التى كانوا يعبدونها من دون الله تعالى . [تفسير القرطبى ٩/ ٦٣٤٠] .

الحق سبحانه وتعالى يبين لرسوله ﷺ علة أنْ صدوه عن دخول مكة هذا العام ، فالمسألة كلها مجرد حقد وحمية جاهلية تمكَّنتْ من قلوب هؤلاء ، فكَبُرَ عليهم أنْ يدخل محمد وأصحابه مكة ، ففى دخولهم هذا العام إهانة لهم[1] .

الحمية هى الطيش والغرور والغطرسة ، فالقوة لا تُمدح ولا تُذم إلا من خلال أثرها على صاحبها ، فالقوة تُمدح إن جلبتْ الخير لصاحبها ، وتُذم إنْ جرَّته إلى الشر وأوقعته فى الهلاك .

﴿ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ .. (٢٦) ﴾ [الفتح] السكينة يعنى الطمأنينة ، والثقة فى نصر الله ، والرضا بالصلح ، والعودة دون دخول مكة هذا العام .

﴿ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ .. (٢٦) ﴾ [الفتح] وهى كلمة التوحيد ﴿ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا .. (٢٦) ﴾ [الفتح] أجدر بها وأهلٌ لها ، حيث استحقوها بطاعتهم لله ولرسوله .

﴿ لَّقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا (٢٧) ﴾

الحق سبحانه وتعالى يقصّ علينا قصة شوق المسلمين للبيت

---

(١) وذلك أنهم قالوا : قتلوا أبناءنا وإخواننا ثم يدخلون علينا فى منازلنا ، واللات والعزى لا يدخلها أبداً . [القرطبى ٩/ ٦٣٤٠] .

بعد أن اغتربوا عن مكة مدة طويلة واشتاقوا لأداء العمرة وللطواف بالبيت ، ولكن حمية الجاهلية وطيشها وغرورها بقوتها الكاذبة حالتْ دونهم ودون ما يريدون .

والحق سبحانه حينما يتكلم فى هذه المسألة يتكلم عنها على أنها رؤيا سبقتْ واقع القصة ، والرؤيا كما تعلمون ما يراه النائم من أشياء ، قد يكون لها واقع وقد لا يكون .

والرؤيا تحدَّث القرآن عنها فى قصة سيدنا يوسف عليه السلام : ﴿ يَـٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَاجِدِينَ ﴿٤﴾ ﴾ [يوسف]

وقد وقف المستشرقون عند هذه الآية ، واعترضوا على أسلوب القرآن فى تكرار الفعل (رأى) فى هذه الآية ﴿ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَاجِدِينَ ﴿٤﴾ ﴾ [يوسف]

والمتأمل فى القصة وتفاصيلها لا يجد تكراراً ، لأن كلَّ فعل منهما له دلالة ومعنى ، فالأول قال ﴿ رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ .. ﴿٤﴾ ﴾ [يوسف] ولم يقُلْ : ساجدين . وفى الأخرى قال : ﴿ رَأَيْتُهُمْ لِى سَاجِدِينَ ﴿٤﴾ ﴾ [يوسف]

وهذا يعنى أن الرؤيا الأولى غير الأخرى ، الأولى رآهم بلا سجود ، رآهم فى وضعهم الطبيعى ، ثم رآهم فى حالة السجود ، لأنك لا تعرف الشمس مثلاً ساجدة إلا إذا عرفتها غير ساجدة ثم طرأ عليها السجود .

إذن : لابدَّ من تكرار الفعل هنا مرة لغير السجود ، ومرة أخرى للسجود ، يعنى فوجىء بها تسجد . ولو قال : رأيتها ساجدة بدايةً

لقُلْنا : كيف ؟ لأن السجود لا يكون إلا بحركة ساكن وتحرّك بالسجود .

إذن : الحق سبحانه لا يضع لفظاً إلا لغاية ومعنى ، وللَقْطَة لابدَّ منها .

ولما قَصَّ يوسف على أبيه هذه الرؤيا قال : ﴿قَالَ يَـٰبُنَىَّ لا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا .. (٥)﴾ [يوسف] لأن سيدنا يعقوب عليه السلام علم أن هذه الرؤيا تعنى علو شأن يوسف على إخوته ، وإذا كانوا قد حقدوا عليه لاهتمام أبيه به أو منحه بعض العطف أكثر منهم .

فكيف إذا قصَّ عليهم هذه الرؤيا ؟ كيف إذا عرفوا أن الملأ الأعلى من المخلوقات سجدوا له ؟

كذلك هنا رؤيا ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ .. (٢٧)﴾ [الفتح] فكأن سيدنا رسول الله قد رأى رؤيا هى ﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخَافُونَ .. (٢٧)﴾ [الفتح]

وقد قصَّ رسول الله هذه الرؤيا على أصحابه ، فاطمأنوا إلى دخولهم مكة وآداء العمرة ، كذلك لما منعهم سفهاء قريش من دخول مكة تعجبوا واعترضوا على منعهم من الدخول .

وسيدنا عمر يقول لسيدنا رسول الله : ألسنا على الحق ؟ أليسوا على الباطل ؟ قال : بلى ، قال : فلِمَ نُعط الدنية فى ديننا ؟

صحيح هم على الحق وجاءوا على شوق للبيت ، لكن إنْ دخلوا مكة غصباً ودون رضا أهلها ستقوم بينهم معركة . وقلنا : إنها ستصيب جماعة من المسلمين فى مكة لم يعلنوا عن إسلامهم كما

ذكر فى الآية السابقة .

لذلك قال الحق سبحانه بعدها ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا..(٢٧)﴾ [الفتح] فالحق سبحانه أخبر نبيه بالرؤيا وصدَّقها فى الواقع ، لكن لم تحدث بعد ، لأن الله يعلم من واقع الأمر ما لا تعلمون ، لذلك أجَّل العمرة هذا العام ، وجعل الرسول يعقد معاهدة الصلح بينه وبين كفار مكة على أنْ يؤدوا العمرة العام المقبل .

واقرأ قوله تعالى : ﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ .. (٢٧)﴾ [الفتح] ولم يحدد لها زمناً ، فلو قال قائل مثلاً : ألم تقُلْ أننا سنؤدى العمرة وندخل المسجد الحرام يقول له : ليس بالضرورة هذا العام .

والمتأمل فى ألفاظ الآية يجدها تدل على هذا المعنى ، وأن العمرة لن تكون هذا العام ، نفهم هذا من معانى الكلمات ﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ .. (٢٧)﴾ [الفتح]

فلو دخلتم دون إذن قريش ورضاها لن يتحقق لكم هذا الأمن ، فسوف يقاتلونكم ويعتدون عليكم ، حتى لو سمحوا لكم بالدخول فلنْ يتحملوا رؤيتكم وأنتم تطوفون بالبيت ، وسوف تأخذهم حمية الجاهلية لابدَّ .

ثم قال : ﴿مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخَافُونَ .. (٢٧)﴾ [الفتح] وهذا أمن آخر بعد أداء العمرة ، لأن قريشاً كانت إذا دخل أحد الحرم لنُسك لا يتعرضون له ، لكن يعتدون عليه بعد أنْ يفرغ من نُسكه .

فقوله ﴿لا تَخَافُونَ .. (٢٧)﴾ [الفتح] دلَّ على أنهم آمنون فى بداية العمرة وفى نهايتها ، وهذا لا يتوفر لهم إلا إذا دخلوا برضا قريش وإذنها .

كلمة ﴿الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ ..(٢٧)﴾ [الفتح] الحق هو : الشىء الثابت الذى لا يتغير ، فما دام أن الله أراه الرؤيا فلا بدَّ أنْ تصدُقَ فى الواقع ، لأن رؤيا الأنبياء حَقٌّ ، ونبوة سيدنا رسول الله ﷺ بدأت أول ما بدأت بالرؤيا الصادقة ، وقد مكث رسول الله فى مرحلة الرؤيا هذه ستة أشهر .

فإذا ما قارنّا بين هذه المدة وبين مدة ٢٣ سنة هى عمر بعثته ﷺ وجدناها $\frac{١}{٤٦}$ ، لذلك ورد فى الحديث الشريف أن الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة[١] ، وبدأ النبوة بالرؤيا الصالحة لأنها تأتى والإنسان نائم ، وليس له خواطر خاصة فى شهوة أو خلافه .

وقوله تعالى : ﴿فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا (٢٧)﴾ [الفتح] أى : جعل من بعد صلح الحديبية ورجوعهم بدون عمرة فتحاً قريباً للإسلام وللمسلمين .

وهذا الفتح من عدة وجوه : أولاً الهدنة مع قريش والتصالح معها ، وهذا التصالح أعطى فرصة لنشر الدعوة خارج مكة ، حيث تفرَّغ المسلمون لذلك بعد أنْ أمنوا جانب قريش .

وهذا يعنى أيضاً الاعتراف بمحمد وبدعوته واحترام العهد معه ، فقد أصبح للإسلام كلمة تُسمع بعد أنْ كان مضطهداً .

ثم كان هذا الصلح عزة للمسلمين ، كما قال تعالى ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا .. (٢٦)﴾ [الفتح] كلمة الله هى كلمة (لا إله إلا الله) ، لذلك قال فيها ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ .. (١٣)﴾ [الحجرات]

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٤٧٤) من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة » وأخرجه مسلم فى صحيحه (٤٢٠٣) عن أبى هريرة . وعن ابن عمر (٤٢٠٥) .

فالكرامة هنا ، وإياكم أنْ تظنوا أن قريشاً حين تصدكم عن المسجد الحرام أن هذا يعنى عزة لها ، أبداً لأن العزة لله والكرامة عند الله بالتقوى ، لا بالطيش والغرور بالقوة الكاذبة .

والرسول ﷺ فى هذا الصُّلح يُعطينا درساً فى الحنكة السياسية ، فقد قبل الصلح مع الكفار ، وقبل أن يعود هو وأصحابه دون دخول مكة هذا العام وهم على مقربة منها ، لأن فى ذلك صالح المسلمين والإسلام ، حتى إنه فى أثناء المعاهدة تنازل عن أشياء ما كان أحد يظن أنه يتنازل عنها .

فلما جاءوا لكتابة المعاهدة أملى رسول الله الكاتب وهو الإمام على : هذا ما تعاهد عليه محمد رسول الله ، فقال سهيل بن عمرو[1] : لا لو كنا نعلم أنك رسول الله ما حاربناك ولا وقفنا منك هذا الموقف ، فردَّ عليه رسول الله : بل اكتب محمد بن عبد الله ونزل على رأى سهيل بن عمرو لكن اعترض على . وقال : بل اكتب رسول الله ، فقال له رسول الله : اكتبها وستُسام[2] مثلها فتقبل .

وفعلاً مرَّتْ السنوات ، وحدث الخلاف بين على ومعاوية ولما انتهيا للصلح . قال على : اكتب ، هذا ما تعاقد عليه على بن أبى طالب أمير المؤمنين ، فاعترضوا على كلمة أمير المؤمنين وقالوا : لو نعلم أنك أمير المؤمنين ما قاتلناك فرضى بها وكتب : على بن أبى

---

(١) سهيل بن عمرو بن عبد شمس القرشى العامرى ، خطيب قريش وأحد سادتها فى الجاهلية ، أسره المسلمون يوم بدر وافتدى فأقام على دينه إلى يوم فتح مكة فأسلم وسكنها ثم سكن المدينة ، هو الذى تولى أمر صلح الحديبية ، توفى عام ١٨ هجرية . [الأعلام للزركلى ٣/١٤٤] .

(٢) سامه الأمر سوماً : كلفه إياه . قال الليث : السَّوْم أن تجشم إنساناً مشقة أو سوءاً أو ظلماً . والسَّوْم : التكليف وقيل معناه : عرض علىَّ . [لسان العرب – مادة : سوم] بتصرف .

طالب[١]. وكانت هذه المسألة علامة من علامات النبوة .

وأيضاً لما أملى الرسول ﷺ فى أول العقد : بسم الله الرحمن الرحيم فرفضوا كتابتها وقالوا : نحن لا نعرف هذا ، بل اكتب : باسمك اللهم فرضى بها أيضاً سيدنا رسول الله .

وهذه كلها تنازلات من رسول الله ، جاءت مراعاة لمصلحة الإسلام والمسلمين فى إطار ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا .. (٢٧)﴾ [الفتح] وكانت النتيجة ﴿فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا (٢٧)﴾ [الفتح] وفعلاً بعد هذا الصلح توالتْ الفتوحات بعد أنْ أمنوا شر قريش لمدة عشر سنوات .

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا (٢٨)﴾

الهدى هو الدلالة على طريق الخير الموصِّل للغاية التى تسعد صاحبها فى الدنيا والآخرة ، وقد أُرسل سيدنا رسول الله بالهدى للناس كافة فدلَّ الجميع ، فمَن اهتدى بهداه أعانه اللهُ وزاده هدى

---

(١) من الحجج التى احتج بها الخوارج فى الخروج على علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه أنه فى التحكيم بينه وبين معاوية رضخ لمحو تلقيبه بأمير المؤمنين ، فقال الخوارج : محا اسمه من أمير المؤمنين فإن لم يكن أمير المؤمنين فهو أمير المشركين . فرد عليهم ابن عباس فى مناظرته لهم : أما قولكم : محا اسمه من أمير المؤمنين فإنى أنبئكم بذلك عمن ترضون ، أما تعلمون أن رسول الله ﷺ يوم الحديبية وقد جرى الكتاب بينه وبين سهيل بن عمرو قال : يا على اكتب هذا ما اصطلح محمد رسول الله ﷺ وسهيل بن عمرو ، فقالوا : لو نعلم أنك رسول الله ما قاتلناك ، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك ، فقال : اللهم إنك تعلم أنى رسولك . ثم أخذ الصحيفة فمحاها بيده ، ثم قال : يا على اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله وسهيل بن عمرو . فوالله ما أخرجه الله بذاك من النبوة . [الرياض النضرة فى مناقب العشرة للمحب الطبرى ١/٢٩٢] . ذكر السبب الموجب لقتال الخوارج .

﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧) ﴾ [محمد] ومن انصرف عنه واختار الضلال زاده الله ضلالاً بأنْ ختم على قلبه .

ومثّلنا لذلك بشرطى المرور حين يرشدك إلى الطريق ، فإنْ سمعتَ كلامه واهتديتَ بدلالته لك زادك وصحبك حتى يُوصِّلك إلى غايتك ، وإنْ انصرفت عنه ولم تأخذ برأيه تركك ومصاعب الطريق ، وربما رآك على الطريق الخاطىء ، فلم ينصحك لأنك لم تسمع له .

والقرآن الكريم لما تكلم عن الهدى قال : ﴿ أُولَـٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ .. (٥) ﴾ [البقرة] وهذا المعنى يُصحح الفهم الخاطىء عند البعض ، حيث يروْنَ أن الهدى عبء على صاحبه ومشقة وتكاليف وتقييد للحرية .

لكن الهدى فى الواقع غير ذلك ، الهدى مطيّة تحملك إلى غايتك ، فأنت على هدى يعنى مُستْعل عليه تركبه ليوصِّلك ، فالمنهج وإنْ كان فى ظاهره يقيد حركتك ، إلا أنه يُقيدها لصالحك أنت ويقف ضد شهواتك لصالحك أنت .

المنهج حين يقيد يدك عن السرقة يقيد يد الناس جميعاً ، أنْ تسرق منك ، وحين يأمرك بغضِّ البصر عن محارم الناس يأمر الناسَ جميعاً بغضِّ البصر عن محارمك . إذن : أنت الفائز فى هذه المسألة . المنهج يقيد حركتك عن شهوة عاجلة فى الدنيا ليعطيك نعيماً باقياً فى الآخرة .

وقوله : ﴿ وَدِينِ الْحَقِّ .. (٢٨) ﴾ [الفتح] أى : الإسلام ، والحق هو الشىء الثابت الذى لا يتغير . ﴿ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ .. (٢٨) ﴾ [الفتح] يُعليه ويُعلى كلمته على كل الأديان التى سبقتْه ، لأن القرآن جاء مهيمناً على كل هذه الكتب ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ .. (٤٨) ﴾ [المائدة]

والظهور هنا ظهور حجة وبرهان ، وظهور كمال فى التعاليم وفى المنهج ، وهذا لا يمنع وجود ديانات أخرى ما زالتْ حتى الآن وبعد أربعة عشر قرناً من الإسلام .

لذلك سُئلنا هذا السؤال فى إحدى سفرياتنا ، فقلنا ﴿ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ .. (٢٨) ﴾ [الفتح] لا تعنى أنْ يكون الناسُ جميعاً مسلمين ، لأن الظهور هنا ظهور تعاليم ، وحدث هذا بشهادتكم أنتم فقد ألجأتكم قضايا الحياة إلى منهج الإسلام حيث لا حلَّ لكم إلا فيه .

لذلك رأيناهم يأخذون مثلاً بأحكام الطلاق فى الإسلام ، وهذا إظهار للدين لأنهم أخذوا تعاليمه دون أنْ يؤمنوا به ، كذلك فى مسألة تعدد الزوجات كانوا يهاجمونها ويعترضون عليها والآن ينادون بها .

والعجيب أنهم يرضوْنَ بتعدد الخليلة يعنى العشيقة ، ولا يرضون بتعدد الحليلة أى الزوجة ، وهذا فساد فى الطبع والذوق وتصرُّف تأباه الشرائع .

كذلك فى الناحية الاقتصادية ، لما تكلَّم (كِنز)[1] ملك الاقتصاد عندهم انتهى إلى القول بأن المال لا يؤدى وظيفته الاجتماعية فى الكون إلا إذا انخفضتْ الفائدة إلى صفر ، وهذا هو رأى الإسلام .

لذلك حرَّم التعامل بالربا لأن الربا عملية بين غنى وفقير ، غنى عنده فائض يُقرض ، وفقير مُعدم يقترض ، فكيف نطلب من الفقير الذى لا يملك الأصل أنْ يعطى الغنى الذى يملك الأصل وزيادة .

ثم هَبْ أن الفقير أخذ المال ليستثمره فى التجارة ثم خسرتْ هذه التجارة . إذن : يكون مطلوباً منه أن يسدد رأس المال ثم الفوائد إلى جانب جهده الذى راح هباءً طوال مدة التجارة .

---

(١) هو : جون مينارد كينز ، اقتصادى إنجليزى ، ولد ٥ يونيو ١٨٨٣ م ، مؤسس النظرية الكينزية من خلال كتابه (النظرية العامة فى التشغيل والفائدة والنقود) عام ١٩٣٦ ، توفى ٢١ أبريل ١٩٤٦ ، م . عن ٦٣ عاماً .

إذن : كم مصيبة حلَّتْ به ؟ إذن : تحريم الربا يُقدِّر أولاً مصلحة الفقير ، ويُقدِّر أيضاً مصلحة الغنى فى كل شىء لأنك إنْ كنتَ قادراً فأقرضتَ نظرت إلى حال الغنى .

لكن قد تتقلب الأوضاع ، ويصير الغنىُّ فقيراً يحتاج إلى أنْ يقترض . إذن : ليس من مصلحته أنْ يتعامل بالربا .

وقوله : ﴿ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [الفتح] يعنى : شهادته كافية ، لأن الشاهد حينما يشهد يشهد بما رأى ورؤيته محدودة ، إنما حين يشهد الله فهي شهادة العلم المحيط إحاطة تامة ولا يوجد من يغيرها ، لكن ﴿ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [الفتح] على ماذا ؟ قالوا : على أن الذى يتبع الهدى مصيره إلى الجنة ، وهى دار النعيم الدائم الذى لا ينقطع ، والنعمة التى لا تزول .

﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ۚ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ
رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ
اللَّهِ وَرِضْوَانًا ۖ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ۚ
ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ
أَخْرَجَ شَطْأَهُ(١) فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ
سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ اللَّهُ
الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا
عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ ﴾

---

(١) شطأ الزرع : ما خرج وتفرع منه من ورق وأغصان وفروع . [القاموس القويم ١/٣٤٨] .

﴿ محمد ﴾ اسمه ﷺ ﴿ رَّسُولُ اللَّهِ .. (٢٩) ﴾ [الفتح] وصفه الجديد ، لأننا عرفنا محمداً أولاً قبل أنْ يكون رسول الله ، ومحمد من الحمد يعنى أن الناس تحمده وقد حمده قومه منذ صِغَره ، وقالوا : الصادق الأمين .

فقد كانت سيرته وماضيه بينهم يدلّ على هذه الصفات ، وعلى أنه شخص مميَّز بين أقرانه وأنه غير عادى .

وقد أجمعوا على ذلك حتى قبل الرسالة ، وكانوا يرون فى طفولته أنه لم يُصَبْ بشىء من لوثة الطفولة ولهوها ولعبها ، رأوا أنه كان يرعى الغنم وكان مثله من الفتيان الذين يرعون الغنم فى البادية ينزلون بالليل إلى مكة يحضرون سهرات اللهو .

أما هو فقد فكر مرة فى أنْ ينزل معهم ، فلما ذهب معهم إلى هناك أخذه النوم ، فلم يستيقظ إلا بعد أنْ انفضَّ السامر[1] . فكأن الله عصمه ونزَّه سمعه وبصره أنْ يسمع أو يرى شيئاً من هذا ، أما رفاقه فقد تعجَّبوا لأنهم لم يروْه بينهم ، لذلك أصبح مأموناً عندهم ، ولما لم يُجرِّبوا عليه كذباً قط أصبح جديراً بأنْ يقولوا عنه : الصادق الأمين .

وفى يوم من الأيام اجتمع الصبيان لحمل حجر ثقيل يلعبون به ، فلما ثَقُلَ عليهم شمَّروا ثيابهم حتى لا يؤثر الحجر فى أكتافهم ، وكان معهم رسول الله فأمسك بثوبه ، وأراد أن يفعل مثلهم ، فسمع صوتاً يقول له :

---

(١) قال رسول الله ﷺ : ما هممت بشى مما كان الجاهلية يعملونه غير مرتين ، كل ذلك يحول الله بينى وبينه ، ثم ما هممت به حتى أكرمنى برسالته ، قلت ليلة لغلام يرعى معى بأعلى مكة : لو أبصرتَ لى غنمى حتى أدخل مكة وأسمر بها كما يسمر الشباب . فقال : أفعل . فخرجت حتى إذا كنت عند أول دار بمكة سمعت عزفاً فقلت : ما هذا ؟ فقالوا : عرس فلان بفلانة فجلست أسمع فضرب الله على أذنى فنمت ، فما أيقظنى إلا حر الشمس فعدت إلى صاحبى فسألنى فأخبرته ، ثم قلت له ليلة أخرى مثل ذلك ودخلت مكة فأصابنى مثل أول ليلة ثم ما هممت بعده بسوء . [أورده فى الكامل فى التاريخ ١/ ٢٥٠] .

عورتك يا محمد ، فكان هو الوحيد الذى لم يكشف عن عورته[١] .

وقد لاحظوا عليه ذلك قبل سنِّ التمييز ، فأخذوا عنه فكرة أنه مُهيأ من ناحية أخرى ، ثم عرفوا سداد رأيه وحُسْن تفكيره فى مسألة وضع الحجر الأسود فى مكانه ، حينما اختلفتْ قبائل قريش مَنْ ينال شرف وضع الحجر فى مكانه حتى كادوا أنْ يتقاتلوا ، ثم قالوا : نُحكِّم أول داخل علينا .

فكان محمد الصادق الأمين الذى لا يختلف على أمانته اثنان ، فأخذ رداءه ووضع عليه الحجر ، وأمر كل قبيلة أنْ تأخذ بطرف منه ، حتى إذا ما وصلوا به إلى موضعه من الكعبة حمله ووضعه فى مكانه ، وهكذا انتهى الخلاف الذى أثار حفيظة القوم[٢] .

فقوله تعالى : ﴿مُحَمَّدٌ .. (٢٩)﴾ [الفتح] أى : هذا الذى تعرفونه وتعرفون صدْقه وأمانته وكرم أخلاقه ، هذا الذى لبث بين ظهرانيكم أربعين سنةً هو رسول الله الذى اختاره الله للرسالة . إذن : أنتم شهدتم له قبل أنْ أرسله إليكم ، وما دام قد شهدتم له بالخُلق الجميل وسداد الرأى فواجبٌ عليكم أنْ تُصدقوه .

والحق سبحانه وتعالى لم يصف محمداً فى ذاته إنما صفَّى أصوله ، وزكَّاهم بأنْ عصمهم من السجود للأصنام ، وهى عبادة كانت شائعة فى

---

(١) ذكره ابن كثير فى السيرة النبوية (١/ ٢٥٠) أن رسول الله ﷺ قال : « لقد رأيتنى فى غلمان من قريش ننقل الحجارة لبعض ما يلعب الغلمان ، كلنا قد تعرى وأخذ إزاره وجعله على رقبته يحمل عليه الحجارة ، فإنى لا أقبل معهم كذلك وأدبر إذ لكمنى لاكم ما أراه لكمة وجيعة ثم قال : شد عليك إزارك . قال : فأخذته فشددته علىَّ ، ثم جعلت أحمل الحجارة على رقبتى وإزارى علىَّ من بين أصحابى » وكذا فى (سبل الهدى والرشاد) والروض الأنف للسهيلى (١/ ٣١٢) .

(٢) أورده ابن كثير فى السيرة النبوية (١/ ٢٨٠) وفى سبل الهدى والرشاد (١/ ١٦٧ ، ١٧١) والشفا للقاضى عياض (١/ ١٣٤) والسهيلى فى الروض الأنف (١/ ٣٤٥) وابن هشام فى السيرة (١/ ١٩٧) .

هذا الوقت ، وقد أجمعوا على أن أجداده لم يسجد أحدٌ منهم لصنم .

لذلك جاء فى الحديث الشريف : « مازلت أتنقل من أصلاب الطاهرين إلى أرحام الطاهرات »[١] أى : أنه ﷺ جاء من نسل طاهر لم يخالطه شىء من سفاح الجاهلية .

وقصة أبيه عبد الله مع زينب الخثعمية معروفة فى الجزيرة العربية كلها خاصة فى مكة ، حيث رأت فيه جمالاً وجلالاً فعشقته حتى راودته عن نفسه ، وعندها قال الأبيات المشهورة :

أمَّا الحَرَامُ فَالمَمَاتُ دُونَهُ ... والحِلّ لا حل فَأسْتَبِينَه

يَحْمِى الكَرِيمُ عِرْضَهُ وَدِينَه ... فَكَيْفَ بالأمْرِ الذى تَبْغِينه ؟

فلما تزوج عبد الله من آمنة بنت وهب[٢] وحملت فى رسول الله انتقل إليها هذا النور الذى كان فى وجه عبد الله ، فلما رأتْه الخثعمية بعد ذلك قالت : وماذا أفعل به وقد ذهب النور الذى كان فى وجهه[٣] ؟

---

(١) أورده الألوسى فى تفسيره (روح المعانى ٥/٣٨٨) والرازى فى تفسيره (مفاتيح الغيب ٦/٣٣٧ ، ٣٣٨ - ١٢/٩) والنيسابورى فى تفسيره (٣/٢٩٥) دون سند أو عزو لأى راو ، وورد معزواً لابن عباس فى فتاوى الأزهر (٨/١٠٠) وقال الرملى فى فتاواه (٦/١٦٧) : معناه أنه لم يقع فى نسبه ﷺ ما كان سفاحاً .

(٢) هى آمنة بنت وهب بن عبد مناف ، قرشية ، أم النبى ﷺ ، كانت أفضل امرأة فى قريش نسباً ومكانة ، رباها عمها وهيب بن عبد مناف ، تزوجت عبد الله بن عبد المطلب ، مرضت فى إحدى رحلاتها لزيارة قبر زوجها فتوفيت بموضع يقال له الأبواء بين مكة والمدينة ، وكان رسول الله حينها عمره ست سنين وقيل أربع .. توفيت عام ٤٥ قبل الهجرة . [الأعلام للزركلى ١/٢٦] .

(٣) أورد السهيلى فى الروض الأنف (١/٢٧٣) من حديث محمد بن إسحاق أن عبد المطلب انصرف بعد أمر القداح آخذاً بيد عبد الله ، فمر به على امرأة من بنى أسد بن عبد العزى وهى أخت ورقة بن نوفل وهى عند الكعبة . فقالت له حين نظرت إلى وجهه : أين تذهب يا عبد الله ؟ قال : مع أبى . قالت : لك مثل الإبل التى نحرت عنك وقع علىّ الآن . قال : أنا مع أبى ولا أستطيع خلافه ولا فراقه . فسار به عبد المطلب حتى زوّجه آمنة بنت وهب . ثم مر بتلك المرأة فقال لها : ما لك لا تعرضين علىَّ اليوم ما كنت عرضت علىَّ بالأمس ؟ قالت له : فارقك النور الذى كان معك بالأمس ، فليس لى بك اليوم حاجة . وقد كانت تسمع من أخيها ورقة أنه كائن فى هذه الأمة نبى .

وهذا يعنى أن الحق سبحانه وتعالى صنع محمداً على عينه ، وحماه من سِفَاح الجاهلية ، وحماه فى كل مراحله .

وبعد ذلك مات أبوه واستُرضع فى بنى سعد ، ورأت له مرضعته كثيراً من الكرامات والمعجزات ، فلما قالت لإخوته فى الرضاعة : احموا محمداً من حر الشمس . فقالوا : والله يا أماه ما نجده أبداً فى حرِّها ، لأنه إذا سار نرى فوقه غمامة تُظلله[1] .

إذن : شهد له فى ذاته ، وشهد له فى آبائه ، علم الجميع أنه مُؤيَّد من أعلى .

فقوله تعالى ﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ .. (٢٩)﴾ [الفتح] يعنى أنه اختار الرسول على وفْق رأيكم ، فإياكم أنْ تكذِّبوه ، ومحمد هنا مبتدأ مُخبر عنه بقوله ﴿رَّسُولُ اللَّهِ .. (٢٩)﴾ [الفتح]

أى : أن محمداً المعروف لكم هو رسول الله ، والله أعلم حيث يجعل رسالته ، فكان الواجب ساعة يُرسَل إليكم أنْ تؤمنوا به وأنْ تُصدقوه .

والحق سبحانه وتعالى لما أيَّد محمداً بالمعجزات أيّده بمعجزة عقلية ، وفرَّق بين معجزة عقلية ومعجزة كونية ، فالمعجزة الكونية تقع مرة واحدة ، كما رأينا فى قصة سيدنا عيسى عليه السلام ، وأنه كلَّم الناس فى المهد ، ولم يَرَ هذه المعجزة سوى القوم الذين حضروها وعاينوا هذا الموقف .

---

(١) كانت حليمة مرضعة رسول الله لا تدعه يذهب مكاناً بعيداً فغفلت عنه يوماً فى الظهيرة فخرجت تطلبه حتى تجده مع أخته فقالت : فى هذا الحر ؟ فقالت أخته : يا أمه ما وجد أخى حراً ، رأيت غمامة تظل عليه ، إذا وقف وقفت وإذا سار سارت . أورده فى عيون الأثر (١/ ٥٢) ، وابن كثير فى السيرة النبوية (١/ ٢٢٨) والشامى فى سبل الهدى والرشاد (١/ ٣٨٨) وذكر أنها أخته الشيماء .

أما بالنسبة لنا فهو خبر نُصدقه ونؤمن به ، لأن القرآنَ أخبر به .

أما محمد فرسالته عامة وخاتمة للرسالات إلى قيام الساعة ، إذن : فمعجزته يجب أن تتناسب مع عمومية الرسالة ، يجب أن تكون معجزة خالدة باقية لا تنتهي بانتهاء الموقف .

لذلك جاء القرآن معجزة باقية ببقاء الرسالة إلى قيام الساعة ، فمنذ نزلت الرسالة ونحن نقرأ ﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ .. (٢٩) ﴾ [الفتح] وستظل تُقرأ إلى قيام الساعة ، محمد رسول الله بدليل هذا القرآن المعجز .

لذلك قال تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩) ﴾ [الحجر] فتولَّى الحق سبحانه بنفسه حفْظ القرآن على خلاف الكتب السابقة عليه ، حيث وكل الله حفْظها إلى أهلها ومَنْ آمن بها .

﴿ وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ .. (٤٤) ﴾ [المائدة] ومعنى ﴿ اسْتُحْفِظُوا .. (٤٤) ﴾ [المائدة] أى : طُلب منهم حفظها تكليفاً من الله ، والتكليف عرضة لأنْ يُطاع ولأنْ يُعصَى ، وقد رأيناهم لم يحافظوا بل بدَّلوها وغيَّروها ونسُوا الكثير منها .

أما القرآن فهو كما هو منذ أنزله الله على قلب رسوله ﷺ ، لأن الله حفظه بحفظه ، ولم يأتمن على ذلك البشر .

ومن مظاهر حفظ الله للقرآن أنْ يسخر له مَنْ يخدمه حتى ممَّنْ لا يؤمنون به ، فكثيرٌ ممَّنْ يقومون على طباعة القرآن وزخرفته الآن من غير المسلمين ، وقد رأينا الرجل الألمانى الذى طبع القرآن كله فى صفحة واحدة مع أنه لم يفعل هذا فى الإنجيل وهو كتابه .

إذن : نقول أن ماضى رسول الله بين قومه أهَّله لمهمة الرسالة ، لذلك الذين استقبلوا خبر بعثته ﷺ سارعوا إلى تصديقه قبل أنْ يسمعوا من القرآن آية واحدة ، لماذا ؟

لأنهم أخذوا الدليل على صدقه من ماضيه فيهم ، فما جرَّبوا عليه كذباً قط ، والذى لا يكذب على الناسَ من باب أوْلَى لا يكذب على الله ربّ الناس .

ومثل هذا الموقف رأيناه أيضاً من الصِّديق أبى بكر فى حادثة الإسراء والمعراج ، فلما بلغه أن رسول الله يدَّعى أنه أُسْرى به قال : إنْ كان قال فقد صدق[1] .

أما المعجزة فقد جاءتْ لمن كذَّب وأنكر رسالته ﷺ ، جاءت لمَنْ لم يؤمن ولمَنْ اتهم القرآن بأنه كذبٌ وافتراء ، فجاء ليقول لهم ﴿ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ .. (٣٨) ﴾ [يونس] أى : مفتراة .

وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ مَعَهُ .. (٢٩) ﴾ [الفتح] أى : آمنوا به وأصلحوا في معيته البشرية والمنهجية ، وهؤلاء وصفهم بأنهم ﴿ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ .. (٢٩) ﴾ [الفتح] إذن : جمعوا بين الشىء ونقيضه ، بين الشدة والرحمة .

وهذا دليل على أن المؤمن ليس له طبْع واحد يحكمه ، إنما يتغير تبع التكليف الذى يأتيه من ربه عز وجل ، فمع الأعداء تجده قوياً شديداً عليهم ، يُريهم أن قناة المؤمن لا تلين ، أما مع إخوانه المؤمنين فهو رحيم بهم شفيق عليهم .

وفى موضع آخر عبَّر القرآن عن هذا المعنى ، فقال : ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ .. (٥٤) ﴾ [المائدة] فالمنهج الإيمانى هو الذى يحكم سلوك المؤمن ويُوجهه ، وهذا ما رأيناه بالفعل فى تصرّفات كل من الصِّديق أبى بكر والفاروق عمر .

فأبو بكر مع ما عُرِف عنه من اللين والرحمة لما جاءت مسألة

---

(١) أخرجه الحاكم فى مستدركه (٤٣٨١) من حديث عائشة رضى الله عنها أنها قالت : لما أسرى بالنبى ﷺ إلى المسجد الأقصى أصبح يتحدث الناس بذلك فارتد ناس فمن (وفى رواية ٤٤٣٢ : ممَّن) كان آمنوا به وصدقوه وسعوا بذلك إلى أبى بكر ، فقالوا : هل لك إلى صاحبك يزعم أنه أسرى به الليلة إلى بيت المقدس . قال : أو قال ذلك ؟ قالوا : نعم . قال : لئن كان قال ذلك لقد صدق . وأخرجه كذلك البيهقى فى دلائل النبوة (٦٥٢) .

الردة بعد وفاة رسول الله ﷺ رأيناه يخرج عن هذا الطبع الليِّن ، ويكون فى أشدِّ ما يمكن .

ويقول لعمر : والله لو منعونى عقالاً[١] كانوا يؤدونها لرسول الله لقاتلتُهم عليه ، وينهر عمر ويقول له : أجبَّار فى الجاهلية خوَّار فى الإسلام[٢] .

والمتأمل فى مسألة الردة يجد أنها تحتاج إلى قسوة وحزم ، وإلا انتشرتْ خاصة بين ضعاف الإيمان ، والناس ما يزالون حديثى عهد بالدين ، وهذا ما أخرج أبا بكر من طبْع اللين إلى طبْع الشدة .

وقوله تعالى : ﴿ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا .. (٢٩) ﴾ [الفتح] فهم مع هذه الشدة على الكفار تراهم ركعاً سجداً ، والركوع والسجود مراحل لإظهار العبودية الكاملة لله تعالى ، فالركوع تنحنى بقامتك لله ، والسجود أعظم من الركوع حيث تخرّ إلى الأرض وتضع جبهتك ، وهى أشرف موضع فيك على الأرض تواضعاً وتذللاً لله وخضوعاً له سبحانه .

لذلك قلنا : فى الركوع والسجود كمال العبودية لله ، وهذا فهمناه من قول إبليس الذى حكاه عنه القرآن : ﴿ ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ .. (١٧) ﴾ [الأعراف]

---

(١) العقال : قال الكسائى : العقال صدقة عام ، وقال بعضهم : أراد أبو بكر رضى الله عنه بالعقال الحبل الذى كان يعقل به الفريضة التى كانت تؤخذ فى الصدقة إذا قبضها المصدِّق . وفى روايات أخرى : لو منعونى عناقاً . وفى أخرى : جدياً . [لسان العرب – مادة : عقل] بتصرف . قلت : المقصود : لو منعونى أقل شىء . [عادل أبو المعاطى] .

(٢) أورده السيوطى فى الدر المنثور (٥/٧٦) والبيهقى فى دلائل النبوة(٧٣١) والمتقى الهندى فى كنز العمال (١٦٨٣٨) وتاريخ الإسلام للذهبى (١/٩١) .

فلم يذكر باقى الاتجاهات أعلى وأسفل ، لماذا ؟ لأن الأعلى يمثل علو الألوهية ، حين نرفع أيدينا بالدعاء ، والأسفل يمثل ذُلَّ العبودية حينما تسجد الجباه ، وتخضع لله تعالى ، لذلك لا يأتى الشيطان من هذين .

وقوله تعالى : ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا .. (٢٩)﴾ [الفتح] هذه هى علة كونهم أشداء على الكفار ورحماء بينهم ، وكونهم يحافظون على الركوع والسجود ، أى : يفعلون هذا ابتغاء فضل الله وطمعاً فى رضوان الله عنهم .

وهذا قمة الإخلاص فى الأعمال ، فهدفهم من العمل وجه الله لا ينظرون إلى غيره ، لماذا ؟ لأنهم يحسبون حساب هذا اليوم الذى سيقفون فيه أمام الله ، ولا يجدون غير الله يحاسبهم ويجازيهم .

لذلك قلنا فى العلماء والمخترعين الذين خدموا البشرية بأعمالهم الحسنة ومع ذلك لا نصيبَ لهم فى الآخرة ، لأنهم ما عملوا لله إنما للبشرية وللحضارة .

لذلك قال الله عنهم : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩)﴾ [النور] فُوجىء بالإله الحق الذى لم يكُنْ فى باله هو الذى يحاسبه ، وهو الذى يجازيه .

ومن علامات هؤلاء المؤمنين أيضاً ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ .. (٢٩)﴾ [الفتح] سيماهم أى علامتهم المميزة لهم هى الأثر الذى يتركه السجود فى جبهة الإنسان والتى نسميها زبيبة الصلاة .

فالخالق سبحانه لم يخلق البشر فى الكون على قالب واحد ، إنما لكل إنسان قالبه الخاص به ، والذى لا يتطابق مع قالب آخر على كثرة الخَلْق ، وهذه من طلاقة القدرة فى عملية الخَلْق ، فالناس

مختلفون فى الطول والقِصَر والعرض واللون والملامح ... إلخ .

لكن الصفة المميزة لجميع المؤمنين الذين وصفهم الله بهذه الصفات ﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ .. (٢٩) ﴾ [الفتح] وهذه العلامة يلازمها نور فى الوجه وبشاشة نلاحظها على وجه المؤمن ، وأقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد[(١)] .

وكثيرون منّا يجد لذة فى إطالة السجود ، ويجد فيه أنْساً بالله فيعتاد ذلك ، فتظهر هذه العلامة على جبهته إلى جانب هذا النور والإشراق الذى يبدو على وجهه .

وتستطيع أنْ تلاحظ هذا إذا قارنت بين رجل قضى ليله فى الشرب والخلاعة والاستهتار ، وآخر قضى ليله فى عبادة الله وتسبيحه .

وهذه الوجوه تأتى هكذا ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ (٣٨) ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ (٣٩) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤٠) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (٤١) أُوْلَـئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ (٤٢) ﴾ [عبس]

ونحن نلاحظ هذه الصورة ، ونرى بدايتها فى الدنيا قبل الآخرة .

وقوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ .. (٢٩) ﴾ [الفتح] أى : الأوصاف التى سبق ذكرها للمؤمنين مع محمد وهى : ﴿ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ .. (٢٩) ﴾ [الفتح] هذه الصفات هى ﴿ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ .. (٢٩) ﴾ [الفتح] وهكذا وصفتهم التوراة ، فكأن التوراة فيها ذكر ومثَلٌ للمؤمنين الذين يؤمنون بمحمد الرسول الخاتم ، لأن التوراة مُبشِّرة به .

---

(١) أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه (٧٤٤) وأبو داود فى سننه (٧٤١) والنسائى فى سننه (١١٢٥) وأحمد فى مسنده (٩٠٨٣) كلهم من حديث أبى هريرة رضى الله عنه بلفظ : « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا الدعاء » .

أما الإنجيل فقد وصفهم بأوصاف أخرى غير هذه ﴿ وَمَثَلُهُمْ فِى الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ .. (٢٩) ﴾ [الفتح]

فهؤلاء المؤمنون مثلهم فى الإنجيل مثل الزرع الذى أخرج ﴿ شَطْأَهُ .. (٢٩) ﴾ [الفتح] أى فروعه ، والشطأ هو أعلى العود أو السنبلة ﴿ فَاسْتَغْلَظَ .. (٢٩) ﴾ [الفتح] يعنى : اشتد العود وقوىَ وامتلأ ﴿ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ .. (٢٩) ﴾ [الفتح] يعنى : بلغ مبلغه حتى إنه ﴿ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ .. (٢٩) ﴾ [الفتح] لكمال استوائه واستقامته ﴿ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ .. (٢٩) ﴾ [الفتح]

ولك الآن أنْ تقارن بين هذين المثالين تجد المثل الأول فى التوراة اهتم بالنواحى الروحية ، وذكر أموراً وأوصافاً كلها قيم ومعنويات ، فأتباع محمد أشداء على الكفار رحماءُ بينهم ، وهم رُكَّعٌ وسُجَّد يبتغون فضلاً من الله ورضواناً ، وهم سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ، كلها قيم ومعنويات ليس فيها شىء من الماديات أبداً .

أما مثلهم فى الإنجيل فمثل مادى يخلو تماماً من الروحانيات أو القيم ، لماذا ؟ قالوا : لأن اليهود كانوا قوماً ماديين مبالغين فيها ؛ بحيث لا يقتنعون إلا بها .

ففى فترة التيه التى كتبها الله عليهم رزقهم المنَّ والسَّلْوى ، وهو طعام حُلو شهىٌّ يأتيهم دون تعب ، وينزل عليهم دون سَعى منهم ، فلم يرضوا به لأنه غيبٌ لا يعلمون مصدره ، وطلبوا من الله أن يرزقهم مما تنبت الأرض من بقْلها وقثَّائها وفُومها وعدسها وبصلها . أى : ما يزرعونه بأيديهم ويباشرونه بأنفسهم .

حتى فى علاقتهم بالله أرادوا أنْ يكون سبحانه مادة ، فقالوا

لموسى عليه السلام ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً .. (٥٥)﴾ [البقرة] والحق سبحانه وتعالى غيب ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ .. (١٠٣)﴾ [الأنعام]

أما رؤيتنا له سبحانه فى الآخرة فلأننا نُعَدُّ فيها إعداداً آخر يناسب هذا الشرف ، بحيث نتمكن من رؤيته تعالى ، أما فى الدنيا فلا نقدر على ذلك لأن الله تعالى لم يمنع تجليه على خَلْقه ، لكن نحن فى الدنيا لا نقدر على تحمل هذا التجلى .

وهذا المعنى واضح فى قصة سيدنا موسى عليه السلام ، لما قال لربه عز وجل ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ .. (١٤٣)﴾ [الأعراف] فكان الجواب ﴿قَالَ لَن تَرَانِي وَلَـٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي .. (١٤٣)﴾ [الأعراف] وهذا يعنى أن غيرك يمكن أنْ يرانى .

﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا .. (١٤٣)﴾ [الأعراف] فلما تجلّى ربنا للجبل اندكّ الجبل ، فكيف إذا تجلى سبحانه وتعالى على الإنسان ، وموسى عليه السلام رأى الجبل وهو يندكّ فخرَّ وصعق من هَوْل ما رأى من أثر التجلِّى على المتجلَّى عليه .

نقول : فلما كانوا بهذه الصورة من المادية جاء لهم بمَثل كله روحانيات وقيم ، فكأنه ذكر فى التوراة من صفات المؤمنين بمحمد ما ينقص أهل التوراة ، يقول لهم : أنتم بالغتم فى المادية ، وسوف آتى بنبى له أمة تقيم الروحانيات والقيم التى قصَّرتم أنتم فيها .

أما النصارى فكانوا يُغلِّبون الروحانيات ، والإنجيل ذاته كله روحانيات وقيم ، لذلك لما سُئلَ سيدنا عيسى عليه السلام عن مسألة ميراث قال : أنا لم أبعث مورثاً .

وهذا التباين بين التوراة والإنجيل جعل اليهود والنصارى يلتقون

على كتاب واحد ، مزيج من التوراة والإنجيل ليجمعوا بين المادية والروحانية ، وسمَّوْه الكتاب المقدس ، التقوا عليه رغم ما بينهم من العداوة والخلاف .

ولما كان الإنجيل بهذا الوصف جاء مثَلُ المؤمنين فيه مثلاً مادياً تماماً ، وهو الشيء الذى يفتقده الإنجيل ، فالإنجيل يخلو تماماً من الحديث عن المعاملات وعن حركة الحياة ، إذن : فكلٌّ مثل منهما جاء ليجبر نقصاً ، فاليهود ينقصهم الروحانيات ، والنصارى ينقصهم الماديات فى حركة الحياة .

ونقف هنا عند قوله تعالى : ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ .. (٢٩)﴾ [الفتح] هذه إشارة إلى أن تقدمنا فى الماديات وبلوغنا فيها درجة الاستواء والاستقامة والاكتفاء الذاتى ، هذا أمر يغيظ الكفار ، فاحذروا أنْ يسبقوكم فى هذا المجال .

إنهم إن سبقوكم فيه أذلوا أعناقكم ، وتحكموا فى مقدراتكم ، واستعلوا عليكم بما يملكون من إمكانيات ليست عندكم .

وهذا للأسف ما حدث ، فقد احتجنا إليهم فى معظم الصناعات حتى فى لقمة العيش ، وها هم يفعلون بنا الأفاعيل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

فكأن الحق سبحانه وتعالى يقول لنا : يا مَنْ آمن بمحمد فارتضى بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد نبياً عليكم أنْ تأخذوا من كلٍّ بطرف ، خذوا من الماديات ما يُعلى شأنكم ، وما يُعينكم على حركة الحياة .

وخذوا من الروحانيات ما يعصمكم من الزلل ، ويصلح دينكم ودنياكم ، لأن مثلكم فى التوراة قِيَم ، ومثلكم فى الإنجيل مادة .

لذلك جاء الإسلام مُؤيّداً بالعلم الكونى لا يتعارض معه ، والقرآن ملىء بالحديث عن هذه الكونيات ، واقرأ إنْ شئتَ وتدبر هذه الآيات :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ (١) بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ (٢) سُودٌ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ (٢٨) ﴾ [فاطر]

فذكر أجناس الوجود كلها الإنسان والحيوان والنبات والجماد ، وكلمة العلماء هنا لا تقتصر على علماء الدين ، إنما كل العلماء فى كل المجالات دينية أو دنيوية .

فكأن الحق سبحانه أراد لنا ديناً يجمع بين الدنيا والآخرة ، بين العبادة وحركة الحياة ، فإياكم أنْ تأخذوا الدين وتتركوا الدنيا لأعدائكم يستزلونكم بها .

وسبق أنْ قلنا : مَنْ أراد أنْ تكون كلمته من رأسه فلتكُنْ لقمته من فأسه ، فإياكم أنْ يتفوق عليكم أعداؤكم فى هذا المجال ، لأن عطاء الربوبية واحد للمؤمن وللكافر ، فلا تتركوه اعتماداً على عطاء الألوهية .

إنك لا تستطيع أنْ تقيم العبودية لله إلا إذا أخذتَ بعطاء الربوبية ، وسعيْتَ إلى تطوير حركة الحياة والاستفادة منها والمشاركة فيها .

وسبق أنْ أشرنا إلى مسألة ستر العورة مثلاً ، وهى واجبة ، ولا تتم العبادة إلا بها ، انظر كم حركة من حركات الحياة نقوم بها لنستر عورتنا باللباس ؟

---

(١) الجُدد : مفرده الجُدَّة : القطعة منه . والجدة من الشىء : الجزء منه يخالف لونه لون سائره . أى : من الجبال أجزاء ذات ألوان مختلفة . [القاموس القويم ١/١٢٨] .

(٢) الغرابيب : جمع غربيب وهو الشديد السواد . [القاموس القويم ٢/ ٥٠] .

تتبع بذرة القطن من حين أنْ تضعها فى الأرض إلى أنْ تصير ثوباً تلبسه . إذن : نقول حركة الحياة هى التى تعين على حركة الدين .

ثم يقول تعالى : ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٢٩)﴾ [الفتح] انظر ﴿آمَنُوا .. (٢٩)﴾ [الفتح] هذا جانب الدين ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ .. (٢٩)﴾ [الفتح] هذا جانب الدنيا وما تحتاجه من حركة الحياة .

فإياك إذن أنْ تهمل جانباً لحساب الآخر ، لأن دينك دينٌ جامع للروح وللمادة . والذين آمنوا هم الذين جمعوا هذه الصفات ووعدهم الله هذا الوعد .

والإيمان هو العقيدة الراسخة المستقرة فى النفس ، والتى لا تقبل المناقشة ، فالقلب مطمئن بهذه العقيدة ، وأنها تُسعد دنياه وآخرته ، والأصل فى الإيمان أنْ تؤمن بالله رباً وخالقاً للكون ، تؤمن بأسمائه وصفاته .

فإذا آمنتَ بهذه الصفات اطمأن قلبك إلى ما يجرى عليك من قضائه وقدره ، فهو سبحانه يبتليك بالخير لتشكر ، ويبتليك بالشر لتصبر ، فأنت مُثَاب فى كلتا الحالتين .

والإيمان من مادة (أمن) فهى تدور حول الأمان والاطمئنان . تقول : آمنت بكذا . يعنى : اعتقدتُه اعتقاداً جازماً لا يداخله شكٌّ ، وآمنت له يعنى : صدَّقته . وأمَّنه يعنى : طمأنه على مستقبل حياته ، إذن : كلها تدور حول الاستقرار والثبات وعدم التحول إلى النقيض .

وثمرة الإيمان ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ .. (٢٩)﴾ [الفتح] يُراد بها ما تقدَّم من قوله تعالى : ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ

السُّجُودِ .. (٢٩) ﴾ [الفتح] وهم فى الماديات وفى حركة الحياة مثل الزرع الذى استوى على سُوقه يُعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار .

والوعد للمؤمنين بماذا ؟ ﴿ مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٢٩) ﴾ [الفتح] قلنا : فيها تخلية ثم تحلية يغفر أولاً . ثمْ يعطى الأجر . والقاعدة الشرعية أن درء المفسدة مقدَّم على جلب المصلحة[1] .

لذلك يقول تعالى : ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ .. (١٨٥) ﴾ [آل عمران] فالزحزحة عن النار فى ذاتها نعمة ، لذلك ضُرب الصراط على متن جهنم ، فلا بد لمن يمر عليه أنْ يرى جهنم بعينه ﴿ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ (٧) ﴾ [التكاثر]

وهذا يُشعرك بعظمة الإيمان ، وأنه النعمة الكبرى لأنه نجانا من هذه النار وأدخلنا الجنة ، والعمل الصالح هو الذى أخذ بيدك وتجاوز بك هذه العقبة .

واقرأ : ﴿ وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣) ﴾ [العصر] فمطلق الإنسان فى خُسْر لا يستثنى منهم ، ولا ينجو إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات .

والتواصى بالحق يدل على وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والتواصى بالصبر يدل على أن هذا الطريق محفوفٌ بالمخاطر ، ويحتاج منك

---

(١) هى قاعدة أصولية فى أصول الفقه ، تكلم عنها الشيخ محمد بن أحمد الفتوحى المعروف بابن النجار (ت ٩٧٢ هـ) فى كتابه (شرح الكوكب المنير) (٣/ ٣٩) فقال : « من أدلة الفقه قول الفقهاء .: درء المفسدة أولى من جلب المصالح ودفع أعلاها . يعنى : أن الأمر إذا دار بين درء مفسدة وجلب مصلحة كان درء المفسدة أولى من جلب المصلحة ، وإذا دار الأمر أيضاً بين درء إحدى مفسدتين وكانت إحداهما أكثر فساداً من الأخرى فدرء العليا منهما أوْلَى من درء غيرها ، وهذا واضح يقبله كل عاقل ، واتفق عليه أولو العلم » .

إلى صبر على الأذى من الخصوم ومن المعارضين فالنصح ثقيل .

وكلمة ﴿وَتَوَاصَوْا .. (٣)﴾ [العصر] تعنى أن الكلَّ يوصى ، ففيها استمرارية ومداومة وعدم يأس ، لأن المعارض الذى تنصحه قد يصبر هو أيضاً ويتمادى ، فعليك أنْ تغالبه فى الصبر ، وهذا معنى قوله تعالى : ﴿يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا .. (٢٠٠)﴾ [آل عمران]

ووعد الله هو الوعد الحق الذى لا يتخلف ، لماذا ؟ لأنه وعد ممَّنْ يملك كلَّ أسباب الوفاء ولا يعوقه عن الوفاء شىء ولا يمنعه مانع ، ولأنه سبحانه الحق الذى لا يتبدّل ولا يتغيّر ولا يتحول ، فمَنْ إذن يحول دونه ودون تحقيق وعده ؟

فهو سبحانه الإله الواحد الأحد الذى لا شريك له فى مُلكه ، ولا منازعَ له فى سلطانه ، وهو القوى ، فلا توجد قوة أخرى تمنعه . أما الوعد من البشر فقد لا يتحقق لأنَّ الإنسان لا يملك كلَّ أسباب الوفاء ، وهو أهل أغيار وتقلُّب .

لذلك يقول سبحانه : ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ .. (١١)﴾ [الرعد]

إذن : نقول إن الحق سبحانه ثابت لا يتغير من أجلنا ، لكن علينا نحن أنْ نغير من أنفسنا من أجله تعالى .

وكلمة ﴿مَّغْفِرَةً .. (٢٩)﴾ [الفتح] تعنى : أن الخالق سبحانه وهو أعلم بخَلْقه علم أننا خطاءون كثيرو النسيان كثيرو الجهل ، لكن هذا كله مُتوقع منا ، ولا ينبغى أنْ يُيئسنا من رحمة الله لأنه هو الذى خلقنا على هذه الصورة ، وهو الذى تكفّل لنا بالمغفرة ، وما علينا نحن إلا أنْ نطرق أبوابها ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ (٨٢)﴾ [طه]

سُورَةُ الحُجُرَاتِ

سورة الحجرات(١)

بسم الله الرحمن الرحيم

يقول الحق سبحانه(٢) :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ ﴾

---

(١) سورة الحجرات هى السورة رقم (٤٩) فى ترتيب المصحف الشريف . وهى سورة مدنية بإجماع العلماء حكاه القرطبى فى تفسيره (٦٣٥١/٩) . نزلت بعد سورة المجادلة وقبل سورة التحريم . فهى السورة رقم ١٠٦ فى ترتيب النزول . وانظر (الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى ٢٧/١) .

(٢) سبب نزول الآية : عن عبد الله بن الزبير أنه قدم ركب من بنى تميم على رسول الله ﷺ فقال أبو بكر : أمر القعقاع بن معبد . وقال عمر : بل أمر الأقرع بن حابس فقال أبو بكر : ما أردت إلا خلافى . وقال عمر : ما أردت خلافك فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما ، فنزل فى ذلك قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ .. ﴿١﴾ ﴾ [الحجرات] إلى قوله : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ .. ﴿٥﴾ ﴾ [الحجرات] رواه البخارى . [أسباب النزول للواحدى ص ٢١٨] .

تستطيع هنا أن تلاحظ المناسبة بين هذه الآية فى مفتتح سورة الحجرات وبين نهاية سورة الفتح ، الحق سبحانه فى أواخر آيات الفتح حدثنا عما دار فى الحديبية ، وكيف انتهى الموقف هناك بالصلح ، وكيف أن هذا الصلح أحدث خلافاً بين الرسول وبين المؤمنين به .

ووقف رسول الله وحده وقَبِلَ الصلح وقَبِلَ كل شروطهم ، وتنازل لهم عن أشياء دلَّتْ على حنكته السياسية وعلى بُعْد نظره ، فى حين عارضه المؤمنون كما رأينا .

حتى أن عمر يقول له : يا رسول الله ألسنا على الحق ؟ يقول : بلى ، يقول : أليسوا على الباطل . يقول : بلى ، يقول : فلم نُعطِ الدنية فى ديننا ؟[1] .

وقلنا : أنهم قبل أنْ يعودوا إلى المدينة أخبرهم الحق سبحانه بالحكمة من العودة دون أداء العمرة هذا العام . إذن : كان للمؤمنين رأى ، وكان لرسول الله رأى آخر ، لأن المسلمين تعصبوا لأنفسهم أما رسول الله فقد تعصَّب للإسلام .

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٥٢٩ ، ٢٩٤٥ ، ٤٤٦٦) وكذا مسلم فى صحيحه (٣٣٣٨) وأحمد فى مسنده (١٥٤٠٨ ، ١٨١٦٦) من حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم يصدق كل واحد منهما حديث صاحبه . وفيه أن عمر بن الخطاب قال : فأتيت نبى الله ﷺ فقلت : ألست نبى الله حقاً ؟ قال : بلى . قلت : ألسنا على الحق وعدونا على الباطل ؟ قال : بلى . قلت : فلم نعطى الدنية فى ديننا إذاً . وفيه أن أبا بكر قال له : أيها الرجل إنه لرسول الله ﷺ وليس يعصى ربه وهو ناصره ، فاستمسك بغرزه فوالله إنه على الحق ، الحديث بطوله .

ولما حدثتْ المعارضة لرسول الله جاءتْ سورة الحجرات لتعالج هذه المسألة فى أول آية منها : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَىِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ .. ﴿١﴾ ﴾ [الحجرات] والنداء هنا خاص بالذين آمنوا بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد نبياً ورسولاً .

﴿ لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَىِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ .. ﴿١﴾ ﴾ [الحجرات] يعنى : إياكم أنْ تُقدِّموا رأياً أو تقطعوا أمراً قبل أنْ يأذن الله لكم به ويأذن رسوله ويقضى فيه ، لأن رسول الله لا يصدر إلا عن وحى من الله .

وأنتم حينما تقفون فى وجه أمر الرسول فأنتم فى حقيقة الأمر تعارضون أمر الله الذى ارتضيتم به رباً وإلهاً وآمنتم بصفاته ، ومقتضى هذا الإيمان ألاَّ تُقدِّموا رأيكم على رأيه ، ولا حكمكم على حكمه ، فإذا قال الله أو قال رسول الله فلا تقدموا رأياً من عندكم .

وكلمة ﴿ بَيْنَ يَدَىِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ .. ﴿١﴾ ﴾ [الحجرات] بين يديك يعنى : أمامك ، يعنى لا تسبقوه بأنْ تقطعوا أمراً دونه ، وتذكّر أنك أمام الله وفى مواجهته ، فهو لا يُكلِّفك حركة فتلتفت يميناً أو شمالاً .

وقوله : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ .. ﴿١﴾ ﴾ [الحجرات] يعنى : إنْ أردتم ألاَّ تُقدِّموا بين يدى الله ورسوله فاتقوا الله فى ذلك . يعنى : لا تكونوا كذابين فيه ، ولا تعودوا مرة أخرى إلى المخالفة فهذا لا يصح .

﴿ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ ﴾ [الحجرات] يعنى : اتقوا مَنْ هذه صفاته فهو سميع يسمع كلَّ ما يقال ، وعليم بكل ما يختلج فى نفوسكم ، ولا يخفى عليه شىء من أموركم . وما دُمتم قد آمنتم به فقد وجبتْ عليكم طاعته وطاعة رسوله .

ثم يقول الحق سبحانه[١] :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ ﴾

النداء هنا أيضاً للذين آمنوا ، ألاَّ يرفعوا أصواتهم فوق صوت النبى فى حضرته ، وكذلك لا يرفعوا رأيهم فوق رأيه ، ومن أدب الحديث عموماً ألاَّ ترفع صوتك ، لأن رفع الصوت فيه استعلاء ، أو على الأقل فيه مساواة ، فما بالك إنْ كان مُحدِّثك رسول الله ؟ .

إذن : وجب عليك ألاَّ يعلو صوتك على صوته ، بل يكون صوتك أقلَّ وأخفت ، وتكلّمه بأدب وخشوع ، فكما آمنتَ به نبياً ورسولاً مبلِّغاً وقدمتَ رأيه على رأيك .

فكذلك حين تُحدِّثه لا ترفع صوتك فوق صوته ، فصوته ﷺ ينبغى أنْ يكون الأعلى ، لأنه الأوْلَى بالاستماع وبالاهتمام ، ونحن فى حقبة من تاريخنا شاعتْ بيننا مقولة (لا صوتَ يعلو فوق صوت المعركة) لأن المعركة فى هذا الوقت كانت هى الحل . والمعنى : لا يعلو صوتٌ على صوته .

---

(١) قال النيسابورى (ص ٢١٨) : نزلت فى ثابت بن قيس بن شماس كان فى أذنه وقر ، وكان جهورى الصوت ، وكان إذا كلم إنساناً جهر بصوته ، فربما كان يكلم رسول الله ﷺ فيتأذى بصوته ، فأنزل الله تعالى هذه الآية .

﴿وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ .. (٢)﴾ [الحجرات] لا تنادوه كما ينادى بعضكم بعضاً ، فلا نقول : تعال يا أحمد تعال يا محمد . بل نقول : يأيها النبى ، يأيها الرسول ، يا رسول الله ، لأن ربك الذى خلقك وخلقه وأرسله لك رسولاً خاطبه هكذا .

فى حين أنه تعالى خاطب كل الرسل بأسمائهم : يا آدم ، يا نوح ، يا إبراهيم ، يا موسى ، يا عيسى إلا محمداً ﷺ لم يخاطبه باسمه إنما بوصفه (يا أيها النبى) (يا أيها الرسول) فإذا كان خالقه لم يدعه باسمه .

إذن : وجب عليك أنْ تدعوه بهذا الوصف ، إلا إذا كنتَ أنت أعلى مقاماً من الذى خلقك والعياذ بالله .

وقوله تعالى : ﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ.. (٢)﴾ [الحجرات] أى : خشية أنْ تحبط أعمالكم . يعنى : تبطل وتفسد ، لماذا ؟ لأن الجهر لرسول الله بهذه الصورة أو رفْع الصوت عنده يُعد مخالفة للمنهج الذى جاء به .

فرسول الله لم يأت بمنهج من عنده ، إنما هو مبلِّغ عن الله ، فمَنْ خالف فى ذلك فقد خالف منهج الله واستحقَّ أنْ يحبط عمله ، ثم فى إهانة الرسول إهانة لمن أرسله .

وقوله : ﴿وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ (٢)﴾ [الحجرات] أى : يحبط عملك ويبطل وأنت لا تدرى ، فهذه المسألة من الأشياء الدقيقة التى ينبغى التنبه لها ، فمع كونه ﷺ بالمؤمنين رؤوفٌ رحيمٌ لكن لا تغرّنك هذه الصفات وتجعلك تساويه بغيره فى النداء ، بل احتفظ له ﷺ بمنزلته ومهابته وكرامته ، ولا تجعله مثلك فى الخطاب ، مثل رجل يُدلل

الخادم فيغتر الخادم بذلك ، حتى أن سيده يناديه فلا يجيب .

لذلك الرجل العربى دخل على قوم لا يعرفهم ولا يعرفونه . فقال : السلام عليكم قوم حَسُنتْ أخلاقهم ، قالوا : وكيف علمت حُسْن أخلاقنا ؟ قال : عرفت حُسن أخلاقكم من سوء أخلاق عبيدكم ، أى : أنهم يُدلِّلون العبيد ولا يعاقبونهم .

وقد ورد عن سيدنا أنس بن مالك رضى الله عنه أنه قال : خدمت النبى ﷺ ، فما قال لشىء فعلته : لم فعلته ؟ ولا لشىء تركته : لم تركته[1] ؟

ثم يقول الحق سبحانه[2] :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ ﴾

معنى ﴿ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ .. ﴿٣﴾ ﴾ [الحجرات] يخفضونها ويُخافتون بها فى حضرته ﷺ ، احتراماً له وتكريماً .

﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ .. ﴿٣﴾ ﴾ [الحجرات] أى :

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٥٧٨) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٤٢٦٩ ، ٤٢٧١) وأبو داود فى سننه (٤١٤٤) والترمذى فى سننه (١٩٣٨) وقال : حديث حسن صحيح . وهو عن أنس بن مالك رضى الله عنه .

(٢) عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه لما نزل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ .. ﴿٣﴾ ﴾ [الحجرات] تألى أبو بكر أن لا يكلم رسول الله ﷺ إلا كأخى السرار . [أسباب النزول للواحدى النيسابورى ص ٢١٩] .

صفّاها وأخلصها لتكون محلاً للتقوى وللطاعة ، ولحمل منهج رسول الله إلى الناس كافة ، فهم مُؤهَّلون لحمل هذه الرسالة بعد أنْ نقَّى الله قلوبهم وطهرها وصفَّاها من الخبث ، ونفى عنها أمراض الرياء والنفاق وضعف الإيمان .

لقد صهرتهم الأحداث فى بوتقة الشدائد ، بحيث لم يَبْقَ فى صفوف الإيمان إلا أقوياء العقيدة القادرون على حمل أمانة هذه الدعوة .

لذلك قال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا .. (١٤٣) ﴾ [البقرة] فالرسول يشهد أنه بلّغنا ، ونحن نشهد أننا بلغنا الناس .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (٤) وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥) ﴾

نزلت هذه الآية فى جماعة[1] كان لهم أسرى ، فجاءوا يراجعون رسول الله فى أمرهم ليطلق سراحهم ، لكنهم أخطأوا من عدة وجوه :

---

(١) عن زيد بن أرقم قال : أتى ناس النبى ﷺ فجعلوا ينادونه وهو فى الحجرة : يا محمد يا محمد : فأنزل الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (٤) ﴾ [الحجرات] وقال محمد بن إسحاق وغيره : نزلت فى جفاة بنى تميم .. وكان فيهم الأقرع بن حابس وعيينة بن حصن والزبرقان بن بدر وقيس بن عاصم . [أسباب النزول للواحدى ص ٢١٩] .

أولاً : جاءوا بيت النبى ﷺ من الوراء ولم يأتوا من الأبواب .

ذلك لأنهم لا يعرفون فى أىِّ حجرة يقيم رسول الله ، أهو عند عائشة ؟ أم عند حفصة ؟ أم عند أم سلمة ؟ وهم يعلمون أن لرسول الله مهمات شتى ، له مهمة مع الناس ، ومهمة مع أهله ، ومهمة قبل ذلك مع ربه .

فكان عليهم إذا لم يظهر لهم رسول الله فى المسجد أنْ ينتظروا خروجه وألاَّ يُزعجوه ، فهو ولابدَّ فى مهمة من هذه المهمات وربما كان مشغولاً فى خلوة مع ربه عز وجل أو مع أهله .

ثانياً : نادوا رسول الله كما ينادى بعضهم بعضاً ، ولم يراعوا حرمة رسول الله ومنزلته، لذلك وُصف أكثرهم بأنهم لا يعقلون ، فالتعقل يقتضى خلاف هذا التصرف .

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ .. (٥) ﴾ [الحجرات] نعم خيراً لهم لأنه ﷺ بعد أنْ نادوه واضطروه للخروج أطلق نصف الأسرى ، وقال : والله لو صبروا حتى أخرج عليهم لأطلقتُ الأسرى كلهم[1] .

إنما جعل ذلك تأديباً لهم لخروجهم عن اللياقة والأدب فى التعامل معه ﷺ .

﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥) ﴾ [الحجرات] لم يأخذهم بالعذاب ورسول

---

(١) ذكره القرطبى فى تفسيره (٩/٦٣٦١) قال : « قيل : كانوا جاءوا شفعاء فى أسارى بنى عنبر فأعتق رسول الله ﷺ نصفهم وفادى على النصف . ولو صبروا لأعتق جميعهم بغير فداء » .

الله عاقبهم على قدر أعمالهم حتى لا يكون غضبه لنفسه .

ثم يقول الحق سبحانه[١] :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ ﴿٦﴾ ﴾

أيضاً نداء خاص بالذين آمنوا ، وهو النداء الثالث بعد ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَىِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ .. (١) ﴾ [الحجرات] وبعد ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِىِّ .. (٢) ﴾ [الحجرات] وهنا ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا .. (٦) ﴾ [الحجرات]

ونلاحظ أن النسق القرآنى لم يجمع بين هذه الأمور الثلاثة فى نداء واحد ، ولم يستخدم أدوات العطف إنما خصَّ كل أمر منها بنداء خاص لمزيد التأكيد والاهتمام .

---

(١) قال الواحدى النيسابورى فى أسباب النزول (ص ٢٢٢) : « نزلت هذه الآية فى الوليد ابن عقبة بن أبى معيط ، بعثه رسول الله ﷺ إلى بنى المصطلق مصدقاً وكان بينه وبينهم عداوة فى الجاهلية ، فلما سمع القوم تلقوه تعظيماً لله تعالى ولرسوله ، فحدّثه الشيطان أنهم يريدون قتله فهابهم فرجع من الطريق إلى رسول الله ﷺ وقال : إن بنى المصطلق قد منعوا صدقاتهم وأرادوا قتلى فغضب رسول الله وهمَّ أن يغزوهم ، فبلغ القوم رجوعه ، فأتوا رسول الله ﷺ وقالوا : سمعنا برسولك فخرجنا نتلقاه ونكرمه ونؤدى إليه ما قِبَلنا من حق الله تعالى ، فبدا له فى الرجوع ، فخشينا أن يكون إنما رده من الطريق كتاب جاءه منك بغضب غضبته علينا ، وإنا نعوذ بالله من غضبه وغضب رسوله ، فأنزل الله هذه الآية .

ففى وصية سيدنا لقمان لابنه قال : ﴿ يَـٰبُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣) ﴾ [لقمان]

وقال : ﴿ يَـٰبُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ (١٧) وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (١٨) وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ (١٩) ﴾ [لقمان]

إذن : خصّ مسألة العقيدة بنداء خاص لأهميتها ، وجمع عمل الجوارح فى نداء واحد لأنها على مستوى واحد من الأهمية فى الدين .

إذن : نفهم من تكرار النداء بيأيها الذين آمنوا أنه يعطى أهمية خاصة لكل نداء . ومعنى ﴿ إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ .. (٦) ﴾ [الحجرات] الفاسق وصْف مأخوذ من قولنا فسقت الرطبة . يعنى : خرجت عن قشرتها ، وخروج الرطبة عن قشرتها يُعرِّضها للحشرات وللآفات الضارة .

كذلك المؤمن يُغلفه الإيمان ويحميه أنْ تصيبه آفات النفوس ، فإذا فسق يعنى : خرج عن حدود الإيمان وشذَّ عنه أصابته الأمراض المهلكة ، لذلك قالوا عن الفاسق هو مرتكب كبيرة أو مجهول الحال .

فإذا جاءك النبأ أى الخبر من مثل هذا من فاسق فلا تُسلم له بما قال ، إنما ﴿ فَتَبَيَّنُوا .. (٦) ﴾ [الحجرات] يعنى : تثبَّتوا من صحة هذا الخبر ومن صدَّقه .

قف حتى تتبين وجه الحقيقة فيما سمعتَ حتى يكون حكمك على

الأمور واقعياً ، ولا تأخذك العجلة والحمية فتقع فى محظور ﴿فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴿٦﴾﴾ [الحجرات]

الحق سبحانه يأمرنا بالتثبت هنا لأن الإنسان ابن أغيار كثير التقلب ، فربما اتصف بالصدق ، لكن كذب هذه المرة أو اتصف بالكذب ، لكن صدق هذه المرة ، فالتثبت احتياط واجب ، حتى يأتى الحكم والتصرف بعد ذلك موضوعياً ولا نقع فى دائرة الظلم والتعدى على الآخرين .

تبيَّن من خبر الفاسق لعله يكون من الأشياء التى عصى الله فيها ، لأن العصيان عنده سهلٌ ، فلو صدَّقته ربما تصيب قوماً لا ذنبَ لهم .

﴿بِجَهَالَةٍ .. ﴿٦﴾﴾ [الحجرات] وأنت تجهل حقيقة الأمر ، وعندها يصبح المصاب صاحبَ حق وأنت مُعتد فتندم على تعدِّيك وتجاوزك للصواب ، تندم لأنك جعلتَ مَنْ أسأته صاحبَ حَقٍّ عليك .

وفرْق بين مَنْ يفعل الذنب بجهالة ومَنْ يفعله متعمداً ، وبحسب موقف النفس البشرية من المعصية يكون قبول التوبة ، وأذكر ونحن فى فرنسا أن واحداً من الزملاء رُشِّح لأنْ يكون مبعوثاً إلى فرنسا ، هذا ذاهب إلى هناك لقصد العلم فقط وليس فى باله أى أغراض أخرى ، وهناك سكن على طريقة الغرباء فى أحد البيوت مع إحدى الأسر .

وفى ليلة دخلت عليه بنت هؤلاء الذين يسكن معهم ، ربما قد يكون ارتكب معصية معها فى هذا الموقف لكنه وقع فيه عن جهالة

ودون أن يخطط له .

على خلاف شخص آخر حينما يذهب إلى هذه البلاد يذهب وفى باله هذه المسائل ، وربما اتصل بمَنْ يعطيه عناوين أهل المعصية .

لذلك يُحدد الحق سبحانه شروط التوبة المقبولة ، فيقول : ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَـئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً (١٧) وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ وَلا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَـئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً (١٨) ﴾ [النساء]

والندم على المعصية أول مراحل التوبة ، لكن الأمر بالتثبُّت من خبر الفاسق ، أهو وعظ ابتداءً أم له سَبَبٌ نزل القرآنُ من أجله ؟ قالوا : بل له سببٌ وهو حادثة الوليد[1] بن عقبة بن أبى معيط لما ولاَّه رسولُ الله جبايةَ أموال الزكاة من بنى المصطلق .

فلما ذهب إليهم خرجوا جميعاً لمقابلته والاحتفاء به حين علموا أنه رسول رسول الله ، لكنه خاف من جمعهم على هذه الصورة ، وخشى أنْ ينالوه بشرٍّ خاصة وقد كان له دية قديمة عندهم من أيام الجاهلية .

---

(١) الوليد بن عقبة بن أبى معيط أبو وهب الأموى القرشى : والٍ من فتيان قريش وشعرائهم وأجوادهم ، فيه ظُرف ومجون ولهو ، وهو أخو عثمان بن عفان لأمه ، أسلم يوم فتح مكة ، بعثه رسول الله ﷺ على صدقات بنى المصطلق ، وولاه عثمان الكوفة بعد سعد بن أبى وقاص (سنة ٢٥ هجرية) فانصرف إليها وأقام إلى سنة ٢٩ . اعتزل الفتنة بين على ومعاوية ، ولكنه رثى عثمان وحرض معاوية للأخذ بثأره ، مات بالرقة عام ٦١ هجرية / ٦٨٠ ميلادية . [الأعلام للزركلى ١٢٢/٨] .

ففرَّ عائداً إلى رسول الله وقال : يا رسول الله منعونى الزكاة ، فرسولُ الله تثبَّت من الأمر وسألهم فقالوا : بل خرجنا فرحاً به يا رسول الله ، ولو صدَّق رسولُ الله هذا الخبر لاعتبرهم مرتدين ، وربما كان حدث ما لا تُحمد عقباه .

ورُوى أن سيدنا رسول الله بلغه أن السيدة مارية أم إبراهيم لها ابنُ عم يزورها ويدخل عندها ، فأغضبه ذلك وقال لعلى : خُذْ هذا السيف واذهب إليه فإنْ وجدته فاقتله . فقال : يا رسول الله أنا فى أمرك أأقتله ؟ أم يرى الشاهد ما لا يرى الغائب ؟ انظر هنا إلى احتياط على رضى الله عنه .

فلما ذهب وجده عند مارية فهمَّ بسيفه ليقتله ، لكن الرجل أسرع إلى نخلة فصعد عليها بحيث لا يناله سيفُ على ، ثم ألقى بنفسه على الأرض وفتح بين ساقيه حتى بانت لعلى أماكن عورته فرآه على أمسحاً . يعنى : ليس له ما للرجال فكفَّ عنه .

وذهب إلى رسول الله وأخبره الخبر فقال : صدقتَ يا على ، يرى الشاهد ما لا يراه الغائب . ونفهم من هذه القصة أن الذى أخبر بها رسولَ الله فاسقٌ أراد الوقيعة والتشهير بأم إبراهيم[1] .

---

(١) أخرجه الحاكم فى مستدركه على الصحيحين (٦٩٢٢) وذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد باب الغيرة (٢/٢٢٥) وعزاه للبزار وقال : فيه ابن إسحاق وهو مدلس ولكنه ثقة ، وبقية رجاله ثقات ، وقد أخرجه الضياء فى أحاديثه المختارة على الصحيح . وقد حكم الألبانى على حديث على بن أبى طالب فقال : سنده جيد (السلسلة الصحيحة ١٩٠٤) وأصله صحيح .

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ⑦﴾

الكلام هنا له علاقة بما حدث من مخالفة المسلمين لرأى رسول الله فى الحديبية ، فالحق سبحانه يقول لهم ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ .. ⑦﴾ [الحجرات] كأنه يقول لهم احترموا وجوده بينكم فهو رسول الله ولا يخفى عليه شىء لأنه مُؤيَّد من الله ، والله يخبره بالواقع ، فليس علمه بالأمور كعلمكم .

وكلمة ﴿فِيكُمْ .. ⑦﴾ [الحجرات] تدل على الظرفية كما تقول : الماء فى الكوب ، أو المال فى الخزانة ، ومعلوم أن المظروف أغلى وأنفَسُ من المظروف فيه ، وأنتم ظرف لرسول الله ومنهج رسول الله ؛ لذلك قرأوا[٢] : ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ .. ⑫⑧﴾ [التوبة] بفتح الفاء .

---

(١) العنت : المشقة . وأعنته : أوقعه فى العنت وشق عليه . قال تعالى : ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ .. ②②⓪﴾ [البقرة] أى : كلفكم الأمور الشاقة التى توقعكم فى العنت . [القاموس القويم ٢/٣٩] .

(٢) قرأها بالفتح : ابن عباس وأبو العالية والضحاك وابن محيصن ومحبوب عن أبى عمرو نقله ابن الجوزى فى زاد المسير فى تفسير آية ١٢٨ من سورة التوبة . ثم قال فى المفتوحة ثلاثة أقوال . أحدها : أفضلكم خلقاً . والثانى : أشرفكم نسباً . والثالث : أكثركم طاعة لله عز وجل .

إذن : وجود رسول الله بينكم ميزة لكم وعصمة وحماية لأنه موصول بربه ، وهذه المسألة كان يعلمها كفار مكة وصناديدهم ، لكنهم غلبهم العناد والمكابرة وحجبتهم عن الإيمان .

لذلك اجتمع فى يوم من الأيام كلٌّ من أبى سفيان والحارث بن هشام وثابت بن قيس ، وكان بلال يؤذن للصلاة . فقال ثابت : لقد رضى الله عن أبى حيث قبضه قبل أن يرى هذا المنظر ، يعنى : أن بلالاً الحبشى الأسود هو الذى يؤذِّن لرسول الله ، وقال الحارث : أما رأى رسول الله غير هذا الغراب الأسود يُؤذِّن ، وقال أبو سفيان : والله أحب أنْ أقول يعنى مثل قولكما ، لكنى أخشى أنْ يخبر اللهُ رسوله بما أقول[1] .

إذن : كان هؤلاء القوم يعلمون صدق رسول الله ، لكن منعهم اللدد والعناد والكبر عن قبول الحق .

أيضاً تعلمون أن سيدنا رسول الله قد زوَّج ابنتيه رقية وأم كلثوم لولدين من أولاد أبى لهب ، وكان هذا قبل البعثة ، فلما اشتدت العداوة بين أبى لهب ورسول الله أجبر أبو لهب ولديه على تطليقهما .

وفى يوم قابل أحد هذين الولدين رسول الله فى الطريق ونظر إليه ثم تفل وتنبه رسول الله لما فعل ، فدعا عليه وقال : يأكلك كلب

---

(١) أورده القرطبى فى تفسيره من قول ابن عباس ، ومثله عن مقاتل فى تفسير البغوى (٣٤٧/٧) وابن الجوزى فى زاد المسير (٤٠٥/٥) والخازن فى تفسيره (٤٦٧/٥) .

من كلاب الله[١] وبلغت هذه الدعوة أبا لهب فخاف على ولده ، وعندما خرج مع القافلة التجارية إلى الشام جمع رجالها وقال لهم : إذا عرَّسْتم - يعنى آويتم للمبيت - فاجعلوا ولدى فلاناً بينكم ، فإننى أخشى عليه دعوة محمد .

إذن : كان يعلم أن محمداً على الحق ، وأن دعوته مُستجابة ، وبالفعل جعلوه بينهم لما ناموا ، وسلط الله عليه أسداً حقيقياً اختطفه من بينهم .

فصِدْق رسول الله كان معلوماً لهؤلاء ، وكانت ألسنتهم تغلبهم وتنطق بهذا التصديق ، من ذلك قولهم : ﴿لا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ .. (٧)﴾ [المنافقون] وأخبر الحق عنهم بقوله : ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا .. (١٤)﴾ [النمل]

وقوله تعالى : ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ .. (٧)﴾ [الحجرات] ومن ذلك ما حدث منكم فى الحديبية ، فلو أطاعكم فى عدم الصلح ﴿لَعَنِتُّمْ .. (٧)﴾ [الحجرات] أصابكم العنت والمشقة والإثم .

---

(١) وذلك أنه لما أنزل الله عز وجل ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١)﴾ [المسد] قال أبو لهب لابنيه عتبة وعتيبة : رأسى ورؤوسكما حرام إن لم تطلقا ابنتى محمد ، وطلق عتيبة أم كلثوم وجاء النبى ﷺ حين فارق أم كلثوم فقال : كفرت بدينك وفارقت ابنتك لا تحبنى ولا أحبك ، ثم تسلط على رسول الله ﷺ فشق قميصه فقال ﷺ : أما إنى أسأل الله أن يسلط عليه كلبه . دلائل النبوة للبيهقى (٣٣٨/٢ ، ٣٣٩) وأورده الهيثمى فى مجمع الزوائد (١٩/٦) وعزاه للطبرانى مرسلاً وقال : فيه زهير بن العلاء وهو ضعيف . وقد أخرجه الحاكم فى مستدركه (٥٣٩/٢) من حديث أبى عقرب وصححه . وحسَّنه ابن حجر فى الفتح (٣٩/٤) .

ومثلها قوله تعالى : ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ .. (١٢٨)﴾ [التوبة] يعزّ عليه أنْ يراكم فى مشقة ، لأنه بكم رؤوف رحيم ، فإنْ رآكم على المعصية استغفر لكم ، وإنْ رآكم على الطاعة حمد الله ، هذا حتى بعد أنْ يموت .

﴿وَلَـٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ .. (٧)﴾ [الحجرات] لكن هنا استدراك لما سبق ، يعنى أن رسول الله لم يطعكم فيما ذهبتم إليه من التصميم على دخول مكة وأداء العمرة ، ولكن الله حبَّب إليكم الإيمان وزيَّنه فى قلوبكم ، فعُدْتم إلى رأى رسول الله ولم تقضُوا أمراً خلاف أمره ورضيتم به .

وهذا نتيجة هداية الله لكم ، وتحبيبه الإيمانَ وتزيينه فى قلوبكم ، فلولا ذلك لخرجتم عن أمره وهلكتُم بعصيانكم له ، وفى نفس الوقت ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ .. (٧)﴾ [الحجرات] وهذا من أعظم نعَم الله عليكم .

﴿أُوْلَـٰئِكَ .. (٧)﴾ [الحجرات] أى : الذين اتصفوا بهذه الصفات فأحبّوا الإيمان وكرهوا الكفر والفسوق والعصيان ، أولئك ﴿هُمُ الرَّاشِدُونَ (٧)﴾ [الحجرات] جمع راشد ، وهو الذى التزم طريقَ الحق والهداية فلم يَحِدْ عنه ، ومن ذلك قولنا : ترشيد النفقات وترشيد الاستهلاك ، يعنى أنْ نضعه فى موضعه المناسب .

﴿فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٨)﴾

الفضل يعنى الزيادة ، والمراد هنا أن الله تعالى عاملهم بمزيد من نعمه وكرمه .

قالوا لأحد الصالحين : احكم بيننا ، فقال : بالعدل أم بما هو أحسن من العدل ؟ قالوا : وهل هناك أحسن من العدل ؟ قال : أحسن من العدل الفضل ، العدل أنْ تأخذ حقك ، والفضل أنْ تتنازل عنه تفضلاً .

كذلك نِعَم الله علينا من باب الفضل ، لأن التكليف الذى كلَّفنا الحق به يعود علينا نحن بالمصلحة ولا ينتفع الله منه بشىء ، لأنه سبحانه الغنى عن خَلْقه لا تنفعه طاعة ، ولا تضره معصية ، وهو سبحانه بصفات الكمال فيه خلقنا ، إذن : النعم ليستْ مقابلاً للطاعة ، إنما هى محْضُ فضل من الله .

أما فى مثل قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾ [الزمر] فسمَّى لهم أجراً ليعلموا أن عملهم مقبولٌ ، وسيُجزون عليه الجزاء الأوفى .

وقوله سبحانه : ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾﴾ [الحجرات] عليم وعلمه محيط لا يخفى عليه شىء من أمرك ، والسر عنده علانية ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴿١٩﴾﴾ [غافر]

إذن : إياك أنْ يخالط عملك نفاقٌ أو رياء أو عجب أو كبرياء . وقلنا : إن الله تعالى يريد القلوب لا مجرد عمل الجوارح . ثم هو سبحانه ﴿حَكِيمٌ ﴿٨﴾﴾ [الحجرات] يدبر شئون ملكه بمقتضى حكمته تعالى ، والحكيم هو الذى يضع الشىء فى موضعه المناسب .

﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ ﴾

كلمة ﴿ طَائِفَتَانِ .. ﴿٩﴾ ﴾ [الحجرات] مثنى طائفة وهى مفرد فى اللفظ ، وإنْ دَّلتْ فى واقعها على الجمع مثل كلمة قوم ، تُجمع طائفة على طوائف . وهذه الآية تقرر حكماً يتعلق بالحرب وضرورة الصلح بين الطائفتين المتحاربتين ، حتى لا تستمر الحروب بين المؤمنين بعضهم البعض .

ونلاحظ هنا أن لفظ ﴿ طَائِفَتَانِ .. ﴿٩﴾ ﴾ [الحجرات] مثنى . والقياس أن يقول : اقتتلتا لكن القرآن جمعها فقال ﴿ اقْتَتَلُوا .. ﴿٩﴾ ﴾ [الحجرات] لماذا ؟ قالوا : لأن الطائفة كتنظيم تتمثل فى واحد ، هو رئيس هذه الطائفة ، لكن إذا دار القتال تقابل أفراد الطائفتين ، فالقتال بمجموع الأفراد .

بدليل أنه لما تحدَّث عن الصلح عاد إلى لفظ المثنى ، فقال ﴿ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا .. ﴿٩﴾ ﴾ [الحجرات] لأن مجلس الصلح ليس بالضرورة أنْ يحضره جميع أفراد الطائفة ، بل ينوب عنهم شخص واحد يعقد الصلح .

﴿ فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَىٰ .. ﴿٩﴾ ﴾ [الحجرات] أى : بعد أنْ تمّ الصلح وبغَتْ إحدى الطائفتين على الأخرى . يعنى : تعدَّتْ

وتجاوزتْ الحدَّ فى العدوان ولم تحترم الصلح ﴿فَقَاتِلُوا الَّتِى تَبْغِى .. ⑨﴾ [الحجرات] أى : لردعها ﴿حَتَّىٰ تَفِيءَ .. ⑨﴾ [الحجرات] ترجع ﴿إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ .. ⑨﴾ [الحجرات] أى : إلى الحق .

وهكذا أصبح لدينا ثلاث طوائف ، طائفتان اقتتلتا ، وطائفة تحكم بينهما بالصلح ، ذلك لأن المجتمع المؤمن فى مجموعه مؤتمنٌ على هذه المهمة ، مهمة الحكم بين المتخاصمين ، ولديه ما يؤهله للعدل وعدم الميل أو اتباع الأهواء فى عملية الصلح ، وإذا لم تتوافر هذه الشروط فى الحكم لا يتم الصلح ، بل تتفاقم الأمور وتزيد تعقيداً .

ويكفى أن صاحب الهوى والميل فى الحكومة بين الطرفين يسقط من نظر الجميع ، حتى الفئة التى حكم لصالحها زوراً تمقته ، لذلك قالوا عن شاهد الزور : ترتفع الرؤوس على الخصم بشهادته ، وتدوس الأقدام على كرامته .

وقوله تعالى : ﴿فَإِن فَاءَتْ .. ⑨﴾ [الحجرات] أى : بعد القتال وعادتْ إلى الصواب ، فعودوا أنتم إلى الصلح ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا .. ⑨﴾ [الحجرات] والمعنى : لا تتركوا الفئة التى فاءتْ إلى الحق دون أنْ تُصلحوا بينهما ، صحيح هى عادتْ إلى الحق لكن ما زال الخلاف قائماً فلابدَّ من الصلح حتى لا تفرخ حرباً أخرى وتبقى جذور الخلاف تتأجج فى الصدور فتشعل المعارك من جديد .

إذن : منعنا المعركة أولاً ، ورددنا المظالم إلى أهلها ، ونزعنا فتيل الحرب .

وكلمة ﴿وَأَقْسِطُوا .. ﴿٩﴾﴾ [الحجرات] من أقسط يُقسط فهو مُقْسط أى : اعدلوا بينهما ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾﴾ [الحجرات] العادلين ، وهناك قسَط يقسط فهو قاسط أى : جائر . ومنه قوله تعالى : ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾﴾ [الجن] فالهمزة فى أقسط همزة إزالة . أى : أزال الجور والظلم .

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾

وهذه المسألة لها سبب ، ففى حنين اختلفوا على شىء وتفاقم بينهم هذا الخلاف ، حتى صار معركة خاصة بين سفهاء القوم منهم واستعملوا فيها الأسلحة الخفيفة مثل العِصىِّ وسعف النخيل والشماريخ ، وقبل أنْ تتحول إلى حرب حقيقية بلغ الأمر رسول الله ﷺ فقال لهم : « أصلحوا بين أخويكم »[1] .

ذلك لأن المؤمنينْ إخوة فى النسب من آدم عليه السلام ، وإخوة فى الإيمان ، وإخوة النسب أسبق وتبعها إخوة الإيمان ، وهذا يعنى أن

---

(١) عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قلت يا نبى الله لو أتيت عبد الله بن أبىّ فانطلق إليه النبى ﷺ فركب حماراً وانطلق المسلمون يمشون وهى أرض سبخة ، فلما أتاه النبى ﷺ قال : إليك عنى ، فو الله لقد آذانى نتن حمارك ، فقال رجل من الأنصار : لحمار رسول الله ﷺ أطيب ريحاً منك ، فغضب لعبد الله رجل من قومه ، وغضب لكل واحد منهما أصحابه ، وكان بينهم ضرب بالجريد والأيدى والنعال ، فبلغنا أنه أنزلت فيهم ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا..﴿٩﴾﴾ [الحجرات] أخرجه الواحدى النيسابورى فى أسباب النزول (ص ٢٢٣) وعزاه للبخارى ومسلم كلاهما من طريق المعتمر بن سليمان .

للكافر حقَّ أخوّة النسب ، وإنْ لم يكُنْ له حق فى أخوة الإيمان .

لذلك نقول فى إخـوة النسب إخوة ، وفى الإيمـان نقول ﴿إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ (٤٧)﴾ [الحجر] لذلك تكتمل الأخـوة فى إخـوة الإيمان .

ويُروى أن معـاوية دخل عليه حاجبـه . فقال : يا أميـر المؤمنين بالباب رجل يستأذن فى الدخول ، ويدَّعى أنه أخوك ، فضحك معاوية وقال : خـدمتنى كذا وكـذا ولا تعرف إخوتى ؟ قـال : هكذا قال لى ، قـال : أدخله ، فلما دخل سـأله مـعاوية : أى إخـوتى أنت ؟ فقـال : أخوك من آدم ، فضحك معـاوية وقال : رحم مقطوعة ، والله لأكـونَنَّ أولَ مَنْ وصلها . وقضى له حاجته[1] .

ولفظ الإخوة هنا يُقرِّب النفوس ، ويُزيل ما بين الناس من طبقية أو عصـبيـة ، لذلك نجد الأسلوب القـرآنى حتى فى مـسألة القـصاص فى القتلى يقول : ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ..(١٧٨)﴾[البقرة]

يريد أنْ يُذكره أنه أخوه رغم ما بينهما من عداوة وشحناء ، فالله يُرقِّق القلوب حِرْصاً على سلامة المجتمع المسلم ، ولمنزلة الأخوة فى العلاقات الإنسانية قالوا فى الحِكَم : رُبَّ أخ لك لم تلده أمك .

حتى أن البعض يرى أن الإنسان حينما يتعثر فى الطريق فيصيبه

---

(١) ذكره الـيوسى فى (المـحاضرات فـى الأدب واللغة) أن مـعاوية جـاءه إنسان فقـال له : أسألك بالرحم التى بينى وبينك إلا ما رفدتنى (أى أعطيـتنى) فقال : أنت من عبد مناف ؟ قال : لا . قـال : أنت من قريش ؟ قال : لا . قـال : أنت من العرب ؟ قـال : لا . قال : أى رحم بينى وبينك ؟ قال : رحم آدم ، فقال : رحم مجـفوة لأكونن أول من وصلها فأعطاه . وكذا الأبشيهى فى كتاب (المستطرف فى كل فن مستظرف) .

مكروه يقول : أخ . كأنه يستنجد بأخيه ، أى أخ له قريب منه يمكن أنْ يُسعفه .

وقوله تعالى : ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الحجرات] أى : اتقوا الله فى عملية الإصلاح بين الطرفين .

﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الحجرات] ترحمون من ماذا ؟ تُرحمون من استمرار العداوات بين المؤمنين ، وهذا يعنى ضرورة إنهاء الخلافات قبل أن تستفحل وتتمادى ، وفى استفحالها ضرر يصيب الجميع ، يصيب الطرفين المتنازعين أولاً ، ثم يتعدَّى إليكم ، حيث ترى كل طائفة أنكم تنحازون للأخرى . إذن : من مصلحة المجتمع كله إنهاء العداوات وحقن الدماء بين المؤمنين .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ ۖ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾﴾

نلاحظ هنا أن القرآن وجَّه النهى إلى القوم مرة ، وإلى النساء مرة ، وخَصَّ كُلاً منهما بنهى ، ذلك لأن كلمة قوم لا تُقال إلا للرجال ، لأنهم هم الذين يقومون على شئون الأسرة ، أما المرأة فليس لها قيامٌ إلا على بيتها ، يقول الشاعر :

وَمَا أدْرى وَلَسْتُ إخَالُ أدْرى أقَـوْمٌ آلُ حِصْـنٍ أمْ نِسَـاءُ

إذن : القـوم تُقـال للنسـاء وفى آية أخـرى قـال تعـالى : ﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ .. (٣٤) ﴾ [النساء] البعض يفهم من كلمة ﴿ قَوَّامُونَ ﴾ أنها للقـهر وللضـرب ، أبداً ، بل الرجال قـوَّامون على النساء . يعنى : يقومون على رعايتهن وتدبير أمورهن .

لذلك نقول للمرأة (ست بيت) فـكأن الرجل هو الخادم الراعى لها ، ونحن نقول : فلان قائم بهذا الأمر . يعنى : يتولى العمل الشاقَّ فيه .

تذكرون فى قـصة سـيدنا آدم لما أسكنه اللهُ الـجنةَ هو وزوجه ، وحدثتْ من آدم المخالفة لأمر الله ، قال تعالى : ﴿ فَقُلْنَا يَـآدَمُ إِنَّ هَـذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ (١١٧) ﴾ [طه] هذا خطاب لآدم وحواء .

والقـاعدة أن يقول (فـتشقيا) بالتـثنية ، لكن قال ﴿ فَتَشْقَى ﴾ أى : آدم وحده ، لأن مهـمة الكدح والشقاء وتـحمُّل مسئولـية الأسرة للرجل فقط ، أما المرأة فهى للبـيت ولها دور فيه ودور هام يملأ كلَّ لحظة فى حياتها ، لكن ماذا نفعل وهُنَّ يُردْنَ أنْ يشقيْنَ مع الرجال ؟

والنهى عن السـخـرية فى هـذه الآية له سـببٌ فى الرجـال ، وله سـببٌ فى النسـاء : فـيُـروى أن ثابت بن قـيس[1] دخل على مـجلس رسـول الله ﷺ فوجـد الصفَّ الأول قـد اكتـمل ، وأراد أنْ يجلس فى

---

(١) هو ثابت بن قيس بن شماس الخزرجى الأنصـارى ، صحابى ، كان خطيب رسول الله ﷺ وشهـد أحداً وما بعدها من المـشاهد . وفى الحديث : نعم الرجـل ثابت . ودخل عليه النبى ﷺ وهو عليل ، فقال : أذهب الباس رب الناس عن ثابت بن قيس . قتـل يوم اليمامة شهيداً فى خلافة أبى بكر عام ١٢ هجرية /٦٣٣ ميلادية . [الأعلام للزركلى ٢/٩٨] .

الصف الأول لأنه كان ثقيل السمع ، فجاء إلى رجل من ضعفاء القوم وقال له : تزحزح فلم يتزحزح ، فقال له : منْ أنت ؟ قال : فلان ، قال : ابن فلانة ؟ وكانت لها سيرة سيئة بين الناس ، وسمعه رسول الله ﷺ فقال : من قال ابن فلانة ؟ قال : أنا يا رسول الله ، فقال : انظر فى مجلسنا فنظر فيه ، فقال له : ماذا رأيتَ ؟ قال : رأيت الأسود والأبيض والأحمر . قال : أفضلكم عند الله أتقاكم[1] .

ثم لم ينس الرجل الذى قيل له تفسح فلم يتفسح ، ونزل فى حقِّه قوله تعالى : ﴿إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ .. (١١)﴾ [المجادلة]

ويُروَى أن السيدة أم سلمة كانت قصيرة ، وفى مرة أصابها وجع فى رجلها فربطتها بقطعة من القماش ، وكان فيها بقية تتدلَّى على الأرض تجرُّها خلفها ، فرأتها على هذا الحال السيدة عائشة والسيدة حفصة . فقالت إحداهن للأخرى : تمشى ولها ذيل كذيل الكلب . فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فنزلت الآية[2] .

لذلك يقول الحق سبحانه فى يوم القيامة : « جعلت نسباً ،

---

(١) ذكره القرطبى فى تفسيره للآية : « نزلت فى ثابت بن قيس وقوله فى الرجل الذى لم يتفسح له : ابن فلانة ، فقال النبى ﷺ : من الذاكر فلانة ؟ قال ثابت : أنا يا رسول الله . فقال النبى ﷺ : انظر فى وجوه القوم . فنظر فقال : ما رأيت ؟ قال : رأيت أبيض وأسود وأحمر . فقال : فإنك لا تفضلهم إلا بالتقوى . فنزلت فى ثابت هذه الآية . وذكره البغوى فى تفسيره (٣٤٣/٧) وفيه : أن ثابتاً قال : من هذا ؟ قال : أنا فلان . فقال ثابت : بن فلانة . وذكر أماً كان يُعير بها فى الجاهلية .

(٢) قاله الواحدى النيسابورى فى أسباب النزول (ص ٢٢٤) قال : نزلت فى امرأتين من أزواج النبى ﷺ سخرتا من أم سلمة ، وذلك أنها ربطت حقويها بسبنية وهى ثوب أبيض ، وسدلت طرفها خلفها فكانت تجره ، فقالت عائشة لحفصة : انظرى ما تجر خلفها كأنها لسان الكلب . فهذا كان سخريتها .

وجعلتم نسباً ، فجعلتُ أكرمكم عند الله أتقاكم فأبْيتم وقُلْتم : أكرمنا فلان ابن فلان ، فاليوم - أى يوم القيامة - أرفع نسبى وأضَعُ أنسابكم »[١] .

ودخل رجل أعرج على أحدهم ، فراح ينظر إليه نظرة سخرية لعرجته ، ففهم الأعرجُ قصده ، فقال له : أتعيب الصَّنعة أم تعيب الصانع ؟ فأفحمه حتى ندم على سُوء أدبه معه ، وقال : والله لوددتُ عندها أنْ أكون أنا مثله وهو مثلى .

والحق سبحانه وتعالى حينما ينهانا عن السخرية ، إنما يريد المساواة بين جميع خَلْقه ، فالخَلْق جميعاً خَلْقه وصنعته وعبيده ، وليس فيهم من هو ابن الله ، ولا مَنْ بينه وبين الله قرابة ، فلِمَ إذن يسخر بعضنا من بعض ؟

إياك والسخرية من الناس مهما كانوا أقلّ منك ، عليك إنْ رأيت عيباً فى دين أو خُلق أنْ تُقوِّمه وتُصلح من شأنه ما استطعت .

وإذا كان العيبُ فى الخَلْق ، وفيما لا دخْلَ للمخلوق فيه فتأدَّبْ مع الخالق ، ووالله لو علمتم ما جعله الله للمؤوف[٢] - يعنى : مَنْ به آفة -

---

(١) أخرجه الحاكم فى مستدركه (٣٦٨٤ ، ٣٦٨٥) والطبرانى فى المعجم الصغير (٦٤٣) ونحوه للبيهقى فى شعب الإيمان (٤٩٢٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : « إن الله عز وجل يقول يوم القيامة : أمرتكم فضيعتم ما عهدت إليكم فيه ورفعتم أنسابكم ، فاليوم أرفع نسبى وأضع أنسابكم ، أين المتقون ؟ أين المتقون ؟ إن أكرمكم عند الله أتقاكم » وقال الحاكم : « هذا حديث عال غريب الإسناد والمتن ولم يخرجاه » .

(٢) الآفة : العاهة . ويقال : آفة العلم النسيان . وطعام مؤوف : أصابته آفة . وقد إيف الزرع أى أصابته آفة . وآف القوم : دخلت عليهم آفة . وآفت البلاد تؤوف : صارت فيها آفة . [لسان العرب - مادة : أوف] .

لتمنيتم جميعاً أنْ تكونوا مؤافين ، فإن الله تعالى ليس له ولد ، بل وزَّع أسبابَ فضله على عباده ، فإنْ أخذ من واحد منهم شيئاً فقد عوَّضه خيراً منه .

والسخرية والاستهزاء لا يكونان إلا من إنسان عَلا فى شىء أمام إنسان نقص فى هذا الشىء كأن يسخر الغنىُّ من الفقير ، أو القوى من الضعيف ، أو سليم التكوين من المعاق .. وهذا السلوك نتيجة الغفلة عن ميزان التفاضل بين الخلق جميعاً ، ألا وهو التقوى .

وقلنا : إنك لو نظرتَ فى الوجود كله لوجدتَ فيه قضية عادلة ، هى أن كل إنسان منَّا ، مجموع نعم الله عليه تساوى مجموع أىِّ إنسان آخر ، لأن الخالق سبحانه وزَّع فضله على عباده لكن هذا أخذ ١٠٠٪ فى العقل وهذا أخذ ١٠٠٪ فى الصحة لكن المجموع فى النهاية متساوٍ .

ذلك لأن الله تعالى لا يريد نسخاً مكررة من البشر ، إنما يريدنا متفاوتين فى المواهب لتستقيم بنا حركة الحياة وتتكامل ويرتبط البشر ببعض ارتباط حاجة ، لذلك قلنا إن الباشا قد يحتاج إلى عامل المجارى .

فقوله تعالى : ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ .. (١٦٥)﴾ [الأنعام] يعنى كل منا مرفوع فى شىء ، ومرفوع عليه فى شىء آخر . تعلمون أن بتهوفن الموسيقى الشهير كان أصم لا يسمع ، وأن تيمور لنك الذى دوَّخ الدنيا بالفتوحات كان أعرج .

هذا يعنى أنك لا تسخر من أحد ، ولا تحتقر أحداً لأنك رأيته أقلَّ منك فى شىء ما ، فكلنا سواسية فى ميزان الحق سبحانه ، وكأنه سبحانه يريد أنْ يعطينا درساً فى أنه سبحانه ليس له ولد وليس له صاحبة .

لذلك كانت الجن أفضل فهماً منا حين قالت : ﴿ وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ[١] رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ ﴾ [الجن] فكلنا عيال الله ، بل تبلغ هذه المساواة إلى أن رسول الله يأمرنا بأنْ نسوِّىَ بينَ أولادنا ولو فى القُبلة .

وسيدنا رسول الله ﷺ يُعلِّمنا كيف نتصرف إذا ما حدث بيننا شىء من التهكم أو السخرية ، وكيف نقابله ونردّ عليه . فيُروى فى سبب نزول هذه الآية أن السيدة صفية بنت حُيى بن أخطب ، وكان زعيم بنى المصطلق ، ولما غزاهم رسول الله كانت السيدة صفية فى الأسرى فأراد ﷺ أنْ يُكرمها لأنها بنت ملكهم فتزوجها فغارت منها نساء النبى ، والغيرة كما يقولون (فقاقيع) الحب .

وكانت عائشة أكثر زوجات الرسول غيرةً عليه ، فقالت لصفية : يا يهودية بنت يهوديين ، فذهبت صفية باكية إلى رسول الله وحكتْ له ما كان من عائشة ، فضحك رسول الله لأنه يعلم غيرة عائشة عليه .

لذلك لم يُؤنِّب عائشة ، إنما أرضى صفية وطيَّب خاطرها وقال لها : إنْ قالت لك هذا فقُولى لها : ولكن أبى هارون وعمى موسى وزوجى محمد[٢] .

---

(١) الجد : العظمة والمجد . قال تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ ﴾ [الجن] أى : أنه تعالت عظمة ربنا وتعالى مجد ربنا . [القاموس القويم ١/١١٨] .

(٢) أورده القرطبى فى تفسير الآية عن ابن عباس أن صفية بنت حيى بن أخطب أتت رسول الله ﷺ فقالت : يا رسول الله إن النساء يعيرننى ويقلن لى : يا يهودية بنت يهوديين . فقال رسول الله ﷺ : هلا قلت إن أبى هارون ، وإن عمى موسى وإن زوجى محمد ، فأنزل الله هذه الآية . وكذا تفسير البحر المحيط (١٠/١١١) وابن الجوزى فى (زاد المسير ٥/٤٠١) .

انظر كيف عالج سيدنا رسول الله هذا الموقف ، وكيف أعلى من شأن صفية ، فهى سليلة الرسل والأنبياء وزوجة نبى ، نعم رد يفحم ولا يخطر على بال أحد ، ولم لا وقد أُوتى ﷺ جوامع الكلم[١] .

ومثل هذا الموقف أيضاً حدث من السيدة عائشة للسيدة فاطمة الزهراء بنت رسول الله ، حيث كانت تغار من السيدة خديجة ، ومن ثناء رسول الله عليها فى كل موقف ، حتى قالت له : ماذا يعجبك فى عجوز شمطاء[٢] حمراء الشدقين[٣] ، قد أبدلك الله خيراً منها ؟ كيف ردَّ رسول الله ؟ قال لها : لا والله ما أبدلنى الله خيراً منها ، فقد آمنت بى إذ كفر بى الناس ، وصدقتنى إذ كذبنى الناس ، وواستنى بمالها إذ حرمنى الناس ، ورزقنى الله عز وجل ولدها إذ حرمنى أولاد النساء »[٤] .

وبعد ذلك لما قابلت فاطمة قالت لها : لا يغرنّك ثناء رسول الله على أمك ، فقد تزوجها ثيِّباً وتزوجنى بكْراً ، فلما اشتكتْ لرسول الله

---

(١) أخرج البخارى فى صحيحه (٦٤٩٦) عن أبى هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « بُعثت بجوامع الكلم » وكذا مسلم فى صحيحه (٨١٢ ، ٨١٤) والترمذى فى سننه (١٤٧٤) ، وقال : حديث حسن صحيح .

(٢) الشمط فى الشعر : اختلافه بلونين من سواد وبياض . والشمط فى الرجل : شيب اللحية . والشمطات : الشعرات البيض فى شعر الرأس . [لسان العرب – مادة : شمط] .

(٣) الشدق : جانب الفم . قال ابن سيده : الشِّدقان طفطفة الفم من باطن الخدين ، والأشدق : العريض الشدق الواسعه المائله . [لسان العرب – مادة : شدق] .

(٤) أخرجه أحمد فى مسنده (٢٣٧١٩) والطبرانى فى المعجم الكبير (١٨٥٥٦) من حديث عائشة رضى الله عنها أن النبى ﷺ كان إذا ذكر خديجة أثنى عليها فأحسن الثناء قالت : فغرت يوماً فقلت : ما أكثر ما تذكرها حمراء الشدقين قد أبدلك الله عز وجل بها خيراً منها » .

قولَ عائشة قال لها : إذا قالت لك هذا فقولى لها : ولكن أمى تزوجت رسول الله بكْراً وأنت تزوجته ثيباً[١] .

والبعض يقول : كيف يحدث كل هذا فى بيت رسول الله ؟ نقول : نفهم من هذه الغيرة إلى جانب أنها علامة الحب لسيدنا رسول الله ، إلا أنها أيضاً تعنى أن عائشة التى تزوجها رسول الله وهى بنت التاسعة ، ومع ذلك كانت تغار على كِبره ، وهذا يعنى أنه ﷺ غير مزهود فيه .

وقوله سبحانه : ﴿ وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ .. (١١) ﴾ [الحجرات] هنا نَهْى عن صفة أخرى مذمومة لا تليق بأهل الإيمان ، هى صفة اللمز وهو أنْ تعيب الآخرين ، وتأمل دقة الأداء القرآنى فى قوله : ﴿ وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ .. (١١) ﴾ [الحجرات] والإنسان لا يلمز نفسه إنما يلمز غيره ، لكنه أنزل الآخرين منزلة الإنسان نفسه ، ثم إنك حين تلمز الناس تُجرّئهم على أنْ يلمزوك ، على حَدِّ قول الشاعر :

لسَانُكَ لاَ تَذْكُر بِهِ عَوْرَةَ امْرِئٍ ... فكُلُّكَ عَوْراتٌ وللنَّاسِ ألْسُنُ
وَعَيْنكَ إنْ أبدَتْ إليْكَ مَسَاوِئاً ... فَصُنْهَا وَقُلْ يَا عَيْنُ للنَّاسِ أعيُنُ

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ .. (٦١) ﴾ [النور] لأنك حين تُسلِّم على الناس يردون عليك السلام فكأنك سلَّمتَ على نفسك .

---

(١) أشار إليه الألوسى فى تفسيره (روح المعانى) فى تفسيره لآية ﴿ عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا (٥) ﴾ [التحريم] .

وقوله سبحانه : ﴿وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ .. (١١)﴾ [الحجرات] نهى آخر عن التنابز بالألقاب . أى : لا يدع أحدكم أخاه بلقب يكرهه ، والتنابز من نبز الشىء يعنى : أبعده وتركه ، كذلك حين تنادى شخصاً بلقب يكرهه ، فكأنك تبعده عنك وتُوسع الفجوة بينك وبينه .

والأسماء عندنا فى اللغة اسم ولقب وكُنية : الاسم هو ما يُطلق على المسمى فيصير علَماً مثل محمد . واللقب هو ما يُشعِر بمدح أو ذم مثل الصِّديق ، أو أن نسمى أحد الضعفاء مثلاً (سليمان بطة) ، أما الكُنْية فهى ما صُدِّرتْ بأب أو أم . مثل أبى بكر ، أم المؤمنين .

إذن : لا يجوز أنْ ننادى شخصاً مثلاً بلفظ مكروه وهو لا يحبه ولا يحب أن يُنادى به ، من ذلك ما ذكرناه من قول عائشة لصفية : يا يهودية . والتنابز بالألقاب يزرع الأحقاد والضغائن ، ويهيج الغرائز والغضب عليك ، ولم لا تناديه بأحب الأسماء إليه لتعطفه إليك .

حتى أن الفقهاء قالوا : إذا أذنب الرجل ذنباً ثم تاب منه إياك أنْ تُذكِّره به أو تُعيِّره به ، لأن ذلك يُعدُّ قذفاً له ، إلى جانب أنك تعين عليه الشيطان ، كمن تاب عن الخمر ونقول له (يا خمورجى) ، أو تاب عن القمار ونقول له (يا قمرتى) وهكذا .

لذلك قال بعدها : ﴿بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ .. (١١)﴾ [الحجرات] يعنى : بئس ما تقول لأخيك حينما تُذكِّره بماض يريد أنْ ينساه ، وقبيح بك أنْ تُعيِّره بعد أنْ تاب ، كما أنه قبيحٌ بك الفسوق بعد الإيمان .

﴿ وَمَن لَّمْ يَتُبْ .. (١١) ﴾ [الحجرات] يعنى : عن التنابز بالألقاب ﴿ فَأُوْلَـٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (١١) ﴾ [الحجرات] نعم ظالمون لأنفسهم بعدم اتباع المنهج فى هذا النهى ، وظالمون لغيرهم حين ينادونهم بهذه الألقاب المكروهة ، فمن حقِّ الذى تاب ألاَّ تذكره بعيبه ، وألاَّ تُعيّره به .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ (١٢) ﴾

الحق سبحانه يأمرنا أنْ نجتنب كثيراً من الظن ، والظن هو الخاطر يخطر بالبال . وهو نوعان : ظن حسن ، وظن سىء ، الظن الحسن لا شىء فيه ولا إثمَ عليه ، بل هو من مطلوبات الشرع كما سنرى ، والمنهى عنه هنا هو ظن السَّوء الذى يؤدى إلى فساد فى العلاقات ويترتب عليه عقوبة .

لذلك علّمنا سيدنا رسول الله ﷺ أن نجتنب ظن السَّوْء ، فلما كان ﷺ معتكفاً وجاءته السيدة صفية تطلب منه شيئاً فخرج إليها وكانت محتجبة ، ورآهما أبو بكر وعمر فانصرفا مخافة أنْ يراهما رسول الله وهو فى هذه الحالة لكنه ناداهما وقال : على رسلكما يعنى : قفَا إنها صفية ، وعلما ما أراد رسولُ الله ، فقالا له : لا يكون هذا معك يا رسول الله ، فقال : « إن الشيطان يجرى من ابن

آدم مجرى الدم »[١] .

إذن : فسيدنا رسول الله يُعلِّمنا أنْ نغلق باب ظن السَّوء ، ونقطع أسبابه ونربأ بأنفسنا أنْ نضعها فى هذا الموضع .

وفى قصة الإفك فى سورة النور يُعلِّمنا الحق سبحانه ويحثّنا على أنْ نظن بالمؤمنين خيراً ، وأن نبتعد عن ظن السَّوْء فيهم ، فيقول سبحانه عن حديثهم فى شأن السيدة عائشة : ﴿ لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْراً وَقَالُوا هَـٰذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ (١٢) ﴾ [النور]

والظن الحسن هو أن تحتاط للأمر ، ولا تجعل له أثراً سيئاً فى نفسك ، فمثلاً إنْ جاءك رجل وقال لك : إن فى هذا الطريق جماعة يتربَّصون بك ويريدون بك شراً ، كان عليك أنْ تأخذ بالأحوط لك وأنْ تصدقه وتحذر ما حذَّرك منه ، لأن الغالب أنه يريد لك السلامة لا يريد لك الإيذاء .

أما إنْ كان الظنُّ يترتب عليه حكم شرعى ، فقد وجب عليك أنْ تتحقق من صحته .

وتأمل دقة الأداء القرآنى واحتياطه فى قوله تعالى : ﴿ كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ .. (١٢) ﴾ [الحجرات] يعنى : أن أكثر الظن ظن سىء يجب اجتنابه ، والقليل ظنٌّ حسن لا مانع منه ، لذلك قال بعدها : ﴿ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ .. (١٢) ﴾ [الحجرات] لا كله ، فاحذر أنْ تقع فى الإثم

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (١٨٩٧ ، ١٨٩٨ ، ٣٠٣٩ ، ٦٦٣٦) وكذا مسلم فى صحيحه (٤٠٤٠ ، ٤٠٤١) من حديث صفية بنت حُيى بن أخطب أم المؤمنين .

حين تظنّ بالمؤمنين السوء دون بينة .

وقوله سبحانه : ﴿ وَلَا تَجَسَّسُوا .. (١٢) ﴾ [الحجرات] لا تتبعوا عورات الناس ولا تبحثوا عن خصوصياتهم ، وفى الحديث : « مَنْ تتبع عورات المسلمين تتبع الله عورته حتى يفضحه فى عقر داره »[(١)] .

ونذكر هنا لطيفة من لطائف أسماء الله الحسنى تلاحظ أن كثيراً من أسمائه تعالى لها مقابل كما فى المحيى المميت ، المعز المذل القابض الباسط .

لكن الستار ألها مقابل فنقول الفضاح ؟ تعالى الله سبحانه عن هذه الصفة لأن ستره مسدولٌ على عباده مهما حدث منهم لا يفضحهم ، والستار صيغة مبالغة من ستر ساتر .

لذلك ورد فى بعض الأحاديث قوله تعالى : أبغض العاصى ولكنى أكره مَنْ يتتبعه ، لماذا ؟ لأن تتبع العورات والسقطات يُشيع الفاحشة فى المجتمع .

فالحق سبحانه يحمى مجتمع الإيمان من هذا ، ويكفى أن المستتر

---

(١) أخرجه عبد الرزاق فى مصنفه (٢٠٢٥١) من حديث أبان وغيره أن النبى ﷺ قام بعد صلاة العصر فرفع صوته حتى أسمع العواتق فى خدورهن ، قال : يا معشر من أعطى الإسلام بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه ، لا تؤذوا المؤمنين ولا تتبعوا عوراتهم فإنه من تتبع عورات المؤمنين تتبع الله عورته ، ومن تتبع الله عورته يفضحه فى بيته . وفى مسند أبى يعلى الموصلى (٧٢٥٧) من حديث أبى برزة الأسلمى . وليس فى الحديث لفظة (عقر داره) بل هى (جوف بيته) أخرجه الطبرانى فى المعجم الكبير (١١٢٨١) عن ابن عباس ، والبيهقى فى شُعَب الإيمان (٩٣٣١ ، ١٠٧٤٨) عن البراء بن عازب .

بالمعصية ما يزال عنده حياء الإيمان .

والنبى ﷺ يقول : « إذا بُليتم - أى بشىء من المعاصى - فاستتروا »[١] .

وهذا كمن لا يقدر على الصوم مثلاً وعنده عذر ويُباح له الفطر ، لكن مع ذلك لا يجوز له أنْ يجاهر بفطره أمام الناس ، حتى لا يكون قدوة سيئة للشباب الذين لا يدركون هذه الأعذار .

فحين يرونه يفطر تتربَّى عندهم خميرة ذهنية أنه يجوز لهم الفطر فى رمضان ، إذن : عليه أنْ يستر فطره حتى لا تَحدث هذه الأسوة .

ولخطورة التجسس، قال الفقهاء[٢] : لو أن رجلاً يعيش فى عشة من البوص والعيدان ، وجاء آخر فنظر إليه من خلال الثقوب ، فجاء صاحب العشة بعود ففقأ عينه لا يكون لعينه مقابل ولا تعويض ، لأنه اقتحم على الأول منزله ، ونظر إليه دون إذنه .

ومثل هذا فى سنة رسول الله[٣] حيث بلغه أن رجلاً ينظر إليه من ثقب الباب .

---

(١) ذكره الإمام مالك فى موطئه (١٢٩٩) بلفظ « من أصاب من هذه القاذورات شيئاً فليستتر بستر الله فإنه من يبدى لنا صفحته نُقم عليه كتاب الله » وكذا البيهقى فى السنن الصغرى (٢٧٤٧) .

(٢) مستند هذا من حديث رسول الله عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « لو اطلع أحد فى بيتك ولم تأذن له فخذفته بحصاة ففقأت عينه ما كان عليك جناح » . أخرجه ابن حبان فى صحيحه (٦١٠٩) .

(٣) عن أبى ذر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أيما رجل كشف ستراً فأدخل بصره من قبل أن يؤذن له فقد أتى حداً لا يحل له أن يأتيه ، ولو أن رجلاً فقأ عينه لهدرت ، ولو أن رجلاً مر على باب لا ستر له فرأى عورة أهله فلا خطيئة عليه ، إنما الخطيئة على أهل بيته » . أخرجه أحمد فى مسنده (٢٠٥٩١) .

ويُروى أن سيدنا عمر كان يتفقَّد أحوال رعيته ، ويقوم بالعسِّ[(١)] ليلاً ، وقد بلغه أن رجلاً يشرب الخمر مع أصحابه فى بيته ، فتسوَّر عليه داره فوجده مع رجل من أصحابه جالسين ، وليس فى المجلس خمر ولا شىء من هذا .

فلما رآه الرجل قال : لقد ظننت بى كذا وكذا ، لكن فاتك من أمور الدين ما هو أهم من ذلك . أولاً : دخلت البيت من السور ، والله يقول : ﴿ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا .. (١٨٩) ﴾ [البقرة] ثانياً : دخلت علىَّ بيتى بدون استئذان ، فانصرف عمر ولم يقل شيئاً[(٢)] .

وفرْق بين التجسس (بالجيم) والتحسس (بالحاء) التحسس تتبُّع وبحث عن الغير ، لكن بدون قصد العورات ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ يَـٰبَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ .. (٨٧) ﴾ [يوسف] أى : ابحثوا عنه حتى تصلوا إليه ، كما يفعل رجال المباحث مثلاً .

وقوله : ﴿ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا .. (١٢) ﴾ [الحجرات] هنا نَهْى عن الغيبة عموماً ، لأن القرآن لم يحدد مَنْ يغتاب ومَنْ يغتاب فيه .

---

(١) العس : الطواف بالليل . ومنه حديث عمر رضى الله عنه أنه كان يعس بالمدينة أى يطوف بالليل يحرس الناس ويكشف أهل الريبة . والعاسّ : الطوَّاف الحارس . جمعه عسس . [اللسان – مادة : عسس] .

(٢) أورده العسكرى فى الأوائل (١/٤٣) أن عمر كان يعس فى المدينة فسمع صوت رجل يغنى فى بيت فدخل عليه من وراء البيت فوجد عنده امرأة وخمراً ، فقال : ما هذا يا عدو الله ؟ قال : لا تعجل يا أمير المؤمنين إن كنت عصيتُ الله فى واحدة فقد عصيتَه فى ثلاث . قال الله تعالى : ﴿ ولا تجسسوا ﴾ وقد تجسست . وقال ﴿ وأتوا البيوت من أبوابها ﴾ وقد تسورتَ ، وقال : ﴿فإذا دخلتم بيوتاً فسلِّموا على أنفسكم ﴾ وقد دخلتَ من غير سلام . قال عمر : فهل عندك من خير إن عفوت عنك ؟ قال : بلى يا أمير المؤمنين ، لله علىّ إن عفوتَ عنى ألا أعود . فعفا عنه .

ولما سُئلَ رسـول الله ﷺ عن الغيبة قال : ذِكْـرك أخاك بما يكره وهو غائب . فـقال السـائل : فإن كـان فى أخى ما أقـول ؟ قال : إنْ كان فيه ما تقول فقد اغتبـته ، وإنْ لم يكُنْ فيه ما تقول فقد بهته[1] ، أى : افتريتَ عليه وكذبتَ .

ثم يعطينا القرآن صورة حسِّية للغـيبة ، فيقول : ﴿ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ .. (١٢) ﴾ [الحـجرات] تأمل كم فى هذه الصورة من منفرات تبين فظاعة هذا العمل ، فالذى يغتاب أخاه فى غيبته كالذى يأكل لحـمه وهو ميت . أى : غائب عن الحيـاة ولا يقدر أنْ يدافع عن نفسـه .

إذن : شبّهه بصورة شنيعة تنفر منها النفس السوية .

وقالوا : إن سـبب نزول هذه الآية أنها نزلتْ فى الوليد بن عـقبة ابن أبى مـعيط حيـنما بعثـه رسول الله لجـمع أموال الزكـاة من بنى المـصطلق ، وكـان عليه لهم دية فـى الجاهليـة ، فلمـا رأوْه خرجـوا لمقابلته ، فخاف منهم الثأر وعاد إلى رسول الله ، وقال : إنهم امتنعوا عن دفع الزكاة .

ورُوى أن أسـامة بن زيد كـان القائم علـى مؤنة الطعـام فى بيت رسول الله ، فـأراد رجلان أنْ يذهبا لكى يَطْعمـا فى بيت رسول الله ، فبعثـوا سلمان الفارسى ليسأل أسامة الطعـام ، فلما سأله قال : ليس عندنا طعام ، فـعاد إليهـما سلمـان وقال : يقول أسـامة : ليس عندنا طعام ، قـالا : بل عنده لكنه بخل به ، ثم قـالا لسلمان : أنت وجـهك وجه شؤم ، ولو ذهبت إلى بئر سميحاً يعنى : فواراً – لغاب ماؤه .

---

(١) أخرجه مسلم فى صحـيحه (٤٦٩٠) وأبو داود فى سننه (٤٢٣١) والترمذى فى سننه (١٨٥٧) ، وأحمد فى مـسنده (٦٨٤٩ ، ٨٦٢٥ ، ٨٦٤٨ ، ٩٥٢٢) كلهم من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

وهكذا اغتابوا كلاً من أسامة وسلمان ، فلما رآهما رسول الله قال : إنى لأشمُّ من أفواهكم ريح لحم نتن ، قالوا : يا رسول الله والله ما أكلنا لحماً ، قال : لقد اغتبتما أسامة وسلمان ، اذهبا فارضوهما[١] لأنك إذا لم تُرض المغتاب فستكون عند الله أقبح من الزانى .

لذلك لما اغتاب رجل ابن سيرين[٢] فجاءه وقال له : يا إمام أحل نفسى منك ، فقال : لم ؟ قال : لأنِّى اغتبتك ، فقال : أنا لا أُحِل ما حرم الله .

والحسن البصرى علم أن رجلاً اغتابه ، فأرسل إليه خادمه بطبق من الرُّطَب ، وقال له : قل له هذا هدية لك من سيدى ، لأنه علم أنك أهديتَ إليه حسناتك بالأمس[٣] .

هذا يدل على أنك تدفع حَقَّ مَن اغتبته من حسناتك ، فَإنْ لم تكن لك حسنات أُخِذَ من سيئاته فطُرِح عليك ، وقد دلّ على ذلك الحديث

---

(١) أخرج ابن أبى حاتم عن السدى أن سلمان الفارسى كان مع رجلين فى سفر يخدمهما وينال من طعامهما ، وأن سلمان نام يوماً فطلبه صاحباه فلم يجداه فضربا الخباء وقالا : ما يريد سلمان شيئاً غير هذا أن يجىء إلى طعام معدود وخباء مضروب . فلما جاء سلمان أرسلاه إلى رسول الله ﷺ يطلب لهم إداماً فانطلق فأتاه فقال : يا رسول الله بعثنى أصحابى لتؤدمهم إن كان عندك ، قال : ما يصنع أصحابك بالأدم قد ائتدموا ؟ فرجع سلمان فخبرهما فانطلقا فأتيا رسول الله ﷺ فقال : والذى بعثك بالحق ما أصبنا طعاماً منذ نزلنا . قال : إنكما قد ائتدمتما سلمان بقولكما فنزلت ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا .. (١٢)﴾ [الحجرات] . نقله السيوطى فى الدر المنثور (تفسير آية ١٢ الحجرات) .

(٢) هو : محمد بن سيرين البصرى الأنصارى بالولاء ، أبو بكر ، إمام وقته فى علوم الدين بالبصرة ، تابعى ، من أشراف الكتَّاب ، مولده ووفاته بالبصرة (٣٣ هـ - ١١١ هـ) ، نشأ بزازاً (تاجر قماش) فى أذنه صمم ، اشتهر بالورع وتفسير الأحلام . [الأعلام للزركلى ٦/١٥٤] .

(٣) أورده الإمام أبو حامد الغزالى فى كتابه (إحياء علوم الدين) (٢/٣٤٧) أن رجلاً قال للحسن البصرى : إن فلاناً قد اغتابك فبعث إليه رطباً على طبق وقال : قد بلغنى أنك أهديت إلىّ من حسناتك ، فأردت أن أكافئك عليها فاعذرنى فإنى لا أقدر أن أكافئك على التمام .

النبوى الشريف[١] .

وقوله تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ (١٢) ﴾ [الحجرات] اتقوا الله فيما أمركم به وفيما نهاكم عنه ، وتجنّبوا أسباب عقابه ﴿ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ (١٢) ﴾ [الحجرات] أى : كثير التوبة على مَنْ تاب ، كثير الرحمة لمن أناب .

وهذا الختام يعطى العاصى الأمل فى رحمة الله ، ولا ييئس المغتابين من رحمته تعالى ، فمَنْ زلَّ لسانه بالغيبة فليبادر بالتوبة ، وإذا علم أن ربه تواب رحيم عاد من قريب ولا يستمرئ هذه الفعلة ولا يتمادى فيها .

وسبق أنْ أوضحنا أن من أعظم نعم الله علينا أنْ شرع لنا التوبة ، وفتح لنا بابَ القبول ، وإلا تمادى العاصون وفسدَت الحياة .

ثم يقول الحق سبحانه[٢] :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (١٣) ﴾

---

(١) ورد هذا فى أى مظلمة منك لأخيك المسلم ، فعن أنس بن مالك قال قال رسول الله ﷺ : « رحم الله عبداً كانت لأخيه عنده مظلمة فى نفس أو مال فأتاه ، فاستحله قبل يوم القيامة ، فإنه ليس ثم دينار ولا درهم إنما هى الحسنات ، قيل : يا رسول الله فإنْ لم يكن له حسنات ؟ قال : أخذ من سيئاته ، فوضع على سيئاته » . أخرجه الطبرانى فى المعجم الأوسط (٥٣١٦) .

(٢) سبب نزول الآية : قال ابن عباس : نزلت فى ثابت بن قيس : وقوله فى الرجل الذى لم يفسح له ابن فلانة ، فقال رسول الله ﷺ : من الذاكر فلانة ؟ فقام ثابت فقال : أنا يا رسول الله فقال : انظر فى وجوه القوم ، فنظر فقال : ما رأيت يا ثابت ؟ فقال : رأيت أبيض وأحمر وأسود ، قال : فإنك لا تفضلهم إلا فى الدين والتقوى . فأنزل الله تعالى هذه الآية . أورده الواحدى النيسابورى فى أسباب النزول (ص ٢٢٤) .

تلاحظ أن النداءات السابقة كانت بيأيها الذين آمنوا ، لأنها توجيهات وتشريعات خاصة بالذين آمنوا ، لأن الله تعالى لا يُكلِّف إلا مَنْ آمن به .

أما النداء هنا فنداء عام للناس جميعاً يلفت أنظارنا إلى آية الخَلْق ، وإلى عظمة الخالق سبحانه ، وهذه الآية تشمل الجميع ، فالخالق سبحانه خلق المؤمن والكافر ، والذكر والأنثى ، هما أصل هذا الخَلْق ، فالذكر وحده لا يتناسل ، وكذلك الأنثى وحدها .

أما قوله تعالى فى سورة السجدة : ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ (٧) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ (٨)﴾ [السجدة] فهذا خاص بالخلق الأول ، وهو آدم عليه السلام ، حيث خلقه الله وصوَّره بيديه ، وكل شىء فى الكون مقدور بقول : كُنْ فيكون .

لذلك قال تعالى لإبليس : ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ .. (٧٥)﴾ [ص] يعنى : كيف لا تسجد لشىء أنا خلقته بيدى ، إذن : أنت لا تسجد لآدم إنما تسجد طاعة لمن أمرك بالسجود .

وبعد أن خلق آدم من طين جعل ذريته من بعده ﴿مِن سُلالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ (٨)﴾ [السجدة] وهذا يقتضى الزوجية بين الذكر والأنثى .

وفى سورة النساء قال سبحانه : ﴿يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ .. (١)﴾ [النساء] أى آدم عليه السلام ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا .. (١)﴾ [النساء] يعنى : حواء . إذن : حينما يقول سبحانه : ﴿مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ.. (١٣)﴾ [الحجرات] لا يعنى بداية الخلق ، إنما النسل الذى جاء بعد الخلق الأول .

لذلك قال فى آخر آية النساء : ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً .. (١)﴾ [النساء] وهؤلاء الرجال والنساء تفرقوا فى أنحاء الأرض وصاروا ﴿شُعُوباً وَقَبَائِلَ .. (١٣)﴾ [الحجرات] فالعرب شعب ، والروم شعب ، والفرس شعب ، ثم انقسمتْ الشعوب إلى قبائل ، والقبائل إلى بطون ، والبطون إلى أفخاذ وهكذا .

وفى داخل الأسرة الواحدة تختلف الأسماء ، لأننا لا نترك الأشخاص بدون أسماء ليتم التعارف ، فهذا محمد وهذا أحمد وهذه فاطمة .. والحكمة من ذلك هى ﴿لِتَعَارَفُوا .. (١٣)﴾ [الحجرات] على مستوى الأفراد وعلى مستوى الشعوب .

والتعارف أمر ضرورى بين البشر ، لأن مصالحهم فى أنْ يتعارفوا ، وسوف تضطرهم ظروف الحياة لهذا التعارف ، حيث سيحتاج بعضهم إلى بعض ، لأنه كما قلنا : الحق سبحانه وزَّع أسباب فضله على خَلْقه ، فما توفر لك قد لا يتوفر لغيرك .

لذلك رأينا مثلاً أوربا التى بلغت من الحضارة والتقدم مبلغاً تحتاج إلى سكان الصحراء رعاة الغنم والإبل حيث البترول وثروات الجبال من المعادن والأحجار الكريمة .

وهذا الاختلاف فى الفضائل يؤدى إلى أنْ يتعاون الخَلْق ويتساندوا ، بحيث يكمل بعضهم نقص بعض . إذن : اختلاف يؤدى إلى التكامل لا إلى التعاند .

وهذا التكامل شاهدناه فى آية خَلْق الرجل والمرأة ، فالرجل والمرأة ليسا ضدين ، بل هما عنصران متكاملان ، لأن لكل منهما مهمة لا يؤديها الآخر .

والحق سبحانه أوضح لنا هذه المسألة بقوله تعالى : ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢﴾ [الليل] فهل يقول عاقل أن الليل ضد النهار ؟

ومثل الليل والنهار الذكر والأنثى ، لذلك أقسم بعدها بخلقهما ، فقال : ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ۝٣﴾ [الليل] فالرجل لتحمُّل مشاقّ الحياة ، للكدح وللعمل ، والمرأة حنان وعاطفة ، وكل مُيسَّر لما خُلِق له[1] .

لذلك نعجب ممن ينادى بالمساواة بين الرجل والمرأة ، كيف ولكلٍّ منهما مهمته التى خُلق لها . والبعض يظلم النساء ويقول : ناقصات عقل ودين[2] ، لأن العقل مهمته الترتيب والاختيار بين البدائل ، وهذه ليست مهمة المرأة بل مهمة الرجل الذى يدير دفة الأسرة فى رحلة الحياة .

أما المرأة فمهمتها عاطفية ، تحنو على الصغير والكبير ، وتفتح

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٩٩٦) وكذا مسلم فى صحيحه (٤٧٨٩) من حديث عمران بن حصين قال : قيل يا رسول الله أَعُلِمَ أهل الجنة من أهل النار ؟ فقال ﷺ : نعم . قيل : ففيم يعمل العاملون ؟ قال : « كل ميسّر لما خُلق له » . وكذا أخرجه أبو داود فى سننه (٤٠٨٦) .

(٢) حديث صحيح . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٩٣ ، ١٣٦٩) من حديث أبى سعيد الخدرى ، وأخرجه مسلم فى صحيحه (١١٤) من حديث عبد الله بن عمر . وعند الترمذى فى سننه (٢٥٣٨) من حديث أبى هريرة ، قال الترمذى : حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه . ونصه : « ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للبِّ الرجل الحازم من إحداكن . قلن : وما نقصان ديننا وعقلنا يا رسول الله ؟ قال :" أليس شهادة المرأة مثل نصف شهادة الرجل . قُلْن . بلى : قال : فذلك من نقصان عقلها . أليس إذا حاضت لم تُصلِّ ولم تَصُم ؟ قلن : بلى : قال : فذلك من نقصان دينها » .

صدرها لتستوعب ، وتريح المتعب والمريض فى أسرتها ، ومع ذلك نراها إذا ترملت قامتْ بالمهمتين وحلَّتْ محلّ الزوج ، وربما كانت أكثر نجاحاً فى تربية الأولاد وصيانتهم .

الحق سبحانه وتعالى خلق آدم من طين ، وسوَّاه ونفخ فيه من روحه ، لكن لم يخلق حواء بنفس الطريقة ، إنما أخذ من ضلع آدم جزءاً وخلق منه حواء ، لماذا إذن لم يخلقها كخَلْق آدم ؟ قالوا : خلقها من الرجل لتكون له القوامة عليها .

كذلك فى مسألة الحمل تأخذ منه البذرة ، ثم تكمل هى عملية النسل ، قال تعالى : ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا .. ﴿١﴾﴾ [النساء]

وقال الرسول ﷺ : « خُلقت المرأة من ضلع ، وإن أعوج ما فى الضلع أعلاه »[1] وكما شرف آدم بأن الله خلقه وسوّاه بيده ، كذلك شَرُفَتْ حواء أنها خُلقت من شىء خلقه الله بيده .

والعالم الآن مشغول بعملية الاستنساخ ، وهو يعنى أنْ نأخذ من الأصل نسخة مطابقة له ، كما نقول نسخ الكتاب . يعنى : أنْ نأتى منه بصورة أخرى مثله ، وهذه العملية نراها فى الجماد مثلاً ، نرى الزلط منه الكبير والصغير والمتوسط ، فهل رأينا (زلطة) مثلاً تكبر عن حجمها أبداً ، لماذا ؟

قالوا : لأن له مطامر تحت الأرض ، تتم فيها عملية التكاثر أو

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٠٨٤ ، ٤٧٨٧) وكذا مسلم فى صحيحه (٢٦٧٠ ، ٢٦٧١) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه وتمامه « استوصوا بالنساء ، فإن المرأة خلقت من ضلع وإن أعوج شىء فى الضلع أعلاه ، فإن ذهبتَ تقيمه كسرته ، وإن تركته لم يزل أعوج فاستوصوا بالنساء » .

الاستنساخ هذه ، فإذا خرج إلى الهواء جَمُد على ما هو عليه .

كذلك نجده فى النبات ، فهل رأيتم مثلاً تقاوى القصب أو التين البرشومى ؟ أبداً ليس له تقاوى ، إنما نأخذ عقلة من عود القصب ونزرعها فتخرج عود القصب ، ونأخذ لوحاً من ألواح التين ونزرعه فيعطينا شجرة تين ، أليس هذا استنساخاً ؟

كذلك بالإمكان أنْ نجده فى الحيوان ، وبالفعل تحدَّثوا عن استنساخ تم بالفعل فى الحيوان ، كما حدث فى النعجة دوللى[1] . وهى محاولة على أية حال .

أما فى الإنسان فهى عملية لا يقدر أحدٌ عليها ، لأن الإنسانَ مختلف عن باقى أجناس الكون ، لأنه خليفة الله فى الأرض ، وهو المخلوق المكرَّم وباقى الأجناس فى خدمته ، فلو تصوَّرنا الاستنساخ فى الجماد والنبات والحيوان فلا نتصوَّره أبداً فى الإنسان ، لأن التكاثر فيه له شروط وضوابط لا مجرد استخراج نسخ مكررة منه .

لذلك لا يتم التكاثر فى الإنسان إلا من خلال اللقاء بين الزوجين الذكر والأنثى ، وداخل أسرة تحتضن الطفل وتحبه وتربيه وتعتنى به ، لا يليق بالإنسان أنْ يخرج من مفرخة مثل مفرخة الكتاكيت مثلاً .

لذلك نرى أن طفولة الإنسان هى أطول طفولة فى المخلوقات كلها ، وعندنا من الأطفال مَنْ تبلغ طفولته حتى سنِّ ١٤ سنة ، أما الطيور

---

(١) تعتبر النعجة دوللى أول حيوان ثديى يتم استنساخه من خلال استخدام الحمض النووى لنواة خلية من نعجة ناضجة وعرضت على الجمهور عام ١٩٩٧ قام باستنساخها البروفسور إيان ويلموت ، وماتت عام ٢٠٠٣ .

والحيوانات فتعتنى بصغارها حتى تستطيع الحركة والأكل ثم تتركها وكأنها لا تعرفها ، وربما ذُبح الحيوان أمام أمه وهى لا تدرى به .

فكيف إذن نتصور الاستنساخ فى الإنسان وهو الخليفة المكرّم ، إن الأديان كلها ترفض الزنا وتأبى أنْ يأتى الولد بطريق غير شرعى ، تأبى أنْ يُرمى المولود فى الشارع ، أو حتى يُربى فى الملاجئ ، فكيف الحال إذا تَمَّ استنساخه ؟

من هنا نقول : إن عملية الاستنساخ لا تكون أبداً فى الإنسان ، ولا يقدر عليها إلا الله خالق الإنسان ، ويريد له الصلاح ، يريد له أنْ يأتى فى أحضان أب يرعاه وأم تحنو عليه يأخذ منهما الفضائل ، ويتعلم منهما القيم .

ثم إن نجاحهم فى استنساخ الحيوان لا يعنى أبداً الطعن فى القدرة الإلهية ، بل هو دليل جديد من أدلة الإيمان بالقدرة ، فالذى استنسخ النعجة لم يأت بها من العدم ، إنما جاء بها من نعجة أخرى هى خَلْق من خَلْق الله ، والعقل الذى فكّر خَلْق من خَلْق الله .

ثم يضع الحق سبحانه القاعدة التى بها تتفاضل هذه الشعوب وهذه القبائل ، فيقول : ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ .. ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات] أى : أن أشخاص الشعوب تتميز بالتقوى .

لذلك ورد فى الحديث القدسى : « يقول الرب : جعلتُ لكم نسباً وجعلتم لأنفسكم نسباً ، قلت : إن أكرمكم عند الله أتقاكم فأبيتُم ، وقلتم : فلان بن فلان . فاليوم – يعنى : يوم القيامة – أرفع نسبى

وأضع أنسابكم »[١] .

وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (١٣) ﴾ [الحجرات] عليم بخَلْقه ، يعطى كلاً منهم ما يناسب مهمته ودوره فى حركة الحياة ، كما قال سبحانه : ﴿ أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤) ﴾ [الملك]

فالله أعلم بخلْقه وأعلم بقدراتهم ومقدارهم ، ويسَّر كلاً منهم للعمل الذى يناسبه ، لذلك نراهم طبقات فيهم أستاذ الجامعة ، وفيهم الحداد والسباك والنجار وماسح الأحذية فيهم الصانع والزارع ، وإلا كيف تستقيم حركة الحياة لو أن الناس جميعاً دكاترة جامعة ؟

﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ[٢] آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم[٣] مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٤) ﴾

---

(١) أخرجه الحاكم فى مستدركه (٣٦٨٥) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه وكذا الطبرانى فى المعجم الكبير (١٦٤) والمعجم الصغير (٦٤٣) « يقول الله يوم القيامة : يأيها الناس إنى جعلت نسباً وجعلتم نسباً ، فجعلت أكرمكم أتقاكم وأبيتم إلا أن تقولوا فلان بن فلان أكرم من فلان بن فلان ، وإنى اليوم أرفع نسبى وأضع أنسابكم أين المتقون ؟ أين المتقون ؟ » .

(٢) سبب نزول الآية : نزلت فى أعراب من بنى أسد بن خزيمة قدموا على رسول الله ﷺ المدينة فى سنة جدبة وأظهروا الشهادتين ولم يكونوا مؤمنين فى السر وأفسدوا طرق المدينة بالعذرات وأغلوا أسعارها وكانوا يقولون لرسول الله ﷺ : أتيناك بالأثقال والعيال ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان ، فأعطنا من الصدقة وجعلوا يمنُّون عليه . فأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية . أورده النيسابورى فى أسباب النزول (ص ٢٢٥) .

(٣) لاته يلتيه حقه : نقصه ولم يؤده كاملاً . قال تعالى : ﴿ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا .. (١٤) ﴾ [الحجرات] أى : لا ينقصكم شيئاً من ثوابها . [القاموس القويم ٢/٢٠٩] .

الأعراب : اسم جنس ليس له مفرد ، والأعراب هم سكان البادية لم يذهبوا إلى الحضر ، لذلك نجدهم على طبيعتهم تغلب عليهم الجفوة . والحق سبحانه يخبر عنهم أنهم قالوا ﴿آمَنَّا .. (١٤)﴾ [الحجرات] والله سبحانه أعلم أنهم لم يصلوا إلى درجة الإيمان ؛ لأن الإيمان ليس كلمة تُقال بل عقيدة راسخة تعمر القلب .

أما الإسلام فهو الشكل الظاهرى وعمل الجوارح من صوم وصلاة وغيرها من العبادات ، لذلك صحّح لهم القول ، وقال : ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَـٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا .. (١٤)﴾ [الحجرات]

يعنى : تنفذون فقط أوامر الإسلام بعمل الجوارح ، إنما قلوبكم ليس فيها إيمان ، وساعة يقول لهم ﴿لَّمْ تُؤْمِنُوا .. (١٤)﴾ [الحجرات] فهذا دليل على أنه صادف شيئاً فى نفوسهم ، وهو سبحانه لا تخفى عليه من عباده خافية ، وهم يعلمون هذه الحقيقة .

إذن : أخبرهم بواقع فى نفوسهم ، يقول لهم : كونوا صادقين مع أنفسكم وقولوا أسلمنا والله يعلم غيبَ قلوبكم ، فهم فى هذا الموقف أشبه بالمنافقين حيث كانوا يحرصون على الصلاة فى الصف الأول ، يُنصتون لسماع القرآن ، وهذه كلها ظواهر والله يعلم سرائرهم ، ويعلم أنها خلاف ما يُظهرون .

وقوله : ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِى قُلُوبِكُمْ .. (١٤)﴾ [الحجرات] لما أداة نفى مثل (لم) ، تنفى وقوع الحدث فى الزمن الماضى على التكلم ، لكنها تعطى معنى آخر هو احتمال حدوث الفعل بعد ذلك ، كما تقول مثلاً حينما تدخل البستان : البستان لمَّا يثمر بعد . أى : أنه سوف يُثمر فيما بعد .

لذلك العلماء قالوا فى هذه الآية : أنـها لم تُغلق فى وجوههم باب الإيمان ، وبـشَّرت بأنهم سـيؤمنون فـيما بـعد ، ثم إن كشـف القرآن لمستور قلوبهم وإخبار الرسول لهم بذلك هو الذى جعلهم يفكرون فى الأمر ويقتنعون ويدخلون ساحةَ الإيمان .

وقوله سبحانه : ﴿وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا .. (١٤)﴾ [الحـجرات] الحق سـبـحانه يُطـمئنهم عـلى ثمرة أعـمـالهم الصالحة ، فهى محفوظة لن تضيع بل لن تنقص .

ومعنى ﴿لا يَلِتْكُم .. (١٤)﴾ [الحـجرات] لا ينقصكـم من الفعل : ألت يألت .

﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٤)﴾ [الحجرات] وفى موضـع آخـر يقول : ﴿وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ (٢)﴾ [سبأ] فمـرة يُقدم الرحمة ، ومـرة يقدم المغفرة ، وذلك بحسب الحال .

فمثـلاً حينما يقف الجانى أمام السلطان مُـقراً بذنبه ، لكن يلاحظ السلطان أنه رقيق الحال ، رثُّ الثياب ، مُصفر اللون فيشفق عليه ، ثم يأمر له بطعام وكسوة . وبعد ذلك يعفو عنه .

هنا قدَّم الرحمة على المغفرة ، أو العكس يعفو عنه أولاً ، ثم قبل أنْ ينصرف من مجلسه يقول لرجاله : أعطوه كذا وكذا .

وهذه المـادة (ألت) وردتْ فى مـوضـع آخر فى قـوله تعـالى : ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ .. (٢١)﴾ [الطور] فالكلام هنا عـن جماعـة مؤمنين ، وذريتـهم تابعة لهم ، كـذلك فى الإيمان فـهم مشـتركـون فيـه ، فمـا ضرورة الإلحاق هنا ؟

قالوا : ألحقناهم بهم فى الثواب ، لأن لكل منهما عملاً ، لكن عمل الآباء أكثر ودرجتهم أعلى ، فكرامة لهم نلحق بهم الأبناء ونجعلهم جميعاً فى منزلة واحدة ، فألحق الأدنى بالأعلى .

وقوله : ﴿وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ .. (١٤)﴾ [الحجرات] فى ماذا ؟ تُطيعونه فى الإيمان ؛ لأنهم كانوا بالفعل مسلمين ، فأراد أنْ يحثهم على الإيمان ويُبعدهم عن الكذب والادعاء .

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (١٥)﴾

الحق سبحانه يريد أنْ يوضح لهم معنى الإيمان ، وأنه ليس كلمة تُقال ، إنما عقيدة راسخة لا يداخلها شكّ ولا ارتياب ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا .. (١٥)﴾ [الحجرات] آمنوا بالله وبوحدانيته ، وأنه سبحانه وحده الخالق الرازق المدبر لشئون هذا الكون ، آمنوا بأسماء الله وصفاته ، كذلك آمنوا برسول الله ، وأنه أمين صادق فى البلاغ عن الله ، ثم لم يرتابوا ولم يشكّوا فى شىء من هذا .

ومن صفات المؤمنين أيضاً ﴿وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ .. (١٥)﴾ [الحجرات] وهل هناك أدلّ على صدق الإيمان والإخلاص فيه من أنك تجود بنفسك فى سبيل هذا الإيمان ؟

لذلك قال ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ .. (١٥)﴾ [الحجرات] أى : المؤمنون حقّ الإيمان ، هذه صفاتهم ، ثم فى آخر الآية يصفهم بالصدق فى إيمانهم .

﴿أُوْلَـئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (١٥)﴾ [الحجرات] نعم صادقون فى إيمانهم ، لأنهم ضحُّوا بأغلى وأعزّ ما يملك الإنسان بالمال ثم بالنفس ، والشهيد ما ضحى بنفسه وما قدَّم ماله إلا وهو على يقين من أنه سيجد عند الله أفضل مما ترك فى الدنيا .

لذلك يجزيه ربه بالحياة الباقية ، فلا يدركه موت بعد ذلك ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩)﴾ [آل عمران]

أى : يعاملون معاملة أهل الجنة ، فيأكلون ويشربون ويتمتعون ، ولاحظ أن هذه الحياة وصفها الحق سبحانه بقوله : ﴿أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩)﴾ [آل عمران] لا عندك أنت .

وهذا يعنى أنك لو فتحتَ على شهيد قبره لن تجده حياً ، لأنه ليس حياً عندك ، إنما هو حىٌّ عند الله .

وفى قوله تعالى : ﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (١٥)﴾ [الحجرات] تعريض بهؤلاء الذين كذبوا على الله وادَّعوا الإيمان ، كأنه يقول لهم : لقد آمن أولئك وصَدقوا فى إيمانهم ، أما أنتم فكذَّبتم وتجاوزتم الحقيقة .

﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٦)﴾

يعنى : تنبهوا إلى هذه الحقيقة ، فأنا خالقكم وأعلم بكم من أنفسكم ولا يَخْفى علىَّ منكم خافية ، فإياكم أنْ تقولوا آمنا وتظنون أنكم تدارون الحقيقة وتسترون كذبكم ، فأنا أعلم المؤمن من غير

المؤمن ، أعلم الصادق وأعلم المنافق .

﴿ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ .. (١٦) ﴾ [الحجرات] أى : تخبرونه بما أنتم عليه من الإيمان ، كيف ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ .. (١٦) ﴾ [الحجرات] أى : لا يخفى عليه شىء فيهما ، بل ﴿ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٦) ﴾ [الحجرات] يعنى : علمه تعالى لا يتوقف عند السموات والأرض ، إنما يتعدَّى ذلك .

﴿ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٦) ﴾ [الحجرات] لأن السموات والأرض بعض كوْن الله الفسيح ، لذلك وصفهما أى السموات والأرض وما بينهما ، فقال : مثل حلقة ألقيتها فى فلاة[1] ، فما نعرفه نحن من السموات والأرض لا يكاد يُذكر فى كوْن الله .

ثم يقول الحق سبحانه[2] :

﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٧) ﴾

---

(١) عن أبى ذر الغفارى قال : دخلت المسجد الحرام فرأيت رسول الله ﷺ وحده فجلست إليه فقلت : يا رسول الله أى آية نزلت عليك أفضل ؟ قال : آية الكرسى ، ما السماوات السبع فى الكرسى إلا كحلقة فى أرض فلاة ، وفضل العرش على الكرسى كفضل تلك الفلاة على تلك الحلقة » . أخرجه الإمام ابن بطة فى الإبانة الكبرى (٢٥٤٤) وأخرجه ابن حبان فى صحيحه (٣٦٢) وفيه طول .

(٢) سبب نزول الآية : ذكر ابن كثير فى هذا نحو ما ذكره النيسابورى فى سبب نزول آية رقم (١٤) عن ابن عباس . ولكن فيه أن رسول الله ﷺ قال : إن فقههم لقليل وإن الشيطان ينطق على ألسنتهم . فنزلت هذه الآية ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لاَّ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٧) ﴾ [الحجرات] .

يُروى أن هذه الآية نزلت فى جماعة من الأعراب ، وقيل : من بنى أسد أتوا النبى ﷺ وهو فى المسجد ، فقالوا : جئناك نشهد أنْ لا إله إلا الله وأنك رسول الله ، ولم تبعث إلينا بعثاً ، ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان .

فأنزل الله : ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لاَّ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٧) ﴾ [الحجرات]

إذن : مَنْ يمنُّ على مَنْ ؟ أنتم لا ينبغى أنْ تمنُّوا بإسلامكم على رسول الله ، لأن إسلامكم فى صالحكم يعود عليكم بالنفع ، فالإسلام هو الذى أمَّنكم من القتال والحرب والأسْر ، وأخذتم ما يتميز به المسلم من حَقٍّ فى الزكاة والحماية ، والله تعالى لا تنفعه طاعة ، ولا تضره معصية .

إذن : لا تمنُّوا بإسلامكم ﴿ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ .. (١٧) ﴾ [الحجرات] لأنه أرشدكم إلى طريق الصواب والهداية ﴿ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ .. (١٧) ﴾ [الحجرات] إذن : إنْ كان هناك منة ، فالمنّة منّ الله عليكم ، لأن طاعة الله والسير على منهجه هو الذى يحمى لكم حركة الحياة ويُنظمها حتى لا تتعارض مصالحكم .

﴿ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٧) ﴾ [الحجرات] أى : فى ادعائكم الإيمان ، وإنْ تفيد الشك فكأنهم يمنُّون بشىء هم كاذبون فيه ، وحتى لو كانوا صادقين ما كان لهم أنْ يمنُّوا به .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨) ﴾

سبق أنْ أوضحنا أن السموات والأرض ظرف ، وفى هذا الظرف عجائب وبدائع من خَلْق الله أعظم من الظرف ، لأن القاعدة أن المظروف أعلى وأعظم من المظروف فيه .

لذلك الحق سبحانه يقول : ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. (١٨٩)﴾ [آل عمران] وفى موضع آخر : ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ .. (٣١)﴾ [النجم] فالسموات والأرض رغم ما فيهما من عجائب الخلْق وإبداع وهندسة كونية إلا أنهما يحويان ما هو أعجب .

هنا يُحدِّثنا الحق سبحانه عما فى السموات والأرض من غيب ، والغيب كل ما غاب عن إدراكك ، والشىء قد يغيب عن إدراكك اليوم ويظهر لك غداً ، فمثلاً الكهرباء قبل اكتشافها كانت غيباً لا ندرى عنه شيئاً ، والآن أصبحتْ مشهداً نحسُّه جميعاً ونتعامل معه .

إنك لو نظرتَ إلى الموجات التى تحمل الصوت والصورة فى الهواء لوجدتَ أمراً عجيباً حقاً ، لأنك لو جئتَ مثلاً بمائة راديو ومائة تليفزيون ، ووضعتها فى مكان واحد ، ووجَّهت كلاً منها إلى جهة لوجدتَ إرسالات مختلفة بالصوت والصورة .

فكيف تداخلتْ هذه الموجات فى هواء واحد ، ووصلتْ إلينا بهذه الدقة وهذا الوضوح ، وهى من أقصى بلاد الدنيا ؟

هذه كلها أسرار من غيب السموات والأرض تدعونا إلى الإيمان بقوله تعالى : ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ .. (٥٣)﴾ [فصلت]

ورغم عظمة الخَلْق فى السموات والأرض ، فغيب السموات

والأرض أعظم من الجميع ، وسيظل هـذا الغيب مدداً لا ينفد ، وعطاء لا ينتـهى ، يُطالعنا من حـين لآخـر بشىء جـديد من غـيب الله ليظلّ القرآنُ معجزاً إلى قيام الساعة .

ومن حكمـة الحق سبـحانـه وتعالى أنْ وزَّع عطاءات القـرآن على عصور الزمان كلها حتى لا يستقبل عصرٌ القرآنَ وهو بلا عطاء .

ثم إن هذا العطاء يـأتى على قـدر العـقـول ، وعلى قـدر البـحث والتأمل فى ملكوت الله ، وبذلك نفهم مـعنى قول النبى ﷺ عن القرآن : « لا تنقضى عجائبه ولا يَخْلَق عن كثرة الردِّ »[1] .

فأنت تقرأ مثلاً أعظم القصائد الشعرية ، ولابدَّ أنْ تسأم منها بعد مرة أو حتى بعد عدة مرات ، لكن تقرأ القرآن فلا تمله ، بل تزداد له حباً كـلما أمعنتَ فى القراءة ، لأنه كـلام الله وله سرٌّ مع كل تَالٍ له ، وله عطاء لكل مُتأمل فيه ، فعطـاءات القرآن متعددة يأخذ منه كلٌ تَالٍ له على قدره .

وختام السـورة بهذه الآية ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ .. (١٨)﴾ [الحجرات] يدل على أن مُلْك الله واسع وعجائبه لا تنتهى ، وليس لها حصر ولا عَـد ، ومهما وصلت البشرية من التـقدم فسوف

---

(١) أورده المتـقى الهندى فى كنز العمال (٢٣٥٦) وعـزاه لابن أبى شيبـة ومحمـد بن نصر المروزى وابن الأنبـارى فى كتـاب المصاحف والحـاكم فى مسـتدركه والبـيهـقى فى شعب الإيمان عن ابن مسعـود ، وتمام الحديث : « إن هذا القرآن مأدبة الله فتعلمـوا من مأدبته ما استطعتم ، إن هذا القرآن هو حبل الله والنور المبيـن والشفاء النافع ، عصمة لمن تمسك به ونجاة لمن اتبعه ، لا يعوج فيقوَّم ولا يزيغ فيـستعتب ، ولا تنقضى عجائبه ، ولا يخلق عن كثرة الرد » . الحديث بتمامه أخرجه الدارمى فى سننه (٣٣٧٨) .

يبقى عند القرآن الجديد ، وفى آيات الله ما يبهر العقول .

كنا فى الماضى نتحدث عن عصر الفحم ، ثم عصر البخار ، ثم عصر الكهرباء ، والآن يتحدثون عن عصر الطاقة النووية والطاقة الذرية ، فأين كانت هذه الطاقات ؟

كانت غيباً فى علم الله وكشف عنها لعباده حينما تقدَّمتْ العقول وارتقتْ الأفكار ، وكلها اكتشافات لم يأتِ أحدٌ بشىء من عنده ، كلها من عند الله وفَيْض من عطائه مطمور إلى حين .

سُورَةُ قٓ

سورة ق(١)

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝١﴾

سبق أنْ تحدثنا عن الحروف المقطعة فى أوائل بعض سور القرآن ، وهنا نكتفى بالإشارة إلى أن هذه الحروف المقطعة مثل (ق) تمثل جانبَ الغيب فى القرآن ، والغيب هو محكّ الإيمان كما بيَّنا .

فالفلاح الأمى مثلاً يستخدم التليفزيون ويتنقل بين قنواته دون أنْ يعرف كيف يعمل وكيف ينتقل من قناة إلى أخرى ، فهو يستفيد به دون معرفة بكيفية عمله ، كذلك يستخدم رافعة المياه (الطلمبة) ، وهو لا يعرف (ميكانيكية) عملها .

كذلك نحن مع الحروف المقطعة هذه نؤمن بها وندع معانيها لقائلها سبحانه . والدين ينقسم إلى عناصر ثلاثة : عقائد تعمر القلوب ،

---

(١) سورة (ق) هى السورة رقم (٥٠) فى ترتيب المصحف الشريف ، عدد آياتها ٤٥ آية . وهى سورة مكية كلها فى قول الحسن وعطاء وعكرمة وجابر . قال ابن عباس وقتادة : إلا آية وهى قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ۝٣٨﴾ [ق] نزلت سورة (ق) بعد المرسلات وقبل سورة البلد ، فهى السورة رقم (٣٣) فى ترتيب نزول القرآن . [راجع القرطبى ٩/٦٤٠٠ ، والإتقان فى علوم القرآن للسيوطى ١/٢٧] .

وعبادات وتكاليف هى عمل الجوارح ، ثم الكلام الذى ينقل هذه الأمور كلها وهو مهمة اللسان أى التعبير .

وكل من العقائد والتكاليف والتعبير فيه غيب ومشهد ، فالله غيب ، لكن آثار قدرته فى الكون مشهد ، والصلاة من حيث ترددك على المسجد خمس مرات وما فيها من ركوع وسجود وحركات مشهد ، لكن عدد ركعاتها غيب .

فكأن الحق سبحانه يعطينا الغيب فى هذه الأشياء ليختبر فينا حقيقة الإيمان ، فما علمته دليل على صدق ما لم تعلمه .

كذلك الحال فى حروف القرآن الكريم وآياته ، فآيات القرآن على وجه العموم نفهمها ونعرف معانيها ، لكن الحروف المقطعة هى الغيب الذى يجب علينا أنْ نؤمن به حتى ولو لم نعرف معناه ، وتبقى هذه الحروف دليلَ إعجاز القرآن .

فقوله تعالى : ﴿قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ①﴾ [ق] جمعتْ بين الاثنين ، الغيب فى (ق) والمشهد فى ﴿وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ①﴾ [ق] وهما المكوِّنان للقرآن الكريم (ق) دليل الإعجاز ﴿وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ①﴾ [ق] إذن : أتى بالدليل والمستدل عليه .

و (ق) تحمل معنى القسَم ، وهى حرف واحد كما أقسم الله بالشىء الواحد ، فقال : ﴿وَالْعَصْرِ ① إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ②﴾ [العصر] وقال : ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ① مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ②﴾ [النجم]

كما يقسم بالحرفين مثل (يس) ، (طه) ، (حم) ، وكذلك

يقسم بشيئين من مخلوقاته مثل : ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢﴾ [الضحى] ويقسم بثلاثة أحرف مثل (الم) ، وبثلاثة أشياء مثل : ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ۝١ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ۝٢ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ۝٣﴾ [الصافات]

ويقسم بأربعة فى ﴿الٓمٓصٓ ۝١﴾ [الأعراف] وفى ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ۝٣﴾ [التين] كما يقسم بخمسة أحرف فى ﴿كٓهيعٓصٓ ۝١﴾ [مريم] وفى قوله سبحانه ﴿وَالطُّورِ ۝١ وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ ۝٢ فِي رَقٍّ[1] مَّنشُورٍ ۝٣ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ۝٤ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ۝٥ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ[2] ۝٦﴾ [الطور]

إذن : جاء هذا القسم على خمسة أضرب من الواحد إلى خمسة ، ولم يزد على ذلك حتى لا يكون القسمُ ثقيلاً على اللسان ، ولأن أقصى ما يمكن فى الكلمة المجردة خمسة أحرف ، لكن فى القسَم بآياته الكونية زاد على ذلك .

اقرأ : ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ۝١ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ۝٢ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ۝٣ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ۝٤ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ۝٥ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا[3] ۝٦ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧﴾ [الشمس]

---

(١) الرق : الجلد الرقيق يُكتب عليه ، وأطلق على الصحيفة البيضاء يكتب عليها . [القاموس القويم ١/٢٧٢] .

(٢) سجره يسجره : ملأه . وقوله تعالى : ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦﴾ [التكوير] أى : مُلئت . [القاموس القويم ١/٣٠٣] وقال الربيع بن أنس : هو الماء الذى تحت العرش الذى ينزل الله منه المطر الذى تحيا به الأجساد فى قبورها يوم معادها . وقال الجمهور : هو هذا البحر . [تفسير ابن كثير ٤/٢٤٢٠] .

(٣) طحاه يطحوه : بسطه . قال تعالى : ﴿وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ۝٦﴾ [الشمس] أى : بسطها ومهدها للسكنى . [القاموس القويم ١/٣٩٩] .

ولو فعل مثل ذلك فى القسم بالحروف لخرج عن بنية الكلمة فى اللغة .

ونلاحظ أيضاً أن القسم بالحروف المقطعة لم يأتِ إلا فى أوائل السور ، أما القسم بالآيات الكونية فيأتى فى أولها كما رأينا ، ويأتى فى خلالها كما فى قوله تعالى : ﴿ كَلاَّ وَالْقَمَرِ (٣٢) وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ (٣٣) وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ (٣٤) ﴾ [المدثر]

ثم إن القسم بالحروف المقطعة لا يأتى بالواو ، إنما تأتى واو القسم مع الآيات الأخرى التى نفهم معناها ، وهنا يقول : ﴿ قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ (١) ﴾ [ق] ولم يقل و (ق) لأن الواو حرف ، و (ق) حرف ، فيحدث بينهما لَبْسٌ ، هذه من إعجازات القرآن التى ينبغى أنْ نقف عندها وقفة تأمل .

والتصديق بهذه الغيبيات هو الذى يثبت صدق الإيمان ، وإلا فما الميزة فى أنْ تكون كلُّ آيات القرآن مفهومة معلومة المعنى والمراد ؟ ما الميزة فى أنْ تكونَ كل أمور الدين معلومة لنا خاضعة للقياس العقلى وعليها دليل ؟

وسبق أنْ أوضحنا أن المشهد والإيمان بالمشهد أمر عادى الكل يؤمن به ، المهم أنْ تؤمنَ بما غاب عنك ثقةً منك فيمَنْ أبلغك به .

هَبْ أنك ذهبتَ إلى الطبيب وبعد أنْ فحص حالتك كتب لك الدواء ، بالله هل تناقشه لم كتبتَ كذا ؟ ولم كتبتَ كذا ؟ إنك لا تناقشه لأنك ذهبتَ إليه مختاراً ، ذهبتَ إليه وأنت تثق به ومستعد لأنْ تنفذ تعليماته وتتناول الدواء الذى وصفه لك وأنت لا تعرف شيئاً عنه .

فإذا كنتَ تثق بالطبيب وهو إنسان مثلى ومثلك وعُرْضةٌ للخطأ ، فما بالك بالله ؟ ألاَ تثق فى كلامه ؟

ولأهمية الإيمان بالغيب مدح الله المؤمنين به ، فقال : ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ .. ③﴾ [البقرة] فكما نؤمن بالآيات واضحة المعنى نؤمن بالحروف غير واضحة المعنى ، فهذا قرآن مشهد ، وهذا قرآن غيب ، وكما نؤمن بالآيات الكونية المشاهدة نؤمن بالله خالقها ومبدعها ، وهو سبحانه غيب .

وقوله تعالى : ﴿وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ①﴾ [ق] القرآن اسم لما نزل من عند الله على قلب سيدنا رسول الله ، ودلّ على صدقه فى البلاغ عنه . وسُمِّى قرآناً ليدل على أنه مقروء ، وسُمِّى الكتاب ليدل على أنه مكتوب ، فهو مُسجَّل فى السطور محفوظ فى الصدور .

وللقرآن مزية خاصة به لم تُعْطَ لكتاب قبله ، هى أن القرآن يحمل المنهج ويحمل المعجزة معاً ، أما الرسالات السابقة عليه فكان المنهج فى الكتاب ، والمعجزة منفصلة عنه .

فسيدنا عيسى مثلاً كان كتابه الإنجيل ، ومعجزته أنْ يبرىء الأكمه[1] والأبرص ويُحيى الموتى بإذن الله ، وسيدنا موسى كان كتابه ومنهجه فى التوراة ، أما معجزته فكانت فى العصا ، أما سيدنا رسول الله فكانت معجزته هى عين منهجه ، لماذا ؟

لأن رسالته دائمة باقية فى الزمان كله إلى قيام الساعة وباقية فى

---

(١) الأكمه : الذى يُولد أعمى . أو فقد بصره . [القاموس القويم ٢/١٧٥] والأبرص مَنْ أصابه البرص ، وهو مرض جلدى يحدث بقعاً بيضاء فى الجلد تشوهه ، وهو من أعراض مرض الجذام الكثيرة . [القاموس القويم ١/٦٤] .

المكان كله ، فلها عمومية الزمان وعمومية المكان ، ونحن الآن نقول : هذا محمد رسول الله وهذه معجزته ، فى حين لا نستطيع أنْ نقول ذلك مع سيدنا موسى مثلاً أو سيدنا عيسى ، لأن معجزاتهما انتهت بانتهاء زمانيهما .

ومعنى ﴿الْمَجِيدِ ۝١﴾ [ق] أى : العظيم صاحب الشرف والمجد والعلو ، ومجيد على وزن فعيل ، وهى من أوزان المبالغة مثل رحيم ، وفعيل تأتى مرة بمعنى فاعل مثل رحيم أى : راحم ، وتأتى بمعنى مفعول مثل قتيل أى : مقتول .

فمعنى ﴿الْمَجِيدِ ۝١﴾ [ق] أى : ماجد فى ذاته وممجَّد فى ذاته فهى تحمل المعنيين ، فهو ماجد وممجد ، لأنه أعلى وأرفع كلام وأغلى الكتب وأشرفها ، فهو فى ذاته مجيد .

ثم لأنه جاء من مجيد أعلى هو الحق سبحانه ، وبلَّغه ملَك مجيد إلى رسول مجيد ، ويبقى بعد ذلك أنه أُنزل على أمة مجيدة .

لكن إذا كانت : ﴿قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ۝١﴾ [ق] قسم فأين جوابه ؟ قالوا : قسم على أن البعث حَقّ . أى : ق والقرآن المجيد لتبعثن ، والأقرب من ذلك أنْ نأخذ الجواب من الكلام بعد القسم ، وهو قوله تعالى :

﴿بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ۝٢﴾

والعجب لا يكون إلا من شىء غير معتاد ، والنفس لا تهتدى إلى

سببه ، ولا إلى علّته مثل الساحر نعجب لما يفعل لأننا لا نفهمه ، والحديث هنا عن الكفار المعاصرين لبعثة النبى ﷺ .

وقد أوضح القرآن هذه المسألة وشرحها فى موضع آخر هو قوله تعالى : ﴿وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ[1] عَظِيمٍ (٣١)﴾ [الزخرف]

﴿وَقَالُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الأَمْرُ ثُمَّ لا يُنظَرُونَ (٨) وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ (٩)﴾ [الأنعام]

إذن : عجبهم أو اعتراضهم ليس على القرآن ، إنما على محمد ﷺ ، كيف ينزل عليه القرآن وهو من عامة الناس ، ولماذا لم ينزل على أحد عظماء القوم ثم أتوا بشبهة أخرى ، لماذا لم ينزل على ملَك .

وقد ردّ القرآن عليهم وبيَّن لهم هذه الشبهة ، فمحمد ﷺ رسول وقدوة ، والقدوة لا تتم إلا إذا كان الرسولُ من جنس المرسل إليهم ، وإلا كيف نقتدى بملك وله طبيعة غير طبيعتنا ، وقدرة غير قدرتنا .

ولو أمرنا بعمل ما كان من حقنا أنْ نقول له : لا نستطيع أنْ نفعل مثلك ، لأنك ملَك تقدر على ما لا نقدر عليه ، فلا تتم الأُسْوة إذن .

فمن عظمة الرسالة أنْ يكون الرسولُ منكم ، لذلك منَّ الله عليهم بذلك ، فقال : ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ .. (١٢٨)﴾ [التوبة] أى :

---

(١) القريتان هما : مكة والطائف . وقد اختلف العلماء فى تحديد الرجل العظيم المقصود . فمن مكة : الوليد بن المغيرة أو عتبة بن ربيعة . ومن الطائف : عروة بن مسعود أو عمير بن عبد ياليل ، قال ابن كثير فى تفسيره (١٢٧/٤) : « الظاهر أن مرادهم رجل كبير من أى البلدتين كان » .

جنسكم بل من قومكم ، ومن أقرب الناس لكم ، وأنتم تعرفون صدقه وأمانته حتى قبل الرسالة ، وشهدتم له بذلك .

وقوله تعالى : ﴿فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَـٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ (٢)﴾ [ق]

يعنى : أن الكافرين هم الذين تعجبوا من اختيار محمد ﷺ للرسالة ، إذن : غير الكافرين لم يتعجبوا من ذلك ، وإذا كان القرآن نزل على مدى ثلاث عشرة سنة ، فمن الناس مَنْ آمن بمحمد وصدَّقه من أول آية نزلتْ عليه . وقال : نزل علىّ اليوم كذا وكذا .

بل إن سيدنا أبا بكر صدَّق رسول الله وآمن به بمجرد أنْ قال : إنى رسول الله دون أنْ يسأله عن شىء ، لماذا ؟

فماضيه فى قومه يُؤهله لهذه المكانة ، ولم لا يصدقه وهو الصادق الذى ما جُرِّب عليه كذبٌ قط ، والذى لا يكذب على الخَلْق أحرى ألاَّ يكذب على الخالق .

كذلك صدّقه فى خبر الإسراء والمعراج ولم يناقش مثل غيره ، بل قال عن رسول الله : إنْ كان قال فقد صدق[1] ، لقد أخذها بالعقل ، وبما لديه من مقدمات من سيرة رسول الله .

لذلك كلمة (محمد) ذاتها دليل على صدقه ، فقوله تعالى : ﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ.. (٢٩)﴾ [الفتح] محمد مبتدأ أخبر عنه بأنه رسول الله ، ومحمد بمعنى محمود يحمده الناس ويثنون عليه .

---

(١) أخرجه الطبرى فى تفسيره لآية ١ من سورة الإسراء من حديث سعيد بن المسيب وأبى سلمة بن عبد الرحمن مرسلاً ، وذكره السيوطى فى الدر المنثور (٢٢٢/٦) وذكره عبد الرزاق فى مصنفه (٣٢٨/٥) من طريق الزهرى أيضاً .

إذن : هو من بدايته ونشأته مُعَدٌّ لهذه المهمة ، لذلك ما جرَّبوا عليه كذباً أبداً ، ولا شيئاً مما كان يفعله أترابه فى الجاهلية ، فكأنه يقول لهم : محمد هذا الذى تعرفونه ، وتعرفون ماضيه وسيرته فيكم هو رسول الله ، وكأن علة الإيمان بالرسول أنه محمد .

وسبق أن بيَّنا كيف عصمه الله من الزلل ؟ وكيف عصمه من انكشاف عورته ؟ لذلك ورد على لسانه ﷺ وهو يجادل قومه : ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٦)﴾ [يونس]

يعنى : أنتم تعرفون عنى كل شىء ، تعرفون أنِّى لا أكذب ، ولم يسبق لى أنْ وقفت خطيباً فيكم ولا شاعراً . إذن : لماذا تُكذِّبوننى ؟ .

وكلمة ﴿هَـٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ (٢)﴾ [ق] ليستْ تكراراً للتعجب فى ﴿بَلْ عَجِبُوا .. (٢)﴾ [ق] بل عجيبٌ بالذى قيل ، عجيبٌ قالها الكافرون ، وقد شرحها القرآن فى قوله تعالى : ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلاَّ أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولاً (٩٤)﴾ [الإسراء]

فردَّ عليهم : ماذا تريدون ؟ قالوا : نريده ملَكاً ، فقال لهم : إذا كان ملَكاً فسوف يأتيكم فى صورة بشر ، إذن : ستظل الشبهة كما هى .

﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ (٣)﴾

هنا نقلوا المسألة من الاعتراض على بشرية الرسول إلى التشكيك فى عملية البعث بعد الموت ، وهكذا أصبح لدينا جوابان للقسم ﴿قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ (١)﴾ [ق]

الجواب الأول : إنك لمنذر والثانى : لتبعثُنَّ ، الأول : أخذناه من

قوله : ﴿بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ .. (٢)﴾ [ق] والثانى : من قوله سبحانه : ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ (٣)﴾ [ق]

ومعنى ﴿رَجْعٌ بَعِيدٌ (٣)﴾ [ق] أى : رجوع إلى الحياة بعد أنْ نموت ونصير تراباً ، هذا أمر بعيد عن أذهانهم ، لماذا ؟ وأنتم عندكم آثار سيدنا إبراهيم وإسماعيل وبقايا الديانات السابقة ، وتعرفون الله وتعترفون أنه خالقكم وخالق السموات والأرض .

فى قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام حكى القرآن قوله : ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي .. (٢٦٠)﴾ [البقرة]

وقلنا : إن السؤال هنا ليس شكاً من سيدنا إبراهيم فى قدرة الله على إحياء الموتى ، إنما سؤال عن الكيفية فقط ﴿كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ .. (٢٦٠)﴾ [البقرة]

فأراه الله سبحانه الكيفية ليستْ قولاً إنما فعلاً وتجربة مشاهدة ، يُجربها هو بنفسه ، وكأن الله تعالى يقول له ولنا : أن إحياء الموتى ليس صعباً ولا معجزاً لى ، بل إذا أردتُ أُعدِّى قدرتى إلى عبد من عبادى ، فيفعل ذلك بإذنى .

﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ[1] إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٦٠)﴾ [البقرة]

---

(١) ﴿فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ .. (٢٦٠)﴾ [البقرة] أى أوثقهن ، فلما أوثقهن ذبحهن ثم جعل على كل جبل منهن جزءاً . وقال ابن عباس وعكرمة وسعيد بن جبير وغيرهم أى : وقطعهن . [تفسير ابن كثير ١/ ٣١٥] .

هذا أثر من آثار قدرة الله يمنحه لعبد من عباده .

وفى قصة سيدنا عيسى عليه السلام : ﴿أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ .. (٤٩)﴾ [آل عمران]

والقرآن يرد على منكرى البعث ، فيقول :

﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ (٤)﴾

يعنى : لِمَ تعجبون وتنكرون البعث بعد الموت ، والله علم مُكوِّناتكم وجزئيات وعناصر هذا الجسم وكمية كل عنصر منها ، ويعلم ما تأخذه الأرض منكم وقادر على جمعه وإعادته كخَلْقه الأول هو هو ، وإن كانت العناصر التى خرجتْ منه لا تزال خارجة ، إذن : نحن نختلف باختلاف عناصر التكوين ، لا باختلاف مجموع العناصر .

ومعنى ﴿قَدْ عَلِمْنَا .. (٤)﴾ [ق] أى : أن هذه العملية تقوم على علم وعلى دراية لا مجرد كلام ، ثم تستند إلى توثيق آخر : ﴿وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ (٤)﴾ [ق] فهذا العلم مُؤيّد بكتاب مسجَّل مسطور مشهود يحصى فيه كل شىء .

فإنْ قلتَ : فما فائدة الكتاب بعد العلم ؟ نقول : علم الله واسع ، وهو صفة من صفاته تعالى ، وهو سبحانه لا ينسى ، لكن يكتب فى كتاب ليكون الكتابُ حجةً على مَنْ أنكر ، كما فى مسألة الحسنات والسيئات .

فالله تعالى يعلمها ويُحصيها ، ولا يحتاج مَنْ يُذكِّره بها ، لكن يكتبها للعبد لتكون حجة عليه يوم يقول له : ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (١٤)﴾ [الإسراء]

وكلمة ﴿حَفِيظٌ (٤)﴾ [ق] مبالغة على وزن فعيل ، وهى هنا بمعنى فاعل . أى : حافظ لكل شىء ، مسجل لكل صغيرة وكبيرة ، وهو أيضاً محفوظ فلا تمتد إليه يد فتختلس منه شيئاً ، أو تغير فيه شيئاً .

لذلك قال : ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (٧٧) فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ[1] (٧٨) لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ (٧٩)﴾ [الواقعة]

وقال : ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٥٩)﴾ [الأنعام]

والذى يحاول التشكيك فى البعث أو نَقْضه هم الناس المستهترون المسرفون على أنفسهم ، فهؤلاء لو صَحَّ البعثُ وصَحَّ الحساب والجزاء ، فستكون العاقبة بالنسبة لهم سوداء ، فحظهم إذن أنْ يُشككوا فى البعث ، وأنْ يُكذِّبوه ، بل الدين كله فى نظرهم كذب .

وتأمل مثلاً إفلاسهم فى الحجة حين يقولون فى تكذيبهم بالبعث : لو أن رجلاً مات وزُرعت فوق بقاياه شجرة تفاح مثلاً ، فسوف

---

(١) قال ابن الجوزى فى زاد المسير آية ٧٨ سورة الواقعة : فى المكنون قولان : أحدهما مستور عن الخلق . قاله مقاتل . والثانى : مصون . قاله الزجاج . قال الشوكانى فى فتح القدير : قيل محفوظ عن الباطل وهو اللوح المحفوظ قاله جماعة . وقال مجاهد وقتادة : هو المصحف الذى فى أيدينا .

تتحلل عناصره وتتغذّى منها هذه الشجرة ، فسوف يأتى مَنْ يأكل منها .

وبذلك تصله بعض عناصر الأول ، فإذا مات الثانى فكيف تُبعث هذه العناصر من الأول أم من الثانى ؟

وهذه شبهة واهية ، وللرد عليها نقول : لو أن رجلاً وزنه مثلاً مائة كيلو ، وأصابه مرض أنقص من وزنه النصف حتى صار شبحاً ، ثم مَنَّ الله عليه بالشفاء حتى استعاد صحته ووزنه الأول ، فهل عادت إليه نفس عناصره الأولى ؟

أبداً ، لأنه يأكل عناصر أخرى غير التى فارقته لكن تبقى الشخصية وتبقى المعنويات المميزة لها ، وحين تعود تعود كما كانت هى هى .

إذن : المسألة ليست مسألة نفس العناصر ، إنما مسألة إعادة شخص بعينه . وما دام الحق سبحانه قال : ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ .. ﴿٤﴾﴾ [ق] فهو سبحانه قادر على جمعها وتكوينها من جديد ، بقوله تعالى : كُنْ فيكون .

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾﴾

فهمنا من قولهم ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴿٣﴾﴾ [ق] أنهم مُنكرون للبعث لا يُصدِّقون أنهم سيُبعثون بعد الموت ، وهذا الإنكار لا يغير من الواقع شيئاً ، فالبعث حَقّ وسيحدث لكنهم يكذبون به لأنه ليس فى صالحهم .

لذلك قال هنا ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ .. (٥)﴾ [ق] والحق هو الشيء الثابت الذى لا يتغير أبداً مهما طرأتْ عليه من أحداث ، فسوف تمضى الأحداث والوقائع ويبقى الحقَ ثابتاً .

والحق سبحانه أعطانا مثلاً محسوساً للحق وللباطل ، فقال سبحانه : ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً[1] وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ (١٧)﴾ [الرعد]

كذلك سيذهب إنكارهم وتكذيبهم وتبقى الحقيقة ويبقى الحق ثابتاً لا يتغير ، وفى القرآن آيات كثيرة تحمل هذا المعنى ، اقرأ : ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا .. (٤٠)﴾ [التوبة] فـ (كلمة) الأولى مفعول به ، أما الأخرى فهى مبتدأ لإنشاء كلام جديد غير معطوف على الأول .

فالأولى مجعولة ، والأخرى أمر ثابت أزلاً ، جعل كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمة الله عليا بداية ، يعنى : لم تكُنْ سُفلى فجعلها عليا ، هذا يعنى أن الحق شيء ثابت أزلاً وباقٍ لا يتغير .

وقوله تعالى : ﴿فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ (٥)﴾ [ق] معنى مريج . أى :

---

(١) جفأ السيل غثاءه : رماه وقذفه . ويقال : جفأت القِدْر: أى رمت زبدها عند الغليان . ومن عادة الطهاة أن يلقوا ما جفأت القدر بعيداً ليبقى الطعام خالصاً من الشوائب . قال تعالى : ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً .. (١٧)﴾ [الرعد] أى : لا ينتفع به ويلقى بعيداً أو يذهب ضياعاً . [القاموس القويم ١/١٢٤] .

مختلط ، فهم مذبذبون متـرددون ، مرة : تعجبوا وقالوا ﴿هَـٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ۝٢﴾ [ق] ومرة أنكروا ، ومرة كذَّبوا ، فـالأمر بالنسبة لهم مخـتلط من قولـهم : مرج الخـاتم فى الإصبع إذا كـان واسعاً سـهل الحركة .

والدليل على أنهم فى أمر مـريج أنهم استقبلوا سـيدنا رسول الله ﷺ بمجـموعـة من الاتهامـات ، كلما خـاب سعـيهم فى واحـدة قالوا بالأخرى ، لأن القرآن لهم بالمرصاد يرد كيدهم عن رسول الله .

لذلك سمعناهم يقولون : ساحر ، شاعر ، مجنون ، كاهن .

إذن : ﴿فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ ۝٥﴾ [ق] لا يدرون ماذا يـقولون ، فكلما قالوا تهمة كشف القرآن كذبها ، فالحق شىء واحد ، لذلك نراه ثابتاً ، أما الباطل فمتعدد لذلك لا يثبت .

وهذه المسألة نشاهدها فى الشهـادة أمام القاضى ، فشاهد الحق يأتى قوله واحداً لا يتغـير لأنه يصف واقعاً ، أما شاهد الزور فـيغير ولا يصمد أمام محاورات القاضى ، وسرعان ما يقع وينكشف كذبه ، لأنه لا يصف واقعاً ، إنما يؤلف الأحداث من عنده .

ثم ينقل الحـق سـبحـانه وتـعـالى مـجـالَ الحـديث إلى الآيات الكونيـة التى تثبت قـدرة الله تعالى وتمسّ مـسألة الـعقيـدة ، فحـين نُصحـح لهـؤلاء عقـيـدتهم ونعطفهم إلى الإيمـان بالله سيـفكرون فى رسالة محمد ، ويهتدون إلى الحق .

لذلك تـرك الحـديث عن تكذيبـهم لرسـول الله ولـلبـعث ، إلى الحديث عن الآيات الكونية فى السموات والأرض .

﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾﴾

الاستفهام فى ﴿أفلم ينظروا .. ﴿٦﴾﴾ [ق] غرضه الحثّ على النظر والتأمل فى خَلْق السموات وما فيها من آيات ومعجزات ، لأن هذه الآيات هى دليل القدرة ، وكلمة ﴿بَنَيْنَاهَا .. ﴿٦﴾﴾ [ق] دلتْ على أن السماء على اتساعها مبنية ، ومع اتساع هذا البناء لا نجد له عمداً ترفعه .

لذلك قال تعالى فى آية أخرى : ﴿اللَّهُ الَّذِى رَفَعَ السَّمَٰوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا .. ﴿٢﴾﴾ [الرعد] إذن : طالما ليس لها عَمد تحملها ، فهى ممسوكة من أعلى ، ولا يمسك هذه السماء إلا قوة عظمى هى قدرة الله ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا .. ﴿٤١﴾﴾ [فاطر]

وهذه الفكرة رأيناها فى بناء الكبارى الطويلة التى ليس لها قواعد وأعمدة تحملها ، فيعلقونها من أعلى ، وتُسمّى الكبارى المعلّقة .

والحق سبحانه وتعالى يُقرِّب لنا هذه المسألة بقوله : ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ[1] وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ الرَّحْمَٰنُ إِنَّهُ بِكُلِّ

---

(١) الطير الصوافّ أى التى تصف أجنحتها فلا تحركها ، باسطات أجنحتها فى الطيران . [لسان العرب – مادة : صفف] ثم يقول بعدها (ويقبضن) أى يثنين ويطوين أجنحتهن .

شَيْءٍ بَصِيرٌ (١٩) ﴾ [الملك] فكما يمسك الطير فى السماء يمسك السموات أنْ تقع على الأرض إلا بإذنه .

ثم لم يقف الأمر عند بناء السماء ، بل ﴿ وَزَيَّنَّاهَا .. (٦) ﴾ [ق] بما فيها من الكواكب والنجوم التى تُضىء ﴿ وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ (٦) ﴾ [ق] يعنى : ليس فيها شقوق ولا فتوق ، بل نراها مستوية ملساء ، انظر إليها وهى صافية تجد روعة الألوان .

وبعد أنْ حدَّثنا عن الآيات العليا فى السماء يُحدِّثنا عن آياته سبحانه فى الأرض ، وإذا كانت الآيات فى السماء بعيدة عنا ، فالآيات فى الأرض قريبة منا وتحت إدراكاتنا .

﴿ وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا .. (٧) ﴾ [ق] بسطناها وجعلناها مستوية صالحة للمعيشة ، والمد هو البسط ، والشىء المنبسط الممتد ليس له نهاية ، وهذه صفة الأرض ، فأينما سرتَ تجدها أمامك منبسطة ليس لها حافة تنتهى عندها ، وهذا الامتداد فسَّر لنا كروية الأرض .

﴿ وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ .. (٧) ﴾ [ق] هى الجبال الثابتة التى تثبت الأرض ، فلا تميد ، كما قال سبحانه ﴿ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا (٧) ﴾ [النبأ] أى : هى للأرض مثل الأوتاد للخيمة ﴿ وَأَنبَتْنَا فِيهَا .. (٧) ﴾ [ق] أى فى الأرض ﴿ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٧) ﴾ [ق] من النبات والزوج أى الصنف ، وهو فرد معه مثله .

فالنبات لكى يعطى إنتاجاً لابدَّ له من زوجين ذكر وأنثى ، كما فى الإنسان والحيوان ، لذلك قال تعالى : ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ .. (٤٩) ﴾ [الذاريات] لأن التناسل لا يتم إلا بهما .

ومعلوم أن التلقيح فى النبات يتم بواسطة الفراشات والحشرات

الطائرة التى تنقل حبوب اللقاح من عنصر الذكورة لعنصر الأنوثة ، لذلك لما كثُرتْ الحشرات فى أحد البساتين وضعوا لها المبيد الحشرى فماتت ، فلاحظوا أن الأشجار فى البستان لم تزهر ولم تثمر ، لماذا ؟ لأن الفراشات والحشرات التى تلقح الزرع ماتت .

وقد لاحظوا أن الحشرات تتلوَّن بلون الزهرة التى تلقحها ، بحيث يكون بينهما توافق بديع فى الألوان ، فلا تكاد ترى الفراشة وهى على الزهرة ، وهذه الألوان فى تناسقها مظهر من مظاهر الإبداع فى الخلق .

وقوله : ﴿بَهِيجٍ (٧)﴾ [ق] أى : جميل حسن المظهر .

وقد فهم العلماء من قوله تعالى ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ .. (٧)﴾ [ق] أن الأرض غير ثابتة ، وأنها تدور ، فلو كانت الأرضُ مخلوقةً على هيئة الثبات ما احتاجتْ إلى الجبال الرواسى لتثبتها فلا تميل بأهلها .

وهذه كلها كانت من غيب السموات والأرض كشفه الله لنا بتقدّم العلوم وتطور الحضارات ، لذلك نقرأ مثلاً : ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ .. (٨٨)﴾ [النمل] نعم السحاب يمر ويتحرك بحركة الهواء ، فكيف تتحرك الجبال وهى راسية مستقرة مُثبتة على سطح الأرض ؟

إذن : الجبال لا تتحرك إلا مع حركة الأرض ، ولأنك ستتعجب من هذه الحقيقة ، قال الحق بعدها ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ .. (٨٨)﴾ [النمل] فما دام الفعل لله والصنعة لله ، فلا تتعجب ولا تستبعد الأمر .

ثم يقول سبحانه : ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ .. (٨)﴾ [ق] أى : أن هذه

الآيات الكونية فى السموات وفى الأرض تعطى بصيرة للناس ، وتُذكِّرهم بقدرة الخالق سبحانه ليتفكروا فى خَلْق هذا الكون وما فيه من هندسة وإبداع .

والتبصرة هى الآية الثابتة ، و﴿ وَذِكْرَىٰ .. ﴿٨﴾ ﴾ [ق] هى الظاهرة تأتى وتتغير ، مثل الأرض تكون جرداء قاحلة ، فإذا نزل عليها المطر اخضرتْ .

وقوله : ﴿ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ ﴾ [ق] كثير الرجوع إلى الله بالتوبة ، ويأخذ من آيات الله فى الكون دليلاً على قدرته تعالى ، فيذعن لها ويؤمن بها .

﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ(١) ﴿٩﴾ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ(٢) لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ ﴾

قوله ﴿ وَنَزَّلْنَا .. ﴿٩﴾ ﴾ [ق] مادة نزل أتت بلفظ أنزلنا ونزَّلنا ، أنزلنا للشىء ينزل جملة واحدة ، كما فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾ ﴾ [القدر] أى : أنزلناه فى هذه الليلة جملة ، ثم نزل به الروح الأمين مُتفرقاً حسب الأحداث ، فقال : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ .. ﴿١٩٤﴾ ﴾ [الشعراء]

---

(١) حب الحصيد أى حب ما يُحصد كالشعير والقمح والأرز . والزرع محصود وحصيد وحصيدة وحصَدٌ . [القاموس القويم ١/١٥٦] .

(٢) الباسقات : الطويلات العاليات . يقال : بسقت النخلة بسوقاً : طالت . [لسان العرب – مادة : بسق] .

كذلك الماء لا ينزل من السماء جملة واحدة ، إنما ينزل متتابعاً متفرقاً ، فقال : ﴿وَنَزَّلْنَا .. (٩)﴾ [ق] وقوله : ﴿مِنَ السَّمَاءِ .. (٩)﴾ [ق] أى : من جهة السماء ، لأن المطر فى السحاب وأصله من الماء المالح فى الأرض ، حيث تتم عملية البخر ويتكثف بخار الماء فى السحاب فيتكوَّن الماء الذى يسوقه الله تعالى بقوة الهواء حيث ينزل حينما يصادف الأماكن الباردة .

وقال عنه ﴿مَاءً مُّبَارَكًا .. (٩)﴾ [ق] لأن الله بارك فيه وجعله صالحاً للشرب ولسقى النبات ، فهو عذْب سائغٌ للشاربين .

وساعة ينزل هذا الماء المبارك على الأرض تهتز الأرض وتُخرج ما فيها من نبات ﴿فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ .. (٩)﴾ [ق] جمع جنة ، وهى المكان الملىء بالأشجار التى تجنُّ مَنْ يسير فيها . أى : تستره فسُميتْ جنة ، ومنه قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ .. (٧٦)﴾ [الأنعام] يعنى : ستره بظلمته .

ومعنى ﴿وَحَبَّ الْحَصِيدِ (٩)﴾ [ق] أى : الحب الذى يُحصد مثل القمح والشعير والذرة والأرز ، وهو يُزرع كل عام ويُحصد ليزرع من جديد ، أما الجنات فهى الشجر الدائم الذى يعمر لعدة سنوات ويثمر ، فنجمع منه الثمار فقط وتبقى الشجرة كما هى للعام التالى .

وقوله : ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ .. (١٠)﴾ [ق] عاليات مرتفعات ، والعلو فى النخل من عجائب الخَلْق ودقة الإبداع ، لأننا رأينا العواصف تقتلع بعض الأشجار الضخمة ، لكن لم نَرَ نخلة وقعتْ من العاصفة فجأة كما تقع الشجرة . لكنْ إذا ضعفت النخلة نراها تميل شيئاً فشيئاً على فترات حتى تصل إلى الأرض ، ففيها رِفْعة ، وفيها شموخ .

وذكر الحق سبحانه النخل بعد شجر الجنات وحبّ الحصيد لأن النخل يجمع الصفتين معاً لأنْ يعطى ثماره مثل الشجر كل عام ، لكن إذا لم يلقح جاءت الثمار كما يقولون : صيّص يعنى بلح لا ينفع ولا فائدة فيه فيُقطع ويُرمى .

ومعنى ﴿لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ (١٠)﴾ [ق] الطلع كوز أخضر يتفتح وتخرج منه السباطة ، والسُّباطة هذه تحتوى على الشماريخ التى تحمل حبات البلح ، ومن عجائب الخَلْق أنك ترى هذه الحبات مُنضدّة ، يعنى : مرصوصة بنظام دقيق فى الشمروخ الذى يحملها ، فلا تجد مثلاً بلحة أمام الأخرى ، لكن موزَّعة على الشمروخ بالتساوى على شكل رِجْل غراب كما يقولون .

إذن : الحق سبحانه أعطانا طرفاً من آياته فى السموات والأرض ، وقلنا : أن السموات والأرض ظرف لما فيهما ، ومع عِظَم خَلْق السموات والأرض ، إلا أن المظروف فيهما أعظم .

والإنسان فى هذه الظرفية له خصوصية لأنه خليفة الله فى الأرض ، فالناس باعتبار أنهم مظروف ليس لأحد منهم حَظٌّ أوفر من الآخر ، فهم فى هذه الظرفية سواء ، لأن الظرف مهمته حماية المظروف فيه فيستوى فى الحماية ورقة بخمسين مع الورقة بمائة ، ويستوى الذهب والفضة والحديد ، فالصيانة للجميع وإنْ كان المصون مختلفاً .

كذلك الإنسان له حظه من الصيانة مع أن قيمة الناس تختلف ، وهذا الاختلاف جاء لحكمة أرادها الحق سبحانه لصالح المجتمع كله : ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا (٣٢)﴾ [الزخرف]

فالناس منهم القوى والضعيف ، والغنى والفقير ، العالم والجاهل ، والذكى والغبى يتم بينهم التكامل فى حركة الحياة ، وقلنا : ماذا لو

أن الناس جميعاً تخرجوا فى الجامعة ؟ فمَنْ إذنْ سيقوم بالأعمال الدنيا ، إذن : لابدّ أنْ يوجد ناس للقمة ، وناس دونهم للخدمة ، وإلا ما استقامتْ حركة الحياة .

ومع هذا الاختلاف فى القيمة من حيث عمل كل إنسان وإجادته لعمله يبقى أننا جميعاً عيالُ الله وعبيده ، ليس منا من هو ابن الله ، فليلزم كلٌّ منا أدبه وحدوده ، فكلٌّ منا مرفوع فى شىء ومرفوع عليه فى شىء آخر ، يعنى (مفيش حد أحسن من حد) .

يقول الحق سبحانه :

﴿ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾ ﴾

فقد أنبت سبحانه جنات وبساتين ومزروعات ، منها ما يعطى حباً يكون قوتاً للناس وهو ما يحصد مثل القمح مثلاً ، وأنبت أيضاً نخلاً عالياً باسقات فى جو السماء تعطى الخير للناس لأجيال طويلة .

لذلك قال تعالى : ﴿ رِزْقًا لِّلْعِبَادِ .. ﴿١١﴾ ﴾ [ق] وهو رزق لكل عباد الله مؤمنهم وكافرهم ، طائعهم وعاصيهم ، لأنه خلق الجميع ولابد أن يتكفل لمن خلق برزقه الذى يعيش به ، حتى ولو لم يؤمن به سبحانه .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَأَحْيَيْنَا بِهِ .. ﴿١١﴾ ﴾ [ق] الضمير فى (به) يعود على الماء المذكور فى قوله تعالى : ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا ﴿٩﴾ ﴾ [ق]

هذا الماء ﴿ أَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا .. ﴿١١﴾ ﴾ [ق] أى : أحيينا به أرض بلد ميْت . وهى الأرض الميتة الجدباء الجرداء الخالية من النبات ، فإذا نزل عليها الماء أحياها بالنبات ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ﴾ [الحج]

والحق سبحانه جعل إحياء الأرض الميتة دليلاً ومثلاً حياً على

البعث والإعادة بعد الموت ، قال تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ ﴿١١﴾ ﴾ [ق] ، وهذا نحو قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [الزخرف]

ومثل قوله تعالى : ﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ [الروم] أى كمثل ذلك تُخرجون وتبعثون ، فمن أنكر البعث فلينظر عملية إحياء الأرض الجامدة بالنبات بعد نزول المطر عليها . فالأرض تكون ميتة هامدة جرداء لا أثر فيها لحياة ، فلما ينزل عليها الماء ويسقيها المطر تتحرك وتهتز وتزيد فتنغلق الشقوق التى فى التربة بفعل العطش ثم تنبت من كل زوج بهيج ، فهى نموذج حىٌّ مشاهد للخلق وللحياة .

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ (١) وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ (٢) وَقَوْمُ تُبَّعٍ (٣) كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ ﴾

---

(١) قال ابن الجوزى فى زاد المسير : اختلفوا فى أصحاب الرس على خمسة أقوال :

أحدها : أنهم قوم كانوا يعبدون شجرة فبعث الله إليهم نبياً من ولد يهوذا بن يعقوب فحفروا له بئراً وألقوه فيه فهلكوا . قاله على عليه السلام .

الثانى : أنهم قوم كان لهم نبى يقال له : حنظلة بن صفوان ، فقتلوا نبيهم فأهلكهم الله . قاله سعيد بن جبير .

والثالث : أنهم كانوا أهل بئر ينزلون عليها وكانت لهم مواشى وكانوا يعبدون الأصنام فبعث الله إليهم شعيباً فتمادوا فى طغيانهم فانهارت البئر فخُسف بهم وبمنازلهم . قاله وهب بن منبه.

الرابع : أنهم الذين قتلوا حبيباً النجار ، قتلوه فى بئر لهم ، وهو الذى قال : ﴿ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [يس] .

والخامس : أنهم قتلوا نبيهم وأكلوه . قاله ابن السائب .

(٢) قال الرازى فى تفسيره (مفاتيح الغيب) : روى أن أصحاب الأيكة كانوا أصحاب شجر ملتف » وقد أرسل شعيب إلى مدين وإلى أصحاب الأيكة ، وقد أهلكهم الله بعذاب يوم الظلة .

(٣) قوم تبع أناس سكنوا اليمن ، وسموا بالتبع لأنهم يتبعونه ، والتبع المقصود فى هذه القصة استناداً إلى روايات لم يتسن التأكد من صحتها هو أسعد أبا كرب . وذكر ابن الجوزى فى زاد المسير « قالت عائشة : لا تسبوا تبعاً فإنه كان رجلاً صالحاً ألا ترى أن الله تعالى ذم قومه ولم يذمه ، وذكر بعض المفسرين أنه كان يعبد النار ، فأسلم ودعا قومه وهم حمير إلى الإسلام فكذَّبوه » .

هذه تسلية لرسول الله ، وتخفيف عنه لما يلاقيه من تكذيب قومه له ، وقد عرضتْ الآياتُ موقفهم أولاً ﴿بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ (٢)﴾ [ق] ثم كذَّبوا بالبعث الذى أخبر به ، فقالوا : ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ (٣)﴾ [ق]

فأراد الحق سبحانه أن يعرض على رسوله موكب الرسالات السابقة عليه ، وكم حدث فيها من تكذيب لإخوانه الرسل .

وكأنه يقول له : يا محمد لست بدعاً فى ذلك ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ .. (١٢)﴾ [ق] أى : قبل قومك كذَّب ﴿قَوْمُ نُوحٍ .. (١٢)﴾ [ق] مع أنه لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً ، ومع ذلك كذَّبوا ولم يؤمن معه إلا القليل[1] منهم .

لكن هل تركهم الله ؟ لا بل انتقم منهم بالغرق الذى أبادهم عن آخرهم ، فما كان الحق سبحانه ليترك أهل الفساد وأهل التكذيب ومصادمة الرسل دون عقاب ، بل يُملى لهم ثم يأخذهم بلا هوادة .

فقوم نوح عليه السلام كانوا يسخرون منه ، وهو يصنع السفينة، فيقول لهم : سيأتى اليوم الذى نسخر نحن منكم كما تسخرون منا ، وكأنه على ثقة من نصر الله وتأييده لدعوته ، وكما كذب قوم نوح كذب ﴿أَصْحَابُ الرَّسِّ ..(١٢)﴾ [ق]

والرسُّ اسم بئر معروفة ﴿وَثَمُودُ (١٢)﴾ [ق] وهم قوم سيدنا

---

(١) قال تعالى فى سورة هود عن نوح عليه السلام : ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ (٤٠)﴾ [هود] ذكر ابن الجوزى فى تفسيره (زاد المسير) ثمانية أقوال فى عددهم : ومنها أن نوحاً حمل معه ثمانين رجلاً معهم أهلوهم . رواه عكرمة عن ابن عباس . ومنها أنهم كانوا ثلاثين رجلاً ، وأنهم كانوا ثمانية على اختلاف بين المفسرين .

صالح ﴿وَعَادٌ (١٣)﴾ [ق] قوم سيدنا هود ﴿وَفِرْعَوْنُ.. (١٣)﴾ [ق]

وقصة فرعون مع سيدنا موسى معروفة ﴿وَإِخْوَانُ لُوطٍ.. (١٣)﴾ [ق] أى قومه ﴿وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ ..(١٤)﴾ [ق] والأيكة الحديقة كثيفة الأشجار متشابكة الأغصان ، وسكان هذه الحديقة هم قوم سيدنا شعيب .

﴿وَقَوْمُ تُبَّعٍ .. (١٤)﴾ [ق] تبع كان ملكاً من ملوك اليمن يُقال له أبو كرب الحميرى . وكل هؤلاء المكذبين كانوا أصحاب حضارة وأهل نعمة ورفاهية ، لكن بعد أنْ كذَّبوا الرسل وخالفوا منهج الله بدّل الله حالهم ، وقلبَ أوضاعهم فأهلكهم بذنوبهم .

لذلك يقول هنا ﴿كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ (١٤)﴾ [ق] أى : لما كذَّبوا رسلى حَقَّ عليهم ما وعدتهم به من العذاب ووجب لهم الهلاك.

وفى آية أخرى فصل ذلك الانتقام فقال : ﴿فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٠)﴾ [العنكبوت]

﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ (١٥)﴾

عاد السياق هنا إلى مناقشة المنكرين للبعث الذين قالوا : ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ (٣)﴾ [ق] عاد إلى هذا الموضوع ليقول لهم : لِمَ تنكرون البعث ؟ أليس أمامكم الخلْق الأول ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ ..(١٥)﴾ [ق] أى : هل عجزنا عنه وهل أعيانا ؟ أبداً بل قدرنا عليه وأنشأناه من العدم .

والخلق الأول خلق السموات والأرض وخلْق الإنسان الأول وهو آدم عليه السلام والقادر على الخَلق بداية قادر على إعادته من باب أوْلَى .

﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾﴾ [ق] أى : فى خلْط وتردد ، كما قال عنهم فى الآيات السابقة ﴿فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾﴾ [ق] أى : مختلط .

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ (١)

بعد أنْ حدثنا الحق سبحانه عن آياته الكونية فى السموات والأرض يُحدِّثنا عن آياته فى خَلْق الإنسان ، وقد بيَّن لنا الحق سبحانه أن آيات السموات والأرض أكبر من الآيات التى فى خَلْق الناس .

---

(١) حبل الوريد : هو حبل مرتبط بالقلب يسمى فيه الوتين ، وإلى الظهر ويسمى فيه الأبهر ، وإلى الذراعين والفخذين ويسمى فيهن الأكحل والنسا ، وفى الخنصرتين الأسلم وهو نهر الجسد ، وفى العنق اثنان هما الوريدان مكتنفان لصفحتى العنق فى مقدمهما . [تفسير أطفيش فى تفسير الآية] فالغالب فى كلام المفسرين أن (أى حبل الوريد) هو عِرْق مرتبط بالقلب يسرى فيه الدم إلى كل أجزاء الجسم . ولكن ذهب الدكتور أحمد المزين رئيس مركز الإعجاز العلمى للبحوث والدراسات إلى أن (حبل الوريد) المقصود فى الآية هو ما يعرف بجذع المخ (Brain Stem) فهو حبل (عصب) ليس مجوفاً ، ووظيفته نقل السيالات العصبية بين نصفى الدماغ ثم إيصالها إلى النخاع الشوكى ، فهو أقرب شىء لمكان تولد الفكرة (الوسوسة) المذكورة فى الآية ﴿وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ..﴿١٦﴾﴾ [ق] ، وهو حبل وعصب واحد .

﴿لَخَلْقُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ..(٥٧)﴾ [غافر] ووعدنا سبحانه بقوله ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ.. (٥٣)﴾ [فصلت] آفاق السموات والأرض ﴿وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ .. (٥٣)﴾ [فصلت]

يقول سبحانه : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ .. (١٦)﴾ [ق] وأكد لهم الكلام بـ (اللام) و بـ (قد) لأنهم مُنكرون لهذه الحقيقة مُكذِّبون بها ، وهذا الإنكار جحود منهم ، لأنه سبحانه قال فى موضع آخر : ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ (٨٧)﴾ [الزخرف]

وما دام الحق سبحانه قد قال ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ .. (١٦)﴾ [ق] فلا يتأتى أن يقال أنه من الممكن أن يتم استنساخ الإنسان ، فالإنسان الذى يكوّن أسرة من أب وأم لا يمكن استنساخه أبداً ، إنما يستنسخه مَنْ خلقه فقط .

بدليل أنه خلق آدم وأخذ منه ضلعاً جعل منه حواء ، أما أنتم فلن تستطيعوا هذا ، قد تستطيعون استنساخ نبات أو حيوان ، فإنه ليس مطلوباً من هذه الكائنات أن تكوّن أسرة .

فالمطلوب من النبات أو الحيوان التكاثر فقط ، أما الإنسان فليس مطلوباً منه التكاثر فقط بل مطلوب منه القيم أيضاً ككائن فى مجتمع .

فالإنسان يسعى لتكوين أسرة وله مواصفات فيمن يتزوجها ، وكيف يعيش معها وكل منهما يقوم بمهمة فى التربية تناسبه ، هو يكدح خارج البيت وهى تقوم بمهمتها فى البيت ومهمتها أعلى وأهم من مهمته .

لذلك نجد اللقيط شقياً فى حياته ، لأنه ليس له أب ينسب إليه ، أما من له أب فابنه محسوب عليه ومسئول عنه أمام المجتمع ، يقوم

له بأمور معيشته ودراسته ، فلو فرضنا أنه من الممكن أن يكون هناك إنسان مستنسخ فتُرى كيف تكون حياته ؟

فالله هو خالق الإنسان ومُبدعه ، والخالق هو الأعلم بمن خلق ، والأعلم بأسراره وما يصلحه ﴿وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ .. (١٦)﴾ [ق] يعنى :لا نعلم ظواهر عمله فحسب ، إنما نعلم بواطنها ، ونعلم ما يختلج فى نفسه من خواطر وأفكار .

﴿أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤)﴾ [الملك]

الذى يعلم دقائق الأمور وخفاياها ، كالصانع يعلم دقائق صنعته ، فالساعة مثلاً حين تتعطل منك لا تعرف فيها شيئاً ، فتذهب بها إلى الساعاتى ، وبمجرد أنْ ينظر إليها يعرف مكان العطل بها ويُصلحه بحركة بسيطة جداً .

فالحق سبحانه خلق الإنسان ، فالإنسان صنعته وإبداعه ، لذلك يعلم خفايا نفسه لا مجرد ظواهر عمله ، لأن ظواهر العمل معروفة للناس ، فلا مزية فى معرفتها ، أما ما تُوسوس به النفس فهو أمر غيبى عن الآخرين لا يطلع أحدٌ عليه ولا يعلمه إلا الله ، وهذه من آيات الله فى الأنفس ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ .. (٥٣)﴾ [فصلت]

وسمَّى الخواطر التى ترد على البال وسوسة ، وهى فى الأصل صوت الحلى ، والوسوسة تكون مرة من النفس ومرة من الشيطان ، لذلك لا تكون إلا بشرٍّ ، وقد بيَّن الإمام علىٌّ الفرق بينهما حينما سأله سائل : كيف أعرف مصدر هذه الوسوسة ، أهى من النفس أم من الشيطان ؟

فقال : النفس تقف بك عند معصية بعينها لا تتزحزح عنها ، أما

الشيطان فيريدك عاصياً على أيِّ صورة ، فإنّ خالفته فى معصية زين لك الأخرى وهكذا حتى يوقعك .

والنفس هى الأصل فى الوسوسة ، لأننا لو أخذنا معصية إبليس الأولى وقلنا مَنْ وسوس له بها ؟ نفسه ، والشاعر لما نظم هذا المعنى قال : إبليس لما عصى مَنْ كان إبليسه ؟

فالمسألة إذن راجعة للنفس ، وإبليس يستغل شهوة النفس وينميها ويُزينها لصاحبها ، والعجيب أن هذه الوساوس حينما تلح على الإنسان تُغرقه فى الهموم والتخيلات التى لا أساسَ لها ، فينشغل بأشياء لم تحدث يتصور أنها حدثت ، أو أحداث ماضية يعيدها من جديد .

وهكذا تحاصره الهموم فتكلمه تجده ساهياً أو يمشى يُكلِّم نفسه ، والعاقل هو الذى لا يترك نفسه نهباً لهذه الوساوس ، ويعلم أن له رباً يعلم ما توسوس به نفسه .

رب كريم يفرج الكروب ويزيل الهموم ، العاقل هو الذى يعلم أن ما مضى فات والمؤمل غيب ، ولك الساعة التى أنت فيها .

وخُلق المؤمن أنْ يكون عنده رصيد من إيمانه يعصمه ، فإنْ عزَّتْ عليه الأسباب لجأ إلى المسبِّب ، فهو أبداً لا ييأس ولا يستسلم .

قلنا : لو أن رجلاً معه جنيه واحد لا يملك غيره وضاع منه لا شكَّ أنه يحزن ، خاصة إذا كان غريباً مثلاً ، لكن لو ضاع منك جنيه وفى البيت عشرة ، فالحزن يكون أقلّ ، فما بالك إنْ كان معك رصيد من رب العالمين ؟

لذلك يقولون : لا كرب وأنت رب . وهذا الرصيد الإيمانى رأيناه فى قصة سيدنا موسى عليه السلام ، فلما ضاقت به أسبابه قال : ﴿قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢)﴾ [الشعراء]

وقوله سبحانه : ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (١٦)﴾ [ق] حبل الوريد عرقان فى الرقبة يحملان الغذاء إلى الجسم كله ، وإذا انقطع الوريد انتهت الحياة ، والكلام هنا فيه كناية عن قُرْب الحق سبحانه من عبده ، وكأنه يقول له : أنا قريب منك وأعرف تفاصيلك ، وأعرف وسوسة نفسك .

﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ (١٧) مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (١٨)﴾

بيَّن الحق سبحانه وتعالى أن علمه محيط لا يعلم مجرد عمل الجوارح ، إنما يعلم ما يدور فى النفس ، يعلم خلجاتها وأفكارها قبل أنْ تترجم إلى عمل . إذن : العلم بالوسوسة أوْلَى من العلم بالجوارح وعملها ، لكن قد يقول العبد : أختبئ فلا يرانى أحد .

فبيَّن الله له أنه إذا اختبأ من الناس فلا يختبئ من الله ، ولا يخفى عمله على الملكين الكاتبين اللذين يتلقيان عمله ويحفظانه ، ملك عن يمينه يكتب الحسنات ، وملك عن شماله يكتب السيئات .

ومعنى ﴿قَعِيدٌ (١٧)﴾ [ق] يعنى : كلٌّ منهما قاعد له بالمرصاد متفرغ له يرقبه ولا يغيب عنه ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (١٨)﴾ [ق] فإنْ قلت ما دام أن الله تعالى عالم بعمل العبد ، ولا تخفى عليه خافية ، فلم يكتب عمله ولم يُسجِّله عليه ؟

قالوا : يكتب الأعمال لتكون حجة على صاحبها يوم القيامة ، فكما أن الله تعالى سيُنطق الجوارح لتشهد على صاحبها ، كذلك سينطق هذا الكتاب . واقرأ : ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤)﴾ [النور]

وقال سبحانه : ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِى أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ (٢١)﴾ [فصلت] وقال : ﴿هَـٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ (٢٩)﴾ [الجاثية]

ومن رحمة الله بعباده فى كتابة الأعمال أن الحفظة تكتب الحسنة بعشر أمثالها ، وتكتب السيئة بواحدة ، تكتب الحسنة بمجرد أنْ تفكر فيها[1] ولا تُكتب السيئة إلا بعد الوقوع فيها ، بل وتعطيك فرصة لعلك تتوب أو تراجع نفسك .

﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ (١٩)﴾

معنى ﴿سَكْرَةُ الْمَوْتِ .. (١٩)﴾ [ق] غشْيته أو الغيبوبة التى تأخذ الإنسان وهى وقت الغرغرة وخروج الروح ، وسُميت سكرة الموت لأنها مقدمة للموت ، وقوله : ﴿بِالْحَقِّ .. (١٩)﴾ [ق] لأن الحق هو الموت ، فهو حق واجب لكل مخلوق ، وسَهْم أُطلق إلى كل مولود ، وعمرك بقدر وصوله إليك .

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة ، ومن هم بحسنة فعملها كتبت له عشراً إلى سبعمائة ضعف ، ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب ، وإن عملها كتبت » [أخرجه مسلم فى صحيحه ١٨٦ - وأحمد فى مسنده (٦٨٩٨ ، ٨٩٥٧ ، ١٠٠٦١)] .

لذلك يموت الإنسان جنيناً ، ويموت طفلاً ، ويموت شاباً ، ويموت شيخاً .

ومن آيات الله فى الموت أن أبهمه زماناً ، وأبهمه مكاناً ، فجاء الإبهام أوضح بيان ، لأن الإبهام جعلك تنتظره فى كل وقت ، وجعلك تستعد له بالتوبة والعمل الصالح ، جعلك تستحى من الله أنْ يفاجئك الموت وأنت على معصية .

وقوله : ﴿ذَٰلِكَ .. ﴿١٩﴾﴾ [ق] أى : الموت ﴿مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾﴾ [ق] أى : تميل عنه وتخاف منه ، نعم كلنا يخاف الموت ويبعده عن نفسه ، يتصور أنّ كل الناس سيموتون إلا هو .

لذلك ورد فى الحديث : لا أرى يقيناً أشبه بالشك من يقين الناس بالموت[1] .

والابتعاد عن شبح الموت له حكمة مرادة للحق سبحانه وتعالى ، فلو استحضر كلٌّ واحد منا حقيقة الموت ما هنىء له عيش ولا قرَّ له قرار ، وما انتفع أحد منه بعمل .

إذن : الأمل فى الحياة هو الأَوْلَى ، الأمل هو الذى يعمر حركة الحياة ، حب الحياة هو الذى يأخذنا لعمارة الحياة ، المهم أن هذا الأمل لا يُنسيك الموت ، فكُنْ على استعداد له بالتوبة والاستغفار إنْ بدر منك ذنب .

---

(١) أورده القرطبى فى تفسيره لقوله تعالى : ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ [الحجر] وعزاه لعمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ، وفيه زيادة (ثم لا يستعدون له) من قول عمر . وذكره الميدانى فى (مجمع الأمثال) من قول الحسن البصرى .

﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾
وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ (١) ﴿٢١﴾ ﴾

هنا يعطينا مشهداً من مشاهد يوم القيامة ، يوم يُنفخ فى الصور ، قالوا : هى النفخة الثانية التى يقوم الناس لها من قبورهم . والصُّور هو البوق الذى ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام .

﴿ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ ﴾ [ق] أى : الذى توعدناكم به وخوَّفناكم منه . والوعيد عكس الوعد ، الوعيد يكون بشرٍّ آت والوعد بالخير . والموت لا يخاف منه إلا صاحب الأعمال السيئة ، كامتحان آخر العام لا يخاف منه إلا التلميذ المهمل أما المجتهد فيفرح به .

كذلك صاحب الأعمال الصالحة يفرح بلقاء الله ، لأنه قادم على الجزاء الأوفى من الله ، لذلك حين يموت الرجل الصالح نقول : اللهم ألحقنا به .

وقوله سبحانه : ﴿ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ ﴾ [ق] سائق يسوقها إلى أرض المحشر ، وشهيد يشهد عليها بما عملتْ .

﴿ لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ
غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾ ﴾

---

(١) اختُلف فى معنى السائق والشهيد فى الآية على أقوال :
- والسائق من الملائكة ، والشهيد من أنفسهم الأيدى والأرجل . قاله ابن عباس .
- السائق الملك والشهيد العمل . قاله أبو هريرة .
- السائق قرينها من الشياطين ، سُمى سائقاً لأنه يتبعها وإن لم يحثها . قاله ابن مسلم .
- السائق والشهيد ملكان . قاله مجاهد .

(نقله القرطبى فى تفسيره ٩/٦٤١٣) .

﴿ لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَـٰذَا .. (٢٢) ﴾ [ق] فى غفلة ونسيان لهذا اليوم ﴿ فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ .. (٢٢) ﴾ [ق] أى : كشفنا عنك غطاء الغفلة .

﴿ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (٢٢) ﴾ [ق] أى : حاد ونافذ يستطيع أنْ يدرك الأمور على حقيقتها ، أى : أمور الآخرة وما فيها من بعث وحساب وجزاء .

﴿ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ (٢٣) أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ (٢٤) مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ (٢٥) ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ (٢٦) ﴾

معنى ﴿ قَرِينُهُ .. (٢٣) ﴾ [ق] أى : الملك المقارن والملازم له عن يمينه وعن شماله يُسجِّل عليه كل أعماله وكل نَفَس من أنفاسه ، يأتى ويقول : ﴿ هَـٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ (٢٣) ﴾ [ق] هذا ما عندى لهذا العبد ، وهذا ما سجلته عليه جاهز ومُعد .

كما نرى مثلاً رجل البوليس حينما يُقدِّم تقريراً للنيابة يقدم فيه الأدلة ويقول : هذا ما عندى وقد انتهت مهمتى وعلى النيابة الحكم فى المسألة .

وقوله تعالى : ﴿ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ (٢٤) ﴾ [ق] هذا أمر من الحق سبحانه وتعالى لكل من السائق والشهيد أنْ يُلقيا فى جهنم كلَّ (كفار) شديد الكفر متمكن فيه .

والكفر إما كفر للنعمة كما حدث من أهل سبأ ، فقال الله فيهم :

﴿ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا ..(١٧) ﴾ [سبأ] أى : كفروا نعمة الله ، أو كفر المنعم سبحانه وهو كفر الألوهية .

وكلمة ﴿ كَفَّارٍ .. (٢٤) ﴾ [ق] صيغة مبالغة من كافر ، أى كفر مرة واحدة إنما كفار يعنى يتكرر منه الكفر ، لذلك وصفه بعدها بأنه ﴿ عَنِيدٍ (٢٤) ﴾ [ق] أى : عنيد فى كفره مُصرٌّ عليه مُتمادٍ فيه .

والكفر فى اللغة هو السَّتْر ، وكفر النعمة يأتى على قسمين : ستر النعمة فى مكانها ، بمعنى أنهم لم يذهبوا إليها بجهد العمل والسعى والاستنباط ، أو أنهم جمعوها وأتوا بها فى جيوبهم ثم بخلوا بها على المحتاجين .

كذلك كلمة ﴿ عَنِيدٍ (٢٤) ﴾ [ق] فيها مبالغة نقول معاند وعنيد ، فالعنيد هو الذى يعاند كلما دعوْتَه للحق ويُصر على موقفه ، ولا شكَّ أن دعوة الرسول للناس بأنْ يؤمنوا تتكرر دائماً ، لكن العنيد يعاند ولا يقبلها ولا يهتدى ، ويتمادى مُتمسكاً برأيه ، لا يقبل حجة ولا يقبل نقاشاً .

إذن : كفر بالنعمة وكفر بالمنعم .

وقوله تعالى : ﴿ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ (٢٥) ﴾ [ق] هذا هو الوصف الثالث للكافر العنيد ، فبالإضافة إلى شدة كفره ، وعناده ، هو ﴿ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ .. (٢٥) ﴾ [ق] ومناع أيضاً صيغة مبالغة من مانع ، فهو كثير المنع للخير يمنعه حتى عن نفسه بعد أنْ منعه عن الآخرين حين وقف فى وجه الدعوة للإيمان ، وحين منع ماله ولم يعط المحتاجين .

ثم هو بعد ذلك كله ﴿ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ (٢٥) ﴾ [ق] فلم يكتف بمنع

الخير ، بل تعدى على الخير عند غيره فأخذه دون وجه حق ، أخذه مرة بالسرقة ، ومرة بالرشوة ، ومرة بالخطف والغصب ، ومرة بالتدليس ، ومرة بالغش .. إلخ .

فهو إذن مُعتد بأىٍّ وجه من وجوه التعدى ، وهو ﴿مُّرِيبٍ (٢٥)﴾ [ق] أى : شاكّ مُرتاب فى هذا اليوم ، ولو كان مؤمناً به وبالحساب والجزاء ما فعل ذلك ، لو كان يؤمن بالمقابل لأعطى ولم يمنع .

ومن صفاته أيضاً ﴿الَّذِى جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَـٰهًا آخَرَ .. (٢٦)﴾ [ق] الخطأ هنا فى القمة فى مسألة الإيمان بالله ، والله يقول : ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ..(١١٦)﴾ [النساء] لذلك كان الجزاء ﴿فَأَلْقِيَاهُ فِى الْعَذَابِ الشَّدِيدِ (٢٦)﴾ [ق]

إذن : عندنا نوعان من العذاب : عذاب مطلق لم يُوصف بأنه شديد فى قوله تعالى : ﴿أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ .. (٢٤)﴾ [ق] وهذا لمن عصى الله وارتكب من الكبائر ما دون الشرك بالله .

ثم عذاب يُوصف بأنه شديد لمن أشرك بالله تعالى ، ذلك لأن مرتكب الكبيرة ينطق بلا إله إلا الله ، ويمكن أن يتوب لأن كلمة التوحيد لها أثر فى حماية النفس حتى فى العاصى .

أما المشرك فلا ينطق بكلمة التوحيد ، وليس لها أثر فى نفسه ، ولو أدخلنا هذا مع هذا لكانت كلمة التوحيد ليس لها معنى ولا أثر .

والمغفرة فى قوله : ﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ .. (١١٦)﴾ [النساء] قد تكون المغفرة مُعجَّلة له ونهائية وهو حى ، وذلك لمَنْ تاب وأناب وبدّل عمله السىء بالعمل الصالح .

فيدخل تحت قوله تعالى : ﴿إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا

فَأُوْلَـٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ .. (٧٠) ﴾ [الفرقان]

وإما أنْ تُؤخر له المغفرة ، فيُعذَّب فترة فى النار ، ثم تتداركه رحمة الله وتشمله بركة لا إله إلا الله ، فتُخرجه من النار كرامة لكلمة التوحيد .

﴿ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَـٰكِن كَانَ فِى ضَلَـٰلٍۭ بَعِيدٍ (٢٧) ﴾

القرين هنا بمعنى الصاحب والملازم له الذى زيَّن له الضلال سواء من الجن أو من الإنس ، وهذا القرين يقول معتذراً لنفسه ومُدافعاً عنها ﴿ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَـٰكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (٢٧) ﴾ [ق] يريد أنْ يتبرأ من صاحبه الضال ويتركه فى المأزق الذى وقع فيه .

والقرآن الكريم شرح لنا فى أكثر من موقف هذا الحوار الذى دار بين التابع والمتبوع ، ممَّنْ سلكوا طريق الضلال ، وكيف أن كل طرف منهما يُلقى باللائمة على الآخر .

يقول تعالى : ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٧) قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ (٢٨) قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٢٩) وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ (٣٠) فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ (٣١) فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ (٣٢) فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (٣٣) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (٣٤) ﴾ [الصافات]

كذلك يتبرأ الشيطان ممن اتبعه ، فيقول : ﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ .. (٢٢) ﴾ [إبراهيم] يعنى : لا أحدَ منّا يستطيع أنْ يدافع عن صاحبه .

﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾﴾

الحق سبحانه وتعالى يُنهى هذا الحوار وهذه الخصومة بين الضال والمضل ، وينهى هذه المعركة ويقول لهما ﴿لا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ .. ﴿٢٨﴾﴾ [ق] لأن الخصومة لا تنفعكم الآن فلا يلقى كُلٌّ منكم بالمسئولية على الآخر ، فأنا أعلم بكم ، أعلم بالذنب وبالمذنب ، بالضال وبالمضل .

فلا فائدة إذن من هذه الخصومة ﴿وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾﴾ [ق] أى : قدمتُ لكم الوعيد فى الدنيا وبيَّنتُ لكم المنهج والحلال والحرام ، والجزاء عليه فى الجنة أو فى النار .

﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ .. ﴿٢٩﴾﴾ [ق] يعنى : تخاصمكم الآن لن يغير شيئاً فيما قضيته ، ولن أرجع فى كلامى ، والمراد قوله تعالى : ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾﴾ [ق]

وهذا قطع للعشم والرجاء وتيئيس لهم من رحمة الله ﴿وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾﴾ [ق] يعنى : قضائى حَقّ وعدل تحكمه حكمة لا جبروت وظلم .

فهذه المدافعة وهذه المخاصمة بينكم لن تشفع لأحد منكم .

وقوله تعالى : ﴿وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾﴾ [ق] كلمة (ظلام) صيغة مبالغة من ظالم ، فقولنا : فلان ظلام يعنى أنه من باب أَوْلى ظالم لكن فى النفى ، فنَفْى ظلام لا تنفى ظالم .

إذن : فقوله تعالى ﴿وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾﴾ [ق] نفتْ ظلاَّم

لكن لم تنْفِ ظالم ، فهل يعنى هذا إثبات صفة ظالم لله تعالى ؟

نقول : قد تكون المبالغة فى تكرار الحدث ، فحين نقول مثلاً فلان أكول قد يكون لا يأكل كثيراً ، إنما يأكل رغيفاً واحداً لكن يأكل عدة مرات فى اليوم .

كذلك هنا الحق سبحانه لا يتحدث عن واحد ، إنما عن الناس جميعاً عن العبيد كلهم ، وعلى هذا المعنى يكون نَفْى (ظلام) نفياً لظالم أيضاً .

وقد يكون المقصود نفى الحدث نفسه ، لأن الظلم قدرة ظالم على مظلوم ، إذن : فالظلم يتناسب قوةً وضعفاً مع قوة الظالم ، فلو فرضنا أن الحق سبحانه وتعالى يُوصف بالظلم ، تعالى الله عن ذلك - لكان ظلمه قوياً شديداً ، فنقول : ظلام لا ظالم .

﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ ﴾

سبق فى الآيات قوله تعالى : ﴿ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ ﴾ [ق] وهنا يسأل الحق سبحانه جهنم ﴿ هَلِ امْتَلأْتِ .. ﴿٣٠﴾ ﴾ [ق] وأيضاً سبق الوعد من الله أن يملأ جهنم ﴿ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ [السجدة]

إذن : لابدَّ أنْ يُوفيها هذا الوعد ، فالسؤال هنا ﴿ هَلِ امْتَلأْتِ .. ﴿٣٠﴾ ﴾ [ق] سؤال إقرار ، ويأتى الجواب ﴿ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ [ق] يعنى هى امتلأتِ ، لكن تريد المزيد ، فأين تضعهم فيها ؟

تذكرون أننا قلنَا زمان أن الخالق سبحانه أزلاً خلق الجنة لتسع

الناس جميعاً لو آمنوا ، وخلق النار لتسع الناس جميعاً إنْ كفروا ، وبذلك تخلو أماكن المؤمنين فى النار ، وتخلو أماكن الكافرين فى الجنة ، فالنار تقول ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ (٣٠)﴾ [ق] لتملأ الأماكن الخالية فيها .

﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ (٣١)﴾

بعد أن تحدثت الآيات عن جهنم والعياذ بالله تذكر هنا المقابل وهو الجنة ﴿وَأُزْلِفَتِ .. (٣٢)﴾ [ق] أى : قُرِّبت من المتقين ، لأنهم بشَّروا بها فى الدنيا ، وبأن الله تعالى لا يخلف الميعاد .

أما الآن ونحن فى موقف الآخرة فهى تقرب منهم ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ (٣١)﴾ [ق] أى : أزلفتْ منهم إزلافاً غير بعيد .

﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ (٣٢) مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ (٣٣)﴾

قوله تعالى : ﴿هَـٰذَا ..(٣٢)﴾ [ق] إشارة إلى ما تقدَّم من تقريب الجنة للمتقين ﴿مَا تُوعَدُونَ .. (٣٢)﴾ [ق] أى : وعد الله به ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ (٣٢)﴾ [ق] أوَّاب صيغة مبالغة نقول : آيب وأوَّاب يعنى كثير الأوْب والرجوع إلى الله إنْ حصلت منه معصية ، فسرعان ما يندم عليها ويتوب .

والحق سبحانه وتعالى شرح لنا هذا المعنى فى قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ .. (١٧)﴾ [النساء] يعنى : لا يسعوْنَ إليها ولا يرتبون لها .

﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَـٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١٧) وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ .. (١٨)﴾ [النساء]

والأوَّاب كثير الرجوع إلى الله بالتوبة ، لا يعنى أنه كثير الخطايا ، إنما إنْ حدثت منه غفلة عن الطاعة سارع بالتوبة ، لأن الذى يرجع فى توبته من الذنب ثم يعود إليه وتتكرر منه هذه ، فقد شبَّهه رسول الله بالمستهزىء بربه ، وهذه صفة لا تليق بالأوَّاب .

ومعنى ﴿حَفِيظٍ (٣٢)﴾ [ق] هى أيضاً صيغة مبالغة من حافظ ، والحفيظ هو كثير الحفظ لحدود الله وحُرمات الله ، يحفظ نفسه من الوقوع فى المعصية ، بل يحفظ نفسه من الاقتراب منها .

وهذا هو معنى الحديث الشريف : « احفظ الله يحفظك »[1] وحِفْظ الله يكون بحفظ حدوده والوقوف عند أوامره ونواهيه .

ومن صفات المتقين الذين وعدهم الله هذا الوعد ﴿مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ (٣٣)﴾ [ق] الخشية معناها الخوف وهو على نوعين : تخاف وأنت تكره مَنْ تخافه وتلعنه لأنه أقوى منك ، أو لأنه يذلُّك ويقهرك ، فأنت تخافه وتحتقره ، وهذا خوف العباد من العباد .

وهناك خوف بحب وهيبة وإجلال على حَدِّ قول الشاعر :

أخافك إجلالاً وما بك قدرة ... علىَّ ولكن مِلْءُ عين حبيبها

---

(١) عن ابن عباس قال : كنت خلف رسول الله ﷺ يوماً فقال : يا غلام إنى أعلمك كلمات : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشىء لم ينفعوك إلا بشىء قد كتبه الله لك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشىء لم يضروك إلا بشىء قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام وجفَّت الصحف » أخرجه الترمذى فى سننه (٢٤٤٠) وأحمد فى مسنده (٥٣٧ ، ٢٦٢٧ ، ٢٦٦٦) عن ابن عباس .

فأنت تحب مَنْ تخافه ، وتعلم أن له جميلاً عندك ، وأنك لا تستطيع أنْ تُوفيه حقه ، وهذا هو الخوف من الله . ويساعدنا على فهْم هذا المعنى قول الله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ[1] سُودٌ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ..(٢٨)﴾ [فاطر]

الحق سبحانه هنا لم يأت بحكم شرعى يلزمنا به أو يُخوِّفنا من التهاون فيه ، إنما تحدث عن آيات كوْنه ، أرادنا أنْ نبحث فيها ونتأملها ، وأنْ نُنقب عن أسرارها وما فيها من جمال .

فكلما نظرنا فى آيات الكون من حولنا ازددنا لله خشية ، ومهابة وإجلالاً لعظمته ونعمته علينا ، والعلماء هم أوْلَى الناس بهذا النظر ، وأقرب الناس إلى خشية الله وتقديره حَقَّ قَدْره .

وتأمَّل هنا الأداء القرآنى : ﴿مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ ..(٣٣)﴾ [ق] فاختار صفة الرحمة ، ولم يقل مَنْ خشى القهار أو الجبار ، لأن الخشية هنا مغلَّفة بالحب وبالرحمة والتعظيم والإجلال لله الذى نخافه ونخشاه .

ثم قيد هذه الخشية بأنها ﴿بِالْغَيْبِ ..(٣٣)﴾ [ق] يعنى : ليست معلنة أمام الناس ، فالمؤمن الحق يخشى الله فى سِرِّه قبل جهره ، وفى خلْوته قبل جلوته ، يخافه بينه وبين نفسه .

---

(١) الغربيب : الشديد السواد وجمعه غرابيب . [النهاية فى غريب الأثر] وهو تشبيه بلون الغراب . ومن الجبال غرابيب سود وهى ذوات الصخر الأسود . قال ابن الجوزى فى زاد المسير : « وللمفسرين فى المراد بالغرابيب ثلاثة أقوال : أحدها : الطرائق السود . قاله ابن عباس . والثانى : الأودية السود . قاله قتادة . والثالث : الجبال السود . قاله السدى .

أما ضعيف الإيمان فيخاف الله أمام الناس ، وإذا كان فى جمع منهم تحدَّث عن الحلال والحرام ، لكن إذا خلا بنفسه انتهك حرمات الله .

إذن : فخشيته من الله فيها رياء ويخالطها شرك ، لذلك وصف المتقين ، ووصف أهل الجنة بأنهم يخشون الله بالغيب .

ومن معانى الغيب أيضاً أن المؤمن لمّا تُخوِّفه عذاب الله وتذكر له النار وهو ما يزال فى سَعَة الدنيا يخاف منها ، ويؤمن بوجودها وهو لم يرها ، فهذه خشية بالغيب ، لأن النار بالنسبة لنا الآن غيب وما صدَّقنا بوجودها إلا لأن الله أخبرنا بها .

والمؤمن يأخذ الخبر عن الله كأنه واقع يراه بعينه ، ويلمسه بحواسه ، فالخبر من الله أصدق من رؤية العين . وهذه المسألة أوضحناها فى قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١)﴾ [الفيل]

فالخطاب هنا لسيدنا رسول الله ، وهو لم يَرَ حادثة الفيل ، فقد وُلد فى هذا العام ، فلماذا لم يخاطبه بقوله : ألم تعلم وعدل عنها إلى : ألم تر ؟ قالوا : لأن الخبر من الله أصدق من رؤية العين ، نعم لأن الرؤية قد تخدعك ، أما إخبار الله فصِدْق مطلق .

﴿وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ (٣٣)﴾ [ق] أى : قلب أخلص لله وصدق فى الطاعة ، والقلب هو موضع الإيمان ، والله تعالى - كما ذكرنا - يريد منا القلب لا القالب ، فالقالب يمكن أنْ تقهره على أنْ يؤمن ، أما القلب فلا يأتى إلا بالحب والطواعية .

لذلك جعل الحق سبحانه الإيمان أمراً اختيارياً لا إجبار فيه ، وإلا لو شاء سبحانه لأجبر الخلق جميعاً على أنْ يؤمنوا به سبحانه ، كما أجبر السموات والأرض ، لكن أراد لعباده أن يأتوه طواعية واقتناعاً .

﴿ ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٖۖ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُلُودِ ﴿٣٤﴾
لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيۡنَا مَزِيدٞ ﴿٣٥﴾ ﴾

أى : ادخلوا الجنة ﴿ بِسَلَامٍ .. ﴿٣٤﴾ ﴾ [ق] سلامة خالية من المنغِّصات ، ولا تنتقل إلى غَمٍّ أو ضيق أبداً بعد ذلك . وهذا القول ﴿ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ.. ﴿٣٤﴾ ﴾ [ق] هو قول الملائكة حين يلقونهم بالسلام .

وكذلك يقولها لهم الحق سبحانه فى قوله : ﴿ سَلَامٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾ ﴾ [يس] والذى يلقاه ربه بالسلام فلا شقاءَ له بعدها أبداً .

أو ﴿ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ .. ﴿٣٤﴾ ﴾ [ق] أى : مسلِّمين على إخوانكم ، تقولون لهم : السلام عليكم كما كنتم تُسلِّمون عليهم وتُحيونهم بها فى الدنيا ، كذلك فى الآخرة تُحيون بها مالكاً على باب الجنة ، وتحيون بها إخوانكم .

﴿ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ ﴾ [ق] ذلك إشارة إلى يوم القيامة ﴿ يَوْمُ الْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ ﴾ [ق] يوم البقاء والدوام والنعيم الذى لا ينقطع ولا يزول ، وهذا هو الفرْق بين نعيم الدنيا ونعيم الآخرة .

نعيم الدنيا مهما كان يؤرقه على صاحبه أمران : أنْ يفوت النعيم بالموت ، أو يفوته النعيم بالفقر أو المرض ، أما نعيم الآخرة فسالم من كلِّ المنغصات .

وقوله سبحانه : ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا .. (٣٥)﴾ [ق] أى : فى الجنة . وقد وقف المستشرقون عند هذه الآية يقولون : كيف يثبت لهم مشيئة فيما يريدونه وقد ورد : « فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر »[(١)] .

والمشيئة تعنى أنهم يعرفون ما يريدونه ؟

قالوا : يشاء ما كان يعلمه ويتلذذ به من نعيم الدنيا ، فى حين أن نعيم الآخرة غيره تماماً ليس له منه إلا الأسماء ، أما حقيقة الشىء فتختلف ، لذلك قال بعدها ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ (٣٥)﴾ [ق]

وقد بيَّن الحق سبحانه هذه المسألة فى قوله سبحانه :

﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَـٰذَا الَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا ..(٢٥)﴾ [البقرة]

يعنى : إذا اشتاقت نفسه مثلاً لأنْ يأكل المانجو يجدها غير ما عرفه فى الدنيا ، فإنْ طلبها فى اليوم التالى وجدها غير التى أكلها فى اليوم الأول وهكذا ، فهى متشابهة لكن ليست هى هى .

إذن : جعل لهم مشيئة فيما يعرفون من نعيم الدنيا وفيما يشتهونه منها ، أما فى الآخرة فشىء آخر بدليل « فيها ما لا عين

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٠٠٥ ، ٤٤٠٦ ، ٤٤٠٧ ، ٦٩٤٤) وكذا مسلم فى صحيحه (٥٠٥٠ ، ٥٠٥١ ، ٥٠٥٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، وتمامه « قال الله : أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » وفى رواية مسلم زيادة : مصداق ذلك فى كتاب الله ﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٧)﴾ [السجدة] .

رأتْ ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » .

لأنك إذا اشتهيتَ شيئاً طلبته باسمه ، والاسم فرع لمعرفة المعنى ، وما دام أنها أشياء غريبة عنا فنحن إذن لا نعرفها ولا نعرف لها اسماً .

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ(١) هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾﴾

(كم) هنا خبرية تفيد الكثرة ، أى كثيراً ما أهلكنا ﴿قَبْلَهُم ..﴿٣٦﴾﴾ [ق] أى : قبل قومك قريش ﴿مِّن قَرْنٍ ..﴿٣٦﴾﴾ [ق] هم الجماعة الذين عاشوا فى زمن محدود ، وقدَّروه بمائة عام .

وقد يزيد القرن فى المعنى عن هذا إذا ارتبط بنبى مثل قوم نوح عليه السلام ، فقد اقترنوا جميعاً فى نبوته التى استمرت ألف سنة إلا خمسين عاماً ، فالقرن من الاقتران ، سواء أكان الاقتران فى زمن ملكٍ أو نبى أو حدث .

وفى آية أخرى بيَّن الحق سبحانه كيف أهلك الأمم المكذبة بهم قبلهم ، فقال سبحانه :

---

(١) قال ابن الجوزى فى زاد المسير (تفسير آية الأنعام ٦) : القرن اسم أهل كل عصر وسُموا بذلك لاقترانهم فى الوجود ، وللمفسرين فى المراد بالقرن سبعة أقوال أنه (أربعون سنة - ثمانون سنة - مائة سنة -- مائة وعشرون سنة - عشرون سنة - سبعون سنة) . أما القول السابع فهو أهل كل مدة كان فيها نبى أو طبقة من العلماء قلّت أو كثرت ، بدليل قوله ﷺ « خيركم قرنى » يعنى أصحابى « ثم الذين يلونهم » يعنى التابعين .

﴿ فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ..(٤٠) ﴾ [العنكبوت]

وكل هؤلاء كانوا أشد من قريش قوة وبطشاً ، وأين هم من إرم ذات العماد التى لم يُخلق مثلها فى البلاد ؟ وأين هم من فرعون ذى الأوتاد .

﴿ فَنَقَّبُوا فِي الْبِلادِ ..(٣٦) ﴾ [ق] تنقلوا فيها وسافروا خلالها ، والتنقُّل دليل القوة والتمكين ، وأنهم غير مشغولين بأمور حياتهم .

وقد بيَّن الحق سبحانه أن الانتقال والسير فى الأرض قد يكون للاعتبار كما جاء فى قوله سبحانه : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا .. (٦٩) ﴾ [النمل] وقد يكون لطلب الرزق والسياحة كما فى قوله تعالى : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا ..(١١) ﴾ [الأنعام]

إذن : ﴿ فَنَقَّبُوا فِي الْبِلادِ ..(٣٦) ﴾ [ق] ساروا خلالها للمتعة وللانتفاع ، حيث لم يكتفوا بما فى أوطانهم ، بل جابوا أوطاناً أخرى ، ولا يفعل ذلك إلا القوى ، أما الضعيف فلا يبرح مكانه ويرضى بالقليل .

وفى موضع آخر قال عنهم ﴿ وَأَثَارُوا[1] الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا ..(٩) ﴾ [الروم]

---

(١) أثاروا الأرض أى قلبوها للحرث والزراعة كما قال الفراء . وقيل : لاستنباط المياه . واستخراج المعادن وغير ذلك . (تفسير الألوسى الروم آية ٩) قال الشوكانى فى فتح القدير : « ولم يكن أهل مكة أهل حرث » . وذكر الزمخشرى فى تفسير الكشاف أن الثور سُمى ثوراً لإثارته الأرض ، وسميت البقرة بقرة لأنها تبقرها أى تشقها .

وكلمة نقب تدل على البحث عن غير الظاهر عن المستور فى باطن الأرض . إذن : لم يكتفوا بالظاهر من النعم وبحثوا عن المستور منها .

وقوله : ﴿هَلْ مِن مَّحِيصٍ (٣٦)﴾ [ق] أى : ملجأ يلجأون إليه ويحميهم من العذاب ، والمعنى أن هؤلاء مع ما هم فيه من القوة والتمكين والسير فى جنبات الأرض لما نزل بهم العذاب لم يجدوا لهم ملجأ يحميهم ، ولا مأوى يدفع عنهم عذاب الله .

وكلمة ﴿مَّحِيصٍ (٣٦)﴾ [ق] من حاص فهو حايص . نقولها حتى فى العامية يعنى : حائر يذهب إلى هنا ، ويذهب إلى هناك ، فلا يغيثه أحد ، فلا مهرب ولا مفرّ .

وجاء بالمعنى المراد فى صيغة الاستفهام ﴿هَلْ مِن مَّحِيصٍ (٣٦)﴾ [ق] لتجيب أنت وتقر بالواقع ، هل وجدوا ملجأ يلجأون إليه من العذاب ؟ والجواب لا .

وهذه الآية وردت لتسلية سيدنا رسول الله والتخفيف عنه لما يلاقيه من عنت قومه وعنادهم ، كأنه تعالى يقول لنبيه : لا تحزن يا محمد وخُذْ أسوة بإخوانك من الرسل السابقين ، فالغلبة لك فى نهاية الأمر .

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ (٣٧)﴾

قوله تعالى : ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ .. (٣٧)﴾ [ق] أى : فى قصص الأمم السابقة الذين أخذهم الله ﴿لَذِكْرَىٰ .. (٣٧)﴾ [ق] تذكير لكم كان يجب عليكم أنْ تعتبروا بهم ، وقد بلغكم خبرهم ، إما بمشاهدة

آثارهم وبقايا ديارهم ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٣٨)﴾ [الصافات]

وإما بلغكم بسماع خبرهم من الكتب السماوية ، والسمع والبصر أهم وسائل الإدراك فى الإنسان ، لذلك قال هنا ﴿أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ (٣٧)﴾ [ق] يعنى : سمع وشاهد .

وقوله سبحانه : ﴿لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ ..(٣٧)﴾ [ق] أى : قلب واعٍ متأمل ومدرك غير لاهٍ ولا غافل ، وإلا فما فائدة السمع لمنْ ليس له هذا القلب ، إنه يسمع من هنا ويُخرج من هنا ، فلا يستفيد بما يسمع .

وكلمة ﴿أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ ..(٣٧)﴾ [ق] فيها كناية عن الاهتمام بالمسموع ، فلم يقل مثلاً لمن يسمع : إنما ألقى أذنه وأنصت ليستمع بحضور قلب ليعى المسموع ويستقبله بما يناسبه من البحث العقلى .

﴿وَهُوَ شَهِيدٌ (٣٧)﴾ [ق] وشهيد صيغة مبالغة على وزن فعيل تدل أيضاً على الاهتمام بما يشاهده وعلى الانتفاع به ، فهو يسمع ويشاهد بقلب حاضر وفهم واعٍ بعيد عن الغفلة .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

---

(١) سبب نزول الآية : عن ابن عباس أن اليهود أتت النبى ﷺ ، فسألت عن خلق السماوات والأرض فقال : خلق الله الأرض يوم الأحد والاثنين وخلق الجبال يوم الثلاثاء ، وخلق السماوات يوم الأربعاء والخميس ، وخلق يوم الجمعة النجوم والشجر والقمر . قالت اليهود : ثم ماذا يا محمد ؟ قال : ثم استوى على العرش . قالوا : قد أصبت لو تممت ثم استراح ، فغضب رسول الله ﷺ غضباً شديداً ، فنزلت ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ (٣٨) فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ (٣٩)﴾ [ق] .

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ (١) ﴿٣٨﴾﴾

الحق سبحانه وتعالى يُبيِّن لنا أنه خلق السموات والأرض وما فيهن وما بينهما من الآيات الكونية فيما مجموعه ستة أيام ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾ [ق] ما أصابنا من تعب ولا نَصَب .

وهذه الآية لها نظائر فى القرآن الكريم دلتْ على أن أيام الخَلْق ثمانية أيام ، اقرأ : ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾﴾ [فصلت] إذن : معنا الآن يومان .

﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ [فصلت] هكذا يكون المجموع ستة أيام ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ .. ﴿١٢﴾﴾ [فصلت]

إذن : المجموع الظاهر ثمانية أيام ، وهذا جعل بعض المستشرقين يتهمون الآيات بالتضارب ، أهى ستة أيام أم ثمانية . وهذا الاتهام وليد عدم فهمهم لأساليب اللغة ومراميها .

فالحق سبحانه تكلم أولاً عن خَلْق الأرض كجرم مستقل ، ثم تكلم عن خَلْق ما يتبع الأرض فى تمام أربعة أيام ، فالزمن هنا متداخل ، واليومان الأولان داخلان فى تتمة الأربعة ، لأنها فى خلق شىء واحد هو الأرض .

---

(١) اللغوب : الإعياء والتعب . ذكره البغوى فى تفسير الآية ، وقال الفخر الرازى فى مفاتيح الغيب : أى ما تعبنا بالخلق الأول حتى لا نقدر على الإعادة .

لذلك بعد أنْ تحدَّث عن خَلْق الأرض قال سبحانه : ﴿فِى أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ (١٠)﴾ [فصلت] أى : استوتْ تتمة الأربعة أيام مثل لو قلت : سرْنا من القاهرة إلى طنطا فى ساعة ، وإلى الإسكندرية فى ساعتين . إذن : ليس فى الآيات تعارض ، بل هى منسجمة مع بعضها البعض .

ومن القضايا التى أثاروها حول هذه الآية قولهم : إن كان الحق سبحانه ينفذ إرادته ولا يحتاج فى الفعل إلى معالجة ، فلماذا لم يخلق هذا الكون بكلمة كُنْ ، ولا يستغرق الخلق ستة أيام ؟

وقلنا فى بيان ذلك أن هناك فرقاً بين خَلْق الشىء وبين جَعْل مُقدِّمات للخلق ، ثم يدور الشىء فى نفسه ويتفاعل إلى ما يصير إليه .

ووضحنا هذا بصناعة علبة الزبادى ، حيث نأتى باللبن والخميرة ونخلطهما ، ثم نجعل هذا الخليط تحت درجة حرارة معينة ، وبعد مدة تتفاعل هذه المكونات وتعطينا الزبادى .

إذن : عالجت هذه المسألة فى عدة دقائق لكنها تفاعلت فى عدة ساعات ، حتى صار إلى ما نريد بعد أنْ وضعنا فيه الأصول والمواد التى تكوِّنه ، كذلك فى مسألة خَلْق الكون فى ستة أيام طبعاً من الأيام التى نعرفها .

ومعنى اللغوب هو القصور الذى يأتى بعد التعب من العمل ، إذن : النَّصَب والتعب يصاحب العمل ، واللغوب قصور واسترخاء بعد الانتهاء ، فإذا نفى الأقل فالأكثر من باب أوْلى لم يحدث .

إذن : المراد لم يحدث القصور ولم يحدث التعب ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ .. (٢٥٥)﴾ [البقرة] والسِّنَة غفلة تسبق النوم ، فنَفْى السِّنة يعنى نفى النوم من باب أوْلى .

﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَـٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾ ﴾

الحق سبحانه وتعالى يريد أنْ يُسلِّى رسوله ﷺ بعدما لاقى من إيذاء قومه . يقول له : باشر أمر دعوتك ولا تحزن لما يقولون ، ولا تيأس من نصرك عليهم ، لأن رسول الله وصحابته لما اشتد بهم الإيذاء استبطأوا النصر .

وفى ذلك قال تعالى : ﴿ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ..﴿٢١٤﴾ ﴾ [البقرة] وهنا يقول له ﴿ فَاصْبِرْ ..﴿٣٩﴾ ﴾ [ق] لأن كل صبر على بلاء وإيذاء بأجر ومنزلة ، فكلما ازدادوا فى الإيذاء اصبر على أذاهم ، فهم يزدادون إثماً وأنت تزداد أجراً .

وقوله تعالى :﴿ وَسَبِّحْ[1] بِحَمْدِ رَبِّكَ..﴿٣٩﴾ ﴾ [ق] أى : نزِّه ربك تعالى عن كلِّ نقص ، وعن كل ما لا يليق به سبحانه من صفات يتصف بها خَلْقه ، فالله له يد لكن ليستْ كأيدينا ، وله سمع ولكن

---

(١) اختُلفَ فى معنى التسبيح هنا على أربعة أقوال :

الأول : هو تسبيح الله تعالى فى الليل . قاله أبو الأحوص .

الثانى : إنها صلاة الليل كله .. قاله مجاهد .

الثالث : إنها ركعتا الفجر . قاله ابن عباس .

الرابع : أنها صلاة العشاء الآخرة . قاله ابن زيد .

[نقله القرطبى فى تفسيره ٩/٦٤٢٤] . قلت : كلها أقوال محتملة ، فالتسبيح بالذكر فى الليل يعضده ما جاء فى الصحيح : « من تعارَّ من الليل فقال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له » الحديث . والصلاة تسمى تسبيحاً لما فيها من تسبيح الله [عادل أبو المعاطى]

ليس كسمعنا ، فخذ هذه الصفات فى إطار ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١١)﴾ [الإسراء]

لذلك الحق سبحانه وتعالى استهلَّ خبر الإسراء والمعراج بقوله تعالى : ﴿سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ ..(١)﴾ [الإسراء] أى : نزّه الله عن صفات النقص ، ونزّه الله عن مشابهة خَلْقه ، لأن فى القصة خرقاً للنواميس التى يعرفها الخَلْق .

إذن : لا تستبعد هذا الحدث لأنه منسوب إلى الله لا إلى البشر ، فمحمد لم يقُلْ : سريتُ بل قال : أُسْرى بى .

والسرعة هنا فى قطع المسافة تُحسب بقوة الفاعل ، فأنت تسافر من القاهرة إلى الإسكندرية بالحصان فى عشر ساعات ، وبالسيارة فى ثلاث ساعات ، وبالطائرة فى نصف ساعة ، وبالصاروخ فى عدة دقائق .

وهكذا تتناسب السرعة مع فاعلها ، فكلما ازدادت القوة قل الزمن ، فإذا كان صاحب السرعة هو الحق سبحانه وتعالى ، فالزمن هنا لا يُذكر ، وكوْن رسول الله استغرق فى هذه الرحلة ليلة ، فهذا لأنه تعرَّض لمرائى عدة استغرقتْ هذا الوقت .

ومعنى ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ (٣٩)﴾ [ق] أى : سبِّح ربك تسبيحاً مقروناً بالحمد على النعم ، لذلك تجد أن لفظ التسبيح يأتى دائماً مقروناً بنعمة من نعم الله ، وآية لا يستطيعها أحد سواه ﴿سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ ..(١)﴾ [الإسراء] ﴿سُبْحَانَ الَّذِى خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ (٣٦)﴾ [يس]

لذلك رأينا على مَرِّ التاريخ الكفار والمشركين والملاحدة يعبدون

أصنامهم وآلهتهم ويقدسونها ، ومع ذلك لم يقُلْ أحد لمعبوده : سبحانك أبداً لأنها لا تُقال إلا لله .

كما أن لفظ الجلالة الله لم يُسمِّه أحد رغم وجود الملاحدة ومُنكرى الألوهية ، لكن لم يجرؤ أحد منهم أنْ يُسمى ولده هذا الاسم ، لأنه يخاف أنْ يُسمِّى ولده الله .

لذلك قال تعالى : ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا (٦٥)﴾ [مريم] إذن : أمران لم يجرؤ أحد عليهما لعظمة الله سبحانه ، حتى فيما للخَلْق فيه اختيار .

كما نفهم من قوله تعالى ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ.. (٣٩)﴾ [ق] أن السُّبحانية هذه من النعم التى تستوجب الحمد ، فكوْنُ الحق سبحانه مُنزّه عن الشبيه ، مُنزه عن المثيل ، مُنزه عن الشريك ، هذه من أعظم النعم على العباد .

فلو أن لله تعالى مثيلاً أو شريكاً أو نظيراً لفسدتْ حياتنا ، ولَشقينا نحن بهذه المثلية ، وما هنىء لنا عيش .

لذلك يقول تعالى : ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا (٢٢)﴾ [الأنبياء] وقال : ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَـٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (٩١)﴾ [المؤمنون]

ومعنى ﴿قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ (٣٩) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ (٤٠)﴾ [ق] يعنى : سبِّحه تسبيحاً دائماً لا ينقطع ، فهذه الأوقات المذكورة تستوعب اليوم والليلة ، لأن من الناس مَنْ

يعمل بالنهار وينام بالليل ، ومنهم مَنْ يعمل بالليل وينام بالنهار ، فهذا انقطع تكليفه بالليل ، وهذا انقطع تكليفه بالنهار .

وهذه الآية لها نظائر فى آيات أخرى لكن لكل منها معنى ، يقول تعالى فى موضع آخر : ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا .. (١٣٠)﴾ [طه] فهنا قال ﴿الْغُرُوبِ (٣٩)﴾ [ق] وهناك قال ﴿غُرُوبِهَا .. (١٣٠)﴾ [طه] فقالوا : إذن : ما الفرق بينهما ؟ وأيهما أبلغ ؟

نقول : كلٌّ لفظ منهما بليغ فى موضعه ، فالشمس حين تغرب ، منا مَنْ يشاهد آية الغروب ، ومنا مَنْ لا يشاهده لغيم أو غيره ، ويحكم بالغروب بشواهد أخرى تدل عليه .

لذلك فى رمضان مثلاً ، كثيرٌ منّا لا يرى غروب الشمس ، ومع ذلك يفطر لأن لديه أدلة أخرى على الوقت . إذن : قوله تعالى ﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ..(١٣٠)﴾ [طه] لمن شاهد الغروب ، وقوله : ﴿وَقَبْلَ الْغُرُوبِ (٣٩)﴾ [ق] لمن لم يشاهده .

كذلك فى قوله تعالى : ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ (٤٠)﴾ [ق] وقال فى موضع آخر : ﴿وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ ..(١٣٠)﴾ [طه] فالأَوْلَى لمن يريد أنْ يسبح فى وقت واحد من الليل ثم ينام ، والأخرى لمَنْ أراد أنْ يُسبّح ثم ينام ، ثم يُسبِّح ثم ينام ، يعنى مرات متعددة أثناء الليل .

ومعنى ﴿وَأَدْبَارَ السُّجُودِ (٤٠)﴾ [ق] يعنى : عقب الصلوات ، وقد بيَّن لنا سيدنا رسول الله ﷺ كيفية التسبيح عقب الصلوات .

﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ (٤١) يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ (٤٢)﴾

المنادى هنا إسرافيل الملَك المكلَّف بالنفخ فى الصور ، والمراد بالصيحة النفخة الثانية التى تُخرج الناس من القبور للبعث ، الحق سبحانه وتعالى يقول لرسوله ﷺ : ﴿وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ..(٤١)﴾ [ق]

والكلام هنا يأتى بعدما تعرّض له رسول الله من الإيذاء بالقول وبالفعل ، فكأن ربه عز وجل يُواسيه ، يقول له : إنْ كانوا فعلوا ذلك فانتظر هذا اليوم يوم ينادى عليهم المنادى يوم يقفون للحساب والجزاء .

واستمع لما يحدث منهم فى هذا الموقف ، وكيف سيندمون ويتبرأ بعضهم من بعض ويلعن بعضهم بعضاً ، ويشتم بعضهم بعضاً ، كما يقولون فى المثل الفلاحى (بكره نقعد على الحيطة ونسمع الظيطة) يعنى : انتظر يا محمد وسوف تسمع بهم .

---

(١) أكثر المفسرين على أن المكان القريب المقصود به صخرة بيت المقدس على ما روى عن يزيد ابن جابر وكعب الأحبار وابن عباس وقتادة ، وهى على ما رُوِى عن كعب أقرب الأرض إلى السماء بثمانية عشر ميلاً قال الألوسى فى تفسير (روح المعانى) فى تفسير الآية أن مثل هذا لا يُقبل إلا بوحى ، ثم إن كون صخرة بيت المقدس وسط الأرض مما تأباه القواعد فى معرفة العروض والأطوال ، ومن هنا قيل : المراد قريب ممن يناديهم . فقيل : ينادى من تحت أقدامهم . وقيل : من منابت شعورهم فيسمع من كل شعرة : يا أيتها العظام النخرة . أ هـ
قلت : بهذا يكون تأويل الشيخ الشعراوى الآتى بعد سطور هو الصواب فى تفسير الآية (سيكون قريباً من كل واحد كأنه ملازمه وكأن كل واحد منا معه مناديه) [عادل أبو المعاطى]

وقوله ﴿مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ (٤١)﴾ [ق] أى : أن المنادى سيكون قريباً من كل واحد كأنه ملازمه ، وكأن كلَّ واحد منا معه مناديه ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ ..(٤٢)﴾ [ق] أى النفخة الثانية ﴿بِالْحَقِّ .. (٤٢)﴾ [ق] الحق الذى كانوا ينكرونه فى الدنيا ويُكذِّبون به وهو البعث .

وقد حكى القرآن قولهم : ﴿أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ .. (٥)﴾ [الرعد] وقوله سبحانه : ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ (٤٢)﴾ [ق] أى : البعث والخروج من القبور ، والنفخة الثانية ستكون بعد موت جميع الخلائق بالنفخة الأولى .

لذلك كان سيدنا رسول الله دائماً يقرأ بسورة (ق) فى العيدين لقوله تعالى فيها ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ (٤٢)﴾ [ق] والخروج مُستحب فى العيدين حتى الحائض تخرج ليس للصلاة ، إنما لتشهد الخير وجماعة المسلمين فى هذا اليوم .

ولذلك سَنَّ لنا رسول الله أنْ تكون صلاة العيدين فى الخلاء ، لأنها صلاة يحضرها مَنْ لا تصح الصلاة منه .

كما أن فى القراءة بسورة (ق) فى العيدين إشارة إلى أن يوم العيد والخروج والفرحة والزينة ينبغى ألاَّ تُنسينا يوم الخروج الأكبر ، يوم القيامة .

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ (٤٣) يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ (٤٤)﴾

بعد أنْ قال سبحانه ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ (٤٢)﴾ [ق] يقرر هذه الحقيقة ويأتى بالنتيجة ، فيقول ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ .. (٤٣)﴾ [ق]

ولأن البعض ينكر هذه الحقيقة أكدها سبحانه بتكرار الضمير .

﴿ إِنَّا نَحْنُ .. (٤٣) ﴾ [ق] فهو وحده سبحانه القادر على ذلك ﴿ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ (٤٣) ﴾ [ق] أى : المرجع والمآب ، فالبداية منا والنهاية إلينا .

﴿ يَوْمَ تَشَقَّقُ الأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا .. (٤٤) ﴾ [ق] أى : يخرجون منها مُسرعين لأنهم يستجيبون للصيحة فى وقت واحد فيخرجون مُسرعين دون تأخير .

﴿ ذَٰلِكَ .. (٤٤) ﴾ [ق] إشارة إلى ما يحدث فى ذلك اليوم من تشقُّق الأرض وخروج الناس من قبورهم مُسرعين ، وجمعهم فى مكان واحد للحشر ، وهذا الحشر ﴿ عَلَيْنَا يَسِيرٌ (٤٤) ﴾ [ق]

﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ (٤٥) ﴾

وما دام أننا أعلم بهم وبما يقولون فدَع الجزاء لنا ، لأنك إنْ جازيتهم تُجازيهم على قدر قوتك ، ونحن نجازيهم على قدْر قوتنا ، ولن نرحمهم ولن يفلتوا من العقاب ، إذن : اترك لنا هذه المسألة فنحن أقدر على تأديبهم .

﴿ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ .. (٤٥) ﴾ [ق] فمهمتك البلاغ فلا تتعب نفسك معهم ، ولا تكلف نفسك فوق طاقتها ، كما عاتب الحق سبحانه

بقوله : ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ [1] نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣) ﴾ [الشعراء]

ومعنى ﴿ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ .. (٤٥) ﴾ [ق] أى : تجبرهم على الإيمان ، لأنى لو أردتُ ذلك لأجبرتهم على الإيمان كما أجبرت غيرهم ، إنما أنا أريدهم طواعية مختارين .

﴿ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ .. (٤٥) ﴾ [ق] فهذه مهمتك أنْ تُذكِّر الناس بهذا القرآن .

ثم قيَّد التذكير هنا بقوله : ﴿ مَن يَخَافُ وَعِيدِ (٤٥) ﴾ [ق] أى : يخاف وعيدى وإنذارى ، ولا يخاف الوعيد إلا مؤمن وعنده استعداد وقابلية للتلقِّى والاستجابة .

وسبق أنْ أوضحنا الفرق بين الفعل والقابل للفعل ، فليس كل مَنْ يستمع القرآن سواء ، فمن الناس مَنْ يستمع ويثمر فيه السماع فيستجيب ، ومنهم مَنْ يستمع دون وعى ودون تأمل ، فكأنه لم يسمع شيئاً .

لذلك قال تعالى فى وصفهم : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا ..(١٦) ﴾ [محمد]

فهذا السماع عمل الجارحة فقط بلا قلب يستقبل ويعى ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى .. (٤٤) ﴾ [فصلت]

إذن : فالقرآن واحد لكن المستقبل مختلف ، منهم مَنْ يستمع

---

(١) بخع نفسه : قتلها هماً وغيظاً وحزناً . [القاموس القويم ١/٥٦] قال الفراء : أى مُخرج نفسك وقاتل نفسك . وبخع الوجد نفسه إذا نهكها . [لسان العرب – مادة : بخع] .

بقلب وَاعٍ ونفس صافية وذهْن خالٍ من الضد ومن العقائد الفاسدة فيتأثر ويستجيب ، ومنهم مَنْ يستمع بقلب معاند وذهن مشغول بعقائد مخالفة تمنعه من الاستجابة .

لذلك قلنا لمن يفاضل بين أمرين : ينبغى أنْ تُخرجَ الجميع من قلبك ، ثم تخلو مع نفسك وتفكر وتبحث فى الأمرين .

قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ .. (٤٦) ﴾ [سبأ] فالتفكير الجماعى تفكير غير منظم ولا يصل إلى الصواب غالباً .

تذكرون أننا قلنا فى توضيح اختلاف الأثر للفعل الواحد أنك تنفخ فى يدك فى الشتاء للتدفئة وتنفخ فى الشاى مثلاً لتبرده .

فالحق سبحانه وتعالى هنا خَصَّ بالتذكير ﴿ مَن يَخَافُ وَعِيدِ (٤٥) ﴾ [ق] لأنه صاحب القلب الواعى والذهن الخالى من المخالف الخالى من الغش ومن الضلال ، وهذا هو المستقبل الصحيح للقرآن .

سُورَةُ الذَّارِيَاتِ

سورة الذاريات(١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ۝١ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ۝٢
فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ۝٣ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ۝٤﴾

الواو هنا واو القسم ، فهذه أقسام يقسم بها الحق سبحانه ، ونحن لا نقسم إلا بالله لأنه لا توجد عند المؤمن عظمة فوق عظمة الله ، أما الحق سبحانه فيقسم بما يشاء من مخلوقاته لأنه سبحانه أعلم بأوجه العظمة فيها ومواطن الحكمة فى كل قسم منها .

فمثلاً يقسم سبحانه فيقول ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢﴾ [الضحى] فلماذا أقسم سبحانه بالضحى والليل إذا سجى بالذات ، ولم يقسم بشىء آخر ؟

---

(١) سورة الذاريات هى السورة رقم (٥١) فى ترتيب المصحف الشريف ، عدد آياتها (٦٠) آية . وهى سورة مكية فى قول الجميع . قاله القرطبى فى تفسيره (٩/٦٤٢٩) . نزلت بعد سورة الأحقاف وقبل سورة الغاشية فهى السورة رقم (٦٦) فى ترتيب نزول القرآن . (الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى ١/٢٧) .

جاء هذا القسَم رداً على كُفار مكة عندما فتر الوحى عن رسول الله فرحوا وقالوا : إن رب محمد قد قلاه[١] .

فالقسم هنا له مغزى ومناسبة ، فالضحى محلُّ الحركة والعمل ، والليل محل الراحة والسكون ، وكل منهما لا يستغنى عن الآخر .

فهنا إشارة إلى الحكمة من فتور الوحى ، كأنه يقول لهم : تأملوا فى الزمن الذى يشملكم ، وكيف أنه ليل للراحة ونهار للعمل ، وكلٌّ منهما يكمل الآخر .

كذلك مسألة الوحى لما نزل على رسول الله بداية الأمر كان شاقاً عليه مُرهقاً له ﷺ ، وقد وصف رسول الله هذه المشقة فقال عن الملَك « ضمَّنى حتى بلغ منِّى الجهد »[٢] ولما عاد إلى بيته قال : « زمِّلونى زمِّلونى » « دثرونى دثرونى » .

فكان فتور الوحى عن رسول الله فرصة يستريح فيها من العناء ، ويشتاق فيها لمباشرة الملَك من جديد ، فشبَّه نزول الوحى أولاً بالنهار وفتوره بالليل .

هنا الحق سبحانه يقسم بالذاريات ، وهى الرياح ، والرياح قوة وطاقة ضرورية للحياة فى هذا الكون ﴿ذَرْوًا ۝١﴾ [الذاريات] أى :

---

(١) أورده الطبرى فى تفسيره عن قتادة فى قوله تعالى ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾ [الضحى] قال : أبطأ عليه جبريل ، فقال المشركون : قد قلاه ربه وودّعه ، فأنزل الله ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾ [الضحى] . وقد أخرجه أبو عوانة فى مستخرجه (٣٢٢٢ ، ٥٥٥٨) من حديث جندب .

(٢) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٣ ، ٤٥٧٢) وكذا مسلم فى صحيحه (٢٣١) من حديث عائشة رضى الله عنها ، ولفظ الحديث (غطَّنى) .

تذرو الأشياء وتحركها ، والذاريات هى التى تحمل بخار الماء إلى مواطن تكوّن السحاب .

فقال بعدها ﴿فَالْحَامِلاتِ وِقْراً ۝٢﴾ [الذاريات] وهى السُّحب تحمل الماء وتتجمع حتى تصير ثقيلة ، كما قال سبحانه : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي(١) سَحَاباً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَاماً فَتَرَى الْوَدْقَ(٢) يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ .. ۝٤٣﴾ [النور]

والوقر : الحمْل الثقيل ، يقول سبحانه : ﴿وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ۝١٢﴾ [الرعد] ثم إن هذه السُّحب بعد أنْ تتكوَّن لا تقف فى مكانها إنما تحركها الرياح .

﴿فَالْجَارِيَاتِ يُسْراً ۝٣﴾ [الذاريات] أى : السُّحب تجرى جرياً خفيفاً ، وتسبح فى الفضاء فى خفَّة ونعومة .

وقوله : ﴿فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْراً .. ۝٤﴾ [الذاريات] أى : التى تقسِّم هذه السحب ، وتسُوقها إلى مواطن سقوطها ، كما قال سبحانه : ﴿فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ .. ۝٤٣﴾ [النور] ثم يأتى جواب هذه الأقسام الأربعة :

﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝٥ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ۝٦﴾

أى : ما تُوعدون من البعث والحساب ﴿لَصَادِقٌ .. ۝٥﴾ [الذاريات] حق

---

(١) يزجى سحاباً : يسوقه برفق . ومنه قوله تعالى ﴿رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ .. ۝٦٦﴾ [الإسراء] أى يدفعها ويُسَيِّرها برفق فوق الماء . [القاموس القويم ١/ ٢٨٤] .

(٢) الودق : المطر . ودقت السحابة : أمطرت . ومعنى أن الودق يخرج من خلاله ، أى من خلال السحاب المتراكم فى السماء . [القاموس القويم ٢/ ٣٢٧] .

وواقع ﴿وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ۝٦﴾ [الذاريات] الدين يعنى يوم الدين ، يوم الجزاء على الأعمال ﴿لَوَاقِعٌ ۝٦﴾ [الذاريات] جَارٍ وحادث لا شكّ فيه .

لكن ما مناسبة القسَم بهذه الأشياء على صدق يوم الدين ؟

قالوا : حين تنظر إلى الكون الذى نعيش فيه تجد أن الخالق سبحانه خلق فيه كل شىء وكل المقومات هذه كما هى فى كون الله منذ خلقها الله ، وهى باقية إلى يوم القيامة ، بحيث لا يُعاد فى الخَلْق إلا الإنسان .

خذ مثلاً الماء أو الهواء اللذين أقسم الله بهما تجد الماء هو هو منذ خلق اللهُ هذا الكون ، لا يزيد ولا ينقص ، لأنه يدور فى دائرة تعود به إلى الماء الطبيعى الذى خلقه الله .

فأنت مثلاً تشرب فى رحلة الحياة عدة أطنان من الماء مثلاً ، هل تبقى فيك ؟ أبداً إنما تخرج منك على هيئة بول وعرق وخلافه وتعود مرة أخرى إلى مصدرها ، وهكذا حتى القدر القليل الذى يتبقى فى جسم الإنسان تمتصه الأرض بعد موته ويعود إلى المياه الجوفية .

إذن : هنا إشارة إلى أنك تُولد وتموت وتعود ونأتى بك مرة أخرى ، فخذ من الكون المادى حولك دليلاً على إمكانية إعادتك مرة أخرى ، خذ المادى المشاهد دليلاً على صدق الغيب الذى أخبرك الله به ، إذن : لا تستبعد أن الشىء الذى يفنى يعود مرة أخرى .

ثم يقول سبحانه :

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ۝٧ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ۝٨
يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ۝٩﴾

هذا قسَم آخر يقسم الحق سبحانه بالسماء ﴿ذَاتِ الْحُبُكِ (٧)﴾ [الذاريات] من مادة (حَبَكَ) نقول مثلاً : هذا الشىء محبوك يعنى : صُنع بدقة لا زيادةَ فيه ولا نقصان ، وهكذا السماء نراها ملساء مستوية ليس فيها شقوق ولا فطور ، لأنها خُلقتْ بدقة وإحكام، وقالوا ﴿ذَاتِ الْحُبُكِ (٧)﴾ [الذاريات] أى : الطرق التى تسلكها الكواكب فى سَيْرها .

وجواب هذا القسم ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ (٨)﴾ [الذاريات] والكلام عن كفار مكة المعاندين لرسول الله الذين اختلفت أقوالهم فيه كأنَّ الحق سبحانه يعطيهم إشارة إلى أن القول يجب أنْ يكون واحداً قصداً لا التواءَ فيه ، كما فى خَلْق السماء خَلْقاً محكماً لا اختلافَ فيه .

كما قال : ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧) أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (٨) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا[1] الْمِيزَانَ (٩)﴾ [الرحمن] فالسماء استوت واستقامت لأنها خُلقت بميزان الحق ، فإن أردتم أنْ تستقيم أموركم فأقيموها على وفق هذا الميزان ، وإلا اختلفتم واختلفتْ أقوالكم .

ومعنى ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ (٩)﴾ [الذاريات] أى : يُصرف عنه أى عن رسول الله وعن الإيمان به ﴿مَنْ أُفِكَ (٩)﴾ [الذاريات] صرفته الشياطين عن الإيمان ، فمن مهمة الشيطان أنْ يصرف أهل الحق عن الحق ، وأنْ يُزيِّن لهم الباطل ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ

---

(١) أخسر الميزان : أنقصه . أى لا تنقصوا فى المكيال والوزن . وقال أبو عمرو : الخاسر الذى ينقص المكيال والميزان إذا أعطى ، ويستزيد إذا أخذ . [بتصرف من القاموس القويم ١٩٣/١ ، ولسان العرب] .

لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ (١٢١) ﴾ [الأنعام]

﴿ قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ (١٠) ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ (١١)
يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ (١٢) يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ (١٣)
ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ (١٤) ﴾

معنى ﴿ الْخَرَّاصُونَ (١٠) ﴾ [الذاريات] أى : الكذابون ، كما قال فى آية أخرى : ﴿ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ (٢٠) ﴾ [الزخرف] لكن كيف يقول ﴿ قُتِلَ .. (١٠) ﴾ [الذاريات] وهم أحياء ؟ قالوا : المراد هنا لُعنوا منى وأبعدوا عن رحمتى ، والقتْل يُخرجك من نعيم الدنيا ، أما اللعن فيُخرجك من رحمة الله فى الآخرة ويُدخلك فى عذابه والعياذ بالله .

كأنه سبحانه يقول لهم مَنْ تقتلون ومَنْ تلعنون ، بل أنتم الذين ستُقتلون وتُبعثون وتُحاسبون ، وأنتم الذين ستُلعنون وتُطردون من رحمة الله .

ثم يصفهم سبحانه بقوله : ﴿ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ (١١) ﴾ [الذاريات] يقولون : غمره الماء إذا شمله وأغرقه ، فكأن هؤلاء غمرهم الجهل حتى غرقوا فيه فأعماهم ، ومعنى ﴿ سَاهُونَ (١١) ﴾ [الذاريات] غافلون لاهون منصرفون عما يُراد منهم .

ومثل هؤلاء لا نجاة لهم يوم القيامة ، هذا اليوم الذى يُكذِّبون به ويسألون عنه سؤال الشك والاستهزاء ﴿ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ (١٢) ﴾ [الذاريات] متى هذا اليوم ؟

فـيُبـيِّنه الله لهم ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ (١٣)﴾ [الذاريات] يوم الدين الذى تكذبون به هـو هذا اليوم الذى سـتُلْقـون فيـه فى جـهنم وتذوقون فيه العذاب ألواناً ، جزاء استهزائكم وسخريتكم .

﴿ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ ..(١٤)﴾ [الذاريات] ذوقوا آثار فتنتكم فى الدنيا ، والنار أيضـاً تُسمّى فتنـة حين تُصهـر المعـدن مثـلاً لتنقيـه وتُخرج شوائبه .

فيوم الـدين الذى تسألون عنه سؤالَ استـهزاء وإنكار له هو يوم تُفتنون على النار وتُحـرقون بها كما يفـتن الذهب والحديد ، وإنْ كان الذهب والحديد يفتن ليـخرج منه خبثه وشـوائبه فيصيـر صلْباً فأنتم تفتنون على النار لتعذَّبوا بها وتُقاسوا الآلام التى لا تنتهى .

﴿هَـٰذَا (١٤)﴾ [الذاريات] أى : عـذاب يوم القيامة ﴿الَّذِى كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (١٤)﴾ [الذاريات] واستعجالهم له نتـيجة تكذيبهم به ، فلو آمنوا بأنه حَقٌّ ما استعجلوه .

وقـد حـكى القرآن قولهم : ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧٠)﴾ [الأحقاف]

إذن : سـؤالهم عـن يوم الدين ﴿أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ (١٢)﴾ [الذاريات] استهزاء به وإنكار له ، لأنهم لا يؤمنون بشىء غـيبى أخبر الله عنه ، مع أنهم أخذوا النعم المادية التى أنعم الله بها عليهم ، وخلق بها النفع لهم ، لكنهم أخذوا النعمة ولم يلتفـتوا إلى المنعم ، بل اغتروا بالنعمة فقالوا ما قالوا من إنكار واستهزاء .

لذلك نجد آيات كثيرة تجادلهم بالحجة وبالبرهان ، وتثبت لهم أن

القيامة حق ، فلما قالوا : ﴿أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا[1] أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٤٩)﴾ [الإسراء] رد عليهم : ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا (٥٠) أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ .. (٥١)﴾ [الإسراء]

فلأنهم استبعدوا إحياء العظام نقلهم نقلة أعلى من العظام ، فالعظام لها أصل فى الحياة ، فيقول لهم : حتى لو كنتم جماداً حجارة أو حديداً مما يتصف بالصلابة ولا صلةَ له بالحياة ، فنحن قادرون على إحيائكم .

بعد أنْ تكلَّم الحق سبحانه عن المعاندين لرسول الله المكذبين بالقيامة يذكر سبحانه المقابل ، وقلنا فى ذكر المقابل توضيح للصورة ، والضد يظهر حُسْنه الضد ، فيقول سبحانه :

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) وَبِالْأَسْحَارِ[2] هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩)﴾

---

(١) الرفات : الحطام من كل شىء تكسَّر . والرفات : الدُّقاق . [لسان العرب مادة : رفت] قال مجاهد فى تفسير آية الإسراء ٤٩ رفاتاً أى تراباً . وقال ابن عباس : رفاتاً أى غباراً . [تفسير ابن كثير ٣/٤٤] .

(٢) السَّحَر : الجزء الأخير من الليل إلى مطلع الفجر وجمعه أسحار . [القاموس القويم ١/٣٠٥] .

قوله تعالى ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ .. (١٥)﴾ [الذاريات] (إن) تفيد توكيد الكلام ، و (المتقين) جمع المتقى ، والتقوى كما قلنا أنْ تجعل بينك وبين عذاب الله وقاية ، لذلك نجد القرآن يقول مرة : ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ..(١٨)﴾ [الحشر] ومرة يقول ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ ..(١٣١)﴾ [آل عمران]

والمراد : الزموا طاعة الله ، وتجنّبوا معصيته وأسباب عذابه ، لأن لله تعالى صفات جمال وصفات جلال ، والتقوى أنْ تجعل بينك وبين صفات الجلال وقاية من صفات الجلال التى تزجر المخالف وترده عن الشر .

فمن صفات الجمال أن خلق لنا ما ننتفع به فى الدنيا ، ومن ذلك النار ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ[1] (٧١) أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ (٧٢)﴾ [الواقعة]

لكن هذه النار التى تنتفعون بها فى الدنيا وتُعد نعمة من نعم الله عليكم احذروها فى الآخرة ، لأنها ستكون أداة تعذيب ، ستكون جنداً من جند الله لقهر المخالفين ، فاتقوها . إذن : المعنى واحد : اتقوا الله ، واتقوا النار .

وتلاحظ هنا أن ﴿الْمُتَّقِينَ .. (١٥)﴾ [الذاريات] فى زمان التكليف وهى جمع و ﴿جَنَّاتٍ .. (١٥)﴾ [الذاريات] فى زمن الجزاء وهى جمع ، وكذلك ﴿وَعُيُونٍ (١٥)﴾ [الذاريات] فكأن الحق سبحانه وتعالى يقول : إن لكل مُتّق جنة وعيناً تجرى خلالها ،

---

(١) تورون أى تقدحون من الزناد وتستخرجونها من أصلها . [ابن كثير فى تفسيره ٢٩٦/٤] . وأورى الزند إيراء : خرجت ناره . وأورى القادح زنده : أخرج منه النار . فهو لازم ومتعد . [القاموس القويم ٣٣٣/٢] .

نعم جنة خاصة به ، لأن القاعدة إذا قُوبل الجمع بالجَمع اقتضى القسمةَ آحاداً .

كما يقول المدرس مثلاً للتلاميذ : أخرجوا كتبكم ، والمراد أنْ يُخرجَ كلّ منهم كتابه ، لكن نجد فى سورة (الرحمن) يقول سبحانه : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (٤٦) ﴾ [الرحمن]

فكيف نجمع ونُوفِّق بين الآيتين ؟ قالوا : لأن سورة الرحمن جاء الخطاب فيها للثقلين الجن والإنس ، فالمعنى : ولمَنْ خاف مقام ربه من الإنس أو الجن جنة ، جنة للإنس وجنة للجن .

أو أن المعنى : له جنتان بالفعل ، وسبق أنْ أوضحنا أن الحق سبحانه خلق الجنة على فرض أنْ يؤمن جميعُ البشر ، وخلق النار كذلك تكفى للبشر جميعاً إنْ لم يؤمنوا .

وقلنا : هناك لا توجد أزمة مساكن ، فإذا دخل أهلُ النار النارَ فرغتْ أماكنهم فى الجنة فورثها المتقون ، فكأنه أخذ جنته وجنة الكافر الذى تركها ، وذهب إلى النار .

والجنة هى البستان الملىء بالأشجار متشابكة الأغصان بحيث تستر مَنْ يسير فيها وتُجنّه ، أو أن فيها كلَّ مقومات الحياة بحيث لا يحتاج إلى الخروج منها ، كما نقول فى كلمة قصر يعنى : قصرك فى مكانه عن الأمكنة الأخرى ، فلا تخرج منه إلى مكان آخر لتلتمس أسباب الحياة ..

وقال : ﴿ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) ﴾ [الذاريات] أى : عيون الماء ، لأن الجنات الأصل فيها الخضرة والنماء والثمار ، وهكذا الأشياء

وليدة وجود الماء ، فالعيون فى الجنات لاستبقائها ودوامها كجنة .

لذلك لما تحدَّث القرآن الكريم عن أنهار الجنة وتوفير الماء اللازم لها قال مرة ﴿ تَجْرِى تَحْتَهَا الأَنْهَارُ .. (١٠٠) ﴾ [التوبة] وقال مرة ﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ.. (١٢) ﴾ [الصف]

فمن هنا تفيد أن الماء ذاتى فيها ، حتى لا نظن أن الماء الجارى الذى يمرُّ بها قد ينقطع فيقول لك : اطمئن فماء الجنة مضمون لأنه نابع منها .

وقوله سبحانه : ﴿ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ .. (١٦) ﴾ [الذاريات] يعود السياق هنا إلى الماضى ويُحدِّثنا عن الحيثية ، فهؤلاء المتقون نالوا هذا الجزاء ، لأنهم أخذوا منهج الله برضا وقبول .

﴿ آخِذِينَ ..(١٦) ﴾ [الذاريات] جمع آخذ اسم فاعل ، وهو الذى يتناول الشىء بعشق ولهفة ، ويأخذه برضى وقبول ، والإنسان لا يمدُّ يده ليأخذ إلا لشىء فيه نفع له على خلاف شىء يُرْمى عليك فتأخذه وأنت كاره .

فكأن هؤلاء سمعوا منهج الله ، وعلموا أن فيه قوامَ حياتهم وصيانة حركتهم ونجاة آخرتهم فأخذوه ، أخذوه بلهفة وحب وعشق ، أخذوه بقوة كما قال تعالى : ﴿ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ ..(٦٣) ﴾ [البقرة]

فالقوة فى الأخذ تدل على أن الآخذ يقدر المنفعة الجميلة التى ينالها ، ثم إنك أخذتَ وغيرك ترك ، فأحسنتَ وأساءوا ، مع أنك مختار ولك مطلق الحرية تأخذ أو تترك .

لقد أحسنتَ وأنت قادر على الخير وعلى قبول الشر ، فكونُكَ تسمع وحى الله وتطيع وتتحمل التكاليف عن رضا وقبول ، فأنت أهلٌ لهذا الجزاء .

ثم تبين الآيات أن الأخذ هنا أخذٌ مقيد ، لا نأخذ كل شىء وكل ما يأتينا بل نأخذ ماجاءنا من ربنا وخالقنا ﴿آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ .. (١٦)﴾ [الذاريات] واختار هنا صفة الربوبية لأنها عطاء ، فالرب هو الذى خلق من عَدمَ وأمدَّ من عُدْم ، وأبقى لك مُقوِّمات الحياة بقيوميته ، نقول : فلان قائم على الأمر يعنى : مهتم به لا يتركه لغيره .

فالله بحكمته وقدرته خلق ، وبقيوميته استدام الخير ، لذلك ساعة يأتيك الخير تذكر الربوبية التى منحتك . والربوبية أسبق فى حياة الإنسان من الألوهية ، لأن الله تعالى أعطاك وأمدَّك قبل أنْ تُخلَق وما كلّفك إلا بعد سنِّ البلوغ .

وما دُمت قد أخذتَ عطاء الربوبية وتمتعتَ به فقد وجب عليك أنْ تأخذ عطاء الألوهية ، وكما أخذتَ العطاء الأول بحب ورغبة وعشق ، فعليك أنْ تأخذ العطاء الآخر أيضاً بحب ورغبة وعشق ، لا يليق بك أن تأخذ الأول وتترك الثانى وتتنكر له لأنك لو تأملت عطاء الألوهية لوجدته أنفع لك من عطاء الربوبية وأدوم .

فعطاء الربوبية الأول أعطاك مقومات الحياة الدنيا وهى موقوتة فانية ، أعطاك مقومات القالب الزائل ، أما عطاء الألوهية فعطاء يضمن لك الآخرة الباقية ويحيى فيك الروحُ الباقية التى لا تفنى . إذن : فأيّهما أحقُّ بالأخذ ؟

لذلك الحق سبحانه وتعالى حينما حدثنا عن هذه المسألة قال سبحانه : ﴿ يَـٰبَنِى آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِى سَوْءَاتِكُمْ[1] وَرِيشًا[2] وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ .. (٢٦) ﴾ [الأعراف]

فاللباس الذى يوارى السوأة يمثل الضروريات والريش للزينة والكماليات ، وهذا قصارى ما نأخذه فى الدنيا . ثم يلفت الأنظار إلى ما هو أهم ﴿ وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ .. (٢٦) ﴾ [الأعراف] خير من نعيم الدنيا وزينتها وزخرفها ، لأن هذا زائل وهذا باقٍ دائم ، لباس الدنيا يسترك فى الدنيا ، ولباس التقوى يسترك فى الدنيا وفى الآخرة .

ولما كان لعطاء الألوهية هذه الأهمية لم يُعطه الله إلا لمن آمن به مختاراً ، فلم يكلف إلا المؤمن ، لذلك نقرأ دائماً فى مجال التكاليف ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا .. (١٥٣) ﴾ [البقرة]

ثم تذكر الآيات صفة أخرى من صفات المتقين ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) ﴾ [الذاريات] أى : ما استحقوا هذه المنزلة إلا لأنهم ﴿ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) ﴾ [الذاريات] والإحسان درجة

---

(١) السوءات جمع سوْءة ، وهى العورة ، وما يقبح إظهاره وينبغى ستره . [القاموس القويم ١/ ٣٣٣٤] .

(٢) قال ابن كثير فى تفسيره (٢/ ٢٠٧) : « اللباس ستر العورات وهى السوءات والرياش والريش ما يتجمل به ظاهراً ، فالأول من الضروريات والريش من التكملات والزيادات . وقال ابن عباس : الريش المال وهكذا قال مجاهد وعروة وغير واحد ، وقال ابن عباس : الرياش اللباس والعيش والنعيم » .

ومنه قولنا فى العامية : رجل مريِّش أى غنى . ومنها بالإنجليزية Rich .

عالية من درجات الإيمان عرَّفها العلماء فقالوا : الإحسان هو ما جاء فى حديث رسول الله ﷺ : « أن تعبد الله كأنك تراه ، فإنْ لم تكن تراه فإنه يراك »[١] .

والإحسان هو الزيادة فى الطاعات فوق ما أمرك الله به ، لذلك نزلت هذه الآية فى مكة قبل أنْ تُفرض الزكاة فى مكة ، قال تعالى : ﴿ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩) ﴾ [الذاريات] ولم يقل حق معلوم ، فالحق المعلوم هو الزكاة وقد فرضت بالمدينة ، أما الصدقة فكانت فى المرحلة المكية .

إذن : معنى الإحسان أنهم ذهبوا إلى مراتب الإحسان قبل أنْ يُكلَّفوا بها ، وهذا يعنى أن مراتب الإحسان فطرية وطبيعية ، وفى إمكانك ولا تكلفك ، وهكذا كل أمور الطاعة والاستقامة تأتى طبيعية لا تكلُّف فيها على خلاف المعصية .

لذلك نقول : إن المستقيم مثلاً يوفر ثمن الجلوس على القهاوى وشرب الدخان والقهوة والمخدرات والمسكرات ، فالاستقامة من الناحية الاقتصادية أوفر لصاحبها .

حتى فى عمل الجوارح تأتى الاستقامة طبيعية ، أما المعصية فتحتاج إلى تكلُّف وتلصُّص واحتيال ، لذلك فى الاشتقاق اللغوى عبَّر القرآن عن الطاعة بـ (كسب) وعن المعصية بـ (اكتسب) .

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٨ ، ٤٤٠٤) وكذا مسلم فى صحيحه (١٠، ١١) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه . وأخرجه مسلم فى صحيحه (٩) من حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

فالكسب أمر طبيعى ، و (كسب) على وزن فعل ، أما (اكتسب) ففيها افتعال وهى على وزن افتعل ، وهذا الافتعال تراه مثلاً فيمن يحتال لينظر إلى ما حرَّم الله عليه ، كيف يتلصص ويُسارق الناسَ النظرات ، كذلك تراه فيمن يذهب إلى المسجد ومَنْ يذهب إلى الخمارة وهكذا .

وقد عرَّف العلماء درجة الإحسان فى العبادة ، فقالوا : الإحسان أنْ تؤدى ما فرضه الله عليك من العبادة ، وتزيد عليها من جنس ما فرض الله ، فالمؤمن يؤدى الصلوات الخمس والمحسن يؤديها ويزيد عليها ما استطاع من النوافل .

المؤمن يؤدى الزكاة بمقدار نصف العشر أو ربع العشر ، والمحسن يؤدى فوق ذلك وهكذا .

إذن : المحسن هنا له معنيان : أنه أحسن قبل التكليف وبادر بعمل الخيرات قبل أنْ تُفرض عليه ، أو أدَّى ما فُرِض عليه ثم زاد على ما فرض من جنس ما فرض الله عليه .

ثم يصف الحق سبحانه وتعالى المحسنين بقوله : ﴿ كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) ﴾ [الذاريات] والهجوع هو : الثبات عن الحركة فى الخير وعدم عمل الشر ، ونقول للولد المشاغب الذى تزيد حركته : اهجع . يعنى : كُفّ عن الحركة المزعجة .

ومن هنا قالوا : نوم الظالم عبادة ، نعم عبادة لأنه يكفُّه عن الظلم ، فهؤلاء لهم أنْ يصلُّوا العشاء ويناموا بعدها إلى الفجر ، لكن حبهم للطاعة جعلهم لا يهجعون من الليل إلا قليلاً ، ونَفْى الهجوع نَفْىٌ للنوم من باب أوْلَى .

والإحسان نتيجة لحب العبد لربِّه ، فالله أحسن إليك حين كلَّفك وحيَّاك بهذا التكليف ، فعليك أنْ ترد التحية بأحسن منها ، فإنْ كلَّفك

بخمس صلوات تجعلها عشراً ، وإنْ كلَّفك بنصف العشر أو بربُع العشر فى الزكاة تجعلها أضعاف ذلك ، وهكذا فى سائر العبادات وأوجه الخيرات .

ولما سُئل سيدنا رسول الله ﷺ عن الإحسان قال : « هو أنْ تعبد الله كأنك تراه ، فإنْ لم تكُنْ تراه فإنه يراك » والذى تراه يكون حاضراً ليس غيباً ، وتصوَّر أنك أجير عند رجل يجلس خلفك يراقبك ويرصد كل تحركاتك ، هل تستطيع عندَه إذن أنْ تتهاون فى عملك أو تقصر فيه ؟

كذلك حال المحسن فى عبادته ، وقد ورد فى الحديث القدسى : يا عبادى إنْ كنتم تعتقدون أنِّى لا أراكم ، فالخلل فى إيمانكم ، وإنْ كنتم تعتقدون أنى أراكم ، فلم جعلتمونى أهون الناظرين إليكم ؟[1] .

وقوله تعالى : ﴿ وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) ﴾ [الذاريات] الأسحار جمع السَّحَر ، وهو آخر الليل وقبل طلوع الفجر ، حيث يظهر ضوء بسيط يخيَّل للإنسان أنه ضوء الشمس وهى لم تطلع بعد ، ولذلك يُسمَّى ضوءاً تخيلياً .

ومنه كلمة السِّحر ، فالسحر قلْبٌ للحقائق بطريق التخيُّل ولا حقيقة له ، ومنه قوله تعالى : ﴿ سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ .. (١١٦) ﴾ [الأعراف]

ووقت السَّحَر من أفضل الأوقات للاستغفار ، لكن ممّ يستغفر

---

(١) ذكره ابن رجب الحنبلى فى جامع العلوم والحكم فى شرح الحديث (١٨) من قول أبى الجلد قال : أوحى الله تعالى إلى نبى من الأنبياء : قل لقومك : ما بالكم تسترون الذنوب من خلقى وتظهرونها لى ، إن كنتم ترون أنى لا أراكم فأنتم مشركون بى ، وإن كنتم ترون أنى أراكم فلم جعلتمونى أهون الناظرين إليكم ؟

هؤلاء الذين وصفهم ربهم بالتقوى ، وأنهم أخذوا ما آتاهم ربهم ، وأنهم نالوا درجة الإحسان ، وكانوا قليلاً من الليل ما يهجعون ؟

إذن : ليس لهم ذنوب يستغفرون الله منها ، قالوا : إن لهؤلاء استغفاراً يليق بدرجة الإحسان ، فهم لا يستغفرون الله من ذنوبهم ، بل يستغفرونه للتقصير الذى يظنونه فى عباداتهم وأعمالهم وكأنهم استقلُّوا ما فعلوه ورأوه دون ما يستحق الله تعالى من التقدير والعبادة . وهذا من باب « حسنات الأبرار سيئات المقربين » .

وقوله تعالى :﴿ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩) ﴾ [الذاريات] نسب إليهم المال ، فقال ﴿ أَمْوَالِهِمْ .. (١٩) ﴾ [الذاريات] لأنه يتملكه الآن وإنْ كان فى الحقيقة مال الله ، والإنسان مستخلف فيه إلى حين .

لذلك قال سبحانه : ﴿ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ .. (٧) ﴾ [الحديد]

والإنسان خليفة لله فى الأرض ، وعليه بمقتضى هذه الخلافة أنْ يطيع أمر مَن استخلفه بأنْ يعطى السائل والمحروم من مال الله المستودع عنده ، يعطى العاجز غير القادر على العمل والكسب ، حتى لو يعطيه شكراً لله الذى منحه القوة ليعمل ، فى حين أن غيره عاجز محروم من هذه القوة .

والحق سبحانه وتعالى حينما يأمرنا بذلك إنما يُؤمِّن حياة ومستقبل القادر وغير القادر على العمل ، لأن الدهر يتقلب بالناس ، وأحداث الحياة دائمة التغيير ، وربما أصبح القادر اليوم غير قادر غداً ، وعندها يجد مَنْ يمد إليه يد المساعدة .

لذلك قلنا : إن الشارع الحكيم علمنا أنْ نعمل على قدر الطاقة

لا على قدر الحاجة ، فحينما تعمل على قدر الطاقة التى وضعها الله فيك فإنك ستأخذ حاجتك وتتصدَّق على غير القادر أنْ يعمل ، ولو توفر لنا هذا التضامن وهذا التأمين لَعاش الإنسانُ لا يهاب أحداث الحياة ولا يخشى الفقر عليه وعلى ذريته من بعده .

وقوله تعالى : ﴿لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾﴾ [الذاريات] السائل هو المحتاج وتضطره الحاجة لأنْ يسأل الناس ، ومثله المحروم هو أيضاً محتاج لكنه يتعفف عن المسألة فيحرم وربما يجوع أو يهلك ، وهو فى هذه الحالة يكون آثماً فى حقِّ نفسه ، لأن الله تعالى شرع له أنْ يسأل ، فهو محروم من التملك أولاً ، وحرم نفسه ثانياً من السؤال الذى شرع له .

ومن هنا حثَّ الإسلام على التعارف وعلى حضور الجماعات التى يتعارف فيها الناس ، ويسأل بعضهم عن بعض ، ومن خلال هذا التعارف نعرف المحتاج فنساعده ونعرف المريض فنزوره ، وهكذا .

وأحد الصالحين جاءه سائل فأعطاه حاجته ، ثم دخلتْ عليه زوجته فوجدته باكياً ، فقالت له : ما يُبكيك وقد أعطيته حاجته ؟ فقال : أبكى لأنِّى تركته حتى يسألنى .

إذن : الواجب أنْ يصل الحق إلى أصحابه دون سؤال ؛ واجب على الغنى أنْ يكفى الفقير مذلة السؤال .

﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾

الأرض هى الأرض التى نعيش عليها وهى مفردة ، وفى الحقيقة هى أراض متعددة ، كما قال تعالى : ﴿خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ .. ﴿١٢﴾﴾ [الطلاق] فهى إذن سبع أرْضين .

قالوا : لأن الأرض بيئات متعددة من حيث الطقس حرارة وبرودة ، ومن حيث التربة وما تحويه من عناصر وما تُخرجه من خيرات . ومن هنا تعددت الأراضى ، لذلك العلماء يقولون : هذا حزام القمح مثلاً ، وهذا حزام الموز ، وهذا حزام كذا .

فالحق سبحانه أعطى كل أرض ما يصلحها لنبات معين يناسب السكان عليها ، والعيب أننا ننقل إنتاج أرض إلى أرض أخرى لا يصلح لها ، ولو صلح للسكان هنا لكان موجوداً عندهم .

لذلك نجد النبات فى غير أرضه تصيبه الآفات ، فلو نظرنا مثلاً إلى حزام الموز تجده فى أماكنه قوياً لا تصيبه آفة ولا عطب ، فإذا نقلته إلى غير أرضه كثرتْ فيه الآفات وأصابه العطب .

كأن الخالق سبحانه يقول لنا : هذا ليس مخلوقاً لبيئتك ، بل له بيئته التى يجود فيها ، حيث تتوفر له مقومات نموه .

والآيات جمع آية ، وهى العلامة الدالة على قدرة الخالق سبحانه ، وأول الآيات فى الأرض نلحظها فى توزيع رقعة الأرض بين الماء واليابسة ، الماء منه عَذْب فراتٌ ، ومنه ملح أُجَاج .

العذب نشرب منه ، ونسقى الزرع والدواب ، والمالح نأخذ منه الأسماك ﴿ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا .. (١٢) ﴾ [فاطر]

والأرض فيها الخصب السهل الصالح للزراعة ، ومنه الصحارى والجبال ، وفى كل منها الخيرات التى تناسبه . ومن الآيات فى الأرض أن الماء ثلاثة أرباع اليابسة ، والحكمة من ذلك أنْ تتسع رقعة

المـاء ، وتتسع رقـعة البـخـر التى تعطينا بعـد ذلك المطر الذى يكفى للشرب وللزراعة .

إذن : الماء المالح هو مخزن الـماء فى الأرض ، وجعله الله مالحاً ليحـفظه من العطب ويصونه من التـغيُّر ، يقـول تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا[1] ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٥٧) ﴾ [الأعراف]

ومن الآيات فى الأرض أن مـجارى المـياه العذبـة أعلى مسـتوى من مجارى المياه المالحة ، ولو أن المالح كـان أعلى لأفسد المياه العذبة ولمَا انتفعنا بها ، يقول تعالى : ﴿ بَيْنَهُمَا بَـرْزَخٌ[2] لاَّ يَبْغِيَانِ (٢٠) ﴾ [الرحمن]

ومن عجـائب القدرة فى خَلْق النبـات أنْ تجد أجود أنـواع النخيل والتين مـثلاً على الشواطىء المالحـة كما فى العريش وغـيرها ، وهذه من طلاقة القدرة التى لا تخضـع للأسبـاب ، إنما تفعل ما تريد ، فمن الماء المالح نأكل أشهى وأحلى الثمار .

---

(١) أقلَّ الشىء : حمله ورفعه . فالرياح ترفع السحاب وتحمله وتسوقه إلى مناطق أخرى .

(٢) البرزخ : الحاجز بين الشـيئين . ومعنى أن (بينهما برزخ لا يبغيان) أى بـين البحرين حاجز من الأرض يحجز كلاً منهما فى مجراه فلا يبغى ولا يطغى على الآخر فهو يمزجهما حين يلتقيان فلا يبقي العذب عذباً ولكن بينهـما من الأرض برزخ قبل التقائهما يحفظ كلاً منهـما فى مجراه ، وأما من يفسر الآية بأن بينهما حاجزاً من القدرة يمنع امتزاج أحدهما بالآخر فيبقى العذب عذباً والملح ملحاً فهذا ليس تفسـيراً علمياً ولا يطابق الواقع ، فبعد ميلين أو ثلاثة أمـيال من مصب النهر على الأكثـر لا نجد قطرة واحدة من المـاء العذب وأحيـاناً بعد ميل واحـد إذا كان البحـر هائجاً ، وإلا لشرب الناس الماء الـعذب وهم مسافرون فى البـحار . ولكن الأنهار حين تصب فى البـحار يبقى الماء العذب طافياً لخفته مسافة قصيرة ثم ينمحى ويمتزج بالماء الملح امتزاجاً تاماً » .

ومن الآيات فى الأرض الجبال : ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (٢٧)﴾ [فاطر] والجبال كما قلنا هى مخازن الخصب ، ومخازن القوت ، ومخازن للخيرات الكثيرة من المعادن والأحجار الكريمة .

وسبق أن أوضحنا أن الحق سبحانه نثر الخيرات ووزّعها على الأرض كلها ، بحيث إذا أخذنا من الأرض قطاعاً من محيط الأرض إلى مركزها لوجدنا فيه من الخيرات ما يساوى القطاع الآخر ، فهذا به معادن ، وهذا بترول ، وهذا مزروعات ، وهكذا .

ومن الآيات فى الأرض أنْ تجد التربة واحدة وتُسقى بالماء الواحد ، ومع ذلك تعطى مختلف الثمار ومختلف الطعوم ﴿وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ [1] وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٤)﴾ [الرعد]

نعم يعقلون قدرة الله فى الخلق ، وأن هذه الآيات مخلوقة لقادر حكيم قيوم .

وهنا قال ﴿آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ (٢٠)﴾ [الذاريات] أى : الذين يوقنون بذلك ويؤمنون به ، فأعظم درجات العلم هى العلوم الكونية التى تبحث فى الكون ، وتستدل بآياته على قدرة الله .

---

(١) صنوان : جمع مفرده صِنْو بكسر الصاد ، والصُّنو بضمها : المثل . وهو إذا طلعت اثنتان أو أكثر من النخل أو الشجر من أصل واحد قيل لكل واحد منها صنو . [القاموس القويم ١/ ٣٨٤) قلت : منه حديث رسول الله « العم صنو الأب » لأنهما من أصل واحد . [عادل أبو المعاطى]

اقرأ مثلاً : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ (١) سُودٌ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ .. (٢٨) ﴾ [فاطر]

لاحظ أنه تعالى لم يذكر هنا حكماً شرعياً يتعلق بصوم ولا صلاة ولا زكاة . إذن : المراد بالعلماء هنا علماء الطبيعة والكونيات الذين يبحثون فى النبات والحيوان والإنسان والجماد ، ويستدلون بالقدرة على القادر سبحانه ، ويأخذون بأيدى الخلق إلى ساحة الإيمان بالخالق ، وهذه حقيقة تنفعهم فى الدنيا وفى الآخرة .

والمتأمل لقوله تعالى : ﴿ وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ (٢٠) ﴾ [الذاريات] يفهم منه أن الإنسان إذا نظر فى الكون من حوله ويستدل منه على وجود الخالق سبحانه ، لذلك أوقع الكافرين فى الفخ عندما سألهم : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ .. (٨٧) ﴾ [الزخرف] ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ .. (٣٨) ﴾ [الزمر]

نعم لم يقولوا غير ذلك لأنها مسألة واضحة وضوحَ الشمس ولم يدعها أحد لنفسه ، وكيف يدعيها وقد خُلق رضيعاً لا يقدر على شىء فكيف يقول : خلقتُ نفسى ، وقد طرأ على الكون كما هو فكيف يدعى أنه خلقه ؟

وقوله تعالى : ﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ (٢١) ﴾ [الذاريات] أى : كما أن فى الأرض آيات كونية دالة على قدرة الله ، كذلك فى أنفسكم

---

(١) غرابيب : جمع غربيب وهو الشديد السواد . ووصفها بـ (سود) للتأكيد .

آيات ، فإذا لم تصل إلى آيات الكون من حولك فانظر فى نفسك التى بين جنبيك .

وقال تعالى : ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الذاريات] لأن آيات الكون من حولك إنْ بعُدَتْ عليك فإن آيات نفسك قريبة منك ، وأوْلَى بالنظر والتأمل .

والآيات فى النفس كثيرة ، خُذْ مثلاً درجة حرارة الجسم تجدها واحدة هى ٣٧° لمن يعيش عند القطب المتجمد ، ولمَنْ يعيش عند خط الاستواء ، ولا تستقيم حركة الأعضاء والجوارح إلا عند هذه الدرجة ، ولو زادت لاختلَّ نظام الجسم كله واضطربت حركته .

أما فى داخل الجسم فكل جهاز من أجهزته له درجة حرارة تناسبه دون أنْ يحدث استطراق حرارى فى الجسم الواحد كما نعلم ، فإذا كانت الحرارة العامة فى الجسم ٣٧° فإن حرارة العين مثلاً تقف عند تسع درجات لا تزيد عنها ، ولو زادت عن ذلك لانفقأت العين .

أما الكبد فلا يؤدى دوره فى الجسم إلا عند أربعين درجة ، والعجيب أن هذا التفاوت داخل جلد واحد وجسم واحد ، فتبارك الله أحسن الخالقين .

كذلك لو تأملتَ الدم الذى يجرى فى العروق ، التنفس ، القلب ، المخ ، العظام كل شىء فى جسمك فيه آية ، بل آيات حين تتأملها تقول : سبحان الخالق المبدع ، سبحان مَنْ له طلاقة القدرة .

إذن : لا حجة لمَنْ لم يؤمن بعد ما رآه من الآيات فى نفسه وفى الكون من حوله .

﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾

هذا الأسلوب يُسمَّى فى البلاغة أسلوبَ قصر ، بتقديم الجار والمجرور على المبتدأ ، فالرزق فى السماء فقط لا فى غيرها ، الرزق يأتيك من أعلى من الله ، والرزق كل ما يُنتفع به ، فالمال رزق ، والصحة والعافية رزق ، والعقل رزق ، والأمن رزق .

ومعنى أن الرزق فى السماء . أى : أنه أمر وتقدير أزلىّ مكتوب فى اللوح المحفوظ ، فإنْ أردتَ الحياة المادية التى نعيشها ، فهى أيضاً مصدرها الماء النازل من السماء ، لأنه قوام الحياة ومصدر القوت .

﴿ وَمَا تُوعَدُونَ (٢٢) ﴾ [الذاريات] أى فى السماء أيضاً ، فكل شىء مقدور ومكتوب فى اللوح المحفوظ ، كل صغيرة وكبيرة ، وشاردة وواردة ، يقول تعالى : ﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٥٩) ﴾ [الأنعام]

إذن : ما دامت الأرزاق مُقسَّمة عند الله ، وما دام كل شىء مكتوباً أزلاً ، فأجملوا فى الطلب ، ولا تنشغلوا بمسألة الرزق ، إلا أنْ تذهب إليه وأنْ تسعى فى طلبه ، فأنت لا تخلقه ولكن تذهب إليه كما قال سبحانه : ﴿ فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا[1] وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ .. (١٥) ﴾ [الملك]

فالمشى والسعى سببٌ للرزق المقسوم لك أزلاً ، وهذا الدرس تعلمناه من السيدة هاجر أم إسماعيل لما تركها سيدنا إبراهيم هى

---

(١) مناكب الأرض : طرقها وجبالها وجوانبها وأنحاؤها . والمنكب من الأرض الموضع المرتفع . قال الأستاذ إبراهيم أحمد عبد الفتاح فى القاموس القويم (٢/٢٨٤) : « فى ذكر المناكب حث على احتمال المشقة فى سبيل الرزق » .

وولدها عند الكعبة وانصرف فقالت : آلله أمرك بهذا ؟ قال : نعم . قالت : إذن لن يُضيِّعنا[١] .

فهى واثقة أن الرزق عند الله ، وما كان سعيها سبعة أشواط بين الصفا والمروة إلا نموذجاً للسعى ، فكأن الحق سبحانه أراد أنْ يجعلها شاهداً على صدق هذه الآية ، فلما استنفدت السيدة هاجر أسبابها فى السعى عادتْ إلى وليدها مطمئنة بقولها : إن الله لن يضيعنا .

وعندها ضرب الوليدُ الأرضَ برجله فتفجَّرت من تحتها زمزم ، وبعد ذلك جعلها الله لنا مشعراً من مشاعر الحج والعمرة ليُذكِّرنا دائماً بهذه الحقيقة ، وهى أن الرزق عند الله ، لكن السعى إليه مطلوب ، والحركة فى اتجاهه سببٌ من أسبابه .

﴿ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾

حكى الأصمعى[٢] أنه قابل يوماً أعرابياً ، فسأله الأعرابى : من

---

(١) أخرجه الطبرى فى تفسيره لقوله تعالى : ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ ..﴿٣٧﴾ ﴾ [إبراهيم] عن ابن عباس قال : جاء نبى الله إبراهيم بإسماعيل وهاجر ، فوضعهما بمكة فى موضع زمزم ، فلما مضى نادته هاجر : يا إبراهيم إنما أسألك ثلاث مرات : من أمرك أن تضعنى بأرض ليس فيها ضرع ولا زرع ولا أنيس ولا زاد ولا ماء ؟ قال : ربى أمرنى . قالت : فإنه لن يضيعنا .

(٢) الأصمعى هو عبد الملك بن قريب بن على بن أصمع الباهلى ، أبو سعيد راوية العرب وأحد أئمة العلم باللغة والشعر والبلدان ، نسبته إلى جده أصمع ، ومولده ووفاته فى البصرة ، كان كثير التطواف فى البوادى يقتبس علومها ، وله تصانيف كثيرة ، توفى عام ٢١٦ هجرية [الأعلام للزركلى] .

أين ؟ فقال : من أصمع[1] ، قال : من أين أتيتَ ؟ قال : من المسجد ، قال : وماذا تصنعون فيه ؟ قال : نقرأ قرآن الله ، قال : فاقرأ عليَّ .

فقرأتُ عليه سورة الذاريات حتى وصلتُ إلى قوله تعالى : ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (٢٢)﴾ [الذاريات] فأتى بأدوات الصيد التى كانت معه فكسرها ، وقال : مادام رزقى فى السماء والله لا يكذب .

قال الأصمعى : فخرجتُ مع هارون الرشيد للحج ، فلقيتُ هذا الأعرابى لكنه كان هذه المرة نحيفاً مُصفرَّ اللون فقلتُ له : ألستَ فلاناً ؟ قال : ألستَ الأصمعى ؟ قلت : نعم ما الذى صيَّرك إلى هذا ؟

فقال : اقرأ عليَّ ما قرأته سابقاً فقرأتُ عليه إلى قوله تعالى : ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ (٢٣)﴾ [الذاريات] فتعجب وقال : ومَنْ أغضب الجليل حتى ألجأه أنْ يقسم . وظلَّ يرددها ، فما انتهى من الثالثة حتى فاضتْ روحه معها .

وحكيت مرة أننى كنتُ أحج أنا والشيخ أحمد أبو شقرة ، فعَنَّ لنا أنْ نصعد إلى غار حراء ، فقال لى : نريد دليلاً يرشدنا فقلت له : نحن نعرف الطريق وسِرْنا ، لكن وجدنا أنهم كسروا الطريق المؤدية إلى الغار فضللنا .

ثم تنحَّى صاحبى عنى جانباً ليبول ، وفجأة قال لى : انظر يا شيخ . فنظرتُ . فإذا بحشرة أتتْ وأخذت تشرب من بوله ، فقلت :

---

(١) أصمع : من قبائل بنى سعد بن قيس من غطفان .

سبحان الله وكأننا ضللنا الطريق لنسقى هذه الحشرة ، ثم مرَّ بنا رجل عرف أننا ضللنا الطريق فأرشدنا .

الحق سبحانه وتعالى هنا يقسم بذاته سبحانه ، وربوبيته للسماء والأرض ، لأن السماء ينزل منها المطر ، والأرض تستقبل هذا المطر ، وتنبت به النبات الذى به قوام المعيشة والحياة .

وقوله : ﴿إِنَّهُ لَحَقٌّ ..(٢٣)﴾ [الذاريات] أى قوله تعالى : ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (٢٢)﴾ [الذاريات] هذا قول حقٌّ لا شك فيه ، لأنه تقدير أزلى سُجِّل فى اللوح المحفوظ .

ثم يعطينا مثالاً يُجسِّم لنا هذه المسألة ، فيقول ﴿مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ (٢٣)﴾ [الذاريات] فكما تدرك أنك تتكلم ، وكما أنك متأكد من هذه الحقيقة ولا تشك فيها لأنك تباشرها بنفسك ، فكذلك لا تشكّ فى مسألة الرزق ، وأنه من عند الله وثِقْ بهذا الخبر ، لأن الذى أخبرك به صادق .

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (٢٤)
إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ (٢٥)﴾

هذا إخبار من الله تعالى عن سيدنا إبراهيم عليه السلام ، ولأنه خبر هام وعجيب بدأه الحق سبحانه بهذا الاستفهام ﴿هَلْ أَتَاكَ ..(٢٤)﴾ [الذاريات] وهل تلازم دائماً الشىء العجيب الذى يستحق أنْ نلتفت إليه .

ويشوِّقنا الحق سبحانه إلى معرفته ، كما فى قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠)﴾ [الصف] يُشوِّقنا لنقول : نعم يا رب دلنا .

ولأن قصة ضيف سيدنا إبراهيم قصة عجيبة قال الله عنها ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ .. (٢٤)﴾ [الذاريات] أى نبأ ﴿ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (٢٤)﴾ [الذاريات]

وسيدنا إبراهيم أبو الأنبياء كرَّمه الله بقوله : ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً[1] .. (١٢٠)﴾ [النحل] لأن فيه من الفضائل ومن خصال الخير ما يوجد فى أمة بأكملها ، لأن الله تعالى وزع الفضائل على الخَلْق جميعاً ، فأنت لك فضيلة ، وغيرك له فضيلة ثانية وثالثة وهكذا .

هذا ليتكاتف الخَلْق ويتعاون الناس ، وإلا لاستغنى بعضنا عن بعض ولحدث التفكك فى المجتمع ، لذلك تجد العاقل لا يحتقر أحداً مهما رأى نفسه أفضل منه لأنه يعلم ميزان المساواة بين الخَلْق فى هذه الفضائل ، فيقول فى نفسه : إنْ كنت أفضل منه فى شىء فلا بدَّ أنه أفضل منى فى شىء آخر .

وسيدنا رسول الله ﷺ يقول : « إن الله أخفى ثلاثاً فى ثلاث : أخفى رضاه فى طاعته . فلا تحتقرن طاعة مهما قلَّتْ ، فإن الله قد غفر لرجل لأنه سقى كلباً يأكل الثرى من العطش .

وأخفى غضبه فى معصيته فلا تحقرن معصية مهما صَغُرَتْ ،

---

(١) عن ابن مسعود أنه سُئل : ما الأمة ؟ قال : الذى يُعلِّم الناس الخير . أخرجه عبد الرزاق فى مصنفه والفريابى وسعيد بن منصور والحاكم فى مستدركه وصححه . قال ابن الجوزى فى زاد المسير : للمفسرين فى المراد بالأمة هاهنا ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه الأمة الذى يعلم الناس الخير .

الثانى : أنه المؤمن وحده فى زمانه . قاله مجاهد .

والثالث : أنه الإمام الذى يُقتدى به . قاله قتادة ومقاتل .

فإن الله تعالى أدخل امرأة النـار فى هِرَّة حبستها ، فلا هى أطعـمتها وسَقَتْها ، ولا هى تركتها تأكل من خشاش[١] الأرض . وأخفى أسراره فى خلقه فلا تحقرن عبداً ما »[٢] .

والإمام على رضى الله عنه يقـول : عندما ترى مَنْ هو أدنى منك فى شىء فتحَسّر ، لأنك لا تعرف الفضيلة التى فضِّل بها عليك ، ولا بدَّ للخَلْق أنْ يعى هذه الحقـيقة لأنهم أمام الله سواسـية ، والله تعالى لم يلد ولم يولد ، وخَـلْقه عـنده سواء ، لا يتـفـاضلون إلا بالتـقـوى والعمل الصالح .

كلمة ﴿حَدِيثُ .. (٢٤)﴾ [الذاريات] يعنى الخبر المـتداول ، وفيه حقيقة أو حكمة ، لذلك يتداوله الناسُ ويهتمون به ﴿ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ .. (٢٤)﴾ [الذاريات] جاءت كلمة (ضيف) مفردة مع أنهم كانوا جمعاً من الملائكة ، فلم يقل ضيوف ولا أضيـاف ، إنما اختار اللفظ المفرد ، فقال : (ضيف) .

قالوا : لأن (ضـيف) تُطلق على المفـرد والمثنى والجـمع ممَّنْ

---

(١) الخشاش بالكسر : الحشرات. قال أبو عبيد : هوام الأرض وحشراتها ودوابها وما أشبهها . [لسان العرب – مادة : خشش] .

(٢) وجدت نحو هذا فى الزهد الكبير للبيهقـى (٢/٢٧٢) (رقم ٧٦٧) أن أبا الحسن يحيى ابن الحسـين القاهرى قال : قـدمت مصر فجـئت إلى حلقة ذى النون فرآنى وفى اسـتظهار على الحاضرين فقال لى : « لا تفعل فإن الله تعالى أخفى ثلاثاً فى ثلاث : أخفى غضبه فى معـصيته ، وأخـفى رضاءه فى طاعته ، وأخـفى ولايته فى عباده ، فـلا تحقرن شيـئاً من معاصيه فلعله أن يكون فـيه غضبه ، ولا تحقرن شيئاً من طاعـته فلعله يكون فيه رضاؤه ، ولا تحقرن أحداً من خلق الله فلعله أن يكون ولياً من أوليائه » .

استدعيته إلى بيتك أو جاءك فصار ضيفاً عليك ، والمستضيف ينبغى أنْ يعامل الأضيافَ جميعاً معاملة واحدة ويستقبلهم بوجه واحد لا يُفضل أحداً على أحد ، ولا يحتفى بأحد دون الآخر .

فكأنهم عنده شخص واحد لا يميز أحداً ، لا فى مجلسه ولا فى نظره إليهم ، لذلك عبَّر القرآن عنهم بصيغة المفرد ، فهم فى حكم الرجل الواحد .

وقد علمنا سيدنا رسول الله ﷺ هذا الدرس ، فقد روى عنه ﷺ أنه كان يُسوى بين جُلسائه حتى فى نظره إليهم[1] حتى ليظن كل منهم أنه لا يوجد فى المجلس غيره .

وفى القرآن الكريم مواضع كثيرة تستخدمَ المفرد وتريد به الجماعة ، ذلك حينما يكون توجههم واحداً وهدفهم واحداً ، وحينما يجتمعون على أمر الله ، وأمر الله دائماً واحد لا اختلافَ فيه ، والجماعة حينئذ فى حكم الواحد .

اقرأ هذا مثلاً فى قوله تعالى فى قصة سيدنا موسى وسيدنا هارون ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦)﴾ [الشعراء]

إذن : ضيف يعنى أضياف ، ومعنى ﴿الْمُكْرَمِينَ (٢٤)﴾ [الذاريات] جمع مكرم ، وهو الذى يقع عليه الكرم من غيره ، والفاعل مُكرِم

---

(١) أخرج الطبرانى فى معجمه الكبير (١٧٨٦٨) من حديث هند بن أبى هالة فى حديث طويل فى وصف رسول الله ﷺ : « وإذا انتهى إلى قوم جلس حيث ينتهى به المجلس ويأمر بذلك ويعطى كل جلسائه نصيبه لا يحسب جليسه أن أحداً أكرم عليه منه » وكذا فى الشمائل المحمدية للترمذى (١٦٨) عن على . وبنحوه أبو الشيخ الأصبهانى فى أخلاق النبى وآدابه (٢٢) .

والمفعول مُكرَم ، فوصف الملائكة بأنهم مكرمون فمَنْ أكرمهم ؟

قالوا : لها معنيان : أكرمهم الله تعالى كما قال سبحانه : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ (٢٦) لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (٢٧) ﴾ [الأنبياء]

أو مُكرمون أكرمهم سيدنا إبراهيم حينما أعدَّ لهم طعاماً وباشر خدمتهم بنفسه لا بعبيده ، وجعل امرأته تشاركه فى خدمتهم ، مع أن المرأة مستورة وأكرمهم بأنْ بادرهم بالتحية .

ثم إنه لم يقدم لهم الطعام الحاضر ، إنما أكرمهم وذبح لهم عجلاً مرة وصفه بأنه سمين ، ومرة وصفه بأنه حنيذ[1] وهذا كمال فى الوصف ، فهو سمين فى ذاته . أى : ليس هزيلاً فى تكوينه . وهو حنيذ ، والحنيذ هو أفضل أنواع الشواء عندهم ، فهو من حيث طريقة طهيه حنيذ مشوى ، وهذا منتهى الإكرام .

وقوله : ﴿ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ .. (٢٥) ﴾ [الذاريات] أى : الملائكة فى صورة بشر ﴿ فَقَالُوا سَلامًا .. (٢٥) ﴾ [الذاريات] فردّ عليهم ﴿ سَلامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ (٢٥) ﴾ [الذاريات] أى : غير معروفين لنا ، ويقال : إنه قالها فى نفسه ولم يجهر بها .

ونلاحظ هنا فرقاً بين سلام الملائكة وردّ السلام من سيدنا إبراهيم ، لأنهم حيَّوْه بقولهم ﴿ سَلامًا ..(٢٥) ﴾ [الذاريات] هكذا بالنصب فردَّ عليهم ﴿ سَلامٌ .. (٢٥) ﴾ [الذاريات] بالرفع ، هم بادروه

---

(١) حنذ اللحم : شواه على الحجارة ، فهو حنيذ أى مشوى ، ولحمه يكون أطيب من المسلوق والمطبوخ فى الماء . [القاموس القويم ١/١٧٥] . وقال فى لسان العرب (مادة : حنذ) : هو الذى يقطر ماؤه وقد شُوى . قاله شمر .

بالسلام ، لأن القادم قد يخشى المقدوم عليه منه ، فبادروه بالسلام ليأمن جانبهم .

وكلمة ﴿ سَلَامًا ..(٢٥) ﴾ [الذاريات] بالنصب دلَّتْ على أنها مفعول لفعل مقدّر أى : نسلم عليك سلاماً ، والجملة الفعلية تدل دائماً على حدث سيحدث ، وهو الأمر الذى جاءوا من أجله .

أما ردُّ السلام فكان بالرفع ﴿ سَلَامٌ .. (٢٥) ﴾ [الذاريات] أى : سلام عليكم ، فهى جملة اسمية ، والجملة الاسمية تدلُّ على الثبوت ، وهو حال المستقبل سيدنا إبراهيم .

﴿ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ (٢٦) فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (٢٧) ﴾

معنى ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ ..(٢٦) ﴾ [الذاريات] أى : ذهب خُفْية من الضيوف إلى امرأته ، لأن العادة ساعة يدخل الضيف يقوم المضيف ليعدَّ له ما يكرمه به ، فيقول له الضيف : اجلس والله ما أنت قايم ، لذلك تسلَّل سيدنا إبراهيم خُفْية من أضيافه ليُعدَّ لهم الطعام دون أنْ يشعروا به ، ودون أنْ يقولوا له اجلس لا نريد شيئاً .

فلما جاءهم بالعجل السمين المشوى قرَّبه إليهم وقدَّمه أمامهم ليأكلوا ، فرأى أنهم لا يُقبلون على الطعام كعادة الناس ، قال لهم

---

(١) راغ إلى أهله : أى مال إلى أهله فى إخفاء من ضيفه لئلا يعوقوه عن إحضار الطعام لهم شأن الرجل الكريم . وراغ إلى الشىء : مال إليه سراً فهو قد حاد عن الناس حتى لا يروه . [القاموس القويم ١/٢٨١]

﴿ أَلَا تَأْكُلُونَ (٢٧) ﴾ [الذاريات] يحثهم على الأكل ، لكنهم لم يأكلوا ولم تمتدَّ أيديهم إلى الطعام فأحسَّ بالخوف منهم :

﴿ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً (١) قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (٢٨) فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ (٢) فَصَكَّتْ وَجْهَهَا (٣) وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ (٢٩) قَالُوا كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (٣٠) ﴾

لما بدت على إبراهيم علامات الخوف بادرته الملائكة تُطمئنه ﴿ لا تَخَفْ ..(٢٨) ﴾ [الذاريات] ثم بشَّروه بغلام عليم هو سيدنا إسحاق ، ووصفه بأنه عليم يعنى يبلغ فى العلم مبلغاً ، لكن كيف ذلك وسيدنا إبراهيم رجلٌ عجوز وامرأته سارة عقيم لا تلد .

﴿ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ .. (٢٩) ﴾ [الذاريات] فى ضجة وصيحة شديدة ﴿ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا ..(٢٩) ﴾ [الذاريات] لطمتْه مُتعجبة من هذه

---

(١) أوجس : وقع فى نفسه الخوف . والوجس : الفزع يقع فى القلب أو فى السمع من صوت أو غير ذلك . [لسان العرب - مادة : وجس] .

(٢) الصَّرة : أشد الصياح . وقيل لامرأة : أى النساء أبغض إليك ؟ فقالت : التى إن صخبت صرصرت . والصرة : الضجة والصيحة والجَلَبة . [لسان العرب مادة : صرر] . قال ابن كثير فى تفسيره (٢٣٧٤) : أى فى صرخة عظيمة ورنة وهى قولها : يا ويلتى .

(٣) صكت وجهها أى ضربت بيدها على جبينها . قاله مجاهد وابن سابط . وقال ابن عباس : لطمت أى تعجباً كما تتعجب النساء من الأمر الغريب . [ابن كثير فى تفسيره ٢٣٦/٤] .

البشرى ﴿وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ (٢٩)﴾ [الذاريات] يعنى : كيف ألد وأنا عجوز عقيم .

إذن : قاستْ المسألة بمقياس الأسباب البشرية ، فالأسباب البشرية تقول أنها مستحيل أنْ تلد ، لكن لله تعالى مقياساً آخر ، ولقدرة الله كلام آخر نطقتْ به ملائكة الله .

﴿قَالُوا كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (٣٠)﴾ [الذاريات] كلمة ﴿كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ .. (٣٠)﴾ [الذاريات] يعنى : ما دام قد قال سبحانه فهو أمر واقع لا شكَّ فيه ، لأن قدرة الله فوق الأسباب .

وهذا التعجب من السيدة سارة لما بُشِّرتْ بإسحق ، رأيناه من السيدة مريم لما بُشِّرت بعيسى عليه السلام ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ..(٤٧)﴾ [آل عمران]

وقوله تعالى ﴿إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (٣٠)﴾ [الذاريات] الحكيم الذى يضع الشىء فى موضعه ، والعليم هو الذى يحيط علمه بكل شىء ، ويعلم أنه إذا أمر بشىء أطاعه ولم يمتنع عليه .

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (٣١) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُجْرِمِينَ (٣٢) لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ (٣٣) مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ (٣٤)﴾

﴿قَالَ .. (٣١)﴾ [الذاريات] أى : سيدنا إبراهيم عليه السلام للقوم الذين دخلوا عليه ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ .. (٣١)﴾ [الذاريات] يعنى : ما شأنكم ؟ وما حكايتكم ؟ وما الأمر الخطير الذى جئتم من أجله ؟

كلمة الخطب تدل على الأمر الخطير وحدث هام أراد أنْ يعرف ما هو وهل هو متعلق به أم بغيره ؟

وهذه الكلمة جاءت بهذا المعنى أيضاً فى قوله تعالى فى قصة سيدنا يوسف : ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ ..(٥١)﴾ [يوسف] أى : الأمر العجيب الذى حملكن على هذا الفعل .

وقالها سيدنا موسى لما رأى ابنتىْ سيدنا شعيب قد خرجتا لسَقْى الغنم ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا .. (٢٣)﴾ [القصص] أى : ما الذى ألجأكنَّ للخروج ، فكأنه أمر عجيب غير عادى . إذن : هذه الكلمة وُضِعت للأمر الخطير الذى يدعو إلى الدهشة والتعجب .

فردَّ الملائكة ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ (٣٢)﴾ [الذاريات] وهنا اطمأن سيدنا إبراهيم ، وعرف أن الأمر لا يتعلق به ، والقوم المجرمون فى هذا الوقت هم قوم لوط ، ثم بيَّنوا مهمتهم ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ (٣٣)﴾ [الذاريات]

ومفهوم أن الحجارة تختلف عن الطين ، الحجارة فيها صلابة وقساوة تختلف قوة وصلابة حسب نوع الحجر بداية من المرمر ، ثم الجرانيت والرخام والجير .

فكيف تكون الحجارة من طين ، وهما وصفان فى الظاهر متناقضان ؟ قالوا : هو طين أحْمِى عليه فى النار حتى صار صلْباً قاسياً ، كما نفعل مثلاً فى صناعة الفخار .

ومعنى ﴿مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ (٣٤)﴾ [الذاريات] أى : مُعلَّمة ، فكلُّ حجر منها يحمل اسم صاحبه وعنوانه ، فهو مُخصص له لا

لغيره ومُوجَّه إليه لا يخطئه .

وقوله ﴿عِندَ رَبِّكَ .. (٣٤)﴾ [الذاريات] دلّ على أنها نزلتْ من السماء وليستْ من حجارة الأرض ، وأنها مُعلَّمة من عند الله جاءت هكذا جاهزة ، ونحن مهمتنا أنْ نرميهم بها بأسماء أصحابها ، فلا يختلط حجر بحجر .

ومعنى ﴿لِلْمُسْرِفِينَ (٣٤)﴾ [الذاريات] المسرف هو الذى تجاوز الحدَّ فى المعصية فكأن هناك حدوداً للأمور ، وحدوداً للحلال وحدوداً للحرام ، وقد بيَّنها الحق سبحانه ، وعلَّمنا كيف نقف عند هذه الحدود ، فقال تعالى فى الحلال : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا .. (٢٢٩) ﴾ [البقرة]

وقال فى الحرام ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوهَا .. (١٨٧) ﴾ [البقرة] أى : قِفْ عند حدود الحلال لا تتجاوزه إلى غيره ، أما الحرام فإياك أنْ تقربه . احذر مجرد الاقتراب منه ، لأنك لو اقتربتَ منه تُوشك أنْ تقع فيه فهى حماية لك .

كما قال سبحانه لآدم ﴿وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ .. (٣٥)﴾ [البقرة] وقال ﴿وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ .. (٣٢)﴾ [الإسراء] ففى الحرام لا يمنعنا من الفعل ، بل يمنعنا من الاقتراب من أسبابه .

ففى أىِّ شىء أسرف هؤلاء المجرمون المسرفون ؟ أسرفوا فى فعل مُحرَّم يناقض الطبيعة النقية التى خلقها الله ؛ لأن الله تعالى لما أراد أنْ يجعل خليفة فى الأرض خلق آدم وخلق معه زوجه ليتم التكاثر ، وتأتى القبائل التى تعمر الأرض ، لأن عمارتها لا تقوم

بواحد أو اثنين إنما تحتاج إلى جمهرة من الناس .

ثم جعل التكاثر أيضاً فى كل شىء يريد له النمو والاستمرار ليخدم هذا الخليفة ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ .. (٤٩) ﴾ [الذاريات]

فإذا كان الإنسانُ سيتكاثر فلا بدَّ أنْ تكبر رقعة الأرض التى يعيش عليها ويتكاثر النبات الذى يعيش عليه ، قال تعالى : ﴿ وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً .. (١) ﴾ [النساء] إذن : نحتاج إلى زرع يتناسب وهذه الزيادة .

والمتأمل فى مسألة التكاثر هذه فى النبات وفى الإنسان يجدها بحسب أهمية الشىء ومدى الاستفادة منه والانتفاع به . قلنا مثلاً : حينما تزرع الفجل يمكن أنْ تأكل منه بعد عشرة أيام ، والخيار بعد أربعين يوماً ، والتمر بعد أربعة أعوام .

فكل شىء قبل أن يعطيك يأخذ منك على قدر أهميته ، فإنْ أردتَ الإنسان فإنه ولا شكَّ يحتاج إلى كثير من الجهود والتبعات ، لذلك ربطه الخالق سبحانه فى مسألة التكاثر بلذة جامحة تفوق كلَّ لذة أخرى يشعر بها الإنسانُ فى كُلِّ جوارحه تفوق لذة العين حين ترى ، والأذن حين تسمع ، واللسان حينما يتذوق ، والأنف حينما يشم ، واليد حينما تلمس ، لأن الجوارح لكل منها مهمته ووجهته .

أما لذة الجنس فهى تستغرق الجوارح كلها ، ولولا أن الخالق سبحانه ربط التكاثر بهذه اللذة ما أقبل أحدٌ عليه ولا تحمَّل تبعاته .

ولك أنْ تتصور الفرق بين تربية طفل وتربية حَمَل أو عجل مثلاً ، الحَمَل يقوم ويمشى خلف أمه بعد عدة دقائق من ولادته ، والطفل

يمشى بعد عام ونصف العام .

ومَشْيه يأتى على مراحل ، فبعد عدة شهور يستطيع أنْ يجلس ، وبعد عدة شهور أخرى يحبو ثم يقف ثم يمشى .

لذلك نرى طفولة الإنسان أطول طفولة فى المخلوقات كلها ، ومن هنا ربط الخالق سبحانه عملية التكاثر فى الإنسان بهذه اللذة الجارفة التى لا يستطيع الإنسانُ مقاومتها لتكون حافزاً له على التكاثر ، وإلا ما أقبل على تحمُّل هذه المسئولية وهذه المعاناة .

ومن هنا أيضاً اهتم الإسلام بتكوين الأسرة ، ووضع لها من الضوابط ما يكفل لها النجاح ، فهذه الغريزة لا تأتى هكذا كما فى الحيوانات ، إنما جعل لها قواعد لاختيار الزوجة الصالحة ، وحَثَّ على اختيار ذات الدِّين ، وجعل فترة للخطوبة ليتعرَّف كلُّ طرف على الآخر .

وأباح لكل منهما أنْ ينظر إلى الآخر ليختار كلٌّ من الزوجين ما يناسبه ويُرضى ذوقه ورغبته فى الجنس الآخر ، ثم شرع المهر وعقد القران ، كل ذلك لتكون نواة الأسرة قوية متينة ، مُعدَّة لاستقبال الحياة بكلِّ ما فيها من تبعات ومسئوليات .

والجريمة التى ارتكبها هؤلاء القوم واستحقوا بها ما حاق بهم من ألوان العذاب أنهم صرفوا هذه الغريزة التى جعلها الله فى الإنسان عن وجهها الحلال إلى وجه آخر محرم لا فائدة منه ولا ثمرةَ له .

وجه ينافى الفطرة السليمة والأذواق المستقيمة ، فكانوا يأتون الذكران بدل أنْ يأتوا النساء كما أحل الله ، ومعلوم أن الإتيان مقصور على مكان الحرث والاستنبات .

﴿ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ[1] أَنَّىٰ شِئْتُمْ .. (٢٢٣) ﴾ [البقرة]

إذن : فعلتهم هذه كانت إسرافاً منهم على أنفسهم ، ومجاوزة للحد الذى شرعه الله ، والإتيان فى غير المحلِّ يستوى فيه إتيان الرجل وإتيان المرأة فكله محرم .

ولما كان هذا الفعل زنا يستحق الرجم رجمهم الله لا بحجارة من الأرض ، إنما بحجارة من السماء تنزل على كلِّ واحد منهم باسمه تخصُّه دون غيره ، بحيث لم تُبْقِ منهم أحداً وأبادتهم عن بَكْرة أبيهم .

﴿ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٣٥) فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٦) وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٣٧) ﴾

أى : قبل أنْ ينزل بهم العذاب أخرجنا مَنْ كان فى القرية من المؤمنين ، والمعنى : ما قلنا لهم اخرجوا ، إنما هيأنا لهم سبيل الخروج بخواطر قذفناها فى نفوسهم ، فخرجوا ولم يُصبْهم العذاب .

﴿ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا .. (٣٦) ﴾ [الذاريات] أى : فى القرية ﴿ غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٦) ﴾ [الذاريات] إذن : تكلم أولاً عن المؤمنين ثم عن المسلمين ، ومعلوم أن الإيمان أعم من الإسلام ، فالإيمان أمر عقدىّ ،

---

(١) الحرث : المزدرع . وكنى به ها هنا عن الجماع ، فسماهن حرثاً لأنهن مزدرع الأولاد كالأرض للزرع . ومعنى ﴿ أنى شئتم ﴾ أى كيف شئتم مقبلة أو مدبرة وعلى كل حال إذا كان الإتيان فى الفرج ، وهذا قول ابن عباس ومجاهد وعطية والسدى وغيرهم . وهناك قول آخر أى : إن شئتم ومتى شئتم وهو قول ابن الحنفية والضحاك . قاله فى زاد المسير لابن الجوزى .

والإسلام أمر سلوكى ، فكل مؤمن مسلم وليس كل مسلم مؤمناً .

والإيمان والإسلام يلتقيان فى أنك لا تُسلم زمامك فى التكليف إلا لمَنْ آمنتَ بحكمته فى التكليف ، أما إنْ نافق المؤمنُ أو راءى فموضوع آخر ، لذلك قال تعالى : ﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ[1] آمَنَّا .. (١٤)﴾ [الحجرات] فردَّ عليهم ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا ..(١٤)﴾ [الحجرات] أى : الإسلام الظاهرى ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ..(١٤)﴾ [الحجرات]

إذن : هنا قال فى الناجين المؤمنين والمسلمين ، وفى موضع آخر قال : ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلاَّ امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٣٣)﴾ [العنكبوت] لأن الأهلية على حقيقتها ليستْ أهلية الدم والنسب ، إنما أهلية الدعوة ، أهلية اتباع بدليل قول النبى ﷺ : « سلمانُ منَّا أهل البيت »[2] .

وسيدنا نوح لما قال لربه عز وجل : ﴿رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي ..(٤٥)﴾ [هود] قال له : ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ .. (٤٦)﴾ [هود]

وقوله سبحانه : ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الأَلِيمَ (٣٧)﴾ [الذاريات] أى : فى القرية والمكان الذى حدثت فيه هذه العملية ، قالوا :

---

(١) الأعراب هم أهل البوادى والصحارى فليسوا من أهل الحضر فى القرى والأمصار ، وفيهم غلظة وقسوة قد يكون ناتجاً عن بيئتهم وبيوتهم التى يسكنون فيها من خيام فى العراء ، ومنهم : ﴿مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٩٩)﴾ [التوبة] .

(٢) أخرجه الحاكم فى مستدركه (٦٦١٦ ، ٦٦١٨) والطبرانى فى معجمه الكبير (٥٩٠٨) والبيهقى فى دلائل النبوة (١٣٠٦) وأبو نعيم فى معرفة الصحابة (٢٩٥٦) من حديث كثير بن عبد الله المزنى عن أبيه عن جده .

الآية الباقية بعد هلاكهم هى الحجارة التى أهلكهم الله بها ما تزال موجودة ، ومَنْ يراها يقول : هذه ليست من حجارة الأرض ، بل هى نوع آخر هى الحجارة التى نزلتْ على هؤلاء المجرمين فأهلكهم الله بها . وهكذا تظل هذه الآية باقية لردْع كلّ مَنْ تُسوِّل له نفسه أنْ يفعل فعلهم .

وقالوا[1] : بل الآية التى تركها الله شاهداً عليهم هى عَيْنٌ مُنتنة ، لا يطيق الإنسانُ أنْ يشمَّها .

﴿ وَفِي مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ[2] وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾

بعد أنْ حدَّثتنا الآيات عن طرف من قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام تُحدثنا الآن عن سيدنا موسى عليه السلام ، لماذا ؟ لأن القرآن كثيراً ما يأتى بإبراهيم وموسى فى قرن واحد لما بينهما من

---

(١) قال ابن الجوزى فى زاد المسير : أى تركنا علامة للخائفين من عذاب الله تدلهم على أن الله أهلكهم . وقال فى تفسير آية العنكبوت ٣٥ : فى الآية ثلاثة أقوال : أحدها : أنها الحجارة التى أدركت أوائل هذه الأمة . قاله قتادة . والثانى : الماء الأسود على وجه الأرض . قاله مجاهد . والثالث : الخبر عما صُنع بهم .

(٢) قوله (بركنه) قال مجاهد : بأصحابه . وقال أبو عبيدة : (بركنه) و (بجانبه) سواء ، إنما هى ناحيته . قاله ابن الجوزى فى (زاد المسير) فى تفسير الآية . وقال الماوردى فى تفسيره للآية : فيه أربعة وجوه : أحدها : بجموعه وأجناده . قاله ابن زيد . الثانى : بقوته . قاله ابن عباس . الثالث : بجانبه . قاله الأخفش . الرابع : بميله عن الحق وعناده بالكفر . قاله مقاتل . ويحتمل خامساً بماله لأنه يركن إليه ويتقوى به .

تشابه فى مسيرة الدعوة إلى الله .

اقرأ : ﴿إِنَّ هَـٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ (١٨) صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ (١٩)﴾ [الأعلى] وقال : ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ (٣٦) وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ (٣٧)﴾ [النجم]

فالقرآن يربط بينهما لأن سيدنا إبراهيم أول ما تعرَّض فى أمر الدعوة تعرَّض للرجل الذى حاجَّه فى ربه ، ويبدو من سياق القصة أنه ادَّعى الألوهية بدليل قوله ﴿أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ..(٢٥٨)﴾ [البقرة]

وبعد ذلك كان لإبراهيم مواقف فى إظهار آيات الله للناس ، فهو أول مَنْ علَّمهم أنْ ينظروا فى الآيات الكونية ، ثم كانت له مواقف مع عبدة الأصنام ، خاصة مع أبيه آزر ، ثم جاءت أحداث إلقائه فى النار ، ثم رُزِقَ الولد ، وابتُلِى بالأمر بذبحه ، ثم جاءت قصة بناء البيت ، إلى آخر أحداث قصته .

لذلك قال الله فى شأنه : ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ[1] فَأَتَمَّهُنَّ (١٢٤)﴾ [البقرة] أى : أدّاها كاملة لا بالمنطق العادى فى الأشياء ، إنما بمنطق الإجادة والإحسان ، لذلك مدحه ربُّه فقال : ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠)﴾ [النحل] أى : يجمع من خصال الخير ما لا يتوفر إلا فى أمة كاملة .

كذلك مَرَّ سيدنا موسى عليه السلام بمواقف وابتلاءات مشابهة

---

(١) قال الشوكانى فى (فتح القدير) : اختلف العلماء فى تعيين الكلمات . فقيل : هى شرائع الإسلام . وقيل : ذبح ابنه . وقيل : أداء الرسالة . وقيل : خصال الفطرة . وقيل : هى قوله ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا .. (١٢٤)﴾ [البقرة] . وقيل : بالطهارة . قال الزجاج : هذه الأقوال ليست متناقضة لأن هذا كله مما ابتلى به إبراهيم .

فى رحلة دعوته لفرعون الذى ادَّعى الألوهية ، فقال لقومه : ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِي .. (٣٨)﴾ [القصص]

الواو فى ﴿وَفِي مُوسَىٰ .. (٣٨)﴾ [الذاريات] عاطفة ، فالمعنى فى موسى آية من آيات الله معطوفة على قوله تعالى : ﴿وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ (٢٠)﴾ [الذاريات] كذلك فى موسى آيات ﴿إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٣٨)﴾ [الذاريات] أى : بحجة واضحة بيِّنة .

وسبق أنْ أوضحنا أن السلطان قد يكون سلطانَ قوة وقهر تخضع المقابل ، أو سلطانَ برهان وحجة يقنعه .

سلطان القهر يقهر القالب ، وسلطان الحجة يقنع العقل ويستميل القلب ، وموسى عليه السلام لم يكُنْ يملك إلا حجةَ الإقناع ، ولا قوة له على فرعون يقهره بها ، فأعطاه الله سلطاناً مبيناً يقنع به فرعون ، وهو الآيات والمعجزات التى صاحبتْ دعوته .

والمعجزة لا تؤتى ثمارها فى القوم إلا إذا كانت من جنس ما نبغوا فيه وأتقنوه ، ولو تحداهم بشىء لا يعرفونه ما كان للتحدى معنى ، لذلك كانت معجزة سيدنا رسول الله ﷺ القرآن ، لأن العرب نبغوا فى البلاغة والفصاحة ، فتحدَّاهم بما نبغوا فيه .

أما قوم فرعون فقد نبغوا فى السحر فكانوا سحرة ، لكن مُكرهين على السحر بدليل أن فرعون لما استدعاهم من الآفاق لمقابلة موسى بسحرهم قالوا ﴿أَئِنَّ لَنَا لأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (٤١)﴾ [الشعراء] لأن الأعمال التى كانوا يعملونها كانت سُخْرة بدون أجر ، كما رأينا مثلاً فى بناء الأهرامات .

والأصل فى دعوة سيدنا موسى أنه ما جاء ليدعو فرعون إنما ليأخذ منه بنى إسرائيل ، ولينقذهم من بطشه ، هذا هو الأصل لكن جاءتْ دعوته لفرعون على هامش هذا الأصل وتابعة له ، بدليل قوله تعالى : ﴿ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلا تُعَذِّبْهُمْ .. (٤٧) ﴾ [طه]

فقبل أنْ يدعو موسى بنى إسرائيل كان عليه أنْ يخلصهم من فرعون واستبداده بهم ، ومعلوم أن فرعون اضطهد بنى إسرائيل لأنهم ساعدوا الهكسوس لما أغاروا على مصر وتعاونوا معهم ضد فرعون ، حتى انتصر الهكسوس وألغوا الفرعونية وجعلوها ملكية .

لذلك عرفنا أن الهكسوس دخلوا مصر فى عهد سيدنا يوسف عليه السلام ، لأن القرآن لما تكلَّم عن حكام مصر تكلم عن فرعون ، لكن لما ذكر يوسف ذكر لفظ الملك ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ..(٥٠) ﴾ [يوسف] ولم يأتِ بلفظ الفرعون .

فلما أراد الحق سبحانه أنْ يُخلِّص بنى إسرائيل من قبضة فرعون أرسل موسى لهذه المهمة .

وقوله تعالى : ﴿ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٣٩) ﴾ [الذاريات]
أى : فرعون أعرض عن موسى ودعوته ﴿ بِرُكْنِهِ .. (٣٩) ﴾ [الذاريات]
أى : أعرض بسبب ركنه . أى : قوته وسلطانه وجبروته واستعلائه فى الأرض . أو برُكْنه يعنى بجانبه .

وحين تُعرض عن إنسان تعطيه جانبك ، ثم تدير له ظهرك بعد أنْ كنتَ فى مواجهته ، وهذه المسألة صوَّرها القرآن الكريم بقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤) يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ .. (٣٥) ﴾ [التوبة]

وبهذا الترتيب يكون الإعراض عن طالب الحاجة ، حيث يُعرض أولاً بوجهه ، ثم بجنبه ، ثم بظهره ، وهكذا يكون الكَيُّ يوم القيامة جزاءً وفاقاً ، وعلى قَدْر حركات الامتناع عن الخير .

وقوله : ﴿ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٣٩) ﴾ [الذاريات] تأمل التناقض حتى فى الاتهام ، فالساحر له قدرة على ترتيب الأشياء ، وعنده ذكاء بحيث يُخيِّل للناس رؤية الأشياء على خلاف ما هى ، أما المجنون فعلى خلاف ذلك ، لأنه لا يُرتِّب الأشياء ، ولا قدرةَ له على السيطرة على مراداته ونزوعه ، لكنه تخبُّط الباطل وإفلاسه .

ثم ينتقم الحق سبحانه من فرعون ﴿ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ[1] وَهُوَ مُلِيمٌ (٤٠) ﴾ [الذاريات] أخذهم الله بأنْ ألقى فى نفوسهم حبّ اللحاق بموسى وأغراهم بذلك حتى تبعوهم وخاضوا البحر خلفهم .

فأطبق الله عليهم الماء فأغرقهم بعد أنْ نجَّى موسى وبنى إسرائيل ﴿ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ .. (٤٠) ﴾ [الذاريات] ألقيناهم فى البحر (وهو) أى فرعون ﴿ وَهُوَ مُلِيمٌ (٤٠) ﴾ [الذاريات] أى : فعل ما يُلام عليه من عُتوه وجبروته وادعائه للألوهية .

والمعنى : أن الله تعالى لم يُهلكه وجنودَه بظلم أو جبروت ، إنما أهلكهم بما يستحقون من العذاب .

﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ (٤١) مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ (٤٢) ﴾

---

(١) اليم : البحر الذى لا يُدرك قعره ولا شطاه . ويقع اسم اليم على ما كان ماؤه ملحاً زعاقاً وعلى النهر الكبير العذب الماء . [لسان العرب – مادة : يمم] .

أيضاً هنا الواو عاطفة تعطف ﴿وَفِي عَادٍ .. (٤١)﴾ [الذاريات] على ﴿وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ (٢٠)﴾ [الذاريات] وعلى قوله ﴿وَفِي مُوسَىٰ .. (٣٨)﴾ [الذاريات] والمعنى : وفى عاد آية لكم ، فكأن القرآن يُسلِّى سيدنا رسول الله يقول له : لا تحزن من عناد قومك لك ، ووقوفهم فى وجه دعوتك .

فالعاقبة لك ، ومصيرهم سيكون مثل مصير أمثالهم من المكذِّبين للرسل السابقين ، فلك فيهم عبرة .

﴿وَفِي عَادٍ .. (٤١)﴾ [الذاريات] أتى باسم القبيلة ولم يذكر النبى. وفى موضع آخر قال : ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ..(٦٥)﴾ [الأعراف] فذكر القبيلة لأنه يتحدث عن سوء عاقبتها وما نزل بها لما كذّبتْ نبيها ، وعاد عند الأحقاف .

وقد قال الله فيهم : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ (٨)﴾ [الفجر] ثم ذكر بعدها ﴿وَفِرْعَوْنَ ذُو الأَوْتَادِ (١٢)﴾ [ص]

فكأن حضارة عاد كانت أقوى وأعظم من حضارة الفراعنة ، لكنها مطمورة تحت التراب ، لأن الله أهلكهم بالريح فدفنتهم تحت الرمال ، ولا عجب فى ذلك فهذه منطقة رملية إذا هبَّتْ فيها عاصفة فيمكن أنْ تطمر قافلة كاملة تبتلعها الرمال .

لذلك نجد آثار هذه الأمم حفائر تحت الأرض[1] .

---

(١) من هذه الأمم أمة عاد التى قال الله عنها : ﴿إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ (٨)﴾ [الفجر] فعن طريق أحد مكوكات الفضاء استطاعت ناسا الوصول لوجود آثار مدقات للطرق القديمة المؤدية إلى عدد من أبنية مدفونة تحت الرمال السافية التى تملأ حوض الربع الخالى ، وقد أثبتوا أنها قلعة ذات ثمانية أضلاع سميكة الجدران بأبراج فى زوايا مقامة على أعمدة ضخمة يصل ارتفاعها إلى ٩ أمتار وقطرها ٣ أمتار (إرم ذات العماد) [مجلة تايم الأمريكية ١٩٩٢/٢/١٧] .

ومعنى ﴿الرِّيحَ الْعَقِيمَ (٤١)﴾ [الذاريات] أى : الريح المدمرة المهلكة ، لأن الريح قد تهبُّ ليِّنة سلسة رقيقة ، وتسمى النسيم ، وقد تشتد فتكون إعصاراً مدمراً ، فهى آية من آيات الله تكون نعمة وتكون نقمة .

الريح هى الهواء الذى نتنفسه ، وهو أهم عنصر فى عناصر استبقاء الحياة ، ولو مُنع عن الإنسان يموت ولو نَفَس واحد ، والهواء عنصر أساسى فى تكوين الماء وبه تسير السُّحب وينزل المطر ، وبه يحيا الحيوان والنبات وهو الذى يُلقِّح الثمار والمزروعات .

وسبق أنْ قلنا إن الريح تأتى فى الشر وفى الهلاك ، أما الرياح بالجمع فتأتى فى وجوه الخير ، فقال هنا ﴿الرِّيحَ الْعَقِيمَ (٤١)﴾ [الذاريات] أى المدمِّرة ، وقال : ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ ..(٢٢)﴾ [الحجر]

ووصف الريح هنا بأنها عقيم ، لأنها لا فائدةَ منها ولا تأتى بخير ، لا مطر ولا لقاح ، إنما تأتى بالشر والخراب .

وقوله تعالى : ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلاَّ جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ (٤٢)﴾ [الذاريات] معنى (تذر) أى : تترك ومثله الفعل تدع ، وكل منهما مضارع ليس له ماض فى اللغة إلا فى قراءة : ﴿وَالضُّحَىٰ (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣)﴾ [الضحى] فى قراءة (مَا وَدَعَكَ) بفتح الدال من غير تشديد .

أما الفعل (يذر) فليس له ماضٍ ، فهذه الريح لا تأتى على شىء ولا تمر على شىء إلا أهلكته وتركته ﴿كَالرَّمِيمِ (٤٢)﴾ [الذاريات] وهو الشىء الجاف الذى تفتت وصار هباءً تذروه الرياح .

﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾﴾

معنى ﴿وَفِي ثَمُودَ .. ﴿٤٣﴾﴾ [الذاريات] أى : وآية أيضاً فى ثمود، وهم قوم سيدنا صالح عليه السلام ﴿إِذْ قِيلَ لَهُمْ .. ﴿٤٣﴾﴾ [الذاريات] أى : اذكر إذ قيل لهم ﴿تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾﴾ [الذاريات] وهذا تهديد لهم ووعيد بعد ما فعلوه مع نبى الله صالح ، يقول لهم تمتعوا إلى حين ، فسوف يعاجلكم العذاب ، وسيأخذكم الله أخْذَ عزيز مقتدر .

ومع هذا التهديد والتوعُّد ظلوا على عنادهم ﴿فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ .. ﴿٤٤﴾﴾ [الذاريات] فلم يُجد معهم التهديد ، والعتو يعنى : مالوا عن أمر ربهم وتركوه وهجروه .

وهذا الفعل (عتى) عُتواً يتعدى بـ (على) كما فى قوله تعالى : ﴿أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾﴾ [مريم] وهنا تعدَّى بعن ﴿فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ .. ﴿٤٤﴾﴾ [الذاريات] فقد عتوا عن الأمر لا على الآمر ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الذاريات] الصاعقة صوت مزعج يأتى من أعلى تصاحبه إما نار حارقة ، أو ريح مدمرة .

﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ .. ﴿٤٥﴾﴾ [الذاريات] أى لهول ما نزل بهم فزعوا فزعاً أقعدهم ، فلم يستطيعوا القيام ولا الهرب من باب أوْلَى ، فالصاعقة صعقتهم وأفقدتهم القوى ﴿وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [الذاريات] يعنى : لم يستطيعوا نصر أنفسهم ، ولم ينصرهم

أحد ، ولم يدافع عنهم أحد .

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٤٦﴾﴾

وقوم نوح أيضاً آية وعبرة ﴿مِّن قَبْلُ .. ﴿٤٦﴾﴾ [الذاريات] قبل فرعون وقبل عاد وثمود ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الذاريات] خارجين عن طاعة الله مُكذِّبين لنبيه نوح عليه السلام .

وقد بسط القرآن قصتهم فى مواضع أخرى بالتفصيل ، وأن نوحاً لبث فى دعوتهم ألف سنة إلا خمسين عاماً ، ومع ذلك ما آمن معه إلا قليل ، وأنهم صمُّوا آذانهم عن دعوته واستغشوا ثيابهم ، وأصرُّوا واستكبروا استكباراً إلى أنْ يئس منهم نوح فدعا عليهم .

﴿رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا [1] ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾ [نوح]

وهنا أجمل القول فيهم ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الذاريات] أى : خارجين عن طاعة الله من قولنا : فسقت الرطبة عن قشرتها . أى : انسلختْ منها .

والرطب هو البلح اللين الذى توفر له الماء ففيه مائية ، لذلك جعله الله تعالى طعاماً للسيدة مريم ، فقال سبحانه : ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ..

---

(١) قال ابن قتيبة : ديّاراً أى أحداً . يقال : ما بالمنازل ديّار أى : ما بها أحد وهو من الدار . أى : ليس بها نازل داراً . قاله ابن الجوزى فى زاد المسير . وقال الماوردى : فيها وجهان . أحدهما : أحداً . قاله الضحاك ، والثانى : من يسكن الديار . قاله السدى .

﴿٢٦﴾ [مريم] أى : كانت الرطب بالنسبة لها طعاماً وشراباً فى آنٍ واحد .

فهذه صورة بيانية تُصوِّر شرع الله بالغشاء الذى يحمى الثمرة ، فالشرع يحمى المؤمن كما تحمى القشرة الثمرة ، فاحذر أنْ تخرج عن هذا الغشاء الذى يسترك ويحميك ويُزينك .

﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ(١) لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾

السماء يُراد بها كلّ مَا علانا ﴿ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ .. ﴿٤٧﴾ ﴾ [الذاريات] أى بقوة واقتدار وحكمة والبناء يتطلب العملية التى فيها مكين . ثم قال ﴿ وَالأَرْضَ فَرَشْنَاهَا .. ﴿٤٨﴾ ﴾ [الذاريات] أى : مهَّدناها وبسطناها .

فالسماء فيها صفة الثبات ، فقال ﴿ بَنَيْنَاهَا .. ﴿٤٧﴾ ﴾ [الذاريات] والأرض صفتها التغيير ، فالمرتفع منها يصير إلى منخفض والتضاريس عليها يطرأ عليها التغيير ، فقال ﴿ فَرَشْنَاهَا .. ﴿٤٨﴾ ﴾ [الذاريات] وهيأناها على وضع يُريح سكانها كما نُهىء للطفل فراشه ، فلا يكون فيه ما يقلقه .

﴿ فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [الذاريات] من كلمة المهد ، وهو الفراش

---

(١) زوجين : أى صنفين ونوعين مختلفين . قال مجاهد : يعنى الذكر والأنثى والسماء والأرض ، والشمس والقمر ، والليل والنهار ، والنور والظلام ، والسهل والجبل ، والجن والإنس ، والخير والشر ، والبكرة والعشى . [ذكره القرطبى فى تفسيره ٩/٦٤٥٣] .

المريح ، وحتى فراش الطفل دائماً ما ننظفه ونغيره من حين لآخر ، فكذلك الأرض من صفتها التغيُّر وعدم الثبات .

وقوله سبحانه ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٤٩)﴾ [الذاريات] وفى موضع آخر قال تعالى : ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ (٣٦)﴾ [يس] هذه الكلمة ﴿وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ (٣٦)﴾ [يس] جعلتنا ننتظر زوجية لا نعرفها .

ومع تقدم البحث العلمى وجدنا زوجية فى الذرة ، ووجدنا أن المطر لا يتكوَّن إلا إذا حدث له تلقيح ذرى ، وعرفنا الزوجية فى التيار الكهربائي ، ووجدوها حتى فى الجمادات .

وما يزال فى جُعْبة العلماء الكثير ، وكلها مسائل كانت العقول لا تطيقها قبل ذلك ، لأن الأمة العربية التى نزل فيها القرآن كانت أمة أمية ، ليس عندها شىء من الثقافة ، ولو كُشفتْ لهم هذه الأمور ربما ضاقوا بها وانصرفوا بسببها عن أصل الدعوة .

لذلك الحق سبحانه وتعالى يعطيهم برقية موجزة فى ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ[1] وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ..(٥٣)﴾ [فصلت] ليظلّ الباب مفتوحاً يستوعب كل التطورات ويحتاط لكل جديد .

فالسين دلتْ على المستقبل و(نريهم) مضارع يفيد الاستمرار ، فهذه الاكتشافات باقية ، ومعينها لا ينضب إلى يوم القيامة .

---

(١) الأفق : الناحية . وخط التقاء السماء بالأرض فى رأى العين ويستعار لمدى الاطلاع والذكاء فيقال : هو واسع الأفق وجمعه آفاق . قال تعالى : ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ .. (٥٣)﴾ [فصلت] وقال تعالى : ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ (٢٣)﴾ [التكوير] أى : ما بين السماء والأرض .

وإذا كانت عملية التكاثر فى الغالب والجمهرة أنها تأتى من ذكر وأنثى ، فالحق سبحانه يحتفظ لنفسه بطلاقة القدرة ، ويعطينا نماذج من البشر جاءتْ على غير هذه القاعدة .

وكأنه سبحانه يقول لنا : إياكم أنْ تظنوا أننى أقف عند هذه الأسباب بل أخلق ما أشاء ، أخلق من زوجين ، وأخلق بلا زوجين أصلاً ، وأخلق من زوج واحد .

يعنى : استوعبت طلاقة القدرة فى هذه المسألة كلّ أوجهها ، ثم ﴿ وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا .. (٥٠) ﴾ [الشورى] فيتوفر الزواج ، لكن لا يأتى التكاثر .

ولأن مسألة خلق الأزواج كلها مسألة عجيبة استهلها الحق سبحانه بقوله : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا ..(٣٦) ﴾ [يس] يعنى : لا تتعجب لأنك أمام قدرة الله ، وتنزه سبحانه عن أنْ تقيسه بشىء آخر .

﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٥٠) وَلَا تَجْعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٥١) ﴾

هذا أمر بالفرار ، والفرار أى الهرب يكون من مخُوف يقبل عليك وأنت تخاف منه ، وتريد أنْ تنجو بنفسك منه وتفر إلى مأمن يحميك ، وهذه العملية عناصرها فارٌّ ، ومفرور منه ، ومفرور إليه .

والمخاطبون هنا من الله تعالى هم عباده يقول لهم ﴿ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ .. (٥٠) ﴾ [الذاريات] من أى شىء يفرون ؟

إذا كان الفرار إلى الله ، فهم يفرّون من كل ما يناقض الله ، ومن كلِّ ما يخالف شرعه ، يفرون من إبليس الذى ينازع الله فى التكاليف ، يفرون من شهوات نفوسهم ، يفرون إلى الله من الأهواء والنزوات ، يفرون من العذاب إلى النعيم المقيم .

إذن : معنى الفرار هنا الانتقال من شىء مخيف إلى شىء آمن ، ولن تجدوا لكم ملجأ آأمن لكم من حضن خالقكم سبحانه ، ففيه الأمن والراحة والسعادة والنعيم ، حتى العقوبة حينما يُشرِّعها على المخالفة يُشرِّعها من أجل أنْ تعودوا إليه وتفروا إلى ساحته .

فهو سبحانه حريص عليكم لأنكم عباده وصنعته ، وكلُّ صانع يحرص على سلامة صنعته وحمايتها مما يتلفها .

ونحن بدورنا نتعلم من ربنا تبارك وتعالى هذا الدرس فنتقن أعمالنا ، كما علَّمنا سيدنا رسول الله ﷺ : « إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أنْ يُتقنه »[1] .

فإتقان الصَّنعة يزيد النغمة الإيمانية العقدية فى الكون ، ويكفى أن كل مَنْ يرى صنعتك يقول : الله الله ، فتكون أنت سبباً لذكر الله ، وهذه النغمة لا يرددها الإنسان فحسب ، إنما يرددها الكون كله ويطرب لها ، فالإنسان ما هو إلا فرد فى هذه المنظومة الذاكرة .

إذن : ﴿ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ ..(٥٠) ﴾ [الذاريات] تعلقوا بحبله ، واستمسكوا بهديه ، وكونوا فى جانبه ، كونوا مع شرعه ، سيروا

---

(١) أخرجه الطبرانى فى المعجم الأوسط (٩٠٩) والبيهقى فى شعب الإيمان (٥٠٨٠ ، ٥٠٨١ ، ٥٠٨٢) من حديث عائشة رضى الله عنها .

معه حيث سار ، كما يقولون عندنا فى الفلاحين (اتشعلق فى ربنا وحط رجلك زى ما أنت عايز) فما دُمْتَ فى جنب الله فلن يضرك شىء ، وصدق القائل :

يا رب حُبك فى دمى وكيانى نورٌ أغر يذوبُ فى وجدانى

أنا لا أضام وفى رحابك عصمتى أنا لا أخافُ وفى رضاك أمانى

وقوله تعالى : ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٥٠)﴾ [الذاريات] المتكلم هنا رسول الله فهو النذير من عند الله ، وقال ﴿نَذِيرٌ.. (٥٠)﴾ [الذاريات] لأن الفرار يناسبه الإنذار لتفرّ مما يخيفك إلى ما يُؤمِّنك . و﴿مُّبِينٌ (٥٠)﴾ [الذاريات] أى : نذارتى لكم واضحة ، وحجتى بيِّنة ظاهرة .

﴿وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَـٰهًا آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٥١)﴾ [الذاريات] أى : لا تتخذوا إلهاً إلا الله تأتمرون بأمره ، ومعلوم أن الذين عبدوا الأصنام أو عبدوا ما دون الله تعالى ، عبدوها لأنها لا أوامرَ لها ولا تكاليف ولا منهجَ ، لذلك كانت عبادتها باطلة .

أما الله تعالى فهو الإله الحقّ الذى يستحق أنْ يُعبد وأنْ يُطاع فى أمره ونهيه ، والنهى فى ﴿وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَـٰهًا آخَرَ .. (٥١)﴾ [الذاريات] متعلق بالأمر فى ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ .. (٥٠)﴾ [الذاريات] حيث لا إله غيره ، ولا ملجأ لكم إلا هو .

وهذا هو الدين الحق الذى ارتضته الفطْرة السليمة منذ كُنَّا فى مرحلة الذر ، وأخذ الله علينا هذا العهد ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ..(١٧٢)﴾[الأعراف]

وما شذَّ الخَلْق عن هذا العهد إلا بسبب الغفلة أو وسوسة

الشيطان ونزغات وشهوات النفوس ، وما عبد الكفارُ الأصنام إلا لإرضاء فطرة التدين فيهم ، عبدوها تديناً بها ؛ إرضاء للفطرة ، وارتياحاً لعدم التبعة ؛ لأنها لا أمر لها ، ولا نهى .

وعلى العاقل قبل أنْ يقدم على العمل أنْ يستحضر عواقبه والجزاء عليه ، فحينما يُقبل على المعصية يتصوَّر العذاب الذى ينتظره عليها ، وحينما يكسل عن الطاعة يتصوَّر النعيم الذى أُعدّ له ، ولو فعل الناسُ ذلك ونظروا فى العواقب لفرُّوا من المعصية إلى الطاعة .

﴿ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ ..(٥٢) ﴾ [الذاريات] أى : كما حدث لمَنْ تقدم ، وحصل لهم ما حصل من نزول العذاب بهم بالصاعقة وبالريح العقيم فانتظر أنْ ينزل بهم مثل هذا ، فما هم عنه ببعيد ، ولا تحزن فلستَ أول رسول يُكذِّبه قومه ﴿ كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٥٢) ﴾ [الذاريات]

وسبق أن اتهموا رسل الله بالسحر وبالجنون ، فاصبر ﴿ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٧٧) ﴾ [غافر]

يعنى : إن لم ينزل بهم العذاب فى الدنيا فهو ينتظرهم فى الآخرة .

وقد رحم الله هؤلاء المكذِّبين لرسوله رغم كفرهم وعنادهم تقديراً لوجود رسول الله بينهم ، وهذا هو معنى قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣) ﴾ [الأنفال]

وقد كان سيدنا رسول الله حريصاً على هداية قومه مهما حدث منهم ، وكان يناجى ربه دائماً يقول : أمتى أمتى[(١)] .

وسبق أنْ بيَّنا بطلان هذا الاتهام ، فالنبى لا يكون أبداً ساحراً ولا مجنوناً ، فهاتان الصفتان أبعد ما تكونان عن وصف النبى ، لأنه قدوة فى السلوك وما شاهدتم عليه أبداً علامة من علامات السحر أو الجنون .

ولو كان ساحراً لسحركم فآمنتم به كما آمن غيركم ، ولو كان مجنوناً لما استطاع ترتيب الأمور على هذه الصورة ولما بلَّغكم رسالة ربه ، ثم إن الاتهام بالسحر ينافى الاتهام بالجنون ، فكيف جمعتم عليه هاتين الصفتين ؟

لذلك يقول تعالى بعدها : ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِ .. (٥٣)﴾ [الذاريات] كأن الأمم المكذِّبة على مَرِّ التاريخ أوصى بعضهم بعضاً بهذا القول : قولوا للنبى ساحر ومجنون ، وكأنه اتفاق مسبق بينهم وإصرار منهم على تكذيب الرسل ، والتمادى فى اللدد والعناد .

---

(١) عن عبد الله بن عمرو بن العاصى أن النبى ﷺ تلا قول الله عز وجل فى إبراهيم ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي.. (٣٦)﴾ [إبراهيم] . وقال عيسى عليه السلام " ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨)﴾ [المائدة] فرفع يديه وقال : اللهم أمتى أمتى وبكى . فقال الله عز وجل : يا جبريل اذهب إلى محمد وربك أعلم فسله ما يبكيك . فأتاه جبريل فسأله فأخبره رسول الله ﷺ بما قال وهو أعلم . فقال الله : يا جبريل اذهب إلى محمد فقل : «إنا سنرضيك فى أمتك ولا نسوءك» أخرجه مسلم فى صحيحه (٣٠١) والنسائى فى السنن الكبرى (١١٢٦٨) والطبرانى فى المعجم الكبير (١٥١٥) وفى الأوسط (٩١٤١) وابن أبى حاتم فى تفسيره (٧٠٩٩) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص .

لذلك يُضرب الله عنهم وعن اتهاماتهم ، ويقول : ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (٥٣) ﴾ [الذاريات] أى : دعْكَ من هؤلاء ، فهم قوم طاغون . أى : متجاوزون للحدود[١] .

﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ (٥٤) وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ (٥٥) ﴾

معنى ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ .. (٥٤) ﴾ [الذاريات] أعرض عنهم ودَعْك منهم ، فأنت غير مطالب بأن تحملهم على الإيمان ، وما عليك إلا البلاغ وفقط ، وفى أكثر من موضع خاطب الحق سبحانه نبيه بهذا المعنى : ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ[٢] نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣) ﴾ [الشعراء]

أنت ستهلك نفسك من أجلهم وحرصاً على هدايتهم ، والهداية ليست مهمتك ، مهمتك البلاغ والهداية من الله ﴿ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ (٤) ﴾ [الشعراء]

يعنى : لو شئتُ لجعلتُهم مؤمنين قهراً كإيمان السماء والأرض ، لكننى أريد إيمانَ القلب لا إيمانَ القالب .

﴿ فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ (٥٤) ﴾ [الذاريات] يعنى : لا لوم عليك فى عدم إيمانهم ، وإنْ حدث لوْم لرسول الله فهو لوْم له لا عليه ، لوْم

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٩/٦٤٥٥) : « أى لم يُوص بعضهم بعضاً بل جمعهم الطغيان وهو مجاوزة الحد فى الكفر » .

(٢) بخع نفسه : قتلها هماً وغيظاً وحزناً . [القاموس القويم ١/٥٦] .

لصالحه ورحمة به ﷺ ، كما لامه ربّه فى مسألة الأعمى عبد الله بن أم مكتوم[١] فقال تعالى : ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ (١) أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ (٣)﴾ [عبس] لامه لأنه كلَّف نفسه فوق طاقتها ، وأعرض عن هذا المؤمن حِرْصاً منه على هداية صناديد قريش[٢] .

وقوله سبحانه : ﴿وَذَكِّرْ .. (٥٥)﴾ [الذاريات] يعنى مهمتك أنْ تُذكِّر الناس بالله وبمنهج الله ، ذكِّر وفقط ، ذكِّر مَنْ جاءك ومَن انصرف عنك ﴿فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ (٥٥)﴾ [الذاريات] ، فالمؤمن هو الذى ينتفع بالتذكير ويتمسَّك بالإيمان .

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ (٥٧)[٣] إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (٥٨)﴾

---

(١) هو : عمرو بن قيس بن زائدة بن الأصم ، صحابى شجاع كان ضرير البصر ، أسلم بمكة وهاجر إلى المدينة بعد وقعة بدر ، وكان يؤذن لرسول الله ﷺ فى المدينة مع بلال وكان النبى يستخلفه على المدينة يصلى بالناس فى عامة غزواته ، حضر حرب القادسية ومعه راية سوداء وعليه درع سابغة فقاتل وهو أعمى ورجع بعدها إلى المدينة فتوفى فيها قبيل وفاة عمر بن الخطاب عام ٢٣ هـ . [الأعلام للزركلى ٥/٨٣] .

(٢) الصناديد : جمع صنديد وهو الملك الضخم الشريف . وقيل : السيد الشجاع . والصناديد : سادات الناس وهم حماة العسكر [لسان العرب – مادة : صند] وقال فى تاج العروس للزبيدى : « كل عظيم غالب صنديد . فهو الغالب لمن عاداه وعارضه » .

(٣) قوله : ليعبدون . أى : ليوحدون . وقال على رضى الله عنه : أى إلا لآمرهم بالعبادة . وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس : أى إلا ليقروا لى بالعبادة طوعاً وكرهاً . وقال مجاهد : إلا ليعرفونى . [ذكره القرطبى فى التفسير ٩/٦٤٥٦] .

قوله تعالى : ﴿وَمَا خَلَقْتُ .. (٥٦)﴾ [الذاريات] الخَلْق هو إيجاد المادة من عدم وتصويرها على غير مثال سابق ، والخَلْق بهذه الصورة لا يكون إلا لله وحده ، ومع ذلك لم يحرم خَلْقه من هذه الصفة ، فأعطاهم صفة الخَلْق على قدرهم .

وقال سبحانه عن نفسه : ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤)﴾ [المؤمنون] فأنت خالق حينما تبرز للوجود شيئاً جديداً لم يكُنْ من قبل ، كالذى يصنع الكوب مثلاً من الرمل يُسمَّى خالق لأنه أوجده ، نعم هو خالق ولم يُحرم ثمرة جهده .

أما الحق سبحانه فهو أحسن الخالقين ، ومعلوم أن البشر يخلقون من مادة موجودة ، أما الحق سبحانه فيخلق من غير موجود ، البشر يخلقون مادة جامدة لا حياةَ فيها ، أما الخالق سبحانه فيخلق خَلْقاً حياً مُتجدداً ينمو ويكبر ، إلى غير ذلك من الوجوه فى هذه المسألة ، فنحن نخلق لكن الله أحسنُ الخالقين .

ثم إن الحق سبحانه خَصَّ هنا الجنَّ والإنس فى مسألة العبادة ، ولم يذكر خَلْقاً آخر أعظم هم الملائكة ، قالوا : لم يذكر الملائكة فى هذا المقام لأنهم خُلقوا للعبادة وليس لهم اختيار فيها ، فهم مخلوقون بدايةً ، ومُهيَّئون لعبادة الله ، وجُبلوا على ذلك ﴿لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٦)﴾ [التحريم]

والحديث هنا عن الخَلْق المختار الذى ينتظر منه الطاعة ، وينتظر منه العصيان . فإنْ قلتَ : فلماذا قدَّم الجن على الإنس فى هذه المسألة ؟

قال بعض العلماء : قدَّم الجن على الإنس ، لأن العبادة إما سرية

وإما جهرية ، وعبادة الجن سرية لأننا لا نراهم ، والعبادة السرية أفضل لأنها لا يدخلها الرياء ، أما عبادة الإنس فجهرية فى الغالب ويدخلها الرياء .

وهذا القول يمكن الردّ عليه بأن عبادة الجن سرية بالنسبة لنا ، لأننا لا نراهم لكن جهرية بالنسبة لجنسه ، ويمكن أيضاً أنْ يدخلها الرياء ، فهم يرى بعضهم بعضاً .

لكن يمكن توجيه المسألة توجيهاً آخر ، فنقول : لو أنك قرأتَ القرآن باستيعاب لوجدتَ أن الجن خُلقوا قبلنا ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ (٢٧)﴾ [الحجر] فقدَّمه على الإنس لأنه خُلِق قبلهم .

ثم إن معظم انصراف الإنس عن العبادة بسبب الشيطان وهو من الجن ﴿إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ .. (٥٠)﴾ [الكهف] ولهذا قدِّموا علينا فى مسألة العبادة .

والأسلوب فى قوله تعالى : ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ (٥٦)﴾ [الذاريات] أسلوب قصر . أى : قصر خَلْق الإنس والجن على العبادة ، فهى العلة الوحيدة لهذا الخَلْق ، ما خلقهم لشىء آخر سوى عبادته سبحانه .

والعبادة تعنى طاعة العابد للمعبود فى أمره ونهيه ، وهذه العبادة بهذا المعنى هى العبادة الحق ، وهى مطلوب الله من العباد ، لذلك لا يقبل الله إلا ما كان له خالصاً .

وهذه العبادة الحق لا يأتى بها كُلُّ الخلق ، بل يأتى كُلٌّ منهم على قدر روحه وعلى قدْر نظره للإله الحق الذى يعبده .

والناس كبشر متفاوتون فى هذه المسألة ، وأعلاهم فيها هم الرسل ، وأفضل الرسل خاتمهم محمد ﷺ ، فهو الذى حقَّق العبادة على وفْق مراد الحق سبحانه منها .

لذلك البعض يغالى فيقول : ما خُلق الكون كله إلا من أجل محمد ﷺ ، ونقول : يكفى أنه ﷺ أحسنُ عابد لله ، لأن العبادة معنى ، والمعنى لا يتحقق إلا بعابد حَقٍّ ، وهو الذى يؤدى المراد لله .

وهذا العابد الحق لا يأتى من الناس العاديين ، إنما يأتى من الأنبياء وسيد الأنبياء وخاتمهم سيدنا رسول الله ، فهو خير مَنْ حقق العبادة لله .

إذن : علَّة الخَلْق هى العبادة ، والله تعالى مُنزَّه فى أفعاله عن العلة ، فهو سبحانه يفعل ما شاء لما شاء فيما شاء . والعلة الممنوعة فى أفعاله تعالى العلة التى تعود عليه سبحانه .

أما العلة التى تعود على غيره فلها تعليل ، فالعبادة ليستْ له سبحانه إلا لمصلحة الخَلْق جميعاً ، لأنها هى التى تسعدهم فى الدنيا وتُنجيهم فى الآخرة ، ولا يعود على الله منها شىء ، لأنه سبحانه الغنى عن خَلْقه ، فلا تنفعه طاعتهم ولا تضره معصيتهم .

فقد خلق الخَلْق بكامل صفات الكمال فيه ، فلم يزدد بهذا الخلق صفة لم تكُنْ له من قبل ، فهو خالق قبل أنْ يخلق ، ورازقٌ قبل أنْ يرزق ، ومُسبِّح قبل أنْ يُوجد ما يُسبِّحه .

وإذا كانت العبادة كما قلنا طاعة العابد للمعبود فى أمره افعل ولا تفعل ، فهى بهذا المعنى تشمل حركة الحياة كلها ، ولا تقتصر على

الصلاة والصيام والزكاة كما يريدها البعض من الذين يعزلون الدين عن حركة الحياة .

يقولون : لا سياسة فى الدين ولا دين فى السياسة . وهذا قول باطل وغير صحيح ، والذين فعلوا ذلك يريدون أنْ يجعلوا لأنفسهم سلطة زمنية تخضع لأهوائهم ليفعلوا ما يريدون .

لقد تعمدوا عدم الارتباط بمنهج السماء فى إدارة شئون الأرض ، لأن منهج السماء يقيد حركتهم ، ونسُوا أنه أيضاً يقيد حركة المحكومين لمصالحهم .

إذن : منهج الله شمل الحياة كلها ، من قمة لا إله إلا الله إلى إماطة الأذى عن الطريق[1] ، ولو كان الأمر كما يقولون أنترك القاتل فلا يُقتل ، ونترك الزانى فلا نقيم عليه الحد ، ونترك شارب الخمر ، ونترك المفسدين يفسدون ، ونترك الناس لا يتناهون عن منكر فعلوه ؟

إذن : ماذا يريدون من تعطيل شرع الله وعزله عن حركة الحياة ، الحق سبحانه جعل العبادة لصالح الخلق ، تنظم حركة حياتهم وتسعدهم .

ودائماً فى هذه المسألة نذكر الحديث القدسى : « يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك فى مُلكى شيئاً ، ولو أن أولكم وآخركم وإنسكم

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « الإيمان بضع وسبعون – أو بضع وستون شعبة – فأفضلها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان » . أخرجه مسلم فى صحيحه (٥١) وكذا الترمذى فى سننه (٢٥٣٩) والنسائى فى سننه (٤٩١٩) وابن ماجه فى سننه (٥٦) .

وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئاً »[١] .

فكيف نُقصى دين الله عن حركة حياتنا ، وقد تدخل فى أبسط الأمور ، فدخل رجل عاص الجنة لأنه سقى كلباً[٢] ، ودخلتْ امرأة النار فى هرة حبستها[٣] ، فما بالك بالإنسان الذى كرَّمه الله ، أنهتم بسياسة الكلاب ونترك سياسة البشر ؟

وورد أيضاً فى الحديث القدسى : « يا بن آدم ، خلقتُك لعبادتى فلا تلعب »[٤] يعنى جدّ فى حركة الحياة ، لأن اللعب حركة بلا فائدة وبلا مغزى ، والله يريد لحركة العباد أنْ تكون حركة نافعة ذات مغزى .

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٤٦٧٤) والبيهقى فى السنن الكبرى (٩٣/٦) والحاكم فى مستدركه على الصحيحين (٧٧١٤) والبيهقى فى شعب الإيمان (٦٨٢٣) من حديث طويل عن أبى ذر الغفارى رضى الله عنه .

(٢) أخرج البخارى فى صحيحه (١٦٨) وأحمد فى مسنده (١٠٣٣٤) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ أن رجلاً رأى كلباً يأكل الثرى من العطش فأخذ الرجل خفَّه فجعل يغرف له به حتى أرواه ، فشكر الله له فأدخله الجنة .

(٣) أخرج البخارى فى صحيحه (٢١٩٢ ، ٣٠٧١ ، ٣٢٢٣) وكذا مسلم فى صحيحه (٤١٦٠) من حديث عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال : « عذبت امرأة فى هرة حبستها حتى ماتت جوعاً فدخلت فيها النار . قال : لا أنت أطعمتها ولا سقيتها حين حبستيها ، ولا أنت أرسلتها فأكلت من خشاش الأرض » . وهذا لفظ البخارى .

(٤) أورده ابن كثير فى تفسيره لآية ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات] قال : فى بعض الكتب الإلهية : يقول الله تعالى : « ابن آدم خلقتك لعبادتى فلا تلعب ، وتكفلت برزقك فلا تتعب ، فاطلبنى تجدنى ، فإن جدتنى وجدت كل شىء ، وإن فُتك فاتك كل شىء ، وأنا أحب إليك من كل شىء » ، وهو من الإسرائيليات كما قاله ابن تيمية فى مجموع فتاوى ابن تيمية (١٨٨/٢) .

فلو أنك أخذت جانب العبادة وأهمها الصلاة مثلاً ، ألستَ تحتاج لإقامة هذا الواجب إلى ستر العورة كيف ؟ ثياب تلبسها ، كيف تصل إليك هذه الثياب ؟

تأمل من أول زراعة القطن إلى أنْ يصلك ثوب تلبسه ، إنها رحلة طويلة من السعى والعمل والجد ، يشترك فيها آلاف يخدمونك فى هذه المسألة .

إذن : حركة الحياة ليست هى الصلاة فحسب ، بل كل ما يعيننى على أداء الصلاة وكل ما يعيننى على أداء الزكاة والصوم والحج .

إذن : العبادة أمر شائع فى كل حركة الحياة ، فكيف نفصل الدين عن حركة الحياة كلها ، فضلاً عن أنْ نفصله عن سياسة أمر الخَلْق وتدبير شئونهم ؟

وقوله سبحانه : ﴿ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ (٥٧) ﴾ [الذاريات]

أى : ما أريد من خَلْقى أنْ يرزقونى ، نعم لأنه هو سبحانه الرزاق المتكفّل بأرزاق كُلِّ الخلق ، فكيف ينتظر منهم رزقاً ، وهو يرزق مؤمنهم ، ويرزق كافرهم ؟ كيف وهو موجود سبحانه قبل أنْ يُوجدوا ، وله صفات الكمال كلها قبل أنْ يخلقهم .

ومن باطن هذا الرزق يرزق الناسُ بعضهم بعضاً ، فرزق هذا من يد هذا ، والحق سبحانه وتعالى يشجع العبد على أنْ يعطى فيقول له : حينما ترزق عبدى فكأنك رزقتنى ، وحينما تعطيه كأنك أعطيتنى .

ذلك لأنه تعالى هو الذى خلق الناس واستدعاهم إلى الوجود ،

وتكفَّل لهم بالرزق ، فيد الله ممدودة لخَلْقه بخَلْقه ، لذلك سمَّى الصدقة على الفقير قرضاً ، فقال : ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ..(٢٤٥)﴾ [البقرة]

وفى الحديث القدسى : « يا بن آدم مرضتُ فلم تعدنى ، فيقول العبد : يا رب كيف أعودك وأنتَ رَبُّ العالمين ؟ فيقول : أما علمت أن عبدى فلاناً مرض فلم تعده ، أما علمت أنك لو عُدْتَه لوجدتنى عنده . يا بن ادم استطعمتك فلم تطعمنى ، فيقول : يا رب كيف أطعمك وأنت رب العالمين ؟ فيقول : لقد استطعمك عبدى فلان فلم تطعمه ، أما علمتَ أنك لو أطعمته لوجدتَ ذلك عندى ... »[1] .

إذن : فعل الخير يقع فى يد الله قبل أنْ يقع فى يد العبد ، والحق سبحانه وتعالى لو أراد لأنزلَ رزقه إلى عباده مباشرة ، لكن جعله من أيدى الناس لأيدى الناس ليزرع بينهم الألفة والمودة والمحبة ، ويشيع بينهم التراحم وعدم الاستكبار ، فالله يريد للمجتمع أنْ يتكاتف وأنْ يتعاون .

وقوله تعالى : ﴿وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ (٥٧)﴾ [الذاريات] فعطف الطعام على الرزق ، لماذا ؟ سبق أنْ بيَّنا أن الرزق هو كلّ ما يُنتفع به ، وعلى هذا فالعلم رزق ، والحلم رزق ، والكرم رزق ، والصحة رزق وهكذا ، فالرزق هنا الرزق العام لذلك خَصَّ بعده الطعام لأنه أظهر شىء فى الرزق ، وبه تقوم الحياة وتستبقى . قالوا : ولم يذكر الشراب لأنه داخل فى الطعام .

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٤٦٦١) والبيهقى فى شعب الإيمان (٨٨٧٩) وابن حبان فى صحيحه (٢٦٨ ، ٩٤٩ ، ٧٤٩٠) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (٥٨)﴾ [الذاريات] السياق هنا يؤكد على هذه الحقيقة ليرسخها فى الأذهان ، ليطمئن كلٌّ منا على أن رزقه مضمون ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ .. (٥٨)﴾ [الذاريات] فاستخدم إن ثم الضمير المنفصل هو ﴿ذُو الْقُوَّةِ .. (٥٨)﴾ [الذاريات] أى : صاحب القوة . وهذا يعنى أن الذات شىء ، والقوة شىء منفصل عنها .

وفى موضع آخر يتكلم عن القوة والغلبة فيقول : ﴿كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢١)﴾ [المجادلة] فالقوة هنا فى الذات ، فلم يقل هنا ذو قوة . لأن المقام مقام بيان للغلبة فى وجه المعاندين .

لذلك قال ﴿قَوِيٌّ .. (٢١)﴾ [المجادلة] والقوى هو الذى يغلب ، لكن قد تتكاتف عليه قوى أخرى تغلبه ، فقال ﴿عَزِيزٌ (٢١)﴾ [المجادلة] يعنى : غالب لا يُغلب أبداً . وهنا قال ﴿الْمَتِينُ (٥٨)﴾ [الذاريات] أى : الشديد فى قوته ، لأن القوة قد يصيبها الوهن فتضعف .

﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ (٥٩)﴾ (١)

من أساليب القرآن أنْ يذكر المتقابلات ، فبعد أنْ تكلم عن المؤمنين يتكلم عن كفار مكة ، فهم المقصودون بقوله تعالى : ﴿فَإِنَّ

---

(١) قال الفراء : الذَّنوب فى كلام العرب : الدلو العظيمة ، ولكن العرب تذهب بها إلى النصيب والحظ . وقال ابن قتيبة : أصل الذَّنوب الدلو العظيمة وكانوا يستقون فيكون لكل واحد ذنوب . [زاد المسير لابن الجوزى] . وقد ذكر الماوردى فى تفسيره أربعة أوجه : أولها : عذاباً مثل عذاب أصحابهم . قاله عطاء . الثانى : سبيلاً . قاله مجاهد . الثالث : الدلو . قاله ابن عباس . الرابع : النصيب .

لِلَّذِينَ ظَلَمُوا .. (٥٩) ﴾ [الذاريات] ظلموا بتكذيبهم وعنادهم لرسول الله ووقوفهم فى وجه الدعوة ، فاستحقوا أنْ يكون لهم ﴿ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ .. (٥٩) ﴾ [الذاريات] أى : نصيب من العذاب مثل نصيب أصحابهم من المكذِّبين فى الأمم السابقة عاد وثمود وفرعون .

والذَّنوب هو الدلو الذى نُخرج به الماء من البئر ، والحبل الذى يُشدُّ به الدلو يسمى الرِّشَاء ، فإنْ كان الماء كثيراً خرج الدلو ثقيلاً بطيئاً ، لذلك قالوا :

وأبطأ الدِّلاء فيضاً أملؤها ، وأثقل السحائب مشياً أحفلها .

والشاعر العربى يُعبر عن هذا المعنى ، فيقول :

وإذا امْرؤ مدح امرَءاً لِنواله وأطال فيه فقد أطال هجاءَه

لو لم يقدّر فيه بعد المستقى عند الورود لما أطال رشاءَه

لأن بُعْد الماء فى البئر يستدعى طول الرشاء ، كذلك بُعْد النوال عند الممدوح يستدعى طول المديح .

إذن : استخراج الماء بالدلو كانت عادة عربية ، وإن كان الذَّنُوب يُصب له الماء ليشربوا فى الدنيا ، لكن الذنوب هنا سيصب عليهم العذاب صَبّاً .

كما قال تعالى : ﴿ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ (١٩) ﴾ [الحج] يصب على المكذبين من قريش ، كما صبّ على قوم نوح وعاد وثمود وقوم فرعون ، لأن الكفر ملة واحدة على مرِّ العصور .

لذلك لما تكلم الحق سبحانه عن عذاب قوم لوط قال : ﴿ وَأَمْطَرْنَا

عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ[١] مَّنضُودٍ (٨٢) مُسَوَّمَةً[٢] عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ (٨٣) ﴾ [هود] فالعذاب الذى نزل بالسابقين ليس بعيداً عن اللاحقين .

وهنا أكد على هذا المعنى فقال : ﴿ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ (٥٩) ﴾ [الذاريات] لأنه واقع بهم لا محالة وغير بعيد عنهم ، والمسألة مسألة وقت وأوانٍ ينتظرهم .

﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (٦٠) ﴾

كلمة (ويل) قالوا : واد فى جهنم[٣] ، وقالوا : ويل . يعنى : هلاك وعذاب ولَعْن من الله لهؤلاء الذين خرجوا عن طاعته ولم يُؤدوا المهمة التى خُلِقوا من أجلها وهى عبادة الله وحده .

فلما استغنوا عن الله استغنى اللهُ عنهم ، فأبعدهم من رحمته وخلَّدهم فى عذابه ، فلا يقضى عليهم فيموتوا ، ولا يخفف عنهم من عذابها .

لذلك حكى الله عنهم : ﴿ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم

---

(١) السجيل : الطين المتحجر . [القاموس القويم ١/٣٠٤] وهى كلمة معربة أصلها سنك وكِلْ أى حجارة وطين . [لسان العرب – مادة : سجل] والسجيل المنضود أى المتتابع المنتظم السقوط عليهم . [القاموس القويم ٢/٢٧١] .

(٢) مسومة عند ربك : عليها خواتيم بأسماء المعذبين . [القاموس القويم ١/٣٣٧] .

(٣) ويل : كلمة مثل ويح ، إلا أنها كلمة عذاب . والويل : حلول الشر . وقيل هو تفجع . والويل الحزن والهلاك والمشقة من العذاب . وقد جاء فى الحديث عن أبى سعيد الخدرى قال قال رسول الله ﷺ : « الويل واد فى جهنم يهوى فيه الكافر أربعين خريفاً » [لسان العرب – مادة : ويل] .

مَّاكِثُونَ (٧٧) ﴾ [الزخرف] وقال عنهم : ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ .. (٥٦) ﴾ [النساء]

وقوله تعالى : ﴿ مِن يَوْمِهِمُ الَّذِى يُوعَدُونَ (٦٠) ﴾ [الذاريات] أى : يومهم الذى وعدهم اللهُ به وحذَّرهم منه ، فالله تعالى لم يأخذهم على غرّة ، ولم يتركهم فى غفلة ، إنما بيَّن لهم العواقب . فقال : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا .. (٤٦) ﴾ [فصلت]

سُورَةُ الطُّورِ

سورة الطور (١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالطُّورِ ۝١ وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ ۝٢ فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ ۝٣﴾

نلاحظ أن مطلع سورة (الطور) يتشابه ومطلع سورة (الذاريات) قبلها ، ففى الذاريات يُقسم الحق سبحانه : ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ۝١ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ۝٢ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ۝٣ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ۝٤﴾ [الذاريات] وجواب القسم ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝٥ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ۝٦﴾ [الذاريات]

وهنا يقسم الحق سبحانه : ﴿وَالطُّورِ ۝١ وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ ۝٢ فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ ۝٣ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ۝٤ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ۝٥ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ۝٦﴾ [الطور] وجواب القسم : ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ۝٧ مَّا لَهُ مِن دَافِعٍ ۝٨﴾ [الطور] فكلاهما يقسم على صدق الإخبار بيوم القيامة ، وما فيه من العذاب الذى لا يُرد ولا يُدفع .

---

(١) سورة الطور هى السورة رقم (٥٢) فى ترتيب المصحف الشريف ، عدد آياتها ٤٩ آية ، وهى سورة مكية كلها فى قول الجميع . نزلت بعد سورة السجدة وقبل سورة الملك ، فهى السورة رقم (٧٥) فى ترتيب نزول القرآن . [انظر الإتقان فى علوم القرآن ١/٢٧] .

وحينما نتأمل المقسَم به فى الموضعين نجده فى سورة الذاريات أقسم بأشياء مادية ، أقسم بالرياح والسُّحب التى تحمل الماء الذى يُحيى الأرض .

وفى الطور أقسم بأشياء روحية قيمية ، فالمادة تسعدك فى الدنيا ، والقيم تُسعدك فى الدنيا والآخرة ، والدنيا مهما طالتْ تنتهى إلى الآخرة الباقية التى لا نفادَ لنعيمها .

لذلك خاطبنا الحق سبحانه بقوله : ﴿ يَـأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ .. (٢٤) ﴾ [الأنفال] يخاطبهم وهم أحياء يُرزقون ، إذن : يقصد حياة أخرى غير هذه الحياة ، يقصد حياة القيم ، حياة النعيم الدائم الذى لا يزول .

وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٦٤) ﴾ [العنكبوت] الحيوان أى : الحياة الحقيقية التى لا يُهدِّدها فناء .

لكن لماذا أقسم الحق سبحانه هنا بالطور ؟ قالوا : لأن الرسل كُلّموا بالوحى ، أما موسى عليه السلام فكلَّمه الله مباشرة بالكلام المباشر من على هذا الجبل ، ومن هنا كانت لجبل الطور منزلة خاصة .

ذلك لأن بنى إسرائيل قوم عندهم لدد وعناد فى الخصومة ، ويميلون إلى المادية فى كل شىء حتى فى الدين ، لذلك قالوا لموسى : ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً .. (٥٥) ﴾ [البقرة] فلو قال لهم : إن الوحى أتانى سِراً ما صدّقوه .

قوله تعالى : ﴿وَالطُّورِ ۝١﴾ [الطور] الواو هنا واو القسم ، فالحق سبحانه يقسم بالطور أى جبل الطور . وقلنا : إن الحق سبحانه يقسم بما يشاء من مخلوقاته ، والطور وردتْ فى القرآن عشر مرات لِعظم هذا المكان عند الله .

ومن على جبل الطور كلم الله سيدنا موسى ﴿وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ ۝٢﴾ [الطور] كتاب أى مكتوب وهو التوراة وفيها الألواح . ومسطور يعنى : كتابة منظمة فى سطور (مش منعكش) .

وقوله : ﴿فِي رَقٍّ مَّنْشُورٍ ۝٣﴾ [الطور] الرقّ : كل ما يُكتب فيه من جلد ، وهو أول ما كتبوا فيه أو عظم أو غيره ﴿مَّنْشُورٍ ۝٣﴾ [الطور] مبسوط غير مطوى أو مُغلق ، مثل تاجر القماش ينشر لك الثوب ويعرضه عليك ، وهذا يعنى أنه ثوبٌ جيد لا عيبَ فيه ولو كان فيه عيب ما نشره ، وما أعطاك الفرصة لتتفقده .

فالحق سبحانه نشر كتابه وعرضه على الخَلْق ليقرؤوه ، وهذا يعنى أنه كتاب مُحكم دقيق ، لا عيبَ فيه ولا خلل .

﴿وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ۝٤ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ۝٥ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ۝٦﴾

معنى ﴿وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ۝٤﴾ [الطور] قسم بالبيت وهو الكعبة ، وهذا دليل على وجود أُناس فى هذا الزمن استجابوا لمنهج الله وذهبوا إلى البيت وعَمرُوه . وقالوا : البيت المعمور فى السماء وتطوف به الملائكة .

وكأن الله تعالى يقول لهم : إياكم أنْ تظنوا أنى أترجى فيكم لتؤمنوا ولتأتوا إلى عمارة بيتى ، فعندى البيت المعمور فى السماء السابعة يدخله كلّ يوم سبعون ألف ملك ، مَنْ دخله مرة لا يدخله أخرى[1] وهم عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون .

ومعنى ﴿وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ۝٥﴾ [الطور] أى : السماء سقف مرفوع بلا عمد ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ۝٦﴾ [الطور] كلمة مسجور لها معنيان : مسجور يعنى ملىء بالماء ، والبحر قسمان : مالح وعذب .

والعجيب أن الله تعالى قال عنهما ﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا .. ۝١٢﴾ [فاطر] فلا نأكل الفسيخ من البحر المالح ، إنما نأكل منه السمك كالذى نأكله من الماء العَذْب ، فملوحة الماء لم تؤثر فى طعم السمك .

المعنى الآخر : مسجور يعنى مشتعل ، نقول : سجره يعنى : صيَّره ناراً تشتعل ، ومعلوم أن الماء والنار من المتناقضات ، فهذه البحار التى تزخر بالماء تأتى يوم القيامة وقد اشتعلتْ ناراً بعد أنْ تبخَّر ما فيها من ماء .

ثم يأتى جواب القسم :

﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ۝٧ مَّا لَهُ مِن دَافِعٍ ۝٨﴾

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٩٦٨) وكذا مسلم فى صحيحه (٢٣٤) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، ولفظه « رُفع لى البيت المعمور فسألت جبريل فقال : هذا البيت المعمور يصلى فيه كل يوم سبعون ألف ملك ، إذا خرجوا لم يعودوا إليه آخر ما عليهم » الحديث بطوله .

أى : عذاب الآخرة واقع أى حادث لا شكَّ فيه ، لأن الذى وعد به وأخبر به هو القوى والقادر الأعلى الذى لا يردُّ أحدٌ كلمته ، ولا يقف أحدٌ ليمنعه عن إرادته ، فالله سبحانه ليس له ندٌّ وليس له شريك ، وليس له نظير ولا معارض .

وما دام الأمر كذلك ﴿مَا لَهُ مِن دَافِعٍ ﴿٨﴾﴾ [الطور] أى : لا أحدَ يستطيع أنْ يدفع عذاب الله إنْ وقع ، ولا يمنعه إنْ جاء موعده ، ومتى موعده ؟[1] .

يقول :

﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ[2] يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾﴾

الحديث هنا عن يوم القيامة ، وفيه تمور السماء موراً ، فهذه السماء وهذا السقف المرفوع المحفوظ ، وهذا البناء المحكم الذى قال الله فيه ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ .. ﴿٤٧﴾﴾ [الذاريات] أى : بقوة وإحكام ،

---

(١) قال جبير بن مطعم : قدمت المدينة لأسأل رسول الله ﷺ فى أسارى بدر ، فوافيته يقرأ فى صلاة المغرب (والطور) إلى قوله ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾ مَا لَهُ مِن دَافِعٍ ﴿٨﴾﴾ [الطور] فكأنما صُدع قلبى ، فأسلمت خوفاً من نزول العذاب ، وما كنت أظن أن أقوم من مقامى حتى يقع بى العذاب . [تفسير القرطبى ٩ / ٦٤٦٣] .

(٢) فى خوض يلعبون : أى فى تردد فى الباطل واندفاع فيه يلهون لا يذكرون حساباً ولا يخافون عقاباً . والمعنى : أنهم يخوضون فى أمر محمد ﷺ بالتكذيب والاستهزاء . وقيل : يخوضون فى أسباب الدنيا ويعرضون عن الآخرة . [فتح القدير للشوكانى] .

وقال : ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا (١٢)﴾ [النبأ]

هذه السماء تمور يعنى : تتحرك وتضطرب أو تتقطع ، كما يحدث للقماش القديم المهترئ ، وفى موضع آخر عبَّر عن هذا المعنى بقوله سبحانه : ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ (٨)﴾ [المعارج]

وهذا يعنى أن بناء السماء تهدَّم وتفككتْ أوصاله كما تهدَّم كل شىء فى الكون ، حيث لم يَعُدْ لها مهمة ، فمهمة السماء فى الدنيا أنها كانت من أسباب الحياة الدنيا .

أما فى الآخرة فلا حاجة للأسباب ، لأننا هناك نعيش بالمسبِّب سبحانه ، لا حاجة لنا فى هذه الأسباب التى نحيا بها .

لذلك يقول سبحانه فى هذا اليوم : ﴿وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ..(٦٩)﴾ [الزمر] يعنى : لسنا فى حاجة إلى الشمس ، لأننا نستضىء بنور ربِّ الشمس ومسبِّبها سبحانه .

وقوله تعالى : ﴿وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا (١٠)﴾ [الطور] كما قال : ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ (٣)﴾ [التكوير] هذه الرواسى الثابتة كالأوتاد على ضخامتها تسير وتتحرك ، ثم تتفتتْ وتتناثر .

قال سبحانه : ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ (٩)﴾ [المعارج] أى : الصوف المندوف المتناثر ، نعم فلم يَعُدْ لها مهمة ، كانت مهمتها تثبيت الأرض ، والآن تهدَّم كلُّ هذا النظام وتفكك .

﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (١١)﴾ [الطور] ويل لهم ، لأنهم أخذوا بالأسباب وانتفعوا بها ونسوا المسبب ، فها هى الأسباب تفنى ولم يَبْقَ إلا مُسبِّبها الله الذى كفرتم به وكذَّبتم رسله ، والآن لا يأخذ خير المسبب إلا من آمن به وصدق رسله ساعة بقاء الأسباب .

لذلك نقول : إياك أنْ تغترَّ بالأسباب مهما طاوعتك ومهما أعطتْك ، واعلم أن وراء الأسباب مُسبِّبها .

تذكرون أن باكستان فى فترة من الفترات خططتْ لزراعة مساحات واسعة من القمح ، وجاءت دراسة الجدوى تُبشِّرهم بالاكتفاء الذاتى ثم التصدير حتى لأمريكا ، وفعلاً زرعوا القمح حتى قارب على الاستواء ، فنزلتْ عليه آفة أفسدته ، وفى هذا العام استوردوا القمح لأنهم اعتمدوا على الأسباب ونسُوا المسبِّب سبحانه .

أيضاً فى قصة قارون : ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي ..(٧٨)﴾ [القصص] فلما اغتر بعلمه وفَهْمه تركه الله وقال : احفظ مالك أيضاً بعلمك ، ثم جاءته الطامة التى لا يستطيع أنْ يدفعها ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ ..(٨١)﴾ [القصص] فأين عنديتك الآن ؟

نعم ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (١١)﴾ [الطور] الذين كذَّبوا بالله الموجد الأعلى وكذَّبوا رسله ، وظنوا أن الحياة الدنيا هى الغاية ، وهى نهاية المطاف كما يقول الذين يؤمنون بالطبيعة ويكفرون بالله .

لذلك زاد فى تعريفهم ، فقال : ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ (١٢)﴾ [الطور]
وفى موضع آخر قال : ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا .. (٤٢)﴾ [المعارج]

والخوض يكون فى الماء ، وفيه إشارة إلى التخبُّط وعدم الهدى ، فأنت مثلاً حينما تسير على قدميك على الأرض تستطيع أنْ تتحسَّس مواضع قدمك ، وتشعر بأماكن الخطر فى الطريق لأنك تسير فيه على هدى وبصيرة .

لكن حينما تسير فى الماء فأنت لا تعرف أين تضع قدميك ولا

تأمن العطب ، لذلك حين نتأمل القرآن الكريم نجده لم يستخدم الخوض إلا فى الباطل ، فقال : ﴿ثم ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ (٩١)﴾ [الأنعام] وقال : ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ..(٦٨)﴾ [الأنعام]

وقد عبَّر القرآن عن هذا المعنى ، فقال : ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ (١١)﴾ [الذاريات] كأنهم فى ماء يغمرهم ويتخبطون فيه .

﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا (١٣)
هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٤)﴾

الفعل ﴿يُدَعُّونَ .. (١٣)﴾ [الطور] من دعَّ نقول دعه . أى : دفعه بشدة وعنف حتى كفأه على وجهه ، ومنه قوله سبحانه : ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (١) فَذَٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ (٢)﴾ [الماعون] أى : يدفعه بقسوة .

فالذى جاءه يتيم جاءه ليطلب منه حاجة تقيم حياته ، وكان بوُسْعه أنْ يُعطيه أو يردّه ويسكت عنه دون أذىً ، لكنه دعَّه ودفعه وآذاه ، لذلك استحقَّ هذا الجزاء .

كذلك الحال هنا مع هؤلاء المكذِّبين ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا (١٣)﴾ [الطور] أى : يُساقون إليها دَفْعاً شديداً قوياً ، دَفْعاً فيه إهانة لهم ، ومن الذى يدفعهم نحو النار ؟ إنهم الملائكة .

ووالله لو كانوا بشراً لكان كافياً فى إذلالهم ، كما ندفع المجرم فى الدنيا إلى باب السجن مثلاً ، فما بالك حين تدفعهم ملائكة العذاب

إلى داخل النار ، فإذا دخلوها تتلقَّاهم ملائكة أخرى لهم معهم مهمة أخرى : ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ (٤٨)﴾ [القمر]

إذن : الدَّعّ هنا يتناسب وقوة الملائكة ، فكيف يكون ؟ ومن الإهانة لهم أنْ يقابلهم الملائكة بهذه الحقيقة : ﴿هَـٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٤)﴾ [الطور] أصبحتْ عياناً تشاهدونها ، وتقاسون حرَّها .

﴿أَفَسِحْرٌ هَـٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ (١٥) اصْلَوْهَا(١) فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٦)﴾

تأمل هذا التوبيخ والتقريع ، فقد كانوا يتهمون الرسول ويقولون ساحر ويقولون للقرآن سحر ، فالآن يخاطبهم بنفس كلمتهم ، يقول لهم ﴿أَفَسِحْرٌ هَـٰذَا .. (١٥)﴾ [الطور] أى : هذا العذاب الذى تُقاسُونه أهو سحر ؟

السحر تخييل لا تتألمون منه ، لكنكم تتألمون . إذن : ليس سحراً بل هو حقيقة ﴿أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ (١٥)﴾ [الطور] إما هذه وإما هذه .

﴿اصْلَوْهَا .. (١٦)﴾ [الطور] ادخلوها أى جهنم ، وذوقوا حرّها وعذابها .

﴿فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا .. (١٦)﴾ [الطور] هذه أول مرة نرى الصبر لا فائدة منه ، وليس له أجر ، إنه صبر هؤلاء على حرِّ جهنم .

---

(١) صلى النار : قاسى حرّها . وأصلاه الله النار : أدخله إياها . ومنها قوله تعالى : ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (٢٦)﴾ [المدثر] أى : سأدخله النار . [القاموس القويم ١/٣٨٢] .

﴿ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ .. (١٦) ﴾ [الطور] يستوى عندنا صبرتم أو لم تصبروا ، فالأمران سيان ، ولن تخرجوا منها أبداً ، وهذا ليس ظلماً لهم إنما جزاءً وفاقاً .

﴿ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٦) ﴾ [الانفطار] لم نأت بشىء من عندنا ، إنما هى أعمالكم نُوفيكم إياها ، فأنتم الذين وضعتم أنفسكم هذا الموضع .

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ (١٧) فَاكِهِينَ[1] بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (١٨) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٩) ﴾

ذِكْر المتقابلات سمة من سمات الأسلوب القرآنى ، ومظهر من مظاهر عظمته ، فكما قلنا : الضد يظهر حُسْنه الضد ، لذلك كثيراً ما نقرأ هذه المتقابلات كما فى قوله سبحانه : ﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (١٤) ﴾ [الانفطار]

وهنا بعد أنْ تكلَّم عن الكافرين وجزائهم فى جهنم والعياذ بالله يُحدِّثنا سبحانه عن المتقين وما ينتظرهم من النعيم .

فساعة نقرأ هذه الآيات ونستحضر الصورتين المتقابلتين يقول

---

(١) فكه : مرح ومزح وتحدث بالفكاهات والطرائف فهو فاكه . والفاكه : الناعم العيش . [القاموس القويم ٢ / ٨٨] .

المؤمن : الحمد لله أن إيمانى أنقذنى من هذا المصير المخزى . ويقول الكافر : يا حسرتى لقد أبعدنى الكفر وحرمنى هذا النعيم .

فالمقابلة تُفرح المؤمن وتُحزن الكافر ، تُعز المؤمن وتُذل الكافر ، لذلك قال تعالى : ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ .. (١٨٥)﴾ [آل عمران]

وقوله تعالى : ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ .. (١٧)﴾ [الطور] معنى التقوى أنْ تجعل بينك وبين عذاب الله وقاية ، وقلنا : إن الحق سبحانه قال : ﴿اتَّقُوا اللَّهَ .. (٢٧٨)﴾ [البقرة] وقال ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ ..(٢٤)﴾ [البقرة] والمعنى واحد هو أنْ تجعلَ بينك وبين صفات الجلال لله وقاية ، وحين تقى نفسك من النار فإنك تقى نفسك من الله ، لأنها جُند من جنود الله .

وتلاحظ هنا ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ (١٧)﴾ [الطور] (المتقين) جمع و (جنات) جمع . وهذا يعنى أن لكلِّ مُتَّق جنة خاصة به ، كما لو قلنا للتلاميذ : أخرجوا كتبكم . أى : ليُخرج كلُّ واحد منكم كتابه ، فمقابلة الجمع بالجمع تقتضى القسمة آحاداً .

لذلك قلنا فى آية الرحمن : ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (٤٦)﴾ [الرحمن] فكيف نجمع بينهما ؟ قالوا : جنتان ، لأن الحديث هنا عن الإنس والجن الثقلان ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلانِ (٣١)﴾ [الرحمن]

فالمراد : مَنْ خاف مقام ربه من الجن له جنة ، ومن خاف مقام

ربه من الإنس له جنة[١] .

وحرف الجر ﴿فِي جَنَّاتٍ .. ﴿١٧﴾﴾ [الطور] يعنى : أن الجنات ظرف والمتقين مظروف ، الجنة محيطة بالمتقى ، ثم قال ﴿وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾﴾ [الطور] لأن مَنْ فى الجنة ليس بالضرورة أنْ يكون فى نعيم .

كما نرى مثلاً الباشا يجلس فى حديقة منزله ، وفيها الأشجار والزهور والثمار ، وعنده العامل يقصف الأشجار يُقلِّمها ويرويها ، فالحديقة نعيم فقط لصاحبها ، لكنها ليستْ نعيماً لمَنْ يعمل فيها .

أما هؤلاء المتقون فهم فى جنات وفى نعيم ، فهم يتنعَّمون فيها ، لذلك أكّد الحق سبحانه هذا المعنى ، فقال بعدها : ﴿فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ ..﴿١٨﴾﴾ [الطور] أى : فاكهين بما هم فيه من النعيم ، وفاكهين يعنى : فرحين . هذه إضافة أخرى لأن الإنسان قد يكون فى جنة وفى نعيم لكنه غير فرح بما هو فيه .

وهذه المسألة رأيناها مثلاً فى مصر بعد الثورة ، حيث رأينا الباشا فلان عنده الحدائق والبساتين وفيها ألوان الفاكهة والثمار ويأكل منها ، لكنه غير فرح بها ويُنغِّصها عليه خوفُ التأميم ، لأنهم كانوا يأخذون الأرض منهم ويُؤممونها للدولة ، فهو فى جنة ، وفى

---

(١) قال الماوردى فى تفسيره للآية : فى هاتين الجنتين أربعة أوجه :

أحدها : جنة الإنس ، وجنة الجان . قاله مجاهد .

الثانى : جنة عدن ، وجنة النعيم . قاله مقاتل .

الثالث : أنهما بستانان من بساتين الجنة وروى ذلك مرفوعاً .

الرابع : أن إحدى الجنتين منزلته ، والأخرى منزل أزواجه وخدامه . كما يفعله رؤساء الدنيا .

ويحتمل خامساً : أن إحدى الجنتين مسكنه ، والأخرى بستانه .

ويحتمل سادساً : أن إحدى الجنتين أسافل القصور ، والأخرى أعاليها .

نعيم ، لكنه غير فاكه بها .

ومعنى ﴿بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ .. (١٨)﴾ [الطور] أى : بالمسبِّب لا بالأسباب .

فالمتقون فى جنات وفى نعيم وهم فرحون به فاكهون بما آتاهم ربهم ، وفوق ذلك وقبله : ﴿وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (١٨)﴾ [الطور] وهذا من تمام النعمة ، فيمكن بعد أنْ يدخل الجنة يخاف أنْ يخرج منها إلى النار .

فيقول له : لا لأن الذى يدخلها يبقى فيها لا يخرج منها ، أو وقاهم عذاب الجحيم بداية قبل أنْ يدخلوا الجنة كما قال سبحانه : ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ .. (١٨٥)﴾ [آل عمران]

وقوله تعالى : ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٩)﴾ [الطور] وفى آية أخرى قال تعالى : ﴿فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا (٤)﴾ [النساء] أى : فى الجنة كلوا منها واشربوا هنيئاً مريئاً .

فالهنىء هو الطعام أو الشراب تتناوله فتجد له طعماً ولذة تمتعك لحظة تأكل أو تشرب ، لكن ربما أحسسْتَ بعدها بآثار غير مرغوب فيها ، كأنَّ بعده حموضة فى المعدة مثلاً أو غازات وانتفاخات وغير ذلك .

فهو إذن هنىء لكن ليس مريئاً ، فالله يصف طعام الجنة وشرابها بأنه هنىء ومرىء . يعنى : يمرى عليك ولا تجد له آثاراً ضارة .

وإنْ كان طعام الجنة وشرابها ليس فيه شىء من هذا لأن الإنسان هناك لا يأكل عن جوع ، بل يأكل تفكُّهاً ، وحتى لو لم يأكل لا فرق .

ثم يذكر سبحانه ألواناً أخرى من ألوان النعيم .

﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ (١) وَزَوَّجْنَـٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾ ﴾

الاتكاء هيئة من هيئات الجلوس ، لا يجلس على مقعدته إنما يجلس على جنب ، وهى جلسة تدل على الراحة والطمأنينة ، وأنه لا يوجد شىء يُنغصها .

أما المهموم والعياذ بالله فتجده فى جِلْسته قلقاً لا يكاد حتى يسند ظهره إلى مسند ، لماذا ؟ لأن عنده ما يشغله حتى عن الراحة فى الجلسة .

فقوله تعالى : ﴿ مُتَّكِـِٔينَ .. ﴿٢٠﴾ ﴾ [الطور] دَلتْ على هدوء البال وخُلوّه من المنغِّصات والهموم ﴿ عَلَىٰ سُرُرٍ .. ﴿٢٠﴾ ﴾ [الطور] جمع سرير ، وهو ما يُجلس عليه . ولفظه يدل على السرور ﴿ مَّصْفُوفَةٍ .. ﴿٢٠﴾ ﴾ [الطور] منظمة مُنسّقة ، موصولاً بعضها ببعض .

لذلك لما ذهبنا إلى فرنسا شاهدنا هناك فنادق غاية فى الروعة والجمال والراحة ، اندهش منها الناس ، فقلت لهم : تندهشون من هذا الذى أعدَّه البشر للبشر ، فما بالكم بما أعدَّه ربُّ البشر للبشر ؟

ومعنى : ﴿ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الطور] أى : قرناهم بالحور العين ، والفعل زوّج يتعدَّى بنفسه تقول : زوَّجتُ فلاناً فلانة ،

---

(١) سرر مصفوفة . أى : وُضع بعضها إلى جانب بعض . [زاد المسير لابن الجوزى] وقال الرازى فى مفاتيح الغيب : « يحتمل أن يكون لكل واحد سرر وهو الظاهر لأن قوله (مصفوفة) يدل على أنها لواحد لأن سرر الكل لا تكون فى موضع واحد مصطفة » .

لأن الزواج هنا مصلحة متبادلة يتمتع بها الزوج والزوجة معاً .

أما فى تزويج الحور العين فهى مصلحة من جانب واحد ، فالمؤمن فى الجنة يتمتع بالزواج بالحوراء ، أما هى فليس لها متعة فى ذلك ، فقال ﴿ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ (٢٠) ﴾ [الطور] فتعدّى الفعل بالباء .

ومعنى : الحور العين ، جمع حوراء وهى شديدة بياض العين وشديدة سوادها ، والعِين جمع عيناء ، وهى واسعة العينين فى جمال وملاحة .

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ (٢١) ﴾

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا .. (٢١) ﴾ [الطور] أى : آمنوا بالله وحده لا شريك له ، وأنه واحد أحد ، واعتقدوا ذلك ، واحد أى ليس معه غيره ، وأحدٌ أى فى ذاته ، وأحد ليس له أجزاء ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) ﴾ [الإخلاص]

---

(١) قال الماوردى فى تفسيره للآية : فيه أربعة تأويلات :

أحدها : أن الله يدخل الذرية بإيمان الآباء الجنة . قاله ابن عباس .

الثانى : أن الله تعالى يعطى الذرية مثل أجور الآباء من غير أن ينقص الآباء من أجورهم شيئاً . قاله إبراهيم .

الثالث : أنهم البالغون عملوا بطاعة الله مع آبائهم فألحقهم الله بآبائهم . قاله قتادة .

الرابع : أنه لما أدرك أبناؤهم الأعمال التى عملوها تبعوهم عليها فصاروا مثلهم فيها . قاله ابن زيد .

والإيمان لا يكون كاملاً إلا إذا صحبه عملٌ بمقتضى هذا الإيمان ، عمل بالمنهج الذى وضعه لك مَنْ آمنت به ، لذلك قرن فى مواضع كثيرة بين الإيمان والعمل الصالح ، فقال : ﴿آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ..(١١)﴾ [الطلاق]

وقوله تعالى : ﴿وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ .. (٢١)﴾ [الطور] فالرجل آمن وعمل صالحاً واتبعتْه فى هذا ذريته من بعده ، آمن مثله ، لكن عمله دون عمل أبيه وأقلّ منه ، فالحق سبحانه بكرمه ورحمته بالذرية ، وكرامةً للأب المؤمن يرفع إليه ابنه إلى المرتبة الأعلى .

﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ .. (٢١)﴾ [الطور] ما نقصناهم شيئاً ، زدنا الأبناء ولم ننقص الآباء ، لأن شرط الإيمان متوفر فى الاثنين ، أما العمل فإنْ قَلَّ يُجبر تفضّلاً من الله وتكرّماً .

معنى ذرية هى النسل المتسلسل ، فذرية الرجل أولاده وأولاد أولاده ، فالأب من الذرية ، والابن من الذرية ففيها تسلسل النسب ، والذرية قسمان : ذرية قبل التكليف وذرية بعد التكليف . والمراد هنا الذرية المكلَّفة والمطلوب منها الإيمان والعمل الصالح . وكلمة ﴿وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ .. (٢١)﴾ [الطور] أى : أىّ شىء مهما كان صغيراً .

وقوله تعالى : ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ (٢١)﴾ [الطور] رهين صيغة مبالغة على وزن فعيل ، وهذا الوزن يأتى فعيل بمعنى فاعل مثل رحيم أى : راحم . وتأتى فعيل بمعنى مفعول مثل قتيل أى : مقتول .

وهنا رهين بمعنى مرهون من الرهن ، والرهن كما تعرفون شىء عينى يجعله المحتاج للمال عند صاحب المال ضماناً له حتى يقضى دَيْنه ، فالرهن موقوف على المال حتى يعود إلى صاحبه ، كذلك العبد يوم القيامة مرهون بعمله محبوس عليه .

أو نقول : رهين بمعنى راهن فاعل أى : راهن عمله إنْ خيراً وجده خيراً ، وإنْ شراً وجده شراً .

﴿وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾

قوله تعالى : ﴿وَأَمْدَدْنَاهُم .. ﴿٢٢﴾﴾ [الطور] يعنى : أن هذا عطاء جديد فوق ما سبق وزيادة عليه ﴿يَتَنَازَعُونَ فِيهَا .. ﴿٢٣﴾﴾ [الطور] أى : فى الجنة يتنازعون الكأس أى : يتجاذبونه . وهذا التجاذب ليس عن خلاف أو بغضاء ، إنما عن موادعة وملاطفة وأنْس ، فكأنهم يشربون فى متعة وانسجام وتدلُّل .

﴿يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا .. ﴿٢٣﴾﴾ [الطور] الكأس هو الوعاء الذى يُشرب فيه الخمر ، ولا يسمى كأساً إلا إذا كان ممتلئاً فإنْ كان فارغاً فهو كوب[1] .

---

(١) قال الثعالبى فى فقه اللغة فيما نقله السيوطى فى المزهر (١/١٤١) : باب الأشياء تختلف أسماؤها وأوصافها باختلاف أحوالها : لا يقال كأس إلا إذا كان فيها شراب وإلا فهى زجاجة . ولا يقال مائدة إلا إذا كان عليها الطعام ، وإلا فهى خوان . ولا يقال كوز إلا إذا كان له عروة وإلا فهو كوب . ولا يقال قلم إلا إذا كان مبرياً وإلا فهو أنبوبة . ولا يقال خاتم إلا إذا كان فيه فص وإلا فهو فتخة ... » وهكذا .

ومعنى ﴿لاَّ لَغْوٌ فِيهَا .. (٢٣)﴾ [الطور] اللغو : العمل الذى لا فائدة منه ، وهو الكلام الساقط الذى لا معنى له لكن لا إثم فيه ﴿وَلا تَأْثِيمٌ (٢٣)﴾ [الطور] لا إثم فيه ولا يجرّك إلى محرم .

وهذه ميزة خمر الآخرة ، والفرق بينها وبين خمر الدنيا ، أن خمر الدنيا تذهب بالعقل وتحمل شاربها على الهذيان وفقدان العقل ، وبالتالى يحدث منه اللغو ، ويحدث منه الإثم .

أما خمر الآخرة فمنزّهة عن هذا ، لذلك وصفها الحق سبحانه بقوله : ﴿وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ .. (١٥)﴾ [محمد] إذن : صفَّاها الحق سبحانه من عيوبها ، فليس لها من خمر الدنيا إلا الاسم ، وإذا رأيتَ الذى يشرب الخمر تراه (يدلقها) فى حلقه هكذا مرة واحدة لماذا ؟ لأنها كريهة الطعم والرائحة .

أما فى الآخرة فيتذوقها ويتمتع بلذتها ، فإذا كانت خمر الدنيا بهذه الصفة فلماذا يشربونها ؟ حين تسأل يقول لك : لأنسى همومى وأحزانى ومشاكلى .

وهذا عجيب لأن الله تعالى لا يريد منَّا أنْ ننسى الهموم والأحزان ونفر منها ، إنما يريد منا أنْ نُعايشها ونعرف أسبابها ، ونحاول التغلب عليها . إذن : لا فائدة من نسيانها وسترها .

﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ (٢٤)﴾ (١)

---

(١) ذكر الماوردى فى تفسيره للآية (الطور ٢٤) : فيه وجهان (نقلاً عن ابن بحر) :
أحدهما : أن يكون الأطفال من أولادهم الذين سبقوهم ، فأقرَّ الله بهم أعينهم .
الثانى : أنهم من أخدمهم الله إياهم من أولاد غيرهم .

أى : يطوف عليهم فى الجنة غلمان بكئوس الشراب . والغلمان جمع غلام وهو الولد الصغير جميل الصورة . وفى موضع آخر قال تعالى فى وصفهم : ﴿ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ .. ﴿١٩﴾ ﴾ [الإنسان] يعنى فى سِنٍّ صغيرة ثابتة لا يكبرون عنها ، لأن الغلام إذا كبر صار إلى الشيخوخة ، أما هؤلاء فيقفون عند هذه السِّن ولا يكبرون .

ومعنى ﴿ لَّهُمْ .. ﴿٢٤﴾ ﴾ [الطور] أى : مخصصين لخدمتهم ، لأن اللام تأتى للملكية وتأتى للاختصاص ، تقول : المال لزيد يعنى ملكه . واللجام للفرس . أى : يخصه لأن الفرس لا يملك اللجام ، وكلمة (لهم) دلَّتْ على أن هذا الساقى يخدمهم دون أجر يأخذه منهم ولا منفعة .

وقوله سبحانه : ﴿ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الطور] يعنى : هؤلاء الغلمان فى البياض والصفاء أمثال اللؤلؤ ، واللؤلؤ مشهور بصفائه وبياضه ولمعانه ، فما بالُكَ إذا أضيف إلى ذلك أنه مكنون . أى : مصُون ومحفوظ فى أصدافه ، قالوا : لأنه حين يخرج من أصدافه يتعرَّض للغبار وللأتربة التى تشوب صفاءه .

﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾ ﴾

الكلام هنا ما يزال عن أهل الجنة ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٥)﴾ [الطور] يتسامرون ، أو يسأل بعضهم بعضاً ﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ .. (٢٦)﴾ [الطور] أى : فى الدنيا ﴿فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ (٢٦)﴾ [الطور] الإشفاق الخوف ، والخوف يكون بكراهية المخوف منه ، ويكون هيبة وتعظيماً لمن تخاف منه .

والمراد هنا خوف الهيبة والتعظيم لأنهم خائفون من الله ، لكن لماذا ؟ قالوا : يخافون التقصير فى عبادة الله ، نعم أطاعوا وأدّوا حَقَّ الله لكن ما عبدوا الله حقَّ عبادته ، فهو يستحق أكثر من هذا .

إذن : خوفهم فيه رجاء وفيه أمل فى الله أنْ يتدارك هذا التقصير ، لذلك قال الله تعالى عن الملائكة : ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ (٢٦)﴾ [الأنبياء] وهم ﴿لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٦)﴾ [التحريم] ، ومع ذلك قال عنهم : ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ ..(٥٠)﴾ [النحل] أى : خوفَ مهابة وتعظيم .

أو يكون المعنى ﴿فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ (٢٦)﴾ [الطور] أى : يخافون الموت أنْ يُفرقهم ويُشتِّت شملهم بعد اجتماع ، فإذا بهم فى الآخرة أحسن مما كانوا فيه فى الدنيا . أو خائفين من عذاب الله فى الآخرة .

ومعنى ﴿فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا .. (٢٧)﴾ [الطور] أى : تفضّل علينا وأعطانا فوق ما نستحق فضلاً منه تعالى وتكرُّماً ، منَّ علينا منّاً لا يعقبه ضرر ، ولا يعقبه عذاب ﴿وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ (٢٧)﴾ [الطور] السموم والعياذ بالله هى اللهب الخالص ، وسُمِّىَ السَّموم لأنه ينفذ من مسامّ الجسم .

﴿ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾ ﴾

يذكر هنا حيثية دخولهم الجنة ونجاتهم من النار ، فالسبب أنهم كانوا كثيرى الدعاء ، لم يقولوا بأعمالنا ، ولكن بدعائنا وتضرُّعنا ورجائنا فى الله ، ندعوه رباً رحيماً ، براً كريماً ، ونطمع فى رحمته التى سبقت غضبه .

﴿ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الطور] فاستجاب لنا استجابة ظهرتْ آثارها فى أننا دخلنا الجنة ، وصِرْنا إلى أفضل مما كنا فيه بدون تعب ولا هَمٍّ ولا حزن ، صِرْنا إلى نعيم لم يكُنْ يخطر لنا على بال .

و ﴿ الْبَرُّ .. ﴿٢٨﴾ ﴾ [الطور] واسع الكرم والإحسان ﴿ الرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الطور] كثير الرحمة بخَلْقه تعالى ، لأنه ربهم وخالقهم والمتكفِّل بهم ، خلقهم من عدم وأمدهم من عدم ، ولم يُكلِّفهم إلا بعد البلوغ واستواء العقل إلى غير ذلك من النعم .

﴿ فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ (١) وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ ﴾

هذا أمر لسيدنا رسول الله ﷺ أنْ يُذكِّر قومه . والتذكير أنْ تعيد ما أخبرت به وتكرره مراراً ، والتذكير لا يكون إلا للنسيان ، وهذه

---

(١) كهن الرجل : صار كاهناً كهانة : أخبره بالغيب على سبيل الظن والتخمين وكانت شائعة فى الجاهلية ، وقد رموا النبى ﷺ بها فنفاها الله بقوله عنه ﴿ فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ ..﴿٢٩﴾ ﴾ [الطور] . [القاموس القويم ٢/١٧٦] .

طبيعة البشر التى جبلهم الله عليها .

والتذكير ينفع من وجوه عدة : أولاً ينفع المذكّر لأنه حين يُكرِّر التذكرة لا يُحرَم ثوابها ، ثم ينفع المؤمن الذى تُذكره ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ (٥٥)﴾ [الذاريات]

فأحداث الحياة تمر على المؤمن ، ويمكن أنْ تُضبِّب عنده صفاء العقيدة ، فالتذكير يزيل هذا الضباب ويمسح غبار الغفلة والنسيان .

لذلك كان سيدنا معاذ كثيراً ما يسأل سيدنا رسول الله ﷺ عن المسائل الفائتة .

فقال ﷺ : « تُعرَض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عوداً ، فأيّما قلب أنكرها نُكتت فيه نكتة بيضاء ، وأيّما قلب أُشْرِبها نُكتتْ فيه نكتة سوداء ، حتى تكون على قلبين : أبيض مثل الصفا لا تضرُّه فتنة ما دامت السموات والأرض ، وآخر كالكوز[١] مجخياً[٢] لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً »[٣] .

كذلك التذكير لا مانعَ أنْ ينفع الكافر بدليل أن صناديد الكفر فى مكة آمنوا بالتذكير ، المهم أنْ يصادف التذكيرُ قلباً صافياً ليطفىء فيه حمية الجاهلية .

---

(١) كلمة الكوز كلمة عربية صحيحة . قاله ابن سيده . وهى من كاز الشىء : جمعه . وهو إناء من الأوانى له عُرْوة بعكس الكوب فهو بلا عروة . [لسان العرب - مادة كوز - بتصرف] .

(٢) المجخى : المائل عن الاستقامة والاعتدال ، فشبّه القلب الذى لا يعى خيراً بالكوز المائل الذى لا يثبت فيه شىء لأن الكوز إذا مال انصب ما فيه . [لسان العرب - مادة جخا] .

(٣) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٠٧) وأحمد فى مسنده (٢٢٣٤٣) وأبو عوانة فى مستخرجه (١١٢) من حديث حذيفة بن اليمان .

وقد رأينا هذه المسألة فى قصة إسلام سيدنا عمر[1] ، وكان جباراً فى الجاهلية ، ومع ذلك لما سمع القرآن تأثر به ورقَّ له قلبه ، لأنه لما لطم أخته حتى سال الدم من وجهها تحركتْ عنده عاطفةُ الأخوة وما يلزمها من الحنان ورقة القلب ، فلما انفتح قلبه دخله نور الهدى فأسلم ، إذن : نفعه التذكير .

وقوله سبحانه : ﴿فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلا مَجْنُونٍ (٢٩)﴾ [الطور] الحق سبحانه ينفى عن رسوله هذه التهمة التى اتهموه بها ، وأكد هذا النفى باستخدام أسلوب الخطاب .

﴿فَمَا أَنتَ .. (٢٩)﴾ [الطور] واستخدام الباء فى ﴿بِكَاهِنٍ .. (٢٩)﴾ [الطور] يعنى : ما فيك شىء من الكهانة أبداً ، والكاهن هو

---

(١) ذكر ابن كثير فى السيرة النبوية (٢/٣٢) أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه خرج متوشحاً سيفه يريد رسول الله ﷺ ورهطاً من أصحابه قد ذكروا له أنهم قد اجتمعوا فى بيت عند الصفا وهم قريب من أربعين .. فلقيه نعيم بن عبد الله فقال : أين تريد يا عمر ؟ قال : أريد محمداً هذا الصابىء الذى فرَّق أمر قريش وسفّه أحلامهم وعاب دينها وسب آلهتها فأقتله . فقال له نعيم : والله لقد غرتك نفسك يا عمر ، أترى بنى عبد مناف تاركيك تمشى على الأرض وقد قتلت محمداً ؟ أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم ؟ قال : وأى أهل بيتى ؟ قال : ختنك وابن عمك سعيد بن زيد وأختك فاطمة فقد والله أسلما وتابعا محمداً ﷺ على دينه فعليك بهما . فرجع عمر عائداً إلى أخته فاطمة وعندها خباب بن الأرت معه صحيفة فيها (طه) يقرئها إياها .. فلما دخل قال : ما هذه الهينمة التى سمعت ؟ وبطش بختنه سعيد بن زيد فقامت إليه أخته لتكفه عن زوجها فضربها فشجها . فلما رأى عمر ما بأخته من الدم ندم على ما صنع وقال لأخته : أعطينى هذه الصحيفة التى كنتم تقرأون آنفاً ، انظر ما هذا الذى جاء به محمد . ولم ترض أخته إلا أن يغتسل قبل أن يمس الصحيفة فاغتسل فلما قرأ منها شيئاً قال : ما أحسن هذا الكلام وأكرمه . فذهب إلى رسول الله حيث هو وأصحابه فأسلم .

العرّاف الذى يدَّعى علم الغيب ، وكانوا كثيرين فى هذا الوقت .

وكانت لهم خِلْقة شاذة عن الخلق ، فمثلاً كان منهم (شِقّ أَنْمار) له نصف عين ، ونصف أنف ، ونصف فم ، ونصف يد ، ونصف رِجْل .

ومثل هذا ربنا رضى له شيئاً من الصفاء ، فكان الشياطين ينزلون عليه ويُوحون إليه بأشياء من استراق السمع قبل بعثته ﷺ ، وقبل أنْ تُغلَق السماء فى وجوههم ، فكانوا يغرُّون الناس بأشياء فيها قليل من الحقيقة وكثير من الباطل يزيدونه من عندهم فيضلونهم .

وهؤلاء الكهان كانت لهم كلمة مسموعة ، وكان الناس يستشيرونهم ويأخذون برأيهم فى كلِّ أمور دينهم ودنياهم .

وسيدنا رسول الله ﷺ أبعد ما يكون عن هذه الصفة ، كذلك نفى عنه صفة الجنون ، والمجنون الذى لا عقلَ له ، ولا يستطيع أنْ يُرتِّب الأشياء ولا أنْ يُدبر حركة حياته .

فهل شاهدتم شيئاً من هذا على رسول الله ، وقد عُرِفَ بينكم برجاحة العقل وحُسْن التصرف والصدق والأمانة ؟ كيف وقد مدحه الله بقوله ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [القلم]

وقوله سبحانه : ﴿فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ .. ﴿٢٩﴾﴾ [الطور] أى أن نعم الله عليك كثيرة ، ومنها أنك لستَ كما يقول ، لا كاهن ولا مجنون ، أو ذكِّر بنعمة ربك لا بنعمة الكاهن ولا بنعمة المجنون . ثم ينفى عنه تهمة أخرى ، فيقول :

﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾
قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾﴾ (١)

قالوا عن رسول الله بعد أنْ أعيتهم الحيل ولم يجدوا صَدىً لقولهم : كاهن ومجنون قالوا (شاعر) ولم يفلحوا فى هذه أيضاً ، لأن رسول الله جاء فى أمة أفصح ما يكون . عندهم ملكة البلاغة ودقّة الأداء اللغوى والبيانى ، فهم أدرى الناس بالشعر ، ويعرفون أن ما جاء به محمد وما يتلوه عليهم ليس شعراً وما جرَّبوا عليه شيئاً من هذا قبل بعثته .

لذلك قال تعالى فى إبطال دعواهم : ﴿قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [يونس]

أين عقولكم المفكرة ، فقد عشْتُ بين أظهركم أربعين سنة ما جرَّبتم علىَّ قول الشعر ، فهل تفجَّر عندى بعد الأربعين ، ومعلوم أن العبقريات تأتى فى العقد الثانى من العمر .

ثم ما الذى كان يضمن لى أن عندى عبقرية تأتى بهذا الكلام قبل

---

(١) قال قتادة : قال قوم من الكفار : تربصوا بمحمد الموت يكفيكموه كما كفى شاعر بنى فلان . قال الضحاك : هؤلاء بنو عبد الدار نسبوه إلى أنه شاعر . أى يهلك عن قريب كما هلك من قبل من الشعراء . [تفسير القرطبى ٩/٦٤٧٢] .

أنْ أموت ؟ ثم أنا لا أقول لكم هذا كلامى أنا .

إنما هو من عند الله بوحى من الله لا يُعطى لكاهن ، لأن الكاهن إنما يتلقَّى عن الشياطين ﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ .. (١٢١) ﴾ [الأنعام] ولا يُعطى لمجنون ، ولا يُعطى لساحر ولا لشاعر .

فلما فشلوا فى هذه أيضاً قالوا ﴿ أَسَاطِيرُ[1] الْأَوَّلِينَ (١٥) ﴾ [القلم] وقالوا : إن محمداً يختلف إلى[2] رجل من أهل الكتاب يُعلِّمه هذا الكلام ، لكن فضحهم القرآن وبيَّن كذبهم وتضارب أقوالهم ، فقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ (١٠٣) ﴾ [النحل]

إذن : هذا كله عناد ولدد فى الخصومة لا يثبت أمام العاقل المتأمل .

ومعنى ﴿ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ (٣٠) ﴾ [الطور] ننتظر ما يجرى عليه من أحداث الحياة ومباغتة الموت الذى يُريحنا منه ، فردَّ الله عليهم ﴿ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ (٣١) ﴾ [الطور]

فالأمر هنا ﴿ قُلْ تَرَبَّصُوا .. (٣١) ﴾ [الطور] أمر للتهديد ، كما تقول لخصمك (أعلى ما فى خيلك اركبه) يعنى : افعل ما شئت ، والمعنى : مهما فعلتَ فلن تنال منى شيئاً .

---

(١) الأساطير : جمع أسطار أو أسطورة وهى الأحاديث التى لا نظام لها أو لا أصل لها . فهى حكايات عن الأولين كتبوها ولا أساس لها فهى أكاذيب لا تصدق بزعمهم . [القاموس القويم ١/٣١٣] .

(٢) يختلف إلى فلان : يتردد عليه ويجلس إليه من وقت لآخر .

فالله يقول لهم : تربَّصوا كما تريدون ، فلنْ تنالوا منا ولنْ تكيدوا لنا ، لأننا فى حضانة الله وفى أعين الله .

وسبق أنْ جرَّبتم ، آذيتمونا بالكلام فلم تنالوا منّا ، وآذيتمونا بالفعل فما تخلينا عن رسالتنا ، آذيتمونا بالمكر والتبييت على قتلنا ، فردّ الله كيدكم فى نحوركم ، ولما لم تفلحوا فى الكيد الظاهر ذهبتم إلى الكيد الخفى واستعنتم علينا بالجن وبالسحرة ، فما وصلتُم إلى بُغيتكم ، وخيَّب الله سعيكم .

إذن : تربَّصوا كما شئتُم ، واعلموا أننا أيضاً نتربَّص بكم ، وقد شرح الله تعالى هذه المسألة فى آية أخرى ، فقال سبحانه ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ (٥٢)﴾ [التوبة]

أى : ماذا تنتظرون فينا إما النصر عليكم ، وإما أنْ نُقتل فننال الشهادة وكل منهما حُسْنى ، ونحن ننتظر فيكم : إما أنْ يُعذِّبكم الله فى الآخرة بكفركم ، أو يُعذِّبكم بأيدينا حينما ننتصر عليكم . فتربصوا بنا فلن تصلوا من الكيد لنا إلى شىء ، لأننا فى حضانة الله وفى أعين الله .

﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُم(١) بِهَٰذَا ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (٣٢)﴾

---

(١) كلمة (الأحلام) لها هنا معنيان :

الأول : العقول . وقيل لعمرو بن العاص : ما بال قومك لم يؤمنوا وقد وصفهم الله بالعقل ؟ فقال : تلك عقول كادها الله . أى لم يصحبها بالتوفيق .

الثانى : الأذهان . لأن العقل لا يُعطى للكافر ولو كان له عقل لآمن . وإنما يعطى الكافر الذهن فصار عليه حجة والذهن يقبل العلم جملة ، والعقل يميز العلم ويقدر المقادير لحدود الأمر والنهى . [بتصرف من تفسير القرطبى ٩/ ٦٤٧٤] .

معنى الأحلام : العقول ، والعقول حينما تأمرهم ﴿ بِهَـٰذَا .. (٣٢) ﴾ [الطور] أى : بهذا العناد ومصادمة دعوة الله دليلٌ على فساد هذه العقول وفساد هذا التفكير ، لأن العقول لو تُركَتْ للفطرة التى جُبلَت عليها ولو تحرَّرتْ من الأهواء ما انتهتْ إلا إلى الإيمان بالله ورسوله ، وما وقفت هذا الموقف .

﴿ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (٣٢) ﴾ [الطور] الحق سبحانه وتعالى كرر (أم) هنا فى عدة مواضع ليعرض كلَّ المواقف والاحتمالات التى مرُّوا بها ، ومعنى ﴿ طَاغُونَ (٣٢) ﴾ [الطور] متجاوزون للحدِّ فى الكفر وفى العناد ومصادمة الدعوة .

﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ (٣٣) فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَـٰدِقِينَ (٣٤) ﴾

﴿ تَقَوَّلَهُ .. (٣٣) ﴾ [الطور] اختلقه وأتى به من عند نفسه ، ولما لم تنطل هذه الفرية قالوا ﴿ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ .. (١٠٣) ﴾ [النحل] فردَّ الله عليهم ﴿ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ (١٠٣) ﴾ [النحل]

وهنا يرد عليه الحق سبحانه ﴿ بَل لاَّ يُؤْمِنُونَ (٣٣) ﴾ [الطور] يعنى المسألة ليست مسألة قرآن من عند محمد ، إنما المسألة أنهم لا يريدون أنْ يدخلوا ساحة الإيمان ، هكذا ظُلْماً وعناداً واستكباراً عن قبول الحق دون نظر ودون تأمل أو تفكير .

فكلُّ هذه التهم التى حاولوا إلصاقها برسول الله أو بكتابه يعرفون

أنها باطلٌ أتوْا بها من عند أنفسهم ، ليصرفوا محمداً عن دعوته ، وهم يعلمون أنه صادق ، وأن القرآن حَقٌّ ، وأنه من عند الله ، لكنهم لا يريدون أنْ يؤمنوا .

لذلك يُعلّمهم الحق سبحانه كيفية التفكير السليم الموصِّل إلى الحق ، فيقول لهم : ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ[1] ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ .. (٤٦)﴾ [سبأ]

أى : اتركوا التفكير الجماعى والكلام الجماهيرى ، لأنه لا يُوصِّل إلى الحق .

إذن : إذا فكرتم وأعملتم عقولكم بطريقة صحيحة فلابدَّ أنْ تصلوا إلى حقيقة ، هى أن محمداً صادق فيما جاءكم به .

والقرآن لا يدعوهم إلى التفكر إلا إذا كان هذا التفكّر سيصل بهم إلى هذه الحقيقة ، لذلك نقرأ كثيراً ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ (٦٨)﴾ [يس] ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٣)﴾ [يونس] ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ (٥٠)﴾ [الأنعام]

وقوله سبحانه : ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ (٣٤)﴾ [الطور] يعنى : إنْ كان القرآنُ مختلقاً كما يدَّعون فليأتوا بقرآن مثله أى مختلق ، وهم أقدر الناس على الكلام والبيان ، وأكثر الناس فصاحة ، ولهم أسواق للخطابة وللشعر ﴿إِن كَانُوا صَادِقِينَ (٣٤)﴾ [الطور] أى : فى هذا الادعاء .

---

(١) قال الشوكانى فى فيض القدير (آية ٣٤ سورة سبأ) : هى قيامكم وتشميركم فى طلب الحق بالفكرة الصادقة متفرقين اثنين اثنين ، وواحداً واحداً ، لأن الاجتماع يشوِّش الفكر . وقال الألوسى فى (روح المعانى) « فإن فى الازدحام على الأغلب تشويش الخاطر والمنع من الفكر وتخليط الكلام وقلة الإنصاف » .

﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥)
أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ (٣٦)﴾

الحق سبحانه وتعالى يسوق لهم البراهين العقلية التى تثبت صدق رسوله فى البلاغ عن الله ، ويتعجب من فعلهم ، وكيف يكفرون بالله ويعاندون دعوة رسوله .

لذلك يسأل : ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ .. (٣٥)﴾ [الطور] كيف والخَلق إيجاد من عدم ، فهل جاءوا إلى الكون هكذا دون خالق ؟ والعقل يقول : إنه لا يمكن أنْ يوجد شىء إلا بموجد حتى فى أتفه الأشياء .

فى هذا الكوب الذى نشرب فيه الآن كوب كريستال شفاف بعد أنْ كنَّا نشرب فى الصاج أو الفخار ، هل يعقل أن نقول إن هذا الكوب وُجِد هكذا بدون مُوجد ؟ إذن : لابد لهذا الخَلْق من خالق .

ثم ينتقل إلى جزئية أخرى فى مسألة الخلق : ﴿أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥)﴾ [الطور] أى: الخالقون لهذا الخَلْق ، وفى موضع آخر قال تعالى : ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ .. (٨٧)﴾ [الزخرف]

نعم لا يستطيعون أنْ يقولوا غير هذا ، لأن الإنسان طرأ على كون بديع فيه شمس وقمر ونجوم وأرض وماء وهواء وسماء وجبال ، فكيف يقول : أنا الذى خلقته وهو أقدم منه ، ولا يستطيع أنْ يقول خلقتُ نفسى ، ولو قالها فمن الذى خلق أباك وسلسلها إلى أن تصل إلى آدم عليه السلام .

إذن : هذا التسلسل المنطقى لا بدَّ أنْ يصل بنا إلى خالق خلق ولم يُخلق ، هو الحق سبحانه وتعالى .

لذلك قال بعدها : ﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ بَل لاَّ يُوقِنُونَ (٣٦)﴾ [الطور] فإذا لم يستطيعوا خَلْق أنفسهم فهم من باب أَوْلى ما خلقوا السموات والأرض .

وسبق أن قلنا : إن مسألة الخَلْق هذه لم يدَّعها أحد لنفسه ، والقضية تسلم لمن ادعاها إلى أنْ يظهر له معارض ، ولم يقُلْ أحد أنه خلق السماوات والأرض .

﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ[1] أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ (٣٧)﴾

يعنى : أهُمْ يملكون خزائن الأرزاق ، فيرزقون مَنْ يريدون ، ويحرمون مَنْ يريدون ، أو يملكون خزائن الرحمة فيرحمون مَنْ يريدون ﴿أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ (٣٧)﴾ [الطور] أصحاب السلطة والسيطرة والأمر والنهى والغلبة .

والجواب : لا هذه ولا هذه ، لأن الله تعالى فقط أمسك عنهم المطر فجاعوا ، حتى أكلوا أوراق الشجر والعلهز[2] ، وهو الدم

---

(١) قال ابن الجوزى فى (زاد المسير) فيه ثلاثة أقوال :

أحدها : المطر والرزق . قاله ابن عباس .

والثانى : النبوة . قاله عكرمة .

والثالث : عِلْم ما يكون من الغيب . ذكره الثعلبى .

(٢) العلهز : طعام كانوا يتخذونه من الدم ووبر البعير فى سنى المجاعة ، قاله الجوهرى فى (الصحاح) مادة : علا . وقال أبو الهيثم : العلهز دم يابس يُدق به أوبار الإبل فى المجاعات ويؤكل . قاله النووى فى تهذيب اللغة مادة علهز .

المخلوط بالوبر ، ثم ذهبوا يستسقون[1] بعم النبى ﷺ .

واعترفوا أن الخزائن خزائن الله وليس لهم من الأمر شىء ، بدليل أنهم مرة أغنياء ومرة فقراء ، مرة أقوياء ومرة ضعفاء .

إذن : ليس عندهم خزائن شىء ، الخزائن عند مَنْ تكرهه وتكذب به . كذلك ليس لهم غلبة ولا سيطرة على مقاليد الكون ولا إدارة الأمور ، بدليل أن القلة المؤمنة هزمتهم على كثرتهم يوم بدر ، وأسرتْ صناديدهم وجاءوا يُفاوضون رسول الله على أنْ يَفْدوهم .

﴿ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾

يقول لهم : أعندكم ﴿ سُلَّمٌ .. ﴿٣٨﴾ ﴾ [الطور] أى : مَرْقى ومصعد تصعدون به إلى السماء فتأتون بمثل ما أتى به محمد ، إذن : هذا إقرار منك بأن السماء فيها شىء ، لكن ينقصكم السُّلم تصعدون به ، والذى ليس عنده سلم أتاه الوحى من السماء إلى عنده .

﴿ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ ﴾ [الطور] أى : إنْ كان عندهم

---

(١) عن أنس قال : كانوا إذا قحطوا على عهد رسول الله ﷺ استسقوا بالنبى ﷺ فيستسقى لهم فيسقون ، فلما كان زمن عمر رضى الله عنه قحطوا فأخرج عمر العباس يستسقى به فقال : اللهم إنا كنا إذا قحطنا على عهد نبيك استسقينا به فسقينا ، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا . ، قال : فسقوا . أخرجه ابن أبى عاصم فى الآحاد والمثانى ، وابن حبان فى صحيحه .

مستمع فليأتِ بحجة واضحة يغلب بها محمداً .

وقوله سبحانه : ﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ (٣٩)﴾ [الطور] الآية تُسفِّه أحلام القوم فى مسألة البنات ، فقد كانوا يحتقرون الإناث ويفضلون الذكور .

وقد سجَّل القرآن عليهم ذلك فى قوله تعالى : ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ[1] (٥٨) يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ .. (٥٩)﴾ [النحل]

وذكر وأدهم للبنات فقال : ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ (٨) بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ (٩)﴾ [التكوير] ثم نسبوا لله الأدنى ولأنفسهم الأعلى ، قال تعالى ﴿وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ (١٩)﴾ [الزخرف]

وفى موضع آخر يبين الحق سبحانه تعديهم فى هذه المسألة فيقول : ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَىٰ (٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ (٢٢)﴾ [النجم] أى : قسمة جائرة ظالمة . فكيف يكون لله الخالق الجنس الأدنى ولكم الجنس الأعلى ؟

﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ (٤٠)﴾

ما زالت الآيات تتساءل عن سبب إعراض هؤلاء القوم وتكذيبهم

---

(١) كظم : سكت وصبر على ما فى نفسه من الغيظ فهو كظيم . ويجوز أن يكون كظيم بمعنى مكظوم من كظمه الغيظ أى كربه وأحزنه وأسكته وشقّ عليه . [القاموس القويم ١٦٣/٢] .

لمنهج الحق ، فهل سألهم رسول الله أجراً على دعوته لهم ، فأثقل عليهم ذلك ولم يقدروا على أدائه ؟

والمَغْرم هو المال الذى يُدفع فى غير جناية أو حَقٍّ ، ومعنى ﴿ مُّثْقَلُونَ (٤٠) ﴾ [الطور] مُتعبون لا يقدرون عليه .

وقد سجل القرآن فى عدة مواضع أن الرسل لم تطلب أجراً على دعوتهم للناس ، وأن أجرهم فى ذلك على الله الذى بعثهم ، قال تعالى : ﴿ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ .. (٧٢) ﴾ [يونس]

﴿ أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (٤١) ﴾ (١)

أم اطلعوا على الغيب فوجدوا أنهم أسياد فى الآخرة كما كانوا أسياداً فى الدنيا ، وأن آخرتهم ستكون أفضل من دنياهم ، كالذى قال : ﴿ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا (٣٦) ﴾ [الكهف] والمعنى : أن دعوتك يا محمد لا تهمهم فى شىء ، لأنهم سيدخلون الجنة على أية حال ومن أىِّ طريق !!

﴿ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ (٤٢) ﴾

أى : يريدون بك كيداً ، والكيد هو الاحتيال والتدبير فى الخفاء لإلحاق الضرر برسول الله ﷺ ، وخطورة الكيد أنه يُدبَّر فى خفاء فلا

---

(١) (أم عندهم الغيب) فيه قولان :

أحدهما : أنه اللوح المحفوظ فهم يكتبون ما فيه ويخبرون الناس . قاله ابن عباس .

والثانى : أعندهم علم الغيب فيعلمون أن محمداً يموت قبلهم ، فهم يكتبون أى يحكمون فيقولون : سنقهرك . ذكره ابن الجوزى فى (زاد المسير) فى تفسير الآية ٤١ الطور .

تراه لتواجهه ، لذلك هو دأب الضعيف العاجز الذى لا يقدر على المواجهة .

وحين ينتهز الفرصة لا يضيعها كما قال الشاعر :

وضعيفة لما أصابت فرصة قتلت وتلك طبيعة الضعفاء

وقوله سبحانه : ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا .. (٤٢)﴾ [الطور] أصحاب الكيد والتدبير ﴿هُمُ الْمَكِيدُونَ (٤٢)﴾ [الطور] كما قال سبحانه ﴿وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ .. (٤٣)﴾ [فاطر] لأنهم حين يكيدون يُخفون كيدهم عن أمثالهم من الناس ، لكن حينما يكيد لهم الله فلا أحدَ يستطيع ردَّ هذا الكيد ، فكيده سبحانه بالكافرين أليم وشديد .

ومعنى ﴿هُمُ الْمَكِيدُونَ (٤٢)﴾ [الطور] أى : الواقع عليهم الكيد ، فهى اسم مفعول .

والدليل على أن الله خيَّب سعيهم أنه أبطل كيدهم لرسول الله ، بل وجعل كيدهم ينقلب عليهم ، فهم كادوا لرسول الله ليلة الهجرة ، وأجمعوا على قتله وتآمروا عليه بحيث يتفرَّق دمه بين القبائل ، ومع ذلك التدبير والاحتيال هُزِىء بهم وألقى التراب على رؤوسهم ، ونجا هو ولم يُصبْه أذى .

﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٤٣)﴾

هذا استفهام آخر : ما الذى صرفهم عن دعوة الله ؟ ألهم إله غير الله الإله الحق ، ولو كان أين هو من مسألة خَلْق السماوات والأرض ؟ ولماذا سكتَ ولم يردّ ؟

والحق سبحانه وتعالى يناقشهم فى هذه المسألة ويقول : ﴿ لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً (٤٢) ﴾ [الإسراء]

ثم يأتى عَجُز الآية ليوضح الاستفهام فى أولها ﴿ سُبْحَانَ اللَّهِ .. (٤٣) ﴾ [الطور] تعالى وتنزَّه ﴿ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٤٣) ﴾ [الطور] وعما يدَّعُون ، لأن الله واحد أحد فَرْد صمد ، ليس له ولد ، وليس له شريك ، وليس كمثله شىء .

﴿ وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ (٤٤) ﴾

﴿ كِسْفًا .. (٤٤) ﴾ [الطور] جمع كسفة ، وهى القطعة العظيمة من السحاب . ومعنى ﴿ مَّرْكُومٌ (٤٤) ﴾ [الطور] يعنى : مجموع بعضه فوق بعض ، كما قال تعالى فى موضع آخر : ﴿ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ[1] يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ .. (٤٣) ﴾ [النور]

انظر كيف تخدعهم الظواهر الكونية ، حيث يظنونها نعمة فإذا بها نقمة وعذاب ، فحينما يرونَ قطع السحاب تمرّ بهم يظنون أنها تحمل المطر والخير ، فإذا بها تسقط عليهم عذاباً .

وهذا المعنى واضح فى قوله سبحانه : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَـٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا .. (٢٤) ﴾ [الأحقاف] أى : سحاب يسقينا ﴿ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لا يُرَىٰ إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ .. (٢٥) ﴾ [الأحقاف]

---

(١) الودق : المطر . وهو المطر كله شديده وهيِّنه . ودقت السماء : أمطرت . وأصل كلمة (ودق) أى دنا . فهو نزول الماء وقربه إلى الأرض .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾

﴿ فَذَرْهُمْ .. ﴿٤٥﴾ ﴾ [الطور] دعْهم واتركهم ، والمعنى أنه لا فائدة منهم ولا أملَ فيهم ، فاتركهم ولا تُحمل نفسك فى سبيل هدايتهم ما لا تطيق ، وقد خاطبه ربه بقوله : ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ ..﴿٨٢﴾ ﴾ [النحل]

إذن : فاتركهم ﴿ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [الطور] أى : تصيبهم الصاعقة والهلاك ، والمراد يوم القيامة ، ثم يزيد هذا اليوم بياناً فيقول : ﴿ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا .. ﴿٤٦﴾ ﴾ [الطور] أى : كيدهم لرسول الله وتآمرهم عليه .

﴿ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الطور] ليس لهم ناصر من الله ولا دافع يدفع عنهم العذاب ، لأن الأمر لله وحده فى هذا اليوم .

﴿ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ (١)

---

(١) هناك أقوال كثيرة فى ماهية العذاب الأدنى من عذاب يوم القيامة :

- أى : لهؤلاء الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والمعاصى عذاب فى الدنيا دون عذاب يوم القيامة . أى قبله وهو قتلهم يوم بدر .
- هو مصائب الدنيا من الأوجاع والأسقام والبلايا وذهاب الأموال والأولاد . قاله ابن زيد .
- هو الجوع والجهد . قاله مجاهد .
- عذاب القبر . [فتح القدير للشوكانى] .

المراد هنا كفار مكة ، لأنهم ظلموا أنفسهم بالكفر وحرموها من نعمة تدوم فى الآخرة إنْ هم آمنوا ، كما قال تعالى : ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٨)﴾ [النحل] فهؤلاء لهم ﴿عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ .. (٤٧)﴾ [الطور] أى قبل عذاب الآخرة سيلحق بهم العذاب فى الدنيا ﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٤٧)﴾ [الطور]

﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ (٤٨) وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَـٰرَ ٱلنُّجُومِ (٤٩)﴾

هذا أمر لسيدنا رسول الله ﷺ بالصبر لحكم الله وقضائه ، وهو أمر مصحوب بهذه الرعاية وهذه العناية التى ما اختصَّ بها إلا سيدنا رسول الله وسيدنا نوح عليهما السلام ، وقد خاطبه ربه بقوله : ﴿اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ..(٢٧)﴾ [المؤمنون]

فالحق سبحانه يُسلِّى رسوله ﷺ ويُطمئنه : اصبر يا محمد على أذى القوم وأنت تحت نظرنا وفى رعايتنا وحفظنا ، فلا تهتم لما يفعلون .

وهذه المكانة خصّ بها أيضاً سيدنا موسى عليه السلام فى قوله تعالى ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي (٣٩)﴾ [طه]

إذن : فقوله تعالى : ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا .. (٤٨)﴾ [الطور] منزلة أعلى تناسب مقام سيد الأنبياء محمد ﷺ ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ (٤٨)﴾ [الطور] أى : سبِّحه تسبيحاً مقروناً بالحمد ﴿حِينَ تَقُومُ (٤٨)﴾ [الطور] أى : حين تقوم من مجلسك تقول : سبحان الله والحمد لله ، فهى

كفارة لما قد يكون حدث فى مجلسك وهى تطهير للمجلس وخاتمة له ، والقعود والجلوس بمعنى واحد وهيئة واحدة ولكن القعود يكون عن قيام ، والجلوس يكون عن اضطجاع ، نقول : كان مضطجعاً فجلس ، وكان قائماً فقعد .

أو ﴿حِينَ تَقُومُ (٤٨)﴾ [الطور] أى : حين تقوم من نومك فتُسبِّح الله وتحمده على أنْ أعاد عليك روحك ، وأعاد إليك نشاطك بعد النوم ، وقد علّمنا رسول الله ﷺ أنْ نقول عندما نقوم : سبحان الذى أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور[١] ، وأن نقرأ عند القيام من المجلس سورة العصر فهى كفارة لما حدث فيه[٢] .

كذلك ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ .. (٤٩)﴾ [الطور] أى : سبِّح ربك آناء الليل ، فى أوله وفى آخره ﴿وَإِدْبَارَ النُّجُومِ (٤٩)﴾ [الطور] أى فى وقت السَّحَر حينما تغيب النجوم ، فالمعنى سبِّح ربك فى كل هذه الأوقات فهو تسبيح موصول ، ذلك لأن الله أنعم عليك وخصَّك بنعم تستوجب هذا التسبيح وهذا الحمد .

---

(١) عن حذيفة بن اليمان قال : كان النبى ﷺ إذا أوى إلى فراشه قال : باسمك أموت وأحيا . وإذا قام قال : الحمد لله الذى أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور . أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٨٣٧ ، ٥٨٣٩) وأخرجه مسلم فى صحيحه من حديث البراء بن عازب (٤٨٨٦) .

(٢) عن أبى مدينة الدارمى وكانت له صحبة قال : كان الرجلان من أصحاب النبى ﷺ إذا التقيا لم يفترقا حتى يقرأ أحدهما على الآخر : ﴿وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢)﴾ [العصر] ثم يسلم أحدهما على الآخر . [أخرجه الطبرانى فى المعجم الأوسط ٥٢٨١] .

سُورَةُ النَّجْمِ

سورة النجم (١)

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَالنَّجْمِ (٢) إِذَا هَوَىٰ (٣) ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ ﴾

---

(١) سورة النجم هى السورة رقم (٥٣) فى ترتيب المصحف الشريف ، عدد آياتها ٦٢ آية . وهى سورة مكية كلها فى قول الحسن البصرى وعكرمة وعطاء وجابر . وقال ابن عباس وقتادة : إلا آية منها وهى قوله : ﴿ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ .. ﴿٣٢﴾ ﴾ [النجم] وقيل : إن السورة كلها مدنية . ولكن قال القرطبى فى تفسيره (٦٤٨٣/٩) : « الصحيح أنها مكية لما روى ابن مسعود أنه قال : هى أول سورة أعلنها رسول الله ﷺ بمكة » .

(٢) قال ابن الجوزى فى زاد المسير : فى المراد بالنجم خمسة أقوال :

أحدها : أنه الثريا . رواه العوفى عن ابن عباس . وابن أبى نجيح عن مجاهد .

ثانيها : الرجوم من النجوم يعنى ما يرمى به الشياطين . قاله ابن عباس .

الثالث : أنه القرآن نزل نجوماً متفرقة . قاله ابن عباس ومجاهد أيضاً .

الرابع : نجوم السماء كلها . وهو مروى عن مجاهد أيضاً .

الخامس : أنها الزهرة . قاله السدى .

(٣) معنى هوى فى الآية يتوقف على معنى (النجم) .

- فعلى قول من قال (النجم) : الثريا . يكون (هوى) بمعنى غاب .
- ومن قال (النجم) هو الرجوم . يكون هويها فى رمى الشياطين .
- ومن قال (النجم) القرآن يكون معنى (هوى) نزل .
- ومن قال (النجم) نجوم السماء كلها ففيه قولان :

أحدها : أن هُوِيّها أن تغيب .

والثانى : أن تنتثر يوم القيامة . [زاد المسير لابن الجوزى] .

الحق سبحانه وتعالى يقسم بما يشاء من مخلوقاته وهنا يقسم بالنجم ، فالواو واو القسم (النجم) مُقسَم به ، والنجم يُطلق فى اللغة على معنيين : النجم الذى فى السماء كالشمس والقمر .

وقد قال الله فيه ﴿وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (١٦)﴾ [النحل] أى : فى سيرهم ليلاً ، والنجم هو العُشْب الذى لا ساقَ له وترعاه الإبل فى الصحراء .

وقد جمع الحق سبحانه المعنيين فى قوله تعالى : ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ[1] (٥) وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (٦)﴾ [الرحمن]

وجمعهما الشاعر فقال :

أرَاعِى النجْمَ فِى سَيْرى إليْهَا ... وَيَرْعَاهُ مِنَ البيدا جَوَادِىَ

وتأمل هنا دقة الأداء القرآنى ، فالشمس والقمر دلَّتْ على نجم السماء ، والشجر دَلَّ بالمصاحبة على نجم الأرض ، والجميع يسجد لله ويخضع له أعظم شىء وأدنى شىء ، الكل فى الانقياد سواء .

وفى موضع آخر قال سبحانه : ﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (٧٦)﴾ [الواقعة] فالقسم بالنجم قسَم بآية عظيمة من آيات الله ، والقسَم بالنجم هنا يخصُّ حالة من حالاته .

﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ (١)﴾ [النجم] أى : سقط ، فالنجم علامة فى السماء تهدى السائر وتدلُّه ، فإذا سقط امتنعتْ الهداية ، وامتنعت الفائدة ، لكن محمداً ﷺ ما ضلَّ وما غوى .

﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ (٢)﴾ [النجم] وهذا هو جواب القسم ،

---

(١) حسب الشىء يحسبه : عدَّه . وأحصاه حساباً وحسباناً . قال تعالى : ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥)﴾ [الرحمن] أى : سيرهما بحساب دقيق ونظام ثابت . [القاموس القويم ١٥٢/١] .

وكأنه سبحانه يقول : وإنْ سقط النجم الذى يهدى السائرين ، فنجم محمد لا يسقط أبداً ، نجم السماء يهدى للماديات وهى موقوتة ، ونجم محمد يهدى للقيم وللمعنويات وهى باقية دائمة .

ومعنى ﴿مَا ضَلَّ .. ﴿٢﴾﴾ [النجم] أى : ما حاد عن الحق ولا مال عنه ، ولا عدل عن سبيل الهدى ﴿صَاحِبُكُمْ .. ﴿٢﴾﴾ [النجم] هو محمد ﷺ ، وصاحب القوم واحد منهم مُحبَّب إليهم ذو مكانة بينهم ﴿وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾﴾ [النجم] الغواية هى الاعتقاد الباطل ، فما اعتقد محمد اعتقاداً باطلاً أبداً حتى قبل بعثته .

﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ(١) فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾﴾

هذه الآيات امتداد لجواب القسم ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾﴾ [النجم] وهنا يقسم الحق على صفة أخرى لسيدنا رسول الله ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾﴾ [النجم] النطق هو القول ، أى ما يقول عن هواه ، ولا يأتى بشىء من عنده ولا باجتهاده .

﴿إِنْ هُوَ .. ﴿٤﴾﴾ [النجم] أى : ما هو والمراد القرآن الكريم الذى نطق به محمد ﴿إِلاَّ وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ [النجم] أى : من عند الله ، وهذا أسلوب قصر : ما القرآن إلا وحى وليس شيئاً آخر .

﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴿٥﴾﴾ [النجم] الذى علّمه محمداً وأوحاه إليه ﴿شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴿٥﴾﴾ [النجم] وهو أمين الوحى جبريل عليه السلام . والقُوَى جمع قوة ، فله قُوى متعددة تناسب مهمته ، له قوة ذكاء فى

---

(١) المرَّة : القوة . وأصل المرَّة : إحكام الفَتْل . وإنه لذو مرة : أى عقل وأصالة وإحكام . [لسان العرب – مادة : مرر] .

الاستقبال ، وقوة فى الحفظ . وقوة فى الإرسال والإلقاء ، وليس لديه هوى يغير ما جاءه ولا خيانة ولا كذب . وهذه الصفات هى التى حمتْ القرآن من التغيير كما غُيِّرتْ الكتب السابقة .

وقد حكى الله تعالى عن أهل الكتاب : ﴿ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً ..(٧٩) ﴾ [البقرة]

وكلمة ﴿ شَدِيدُ الْقُوَىٰ (٥) ﴾ [النجم] فسَّرها فى آيات أخرى فقال ، حتى قبل نزول القرآن : ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (٧٧) فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ [1] (٧٨) لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ (٧٩) ﴾ [الواقعة]

وقال : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣) ﴾ [الشعراء] ، وقال : ﴿ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (٢٠) مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ (٢١) ﴾ [التكوير] هذه كلُّها صفات جُمعَتْ لجبريل عليه السلام .

وهنا قال : ﴿ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ (٦) ﴾ [النجم] أى صاحب (مِرَّة) وهى القوة فى كل ما يتناوله ، وهى الدقة التى لا تخطئ ، والمِرَّة صفة تقوى الشىء ، تروْنَ الحبل مثلاً عندما يُفتل يكون فَتْله مناسباً لمهمته ، فحبل الغسيل مثلاً غير الحبل الذى يُشدُّ به شراع المراكب .

كذلك مهمة سيدنا جبريل مع سيدنا محمد ، أنْ يؤدى هذه المهمة بقوة ودقة وذكاء بحيث يأتى رسول الله بصورة مقبولة لا تُرد ، صورة فيها تشويق لتلقِّى الوحى ولا تردها طبيعة محمد البشرية ، كذلك كان للكلام حلاوة لأنه كلام الله ليس كلام البشر ، وله ظواهر تدل عليه وعلى مصدره الإلهى .

---

(١) كتاب مكنون : أى اللوح المحفوظ . وقيل : هو القرآن يصونه المؤمن مكتوباً أو يصونه فى قلبه محفوظاً . [القاموس القويم ٢/١٧٦] .

وأول ما جاء الوحىُ رسولَ الله أجهده ، لأنها المرة الأولى التى تلتقى فيها الطبيعة البشرية بالطبيعة الملائكية ، لذلك تصبَّب عرقاً وبرد وقال : زملونى دثرونى ، إذن : أثّر فى جسده ونفسه ، حتى أنه خاف أنْ يكون ما حدث له شيئاً من مسِّ الشيطان .

ولما أخبر السيدة خديجة بالأمر وكان لها فطنة فى هذه المسألة فقالت له : عندما يأتيك أخبرنى ، فلما جاءه الوحى أخبرها فجلستْ على ركبته وقالت : أتراه ؟ قال : نعم ، فكشفتْ عن صدرها وقالت : أتراه ؟ قال : لا ، قالت : إذن هو ملَك وليس شيطاناً[1] .

وتأمل هنا حصافة السيدة خديجة وما تتمتع به من فقه قبل نزول الإسلام ، وكأنَّ الحق سبحانه أعدَّ للإسلام أناساً من الرجال والنساء يستقبلون خبره الأول ويؤيدونه ويُصدِّقونه دون أنْ ينتظروا معجزة يرونها ليصدِّقوه ، لأن معجزة رسول الله عندهم كائنة فى شخصه وفى سيرته بينهم ، معجزته بالنسبة لهم فى صدقه وأمانته وكرمه ومروءته .

ويكفى أنْ نذكر فى هذا المقام موقف الصِّديق لما قالوا له : إن

---

(١) أورده ابن سيد الناس فى عيون الأثر (١/١١٧) من حديث إسماعيل بن أبى حكيم مولى آل الزبير أنه حدث عن خديجة أنها قالت لرسول الله ﷺ : أى ابن عم أتستطيع أن تخبرنى بصاحبك هذا الذى يأتيك إذا جاءك . قال : نعم . قالت : فإذا جاء فأخبرنى به فجاء جبريل عليه السلام ، فقال رسول الله ﷺ : يا خديجة هذا جبريل قد جاءنى . قالت : قم يا ابن عم فاجلس على فخذى اليسرى . قال فقام رسول الله ﷺ فجلس عليها . قالت : هل تراه ؟ قال : نعم . ثم على الفخذ اليمنى ثم فى حجرها كل ذلك يقول نعم . فتحسرت فألقت خمارها ورسول الله ﷺ جالس فى حجرها ثم قالت : هل تراه ؟ قال : لا قالت : يا ابن عم اثبت وأبشر فوالله إنه لملك ما هذا بشيطان .

صاحبك يدَّعى أنه نبىٌّ ويُوحى إليه ، فقال الصِّدِّيق وكان عائداً من سفر : إنْ كان قال فقد صدق[١] ، إذن : دليل صدقه فى نظر الصديق أن يقول ، مجرد أن يقول يكفى قوله ليصدق .

وهذا المعنى واضح فى قوله سبحانه : ﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ..(٢٩)﴾ [الفتح] يعنى : يكفى فى تعريفه أنه (محمد) الذى تعرفونه هو رسول الله ، فمنزلة رسول الله بين قومه لا تحتاج إلى وصف ولا إلى تعريف فوق ذلك .

وكان المنتظر منهم أنْ يقولوا : ومن أوْلَى بالرسالة منه ، لكنهم قالوا كما حكى القرآن ﴿لَوْلا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١)﴾ [الزخرف]

ومن معانى ﴿ذُو مِرَّةٍ .. (٦)﴾ [النجم] أى : صاحب الخُلق الحسن والمنظر الحسن الجميل ، فكان يأتى رسول الله بالمنظر الحسن الذى يحبه ، وكان ﷺ يحب النظر إلى دحية الكلبى[٢]

---

(١) أخرج البيهقى فى دلائل النبوة (٣٦١/٢) عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : « لما أسرى بالنبى ﷺ إلى المسجد الأقصى أصبح يتحدث الناس بذلك فارتد ناس ممن كانوا آمنوا به وصدقوه ، وسعوا بذلك إلى أبى بكر رضى الله عنه فقالوا : هل لك فى صاحبك يزعم أنه أسرى به فى الليل إلى بيت المقدس . قال : أو قال ذلك ؟ قالوا : نعم ، قال : لئن كان قال ذلك لقد صدق . قالوا : وتصدقه أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس وجاء قبل أن يصبح . قال : نعم ، إنه لأصدقه بما هو أبعد من ذلك . أصدقه بخبر السماء فى غدوة أو روحة . فلذلك سُمِّى أبو بكر الصديق » . وكذا أخرجه الحاكم فى مستدركه (٦٢١٣ ، ٦٣) وقال : « صحيح الإسناد ولم يخرجاه » .

(٢) دحية الكلبى : هو دحية بن خليفة بن فروة بن فضالة الكلبى ، صحابى بعثه رسول الله ﷺ برسالته إلى قيصر يدعوه للإسلام ، حضر كثيراً من المواقع ، شهد اليرموك ، ثم نزل دمشق وسكن المزّة وعاش إلى خلافة معاوية . توفى عام ٤٥ هجرية . (الأعلام للزركلى ٣٣٧/٢) .

فكان يأتى على صورته[١] .

إذن : معنى ﴿ذُو مِرَّةٍ .. ٦﴾ [النجم] أى : فيه كل الصفات الطيبة التى تجعله مقبولاً غير مردود ، وهو موصوف مع ذلك بالقوة ، فلما ظهر لرسول الله بصورته الحقيقية ظهر فى صورة طائر جميل له أجنحة .

كما قال تعالى : ﴿أُوْلِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ .. ١﴾ [فاطر] ويكفى فى بيان قوته أنه ضرب قرى لوط بريشة واحدة من جناحه فدكها وجعل عاليها سافلها .

وما أدراك بمَنْ ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ٥﴾ [النجم] فالمتعلّم يشرُف بشرف المعلم ، كما نرى مثلاً خطيباً مُفوَّهاً لا يلحن[٢] فى خطبته لحناً واحداً ، فنقول : نعم فالذى درس له فلان .

كذلك الذى علَّم رسول الله هو جبريل بكلِّ ما عنده من صفات القوة والذكاء والأمانة والصدق .. ﴿ذُو مِرَّةٍ .. ٦﴾ [النجم]

ومعنى ﴿فَاسْتَوَىٰ ٦﴾ [النجم] علَّمه جبريل حتى استوى

---

(١) أخرج الطبرانى فى المعجم الكبير (٧٥٧) عن أنس رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يقول : يأتينى جبريل عليه السلام على صورة دحية الكلبى . قال أنس : وكان دحية رجلاً جميلاً أبيض . وقد أخرج البيهقى فى دلائل النبوة (١٣٦١) عن عائشة أن رسول الله ﷺ سمع صوت وثبة شديدة ، فخرج إليه فاتبعته أنظر فإذا هو متكىء على عرف برذونه وإذا هو دحية الكلبى – فيما كنت أرى – وإذا هو معتم مرخ من عمامته بين كتفيه ، فلما دخل علىَّ رسول الله ﷺ قلت : لقد وثبت وثبة شديدة ثم خرجت ، فذهبت أنظر فإذا هو دحية الكلبى . قال : أو رأيته ؟ قلت : نعم . قال : ذاك جبريل أمرنى أن أخرج إلى بنى قريظة » .

(٢) لحن فى كلامه : أخطأ . قال الزمخشرى فى أساس البلاغة مادة لحن : « لحن فى كلامه إذا مال به عن الإعراب إلى الخطأ أو صرفه عن موضوعه إلى الإلغاز » .

رسول الله ونضج فى عملية التحصيل الكافى لهداية العالم ، فحمَّله هذه المهمة ليهدى الناس ، ومنه قوله تعالى فى سيدنا (موسى) : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٤) ﴾ [القصص]

لكن كان الوحى فى أوله يثقل على رسول الله كما قال سبحانه : ﴿ سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا (٥) ﴾ [المزمل] فأراد الحق سبحانه أنْ يريح رسوله من هذا التعب ليعطيه الفرصة ليتذوق حلاوة ما ألقى إليه ويشتاق إليه من جديد ، فيكون الوحى أخفَّ على قلبه وتهون عليه معاناته .

ومعلوم أن الإنسان عادة يتحمل المشاق فى سبيل ما يحب ، لذلك لما فتر الوحى عن رسول الله ستة أشهر ، فأخذها أعداء الدعوة فرصة وقالوا : إن رب محمد قلاه[1] ، سبحان الله ، الآن وفى المصيبة يعترفون برب محمد .

لذلك ردّ الله عليهم ﴿ وَالضُّحَىٰ (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ[2] (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣) وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ (٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ (٥) ﴾ [الضحى]

أى : ما ودعك ربك يا محمد وما قلاك ، إنما أراد لك أنْ ترتاح .

ثم أعطاه مثالاً من واقع حركة الكون ، فما أنت بالنسبة للوحى إلا مثل الضحى والليل ، فالضحى للعمل ، والليل للراحة ، ثم يعاود من

---

(١) أخرج الطبرى فى تفسيره عن قتادة فى قوله تعالى ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣) ﴾ [الضحى] قال : أبطأ عليه جبريل ، فقال المشركون : قد قلاه ربه وودَّعه . فأنزل الله : ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣) ﴾ [الضحى] .

(٢) سجا الليل يسجو : سكن وهدأ كل شىء فيه . [القاموس القويم ١/٣٠٤] .

جديد لتقبل عليه فى نشاط وقوة ، كذلك الوحى سيعاودك وسيكون أحبّ إليك وأيسر عليك ، وستكون الآخرة خيراً لك من الأولى .

ثم إن كلمة الوداع ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾﴾ [الضحى] تدل فى ذاتها على المحبة ، فلم يقُل هجرك مثلاً إنما ودَّعك ، والوداع يكون على أمل اللقاء كما يودع الحبيب حبيبه عند سفره .

﴿وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾﴾ (١)

قالوا : الكلام هنا عن رسول الله ﷺ ، حيث كان بالأفق الأعلى فى رحلة الإسراء والمعراج ، قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾﴾ [النجم]

يعنى : رآه مرة فى الأرض ومرة فى السماء ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾﴾ [النجم] أى : أنه ﷺ بعد أن استوى وبلغ الغاية التى تؤهله لأداء رسالته فى البلاغ عن ربه تعرَّض لكثير من المتاعب والأذى من قومه بالقول وبالفعل فى مكة حتى لجأ إلى الطائف فأغروا به سفهاءهم ، ورموه بالحجارة حتى أدْمَوا قدميه .

وفى نفس العام ماتت زوجه خديجة التى كانت تُخفف عنه عناءَ ما يلاقى من قومه ، ومات عمه أبو طالب الذى كان يحميه ويدفع عنه عداوة قريش .

---

(١) قاب قوسين أى : قدر قوسين عربيتين ، أو قدر ذراعين . [القاموس المحيط] والقاب ما بين مقبض القوس والسِّية ، ولكل قوس قابان . [مختار الصحاح (مادة قوب)] .

لذلك سُمِّى هذا العام بعام الحزن كما تعلمون ، حتى أنه ﷺ لما عاد من الطائف عاد مكسور الخاطر ، ولم يجد فى مكة مَنْ ينزله فى داره ، وكما عزَّ عليه النصير فى الطائف عَزَّ عليه الجوار فى مكة ، إلى أن استقبله المطعم بن عدى وكان كافراً ، فأنزله فى جواره ، مما يدلنا على أن الله تعالى قد يؤيد رسوله ودعوته حتى بالكفار .

لذلك أراد الحق سبحانه وتعالى أنْ يجبر خاطر نبيه ، وأنْ يُعوِّضه عن أذى أهل الأرض له ، فقال له : إنْ كانت هذه حفاوة أهل الأرض بك فسأريك حفاوة أهل السماء فأخذه فى رحلة الإسراء والمعراج لتكون تخفيفاً عنه ﷺ .

وهناك رأى الأفق الأعلى ، وكان قاب قوسين أو أدنى من مقام ربه عز وجل ، وهذه هى المراد من قوله : ﴿وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأُولَىٰ ﴿٤﴾﴾ [الضحى]

وبعد ذلك نصر الله دينه وأيَّد نبيه ، وتساقط أهل الكفر وصناديد قريش ، واحداً بعد الآخر ، حتى أن خالد بن الوليد يقول لعمرو بن العاص : يا عمرو لقد استقام الميسم لصاحبك . يعنى : استتبَّ الأمر لمحمد وعَلاَ نجمه ولم يَعُدْ له منازع[1] ، فليس هناك فائدة إلا أنْ نذهب إليه ونؤمن به ، بعدها فُتحتْ مكة ودخل الناس فى دين الله أفواجاً .

إذن : الكلام هنا ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾﴾ [النجم] أى : رسول الله

---

(١) أخرجه الحارث فى البغية باب (٢٧) حديث (١٠٣٣) باب إسلام عمرو بن العاص وخالد بن الوليد . وكذا أخرجه الحاكم فى مستدركه (٥٢٩٩ ، ٥٩٤٧) وأورده الهيثمى فى مجمع الزوائد (٤/٢٨١) وعزاه لأحمد والطبرانى وقال : رجالهما ثقات .

دنا من مقام ربه ومن سدرة المنتهى . ومعنى ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩﴾ [النجم] أى : مقدار قوسين . والقوس هو أداة الرمى المعروفة ﴿أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩﴾ [النجم] أو أقرب من ذلك ، فأو هنا تأكيد لمقدار قاب قوسين .

كما قال تعالى : ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ۝١٤٧﴾ [الصافات] فالزيادة هنا تؤكد وجود العدد مائة ألف ، بحيث لا ينقص عن ذلك بل يزيد . كذلك قاب قوسين أو أقرب من القوسين .

ومن المفسرين مَنْ يرى أن الكلام هنا عن جبريل ، فيقولون ﴿فَاسْتَوَىٰ ۝٦﴾ [النجم] أى : ظهر جبريل لمحمد على صورته الحقيقية وبأجنحته التى تسدّ الأفق ، وقوله : ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨﴾ [النجم] دنا جبريل من محمد ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩﴾ [النجم] أى : قرب من رسول الله وصار منه على هذه المسافة .

﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١﴾

أى : أوحى الله تعالى إلى ﴿عَبْدِهِ .. ۝١٠﴾ [النجم] محمد ﷺ[1] ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ۝١١﴾ [النجم] هذا يعنى أن رسول الله لم يرَ

---

(١) ذكر القرطبى فى تفسيره (٦٤٩٣/٩) أقوالاً أخرى :

- قيل : المعنى ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ.. ۝١٠﴾ [النجم] جبريل عليه السلام ما أوحى .
- المعنى فأوحى جبريل إلى عبد الله محمد ما أوحى إليه ربه . قاله الربيع والحسن وابن زيد وقتادة .
- أوحى الله إلى جبريل وأوحى جبريل إلى محمد . قاله قتادة .

الله تعالى بعينه ، بل رآه بفؤاده وقلبه ، فموسى سمع الكلام فى الأرض ، ومحمد رأى ببصيرة قلبه فى السماء .

ومعنى ﴿ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ .. (١١) ﴾ [النجم] تحذير للذين يُشكِّكون فى هذه المسألة أو ينكرونها ، لذلك يأتى بعدها بهذا الاستفهام الإنكارى :

﴿ أَفَتُمَارُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ (١٢) وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ (١٣) عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ (١٤) عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ (١٥) ﴾

الهمزة هنا للاستفهام الذى يُفهم منه الإنكار والتعجُّب من تكذيبهم لرسول الله فيما أخبرهم به بعد رحلة الإسراء والمعراج من صعوده للسماء ورؤيته لربه عز وجل .

والفعل ﴿ أَفَتُمَارُونَهُ .. (١٢) ﴾ [النجم] من المراء وهو الجدل ، لكن جدل بالباطل يُراد منه التكذيب والتشكيك ، ولا يُراد منه الوصول للحق .

﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ (١٣) ﴾ [النجم] أى : رأى رسولُ الله جبريلَ مرة أخرى ﴿ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ (١٤) ﴾ [النجم] السدرة : هى شجرة السدر التى عن يمين العرش .

﴿ الْمُنتَهَىٰ (١٤) ﴾ [النجم] أى : عندها ينتهى علم الخلائق ، ولا يتجاوزها أحد من الملائكة فضلاً عن البشر ، وعند هذه السدرة رأى جبريل للمرة الثانية .

وفى هذا المكان من القرب فُرِضت الصلاة على سيدنا رسول الله ، والصلاة هى الفريضة الوحيدة التى فرضت مشافهة ، وهذا يعنى أن رسول الله سمع كلام الله فى هذه المشافهة .

لكن لما سُئِلَ عن رؤيته لربه عز وجل قال : « نور أنَّى أراه »[(١)] أى : كيف أراه ، تعبير دقيق من رسول الله ، فلما نظر لم يجد إلا نوراً ، والنور لا يُرى ، وإنما يُرى به الأشياء ، فإذا كان الحق سبحانه نوراً فلا سبيلَ إلى رؤيته سبحانه .

أما الرؤية فى مثل قوله تعالى : ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣)﴾ [القيامة] فالكلام هنا عن يوم القيامة ، حيث يُعاد الخَلْق على هيئة أخرى غير هيئتهم فى الدنيا .

وبهذه الهيئة سوف يتمكّنون من رؤية ربهم سبحانه وتعالى ، بدليل أننا بهذه الطبيعة الجديدة فى الآخرة نأكل ولا نتغوّط ، ونشرب ولا نتبوّل ولا نعرق ، لماذا ؟ لأن الله أعدّنا إعداداً آخر يناسب نعيم الآخرة .

ثم إننا نأكل فى الدنيا من طهينا وإعدادنا . وأما فى الآخرة فنأكل من طهى الله ، طهى بحساب دقيق بحيث لا يبقى منه فى الجسم أى فضلات .

كذلك من الإعجاز فى رحلة الإسراء والمعراج أن رسول الله أعدَّه الله إعداداً خاصاً ليتمكن من الصعود ، فمن المعلوم أن (الأكسجين) ينعدم فى طبقات الجو العليا .

وهذه الحقيقة قررها القرآن فى قوله تعالى : ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٦١) عن أبى ذر قال : سألت رسول الله ﷺ : هل رأيت ربك ؟ قال : « نور أنى أراه » . وأخرجه الترمذى فى سننه (٣٢٠٤) وقال : هذا حديث حسن . وكذا أخرجه أحمد فى مسنده (٢٠٤٢٧ ، ٢٠٥٤٧) والطيالسى فى مسنده (٤٧٠) .

يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ [الأنعام]

ومسألة رؤية الله تعالى مسألة خلافية كَثُر فيها الكلام دون دَاعٍ ، فرسول الله رأى نوراً ، والرؤية الحقيقية تكون فى الآخرة ، ويجب أنْ نقصر الكلام فى هذه المسألة على ما ورد فيها ، ثم هو علم لا ينفع وجهل لا يضر .

المهم المنهج الذى جاء به ومدى التزامنا بتطبيقه فى حياتنا العملية ، وقمة هذا المنهج الصلاة التى فُرضتْ عليه مباشرة لأهميتها فى حركة الحياة وتقويم المعوج منها .

وسبق أنْ أوضحنا مثالاً وقلنا : إن الرئيس يبعث للموظف تأشيرة افعل كذا وكذا ، فإنْ كان الأمر أهَمّ من ذلك اتصل به تليفونياً ، وإنْ كان أهم استدعاه إلى مكتبه وأخبره بما يريد مباشرة ، هكذا كانت الصلاة .

لذلك نراها واجبة على كُلِّ مسلم ومسلمة لا تسقط أبداً على أية حال خلافاً لباقى العبادات التى تسقط بالأعذار .

والحديث : « بُنى الإسلام على خمس .... »[1] يوضح هذه المكانة ، فالصلاة من عمد الدين وقوائمه التى يقوم عليها ، ويُوضح أيضاً أن هذه الخمس ليست هى كل الإسلام ، بل الإسلام أوسع مجالاً منها ،

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٧) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٠ ، ٢١) والإمام أحمد فى مسنده (٤٥٦٧ ، ٥٤١٤) من حديث عبد الله بن عمر .

الإسلام يشمل حركة الحياة كلها ، بداية من قمة لا إله إلا الله محمد رسول الله إلى إماطة الأذى عن الطريق[١] .

لذلك نتعجب من الذين ينادون بفصل دين الله عن سياسة الدنيا ، ويقولون : لا سياسة فى الدين ولا دين فى السياسة . فهذا قول باطل لا يصح ، وهل يجوز أنْ نترك القاتل والزانى والسارق وغيرهم من أصحاب الجرائم يعربدون فى خَلْق الله دون عقاب أو رادع ؟

ولأهمية الصلاة فى حركة الحياة جعلها الله كتاباً موقوتاً ، ففرضيتها مقرونة بوقتها ، وهذا الوقت موزَّع على مدى اليوم والليلة ، ليظل المؤمن على صلة دائمة بربه ، وعلى ذكر دائم للمنهج ، ولا يجوز تأخير الصلاة عن وقتها إلا لعذر مقبول عند الشارع الحكيم .

فمَنْ نام عن صلاة فوقتها حين يستيقظ[٢] ، ومَنْ كان ناسياً فوقته حين يتذكر[٣] . وفى هاتين الحالتين لا تُقضى الصلاة إنما تصلى حاضراً ، أما إذا فاتته الصلاة تكاسلاً وبدون عذر فلا تُقضَى صلاته لأن لها وقتاً مخصوصاً وقد فوَّته على نفسه بدون عذر شرعى .

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٥١) وأحمد فى مسنده (٨٥٧٠ ، ٩٣٧١) والترمذى فى سننه (٢٥٣٩) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه . قال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح .

(٢) أخرج أبو عوانة فى مستخرجه (٨٩٠) من حديث أنس بن مالك عن النبى ﷺ قال : « من نام عن صلاة فليصل إذا استيقظ » . وفى فقه هذا الحديث ما ذكره ابن خزيمة فى صحيحه (جماع أبواب صلاة الفريضة) : « لم يرد ﷺ أن وقتها حين يستيقظ لا وقت لها غير ذلك ، وإنما أراد أن فرض الصلاة غير ساقط عنه بنومه عنها حتى يذهب وقتها ، بل الواجب قضاؤها بعد الاستيقاظ ، فإذا قضاها عند الاستيقاظ أو بعده كان مؤدياً لفرض الصلاة التى قد نام عنها » .

(٣) أخرجه أبو عوانة فى مستخرجه (٨٩٠) من حديث أنس ، وكذا أبو يعلى الموصلى فى مسنده (٣٠٠٦) .

والحكمة من توقيت الصلوات بوقت محدد أن الإنسان لا يدرى متى يُفاجئه أجله ، فليبادر أولاً بآداء صلاته فى موعدها ، والصلاة فيها دوام واستمرار على مدى الساعات ، على خلاف الحج مثلاً ، فهو مرة واحدة فى العمر كله .

نقول : إذن لا داعىَ لأنْ نختلف حول رؤية الرسول لربه عز وجل فى رحلة الإسراء والمعراج ، المهم أنه انتقل إلى مكان أعلى فى التكليف ، كان يُكلف وهو فى الأرض والآن يُكلف وهو فى السماء ، ويكفى أن الله تعالى كلمه دون وحى ، ويكفى أن يقول ﷺ عن رؤيته لربه تعالى : نور أنَّى أراه ؟

ولقائل أنْ يقول : لماذا جاءت الرؤية فى السماء بالذات والله قادر أنْ يتجلى على رسوله ويظهر له وهو فى الأرض ؟ نقول : المكان لا للمرئى ولكن للرائى ، فالرائى لا يرى إلا فى هذا المكان .

كما لو قلت لكم مثلاً ونحن فى المسجد : ظهر القمر ، فقال أحدكم : لكنى لا أراه . أقول له : يراه الذى بالخارج أو فوق السطح .

وقوله تعالى : ﴿أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ (١٢)﴾ [النجم] تأكيد للرؤية وترجيح لها وتحذير من التشكيك فيها ، ولم التشكيك إذا كان الأمر كله فى هذه المسألة لله ، ومحمد لم يدّع لنفسه قوة ، بل قال : أُسْرى بى ؟

تذكرون لما تكلمنا عن قوله تعالى : ﴿يَـٰمَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا لا تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ (٣٣)﴾ [الرحمن] قال بعض العلماء : المراد سلطان العلم .

قلنا : لا بل سلطان من الله القادر على ذلك ، ولو أن المراد سلطان

العلم لما قال تعالى بعدها : ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ[١] مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ (٣٥)﴾ [الرحمن]

ولولا هذه الآية لكانت السماءُ مفتوحة يسهل للجن اختراقها .

ورؤية رسول الله لجبريل فى قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ (١٣) عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ (١٤)﴾ [النجم] تعد تشريفاً لجبريل وتشريفاً لرسول الله . والسدرة كما قلنا شجرة النبق ، وهو حب يُؤكل فى حجم الزيتون .

وإذا كان النبق فى الدنيا له شوك فسدرة المنتهى لا شوكَ لها ، فهى كما قال تعالى : ﴿فِي سِدْرٍ[٢] مَّخْضُودٍ (٢٨)﴾ [الواقعة] يعنى : لا شوكَ فيه . وقال فى وصف ثمارها أنها كقلال هجر[٣] أى : (كالبلاص) الكبير .

ثم لا تعجب من كون هذه الشجرة فى السماء السابعة ، فهذا من طلاقة القدرة ، ألم يجعل شجرة فى جهنم والعياذ بالله ، فقال سبحانه : ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ ..(٦٤)﴾ [الصافات] أى : شجرة الزقوم ﴿تَخْرُجُ فِي أَصْلِ

---

(١) الشُّواظ ، القطعة من اللهب ليس فيها دخان . [القاموس القويم ١/٣٦١] وقيل : الشواظ لهب النار ولا يكون إلا من نار وشىء آخر يخلطه . [لسان العرب – مادة : شوظ] .

(٢) السدر : شجر النبق ، ومفردها سدرة . وهو النوع الثانى من السدر ينبت على الماء وثمره النبق أصفر مُز يُتفكّه به ، أما النوع الأول من السدر فهو برى لا ينتفع بثمره ، ولا يصلح ورقه للغسول وثمره عفص لا يسوغ فى الحلق . والعرب تسميه الضال . [لسان العرب – مادة : سدر] .

(٣) قلال : جمع مفرده قُلة . وقلال هجر عظام تسع القلة الواحدة قربتين ، والقلة تسع فَرقاً أى أربعة أصوع بصاع رسول الله ﷺ ، والصاع خمسة أمداد والمدّ الحفنة بجمع اليدين إلى بعضهما . [لسان العرب وغيره من المعاجم بتصرف] .

الْجَحِيمِ (٦٤) طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ (٦٥) ﴾ [الصافات]

وقوله تعالى : ﴿عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ (١٥) ﴾ [النجم] أى : التى يأوى إليها وينتهى إليها الشهداء الذين قُتلوا فى سبيل الله ، فكأنها جنة خاصة بهم غير جنة الآخرة التى تكون بعد الحساب .

فالذى مات شهيداً وضحَّى بروحه فى سبيل الله يقول الله له : لا تموت عندى فيُبرئه من الموت مرة أخرى ، كأنه يقول : أنا واهب الحياة وأنا الذى آخذها فإذا أخذها غيرى أكيده بأنْ أجعل الشهيد حياً عندى ، موصولة حياته الدنيا بحياته فى البرزخ .

تذكرون لما تكلمنا عن سيدنا يحيى عليه السلام . قلنا : إن الله تعالى هو الذى سماه (يحيى) ، ونحن حينما نسمى أولادنا نختار الاسم الحسن تفاؤلاً به ، فنسمى ذكى أملاً فى أن يكون كذلك ، ونُسمى سعيداً عسى أنْ يكون سعيداً فى حياته .

لكن قد يأتى الواقع على خلاف ما نتمنى ، نُسميه (ذكى) فيكون غبياً ، أو (سعيد) فنراه فى الواقع شقياً ، ذلك لأننا لا نملك تحقيق ما نتمناه .

فإنْ كان المسمِّى هو الله تعالى فلا شكَّ أن تسميته تطابق الواقع ، لأن الله تعالى لا رادّ لقضائه ولا مُعقِّب لحكمه ، ولا أحد يستطيع الاعتراض على أمره .

فكانت تسمية (يحيى) إشارة إلى أنه سيحيا حياة دائمة موصولة ، والعلماء أصحاب الفهم عن الله فهموا من ذلك أنه سيموت شهيداً ، لأن الشهادة هى التى تضمن له استمرار الحياة ، حيث تصل

حياته الدنيا بحياة الشهادة عند الله .

﴿ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ ﴾

معنى ﴿ يَغْشَى السِّدْرَةَ .. ﴿١٦﴾ ﴾ [النجم] يغطيها أو يحيط بها ويسترها، و (ما) تفيد الكثرة والشىء العظيم المستحق للتعجب ، فسدرة المنتهى يغشاها الكثير من المخلوقات العجيبة التى لا يعلمها إلا الله .

فهى كما فى قوله تعالى قبلها ﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ ﴾ [النجم] أى : أوحى إليه بأمور كثيرة عظيمة وعجيبة ، وكما تقول أكرمته ما أكرمته .

وقد ورد من هذه المخلوقات العجيبة حول سدرة المنتهى أشكالٌ وألوانٌ عجيبة من الطيور ، وإذا كنا نرى الكثير من عجائب الخَلْق فى الطيور فى الأرض وما لها من أشكال جميلة نضعها للزينة فى أقفاص فى البيوت وما لها من أصوات ، فما بالك بطيور جعلها الله حول هذه السدرة فى السماء ؟

وذكر أيضاً جراد من ذهب ، ولجراد الذهب هذا قصة مع سيدنا داود عليه السلام ، فيُروى أنه كان يجلس على سطح منزله يعبد الله ويناجيه ، وذات يوم رأى جراداً من ذهب يُحلِّق فوقه ، ففرش له ثوبه ، فصار الجراد يقع فيه فيأخذه داود ، فقال الله له : يا داود ألم أُغْنِكَ ؟ قال : بلى يا رب لكن لا غِنَى لى عن فضلك[1] .

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٧٠ ، ٣١٤٠ ، ٦٩٣٩) والنسائى فى سننه (٤٠٦) وأحمد فى مسنده (٧٦٩٥ ، ٧٨١٢ ، ٩٩٥٨) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، وهو فى حق أيوب عليه السلام ، وليس داود . ولفظ البخارى أنه كان يغتسل ، وعند أحمد دون ذكر الاغتسال بل قال : أرسل على أيوب رجل من جراد من ذهب .

وقوله سبحانه : ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾﴾ [النجم] أى : ما زاغ بصر سيدنا رسول الله فى هذه الرحلة ، و (زَاغ) فِعْل بمعنى مال عن القصد ، وزاغ تعطى معنى (راغ) التى وردت فى قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام : ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾﴾ [الذاريات] أى : مال إلى أهله مَيْلاً خفياً لا يدركه الحاضرون .

والفرق بينهما النقطة على الزاى ، لكن المعنى واحد وقريب منه ، قولنا : فلان زوغ . أى : خرج خُفْية بحيث لا يشعر أحد به ، وقريبٌ من هذا المعنى أيضاً قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا..﴿٦٣﴾﴾ [النور] أى : يتسللون خُفْية .

وقوله بعدها : ﴿وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾﴾ [النجم] ما طغى بصره ولا تجاوز الحدَّ فى الرؤية وما مدَّه لغير غايته ، وهنا نتعلم الأدب فى النظرة ، وكيف تكون فى حدود المسموح به ، كالضيف يدخل بيتك فى وجود أهلك وبناتك فلا تمتد عينه ليرى ما لا يجوز له رؤيته .

﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾

أى : رأى رسولُ الله ﷺ كثيراً من آيات الله فى رحلة الإسراء والمعراج ، آيات فى الأرض وآيات فى السماء ، وكلمة ﴿الْكُبْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾ [النجم] مؤنث جمع كبيرة ، وللمذكر كبير وأكبر . والمعنى أنه ﷺ رأى كثيراً من آيات ربه التى تُوصَف بأنها آيات كبرى ، أو رأى الكبرى من الآيات كلها .

وبعد أنْ حدَّثتنا الآيات وأقسمتْ على صِدْق سيدنا رسول الله فى

البلاغ عن ربه ، وذكرت لنا بعض الآيات الكونية والمعجزات تنتقل بنا إلى المقابل ، إلى الحديث عن الأصنام وعُبَّاد الأصنام .

﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ (١) ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ ﴾

الاستفهام فى ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ .. ﴿١٩﴾ ﴾ [النجم] بمعنى أخبرونى عن شأن هذه الأصنام التى اتخذتموها آلهة من دون الله ، وقد كانوا يتخذون الآلهة على أشكال شتى ، إنسان أو حيوان أو شجرة ، وربما يتخذون صنماً لا شكلَ له .

و ﴿ اللاَّتَ .. ﴿١٩﴾ ﴾ [النجم] صنم على شكل رجل كان عندهم يلتُّ العجين ليريح النساء من هذا العمل الشاق ، ومات ولم يترك خَلَفاً بعده يقوم بهذا العمل ، فحزنوا لموته ، وصنعوا له تمثالاً تكريماً لذكراه ثم بعد ذلك عبدوه .

و ﴿ وَالْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ ﴾ [النجم] اسم شجرة كانوا يعبدونها ، وقد

---

(١) كانت اللات لثقيف ، والعزى لقريش وبنى كنانة ، ومناة لبنى هلال . وقال ابن جبير : العزى حجر أبيض كانوا يعبدونه . وقال قتادة : نبت كان ببطن نخلة و« مناة » صنم لخزاعة . وقيل : إن اللات فيما ذكر المفسرون أخذه المشركون من لفظ الله ، والعزى من العزيز ، ومناة من منى الله الشىء إذا قدره .

وقال ابن عباس وابن الزبير ومجاهد وحميد وأبو صالح (اللاتَّ) بتشديد التاء وقالوا : كان رجلاً يلت السويق للحاج - ذكره البخارى عن ابن عباس - فلما مات عكفوا على قبره فعبدوه . [تفسير القرطبى ٦٥٠١/٩ باختصار] .

أمر النبى ﷺ خالداً أن يذهب ويقطعها[١] ، وكان يقول :

يا عُزَّى كفرانك لا غفرانك إنى رأيت الله قد أهانك[٢]

﴿ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَىٰ ﴿٢٠﴾ ﴾ [النجم] مناة أيضاً اسم صنم لهم ، وقال : ﴿ الثَّالِثَةَ الأُخْرَىٰ ﴿٢٠﴾ ﴾ [النجم] فهى ثالثتهم ولم تكُنْ على شكل إنسان أو حيوان ، فقال ﴿ الأُخْرَىٰ ﴿٢٠﴾ ﴾ [النجم] على سبيل تحقيرهم والاستهزاء بهم وبمَنْ عبدوهم .

الحق سبحانه وتعالى جعلهم حكاماً على ما يفعلون وعلى عبادتهم للأصنام ، فقال لهم : أخبرونى عن هذه الأصنام هل تستحق أنْ تُعبد ، هل لها قدرة أو إرادة ، وهى أحجار جئتم بها بأيديكم وصوَّرتموها على صورة تريدونها ؟

ثم إذا سقط الصنم وأطاحت به الريح أقمتموه ، وإذا كسر ذراعه أصلحتموه ، فكيف تعبدونها ؟ وأين عقولكم ؟

لكنها طبيعة التديُّن فى الفطرة البشرية ، فقد جبل الخالق سبحانه الإنسان على التدين ، وقبل أنْ يُخلق آدم وهو ما يزال فى عالم الذر

---

(١) فى عيون الأثر (٢/٢٠٧) أن سرية خالد بن الوليد إلى العزى كانت لخمس ليال بقين من شهر رمضان سنة ٨ ليهدمها ، فخرج فى ثلاثين فارساً من أصحابه حتى انتهوا إليها فهدمها ، ثم رجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره . فقال : هل رأيت شيئاً ؟ قال : لا . قال : فإنك لم تهدمها ، فارجع إليها فاهدمها فرجع خالد وهو متغيظ فجرد سيفه فخرجت إليه امرأة عريانة سوداء ناشرة الرأس ، فجعل السادن يصيح بها فضربها خالد فجزلها باثنين ورجع إلى رسول الله فأخبره فقال : نعم تلك العزى .

(٢) ذكره ابن كثير فى السيرة النبوية لابن كثير ، وكذا الشامى فى سبل الهدى والرشاد (باب ٥٢) والواقدى فى مغازيه (١/٨٧٣) شأن هدم العزى . وهى فى كل المصادر صنم مبنى وليس شجرة .

وأخذ علينا العهد ونحن فى عالم الذر فى ظهر آدم عليه السلام .

فقال سبحانه : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣) ﴾ [الأعراف]

إذن : عبدوا الأصنام لما عندهم من إيمان الفطرة فى النفس ، لكن الإيمان له تبعات ومطلوبات قد تشقُّ على النفس وتقيد حركتها نحو الشهوات ، فيميل الإنسانُ إلى عبادة إله بدون تكليف ليُرضىَ غريزة التدين فى نفسه ، ومن هنا عبدوا الأصنام لأنها آلهة فى زعمهم ، لكن ليس لها مطلوبات وليس لها منهج ، وما عبدوها إلا لراحة مواجيدهم الإيمانية .

ونلاحظ هنا دقة الأداء القرآنى فى قوله تعالى :﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّىٰ (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَىٰ (٢٠) ﴾ [النجم] لأنهم عبدوا أيضاً الملائكة من دون الله ، لكن لم يذكرها مع اللات والعزى ومناة ، لأن الملائكة لا تُرى .

فلا يصح أنْ يقول : أفرأيتم الملائكة لأنهم لم يروا الملائكة ، إنما سمعوا عنها وآمنوا بها غيباً . وقالوا على كل هؤلاء : شفعاؤنا عند الله ، وقالوا : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ .. (٣) ﴾ [الزمر] إذن : حتى فى كفرهم بالله يتمحّكون فى الله .

وقوله تعالى : ﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَىٰ (٢١) ﴾ [النجم] استفهام للتعجُّب والإنكار عليهم ، حيث نسبوا لله تعالى الملائكة وجعلوها إناثاً لوجود تاء التأنيث بها .

والملائكة مخلوقات لله تعالى نورانية لا تأكل ولا تشرب ولا تتناسل ، ولا تُوصف بذكورة ولا بأنوثة .

فهذا تعدٍّ فى الحكم وقسمة سماها القرآن ﴿ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ (٢٢) ﴾ [النجم] جائرة ظالمة ، لأنكم نسبتُم لأنفسكم الجنس الأعلى ولله الجنس الأدنى ، فالخطأ الأول أنهم جعلوا الملائكة إناثاً ، والثانى أنهم عبدوها .

والحق سبحانه يرد عليهم : ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ (١٩) ﴾ [الزخرف] . وقال : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ[1] جَهَنَّمَ .. (٩٨) ﴾ [الأنبياء] أى : وقودها الذى تتأجج به والعياذ بالله .

فالمأزق الذى وقع فيه عُبَّاد الأصنام أنهم قالوا : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ .. (٣) ﴾ [الزمر] ولو قالوا : ما نتقرَّب إليهم إلا ليقربونا إلى الله لكانت مقبولة ، لكن قالوا : (نعبدهم) وهو قول باطل ، فردَّ الله عليهم : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ .. (٩٨) ﴾ [الأنبياء]

فإنْ قلتَ : فما ذنب عيسى والعُزير ؟ وما ذنب الملائكة وقد عبدوها من دون الله ؟ والجواب فى نفس الآية ، تأمل ﴿ وَمَا تَعْبُدُونَ .. (٩٨) ﴾ [الأنبياء] فـ (ما) هنا لغير العاقل ولم يقُلْ : ومَنْ تعبدون ، فسيدنا عيسى والعزير والملائكة لا يشملهم هذا الحكم .

وتأمل كلمة ﴿ ضِيزَىٰ (٢٢) ﴾ [النجم] تجدها كلمة غريبة فى

---

(١) حصب جهنم : الحصب كل ما يلقى فى النار لتسعر به ، فتزداد بهم اشتعالاً . [القاموس القويم ١/١٥٥] .

تركيبها وفى نطقها ولم تتكرر فى مفردات القرآن ، جاءت هكذا عجيبة لتدل على أن فعلهم غريب وعجيب ، وأن قسمتهم هذه جائرة ظالمة ، لأنهم نسبوا لله تعالى وهو الخالق الجنس الأدنى . أى : فى نظرهم هم .

فالعقائد لا تُفضّل الذكر على الأنثى ، فهما سواء فى ميزان الشرع ، ولبيان هذه المسألة اقرأ مثلاً فى قصة السيدة مريم : ﴿ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا .. (٣٥) ﴾ [آل عمران] أى : محرراً وموقوفاً على خدمة البيت ، والخدمة فى أماكن العبادة خاصة بالذكور ولا تصح لها الإناث .

﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَىٰ .. (٣٦) ﴾ [آل عمران] أى : ليس كالأنثى فى آداء هذه المهمة ، فبيَّن الله لها أن الأنثى التى أريدها ستأخذ منزلة لم تأخذها أنثى غيرها .

فالذكر الذى طلبْته ليس كالأنثى التى وهبتُها لك ، لأن هذه الأنثى سيكون لها منزلة فى تاريخ العقائد ، وموقف يرفعها على جميع النساء .

لذلك لما تكلم عن نماذج من النساء قال (امرأة) ولم يُسمِّ إلا مريم ، فقال : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ .. (١٠) ﴾ [التحريم] وقال : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ .. (١١) ﴾ [التحريم] ولم يُسمِّها إلا رسول الله ، فقال : هى آسية بنت مزاحم .

فالحق سبحانه لم يُسمّ هؤلاء ، فهُنَّ نماذج لحالات مختلفة هدفها واحد وهو حرية العقيدة للمرأة ، ولا أحدَ يستطيع أنْ يُرغِم أحداً على عقيدة بعينها .

أما مريم فسمَّاها باسمها واسم أبيها ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ..(١٢)﴾ [التحريم] لأنها نموذج فريد وحالة خاصة لن تتكرر بعدها . إذن : إبهام الشخصيات له موضعه ، وتعيُّنها له موضعه ، وكُلّ له حكمته .

ففى قصة أهل الكهف ذكر قصة الفتية ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى (١٣)﴾ [الكهف] ولم يُعيِّن القرآن أسماءهم ولا عددهم ، ولم يذكر عنهم إلا وصف الإيمان بالله ، وهذا هو القدر المراد فى قصتهم ولا يُهم بعد ذلك عددهم أو أسماؤهم ، فهو عِلْم لا ينفع ، وجهل لا يضر كما يقولون .

فهم نموذج للفتية المؤمنين المتمسكين بعقيدتهم المجابهة للظلم فى أىِّ زمان وفى أىِّ مكان ، بأىِّ عدد وبأىِّ صورة ، ولو عيّنهم وسمّاهم لكانوا حالة خاصة ليس بالضرورة أن تتكرر .

وأحبُّ أنْ أستدرك الحديث عن مسألة رؤية سيدنا رسول الله لربه ، لأنها مسألة كَثُر فيها الكلام بين المفسرين ، وتباينت فيها الآراء بين مؤيد ومعارض .

وأقول : أولاً إنها مسألة لا تضر أصل العقيدة ، لأنها لا تأتى بشىء جديد إلا أنْ نعرف منزلة محمد من ربه ، فالذين يحبون رسول الله يريدون أنْ يصلوا به إلى مرتبة أنه رأى ربه فيُثبتون له ذلك .

وآخرون مُحبُّون أيضاً لرسول الله لكنهم يريدون أنْ يُجنِّبوا الناس

متاهات الشك ، فيحاولون تخفيف هذه المسألة بأنها رؤية على غير الحقيقة .

ونحن بدورنا نريد أنْ نُبسِّط المسألة تبسيطاً يُيسِّرها على الجميع ، ومن الطبيعى أنْ تختلف آراء العلماء ، وهو اختلاف يُعزِّز الدين فى ذاته ولا يقدح فيه .

والمتتبع لآيات سورة النجم من أولها يجدها تحدثتْ عن الوحى فى موضعين : الأول : ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ (٥)﴾ [النجم] والمراد : الوحى الذى نزل به جبريل على محمد وهو فى الأرض .

إذن : فقوله تعالى بعدها : ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ (١٠)﴾ [النجم] ليست بالمعنى الأول ، بل تضيف جديداً ، فالوحى فيها يُقصد به الوحى المباشر من الله تعالى لنبيه محمد .

بدليل أن الآية هنا لم تذكر جبريل واسطة الوحى ، ثم أبهمتْ الوحى فقالت : ﴿مَا أَوْحَىٰ (١٠)﴾ [النجم] والوحى الذى نزل به جبريل معلوم وغير مُبْهم .

كما أن إبهام الوحى هنا يدل على عظمه ، وأنه شىء كثير فوق الحصر ، أو أنه شىء غريب وعجيب كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ (٧٨)﴾ [طه]

إذن : نحن أمام نوعين من الوحى ، وإذا كانا بمعنى واحد فما ضرورة أنْ يذهب رسول الله فى هذه الرحلة من الأرض إلى السماء ما دام جبريل ينزل عليه . ويُوحى إليه ؟

نفهم من ذلك أن ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾﴾ [النجم] عطاء جديد لرسول الله ، لكنه عطاء مُغلّف بالغيب ، فليست كل العقول مهيئة لتقبُّله ، وعلى قدر صفاء النفس يكون الاقتناع بمثل هذه المواقف ، والناس يختلفون كثيراً فى هذه المسألة .

ومن هنا رأينا المؤيد والمعارض ، والحمد لله فهذا خلاف لا يقدح فى العقيدة ، والحق سبحانه وتعالى خاطب الجميع مَنْ اكتفى بالفرائض ، ومَنْ زاد عليها وأوغل فى النوافل ، وجعل لكلٍّ عطاءً يناسبه .

والوحى المباشر من الله تعالى لنبيه محمد يقتضى القُرْب ، ويقتضى السماع ، وقد أوضح سيدنا رسول الله الرؤية فقال : نور أنَّى أراه[1] ، فقد رأى ﷺ النور ، وهل بعد ذلك غاية تُدرك ؟

وقد ورد فى أثر ما يؤكد هذا أن رسول الله ضرب على صدر أحد الصحابة حتى أحسَّ برد أنامله . وقال : أعطانى ربى ثلاثة أوعية : وعاء أمرنى بتبليغه وهو الصلاة ، ووعاد خيَّرنى فيه (يعنى : أبلغه لأصحاب الصفاء الذين يحسنون الاستقبال عنى وأكتمه عن الذين لا يُحسنون الاستقبال) ، ووعاءً نهانى الله عنه (وفى هذا الوعاء

---

(١) أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه (٢٦١) عن أبى ذر رضى الله عنه قال : سألت رسول الله ﷺ : هل رأيت ربك ؟ قال : نور أنى أراه . وكذا أخرجه الترمذى فى سننه (٣٢٠٤) وقال : حديث حسن . وكذا أخرجه أحمد فى مسنده (٢٠٤٢٧ ، ٢٠٥٤٧) .

أمور فوق مدارك البشر جميعاً ولا تتحمله عقولهم فأُمِر رسول الله بأنْ يكتمه) .

والصحابة أنفسهم كانوا يتفاوتون فى فَهْم مثل هذه الأمور ، فسيدنا عمر لما طاف بالكعبة ووقف أمام الحجر الأسود قال : والله إنى لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا أنِّى رأيتُ رسول الله يُقبِّلك ما قبَّلتك[1] .

يريد عمر أنْ يلفتنا إلى أن العمل العبادى لا يُؤدّى لذاته ، إنما ثقة فى الآمر به . أما سيدنا على فعنده لَوْن آخر من الفيض ومن الفهم ، فيأتى سيدنا عمر ويقول له بينه وبينه : يا أمير المؤمنين ، ولكنى أعرف أنه يضر وينفع ، ألا يشهد لصاحبه يوم القيامة .

إذن : ليس بالضرورة أنْ نعلم كلَّ شىء ، والله يقول : ﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً (٨٥) ﴾ [الإسراء] مهما كنت ، وعندنا فى حياتنا اليومية نغلف الشىء النفيس فى أكثر من غلاف ، فنضعه فى ظرف ، والظرف فى خزينة مُحكمة ، والخزينة فى مكان خاص ، فما

---

(١) أخرجه الحاكم فى مستدركه (١٦٣٥) عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : حججنا مع عمر بن الخطاب فلما دخل الطواف استقبل الحجر فقال : إنى أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ولولا أنى رأيت رسول الله ﷺ قبّلك ما قبلتك ثم قبّله ، فقال له على بن أبى طالب : بلى يا أمير المؤمنين إنه يضر وينفع . قال : بم ؟ قال : بكتاب الله . قال : وأين ذلك من كتاب الله ؟ قال : قال عز وجل : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ .. (١٧٢) ﴾ [الأعراف] وإنى أشهد لسمعت رسول الله ﷺ يقول : « يُؤتى يوم القيامة بالحجر الأسود وله لسان ذلق يشهد لمن يستلمه بالتوحيد » فهو يا أمير المؤمنين يضر وينفع ، فقال عمر : أعوذ بالله أن أعيش فى قوم لستَ فيهم يا أبا حسن .

بالك إذا كان الأمـرُ خاصاً برؤية الله جَلَّ وعـلا ، فلا بأس أنْ تغلف فى هذه الأساليب ولكل عقل أنْ يتقبَّل منها ما يريد .

ثم فى قوله سـبحانه : ﴿أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾﴾ [النجم] الوحى يُرَى أم يُسـمع ؟ الوحى يُسـمع ، فلماذا قـال ﴿عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾﴾ [النجم] إذن : لابد أن يكون هناك رؤية . والـذين لا يقـبلون الـرؤية يستـشهدون بقـوله تعالى : ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَـارُ وَهُـوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ ..﴿١٠٣﴾﴾ [الأنعام]

نعم لا تدركه الأبصار ، فقد حدد آلة الإدراك وهى (الأبصار) ، وهذا يعنى أنه لا مانعَ أنْ يدرك بغير الأبصار ، فالمنع هنا للأبصار فقط ، فحين يرد خبر معناه : انعكس بصرى على بصيرتى ، فرأيت مَنْ لا كمثله شىء لابد أن نفهم أن المسألة فـيها تغليف وسَتْر لأمر نفيس وعجيب .

بل إن المتدبر للآيات يجدها تذهب إلى أبعد مـما تتكلَّمون فيه ، اقرأ : ﴿أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾﴾ [النجم] وبعدها : ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾ [النجم] يعنى : رأى أكثـر من الذى تتكلمون فيه ، فما حالكم لو أخبرناكم بكلِّ ما رأى ؟

وفى قصة سيدنا مـوسى عليه السلام لما قال لربه : ﴿رَبِّ أَرِنِـي أَنظُـرْ إِلَيْكَ قَـالَ لَن تَـرَانِي وَلَـٰكِنِ انظُرْ إِلَـى الْجَبَلِ فَـإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ

فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا..(١٤٣) ﴾ [الأعراف]

تأمل أولاً ﴿ لَن تَرَانِي.. (١٤٣) ﴾ [الأعراف] ولم يقُلْ : لن أرى ، يعنى : لن ترانى يا موسى وأنت على هذه الهيئة لأنها لا تُمكنك من الرؤية ، لكن تجلى للجبل والتجلِّى يقتضى الرؤية . إذن : الأمر هنا فى الرائى ومدى استعداده للرؤية .

ومحمد مثل موسى فى هذه المسألة ، لكنه لما صعد إلى السماء أخذ شيئاً من الملائكية تُمكنه من الصعود والاختراق ، ملائكية غطَّتْ على بشريته وتغلَّبتْ عليها .

﴿ إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ ﴾

ما زال الكلام موصولاً عن الأصنام : اللات والعزى ومناة ، فيخبر عنها الحق سبحانه ﴿ إِنْ هِيَ ..(٢٣) ﴾ [النجم] أى : ما هذه الأصنام ﴿ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ .. (٢٣) ﴾ [النجم] أسماء من تأليفكم لأصنام من صُنْع أيديكم .

ومعلوم أن الاسم يُوضع ليدل على مُسمّى ، أما هذه الأصنام فأسماء دون مُسمّى فهى باطلة ، قلتم آلهة وهى حجارة لا تضر ولا تنفع .

﴿ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم .. (٢٣) ﴾ [النجم] لأنهم ورثوها عن الآباء والأجداد كما حكى عنهم : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ (٢٣) ﴾ [الزخرف] إذن : أقرُّوا بخطأ آبائهم ، وأنهم سائرون على منهجهم .

ثم يُبيِّن لهم بُطْلان معتقداتهم ﴿ مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ .. (٢٣) ﴾ [النجم] أى : هى من عند أنفسكم ليست من عند الله ، ولا برهانَ ولا دليلَ على صدقها ، وأنتم وآباؤكم لستم مُشرِّعين .

فالتشريع والأمور العقدية لا تُؤخذ عن البشر ، إنما تُؤخذ عن الله ، وهؤلاء لا يتبعون هدى الله ، إنما ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ .. (٢٣) ﴾ [النجم] إن نافية بمعنى : ما يتبعون ﴿ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ .. (٢٣) ﴾ [النجم] لا يتبعون حقائق ولا واقع .

الظنّ نسبة من النسب الكلامية الست التى سبق أنْ بيَّناها ، وهى : العلم والجهل والتقليد والشك والظن والوهم ، فالنسبة الكلامية إنْ كان لها واقع مجزوم به ، ويمكن إقامة الدليل عليها فهى علم ، وإنْ كان لها واقع مجزوم به وليس عليها دليل فهى تقليد .

فإنْ كانت النسبة الكلامية ليس لها واقع فهى جهل ، هذا فى النسبة المجزوم بها ، فإنْ كانت النسبة الكلامية غيرَ مجزوم بها يعنى تحدث أو لا تحدث ، فإذا تساوتْ الكفّتان فهذا الشك ، فإنْ كان الوقوع راجحاً فهو الظن ، وإنْ كان الوقوع مرجوحاً فهو الوهم .

والظن يمكن العمل به فى الأمور العادية ، فلو أردنا مثلاً السفر إلى الإسكندرية فقلت لصاحبى : هذا الطريق سهل وعليه متطلبات

السفر . فقال : الطريق الآخر أظن أنه أفضل لأنه حديث وكذا وكذا ، فيجوز أنْ أترك اليقين الذى أعلمه عن الطريق وأسلك الطريق الآخر المظنون ، لأن الاختيار لو كان خطأ فالضرر الحاصل به قليل .

أما فى مسائل الدين والعقيدة فيجب الأخذ باليقين لا بالظن ، والحق سبحانه يخبر عن هؤلاء أنهم اتبعوا الظن فى أمور العبادة ، فقالوا : إن لله تعالى جلالاً وكبرياء ، ولا نقدر أنْ نلتحم به ونعبده ، ولكن نعبد شيئاً آخر يُوصِّلنا إليه ويشفع لنا عنده .

إذن : فقوله تعالى : ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ .. (٢٣)﴾ [النجم] أى : فى العقيدة ﴿وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ .. (٢٣)﴾ [النجم] فى السلوك والعمل يتبعون هوى النفس ، والهوى يُطلق على ما يُذم من مطلوبات النفس .

﴿وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ (٢٣)﴾ [النجم] اللام للتوكيد و (قد) حرف تحقيق .

يريد سبحانه أنْ يؤكد على هذه الحقيقة ، وهى أن هدى الله جاءهم وبلغهم رسول الله منهج الله ، ومع ذلك تركوا الحق واليقين ، واتبعوا الظن وما تهوى الأنفس ، ولو اتبعوا الظن والهوى قبل أنْ يأتيهم منهج الحق لكان لهم عُذر ، أما وقد فعلوا ذلك بعد أنْ جاءهم الهدى من الله فلا عذرَ لهم ولا حجة .

﴿أَمْ لِلْإِنسَانِ مَا تَمَنَّىٰ (٢٤) فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَىٰ (٢٥)﴾

أيظنون وقد فعلوا ما فعلوا من الانصراف عن هدى الله إلى ظنون كاذبة ، أيظنون أن الإنسان يسير فى الدنيا على هواه ؟ وأن له ما

تمنى حتى لو كانت أمانيه مخالفة لمنهج ربه ؟ الواقع أنه ليس له ذلك ، لأن الدين والعقيدة لا تُؤخذ بالأمانى ، والحق سبحانه ليس على هواك .

والتمنِّى طلب شىء لا يمكن الوصول إليه وغير ممكن الحدوث ، والتمنى لا يعنى إلا أنك تحب هذا الشىء الذى تتمناه ، نعم تحبه لكنه لن يحدث ، كما قال الشاعر :

أَلاَ لَيْتَ الشَّبَابَ يَعُودُ يَوْماً فَأُخْبِرُهُ بِمَا فَعَلَ المشِيبُ

فهم يتمنوْنَ ذلك ، يتمنون أنْ يكون للإنسان ما يريده وما يحبه دون ضوابط ، فهذه أمنية ، والأمنية شىء يحبه الإنسان ، لكنه لا يتحقق ، لأن الإنسان لا يملك الظروف المتعلقة به ، ولا يملك الأسباب التى تحقق له كلَّ ما يريد ، بل له ربٌّ يُقدِّر الأقدار والأفعال والخير والشر .

وفى آيات متعددة يُبيِّن الحق سبحانه أمنية هؤلاء ، فمن أمانيهم قولهم : ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ[1] ..(٣)﴾ [الزمر] ومن أمانيهم ما حكاه القرآن عن صاحب الجنة فى سورة الكهف : ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا (٣٦)﴾ [الكهف]

وفى موضع آخر قال أحدهم : ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ ..(٥٠)﴾ [فصلت] وهكذا تمنِّى الإنسان لنفسه لا يقف عند حدٍّ ، قال تعالى : ﴿لا يَسْأَمُ الإِنسَانُ مِن دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ (٤٩)﴾ [فصلت]

---

(١) الزلفى : القرب والمنزلة والدرجة . [القاموس القويم ١/٢٨٨] .

ومن أمانيهم ما حكاه القرآن عن الوليد بن المغيرة : ﴿أَفَرَءَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَدًا (٧٧) أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا (٧٨)﴾ [مريم] لا هذا ولا ذاك ، لأنه ما اطلع على الغيب ، وليس له عند الله عهد بأنْ يعطيه ما يريد .

ثم يردُّ الله عليه : ﴿كَلاَّ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا (٧٩) وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا (٨٠)﴾ [مريم]

إذن : ليس للإنسان ما تمنّى ، وكيف يكون له ذلك والأمر كله لله وحده فى الأولى وفى الآخرة ﴿فَلِلَّهِ الآخِرَةُ وَالأُولَىٰ (٢٥)﴾ [النجم] هنا أسلوب قصر بتقديم الخبر الجار والمجرور على المبتدأ ، أى : لله وحده ﴿الآخِرَةُ وَالأُولَىٰ (٢٥)﴾ [النجم]

فقدّم الآخرة لأنهم قالوا عن الأصنام : هؤلاء شفعاؤنا عند الله ، فأخبر أن الآخرة لله وحده ، ولا تنفعكم هذه الشفاعة لأنها باطلة ﴿وَالأُولَىٰ (٢٥)﴾ [النجم] أى : ما يتمنونه فى الدنيا مما لا قدرةَ لهم على تحقيقه .

وقالوا : قدَّم الآخرة على الأولى مع أن الترتيب الأولى والآخرة ، لأن الآخرة هى محلّ النزاع بين مُصدِّق بها ومُنكر لها ، ومحلّ شك فى وقوعها ، لذلك قدَّمها على الأولى للتأكيد على أنها حقّ ، وحقّ آكد من الأولى التى عاينتموها .

﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لاَ تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلاَّ مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ (٢٦)﴾

لما اعتقدوا فى الأصنام أنها تشفع لهم عند الله ، وقال : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ .. (٣) ﴾ [الزمر] فردّ الله عليهم بما يُبيِّن بطلان اعتقادهم ، فكيف تنتظرون شفاعة الأصنام عند الله ، والملائكة المقربون والعباد المكرمون عنده سبحانه ليس لهم شفاعة إلا بإذنه سبحانه .

قوله تعالى : ﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ .. (٢٦) ﴾ [النجم] أى : كثير من الملائكة ، فكم هنا خبرية تفيد الكثرة ، لأنها تسأل عن عدد لا حصر له ﴿ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ (٢٦) ﴾[النجم]

إذن : هنا شرطان لقبول شفاعة الملائكة ، الشرط الأول : أنْ يأذن الله للملَك أنْ يشفع ، الثانى : أنْ يرضى عن المشفوع له ، ولا يرضى الله إلا عن أهل التوحيد الخالص ، فهذه كرامة للشافع ، وكرامة للمشفوع فيه .

يقول تعالى فى آية الكرسى : ﴿ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ .. (٢٥٥) ﴾ [البقرة]

فإذا كان هذا حال الملائكة فى قبول الشفاعة وهم عباد مُكرمون لا يسبقونه بالقول ، وهم بأمره يعملون ، وقال عنهم ﴿ لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٦) ﴾ [التحريم] فكيف إذن بشفاعة الأصنام ؟

ونلاحظ على الأداء القرآنى فى هذه الآية أن كلمة ﴿ مَّلَكٍ .. (٢٦) ﴾ [النجم] جاءت بصيغة المفرد ، ثم أخبر عن المفرد بصيغة الجمع ، فقال ﴿ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ .. (٢٦) ﴾ [النجم] ولم يقل شفاعته .

قالوا : لأن كم الخبرية تفيد الكثرة ، فلما اجتمعت مع المفرد

أعطتْه معنى الجمع ، فالمعنى ﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ .. (٢٦) ﴾ [النجم] كثير من الملائكة ، والمناسب أن يقول شفاعتهم ، بصيغة الجمع .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ (٢٧) وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا (٢٨) ﴾

الحق سبحانه يفضح اعتقادهم الكاذب فى قولهم ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ .. (٣) ﴾ [الزمر] وفى اعتبارهم الملائكة شفعاءَ لهم عند الله ، فهذا مجرد كلام وحجج واهية لأنهم فى الأصل لا يؤمنون بالآخرة ، فكيف يتحدَّثون عن الشفاعة ؟

﴿ إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ .. (٢٧) ﴾ [النجم] أى : الكفار ﴿ لَيُسَمُّونَ الْمَلائِكَةَ تَسْمِيَةَ الأُنثَىٰ (٢٧) ﴾ [النجم] أى : يدَّعون أن الملائكة بنات الله ﴿ وَمَا لَهُم بِهِ .. (٢٨) ﴾ [النجم] ما لهم بهذا القول ﴿ مِنْ عِلْمٍ .. (٢٨) ﴾ [النجم]

وفى موضع آخر قال سبحانه : ﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا (٥١) ﴾ [الكهف]

إذن : لا علمَ عندهم بخلق الملائكة ، فهم فى هذا الادعاء كاذبون يقولون ما لا يعلمون ، والمسألة أنهم يتبعون فى هذه القضية ظنهم الباطل ، ظنوا الملائكة إناثاً لوجود تاء التأنيث فى الملائكة .

﴿ وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا (٢٨) ﴾ [النجم] أى : أن ظنهم هذا ظنٌّ باطل لا يمتُّ إلى الحقيقة بصلة ولا يغنى عنها ، والحق فى

هذه المسألة ما أخبرنا الله به ، لأنه خالقهم والأعلم بهم ، فالظن لا يحلُّ أبداً محلّ العلم القاطع البيِّن .

﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٢٩) ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ (٣٠) ﴾

بعد أنْ بيَّن الحق سبحانه وتعالى لنبيه ﷺ موقف خصومه ، وكيف أنهم لا يريدون الحق ، بل يريدون الهوى والظن والشهوات ، يقول له : يا محمد أرح نفسك من هؤلاء ، فلا فائدة منهم .

وقد كان سيدنا رسول الله حريصاً كلّ الحرص على هداية قومه ، وكان يُحمِّل نفسه فى سبيل دعوتهم إلى الحق فوق ما تحتمل ، لذلك خاطبه سبحانه بقوله : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا (٦) ﴾ [الكهف] وقال له : ﴿ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ .. (٤٨) ﴾ [الشورى]

وقد بيّنا أن الله تعالى لا يريد منهم قوالب تأتى راغمة ، إنما يريد قلوباً تأتى إليه طواعية واختياراً .

لذلك يقول سبحانه لنبيه : ﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا .. (٢٩) ﴾ [النجم] فأعرض : أمر من الفعل عَرَض عارض ، وأعرض مُعرض . والهمزة هنا تُسمّى همزة الإزالة . أى : إزالة العرض ، تعرفون المعرض الدولى الذى نعرض فيه المنتجات ، فصاحب المنتج

عارض يعرضه على الناس ، ويُبيِّن لهم مزاياه فهو عارض .

وهكذا كان سيدنا رسول الله يعرض الهدى ومنهج الحق على قومه ، ويُبيِّن لهم أهدافه ومزاياه ، فلم يكْن منهم إلا الصبر والأذى والإعراض عنه والانصراف .

وظل كذلك إلى أنْ أمره ربه بالإعراض عنهم ، فقال له : ﴿ فَأَعْرِضْ .. (٢٩) ﴾ [النجم] من أعرض ، وهو عكس عرض ، وهمزة الإزالة تُحوِّل الفعل إلى ضده ، فكما انصرفوا عنك فانصرف عنهم ، أعرضوا عنك فأعرض عنهم .

وهمزة الإزالة فى أعرض مثل أعجم . نقول : أعجم الكتاب . أى : أزال عُجْمته ومنه معجم ، وهو الكتاب الذى يُزيل غموض الألفاظ ، كذلك أعرض أى : أزال العرض .

﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا .. (٢٩) ﴾ [النجم] إذن : هم البادئون بالإعراض عن ذكر الله ، أى : عن القرآن وعن المنهج لأنه يُقيِّد حريتهم فى الشهوات ، المنهج تكليف ، وهم لا يريدون تكليفاً ، يريدون الانطلاق خلف شهواتهم وملذاتهم دون رقيب .

ولو تأمل هؤلاء المعرضون منهج الله لعرفوا أنه فى صالحهم ، لأنه مثلاً حين ينهاك عن السرقة وأنت فرد ينهى الناس جميعاً أنْ يسرقوا منك ، كفَّ يدك وكفّ أيدى الملايين عنك .

إذن : قبل أنْ تنظر إلى مشقة التكاليف انظر إلى عطائها . تذكرون الصحابى الشاب الذى أتى سيدنا رسول الله وقال له : يا رسول الله إئذن لى بالزنا ، تصوروا ماذا كان ردّ فعل رسول الله على هذا المطلب الغريب ؟ لم ينهره بل أدناه منه وتبسَّم فى وجهه

وقال لـه : يا أخا العـرب أتحبـه لأختك ؟ فـيقول : لا يـا رسول الله جُعلْتُ فداك ، فيقول : أتحبه لأمك ؟ أتحبه لابنتك ؟ .

يقول الراوى : حـتى ذكر العـمة والخالة ، والـرجل يقول : لا يا رسول الله جُعلْتُ فداك ، ثم يقول لـه سيدنا رسول الله : كذلك الناس يا أخا العرب لا يحبونه لأخواتهم ولا لأمهاتهم ولا لبناتهم .

فـيقول الشـاب : فـانصـرفت من عند رسـول الله ، وليس شىء أبغض إلىَّ من الزنا ، وما هممتُ بشىء إلا تذكرت أختى وأمى وابنتى[1] .

لذلك الحق سبحانه وتعالى فى أول سورة البقرة يقول عن المتقين : ﴿أُولَـٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾﴾ [البقرة] فـالتكاليف الدينيـة والمنهج ليس عـبئـاً عليك ، إنمـا هو دابة تحـملك وتُوصِّلك إلى غايتـك ، فهم على الهدى و (على) تفـيد الاستـعلاء ، فالمنهج هو الذى يحملك ، وهو الذى يساعدك ويُسعدك .

وقوله تعالى : ﴿وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٢٩﴾﴾ [النجم] أى : هى غايتهم ، فلا يعملون إلا لها وقد أقروا بذلك فقالوا : ﴿مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ ..﴿٢٤﴾﴾ [الجاثية] فالآخرة ليست فى حساباتهم .

لذلك الحق سـبحـانه وتعـالى يُسـفه هذا الرأى ويقـول : ﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ .. ﴿٣٠﴾﴾ [النجم] أقـصى ما وصلوا إليـه من العلم الذاتى فقد وقف بهم عند هذا الحد .

---

(١) أخرجه الإمـام أحمد فى مسـنده (٢١١٨٥) والطبرانى فى المعجم الكبـير (٧٥٧٧)وفى مسند الشامـيين (١٠٣٦ ، ١٤٩٤) وكذا البيهقى فى شـعب الإيمان (٥١٨١) من حديث أبى أمامـة رضى الله عنه ، وفيه أن رسـول الله ﷺ دعا للشـاب : « اللهم اغفر ذنبـه وطهِّر قلبه ، وحصِّن فرجه » فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شىء .

والعجيب أنهم أغلقوا آذانهم وصَمُّوا أسماعهم عن الهدى ، فلم يأخذوا بعلم الله الذى أنزله عليهم ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ (٣٠)﴾ [النجم]

نقف أولاً عند أسلوب القصر ﴿هُوَ أَعْلَمُ ..(٣٠)﴾ [النجم] حيث قصر العلم على الله وحده ، لأن الهداية والضلال أمر فى غالبه غيبى لا يطلع عليه إلا عالم السر وأخفى ، ثم إن الجميع يدَّعى أنه على الهدى ، وأن غيره على الضلال ، لذلك اختصَّ الله بهذا العلم نفسه سبحانه .

وقد جاءت هذه الآية ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ (٣٠)﴾ [النجم] بعد قوله تعالى لنبيه : ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا .. (٢٩)﴾ [النجم] فهنا تناسب بين الآيتين ، لأن الله تعالى سبق علمه بخَلْقه مَنْ يضل ومَنْ يهتدى ، مَنْ سيُقبل على الدعوة ، ومَنْ سيعرض عنها .

لذلك قال لنبيه أرح نفسك ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاغُ ..(٤٨)﴾ [الشورى] والحق سبحانه وتعالى أخبر رسوله بمَنْ سيهتدى وبمَنْ سيظل على ضلاله ، فأبو لهب وأبو سفيان وعمرو وخالد بن الوليد كانوا جميعاً فى خندق واحد ضد الإسلام ، فشاء الله أنْ يؤمن أبو سفيان وخالد وعمرو .

أما أبو لهب فقد ظلَّ على كفره ، حتى بعد أنْ نزلت فيه ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (٢) سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (٣)﴾ [المسد]

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى (٣١)﴾

هنا أيضاً أسلوب قصر بتقديم الخبر . أى : لله وحده .

وفى آية أخرى قال تعالى : ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ ..(٤٩) ﴾ [الشورى] فالسموات والأرض عجيبة فى ذاتها ، والذى فيها أعجب ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ .. (٣١) ﴾ [النجم] وقال : ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ ..(٧٧) ﴾ [النحل]

فهذه مراحل ثلاث فى مُلك الله ، يملك سبحانه الظرف السموات والأرض ، ويملك المظروف أى : ما فى السموات وما فى الأرض وكل منهما عجيب ويملك الأعجب من ذلك ، وهو ما خفى عنا فى ملكوت السموات والأرض .

وهذا يعنى أنك أيها الإنسان لا تزهد فى الاستنباط ، فالكون ملىء بما تعلمه وما لا تعلمه من الآيات والعجائب ، وفيه عطاءات لا تتناهى ولا تنفد ، ما دامت السموات والأرض ، فإذا نفدت العجائب والأسرار بنفاد الدنيا جاءت عجائب وأسرار الآخرة .

ثم يُبيِّن سبحانه أن هذا الملك في السموات والأرض يترتب عليه الجزاء فى الآخرة ، لأن الملك ملكُ الله ، والخَلْق خَلْق الله ، والرسل رسل الله ، والمنهج منهج الله ، فأمامك أيها الإنسان الكون الفسيح وما فيه من آيات كونية تدل على قدرة الخالق سبحانه فاستدل بالخلق على الخالق .

ثم أرسل لك الرسل وأنزل الكتب وشرَّع الشرائع وبيَّن الحلال والحرام ، وبيَّن الحدود ، وبيَّن الجزاء ، فلا بد أنْ ينتهى مُلْك السموات والأرض إلى الجزاء ، والجزاء لا بد وأنْ يكون من جنس

العمل ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى (٣١)﴾ [النجم]

والآيات ثلاث كما قلنا : آيات كونية تدل على قدرة الله ، وآيات معجزات تدل على صدق الرسول فى البلاغ عن الله ، وآيات الأحكام التى يضمها القرآن الكريم ، فمَنْ لم يعتبر بهذه الآيات ولم يحسن استقبالها فقد أساء فيُجزى بإساءته .

ومن أحسن استقبالها يُجزى بإحسانه وكأنه حيا المكلِّف سبحانه وتعالى بالطاعة فيُحييه الله بأحسن منها ﴿وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى (٣١)﴾ [النجم] أى : بالأحسن مما قدَّموا ، فإذا كنا قد أمرنا فى الدنيا بأنْ نرد التحية بأحسن منها ، فالله أوْلى بذلك .

وتأمل هنا اللياقة فى التعبير والدقة فى الأداء ، فلم يقُلْ : ليجزى الذين أساءوا بالسوء ، ولكن ﴿بِمَا عَمِلُوا .. (٣١)﴾ [النجم] فلم يواجههم بكلمة السوء ، ولكن وضع أمامهم العمل الذى قدَّموه .

وفى هذا إشارة إلى عدل الله ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٧)﴾ [آل عمران] . ثم يقدم جزاء أهل السوء على جزاء أهل الإحسان ، ليكون الجزاء بالحسنى هو آخر ما يباشر أسماعنا .

ثم تشرح الآيات وتُفصِّل القول فى الذين أحسنوا ، ما وجوه الإحسان فى أعمالهم .

﴿ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾ ﴾

فمن صفات الذين أحسنوا أنهم ﴿ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ .. ﴿٣٢﴾ ﴾ [النجم] أى : يتركون بالكلية الكبائر من الذنوب ولا يقتربون من هذه المنطقة المحرمة ﴿ إِلاَّ اللَّمَمَ .. ﴿٣٢﴾ ﴾ [النجم] وهو صغائر الذنوب .

فكأنَّ الله تعالى من رحمته بخلقه تكفّل لنا بالصغائر أنْ يمحوها ، وجعل لها (أستيكة) أى ممحاة تزيلها وهى الصلوات الخمس ، شريطة أنْ نجتنب الكبائر .

وفى الحديث : « الصلوات الخمس ، والجمعة إلى الجمعة ، ورمضان إلى رمضان كفارة لما بينهنَّ إذا اجتُنِبَتْ الكبائر »[٢] فمَنْ فعل ذلك وسار على هذا المنهج كانت له الحسنى ، وكان من أهل الإحسان .

---

(١) ذكر الواحدى فى أسباب النزول (ص ٢٢٦) فى سبب نزول هذه الآية أن اليهود كانوا يقولون : إذا هلك لهم صبى صغير هو صدّيق ، فبلغ ذلك النبى ﷺ فقال : كذبت يهود ، ما من نسمة يخلقها الله فى بطن أمه إلا أنه شقى أو سعيد ، فأنزل الله تعالى عند ذلك هذه الآية ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ..﴿٣٢﴾ ﴾ [النجم] .

(٢) أخرجه البيهقى فى سننه الكبرى وكذا فى شعب الإيمان (٣٤٦٦) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، وقد أخرجه مسلم في صحيحه (٣٤٤) وكذا (٣٤٢) بلفظ (الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة كفارة لما بينهن ما لم تُغْشَ الكبائر) .

إذن : الإثم والفواحش هى الذنوب الكبيرة التى توعَّد الله مرتكبيها ، والفواحش ما فَحُش من الكبائر وعظم ، وقد جعل الله له عقوبة وحَداً .

أما (اللمم) الذى استثناه الله وعفا عنه فهو لمم . يعنى : صغائر هيِّنة لا يترتب عليها كبيرُ ضرر ، وهذه أيضاً مشروطة بعدم الاجتراء عليها أو المبالغة فيها حتى تصير لك عادة .

وإذا عاملك الله تعالى بهذا المنطق فاستح منه سبحانه أنْ تتجرأ عليه ولو بالصغائر ، لأن الصغيرة إذا أضيفت إلى الصغيرة وكان فى الأمر مداومة وإصرار صارتْ كبيرة ، ثم للعاقل أنْ ينظر فى حَقِّ مَنْ هذه الصغيرة ، إنها فى حق الله ، إذن : فاقصر .

قلنا : إن الكبائر جمع كبيرة ما توعد الله عليه بالعذاب فى الآخرة ، أو أقام عليه الحدَّ فى الدنيا ، وهذا فيما يتعلق بحقوق العباد ، فالله سبحانه قدَّم حقَّ العباد على حقِّه تعالى ، وجعل له القصاص العادل فى الدنيا .

ألا ترون أن الله جعل أداء الدَّيْن مقدَّم على أداء فريضة الحج ؟ ورسول الله ﷺ لم يُصل على جنازة أحد الصحابة لأن عليه ديناً ، وحثَّهم على قضاء دينه أولاً .

حتى أنهم قالوا فى معنى « مَنْ حج فلم يرفث ولم يفسق رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه »[1] قالوا : هذا فيما يتعلق بحقِّ الله ، أما

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٦٨٣٩) بلفظ « من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كهيئته يوم ولدته أمه » . وعند البيهقى فى شُعبه (٣٩٣٣ ، ٣٩٣٤ ، ٣٩٣٥) وابن حبان فى صحيحه (٣٧٦٤) وابن خزيمة فى صحيحه (٢٣١٤) كلهم من حديث أبى هريرة رضى الله عنه بلفظ « من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كانما ولدته أمه » ليس فى الحديث لفظة « من ذنوبه » وقد أخرجها أحمد فى مسنده (٩٨٨٥) .

حقوق العباد فتظل كما هى ، إلى أنْ يكون الأداء أو القصاص ، ذلك يُحدِثُ الردع ولا يجترىء الناس على التعدِّى وانتهاك الحرمات .

وقد علّمنا رسول الله هذا الدرس فى دعائه : « اللهم ما كان لك منها فاغفره لى ، وما كان لعبادك فتحمله عنى »[1] يعنى : إنْ لم أقدر على الوفاء به .

لذلك قلنا فى السارق الذى أسرف على نفسه وتمادى فى هذه الجريمة ، ثم أراد أنْ يتوب ماذا يفعل ؟ لا بدّ أنْ يجهد فى إعادة الحقوق إلى أصحابها ، فإذا لم يقدر يحسب جملة ما سلبه من خَلْق الله ويتصدّق به بنية صاحبه ، وحين يعلم الله منه صدق التوبة ، فقد يتحمل عنه هذه الحقوق رحمة به .

نلاحظ أن الآية عطفت ﴿الْفَوَاحِشَ .. (٣٢)﴾ [النجم] على ﴿كَبَائِرَ الإِثْمِ .. (٣٢)﴾ [النجم] لأنها كلها كبائر ، لكن الفواحش تضيف إلى الكبيرة صفة الفحش والقبح ، فهى أعظم وأشدّ إثماً من الكبائر ، لأنها منكر مستبشع .

---

(١) أقرب ما وجدته فى هذا بعد طول بحث ما أورده ابن حبان فى (المجروحين) ترجمة إبراهيم بن زيد الأسلمى من حديث أبى هريرة ، وكذا الذهبى فى ميزان الاعتدال (٩٤) وابن حجر فى لسان الميزان ، وأخرجه ابن عساكر فى تاريخ دمشق (ترجمة شيخه مكى ابن أحمد بن سعدويه) مطولاً ونصه : اللهم أستغفرك وأسألك التوبة من مظالم كثيرة لعبادك علىّ اللهم فأيما خلق من خلقك كانت له قبلى مظلمة ظلمتها إياه فى ماله أو بدنه أو عرضه أو دمه قد غاب أو مات نسيته أو فرطته عمداً أو خطأ لا أستطيع أداءها إليه وتحللها منه ، فإنى أسألك يا رباه يا رباه يا رباه يا سيداه يا سيداه يا سيداه ، أسألك أن ترضيه عنى بما شئت وكيف شئت » الحديث . قال ابن حبان فى المجروحين : منكر الحديث جداً يروى عن مالك ما لا أصل له من حديث الثقات ، لا يحل الاحتجاج به بحال .

وقد تكلم العلماء فى الكبائر وربطوا بينها وبين الجوارح التى تُؤدَّى بها ، فعمرو بن عبيد[١] كان عالماً ورعاً يتجنب ما يفعله غيره من العلماء والشعراء من الدخول على الملوك والأمراء لنيْل عطاياهم ، حتى قال فيه الشاعر ، وذلك فى العصر العباسى :

كلُّهُمْ طَالِبُ صَيْد غَيْر عَمْرو بن عُبَيْد

عمرو بن عبيد وقف عند مسألة الكبائر هذه ، وأراد أنْ يسأل عنها أعلم أهل زمانه بالكتاب والسنة ، فلم يجد أعلم من سيدنا جعفر الصادق[٢] بن سيدنا محمد الباقر بن سيدنا على زين العابدين بن سيدنا الحسين بن سيدنا على بن أبى طالب من السيدة فاطمة الزهراء .

وكان جعفر الصادق كثير البحث فى آيات القرآن واستيعاب أسراره والتفتيش عن كنوزه ، وكان يستنبط المعانى ويأتى بالدليل عليها .

ومن ذلك قوله : عجبتُ لمن خاف ولم يفزع إلى قوله تعالى : ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣)﴾ [آل عمران] فإنى سمعتُ الله بعقبها يقول ﴿فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ ..(١٧٤)﴾ [آل عمران]

---

(١) عمرو بن عبيد التيمى بالولاء أبو عثمان البصرى ، شيخ المعتزلة فى عصره ومفتيها وأحد الزهاد المشهورين ، ولد ٨٠ هجرية وتوفى عام ١٤٤ هجرية عن ٦٤ عاماً . كان جده من سبى فارس وكان أبوه شرطياً للحجاج بن يوسف فى البصرة ، توفى قرب مكة ، من العلماء من يراه مبتدعاً دهرياً .

(٢) هو أبو عبد الله الهاشمى القرشى ، كان من أجلاء التابعين وله منزلة رفيعة فى العلم ولد ٨٠ هجرية وتوفى ١٤٨ هجرية عن ٦٨ عاماً ، أخذ عنه الإمامان أبو حنيفة ومالك ، مولده ووفاته بالمدينة . [الأعلام للزركلى ٢/١٢٦]

وعجبت لمن اغتمّ ولم يفزع إلى قوله تعالى : ﴿لاَّ إِلَـهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧)﴾ [الأنبياء] فإنى سمعتُ الله بعقبها يقول : ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ (٨٨)﴾ [الأنبياء]

وعجبتُ لمن مُكرَ به ولم يفزع إلى قوله تعالى : ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (٤٤)﴾ [غافر] فإنى سمعتُ الله بعقبها يقول : ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا ..(٤٥)﴾ [غافر]

وعجبتُ لمن طلب الدنيا ولم يفزع إلى قوله تعالى : ﴿مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ .. (٣٩)﴾ [الكهف] فإنى سمعتُ الله بعقبها يقول : ﴿فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ ..(٤٠)﴾ [الكهف]

فهذه (روشتة) وضعها سيدنا جعفر ، أخذها بالدليل من كتاب الله وتشمل كلَّ ما يطرأ على العبد من أحوال . وراح عمرو بن عبيد يسأل سيدنا جعفر عن الكبائر ، كل كبيرة بحسب الجارحة التى تؤديها .

فقال : القلب مطلوب منه ألاَّ يشرك بالله ، وألاّ ييأس من رَوْح الله ، وألا يأمن مكر الله . ثم أتى بالدليل من كتاب الله على كل واحدة ، ففى مسألة الشرك ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ .. (٤٨)﴾ [النساء] وفى اليأس من روح الله ﴿قُلْ يَـعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ..(٥٣)﴾ [الزمر] وهكذا .

وكبائر اللسان : شهادة الزور ﴿وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا

بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾ ﴾ [الفرقان] وقذْف المحصنات المؤمنات الغافلات ، واليمين الغموس وهو الحلف على شىء مضى وتعمد مخالفة الواقع ، كذلك من كبائر اللسان السحر .

أما البطن فيتعلق بها شُرب الخمر والعياذ بالله ، وأكل مال اليتيم ، وأكل الربا . والفرج يتعلَّق به الزنا . واليدان السرقة والقتل . والرِّجْلان الفرار من الزحف . ولكل من هذه الكبائر دليلها الواضح من كتاب الله .

ومن الكبائر ترك الصلاة وهى كبيرة ، يشترك فيها جوارح كثيرة ، وتَرْكها كبيرة لأنها فُرضَت كما قلنا من الله مباشرة لرسوله ، فهى لا تسقط عن المسلم بحال ، لذلك قُلْنا عنها أنها ركنٌ من أركان الإسلام ، وكذلك هى ركن من أركان المسلم ، لأنها ملازمة له لا تسقط عنه .

أما اللمم فهو ما دون الكبائر من الذنوب ، وتُسمَّى الصغائر مثل النظرة ، لذلك قالوا : لك الأولى وليس لك الثانية[1] ، لأن النظرة الأولى طرأتْ عليك وبها تتعرَّف على الأشخاص .

أما النظرة الثانية ففيها قصد للتمادى ، وهذا يجرُّنا إلى النظرة المحرمة ، فالذى يطيل النظرة الأولى ليقول أنها الأولى التى رخص فيها عليه أنْ يحذر ، لأن المراقب للنظرة هو الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور .

وحتى النظرة الأولى فى الواقع ليست لك ، لكنك معذور فيها ،

---

(١) عن بريدة بن الحصيب الأسلمى ، قال : قال رسول الله ﷺ لعلى : يا على ، لا تتبع النظرة النظرة ، فإن لك الأولى ، وليست لك الآخرة » . أخرجه أبو داود فى سننه (١٨٣٧) وكذا الترمذى فى سننه (٢٧٠١) وقال : حديث حسن غريب . وأخرجه أحمد فى مسنده (٢١٨٩٦ ، ٢١٩١٣ ، ٢١٩٤٣) .

لأنها طرأتْ عليك ، فهى تلقائية ليس فيها قصد .

وكذلك من الصغائر الضربة الخفيفة التى لا تؤذى ، أو أنْ تعيب على غيرك صفة من صفاته ، أو خُلقاً من خُلقه ، إلى غير هذا من الأمور ، لذلك سماها الله (اللمم) ، وهذا السجل سرعان ما يُغفر بالاستغفار وفعل الطاعات اليومية .

لذلك يقول الحق سبحانه بعدها : ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ .. (٣٢)﴾ [النجم] . نعم واسع المغفرة . أى : كثير المغفرة ، لأنه تعالى خلق الإنسان ويعلم مناطق الضعف فيه ، ولما كلَّفه لم يُضيِّق عليه ولم يشقّ عليه ، بل كلّفه على قدر الاستطاعة ، ولم يكلفه إلا بعد سنِّ البلوغ ، فيظل يرتع فى الكون دون تكليف أكثر من عشر سنوات .

ثم بعد أنْ يكلَّف يتحمل عنه الصغائر ، ويُبيِّن له عاقبة الكبائر حتى لا يقربها ، وهذه رحمة من الله بعبده ، لذلك قال فى موضع آخر : ﴿وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ .. (١٥)﴾ [المائدة] فالله واسع المغفرة ، كثير العفو ، سبقتْ رحمته غضبه ، وسبق عفوه عقابه .

ثم تأتى التوبة الكبيرة : ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي[1] أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (١٥)﴾ [الأحقاف]

لذلك الذى يعصى ربه عز وجل بعد سنِّ الأربعين يكون (بايخ) ، نعم لأنه وصل للسنِّ التى لا عذر له فى أنْ يتجرأ على الله بالمعصية ،

---

(١) أوزعنى : ألهمنى شكرك وادفعنى إليه وحبِّبه إلىَّ . [القاموس القويم ٢/٣٣٤] .

فإذا ما بلغ المسلم فى الإسلام الكِبَر والشيخوخة استحى الله أنْ يعذبه ، وقد شاب فى الإسلام .

وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ .. (٣٢) ﴾ [النجم] نعم النشأة الأولى للإنسان لا يعلمها إلا الله ﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ .. (٥١) ﴾ [الكهف]

ومعنى ﴿ أَنشَأَكُم .. (٣٢) ﴾ [النجم] خلقكم بداية من طين الأرض ، والمراد خلق آدم عليه السلام وما دُمْنا من الأرض نشأة وهى البداية والأم ، فالابن متعلق بأمه ومردّه إليها .

ثم يذكر سبحانه طَوْراً آخر من أطوار الخلق ﴿ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ .. (٣٢) ﴾ [النجم] فإذا كان آدم خُلِق من طين الأرض فنسلُه جاء من التزاوج الذى تنشأ عنه الأجنة فى بطون الأمهات .

﴿ فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ .. (٣٢) ﴾ [النجم] تزكية النفس يعنى : مدحها وادعاء الصلاح ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ (٣٢) ﴾ [النجم] أى : أن الله تعالى أعلم بخفىِّ الأمور وحقيقتها ، أعلم بكم من ساسكم لرأسكم ، ولا يخفى عليه منكم شىء ، فلا مجال إذن لتزكية النفس .

حتى فى حالة مدح الآخرين والثناء عليهم علّمنا أنْ نقول : ولا نُزكى على الله أحداً ، لأن الله تعالى هو الذى يُزكِّى ، وهو أعلم بأهل الطاعة وبأهل التقوى الحقيقية .

ثم يقول الحق سبحانه[١] :

﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ[٢] ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ ﴾

قالوا[٣] : نزلت هذه الآيات فى الوليد بن المغيرة ، حيث كانت بداية علاقته بدعوة الحق أنْ تولَّى عنها وأعرض عن سماع القرآن ، ثم حَنّ قلبه وأُعجب بما يقوله رسول الله ، فأعطى قليلاً من الأمان لأمر الدعوة واطمأن لها .

---

(١) سبب نزول الآية : قال ابن عباس والسدى والكلبى والمسيب بن شريك : نزلت فى عثمان ابن عفان ، كان ينفق ويتصدق فى الخير فقال له أخوه من الرضاعة عبد الله بن أبى سرح : ما هذا الذى تصنع ؟ يوشك أن لا يبقى لك شيئاً . فقال عثمان : إن لى ذنوباً وخطايا ، وإنى أطلب بما أصنع رضا الله سبحانه وتعالى وأرجو عفوه . فقال له عبد الله : أعطنى ناقتك برحلها وأنا أتحمل عنك ذنوبك كلها ، فأعطاه وأشهد عليه وأمسك عن بعض ما كان يصنع من الصدقة ، فأنزل الله تبارك وتعالى : ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلاً وَأَكْدَىٰ ﴿٣٤﴾﴾ [النجم] فعاد عثمان إلى أحسن ذلك وأجمله . [أسباب النزول للواحدى النيسابورى ص ٢٢٧] قال ابن عطية : « عثمان رضى الله عنه منزه عن مثله » .

(٢) أكدى الرجل : بخل ومنع وانقطع خيره . وأصله من أكدى حافر البئر أن وصل فى أثناء حفره إلى الكدية وهى الأرض الصلبة فينقطع عن الحفر يائساً من ظهور الماء . [القاموس القويم ٢/١٥٦] .

(٣) قاله مجاهد وابن زيد ، أنها نزلت فى الوليد بن المغيرة ، وكان قد اتبع رسول الله ﷺ على دينه فعيَّره بعض المشركين ، وقال : لم تركت دين الأشياخ وضللتهم وزعمت أنهم فى النار ؟ قال : إنى خشيت عذاب الله ، فضمن له إن هو أعطاه شيئاً من ماله ورجع إلى شركه أن يتحمل عنه عذاب الله سبحانه وتعالى ، فأعطى الذى عاتبه بعض ما كان ضمن له ثم بخل ومنعه فأنزل الله تعالى هذه الآية . [ذكره الواحدى فى أسباب النزول ص ٢٢٧] .

ثم تذكر عزته ومكانته بين قومه وخاف أنْ يُقال صبأ عن دين الآباء والأجداد فنكص على عقبيه وتراجع . وقالوا : جاءه رجل وحذَّره من الإيمان بمحمد . وقال له : إن كنت خائفاً من العذاب ، فأنا أتحمله عنك مقابل أنْ تعطينى كذا وكذا ، فأعطاه ثم تراجع ومنعه .

وقالوا : نزلتْ فى النضر بن الحارث[1] أيضاً : جاءه رجل وقال له : إن عذاب الله شديد وأنا أتحمله عنك ، وأعطنى خمس قلائص[2] أى : خمساً من الجمال لكنه استكثرها ، فمنع الرجل هذا العطاء . وقالوا أيضاً : نزلت فى صفوان .

هذا معنى ﴿أَفَرَأَيْتَ .. (٣٣)﴾ [النجم] يا محمد ﴿الَّذِى تَوَلَّىٰ (٣٣)﴾ [النجم] أى : أعرض عنك وتركك ومضى ﴿وَأَعْطَىٰ قَلِيلاً .. (٣٤)﴾ [النجم] من العطاء أو من الأمان .

﴿وَأَكْدَىٰ (٣٤)﴾ [النجم] منع عطيته من الكدية يقولون : حفر فلانٌ الحفرة فاستقامتْ له . أى : وجد ما ينتظره منها ، وحفر فلان الحفرة فأكدتْ . أى : لم يجد شيئاً ، أو وجد حجراً كبيراً منعه من الوصول إلى بُغيته ، والحجر هذا يُسمى كدية . ومنه قولنَا : عقبة كأداء . يعنى : تمنعك من الوصول إلى هدفك .

﴿أَعِندَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰ (٣٥)﴾ [النجم] أطلع على الغيب وعلم

---

(١) النضر بن الحارث ، قاله الضحاك ، أعطى خمس قلائص لفقير من المهاجرين حتى ارتد عن دينه وضمن له أن يحمل عنه مآثم رجوعه . (كان صاحب لواء المشركين ببدر وقتل فيها (٢ هجرية) الأعلام للزركلى ٨/٣٣) .

(٢) قلائص : جمع قلوص ، وهى كل أنثى من الإبل حين تركب . وفى التهذيب : سميت قلوصاً لطول قوائمها ولم تجسم بعد . [لسان العرب - مادة : قلص] .

الحقيقة ، أو علم أن هذا الرجل سيَفى فى التحمل عنه ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ (٣٦) وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ (٣٧)﴾ [النجم] يعنى : ألم يعلم هذا المعرض عن دعوة الحق ما جاء فى صحف موسى وفى صحف إبراهيم ؟

لكن ماذا يعنى بما جاء فى صحف موسى وإبراهيم ؟ يجيب القرآن ويُفصِّل المجمل فى الاسم الموصول (بمَا) فيقول سبحانه :

﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ (٣٨) وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ (٣٩) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ (٤٠) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ (٤١)﴾

هذا الذى ورد فى صحف موسى وفى صحف إبراهيم ﴿أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ (٣٨)﴾ [النجم] لا تحمل نفسٌ ذنب نفس أخرى ، فإياك أنْ تظن أن أحداً يتحمل عنك وزرك ، ويقع عليه العذاب بدلاً عنك ، لأن الحساب فى الآخرة بالقسط وبالعدل .

﴿وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ (٣٩)﴾ [النجم] ليس له إلا عمله ، إنْ خيراً فخير ، وإنْ شراً فشرّ ، وهذا يقطع الأمل فى الانتفاع بعمل الغير ، كما قال تعالى : ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (٣٨)﴾ [المدثر] فأنت لا تنتفع إلا بعملك وسعيك فاجتهد .

وفى آخر سورة الأعلى ، قال سبحانه : ﴿إِنَّ هَـٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَىٰ (١٨) صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ (١٩)﴾ [الأعلى] لكن لما كان المقام هنا مقام الحديث عن الوفاء فيمن قال له : أتحمل عنك ذنوبك ، ذكر

سبحانه صفة الوفاء فى سيدنا إبراهيم ، فقال ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِى وَفَّىٰ (٣٧)﴾ [النجم]

لذلك قال تعالى فى سيدنا إبراهيم : ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ[1] فَأَتَمَّهُنَّ .. (١٢٤)﴾ [البقرة] نعم أتم سيدنا إبراهيم ما أمره الله به غاية التمام ، ونجح فى الامتحان بامتياز مع مرتبة الشرف ، وهذا واضح من قصة بناء البيت ، وقصة ذبح ولده إسماعيل عليهما السلام .

فلما أتمَّ ما أمر به قال الله له : ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا .. (١٢٤)﴾ [البقرة] فكانت المكافأة على قدْر الإتمام ، وعلى قدْر صدق الأداء .

وقف بعض المستشرقين عند هذه الآية ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ (٣٨)﴾ [النجم] وقالوا : كيف نجمع بينها وبين قوله تعالى : ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ (٢٥)﴾ [النحل] فأيّهما أصح ؟

نقول : كلاهما صحيح ، لأن لكل منهما معنى ، فالأولى تتحدث عن الذنب وعن الشر يرتكبه الإنسان بنفسه فى ذاته ، فهو يحمل

---

(١) فى الكلمات التى ابتلى الله بهن إبراهيم أقوال كثيرة منها :
أولها : أنها خمس فى الرأس ، وخمس فى الجسد . أما التى فى الرأس فالفرق والمضمضة والاستنشاق وقص الشارب والسواك . وفى الجسد تقليم الأظافر وحلق العانة ونتف الإبط والاستطابة بالماء والختان . رواه طاووس عن ابن عباس .
الثانى : أنها المناسك . الثالث : أنه ابتلاه بالكوكب والشمس والقمر ذكرها ابن الجوزى فى زاد المسير آية البقرة ٢ .

عقوبة ذلك ، لا يحمله عنه أحد .

أما الآية الأخرى فتتحدث عن الإنسان الذى يُضل غيره ، ضَلَّ فى نفسه وعدَّى ضلاله إلى الغير ، فيتحمل وِزْره ووزر مَنْ أضلَّه بغير علم .

وقد اختلف العلماء حول قوله تعالى : ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ (٣٩)﴾ [النجم] فقال بعضهم : المعنى أن الإنسان ليس له إلا ما قدّم ، ولا ينتفع أحد بعمل أحد . وقال آخرون : بل ينتفع الإنسان بعمل غيره ، وفى تاريخنا وسُنّة سيدنا رسول الله ما يؤيد ذلك .

ونحن نُرجِّح القول الثانى ، لأن السعى هو مطلق الحركة لغاية ، وهذه الحركة قد تكون بالشر كالذى يسعى فى الأرض فساداً وظلماً ، وقد تكون بالخير كالذى يسعى لإصلاح الكون وصلاحه .

والسعى يختلف باختلاف قوة الساعى ، ومدى إيمانه بقضايا دينه ووطنه ، فواحد يسعى لنفسه ولا يرى إلا ذاته ، وآخر يسعى لأسرته ، وآخر يسعى لبلده ، وآخر يسعى لإسعاد العالم كله ، نعم :

عَلَى قَدرِ أهْلِ العَزْمِ تَأتِى العَزَائِمُ وَتَأْتِى عَلَى قَدْرِ الكِرَامِ المكَارِمُ

لذلك قالوا : للرجال أوطان تختلف باختلاف هممهم ، فرجل وطنه نفسه ، ورجل وطنه أسرته ، ورجل وطنه بلدته ، ورجل وطنه العالم كله ، وهذه من فلسفة الإيمان الذى يحثّ المؤمن على أنْ يُعدى خيره للناس جميعاً حتى الكافر منهم .

وبهذه الفلسفة ، وبهذا المعنى ينفع الرجل غيره ، والأدلة على هذا الرأى كثيرة ، فسيدنا رسول الله ألم يُبعث للعالم كله ؟ ألم تشمل

رحمته المؤمن والكافر ؟ ألم يقل الله فى حقه : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٠٧) ﴾ [الأنبياء]

ومن رحمته بأهل الموقف فى الآخرة أنْ يشفع لهم فى أنْ يُعجِّل لهم الحساب ، لأنهم فى موقف يتمنون فيه الانصراف ولو إلى النار . ومن شفاعته ﷺ أنْ يشفع فى أهل التوحيد الذين دخلوا النار أنْ يخرجوا منها ، أليس هذا انتفاعاً بعمل الغير ؟

ثم ألم يأمرنا الشرع بالصلاة على الميت ؟ ولو كانت الصلاة على الميت لا تنفعه لكانت عبثاً ، بدليل أننا ندعو له فيها ، وهذا انتفاع ، لكن المعارضين لهذا الرأى يقولون : وهل نصلى على كل ميت ؟ نحن نصلى على الميت المسلم ، فالمنفعة تأتى من كونه مسلماً ، فإسلامه هو الذى ينفعه .

قلنا لهم : خذوا دليلاً آخر فى قوله سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم[1] مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ .. (٢١) ﴾ [الطور] ألم ينتفع الأبناء بصلاح الآباء ؟

قالوا : انتفعوا بصلاحهم لأنهم تحملوا مشقة هذا الصلاح فى الدنيا ، فعوَّضهم الله ما حُرِموا منه فى الآخرة ، بمعنى أن الإنسان المستقيم الذى يتحرى الحلال فى مأكله ومشربه لا شكّ يضيق على أولاده ، على خلاف الذى يرتع فى الدنيا طولاً وعرضاً ، ولا يلقى بالاً لمسألة الحلال والحرام ؛ فأولاده يكونون أحسنَ حالاً فى المأكل والمشرب والملبس ، وهكذا ، إذن ما يجده أبناؤه الصالحون من نعيم

---

(١) ألتناهم : نقصناهم . ألته يألته : نقصه ، أى ما أنقصناهم شيئاً من ثواب عملهم . [القاموس القويم ١/٢٣] .

الآخرة ، جاء عوضاً عمّا تحمّلوه فى الدنيا .

أيضاً يُروَى[١] عن سيدنا رسول الله ﷺ أنه مَرَّ على رجل يصلى وحده ، منفرداً ، فقال : ألاَ رجل يتصدَّق على هذا ؟ أى : يصلى معه ليأخذ ثواب الجماعة ، أليس هذا انتفاعاً بعمل الغير ؟

وسيدنا رسول الله لما امتنع عن الصلاة على الميت المدين[٢] كان امتناعه لمنفعة الميت ، وقد انتفع بهذا الامتناع بالفعل ، رسول الله امتنع عن الصلاة عليه ، لأنه قال فى الحثِّ على قضاء الدَّيْن : « مَنْ أخذ أموال الناس يريد أداءها أدَّى الله عنه .. »[٣] .

ويبدو أن هذا الميت مات وعليه دين لا يستطيع قضاءه ، فأراد رسول الله أنْ يحرك مشاعر الخير فى نفوس الصحابة ليبادروا بسداد دين صاحبهم ، وبالفعل لما قال عليه الصلاة والسلام : صلوا على صاحبكم ، قام أبو قتادة وقال : أنا أسُدُّ عنه يا رسول الله ، عندها

---

(١) أخرجه أبو داود فى سننه (٤٨٧) وأحمد فى مسنده (١١١٨٧ ، ١١٣٨٠) والحاكم فى مستدركه على الصحيحين (٧١٤) والدارمى فى سننه (١٤١٩ ، ١٤٢٠) كلهم من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه ، وهو عند أحمد فى مسنده (٢١١٦٥) من حديث أبى أمامة وفيه زيادة « هذان جماعة » .

(٢) عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يؤتى بالرجل الميت عليه الدين فيسأل : هل ترك لدينه من قضاء ؟ فإن حُدِّث أنه ترك وفاء صلى عليه وإلا قال : صلوا على صاحبكم . فلما فتح الله عليه الفتوح قال : أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، فمن توفى وعليه دين فعلىَّ قضاؤه ، ومن ترك مالاً فهو لورثته . (أخرجه مسلم فى صحيحه ٣٠٤٠) .

(٣) أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٢١٢) وأحمد فى مسنده (٨٣٧٨ ، ٩٠٣٩) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، وتمامه : « من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدى الله عنه ، ومن أخذ يريد إتلافها أتلفه الله » .

صلى عليه رسول الله[١] ، أليس هذا انتفاعاً بعمل الغير ؟

ولكى ننهى هذا الخلاف ونحلُّ هذا الإشكال نقول : لو تأملنا الآية : ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ (٣٩) ﴾ [النجم] سنجد فيها ما يؤيد رأينا ، فاللام هنا كما يقول أهل اللغة للملك ، كما تقول : ليس لزيد عندى إلا عشرة . هذا هو الحق .

إذن : الله تعالى ذكر العدل ولم يذكر الفضل ، فأنت حين تدخل مطعماً مثلاً لتتناول الغداء وعند الانصراف تقول للعامل : كم الحساب ؟ يقول : كذا وكذا . تقول له (خُذْ وخلى الباقى علشانك) .

هذا بين الناس فى أمور الدنيا الهيِّنة ، فما بالك بأمور الدين والشرع ؟ وإنْ كان هذا عطاؤك فكيف بعطاء الله ؟

وقوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ (٤٠) ﴾ [النجم] فهذا السعى لا يُترك هكذا دون تعقيب عليه ، بل سيُراقب وسيُرى ، كما قال تعالى : ﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ .. (١٠٥) ﴾ [التوبة]

وكلمة (سوف) تدل على المستقبل ، فسعيك لن يذهب هباءً بل عملك فى الدنيا سيراه الله ويراه رسول الله ويراه المؤمنون . أى : فى الآخرة وسوف تنال عليه الجزاء المناسب ، ليس الجزاء بالعدل ، إنما الجزاء بالفضل .

---

(١) عن سلمة بن الأكوع قال : كنا جلوساً عند النبى ﷺ إذ أتى بجنازة ، فقالوا : صل عليها فقال : هل عليه دين ؟ قالوا : لا . قال : فهل ترك شيئاً ؟ قالوا : لا . فصلى عليه . ثم أتى بجنازة أخرى فقالوا : يا رسول الله صل عليها . قال : هل عليه دين ؟ قيل : نعم ، قال : فهل ترك شيئاً ؟ قالوا : ثلاثة دنانير . فصلى عليها . ثم أتى بالثالثة فقالوا : صل عليها . قال : هل ترك شيئاً ؟ قالوا : لا . قال : فهل عليه دين ؟ قالوا : ثلاثة دنانير . قال : صلوا على صاحبكم . قال أبو قتادة : صلِّ عليه يا رسول الله وعلىَّ دينه . فصلّى عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢١٢٧ ، ٢١٣١) وأخرج أبو داود فى سننه نحوه (٢٩٠٢) وكذا الترمذى فى سننه (٩٨٩) .

﴿ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الأَوْفَىٰ (٤١)﴾ [النجم] تأمل ، لم يقل : الجزاء العادل ، بل الجزاء بالزيادة والفضل والحوافز ﴿الْجَزَاءَ الأَوْفَىٰ (٤١)﴾ [النجم] والأوفى من صيغ التفضيل التى تدل على الزيادة .

﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ (٤٢)﴾

إلى ربك المرجع ، وإلى ربك المصير والمنتهى ، والآية فيها أسلوب قَصْر بتقديم الخبر على المبتدأ ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ (٤٢)﴾ [النجم] إلى ربك وحده دون سواه تنتهى الأمور فى الآخرة ، فالدنيا ليست هى نهاية المطاف ، وليست هى الغاية ، وهذه مسألة يُقِرُّ بها العقل قبل الشرع .

فلو كانت الدنيا هى الغاية وهى النهاية ، لكانت الحظوة لأهل الشهوات ولأهل الظلم والتعدِّى ، لأنهم حققوا ما يريدون فى الدنيا وعاشوها بالطول والعرض ، ففازوا بمتاع الدنيا ، ولم يعاقبوا عليه ولم يحاسبوا .

إذن : العقل يقول : لا لابدَّ أن هناك يوماً للحساب وللقصاص ، العدل يقتضى ذلك .

ولو أيقن الناسُ بهذه الآية وفهموا هذا المعنى لاستقامتْ أمورهم ، ولفكَّر الإنسانُ مرة وألف مرة قبل أنْ يُقدم على معصية الله أو ظلم الخَلْق ، ولعمل حساباً لهذا المنتهى الذى لابدَّ له أنْ ينتهى إليه .

وهذه الآية أيضاً تدلنا على أن العبد وإنْ خلقه ربه مختاراً يؤمن أو يكفر ، يطيع أو يعصى ، فإن هناك منطقة أخرى قهرية لا اختيار

له فيها ، وهل لك اختيار فى غِناك أو فقرك ؟ صحتك أو سقمك ؟ حياتك أو موتك ؟

إذن : مهما كنتَ حراً ومختاراً فلا غنى لك عن ربك ، ولا ملجأ لك غيره ، فلا تتمرد عليه بالعصيان ، لأن منتهاك إليه فى الآخرة للحساب ، ومنتهاك أيضاً فى أمور حياتك الدنيوية إليه وحده ، فأنت فى قبضة قدره لا تستطيع الانفلات منها .

فالذى يتمرّد على منهج الله أيستطيع أنْ يتمرد على المرض إنْ أصابه ؟ أيستطيع أنْ يمتنع عن ملَك الموت إنْ جاء أجله ، إذن : لك منتهى فى الدنيا قبل منتهى الآخرة .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ ﴾ [النجم] أى : خلق فيك الضحك وخلق فيك البكاء جعلك تُسر وتحزن ، أنت مثلاً حينما تشاهد عملاً (كوميدياً) تضحك ، (فالكوميديا) سبَّبتْ عندك الضحك ،

---

(١) ذكر الواحدى النيسابورى فى كتابه (أسباب النزول) ص ٢٢٧ عن عائشة رضى الله عنها قالت : مر رسول الله ﷺ بقوم يضحكون ، فقال : لو تعلمون ما أعلم لبكيتم كثيراً ولضحكتم قليلاً . فنزل عليه جبريل عليه السلام بقوله ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ ﴾ [النجم] فرجع إليهم فقال : ما خطوت أربعين خطوة حتى أتانى جبريل عليه السلام فقال : ائت هؤلاء وقل لهم : إن الله عز وجل يقول ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ ﴾ [النجم] .

لكن لم تخلق فيك طبيعة الضحك .

لذلك لما كان فى هذا الفعل شبهة المشاركة أكّد الحق سبحانه تفرّده بالعمل ، فلا دخلَ لأحد غيره فيه ، فقال تعالى : ﴿وَأَنَّهُ هُوَ .. (٤٣)﴾ [النجم] فأكّد الضمير المتصل بضمير آخر منفصل ، فهو وحده الذى جعلك تضحك ، بمعنى خلق فيك هذه الطبيعة وجعلك صالحاً لها .

لذلك نجد أن المشاعر والعواطف والأمور الطبيعية فى البشر تتحد فى جميع اللغات وعند كل الشعوب على اختلافها ، فليس هناك مثلاً ضحك عربى ، وضحك إنجليزى أو ألمانى ، ليس هناك بكاء روسى ، وبكاء يابانى .

ففى هذه الأمور يتحد الناس ، حتى فى الإشارة نجدها واحدة على اختلاف اللغات ، الكل يفهمها لأنها أصل التفاهم بين البشر قبل وجود اللغات ، فالإشارة لغة عالمية .

كذلك فى قوله سبحانه : ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا (٤٤)﴾ [النجم] أكد الضمير المتصل بالضمير المنفصل ، لأن مسألة الإحياء والإماتة فيها شبهة المشاركة ، فقد يظن البعض أن الطبيب مثلاً هو الذى أمات المريض أو أحياه ، أو يظن أن القاتل هو الذى أمات القتيل .

فالحق سبحانه يختصّ لنفسه سبحانه بهذه الأمور له وحده سبحانه دون سواه ﴿أَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا (٤٤)﴾ [النجم] فالواقع أن القتيل حين قُتل لم يُمتْه القاتل ، إنما جاء أجله موافقاً لهذه الضربة فمات ، مات لأنه سيموت فى هذه اللحظة حتى لو لم يضربه القاتل .

لذلك قال سبحانه فى موضع آخر : ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ

.. ﴿ (٢) ﴾ [الملك] فالموت والحياة خلق لله وحده لا دخلَ لأحد فيهما ، لذلك قال الشاعر :

مَنْ لَمْ يَمُتْ بالسَّيْفِ مَاتَ بِغَيْره تَعدَّدَتْ الأسْبَابُ وَالموْتُ وَاحِدُ

وقالوا : والموت من دون أسباب هو السبب . يعنى : مات لأنه سيموت .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ (٤٥) ﴾ [النجم] لاحظ هنا أنه سبحانه لم يقل : وأنه هو ، لأن المسألة لا تحتاج إلى هذا التأكيد ، فقضية الخلق الكل يُسلِّم بها لله ، ولم يدَّعها أحدٌ لنفسه ، وليس فيها شبهة المشاركة من الخَلْق .

ومعنى (الزوجين) أى : النوعين الذكر والأنثى . فالزوج فرد معه مثله ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ .. (١٤٣) ﴾ [الأنعام]

﴿ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ (٤٦) ﴾ [النجم] فأصل الخَلْق نطفة وهى قطرة المنى .

﴿ إِذَا تُمْنَىٰ (٤٦) ﴾ [النجم] أى : تُدفع وتلقى فى رحم المرأة ، فيكون منها الولد بقدرة الله .

وهذه الآية حلَّتْ لنا إشكالاً طال الخلاف فيه بين العلماء ، فقد كان البعض يعتقدون أن المرأة هى المسئولة عن النوع : ذكر أم أنثى . لكن حينما نقرأ هنا ﴿ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ (٤٥) مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ (٤٦) ﴾ [النجم] نعلم علم اليقين أن الرجل هو المسئول عن هذه المسألة ، فالنطفة هى نطفة الرجل يلقيها فى رحم زوجته ،

فالزوجة إذن مُستقبلة تعطى ما أخذتْ .

وقلنا : إن المرأة العربيـة قد توصلتْ بطبيعتـها وفطرتها إلى هذه الحقيقة ، فالمرأة الـتى تزوج عليها زوجها لأنها لا تلد له إلا البنات ، قالت :

مَا لأبِـى حَمْـــزَةَ لاَيَـأتيـــنَا يظَلّ فى البَيْـتِ الذى يَلِيـــنا
غَضْـبَانَ ألاَّ نَلِـــدَ البَنِـــينَا تَالله مَـــا ذَلكَ فـى أَيْـــدِينَا
ونَحْـــنُ كَالأرْضِ لِغَارِسِينَـــا نُعْطِـــى لَهُمْ مثْـلَ الذى أُعْطِـينَا

إذن : انتـهتْ المرأة العـربية بفطرتهـا إلى ما انتـهى إليه العلـماء مؤخراً ، ولابد أن نفرِّق بين النطفـة والمنى : النطفة هى السائل الذى يعيش فيـه الحيوان المنوى ، والمنى الميكروب نفـسه الذى يكون منه الولد .

ورحم الله العقاد[1] حينما قال : إن نصف كستبان الخياطة يحوى أنْسَال الدنيـا كلها ، ويمكن أنْ نمـلأ نصف كسـتبان الخـياطة بقـذفة واحدة للرجل ، سبحان الله .

﴿ وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ ﴾

---

(١) هو : عـباس مـحـمود العـقاد ، ولـد ٢٨ يونيو ١٨٨٩ م بأسـوان ، تخـرج من المدرسـة الابتدائية سنة ١٩٠٣ م ، كان مولعاً بالقراءة فى مخـتلف المجالات ، عمل فى أعمال كتابية فى عدة محـافظات ، ثم اتجه للعمل فى الصحافـة (صحيفة الدسـتـور) ، دخل فى معارك أدبية مع زكى مبارك والرافعى وبنت الشاطىء . توفى عام ١٩٦٤ م عن ٧٦ عاماً .

يعنى : لا تظن أن الدنيا هى نهاية المطاف ، فالذى أنشأكم هذه النشأة فى الدنيا قادر على إعادتكم فى نشأة أخرى يوم القيامة ، كما قال سبحانه فى موضع آخر : ﴿أَفَعَيِينَا[1] بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ (١٥)﴾ [ق]

والخَلْق الجديد سيكون فى الآخرة حين يبعث اللهُ الموتى ، والذى خلق بداية من عدم قادر من باب أوْلَى على الإعادة من بقايا الخَلْق الأول ، لذلك قال سبحانه : ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ (٤)﴾ [ق]

﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ (٤٨)﴾ [النجم] لاحظ هنا التخصيص والتأكيد بإعادة الضمير المنفصل بعد الضمير المتصل ، وهذا يدلنا على أن مسألة الرزق والغنى والفقر لله وحده لا دخْلَ لأحد فيها ، فهو وحده سبحانه الذى يسوق الأرزاق ، ويجعل هذا غنياً وهذا فقيراً .

إذن : لما وُجدت الشبهة فى أن أحداً يشارك الله فى هذه المسألة جاءت الآية بهذا الأسلوب ، ألا ترى للآية قبلها ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الأُخْرَىٰ (٤٧)﴾ [النجم] هكذا بدون (هو) لأن مسألة النشأة الأخرى ليس فيها شبهة المشاركة .

معنى ﴿أَغْنَىٰ .. (٤٨)﴾ [النجم] أغناك أيها العبد بما ملكه لك عما فى يد غيرك ، فالغنى إذن كلّ ما أغناك عن الناس من مال أو قوة أو غيره ﴿وَأَقْنَىٰ (٤٨)﴾ [النجم] أقنعك وأرضاك بما عندك مهما كان قليلاً .

---

(١) أفعيينا : أى أعجزنا فعيينا بالخلق الأول ، والاستفهام للنفى ، أى لم نعجز ، وكذلك لن نعجز عن الخلق الثانى يوم القيامة . [القاموس القويم ٢/٤٦] .

وكثيراً ما نرى أناساً ضُيِّق عليهم الرزق ، ومع ذلك تراهم راضين بقسم الله ، بل سعداء به ، وربما كانوا أحسن حالاً من الأغنياء ، إذن : هذا عطاء وهذا أيضاً عطاء ، فالقناعة والرضا تساوى الغنى وسعة العيش .

ومن ذلك قالوا[1] : « القناعة كنز لا يفنى » فى حين أن كنز المال ربما يفنى ، فالغنى الحقيقى إذن فى النفس ليس فى العرض . وقالوا ﴿ وَأَقْنَىٰ (٤٨) ﴾ [النجم] من القنية أى : ما يقتنيه الإنسان من المتاع والأثاث ونحوه .

﴿ وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ[2] الشِّعْرَىٰ (٤٩) ﴾ [النجم] الشِّعْرى[3] كوكب من الكواكب ، قالوا : إنه من الضخامة بحيث يسع مليون شمس مثل هذه الشمس ، وأنه لو اقترب من الأرض لاحترقتْ ، فكأنه يمد الشمس بالحرارة وهى تمدنا ، فلا نأخذ منها مباشرة مثل التيار الكهربائى .

---

(١) أورده السيوطى فى الدر المنثور (٢/٢٣٢) وعزاه للبيهقى فى الزهد عن جابر بن عبد الله ، وأخرجه البيهقى (١١٤) ثم قال : « هذا إسناد ضعيف » . قال الألبانى فى (ضعيف الترغيب والترهيب) (٥٠٠) : « ضعيف جداً » . وقال ابن حجر الهيثمى فى الزواجر (١/٤٨٤) : رفعه غريب .

(٢) قال القرطبى فى تفسيره (٩/٦٥١٩) : « إنما ذكر أنه رب الشعرى وإن كان رباً لغيره لأن العرب كانت تعبده . واختلف فيمن كان يعبده ، فقال السدى : كانت تعبده حمير وخزاعة ، وقال غيره : أول من عبده أبو كبشة أحد أجداد النبى ﷺ من قبل أمهاته » .

(٣) الشعرى : نجم منه الشعرى الشامية وهو ألمع نجم فى كوكبة الكلب الأصغر ، يبعد عن الأرض بـ ١١ سنة ضوئية . وهناك الشعرى اليمانية فى كوكبة الكلب الأكبر ، وهو أقرب للأرض من الشِّعرى الشامية فهو يبعد ٨ سنوات ضوئية . [الموسوعة الفلكية ص ٢٢٩ الهيئة المصرية العامة للكتاب] .

فلو أخذنا للبيوت من التيار العالى فى الأكشاك لاحترقتْ الأجهزة والمصابيح فى البيت ، لأن الضعيف لا يستطيع أنْ يستقبل من القوى مباشرة ، بل لابدّ من المنظم أو (الترانس) ، وهكذا تكون الشمس بالنسبة للشعرى .

﴿ وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبۡقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوۡمَ نُوحٖ مِّن قَبۡلُۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ هُمۡ أَظۡلَمَ وَأَطۡغَىٰ ﴿٥٢﴾ ﴾

معلوم أن عاداً قوم سيدنا هود عليه السلام ، وقد أهلكهم الله بريح صرصر عاتية لما كذّبوا نبيهم ، ومعنى ﴿ عَادًا الأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ ﴾ [النجم] أن هناك عاداً أخرى ، قالوا : لما نزلت عليهم الريح أهلكتْ الموجودين منهم فى هذا المكان الذى حلَّ عليه العذاب ، وكان منهم جماعات متفرقة تجمعوا ، والتمسوا مكاناً آمناً ، فذهبوا إلى مكة ، وهذه هى عاد الأخرى .

﴿ وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ ﴾ [النجم] فكما أهلك عاداً أهلك ثموداً بالصيحة ﴿ فَمَا أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ ﴾ [النجم] لم يُبْق منهم أحداً .

كذلك ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ .. ﴿٥٢﴾ ﴾ [النجم] أهلكهم الله ، ثم ميَّزهم عن سابقيهم بصفتين ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ ﴾ [النجم]

إذن : كان الظلم والطغيان موجوداً فى عاد وفى ثمود ، أما قوم نوح فهم (أظلم) أشد ظلماً (وأطغَى) أشد طغياناً . ويكفى دليلاً على ذلك أنْ نبيهم لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً ، وما آمن معه إلا قليل .

﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾﴾

﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ ﴿٥٣﴾﴾ [النجم] معطوفة على عاد وثمود وقوم نوح . وهى قرى قوم لوط ، سُميت المؤتفكة ، لأن الله تعالى كفأها رأساً على عقب ، وجعل عاليها سافلها ، لذلك نسمى الكذب إفكاً لأنه يَقلب الحقائق ، ومنه حادثة الإفك التى تناولتْ السيدة عائشة فى سورة النور .

ومعنى ﴿أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾﴾ [النجم] أنها هوتْ وسقطت ، لأن الملائكة رفعتها إلى عنان السماء ثم كفأتها على مَنْ فيها ﴿فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾﴾ [النجم] غشَّاها نزل بها وعَمَّها أو غطاها .

﴿مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾﴾ [النجم] ما تعجبية تفيد الكثرة التى تفوق الوصف . أى : غشَّاها أمر فظيع عجيب وهول رهيب . نعم لأن الله تعالى جمع على قوم لوط ألواناً من العذاب فى وقت واحد أو متتابعة بعضها إثر بعض .

قال تعالى : ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا ﴿٨٢﴾﴾ [هود] أى : بهلاكهم ﴿جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾ [هود]

ومعنى ﴿مُسَوَّمَةً ﴿٨٣﴾﴾ [هود] أى : مُعلّمة ، كل حجر عليه اسم صاحبه فلم تكُنْ عشوائية ، بل كانت محسوبة بدقة ، فالحجر ينزل على صاحبه لا يتعدَّاه ، ومثلها الحجارة التى أمطر بها أصحاب الفيل : ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾﴾ [الفيل]

والعجيب بعد أنْ صرح السياق القرآنى بلفظ الحجارة أنْ نسمع مَنْ يقول ، بل هى ميكروب أو فيروس أصابهم جميعاً ، والميكروب له مدة حضانة لينشط بعدها ، أما هذه فنزلت عليهم فى لحظتها[1] .

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ ﴾

الحق سبحانه وتعالى يُسلِّى رسوله ﷺ ويُطمئنه على نُصْرة الله له وتأييده الدعوة ، فسنة الله فى الدعوات أنْ ينتهى الأمر بنصرة الحق ، وها هى الأدلة باقية شاهدة على إهلاك المكذِّبين ، فقال تعالى: ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾ [الصافات] فآثارهم باقية ترونها ليل نهار .

---

(١) عمدة من قال هذا التفسير هو الإمام محمد عبده فى تفسير جزء عم طبعة دار الشعب القاهرة (ص ١٢٠) واعتمد فيما ذهب إليه على قول عكرمة ويعقوب بن عتبة أنه جدرى وحصبة ، وأن أول ما رؤيت الحصبة والجدرى ببلاد العرب ذلك العام ، فقال : « قد بينت لنا هذه السورة الكريمة أن ذلك الجدرى أو تلك الحصبة نشأت من حجارة يابسة سقطت على أفراد الجيش بواسطة فرق عظيمة من الطير مما يرسله الله مع الريح ، فيجوز لك أن تعتقد أن هذا الطير من جنس البعوض أو الذباب الذى يحمل جراثيم بعض الأمراض وأن تكون هذه الحجارة من الطين المسموم اليابس الذى تحمله الرياح فيعلق بأرجل هذه الحيوانات ، فإذا اتصل بجسد دخل فى مسامه فأثار فيه تلك القروح التى تنتهى بإفساد الجسم وتساقط لحمه » .

أقول : ليس هناك تعارض بين تفسير الإمامين الشعراوى ومحمد عبده ، فالمشترك بينهما أن هناك طيراً وأنها تحمل حجارة ، فجائز أن يكون هناك من مات بفعل الحجارة مباشرة ، وأنها فى ذات الوقت مسمومة ، فمن لم يمت بها مباشرة مات بفعل ما تحمله من جراثيم بعد يوم أو اثنين أو أكثر . وجائز أيضاً أن يكون الميكروب انتشر وظهر فى أرض العرب كما قالت الرواية ، وهذا يحدث بعد كل الحروب سواء من السلاح المستخدم أو نتيجة تحلل الجثث ، فلا تعارض [عادل أبو المعاطى] .

يقول تعالى لنبيه ﷺ ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ (٥٥)﴾ [النجم] بأيِّ نِعَم ربك يا محمد ﴿تَتَمَارَىٰ (٥٥)﴾ [النجم] المراء الشك أو الجدال ، كأنه تعالى يقول له اطمئن فسوف يُتم الله عليك نعمه .

وفى سورة الرحمن : ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٣)﴾ [الرحمن] والحديث للإنس والجن ، والرسول ﷺ لما قرأها قال : لقد قرأتُ سورة الرحمن على إخوانكم من الجن فكانوا أحسنَ استجابة منكم ، فلما سمعوا ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٣)﴾ [الرحمن] قالوا : ولا بشىء من نعمائك ربنا نكذب فلكَ الحمد[١] .

إذن : مشروع أن ننفعل للقرآن عند سماعه بما يناسب المقام ، فعند الحمد نحمد الله ، وعند التسبيح نقول سبحان الله . وعند ذكر الجنة ندعو الله بها ، وعند ذكر النار نستعيذ بالله منها وهكذا .

وفرْقٌ بين إعجاب صامت مكبوت فى النفس ، وإعجاب منطوق مُعبَّر عنه ، ثم إنك حين تعبر عن تفاعلك مع القرآن باللفظ تكون قدوة فى ذلك لمَنْ يسمعك .

كلمة (أى) هنا تفيد الكثرة و (آلاء) نِعَم جمع (أَلىً) أى : نعمة[٢] . والمراء أى : الجدال ويكون بين طرفين يجتهد كل منهما لإقامة حجته على الآخر . والمراء فى اللغة مأخوذ على معنيين : مرو الحبل يعنى فتله لتقويته ، وبحسب مهمة الحبل يكون عدد الخيوط المفتولة . أو مأخوذ من يمرى الناقة . أى : يحلبها ويأتى بكل ما فى ضرعها .

---

(١) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٥٣٢) من حديث جابر بن عبد الله وكذا الترمذى فى سننه (٣٢٩١) فى كتاب التفسير ، وأورده السيوطى فى الدر المنثور وعزاه للبزار وابن جرير وابن المنذر والدار قطنى فى الأفراد وابن مردويه والخطيب فى تاريخه بسند صحيح عن ابن عمر .

(٢) وقد يكون المفرد (إلْىٌ) و(إلىً) .

إذن : تجادل لتقوى حجتك ، أو تجادل لتخرج كلَّ ما فى جعبة الخصم .

﴿ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الْأُولَىٰ (٥٦) أَزِفَتِ الْآزِفَةُ (٥٧) لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ (٥٨) ﴾ (١)

قوله تعالى : ﴿ هَٰذَا .. (٥٦) ﴾ [النجم] إشارة إلى النبى ﷺ ، وما جاء به من دعوة الحق ، والنذير هو الذى ينذر الناس ويحذرهم من الشر قبل أوانه ﴿ مِّنَ النُّذُرِ الْأُولَىٰ (٥٦) ﴾ [النجم] النذر الأولى . أى : التى خلتْ قبل رسول الله من مواكب الرسل السابقين ، فعظمة النذارة فى سيدنا رسول الله أنه آخرُ نذير وخاتم الرسل أجمعين .

وقوله تعالى : ﴿ أَزِفَتِ الْآزِفَةُ (٥٧) ﴾ [النجم] أى : اقتربتْ الساعة فكأنه ﷺ جاء على فم الساعة ، فبعد أنْ قال ﴿ هَٰذَا نَذِيرٌ (٥٦) ﴾ [النجم] أعقبها ﴿ أَزِفَتِ الْآزِفَةُ (٥٧) ﴾ [النجم]

لذلك جاء فى الحديث الشريف : «بُعثت أنا والساعة كهاتين ، وأشار بالسبابة والوسطى»(٢) فبعثته ﷺ تُعد من علامات الساعة .

وقد خاطبه ربه تعالى بقوله : ﴿ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا (٤٣) ﴾ [النازعات] أى : من ذكرى الساعة وعلاماتها . وما دام أزفت الآزفة

---

(١) فيه قولان : أحدهما : أنه القرآن نذير بما أنذرت الكتب المتقدمة . قاله قتادة . والثانى : أنه رسول الله نذير بما أنذرت به الأنبياء . قاله ابن جريج . [قاله ابن الجوزى فى زاد المسير] . ومثله فى تفسير الماوردى ، وتفسير الكشاف للزمخشرى .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٨٨٩) وكذا مسلم فى صحيحه (٥٢٤٤) من حديث سهل بن سعد الساعدى . فهو حديث متفق عليه .

واقتربتْ فانتبه ، فهذه آخر الرسالات فتعلّق بها وتمسّك بهذا الرسول الخاتم والنذير الأخير الذى ليس بعده نذير فانْجُ به .

ونفهم من معنى ﴿أَزِفَتِ (٥٧)﴾ [النجم] اقتربتْ أنها هى التى تسعى إليك وتطلبك بخطوات حثيثة تسرع إليك . وبعد قليل فى أول القمر سيقول : ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ (١)﴾ [القمر]

﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ (٥٨)﴾ [النجم] يعنى : إذا جاءت أهوال الساعة لا أحدَ غير الله يستطيع أنْ يدفعها ، فأنت فى أحداث الدنيا وخطوب الحياة قد يوجد مَنْ يكشف عنك الكرب أو يدفع عنك السوء .

أما فى الآخرة فالخطب جلَل ، ليس لأحد قدرة على دفعه ، وإلا كيف يدفعها ، وهى الطامة الكبرى التى تعم الجميع ، كيف يدفع عنك وهو لا يستطيع أنْ يدفعها عن نفسه ؟

إذن : استعدوا لهذا الموقف ، وخذوا لكم دافعاً من الله ، فهو وحده لا شريك له القادر أنْ يدفع عنك فى هذا اليوم .

ولا غرابة فى أزفتْ الآزفة واقتربت الساعة ، وقد ظهرت لنا فى واقع الحياة علاماتها الصغرى التى أخبرنا بها سيدنا رسول الله من وجود نساء فى مجتمع المسلمين كاسيات عاريات مائلات مميلات رؤوسهن كأسنمة[١] البخت المائلة[٢] .

---

(١) كأسنمة البخت : أى كظهور الجمال جمع سنام . قال فى لسان العرب : شبَّه رؤوسهن بأسنمة البخت لكثرة ما وصلن به شعورهن حتى صار عليها من ذلك ما يفيئها أى يحركها خيلاء وعجباً .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٨٣١١) والبيهقى فى شُعبه (٥١٢٤ ، ٧٥٥٤) وأبو يعلى الموصلى فى مسنده (٦٥٤٩) وابن حبان فى صحيحه (٧٥٨٤) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

وقوله : إذا أُسندَ الأمر إلى غيـر أهله فانتظر الساعة»[١] ، وقوله : « وإعـجـاب كل ذى رأى برأيه »[٢] ، «وأن ترى الحـفـاة العراة رِعَـاء الشاة يتطاولـون فى البنيان »[٣] . إلى غـير هذه من الـعلامـات التى شاهدناها بالفعل ، فلِمَ العجب إذن ؟

﴿أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَامِدُونَ ﴿٦١﴾ فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ۩ ﴿٦٢﴾﴾

الهمزة هنا استفهام للتـعجب ، فهم يتعجبون من ﴿هَـٰذَا الْحَدِيثِ ﴿٥٩﴾﴾ [النجم] أى : من القـرآن وهو يتـعـجب مـنهم ، يقـول لهم : أتتعجبون من القرآن ؟ الأوْلَى بكم أنْ تتعجبوا من حالكم وما أنتم فيه من لهـو وغـفلة وانصـراف عن الحق ، وهذا يُفـوِّت عليكم الفـرصـة ويحرمكم خيراً كثيراً .

ونفس الـمـعـنى فى ﴿وَتَضْـحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [النجم] تضحكون سخرية واستهزاءً ، وكان الأوْلَى بكم أنْ تبكوا على أنفسكم

---

(١) أخرجه البـخارى فى صحيـحه (٥٧) عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قـال : إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة . قال : كيف إضاعتـها ؟ قال : « إذا وسِّد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة » . وفى رواية عند البخارى (٦٠١٥) والبيهقى فى سننه الكبرى « إذا أسند » .

(٢) أخرج نعيم بن حماد فى كتاب الفتن عن أبى ثعلبة الخشنى عن النبى ﷺ قال : « إذا رأيت إعـجاب كل ذى رأى برأيه ، فـعليك نفسك ودع عنك أمر العـوام » وأخـرجه الطبـرانى فى المعجم الكبير (١٨٠٣٣) والبيهقى فى شـعب الإيمان (٩٣٩٧) وابن حبان فى صحيحه (٣٨٦) ولكن ضعفه الألبانى فى صحيح وضعيف الجامع الصغير (٦٠٩٤) .

(٣) أخرجه مسلم فى صحـيحه (٩) ، وأبو داود فى سننه (٤٠٧٥) ، والترمذى فى سـننه (٢٥٣٥) ، والنسائى فى سننه (٤٩٠٤ ، ٤٩٠٥) من حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

وعلى ما فاتكم من الخير ﴿وَأَنتُمْ سَامِدُونَ (٦١)﴾ [النجم] لاهون غافلون .

وهذا حال مَنْ قستْ قلوبهم وغلبهم الشيطان والنفس ، تراهم إلى جانب انصرافهم عن الحق يسخرون من أهله ويضحكون استهزاءً بهم .

كما قال تعالى فى تصوير هذا الموقف : ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا (٢٩)﴾ [المطففين] سماهم مجرمين ﴿كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٣٠) وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ[1] (٣١) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَـٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ (٣٢) وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ (٣٣)﴾ [المطففين]

نعم ، هذا حال أهل الباطل الذين يقلبون الحقائق فى الدنيا ، لكن الدنيا ليست هى الغاية ، وليست هى نهاية المطاف ، فهناك اليوم الآخر الذى يفصل فيه بين الظالم والمظلوم ، كما قالوا : وعند الله تجتمع الخصوم .

فالله يُطمئن أهل الإيمان : ﴿فَالْيَوْمَ (٣٤)﴾[المطففين] أى : يوم الحساب ﴿الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٣٤)﴾ [المطففين] ومَنْ يضحك أخيراً يضحك كثيراً ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ (٣٥) هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦)﴾ [المطففين] وعندها نقول : نعم يا رب جازيتهم بما يستحقون .

وقوله سبحانه : ﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا (٦٢)﴾ [النجم] نلاحظ

(١) فكهين : بطرين أشرين . والفكه : من البطر والأشر والاستكبار والاستهزاء بالآخرين . [القاموس القويم ٢/٨٨] .

أولاً أسلوب الاختصار فى الأداء القرآنى الذى يترك مجالاً لفطنة المتلقى ، فالمعنى : فاسجدوا لله واعبدوا الله ، لأنه وحده المستحق للعبادة لا شريك له ، فالأمر بالعبادة لا ينصرف إلا إليه سبحانه ، حتى لو لم يُذكر المعبود سبحانه .

الحق سبحانه وتعالى حينما يأمرهم بالسجود والخضوع والطاعة كأنه يقول لهم : كان أوْلَى بكم البكاء والخضوع والتضرع ، وأنْ تتمسكوا بهذا الحق الذى جاءكم ليأخذ بأيديكم ، فهو حبل النجاة فلا تقابلوه بالسخرية .

وهنا ملحظ فى نهاية السورة يأتى الأمر بالسجود ﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا (٦٢)﴾ [النجم] كأن الله يتودد إلى عباده حتى الكافرين يقول لهم : يا عبادى أنتم صنعتى وعيالى ، فتعالوا إلى ساحتى .

انهوا الخلاف والمعارضة ، واخضعوا لى بالسجود والعبادة ، فأنا أريد لكم الخير ، وهل هناك صانع يريد الشر لصنعته ؟ لذلك ورد فى الحديث القدسى : « يا بن آدم ، أنا لك محب فبحقِّى عليك كن لى محباً »[1] .

ولله المثل الأعلى : أرأيتَ لو أن رجلاً غنياً وسّع الله عليه وعنده ولد فاسد ، فينادى عليه : يا بُنى تعالَ انتفع بمالى ، فأنت أحقُّ به ،

---

(١) أورده القشيرى فى تفسيره فى قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ (٦)﴾ [إبراهيم] قال : فى بعض الكتب المنزلة على الأنبياء وذكره . وذكره إسماعيل حقى فى تفسيره [النحل ٧١] من كلام كعب الأحبار عن التوراة أوله : « يا بن آدم خلقتك لعبادتى فلا تلعب » وكذا فى المستطرف (١/ ٦٩) فصل القناعة .

كذلك الحق سبحانه ينادى على الخارجين عن منهجه : تعالوا فالخير ينتظركم .

وإذا كان الأمر فى ﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا (٦٢)﴾ [النجم] للكافرين ، فهو أيضاً يكون للمؤمنين : اسجدوا شكراً لله الذى هداكم إلى الإيمان ونجاكم من الكفر .

سُورَةُ القَمَرِ

سورة القمر (١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ۝١ ﴾

الساعة من أسماء يوم القيامة ، فهى : الساعة ، والحاقة ، والصَّاخة ، والواقعة ، والطامة ، وغيرها ، وكلٌّ وصف من هذه الأوصاف فيه جانب من الفزع والإخافة .

ونلاحظ المناسبة بين أواخر النجم وبداية القمر ، فهناك قال : ﴿ أَزِفَتِ الْآزِفَةُ ۝٥٧ ﴾ [النجم] وهنا قال ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ . ۝١ ﴾[القمر] وقلنا : إن مجرد بعثة رسول الله ﷺ من علامات الساعة ، نعرف أن الساعة لن تقوم إلا على شرار الخلق حين لا يقال فى الأرض : الله ، الله (٢) .

---

(١) سورة القمر هى السورة رقم (٥٤) فى ترتيب المصحف الشريف ، وهى سورة مكية كلها فى قول الجمهور ، وهى خمس وخمسون آية ، نزلت بعد سورة الطارق وقبل سورة ص ، فهى السورة رقم (٣٦) فى ترتيب النزول .

(٢) أخرج الإمام مسلم فى صحيحه (٣٥٥٠) أن عبد الله بن عمرو بن العاصى قال : لا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق ، هم شر من أهل الجاهلية لا يدعون الله بشىء إلا رده عليهم . فبينما هم على ذلك أقبل عقبة بن عامر ، فقال له مسلمة : يا عقبة اسمع ما يقول عبد الله ، فقال عقبة : هو أعلم وأما أنا فسمعت رسول الله ﷺ يقول : لا تزال عصابة من أمتى يقاتلون على أمر الله قاهرين لعدوهم لا يضرهم من خالفهم حتى تأتيهم الساعة وهم على ذلك . فقال عبد الله : أجل ثم يبعث الله ريحاً كريح المسك مسُّها مسّ الحرير فلا تترك نفساً فى قلبه مثقال حبة من الإيمان إلا قبضته ثم يبقى شرار الناس عليهم تقوم الساعة .

أما أهل القبور من لدن سيدنا آدم عليه السلام إلى مَنْ مات قبل قيام الساعة ، فكما قلنا إن الزمن فى حقِّهم متوقف ، لأن الزمن فرع الأحداث ، فإذا لم توجد الأحداث لا يوجد الزمن .

لذلك قال تعالى عنهم : ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا (٤٦) ﴾ [النازعات] أى : القيامة ﴿ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا (٤٦) ﴾ [النازعات] والرجل الذى حاجّ إبراهيم فى ربه أماته الله مائة سنة ، وقال بعد أنْ أحياه الله ﴿ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ .. (٢٥٩) ﴾ [البقرة]

وقالها أهل الكهف بعد ثلاثمائة سنة وتسع ، لأن هذه هى الفترة التى يمكن أنْ يستغرقها النائم فى نومه ، كذلك ستمر فترة البرزخ على أهل القبور هكذا ، وكأنهم ناموا نوْمة وقاموا منها .

والله سبحانه وتعالى هو مالك الزمن ، وهو القابض الباسط ، يقبضه لمَنْ يشاء ويبسطه لمَنْ يشاء .

ومعنى ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ .. (١) ﴾ [القمر] يعنى : هى قريبة منك على المستوى الشخصى ، فلا تنظر أنت إلى العلامات الصغرى ، ثم إلى العلامات الكبرى وتقول : ما زال الوقت طويلاً بيننا وبين القيامة ، لا ليس كذلك يكون تصور القيامة .

فالقيامة للإنسان هى أنْ يموت ، ليستْ بعد آلاف أو ملايين السنين لقول سيدنا رسول الله ﷺ : « مَنْ مات فقد قامت قيامته »[1] .

---

(١) قال العجلونى فى كشف الخفاء (٢٦١٨) : رواه الديلمى عن أنس رفعه بلفظ « إذا مات أحدكم فقد قامت قيامته » . وللطبرانى عن المغيرة بن شعبة قال : يقولون القيامة وإنما قيامة الرجل موته . ومن رواية سفيان عن أبى قبيس قال : شهدت جنازة فيها علقمة فلما دفن قال : أما هذا فقد قامت قيامته . وذكره الفتنى فى تذكرة الموضوعات وعزاه لابن أبى الدنيا وقال : هو من قول الفضيل بن عياض ، وفى المقاصد هو للديلمى عن أنس رفعه .

نعم لأنه انتقل من مرحلة الدنيا إلى مرحلة الآخرة ، وانقطع عمله فى الدنيا ، والحق سبحانه أبهم وقت الموت ومكانه ليظل الإنسان على ذِكْر له فى كل لحظة .

وقوله تعالى : ﴿وَانشَقَّ الْقَمَرُ ۝١﴾ [القمر] انشقاق القمر آية كونية ثابتة بالكتاب والسنة ، فقد ورد أن القمر انشقّ لرسول الله حتى ظهر حراء بين الشقين[1] ، وقد رأى هذه الآية أهل هذا الزمان ممَّنْ تيسر لهم الرؤية فشاهدوه على هذه الصورة .

لا نقول رآه العالم كله ، لأن الآيات الكونية معجزات يُراد منها تثبيت الرسل ، وبيان صدقهم فى البلاغ عن الله ، فليس بالضرورة أنْ يرى هذه الآية كلُّ أهل هذا الزمان ، كيف ونحن الآن مع التقدم العلمى الهائل وتوفر وسائل الاتصال نسمع عن حدوث خسوف أو كسوف فى وقت كذا وكذا ، وفعلاً تنقله القنوات المختلفة ، ومع ذلك ومع الإعلان عن الظاهرة مُقدَّماً إلا أن القليل هم الذين يتمكنون من رؤيتها . والقمر آية ليلية فى وقت معظم الناس فيه نائمون .

ثم إن المعجزات والآيات الكونية للرسل لا يُقصد منها المعجزة الدائمة ، بل معجزة لمَنْ شاهدها ليثبت على إيمانه إنْ كان مؤمناً ، أو يؤمن بالله إنْ كان كافراً .

لذلك قالوا : هى كعود الكبريت لا يشتعل إلا مرة واحدة ، وهكذا

---

(١) عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية فأراهم القمر شقين حتى رأوا حراء بينهما . أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٥٧٩) وعن جبير ابن مطعم قال : انشق القمر ورسول الله ﷺ بمكة ، حتى رأيت حراء بين شقتيه . أخرجه الفاكهى فى أخبار مكة (٢٣٦٤) .

كل معجزات الرسل ، فلولا أن القرآن أخبرنا بعصا موسى ما كنا عرفنا عنها شيئاً .

والآيات الكونية هذه خَرْق للنواميس فى لحظتها ، ثم تعود الأمور إلى طبيعتها ، فالقمر انشقّ فعلاً وخرق العادة ، ثم عاد إلى ما كان عليه بعد أنْ رآه كفار مكة المكذبون لرسول الله ، ليس كل الكفار بل بعضهم ، فهذا البعض الذى شاهد المعجزة كافٍ لإثباتها .

وقالوا : معنى ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ .. ﴿١﴾﴾ [القمر] أى : ساعة كل إنسان وأجله الذى ينتظره ﴿وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴿١﴾﴾ [القمر] أى : ينشقّ عنه ويغيب ويعتزل حياته .

وما دام أن الله تعالى قال ﴿اقْتَرَبَتِ .. ﴿١﴾﴾ [القمر] فقد اقتربتْ بالفعل ، ولا تبحث فى هذه المسألة .

والحق سبحانه قال أيضاً : ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾﴾ [النحل] فقال (أتى) بلفظ الماضى كأنه حدث بالفعل فكيف يقول ﴿فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ .. ﴿١﴾﴾ [النحل] قالوا : لأن الله هو الذى قال (أتى) ولا أحدَ يستطيع أن يعترض عليه أو يمنعه أنْ يحقق ما أخبر به .

كذلك فى قوله ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ .. ﴿١﴾﴾ [القمر] فقد اقتربتْ بالفعل ، إما ساعة كلّ إنسان حينما يأتى أجله وهذا قريب ، أو الساعة العامة فهى أيضاً قريبة ، لأن انشقاق القمر من علاماتها وبعثته ﷺ من علاماتها .

ويُروى أن المكذبين لرسول الله قالوا له : إنْ كنتَ صادقاً فيما

تخبر به فأت بآية الآن تدل على صدْقك ، قالوا : الوليد بن المغيرة وأبو جهل بن هشام والعاص بن وائل ، والعاص بن ربيعة ، والأسود ابن عبد يغوث ، والأسود بن عبد المطلب ، وربيعة بن الأسود ، والنضر بن الحارث .

وكل هؤلاء وغيرهم حضروا هذه الواقعة ، حيث دعا رسول الله وسأل ربه فانفلق القمر نصفين ، نصف على جبل أبى قبيس ، ونصف على قينقاع حتى ظهر غار حراء بينهما ، فلما رأوا ذلك قالوا : هذا سحر ، أما أهل التعقل فقالوا : نسأل المسافرين فى الصحراء بعيداً عن هذا المكان ، فلما سألوهم قالوا : نعم رأيناه وقال آخرون : لم نره[(١)] .

وقد أرجع الإمام على رضى الله عنه هذا الاختلاف إلى أن آية انشقاق القمر آية ليلية ، البعض رآها بالفعل ، والبعض بل الأكثر لم يرها[(٢)] .

وباستقراء الآيات التى وردت فى قيام الساعة وما يسبقها من علامات ، نقرأ ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ۝٢﴾ [التكوير] وغيرها كثير مما يُصوّر لنا انهدام هذه الكيانات .

---

(١) أورده السيوطى فى الدر المنثور فى تفسير الآية قال : أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقى كلاهما فى الدلائل من طريق مسروق عن ابن مسعود قال : انشق القمر على عهد النبى ﷺ فقالت قريش : هذا سحر ابن أبى كبشة ، فقالوا : انظروا ما يأتيكم به السفار ، فإن محمداً لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم ، فجاء السفار فسألوهم . فقالوا : نعم قد رأيناه ، فأنزل الله ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ۝١﴾ [القمر] .

(٢) قال الألوسى فى تفسيره (روح المعانى) : « انشقاق القمر وقع فى الليل وزمان العطلة وكان فى زمان قليل ، ورؤية القمر فى بلد لا تستلزم رؤيته فى جميع البلاد ضرورة اختلاف المطالع فقد يكون القمر طالعاً على قوم غائباً عن آخرين ومكسوفاً عند قوم غير مكسوف عند آخرين » .

أما القمر فلم يأت فيه إلا قوله تعالى : ﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ (٧) وَخَسَفَ الْقَمَرُ (٨)﴾ [القيامة] والخسف أهون ، وأقل من تكوير الشمس .

ونفهم من هذا أن حادثة انشقاق القمر فى الدنيا ستُدخر له فى الآخرة ، فلا يحدث له ما يحدث لغيره من النجوم .

لذلك يقول سبحانه : ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ .. (٦٨)﴾ [الزمر] إذن : هناك مَنْ يُصعق وهناك مَنْ ينجو .

وفى تصوير سيدنا رسول الله ﷺ لموقف القيامة يقول : فلما أفقتُ وجدت أخى موسى آخذاً بعضد العرش . وهذا يعنى أنه عليه السلام لم يُصعق فيمَنْ صُعق - لذلك تعجب رسول الله[1] .

ثم بيَّن أنه صُعق مرة فى الدنيا وهو على جبل الطور : ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا .. (١٤٣)﴾ [الأعراف] وما كان الله سبحانه وتعالى ليجمع على نبيه موسى الصعقتين ، فلما صُعق فى الدنيا نجّاه من صعقة الآخرة .

وهذا هو الاستثناء ﴿إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ .. (٦٨)﴾ [الزمر]

وهكذا الحال فى مسألة انشقاق القمر ، وهذا يعنى أن الانشقاق كان حقيقياً وآية كونية أخرجتْ القمر عن طبيعته وكيفيته ، لذلك لا يصيبه ما يصيب النجوم الأخرى فى الآخرة .

---

(١) أخرج البخارى فى صحيحه (٢٢٣٤) أن رسول الله ﷺ قال : « لا تخيرونى على موسى فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأصعق معهم فأكون أول من يفيق ، فإذا موسى باطش جانب العرش ، فلا أدرى أكان فيمن صعق فأفاق قبلى أو كان ممن استثنى الله » وكذا مسلم فى صحيحه (٤٣٧٧) كلاهما من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

﴿ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢ ﴾

الآية هنا بمعنى الشيء العجيب الخارق للعادة ، والعظيم الأثر الذى لم يَرَ الناسُ مثله ، فالمراد الآيات الكونية ، كما قال سبحانه : ﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ .. ۝٥ ﴾ [الزمر] وقال : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ .. ۝٣٧ ﴾ [فصلت]

ومع أن هذه الآيات واضحة الدلالة على قدرة الله ووجوب الإيمان به وتصديق رسوله إلا أنهم قابلوها بالإعراض والانصراف ﴿ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا .. ۝٢ ﴾ [القمر] أعرضوا حتى عن الآية التى اقترحوها وطلبوها من رسول الله ، حتى جاءتهم كفلق الصبح ، وهذا يدل على استكبارهم عن قبول الحق ، وعنادهم لرسول الله رغم وضوح الآية ، فشدة العناد والكراهية لرسول الله أعمتْ أعينهم عن الحق .

ويكفى هنا أنْ نذكر موقف عمه أبى لهب ، وكان قد زوَّج ولدين من أولاده بنتين من بنات رسول الله ، فلما صدع رسول الله بدعوته ، وحدثتْ العداوة من ناحية عمه آل على نفسه إلا أنْ يُطلِّق ابنتى رسول الله وبالفعل طُلقتا .

وهذه فى حدِّ ذاتها لم تُغظ رسول الله ، لكن غاظه أنْ يمر عليه أحد[1] هذين الولدين ، ثم يتفل ناحيته فدعا عليه رسول الله وقال :

---

(١) قيل فى اسمه ثلاثة أقوال : لهب ، عتبة ، عتيبة . ذكرها البيهقى فى دلائل النبوة (٢/٣٣٨) .

أكلك كلب من كلاب الله[١] . فلما سمع أبو لهب بدعوة رسول الله على ولده توجّس خيفة منها ، لأنه يعلم فى قرارة نفسه أن ابن أخيه على الحق .

فلما جاء موعد القافلة التى سيخرج فيها ولده للتجارة أوصى رفاقه ألاَّ يتركوه ، وقال لهم : إذا بتُّم فاجعلوا ولدى فى وسطكم ، فإنى أخشى عليه دعوة محمد .

وبالفعل فى ليلة من ليالى القافلة جاءه أسد ، فأخذه من بينهم فأكله . والطريف هنا أن رسول الله قال : كلب من كلاب الله ، وهذا أسد ؟ قالوا : لأن الكلب إذا نُسب إلى الله فلا بُدَّ أنْ يكون أسداً .

إذن : هذه آية أخرى حدثتْ مع هذا الصَّنديد المعاند بشخصه ، وليست بعيدة عنه ، ومع ذلك لم يؤمن ولم يَرِقّ قلبه لدعوة الحق التى جاء بها ابن أخيه .

ومن رحمة الله تعالى بهذه الأمة أنه سبحانه لم يهلك المكذبين منهم ، ولم يستأصلهم كما حدث للأمم السابقة ، فقوم سيدنا عيسى

---

(١) أخرج البيهقى فى دلائل النبوة (٦٢٣) أن أم كلثوم ابنة رسول الله كانت فى الجاهلية تحت عتيبة بن أبى لهب ، وكانت رقية تحت أخيه عتبة ، فلما أنزل الله ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١﴾ [المسد] قال أبو لهب لابنيه عتبة وعتيبة رأسى ورؤوسكما حرام إن لم تطلقا ابنتى محمد ، وسأل النبى ﷺ عتبة طلاق رقية وسألته رقية ذلك ، وقالت له أم كلثوم بنت حرب بن أمية وهى حمالة الحطب : طلِّقها يا بنى فإنها قد صبت فطلقها ، وطلق عتيبة أم كلثوم ، وجاء النبى ﷺ حين فارق أم كلثوم ، فقال : كفرت بدينك وفارقت ابنتك لا تحبنى ولا أحبك ، ثم تسلط على رسول الله ﷺ فشقَّ قميصه ، فقال رسول الله ﷺ : « أما إنى أسأل الله أن يسلط عليه كلبه » قال عروة بن الزبير : أن الأسد لما طاف بهم تلك الليلة انصرف عنهم فناموا وجعل عتيبة فى وسطهم ، فأقبل الأسد يتخطاهم حتى أخذ برأس عتيبة ففدغه (أى شقّه) .

قالوا ﴿أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا .. (١١٤)﴾ [المائدة] هذه آية حسِّية اقترحوها ، فردَّ الله عليهم : ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ (١١٥)﴾ [المائدة]

كذلك قوم صالح لما عقروا الناقة قال الله فيهم : ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧٧) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٧٨)﴾ [الأعراف]

أما أمة محمد فلم يعاملهم الحق سبحانه هذه المعاملة ، قال تعالى : ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣)﴾ [الأنفال]

وقوله سبحانه : ﴿وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا .. (٢)﴾ [القمر] يعنى : أنهم رأوها بأعينهم على الحقيقة ، فلماذا يُكذِّبون بها ؟ قالوا : عناداً وإصراراً على التكذيب ، لأنهم ظنوا أن محمداً يريد من دعوته شيئاً لنفسه يريد الوجاهة والرياسة بين قومه ، يريد علواً فى الأرض .

لذلك لما أرسلوا وفدهم إليه ﷺ قالوا له : يا محمد إن كنتَ تريدُ مُلْكاً ملَّكناك علينا ، وإنْ كنت تريد مالاً جمعنا لك المال حتى تصير أغنانا .. إلخ فقال لعمه قولته المشهورة : والله يا عَمِّ لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى يسارى على أنْ أترك هذا الأمر ما تركتُه ، حتى يُظهره الله أو أهلك دونه[1] .

---

(١) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٤٩٥) وفيه أن رسول الله ﷺ قال : « يا عم لو وُضعت الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى ما تركت هذا الأمر حتى يظهره الله تعالى أو أهلك فى طلبه » . وأورده ابن كثير فى السيرة النبوية (١/ ٤٧٤) والسهيلى فى الروض الأنف (٢/ ٦) .

ثم لم يقفوا عند حدِّ الإعراض والتكذيب ، بل تعدَّوْه إلى السَّبِّ والإيذاء .

﴿ يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ ﴾ [القمر] واتهام الرسل بهذه التهمة أمر قديم وعادة عند جميع المكذِّبين على مَرِّ العصور ، فهؤلاء بعدما عاينوا انشقاق القمر تأبى طباعهم السقيمة أنْ يعترفوا بالحق فيُلفّقون له التهم ، ماذا يقولون ؟

يقولون : هذا ﴿ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ ﴾ [القمر] أى : دائم[1] كأن محمداً يأتيهم بسلسلة من أعمال السحر واحدة بعد الأخرى . وقلنا : هذا اتهام باطل وأهون ما يقال فى الرد عليه : إذا كان محمد ساحراً فلماذا لم يسحركم أنتم أيضاً كما سحر المؤمنين به ؟

ومعلوم أن السحر تخييل للعين وليس حقيقة ، كما قال تعالى : ﴿ سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ.. ﴿١١٦﴾ ﴾ [الأعراف] وقال : ﴿ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ ﴾ [طه] أما الآيات التى جاء بها محمد فكلها حقيقة وعليها دليل هم يعرفونه ويعترفون به .

﴿ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾ ﴾

---

(١) حكى ابن الجوزى ثلاثة أقوال فى معنى ﴿ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ ﴾ [القمر] :

الأول : ذاهب . من قولهم : مرَّ الشىء واستمر : إذا ذهب . قاله مجاهد وقتادة والكسائى والفراء ، فعلى هذا يكون المعنى : هذا سحر والسحر يذهب ولا يثبت .

الثانى : شديد قوى . قاله أبو العالية والضحاك وابن قتيبة . وهو مأخوذ من المرَّة . والمرّة : الفَتْل .

الثالث : دائم . حكاه الزجاج .

معنى ﴿وَكَذَّبُوا ..(٣)﴾ [القمر] أى : كذّبوا بالآيات الواضحات ، والكذب قولٌ يخالف الواقع وهو صفة مذمومة عند الناس جميعاً ، وهؤلاء كذَّبوا عناداً واتباعاً لهواهم ﴿وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ .. (٣)﴾ [القمر]

فالهوى يدعوه لأنْ يكذّب بالحق ليحقق ما يهواه ، والهوى لا يدعو صاحبه إلى خير ، إنما يدعوه إلى الشر والهلاك ، كما قال تعالى : ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ[1] فُرُطًا (٢٨)﴾[الكهف] وقال فيهم الحق سبحانه ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ ..(٢٣)﴾ [النجم] فهوى النفس متحكم فيهم مسيطر على تصرفاتهم .

﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ (٣)﴾ [القمر] كل أمر من الكفر أو الإيمان ، الطاعة أو المعصية ، كلّ أمره مستقر إلى غاية معلومة وأجل يعلمه الله ، وعلم الله بالأشياء أزلىّ ، يعنى قبل أنْ يحدث الحدث يعلمه الله وسجلته الكتبة .

فالحق سبحانه حينما قضى بكفر الكافر لم يرغمه على الكفر ، إنما ترك له الاختيار ، لكن لعلمه الأزلى كتب عليه ما سيحدث منه ، وهذه من عظمته تعالى وإحاطة علمه سبحانه بما كان وما يكون وما لم يكن .

وقد ذكرنا هذه المسألة فى قوله تعالى : ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ

---

(١) قوله ﴿وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا (٢٨)﴾ [الكهف] فيه أربعة أقوال :

الأول : أنه أفرط فى قوله ، لأنه قال : إنَّا رؤوس مضر ، وإن نسلم يسلم الناس بعدنا . قاله أبو صالح عن ابن عباس .

الثانى : ضياعاً . قاله مجاهد . وقال أبو عبيدة : سرفاً وتضييعاً .

الثالث : ندماً . حكاه ابن قتيبة عن أبى عبيدة .

الرابع : كان أمره التفريط . والتفريط تقديم العجز . قاله الزجاج .

﴿ ١ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ٣ وَامْرَأَتُهُ[١] حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ٤ فِي جِيدِهَا[٢] حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ٥ ﴾ [المسد]

فقد نزلتْ هذه الآيات وتُليت على أسماع أبى لهب ، وهو ما يزال فى سعة الدنيا وفى سعة الاختيار[٣] ، وكان فى إمكانه أنْ يُكذّب هذه الآيات ، وأنْ ينطق بالشهادتين ولو نفاقاً ، لكنه لم يفعل ولم يقدر حتى على هذه ، ونفذ فيه حكم الله عليه وعلى زوجته . لماذا ؟ لأن لله تعالى قضاء لا يرده أحد ، وكلمته لا يُعقِّب عليها أحد .

هذا معنى ﴿ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ٣ ﴾ [القمر] نعم مستقر ففى علم الله ، فلا تُتعب نفسك يا محمد ولا تُجهد نفسك فى دعوة هؤلاء ، وما عليك إلا البلاغ ، أما الإيمان والكفر فقد سبق فى علم الله أن هذا سيؤمن ومُستقره فى الجنة ، وهذا سيكفر ومُستقره فى النار ..

فهوى هؤلاء المكذِّبين لن يغير من هذا المستقر شيئاً ، لأنه واقع ومُستقر فى اللوح المحفوظ فى أم الكتاب الذى لا يغيره أحد .

---

(١) امرأة أبى لهب : هى أم جميل واسمها أروى بنت حرب بن أمية وهى أخت أبى سفيان بن حرب ، عمة معاوية بن أبى سفيان وكانت تقول : مذمماً عصينا .. وأمره أبينا . وكانت تطرح الشوك فى طريق رسول الله ﷺ ، فكانت شديدة العداوة لرسول الله . وكانت عوراء . قاله أبو بكر بن العربى .

(٢) جيدها : الجيد بكسر الجيم العنق . [القاموس القويم ١/١٣٨] . وقيل : مقدم العنق . وقيل مُقلَّده أى : موضع القلادة منه . وقد غلب على عنق المرأة . [لسان العرب – مادة : جيد] .

(٣) نزلت هذه السورة فى أبى لهب عم النبى ﷺ ، ولم يمت إلا بعد ١٥ سنة بعد نزولها ، وهو أخ غير شقيق لعبد الله بن عبد المطلب والد النبى محمد ، وقد هلك بعد وقعة بدر بسبع ليال بمرض كالطاعون وبقى ثلاثة أيام حتى أنتن ، فلما خافوا العار حفروا له حفرة ودفعوه إليها بعود حتى وقع فيها .

﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴿٥﴾ ﴾

الكلام هنا عن المكذبين من كفار مكة ، وكيف أن الله تعالى أخبرهم بخبر الأمم السابقة ، وما آلوا إليه من الهلاك والدمار لما كذّبوا رسلهم ، بل إن آثار هذه الأمم باقية عندهم يمرون عليها : ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٣٨) ﴾ [الصافات] وقال سبحانه : ﴿ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ (٧٦) ﴾ [الحجر] أى : أن هذه الآثار موجودة بطرق مسلوكة ومعلومة لهم يمرون بها ﴿ مُّقِيمٍ (٧٦) ﴾ [الحجر] يقيم الآيات .

ومعنى ﴿ الأَنبَاءِ .. (٤) ﴾ [القمر] الأخبار مفردها نبأ ، وهو الخبر الهام الذى يترتب عليه الاتعاظ وأخْذ العبرة ، ومن هذه الأنباء ما أخبرهم به من نبأ عاد وثمود وقوم لوط والأحقاف ، وغيرها .

ومعنى ﴿ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ (٤) ﴾ [القمر] أى : لهم عبرة وعظة فيمَنْ سبقهم من الأمم المكذِّبة الذين أهلكهم الله ، فهذا زاجر لهم عن الوقوع فى التكذيب والتصدى لدعوة الحق .

﴿ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ .. (٥) ﴾ [القمر] الحكمة : وضْع الشىء فى موضعه ﴿ بَالِغَةٌ ..(٥) ﴾ [القمر] أى : بلغت الغاية ، فلا حكمة أعلى منها ، لأن الحكمة تختلف باختلاف العقول التى تأتى بها .

إذن : فالبشر يُوصفون بالحكمة التى تناسب عقولهم ، والحق سبحانه له حكمة هى الحكمة العليا ، كما قلنا فى صفة الخَلْق ، فأنت تُوصف بهذه الصفة حينما تخترع شيئاً لم يكن موجوداً ، فأنت خالق والله سبحانه أحسن الخالقين .

واقرأ إنْ شئتَ قوله تعالى فى قصة تحريم التبنى مع رسول الله وزيد بن حارثة ، فقال تعالى : ﴿ ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ .. (٥) ﴾ [الأحزاب]

إذن : حكم رسول الله بتبنى زيد قسط وعدل ، لكن حكم الله أقسط وأعدل ، ما فعله سيدنا رسول الله عدالة بشرية وتكريم لمن فضّله على أبيه وأهله ، وما حكم الله به من دعوة الشخص لأبيه الحقيقى أعدل .

لأنه يعطى للأب الحقيقى حقه ، فهو سببُ الحياة وسبب الوجود المباشر للإنسان ، وفى تقدير الأب تقدير للرب الخالق والمُوجد الأول للجميع .

ولذلك قرن الحق سبحانه بين عبادته وبين بر الوالدين ، فقال فى أكثر من موضع : ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا به شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا (٣٦) ﴾ [النساء] وقال : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا .. (٢٣) ﴾ [الإسراء] لذلك جعل عقوق الوالدين من الكبائر[1] ، وهى كبيرة شائعة فى كل الجوارح كما بيّنا .

وقوله : ﴿ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ (٥) ﴾ [القمر] النذر : قالوا هى الرسل التى تنذرهم وتحذرهم العذاب وعاقبة التكذيب ، جمع نذير . والمعنى : أنهم لم ينتفعوا بها ، ولم تؤثر فيهم دعوات الرسل .

---

(١) عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما قال : جاء أعرابى إلى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله ما الكبائر ؟ قال : الإشراك بالله . قال : ثم ماذا ؟ قال : ثم عقوق الوالدين . قال : ثم ماذا ؟ قال : اليمين الغموس . قلت : وما اليمين الغموس ؟ قال : الذى يقتطع مال امرىء مسلم هو فيها كاذب . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٤٠٩) ، وأخرجه أحمد فى مسنده (٦٧٠٩) عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ قال : « إن أكبر الكبائر عقوق الوالدين . قال : قيل وما عقوق الوالدين ؟ قال : يسب الرجلُ الرجلَ فيسبّ أباه ، ويسب أمه فيسب أمه » .

﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ[1] إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ٦ ﴾

الأمر هنا لسيدنا رسول الله ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ .. ٦ ﴾ [القمر] أعرض عنهم ودعهم ، كما قال سبحانه : ﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ٢٩ ﴾ [النجم] وهذا يعنى أنهم لا فائدة منهم .

وقوله سبحانه : ﴿ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ٦ ﴾ [القمر] أى : ينادى المنادى والمراد النفخة الثانية التى يقوم الناس فيها لرب العالمين ، ومعنى ﴿ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ٦ ﴾ [القمر] أى شىء منكر لا يعرفه الناس ولا عهدَ لهم به لبشاعته وفظاعته ، لذلك تنكره النفس .

لكن ما العلاقة بين ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ .. ٦ ﴾ [القمر] و ﴿ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ ٦ ﴾ [القمر] قالوا : يعنى أعرض عنهم من الآن ، فلا تقُلْ لهم شيئاً عن هذا اليوم ، وقالوا : المراد تولّ عنهم ولا تشفع لهم فى هذا اليوم .

﴿ خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ[2] كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ[3] ٧ مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ ۖ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ٨ ﴾

---

(١) الداعى هنا هو إسرافيل عليه السلام . ذكره القرطبى فى تفسيره (٩/٦٥٢٩) وقال ابن الجوزى فى زاد المسير « الداعى : إسرافيل ينفخ النفخة الثانية » .

(٢) الأجداث : القبور . جمع جدث . قال تعالى :﴿ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ٥١ ﴾ [يس].

(٣) هنا قال ﴿ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ٧ ﴾ [القمر] وفى آية أخرى قال : ﴿ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ٤ ﴾ [القارعة] قال القرطبى فى تفسيره (٩/٦٥٣٠) : « هما صفتان فى وقتين مختلفين :

أحدهما : عند الخروج من القبور يخرجون فزعين لا يهتدون أين يتوجهون ، فيدخل بعضهم فى بعض ، فهم حينئذ كالفراش المبثوث بعضه فى بعض لا جهة له يقصدها .

الثانى : فإذا سمعوا المنادى قصدوه فصاروا كالجراد المنتشر ، لأن الجراد له جهة يقصدها » .

السياق هنا موصول بقوله تعالى : ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ⑥﴾ [القمر] ففى هـذا اليوم يأتى هؤلاء المكذبون ﴿خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ ⑦﴾ [القمر] خُشَّع جمع خاشع .

الحق سبحانه يصف حالهم فى هذا اليوم يوم ينادى عليهم المنادى فيخرجون ﴿مِنَ الأَجْدَاثِ ..⑦﴾ [القمر] من القبور وهم أذلاء صاغرون ، بصرهم ذليل منكسر ، ينظر إلى أسفل ولا يَقْوى على أنْ يرفع بصره .

إذن : حركة العين للرؤية لها دلالات ولها انفعالات ، وحركة العين ترتبط بحالة صاحبها ، فأهل الحق أعينهم قوية جريئة ، أما أهل الباطل فأعينهم ذليلة منكسرة ، لذلك نعيب على أهل الباطل حينما يتبجحون بباطلهم . نقول : فلان يقول كذا وعينه قوية (يندب) فيها رصاصة ، نعم لأنه خالف طبيعة الموقف الذى يعيشه .

وقوله : ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ⑦﴾ [القمر] أى : حين خروجهم من القبور يخرجون منتشرين كالجراد ، والمراد الكثرة والتفرّق هنا وهناك ، وتصوّر لو أخذنا أىّ رقعة من المعمورة كم دُفن فيها جيل بعد جيل من لَدُن آدم عليه السلام حتى قيام الساعة ، فكم فيها من القبور ؟

ثم تأمل بناء الفعل ﴿يَخْرُجُونَ .. ⑦﴾ [القمر] للمعلوم ، فلم يقل يُخرجون للمبنى للمجهول ، إنما يخرجون كأنهم يخرجون بأنفسهم فى وقت واحد بعد أنْ أحيتهم النفخة الثانية بإذن الله فيقومون ويخرجون .

﴿مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ ..⑧﴾ [القمر] أى : مسرعين ، ومَنْ

يستطيع فى هذا الموقف أنْ يتباطأ أو يتلكأ ؟ والمهطع هو الذى يمد عنقه إلى الأمام ليندفع فى سيره ، ولك أنْ تتأمل حال هؤلاء فى الدنيا ، وكيف أخذهم الكبر والغطرسة والعناد فأبعدهم عن الجادة ، والآن يأتون منكسرين أذلاء صاغرين مسرعين إلى الغاية التى طالما كذّبوا بها كالمجرم يُساق إلى العقاب .

لذلك قال بعدها : ﴿يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَـٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾﴾ [القمر] فخصّ الكافرين بهذا القول ، نعم يوم عسر شديد لأنه لا فكاكَ منه ولا مهرب ، ولا مدافع ولا نصير ، وكيف يكون لهم مهرب أو نصير والآلهة التى عبدوها من دون الله ويظنون أنها تشفع لهم سيسبقونهم إلى جهنم .

قال سبحانه عن فرعون : ﴿يَقْدُمُ(١) قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾﴾ [هود] وهذا تيئيس لهم وقطع لأملهم .

ثم يترك السياق قريشاً ويُحدِّثهم عن قوم آخرين من المكذِّبين هم قوم سيدنا نوح عليه السلام ، فيقول :

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴿٩﴾﴾

كأنه تعالى يقول لكفار مكة : لستم بعيدين عن هذا المصير الذى آل إليه غيركم من الأمم المكذّبة ، لأنكم لم تقفوا عند حَدِّ التكذيب ،

---

(١) يقدم قومه : يتقدمهم إلى النار . قال الشوكانى فى فتح القدير فى تفسير الآية : « أى : يصير متقدماً لهم يوم القيامة سابقاً لهم إلى عذاب النار . وقال الزمخشرى : « كما كان قدوة لهم فى الضلال كذلك يتقدمهم إلى النار وهم يتبعونه » .

بل آذيتم رسول الله بكلِّ ألوان الإيذاء ، آذيتموه بالقول وبالفعل ، آذيتموه علانية وجهراً ، فلما لم تصلوا إلى شيء آذيتموه بالكيد والمكر والتبييت .

بل استعنتم على إيذائه بكيد الجن فسحرتموه[1] ، وحاولتم قتله بالسُّم فلم تستطيعوا[2] . إذن : أريحوا أنفسكم فدعوة محمد ماضية فى طريقها لا يُثنيها شيء ، فانتهوا عن مصادمتها ، وما قومُ نوح منكم ببعيد .

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ..(٩) ﴾ [القمر] إذن : خذوا منهم العبرة ، وبدأ بقوم نوح لأن سيدنا رسول الله بُعِث للناس كافة فى كل زمان ومكان ، وسيدنا نوح أُرسل لقومه ، وعمومية رسالته محصورة فى هؤلاء ، ليس فى الزمان والمكان ، ثم حُصِروا بعد ذلك فى أهل السفينة .

---

(١) عن عائشة رضى الله عنها قالت : « سحر رسول الله ﷺ رجل من بنى زريق يقال له لبيد ابن الأعصم حتى كان رسول الله ﷺ يخيل إليه أنه كان يفعل الشيء وما فعله » أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٣٢١ ، ٥٣٢٤ ، ٥٩١٢) وكذا مسلم فى صحيحه (٤٠٥٩) كتاب السحر . قال المازرى فيما نقله عنه ابن حجر فى فتح البارى : « أنكر المبتدعة هذا الحديث وزعموا أنه يحط منصب النبوة ويشكك فيها ، وزعموا أن تجويز هذا يعدم الثقة بما شرعه من الشرائع إذ يحتمل على هذا أن يخيل إليه أنه يرى جبريل وليس هو ثم ، وأنه يوحى إليه بشيء ولم يوح إليه بشيء ، قال المازرى : وهذا كله مردود لأنه الدليل قد قام على صدق النبى ﷺ فيما يبلغه عن الله تعالى وعلى عصمته فى التبليغ » .

(٢) عن أنس بن مالك أن يهودية أتت النبى ﷺ بشاة مسمومة فأكل منها فجيء بها فقيل : ألا نقتلها ؟ قال : لا . فما زلتُ أعرفها فى لهوات رسول الله ﷺ [أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٤٢٤) ومسلم فى صحيحه (٤٠٦٠) بأبسط منه] .

ثم إن سيدنا نوحاً عليه السلام لبث فى دعوة قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً ، فالتكذيب فى قصته واضح ، وقد سلك معهم كل سبيل فلم يؤمنوا ، فجعلهم الله عبرة ومثلاً لمَنْ جاء بعدهم من المكذبين .

ألا ترى أن هذه الآية ذكرت تكذيبهم لنبيهم مرتين ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ..(٩)﴾ [القمر] ثم ﴿فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا .. (٩)﴾ [القمر] فتكذيبهم فاق كل تكذيب ، لذلك كان سيدنا نوح أطولَ الرسل عمراً ، ودعوته أطول الدعوات .

وقوله سبحانه ﴿عَبْدَنَا ..(٩)﴾ [القمر] أى : سيدنا نوح ، وهذا تشريف له عليه السلام أن الله تعالى يقول عنه عبدنا ، ومثلها قوله تعالى فى قصة إسراء سيدنا رسول الله : ﴿سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ ..(١)﴾ [الإسراء]

لذلك فالإخلاص فى العبودية يستجلب عطاء الربوبية ، وقلنا : العبودية للبشر مذلة ، والعبودية لله عزّة وشرف ، فالعبد فى العبودية للبشر يعطى خيره لسيده ، أما العبد لله فيأخذ خير سيده ، فهى إذن عبودية السيادة .

ثم لم ينتهوا عند التكذيب لنبى الله ، بل تعدوا ذلك إلى الإيذاء ﴿وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ (٩)﴾ [القمر] فاتهموه بالجنون وقلنا : إنها تهمة واهية مردود عليها ، وإنْ دلتْ فإنما تدل على سفاهة هؤلاء وإفلاسهم .

﴿وَازْدُجِرَ (٩)﴾ [القمر] أى : أنهم زجروه ومنعوه من إتمام دعوته وتبليغ رسالته .

﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ[1] ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ ﴾

بعد هذا الصبر الطويل من سيدنا نوح لم يؤمن معه إلا القليل[2] من القوم حتى يئس من هدايتهم ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ ﴿١٠﴾﴾ [القمر] أى : انتصر لى منهم لأنى لا طاقةَ لى بهم ، يُقال : انتصر له . أى : أخذ له الحق الذى يعجز أنْ يأخذه بنفسه ، لذلك قال تعالى عن الكافرين ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الروم] لا ينتصرون لأنفسهم ، ولا يجدون مَنْ ينصرهم .

---

(١) فى الدسر أربعة أقوال (ذكرها ابن الجوزى فى زاد المسير) :

أحدها : أنها المسامير . رواه الوالبى عن ابن عباس . وبه قال قتادة والقرظى وابن زيد .

الثانى : أنه صدر السفينة ، سُمِّى بذلك لأنه يدسر الماء أى يدفعه . رواه العوفى عن ابن عباس ، وبه قال الحسن وعكرمة .

الثالث : أن الدُّسُر أضلاع السفينة ، قاله مجاهد .

الرابع : أن الدُّسُر طرفاها وأصلها . والألواح جانباها . قاله الضحاك .

(٢) اختُلف فى عددهم على ثلاثة أقاويل :

أحدها : ثمانون رجلاً منهم جرهم . قاله ابن عباس .

الثانى : أنهم ثمانية . قاله ابن جريج .

الثالث : سبعة ، قاله الأعمش ومطر ، وكان فيهم ثلاثة بنين : سام وحام ويافث ، وثلاث بنات له ونوح معهم فصاروا سبعة . [ذكرها الماوردى فى تفسيره لآية هود ٤٠] .

فلما دعا نوح بهذا الدعاء استجاب الله له ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ ..(١١)﴾ [القمر] أى السحاب ﴿بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ (١١)﴾ [القمر] ينصبّ بغزارة ﴿وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا ..(١٢)﴾ [القمر] انشقتْ الأرض عن عيون الماء ﴿فَالْتَقَى الْمَاءُ .. (١٢)﴾ [القمر] ماء السماء من أعلى ، وماء الأرض من أسفل ﴿عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (١٢)﴾ [القمر] على أمر قدَّره الله وقضاه ، وهو هلاك هؤلاء المكذّبين ونجاة المؤمنين ، فهذا أمر قدِّر أزلاً .

وفى موضع آخر أتى تفصيل هذه القصة ، فقبل أنْ ينصبّ عليهم الماء من السماء ويتفجَّر من عيون الأرض أمره ربه أنْ يصنع السفينة ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا .. (٣٧)﴾ [هود] لأنها أول سفينة تُصنع على وجه الأرض ، ولا عهدَ للناس بهذا الشىء ، فعلَّمه الله كيف يصنعها .

ويُقال : إن الله تعالى أعطاه أول الخيط الذى يقوده فى صناعتها حينما أراه جذوع الشجر تطفو على سطح الماء ولا تسقط ، وهذه لها قانون خاص بالحجم والكثافة ، فلما رأى نوح هذه الظاهرة فاهتدى إلى أنْ يجمع الجذوع ويجمعها إلى بعضها بالحبال ، ثم اهتدى إلى فكرة المسامير .

وهنا قال : ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ (١٣)﴾ [القمر] والمراد السفينة . والدُّسُر هى المسامير التى يجمع بها ألواح الخشب ، وبعد أن انتهى من صنع السفينة ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ (١١)﴾ [القمر]

وقوله سبحانه ﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا .. (١٤)﴾ [القمر] أى : السفينة تجرى على صفحة الماء ﴿بِأَعْيُنِنَا .. (١٤)﴾ [القمر] بقدرتنا ورعايتنا

وحفظنا ومراقبتنا ، ومنه قوله تعالى فى سيدنا موسى : ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴿٣٩﴾ ﴾ [طه] ولولا عناية الله ، ما كان لهذه السفينة أنْ تستقر على هذا الموج المتلاطم .

﴿ جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ ﴾ [القمر] أى : أن هذه السفينة وما كان من نجاة المؤمنين وهلاك الكافرين جزاء لنوح الذى كفر به قومه وكذَّبوه ، فهو الذى كُفر أى كُفر به ، فجزاؤه والذين آمنوا معه أنْ أنجاه الله وأنجى المؤمنين به .

ويجوز أن تكون جزاء لمَنْ كَفر[1] وجزاؤهم الإغراق .

﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ ﴾

الكلام عن السفينة ﴿ تَّرَكْنَاهَا آيَةً .. ﴿١٥﴾ ﴾ [القمر] عبرة وعظة للأمم بعد نوح ، قالوا : والترك قد يُراد به تركناها قصة تُتلى فى كتاب محفوظ إلى يوم القيامة هو القرآن ، يقصُّها على الناس على مَرِّ العصور ، ليأخذوا منها العبرة .

أو : تركناها آية باقية بعينها فى المكان الذى استقرتْ عليه بعد أن جَفَّ الماء ، وهو جبل الجودى[2] الذى قال الله فيه ﴿ وَاسْتَوَتْ عَلَى

---

(١) قرأها : لمن كان كفر . يزيد بن رومان وقتادة ومجاهد وحميد نقله القرطبى فى تفسيره (٦٥٣٣/٩) .

(٢) الجودى : جبل فى تركيا يقع فى جنوب شرق تركيا بالقرب من الحدود العراقية السورية . وهو يقع إلى الشمال من مدينة زاخو بحوالى ٢٠ كم ، والشواهد أن هذا الجبل هو المقصود كثيرة ، فأسماء القرى والمدن المحيطة بها منسوبة إلى نوح عليه السلام ، فأول قرية تقع إلى الجانب الشمالى من الجبل تسمى هشقيان أى قرية الثمانين وهو عدد من كانوا مع نوح . [موقع زاخو التى بها جبل الجودى] .

الْجُودِيِّ .. (٤٤) ﴾ [هود] ويقال : إنه موجود فى تركيا ، وأظنكم قرأتم بحثاً فى هذه المسألة ، يثبت وجود آثار فى هذه المنطقة ، وقد يكون هذا إلهاماً من الله لنصل إلى هذه الآية العجيبة التى أنجى اللهُ بها المؤمنين وأغرق الكافرين .

ولأنها آية ينبغى التأمل فيها والاعتبار بها ، يقول سبحانه : ﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (١٥) ﴾ [القمر] أى مُتذكر ، مُفكر فيها ، متعظ بها ؟

ثم يعود السياق لمخاطبة سيدنا رسول الله : ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ (١٦) ﴾ [القمر] استفهام لتقرير الحقيقة ، الحق سبحانه يسأل رسول الله ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ (١٦) ﴾ [القمر] أى : إنذارى . فهناك إذن علاقة بين العذاب والنذر .

فالحق سبحانه لم يظلمهم ولم يأخذهم على غفلة ، إنما قدَّم لهم الإنذار ، وأى إنذار بعد دعوة استمرتْ ألف سنة إلا خمسين عاماً أنذرهم فيها نوح بعذاب الله ، وكما يقولون : قد أعذر من أنذر ، مَنْ أنذرك فقد قطع عذرك ، فلا عذرَ لك بعد ذلك .

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (١٧) ﴾

اللام للتوكيد ، وقد حرف تحقيق ، فالحق سبحانه يريد أنْ يؤكد على هذه الحقيقة ، وهى أن القرآن سهل ميسَّر ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ .. (١٧) ﴾ [القمر] يسَّرنا قراءته وتلاوته ، ويسَّرنا الاستماع إليه ويسَّرنا فهمه وتذوقه والانفعال به .

فالقرآن هو الكتاب الوحيد الذى تزداد له حباً كلما كررته ،

وتزداد له فهماً وتذوقاً واستكشافاً لكنوزه ، فعجائبه لا تنتهى ، وعطاءاته لا تنفد ، لأنها فيوضات المتكلم بهذا القرآن .

لذلك يقول ﷺ عن القرآن : « لا تنقضى عجائبه ، ولا يخْلَق عن كثرة الرد »[1] ذلك لأنك حين تتكلم تعطى كلامك من المعانى على قدرك ، وعلى قدر كمالاتك الأدبية والعقلية .

فإذا كان المتكلم هو الحق سبحانه وتعالى فإن عطاءاته لا تتناهى ، وما دام ما عندكم ينفد وما عند الله باقٍ ، فسوف يظل القرآنُ بكْراً يعطيك من فيوضاته إلى يوم القيامة .

ثم إن كلام الله صفته وصفة الكامل كاملة ، لذلك قال عن القرآن ﴿لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (٤٢)﴾ [فصلت]

وقالوا فى القرآن :

بيَّن فيه كُلَّ شَىء ... وَمِنْه آخذ قدْرَ ذِهْنه كُلّ تَال

ولو تأملتَ مثلاً تفسير القرآن على مرِّ العصور لوجدتَ عجباً ، فلو كان التفسير مقصوراً على أحد لكان رسول الله الذى نزل عليه

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه (٢٨٣١) عن على بن أبى طالب رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : ألا إنها ستكون فتنة . فقلت : ما المخرج منها يا رسول الله ؟ قال : كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم وهو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله ، وهو حبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، هو الذى لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا يشبع منه العلماء ، ولا يخلق على كثرة الرد ، ولا تنقضى عجائبه » . قال الترمذى : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، وإسناده مجهول وفى الحارث مقال .

القرآن أوْلَى بتفسيره ، لكنه ﷺ ترك هذه المهمة .

ولو فسّره رسول الله لمَا كان لأحد أنْ يزيد عليه ، لكن تركه للأجيال يأخذ منه كلّ جيل على قدر إدراكه وتطوره ومستجداته وما تصل إليه من أسرار ، كما قال سبحانه : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ..(٥٣) ﴾ [فصلت]

ولو أن القرآن أعطى جيل الصحابة مثلاً كلّ عطاءاته لاستقبلتْ باقى الأجيال القرآن بلا عطاء ، والله يريد عطاء الله دائماً إلى يوم القيامة .

فقال ﴿ سَنُرِيهِمْ..(٥٣) ﴾[فصلت] يقرأها كلّ جيل بهذه الصيغة المستقبلية ، مهما أخذوا من عطاءات ، لأنهم يأخذون من معين لا ينضب .

ومن التيسير فى قراءة القرآن أنْ يقرأه العربى والأعجمى ، وتتعجب وأنت فى الحرم حينما تسمع القرآن من أناس أعاجم لا يعرفون من العربية جملة واحدة ، ومع ذلك يقرأون القرآن بلسان عربى ، نعم يتعتعون فيه ويجدون فى قراءته مشقة ، ولولا أنهم يجدون له لذة ما تحملوا هذه المشقة فى القراءة .

ثم يقرأه الطفل الصغير ، بل ويحفظه وهو فى سِنِّ السابعة ، ولو أتيتَ له بأىّ كتاب بشرى لما استطاع أنْ يحفظه .

هذا كله فيض من قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ ..(١٧) ﴾ [القمر] ولولا هذا التيسير ما حفظه الطفل الذى لم يكتمل عقله بعد فيحفظه . وهو لا يعرف معناه ، ولا يعرف ما فيه من أحكام .

وقد علّمنا النبى ﷺ أن القرآن ليس جُملاً ، إنما يُحسب بالحروف ،

كلُّ حرف له سرّ وله عطاء ، بل وله ملَك موكّل[١] به ، فحين تود قراءة القرآن فإنما تود ملائكة الحق ، فساعة تريدها تأتيك وتسعفك .

وجرِّب نفسك مع القرآن وأنت تقرأ بتأنٍّ وتأمل ثم تنسى حرفاً أو كلمة فتعيد السياق على ذهنك وسرعان ما تأتيك ، لأنها تودّك كما تودّها مثل العبد الذى يوده سيده ، فساعة يستدعيه يسرع إليه ، وأنتم تعرفون هذا الحديث : « .. لا أقول ألف لام ميم حرف ، ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف »[٢] .

لذلك رأينا عجائب فى مسابقات القرآن الكريم للأطفال والشباب ، فكيف تمتحن مثلاً سبعمائة متسابق فى وقت محدود ، لذلك كانت هناك أسئلة فنية يمكن بها أنْ تقيس حفظ المتسابق للقرآن كله بسؤال واحد ، فمثلاً تقول له :

﴿ إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً ﴿١٩﴾ ﴾ [المزمل]

اقرأ :

فإنْ كان الولد حافظاً يقول : من أين أقرأ ؟ لأنها فى أكثر من موضع ومن الأسئلة التى نظموها شعراً :

كم فى كتاب الله جمع الناسِ قد يوم ندعو أخرجوا وأنَاسى

ففى الشطر الأول : كم مرة ذكر جمع الناس فى القرآن الكريم ؟

والإجابة فى الشطر الثانى : يقصد ﴿ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ .. ﴿٢٠﴾ ﴾ [البقرة]

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه (٢٨٣٥) والبيهقى فى شعب الإيمان (١٩٢٨) من حديث ابن مسعود . قال الترمذى : حديث حسن صحيح غريب .

(٢) عن ابن مسعود رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة ، والحسنة بعشر أمثالها ، لا أقول ألم حرف ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف » أخرجه الترمذى فى سننه (٢٨٣٥) والبيهقى فى شعب الإيمان (١٩٢٨) .

وبيوم ندعو : ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ.. (٧١)﴾ [الإسراء]

وبأخرجوا : ﴿أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٨٢)﴾ [الأعراف]

﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٥٦)﴾ [النمل]

وبأناسى : ﴿وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا (٤٩)﴾ [الفرقان]

هكذا يجيب عن سؤال الشطر الأول ، بالشطر الثانى وأن المواضع ستة :

واحدة فى البقرة الآية ٢٠ ، اثنان فى الأعراف الآيتان ٨٣ ، ١٦٠ ، واحدة فى الإسراء الآية ٧٠ ، واحدة في الفرقان الآية ٤٩ ، واحدة فى النمل الآية ٥٦ .

لماذا ؟ لأنه مُيسَّر : ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ (١٧)﴾ [القمر]

وقوله تعالى : ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (١٧)﴾ [القمر] فهل لهذا القرآن الذى يسَّرناه أحد يعتبر به ويتعظ بما فيه من الآيات .

لكن تيسير القرآن لمن ؟ الله يسَّر القرآن لمن آمن بقائل القرآن وآمن بالنبى الذى أنزل عليه القرآن ، وإلا فهناك مَنْ يستمع القرآن وهو لاه منصرف ، ومَنْ يستمع القرآن ويستهزىء به ، وقد حكى القرآن عن هؤلاء :

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا ..(١٦)﴾ [محمد] يقولون هذا استهانة وسُخْرية من القرآن .

وقال تعالى : ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ..(٤٤)﴾ [فصلت] فالقرآن واحد كما قلنا ، لكن المستقبل مختلف .

لذلك رأينا الوليد[1] لما هدأت نفسه وأحب أنْ يستمع ، وأحسن استقبال

---

(١) هو الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم أبو عبد شمس ، من قضاة العرب فى الجاهلية ومن زعماء قريش ومن زنادقتها ، ولد ٩٥ قبل الهجرة ، أدرك الإسلام وهو شيخ هرم فعاداه وقاوم دعوته ، هلك بعد الهجرة بثلاثة أشهر ودفن بالحجون ، وهو والد خالد بن الوليد . [الأعلام للزركلى ١٢٢/٨] .

كلام الله حَنَّ إليه وانفعل به ، فأثَّر فيه القرآن وهو ما يزال على الكفر .

فقال : والله لقد سمعتُ كلاماً ما هو بسحر ، ولا بشعر ، ولا كهانة ، والله إنَّ أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وإنه يعلو ولا يُعلَى عليه[1] .

وتأمل أول تأثير للقرآن فى نفس هذا الرجل وما يزال على كفره ، وكيف عبَّر عنه هذا التعبير الرائع الجميل : إن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق .

فشبَّه القرآن بالشجرة المثمرة من أعلى ، والخضراء النضرة من أسفل ، والمعروف أن الشجرة تثمر من أعلاها ، فى حين يكون أسفلها ورقاً جافاً يتساقط ، أما القرآن فهو خير كله ، عطاء كله فى كل حرف من حروفه .

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا[2] فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ[3] ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ ﴾

---

(١) أورده ابن كثير فى السيرة النبوية (١/٤٩٩) والشامى فى سبل الهدى والرشاد (٩/٤٠٨) . وقد أخرجه الحاكم فى مستدركه (٣٨٣١) والبيهقى فى دلائل النبوة (٥٠٥) وكذا فى شعب الإيمان (١٢٦) من حديث ابن عباس .

(٢) الريح الصرصر فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : باردة . قاله قتادة والضحاك .

الثانى : شديدة الهبوب . قاله ابن زيد .

الثالث : التى يُسمع لهبوبها صوت . [ذكر هذه الأقوال الماوردى فى تفسيره] .

(٣) قال ابن الجوزى فى زاد المسير فى تفسير الآية : « معنى الكلام كأنهم أصول نخل منقعر أى منقلع .. وقال مقاتل : شبههم حين وقعوا من شدة العذاب بالنخل الساقطة التى لا رؤوس لها ، وإنما شبههم بالنخل لطولهم » .

القرآن يُعدِّد للمكذبين برسول الله والمعادين لدعوته ، يُعدِّد لهم الأمم المكذِّبة على مرِّ التاريخ كلمهم عن قوم نوح وما حلَّ بهم ، ثم يُحدِّثهم عن قوم عاد ماذا فعل بهم لما كذّبوا رسولهم هوداً عليه السلام .

وعاد هى التى فى الأحقاف جنوباً ، وكانت لهم حضارة عظيمة قال الله عنها : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (٨) ﴾ [الفجر] إذن : هى أعظم من حضارة الفراعنة فى مصر ، والحضارة الفرعونية أذهلت العالم كله ، ومع التقدم العلمى الآن لم يصلوا إلى أسرار هذه الحضارة ، وما تزال الأهرامات عجائب لم تُعرف أسرارها حتى الآن .

وحضارة عاد كانت أعظم منها ، لكنها مطمورة تحت التراب لأنها بيئة صحراوية تكثر فيها العواصف والرمال فطمرها مرور الزمان عليها ، لذلك قالوا عن رمال الأحقاف أنها يمكن أنْ تطمر قافلة كاملة إذا هبَّتْ عليها العاصفة ، لذلك نجد آثار هذه الأمة التى أهلكها الله تحت طبقات الثرى .

وقال فى عاد كما قال فى قوم نوح ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (١٨) ﴾ [القمر]

فالعذاب لم يأتهم فجأة ، ولم يأخذهم ربهم على غِرَّة إنما قدَّم لهم الإنذار على يد نبيهم هود عليه السلام ، لكنهم لم ينتفعوا به. ومن أنذر فقد أعذر .

ثم يبين سبحانه كيف أهلكهم ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ (١٩) ﴾ [القمر] الصرصر هى الريح شديدة البرودة ، يصاحبها صوت مزعج يزلزلهم .

وفى آية أخرى سمَّى هذا الصوت (الصيحة) والصيحة تكون مصحوبة إما بريح شديدة تدمر أو نار حامية تحرق ﴿ فِي يَوْمِ

نَحْسٍ ..(١٩)﴾ [القمر] يوم شؤم ودمار ﴿مُّسْتَمِرٍّ (١٩)﴾ [القمر] أى : استمر عليهم مدة قدَّرها الله حتى أهلكهم عن آخرهم .

ومعنى ﴿تَنزِعُ النَّاسَ ..(٢٠)﴾ [القمر] أى : أن هذه الريح الشديدة كانت تنزعهم من أماكنهم وتقتلعهم ، وترمى بهم ، وتطيح بمتاعهم .

﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ (٢٠)﴾ [القمر] تعرفون أصل النخلة حينما يُقطع جريدها ، ثم تُجز من الأرض وتقتلع ، فكأن الريح لشدتها تقتلعهم من أصولهم ، وتأخذهم من بيوتهم ، وترمى بهم كما تُقتلع النخلة من جذرها .

ثم يكرر : ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (٢١)﴾ [القمر] كررها ليُكرر العظَة ، ولأن العذاب النازل بهؤلاء متنوع يأخذ كلاً منهم بما شاء من ألوان عذابه وانتقامه ، وهذه من طلاقة القدرة فى الجزاء ، فلله تعالى طلاقة قدرة فى النعمة ، وكذلك له سبحانه طلاقة قدرة فى النقمة .

قال سبحانه : ﴿فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا[1] وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٠)﴾ [العنكبوت]

ثم يعيد السياق ويكرر أيضاً :

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (٢٢)﴾

ليؤكد على هذه الحقيقة ، وهى تيسير القرآن ﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (٢٢)﴾ [القمر] كأنه يلتمس واحداً يتعظ ، ياناس ألاَ من مُتذكر معتبر بما فى هذا القرآن من آيات ؟

---

(١) حاصباً : حصبه قذفه بالحصى . والحاصب إعصار شديد يقذفكم بالحصى فيهلككم والرياح العاصفة تفعل أكثر من ذلك . [القاموس القويم ١/١٥٥] .

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ (٢٣) فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا
نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ (٢٤) أَءُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ
مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ (٢٥) سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ
الْكَذَّابُ الْأَشِرُ (٢٦) ﴾

يُحدثنا الحق سبحانه عن قوم سيدنا صالح عليه السلام وهم ثمود ، ومساكنهم هى مدائن صالح قريباً من المدينة ، وقال ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ (٢٣) ﴾ [القمر] جمع نذير وهو الرسول ، وقد خاطب الله نبيه بقوله : ﴿ إِنْ أَنتَ إِلاَّ نَذِيرٌ (٢٣) ﴾ [فاطر] ما أنت إلا نذير .

وجاء بصيغة الجمع هذه لأن الذى يكذب برسوله كأنه كذّب بجميع الرسل ، لأن هدفهم واحد ، ومنهجهم واحد ، ينتهى إلى عبادة الله وحده لا شريك له .

واقرأ : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ .. (٨١) ﴾ [آل عمران] فالرسول عليه أنْ يوصى قومه إذا جاءهم رسول جديد بمثل المنهج الذى جاء به – يوصى قومه أن يتبعوه ، وأنْ يؤمنوا به وينصروه .

فالعادة أن القوم يتعصّبون لرسولهم ، فيعلمهم أن الهدف واحد والمنهج واحد ، فإنْ جاءكم مَنْ هذه صفته فاتبعوه ولا تصادموه ، فكلنا نأخذ من مشكاة واحدة .

ثم يذكر سبحانه صيغة التكذيب التى نطق بها القوم ﴿ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا .. (٢٤) ﴾ [القمر] وهذا القول شبيه بقول قريش : ﴿ لَوْلا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) ﴾ [الزخرف]

فثمود تستنكر أنْ يتبعوا رجلاً واحداً منهم هو سيدنا صالح وهو بشر ،

فاعترضوا على كونه بشراً وعلى كونه رجلاً واحداً ، إذن : ماذا تريدون ؟ يريدون جماعة تتعاون فى حمل هذه الرسالة بحيث يعدل بعضهم لبعض .

والواقع أن النبى لا يأتى بشىء من عنده ولا من عند غيره ، إنما يأتى بوحى من الله ، وشبهة البشرية فى النبى أو الرسول مردود عليها فى قوله تعالى : ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ (٩)﴾ [الأنعام] ثم إن الملك لا تحدث به القدوة للبشر .

وقولهم : ﴿إِنَّا إِذًا .. (٢٤)﴾ [القمر] أى : إذا اتبعنا واحداً ﴿لَّفِي ضَلالٍ وَسُعُرٍ (٢٤)﴾ [القمر] السُّعُر يُطلق على الجنون ، ويُطلَق على سعير النار[1] .

وقولهم : ﴿أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا ..(٢٥)﴾ [القمر] استفهام يقصدون منه التعجب والاستنكار لهذا ، فكيف يُلقى إليه الذكر وتنزل عليه الرسالة من دوننا ، وهم بهذا القول يسوُّون بينهم وبين نبى الله صالح ، فالنبوة ليست مجالاً للمساواة ، لأن الله تعالى يصطفى لها مَنْ يشاء من عباده ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ .. (١٢٤)﴾ [الأنعام] ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٧٥)﴾ [الحج]

ثم يتعدَّوْنَ مرحلة الاستنكار إلى الاتهام صراحةً بالكذب﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ (٢٥)﴾ [القمر] والكذَّاب هو الذى يقول خلاف الواقع ، وهذا اتهام باطل لأن سيدنا صالحاً لم يخبرهم بشىء مخالف للواقع أبداً .

﴿أَشِرٌ (٢٥)﴾ [القمر] شديد البطر والتكبُّر والتعالى ، يعنى : أنه لم يقنع بما هو فيه ، ولم يرضَ بما عنده ، بل يريد أنْ يستعلى علينا ،

---

(١) سُعُر : السُّعر الجنون . وبه فسر الفارسى قوله تعالى : ﴿إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلالٍ وَسُعُرٍ (٢٤)﴾ [القمر] قال : لأنهم إذا كانوا فى النار لم يكونوا فى ضلال لأنه قد كشف لهم ، وإنما وصف حالهم فى الدنيا ، يذهب إلى أن السُّعر هنا ليس جمع سعير الذى هو النار . [لسان العرب – مادة : سعر] .

ويجعل نفسه رئيساً فى قومه ، والجمع تابع له .

فيردُّ الله عليهم : ﴿ سَيَعْلَمُونَ غَدًا .. (٢٦) ﴾ [القمر] أى : يوم القيامة والجزاء ، وكلمة الغد تطلق على المستقبل القريب ، وهو اليوم الذى يلى يومك الحاضر ، لكنه قال عن القيامة غداً ، لماذا ؟

لأنها فى الواقع قريبة منا بالفعل ، فليس بينك وبينها إلا أنْ تموت .

لذلك قال عنها : ﴿ أَزِفَتِ الآزِفَةُ (٥٧) ﴾ [النجم] وقال : ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ (١) ﴾ [الأنبياء] وقال هنا : ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ .. (١) ﴾ [القمر]

﴿ مَّنِ الْكَذَّابُ الأَشِرُ (٢٦) ﴾ [القمر] وهذا تهديد لهم وردّ للتهمة عليهم ، بل أنتم الكذابون وأنتم الأشرون ، لأنكم كرهتم صالحاً وحسدتموه ، لأن ربه اختاره للنبوة من بينكم ، وهذا فضل الله يؤتيه مَنْ يشاء ، فكان ينبغى عليكم أنْ تُصدِّقوه لا أنْ تُصادموه .

﴿ إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ (٢٧) وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ (١) (٢٨) فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى (٢) فَعَقَرَ (٢٩) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ (٣٠) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ (٣) الْمُحْتَظِرِ (٣١) ﴾

---

(١) محتضر : أى كل نصيب من الماء يحضره صاحب نوبته ، أو كل وقت للشرب يحضره صاحبه فى موعده المحدد له ، وكان النبى صالح قد طالب قومه بأن يتركوا لناقته يوماً تشرب فيه ولهم يوم آخر معلوم يشربون فيه فلم يرعوا ذلك وعقروا الناقة فغضب الله عليهم وسوّى بهم الأرض وأهلكهم .

(٢) فتعاطى : أى تصاول على الناقة وهى واقفة وتناولها فعقرها ونحرها ، ويتضمن معنى تجرًا عليها واعتدى عليها . [القاموس القويم ٢/٢٦] .

(٣) هشيم المحتظر : الهشيم ما ييبس من الورق وتكسَّر وتحطم ، فكانوا كالهشيم الذى يجمعه صاحب الحظيرة أى قد بلغ الغاية فى اليبس حتى بلغ أن يُجمع . [لسان العرب – مادة – هشم] . والمحتظِر (بكسر الظاء) الذى يعمل الحظيرة . والمحتظَر (بفتح الظاء) أى الحظيرة .

الناقة هى الآية التى جاء بها سيدنا صالح ، وهى آية ظاهرة مشاهدة اقترحوها بأنفسهم ، فقالوا لنبيهم : أخرج لنا ناقة من هذه الصخرة[١] ، وبالفعل خرجتْ الناقة من الصخرة بشكل معجز .

فقال تعالى : ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ ..(٢٧)﴾ [القمر] أى : اختبار وامتحان لهم ، أيؤمنون بالله أم يكفرون ؟ ﴿فَارْتَقِبْهُمْ ..(٢٧)﴾ [القمر] انظر ماذا يكون ردّ فعلهم ؟ ﴿وَاصْطَبِرْ (٢٧)﴾ [القمر] اصبر على عنادهم ، واصبر على أذاهم وتكذيبهم ولا تتعجل فى دعوتهم .

﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ .. (٢٨)﴾ [القمر] وما دام أنها معجزة فلها وضع خاص فى طعامها وشرابها ، وقد أوضح لهم أن الماء الذى يشربون منه قسمة بينها وبينهم .

﴿كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ (٢٨)﴾ [القمر] كل منهما يحضر مَشْربه ويلتزم بدوره ، فهم يشربون فى يومهم ، ولا يقربون الماء فى يوم شُرْبها ، ثم يوم لا يشربون من الماء تعطيهم الناقة من لبنها ما يكفيهم ويُغنيهم عن الماء فى هذا اليوم .

وفى سورة الأعراف تحدثتْ الآيات عن أكلها : ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَـٰقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَـٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣)﴾ [الأعراف]

لكنهم ما فهموا هذا التحذير ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ .. (٧٣)﴾ [الأعراف]

---

(١) قال ابن كثير فى تفسير آية الأعراف ٧٣ : « كانوا هم الذين سألوا صالحاً أن يأتيهم بآية واقترحوا عليه أن تخرج لهم من صخرة صماء عيّنوها بأنفسهم ، وهى صخرة منفردة فى ناحية الحجر ، يقال لها الكاتبة فطلبوا منه أن يخرج لهم منها ناقة عشراء تمخض » .

وما صدقوا بهذه الآية فتواطئوا على قتل الناقة وتمالئوا على ذلك ، فقام رجل أحمق منهم شرير طائش ، كما نقول (بلطجى) قالوا عنه : أحيمر ثمود ، واسمه كما ذكر المفسّرون قيدار بن سالف .

والدليل على أنه أحد سفهاء القوم وأشقيائهم أنه لما أراد عقر الناقة لم يكُنْ معه شىء يعقرها به ، فخطف سيفاً من أحدهم فعقرها ، وحملوا جميعاً تبعة هذا الفعل لأنهم اتفقوا عليه وتعاونوا .

فلما فعلوا ذلك استوجبوا أنْ ينزل بهم العذاب ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً ..(٣١)﴾ [القمر] الصيحة هى الصوت المزعج المدمر . قالوا[١] : صيحة صاحها جبريل فكانت كافية لإهلاكهم وإبادتهم .

﴿فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ (٣١)﴾ [القمر] شبَّههم الحق سبحانه بالهشيم ، وهو القشّ المفتّت الذى تذروه الرياح ﴿الْمُحْتَظِرِ(٣١)﴾ [القمر] هو الفلاح[٢] الذى يصنع بهذا القش حظيرة لمواشيه ، إذن : لما حلَّت بهم هذه الصيحة أخذتهم أخذ عزيز مقتدر ، وجعلتهم فتاتاً كالهشيم .

ثم تكرر الآيات :

---

(١) قال الطبرى فى تفسير سورة هود آية ٩٤ : « قيل : إن جبريل عليه السلام صاح بهم صيحة أخرجت أرواحهم من أجسامهم »

وقد ذكر الماوردى فى تفسيره ثلاثة أقوال :

أحدهما : أن جبريل عليه السلام صاح بهم .

الثانى : أن الله تعالى أحدثها فى حيوان صاح بهم .

الثالث : أن الله أحدثها من غير حيوان .

(٢) فى الصحاح : المحتظر الذى يعمل الحظيرة . وقرأ الحسن وقتادة وأبو العالية (المحتظَر) بفتح الظاء أرادوا الحظيرة . وقرأ الباقون بكسر (الظاء) أرادوا صاحب الحظيرة .. فمن كسره جعله الفاعل ، ومن فتحه جعله المفعول به . [تفسير القرطبى ٩ / ٦٥٤٢] .

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾﴾

نلاحظ أن السياق يذكر هذه الآية ويأتى بذكر القرآن بعد كل حديث عن أمة من الأمم المكذبة ، ذلك لأن القرآن هو الكتاب الخاتم والمهيمن على كلِّ الكتب قبله كما قال تعالى :﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ..﴿٤٨﴾﴾ [المائدة]

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ(١) ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾﴾

بعد أنْ حدَّثتنا الآيات عن الأمم المكذِّبة للرسل بداية من قوم نوح ثم عاد ثم ثمود تُحدِّثنا هنا عن إخوانهم من قوم لوط ، فهذه الأمم جمعهم شىء واحد هو تكذيب رسل الله ، لذلك نلاحظ على الأداء القرآنى أنه يقول فى كل أمة من هذه الأمم أنها كذبت ﴿بِالنُّذُرِ ﴿٣٣﴾﴾ [القمر]

وقلنا : النُّذر جمع نذير وهو الرسول لأن الذى يُكذِّب برسول واحد كأنه كذَّب بكل رسل الله ، لأن هدفهم واحد ومنهجهم واحد والآيات هنا تنقلنا مباشرة إلى مشهد العقاب والانتقام .

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا ..﴿٣٤﴾﴾ [القمر] الحاصب هى ريح قوية

---

(١) السَّحَر : بفتح السين والحاء ، الجزء الأخير من الليل إلى مطلع الفجر وجمعه أسحار . [القاموس القويم ١/٣٠٥] .

تهبُّ عليهم وترميهم بالحصباء ، وهى حجارة صغيرة مُهلكة أمطرهم الله بها .

﴿إِلاَّ آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ (٣٤)﴾ [القمر] فلم يستثْنِ من هذا العذاب إلا آل لوط ، أى أهله والمؤمنين به ﴿بِسَحَرٍ (٣٤)﴾ [القمر] أى : فى وقت السحر ، وهو آخر الليل قبيل الفجر .

﴿نِعْمَةً مِّنْ عِندِنَا ..(٣٥)﴾ [القمر] أى : نجاة لوط وأهله والمؤمنين به ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ (٣٥)﴾ [القمر]

﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا(١) بِالنُّذُرِ (٣٦) وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِى وَنُذُرِ (٣٧) وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ (٣٨) فَذُوقُوا عَذَابِى وَنُذُرِ (٣٩) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (٤٠)﴾

أى : لوط عليه السلام ﴿أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا .. (٣٦)﴾ [القمر] حذَّرهم عذابنا وأخْذتنا القوية لمن كذَّب بالرسل ، وفى آيات أخرى تفصيل لهذه القصة وبيانٌ لمناقشة سيدنا لوط لقومه : ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰؤُلاءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِى أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ (٧٨)﴾ [هود]

---

(١) تماروا : تجادلوا وتشككوا فيه ، ويتضمن معنى التكذيب . وقال تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ (٣٦)﴾ [القمر] أى : تشككوا وكذبوا . [القاموس القويم ٢/٢٢٤] .

لكنهم كذّبوا لوطاً ﴿فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ (٣٦)﴾ [القمر] لما أنذرهم بطشتنا تمادوا أى : شككوا فيها وكذَّبوا بها ، ثم تمادوا فى الفاحشة التى يرتكبونها ﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ ..(٣٧)﴾ [القمر] أى : ضيوف سيدنا لوط عليه السلام .

وكلمة ضيف تُطلق على المفرد والجمع معاً ، لأن الضيف إذا جاءك واحد أو اثنان أو جماعة فإياك أنْ تميز ضيفاً على ضيف ، بل تجعلهم كضيف واحد ، لذلك تحدث عنهم السياق القرآنى فى أكثر من موضع بصيغة المفرد .

﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ (٥١)﴾ [الحجر] وقال : ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (٢٤)﴾ [الذاريات] وضيف إبراهيم لم يكُنْ واحداً ، بل كانوا جماعة .

ومعنى ﴿رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ ..(٣٧)﴾ [القمر] طلبوا منه أنْ يترك لهم ضيوفه يفعلون بهم ما يريدون من الفاحشة التى فشتْ فيهم ، لأنهم رأوا أمامهم أناساً على أجمل ما يكون ، فأول ما يخطر ببالهم هو هذا الفعل الفاضح الذى يفعلونه .

ولا يعلمون أن هؤلاء ليسوا بشراً بل هم ملائكة ، لذلك تدخلت السماء فوراً تدافع عن لوط عليه السلام وتحفظ كرامته .

﴿فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ ..(٣٧)﴾ [القمر] قالوا : أعماهم الله وأخذ أبصارهم ، وقالوا : بل طمس الله عيونهم فى وجوههم كأنْ لم تكُنْ وليس لها أثر فى وجوههم .

﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ (٣٧)﴾ [القمر] نلاحظ أن السياق فى الحديث عن الأمم السابقة كان يختم الحديث بقوله : ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ

(٣٠) ﴾ [القمر] أما هنا مع قوم لوط فقد وجّه الحديث إليهم هم ﴿ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ (٣٧) ﴾ [القمر] أى : ذوقوا ما تستحقونه من العذاب ، وكلمة ذوقوا فيها سخرية منهم واستهزاء بهم ، هذا لِكِبَر جرمهم وبشاعة فعلتهم .

﴿ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ (٣٨) ﴾ [القمر] صبَّحهم العذاب أى نزل عليهم فى الصباح الباكر ، كما قال سبحانه :﴿ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ (١٧٧) ﴾[الصافات] ولنزول العذاب على المكذِّبين فى الصباح خاصة لحكمة ، لأن الصباح الباكر غالباً يكون الناس نائمين أو قائمين من نومهم .

وحين ينزل العذاب فى هذا الوقت يفاجئهم فلا يستطيعون تفادى ما ينزل بهم ، وهذا أنكى وأشدّ عليهم ﴿ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ (٣٧) ﴾ [القمر] وأيضاً يأتى بذكر القرآن : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (١٧) ﴾ [القمر]

لأن كل قصة من قصص هؤلاء المكذِّبين فيها عبرة ، فيكرر مع كل قصة ﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (٤٠) ﴾ [القمر] أى : متعظ معتبر من هؤلاء .

﴿ وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ ﴾

يحدثنا هنا عن جماعة أخرى من المكذِّبين هم قوم فرعون ، فقد كذَّبوا سيدنا موسى عليه السلام وكذَّبوا ما جاء به من الآيات البينات ، وهى الآيات التسع التى جاء بها : العصا واليد .. وغيرها .

فكانت النتيجة ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ (٤٢)﴾ [القمر] والأخْذ فى الأصل الجذب بشدة ، فالأخْذة إذن تتناسب وقوة الآخذ ، والأخذة هذه لله تعالى فهى شدة ، ثم أضيفتْ إلى صفتين لله تعالى ﴿عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ (٤٢)﴾ [القمر] العزيز هو الذى يغلب ولا يُغلب ، والمقتدر هو الذى يملك القدرة المطلقة التى لا تنفد .

وقلنا : إن مهمة موسى عليه السلام مع فرعون أنْ ينقذ بنى إسرائيل من قبضته ، ومن العذاب الذى يتعرضون له من آل فرعون ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ..(٤٧)﴾ [طه]

كانت هذه هى المهمة الأساسية ، ثم جاتْ دعوة موسى لفرعون على هامش هذه المهمة ، فأخذ يدعوه إلى الله ويشرح له العقائد وأمور الدين .

وسبب العداء بين الفراعنة وبنى إسرائيل أن ملوك الهكسوس[1] لما دخلوا مصر عاونهم بنو إسرائيل وساعدوهم وأعانوهم على الفراعنة ، وكان بنو إسرائيل فى هذا الوقت هم مَنْ تبقى من قوم سيدنا يوسف فى مصر .

فلما تغلب الفراعنة على الهكسوس وطردوهم من مصر رجعوا إلى بنى إسرائيل بالمعاملة السيئة وساموهم سوء العذاب ، فأرسل الله تعالى سيدنا موسى لا ليدعو فرعون وقومه ، بل ليستخلص بنى إسرائيل من هذا العذاب .

---

(١) الهكسوس : كلمة من المصرية القديمة تعنى الملوك الرعاة (هكاسوس) وهو شعب سامى بدوى غزا أرض شمال مصر فى القرن الثامن عشر قبل الميلاد وحكمها لأكثر من ٢٥٠ سنة ، حكموا الدلتا حكماً مباشراً ، أما مصر العليا (طيبة) وبلاد النوبة فكانتا تخضعان لهم اسمياً وتؤديان نوعاً من الجزية السنوية طيلة قرن ونصف إلى ملك الهكسوس فى عاصمته زوان . [موسوعة ويكيبيديا] .

وتعرفون قصة خروج سيدنا موسى ببنى إسرائيل ، وأن فرعون تبعه وجنوده ، وما كان من حادثة انشقاق البحر ونجاة موسى وبنى إسرائيل بمعجزة بينة واضحة ، لما ضرب البحر بالعصا فانفلق فكان كل فرْق كالطود[1] العظيم .

قالوا : أنهم لما نجوا من فرعون ونجوا من الغرق مرُّوا على قوم يعكفون على أصنام لهم فقالوا : ﴿ يَـٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ .. ﴿١٣٨﴾ ﴾ [الأعراف] قال المفسرون : أنهم طلبوا من موسى هذا المطلب وما تزال أقدامهم مبللة من عبورهم البحر[2] .

إذن : كذَّبوا بالآيات فى وقت كانوا فيه أجدر وأحق أن يؤمنوا بالله الذى أنجاهم وأنقذهم من العذاب .

﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَـٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ[3] ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ ﴾

---

(١) الطود : الجبل الثابت العالى . وفى حديث عائشة تصف أباها أبا بكر الصديق : ذاك طود منيف أى جبل عال . [لسان العرب مادة : طود] .

(٢) ذكر القرطبى فى تفسير قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ .. ﴿٣٢﴾ ﴾ [الأنفال] أن رجلاً يهودياً لقى ابن عباس فقال اليهودى : ممن أنت ؟ قال : من قريش . فقال اليهودى : أنت من القوم الذين قالوا : ﴿ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ .. ﴿٣٢﴾ ﴾ [الأنفال] فهلا عليهم أن يقولوا : إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا له إن هؤلاء قوم يجهلون . قال ابن عباس : وأنت يا إسرائيلى من القوم الذين لم تجف أرجلهم من بلل البحر الذى أغرق فيه فرعون وقومه وأنجى موسى وقومه حتى قالوا : (اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة) فقال لهم موسى : ﴿ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾ [الأعراف] فأطرق اليهودى مفحماً » .

(٣) الزبر : زبر الكتاب كتبه فهو مزبور وزبور أى مكتوب . قال تعالى : ﴿ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ ﴾ [النساء] أى كتاباً وجمعه زبر . [القاموس القويم ١/٢٨٣] .

بعد أنْ قصّ علينا القرآن قصص الأمم المكذِّبة للرسل بداية من قوم نوح ، ثم عاد قوم هود ، ثم ثمود قوم صالح ، ثم قوم لوط يعود إلى كفار مكة الذين كذّبوا بمحمد وعاندوه ووقفوا فى وجه دعوته ، عاد ليقول لهم : هذا موكب الرسالات على مرِّ العصور قبلكم وحال المكذبين الذين سبقوكم .

﴿أَكُفَّارُكُمْ .. (٤٣)﴾ [القمر] كفار مكة ﴿خَيْرٌ مِّنْ أُولَائِكُمْ .. (٤٣)﴾ [القمر] خير من هؤلاء المكذبين الذين نزل بهم انتقام الله وعذابه ﴿أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ (٤٣)﴾ [القمر] أم أعطاكم الله عهداً أنه لن يعذبكم كما عذبهم ، ويترككم بدون عقاب .

﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ (٤٤)﴾ [القمر] أى : جميع المكذبين سيُكتب لهم النصر والغلبة ، فهم إذن مغترُّون بجمعهم واجتماعهم على الباطل ، وأن هذا الجمع سيضمن لهم الغلبة .

إذن : القرآن نزل يناقش كفار مكة ويُقنعهم ، فخيَّرهم بين هذه الثلاثة الأمور : أأنتم خيرٌ من المكذِّبين قبلكم الذين أهلكهم الله ؟ أم عندكم براءة وعهد فى الكتب السابقة أن الله لن يعذبكم ؟ أم أنَّ جمعكم وكثرتكم ستغنى عنكم ؟

وهذه الثلاثة مردود عليها بالنفى ، فليستْ لكم خيرية على سابقيكم ، وليستْ لكم براءة من العذاب ، لأن الله تعالى لم يُعْطِ براءة لأحد ، ولم يُرخِّص فى تكذيب رسله .

بقيتْ الثالثة ، فقال فيها ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥)﴾ [القمر] هذا الجمع الذى تغترون به سيُهزم[1] .

---

(١) قال ابن عباس : كان بين نزول هذه الآية وبين بدر سبع سنين . [قاله القرطبى فى تفسيره ٩/٦٥٤٦] .

ونزلت هذه الآية فى وقت كان الكفار أشدَّ ما يكونون على المسلمين ، والمسلمون قلة لا يستطيعون حماية أنفسهم ، لذلك عندما سمع سيدنا عمر هذه الآية قال : أىُّ جمع هذا الذى سيُهزم ونحن عاجزون عن حماية أنفسنا وتأمين حياتنا[1] ؟ فلما حدثتْ غزوة بدر وهزِم الجمع فعلاً قال : نعم صدق الله : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) ﴾ [القمر]

لذلك ساعة ترى القرآن يُسجِّل على نفسه هذه الحقائق بصيغة المستقبل فاعلم أنها حق ، ولا بد أنْ تحدث ، لأن القرآن يُسجلها ويحفظها ، والعادة أن الإنسان يحفظ ما له لا ما عليه ، مثل (الكمبيالة) يحفظها صاحبها لا مَنْ أخذت عليه (الكمبيالة) .

فالقرآن هو الذى حفظ ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ .. (٤٥) ﴾ [القمر] ولا يمكن أنْ تأتى الأحداث بما ينقض هذا الحكم ، كما قال سبحانه ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) ﴾ [الصافات] فطالما توفرتْ الجندية لله تعالى توفر لها النصر ، فإنْ خالفوا شروط الجندية خالفهم النصر ، كما رأينا فى أُحُد لما خالفوا أمر رسول الله[2].

﴿ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) ﴾ [القمر] يفرون منهزمين ، وهذا فى الدنيا ، أما عقاب الآخرة فشىء آخر ﴿ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ .. (٤٦) ﴾ [القمر]

---

(١) أخرج ابن أبى حاتم والطبرانى فى الأوسط وابن مردويه عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : أنزل الله على نبيه بمكة قبل يوم بدر ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) ﴾ [القمر] فلما كان يوم بدر وانهزمت قريش نظرت إلى رسول الله ﷺ فى آثارهم مصلتا بالسيف وهو يقول : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) ﴾ [القمر] وكانت ليوم بدر . ذكره السيوطى فى الدر المنثور فى تفسير الآية .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٧٣٧) وأبو داود فى سننه (٢٢٨٨) وأحمد فى مسنده (١٧٨٥٣ ، ١٧٨٥٩) من حديث البراء بن عازب رضى الله عنه .

القيامة موعد الجزاء والعقاب ﴿وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾﴾ [القمر] نعم أدْهى أشد داهية وأفظع من عقاب الدنيا .

﴿وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾﴾ [القمر] أشد ألماً ومرارة مما عانوه فى الدنيا ، لأن داهية الدنيا لها نهاية ومصيبتها تُجبر ، أما الآخرة فهى الطامة الكبرى التى ليس لها نهاية ولا جبر .

والعجيب هنا أن سيدنا رسول الله وقف فى الميدان قبل الحرب وأخذ يشير بعصا بيده ويقول : هذا مصرع فلان وهذا مصرع فلان يقصد صناديد[1] قريش ، وفعلاً قُتل هؤلاء فى نفس الأماكن التى أشار إليها سيدنا رسول الله ، انظر إلى هذه الثقة فى نصر الله لرسوله ، فهو يُخبر بهذا ولا يخاف أنْ يُكذِّبه واقع المعركة وهى كَرٌّ وفَرٌّ ، ولا أحدَ يستطيع أنْ يتوقع ما يحدث بهذا التفصيل وبهذه الدقة . لكنه إخبار مَنْ لا ينطق عن الهوى .

﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾﴾

نعم ﴿فِي ضَلَالٍ .. ﴿٤٧﴾﴾ [القمر] لأنهم عرفوا الحق فلم يتبعوه ﴿وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾﴾ [القمر] السُّعُر يأتى على معنيين : إما نار مُسعرة

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٣٣٣٠ ، ٥١٢٠) وأبو داود فى سننه (٢٣٠٦) والنسائى فى سننه (٢٠٤٧) وأحمد فى مسنده (١٧٧ ، ١٢٨١٩ ، ١٣٢٠٧) قال : إن رسول الله ﷺ كان يُرينا مصارع أهل بدر بالأمس يقول هذا مصرع فلان غداً إن شاء الله . فقال عمر : فوالذى بعثه بالحق ما أخطأوا الحدود التى حد رسول الله ﷺ ، فجُعلوا فى بئر بعضهم على بعض » الحديث .

مشتعلة أو السُّعُر يعنى الجنون ، والآية التى بعدها ترجح أن تكون بمعنى النار المستعرة .

﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ .. (٤٨) ﴾ [القمر] أى : يوم القيامة يُسحب هؤلاء المجرمون على وجوههم فى النار ، والوجه أكرم ما فى الإنسان . لذلك يحاول الحفاظ عليه ويُجنِّبه الأذى ، فهو عنوانه وأعزُّ ما فيه ترتفع إليه اليدان تلقائياً ، ودون أنْ تفكر لتحمى وجهك أولاً لو مرَّتْ مثلاً بجانبك سيارة و (طرطشت) عليك الماء .

إذن : منتهى الذلة والإهانة فى هذا الموقف يوم يُسحبون فى النار على وجوههم ﴿ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ (٤٨) ﴾ [القمر] كلمة ذوقوا فيها استهزاء بهم وسخرية منهم ، وقال ﴿ مَسَّ .. (٤٨) ﴾ [القمر] لأن مسّها كافٍ لأنْ يذيقهم العذاب والإهانة ﴿ سَقَرَ (٤٨) ﴾ [القمر] اسم من أسماء النار . وقيل : وادٍ فى جهنم .

﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (٤٩) وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ (٥٠) ﴾

الضمير فى ﴿ إِنَّا .. (٤٩) ﴾ [القمر] للحق سبحانه وتعالى ﴿ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (٤٩) ﴾ [القمر] كل شىء فى الكون صغيراً أو كبيراً من الذرة إلى المجرة ﴿ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (٤٩) ﴾ [القمر] بحساب دقيق وقدر مقدور من الله تعالى القادر على إنفاذ ما قدّره ، لأنه سبحانه إله

واحدٌ لا شريكَ له ، وليس هناك قوة تغير الذى قدَّره وقضاه .

لذلك قلنا فى شهادة أن لا إله إلا الله : أن هذه الشهادة قبل أنْ يشهد بها الخَلْق شهد بها الخالق لنفسه ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ..(١٨)﴾ [آل عمران] ولولا هذه الشهادة لم يكُنْ فى جرأة أن يقول للشىء : كن فيكون ، لأنه سبحانه وتعالى لو كان له شريك لكان بإمكانه أنْ يقول للشىء : لا تكُنْ .

إذن : الخَلْق كله الله وحده والأمر له وحده ، لذلك قال سبحانه عن الأرض وهى خَلْق من خَلْق الله : ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٢)﴾ [الانشقاق] يعنى : سمعتْ وأنصتت لتلقى الأمر .

وفى قصة أم موسى قال لها الحق سبحانه : ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ (١)وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧)﴾ [القصص]

الحق يُطمئن أم موسى ويُعطيها هذا الوعد أنه سينجو ، بل وسيكون من رسل الله ، لأن البحر بحره وخلقه يأتمر بأمره أنْ يحفظ هو الوليد ، وأنْ يُلقى به فى مكان كذا .

إذن : الحق سبحانه شهد لنفسه أنه لا إله غيره ، ثم قضى قضاءه فى كونه قضاءَ مَنْ يرى أنه لا إله غيره ، ولا أحدَ ينقض أمره ، وبعد أنْ قالها سبحانه لم يكذبها الواقع أبداً .

---

(١) قال البغوى فى تفسيره : اليم البحر . وأراد هنا النيل . قال ابن منظور فى لسان العرب (مادة يمم) : « يقع اسم اليم على ما كان ماؤه ملحاً زعاقاً وعلى النهر الكبير العذب الماء » .

لذلك قلنا : أول دليل على الإيمان بالله أنه تعالى هو الذى أخبر أنه وحده الخالق ، ولم يقُمْ له منازع ، لذلك قال سبحانه : ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً (٤٢)﴾ [الإسراء]

وقوله سبحانه : ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلاَّ وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ (٥٠)﴾ [القمر] أى : أننا لا نكرر الأمر لأن أمرنا نافذ ، فيصدر مرة واحدة ، كما قال سبحانه فى آية أخرى : ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٤٠)﴾ [النحل]

هكذا كلمة واحدة من حرفين (كن) فيستجيب على الفور (فيكون) والفاء للترتيب والتعقيب . وقال سبحانه ﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ..(٢١)﴾ [مريم] وقال : ﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (٢٠)﴾ [إبراهيم]

وتأمل هنا سرعة الاستجابة فى ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلاَّ وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ (٥٠)﴾ [القمر] واللمح هو الرؤية الخاطفة التى ليس لها ثبوت ، والحق سبحانه يشبه سرعة الاستجابة بأسرع شىء وأعجل شىء يعلمه الإنسان وهو لمح البصر .

فهذه الأشياء مخلوقة لله وتعرف خالقها وتسرع بالاستجابة لأمره ولا يشذ منها شىء لأنها مُستجيبة طائعة بالفطرة ، قال تعالى :﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً (٧٢)﴾ [الأحزاب]

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُم(١) فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (٥١) وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ (٥٢) وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ (٥٣)﴾

---

(١) أشياعكم : أى أمثالكم من الأمم الماضية ومن كان مذهبه مذهبهم . [لسان العرب – مادة : شيع] .

الخطاب لكفار مكة ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ ..(٥١)﴾ [القمر] أهلكنا أمثالكم ومَنْ على ملتكم من العناد والتكذيب ومصادمة الرسل على مرِّ عصور الرسالات.

﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (٥١)﴾ [القمر] متعظ معتبر من دروس التاريخ ومن سنة الله فى الرسالات .

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ ..(٥٢)﴾ [القمر] من التكذيب ﴿فِي الزُّبُرِ (٥٢)﴾ [القمر] مسجل فى الكتب مسطور محفوظ ليكون حجة على صاحبه ، قال تعالى : ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (١٨)﴾ [ق]

وإذا كنا الآن نشاهد الأحداث بالصوت والصورة وبكل تفاصيلها ، فلم نستبعد ذلك على قدرة الله ؟ فالعقل الذى ينظر فى التطور العلمى و(التكنولوجى) فى مجال تسجيل الصوت والصورة لا بدّ أنْ يصل إلى الإيمان بالحفظَة الذين يسجلون الأعمال .

﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ (٥٣)﴾ [القمر] مسطور ومكتوب فى اللوح المحفوظ .

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (١) (٥٤) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ (٥٥)﴾

---

(١) ذكر هنا (نهر) بالمفرد وهو يقصد الجمع أى أنهار الماء والخمر والعسل واللبن ودليله قوله تعالى : ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ .. (١٧)﴾ [الفتح] . وقال تعالى : ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ..(١٥)﴾ [محمد] وظاهر هذه الآية أنها ليست أربعة أنهار ، بل هى أنهار من كل صنف .

وقال القرطبى فى تفسيره (٦٥٤٩/٩) : « وقرأ أبو مجلز وأبو نهيك والأعرج وطلحة بن مصرف وقتادة (ونُهُر) بضمتين » .

هذه هى خلاصة الأمر ، والغاية التى ينبغى أنْ نسعى إليها ، وهى تحقيق التقوى التى تؤدى بنا إلى جنات ونهر . فلم يقل جنة بل للمتقى جنات ، وكذلك ﴿وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾﴾ [القمر] أى : أنهار .

﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ .. ﴿٥٥﴾﴾ [القمر] مقعد مكان القعود أو مجلس صدق ، لأن الإنسان قد يجلس مجلساً بالصدق أى مجلس خير هو أهْل له ويستحقه ، وآخر يجلس مجلس شر مجلساً بالباطل ، لا يستحقه وليس أهلاً له .

فالمؤمن الذى حقق التقوى أهْلٌ لأنْ يجلس هذا المجلس ويسعد به ، لذلك نجد حينما نستقصى كلمة الصدق هذه فى القرآن نجدها مطلباً ودعاء لأهل الإيمان ، اقرأ : ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾﴾ [الإسراء]

فإذا أردتَ أنْ تدخل فى عمل فاطلب من الله وادْعُه أنْ يُدخلك فيه مدخلاً صحيحاً نافعاً ﴿مُدْخَلَ صِدْقٍ ..﴿٨٠﴾﴾ [الإسراء] بحيث يُعينك عليه فتؤديه بحقٍّ وتؤديه بإخلاص ، وتؤديه على الصورة التى يرضاها الله ورسوله .

كذلك فى الخروج من العمل ، ادْعُ الله أنْ يُخرجك منه مخرج صدق ، وأنْ يُتمه لك على الصدق الذى بدأتَ به .

وفى موضع آخر يقول سبحانه : ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الشعراء] اللسان هنا يُراد به الذكر والمدح ، فسيدنا إبراهيم عليه السلام يدعو الله أنْ يجعل الثناء عليه ، ومدحه بالصدق وبالحق لا بالباطل ، يريد أنْ يكون أهلاً للمدح لا أنْ يمدح كذباً أو نفاقاً يقول : اجعلهم يمدحوننى صدقاً لا كذب ، وبواقع ما عندى من

الخير الذى تتناقله عنى الأجيال .

إذن : مَنْ يحرص على الصدق فى الدخول ، والصدق فى الخروج ، والصدق فى المدح والثناء ، مَنْ يحرص على الصدق فى حياته ينتهى به إلى الصدق فى الآخرة ﴿فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ ..(٥٥)﴾ [القمر] أين ؟ ﴿عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ (٥٥)﴾ [القمر]

ووالله لو كان هذا المقعد عند ملك من ملوك الدنيا لكان عزاً وشرفاً ، فما بالك إذا كان هذا المقعد عند الله المليك : أى الذى يملك الملوك وما تملك الملوك .

اللهم أنلْنَا هذه الغاية وألهمنا جميعاً فى قلوبنا العقيدة الصحيحة ، وأعِنْ جوارحنا على تنفيذها تنفيذاً صحيحاً على وفق سنة سيدنا رسول الله ، ليأخذ بأيدينا جميعاً إلى حضرته فى مقعد صدق عند مليك مقتدر . آمين .

كلمة ﴿ مُّقْتَدِرٍ (٥٥)﴾ [القمر] من أسمائه تعالى المقتدر وتدل على القوة والبطش .

ومن سمات الأسلوب القرآنى أنْ يجمع بين المعنى ونقيضه ، لأن الضدَّ يُظهر حُسْنه الضدُّ .

ولما انتهتْ هذه السورة باسم المقتدر بدأت الرحمن بقوله تعالى :

(الرَّحْمَن) فنقرأ : ﴿عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ (٥٥)﴾ [القمر] ﴿الرَّحْمَـٰنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢)﴾ [الرحمن] فالمليك المقتدر هو الرحمن .

سُورَةُ الرَّحْمَٰنِ

سورة الرحمن (١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الرَّحْمَٰنُ ١ ﴾

الرحمن : اسم من أسماء الله الحسنى ، وهى من صفة الرحمة ، وتعنى إسداء النعم وإنْ كان المنعَم عليه لا يستحقها ، لذلك علّمنا أنْ نقول حينما نقبل على الأعمال « بسم الله الرحمن الرحيم » لأنك ربما كنتَ عاصياً وتستحى أنْ تُقبل على العمل باسم مَنْ تعصاه ، فيقول لك : قُلْها لأننى أنا الرحمن .

والمبالغة فى الرحمة تأتى بمعنيين : مبالغة فى ذات الصفة أى رحمة واسعة ، ومبالغة تأتى من تعدُّد الرحمات بتعدُّد المرحومين ، يعنى : لا رحمةَ تغنى عن رحمة .

---

(١) سورة الرحمن هى السورة رقم (٥٥) فى ترتيب المصحف الشريف ، وهى سورة مكية كلها فى قول الحسن وعروة بن الزبير وعكرمة وعطاء وجابر . وقال ابن عباس : إلا آية فيها هى قوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ.. ﴿٢٩﴾ ﴾ [الرحمن] . وقال ابن مسعود ومقاتل : هى مدنية كلها . قال القرطبى في تفسيره (٩/٦٥٥١) : « القول الأول أصح » . عدد آياتها ٧٨ آية .

وهذا هو معنى الرحمن أى الذى تعمُّ رحمته المؤمنَ والكافر أيضاً ، حيث لم يضنّ عليه لو أخذ بالأسباب ، كما قال سبحانه : ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ (٢٠)﴾ [الشورى] فكأن العصاة والكفار ينعمون فى الدنيا بحضانة كلمة (الرحمن).

إذن : فالحق سبحانه رحمان الدنيا ، أما الرحيم ففى الآخرة ، لذلك يقولون رحمان الدنيا ورحيم الآخرة لأن رحمته تعالى فى الآخرة لا ينالها إلا مؤمن ، وليس للكافر نصيب منها .

﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الْإِنسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤)﴾

أى : نزّله على رسول الله بواسطة جبريل عليه السلام ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ (٥) ذُو مِرَّةٍ[1] فَاسْتَوَىٰ (٦)﴾ [النجم] وقال عنه : ﴿ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (٢٠)﴾ [التكوير]

إذن : جاء العلم من السماء لا من الأرض ، والعلم هو معرفة قضية تعود على الإنسان فى سلوكه بالخير المطلق ، أما العلم إنْ جاء من الأرض خلط بين الخير والشر .

لذلك قلنا : إن الأمية فى ذاتها عيب وضعف ومهانة ، أما الأمية فى حق سيدنا رسول الله فشرف ، لأنها تعنى فى حقه ﷺ أنه لم يأخذ علمه من بشر ، إنما أخذ كلَّ ما يعلم من السماء .

---

(١) ذو مِرَّة : أى ذو قوة ، وأصل المرّة : الفتل . قال المفسرون : وكان من قوته أنه قلع قريات لوط وحملها على جناحه فقلبها ، وصاح بثمود فأصبحوا خامدين . [زاد المسير لابن الجوزى] .

حتى فى الأمة كان من حكمة الله أنْ تكون أمة محمد أمة أمية ، بدو ليس لهم حضارة ولم يُعرف عنهم تقدّم علمى أو غيره من مجالات الحياة ، فلما بعث فيهم رسول الله أقام لهم حضارة جديدة ، وجعل لهم قوة دكّتْ حضارة الفرس والروم فى وقت واحد .

وهذا يعنى أن قوتهم جاءت من هذا الدين الذى جاء من السماء ، وأخذ تعاليمه لا من البشر بل من ربِّ البشر .

والعجيب أن الحق سبحانه قدَّم ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝٢﴾ [الرحمن] على ﴿خَلَقَ[1] الإِنسَانَ ۝٣﴾ [الرحمن] ليعلمنا أهمية العلم ووَضْع المناهج والأسس قبل أنْ نُقدم على العمل ، فقبل أنْ يخلق الإنسان وضع له منهج حياته ، مثل الذى يصنع صنعة فيضع لها (الكتالوج) الذى يضمن صيانتها ، ونحن نرى الآلة تعطب وتفسد إذا لم تُستخدم وفق المنهج الذى يصلحها ، كذلك الإنسان لا يصيبه العطب إلا إذا خالف منهج ربه .

إذن : ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝٢ خَلَقَ الإِنسَانَ ۝٣﴾ [الرحمن] تعنى : أن وَضْع المنهج سابق على خَلْق الإنسان ، فجاء الإنسان فوجد المنهج الذى يُحدِّد له : افعل كذا ولا تفعل كذا ، هذا حلال وهذا حرام ، هذا خير وهذا شرّ .

ومن معانى الرحمة فى القرآن أنْ يعتنى الراحم بالمرحوم عناية

---

(١) الإنسان هنا مقصود به أحد ثلاثة :

أولها : أنه اسم جنس فالمعنى خلق الناس جميعاً . قاله الأكثرون .

الثانى : أنه آدم . قاله ابن عباس وقتادة .

الثالث : أنه محمد ﷺ ، علّمه بيان ما كان وما يكون . قاله ابن كيسان . [زاد المسير لابن الجوزى] .

تحفظ له مقوِّمات حياته ، فى سلامة ليس معها عطل ولا عطب ، لذلك يقول تعالى : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ .. (٨٢) ﴾ [الإسراء] قالوا : شفاء للداء الذى يطرأ عليك نتيجة الغفلة عن المنهج ، والرحمة ألاَّ يحدث الداء أصلاً .

وقالوا فى سبب نزول هذه الآيات أن كفار مكة اتهموا رسول الله بأنه يذهب إلى رجل أعجمى يعلمه القرآن ، فقالوا كما حكى القرآن ﴿ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ .. (١٠٣) ﴾ [النحل] فردَّ الله عليهم رداً منطقياً ، فقال : ﴿ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ (١٠٣) ﴾ [النحل]

وقال هنا : ﴿ الرَّحْمَـٰنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) ﴾ [الرحمن] وكيف لرجل أعجمى لا يعرف العربية أنْ يأتى بهذا القرآن الفصيح ، إذن : فالقرآن جاء من العلو ، نزل من السماء لم يخرج من الأرض .

ثم نقف على معنى آخر للرحمن فى قوله تعالى : ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَـٰنَ .. (١١٠) ﴾ [الإسراء] فجاء بصفة الرحمة بعد صفة الألوهية ، لأن الألوهية تكليف ، والتكليف قد يشقّ على النفس ، فناسب بعدها أنْ يذكر صفة الرحمة .

كأنه سبحانه يقول لك : لا تقلق ، فالذى كلّفك هو الرحمن الذى تسع رحمته الجميع ، وتعم رحمانيته المؤمن والكافر .

وفى مسألة بدء الخلق ، قال تعالى : ﴿ الَّذِي خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَـٰنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا (٥٩) ﴾ [الفرقان]

فالحق سبحانه بعد أن خلق الخلق استوى على عرشه تعالى ،

والاستواء يعنى السيطرة واستتباب الأمر له سبحانه ، فيذكر هنا صفة الرحمة ليقول لنا : إنها ليست سيطرة قهر وبطش وجبروت ، إنما سيطرة رحمانية .

حتى فى موقف الآخرة وما فيها من أهوال يذكر صفة الرحمة ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَـٰنِ عَبْدًا (٩٣)﴾ [مريم] الله سبحانه يتحنّن إلى خَلْقه ويعطيهم الأمل فى عطفه ومحبته لهم .

وهنا جاءت الرحمن آية مستقلة ﴿الرَّحْمَـٰنُ (١)﴾ [الرحمن] لأنها حين تُطلق لا تنصرف إلا إلى الحق سبحانه ، وتجمع كل هذه المعانى وسيالها السارى فى كل تكليف .

وفى تقديم ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢)﴾ [الرحمن] على ﴿خَلَقَ الإِنسَانَ (٣)﴾ [الرحمن] تكلموا فى الغاية والوسيلة أيهما تسبق الأخرى ، والمعلوم عادة أن الغاية تأتى بعد الوسيلة ، فلو أنك تريد الذهاب مثلاً إلى الإسكندرية فأنت تركب وسيلة مواصلات ، وتسلك طريقاً يُوصلك ، وباستخدام الوسيلة تصل إلى غايتك وهى الإسكندرية .

وقد عبَّر الشاعر عن هذا المعنى ، فقال :

أَلاَ مَنْ يُرِينى غَايَتِي قَبْلَ مذْهَبِى ... وَمِنْ أيْنَ وَالغَايَاتُ بَعْدَ المذَاهِبِ

نعم البشر عاجزون عن معرفة الغايات مُقدماً ، لكن رب البشر يعرفها مقدماً وأزلاً ، فيخبر بغايتك قبل أنْ تُخلق ، وقبل أنْ تسلك إليها الوسيلة ، وعليه يمكن أنْ تقدم الغايات على الوسائل . نقول : أنت لم تسلك السبيل إلى الإسكندرية إلا وهى فى بالك ، فالغاية موجودة قبل الوسيلة .

ويمكن أنْ نجمع بين الرأيين لو قلنا بأن الغاية أولاً تخطيط ، لأنك تُحدِّد الغاية قبل الشروع فى الوسيلة ، والوسيلة أولاً واقع وتنفيذ . إذن : ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾﴾ [الرحمن] هى الوسيلة التى تُوصلنا إلى الغاية المرجوة ؛ فالوسيلة بعد الغاية تخطيطاً ، ولكن الغاية بعد الوسيلة واقعاً . أو بتعبير آخر : الغاية قبل الوسيلة دافعاً ، ولكنها تأتى بعد الوسيلة واقعاً .

والقرآن كله مقصده العقائد والأحكام والآداب والقصص ، فالعقائد لُبُّها فى القلب ، وهى أنْ نؤمن بإله واحد أحد لا نشرك به شيئاً ، وهذا الإيمان له جناحان هما الخوف والرجاء ، فإذا كنتَ فى خير وأمن وسلامة لا تأمن مكر الله .

وإذا كنتَ فى شدة وبُؤْس لا تقنط من روح الله ، ولو أُشرِبَ القلبُ هذه العقيدة الصحيحة لَضخّها إلى باقى الجوارح ، فجاء سلوك الجوارح موافقاً لعَقيدة القلب .

وحين تتبع أحكام القرآن وأوامره وآدابه تجد رحمانية (الرحمن) سيالاً عاماً فى كلّ الجوارح ، وأول جارحة فى التكليف هى اللسان ثم الأذن ، لأن اللسان هو المبلِّغ ، والأذن هى التى تتلقى ، والاستقبال الأول من الله تعالى لا بدّ أن يتوفر فيه الصدق والأمانة لأنه مبلِّغ عن الله .

لذلك قلنا فى الثناء على سيدنا رسول الله : الصلاة والسلام عليك يا سيدى يا رسول الله ، يا أذن الخير التى استقبلتْ آخر رسالات السماء ، ويا لسانَ الصدق الذى بلّغ عن الحق مراده من الخلق .

وقد أعدَّ الله رسوله محمداً لهذه المهمة ، وجعل فيه من مواصفات التلقى والبلاغ ما يُؤهله لها ، وقد شهد له قومه حتى قبل بعثته ، ورأينا أن الذين سبقوا للإيمان بمحمد قبل أنْ يروا له معجزة تؤيده

آمنوا به لسابقة علمهم بسلوكه وأخلاقه .

لذلك لما عرَّفه الله لقومه قال لهم : ﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ..(٢٩)﴾ [الفتح] أى : محمد هذا الذى تعرفونه وتشهدون له ، ولا تختلفون على صدقه وأمانته ، هو رسول الله إليكم فكأن كلمة محمد واسمه ذاته هو حيثية كَوْنه رسولَ الله .

والمنهج القرآنى هو (الكتالوج) الذى يصلح حركة حياة البشر قد جاء بما يحفظ اللسان ، فأمرك بذكر الله وقَوْل الحق ، ونهاك عن قَوْل الزور والباطل واللغو ، وبما يحفظ الأذن ، فأمرك بسماع ما هو خير لك مفيد لحياتك ، ونهاك عن سماع الباطل.

اقرأ : ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ .. (٦٨)﴾ [الأنعام] وقال سبحانه : ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا (١٤٠)﴾ [النساء]

وهكذا تجد المنهج القرآنى يحفظ عليك كلَّ الجوارح بما بيَّنه لك من الحلال والحرام ، والخير الذى أمرك به ، والشر الذى نهاك عنه ، وحين تتأمل فى هذه الأوامر وهذه النواهى تجد أنها مظهر من مظاهر رحمة الله بنا ، وتجد سيال الرحمانية فيها كلها .

فحركة الحياة إنْ قامت على وفق منهج الله ساد الأمن والرخاء ، وحفظ لكلِّ ذى حقٍّ حقه ، وإنْ قامت على غير هذا المنهج ضاعت الحقوق وعَمَّ الفساد وانتُهكتْ الأعراض .

فمن رحمة الله أنْ يحرم قول الزور وشهادة الزور[1] ، لأنها تنقل الحق لغير صاحبه وتحرم صاحب الحق من حقه ، وتأمل الفساد الذى يستشرى فى المجتمع نتيجة ضياع الحقوق .

فشهادة الزور والغش والسرقة والخطف والغصب والاختلاس والرشوة والتدليس والمحسوبية وغيرها من المحرمات نهى عنها الشرع ، وسماها القرآن أكل أموال الناس بالباطل ، فقال تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَـٰطِلِ .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [النساء] أليست هذه من رحمة الله بنا ، نعم يرحم بعضنا من ظلم بعض ؟

إذن : نقول سيال (الرحمن) فى كل الأحكام وفى كل المنهج حتى حينما يأمرنا بالقصاص ، وأن القاتل يُقتل ، حتى فى القتل رحمة ، لأنه يحمى القاتل ، ويحمى المقتول ، ويحمى المجتمع باسْره ، فلو علم القاتل أنه سيُقتل ما تجرّأ على القتل .

وكلُّ التكاليف الشرعية تنطلق من هذه الرحمانية منذ أن خلق الله آدم عليه السلام ، وأسكنه الجنة ، وأجرى له هذه التجربة التمرينية فى الانقياد للأمر ، فلما أقام آدم على أمر الطاعة استقرّ فى الجنة وتمتع بها ، فلما خالف الأمر شقى وبدتْ عورته وساء حاله .

ومن هذه التجربة عرفنا موقف الشيطان من الإنسان ، وعلينا أن نعتبر بالدرس الذى عاشه أبونا آدم ، وأن نحذر مخالفة منهج الله .

واقرأ : ﴿ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى

---

(١) عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : ذكر رسول الله ﷺ الكبائر أو سئل عن الكبائر ، فقال : الشك بالله وقتل النفس وعقوق الوالدين ، فقال : ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ قال : قول الزور أو شهادة الزور . أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٥٢٠) وكذا مسلم فى صحيحه (١٢٨) .

هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا(١) وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا(٢) وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ (١٢٦)﴾ [طه]

إذن : جاء التكليف كله من سيال الرحمانية ، حتى فى حالة الخروج عن المنهج وحدوث المخالفة لا يتخلى عنك ربك ، ولا تفارقك هذه الرحمة ، إنما يشرع لك التوبة ويفتح لك باب الرجعة إلى ساحته تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ..(٤٨)﴾ [النساء] فمشروعية التوبة فى حدِّ ذاتها من سيال الرحمانية .

وقوله تعالى : ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤)﴾ [الرحمن] لنفهم هذا المعنى نعود إلى ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢)﴾ [الرحمن] حيث لم يخبر الحق سبحانه علَّم مَنْ ، لأنه سبحانه قال ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢)﴾ [الرحمن] وليس هناك أحد يعلمه . إذن : ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢)﴾ [الرحمن] يعنى : جهَّزه وأعدَّه للعلم به ، فلما خلق الخلق قال : ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤)﴾ [الرحمن] أى : علّم الإنسان الخليفة فى الأرض .

---

(١) ضنك : قال ابن الجوزى فى زاد المسير : للمفسرين فى المراد بهذه المعيشة خمسة أقوال :
أحدها : أنها عذاب القبر . لحديث أبى هريرة وقاله ابن مسعود وأبو سعيد الخدرى والسدى.
الثانى : شدة عيشه فى النار . رواه الضحاك عن ابن عباس وبه قال الحسن وقتادة وابن زيد .
والثالث : أنه ضغطة القبر حتى تختلف أضلاعه فيه .. رواه عطاء عن ابن عباس .
الرابع : أن المعيشة الضنك هى كسب الحرام . (قال ابن عباس : المعيشة الضنك أن تضيق عليه أبواب الخير فلا يهتدى لشيء منها وله معيشة حرام يركض فيها .

(٢) فنسيتها : أى أعرضت عنها وتركتها ولم تنظر فيها . [قاله الشوكانى فى فتح القدير تفسير آية [١٢٦ طه] .

والبيان هو أنْ تستطيع أنْ تعبر عما فى نفسك بأسلوب بيِّن واضح يفهمه المخاطب ، وهذا يعنى أننا لا بدّ أن نلتقى على شىء واحد نفهمه ، وهو اللغة ، وهذه هى التى علَّمها آدم عليه السلام .

قال تعالى : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا .. ﴿٣١﴾ ﴾ [البقرة] ليستطيع أنْ يعبِّر بها عما فى نفسه ، ومعنى علَّمه الأسماء كلها أى : أسماء الأشياء[1] ، فآدم عليه السلام هو مصدر اللغة .

وقلنا : إننا لو سلسلنا تعليم اللغة لَعُدنا به إلى آدم ، فالابن تعلَّم من أبيه ، وأبوه تعلَّم من أبيه إلى أنْ نصل إلى آدم ، وآدم علَّمه مَنْ ؟ علَّمه ربه عز وجل .

ولقائل أنْ يقول : علَّم الله آدم أسماء الأشياء الموجودة فى بيئته ، فعرف أسماء السماء والأرض والشمس والقمر والأشخاص والحيوانات وغير ذلك ، فما بال الأسماء التى استُجدتْ بعده ؟

نقول : معنى علّمه الأسماء أوسع مما نفهمه من مسألة التعليم ، فالمراد علّمه ما يقيم منطقه ليستطيع التعبير عما يستجد أمامه من أسماء ، ويستطيع أنْ يستخدم ما علَّمه فى الوصول إلى الجديد الذى لا يعلمه .

(فالتليفزيون) مثلاً لم يكُنْ له اسم قبل أنْ يُوجد ، لكن لما وُجد وضعوا له اسماً اتفقوا عليه ، وهذا يُنهِى الخلاف مع الذين يقولون أن اللغة توقيفية . نقول : لا ليستْ توقيفية فيما يَستجد عليها من أسماء .

---

(١) يقول تعالى : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ..﴿٣١﴾ ﴾ [البقرة] قال الماوردى فى تفسير الآية : « فى الأسماء التى علمها الله تعالى آدم ثلاثة أقوال : أحدها : أسماء الملائكة . الثانى : أسماء ذريته . الثالث : أسماء جميع الأشياء . وهذا قول ابن عباس وقتادة ومجاهد » .

﴿ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝٦ ﴾

والشمس والقمر آيتان من الآيات الكونية فى السماء ، ومعنى ﴿ بِحُسْبَانٍ ۝٥ ﴾ [الرحمن] بحساب دقيق ، نقول : حسبتُ الأمر حساباً وحُسْباناً ، لأنهما يجريان بحساب دقيق وقدر قدَّره الخالق سبحانه ، كما نقول نحن (الشىء دا ميخرش الميه) . يعنى : دقيق دقة متناهية .

وفى موضع آخر عبَّر القرآن عن هذه الدقة ، فقال : ﴿ لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ[1] يَسْبَحُونَ ۝٤٠ ﴾ [يس]

فمنذ خلق الله الشمس والقمر وهما يدوران كُلٌّ فى مداره لا يشذ عنه ، ولأنهما بهذه الدقة جعلهما الله ميزاناً ودليلاً على ضبط الأوقات ، فالساعة فى يدك إنْ لم تكُنْ فى ذاتها منضبطة لا تصلح لضبط الوقت .

فالشمس تضبط لنا حساب اليوم والليلة ، والقمر يضبط لنا حساب الشهر ، والشمس بالشروق والغروب ، والقمر بمراحله التى يمرُّ بها خلال الشهر ، حيث يبدأ هلالاً ثم يكبر حتى يصير بدراً فى منتصف الشهر ، ثم يأخذ فى التناقص حتى يعود كما كان فى أول الشهر ﴿ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ[2] الْقَدِيمِ ۝٣٩ ﴾ [يس]

---

(١) فلك : الفلك : المدار يسبح فيه الجرم السماوى ، قال تعالى : ﴿ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ۝٣٣ ﴾ [الأنبياء] أى فى مدار تدور فيه [القاموس القويم ٢/٨٩] .

(٢) العرجون : أصل عذق النخلة ، ومنه تتفرع شماريخ البلح ، ويكون فى أول ظهوره أخضر ثم يبيض ثم يصفر عند نضج البلح ، فإذا قطع وجفّ صار أبيض وشبه به القمر آخر الشهر لأنه يكون ملتوياً كجزء من القوس أبيض قليل الضياء . [القاموس القويم ٢/٢٤] .

وقال تعالى : ﴿هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ[١] لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٥﴾ [يونس]

فالشمس لها ضياء ولها حرارة ، والقمر له نور لأنه يعكس ضوء الشمس فليس له حرارة ، ونلاحظ أن شهر القمر أقل من شهر الشمس لاختلاف حركة دوران كل منهما ، والشمس لها كل يوم مطلع .

لذلك لاحظوا فى معابد الفراعنة أن بها ٣٦٥ طاقة ، تدخل الشمس من واحدة منها كل يوم ، وبذلك استطاعوا بحسابات دقيقة أنْ يجعلوا الشمس تتعامد على وجه رمسيس فى يوم معين .

ومن حكمته تعالى أنْ جعل العبادات والصلوات اليومية مرتبطة بالشمس ، وجعل العبادات الشهرية أو السنوية مرتبطة بالقمر فلو ارتبط رمضان مثلاً بحركة الشمس لظلَّ فى زمن واحد لا يتغير أبداً .

فلو جاء مثلاً فى بؤونة[٢] يظل فى بؤونة طوال العمر ، ولو جاء فى طوبة يظل فى طوبة كذلك ، لكن ارتباطه بحركة القمر جعله يأتى على مدار العام كله ، وكلٌّ منا فى رحلة حياته صام رمضان فى الصيف وصامه فى الشتاء ، كذلك الحال فى عبادة الحج .

وتعلمون أن هذا التغيير يأتى من ١١ يوماً هى الفرق بين توقيت

---

(١) منازل القمر : هى مجموعة النجوم التى يقطعها القمر فى دورة له تامة حول الأرض فى ٢٨ يوماً ، وعدد منازل القمر ٢٨ منزلاً ينزل القمر كل ليلة بمنزل منها ، وتسمى هذه المنازل الطوالع .

(٢) بؤونة : شهر مصرى ، أصله بالهيروغليفية (با أونى) أى إله المعادن ، لأن فيه تستوى المعادن والأحجار ، ولذا يسميه العامة بؤونة الحجر نسبة لشدة الحر فيه .

الشمس وتوقيت القمر ، وهذا يُسهِّل أمر التكاليف العبادية ، ويعطى الغاية بدون عطب فى الكون ، لأن الشمس والقمر آياتٌ كونية عظيمة لا تتناولها أيدى الصيانة ، فهى تؤدى مهمتها بقدرة الله منذ خلقها الله .

وقوله تعالى : ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾﴾ [الرحمن] كلمة النجم تُطلق على النجم فى السماء ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾﴾ [النحل] والنجم أيضاً هو العشب والنبات الذى ليس له ساق .

فالآيتان جمعتا بين جنسين من الآيات الكونية : الشمس والقمر من آيات السماء ، والنجم والشجر من آيات الأرض ، وقد جمعتهما كلمة النجم ، فالشمس والقمر منسجمان لأنهما من جنس واحد ، والنجم والشجر أيضاً من جنس واحد ، هذا فى السماء وهذا فى الأرض .

ومعنى ﴿يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾﴾ [الرحمن] يخضعان لمراد الخالق ، وفى آيات كثيرة بيَّن الحق سبحانه أن هذه الجمادات والنباتات تسجد لله وتُسبّح الله بما يناسبها .

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿١٨﴾﴾ [الحج]

لذلك نسمع علماء الطبيعة يقولون : أن النبات يمتصّ الغذاء من الأرض بخاصية الأنابيب الشعرية ، نعم فى النبات أنابيب شعرية لكن فيها إعجاز وفيها حياة وفيها قدرة ، فلو أنك جئت بحوض به ماء ووضعت به أنابيب شعرية فإنها تمتص الماء كله بكل عناصره .

أما امتصاص النبات فأمر آخر ، لأن النبات يمتصُّ من عناصر التربة ما يحتاجه ، ويميز بين عنصر وعنصر ، ألا ترى أن قصب السكر يمتصُّ الحلاوة ، والفلفل مثلاً يمتص الحرارة .

واقرأ : ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾ [الرعد]

إذن : المسألة ليستْ مسألة الشعيرات ، إنما مسألة آية من آيات الله : ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾﴾ [الأعلى]

﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴿٩﴾﴾

والسماء معطوفة على النجم والشجر ﴿رَفَعَهَا ..﴿٧﴾﴾ [الرحمن] تراها فوقك بلا عمد ﴿وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾﴾ [الرحمن] أنزل أسس العدالة والحق ، والميزان هو الآلة التى تضبط الحق والباطل[1] .

---

(١) قال الحسين بن الفضل : هو القرآن ، لأن فيه بيان ما يحتاج إليه . نقله القرطبى فى تفسيره (٩/ ٦٥٥٤) أما الحسن وقتادة والضحاك فقالوا : هو الميزان ذو اللسان الذى يوزن به لينتصف به الناس بعضهم من بعض . قلت : وهو الأولى فى تأويل (الميزان) للآيات بعده الناهية عن الطغيان فى الميزان والآمرة بإقامة الوزن بالقسط .

[عادل أبو المعاطى]

ثم أمرنا سبحانه بأنْ نقيم ميزان العدالة ﴿أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾﴾ [الرحمن] الطغيان هو مجاوزة الحد ، أى : لا تتجاوزوا الحقَّ إلى الباطل . إذن : الآيات تحدثنا عن منظومة كونية قامتْ على الحق وعلى نظام دقيق لا يشذ ولا يتخلف .

وميزان العدالة يحكم حركة الشمس والقمر كما يحكم حركة الإنسان ، اقرأ : ﴿لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يس] فلم يطغ شىء على شىء ، كذلك الإنسان .

﴿أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾﴾ [الرحمن] فالأجرام والأفلاك السماوية لما استقامتْ على ما خُلقت عليه وعلى مراد الله منها استقامتْ حركتها فى أداء مهمتها فى الكون ، فلم نَرَ مثلاً بين هذه الأجرام تصادماً ، كذلك أيها الإنسان إنْ أردتَ أنْ تستقيم حركة حياتك فسِرْ فيها على هذا الميزان الذى وضعه الله لك .

وبعد أنْ نهى سبحانه عن الطغيان فى الميزان يأمرنا سبحانه : ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴿٩﴾﴾ [الرحمن] أى : بالعدل بحيث يأخذ كلّ ذى حَقٍّ حقه ، كما قال سبحانه : ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾﴾ [الشعراء] فإقامة الشىء تعنى آداؤه على أكمل وجه ، فلأن الميزان هو الضابط فلا بدّ أنْ يكون دقيقاً قائماً على القاعدة التى أرادها الله وهى العدالة .

ثم يؤكد الأمر السابق بنهى ﴿وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴿٩﴾﴾ [الرحمن]

قالوا أى : لا تُنقصوا الميزان ، لكن نقص الميزان قد يكون له صور مختلفة ، فالذى يغشّك ويضع لك الفاكهة المعطوبة على أنها سليمة يُنقص الميزان .

والذى يتلاعب فى آلة الوزن ينقص الميزان ، فالحق سبحانه يريد أنْ يحفظ للعباد حقوقهم ، وهذه من سيال رحمانيته تعالى .

﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ﴿١١﴾ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾

الحق سبحانه قال عن السماء ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا ﴿٧﴾﴾ [الرحمن] وقال عن الأرض ﴿وَضَعَهَا .. ﴿١٠﴾﴾ [الرحمن] أى : جعلها منخفضة ومنبسطة ، وقال سبحانه : ﴿الأَرْضَ مَهْدًا ..﴿٥٣﴾﴾ [طه] فهى ممهدة وقال : ﴿مِهَادًا ﴿٦﴾﴾ [النبأ] تحمل الإنسان كما حمل المهد الطفل . فالأرض وُضعتْ ليستقرَّ عليها الإنسان .

ومعنى﴿لِلأَنَامِ ﴿١٠﴾﴾ [الرحمن] لبنى الإنسان ، وقالوا : بل يدخل فى الأنام كلُّ ذى روح ، فالحيوانات بهذا المعنى هى من الأنام ، لأنها تأكل من زرع الأرض وتعيش عليها . وقالوا : الجن أيضاً من الأنام .

ونلاحظ فى هذه الآية العموم فى الأرض فلم يُخصصها أرض مَنْ ، وهذا يعنى الشمول ، فالأرض أى كل أرض فى أىّ مكان ، كذلك

﴿لِلأَنَامِ (١٠)﴾ [الرحمن] أىّ أنام[1] فأرض الله فى كلِّ مكان لعباد الله فى كلّ مكان .

وهذا المعنى نفهمه من قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُوْلَـئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٩٧)﴾ [النساء]

فأرض الله للجميع ، إذا ضاقتْ عليك الحياة هنا فاذهب إلى مكان آخر فيه متسع ، وهذه فى حدِّ ذاتها كفيلة بأن تحل مشاكل العالم اليوم لو أخذوا بها ، لكن الحاصل أنهم قطَّعوا أوصال هذه الوحدة الطبيعية التى أرادها الخالق للخَلْق ووضعوا فيما بينهم الحدود والحواجز .

ومن العجيب أنْ نراهم يختلفون على عدة أمتار على حدودهم وهم يعيشون على مئات بل آلاف الكيلو مترات من أرض الله ، ثم لك أنْ تتأمل الخريطة وترى رسم الحدود بين الدول الآن ، هل تراها على شكل مستقيم ؟

---

(١) فى الأنام ثلاثة أقوال :

أحدها : أنهم الناس . قاله ابن عباس .

الثانى : الأنام الإنس والجن . قاله الحسن .

الثالث : الأنام جميع الخلق من كل ذى روح . قاله مجاهد وقتادة والسدى ، سمى بذلك لأنه ينام . [الماوردى فى تفسير الآية ١٠ الرحمن] .

لا بل هى متعرجة وملتوية ومتداخلة بعضها فى بعض ، فهكذا أرادها الحق سبحانه ، الأرض كلُّ الأرض للأنام كلّ الأنام .

ونحن الآن نرى أرضاً تكاد تنفجر من كثرة عدد السكان لكن فيها قلة موارد ، وعلى النقيض نرى أرضاً خالية من السكان مليئة بالموارد المهملة التى لا تجد مَنْ يستخرجها ، فهل هذا هو الميزان العادل الذى قامت عليه أمور الخلق ؟ لا والله بل هذا جور وطغيان فى الميزان .

ولك أنْ تنظر إلى الحدود المصطنعة والأسوار والمطارات والبواب وما يحكمها من قوانين صارمة وتأشيرات دخول وشروط ، حتى أنك تستغرق شهراً وشهوراً تعد فى أوراق وتأشيرات لتتمكن من دخول بلد كذا وكذا .

ثم ترتّب على هذا الفصل بين الحدود وجود الخلافات الدولية ، والتمييز العنصرى ، وانفراد أصحاب الثروات بثرواتهم ، فنشأت الحروب والصراعات كما ترون .

ثم تُعدِّد الآيات طرفاً من نعَم الله فى الأرض : ﴿فِيهَا ..(١١)﴾ [الرحمن] أى فى الأرض ﴿فَاكِهَةٌ . (١١)﴾ [الرحمن] الفاكهة ما يتفكّه به، فهى من الكماليات والزيادة عن الطعام الأصلى ، وأتى بالفاكهة قبل البُرِّ والقمح وغيره من الحبوب .

﴿وَالنَّخْلُ ذَاتُ الأَكْمَامِ (١١)﴾ [الرحمن] جمع كم ، وهو الغطاء الذى يكون على الثمرة قبل نُضْجها ، والأكمام هنا المراد بها الطلع .

﴿وَالْحَبُّ .. (١٢)﴾ [الرحمن] مثل القمح والشعير والذرة وغيرها من المطعومات .

﴿ذُو الْعَصْفِ .. ﴿١٢﴾﴾ [الرحمن] هو القشرة التى تغطى الحبة ، وذِكْر العصف يدل على أهميته الغذائية ، وقد توصل العلماء إلى أن لقشرة القمح فوائد صحية عظيمة(١) ، وأن حبة القمح لا تؤدى مهمتها إلا مع قشرتها .

وقد حذر العلماء من تناول الدقيق الفاخر أو (العلامة) خالية من قشرتها ، والذى أسرف فى تناول الدقيق الفاخر ، يُضطر فى مراحل تقدُّم السن إلى أنْ يأكل الخبز من الردة أو السِّن ، لذلك نجد رغيف السِّن أغلى من رغيف (الفينو) .

إذن : نفهم من ﴿وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ ..﴿١٢﴾﴾ [الرحمن] أن نأخذ الحب كما خرج من أرضه بعَصْفه فهذه ميْزته ، وقد وردت كلمة العصف أيضاً فى قوله تعالى فى قصة أصحاب الفيل : ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾﴾ [الفيل] يعنى : فتات وبقايا الأكل .

﴿وَالرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾﴾ [الرحمن] قالوا : هو لُبُّ الحبة .

وقالوا : هو النبات ذو الرائحة الطيبة المعروف بهذا الاسم .

﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾ [الرحمن] الخطاب للثقلين الجن والإنس ، لذلك سيخاطبهم بعد ذلك ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلانِ ﴿٣١﴾﴾ [الرحمن] وهنا يخاطبهم الحق سبحانه بهذا الاستفهام : هذه نعم الله

---

(١) قشرة القمح هى قشرة رقيقة فيها ستة فيتامينات ب١ إلى ب٦ بالإضافة إلى عدة فيتامينات أخرى وفيها مادة فسفورية هى غذاء للدماغ والأعصاب وفيها الحديد الذى يهب الدم قوة وحيوية ويعين على اكتساب الأكسجين من الرئتين وفيها كالسيوم الذى يبنى العظام وفيها السيليكون الذى يقوى الشعر ، وفيها اليود الذى ينشط عمل الغدة الدرقية .. وهكذا .. ونحن ننزع عن حبة القمح قشرها ونرميه للبهائم ونأكل نحن النشا الصافى .

وآلاؤه ، فبأيِّ هذه النعم تكذِّبان أيها الإنس وأيها الجان ؟

ومن أساليب القرآن الكريم أن الحق سبحانه حينما يريد أنْ يقرر حكماً ويؤكد عليه لا يأتى به فى صورة الخبر ، إنما يأتى فى صورة الاستفهام ، كأنه يقول لهم : قولوا أنتم ، وحين تبحث عن الجواب للاستفهام لا بد أنْ تقول : ولا بشىء من نعمتك ربنا نكذب .

وأنت لا تسلك سبيل الاستفهام إلا وأنت واثق من أن الجواب سيأتى ولا بد كما تريد ، كالذى ينكر مثلاً فضلك عليك ، فتقول له : ألم أفعل معك كذا وكذا ؟

كلمة ﴿آلاءِ .. ﴿١٣﴾﴾ [الرحمن] أى نعم جمع أل مثل حمل وأحمال . وهذه الآية :﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾ [الرحمن] تكررتْ فى هذه السورة عدة مرات ، وهذا له مزيّة وحكمة ، كما فى قوله تعالى فى السورة قبلها :﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾ [القمر] ومثل ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾﴾ [القمر] ومثل هذا التكرار له حكمة ، ويضيف جديداً ، وإلا كان زيادة ، والقرآن مُنزَّه عن هذا .

فالأسلوب هنا حينما يكرر ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾ [الرحمن] تأسيس لكل نعمة مخصوصة ، فمع كل نعمة يعيد هذا الأسلوب ، فيجعل كلّ نعمة على حدة مسئولاً عنها هذا السؤال .

وقد تكررت هذه الآية فى سورة الرحمن إحدى وثلاثين مرة فكأن الحق سبحانه يريد أنْ يؤكد لنا على سيال الرحمانية فى سورة الرحمن فيذكرها فى كل نعمة ، هل تكذِّبون بكذا ؟ هل تكذِّبون بكذا ؟

وكيف لنا أنْ نكذِّب ونحن نتقلَّب فى هذا النعيم ليل نهار ، لذلك سَنَّ لنا رسول الله حينما نقرأ هذه الآية أنْ نقول : ولا بشىء من نعمائك ربنا نكذِّب .

فقد ورد أن سيدنا رسول الله ﷺ قال : قرأتُ سورة الرحمن على إخوانكم من الجن ، فكانوا أحسن استجابة منكم ، كانوا كلما قرأتُ ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٣) ﴾ [الرحمن] قالوا : ولا بشىء من نعمائك ربنا نكذب فلك الحمد[1].

وهذا يعنى أننا حينما نستمع للقرآن يجب أنْ ننفعل به ونتدبر معناه ، لا أنْ يمرّ على آذاننا هكذا كغيره من كلام البشر ، وقد رأينا أهل الإيمان والقرب من الله ، يفعلون ذلك ، فإذا ذُكر اسم الله قالوا سبحان الله ، أو جَلّ جلاله ، وإذا ذُكر رسول الله قالوا : صلى الله عليه وسلم . إذا ذُكرتْ الجنة سألوها ، وإذا ذُكرتْ النار استعاذوا بالله منها ، وهكذا يتفاعل المؤمن مع كلام الله . فأين نحن من هؤلاء ؟

ولقد استمعتُ إلى القرآن فى أحد المآتم ، وكان الشيخ يقرأ آيات العذاب ويذكر النار وجهنم ، فإذا بواحد من المشجِّعين له يقول : إيه العظمة دى ، اللهم زيدك يا شيخ !!

---

(١) أخرج الترمذى وأبو الشيخ فى العظمة والحاكم وصححه والبيهقى فى الدلائل عن جابر بن عبد الله قال : خرج رسول الله ﷺ على أصحابه فقرأ عليهم سورة الرحمن من أولها إلى آخرها فسكتوا ، فقال : مالى أراكم سكوتاً لقد قرأتها على الجن ليلة الجن فكانوا أحسن مردوداً منكم ، كنت كلما أتيت على قوله (فبأى آلاء ربكم ما تكذبان) قالوا : ولا بشىء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد » ذكره السيوطى فى الدر المنثور فى تفسير الآية ١٠ سورة الرحمن .

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ[1] مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾﴾

الصلصال هو الطين الذى جف وتيبَّس ، والصلصال مرحلة من المراحل التى مرَّ بها الإنسان فى الخَلْق الأول لادم عليه السلام ، فقد أخبرنا الحق سبحانه أن الإنسان خلِق من ماء ، ومن طين ، ومن تراب ، ومن حمأ[2] مسنون ، وكلها مراحل حتى صار صلصالاً كالفخار .

هى إذن مراحل للشىء الواحد ، فالتراب بالماء يصير طيناً ، والطين لو تُرِكَ فترة يختمر ، ويأكل بعضه بعضاً ، وتتغير رائحته فيصير حمأً مسنوناً ثم يجف فيصير صلصالاً .

وليس مرحلة من هذه المراحل هى بداية الخَلْق ، إنما كلها مجتمعة هى بداية الخَلْق ، والحق سبحانه أخبر : ﴿مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ ..(٥١)﴾ [الكهف]

فنحن لا نعرف كيف خُلِقنا إلا من خلال ما أخبرنا الله به ، لذلك

---

(١) مارج : المارج الشعلة الساطعة ذات اللهب ، أو اللهب المختلط بسواد النار . [القاموس القويم ٢/٢٢١] .

(٢) حمأ مسنون : الحمأ : الطين الأسود المنتن . [لسان العرب – مادة : حمأ] . والمسنون : المصبوب فى قالب إنسانى أو مصوَّر بصورة إنسان أو طين كالفخار صالح للتصوير والصقل . [القاموس القويم ١/٣٣١] .

يقول سبحانه بعدها :﴿ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ ﴾ [الكهف] المضلون هم الذين يخبرون عن الخَلْق بغير ما أخبر الحق ، كالذى طلع علينا يقول[1] إن الإنسان فى أصله قرد ثم تطور إلى الإنسان ، فالقرآن يسبق الزمن ويخبر بما سيكون ، ويحذرنا من تصديق هذه الافتراءات والكذب على الله تعالى .

والحق سبحانه وتعالى حينما يُحدِّثنا عن أمر غيبى يقف العقل أمامه ، يوضحه لنا بأمر مشاهد يدلّ عليه ، فنحن نعم لم نَرَ الخَلْق الأول فهو أمر غيبى ، لكن رأينا نقيضه وهو الموت وشاهدناه ، الموت ينقضُ الحياة وعادةً الهدم يأتى عكس البناء ، فما بُنى أولاً يهدم آخراً ، وما بنى آخراً يُهدم أولاً .

فالخَلْق بدأ من ماء وتراب وطين ، ثم حمأ مسنون ، ثم صلصال كالفخار ، ثم بعد ذلك نفخ الله فيه من روحه فدبَّتْ فيه الحياة ، أما الموت فيبدأ بخروج الروح ، ثم يتيبس الجسد فيشبه الصلصال ، ثم تتغير رائحته كالحمأ المسنون ، ثم يتبخر الماء ، ولا يبقى بعد ذلك إلا عناصر تصير إلى تراب .

إذن : نأخذ من الموت الذى شاهدناه دليلاً على الغيب فى ﴿ خَلَقَ الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ ﴾ [الرحمن]

وقوله تعالى: ﴿ وَخَلَقَ الْجَانَّ .. ﴿١٥﴾ ﴾ [الرحمن] أى : الجن ﴿ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ ﴾ [الرحمن] المارج هو لهب النار الصَّافى الذى لا يخالطه دخان ، وطبيعة النار ألطف من طبيعة الطين ، لأن النارَ لها

---

(١) تشارلز داروين : عالم حيوان إنجليزى ولد ١٢ فبراير ١٨٠٩ م عالم تاريخ طبيعى ، له كتاب (أصل الأنواع) عام ١٨٥٩ م ، توفى عام ١٨٨٢ عن ٧٣ عاماً .

سيالٌ نافذ على خلاف الطين ، فليس له هذا النفاذ .

مثلاً لو معك تفاحة فى حجرة وأنت فى الحجرة المجاورة ، فهل تجد للتفاحة أثراً فى الحجرة الأخرى ؟

أما النار فعلى خلاف ذلك لأنها تنفذ من الجدار ، فتشعر بحرارتها من خلف الجدار ، وقدرة الجن تأتى من هذا النفاذ .

فلديهم القدرة على أنْ ينفذوا من الأشياء لا يعوقهم شىء مادى ، وهذا يعنى أنهم خُلقوا من شفافية النار، ونحن من كثافة الطين ، لذلك هم يَروْننا ولا نراهم ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٣)﴾ [الرحمن]

﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ (١٧) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٨)﴾

الحق سبحانه يذكر المشرقين والمغربين فى سياق نعمه تعالى ، وهذا يعنى أن فيهما ينطوى كثير من النعم .

وحينما نستقرىء هاتين الكلمتين فى القرآن نجدهما بالمفرد مرة ، وبالمثنى مرة ، وبالجمع مرة أخرى ، فقال : ﴿رَّبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ..(٩)﴾ [المزمل] وقال : ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ (١٧) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٨)﴾ [الرحمن] وقال :﴿بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ ..(٤٠)﴾ [المعارج]

وهذا التعدد يأتى من تعدد المكان ، ففى المكان الواحد مشرق ومغرب للشمس ، لكن الشمس حينما تشرق عندك تغرب عند آخرين ، فكلٌ مشرق معه مغرب ، وكل مغرب معه مشرق .

إذن : هما مشرقان ومغربان ، إذن مع دوران الأرض وحركتها تعطينا فى كل لحظة مشرقاً ومغرباً ، فهى إذن مشارق ومغارب ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٨)﴾ [الرحمن]

﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (١٩) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ (٢٠) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢١)﴾

قوله تعالى : ﴿مَرَجَ .. (١٩)﴾ [الرحمن] أى خلط ﴿الْبَحْرَيْنِ ..(١٩)﴾ [الرحمن] العذب والمالح ﴿يَلْتَقِيَانِ (١٩)﴾ [الرحمن] قالوا : يتجاوران أو يتعاقبان ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ ..(٢٠)﴾ [الرحمن] أى : حاجز يحجز هذا عن هذا فلا يختلطان ﴿لاَّ يَبْغِيَانِ (٢٠)﴾ [الرحمن] لا يتعدَّى أحدهما على الآخر .

وهذه آية من آيات الخَلْق أنْ يلتقى العَذْب بالمالح دون أنْ يذوب هذا فى هذا ، لذلك حينما تذهب إلى العريش مثلاً تجد على شاطىء البحر أجود أنواع النخيل ، ولو كان هذا يتغذّى على الماء المالح ما كان على هذه الصورة من الحلاوة ، لكن قدرة الله .

---

(١) قال الماوردى فى تفسيره للآية ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (١٩)﴾ [الرحمن] ، أما البحران ففيهما خمسة أوجه :

أحدها : أنه بحر السماء وبحر الأرض . قاله ابن عباس .

الثانى : بحر فارس والروم . قاله الحسن وقتادة .

الثالث : أنه البحر المالح والأنهار العذبة . قاله ابن جريج .

الرابع : أنه بحر الشرق وبحر المغرب يلتقى طرفاهما .

الخامس : أنه بحر اللؤلؤ وبحر المرجان .

واقرأ : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ .. (٢١)﴾ [الزمر] وقال سبحانه :﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ (١٨)﴾ [المؤمنون]

فقدرة الله حفظتْ الماء العذْب فلا يختلط بالمالح ، لذلك تجد مستوى الماء العذب أعلى من مستوى المالح ، وإذا ذهبتَ إلى دمياط ستجد الماء العَذْب فى النيل يمتدُّ لمسافات داخل المالح دون أنْ يطغى المالح على العذب ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢١)﴾ [الرحمن]

﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ (٢٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٣)﴾

معنى ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا .. (٢٢)﴾ [الرحمن] أى : من البحرين العذب والمالح ، مع أن اللؤلؤ والمرجان لا يخرجان إلا من الماء المالح ، وهذه المسألة حلَّها لنا حاجب المحكمة الذى ذهب لخطبة سنية بنت محضية ، فسألوه : ماذا تعمل ؟ قال : أنا حاجب المحكمة ، قالوا : كم راتبك من هذا العمل ؟ قال : أنا والقاضى نأخذ مائة جنيه .

فقوله تعالى : ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا (٢٢)﴾ [الرحمن] أى : من مجموعهما معاً[1] ،

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٦٥٦٣/٩) : « قال (منهما) وإنما يخرج من الملح لا العذب لأن العرب تجمع الجنسين ثم تخبر عن أحدهما ، كقوله تعالى : ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ .. (١٣٠)﴾ [الأنعام] وإنما الرسل من الإنس دون الجن . قاله الكلبى وغيره » . فقال (منكم) مع أن الرسل من الإنس فقط .

والآن يقول العلماء أن اللؤلؤ والمرجان لا يوجدان إلا فى مَصبِّ الماء العذب[1] ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٣)﴾ [الرحمن]

﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلَامِ (٢٤) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٥)﴾

قوله تعالى : ﴿وَلَهُ .. (٢٤)﴾ [الرحمن] أى : لله تعالى ﴿الْجَوَارِ .. (٢٤)﴾ [الرحمن] جمع جارية وهى السفينة التى تجرى على صفحة الماء ﴿الْمُنشَآتُ .. (٢٤)﴾ [الرحمن] التى أنشئتْ وصُنعتْ فى البحر ﴿كَالأَعْلامِ (٢٤)﴾ [الرحمن] أى : كالجبال العالية التى تُرى مثل العلَم أو مثل القصور الشاهقة ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٥)﴾ [الرحمن]

والعجيب أنْ يخبر بهذا سيدنا رسول الله ، وهو لم يركب البحر ولم يعرف هذا النوع من السفن ، فالسفن التى كانت موجودة على عهد سيدنا رسول الله كانت صغيرة مسطحة ومن دور واحد ، ولم تعرف السفن ذات الأدوار إلا فى القرن الثامن عشر الميلادى ، إذن : هذه الآية من الإعجاز ومن علامات النبوة ، ودليل على صدقه ﷺ فى الإخبار والبلاغ عن الله .

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالإِكْرَامِ (٢٧) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٨)﴾

---

(١) حتى العلماء القدامى نقلوا هذا ، فقد نقل القرطبى فى تفسيره (٩/٦٥٦٤) هذا القول فى سياق حديثه عن اللؤلؤ ، فقال : إن العذب والملح قد يلتقيان فيكون العذب كاللقاح للملح ، فنسب إليهما كما يُنسب الولد إلى الذكر والأنثى وإن ولدته الأنثى » ثم قال : « لذلك قيل : إنه لا يخرج اللؤلؤ إلا من موضع يلتقى فيه العذب والملح » .

قوله تعالى : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا ..(٢٦) ﴾ [الرحمن] أى : على الأرض والأرض لم يأتِ لها ذِكْر هنا حتى ينصرف إليها المعنى ، لكن قالوا : الضمير يعود على مذكور أو على معلوم بالبديهة كما هنا ﴿ فَانٍ (٢٦) ﴾ [الرحمن] أى : هالك .

﴿ وَيَبْقَىٰ .. (٢٧) ﴾ [الرحمن] أى : بعد فناء كل شىء ﴿ وَجْهُ رَبِّكَ ..(٢٧) ﴾ [الرحمن] الوجه يُعبَّر به عن الذات ، لأن الوجه فى الخَلْق جميعاً هو المميِّز للشخص ، بحيث لا يتشابه اثنان تشابهاً تاماً ، فأطلق الوجه ليدل على الذات .

﴿ وَجْهُ رَبِّكَ .. (٢٧) ﴾ [الرحمن] أى : ذاته سبحانه وتعالى ، وهذه المسألة نرد بها على مَنْ لا يرى تأويلاً فى القرآن ، وإلا فكيف نقول فى هذه الآية[1] ؟

ومعنى ﴿ ذُو الْجَلَالِ .. (٢٧) ﴾ [الرحمن] أى : صاحب العظمة ، وصاحب الغنى المطلق ﴿ وَالْإِكْرَامِ (٢٧) ﴾ [الرحمن] صاحب الكرم المطلق والفضل التام ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٨) ﴾ [الرحمن]

﴿ يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ (٢٩) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٠) ﴾

---

(١) مقصود الشيخ رحمه الله أننا إن لم نقل أن وجه ربك هنا تعنى ذاته سبحانه فهذا يقتضى أن الله سبحانه مكوَّن من أجزاء ستفنى كلها مع ما سيفنى ويبقى وجهه فقط . وقد ذهب العلماء إلى أن (وجه ربك) هنا تعنى الذات . قاله الألوسى فى روح المعانى ، والشوكانى فى فتح القدير قال : « الوجه عبارة عن ذاته سبحانه ووجوده » . وقال ابن الجوزى فى زاد المسير : « أى : ويبقى ربك » . [عادل أبو المعاطى]

قوله تعالى : ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ ..(٢٩) ﴾ [الرحمن] أى : الحق سبحانه وتعالى ﴿ فِي شَأْنٍ (٢٩) ﴾ [الرحمن] اليوم زمن يستغرق الوقت كله اليوم والليلة ، فمعنى ﴿ كُلَّ يَوْمٍ ..(٢٩) ﴾ [الرحمن] أى : كل آن وكل وقت هو سبحانه فى شأن جديد ، ففى كل لحظة يحدث أمر ، ويظهر قدر مما قدَّره الله أزلاً .

وقد سُئل المأمون[١] فى هذه المسألة : ما شُغل ربك الآن وقد جَفَّ القلم ، ومع ذلك قال ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ (٢٩) ﴾ [الرحمن] ؟ فقال : أمور يبديها ولا يبتديها ، يرفع أقواماً ويضع آخرين[٢].

وقد بينَّا أن الأقدار قُدِّرتْ أزلاً ، وهى محفوظة فى اللوح المحفوظ ، فالذى يحدث الآن هو ظهور هذا المقدور فى أرض الواقع ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٠) ﴾ [الرحمن]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ (٣١) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٢) ﴾

---

(١) هو : عبد الله بن هارون الرشيد بن محمد المهدى العباسى ، سابع الخلفاء من بنى العباس فى العراق ، أحد أعاظم الملوك فى سيرته وعلمه وسعة ملكه ، ولد ١٧٠ هـ ، ولى الخلافة بعد خلع أخيه الأمين سنة (١٩٨ هـ) ، أطلق حرية الكلام للباحثين وأهل الدجل والفلاسفة ، توفى فى « بذندون » عام (٢١٨ هـ) ودُفن فى طرسوس . [الأعلام للزركلى ١٤٢/٤] .

(٢) هذا لا يستطيع المأمون أن يقوله من عند نفسه ، ولكن روى عن رسول الله ﷺ أنه تلا قوله تعالى : ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ (٢٩) ﴾ [الرحمن] فقيل له : ما هذا الشأن ؟ فقال : من شأنه أن يغفر ذنباً ويفرج كرباً ويرفع قوماً ويضع آخرين .

قال فى البحر المديد (٢٠٨/٦) : « المراد بهذه الشؤون أمور يبديها ولايبتديها ، فقد جفَّ القلم بما هو كائن إلى ما لا نهاية له » .

هذا أسلوب تهديد ، وما بالك بالتهديد إنْ كان من الله ؟ ومَنْ يتحمله ؟ لكن تبقى الرحمانية نتعلق بها ونطمع فيها ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ ..(٣١)﴾ [الرحمن] تهديد كما تقول لخصمك : غداً (أفضى لك) ، يعنى (هوريك شغلك) .

فالحق سبحانه وتعالى يقول : سنفرغ لحسابكم ومجازاتكم بعد أنْ أمهلناكم ، فلن تفلتوا منا .

﴿أَيُّهَا الثَّقَلانِ (٣١)﴾ [الرحمن] الثقلان هما الجن والإنس ، وسُمِّيا الثقلان لأنهما أثقلا[1] الأرض ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٢)﴾ [الرحمن]

﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ[2] (٣٣) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٤)﴾

هذا نداء لجماعة الجن والإنس ، وقد خاطبهم فى الآية السابقة ﴿أَيُّهَا الثَّقَلانِ (٣١)﴾ [الرحمن] وهنا يتحدى الجميع ﴿إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن

---

(١) ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير ، وقال الماوردى فى تفسيره : سموا بذلك لأنهم ثقل على الأرض . وقال الشوكانى فى فتح القدير : سُمى الجن والإنس ثقلين لعظم شأنهما بالنسبة إلى غيرهما من حيوانات الأرض .

(٢) قوله ﴿إِلاَّ بِسُلْطَانٍ (٣٣)﴾ [الرحمن] فيه ثلاثة أقوال :

أحدها : لا تنفذون إلا فى سلطان الله وملكه لأنه مالك كل شىء . قاله ابن عباس .

الثانى : لا تنفذون إلا بحجة . قاله مجاهد .

الثالث : لا تنفذون إلا بمُلك ، وليس لكم مُلك . قاله قتادة . ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير فى تفسير الآية .

تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا..(٣٣)﴾ [الرحمن] وهذا يعنى أن الجن والإنس لن يستطيعوا ذلك ﴿إِلاَّ بِسُلْطَانٍ (٣٣)﴾ [الرحمن] أى : من الله فلو أعطى هذه القوة لأحد من خلقه لاستطاع .

لذلك البعض فهم أن صعود الإنسان للقمر نفاذ من أقطار السموات والأرض ، فكيف إذن نفهم ﴿لا تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ (٣٣)﴾ [الرحمن] قالوا : أى سلطان العلم الذى مكّنهم من ذلك .

والواقع أن ارتقاء الإنسان لسطح القمر ليس نفاذاً ، لأن القمر ما هو إلا ضاحية من ضواحى الأرض ، هو كحلوان بالنسبة للقاهرة ، ولو تأملنا المسافات بين الكواكب لسهل علينا هذا الفهم .

فقد أثبت العلماء أن بيننا وبين الشمس ثمان دقائق ضوئية ، وبيننا وبين المرأة المسلسلة[1] مائة سنة ضوئية ، والثانية الواحدة فى سرعة الضوء فيها ثلاثمائة ألف كيلو متر ، فما بالك بباقى كواكب هذه المجموعة ؟ أما القمر فهو تابع من توابع الأرض .

والاستثناء فى ﴿إِلاَّ بِسُلْطَانٍ (٣٣)﴾ [الرحمن] يثبت صدق سيدنا رسول الله فيما أخبر به من حادثة الإسراء والمعراج ، وإلا لقالوا كيف هذا ؟ لأنه فوق إمكانيات البشر . إذن : إلا بسلطان منا فمَنْ أردنا له أنْ ينفذ ينفذ بقدرتنا نحن .

---

(١) المرأة المسلسلة : هى إحدى كوكبات نصف الكرة السماوية الشمالى وتظهر فى ليالى الشتاء والخريف . وفى هذه الكوكبة يوجد سديم المرأة المسلسلة الذى يُرى بالعين المجردة . ويقدر بُعده عن الأرض بحوالى ٣١ بارسك أى مائة سنة ضوئية . [الموسوعة الفلكية – ص ١٨٩ ، ٤٦٥] .

وذكر سبحانه الجن هنا قبل الإنس ، لأنهم أخفّ منا وأسرع فى الحركة ، لذلك رأينا فى قصة سيدنا سليمان عليه السلام لما أراد أنْ يأتى بعرش بلقيس فقال لمساعديه : ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا ..(٣٨)﴾ [النمل] لم يتكلم أحد من الإنس ، لأنه يريده أمامه على وجه السرعة ﴿قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣٨)﴾ [النمل] والحادث أنهم فى الطريق إليه .

والإنس لا يملكون هذه السرعة ، أما الجن فقد قال واحد منهم ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ..(٣٩)﴾ [النمل] هذا عفريت من الجن وليس من الجن العادى ، وهذا يعنى أن من الجن النشط الماهر ومنهم (لبخة) لا يستطيع أنْ يؤدى هذه المهمة .

وهذا العرض من العفريت يستغرق وقتاً لأنه لا يقوم من مقامه إلا بعد ساعات ، فقال الأمهر منه وهو الذى عنده علم من الكتاب ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ..(٤٠)﴾ [النمل]

وطرفة العين لحظة لا تستغرق وقتاً ، فلما كان الجن بهذه المهارة فى الحركة بدأ الحق سبحانه بهم لأنه فى مجال التحدى .

ثم إن التحدى فى السموات جمع سماء ، وحركة الإنس فى صعودهم للقمر ، وحركة الجن فى عملية استراق السمع كلها فى مجال السماء الدنيا ، فأين الإنس والجن من باقى السموات ؟

هذه السموات التى اخترقها سيدنا رسول الله فى صحبة سيدنا جبريل حتى وصل إلى منتهاها عند سدرة المنتهى . إذن : ﴿إِلاَّ بِسُلْطَانٍ (٣٣)﴾ [الرحمن] ليس سلطان العلم ، بل سلطان قدرة الله ، وإلا فقد مرَّ رسول الله فى أماكن ليس فيها هواء للتنفس ، فكيف

يفعل العلم فى هذه ؟

﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾ ﴾

الخطاب للجن والإنس : إنْ أردتما النفاذ من أقطار السموات والأرض دون سلطان من الله ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ ﴾[الرحمن] وهذا يعنى أن للجن والإنس حدوداً فى الحركة لا يستطيعون تجاوزها .

ومعنى﴿ شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ .. ﴿٣٥﴾ ﴾[الرحمن] أى : لهب النار الصافى الخالص الذى لا دخان فيه ، وهذا اللهب يكون أشد حرارة .

﴿ وَنُحَاسٌ .. ﴿٣٥﴾ ﴾[الرحمن] أى المذاب وهو من أدوات العذاب ﴿ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ ﴾[الرحمن] لا تتمكنان من النفاذ ، ولا تجدان مَنْ يدفع عنكما العذاب .

﴿ فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ (١) ﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾ ﴾

---

(١) الدهان : فى الدهان قولان : أحدهما أنه مفرد وهو الأديم الأحمر . قاله ابن عباس . والثانى أنه جمع دهن والدهن تختلف ألوانه بخضرة وحمرة وصفرة . حكاه اليزيدى . وقال الفراء : شبه تلوُّن السماء بتلون الوردة من الخيل . وشبه الوردة فى اختلاف ألوانها بالدهن . [زاد المسير لابن الجوزى] .

نلاحظ أن هنا أسلوبَ شرط ﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ ..(٣٧)﴾ [الرحمن] وجوابه ﴿فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُسْأَلُ عَن ذَنْبِهِ إِنسٌ وَلا جَانٌّ (٣٩)﴾[الرحمن] وفَصل بين الشرط والجواب ، لأن فى كل منها آية وعجيبة ، وكل منهما من آلاء الله ، فجاء بكل جزء منهما فى آية وذيلها بقوله ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٨)﴾ [الرحمن]

وانشقاق السماء من علامات القيامة يوم الحساب ويوم يسأل كلاً عن عمله ، لذلك وقف بعض المستشرقين عند هذه الآية يقولون إنها تتعارض مع قوله تعالى : ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ (٢٤) مَا لَكُمْ لا تَنَاصَرُونَ (٢٥) بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (٢٦)﴾ [الصافات]

وهذا التعارض الذى يرونه فى الآية ناتج عن عدم إلمامهم بملكة اللغة وتذوقها ، لأن السؤال فى العربية له وجهان : التلميذ يسأل المعلم ليعلم منه الحق ، والمعلم يسأل التلميذ ليقرره بالحق .

فقوله تعالى :﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ (٢٤)﴾ [الصافات] سؤال إقرار ليقروا على أنفسهم .

ومعنى ﴿لاَّ يُسْأَلُ عَن ذَنْبِهِ إِنسٌ وَلا جَانٌّ (٣٩)﴾[الرحمن] نعم لأننا لسنا فى حاجة إلى كلامهم ولا اعترافهم ، لأننا سجلنا عليهم وكتبتْ ملائكتنا عليهم أعمالهم فلا داعى لأن نسألهم عنها .

﴿ يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي (١) وَالْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ ﴾

هذا موقف من مواقف القيامة ، حيث تعرف ملائكة العذاب المجرمين بعلامات مميزة ، فأهل الإجرام يُعرفون ﴿ بِسِيمَاهُمْ ﴿٤١﴾ ﴾ [الرحمن] أى : بعلامتهم بسواد وجوههم ، فيأخذونهم من نواصيهم أى : شعر مقدمة الرأس يجمعونها مع الأقدام ، ثم يُلقون بهم فى جهنم والعياذ بالله ، وهذا الأخذ فيه إذلال وإهانة ، فضلاً عن العذاب لأن الناصية محلّ عزَّة الإنسان وكرامته .

﴿ هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾ ﴾

الحق سبحانه وتعالى يُقرعهم ويُؤنبهم ويزيد من حسرتهم ، فتقول لهم ملائكة العذاب ﴿ هَذِهِ جَهَنَّمُ ..﴿٤٣﴾ ﴾[الرحمن] أى : التى ترونها وتقاسون حرّها الآن هى التى كنتم تكذِّبون بها فى الدنيا ، فذوقوا حرّها الآن .

وتلاحظ أن السياق استخدم الفعل المضارع الدال على الاستمرار ﴿ يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾[الرحمن] أى : فى الدنيا ، أما الآن فهم

---

(١) النواصي : جمع ناصية وهو ما يبرز من الشعر في مقدم الرأس فوق الجبهة . ومعنى ﴿ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ ﴾ [الرحمن] أي : يُجر المجرمون من نواصيهم وأقدامهم كناية عن إذلال المجرمين وإهانتهم يوم القيامة إذ يُطوى كل مجرم فتربط ناصيته مع قدميه ويؤخذ فيلقى في النار عاجزاً مهاناً . [القاموس القويم ٢/ ٢٧٠] .

يعاينونها ويباشرون حرَّها .

إذن : أراد أنْ يستصحب التكذيب منهم فى الدنيا ، وكأنه واقع منهم الآن ، وهذا أنكى لهم . وأشد فى تأنيبهم .

وقوله تعالى : ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا ..(٤٤)﴾[الرحمن] أى : بين جهنم ﴿وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ (٤٤)﴾[الرحمن] وبين الشراب الحميم الذى تناهى حرُّه حتى بلغ الغاية فيُقطِّع أمعاءهم ، فكلما اشتدت عليهم حرارة جهنم طلبوا الشراب الذى يخفف عنهم فيذهب بهم إلى الحميم .

وهم يأملون شراباً يلطف من حرارة جهنم ، فإذا به يزيدهم حرارة ، فهم كالمستجير من الرمضاء بالنار ، ومع ذلك نرى الأداء القرآنى يُذيِّل الآية بقوله تعالى : ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٥)﴾ [الرحمن]

فهذا الحديث وهذا الوصف للعذاب يُعد من آلاء الله ومن نعم الله علينا ، لأنه يجعلنا نهرب من هذا المصير ونتلاشى الوقوع فى أسبابه .

ثم يأتى الحق سبحانه بالمقابل :

﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (٤٦) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٧) ذَوَاتَا أَفْنَانٍ (١) (٤٨) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٩) فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ (٥٠) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥١) فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ (٥٢) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٣)﴾

---

(١) الأفنان : جمع فنن وهو الغصن المستقيم من الشجرة ، والأفنان تحمل الثمار ولها ظل ظليل وذلك كناية عن النعيم الذى يلاقيه أهل الجنتين . [القاموس القويم ٢/٨٩] .

أى : خاف صفات الجلال من الله تعالى ، خاف حسابه وعقابه ، ما جزاؤه ؟ له ﴿جَنَّتَانِ (٤٦)﴾[الرحمن] لا جنة واحدة ، وهنا أيضاً وقف المستشرقون يقولون : أهى جنة أم جنتان ؟ قالوا : جنتان باعتبار أنه تعالى يتكلم عن الإنس والجن ولكلٍّ جنته .

وآخرون أخذوها بمعنى آخر ، فقالوا : جنة المؤمن التى أعدها الله له فى الآخرة ، وجنة الكافر التى أعدها الله له إنْ آمن ، فلما لم يؤمن ورثها عنه المؤمن ، كما سبق أنْ أوضحنا ، وهكذا يكون للمؤمن جنتان .

وهذه الآية وقف عندها سيدنا شقيق البلخى[١] وهو أحد العارفين بالله ، وكان له تلميذ اسمه حاتم وغلب عليه لقب الأصم[٢] وكان لهذا اللقب قصة تُرينا مدى الارتقاء فى الخَلْق عند هؤلاء الناس الذين خافوا مقام ربهم .

قالوا : إن امرأة جاءته فى حاجة لها ، فلما دخلتْ عليه غلبها ما يغلب الناس من الضراط ، فقال لها : ما تريدين ؟ وأعادها كأنه لا يسمع ما حدث منها تأدباً منه ، لذلك لُقِّب بالأصم[٣] .

---

(١) هو : شقيق بن إبراهيم بن على الأزدى البلخى أبو على ، زاهد صوفى من مشاهير المشايخ فى خراسان ، وكان من كبار المجاهدين استشهد فى غزوة كولان (عام ١٩٤ هـ / ٨١٠ م) [الأعلام للزركلى ٣/١٧١] .

(٢) هو : حاتم بن عنوان أبو عبد الرحمن المعروف بالأصم زاهد اشتهر بالورع والتقشف ، له كلام مدون فى الزهد والحكم ، من أهل بلخ ، زار بغداد واجتمع بأحمد بن حنبل ، شهد بعض معارك الفتوح ، توفى عام (٢٣٧ هـ / ٨٥١ م) [الأعلام للزركلى ٢/١٥٢] .

(٣) ذكر الأبشيهى فى كتابه « المستطرف فى كل فى مستظرف » أن سبب تسميته بالأصم ما حكاه أبو على الدقاق أن امرأة جاءت تسأله عن مسألة ، فاتفق أنه خرج منها صوت ريح فخجلت المرأة ، فقال حاتم : ارفعى صوتك وأراها أنه أصم فسُرَّت المرأة بذلك . فغلب عليه هذا الاسم . [باب فى الخير والصلاح] .

الشاهد أن البلخى سأل تلميذه حاتم الأصم : كم مُكْثك معى ياحاتم ؟ قال : ثلاث وثلاثون سنة ، قال : فماذا أفدتَ منى فى هذه المدة ؟ قال : مسائل .

قال : إنّا لله وإنّا إليه راجعون ، طوال هذه المدة ما أفدتَ غير مسائل ؟ قال : هو كما أخبرتك قال : ما هى ؟ فقال : أحببتُ الجنة لأننى رأيت الخلق الذين أعاصرهم كلهم غل وحقد بعضهم على بعض فكرهتُ هذه الخصال ، فلما قال الله تعالى : ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ .. (٤٣)﴾[الأعراف] اشتقتُ للجنة التى لا يُوجد فيها غلٌّ ، قال : أحسنت فما الثانية ؟ قال : عرفت أن السبيل إليها مخافة الله ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (٤٦)﴾[الرحمن] فخفتُ مقام ربى ، ونزعت من نفسى هواها فاستقامت لى الطاعة ، يشير إلى قوله تعالى : ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ (٤١)﴾ [النازعات]

فقال : أحسنتَ يا حاتم ، فما الثالثة ؟ فقال : استقرأتُ الخَلْق فوجدتُ لكلٍّ واحد منهم حبيباً يحبه ويصاحبه ، لكن مهما كان الحب بينهما فإنه يفارقه عند دخوله القبر ، فأحببت أنْ يكون لى صاحب لايفارقنى فى قبرى ، فلم أجد غير عملى .

فقال : أحسنتَ يا حاتم ، فما الرابعة ؟ قال : رأيت الخَلْق كُلٌّ منهم يحب شيئاً يحافظ عليه ، ومع ذلك قد يسرقه منه لص أو تنتابه الأغيار ، لذا جعلت عملى كله لوجه الله ليكون ربى هو الأمين عليه .

قال : فما الخامسة ؟ قال : علمتُ أن الناس يتعادون ويتحاسدون ويتباغضون ، فلما بحثتُ فى سبب ذلك وجدته سعة الرزق عند هذا ، وضيق الرزق عند ذاك ، فلما قرأتُ قوله تعالى : ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ..(٣٢)﴾ [الزخرف] فاطمأن قلبى وألقيتُ عنى الغل والحقد والحسد .

قال : فما السادسة ؟ قال : رأيتُ ما بين الناس من عداوات فقرأتُ : ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ..(٦)﴾ [فاطر] فتركتُ عداوة الخَلْق ووجهت عداوتى كلها للشيطان .

قال : فما الأخيرة يا حاتم ؟ قال : وجدتُ الناس يثقُون فى أشيائهم من مال وعقار أو تجارة وصناعة ، وأنها تفوت صاحبها ، فتوكلت على الحىِّ الذى لا يموت ولا يفوت .

وقوله تعالى : ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ (٤٨)﴾ [الرحمن] أى : الجنتان فيهما أفنان ، جمع فنن ، وهو الغصن ، فالجنتان مليئتان بالأغصان الكثيرة الملتفة المتشابكة ، بحيث تجن أو تستر مَنْ يسير فيها.

﴿فِيهِمَا ..(٥٠)﴾[الرحمن] أى : الجنتين ﴿عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ (٥٠)﴾ [الرحمن] أى : بالماء العذب ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ (٥٢)﴾ [الرحمن] أى : صنفان ، قالوا : صنف تعرفه وصنف لا تعرفه ، فإذا كان هذا حال التفكه وهو زيادة ورفاهية ، فما بالك بالضروريات ؟

﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ[1] وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ[2] إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ ﴾

تستمر الآيات فى تعداد مظاهر النعيم وألوانه فى الجنة ، ومنها أنْ ترى أهل الجنة ﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَائِنُهَا .. ﴿٥٤﴾ ﴾ [الرحمن] أى : حشْوها ﴿ مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ..﴿٥٤﴾ ﴾ [الرحمن]وهو الحرير الغليظ .

﴿ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ ﴾ [الرحمن] الجنَى : هو الثمر الذى نضج وحان وقت جَنْيه ﴿ دَانٍ ﴿٥٤﴾ ﴾ [الرحمن] قريب فى متناول الأيدى ، لا يمنعك عنه مانع ، ولا يحول دونه حائل ، فهو قريب من يدك أينما كنتَ وعلى أىِّ هيئة ، تناله وأنت قائم ، وتناله وأنت قاعد أو نائم على سريرك تتقلَّب فى هذا الحرير .

بل فيها أكثر من ذلك ، فمجرد أنْ يخطر الشىء ببالك تجده بين يديك [3] دون أنْ تُحرك ساكناً ، ودون أنْ تبذل أىَّ مجهود ﴿ لَهُم مَّا

---

(١) إستبرق : قال الزجاج : هو الديباج الغليظ الحسن . فهو حرير سميك [لسان العرب – مادة : استبرق] .

(٢) يطمثهن : الطمث : المسّ ، ويكنى به عن المباشرة الجنسية لأول مرة واستعمل فى افتضاض العذراء . [القاموس القويم ١/٤٠٦] .

(٣) أخرج ابن أبى الدنيا فى صفة الجنة والبزار وابن مردويه والبيهقى فى البعث عن عبد الله ابن مسعود قال : قال لى رسول الله ﷺ : « إنك لتنظر إلى الطير فى الجنة فتشتهيه فيخر بين يديك مشوياً » . ثم أورده السيوطى فى تفسيره الدر المنثور فى تفسير آية ﴿ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الواقعة] .

يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ (٣٥) ﴾ [ق]

ثم يحدثنا عن لون آخر من نعيم الجنة وهو الحور العين ﴿ فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ .. (٥٦) ﴾ [الرحمن] أى : نساء حسناوات قصرن أبصارهن على أزواجهن ولم يتعدينهم إلى غيرهم .

﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ (٥٦) ﴾ [الرحمن] أى : لم يسبق لهُنَّ الزواج ولم يفُض بكارتهن أحد ، لا من الإنس ولا من الجن[1] ، وهذا يعنى أنهن محفوظات مقصورات لأهل الجنة ﴿ كَأَنَّهُنَّ .. (٥٨) ﴾ [الرحمن] أى : فى الحسْن والجمال ﴿ الْيَاقُوتُ[2] وَالْمَرْجَانُ (٥٨) ﴾ [الرحمن]

ولك أنْ تسأل : ما السبيل إلى كلِّ هذا النعيم ؟ فتجيبك الآيات :

﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ (٦٠) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦١) ﴾

فالجزاء من جنس العمل ، ولما أحسن المؤمن أحسن الله إليه ، وتداركته رحمة الله فيما قصّر فيه ، وإلا فالعمل وحده لا يكفى لبلوغ هذه المنزلة .

﴿ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ (٦٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٣) مُدْهَامَّتَانِ (٦٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٥) ﴾

---

(١) قال مجاهد : إذا جامع الرجل ولم يسم انطوى الجان على إحليله فجامع معه ، فذلك قوله تعالى : ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ (٥٦) ﴾ [الرحمن] قال القرطبى فى تفسيره (٦٥٨١/٩) : « ذلك بأن الله تبارك وتعالى وصف الحور العين بأنه لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان . يعلمك أن نساء الآدميات قد يطمثهن الجان ، وأن الحور العين قد برئن من هذا العيب ونُزهن والطمث الجماع » .

(٢) قال الحسن البصرى : هُنَّ فى صفاء الياقوت وبياض المرجان . [ذكره القرطبى فى تفسيره ٦٥٨٢/٩] .

أى : من دون الجنتين السابقتين ، وأقل منهما فى المنزلة جنتان أخريان ، ذلك لأن الجنة منازل ودرجات بحسب الأعمال والإخلاص فيها لله تعالى ، وسيأتى فى سورة الواقعة بيان لهذه المنازل ، فالجنتان السابقتان بكل هذا النعيم هى درجة المقربين ، ومَنْ دونهما ، وأقل منهما جنتان لأهل اليمين .

ومعنى ﴿مُدْهَامَّتَانِ (٦٤)﴾ [الرحمن] أى : الجنتان مدهامتان ، والمدهام هو اللون الأخضر الذى اشتدتْ خُضْرته حتى مال إلى السواد من كثرة الخضرة فيه ، وهذا اللون لا تجده إلا فى الأرض الخصبة التى توفَّر لها الارتواء بالماء العذب .

لذلك بعد أنْ وصف الجنتين بأنهما مدهامتان قال :

﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ (١) (٦٦) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٧) فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ (٢) (٦٨) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٩)﴾

أى فى هاتين الجنتين عينان تفوران بالماء ، والماء العذب هو مصدر النماء ومصدر النضرة فى النبات . ثم ذكر من نعيم هذه المنزلة ﴿فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ (٦٨)﴾ [الرحمن] وفى المنزلة الأعلى قال : ﴿مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ (٥٢)﴾ [الرحمن]

---

(١) المعنى نضاختان بالخير والبركة . قاله الحسن ومجاهد . وقال ابن مسعود وابن عباس أيضاً : تنضخ على أولياء الله بالمسك والعنبر والكافور فى دور أهل الجنة كما ينضح رش المطر . [قاله القرطبى فى تفسيره ٩/٦٥٨٥] .

(٢) ذكر الله الفاكهة ثم أفرد النخل والرمان ولم يعدهما من الفاكهة فثمرة النخل فاكهة وطعام ، والرمان فاكهة ودواء . فلم يخلصا للتفكُّه .

﴿ فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ[1] حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ ﴾

هذا وصف أيضاً لنساء الجنة فهُنَّ خيْرات قالوا فى الأخلاق والشِّيَم ، وحسان الوجوه والمنظر ، وهُنَّ ﴿ حُورٌ ..﴿٧٢﴾ ﴾[الرحمن] الحوَر مما تُمدح به المرأة وهو شدة بياض العينين وشدة سوادهما ﴿ مَّقْصُورَاتٌ ..﴿٧٢﴾ ﴾ [الرحمن] محفوظات مُخدرات فى بيوتهن لا يبتذلن ولا يخرجن للعمل .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ[2] خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ[3] حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ ﴾

---

(١) فَهُنَّ خيرات أى ذوات خير وقيل : مختارات اختارهن الله فأبدع خلقهن باختياره سبحانه ، فاختيار الله لا يشبه اختيار الآدميين . وهُنَّ حسان بوصف الخالق لهن بالحسن ، لا بوصف البشر ، فانظر ما حُسْنهن .

(٢) الرفرف : اشتقاق الرفرف من رف يرف إذا ارتفع ، ومنه رفرفة الطائر لتحريكه جناحيه فى الهواء . والرفرف أيضاً جوانب الفسطاط (الخيمة) لأنها ترتفع مع الهواء . فالمعنى على هذا أنهم متكئون على وسائد مرتفعة . قال القرطبى فى تفسيره (٦٥٩١/٩) روى لنا فى حديث المعراج أن رسول الله ﷺ لما بلغ سدرة المنتهى جاءه الرفرف فتناوله من جبريل وطار به إلى مسند العرش ، فذكر أنه قال : « طار بى يخفضنى ويرفعنى حتى وقف بى بين يدى ربى » .

(٣) قال الخليل : كل جليل نافس فاضل وفاخر من الرجال والنساء وغيرهم عند العرب عبقرى . [تفسير القرطبى ٦٥٩٢/٩] .

قالوا ﴿رَفْرَفٍ .. (٧٦)﴾ [الرحمن] هو الوسادة التى يُتكأ عليها ، أو الفرش الذى يجلس عليه .

﴿وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ (٧٦)﴾ [الرحمن] العبقرى : البساط الذى بلغ الغاية فى حُسْنه ، وعبقرى فى لغة العرب نسبة إلى وَاد فى الجزيرة العربية اسمه وادى عبقر ، يعتقدون أنه تسكنه الجان ، فمَنْ أتى بشىء بديع يقولون أنه عبقرى . يعنى : ذهب إلى هذا الوادى وعلَّمته الجن ، وأصبحوا يقولون للشىء الذى بلغ فى الحُسْن مبلغاً يفوق صناعة البشر : عبقرى .

ثم يختم الحق سبحانه وتعالى هذه السورة بالثناء على نفسه سبحانه فقال :

﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٧٨)﴾

كلمة (تبارك) من البركة ، فأثبتت البركة للاسم نفسه ، فمجرد الاسم فيه بركة .

وكلمة (تبارك) لا يُشتق منها غير هذا اللفظ ، فلا يأتى منها المضارع ولا الأمر ولا اسم الفاعل . ومعناها : كَثُر خير الله وزاد ، وعَظُم هذا الخير ، وتنزَّه عن النقص .

الحق سبحانه وتعالى فى مواضع أخرى قال : ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ..(١)﴾ [الفرقان] وقال : ﴿تَبَارَكَ الَّذِى بِيَدِهِ الْمُلْكُ ..(١)﴾ [الملك] فتوجهت الصفة إلى المسمى وإلى ذاته تعالى .

أما هنا فقال : ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ..(٧٨)﴾ [الرحمن] فاثبت الصفة

للاسم ، فكيف يكون الاسم مُعظماً كثير الخير وهذه الصفة تكون فى المسمى ؟

قالوا : لأن الأسماء حين تُوضع يُراعى فيها التفاؤل بمَنْ يُوضع له الاسم ، فنسمى المولود مثلاً ذكى أملاً فى أن يكون ذكياً ، وسعيد أملاً فى أنْ يكون سعيداً وهكذا .

وبعد ذلك يأتى واقع المسمى على خلاف اسمه وعلى نقيضه ، نسميه أميناً فيكون خائناً ، إذن : تبارك الاسم حين يصدق الوصف على الموصوف به فنسميه سعيداً ويكون فى الواقع سعيداً .

إذن : حصل للاسم بركة المسمى بأنْ وافقه ولم يُكذّبه ، لذلك قال سبحانه ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ..(٧٨)﴾ [الرحمن] فهو سبحانه أحق الأسماء بهذه البركة .

ومعنى ﴿ذِى الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ (٧٨)﴾ [الرحمن] صاحب العظمة وصاحب الهيبة المرهوبة وصاحب القوة والبطش والجبروت ، وسبق أنْ قلنا : إن لله تعالى صفات جلال هى هذه الصفات ، وصفات جمال هى الرحمة والرأفة والمغفرة والتوبة وغيرها .

فحين يتجلى الحق سبحانه عليك بصفات الجلال ترى ما يُخيفك ويُرهبك ، وحين يتجلى عليك بصفات الجمال ترى ما يُريحك ويسعدك ويسرُّك .

لذلك لما قال أحد الإخوان : إننى أجد نفسى فى المدينة غير ما أجدها فى مكة ، قلنا : لأن الله تعالى يتجلى فى مكة بصفات الجلال ،

ويتجلى فى المدينة بصفات الجمال .

وكما أنه تعالى ﴿ذِى الْجَلَالِ (٧٨)﴾ [الرحمن] هو أيضاً - وفى نفس الوقت - ذو الإكرام وذو الفضل والإنعام والإحسان إلى الخلق .

سُورَةُ الوَاقِعَةِ

سورة الواقعة(١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢ ﴾

كلمة وقع تدل على أن شيئاً سقط من أعلى سقوطاً لازماً لايستطيع أحد أنْ يمنعه . ونقول : إن الجاذبية هى التى أسقطته . وتأتى هذه المادة (وقع) فى المسائل الهامة التى فيها هيبة ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ .. ۝٨٢ ﴾ [النمل] وقال : ﴿ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝١١٨ ﴾ [الأعراف] وقال : ﴿ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۝٧١ ﴾ [الأعراف]

---

(١) سورة الواقعة هى السورة رقم (٥٦) فى ترتيب المصحف الشريف ، عدد آياتها (٩٦) آية . وهى سورة مكية نزلت فى مكة فى قول الحسن وعكرمة وجابر وعطاء . وقال ابن عباس وقتادة : إلا آية منها نزلت بالمدينة وهى قوله تعالى : ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ۝٨٢ ﴾ [الواقعة] نزلت سورة الواقعة بعد سورة طه وقبل سورة الشعراء . [تفسير القرطبى ٦٥٩٥/٩ ، والإتقان للسيوطى ٢٧/١] .

إذن : وقع تدل على أمر حاسم وحاصل بذاته بأمر الله الذى قدَّره وضبطه على أنْ يقع بهذه الصورة ، كما تضبط المنبه ليُوقظك لصلاة الفجر ، وحين يرن المنبه فى وقت الفجر ويُوقظك لا يكون الفضل والعظمة للمنبه ، إنما للذى ضبطه على هذا الوقت ، كذلك إذا وقع الحق تكون العظمة لمن أوقعه .

فكلمة (وقعت) يعنى : هى أمر واقع لا مردَّ له ، فقال سبحانه : ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ①﴾[الواقعة] أى : القيامة واقعة أزلاً وتدبيراً ، كأنها وقعتْ بالفعل لأن الذى يتكلم بهذا الكلام هو الحق سبحانه الذى لا رادّ لأمره .

لذلك سماها أزلاً وقال بعدها ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ②﴾ [الواقعة] لأنهم كانوا يُكذِّبون بها وينكرون الرجعة بعد الموت ، فالحق سبحانه يخبر عن القيامة بأنها وقعتْ بالفعل ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ②﴾ [الواقعة] كأنها حدثت .

فالله تعالى سماها أزلاً الواقعة ، وجعل لها وقتاً مضبوطاً عنده تعالى ، ثم قال أن الواقعة التى أخبرنا بها سابقاً وقعتْ بالفعل الآن ، وساعة ما أخبرنا بها كان هناك تكذيب بها ، ولكن بعد أنْ وقعت ليس هناك تكذيب .

والواقعة اسم من أسماء القيامة ، ولها أسماء عدَّة لكل منها معنى ، ويعطينا لقطة من هذا اليوم الخطير المفزع ، تأمل فهى : الطامة والحاقة والقارعة والصاخة والواقعة ، فلكل منها ملحظ وهى جامعة لكل هذه المعانى من زوايا مختلفة فى الوقت الواحد .

وباستقراء مادة وقع فى القرآن نجدها تدل على شىء مخيف إلا

فى قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ .. (١٠٠) ﴾ [النساء]

أى : سقط أجره على الله ، وحتى نفهم معنى (وقع أجره على الله) علينا أن نقرأ قوله الحق ﴿ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ .. (٨٢) ﴾ [النمل]

والوقوع هنا السقوط ولكنه ليس كالسقوط الذى نعرفه ، بل هو الذهاب إلى الله ، ولماذا يستخدم الحق هنا (وقع) بمعنى (سقط) هو سبحانه يلفتنا إلى ملحظ هام ، حيث يكون الجزاء أحرص على العبد من حرص العبد عليه ، فإذا أدرك العبدَ الموتُ فالجزاء يسعى إليه وهو عند الله ويعرف الجزاء من يذهب إليه معرفة كاملة .

ومعنى ﴿ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ (٢) ﴾ [الواقعة] أى : ساعة أنْ تقع ليس لأحد أنْ يُكذِّب بها ، مثل : ﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ .. (٧٨) ﴾ [الإسراء] فاللام لام العندية : أى عند دلوك الشمس .

﴿ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ (٣) إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا (٤) وَبُسَّتِ[1] الْجِبَالُ بَسًّا (٥) فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنبَثًّا (٦) ﴾

أى : خافضة لقوم رافعة لآخرين ، خافضة للكافرين الذين كذبوا بها فلم يعملوا حسابها ، قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ[2] يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ

---

(١) بسَّه : فتَّه وجعله أجزاء دقيقة . قال تعالى : ﴿ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا (٥) ﴾ [الواقعة] أى : فُتت تفتيتاً شديداً . [القاموس القويم ١/٦٦] .

(٢) القيعة : جمع قاع كجار وجيرة . والقاع أيضاً واحد القيعان كما يقال جار وجيران وهى الأرض المستوية المتسعة المنبسطة وفيه يكون السراب .

فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩) ﴾ [النور]

وهى رافعة للمؤمنين بها الذين عملوا لها وكانوا ينتظرونها ويحتسبون أجرهم فيها ، فترفعهم فى درجات الجنات ، قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ ..(١٨) ﴾[الشورى] إذن : القيامة خافضة للكافرين فى دركات جهنم ، رافعة للمؤمنين إلى درجات الجنة .

وقوله تعالى : ﴿ إِذَا رُجَّتِ الأَرْضُ رَجًّا (٤) ﴾[الواقعة] هذه الأرض المثبّتة بالجبال الرواسى ترج وتهتز ، وقد أخذنا من ذلك أن الأرض خلقها الله تعالى على هيئة الحركة ثم ثبَّتها بالجبال ، ولو كانت على هيئة الثبات ما احتاجت إلى الجبال فوقها ، إذن : تثبت الآيات أن الأرض تتحرك وتدور .

والرجّ خلخلة الشىء من مكانه وهزّه هزاً عنيفاً كما تخلع الوتد ، فلا تنزعه من مقابض الأرض عليه مرة واحدة ، إنما تحركه لتخلع جذوره وتُخفف قبضة الأرض عليه ، فيسهل عليك انتزاعه ، كذلك ترج الأرض وتهز بقوة .

وقد عبّر عن هذا المعنى بالزلزلة : ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا (١) ﴾[الزلزلة] وقال : ﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١) ﴾[الحج] ولأن هذا الرج بقوة وعنف أكد قوته بالمفعول المطلق المبيِّن للنوع ، فقال ﴿ رُجَّتِ الأَرْضُ رَجًّا (٤) ﴾[الواقعة] أى : رجاً قوياً عنيفاً ، وما بالك إذا كان الفعل لله تعالى ؟!

وقوله تعالى : ﴿ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا (٥) ﴾[الواقعة] هذه نتيجة الرجة العنيفة التى تفتت هذه الجبال الصلبة الجامدة وتجعلها كما

نقول فى الريف (بسيسة) ، ومعنى بُسَّت أى : تفتتت فصارت كالدقيق .

﴿ فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنْبَثًّا ﴿٦﴾ ﴾[الواقعة] أى : كالغبار الذى لا يُرى بالعين المجردة إلا فى شعاع الشمس لدقّته وصِغَره ﴿ مُّنْبَثًّا ﴿٦﴾ ﴾ [الواقعة] متفرقاً .

وفى آية أخرى عبر القرآن عن هذا المعنى بقوله تعالى : ﴿ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ [1] الْمَنفُوشِ ﴿٥﴾ ﴾[القارعة] أى : الصوف المندوف ، والصوف حينما تتفرّق شعيراته تكون كالهباء المنتشر المتفرق .

إذن : القيامة تبدأ بتهدُّم هذا الكون كله ، كل ما يحيط بك من عناصر الكون الثابتة تزول ، فالسماء تنفطر وتتشقق ، والنجوم تنكدر ، والجبال تُنسف ، ثم يأتى الدور عليكم وتقفون للحساب :

﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴿٩﴾ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٠﴾ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ﴾

أى : سيكون الخَلْق فى هذا الموقف على ثلاثة أصناف ، أولها أصحاب الميمنة وفى موضع آخر قال (أصحاب اليمين) وهم الذين

---

(١) العهن : الصوف المصبوغ بأى لون أو ألوان مختلفة . [القاموس القويم ٢/٤٠] .

يأخذون كتبهم باليمين ﴿مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (٨)﴾[الواقعة] تفخيم وتعظيم لهذه المرتبة ، كما فى قوله تعالى : ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ (٧٨)﴾ [طه]

واليمين تدل على الخير لذلك تستخدم اليد اليمنى فى الأعمال الخيّرة المفضلة ، لذلك أمرنا الشرع بالتيمُّن ، وفضل اليمين لا تُحرم منه الشمال ، فأنت حينما تمسك بالمقصِّ مثلاً لتقصّ أظافرك ، فاليمين تقصّ للشمال بدقة وأمان ، أما الشمال فتقصّ اليمين هكذا كيفما اتفق وبلا دقة .

وهذا يُعلِّمنا درساً فى الحياة هو أننا يمكن أنْ نستفيد بمَنْ هو أفضل منا فلا نحقد عليه ولا نحسده ، لأنه يكمل ما عندنا من نقص ، وخيره سيعود علينا ، فيتحمل هو شيئاً من نقصك .

ومن هنا حثَّ الشارع على أنْ نتعلم العلم ونُعلّمه ، وننشر فى المجتمع الفضيلة ، ونأمر بها وننهى عن الفحش والرذيلة ، لأن الخير عند غيرك سينالك منه وكذلك الشر ، ولو التزم الناس بالمنهج لاستراحوا وأراحوا .

وقد أخبر الحق سبحانه عن أهل الميمنة أنهم يفتخرون بكتبهم حينما يستلمونها باليمين ويتباهوْنَ بها ، يقول قائلهم : ﴿هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ (١٩) إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسَابِيَهْ (٢٠) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ (٢١) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (٢٢)﴾ [الحاقة] هؤلاء هم الذين رفعتهم القيامة .

الصنف الثانى هم أصحاب المشأمة والعياذ بالله ، وهم الذين يأخذون كتبهم بالشمال ﴿وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ (٩)﴾ [الواقعة] فاليمين تيمُّن وخير ، والشمال شُؤْم وشرٌّ .

وقد حكى القرآن عنهم حينما يأخذون كتبهم بالشمال ﴿فَيَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ (٢٥) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ (٢٦) يَـٰلَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ (٢٧) مَا أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ (٢٨) هَلَكَ عَنِّى سُلْطَانِيَهْ (٢٩)﴾ [الحاقة] فيؤمر به : ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (٣٠) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ[1] (٣١) ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا[2] سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ (٣٢)﴾ [الحاقة]

والصنف الأخير هم ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (١٠)﴾[الواقعة] كررها للتعظيم ، وهؤلاء وإنْ أتوا فى الذكر مؤخراً إلا أنهم فى الترتيب أولاً ، وهم أعلى الدرجات بدليل أنه سبحانه أخبر عنهم بقوله : ﴿أُولَـٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (١١)﴾ [الواقعة] أى : مقربون من العرش ، فإنْ أردتَ الترتيب من أعلى ، فالسابقون ثم أصحاب الميمنة ثم أصحاب المشأمة .

إذن : هذه مراتب ثلاث احتلها أصحابها فى الآخرة بحسب أعمالهم فى الدنيا : فالسابق إنسان باكر حياته بعمل الخير منذ صِغَره ، ثم ظل على هذا حتى قضى فسبق إلى الجنة ، وصاحب اليمين أو الميمنة إنسان باكر حياته منذ صغره بعمل الشر ، لكن تداركته نفسه اللوّامة فتاب وأناب وظل على عمل الخير حتى قُبض ، وصاحب المشأمة هو الرجل الذى باكر حياته بعمل الشر ، وظل على ذلك حتى قُبض .

والجنة هى عطاء الله ، وفيها يجتمع أصحاب الميمنة والسابقون ، إلا أن السابقين يكونون فى منزلة أعلى وأقرب من العرش ﴿أُولَـٰئِكَ

---

(١) صلُّوه : أى أدخلوه النار . صلاه الله النار تصلية : أدخله النار . وقوله ﴿وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ (٩٤)﴾ [الواقعة] أى إدخال الجحيم . [القاموس القويم ١/٣٨٢] .

(٢) ذرعها : قال ابن عباس : بذراع الملَك . وقال نوف الشامى : كل ذراع سبعون باعاً . الباع أبعد مما بينك وبين مكة . وقال سفيان : كل ذراع سبعون ذراعاً . [زاد المسير لابن الجوزى الحاقة ٣٢] .

الْمُقَرَّبُونَ (١١) ﴾ [الواقعة] أين ؟ فى جنات النعيم ، ونفهم هذا من قوله تعالى فى سورة الزمر :

﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ (٧٣) ﴾ [الزمر] .. ثم قال بعدها : ﴿ وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ ..(٧٥) ﴾ [الزمر]

إذن : القرب هنا يعنى القرب من العرش .

والسابق هنا هو الذى ينافس غيره ليسبقه ، والمسابقة هنا فى الخير وهو أمر مطلوب شرعاً ، لذلك أمرنا الحق سبحانه بأنْ نسارع وأنْ نسابق : ﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ ..(١٣٣) ﴾ [آل عمران] وقال : ﴿ سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ..(٢١) ﴾ [الحديد]

والسباق هو سباق إيمان وعمل صالح ، سباق مَنْ يريد أنْ يسبق ، وفى نفس الوقت يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، سباق ليس فيه حقد ولا أنانية .

المؤمن يسابق غيره ، والمسألة واضحة فى ذهنه ، فالجوائز تنتظر مَنْ يسبق ، والعطاء عطاء لا ينفد . والعجيب أن المؤمن يسرع فى عمل الخير فى حياته ، وقد يسرع حتى فى موته شوقاً إلى الجنة التى رأى علاماتها وهو فى سكرات الموت .

لذلك عندنا فى الفلاحين يحكون أن فلاناً أسرع به النعش ، فالبعض ينكر عليهم ويقولون : هذا وهم ، لكن ثبت أن النعش قد يسرع ببعض الناس الطيبين ، ومن سيرتهم نعلم أنهم كانوا على خير وأنهم يسرعون تشوّقاً إلى الجوائز ، والذين يباشرون شئون الموتى يعلمون أن الميت تظهر عليه علامات حُسْن الخاتمة ، أو العياذ بالله علامات سوء الخاتمة .

﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ ﴿١٦﴾ ﴾ (١)

هذا الكلام متصل بما قبله ، فالسابقون المقرَّبون تجدهم ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ ﴾[الواقعة] أى : جماعة تمثل كثرة ﴿ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ ﴾[الواقعة] أى : من الأولين فى الإسلام السابقين إليه وهم جماعة الصحابة رضى الله عنهم .

فالسابقون المقربون كُثْر فى عصر الصحابة ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [الواقعة] أى : هؤلاء قلة فى العصور التالية ، قلة هم الذين يُوصفون بأنهم سابقون مُقربون فى عصرنا وفى العصور السابقة علينا فى هذه الأزمان المتأخرة .

وكثيراً ما نسمع جدالاً بين الناس يقولون : فلان رجل طيب يفعل كذا وكذا من أعمال الخير وهو أشبه بالصحابة ، فيرد الآخر يقول : لا ليس بيننا أحد كالصحابة ، ولا يرقى عملنا مهما كان لدرجتهم .

لكن القرآن يحسم لنا هذه القضية ، فالسابقون المقربون موجودون فى أمة الإسلام ، فى الأولين الذين عاصروا رسول الله

---

(١) قال عروة بن رويم : لما أنزل الله تعالى ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [الواقعة] بكى عمر وقال : يا رسول الله آمنا بك وصدقناك ومع هذا كله من ينجو منا قليل ، فأنزل الله تعالى : ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الواقعة] فدعا رسول الله ﷺ عمر فقال : يا عمر بن الخطاب قد أنزل الله فيما قلت ، فجعل ثلة من الأولين وثلة من الآخرين ، فقال عمر : رضينا عن ربنا وتصديق نبينا . فقال رسول الله ﷺ : من آدم إلينا ثلة ، ومنى إلى يوم القيامة ثلة ، ولا يستتمها إلا سودان من رعاة الإبل ممن قال لا إله إلا الله . [أورده الواحدى النيسابورى فى أسباب النزول ص ٢٢٩] .

والتابعين لهم ، وموجودون كذلك حتى عصرنا الحالى لكنهم كثيرون فى الأولين قليلون فى الآخرين .

قليلون إما لكثرة الناس فيظهر السابقون بينهم قلة ، وإما لتفشى الفتنة وكثرة الفساد ، إذن : هم موجودون . لذلك قال الشاعر :

إنَّ الذى جَعَلَ الحَقِيقَةَ عَلْقماً ... لَمْ يُخْلِ مِنْ أَهْلِ الحَقِيقَةِ جِيلا
وَلَرُبَّما قَتَلَ الغَرَامُ رِجَالَهَا ... قُتل الغَرَام كَم اسْتَبَاحَ قَتِيلاَ

وقوله تعالى : ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾﴾[الواقعة] أى : جزاؤهم وإقامتهم فى الجنة ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾﴾[الواقعة] أى منسوجة نَسْجاً دقيقاً متداخلاً بخيوط الذهب ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا ..﴿١٦﴾﴾[الواقعة] أى : على هذه السُّرر ، والاتكاء وضع يدل على الطمأنينة والراحة والرفاهية .

﴿مُتَقَابِلِينَ ﴿١٦﴾﴾[الواقعة] أى : أنهم فى وضع التقابل لا التدابر ، وجوههم متقابلة ، وهذا الوضع يدل على الأُنْس والراحة ، حيث تتقابل الوجوه التى يملؤها البِشْر والسرور ، وهذا الوضع متوفر لهم دائماً حتى مع حركتهم لا يتدابرون .

﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾﴾ (١)

---

(١) الولدان : الغلمان . وقال الحسن البصرى : هؤلاء أطفال لم يكن لهم حسنات فيجزون بها : ولا سيئات فيعاقبون عليها ، فوُضعوا بهذا الموضع . وفى المخلدين قولان : أحدهما أنه من الخلد ، والمعنى أنهم مخلوقون للبقاء لا يتغيرون وهم على سن واحد .
والثانى أنهم مُقرَّطون ويقال مسوَّرون . ذكره الفراء وابن قتيبة . أى أنهم يلبسون الأقراط والأساور . [زاد المسير لابن الجوزى – آية ١٧ الواقعة] .

ومن نعيم الجنة الذى يتنعَّمون به ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ (١٧)﴾[الواقعة] يطوف عليهم بأكواب الشراب ويقوم على خدمتهم ولدان ، وهم الصبيان الصغار حسان الوجوه ، فرؤية الوجه الحسن من النعمة ، وهؤلاء يبقون على هذا الشكل وفى هذا السن لا يكبرون .

وهذا حال أهل الجنة عامة أنهم يبقون على سنٍّ واحدة هو سنّ الشباب والفتوة ، لا يصيبهم هرم ولا كِبَر ، لذلك قال فى النساء ﴿عُرُبًا أَتْرَابًا (٣٧)﴾[الواقعة] أى : فى سنٍّ واحدة .

﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ (١٨)﴾[الواقعة] أى : يطوف عليهم الولدان الحسان بأكواب جمع كوب و (أباريق) جمع إبريق ﴿وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ (١٨)﴾[الواقعة] أى : من ماء عذب يجرى من العيون ، أو من خمر ، وهذه هى أدوات الشراب .

الفرق بينها أن الكوبَ إناء يُشرب فيه ليس له يد تمسكه منها ، وليس له (بزبوز) يُصبُّ منه الماء ، فإنْ كان للإناء يد و(بزبوز) فهو إبريق ، أما الكأس فهو الكوب شريطة أنْ يكون ممتلئاً .

وهم فى هذا النعيم ﴿لا يُصَدَّعُونَ عَنهَا .. (١٩)﴾[الواقعة] طالما قال ﴿وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ (١٨)﴾ [الواقعة] إذن : الكلام عن شراب الخمر ، فلا بُد أنْ يُنزهها عن خمر الدنيا ، فقال ﴿لا يُصَدَّعُونَ عَنهَا (١٩)﴾ [الواقعة] أى : لا يصيبهم ما يصيب شارب الخمر فى الدنيا ، لا يصيبهم صداع .

﴿وَلاَ يُنزِفُونَ (١٩)﴾[الواقعة] لا تذهب الخمر بعقولهم كما تفعل خمر الدنيا ، وهكذا يكون خمر الآخرة متعة صافية ، خلصت من كل شائبة ومن كل نقيصة .

وخمر الدنيا أول ما تعطى شاربها تُعطيه صداعاً ، ثم يشعر أنه يريد أنْ يستفرغ أو يقىء ما فى بطنه ، وهذا معنى ﴿وَلَا يُنزِفُونَ (١٩)﴾[الواقعة] فخمر الآخرة لذة لا يشعر شاربها بهذا الشعور ، فهى متعة وسرور خالص من كل ما يكدر .

والعجيب أنْ نرى كثيراً من شاربى الخمر يشربونها ، لأن عندهم هماً يريدون الخلاص منه ، فيستر عقله ، ويُذهبه بشرب الخمر حتى لا يُفكر فى همه ، وهكذا تتعقد الأمور ولا تحل مُشكلة ، فستْر الهَمِّ لا يُذهبه ، والعاقل هو الذى يواجه المواقف ، وينظر فى أسباب الخروج من الهَمِّ بالتفكير والتأمل والبحث عن حلول عملية .

والقرآن لما تكلم عن الخمر قال : ﴿لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ ..(١٥)﴾ [محمد] فجاء لهم بشىء كانوا يرتبطون به ويحبونه ويجدون فيه متعة فجَعله من نعيم الآخرة ، لكن صفّاه مما يشوبه من نقائص شراب الدنيا ، فقال ﴿لا يُصَدَّعُونَ عَنهَا وَلَا يُنزِفُونَ (١٩)﴾ [الواقعة]

﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ (٢٠) وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ (٢١) وَحُورٌ عِينٌ (٢٢) كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ (٢٣) جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤)﴾

أى : ومن نعيم الجنة أيضاً أنهم يجدون الفاكهة أمامهم ﴿مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ (٢٠)﴾[الواقعة] هم ومما يحبون ، يتخيّرونها من بين أنواع كثيرة ليعرفوا الفرق بين هذه وهذه ، والاختيار يدل على كثرة المعروض عليهم .

﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ (٢١)﴾[الواقعة] أى : مما يُفضلون ومما يُحبون .

وهكذا أتى لهم بالطعام والشراب والفاكهة ، فماذا تبقى من متعة الإنسان فى الدنيا ؟ قالوا : متعة النساء ، فقال بعدها : ﴿وَحُورٌ عِينٌ (٢٢)﴾[الواقعة] ليستوعب كلَّ المتع .

والحور جمع حوراء ، والحَوَر صفة جمال فى المرأة ، وهى شدة سواد العين مع شدة بياضها ، سواد ناصع وبياض ناصع مع اتساع العين ، لذلك مدح الشاعر العربى القديم هذه الصفة فقال :

إنَّ العُيُونَ التى فِى طَرْفِها حَوَرٌ قَتَلْنَنَا ثُمَّ لَمْ يُحْيِين قَتْلانَا
يصرعن ذَا اللبِّ حَتَّى لاَ حِرَاكَ بِهِ وَهُنَّ أضْعَفُ خَلْقِ الله إنْسَانَا

ثم وصف هؤلاء الحور العين ، فقال ﴿كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ (٢٣)﴾ [الواقعة] واللؤلؤ جميل بذاته وله بريق وجاذبية ، وهو مع ذلك ﴿الْمَكْنُونِ (٢٣)﴾[الواقعة] أى : محفوظ ومصُون لا يلحقه غبار يُقلل من جماله وبريقه .

ونفهم من معنى ﴿كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ (٢٣)﴾[الواقعة] أن الحور العين لسْنَ فى المتعة كنساء الدنيا فإن اشتهيت النساء تجد مشاعر أرقى ولذة أرقى من هذا الذى يحدث مع نساء الدنيا .

وهذه اللذة ترتقى حتى تصل إلى درجة العليين ، وهذه الدرجة ليس فيها متعة من طعام أو شراب أو نساء ، إنما يكفيهم لذة النظر إلى الله عز وجل .

هذا كله ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤)﴾[الواقعة] أى : بسبب

أعمالهم الطيبة نالوا هذا الجزاء ، وهذا يعنى أن الأعمال ليست مقابل الجزاء ، وإلا فقد ورد فى الحديث الشريف أن سيدنا رسول الله قال : « لا يدخل أحد الجنة بعمله ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا إلا أنْ يتغمدنى الله برحمته » (١)

﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴿٢٦﴾ ﴾

أى فى الجنة ﴿ لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا .. ﴿٢٥﴾ ﴾[الواقعة] اللغو هو الكلام الذى لا خير فيه أو هو الباطل ﴿ وَلا تَأْثِيماً ﴿٢٥﴾ ﴾[الواقعة] لا يؤثم بعضهم بعضاً لأنهم لا يفعلون فيها الإثم ﴿ إِلاَّ قِيلاً سَلاماً سَلاماً ﴿٢٦﴾ ﴾[الواقعة] أى : لا يسمعون فيها إلا هذه الكلمة كلمة السلام .

بمعنى أنْ يسلم بعضهم على بعض أو تسلم عليهم الملائكة ، أو أشرف من هذا ، وهو أن يُسلِّم عليهم الحق سبحانه وتعالى ، كما قال فى (يس) : ﴿ سَلامٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾ ﴾ [يس]

﴿ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ ﴾

---

(١) أخرج مسلم فى صحيحه (حديث ٥٠٣٧) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : « ما من أحد يدخله عمله الجنة . فقيل : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمدنى ربى برحمة » .

سبق أنْ حدثتنا الآيات عن مراتب ثلاث : أصحاب الميمنة ، وأصحاب المشأمة ، ثم السابقون ، ثم بينتْ جزاء السابقين ، وأنهم كثرة فى الأولين وقلة فى الآخرين . والآن تذكر الآيات جزاء أصحاب اليمين .

وسوف نلاحظ أن جزاءهم فى الجنة أقل مرتبة من السابقين المقربين ، فكأن السياق القرآنى يُفصِّل القول فى هؤلاء الثلاثة بعد إجمال .

يقول تعالى : ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ (٢٧)﴾[الواقعة] فكررها هنا بعد (ما) التعجبية ليفيد التعظيم والتفخيم لهؤلاء ، كما تقول : أعطيته ما أعطيته وكما فى قوله تعالى : ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ (١٠)﴾ [النجم] يعنى : أوحى إليه شيئاً عظيماً يجلّ عن الوصف أو الحصر .

﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ (٢٨)﴾ [الواقعة] السدر : جمع سدرة وهى شجرة النبق ، وهذه الشجرة لها مزية كبيرة ، وهي أن سدرة المنتهى شجرة نبق ، وإن كانت في الحقيقة ليست كشجرة النبق التى نعرفها .

لذلك لما وصف ثمرها قال « كقلال هجر »[1] وثمر النبق حينما يستوى وتكون شجرته فى أرض طيبة وبيئة صالحة تجده لذيذاً حلواً

---

(١) أخرجه أبو نعيم فى حلية الأولياء (٤١٧/١) من حديث أنس رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « يخرج من تحت سدرة المنتهى أربعة أنهار ، اثنان باطنان واثنان ظاهران ، ورأيت ورق الشجرة كآذان الفيلة وحملها كقلال هجر » . وقال : حديث صحيح مشهور من حديث قتادة عن أنس .

تأكله واحدة بعد الأخرى ، لا تحب أنْ تتركه .

والذى يعكر هذه اللذة أن شجرة السدر لها شوك يؤذيك كلما أردتَ أنْ تتناول ثمرة منها ، وكثيراً ما نرى الشوك فى الأشجار النفيسة لحماية ثمارها ، كما فى الورد وفى النخل يحميه من الفئران ومن الحشرات .

أما فى الجنة فقلنا : إن النعيم فيها خَالٍ مما يشُوبه ومما يعكر صفوه ، فسدْر الجنة ﴿ مَّخْضُودٍ (٢٨) ﴾[الواقعة] أى : مقطوع منه الشوك ، نزعنا منه ما يؤذى وأبقينا على المتعة واللذة ، والجنة ليس فيها آفات ولا حشرات تحتاج إلى أشواك لحماية الثمرة .

ومعنى ﴿ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ (٢٩) ﴾ [الواقعة] الطلح شجر الموز[1] ﴿ مَّنضُودٍ (٢٩) ﴾ [الواقعة] منظوم مرصوص بعضه فوق بعض ، كما نرى فى سباطة الموز ، وما فيها من تنسيق وترتيب بين أصابع الموز .

﴿ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ (٣٠) ﴾[الواقعة]ظل ممتد دائم لا يزول ، ومعلوم أن الشمس هى التى تزيل الظل ، والجنة ليس فيها شمس ، فظل هذه الأشجار ظل دائم ممدود .

---

(١) الطلح : فيه ثلاثة أقوال :

أحدها : أن الطلح الموز . قاله ابن عباس وأبو سعيد الخدرى وأبو هريرة والحسن وعكرمة .

الثانى : أنها شجرة تكون باليمن وبالحجاز كثيراً تسمى طلحة .

الثالث : أنه الطلع . قاله على . [تفسير الماوردى آية ٢٩ – الواقعة] .

﴿وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ[1] (٣١)﴾[الواقعة] ثم ﴿وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ (٣٢) لا مَقْطُوعَةٍ وَلا مَمْنُوعَةٍ (٣٣)﴾[الواقعة]بالله بعد أنْ استوفى لذة الطعام والشراب والتفكه ، ماذا يبقى من متع للإنسان ؟

يبقى متعة النساء فيعبر عنها السياق القرآنى هذا التعبير الأدبى اللطيف ، ويُكنِّى عنها بقوله سبحانه : ﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ (٣٤)﴾[الواقعة] والفُرُش جمع فراش ، والفراش هو المحل ، ولذلك يُسمُّون المرأة فراش الرجل ، وهذا تعبير راقٍ لهذه المتعة التى تقوم على الستر والصيانة ، لذلك قال بعدها :

﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً (٣٥) فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا (٣٦) عُرُبًا أَتْرَابًا[2] (٣٧) لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ (٣٨) ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ (٣٩) وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ (٤٠)﴾

إذن : فهمنا من الفُرش أنها كناية عن النساء أنه سبحانه قال بعدها ﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً (٣٥)﴾[الواقعة] أى الحور العين أنشأهن الله

---

(١) ماء مسكوب : قال القرطبى فى تفسيره (٦٦١٠/٩) « أى : جار لا ينقطع. وأصل السكب الصب . أى وماء مصبوب يجرى الليل والنهار فى غير أخدود لا ينقطع عنهم » .

(٢) عرباً أتراباً : العُرُب : جمع العَرُوب : المرأة المتحببة إلى زوجها . [القاموس القويم ١٣/٢] . أما الأتراب فهن اللاتى على ميلاد واحد متماثلات مستويات فى سن واحدة ثلاث وثلاثين سنة . [تفسير القرطبى ٦٦١٢/٩] .

وخلقهن خلقاً جديداً ونشأة جديدة .

فلا تأخذ الصورة التى عندك فى الدنيا فتقول أنها ستكون معى أيضاً فى الآخرة ، نعم ستكون معك إنْ كانت من أهل الجنة ، لكنها ستكون على صورة أخرى مُنقاة مُطهرة مما كان يشوبها فى الدنيا ، خالية من كلّ ما لا يعجبك منها .

لذلك قال تعالى : ﴿وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ .. (١٥)﴾ [آل عمران] مثل واحد صاحبنا كنا نتكلم فى قوله تعالى : ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلالٍ عَلَى الأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ (٥٦)﴾ [يس] فقال : آه يعنى فلانة ستكون معى حتى فى الجنة ؟ فقلت له : نعم لكن بعد أنْ يُطهرِّها الله من الذى لم يعجبك فيها فى الدنيا .

ومعنى :﴿فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا (٣٦)﴾ [الواقعة] يعنى : كل ما الواحد يعمل العملية يجدها بكراً فلا يزهد فيها ﴿عُرُبًا أَتْرَابًا (٣٧)﴾ [الواقعة] عُرباً جمع عَرُوب وهى المرأة المتحبِّبة لزوجها ﴿أَتْرَابًا (٣٧)﴾ [الواقعة] أى : فى سن واحدة ، وهذا يعنى أن العين لا تمتد إلى غير الزوجة .

وقوله تعالى : ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ (٣٩) وَثُلَّةٌ مِّنَ الآخِرِينَ (٤٠)﴾ [الواقعة] يعنى : هذه المرتبة وهم أصحاب اليمين منهم كثرة من الأولين وكثرة من الآخرين ، فهم متساوون هنا وهنا ، أما فى المرتبة الأعلى وهم السابقون فكانوا كثرة فى الأولين وقلة فى الآخرين .

ثم يُحدِّثنا عن الصنف الأخير والعياذ بالله :

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ[1] وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾
وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ[2] ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ
مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ[3] ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا۟
يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾
أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٩﴾
لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾﴾

أصحاب الشمال هم الذين يأخذون كتبهم بالشمال والعياذ بالله ، وقال هنا أيضاً : ﴿مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ (٤١)﴾ [الواقعة] تعجباً من حالهم ، وأن ما يُقاسونه من ألوان العذاب يفوق الوصف .

فهم ﴿فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ (٤٢)﴾ [الواقعة] أى : مظروفون فى سَمُوم وحميم . والسَّموم ريح شديدة الحرارة تخترق مسام الجسم ، والحميم الماء الذى بلغ غاية الحرارة .

---

(١) سموم : الريح الحارة المؤذية التى تؤثر فى الأجسام كأنها مادة سامة تنفذ فى المسام . [القاموس القويم ١/٣٢٩] والسموم أيضاً نار جهنم قال تعالى : ﴿فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ (٢٧)﴾ [الطور] .

(٢) كريم : فيه قولان :

الأول : لا بارد المدخل ، ولا كريم المخرج . قاله ابن جريج .

الثانى : لا كرامة فيه لأهله . ويحتمل ثالثاً : أنه يريد لا طيب ولا نافع . [تفسير الماوردى – آية ٤٤ الواقعة] .

(٣) الحنث : الذنب والإثم . [القاموس القويم ١/١٧٥] وقيل : هو الشرك لأنه أعظم الذنوب .

﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ (٤٣)﴾ [الواقعة] اليحموم : دخان أسود شديد الحرارة ، فإذا رأوْه ظنّوْه ظلاً فإذا به نار تحرقهم ، ثم يصف هذا الظل بأنه ﴿لا بَارِدٍ وَلا كَرِيمٍ (٤٤)﴾ [الواقعة] لأن الظل عادة نأمل فيه أنْ يكون بارداً لطيفاً يحمينا حرارة الشمس ، وكريم يُكرم فيه الإنسانُ ويستريح ، أما ظل هؤلاء والعياذ بالله فيظلهم الدخان الملتهب .

ثم يجيب القرآن الكريم على هذا السؤال : لماذا فعل الله بهم هذا ؟ فيقول : ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ (٤٥)﴾ [الواقعة] أى فى الدنيا ، فالجزاء من جنس العمل ، فقال فى السابقين : ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٧)﴾ [السجدة]

كذلك أصحاب الشمال يواجهون هذا المصير لأنهم كانوا فى الدنيا مترفين ، والترف فى ذاته ليس ذنباً ، أما هؤلاء فقد قصروا الترف على أنفسهم ولم يعدوه إلى غيرهم ، بل بخلوا به على الناس الذين لا ترفَ عندهم ، ولا يؤدون حقّ الله فيما أترفوا به ، هذا هو المترف .

أما الذى يؤدى حقّ الله وينفع بترفهه الغير فلا يُعَدُّ مُترفاً لأنه بترفه يحقق للآخرين شيئاً ضرورياً ، فالذى يجدد فى منزله أو يغير أثاث بيته لا يُسمّى هذا ترفاً لأنه أخرج من ماله للنفع العام ، وحقق ضرورة للطبقات الأدنى التى تنتفع من ذلك .

وقوله سبحانه : ﴿وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ (٤٦)﴾ [الواقعة] الحنث : الذنب والمعصية والمخالفة التى تُوقع صاحبها فى الإثم . وقالوا الحنث : الشرك لأنه وصف بالعظيم ، والشرك أعظم الذنوب .

إذن : جمعوا بين الترف والنعمة ومعصية المنعم سبحانه وتعالى

بقمة العصيان وهو الكفر به سبحانه ، كما قال تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (٢٨)﴾ [إبراهيم]

بل وأعظم من ذلك ﴿وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٤٧) أَوَ آبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ (٤٨)﴾ [الواقعة] فينكرون البعث لأنهم ما قدَّموا شيئاً ينفعهم فى هذا اليوم ، فلو حدث البعث والحساب فعاقبتهم سوداء ، فحظهم إذن أنْ ينكروا البعث ، أو لو كان البعث فى بالهم ما تجرأوا على المعصية ، وما وقعوا فى الكفر والشرك .

فردَّ الله عليهم بما يؤكد لهم هذه الحقيقة التى ينكرونها ، فقال تعالى : ﴿قُلْ إِنَّ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ (٤٩) لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (٥٠)﴾ [الواقعة] وقد سبق أن أكدها فى قوله تعالى : ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ (٢)﴾ [الواقعة]

لذلك قال مسروق [(١)] رضى الله عنه : مَنْ أراد علم الأولين والآخرين ، والدنيا والآخرة والثواب والعقاب فليقرأ سورة الواقعة .[(٢)]

ويُروى أن سيدنا عثمان رضى الله عنه بلغه شىء عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه فقطع عنه عطيته ، فلما مرض ابن مسعود ذهب إليه عثمان يعوده ، فقال : ما تشتكى ؟ فقال : أشتكى ذنوبى –

---

(١) مسروق بن الأجدع بن مالك الهمدانى الوادعى ، أبو عائشة ، تابعى ثقة من أهل اليمن . وقدم المدينة فى أيام أبى بكر وسكن الكوفة وشهد حروب على ، وكان أعلم بالفتيا من شريح . توفى ٦٣ هـ / ٦٨٣ م (الأعلام للزركلى ٢١٥/٧) .

(٢) أخرجه ابن أبى شيبة فى مصنفه (كلام مسروق ٩) : « من سره أن يعلم علم الأولين والآخرين وعلم الدنيا والآخرة فليقرأ سورة الواقعة » . وأورده القرطبى فى تفسيره وكذا ابن عادل فى تفسير اللباب وإسماعيل حقى فى تفسيره .

وهذا حال الذين يعيشون بالله ومع الله - فلم يقل : أشتكى رأسى ولا بطنى ، فقال : وماذا ترجو ؟ قال : أرجو رحمة ربى ، فقال له : نُرجع لك العطاء الذى كان لك ؟ فقال : منعته عنى وأنا صحيح ، وتريد أنْ تعطينى إياه وأنا أحتضر ؟ فقال : يكون لأولادك ، فقال : ليسوا فى حاجة إليه لأنى علَّمتهم سورة الواقعة ، وقد سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « من قرأ سورة الواقعة لا تصيبه فاقة أبداً » .(١)

﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ(٢) ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ﴿٥٦﴾ ﴾

بعد أنْ أكَّد لهم الحق سبحانه أنهم مبعوثون ومجموعون ليوم معلوم ، أخذ يُبيِّن لهم جزاءهم فى هذا اليوم . وشجرة الزقوم فُصِّل القول فيها فى موضع آخر ، فقال سبحانه : ﴿ إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الدخان]

---

(١) أخرجه البيهقى فى شُعب الإيمان (٢٣٩٦ ، ٢٣٩٧) مختصراً بلفظ « من قرأ سورة الواقعة فى كل ليلة لم تصبه فاقة أبداً » . وقد أورده القرطبى فى تفسيره بطوله وعزاه لأبى عمر بن عبد البر فى التمهيد والتعليق والثعلبى أيضاً . وكذا النسفى فى تفسيره (٣٩٦/٣) .

(٢) شرب الهيم : الهيم : جمع أهيم أو هيماء وهى الإبل الظماء . هام البعير : اشتد عليه الظمأ فإذا رأى إناء اندفع إليه فأكثر من شربه . [القاموس القويم ٣١٢/٢] .

وقال عنها : ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ (٦٤) طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ (٦٥)﴾ [الصافات]

يريد أن يُبشِّع منظرها ، فشبّهها بشىء فظيع لم يره أحد وهو رؤوس الشياطين ليذهب الناس فى تصور بشاعتها كل مذهب ، ولو شبّهها بشىء بشع معلوم للناس لوقفوا عنده فى بشاعته ، وسبق أنْ أوضحنا أننا لو أعلنّا عن مسابقة بين الرسامين لرسم صورة للشيطان فسوف يتقدم كلُّ رسام بصورة بشعة تختلف عن التى يقدمها غيره ، ويمكن أنْ نجمع ملايين الصور البشعة للشيطان ، فلكلِّ رسام تصوّره فى البشاعة .

لذلك شبّه القرآن شجرة الزقوم وهى شىء مجهول برؤوس الشياطين ، وهى أيضاً مجهولة على خلاف العادة فى التشبيه ، وهى أنْ نشبه مجهولاً بمعلوم . وقلنا : إن الإبهام هنا هو عين البيان ، كما أبهم وقت الموت وقيام الساعة .

ومعنى : ﴿فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (٥٣)﴾[الواقعة] دليل على أنه لا طعام لهم غيره يملأون منه بطونهم ، وهذا لون آخر من العذاب أن تمتلىء بطونهم منه ، هذا عن الطعام ، فماذا عن الشراب والعياذ بالله ؟ ﴿فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ (٥٤) فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ (٥٥)﴾ [الواقعة] والحميم هو الماء الحار الذى تناهى حَرُّه وبلغ الغاية .

﴿فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ (٥٥)﴾[الواقعة] الهيم : الإبل العطاش التى تشرب بكثرة ولا تروى . إذن : يملأون بطونهم من شجرة الزقوم ، ثم يحتاجون للشراب الذى يُلطف حرارتها فيسقون الحميم ، وأيضاً يشربون منه ملء بطونهم ، وفى آية أخرى قال عن الحميم :

﴿ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ (١٥) ﴾ [محمد]

وبعد هذا العذاب يُوبِّخهم الحق سبحانه فيقول : ﴿هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ (٥٦)﴾[الواقعة] لأن النُّزُل ما أُعدَّ لاستقبال الضيف وألوان الطعام والشراب ، فقال هنا ﴿هَذَا نُزُلُهُمْ .. (٥٦)﴾[الواقعة] على سبيل الاستهزاء بهم والسخرية منهم .

﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ (٥٧) أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ (١) (٥٨) ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ (٥٩) نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٦٠) عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦١) ﴾

مسألة الخَلْق مُسلَّم بها لله وحده ولم يدَّعها أحد ، لذلك عبَّر عنها بهذا الأسلوب المؤكد ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ .. (٥٧)﴾[الواقعة] فقصر الخلق عليه سبحانه ﴿فَلَوْلا تُصَدِّقُونَ (٥٧)﴾[الواقعة] يعنى : إذا قلتُ لكم هذه الحقيقة فلا تُكذِّبوا بها ولا تُصدِّقوا المضلين الذين يُحدِّثونكم عن عملية الخَلْق ، لأنهم كاذبون .

﴿مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا(٢) (٥١) ﴾ [الكهف] وقلنا : إن الدعوى تثبت

---

(١) مَنَى وأمنى : قذف من فرجه الماء الذى يتكوَّن منه الجنين ولو فى الحلم وهو نائم ويسمى الماء منياً . [القاموس القويم ٢/٢٤١] .

(٢) عضداً : أعواناً . وعضد الرجل : أنصاره وأعوانه . وفلان يعضد فلاناً أى يعينه . [لسان العرب – مادة : عضد] .

لصاحبها ما لم يَقُم لها معارض ، ولم يعارض أحد فى مسألة الخَلْق حتى الكفار ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ .. (٨٧) ﴾ [الزخرف]

وقال سبحانه : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَى ذِى الْعَرْشِ سَبِيلاً (٤٢) ﴾ [الإسراء]

وقوله سبحانه :﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ (٥٨) ﴾[الواقعة] هذه مرحلة من مراحل الخَلْق ، الذى بدأ أولاً من طين ، كما أوضحت الآيات التى فصّلت مراحل الخلق : ﴿ الَّذِى أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ (٧) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلالَةٍ مِّن مَّاءٍ (١) مَّهِينٍ (٨) ﴾ [السجدة] فالمرتبة الأولى كان خَلْق آدم عليه السلام من الطين ، والمرتبة الأخرى خلق ذريته من ماء مهين .

وأنتم تشاهدون عملية التناسل التى تتم بالتقاء الذكر والأنثى ، فخذوا منها دليلاً على صدقى فى الأولى ، لذلك قال : ﴿ فَلَوْلا تُصَدِّقُونَ (٥٧) ﴾ [الواقعة] أى : فى وجودكم بالتناسل . وكلمة ﴿ فَلَوْلا .. (٥٧) ﴾ [الواقعة] للحضِّ والحث والعرض .

لذلك يُحدِّثنا هنا عن هذه المرحلة : ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ (٥٨) ﴾ [الواقعة] والمنى هو ماء الرجل الذى يُقذف فى رحم المرأة والذى يكون منه الجنين .

وفى موضع آخر قال : ﴿ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ (٤٦) ﴾ [النجم]

فالنطفة هى الجرثومة التى يكون منها الإيجاد ، والمنى هو

---

(١) ماء مهين : ماء ضعيف . قاله مجاهد . [قاله الماوردى] وقال الألوسى فى تفسيره (روح المعانى) : « ممتهن لا يُعتنى به وهو المنى » .

السائل الذى تعيش فيه النطفة . الحق سبحانه يقول : أرأيتم هذه النطفة التى لا تكاد تُرى ، أأنتم تخلقونها بشراً سوياً مكتملاً ، أم نحن الخالقون ؟

﴿أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ (٥٩)﴾[الواقعة] والاستفهام هنا للتقرير ، فليس هناك إلا جواب واحد هو أن الخلق لله وحده ، ولو كنتم أنتم الخالقين ما اشتكى أحد منكم من هذه المسألة وأنه لم ينجب .

ثم يقول سبحانه : ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٦٠) عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦١)﴾ [الواقعة]

بعد أنْ حدَّثنا الحق سبحانه عن الخَلْق والإيجاد من عدم ، يقول لنا : إياكم أنْ تَغْتَرّوا بأنْ أوجدناكم فى أحسن تقويم ، فالذى وهبكم الحياة قادر على أنْ يسلبها منكم .

وفى موضع آخر قال سبحانه : ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ (٢)﴾ [الملك] فذكر الموت أولاً لنستقبل الحياة بلا غرور ، فالقوى لا يغتر بقوته وجبروته ، والغنى لا يغتر بغناه ، واذكر دائماً أنك ستموت ، لذلك قبل أنْ نستقبل الحياة استقبلنا الموت .

﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٦٠) عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ ..(٦١)﴾[الواقعة] لا يغلبنا أحد ، ولا يمنعنا أحد أن نأتى بخَلْق جديد غيركم ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٩) وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (٢٠)﴾[إبراهيم] وواقع الحياة يؤيد ذلك فقد خلقتُ قبلكم الجن ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦١)﴾[الواقعة] أى : نخلقكم على صورة أخرى قبيحة بعد أنْ كنتم فى أحسن تقويم .

﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾

﴿ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الأُولَىٰ ..﴿٦٢﴾ ﴾[الواقعة] أى : الخَلْق الأول ، وهو خَلْق آدم عليه السلام من طين واستدللتم على صدقها بما شاهدتموه من النشأة الثانية أى الخَلْق بالتناسل ، وما دُمتم علمتم هذا ﴿ فَلَوْلا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾[الواقعة] أى : هلاَّ تذكرون قدرة الله وتجعلونها دائماً على بالكم . وقالوا : النشأة الأولى أى : خَلْقكم الأول فى الحياة الدنيا .

﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾

بعد أن حدثنا الحق سبحانه وتعالى عن خلق الإنسان يحدثنا عن خلق النبات ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾[الواقعة] والحرث مكان الزرع واستنباته ، لأن الفلاح قبل أنْ يبذر البذور يحرث الأرض ليُقلِّب التربة فيتخللها الهواء وتزيد خصوبتها ، فمن الأرض خُلِق الإنسان الأول آدم ومن الأرض خلق النبات .

والحق سبحانه يسألنا وهو أعلم ، فالسؤال إذن سؤال تقرير ﴿ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾[الواقعة] فترك الحرث وذكر الزرع ، لأنه هو المراد والهدف من عملية الحرث .

الحق سبحانه يوضح لنا قدرته فى هذه المسألة فلا أحدَ يدَّعى أنه يُخرج هذا الزرع من الأرض ، فهى عملية خَلْق لم يدَّعها أحد .

وبعد أنْ ينمو الزرع ويزهر ، هل تقدرون على حمايته ؟

﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (٦٥)﴾[الواقعة] فتاتاً وهشيماً تذروه الرياح ولا تنتفعون منه بشيء . إذن : أتى للإنسان بالحياة وما ينقضها من الموت ، ثم أتى بحياة النبات وذكر ما ينقضها من جفافه وجعله فتاتاً لا فائدة منه .

لذلك لما مثّل للحياة الدنيا قال سبحانه : ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ ..(٤٥)﴾ [الكهف]

إذن : إياك أنْ تغترّ بزرعك وجماله ونضرته ، فنحن فى الحقيقة الزارعون ، ونحن القادرون على الذهاب به ، فكلُّ دورك أيها الإنسان أنْ ترمى البذرة فى الأرض ، ولا دخلَ لك بعد ذلك فى عملية الإنبات وما فيها من إعجاز وقدرة هى لله وحده .

ونحن نرى محصول القطن مثلاً يزدهر ويُبشِّر بدخل وفير ، وفجأة وقبل أنْ يستوى للجنى تأتيه آفة فتقضى عليه ولا يستطيع أحدٌ منعها ، لذلك قال تعالى بعدها : ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (٦٥)﴾[الواقعة] تنظرون فى تعجُّب ماذا حدث ؟ وكيف أخذ المحصول بهذه السرعة وتقولون : ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ (٦٦)﴾[الواقعة] زرعنا ولم نحصد [1] ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٦٧)﴾[الواقعة] محرومون من ثمرة زرعنا .

---

(١) قال الضحاك وابن كيسان : هو من الغُرم ، والمغرم الذى ذهب ماله بغير عوض أى : غرمنا الحَبَّ الذى بذرناه . [تفسير القرطبى ٦٦٢١/٩] .

﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ(١) أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾

بعد أنْ تحدَّث عن الطعام يتحدث عن الماء ، وهما العمدة فى مقوِّمات الحياة : الغذاء والماء ، وسبق أنْ أوضحنا أن مقومات الحياة ترتب بحسب الحاجة إليها ، فأولها الهواء ثم الماء ثم الغذاء ، فالهواء تحتاجه كل لحظة ولا تصبر على منعه عنك ، لأنه لو مُنِع عنك نَفَس واحد تموت .

لذلك من حكمة الله تعالى أنْ جعله مشاعاً لا يملكه أحد ، ثم تصبر على الماء حتى عشرة أيام ، لذلك فى العادة والغالب تجد الماء مجاناً وقلما تملَّكه الناس ، أما الطعام فيمكن أنْ تصبر عليه حتى شهر ، لأنك لو مُنِع عنك الطعام يتغذَّى الجسم على المخزون فيه من الدهون .

ونلاحظ على الأسلوب هنا أن الحق سبحانه وتعالى لما تكلم عن الحرث والزرع قال : ﴿ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (٦٥) ﴾ [الواقعة] بلام التوكيد ، أما فى الحديث عن الماء فقال : ﴿ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا .. (٧٠) ﴾[الواقعة] بدون توكيد للفعل جعل ، قالوا : لأن الإنسان له دَخْل فى عملية الزرع ، حيث يحرث ويبذر ويجنى .

أما الماء فلا دخل لأحد فيه ، فعملية إنزال المطر خاضعة لقدرة الله وحده ، ومَنْ يقدر على إنزال قطرة واحدة من المطر ؟ ولك أنْ

---

(١) المزن : السحاب . وقيل : السحاب الأبيض . [القاموس القويم ٢/٢٢٥] .

تتصوَّر المعاناة والتكلفة التى يتحملها مثلاً الصيدلى فى تحضير كوب واحد من الماء المقطر .

لذلك قال سبحانه ﴿أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ (٦٩)﴾ [الواقعة] ولأن الإنسان لا دخلَ له فى عملية إنزال المطر ولا شبهة فيه كما فى الزرع . قال : ﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا .. (٧٠)﴾ [الواقعة] أى : مالحاً لا تنتفعون به ﴿فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ (٧٠)﴾[الواقعة] حضَّ أيضاً على الشكر لهذه النعم التى تُساق إليكم ولا تدرُون بها .

﴿أَفَرَءَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ (٧١) ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ (٧٢) نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ (١) (٧٣) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٧٤)﴾

معنى ﴿النَّارَ الَّتِي تُورُونَ (٧١)﴾[الواقعة] توقدون من أورى الزناد، يعنى قدحه لإشعال النار ﴿أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ (٧٢)﴾[الواقعة] كان أصل النار الخشب الذى يُؤخذ من الأشجار ﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً .. (٧٣)﴾[الواقعة] تذكرة باقية لكم .

ألا ترى أن الحق سبحانه ذكر النعمة وما ينقضها ، فبعد أن تكلم عن خَلْق الإنسان قال : ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ .. (٦٠)﴾ [الواقعة] وبعد أنْ تحدَّث عن الزرع قال : ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا .. (٦٥)﴾ [الواقعة]

---

(١) المقوين : قال الضحاك : أى منفعة للمسافرين ، سموا بذلك لنزولهم القُوى وهو القفر . قال الفراء : إنما يقال للمسافرين مقوين إذا نزلوا القىَّ وهى الأرض القفر التى لا شىء فيها . [تفسير القرطبى ٦٦٢٣/٩] .

وبعد أنْ حدثنا عن الماء قال : ﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا (٧٠)﴾ [الواقعة]

أما فى الحديث عن النار والعياذ بالله فقد تركها بدون أنْ يذكر ما ينقضها ، إنما قال بعدها : ﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً .. (٧٣)﴾[الواقعة] جعلها هكذا قائمة لتكون تذكرة لكم ﴿وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ (٧٣)﴾[الواقعة] المقوى هو الرجل المسافر المنقطع عن وطنه ، ويريد أنْ يشعل النار يستدفىء بها .

وبعد كل هذه النعم لم يبْقَ إلا أنْ نشكر الله عليها ، وأول الشكر أنْ تقول : سبحان المنعم علينا بكلِّ هذه النعم ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٧٤)﴾[الواقعة] لذلك دائماً ما نرى كلمة سبحان الله بعد كل أمر عجيب ﴿سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ .. (١)﴾ [الإسراء] ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ (١٧)﴾ [الروم]

لذلك قال العلماء : منْ قال عند النعمة سبحان الله ماشاء الله لا قوة إلا بالله لا يرى فيها مكروهاً ولا تُصيبها آفة لأنك نسبت النعمة لواهبها فهو يتكفّل بها ، كالصانع الذى يبيعك سلعة ، ويعطيك معها شهادة ضمان كذا سنة ، وإذا أعطاك الحق سبحانه شهادة ضمان فهى مفتوحة غير موقوتة .

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ (٧٥) وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (٧٦) إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ (٧٧) فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ (٧٨) لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ (٧٩) تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٨٠)﴾

قوله تعالى : ﴿فَلا أُقْسِمُ .. (٧٥)﴾[الواقعة] بمعنى الإثبات أقسم بمواقع النجوم ، والمستشرقون لم يفهموا هذا المعنى لذلك اعترضوا على الآية وقالوا : كيف يقول لا أقسم ثم يأتى بعده بجواب القسم ، كأن القسم موجود .

ولبيان هذه المسألة نقول : القسم يمين ، لذلك فى إثبات الحقوق يقولون : البينة على المدعى واليمين على مَنْ أنكر ، فإذا عزَّتْ البينة نلجأ إلى اليمين . إذن : لا يتأتى اليمين أو القسم إلا للتأكيد وفى حالة وجود إنكار .

فحين تسأل مثلاً : هل محمد فى البيت ؟ يقول لك : نعم ، ولا يقول مثلاً : والله العظيم محمد فى البيت لأنك لا تكذّبه ولا تنكر عليه . فإنْ رأى منك ذلك أكّد لك الكلام بالقسم فقال لك : والله العظيم كذا وكذا .

فكأن الحق سبحانه وتعالى حينما يقول لنا ﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ[1] النُّجُومِ (٧٥)﴾[الواقعة] أن المقسم عليه واضح لا يحتاج إلى دليل ، ولا إلى بينة ، ولا إلى تأكيد وقسم ، ولو كنت مُقسِماً لأقسمتُ بما أقول ، لا أقسم بكذا وكذا .

ولك أنْ تتأمل القسم الذى جاء منفياً هكذا وفى جوابه ، فسوف تراه أمراً واضحاً لا يحتاج فى إثباته إلى قسَم مثل : ﴿لا أُقْسِمُ بِهَـٰذَا

---

(١) هناك قراءة أخرى فى هذه الكلمة (بموقع) وهى قراءة حمزة والكسائى وعبد الله بن مسعود والنخعى والأعمش وابن محيصن ورويس عن يعقوب . أما الباقون فهى على الجمع (بمواقع). قال القرطبى فى تفسيره (٩/٦٦٢٥) : « فمن أفرد فلأنه اسم جنس يؤدى الواحد فيه عن الجمع ، ومن جمع فلاختلاف أنواعه » .

الْبَلَدِ ﴿١﴾ ﴾ [البلد] وتوكيد الشيء الواضح الذى لا يحتاج إلى قسم يدعو إلى الشك فيه ، فلا يصح أنْ يؤكد .

ومواقع النجوم المنازل التى تسير فيها ، وهذا خَلْق من خَلْق الله ، فيه ما فيه من الإعجاز ومن الأسرار ، ثم إن الحق سبحانه يُقسم بما يشاء من مخلوقاته على ما يشاء ، لأنه تعالى الأعلم بهذه المخلوقات .

وفى موضع آخر قال عن النجم : ﴿وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [النحل] والنجم حين يُشرق له أسرار ، وحين يغرب أو يهوى له أسرار نحن لا نعلمها ، لكن ربّ النجم يعلمها .

ويكفى لنا هذه الإشارة ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ ﴾[الواقعة] خذوا بالكم وانتبهوا فلكم فوائد كثيرة فى مواقع النجوم أنتم لا تعرفونها ، وعدم معرفتك للشيء لا تقدح فى أنك تستفيد به وتنتفع بحركته .

فالفلاح مثلاً لا يعرف شيئاً عن كيفية عمل (التليفزيون) ، ولا عن كيفية بَثِّ الإرسال ، ومع ذلك يفتح (التليفزيون) وينتفع بما يقدمه لو كان نافعاً .

فالمعنى : لو تعلمون أسراره وفوائده لكم لوجدتموه عظيماً ، ونحن نرى بعض المهتمين بحركة النجوم والبحث عن أسرارها يقولون بارتباط ما بين النجم والإنسان .

فلكلِّ إنسان منا نجمه فى السماء الذى يُشبهه ، فهناك نجوم ساطعة للمشاهير ، ونجوم دون ذلك ، ونجوم بعيدة لم يأتنا ضوؤها بعد ، لذلك يستخدمون تعبير : فلان هوى نجمه . يعنى : أفل وانتهى

دوره كناية عن نهاية الشخص .

ثم يأتى جواب القسم أو المقسم عليه ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (٧٧)﴾ [الواقعة] أى : هذا الكتاب الذى بين أيدينا كريم ، ونشعر هنا بمناسبة ، فالمقسم به النجوم والمقسم عليه أيضاً نزل مُنجماً على مراحل . إذن : ذكر النجم السماوى ومعه النجم القرآنى .

ووصف القرآن بأنه كريم ، لأن الكريم هو الذى يعطى ما عنده ولا يبخل عليك ، كذلك عطاء القرآن للأجيال المتعاقبة عطاء واسع لا ينتهى وفيض لا ينضب أبداً .

﴿فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ (٧٨)﴾[الواقعة] محفوظ مُصان فى اللوح المحفوظ ، ومحفوظ فى الصدور ، ولمكانته وعلو شأنه ﴿لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ (٧٩)﴾[الواقعة] مطهرون طهارة حسِّية من الحدث ، ومطهرون طهارة معنوية من التحريف والتدليس .

وختام هذه الصفات أنه ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٨٠)﴾ [الواقعة] فهو منسوب فى نزوله إلى رب العالمين الكريم للمؤمن والكافر ، واختيار صفة رب العالمين تدلنا على أن القرآن كتابٌ لكل العالمين .

فالذى نزّله ربّ العالمين الذى يعلم أحوال العالمين وما يصلحهم ، فهو خالقهم وأعلم بهم ، وقرآنه بالنسبة لهم هو كتالوج الصيانة الذى يحميهم ويحفظ سلامتهم بالمنهج ، فالذى خلق هو الذى أنزل هذا المنهج .

لذلك خاطب آدم وحواء بعد تجربة الأكل من الشجرة بقوله تعالى : ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَىٰ (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤)﴾ [طه]

لذلك قلنا : لو سار العبد على منهج ربه وخالقه ما أصابه عطب أبداً ، وإذا رأيتَ فى رحلة حياتك (زرجنة) فقف وانظر ماذا أحدثتَ من خروج على منهج ربك ، وكان أحد الصالحين يقول : إنى لأجد أثر المعصية فى خُلق زوجتى ودابتى ، نعم مجرد أنْ (تحرن)[1] منه دابته يقول : ماذا فعلتُ ؟ والله تعالى يقول : ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ..(١١)﴾ [الرعد]

والذى يدلنا على أن النجم المقصود هو النجم القرآنى الذى تنزل به الآيات أنه تعالى أقسم به أى بالقرآن : ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (٧٧)﴾[الواقعة] والكريم هو الذى يبذل الخير من عنده وعلى مقدار صفته فى الكرم ومدى استدامته .

ومن كرم القرآن أن عطاءه ممتد فى كل نواحى الحياة مادية ومعنوية ، ففى الزراعة والصناعة والاقتصاد والهندسة وفى اللغة والحكمة والقيم . ومن كرمه أنه لا يعطى عطاءه دفعة واحدة ، لأنه ما جاء لزمن بعينه إنما جاء للزمن كله إلى قيام الساعة .

ولو أن القرآن أفرغ عطاءه فى قرن واحد لاستقبلته بقية القرون بلا عطاء ، ونفهم هذا من السين فى قوله تعالى : ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا ..(٥٣)﴾ [فصلت] إذن : عطاء مستمر ومتجدد ، لأن ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ .. (٩٦)﴾ [النحل]

ومن معانى الكريم أنه الشىء النفيس . ومنه قولنا حجر كريم . أى : هو فى ذاته كريم ، لذلك قال بعدها : ﴿فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ

---

(١) حرنت الدابة : التى إذا أريد جريها وقفت . وفرس حرون : لا ينقاد إذا اشتد به الجرى وقف . [لسان العرب – مادة : حرن] .

(٧٨) ﴾ [الواقعة] لأن الشىء النفيس لا بد أنْ يُحفظ فى خزانة تصونه .

فالقرآن مصون ومكنون عن أن تمسه إلا يد مطهرة ﴿ الْمُطَهَّرُونَ (٧٩) ﴾ [الواقعة] هم الملائكة ، والمطهر هو الذى طهَّره غيره ، فلم يقل المتطهرون ، لذلك يستدل بهذه الآية الفقهاء الذين يذهبون إلى جواز لمس المصحف للمحدث ، لأن المتطهر هو الذى يُطهر نفسه .

وهذه وردت فى مسألة الحيض : ﴿ فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ .. (٢٢٢) ﴾ [البقرة] فمعنى : (يطهرن) يعنى : يمتنع دم الحيْض ، ومعنى (تطهرن) يعنى : اغتسلن ، إذن : يطهرن جاءت من الغير لأن قطع الحيض من الله ، على خلاف التطهر بالاغتسال .

أما الذى اشترط الوضوء لمسِّ المصحف فقد نظر إلى الآية نظرة عامة ، ليبين أن المصحف ليس كأىِّ كتاب آخر إنما له قداسة فى التناول ، لذلك يقول : أخذتموه من مُطهَّرين فلا تلمسوه إلا متطهرين .

إذن : وصف القرآن هنا بأوصاف ثلاثة أنه كريم ، وأنه محفوظ فى كتاب مكنون ، وأنه لا يمسُّه إلا المطهّرون ، يريد أنْ يقول سبحانه خذ هذا الكتاب بعناية ففيه عطاء لا ينفد ، ووصلك بأمانة كما أُنزِل من الله ، فحافظ عليه حتى من أنْ يمسه غير مطهر .

﴿ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٨٠) ﴾ [الواقعة] هذه حيثية الأحكام المتقدمة كلها ، فهو كتاب كريم ولا يمسُّه إلا المطّهرون لأنه تنزيل من رب العالمين . ورب العالمين يعنى ربوبية وعطاء الربوبية وللكافر وللطائع وللعاصى ، فهو قرآن كريم فى عطائه من رب كريم يعطى عبده العاصى ولا يحرمه رغم عصيانه .

﴿ أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ (١)

كلمة (الحديث) يراد بها القرآن ، قال تعالى : ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ .. ﴿٢٣﴾ ﴾ [الزمر] والحديث ما يتحدَّث الناس به ، والحديث الشىء الطارىء الجديد وقلنا : إن القرآن يعطينا كل يوم جديداً ، لذلك لا تنقضى عجائبه ولا يخلق عن كثرة الرد (٢)

ومعنى : ﴿ مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ [الواقعة] جمع مدهن ، وأصله الذى يأتى بدهان ويدهن الشىء ليلتصق بغيره ، ومعناه الملاينة والمصانعة ، وهنا بمعنى الشكِّ والتكذيب والاستهانة بهذا الحديث وهو القرآن .

وقد عبَّر القرآن الكريم عن هذا المعنى فى قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا لَقُوا

---

(١) سبب نزول الآية : قال ابن عباس : مُطر الناس على عهد رسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : « أصبح من الناس شاكر ومنهم كافر . قالوا : هذه رحمة وضعها الله تعالى . وقال بعضهم : لقد صدق نوء كذا . فنزلت هذه الآيات ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴿٧٥﴾ ﴾ [الواقعة] حتى بلغ ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [الواقعة] أورده الواحدى النيسابورى فى (أسباب النزول) ص ٢٢٩ وعزاه لمسلم .

(٢) أخرجه الترمذى فى سننه (٢٨٣١) عن على بن أبى طالب رضى الله عنه رفعه إلى رسول الله ﷺ : « كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم وهو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله وهو حبل الله المتين وهو الذكر الحكيم وهو الصراط المستقيم ، هو الذى لا تزيغ به الأهواء ولا تلتبس به الألسنة ولا يشبع منه العلماء ولا يخلق على كثرة الرد ولا تنقضى عجائبه » .

الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ (١٤)﴾[البقرة] وفى سورة القلم قال تعالى : ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ (٩)﴾ [القلم] أحبّوا أنْ تلاينهم وتصانعهم .

وقال تعالى : ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ (٨٢)﴾ [الواقعة] أى : تجعلون نصيبكم وحظكم من الدنيا أنْ تكذِّبوا بهذا الكتاب ، والرزق الذى ساقه الله إليكم تجعلونه وسيلة تكذيب لمنهج الله بدل أنْ تشكروا الرازق سبحانه الذى خلقكم من عدم ، وأمدكم من عُدْم .

فصدق فيهم قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ[1] (٢٨) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ (٢٩)﴾ [إبراهيم]

ثم يذكر هؤلاء المكذبين بنهايتهم التى لا مفر منها : ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ (٨٣)﴾ [الواقعة]

الضمير فى ﴿بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ (٨٣)﴾ [الواقعة] ليس له عائد لأنه معلوم للجميع وهو الروح ، كما فى قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ (٣٢)﴾ [ص] والمراد الشمس . وكما فى قوله تعالى : ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ ..(٤٥)﴾[فاطر] والمراد ظهر الأرض لأنه معلوم بداهة . صحيح أن الضمير لا يعود إلا على اسم ظاهر ، لكن إذا اتضح أمره واشتهر يمكن أنْ يعود على غير مذكور لأنه ما حُذف إلا للعلم به .

وبلوغ الروح الحلقوم يعنى الاحتضار ، فاذكروا أيها المدهنون

---

(١) دار البوار : دار الهلاك وهى النار . يبور : يبطل ويزول ولا يؤدى الغرض منه . [القاموس القويم ١/٨٩] .

هذا الموقف ، ماذا ستفعلون فيه ، وهل ستكذبون أيضاً فى هذا الموقف ؟

﴿وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ (٨٤)﴾[الواقعة] تنظرون إليه وهو يحتضر فلا تملكون له شيئاً ، ولا تدفعون عنه الموت ، لأن الموت من الأمور المملوكة لله تعالى ليس لأحد فيها اختيار .

كلمة ﴿فَلَوْلا ..(٨٦)﴾[الواقعة] حرف يفيد الحضَّ والحثّ مثل هلاّ فعلت كذا . والحلقوم : أول القصبة الهوائية ، وهى موضع خروج الروح ، فقالوا أنها لا تخرج من القناة الهضمية ومجرى الطعام ، إنما تخرج من مجرى النفَس لأنه الأهم فى حياة الإنسان ، كما سبق أنْ رتّبنا أولويات الطعام والشراب والهواء . وقلنا : إن أهمها الهواء لذلك لا يصبر الإنسان على منعه أبداً ، ولو منعك النفَس لشهيق أو زفير تموت .

وقوله تعالى : ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَـٰكِن لاَّ تُبْصِرُونَ (٨٥)﴾[الواقعة] أى : فى هذا الموقف وفى وقت حشرجة الروح والنزع الأخير فى الوقت الذى لا حيلة لكم فيه نكون نحن أقرب إليه منكم ﴿وَلَـٰكِن لاَّ تُبْصِرُونَ (٨٥)﴾ [الواقعة]

هذه الكلمة ﴿وَلَـٰكِن لاَّ تُبْصِرُونَ (٨٥)﴾[الواقعة]حلت لنا إشكالات متعددة ، لأن البعض يفهم مسألة معية الله فى مثل : ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ..(٤٠)﴾ [التوبة] و ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا .. (١٢٨)﴾ [النحل] أنها معية علم ، ولو كانت كذلك ما قال سبحانه ﴿وَلَـٰكِن لاَّ تُبْصِرُونَ (٨٥)﴾ [الواقعة]

إذن : هى معية حقيقية ولو كان عندكم بصر حديد يُمكِّنكم من الرؤية لرأيتم ، فلم لا يتسع التصور فى المعية بدون تحيُّز ، ولك فى

نفسك مثال : فالروح التى تدير حركة حياتك كلها ، هل تعلم أين هى من جسمك ؟

إذن : أنت لا تدركها وهى فيك ، فما بالك بالحق سبحانه وتعالى الذى يدير هذا الكون كله ، فمعية الله بذاته التى ليستْ كالذوات ، فإذا كنتَ لا تدرك مخلوقاً لله فهل تطمع فى أنْ تدرك معية الله لك ؛ إذن فمخلوق لله لا يُدرَك ، فكيف تريد أن تدرك من خلق ما لا يُدْرَك !!

﴿فَلَوْلا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ (٨٦) تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٨٧)﴾ [الواقعة] يعنى : فهلا ترجعونها أى الروح ، وهل لكم قدرة على ذلك ، والحال : أنكم بالفعل مدينون لنا وفى قبضتنا ، وأنكم مملوكون لنا ولا قدرة لكم على إرجاع هذه الروح التى قضينا بخروجها ، إذن : أنتم فى قبضة القدرة وإنْ كنتم خُلقتم مختارين .

ومعنى : ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٨٧)﴾ [الواقعة] أى : فى زعمكم بعدم وجود بعث وحساب .

﴿فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٨٨) فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ (٨٩) وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩٠) فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩١)﴾ (١)

حدَّثتنا السورة فى بدايتها عن هؤلاء الثلاثة ، وفى نهايتها يذكر

---

(١) الرَّوْح : الرحمة . وقال الزجاج : معناه فاستراحة وبرد وتأويل الروح بالرحمة قال تعالى : ﴿وَلا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ (٨٧)﴾ [يوسف] أى من رحمة الله ، سماها روحاً لأن الروح والراحة بها . والرَّوْح أيضاً : السرور والفرح . والروح : برد نسيم الريح . [لسان العرب مادة روح بتصرف] .

الحق سبحانه موجزاً جزاء كل نوع منهم ، فأولهم وأعلاهم درجةً هم السابقون أو المقربون . وقلنا : إنهم مُقربون من الله ومن الجنة ، وهم الذين بادروا بطاعة الله وداوموا عليها ولم يُدنسوا أنفسهم بمعصية فنالوا هذه المنزلة .

وجزاؤهم : (فروح) ، قالوا : يعنى رحمة من الله وسرور بنعمة الله . والرحمة تتناسب سعتها وعلوها بقدر الراحم ، فإذا كانت الرحمة من الله فهى رحمة لا حدود لها .

﴿ وَرَيْحَانٌ ..(٨٩) ﴾ [الواقعة] نبات أخضر غضّ طرى له رائحة طيبة ، وهو نبات معروف ، وقد ورد فى قوله تعالى : ﴿ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ[1] وَالرَّيْحَانُ (١٢) ﴾ [الرحمن] لكن ريحان الجنة شىء آخر غير الذى نعرفه فى الدنيا .

وقد بيَّن لنا سيدنا رسول الله ذلك ، فقال عن الجنة ونعيمها : « فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر »[2] .

ومعلوم أن ما رأتْ العين أقل مما سمعت الأذن ، لأن ما تراه العين محدود بقدرتها على الرؤية ، أما السمع فيسمع ما تراه العين وما لا تراه ويراه الآخرون ، فالأذن أوسع إخباراً ، وفوق ذلك

---

(١) العصف : التبن ، قال ابن عباس : العصف تبن الزرع وورقه الذى تعصفه الرياح ، وعن ابن عباس أيضاً : العصف ورق الزرع الأخضر إذا قطع رءوسه ويبس . [تفسير القرطبى ٦٥٥٦/٩] .

(٢) حديث صحيح متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٠٠٥ ، ٤٤٠٦) وكذا مسلم فى صحيحه (٥٠٥٠) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

لا يخطر على القلب ولا يتصوره العقل ولا ورد على البال ، فما رأته العين موجود ، وما سمعته الأذن موجود ، لكن ما لا يخطر على البال هو شيء جديد لم نعهده ، ولا حتى يخطر لنا على بال من النعيم .

لذلك قلنا : إن الحق سبحانه وتعالى لما أراد أنْ يعطينا وصفاً لنعيم الجنة لم يصف النعيم ذاته إنما وصف مثالاً له وكأنه فوق أنْ يُوصف بكلمات نعرفها نحن ، فقال سبحانه : ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ .. (٣٥)﴾ [الرعد]

والمتأمل فى نعيم الجنة يجد أنه يستوعب جميع حواس الإنسان ، ففيه متعة التذوق فى الطعام والشراب فى الفاكهة والماء والعسل واللبن ، وفيه متعة الرؤية فى رؤية الحور العين كاللؤلؤ المكنون ، ورؤية الغلمان الحسان وغيرها .

وفيه متعة اللمس فى لمس الحرير والإستبرق والسُّندس[1] ، وفيه متعة السمع ﴿لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلا تَأْثِيمًا (٢٥) إِلاَّ قِيلاً سَلامًا سَلامًا (٢٦)﴾ [الواقعة] وفيه متعة الشم فى الريحان الذى نحن بصدد الحديث عنه .

ومعنى ﴿وَجَنَّةُ نَعِيمٍ (٨٩)﴾ [الواقعة] النعيم ما تستطيبه النفس وتتنعم به دون ألم يتأتى منه منغصات ، فهو نعيم خالص لأنك قد تأكل الأكلة أو تشرب الشربة فى الدنيا وتتمتع ، وقد تجد لها لذة صحيح لكن بعد قليل تجد لها ألماً أو آثاراً غير مرغوب فيها .

---

(١) السندس : رقيق الحرير الذى يتلوَّن ألواناً . [القاموس القويم ١/٣٣١] .

لـذلك قـال سبحانه عن طعام الجنة ﴿فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا (٤)﴾ [النساء] فهو هنىء فى تناوله له لذة ومتعة ومرىء بعد ذلك لا يتعبك ولا تجد له منغِّصات .

﴿وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩٠) فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩١)﴾ [الواقعة] أصحاب اليمين هم النوع الثانى ولم يُفصِّل القول فى النعيم الذى يجدونه ، واكتفى بأنْ يخبر عنهم بما يدل على النعيم فهم فى سلام ، يُسلِّم بعضهم على بعض ، كلّ فوج يُسلم على الآخر ، أو تُسلم عليهم الملائكة ، أو يسلم عليهم الحق سبحانه وتعالى كما قال فى (يس) :﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ (٥٨)﴾ [يس] وتحت هذا السلام من الرب الرحيم تنطوى النعم .

﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ (٩٢) فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ (٩٣) وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ (٩٤)﴾

هؤلاء والعياذ بالله أهل الشقاوة وجزاؤهم فى النار ﴿فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ (٩٣)﴾[الواقعة] النُّزل ما أُعدَّ للضيف من قِرَى ، لذلك نسمى الآن الفنادق نزل ، فهؤلاء أُعدَّ لهم الحميم طعاماً والحميم هو الماء الذى تناهى حرُّه ، وأُعِدَّتْ لهم الجحيم يصلوْنَها ويُقاسُون حرارتها وآلامها .

﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ .. (٥٦)﴾ [النساء] وقلنا : فى هذه الآية مظهر من مظاهر الإعجاز القرآنى ، فهو أول مَنْ أثبتَ للعالم أن الجلد هو مركز الإحساس فى الجسم .

هذا نُزل الكافرين المكذِّبين ، ويقابله نُزُل المؤمنين وهو الجنة ، الذى وصفه الحق سبحانه بقوله : ﴿نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ (٣٢)﴾[فصلت] وللعاقل أنْ يقارن وأنْ يختار أىَّ النُّزُلين يريد .

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ (٩٥) فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ (٩٦)﴾

قلنا : إن العلم على مراتب ثلاث : علم اليقين وعين اليقين وحقّ اليقين . وبعد أن ذكر الحق سبحانه نعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار ، قال سبحانه : ﴿إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ (٩٥)﴾ [الواقعة] أى : حين يباشرون نعيم الجنة ويدخلونها بالفعل ، وأهل النار يُقاسُونَ حرارتها بالفعل ، هذا هو حق اليقين وهو آخر مرحلة فى العلم .

وقد ذكرنا أن العلم درجات : علم اليقين وعين اليقين وحقّ اليقين ، وفى سورة التكاثر ذكر الأولى والثانية : ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ (١) حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ (٢) كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣) ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٤) كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (٥) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (٦) ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ (٧)﴾ [التكاثر]

فعلم اليقين حينما يخبرك الصادق بالخبر ، وعين اليقين حينما ترى بعينك ، وحقّ اليقين حينما تباشر الشىء بنفسك .

والحديث هنا عن المرحلة الأخيرة ، وهى يوم القيامة حينما يباشر أهل الجنة نعيمها ، ويُقاسى أهل النار عذاباتها ، والجزاء فى الآخرة جزاء عادل جزاء مَنْ لا يظلم الناس مثقال ذرة ، ولولا هذا الجزاء ما استقامت للناس حياة فى الدنيا .

فالعصاة والأشقياء الذين شَقِى بهم المجتمع وذاقَ الأمرَّين من تجاوزاتهم لا يمكن أنْ يستووا مع المؤمنين الذى سعد بهم مجتمعهم

وانتفع ببرِّهم وكرمهم وصلاحهم .

فكأن الحق سبحانه وتعالى يَغار على خَلقه ويغضب لهم ويحميهم من مراتع الهلكة ، وإلا فالحق سبحانه وتعالى الغنى عن خَلْقه لا تنفعه طاعة ولا تضره معصية ، لذلك كان على الخَلْق أنْ يستقبلوا الجزاء فى الآخرة بحمد الله وتسبيحه ، لأنه أسدى إليهم نعمة الجزاء فى الآخرة ولم يتركهم هملاً حتى النار وعذابها من نعم الله ، لذلك ختمت الآيات بهذا الأمر : ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٩٦)﴾ [الواقعة]

إذن : جاء التسبيح نتيجة لما ذكره الحق سبحانه من نعيم دائم للمؤمنين وعذاب مقيم للكافرين ، وهو يستحق منا أنْ نسبح الله أى نُنزِّهه سبحانه عن كل نقص ونُنزهه سبحانه عن مشابهة الخَلْق ، وأنْ نثبت له سبحانه كلّ صفات الجلال والكمال والجمال ، وأنْ نؤمن بأنه سبحانه ليس كمثله شىء .

والحق سبحانه يعطينا من واقع حياتنا آية تدلنا على ذلك فالتاريخ ملىء بالجبابرة والعتاة مثل فرعون ومَنْ على شاكلته ، وقد وصل الحد بالناس إلى أنْ جعلُوهم آلهة من دون الله ، وقدموا لهم فروض الولاء والطاعة لكن لم يقُلْ لهم أحد أبداً سبحانك ، لأن هذا اللفظ لا يقال إلا لله وحده ، ولا يجرؤ أحد أنْ يقوله لغير الله .

كما قلنا فى لفظ الجلالة (الله) فمع وجود الكافرين والملحدين إلا أنهم لم يجرؤ أحد منهم على أنْ يُسمى هذا الاسم ، وما هذا إلا لأنهم يعلمون فى قرارة أنفسهم أن الله حَقٌّ ، وأنهم لو تجرأوا على هذا الاسم لأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر ، لذلك قال سبحانه ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا (٦٥)﴾ [مريم]

ومثل هذه الخصوصية وجدناها فى فريضة الصيام ، فالشهادة : لا إله إلا الله يمكن أنْ تُقال لبشر ، ويمكن أنْ نرى المنافقين والأفاقين يرفعون وينفخون فى أحد الطغاة الظالمين ويقولون له أنت ولا أحد بعدك ، كما قال فرعون ﴿ يَـٰأَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى .. (٣٨) ﴾ [القصص] وفى التاريخ مواقف مثل هذا كثيرة .

والصلاة يمكن أنْ تجد من يسجد لبشر مثله وينحنى له ، والزكاة كذلك نرى مَنْ يقيم الحفلات و(يرش) من أجل فلان ، والحج يأتى كل أسبوع مثلاً ويُوقِّع فى دفتر التشريفات إظهاراً للولاء والتبعية .

أما الصوم فلم نجد أحداً تعبّد به لأحد من البشر ، لذلك ورد فى الحديث « كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لى وأنا أجزى به » [(١)] .

هذه مسائل ثلاث اختصّ بها الحق سبحانه نفسه ، ولا تكون إلا له سبحانه ، وهى دليل على طلاقة القدرة ، وعلى عظمة الذات العلية .

ومعنى ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٩٦) ﴾ [الواقعة] أى : الذى لا تُستوعب عظمته ولا تُدرك ، ونحن نقولها فى كل ركعة فى ركوعنا (سبحان ربى العظيم) ومن جميل السَّبْك الأدائى فى القرآن أن السورة التى بعدها سورة (الحديد) تفتتح بقوله تعالى : ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) ﴾ [الحديد] فكأن السموات والأرض وما فيهن استجاب لهذا الأمر : ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٩٦) ﴾ [الواقعة] فسبَّح .

---

(١) حديث صحيح متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (١٧٧١) وكذا مسلم فى صحيحه (١٩٤٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

وكلمة (سبحان) مصدر . وحين تقول سبحان الله تثبت له سبحانه أنه مُسبَّح قبل أنْ يوجد مَنْ يُسبحه منْ خلقه ، كما قلنا فى صفة الخلق ، فالله متصف بهذه الصفة ، وخالق قبل أنْ يخلق شيئاً من خَلْقه ، فبصفة الخَلْق فيه تعالى خلق .

كذلك هو سبحانه وتعالى مُسبَّح أزلاً قبل أنْ يوجد أحد يُسبِّحه ، وهو راحم قبل أنْ يخلق مَنْ يرحمه .

إذن : صفات الله تعالى صفات ذاتية فيه سبحانه ، كما نقول فلان شاعر . لا نقولها لأنه قال قصيدة ، بل قال القصيدة لأنه شاعر ، ولو لم يكُنْ شاعراً بداية ما قالها .

وكلمة (سبحان) أتتْ فى القرآن عدة مرات مضافة للاسم الظاهر ، أو مضافة لكاف الخطاب ، أو مضافة لهاء الغائب ، فمع الاسم الظاهر جاءتْ ثمان عشرة مرة فى ثمان عشرة سورة أولها فى سورة (يوسف) : ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٨)﴾ [يوسف] وآخرها فى سورة (القلم) : ﴿قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٢٩)﴾ [القلم] فى قصة أصحاب الجنة .

ثم أول مصدر مضاف إلى كاف الخطاب فى سورة (البقرة) : ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا .. (٣٢)﴾ [البقرة] وقد ورد بكاف الخطاب فى تسع سور ، وبهاء الغائب فى أربع عشرة سورة أولها فى سورة البقرة : ﴿سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ (١١٦)﴾[البقرة] هذه المواضع مع المصدر الذى يثبت الصفة لله تعالى أزلاً قبل أنْ يوجد من خلق الله مُسبح .

ثم بعد أنْ خلق الله الخَلْق من السموات والأرض وما فيهن من الملائكة ومن الإنس والجن وباقى الكائنات امتثلتْ أمر ربها بالتسبيح

فسبَّحتْ وما تزال ، لذلك وجدنا هذا الفعل فى القرآن بصيغة الماضى وبصيغة المضارع المستمر إلى يوم القيامة ، فهى منظومة دائرة فى الكون كله باقية ما بقى إلى يوم القيامة .

قال تعالى : ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. (١)﴾ [الحديد] وقال : ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ .. (١)﴾ [الجمعة] ثم جاء بصيغة الأمر : ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٧٤)﴾[الواقعة] أى : ياأيها الإنسان لا تشذ عن هذه المنظومة المسبّحة وسبّح أنت أيضاً .

والتسبيح أنْ نقول نحن العرب : سبحان الله ، وهذه لغة وألفاظ يُعبِّر بها كل قوم عن أغراضهم ، فكُلٌّ يسبح الله بلغته ، حتى الجماد والنبات والحيوان مُسبِّح بلغة يعلمها الخالق سبحانه ، وليس بالضرورة أنْ نعلمها نحن ، فإذا كنا لا نعلم كثيراً من لغات البشر فهل يطمع فى أنْ نعلم لغات المخلوقات الأخرى ؟

لذلك قال تعالى : ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَـٰوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَـٰكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. (٤٤)﴾ [الإسراء] وهذا يعنى أنها تُسبِّح على وجه الحقيقة بلغة خاصة لا تسبيح دلالة كما يقولون .

ألم يقل الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ (٧٩)﴾ [الأنبياء] وفى قصة سيدنا سليمان وجدنا للنمل لغة ، وللهدهد لغة وللطير لغة .

وقد امتنَّ الحق سبحانه على سيدنا سليمان عليه السلام ، فعلّمه هذه اللغة فعلمها وفهم عن هذه المخلوقات ما تريد ، فاللغة تقوم على التفاهم ، البشر يفهم لغة البشر ، والحيوان يفهم لغة الحيوان ، والنبات يفهم لغة النبات ، والجماد يفهم لغة الجماد .

سُورَةُ الحَدِيدِ

سورة الحديد (١)

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝١ ﴾

يعنى : ما من شىء موجود فى السموات ولا فى الأرض إلا يسبح لله تسبيحاً على الحقيقة بلغته التى خلقها الله فيه لا تسبيح دلالة (٢) كما يقولون بدليل ﴿ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. ﴿٤٤﴾ ﴾ [الإسراء] لذلك لما قالوا فى معجزاته ﷺ أن الحصى سبّح فى يده (٣)

---

(١) سورة الحديد سورة مدنية فى قول الجميع [قاله القرطبى فى تفسيره (٦٦٣٧/٩)] نزلت بعد سورة الزلزلة وقبل سورة محمد . عدد آياتها ٢٩ آية ترتيبها فى المصحف الشريف (٥٧) .

(٢) قال الزجاج : لو كان هذا تسبيح الدلالة وظهور آثار الصنعة لكانت مفهومة ، فلم قال ﴿ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. ﴿٤٤﴾ ﴾ [الإسراء] وإنما هو تسبيح مقال ، واستدل بقوله تعالى : ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ .. ﴿٧٩﴾ ﴾ [الأنبياء] فلو كان هذا تسبيح دلالة فأى تخصيص لداود ؟ نقله القرطبى فى تفسيره (٦٦٣٧/٩) وقال : « ما ذكره هو الصحيح » .

(٣) قال أبو ذر : جاء أبو بكر فسلَّم وجلس عن يمين رسول الله ﷺ ، إذ جاء عمر فسلم وجلس عن يمين أبى بكر ، إذ جاء عثمان وجلس عن يمين عمر رضى الله عنه ، فتناول النبى ﷺ سبع أو تسع حصيات فسبّحن حتى سمعت لهن حنيناً كحنين النحل ثم وضعهن فخرسن ثم أخذهن فوضعهن فى يد أبى بكر فسبّحن حتى سمعت لهن حنيناً كحنين النحل ، ثم وضعهن فخرسن ، ثم تناولهن فوضعهن فى يد عمر فسبّحن حتى سمعت لهن حنيناً كحنين النحل ، ثم وضعهن فخرسن ، ثم تناولهن فوضعهن فى يد عثمان فسبَّحن حتى سمعت لهن حنيناً كحنين النحل ثم وضعهن فخرسن . أخرجه أبو نعيم فى دلائل النبوة (٤٧/١) .

ﷺ قلت : الصواب أن نقول : سمع رسول الله تسبيح الحصى فى يده ، لأن الحصى مسبّح أياً كان حتى لو فى يد أبى جهل .

وقوله تعالى : ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ①﴾[الحديد] العزيز هو الغالب الذى لا يُغلب ، والعزيز الشىء النادر الذى ليس له مثيل ، فجمعتْ الآية المعنيين ، كما قال سبحانه : ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ ..⑧⑧﴾ [المؤمنون] وهو أيضاً سبحانه ﴿الْحَكِيمُ ①﴾[الحديد] والحكيم الذى يضع الشىء فى موضعه بحكمة وعلم ، حتى لا نأخذ العزة على أنها جبروت وبطش ، فهى عزة بحكمة وبقدر .

﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ②﴾

قلنا : فى مادة (ملك) أنها تأتى بالفتح مَلْك كما فى قوله تعالى : ﴿مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا ..⑧⑦﴾ [طه] والمَلْك المقدرة والإرادة ، وتأتى بالكسر ملك وتعنى أىّ شىء تمتلكه فهو ملك لك ، وتأتى بالضم كما هنا مُلك ، والمُلْك أنْ تملك مَنْ يملك ، فالأرض مثلاً ملك للناس ، والله سبحانه له مُلك هذه الأشياء يملكها ويملك مَنْ يملكونها .

والسموات والأرض ظرف لما فيهما من مخلوقات ، لذلك يقول فى موضع آخر :

﴿لَهُ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ .. ④﴾ [الشورى] فهو سبحانه يملك الظرف والمظروف فيه ، السماء فيها الملائكة ، وفيها ما فيها من كواكب ونجوم ومجرّات ومخلوقات أخرى ، والأرض فيها

الإنس والجن ، وأيضاً فيها الحفظة من الملائكة .

وعادة كما ذكرنا نجد أن المظروف أنفسُ من المظروف فيه ، فعلى قدر نفاسة المحفوظ يكون الحافظ ، فإذا كانت السموات والأرض فى ذاتها عظيمة ، وكلها آيات وعجائب ، فالمظروف فيها أعجب منها وأعظم .

ثم هناك فى مُلْك السموات والأرض الغيبيات التى لا نعرفها ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. (١٢٣)﴾ [هود] إذن : هذه مراحل ثلاث من ملك الله : له ملك السموات والأرض ، وله ملك ما فى السموات والأرض ، وله غيب السموات والأرض .

وكل يوم نكتشف فى مُلْك الله جديداً فى السموات وفى الأرض لذلك تلفتنا الآيات إلى ذلك : ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ (٦)﴾[طه] ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ ..(٢)﴾[الحديد] يُحيينا نحن ويُميتنا ، أحيانا أولاً لما خلقنا من عدم ، ثم يميتنا ثم يحيينا فى الآخرة .

والإحياء والاماتة له وحده سبحانه لا يشاركه فيها أحد ، وقد قصَّ علينا القرآن الكريم قصة الذى حاجّ إبراهيم فى ربه ، وأنه ادعى الإحياء والإماتة فجادله سيدنا إبراهيم حتى كشف كذبه .

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِى حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِى رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّىَ الَّذِى يُحْيِى وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِى وَأُمِيتُ .. (٢٥٨)﴾ [البقرة] وعندها أحسَّ سيدنا إبراهيم أن الرجل يريد الجدل ، فقطع عليه الطريق وأخذه إلى مجال لا جدالَ فيه ، ﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِى بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِى كَفَرَ .. (٢٥٨)﴾ [البقرة]

وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢) ﴾[الحديد] لايعجزه شيء ولا يمتنع منه شيء ، فالذى أوجد من عدم أقدر على الإعادة ﴿ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ [1] مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ (١٥) ﴾ [ق] وقال : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٧) ﴾[الروم] وليس فى حقِّ الله هيِّن وأهون .

لكن الحق سبحانه يخاطبنا بما نفهم ، ويجارى الخصم حتى يقيم عليه الحجة ، لذلك قال : ﴿ فَبُهِتَ الَّذِى كَفَرَ .. (٢٥٨) ﴾ [البقرة] أى : غلبته الحجة فلم ينطق ببنت شفه .

فالحق سبحانه مالك الملك ، وبيده الإحياء والإماتة ، فأوجد من عَدَم وأمد من عُدْم ، وله قيومية تبقيه على ما هو عليه ، فلم يخلق الخَلْق ثم تركه هملاً ، إنما قائم عليه بقيوميته سبحانه .

لذلك قال جلَّ وعلا : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا .. (٤١) ﴾ [فاطر] وهذه قيوميته سبحانه : ﴿ وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (٤١) ﴾ [فاطر] وهنا قال : ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢) ﴾[الحديد] يعنى : بقدرته يخلق ما يشاء ، يخلق من عدم بداية ، ويخلق من موجود ، وبقيوميته يحتفظ بخَلْقه كما خلقه .

والضمير (هو) للغائب لا يأتى إلا إذا سبقه مرجع ، تقول : زارنى زيد فأكرمتُه . أى زيداً ، وهذا المرجع يُفهم من الكلام السابق

---

(١) اللبس : الشك . ولبس الشيء يلبسه : خلطه وعمَّاه وأبهمه وجعله مُشكلاً مُحيِّراً . [القاموس القويم ٢/١٨٨] .

كما قلنا فى ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ (٣٢)﴾ [ص] والمراد الشمس .

كذلك هنا ضمير الغائب لا ينصرف إلا إلى الحق سبحانه وتعالى ، الذى لا يشاركه أحد فى الملْك ولا الخَلْق . ولا فى الإحياء والإماتة .

وقال سبحانه فى الأحدية : ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١)﴾[الإخلاص] فلا يصح هنا أنْ نقول الضمير (هو) عائد على متأخر ، لا بل عائد على متقدم وإنْ لم يُذكر ، لأنه لا ينصرف إلا لله الإله الواحد الأحد ، الواحد الفرد الذى لا ثانى له ، والأحد فى ذاته ليس مُركباً من أجزاء بحيث يحتاج جزء إلى جزء .

﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣)﴾

ما دام أنه تعالى هو الذى أوجد كل موجود ، فهو بالتالى ﴿الْأَوَّلُ .. (٣)﴾[الحديد] أى : قبل كل موجود ﴿وَالْآخِرُ .. (٣)﴾ [الحديد] الباقى بعد فناء كل موجود ، لذلك قلنا فى الثناء على الله : يا أول لا قبل آخر ، ويا آخر لا بعد أول ، ولكن ذاك فى ذاك ، فقف أيها العقل عند منتهاك .

﴿وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ .. (٣)﴾[الحديد] الظاهر لنا جميعاً ، والباطن أى المستور عنا جميعاً . فهو سبحانه ظاهر وباطن معاً ، ظاهر بآثاره وآياته فى الوجود التى لم يدَّعها غيره سبحانه ، والدَّعْوى تسلم لصاحبها ما لم يَقُم لها معارض ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٨٧)﴾ [الزخرف] ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ .. (٢٥)﴾ [لقمان]

وباطن بذاته : ﴿ لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ (١٠٣) ﴾ [الأنعام] فالأبصار لا تدرك إلا المحدود بحدود المكان والله تعالى لا يحدّه زمان ولا مكان ، لأن الزمان والمكان خَلْق من خَلْقه تعالى ، لذلك لا يقال فيه متى ولا أين ، فمنه جاءت متى وأين .

وواقع الحياة يدلنا على أن الأبصار لا تُدرك إلا المشاهد ، فهناك معنويات وغيبيات كثيرة لا تدركها الأبصار وهى موجودة .

خذ مثلاً معنى العدل الذى به يقوم ميزان الحق والباطل . والعدل أساس الملك ، لكن هل رآه أحد ؟ هل شممته أو لمسْته ؟ لكن عرفناه بآثاره فى إنصاف المظلوم ومعاقبة الظالم .

كذلك قلنا فى الروح هى موجودة بالفعل فى جسمك ، لكن هل تعرف أين هى منه ؟ فهل بعد ذلك نطمع فى أنْ نعرف أين الله ونحن خَلْق من خَلْقه وأثر من آثار قدرته تعالى ؟

وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣) ﴾[الحديد] أى : لا يخفى عليه شىء ، فهو سبحانه يعلم الباطن كما يعلم الظاهر ، لأنه سبحانه الظاهر الباطن .

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٤) ﴾

فالذى سبّحتْ له المخلوقات هو الخالق لها ، ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضَ .. (٤) ﴾[الحديد] والكلام هنا عن مسألة الوقت

الذى استغرق ستة أيام ، وهو سبحانه لا يزاول الأشياء ، إنما يخلق بكُنْ فيكون ، لكن هناك شىء اسمه عمر التكوين وشىء اسمه مراد التكوين .

وسبق أنْ أوضحنا هذه المسألة بصناعة كوب من الزبادى ، فمزاولة هذه العملية تحتاج إلى لحظات أنْ نأتى باللبن ونضع عليه قطعة من الخميرة ، هذا زمن مزاولة الفعل ، لكن يحتاج الزبادى بعد ذلك إلى عدة ساعات لتتفاعل الخميرة واللبن وتعطينا المادة المطلوبة . إذن : الستة أيام ليست هى وقت علاج ومزاولة من الخالق سبحانه ، بل الستة أيام عمرها عندك .

وقد وقف المستشرقون عند هذه المسألة وقالوا : كل الآيات التى تكلمت عن خَلْق السموات والأرض قالت ﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ..(٤)﴾ [الحديد]

لكن فى سورة (فصلت) قال : ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِى أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ (١٠) ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ .. (١٢)﴾ [فصلت]

إذن : أصبح لدينا ثمانية لا ستة ، وهذا الفهم ناتج عن عدم الإلمام بملكة اللغة ، لأن تقدير الكلام : فى تتمة أربعة أيام ، فالأرض خُلقتْ فى يومين ، ثم كان تمامها بخَلْق الرواسى من فوقها وبارك فيها وقدَّر فيها أقواتها فيما يُتمم أربعة أيام .

ومثَّلنا لذلك وقلنا : سافرتُ من القاهرة إلى طنطا فى ساعة ، وإلى الإسكندرية فى ساعتين ، فجملة الزمن ساعتان لا ثلاث .

وقوله سبحانه : ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ .. (٤)﴾[الحديد] اختلف العلماء فى معنى الاستواء . بعضهم قال : استوى على وجه الحقيقة ، وابن القيم [(١)] قال : استوى بمعنى استقر . وبمعنى علا . وبمعنى صعد ، ونقول : لا صعد ولا علا ، لأن الحق سبحانه لم يعْلُ على العرش فحسب إنما علا على كل شىء .

والأقرب أن الحق سبحانه ما دام قد خلق الخَلْق وفرغ منه ، فالاستواء هنا بمعنى أنجز هذا الكون واستتبَّ له الأمر ، ونحن فى أعرافنا الدنيوية نرى الملك لا يجلس على عرشه إلا إذا استتبَّ له أمر المُلْك ، ولم يوجد مَنْ ينازعه أو يشاغبه .

وقد وردت مادة استوى فى القرآن الكريم فى سبعة مواضع ذكرها الناظم ، فقال :

وَذكرْ اسْتِواء الله فى كلِمَاته ... عَلَى العرشِ فِى سَبْعِ مَوَاضِع فَاعدد
فِى سُورةِ الأعْرافِ ثمَّة يُونُسَ ... وَفِى الرَّعْدِ مَعَ طه فَلِلعَدِّ أكّد
وَفِى سُورَةِ الفُرْقانِ ثمَّة سَجدة ... كَذَا فِى الحديدِ فَافْهَم فهْمَ مُؤيّد

ثم تستمر الآيات فى ذكر بعض آياته تعالى فى الخَلْق : ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ..(٤)﴾ [الحديد] أى : ما يدخل فيها وما يخرج منها ، ما يدخل فى الأرض هو المطر ينزل من السماء ويستفيد منه الخَلْق وينتفعون به وما زاد عن حاجتهم يسلكه ينابيع

---

(١) هو محمد بن أبى بكر الدمشقى أبو عبد الله شمس الدين ، ولد بدمشق (٦٩١هـ) تتلمذ لشيخ الإسلام ابن تيمية وسجن معه فى قلعة دمشق ، ألف كتباً كثيرة جداً منها (إعلام الموقعين) و(الطرق الحكمية فى السياسة الشرعية) و (حادى الأرواح) ، توفى عام ٧٥١ هجرية . [الأعلام للزركلى ٦/٥٦] .

فى الأرض ، فهى مخزنٌ للماء العذب الذى يستنبطه الناس فى الأماكن التى ليس فيها أنهار فيجدونه فى أعماقها ، ثم ما يخرج منها هو النبات وهو قوام حياتنا .

﴿ وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ .. (٤) ﴾[الحديد] ينزل من السماء المطر ﴿ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ (٢١) ﴾ [الحجر] وينزل من السماء ملائكة ، وتتنزل من السماء رحمات الحق بالخَلْق ، وينزل منهج الله الذى يُنظم للناس حركة حياتهم .

﴿ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا .. (٤) ﴾[الحديد] يعنى : ما يصعد إلى السماء . وقال : السماء بصيغة المفرد ، وأراد الجنس لأن السموات سبع ، فعبّر عنها بجنسها ، والأصل فى (يعرج) أنْ نقول : يعرج إليها .

(فى) هنا فبمعنى اللام ، فعدل عن اللام واستخدم (فى) لأنها تدل على المبالغة ، ومثلها قوله تعالى عن الكافرين المكذِّبين بالرسل : ﴿ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ .. (٩) ﴾ [إبراهيم]

فالأيدى تُرَدّ إلى الأفواه ، لكنه أراد المبالغة فجعلها فى أفواههم ، كأنه يقول سُك لسانك لا أريد أنْ أسمع منك . كذلك فى قوله تعالى : ﴿ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ .. (١٩) ﴾ [البقرة]

وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٤) ﴾[الحديد] بعد الحديث عن السموات والأرض فيه إشارة كأنّ الحق سبحانه يريد أنْ يقول لنا أن السموات والأرض خَلْق طائع يؤدى مهمته ولا يشذ عما خُلِق له فهو غير محاسب ، أما أنتم فمُحاسبون لأنكم مختارون .

﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ .. ﴿٤﴾﴾[الحديد] يعنى : لا يحجبه ظاهر عن باطن ، ولا يحجبه باطن عن ظاهر .

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾﴾[الحديد] فهو سبحانه معكم وبصير بكم ، ولو كانت معية عين ما قال ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾﴾[الحديد] إذن : هى معية بصير ، ذكر سبحانه البصر وهو الرؤية ، ولا تتصور مثل هذه المسائل ، بل خذها بكمال الكمال فيه سبحانه .

وما دُمْنا فى معية الله وتحت بصره فلنراع ذلك ، ولنعمل له حساباً ، ولم لا ونحن نعمل حساباً لمعيَّة البشر ونظرهم ، والآن يخترعون أجهزة للتجسس تعرف كلَّ ما يُدبَّر وكل ما يدور عند العدو وترصده بالصوت والصورة ، ترصد ما يدور بالليل قبل النهار ، نعم فعلوا ذلك لأنهم ليستْ لديهم ذاتية تعرف فاستعانوا بالآلة ، ومع ذلك أين علمهم من علم الله ؟ وأين عيونهم من عين الله !؟

ودائماً نقول فى حقه تعالى : ليس مع العين أين ، فكل ذرة فى كونه تعالى تحت بصره ولا تخفى عليه ، وقد ورد فى الحديث القدسى : « يا عبادى إن كنتم تعتقدون أنى لا أراكم فالخلل فى إيمانكم ، وإن كنتم تعتقدون أنى أراكم فلم جعلتمونى أهون الناظرين إليكم ؟»[1]

كأنه تعالى يقول لنا : هل أنا أهون عليكم من خَلْقى وأنتم

---

(١) ذكره ابن عجيبة فى كتابه (البحر المديد فى تفسير القرآن المجيد) (١/٣) قال : فى بعض الأخبار القدسية : « إن كنتم تعتقدون أنى لا أراكم فالخلل فى إيمانكم ، وإن كنتم تعتقدون أنى أراكم فلم جعلتمونى أهون الناظرين إليكم » ، وقال رجل لوهيب بن الورد : عظنى . قال : اتق الله أن يكون الله أهون الناظرين إليك .

تستترون منهم : ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ .. (١٠٨) ﴾ [النساء]

والحق سبحانه وتعالى حينما يقول : ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ .. (٤) ﴾ [الحديد] يستخدم الفعل المضارع الدال على الحال والاستقبال ، لأنه تعالى يحكى لنا الواقع ، وإلا فعِلْم الله أزلاً يعلم ما يلج وما ولج منذ خلق سبحانه السموات والأرض .

فكل قطرة من ماء المطر امتصَّتها الأرض منذ خُلقَتْ يعلمها الله ، بل هى عنده فى اللوح المحفوظ قبل أنْ تُخلق .

وقد صَحَّ أن القَلَم قد جَفَّ بما هو كائن إلى يوم القيامة [1] . لذلك قلنا : إن الملائكة تزداد تسبيحاً لله تعالى كلما رأتْ الواقع يأتى مطابقاً لما سُجِّل فى اللوح المحفوظ .

﴿ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ۝٥ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۚ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٦ ﴾

قوله تعالى هنا أيضاً (له) لا ينصرف الضمير إلا إليه سبحانه : ﴿ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ .. (٥) ﴾ [الحديد] وهذه دعوى أقامها

---

(١) أخرجه أحمد بن حنبل فى مسنده (٢٦٦٦) من حديث ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال له : إذا سألتَ فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله ، قد جف القلم بما هو كائن فلو أن الخلق كلهم جميعاً أرادوا أن ينفعوك بشىء لم يكتبه الله عليك لم يقدروا عليه ، وإن أرادوا أن يضروك بشىء لم يكتبه الله عليك لم يقدروا عليه .

الحق سبحانه ولم يَقُمْ لها منازع فتسلّم لصاحبها ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ (٥)﴾[الحديد] يعنى : المسألة ليست معيّة بصر وتسجيل لما يحدث وتنتهى المسألة ، لا بل لها مرجع فى النهاية مرجع لتصفية الحسابات فالله تعالى ما خلقكم عبثاً ، ولن يترككم سُدى ، بل لكم نهاية فتجهزوا لها .

﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ .. (٦)﴾[الحديد] أى : يُدخل الليل فى النهار ، ويُدخل النهارَ فى الليل ، فكل منهما يحلُّ محلّ الآخر ، كما قال سبحانه : ﴿وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً[1] لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً (٦٢)﴾ [الفرقان] فكل منهما يخلف الآخر .

ومن آيات الليل والنهار أنْ نجد يوم الصيف طويلاً وليله قصير ، ويوم الشتاء قصير وليله طويل ﴿وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٦)﴾ [الحديد] لأنه سبحانه قال قبل ذلك ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٤)﴾ [الحديد]

يعنى : لا يقتصر علمه تعالى على الحركة والأحداث ، إنما يعلم أيضاً مكنونات الصدور ومطويات النفوس مما نفكر فيه ، ولم يترجم إلى عمل وحركة ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ (١٩)﴾ [غافر]

وهذه من خصائص علمه تعالى ، والعظمة ليست فى أنْ تعلم ما تُقهر عليه ، بل فى أنْ تعلم ما هو مختار فى أنْ يفعل أو لا يفعل .

مثلاً لو خرجتَ مع أهلك فى (مشوار) وتركتَ الأولاد بالبيت ، وقلتم لهم : الثلاجة فيها الأكل ، وكل واحد يأكل ما يعجبه ، وفى

---

(١) خلفة : أى يختلف كل منهما عن الآخر طولاً وقصراً ، أو يخلف كل منهما الآخر ويأتى بعده . [القاموس القويم ١/٢٠٦] .

الطريق قلتَ لأهلك : الولد فلان سيأكل كذا ، وفلان سيأكل كذا ، وبعد أنْ رجعتما إلى البيت وجدتم الأمر كما أخبرتَ أنت به .

فعظمة علم الله أنْ يعلم ما فى الصدور وما فى القلوب من نوايا ، مجرد نية ، ولعلمه تعالى بالنية جعلها أساساً للحكم على العمل : « إنما الأعمال بالنيات »[1] فكأن القلب سيطر بعقيدته على سلوك كل الجوارح ، فأنت حين تنفق مثلاً يعلم نيتك من هذا العمل ، فيحاسبك بالنية لا بالفعل ، فكأنه جعل النية تحرس العمل والحركة الظاهرة .

إذن : نفهم من ﴿ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٦) ﴾[الحديد] أى : بنت الصدور وهى النية ومحلُّها القلب ، لذلك ورد فى الحديث الشريف : « ألا إن فى الجسد مضغة إذا صلَحت صلُح الجسد كله ، وإذا فسدتْ فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب »[2] حتى فى موقف القيامة يقول سبحانه : ﴿ يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ (٨٨) إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩) ﴾ [الشعراء] أى : سليم القصد ، وسليم النية ، وخالٍ من العطب .

والقلب فى ظاهره مضخة تضخ الدم ، وهو سائل الحياة فى الجسم كله ، فإذا ما مُلِئ القلب باليقين وأُشرِبَ الإيمان ضخّه مع الدم إلى الأعضاء كلها ، وصار هذا الدم حلالاً صالحاً وصلحت

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (١) وأبو داود فى سننه (١٨٨٢) وابن ماجه فى سننه (٤٢١٧) من حديث عمر بن الخطاب أن رسول الله ﷺ قال : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء ما نوى فمن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو إلى امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه » .

(٢) حديث صحيح متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٠) وكذا مسلم فى صحيحه (٢٩٩٦) من حديث النعمان بن بشير .

بصلاحه الجوارح فى حركاتها ، فلا تتحرك إلا فى الحلال ، ولا تفعل إلا ما هو مطابق وموافق لهذه العقيدة ، فتأتمر بما أمرت وتنتهى عما نُهيَتْ .

﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ۝٧﴾

هنا علاقة ومناسبة بين ذات الصدور و ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ..(٧)﴾ [الحديد] فالإيمان عمل قلبى محلُّه الصدر ، فإذا استقرَّ فيه سُمِّى عقيدة . أى شىء معقود لا يُفك ولا يُحلّ ، شىء ثابت مستقر لا يطفو إلى العقل مرة أخرى ليُناقش ، لأنه ما استقر فى القلب وصار عقيدة إلا بعد أنْ ناقشه العقل واختاره من بين البدائل .

لكن أيهما أسبق ، يعنى : هل آمنتَ بالله من أجل الرسول أم آمنتَ بالرسول من أجل الله ؟ وهذه مسألة سُئل فيها الإمام على رضى الله عنه : أعرفتَ ربك بمحمد ؟ ، أم عرفتَ محمداً بربك ؟ فقال : عرفتُ ربى بربى ، وجاء محمد فبلَّغنى مراد ربى منى .

وبعد الأمر بالإيمان بالله ورسوله ذكر أمراً آخر لا تستقيم حياة المجتمع إلا بالقيام به ، وهو مسألة الإنفاق : ﴿وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ..(٧)﴾[الحديد] أى : من كل شىء استخلفكم الله فيه مال أو غيره ، ذلك لأن الإنسان لا يؤدى مهمته فى الحياة ، ولا يتحرك إلا إذا توفرتْ له مُقوِّمات الحياة ، وأولها القوت الذى تنشأ منه الحركة ، وفى المجتمع عناصر عاجزة عن الكسب غير قادرة على

الحركة الإيجابية فى الحياة .

والحق سبحانه وتعالى لن يترك هؤلاء يضيعون بين القادرين ، فجعل الإنفاق عليهم ومساعدتهم جزءاً من إيمان المؤمن ، فيؤدى لهم حَقاً هو حَقُّ الله فى الأساس ، ويجعل هذا الحق شكراً لله على النعمة ، وشكراً لله على الصحة والسلامة التى مكَّنته أنْ يعمل ويكتسب من الحلال وينفق .

ثم إن العاجز حينما يجد مَنْ يرعاه ويُعينه يسعد ويطمئن قلبه ، ويرى أن فى مجتمعه المؤمن عوضاً عما فاته ، فالنعمة تُساق إليه وتطرق عليه بابه وتحفظ ماء وجهه أنْ يذلّ للسؤال .

فهو مع عجزه عن الحركة مُسيّد فى هذا المجتمع المؤمن ، فمن شرف الفقير أنْ جعله الله شرطاً فى إيمان الغنى ، وليس الغنى شرطاً فى إيمان الفقير ، والمراد فريضة الزكاة .

فالزكاة تُطيِّب خاطر الفقير وتُذهب ما فى نفسه من الحقد على الغنى ، وتجعله راضياً بقضاء الله فيه ، فلا يقول : لماذا خلَق هذا غنياً وأنا فقير ؟ لذلك جاء الأمر بالإنفاق تالياً للأمر بالإيمان ، فالإنفاق يعطى استبقاءَ الحياة ، والطاعات كلها فرع الحياة ، فحين تُوفر القوت للفقير تُعينه أولاً على طاعة الله .

ومعنى ﴿ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ .. (٧) ﴾[الحديد] يعنى : ليس من عندك ، إنما من رزق الله الذى ساقه إليك وجعلك خليفة فيه ، فالله هو الرازق فى الحقيقة لأنه سبحانه خالق المادة التى تعمل فيها ، وخالق الجوارح التى تعمل بها ، وخالق الوقت الذى تعمل فيه ، وخالق فيك

القوة ، وخالق الأمن والسلامة التى تُعينك على العمل ، وخالق العقل الذى يدبر ويفكر .

إذن : لم تأتِ أنت بشىء من عندك ، والمال فى الحقيقة مال الله ، وأنت خليفته فيه ووكيله ، فلا تبخل بمال الله على عياله وهم الفقراء ، استدعاهم الله إلى الوجود وتكفَّل برزقهم .

﴿ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ .. (٧) ﴾[الحديد] أى : بالله ورسوله ﴿ وَأَنفَقُوا ..(٧) ﴾[الحديد] أى : مما استخلفوا فيه ﴿ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ (٧) ﴾[الحديد] نعم كبير لأنهم جمعوا بين أجر الإيمان بالله ورسوله وأجر الإنفاق وتنفيذ مطلوبات الإيمان ، لأن الإيمان لا يستقيم لصاحبه إلا بالعمل الصالح والتطبيق ، الإيمان أمر عقدىّ نظرى لا يُغنى عن العمل .

لذلك قُرن الإيمانُ دائماً بالعمل الصالح : ﴿ وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ..(٣) ﴾ [العصر]

ثم إن الأجر كبير لأنك لا تأخذ من أجر الله على قدر ما تعطى ، إنما تأخذ على قَدْر المعطى الواهب الذى يُعطى الحسنة بعشر أمثالها ، ويزيد إلى سبعمائة ضعف وإلى أبلغ من ذلك ، قال تعالى : ﴿ يَمْحَقُ (١) اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي (٢) الصَّدَقَاتِ ..(٢٧٦) ﴾ [البقرة] يزيدها ويُنميها لصاحبها .

---

(١) يمحق : ينقص ويذهب البركة . شىء ماحق : ذاهب . محقه الله : ذهب خيره وبركته . يمحق الله الربا : يستأصل الربا فيُذهب ريعه وبركته . [لسان العرب – مادة : محق] .

(٢) قال الماوردى فى تفسيره : فيه قولان أحدهما : يُثمر المال الذى خرجت منه الصدقة . والثانى : يضاعف أجر الصدقة ويزيدها .

ويعطينا الحق سبحانه مثلاً محسوساً من واقع حياتنا : ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ.. (٢٦١)﴾ [البقرة] وفوق ذلك ﴿وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ.. (٢٦١)﴾ [البقرة] فإذا كانت الجنة المخلوقة لله تعالى تعطى سبعمائة ضعف فما بالك بخالق الجنة ؟

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٨)﴾

هنا استفهام للتعجب والإنكار ، يعنى : كيف يحدث منكم ذلك ؟ أمر عجيب ألا تؤمنوا بالله ورسول الله يدعوكم للإيمان ؟ ولم يقُلْ : لتؤمنوا بالله إنما ﴿لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ .. (٨)﴾ [الحديد] فالذى يجب أنْ تؤمنوا به هو ربكم .

والرب هو الخالق والمربّى والرازق والمعطى الذى أعطاك وخلق لك قبل أنْ يخلقك ، ربٌّ ربّاك بعد أنْ أوجدك وزرع محبتك فى قلب أمك وأبيك فتحمّلا متاعبك ومشاقّ تربيتك إلى أنْ تبلغ وتتولّى حركة حياتك بنفسك ، ألاَ يستحق منك هذا الرب أنْ تؤمن به على الأقل ؟

ألا يكفى أنْ تركك تربَع فى الكون ولم يطلب منك شيئاً ، ولم يكلفك بشىء حتى سنِّ البلوغ بعد أنِ استويتَ وأصبحت قادراً على السعى ، إذن : عطاء الربوبية شملك قبل أنْ تُخلق ، ثم جاء عطاء الألوهية بالتكليف .

فكأن عطاء الربوبية حيثية لقبول عطاء الألوهية ، وهو أيضاً فى

صالحك وأنت المنتفع به ، والله لا ينتفع منه بشىء ، لا تنفعه طاعة ولا تضره معصية ، فالله تعالى ما خلقك إلا بصفات الكمال فيه سبحانه .

فقولوا لنا إذن : لماذا لم تؤمنوا وقد بعثَ إليكم رسولاً يبلِّغكم رسالاته ويدلكم عليه ، ويبلغكم منهجه ؟ انظروا مثلاً إلى العامل الذى يعمل لك نظير أجر ، كيف يطيعك ويأتمر بأمرك ، ولا يخرج عنه قَيْد أنملة ، وأنت مع ذلك لا تعطيه إلا القليل الذى يسدُّ حاجته ليوم أو يومين ، فما بالك بمَنْ أعطاك بسخاء ، وأنعم عليك كلّ هذه النعم ، أليس أوْلَى بالطاعة والامتثال ؟

إذن : هذا أمر يدعو إلى العجب منكم ﴿وَمَا لَكُمْ لا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ..(٨)﴾ [الحديد] يعنى : شىء لا يُتصوَّر منكم ، وفى سورة البقرة قال : ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ ..(٢٨)﴾[البقرة] كيف تجرأتم على ذلك والعقل مجرد العقل والتفكير يأبى ذلك . فواجب عليك أنْ تؤمن بالله خاصة والإيمان ليس تطوعاً منك ، إنما جاءك رسول يدلُّك ويُذكّرك .

وقوله تعالى : ﴿وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٨)﴾[الحديد] أى : أخذ عليكم العهد والميثاق والحجة أنْ تؤمنوا به ، فالإيمان إذن ميثاق قديم أقررتم به ووافقتم عليه فلم تنكرونه الآن ؟ وهذا الميثاق أخذه الله على بنى آدم وهم فى مرحلة الذر ، فيُروى أن الله تعالى مسح على ظهر آدم وأخرج ذريته وهى فى صُلْبه وأخذ عليهم هذا العهد :

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَافِلِينَ

(١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣) ﴾ [الأعراف]

وهذا العهد أخذه الله على بنى آدم جميعهم قبل أنْ توجد لهم نفس أمَّارة بالسوء ، فلما وُجدت النفس الأمّارة بالسوء نقضت هذا العهد ولم تُوف به ، ولما كنا جميعاً من آدم ففى كل واحد منا ذرة منه حية باقية لم يطرأ عليها عدم ، فأنا أخذتها من أبى وأبى أخذها من أبيه وهكذا .. إلى آدم .

ومن هذه الذرة نشأتْ الفطرة الإيمانية ونشأ الضمير والنفس اللوامة ؛ لذلك إذا فعل العبد ذنباً فى غفلة من الفطرة الإيمانية سرعان ما يستيقظ فيه هذا الوازع فيردّه إلى الجادة ، ويُصحِّح مساره على الإيمان الفطرى .

ثم أخذ الله ميثاقاً آخر على الأنبياء : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي[1] قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ (٨١) ﴾ [آل عمران]

إذن : مطلوب من كُلِّ رسول أنْ يبلغ أمته والمؤمنين به : يا من آمنتم بى وصدقتمونى فيما جئتكم به اعلموا أنه سيأتى بعدى رسول صفته كذا وكذا ، فإذا عاصرتموه فإياكم أنْ تتعصَّبوا ضده ، لأنه ما جاء إلا ليتمم ما جئتكم به .

وهذه قالها موسى عليه السلام لقومه ، وقالها عيسى عليه السلام

---

(١) الإصر : بالكسر : القيد والثقل والعهد المؤكد . قوله : ﴿ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ..(٨١) ﴾ [آل عمران] : أى : عهدى . [القاموس القويم ١/ ٢١] .

لقومه ، وقد وثَّقها القرآن وسجَّلها على اليهود فى قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٨٩) ﴾ [البقرة]

فقد كان اليهود فى المدينة يستفتحون على عُبَّاد الأصنام ببعثة محمد ﷺ ، ويقولون لهم : لقد أطلَّ زمانُ نبى جديد سيأتى ، وسوف نتبعه ونقتلكم به قتل عاد وإرم .

فلما جاءهم رسول الله ﷺ كفروا به وعاندوه وصادموا دعوته لأنه سيأخذ منهم السلطة الزمنية التى كانت لهم ، فلو أنهم أخذوها على أنها من الله ، وأن نبيهم أخبرهم بهذا الخبر ما كان منهم هذا اللدد وهذا العناد ، فكفار مكة وعبَّاد الأصنام أهون منهم ، لأنهم لم يبشَّروا بمقدمه ﷺ كما بُشِّر اليهود .

ونفهم من هذا أن الأديان السماوية كلها متكاتفة على الحق وعلى منهج واحد هو منهج عبادة الله وحده لا شريك له ، فالأديان المتعاقبة ما هى إلا مراحل فى منظومة واحدة هى إسلام الوجه لله تعالى ، فهى كما شبَّهها سيدنا رسول الله بناء واحد .

قال ﷺ : « إنما مثلى ومثل الأنبياء قبلى كمثل رجل بنى بيتاً فأكمله وأجمله إلا موضع لبنة فيه ، فأخذ الناس يمرون به ويقولون : ما أجمل هذا البيت لولا موضع هذه اللبنة ، فأنا اللبنة ، وأنا خاتم النبيين » [(١)] .

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٢٧١) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه وكذا الطبرانى فى مسند الشاميين (١٢٥) . ولفظ البخارى : « إن مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية ، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون : هلا وُضعت هذه اللبنة . قال : فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين » .

إذن معنى : ﴿ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ .. (٨) ﴾ [الحديد] أى : ميثاق على الخَلْق جميعاً وهم فى مرحلة الذرِّ ، وميثاق على النبيين أنْ يُبلغوا أقوامهم أنَّ دين الله بُنى على التوافق لا على التعارض .

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٩) ﴾

أى على نبيه ﷺ ﴿ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ..(٩) ﴾[الحديد] واضحات الدلالة على الخالق سبحانه ، والآيات إما كونية كالشمس والقمر والليل والنهار .. أو معجزات وعجائب تصاحب بعثة الرسل لتثبت للناس صدق الرسول فى البلاغ عن الله ، ثم آيات الذكر الحكيم ، آيات القرآن حاملة المنهج والأحكام التى تنظم حركة الحياة بما يُوصِّل الناس إلى الغاية السعيدة .

إذن : هذه أشكال ثلاثة للآيات ، ولكل منها هدف وغاية ، وقد أجملها الحق سبحانه فى قوله : ﴿ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ..(٩) ﴾[الحديد] النور والظلمة ضدّان ، نعرف النور بأنه هذا الأثر الذى نرى به الأشياء فله كيان معروف ، أما الظلمة فليس لها كيان بذاتها ، بل هى سلبية فى عدم وجود النور .

وقلنا : إن النور هو الذى يجعلنا نرى الأشياء ، فنسير على هدى لا نصطدم بشىء ، أما فى الظلمة فنتخبط نحطم الأضعف ويُحطمنا الأقوى . هذا عن النور الحسى ، مثله النور المعنوى ، وهو نور المنهج والقيم التى نهتدى بها فى دروب الحياة :

﴿ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ

رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٦)﴾ [المائدة] فهو نور على نور .

وقال عن الكافرين الذين استدبروا منهج الله وصادموه : ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِى اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ (١٧)﴾ [البقرة]

فالمراد إذن المعنويات : ليخرجكم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان ﴿وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٩)﴾ [الحديد] الرأفة أنْ تزيل الألم والشقاء عن الشخص وتنزع عنه الداء ، والرحمة أن تصونه بعد ذلك من أن يصيبه ألم أو داء .

ومثله قوله تعالى : ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ .. (٨٢)﴾ [الإسراء] فالقرآن منهج الله فيه شفاء لداءات المجتمع ، يوقظهم من الغفلة وينأى به عن سُبل الفساد ويصلح ما به من عطب أو عوار ، ثم تأتى الرحمة تحصيناً لهم من الزلل وتحميهم ، فلا تصيبهم هذه الداءات مرة أخرى .

وقد مثَّلنا منهج الحق (بالكتالوج) فلو سِرْنا عليه ما أصابنا عطب أبداً ، فصانع الشىء أدرى بما يصلحه ، وأحرص عليه وعلى سلامته .

ثم يقول الحق سبحانه [1] :

---

(١) **سبب نزول الآية** : ذكر الواحدى النيسابورى فى أسباب النزول (ص ٢٣٠) عن الكلبى أن هذه الآية نزلت فى أبى بكر الصديق . فعن ابن عمر قال : بينا النبى ﷺ جالس وعنده أبو بكر الصديق وعليه عباءة قد خلَّها على صدره بخلال ، إذ نزل عليه جبريل عليه السلام فأقرأه من الله السلام وقال : يا محمد مالى أرى أبا بكر عليه عباءة قد خلّها على صدره بخلال ؟! فقال : يا جبريل أنفق ماله قبل الفتح علىّ . قال : فأقرئه من الله سبحانه وتعالى السلام . وقل له : يقول لك ربك : أراضٍ أنت عنى فى فقرك هذا أم ساخط ؟ فبكى أبوبكر وقال : على ربى أغضب أنا عن ربى راضٍ » .

﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ۚ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾ ﴾

كما قال سبحانه فى الإيمان ﴿ وَمَا لَكُمْ لا تُؤْمِنُونَ .. ﴿٨﴾ ﴾ [الحديد] قال هنا ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تُنفِقُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ .. ﴿١٠﴾ ﴾ [الحديد] يعنى : كيف يحدث منكم هذا ، والمال مال الله وأنتم مستخلفون فيه ﴿ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. ﴿١٠﴾ ﴾ [الحديد] إذن : هذه قاعدة عامة فى المال وغيره ، فالمُلْك مُلْك الله ولا بد أنْ يعود إليه .

وهل رأيتَ أحداً خرج من الدنيا بمال ؟ نعم يعطيك المال ويُملِّكه لك فترة بقائك فى الدنيا تتمتع به ، فإذا حان الأجل تتركه للورثة ، والعاقل حينما ينظر إلى المال يجد أن حوادث الدنيا تأخذ منه جانباً ، والباقى يتركه لورثته ، فأين أنت يا صاحب المال من مالك ؟ أليس من العقل أنْ تجعل لك منه نصيباً ؟

والرسول ﷺ يُعلِّمنا هذا الدرس فيقول : « يقول ابن آدم : مالى مالى ، وهل لك من مالك إلا ما أكلتَ فأفنيتَ ، أو لبستَ فأبليتَ ، أو تصدقتَ فأبقيتَ »[1] فتأمل يا صاحب المال .

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه (٢٦٦٤ ، ٣٢٧٧) من حديث مطرف بن عبد الله بن الشخير عن أبيه . وكذا أحمد فى مسنده (١٥٧١٥) والحاكم فى مستدركه (٣٩٢٨ ، ٨٠٣٠). قال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح .

وتعلمون قصة الشاة التى أُهديتْ إلى بيت رسول الله ﷺ ، فلما عاد آخر النهار سأل عنها ، وكان ﷺ يحب منها لحم الكتف - فقالت له السيدة عائشة رضى الله عنها : « ذهبت كلها إلا كتفها ، يعنى : تصدقتُ بها كلها ولم أُبْقِ لك يا رسول الله إلا الكتف ، فعدَّل لها رسول الله مقالتها وقال : بل بقيت كلها إلا كتفها »[1] .

ولما سُئلَ الإمام على رضى الله عنه : أريد أنْ أعرف أنا من أهل الدنيا أم من أهل الآخرة ؟ فقال للسائل : الجواب عندك ، قال : كيف ؟ قال : انظر إذا دخل عليك حامل هدية وطالب عطية إلى أيِّها تبشُّ ، فإنْ كنتَ تبشّ للأول وتفرح به فأنت من أهل الدنيا ، وإنْ كنتَ تبشُّ للآخر فأنت من أهل الآخرة .

إذن : الحق سبحانه تعالى يريد أنْ يُحبِّبنا فى مسألة الإنفاق ، لذلك تحدَّث عنها القرآن كثيراً ، لأن الإنفاق عنصر رئيسى فى استبقاء الحياة ، فلا تقوم حياة الفقير إلا به ، يعنى : مسألة حياة أو موت .

ودائماً يُذكِّرنا القرآن بهذه الحقيقة : ﴿ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ..(١٠) ﴾ [الحديد] وقال : ﴿ وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ (٥٨) ﴾ [القصص] وقال : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٤٠) ﴾ [مريم]

فإذا كان الحق سبحانه وتعالى هو الوارث الحقيقى للمال ، وإذا

---

(١) حديث صحيح . أخرجه أحمد فى مسنده (٦ / ٥٠) والترمذى فى سننه (٢٤٧٠) وقال : هذا حديث صحيح . وأخرجه أبو نعيم فى حلية الأولياء (٥ / ٢٣) ولفظ الحديث عن عائشة أنهم ذبحوا شاة فقال النبى ﷺ : « ما بقى منها ؟ قالت : ما بقى منها إلا كتفها . قال : بقى كلها غير كتفها » .

كنت لا بدَّ خارجاً من الدنيا مجرداً من كل شىء كما جئتَ إليها فلم تبخل على نفسك ؟

حتى فى مسألة الميراث وتوزيع التركة يقول لك : ارفع يدك عنها فنحن الوارثون ونحن نقسمها كما نريد ، لهذا كذا ولهذا كذا لا تتدخل فى هذا الشأن ، فالمال مال الله يقسمه ما يريد . لا تقُلْ هذا أفضل من هذا : ﴿آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا..(١١)﴾ [النساء]

وقوله تعالى : ﴿لا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ..(١٠)﴾ [الحديد] قالوا : المراد بالفتح فتح مكة ، لكن فتح مكة لم يأت إلا نتيجة لصلح الحديبية ، فهو إذن بداية الفتح ، لذلك قال سيدنا أبو بكر : لم يكن فتح فى الإسلام أعظمَ من فتح الحديبية[1] .

لماذا ؟ لأن قريشاً كانت تهاجم محمداً ﷺ وتصادم دعوته ، فجاء صلح الحديبية ، وجعل قريشاً تعترف بمحمد وبدعوته ، وتعاهده وتأخذ منه وتُعطيه ، وهذا فى حدِّ ذاته فتح .

ثم إنه مكّن رسول الله من الفراغ لنشر الدعوة فى المدينة ، فالحديبية أزاحت عن رسول الله عبء قريش وعداءها ، لذلك وجدنا بعد صلح الحديبية أن أرض الكفر تتناقص ، وأرض الإيمان تتزايد .

وميزان الحق لا يُسوِّى بين مَنْ أنفق قبل الفتح ومَنْ أنفق بعده ، لأن الذين أنفقوا قبل الفتح كانوا قلة ضعفاء ، قليلى العُدة والعدد

---

(١) قاله الواقدى فى المغازى (١ / ٦١٠) أن أبا بكر الصديق قال : ما كان فتح فى الإسلام أعظم من فتح الحديبية . ونقله ابن حجر العسقلانى فى الفتح (٨ / ٢٨٣) وعزاه لابن شهاب الزهرى .

مستضعفين لا شوكة لهم فى وقت كانت القوة والسيطرة فى يد عدوهم ، أما بعد الفتح فقد انقلبت الصورة تماماً ، فأصبح المؤمنون قوة لهم عدد وعُدة ، واطمأنوا إلى أن الدنيا صارتْ معهم .

إذن : لا يستويان ، مَنْ أنفق قبل الفتح ، ومَنْ أنفق بعده ﴿أُوْلَـٰئِكَ .. (١٠)﴾ [الحديد] أى : الذين أنفقوا قبل الفتح ﴿أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا ..(١٠)﴾ [الحديد] ومع ذلك لم يهضم الذين أنفقوا بعد الفتح حقهم ، فقال : ﴿وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ .. (١٠)﴾[الحديد] فالحُسْنى وعد من الله للفريقين ، لذلك كانوا يقولون : كفانا الحسنى من الله ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١٠)﴾ [الحديد]

﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا[1] فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ (١١)﴾

الحق سبحانه وتعالى فرض الزكاة وجعلها ركناً من أركان الإسلام رعايةً لحقِّ الفقير ، واستبقاءً لحياة العاجز عن العمل ، ولو نظرتَ إلى واقع الحياة وتأملتَ حركة توزيع الثروات والموارد تجد أن

---

(١) عن عبد الله بن مسعود قال : لما نزلت هذه الآية ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ .. (١١)﴾ [الحديد] قال أبو الدحداح الأنصارى : يا رسول الله وإن الله ليريد منا القرض ؟ قال : نعم يا أبا الدحداح . قال : أرنى يدك يا رسول الله . قال : فناوله يده . قال : فإنى قد أقرضت ربى حائطاً وله حائط فيه ستمائة نخلة . وأم الدحداح فيه وعيالها . قال : فجاء أبو الدحداح فناداها : يا أم الدحداح . قالت : لبيك . قال : أخرجى فقد أقرضته ربى عز وجل . وفى رواية أنها قالت له : ربح بيعك يا أبا الدحداح ، ونقلت منه متاعها وصبيانها وإن رسول الله ﷺ قال : « كم من عذق رَدَاح (عظيم ضخم) فى الجنة لأبى الدحداح » وفى لفظ « رُبَّ نخلة مدلاة عروقها در وياقوت لأبى الدحداح فى الجنة » . أورده ابن كثير فى تفسيره (٤/ ٣٠٧) وعزاه لابن أبى حاتم .

الخالق سبحانه وتعالى وفّر لخَلْقه ما يُغنيهم جميعاً ، ففى مال الغنى ما يسع الفقير ويُقيم حياته فى سعادة لا تقل عن سعادة الغنى .

فإنْ رأيتَ الصورة غير ذلك فاعلم أن فى الأمر خللاً إما أنْ يصير الغنىُّ بخيلاً ، أو يصير الفقير محتالاً ، لأن الخالق سبحانه وتعالى يدبر شئون الكون بما يُسعد عباده لا بما يُشقيهم .

ترى مثلاً أحد الأغنياء تتسع أملاكه فى بلد مثل طنطا ، فيشتاق إلى العيش فى بلد أخرى مثل الإسكندرية ، فيذهب إلى هناك وتصير له أملاك أخرى : مثل هذه الحركة ليست عبثاً ، إنما بتقدير من الله رب الجميع ، فمال هذا الرجل أصبح زائداً عن حاجة الفقراء فى طنطا ، فأراد الله له أنْ يفتح مجالاً جديداً للعطاء فى الإسكندرية ، وربما أنت تتعجب لماذا ينتقل هذا وهو غنى ، ماذا ينقصه ؟ لكنه تدبير الخالق الرازق الذى بيده مقاليد الأمور وأزمّتها .

ولأهمية الإنفاق وحاجة المجتمع إليه لم يكتفِ الشارع بفريضة الزكاة الواجبة ، إنما ترك باب العطاء مفتوحاً ليسع أريحية الغنى المعطاء الذى يريد أنْ يعطى أكثر مما فُرِض عليه فيتجاوز نسبة ٢,٥٪ إلى ٥ أو ١٠٪ .

لذلك عبّر القرآن عن الزكاة فقال : ﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ (٢٤) لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (٢٥) ﴾[المعارج] وعبّر عن الإنفاق فيما غير الزكاة فقال : ﴿ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩) ﴾[الذاريات] ولم يقل هنا (معلوم) .

فالمعلوم هو الزكاة الواجبة ، والمطلق هو الصدقة ، وهى مقام الإحسان كما فى سورة الذاريات : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥)

آخذين ما آتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين (١٦) كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون[1] (١٧) وبالأسحار هم يستغفرون (١٨) وفي أموالهم حق للسائل والمحروم (١٩) ﴾ [الذاريات]

فمَنْ أدخل نفسه فى باب الإحسان ، وفرض عليها فوق ما فرض الشرع ، وألزم نفسه فوق ما فُرِض عليه سوف يجد الجزاء أيضاً بالإحسان والزيادة ، فله خصوصية فى الجزاء مثل ما كان له خصوصية فى العطاء .

لذلك سمَّى القرآن هذا الإحسان وهذه الزيادة فى الإنفاق قرضاً ﴿ من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسناً ..(١١) ﴾ [الحديد] والقرض الحسن هو الذى تعطيه طيِّبة به نفسك ، ويشترط له أن يكون من مال حلال ومن كسب حلال ، لأن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيباً .

﴿ إنما يتقبل الله من المتقين (٢٧) ﴾[المائدة] وألا يكون القرض من خبيث ما تملك ﴿ ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون .. (٢٦٧) ﴾[البقرة] وأنْ تعطيه وأنت محبٌّ للعطاء ﴿ ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً (٨) ﴾ [الإنسان]

ثم لا تمنّ به بعد إخراجه ﴿ ثم لا يتبعون ما أنفقوا منًّا ولا أذى .. (٢٦٢) ﴾[البقرة] وأنْ تتصدق فى خفاء حتى لا تحرج الآخذ ، كما بيّن سيدنا رسول الله ﷺ : « حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه »[2] ثم إن الصدقة فى الخفاء أبعد عن الرياء ، فإنْ أعطى عن رياء فقد أفاد

---

(١) يهجعون : ينامون ليلاً . وهجيع الليل : ساعة من الليل . ويقال : أتيت فلاناً بعد هجعة أى بعد نومة خفيفة من الليل . [لسان العرب – مادة : هجع] .

(٢) أخرجه مالك فى الموطأ (١٥٠١) والبخارى فى صحيحه (٦٢٠، ١٣٣٤) والترمذى فى سننه (٢٣١٣) وقال : هذا حديث حسن صحيح ، وأحمد فى مسنده (٩٢٨٨) كلهم من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، أوله : « سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله » .

الآخذ ، وحرم نفسه ثواب عمله ، وضيَّع سعيه هباءً .

وأنت حين تقرض تحمى المحتاج وترحم وجهه من مذلة المسألة وطلب الصدقة ، لذلك ناس كثيرون تضطرهم الظروف وتُحوجهم بعد عزة وغنى ، فمثل هذا يناسبه القرض ليحفظ عليه عزته ، كما يقولون : ارحموا عزيز قوم ذل .

فحين تعطيه على سبيل القرض تخفف عنه المسألة ، وبعد ذلك إنْ قدر على الأداء فبها ونعمت ، وإنْ لم يقدر فأنت أمام أمرين كما قال تعالى : ﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ[1] إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٨٠) ﴾ [البقرة] إما أنْ تنظره إلى أنْ يتيسَّر له السداد ، أو تعفو عنه وتجعله صدقة .

إذن : الحق سبحانه وتعالى جعل لنا فى الإنفاق مراحل أولها الزكاة المفروضة ثم الزيادة عليها بالإحسان ثم القرض ثم العفو عن القرض والتصدُّق به .

وما دام أن الحق سبحانه وتعالى هو الذى تكلم بهذا الكلام ، فلا يأتى واقع الحياة ليُكذبه ، فعلى الغنى أنْ يتحلى بآداب الغنى ، وعلى الفقير والمحتاج أنْ يتحلى بآداب المسألة لنحقق مراد الله منا ، والحاصل الآن أن أكثر الأغنياء يبخل ، وأكثر الفقراء يلحف ويحتال .

ورسول الله ﷺ يُعلمنا هذا الدرس ، فيقول : « مَنْ أخذ أموال الناس يريد أداءها أدَّى الله عنه ، ومَنْ أخذ أموال الناس يريد إتلافها أتلفه الله »[2] .

---

(١) النَّظرة : الإمهال والتأخير وعدم الاستعجال . واستنظره : طلب منه النظرة واستمهله . [لسان العرب – مادة : نظر] .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٢١٢) وابن ماجه فى سننه (٢٤٠٢) وأحمد فى مسنده (٨٣٧٨ ، ٩٠٣٩) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

لذلك لما مات رجل ، وطُلِبَ من رسول الله أنْ يصلى عليه سأل : أعليه دين ؟ قالوا : نعم يا رسول الله ، فامتنع عن الصلاة عليه[١] .

والسؤال الذى يتبادر إلى الذِّهن : وما ذنبه وقد مات ؟ لكن الحديث السابق يوضح المسألة ، فالمدين الذى يأخذ القرض وفى نيته أنْ يؤدى لا بدَّ أنْ يُعينه الله على الأداء ، بل يؤدى عنه دَيْنه ، ومعنى أنه مات دون أنْ يؤدى أن نيته فى الأداء لم تكُنْ صادقة ، وإلا لأدَّى الله عنه وأعانه .

وفى امتناع النبى ﷺ عن الصلاة عليه جانب آخر ، وهو أنْ يحثّ الناس على أنْ يُؤدوا عنه دَيْنه قبل أنْ يدفن رحمة به وتعليماً للناس وتعظيماً لأمر الدَّينُ فهو حقّ يتعلق بالعباد فلا تسامحَ فيه ، وحتى لا يستهين الناسُ بالدَّينْ ويأخذونه هكذا بلطجة وعُنْوة ، لذلك قام الإمام على وقتادة يقول كل منهم : أنا أؤدى عنه يا رسول الله .

ثم إن رسول الله لما امتنع عن الصلاة على المدين لم يمنع الناس من الصلاة عليه ، إنما أمرهم بالصلاة عليه ، وقال : « صلُّوا على صاحبكم »[٢] ، وهذا يعنى أن الرجل عنده نقص فى إيمانه وفى

---

(١) أخرجه أبو داود فى سننه (٢٩٠٢) وأحمد فى مسنده (١٤٠٠٩ ، ٢١٥٠٣ ، ٢١٥٤٠) وابن حبان فى صحيحه (٣١٢٩) من حديث جابر بن عبد الله رضى الله عنه . وفيه : أنه ﷺ قال : صلوا على صاحبكم . فقال أبو قتادة الأنصارى : هو علىَّ يا رسول الله . قال : فصلى عليه رسول الله ﷺ .

(٢) أخرج البخارى فى صحيحه (٢١٢٧) عن سلمة بن الأكوع قال : كنا جلوساً عند النبى ﷺ إذ أتى بجنازة قالوا : صلِّ عليها . فقال : هل عليه دين ؟ قالوا : لا . قال : فهل ترك شيئاً ؟ قالوا : لا . فصلى عليه . ثم أتى بجنازة أخرى فقالوا : يا رسول الله صلِّ عليها . قال : هل عليه دين ؟ قيل : نعم . قال : فهل ترك شيئاً قالوا : ثلاثة دنانير فصلى عليها . ثم أتى بالثالثة فقالوا : صلِّ عليها . قال : هل ترك شيئاً ؟ قالوا : لا . قال : فهل عليه دين ؟ قالوا : ثلاثة دنانير . قال : صلوا على صاحبكم .

اتباعه لرسول الله حرمه هذا الفضل العظيم ، وهو أنْ يصلى عليه رسول الله ﷺ ، ولو كان الرجل متبعاً لأمر رسول الله فعلاً ما مات وهو مدين .

وذكرتُ أننا فى سان فرانسيسكو التقينا بأحد المستشرقين الدارسين للإسلام ، وكان يقول أنا عندى فقدان توازن ، لا أنا مسيحى ، ولا أنا مسلم ، وكان الرجل يميل إلى الإسلام لكن عنده بعض الشبهات ، وكان يقول لبعض الإخوان إن جاء فلان فأنا أريد مقابلته لأناقشه فى بعض المسائل .

وكان من الشبهات عنده مسألة الصدقة والقرض ، فسأل فى قوله تعالى : ﴿مَن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ .. (١١)﴾[الحديد] أى : يضاعفه عن الأصل ، والحسنة بعشر أمثالها يعنى عشرين ضعفاً ، وفى الحديث : « مكتوب على باب الجنة : الصدقة بعشر أمثالها ، والقرض بثمانية عشر »[(١)] .

إذن : نقص عن العشرين فألهمنا الله وقلنا له : أنت حين تتصدّق بدولار مثلاً يكون لك عند ربنا كم ؟ قال : وهو يشير بأصابعه عشرة ، قلت : هل استرددت دولارك الأول ؟ قال : لا ، قلت : إذن أخذت تسعة ، وحين تُضاعف تعطينا ثمانية عشر ؟ إذن : ليس هناك مخالفة بين النصين .

---

(١) أخرج الطبرانى فى المعجم الأوسط (٦٩٠٨) عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « رأيت ليلة أسرى بى مكتوب على باب الجنة : الصدقة بعشر أمثالها ، والقرض بثمانية عشر ، قلت : يا جبريل ما بال القرض أفضل من الصدقة ؟ فقال : إن السائل يسأل وعنده . والمستقرض لا يستقرض إلا من حاجة » .

ولما نزلتْ هذه الآية : ﴿مَن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا .. (١١)﴾ [الحديد] قال بعض اليهود[1] : إن ربَّ محمد افتقر ويريد أنْ يقترض منا ، وساعتها ضربه أبو بكر على وجهه ، فقال له رسول الله ﷺ : ما حملك على ما صنعت ؟ فقال : يا رسول الله إن عدو الله قال قولاً عظيماً زعم أن الله فقير وأنهم أغنياء . فلما قال ذلك غضبت لله مما قال فضربت وجهه ، فأنكر ذلك فنحاص وقال : ما قلت ذلك . فأنزل الله فيما قال فنحاص رداً عليه وتصديقاً لأبى بكر :

﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (١٨١)﴾ [آل عمران]

وقوله تعالى : ﴿وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ (١١)﴾ [الحديد] بعد مضاعفة الأجر والحسنة بعشر أمثالها يعطيه أيضاً أجراً كريماً فضلاً منه تعالى ، فالمضاعفة عَدْل ، والأجر الكريم فَضْل ، ووَصْف الأجر ذاته بأنه كريم دليل على عِظمه ، فإذا كان العطاء ذاته كريماً فما بالك بالمعطى ؟

الحق سبحانه وتعالى فى مسألة القرض هذه يحفظ للمؤمن سَعْيه

---

(١) أخرج الطبرى فى تفسير آية ١٨١ سورة آل عمران عن ابن عباس (أثر رقم ٨٣٠٠) قال : دخل أبو بكر الصديق رضى الله عنه بيت المدراس فوجد من يهود ناساً كثيراً قد اجتمعوا إلى رجل منهم يقال له فنحاص ، وكان من علمائهم وأحبارهم ومعه حبر يقال له أشيع . فقال أبو بكر لفنحاص : ويحك يا فنحاص اتق الله وأسلم فوالله إنك لتعلم أن محمداً رسول الله قد جاءكم بالحق من عند الله تجدونه مكتوباً عندكم فى التوراة والإنجيل . قال فنحاص : والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله من فقر وإنه إلينا لفقير وما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا ، وإنا عنه لأغنياء ، ولو كان عنا غنياً ما استقرض منا كما يزعم صاحبكم ينهاكم عن الربا ويعطيناه ولو كان عنا غنياً ما أعطانا الربا ، فغضب أبو بكر فضرب وجه فنحاص ضربة شديدة .

ويُقدِّر حركته فى الحياة ، ولا يبخسه حقه ، فيسمى النفقة على الفقير قرضاً ، مع أن المال فى الحقيقة مال الله لكنه يقترضه منك ، لا يقترضه لنفسه سبحانه إنما يقترض منا على خَلْقه .

وهذه موجودة فى واقع حياتنا ، يفعلها الأب مع أولاده ، مثلاً تجد الأب يعطى لأولاده المصروف ، فمنهم مَنْ يدخره فى حصالة ، فإذا ما احتاج الأب لمال لكى يُجرى عملية مثلاً لأحد الأبناء يقول للآخرين : هاتوا ما معكم لنفعل كذا وكذا ، وسوف أردّها لكم فيما بعد وحين ميسرة ، فأخذها منهم على سبيل القرض وهى فى الواقع ملْك له .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ[1] وَبِأَيْمَانِهِمْ[2] بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ ﴾

---

(١) قال قتادة : ذُكر لنا أن نبى الله ﷺ قال : « إن من المؤمنين من يضىء نوره كما بين المدينة وعدن – أو ما بين المدينة وصنعاء – ودون ذلك حتى يكون منهم من لا يضىء نوره إلا موضع قدميه » . [أورده القرطبى فى تفسيره ٩ / ٦٦٤٥] .

(٢) قوله (بأيمانهم) قال الفراء : الباء بمعنى (فى) أى فى أيمانهم . أو بمعنى (عن) أى عن أيمانهم . وقال الضحاك : (نورهم) هداهم . (وبأيمانهم) كتبهم . واختاره الطبرى . أى : يسعى إيمانهم وعملهم الصالح بين أيديهم ، وفى أيمانهم كتب أعمالهم . فالباء على هذا بمعنى (فى) .

الفعل (ترى) هنا يُراد به الرؤية البصرية لأنه ورد فى أمر يقع تحت الحواس ، فإذا ورد فى أمر لا يقع تحت الحواس تكون بمعنى العلم كما فى قوله تعالى لسيدنا رسول الله : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ①﴾[الفيل] لأن رسول الله وُلد عام الفيل فلم يَرَ هذه الحادثة . إذن : ﴿أَلَمْ تَرَ.. ①﴾[الفيل] بمعنى ألم تعلم ، ولكنه عدل عنها إلى ﴿أَلَمْ تَرَ.. ①﴾[الفيل] ليبين أن علمك عن ربك أوثق من رؤية عينك .

والكلام هنا عن موقف من مواقف يوم القيامة : ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم ..⑫﴾[الحديد] هذا النور نور الإيمان والأعمال الصالحة فى الدنيا يمشى أمامهم ويمشى عن أيمانهم ليُوصلهم إلى الجنة .

وقال : ﴿نُورُهُم ..⑫﴾ [الحديد] كأن النور ملْك لهم ﴿بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ .. ⑫﴾ [الحديد] فالنور هو البشرى ساعة يرونه يستبشرون به ويعلمون أنه هاديهم إلى الجنة ومُوصِّلهم إليها .

﴿بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ⑫﴾ [الحديد] نعم عظيم لأنه فوز دائم لاينقطع ولا يُنغِّصه شىء ، لأن الإنسان قد يجد فى الدنيا جنات وحدائق ونعيماً لكن يُنغِّصها عليه أنها لا تدوم ، إما أنْ يتركها أو تتركه ، أما نعيم الجنة فدائم باقٍ لا يحول ولا يزول أبداً .

وفى الوقت الذى يجد فيه المؤمنون نورهم يسبقهم ويقودهم فيستبشرون به يكون الكفار والمنافقون فى ظلمات تتقاذفهم ويتخبطون فيها ، فيأمر الله الملائكة أنْ تزجّ بهم إلى النار والعياذ

بالله: ﴿ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ[1] وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ (٢٣) ﴾ [الصافات]

يعنى : دُلّوهم على طريق النار قِفُوهم على أول الطريق واتركوهم ، واستخدام لفظ الهداية هنا على سبيل السخرية منهم والتهكم بهم .

﴿ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ (١٣) ﴾

﴿ يَوْمَ ..(١٣) ﴾ [الحديد] أى يوم القيامة يوم يرى المؤمنون نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يُوصلهم إلى الجنة ، فى نفس هذا اليوم ﴿ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا .. (١٣) ﴾[الحديد] أى : انتظرونا ﴿ نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ ..(١٣) ﴾ [الحديد] نأخذ منه قبساً نستضىء به ونهتدى به ، فيُقال لهم : ﴿ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا ..(١٣) ﴾ [الحديد]

أى : عودوا إلى الدنيا فاطلبوا النور الذى يهديكم الآن ، لأن النور الذى نهتدى به الآن قدَّمناه عملاً صالحاً فى الدنيا يوم آمنّا بالله ورسوله وأطعنا ، والآن نجنى ثمرة ما قدَّمناه ، وعليكم أنْ تستأنفوا حياة جديدة حيث التكليف والعمل ، فاليوم جزاء لا عمل .

---

(١) وأزواجهم : معناه نظراءهم وضرباءهم وأشكالهم . والزوج الصنف ومنه قوله تعالى : ﴿ وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ (٥٨) ﴾ [ص] معناه ألوان وأنواع من العذاب وأصناف منه . [لسان العرب – مادة : زوج] .

وتأمل هنا عظمة الأداء القرآنى ، فالحوار يدور بين المؤمنين والمنافقين ، ومع ذلك بنى الفعل (قيل) للمجهول ولم يقل قال المؤمنون للمنافقين حتى لا يكون فى الموقف شماتة ، ولا يريد أنْ يُوقف المؤمنين هذا الموقف ، فكأن الصوت جاءهم من جهة لا يعرفونها .

وقوله تعالى : ﴿ فَضُرِبَ بَيْنَهُم ..(١٣) ﴾[الحديد] بين المؤمنين والمنافقين ﴿ بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ .. (١٣) ﴾[الحديد] وهكذا أنهى الحق سبحانه هذا الحوار وحجز المؤمنين عن المنافقين بسور له باب حتى لا يروْهم ولا يسمعوهم ، لأن المؤمن بطبعه رقيق القلب .

فربُّه عز وجل يحمى سمعه ويحمى بصره أنْ يتأذّى بما يعانيه المنافقون فى جهنم والعياذ بالله ﴿ بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ ..(١٣) ﴾ [الحديد] من ناحية المؤمنين ﴿ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ (١٣) ﴾ [الحديد] من ناحية المنافقين .

﴿ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ (١٤) ﴾

ما يزال الحوار مستمراً ، يقول المنافقون للمؤمنين وينادونهم ﴿ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ .. (١٤) ﴾[الحديد] أى فى الدنيا نصلى كما تصلُّون ، بل نسبقكم إلى الصفوف الأولى ، فماذا حدث ؟ ما الذى أدخلكم الجنة وألقى بنا فى النار وعملنا واحد ؟

فيردّ المؤمنون على المنافقين : ﴿قَالُوا بَلَىٰ (١٤)﴾[الحديد] صحيح كنتم معنا فى الدنيا تعملون كما نعمل وزيادة ﴿وَلَـٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ ..(١٤)﴾[الحديد] كنتم معنا قوالب لا قلوب ، كنتم معنا نفاقاً ورياءاً وسمعة ، تقولون بألسنتكم ما ليس فى قلوبكم ﴿فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ .. (١٤)﴾[الحديد] عرَّضتموها للفتنة بأيديكم [(١)].

ومن هنا كان المنافق أشدَّ جُرْماً من الكافر واستحقّ أنْ يكون فى الدرك الأسفل من النار ، لأن الكافر صارح نفسه وصارح الناس وأعلن صراحة أنه كافر ، فعاملناه على هذا ولم يلتبس علينا أمره .

أما المنافق فهو واحد منا وفى صفوفنا وبين أظهرنا ونحن لا نعرف نواياه ولا دخيلة قلبه ، فعداؤه لنا مستتر ومواجهته شاقة صعبة .

﴿وَتَرَبَّصْتُمْ ..(١٤)﴾ [الحديد] التربُّص : الانتظار ، أى : انتظرتم أنْ تحلّ المصائب والنكبات بالمؤمنين ، انتظرتم أنْ يزول هذا الدين ، انتظرتم أنْ يموت رسول الله فتموت معه دعوته .

وفى آيات أخرى الحق سبحانه وتعالى يوضح هذا الموقف ، فيقول عزوجل : ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ (٥٢)﴾ [التوبة]

---

(١) معنى ﴿فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ ..(١٤)﴾ [الحديد] :

- أهلكتموها بالنفاق . قاله مجاهد .
- بالمعاصى . قاله أبو سنان .
- بالشهوات واللذات . رواه أبو نمير الهمدانى . [تفسير القرطبى ٩ / ٦٦٤٨] .

يعنى : ماذا تنتظرون لنا ؟ الأمر بالنسبة لنا إحدى الحسنيين : إما النصر وإما الشهادة ، أما أنتم فليس لكم إلا العذاب ، إما أنْ يعذبكم الله بأيدينا فى الدنيا ، أو يعذبكم بالنار فى الآخرة .

وفى الوقت الذى تتربصون فيه زوال الإسلام وأفول نجمه كان الإسلام ينتشر وتزداد رقعته : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا .. (٤١) ﴾ [الرعد] يعنى : تتناقص أرض الكفر ، وتزداد أرض الإيمان .

وقوله سبحانه : ﴿وَارْتَبْتُمْ .. (١٤) ﴾ [الحديد] الارتياب : الشك ، أى : شككتم فى أمر الدعوة وفى صدْق رسول الله فى البلاغ عن الله ﴿ وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِيُّ .. (١٤) ﴾ [الحديد] خدعتكم أمانيكم فى زوال هذا الدين بموت محمد وذهاب دعوته .

﴿حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ .. (١٤) ﴾ [الحديد] إما بالانتصار عليكم أو موتكم ، أو جاء أمر الله بالقيامة ﴿وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ (١٤) ﴾[الحديد] وهو الشيطان لأنه يغرُّ الناس ويخدعهم ويصرفهم عن الله ، وفى النهاية يفضحهم ويتبرأ منهم .

﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم .. (٢٢) ﴾ [إبراهيم]

﴿ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ ۖ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ (١٥) ﴾

هذا قطع لآمالهم فى النجاة ، فالمصير الذى ينتظرهم لا مفر منه ولا مهرب ، حتى الفدية لا تؤخذ منهم إذا أراد الواحد منهم أنْ يفتدى نفسه من عذاب الله . وقد يظن ظانّ أن هذا الحكم خاص بالمنافقين الذين سبق الحديث عنهم ، لأن الله أخبر عنهم بأنهم ﴿فِى الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا (١٤٥)﴾ [النساء]

فيوضح سبحانه وتعالى أن هذا الحكم يشمل أيضاً أمثالهم من الكافرين : ﴿وَلا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا .. (١٥)﴾ [الحديد] لأن الكافرين أقلّ جُرْماً من المنافقين ، فقال : لا تُقبل الفدية لا من هؤلاء ولا من هؤلاء ، ولا بد أنْ يواجهوا هذا المصير .

﴿مَأْوَاكُمُ النَّارُ ..(١٥)﴾[الحديد] مرجعكم ومثواكم الأخير ﴿هِىَ مَوْلاكُمْ .. (١٥)﴾ [الحديد] أى : النار مولاكم ، لأن الإنسان يحتاج فى هذا الموقف إلى ولىّ يواليه ونصير ينصره ، ومن لم يكن الله وليَّه ونصيره فى هذا اليوم ، فالنار والعياذ بالله هى وليّه .

لذلك قال فى آية النساء : ﴿وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا (١٤٥)﴾ [النساء] وقال : ﴿مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ (٨)﴾ [الشورى] ومَنْ كانت النار وليه ونصيره فبئس المولى وبئس النصير ، وبئس المرجع والمصير .

ثم يقول الحق سبحانه [1] :

---

(١) سبب نزول الآية : قال الكلبى ومقاتل : نزلت فى المنافقين بعد الهجرة بسنة . وذلك أنهم سألوا سلمان الفارسى ذات يوم فقالوا : حدِّثنا عما فى التوراة فإن فيها العجائب ، فنزلت هذه الآية وقال غيرهما : نزلت فى المؤمنين .

فعن سعد بن أبى وقاص قال : أُنزل القرآن زماناً على رسول الله ﷺ فتلاه عليهم زماناً ، فقالوا : يا رسول الله لو قصصتَ فأنزل الله تعالى : ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ..(٣)﴾ [يوسف] فتلاه عليهم زماناً فقالوا : يا رسول الله لو حدثتنا ، فأنزل الله تعالى : ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ ..(٢٣)﴾ [الزمر] قال : كل ذلك يؤمرون بالقرآن . قال خلاد : وزاد فيه آخر قالوا : يا رسول الله لو ذكّرتنا ، فأنزل الله تعالى : ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ ..(١٦)﴾ [الحديد]

﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

الهمزة استفهام يراد به التعجب أو الحث على المسارعة ، يعنى ألم يأتِ أوان أنْ تخشع قلوبهم ، ألم يحنْ الوقت ، وكأنهم أخروا خشوع القلوب وتباطئوا فيه ، كما نقول مثلاً للشيخ الذى أسرف على نفسه وما يزال على هذا الحال مع كِبَر سِنه : ألم يأنِ لك أن تتوب وترجع إلى الله ، فهذا يعنى أنه أخّر التوبة .

والكلام هنا عن الذين آمنوا بالفعل ، فهم مؤمنون لكن عندهم خلل وقصور ، إما أن أعمالهم قليلة ، أو أنهم يؤدون الأعمال دون استحضار القلب ، ودون الخشوع والخضوع المطلوب لله ﴿ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ .. (١٦) ﴾ [الحديد] أى : عند تذكره وعند سماع آيات ، فمن صفات المؤمن أن ينفعل لآيات الله ، خاصة آيات التهديد والوعيد وذكر النار والحساب .

﴿ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ ..(١٦) ﴾ [الحديد] أى من الآيات ﴿ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ ..(١٦) ﴾ [الحديد] وهم اليهود والنصارى ﴿ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ .. (١٦) ﴾ [الحديد] طالتْ مدة التذكر فأصابتهم الغفلة ﴿ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ..(١٦) ﴾[الحديد] صارت قاسية لا تلين لذكر الله ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ (١٦) ﴾[الحديد] خارجون عن طاعة الله .

ويُحكى فى معنى هذه الآية قصة ، قالوا : إن الفضيل بن عياض[١] وهو أحد الصوفية والعارفين بالله كان فى بداية أمره قاطع طريق ، وفى مرة تسوّر أحد الأسوار ليسرق فسمع هاتفاً يقرأ هذه الآية : ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ .. (١٦)﴾[الحديد] فقال : أنا يارب ونزل ، فكانت نقطة تحول فى حياته[٢] .

وقد سأله سائل عن قصته العجيبة هذه ، وكيف تحول من قاطع طريق ولص إلى ولى صالح ، فقال له : أتذكر لك حسنة قبل أنْ يتوب الله عليك ؟ قال : والله لا أذكر لى إلا حسنة واحدة ، فقد مررتُ فى الطريق بورقة من كتاب الله مُلْقاة على الأرض والناس يدوسون عليها ، فأخذتها واحتفظتُ بها ولم يكُنْ معى إلا درهم واحد فاشتريت به عطراً فعطرتها به ، فسمعت هاتفاً يقول : والله لأبيضنّ اسمك كما بيضتَ اسمى .

---

(١) الفضيل بن عياض : شيخ الحرم المكى من أكابر العبَّاد الصالحين ، كان ثقة فى الحديث ، أخذ عنه خلق كثير منهم الإمام الشافعى ولد فى سمرقند (١٠٥ هـ) ونشأ بأبيورد ودخل الكوفة وهو كبير وأصله منها ثم سكن مكة وتوفى بها عام (١٨٧ هـ) [الأعلام للزركلى ٥ / ١٥٣] .

(٢) أورده ابن الشجرى فى الأمالى الشجرية (التوبة وما يتصل بها) ، قاله إبراهيم بن الأشعث : كان مبتدأ توبة فضيل بن عياض أنه خرج عشية يريد مقطعة وكان يقطع الطريق فإذا بقوم حمارة معهم ملح فسمع بعضهم يقول : مروا مروا لا يفجأنا فضيل فيأخذ ما معنا ، فسمع ذلك فضيل فاغتم وتفكر ، وقال تخافنى الخلق هذا الخوف العظيم فتقدم وسلم عليهم وقال لهم وهم لا يعرفونه : تكونون الليلة عندى وأنتم آمنون من الفضيل فاستبشروا وفرحوا وذهبوا فأنزلهم وخرج يرتاد لهم علفاً ثم رجع فسمع قارئاً يقرأ ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ ..(١٦)﴾ [الحديد] فصاح ومزق ثيابه على نفسه وقال : بلى والله لقد آن فكان هذا مبتدأ توبته .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

ألا تلاحظون المناسبة هنا بين قسوة القلوب وتحجرها وبين إحياء الأرض بعد موتها ؟ كأن الحق سبحانه وتعالى يريد أنْ يقول لنا : إنْ كانت قلوبكم قد ماتت وقستْ ، وإنْ كانت تعاليم الدين قد ضاعت منكم فلا تيأسوا ، لأن الذى يحيى الأرض بعد موتها قادر على أن يحيى موات قلوبكم .

إذن : كانت بشارة لهم أنهم سيعودون إلى ساحة الإيمان بأفضل مما كانوا عليه ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾﴾[الحديد] ومن الآيات أن الله يُحيى القلوب بالذكر والآيات كما يُحيى الأرض بالمطر ، فكل منهما آية تحتاج منا إلى تفكير وتعقل وتأمل .

﴿ إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ ﴾

السياق القرآنى يعود بنا مرة أخرى إلى الحديث عن الصدقات والإنفاق فى سبيل الله لما له من أثر وأهمية فى حياة المجتمع ، فيقرر هذه الحقائق ويؤكد عليها لأن إنفاق المال بعد مشقة اكتسابه أمر صعب يشقّ على النفس ، فيحتاج إلى مجاهدة .

وإذا كان السياق قد قرر هذه المسألة قبل عدة آيات فإنه يؤكدها هنا كما أكد الآيات الكونية فى سورة (الرحمن) : ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا

تُكَذِّبَانِ (١٣) ﴾[الرحمن] يكررها بعد كل آية .

كذلك هنا يؤكد على ضرورة الإنفاق والصدقة ، ويؤكد على الأجر الكريم الذى ينتظر المتصدِّقين ، ومعلوم أن المال مُحبَّب إلى النفس خاصة إذا جاء بعرق ومجهود .

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١٩) ﴾

قال سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ .. (١٩) ﴾[الحديد] لأن الإيمان برسول واحد يقتضى الإيمان بجميع الرسل لأن رسالة السماء كما قلنا واحدة ، لذلك كان الإيمان بالرسل ركناً من أركان الإيمان .

ثم وصف المؤمنين بأنهم ﴿ هُمُ الصِّدِّيقُونَ .. (١٩) ﴾[الحديد] جمع صِدِّيق ، وهو الذى بالغ فى تصديق الرسول فى كل ما جاء به .

لذلك لُقِّب أبو بكر رضى الله عنه بالصِّديق لأنه كان يصدق رسول الله فى كل ما يقول . كذلك وصف الله بها السيدة مريم : ﴿ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ[1] .. (٧٥) ﴾[المائدة] لأنها صدَّقت ربها عز وجل فى الشىء الخارق لعادة الخَلْق فى مسألة الإنجاب .

﴿ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ .. (١٩) ﴾[الحديد] وفى موضع آخر قال تعالى : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ

---

(١) صديقة أى مبالغة فى الصدق والتصديق . وقال الليث : كل من صدّق بكل أمر الله لا يتخالجه فى شىء منه شك وصدَّق النبى فهو صِدِّيق . [لسان العرب - مادة : صدق] .

أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) ﴾[آل عمران] فهم أحياء عند ربهم لا عندنا ، لأنك ترى الشهيد بعد أنْ يُقتل ويُوضع فى كفنه ويُدفن فهو عندنا ميت ولو فتحت عليه قبره لوجدته ميتاً .

إذن : هم أحياء عند الله ﴿ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ .. (١٩) ﴾ [الحديد] أى : نورهم أيضاً يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يهديهم ويدلّهم على أماكنهم فى الجنة .

ثم يذكر النقيض : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١٩) ﴾ [الحديد] أى : مصاحبين لها ملازمين لحرِّها ، فكأنهم صاحبوا النار والنار صاحبتهم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ (١) وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ (٢٠) ﴾

هذه الآية فضحت الدنيا وكشفت زيفها ، فالبعض يعمل فى الدنيا على أنها غاية وهى ليست كذلك ، فالحق سبحانه يصفها هنا بعدة أوصاف فى أسلوب قصر ، يعنى ما هى إلا كذلك .

---

(١) هاج النبات يهيج : أدرك النضج واصفرَّ . وهو وصف للنبات عند تمام نضجه أى يكثر ويزداد أو ييبس ويصفر . [القاموس القويم ٢/ ٣١٢] .

﴿لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ .. (٢٠)﴾[الحديد] واللعب حركة للإنسان ليس لها مقصد حسن ، مثل لعب الأولاد فى المنزل حينما يلعبون ويُكسرون ، وهذا اللعب مجرد تسلية لهم وشَغْل للوقت واستفراغ للطاقة ، واللعب يكون قبل زمن التكليف ، فإنْ كان بعد التكليف فهو لهو ، لأنه يُلهيك عن العمل الصالح .

والزينة الشىء الزائد عن قوام الحياة وضرورياتها ، فالإنسان له حَدّ أدبى فى أكله وشُرْبه وملبسه بحيث يسدّ جوعه ويستر عورته ولو بأىّ شىء موجود ، فإذا أنعم الله عليه ووسّع رزقه يرتقى فى مأكله ومشربه وملبسه ومركبه .

وقد وضحت الآيات هذا المعنى فى قوله تعالى : ﴿يَـٰبَنِى آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِى سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا ..(٢٦)﴾[الأعراف] ومنه قولنا (فلان متريش) يعنى : عنده زيادة فى الملبس ، عنده زينة تتعدّى مجرد ستر العورة .

لكن مهما توفر لك الرياش فى الدنيا والزينة فلا تنسَ أنها دنيا ، وخالقها سبحانه هو الذى وصفها بهذا الوصف ، وإذا كانت هذه الحياة التى نحياها دنيا ، فلا بدّ أنْ يكون مقابلها العليا وهى الآخرة .

ويكفى فى دناءتها وحقارتها أن نعيمها منغّص وأن أمدها قصير ، فالدنيا بالنسبة لك مقدار عمرك فيها ولا صلة لك بأعمار الآخرين من آدم إلى قيام الساعة ، فمَنْ مات قامت قيامته [1] .

---

(١) أورده الطبرى فى تهذيب الآثار (٢٤٠) عن أبى قيس قال : رأيت علقمة فى جنازة فلم يزل قائماً حتى دفن فقال : « أما هذا فقد قامت قيامته » وكذا أورده الدولابى فى (الكنى والأسماء ١٢٠١) .

لذلك الحق سبحانه وتعالى لما مثّل لنا مثلاً للدنيا قال : ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا[1] تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا (٤٥) ﴾ [الكهف]

وفى موضع آخر بيّن الحق سبحانه وتعالى المراد بالزينة ، فقال : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ[2] الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (١٤) ﴾ [آل عمران]

والتفاخر أنْ تفخر على غيرك إما بشىء فى ذاتك كالصحة أو العافية أو الجمال . أو بشىء خارج عن الذات كالمال والأولاد والجاه والسلطان . والتكاثر كذلك هو التباهى والاستعلاء بما عندك من الأموال والأولاد .

ثم يضرب الحق سبحانه وتعالى مثلاً لهذا كله ليوضح لنا الصورة ﴿ كَمَثَلِ غَيْثٍ .. (٢٠) ﴾ [الحديد] أى : مطر نزل من السماء ﴿ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ .. (٢٠) ﴾ [الحديد] الكفار هنا بمعنى الزُّراع وليست بمعنى الكفار المخالفين لمنهج الله .

وفى آخر سورة الفتح ضرب الحق سبحانه وتعالى مثلاً لمحمد ﷺ وأمته : ﴿ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ[3] فَاسْتَغْلَظَ

---

(١) الهشيم : الحطب والخشب المحطَّم . والهشيم : النبات اليابس المتكسِّر المتحطم . تذروه الرياح لخفته وتكسُّره .

(٢) القنطار المقدار الكبير من المال جمعه قناطير . ومعنى أنها قناطير وأنها أيضاً مقنطرة أنها أموال كثيرة توزن بالقناطير ولا تُعد عداً . فهى أكثر من أن تعد بل توزن .

(٣) آزر الزرع : قوى واشتد ساقه . والأزر القوة . وآزره : قوَّاه . [القاموس القويم : مادة : أزر] .

فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٢٩) ﴾ [الفتح] فقال هنا (الزرّاع) ليفرق بين المعنيين ، فالكفار هنا أى المخالفين لمنهج الله .

﴿ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا .. (٢٠) ﴾ [الحديد] أى : يزدهر ويترعرع ثم سرعان ما يذبل ويصفرّ ويتحوّل إلى حطام وفتات ، كذلك حال الدنيا تضحك لأهلها وتعجبهم ، ثم تنتهى إلى لا شىء ، بل وتخلف بعدها التبعات .

﴿ وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ .. (٢٠) ﴾[الحديد] لمن غرَّتْه الدنيا ، فأخذها لهواً ولعباً وزينة وتفاخراً تباهياً بين الناس ﴿ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ .. (٢٠) ﴾ [الحديد] لمن لم يغتر بالدنيا ولم ينصرف عن منهج الله .

ثم تؤكد الآيات هذا المعنى ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ (٢٠) ﴾ [الحديد] أى : متاع خادع زائف لا يدوم . والغرور بالضم مصدر غرّ ، والغرور بالفتح هو الشيطان ﴿ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ (٥) ﴾[فاطر] أى : الشيطان وكل ما يغرّك من مال أو غيره .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢١) ﴾

بعد أنّ ذكر الحق سبحانه وتعالى الدنيا وما فيها من لهو ولعب وزينة وتفاخر وتكاثر قال : ﴿ سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ .. (٢١) ﴾ [الحديد] كأنه سبحانه يقول لنا : اتركوا هذه الدنيا وما فيها من غرور ، فهى سراب لا طائل من ورائه ، وسابقوا إلى ما هو أبقى لكم .

﴿ سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ .. (٢١) ﴾ [الحديد] فكأن المغفرة هى الغاية وهى الهدف ، كما تقول سافرت من القاهرة إلى الإسكندرية ، وهذه الغاية لا تُدرَك إلا بالمسابقة والسعى الجاد الدائب ، لا تُدرك المغفرة بالتهاون والتكاسل . والسباق هنا سباق فى الأعمال الصالحة وفى الطاعات ، سباق فى الانقياد لأوامر الله .

وفى موضع آخر قال سبحانه : ﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ .. (١٣٣) ﴾ [آل عمران] والمسارعة والمسابقة تعنى مفاعلة ومشاركة ومنافسة بين المؤمنين المنقادين لمنهج الله كُلّ يريد أنْ يسبق وأنْ يرتقى إلى الغاية المنشودة لهم جميعاً وهى المغفرة ﴿ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ .. (٢١) ﴾ [الحديد]

لكن فى آية أخرى قال فى شأن سيدنا زكريا وسيدنا يحيى : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ .. (٩٠) ﴾ [الأنبياء] ولم يقل إلى الخيرات لأن الخيرات وسيلة وليست غاية فى ذاتها الخيرات وسيلة للغاية العظمى وهى المغفرة .

وقال (الخيرات) بصيغة الجمع لأنها مجال واسع يسع الطموح الإيمانى ، فكلّ مؤمن يأخذ منه على قدر أريحيته ويسارع فيه على قدر جهده وإمكانيته ، فعمل الخير يتفاوت إذن كلما أوغلت فيه وسارعت أخذت من المنزلة على قدره .

لذلك قال سبحانه : ﴿وَفِي ذَٰلِكَ ..(٢٦)﴾ [المطففين] أى : فى عمل الخيرات ﴿فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ (٢٦)﴾ [المطففين]

والنبى ﷺ يوضح لنا هذا المعنى بقوله : « لا حسد إلا فى اثنتين : رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته فى الحق ، ورجل آتاه الله العلم فهو يقضى به بين الناس »[(١)] .

والحسد هنا بمعنى الغبطة والمنافسة الشريفة ، وأصل المنافسة من طول النفس ، لذلك سيدنا عمر قال لسيدنا العباس : هيا بنا نتنافس يعنى : نغطس فى الماء ونرى مَنْ منا أطول نفساً من الآخر[(٢)] ؟ ومعلوم أن الإنسان كلما كانت رئته سليمة تتسع لأكبر قدر من الهواء كان نفسه وبقاؤه تحت الماء أطول .

إذن : نتسابق فى الخيرات لنرى مَنْ منَّا أسبق ، مَنْ منّا يصل إلى غايته أولاً . لذلك رُوِى أن حاتم الأصم[(٣)] سأله شيخه البلخى[(٤)] :

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٧١ ، ١٣٢٠ ، ٤٦٣٧) وكذا مسلم فى صحيحه (١٣٥٢) من حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه .

(٢) أخرجه البيهقى فى السنن الكبرى عما يباح فى الإحرام : عن ابن عباس قال : ربما قال لى عمر بن الخطاب : تعال أباقيك فى الماء أينا أطول نفساً ونحن محرمون . وذكره المتقى الهندى فى كنز العمال وعزاه للشافعى والبيهقى فى السنن . وصححه الألبانى فى إرواء الغليل (١٠٢١ - مختصر) .

(٣) حاتم الأصم : هو حاتم بن عنوان أبو عبد الرحمن المعروف بالأصم ، زاهد اشتهر بالورع والتقشف ، له كلام مدون فى الزهد والحِكَم ، من أهل بلخ ، زار بغداد واجتمع بأحمد بن حنبل وشهد بعض معارك الفتوح وكان يقال : حاتم الأصم لقمان هذه الأمة . توفى بواشجرد عام ٢٣٧ هجرية . [الأعلام للزركلى ٢ / ١٥٢] .

(٤) البلخى : هو شقيق بن إبراهيم الأزدى البلخى أبو على ؛ زاهد صوفى من مشاهير المشايخ فى خراسان ، كان من كبار الزهاد والمجاهدين ، استشهد فى غزوة كولان (بما وراء النهر) عام ١٩٤ هـ . [الأعلام للزركلى ٣ / ١٧١] .

فيمَ أفنيتَ عمرك ؟ فقال : فى أشياء : علمتُ أنِّى لا أخلو من نظر الله إلىَّ طرفة عين فاستحييتُ أنْ أعصيه . وعلمتُ أن لى رزقاً لا يتجاوزنى وقد ضمنه الله لى فقنعتُ به ، وعلمتُ أن علىَّ ديناً لا يؤديه عنِّى غيرى فاشتغلتُ به ، وعلمت أن لى أجلاً يبادرنى فبادرته – وهذه هى المسابقة ، يعنى : أجل يبادرنى بالموت فبادرته أى : سابقته بالعمل الصالح[1] .

وقوله تعالى : ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ .. (٢١)﴾ [الحديد] جاءت الجنة بعد المغفرة ، فالله يغفر لهم الذنوب أولاً ثم يدخلهم الجنة ، والقاعدة أن درء المفسدة مُقدَّم على جَلْب المصلحة ، وقلنا سابقاً : إن التخلية تسبق التحلية .

ومثَّلنا لذلك وقلنا : لو أن واحداً رماك بحجر وآخر رماك فى نفس الوقت بتفاحة ، فلا شكّ أنك تدفع الحجر عن نفسك أولاً . وهذا المعنى واضح فى قول الله تعالى : ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ .. (١٨٥)﴾ [آل عمران]

والمغفرة إما أنْ يسبقها ذنب فتمحوه المغفرة ، أو تكون المغفرة بستر الذنب عنك فلا يأتيك أصلاً .

والحق سبحانه وتعالى هنا يعطينا مثلاً وتوضيحاً للجنة لأنها

---

(١) ذكره ابن حمدون فى التذكرة الحمدونية (الفصل الرابع فى أخبار التابعين) أن رجلاً سأله : على ما بنيت أمرك هذا فى التوكل على الله ؟ قال : على خصال أربع : علمت أن رزقى لا يأكله غيرى فاطمأنت به نفسى ، وعلمت أن علىَّ ديناً لا يعمله غيرى فأنا مشغول به ، وعلمت أن الموت يأتينى بغتة فأنا أبادره ، وعلمت أنى لا أخلو من عين الله حيث كنت فأنا مُسْتحٍ منه .

غيب عنا مجهولة لنا ، فيُقرِّبها للأذهان بشىء معلوم مُشَاهد ، ونحن نشاهد السماء والأرض واتساعهما طولاً وعرضاً .

فقال فى وصف الجنة ﴿عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ .. (٢١)﴾ [الحديد] فالكاف هنا للتشبيه فهى فى عَرْضها تشبه عرض السموات والأرض ونحن ننظر إلى السموات وإلى الأرض فنجدها ممتدة لا نهاية لها ، فضرب لنا مثلاً بأوسع شىء نعرفه وهو السماء والأرض لما لا نعرفه وهو الجنة .

﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ..(٢١)﴾ [الحديد] فأتى بالعرض ولم يأت بالطول ، ومعلوم أن العرض دائماً أقلّ من الطول ، فإذا كان عرضها أى الجنة كعرض السموات والأرض فى اتساعه فما بالك بالطول ، فهذا كناية عن الاتساع .

وقوله تعالى : ﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ..(٢١)﴾ [الحديد] أى : أُعدَّتْ بالفعل وجُهِّزت لاستقبال الذين آمنوا بالله ورسوله ، فهى مسألة مفروغ منها وليست تحت الإنشاء ، لذلك لما سأل سيدنا رسول الله ﷺ سيدنا حارث بن مالك : كيف أصبحتَ يا حارث ؟ قال : أصبحتُ بالله مؤمناً حقاً ، قال : لكلِّ حقٍّ حقيقة ، فما حقيقة إيمانك ؟ قال : عزفتْ نفسى عن الدنيا فاستوى عندى ذهبها ومدرها[1] ، وكأنِّى أنظر إلى أهل الجنة فى الجنة يُنعَّمون وإلى أهل النار فى النار

---

(١) المدر : قطع الطين اليابس . وقيل : الطين العلْك (اللزج) الذى لا رمل فيه . وهو أيضاً الطين المتماسك . (لسان العرب – مادة : مدر) بتصرف .

يُعذَّبون ، فقال له : عرفتَ فالزم[١] .

فمعنى (أُعدت) بصيغة الماضى أنها موجودة من الآن ، وسيدنا رسول الله ﷺ فى مرحلة الإسراء والمعراج قال : وعُرضتْ علىَّ الجنة (أى الماكيت) ، ونحن حينما نريد أنْ نبنى عمارة مثلاً نعمل لها نموذجاً أو (ماكيت) يوضح كل تفاصيلها حتى الفرش والأثاث ، كذلك الحق سبحانه وتعالى عنده (الماكيت) الأعلى للجنة .

لذلك لما قال له : ما شُغل ربك الآن وقد صحَّ أن القلم قد جَفَّ ؟ قال : أمور يُبديها ولا يبتديها يرفع أقواماً ويضع آخرين[٢] . معنى يُبديها يُظهرها للوجود ، فهى موجودة بالفعل فى عالم الغيب تنتظر الأمر بالظهور للوجود .

﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢١﴾ ﴾ [الحديد]

فكل من يدخل الجنة فبفضل الله سبحانه ، والفضل هو الأمر الزائد عن حاجتك الضرورية ، ولذلك يقول رسول الله ﷺ : « مَنْ

---

(١) أخرجه ابن أبى شيبة فى مصنفه (الجزء ٧ – باب ما ذكر فيما يطوى عليه المؤمن من خلال) أن رسول الله ﷺ قال : كيف أصبحت يا حارث ؟ قال : أصبحت مؤمناً حقاً . قال : إن لكل قول حقيقة فما حقيقة ذلك ؟ قال : أصبحت عزفت نفسى عن الدنيا وأسهرت ليلى وأظمأت نهارى وكأنى أنظر إلى عرش ربى قد أبرز للحساب ، وكأنى أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فى الجنة وكأنى أسمع عواء أهل النار . قال فقال له رسول الله : « عبد نوَّر الإيمان فى قلبه إنْ عرفت فالزم » .

(٢) جاء فى تفسير (البحر المديد) : « رُوى عنه ﷺ أنه تلاها ، فقيل له : ما هذا الشأن ؟ فقال : من شأنه أن يغفر ذنباً ويفرّج كرباً ويرفع قوماً ويضع آخرين . وقيل : نزلت آية الرحمن ﴿ يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الرحمن] فى اليهود حين قالوا : إن الله لا يقضى يوم السبت شأناً فردّ الله عليهم . والمراد بهذه الشؤون : أمور يُبديها ولا يبتديها ، فقد جفَّ القلم بما هو كائن إلى ما لا نهاية له

كان معه فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له ، ومن كان معه فضل زاد فليعد به على من لا زاد له »[١] هذا عن الفضل بالنسبة للبشر أما بالنسبة لله سبحانه فإن كل ما فى كون الله الآن وفى الآخرة فهو فضل الله لأنه زائد على حاجته ، فالله غير محتاج لخلقه ولا لكل نعمه التى سبقت والتى ستأتى .

ولذلك قال : ﴿ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢١) ﴾ [الحديد] أى ذو الفضل الهائل الزائد عن حاجته ، والفضل الحقيقى هو الذى من عند الله .

لذلك فإن الله سبحانه هو ذو الفضل العظيم لأنه غير محتاج إلى كل خلقه أو كونه ، لأن الله سبحانه كان قبل أن يوجد شىء ، وسيكون بعد ألا يوجد شىء ، وهذا ما يسمى بالفضل العظيم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٢٢) ﴾

المصيبة : كل ما يصيب الإنسان ويسوءه ويُخرجه عن سلامة التنعم ، فاسمها يدل عليها فلا تسمى مصيبة إلا إذا وقعتْ . كالذى قال : الموت سَهْم أُرسلَ إليك وعمرك بقدر سفره إليك ، فالسهم أرسلَ بالفعل فإذا أصاب فهى المصيبة ، وهى الشىء الذى حكم بأنه واقع لا محالة .

فالحق سبحانه وتعالى يقول لك انظر إلى المصيبة ﴿ فِي الْأَرْضِ ..

---

(١) أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه (٣٢٥٨) وأبو داود فى سننه (١٤١٦) والبيهقى فى شعب الإيمان (٣٢٣٦) من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه .

(٢) برأ الله الخلق : خلقهم . والبارى من أسماء الله عز وجل وهو الذى خلق الخلق لا عن مثال .

(٢٢) ﴾ [الحديد] كالقحط والجدب والحريق والفيضانات والزلازل وغيرها ﴿ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ.. (٢٢) ﴾ [الحديد] المصيبة فى النفس هى المصيبة الخاصة بالشخص كالمرض والموت وفقدان الأهل أو المال .

فالمصيبة فى الأرض عامة وفى النفس خاصة ، وقد تأتى المصيبة فى النفس عامة كالقحط والفيضانات ، لأن الذنوب قد تحدث من الشخص فتأتى المصيبة خاصة به ، وقد تعم ويقع فيها كثير من الناس ، فتأتى المصيبة أيضاً عامة كما حدثت الذنوب عامة .

فالحق سبحانه وتعالى قال : ﴿ وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ (٣٠) ﴾ [الشورى] وهذه من رحمة الله بعباده . ويشرح لنا هذه المسألة فى آية أخرى فيقول سبحانه : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ ..(٤٥) ﴾ [فاطر]

فمن صفاته تعالى الرحمة ، ومن أسمائه الرحمن الرحيم ، لذلك شرع لنا مواسم للرحمات ، فالجمعة إلى الجمعة ، والصلاة إلى الصلاة ، ورمضان إلى رمضان كفارات لما بينهن إذا اجتُنبتْ الكبائر [1] .

إذن : الحق سبحانه يريد لنا الرحمة والمغفرة ولا يريد لنا العنت ، والمصيبة لا تنزل إلا بما كسبت أيدى الناس . وفى موضع آخر قال سبحانه : ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ..(٤١) ﴾ [الروم]

وتأمل مثلاً ما نعانيه الآن من تلوث الماء والهواء بل وكل شىء

---

(١) هذا مضمون حديثين ، أولهما أخرجه مسلم فى صحيحه (٣٤٢) عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة كفارة لما بينهن ما لم تُغش الكبائر » . وثانيهما أخرجه أحمد فى مسنده (٨٨٣٠) عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ كان يقول : « الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفِّرات ما بينهن ما اجتنبت الكبائر » .

فى حياتنا ، إنه نتيجة طبيعية لتجاوزات الناس . وقد أبدع الخالق سبحانه هذا الكون كله بكلّ ذرة فيه على هيئة الصلاح ، ثم أوصانا بأنْ نحافظ على هذا الصلاح ، فقال : ﴿ وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا .. (٥٦) ﴾ [الأعراف]

وقوله سبحانه : ﴿ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ ..(٤٥) ﴾[فاطر] دلّ على سعة رحمة الله ، فلولا هذه الرحمة لهلك كلّ ما يدب على الأرض بشؤم معصية البشر ويشرح لنا هذه النقطة الحديث القدسى : « ولولا أطفال رُضّع ، وشيوخ ركع ، وبهائم رُتّع لَصببتُ عليكم العذاب صَباً »[1] فنحن إذن مرحومون بضعفائنا ، لذلك قال : بضعفائكم تُرزقون[2] .

وقوله سبحانه : ﴿ إِلاَّ فِي كِتَابٍ .. (٢٢) ﴾[الحديد] يعنى : مُسجلة عندنا مقدورة ومَقْضية ، والفرق بين المقدور والمقضى : القضاء حكم لازم لا دخْلَ لك فيه ، أما القدر فحكم لك فيه اختيار ، ولكن الله تعالى علمه أزلاً فكتبه مقدماً .

مثلاً وزير الزراعة يقول : قدّرنا محصول القطن هذا العام كذا قنطار ، ثم تأتى للقطن آفة فلا يأتى بهذا المحصول الذى حدده الوزير ، لأنه يقدِّر حسب علمه بظواهر الأشياء ولا دخلَ له بالغيبيات ، لذلك

---

(١) أخرجه البزار مرفوعاً ولفظه « لولا أطفال رضع ، وعباد ركع ، وبهائم رتع لصبّ عليكم العذاب صباً » ذكره فى كشف القناع عن متن الإقناع ، وذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد (٤ / ٤٥٨) عن أبى هريرة .

(٢) عن مصعب بن سعد بن أبى وقاص قال : رأى سعد رضى الله عنه أن له فضلاً على من دونه فقال النبى ﷺ : « هل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم ؟ » أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٦٨١) .

يأتى تقديره خطأ .

أما الحق سبحانه وتعالى فإذا قدّر شيئاً فلا بد أنْ يأتى الواقعُ موافقاً له ، فالقدر إذن شىء قدّره الله ولك فيه اختيار علم الله هذا الاختيار فكتبه قبل أنْ يقع منك .

وسبق أنْ أوضحنا هذه المسألة بالمعلم الذى يتوقع لتلميذ من تلاميذه أنْ يكون متفوقاً فى امتحان آخر العام ، لقد حكم هذا الحكم بناءً على ما لاحظه على تلميذه من الذكاء والاجتهاد ، فالمقدمات تؤكد هذا الحكم ، لكن يأتى الامتحان ويُصاب التلميذ بدوار أو شىء طارئ فلا يحقق ما توقعه أستاذه .

إذن : جاءت النتيجة مخالفة لتوقع الأستاذ لخلل فى علمه ، أما الحق سبحانه وتعالى فله صفات الكمال وعلمه لا خلل فيه .

وقد شرحنا هذه المسألة أيضاً فى تفسير قوله تعالى : ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (٢) سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (٣) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ (٥)﴾ [المسد]

وقد سمع أبو لهب هذه الآيات وقد كان بوسعه أنْ يؤمن كما آمن أمثاله : عمر وخالد وعمرو وعكرمة ، لكن هذا حكم الله أزلاً وقدره الذى علمه مقدماً أن أبا جهل لن يؤمن وأنه سيختار الكفر ، فالله تعالى لم يفرض عليه الكفر ولكن تركه لاختياره .

وقوله تعالى : ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَبْرَأَهَا .. (٢٢)﴾ [الحديد] أى : من قبل أنْ نخلقها ونبرزها فى عالم الواقع ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٢٢)﴾ [الحديد]

﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ (١) وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (٢٣) ﴾

الحق سبحانه وتعالى يُعلِّمنا هنا ألاَّ نأسى وألاَّ نحزن على ما فات ، وما دام أن الأمر من الله بقضائه وقدره فلا يناسبك إلا التسليم والرضا ، لأن الحزن لن يغير الواقع ولن يعيد ما فات ، لذلك عندنا فى الفلاحين يقولون : العايط فى الفايت نقصان من العقل .

لذلك نقول للمرأة التى فقدت زوجها أو عزيزاً عليها وبالغت فى الحزن ولبس السواد : بالله عليك هل سيعيد الحزن ما فات ؟ ثم احذرى أنْ تألفى الحزن وتعشقيه فيُديمه الله عليك ، لأن الله تعالى يعين عبده على ما يريد وعلى ما يحب ، لذلك يختم على قلب الكافر حتى لا يدخله الإيمان ولا يخرج منه الكفر ، ففى الرضا إذن سعة للمؤمن .

وكذلك الحال فى الفرح : ﴿ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ .. (٢٣) ﴾[الحديد] لأنك لا تدرى عاقبة ما آتاك الله من النعمة أتُوفَّق فيها أم لا ؟ أتعينك على الطاعة أم تفتح عليك باب معصية ؟ إذن : هى فى الواقع فتنة .

لذلك يقول تعالى : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ .. (٤٤) ﴾[الأنعام] فليست النعمة بالضرورة دليلاً على رضا الله

---

(١) عن ابن مسعود أن نبى الله ﷺ قال : « لا يجد أحدكم طعم الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه » ثم قرأ ﴿ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ .. (٢٣) ﴾ [الحديد] والحديث أخرجه ابن بطة فى الإبانة الكبرى (حديث ١٤٣٩) ولفظه « والذى لا إله غيره لا يذوق أحدكم طعم الإيمان حتى يعلم أن ما أخطأه لم يكن ليصيبه ، وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه » .

على العبد ، لذلك نرى كثيراً من أهل المعاصى والبُعْد عن الله فى سعة من الرزق يمد يده فى التراب فيصير ذهباً ، لماذا ؟

لأنهم لما نسُوا ما ذُكِّروا به نريد أنْ نعاقبهم ، وكيف نعاقبهم ؟ نرفعهم إلى أعلى منزلة حتى إذا أخذناهم كان الأخذ مؤلماً شديداً .

وسبق أنْ قلنا : إذا أردتَ أنْ تُوقع شخصاً لا توقعه من على الحصيرة ، بل لا بد أنْ ترفعه إلى أعلى ، وكلما رفعته كان السقوط مؤلماً .

حتى فى المعنى اللغوى يقولون : فتح له غير فتح عليه ، لذلك قال تعالى مخاطباً نبيه ﷺ : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا (١) ﴾[الفتح] (لك) أى : فتح فى صالحك لكن ﴿ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ ..(٤٤) ﴾[الأنعام] أى : ضدهم وفى غير صالحهم ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً ..(٤٤) ﴾ [الأنعام]

إذن : ﴿ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ..(٢٣) ﴾[الحديد] لأنه قد يكون فتنة لك وابتلاءً ، فيكون غيرك ممَّنْ حُرم خيراً منك وأحسنَ حالاً . والحق سبحانه وتعالى حينما يقول لنا : لا تأسوا ولا تفرحوا يريد أنْ يحفظ نفوس المؤمنين عما يُكدِّرها أو يُخرجها عن حال السلامة .

لذلك علماء النفس لما تكلموا فى هذه المسألة قالوا : ينبغى على الإنسان ألاّ يتأثر بالحزن ولا بالفرح تأثراً يُخرجه عن الطبيعة والاعتدال ، لأن الأحداث تمر بك وأنت عُرْضة فى رحلة الحياة لأنْ تحزن أو تفرح .

والتأثر بذلك والانفعال به يُحدث فيك تغييراً ، فالحزن يجعلك

تنقبض ، والفرح يجعلك تنبسط ، وأىّ عضو له كيان مخصوص لا يحب القبض ولا البسط ، فاحذر الحالتين والزم الاعتدال ليظلّ كيانك فى سلامة الفطرة وصلاح الجسد .

لذلك قال الشاعر فى هذا المعنى :

فكُنْ رَجُلاً كَالضّرس يرسُو مكانه ليمضغ لاَ يَعنيه حلْوٌ وَلاَ مُرّ

والنهى عن الفرح هنا يُقصد به الفرح المذموم ، وهو الفرح الذى يدعو صاحبه إلى التباهى والغرور ويحمله على التعالى والتكبر ، الفرح الذى يورث صاحبه بطراً وغطرسة ، ومن هذا النوع قوله تعالى : ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ .. (٨١)﴾ [التوبة]

أما الفرح المحمود فهو الذى يُورث صاحبه انكساراً لصاحب النعمة ، ومنه قوله تعالى عن أهل الطاعات : ﴿فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٥٨)﴾ [يونس]

لذلك قال تعالى بعدها : ﴿وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (٢٣)﴾ [الحديد] أى : كلّه فرح يدعوه فرحه إلى الخيلاء وإلى التفاخر والتعالى . والخلاصة أن الأمور ما دامت بقدر وبقضاء ، وما دامت فى كتاب من قبل أنْ نبرأها[1] ، وما دُمتَ لا قدرةَ لك على استعادة ما فات ولا تضمن ما هو آت ، فالزم جانب الرضا والتسليم والاعتدال ، ولا مانع أنْ تفرح ، لكن الفرح الذى لا يؤدى إلى التعالى والخيلاء .

---

(١) نبرأها : نخلقها . وقال سعيد بن جبير : من قبل أن نخلق المصائب ونقضيها . [الماوردى فى تفسيره] وقال ابن كثير فى تفسيره : « أى من قبل أن نخلق الخليقة ونبرأ النسمة » وقال بعضهم : ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا .. (٢٢)﴾ [الحديد] عائد على النفوس . وقيل : عائد على المصيبة . والأحسن عوده على الخليقة والبرية لدلالة الكلام عليه » .

﴿ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ(١) وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴿٢٤﴾ ﴾

الحق سبحانه وتعالى ينقلنا إلى معنى آخر وهو الإنفاق فى سبيل الله ، يريد سبحانه أنْ يُوسع قبضة المؤمن فى العطاء لإخوانه المؤمنين ، وقد جعل سبحانه الأمر بالإنفاق على مراحل : أولاً أمر القادر أنْ ينفق على غير القادر ، وهنا ينهى غير القادر عن أنْ يُثبطوا القادرين ويُزهِّدوهم فى العطاء .

فالإنسان قد يكون بخيلاً فى ذاته فيمسك يده عن العطاء ، وقد يتعدّى بُخله إلى غيره فيدعو غيره إلى أنْ يمسك يده ، أو يكون هو فقيراً ليس عنده ما يبخل به فيقول لغيره : لا تنفق واترك شيئاً لأولادك . على حدّ قول الفلاحين عندنا : (فلان لا بيرحم ولا يسيب رحمة ربنا تنزل) .

وهذه المسألة حدثت فى عهد رسول الله ﷺ ، لما قال المنافقون على أهل الصُّفّة(٢) : ﴿ لا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا .. ﴿٧﴾ ﴾ [المنافقون]

---

(١) ورد فى المقصود بالبخل هنا عدة أقوال :
- الذين يبخلون بالعلم . قاله سعيد بن جبير .
- البخل بأداء حق الله . قاله زيد بن أسلم .
- البخل بالصدقة والحقوق . قاله عامر بن عبدالله الأشعرى .
- البخل بما فى يديه . قاله طاوس .

وكل هذه الأقوال متقاربة المعنى ، وكلها صحيح والأمر يجمع الأقوال كلها .

(٢) أهل الصُّفة : هم فقراء المهاجرين ومن لم يكن له منهم منزل يسكنه فكانوا يأوون إلى موضع مظلل فى مسجد المدينة يسكنونه . والصُّفة : الظلّة . [لسان العرب - مادة : صفف] .

وقوله تعالى : ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ .. (٢٤)﴾[الحديد] يعنى : أنهم كانوا أغنياء عندهم ما ينفقون ولكنهم بخلوا به ، ثم تعدّى بُخلهم إلى غيرهم ﴿وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ .. (٢٤)﴾[الحديد] لذلك تحمل هؤلاء وزر بُخلهم ووزر بُخل غيرهم ، ومنعهم من الإنفاق .

ثم تقرر الآيات هذه الحقيقة : ﴿وَمَن يَتَوَلَّ .. (٢٤)﴾[الحديد] يعرض عن الإنفاق ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٢٤)﴾[الحديد] يعنى : لا يهمنا بخلكم لأنكم تبخلون فى الواقع عن أنفسكم لأن المال مال الله والملك مُلكه ، وهو الغنى الحقيقى وهو الرازق للعباد .

وإنما فتح لكم مجال الإنفاق لتتماسكوا وتتكاتفوا فى رحلة الحياة ، وليقض على مشاعر الحقد والحسد من الفقير للغنى ، فالفقير حينما يجد فى المجتمع مَنْ يعطيه ويمدّ له يد المساعدة ، يحمد الله ويرضى بقضائه ، واليتيم حينما يجد مَنْ يحنو عليه تكون ثقته فيمَنْ أخذ كثقته فيمَنْ وهب فيعيش راضياً .

إذن : جاء الأمر بالإنفاق لأنه يعين المؤمن على إيمانه ويُحبِّب الناس فى شرع الله ويُرضيهم بقضائه ، فإنْ بخل القادرون فالمؤمن يعلم جيداً قوله تعالى : ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا .. (٦)﴾ [هود]

وينبغى هنا أنْ نفرق بين البخل والشح : البخل أنْ يبخل الإنسان على غيره لكنه كريم على نفسه ، أما الشح فهو يبخل على غيره وعلى نفسه ، لذلك قال تعالى : ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٦)﴾ [التغابن]

وبعد ذلك يتكلم الحق سبحانه وتعالى عن مواكب الرسل ، فيقول :

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ (١) وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢٥) ﴾

بيّنا أن الرسول هو من أوحى إليه بشرع يعمل به فى نفسه ويُبلغه قومه ، أما النبى فهو مَنْ أوحى إليه بشرع يعمل به دون أنْ يُؤمر بتبليغه .

إذن : الأنبياء الذين ليس لهم كتب ولا معجزات ، بل كانت معجزاتهم معجزة مَنْ كان يعمل على مقتضى دينهم .

وآدم عليه السلام أول نبىّ وأول رسول ، لكن كيف وقد حدثتْ منه المعصية حينما أكل من الشجرة ؟ قالوا : حدثت منه المعصية قبل ذلك ، وجاءت المعصية منه ليتعلم ضرورة تطبيق المنهج ، وأنه إذا أخلّ بالمنهج ظهرت عورته فتعلم آدم هذا الدرس وعلَّمه ذريته من بعده .

---

(١) القرآن يقطع بأن الحديد أُنزل إلى الأرض ، وهذا هو ما أثبتته الأبحاث العلمية الحديثة فقد سئل البروفيسور أرمسترونج وهو أحد أربعة فى وكالة الفضاء الأمريكية (ناسا) : كيف خُلق الحديد فى الأرض ؟ فقال : الحديد يستحيل أن يكون خُلِق فى الأرض لابد أن يكون قد خلق فى السماء وأنزل إلى الأرض . لماذا ؟ قال : لأن تكوين ذرة حديد واحدة لما حسبناها وجدنا أنها تحتاج إلى طاقة مثل طاقة المجموعة الشمسية أربع مرات ، فالحديد عنصر وافد من الكون .

وبعد ذلك تاب الله عليه واجتباه للنبوة وللرسالة ، قال تعالى :
﴿ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ (١٢١) ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ (١٢٢) ﴾[طه]

إذن : الاجتباء جاء بعد المعصية وهو بداية الرسالة والبلاغ ، لكن مَنْ يبلغ وهو ما يزال وحده ؟ قالوا : هذا مثل قوله تعالى :
﴿ الرَّحْمَٰنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الإِنسَانَ (٣) ﴾ [الرحمن]

إذن : تعلّم آدم المنهج أولاً لنفسه ، ثم لما جاءتْ الذرية بلغهم الرسالة وعلّمهم القيم والأخلاق لكن مع مرور الزمن تطرأ الغفلة على الناس ويكثر عددهم فيحتاجون إلى رسالة جديدة تذكرهم .

وقد لخص القرآن الكريم هذا الدرس الذى تعلّمه آدم من معصيته فى قوله تعالى : ﴿ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَىٰ (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤) ﴾ [طه]

إذن : فاتباع منهج الله هو الذى يحفظ على الإنسان أمنه وسلامته ويجعله سعيداً فى دنياه سالماً فى أخراه ، أما مَنْ أعرض فله معيشة ضنكاً . والضنك لا يعنى الضيق والفقر كما يظن البعض .

الضنك معنى أوسع يشمل كل حركة الحياة تجد فيها ضيقاً ، لذلك عندما عملوا إحصاء لأكثر دول العالم غنىً فكانت السويد ، ومع ذلك وجدوها أكثر الدول أيضاً فى عدد المنتحرين والذين يصيبهم الجنون .

إذن : المسألة ليست مسألة الرزق والأكل والشرب ، ونحن نرى كثيراً من الفقراء يأكلون اللقمة ويحمدون الله عليها ، نراهم راضين

سعداء وهم يروْن بذخ الأغنياء من حولهم .

فليس الفقر ضنكاً ، إنما الضنك حالة نفسية وشعورية يضيق فيها الصدر لا الرزق ولا يجد صاحب هذه الحالة فكاكاً منها وتظل تُطبق عليه حتى تُلجئه إلى أنْ يُنهى حياته ليستريح .

وقد عبَّر الشاعر عن هذا المعنى فقال :

لَيْسَ الحِملُ مَا أطاَقَ الظّهر مَا الحِملُ إلاَّ مَا وَعَاهُ الصَّدْرُ[1]

إذن : جاء آدم برسالة ومنهج علَّمه وبلَّغه ذريته ، لكن لما كَثُر الناس وحدثتْ الغفلة وتباعدتْ المسافات بين المجتمعات ، وكذلك تعددتْ الداءات فى كلِّ مجتمع لذلك تعددتْ الرسل .

قال تعالى : ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ .. (٢٥)﴾[الحديد] أى : الآيات الواضحات التى تلفت الناس إلى وجود الحق سبحانه وتؤيد الرسل الذين بعثهم الله لهداية الخلْق .

والآيات إما كونية وإما معجزات تؤيد الرسل ، وإما آيات الكتاب الحكيم ، وهى التى تحمل المنهج وتحمل الأحكام من الله للخلق ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ .. (٢٥)﴾[الحديد] أى : الكتب التى نزلتْ من عند الله ، والكتاب هو الشىء المكتوب .

﴿وَالْمِيزَانَ ..(٢٥)﴾[الحديد] أى : ميزان الحق الذى يزن الأشياء

---

(١) بنحو هذا البيت جاء بيت لأحمد شوقى أمير الشعراء :

ليس بحمل ما يملُّ الظهر ما الحمل إلا ما يعانى الصدر

وهو من قصيدة من بحر الرجز عدد أبياتها ١٢ بيتاً أولها :

كان على بعض الدروب جمل حمَّله المالك ما لا يُحمل

ويُحدِّدها ويُبيِّنها ، والميزان لا يخصّ الأشياء المادية التى لها كثافة فقط ، بل ميزان يزن بالحق كل شىء مادى ومعنوى فقال فى الماديات : ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ .. (١٥٢) ﴾[الأنعام] وأمر بإقامة هذا الميزان فى كل شىء .

﴿ وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ .. (٥٨) ﴾[النساء] حتى فى المحاكم تجدهم يتخذون الميزان رمزاً للعدالة ويرفعونه شعاراً لهم ، والميزان له كفتان متساويتان ليدلّ على الحكم العادل .

والميزان الذى جاء به الرسل هو الميزان الذى يُميز بين الحق والباطل ، فما دامت هناك رسل وآيات بينات ومنهج ينفع الناس وينظم حياتهم ، فلا بدّ أنْ تستقيم حركة الحياة .

لذلك قال حذيفة[١] : لقد مرّ علىَّ زمان ما كنتُ أبالى أيكم بايعتُ ، فلئن كان مسلماً ليردّنه علىَّ دينه ، وإنْ كان يهودياً أو نصرانياً ليردنه علىَّ ساعيه - والساعى الذى يرقب حركة الناس ويتابعها - أما اليوم فما كنتُ لأبايع منكم إلا فلاناً وفلاناً[٢] .

إذن : لا تستقيم الأمور إلا فى ظل هذا المنهج ، ولا سعادةَ

---

(١) هو حذيفة بن اليمان ، أبو عبد الله ، واليمان لقب حسل أبى حذيفة صحابى من الولاة الشجعان الفاتحين ، كان صاحب سر النبى ﷺ فى المنافقين لم يعلمهم أحد غيره ، استقدمه عمر إلى المدينة ، ثم أعاده إلى المدائن فتوفى فيها . له فى كتب الحديث ٢٢٥ حديثاً . توفى ٣٦ هجرية . [الأعلام للزركلى ٢/١٧١] .

(٢) من قول حذيفة ضمن حديث رسول الله ﷺ أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٠١٦) عن رفع الأمانة ، وأن الأمانة نزلت فى جذر قلوب الرجال وأنه ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل أثر الوكت ثم ينام النومة فتقبض فيبقى أثرها مثل المجل كجمر دحرجته على رجلك » الحديث .

للخلق إلا بـه ، فـإنْ طمس هذا المنهج فـلا بدّ أنْ يـحـدث الخلل فى الميزان، فيصير الحق باطلاً والباطل حقاً .

وعندنا فى سـاحات المحـاكم تجد للمـحامين ألاعـيب ، منهم مَنْ يعتمد على لباقته فى إظهار الحجة حتى ولو بالباطل ، وتناسى حديث سيدنا رسـول الله ﷺ : « إنما أنا بشر وإنكم تختـصمون إلىَّ ، ولعل أحدكم يكون ألحنَ بحجـته - كما يقولون (كذب مـساوى ولا صدق منعكش) فمَنْ قضـيتُ له من حقِّ أخيه شيئاً بقـوله ، فإنما أقطع له قطعة من النار فلا يأخذها » (١)

إذن : ردَّ رسـول الله الميـزان إلى الدين والشـرع ، وإلى الكتـاب والبينات ، فمَن التزم بـالكتاب والبينات لم يكُنْ عنده حقّ وباطل ، بل هو حقّ واحد بيِّن ليس غيره ، فـإذا اختلف الناسُ فى البينات فلا بدّ أنْ ينشأ الباطل فيأتى الميزان ليميز بين الحق والباطل .

لذلك قال سبـحانه بعدها : ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ .. (٢٥)﴾[الحديد] أى : العدل ، فالكتاب للتشريع وتنفيذ الأحكام ، والميزان للغفلة إنْ حدثت أو المخالفة ، فيبيِّن الحق والباطل .

وما دام يقوم الناسُ بالقسط والعدل كلّ الدنيا ترتاح ، إما قسط نابع من ضمير الأفراد ، وإما قسط من القضاء الذى يحكم بينهم ، لذلك قلنا : إنه من المصلحة فى التقاضى وبيـان لحقوق ألاّ تطول مدة التقاضى لأن طول مدة التقاضى تزيد من ظلم المظلومين وتُغرى الظالم بالتمادى .

وبطول أمد التقاضى تبهت الجـريمة وننسى المقتول ولا نذكر إلا

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البـخارى فى صحيحه (٢٢٧٨ ، ٢٤٨٣ ، ٦٤٥٢) وكذا مسلم فى صحيحه (٣٢٣٢) من حديث أم سلمة رضى الله عنها .

القصاص من القاتل ، وكأننا نعتدى عليه وننشىء جريمة أخرى ، وهنا تنشأ عواطف تدعو إلى الرحمة بالقاتل فيختل الميزان .

لذلك حذرنا القرآن من التهاون فى هذه الحقوق ، فقال تعالى : ﴿وَلا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ ..(٢)﴾ [النور] لأن الشفقة بالمجرم تدعو إلى استشراء الجريمة والإفساد فى الأرض .

ثم جعل إقامة الحدود علانية ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢)﴾ [النور] لماذا ؟ ليقوم الناس كلّهم بالقسط ساعة يرون الحكم العادل يُطبق فى وقته المناسب الذى يُحدث ما يراد منه من الردع .

أما إنْ سلك المحامى طريق الضلال ووقع القاضى فى منزلق الرشوة فلا بدّ أنْ يفسد حال البلاد والعباد . ويُحكى فى أيام المهدى[1] الخليفة العباسى أنه ولّى القضاء رجلاً شهد له بالنزاهة اسمه قامح إلا أنه فى يوم دخل على الخليفة ، وقال له : يا أمير المؤمنين أقِلْنى من القضاء ، فقال له : ولمن يكون العدل بعدك ؟

فقال : يا أمير المؤمنين لم أعد أضمن نفسى فى القضاء فكما وثقتَ فىَّ ووليتنى فثِقْ فىَّ أيضاً حينما أطلب منك أنْ تقيلنى ، وأنا لا أخلو عن حالين : إما كاذب وإما صادق ، فإنْ كنتُ كاذباً فلا تُبْق على قاض كذاب ، وإنْ كنت صادقاً فاقبل منى .

فقال له : إذن قُلْ لى ما سبب ذلك . فقال : خصمان عُرِضَا علىّ

---

(١) المهدى العباسى هو محمد بن عبد الله المنصور بن محمد بن على العباسى أبو عبد الله المهدى بالله من خلفاء الدولة العباسية فى العراق ، ولد بإيذج [من كور الأهواز] عام ١٢٧ هـ وولى بعد وفاة أبيه وأقام فى الخلافة عشر سنين وشهراً ، مات فى ماسبذان صريعاً عن دابته فى الصيد وقيل مسموماً عام (١٦٩ هـ) . [الأعلام للزركلى ٦ / ٢٢١]

ولكل منهما حجته حتى أننى لم أحكم بينهما وكنت أؤجل هذه القضية مخافة أنْ أظلم ، وفى يوم من الأيام دخل علىَّ خادمى بطبق من رطب فلما سألتُه عن صاحبه وصفه لى فعرفتُ أنه أحد الخصمين فرددتُ إليه طبقه وقد اشتهر عنى أنى أحب الرطب .

وفى اليوم التالى وقف أمامى الخصمان فما استويا فى نظرى ووجدتُ فى نفسى ميلاً إلى صاحب الطبق مع أنى رددته عليه .

إذن : أنزلنا ﴿الْكِتَابَ (٢٥)﴾[الحديد] للملتزم ﴿وَالْمِيزَانَ .. (٢٥)﴾ [الحديد] الذى يفرق بين الحق والباطل لغير الملتزم ﴿لِيَقُومَ النَّاسُ .. (٢٥)﴾ [الحديد] جميعاً ﴿بِالْقِسْطِ ..(٢٥)﴾ [الحديد] فحين يُقتصّ من القاتل وتُقطع يد السارق لا يجرؤ أحدٌ على القتل ولا على السرقة . ولم يقُلْ ليقوم المؤمنون بالقسط إنما الناس كلّ الناس .

﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ..(٢٥)﴾ [الحديد] أى : كما أنزلنا الكتاب وأنزلنا الميزان أنزلنا كذلك الحديد ، فالحديد وإنْ كان مكانه الأرض إلا أنَّ أصله من أعلى ، والحديد إشارة للقوة فمَنْ لم يردعه القرآن يردعه الحديد .

لذلك قال : إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن[1] ، فالعاقل تردعه البينة والجاهل لا يردعه إلا السيف والقوة .

فالحق سبحانه وتعالى يقول لنبيه ﷺ كما أعطيناك القرآن أعطيناك الحديد والسيف فافعل به ما تشاء وجَابِه به الكفار والعصاة

---

(١) أورده المتقى الهندى فى كنز العمال (حديث ١٤٢٨٤) باب الإمارة عن عمر قال : والله ما يزع الله بسلطان أعظم مما يزع بالقرآن . وعزاه للخطيب البغدادى فى تاريخ بغداد .

الذين لا يُردعهم الكتاب ، وقد عبَّر الشاعر[١] عن هذا المعنى بقوله :

أَنَاة وحِلْم ثم عَقب بَعْدَهَا وَعِيداً فَإِنْ لَمْ يُغْنِ أغْنَتْ عَزَائِمه[٢]

وقال الآخر :[٣]

فَمَا هُوَ إلاَّ الحلم أَوْ حَدّ مُرهَف تُقيم ظباه[٤] أخْدَعَيْ كُلِّ مَائِل

فَهَذَا دَوَاءُ الدّاء مِنْ كُلِّ عَاقِل وَذَاكَ دَوَاءُ الدَّاء مِنْ كُلِّ جَاهِل[٥]

وقوله تعالى ﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ..(٢٥)﴾[الحديد] دلّ على أن الحديد أقوى عُدة فى الحياة ، والواقع يؤكد ذلك ، فمن الحديد نصنع الفأس والمحراث وكلّ الآلات التى تُستخدم فى القوة والحفر والحمل وغيره ﴿وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ .. (٢٥)﴾[الحديد] فمع قوته فيه نفع مثل السكاكين والملاعق وغيرها من الأدوات .

---

(١) الشاعر هو : إبراهيم بن العباس الصولى ، كاتب العراق فى عصره أصله من خراسان ولد (١٧٦ هـ) . كان جده من رجال الدولة العباسية ودعاتها . له ديوان الرسائل ، وديوان شعر وكتاب الدولة . توفى عام ٢٤٣هـ عن ٦٨ عاماً .

(٢) لفظ البيت فى الموسوعة الشعرية :

أناة فإن لم تُغن أعقب بعدها وعيداً فإن لم يجد أجدت عزائمه

وهو بيت من قصيدة من بحر الطويل من بيت واحد . منسوب للصولى .

(٣) هو حبيب بن أوس الطائى أبو تمام ، ولد بجاسم (من قرى حوران بسورية) عام ١٨٨ هـ - نزل مصر وبغداد والموصل ، كان أسمر طويلاً فصيحاً حلو الكلام ، فى شعره جزالة وقوة .

(٤) ظُبة السيف : طرفه . ويُجمع على الظُّباة والظُّبين . [لسان العرب - مادة : ظبب]

(٥) البيتان من قصيدة لأبى تمام من بحر الطويل عدد أبياتها ٣٢ بيتاً ، وهما فى الموسوعة الشعرية :

وما هو إلا الوحى أو حد مرهف تُميل ظباه أخدعى كل مائل

فهذا دواء الداء من كل عالم وهذا دواء الداء من كل جاهل

ثم هناك مهمة أخرى للحديد ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ..(٢٥)﴾ [الحديد] وهنا إشارة إلى السيف الذى تكون به النصرة ، فالسيف لمن لم يجد معه الكتاب والبينات .

وقوله تعالى : ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ..(٢٥)﴾ [الحديد] أى : علم الواقع وإلا فالله تعالى يعلم كل شىء أزلاً ولا يخفى عليه خافية ، فليس المراد علم تقدير إنما علم واقع .

وقال : ﴿مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ ..(٢٥)﴾[الحديد] لأن نُصْرة الله نُصْرة لرسل الله ونصرة رسُل الله نُصرة لله ، لذلك قال : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ .. (٩٢)﴾ [المائدة] وقال : ﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ..(٨٠)﴾ [النساء] لأن هنا تداخلاً فى الأحكام .

هناك أحكام قالها الله تعالى وقالها رسول الله ، وأحكام خاصة بالله وحده ، وأحكام خاصة برسوله ﷺ ، لذلك كرَّر الأمر بالطاعة مرة لله ومرة لرسوله ، ومعلوم أن السنة فصَّلَتْ ما أجمله القرآن .

وقوله ﴿بِالْغَيْبِ ..(٢٥)﴾ [الحديد] بالإيمان بالغيب ومشهد السيف ، هذا يدافع عن قضية غيبية هى القيامة والله الذى لا تراه يدافع عن قضية غيبية ، إنما عندما يحيى الملَك بالكتاب أو السيف .

لذلك لما أصرَّ الكفار على كفرهم قال الله لرسوله : ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا ..(٢٩)﴾ [النجم] فالهمزة فى أعرض همزة الإزالة يعنى : دعهم وانصرف عن دعوتهم بالآيات والبينات .

ومعنى نصرة الله كما قال سبحانه : ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ .. (٧)﴾ [محمد] إن تنصروا الله بقوتكم ينصركم بقوته ، إذن : أنت ما

عليك إلا أنْ توجه ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ..(١٧)﴾[الأنفال]

فالله تعالى قادر على إبادة هؤلاء الكفار فى لمح البصر ، فلماذا الحرب؟ قالوا : لو أهلكهم الله بأمر غيبى وبدون تدخّل المسلمين فى حرب لقالوا آية كونية ، لذلك قال تعالى : ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ ..(١٤)﴾ [التوبة] بأيديكم أنتم فيكون الأمر أنكى .

وتختتم الآية بقوله سبحانه : ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢٥)﴾ [الحديد] تؤكد أن الله تعالى هو صاحب القوة وصاحب العزة ، حتى لا نفهم من قوله تعالى : ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ..(٢٥)﴾ [الحديد] أن الله يحتاج إلى النصرة من خلقه .

فالله هو ذو القوة الغالب العزيز الذى لا يُغلب ، وإنما قال لكم : انصرونى لتكون أيديكم فى يد الإمام وتكون النصرة بكم رفعة لكم ، وحين يُقهر الأعداء يقهرون بكم ويذلون لكم أنتم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ (٢٦)﴾

الحق سبحانه وتعالى خص نوحاً عليه السلام بالذكر لأن رسالته بطبيعتها كانت رسالة عامة ليست عامة فى الزمان والمكان ، وإنما عامة لخصوص مَنْ حملهم معه فى السفينة ، وإبراهيم عليه السلام لأنه أبو الأنبياء وهو الذى وفَّى .

﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ .. (٢٦)﴾[الحديد] فكلُّ الرسل

جاءوا من هذه الناحية ﴿النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ .. (٢٦)﴾[الحديد] فلما جاءهم النبوة والكتاب وبلغتهم الرسالة ﴿فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ .. (٢٦)﴾[الحديد] كعبد الله بن سلام أحد أحبار اليهود ، ومع ذلك لما بلغته دعوة محمد آمن به قال : والله لقد عرفتُ محمداً حين رأيته كمعرفتى لابنى ، ومعرفتى لمحمد أشد[١] .

﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ (٢٦)﴾[الحديد] فأقلُّهم مهتد وأكثرهم فاسق، لذلك لما أراد عبد الله بن سلام أنْ يعلن إسلامه ذهب إلى سيدنا رسول الله وقال : يا رسول الله إن اليهود قوم بُهْت[٢] ولقد انشرح صدرى للإسلام وأخاف إنْ أسلمتُ أنْ يقولوا فىَّ ما ليس فىَّ ، فاسألهم عنى .

فلما جاءوا رسول الله قال لهم : ما تقولون فى ابن سلام ؟ قالوا : سيدنا وابن سيدنا ، وحبرنا وابن حبرنا ، فقال ابن سلام : أما وقد قالوا ما قالوا فإنى أشهد ألا إله إلا الله وأنك رسول الله ، فقالوا : بل أنت سفيهنا وابن سفيهنا .

فقال ابن سلام : ألم أقُلْ لك أنهم قوم بُهْت[٣]؟

---

(١) أورده البغوى فى تفسيره لآية ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ (٢٠)﴾ [الأنعام] أن عمر بن الخطاب سأل عبد الله بن سلام : كيف هذه المعرفة ، قال عبد الله : يا عمر لقد عرفته حين رأيته كما عرفت ابنى ومعرفتى بمحمد أشد من معرفتى بابنى . فقال عمر : كيف ذلك ؟ فقال : أشهد أنه رسول الله حق من الله تعالى وقد نعته الله فى كتابنا ولا أدرى ما تصنع النساء . فقال عمر : وفقك الله يا ابن سلام فقد صدقت .

(٢) قوم بُهت : كاذبون . والبُهت : الكذب . والبهتان : الباطل . والبهت أيضاً التحيُّر قال أبو إسحاق : البهتان الباطل الذى يتحير من بطلانه . [لسان العرب – مادة : بهت] .

(٣) أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٦٤٥ ، ٤١٢٠) وكذا أحمد فى مسنده (١١٦١٥ ، ١٣٣٦٥) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه .

﴿ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ (٢٦) ﴾[الحديد] أى : خارجون عن الطاعة .

﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَـٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ (٢٧) ﴾

معنى ﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم ..(٢٧) ﴾[الحديد] أى : أتبعناهم وجئنا من بعدهم ﴿ بِرُسُلِنَا ..(٢٧) ﴾[الحديد] أى : رسل متتابعين بعضهم فى إثر بعض ﴿ وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ .. (٢٧) ﴾[الحديد] وأتبعنا هؤلاء الرسل عيسى بن مريم عليه السلام .

إذن : نوح وإبراهيم مرحلة ، والرسل بعد إبراهيم مرحلة ، وعيسى عليه السلام مرحلة وهو آخر الرسل قبل رسالة محمد ﷺ ﴿ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ ..(٢٧) ﴾[الحديد] كتاب سيدنا عيسى عليه السلام .

ثم يصف أتباعه ﴿ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً ..(٢٧) ﴾[الحديد] الرأفة هى التى تزيل الآلام والشقاء ﴿ وَرَحْمَةً ..(٢٧) ﴾[الحديد] والرحمة أنْ تعطى بالزيادة والإحسان .

﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا ..(٢٧) ﴾[الحديد] الرهبانية هى المبالغة فى التعبد ، وقد بالغ أتباع عيسى فى التعبد ، فانقطعوا فى الصوامع

وحرموا أنفسهم من النساء ، وقد وردتْ الرهبانية فى كتاب ألَّفوه سنة ١٩٣٥ ، هذا الكتاب تكلم عن وادى النطرون وعنوان الكتاب : وادى النطرون ورهبانه ، وقالوا : إن الرهبانية وُجِدت من بعد عيسى بمائة وخمسين سنة[1].

ومعنى ﴿ابْتَدَعُوهَا ..(٢٧)﴾ [الحديد] جاءوا بها من عند أنفسهم وألزموا أنفسهم بها ﴿مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ ..(٢٧)﴾ [الحديد] ما فرضناها عليهم ، بل فرضوها على أنفسهم للتقشف والزهد والانقطاع للعبادة .

وهذه أمور طيبة فى حد ذاتها لكن لم نكتبها عليهم لأنها تتعارض وطبيعة الإنسان العادى الذى لا تستقيم حياته إلا بأن يأخذ من كلٍّ بطرف ، يأخذ من الدنيا ويأخذ من الآخرة ، أما مسألة ترك النساء فهى تتعارض مع عملية التكاثر وإعمار الكون التى أمر بها الحق سبحانه .

وهذه الرهبانية لما ابتدعوها ابتدعوها ﴿ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ ..(٢٧)﴾ [الحديد] لكن الآفة أنهم خرجوا عن هذا القصد ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ..(٢٧)﴾[الحديد] ما حافظوا عليها وخرجوا عن حدودها حتى صاروا أسوة سيئة .

والذى يدخل فى هذا المقام مقام الإحسان عليه أنْ يراعى حدوده

---

(١) جاء هذا فى كتاب « وادى النطرون ورهبانه وأديرته » ص ٢٢ الباب الثانى (الرهبان قبل الفتح العربى) : « وقال كورزون فى كتابه (زيارات أديرة الشرق) ص ٧٦ : إن هذه الفكرة تحققت فى أواسط القرن الثانى الميلادى حوالى عام ١٥٠ م وإن القديس المذكور اعتزل الحياة فى هذا الوقت بوادى النطرون ومعه سبعون أخاً » مؤلف الكتاب (عمر طوسون) .

وألاّ يجرى عليه نقصان ، لأن النقصان هنا يفسد العقيدة ، لذلك الحق سبحانه وتعالى يُرغِّبنا فى النوافل وفى الدخول فى هذا المقام فيقول :

« ما تقرب إلىَّ عبدى بشىء أحب إلىَّ مما افترضته عليه ، ولا يزال عبدى يتقرب إلىَّ بالنوافل حتى أحبه[1] فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورِجْله التى يمشى بها ، وإن سألنى لأعطينه ، ولئن استعاذنى لأعيذنه ، وما ترددت عن شىء أنا فاعله ترددى عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته » .

فالتقرب إلى الله بالنوافل دليل الحب ودليل القرب ، والحب يُدخلك فى مقام القرب ، وهذه لها مقاييس غير مقاييس الرجل العادى ، فأنت مثلاً لك معارف كثيرون ، لكن منهم أصدقاء ومنهم مقربون ، وكلّ واحد من هؤلاء له حساب . أنا مثلاً مرضت وبعضهم لم يأت لزيارتى ، وأنا لا أعتب عليهم جميعاً إنما أعتب على القريب منى الذى كان يتردد علىَّ دائماً ، ولما مرضت لم يعدنى .

أمَّا العتابُ فَبالأحبَّةِ أليَقُ وَالحبُّ يَصلُح بِالعتَابِ ويَصْدُقُ[2]

كذلك الذى أدخل نفسه فى باب الود مع الله والقرب منه سبحانه لا يليق به التراجع ، ولا يليق به النكث أو حتى التقصير ، لأنه لو فعل ذلك ، فكأنه يقول لربه عزّ وجلّ : جرّبنا قربك فلم نجدك أهلاً

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٠٢١) والبيهقى فى السنن الكبرى ج ٣ وابن حبان فى صحيحه (٣٤٨) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

(٢) هذا البيت لأمير الشعراء أحمد شوقى المتوفى ١٩٣٢ م . وهو من قصيدة من بحر الكامل عدد أبياتها ١٢ بيتاً هذا أولها :

أما العتاب فبالأحبة أخلق والحب يصلح بالعتاب ويصدق

للقرب ، أو جرّبنا القرب منك فلم نجده نافعاً فزهدنا فيه .

وإذا كنا لا نرضى نحن بذلك ، فهل يرضى به الحق سبحانه وتعالى ؟

لذلك نقول : احذر الدخول فى هذا المقام فلا أحدَ يُجبرك عليه فقبل أنْ تلزم نفسك به اعرف حدوده وشروطه حتى لا تورط نفسك .

إذن : الرهبانية ليست مذمومة فى ذاتها ، لكن تُذم فى حالة عدم رعايتها حقَّ الرعاية ، لذلك لما حفروا حول بعض الأديرة وجدوا بقايا لأطفال صغار ، وهذا يعنى أن الخطيئة كانت تحدث منهم .

والعبد كلما اقترب من ربه عز وجل أفاض عليه من أنواره بحسب قُرْبه ، وفى مسائل الدنيا تجد أموراً يعرفها عنك كلّ الناس ، وأموراً أخرى لا يعرفها إلا المقربون منك ، وأخرى لا يعرفها إلا الخاصة والملازمون لك .

كذلك الحق سبحانه كلما اقتربتَ منه يُعطيكَ شيئاً من فيوضاته وإلا لاكتفى الناس بالفرائض ولم نجد مَنْ يؤدى النوافل .

لذلك تجد الخَلْق فى منازل ومقامات مختلفة يتنافسون عليها ، وكلما ارتقى الواحد منا إلى منزلة وجد مَنْ سبقه إلى أعلى منها ، وسبق أنْ ذكرنا قصة الرجل البلخى لما سألوه : أتشتاق إلى ربك ؟ فقال : لا ، إنما يُشتاق لغائب ، ومتى غاب عنى حتى أشتاق إليه ؟

وقوله تعالى : ﴿إِلاَّ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ ..(٢٧)﴾ [الحديد] استثناء من ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ ..(٢٧)﴾ [الحديد] أى : لم نكتبها لأننا خائفون أنْ يُقصروا ، فأنا أريد أنْ أبقى عليهم رضوانى بمجرد الفرض يؤدونه . ويكون قوله تعالى : ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ..(٢٧)﴾ [الحديد] من باب : حسنات الأبرار سيئات المقربين[(١)] .

وقوله سبحانه : ﴿فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ .. (٢٧)﴾ [الحديد] أخذوا أجرهم لأنهم آمنوا بمجرد أنْ جاء الرسول صدّقوه وآمنوا به ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ (٢٧)﴾[الحديد] خارجون عن الطاعة وتعصَّبوا لدينهم القديم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ[(٢)] مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٨)﴾

قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا .. (٢٨)﴾[الحديد] وصف لهم بالإيمان ، فكيف يقول لهم بعد ذلك ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ .. (٢٨)﴾[الحديد] ؟ قالوا : المعنى : يا مَنْ آمنتم بالله صلُوا إيمانكم بالله بإيمانكم برسوله المبلِّغ عنه ، والمبلغ عنه الذى كنتم تتبعونه جاء رسول بعده ، وكان المفروض أنْ يبينوا ذلك حتى لا يتعصبوا للقديم .

---

(١) ذكره القرطبى فى تفسيره وعزاه للجنيد . وعزاه إسماعيل حقى فى تفسيره لأبى سعيد الخراز . وذكره العجلونى فى كشف الخفاء (١١٣٧) وقال : رواه ابن عساكر فى ترجمته .

(٢) الكفل : النصيب . والكفل : الحظ والضِّعف من الأجر والإثم . وقوله ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ ..(٢٨)﴾ [الحديد] معناه يُؤتكم ضعفين . وقيل : مثلين . [لسان العرب – مادة : كفل] .

وقوله تعالى : ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا.. (٢٨)﴾ [الحديد] هنا أمر بالتقوى ، وقد سبقه وصْف الإيمان وبعده أمر بالإيمان ، ذلك لأن الإيمان ليس له فائدة إلا إذا نفذتَ أوامر منْ آمنتَ به .

وقوله سبحانه : ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ ..(٢٨)﴾ [الحديد] الكفل : النصيب والأجر ، وكفلين أجرين ونصيبين من رحمته تعالى : نصيب وأجر للإيمان بعيسى عليه السلام ونصيب وأجر للإيمان بمحمد ﷺ .

فالمراد بقوله تعالى : ﴿وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ .. (٢٨)﴾ [الحديد] أى : برسوله الجديد الخاتم محمد ﷺ ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ ..(٢٨)﴾ [الحديد] هو نور البصيرة ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ..(٢٨)﴾ [الحديد] يغفر لكم إنْ كنتم ترددتم فى مسألة الإيمان ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٨)﴾ [الحديد]

﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢٩)﴾ (١)

أى : لكى لا تقولوا آمنا بعيسى ولا نؤمن بمحمد ، وتحسدونه على أنْ مَنَّ الله عليه بالرسالة ، كما قال كفار مكة : ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١)﴾ [الزخرف] فردّ الله عليهم :

---

(١) لئلا يعلم : أى ليعلم . قال الفراء : معناه لأن يعلم و « لا » صلة زائدة فى كل كلام يدخل عليه جحد . وقال مجاهد : قالت اليهود يوشك أن يخرج منا نبى يقطع الأيدى والأرجل ، فلما خرج من العرب كفروا فنزلت (لئلا يعلم) أى ليعلم أهل الكتاب (أن لا يقدرون) أى أنهم لا يقدرون . [تفسير القرطبى ٩/ ٦٦٧٠] .

﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. (٣٢)﴾ [الزخرف]

فإذا كانوا لا يستطيعون قسمة أمور الدنيا الهيّنة أيقسمون فى الأمور الرفيعة العالية ؟ ثم إن هذا فضل الله ، وفضل الله لا يقيده أحد .

﴿وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ .. (٢٩)﴾ [الحديد] وحده لا شريك له ﴿يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ..(٢٩)﴾ [الحديد] ، لذلك قال الحق سبحانه : ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ .. (٣٢)﴾ [الزخرف]

فكيف تحجرون على فضل الله وتحسدون محمداً ﷺ على ما أعطاه الله من الرسالة ، إنكم لا قدرة لكم على أمور الدنيا والتحكم فيها ، فكيف تتحكمون فى أمور الآخرة ؟

ثم تُختتم السورة بقوله سبحانه : ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢٩)﴾ [الحديد] نعم فضل عظيم ، لأنه سبحانه أوجدنا من عَدم وأمدنا من عُدْم ، وتكفّل بأرزاقنا وسخر لنا الكون كله ، وجعل لنا منهجاً يحمينا من العطب ، وأرسل لنا الرسل تُذكِّرنا إنْ أصابتنا الغفلة ، ثم فتح لنا باب التوبة رحمة بأهل المعاصى والذنوب ، وغير ذلك من آثار رحمته سبحانه بخلقه .

سُورَةُ المُجَادَلَةِ

ADMISSION

سورة المجادلة(١)

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ١ ﴾

نزلت هذه الآية فى خولة بنت ثعلبة(٢) لما ظاهر(٣) منها زوجها أوس بن الصامت(٤) أخو عبادة بن الصامت ، والقصة أن قيساً رآها تصلى فأعجبته ، فلما قضتْ صلاتها دعاها ليقضى حاجته منها

---

(١) سورة المجادلة هى السورة رقم (٥٨) فى ترتيب المصحف الشريف ، وهى سورة مدنية . أخرجه ابن الضريس والنحاس وأبو الشيخ فى العظمة والبيهقى عن ابن عباس . وقال البيضاوى فى تفسيره قيل : العشر الأول مكى والباقى مدنى . عدد آياتها (٢٢) آية .

(٢) خولة بنت ثعلبة : ويقال خويلة . وقيل : خولة بنت حكيم . وقيل : خولة بنت ثعلبة . كانت زوجة أوس بن الصامت أخى عبادة بن الصامت ، وهى أنصارية .

(٣) ظاهر الرجل امرأته وهو أن يقول الرجل لامرأته : أنت علىَّ كظهر أمى ، وكانت العرب تطلق نساءها فى الجاهلية بهذه الكلمة ، وكان الظهار فى الجاهلية طلاقاً فلما جاء الإسلام نُهوا عنه وأوجب الكفارة على من ظاهر من امرأته . وهو الظهار . [لسان العرب - مادة : ظهر] .

(٤) أوس بن الصامت بن قيس الانصارى ، شهد بدراً وأحداً وسائر المشاهد مع رسول الله ﷺ وبقى إلى زمن عثمان بن عفان وهو الذى ظاهر من امرأته فوطئها قبل أن يُكفّر فأمره رسول الله ﷺ أن يكفّر بخمسة عشر صاعاً من شعير على ستين مسكيناً [الاستيعاب فى معرفة الأصحاب ، لابن عبد البر (١ / ٣٧)] .

فامتنعتْ لكى تختم صلاتها ، فقال لها : أنت علىَّ كظهر أمى .

وكانت هذه الكلمة عند العرب أشنع من كلمة الطلاق ، لأنه شبَّه زوجته بأمه ، وأمه محرَّمة عليه ، فلما قال قيسٌ هذه الكلمة قالت خولة : والله لا تقربنى حتى أعرض الأمر على رسول الله ، فذهبتْ إلى رسول الله وقالت : يا رسول الله إن قيساً ظاهر منى . يعنى قال لها : أنتِ علىَّ كظهر أمى وقد أخذنى وأنا جميلة والآن قد كبر سنى ولى منه أولاد إنْ ضممتهم إلىَّ جاعوا ، وإنْ ضممتهم إليه ضاعوا .

وهذا هو المراد بقوله تعالى :﴿ تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ .. ﴿١﴾ ﴾ [المجادلة] فكان رسول الله ﷺ كلما قالت شيئاً من ذلك يقول لها : لا أرى إلا أنكِ قد حَرُمتِ عليه .

هى تشتكى لرسول الله وتعرض أمرها ليحنّ لحالها وهو عليه الصلاة والسلام لا يملك إلا أنْ يقول لها : لا أرى إلا أنكِ قد حَرُمتِ عليه[1] وينتظر حكم السماء فى هذه الواقعة التى لم يسبق لها مثيل فى مجتمع المسلمين .

وبالفعل كانت خولة تحت نظر الله وسمعه ، وما إن إنتهت من

---

(١) أخرجه الطبرى فى تفسيره للآية من مرسل محمد بن كعب القرظى وفيه قال لها النبى ﷺ : « ما أراك إلا قد حرمت عليه . قالت : لا تقل ذلك يا نبى الله ، والله ما ذكر طلاقاً ، فرادت النبى ﷺ مراراً ، ثم قالت : اللهم إنى أشكو اليوم شدة حالى ووحدتى ، وما يشق علىّ من فراقه ، اللهم فأنزل على لسان نبيك ، فلم ترم مكانها (تبرحه) حتى أنزل الله ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ .. ﴿١﴾ ﴾ [المجادلة] إلى أن ذكر الكفارات فدعاه النبى ﷺ فقال : أعتق رقبة ، فقال : لا أجد . فقال : صم شهرين متتابعين . قال : لا أستطيع إنى لأصوم اليوم الواحد فيشق علىّ . قال : أطعم ستين مسكيناً ، أما هذا فنعم .

عرض شكايتها على رسول الله حتى نزل عليه جبريل بهذه الآيات التى تحمل حكم الظّهار ، وتحمل الرحمة لا لخولة وحدها ، وإنما للمسلمين جميعاً : ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (١)﴾ [المجادلة]

وسُميت السورة كلها باسم المجادلة وهى خولة تكريماً لها ورداً لاعتبارها ، نزلت السورة لتحرِّم هذا القول وتشنّعه وتبين أنه قولٌ لا يليق ولا يصح .

فالأم التى ولدتْك ولها فضل كبير عليك لا يصح أنْ تشبه زوجتك بها لأن الظهر هنا بمعنى العلو ، والرجل لا يعلو أمه لأنها محرَّمة عليه ، ومن الشناعة أنْ يُذكر ذلك فى حَقِّ أمه .

قوله تعالى : ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا ..(١)﴾ [المجادلة] سُبق بـ(قد) التى تدل على التحقيق والتأكيد . وكلمة (قول) دلتْ على أنه سمع على الحقيقة ، وليس المراد بالسمع هنا الإجابة ، كما نقول فى تعاملاتنا اليومية : فلان سمع كلامك يعنى أجاب طلبك .

ونحن ينبغى أنْ نتأدب مع صفات الله التى تشبه صفات البشر، وأنْ نأخذها فى إطار ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١١)﴾ [الشورى] . وكيف نطمع فى معرفة كنْه السمع والبصر لله تعالى ، ونحن لا نعرف كُنْه مداركنا نحن ؟

أنت مثلاً فى حال اليقظة تسمع بالأذن وتبصر بالعين ، لكن فى حال النوم كيف ترى وكيف تسمع ، إنك تنام وترى أشخاصاً وترى

ألواناً وتميز بين الأحمر والأخضر وتسمع أصواتاً ، فبأىّ الحواس تدرك ذلك ؟

إذن : لك مدارك غيب عنك لا تعرفها ، فكيف بالغيب المطلق الذى يدرك الأبصار ولا تدركه الأبصار ؟

لذلك رُوى عن السيدة عائشة أن سيدنا رسول الله كان عندها لما جاءته المجادلة ، وأنها كانت تُسرُّ إلى رسول الله قولها ، حتى أن السيدة عائشة لا تكاد تسمع شيئاً من قولها وهى قريبة منها ، ومع ذلك سمع الله قولها من فوق سبع سموات[1].

وقوله تعالى : ﴿ تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا .. ﴿١﴾ ﴾ [المجادلة] من الجدال وهو الأخذ والردّ ، فهى تقول ورسول الله يردّ عليها ، إذن : هى تجادل رسول الله ، ورسول الله يجادلها فيما حدث .

أما الشكوى فلله ﴿ وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ .. ﴿١﴾ ﴾ [المجادلة] لأن الله تعالى هو الذى يفرِّج عنها ويُنزل فيها حكماً يُرضيها ، ويرحم ضعفها ، ويرحم معها ضعفَ جميع المؤمنات ، فمَنْ أراد مفارقة زوجته فللمفارقة سبيلها وهو الطلاق ، أما الظهار فأمْرٌ لا يليق بجماعة المؤمنين .

﴿ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿١﴾ ﴾ [المجادلة] فهو سبحانه سميع بصير

---

(١) أخرج البخارى فى صحيحه عن عائشة رضى الله عنها والنسائى فى سننه (٣٤٠٦) وابن ماجه (١٨٤) ، وأحمد فى مسنده (٢٣٠٦٤) أن عائشة قالت : « الحمد لله الذى وسع سمعه الأصوات ، لقد جاءت المجادلة إلى النبى ﷺ تكلمه وأنا فى ناحية البيت ما أسمع ما تقول فأنزل الله ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا .. ﴿١﴾ ﴾ [المجادلة]

أزلاً ، أى قبل أن يخلق الخلق الذين سينشأ منهم ما يُبصَر وينشأ منهم ما يُسْمع .

فالحق سبحانه سميع لما يُقال ، بصير بما يُفعل ، فالسمع يتعلق بالأصوات ، والبصر يتعلق بالأفعال ، فهو سبحانه سميع بصير لا يخفى عليه شىء .

﴿ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾ ﴾

السياق القرآنى هنا يُوجِّه الحديث لهؤلاء الذين يقعون فى هذا القول المحرَّم وهذا التشبيه الآثم ، يقول لهم : احذروا هذا القول وفرِّقوا بين الأم والزوجة ، الأم هى الأم التى ولدتْ ، فالزوجة لا تكون أماً أبداً ولا يليق أنْ نُسميها أماً .

فضعوا الأمور فى نصابها ، الأم أم والزوجة زوجة ، ولكلٍّ منهما حدود ، ثم يُبيِّن لهم أن هذا القول (أنت علىَّ كظهر أمى) قول منكر ﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا .. ﴿٢﴾ ﴾ [المجادلة]

المنكر هو القول الذى ينكره العقل وينكره الذوق السليم ، والزور هو الكذب والباطل ، فمن المنكر ومن الكذب أنْ تشبه الزوجة بالأم أو الأم بالزوجة ، يريد سبحانه أنْ يلغى هذا القول من ألسنة المسلمين ، كما ألغى

عملية التبـنى فى قصة سيدنا زيد بن حارثة[1] التى تعرفونها .

وتختتم الآية بقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (٢) ﴾ [المجادلة] أى : لما سلف منكم وما سبق من تجاوزاتكم .

وبعد ذلك يحدثنا سبحانه عن حكم الظهار فيقول :

﴿ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٣) فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤) ﴾

معنى ﴿ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا ..(٣) ﴾ [المجادلة] يعنى : يعدلون عن كلمة الظهار ويتنازلون عنها ويريدون مراجعة الزوجة كما يراجع الزوجُ زوجته فى الطلاق ، هؤلاء عقوبتهم ﴿ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ .. (٣) ﴾ [المجادلة] عتق رقبة مملوك ﴿ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ..(٣) ﴾ [المجادلة] التماسّ هنا كناية عن المعاشرة الزوجية أو الجماع .

---

(١) زيد بن حارثة بن شراحيل الكلبى ، صحابى ، اختطف فى الجاهلية صغيراً واشترته خديجة بنت خويلد فوهبته إلى النبى ﷺ حين تزوجها فتبناه النبى - قبل الإسلام وأعتقه وزوّجه بنت عمته ، وكان النبى ﷺ لا يبعثه فى سرية إلا أمّره عليها وكان يحبه ويقدمه وجعل له الإمارة فى غزوة مؤتة فاستشهد فيها . توفى ٨ هجرية . [الأعلام للزركلى ٣ / ٥٧] وقد ذكره الله باسمه فى القرآن ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا ..(٣٧) ﴾ [الأحزاب] .

﴿ فَمَن لَّمْ يَجِدْ .. (٤) ﴾ [المجادلة] أى : لم يجد رقبة يعتقها ﴿ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ .. (٤) ﴾ [المجادلة] التتابع أى التوالى دون فاصل يفصل الصيام ، إلا إذا أفطر لعذر شرعى فلا يعد فاصلاً[1] .

﴿ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ .. (٤) ﴾ [المجادلة] أى : الصيام المتتابع ﴿ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا .. (٤) ﴾ [المجادلة] إذن : يحاول أنْ يُصعِّب العقوبة لتكون رادعة ليقتلع جذور هذه العادة السيئة من ألسنة الناس .

﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ .. (٤) ﴾ [المجادلة] وحدود الله أوامره ونواهيه ، قال فى الأوامر : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا .. (٢٢٩) ﴾ [البقرة] وقال فى النواهى ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوهَا .. (١٨٧) ﴾ [البقرة]

والحد هو الفاصل بين شيئين ، وحدود الله هى التى تفصل بين الحلال والحرام ، ومنه قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ .. (٥) ﴾ [المجادلة] أى : يجعلون هواهم فى جانب وأوامر الله فى جانب آخر .

إذن : سمع الله قولَ المجادلة وأجابها بأنْ أنزل فى شأنها قرآناً يُتلَى إلى يوم القيامة ، وجعل للظهار حكماً لازماً وكفارة رادعة ، إذن : ليس مجرد سماع ، ونحن نقول عندما نرفع من الركوع : سمع الله لمن حمده ، أى : سمع وأجاب ، لأنه تعالى قال : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ .. (٧) ﴾ [إبراهيم]

---

(١) قال الشوكانى فى فتح القدير « فعليه صيام شهرين متتابعين متواليين لا يفطر فيهما ، فإن أفطر استأنف (أى بدأه من البداية) إن كان الإفطار لغير عذر ، وإن كان لعذر من سفر أو مرض فقال سعيد بن المسيب والحسن وعطاء بن أبى رباح وعمرو بن دينار والشعبى والشافعى ومالك : إنه يبنى (أى يكمل عدة الستين يوماً) ولا يستأنف . وقال أبو حنيفة : إنه يستأنف ، وهو مروى عن الشافعى » .

وعجيب أنْ يختلف العلماء على شخصية المرأة المجادلة لرسول الله من هى على أربعة أقوال[1] لأنه لا فائدة من تحديد شخصها ومعرفة اسمها لأن تحديد الشخصية يعنى تقييد الحكم بها ، والله يريده حكماً عاماً .

والقاعدة الفقهية أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، فلو كان الحكم خاصاً بخَوْلة لاقتصر عليها ، إنما هو حكم عام لجميع المسلمين ، فهو إذن عطاء عام لا يهم فيه المرأة التى نزل الحكم بشأنها ، فهى مجرد سبب للنزول .

وهذه المسألة رأيناها مثلاً فى فتية أهل الكهف ، فلم يحدد لهم زماناً ولا مكاناً ولا أسماء ، إنما أشاعهم ليشيع فائدتهم فى الوجود كله زماناً ومكاناً ، ولو حدَّد لنا أشخاصهم لَقُلْنَا أنه أمر خاص بهم دون غيرهم ، إنما أرادهم مطلق فتية ليكونوا قدوة لكل فتية آمنوا بربهم .

فالقصة بهذه الصورة تعطى خصوبة ، وتصبح ككلمة طيبة تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها .

فإن احتاج الأمر إلى تحديد الشخصية فلا بدّ أنْ يحددها ويذكرها بالاسم كما فى قصة السيدة مريم فقال : ﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ ..

---

(١) ذكر هذه الأقوال الأربعة ابن الجوزى فى زاد المسير (الأحزاب ١)

أحدها : خولة بنت ثعلبة . رواه مجاهد عن ابن عباس وبه قال عكرمة وقتادة والقرظى .

والثانى : خولة بنت خويلد . رواه عكرمة عن ابن عباس .

والثالث : خولة بنت الصامت . رواه العوفى عن ابن عباس .

والرابع : خولة بنت الدليج . قاله أبو العالية .

(١٢) ﴿[التحريم] فذكر اسمها واسم أبيها ليزيل أيَّ لبس أو جهالة ، ذلك لأن لها حكماً خاصاً بها لن يتكرر فى غيرها فى العالم . إذن : فالتشخيص مهم هنا لأنه يقيد الحكم بها وحدها .

وكان الظهار فى الجاهلية يمثل أشدَّ أنواع الفرقة بين الرجل وامرأته حين يقول لها : أنت علىَّ كظهر أمى ، لأن الأم هى أول المحرَّمات من النساء ، قال تعالى : ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ .. (٢٣)﴾ [النساء] فليس أشنع من أنْ تلد الأم ثم تكون موطئاً لولدها .

ومن هنا طُلب التباعد فى المصاهرة ، وقد رأينا هذا التباعد منذ النشأة الأولى للإنسان ، إذ كيف يكون التباعد فى أولاد آدم ؟ قالوا : كان من حكمة الله تعالى أنْ تلد حواء فى كل بطن ذكراً وأنثى ، فكانوا يُزوجون ذكر هذه البطن لأنثى البطن الأخرى ، فأوجدوا إذن نوعاً من التباعد لم يكُن متاحاً غيره آنذاك .

وقد أوصى سيدنا رسول الله بهذا التباعد فقال : « اغتربوا لا تضووا »[1] أى : تباعدوا فى الزواج حتى لا يصيب الذرية ضعف ووهن وهزال ، وقد أثبت العلم ذلك وأثبت أن زواج الأقارب يصيب الأبناء ببعض الأمراض .

لذلك رأينا كثيراً من الأبطال ممن جاءوا من عرب وعجم لأنهم

---

(١) روى إبراهيم الحربى فى غريب الحديث أن عمر قال لآل السائب : « اغتربوا لا تضووا » أى تزوجوا الغرائب لئلا تجىء أولادكم نحافاً ضعافاً . قاله الشيخ سيد سابق فى فقه السنة (٢ / ٨٦) وذكره أبو هلال العسكرى فى جمهرة الأمثال (١ / ١٦) قال : « مما رغَّب العرب فى التسرى أن أولاد القرائب عندهم ضاويون أى نحاف مهزولون » .

أخذوا خصائص الجنسين ، وقد عبَّر الشعراء عن هذه الحقيقة ، فقال أحدهم[١] فى المدح :

فَتَىً لم تَلِدْهُ بِنْتُ عَمٍّ قريبة فَيَضْوَى وقَدْ يَضْوى سَلِيلُ الأقَارِبِ[٢]

وقال الآخر :

تجَاوزْتُ بنْتَ العَمِّ وَهْىَ حَبِيبَةٌ مَخَافَةَ أنْ يَضْوى علَىَّ سَلِيلُها

إذن : لا تقُلْ للزوجة أنتِ علىَّ كظهر أمى ، لأن الله تعالى ينزه الأم أنْ تكون موطئاً لك ، وهى أبعد ما يكون عن هذا ، لذلك اعتبرت العرب هذه الكلمة أشدَّ من الطلاق .

ولا بد أنْ نقف عند قوله تعالى فى كفارة الظهار ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ..(٣)﴾ [المجادلة]

قالوا : ونحن الآن لم يعد عندنا رِقّ لأن القانون الآن يُلغى الرق ، وهذا كلام مدنى سياسى ، إنما إنْ وقعت حرب فمن الممكن أنْ نجد أسرى ويوجد الرق .

إذن : فَرْق بين أمر شرعى وأمر مدنى اتفقوا عليه .

---

(١) هو النابغة الذبيانى وهو زياد بن معاوية أبو أمامة شاعر جاهلى من الطبقة الأولى من أهل الحجاز ، كانت تُضرب له قبة من جلد أحمر بسوق عكاظ فيقصده الشعراء ، كان حظياً عند النعمان بن المنذر عاش عمراً طويلاً ، توفى عام ١٨ قبل الهجرة .

(٢) أوردته الموسوعة الشعرية ولكن بلفظ آخر :

فتى لم تلده بنت أم قريبة فيضوى وقد يضوى رديد الأقارب

وعزته الموسوعة للنابغة الذبيانى فى قصيدة من بحر الطويل عدد أبياتها بيتان . وأورده أبو حيان التوحيدى فى الإمتاع والمؤانسة (بنت عم) وكذا الجاحظ فى (البرصان والعرجان) والميدانى فى (مجمع الأمثال) .

وفى السعودية أراد الملك فيصل[١] أنْ يقضى على فلول الرق فاشترى العبيد وأعتقهم ، وكانت المفارقة أن العبيد عادوا يطرقون باب سادتهم يريدون العودة إلى حياة الرق[٢] .

ذلك لأن العبد كان يأكل من أكل سيده ، والأمَة تلبس مثل سيدتها ، والرجل يمكن أنْ يتخذها فراشاً له .

والحكمة من تحرير الرقاب أن العبد كان مُقيداً مهدداً بالقتل لأنه اشترك فى حرب ضد المسلمين وأُسِر ، وكان من الممكن أنْ يُقتل فرحمة الله تداركته ، رحمة الله بالإنسانية كلها حتى لو كانت كافرة ، فقال لك لا تقتله لأنه سيكون لك وتنتفع به .

فكأن الله تعالى حمى حياة الكافر بأنْ جعله عبداً ، إذن : لا تقارن بين رق وحرية ، إنما قارن بين رِقّ وقتل ، فالرقّ أرحم لأنه يحمى دم الكافر ، فالخالق سبحانه يحمى حياة عبده التى وهبها له ، ثم بعد ذلك يفتح المنافذ التى يُصفّى بها الرق ويقضى عليه .

وقد جاء الإسلام والرق نظام موجود فى المجتمع ، فكان الرجل يشترى الأرض بمن عليها من العبيد ، وكان للرق آنذاك أكثر من

---

(١) هو الملك فيصل بن عبد العزيز آل سعود ، ولد بالرياض ١٩٠٦ م ، وهو الابن الثالث من أبناء الملك عبد العزيز آل سعود الذكور ، أمه هى طرفة بنت عبد الله آل الشيخ من ذرية الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، حكم السعودية فى الفترة من ١٩٦٤م إلى ١٩٧٥م (١٢ سنة) . قُتل عام ١٩٧٥ على يد ابن أخيه فيصل بن مساعد .

(٢) تم إلغاء الرق نهائياً بمرسوم وزارى عام ١٩٦٢م ببيان ألقاه يومها رئيس مجلس الوزراء السعودى الأمير فيصل بن عبد العزيز آنذاك وفيه « تجد الحكومة الآن الفرصة مواتية لأن تعلن إلغاء الرق مطلقاً وتحرير جميع الأرقاء وستقوم الحكومة بتعويض من يثبت استحقاقه للتعويض » [صحيفة أم القرى العدد ١٩٤٤ السنة الأربعون ٩ نوفمبر ١٩٦٢] .

عشرين مصدراً ، فلما جاء الإسلام ضيَّق هذه المصادر حتى صار للرق مصدر واحد ، هو أنْ يُؤخذ أسيراً فى حرب شرعية .

وبعد أنْ ضيَّق منابع الرق وسَّع مصارفه ليقضى عليه تماماً ، إذن فالإسلام لم يأتِ بالرقِّ إنما أتى بالعتق ، وانظر إلى الكفارات التى فرض الله فيها عتق الرقاب ، والرقاب عامة سواء أكانت مؤمنة أم غير مؤمنة .

لذلك حينما نستقرئ القرآن لا تجد إلا آية واحدة مشروط فيها تحرير رقبة مؤمنة ، فى قوله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلاَّ خَطَئًا وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَئًا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلاَّ أَن يَصَّدَّقُوا فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ ..(٩٢)﴾ [النساء]

أما فى آية اليمين وكفارته فيقول سبحانه : ﴿لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ..(٨٩)﴾ [المائدة] ولم يقل مؤمنة .

لذلك علق أبو حنيفة على هذا وقال : قيدها هناك بشرط الإيمان وأطلقها هنا ، فدلّ على أنها تكون حتى للكافر ، فالإسلام فى كثير من المسائل لا يفرق بين المؤمن والكافر ، وأنه دين عام هدفه إصلاح الدنيا كلها .

وتذكرون قصة الدرع الذى سرقه طعمة بن أبيرق[1] وخبأه عند زيد بن السّمين اليهودى فاتهموا اليهودى بالسرقة وأرادوا تبرئة

---

(١) هو : طعمة بن أبيرق بن عمرو الأنصارى ، شهد المشاهد كلها إلا بدراً .

المسلم . وحاولوا إقناع رسول الله بهذا حتى مال إلى هذا الرأى حتى لا يُتهم مسلم بالسرقة ويُفتضح أمره[(١)] .

لكن الوحى تدارك الأمر ونزل يقول لرسول الله : ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ .. (١٠٥)﴾ [النساء] ولم يفرق بين مؤمن وكافر ﴿بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا (١٠٥)﴾ [النساء] أى : لا تدافع عن الخائن حتى إنْ كان مسلماً ، لأن العدالة الإلهية لا تفرق بين العباد .

لذلك لما بُرِّئ اليهودى وأُدين المسلم دون محاباة ودون مجاملة تسابق الناسُ إلى الدخول فى الإسلام ، وهذا من عظمة هذا الدين أنه لا يحمى الباطل ولا يتستر على الفساد إنْ جاء من ناحية أتباعه .

تلاحظ فى كفارة الظهار الترتيب بين عتق الرقبة ، ثم الصيام ، ثم الإطعام ليأخذ كُلٌّ ما يناسبه ، وأيضاً ليكون أمام الفقهاء فسحة لجعل هذه الكفارة رادعة ، لذلك رُوِى عن منذر بن سعيد[(٢)] أحد فقهاء

---

(١) وذلك أن طعمة بن أبيرق سرق درعاً لعبادة بن النعمان وكان الدرع فى جراب فيه دقيق فجعل الدقيق ينتشر من خرق فى الجراب ، ثم خبأها عند رجل من اليهود فالتمست الدرع عند طعمة فلم توجد عنده وحلف ما لى بها علم فنظروا فى أثر الدقيق فانتهوا إلى منزل اليهودى فقالوا له فقال : دفعها إلىَّ طعمة . فقال قوم طعمة : انطلقوا إلى رسول الله ﷺ لنجادل عن صاحبنا فهمَّ أن يفعل وأن يعاقب اليهودى فنزل قوله ﴿وَلا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا (١٠٥)﴾ [النساء] [ذكره ابن الجوزى فى المنتظم ١ / ٣٣٧] .

(٢) هو منذر بن سعيد البلوطى أبو الحكم ، قاضى قضاة الأندلس فى عصره ، ولد (٢٧٣ هـ) بـ (فحص البلوط) بقرطبة ، كان فقيهاً خطيباً شاعراً فصيحاً ، رحل حاجاً سنة ٣٠٨ هـ فأقام فى رحلته ٤٠ شهراً أخذ بها عن بعض علماء مكة ومصر ، استمر فى قضاء قرطبة إلى وفاته عام ٣٥٥ هـ عن ٨٢ عاماً . [الأعلام للزركلى ٧ / ٢٩٤] .

الأندلس لما حلف الخليفة عبد الرحمن الناصر[١] يميناً وأراد له كفارة . فقالوا له : إطعام عشرة مساكين ، فلما علم المنذر بن سعيد بهذه الفتوى قال : أو يُزجر أمير المؤمنين بأنْ يطعم عشرة مساكين ، وهو يطعم كل يوم كذا وكذا ؟ إنما يُزجر بالصيام[٢] . إذن : أخذ روح الحكم ولم يأخذ نصه .

وبعد أنْ بيَّن سبحانه حكم الظهار وكفارته قال ﴿ وَتِلْكَ .. (٤) ﴾ [المجادلة] أى : هذه الأحكام التى ذُكرت ﴿ حُدُودُ اللَّهِ .. (٤) ﴾ [المجادلة] أى : أوامره ونواهيه ، والحد كما ذكرنا هو الفاصل بين شيئين فإنْ كان الحد بينك وبين الله فهو مرفوض .

قال تعالى : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ (٦٣) ﴾ [التوبة] فالمطلوب من العبد ألاّ يفصل عن ربه عز وجل وأنْ يتصل به دائماً وفى كل وقت لا أنْ يجعل نفسه فى جانب وربه فى جانب ، فهذا مناف للمعية الإيمانية ، فربك يريدك معه لا تفارقه .

وهذا المعنى واضح فى آيات سورة الجمعة ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ .. (٩) ﴾ [الجمعة] ثم بعد الصلاة ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠) ﴾ [الجمعة] إذن : أنت مع الله فى الصلاة ومع الله بعد الصلاة ، لا يغيب عن بالك طرفة عين .

---

(١) عبد الرحمن الناصر لدين الله أو عبد الرحمن الثالث ثامن أمراء بنى أمية فى الأندلس ولد ٢٧٧ هـ ، امتد حكمه ٥٠ عاماً ، أمه أم ولد اسمها (ماريا) أو (مزنة) بويع بالخلافة عام ٣٠٠ هـ توفى عام ٣٥٠ هـ ، عن ٨٣ عاماً .

(٢) لم أقف على هذا الخبر ، ولكن أمر الكفارة دائر مع عسر المظاهر أو يسره ، فإن كان معسراً فكفارته الصوم ، وإن كان موسراً فعليه عتق رقبة ، فمن لم يجد فعليه إطعام ستين مسكيناً . قال القرطبى فى تفسيره للآية .

« ومن تظاهر وهو معسر ثم أيسر لم يجزه الصوم ، ومن تظاهر وهو موسر ثم أعسر قبل أن يكفّر صام ، وإنما يُنظر إلى حاله يوم يكفّر ، ولو جامعها فى عدمه وعسره ولم يصم حتى أيسر لزمه العتق » .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤) ﴾ [المجادلة] أى الذين لا يقفون عند حدود الله ، ولا يعملون بما حدّه الله لعباده ، فهؤلاء لهم (عذاب أليم) وهو عذاب جهنم ، وسُمِّى صنيعهم هذا كفراً تغليظاً وتشديداً .

فالذين لم يؤمنوا ولم يلتزموا بأحكام هذه الشريعة ووقفوا عند حدود الله فلا تعتقدوا أنهم ناجون من حساب الله وعقابه ، فليس الأمر كما زعموا ، بل لهم عذاب أليم فى الدنيا وفى الآخرة .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ (٥) ﴾

قلنا : ﴿ يُحَادُّونَ اللَّهَ .. (٥) ﴾[المجادلة] أى : يجعلون هواهم فى حَدٍّ وأوامر الله فى حَدٍّ ﴿ وَرَسُولَهُ ..(٥) ﴾[المجادلة] دلتْ على أن الرسول له تشريع خاص به لأنه مفوّض من الله فى أنْ يشرع ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا .. (٧) ﴾ [الحشر] لأن الأمر قد يكون من الله ومن رسول الله .

وقد يكون الأمر من الله وحده أو من رسول الله وحده ، لأن الحكم يكون من الله إجمالاً ومن رسول الله تفصيلاً ، لذلك جاءت الآيات تُفصِّل هذا فى قوله تعالى : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ..(٩٢) ﴾[المائدة] وقال : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ .. (١٣٢) ﴾ [آل عمران] وقال : ﴿ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ..(١٢) ﴾ [التغابن]

وبهذه الآيات نرد على هؤلاء الذين ينادون بالأخذ بكتاب الله فقط ويرفضون الأخذ بسنة رسول الله ، وقد أخبر رسول الله ﷺ عن هؤلاء فقال : « ألا هل عسى رجل يبلغه الحديث متكئاً على أريكته فيقول : بيننا وبينكم كتاب الله فما وجدنا فيه حلالاً استحللناه ، وما وجدنا فيه حراماً حرمناه ، وإن ما حرم رسول الله كما حرم الله »[١] .

وهذه من معجزاته ﷺ ، وللرد على هؤلاء نقول لهم : بالله عليك قُلْ لنا كيف تصلى العصر أو المغرب ؟ ومن أين عرفت أن العصر أربع ركعات وأن المغرب ثلاث ؟ وهل هذا فى القرآن ، هل بيَّن القرآن مناسك الحج أو مقادير الزكاة ؟

وقوله ﷺ : « صلُّوا كما رأيتمونى أصلى »[٢] وقال : « خذوا عنى مناسككم »[٣] يعنى : أن رسول الله ﷺ تميَّز بين الرسل بأنْ فوَّضه الله فى أن يشرع لأمته ، فالرسل قبل محمد لم يكن لهم إلا أنْ يُبلغوا عن الله الأحكام أما رسول الله فمبلِّغ ومشرع .

إذن : أطيعوا الله فى إجمال الحكم ، وأطيعوا رسول الله فى

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه (٢٥٨٨) وابن ماجه فى سننه (١٢) وأحمد فى مسنده (١٦٥٦٤) والطبرانى فى المعجم الكبير (١٧٠٤٠) من حديث المقدام بن معد يكرب رضى الله عنه .

(٢) أخرجه البيهقى فى السنن الكبرى (٢ / ٣٤٥) (٣ / ١٩٦) وكذا الدار قطنى فى سننه (١٠٧٩) والشافعى فى مسنده (٢١٨) وابن حبان فى صحيحه (١٦٨٥ ، ٢١٦٥) من حديث مالك بن الحويرث .

(٣) أخرجه بهذا اللفظ البيهقى فى السنن الكبرى (٥/ ١٢٥) عن جابر بن عبد الله قال : أفاض رسول الله ﷺ السكينة وأمرهم بالسكينة وأوضع فى وادى محسر وأمرهم أن يرموا الجمار مثل حصى الخذف وقال : خذوا عنى مناسككم لعلِّى لا أراكم بعد عامى هذا .

تفصيل الحكم ، ولو لم يكن الأمر كذلك ما قال الحق سبحانه ﴿ مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ..(٨٠) ﴾ [النساء]

ومعنى ﴿ كُبِتُوا .. (٥) ﴾[المجادلة] الكبت هنا بمعنى الذلة والمهانة أو الصدمة الشديدة التى تُسكت المرء فلا ينطق لهول ما يرى من المصيبة ، مثل قوله تعالى : ﴿ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ..(٢٥٨) ﴾[البقرة] أى : ذُهل .

فالذى يتعرض لصدمة شديدة يخرس لسانه فلا ينطق ولا يستطيع أنْ يُنفِّس عن نفسه أو يُخفِّف عنها ، وقد عبَّر الشاعر[١] عن هذا المعنى فقال :

ولا بدَّ مِنْ شكْوَى إلى ذِى مُرُوءَةٍ يُواسِيكَ أو يُسلّيكَ أوْ يتوجَّعُ[٢]

فصاحب المصيبة حينما يجد مَنْ يشتكى إليه ويسمع له يشعر بالراحة وتهدأ نفسه ، لأنه وجد مَنْ يخفف عنه ويشاركه مواجعه ، أمّا هؤلاء فقد كُبتوا كبتاً أسكتهم وأخرس ألسنتهم فأذلهم الله وأهانهم أعظم إهانة وأغاظهم أشد الغيظ .

﴿ كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ..(٥) ﴾[المجادلة] يعنى : ليسوا هم

---

(١) هو : بشار بن برد العقيلى أبو معاذ ، أشعر المولدين على الإطلاق ، أصله من طخارستان غربى نهر جيحون ولد عام ٩٥ هـ ، كان ضريراً نشأ فى البصرة وقدم بغداد اتهم بالزندقة فمات ضرباً بالسياط ودفن بالبصرة عام ١٦٧ هـ .

(٢) البيت لبشار بن برد من بحر الطويل . وقد استعاره ابن نباتة المصرى فى قصيدتين من قصائده الأولى من بحر الطويل عدد أبياتها (٣٣ بيتاً) . والثانية من نفس البحر عدد أبياتها (٣ أبيات) أولها :

وناعورة كانت قضيباً فأصبحت إلى القضيب شوقاً كالحمامة تسجع

أول من كُبت إنما كُبِت المكذِّبون السابقون من قوم عاد وثمود وقوم لوط وقوم فرعون وغيرهم .

وكان أول كَبْت للعرب الكفار الذين وقفوا فى وجه الدعوة أنْ يهزموا أمام دعوة الحق وأنْ يتلاشى الكفر ويعم الإسلام ، قال سبحانه : ﴿أَفَلا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا .. (٤٤)﴾ [الأنبياء]

فكل يوم كانت تتناقص أعداد الكفار وتتناقص أرضهم وتزداد أعداد المسلمين وتزداد أرضهم وتتسع ، حتى أن خالد بن الوليد يقول لعمرو بن العاص : لقد استقام الميسم[1] لمحمد يا عمرو فهيا بنا نؤمن به . أى : استقام الأمر له واستتبَّ ولم تَعُدْ لنا طاقة بمقاومته .

---

(١) أخرجه الحاكم فى مستدركه (١٠٣٣) باب إسلام عمرو بن العاص وخالد بن الوليد وفيه أن عمرو بن العاص قال للنجاشى : والله لو ظننت أنك تكره هذا (أى تسليم جعفر بن أبى طالب له) ما سألتكه . قال : تسألنى أعطيك رسول رجل يأتيه الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى فتقتله ؟ قلت : أكذاك هو ؟ قال الملك : ويحك يا عمرو أطعنى واتبعه فإنه والله على حق وليظهرن على من خالفه كما ظهر موسى على فرعون وجنوده . قلت : أتبايعنى له على الإسلام قال : نعم . فبسط يده فبايعته على الإسلام ثم خرجت على أصحابى وقد حال (تحول) رأيى عما كان عليه فكتمت أصحابى إسلامى ثم خرجت عامداً لرسول الله ﷺ بإسلامى . فلقيت خالد بن الوليد وذلك قبيل الفتح وهو مقبل من مكة . فقلت : أين يا أبا سليمان (كنية خالد بن الوليد) قال : والله استقام الميسم وإن الرجل لنبى ، أذهب والله أسلم حتى متى ؟ قلت : فأنا والله ما جئت إلا للإسلام . فقدمنا على رسول الله ﷺ فتقدم خالد ابن الوليد فأسلم وبايع ثم دنوت فقلت : يا رسول الله إنى أبايعك على أن تغفر لى ما تقدم من ذنبى ولا أذكر ما تأخر . فقال رسول الله ﷺ : يا عمرو بايع فإن الإسلام يجبُّ ما كان قبله وإن الهجرة تجب ما كان قبلها . فبايعت ثم انصرفت . والميسم هو المكواة أو الشىء الذى يُوسم به الدواب وهى حديدة يُكوى بها [لسان العرب – مادة : وسم]

﴿ وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ .. ﴿٥﴾ ﴾ [المجادلة] آيات واضحات يصدّقها العقل ، والفطرة السليمة تقبلها ﴿ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥﴾ ﴾ [المجادلة] أى : الذين يُكذّبون بهذه الآيات ولا يؤمنون بها مع وضوحها ومسايرتها للفطرة السليمة ، لهم عذاب مهين يُهينهم ويُخزيهم .

ذلك لأن قضية الإيمان بالله واضحة لا يملك أحد ردّها ، حتى هم لم ينكروها ، فأول شىء فى قضية الإيمان وجود رب قادر خالق لهم ، ولهذا الكون الذى يعيشون عليه .

وقد أقروا لله تعالى بالخلق : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴿٢٥﴾ ﴾ [لقمان] وقال : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴿٨٧﴾ ﴾ [الزخرف] وهل يجرؤ أحد منهم أنْ يقول غير هذا ؟ ومع هذا كذَّبوا وكفروا بالحق وبالآيات الواضحات التى لا يمكن أنْ يجهلها أحد ، وكان المفروض أنْ يعتبروا بها .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾ ﴾

يذكِّرهم سبحانه بيوم البعث والحساب يوم يحاسبهم على كل شىء على كل صغيرة وكبيرة مما نسوه ، ولكن الله أحصاه وسجّله

عليهم وكتبته حفظته ، وأنت لو سألتَ رجلاً مثلاً فى الستين أو السبعين من عمره وقلت له : هل تحصى ذنوبك ؟ يقول لك : لا أستطيع لأن النسيان من طبائع الإنسان حتى لا يتضاءل أمام نفسه ، كأن صفات الكمال فى النفس الإنسانية لها تقدير ذاتى ليس تقديراً إضافياً .

فمثلاً شهادة الزور لا تقل نسبية قُلْ إضافية ، كيف ؟ هَبْ أن لك صديقاً يجلس فى مجلسك وأنت تعديتَ على شخص آخر وشتمته فأراد أنْ يستشهد بك ، فلما طُلبَتْ منك الشهادة جاملتَ صديقك وقلت : لم يحدث هذا .

نعم هو مشهد لصالحك ووقع فى المحظور من أجلك ، ومع ذلك يسقط من نظرك وتحكم عليه بأنه شاهد زور ، حتى وإن كانت شهادته من أجلك ، فكأن الرذيلة رذيلة حتى عند صاحبها .

وسبق أنْ ضربنا مثلاً وقلنا : لو أن جماعة كانت مسرفة على أنفسها وكانوا مثلاً لصوصاً وواحد منهم تاب فقالوا عنه : (دا جردل دا لخمة) ، ثم أراد أحد هؤلاء أنْ يزوِّج أخته أيزوّجها واحداً من اللصوص الذين معه أم يُزوِّجها لهذا (الجردل) الذى تاب واستقام ؟ يُزوّجها لمن تاب واستقام ، فهو وإنْ كان منحرف السلوك إلا أنه لا يرضاه ولا يُقرّه .

لذلك رأينا كفار مكة يحاربون محمداً ويكفرون بدعوته ، ومع ذلك يأتمنونه على ودائعهم[1] لأنهم يعرفون أنه الصادق الأمين .

---

(١) وحدث فى الهجرة إلى المدينة أن على بن أبى طالب أقام بمكة بعد مخرج رسول الله ﷺ أياماً – قال بعضهم : ثلاثة – حتى أدى للناس ودائعهم التى كانت عند رسول الله ﷺ وخلفه ليردها [سبل الهدى والرشاد ٣/٢٦٧] . ومثله فى جوامع السيرة (١/٩٣)

﴿أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ .. ﴿٦﴾﴾ [المجادلة] أحصاه لأنه المحصى سبحانه ، ونسوه لأنهم أهل للنسيان ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾﴾ [المجادلة] لأنه قيّوم السموات والأرض ، لذلك قال فى الحديث القدسى : « يا عبادى : إن كنتم لا تعتقدون أنّى أراكم فالخلل فى إيمانكم ، وإنْ كنتم تعتقدون أنّى أراكم فلم جعلتمونى أهونَ الناظرين إليكم »[1] .

فقوله ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾﴾ [المجادلة] كل شىء يعنى السور الكلى فلا يوجد شىء إلا والله شهيد عليه ، والإيمان بإله واحد شىء وهو سبحانه شهيد عليه .

لذلك قال : ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ ﴿١٨﴾﴾ [آل عمران] فقبل أن يطلب من الناس أنْ تشهد بهذا شهد هو به لنفسه سبحانه ، وكذلك رسول الله قبل أنْ يشهد الناس له بالرسالة شهد بها هو لنفسه ، لابد أنْ يشهد بها ويعتقدها .

وقد ورد فى الحديث أنه ﷺ قال : « أشهد أنّى رسول الله » فى قصة جابر بن عبد الله وقد كان عليه دينٌ ليهودى ، وقد حان وقت السداد ولكن جابراً لا يستطيع لأن بستانه لم يثمر نخيله الثمر الذى يكفى لسداد الدين فكلّم جابر رسولَ الله أنْ يتوسّط له عند اليهودى ليؤجل موعد السداد لكن اليهودى رفض فقد وجد الفرصة لإذلال المسلمين .

---

(١) ذكره ابن رجب الحنبلى فى شرحه (فتح البارى شرح صحيح البخارى) كتاب الصلاة (١٧٢/٢) وعزاه لبعض العارفين : اتق الله أن يكون أهون الناظرين إليك ، وكذا فى جامع العلوم والحكم فى شرح الحديث الثانى ، ثم ذكره فى شرح الحديث ١٨ أن رجلاً قال لوهيب بن الورد : عظنى . فقال : اتق الله أن يكون أهون الناظرين إليك .

فقال رسول الله لجابر : ياجابر خُذْنى إلى حائطك وتجوَّل رسول الله بين النخيل ، ثم قال : ياجابر خُذْنى إلى عريشك فأخذه جابر إلى عريشه فأخذتْ رسول الله سنَةٌ من النوم ، فلما استيقظ قال : ياجابر جُذْ واقض ، فجذَّ جابر نخله وقضى ما عليه لليهودى وبقى له ما لم يكن يبقى فى الأعوام السابقة ، فلما بلغ ذلك رسول الله ضحك وقال : « أشهد أنّى رسول الله »[1] .

إذن : ﴿ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾ ﴾[المجادلة] شهد لنفسه شهادةَ الذات للذات ، وشهدتْ الملائكة شهادةَ المشهد ، وشهد أولو العلم شهادةَ دليل : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ .. ﴿١٨﴾ ﴾ [آل عمران]

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ[2] ثَلَـٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ ﴾

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٠٢٣) من حديث جابر بن عبد الله وفيه أن رسول الله ﷺ قال : يا جابر جُذ واقض فوقف فى الجداد فجذذت منها ما قضيته وفضل منه ، فخرجت حتى جئت النبى ﷺ فبشرته فقال : « أشهد أنى رسول الله ».

(٢) النجوى : السرار . قاله ابن قتيبة . وهى المسارّة . وهى مأخوذة من النجوة وهى ما ارتفع من الأرض لأن المتسارين يخلوان وحدهما بنجوة من الأرض ، أو لأن السر يصان فكأنه رفع من حضيض الظهور إلى أوج الخفاء . [تفسير الألوسى روح المعانى]

قالوا فى تفسير ﴿أَلَمْ تَرَ..(٧)﴾[المجادلة] أنها بمعنى ألم تعلم لأنه يتكلم عن أشياء لم يَرَهَا سيدنا رسول الله كما فى سورة الفيل : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١)﴾[الفيل] ورسول الله ﷺ لم ير هذه الحادثة فقالوا المراد : ألم تعلم .

والصواب أنها بمعنى (ترى) ولو أراد الله تعالى العلم لقال : ألم تعلم ، والحكمة من استخدام ترى هنا ليدل على أن إخبار الله لرسوله أصدقُ من رؤية عينه ، فمجرد أنْ يخبره الله يكون كأنه رأى بعينه .

وقوله تعالى : ﴿أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ..(٧)﴾[المجادلة] دل على إحاطة علم الله بكل شىء كما قال سبحانه : ﴿وَمَا يَعْزُبُ[1] عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٦١)﴾ [يونس]

فالله يعلم السموات والأرض كظرف ويعلم المظروف فيه ، فالأرض فى ذاتها عجيبة الخَلْق والتكوين ، وما فيها من مخلوقات أعجب منها ، وقلنا : إن المظروف أنفس من المظروف فيه ، وعِلْم الله لا يقتصر على المشاهد ، بل يعلم سبحانه ما غاب عنّا من ملكوت السموات والأرض ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ (١٢٣)﴾ [هود]

ومن إحاطة علمه تعالى : ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ.. (٧)﴾[المجادلة] فالله سبحانه يعلم ما فى السموات وما فى الأرض من مخلوقات ، وقد يقول قائل : يعلمها لأنها مخلوقاته وصَنْعة يده ، فقال : لا بل ويعلم المحدثات والمستجدات التى تحدث فى كونه فقال : ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ ..(٧)﴾ [المجادلة]

والنجوى من الأغيار التى تحدث عنكم وبينكم سراً ، فالنجوى لا

---

(١) ما يعزب : ما يبعد ولا يغيب . قاله ابن قتيبة .

تكون إلا سراً نسترها عن الغير ، لذلك قال (ثلاثة) فهى أول الأعداد التى يُحتمل فيها النجوى .

وفى الحديث الشريف قال ﷺ : « لا يتناجى اثنان دون الثالث فإن ذلك يُحزنه »[1] .

فنجوى الاثنين تثير الشك والريبة فى نفس الثالث ، أما الحق سبحانه فيعلم كل شىء ، لذلك يقول لهم : تناجوا كما تريدون فأنا شاهدكم وأعلم نجواكم ، أنا رابع الثلاثة وسادس الخمسة .

﴿ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا .. (٧) ﴾[المجادلة]

وهكذا استوعبتْ الآية جميع الاحتمالات وجميع الأعداد .

وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ .. (٧) ﴾[المجادلة] لأن الحفظة سجلت عليهم أعمالهم ، ويوم القيامة سيُعطى كل إنسان كتابه ليقرأ ما فيه ويكون شاهداً عليه ﴿ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (١٤) ﴾[الإسراء]

ثم يقول الحق سبحانه[2] :

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٤٠٥٤) وأبو داود فى سننه (٤٢١١) والترمذى فى سننه (٢٧٥١) وابن ماجه (٣٧٦٥) وأحمد فى مسنده (٣٣٧٩) من حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه . قال الترمذى : حديث حسن صحيح .

(٢) سبب نزول الآية : قال ابن عباس ومجاهد : نزلت فى اليهود والمنافقين ذلك أنهم كانوا يتناجون فيما بينهم دون المؤمنين وينظرون إلى المؤمنين ويتغامزون بأعينهم ، فإذا رأى المؤمنون نجواهم قالوا : ما نراهم إلا وقد بلغهم عن أقربائنا وإخواننا الذين خرجوا فى السرايا قتل أو موت أو مصيبة أو هزيمة ، فيقع ذلك فى قلوبهم ويُحزنهم ، فلا يزالون كذلك حتى يقدم أصحابهم وأقرباؤهم ، فلما طال ذلك وكثر ، شكوا إلى رسول الله ﷺ ، فأمرهم أن لا يتناجوا دون المسلمين ، فلم ينتهوا عن ذلك وعادوا إلى مناجاتهم ، فأنزل الله تعالى هذه الآية . [أورده الواحدى فى أسباب النزول ص ٢٣٣] .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٨﴾ ﴾

الذين نُهُوا عن النجوى هم جماعة من اليهود والمنافقين ﴿ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ .. ﴿٨﴾ ﴾ [المجادلة] يعودون إلى التناجى ﴿ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ .. ﴿٨﴾ ﴾ [المجادلة] فكأن النجوى فى ذاتها ليست محرمة إنما المحرم منها هو التناجى بالإثم والعدوان ومعصية الرسول ، أما التناجى فى الخير فلا شىء فيه ، كالذى يُخفى صدقته حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه[1] .

﴿ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ .. ﴿٨﴾ ﴾ [المجادلة]

الحق سبحانه يفضح نفاقهم ويخبر رسوله بسوء نياتهم ، فالتحية منهم لرسول الله دليل النفاق (حَيّوكَ) و ﴿ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ .. ﴿٨﴾ ﴾ [المجادلة] دليل المخالفة ، لأنهم جاءوا بتحية غير تحية الله وهى السلام عليكم ، فكانوا يقولون لرسول الله : السام عليكم .

---

(١) حديث صحيح . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٢٠ ، ١٣٣٤ ، ٦٣٠٨) وكذا الترمذى فى سننه (٢٣١٣) والنسائى فى سننه (٥٢٨٥) وأحمد فى مسنده (٢٩٨٨) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه . وقد أخرجه مسلم فى صحيحه (١٧١٢) بلفظ : « حتى لا تعلم يمينه ما تنفق شماله » .

والسام أى الموت جاءوا بكلمة قريبة فى نطقها من السلام .

وقد تنبهت السيدة عائشة لقصدهم وردَّتْ عليه تحية السوء هذه وقالت : بل السام عليكم واللعنة .[1] لذلك جعل الله المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ، فهم أسوأ حالاً من الكافرين ، لأن الكافر كما بيَّنا واضح لسانه مع قلبه ، أمَّا المنافق فظاهره الإيمان ويُبطن الكفر .

وقولهم لرسول الله ﷺ : السام عليكم مثل قول إخوانهم اليهود حنطة ، لما قال الله لهم : ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ ﴿٥٨﴾﴾[البقرة] أى : يارب حُط عنا خطايانا فقالوا : حنطة . سخريةً واستهزاءً .

﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ ..﴿٨﴾﴾ [المجادلة] هذا القول قالوه فى أنفسهم لم يقولوه لنا ومع ذلك أخبرهم به رسول الله ، فكان عليهم أنْ يأخذوا منه عبرةً وعظة ، وأنْ يتساءلوا مَنْ أخبر محمداً بهذا وقد قلناه فى أنفسنا .

كان عليهم أنْ يتخذوا من هذا الموقف سبباً للهداية والتصديق برسول الله .

ومعنى ﴿لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ ..﴿٨﴾﴾ [المجادلة] يعنى : هلا يُعذِّبنا الله كأنهم يطلبون العذاب ، لكن العذاب لن ينزل بهم الآن ﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا .. ﴿٨﴾﴾ [المجادلة] أى : يوم القيامة ﴿فَبِئْسَ

---

(١) عن عروة بن الزبير أن عائشة رضى الله عنها زوج النبى ﷺ قالت : دخل رهط من اليهود على رسول الله ﷺ فقالوا : السام عليكم . قالت عائشة : ففهمتها وعليكم السام واللعنة . فقال رسول الله ﷺ : مهلاً يا عائشة إن الله يحب الرفق فى الأمر كله . فقلت : يا رسول الله أو لم تسمع ما قالوا . فقال رسول الله ﷺ : قد قلت : وعليكم . أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٥٦٥) وكذا مسلم فى صحيحه (٤٠٢٧) .

الْمَصِيرُ (٨) ﴾ [المجادلة] بئس المرجع وبئس النهاية ﴿ حَسْبُهُمْ .. (٨) ﴾ [المجادلة] كافيهم ﴿ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا .. (٨) ﴾ [المجادلة] يدخلونها ويُقاسون حرَّها .

ثم يخاطب الحق سبحانه جماعة المؤمنين ويُعلِّمهم كيف تكون النجوى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٩) ﴾

الحق سبحانه وتعالى يجمع فى هذه الآية بين النهى عن النجوى المذمومة والتحذير منها هى ما كانت بالإثم والعدوان ومعصية الرسول فيقول تعالى : ﴿ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ .. (٩) ﴾ [المجادلة] والإثم هو الشىء الخبيث الذى يستحى منه الناس . والعدوان شراسة الاعتداء والكيد والتدبير السىء .

وما داموا يُخفون كلاماً ويُسرّونه فلا بد أنه مخالف للفطرة السليمة ، ولو كان حقاً لقالوه علانية فالنجوى دليل اتهامهم فى العقل وفى القلب وفى كل شىء ، وتأمر فى الوقت نفسه بالنجوى المحمودة .

﴿ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى .. (٩) ﴾ [المجادلة] وقلنا : إن الجمع بين الأضداد يُوضحها ، إذن لا مانع من النجوى إنْ كانت فى سبيل البر والتقوى وفى سبيل نصْرة الدين وعزة المسلمين كالقادة مثلاً

يتناجون لعمل خطة حربية ، فمن الصواب ألاَّ يعرفها أحد حتى لا يأخذ الأعداء احتياطهم .

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٩) ﴾[المجادلة] اتقوا الله بتنفيذ أوامره واجتناب نواهيه ، فهو سبحانه ﴿ الَّذِى إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٩) ﴾ [المجادلة] هذا أسلوب قصر . أى : إليه وحده تُحشرون وتُجمعون للحساب يوم القيامة .

﴿ إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٠) ﴾

أى النجوى بالإثم والعدوان ومعصيت الرسول هى فى الأساس من الشيطان لأن هذه مهمته منذ أنْ أخذ عهداً مع الله وقال : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣) ﴾[ص] وفضح نفسه حينما أعلن عن خطته فى إغواء بنى آدم فقال : ﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ﴾ [الأعراف]

لذلك قلنا : إنه لا يأتى إلى الخمارة إنما يأتى المسجد ليفسد على أصحاب الطاعة طاعتهم ، والعاقل لا يعلن خطته لعدوه ، لذلك يشكو الناس كثيراً من السهو فى الصلاة وهذا أمر طبيعى ، لأن عدو الله لن يدعك تؤدى الطاعة .

وقد أباح لنا الشرع حينما نجد هذا الوسواس الذى يُخرجنا عن مقام التواجد مع الله أنْ نقطع القراءة ونستعيذ بالله منه لأنه ساعة يسمع

الاستعاذة يُولّى كاللص يحوم حول البيت ، فإنْ وجدك متنبهاً له ينصرف ، فهو كما وصفه الحق سبحانه الوسواس الخناس ، يُوسوس لك فإنْ استعذت بالله منه خنس أى فرَّ وهرب ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٦)﴾ [فصلت]

والأمر فى قوله : ﴿وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ..(٩)﴾ [المجادلة] يعطى فرصة لمن يخطط لنصرة دين الله فيباح له التكتم والنجوى حتى لا يعرف أحدٌ تفاصيل خطته حتى لو كان مسلماً ، لأن من المسلمين مَنْ يضعف ويُفشى أسرار جيشه لأعدائه .

وتعرفون قصة حاطب بن أبى بلتعة[1] وكان واحداً من صحابة رسول الله ، ومع ذلك ضعف وأراد أن يخبر قريشاً بأن رسول الله يجهز لفتح مكة فكتب إليهم كتاباً وأرسله مع ظعينة[2] ، ولكن الله تعالى أخبر نبيه بما فعل حاطب ، فبعث إلى سيدنا على وقال له : يا على اذهب فى طريق كذا وستجد ظعينة فى ضفائرها كتاب كذا وكذا ، فذهب علىّ فى إثرها وجاء بالكتاب إلى رسول الله فإذا به من حاطب ، فبعث إليه وقال له : ياحاطب ما حملك على أن فعلتَ ما فعلت ؟

فقال : يا رسول الله أنا رجل ليس لى عزوة ، وأحب أن يكون لى عند قريش يدٌ وأنا أعلم أن الله ناصرُك عليهم ، فقال رسول الله ﷺ : اتركوه لعلّ

---

(١) حاطب بن أبى بلتعة أبو عبد الله من ولد لخم بن عدى حليف الزبير بن العوام شهد بدراً والحديبية ومات سنة ٣٠ بالمدينة وهو ابن ٦٥ سنة وصلى عليه عثمان رضى الله عنه [الاستيعاب فى معرفة الأصحاب ٩٣/١] .

(٢) الظعينة : المرأة فى الهودج . وقيل : سميت المرأة ظعينة لأنها تظعن مع زوجها وتقيم بإقامته ، وأصل الظعينة الراحلة التى يُرحل ويظعن عليها أى يُسار . وأظعنت المرأة البعير ركبته [لسان العرب – مادة : ظعن] .

الله قد اطلع على أهل بدر فقال : افعلوا ما شئتم فقد غفرتُ لكم[١] .

وقد علَّمنا رسول الله ﷺ هذا الدرس ، فقال « استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان »[٢] ما دامت فى إطار البر والتقوى .

وقوله تعالى : ﴿ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا .. (١٠) ﴾ [المجادلة] أى : ليُدخل عليهم الحزن ، هو يريد ذلك لكنه لا يستطيع ﴿ وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ .. (١٠) ﴾ [المجادلة] مثل رجل توفرت له كل أسباب الشر ، الله أعطاه القوة والمال ومعه مسدس ويجيد (النشان) وتمكّن من عدوه لكن عندما صوَّب الرصاصة إلى قلب العدو تحرّك بعيداً عنها أو طرأ طارئ أطاش الرصاصة .

إذن : هو أراد لكن الله لم يُرد ، شاء والله لم يشأ ، فكل حركة فى الكون صغيرة كانت أو كبيرة من حركة الذرة إلى حركة المجرة إنما تجرى بقدر الله وإرادته ، فالشيطان يريد الشرّ بالمؤمنين ولا يحدث شىء من هذا إلا ما أراده الله .

لذلك قال : ﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي (٢٢) ﴾ [إبراهيم]

وقلنا : السلطان إما قوة قهر تجبرك على الفعل ، أو قوة حجة

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٧٨٥ ، ٣٩٣٩ ، ٤٥١١ ، ٥٧٨٩ ، ٦٤٢٦) وكذا مسلم فى صحيحه (٤٥٥٠) من حديث على بن أبى طالب رضى الله عنه .

(٢) أخرجه الخرائطى فى كتاب (اعتلال القلوب) من حديث عمر بن الخطاب (٦٦٥) ولفظه : « استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان لها فإن كل ذى نعمة محسود » . وذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد (٣/٤٧٣) وعزاه لمعاذ بن جبل وقال : : رواه الطبرانى فى الثلاثة وفيه سعيد بن سلام العطار . قال العجلى : لا بأس به وكذَّبه أحمد وغيره وبقية رجاله ثقات إلا أن خالد بن معدان لم يسمع من معاذ .

تقنعك به ، والشيطان لا يملك شيئاً من هذا ولا ذاك ، لا يملك إلا أنْ يوسوس وأنْ يزين لك الفعل ، كأنه يريد أنْ يقول لهم لقد كنتم رَهْن إشارتي ، مجرد أنْ أشرتُ لكم أتيتم ووقعتم فى المحظور .

ثم إن هناك معاصىَ تُرتكب ليس للشيطان دَخْل فيها ، معَاصٍ تُزيِّنها شهوة النفس الأمَّارة بالسوء والهوى ، لذلك ثبت أن الشيطان يُصفَّد فى رمضان[1] ومع ذلك تحدث منا معاصٍ وذنوب كثيرة .

وقد عبَّر الشاعر عن هذا المعنى فقال :

إبْلِيسُ والدُّنيا ونَفْسى والهَوَى كَيْفَ السَّبيل وكُلُّهم أعْدَائى[2]

كذلك الحال فى مسألة السحر ، فكثير من الناس يملكون أدوات السحر ويمارسونه لكن لا يضرون أحداً إلا بإذن الله :

﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَـٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ[3] وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : إن النبى ﷺ كان يرغِّب فى قيام رمضان من غير عزيمة وقال : « إذا دخل رمضان فتحت أبواب الجنة وغلقت أبواب الجحيم وسلسلت الشياطين » . وأخرجه البيهقى فى شعب الإيمان (٣٤٤٨) أن رسول الله ﷺ قال : « رمضان شهر مبارك يفتح فيه أبواب الجنة ويغلق فيه أبواب السعير وتصفد فيه الشياطين وينادى مناد كل ليلة : يا باغى الخير هلم إلى الخير ، ويا باغى الشر أقصر » .

(٢) ذكره ابن الجوزى فى (بحر الدموع) ص ٨١ وقال : أنشدوا بلفظ :

إبليس والدنيا ونفسى والهوى كيف التخلص من يدى أعدائى

وذكره ابن عربى فى الفتوحات المكية (٦٢٧) دون أن يعزوه لشاعر : بلفظ الشيخ هنا دون قوله (السبيل) فقال : الخلاص .

(٣) لما كثر السحرة الذين تتلمذوا على أيدى الشياطين فى عهد سليمان عليه السلام وادعوا النبوة وتحدوا الناس بالسحر أنزل الله ملكين من ملائكته الكرام وهما هاروت وماروت ليعلما الناس ما هو السحر فيتمكنوا من تمييز السحر من المعجزة . وليتجنبوا السحر الذى يجب تجنبه . فهاروت وماروت هما ملكان .

وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ .. (١٠٢) ﴾ [البقرة]

وقوله تعالى : ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ .. (١٠) ﴾ [المجادلة] كلمة (على) هنا تعنى أن التوكل على الله خُذه مطية لك توصِّلك لغايتك . وكلمة (على) فى مثل هذه الآية وغيرها فى القرآن كثير ترد على الجماعة أهل التنوير ، وتبطل قولهم بأن التكاليف شاقة على النفس ، حتى من اسمها يدل على أن فيها مشقة .

والواقع أن التكاليف أمرها هيِّن وفى مقدور الجميع ولا يشعر بمشقتها إلا من ينظر إلى العاجل دون الآجل ، فأين هى مشقة التكاليف إذا قيست وقورنت بالثواب عليها .

ولو نظر المسلم إلى عقوبة المعصية ما تجرّأ عليها ، ولو نظر إلى ثواب الطاعة لهان عليه كل شىء فى سبيلها .

وقوله تعالى : ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ..(١٠) ﴾ [المجادلة] كما تقول : أترك هذا الموضوع علىَّ وإذا كنتَ أنت أيها الإنسان تعجز فالله لا يعُجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، ومعلوم أن التوكل على الله له شروط ، ولا يكون إلا بعد الأخذ بالأسباب .

ثم يوجِّه الحق سبحانه المؤمنين فيقول :[1]

---

(١) **سبب نزول الآية :** قال مقاتل بن حيان : كان النبى ﷺ فى الصُّفة وفى المكان ضيق وذلك يوم الجمعة ، وكان رسول الله يكرم أهل بدر من المهاجرين والأنصار ، فجاء ناس من أهل بدر وقد سبقوا إلى المجلس ، فقاموا حيال النبى ﷺ على أرجلهم ينتظرون أن يوسع لهم فلم يفسحوا لهم ، وشق ذلك على رسول الله ﷺ فقال لمن حوله من غير أهل بدر : قم يا فلان وأنت يا فلان ، فأقام من المجلس بقدر النفر الذين قاموا بين يديه من أهل بدر : فشق ذلك على من أقيم من مجلسه وعرف النبى ﷺ الكراهية فى وجوههم ، فقال المنافقون للمسلمين : ألستم تزعمون أن صاحبكم يعدل بين الناس ؟ فوالله ما عدل على هؤلاء قوم أخذوا مجالسهم وأحبهم القرب من نبيهم أقامهم وأجلس من أبطأ عنهم مقامهم ، فأنزل الله تعالى هذه الآية . [أورده الواحدى فى أسباب النزول ص ٢٣٤] وذكره ابن كثير فى تفسيره (٤/٣٢٥) وقال : رواه ابن أبى حاتم .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ(١) فَٱنشُزُواْ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾

نزلت هذه الآية لما كثر أصحاب رسول الله ﷺ وكثر مُحبّوه وأهل مجلسه ، حتى أنهم كانوا يتزاحمون على مجلس رسول الله ولا يجدون مكاناً ، فأمره الله تعالى أنْ يُوسِّع بعضهم لبعض ، فقال :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا ..(١١) ﴾ [المجادلة] أى : توسَّعوا وأوجدوا مكاناً لمن ليس له مكان ﴿ يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ ..(١١) ﴾ [المجادلة] إذن : عليكم أنْ تأخذوا بأسباب التوسعة ، والله تعالى يفسح لكم فى مجلسكم .

وإذا نسب الفعل إلى الله تعالى فهو فى طلاقة القدرة ، أنت تفسح على قدر طاقتك والله يُفسح لك على قدر طاقته سبحانه ، وهذه مثْل قول سيدنا رسول الله ﷺ : « والله فى عوْن العبد ما كان العبد فى عوْن أخيه »(٢) .

---

(١) انشزوا : قوموا . وفى المراد بهذا القيام خمسة أقوال :

أحدها : أنه القيام إلى الصلاة وكان رجال يتثاقلون عنها . قاله عكرمة والضحاك .

والثانى : أنه القيام إلى قتال العدو . قاله الحسن .

والثالث : أنه القيام إلى كل خير من قتال أو أمر بمعروف . قاله مجاهد .

والرابع : أنه الخروج من بيت رسول الله ﷺ ، وذلك أنهم كانوا إذا جلسوا فى بيت رسول الله أطالوا ليكون كل واحد منهم آخرهم عهداً به ، فأُمروا أن ينشزوا إذا قيل لهم انشزوا أى قوموا وانصرفوا ، قاله ابن زيد .

والخامس : أن المعنى قوموا وتحركوا وتوسعوا لإخوانكم . قاله الثعلبى .

(٢) أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه (٤٨٦٧) وأبو داود فى سننه (٤٢٩٥) والترمذى فى سننه (١٣٤٥ ، ١٨٥٣ ، ٢٨٦٩) وابن ماجه فى سننه (٢٢١) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه بلفظ :: « الله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه » .

وهذه صفقة حسابية واضحة فأنت فى عون أخيك بقدرتك المحدودة وطاقتك المحدودة ، والله تعالى بحوْله وقوته وطاقته الغير محدودة فى عونك ، فمَنْ إذن الرابح الكسبان ؟

وهذا المعنى عام فى التوسع ، وسّع لأخيك أو وسّع عليه يوسع الله لك من حيث لا تدرى ، وهذه التوسعة من الله بركة فى المكان وبركة فى الرزق وبركة فى كل شىء .

ويجب علينا جميعاً العمل بهذا التوجيه من الله ومن رسول الله وإلا أثمْنا ، تذكرون قصة المدين الذى مات وعليه دَيْن فامتنع رسول الله ﷺ عن الصلاة عليه ، ولكن أباح لجماعة المسلمين أنْ يُصلوا عليه فقال : صلوا على صاحبكم[1] .

فما ذنب المدين وقد مات ؟ ولماذا امتنع رسول الله من الصلاة عليه ؟ قالوا : لأنه خالف توجيهاً لرسول الله حين قال : « مَنْ أخذ أموال الناس يريد أداءها أدَّى الله عنه ، ومَنْ أخذها يريد إتلافها أتلفه الله »[2] .

وهذا المدين كونه مات دون أنْ يقضى دَيْنه . يعنى : أنه كان فى نيته عدم السداد فلم يُعَنْ عليه ، فأحب رسول الله أن يعلم أمته هذا الدرس ، فالمدين محروم من صلاة رسول الله عليه لمخالفته أوامره لكنه ليس محروماً من صلاة جماعة المسلمين عليه .

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يُؤْتى بالرجل المتوفى عليه الدين فيسأل : هل ترك لدينه فضلاً ؟ فإن حدِّث أنه ترك لدينه وفاء صلى وإلا قال للمسلمين : صلوا على صاحبكم . فلما فتح الله عليه الفتوح قال : أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم فمن توفى من المؤمنين فترك ديناً فعلىَّ قضاؤه ومن ترك مالاً فلورثته . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢١٣٣ ، ٤٩٥٢) ومسلم فى صحيحه (٣٠٤٠) .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٢) وأحمد فى مسنده (٨٣ ، ٩٠) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه . ومعنى أتلفه الله أى أتلف أمواله فى الدنيا بكثرة المحن والمغارم والمصائب ومحق البركة . قاله المناوى فى فيض القدير شرح الجامع الصغير (٦//٥٤) .

كما يفهم من هذه القصة حرص رسول الله ﷺ على سداد دين هذا المدين وتطهيره منه وهو مُقبل على الله ، لذلك حثّ الصحابة على أنْ يتصدقوا لسداد دَيْنه فأسرع الناسُ إلى ذلك حتى سدَّدوا دَيْنه[1] .

الحق سبحانه وتعالى يعطينا نموذجاً لهذه التوسعة فى رحم الأم الذى يستقبل الجنين وهو نطفة وميكروب مُتناه فى الصِّغر ثم ينمو ومع نموه يتسع الرحم بعد ضيق ، كذلك الحالُ فى مجالس المؤمنين يُوسِّعها الله على أصحابها شريطة أنْ يوسّع بعضهم لبعض ، مجرد أنْ تتزحزح من مكانك يوسِّع الله على الجميع فترى المكان الضيق يستوعب الأعداد الكثيرة .

إذن : إذا أردتم أنْ يوسِّع الله لكم فوسِّعوا لإخوانكم ، لذلك أباح الشرع فى حال الصلاة فى الزحام أنْ يصلى الرجل فيركع أو يسجد على ظهر أخيه .

وأيضاً : ﴿وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا.. (١١)﴾ [المجادلة] يعنى : انهضوا وقوموا للتوسعة ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ..(١١)﴾ [المجادلة] يعنى : الذى يأتمر بهذه الأمور ويُطبِّقها كما أمر الله بها يرفعه الله درجات

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١١)﴾ [المجادلة] فالحق سبحانه وتعالى

---

(١) عن سلمة بن الأكوع قال : : كنا جلوساً عند النبى ﷺ إذ أتى بجنازة فقالوا : صلّ عليها . فقال : هل عليه دين ؟ قالوا : لا . قال : فهل ترك شيئاً ؟ قالوا : لا فصلى عليه ، ثم أتى بجنازة أخرى فقالوا : يا رسول الله صلّ عليها . قال : هل عليه دين ؟ قيل : نعم . قال : فهل ترك شيئاً ؟ قالوا : ثلاثة دنانير فصلى عليها . ثم أتى بالثالثة فقالوا : صل عليها قال : هل ترك شيئاً ؟ قالوا : لا . قال : فهل عليه دين ؟ قالوا : ثلاثة دنانير . قال : صلوا على صاحبكم . قال أبو قتادة : صل عليه يا رسول الله وعلىَّ دَيْنه فصلى عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢١٢٧) .

يريد أنْ يُقوِّى إيمان المؤمنين ويُوثق ثقتهم فى الله وفيما عنده من الجزاء . الله يريد منا شهداء يخوضون الحروب وهم واثقون أنهم سيجدون عند الله خيراً مما ترك ، وفى الوقت نفسه يريد جماعة تحمل المنهج وتدعو الناس إليه ، طائفة تتعلم الدين وتتفقه فيه وتعلّمه للناس .

فالدين يراعى هذين الاتجاهين ويسير بهما فى اتجاه واحد بالتوازى ، اتجاه الدفاع عن الدين وحمايته ، واتجاه الدعوة إلى دين الله ونشرها ، وإلا لو ذهبنا كلنا للجهاد فمَنْ يبقى ليعلِّم الناس ويُفقههم فى أمور دينهم ؟

لذلك قال سبحانه وتعالى : ﴿ فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (١٢٢) ﴾ [التوبة]

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٢) ﴾

بعد أنْ تحدثت الآيات عن المناجاة المذمومة المنهى عنها وتحدثت

---

(١) سبب نزول الآية : قال مقاتل بن حيان : نزلت الآية فى الأغنياء وذلك أنهم كانوا يأتون النبى ﷺ فيكثرون مناجاته ويغلبون الفقراء على المجالس حتى كره رسول الله ﷺ ذلك من طول جلوسهم ومناجاتهم ، فأنزل الله تبارك وتعالى هذه الآية ، وأمر بالصدقة عند المناجاة ، فأما أهل العسرة فلم يجدوا شيئاً ، وأما أهل الميسرة فبخلوا واشتد ذلك على أصحاب النبى ﷺ فنزلت الرخصة ، يقصد قوله تعالى : ﴿ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٢) ﴾ [المجادلة] أورده الواحدى النيسابورى فى أسباب النزول ص ٢٣٤) .

عن المناجاة الجائزة ، والآن تُحدِّثنا عن لون آخر من المناجاة وهى المناجاة الخاصة برسول الله ﷺ ورسول الله له خصوصياته .

أولها : ما جاء فى قوله تعالى ﴿**لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا** (٦٣)﴾ [النور] يعنى : لا تنادوا رسول الله كما ينادى بعضكم بعضاً فلا تقولوا يا محمد .

الثانية : أننا إذا أردنا أنْ نناجى رسول الله فلا بد أنْ نقدم قبل المناجاة صدقة ، لماذا ؟ قالوا : كان هناك أناس يجلسون إلى رسول الله ويتناجون معه دون بقية الجالسين ليزدادوا بذلك شرفاً أنهم موضع سرِّ رسول الله ، وأنه يخصّهم بكلام غير الكلام العام .

فأراد الحق سبحانه وتعالى أن يحد من هذه الظاهرة ، كيف ؟ بفرض هذه الصدقة كأنها رسوم لمناجاة رسول الله ، لا يأخذها رسول الله وإنما تقدّم للفقراء صدقة ، فلما نزلت هذه الآية ضَنَّ هؤلاء الذين كانوا يسارعون إلى رسول الله بهذا القصد فلم يعودوا للمناجاة .

إذن : كان المقصود من هذه الصدقة مجرد الحدّ من الأعداد الكثيرة التى كانت تتزاحم إلى مجلس رسول الله ، مثل الطبيب المشهور حينما يُضطر لأنْ يرفع قيمة الكشف لا لشىء إلا ليقلل أعداد المرضى الذين يترددون عليه .

ومعنى : ﴿**فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً** ..(١٢)﴾ [المجادلة] أى : قبل المناجاة لا عندها ، كما فى قوله تعالى :﴿**إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ** (٦)﴾ [المائدة] ونحن لا نتوضأ عندما نقوم للصلاة ، إنما نتوضأ قبلها .

وهؤلاء الذين ضنُّوا بالصدقة على الفقراء ضنُّوا بها لأن المال

عندهم أهم من أنْ يزدادوا شرفاً بمناجاة رسول الله ، فالحق سبحانه وتعالى فضح ما فى نفوسهم . بقوله : ﴿إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً .. (١٢)﴾ [المجادلة]

ذلك لأن وقت سيدنا رسول الله ﷺ كان موزّعاً إلى نواحٍ شتى ويجلس ﷺ للجميع ولا يريد أنْ يحتكره أحد للمناجاة ، لأن وقته يضيق عن مثل هذا ، بل ويضيق صدره من هذه المسألة لأن المطلوب منه كثير ، فله وقته مع الله ، ووقته مع أهله ، ووقته مع الخاصة ، ووقته مع العامة .

وقوله تعالى ﴿ذَٰلِكَ ..(١٢)﴾ [المجادلة] أى : تقديم الصدقة قبل المناجاة ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ ..(١٢)﴾ [المجادلة] أى : أطهر لقلوبكم ، وقوله :﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٢)﴾ [المجادلة] دل على أن المسألة ليست فرضاً .

﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَٰتٍ ۚ(١)
فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ
وَءَاتُوا ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ
بِمَا تَعْمَلُونَ (١٣)﴾

---

(١) أخرج ابن حبان فى صحيحه عن على بن أبى طالب قال : لما نزلت هذه الآية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ..(١٢)﴾ [المجادلة] قال النبى ﷺ لعلى : يا على مُرْهُم أن يتصدقوا . قال : يا رسول الله بكَمْ ؟ قال : بدينار . قال : لا يطيقونه . قال : فبنصف دينار . قال : لا يطيقونه . قال : فبكَمْ ؟ قال : بشعيرة فقال النبى ﷺ لعلى : إنك لزهيد . قال : فأنزل الله ﴿أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ..(١٣)﴾ [المجادلة] فكان علىّ يقول : بى خُفِّف عن هذه الأمة .

لمَّا لم يقدِّموا الصدقة وضنُّوا بها كشفهم الله لرسوله ﷺ ، فقال : ﴿ أَأَشْفَقْتُمْ .. ﴿١٣﴾ ﴾ [المجادلة] أى : خفتم الفقر فلم تقدموا بين يدى نجواكم صدقات ﴿ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا .. ﴿١٣﴾ ﴾ [المجادلة] لم تذهبوا لمناجاة رسول الله ، وكأنه يقول لهم : لقد ارتحنا منكم ومن مجيئكم عند رسول الله .

إلا الإمام على لما نزلت الآية تأمر بتقديم الصدقة . قال : لقد فعلتُ شيئاً ما فعله أحد قبلى ولا بعدى ، كان عندى دينار فاشتريتُ به دراهم ، وكنت كلما أردتُ الذهاب إلى مجلس رسول الله تصدَّقت بدرهم .

وبعد أنْ نزلت الآية ﴿ أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ ..﴿١٣﴾ ﴾ [المجادلة] وألغتْ هذه المسألة ظل الإمام على يتصدّق بعدها ، لذلك قال : فعلتُ شيئاً لم يفعله أحد قبلى ولا بعدى[1] .

وقوله تعالى : ﴿ وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ .. ﴿١٣﴾ ﴾ [المجادلة] أى : أعفاكم من تقديم هذه الصدقة ﴿ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ .. ﴿١٣﴾ ﴾ [المجادلة] يعنى : ما عليكم إلا أنْ تؤدوا ما فرضه الله عليكم من طاعة أوامر الله وطاعة أوامر رسول الله ويكفيكم هذا .

﴿ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ [المجادلة] والخبير هو العالم ببواطن الأمور ، الذى لا تَخْفى عليه خافية ، وكأنه يقول لنا : ما دُمْتم لم تكلفوا إلا بالفرائض فأدّوها بإتقان وإخلاص ، فكأن هذا الإتقان للعبادة وهذا الإخلاص فيها (عربون) للمناجاة وبدلاً للصدقة التى أعفاكم الله منها .

---

(١) عن علىّ بن أبى طالب قال : إن فى كتاب الله لآية ما عمل بها أحد ولا يعمل بها أحد بعدى (آية النجوى) قال : كان عندى دينار فبعته بعشرة دراهم فناجيت رسول الله ، فكنت كلما ناجيت النبى ﷺ قدَّمت بين يدى نجواى درهماً ثم نسخت فلم يعمل بها أحد فنزلت : ﴿ أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ..﴿١٣﴾ ﴾ [المجادلة] الحاكم فى المستدرك (٣٧٥٣) ، وقال : صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه .

ولا يغيب عن بالكم أن الله الذى كلفكم خبير بأعمالكم ، لذلك فى وصاياه ﷺ لسيدنا أبى ذر رضى الله عنه قال له : « وأخلص العمل فإن الناقد بصير »[(١)] .

ثم يقول الحق سبحانه :[(٢)]

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

الحديث هنا عن موالاة المنافقين لليهود ، يقول سبحانه :﴿ أَلَمْ تَرَ..﴿١٤﴾ ﴾ [المجادلة] يا محمد ﴿ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم ..﴿١٤﴾ ﴾ [المجادلة] أى : المنافقين تولوا الذين غضب الله عليهم وهم اليهود ، يعنى اتخذوهم أولياء يناصرونهم .

﴿ مَّا هُم مِّنكُمْ ..﴿١٤﴾ ﴾ [المجادلة] أى : ما هم من المؤمنين ﴿ وَلَا مِنْهُمْ ..﴿١٤﴾ ﴾ [المجادلة] ولا من اليهود . وفى سورة الفاتحة قال

---

(١) رُوى عن أبى ذر الغفارى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : يا أبا ذر جدد السفينة فإن البحر عميق ، وأكثر الزاد فإن السفر بعيد ، وأقل من الحمولة فإن الطريق مخوف ، وأخلص العمل فإن الناقد بصير » ذكره ابن حجر الهيتمى فى الزواجر عن اقتراف الكبائر (١/٥١) وقال : روى الشيخ نصر المقدسى إمام الشافعية فى زمنه عن أبى ذر أنه قال : أوصانى حبيبى رسول الله بأربع كلمات هن أحبُّ إلىَّ من الدنيا وما فيها . ولكن ذكره التسترى فى تفسيره (١/٤٠٤) وعزاه لأبى الدرداء .

(٢) سبب نزول الآية : قال السدى ومقاتل : نزلت فى عبد الله بن نبتل المنافق كان يجالس النبى ﷺ ثم يرفع حديثه إلى اليهود ، فبينا رسول الله ﷺ فى حجرة من حُجره إذ قال : يدخل عليكم الآن رجل قلبه قلب جبار وينظر بعينى شيطان ، فدخل عبدالله بن نبتل وكان أزرق ، فقال له رسول الله ﷺ : علام تشتمنى أنت وأصحابك ؟ فحلف بالله ما فعل ذلك ، فقال له النبى ﷺ : فعلت ، فانطلق فجاء بأصحابه فحلفوا بالله ما سبُّوه ، فأنزل الله تعالى هذه الآية .

تعالى : ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ⑦﴾ [الفاتحة] قالوا : هم اليهود .

وسبق أنْ بيَّنا أن النفاق لم يظهر فى مكة إنما ظهر فى المدينة ، وهذه ظاهرة صحية تدل على قوة الدين ، فلا يُنافَق إلا القوى فالإسلام فى مكة كان ضعيفاً لا يضطر أحد إلى أن ينافقه .

أما فى المدينة فقد قويتْ شوكته ، وأصبح له مكانة بين الناس ، لذلك ظهر النفاق هناك ، وكان عبد الله بن أُبىّ أُسَّ المنافقين فى مدينة رسول الله ، ذلك لأنهم كانوا يعدون له التاج ليُنصِّبوه ملكاً عليهم [(١)] .

فلما جاء رسول الله المدينة قضى على منزلة عبد الله بن أُبىّ وانصرف الناس عنه ، فظلت هذه فى نفس ابن أُبىّ فأظهر الإسلامَ ليتمتع بمزاياه وأبطن الكفر والنفاق ، أما ابنه عبد الله فقد أسلم وحَسُن إسلامه وأخلص فيه ، وكان فى أشد الحزن لنفاق والده .

ويُروى أن عبد الله ذهب إلى سيدنا رسول الله ﷺ وقال : يا رسول الله أعطنى بقية من الماء الذى تشرب منه لأسقيها لأبى ، لعلّ الله أن يطهر بها قلبه من هذا النفاق ، فلما أخذ بقية الشربة وذهب بها إلى أبيه ، فقال : اشرب هذا يا أبى . فقال : وما هذا ؟ قال : هذا بقية شراب رسول الله ، فقال : ائتنى ببول أمك ، يقصد أن بول أمك

---

(١) أخرج البيهقى فى دلائل النبوة (١٤٠٣) أن رسول الله ﷺ راح مهجراً فى ساعة كان لا يروح فيها فلقيه أسيد بن حضير فسلم عليه بتحية النبوة ثم قال : والله لقد رحت فى ساعة منكرة ما كنت تروح فيها . فقال رسول الله : أما بلغك ما قال صاحبك ابن أبى زعم أنه إذا قدم المدينة أنه سيُخرج الأعز منها الأذل . قال : فأنت والله يا رسول الله العزيز وهو الذليل ثم قال : يا رسول الله ارفق به فوالله لقد جاء الله بك وإنَّا لننظم الخرز لنتوِّجه ، فإنه ليرى أن قد استلبته مُلْكاً » الحديث . ومثله عند السهيلى فى الروض الأنف (٣/٢١) ولكن مع سعد بن عبادة .

أفضل منه .[١]

فغضب عبد الله وذهب إلى رسول الله فقال : يا رسول الله إن أبى كما تعلم وأعلم ، وأنا أخشى أنْ يزداد عليه حفيظة أحد المؤمنين فيقتلونه ، فإنْ كان ولا بد ذلك تأمرنى فأقتله حتى لا أجد على قاتل أبى شيئاً فى نفسى ، فقال له رسول الله ﷺ : ارفق به[٢] وكان بعد ذلك يكرم ابن أُبىّ لأجل ابنه عبد الله .

إذن : ظهرت قوة الإسلام وقوة العقيدة فى نفوس أتباع محمد فى المدينة بشكل لم يشهد التاريخ مثله ، ولك أنْ تتأمل قول عبد الله لرسول الله : دَعْنى أقتله . ولك أنْ تتأمل ما كان من المهاجرين والأنصار من مؤاخاة بلغت إلى أنْ يقول الرجل الأنصارى لأخيه المهاجر : عندى كذا من النساء فانظر أيتهن أعجبتك أطلقها وتتزوجها أنت .

---

(١) أخرجه عبد بن حميد وابن المنذر من طريق الحكم عن عكرمة أن عبد الله بن أبى بن سلول كان له ابن يقال له حباب ، فسماه رسول الله ﷺ عبد الله وأنه جاء رسول الله فقال : يا رسول الله إن والدى يؤذى الله ورسوله فذرنى أقتله فقال له رسول الله ﷺ : لا تقتل أباك . فقال : يا رسول الله فذرنى حتى أسقيه من وضوئك لعل قلبه يلين فتوضأ رسول الله وأعطاه فذهب به إلى أبيه فسقاه ثم قال له : هل تدرى ما سقيتك ؟ فقال له والده : سقيتنى بول أمك ، فقال له ابنه : والله ولكن سقيتك وضوء رسول الله وقد أخرجه أيضاً عبد الرزاق فى مصنفه (٦٦٢٧) وكذا الطبرى فى تفسيره (المنافقون ٨) .

(٢) ذكر السهيلى فى الروض الأنف (٤/٣٥٠) أن عبد الله بن عبد الله بن أبى بلغه مقال عمر ابن الخطاب (يا رسول الله مُرْ عباد بن بشر فليأتك برأسه) فجاء عبد الله إلى رسول الله فقال : يا رسول الله إن كنت تريد أن تقتل أبى فيما بلغك عنه فمرنى به ، فوالله لأحملن إليك رأسه قبل أن تقوم من مجلسك هذا ، والله لقد علمتْ الخزرج ما كان فيها رجل أبر بوالديه منى وما أكل طعاماً منذ كذا وكذا من الدهر ولا شرب شراباً إلا بيدى وإنى لأخشى يا رسول الله أن تأمر به غيرى فيقتله فلا تدعنى نفسى أنظر إلى قاتل أبى يمشى فى الناس فأقتله فأدخل النار وعفوك أفضل ومنُّك أعظم . فقال رسول الله ﷺ : يا عبد الله ما أردت قتله ولا أمرت به ولنحسنن له صحبته ما كان بين أظهرنا » الحديث .

ومعلوم أن الإنسان يمكن أنْ يجامل بكل ما يملك إلا المرأة ، فهذه حالة من الإيثار لم يشهد لها التاريخ مثالاً ، لذلك قال تعالى عنهم : ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ[1] (٩) ﴾ [الحشر]

إذن : موالاة المنافقين لليهود شكلتْ جبهة ضد المسلمين ، فكان المنافق يخالط المسلمين وربما يصلى فى الصف الأول ثم يخرج فينقل أخبارهم إلى اليهود .

ومن هنا تأتى خطورة النفاق والمنافقين ، فهم أشدُّ خطراً من الكفار ومن اليهود ، لأن الكافر واليهودى عدو ظاهر العداوة ، والمنافق عداوته مستترة ، لذلك جعلهم الله تعالى فى الدرْك الأسفل من النار .

وقوله تعالى : ﴿ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤) ﴾ [المجادلة] يعلمون أنهم كاذبون ، ويعلمون أن الله يُطلع رسوله على ما يدور فى نفوسهم وخواطرهم ، ولو كان عندهم نباهة لعلموا أنه ﷺ موصول بالسماء فآمنوا به وصدَّقوه .

والعجيب أنهم يحلفون على الكذب فى الدنيا ويكذبون على بعض ، وأيضاً يحلفون على الكذب فى الآخرة كما أخبر الله عنهم : ﴿ وَاللَّهِ

---

(١) خصاصة : فاقة وحاجة . يقول : ولو كان بهم حاجة وفاقة إلى ما آثروا به من أموالهم على أنفسهم . قاله الطبرى فى تفسيره وقال ابن كثير : أى يقدمون المحاويج على حاجة أنفسهم ويبدأون بالناس قبلهم فى حال احتياجهم إلى ذلك .

رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ (٢٣) ﴾ [الأنعام] وقال : ﴿ يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ[1] الْعَظِيمِ (٤٦) ﴾ [الواقعة] يريدون أنْ يكذبوا على الله فى الآخرة ، وهنا يخبرنا بما ينتظرهم من الجزاء :

﴿ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (١٥) ﴾

نعم أعدّ الله لهم - أى للمنافقين - عذاباً شديداً أشدّ وأعظم من عذابِ الكافرين ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِى الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا (١٤٥) ﴾ [النساء]

﴿ إِنَّهُمْ سَاءَ .. (١٥) ﴾ [المجادلة] أى : قَبُح ﴿ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٥) ﴾ [المجادلة]من إظهار الإيمان وإخفاء الكفر .

﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (١٦) ﴾

الحق سبحانه وتعالى يريد أنْ يفضحهم ويكشف ألاعيبهم ، فهناك قال عنهم : ﴿ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ .. (١٤) ﴾ [المجادلة] يحلفون أنهم ليسوا منافقين ، وهنا قال : ﴿ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً ..(١٦) ﴾ [المجادلة] الأيمان

---

(١) الحنث : فيه أربعة أقوال :

أحدها : أنه الشرك . قاله ابن عباس والحسن والضحاك وابن زيد .

والثانى : الذنب العظيم الذى لا يتوبون منه ، قاله مجاهد .

والثالث : اليمين الغموس . قاله الشعبى .

والرابع : الشرك والكفر بالبعث . قاله الزجاج .

جمع يمين وهو الحلف ، فالحلف والأيمان وسيلة من وسائل الخداع التى يُجيدونها ويستترون خلفها .

﴿ جُنَّةً ..(١٦) ﴾ [المجادلة] الجُنّة هى الوقاية كأنهم اتخذوا الحلف مِجَناً يحتمون به كما يحتمى المقاتل خلف المجنّ أو الدرع .

ومادة (جنَّ) تعنى الستر والإخفاء ، ومنها (جن الليل) أى : أظلم وجُنَّ الإنسان ذهب عقله ، و(الجنينة) التى تستر مَنْ يسير بداخلها ، والدرع الذى يحمى صدر الجندى اسمه المجن ، ومنه قول الشاعر [(١)] :

وَكَانَ مجنىٌّ دُونَ مَنْ كنتُ أتَّقِى ثَلاثَ شُخُوصٍ كَاعِبَانِ وَمُعْصِرِ [(٢)]

لذلك سيدنا علىّ رضى الله عنه اتخذ باب حصن خيبر مجناً له فى حرب خيبر ، والمجنّ يقى الصدر لا الظهر ، لذلك قال : « والله لا سلمتُ إنْ أسلمتُ ظهرى » [(٣)] .

---

(١) الشاعر هو عمر بن أبى ربيعة المخزومى القرشى أبو الخطاب ، ولد ٢٣ هـ ، أرق شعراء عصره من طبقة جرير والفرزدق ، ولد فى الليلة التى توفى فيها عمر بن الخطاب فسُمى باسمه ، له ديوان شعر ، توفى ٩٣ هـ فى غزوة فى البحر [موسوعة الشعر العربى]

(٢) البيت من قصيدة لعمر بن أبى ربيعة من بحر الطويل أولها :

أمن آل نُعم أنت غاد فمبكر غداة غد أم رائح فمهجِّر

من قصيدة عدد أبياتها ٦٩ بيتاً . وقد أخذ هذا البيت الشاعر جحظة البرمكى (توفى ٣٢٤ هـ) ووضعه فى قصيدة له من بحر الطويل أيضاً .

(٣) ذكر العصامى فى (سمط النجوم العوالى) (ص ٨٢١) أن على بن أبى طالب قلع باب خيبر وحمله واتخذه مجناً له رغم أن الباب لم يستطع حمله أربعون رجلاً فيما بعد . وقد ذكره الشامى فى (سبل الهدى والرشاد) عن أبى رافع مولى رسول الله ﷺ قال : خرجنا مع على بن أبى طالب حين بعثه رسول الله برايته ، فلما دنا من الحصن خرج إليه أهله فقاتلهم فضربه رجل من يهود فطرح ترسه من يده فتناول على باباً كان عند الحصن فترس به عن نفسه فلم يزل فى يده وهو يقاتل حتى فتح الله تعالى عليه ثم ألقاه من يده حين فرغ فلقد رأيتنى فى نفر سبعة أنا ثامنهم نجهد على أن نقلب ذلك الباب فلم نقلبه .

كذلك حال المنافقين اتخذوا أيمانهم الكاذبة جُنَّة تقيهم وتستر كفرهم ليعيشوا بين المسلمين لهم ما لنا وعليهم ما علينا ، نحميهم ونحافظ على أموالهم إذن : خدعوا المؤمنين حينما أعلنوا إسلامهم وأبطنوا الكفر .

لكن ﴿ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ (١٤٢) ﴾ [النساء] ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٣٠) ﴾ [الأنفال] يعنى : إنْ انتفعتم بالنفاق فى الدنيا وأخذتم به عرضاً زائلاً فسوف تجدون عاقبته فى الآخرة .

﴿ فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ .. (١٦) ﴾ [المجادلة] صدّوا غيرهم عن سبيل الله فيتحملون وزرهم ووزر مَنْ صدُّوهم ﴿ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (١٦) ﴾ [المجادلة] العذاب المهين هو العذاب الذى يُذلهم ويُخزيهم .

وهكذا جمع الله عليهم كل ألوان العذاب ، فمرة قال : عذاب شديد ، وعذاب عظيم ، وقال : عذاب أليم وعذاب مهين . وكل هذا جزاءً وفاقاً لما أضرّوا بدعوة الإسلام وآذوا المسلمين ونافقوهم .

﴿ لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١٧) ﴾

أى : أموالهم التى نافقوا لحمايتها وأولادهم الذين نافقوا لحمايتهم ونجاتهم ، كلُّ هؤلاء لن ينفعوهم ولن يدفعوا عنهم ألوان العذاب الواقع بهم .

﴿ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ .. (١٧) ﴾ [المجادلة] فهم والنار أصدقاء

لأنهم مُصاحبون لأسبابها ، عاشقون للذنوب التى تُوقعهم فيها ، فبينهم وبين النار مصاحبة ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١٧)﴾ [المجادلة] باقون فيها أبداً لا يفارقونها ولا تفارقهم .

﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٨)﴾

يعنى : عقدت ألسنهم على الكذب فلا يعرفون غيره ، كما كانوا يكذبون عليكم فى الدنيا يحلفون لكم أنهم ليسوا منافقين ، كذلك فى الآخرة سيحلفون لله ، كما حكى عنهم سبحانه :﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ (٢٣)﴾ [الأنعام] وهذا أمر فى غاية العجب حتى فى الآخرة .

وبعد أنْ عاينوا الحق الذى أنكروه وعرفوا أن الله حقٌّ يكذبون عليه .

وكلمة (جميعاً) يعنى يوم القيامة يبعث الله اليهود والمنافقين الذين تولوهم يبعثهم معاً ، فمصيرهم واحد ، فقد كانوا فى الدنيا يُوالونهم ويناصرونهم ومَنْ أحب قوماً حُشر معهم[1] .

فكأن الحق سبحانه وتعالى يُسلِّى رسول الله ﷺ ويُطمئنه ، فيقول له : ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ..(١٨)﴾ [المجادلة] يعنى : يا محمد انتظر هذا اليوم وسترى كيف أن الله يجازيهم بما يناسبهم .

---

(١) أخرج البخارى فى صحيحه (٥٧٠٣) عن عبد الله بن مسعود قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله كيف تقول فى رجل أحب قوماً ولم يلحق بهم ؟ فقال رسول الله : « المرء مع من أحب » . وكذا مسلم فى صحيحه (٤٧٧٩) .

وقوله تعالى : ﴿ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٨) ﴾ [المجادلة] أى : يظنون أنهم على شىء من الحق والصواب .

﴿ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٨) ﴾ [المجادلة] فهم يظنون ذلك لكن انتبه فالحقيقة أنهم كاذبون . وكلمة ﴿ أَلَا ..(١٨) ﴾ [المجادلة] تفيد التنبيه للحكم بعدها ، يعنى : لا يغب عن أذهانكم أن هؤلاء كاذبون مخادعون .

﴿ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ (١٩) ﴾

أى : فعلوا ذلك ونافقوا لأن الشيطان ﴿ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ..(١٩) ﴾ [المجادلة] استولى على كل خواطرهم وعلى كل أفكارهم ، لذلك ﴿ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ ..(١٩) ﴾ [المجادلة] فهذه مهمته التى أقسم عليها فقال : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣) ﴾ [ص]

وقال : ﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ﴾ [الأعراف] يعنى : أقعد لهم فى طريق الطاعة لأفسدها عليهم ، لذلك قلنا إنه لا يذهب إلى الخمارة إنما يذهب إلى المسجد ليفسد على أهل الطاعة طاعتهم ، إذن : ما يأتيك فى الصلاة وسوسة شيطان ، وما عليك إلا أنْ تقول كما علَّمك الله : ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ..(١٦) ﴾ [فصلت]

﴿ أُولَٰئِكَ ..(١٩) ﴾ [المجادلة] أى : المنافقون ﴿ حِزْبَ الشَّيْطَانِ

..(١٩)﴾ [المجادلة] وأيضاً تأتى (ألا) للتنبيه يعنى : انتبه إلى هذا الحكم ﴿إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٩)﴾ [المجادلة] كلمة حزب من قولنا حزبه الأمر يعنى شغله وهمَّه ولا يقدر أنْ يدفعه عن نفسه.

فالحزب كلمة تطلق على كل جماعة تمالئوا على رأى واجتمعوا عليه ويخدمون هذا الرأى ويدعون إليه . لذلك سمَّى المؤمنين (حزب الله) وسمَّى الكافرين والمنافقين (حزب الشيطان) ، وحكم على حزب الله فقال : ﴿فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ (٥٦)﴾ [المائدة] وقال فى حزب الشيطان ﴿أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٩)﴾ [المجادلة]

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ (٢٠)
كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ (٢١)﴾

قلنا : معنى ﴿يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ .. (٢٠)﴾ [المجادلة] أى : يجعلون أنفسهم فى جانب ، والله ورسوله فى جانب فينفصلون عن الله ، والحدّ هو الفاصل بين الشيئين لمستحقين مختلفين .

﴿أُولَٰئِكَ فِي الأَذَلِّينَ (٢٠)﴾ [المجادلة] جمع أذل ، فما دام العبد قد انفصل عن ربه فلا بدّ أنْ يذلّ وأنْ يُهانَ ، لأن عزّ الإنسان بربه حتى ولو كان كافراً ، لأن الله يرزق المؤمن ويرزق الكافر لأن الجميع عباده قد استدعاهم جميعاً لهذه الحياة ، لذلك تكفل برزقهم جميعاً .

تذكرون قصة سيدنا إبراهيم - عليه السلام - لما جاءه ضيف

يطرق بابه ليلاً فسأله عن دينه ، فقال : أنا مجوسى فسدَّ الباب فى وجهه فانصرف الرجل ، وعاتب اللهُ تعالى نبيه إبراهيمَ فى شأن هذا الضيف ، فقال له : يا إبراهيم أسعه فى مُلْكى رغم كفره بى ، وأنت تريد منه أنْ يغير دينه لضيافة ليلة .

فأسرع سيدنا إبراهيم فى طلب الرجل حتى أدركه ودعاه إلى ضيافته ، فقال له : لقد جئتُ إليك فطردتنى ، فقال : ولكن ربى عاتبنى فيك ، فقال الرجل : عاتبك فىَّ أنا ؟ نِعْم الرب الذى يعاتب أحبابه فى أعدائه ، ثم شهد ألا إله إلا الله .

وقوله سبحانه : ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢١) ﴾ [المجادلة] معنى ﴿ كَتَبَ اللَّهُ .. (٢١) ﴾ [المجادلة] أى : حكم وقضى ، والكتابة تعنى تسجيل الأمر تسجيلاً يضمن له البقاء ، فالغلبة لله ولرسل الله أمر وحكم قضاه الله وسجّله ، فلا مردّ له ولا رجعة فيه ، ولا يستطيع أحدٌ أنْ يحول بين الله وبين تنفيذ أحكامه وإبرام قضائه .

لذلك سمّى القرآن الكريم كتاباً لأنه مُسطَّر مكتوب ليكون باقياً خالداً مكتوباً فى السطور ، وسُمِّى قرآناً لأنه يُقرأ ويُحفظ فى الصدور .

والغلبة لله تعالى لأنه قويٌّ بذاته سبحانه ، والغلبة للرسل بما منحهم من قوته تعالى وتوفيقه وقدرته ، فهم عباده وسفراؤه إلى خَلْقه ، فكيف يسلمهم أو يتخلَّى عنهم ؟

لذلك قال سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) ﴾ [الصافات] أيُعقل أنْ

يرسل الله رسولاً بمنهجه تعالى ودينه الذى ارتضاه ثم يتركه لينتصر عليه أهل الباطل ؟

كيف وما أرسل الرسولُ إلا لإقامة منهج الله والقضاء على الباطل الذى استشرى فى قومه : ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [الصف]

إذن : غلبة الحق وانتصاره على الباطل سُنَّة من سنن الله فى كونه ، فما لنا الآن نرى الباطل ينتصر على الحق ؟ قلنا : إذا رأيتَ أهل الإيمان ينهزمون أمام أهل الكفر فاعلم أن العلة فيهم لأنهم خالفوا شروط الجندية التى تضمن لهم النصر .

وقد رأينا هذه المسألة قديماً فى غزوة أحد لما خالف الرماة أوامر القائد فكان لا بد أنْ يتفوّق عليهم أعداؤهم[1] ، كذلك رأيناها كثيراً فى العصر الحديث .

الحق سبحانه وتعالى يريد أنْ يقرر هذه الحقيقة وأنْ يُرسِّخها فى نفوس المؤمنين ليزدادوا ثقة فى نُصْرة الله لهم ، فقوله تعالى ﴿ لأَغْلِبَنَّ .. ﴿٢١﴾ ﴾ [المجادلة] اللام للقسم وللتوكيد كأنه سبحانه يقسم ويقول : وعزتى وجلالى لأغلبن أنا ورسلى ، ثم النون المشددة ﴿ لأَغْلِبَنَّ .. ﴿٢١﴾ ﴾ [المجادلة]

---

(١) عن البراء بن عازب قال : لقينا المشركين يوم أحد وأجلس النبى ﷺ جيشاً من الرماة وأمَّر عليهم عبد الله بن جبير وقال : لا تبرحوا إن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا وإن رأيتموهم ظهروا علينا فلا تعينونا ، فلما لقينا (المشركين) هربوا .. فأخذوا يقولون الغنيمة فقال عبد الله : عهد إلىَّ النبى ﷺ أن لا تبرحوا فأبوا فلما أبوا صرف وجوههم فأصيب سبعون قتيلاً . الحديث أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٧٣٧) وأبو داود فى سننه (٢٢٨٨) وأحمد فى مسنده (١٧٨٥٣) .

ثم أكّد الضمير المستتر فى (لأغلبن) بالضمير المنفصل (أنا) كذلك أكّد الكلام بأكثر من مؤكد فى قوله سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) ﴾ [الصافات]

﴿ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢١) ﴾ [المجادلة] فهذه علة الغلبة أنه سبحانه هو القوى الذى يغلب بذاتية قوته ، وهو سبحانه (العزيز) أى الذى لا يُغلب . ولو شاء سبحانه لانتصر منهم وأخذهم أخْذ عزيز مقتدر ، ولكن يريد أنْ يكون لكم أيها المؤمنون شرفُ الانتصار عليهم : ﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ (١٤) ﴾ [التوبة]

﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ (١) أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٢٢) ﴾

(لا) هنا نافية تعنى أنك أبداً لا تجد أهل الإيمان يُوادّون ويُوالون أهل الكفر والنفاق الذين يُحادون الله ورسوله ، لأن هذين

---

(١) عشيرتهم : عشيرة الرجل أهله الأدنون . وهو من العِشْرة أى الصحبة لأنها من شأن القربى .. وقيل من العشرة العدد المعروف وسُميت العشيرة بذلك لكمالهم لأن العشرة عدد كامل .

طرفان نقيضان لا يلتقيان . فمعنى ﴿يُوَادُّونَ ..(٢٢)﴾ [المجادلة] يعنى : من المودة والمحبة وهى أمر قلبى .

وقلنا ﴿حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ .. (٢٢)﴾[المجادلة] جعل نفسه فى جانب ، والله ورسوله فى جانب ، فحرَم نفسه من صلته بالله وقُربه منه سبحانه ، وهذه صفة الكفار والمنافقين .

وهذه من الآيات التى تمحَّك عندها المستشرقون الذين يتلمسون الخطأ فى كلام الله ، قالوا : كيف نجمع بين هذه الآية وبين قوله تعالى : ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا (١٥)﴾ [لقمان]

فالأولى تأمر بعدم مودتهم ، وهذه تأمر بمصاحبتهم بالمعروف .

وهذه الشبهة ناتجة عن عدم فهمهم لمعانى القرآن وعدم تذوقهم للغة ، ففرق بين المودة والمصاحبة بالمعروف : المودة محبة قلبية ووُدّ ، وهذه لا تكون إلا من المؤمن لأخيه المؤمن ، أما المعروف فخير تقدمه لكل الناس للمؤمنين وللكافرين وجميل تُسديه للوالدين حتى إنْ كانا كافرين لأنهما أولاً سبب وجودك المباشر واحترامهما رياضة لك على احترام سبب وجودك الأعلى ، وهو الحق سبحانه .

لذلك قال سبحانه : ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ..(٣٦)﴾ [النساء] ومع ذلك ليس لهما الحق فى مودتك ومحبتك ، لأن اختلاف العقيدة واختيارهما لمحادة الله يحرمهما هذه المودة من الأبناء ، إذن العلاقات هنا ليست علاقة الدم والنسب ، إنما علاقة الدين والإيمان .

لذلك جاء هذا الحكم عاماً مهما استقرأت من علاقات فلن تجد أبداً

قومـاً يؤمنون بالله واليوم الآخـر ، ومع هذا الإيمان يُـوادون مَنْ حادَّ الله ورسـوله ، هذه لا وجود لهـا ، ولو كـان الذى حَادَّ الله ورسـوله ﴿آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ..(٢٢)﴾ [المجادلة] فجمع كل مراتب ودرجات القـرابة ، والعشيرة هم المعاشـرون للإنسان غير هؤلاء المذكورين .

ثم يصف الحق سبـحانه وتعالى أهل الإيمـان الذين ينطلقون فى علاقاتـهم من منطلق الإيمان بالله ولا يقدمون علـيه أحداً مهـما كان ، يصـفهم بقـوله تعـالى : ﴿أُوْلَـئِكَ .. (٢٢)﴾ [المجـادلة] أى : هؤلاء المؤمنون ﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ ..(٢٢)﴾ [المجادلة] يعنى : ثبَّته فى قلوبهم فلا يفارقهم ، وأيضاً ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ..(٢٢)﴾ [المجادلة] ليست هى الروح الأولى سبب الحياة ، إنما يؤيد إيمانهم بروح أخرى منه سبحانه ، روح خاصة من نوره تعالى وتوفيقه .

ومن ذلك قوله تعالى فى العبد الصالح : ﴿وَآتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا (٦٥)﴾ [الكهف] يعنى : زيادة عن كيس الرسالة ، ومنه قوله سبحانه : ﴿يَـأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ..(٢٩)﴾ [الأنفال]

يعنى : إن تتقـوا الله بتنفيذ أوامره واجتناب نـواهيه التى جاءت فى القرآن يزيدكم فرقاناً آخـر ، يعنى نوراً من عنده تعالى وإشراقاً خاصاً تفرِّقون به بين الحق والباطل ، فهذه تجليات خاصة من الله لأهل الإيمان ، لذلك قال العـبد الصالح : ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِى .. (٨٢)﴾ [الكهف]

إذن : هناك روح للمادة تحيا بها الأجساد ، وهى الروح التى نفخها الله تعالى فى آدم وهو ما يزال فى مرحلة الطين ، وهناك روح للقيم وللمعنويات ، روح تحيا بها القلوب ، وهذه التى قال الله فيها : ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ..(٥٢)﴾ [الشورى]

لذلك وقف المستشرقون أيضاً عند قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ .. (٢٤)﴾ [الأنفال] فقال : كيف يخاطبهم بهذا وهم أحياء بالفعل ؟ نقول : يحييكم أى حياة القلوب وحياة القيم ، لذلك قال سبحانه : ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ..(٣٥)﴾ [النور]

ثم يذكر جزاء هؤلاء : ﴿وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ..(٢٢)﴾ [المجادلة] فيُدخلهم الجنات التى هذه صفتها لأنه رضى عن كل أفعالهم ، ومَنْ رضى الله عنه أحلَّ عليه رضوانه فلا يسخط عليه أبداً ، وهذا الرضوان فضل من الله وزيادة بعد ما نالوه من نعيم الجنة .

وقد ورد فى الحديث القدسى بعد أن يُدخلهم الجنة ويروْنَ من ألوان النعيم ما لا يتصورون فوقه يخاطبهم الحق سبحانه وتعالى ويقول لهم : « اليوم أُحل عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم أبداً »[1]

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٠٦٧ ، ٦٩٦٤) وكذا مسلم فى صحيحه (٥٠٥٧) من حديث أبى سعيد الخدرى أن النبى ﷺ قال : إن الله يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة فيقولون : لبيك ربنا وسعديك والخير فى يديك . فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : وما لنا لا نرضى يا رب وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك . فيقول : ألا أعطيكم أفضل من ذلك ؟ فيقولون : يارب وأى شىء أفضل من ذلك فيقول : أحلُّ عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم بعده أبداً .

وقوله تعالى : ﴿وَرَضُوا عَنْهُ ..(٢٢)﴾ [المجادلة] رضوا عن عطائه وفضله ، أو رضوا عنه فرضى عنهم وهذا الكلام أزلاً .

وكلمة ﴿جَنَّاتٍ ..(٢٢)﴾ [المجادلة] جمع تعنى أن المؤمن فى الآخرة له أكثر من جنة ، بدليل قوله تعالى فى سورة الرحمن : ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (٤٦)﴾ [الرحمن] وقالوا : جنات لأنه تعالى يخاطب متعددين فكل واحد منهم له جنة ، أو لأنه سبحانه يخاطب الثقلين الجن والإنس ولكلّ جنة .

﴿أُوْلَـٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ..(٢٢)﴾ [المجادلة] هناك قال فى الكفار والمنافقين ﴿أُوْلَـٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ .. (١٩)﴾ [المجادلة]

وحكم عليهم :﴿أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٩)﴾[المجادلة]
وهنا يتكلم عن أهل الإيمان ﴿أُوْلَـٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ ..(٢٢)﴾ [المجادلة]
وحكم عليهم ﴿أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٢٢)﴾ [المجادلة]

ولك أنْ توازن بين الحزبين وأنْ تفرق بين الفريقين ، هناك خسارة وهنا فلاح ، فحزب الله هم الذين تحزّبوا لمنهج الله اجتمعوا عليه وناصروه وأيدوه وحملوا رايته ودافعوا عنها .

واستخدم هنا أيضاً أداة التنبيه (ألا) يعنى انتبه لهذا الحكم لا تنسَه ولا تغفل عنه ﴿أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٢٢)﴾ [المجادلة] من الفلاح وفلاحة الأرض لما نحرثها ونعدها للزراعة ، هذا فلاح لاستبقاء الحياة المادية ، وهذا فلاح استبقاء نعيم الحياة الأخرى .

سُورَةُ الحَشْرِ

سورة الحشر (١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝١﴾

أولاً نلاحظ الترابط بين أواخر سورة المجادلة وسورة الحشر ، ففى آخر المجادلة حدثتنا الآيات عن حزب الشيطان فقال ﴿أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ۝١٩﴾ [المجادلة] ثم حدثتنا عن حزب الله فقال سبحانه : ﴿أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝٢٢﴾ [المجادلة]

وهنا أراد الحق سبحانه وتعالى أنْ يعطينا نموذجاً تطبيقياً لكل من الحزبين ومثال عملى لهذه النظريات فى قوم كانوا من حزب الشيطان ماذا فعلوا ، وقوم كانوا من حزب الله ماذا فعلوا .

فقال سبحانه : ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ .. ۝١﴾ [الحشر]

وهذه الآية لها متشابهات ، ففى سورة الحديد قال سبحانه : ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ .. ۝١﴾ [الحديد] بدون ذكر (ما) والفرق بينهما أن تكرار الاسم الموصول (ما) يعنى أن لله جنوداً

---

(١) سورة الحشر هى السورة رقم (٥٩) فى ترتيب المصحف الشريف وهى سورة مدنية ، كان ابن عباس يسميها (سورة بنى النضير) لأنها نزلت فيهم . عدد آياتها ٢٤ آية ، نزلت بعد سورة البينة وقبل سورة (إذا جاء نصر الله) .

فى السموات فقط وجنوداً فى الأرض فقط ، وهناك جنود لله فى السموات وفى الأرض معاً .

فقوله تعالى : ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. (١) ﴾ [الحديد] يعنى الجنود المشتركين معاً فى خدمة السموات والأرض ، وحين يقول : ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) ﴾[الحشر] يريد ملائكة السموات وحدها ، وملائكة الأرض وحدها .

وهذا يعنى أن كل شىء فى الكون مُسبِّح لله ، قال سبحانه :﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ..(٤٤) ﴾ [الإسراء] يعنى : ما من شىء فى الكون إلا وهو مُسبِّح لله ﴿ وَلَـٰكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ..(٤٤) ﴾ [الإسراء]

وهذا يعنى أن التسبيح من المخلوقات كلها تسبيح على وجه الحقيقة لا تسبيح دلالة كما يقول بعض المفسرين[١] ، ولو كان تسبيح دلالة ما قال سبحانه : ﴿ وَلَـٰكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ..(٤٤) ﴾[الإسراء]

فكل شىء فى الكون إذن يسبِّح الله بلغته ، ونحن لا نفهم هذه اللغات ، فلكل جنس من المخلوقات لغته التى يتفاهم بها . ألم تقل النملة : ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ ..(١٨) ﴾ [النمل] وقد سمع سليمان هذا القول وفهمه بما منَّ الله عليه من الفهم .

---

(١) أشهر من قال بأن تسبيح الكائنات هو تسبيح دلالة لا تسبيحاً حقيقياً هو الزمخشرى فى تفسيره الكشاف فى الآية ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَـٰوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَـٰكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (٤٤) ﴾ [الإسراء] ، وهو معتزلى ، قال: « المراد أنها تسبِّح له بلسان الحال حيث تدل على الصانع وعلى قدرته وحكمته فكأنها تنطق بذلك » ، ولكن الآية نفسها ترد عليه ﴿ وَلَـٰكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (٤٤) ﴾ [الإسراء] فإنه لو كان المراد تسبيح الدلالة لكان أمراً مفهوماً لكل أحد .

والهدهد قال ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (٢٢)﴾ [النمل] وكان يفهم قضية التوحيد فهماً جيداً حينما قال : ﴿إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ (٢٤)﴾ [النمل]

وقال سبحانه عن الجماد : ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ (٧٩)﴾ [الأنبياء] إذن : هو تسبيح حقيقى بلغة منطوقة يفهمها مَنْ أعطاه الله هذا الفهم .

ومعنى التسبيح تنزيه الله التنزيه المطلق فى ذاته فليستْ ذاته كالذوات ، وتنزيه الله فى صفاته فليست صفاته كصفات غيره ، وتنزيه الله فى أفعاله فليس فعله كفعل غيره .

ولا بد أن نأخذ كل هذه المسائل فى إطار : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ..(١١)﴾ [الشورى] وأن له سبحانه الكمال المطلق ، فإذا قرأنا مثلاً : ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ.. (٤)﴾ [الحديد] لا نقول : جلس أو استقر كجلوسنا ، إنما استوى استواءً يناسب جلاله سبحانه .

وإذا قرأتَ ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا .. (١)﴾ [الإسراء] لا تقل هذا فوق طاقة وقدرة البشر ، لأن محمداً ما أسرى بقوته البشرية ، إنما أسْرِى به ، وفعل الله تعالى ليس كفعل الخلق ولا قوته كقوتهم .

ومادة سبّح وردت فى القرآن بمشتقاتها المختلفة فى أكثر من ١٧٩ موضعاً ، وردت بالاسم سبحان مضافاً إلى الاسم الظاهر مثل :

سبحان الله وسبحان الذى ، ومضافاً إلى ضمير الغائب سبحانه ، ومضافاً لكاف الخطاب سبحانك ، ووردت بصيغة الفعل الماضى سبّح ، والمضارع يسبّح ، والأمر سبّح .

قوله تعالى : ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ .. ﴿١﴾ ﴾ [الحديد] أى قبل أنْ يخلق الله الإنسانَ المسبّح ، فلما خلق الإنسان سبح ، فقال تعالى : ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ .. ﴿١﴾ ﴾ [الحشر] سبح الإنسان ولا يزال يُسبِّح إلى قيام الساعة .

وقوله : ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ ﴾ [الحشر] العزيز هو الشىء النادر الذى لا مثيل له ، ومنه قوله سبحانه : ﴿ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ ﴾ [فاطر] ومن معانيها أنه الغالب الذى لا يُغلب .

والحكيم الذى يضع الشىء فى موضعه الذى يناسبه بدقة وإحكام ، فالله تعالى حكيم فى خلْقه ، حكيم فى إرادته وقضائه وقدره . مثلاً انظر إلى الشعر فى جسم الإنسان تجد شعراً يُحلَق وشعراً يُقص وشعراً آخر لا يُحلق ولا يُقص كشعر الحاجب وشعر الرموش ، لأنه خلق لحكمة لا يستقيم معها أن نقصّه ، فالحكمة منه حماية العينين من ذرات التراب فلا يُحلق ولا يُقص .

انظر كذلك إلى درجة حرارة جسم الإنسان تجدها تعتدل عند ٣٧° والجسم يحتفظ بها عند هذه الدرجة ، فالإنسان عند خط الاستواء درجة حرارته كالذى يعيش عند القطب المتجمد ، بل الإنسان فى نفسه ﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الذاريات]

تجد فى الجسم الواحد عضواً حرارته ٤٠° وعضواً آخر فى نفس الجسم حرارته ٩° هو العينان ، ولا يحدث بينهما استطراق حرارى فتطغى حرارة الكبد مثلاً على حرارة العين ، هذه وأمثالها كثير من مظاهر حكمة الخالق سبحانه .

ثم تنتقل بنا الآيات لتحدثنا عن نموذج تطبيقى لحزب الله ولحزب الشيطان :

﴿ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا ۖ وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٢﴾ ﴾

الضمير (هو) يعود إلى الحق سبحانه الذى يسبِّح له ما فى السموات وما فى الأرض وهو العزيز الحكيم ﴿ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ..(٢) ﴾ [الحشر] المراد يهود بنى النضير[1] ، وكانت مساكنهم حول المدينة فأجلاهم رسول الله إلى خيبر ، وهذا هو أول الحشر .

واللام فى ﴿ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ..(٢) ﴾ [الحشر] بمعنى عند ، كما فى قوله تعالى :﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ[2] الشَّمْسِ ..(٧٨) ﴾ [الإسراء] وكان الحشر الثانى حينما أجلاهم المسلمون من الجزيرة العربية إلى الشام فى زمن سيدنا عمر رضى الله عنه .

---

(١) بنو النضير قبيلة من قبائل اليهود فى المدينة ، كانوا يسكنون فى ضاحية بأطراف المدينة تسمى « العوالى » بها خضرة ونخيل وماء ، ظل عهدهم مع الرسول ﷺ أربع سنوات ، ولكنهم أخذوا يتعاونون مع مشركى قريش لغزو المدينة فى غزوة الخندق ، فأمر الرسول ﷺ بإجلائهم من المدينة المنورة .

(٢) لدلوك الشمس أى عند دلوكها . قال أبو عبيدة : دلوكها من عند زوالها إلى أن تغيب ، وقال الزجاج : ميلها وقت الظهيرة دلوك ، وميلها للغروب دلوك . [تفسير زاد المسير لابن الجوزى] .

ومعنى الحشر : أى جمعهم كلهم فى مكان واحد ضيق ، كما نقول : فلان انحشر إذا دخل مكاناً يضيق حيِّزه عن حجمه ، يعنى حجم الشىء أكبر من الحيِّز الذى دخل فيه .

لكن لماذا أخرج اللهُ اليهود من حول المدينة إلى خيبر ثم إلى الشام ؟ قالوا : لأنهم نقضوا عهدهم مع رسول الله وعادوه ، بل واستعدوا عليهم كفار مكة ، والعجيب أن العداوة أولاً كانت بين اليهود وكفار مكة ، لأن اليهود أهل كتاب وأهل دين سماوى ، أما كفار مكة فكانوا عُبَّاد أوثان .

لذلك كان اليهود يستفتحون على الذين كفروا ويقولون لهم : لقد أظل زمان رسول جديد يأتى ونؤمن به ونقتلكم به قتل عاد وإرم[1] ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ..(٨٩) ﴾ [البقرة]

فلما هاجر رسول الله إلى المدينة عادوه واستعدوا عليه كفار مكة بعد أن عاهدوه على ألاَّ يقفوا ضده ، وقالوا : لا نكون معك ولا نكون عليك ، فلما نقضوا هذا العهد وألَّبُوا عليه الكفار فى مكة فأرسلوا كعب بن الأشرف إلى مكة في أربعين راكباً من اليهود التقى بأبى سفيان وخرج

---

(١) ذكر السهيلى فى الروض الأنف (١/٣٦٩) أن رجالاً من الأنصار قالوا : إن مما دعانا إلى الإسلام مع رحمة الله وهداه لما كنا نسمع من رجال يهود كنا أهل شرك أصحاب أوثان وكانوا أهل كتاب عندهم علم ليس لنا ، وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرور فإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون قالوا لنا : إنه تقارب زمان نبى يُبعث الآن نقتلكم معه قتل عاد وإرم ، فكنا كثيراً ما نسمع ذلك منهم فلما بعث الله رسوله ﷺ أجبناه حيث دعانا إلى الله تعالى وعرفنا ما كانوا يتوعدوننا به فبادرناهم إليه فآمنا به وكفروا به ، ففينا وفيهم نزل هؤلاء الآيات من البقرة ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٨٩) ﴾ [البقرة]

معـه فى أربعين مثلهم من كـفار مكة وذهبـوا إلى الكعبة ، وعند أسـتارها تعاهدوا على معاداة محمد ودعوته ، وأنْ يكونوا يداً واحدة عليه[١] .

ولكن الحق سبـحانه وتعالى أطلع رسـوله ﷺ على ما يُدبرون له فقـال : ﴿هُوَ الَّذِى أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لأَوَّلِ الْحَشْرِ..(٢)﴾ [الحشر] فأجلاهم رسول الله إلى خيبر[٢] .

والذى أجَّج العداوة بين الطرفين أنه كان هناك قـبيلة لها عهد مع بنى النضيـر ، فخرج عمرو بن أمـية الحضرمى وقتل من هـذه القبيلة اثنين ، وكان للنبى ﷺ عهد معهم ، فأحـبوا أنْ يشتركوا ليدفعوا الدية فذهـب رسول الله إلى بنى النضـير ، وقـال لهم : ساعـدونا فى الدية التى تحمَّلها الحضرمى فى الولدين . فـصاحبنا كعب بن الأشرف قال : لقد جاء محمد محتاجاً لنا .

---

(١) ذكره البغـوى فى تـفسـيره لآية ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١)﴾ [الحشـر] وفيـه أن كعب بن الأشرف بعـد غزوة أحـد ركب فى أربعين راكـباً من اليهود إلى مكة فأتوا قـريشاً فحالفوهم وعاقدوهم على أن تكون كلمتـهم واحدة على محمد ﷺ ودخل أبو سـفيـان فى أربعين وكـعب فى أربعين من اليـهود الـمسجـد الحـرام وأخذ بعضـهم على بعض الميثاق بين الأستار والكعبة ، ثم رجع كعب وأصحابه إلى المدينة ونزل جبريل فأخبـر النبى ﷺ بما تعاقد عليه كعب وأبو سفيان ، فـأمر النبى ﷺ بقتل كعب بن الأشرف فقتله محمد بن مسلمة .

(٢) خيبـر الآن مدينة سعودية تقـع شمال المدينة المنورة وهى بلد تاريخـى قديم وقد وردت عدة روايات فى تفسـير سبب التسمـية لعل من أهمها هو اشتـهارها بحصونها وقـلاعها ، فكلمة خـيبر تعنى الحصن بلـغة الأقوام السامـية التى سكنت خيبـر رسمياً ، وقـد تم فتح خيبر عام ٧ هجرية بعد نقض اليهود لعهدهم مع رسول الله . [موسوعة ويكيبيديا] .

وهم الذين قالوا : ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ .. (٦٤)﴾ [المائدة] وقالوا : ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ ..(١٨١)﴾ [آل عمران]

فقالوا : فرصة نكسر نفس محمد ، فأوحى كعب بن الأشرف إلى جماعة من المدينة أنْ يصعدوا على سطح المنزل ويُلقوا حجراً على رسول الله ليتخلصوا منه ﷺ ، ولكن الحق سبحانه وتعالى أخبر رسوله بما يدبرون له ، فخرج رسول الله من بينهم ومشى إلى أنْ خرج ، ولما لم يعد رسول الله إليهم سألوا عنه ، فقال رجل : أنا رأيته يدخل المدينة .(١)

ذهب رسول الله ﷺ إلى محمد بن مسلمة وهو أخو كعب من الرضاعة ، وحكى له ما كان من مؤامرة كعب لقتله ، وطلب منه أنْ يذهب ويقتل كعب بن الأشرف وأنْ يأخذ معه مَنْ يثق فيه ، فأخذ معه ثلاثة من بنى الحارث وذهب إلى حصن كعب ونادى : ياكعب – وكان بينهما ود لعلاقة الرضاعة – فقال : ما بك يا محمد ؟ قال : أنا أريد أنْ أستقرض منك ، فقال : أنت تعرف أنى لا أقرض إلا برهن ، فقال : هو معى .

---

(١) أخرج الطبرى فى تفسيره (١١٥٥٧) عن عاصم بن عمر بن قتادة وعبد الله بن أبى بكر قالا : خرج رسول الله ﷺ إلى بنى النضير ليستعينهم على دية العامريين اللذين قتلهما عمرو بن أمية الضمرى ، فلما جاءهم خلا بعضهم ببعض فقالوا : إنكم لن تجدوا محمداً أقرب منه الآن ، فمَنْ رجل يظهر على هذا البيت فيطرح عليه صخرة فيريحنا منه ؟ فقال عمرو بن جحاش بن كعب : أنا . فأتى رسول الله ﷺ الخبر وانصرف عنهم فأنزل الله عز وجل ﴿يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ .. (١١)﴾ [المائدة] وأورده السهيلى فى الروض الأنف (٢/٤٢١) .

فنزل إليه وكان فى أول ليلة عُرْسه ، فعروسه منعته من الخروج . وقالت له : إنى لأشُم من هذا الصوت رائحة الدم ، لكنه نزل فاحتضنه محمد وسار به حتى بَعُد ، وطعنه طعنة قتلته ، فأهاج ذلك بنى النضير ، فكان ما كان من تعاهدهم مع كفار مكة ضد رسول الله[1] .

وقوله : ﴿مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا .. ﴿٢﴾﴾ [الحشر] يخاطب الله المؤمنين حزب الله يقول لهم : ما كان يخطر ببالكم أنْ يخرج اليهود من حول المدينة ، فهذا أمر مستبعد ، لماذا ؟ لأنهم يروْن اليهود أهل مَنَعة وعزة ومعهم العدد والعُدة فكيف يستطيعون إخراجهم وهم قلة ؟

إذن : ظنُّ المؤمنين يرجح جانب عدم قدرتهم على إخراجهم ، لكنه ظنٌّ لا يصل إلى مرحلة اليقين ، وما يزال عندهم أمل فى إخراج اليهود ولهم فى ذلك أسوة بيوم بدر ، فقد كانوا قلة ومع ذلك تفوّقوا على الكثرة الكافرة وهزموهم .

وفى الوقت نفسه ﴿وَظَنُّوا ..﴿٢﴾﴾ [الحشر] أى اليهود ﴿أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ .. ﴿٢﴾﴾ [الحشر] وأيضاً ظن اليهود أنهم أصحاب حصون تمنعهم أنْ ينهزموا أمام المؤمنين ، مجرد ظن

---

(١) أورد ابن سيد الناس فى كتابه (عيون الأثر فى فنون المغازى) (٣٩٣/١) أن سلكان بن سلامة أبا نائلة وهو أخو كعب بن الأشرف من الرضاعة اتجه فى جمع إلى حصن كعب وهتف به ، وكان كعب حديث عهد بعرس فوثب فى ملحفة فأخذت امرأته بناحيتها وقالت : إنك امرؤ محارب وإن أصحاب الحرب لا ينزلون فى مثل هذه الساعة قال : إنه أبو نائلة لو وجدنى نائماً ما أيقظنى . فقالت : والله إنى لأعرف فى صوته الشر . فقال لها كعب : لو يُدعى الفتى لطعنة لأجاب ، فنزل فتحدث معهم ساعة وتحدثوا معه .. إلى أن استدرجوه خارج الحصن وأعملوا فيه سيوفهم .

لايرقى إلى اليقين ، لأنهم أيضاً تذكروا يوم بدر يوم انتصر المسلمون وهم قلة فى العدد والعدة .

ومن الاحتياط أنْ نعمل بالظن فى أمور الخير ، فإذا ظننتَ الخير فاصنعه قال تعالى : ﴿ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ .. (٢٤٩) ﴾ [البقرة] إذن : فى الخير العمل بالظنِّ أوْلَى .

وهذه المسألة لها شواهد كثيرة فى حياتنا العملية ، مثلاً إذا أردنا أن نسافر إلى الأسكندرية ، فقال لنا رجل : والله الطريق كذا فيه أخطار أو أعطال فاسلكوا الطريق الآخر . فقال آخر : أبداً لقد سافرت على هذا الطريق بالأمس وليس عليه أخطار ولا أعطال ، فأىُّ القولين إذن أوْلَى أنْ نأخذ به ؟

القول الأول أوْلَى لأنه الأحوط فلن يضيرنا شىء إنْ سلكنا الطريق الذى دلّنا عليه الرجل الأول ، أما قول الآخر فهو غير مضمون وقد نسلكه فنجد فيه بالفعل أخطاراً أو أعطالاً .

والشاعر أبو العلاء المعرى[1] لما اعتدلت عقيدته صادم المنجمين والقائلين بعدم بعث الأجساد ، فقال مُعبراً عن هذه المسألة :

زعم المنجّم والطبيبُ كِلاَهُما ... لا تُبْعثُ الأجسَادُ قُلْتُ إليكُمَا
إنْ صَحَّ قولكُما فلَسْتُ بخَاسِر ... أو صَحّ قوْلى فَالخسَارُ عَلَيْكما[2]

---

(١) المعرى : هو أحمد بن عبد الله التنوخى ، شاعر وفيلسوف من العصر الفاطمى ، ولد ٣٦٣ هـ فى معرة النعمان ، عمى وهو صغير السن ، لما مات وقف على قبره ٨٤ شاعراً يرثونه ، كان يُحرم إيلام الحيوان ويلبس خشن الثياب ، له تصانيف كثيرة منها (الأيك والغصون) ، توفى عام ٤٤٩ هـ . [موسوعة الشعر العربى] .

(٢) أورده صلاح الدين الصفدى فى كتابه (الغيث المسجم فى شرح لامية العجم) (ص٩٥) وفيه الشطر الثانى : [أن لامعاد فقلت ذاك إليكما] وفى البيت الثانى [فالوبال عليكما] ولكن أورده ابن عربى فى الفتوحات المكية كما أورده الشيخ الشعراوى .

إذن : نحن أمام ظنين انتهيا إلى أن اليهود لن يخرجوا ، فالمسلمون ظنوا أن اليهود لن يخرجوا ، واليهود ظنوا أن حصونهم تمنعهم ، وحين يأتى الخير من حيث لا تحتسب تكون الفرحة به أعظم ، فكانت فرحة المسلمين بإخراج اليهود كبيرة ، وكذلك كانت حسرة اليهود كبيرة .

ثم تأمل اللفظ القرآنى فى ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم ..(٢)﴾ [الحشر] فاختار التعبير بالجملة الإسمية الدالة على الثبوت والدوام ولم يقُلْ : تمنعهم . لأن الجملة الفعلية تفيد التجدد والحدوث .

وقولهم ﴿مِّنَ اللَّهِ.. (٢)﴾ [الحشر] دل على أنهم مؤمنون بالله مُصدِّقين بما بشرت به كتبهم من بعثة محمد ﷺ ، ولأنهم جحدوا رسالته لم يقولوا من رسول الله ، إنما قالوا (من الله)

وقوله تعالى : ﴿فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ .. (٢)﴾ [الحشر] الله تعالى لا يأتى هؤلاء إنما أتاهم عقابه وعذابه ، ففزّعهم وهزمهم وأرعبهم ﴿مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ..(٢)﴾ [الحشر] من حيث لم ينتظروا ولم يقدروا ولم يظنوا ، يعنى أمر لم يخطر لهم على بال .

﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ..(٢)﴾ [الحشر] ألقى فيها الرعب والهلع والقذف إلقاءً بشدة وعنف والقلوب مضخات الدم فى الأجساد ، وحين يُلقى اللهُ الرعب والفزع فى القلوب تنقلها إلى كل أعضاء الجسم فيصيبه الهلع والفزع الشديد فى كل عضو من أعضائه .

والقذف يعنى أن المقذوف يدخل فى كلّ مسامّ المقذوف فيه ، مثل عمال العمارة عندما يرشُّون الحائط بالأسمنت ، لماذا ؟ لأنهم

يقذفون الأسمنت بقوة ليدخل فى كلِّ الفجوات التى تتخلل الحائط .

﴿ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى الْمُؤْمِنِينَ .. ﴿٢﴾ ﴾ [الحشر] أى : بيوتهم الحصينة التى كانوا يظنون أنها مانعتهم يُخربونها بأيديهم ، نعم هم لم يفعلوا مباشرة إنما كانوا السبب فى أنْ تُخرب على أيدى المسلمين ، أو خربوها بالفعل لكى لا ينتفع المسلمون بها من بعدهم .

وهذه لها شواهد فى تاريخهم القديم والحديث أنهم يُخربون العامر ويقطعون الأشجار ويفسدون فى الأرض فلا يتركونها خلفهم إلا دماراً ، فكانوا إذا تركوا مكاناً خربوه وأخذوا ما فيه واقتلعوا منه الأبواب والشبابيك .(١)

﴿ فَاعْتَبِرُوا يَـٰأُولِى الأَبْصَارِ ﴿٢﴾ ﴾ [الحشر] الاعتبار أنْ تستدل بما حدث فى الماضى على ما يحدث فى المستقبل ، ومنه عبر فلان البحر ، ومنها تعبير الرؤيا ، فاعتبروا : أى خذوا من الماضى عبرة تُعينكم على استقبال الحاضر ، ولا تتعجلوا الأشياء لأن الله معكم .

ومعنى ﴿ يَـٰأُولِى الأَبْصَارِ ﴿٢﴾ ﴾ [الحشر] الأبصار جمع بصر ، فالاعتبار يكون بداية بالبصر ثم بالبصيرة ، فالبصائر إنما تُربى بدقة البصر والرؤية الواعية التى تؤدى إلى قضية عقلية يقتنع بها الإنسان

---

(١) قال ابن الجوزى فى زاد المسير (٣/٥٤٥) : « للمفسرين فيما فعلوا بمنازلهم أربعة أقوال :

أحدها : أن المسلمين كانوا كلما ظهروا على دار من دورهم هدموها ليتسع لهم مكان القتال ، وكانوا هم ينقبون دورهم فيخرجون إلى ما يليها ، قاله ابن عباس .

والثانى : أن المسلمين كانوا كلما هدموا شيئاً من حصونهم نقضوا ما يبنون به الذى خربه المسلمون ، قاله الضحاك .

والثالث : أنهم كانوا ينظرون إلى الخشبة فى منازلهم أو العمود أو الباب فيستحسنونه فيهدمون البيوت وينزعون ذلك منها ويحملونه معهم ويخرب المؤمنون باقيها ، قاله الزهرى .

والرابع : أنهم كانوا يخربونها لئلا يسكنها المؤمنون حسداً منهم وبغياً . قاله ابن زيد .

وتكون عنده هذه البصيرة ، ثم إن الحق سبحانه وتعالى هو الذى يُنمِّى هذه البصيرة بتوفيق من عنده .

﴿ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ[1] لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴿٣﴾ ﴾

معنى ﴿ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ .. ﴿٣﴾ ﴾ [الحشر] أى : قضى عليهم به ﴿ الْجَلاءَ .. ﴿٣﴾ ﴾ [الحشر] الخروج بأهلهم من المدينة إلى خيبر أولاً ثم إلى أذرعات[2] بالشام ، ولم يبْق منهم بالجزيرة العربية إلا ابن أبى الحقيق وحُيى بن أخطب أبو السيدة صفية أم المؤمنين .

وقوله تعالى : ﴿ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا .. ﴿٣﴾ ﴾ [الحشر] أى بالقتل ﴿ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ﴿٣﴾ ﴾ [الحشر] يعنى : إن أفلتوا من عذاب الدنيا فلن يفلتوا من عذاب الآخرة ، لذلك خاطب الحق سبحانه نبيه ﷺ بقوله : ﴿ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [غافر]

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤﴾ ﴾

وقوله سبحانه ﴿ ذَلِكَ .. ﴿٤﴾ ﴾ [الحشر] أى ما حدث لهم من

---

(١) الجلاء هو خروجهم من أوطانهم . وذكر الماوردى بين الإخراج والجلاء فرقين : أحدهما أن الجلاء ما كان مع الأهل والولد . والإخراج قد يكون مع بقاء الأهل والولد . والثانى أن الجلاء لا يكون إلا لجماعة . والإخراج قد يكون لواحد ولجماعة . [زاد المسير لابن الجوزى] .

(٢) أذْرِعَات قرية من عمل حوران داخل حدود سورية قرب مدينة درعة شمالاً شمال الطريق وأنت تقصد دمشق .

الإجلاء ﴿بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ .. (٤)﴾ [الحشر] أى بسبب أنهم شاقوا الله ورسوله حدث لهم ذلك ، وشاقوا من الشقاق أى جعلوا أنفسهم فى شقٍّ ، وجعلوا الله ورسوله فى شقٍّ ، والمراد : عادوا الله وحاربوه وحاربوا رسوله ﷺ ودعوته .

﴿وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٤)﴾ [الحشر] قالوا : هذه الجملة معطوفة على التى قبلها ، لكن الصواب أنها جملة جديدة ، فالحق سبحانه بعد أنْ أخبر عن اليهود وما كان منهم بدأ عبارة جديدة معزولة عن التى قبلها تقرر قضية ومبدأ .

﴿وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ ..(٤)﴾ [الحشر] يعاديه ويحارب منهجه فعاقبته العقاب الشديد من الله الذى عاداه بدل أنْ يتقرب إليه ويلتحم به . وهذه قضية إيمانية ينبغى ألاَّ يغفل عنها الإنسان .

ونلاحظ هنا أن التعبير القرآنى ذكر فى صدر الآية : ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ..(٤)﴾ [الحشر] ثم فى الجملة الأخرى : ﴿وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ ..(٤)﴾ [الحشر] ولم يذكر رسوله ﷺ ، وهذا يعنى أن طاعة الرسول من طاعة الله ، وأن مَنْ يُشاقق الله يشاقق فى الوقت نفسه رسول الله ، لأن الله تعالى هو القائل : ﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ..(٨٠)﴾ [النساء]

ومن ميزاته ﷺ التى تميَّز بها عن غيره من الرسل أن ربه عز وجل فوَّضه فى التشريع لأمته ، فقال سبحانه : ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ..(٧)﴾ [الحشر]

وقد أراد قوم أنْ يربطوا هذه الآية بمسألة الفىء والغنائم بعد غزوة حنين[(١)] .

ولكن القاعدة الشرعية أن العبرة بعموم اللفظ لابخصوص السبب .

ثم يقول الحق سبحانه :[(٢)]

﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ[(٣)] أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾ ﴾

بعد أن حدث من اليهود ما حدث وأجلاهم رسول الله ﷺ أمره الله تعالى أنْ يقطع بعض نخيلهم إغاظةً لهم وإظهاراً لقوة شوكة الإسلام ،

---

(١) الذى قال بهذا القول هو الزمخشرى فى تفسير الكشاف (٧/٢٦) وهو معتزلى قال : « (وما آتاكم الرسول) من قسمة غنيمة أو فىء (فخذوه) (وما نهاكم عنه) عن أخذه منها (فانتهوا) عنه » وكذا قاله الشوكانى فى فتح القدير (٧/١٨٦) وعزاه للحسن البصرى والسدى ولكنه قال بعدها : « والحق أن هذه الآية عامة فى كل شىء يأتى به رسول الله ﷺ من أمر أو نهى أو قول أو فعل وإن كان السبب خاصاً فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب » .

(٢) **سبب نزول الآية** : ذكر الواحدى النيسابورى فى أسباب النزول (ص ٢٣٧) أن رسول الله ﷺ لما نزل ببنى النضير وتحصنوا فى حصونهم أمر بقطع نخيلهم وإحراقها فجزع أعداء الله عند ذلك وقالوا : زعمت يا محمد أنك تريد الصلاح أفمن الصلاح عقر الشجر المثمر وقطع النخيل ؟ وهل وجدت فيما زعمت أنه أنزل عليك الفساد فى الأرض ؟ فشق ذلك على النبى ﷺ فوجد المسلمون فى أنفسهم من قولهم وخشوا أن يكون ذلك فساداً واختلفوا فى ذلك . فقال بعضهم : لا تقطعوا فإنه مما أفاء الله علينا . وقال بعضهم : بل اقطعوا ، فأنزل الله تبارك وتعالى : ﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ ﴿٥﴾ ﴾ [الحشر] تصديقاً لمن نهى عن قطعه وتحليلاً لمن قطعه ، وأخبر أن قطعه وتركه بإذن الله تعالى .

(٣) لينة : هى النخلة من أى الأصناف كانت . وقال جعفر بن محمد : إنها العجوة خاصة . وقال البعض : إنها الفسيلة لأنها ألين من النخلة . نقله الماوردى فى تفسيره . وذكر ابن الجوزى ستة أقوال متقاربة فى معناه فى تفسيره (زاد المسير) .

فأمر رسول الله صحابته بذلك ، فمنهم مَنْ قطع ومنهم مَنْ أبقى ، فقال اليهود : يا محمد ألم تنه عن الفساد فى الأرض ؟ فأنزل الله : ﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ .. ﴿٥﴾ ﴾ [الحشر]

اللينة : النخلة الجيدة الكريمة أو هى نخلة العجوة الليِّنة الحلوة ﴿ قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا .. ﴿٥﴾ ﴾ [الحشر] يعنى : واقفة لم تُقطع ﴿ فَبِإِذْنِ اللَّهِ .. ﴿٥﴾ ﴾ [الحشر] بأمره ، وما دام القطع جاء بأمر الله فليس لأحد أن يقول : هذا إفساد فى الأرض ، لأن قطع بعض النخلات فيه إصلاح فوق ما فيه من ضرر ، قطع النخلات فيه إصلاح للعقائد الفاسدة يفوق الضرر الواقع بقطعها .

والآية تُسوِّى بين القطع والإبقاء لأن بعض الصحابة قطع وقال : قطعت هذه لك يا رسول الله ، والآخر أبقى وقال : هذه أبقيتها لك يا رسول الله ، وهذا يعنى أن للقطع معنىً وللإبقاء معنىً .

﴿ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ ﴿٥﴾ ﴾ [الحشر] يُلحق الخزى والذِّلة بهم . والفاسق هو الخارج عن أوامر الله ومنهجه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ ﴾ (١)

---

(١) أوجفتم : أسرعتم فى السير . وما نافية ، والمعنى : أن ما ردَّ الله على رسوله من أموال بنى النضير لم تركبوا لتحصيله خيلاً ولا إبلاً ولا تجشمتم لها مشقة ولا لقيتم بها حرباً ولا مشقة [فتح القدير للشوكانى ١٨٥/٧] .

الأشياء التى يأخذها المسلمون من الكفار أحلها الله لهم إما فىء وإما غنيمة : الفىء ما يؤخذ منهم دون حرب ، والغنيمة ما يُؤخذ منهم بعد أنْ يُهزموا ، فتصير أموالهم ومتاعهم غنيمة للمسلمين يُقسَّم بطريقة معينة .

قال تعالى فى شأن غنائم الحرب : ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ[1] وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ..(٤١)﴾ [الأنفال] ثم يقسَّم الباقى بين المحاربين . وأما الفىء فلا يُعطى للمحاربين إنما يُعطى لله ولرسول الله وللفقراء .

الحق سبحانه وتعالى هنا يُحدِّثنا عن الفىء الذى أحله للمسلمين ﴿وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ ..(٦)﴾ [الحشر] يعنى : ما أخذتموه من أموالهم دون مشقة ﴿مِنْهُمْ ..(٦)﴾ [الحشر] من الكفار .

﴿فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ ..(٦)﴾ [الحشر] أوجفتم عليه يعنى : أسرعتم إليه ، فأوجف الدابة : أسرع بها ، وهذه صفة

---

(١) خُمْس الغنيمة يقسم خمسة أسهم :

- سهم الله تعالى ويُصرف لعمارة بيت الله إن كانت قريبة أو بيوت الله عامة .
- سهم رسول الله وقد كان له فى حياته بالإجماع وكان ينفق منه على نفسه وعياله ويدخر منه مؤونة سنة ، وقد كان يستحقه لإمامته دون رسالته فهو لا يأخذ أجراً على إبلاغه للرسالة ، والأكثرون من الشافعية أن خمس رسول الله بعد وفاته يصرف لسد الثغور وقضاة البلاد والعلماء المشتغلين بعلوم الشرع الأئمة والمؤذنين ولو كانوا أغنياء .
- سهم ذى القربى ويصرف لبنى هاشم وبنى عبد المطلب .
- سهم اليتامى ، وهو للفقراء منهم ويشترط إسلامه .
- سهم المساكين وابن السبيل يكفى فيهما قولهما أنهما مساكين وابن سبيل ولو بلا يمين .

[باختصار شديد من روح المعانى للألوسى فى تفسير آية الحشر ٧] .

الفارس الذى يعشق الحرب ويريد أنْ يموت شهيداً .

﴿ وَلا رِكَابٍ .. (٦) ﴾ [الحشر] الرِّكاب ما يُركب ويُسار به إلى الحرب ، والمراد هنا الإبل . والمعنى أن الله أنعم عليكم وساق لكم هذا الرزق حلالاً دون تعب ، ودون أنْ تبذلوا فى سبيله أىّ مجهود .

﴿ وَلَـٰكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦) ﴾ [الحشر] يعنى : أن هذا الفىء جاءكم فضلاً من الله وكرامة لرسول الله ، ليس لكم فيه فضل ولا حاربتم من أجله بل هى جنود الله سلَّطها عليها ، كما قال سبحانه : ﴿ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ..(٢) ﴾ [الحشر]

فمعنى ﴿ رُسُلَهُ ..(٦) ﴾ [الحشر] أى : جنوده ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ .. (٣١) ﴾ [المدثر] ﴿ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦) ﴾ [الحشر]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ (٧) ﴾

قوله تعالى : ﴿ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ ..(٧) ﴾ [الحشر] الفىء : هو كل مال صار للمسلمين من غير حرب ولا قهر ، ومصارفها التى تُصرف فيها محددة بهذه الآية : ﴿ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ

وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ .. (٧) ﴾ [الحشر]

فالفىء لله وللرسول ، أى : لبيت مال المسلمين وفى سبيل الله وللرسول ﷺ لينفق منه ولذوى قرابته ثم لليتامى والمساكين وأبناء السبيل .

وليس للمقاتلين شىء من الفىء لأنه جاء صلحاً بدون حرب فليس لهم شىء ، إنما لهم فى الغنيمة وهى ما يأخذه المسلمون من أعدائهم المنهزمين نتيجة حرب ، فهذه للمقاتلين دور فيها فيحق لهم ما أقرَّه الله لهم : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ..(٤١) ﴾ [الأنفال]

فالمقاتلون لهم فى الغنيمة أربعة أخماسها ، وأما الخمس فيُصرف فى نفس مصارف الفىء .

معنى : ﴿ كَيْ لا يَكُونَ ..(٧) ﴾ [الحشر] أى : المال ﴿ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ ..(٧) ﴾ [الحشر] أى : ملكاً متداولاً بينهم دون الفقراء والمساكين ، لذلك سيدنا رسول الله لما قسم هذه الأموال لم يُعْط من الأنصار أحداً ، وإنما أعطاها للفقراء من المهاجرين ، فلما لاحظ أن الأنصار فى نفوسهم شىء من هذا قال لهم : ألاَ ترضوْنَ أنْ يعودوا بالدنيا وتعودون أنتم برسول الله [1] ؟.

---

(١) أخرج البخارى فى صحيحه (٣٩٩٢) من حديث أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ أصاب يوم حنين غنائم كثيرة فقسم فى المهاجرين والطلقاء ولم يعط الأنصار شيئاً ، فقالت الأنصار : إذا كانت شديدة فنحن ندعى ويعطى الغنيمة غيرنا ، فبلغه ذلك فجمعهم فى قبة فقال : يا معشر الأنصار ما حديث بلغنى عنكم ؟ فسكتوا فقال : يا معشر الأنصار ألا ترضون أن يذهب الناس بالدنيا وتذهبون برسول الله تحوزونه إلى بيوتكم ؟ قالوا : بلى . فقال النبى ﷺ : « لو سلك الناس وادياً وسلكت الأنصار شِعْباً لأخذت شِعْب الأنصار » .

ثم إنكم لستم فى حاجة إلى المال ، بل إنكم تُشركون إخوانكم المهاجرين فى أموالكم . وفى الأنصار نزل قوله تعالى : ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ..(٩)﴾ [الحشر]

وقوله تعالى : ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ..(٧)﴾ [الحشر]

جاءت هذه الآية لترد على قوم أرادوا أنْ يحصروا هذه الآية فى هذا السبب ، فقال لهم بل هى عامة ، فالعبرة بعموم الموضوع لا بخصوص السبب .

ومن هذه الآية استدللنا على حقِّ رسول الله فى التشريع وأنه مفوَّض من ربه فى ذلك ، وبهذه الآية أيضاً نرد على الذين ينادون بأنْ نأخذ بالكتاب ونكتفى به دون السنة .

وقد قال رسول الله ﷺ : « يُوشك رجل يتكىء على أريكته يُحدَّث بالحديث عنى فيقول : بيننا وبينكم كتاب الله ، فما وجدنا فيه من حلال حللناه ، وما وجدنا فيه من حرام حرَّمناه »[1].

فمن حين لآخر يطلع علينا مَنْ ينكر سنة رسول الله ﷺ ويقول : بيننا وبينكم كتاب الله ، فما كان فيه من حلال حللناه ، وما كان فيه من حرام حرمناه ، فهم ينكرون أحاديث رسول الله ويُشكِّكون فى صحتها حتى لا يأخذوا بها .

---

(١) أخرجه أبو داود فى سننه (٣٩٨٨) والترمذى فى سننه (٢٥٨٨) وابن ماجه فى سننه (١٢) وأحمد فى مسنده (١٦٥٤٦) من حديث المقدام بن معد يكرب بلفظ : ألا إنى أوتيت الكتاب ومثله معه ، ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول : عليكم بهذا القرآن ، فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه ، وما وجدتم فيه من حرام فحرِّموه ، ألا لا يحل لكم لحم الحمار الأهلى ولا كل ذى ناب من السبع ولا لقطة معاهد إلا أن يستغنى عنها صاحبها »

وموقفهم هذا فى حد ذاته إثباتٌ لصدق رسول الله ، لأنه ﷺ لم يغفل هذه المسألة ، إنما أخبر عنها ونبهنا إليها وأعطانا المناعة اللازمة ضدها .

وهم لو لم يقولوا لقلنا : يا رسول الله لقد قلت : « يُوشك أنْ يقعد الرجل منكم على أريكته يُحدّث بحديثى فيقول : بينى وبينكم كتاب الله » فكيف يا سيدى يا رسول الله ذلك ولم يقل أحد هذا الكلام ؟

إذن : فقولهم الأحمق دليلٌ على صدق الرسول فيما أخبر به ، ويسخِّرهم الحق سبحانه فينطقون بمثل هذا القول لنستدل من قول خصوم النبى على صدق كلامه ﷺ .

فهم من حيث لا يدرون أكدوا صدق رسول الله ، لقد فضحهم هذا الحديث وأبان ما عندهم من غباء ، هؤلاء الأغبياء يحلو لهم التعصب للقرآن الكريم ضد الحديث النبوى ، يقول لك أحدهم : حدِّثنى عن القرآن ، سبحان الله ، أتتعصّب للقرآن ضد الرسول الذى بلّغك القرآن ، وما عرفتَ القرآن إلا من طريقه ؟

ونقول لمن يُردد هذا الكلام : كم عدد ركعات الصبح وركعات الظهر والعصر والمغرب والعشاء ؟ وسوف يرد قائلاً : صلاة الصبح ركعتان ، والظهر أربع ، والعصر أربع ، والمغرب ثلاث ، والعشاء أربع ، فنقول : من أين أتيتَ بهذا ؟ يقول : من السنة .

نقول : إذن لابد من اتباع السنة حتى تستطيع أنْ تصلى ، ولن تفهم التطبيق العملى لكثير من الأحكام إلا باتباع السنة ، فمن أين علم أن المغرب مثلاً ثلاث ركعات ؟ أمن القرآن الذى يتعصب له ، أم من السنة التى يُنكرها ؟ إذن : كيف يتعبد على قول رسول الله ثم ينكره ؟

والحق سبحانه يقول : ﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾﴾ [النساء] فالطاعة للرسول هى طاعة لله ، وهذا أمر منطقى لأن الرسول إنما يبلغ عمَّنْ أرسله .

وإذا ما توارد أمر الطاعة من الله مع أمر من رسوله نطيع الاثنين ، وإذا كان الله قد جاء بأمر إجمالى كالزكاة والحج ، وجاء الرسول ففصّل ، فنطيع الله فى الأمر الإجمالى ونطيع الرسول فى الأمر التفصيلى .

والقرآن ليس كتابَ أحكام فحسب كالكتب السابقة ، إنما هو كتاب إعجاز ، ومع ذلك أدخل فيه بعض الأصول والأحكام وترك البعض الآخر لبيان الرسول وتوضيحه فى الحديث الشريف وجعل له ﷺ حقاً فى التشريع بنصِّ القرآن : ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ..﴿٧﴾﴾ [الحشر]

فالحق سبحانه أعطى رسوله ﷺ تفويضاً عاماً بالتشريع وتفصيل ما أجمله الحق سبحانه فى القرآن من أحكام ، وهذه ميزة تميَّز بها رسول الله خاتم الأنبياء والمرسلين .

فتشريعه مأمور به ومأذون فيه من صُلْب القرآن ، ولذلك إذا جاء لك حكم من الأحكام وقال لك المتعنت : هات لى هذا الحكم من القرآن فقد نظرتُ فى كتاب الله فلم أجد . فقل له : دليل الحكم فى القرآن هو قول الله : ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا .. ﴿٧﴾﴾ [الحشر]

وأىّ حكم من الأحكام يأتى ولا تجد له سنداً من كتاب الله ويُقال لك : ما سنده ؟ قل : ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا .. ﴿٧﴾﴾ [الحشر]

والحكم حينما يرد فى القرآن مجملاً ويُفصِّله رسول الله قولاً ثم يطبقه فعلاً تكون المسألة منتهية ، فالفعل أقوى ألوان النص فى الأوامر ، لأن الأمر قد يأتى كلاماً نظرياً وقد يتأول فيه البعض ، لكن عندما يفعل الرسول يكون الحكم لازماً ، لأن الذى فعل هو المشرِّع .

أرجم رسول الله أم لم يرجم ؟ قد فعل رسول الله ذلك ، وفِعْله هو نصٌّ عملىّ ، إن الفعل ليس نصاً قولياً يتأول فيه ، لقد رجم الرسول ماعزاً والغامدية ، ورجم اليهودى واليهودية وكانا قد أحصنا بالزواج والحرية .

وفعْل الرسول ﷺ هو الأصل فى الحكم ، فدليلهم قد سقط به الاستدلال وبقى ما فعله المشرع وهو الرسول المفوَّض من الله فى أنْ يُشرِّع قولاً أو فعلاً أو تقريراً ، أى يرى أحداً يفعل فعلاً فيُقره عليه .

فللرسول مهمة داخلة فى إطار القرآن ، ومثال ذلك فى حياتنا نجد مَنْ يقول لموظف : إن الموظف الذى يغيب خمسة عشر يوماً فى قانون الدولة يفصلونه ، فيأتى موظف ومعه دستور البلاد ليرد ويقول : هذا هو الدستور وقد قرأته فلم أجد فيه هذا القانون ، وهذا الكلام الذى تقوله عن فصل الموظف غير دستورى .

نقول له : إن الدستور قال فى هذه المسألة : وتُؤلف هيئة تنظم أعمال العاملين فى هذا المجال . إذن : فبالتفويض توجد هيئة تضع نظاماً ليُطبَّق على العاملين فتكون هذه من الدستور ، فكلُّ بنود قانون العاملين تدخل فى التفويض الذى نصَّ عليه فى الدستور للهيئات أو اللجان التى تضع التشريعات الفرعية .

كذلك فنحن نصلى كما صلى رسول الله رغم أن كيفية الصلاة

وعدد ركعات كل صلاة لم ترد فى دستور الإسلام وهو القرآن ، بل جاء به قول رسول الله وفعله ونحن مأمورون بطاعة رسول الله .

ونحن كذلك نزكى بنصاب الزكاة الذى حدده رسول الله ، ونحج إلى بيت الله الحرام كما حج رسول الله ، أما عن الصلاة فقد قال رسول الله : « صلُّوا كما رأيتمونى أصلى[1] » وعن الحج قال ﷺ : « خذوا عنى مناسككم »[2] .

ومثل هذا أيضاً ما جاء فى قوله تعالى : ﴿قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ .. (١٤٥)﴾ [الأنعام]

وعلى منطق التحريم للميتة والدم كان لا بدّ ألاّ نأكل الميتة من السمك ، وألاّ نأكل الدم المتمثل فى الكبد والطحال ، وإذا كان الحق سبحانه قد حرَّم الميتة والدم مُجملاً . فإن رسول الله المفوَّض بالتشريع من الحق سبحانه قال :

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٩٥ ، ٥٥٤٩ ، ٦٧٠٥) من حديث مالك بن الحويرث قال : أتينا إلى النبى ﷺ ونحن شببة متقاربون فأقمنا عنده عشرين يوماً وليلة ، وكان رسول الله ﷺ رحيماً رفيقاً ، فلما ظن أنّا قد اشتهينا أهلنا أو قد اشتقنا سألنا عمن تركنا بعدنا فأخبرناه قال : ارجعوا إلى أهليكم فأقيموا فيهم وعلّموهم ومروهم - وذكر أشياء أحفظها أو لا أحفظها وصلوا كما رأيتمونى أصلى ، فإذا حضرت الصلاة فليؤذن لكم أحدكم وليؤمكم أكبركم .

(٢) أخرجه بهذا اللفظ البيهقى فى سننه الكبرى (١٢٥/٥) عن جابر بن عبد الله قال : أفاض رسول الله وأمرهم بالسكينة وأوضع فى وادى محسر وأمرهم أن يرموا الجمار مثل حصى الخذف وقال : « خذوا عنى مناسككم لعلّى لا أراكم بعد عامى هذا » . وأصله فى صحيح مسلم (٢٢٨٦) دون قوله (عنى) .

« أحلَّت لنا ميتتان ودمان ، فأما الميتتان فالحوت والجراد ، وأما الدمان فالكبد والطحال »[(١)] .

وذلك تخصيص من السنة لعموم القرآن ، فإنْ قال قائل : إن الله حرَّم الميتة ، والسمك والجراد ميتة ، فلماذا نأكلها ؟ نرد عليه : إن العرف جرى على أن السمك والجراد ليسا لحماً ، بدليل قولهم : « إذا كَثُر الجراد أرخص اللحم » وذلك يعنى أن الجراد ليس من اللحم .

أما بالنسبة للسمك فالسمك لم يكُن كالميتة التى حرمها الله ، لأن الميتة المحرمة هى كل ما يُذبح ويسيل دمه ، والسمك لا نفس سائلة له أى لا دم له ، والجراد أيضاً لا دم فيه .

إذن : فتحليل أكله وهو ميت إنما جاء بسبب عدم وجود نفس سائلة يترتب عليها انتقال ما يضر من داخله إلى الإنسان .

وكذلك الكبد والطحال أيضاً ليسا بدم ، فالدم له سيولة ، والكبد والطحال لحم متجمد متماسك ، خلاصة دم تكوّن منه عضو الكبد وعضو الطحال .

إذن : السنة لها دور فى بيان التحليل والتحريم ، فهناك تفويض من الحق سبحانه للرسول ﷺ ليكتمل البلاغ بمنهج الله بنصوص القرآن وبتفويض الله تعالى له أنْ يشرع .

ومن الأمثلة المهمة التى تبين دور حديث رسول الله فى بيان أحكام القرآن هو حالة طلاق المرأة ثلاثاً وكيف تحل لمطلقها ؟

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٥٤٦٥) وابن ماجه فى سننه (٣٣٠٥) من حديث عبد الله بن عمر رضى الله عنهما .

الحق سبحانه يقول : ﴿ الطَّلاقُ مَرَّتَانِ .. (٢٢٩) ﴾ [البقرة] ثم يقول بعدها : ﴿ فَإِن طَلَّقَهَا .. (٢٣٠) ﴾ [البقرة] أى الطلقة الثالثة ﴿ فَلا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِن طَلَّقَهَا فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يَتَرَاجَعَا إِن ظَنَّا أَن يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٢٣٠) ﴾ [البقرة]

فظاهر الآية فهم منه بعض الناس الذين يريدون أنْ يتحللوا من أحكام الدين فى أشياء قد ترهقهم ، فمثلاً الذى طلَّق امرأته ثلاث مرات واستوفى ما شرع له من مرات الطلاق حُكْمه أنه لا تحلّ له زوجته هذه إلا بعد أنْ تنكح زوجاً غيره .

فيأتى مَنْ يقول - بناءً على الآية السابقة - ما دام النكاح هنا بمعنى العقد فهو إذن كافٍ فى حالة المرأة التى طُلِّقت ثلاث مرات ، وأنها تحلّ لزوجها الأول بمجرد العقد على آخر .

فلو أن سنة رسول الله لم تتعرض لهذه المسألة لكان هذا الفهم جائزاً فى أن مجرد العقد يبيح عودة الزوجة لزوجها ثانية ، ولولا أن رسول الله وضع شرطاً لعودتها إلى زوجها الأول ، وهو أنْ تتزوج زواجاً حقيقياً لا زواجاً صورياً ، لولا هذا لتلاعب الناسُ كما نسمع عن المحلل [1].

---

(١) عن على رضى الله عنه رفعه إلى النبى ﷺ قال : « لعن الله المحلل والمحلَّل له » أخرجه أبو داود فى سننه (١٧٧٨) وابن ماجه فى سننه (١٩٢٥) وقد وصف رسول الله مَنْ يُحلِّل امرأة لزوجها الأول دون زواج حقيقى بالتيس المستعار ، فعن عقبة بن عامر رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « ألا أخبركم بالتيس المستعار ؟ قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : هو المحلل لعن الله المحلِّل والمحلّل له » .

لذلك قال رسول الله : « حتى تذوق عُسَيْلته ويذوق عُسَيْلتها »[(١)] زواج حقيقى تُمارس فيه عملية المباشرة الزوجية وهى أصعب ما تكون على الزوج ، وهو أمر مقصود من المشرِّع ﷺ المفوّض من الله تأديباً للرجل الذى يظن أمر الطلاق والنطق به أمراً هيناً .

ونلحظ هنا أن دقة التشريع أو صعوبته فى كثير من المسائل لا يريد الله منه أنْ يُصعِّب على الناس ، وإنما يريد أن يرهّب من أن تفعل ذلك ، يريدك أن تبتعد عن لفظ الطلاق ، وألا تلجأ إليه إلا عند الضرورة القصوى .

وهؤلاء الذين يقولون : بيننا وبينكم كتاب الله ويرفضون حديث رسول الله ، ألم يقرأ هؤلاء قول الحق سبحانه فى كتاب الله : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ..(٥٩) ﴾ [النساء]

فالتنازع فى شىء لا بدّ أنْ يكون فى قضية داخلة فى نطاق مأمورات الطاعة ، ويجب أنْ يكون لها مردّ يُنهى هذا التنازع ﴿ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ..(٥٩) ﴾ [النساء]

فردّ الأمر يكون إلى الله سبحانه وإلى الرسول ، فكيف يجترىء

---

(١) عن عائشة رضى الله عنها قالت : جاءت امرأة رفاعة القرظى النبى ﷺ فقالت : كنت عند رفاعة فطلقنى فأبتَّ طلاقى فتزوجت عبد الرحمن بن الزبير إنما معه مثل هدبة الثوب . فقال : أتريدين أن ترجعى إلى رفاعة ؟ لا حتى تذوقى عسيلته ويذوق عسيلتك » . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٤٤٥، ٤٨٥٦ ، ٤٨٦٠ ، ٤٩٠٥ ، ٥٣٤٦) وكذا مسلم فى صحيحه (٢٥٨٧ ، ٢٥٨٨) .

أحدٌ يريد هدم الإسلام ويريد أنْ لا يأخذ بسنة رسول الله ويظن أن التحليل والتحريم إنما هو ما ورد فى كتاب الله فقط .

وليحذر هؤلاء أنْ يكونوا ممنْ قال الله فيهم : ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ .. (٣٣)﴾ [المائدة]

فحرب النبى تكون فى ترك قول أو فعل أو تقرير له عليه السلام ، على سبيل الإنكار لأحاديث رسول الله .

ومثل هؤلاء الذين يقولون : إن أحاديث رسول الله كثيرة ونقول لهم : كانت مدة رسالة رسول الله ثلاثة وعشرين عاماً وكل كلامه حديث ، فكل كلمة خرجت من فمه حديث شريف ، ولو كنا سنحسب الكلام فقط لكان مجلدات لا حصر لها ، ناهيك عن أفضاله ﷺ .

وكل كلام سمعه وأقرّه من غيره حديث ، وكل فعل فعله غيره أمامه وأقرّه ولم يعترض عليه حديث ، فكم تكون أحاديث رسول الله ؟ إنها الأصل الثانى من أصول التشريع الإسلامى بعد القرآن ، فكيف نهدره من أجل أقوال شاذة خارجة وقد أنبأنا بها رسول الله ﷺ .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ.. (٧)﴾ [الحشر] أى : اتقوا الله فى المخالفة لأن المخالفة تبطل أعمالكم ، فطاعة الله لا تصح إلا بطاعة رسول الله ﴿إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٧)﴾ [الحشر]

عندما تسمع قول الله ﴿إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٧)﴾ [الحشر] فالذهن ينصرف إلى أن هناك ذنباً يستحق العقاب ، والعقاب هنا شديد لأن الذنب كبير وهو مخالفة رسول الله ، لأن الله يأمر بأن

نأخذ بما آتانا الرسول ﷺ وأن ننتهى عما نهى عنه رسول الله .

وعقاب الله للمخالف سيأتى فى وقت ليس للفرد فيه جاه من مال أو حسب أو نسب يحميه من الله ، فإن أطمعك ضعف المجتمع فى أن ترتكب الإثم أو تتعاون عليه فعليك أن تخاف الله لأن عقابه شديد .

ولكن كيف يأتى العقاب إلى المذنب ؟ والعقاب يتسلل إلى المذنب فى نفسه كمرض مؤلم لا يصرف المذنب فيه ما عنده من مال فقط ، لكنه قد يسأل الناس ليعالج نفسه ، أو يعالج من يحب ؟ وجنود عقاب الله قد لا تتأخر للآخرة بل تتسلل إلى حياة المذنب دون أن يعرفها ، وهذه هى شدة العقاب .

ونعلم أن العقاب لا يعم الناس إلا بقدر ذنوبهم ، فليس معنى أن الله شديد العقاب أن تصيب شدة العذاب من فعل ذنباً بسيطاً ، ولكن لكلٍّ جزاؤه على قدر ذنبه ، وهذا العقاب مهما كان بسيطاً فهو شديد أليم .

وإذا كان الحق سبحانه شديد العقاب لمن خالفه فإنه سبحانه غفور رحيم ، يقول الحق سبحانه : ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢١٨) ﴾ [البقرة] أى أنه غفور لما قد بدر وحصل منكم من ذنوب استغفرتم ربكم منها ﴿ رَّحِيمٌ (٢١٨) ﴾ [البقرة] بكم فلا يعاجلكم بالعقوبة شفقةً عليكم وحباً فى رجوعكم إليه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (٨) ﴾

فالأَوْلَى بهذا الفىء هم المهاجرون الذين أُخرِجوا من ديارهم وتركوا خلفهم كلَّ ما يملكون ﴿يَبْتَغُونَ ..(٨)﴾ [الحشر] يطلبون من خروجهم هذا ﴿فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ..(٨)﴾ [الحشر] يطلبون فضل الله أى الزيادة فى رزق الدنيا ، فالفضل فى المعاش الدنيوى ، أما الرضوان ففى نعيم الآخرة .

لذلك قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ .. (٧١)﴾ [النحل]

ثم يطلبون رضوان الله فى الآخرة ، لذلك ورد في الحديث القدسى أن الحق سبحانه وتعالى يسأل أهل الجنة عن أحوالهم فيها فيقولون : لقد أعطيتنا فوق ما كنا نستحق ، فيقول سبحانه : ألا أزيدكم ؟ فيقولون : وهل أزيد من هذا ؟ قال : نعم أُحِلّ عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم بعدها أبداً [(١)].

وقوله تعالى : ﴿وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ..(٨)﴾ [الحشر] أى : بهجرتهم وخروجهم من أموالهم وديارهم نُصرةً لدين الله ودعوة

---

(١) حديث متفق عليه ، أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٠٦٧، ٦٩٦٤) وكذا مسلم فى صحيحه (٥٠٥٧) من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه ، ولفظ الحديث : « إن الله يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة . فيقولون : لبيك ربنا وسعديك والخير فى يديك . فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : وما لنا لا نرضى يارب وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك ؟ فيقول : ألا أعطيكم أفضل من ذلك ؟ فيقولون : يا رب وأى شىء أفضل من ذلك ؟ فيقول : أحل عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم بعده أبداً » .

رسول الله ﴿أُوْلَـٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾﴾ [الحشر] صادقون فى إيمانهم ، صادقون فى خروجهم وتحمُّل تبعاته .

ولولا هذا الصدق فى الإيمان ما هانَ عليهم كل شىء فى سبيل الإيمان ، وما خرجوا من ديارهم وأموالهم .

لذلك بعد الهجرة نظر سيدنا رسول الله إلى مصعب بن عمير[(١)] وهو يلبس ملابس خشنة من جلد جاف ، فقال : انظروا ما فعل الإيمان بصاحبكم[(٢)] ، وكان مصعب بن عمير من أغنى أغنياء مكة ، ويسمونه فتى قريش المدلل ، حتى أن الناس كانوا يدفعون مالاً لتُغسل ملابسهم مع ملابس مصعب لكثرة ما فيها من عطور[(٣)] .

---

(١) مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف القرشى من بنى عبد الدار صحابى شجاع من السابقين إلى الإسلام ، أسلم فى مكة وكتم إسلامه فعلم به أهله وأوثقوه وحبسوه فهرب مع من هاجر إلى الحبشة ، ثم هاجر إلى المدينة وأسلم على يده أسيد بن حضير وسعد بن معاذ ، استشهد يوم أحد عام (٣ هجرية) كان يلقب (مصعب الخير) . [الأعلام للزركلى ٢٤٨/٧] .

(٢) عن عمر بن الخطاب قال : نظر النبى ﷺ إلى مصعب بن عمير مقبلاً وعليه إهاب (جلد) كبش قد تنطق به ، فقال النبى ﷺ : انظروا إلى هذا الرجل الذى قد نوَّر الله قلبه ، لقد رأيته بين أبوين يغذوانه بأطيب الطعام والشراب فدعاه حب الله ورسوله إلى ما ترون . أورده ابن الجوزى فى صفة الصفوة (٢٠٦/١) وأبو نعيم فى الحلية (١٠٨/١) .

(٣) أخرج الحاكم فى مستدركه على الصحيحين (٤٨٩٢) عن محمد العبدرى قال : كان مصعب بن عمير فتى مكة شباباً وجمالاً ، وكان أبواه يحبانه ، وكانت أمه تكسوه أحسن ما يكون من الثياب وأرقه ، وكان أعطر أهل مكة ، وكان رسول الله ﷺ يذكره ويقول : « ما رأيت بمكة أحسن لمة ، ولا أرق حلة . ولا أنعم نعمة من مصعب بن عمير » . وكذا ابن سعد فى الطبقات الكبرى (١١٦/٣) .

ثم يقول الحق سبحانه[1]:

﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ ﴾

الكلام هنا عن الأنصار أهل المدينة ، يقول تعالى مادحاً موقفهم من إخوانهم المهاجرين ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ .. ﴿٩﴾ ﴾ [الحشر] تبوأ يعنى : سكن واستوطن واستقر ، والدار هى دار الهجرة مدينة رسول الله ﷺ ﴿ وَالإِيمَانَ .. ﴿٩﴾ ﴾ [الحشر] فجعل الإيمان أيضاً شيئاً محسوساً يُتبوأ .

فالدار للقالب يأوى إليها الإنسان ليستريح من عناء اليوم وحركة الحياة ، والإيمان للقلب ، فكما أن الدار مرجع للقالب ، فالإيمان مرجع

---

(١) **سبب نزول الآية** : أورد السيوطى فى (أسباب نزول القرآن) عن يزيد بن الأصم أن الأنصار قالوا : يا رسول الله اقسم بيننا وبين إخواننا من المهاجرين الأرض نصفين . قال : ولكنهم يكفونكم المؤونة وتقاسمونهم الثمرة والأرض أرضكم . قالوا : رضينا ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ ..﴿٩﴾ ﴾ [الحشر]

أما قوله ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ..﴿٩﴾ ﴾ [الحشر] فعن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ دفع إلى رجل من الأنصار رجلاً من أهل الصُّفة ، فذهب به الأنصارى إلى أهله . فقال للمرأة : هل من شىء ؟ قالت : لا إلا قوت الصبية . قال : فنوميهم فإذا ناموا فأتينى فإذا وضعت فأطفئ السراج . قال : ففعلت وجعل الأنصارى يقدم إلى ضيفه ما بين يديه ، ثم غدا به إلى رسول الله ﷺ فقال : لقد عجب من فعالكما أهل السماء ونزلت ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ..﴿٩﴾ ﴾ [الحشر] [أخرجه البخارى فى صحيحه ٤٥١٠] .

للقلب يُرجع إليه فى كُلِّ قضاياه ومواقفه ويلتزمه ويرضى به حكَماً ومُنظِّماً لحركة الحياة ﴿ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ .. (٩) ﴾ [الحشر] أى أن الأنصار يحبون المهاجرين

﴿ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا .. (٩) ﴾ [الحشر] أى : أن الأنصار تطيب نفوسهم بما أخذه إخوانهم المهاجرون من أموال الفىء فلا يجدون فى أنفسهم حقداً ولا حسداً ولا ضغينة ، ولا يمنُّون عليهم بما أعطوهم .

فلم يُقلْ أحد منهم : فلان أخذ منى كذا وكذا ، وكلهم أخذوا من الأنصار إلا مَنْ عفَّ مثل عبد الرحمن بن عوف[1] الذى قال لأخيه ابن الربيع : احفظ عليك مالك وأهلك ودُلَّنى على السوق ، ثم كان بعدها من أغنى أغنياء المدينة[2] .

وكان له نحو ألف من العبيد ، ولما سألوهم عن حال عبد الرحمن معهم فقال أحدهم : والله لو أقبلتَ علينا وهو بيننا ما عرفته .

ومع ذلك رآه رسول الله ﷺ يُبطئ فى دخول الجنة فسأله : ما أبطأك يا ابن عوف . قال : سألونى يا رسول الله عن هذا وهذا .

---

(١) أحد العشرة المبشرين بالجنة ، ولد ٤٤ قبل الهجرة ، من أكابر الصحابة ، أحد الستة أصحاب الشورى الذين جعل عمر الخلافة فيهم وأحد السابقين إلى الإسلام ، شهد بدراً وأُحداً والمشاهد كلها ، أعتق فى يوم واحد ثلاثين عبداً . تصدق يوماً بقافلة فيها ٧٠٠ راحلة تحمل الحنطة والدقيق والطعام . [الأعلام للزركلى ٣/٣٢١] .

(٢) عن أنس بن مالك أن عبد الرحمن بن عوف هاجر إلى المدينة فآخى رسول الله ﷺ بينه وبين سعد ابن الربيع فقال له سعد : يا عبد الرحمن إنى من أكثر الأنصار مالاً وأنا مقاسمك وعندى امرأتان فأنا مطلق إحداهما فإذا انقضت عدتها فتزوجها فقال له : بارك الله لك فى أهلك ومالك ، أخرجه البخارى فى صحيحه بألفاظ أخرى (٣٤٩٦ ، ٣٤٩٧ ، ٤٦٨٤) وفيه : بارك الله لك فى أهلك ومالك ، دلونى على السوق .

ولم يقف الأمر بالأنصار عند هذا الكرم والجود وإنما تعدَّاه إلى الإيثار قال تعالى بعدها : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ .. (٩) ﴾ [الحشر] فالجود أنْ تعطى بعض ما عندك ، أما الإيثار فأنْ تعطى كلّ ما عندك ولا تُبقى على شىء .

فالأنصار كانوا يُؤثرون إخوانهم المهاجرين على أنفسهم ويُعطونهم ما يحتاجونه .

وكلمة (خصاصة) مأخوذة من (الخُص) وهو عشة صغيرة يصنعونها من عيدان الحطب ، فهو شبه البيت لكنه لا يحمى صاحبه ولايصون أهله ، لذلك فهو بيت الفقير الذى لا يستطيع البناء .

فالخصاصة أى الفقر الشديد ، فرغم ما كان بهم من الفقر والحاجة إلا أنهم كانوا يُؤثرون إخوانهم على أنفسهم . وقلنا إنهم أى الأنصار قدَّموا لنا نموذجاً للعطاء لم يسبق له مثيل على مَرِّ التاريخ .

ثم تُقرر الآيات هذه الحقيقة ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٩) ﴾ [الحشر] المفلح من وقاه الله وجنَّبه هذه الصفة الذميمة ، وكلمة الشح البعض يقول البخل ، لكن الشحّ أعم وأشدّ من البخل لأن البخل ينشأ عنها ، نقول : شحَّ الشىء إذا قَلَّ ، وما دام قَلَّ فلا بد أنْ تحافظ على هذا القليل حتى لا ينتهى وينفد من بين يديك .

فالشح إذن يُدخِل فى جوارحك وتصرفاتك البخل ، ونستطيع أن نقول : الشح طبع القلب ، والبخل طبع القالب .

كلمة ﴿ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الحشر] مأخوذة من فلاحة الأرض واستخراج خيراتها ، لذلك نقول فى الأذان : حىَّ على الفلاح . أى : الفوز بكلِّ خير .

﴿ وَالَّذِينَ جَاءُو مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾

مَنْ هم الذين جاءوا بعد المهاجرين والأنصار ؟ المهاجرون والأنصار هم جيل الصحابة ، والذين جاءوا من بعدهم هم التابعون لهم ، جيل التابعين هم أفضل الأجيال بعد صحابة رسول الله ويأخذ حكمهم فى الأفضلية كل مَنْ سار على منهجهم ، وبقدر التمسك بالمنهج تكون الأفضلية .

ومن دعاء هؤلاء التابعين قولهم ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ .. ﴿١٠﴾ ﴾ [الحشر] يدعُون لهم لأن سبقهم للإيمان هو الذى أبقى لنا الإيمان الذى نفرح به ونعتز به ، فهذا الجيل أصحاب فضل على كل مسلم بعدهم ، لأنهم إما قتيل فى سبيل الله قدَّم حياته فى سبيل نُصْرة هذا الدين ، وإما عالم أفنى أيضاً حياته فى سبيل صيانة العلم ونَشْره .

ثم يقول : ﴿ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا ..﴿١٠﴾ ﴾ [الحشر]

لأنهم نالوا المنزلة العليا التى لم يبلغها غيرهم ، فانزع يارب غلّ قلوبنا فلا نحقد عليهم ولا نحسدهم .

والغل : الحقد على شخص لأنه أدرك ما لم تستطع أنت إدراكه ، والغلّ من غليان النفس[1] .

﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾ [الحشر] الرأفة : دفع الأذى ومنع العقوبة . والرحمة أنْ تبدل العقوبة إلى مثوبة ، مثلاً عندك عامل قصَّر فى عمله تقصيراً يستحق عليه العقاب فترأف به بأنْ ترفع عنه العقوبة ، ثم يرقّ له قلبك فتعطيه منحة .

---

(١) عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : بينا نحن عند رسول الله ﷺ فقال : يطلع الآن رجل من أهل الجنة فطلع رجل من الأنصار تنطف لحيته ماء من وضوئه ، معلِّق نعليه فى يده الشمال ، فلما كان من الغد قال رسول الله ﷺ : يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة فطلع ذلك الرجل على مثل مرتبته الأولى ، فلما كان من الغد قال رسول الله ﷺ مثل ذلك فطلع ذلك الرجل ، فلما قام الرجل اتبعه عبد الله بن عمرو بن العاص فقال : إنى لاحيت أبى فأقسمت أن لا أدخل عليه ثلاثاً ، فإن رأيت أن تؤوينى إليك حتى تحل يمينى فعلت . فقال : نعم .

قال أنس : فكان عبد الله بن عمرو يحدث أنه بات معه ليلة فلم يره يقوم من الليل شيئاً غير أنه كان إذا تقلب على فراشه ذكر الله وكبَّر حتى يقوم لصلاة الفجر فيسبغ الوضوء غير أنى لا أسمعه يقول إلا خيراً ، فلما مضت الليالى الثلاث كدت أحتقر عمله قلت : يا عبد الله إنه لم يكن بينى وبين والدى غضب ولا هجرة ولكنى سمعت رسول الله ﷺ يقول لك ثلاث مرات فى ثلاث مجالس : يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة فطلعت أنت تلك المرات الثلاث . فأردت أن آوى إليك فأنظر ما عملك فإذا ما هو إلا ما رأيت فانصرفت عنه فلما وليت دعانى فقال : ما هو إلا ما قد رأيت غير أنى لا أجد فى نفسى غلاً لأحد من المسلمين ولا أحسده على خير أعطاه الله إياه . فقال له عبد الله بن عمرو : هذه التى بلغت بك وهى التى لا نطيق » . [أحمد فى مسنده ١٢٢٣٦] .

ثم يعود السياق بنا مرة أخرى إلى الحديث عن المنافقين :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١١) لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ (١٢) ﴾

الحق سبحانه وتعالى يفضح اليهود والمنافقين ويُفشى أسرارهم ويخبر رسوله ﷺ بما قالوه سراً فيقول له : ﴿ أَلَمْ تَرَ .. (١١) ﴾ [الحشر] ومعناها أن إخبار الله لنبيه بشيء أوثق من رؤيته له ﴿ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا .. (١١) ﴾ [الحشر] وكان على رأسهم ثلاثة : عبد الله بن أُبى ، وعبد الله بن الأكتع ، ورافع بن زيد[1] .

فهؤلاء انتهزوا الفرصة وقالوا لبنى النضير : إذا أخرجكم محمد لا تخرجوا ، فلما أمرهم رسول الله بالخروج قالوا : أنظرنا يا أبا القاسم ، فالموت أهون علينا من هذا وأمامنا عشرة أيام لكى نستعد .

---

(١) ذكر السيوطى فى الدر المنثور عند تفسير الآية (الحشر ١١) أسماء هؤلاء المنافقين أنهم عبدالله بن أبىّ بن سلول ورفاعة بن تابوت وعبدالله بن نبتل وأوس بن قيظى ، وعزاه لعبد ابن حميد وابن جرير وابن المنذر فى تفاسيرهم عن مجاهد . قلت : هذا هو الصواب فإن رافع بن زيد صحابى جليل شهد بدراً .

فأنظرهم رسول الله عشرة أيام ، فلما لم يخرجوا حاصرهم واحداً وعشرين يوماً حتى يئسوا ورفعوا راية التسليم .

الحق سبحانه وتعالى يكشف نفاق المنافقين فيقول : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ..(١١)﴾ [الحشر] أى : يقولون لليهود ووصفهم بالكفر لأنهم وإنْ كانوا فى بدايتهم على دين سماوى إلا أنهم لما جاءهم ما عرفوا من بعثته ﷺ وما بشرتْ به كتبهم كفروا به فسماهم كافرين .

لذلك قال تعالى فى أهل الكتاب : ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣)﴾ [آل عمران]

ومن هؤلاء عبد الله بن سلام[1] وتعلمون قصة إسلامه ، وهو القائل : والله إنى لأعرف محمداً حين رأيته كمعرفتى لابنى ومعرفتى لمحمد أشد .

ماذا يقولون لهم ؟ ﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ ..(١١)﴾ [الحشر] أى : أخرجكم محمد من المدينة وما حولها ﴿لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ ..(١١)﴾ [الحشر] قالوا هذا الكلام سراً بينهم وبين بعض .

وجعلهم إخواناً فقال تعالى : ﴿يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ ..(١١)﴾ [الحشر]

---

(١) عبد الله بن سلام أبو يوسف صحابى قيل إنه من نسل يوسف بن يعقوب ، كان اسمه « الحصين » أسلم عند قدوم النبى ﷺ المدينة ، سماه رسول الله ﷺ (عبد الله) ، شهد مع عمر فتح بيت المقدس والجابية ، ولما كانت الفتنة بين على ومعاوية اتخذ سيفاً من خشب واعتزلها وأقام بالمدينة إلى أن مات عام ٤٣ هجرية . [الأعلام للزركلى ٤ / ٩٠]

لأنهم بالفعل إخوان ، إخوان فى معاداة رسول الله ودعوة الحق ، أو إخوان لأنهم عقدوا عقد ولاء فيما بينهم ، أو إخوان فى الكفر بهذه الرسالة .

وقولهم : ﴿ وَلا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا ..(١١) ﴾ [الحشر] لانطيع أحداً يأمرنا بقتالكم ﴿ وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ .. (١١) ﴾ [الحشر] ثم يشهد الله ويحكم على هذا القول أنه كذب ﴿ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١١) ﴾ [الحشر] لأنهم منافقون والكذب يجرى فى عروقهم .

ثم يفضح كذبهم ويكشف نواياهم ﴿ لَئِنْ أُخْرِجُوا لا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الأَدْبَارَ ..(١٢) ﴾ [الحشر] يفرون من المعركة ﴿ ثُمَّ لا يُنصَرُونَ (١٢) ﴾ [الحشر] وصدق الله فيما أخبر عنهم ، وهذا هو دأب المنافقين فى كل زمان ومكان ، يكذبون حتى على الله ، ويقولون ما لا يفعلون .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ (١٣) ﴾

هذا يعنى أنهم مهما تبجحوا وتظاهروا بالقوة إلا أنهم فى أنفسهم يَرْهبُون المسلمين ويخافونهم أشدّ من خوفهم من الله ، وهذا المعنى عبَّرت عنه الآيات فى قوله تعالى : ﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ ..(١٤) ﴾ [التوبة]

فلو أراد الحق سبحانه لانتقم منهم وأخذهم أخْذَ عزيز مقتدر ، وساعتها سيقولون آية طبيعية لكن الحق سبحانه يريد أنْ يُذلهم ويذيقهم العذاب بأيدى المسلمين لأنهم هم المواجهون لهم .

لذلك يخافون منكم أشدّ من خوفهم من الله ، لأنهم قوم ماديون لايؤمنون إلا بالمادة وبما يشاهدونه ، لذلك حينما تقرأ فى التلمود[1] تجده يتكلم فى مسائل مادية ، ولا ذِكر فيه لأمور تتعلق بالآخرة .

﴿ ذَلِكَ .. ﴿١٣﴾ ﴾ [الحشر] أى : خوفهم من المسلمين وعدم خوفهم من الله ﴿ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ [الحشر] نعم لا يفقهون لأن المسلمين لم يحاربوهم إلا بتوجيه من الله .

﴿ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

لأنهم يخافون المسلمين ويرهبونهم يجبنون عن مواجهتهم فى حرب مفتوحة فى الصحراء ليس عندهم الشجاعة لمواجهة الجندى المسلم ، لذلك ﴿ لا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلاَّ فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ .. ﴿١٤﴾ ﴾ [الحشر]

وتحصين القرية يكون بحفر خندق حول القرية بحيث لا يستطيع

---

(١) التلمود هو تدوين لنقاشات حاخامات اليهود حول الشريعة اليهودية والأخلاق والأعراف وقصص من التراث اليهودى وهو مركب من عنصرين (الميشناه) و (الجمارا) وتمتاز المشنا بالإيجاز فهى تعبر عن القانون الواحد بقليل من السطور ، أما الجماريان فتذكران مختلف آراء كبار الأحبار عن نصوص المشنا .

أحدٌ أنْ يدخلها ، فلا بد أنْ يكون الخندق واسعاً وعميقاً ورأسياً بحيث لا يستطيع الفرس القفز فوقه ، أو النزول فيه . أو تُحصّن القرية ببناء سور حولها لا يستطيع أحدٌ تسلُّقه أى من وراء جُدر ، وأيضاً كانوا يُحصِّنون بيوتهم بسدِّ الأبواب بالمتاريس الخشب فلا يستطيع أحدٌ دخولها .

وقوله تعالى : ﴿ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ..(١٤) ﴾[الحشر] أى أنهم يُظهرون المحبة فيما بينهم وهم فى الحقيقة يكره بعضهم بعضاً ويحقد بعضهم على بعض .

﴿ تَحْسَبُهُمْ ..(١٤) ﴾ [الحشر] أى : فى الظاهر ﴿ جَمِيعًا ..(١٤) ﴾ [الحشر] متحدين ﴿ وَقُلُوبُهُم .. (١٤) ﴾ [الحشر] فى الحقيقة ﴿ شَتَّىٰ .. (١٤) ﴾ [الحشر] مختلفة ومتفرقة ، كما كان بين بنى قريظة وبنى النضير ، وأمر طبيعى أنْ يختلف مثل هؤلاء ، وأنْ تتفرّق قلوبهم ، فليس هناك حقٌّ يجمعهم ويُؤلِّف قلوبهم وجوارحهم .

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ (١٤) ﴾ [الحشر] هناك قال : ﴿ لَا يَفْقَهُونَ (١٣) ﴾ [الحشر] وهنا ﴿ لَّا يَعْقِلُونَ (١٤) ﴾ [الحشر] فنفى عنهم التعقل الذى يُميِّزون به بين الحق والباطل والصواب والخطأ .

والعقل كما ذكرنا هو المرحلة الوسطى بين الحواس ، وهو الذى يغربل المدركات ، ويفاضل بينها ، فما اقتنع به ألقاه إلى القلب فيصير عقيدة راسخة ، فماذا تنتظر من قوم لا يعقلون ؟

﴿ كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ (١) قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٥) ﴾

---

(١) اختلف أهل التأويل فى المقصود بـ (الذين من قبلهم) :

- قصد بذلك بنى قينقاع . قاله ابن عباس .
- قصد بهم مشركى قريش ببدر . قاله مجاهد .

قال الطبرى : أولى الأقوال بالصواب أن الله لم يخصص منهم بعضاً فى تمثيل هؤلاء بهم دون بعض .

وذكر ابن الجوزى فى زاد المسير ثلاثة أقوال ، فزاد أنهم بنو قريظة ولكن الصواب ما قاله ابن جرير الطبرى .

الحق سبحانه وتعالى يُشبِّه حال اليهود بحال إخوانهم من المشركين فى مكة ﴿قَرِيبًا ..(١٥)﴾ [الحشر] من عهد قريب ﴿ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ ..(١٥)﴾ [الحشر] أى سوء عاقبة شركهم ومصادمتهم لدعوة الحق ، وهذا إشارة إلى ما حدث لهم فى غزوة بدر .

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٥)﴾ [الحشر] يؤلمهم ، والعذاب - أعاذنا الله وإياكم منه - ورد فى القرآن الكريم بعدة أوصاف لكلٍّ منها مغزى يناسب حال المعذّبين والعياذ بالله ، فواحدٌ عذابُه شديد ، وواحدٌ عذابه أليم ، وواحدٌ عذابه مهين .

وقلنا : إن من الناس مَنْ لا يؤلمه الضرب ولكن تُؤلمه كلمة جارحة ، لذلك دخل رجل على معاوية[١] وأراد أنْ يُظهر له قوة تحمّله وتجلُّده للأعداء الكارهين له ، فقال مُتمثلاً بالشاعر أبى ذؤيب الهذلى[٢] :

وتجلُّدِى لِلشَّامِتِينَ أُرِيهُمُوا أَنِّى لرِيْبِ الدَّهْرِ لاَ أتضعْضَعُ[٣]

فردَّ عليه معاوية ببيت آخر من نفس القصيدة لنفس الشاعر :

وَإِذَا المنَيَّةُ أنشَبَتْ أظْفَارهَا ألْفيْتَ كلَّ تمِيمَةٍ لاَ تَنْفَعُ[٤]

---

(١) معاوية بن أبى سفيان بن حرب بن أمية ، قرشى أموى ، مؤسس الدولة الأموية فى الشام ، ولد ٢٠ قبل الهجرة بمكة وأسلم يوم فتحها (٨ هـ) ، وقعت خصومة بينه وبين على بن أبى طالب وبعد مقتل على بويع بعده ابنه الحسن فسلم الخلافة إلى معاوية عام ٤١ هجرية حقناً للدماء ، دامت له الخلافة إلى سن الشيخوخة ، توفى (٦٠ هجرية) عن ٨٠ عاماً [الأعلام للزركلى ٧ / ٢٦٢] .

(٢) هو خويلد بن خالد أبو ذؤيب من بنى هذيل بن مدركة من مضر ، شاعر فحل مخضرم أدرك الجاهلية والإسلام وسكن المدينة واشترك فى الغزو والفتوح ، عاش إلى أيام عثمان ، مات بمصر عام (٢٧ هجرية) أشهر شعره عينية يرثى بها خمسة أبناء أصيبوا بالطاعون فى عام واحد ، ومنها البيت الذى معنا (وتجلدى للشامتين ...) .

(٣) بيت من قصيدة من بحر الكامل أولها :

أمن المنون وريبها تتوجع والدهر ليس بمعتب من يجزع

وهى قصيدة طويلة . والضعضعة الخضوع والتذلل . والضعضاع : الضعيف من كل شىء . [راجع لسان العرب] .

(٤) المنية : الموت . أنشبت أظفارها أى علقت بأظفارها فى الإنسان فلا تنفع أى تميمة تتخذها لتحميك منه .

﴿ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ ﴾

أى : أن ما حدث من المنافقين حينما عاهدوا اليهود إنْ أُخرجوا ليخْرُجُنّ معهم ، ولئن قُوتلوا لينصرُنَّهم ثم تركوهم وتخلَّوْا عنهم مثل ما حدث من الشيطان حينما أغوى ابن آدم وأوقعه فى المحظور ، فلما طاوعه وكفر قال : إنى برىء منك لأنه أخذ حظّه منه وذهب ليبحثَ عن غيره .

إذن : هذا مَثَلٌ ، والمثَل يضربه الحق سبحانه لنا لتجلية أمر مجهول بآخر معلوم ، كما فى قوله تعالى : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ ..(٢٦١) ﴾ [البقرة] فجزاء الصدقة غير معلوم يوضحه ما نشاهده من نبات الأرض وما يحدث فيها من مضاعفة الحبة إلى سبعمائة ضعف .

وقوله : ﴿ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (١٦) ﴾ [الحشر] يخاف الله رب العالمين لأنه لما طُرِدَ من الجنة قال ﴿ قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤) ﴾ [الأعراف]

وقول الشيطان هنا ﴿ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (١٦) ﴾ [الحشر] فحظ الشيطان أن يُوقعك فى المعصية ثم يتبرأ منك ، والشيطان خذول لمن يتبعه .

فإنه يمد لك حبال الأمل ، فإذا ما جاء وقت الحاجة إليه تخلّى عنك وتركك ، كذلك يفعل الشيطان بأوليائه .

يقول تعالى : ﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ .. (٤٨) ﴾ [الأنفال] وفى موضع آخر يقول لأتباعه : ﴿ مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ..(٢٢) ﴾ [إبراهيم]

فالشيطان يؤكد أنه لن يفزع لأحد من الذين اتبعوه لينجده ، فالشيطان لن ينجد أحداً من عذاب الله ، إنهم يستصرخونه لينقذهم بعد أن اتبعوه واستجابوا لتزيين الشر لهم ، وها هو يتخلى عنهم ويقول ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ..(٢٢) ﴾ [إبراهيم]

﴿ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا (١) وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ (١٧) ﴾

أى عاقبة الشيطان وعاقبة من اتبعه من الإنس على الكفر بالله وبرسوله وبأوامر الله سبحانه ، فجمع الحق سبحانه بينهما فى مصير واحد وهو الخلود فى النار ، لأن كليهما تمرد على الله سبحانه .

فمن أنكر الدين وأنكر منهج الله سبحانه سيُجازى بالخلود فى النار ، فحين يأتيك أمر مخالف لمنهج الله فعليك أن تُعلى منهج الله فوق كل أمر ، واعلم أن الشيطان الذى زيَّن لك الوقوع فى مخالفة منهج الله سيسبقك إلى النار وسيخلد فيها ، فلا أنت قادر على إخراجه منها ولا هو قادر على إنقاذك منها .

لقد ظلمتَ نفسك بالكفر بالله وبتكذيبه وتكذيب رسوله وردّك أوامر الله ، والخلود فى النار هو جزاء الظالمين ، والظالمون هنا

---

(١) ضمير (هما) في قوله (عاقبتهما) يعود على الشيطان والإنسان الذى أطاعه فكفر بالله أنهما خالدان فى النار . قاله الطبرى في تفسيره لآية الحشر ١٧ .

بمعنى الكافرين الذين ارتكبوا الذنب الأكبر وهو الكفر بالله والشرك .

وقد قال عز وجل : ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣) ﴾ [لقمان]

وعلاقة الشرك بالظلم أنك جئتَ بمن لم يخلق ومَنْ لم يرزق شريكاً لمن خلق ورزق ، وجعلت البشر شركاء مع الله فى التشريع ، فحرَّمت ما أحل الله ، وأحللت ما حرم الله .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ (١٨) وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ (١٩) ﴾

النداء بـ ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ..(١٨) ﴾ [الحشر] أمر إلهى يجب أنْ نسمع إليه وأنْ ننظر فيه ماذا يريد الله منّا ، فكما أخذنا منه سبحانه عطاءَ الربوبية يجب علينا أنْ نأخذ أيضاً عطاءَ الألوهية وهو التكاليف الشرعية ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ..(١٨) ﴾ [الحشر]

فبعد أنْ ناداهم بوصف الإيمان أمرهم بالتقوى ، وهذا يعنى أن الإيمان النظرى لا يكفى ولا بد أنْ يُسانده الإيمان العملى التطبيقى لأوامر الله .

﴿ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ..(١٨) ﴾ [الحشر] الأمر هنا مُؤكّد بلام التوكيد ونفس نكرة تفيد العموم ، فمطلوب من كلِّ نفس إنسانية أنْ تنظر ماذا قدمتْ ليوم القيامة .

وقال ﴿ لِغَدٍ .. (١٨) ﴾ [الحشر] للدلالة على قُرْبه ، وهذا يعنى أن

منهج الله الذى ارتضاه لكم لينظم حركة حياتكم ويُسعدكم فى دنياكم ليس هو نهاية المطاف ، والذين صادموا هذا المنهج وخرجوا عن إطاره وعاثوا فى الأرض فساداً ، أو عاشوا على عرق الآخرين ودمائهم لم ينته أمرهم بانتهاء الحياة الدنيا ، بل هناك (غد) .

هناك الحساب والجزاء ، فلا تُغيّبوا هذه الحقيقة عن أذهانهم وسِيروا فى حركة الحياة على هُدىً منها ، وإياكم أنْ تفارق أنظاركم.

ولأهمية هذه القضية كرر بعدها الأمر بالتقوى ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ .. (١٨)﴾ [الحشر] فالنظر إلى الأعمال ومراقبتها أمر بين أمرين بتقوى الله ، والتقوى كما قلنا هى الجانب العملى فى الإيمان كأنه سبحانه يقول لك : إياك أنْ تعرف غايتك ولا تعمل لها وتسعى إليها .

وبهذا المنهج يسعد الناس ويأمن الإنسان على ماله وعرضه ، ونفهم من ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ .. (١٨)﴾ [الحشر] أن كلَّ نفس تنظر إلى نفسها فى مسائل الإيمان ، انظر ماذا تريد وما هو هدفك ؟ وما هى غايتك ؟ لأن للآخرين أيضاً أهدافهم وأغراضهم فى الحياة .

فأنت الذى تملك نفسك ، وإياك أنْ تأخذ نفسك بنفس الغير ، فلكلٍّ واحد منّا غَرضه فى الحياة وقد يلُفّ غرضه ويُغلِّفه بأشياء أخرى ، فاجعل نفسك واحدة ، لأن غيرك لا يُسأل عنك ولا تُسأل عنه ، لذلك أفرد كلمة ﴿نَفْسٌ .. (١٨)﴾ [الحشر]

والحق سبحانه وتعالى حينما يخاطبنا : ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ .. (١٨)﴾ [الحشر] إنما يدعونا لمحاسبة النفس والنظر فيما قدمت لتدارك ما قد نراه فى سلوكنا من تقصير أو انحراف عن جادة الطريق .

فعمر الإنسان أقصر من أنْ يضيع ويتفلَّت من يده دون أنْ يشعر ،

فربّك عز وجل خلقك وتركك تتمتع بنعم الدنيا حتى سِنّ الخامسة عشرة دون أنْ يُكلّفك بشىء .

فما كلفك إلا بعد أنْ استويت واكتمل تكوينُك ومداركك ، ثم جعل لك وقفة مع نفسك فى سِنِّ الأربعين وهى سِنُّ النضج الأعلى وهى سِنُّ النبوة .

اقرأ : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي[1] أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (١٥) ﴾ [الأحقاف]

ثم يقرِّر سبحانه الجزاء ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ (١٦) ﴾ [الأحقاف]

انظر إذن إلى هذا الفضل من الله على عباده ، وهل بعد سِنِّ الأربعين عُذْر لمعتذر ، ثم مَنْ يضمن البقاء حتى بلوغ الأربعين ؟ إذن : على العاقل أنْ يسابق الزمن بالأعمال الصالحات وأنْ يخطفها من الأيام خَطْفاً فقد لا تأتى سِنُّ الأربعين .

الحق سبحانه وتعالى عبَّر عن الدار الآخرة بكلمة ﴿ غَدٍ ..(١٨) ﴾ [الحشر] ليدل على قربها بل الغد أبعد منها ، لأنها قد تأتيك بعد طرْفة عين ، وفى الحديث الشريف يقول ﷺ : « الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله والنار مثل ذلك »[2]

---

(١) أوزعنى : ألهمنى . قال ابن قتيبة : الأصل فى الإيزاع هو الإغراء بالشىء . ويقال : فلان موزع بكذا أى مولع به . [تفسير الماوردى للآية ١٥ سورة الأحقاف] .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٠٠٧) والإمام أحمد فى مسنده (٣٤٨٥ ، ٣٧٢٨) وكذا البيهقى فى شعب الإيمان (٩٨٧٧) وأبو يعلى فى مسنده (٥١٥٧) وابن حبان فى صحيحه (٦٦٢) من حديث عبد الله بن مسعود . وشراك النعل : سير النعل يكون فى وجه النعل يمسك النعل بالقدم . [لسان العرب – مادة شرك] .

ونفهم من كلمة ﴿لِغَدٍ ..(١٨)﴾ [الحشر] أنك فى الدنيا تعيش بالأسباب وفى غد تعيش بالمسبّب سبحانه ، فليس هناك شمس ولا قمر ولا أرض تزرع ولا عمل ولا سعى .

لذلك لما تكلم الحق سبحانه عن الآخرة قال : ﴿وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا .. (٦٩)﴾ [الزمر] لأن الشمس ليس لها وجود ، والنور هناك نور الذات الإلهية .

قوله سبحانه : ﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ (١٩)﴾ [الحشر] هناك أمر بتقوى الله وتطبيق منهجه ، وهنا نهى عن نسيان الله ، يعنى : حين تُطبِّق منهج الله ينبغى ألاَّ يغيب اللهُ عن بالك أبداً لأنه ربُّك وإلهك الذى تعمل له .

ونلاحظ هنا أن الآية الكريمة لم تقُلْ لنا لا تنسوا الله ، وانما ﴿لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ ..(١٩)﴾ [الحشر] فكأن نسيانَ الله أمر غير متوقّع أن يحدث من الذين آمنوا .

والنسيان أن تكون عندك معلومة ثم تنصرف عنها بمشاغل أخرى ، أو تغفل عنها حتى تنساها ، لأن العقل فيه بؤرة الشعور وحاشية الشعور ، فالمعلومة تدخل فى بؤرة الشعور وطالما هى فى بؤرة الشعور تتذكرها .

فإذا انتقلتْ إلى حاشية الشعور تنساها وتحتاج مَنْ يُذكّرك بها لتعيدها إلى بؤرة الشعور مرة أخرى ، وإلا لو ظلَّ كل شىء فى بؤرة الشعور لما التفتَ الإنسان إلى شىء آخر .

قال تعالى : ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ .. (٤)﴾ [الأحزاب] ومن نِعَم الله عليك أنك تستطيع أنْ تستدعى المعلومة من حاشية

الشعور حينما تحاول أنْ تتذكرها .

لكن كيف كان الله معلوماً لهم ثم نسُوا ذكره تعالى ؟ قالوا : الله عز وجل معلومٌ لكلِّ الخلْق منذ أنْ كانوا جميعاً فى مرحلة الذر وهم فى ظهر أبيهم آدم عليه السلام ، ومنذ أنْ أخذ الله عليهم العهد :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا .. (١٧٢) ﴾ [الأعراف] فالحق سبحانه يخاطب فيك هذه الذرة التى أخذتها من أبيك آدم ، لأنه سبحانه القادر وحده على ذلك ، فيخاطب الذرة كما خاطب الأرض وكما خاطب النحل .

والحق سبحانه وتعالى أخذ علينا هذا العهد ليكون حجة علينا إذا غفلنا عن ذكْره تعالى أو نسيناه ﴿ أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣) ﴾ [الأعراف]

كأنه سبحانه يقول لك : إياك أنْ تقول هذا القول ، إياك أنْ تصيبك هذه الغفلة التى تُنسيك ذكر الله ، لأنه لا عذرَ لك فيه ، لأنه تعالى أخذ العهد علينا ثم توالتْ رسُله وتتابعت تُذكِّرنا بهذا العهد .

فإذا ما حدث من الإنسان غفلة قامت هذه الذرة بدور المناعة فتذكّره وتَرده إلى الله ، قالوا : هذه الذرة هى النفس اللوامة فى الإنسان ، فإذا ضعُفتْ فلم تَردع صاحبها فاستشرى فى المعصية يَردعه المجتمع .

فإذا لم يوجد فى المجتمع الرادع وكان المجتمع أيضاً فاسداً قلنا : تتدخل السماء برسول جديد .

إلى أنْ جاءت رسالة محمد ﷺ وجعل الله أمته خير أمة أُخرجت

للناس لأنها تولَّتْ مهمة الأنبياء فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ .. (١١٠) ﴾ [آل عمران] لذلك جعلهم الله شهداء على غيرهم من الأمم ﴿ لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا .. (١٤٣) ﴾ [البقرة]

وبهذا تحملتْ هذه الأمة مهمة الرسل وضمنا أن مجتمعنا لا يخلو أبداً من عناصر الخير وحاملى مشاعل الهداية ، ومهما انطمست الحقائق وأظلمتْ الصورة لانعدم وجود نموذج للخير وللهداية يردّ الناس إلى الجادة .

ومعنى ﴿ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ .. (١٩) ﴾ [الحشر] لأنهم نسوا الله ألهتْهم أموالهم وأولادهم عن الله وصرفتهم الدنيا وتواردت عليهم الغفلة فنسُوا حتى أنفسهم أى نسوا مصدر الخير لهم ، فكأنهم نسوا أنفسهم حينما حرموها من مصدر خيرها .

والإنسان حينما ينفصل عن ربه وخالقه يعيش فى ضَنْك مهما نال من نعيم الدنيا وزخرفها ، والمؤمن الموصول بربه يعيش سعيداً وإنْ كان لا يجد قوت يومه .

لذلك تجدهم أغنياء وأهل وجاهة ويذهبون إلى رجل (غلبان) يقول له : يا شيخ فلان ادع لنا . لأنهم يعرفون أنه يملك شيئاً لا يملكونه هم ، يملك أنه موصول بربه .

وإذا حدد الإنسان غايته هَانَ عليه الطريق وسَهُل عليه الوصول ، وما اختلف الناسُ هذا الاختلاف إلا باختلاف غاياتهم فى الحياة ، فتحديد الغاية أشقّ من الوصول إليها ، وهذا المعنى عبَّر عنه الشاعر فقال :[1]

---

(١) الشاعر هو ابن الرومى على بن العباس بن جريج أبو الحسن ، شاعر كبير من طبقة بشار والمتنبى ، رومى الأصل ولد (٢٢١ هـ) ولد ونشأ ببغداد ومات فيها عام (٢٨٣ هـ) عن ٦٢ عاماً . مات مسموماً بسبب هجائه لوزير المعتضد ، له ديوان شعر فى ثلاثة أجزاء . [الموسوعة الشعرية] .

أَلاَ مَنْ يُرِينِى غَايَتِى قَبْلَ مذْهَبِى وَمِنْ أَيْنَ وَالغَايَات بَعْد المذَاهب[١]

والغاية الحقيقية هى الهدف الذى ليس بعده بعد ، ولو سلسلتَ غايات العالم كله ستجد أنها تنتهى عند الآخرة حيث الفوز والفلاح والنعيم الباقى الذى لا ينفد .

ويقول الحق سبحانه : ﴿أُوْلَـٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الحشر] ويقال : فسقت الرطبة أى بعدت القشرة عن الثمرة ، فعندما تكون الثمرة أو البلحة حمراء تكون القشرة ملتصقة بالثمرة بحيث لاتستطيع أن تنزعها منها .

فإذا أصبحت الثمرة أو البلحة رطباً تسود قشرتها وتبتعد عن الثمرة بحيث تستطيع أن تنزعها عنها بسهولة .

هذا هو الفاسق المبتعد عن منهج الله ، ينسلخ عنه بسهولة ويُسر لأنه غير ملتصق به ، وعندما تبتعد عن منهج الله فإنك لا ترتبط بأوامره ونواهيه .

والفسق فسقان : فسق صغير ، وفسق كبير . وهنا مشاكل : أيكون الفسق هنا مجرد خروج عن منهج طاعة الرسول ؟ لكن هذا الخروج يُوصف به كل عاص . أى أن صاحبه مؤمن بمنهج وفَسَق جزئياً .

إننا نقول عن كل عاصٍ : إنه فسق أى أنه مؤمن بمنهج وخرج عن جزئية من هذا المنهج ، أما الفسق الذى يتحدث عنه الحق هنا فهو فسق القمة لأنه فسق عن ركب الإيمان كله .

---

(١) البيت من قصيدة لابن الرومى من بحر الطويل من قصيدة طويلة .

﴿ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾

هذا أمر منطقى وأمر طبيعى ، وهما لا يستويان فى دنيا الناس فكيف يستويان عند الله الحكَم العدل ؟ حاشا لله لأن المساواة بينهما حُمْق فى التكاليف ، كيف يستوى مَنْ سار فى الدنيا على حلِّ شعره يُعربد فيها كما يشاء مع مَنِ التزم بمنهج ربه وخالقه .

هذان فى الدنيا يمثلان الجنة والنار فى الآخرة ، وكما أن الجنة لا تستوى مع النار كذلك لا يستوى أصحابهما فى الدنيا .

وهذه المسألة نأخذها دليلاً على وجود الجنة والنار فى الآخرة ، فلو فعل أهل المعاصى معاصيهم وأفسدوا فى الأرض وآذوا العباد والبلاد ، ثم أفلتوا من العقاب وانتهى أمرهم بالموت لكانت الحظوة لهم والخسارة لأهل الإيمان والاستقامة ، وهذا أمر لا يصح ولا يقبله عقل .

ومن هؤلاء مَنْ يبرر لنفسه الانفلات من منهج الله ويقول حتى لو كان هناك جزاء وعقاب فسوف نُحرق فى النار وتنتهى القصة ، وغفل عن حقيقة الآخرة ، وأنها دار خلود وبقاء لا يفنى نعيمها ولا ينتهى عذابها .

﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ (٥٦) ﴾ [النساء] وأذكر أن هذه الآية لما تحدثنا بها ورددنا على جماعة من المستشرقين أسلم سبعة منهم فى جلسة واحدة ، لأنهم لاحظوا فيها

وجهاً من وجوه الإعجاز العلمى فى القرآن .

فالقرآن أول مَنْ أعلن أن الجلد مصدر الإحساس ومحل الإذاقة ، وكانوا قبل ذلك يقولون المخ هو المسئول عن الإحساس .

كلمة ﴿أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ .. (٢٠)﴾ [الحشر] دلَّتْ على المصاحبة فكأن بينهما أُلْفة وصداقة ومصاحبة ، أهل المعاصى صاحبوا النار وأهل الطاعة صاحبوا الجنة ، وكل منهم أَلِفَ صاحبه واطمأن إليه ورضى به بل ويشتاق إليه ، فالجنة تشتاق إلى أهلها وأصحابها وتنتظرهم ، والنار كذلك تلتهب وتفور شوْقاً إلى أهلها وأصحابها .

وقوله ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠)﴾ [الحشر] نعم فازوا بنعيم الجنة وفازوا برضا الله وارتاحوا من تعب الدنيا وعنائها ، وأصبحت خواطرهم هى التى تسيِّر حياتهم ؛ فبمجرد أنْ يخطر الشىء على باله يجده بين يديه دون تعب .

﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۚ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٢١)﴾

نعم لو حدث ونزل هذا القرآن على جبل لكان هذا حاله ﴿خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ..(٢١)﴾ [الحشر] فالجبل على ثباته وقوته يخشع ويتصدَّع يعنى يتفتت خوفاً من الله وتقوم كل ذرة من ذراته

تباشر مهمتها انقياداً لربها وخالقها ، هذا إنْ كان الجبل مكلّفاً ، لكنه جماد غير مكلَّف .

فماذا يحدث له لو نزل عليه القرآن ؟ يندكّ كما اندكَّ جبل الطور[1] فى قصة سيدنا موسى عليه السلام :

﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا .. (١٤٣) ﴾ [الأعراف]

ومعنى يندك يعنى يسيحُ فى الأرض لهول الموقف . والجبل بالطبع ليس مكلّفاً ، وقد عُرضت عليه الأمانة فأبى أنْ يتحملها .

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا .. (٧٢) ﴾ [الأحزاب] ولكن تكليفه أنْ يظل هكذا مخزناً للقوت والنماء ليعطى بنى البشر أقواتهم .

وأهل اللغة يقولون (لو) حرف امتناع لامتناع[2] ، فالإنزال لم

---

(١) جبل طور سيناء ويُعرف أيضاً باسم (جبل موسى) و (جبل حوريب) وهو اسم جبل فى شبه جزيرة سيناء ، وطور سيناء هى عاصمة محافظة جنوب سيناء ، وتقع على بُعد ٢٦٥ كيلو متراً من نفق الشهيد أحمد حمدى على خليج السويس .

(٢) قال فى الجنى الدانى فى حروف المعانى « عبارة أكثرهم : لو حرف امتناع لامتناع . أى تدل على امتناع الثانى (الجواب) لامتناع الأول (الشرط) عبارة ظاهرها أنها غير صحيحة .. والتحقيق فى ذلك أن لو حرف يدل على تعليق فعل بفعل فيما مضى فيلزم من تقدير حصول شرطها حصول جوابها . وفى شرح ألفية ابن مالك : الصحيح هو قول سيبويه : لو حرف لما كان سيقع لوقوع غيره . مثال هذا : لو طلعت الشمس لظهر النور فامتناع طلوع الشمس ليس بلازم أن يمتنع بسببه ظهور النور ، فالنور له أسباب أخرى منها المصباح . ولهذا كان قولهم فى معنى لو : حرف امتناع لامتناع . ليس بصحيح على كل حال .

يحدث ، لكنه لو حدث لرأيتَ الجبل خاشعاً متصدِّعاً بالفعل ، والتصدع أنْ يتفتت هذا الصخر فيصير تراباً ، أما فى قصة سيدنا موسى فالجبل ظل متماسك الذرات لكنه اندكّ فى الأرض كما يندكّ الوتد ، ولو أنك مثل الجبل لحدث لك هذا لأنك غير مُعدٍّ للرؤية ولا للتلقى المباشر عن الله .

فإن قلتَ : فكيف نرى الله فى الآخرة ؟ قلنا : لأن الله سيُعّدنا إعداداً آخر وخلقاً آخر يصلح لهذه المسألة يخلقنا على هيئة قادرة على أنْ ترى الله ، ألا ترى أنك قد تكون فى الدنيا ضعيفَ النظر مثلاً فتذهب إلى طبيب العيون فيُجرى لك عملية فترى أفضل مما كنتَ ، هكذا .

لذلك قال تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣) ﴾ [القيامة]

فقوله تعالى : ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) ﴾ [الحشر] والأمثال جمع مثل وهو التشبيه الذى يقرِّب لنا المعنى ويعطينا الحكمة ، والأمثال باب من الأبواب العريقة فى الأدب العربى .

فالمثل أن تأتى بالشىء الذى حدث وقيل فيه قولة موجزة ومعبِّرة رأى الناس أن يأخذوا هذه المقولة لكل حالة مشابهة .

والحق سبحانه استخدم الأمثال فى القرآن الكريم فى أكثر من موضع ليقرب من أذهاننا معنى الغيبيات التى لا نعرفها ولا نشاهدها .

ولذلك ضرب لنا الأمثال فى قمة الإيمان وحدانية الله سبحانه وضرب لنا المثل بنوره جل جلاله ، وضرب لنا الأمثال بالنسبة للكفار

وهنا يضرب لنا الحق سبحانه المثل بالجبل إذا نزل عليه القرآن لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله ، فيظهر الحق سبحانه الأمر المعنوى فى صورة حسية مشاهدة ليقرب الأمر للناس ويزيده وضوحاً ورهبة وهيبة وخشوعاً ، فلستم أقوى من الجبال .

ثم يقول سبحانه : ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٢١)﴾ [الحشر] أى : لعلهم يتفكرون فى منطق الحق ويخشون الله ، ويبعدون أنفسهم عن الوقوع فى الباطل حتى يكونوا فى وقاية من عذاب الله وسخطه .

وهو سبحانه يستثير فيهم التفكير بعد أن أثار فيهم عظمة وهيبة ما قد يحدث للجبل إذا أُنزل عليه القرآن .

وقوله تعالى : ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٢١)﴾ [الحشر] من سمات الأداء القرآنى أنه يستخدم المثل لتوضيح القضايا ، والمثل أنْ تلحق شيئاً مجهولاً بآخر معلوم أمامك ، والشاعر لما أحب أنْ يصف الأحدب لرجل لا يعرف هيئة الأحدب قال :[1]

قَصُرَتْ أَخَادعه وَغَاصَ قذَالُه[2] فكأنَّه مُتربِّصٌ أنْ يُصْفَعَا

وكأنَّما صُفعَتْ قَفَاهُ مرَّةً فَأَحَسَّ ثَانيةً لَهَا فَتجمَّعَا

---

(١) نسبت هذه الأبيات لابن الرومى (الموسوعة العربية) ونسبتها موسوعة الشعر العربى لعبد الله بن الطباخ فى وصف أحدب . وكذا عماد الدين الكاتب فى (خريدة القصر) ، ولكن نسبه ابن ليون التجيبى لأبى على بن رشيق .

(٢) القذال : هو جماع القفا فى مؤخره .

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾﴾

قلنا : إن ضمير الغائب ﴿هُوَ ..﴿٢٢﴾﴾ [الحشر] إذا أُطلق لا ينصرف إلا إلى الله تعالى لأنه سبحانه هو الحاضر الذى لا يغيب وإنْ ناديناه بضمير الغيبة . وفى آية أخرى قال : ﴿قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾﴾ [الأنعام] أى قل فى الرد عليهم ﴿اللَّهُ ..﴿٩١﴾﴾ [الأنعام] فهذه اللفظة وحدها تكفى وتدل على أنه تعالى لا إله غيره .

وفى الحديث الشريف قال ﷺ : « خير كلمة قالها النبيون من قبلى لا إله إلا الله »[1] فكوْن سيدنا رسول الله يقولها ﴿اللَّهُ ..﴿٩١﴾﴾ [الأنعام] فكأنه سبحانه أعفى رسوله من مسألة النفى والاستثناء فى ﴿لا إِلَهَ ..﴿٢٢﴾﴾ [الحشر] يعنى لما أقول : لا إله ربما خرجتْ روحى قبل أنْ أكملها ، فقال لا ، لأن ربك يعرف أنك ستقولها فلن يأخذك قبل أنْ تُتمها .

كلمة ﴿هُوَ اللَّهُ ..﴿٢٢﴾﴾ [الحشر] هو تشير إلى الغائب لأنك فى كوْنٍ مخلوق لا ترى خالقه إنما تستدل عليه بعقلك ، فالذى لا تراه وهو غائب عنك هو الله ربك وخالقك . كذلك فى قوله تعالى : ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾﴾ [الإخلاص] فأتى بالضمير الغائب أولاً ثم بتعريفه ﴿اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾﴾ [الإخلاص] لأن الجملة الخبرية مرة يكون فيها المدلول

---

(١) عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبى ﷺ قال : « خير الدعاء دعاء يوم عرفة ، وخير ما قلت أنا والنبيون من قبلى لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير » . أخرجه الترمذى فى سننه (٣٥٨٥) .

عليها والدليل .

ففى قوله تعالى : ﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ (٢٩) ﴾ [الفتح] فمحمد علَمٌ ومعروف لهم والمجهول الذى يحتاج إلى تعريف هو رسول الله فكيف تخبر بمجهول عن معلوم ؟ قالوا : كأنه يقول لهم : محمد الذى تعرفونه وتعرفون تاريخه وطفولته وسيرته وأمانته هو الذى اخترتُه رسولاً لكم ، كأن المبتدأ هو دليل وجود الخبر ، إذن : جعل محمداً نفسه هو الدليل على صدق الرسالة .

﴿ اللَّهُ .. (٢٢) ﴾ [الحشر] علَم على واجب الوجود سبحانه واسمه الدال على ذاته تعالى وما عداه من الأسماء فهى صفات ، كما نقول : الحى القيوم القادر المحيى .. لذلك علَّمنْا رسول الله أن نبدأ كل شىء ذا بال ببسم الله ، لأنه الإسم الذى تنفعل له الأشياء ، وبه تطاوعك جوارحك وتنفعل لك .

وقوله تعالى : ﴿ الَّذِى لا إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ ..(٢٢) ﴾ [الحشر] نفىٌ لألوهية ما دون الله تعالى وإثباتها لله وحده لا شريك له ، وهذه الشهادة لا إله إلا الله أول مَنْ شهد بها شهد الله بها لنفسه سبحانه ، ثم شهد بها ملائكته ثم شهد بها أولو العلم : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ .. (١٨) ﴾ [آل عمران]

إذن : أول مؤمن لله هو الله ، وأول مَنْ آمن بالله هو الله ، وهذه شهادة الذات للذات ، ثم شهدت الملائكة شهادة مشهد ، ثم شهد أولو العلم شهادة العقل والدليل والبرهان .

وما دام أن الله تعالى شهد لنفسه بهذه الشهادة ولم يَقُمْ لها

معارض أو منازع فالدعوى تثبت لصاحبها ما لم يَقُمْ لها معارض ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا (٤٢) ﴾ [الإسراء]

وقوله : ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ .. (٢٢) ﴾ [الحشر] قلنا : إن الدعوى تثبت لصاحبها حتى يأتى لها معارض ، فقال ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ (٢٢) ﴾ [الحشر] يعنى : لم يأتِ ولن يأتى لها معارض ، فالله عالم الغيب وعالم الشهادة أخبرنا بهذا .

والغيب : كل ما غاب عن الإدراك ، وما غاب عن الإدراك نوعان : نوع له مقدمات يمكن أنْ تُوصِّل إليه مثل تمارين الهندسة معطيات تُوصِّلك إلى المطلوب ، وهذا هو ما غاب عنك الآن لكن معك مقدمات توصِّلك إليه فيما بعد ، كالابتكارات التى تستجد (كالتليفزيون والراديو) فهو غيب لفترة ثم صار مشهداً .

وقد يكون الغيب غيباً عنك وليس غيباً عن غيرك ، فحين يُسرق منك شىء يصير غيباً عنك لكنه ليس غيباً عمّنْ سرقه .

أما الغيب الذى اختصّ الحق سبحانه بعلمه ولم يُطلع أحداً عليه فهو الغيب المطلق لا يعلمه أحد إلا الله وليست له مقدمات تُوصّل إليه أو تدل عليه ، لذلك قال سبحانه : ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ..(٢٧) ﴾ [الجن]

أما ﴿ الشَّهَادَةِ (٢٢) ﴾ [الحشر] فالشهادة هى الشىء المشهود ، فما الميزة فى أنه سبحانه يعلم المشهود والخَلق يعلمونه ؟ هذه المسألة وقفنا عندها فى قوله تعالى : ﴿ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ (١١٠) ﴾ [الأنبياء] فالحق سبحانه يمتنُّ علينا بمعرفة ما يكتمه

الإنسان ، فماذا فى معرفة الجهر والجميع يعرفون الجهر ؟ قالوا : المراد الجهر الجمعى .

وقلنا : هَبْ أننا فى مظاهرة تهتف ضد شخص ما ، نعم هذا جهر ونحن نسمعه فهل تستطيع أن ترجع كل صوت فيه إلى صاحبه ؟ هذه لا يقدر عليها إلا الله الذى يعلم الجهر فى كلّ زمان ومكان ، يعلم الجهر فى اللحظة فى كلّ أنحاء الدنيا ، ومَنْ يقدر على هذه إلا الله ؟

﴿هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (٢٢)﴾ [الحشر] ما علاقة الرحمن الرحيم بعالم الغيب والشهادة ؟ يعنى : أن عالم الغيب هو الرحمن الرحيم ليظل غيبُ كلّ الخلق مستوراً عن الخلق لتسير حركة الحياة آمنة ، فمن رحمة الله أنْ حفظ أسرارنا وغيبنا .

لذلك أباح الشارع الكريم أن تُفقأ عين مَنْ يتجسس عليك ويقتحم عليك بيتك دون أنْ تدرى به[(١)] .

والرسول ﷺ لما نظر إليه رجل من ثقب الباب قال : « والله لو رأيتُه لفقأتُ عينه »[(٢)] .

ذلك لأن البيوت تُبنى للستر ، والإسلام يحفظ للمسلم

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « لو اطلع رجل فى بيتك ولم تأذن له فحذفته بالعصا ففقأت عينه ما كان عليك جناح » [أخرجه الخرائطى فى مساوىء الأخلاق ٧٥٦] وصححه الألبانى فى الأدب المفرد للبخارى (١٠٦٨) .

(٢) عن سهل بن سعد الساعدى قال : اطلع على رسول الله رجل من ستر له وفى يد رسول الله مدرى ، فقال رسول الله : لو أعلم أنه ينظرنى لفقأت عينه . الطبرانى فى المعجم الأوسط (٢١٣) .

وقد أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٢٤١) قال سعد : اطلع رجل من جحر فى حُجر النبى ﷺ ومع النبى ﷺ مدرى يحك به رأسه فقال : لو أعلم أنك تنظر لطعنت به فى عينك ، إنما جُعِل الاستئذان من أجل البصر . وكذا عند مسلم فى صحيحه (٥٧٦٤) .

خصوصياته فى بيته له خصوصية ، وفى حجرته الخاصة له خصوصية ، وفى حجرة نومه له خصوصية . لذلك أمرنا الحق سبحانه بأدب الاستئذان وأمرنا أنْ نعلمه الأولاد الصغار ليشبُّوا عليه ، وحذَّرنا من التجسس وتتبُّع عورات الآخرين .

وفى الحديث الشريف : « مَنْ تتبَّع عورات المسلمين تتبَّع الله عورته حتى يفضحه فى عقر داره »[(١)] .

ذلك لأن تتبُّع العورات والبحث عنها من أعظم أسباب الفساد فى الأرض وإفساد العلاقات ، فأنت ترى الرجل يعجبك دينه وتصرفاته وتُرضيك حركته فى الحياة ، فلو تتبعتَ غيبه وبحثتَ عن عوراته زهدتَ فيه وفسد رأيك فيه .

فالستر أوْلَى لسلامة العلاقات ، ومن الشر أنْ تزهد فى أهل الخير ودُعاة الخير ، وقد فطن الشاعر إلى هذا المعنى فقال[(٢)] :

اعملْ بعِلْمى وَلاَ تركَنْ إلى عَملِى واجْنِ الثِّمَارَ وخَلِّ العُودَ للنَّارِ

فالله رحمن رحيم فى علمه للغيب ، ونحن نبدأ بها أعمالنا فنقول : بسم الله الرحمن الرحيم ، فبها نُعان ونُوفّق ، وبها تنفعل لنا الأشياء ، فأنت لا تقدر على الفعل بذاتك إنما بتسخير الله لك ينفعل الشىء حتى

---

(١) عن أبى برزة الأسلمى قال قال ﷺ : « يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم ، فإن من تتبع عورات المسلمين تتبع الله عورته حتى يفضحه فى بيته » أخرجه أبو يعلى الموصلى فى مسنده (٧٤٢٣) .

(٢) ما وجدته فى هذا أن هذا البيت هو عبارة عن شطرين من بيتين مختلفين :

الأول : اعمل بعلمى ولا تنظر إلى عملى ينفعك قولى ولا يضررك تقصيرى

ذكره ابن عبد ربه فى العقد الفريد ونسبه للخليل بن أحمد .

الثانى : فإن رواة العلم كالنخل يانعاً فكُلْ الثمار وخلِّ العود للنار .

ذكره صاحب معجم الأدباء ياقوت الحموى وعزاه لابن فضال .

لو كنتَ عاصياً لله خارجاً عن منهجه لا يحرمك عطاء الرحمن الرحيم ، ولا يؤاخذك بغبائك ، لأنك عبده وصَنعته ، وهو ربُّك وخالقك الذى استدعاك لهذا الوجود .

﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾

تكرار هذه العبارة ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِى لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ ..(٢٣) ﴾ [الحشر] أفادت تأكيد أنه سبحانه وتعالى المتصف وحده بهذه الصفات التى جاءت بعدها ، فالله وحده الذى لا إله إلا هو ، هو عالم الغيب والشهادة ، الرحمن الرحيم ، الملك القدوس ، السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر .

(الملك) اسم من أسمائه تعالى ، ومادة (ملك) منها مالك وهو الذى يملك شيئاً مهما كان صغيراً حقيراً ، حتى لو كان يملك الثوب الذى يلبسه يُسمى مالك فهو إذن كلّ مَنْ يحوز شيئاً ، ومنها الملك وهو الذى يملك من يملك ؛ فالحق سبحانه هو (الملك) الذى يملك الأشياء ويملك مالكيها فهم عباده وصنعته ، ولم يصف الحق سبحانه نفسه بأنه مالك إلا يوم القيامة ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤) ﴾ [الفاتحة] فهو سبحانه فى هذا اليوم المالك حيث لا مالك غيره سبحانه ، ففى هذا اليوم تُنتزع الأملاك من أصحابها فلا أحدَ يملك شيئاً .

ومعنى ﴿ الْقُدُّوسُ ..(٢٣) ﴾ [الحشر] مبالغة فى التنزّه عن كلِّ

نقيصة ، وزيادة فى الطهر الطهور الذى يُطهر كل شىء ، لذلك تقول الملائكة فى تسبيح الله : سبوح قدوس رب الملائكة والروح[١] . أنت يا ربنا مسبَح تُسبِّحك كل المخلوقات ، قدوس أى منزه عن كل عيب ونقيصة .

وهذه من الكلمات التى لا تُقال إلا له سبحانه ، لذلك قلنا فى دعائه تعالى : سبحانك ولا تُقال إلا لك . وبالفعل وجدناها فى دنيا الناس ، فكم فيها من عظيم مطاع آمر ناه ، تُقال له كل ألفاظ التكبير والتفخيم ، ومع ذلك لم نسمع أحداً يقول لأحد : سبحانك .

وقلنا ذلك أيضاً فى لفظ الجلالة (الله) ، فمع وجود الكفر والكافرين والملاحدة ومنكرى الألوهية لم نجد أحداً أبداً سمَّى ابنه (الله) لماذا ؟ لأنه لا يجرؤ على ذلك أحد ، يخاف أنْ يُؤخذ فى لحظتها أخْذ عزيز مقتدر .

لذلك قال سبحانه فى تعظيم نفسه ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا (٦٥)﴾ [مريم] والذين يأخذون بمبدأ الصرفة[٢] يقولون : إن الله سبحانه هو الذى صرفهم عن هذا .

نقول : حتى لو لم يصرفهم ما جرُءُوا على ذلك ، كما قالوا فى

(١) ذكره السيوطى فى الدر المنثور (١٢ / ٧١٧) وعزاه لعبد بن حميد وأبى يعلى وابن جرير وابن أبى حاتم وغيرهم عن أبى هريرة من حديث طويل قال : « والملائكة يحمل عرشه ثمانية وهم اليوم أربعة أقدامهم على تخوم الأرض السفلى والأرضون والسماوات إلى حجزهم والعرش على مناكبهم لهم زجل بالتسبيح فيقولون : سبحان ذى العزة والجبروت ، سبحان ذى الملك والملكوت ، سبحان الحى الذى لا يموت ، سبحان الذى يميت الخلائق ولا يموت ، سبُّوح قدوس رب الملائكة والروح ، سبحانه ربنا الأعلى الذى يميت الخلائق ولا يموت » .

(٢) القول بالصرفة يعنى أن الله صرف البشر عن معارضة هذا القرآن ، وإلا فإن العرب قادرون على المعارضة . وهو كلام المعتزلة وقد رد عليهم أهل السنة (انظر شرح العقيدة الطحاوية ١ / ١٢٣ ، ٧٦٣) .

قضية إعجاز القرآن أن الله تعالى صرف العرب عن الإتيان بمثل هذا القرآن ، ولولا أن الله صرفهم لأتوا بمثله ، وهذا القول مجانب للصواب ، لأنهم لو لم يُصرفوا أيضاً لا يأتون بمثله .

ومعنى ﴿السَّلامُ ..(٢٣)﴾ [الحشر] أى السلام فى ذاته تعالى ، والسلام مشتق من السلامة ، أى سلامة الجوارح من التعارض والتنافر مع ذاتها فهى منسجمة مع بعضها البعض .

لذلك عندما بُلِّغت السيدة خديجة : إن ربك يُحييكِ بالسلام قالت : الله السلام[1] ، ولم تقل وعلى الله السلام ، لأنه سبحانه هو السلام فى ذاته ، لذلك جعل تحية المسلمين السلام عليكم ، فحين يطرأ عليك طارئ لا تعرف أهو آتٍ بخير أم بشرٍّ .

فحين يقول : السلام عليكم نأمن جانبه ونأنس إليه ، لأنه جاء من باب السلام ونردّ عليه التحية : وعليكم السلام . أى : نحن أيضاً أهل سلام ولن ينالك منا إلا السلام .

لذلك جعلها الله تحية الملائكة لأهل الجنة : ﴿سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ (٧٣)﴾ [الزمر] ثم يُرقى هذه التحية فيحيى بها الحق سبحانه وتعالى عباده وأهل جنته : ﴿سَلامٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ (٥٨)﴾ [يس]

وكلمة ﴿الْمُؤْمِنُ ..(٢٣)﴾ [الحشر] أيضاً اسم من أسمائه تعالى

---

(١) أخرج ابن منده فى التوحيد (٢٠٦) عن عائشة رضى الله عنها أن النبى ﷺ قال لها : « هذا جبريل يقرأ عليك السلام . فقالت عائشة : الله السلام ومنه السلام وعلى جبريل السلام » وكذا حدث مع خديجة رضى الله عنها أن جبريل قال لرسول الله : الله يقرئها السلام فقالت : هو السلام ومنه السلام وعلى جبريل السلام ، أخرجه الطبرانى في المعجم الكبير (١٨٥٥٩).

وصفة من صفاته سبحانه . ومادة (أمن) تتعدّى بنفسها فى مثل قوله تعالى : ﴿وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ (٤)﴾ [قريش] وقوله تعالى ﴿أَوَ لَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا ..(٥٧)﴾ [القصص] أى : جعلناهم آمنين لا يخوفهم شىء .

وتتعدّى بالباء ، كما فى قوله تعالى : ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ..(١١٤)﴾ [آل عمران] وهى هنا بمعنى اعتقده ، ومرة تتعدى باللام : ﴿وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا .. (١٧)﴾ [يوسف] أى : مُصدِّق .

فمعنى ﴿الْمُؤْمِنُ ..(٢٣)﴾ [الحشر] الذى يُؤمِّن عباده مما يُخيفهم ، أو هو المؤمن بمعنى الإيمان ، فهو سبحانه أول مَنْ آمن بنفسه تعالى ، كما قلنا شهادة الذات للذات فى ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ ..(١٨)﴾ [آل عمران] وإذا كانت بمعنى التصديق فهو سبحانه المصدِّق لرسله بالمعجزات .

﴿الْمُهَيْمِنُ ..(٢٣)﴾ [الحشر] المهيمن على الشىء يعنى القيِّم عليه المتصرِّف فيه ، قال تعالى : ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ..(٤٨)﴾ [المائدة]

فالقرآن مهيمن على الكتب قبله والكلمة له والله تعالى المهيمن على خلْقه القائم عليهم المتصرِّف فيهم ﴿الْعَزِيزُ ..(٢٣)﴾ [الحشر] هو الشىء النادر الوجود الذى لا مثيلَ له . والعزيز : هو الغالب الذى لا يُغلب .

﴿الْجَبَّارُ ..(٢٣)﴾ [الحشر] صفة من صفات الجلال للحق سبحانه وتعالى يقهر بها المخالفين لمنهجه ، وهى أيضاً من صفات الخَلْق ، قال تعالى : ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (١٣٠)﴾ [الشعراء]

وقال : ﴿ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ .. (٤٥) ﴾ [ق] يعنى : مسيطر عليهم تقهرهم على أنْ يؤمنوا .

والله سبحانه وتعالى أيضاً جابر نقول : يا جابر كل كسير ، وجابر العثرات يجبر كسر الفقير فيغنيه ، ويجبر كسر الجاهل فيعلمه ، ويجبر كسر الضعيف فيقويه .

وكذلك من الخَلْق من هو جابر العظام يسمونه مُجبِّر أو مجبراتى ، وهو الذى يعيد العظام إلى موضعها ويربط عليها بالجبيرة .

مع الفارق بين صفة الحق وصفة الخلْق ، صفة الحق سبحانه ذاتية فيه والصفة فى الخَلْق موهوبة قد تُسلب منه . والجبروت فى الخلق فيه ظلم وتعدٍّ ، أما الجبروت فى حقه تعالى ففيه حلم وحكمة وعدالة .

ومعنى ﴿ الْمُتَكَبِّرُ ..(٢٣) ﴾ [الحشر] من الكبر وهى صفة مذمومة فى الخَلْق محمودة فى الخالق سبحانه ، فى الخلق صفة نقص وفى الخالق صفة عظمة وكمال .

والكبر صفة ذاتية فى الله تعالى وصفة مفتعلة فى المخلوق لأنه يتكبر بشىء موهوب له ليس ذاتياً فيه ، من الناس مَنْ يتكبّر بماله أو بصحته أو بجاهه ، وهذه كلها عوارٍ[1] مستردَّة وعَرَض زائل .

لذلك الله وحده هو المتكبر بحق وما سواه متكبر بالباطل ، الله متكبر لأنه الغنى عن خَلْقه لا ينقصه شىء وهو واهب كل شىء ، لذلك من نعم الله علينا أنه المتكبِّر لأن تكبُّره سبحانه يعنى أنه لا يظلم : ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (٤٦) ﴾ [فصلت]

---

(١) العوارى جمع العارية وهو تمليك المنفعة ، فالله يعطيك المال والصحة والجاه كحق منفعة تنتفع به طيلة حياتك ، فإذا مت استرد الله ما ملكك فيه وقد يرده إلى أولادك من بعدك . فهى على سبيل الإعارة لك ولستَ مالكاً حقيقياً لأى منها .

فهذه من كبريائه تعالى لأن الظلم يعنى أنْ تأخذ ما ليس لك لتزيد فيما عندك ، والله متكبر عن هذا لأنه مالك كلِّ شىء على الحقيقة ولا ينقصه شىء .

لكن هل جبّارية العبد تُخرجه عن جبّارية خالقه ؟ لا بل يظل تحت جبارية خالقه عز وجل لا ينفلت منها ، وكيف له ذلك ؟ لأن خالقه وإنْ جعله مختاراً فى أنْ يطيع أو يعصى ، أنْ يؤمن أو يكفر ، يفعل أو لا يفعل إلا أنه مقهور فى منطقة أخرى لا اختيارَ له فيها .

وهذه هى جبارية خالقه عليه لا تنفك عنه ، لذلك يُعجبنى قولهم : إذا دعتْك قدرتك إلى ظلم الناس فتذكَّر قدرة الله عليك[1] .

ومن حظّ المخلوق أنْ تكون الكبرياء للخالق وحده فلكلِّ واحد منا نصيب من هذا الكبرياء بالتساوى ، الكبرياء لله يعنى ألا يتكبَّر واحد منا على الآخر لأننا أمام كبرياء الله سواء ، ومن عرف أن الكبرياء لله وحده استحى أنْ يتكبّر على خَلْقه .

وقوله تعالى : ﴿ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٣) ﴾ [الحشر] يعنى : تنزيهاً لله تعالى عما يشركون به .

﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (٢٤) ﴾

---

(١) هو من أقوال عمر بن عبد العزيز . قال ابن الجوزى أنه كتب إلى بعض عماله : أما بعد فإذا دعتك قدرتك على الناس إلى ظلمهم فاذكر قدرة الله عليك فى نفاد ما يأتى إليهم وبقاء ما يأتى إليك .

أيضاً هنا يعيدها ﴿هُوَ اللَّهُ ..(٢٤)﴾ [الحشر] للمرة الثالثة لأن الآيات مستمرة فى ذكر أسماء الله تعالى وصفاته ، ومنها ﴿الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ ..(٢٤)﴾ [الحشر] هكذا فى خيط واحد ، لأن هذه المعانى الثلاثة ما هى إلا مراحل متتالية للشىء الواحد .

فالله هو الخالق والخَلْق إيجاد من العدم ، والبارىء أى الذى يُسوِّى هذا المخلوق على هيئة صالحة ليؤدى مهمته التى جعل لها مثل ما تبرى القلم لتكتب به أو تبرى السهم ليصيب الهدف .

فالأشياء لا تؤدى مهمتها إلا إذا كانت على هيئة معينة ، الولد مثلاً كان أبوه حداداً فذهب معه إلى الورشة فوجده يأخذ عود الحديد المستقيم ويُعوجه ، فالولد تعجَّب لفعل أبيه كيف يعوج المستقيم .

فبيَّن له الوالد أنه يريد أن يصنع منه خطافاً ، والخطاف لا يؤدى مهمته إلا إذا كان هكذا مُعْوجاً .

ثم ﴿الْمُصَوِّرُ ..(٢٤)﴾ [الحشر] الذى يُصوِّر هذا المخلوق كيف يشاء ويُصوِّره على غير مثال سابق ، فقال فى الإنسان ﴿الَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (٧)﴾ [الانفطار] وقال ﴿فِى أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ (٨)﴾ [الانفطار] فهنا طلاقة قدرة ، أولاً قدرة قادرة على أنْ تُوجد من عدم وتُبرز إلى الوجود شيئاً لم يكن موجوداً وقبلها إرادة ترجح المطلوب .

وبعد ذلك يأتى المصوِّر فيعطيها الصورة اللائقة ، وتأمل الإعجاز فى خَلْق الإنسان وتصويره وطلاقة القدرة فى كثرة الأعداد وفى عدم

التطابق فى الأشخاص .

نحن نرى المهندس مثلاً لمنتج معين يصنع له قالباً يعطى نماذج متساوية ومتطابقة مثل الأكواب مثلاً ، أما الخالق سبحانه فيبدع فى الخَلْق بحيث يأتى كل إنسان خَلْقاً فريداً وحده لا يطابق غيره أبداً .

وتعرفون الآن الاختلاف فى بصمة اليد وبصمة الصوت وكل يوم يكتشفون فى الإنسان بصمة جديدة تُميِّزه عن غيره ، ولولا هذا التمايز فى خَلْق البشر لتشابهوا وتداخلت شخصياتهم وحدث خلط ولَبْس بحيث لا تستقيم حياة البشر إلا بهذا التميز ، وإلا لو حدثت جريمة كيف نعرف الفاعل وكيف نميِّزه عن غيره .

وقوله سبحانه : ﴿لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ..(٢٤)﴾ [الحشر] قلنا إن لفظ الجلالة (الله) هو علَم على واجب الوجود سبحانه وهو الاسم وغيره من الأسماء هى فى الحقيقة صفات ، فالخالق البارىء المصوِّر صفات للحق سبحانه وتعالى ولشهرتها انتقلت من الوصف إلى الاسم .

والدليل على أنها صفات أن الله وصفها بالحسنى ، والحسنى جمع لمؤنث ، ولو كانت أسماء لقلنا الأسماء الحسان ، إذن هى صفات لكن اشتهرتْ عنه سبحانه وخُصّت به وحده فصارت اسماً له ، فحين نقول ﴿الْبَارِئُ ..(٢٤)﴾ [الحشر] فلا تُطلق إلا على الله .

المصوِّر لا تقال إلا له سبحانه وهكذا إذن هذه صفات ، ولما كانت لا تُطلق إلا على الله صارت اسماً له سبحانه ، فالوصف قد

يكون من الشهرة بحيث يلتصق بصاحبه ، فلا ينصرف إلا إليه كما نقول أمير الشعراء ، فلا تنصرف إلا إلى أحمد شوقى .

ومعنى ﴿الْحُسْنَىٰ ..(٢٤)﴾ [الحشر] أى التى تدلّ على صفات الكمال المطلق له سبحانه ، فلفظ الجلالة (الله) يدل على الوجود فقط وبه تنفعل لك الأشياء عندما تبدأ ببسم الله ، مثل القاضى حينما يجلس للحكم يقول : باسم الشعب ، لأن الشعب هو الذى جعله يجلس على هذه المنصة .

كذلك إنْ أردتَ عملاً فيه قدرة أو حكمة أو علم أو رحمة فقُلْ : يا الله ، لأنه الاسم الجامع لكلِّ هذه الصفات ولكلِّ التجليات فى هذه الأسماء .

وقوله تعالى : ﴿يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. (٢٤)﴾ [الحشر] لاحظنا أن مادة (سبّح) فى القرآن استوعبتْ الزمان كله فى الماضى والحاضر والمستقبل ، قال هنا ﴿يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. (٢٤)﴾ [الحشر] وقال ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ (١)﴾ [الحديد]

وقال ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى (١)﴾ [الأعلى]

فالله مُسبَّح فى كل وقت ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ..(٤٤)﴾ [الإسراء] بل إنه سبحانه مسبَّح قبل أنْ يخلق مَنْ يُسبِّح .

قال هنا ﴿يُسَبِّحُ لَهُ .. (٢٤)﴾ [الحشر] بضمير الغائب إشارة إليه سبحانه لأن الآيات السابقة بدأتْ بقوله تعالى ﴿هُوَ اللَّهُ ..(٢٤)﴾ [الحشر] فالله الذى هذه صفاته : الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر .. هو الذى يُسبِّح له ما فى السموات والأرض .

ومرة يقول : ﴿مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ..(١)﴾ [الجمعة] قلنا : لأن السموات والأرض خَلْق عجيب ومُعجز بذاته ﴿لَخَلْقُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ .. (٥٧)﴾ [غافر] فالسموات والأرض تُسبِّح قبل أنْ يخلق الإنسان المسبّح .

﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٤)﴾ [الحشر] العزيز : قلنا النادر الذى لا مثيلَ له ، أو العزيز يعنى القوى الذى يَغلب ولا يُغلب . وهذه الغلبة مُنزَّهة عن البطش والظلم والتعدِّى لأنها محكومة بالحكمة .

﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٤)﴾ [الحشر] والحكيم الذى يضع الشىء فى موضعه وضعاً يناسب مهمته ، فالقوة تُذمّ حينما تكون منفلتة لا ضابط لها .

سُورَةُ المُمْتَحِنَةِ

تنويه

تقتضى الأمانة العلمية التى التزمنا بها طيلة صفحات مجلدات خواطر الشعراوى تحقيقاً وتخريجاً وتوثيقاً لما قاله إمام الدعاة الشيخ محمد متولى الشعراوى رحمه الله ورضى الله عنه .

فالشيخ رحمه الله قد توفاه الله وهو فى آخر آية من سورة الممتحنة ، وقد نهضت همتنا لإكمال خواطره رحمه الله على نفس منهجه الدعوى وأسلوبه المتميز من المزج بين الخواطر واللغويات والنواحى الأدبية والأسلوبية التى تبرز إعجاز هذا القرآن العظيم .

وقد استعنا فى هذا بمسموعات ومرئيات وبتفسيره أيضاً وصغناها بأسلوب قريب المتناول كما هى عادة الشيخ رحمه الله .

ولم نخرج فى هذا التفسير عن منهجه وروحه الدعوية ولم نألُ جهداً فى الرجوع أولاً إلى الكثير من التفاسير بمناهجها المختلفة سواءً التى تفسر القرآن بالقرآن ، أو التى تفسر القرآن بالمرويات والأحاديث أو التى تفسره من الناحية اللغوية كالبغوى أو تلك التى تفسره بالمنهج الفكرى فى الآيات كالرازى والألوسى .

قمنا بهذا العمل حسبة لله عز وجل ، ورجاء إيصال وتكملة هذا الكنز الذى ستذكره الأجيال بكل الخير .

قمنا بهذا العمل تحت إشراف ودعم فضيلة الشيخ / سامى متولى الشعراوى

الأستاذ / عادل أبو المعاطي

الشيخ / رجب فتحى محمد

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الممتحنة(١)

يقول الحق سبحانه :(٢)

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ
تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ
يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ
خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم
بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ
مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ١ ﴾

---

(١) سورة الممتحنة هى السورة رقم (٦٠) فى ترتيب المصحف ، عدد آياتها ١٣ آية ، وهى سورة مدنية نزلت بعد سورة الأحزاب وقبل سورة النساء فهى خامس سورة تنزل بالمدينة .

(٢) سبب نزول الآية : نزلت فى حاطب بن أبى بلتعة وهو أنه أتى امرأة ادعت الإسلام فى المدينة وهى من قريش ، أتاها حاطب وأعطى لها كتاباً إلى أهل مكة وأعطاها عشرة دنانير على أن توصل إلى أهل مكة كتاباً وكتب فى الكتاب : من حاطب إلى أهل مكة أن رسول الله يريدكم فخذوا حذركم ، فخرجت سارة ونزل جبريل فأخبر النبى بما فعل حاطب ، فبعث رسول الله علياً وعماراً والزبير وطلحة والمقداد بن الأسود وكانوا كلهم فرساناً وقال لهم : انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن فيها ظعينة معها كتاب من صاحب إلى المشركين فخذوه منها وخلوا سبيلها فإن لم تدفعه إليكم فاضربوا عنقها فخرجوا حتى أدركوها فى ذلك المكان فقالوا لها : أين الكتاب ؟ فحلفت بالله ما معها كتاب ، ففتشوا مكانها فلم يجدوا معها كتاباً فهموا بالرجوع فقال على : والله ما كذبنا ولا كذبنى وسلَّ سيفه وقال : أخرجى الكتاب وإلا والله لأجزرنك ولأضربن عنقك .

فلما رأت الجد أخرجته من ذوائبها قد خبأته فى شعرها ، فخلوا سبيلها ورجعوا بالكتاب إلى رسول الله فأرسل رسول الله إلى حاطب فأتاه فقال له : هل تعرف الكتاب ؟ قال : نعم. قال : فما حملك على ما صنعت ؟ فقال : يا رسول الله والله ما كفرت منذ أسلمت ولاغششتك منذ نصحتك ولا أجبتهم منذ فارقتهم ولكن لم يكن أحد من المهاجرين إلا وله بمكة من يمنع عشيرته وكنت غريباً فيهم وكان أهلى بين ظهرانيهم فخشيت على أهلى .. فنزلت . أسباب النزول للواحدى ص ٢٣٩ .

هذا نداء من الله عز وجل يقول : يا مَنْ آمنتم بى رباً وبأنِّى الإله الواحد الخالق الرازق التزموا منهجى الذى جاء به رسولى إليكم ، ففى هذا المنهج نجاتكم وسعادتكم فى الدنيا والآخرة ، واحذروا إغفال هذا المنهج أو الانصراف عنه لأنكم لو انصرفتم عنه أصابكم العطب ، وحدث الخلل فى حركة حياتكم ، ولن ينصلح حالكم إلا بالرجوع إليه والله لا يُغير ما بقوم حتى يُغيِّروا ما بأنفسهم .

واعلموا أن التزامكم بمنهجى لايزيد شيئاً فى مُلْكى ولا صفة لم تكنْ لى ، بصفات الكمال فىَّ خلقتكم ، وما فرضتُ عليكم هذا المنهج إلا لصالحكم فأنتم صنعتى وكلُّ صانع يحب لصنعته النجاة والسعادة ، فخذوا عنى هذا التوجيه ﴿ **لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ** .. (١) ﴾ [الممتحنة] أى : لا تجعلوا منهم أولياء لأنهم أعداء ، والعدو لا يكون أبداً ولياً . العدو الذى يُعاديك ويصادمك .

وهذه الكلمة فى اللغة تلزم الإفراد مع المثنى والجمع ، تقول : هذا عدو وهذان عدو وهؤلاء عدو . ومن ذلك قوله تعالى على لسان سيدنا إبراهيم عن الأصنام ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّى إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٧٧) ﴾ [الشعراء]

الحق سبحانه وتعالى قدَّم العداوة التى له سبحانه : ﴿ **لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّى** ..(١) ﴾ [الممتحنة] لأن عدوّى سيكون بالتالى عدواً لكم فلا تجعلوا منهم أولياء ، والولى هو الذى تُواليه وتُقرِّبه وتتخذ منه نصيراً ومُعيناً ، ولو اتخذتم أولياء من أعداء الله أفسدوا عليكم حياتكم لأنهم مصادمون لمنهج الله فلا يُنتظر من ولايتهم خير .

وفى آية أخرى شرح لنا هذا المعنى فقال سبحانه : ﴿ **لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ**

فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً .. (٢٨) ﴾ [آل عمران] يعنى هذا الحكم ليس حكماً فى قالب حديدى ، فقد تضطرنا الأوضاع فى وقت ما لأنْ نُداهنهم إنْ كانوا أقوى منّا إلى أنْ نتمكن من مواجهتهم .

لكن إياك أنْ تستخدم مبدأ التقية[1] ، إياك أنْ تدخل من هذا الباب وأنت فى الواقع لا تقصده ، لذلك قال تعالى بعدها : ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (٢٨) ﴾ [آل عمران]

وقال سبحانه موضِّحاً لنا هذه القضية : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً [2] مِّن دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً .. (١١٨) ﴾ [آل عمران] البطانة هم الحاشية والمقربون منك ، ومعنى ﴿ مِّن دُونِكُمْ .. (١١٨) ﴾ [آل عمران] أى من غير المؤمنين ، فلا توالوا هؤلاء لأنهم ﴿ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً .. (١١٨) ﴾ [آل عمران] لايُقصِّرون فى إفسادكم وإضعاف قوتكم .

فالله يريد لكم حركة مستقيمة وهم يريدون لكم حركة مُعوجة ﴿ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ..(١١٨) ﴾ [آل عمران]

وفضح نواياهم فقال : ﴿ هَـٰأَنتُمْ أُولاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ .. (١١٩) ﴾ [آل عمران] فليس لأحد بعد هذا البيان عذرٌ فى موالاتهم .

---

(١) التقية نوع من النفاق ويشتهر به الشيعة الرافضة الذين يلعنون الرافضة ويلعنون الشيعة أمام أهل السنة ويترضون على الصحابة فى الظاهر . وقد ظهرت هذه الفكرة (التقية) فى منتصف القرن الرابع . وقد جعلوها أصلاً من أصول فقههم للتخلص من تبعة رد كل سنة ثبتت عن النبى ﷺ حتى أنهم قالوا : لا إيمان لمن لا تقية له .

(٢) بطانة : أخصّاء وأصفياء . وبطانة الرجل ووليجته من يعرِّفه أسراره ثقة به . قاله أبو السعود فى تفسيره . واشتقاقه من بطانة الثوب .

وفى موضع آخر قال تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُواً وَلَعِباً مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ..(٥٧) ﴾ [المائدة] إذن : لأهمية هذه القضية أخذت رقعة واسعة فى كتاب الله حتى لا يقع المؤمنون فى هذا الفخ وهذا المنزلق الخطير .

وتأمل الأداء البيانى فى ﴿ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ ..(١) ﴾ [الممتحنة] المراد تعطونهم وتخبرونهم بأسرار النبى ﷺ طلباً لمودتهم ، فجعل الأسرار التى تُفشَى كأنها مودة ومحبة بين الطرفين ، إما تُلقونها أنتم إليهم ، أو يُوقعون هم بكم ليأخذوها منكم .

﴿ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ ..(١) ﴾ [الممتحنة] أى : كيف تفعلون ذلك مع مَنْ كفر بالحق الذى جاء به محمد ؟ ﴿ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ ..(١) ﴾ [الممتحنة] أى يُخرجون رسول الله ويُخرجونكم بسبب إيمانكم بالله ، فالإيمان وحده علّة الإخراج ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ ..(٢٨) ﴾ [غافر] أى : بسبب قوله ربى الله .

لذلك لم يُطِقْ كفار مكة وجود المؤمنين معهم فى مجتمع واحد ، لأن وجودهم سيقلب الموازين الاجتماعية ، وسيسحب بساط السيادة من تحت أقدامهم ، ولَم لا وهو دين يُسوِّى بين السادة والعبيد ؟

وقوله تعالى : ﴿ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَاداً فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي ..(١) ﴾ [الممتحنة]

يعنى : إنْ كان خروجكم من أجلى جهاداً فى سبيلى إعلاءً لدينى ونُصْرةً لرسولى وطلباً لمرضاتى فلا تتخذوا أعدائى أولياء ، كأنه تعالى يقول لهم : أكملوا مسيرة الإيمان وكما صدقتم فى خروجكم

من أجل الله فاصْدُقوا معه ولا تتخذوا من أعدائه أولياء .

﴿ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ .. (١) ﴾ [الممتحنة] أى : تودونهم وتحبونهم وتجعلون ذلك سراً ، أو تُسرُّون إليهم بأخبار رسول الله ﷺ .

﴿ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ .. (١) ﴾ [الممتحنة] يعنى : احذروا مَنْ لا تخفى عليه خافية منكم .

﴿ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ .. (١) ﴾ [الممتحنة] أى : يُوالى أعداء الله .

﴿ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١) ﴾ [الممتحنة] أى : انحرف عن الطريق المستقيم والنهج القويم .

والسواء هو الوسط . و(سواء السبيل) هو وسط الطريق . وهو الطريق السليم المستوي الموصل للغاية .

وقد كانت طرق العرب إما فيها رمال وإما بين الجبال ، وكانوا يختارون السير في وسط الطريق حتى لا ينالهم أذى من جرف هار من الرمال فيقع بهم ، أو أن تقع عليهم صخرة من جبل . ولذلك كانَ من لا يسير في سواء السبيل يضل لأنه يسلك سبيلاً لا يؤدى به إلى غاية خير .

﴿ إِن يَثْقَفُوكُمْ (١) يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ (٢) ﴾

أى : أن عداوتهم لكم دائمة ﴿ إِن يَثْقَفُوكُمْ .. (٢) ﴾ [الممتحنة] فى أى مكان وجدوكم فيه حتى لو مصادفة ﴿ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً .. (٢) ﴾ [الممتحنة] ومن علامات هذه العداوة ﴿ وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ .. (٢) ﴾ [الممتحنة]

---

(١) يثقفوكم : ثقف الشىء وجده وظفر به . أى حيث وجدتموهم وظفرتم بهم . [القاموس القويم ١ / ١٠٧]

بسط اليد عادة يكون بالخير ، أما هؤلاء فلن ينالكم منهم إلا الشر والأذى بالقول تارة وبالفعل أخرى ، وهذه نتيجة طبيعية لبُغضهم لكم وحقدهم عليكم .

﴿ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ (٢) ﴾ [الممتحنة] فليست بواطنهم بأقلّ حقداً من ظواهرهم ، فهم يؤذونكم فى الظاهر ويحبون أن تكونوا أمثالهم فى الكفر بالله كى لا تكون لكم قوة عليهم وتظل لهم السيطرة .

﴿ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ ۚ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣) ﴾

كأنهم كانوا يوادون أعداء الله من أجل أرحامهم ومن أجل أولادهم وخوفاً عليهم ، وهؤلاء لن ينفعوهم ولن يُغنوا عنهم من الله شيئاً يوم القيامة ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٣٧) ﴾ [عبس]

وقال سبحانه : ﴿ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا .. (٣٣) ﴾ [لقمان]

إذن : لا تُوال أعداء الله من أجل أحد لأنهم لن يدفعوا عنك العذاب ﴿ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ .. (٣) ﴾ [الممتحنة] فهؤلاء فى الجنة وهؤلاء فى النار .

وقالوا : نزلت هذه الآية فى حاطب بن أبى بلتعة[1] وكان مؤمناً

---

(١) حاطب بن أبى بلتعة : صحابى شهد الوقائع كلها مع رسول الله وكان من أشد الرماة وكانت له تجارة واسعة ، ولد (٣٥ ق. هـ) ، بعثه النبى ﷺ بكتابه إلى المقوقس صاحب الإسكندرية ، كان أحد فرسان قريش وشعرائها فى الجاهلية . توفى بالمدينة عام (٣٠ هـ) عن ٦٥ عاماً . [الأعلام للزركلى ٢/١٥٩] .

وهاجر إلى المدينة ، لكنه وقع فى زلة حيث إنه لما علم أن رسول الله ﷺ يستعد لفتح مكة أرسل إليهم كتاباً مع امرأة[١] أخفتْه فى شعرها ، وكتب فيه : من حاطب بن أبى بلتعة إلى قريش إن محمداً يريدكم فاحذروه .

فأوحى الله تعالى إلى رسوله بذلك ، فاستدعى كلاً من علىّ وعمار وعمر وطلحة والزبير وكانوا فرساناً وقال لهم : الحقوا بامرأة ظعينة[٢] تجدونها بروضة خاخ[٣] معها كتاب إلى قريش وائتونى به ، فلما لحقوا بها وسألوها عن الكتاب قالت : ليس معى شىء ، ففتشوها ومتاعها فلم يجدوا شيئاً وأرادوا الانصراف .

فقال علىّ رضى الله عنه : والله ما كذبنا ولا كذب رسول الله ولا كذب الوحى على رسول الله ، وسَلَّ سيفه وقال لها : إما أنْ تُظهرى الكتاب وإما قتلتك ، فأخرجتْه من شعرها وعادوا به إلى رسول الله .

فاستدعى رسول الله حاطباً وقال له : ما حملك على هذا ياحاطب ؟ فقال : يا رسول الله إنى امرؤ ليس لى أهلٌ ولا عصبية ، ولى أقارب بمكة فأردتُ أنْ أتخذ عند قريش يداً ، وأعلم أن ذلك لن يضرك من الله بشىء وأنك منصور منصور ، فقال رسول الله ﷺ : صدقتَ .

---

(١) هذه المرأة هى سارة مولاة لبعض بنى عبد المطلب بن عبد مناف وكانت مغنية بمكة وكانت قدمت على رسول الله المدينة وطلبت منه الميرة وشكت الحاجة فأوقر لها بعيراً طعاماً فرجعت إلى قريش وارتدت عن الإسلام [السيرة الحلبية ٢/١١] .

(٢) يقال للمرأة ظعينة بمعنى مرتحلة ، ظعن ظعناً ارتحل . وهى أيضاً فعيلة بمعنى مفعولة لأن زوجها يظعن بها . ويقال : الظعينة فى الأصل وصف للمرأة فى هودجها . [المصباح المنير] .

(٣) روضة خاخ موضع بين مكة والمدينة بقرب حمراء الأسد من المدينة فى أحمائها ، وهى روضة كثيرة الماء والشجر وهى الآن من ضواحى المدينة إلى الجنوب منها يقع بأعلى العقيق بين وادى شوط وبين الناصفة بالقرب من أبيار الماشى .

فقال عمر : لا يا رسول الله دَعْنى أضرب عنقه ، فقال : لا يا عمر ، وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال : افعلوا ما شئتم فقد غفرتُ لكم - وكان حاطب من أهل بدر[١] .

إذن : الأرحام والقرابات لا تحملك أبداً على مخالفة منهج الله لأنك لا تدرى من أين يأتيك الخير ، لذلك الإسلام أعلى علاقة العقيدة فوق علاقة النسب ، والشواهد على ذلك كثيرة فى تاريخ الدعوة ، فعبيد الله بن عبد الله بن أُبى استأذن رسول الله فى أنْ يقتل أباه بدل أنْ يقتله أحدٌ من المسلمين غيره .

وابن أبى بكر يقول لأبيه : لقد رأيتُك يوم بدر ولكنى عزفتُ عنك، يعنى كان بإمكانى قتلك ولكن تركتُك رحمة بك ، فقال له أبو بكر : أما أنا فلو رأيتُك لقتلتُك[٢] .

والذين يحللون فلسفة التدين فى مسألة سيدنا أبى بكر وولده يقولون : هذا أمر طبيعى منطقى ، لأن ابن أبى بكر قارن بين أبيه ومعتقده حتى لو كان معتقده فى الإله الحق ، فمن الصعب عليه أنْ يقتل أباه ، أما أبو بكر فيقارن بين ربه الإله الحق وبين ولد من أولاده ، فاختار ربَّه على ولده .

---

(١) حديث طويل أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٠٠٧ ، ٣٩٨٣ ، ٤٢٧٤) وكذا مسلم فى صحيحه (٦٥٥٧) باب من فضائل أهل بدر . وأبو داود فى سننه (٢٦٥٢) وكذا الترمذى (٣٣٠٥) ، وأحمد فى مسنده (٦٠٠) من حديث على رضى الله عنه ، وكان معه الزبير والمقداد .

(٢) حدث هذا فى غزوة بدر . والصِّديق قاتلهم حتى قال له ابنه عبد الرحمن : قد رأيتك يوم بدر فصدفت عنك . فقال أبو بكر : ولكنى لو رأيتك لقتلتك . (كتاب أبو بكر الصديق لابن قاسم الحنبلى ص ٤٧) . وقال ابن برهان الدين الحلبى فى كتابه السيرة الحلبية (٢ / ٤١٤) أن عبد الرحمن لما أسلم قال لأبيه : لقد أهدفت لى أى ارتفعت لى يوم بدر مراراً فصدفت عنك أى أعرضت عنك فقال أبو بكر : لو هدفت لى لم أصدف أى أعرض عنك .

ومصعب بن عمر يقتل أخاه عبيد فى إحدى المعارك ، ويُؤخذ أخوه الآخر أسيراً فيقول لأبى اليسر الذى أسره : أشدد على أسيرك فإن أمه غنية وستفديه بمال كثير ، فنظر إليه وقال : أهذه وصايتك بأخيك يا مصعب ؟ قال : بل هو أخى لا أنت . إذن : كانت رابطة العقيدة أقوى وهى الأساس الذى انطلقوا منه .

وقوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾ ﴾ [الممتحنة] يعنى : احذروا بصر الله إليكم وعينه التى لا تغفل ولا تنام ، واعلموا أنه يراكم ومُطلع على أفعالكم مهما أسررتُم موالاة أعدائه ، ومهما داريتم فهو بصير بكم .

﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا (١) حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٤﴾ ﴾

بعد أنْ حدّثتنا الآيات عن حكم موالاة أعداء الله تعطينا نموذجاً فى ذلك واختارت له سيدنا إبراهيم عليه السلام أبا الأنبياء ، لأن له قصة وموقفاً فى دعوة أبيه وقومه :

---

(١) العداوة ضد الصداقة . والعدو ضد الصديق . والبغضاء شدة العداوة والكره والمقت .

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (٧٠) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (٧١) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (٧٣) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٧٤) قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٧٧) ﴾ [الشعراء]

إذن : خذوا أباكم إبراهيم قدوة وأسوة فى هذه المسألة ، ومعنى ﴿ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ..(٤) ﴾ [الممتحنة] نموذج طيب فى عمل الخير تتأسُّون به وتفعلون مثله ، حيث تبرَّأ إبراهيم من الشرك والمشركين حتى لو كان فيهم أبوه أو عمه الذى ربّاه وله فضل عليه .

فكان لنا قدوة فى التبرى من الكافرين والمشركين ، وكلمة (بُرءاء) جمع برىء ، وهو الذى يتبرأ من الشىء وينفض يده منه ويتخلَّى عنه . ومعنى ﴿ كَفَرْنَا بِكُمْ .. (٤) ﴾ [الممتحنة] أى : أنكرنا فعلكم وما أنتم عليه من الشرك .

ثم يقرر سيدنا إبراهيم والمؤمنون معه طبيعة العلاقة بينه وبين المشركين وأنها علاقة عداوة صريحة ﴿ وَبَدَا..(٤) ﴾ [الممتحنة] ظهر ﴿ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ .. (٤) ﴾ [الممتحنة] وأيضاً ﴿ وَالْبَغْضَاءُ .. (٤) ﴾ [الممتحنة] هكذا عداء وكراهية لأننا على طرفى نقيض ، ولا يجتمع الإيمان أبداً مع الكفر .

وسيظل هذا العداء وهذه البغضاء موجودة ﴿ حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ..(٤) ﴾ [الممتحنة] إذن : علّة العداوة أنكم أشركتم بالله ، فلو آمنتم به وحده لتبدّلتْ هذه العداوة إلى مودة ومحبة .

لكم كلمة ﴿ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ ..(٤) ﴾ [الممتحنة] لا تعطى دلالة على

أن عمه منهم .

﴿إِلاَّ قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ ..(٤)﴾ [الممتحنة] هذا استثناء من الأسْوة الحسنة ، يعنى لكم أسوة حسنة فى إبراهيم فى كل شىء إلا فى هذه الكلمة لأن وعده لعمه بالاستغفار له يعنى أن قلبه مازال معه ، فلا تكُنْ هذه أسوة لأن فيها شيئاً من موالاة أعداء الله .

وفى موضع آخر ذكرت الآيات الحوار بين سيدنا إبراهيم وأبيه وأن سيدنا إبراهيم أنهى الحوار بقوله (سلام) ولها معنى فى هذا الموقف ، كما لو أنك تتناقش مع شخص آخر فزاد عليك فى الكلام فتنصرف عنه ، وتقول : يا شيخ سلام عليكم ، إذن : هو سلام موادعة لا سلام تحية .

وقد قال الحق سبحانه : ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ (١١٤)﴾ [التوبة]

وظل إبراهيم عليه السلام يستغفر لعمه كما وعده إلى أن تبين له أنه عدو لله فانصرف عنه عند ذلك وتبرأ منه .

الحق سبحانه وتعالى أتى بسيدنا إبراهيم هنا على أنه أسوة للكون كله ، لأنه أبو الأنبياء وقال الله فيه ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً (١٢٠)﴾ [النحل] لأنه جمع من خصال الخير ما لا يوجد إلا فى أمة .

فالحق سبحانه وتعالى وزّع خصال الخير ونثرها بين خَلْقه ليحتاج كلُّ فرد منا إلى خصلة الخير فى أخيه ويحدث الترابط بين الناس فكانت هذه ميزة فى سيدنا إبراهيم لا توجد إلا فيه .

لذلك قال عنه ربه : ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِى وَفَّىٰٓ (٣٧)﴾ [النجم] وقال عنه : ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰٓ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ .. (١٢٤)﴾ [البقرة]

وقوله : ﴿وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ .. (٤)﴾ [الممتحنة] لا أدفع عنك شيئاً من عذاب الله مجرد أنْ أستغفر لك ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ (٤)﴾ [الممتحنة]

والتوكل عمل قلب وليس عمل جوارح ، فالجوارح تعمل والقلوب تتوكل ، ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا ..(٤)﴾ [الممتحنة] أخذنا بأسباب النجاة وتوكلنا بقلوبنا ليوفِّقنا إلى النجاة الحقيقية .

﴿وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا ..(٤)﴾ [الممتحنة] أى : رجعنا وأفقنا مما كنا فيه فترك الدعاء والاستغفار لأبيه .

﴿وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ (٤)﴾ [الممتحنة] المصير المرجع ، فإلى الله مرجعنا .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿رَّبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (٥)﴾

هذا دعاء المؤمنين وعلى رأسهم سيدنا إبراهيم يقولون ﴿رَّبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً ..(٥)﴾ [الممتحنة] كيف يكون المؤمن فتنة للكافر ؟ المؤمن يكون فتنة للكافر فى حالتين ، إذا انهزم المؤمنون فى معركة أمام الكافرين ، عندها يُفتن الكافر لأنه سيقول : لو كانوا مؤمنين بالله ما انهزموا .

أو لو كان لهم ربٌّ يدافع عنهم ما انهزموا ، أو يقولون لو كانوا صادقين فى إيمانهم ما انهزموا وهذه فتنة .

أو يفتن الكافر بالمؤمن حينما يرى أهل الإيمان يرتكبون المعاصى ولا يلتزمون بمنهج الله فيزهدون فى الإسلام ويكرهون الانتساب إليه .

وهذا واقع المسلمين الآن ، يُنفِّرون الناس من دين الله بدل أنْ يجذبوهم إليه ، لذلك قال علماؤنا : لا ينصلح حال هذه الأمة إلا بما صلح به أولها[1].

والمؤمن يتحمل هذه المسئولية مسئولية الصدّ عن دين الله ، لذلك كان هذا الدعاء ﴿ رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا ..(٥) ﴾ [الممتحنة] اجعلنا مُنفِّذين لأوامرك تنفيذاً يُحبِّب الآخرين فى الدين ، ولا نكون حجة لهم فى الإعراض عن دينك .

وهذا يعطينا ضرورة التمسك بتعاليم الدين حتى لا ينظر أحد إلى المسلم أو المؤمن ويقول : هذا هو من يعلن الإيمان ويتصرف عكس تعاليم دينه ، فيكون سبباً فى فتنة آخرين .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٦) ﴾

هذه أُسْوة أخرى غير الأُسْوة بسيدنا إبراهيم ، أسوة سيدنا إبراهيم كانت فى أنه لا يجامل أعداء الله ولا يوادهم حتى لو كانوا

---

(١) هذه قولة الإمام مالك : « لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها » . (أشرح العقيدة الطحاوية ١ / ٩) . وما صلح به أولها هو العمل بكتاب الله وسنة رسوله .

أهله ، والأُسْوة هنا أسوة بمَنْ هم أهلٌ لتقبُّل ثواب الله ويطمعون فى الخير الذى ينتهى إلى ثواب الآخرة ورضوان الله سبحانه .

ومعنى ﴿ يَرْجُو اللَّهَ .. (٦) ﴾ [الممتحنة] يخاف عقابه ويطمع فى ثوابه ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ .. (٦) ﴾ [الممتحنة] أى عن هذا ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٦) ﴾ [الممتحنة]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَٱللَّهُ قَدِيرٌ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٧) ﴾

كلمة ﴿ عَسَى .. (٧) ﴾ [الممتحنة] تفيد الترجى ، وهو طلب شىء ممكن الحدوث ، فإنْ كان الرجاء من الله فهو مُتحقِّق وواقع ، تقول لصاحبك : تعال غداً عسى أن أقضى لك حاجتك ، هذا رجاء يمكن أن يتحقق . ويمكن أن يحول دون تحقيقه شىء ، لأنه رجاء مَنْ لا يملك كلّ أسباب التحقيق ، فإنْ كان الرجاء من الله فلا أحدَ يمنعه أو يحول دونه .

الحق سبحانه وتعالى بعد أنْ نهاهم عن موالاة الكفار يعلم سبحانه أن منهم للمؤمنين أقاربَ وأصدقاء ، وأن خواطر المؤمنين متعلقة بأقاربهم وأهليهم ممنْ لا يزال على الكفر .

فالحق سبحانه يُطيِّب خاطرهم كأنه يقول لهم : لا تحزنوا لمقاطعتكم لهم ، فعسى الله أنْ يُبدِّل هذه المعاداة إلى مودة وتحقّق

هذا الرجاء بالفعل ، فرأينا كثيراً من هؤلاء فى ساحة الإيمان قبل أنْ يفارقوا هذه الدنيا .

صناديد الكفر وقادة الشرك أسلموا وحَسُن إسلامهم بل كانوا قادة فى صفوف المسلمين ، أمثال عمرو وخالد وعكرمة[1] ، سبحان الله عكرمة الذى كان من ألدِّ أعداء الإسلام والذى وقف وحده فى الخندق يوم الفتح ليرد المسلمين هداه الله للإسلام ، وأراد أنْ يبلى فى الإسلام بلاء يجبر به ما كان منه فى الجاهلية وفعلاً فى المعركة مزَّقته السيوف والرماح فيقول لسيدنا خالد : يا خالد أهذه ميتة تُرضى عنى الله ورسوله .

﴿ وَاللَّهُ قَدِيرٌ .. (٧) ﴾ [الممتحنة] أى أن الله سبحانه لا يُعجزه شىء ولا يخرج عن طاعته شىء ، إنه سبحانه على كل شىء قدير ، وهو سبحانه القادر الأعلى الذى يأتى بقلوب وأفئدة هؤلاء إليكم ويجعل بينكم وبينهم مودة .

وهذا مثل قوله سبحانه : ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا .. (١٠٣) ﴾ [آل عمران]

ثم يقول : ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٧) ﴾ [الممتحنة] يغفر لهم ما اقترفوه قبل إسلامهم ويرحمهم بنعمته ويفيض عليهم برحمته وأنتم معهم فى هذا ، ففضل الله عظيم .

---

(١) هو عكرمة بن أبى جهل عمرو بن هشام القرشى ، من صناديد قريش فى الجاهلية والإسلام ، أسلم عكرمة بعد فتح مكة وحسن إسلامه فشهد الوقائع ، واستشهد فى اليرموك عام ١٣ هجرية . [الأعلام للزركلى ٤/٢٤٤] .

ثم يقول الحق سبحانه[١] :

﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ ﴾

قالوا : سبب نزول هذه الآية أن جماعة من المسلمين قالوا : إن لنا أقارب لم يؤمنوا فهل لنا أنْ نقدِّم لهم شيئاً من المعروف ، فنزلت : ﴿ لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ .. (٨) ﴾ [الممتحنة] لا ينهاكم الله عن برِّهم والإحسان إليهم ﴿ عنِ الَّذين لَمْ يقَاتلُوكُمْ فِى الدِّينِ ولَمْ يخْرِجُوكُم مِّن دِيارِكُمْ أَن تبرُّوهُمْ .. (٨) ﴾ [الممتحنة]

فشرط برِّهم ألاّ يقاتلوكم وألاّ يُخرجوكم من دياركم فلا مانع أنْ تبروهم ، وهذا معنى قوله تعالى فى آية أخرى : ﴿ وإِن جَاهَدَاكَ علَىٰ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ علْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِى الدُّنْيَا معْرُوفًا (١٥) ﴾ [لقمان]

وسبق أنْ بيَّنا أن هذه الآية لا تتعارض مع قوله تعالى : ﴿ لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ[٢] اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ .. (٢٢) ﴾ [المجادلة]

---

(١) سبب نزول الآية : أخرج الطبرى في تفسيره (٣٤٢٦٩) من حديث الزبير بن العوام قال : نزلت فى أسماء بنت أبى بكر وكانت لها أم فى الجاهلية يقال لها قتيلة ابنة عبد العزى فأتتها بهدايا ضباب وأقط وسمن فقالت : لا أقبل لك هدية ولا تدخلى علىّ حتى يأذن رسول الله ﷺ فذكرت ذلك عائشة لرسول الله فأنزل الله ﴿ لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ (٨) ﴾ إلى قوله ﴿ الْمُقْسِطِينَ ﴾ .

(٢) حاد الله ورسوله : خالفوا الله ورسوله فيما يأمران به وينهيان عنه . فحادّ الله ورسوله : عادى الله ورسوله . [تفسير القرطبى فى تفسير الآية] .

لأن المودة ميْل قلبى وحب ، أما المعروف وأعمال الخير فهى بسطة يد . ولو على مَنْ تكره . وقالوا : البر فعل خير يسُرُّ من فُعل به ، والمراد هنا بـ ﴿أَن تَبَرُّوهُمْ ..(٨)﴾ [الممتحنة] يعنى : إذا طلب منكم فبروهم ولا تبدأوهم أنتم بالعطاء .

ومعنى : ﴿وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ..(٨)﴾ [الممتحنة] مادة (قسط) فى اللغة من الكلمات التى تدل على الشىء ونقيضه ، نقول : قسط يقسط قسطاً يعنى عدل . ومنها قسط قسطاً وقسوطاً يعنى ظلم وجار .

قال تعالى : ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا (١٥)﴾ [الجن] وقال : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٩)﴾ [الحجرات] ومقسط اسم فاعل من أقسط ، والهمزة هنا همزة الإزالة أى أزال القسط أو الجور .

ومن معانى ﴿وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ .. (٨)﴾ [الممتحنة] نقول : أقسط يعنى جعل الشىء أقساطاً أى أجزاءً ، وليس جملة واحدة ، والمعنى أعطوهم شيئاً من أموالكم على هيئة أقساط كل شهر مثلاً تُعطوهم شيئاً يكفيهم ويرفع عنهم مذلّة الحاجة والسؤال ولا تجعله يأتيك ويذلّ نفسه .

لذلك قال تعالى : ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ (١٠)﴾ [الضحى] لأنك لو نهرته لقال معترضاً على الله : لماذا أعطى هذا ومنعنى ؟ وهذا المعنى شرحته الآية : ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى .. (٢٦٣)﴾ [البقرة]

وسيدنا رسول الله يقول « إنكم لن تسعُوا الناس بأموالكم فسعوهم بأخلاقكم »[1] أى : بالكلمة الطيبة . لذلك قال تعالى هنا :

---

(١) أخرجه البزار فى مسنده (٨٥٤٤ ، ٩٣١٩ ، ٩٦٥١) وأبو يعلى الموصلى فى مسنده (٦٥٥٠) وابن أبى شيبة فى مصنفه (٢٥٨٤٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ « لن تسعوا الناس بأموالكم ولكن يسعهم منكم بسط الوجه وحُسْن الخلق » .

﴿ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ..(٨) ﴾ [الممتحنة] فالبر يرفع عنهم الحاجة ، وتُقسطوا إليهم برفع مذلة السؤال .

ويُروى عن أهل الخير أن سائلاً طرق الباب فخرج إليه ربُّ البيت وقضى له حاجته ، ثم عاد فوجدته زوجته يبكى فتعجَّبتْ لم تبكى وقد أعطيته حاجته ؟

فقال لها : إنما أبكى لأننى تركتُه يسأل . إذن : على أهل الخير أنْ يتحسَّسوا حالة مَنْ حولهم من أهل أو جيران أو معارف ويبحثوا عن أهل الحاجات فيبادرونهم ويذهبون إليهم ويحفظون عليهم ماء وجوههم ، فخَلْف الأبواب وخلف الجدران كثيرٌ من الفقراء الذين يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف فابحثُوا عنهم .

ويُحكى أن جماعة من العرب يجلسون عند الكعبة يتناقشون : مَنْ هو أجود العرب ؟ واختلفوا حتى علتْ أصواتهم فقال أحدهم : سعد ابن عبادة . وقال آخر : عبد الله بن جعفر [(١)] ، وقال الآخر : بل عرابة الأوسى [(٢)] ، فقال أحدهم : لكى نعرف مَنْ أجودهم نبعث إلى كل واحد منهم رجلاً يسأله على أنه عابر سبيل ومنقطع ، وننظر ماذا يكون من عطائهم .

---

(١) عبد الله بن جعفر بن أبى طالب القرشى صحابى ، ولد بأرض الحبشة لما هاجر أبواه إليها ، كان كريماً يسمى بحر الجود وللشعراء فيه مدائح ، كان أحد الأمراء فى جيش على بن أبى طالب يوم صفين ، مات بالمدينة (٨٠ هـ) . [الأعلام للزركلى ٤ / ٧٦] .

(٢) عرابة الأوسى هو : عرابة بن أوس بن قيظى الأنصارى ، من سادات المدينة الأجواد ، أدرك حياة النبى ﷺ وأسلم صغيراً ، وفد الشام فى أيام معاوية وله أخبار معه ، توفى بالمدينة نحو (٦٠ هـ) ، وهو الذى يقال فيه الشماخ المرى : « إذا ما راية رُفعت لمجد تلقاها عرابة باليمين » . [الأعلام للزركلى ٤ / ٢٢٢]

فذهب الأول إلى سيدنا عبد الله بن جعفر فقال : يا بن بنت رسول الله سائلٌ انقطع به الطريق ، وكان عبد الله خارجاً للصيد وقد وضع رِجْلاً فى الرِّكاب والأخرى على الأرض ، فأنزل رجْله من الرِّكاب وقال للسائل : تعال ضع رِجْلك فى الرِّكاب وأعطاه حقيبة بها أربعة آلاف دينار وأربعة أثواب ، وأغلى ما فيها سيفٌ لعلى بن أبى طالب وقال له : انطلق وعاد هو ماشياً .

وذهب الثانى إلى سعد بن عبادة وطرق بابه فخرجت جارية وقالت له : ماذا تريد ؟ قال : أريد ابن عبادة ، فقالت : ولم ؟ قال : ابن سبيل ومنقطع ، فقالت : هو نائم ، وقضاء حاجتك أهون من إيقاظه ، والله ما عند سعد إلا كيس فيه سبعمائة دينار فخُذْها ، واذهب إلى معاطن الإبل فخُذْ لك راحلة وخادماً وامْض إلى سبيلك ، فلما استيقظ سعد أخبرتْه الجارية بما حدث فسُرَّ من فعلها وقال لها : اذهبى فأنت حُرة .

أما الثالث فذهب إلى عرابة الأوسى الذى قال عنه الشاعر[1] :

إذَا مَا رَايَةٌ رفِعَتْ لمجْدٍ تَلَقَّاهَا عرَّابة باليمِينِ[2]

لكن عرابة كان فى آخر أيامه وقد كُفَّ بصره ونفد ماله ولم يُبْقِ له كرمه شيئاً فرآه يسير بين عبدين له إلى المسجد ، فقال :

---

(١) هو الشماخ بن ضرار المازنى الذبيانى ، شاعر مخضرم أدرك الجاهلية والإسلام ، وهو من طبقة لبيد والنابغة ، كان أرجز الناس على البديهة ، شهد القادسية وتوفى فى غزوة موقان (٢٢ هجرية) . [الموسوعة الشعرية] .

(٢) البيت من قصيدة للشماخ الذبيانى ، من بحر الوافر .

يا عرابة ابن سبيل ومنقطع فأعطنى شيئاً ، فقال : ويح عرابة لم تُبْقِ له حقوقُ الناس شيئاً ، ثم سلَّ نفسه من العبدين وقال له : خُذْ هذين العبدين لك ، قال : كيف أُخلِّى بينك وبين عكازك فى الطريق . قال : إلا تأخذهما فهما حُران .

ثم عاد الثلاثة إلى مجلسهم وحكى كلٌّ منهم ما حدث مع صاحبه ، وقد اتفقوا على أن عرابة أجودهم لأنه جاد بما عنده رغم حاجته[١] .

والجواد إذا لم يَجُدْ جاد ولو بكلمة طيبة فهى له صدقة ، لذلك قال الشاعر[٢] :

لاَ خَيْلَ عنْدكَ تهدِيَها وَلاَ مَالْ فَلْيُسْعِد القَوْل إنْ لم يُسعِد الحَالْ [٣]

وهنا ذُيِّلت الآية بقوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾﴾ [الممتحنة] أى الذين يُعطون الناس شيئاً من أموالهم دون سؤال ، فالقسط هنا بمعنى الجزء من الشىء .

وقد قال رسول الله ﷺ : « المقسطون على منابر من نور عن

---

(١) ذكر هذه القصة بطولها ابن كثير فى كتابه (البداية والنهاية) والراوى لها الهيثم بن عدى . وذكر (قيس بن سعد) بدل (سعد بن عبادة) وفيه أنهم أجمعوا على أن أسخى الثلاثة عرابة الأوسى لأنه جاد بجميع ما يملكه وذلك جهد من مقل .

(٢) الشاعر هو : محمد الحسين كاشف الغطاء ، مجتهد إمامى ، أديب من زعماء الثورات الوطنية فى العراق ، ولد عام ١٨٧٧ م ، كان من الكتَّاب الشعراء الدعاة إلى الوفاق بين المسلمين . صنف كتباً كثيرة ، قصد إيران مستشفياً فتوفى بها ونُقل إلى النجف عام ١٩٥٤م ، [الموسوعة الشعرية] .

(٣) البيت من قصيدة من بحر البسيط ، وفيها (فليسعد النطق) بدل (فليسعد القول) .

يمين العرش . الذين يعدلون فى حكمهم وأهاليهم وما ولوا »[(١)] .

﴿ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾

بعد أنْ حدَّثتنا الآيات عن فئة من الكافرين لهم حقّ البر ، وقال ﴿ لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ .. ﴿٨﴾ ﴾ [الممتحنة] أى : عن برّهم والإحسان إليهم، يُبيِّن هنا الفئة الأخرى التى ليس لها هذا الحق ، فيقول سبحانه :

﴿ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ .. ﴿٩﴾ ﴾ [الممتحنة] أى عن برِّهم والإحسان إليهم ﴿ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ .. ﴿٩﴾ ﴾ [الممتحنة] أى : قاتلوكم بسبب تمسككم بدينكم ﴿ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ ..﴿٩﴾ ﴾ [الممتحنة] سعوا بأنفسهم إلى إخراجكم ﴿ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ .. ﴿٩﴾ ﴾ [الممتحنة] عاونوا غيرهم على إخراجكم .

﴿ أَن تَوَلَّوْهُمْ .. ﴿٩﴾ ﴾ [الممتحنة] أى : تتخذوهم أولياء توالونهم وتناصرونهم ﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ ... ﴿٩﴾ ﴾ [الممتحنة] أى منكم ﴿ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الممتحنة] نعم لأنهم ظلموا أنفسهم بالخروج عن أوامر الله ، وظلموا المؤمنين بموالاتهم للكافرين .

---

(١) أخرجه البزار فى مسنده (٢٣٤٠) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ قال : « المقسطون على منابر من نور يوم القيامة بين يدى الرحمن عز وجل بما أقسطوا فى الدنيا » .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾

كان من شروط صلح الحديبية أن مَنْ يأتى من قريش إلى محمد مؤمناً يردّه إلى قريش ، ومَنْ يرتد ويذهب إلى قريش لا يردوه إلى محمد، وقد قبلَ رسول الله ﷺ هذا الشرط لأن فيه اعترافاً بمحمد ودعوته وإقراراً بأن الإسلام أصبح قوة قادرة على إبرام المعاهدات ، تعطى وتأخذ ، فلما أصبح الإسلام قوة قادرة على المواجهة أُلغِى هذا الحكم ، فقد قبلناه لفترة كانت المصلحة فى قبوله .

---

(١) سبب نزول الآية : قال ابن عباس : إن مشركى مكة صالحوا رسول الله ﷺ عام الحديبية على أن من أتاه من أهل مكة رده إليهم ، ومن أتى أهل مكة من أصحابه فهو لهم ، وكتبوا بذلك الكتاب وختموه ، فجاءت سُبيعة بنت الحارث الأسلمية بعد الفراغ من الكتاب والنبى ﷺ بالحديبية فأقبل زوجها وكان كافراً فقال : يا محمد ردّ علىّ امرأتى ، فإنك قد شرطت لنا أن ترد علينا من أتاك منا وهذه طينة الكتاب لم تجف بعد ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ,
[أسباب النزول للواحدى النيسابورى ص ٢٤١]

والممتحنة هى المرأة المهاجرة تأتى رسول الله ﷺ مسلمة مؤمنة فلا تُردُّ إلى الكفار إنما تُمتحن أى تُختبر ﴿يَـأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ ..(١٠)﴾ [الممتحنة] أى : اختبروهن لتعلموا حقيقة إيمانهن بأن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وأنْ تقسم أنها ما خرجت إلا لحبِّها فى الإسلام ورسول الإسلام ، وما خرجتْ لا عن زوج تبغضه هناك ، ولا لزوج تريده هنا ، فإذا علمتم منها ذلك فلا تُرجعوها إلى الكفار[1] .

وكلمة ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ .. (١٠)﴾ [الممتحنة] أن هذا الامتحان فى الأمور الظاهرة قولاً أو فعلاً ، أما البواطن فالله أعلم بها ، فطالما أن المرأة تعلن أنها مؤمنة فهى كذلك ، فلا يجوز أنْ تُردَّ إلى زوج كافر ، لأن المؤمنة لا تحلّ للكافر ولا الكافر يحلّ لها ﴿لا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ ..(١٠)﴾ [الممتحنة] للكافرين ﴿وَلا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ..(١٠)﴾ [الممتحنة] للمؤمنات .

ومع هذا الفصل بين الإيمان والكفر لا يغفل الشارع الحكيم الحقوق المالية المتعلِّقة بالزوجين ، فالإسلام وعدالة الإسلام تحفظ الحقوق حتى للكافر ، فقد أخذنا منه زوجته لأنها مسلمة لا تحلّ له

---

(١) عن أبى نصر الأسدى قال : سئل ابن عباس : كيف كان امتحان رسول الله ﷺ النساء ؟ قال : كان يمتحنهن بالله ما خرجت من بغض زوج ، وبالله ما خرجت رغبة عن أرض إلى أرض ، وبالله ما خرجت التماس دنيا ، وبالله ما خرجت إلا حباً لله ورسوله » أخرجه الطبرى فى تفسيره (٣٤٢٧٤) وابن كثير فى تفسيره (٨ / ٩٢) ، وهذا الامتحان للمؤمنات هو دليل أن الإسلام يضع المرأة المكانة اللائقة بها ويعطيها حقوقها فى المعتقد وأنها ليست مجرد تابعة لزوجها أو لأبيها فى هذا ، بل لها ذاتية وذمة منفصلة ، وأن الإسلام لا يريد قهرها على شىء لا عند المسلمين ولا بين الكافرين . [عادل أبو المعاطى] .

فلا بد أنْ نردَّ إليه ما أنفقه فى المهر ونفقات الزواج .

لذلك قال تعالى : ﴿وَآتُوهُم مَّا أَنفَقُوا ..(١٠)﴾ [الممتحنة] وهذا من عظمة عدالة الإسلام ، فهؤلاء الأزواج أنفقوا وبذلوا مالاً وضياعاً وغيره إلى زوجاتهم اللاتى أسلمن ولحقن بالمؤمنين فلتردوا عليهم ما أنفقوا فلا يُضاروا بإسلام زوجاتهم ، وهذا لا شك يؤثر فيهم ويلفتهم إلى عدالة هذا الدين ودقته فى عدم ظلم أحد .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ .. (١٠)﴾ [الممتحنة]

ثم إن هؤلاء الزوجات اللاتى أسلمن لن يصبحن مشاعاً للمسلمين بل يجعل أمرهن للزواج بمن يُردْنَ على أن يعطوهُنّ حقوقهن التى كفلها الشرع لهن ، وذلك حتى لا يكون سعى المسلمين لغلبة غير المسلمين للحصول على نسائهم هكذا دون ضوابط .

وكذلك على الجانب الآخر ﴿وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ .. (١٠)﴾ [الممتحنة] الكوافر جمع كافرة ، وهى المرأة المرتدة عن الإسلام ، فليس لزوجها المؤمن أنْ يُبقيها فى عصمته فليُطلِّقها لتعود إلى الكفار فى مكة ، وله أن يسأل ما أنفق عليها من مهر ومن نفقات .

فكما نعطى الزوج الكافر مهره نطلب منهم مهر المرأة المرتدة ﴿وَاسْأَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنفَقُوا ..(١٠)﴾ [الممتحنة] فهذه عدالة الإسلام التى لا تفرق بين مؤمن وكافر ، فالحقوق محفوظة لأصحابها حتى لو كانوا كافرين .

وسبق أنْ ذكرنا فى هذا المقام قصة اليهودى[1] الذى اتهمه المسلمون بالسرقة فأنصفه رسول الله وفيه نزلت : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا (١٠٥) وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (١٠٦) وَلا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا (١٠٧) ﴾ [النساء]

وقوله تعالى : ﴿ ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ..(١٠) ﴾ [الممتحنة] وما دام حكم الله فلا يُرد ، حكم الله حكم عادل لا تردوه ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٠) ﴾ [الممتحنة]

﴿ وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ (١١) ﴾

الكلام هنا على ما فات المؤمنين من حقوق وهى مهور المرتدات التى لم يدفعها الكافرون للمؤمنين ، الحق سبحانه وتعالى يُبيِّن حكمها ، فيقول للمؤمنين : ﴿ وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ ..(١١) ﴾ [الممتحنة] أى المهور التى لم يردوها إليكم .

﴿ فَعَاقَبْتُمْ ..(١١) ﴾ [الممتحنة] العقاب يكون بهزيمتهم فى الحرب ،

---

(١) هو زيد بن السمين ، وقد أورد هذه القصة أبو إسحاق النيسابورى فى الكشف والبيان عن تفسير القرآن (٣١ / ٣٨١) وكذا فى تفسير اللباب لابن عادل (١ / ١٥٩٧) أن رجلاً من الأنصار يسمى طعمة بن أبيرق سرق درعاً من جار له يقال له قتادة بن النعمان ، وكانت الدرع فى جراب فيه دقيق فجعل الدقيق ينتثر من خرق فى الجراب حتى انتهى إلى الدار ثم خبأها عند رجل من اليهود يقال له زيد بن السمين ، فاتبعوا أثر الدقيق حتى بيت اليهودى فأخذوه منه واتهم اليهودى بالسرقة » الحديث .

وأخْذ أموالهم غنائم ، فعليكم أنْ تردّوا هذه المهور لأصحابها من أموال الغنائم ، يعنى من أموال الكفار التى غنمناها منهم ، نقضى ما عليهم من حقوق للمؤمنين[١] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾

فى فتح مكة جلس سيدنا رسول الله ﷺ على الصفا فبايع الرجال ، ثم جاء دور النساء فى المبايعة ، فكيف بايعهن رسول الله ؟ لقد بايع الرجال مصافحةً باليد ، فهل فعل هذا مع النساء وهو نبى الأمة ونساؤها جميعاً فى منزلة بناته ، كما قال سبحانه : ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ .. ﴿٦﴾ ﴾ [الأحزاب]

قالوا : ما مسَّ رسول الله يد امرأة لا تحل له[٢] ، حتى فى مسألة

---

(١) فالإسلام راعى مصلحة جميع الأطراف ، المرأة التى آمنت وهاجرت رغبة فى الإيمان وحقها فى الاختيار ، وحق زوجها الكافر فى أن يأخذ ما أنفقه عليها ، وحق الزوج المؤمن فيما أنفقه على الكافرة التى لحقت بالكافرين أو طلقها ، ولو سيأخذ حقه هذا من غنائم غنمها المسلمون فى الحرب ، وكذلك حق المرأة فى أن تتزوج زواجاً شرعياً تأخذ فيه حقوقها بعد أن تركت زوجها الكافر [عادل أبو المعاطى] .

(٢) أخرج مسلم فى صحيحه (٤٩٤٢) عن عائشة قالت : ما مس رسول الله ﷺ بيده امرأة قط إلا أن يأخذ عليها فإذا أخذ عليها فأعطته قال : اذهبى فقد بايعتك . وفى نظم الدرر (٧ / ٥٦٨) فى قصة هند بنت عتبة « وما مست يد رسول الله ﷺ يد امرأة لا تحل له » .

المبايعة التى تقتضى مصافحة لأن المبايعة عقد واتفاق ينشأ عنه بيع من هذا وشراء من هذا ، فكل منهما مُشْتر ، قال تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ..(١١١)﴾ [التوبة]

فالله أخذ من المؤمنين النفس والمال والثمن الجنة ، فهذه مبايعة وعلى كلٍّ طرف أنْ يلتزم حقَّ العقد الذى أبرمه .

إذن : كيف بايعهن رسول الله ؟ قالوا : جاء رسول الله بإناء فيه ماء ووضع يده الشريفة فيه فلامستْ يده جزئيات الماء ، ثم جاءت كل امرأة تريد أنْ تبايع رسول الله فتضع يدها فى هذا الماء فتلامس يدها نفس الجزئيات التى لامستْ يد رسول الله وهكذا تمت المبايعة[1] .

فتأمل هذا الاحتياط من رسول الله مع منزلته من النساء المؤمنات، لذلك نعجب الآن ممن يبيح للرجال مصافحة المرأة الأجنبية ، يقول : وما فيها ؟

ورسول الله ﷺ يُعلِّمنا أن فيها شيئاً بل أشياء ، فيها الحلال والحرام ، إذا كان الشارع حرَّم النظر إلى المرأة الأجنبية وهو السيال المنقطع ، فهل يحلّ لك الملامسة وهى السيال المتصل وله ما له من التأثير فى الطرفين .

البعض يقول : هى عادة فى المجتمع ، نعم عادة سيئة لا تجوز ، وهل المجتمع مشرِّع ؟ إن للتشريع وبيان الحلال والحرام مصادرَ ،

---

(١) أورده السيوطى فى الدر المنثور (١٤ / ٤٣٣) وعزاه لابن سعد وابن مردويه عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : كان رسول الله إذا بايع النساء دعا بقدح من ماء فغمس يده فيه ثم يغمس أيديهن فكانت هذه بيعته ، وكذا فى نظم الدرر للبقاعى (٧ / ٥٦٨) .

فلا يصح أنْ نأخذ من غيرها .

إذن : لا يجوز مصافحة الأجنبية ، وإذا التزم المجتمع بهذا الأدب النبوى فهى مرة واحدة كافية للقضاء على هذه العادة أنْ تمدّ المرأة يدها للمصافحة فلا يمد الرجلُ يده ، أو يمد الرجلُ يده للمصافحة فلا تمدّها المرأة ، وعندها تنكسر هذه الشهوة وتنتهى[١] .

لما بايع رسول الله الرجال بايعهم على الإسلام وعلى الجهاد . أما النساء فكان لهن شروط أخرى فى البيعة بيّنتها هذه الآية ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لاَّ يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلا يَسْرِقْنَ وَلا يَزْنِينَ وَلا يَقْتُلْنَ أَوْلادَهُنَّ وَلا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ .. (١٢) ﴾ [الممتحنة]

وكان فى النساء المبايعات لرسول الله هند بنت عتبة[٢] زوجة أبى سفيان والتى استأجرت وحشياً[٣] لقتل حمزة يوم أُحُد ، ولم تكتف

---

(١) عن أميمة بنت رقيقة قالت : أتيت رسول الله ﷺ فى نساء لنبايعه فأخذ علينا ما فى القرآن أن لا نشرك بالله شيئاً الآية وقال : فيما استطعتن وأطقتن . قلنا : الله ورسوله أرحم بنا من أنفسنا . قلنا : يا رسول الله ألا تصافحنا ؟ قال : إنى لا أصافح النساء إنما قولى لامرأة واحدة قولى لمائة امرأة » . أخرجه أحمد فى مسنده (٢٧٠٥١ ، ٢٧٠٥٣ ، ٢٧٠٥٤) .

(٢) هند بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس ، صحابية قرشية ، هى أم الخليفة الأموى معاوية ابن أبى سفيان ، كانت فصيحة جريئة صاحبة رأى وحزم وأنفة . لم تسلم إلا فى فتح مكة مع زوجها وابنها معاوية . توفيت ١٤ هجرية [الأعلام للزركلى ٨ / ٩٨] .

(٣) هو : وحشى بن حرب الحبشى أبو دسمة مولى بنى نوفل ، صحابى من سودان مكة وهو قاتل الحمزة عم النبى ﷺ قتله يوم أحد ، ثم وفد على النبى ﷺ مع وفد أهل الطائف . توفى عام ٢٥ هجرية [الأعلام للزركلى ٨ / ١١١] .

بهذا بل شقَّتْ بطنه بعد قتله واستخرجتْ كبده ولاكته بأسنانها [١].

وهى اليوم مؤمنة تقف فى صفوف المؤمنات تبايع رسول الله ، فكانت أجرأ النساء وأكثرهن مناقشة لبنود هذه البيعة ، وقد وسعها صدر رسول الله ﷺ على ما كان منها .

فلما سمعت ﴿وَلَا يَسْرِقْنَ ..(١٢)﴾ [الممتحنة] قالت : يا رسول الله ولكن زوجى - يعنى أبا سفيان وكان موجوداً - رجلٌ شحيح وكنتُ آخذُ من ماله دون علمه ، فقال رسول الله : إنك أنت هند ؟ قالت : نعم اعْفُ عمّا سلف عفا الله عنك[٢]، وقال أبو سفيان لَها : ما أخذتيه من مالى فى الغابر فهو حلال لك . وأباح رسول الله فى هذا الموقف للمرأة أنْ تأخذ من مال زوجها ما يكفيها وأولادها[٣] .

---

(١) قال ابن إسحاق : قالت هند بنت عتبة : شفيت من حمزة نفسى بأحد حتى بقرت بطنه عن الكبد . السيرة النبوية لابن هشام (غزوة أحد) ويقول وحشى قاتل حمزة : هززت حربتى حتى إذا رضيت منها دفعتها عليه فوقعت فى ثنته حتى خرجت من بين رجليه .

(٢) قال ابن كثير فى تفسيره (٤/٣٥٤) : كانت هند بنت عتبة بن ربيعة التى شقت بطن حمزة متنكرة فى النساء فقالت : إنى إن أتكلم يعرفنى وإن عرفنى قتلنى وإنما تنكرت فرقاً من رسول الله ﷺ فسكت النسوة اللاتى مع هند وأبين أن يتكلمن فقالت هند وهى متنكرة : كيف تقبل من النساء شيئاً لم تقبله من الرجال ؟

فنظر إليها رسول الله ﷺ وقال لعمر : قل لهن : ولا يسرقن . قالت هند : والله إنى لأصيب من أبى سفيان الهنات ما أدرى أيحلهن لى أم لا ؟ قال أبو سفيان : ما أصبت من شىء مضى أو قد بقى فهو لك حلال . فضحك رسول الله ﷺ وعرفها فدعاها فأخذت بيده فعاذرته فقال : أنت هند ؟ قالت : عفا الله عما سلف فصرف عنها رسول الله ﷺ فقال : ولا يزنين . فقالت : يا رسول الله وهل تزنى امرأة حرة ؟ قال : لا والله ما تزنى الحرة . قال : ولا يقتلن أولادهن ، قالت هند : أنت قتلتهم يوم بدر فأنت وهم أبصر . قال : ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ، قال : ولا يعصينك فى معروف ، قال : منعهن أن ينحن وكان أهل الجاهلية يمزقن الثياب ويخدشن الوجوه ويقطعن الشعور ويدعون بالويل والثبور . قال ابن كثير : وهذا أثر غريب وفيه نكارة والله أعلم .

(٣) قالت هند بنت عتبة لرسول الله : إن أبا سفيان رجل شحيح لا يعطينى من النفقة ما يكفينى ويكفى بنىّ ، فهل علىّ جناح إن أخذت من ماله بغير علمه ؟ فقال رسول الله ﷺ : « خذى من ماله بالمعروف ما يكفيك ويكفى بنيك » أخرجه مسلم فى صحيحه (٤٥٧٤) .

ولما سمعت هند قوله تعالى : ﴿ وَلا يَقْتُلْنَ أَوْلادَهُنَّ .. (١٢) ﴾ [الممتحنة] قالت لرسول الله : ربَّيناهم صغاراً وقتلتموهم كباراً ، والله أعلم بك وبهم ، تقصد ولدها حنظلة الذى قُتِل فى بدر ، وما كان من رسول الله إلا أنه تبسَّم [(١)].

وقوله تعالى : ﴿ وَلا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ (١٢) ﴾ [الممتحنة] البهتان هو القول أو الفعل الشنيع الذى تُبهت وتندهش إذا سمعته ، ويحتار فيه العقل لشناعته ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فَبُهِتَ الَّذِى كَفَرَ .. (٢٥٨) ﴾ [البقرة] يعنى : تحيَّر ولم يستطع أن يجيب .

ومعنى ﴿ يَفْتَرِينَهُ ..(١٢) ﴾ [الممتحنة] من الافتراء وهو تعمُّد الكذب ﴿ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ .. (١٢) ﴾ [الممتحنة] أى البطن ﴿ وَأَرْجُلِهِنَّ ..(١٢) ﴾ [الممتحنة] أى الفرج . وهذا التعبير كناية عما يحدث من المرأة حين تقول أن الولد الذى جاءت به من زوجها وهو ليس منه ، فهذا منها كذب وافتراء متعمد .

فقد روى أبو هريرة رضى الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول حين نزلت آية الملاعنة[(٢)] : « أيُّما امرأة أدخلت على قوم من ليس منهم فليست من الله فى شىء ولن يدخلها الله الجنة ، وأيما رجل جحد ولده وهو ينظر إليه احتجب الله منه وفضحه على رءوس

---

(١) أورده ابن كثير فى البداية والنهاية (٧/٦٠) أن رسول الله ﷺ قال : « ولا تقتلن أولادكن » قالت : قد ربيناهم صغاراً وتقتلهم كباراً ؟ فتبسَّم رسول الله ﷺ . وعند ابن الأثير فى كتابه (الكامل فى التاريخ) أنها قالت : ربيناهم صغاراً وقتلتهم يوم بدر كباراً فأنت وهم أعلم . فضحك عمر (١/٣٣٢)

(٢) آية الملاعنة هى قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلاَّ أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٦) وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٧) وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (٨) وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٩) ﴾ [النور] .

الأولين والآخرين[١].

والشرع لما حكم فى هذه المسألة قال : الولد للفراش وللعاهر الحَجَر[٢] يعنى الرجم ، ذلك ليحفظ كرامة الولد فلا يعيش ذليلاً تلتصق به هذه الفضيحة طوال عمره ، فهو ابن فلان طالما وُلِد على فراشه ، أما المرأة فإنْ أقيمت عليها الحجة فلها الرجم .

وقوله تعالى : ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ ..(١٢)﴾ [الممتحنة] أى : تأمرهن به ، وعندها قالت هند : والله ما جئنا إلا لهذا الخير الذى يأتى على يديك ، وكيف نعصيك وقد جئناك طائعات .

﴿فَبَايِعْهُنَّ .. (١٢)﴾ [الممتحنة] أى : إذا أقررْنَ بذلك ورضينَ به ﴿وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ ..(١٢)﴾ [الممتحنة] لأن الذنب إما أن تستغفر منه أنت ، أو يستغفر لك رسول الله .

كما جاء فى قوله تعالى : ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا (٦٤)﴾ [النساء]

إذن : التوابية والرحمانية تأتى بشرط أنهم يأتون إليك يا محمد

---

(١) أخرجه النسائى فى السنن الكبرى (٥٦٤٥) والبيهقى فى معرفة السنن والآثار (٤٧٩٨) والحاكم فى مستدركه (٢٨١٤) وقال : صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه وأقره الذهبى .

(٢) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٠٥٣ ، ٧١٨٢) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٣٦٨٦) عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : اختصم سعد بن أبى وقاص وعبد بن زمعة فى غلام فقال سعد : هذا يا رسول الله ابن أخى عتبة بن أبى وقاص عهد إلىّ أنه ابنه انظر إلى شبهه . وقال عبد بن زمعة : هذا أخى يا رسول الله وُلد على فراش أبى من وليدته فنظر رسول الله إلى شبهه فرأى شبهاً بيناً بعتبة ، فقال : هو لك يا عبد الولد للفراش وللعاهر الحجر ، واحتجبى منه يا سودة بنت زمعة فلم تره سودة قط .

يستغفرون الله ، وبعد ذلك تستغفر أنت لهم ، وهذا هو باب الهبة من الله الذى لا ينفعك غيره ، فأىُّ امرئ يأتيه من غير هذا الباب لا يدخله .

فإذا كان هذا حظّ المؤمنين برسول الله المعاصرين له أنْ يأتوه معترفين بذنوبهم فيستغفرون الله ويستغفر لهم رسول الله ، فما حظُّ المؤمنين به ممَّنْ لم يعاصروه ؟ ألهم مثل هذا الحظّ .

قالوا : نعم حظّ المؤمنين برسول الله منه واحد ، مَنْ رآه ومَنْ لم يَرَه ، فمنْ أذنب منا ذنباً عليه أنْ يستحضر وجود رسول الله معنا ، وكما أننا نسلِّم عليه ونعتقد فى أنه يردُّ علينا السلام كذلك عندما نعترف له بذنوبنا ونقول له : يا رسول الله أذنبتُ ذنباً فاستغفر الله لى .

وبذلك نستوى جميعاً أمام المنهج لأن رسالته ﷺ عامة للناس جميعاً ، بل إن سيدنا رسول الله ﷺ يجعل لأجيال أمته المتعاقبة بعد عصره ﷺ ، يجعل لهم منزلة لا تقل عن منزلة أصحابه .

فقد رُوى أنه ﷺ قال فى مجلس أصحابه : متى ألقى أحبابى ؟ قالوا : أولسْنَا أحبابك يا رسول الله ؟ قال : لا بل أنتم أصحابى ، أحبابى قوم لم يَرَوْنى ، يودُّ الواحد منهم لو رآنى بملء الأرض ذهباً، عمل الواحد منهم بخمسين . قالوا : منَّا أم منهم ؟ قال : بل منكم ، لأنكم تجدون على الخير أعواناً ، وهم لا يجدون على الخير أعواناً .

وفى حديث آخر قال ﷺ : « أنتم فى زمان مَنْ ترك عُشر ما

طُلب منه هلك ، وسيأتى زمان مَنْ فعل عُشر ما طُلب منه نجا »[(١)] .

﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٢)﴾ [الممتحنة] غفور صيغة مبالغة تدل على كثرة المغفرة ، فالله تعالى ﴿ غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ .. (٣) ﴾ [غافر] غافر للذنب الواحد وغفور إذا تعددت الذنوب ، فجعل بين كلّ صلاة وصلاة مغفرة ، وبين كل جمعة وجمعة مغفرة ، وبين رمضان إلى رمضان مغفرة ، بل جعل لها باباً لا يُغلق ، ففى كل لحظة تستغفر الله يغفر لك .

فالعبد من صفاته أنْ يُذنب ، والربُّ من صفاته أنْ يغفر ، فوجود العبد المذنب يحقق صفة من صفات الكمال لله تعالى ، لذلك ورد فى الحديث القدسى : « والذى نفسى بيده ، لو لم تذنبوا لذهبَ الله بكم ولأتى بقوم يذنبون ويستغفرون فيغفر الله لهم »[(٢)] .

يقول الحق سبحانه :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُواْ مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ (١٣) ﴾

يقول تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا .. (١٣) ﴾ [الممتحنة] وهو نداء

---

(١) أخرجه الطبرانى فى المعجم الصغير (١١٥٦) ، وفى المعجم الكبير (٢١١) وأبو نعيم فى حلية الأولياء (٣١٦/٧) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه . لم يروه عن سفيان إلا نعيم بن حماد ولذلك ضعفه ابن الجوزى فى العلل المتناهية (١٤٢٥) وذكر قول أبى عبد الرحمن النسائى : هذا حديث منكر ونعيم بن حماد ليس بثقة .

(٢) أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه (٧١٤١) وأحمد فى مسنده (٨٠٦٨) والطبرانى فى الدعاء (١٨٠٣) والبيهقى فى شُعب الإيمان (٦٧٠٠) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، وعند آخرين عن غير أبى هريرة كابن عباس .

تكرر كثيراً فى القرآن ، يخاطب به الله مَنْ آمن بالله رباً وآمن بالمنهج بكلِّ ما يقتضيه من (افعل) و (لا تفعل) .

فعندما ينادى الحق سبحانه المؤمنين بقوله ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا (١٣) ﴾ [الممتحنة] نعرف أن الإيمان هنا هو سببُ التكليف . فالله لا يكلف مَنْ لم يؤمن به ، ولا يأمر بتكليف إلا لمن آمنوا ، فالكافر لا يُكلفه الله بشىء .

فالحق سبحانه حين يخاطب المؤمنين فهو يعطيهم أحكام الإيمان، فالله لا يكلف بحكم إلا مَنْ آمن به ، أما من لم يؤمن به فلا يكلفه بأى حكم ، لأن الإيمان التزام ، وما دمتَ قد التزمتَ بأنه إله حكيم فخُذْ منه أحكام دينك .

إذن : فهى صفقة تنعقد بينك وبين الله ، تبدأ أولاً بإيمانك بالله ، حينها يكون التكليف من الله ، افعل كذا ولا تفعل كذا .

فالحق سبحانه متصف بالعدل ، لذلك لم يكلفنا الله اقتحاماً على إرادتنا أو على اختيارنا ، وإنما كلَّفنا لأننا دخلنا إليه سبحانه من باب الإيمان به .

فالإيمان بالله هو حيثية كل حكم ، فأنت تفعل ذلك لماذا ؟ لا تقلْ لأن حكمته كذا وكذا . لا . ولكن قل : لأن الله الذى آمنتُ به أمرنى بهذه الأفعال ، سواء فهمتَ الحكمة منها أو لم تفهمها ، بل ربما كان إقبالك على أمرٍ أمرك الله به وأنت لا تفهم له حكمة أدخل فى باب الإيمان من تنفيذك لأمر تعرف حكمته .

والحق سبحانه بدأ سورة الممتحنة بنداء ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا

عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ .. (١) ﴾ [الممتحنة] وأنهاها بنداء ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ .. (١٣) ﴾ [الممتحنة]

فموضوع النداء واحد ، وموضوع النهى واحد ، فهو عَوْد على بَدْء ، وهذا يلفتنا إلى أن القضية التى تتحدث عنها الآيات تمثل أهمية كبيرة فى التكليف الإيمانى .

فالولاية نُصْرة ، والنُّصْرة انفعال الناصر لمساعدة المنصور ، فكيف تُوالون عدو الله وعدوكم ، وتنتظرون منهم نُصرة لكم وعوناً ، وهم خالفوا منهج الله وحرَّفوا ما بين أيديهم من كتب السماء ، كان أصلها الهدى فصارتْ إلى ضلال .

فالموالاة والنُّصرة والمعونة يجب أن تكون مع متحد معك فى الغاية العليا ، وما دام هناك مَنْ يختلف مع الإسلام فى الغاية العليا وهى الإيمان فلا يصح أنْ يأمنه المسلم ، فضلاً عن موالاته ونُصرته وإلقاء المودة إليه .

لذلك قال الحق سبحانه : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥١) ﴾ [المائدة] فـ ﴿ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ (٥١) ﴾ [المائدة] ، فهم يُوالون بعضهم البعض وهم عونٌ لبعضهم على المسلمين ، ولهم غايات تناقض الغايات العليا للإسلام ، فكيف توالونهم ؟

وقد يختلفون على السلطات الزمنية ولكنهم يتحدون معاً ويكونون أعواناً وأنصاراً لبعضهم حينما يتعلق الأمر بالإسلام ، يقول تعالى :

﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ[1] يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا[2] إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ (٢)﴾ [الممتحنة]

فهم مجتمعون على إيذائكم بكلِّ السبل ، سواء بأيديهم بقوتهم وسلاحهم وعددهم وعُدَّتهم ، فإنْ لم يكن فبألسنتهم بإيذائكم وإيذاء رسولكم وشريعتكم ، وبالتفريق بينكم كمؤمنين وإيقاع الفتنة بينكم ، إلى أن تحين الفرصة لهم لإيذائكم بأيديهم .

فكيف تُوالون مثل هؤلاء وغايتهم ﴿وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ (٢)﴾ [الممتحنة] فهذه غايتهم ، وكيف تنسون قول الله عز وجل : ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ..(١٢٠)﴾ [البقرة]

لذلك يقول الحق سبحانه ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ..(٥١)﴾ [المائدة]

لذلك كانت قضية الموالاة هى محور سورة الممتحنة ، وكأن الله يمتحن بها قلوب وأفعال المؤمنين به ، فهل هم مؤمنون به حقاً ، إذن فلا تتولوا أعداء الله الذين هم أعداء لكم أيضاً .

ويؤكد الحق سبحانه تمايز المؤمنين بالله عن غيرهم ، وأنْ لا تكون بينهم وبين أعداء الله موالاة أو نُصْرة ، فيقول تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤)﴾ [المجادلة]

---

(١) يثقفوكم : يظفروا بكم ويتمكنوا منكم فى وقت من الأوقات ومكان من الأماكن . مختصر من عدة تفاسير . قال الشيخ المراغى فى تفسيره (٢٨ / ٦١) : أصل الثقف : الحذق فى إدراك الشىء وفعله ومنه رجل ثقف لقف .

(٢) يبسطوا : بسط يده ليفعل بها شيئاً . قال تعالى : ﴿ وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ (٢)﴾ [الممتحنة] أى أن يمدوا أيديهم إليكم بالأذى والقتال . [القاموس القويم ١/٦٦] .

فمن يوالون أعداء الله منافقون ، لا هم منكم ولا هم منهم أيضاً ، بل هم مُذبذبون بين هؤلاء وأولئك ، إنْ توالوهم وتُدخلوهم فيما أنتم فيه ينشروا بينكم الفتنة ويضعوا بينكم بذور الشقاق والنفاق .

يقول تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً[1] مِّن دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً[2] وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ (١١٨) ﴾ [آل عمران]

فمن الحمق والغفلة أن توالوا مَنْ يضركم ويود مشقتكم وعنتكم ، وصدورهم تُخفى بغضاً شديداً لكم ، وها نحن قد وضّحنا لكم الآيات وبيّنا لكم دخائل نفوسهم ، فهل تنتهون عن موالاتهم وتقريبهم منكم وإدخالكم إياهم فى شئونكم ؟

احموا إيمانكم وأجيالكم ، فلا تتداخلوا مع غير المؤمنين تداخلاً يفسد عليكم أمور دينكم ، فهم لا يُقصّرون فى الكيد لكم وإفساد أمركم .

﴿ هَـٰأَنتُمْ أُوْلاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلا يُحِبُّونَكُمْ ..(١١٩) ﴾ [آل عمران] فلم تخدعون أنفسكم فتوالونهم وتستمرون فى موالاتكم وهم لا يحبونكم ؟

ثم يقول الحق سبحانه :﴿ لا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ..(١٣) ﴾ [الممتحنة]

فمَنْ هم القوم الذين غضب الله عليهم ؟ الحق سبحانه أوضح

---

(١) بطانة : أصلها بطانة الثوب واستعيرت البطانة لمن تختصه بالاطلاع على باطن أمرك وتجعله موضع سرك . [القاموس القويم ١ / ٧٣] .

(٢) خبالاً : الخبال : النقصان والخسارة والهلاك . وخبله : أفسده عقله بمعنى فسد وجنَّ . [القاموس القويم ١/١٨٦] . فالخبال يجعل عاقبة الأمر إلى فساد وخسران .

هؤلاء فى قرآنه وكشف عنهم للمؤمنين به ، حتى لا تكون لهم حجة عند الله ، أو يكون لهم تأويل فى ماهية مَنْ غَضِب الله عليهم .

فأول هؤلاء : الكافرون من المشركين والملحدين وغيرهم ، قال تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ (١٤٤) ﴾ [النساء]

ولفظة (الكافرين) لفظة عامة تشمل كلَّ مَنْ لم يؤمن بالله ومَنْ لم يؤمن بمحمد رسول الله ﷺ ، والحق سبحانه قد أخذ على المنافقين أنهم يتخذون الكافرين أولياء من دون الله ، فأوْلَى بالمومنين ألاّ يصنعوا ذلك ، فإياكم أنْ تفعلوا مثلهم .

فأنتم حينها تجعلون لله عليكم سلطاناً مبيناً واضحاً لإيقاع العذاب بكم فى الدنيا بأنْ تكونوا تابعين أذلاء لغيركم ، وفى الآخرة بعذاب الله لأنكم فرّقتم المؤمنين بأنْ توليتم غيرهم .

وممَّنْ غضب الله عليهم : اليهود والنصارى فنهانا عن اتخاذهم أولياء ، قال تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ (٥١) ﴾ [المائدة]

وممَّنْ غضب الله عليهم : الذين اتخذوا ديننا هُزواً ولعباً ، قال تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٥٧) ﴾ [المائدة]

والهزو هو السخرية والتنكيت ، فهم قد اتخذوا آيات القرآن وآيات

الأحكام سُخرية واستهزاءً ، ولم يعبئوا بما فيها من نذارة لهم ، وهذا ديدن الخارجين على منهج الله فتجدهم يسخرون من أهل الصلاح ويهزأون من أصحاب الطريق المستقيم والمنهج القويم ، ويُسفِّهون آراءهم وأفعالهم .

فإياك أنْ توالى هؤلاء وتنصرهم أو تعاونهم أو تتخذهم أولياء تُلقى إليهم بالمودة ، فهذا يُنقص من دينك بمقدار ما تواليهم .

لذلك قال تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٦٨) ﴾ [الأنعام]

فهم يخوضون فى آيات الله استهزاءً وسخرية وطعناً ، فأعرضوا عنهم ولا تقعدوا معهم وهم على هذه الحالة وإلاَّ تكونوا مشاركين لهم فيما هم فيه من استهزاء فيهون عليكم أمرُ الدين وتشابهونهم فيما هم فيه .

وقد كان المشركون إذا جالسوا المؤمنين وقعوا فى رسول الله والقرآن ، فشتموه واستهزءوا به ، فأمر الله أنْ لا يقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره .

فهؤلاء جميعاً قوم غضب الله عليهم فلا توالوهم ولا تظاهروهم ، وقد خصَّ الله اليهود بالحديث وبغضب الله ، وذلك بسبب ذنوبهم وعصيانهم ، فقال تعالى : ﴿ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ .. (٦١) ﴾ [البقرة]

حتى أصبح الغضب من كثرة عصيانهم كأنه سمةٌ من سماتهم ، لماذا ؟ ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ

ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾ [البقرة]

أى : أنهم كانوا يكفرون بنعم الله ولا يشكرون ويكفرون بالآيات ويشترون بها ثمناً قليلاً ، ولم يكتفوا بذلك بل كانوا يقتلون أنبياء الله بغير حقٍّ .

ويعطينا الحق سبحانه لفتة فى هذه الآية فيقول ﴿لا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا ﴿١٣﴾﴾ [الممتحنة] فجعل (قوماً) بصيغة المفرد ، ولم يقل أقواماً ، وكأنه سبحانه يقصد قوماً بعينهم . حتى أن الحق سبحانه ذكرهم فى فاتحة الكتاب ، فقال تعالى : ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾﴾ [الفاتحة]

فالمغضوب عليهم هم الذين عرفوا المنهج فخالفوه وارتكبوا كلَّ ما حرَّمه الله فاستحقّوا غضبه ، فهم غيّروا وبدّلوا فى منهج الله ليأخذوا سلطة زمنية فى الحياة الدنيا ، وليأكلوا أموال الناس بالباطل.

وقد قال رسول الله ﷺ : « إن (المغضوب عليهم) اليهود ، وإن (الضالين) النصارى »[1] .

وقد يسأل سائل : رسول الله ﷺ يقول : « إن الغضب جمرة توقَّد فى القلب ، ألم تروا انتفاخ أوداجه وحمرة عينيه »[2] فكيف

---

(١) روى هذا الحديث عدى بن حاتم وقد كان مسيحياً وأسلم ، وقد أخرج الإمام أحمد الحديث فى مسنده (١٩٣٨١) والطبرانى فى المعجم الكبير (١٣٦٩١) .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (١١٦٠٤) والطيالسى فى مسنده (٢٢٧٠) والحاكم فى مستدركه (٨٥٤٣) والترمذى فى سننه (٢٣٥٠) وقال : حديث حسن من حديث أبى سعيد الخدرى : « ألا وإن الغضب جمرة فى قلب ابن آدم ، أما رأيتم إلى حمرة عينيه وانتفاخ أوداجه ، فمَنْ أحسَّ بشىء من ذلك فليلتصق بالأرض » .

يُوصف الله بأنه يغضب ؟

نعم مَنْ يغضب تنتفخ أوداجه[1] ويحمرّ وجهه ويستمر هياجه وتبرق عيناه بالشر وتندفع يداه ، وهذا أمر يقع من البشر بل وقع من موسى عليه السلام وهو من أُولى العزم من الرسل .

قال تعالى : ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ ..(١٥٠)﴾ [الأعراف]

ونعلم أن الألواح فيها المنهج ، ورغم هذا ألقاها موسى عليه السلام من يده بسبب غضبه ، وقدر موسى على أخيه فأخذ برأسه يجرُّه إليه ، وهذا نزوع غضبى ، منشؤه أن ما فعله قومه يستوجب غضب الله .

فالغضب انفعال نفسى يُحدث تغييراً فى كيماوية الجسم فترى الغاضب قد انتفخت أوداجه واحمرّ وجهه وتغيرت ملامحه ، فهذه أغيار تصاحب هذا الانفعال ، فهل غضب الله عز وجل من هذا النوع ؟

بالطبع لا ، لأنه تعالى ليس عنده أغيار ، وإذا كان الغضب يتناسب وقدرة الغاضب على العذاب ، فما بالك إنْ كان الغضب من الله ؟

فغضب الحق سبحانه هو طرد الكافرين من رحمة الله ومعاقبة العاصين والمنحرفين دون انفعال كيماوى كما فى البشر ، فإنه سبحانه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ..(١١)﴾ [الشورى]

---

(١) الأوداج : جمع ودج ، والأوداج ما أحاط بالحلق من العروق . [المحكم لأبى الحسن بن سيده] . وقيل : الودجان عرقان عظيمان عن يمين ثغرة النحر ويسارها . [تاج العروس] .

فالله موجود وأنت موجود ، فهل وجودك كوجوده ؟ الله حيٌّ وأنت حيّ . أحياتُك كحياته ؟ الله سميع وأنت سميع ، أسمعُك كسمعه ؟ الله بصير وأنت بصير . أبصرك كبصره ؟

إذن : ما دمتَ تعتقد أن الحق سبحانه له صفاتٌ مثلها فيك ، فتأخذها بالنسبة لله فى إطار ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ..(١١)﴾ [الشورى]

وقد وصف الحق سبحانه القوم الذين غضب الله عليهم فقال : ﴿قَدْ يَئِسُوا مِنَ الآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ (١٣)﴾ [الممتحنة]

فيأسهم من الآخرة صفةٌ لازمة لهم نتجتْ عندهم من فعلهم ما أغضب الله عليهم وطرده لهم من رحمته سبحانه ، وهو سببٌ أيضاً لغضب الله ، فيأسُهم من الآخرة هو نتيجة وسببٌ لغضب الله .

وليأسهم من أنْ يكون لهم فى الآخرة نصيبٌ صاروا يُبدِّلون كتب الله ويُحرِّفونها ويقتلون النبيين ويفسدون فى الأرض ويفترون على الله فهم يحسُّون أن الدنيا هى عالمهم .

لذلك كانوا غير صادقين عندما قالوا ﴿لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ..(١١١)﴾ [البقرة] وأيضاً ادعوْا أن لهم الدار الآخرة خالصةً لهم ، وهم كاذبون فى هذا .

فقال تعالى : ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٩٤) وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٩٥)﴾ [البقرة]

فالله سبحانه يقول لرسول الله ﷺ : إن كانت الآخرة لهم وحدهم عند الله لا يشاركهم فيها أحد . فكان الواجب عليهم أن يتمنوا الموت ليذهبوا إلى نعيم خالد ، فما دامت لهم الدار الآخرة ، وما داموا موقنين من دخول الجنة وحدهم ، فما الذى يجعلهم يبقون فى الدنيا ؟

وهم كاذبون ، لذلك قال تعالى : ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٩٤)﴾ [البقرة]

ثم قال : ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ .. (٩٥)﴾ [البقرة]
فذنوبهم ومعاصيهم وتجرؤهم على الله سيمنعهم أنْ يتمنوا الموت ، لأنهم فى الحقيقة يئسوا من ثواب الآخرة ومن أن يكون لهم نصيبٌ فيها .

وقد قال الحق سبحانه فى معرض الكلام عن اليهود وهم الذين غضب الله عليهم : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَـئِكَ لا خَلاقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٧)﴾ [آل عمران]

فهم قد انقطع أملهم من الآخرة ، وانقطاع أملهم ويأسهم من الآخرة وصل للذروة حتى أن يأسهم هذا شابه يأسُ الكفار من أصحاب القبور .

ويأس الكفار من أصحاب القبور قد ذكره لنا القرآن ، فقال : ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨)﴾ [يس]

وروتْه لنا كتب السيرة ، فقد جاء أُبىّ بن خلف الجمحى[1] إلى رسول الله ﷺ بعظم نخر ، فقال : أتعدنا يا محمد إذا بليتْ عظامنا

---

(١) أبى بن خلف الجمحى ، كان أحد صناديد قريش ، وكان أحد الذين أحاطوا ببيت رسول الله ليلة الهجرة يريدون قتله ﷺ وقد كان يلقى رسول الله بمكة فيقول : إن عندى قَعوداً أعلفها كل يوم فرقاً من ذرة أقتلك عليه . فيقول رسول الله : بل أنا أقتلك إن شاء الله . فرجع أبى بن خلف يوم أحد وقد خدشته حربة رسول الله خدشاً غير كبير فقال : قتلنى والله محمد . فقالوا : ذهب والله فؤادك والله إنْ بك من بأس . فقال : إنه قد كان يقول بمكة : إنى أقتلك والله لو بصق علىَّ لقتلنى . فمات بسرف وهم قافلون بمكة . أورده القاضى عياض فى كتاب « الشفا بتعريف حقوق المصطفى » .

فكانت رميماً أن الله باعثنا خَلْقاً جديداً ، ثم جعل يفتّ العظم ويذروه فى الريح ، فيقول : يا محمد مَنْ يحيى هذا ؟

فقال رسول الله ﷺ : « نعم يُميتك الله ، ثم يُحييك ، ويجعلك فى جهنم »(١)

وقد استبعد الكافرون البعثَ بعد الموت واستبعدوا أن يقوم هؤلاء الأموات من قبورهم ﴿وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٤٩)﴾ [الإسراء]

والرفات هو الفتات ومسحوق الشيء وهو التراب أو الحطام ، وقد استبعد هؤلاء البعث بعد الموت لأنهم غفلوا عن بداية الوجود وبداية خلق الإنسان .

فيأس هؤلاء الذين غضب الله عليهم كيأس الذين كفروا من بعث أصحاب القبور وإحيائهم بعد الموت ، لذلك لا تتولوْهم ولا تُلقوا إليهم بالمودة حتى لا تكونوا من هؤلاء أو من أولئك .

وقوله تعالى : ﴿يَـأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الآخِرَةِ ..(١٣)﴾ [الممتحنة] أى : من الثواب فيها ومن النجاة من عذابها ﴿كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ (١٣)﴾ [الممتحنة] أى : كما يئس الكفار من عودة الميت بعد موته .

ونلاحظ أن ختام السورة هو نفس استهلالها ، فالمعنى الذى تدور حوله بداية السورة ونهايتها وجوب البراءة من أعداء الله وعدم موالاتهم فى استهلال السورة .

---

(١) أورده السيوطى فى الدر المنثور وعزاه لابن مردويه عن ابن عباس قال : جاء أبى بن خلف الجمحى إلى رسول الله بعظم نخر .. الحديث بهذا اللفظ . وقد ورد هذا أيضاً فى حق أبى جهل والعاص بن وائل بألفاظ مختلفة .

قال تعالى : ﴿ يَـأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ .. (١) ﴾ [الممتحنة] وهؤلاء هم أنفسهم الذين وصفهم الله هنا بقوله ﴿ قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ .. (١٣) ﴾ [الممتحنة] وهم اليهود والكفار عامة .

فكأن آية الاستهلال وآية الختام عبارة عن قوسين جمعا فيما بينهما كلّ آيات البراءة من اليهود والكافرين وعدم موالاة أعداء الله على اختلاف أشكالهم .

فهناك سماهم أعداء الله ، وهنا ﴿ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ .. (١٣) ﴾ [الممتحنة] فما داموا أعداء الله وما داموا مغضوباً عليهم ، فكيف إذن تواليهم ؟ أتجير على الله ﴿ وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ (٨٨) ﴾ [المؤمنون]

والأحقُّ بالموالاة والنصرة هم مَنْ آمنوا معكم بالله وبرسوله وبالإحياء بعد الموت والبعث يوم القيامة ، يقول تعالى : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٧١) ﴾ [التوبة]

وعَجُز هذه الآية يتوافق مع قوله تعالى فى سورة الممتحنة ﴿ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٥) ﴾ [الممتحنة] ثم قال ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٦) ﴾ [الممتحنة] ثم قال ﴿ وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٧) ﴾ [الممتحنة] ثم عَجُز آية ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٠) ﴾ [الممتحنة] ثم ﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٢) ﴾ [الممتحنة]

وهذا يتوافق مع ما بدأت به السورة بعدها وهى سورة الصف، فقد بدأت بتسبيح الله سبحانه ، فقال تعالى : ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَـوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) ﴾ [الصف]

فالله يستحق منكم أنْ تُسبِّحوه وتُنزِّهوه عن كل نقص ، وأنْ لا تتخذوا عدوه وعدوكم أولياء من دون الله ، وأنْ لا تتولوا مَنْ غضب اللهُ عليه ، وإلا فهذا يخدش إيمانكم فلتُسبِّحوا الله منسجمين مع الكون من حولكم .

سُورَةُ الصَّفِّ

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الصف[١]

يقول الحق سبحانه :

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ ﴾

سورة الصف من السُّور التى يُطلق عليها العلماء (المسبِّحات) وهى السُّور التى تبدأ بـ (سبَّح) أو (يُسبِّح) أو (سبِّح) .

وقد ذكر رسول الله ﷺ هذه السور بهذا الاسم فى حديثه النبوى ، فقد كان يقرأ المسبِّحات قبل أنْ يرقد ، ثم قال : إن فيهن آية[٢] أفضل من ألف آية ، يقصد التي فيها تسبيح الله سبحانه وتنزيهه .

---

(١) سورة الصف مدنية عدد آياتها ١٤آية ، قال القرطبى : مدنية فى قول الجميع فيما ذكر الماوردى ، وقيل إنها مكية ذكره النحاس عن ابن عباس وتسمى أيضاً سورة الحواريين وسورة عيسى عليه السلام . وهى السورة رقم (٦١) فى ترتيب المصحف الشريف نزلت بعد سورة التغابن وقبل سورة الفتح . أى أنها نزلت قبل صلح الحديبية .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (١٧٢٠٠) وأبو داود فى سننه (٥٠٥٩) والترمذى فى سننه (٢٩٢١) والنسائى فى سننه (٧٩٧٢) من حديث العرباض بن سارية رضى الله عنه .

وأنت تجد سور القرآن الكريم التى جاء فيها التسبيح مؤكدة أنه سبحانه مُنزَّه ، وله التسبيح من قبل أنْ يخلق الخَلْق ، ثم خلق الخَلْق ليسبِّحوا .

ففى سورة الحديد يقول سبحانه : ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ ..(١)﴾ [الحديد] . ويقول فى سورة الحشر : ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ..(١)﴾ [الحشر]

ويقول هنا فى سورة الصف : ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١)﴾ [الصف]

فهل سبَّح كل مَنْ فى السماوات ومَنْ فى الأرض مرة واحدة وانتهى الأمر ؟ لا ، لأن الله سبحانه يقول : ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ .. (١)﴾ [الجمعة]

ويقول سبحانه في سورة التغابن[1] : ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١)﴾ [التغابن]

إذن : فالسُّبْحانية لله أزلاً ، وسبّح ويسبح الخلق وكل الوجود بعد أنْ خلق الله سبحانه ، سماوات وأرضاً وما فيهما ومَنْ فيهما ، وما بقى إلا أنت أيها الإنسان ، فسبِّح باسم ربك الأعلى .

فقد ثبتتْ له السُّبحانية فى ذاته ، ثم أوجد الملائكة يُسبِّحونه الليل والنهار لا يفترون ، ثم خلق السماء والأرض فسبَّح ما فيهن

---

(١) التغابن : مصدر قياسى للخماسى تغابن مأخوذ من الغبن وهو فوت الحظ وهو مستعار من تغابن القوم فى التجارة ، وهو أن يغبن بعضهم بعضاً لنزول السعداء منازل الأشقياء التى كان سينزلها هؤلاء الأشقياء لو كانوا سعداء ، ونزول الأشقياء منازل السعداء التى كان سينزلها هؤلاء السعداء لو كانوا أشقياء .

وما بينهن ، وجاء خَلْقه يُسبِّحون أيضاً ، فيا مَنْ آمنتَ بالله إلهاً سبِّح كما سبَّح كل الكون .

فالسُّبْحانية هى الدليل السائد الشامل الجامع لكلِّ الخَلْق ، فالتسبيح لغة الكون كله ، منه ما نفهمه ومنه ما لا نفهمه .

وكلُّ شىء فى الوجود مُؤتمر بأمره سبحانه ويُسبِّح بحمده ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَـٰوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَـٰكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً (٤٤)﴾ [الإسراء]

وهو تسبيح حقيقى وإنْ كُنَّا لا نفهم ولا نفقه تسبيحهم ، فإنْ فقَّهك الله تعالى فى لغاتهم لَعلمتَ تسبيح الكائنات ، بدليل أنه علّم سليمان عليه السلام منطق الطير .

والحق سبحانه يقول هنا ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتُ ..(١)﴾ [الصف] فاستخدم سبحانه (ما) التى لغير العاقل دلالةً على أن الكون كله مسبِّح لله ، لا يتخلف منه أحد .

وقد قال تعالى فى آية أخرى ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. (٤١)﴾ [النور] فاستخدم سبحانه (مَنْ) التى للعاقل دلالة على تكامل الكون كله فى تسبيح الله سبحانه ، لا يشذ إلا مَنْ تمرد وكفر واستنكف تسبيح الله .

واعلم أن ذرات الكافر نفسه مؤمنة مُسبِّحة لله ، فأبعاض الكافر مُسبِّحة ولكن بغير إرادته ، لذلك سيعاقبه على كفره ، فأبعاضه وذرات جسمه يؤلمها ويغيظها أنَّ صاحبها عاصٍ أو كافر ، فتطيعه وهى كارهة لفعله بدليل أنها ستشهد عليه يوم القيامة ، فإنْ كانت مُسخَّرة لمراداته فى الدنيا فإنها ستتحرر من هذه الإرادة فى الآخرة .

فاللسان مُسخّر لصاحبه ، إنْ شاء نطق الشهادتين ، وإنْ شاء نطق به كلمة الكفر ، لأنه مقهور لإرادته ، أما فى القيامة فلا إرادة إلا للحقِّ تبارك وتعالى .

وفى النوم ترتاح هذه الجوارح وهذه الذرات من سيئات صاحبها ومن ذنوبه و تستريح من نكده وإكراهه لها على معصية الله ، وأوضح سبحانه أن السماوات سبع وقد جاءت مجموعة ، أما الأرض فجاء بها مفردة ، فقال تعالى : ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتُ وَمَا فِي الأَرْضِ ..(١)﴾ [الصف]

لكنه جلَّ وعلا قال فى آية أخرى : ﴿اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَـٰوَاتُ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ..(١٢)﴾ [الطلاق] فكما خلق سبع سماوات خلق سبع أراضين ، ولماذا جاء بالسماء جمعاً وترك لفظ الأرض مفرداً ؟ لماذا لم يقُل : سبع أرضين ؟

لأن كلمة (أرضين) ثقيلة على اللسان فتركها لثقلها ، وأتى بالسماوات مجموعة لخفَّتها ويُسْر نطقها ، وقد يسأل سائل : لكن أين هذه الأرضين السبع ؟

لقد أخبرنا القرآن أن السموات سبع ، وأخبرنا رسول الله أنه مرّ بها فى رحلة المعراج [١] ، فقال فى الأولى كذا وكذا ، وفى الثانية

---

(١) أخرج مسلم فى صحيحه (٤٢٩) من حديث أنس بن مالك حديث الإسراء والمعراج بطوله أن رسول الله ﷺ قال : « أُتيت بالبراق فركبته حتى أتيت بيت المقدس فربطته بالحلقة التى يربط بها الأنبياء ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين ، ثم عرج بنا إلى السماء فاستفتح جبريل فقيل : من أنت ؟ قال : جبريل . قيل : ومن معك ؟ قال : محمد . قيل : وقد بُعث إليه ؟ قال : قد بُعث إليه . ففتح لنا فإذا أنا بآدم . [ثم هكذا فى كل سماء ، فى الثانية ابنا الخالة عيسى بن مريم ويحيى بن زكريا . وفى الثالثة يوسف . وفى الرابعة إدريس . وفى الخامسة هارون ، وفى السادسة موسى إلى آخره] .

كـذا وكذا ، ومـا دامت السمـاء كلَّ ما أظلك ، والأرض كل مـا أقلَّك ، فالخلق فى السـماء الأولى مثـلاً سماؤهم السـماء الثانيـة ، وأرضـهم سماؤنا الأولى ، وهكذا وهكذا .

﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ ﴾ [الصف] فهو سبـحانه العزيز الذى لا يُغلب لجبـروته ، فهو الغـالب فى مُلْكه ، ولا تقدر أنْ تحـتاط من أنه يهزمك أبداً ، فـهو سبـحانه القوىُّ الذى لا يغلبـه أحد على الإطلاق ، والقوى الشديد الذى لا ينال منه أحد .

فـسـبحـانه له العـزة الذاتيـة الأزليـة الأبدية ، ولو أردتم العـزة الحقـيقـية التى تُغنيكم عن الطـلب من الأغيار مـثلكم ، فلتذهـبوا إلى مصدر العزة الذى لا تناله الأغيارُ ، وهو الحق سبحانه .

ووصْف الحق سبحانه هنا بأنه عزيز بعد سورة الممتحنة يعطينا لفـتـة ، فإنْ أردتم أنْ تـتعلمـوا طلب العـزة فـعليكم أنْ تغـيـروا من أسلوبكم فى طلبها ، فأنتم تتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين وتبتغون عندهم العزة وهم من أهل الأغيار .

والأغيـار تتبدل من يوم إلى يوم ، فـإنْ كان الكفار أغنيـاء اليوم فغداً لن يكونوا كذلك ، وطلب العزة من الأغيار يعنى أنكم غير أعزاء ، فإنْ أردتم عـزَّةً حقيـقية فـاطلبوها ممَّنْ لا تـتغيـر عزَّته ، وهو الحق سبحانه : ﴿ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ ﴾ [النساء]

وهو مع عـزَّته حكيم ، لا يصـدر منه الشىء إلا بحكمـه بالغـة ، فهو الحكيم فى فعله وتقديره ، فإذا أمركم بعدم موالاة أعداء الله فهذا مُطلَق حكمتـه سبحانه ليُـعزّكم ويرفع مقامكم كـمؤمنين عن أنْ تذلوا لغيركم .

ثم يقول الحق سبحانه :[١]

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣ ﴾[٢]

الآية تخاطب الذين آمنوا ، فساعة ينادى الحَقُّ سبحانه عباده الذين آمنوا به يقول : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا .. ۝٢ ﴾ [الصف] فمعناها : يا مَنْ آمنتم بى بمحض اختياركم ، وآمنتم بى إلهاً له كلُّ صفات العلم والقدرة والحكمة والقيومية .

فما دُمتم آمنتم بهذا الإله فاسمعوا من الإله الأحكام التى يطلبها منكم ، فهو سبحانه لم يُنادِ غير مؤمن ، وإنما نادى مَنْ آمن باختياره وبترجيح عقله .

وليعلم الذين آمنوا أن كلَّ ما يأتى بعد ندائهم بهذا الوصف إنما هو خير لهم إنِ التزموا بما أمر الله به فى ندائه ، أو انتهوا عمَّا نهاهم الله عنه .

---

(١) سبب نزول الآية : أخرج الحاكم فى مستدركه على الصحيحين (٢٨٩٩) من حديث عبد الله بن سلام قال : قعدنا نفر من أصحاب النبى ﷺ فقلنا : لو نعلم أى الأعمال أحب إلى الله عملنا فأنزل الله تعالى ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝١ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣ ﴾ [الصف] وقرأها علينا رسول الله . ومثله عند الطبرانى فى المعجم الكبير (١٧٢) والترمذى فى سننه (٣٦٢٤) .

(٢) المقت : أشد البغض . والمقت : بُغض من أمر قبيح ركبه ، ومعنى الآية : أى عظم ذلك فى المقت والبغض عند الله أى : أن الله يبغض بغضاً شديداً .

وهذه الآيات إنما نزلتْ فى ناس من المؤمنين قبل أنْ يُفرض الجهاد يقولون : لوددنا أن الله دلَّنا على أحبِّ الأعمال إليه فنعمل به ، فأخبر الله نبيَّه أن أحبَّ الأعمال إليه إيمانٌ بالله لا شكَّ فيه ، وجهادُ أهل معصيته الذين خالفوا الإيمان ولم يُقروا به .

فلما نزل الأمر بالقتال كره ذلك أناسٌ من المؤمنين وشقَّ عليهم أمره ، فقال الله :﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ (٢) ﴾ [الصف]

ونحن نسمع كلمة « يعمل » وكلمة « يفعل » وكلمة « يقول » . والعمل أهم الأحداث لأن العمل هو تعلُّق الجارحة بما نيطتْ به ، فالقلب جارحةٌ عملُها النية ، واللسان جارحةٌ عملُها القول ، والأذن جارحةٌ عملها الاستماع ، والعين جارحة عملها النظر .

إذن : فكلُّ جارحة من الجوارح لها حدث تُنشئه لتؤدى مهمتها فى الكائن الإنسانى ، إذن : فكلّ أداء مهمة من جارحة يُقال له « عمل » ، لكن الفعل هو تعلُّق كلِّ جارحة غير اللسان بالحدث .

أما تعلُّق اللسان فيكون قولاً ومقابله فعل . إذن : هناك قول وهناك فعل ، وكلاهما عمل ، فالعمل يشمل ويضم القول والفعل معاً .

وشغل اللسان بمهمته يُسمَّى « قولاً » ولا يُسمَّى فعلاً ، لماذا ؟ لأن الإنسان يتكلم كثيراً ، لكن أنْ يحمل نفسه على أنْ يعمل ما يتكلمه فهذه عملية أخرى ، ولذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ (٢) ﴾ [الصف]

إذن : فالقول مقابله الفعل ، والكلُّ عمل ، لذلك قال الحق سبحانه

﴿مَا لا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾﴾ [الصف] ولم يقُل (ما لا تعملون) لأن القول نفسه عمل .

فمجرد قولْك هو عمل ولكنه ليس فعلاً ، ولا بدَّ للمؤمن أنْ يتطابق القول مع الفعل ، فحين يكون القولُ شيئاً مختلفاً عن الفعل لا تتطابق النسبة ، فالصادقون هم الذين يصدقون فى سلوكهم ويتطابق فعلُهم مع قولهم .

وقد عابَ الحق سبحانه مَنْ يأمر الناس بالبر وينسى نفسه فلا يُطبِّق على نفسه ما يأمر به غيره ، ويفعل ما ينهى الناس عنه ، فقال تعالى : ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ ..﴿٤٤﴾﴾ [البقرة]

فالذى يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويحمل منهج الله يريد أنْ يُخرج مَنْ لا يؤمن من حركة الباطل التى ألفها ، وإخراجُ غير المؤمن من حركة الباطل أمر شاقٌّ على نفسه لأنه خروج عن الذى اعتاده وبُعدٌ عما ألفه ، واعترافٌ أنه كان على باطل .

لذلك فهو يكون مفتوحَ العينين على مَنْ بيَّن له طريق الإيمان ، ليرى هل يُطبِّق ذلك على نفسه أم لا ؟ أيطبق الناهى عن المنكر ما يقوله ؟ فإذا طبَّقه عرف أنه صادق فى الدعوة ، وإذا لم يُطبقه كان ذلك عذراً ليعود إلى الباطل الذى كان يسيطر على حركة حياته .

إن الدين كلمة تُقال وسلوك يُفْعل ، فإذا انفصلتْ الكلمة عن السلوك ضاعت الدعوة .

لذلك استحقَّ هذا الأمر أنْ يضعه الحق سبحانه بعد نداء ﴿يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا .. ﴿٢﴾﴾ [الصف] ليكون من مطلوبات الإيمان ومقتضياته ، لماذا ؟

لأن مَنْ يراك تفعل ما تنهاه عنه يعرف أنك مخادع وغشاش ، وما لم ترتضه أنت كسلوك لنفسك لا يمكن أنْ تدعو إليه غيرك .

لذلك نقرأ فى القرآن ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً (٢١)﴾ [الأحزاب]

فمنهج الدين وحده لا يكفى إلا بالتطبيق ، ولذلك كان رسول الله ﷺ لا يأمر أصحابه بأمر إلا كان أسبقهم إليه ، فكان المسلمون يأخذون عنه القدوة قولاً وفعلاً .

وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه حين يريد أنْ يُقنِّنَ أمراً فى الإسلام يأتى بأهله وأقاربه ويقول لهم : لقد بدا لى أنْ آمر بكذا وكذا ، والذى نفسى بيده مَنْ خالف منكم لأجعلنَّه نكالاً للمسلمين .

وكان عمر بن الخطاب بهذا يغلق أبواب الفتنة لأنه يعلم من أين تأتى الفتن .

ولا بدَّ أنْ يكون العلماء قدوة لينصلح أمر الناس ، ففى كل علوم الدنيا القدوة ليستْ مطلوبة إلا فى الدين ، فأنت إذا ذُكِر لك عالم كيمياء بارع وقيل لك إنه يتناول الخمر أو يفعل كذا .

تقول : مالى وسلوكه ، أنا آخذ عنه علم الكيمياء لأنه بارع فى ذلك ، ولكن لا شأن لى بسلوكه ، وكذلك كلّ علماء الأرض ، ما عدا عالم الدين .

فإذا كان هناك عالم يُبصِّرك بالطريق المستقيم وتتلقَّى عنه علوم دينك ، ثم بعد ذلك تعرف أنه يشرب الخمر أو يسرق ، أتستمع له ؟ أبداً إنه يهبط من نظرك فى الحال ، ولا تحب أنْ تسمعه ، ولا تحب

أن تجلس فى مجلسه مهما كان علمه فستقول له : كفاك دَجلاً .

وهكذا فإن عالم الدين لا بدَّ أنْ يكون قدوة ، فلا ينهى عن منكر ويفعله ، أو يأمر بمعروف وهو لا ينفذه ، فالناس كلها مُفتَّحة أعينهم لما يصنع .

ولذلك نقول : أىُّ فائدة أنْ نقول : إننا مسلمون ونعمل بعمل غير المسلمين ؟

والإنسان المؤمن مطالب بأمرين : الأول ألاَّ يصنع المنكر . والثانى : أنْ ينهى عن المنكر . ولذلك إنْ جاء نُصح من إنسان ينهاك عن المنكر وهو قد فعله ، فلا تقُلْ له : أصلح نفسك واتبع أنت ما تنصح به أولاً ، لا تقُلْ له ذلك حتى لا يقول لك ما قاله الشاعر[1] :

خُذْ بِعلْمِى وَلاَ تَركَنْ إلى عَملِى وَاجْنِ النِّمارَ وَخَلِّ العُودَ للنَّارِ

لكن الأجدر بمَنْ يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر أنْ يكون أول العاملين بقوله ، حتى لا يدخل فى زمرة مَنْ قال الله فيهما هاتين الآيتين .

والإسلام قبل أنْ ينتشر بالمنهج العلمى انتشر بالمنهج السلوكى ،

---

(١) ذكر نشوان الحميرى فى كتابه (الحور العين) من قول ابن قتيبة وعزاه للخليل بن أحمد نحو هذا :

اعمل بعلمى ولا تنظر إلى عملى ينفعك علمى ولا يضرك تقصيرى

وذكره أيضاً ابن عبد ربه فى العقد الفريد فى فصل (الحكمة) وابن قتيبة فى (المعارف) و (عيون الأخبار) وهو من بحر البسيط .

والبيت بعده :

وانظر لنفسك فيما أنت فاعله من الأمور وشمِّر فوق تشميرى

وأكبر عدد من المسلمين اعتنق هذا الدين من أسوة سلوكية قادتْه إليه ، فالذين نشروا الإسلام فى الصين كان أغلبهم من التجار الذين تخلَّقوا بأخلاق الإسلام ، فجذبوا حولهم الكثيرين فاعتنقوا الإسلام .

ويُعطينا الحق سبحانه مثالاً لهذا من قصة شعيب عليه السلام ، فقال تعالى : ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ .. (٨٨) ﴾ [هود]

أى : أننى أطبِّق ما أدعوكم إليه على نفسى ، فلا أُنقِص كيلاً أو أُخْسِر ميزاناً ، ولا أبخس أحداً أشياءه .

فشعيب عليه السلام يوضح لهم أنه لا ينهاهم عن أفعال ليفعلها هو ، بل ينهاهم عن الذى لا يفعله ، لأن الحق سبحانه قد أمره بألاَّ يفعل تلك الأفعال .

وهناك ملمح آخر فى هاتين الآيتين ، يقول تعالى ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ (٣) ﴾ [الصف]

فهؤلاء المؤمنون الذين اجتمعوا يتذاكرون أىَّ الأعمال أحبّ إلى الله ، فلما نزل الأمرُ بالقتال وأنَّ أحب الأعمال إلى الله هو أنْ يقاتل المؤمنون فى سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص .

فلما نزل هذا كره بعض المؤمنين هذا الأمر ، لذلك كان عتاب الله عز وجل ﴿ لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ (٢) ﴾ [الصف] فما دُمتم تقولون وتتكلمون وتسألون عن أحبِّ الأعمال إلى الله ، فلماذا لا تستجيبون بفعلكم لأمر الله ؟

فهذا يجعل بينكم وبين المنافقين وَجْهَ تشابه ، الذين قال عنهم

الحق سبحانه : ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ .. (٢٠) ﴾ [محمد]

وهذا تشبيه لنظر المغشىِّ عليه من الموت . يعنى : المغمى عليه خَوْفاً وهلَعاً ، فهم طلبوا سورة محكمة قاطعة ، فلما أُنزلَتْ السورةُ وفيها ذِكْرٌ للقتال تجدهم منهارين وكأنهم مُغمى عليهم .

والمنافق سهْلٌ عليه أنْ يذهب ويصلى مع الجماعة فى المسجد بل ويقف فى الصف الأول ، لكن إذا وصلت المسألة للقتال اختلف الأمر وانكشف المستور من النفاق .

﴿ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ (٢٠) طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ (٢١) ﴾ [محمد]

فالطاعة لأمر الله وقوْل معروف أوْلَى لهم أنْ يفعلوه وأوْلى من نفاقهم ، فلو صدقوا الله فى أوامره واتباع منهجه لكان خيراً لهم ، والخير هنا هو البراءة من الموت بعد ذلك ، لأنه جادَ بنفسه طواعيةً فى سبيل الله .

وقد قال الحق سبحانه : ﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ (٣) ﴾ [الصف] فقول (كَبُر) أى عَظم . والكاف والباء والراء تأتى لمعنيين : الأول كِبر السن . وهى : كبر يكبر . والثانى : العظمة والتعظيم . إلا أن التعظيم يأتى ليبين أنه أمر صعب على النفس .

مثل قوْل الحق سبحانه : ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا (٥) ﴾ [الكهف] أى : أن هذه الكلمة التى خرجتْ من

أفواههم أمرٌ صَعْب وشاقٌّ ، وهى ادعاء أن لله ولداً .

ومرة تكون العظمة من جهة أخرى ، مثل قوْل الحق سبحانه : ﴿ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ .. (١٣) ﴾ [الشورى] أى : عَظُم على المشركين وصَعُب على أنفسهم وشَقَّ عليهم ما تدعوهم إليه من أن الإله هو واحد أحد ، ولا سلطان إلا له سبحانه .

وهنا﴿ كَبُرَ مَقْتًا .. (٣) ﴾ [الصف] أى : عظم بُغْضاً ، والمقت أشدّ البغض ، فهذا الأمر ممقوت عند الله يبغضه الله بُغْضاً كبيراً .

ومثله قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا ..(٣٥) ﴾ [غافر]

فقولكم ما لا تفعلون ممقوتٌ عند الله مُبغض أشدّ البُغْض .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾ ﴾

الصفُّ انسجامُ مجموعة بحيث لا يشذّ فيها فرد عن فرد ، فالصفُّ لا يعنى مجرد الجمع والحشد ، إنما هو الجمع فى انسجام وانضباط .

وقد روتْ لنا السنة أن النبى ﷺ كان فى استعراض الجنود فى المعركة يُسوِّى الصفوف ، فلما رأى رجلاً شذَّ عن الصف وخرج عنه فشكَّه فى بطنه ليستقيم فى مكانه من الصف .

وكان الرجل مُحباً لرسول الله فقال : أوجعتنى يارسول الله ، فقال رسول الله : هذه بطنى اقتصّ منها ، فأقبل الرجلُ يُقبِّل رسول الله ويقول : والله يا رسول الله لقد أمَّلتُ أنْ أستشهد . فأحببتُ أنْ يكون آخر عهدى بالحياة أنْ يمسَّ جسدى جسدك الشريف[1] .

والصفُّ دليل الانتظام والالتزام والاستعداد لتلقِّى الأوامر ، وهكذا تُصفُّ الملائكة فى انتظار الأوامر ، ليقوم كلٌّ منهم بمهمته ودوره .

وإذا استعرضتَ مادة (ص ف ف) فى القرآن الكريم تجدها تدور حول هذا المعنى ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا .. (٦٤)﴾ [طه] يعنى : مجتمعين مُتحدين ، كأنكم يد واحدة فهذا أهيَبُ لكم وأدخَلُ للرعب فى قلوب خَصمكم ، وهى نصيحة قدَّمها سحرة فرعون لبعضهم البعض فى مواجهة موسى عليه السلام .

حتى أن العَرْض على الله يوم القيامة يكون صفوفاً ، فيقول تعالى : ﴿وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا ..(٤٨)﴾ [الكهف] وهذا كما يستعرض القائدُ الجنودَ فى العرض العسكرى مثلاً ، فيرى كلٌّ واحد من جنوده (صفاً) أى : صفوفاً منتظمة .

---

(١) أخرجه الحاكم فى مستدركه (٥٢٦٢) من حديث ابن أبى ليلى قال : كان أسيد بن حضير رجلا صالحاً ضاحكاً مليحاً فبينما هو عند رسول الله ﷺ يحدث القوم ويضحكهم فطعنه رسول الله فى خاصرته فقال : أوجعتنى ، قال : اقتص قال : يارسول الله إن عليك قميصاً ولم يكن علىّ قميص . قال : فرفع رسول الله قميصه فاحتضنه ثم جعل يُقبّل كشحه فقال : بأبى أنت وأمى يا رسول الله أردت هذا . وقال الحاكم : صحيح الإسناد ولم يخرجاه .

أى : أنها عملية منظمة لا يستطيع فيها أحدٌ التخفى ، ولن يكون لأحد منها مفرّ ، وهى صفوف متداخلة بطريقة لايُخفى فيها صفٌّ الصَّفَّ الذى يليه ، فالجميع واضحٌ بكلِّ أحواله .

ويقول تعالى عن الملائكة عموماً ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ (١٦٥)﴾ [الصافات] يعنى : نقف فى انضباط منتظرين الأوامر ، والصفُّ هنا يدل على الانسجام ، وأنه لا يتعالى أحدٌ على أحدٍ ، ويدلّ على الرهبة ممنْ أنت أمامه مصفوفٌ .

وفى الحديث عن البراء بن عازب[1] قال : كان رسول الله ﷺ إذا أقيمت الصلاة يمسح مناكبنا وصدورنا . ويقول : « لا تختلفوا فتختلف قلوبكم ، إن الله وملائكته يُصلُّون على الصفوف الأولى ، وصلُوا المناكبَ بالمناكب ، والأقدامَ بالأقدام ، فإن الله يحبُّ فى الصلاة ما يحبُّ فى القتال[2] ، وتلا قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ (٤)﴾ [الصف]

---

(١) البراء بن عازب : بن الحارث الخزرجى أبو عمارة ، أنصارى ، أسلم صغيراً وغزا مع رسول الله ﷺ ١٥ غزوة أولها غزوة الخندق كان أميراً على الرى (بفارس) سنة ٢٤ هـ والرى هى طهران الآن ، فتح أبهر غربى قزوين ، سكن الكوفة وتوفى فى زمن مصعب بن الزبير . [الأعلام للزركلى ٢/٤٦]

(٢) أخرج النسائى فى سننه (٨١١) عن البراء بن عازب قال : كان رسول الله ﷺ يتخلل الصفوف من ناحية إلى ناحية يمسح مناكبنا وصدورنا ويقول : لا تختلفوا فتختلف قلوبكم وكان يقول : إن الله وملائكته يصلون على الصفوف المتقدمة ، وصححه الألبانى . وأورده فى شرح مُشْكَل الآثار (٥٦٢٧) من حديث البراء أيضاً قال : كان رسول الله ﷺ إذا أقيمت الصلاة مسح صدورنا وقال : « رصوا المناكب بالمناكب والأقدام بالأقدام ، فإن الله تعالى يحب فى الصلاة ما يحب فى القتال كأنهم بنيان مرصوص » .

فالله سبحانه يحبُّ فى الصلاة الاصطفاف صفوفاً متراصَّة غير متخالفة ، كذلك فى القتال يحبُّ الله اصطفافَ المقاتلين فى صفوف القتال .

فالاصطفاف فى صفِّ الصلاة وفى صفِّ القتال يحتاج لطاعة الآمر بالاصطفاف ، ويحتاج لسُكون[١] والتزام بما يأمر .

لذلك كان ما حدث يوم أُحُد من مخالفة أمر رسول الله ﷺ كان هذا خَرْقاً وخَلَلاً فى الصفِّ فكانت الهزيمة ، فرسول الله جاء بالرماة وأمَّر عليهم عبد الله بن جبير[٢] ، وهم يومئذ خمسون رجلاً ، وقال رسول الله ﷺ لهم : « قُوموا على مصافِّكم هذه ، فاحموا ظهورنا ، فإنْ رأيتمونا قد انتصرنا فلا تشركونا ، وإن رأيتمونا نُقتل فلا تنصرونا »[٣] .

---

(١) فالسكون عند مواجهة العدو يعطى المقاتل طمأنينة وثقة . وعليه أن يكثر من ذكر الله سبحانه ، يقول رسول الله ﷺ « طوبى لمن أكثر فى الجهاد فى سبيل الله من ذكر الله ، فإن له بكل كلمة سبعين ألف حسنة ، كل حسنة منها عشرة أضعاف مع الذى له عند الله من المزيد والنفقة على قدر ذلك » . أخرجه الطبرانى فى المعجم الكبير عن معاذ . ذكره المتقى الهندى فى كنز العمال (١٠٨٨١) .

(٢) عبد الله بن جبير : بن النعمان الأنصارى شهد العقبة وبدراً ، وكان أمير الرماة يوم أحد فاستشهد فيها عام (٣ هـ) [الزركلى الأعلام ٧٦/٤]

(٣) قال الواقدى فى مغازيه (٢٢٩/١) : « كلما أتى خالد من قبل ميسرة النبى ﷺ ليجوز حتى يأتى من قبل السفح فيرده الرماة حتى فعلوا ذلك مراراً ، ولكن المسلمين أتوا من قبل الرماة . إن رسول الله ﷺ أوعز إليهم فقال : قوموا على مصافكم هذا فاحموا ظهورنا فإن رأيتمونا قد غنمنا لا تشركونا ، وإن رأيتمونا نقتل فلا تنصرونا ، فلما انهزم المشركون وتبعهم المسلمون يضعون السلاح فيهم حيث شاءوا حتى أجهضوهم عن العسكر ووقعوا ينتهبون العسكر . قال بعض الرماة لبعض : لم تقيمون هاهنا فى غير شىء ؟ قد هزم الله العدو وهؤلاء إخوانكم ينتهبون من العسكر فادخلوا عسكر المشركين فاغنموا مع إخوانكم . الحديث لآخره .

لكنهم لم يقدروا على هذه ، لأن نفوسهم مالتْ إلى الغنيمة ، وخرجوا عن مقتضيات الائتمار بأمر القائد والاصطفاف ، فاتباعُ أمر القائد يجب أنْ يكون هو الأساس فى عملية الجندية .

وإنكم إنْ خالفتم الرسول فلا بدَّ أنْ تنهزموا ، كان لا بد أنْ يعيشوا التجربة وهم مع رسول الله ، فحينما هبّت ريح النصر على المؤمنين فى أول المعركة ، ابتدأ المقاتلون فى الانشغال بالأسلاب والغنائم .

فقال الرماة : سيأخذ الأسلابَ غيرنا ويتركوننا ونزلوا ليأخذوا الغنائم ، فانتهز خالد بن الوليد - وكان على دين قومه - حينها الفرصة وطوّقهم وحدث ما حدث .

فهو استغل فرصة نزول الرماة عن أماكنهم وتركوا مصافهم التى وضعهم عليها رسول الله فوق الجبل .

لقد كادوا يتسبَّبون فى قتل رسول الله ، فبعد أن انحلَّ القوم من الرماة عن أمره وحدثت الكرّة عليهم من المشركين القرشيين فرَّ الصحابة فى كل اتجاه هنا وهناك وانفرط عِقْد المسلمين .

وتكتل المشركون على رسول الله لدرجة أن ابن قمئة[1] أمسك بحجر وضرب به حضرة النبى عليه الصلاة والسلام فكسر رباعيته

---

(١) عن أبى أمامة أن رسول الله ﷺ رماه عبد الله بن قمئة بحجر يوم أحد فشجّه على وجهه وكسر رباعيته وقال : خذها وأنا ابن قمئة ، فقال له رسول الله ﷺ وهو يمسح الدم عن وجهه : « مالك أقمأك الله .فسلط الله عليه تيس جبل فلم يزل ينطحه حتى قطعه قطعة قطعة . أخرجه الطبرانى فى المعجم الكبير (٧٤٧٦)

وانغرزت فى وجنتى رسول الله حلقتا المغفر[١] وسال منه الدم . وحاول رسول الله أن يصعد على صخرة من الجبل ليعلوها فلم يستطع فجلس تحته طلحة بن عبيد الله[٢] فنهض به حتى استوى عليها[٣] .

لذلك كان أحبّ الأعمال إلى الله للمقاتلين فى سبيل الله أنْ يكونوا صفاً كأنهم بنيان مرصوص .

والصفّ الواحد ليس فقط للمصطفين فى صَفِّ الصلاة ، ولا للمقاتلين فى ساحة القتال ، إنما أيضاً لحاملى الدعوة إلى الله ، فيجب على هؤلاء الدعاة والعلماء أنْ يكونوا فى دعوتهم صفاً واحداً لا يشقُّه خلاف .

لذلك يرى بعض العلماء أن قوله تعالى ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ۝١﴾ [الصافات] له معنى أوسع ، وأنه يُراد به مجال نشْر الدعوة والإعلام بها والدفاع عنها وحماية الاختيار فى الإسلام وفى القتال .

---

(١) المغفر : زرد ينسج من الدروع على قدر الرأس تلبس تحته القلنسوة . قاله الأصمعى وذكره صاحب الصحاح ،وهى ما نعرفه اليوم بـ (الخوذة) . وذكر ابن سيده فى المخصص (٣٢٧/١) : المغفر الذى يوضع على الرأس لأنه يغطيه ، والغفير يراد به أنهم قد غطوا الأرض من كثرتهم .

(٢) هو : طلحة بن عبيد الله أبو محمد صحابى شجاع وُلد ٢٨ قبل الهجرة ، هو أحد العشرة المبشرين بالجنة وأحد الستة أصحاب الشورى كان من دهاة قريش ومن علمائهم . ويقال له (طلحة الجود) ، شهد أحداً وثبت فيها مع رسول الله فأصيب بـ ٢٤ جرحاً ، قتل يوم الجمل وهو بجانب عائشة ودُفن بالبصرة عام (٣٦ هـ) عن ٦٤ عاماً [الأعلام للزركلى ٢٢٩/٣]

(٣) أورده فى الرحيق المختوم (٢٤٥/١) وفيه أن رسول الله ﷺ قال لطلحة : أوجب طلحة . أى وجبت لطلحة الجنة .

أى : من أجل الإعلام بدينه والدفاع عنه أمام أعدائه ، فالإعلام بالدين مهمة العلماء ، والدفاع عنه مهمة الجنود فى ساحة القتال ، وينبغى أنْ يكون هؤلاء وهؤلاء صفاً واحداً كأنه البنيانُ المرصوص .

والحق سبحانه يقول : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ ..(٤)﴾ [الصف]

فالقتال فى الإسلام لا بدَّ أنْ يكون فى سبيل الله ، لا فى سبيل شىء دنيوىٍّ من استيلاء على الأراضى أو الأموال ونهبها . فلا بدَّ أنْ تكون نية القتال فى سبيل الله ، لا أنْ يكون القتال بنية الاستعلاء والجبروت والطغيان ، فلا قتالَ من أجل الجاه أو المال أو لضمان سوق اقتصادى ، وإنما القتال لإعلاء كلمة الله ونصرة دين الله ، هكذا هو غرض القتال فى الإسلام ، لتكون كلمة الله هى العليا[1] .

لذلك قال تعالى : ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (٧٤)﴾ [النساء]

فقوله تعالى : ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ .. (٧٤)﴾ [النساء] يدلنا على أن هناك قتالاً فى غير سبيل الله ، كأنْ يقاتل الرجل حمية أو ليُعلم مكانه من الشجاعة .

ولذلك تساءل بعض الناس : من الشهيد ؟ قال العلماء : هو مَنْ قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فيكون شهيداً . إذن : فالقتال مرة

---

(١) عن أبى موسى الأشعرى قال : جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله ما القتال فى سبيل الله .فإن أحدنا يقاتل غضباً ويقاتل حمية فرفع إليه رأسه ـ قال : وما رفع إليه رأسه إلا أنه كان قائماً ـ فقال : من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله . أخرجه البخارى فى صحيحه (١٢٣) وكذا مسلم فى صحيحه (٥٠٣١)

يكون فى سبيل الله ، ومرة يكون فى سبيل النفس ، ومرة يكون فى سبيل الشيطان .

والله يُرغِّب المؤمنين فى أنْ يكونوا مجاهدين ، وأنْ يبذلوا الجهد لتكون كلمة الله هى العليا ، فإذا ما آمن الإنسانُ فليس له أن يتخلف عن الصفِّ الإيمانى ، لأنه ما دام قد اقتنعتْ نفسه بالإيمان لا ينضم إلى ركْب مَنْ ينفع سواه بالإيمان ؟

فكلمة ﴿ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا .. ﴿٤﴾ ﴾ [الصف] تخصِّص لوناً من القتال ، فالإنسان قد يقاتل حمية أو دفاعاً عن جنسيته أو أى انتماء آخر ، وكلُّ هذه الانتماءات فى عُرف الدين لا قيمة لها إلا إذا نبعتْ من الانتماء إلى منهج الله لتكون كلمة الله هى العليا .

وبذلك يخرج المؤمن عن دائرة الاستعلاء والاستكبار فأنت لم تذهب للقتال من أجل الغنائم أو لتكسبَ مكانة فى مجتمعك كمقاتل ، بل أنت تقاتل حين يكون القتالُ مطلوباً ، وتسلك بالخلق الإيمانى اللائق فى إطار أنك من المتقين لله ، وتحارب لتكونَ كلمةُ الله هى العليا ، وهنا تكون معيةُ الله لك .

وما دام قتالكَ فى سبيل الله فلا بدَّ أنْ يكون محكوماً بمنهج الله ، فلا تغلّ ولا تعتدِ ولا تقتلْ امرأة أو طفلاً أو شيخاً كبيراً ، لأن فى قتال النساء والعجزة اعتداءً وتجاوزاً [1] .

---

(١) عن صفوان بن عسال المرادى قال : بعثنا رسول الله ﷺ فى سرية فقال : « اغزوا بسم الله ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليداً » أخرجه أحمد فى مسنده (١٨١٢٢) وفى المعجم الأوسط (٢٦٨/٤) عن ابن عباس قال : كان رسول الله إذا بعث سرية قال : اغزوا بسم الله وفى سبيل الله فقاتلوا من كفر بالله لا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثّلوا ولا تقتلوا وليداً ولا امرأة ولا شيخاً .

ولأنه قتالٌ فى سبيل الله فلا بدَّ أنْ يتصف المقاتلون بأنهم ﴿كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾﴾ [الصف]

فالمنهج الإيمانى يجعل المؤمنين جميعاً كالبنيان المرصوص يشدّ بعضه بعضاً ، لا سيما الذين فى ميدان القتال فى سبيل الله .

فقوله ﴿كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾﴾ [الصف] تشبيه له دلالته لأن البنيانَ المرصوص يعنى أن اللبنة فيه ليس لها إرادةٌ فى الخروج عن الأخرى ، لأنها محكومةٌ بالبناء الذى وُضعتْ فيه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾﴾

الحق سبحانه عندما أرسل موسى وهارون بآية دالّة على صدقهما إلى فرعون كانت مهمتهما الأساسية أخْذ بنى إسرائيل وإنقاذهم من طغيان فرعون ، وجاءت المسألة الإيمانية تبعية ، أما أصل مهمة موسى فكان ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِى إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ..﴿٤٧﴾﴾ [طه]

فقد جئْنا لنأخذ أولادنا وننقذهم من هذا العذاب وهذا الاستضعاف ، وجاء لفرعون بمعجزات تثبت صدْق رسالته من الله ، ومع ذلك لم يَسْلم موسى عليه السلام من إيذاء فرعون ، فقال عنه : ﴿سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾﴾ [غافر]

وقال : ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (٢٧)﴾ [الشعراء]
وقال : ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلا يَكَادُ يُبِينُ [1] (٥٢)﴾ [الزخرف]

وطبيعىٌّ أنْ يُؤذَى موسى عليه السلام من فرعون وقد جاء ليبطل ألوهيته المزعومة ، لكن كيف يُؤذَى من بنى إسرائيل ، وهو الذى جاء لينقذهم من قبضة فرعون ، ومما كانوا فيه من العذاب والاستعباد ؟

لذلك يُعاتب موسى قومه من بنى إسرائيل ، وقال الحق سبحانه : ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَـٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ .. (٥)﴾ [الصف]

قال العلماء : إن بنى إسرائيل آذوا موسى حين آذوا مَنْ أرسله ، الله سبحانه وتعالى فقالوا له : ﴿أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً ..(١٥٣)﴾ [النساء]

وهم بمثل هذا القول تعدوا مِنْ فعل الله إلى ذات الحق سبحانه ، فهم غرقوا فى المادية حتى إنهم أرادوا أنْ يروا الله متمثلاً أمامهم فى صورة حسِّية مادية ، فهم لا يفهمون الغيب ولا يقتنعون به .

لذلك قال الحق سبحانه لمحمد ﷺ : ﴿يَسْئَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُّبِينًا (١٥٣)﴾ [النساء]

وآذوا موسى حين قالوا معترضين على ما رزقهم الله من المنِّ

---

(١) ولا يكاد يبين : أى عيى اللسان . أى لا يكاد يفصح بالكلام فلا يأتى ببيان يُفهم ولا حجة ، فقد كانت فى لسانه حبسة ورتة ولثغة كانت فى لسانه .

والسَّلْوى[١] ، فقالوا : ﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا[٢] وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ .. (٦١)﴾ [البقرة]

ثم آذوا موسى يوم عبدوا العجل من دون الله ، حدث هذا منهم بمجرد خروجهم من البحر سالمين ، موسى عليه السلام أخذ النقباء وذهب لميقات ربه وترك أخاه هارون مع بنى إسرائيل .

هذا العجل صنعوه بأيديهم من الحلىِّ التى سرقوها من مصر وقد كانت أمانات عندهم ، ولكنهم عند خروجهم من مصر لم يردُّوا الأمانات إلى أهلها ، لذلك كانت وبالاً عليهم فصنع لهم السامرى ﴿عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ[٣] فَقَالُوا هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ (٨٨)﴾ [طه]

وقد كان هذا مُؤذياً لموسى أىَّ إيذاء ، فهو ذهب ليتلقى وصايا الله وأحكامه وشرائعه وإذا بقومه قد عبدوا إلهاً غير الله الذى هو فى رحابه ، وهو الذى أنقذهم من سنين طويلة من العبودية والاستضعاف على يد فرعون مصر .

لذلك كانت غضبة موسى عليه السلام على قومه عارمة ، قال

---

(١) المن : ندى يشبه العسل كان الله يُنزله على الأشجار غذاء طيباً لبنى إسرائيل فجحدوا فضل الله عليهم فى ذلك فذكّرهم الله به مُبكتاً لهم على كفرهم فقال : ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ..(٥٧)﴾ [البقرة] . أما السلوى فهو السمانى وهو طائر صغير وهو من الطيور المهاجرة من أوربا فى الشتاء إلى البلاد الدافئة كمصر ، وأهل العريش بشمال سيناء مشهورون بصيده .

(٢) فومها : الفوم : الثوم . وهو من مُشهّيات الطعام . وقيل : الفوم الحنطة . وقيل : الحمص . [القاموس القويم ٢/٩٢] .

(٣) الخوار : صوت الثور . وما اشتدّ من صوت البقرة . [لسان العرب – مادة خور]

الحق سبحانه عن هذا الموقف : ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَـٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى (٨٦)﴾ [طه]

لقد كان موسى شديدَ الحزن على ما حدث متألماً لما بدر من قومه ، حتى أنه قال لهم : ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَـٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ .. (٥٤)﴾ [البقرة]

وكانت توبتهم التى حدَّدها لهم نبيهم ورسولهم موسى عليه السلام ﴿فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ .. (٥٤)﴾ [البقرة] وقيل : إنهم قتلوا من أنفسهم سبعين ألف نفس[١] .

ثم إنهم آذوا موسى عليه السلام فى شخصه ، حين اتهموه بقتل أخيه هارون حين صعدا الجبل ومات هارون هناك ، فقالوا : إن موسى حقد على أخيه فقتله ، فجعل الله الملائكة تحمل جسد هارون وتمرّ به على بنى إسرائيل وهو سليم لا جُرْح فيه[٢] ، وهذا معنى قوله تعالى : ﴿فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا .. (٦٩)﴾ [الأحزاب]

---

(١) أخرج ابن أبى حاتم فى تفسيره (٥٢٨) أن سعيد بن جبير ومجاهد قالا فى قوله تعالى : (فاقتلوا أنفسكم) قالا : قام بعضهم إلى بعض بالخناجر فقتل بعضهم بعضاً لا يحنو رجل على قريب ولا بعيد ، حتى ألوى موسى بثوبه فطرحوا ما بأيديهم فكشف عن سبعين ألف قتيل ، وإن الله عز وجل أوحى إلى موسى أن حسبى فقد اكتفيت فذلك حين ألوى موسى ثوبه .

(٢) أورده السيوطى فى الدر المنثور (١٥٢/١٢) تفسير آية الأحزاب ٦٩ وعزاه لابن منيع وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وصححه ابن مردويه عن ابن عباس عن على بن أبى طالب فى قوله : ﴿لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ ..(٦٩)﴾ [الأحزاب] قال : صعد موسى وهارون الجبل فمات هارون فقالت بنو إسرائيل لموسى : أنت قتلته كان أشد حباً لنا منك وألين فآذوه من ذلك فأمر الله الملائكة فحملته فمروا به على مجالس بنى إسرائيل وتكلمت الملائكة بموته فبرأه الله من ذلك فانطلقوا به فدفنوه .

وقال آخرون[١] : أنهم آذوا موسى عليه السلام بأنْ اتهموه بأنه مصاب بمرض فى جسده ، لأنه كان شديد الحياء ستِّيراً يحتاط فى ستر نفسه عند استحمامه ، وعند قضائه حاجته فقالوا : ما فعل ذلك إلا لعيب يريد أنْ يستره .

ومنهم من قال : به برص ، ومنهم مَنْ تجرأ واتهمه بعيب فى أعضائه التناسلية ، فشاء الله أنْ يُبرئه مما قالوا ، فنزل ذات يوم النهرَ ليستحم ، فأمر الله حجراً فأخذ ثيابه بعيداً عنه ، فجرى موسى عليه السلام خلف الحجر وهو يقول : ثوبى حجر ، ثوبى حجر . أى ثوبى يا حجر .

فرآه بنو إسرائيل مُبرّأ من العيوب التى اتهموه بها ، وهذا ما قاله رسول الله « حتى انتهى إلى ملأ من بنى إسرائيل فرأوه عرياناً أحسن ما خلق الله ، وبَرَّأه مما يقولون ، وقام الحجر فأخذ ثوبه فلبسه ، وطفق بالحجر ضرباً بعصاه » .

وقد أشار الحق سبحانه إلى أن موسى عليه السلام لم يكُنْ به برص أو غيره فى قوله تعالى : ﴿ اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ .. (٣٢) ﴾ [القصص]

---

(١) عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ : إن موسى كان رجلاً حيياً ستيراً لا يُرى من جلده شىء استحياء منه ، فآذاه مَنْ آذاه من بنى إسرائيل فقالوا : ما يستتر هذا التستر إلا من عيب بجلده إما برص وإما أدرة وإما آفة وإن الله أراد أن يبرئه مما قالوا لموسى فخلا يوماً وحده فوضع ثيابه على الحجر ثم اغتسل ، فلما فرغ أقبل إلى ثيابه ليأخذها ، وإن الحجر عدا بثوبه فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر فجعل يقول ثوبى حجر ثوبى حجر حتى انتهى إلى ملأ من بنى إسرائيل فرأوه عرياناً أحسن ما خلق الله وأبرأه مما يقولون وقام الحجر فأخذ ثوبه فلبسه وطفق بالحجر ضرباً بعصاه ، فو الله إن بالحجر لندباً من أثر ضربه ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً . فذلك قوله ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا .. (٦٩) ﴾ [الأحزاب] أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٤٠٤) .

فكلمة (بيضاء) أى منوَّرة دون مرض ، والبياض لا بد أنْ يكون عجيباً فى موسى عليه السلام لأنه كان أسمر اللون ، لذلك قال ﴿مِنْ غَيْرِ سُوءٍ .. (٣٢)﴾ [القصص] حتى لا يظنوا به برصاً مثلاً ، فهو بياضٌ طبيعىّ مُعجز.

وقد كان من إيذائهم له أن قارون لما حصلت الخصومة بينه وبين موسى عليه السلام استأجر امرأة بغياً ، وقال لها : اتهمى موسى على مشهد من الناس ، فشاء الله أنْ يجتمع الناس وتنطق هى وتقول : قارون فعل كذا وكذا . فبرَّأه الله بذلك .

فقارون أغرى امرأة بغياً فأعطاها طستاً مملوءاً بالذهب على أن تدّعى على موسى وتتهمه ، فجاء موسى عليه السلام ليخطب فى الناس ويُبيِّن لهم الأحكام فقال : مَنْ يسرق نقطع يده ، ومَنْ يزنى نجلده إنْ كان غير مُحْصن ، ونرجمه إنْ كان محصناً ، فقام له قارون وقال : فإنْ كنتَ أنت يا موسى ؟ فقال : وإن ْ كنتُ أنا .

وهنا قامت المرأة البغى وقالت : هو راودنى عن نفسى . فقال لها : والذى فلق البحر لتقولنَّ الصدق فارتعدتْ المرأة ، واعترفت بما دبَّره قارون ، فانفضح أمره وبدأت العداوة بينه وبين موسى عليه السلام[1] .

---

(١) ورد هذا فى أثر ابن عباس رضى الله عنهما قال : « لما أمر الله موسى عليه السلام بالزكاة قال : ارموه بالزنا ، فجزع من ذلك ، فأرسلوا إلى امرأة كانت قد أعطوها حكمها على أن ترميه بنفسها ، فلما جاءت عظم عليها ، وسألها بالذى فلق البحر لبنى إسرائيل وأنزل التوراة على موسى إلا صدقت . قالت : إذ قد استحلفتنى فإنى أشهد أنك برىء وأنك رسول الله » ، أورده الطبرى فى تفسيره (١١٦/٢٠) وابن أبى حاتم فى تفسيره (٣٠٠٦/٩) وابن عساكر فى تاريخ دمشق (٩٧/٦١ - ٩٨) .

لذلك يقول موسى : ﴿ يَـقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ .. (٥) ﴾ [الصف]

فأنتم تعلمون أنِّى رسول الله إليكم ، و (قد) هنا للتحقيق والتوكيد ، فعلمكم بهذا عِلْم يقينى لا شبهةَ فيه ، فلِمَ تؤذوننى وأنا رسول الله ؟!

فما ترموننى به لا يليق بمقام النبوة والرسالة ، خاصة أن الله عزَّ وجلَّ لم يُبرئه فقط مما رموْهُ وآذوْهُ به ، بل قال تعالى عن موسى : ﴿ وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا (٦٩) ﴾ [الأحزاب]

والوجاهة هيئة تدلُّ على أنه مقبول الرجاء ، مقبول الدعاء ، لا يجرؤ أحد أنْ يرميه بعيب ، فالوجاهة تعنى أنْ يكون للإنسان احترامٌ أو وزنٌ أو تقدير .

وهذه الأشياء لا يأخذها بلا سبب ، إنما سبقها عمل جعل له وجاهةً عند الناس ، فالناس فى العادة لا يحترمون إلا مَنْ يكون له من الفضل عليهم .

وقد تكون الوجاهة سببها العلم أو بفضل القوة ، بإعانة الضعيف أو بإكساب الخبرة للآخرين ، أو بتفريج كربة .

بنو إسرائيل لم ينظروا إلى أن موسى رسول الله ، وأنه كان سبباً فى إنقاذهم من فرعون وطغيانه وجبروته ، بل زاغوا عن الحقِّ ومالوا .

لذلك قال الحق سبحانه : ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ..(٥) ﴾ [الصف] والزيْغ هو الميل ، وهى مأخوذة من تزايُغ الأسنان أى : اختلاف منابتها ، فتجد سِنَّة داخلة وأخرى خارجة . والزيْغ أمر

طارىء على القلوب ، فالفطرة السليمة لا زيْغ فيها ، ولكن الأهواء هى التى تجعل القلوب تزيغ ، ويكون الإنسانُ عارفاً لحكم الله الصحيح فى أمر ما ، لكن هوى الإنسان يغلب فيميل الإنسانُ عن حكم الله .

وبنو إسرائيل كانوا يعلمون علمَ يقين أن موسى هو رسولٌ من عند الله ، ولكنهم زاغوا ومالوا عما عرفوا من الحق . وقد وجد الميل عند قلوبهم أولاً ، ثم بدأ الفكر يخضع للميل ، والعبارة تخضع للفكر وهكذا نرى أن الأصل فى الميل قد جاء منهم .

ولننظر إلى أداء القرآن الكريم حين يقول : ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ .. (٥)﴾ [الصف] كأنه يقول : ما دمتم تُريدون الميْلَ فسأُميلكم أكثر وأساعدكم فيه .

والحق سبحانه لا يبدأ إنساناً بأمر يناقض تكليفه ، لكن الإنسان قد يُميله هواه إلى الزيغ فيتخلى اللهُ عنه ويدفعه إلى هاوية الزيْغ .

ومثل هذا قوله تعالى : ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ (١٢٧)﴾ [التوبة]

إنهم الذين بدأوا ، انصرفوا عن الله فصرف الله قلوبهم بعيداً عن الإيمان ، فالحق لم يعرفهم إلا باختيارهم ، حتى لا يقول أحدٌ إن الله هو مُصرِّف القلوب فما ذنبهم ؟ لا لقد انصرفوا هم باختيارهم لأنهم قوم لا يفقهون أى لا يفهمون .

لذلك يدعو المؤمنون ربَّهم فيقولون : ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا .. (٨)﴾ [آل عمران]

والحق سبحانه لم يترك مسألة الهداية والضلالة هكذا ، فبيَّن مَنْ

يهديه ومَنْ يُضله ، وأىُّ هداية لـلإنسان بعد أنْ كفـر بالله وفسق عن منهجه وأفسد فى البلاد وظلم العباد ؟

وحين يقول الحق سبحانه : ﴿وَاللَّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ۝٥﴾ [الصف] فحـين ينفى الحق سبحـانه الهداية عن إنسـان فليس معنى هذا أنْ يقول الفـاسق : الله لم يَهْدنى فمـاذا أفعل ؟ ويُحمِّل المـسألة كلها لله ، بل نسأل الفاسق : لماذا لم يَهْدِك الله ؟ لأنك فسقْتَ .

إذن : فـعـدم الهـداية من الله لك كـان بسـبب أنك أخـذتَ طريق الفسق والبُـعْد عن منهج الله ، ومن هنا فـالهداية المقـصودة فى هذه الآية ليست هى الهداية بمعنى الـدلالة على طريق الخير ، فالدلالة إلى طريق الخـيـر تأتى من الله للمـؤمن والكافـر ، فمـنهج الله الذى يُبلَّغ للناس كافة يُريهم طريق الخير ويدلُّهم عليه ، ولكن المقصود هنا هو الهداية الأخـرى التى يعطيها الحق لمَنْ دخل فى رحـاب الإيمان وآمن وحَسُن عمله ، وهى ما سميناه هداية المعونة .

إذن : فكلُّ مَنْ مشى فى طريق الإيمان أعـانه الله عليه ، لا نقول أبداً : إن هؤلاء معذورون لأن الله لم يَهْدهم ، لأنه سبحانه قد هداهم ودلَّهم جميعاً على طريق الخير ، ولكنهم هم الذين أخذوا طريق الكفر والظلم والفسوق .

والفسـق هو الخروج عن طاعـة الله وعدم الالتصـاق بمنهج الله ، وأصله من فسقتْ الرطبة أى بَعُدت القشرة عن الثمرة ، فعندما تكون الثـمرة أو البلحـة حمـراء تكون القشـرةُ ملتصـقةً بالثـمرة بحـيث لا تستطيع أنْ تنزعها منها ، فإذا أصـبحتْ الثمرة أو البلحة رطباً تسودّ قشرتها وتبتعد عن الثمرة بحيث تستطيع أنْ تنزعها عنها بسهولة .

هذا هو الفاسق المبتعد عن منهج الله ، ينسلخ عنه بسهولة ويُسْر ، لأنه غير ملتصق به ، وعندما تبتعد عن منهج الله فإنك لا ترتبط بأوامره ونواهيه .

والفسق هو أساس الفساد كله ، لأنهم يبتعدون عن منهج الله ولا يُطبِّقونه رغبةً فى المخالفة وإصراراً على العناد ، وهو سبحانه لا يهدى القوم الكافرين ولا القوم الفاسقين ولا القوم الظالمين .

فمَنْ يُرِدْ أنْ يخرج من هداية الله فليكفر أو يظلم أو يفسق ، ويكون فى هذه الحالة هو الذى اختار ، فحقّ عليه عقابُ الله ، لذلك قال الكافرون من بنى إسرائيل إن الله ختم على قلوبهم فهم لا يهتدون ، ولكنهم هم الذين اختاروا هذا الطريق ومشوا فيه ، فاختاروا عدم الهداية .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾ ﴾

جاءت شخصيات القرآن مُجهَّلة إلا قصة واحدة هى قصة عيسى بن مريم ومريم ابنة عمران ، لماذا ؟ لأنها معجزة لن تتكرر ، ولذلك عرضها الله لنا فقال : (مريم ابنة عمران) ، وقال : (عيسى بن مريم) حتى لا يلتبس الأمرُ وتدعى أىّ امرأة أنها حملتْ بدون رجل مثل مريم .

فمعجزة مريم لن تتكرر ، ولذلك حدَّدها الله تعالى بالاسم فلم يقُل لنا الله تعالى مَنْ هو فرعون موسى ولا مَنْ هم أهل الكهف ، ولا مَنْ هو ذو القرنين ، ولا مَنْ هو صاحب الجنتين ، إلى آخر ما جاء فى القرآن الكريم لأنه ليس المقصود بهذه القصص شخصاً بعينه .

وعيسى عليه السلام إنما أُرسل لبنى إسرائيل ، لذلك قال لهم عيسى : ﴿ يَـٰبَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم ..(٦) ﴾ [الصف] وقد قال تعالى عن عيسى عليه السلام أنه قال : ﴿ وَرَسُولاً إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ .. (٤٩) ﴾ [آل عمران]

فهو جاء مبعوثاً إلى قوم مُعينين هم بنو إسرائيل ، فليستْ رسالتُه عامة لكلِّ البشر ، كما هو الحال فى رسالة محمد ﷺ .

وقد قال تعالى عن هود عليه السلام : ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ..(٦٥) ﴾ [الأعراف] وقال عن أهل مدين[1] ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ..(٨٥) ﴾ [الأعراف]

وهكذا حدد الحق سبحانه زمانَ ومكانَ القوم فى أىِّ رسالة سبقتْ رسالة محمد ﷺ ، فكل رسول إنما يبعثه اللهُ إلى بُقْعة خاصة وإلى أُناسٍ بعينهم وفى زمن خاص ، إلا محمداً ﷺ ، فقد بعثه اللهُ إلى الناس كافة ، فرسالة محمد لها خاصية العمومية ويُعزز هذا قولُ الحق سبحانه لمحمد : ﴿ قُلْ يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ..(١٥٨) ﴾ [الأعراف]

---

(١) مدين : اسم قبيلة واسم مملكة وهى مدينة كانت موجودة فى شمال غرب الجزيرة العربية منطقة البدع حالياً تابعة لمنطقة تبوك شمال غرب السعودية وكان أهلها يعملون بالتجارة . وهى على الناحية المقابلة لمدينة دهب المصرية على البحر الأحمر ولكن وراء مرتفعات .

وكلُّ رسول يأتى مُصدِّقاً لمَنْ قبله من الرسل ولما جاء به ومُبشِّراً بمَنْ يأتى بعده من الرسل ، هكذا كان جميع الرسل إلا محمداً ﷺ ، فقد جاء مُصدِّقاً لمَنْ قبله ولكن لم يُبشِّر برسول يأتى من بعده لأنه خاتم الرسل ، وعيسى عليه السلام إنما جاء مُصدِّقاً لما بين يديه من التوراة ، وكلمة ﴿ مُّصَدِّقًا ..(٦) ﴾ [الصف] تعنى أن ما جاء به عيسى بن مريم مطابقٌ لما جاء فى التوراة .

فـ (ما بين يدى) أى : الذى جاء قبله وصار أمامه ، وقد يسأل سائل : وما دام عيسى بن مريم قد جاء مُصدِّقاً لما بين يديه من التوراة فى زمانه ، وكانت التوراة موجودة ، فلماذا جاءت رسالته إذن ؟

نقول : ليس معنى التصديق أنه لا يأتى بأحكام جديدة ، فقد قال تعالى عن عيسى عليه السلام فى آية أخرى ﴿ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ..(٥٠) ﴾ [آل عمران]

فليس المهم هو التصديق فقط ، ذلك أن عيسى جاء ليُحل بعضاً من الذى حرَّمته التوراة ، ومن الطبيعى أنْ نفهم أنَّ العقائد لا تتغير ولا تتبدل أحكامها ، وكذلك الأخبار والقصص لكن التبديل يشمل بعضاً من الأحكام .

وموكب الرسالات موكب متلاحم متساند متعاضد ، فلا تتصادم دعوةُ أىِّ رسول يأتى مع مَنْ قبله ولا مَنْ بعده ، ما دام مُصدِّقاً لما بين يديه من التوراة .

والتوراة لفظ عبرى صار علَماً على الكتاب الذى أُنزل على موسى عليه السلام ، وهذا لا يقدح فى أنَّ القرآن عربى ، فالقرآن نزل على محمد ﷺ ، وهذه الألفاظ دائرة على لسان العرب ، وإذا تمَّ النطق بها يُفهم معناها .

ومثال هذا فى عصرنا الحديث أننا أدخلنا فى اللغة كلمة (بنك) وتكلمنا بها ، فأصبحت عربيـة تُكتب بحروف عربية ، لأنها تدور على اللسان العربى ، فـمعنى أن القرآنَ عربىٌّ أن الله حينمـا خاطب العربَ خاطبـهم بألفاظ يفهـمونها وهى دائرةٌ على ألسـنتهم وإنْ لم تكُنْ فى أصلها عربية .

لذلك لا داعىَ لأنْ يحاول بعـضُ العلماء أنْ يُوجد أصـلاً أو معنى عربيـاً لمثل هذه الألفاظ ، ويحاول أنْ يعـثر له على وزن من الأوزان العربية ، وأنْ يأتى له بصفة من الصفات العربية .

وإذا كان عيسى بن مـريم مُصدِّقاً لما جاء به مـوسى فإنه أيضاً مبشر برسول يأتى من بعده ، وهذا ما قاله لقومه : ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَـٰبَنِى إِسْرَائِيلَ إِنِّى رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى اسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَآءَهُم بِالْبَيِّنَـٰتِ قَالُوا هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ (٦) ﴾ [الصف]

فاسمه فى الإنـجيل أحمد[1] ، وقد ورد مرة واحدة فى هذه الآية ، ولكنه ورد باسمه مـحمد فى القرآن أربع مـرات . قال تعالى : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ .. (١٤٤) ﴾ [آل عمران] وقال : ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَـٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ

---

(١) جاء فى التـوراة العبرانيـة فى الأصحاح الثـالث من سفر حـبقوق : « وامـتلأت الأرض من تحميد أحمد ، ملك بيمينه رقاب الأمم » . وفى النسخة المطبوعة فى لندن قديماً سنة ١٨٤٨ والأخرى المطبوعة في بيروت سنة ١٨٨٤ والنسخ القديمـة تجد في سفر حبقوق النص فى غاية الصراحة والوضوح « لقد أضاءت السمـاء من بهاء محمد ، امتلأت الأرض من حمده .. زجرك فى الأنهار واحتدام صوتك في البحار ، يا محمد ادن لقد رأتك الجبال فارتاعت » .

اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٤٠) ﴾ [الأحزاب]

وقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ (٢) ﴾ [محمد]

ويقول تعالى : ﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا .. (٢٩) ﴾ [الفتح]

وكلمة (محمد) وكلمة (أحمد) مشتركتان فى أصل المادة ، لأنهما من (الحاء والميم والدال) فالمادة هى الحمد ، إلا أن التوجيه الاشتقاقى فى (محمد) غير التوجيه فى (أحمد) .

فكلمة (محمد) حين ننظر إليها فى الاشتقاق نجد أنها ذاتٌ يقع عليها الحمد من غيرها ، مثلما تقول : فلان مكرّم أى وقع التكريم من الغير عليه ، أما كلمة (أحمد) فنجدها ذاتاً وقع منها الحمد لغيرها .

و (أحمد) تتطابق مع أفعل التفضيل ، فنحن نقول : فلان كريم وفلان أكرم من فلان . إذن : فـ (أحمد) أى وقع منه الحمدُ لغيره كثيراً ، فلو كان الحمد قد وقع منه بقدر محدود لقلنا (حامد) .

إذن : فـ (أحمد) مبالغة فى (حامد) وقع منه الحمد لغيره كثيراً بل أكثر فصار أحمد . و (محمد) مبالغةٌ فى (محمود) ، وقع عليه الحمد من غيره كثيراً فصار محمداً .

إذن : فرسول الله ﷺ جمع له اللهُ بين الأمرين ، فهو محمد من الله وحامد لله ، لأن رسول الله ﷺ جمع اللهُ له بين مقامين : مقام الاصطفاء ، ومقام المجاهدة .

فبالاصطفاء كان (محمداً) و (محموداً) ، وبالمجاهدة كان (حامداً) و (أحمد) . إذن : نحن هنا أمام مقامين اثنين لرسول الله ﷺ ، قال رسول الله : « أنا محمد وأحمد والمقفِّى[1] والحاشر ونبى التوبة ونبى الرحمة »[2] .

والحق سبحانه يقول : ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً (١٥٩) ﴾ [النساء]

فمعنى هذا : ما أحدٌ من أهل الكتاب إلا ويؤمن بعيسى عليه السلام رسولاً وعبداً وبشراً قبل أنْ يموت . وهذا لن يتحقق إلا إذا جاء بشحمه ولحمه ودمه ليقول لهم :

أنتم مُخطئون فى أنكم أنكرتم بشارتى بمحمد الخاتم ، وأنتم مُخطئون فى اتهامكم لأمى ، والدليل على خطئكم هى أننى جئتُ مبشِّراً برسول للناس كافة هو محمد بن عبد الله ، وهأنذا أصلى خلف واحد من أمة ذلك الرسول .

ويقول الحق سبحانه : ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِى يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ ..(١٥٧) ﴾ [الأعراف]

والتعبير القرآنى الدقيق لم يقُلْ : يجدون وَصْفه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل ، إنما يقول الحق : ﴿ الَّذِى يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ ..(١٥٧) ﴾ [الأعراف]

---

(١) المقفى : يقال قفَّى عليه أى ذهب به ، فكأن المعنى أنه آخر الأنبياء فإذا قفَّى فلا نبى بعده ، والمقفى : المتبع للنبيين . [تهذيب اللغة] قاله شمر .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٥٣٢) وكذا مسلم فى صحيحه (٦٢٥١) من حديث جبير ابن مطعم أن النبى ﷺ قال : « أنا محمد وأنا أحمد وأنا الماحى الذى يُمحى بى الكفر وأنا الحاشر الذى يُحشر الناس على عقبى وأنا العاقب » والعاقب الذى ليس بعده نبى .

كأنَّ الذى يقرأ التوراة والإنجيل يمكنه أنْ يرى صورة النبى عليه الصلاة والسلام من دقّة الوصف ، لقد عرفته التوراة وعرفه الإنجيل معرفة مفصَّلة وشاملة .

لقد كان السبب الذى جاء من أجله أهلُ الكتاب إلى يثرب هو ما كانوا يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة أن نبياً سيأتى فى هذا المكان ولا بدّ أنْ يتبعوه .

كالميثاق الذى أخذه الله على النبيين ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ .. (٨١)﴾ [آل عمران] وهذا الميثاق يقضى بأنْ يتولَّى الرسلُ بلاغَ الأمم التى بُعثوا إليها ، وأنْ يبلِّغ أهل الإيمان القادمين من بعدهم بأن هناك رسولاً قادماً من عند الله بالمنهج الكامل .

فالعارفون بالتوراة والإنجيل يعرفون وَصْف رسول الله ﷺ من هذه الكتب : ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤٦)﴾ [البقرة]

وقد سأل عمر بن الخطاب رضى الله عنه عبد الله بن سلام : أكنتم تعرفونه يا ابن سلام ؟ أى أكنتم تعرفون محمداً ﷺ ورسالته وأوصافه ؟

فقال ابن سلام وهو من أحبار اليهود : أعرفه كمعرفتى لابنى ومعرفتى لمحمد أشد ، فلما سألوه : لماذا ؟ قال : لأن ابنى أخاف أنْ تكون امرأتى خانتنى فيه ، أما محمد ﷺ فأوصافه مذكورة بالدقة فى التوراة بحيث لا نخطئه[1] .

---

(١) أخرج الثعلبى من طريق السدى الصغير عن الكلبى عن ابن عباس قال : لما قدم رسول الله ﷺ المدينة قال عمر بن الخطاب لعبد الله بن سلام : قد أنزل الله على نبيه ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ .. (١٤٦)﴾ [البقرة] فكيف يا عبد الله هذه المعرفة ؟ فقال عبد الله بن سلام : يا عمر لقد عرفته حين رأيته كما أعرف ابنى إذا رأيته مع الصبيان وأنا أشد معرفة بمحمد منى بابنى فقال عمر : كيف ذلك ؟ قال : إنه رسول الله حق من الله وقد نعته الله فى كتابنا ولا أدرى ما تصنع النساء . فقال له عمر : وفقك الله يا ابن سلام . أورده السيوطى فى الدر المنثور (٢/٣٢)

إذن : فأهل الكتاب يعرفون رسول الله ويعرفون زمنه ورسالته ، ويعرفون أوصافه معرفة يقينية ، وكان يهودُ المدينة يقولون للكافرين فى يثرب : أطلَّ زمانُ رسول سنؤمن به ونقتلكم قتْل عاد وإرم[1] .

فلما جاء رسول الله كانوا أولَ كافر به ، وأولَ مَنْ حاربه وأنكر نبوته ، واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ[2] عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٨٩) ﴾ [البقرة]

فرسالة محمد ﷺ لم تكُنْ مفاجئة لأهل الكتاب بل كانوا ينتظرونها ، وكانوا يؤكدون أنهم سيؤمنون بها كما تأمرهم بها كتبهم ، ولكنهم رفضوا الإيمان وأنكروا الرسالة عندما جاء زمنها .

لذلك قال الحق سبحانه : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ (٦) ﴾ [الصف] والضمير فى (جاءهم) يعود على مَنْ بشَّر به عيسى عليه السلام وهو أحمد ، أى فلما جاءهم أحمد ، أى لما ظهر أمره ﴿ قَالُوا هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ (٦) ﴾ [الصف]

فهؤلاء المرتابون لم يجدوا حجة يواجهون بها القرآن ، فقالوا ساحر ، وهل للمسحور إرادة مع الساحر ؟ إذا كان ساحراً يسحر

---

(١) ذكر البيهقى فى دلائل النبوة (٧٦/٢) عن عاصم بن عمر بن قتادة قال :حدثنى الأشياخ منا قالوا : لم يكن أحد من العرب أعلم بشأن رسول الله منا كان معنا يهود وكانوا أهل كتاب وكنا أصحاب وثن وكنا إذا بلغنا منهم ما يكرهون قالوا : إن نبياً مبعوثاً الآن قد أظل زمانه نتبعه فنقتلكم قتل عاد وإرم فلما بعث الله عز وجل رسوله اتبعناه وكفروا به ففينا والله وفيهم أنزل الله عز وجل ﴿ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا ..(٨٩) ﴾ [البقرة] ونحوه فى سيرة ابن إسحاق (٦٣/٢)

(٢) يستفتحون : يستنصرون . [زاد المسير لابن الجوزى ٩٧/١) أى يستنصرون بالنبى الآتى على مشركى العرب ، ومعنى الاستفتاح : الاستنصار .

الناس فيدخلوا فى الإسلام ، فلماذا لم يسحركم أنتم ؟

ويبلغ الحق سبحانه رسوله عُتُوّ المتجبرين المنكرين واستكبارهم ، فيقول : ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَـٰذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ (٧) ﴾ [الأنعام]

فرغم أنهم سيلمسونه بأيديهم إلا أنهم سيقولون : ﴿ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ (٧) ﴾ [الأنعام] ومثلُ هذا القول لا ينبع عن عقل أو تدبُّر أو حكمة .

لأن السحر إنما يغير من رؤية الناس للواقع . فكيف يقولون إنه سحر وهم لمسوه بأيديهم وتحقّقوا من أنه واقع ، وما دام رسول الله ﷺ متهماً بالسحر فلماذا لم يسحرهم هم ، ولماذا استعصوا هم بالذات على السِّحر ؟

وتحتمل الآية : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ (٦) ﴾ [الصف] أن المقصود بها عيسى عليه السلام ، فهو جاءهم بالبينات وهى المعجزات الحسية .

﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَـٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الأَكْمَهَ [1] وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَـٰذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ (١١٠) ﴾ [المائدة]

---

(١) الأكمه : الذى وُلد أعمى . [القاموس القويم ٢/١٧٥] والأبرص : البرص مرض جلدى يُحدث بقعاً بيضاء فى الجلد تشوهه وهو من أعراض مرض الجذام الكثيرة ، والأبرص من أصابه داء البرص .

فالله أقدره على أنْ يصنع من الطين كصورة الطير بإذن منه سبحانه ، وأن ينفخ فيه فيصير طيراً بإذنه سبحانه ، وكذلك أقدره الحق سبحانه أنْ يُبرىء الأعمى من العمى ، وأنْ يعيد إلى الأبرص جلده الطبيعى ويشفيه ، وأجرى على يديه تجربة إعادة الموتى إلى الحياة بإذن منه سبحانه .

ولكنهم كفروا بما جاء به عيسى واعتبروا ما جاء به أعمال سحر ليس أكثر ، فإنّ ما كان يفعله مخالفٌ لقوانين الأشياء وهم ملتصقون بالأشياء .

لذلك لم يستوعبوا أن الله عز وجل من الممكن أنْ يُقدر بعض خَلْقه على أعمال قد يختصّ بها الله ، مثل إحياء الموتى وخَلْق الطير من الطين ، وإبراء وشفاء الأكمه والأبرص وغيرهم ؛ فظنَّ بعض من آمنوا بعيسى أنه الله ، ولا يغنى الظن من الحق شيئاً .

يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الْإِسْلَامِ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٧﴾ ﴾

وهذه صيغة سؤال لن تكون إجابته إلا الإقرار ، فلا أحدَ أظلم ممنْ افترى على الله الكذب ، لأنه أولاً ظلم نفسه وظلم أمته ، وأولُ ظلم النفس أنْ يرتضى حياة زائلة وأنْ يترك حياة أبدية ، وأما ظلمه للناس فلأنه سيأخذ أوزارَ ما يفعلون لأنه قد افترى على الله الكذب .

فمعنى ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ .. ﴿٧﴾ ﴾ [الصف] أى لا أحدَ أظلم . والظلم : نَقْل الحق من صاحبه إلى غيره ، والظلم قد يكون كبيراً وعظيماً ،

وهو الظلم فى القمة فى العقيدة ، كما قال سبحانه : ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣)﴾ [لقمان] وقد يكون الظلمُ بسيطاً هيِّناً .

فالذى افترى على الله الكذبَ ، لا أحدَ أظلمُ منه ، لأنه لو افترى على مثله لكان أمره هيِّناً ، لكنه افترى على مَنْ ؟ على الله فكان ظلمه عظيماً .

ومن الحُمقْ أنْ تفترى على الله ، لأنه سبحانه أقوى منك يستطيع أنْ يُدلّل وأنْ يُبرهن على كذبك ويستطيع أنْ يدحرَكَ ، وأنْ يُوقفك عند حدِّك ، فمن اجترأ على هذا النوع من الظلم فإنما ظلم نفسه .

وقلنا : إن الافتراء كذبٌ ، لكنه كذبٌ متعمد ، لأن الإنسان قد يكذب حين يُخبر على مقتضى علمه ، إنما الواقع خلاف ما يعلم .

لذلك عرَّف العلماء الصدق والكذب ، فقالوا : الصدق أنْ يطابق الكلامُ الواقعَ ، والكذبُ أنْ يخالف الكلامُ الواقعَ ، فإنْ خالف كلامى الواقع فالخبر كاذب ، لكن المخبر ليس بكاذب .

ففى قوله : ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ .. (٧)﴾ [الصف] تحذيرٌ واضح ألاَّ يختلق أحدٌ على الله شيئاً لم ينزل به رسولٌ أو كتاب ، فمَنْ يفترى على الله الكذب لا يظلم إلا نفسه .

وحينما تستعرض الأمر فلا تجد أظلم منه ، ولكن كيف يفترى إنسانٌ الكذبَ على الله ؟ كأنْ يبلغ الناس ويدَّعى أنه نبىٌّ ، وهو ليس كذلك ، هنا تكون الفِرْية على الله ، وإياك أنْ تظنَّ أنه يكذب على الناس ، لا إنه يكذب على الله لأنه أبلغ أن الله قد بعثه وهو لم يبعثْه .

وينطبق ذلك على النبوات التى ادُّعيتْ مثل مسيلمة الكذاب وسجاح

وطليحة الأسدى والأسود العنسى[1] ، كل هؤلاء ادعوا النبوة .

ومن هؤلاء مَنْ قال : سأُنزل مثل هذا القرآن ، فإذا به يقول : « والطاحنات طحناً ، والعاجنات عجناً ، والخابزات خَبْزاً » ، ولماذا لم يأت بالمسألة من أولها ويقول : والزارعات زرعاً والحارثات حرثاً . وكان عليه أنْ يُتبعها أيضاً : والآكلات أكلاً والهاضمات هضماً .

وطبعاً هذا الكلام لونٌ من هُراء فارغ ، فالحق إنما أنزل كلامه موزوناً جاذباً لمعانٍ لها قيمتها فى الخبر .

وهم إنما يفترون هذا الكذب ليُضلوا الناس ويصدوهم عن كتاب الله ، مصداقاً لقوله سبحانه : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٤٤) ﴾ [الأنعام] ، فهم يتعمدون الكذب على الله لإضلال الناس .

والكاذب إنما يكذب ليُدلِّس على مَنْ أمامه ، فهل يكذب أحدٌ على مَنْ يعلم الأمورَ على حقيقتها ؟ لا أحدَ بقادر على ذلك ، ومَنْ يكذب على البشر المساوين له يظلمهم ؟ لكن الأظلم منه هو مَنْ يكذب على الله سبحانه .

---

(١) **مسيلمة الكذاب** : هو مسيلمة بن حبيب الحنفى من بنى حنيفة ، من أهل اليمامة . اعتنق الإسلام عام ٩ هجرية ، ثم عاد إلى اليمامة فأعلن النبوة وادعى أن الأمر شركة بينه وبين محمد ﷺ . قتل فى عهد أبى بكر على يد وحشى بن حرب فى معركة اليمامة .

أما **سجاح** فهى بنت الحارث بن سويد ادعت النبوة بعد وفاة النبى ﷺ . كانت نصرانية ممن استجاب لها مالك بن نويرة ، تزوجها مسيلمة بعد أن خليا ببعضهما وقبضت نصف خراج أرضه . أما **طليحة الأسدى** فهو ابن خويلد ، كان من قادة حروب الردة ولكنه ادعى النبوة بعد وفاة النبى ﷺ عام ١١ هجرية ، ولكنه هُزم على يد خالد بن الوليد ، ثم تاب وعاد إلى الإسلام واستشهد فى معركة نهاوند عام ٢١ هجرية . أما **الأسود العنسى** فهو عبهلة بن كعب العنسى من مذحج كان يُلقب بـ (ذى الخمار) كان مشعوذاً يريهم الأعاجيب ، ادعى النبوة بعد عودة رسول الله ﷺ من حجة الوداع مريضاً .

فلا ظلمَ أفدح ولا أسوأ من الذى يفترى الكذب على الله ، وما داموا قد كذبوا على ربِّهم فالمكذوب عليه هو الله ، ولا بد أنْ يطردهم من الرحمة .

ويقول الحق سبحانه : ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم[1] بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ (٦١)﴾ [طه] فقد خسر مَنْ افترى على الله كذباً فهو سيُسحتهم بعذاب . أى : يستأصلهم بعذاب الدنيا قبل عذاب الآخرة .

لذلك يسأل الحق سبحانه وهو أعلم : ﴿وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ..(٦٠)﴾ [يونس] ماذا يظنون موقفهم يوم الحساب ؟ ألا يدرون أن الله مُنزَّه عن الغفلة ؟ فلو ظنُّوا أنه لا توجد آخرة ولن يُوجد حسابٌ فهم يُخطئون الظن .

ولو استحضروا ما أعدَّه الله لهم من العذاب والنَّكال يوم القيامة لما فعلوا ذلك ، وهم فى الحقيقة لا يؤمنون بأن هناك إلهاً سيُحاسبهم على افترائهم على الله .

يقول تعالى : ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى الْكَذِبَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٠٥)﴾ [النحل]

ولا يتصف مؤمنٌ بكذب أبداً ، لذلك لما سُئل رسول الله ﷺ : أيسرق المؤمن ؟ قال : نعم . أيزنى المؤمن ؟ قال : نعم . أيكون

---

(١) يسحتكم : أسحته أباده واستأصله . فيهلككم ويستأصلكم . [القاموس القويم ١/٣٠٤] .

المـؤمن جبـاناً ؟ قـال : نعم . أيكون المـؤمن بخـيلاً ؟ قـال : نعم . أيكون المؤمن كذاباً ؟ قال : لا[١] .

فالصدق هو الخَصْلة التى لا يمكن لمؤمن أنْ يتنحى عنها لأنه لو تنحىَّ عنها ، فهذا يعنى التنحى عن الإيمان ، فـالصدق هو جماع الخير ، وعلى الصدق تدور الحركة النافعـة فى الكون ، أما الكذب فإنما ينشأ عنه الفساد ، فالكذب هو الذى يُخِلّ بحركة الحياة .

فالكذب هو أبعد الصفـات عن المؤمن ، لماذا ؟ قالوا : لأن الكذبَ يخـالف الواقع ويقلب الحقـائق ، والمـؤمن لا يكذب لأنه ينطق بلا إله إلا الله . فإنْ كـان كاذباً ما يُدرينى أنه صـدق فى هذه الكلمة ، فكأن الكذب يهدم الإيمان من أساسه ، فهو لا يُتصوّر من مؤمن .

ورسول الله ﷺ يقـول : « إياكم والكذب ، فإن الكـذب يهدى إلى الفجور ، وإن الفجور يهدى إلى النار ، وما زال الرجلُ يكذب ويتحرَّى الكذب حتى يُكتب عند الله كذاباً »[٢] .

وإذا كان الكذب على الناس بهذه المنـزلة ، فما بالكم بالكذب على الله ؟ ولكن مَن هم الذين يفترون على الله الكذب ؟

من هؤلاء الذين يأخذون التحليل والتحريم مهنةً لهم من دون الله ،

---

(١) أخرجه الإمام مالك فى موطئه (١٧٩٥) عن صـفوان بن سليم مرسلاً أنه قال . قيل لرسول الله ﷺ : أيكون المؤمن جـباناً ؟ فقال : نعم .فقـيل له : أيكون المؤمن بخيـلاً ؟ فقال : نعم . فقيل له : أيكون المؤمن كذاباً ؟ فقال : لا . وأخرجه البيهقى فى شعب الإيمان (٤٤٧٢) من طريق مالك .

(٢) أخرجـه الإمام أحـمد فى مسنده (٤١٠٨) وأبـو داود فى سننه (٤٩٩١) وابن أبى شيـبة فى مصنفه (٢٦١١٢) من حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه .

يقول تعالى : ﴿وَلا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَـٰذَا حَلالٌ وَهَـٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ (١١٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١١٧)﴾ [النحل]

فالحق سبحانه هو وحده صاحب التحليل والتحريم ، فإياك أنْ تُحلِّل شيئاً من عند نفسك ، أو تُحرِّم شيئاً حسْب هواك ، لأن هذا افتراءٌ على الله ، فالتحليل والتحريم إنما يأتى من الله وليس لمخلوق أنْ يُحلِّل أو يُحرِّم .

فالتحليل والتحريم هى سلطة الله ، لذلك عندما دخل عدى بن حاتم[١] على رسول الله ووجد فى عُنق الرجل صليباً من الذهب أو من الفضة قال سيدنا رسول الله ﷺ : « اخلع هذا الوثن »[٢] .

ومن أدب الرجل مع رسول الله خلع الصليب ، فقال ﷺ : « إنكم لتتخذون الأحبار والرهبان أرباباً من دون الله . فقال الرجل : نحن لا نعبدهم . قال له رسول الله : أو لا تطيعونهم فيما حرَّموا وأحلُّوا ؟ قال : نعم . قال : تلك هى عبادتكم إياهم[٣] .

---

(١) عدى بن حاتم بن عبد الله الطائى ، أبو وهب ، أمير صحابى من الأجواد العقلاء كان رئيس طىء فى الجاهلية والإسلام ، كان إسلامه سنة ٩ هجرية وشهد فتح العراق . شهد الجمل وصفين والنهروان مع على . عاش أكثر من مائة عام توفى عام ٦٨ هجرية . [الأعلام للزركلى ٤/ ٢٢٠] .

(٢) أخرجه الترمذى فى سننه (٣٠٩٥) والطبرانى فى المعجم الكبير (١٣٦٧٣) من حديث عدى ابن حاتم رضى الله عنه قال : أتيت النبى ﷺ وفى عنقى صليب من ذهب فقال : ياعدى اطرح عنك هذا الوثن . وسمعته يقرأ فى سورة براءة ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ..(٣١)﴾ [التوبة] قال : أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم ولكنهم كانوا إذا أحلّوا لهم شيئاً استحلوه ، وإذا حرموا عليهم شيئاً حرموه .

(٣) أخرجه الطبرى فى تفسيره (١٦٦٣٢) وأورده القرطبى فى تفسيره وعزاه للترمذى .

ويقول تعالى : ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلالاً قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ (٥٩)﴾ [يونس]

فما دام الحق سبحانه هو الذى أنزل الرزق وبيَّن الحلال والحرام فلماذا تُدخلون أنوفكم فى الحلال والحرام ، وتجعلون بعض الحلال حراماً ، وبعض الحرام أو كل الحرام حلالاً ؟ لماذا لا تتركون التحليل والتحريم لمَنْ خلق ورزق ، وهو سبحانه أدْرَى بمصلحتكم .

﴿قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ .. (٥٩)﴾ [يونس] أى : هل أعطاكم الله سبحانه تفويضاً فى جَعْل الحلال حراماً والحرام حلالاً ؟ ﴿أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ (٥٩)﴾ [يونس] أى : على الله تتعمدون الكذب .

ومن هؤلاء المفترين على الله أولئك الذين قال الله فيهم : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً[1] (٤٩) انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا (٥٠)﴾ [النساء]

فهم يمدحون أنفسهم بالباطل ويُبرئون أنفسهم من العيوب ، ومن هؤلاء مَن ادعوا أنهم أبناء الله وأحباؤه ، وهم ليسوا كذلك .

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ .. (١٨)﴾ [المائدة] فإنْ كنتم أحباءه وأبناءه فلماذا يُعذِّبكم ؟

والتزكية التى فعلوها أنهم مدحوا أنفسهم بالباطل ، ووضعوا

---

(١) فتيلاً : الفتيل ما بين شقى النواة يشبه الخيط وهو يمسك جانبى القطمير . وهو القشرة الرقيقة على النواة ، وكلاهما يُضرب مثلاً للشىء التافه والقليل الذى لا يفيد ولا يغنى ، قال تعالى :﴿وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً (٧٧)﴾ [النساء]

أنفسهم فى منزلة لم يضعهم الله فيها ، ومن الحمق أنْ يُزكِّى الإنسانُ نفسه فى غير المواقف التى يحتاج فيها الأمرُ إلى تزكية .

انظر كيف يفترون على الله الكذب ، فيقولون : ﴿ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ .. (١٨) ﴾ [المائدة] ويقولون : ﴿ وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ .. (١١١) ﴾ [البقرة]

ومن الكذب المبين والافتراء على الله قولهم ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا (٨٨) ﴾ [مريم] وهذا قولٌ قال عنه الله سبحانه : ﴿ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا[1] (٨٩) تَكَادُ السَّمَـٰوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (٩٠) أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَدًا (٩١) وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَـٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا (٩٢) ﴾ [مريم]

فهذا الكلام منهم هو عبثٌ وافتراء على مقام الألوهية ، وهو افتراء كذب ومُسْتقبح ومُسْتنكر وممقوت ، فالله مُنزّه عن الولد وما ينبغى له أنْ يكون له ولد ، فلا يريد الولدَ إلا المحتاجُ إليه الذى يريد امتداداً له ، يراه فى ولده ويساعده فى أعماله ومهامه ، والله ذو القدرة المطلقة مُنزَّه عن كلِّ هذا .

ومن افتراء الكذب على الله الارتداد والعودة إلى ملة الكفر ، لأن معنى الارتداد هو التكذيب بأن الإسلام حَقٌّ ، وأن القرآن حَقٌّ ، وأنه مُوحَى به إلى رسول ونبى حقّ ، وهذا تكذيب لله عز وجل وهو افتراء على الله .

يقول الحق سبحانه فى قصة شعيب عليه السلام : ﴿ قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَـٰشُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا .. (٨٨) ﴾ [الأعراف]

---

(١) إدّاً : الإد : الداهية والأمر الفظيع والكذب الفاحش . قال تعالى :﴿ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (٨٩) ﴾ [مريم] أى منكراً وكذباً فاحشاً . [القاموس القويم ١/١٢]

فكان ردّ شعيب عليهم ﴿قَالَ أَوَ لَوْ كُنَّا كَارِهِينَ (٨٨) قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا .. (٨٩)﴾ [الأعراف]

فهم يعلمون أن العودة إلى مثل هذه الملة لوْنٌ من الكذب المتعمَّد على الله ، فإنك كنتَ عارفاً بالحقيقة ثم قلتَ غيرها ، فهذا افتراءٌ واختلاقٌ وكذب .

والذين آمنوا مع شعيب عليه السلام يعلمون أن الملة القديمة ملّة باطلة ، وهم قد شهدوا مع شعيب حلاوةَ الإيمان بالله ، لذلك رفضوا الكذب المتعمد على الله .

وقد ذكر الحق سبحانه افتراءَ الكذب على الله فى عدة آيات من القرآن ، ولكنه هنا فى آية سورة الصف أضاف لَفْتة لم تَرد فى سائر الآيات ، فقال : ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الإِسْلامِ ..(٧)﴾ [الصف]

ونحن نأخذ قوْل الحق هذا فى سياقه من سورة الصف التى حدثتنا عن مواكب رسالات مُتتالية رؤوسها موسى ثم عيسى ثم خاتم الأنبياء محمد ﷺ .

وكأنَّ الآية تلفت نظرنا إلى أنّ مَنْ افترى على الله الكذب هنا هو أحدُ أتباع موسى من اليهود ، أو أحد أتباع عيسى عليه السلام المُطَالَبين بالإيمان بمحمد ليتحقَّق لهم الإيمان بالله .

لذلك قال : ﴿وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الإِسْلامِ .. (٧)﴾ [الصف] فبدلاً من أنْ يستجيب لمَنْ يدعوه إلى الإسلام تجده يفترى على الله الكذب فتجده يدَّعى أنَّ القرآن ليس وَحْياً من عند الله ، وأنه من تأليف محمد ،

وهى الفِرْية التى ذكرها اللهُ فى قرآنه وردَّ عليها .

قال تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَـٰذَا إِلاَّ إِفْكٌ[1] افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا (٤) ﴾ [الفرقان]

ولهؤلاء نقول : إذا كان محمد وهو بشر قد استطاع أنْ يفترى هذا القرآن ويُؤلفه ، فلماذا لا تفترون مثله ؟ لماذا لا تأتون بمثله ؟

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣٨) ﴾ [يونس]

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٣) ﴾ [هود]

وما دُمتم ترونَ أن افتراءَ مثل هذا القرآن أمرٌ سهلٌ بالنسبة لكم ، فلماذا لا تأتون بمثل القرآن ولو بعشر سُور مثله ؟ وأنتم قد عشْتم مع محمد منذ صِغَره ولم يكُنْ له شعر ولا نثر ولا خطابة ولا علاقة له برياضاتكم اللغوية ، ولم يشترك فى أسواق البلاغة والشعر التى كانت تُعقد فى الجاهلية مثل سوق عكاظ .

وإذا كان مَنْ لا رياضة له على الكلام ولا على البلاغة قد جاء بهذا القرآن فليكُنْ لديكم وأنتم أهلُ قدرة ودُرْبة ورياضة على البلاغة أنْ تأتوا ببعضٍ من مثله ، وإنْ كان قد افترى القرآن ، فلماذا لا تفترون مثله ؟

فلما فشل افتراؤهم على الله كذباً أنه لم يُنزل قرآناً ، وبالتالى لم

---

(١) إفك : الإفك : الكذب . وأفك أى كذب وافترى باطلاً . وأفّاك : صيغة مبالغة أى كثير الكذب . [القاموس القويم ١/٢٢]

يُرسل رسولاً اسمه محمد بدأوا يطعنون فى آيات القرآن وأنها متناقضة مع بعضها البعض .

وقد قال الحق سبحانه : ﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا (٨٢) ﴾ [النساء]

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَاللَّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٧) ﴾ [الصف] فهم ظالمون لأنفسهم وظالمون لله لأنهم افتروا عليه الكذب ، وظالمون لمَنْ كانوا سبباً فى ضلالهم وصدِّهم عن سبيل الله ، وهم لم يكتفوا برفضهم لدعوة الله ، بل أضافوا إلى هذا الافتراء على الله ، لذلك استحقُّوا ألاَّ يهديهم الله .

والهداية هنا ليست هى هداية الإرشاد والبيان والدلالة ، فهذا النوع من الهداية كفله اللهُ لكلِّ خَلْقه .

قال تعالى : ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا (٣) ﴾ [الإنسان] ويقول تعالى : ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (١٠) ﴾ [البلد] أى : هديناه طريق الخير وطريق الشر أى : دللناه عليهما وأوضحنا له طريق الخير من طريق الشر .

ولكن الحق سبحانه يختصُّ مَنْ آمن بهداية المعونة والتوفيق للقيام بمقتضيات المنهج ، كما قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧) ﴾ [محمد]

فالله لا يهدى القوم الظالمين ولكنه يهدى العادلين ، ولا يهدى القوم الفاسقين ولكنه يهدى الطائعين ، ولا يهدى القوم الكافرين لكنه يهدى المؤمنين .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾﴾

فالحق سبحانه يُحدِّثنا عن نور الله الذى يظنُّ الكافرون أن باستطاعتهم إطفاءه ، لقد نسُوا أو تعاموا عن أن نورَ الله سبحانه وتعالى نورٌ شامل عام لا يدع مكاناً مُظلماً إلا أضاءه ، ولا مكاناً يختفى فيه شىء بسبب الظلام .

وإذا كانت التجربة قد أثبتتْ أنَّ نوراً من خَلْق الله وهو الشمس إذا سطعتْ فالجميع يُطفئون مصابيحهم ، فكذلك إذا ما جاء نورُ الهداية من الله سبحانه وتعالى فيجب أنْ تُطفأ بقية الأنوار .

إنه نورُ المنهج الذى يُنير لنا المعنويات ويُنير لنا القيم ، وما دام سبحانه قد أنزل نورَ الهدى منه فلا بدَّ أنْ نُطفىء جميع مصابيح الأفكار القائمة على الهوى ، ونأخذ النور كلّه من منهج الله القويم والصالح لكلِّ زمان ومكان ، كما نأخذ النور فى النهار من شمس الله .

فهل يستطيع أحدٌ إطفاءَ نور الشمس إذا سطعتْ على العالم والدنيا ؟ والجواب : لا أحدَ يستطيع هذا ، كذلك نور الله سبحانه وتعالى لا أحدَ يستطيعُ إطفاءه .

هم يريدون هذا ويشتهونه ، والاشتهاء طلبُ شهوة النفس من غير ارتباط بمنهج ، لكن ما الذى كان يشتهيه الكفار ؟ كانوا يشتهُون أنْ يطمِسُوا دعوة الحق ، فلم يُمكّنهم الله من طمْسها .

وهم يشتهون انطماس الدعوة لتبقى لهم سيادتهم التى نهبوها على حساب الضعفاء ، ولتظلّ لهم المكانة والتصرّف ، كذلك يشتهون انطماس الدعوة حتى لا تقفَ مناهجُ الله عقبةً أمام شهوات نفوسهم .

والحق سبحانه يقول لهؤلاء : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ (٣٦) ﴾ [الأنفال]

فهؤلاء المشركون قد كفروا بالله وصرفوا المال ليصدُّوا عن سبيل الله فلم يتحقق لهم ما أرادوا ولم يأتِ ذلك بأدنى نتيجة .

وكأن الحق سبحانه يُغرى الكافر بأنْ يتمادى فى الإنفاق ضد الإيمان ، فيخسر الكافر ماله ويتجرَّع آلام الحسرة ، لأن الله يغلبه من بعد ذلك ، فهم سيُغلبون مهما بذلوا من جهود ، ومهما صرفوا من أموال .

﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٢) ﴾ [آل عمران] فليستْ المسألة أنَّ أموالهم ستضيع منهم عَبثاً فى محاولة إطفاء نور الله فحسب ، ولكن أيضاً سيُغلبون ويُهزمون ويروْنَ انتشار نور الله وتمامه بأعينهم مما يُسبِّب لهم حسرة وألماً ، ثم تكون عاقبتهم فى الآخرة أنْ يُحشروا ويُجمعوا ويُساقوا إلى جهنم .

وإذا كان الحق سبحانه قد ذكر الذين يريدون ليطفئوا نور الله بمالهم ، فإنه سبحانه فى آية سورة الصف وكذلك فى سورة التوبة ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٣٢) ﴾ [التوبة] ، فقال : (بأفواههم)

فذكر الحق سبحانه هنا وسيلة أخرى من وسائلهم لطمس دعوة

الحق ، وهى (أفـواههم) ، والمقـصود بها مـمارسـة دعوة مـضادة لدعوة رسول الله .

وقد بذل كفـارُ قريش جهداً كـبيراً بأفواههم فى مـحاربة الدعوة إلى الدين الحق ، فاتهموا رسول الله اتهامـات كثيرة ، مرة أنه ساحر ﴿ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَـٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ ﴾ [ص] ، ومرّة أنه مجنون ﴿ وَقَالُوا يَـٰأَيُّهَا الَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ ﴾ [الحجر] ، ومـرة أنه شـاعر ﴿ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَـارِكُوا آلِهَتِـنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الصافات]

فطعنوا فى شخص الرسـول ﷺ وأثاروا حوله الدعايات لمـحاولة صَـرْف الناس عنه ، وقـد ردَّ اللهُ فى قرآنه على افـتـراءاتهم هذه رداً أسكتهم ، حتى أنهم تباحثوا فى هذا الأمر ليتفقوا على رأى واحد فى محمد يقولونه للناس فلا يُكذِّبهم الناس .

فانتهوا إلى أن يقولوا عن محمد ﷺ : إنه ساحر يُفرِّق بين المرء وزَوْجه ، وبين الولد وأبيه[1] .

---

(١) أخرجه أبو نعيم فى دلائل النبـوة (١٧٨) عن سعيد بن جبير أن الوليد بن المـغيرة اجتمع إليه نفر مـن قريش وكان ذا سن فيهم وقـد حضر الموسم فـقال لهم : يا معشـر قريش إنه قد حضر الموسم وإن وفود العرب سـتقدم عليكم فيه وقد سمعوا بأمر صاحبكم هـذا فأجمعوا فيه رأياً واحداً ولاتختـلفوا فيُكذب بعضكم بعـضاً ويرد قولكم بعضـه بعضاً قالوا : فأنـت يا أبا عبد شمس فقل وأقم لنا رأياً نقل به فـقال : بل أنتم فقولوا وأسمع . قالوا نقـول : كاهن . قال : ما هو بكاهن لقد رأينا الكهان فما هى بزمزمة الكاهن ولا سجعه . قالوا فنقول : إنه لمجنون . قال : ما هو بمجنون لقد رأينا الجنون وعـرفناه فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسـته . قالوا : فنقول إنه شـاعر . قال : مـا هو بشاعـر لقد عـرفنا الشـعر كله رجـزه وهزجه وقـريضه ومـقبـوضه ومبـسوطه فمـا هو بالشاعـر . قالوا : فنقـول ساحر . قـال : ما هو بساحـر لقد رأينا السـحار وسحرهم فـما هو بنفثهم ولا عقدهم . قـالوا : فما تقول ياأبا عبد شـمس ؟ قال : والله إن لقوله لحلاوة ، وإن أصله لمـغدق وإن فرعه لجناة . ومـا أنتم بقائلين من هذا شيئـاً إلا عُرف أنه باطل وإن أقرب القـول فيه لأن نقـول ساحر يفـرق بين المرء وأبيه وبـين المرء وأخيـه ، وبين المرء وزوجه ، وبين المرء وعشيرته فتفرقوا عنه بذلك .

ثم إنهم قالوا ﴿ لَوْلا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) ﴾ [الزخرف] لقد أرادوا أنْ يُهوِّنوا من شأن محمد ، وأن هناك مَنْ هو أحقّ منه بأنْ ينزل عليه القرآن ، فأىّ منهما من مكة والطائف أعظم من محمد [(١)] .

ومن محاولة إطفائهم نور الله بأفواههم أنهم طعنوا فى القرآن نفسه ، ورغم أنهم كان عندهم الاستعداد لقبوله لو نزل على عظيم منهم .

فقالوا : ﴿ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (٥) ﴾ [الفرقان] ويقول تعالى : ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَـٰذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ (٣١) ﴾ [الأنفال]

وقد كان من هؤلاء النضر بن الحارث الذى ذهب لفارس ورأى كتاباً هناك يضم أساطير وحكايات وجاء ليقول وسط قريش : هأنذا أقول مثل محمد ، لكن كلامه لم يحمل منهجاً ولم يكُنْ له هدف ، فالأساطير جمع أسطورة أى الحوادث والأحاديث الخرافية مثل ألف ليلة وليلة وكليلة ودمنة ، والإلياذة وغيرها من كتب الأساطير .

ومثلما طعنوا فى شخص الرسول ﷺ وفى الرسالة وهى القرآن طعنوا أيضاً فيمَنْ اتبعوا هذا النور واحتقروهم ، فشابهوا قوْل قوْم نوح له : ﴿ فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَراً مِّثْلَنَا وَمَا

---

(١) عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه سُئل عن قول الله ﴿ لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) ﴾ [الزخرف] ما القريتان ؟ قال : الطائف ومكة . قيل : فمن الرجلان ؟ قال : عروة بن مسعود وخيار قريش ، أورده السيوطى فى الدر المنثور (١٣/٢٠٠) وعزاه لعبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه .

نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا[١] بَادِيَ الرَّأْيِ .. (٢٧) ﴾ [هود]

ولذلك حاول بعضٌ من أهل الكفر أنْ يعرضوا موقفاً وسطاً على رسول الله ﷺ ، فقالوا : إذا نحن جئنا فأقمْهم من عندك لنجلس معك ، فإذا قُمْنا من عندك فاجعلهم يجلسون[٢] .

وقد كان خصومُ الإسلام حينما يروْن الدعوة تنتشر شيئاً فشيئاً كانوا يحاولون إيقافها ، لا من جهتهم بالعدوان على مَنْ يؤمن فحسب ، ولكن أيضاً من جهته ﷺ فأرسلوا إلى رسول الله وفداً فقالوا : ننتهى إلى أمر هو وَسَط بيننا وبينك : دَعْكَ من هؤلاء الفقراء واصرف وجهك عنهم ولا تربط نفسك بهم ووجّه وجهك إلينا .

فأنزل الله ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ .. (٢٨) ﴾ [الكهف]

وعندما نزلت هذه الآية قال ﷺ : « الحمد لله الذى جعل فى أمتى مَنْ أمرنى أن أصبر نفسى معهم »[٣] .

---

(١) أراذلنا : أى أفقرنا وأحقر الناس فى نظرنا . والأرذلون هم أخسُّ الناس . [القاموس القويم ١/٢٦٣]

(٢) أخرج الطبرى فى تفسيره (١٣٢٥٥) عن ابن مسعود قال : مر الملأ من قريش بالنبى ﷺ وعنده صهيب وعمار وبلال وخبّاب ونحوهم من ضعفاء المسلمين فقالوا : يا محمد أرضيت بهؤلاء من قومك ؟ هؤلاء الذين منَّ الله عليهم من بيننا ؟ أنحن نكون تبعاً لهؤلاء ؟ اطردهم عنك . فلعلك إن طردتهم أنْ نتبعك . فنزلت ﴿ وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ .. (٥٢) ﴾ [الأنعام]

(٣) أورده السيوطى فى الدر المنثور (٩/٥٢٢) وعزاه لأبى الشيخ عن سلمان الفارسى قال : قام رسول الله ﷺ يلتمسهم حتى أصابهم فى مؤخر المسجد يذكرون الله وقال : الحمد لله الذى لم يُمتنى حتى أمرنى أن أصبر نفسى مع رجال من أمتى . معكم المحيا والممات .

ومن أعجب ما قالوه بأفواههم لإطفاء نور الله ما قالوه محاولين خداعَ الناس ، وكأنهم على الحق فعلاً ، يقول تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢) ﴾ [الأنفال]

فهم كافرون يستبعدون أن ما جاء به رسول الله ﷺ هو الحق ، ولذلك يتجاسرون ويتحامقون فيطلبون أنْ يُمطر اللهُ عليهم حجارة ، أو يُنزل بهم عذاباً أليماً .

كلُّ هذا يدخل فى أساليبهم ووسائلهم لمحاربة الحق ولصرف الناس عنه ، وهذا قمة التغفيل الدالّ على أنها عصبية مجنونة ، لقد تمنوا الموت والقتل رَمْياً بالحجارة من السماء ، ولم يتمنوا اتباع الحق .

ألم يكُنْ الأجدر بهم أنْ يُعملوا العقل بالتدبر ويقولوا : إنْ كان هذا هو الحق من عندك فاهْدِنا إليه .

لقد أعماهم كفرهم وحقدهم وحسدهم لرسول الله عن أنْ يروا الحق ويتبعوه ، وهذا لفرط حقدهم وضلالهم ، وهذا يكشف لنا تفاهة عقول الكفار .

والحق سبحانه لو استجاب لهؤلاء الذين دعوا على أنفسهم فقالوا : ﴿ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً ..(٣٢) ﴾ [الأنفال] لكانت نهايتهم بجنس ما دعوا به وقضى عليهم ، ثم انتهوا بعد ذلك إلى عذاب الجحيم .

ولكن الحق سبحانه شاء لهم البقاء ليؤمن مَنْ يختار الإيمان ، أما

مَن اختار الكفر فعليه أنْ يتحمّل تبعة الطغيان التى تتمثل فى أنّ الواحد منهم لا يختار الكفر فقط ، بل يتجاوز الحدّ ويطلب ممَّنْ آمن أنْ يرتدَّ عن إيمانه .

﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٨) ﴾ [الصف] ، وقد سُئلنا فى بعض رحلاتنا : القرآن يقول (والله متم نوره) فكيف تمَّ نور الله ومع الإسلام دياناتٌ أخرى كثيرة مازالت موجودة ، وأغلبها أكثر من الإسلام عدداً وقوة ؟

لقد فهم هؤلاء أن معنى (متم نوره) أنْ يصير الناسُ جميعاً مسلمين ، ولو كان الأمرُ كذلك ما قال الله ﴿ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٨) ﴾ [الصف] ، وما قال ﴿ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٩) ﴾ [الصف]

إذن : الحق سبحانه يقرر وجود الشرك والكفر مع الإسلام . والمعنى : أن الله مُتمّ نوره يعنى مع كفرهم ومع شركهم طوال المدة ، إلا أنهم لن يقدروا على إطفاء هذا النور ، فسوف يظل وسوف يتغلب على أحكامهم ويظهر عليها ، بحيث لا يجدون حلاً لأقضيتهم إلا فى هذا النور .

وكوْن الله سبحانه مُتم نوره هو أمر حتميٌّ ، ولذلك قال تعالى فى آية سورة التوبة ﴿ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٣٢) ﴾ [التوبة]

لذلك قال تعالى فى آية أخرى : ﴿ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا .. (٣) ﴾ [المائدة]

لقد تمَّ دين الله ودخل الناسُ إلى الإسلام أفواجاً ، ولن يُنسى القرآن نور الله ، ولن يكتم القرآن أحدٌ ، ولن يُحرِّف القرآنَ أحدٌ ، ولن يحدث للقرآن ما حدث للكتب السابقة من نسيان وكتمان وتحريف .

لقد يئسوا من أنْ يُغلب الإسلام ، بل إن الإسلام سيغلب ، وأرادوا أنْ يُطفئوا نور الله بأفواههم ، ويأبى الله إلا أنْ يُتمَّ نوره ، وقد كمل الدين وجاء على كماله ، وقد أتم الله استمرار النعمة بتمام المنهج .

قال تعالى : ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١١٥)﴾ [الأنعام] وكلمة (تمت) تدل على أن المسألة لها بداية ولها خاتمة ، فما المراد بالكلمة التى تمتْ ؟ أهى كلمة الله العليا بنصر الإسلام وانتهاء الأمر إليه ؟ أو هو تمام الرسالة ؟ أو المقصود بها القرآن ؟

ونرى أن معنى (تمت) استوعبتْ كل أقضية الحياة إلى أنْ تقوم الساعة ، فليس لأحد أنْ يستدرك على ما جاء فى كتاب الله حكماً من الأحكام ، لأن الأحكام غطَّتْ كلَّ الأقضية ، لقد اكتملتْ كلُّ المسائل التى تضمن لنا استقامة الحياة .

ويقول تعالى : ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٨)﴾ [الصف] وهم يكرهون نور الله ومنهجه على كل حال ، وقد أكّد الحق سبحانه هذه الحقيقة فى قرآنه فقال : ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (٩)﴾ [محمد]

كرهُوا منهج الله لأنه سيسحب بساط السيادة والجبروت من تحت أقدامهم ، سيُسوِّى بينهم وبين عبيدهم بعد أنْ ألِفُوا السيادة والمكانة

والتسلّط على الخَلْق ، لذلك كرهوا نور الله الذى جاءهم به رسول الله .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾ ﴾

الحق سبحانه يعطينا حيثيات أن الله مُتم نوره ومُكمله رغم أنف الكافرين ورغم ما يبذلونه ويُنفقونه ويدبرون له ويكيدون ، ذلك أن نور الله أولاً هو الهدى ، وثانياً هو دينُ الحق ، وثالثاً أنه أرسل به رسوله محمداً ﷺ وهو رسوله حقاً .

فكيف ينطفىء نورٌ له هذه العناصر الثلاثة .

أما أنه (الهدى) فالهدى علامات يضعها الخالق سبحانه لنهتدى بها ، لأنه لو تركها للخَلْق ليضعوها لاختلفتْ الأهواء ، والله سبحانه أغنى الأغنياء عن الخَلْق ، ولن ينتفع بأىٍّ شىء من العباد ، أما البشر فلو وضعوا (هدى) فالواضع سينتفع به .

وقد رأينا ذلك رأْي العين ، فالذى يريد أنْ يأخذ مال الأغنياء ويغتنى يخترع المذهب الشيوعى ، والذى يريد أنْ يمتصَّ عرق الغير يضع مذهب الرأسمالية .

والهدى لكى يكون هدى لا بد أنْ يكون مجرداً من الهوى ومن انتفاع مَنْ شرَّع ، ولا بد أنْ يكون واضعُ الهدى عالماً بكل الجزئيات التى قد يأتى بها المستقبل ، وهذا لا يتأتى إلا فى إله عليم حكيم .

لذلك قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ ..(١٢٠) ﴾ [البقرة] وهدى الله طريق واحد ، أما هدى البشر فكلٌّ واحد له هدى ينبع من

هواه ، ومن هنا فإنها طرق متشعبة ومتعددة تُوصِّلك إلى الضلال ، ولكن الهدى الذى يُوصِّل للحق هو هدى واحد ، هدى الله عز وجل .

إن الله يريد أنْ يلفت خَلْقه إلى أنهم إذا أرادوا أنْ يصلوا إلى الهدف الثابت الذى لا يتغير فليأخذوه عن الله ، وإذا أرادوا أنْ يتبعوا الطريق الذى لا توجد فيه أىُّ عقبات أو متغيرات ، فليأخذوا طريقهم عن الله تبارك وتعالى .

إنك إذا أردتَ باقياً فخُذْ من الباقى ، وإذا أردتَ ثابتاً فخُذْ من الثابت ، وإذا أردتَ أنْ تُحقِّق سعادة فى حياتك وأنْ تعيش آمناً مطمئناً فخُذ الهدف عن الله وخُذِ الطريق عن الله ، فإنَّ ذلك يُنجيك من قلق متغيرات الحياة التى تتغير وتتبدَّل ، إنه ينير حياتك كلَّها بفضل نور منهج الله .

وأما أنه (دين الحق) فلأنه يضم تشريعاً من إله خلق الجميع لا يُفرِّق بين أصناف البشر ، والدين الحق لا يخدع أحداً ، وهو يُقنع الناسَ بقوة حجته ، ويجذب قلوبهم بسماحته ، ولأنه دينُ الحق فإنه سينتصر سواء آمنَ الناسُ به أم لم يؤمنوا ، وسبحانه يريد بالمنهج الذى أنزله كلّ الخير والسعادة لعباده .

والدين الحق هو الذى يأتى موافقاً لما ارتضاه الله تعالى لخَلْقه ، والحق هو الشىء الثابت الذى لا يتغير ولا يتناقض ولا يزول ولا يتزحزح أى لا ينتهى ولا يتذبذب ، هذا هو الحق .

فقضية الحق فيما أنزله الله على رسله مُطردة فى منهجه ، فالله حَقّ ، خلق السماوات والأرض وكلّ الكون بالحق ، وأنزل كتابه بالحقِّ ،

كلّه حَقٌّ ، نشأ الكونُ منه بقانون حق ، واستمرت سننُ الله فى الكون بالحق ، وهو دائماً ينصر الحق .

وقد أنزل اللهُ الكتابَ بالحق ، أى أنزله بالقضايا الثابتة التى لا يأتيها الباطل من بين يديها ، فهو ثابت لا ينقضه واقع ، وإنْ ظهر فى بعض الأحيان أن هناك مَنْ طمس الحق وأنّ الباطل تغلَّب عليه فهذا يعنى ظهور المفاسد فيصرخ الناسُ طالبين الحق .

وانتشار المفاسد هو الذى يجعل الناس تستدعى الحقّ وتتحمس له ، لأن الباطل حين يعضّ الناس تجدهم يتجهون إلى الحق ليتمسّكوا به .

لقد نزل القرآن بما هو حَقٌّ من إلهيات وملائكة ونبوات ومعجزات وأحكام وشرائع ، كلُّها حَقٌّ لا شكَّ فيه ، فنزل الحق الثابت من الله بواسطة مَن اصطفاه من الملائكة وهو جبريل على مَنْ اصطفاه من الناس وهو محمد ﷺ ، وفى طَىِّ ما نزل الحق الثابت الذى لا يتغير .

أما ثالث حيثيات أن الله مُتم نوره أنه أرسل محمداً بهذا المنهج ، ورسول الله نفسه نور ، يقول تعالى هنا : ﴿هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ ..(٩)﴾ [الصف] ، فالحق سبحانه أرسل رسوله ليُعدل منهج الغرائز البشرية .

وما دام الله قد أرسل إليكم رسوله بالتكاليف والمنهج فلا بدّ أنْ يكون سبحانه قد كلّف مَنْ هو مؤتمن عليكم ، ولذلك حمّله أمانة إبلاغكم هدى الله ودين الحق الذى ارتضاه الله لكم .

والغاية هى أن يُظهر الإسلامَ على الدين كلِّه ، وليس معنى هذا أنْ لا يوجد يهود أو نصارى أو كافرون ومشركون ، وإنما هو ظهور قوانين ، هو ظهور منهج الله على غيره من المناهج ؛ ظهور حجة

وبرهان ، لا ظهور قهر وتسلط وإذعان .

إن الإسلام سيظهر عليهم - أى يغلبهم - كنظام يُضطرون إليه ليحلّوا مشكلات مجتمعاتهم الكافرة فسيأخذون من أنظمة وقوانين الإسلام وهم كارهون ، ولذلك نجدهم يستقون قوانينهم وإصلاحاتهم الاجتماعية من تعاليم الإسلام . فاطمئنوا يا مَنْ آمنتم بمحمد ﷺ واتخذتم الإسلام ديناً ، إن تجارب الحياة ستأتى لتثبت لدى الجاحدين صدقَ دينكم وصدقَ الله فى تقنينه لكم .

فقد اضطرتهم ظروفُ الحياة وتعقيدات ما عندهم من مناهج أنْ يقننوا إباحة الطلاق فى إيطاليا الكاثوليكية[1] تقنيناً بشرياً لا بتقنين إلهى ، وإنْ كانوا أخذوا ما فى الإسلام فى هذا .

ومثل هذا يبين لنا مدى ثقتنا فى ديننا ، وأن مشكلات البشرية فى بلاد الكفر والشرك لن يحلها إلا الإسلام ، فإنْ لم يأخذوه كدين سيُضطرون إلى أخذه كنظام ليقود إلى سلام المجتمع ، واستقرار وأمن الحياة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ١٠ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١١ ﴾

---

(١) وأيضاً الكنيسة البروتستانتية أباحت الطلاق لأسباب متعددة كالجنون أو المرض المزمن واستحالة العشرة ، وذلك لأن الحياة أجبرتهم على ما قال به الإسلام ، حتى الكنيسة الأرثوذكسية أخذت وقتاً طويلاً بلائحة ١٩٣٨ التى وضعها أقباط وأباحت الطلاق لتسعة أسباب ، وهذا خلافاً لمن تطرف منهم وحظر على الناس رحمة الله وقصره على علة الزنا .

قوله : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴿١٠﴾ ﴾ [الصف] أى : يأيها الذين آمنتم بالله إلهاً ودخلتم معه فى عقد إيمانى ، فيا مَنْ آمنتَ بالله رباً وإلهاً وخالقاً خُذْ عن الله وافعل لأنك آمنتَ بمَنْ أمرك .

فالمعنى : يا مَنْ آمنتم بى بمحض اختياركم وآمنتم بى إلهاً له كلُّ صفات العلم والقدرة والحكمة والقيومية ، ما دُمتم قد آمنتُم بهذا الإله اسمعوا من الإله الأحكام التى يطلبها منكم .

إذن : فهو لم يُناد غيرَ مؤمن ، وإنما نادى مَنْ آمن باختياره وبترجيح عقله .

فإياك أيها المؤمن أنْ تقول : ما علَّة هذا الأمر ؟ أو ما حكمة هذا ؟ فما دُمْتَ آمنتَ بالله فخُذْ أوامره ونواهيه دون مناقشة ، فإبليس كان مؤمناً بالله ولكنه ناقش الأمر وحكمته وردَّه على الآمر سبحانه .

قوله تعالى : ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ ..﴿١٠﴾ ﴾ [الصف] بعد ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا..﴿١٠﴾ ﴾ [الصف] تعطى معنىً عميقاً يُوجب على الخَلْق أنْ يُرهفوا آذانهم له سبحانه ، فالله يسأل المؤمنين إنْ كانوا يريدون من الله أن يدلّهم ، فهل تظن أنهم من الممكن أنْ يرفضوا دلالةَ الله لهم على الخير ؟

وكأنَّ الله وضع ذاته العلية موضعَ الدليل الذى يدل الناسَ فى الصحراء ، فيدلُّهم على الطريق الصحيح الموصِّلة إلى الغاية فيهديهم سواء السبيل ، فالدلالة الخطأ تذهب بك فى طرق أخرى ، وتصل بك إلى غاية لا تريدها ، فما بالك بأنْ الدَّالَّ لك هو الله ؟

فالله عندما يهدى ويدل إنما يدلكم إلى كلِّ نافع لكم ويُجنّبكم كلَّ أمر ضَارٍّ بكم .

والحق سبحانه وتعالى حين يتحدث عن الصفقة الإيمانية يستخدم كلمة التجارة ، وكلمة الشراء وكلمة البيع ، اقرأ قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ (١١١)﴾ [التوبة]

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ .. (١١)﴾ [الصف]

ونعلم أن التجارة هى وساطة بين المنتج والمستهلك ، المنتج يريد أنْ يبيعَ إنتاجه ، والمستهلك محتاج إلى هذا الإنتاج ، والربح عملية تطول فترة وتقصر فترة مع عملية تحرُّك السلعة والإقبال عليها إنْ كان سريعاً أو بطيئاً .

وعملية التجارة استخدمها الله سبحانه وتعالى ليبينَ لنا أنها أقصرُ طريق إلى النفع ، فالتجارة تقوم على يد الإنسان ، يشترى السلعة ويبيعها ، ولكنها مع الله سيأخذ منك بعضاً من حرية نفسك ليعطيك أخلدَ وأوسع منها .

لذلك يقول العارفون بفضل الله : اختر مَنْ يُثمِّن عطاءك ، فأنت عندما تعطى شيئاً لإنسان فهو يُثمِّن هذا الشىء بإمكاناته وقدراته ، سواء بكلمة ثناء يقولها مثلاً أو بغير ذلك ، لكن العطاء لله كيف يُثمنه سبحانه ؟ لا بد أنْ يكون الثمنُ غالياً .

إذن : فالعاقل ينظر لمَنْ سيعطى النعمة ، ولنا الأُسْوة فى سيدنا عثمان رضى الله عنه عندما علم التجار أن هناك تجارة آتية

له ، جاء كل التجار ليشتروا منه البضاعة ثم يبيعوها ليربحوا ، وقال لهم : جاءنى أكثر من ثمنكم ، وفى النهاية قال لهم : أنا بعتُها لله .

إذن : فقد تاجر سيدنا عثمان مع الله ، فرفع من ثمن بضاعته ، وما دام سبحانه هو الذى يشترى فلا بدّ أنْ الثمن كبير ، لأنه يعطى النعيم الذى ليس فيه أغيار ، لذلك فالذى يُرائى الناسَ خاسرٌ ولا يعرف أصول التجارة ، لأنه لم يعرف طعْم التجارة مع الله .

فكلٌّ منّا فى حياته يحب أنْ يعقد صفقة مُربحة بأنْ يعطى شيئاً ويأخذ شيئاً أكبر منه ، ولذلك يقول تعالى : ﴿يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ (٢٩)﴾ [فاطر]

هنا أيضاً تجارة ، وأنت حين تريد أنْ تعقدَ صفقة عليك أنْ تقارن الشىء الذى تُعطيه بالشىء الذى تأخذه ثم افرق بينهما ، ما الذى يجب أنْ يُضحى به فى سبيل الآخر ؟

والله يعاملنا بملحظ النفعية الإنسانية ، واللبق والفطن الذكى هو الذى يتاجر فى الصفقة الرابحة أو المضمونة أو التى تكون جدواها والفائدة منها أكثرَ من سواها ، فالتجارة تعتمد على أنك لا تُقبل على عقد صفقة إلا إذا غلب على ظنِّك أن هذه الصفقة سوف تأتى لك بأكثر مما دفعتَ فيها .

وهكذا عوّدنا ربُّنا تبارك وتعالى حين نُضحِّى بالقليل أنْ يعطينا

الكثير وبلا حدود فضلاً من الله وكرماً ، ألم تَرَ أن الحسنةَ عنده تعالى بعشْر أمثالها وتضاعف إلى سبعمائة ضعف[1]؟ .

أليستْ هذه تجارةً مع الله رابحة ، كما قال سبحانه : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ ﴾ [الصف]
وقال عنها ﴿ يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [فاطر]

والذى يتاجر مع الله لا بد أنْ يكون ذكياً فطناً ، ولا بد أنْ يعرفَ الغاية قبل أنْ يعرف السبيل إلى الغاية ، وآفةُ الدنيا وأهلها أنهم يعيشون فيها ولا يعرفون غاياتهم النهائية ، إنما يعرفون غايتهم الجزئية .

والذكى هو مَنْ لا يذهب للغايات القريبة المنتهية ، بل ينظر إلى الغايات الأخرى ، لأن الناس يختلفون فى الغايات المنتهية ، فواحدٌ يعيش خمسين سنة ، وآخر يعيش ستين عاماً ، وثالث يعيش لمدة سنة .

إذن فلا بد أنْ تنظر إلى الغاية التى سيذهب لها الكل ، وآفة الناس أنهم يعملون للدنيا يعنى للغايات القريبة ، برغم أن (الدنيا) تعنى الأقل والأتفه ، ولذلك اسمها الدنيا ، وما دامت دنيا إذن فهناك عليا .

إننا لا نعرف كم سنحيا فى هذه الحياة الدنيا ، فالحياة مهما

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « كل عمل ابن آدم يضاعف ، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى ما شاء الله يقول الله : إلا الصوم فإنه لى وأنا أجزى به يدع شهوته من أجلى ، للصائم فرحتان فرحة عند فطره وفرحة عند لقاء ربه » أخرجه ابن ماجه فى سننه (١٦٣٨) .

طالتْ ذاهبةٌ ، أما حياةُ الآخرة فمتيقنة لا أجلَ لها ، إنها دائمة ونعلم أنّ نعيم الدنيا بالنسبة للإنسان هو على قدر الأسباب الموجودة لديه .

أما نعيم الآخرة فهو على قدر طلاقة قدرة المسبِّب وهو الله ، وعلى هذا تكون خسارة الذين كفروا كبيرة وفادحة ودامية لأنهم لم يتاجروا مع الله .

يقول تعالى : ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَـٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا .. (٣١)﴾ [الأنعام]

أما التجارة فهى تُحقِّق لكم النفع الأبدى ، وأعظم النفع الأبدى هو قوله تعالى : ﴿تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠)﴾ [الصف] ويقول الحق تعالى ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦١)﴾ [الزمر]

فالله يُنجِّى المؤمنين من عذاب مؤلم مهين لمن لم يؤمن بل كذَّب وتولّى ، فالفوز الأكبر هو أنْ ينجو من النار ، يقول تعالى : ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ .. (١٨٥)﴾ [آل عمران]

ولم يقُل سبحانه : ومن أدخل الجنة فقد فاز ، لأن مجرد أنْ تُزحزح عن النار فوزٌ عظيم ، فأُولى درجات الفوز أنْ يُزحزح الإنسانُ عن النار ولو إلى الأعراف ، وهذا فوز عظيم يكفى أنك تمرُّ على الصراط المضروب فوق النار[1] ، وترى ما فيها من ألوان العذاب ، ثم

---

(١) عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « يضرب الصراط بين ظهرانى جهنم فأكون أول من يجوز من الرسل بأمته ولا يتكلم يومئذ الرسل وكلام الرسل يومئذ : اللهم سلم سلم . وفى جهنم كلاليب مثل شوك السعدان هل رأيتم شوك السعدان ؟ قالوا : نعم يارسول الله . قال : فإنها مثل شوك السعدان غير أنه لا يعلم قدر عظمها إلا الله عز وجل » أخرجه البيهقى فى الأسماء والصفات (٢/١٨٤) وابن منده فى كتاب الإيمان (٢/٤١٨)وابن أبى عاصم فى السنة (٣٨٧) .

بعد ذلك تنجو من هذا الهول كله .

يكفى ذلك ليكون فوزاً عظيماً لأن الكافر فى هذه اللحظة يتمنى لو كان تراباً حتى لا يدخلَ النار ، فمرورُ المؤمن فوق الصراط ورؤيته للنار نعمة لأنه يُحسُّ بما نجا منه ويعاين الأهوال التى عافاه الله منها ، بفضل الإيمان ورحمة الرحمن ؛ نجا ﴿ مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) ﴾ [الصف] وكلمة (عذاب) تعنى إيلامَ حىٍّ يُحسُّ بالألم . والعذاب هو للحىّ الذى يظل متألماً ، أما القتل فهو ينهى النفس الواعية وهذا ليس بعذاب ، بل العذاب أنْ يبقى الشخصُ حياً حتى يتألم ويشعر بالعذاب .

وقول الحق سبحانه : ﴿ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) ﴾ [الصف] يلفتنا إلى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ[٢] بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا (٥٦) ﴾ [النساء]

وهو عذاب أليم لا يُطاق لأنه يأخذ قوته من قوة فاعله ، فإذا كان الحدثُ التعذيبى منسوباً إلى الله وله مطلق القوة والقدرة ، فكيف يكون عذابه ؟ وكيف يكون إيلامه ؟

والعذاب من الله يُوصف مرة بأنه عظيم ، ومرة أخرى يُوصف بأنه مهين ، وثالثة يُوصف بأنه أليم ، والسبب هو أن الوصف يختلف باختلاف المعذّبين ، وسيأخذ كلُّ مسىء وعاصٍ وكافر من العذاب ما يناسبه .

---

(١) أصلاه الله النار : أدخله إياها ومنه قوله تعالى ﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (٢٦) ﴾ [المدثر] أى سأدخله النار ، ويصلى النار : يقاسى حرّها ولهيبها . [القاموس القويم ١/٣٨٢] .

(٢) نضجت جلودهم : احترقت جلودهم . فالله تعالى يجدد لهم جلودهم غير الجلود التى احترقت . (أحكام القرآن للجصّاص ٣/١٧٢) . وفى البحر المديد (٣/٨٦) : لانت واحترقت .

فهناك إنسانٌ يحتمل العذاب ولا يحتمل الإهانة ، وهناك إنسانٌ يحتمل الإهانة ولا يحتمل الألم ، فكأن كلَّ واحد من الناس سيأتيه العذاب الذى يُتعبه ، فإنْ كان لا يتعبه إلا العذاب العظيم جاءه ، وإنْ كان لا يتعبها إلا الإهانة جاءتْه ، وإنْ كان لا يتعبه إلا الألم جاءه .

لذلك يخاطب اللهُ الذين آمنوا به فيقول : ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠)﴾ [الصف] الله يريد النجاة لعباده من العذاب ، لذلك يقول الله تعالى : ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا (١٤٧)﴾ [النساء]

فإنْ تشكروا وتؤمنوا فلن يفعل اللهُ بعذابكم شيئاً أى : فقد أبعدتم أنفسكم عن استحقاق العذاب .

ثم يُحدِّد الحقّ سبحانه عناصر هذه التجارة مع الله التى تُنجى المؤمنين بالله من هذا العذاب الأليم :

﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١١)﴾ [الصف]

فأول ما يطلبه اللهُ من الذين آمنوا أنْ يؤمنوا بالله ورسوله ، وقد يسأل سائل : كيف يطالب مَنْ آمن بأنْ يؤمن ؟ نقول : إنْ أردنا أنْ نفهم أن الخطاب للمؤمنين عامة بأنْ يؤمنوا فهذا طلبٌ للارتقاء بمزيد من الإيمان .

فالحقّ سبحانه يخاطبكم بلفظ الإيمان ويريد أنْ يتصلَ إيمانكم بعد كلامه الحقِّ مع إيمانكم قبل كلامه ، فلا ينقطع ولا ينفصم خيْطُ

الإيمان أبداً ، بل لا بدّ من المداومة على الإيمان ، وألاّ يترك مؤمنٌ هذا الشرف ، فإنْ كان واحد منكم متصفاً بوصف ثم طُلِب منه نفس الوصف الذى هو فيه فليعلم أن المراد هو المداومة .

والحق سبحانه يخاطب هنا كلّ مَنْ آمن بالله ، ويدخل فيهم فى سورة الصف أهل الكتاب الذين ذكرهم الله هنا مُمثلين فى موسى وعيسى عليهما السلام .

فالإنسان إنْ آمن بالله فقط ، فهذا يقتضى أنْ يبحث المؤمن بالله عن مطلوب الله ، ومطلوب الله إنما جاء به رسول ، لذلك فالإيمان بالله يقتضى أنْ يؤمن الإنسانُ برسول ، لأن قصارى ما يُعطيك العقل أيها الإنسان أنْ تؤمن بأن وراء الكون إلهاً خلقه ويُدبره .

ولكن ما اسم هذا الإله ؟ لا يعرف الإنسانُ ذلك إلا عن طريق الرسول ، إن هذه أمورٌ لا تُعرف بالعقل ، ولكن لا بدّ من الإخبار بها ، وكذلك مطلوبات الله ، وكذلك جزاء المؤمنين على حُسْن إيمانهم ، ولذلك لا بدّ من مجىء رسول للبلاغ .

إذن : فلا بدّ مع الإيمان بالله أنْ تؤمن بالرسول ، وما دُمْتَ أيها المؤمن قد آمنتَ برسوله فلا بدّ أنْ تؤمن بالكتب التى جاءتْ على لسان الرسول .

وهذه الكتب تقول لك : إنَّ هناك خَلْقاً لله لا تراهم وهم الملائكة ، والملَك يأتى بالوحى وينزل به على الرسول ، على الرغم من أنك لم تَرَ الملَك فأنت تؤمن بوجوده .

إذن : فالقمة الإيمانية هى أنْ تؤمنَ بالله ، ولازمها أنْ تؤمنَ

برسول الله ، وأنْ تؤمنَ بكتاب مع الرسول ، وهذا الأمر بالإيمان مطلوبٌ من أهل الكتاب لأنهم آمنوا برسلهم ، ويطلب منهم أنْ يؤمنوا برسول الله وبما أُنزل عليه .

ولذلك فإن كلَّ طلب لموجود هو طلبٌ لاستمرار هذا الموجود ، وهو يطلب منهم الالتزام بمواصفات الإيمان على مَرِّ الأزمان ، بحيث تستقر العقيدة فى القلب فلا تطفو للذهن لتُناقش من جديد ونُسمِّى ذلك عقيدة . أى : أمراً معقوداً فى القلب .

فكأنَّ الحق سبحانه يقول للمؤمن : أنت آمنتَ قبل أنْ أُناديك ، وبسِرِّ الإيمان ناديتُك فحافظ على هذا الإيمان دائماً ، وجدِّد دائماً إيمانك لأننى ناديتُك بوصْف الإيمان الذى عرفتُه فيك .

والحق سبحانه يطلب الإيمان ممنْ آمن ليصبح عقيدة لا تتزلزل يمهد للمطلوب ليكونَ المؤمنُ متاجراً مع الله ، وهو الجهاد فى سبيل الله بالأموال والأنفس ﴿ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ .. (١١) ﴾ [الصف]

والآية تربط بين الإيمان بالله والجهاد فى سبيل الله ، فالجهاد فى سبيل الله ضمانٌ للمؤمن أنْ يظلَّ المنهج الذى آمن به موصولاً إلى أنْ تقوم الساعة ، وذلك لا يتأتَّى إلا بإشاعة المنهج فى العالم كلِّه .

والنفس المؤمنة إذا وقفتْ نفسها على أنْ تجاهد فى سبيل الله كان عندها شىء من الإيثار الإيمانى وتعرف أنها أخذتْ خيرْ الإيمان وتحب أنْ تُوصِّله إلى غيرها ، ولا تقبل أن تأخذَ خيرْ الإيمان وتحرم منه المعاصرين لها فى غير ديار الإسلام ، وتحرص على أنْ يكون العالمُ كله مؤمناً .

وإذا نظرنا إلى هذه المسألة نجدها تُمثِّل الفهم العميق لمعنى الحياة ، فالناس إذا كانوا أخياراً استفاد الإنسان من خيرهم كله ، وإذا كانوا أشراراً يناله من شرِّهم شيءٌ .

ولنعلم أنّ حركة الحياة كلها جهاد ، وإياك أنْ تقصر فكرة الجهاد عندك على ساحة المعركة ، فقوله ﴿وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ .. (١١)﴾ [الصف] نأخذه على أنه جهادٌ فى سبيل منهج الله ، وندرس هذا المنهج ونفهمه وبعد ذلك نجاهد فيه باللسان وبالسِّنان ، ونجاهد فيه بالكتاب ، ونجاهد فيه بالكتيبة .

فقوله سبحانه ﴿وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ .. (١١)﴾ [الصف] يصنع أمة إيمانية مُتحضرة .

وكلمة الجهاد فى سبيل الله تُخصص لوْناً من الجهاد ، فالإنسان قد يجاهد حميةً أو دفاعاً عن جنسيته ، أو أى انتماء آخر ، وكل هذه الانتماءات فى عُرْف الدين لا قيمةَ لها إلا إذا نبعتْ من الانتماء إلى منهج الله لتكون كلمة الله هى العليا .

وقد شرع اللهُ القتالَ والجهاد لأمة محمد لا ليفرض به ديناً ، ولكن ليحمى اختيارك فى أنْ تختار الدين الذى ترتضيه ، وهو يمنع سدود الطغيان التى تحول دونك ودون أنْ تكون حُراً مختاراً فى أنْ تقبل التكاليف .

وهنا قد يثور تساؤل : إذا كان الأمرُ كذلك فلماذا كانت حروب المسلمين ؟ نقول : إن حروبَ الإسلام كانت لمواجهة الذين يفرضون العقائد الباطلة على غيرهم ، وجاء الإسلام ليقول لهؤلاء : ارفعوا أيديكم عن الناس واجعلوهم أحراراً فى أنْ يختاروا الدين المناسب .

حتى عندما فرض الجزية لم يفرضها لمجرد جباية الأموال ، بل فرضها ليعطيه الفرصة لأنْ يبحث ما هو عليه فى حرية ، فلو كان الإسلامُ يُكره الناس على اعتناقه لما كان هناك مَنْ نأخذ عليه جزية .

لذلك كان الجهاد فى الإسلام (فى سبيل الله) فلا بد أنْ تكون نية القتال فى سبيل الله ، لا أنْ تكون بنية الاستعلاء والجبروت والطغيان ، فلا قتال من أجل المال أو لضمان سوق اقتصادى وإنما القتال لإعلاء كلمة الله[1] .

والجهاد يكون بالأموال أى إنفاقها فى سبيل الله ، أو ببذْل الأنفس والأرواح ، وكلاهما صَعْبٌ على النفوس التى لم تخالط قلوبها حلاوةُ الإيمان وحقيقتُه ، لذلك كان خطابُ الله ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ..(١٠) ﴾ [الصف] ثم قال ﴿ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ .. (١١) ﴾ [الصف]

ثم يأتى محكّ الاختبار وميدانه ومجاله ﴿ وَتُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ..(١١) ﴾ [الصف] والمال على الحقيقة ليس مالك ، وإنما أنت مُسْتخلَفٌ فيه منتفعٌ به فقط ، كذلك الأنفس على الحقيقة هى موهوبةٌ لنا من الله ، فلا نضن بها فى طريق الحق سبحانه .

لذلك قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِى بَايَعْتُم

---

(١) عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال : سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياء أى ذلك فى سبيل الله ؟ فقال رسول الله ﷺ : من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٨١٠ ، ٣١٢٦ ، ٧٤٥٨) وكذا مسلم فى صحيحه (٥٠٢٩ ، ٥٠٣١) .

بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١١) ﴾ [التوبة]

وكلمة (اشترى) تدل على أن هناك صفقة ، عملية بيع وشراء ، أى تجارة ، وإنْ كان هذا ملكاً لله فالله هو المشترى والله هو البائع .

وحين يقول الحق سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم ..(١١١) ﴾ [التوبة] فقد يفهم أحدٌ أن النفس سوف تضيع ، وأن الأموال سوف تُنفق ، وهذا قد يُقبض النفس فهذا فيه الموت وخسارة للمال ، وكان من الطبيعى أنْ يشحبَ وجه الإنسان ويفزع ويخاف .

ولكن ساعة يقول الحق سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ ..(١١١) ﴾ [التوبة] تجد بشرة المؤمن تطفح بالسرور والبشْر ويحدث له تهلُّل وإشراق ، مع أنه هنا سيأخذ نفسه ، ولكن المؤمن يعرف أنه سبحانه سيأخذ نفسه ليعطيه الحياة الخالدة .

إذن قضايا الإيمان كلها هكذا لا يجب أنْ تصيبنا بالخوف ، بل علينا أنْ نستقبلها بالبشْر والاستبشار ، ولذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ فَاسْتَبْشِرُوا .. (١١١) ﴾ [التوبة] أى : فليظهر أثرُ ذلك على بشرتكم إشراقاً وسروراً وانبساطاً .

ولتعلموا أن ﴿ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) ﴾ [الصف] فالإيمان بالله ورسوله والجهاد فى سبيل الله بالمال والنفس خيرٌ لكم من الدنيا وما فيها ، وخيرٌ لكم مما تجمعون .

وكلمة (خير) هنا تشمل خيراً فى الدنيا وخيراً فى الآخرة ، والله يُضاعف للمؤمنين الخير ليكون خيراً دائماً فى الدنيا والآخرة .

وقول﴿ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [الصف] أى : إنْ كنتم تتيقنون من قضية نسبية واقعة معتقدة تستطيعون أنْ تُدللوا عليها ، فكأن هناك مقدِّماتٍ للعلم فإنْ لم يكونوا يعلمون فالله يعلمهم .

ذلك أن المجاهد الذى يجاهد بماله ونفسه يكون قد اقتنع بيقين أنه سوف يحصل من الجهاد على ما هو خير من المال والنفس .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ ﴾

فأول ما يُثاب به الشهيد هو مغفرةُ ذنوبه عند أول دفقة من دمه الزكىِّ ، كأنْ لم تكُنْ له ذنوبٌ اقترفها .

فالإنسان إذا ما قُتل فى سبيل الله ذهب إلى حياة أفضل وإلى عيش خيْر من عيشه ، هذا يثابه الشهيد ، ولذلك فالحقُّ سبحانه عندما تأتيهم غرغرة الشهادة يُريهم ما هم مُقبلون عليه ، فيتلفظون بألفاظ يسمعها مَنْ لم يُقبل على الشهادة .

فهناك مَنْ يقول : هُبّى يا رياح الجنة[1] ، ويقول كلمة يتبين منها أنه ينظر إلى الجنة كى يُسمع مَنْ خلفه .

---

(١) ورد هذا القول عن عدة من صحابة رسول الله ﷺ ، ومنها ما ورد عن خالد بن الوليد فى غزوة مؤتة أنه قال : الله أكبر هُبى رياح الجنة .. الله أكبر هُبىّ رياح الجنة . ومنها ما ورد عن أنس بن النضير عندما قال لسعد بن معاذ : أى سعد والذى نفسى بيده إنى لأجد ريح الجنة دون أُحد . (الكشف والبيان للنيسابورى ٨/٢٣)

لذلك فى غزوة بدر لما سمع الصحابىُّ كلام رسول الله ﷺ عن أجر الشهيد، وكان فى فمه تمرة يمصُّها فقال: يا رسول الله أليس بينى وبين الجنة إلا أنْ أُقتل فى سبيل الله؟ قال: نعم. فألقى التمرة من فمه وخرج لتوّه إلى الجهاد، لأنه واثقٌ تمام الثقة أنَّ ما سيذهب إليه بالشهادة خير مما ترك[1].

لقد تيقَّن أنه ليس بينه وبين الجنة إلا أنْ يُقتل فى سبيل الله، وكان فى يده تمرات يأكلها فألقاها، ورأى أنَّ مدة شغله بمضغها طويلة، لأنها تحول بينه وبين هذه الغاية، ألقاها وأسرع إلى الجهاد لينالَ الشهادة، لماذا؟

لأنه مقارنةٌ بين متاع الدنيا ومتاع الآخرة، فالعاقل لو قارن بين متاع الدنيا ومتاع الآخرة لاختار الآخرة.

ويقول الحق سبحانه: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ[2] كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (١٤٦) وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (١٤٧) فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٤٨) ﴾ [آل عمران]

لقد أصاب المقاتلين مع النبى شيءٌ فلم يضعُفوا ولكنهم صبروا وطلبوا من الحق أنْ يغفر لهم ذنوبهم، لقد عرفوا مصادر ضعفهم واستعانوا بالله على هذا الضعف، فماذا فعل الله لهم؟

نصرهم سبحانه بأن آتاهم ثواب الدنيا وحُسْن ثواب الآخرة والله يحبُّ

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٤٣) كتاب الجهاد – باب ثبوت الجنة للشهيد وكذا البخارى فى صحيحه (٤٠٤٦) من حديث جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال قال رجل للنبى ﷺ يوم أحد: أرأيت إن قُتلت فأين أنا؟ قال: فى الجنة فألقى تمرات فى يده ثم قاتل حتى قتل.

(٢) ربيون: الرِّبيُّ: العالم التقى الصابر. والربىّ من ربيته وهم هنا من ربّاهم النبى فقاتلوا معه وناصروه. [القاموس القويم ١/٢٥١].

المحسنين ، وكلّ ذلك السلوك الإيمانى الذى يقى من الهزيمة وكيد العدو ، هو من تقوى الله ، حتى يظلّ المؤمنون فى معية الله ، وعندما يكون المسلم فى معية الله لا يجرؤ خَلْق من خَلْق الله أنْ ينال منه .

لقد بذل المؤمنُ حياته ونفسه وماله لله سبحانه وتنازل عن كلِّ ما يحبه فى دنياه ووفد على الله سبحانه ، والله كريم يكرم الوافدين عليه سبحانه ، وأول إكرامه سبحانه أنْ يغفر لهم ذنوبهم ويسقط عنهم تبعاتهم ويُعفيهم من إيقاع العقاب بهم على ارتكابها .

إنه سبحانه يغفر لهم الذنوب التى ارتكبوها فى حق الله ، أما الذنوب التى ارتكبوها فى حق الآخرين فتبقى معلَّقة إلى أن يسامحهم مَن ارتكبوها فى حقِّهم ويستعفيهم الحق سبحانه يوم القيامة(١) .

وأيضاً لا يغفر الله الدَّيْن ، فعن أبى قتادة أن رجلاً قال : يا رسول الله أرأيتَ إنْ قُتلْتُ فى سبيل الله تكفّر عنى خطاياى . فقال له رسول الله ﷺ : نعم إنْ قُتلْتَ فى سبيل الله وأنت صابرٌ مُحتسبٌ مُقبلٌ غيرْ مُدْبر . ثم قال رسول الله : كيف قلت ؟ قال : أرأيت إنْ قتلت فى سبيل الله أتُكفر عنى خطاياى فقال رسول

---

(١) عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : بينا رسول الله ﷺ جالس إذ رأيناه ضحك حتى بدت ثناياه فقال له عمر : ما أضحكك يا رسول الله بأبى أنت وأمى ؟ فقال ﷺ : رجلان جثيا من أمتى بين يدى رب العزة تبارك وتعالى فقال أحدهما : يا رب خذ لى مظلمتى من أخى . قال الله عز وجل : أعط أخاك مظلمته . قال : يا رب لم يبق من حسناتى شيء ، قال : رب فليحمل عنى من أوزارى قال : وفاضت عينا رسول الله ﷺ بالبكاء ، ثم قال : إن ذلك ليوم عظيم يحتاج الناس فيه إلى أن يحمل عنهم من أوزارهم فقال الله تبارك وتعالى للطالب : ارفع بصرك فانظر فى الجنان ، فرفع رأسه فقال : أى رب أرى مدائن من فضة وقصوراً من ذهب مكللة باللؤلؤ لأىِّ نبى هذا؟ لأى صدِّيق هذا ؟ لأى شهيد هذا ؟ قال : هذا لمن أعطى الثمن . قال : يا رب ومن يملك ذلك ؟ قال جل وعلا : أنت تملكه . قال : بماذا يا رب؟ قال : تعفو عن أخيك . قال : يا رب فإنى قد عفوت عنه . قال الله تعالى : خذ بيد أخيك . فأدخله الجنة . ثم قال رسول الله ﷺ عند ذلك : فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم فإن الله يصلح بين المؤمنين .
[المطالب العالية لابن حجر ٥/٤٦] .

الله : نعم وأنت صابر محتسب مقبل غير مدبر إلا الدَّيْن ، فإن جبريل عليه السلام قال لى ذلك[١] .

فالديْن حقٌّ يتعلق بحقوق الناس ، والله لا يضيع حقوق الناس ولا يجيز هذا ، إنْ كان رَضى على مَنْ قُتل فى سبيل الله ، فما ذنب مَنْ له حَقٌّ عنده ؟

الله حكيم عادل لا يظلم أحداً ، ولا يجيز أكْلَ أموال الناس بالباطل ، وإنْ كان بالموت فى سبيله سبحانه .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ..(١٢)﴾ [الصف]

والحق تبارك وتعالى يُبشِّر المجاهدين فى سبيله والشهداء منهم بجنات تجرى من تحتها الأنهار ، والجنات جمع جنة ، وهى جمع لأنها كثيرة ومتنوعة ، وهناك درجاتٌ فى كلِّ جنة أكثر من الدنيا .

فالجنات نفسها متنوعة ، فهناك جناتُ الفردوس ، وجنات عدن ، وجنات النعيم ، وهناك دار الخلد ، ودار السلام وجنة المأوى وهناك عليّون الذى هو أعلى وأفضل الجنات ، وأعلى ما فيها التمتع برؤية الحق تبارك وتعالى .

لقد هيّأ الله للمؤمنين به المقاتلين فى سبيل نُصْرة دينه وإعلاء كلمته جنات تتخللها الأنهار ، وذلك هو الفوز والنجاح الكبير ، والجنات معناها البساتين التى فيها أشجار وفيها ثمار وكلّ ما تشتهى الأنفس .

والجنة فى أصل اللغة هى الستر ، والجنة تستر مَنْ فيها من أشجار كثيرة

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١١٧) (١٥٠١/٣) باب من قتل فى سبيل الله كفرت خطاياه (٣٢) والنسائى فى السنن الكبرى (٤٣٦٥) والترمذى فى سننه (١٧١٢) وقال : حديث حسن صحيح .. وأحمد فى مسنده (٢٢٦٣٨) من حديث أبى قتادة .

بحيث مَنْ يمشى فيها لا يظهر لأنّ أشجارها تستره ، أو أنْ مَنْ يدخلها يجلس فيها ولا يراه أحد ، لأن كلَّ خير فيها لا يُلجئه أنْ يخرج منها .

والجنة – ولله المثل الأعلى – هى الحديقة الواسعة ، وهذا الاتساع مُوزَّع على كلِّ مرأى العيْن .

والحق سبحانه يصف الجنات هنا أنها ﴿تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ (١٢)﴾ [الصف] ووصفها سبحانه فى آية أخرى ﴿ جَنَّاتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ (١٠٠) ﴾ [التوبة] ، فما الفرق بين الاثنين ؟

إن ﴿ جَنَّاتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ (١٠٠) ﴾ [التوبة] تعنى أن الماء ينبع من مكان بعيد وهو يمرُّ ويجرى تحتها ، أما قوله تعالى : ﴿تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ (١٢) ﴾ [الصف] فكأنَّ الأنهار تنبع من تحتها ، حتى لا يخاف إنسانٌ من أن الماء الذى يأتى من بعيد يُقطع عنه أو يجفّ ، وهذه زيادة لاطمئنان المؤمنين أن نعيم الجنة باقٍ وخالد .

فلا يظن أحدٌ أن هناك مَنْ يستطيع أنْ يسدَّ عنك المياه من أعلى ، إنها أنهارٌ ذاتية ، تنبع من تحتها مباشرة لا تنقطع أبداً .

والفارق بين أنهار الدنيا وأنهار الجنة أن أنهار الدنيا عبارة عن شقوق فى الأرض لها شواطيء تحتضنها ، أما أنهار الآخرة فهى تسير على الأرض دون شواطيء تحجزها .

ونجد أنهار الخمر تسير أيضاً فى الأرض ولا تتداخل مع أنهار الماء ، وكذلك أنهار اللبن ، وكلّ ذلك من صنعة رَبٍّ حكيم قادر .

ويصف الحق سبحانه أنهار الجنة، فيقول تعالى : ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِى وُعِدَ

الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ[١] وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ .. (١٥) ﴾ [محمد]

ولا يقتصر ثوابُ المجاهدين على مغفرة ذنوبهم ، أو إدخالهم الجنات التى تجرى من تحتها الأنهار ، بل أيضاً قد أعدَّ الله لهم ﴿ مَسَاكِنَ طَيِّبَةً .. (٧٢) ﴾ [التوبة] فالجناتُ ليست هى المساكن ، بل فى تلك الجنات مساكن ، بدليل قول الحق سبحانه : ﴿ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ .. (٧٢) ﴾ [التوبة]

فالجناتُ هى الحدائق وفيها مساكن ونحن فى حياتنا نجد الفيلات فى وسط الحدائق ، فما بالنا بما يَعِدُ به الله من طِيب المساكن وسط الجنات ؟

وقد جعل الله هذه المساكن الطيبة فى جنات عدن ، والعدن هو الإقامة الدائمة ، فجناتُ عدن هى جنات الإقامة الدائمة ، لأن الدنيا ليست دار إقامة .

فكلُّ نعيم فى الدنيا إما أنْ تفوته بالموت ، أو يفوتك هو بأغيار الحياة ، أما جنات عدن فهى جنات إقامة دائمة ، ففيها كلُّ ما يحتاجه الإنسانُ ، فلا حاجة له إلى غيرها .

هَبْ أنك دخلت أعظم حدائق وبساتين العالم ــ هايد بارك مثلاً ـ فقصارى الأمر أنْ تتنزه به بعض الوقت ، ثم يعتريك التعب ويصيبك الملل والإرهاق ، فتطلب الراحة من هذه النزهة ، أما الجنة فهى جنة عدن ، تحبّ أنْ تقيم فيها إقامة دائمة .

﴿ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ ... (٦١) ﴾ [مريم] واختار

---

(١) آسن : أسن الماء تغيّرت رائحته . [القاموس القويم ١/ ٢٠] غير آسن أى غير متغير اللون ولا الطعم وغير منتن لطول مكثه ، صافٍ لا كدر فيه .

الحق سبحانه هنا اسم الرحمن ليُطمئن الذين أسرفوا على أنفسهم بالمعاصى أنَّ ربهم رحمن رحيم ، إنْ تابوا إليه قَبِلهم ، وإنْ وعدهم وعداً وفَّى .

لذلك يقول تعالى : ﴿ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا (٦١) ﴾ [مريم] فما دام الرحمن تبارك وتعالى هو الذى وعد فلابدّ أنْ يكون وعدُه مأتياً أى مُحققاً وواقعاً لا شكّ فيه ، ووعْدُه تعالى لا يتخلّف .

﴿ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) ﴾ [التوبة] إن الله سبحانه سمَّى هذا اليوم بالنسبة للمؤمنين يوم الفوز العظيم ، والذى يجعلنا نتحمل كلَّ ما نكره ونجاهد فى سبيل الله لنستشهد .

﴿ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِى بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١١) ﴾ [التوبة] لقد هيّأ الله للمؤمنين به المقاتلين فى سبيل نُصرة دينه وإعلاء كلمته جناتٍ تتخللها الأنهارُ ، وذلك هو الفوز والنجاح الكبير ، فما هو الفوز ؟ إنه النصر والغلبة ، إنه النجاح والظفر بالمطلوب .

فإذا كان فوزنا فى الدنيا يُعطينا جائزة نفرح بها، فالفرح قد يستمر مدة الدنيا التى يملكها الواحدُ منا ، فما بالنا بالفوز الذى يأتى فى الآخرة ، وهو فوز الخلود فى الجنة من صُنْع ربنا ، أليس ذلك فوزاً عظيماً ؟

إننا إذا كنا نفرح فى الدنيا بالفوز فى أمور جزئية ، فما بالنا بالفوز الذى يمنحه الحق ويليق بعظمته سبحانه ، ولو قسْنا فوز الدنيا بفوز الآخرة لوجدنا فوزَ الآخرة له مطلق العظمة .

ومهما ضحَّى المؤمن فى سبيل الآخرة فهناك فوزٌ يُعوِّض كلّ التضحيات ويسمو على كلِّ هذا ، فالفوز العظيم هو النعيم الموصول الذى لا يمنعه أحدٌ ولا يقطعه شيءٌ .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ ﴾

فـإذا كان الحقُّ سبحانه قد وعـد مَنْ تاجروا مع الله بأنْ آمنوا بالله ورسوله وجاهـدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهـم ، هؤلاء وعدهم اللهُ بغفران ذنوبهم وإدخالهـم جناتٍ تجرى من تحتها الأنهـار وإسكانهم فى مساكن طيبة تطيب فيها معيشتهم ، وتدوم فيها إقامتهم .

إذا كان هـذا ، فـإنَّ الحـقَّ سبحانـه لأنه ربٌّ يتصـفُ بالربوبيـة فإنه عليمٌ بمـا يُحبـه عباده ويريدونـه ، لذلك فإنـه سبحانه يَعدُهم بخُلـة أخرى وزيادة تُحبُّونها.

وقـال العلمـاء : أى لكم فى العاجل مع ثواب الآخـرة أخرى تحبونها ، فالله يعلـم من نفوس البشر أنهم يُحبون أنْ يروا ثمرة عملهـم فى الدنيا نصراً على عدوهم وفتْحاً يُحقِّق لهم ما تصبو إليه نفوسهم من نُصرة الإسلام .

ومثل هذه الالتفاتة الربانية لوجدانات ومشاعر عباده قد جاء مثلها فى قوله تعـالى : ﴿ أَلَا تُقَاتِلُـونَ قَوْمًا نَكَثُوا(١) أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُـولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَـوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَـوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣) قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْـفِ صُـدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ (١٤) وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٥) ﴾ [التوبة]

---

(١) نكثوا أيمانهم نقضوا أيمانهم ، وأصـله فى كـل ما فُتل ثم حُلّ ، فهى فى الأيمان والعهـود مستعارة [تفسير القرطبى – التوبة ١٣] فهؤلاء إن أبرموا نقضوا ، أو أقسموا حنثوا ، أو عاهدوا نكثوا ، أو عاقدوا فسخوا . [خريدة القصر وجريدة العصر] لعماد الدين الكاتب (٢/ ٢٧١) .

فالنصر الذى سيُحققه المؤمنون بعوْن الله تعالى فى قتالهم مع الكفار سيشفى صدور المؤمنين الذين استذلهم الكفار واعتدوا عليهم ، فكأن هذا النصر يشفى الداء الذى ملأ صدور أولئك المؤمنين ويُذهب غيظ قلوبهم .

أى : يُخرج الغيظ والانفعال المحبوس فى الصدور . فكأنَّ قتال المؤمنين للكفار لا يُحقق فقط العذاب والخزى للكفار والنصر للمؤمنين عليهم ،ولكنه يعالج أيضاً قلوبَ المؤمنين التى ملأها الألم والغيظ من سابق اعتداء الكفار عليهم ومحاولتهم إذلالهم وأخْذ حقوقهم .

وليس صحيحاً ما ذهب إليه البعض[1] أن (أخرى) هنا معطوفة على (تجارة) فى قوله تعالى ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) ﴾ [الصف]

فليستْ هذه تجارة أخرى ، بل هى مثوبة أخرى غير مثوبة الآخرة ، فهى مكافأة أخرى غير إدخال الجنات ، بل هى مكافأة دنيوية .

﴿ وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللهِ.. (١٣) ﴾ [الصف] فهو سبحانه وتعالى الناصر ، لكن إياكم أنْ تظنوا أن النصر من الله لا يصدر عن حكمة ، إن وراء نصر الله للمؤمنين حكمة .

وإنْ كان النصر المعروف بين الناس هو أنْ تأخذ أرضاً وتُبقى عليها فإنَّ للنصر معياراً آخر فى الإسلام ، فالنصر لا يُعتبر نصراً حقيقياً إلا إذا أصَّل صفات الخير فى الوجود كله ، وحين تتأصل صفات الخير فى الوجود كله

---

(١) قال الطبرى فى تفسيره (٢٣/ ٣٦٤) : "اختلف أهل العربية فيما نعتت به قوله (وأخرى) فقال بعض نحويىّ البصرة : معنى ذلك : وتجارة أخرى ، فعلى هذا القول يجب أن يكون أخرى في موضع خفض عطفاً على قوله ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الصف : ١٠] وكان بعض نحويىّ الكوفة يقول : هى فى موضع رفع . أىً ولكم أخرى فى العاجلُ مع ثواب الآخرة ، ثم قال : ﴿ نَصْرٌ مِنَ اللهِ ﴾ مفسراً للأخرى . والصواب من القول فى ذلك عندى القول الثانى .

يكون المؤمن قد انتصر بحقٍّ .

والنصرُ لا يكون إلا من الله ، يقول تعالى : ﴿ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١٢٦) ﴾ [آل عمران] ، ويقول أيضاً : ﴿ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (١٠) ﴾ [الأنفال]

فأنتم لا تُنصرون بالكثرة ولا بعُدّتكم وحديدكم ، فإنما المؤمنون سَتْرٌ ليدِ الله فى النصر ، فالنصر منه سبحانه وحده لمَنْ أخذ بالأسباب .

والعزيز الذى لا يُغلب ، والله أيضاً حكيم فهو لا يعطى النصر إلا لمن استأهله وتوافرتْ شروط أنْ يكون جندياً من جنود الله ، والمؤمنون حين يدخلون فى معركة مع غيرهم يستطيعون أنْ يحدِّدوا مركزهم الإيمانى من غاية المعركة .

فإن انتهتْ المعركة بنصرهم وغلبتهم علموا أنهم من جنود الله ، وإن هُزموا وغُلبوا فليراجعوا أنفسهم ، لأن الله أطلقها قضيةً إيمانية فى كتابه الذى حفظه، فقال : ﴿ وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) ﴾ [الصافات]

فإنْ لم نغلب فلننظر فى نفوسنا : ما الذى أخللنا به من واجب الجندية لله ؟

فمثلاً فى غزوة أُحُد عندما طلب رسول الله ﷺ من الرماة ألاَّ يتركوا أماكنهم فخالفوه[1] ، هنا اختلّ شرط من شروط الجندية لله وهو طاعة الرسول ، فماذا كان يحدث لو أن هؤلاء الرماة خالفوا رسول الله وانتصروا ؟ لو حدث ذلك لهانت أوامر الرسول على المؤمنين .

---

(١) عن البراء بن عازب قال : جعل النبى ﷺ على الرجالة يوم أحد وكانوا خمسين رجلاً عبد الله بن جبير فقال : إن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم هذا حتى أرسل إليكم وإن رأيتمونا هزمنا القوم وأوطأناهم فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم فهزموهم ، فأنا والله رأيت النساء يشتددن قد بدت خلاخلهن وأسوقهن رافعات ثيابهن ، فقال أصحاب عبد الله بن جبير : الغنيمة أى قوم الغنيمة ظهر أصحابكم فما تنتظرون ؟ فقال عبد الله بن جبير : أنسيتم ما قال لكم رسول الله ﷺ ؟ قالوا : والله لنأتين الناس فلنصيبن من الغنيمة فلما أتوهم صُرفت وجوههم فأقبلوا منهزمين فذاك إذ يدعوهم الرسول فى أخراهم فلم يبق مع النبى ﷺ غير اثنى عشر رجلاً فأصابوا منا سبعين ، وكان النبى ﷺ وأصحابه أصابوا من المشركين يوم بدر أربعين ومائة سبعين أسيراً وسبعين قتيلاً)) . أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٠٣٩ ، ٣٩٨٦ ، ٤٠٦٧) .

ويوم حنين حين اعتقد المؤمنون أنهم سينتصرون بكثرتهم وليس بإيمانهم، وكانت النتيجة أنهم أصيبوا بهزيمة قاسية أول المعركة[١] لتكونَ لهم درساً إيمانياً، ولذلك إذا رأيتَ إيماناً انهزم أمام كفر، فاعلم أنَّ شرطاً من شروط الجندية الإيمانية قد اختلَّ.

والحق سبحانه لا يعدهم بالنصر فحسْب، بل يعدهم أيضاً بفتح قريب، فيقول تعالى: ﴿وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ .. (١٣)﴾ [الصف]

والفتح هو قمة النصر لأن فيه تمكيناً فى الأرض، وسُمى فتحاً لأنه محكومٌ بضوابط شرع الله فى القتال من عدم النهب والسلب وقتْل الذرية والمرأة والشيخ الكبير والراهب فى صومعته وعدم التخريب وقطْع الأشجار.

وللعلماء كلام فى الفتح المقصود فى هذه الآية، فالبعض قال إنه فتح مكة. وآخرون قالوا: إنه فتح فارس والروم، وكله محتمل[٢].

وقد ذكر الحق سبحانه الفتح عدة مرات فى كتابه، منها قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا (١)﴾ [الفتح] وهو بمعنى النصر والغلبة والتمكين.

---

(١) عن عبد الله بن مسعود: كنت مع رسول الله ﷺ يوم حنين فولى عنه الناس وثبت معه ثمانون رجلاً من المهاجرين والأنصار، فنكصنا على أعقابنا نحواً من ثمانين قدماً ولم نولهم الدبر، وهم الذين أنزل الله عليهم السكينة. قال: ورسول الله ﷺ على بغلته يمضى قدماً، فحادت به بغلته فمال عن السرج فقلت له: ارتفع رفعك الله، فقال: ناولنى كفاً من تراب فضرب به وجوههم فامتلأت أعينهم تراباً. قال: أين المهاجرون والأنصار؟ قلت: هم أولاء. قال: اهتف بهم، فهتفت بهم فجاءوا سيوفهم بأيمانهم كأنها الشهب وولى المشركون أدبارهم. أخرجه أحمد فى مسنده (٤٣٣٦) والطبرانى فى المعجم الكبير (١٠٣٥١).

(٢) قال الشوكانى فى فتح القدير (٦ / ٤٨٩): اختلف فى تعيين هذا الفتح. فقال الأكثر: هو صلح الحديبية والصلح قد يسمى فتحاً. وقال قوم: إنه فتح مكة. وقال آخرون: إنه فتح خيبر. والأول أرجح. وقيل: هو جميع ما فتح الله لرسوله من الفتوح. وقيل: فتح الروم. وقال ابن الجوزى فى زاد المسير (٥ / ٣٨٢): فى المراد بالفتح أربعة أقوال أحدها أنه كان يوم الحديبية. قاله الأكثرون.

وكلمة الفتح إنْ جاءت مُعرَّفة بأل فخيرها مضمون ، فاعلم أنها نعمة محروسة لكَ سينالك نفعُها ، فإنْ جاءت نكرة فلابدَّ لها من متعلق يُوضّح الغاية منها : أهذا الفتح لك أم عليك ؟

فقوله تعالى فى خطاب النبى ﷺ : ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا (١)﴾ [الفتح] دلَّ على أن هذا الفتح لصالحه ﷺ ، فهو غُنْم لا غُرْم ، لذلك اعتبر صلح الحديبية فتحاً لأنه كان فى صالح الإسلام لا ضدّه .

وقد نزلتْ سورة الفتح فى مُنصرف رسول الله من الحديبية بعد توقيع بنود الصلح بينه وبين قريش ، ويجوز أنْ يكون هو فتح مكة ، والحديبية مقدِّمة الفتح .

ولذلك عرَّف الله سبحانه الفتحَ فى سورة النصر ، فقال تعالى : ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ (١)﴾ [النصر] أى الفتح الموعود به وهو فتح مكة ، لأن رسول الله رآه ورأى الناس يدخلون فى دين الله أفواجاً نتيجة لهذا الفتح .

وليس هذا تخصيصاً لآية سورة الصف ﴿وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ .. (١٣)﴾ [آل عمران] ، فالفتح هنا عام فى كلّ زمان يأتى للمؤمنين بالله ورسوله ، وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم وتوفرتْ فيهم شروط النصر والتمكين .

ولذلك لم يكُن الخطاب فى هذه الآيات مُوجَّهاً لرسول الله كما هو فى سورة الفتح أو سورة النصر ، بل هو مُوجَّه لعموم المؤمنين ، اسمع قوله تعالى فى سورة الصف ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠)﴾

لذلك فقوْل مَنْ قال إن الفتح هنا مقصود به فتح فارس والروم قوْل صحيح أيضاً ، وهو فتح لم يره رسول الله ، ويجوز فى كل فتح كفتح مصر وفتح القسطنطينية .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١٣)﴾ [الصف] فليعلموا أننى لن أدعهم وأتركهم ما داموا التزموا منهجى فبشِّرهم بنصر الله لهم ، وبفتح قريب ذلك فى الدنيا ، أما فى الآخرة فبشِّرهم بجنات عدن ولهم فيها حياة طيبة فى مساكن طيبة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ[1] مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ (١٤)﴾

تكرَّر النداء بـ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا.. (١٤)﴾ [الصف] فى هذه السورة ثلاث مرات ، فقال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (٢)﴾ [الصف] . وقال : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠)﴾ [الصف]

---

(١) الحواريون : جمع حوارى وهو الخالص النقى من كل شيء . وشاع استعماله فى الخلصاء والأصفياء للأنبياء . [القاموس القويم ١ / ١٧٧] وأصل التحوير التبييض ، والحواريون : القصَّارون الذين يُبيضون الثياب وقد كان الحواريون قصارين . ثم غلب حتى صار كل ناصر وكل حميم حوارياً . [لسان العرب – مادة : حور] .

ثم يقول هنا الحق سبحانه : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللهِ ..(١٤)﴾ [الصف]

فى النداء الأول يُواجه الحق سبحانه بعض مَنْ آمنوا بعيوبهم التى قد يتصف بها البعض ، يقولون ويتكلمون ولكن فعلهم لا يوافق قولهم ، فلا تجدهم عندما يحتاجهم الفعل والعمل .

يتشدقون بالكلام ولكن لا تجدهم مُصطفِّين فى الصف ، لا فى صفّ الدعوة، ولا فى صفّ الجهاد ، ولا فى صفّ العمل الصالح ، ولا فى صف العبادة ، ولا حتى فى صفّ كفِّ شرهم وأذاهم عن الناس .

لذلك قال تعالى : ﴿يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ (٣)﴾ [الصف]

أما فى النداء الثانى ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) ﴾ [الصف]

فإنه يُوجِّه نظر المؤمنين إلى سلوك آخر غير القعود للكلام واللغو والقول لمجرد القول ، يريد منهم أنْ يتطابق فعلُهم مع قولهم ، فيدلّهم على المجال المطلوب أنْ يعملوا فيه إنْ كانوا صادقين .

يدلهم على التجارة مع الله ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ .. (١١)﴾ [الصف]

إلى أنْ يأتى النداء الثالث ليضعهم على طريق وصَفٍّ يرتقى بهم إلى مكانة لا أعلى منها ، وهى أنْ يكونوا (أنصار الله) .

وقد يسأل سائل : وهل يحتاج الله إلى مَنْ ينصره ؟ الحق سبحانه حينما تكلَّم عن النصر فى الإيمان قال : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ (٧)﴾ [محمد]

إذن : فالنصر منا لله بأنْ نُطبق دينه وهذا مراد الله ، ولذلك يأتى النصر مرة من المؤمن لربه ، ومرة من الربِّ لمربوبه ، وأنت تضمن نصر الله لك إنْ كنتَ قد دخلت على أنْ تنصره .

ولكن كيف نعرف أننا ننصر الله ؟ نعرف ذلك عندما تأتى النتيجة بنصرنا، لأنه سبحانه لا يعطى قضية فى الكون وبعد ذلك يأتى بالواقع ليُكذِّبها ، فلا بد أنْ يقولوا : إن الواقع كذب هذه القضية .

فنصر الله مترتب على أنْ تدخل المعركة وأنت تريد أنْ تنصر الله وتنصره بماذا ؟ بأنْ تحقق كلمته وتجعلها هى العليا ، وليس هذا فقط بل تجعل كلمة الذين كفروا السفلى .

لذلك فإن لم تنصر الله فلا تلومنّ إلا نفسك إذا لم يأتك نصر الله ، فلن تجد أحداً ينصرك ، قال تعالى : ﴿وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِى يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ .. (١٦٠)﴾ [آل عمران]

فإنْ رأيتَ المؤمنين قد دخلوا معركة وانهزموا فلتبحثْ مصادر تخلّيهم عن منهج الحق ، وما دمتَ قائماً على منهج الله فتأكد أنَّ الله ناصرك ، فهذه قضية قرآنية مُسلَّم بها ومفروغٌ منها .

يقول تعالى : ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ .. (٤٠)﴾ [الحج] ويقول : ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ .. (٧)﴾ [محمد]

والحق سبحانه يريد أنْ نعرف أنه قد وضع فى يدنا مفتاح الجنة ، ففى يد كلِّ واحد منا مفتاحَ الطريق الذى يقوده إلى الجنة أو إلى النار .

لذلك يقول تعالى : ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِى أُوفِ بِعَهْدِكُمْ .. (٤٠)﴾ [البقرة] ويقول فى آية أخرى : ﴿فَاذْكُرُونِى أَذْكُرْكُمْ.. (١٥٢)﴾ [البقرة]

فإذا وفيتَ بالعهد أوفى الله ، وإذا ذكرتَ الله ذكرك ، ومثلها إذا نصرتَ الله نصرك .

والحديث القدسى يقول : ((وإنْ تقرَّب إليَّ شبراً تقربتُ إليه ذراعاً ، وإنْ تقرَّب إلىَّ ذراعاً تقرَّب إليه باعاً ، وإنْ أتانى يمشى أتيتُه هرْولةً))[1] .

هكذا يريد الحق سبحانه وتعالى أنْ يُنبِّهنا أن المفتاح فى يدنا نحن ، فإذا بدأنا بالطاعة فإنَّ عطاء الله بلا حدود ، وإذا تقرَّبنا إلى الله تقرَّب إلينا ، وإذا بُعدنا عنه نادانا ، هذا هو إيمان الفطرة .

ويقول تعالى : ﴿كُونُوا أَنْصَارَ اللهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِى إِلَى اللهِ .. (١٤)﴾ [الصف]

جاء عيسى بن مريم ليعلن قضية جامعة مانعة ، فقال ﴿إِنَّ اللهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٥١)﴾ [آل عمران] إنَّ فى ذلك تحذيراً من أنْ يقول أتباعُ عيسى أىَّ شيء آخر عن عيسى غير أنه عبدٌ لله خاضعٌ لله ، مأمورٌ بالطاعة والعبادة لله .

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٧٤٠٥) وكذا مسلم فى صحيحه (٧٠٠٨) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، وأوله : ((يقول الله عزَّ وجل : أنا عند ظن عبدى بى وأنا معه حين يذكرنى ، فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، وإن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منه ...)) الحديث بتمامه .

﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِى إِلَى اللهِ .. (٥٢)﴾ [آل عمران]

أى أنَّ كلّ صاحب فكرة ، وكلّ صاحب مهمة ، وكلّ صاحب هدف لابد أنْ يكون يقظَ الأحاسيس .

إن الداعيةَ مأمورٌ من الله أن يكون يقظاً لأنه إنِ اهتدى بكلماته أُناسٌ وسعدوا بها فإنه يُغضب أناساً آخرين ، فالداعية عليه أنْ يكون يقظَ الحسِّ ، ويقظةُ الحِسِّ معناها الالتفات إلى الأحاسيس الخفية الموجودة عند كلِّ إنسان.

وعندما أعلن عيسى بن مريم منهج الحق وجد أنصار الظلم وأنصار البغى، وأنصار الظلمات غير مُعجبين بالمنهج الواضح للإيمان بالله ، لذلك أحسّ منهم الكفر ، لقد كان مليئاً باليقظة والانتباه .

إنه يعلم أنه قد جاء برسالة من الله ليُخرج أناساً من مفسدة إلى مصلحة، وعندما أحسّ منهم الكفر أراد أنْ ينتدب جماعة ليُعينوه على أمر الدعوة ، فقال : ﴿مَنْ أَنْصَارِى إِلَى اللهِ .. (٥٢)﴾ [آل عمران]

والدعوة تحتاج إلى معركة ، والمعركة تحتاج إلى تضحية والتضحية تكون بالنفس والنفيس ، لذلك لا بدّ أنْ يستثير ويُحرِّك مَنْ يجد فى نفسه العوْنَ على هذه المسألة .

ونلحظ هنا أنَّ الخطاب فى سورة آل عمران لم يكُن لأفراد محددين إنما طرح الدعوة ليأتى الأنصار الذين يستشرفون فى أنفسهم القدرة على حَمْل لواء الدعوة ، ولتكون التضحية بإقبال نفسٍ لا استجابة لداعٍ .

إنه لا يسأل عن أُناس يدخلون فى لواء الدعوة من أجل الغنيمة ، أو يدخلون من أجل الجاه أو غير ذلك ، إنه يسأل عن أهل العزم ليكون كلٌّ منهم متجهاً

بطاقته إلى نُصْرة الله وحده .

فالخطاب فى آية آل عمران عام ، أما فى سورة الصف فهو مُوجّه للحواريين خاصة من دون الناس فى زمن عيسى بن مريم ، لذلك قال : ﴿ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِى إِلَى اللهِ .. (١٤)﴾ [الصف]

وقد قال البعض أن آية سورة الصف توضح المخاطب فى سورة آل عمران ، أى أن الحواريين هم المخاطبون ، ولكن هل أحسَّ عيسى من الحواريين الكفر ؟ وهم حواريُّوه وخلصاؤه .

والحواريون مأخوذة من الحَوَر وهو شدة البياض ، وهم جماعة أشرقتْ فى وجوههم سِيماء الإيمان فكأنها مُشرقةٌ بالنور ، ونورُ الوجه لا يُقصد به البشرة البيضاء ، ولكن نور الوجه فى المؤمن يكون بإشراقة الإيمان فى النفس .

وكلمة الحوارى مأخوذة من المحسَّات ، فالحوارى تُطلق على الدقيق النقى الخالص ، وأُطلقت على كلِّ شيء نقيٍّ بصفاء خالص . والحوارى هنا تعنى المخلِص والمحبّ لمنهج الخير .

فالصواب أن سؤال عيسى بن مريم ﴿مَنْ أَنْصَارِى إِلَى اللهِ .. (٥٢)﴾ [آل عمران] فى سورة آل عمران عام ، فانتدب الحواريون أنفسهم لنصرة عيسى ابن مريم وتأييده ومؤازرته فقالوا ﴿نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ .. (٥٢)﴾ [آل عمران]

أما سؤال عيسى بن مريم ﴿مَنْ أَنْصَارِى إِلَى اللهِ .. (١٤)﴾ [الصف] فى سورة الصف فقد كان مُوجهاً للحواريين ، قال تعالى : ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِى إِلَى اللهِ .. (١٤)﴾ [الصف]

وكأنه أراد عليه السلام أنْ يستوثق منهم ، لا أنْ يتهمهم ، أو أنه كان حاضراً

بينهم أحدُ مُدّعى الصفاء والنقاء وكأنه حواريٌّ منهم .

﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ .. (١٤)﴾ [الصف] فكلُّ إنسان منهم يريد نصرة الله فينضم إلى الله ناصراً للمنهج ، وأهم مُقوِّمات نصرة الله هو الإيمان، وهو اطمئنانُ القلب إلى قضية ما .

وقد كان إيمان الحواريين بالله وبرسوله عيسى بن مريم مطلوبَ الله منهم، قال تعالى : ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ (١١١)﴾ [المائدة]

والوحى هنا هو بمعناه العام أى الإعلام بخفاء ، أى أن الحق ألهمهم أنْ يؤمنوا برسالة عيسى المبلِّغ عن الله ، أى : أعلمهم بخواطر القلب التى أعلم بها أم موسى أنْ تُلقى ابنها فى اليم ليُلقيه اليمُّ إلى الساحل .

وهو غير الوحى للرسول ، فالوحى للرسول هو الوحى الشرعى بواسطة رسول مبلّغ عن الله هو سيدنا جبريل عليه السلام ، أما وحى الله إلى أم موسى أو إلى الحواريين فهو استقرار خاطر إيمانى يلتفت بعده الموحَى إليه ليجد الواقع يؤيد ذلك .

هذا الوحى إليهم والإلهام والخواطر جعلتْهم يُؤمنون بالله وبرسوله عيسى عليه السلام ، فعند طلب النُّصرة منهم وأنْ يكونوا أنصارَ الله نطقوا وفْق ما استقرَّ فى قلوبهم ، فقالوا : ﴿نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ .. (١٤)﴾ [الصف]

حينما طلبَ منهم الإيمان آمنوا ، فقالوا : ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ(٥٣)﴾ [آل عمران]

والإيمان المقصود به هنا ما جاء به عيسى من عند الله ، فإعلان الحواريين

هـو إعلانٌ بالإيمان بمـا جاء سابقاً على عيسى بن مريم من عقائد ، وبما جاء به عيسى بن مريم من أحكام وتشريعات .

فافـترق النـاسُ طائفتيـن وأصبـحـوا معسـكرين ، معسكـر إيمـان ومعسكر كفـر ، لذلـك قـال تعـالى : ﴿ فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِـي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ .. (١٤)﴾ [الصف]

وكلمـة (طائفـة) هى فى عُرْف اللفـظ مفرد ، وعندما تجمعهـا تقول : طوائف . لكن هى لفظ مفرد يدل على جَمْع ، فمرة يلحظ المفرد ، ومرة يلحظ ما يؤديه المفرد من الجمع .

فالطائفـة هم جماعة من البشر تجتمع لهـدف ويطوفون حول شيء واحد ، فالبعض مـن بنى إسرائيل آمنوا بما جاء به عيسى بـن مريم ، وآخرون كفروا بما جاء به .

ولكن لماذا يقول تعالى ﴿مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ .. (١٤)﴾ [الصف] ؟

نقـول : لأن المسيـح عيسى بن مريم إنما هو مُرسَلٌ إلى بنى إسرائيل خاصة ، فرسالته ليستْ عامة .

لقـد جـاء عيسى عليـه السلام رسـولاً إلى بنـى إسرائيل لعله يستـلّ من قلوبهم المادية ، فمهمة عيسى جاءت لتكمل التوراة ويكمل ما أنقصه اليهود من التوراة .

وقد قـال تعـالى هنـا فى سورة الصف ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَـبَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ .. (٦)﴾ [الصف] فقد جاء مبعوثاً إلى بنى إسرائيل لصالح بنى إسرائيل .

ومشكلة بنى إسرائيل أنهم كانوا يتمردون على مناهج الرسل لأنها لا تأتى

بما تهواه أنفسهم ، وأول تمردهم التكذيب إلى أنْ يصل بهم هذا إلى التآمر على الأنبياء لإسكات دعوتهم ولو بقتلهم .

لذلك قال تعالى : ﴿ وَإِذْ كَفَفْتُ[1] بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (١١٠)﴾ [المائدة]

فإذا كان الحواريون قد آمنوا فإنَّ آخرين قد كفروا وأرادوا به السوء ، فكفَّ الله بني إسرائيل عنه عندما أرادوا إيذاءه وقتله ، وعندما رأوا كلَّ ذلك آمن بعضهم وكفر البعض ، واتهموا عيسى عليه السلام بأنه ساحر .

لقد كفرتْ هذه الطائفة من بني إسرائيل بعيسى عليه السلام ، وقالوا البهتان العظيم على مريم .

ثم يقول تعالى : ﴿ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ (١٤)﴾ [الصف] فكان الله في جانب الذين آمنوا ونصروا رسوله ودعوته ، كان إلى جانبهم بالتأييد والنصرة ، فقال تعالى : ﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ .. (١٤)﴾ [الصف] وعدوهم هم مَنْ لم يؤمنوا بعيسى بن مريم رسولاً من عند الله .

وقد غلبتْ الطائفة التي كفرتْ زماناً بعد رفْع عيسى عليه السلام ، حتى جاءت رسالة محمد فكانت تأييداً من الله لمَنْ آمن الإيمان الحق ، وذلك إلى يوم القيامة .

وقد وصف الحقُّ سبحانه بعضاً من أهل الكتاب فقال : ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ[2]

---

(١) كففت : منعت وصرفت بني إسرائيل يعني اليهود عنك حين همُّوا بقتلك . ومن جمال اللغة العربية هنا أن الكاف والفاء تدل على كف اليد وهو أصل صحيح يدل على قبض وانقباض ، من ذلك كف الإنسان لأنها تقبض الشيء وتحجزه وتمنعه .

(٢) قسيسين : جمع قَس والقسيس رئيس النصارى في الدين والعلم . وجمع القس قسوس . [العباب الزاخر للصاغاني] وهي من أصل آرامي هو Gachicho ومعناه كاهن وشيخ . وذكر بعض علماء اللغة أن القس والقسيس العالم العابد من رؤوس النصارى . أما الراهب وجمعه الرهبان فهو المنقطع للعبادة في الصوامع والبِيَع والقلايات ، هذا الأصل فيهم .

وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (٨٢) وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٨٣) ﴾ [المائدة]

فالباطل مهما كانت له الغلبة الظاهرة فى جَلَبة وعُلوّ صوت إلاَّ أن الحقَّ يغلب القلوب الصافية فتؤثر فى وجداناتهم فتفيض أعينهم من الدمع ممَّا عرفوا من الحق .

﴿فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ (١٤)﴾ [الصف] أى : عالين غالبين . فتأتى ظهر بمعنى « الغلبة » وبمعنى العلو فى قوله تعالى : ﴿فَمَا اسْطَاعُوا ..(٩٧)﴾ [الكهف] ومنه قوله تعالى : ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ (٤١)﴾ [الروم] أى : غلب الفسادُ الصلاحَ وعلا عليه .

فالحق يعلو ولا يُعلَى عليه ، وهذا واضح فى قول النبى ﷺ : «لا تزال طائفةٌ من أمتى ظاهرين على الحق لا يضرهم مَنْ خذلهم حتى يأتى أمرُ الله وهم كذلك»[١] .

---

(٢) عن معاوية بن أبى سفيان قال : سمعت رسول الله ﷺ قال : ((لا تزال طائفة من أمتى قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم أو خالفهم حتى يأتى أمر الله وهم ظاهرون على الناس)) . أخرجه أحمد فى مسنده (١٦٩٧٤) .

سُورَةُ الجُمُعَةِ

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الجمعة(١)

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝١ ﴾

المتتبع لألفاظ التسبيح فى القرآن الكريم يجد أنَّ التسبيح ثابتٌ لله تعالى قبل أنْ يخلق المسبِّحين فى قوله ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ.. (١) ﴾ [الإسراء] ثم بعد أنْ خلق الله الخَلْق ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ.. (١) ﴾ [الحشر]

وما زال الخَلْق يُسبِّح فى الحاضر ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ.. (١) ﴾ [الجمعة] فتسبيحُ الله كان وما يزال إلى قيام الساعة ، لذلك يأمر الحق سبحانه نبيه ﷺ ومعه أمته ألاَّ يخرج عن هذه المنظومة المسبِّحة ، فيقول له ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (١) ﴾ [الأعلى]

---

(١) سورة الجمعة هى السورة رقم (٦٢) فى ترتيب المصحف الشريف ، وهى ١١ آية ، وهى سورة مدنية فى قول الجميع . وقد قال السيوطى فى الدر المنثور (١٥١/٨) : أخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس قال : نزلت سورة الجمعة بالمدينة . نزلت بعد سورة التحريم وقبل سورة التغابن . وآية الجمعة فيها مما تأخر نزوله عن حكمه ، بمعنى أن آية الجمعة نزلت بالمدينة رغم أن الجمعة فرضت بمكة . ويؤيد هذا ما أخرجه ابن ماجة عن عبد الرحمن بن كعب ابن مالك أن أسعد بن زرارة كان أول من صلى بهم الجمعة قبل مقدم رسول الله من مكة . [الإتقان فى علوم القرآن ١٠٨/١] .

وجاء الأمر بذكر الله وبعد الأمر بتسبيحه تعالى وكأنه يقول لك كلما ذكرته: نزّهه ذاتاً وصفاتاً وأفعالاً ، فمن مصلحتك فى رحلة الحياة ألاّ يكونَ لله مثيلٌ ولا شبيهٌ ولا نظيرٌ ولا نِدّ ، لأن الجميع سيكونون تحت عدله سبحانه ، فتنزيهُ الله لمصلحتك أنت أيها المسبِّح .

فالله مُنزَّه ومُقدَّس عن أنْ يُقاس بالكائن الموجود ، تعالى اسمه وتعالتْ ذاته ، وتعالتْ صفاته وأفعاله ، فسبحانه عما يصفونه بأوصاف لا تليق بذاته .

فالله له التسبيح والتقديس ثابت قبل أنْ يفعل ، وسبحان الله قبل أنْ يُوجد المسبّح ، كما أنه تعالى خلق قبل أنْ يوجد مَنْ خلق ، فهو بالخالقية فيه أولاً خلق .

وكما نقول فى الريف (اللى ملوش كبير يشترى له كبير) فوجود كبير فوق الجميع يحميك أنْ يتكبَّر أحدٌ عليه . إذن : عظمته تعالى وكبرياؤه من أعظم النعم علينا .

فساعة تُسبِّحه وتُنزِّهه احمد الله لأنه مُنزَّه ، احمد الله أنه لا شريك له وأنَّ الناسَ جميعاً عنده سواء ، احمد الله لأنَّ كلامه وأمره نافذ على الجميع ، احمد الله أنه لم يتخذ صاحبة ولا ولداً ، وليس بينه وبين أحد من خَلْقه نسب .

وقد جعل الحقُّ سبحانه ذكرك له وتسبيحك إيَّاه لصالحك أنت ، ومن النعم التى لا تُحصى أن السماوات والأرض وما فيها مُسبِّح لله مُنزِّه له مُقدِّس له سبحانه ، وتسبيحها هذا يقتضى أنها خاضعةٌ له منقادةٌ لأوامره غير مُتمرِّدة على أوامر الله سبحانه .

فليطمئن الإنسانُ أنْ الكونَ كلَّه مُسبِّح لله خاضعٌ له ، لأنه إنْ لم يكُن كذلك ما استطاع أنْ يعيش الإنسانُ على الأرض ، فالله عز وجل بموجب أنه مُسبَّحٌ

من كلّ الخلائق حكم عليها بأن تكون مُسخرةً للإنسان .

وقد قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَـوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ.. (٢٠) ﴾ [لقمان]

وقال : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (٦٣) لَهُ مَا فِي السَّمَـوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٦٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (٦٥) ﴾ [الحج]

والحق سبحانه مُنزَّه عن كلّ نقص ومُسبّح لأنه سبحانه متصف بكلِّ صفات الجمال ، فهو ﴿ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١) ﴾ [الجمعة]

وقد كان رسول الله ﷺ يقرأ فى الوتر بسبح اسم ربك الأعلى ، وقل يأيها الكافرون ، وقل هو الله أحد .. فإذا سلَّم قال : سبحان الملك القدوس ، سبحان الملك القدوس ، سبحان الملك القدوس . ورفع بها صوته[1] .

فهو سبحانه (الملك) وإذا كان كلُّ إنسان مالكاً لما فى حوزته ، مالكاً لثوبه، أو مالكاً اللقمة التى يأكلها ، أو مالكاً البيت الذى ينام فيه ، أما الملِك فهو الذى يملك ويملك مَنْ ملك .

فلكلِّ إنسان مِلْكية ما ، ولكن هناك فرْقٌ بين أن يملك إنسانٌ ما لا يقدر على الاحتفاظ به ، وقد ملّك الحق سبحانه بعضنا أمرَ بعض ، فهناك مالكُ الطعام ومالكُ الثوب ، ولكن ليس كلُّ مالك ملكاً ، لأن الملك هو الذى يملك المالك ، وهذه سُنن الكون .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (١٥٣٩٠) والنسائى فى سننه (١٦٩٨) من حديث عبد الرحمن بن أبزى . وأخرجه البيهقى فى سننه (٥٠٥٧) والدار قطنى (١٦٧٩) من حديث ابن أبزى عن أبى بن كعب.

وفـى الآخرة هناك مالكٌ واحد هو مالك يوم الدين ، يقول تعالى : ﴿ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (٧٣) ﴾ [الأنعام] . وهل كان الملْك يوماً لغير الله ؟

فربّنـا سبحانـه وتعالى فى دنيا الأسباب جعل لـكلٍّ واحد منّا مُلكاً ، وجعل لبعض علينـا مُلكاً فبقوا ملوكاً ، لكن فى الآخـرة لا يوجد شيءٌ من هذا ، لذلك يقول سبحانه : ﴿ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦) ﴾ [غافر]

ففـى الدنيا قـد تملك مثلاً أنْ توظفنـى عندك وتُعطينى أجـراً ، وقد تملك أنْ تطبخ لى طعامى أو تُعطينى طعاماً ، أو تملك أنْ تخيط جلبابى ، لكن فى الآخرة لا يملك أحدٌ لأحد سبباً ، لأننا نحيا فى الدنيا بالأسباب التى منحنا الله إياها، وفى الآخرة بالمسبب وحده دون أسباب .

لذلك نقول لكلّ ملك : إن هذا الملك ليس بذاتك ، لأنه لو كان بذاتك لما سلبك أحدٌ هذا الملْك أبداً ، وسبحانه القائل : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ.. (٢٦) ﴾ [آل عمران]

إذن : فليس هناك مَنْ له الملك بذاته إلا الله ، والله له ملْك السماوات والأرض فلا يضيرك أحد أو شيء ولا يفوتك مع الله فائت .

أمـا اسـم الحق سبحانه (القدوس) فهو المطهّـر ، فالتقديس هو تطهير الله سبحانه وتعالى عن كلّ الأغيار ، ولأنك يا ربى قدوسٌ طاهر فلا يليق أنْ يُرفع إليك إلا طاهر ، ولا يليق أنْ يصدر عمَّنْ خلقته بيديك إلا طاهر .

ويقـال : قدّس الله . أى نـزّه . فالله ذات وليست كـذات الإنسان وله سبحانه صفاتٌ مُنزَّهة أنْ تكون كصفاتك ، وهو سبحانه له أفعال ، ولكن أفعاله مقدَّسة ومطهَّرة مُنزَّهة أنْ تكون كأفعالك .

فحياته سبحانه مُنزهة وذاته ليست كذاتك ، وصفاته ليست كصفاتك ، فأنت قادر قدرة محدودة ، وله سبحانه طلاقةُ القدرة ، وهو سبحانه سميع والعبد سميع ، لكن سمع البشر محدود وسمعه سبحانه لا حدودَ له .

إذن فصفاته مُقدَّسة . أى : أن صفاته مُطهرة وهو سبحانه قدوس مُنزَّه عن كلِّ نقص .

وقد قالت الملائكة ﴿ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ.. (٣٠) ﴾ [البقرة] والتسبيح هو التنزيه عما لا يليق بذات المنزّه ، والتقديس هو التطهير ، مأخوذ من القدس وهو الدلو الذى كانوا يتطهرون به ، ولذلك نقول : سبّوح قدوس . سبوح أى مُنزَّه عن كلّ ما لا يليق بجلاله . وقدُّوس أى مطهّر .

والتسبيح تقديس لله وتنزيهه ذاتاً وصفاتاً وأفعالاً ، ذاتاً فلا ذاتَ مثل ذاته تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ.. (١١) ﴾ [الشورى] لا فى الذات ولا فى الصفات ولا فى الأفعال ، فلا تقُلْ : إنَّ سمع الله كسمعك ، أو أنّ بصره تعالى كبصرك ، أو أنَّ فعله كفعلك .

والمعنى : نُسبِّحك ونُقدِّسك تقديساً يليق بألوهيتك الثابتة لك ، فلا نزيد شيئاً من عندنا ، والتسبيح يُورث المسبِّح لذة فى نفسه ، والطاعة من الطائع تُورثه لذةً فى نفسه ، كما قال النبى ﷺ : « وجُعلَتْ قُرَّة عينى فى الصلاة »[١] ، وكان ﷺ إذا حزبه أمر قام إلى الصلاة[٢] .

---

(١) أخرجه أحمد بن حنبل فى مسنده (١٢٣١٥ ، ١٣٠٧٩ ، ١٤٠٦٩) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه وتمامه : « حُبِّب إلىَّ من الدنيا : النساء ، والطيب ، وجعلت قرة عينى فى الصلاة » . وكذا أبو يعلى الموصلى فى مسنده (٣٤٨٢ ، ٣٥٣٠) .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٢٣٣٤٧) عن حذيفة رضى الله عنه «كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلى». وحزبه أى هجم عليه أو غلبه . وكذا أخرجه أبو داود فى سننه (١٣١٩) والبيهقى فى سننه (٣١٨١ ، ٣١٨٢) وأبو نعيم فى معرفة الصحابة (٤٢١٦ ، ٤٢١٧) .

أمـا اسم الحق سبحانه (العزيز) فى قوله سبحانه : ﴿ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١) ﴾ [الجمعة] فالعزيـز الـذى لا يُغلـب لجبروته ولا يسألـه أحد ، فلا يستطيـع أحـدٌ أنْ يدخل مع الله فى جدال ، إنمـا يدخل خَلْق الله مع خَلْق الله فى خلاف أو نضال .

لكن لا أحدَ يجرؤ على أنْ يدخل فى نضال مع الله لأنه عزيز لا يُغلب ، واعلم أنه لا يوجد مَنْ يغلبه على أمره ، فهو سبحانه الغالب على أمره ، ومع أنه غالبٌ على أمره فهو حكيم فى تصرّفه .

ويُعطينـا الحـق سبحانه لفتة لمعنى عزة الله مع حكمته سبحانه ، وذلك فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا (٥٦) ﴾ [النساء]

والعزيـز هـو الذى لا يُغلب ولا تقدر أنْ تحتاط من أنه يهزمك أبداً ، فقد يقول كافر : لقد تلذذنا بالمعصية مرة لمدة خمس دقائق ، ومرة لمدة ساعتين فيما يضيرنى أنْ يحترق جلدى وتنتهى المسألة .

نقول له : لا إن الذى يُعذِّبك لا يُغلب ، فسوف يُديم عليك العذاب بأنْ يُبدِّل لك الجلـد بجلد آخـر ، وسبحانه حكيم فالمسألة ليستْ مسألة جبروت يستعمله ، لا هو يستعمل جبروته بعدالة .

والحق سبحانه عزيز ذو انتقام ، وهو سبحانه يعفو عما سلف ، أما مَنْ عاد ليرتكب نواهى الله فى هذا المجال فيعاقبه الحق فلا يقبل منه هدى ولا إطعامَ مساكين ولا صوماً لأن فى تكرار المخالفة إصراراً عليها ، لذلك ينتقم منه الله، وهو العزيز الذى لا يُغلب .

وحدَّثنا الحق سبحانه عن تقدير الكواكب والأجرام ، فقال تعالى : ﴿ الشَّمْسُ

وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ[1] (٥) ﴾ [الرحمن] ، ﴿ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٨) ﴾ [يس] وكلمة العزيز تفيد الغلبة والقهر فلا يستطيع أحد أنْ يعلو عليه .

فهذه الأجرام التى تراها أقوى منك ولا تتناولها يدك ، إنها تؤدى لك مهمة بدون أنْ تقرب منها ، فأنت لا تقترب من الشمس لتضبطها ، مثلما تفعل فى الساعة التى اخترعها إنسانٌ مثلك .

والشمس لها قوة قد أمدَّها الله خالقها بها ولا شيءَ فى صنعته ولا فى خَلْقه يتأبّى عليه ، فهذا هو تقدير العزيز العليم ، وهو سبحانه يعطينا حيثيات الثقة فى كونها حسباناً لنحسب عليها ، فهو جلّ جلاله خالقها بتقدير عزيز لا يُغلب ، وهو عزيز يعلم علماً مطلقاً لا نهاية له ولا حدود .

واعلم ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (٦٦) ﴾ [هود] فالحق سبحانه مقتدر يأخذ كلّ كافر ولا يغلبه أحد ولا يُعجزه شيء . والعزيز على إطلاقه هو الله ، ولكنَّا نقول عن إنسان ما (عزيز قومه) ونقول الغنى على إطلاقه هو الله ، ولكن نقول (فلان غنى) و (فلان فقير) .

وأسماء الله إما أنْ تكون أسماءَ ذات ، وإما أنْ تكون أسماءَ صفات وأفعال، فإنْ كان الاسم لا مقابلَ له فهو اسمُ ذات مثل العزيز ، أما إنْ كان اسمَ صفة وفعلٍ مثل (المعز) فلابد أن له مقابلاً وهو هنا المذلّ .

ولو كان يقدر أنْ يُعز فقط ولا يقدر أنْ يُذل لما صار إلهاً ، ولو كان يضر فقط ولا ينفع أحداً لما استطاع أنْ يكون إلهاً ، ولو كان يقدر أنْ يبسط فقط ولا يقدر

---

(١) بحسبان : أى أن سيرهما بحساب دقيق ونظام ثابت [القاموس القويم – ١/١٥٢] . قال الأخفش : الحسبان جماعة (جمع) الحساب مثل شهاب وشهبان . [الصحاح فى اللغة] وقال الزبيدى فى تاج العروس : « من غريب التفسير أن الحسبان اسم جامد بمعنى الفلك من حساب الرحا وهو ما أحاط بها من أطرافها المستديرة . قاله الخفاجى ونقله شيخنا » .

أنْ يقبض لما استطاع أنْ يكون إلهاً .

وكلّ هذه صفات لها مقابل ويظهر فعلُها فى الغير ، فسبحانه على سبيل المثال عزيز فى ذاته ومُعزٌّ لغيره ومُذل لغيره .

وهو سبحانه عزيز رحيم ، والله تعالى عزيز يغلب ولا يُغلب ، ومثال ذلك قوله تعالى : ﴿ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ.. (١٤) ﴾ [الأنعام] وقوله تعالى ﴿ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ.. (٨٨) ﴾ [المؤمنون]

وهو سبحانه مع عزته رحيم ، فهو تعالى رحيم حين يغلب ، لأنه ربّ الخلق أجمعين ، يرحمهم إنْ تابوا ويقبلهم إنْ رجعوا إلى ساحته .

جاد فى الحديث الشريف : « لله أفرحُ بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة[1] فانفلتتْ منه وعليها طعامه وشرابه ، فأيس منها فأتى شجرة فاضطجع فى ظلها ، وقد أيس من راحلته ، فبينما هو كذلك إذ هو بها قائمة عنده فأخذ بخطامها ، ثم قال من شدة الفرح : اللهم أنت عبدى وأنا ربك ، أخطأ من شدة الفرح»[2] .

فهو سبحانه مع عزته رحيم بعباده يفتح بابَ التوبة لمن تاب ، فلا يظننَّ أحدٌ أن فى صفة (العزيز) جبروتاً ، فهو تعالى رحيم أيضاً .

ومن عظمة الأسلوب القرآنى أنْ يجمع بين هاتين الصفتين عزيز ورحيم ، وكأنه يشير لنا إلى مبدأ إسلامى يُربى الإسلامُ عليه أتباعه ، ألاَ وهو الاعتدال

---

(١) فلاة : سميت فلاة لأنها فليت عن كل خير ، وقيل هى (الصحراء) التى لا ماء فيها . ومن أسمائها البيداء لأنها تبيد من يحلها . ومن أسمائها الملاة وهى الفلاة ذات حر وسراب . [المخصص لابن سيده] وفى المعجم الوسيط (الفلاة الأرض الواسعة المقفرة) .

(٢) أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه (٧١٣٦) من حديث أنس بن مالك ، وقد أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٣٠٩) من حديث أنس بلفظ .. « الله أفرح بتوبة عبده من أحدكم سقط على بعيره وقد أضلَه فى أرض فلاة » وليس فيه ما ذكره مسلم « فانفلتت منه » إلى « أخطأ من شدة الفرح» .

فـلا تطغـى عليك صفة أو خصلة أو طبعٌ أو خُلق ، والزم الوسط لأن كلَّ طبع فى الإنسان له مهمة .

وتأمـل قـوْل الله تعالى فى صفات المؤمنين : ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ.. (٥٤) ﴾ [المائدة] فالمسلم ليس مجبـولاً على الذلة ولا على العزة ، إنما الموقف هو الذى يجعله ذليلاً أو يجعله عزيزاً ، فالمؤمن مَنْ يتصف بالذلة والخضوع للمؤمنين ، ويتصف بالعزة على الكافرين .

فعـزة العزيز علـى المتكبر رحمةٌ بالمتكـبِّر عليه ، فعزَّته ورحمتـه لك أنت ، وليس هذا فحسب بل إنه أيضاً عليم ، فقد يكون عزيزاً لا يُغلب لكن لا علم عنده ، فالحق سبحانه عزيز عليم يضع العزة فى مكانها ، ويضع الذلة فى مكانها .

فعزتـه سبحانـه وقاهريتـه غالبة عالية ومـع ذلك فيُتبعها الحـق سبحانه بصفـة الرحمـة ليُحدثَ فـى نفس المؤمن التـوازن بين صفتى القهـر والغلبة ، وبين صفة الرحمة .

وإنْ أردتم العزة الحقيقية فاطلبوها ممن لا تتغير عزته ، وهو الحق سبحانه وتعـالى : ﴿ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا (١٣٩) ﴾ [النساء] وفى هذا القول تصويب لطلب العـزة ، وليطلـب كلُّ إنسان العزة إيمانـاً بالله ، فسبحانه الـذى يهب العزة ولا تتغير عزته .

﴿ فَإِنَّ الْعِـزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا (١٣٩) ﴾ [النساء] وكلمة (جميعـاً) هذه دلَّتْ على أن العـزة لهـا أفراد شتى : عزة غنى وعزة سلطان ، وعزة جـاه ، فإنْ أراد واحد أنْ يعرفها ويعلمها فهى جميعاً فى الحق سبحانه .

إذن : ساعـة يقـول الحق ﴿ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًـا (١٣٩) ﴾ [النساء] فمعناها إنْ أردت أيهـا الإنسـان عِزاً ينتظم ويفوق كلَّ عزٍّ فاذهب إلى الله ، لأنه سبحانه أعزَّنا فنحن خلْقه .

والحق سبحانه يقول : ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ.. (٨) ﴾ [المنافقون] فالعزة لله لا تتعداه ، ولكنه سبحانه شاء أنْ تكون عزة رسوله ﷺ وعزة المؤمنين من باطن عزة الله تعالى .

﴿ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا (١٣٩) ﴾ [النساء] أى : فى كل ألوانها هى لله سبحانه وتعالى ، إنْ كانت عزة حكمة فهو الحكيم ، وإنْ كانت عزة القبض على الأمور فهو العزيز ، وإنْ كانت عزةَ الحلم فهو الحليم ، وإنْ كانت عزة الغضب والانتقام فهو المنتقم الجبار .

أما اسم الحق سبحانه (الحكيم) فإطلاقُ صفة الحكيم على الخالق سبحانه وتعالى هو أنه جلَّ جلاله يحكم المخلوقات حتى لا تسير بغير هُدىً ودون دراية .

والحكمة فى الفقه أنْ يوضع هدفٌ لكلِّ حركة لتنسجم الحركاتُ بعضها مع بعض ، ويصير الكون محكوماً بالحق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

والحكيم العليم الذى يضع لكلِّ كائن إطاره وحدوده ، والحكمة هى أنْ يؤدى كلُّ شيء ما هو مطلوب منه ببراعة ، والحكمة فى الفقه هى أنْ تستنبط الحكم السليم ، والحكمة فى الشعر أنْ تزنَ الكلمات على المفاعيل .

والحكمة فى الطب أنْ تعرف تشخيص المرض والدواء الذى يعالجه ، والحكمة فى الهندسة أنْ تصمم المستشفى طبقاً لاحتياجات المريض والطبيب وأجهزة العلاج ومخازن الأدوية وغير ذلك ، أو فى تصميم المنزل للسكن المريح ، وحكمة بناء منزل مثلاً تختلف عن حكمة بناء قصر أو مكان للعمل .

فإذا كان العزيز هو الذى لا يُغلب لجبروته ولا يسأله أحد ، فإنَّ الحكيم هو

الذى لا يصدر منه الشيء إلا بحكمة بالغة .

والحكمة مأخوذة من (الحَكَمة) التى تُوضع فى فم الفَرَس والتى نسميها اللجام ، وهى كما نعرف تتكوَّن من قطعة من الجلد تدخل على اللسان وفيها قطعة من الحديد ، فإنْ مالَ إلى غير الاتجاه الذى تريد يكون من السهل جَذْبه إلى الاتجاه الصحيح .

إنَّ وجود الحكمة يعنى وجودَ شيء يحكمه فلا ينحرف يميناً ولا يساراً ، وما دام الله قد شهد أنه لا إله إلا هو وشهدتْ الملائكة وشهد أولو العلم ، وانتهتْ القضية بعد هذه الشهادات إلى أنه لا إله إلا هو وأنه العزيز الحكيم ، فكلُّ منهج منه يجب أنْ يسلم إليه وأنْ ينقاد له .

فما دام العبد قد آمن بالإله القادر الحكيم الخالق القيوم القدوس فليسمع من الإله ما يُصلح حياته ، فهو سبحانه حكيم يضع الشيء فى موضعه الدقيق بحكمة، فلا ينظر إلى ظاهر معطيات الشيء الآن ويغفل ما قد يأتى به من مضرَّة .

فالله هو الحكيم العزيز لا يأتمر بأمر أحد من خَلْقه ، ولا يعجل بعجلة العباد، وهو سبحانه الحكيم الذى لا يترك شيئاً للعبث ، فهو المقدِّر لكلِّ أمر بحيث يكون موافقاً للصواب ، لذلك لا يمكن أنْ يصدر عن الواحد الحكيم أوامر متضاربة ، ولكنَّ التضارب إنما ينشأ من اختلاف الآخر ، أو من عدم حكمة الآمر .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ ﴾

لقد كان رسول الله ﷺ مبعوثاً إلى أمة أمية ، وجاء فى أمة أمية ليست لها ثقافة ، والقرآن إنما نزل ليخاطب أمة أمية وجاء على لسان رسول الله الأمى فى أمة لا تعرف المسائل العلمية الشديدة التعقيد والفلسفات والثقافات والحضارات .

فالله عز وجل لم يُنزل القرآن على أحد ممَّنْ تشبّع بفلسفات اليونان أو الإغريق أو الفراعنة إنما أنزله على نبيٍّ أمى لا يقرأ ولا يكتب فى أمة أمية ، وهذا له حكمة بالغة لأن معنى (أمى) أى أنه لم يأخذ علماً من البشر ، بل هو كما ولدتْه أمه ، إنما جاءتْ ثقافته وعلمه من السماء .

وقد قال قتادة بن دعامة السدوسي[1] فى قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢) ﴾ [الجمعة] قال : كان هذا الحيّ من العرب أمة أمية ليس فيها كتاب يقرأونه ، فبعث الله فيهم محمداً رحمة وهُدىً يهديهم به .

وإذا كان الحق سبحانه وصف نفسه بأنه ﴿ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١) ﴾ [الجمعة] وأن ما فى السماوات والأرض مُسبّح له مُنزِّه له سبحانه ، فإنه هنا يعطينا مقتضى هذه الصفات والأسماء الحسنى .

فهو سبحانه لأنه الملك لكلِّ ما فى الدنيا ، ولكلِّ ما فى السماوات والأرض، ولكلِّ ما فى الآخرة من حساب وجنة ونار وميزان ، ولأنه سبحانه القدوس المنزَّه المطهر من العيوب والنقائص ولأنه عزيز لا يُغلب ، ولأنه حكيم يضع الأمور فى نصابها ولا يستخدم عزته سبحانه للقهر والجبروت .

---

(١) من التابعين ، يكنى أبا الخطاب بصرى ثقة كان ضرير البصر ، توفى بواسط فى الطاعون وهو ابن ست أو سبع وخمسين بعد موت الحسن البصرى بسبع سنين . روى عن أنس بن مالك ، وهو شيخ شعبة وأبى عوانة وغيرهم . كان حجة فى الحديث . [الثقات للعجلى] .

فإنه سبحانه يتجلى بكلٍ هذه الصفات على عباده فينذرهم ويحذرهم ويُبشِّرهم ويرسل إليهم الرسل بكُتُب من عنده إلى الناس ليهتدوا إلى طريق الحق .

ومن نعمته سبحانه أنه ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ .. (٢) ﴾ [الجمعة] هو لا غيره ، فإنه لا ربّ سواه ولا إله غيره يرسل الأنبياء والرسل ، وعلى مرِّ العصور والأزمان وتتابع الرسالات لم يدَّع أحدٌ النبوة أو الرسالة من عند إله آخر غير الله .

حتى الذين ادَّعَوا أنهم رسلٌ وهم ليسوا كذلك قالوا أنهم رسلُ الله أو أنبياءُ الله .

فهو سبحانه الذى بعث ، وهو سبحانه الذى أرسل ، لأنه هو سبحانه الذى خلق لا أحدَ غيره ، وهو سبحانه المتكفل بخَلْقه الذين خلقهم رزقاً وقواماً لحياتهم على الأرض ، وكذلك رسالةً ونبوة وكتاباً يهدى إلى القيم والأخلاق فى الدنيا ، ويُثيبهم الله الجنة فى الآخرة إنْ هم آمنوا .

ونلحظ أن الحق سبحانه قال ﴿ بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ .. (٢) ﴾ [الجمعة] ولم يقُلْ : أرسل إلى الأميين . فمعنى الإرسال أنه أرسل إليهم منهم أو من غيرهم ، وكذلك (بعث إلى) ولكنه سبحانه بعث فيهم ، ومعنى البعث فيه التفات إلى إعادة الحياة ، وهو هنا إعادة الحياة لدين إبراهيم وإسماعيل الذى كان فى العرب منذ أزمان طويلة .

فمعلوم أن هذه الأرض كانت غير ذى زرع ولم تكُنْ مأهولة أو بها ناسٌ ، وقد منَّ اللهُ على هذه الأرض بأنْ أوجد فيها إسماعيل بن إبراهيم وحيداً منفرداً مع أمه هاجر ، تركها إبراهيم بأمر من الله فى هذه البقعة الجرداء البعيدة عن أىِّ مصدر للماء ، ولذلك لم يعمرها الناسُ ولم يسكنوها .

ولم يسكنها الناسُ إلا بعد أن انبجستْ بئر زمزم تحت قدمى إسماعيل إلى أنْ رفع إبراهيمُ وإسماعيلُ القواعدَ من البيت وطهَّراه للعاكفين والركّع السّجود كما هو أمْر الله لهما .

يقول الحق سبحانه : ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ(١) مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (١٢٥) ﴾ [البقرة]

إذن : فبداية المقام فى هذا المكان كان لتوحيد الله وإقامة بيته ورفْع قواعده ليكون ظاهراً للناس ، وأنْ يكون آمناً ليهفو الناسُ إليه ويلجأون إليه ويسكنون حوله .

وبقيتْ مناسك الحج إلى بيت الله من طواف وسعى بين الصفا والمروة دليلاً على دين إبراهيم الأول فى هذا المكان ، ولكن مع تطاول الزمن أدخل العربُ عبادة الأصنام على يد عمرو بن لُحي(٢) ، حتى أصبحتْ الأصنام داخل بيت الله .

لهذا كانت بعثة رسول الله تُسمى بعثة ، لأنها بعثتْ دين إبراهيم وإسماعيل من جديد ليطهِّر البيت من الأصنام ويجعله خالصاً لله وحده .

لذلك قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ.. (٢) ﴾ [الجمعة] والأميون هم الذين لا يعرفون كتاباً سماوياً ، والحق سبحانه يُسمِّى العرب المعاصرين لرسول الله أميين ، أى ليس عندهم شيءٌ من أسباب العلم .

---

(١) مثابة للناس : أى يعودون إليه فهم يثوبون إلى زيارته . وقال ابن عباد فى (المحيط فى اللغة) أى مجتمعاً بعد التفرق ومعاداً . والمثاب والمثابة : البيت والملجأ . والمثابة : الموضع الذى يُثاب إليه أى يُرجع إليه مرة بعد أخرى . [تاج العروس مادة ثوب] .

(٢) هو أبو خزاعة عمرو بن لحى بن قمعة بن خندف ، قال عنه رسول الله ﷺ : « رأيت عمرو بن لحى يجر قصبه فى النار » وقال : « لأنه أول من غيَّر دين إسماعيل فنصب الأوثان وسيّب السائبة وبحر البحيرة ووصل الوصيلة وحمى الحامى » .

وهـذه الصفة ، صفة الأمية فى رسول الله ﷺ وفى أمته كانت شهادة تفوق لأنهـا أمـة لم تأخذ علمها بالقراءة عن حضـارات الأمم السابقة ، وإنما أخذتْه عـن الله لأنَّ أقصـى ما يصل إليه غير الأميين فى علمهـم أنْ يجيء إليهم العلمُ من بعضهم البعض .

ولكـن أمة محمد ﷺ جاء لها العلم من الله وسادتْ الدنيا أكثر من ألف عام، فهـذه الأميـة شرفٌ لهـم كى لا يُقـال : إنهم أصحـابُ قفزة حضاريـة من أمة متمدينـة ، وكانـت هذه الأميـةُ ملفتةً لأنَّ ما جاء فى تلـك الأمة من تشريعات وقفت أمامه الأمم الأخرى إلى زماننا هذا باندهاش وتقدير .

والله عـز وجـل إنما بعـث فى هؤلاء الأميـين واحداً منهم أميـاً مثلهم ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ.. (٢) ﴾ [الجمعة]

ويقـول عنه الحـق سبحانه : ﴿ وَمَـا كُنْتَ تَتْلُو مِـنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَـابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ (٤٨) ﴾ [العنكبوت]

فما كنتَ تقرأ من قبله ، وما كنتَ تكتب ، وفرْقٌ بين أنْ تقرأ وبين أنْ تكتب ، فقد تقرأ لأنك تحفظ ، وتحفظ نتيجة السماع ، أما أنْ تكتبه فهذا شيء آخر .

فلو كان عنده ﷺ شيءٌ من القراءة أو الكتابة لكان لهم عذر ولكانَ فى الأمر شبهة تدعو إلى الارتياب فى أمرك ، لذلك وصفه ربُّه عز وجل بأنه ﴿ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ.. (١٥٧) ﴾ [الأعراف]

وإياك أنْ تظن أنَّ الأميةَ عيبٌ فى رسول الله ، فإنْ كانت عيباً فى غيره فهى فيه شرفٌ، لأنَّ معنى أُميّ يعنى على فطرته كما ولدتْه أمه لم يتعلم شيئاً من أحد .

وكذلك رسول الله لم يتعلَّم من الخَلْق ، إنما تعلَّم من الخالق فعلَتْ مرتبته عن

الخَلْق ، وقد كانت هذه دعوة إبراهيم عليه السلام فقال : ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٢٩) ﴾ [البقرة]

فإبراهيم عليه السلام دعا الله سبحانه وتعالى ليُتمّ نعمته على ذريته ويزيد رحمته على عباده بأنْ يرسلَ لهم رسولاً يُبلغهم منهج السماء حتى لا تحدث فترةُ ظلام فى الأرض تنتشر فيها المعصية والفساد والكفر ويعبد الناسُ فيها الأصنامَ كما حدث قبل إبراهيم .

ومعنى ﴿ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ .. (١٢٩) ﴾ [البقرة] أى : يتلو عليهم آيات القرآن الكريم . ثم يقول ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ .. (١٢٩) ﴾ [البقرة] يجب أنْ تعرف أنَّ هناك فرقاً بين التلاوة وبين التعليم ، فالتلاوة هى أنْ تقرأ القرآن ، أما التعليم فهو أنْ تعرف معناها وما جاءت به لتُطبِّقه وتعرف من أين جاءت .

وإذا كان الكتاب هو القرآن الكريم ، فإن الحكمة هى أحاديث رسول الله ﷺ التى قال الحق سبحانه فيها فى خطابه لزوجات النبى ﴿ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ .. (٣٤) ﴾ [الأحزاب]

وفى آية أخرى يقول الحق سبحانه : ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (١٥١) ﴾ [البقرة]

فمؤدّى تلاوة آيات الله هى التزكية أى التطهير ، فآيات الله تطهر النفوس والقلوب من الدنس الذى قد يعلَق بها ، فطهَّرهم من عبادة الأصنام ومن وأْد البنات والخمر والميسر والربا . ومعنى التزكية أيضاً سَلْبُ المضار فكأنه جاءهم بالنفع وسلب منهم الضر .

وهو عندما يُزكّيهم ويُطهرهم إنما يقودهم إلى طريق الخير وتمام الإيمان، وهذا بتعليمهم الكتاب والحكمة ، والكتاب على إطلاقه ينصرف إلى القرآن الكريم، والحكمة هى وَضْع الشيء فى موضعه .

والكتاب يعطيك التكليف إما أنْ يأمرك بشيء ، وإما أنْ ينهاك عن شيء ، فهى دائرة بين الفعل والترك .

والحكمة أن تفعل الفعل الذى يُحقق لك خيراً أو يمنع عنك شراً ، وهى مأخوذة من الحَكمة[1] أو الحديدة التى تُوضع فى فم الجواد لتحكم حركته فى السير والوقوف ، وتصبح كل حركة تؤدى الغرض منها .

وقوله سبحانه : ﴿ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (١٥١) ﴾ [البقرة] لأنكم أمة أمية ، فإنْ بهرتكم الدنيا بحضارتها فستبهرونهم بالإشعاعات الإيمانية التى تجعلكم متفوقين عليهم ، فكلُّ ما يأتيكم من السماء هو فوق كلِّ حضارات الأرض .

ونحن عندما ننظر إلى مقاصد بعْث رسول الله وإرساله نجدها مذكورة فى الآية الكريمة ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ .. (٢) ﴾ [الجمعة]

فأول هذه المقاصد تلاوة آيات الله يقول تعالى : ﴿ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ.. (٢) ﴾ [الجمعة] ، وحدث التلاوة ليس قاصراً على رسول الله فقط ، بل هو جاء أيضاً فى حق الله سبحانه .

يقول تعالى : ﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٢٥٢) ﴾ [البقرة] ويقول أيضاً ﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ

---

(١) الحَكَمة : حديدة تُجعل على حنك الفرس تمنعه من الجرى. فلما كانت الحكمة تأخذ بفم الدابة وكان الحنك متصلاً بالرأس جعلها رسول الله تمنع مَنْ هى فى رأسه من الكبر كما تمنع الحكمة الدابة من الفساد والجرى (ابن الأنبارى فى الزاهر فى معانى كلمات الناس) (١/ ٣٤٤) .

(١٠٨) ﴾ [آل عمران] ويقول : ﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ (٦) ﴾ [الجاثية]

فتلاوة الله لآياته على رسوله تُثبِّت رسوله الكريم أنه من المرسلين للناس بآيات الله وكلماته ، وهو يدل على مدى اعتناء الله سبحانه بهداية البشر إلى طريق الحق ، فالله سبحانه لا يريد ظلماً للعالمين .

فهو سبحانه يُبلغهم رسالاته وكلامه عن طريق رسله لئلا تكون لهم الحجة يوم القيامة أنهم لم تبلغهم كلمات الله ، لا إنه يتلوها على رسله ليبلغوها إلى الناس بالحق كما بلَّغها لهم ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ (٦) ﴾ [الجاثية]

فالحق سبحانه لمطلق عدله ورحمته بعباده يرسل إليهم رسله بكتبه وصحفه ولا يُعذّب أحداً دون أن تصله إنذاراتُ الله وبشاراته . يقول تعالى ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا.. (٥٩) ﴾ [القصص]

ومعنى ﴿ أُمِّهَا ﴾ أى أم القرى ومنها مكة المكرمة كأم وكأصل للقرى، وتُسمّى مكة المكرمة (أم القرى) لأن كل القرى تزورها ، والقرية لا تُطلق إلا على مكان تتسع فيه مقومات الحياة اتساعاً يكفى لمَنْ يطرأ عليها من الضيوف فيجد بها قِرى[1] ، فإنْ كانت قرية كبيرة يأتيها الرزق الوفير من كل مكان كأنها أم نسميها (أم القرى) .

والحق سبحانه لا يُعذِّب أحداً إلا بعد أنْ يرسل له رسولاً يُبلغه أمر الله بافعل أو لا تفعل ، يقول الحق سبحانه ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً (١٥) ﴾ [الإسراء]

---

(١) القَرْىُ : الإحسان إلى الضيف ، قراه يقريه قِرَىً . والمقارى فى بعض الأشعار جفان يُقرى فيها الأضياف . [العين للخليل بن أحمد] وقريت الماء فى المقراة : جمعته . وسميت القرية قرية لاجتماع الناس فيها . والمقراة : الجفنة سُميت لاجتماع الضيف عليها أو لما جُمع فيها من الطعام [مقاييس اللغة] .

والله عزَّ وجل إنما أمر رسوله بأنْ يتلوَ القرآن ، يقول تعالى : ﴿ وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ.. (٢٧) ﴾ [الكهف] ويقول فى آية أخرى ﴿ اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ .. (٤٥) ﴾ [العنكبوت]

فاقرأ يا محمد واتْل القرآن وداوم أنت على تلاوته وإنْ كذَّبوا به ، لعلَّ الله يأتى من هؤلاء بذرية تصفو قلوبهم لاستقبال إرسال السماء فيؤمنون بما جحده هؤلاء ، والأمر بالتلاوة لبقاء المعجزة .

فاقرأ ولا تعجز ولا تيأس ، فالقرآن سلوةُ نفسك ، وما دام قومك قد كذَّبوك فارجع إليّ بأنْ تستمع إلى كتابى الذى أنزلته معجزةً لك تُؤيِّدك ، وانتظر قوماً يأتون يسمعون منك كلام الله فيصادف منهم قلوباً صافية فيؤمنون به .

وهذه هى ميزة معجزتك يا محمد أنك تستطيع أنْ تُكرِّرها فى كل وقت وأنْ تتلوها كما تشاء وأنْ يتلوها بعدك مَنْ سمعها وستظل تتردد إلى يوم القيامة .

والمسألة ليست أنه يتلو الآيات ليُعجبوا منها فحسب ، لا فالرسول له مهمة إيمانية تلفت كلَّ سامع للقرآن إلى مَنْ خلق ذلك الكون الجميل البديع الذى فيه الآيات العجيبة .

ثم يعطى الرسول من بعد ذلك المنهج الذى يناسب جمال الكون . إذن : فالرسول ينقل المؤمنين إلى المنهج الذى يُزكِّى الإنسان .

وقوْل الحق سبحانه : ﴿ وَيُزَكِّيهِمْ.. (٢) ﴾ [الجمعة] فأنت تعرف أنَّ يُزكيهم من الزكاة ، والزكاة أول معانيها التطهير والتنقية والنماء ، والآيات التى جاء بها رسول الله ﷺ إنما جاءتْ لتزكيهم .

وهذا التطهير لمصلحة المطهِّر أو المطهَّر ؟ إنه لمصلحة المطهَّر ، التنقية والنماء

لمصلحتكم أنتم ، فالتنقية لصالحنا ، والتطهير لصالحنا ، والنماء لصالحنا .

والتزكيـة هى تطهير وتنقية ونماء ، والتزكيـة تزكية فى الإنسان نفسه فى ذاته ، بدلاً من أنْ يكذب لسانه طهَّره عن الكذب ، بدل أنْ تمتد عينُه إلى محارم غيره طهَّر عينه من النظر للمحرمات ، وبدلاً من أنْ تمتدَّ يده خُفية وتسرق فهو لا يفعل ذلك .

الحق سبحانه يريد طهارةَ الإنسان والذرية التى تأتى ، وأنْ يجعل لها وعاءً شريفاً عفيفاً وإطاراً لا تشوبه شائبة ، فجاء المنهج ليُزكيكم فى كلِّ شيء يُزكى حركات جوارحكم ، فلا تتجه الحركة إلا لتحقق المطلوب منها عند مَنْ خلقها .

فالخالق قد أوضح : يا عين حدودك كذا ، يا لسان حدودك كذا ، يا يد حدودك كذا ، يا رجْل حدودك كذا ، يا قلب حدودك كذا . وهكذا نرى أنَّ المنهج قد جاء يُزكيكم . أى : يُطهركم ويُنقيكم ويُنميكم فى كلِّ مجال من مجالات الحياة .

والتزكيـة لابدّ أنْ تقترن بتعليم الكتاب والحكمة ، فهنا أمور ثلاثة : تلاوة القرآن ، والتزكيـة ، ثم تعليم الكتاب . أى : تعليمهم ما جاء فى هذا الكتاب ، يُعلمهم وينذرهم .

والرسول لا يُعلمهم الكتاب فقط بل أيضاً يُعلمهم الحكمة ، وهى أحاديث رسول الله ، قال تعالى : ﴿ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللهِ وَالْحِكْمَةِ .. (٣٤) ﴾ [الأحزاب] فآيات الله آيات القرآن الكريم ، والحكمة أى حديث رسول الله وسُنته .

والحكمة تقتضى أنْ نعرف إلى أىِّ الطرق نهتدى ونسير ، ويقول الحق سبحانه : ﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا .. (٢٦٩) ﴾ [البقرة]

والحكمة هى وَضْع الشيء فى موضعه النافع ، فكأن الحق سبحانه يقول: كلّ ما أمرتكم به هو عيْن الحكمة لأنّى أريد أنْ أؤمِّن حياتكم الدنيا ، وأؤمِّن لكم سعادة الآخرة ، فإنْ صنع العبدُ المؤمن ما يأمر به الله فهذا وَضْع الأشياء فى موضعها ، وهو أخْذٌ بالحكمة .

هؤلاء الأُميون الذين بعث الله فيهم رسولاً منهم ليتلو عليهم آيات الله ويُزكيهم ، ويُعلمهم الكتاب والحكمة ، هؤلاء ﴿ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ (٢) ﴾ [الجمعة]

فما هو الضلال ؟ يقولون : ضَلَّ فلانٌ الطريق أى مشى فى مكان لا يُوصِّله للغاية أو يوصل إلى ضد الغاية ، فالضلال فى الدنيا والأمور المادية قد لا تُوصلنى لغايتى المرجوة ، لكن فى الأمر القيمى ماذا يفعل ؟

إنه لا يُوصلك إلى الغاية المرجوة وهى الجنة فحسب ، ولكنه يوصل للمقابل وهو النار ، هذا هو الضلال المبين ، إنه ضلالٌ واضح ظاهر ، وهو ضلالٌ يعرفه صاحبه .

فالضلال المبين الغيبة عن الحق ، وهو مبين أى محيط فى صورة لا يمكن النفاذ منها ، وهو أيضاً ضلالٌ مقصود وهو أن يعرف الإنسانُ طريقَ الحق ويذهب إلى الباطل ، وهناك ضلال غير مقصود مثل ضلال رجل يمشى فيسلك طرقاً لا يعرفها فيضلّ عن مقصده .

وقد وصف جعفر بن أبى طالب[1] رضى الله عنه وضع العرب قبل بعثة

---

(١) هو جعفر بن أبى طالب بن عبد المطلب بن هاشم ، صحابى ، يقال له جعفر الطيار وهو أخو على بن أبى طالب ، وكان أسنّ من على بعشر سنين ، أسلم قبل دخول النبى دار الأرقم ، هاجر إلى الحبشة الهجرة الثانية ، قطعت يداه اليمنى ثم اليسرى وهو حامل الراية فى غزوة مؤتة حتى وقع شهيداً فقيل: إن الله عوضه عن يديه جناحين فى الجنة . توفى عام ٨ هجرية [الأعلام للزركلى ٢/١٢٥] ..

رسول الله ، وذلك فى موقفه أمام النجاشى ملك الحبشة فى الهجرة للحبشة .

قال : « أيها الملك كنَّا أهلَ جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتى الفواحش ونقطع الأرحام ونُسيء الجوار ، ويأكل القويّ منّا الضعيف . فكنّا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان .

وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام فصدّقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من الله وحده لا نشرك به شيئاً ، وحرّمنا ما حرّم علينا ، وأحلّنا ما أحلّ لنا »(١) .

وهذا وصف لحالة ضلال العرب قبل بعثة رسول الله ، وما أثّرتْ بعثته ﷺ فيهم من تزكية وتطهير .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ﴾

فإذا كان الحق سبحانه قد قال فى الآية السابقة ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ .. (٢) ﴾ [الجمعة] فى شأن قوم رسول الله ﷺ وفى شأن العرب ، فإنَّ رسالة محمد لم تكن للعرب فقط ، إنما كانت للعالمين أجمعين .

---

(١) أورده ابن الأثير فى كتابه (الكامل) (١/٢٦٦) باب ذكر إرسال قريش إلى النجاشى فى طلب المهاجرين (أى إلى الحبشة) وذلك أن قريشاً أرسلت عمرو بن العاص وعبد الله بن أبى أمية ليرد النجاشى عليهم من هاجر من المسلمين ، فمن كلامهما أنهم جاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم . فكان أن النجاشى سألهم : ما هذا الدين الذى فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا فى دينى ولا دين أحد من الملل ؟

لقد كانت رسالة محمد ﷺ للعرب وغير العرب ، كتابيين وغير كتابيين ، لذلك قال تعالى : ﴿وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣)﴾ [الجمعة]

وفى هذا جاء حديث رسول الله الذى رواه لنا أبو هريرة رضى الله عنه : «كنا جلوساً عند النبى ﷺ فنزلت عليه سورة الجمعة ، فلما قرأ ﴿وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ.. (٣)﴾ [الجمعة] قال رجل : مَنْ هؤلاء يا رسول الله ؟

قال : فلم يراجعه النبى ﷺ حتى سأله مرة أو مرتين أو ثلاثاً . قال : وفينا سلمان الفارسى ، فوضع النبى ﷺ يده على سلمان فقال : « لو كان الإيمانُ عند الثريا لناله رجال من هؤلاء»[١] .

والثريا نجم فى السماء كانوا يهتدون به فى الصحراوات والفلوات حتى أن العربى كان يقول مثلاً : اجعل الثريا عن يمينك أو النجم القطبى أو سهيل أو غيرها، وقد قال الحق سبحانه : ﴿ وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (١٦)﴾ [النحل]

فلو كان الإيمانُ عند الثريا أو مُعلَّقاً بالثريا لناله وتناوله رجلٌ من هؤلاء أى أبناء فارس أو الأعاجم عامة ، وذلك لعلو همتهم وعزيمتهم فى الأخْذ بالإيمان .

وسلمان الفارسي[٢] كان له دور عظيم فى نصرة الإسلام فى غزوة الخندق ، والحديث لا يقصد سلمان ولكنه يعنى (رجل من هؤلاء) أى : لقوم يأتون بعد سلمان وغيره رضى الله عنهم .

---

(١) متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٨٩٧) وكذا مسلم فى صحيحه (٦٦٦٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه . وكذا أحمد فى مسنده (٩٣٩٦) .

(٢) سلمان الفارسى : أصله من مجوس أصبهان ، عاش عمراً طويلاً ، قرأ كتب الفرس والروم واليهود ، قصد بلاد العرب فلقيه ركب من بنى كلب فاستخدموه ثم استعبدوه وباعوه وأعانه المسلمون على شراء نفسه من صاحبه ثم أسلم ، هو الذى أشار بحفر الخندق . توفى عام ٣٦ هجرية . [الأعلام للزركلى ٣/٣١١] .

والحق سبحانه لم يحرم العجم من الفضل ، بل إن رسول الله ﷺ حين قال لسلمان الفارسى : « سلمان منا آل البيت »[١] لم يقل له : أنت من العرب ، لا بل نسبه لآل البيت .

أى نسبه إلى إرث النبوة بما يتطلبه هذا الإرث من تطبيق المنهج بتمامه ، فليس هذا الإرث بالدم إنما بتطبيق المنهج نصاً وروحاً .

وقد سعى منهم الكثيرون بحثاً عن الحق ، ومنهم سلمان الفارسى الذى رأى رسول الله فى المدينة ، ورأى منه علامات كثيرة أحبّ أنْ يرى فيه علامة مادية يعرفها عن نبيٍّ آخر الزمان ، فرأى فى كتف رسول الله ﷺ خاتم النبوة .

لذلك لما بلغ سلمان الفارسى أن بمكة نبياً جديداً ذهب إلى سيدنا رسول الله وأخذ يتأمله وينظر إليه بإمعان فوجد فيه علامتين مما ذكرت الكتب السابقة وهما أنه ﷺ يقبل الهدية ولا يقبل الصدقة .

فراح ينظر هنا وهناك لعله يرى الثالثة ، ففطن إليه رسول الله ﷺ بما آتاه الله من فطنة النبوة التى أودعها اللهُ فيه ، وقال : لعلك تريد هذا ، وكشف له عن خاتم النبوة ، وهو العلامة الثالثة[٢] .

---

(١) أخرجه الحاكم فى مستدركه (٦٥٤١) والطبرانى فى المعجم الكبير (٦٠٤٠) قال الهيثمى فى مجمع الزوائد (٦/١٨٩) (١٠١٣٧) : « رواه الطبرانى وفيه كثير بن عبد الله المزنى وقد ضعفه الجمهور وحسَّن الترمذى حديثه وبقية رجاله ثقات ». والحديث « أن رسول الله ﷺ خط الخندق عام حرب الأحزاب حتى بلغ المذاجح فقطع لكل عشرة أربعين ذراعاً فاحتج المهاجرون : سلمان منا . وقالت الأنصار : سلمان منا . فقال رسول الله ﷺ : سلمان منا أهل البيت ».

(٢) أخرجه الحاكم فى مستدركه (٦٥٤٤) من حديث طويل عن سلمان الفارسى وفيه : فلما كانت الساعة التى أخبرتنى المرأة يجلس فيها هو وأصحابه خرجت أمشى حتى رأيت النبى ﷺ فإذا هو يحتبى، وإذا أصحابه حوله فأتيته من ورائه فعرف النبى ﷺ الذى أريد فأرسل حبوته فنظرت إلى خاتم النبوة بين كتفيه ، فقلت : الله أكبر . قال الحاكم : صحيح الإسناد . قال الذهبى : عبد القدوس ساقط .

ومن هؤلاء الذين قال الله فيهم (وآخرين منهم) صهيب الرومي[١] رضى الله عنه أبو يحى ، وقد كان فى مكة وقد كبر سِنّه وأسلم وأراد أنْ يهاجر ، فقال له الكفار : لقد جئتَ مكة فقيراً وآويناك إلى جوارنا ، وأنت الآن ذو مال كثير وتريد أنْ تهاجر بمالك .

فقال لهم : أإذا خليتُ بينكم وبين مالى أأنتم تاركونى ؟ فقالوا : نعم . قال : تضمنون لى راحلة ونفقة إلى أنْ أذهب إلى المدينة ؟ قالوا : لكَ هذا[٢] .

إنه قد شرى نفسه بهذا السلوك واستبقاها إيمانياً بثروته ، فلما ذهب إلى المدينة لقيه أبو بكر وعمر فقالا له : ربح البيع يا أبا يحى . قال : وأربح الله كل تجارتكم . وقال له سيدنا أبو بكر وسيدنا عمر : إن رسول الله ﷺ أخبرنا أن جبريل أخبره بقصتك[٣] .

ويُروى أن الرسول قال له : ربح البيعُ أبا يحى .

فدعوة الإسلام عامة وليست خاصة بالعرب، ولذلك كتب رسول الله ﷺ كتباً

---

(١) صهيب الرومى : هو صهيب بن سنان بن مالك ، من بنى النمر بن قاسط ، وُلد ٣٢ ق . هـ ، صحابى من أرمى العرب سهماً ، وهو أحد السابقين إلى الإسلام ، ولد صهيب بالموصل فأغارت الروم على ناحيتهم فسبوا صهيباً وهو صغير فنشأ بينهم فكان ألكن ، أسلم وأقام بمكة واشتغل بالتجارة ، توفى بالمدينة ٣٨ هجرية [الأعلام للزركلى ٣/٢١٠] .

(٢) أورده الذهبى فى سير أعلام النبلاء (٢/٢٣) ، وابن الجوزى فى صفة الصفوة (١/١٧٠) ، وابن سعد فى (الطبقات) (٣/١٩٣) . قال صهيب : خرج رسول الله ﷺ إلى المدينة وقد كنت هممت بالخروج معه، فصدنى فتيان من قريش فجعلت ليلتى تلك أقوم لا أقعد . فقالوا : قد شغله الله عنكم ببطنه ولم أكن شاكياً فناموا فذهبت فلحقنى ناس منهم على بريد . فقلت لهم : أعطيكم أواقى من ذهب وتخلونى ؟ ففعلوا فقلت : احفروا تحت أسكفة الباب تجدوها وخذوا من فلانة الحلتين ، وخرجت حتى قدمت على رسول الله ﷺ قباء ، فلما رآنى قال : يا أبا يحى ربح البيع . ثلاثاً . فقلت : ما أخبرك إلا جبريل .

(٣) أورده السعدى فى تفسيره (١/١٨٢) من قول ابن عباس وأنس أن عمر بن الخطاب تلقاه إلى طرف الحرة فقالوا له : ربح البيع . فقال : وأنتم فلا أخسر الله تجارتكم وما ذاك ؟ فأخبروه أن الله أنزل فيه هذه الآية ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ .. (٢٠٧)﴾ [البقرة] .

إلى فارس والروم وغيرهم من الأمم يدعوهم إلى الله عز وجل وإلى اتباع ما جاء به[١] .

فالإسلام دعوة عالمية لكل زمان ولكل مكان ، فالدعوة ظلت تتسع فى بعض العشائر والبطون إلى أنْ دالتْ عاصمة الكفر ، وصارت مكةُ بيتَ الله الحرام كما شاء الله ، وأسلمتْ الجزيرة كلها لمنهج الله ، وأرسل ﷺ الكتب إلى الملوك والقياصرة ، وكلها تتضمن قوله ﷺ « أسلم تسلم »[٢] .

ودلتْ هذه الكتب على أن الدعوة الإسلامية هى دعوة ممتدة لكلِّ الناس ، تطبيقاً لما قاله الحق سبحانه لرسول الله أنه « رسول للناس كافة ».

قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا .. (٢٨) ﴾ [سبأ] لذلك أرسل رسول الله إلى حكام العالم المعاصرين له دعوة لدخول الدين الخاتم ، وقد ترك رسولُ الله تلك المهمة لمن يخلفونه ، ودعا ﷺ الجزيرة العربية تحت لواء (لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله) بعد أنْ كانت قبائلَ متعددة .

وهكذا صارت القبائل أمة واحدة بعد أنْ جمعهم محمد رسول الله فى وحدة

---

(١) أرسل رسول الله ﷺ هذه الكتب إلى الملوك فى أول سنة ٤ هجرية وبعث إليهم يدعوهم إلى الله واتخذ خاتماً من فضة نقش فيه [محمد رسول الله] ليختم به الكتب ، فبعث رسول الله عبد الله بن حذافة إلى كسرى بكتاب فأمره أن يدفعه إلى عظيم البحرين ليدفعه إلى كسرى ، وبعث دحية بن خليفة الكلبى إلى قيصر وهو هرقل ملك الروم وأمره أن يدفع الكتاب إلى عظيم بصرى فدفعه إلى هرقل ، وبعث حاطب بن أبى بلتعة إلى المقوقس صاحب الإسكندرية ، وبعث عمرو بن أمية الضمرى إلى أصحم بن أبجر النجاشى ، فأما كسرى فمزق كتاب رسول الله فقال رسول الله لما بلغه ذلك : « مزق الله ملكه إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده » .

(٢) كان نص كتاب رسول الله : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد فإنى أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، وإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين و﴿ يَـٰٓأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٦٤) ﴾ [آل عمران] ». أخرجه مسلم فى صحيحه (٤٧٠٧) وكذا البخارى فى صحيحه (٤٥٥٣) .

التكامل العقدى تحت لواء وراية الإسلام ، وهذه الأمة الأمية قال فيها الحق سبحانه : ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ.. (٢) ﴾ [الجمعة]

وبعد رحيله ﷺ إلى الرفيق الأعلى انساح صحابته بالدين الخاتم فى الدنيا كلها ، وخلال نصف قرن من الزمان صار للإسلام جناحان : جناحٌ فى الشرق ، وجناحٌ فى الغرب .

وهزم الإسلامُ أكبر امبراطوريتين متعاصرتين له ، هما امبراطورية فارس بحضارتها وامبراطورية الروم ، وكانت البلاد تتخطف الإسلام كمنهج حياة .

حدث بعد ذلك أنْ حارب الإسلامُ الامبراطوريتين فى آن واحد وأقبل الناسُ على الإسلام ليتحققوا من معجزته التى لمسوها فى خلق مَنْ سمعوا القرآن وحملوا رسالته ، ثم فى اكتشافهم لعدالة القرآن فى إدارة حركة الحياة .

وهكذا اكتشفوا أن معجزة الإسلام عقلية ، وأن رسوله ﷺ هو الرسول الخاتم الذى لم يأتِ لهم بمعجزة حسِّية ، وإذا كان القرآنُ معجزة فى اللغة للقوم الذين نزل فيهم رسول الله ، فالقرآن لمَنْ لم يعرفوا لغة القرآن كان معجزة فى العدالة والقيم النابعة منه .

وكان الناسُ يندفعون إلى الإسلام بقوة دَفْع من المؤمنين به وبقوة جَذْب من غير المؤمنين حين يروْنَ ألاّ فرْقَ بين الأمير وأصغر فرد تحت رايته ، وحين يلمسون عدالته ومساواته بين البشر .

ولم يكُن الإسلامُ معجزةً لقومه فقط بل لكلّ الدنيا ، ويتحقق دائماً قوْل الحق سبحانه: ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ.. (٥٣) ﴾ [فصلت]

ونجد مفكراً كبيراً من الغرب المعاصر يعلن إسلامه ، رغم أنه لم يقرأ القرآن

بـل نظر فقط فـى المبادىء التـى قنَّنها الإسـلام وكيف أنها تحمـل حلولاً لما عجزتْ عنه الحضارات المتعاقبة وأهل القوانين فى كل بلاد الأرض .

وفى مجال العلوم درس الألمانُ عملية إدراكات الحسِّ وكيف يشعر الإنسانُ بالألم ؟ وكيف يلمس الإنسانُ ببشرته شيئاً بملمس ناعم فيُسر منه ، ثم يلمس شيئاً خشناً فيتأذى منه .

واستمر الألمان يدرسون ذلك لسنوات كى يعرفوا مناط الإحساس وموقعه فى الإنسـان ، هل هو فـى المخ أم أين ؟ إلى أن انتهوا إلى أن مناط الإحساس فى كلّ إنسـان هو فى الجلد ، وأنها خلايا منبسطة تحت الجلد مباشرة ، بدليل أن الإبرة حين نغرزها فى جسم الإنسان فهو يتألم فقط فى منطقة دخولها وليس أكثر .

ولفـتَ ذلـك نظر أحد العلماء ، فقـال : لقد تحدّث القرآنُ عـن ذلك حين قال : ﴿ كُلَّمَا نَضِـجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا (٥٦) ﴾ [النساء]

ومـن الأمثلة المعاصرة فى العلوم الجنائية قصـة شاب مسلم من سوهاج سافر إلى ألمانيا ليعد رسالة الدكتوراة فى القانون ووجدهم يقفون عند قضية التعسـف فـى استعمال الحـق[1] ويعتبرونها مـن أهم الإنجـازات القانونية فى القرن العشرين .

فأوضـح لهم هذا الشاب أن الإسلام قد سبقهـم فى تقدير هذه المسألة ووضْع الحكـم المناسب فيهـا من أربعة عشر قرناً من الزمـان ، وروى لهم أن رجلاً جاء

(١) يقصد بها فى الشرع : « استعمال الحق لتحقيق مصلحة غير مقصودة شرعاً ، أو للإضرار بالغير مما يفوت مقصد الشارع من تشريع الحق » . وهى قاعدة إسلامية صرفة جاء بها القرآن والسنة ، ويتفرع عنها قواعد فقهية عديدة لمنع التعسف فى استعمال الحق ، منها قصد الإضرار ، مثل من يراجع امرأته لا رغبة فيها ولكن قصد الإضرار بها ، وكذلك من يستعمل حقه فى الوصية لا رغبة فى هذا بل إضراراً بالورثة والدائنين ، وكذلك من يقصد غرضاً غير مشروع كالذى يتزوج امرأة – وهذا حقه – ولكن قصده تحليلها لزوجها الأول لطلاقها ثلاثاً . [الفقه الإسلامى وأدلته – د. وهبة الزحيلى] .

إلى رسول الله ﷺ قائلاً : إن لفلان عندى فى ساحة بيتى نخلة ، وهو يدخل بيتى كلّ ساعة بحجة رعاية تلك النخلة ، مرة بدعوى تأبيرها ، وأخرى بدعوى جنى ثمارها ، وثالثة بدعوى الاطمئنان عليها حتى جعل النخلة شُغله الشاغل .

وشكا الرجلُ للرسول ﷺ أنه يتأذّى هو وأهل بيته من اقتحام الرجل للحياة الخاصة له ، فأرسل ﷺ إلى صاحب النخلة وقال له : أنت بالخيار بين ثلاثة مواقف ، إما أن تهبه النخلة – وتلك منتهى الأريحية – وإما أنْ تبيعها له ، وإما قطعناها[١] .

وهكذا وضع ﷺ قواعد للتعامل فيما يسمى «التعسف فى استعمال الحق». لذلك كان القرآن مُعجزاً مؤثراً فى إيمان غير العرب وإسلامهم لآثاره فى التطبيق ، لا لأنهم عرب أو قرأوا القرآن ، لذلك كان قوْل الحق سبحانه :

﴿ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ.. (٣) ﴾ [الجمعة]

وقد ذهب العلماءُ إلى أن المقصود بهؤلاء هم الأعاجم ، وقال آخرون : إنما عنى بذلك جميع مَنْ دخل فى الإسلام من بَعْد النبى ﷺ ، كائناً مَنْ كان إلى يوم القيامة .

حتى أن الطبري[٢] قال : أوْلَى القولين فى ذلك بالصواب عندى قول مَنْ قال:

---

(١) عن سمرة بن جندب أنه كانت له عضد من نخل فى حائط رجل من الأنصار . قال ومع الرجل أهله قال: فكان سمرة يدخل إلى نخله فيتأذى به ويشق عليه فطلب إليه أن يبيعه فأبى ، فطلب إليه أن يناقله فأبى فأتى النبى فذكر ذلك له فطلب إليه النبى أن يبيعه فأبى فطلب إليه أن يناقله فأبى . قال: فهبه له ولك كذا وكذا . أمراً رغَّبه فيه فأبى فقال : أنت مُضارّ . فقال رسول الله للأنصارى : اذهب فاقلع نخله . أخرجه أبو داود فى سننه (٣٦٣٨) .

(٢) الطبرى : هو محمد بن جرير بن يزيد الطبرى أبو جعفر مؤرخ مفسر إمام ، ولد فى آمل طبرستان عام ٢٢٤ هـ ، استوطن بغداد وتوفى بها ٣١٠ هـ عن ٨٦ عاماً . رفض تولى القضاء والمظالم ، له (أخبار الرسل والملوك) و (جامع البيان فى تفسير القرآن) ، من ثقات المؤرخين ، كان أسمر أعين نحيف الجسم فصيحاً . [الأعلام للزركلى ٦/٩٦] .

عُنى بذلك كل لاحق لحق بالذين كانوا صحبوا النبى ﷺ فى إسلامهم من أىِّ الأجناس . ولم يخصص منهم نوعاً دون نوع ، فكلُّ لاحق بهم فهو من الآخرين الذين لم يكونوا فى عداد الأولين الذين كان رسول الله يتلو عليهم آيات الله[1] .

وهذه الآية معجزة من معجزات القرآن لأنها تُنبئنا أن الإسلام سينتشر ولن يقف مدُّه عند حدود العرب فقط ، بل سيشمل الجميع وستتسع رقعة الإسلام شرقاً وغرباً .

فقوله سبحانه ﴿ لَّمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ.. (٣) ﴾ [الجمعة] أى : لم يجيئوا بعد وسيجيئون .

وهذا مثْل قوله تعالى : ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ.. (٣٩) ﴾ [يونس] أى : لم يعرفوا بمراميه وبمجرد أنْ سمعوا عن رسالته ﷺ فجأة اتهموه بالكذب والعياذ بالله .

فهؤلاء القوم قد كذّبوا من قبل أنْ يأتى لهم التأويل ، كذلك ﴿ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ.. (٣) ﴾ [الجمعة] أى ممَّنْ آمن وأسلم ﴿ لَّمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ.. (٣) ﴾ [الجمعة] أى: لم يأتوا بعد وسيأتون .

ومن أدوات النفى (لم) مثل قولنا : « لم يجيء فلان » ، ونقول أيضاً : لما يجيء فلان ، والنفى فى الأولى جزم غير متصل بالحاضر ، كأنه لم يأتِ بالأمس .

أما النفى بـ (لما) فيعنى أن المجيء مُنتفٍ إلى ساعة الكلام أى الحاضر ، وقد يأتى من بعد ذلك لأن (لما) تفيد النفى وتفيد توقّع الإثبات .

والحق سبحانه يقول عن الأعراب ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن

(١) قاله الطبرى فى تفسيره للآية [الجمعة ٣] [المجلد ٢٢ / ٦٣١] طبعة دار هجر القاهرة .

قولوا أسلمنا.. (١٤) ﴾ [الحجرات] فهم لم يؤمنوا ، وحين سمعوا قول الله بعده ﴿ وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ.. (١٤) ﴾ [الحجرات] قالوا : الحمد لله لأن معنى ذلك أن الإيمانَ سوف يدخل قلوبهم .

وكذلك قوْل الحق سبحانه : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ (١٤٢) ﴾ [آل عمران]

فحين سمعوا ذلك قالوا : إذن وثقنا أنه سيأتى علم الله سبحانه بنا كمجاهدين وصابرين ، وهكذا نعرف أنَّ (لما) تعنى أن المنفى بها متوقّع الحدوث .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ.. (٣) ﴾ [الجمعة] وقد ناسب هنا الإتيان باسم الله (العزيز) فالعزة الغلبة . والآية تُحدّثنا عن نصرة الإسلام وظهوره على الدين كله واتساع رقعته وغلبته ، فناسب هذا أنه سبحانه عزيز .

يقول تعالى : ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ (٥١) ﴾ [غافر] وهو مع عزته وغلبته وقوته ونصره للمؤمنين به على أعدائهم هو أيضاً (الحكيم) ، والحكمة وضع الشيء فى مكانه وموضعه ليؤدى مهمته، فهو سبحانه يصنع كل شيء بحكمة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤﴾ ﴾

(ذلك) كلمة تتكوَّن من اسم الإشارة (ذَا) ثم اللام التى للبُعْد ، ثم (ك) التى للخطاب . واسم الإشارة هنا إنما يشير إلى ما جاء فى الآيات قبل ، وهو قوله تعالى ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ.. (٢) ﴾ [الجمعة]

فاسم الإشارة (ذَا) يشير إلى نبوّة رسول الله ﷺ ، فنُبوته فضْل تفضَّل به الله على محمد أولاً ثم على أمته ﴿ بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ.. (٢) ﴾ [الجمعة] ثم على العالمين ﴿ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ.. (٣) ﴾ [الجمعة]

والفضل هو الأمر الزائد عن حاجتك الضرورية ، ولذلك يقول رسول الله ﷺ: « مَنْ كان معه فضْل ظهر فيلعُدْ به على مَنْ لا ظهر له ، ومَنْ كان معه فضْل زاد فليعُدْ به على مَنْ لا زاد له »[١] .

وفضْل مال أى مال زائد على حاجته ، هذا عن الفضل بالنسبة للبشر ، أما بالنسبة لله سبحانه وتعالى فإنّ كل ما فى الكون الآن وفى الآخرة هو فضْل الله لأنه زائدٌ على حاجته ، فالله غير محتاج لخَلْقه ، ولا لكلِّ نعمه التى سبقتْ والتى ستأتى .

والفضْل هنا هو نُبوة محمد ، وقد اعترض الكفارُ على نزول القرآن على محمد ﷺ وقالوا :﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْءانُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) ﴾ [الزخرف]

لذلك ردّ عليهم الحق سبحانه ، فقال : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا[٢] وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (٣٢) ﴾ [الزخرف]

---

(١) أخرجه أبو داود فى سننه (١٦٦٥) وابن حبان فى صحيحه (٥٤١٩) وأبو يعلى فى مسنده (١٠٦٤) ولفظ الحديث : بينما نحن مع رسول الله فى سفر إذ جاء رجل على ناقة له فجعل يصرفها يميناً وشمالاً . فقال رسول الله : « من كان عنده فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له ، ومن كان عنده فضل زاد فليعد به على من لا زاد له » حتى ظننا أنه لا حقَّ لأحد منا فى الفضل . ومعنى يصرف راحلته أنه كان يريد أن يتصدق عليه أحد ، وفطن رسول الله لهذا ، فكان هذا الحديث .

(٢) سخرياً : فيها قراءتان (سخريا) بضم السين ، ومعناها : يستخدم الأغنياء الفقراء بأموالهم فيلتئم قوام العالم . و(سِخريا) بكسر السين ومعناها : ليملك بعضهم بعضاً بالأموال فيتخذونهم عبيداً . [زاد المسير لابن الجوزى] .

هـم اعترفوا بعظمـة القرآن رغم أنهم حاولوا أنْ يجـدوا فى القرآن ثغرة فلم يجـدوا ، وهم أمة فصاحة وبلاغـة ولسان ، ولكن الأمر الذى وقف فى حلوقهم هـو أن القرآن نزل على محمد ﷺ ، فقالـوا : ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْءانُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ.. (٣١) ﴾ [الزخرف]

الأمـر عندهـم حسـدٌ منهم ، لذلك قال تعـالى : ﴿ أَمْ يَحْسُـدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ.. (٥٤) ﴾ [النساء]

وكلمـة النـاس تطلق على الإنسـان الذى يجمع خصائص متعددة ، والحق سبحانه هنا وصف رسولَ الله ﷺ بالناس ونحو هذا الرجل الذى ذهب للمؤمنين يخبرهـم باستعداد المشركين لقتالهم نزل فيه[1] قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ.. (١٧٣) ﴾ [آل عمران]

إنـه إنسان واحـد ، ومع ذلك وصفـه اللهُ بالناس ، كأنـه بتنبيهه للمسلمين يكون قد جمع كلّ صفات الخير التى فى الناس .

والحسد هنا لرسول الله ﷺ ، لأن الحق سبحانه قد اصطفاه واختاره للرسالة ، إنهم يحسدون محمداً أنْ أنزل عليه القرآن ويحسدون الناس أنْ جاءهم محمد .

والحسـد لا يتأتّـى إلاَّ عن قلب حاقد ، قلب متمرد علـى قسمة الله فى خَلْقه ، لأن الحسد هو أنْ تتمنى زوال نعمة غيرك ، هذا التمنِّى معناه أنك تكره أنْ تكون عند غيرك نعمة ، ولا تكره أنْ يكون عند غيرك نعمة إلا إذا كنتَ متمرداً على مَنْ يعطى النعم .

---

(١) أخرج ابن جرير الطبرى عن السدى قال : لما ندم أبو سفيان وأصحابه على الرجوع عن رسول الله ﷺ وأصحابه وقالوا : ارجعوا فاستأصلوهم ، فقذف الله فى قلوبهم الرعب فهزموا فلقوا أعرابياً فجعلوا له جُعلاً فقالوا له : إن لقيت محمداً وأصحابه فأخبرهم أنّا قد جمعنا لهم ، فأخبر الله رسوله ﷺ فطلبهم حتى بلغ حمراء الأسد فلقوا الأعراب فى الطريق فأخبرهم الخبر فقالوا : (حسبنا الله ونعم الوكيل) ثم رجعوا مِن حمراء الأسد ، فأنزل الله فيهم وفى الأعرابى الذى لقيهم ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ ..(١٧٣) ﴾ [آل عمران] . [أورده السيوطى فى الدر المنثور ٤/١٤٤] .

إنهم حسدوه فى أنْ يأخذ هذا الفضل وهذه النعمة ، حتى اليهود وأهل الكتاب حسدوه فى أنْ يكون نبياً ، ونسُوا أن الله أعطى سيدنا إبراهيم الملْك، وأعطى لداود الملك ، وأعطى لسليمان الملك ، وأعطى ليوسف الملك ، فلماذا الحسد إذن عندما أراد الله سبحانه وتعالى أنْ يكرم الفرع الثانى من إبراهيم ، وهو إسماعيل عليه السلام ؟ .

لقد كرَّم الله سبحانه الفرع الأول فى إسحاق ، وجاء من إسحاق يعقوب ، ومن يعقوب يوسف ، ثم جاء موسى وهارون ثم داود وسليمان ، كلُّ هؤلاء كرِّموا .

وعندما يُكرّم سبحانه الفرع الثانى لإبراهيم وهو ذرية إسماعيل ويرسل منهم رسولاً يحزنون ويقفون هذا الموقف ؟ وينسون أنه ليس لأحد أنْ يختار الرسول ، فالرسول مصطفى من الله .

والحق سبحانه لم يضع مفاتيح الرسالة فى أيدى المشركين أو غيرهم ليوزعوا هم الأمور ويقوموا بتدبير الأمر ، بل هو سبحانه الذى يوزع المواهب فى البشر رزقاً منه ليعتمد كلُّ إنسان على الآخرين فى مواهبهم التى يعجز عنها ، ويعتمد عليها الآخرون فى موهبته التى يعجزون عنها .

ومسألة النبوة هى اصطفاء إلهى يكبر ويسمو على كل مقامات الدنيا ، وقد عبَّر عنها الحق سبحانه بقوله تعالى : ﴿ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ.. (٣٢) ﴾ [الزخرف] فالرحمة هى عطاءات ألوهية .

وإذا كان المولى سبحانه قد قسم رزقهم فى الأدنى وهو معيشتهم ، فكيف يريدون هم أنْ يتصرَّفوا فى الأعلى ، عليهم أنْ يتأدبوا مع الله سبحانه ، فهو لم يُوكلهم فى اختيار مَنْ يُنزل عليه رحمته ورسالته ، ولكنه سبحانه هو الذى يختار ، فالرسالة رحمة من الله يختص بها مَنْ يشاء من عباده .

﴿ اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ.. (١٢٤) ﴾ [الأنعام] فالرسالة إنما تجيء لتنشر خيراً فى الجميع ، والرسول قد جاء لينشر خيره للآخرين ، وهو نفسه لا ينال من هذا الخير إلا البلاغ به ، ويأمر سيدنا رسول الله قبل أنْ يموت ألاَّ يأخذ أهله الزكاة ، أما ما تركه فقد صار صدقةً للناس[1] .

أى أنه لم ينتفع به فى الدنيا ، لذلك فهو مأمون على الرسالة ، ولم يرد أنْ يأخذ الدنيا ليرثها أهله من بعده ، وقد أراده الله كذلك ليكون خيره لكلِّ الناس .

فالرسالة تكليفٌ والنبوة ليس جزاؤها هنا ، بل من عظمة الجزاء أنه فى الآخرة ، لذلك لا تقولوا لماذا أرسل محمداً بالتحديد ؟ فإنَّ هذا تدبير الله عز وجل الذى قال : ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ .. (٢) ﴾ [يونس]

كيف يتعجبون وقد جئناهم برسول من أنفسهم ، فما كان يصح أنْ يكون أمراً عجيباً لأنه أمر منطقى وطبيعى ، وذلك فضل الله يؤتيه مَنْ يشاء ﴿ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٧٣) ﴾ [آل عمران]

وما دام الفضلُ بيد الله فلن تستطيعوا يا أهل المكر بالمسلمين أنْ تخدعوا الناس عن دينهم وعن رسولهم وقرآنهم ، فالفضل حين يؤتيه الله لمَنْ آمن به فلن ينزعه إلا الله .

---

(١) اجتمع ربيعة بن الحارث وعباس بن عبد المطلب فقالا : والله لو بعثنا هذين الغلامين ، فقال لى وللفضل بن عباس إلى رسول الله ﷺ فأمرهما على هذه الصدقات فأدّيا ما يؤدى الناس وأصابا ما يصيب الناس من المنفعة ، فبينما هما فى ذلك جاء على بن أبى طالب فقال : ماذا تريدان ؟ فأخبراه بالذى أرادا . قال : فلا تفعلا فوالله ما هو بفاعل فقال : لِمَ تصنع هذا فما هذا منك إلا نفاسة علينا ، لقد صحبت رسول الله ﷺ ونلت صهره ، فما نفسنا ذلك عليك ... فقلنا : يا رسول الله جئناك لتؤمرنا على هذه الصدقات فنصيب ما يصيب الناس من المنفعة ونؤدى إليك ما يؤدى الناس . قال : فسكت رسول الله ﷺ ورفع رأسه إلى سقفه حتى أردنا أن نكلمه . قال : فأشارت إلينا زينب بنت جحش زوج رسول الله – وقد كانوا فى حجرتها – من وراء حجابها كأنها تنهانا عن كلامه وأقبل . فقال : ألا إن الصدقة لا تنبغى لمحمد ولا لآل محمد ، إنما هى أوساخ الناس . [أخرجه أحمد فى مسنده (١٧٥١٩) وكذا مسلم فى صحيحه (٢٥٣٠)] .

لذلك حينما يقول الحق سبحانه ﴿ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ.. (١٤٠) ﴾ [البقرة] فالسؤال هنا لا يوجد له إلا ردّ واحد ، لأنهم لن يستطيعوا أنْ يقولوا نحن أعلم من الله ، والله لا شكّ أعلم وهذا واقع .

والذى يصطفيه الله ليحمل رسالته إلى الناس إنما يصطفيه لمهمة وتكون مهمته صعبة ، وهو يصطفيه حتى يشيع اصطفاؤه فى الناس ، كأنَّ الله قد خصَّه بالاصطفاء من أجل الناس ومصلحتهم ، سواء أكان هذا الاصطفاء لمكان أم لإنسان أم لزمان ليشيع اصطفاؤه فى كل ما اصْطُفِى عليه .

والاصطفاء من الحق سبحانه يبرئه من كلِّ ما يمكن أنْ يقع فيه نظيره من الاختيارات غير المُرضية ، والحق سبحانه يريده نموذجاً لا يقع منه إلا الخير .

والمثال الكامل على ذلك اصطفاء الحق سبحانه لرسوله محمد ﷺ من أول الأمر وجَعْله لا يفعل إلا السلوك الطيب من أول الأمر ، وذلك حتى يعطينا الرسولُ القدوة الإيمانية فى ثلاث وعشرين سنة هى مدة الرسالة المحمدية .

والحق سبحانه هو الأعلم بمَنْ يصطفى ، ومشيئة الاصطفاء والاجتباء والاختيار إنما تتم بمواصفات الحق سبحانه ، فهو القائل : ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ.. (١٢٤) ﴾ [الأنعام]

وفضْل الله بإرسال محمد قد أصاب العالمين جميعاً عربهم وعجمهم ، فهو ﷺ كان رحمة للعالمين ، لذلك قال الحق سبحانه : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ (١٠٧) ﴾ [الأنبياء]

فالله رحمهم برسول الله وأعطاهم فضْل هذا الدين الخاتم ، فرحمة الله تعالى بمحمد ليستْ رحمةً خاصة به ولا بالعرب ، بل هى رحمة عامة لجميع العالمين ، وهذه منزلة كبيرة عالية .

وقد قال رسول الله ﷺ : « إن الله بعثنى رحمة للعالمين »[١] فقد بُعث رسول الله ليسعد ويُسعد معه قومه والناس أجمعون ، لا ليشقى ويشقى معه الناس .

فقمة رحمة الله للعالمين وفضله أنه سبحانه أرسل محمداً رسولاً خاتماً لا يُستدرك عليه برسول بعده ، لذلك جاءت رسالته الخاتمة متسعة لكلِّ أقضية الحياة التى تعاصرها أنت ويعاصرها مَنْ خلفك إلى يوم القيامة .

والحق سبحانه يختم الآية بقوله : ﴿ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٤) ﴾ [الجمعة] أى : ذو الفضل الهائل الزائد على حاجته ، لأنه ربما يكون عندى فضل ولكنى أُبقيه لأننى سأحتاج إليه مستقبلاً .

والفضل الحقيقى هو الذى من عند الله ، لذلك فإن الله سبحانه وتعالى هو ذو الفضل العظيم لأنه غير محتاج إلى كلِّ خَلْقه أو كوْنه ، لأن الله سبحانه كان قبل أنْ يوجد شيء وسيكون بعد ألاَّ يوجد شيء ، وهذا ما يُسمَّى بالفضل العظيم .

وحين يُوصف الفضل بأنه عظيم فمعنى ذلك أن هناك فضلاً أقلّ من عظيم، كما أن هناك فضلاً يعلوه تمييزاً ، ونعلم أن التفاضل موجود عند البشر ، هذا يتفضّل على هذا بطعام أو يتفضَّل عليه بملبس ، أو يتفضَّل عليه بشراب ، أو يتفضّل عليه بمسكن .

أى : أن هناك أنواعاً متعددة من الفضل ، لكنها لا تُوصف بالعظمة لأن الفضل العظيم يكون من الله تعالى فقط ، لأنه سيؤول إليه كلُّ فضْل من دونه .

فكلُّ فضل هو من الله ومآله مردود إلى الله ، وهذا هو الفضل العظيم ، ونجد أيضاً أن الذى يتفضل على واحد لابد أنه يبغى من وراء هذا الفضل شيئاً مثل

---

(١) أخرجه الطبرانى فى المعجم الكبير (٧٨٠٣) من حديث أبى أمامة رضى الله عنه قال نبى الله ﷺ : « إن الله بعثنى رحمة للعالمين وهدى للعالمين » . وكذا أخرجه أحمد فى مسنده (٢٢٣٦١) والطيالسى فى مسنده (١١٣٤) .

كمال الذات ، وأنه يودّ الحمد والثناء ويبغى راحة نفس .

فالذى يتفضَّل إنما يريد شيئاً ، إما كمال مال أو ثناء وإطراء وراحة نفس من مناظر الإيلام التى يراها ، وهذا دليل على أنه يعانى من نقص ما ويريد أنْ يكمله ، فإذا كان الله عز وجل هو صاحب الفضل أعِندَ الله نقصٌ فى كمال ؟! لا .

إذن فهذا هو الفضل العظيم ويمنحه لعباده تفضُّلاً منه دون رغبة فى كمال أو ثناء ، وأيضاً فكلُّ فضل من دون الله يتضمن المنّ ، لكن فضْل الله ليس فيه منّ ، وليس فيه ذلة لأحد ، فالحياة نفسها كلّها هبة منه سبحانه .

وكل مظهر من مظاهر وجودك فى الحياة ومظاهر استبقاء حياتك ومظاهر نعيمك كلها إنْ نسبتها فستصل إلى الله ، وكلُّ شيء فى حياتك إنْ سلسلته ستجد أن أيدى المخلوقات من البشر تنتهى عند خَلْق لله وهبه للإنسان ، وهذا هو الفضل العظيم .

ويقول الحق سبحانه : ﴿ فَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٤) ﴾ [البقرة]

فمن فضْل الله على أمة محمد قوله تعالى : ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ[١] إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ[٢] أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللهُ لَكُمْ .. (١٨٧) ﴾ [البقرة]

فالله يعلم أن الإنسان لا يقوى على الصوم كلّ الوقت عن الشهوة ، فعندما تركك تختان نفسك ثم أنزل لك الترخيص هنا تشعر بفضل الله عليك .

---

(١) الرفث : ما لا يحسُن التصريح به ويكنى به عن الجماع أو الإفضاء إلى النساء . [القاموس القويم ١/ ٢٧٠] . والرفث : الجماع وغيره مما يكون بين الرجل وامرأته يعنى التقبيل والمغازلة ونحوهما مما يكون فى حالة الجماع . [لسان العرب – مادة : رفث] .

(٢) يختانون : أى تخونون أنفسكم وتُعرضوها لعذاب الله وذلك بمباشرة النساء فى ليالى رمضان قبل إباحة الأكل والشرب والمباشرة طول الليل ، فقد كان ذلك التحريم فى أول فرض الصوم ثم أحلّ الله الأكل وغيره من المغرب إلى الفجر [القاموس القويم ١/ ٢٢٥] .

ومن فضل الله عليكم أنه احترم أثر عملكم ونسبه لكم حتى وإن احتاج أخوك فهو سبحانه يقول : ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً واللهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٤٥) ﴾ [البقرة] فجعلها الله قرضاً له سبحانه .

فمن فضل الله على الإنسان أنه سبحانه حين يطلب من الإنسان بعضاً من المال المتبقى من حركته فهو يطلبه كقرض ويردّه مضاعفاً بعد ذلك .

ومن فضْل الله تبديل السيئات حسنات ، ومن فضل الله أنه جعل المنهج من عنده للناس جميعاً حتى لا يتبع إنسان إنساناً آخر حتى لا يكون هوى إنسان مسيطراً على مقدرات إنسان آخر ، والحق سبحانه لا هوى له .

ومن فضل الله أنه أخفى غيْب الناس عن الناس ﴿ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ.. (١٧٩) ﴾ [آل عمران] فكلُّ إنسان له هزات مع نفسه ، وقد تأتى له فترة يضعف فيها فى شيء من الأشياء ، فلو كان مَنْ حوله يعرفون غيبه لاستغلوا ما علموه من ضعفه .

وإياك أنْ تظن أن عملك هو الذى سيعطيك الجزاء . إنما فضل الله هو الذى سيعطيك الجزاء . يقول الحق سبحانه : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٥٨) ﴾ [يونس] فالفضل هو الذى يُفرِح قلب المؤمن .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥) ﴾

يعطينا الحق سبحانه مثلَ الذين حُمِّلوا التوراة وهم اليهود ، فهناك صنف يحمل التوراة وهو لا يعرف عنها شيئاً ، فهم حُملوا التوراة ولكنهم لم يحملوها منهجاً وعملاً فكانوا كالحمار .

والحمار لا يستحق الذم لأنه لم يفقه ما فى الأسفار التى يحملها فوق ظهره، ذلك لأن مهمته ليس منها فقه وفهم ما فى الأسفار ، بل مهمته أنْ يحملها فقط وينقلها من مكان لآخر دون أن يفقه ما فيها ولا يعمل بما فيها .

وكأن الحق سبحانه يقول : لا تكونوا مثل الحمار الذى يكتفى من الخير بأنْ يحمله ، ولكن أريد منكم أنْ تحملوا المنهج ، وأنْ تنتفعوا بما يحويه من التشريع .

وقد قال تعالى : ﴿ يَـيَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ.. (١٢) ﴾ [مريم] ويحى من أنبياء بنى إسرائيل . ومعنى ﴿ خُذِ الْكِتَابَ.. (١٢) ﴾ [مريم] أى : التوراة وفيها منهج الله الذى ينظم لهم حركة حياتهم ﴿ بِقُوَّةٍ.. (١٢) ﴾ [مريم] أى : بإخلاص فى حِفْظه وحِرْص على العمل به .

فالعلم السماوى والمنهج الإلهى الذى جاءكم فى التوراة ليس المراد أنْ تعلمه فقط بل ولتعمل به ، وإلا فقد قال تعالى فيهم : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا.. (٥) ﴾ [الجمعة]

فقد حمّلهم الله التوراة فلم يحملوها ولم يعملوا بها ، وهم حُملوا التوراة فحملوها بمعنى عرفوها وحفظوها فى كتبهم وفى صدورهم ،ولم يحملوها أى لم يؤدوا حَقَّ حملها ولم يعملوا بها .

أما لفظ (التوراة) فبعض العلماء حين يتعرضون للفظ من الألفاظ فهم يحاولون أنْ يجعلوه من اللغة العربية ، ويحاولون أنْ يعثروا له على وزن من

الأوزان العربية ، وأنْ يأتوا له بصفة من الصفات العربية .

فقال بعضهم عن التوراة : إنها (الوَرْى) بسكون الراء ، وكان الناسُ قديماً يُشعلون النار بضرب عود فى عود آخر . ويقولون : الزند قد ورى . أى قد خرجتْ ناره ، وقال بعضهم : إن الإنجيل من النجْل وهو الزيادة .

وأقول لهؤلاء العلماء : لقد نظرتُم إلى هذه الألفاظ على أنها ألفاظ عربية ، لكن التوراة لفظ عبرى ، والإنجيل لفظ سريانى أو لفظ يونانى ، وصارت تلك الكلمات عَلَماً على تلك الكتب وجاءت إلى لغتنا .

ولا تظنوا أن القرآن ما دام قد نزل عربياً فكلُّ ألفاظه عربية ، لا ، صحيح أن القرآن عربى ، وصحيح أيضاً أنه قد جاء وهذه الألفاظ دائرة على لسان العرب ، وإذا تم النطق بها يُفهم معناها .

والمثال على ذلك أننا فى العصر الحديث أدخلنا فى اللغة كلمة (بنك) وتكلمنا بها فأصبحت عربية ، لأنها تدور على اللسان العربى ، فمعنى أن القرآن عربى أن الله حينما خاطب العرب خاطبهم بألفاظ يفهمونها وهى دائرة فى ألسنتهم وإنْ لم تكُنْ فى أصلها عربية .

والتوراة هى كتاب اليهود ، وقد ذهب موسى عليه السلام لميقات الله ومعه نقباء[1] قومه ليتلقى المنهج والتوراة ، وعندما عاد موسى بالتوراة وبالألواح وجدوا فى تعاليمها مشقة عليهم ، وقالوا : نحن لا نطبق هذا التكليف وفكَّروا ألاَّ يلتزموا به وألا يقبلوه .

والتكليف هو من الله وهم يقولون : إن الله كلَّفهم ما لا يطيقونه ، مع أن الله

---

(١) النقباء : جمع نقيب ، وهو الرئيس على من تحته يتعرف أحوالهم وينقب عن احتياجاتهم ويضمن ما يُطلب منهم ، فهو نقيب عليهم ، قال تعالى : ﴿ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا .. (١٢)﴾ [المائدة] .

جلَّ جلاله لا يُكلِّف نفساً إلا وُسْعها ، فاليهود عندهم التوراة وهم مع ذلك لا يتبعون كتابهم .

ومثال أنهم لا يتبعون ما جاء فى كتابهم ولا يريدون هذا ويتحايلون للتفلّت من أمر الله لهم باتباع التوراة أنهم كانوا إذا عَرَض لهم أمر أو حُكْم يُحكِّمون رسول الله ﷺ فيه .

لذلك قال تعالى : ﴿ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (٤٣) ﴾ [المائدة]

فالحق سبحانه يوضح : كيف يأتونك طلباً للحكم منك وعندهم التوراة ، وهم لم يؤمنوا يا محمد بك رسولاً من الله ، فكيف يرضاك مَنْ لم يؤمن بك حكماً ؟

لا بدّ أن فى ذلك مصلحة مناقضة لما فى التوراة ، ولو لم تكن تلك المصلحة مناقضة لنفَّذوا الحكم الذى عندهم ، وهم إنما جاءوك طمعاً فى أنْ تعطيهم حكماً فيه شيء من التسهيل ، وظنُّوا والعياذ بالله أنك قد توفر لهم أكل السُّحْت وسماع الكذب .

لذلك يقول تعالى : ﴿ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ .. (٤٣) ﴾ [المائدة] وهى مسألة عجيبة يجب أنْ يُفطن لها ، لأن عندهم التوراة فيها حكم الله ، فلو أنهم حكّموك فى أمر ليس فى التوراة لكانَ الأمر مقبولاً .

ولكن أنْ يُحكِّموك فى أمر موجود فى كتابهم التوراة ، فهذا معناه أنهم رغبوا فى الاحتيال وعدم الالتزام بما أنزله الله لهم فى التوراة . وقد استحفظ اللهُ الربانيين والأحبار التوراة ، أى طلب منهم أنْ يحفظوها ، وكان هذا أمراً تكليفياً ، والأمر التكليفى عُرْضة لأنْ يُطاع وعُرْضة لأنْ يُعصى ، واستحفظهم الله التوراة والإنجيل ﴿ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ .. (١٤) ﴾ [المائدة]

وصار أمر المنهج منسياً وليس على بالهم كثيراً ، لأن الأمر إذا توارد على البال واستقرّ دائماً فى بؤرة الشعور يظل فى الذهن ، لكن النسيان يأتى عندما يكون الأمرُ بعيداً عن البال .

والحق سبحانه طلب منهم أنْ يحفظوا المنهج ولكنهم ما عدا النبيين لم ينفذوا، وكلّ أمر تكليفى يدخل فى دائرة الاختيار ، ولذلك نجد أن الأحبار والربانيين قد نسُوا وما لم ينسُوه كتموه ، وأول مرحلة من مراحل عدم الحفظ أنهم نسُوا ، والمرحلة الثانية هى كتمان ما لم ينسوه ، والثالثة هى ما لم يكتموه حرّفوه ولووا به ألسنتهم .

وياليتهم اقتصروا على هذه المراحل فقط ، ولكنهم جاءوا بأشياء وقالوا : هى من عند الله . وهى ليست من عند الله : ﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـٰذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ.. (٧٩) ﴾ [البقرة]

إذن : فالحفظ منهم لم يتم ، لذلك لم يدع الله القرآن للحفظ بطريق التكليف، لأنه سبحانه اختبر البشر من قبل ولأنه سبحانه أراد القرآن معجزةً باقية لذلك لم يكِلْ الحق سبحانه أمر حِفْظه إلى الخَلْق ، ولكنه تكفَّل سبحانه بأمر حِفْظ القرآن ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩) ﴾ [الحجر]

والحق سبحانه يضرب لنا المثل ليقرِّب لنا الشيء المعنوى فيمثله بأمر حِسىٍّ نراه ونلمسه بأيدينا ، فحمْل التوراة ليس المقصود به حَمْلُه حِسْياً فعلاً ، وإلا أصبح على كلِّ يهودى أنْ يحملَ كتاب التوراة فى يده أو بأىّ طريقة أخرى .

ولكن المقصود هو الحمل المعنوى أى العمل بالتوراة والأخْذ بمنهج الله ، فهم طُلب منهم الالتزام بالتوراة وأحكامها ، ولكنهم لم يلتزموا بل تحايلوا على الانفلات من أحكامها بدعوى أنها شاقة .

حتى أنهم لم يلتزموا إلا بعد رفْع جبل الطور فوق رؤوسهم ، وهذا يحكيه لنا الحق سبحانه فيقول : ﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا(١) الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧١) ﴾ [الأعراف]

أى : خذوا ما آتاكم فى الكتاب بجدٍّ واجتهاد فى الواقع العملى والواقع القيمى ، ولا تأخذوا التكليف بتخاذل ، والإنسانُ عادة يأخذ بقوة ما هو نافع له ، ولذلك فطبيعة مناهج الله أنْ تُؤخذ بقوة وبيقين لتعطى خيراً كثيراً بقوة ويقين .

وإذا أخذتَ منهج الله بقوة فقد أؤتمنتَ عليه وصدرك قد انشرح ، وتريد أنْ تأخذ أكثر .

فهم لم يستجيبوا لأمر الله إلا بعد أنْ رفع الله الجبل فوق رؤوسهم ، فهم لا يرضخون إلا بالآيات المادية ، لذلك رفع الله فوقهم الجبل ، فإما أنْ يأخذوا ما آتاهم الله بقوة ، ويُنفذوا المطلوب منهم ، وإما أنْ ينطبق عليهم الجبل .

حتى أن القرآن عابَ عليهم كيفية تنفيذهم لأمره لهم بذبح بقرة ، قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً.. (٦٧) ﴾ [البقرة]

فالله أعطى الأمر أولاً ليختبر قوة إيمان بنى إسرائيل ومدى قيامهم بتنفيذ التكليف دون تلكؤ أو تمهل ، ولكنهم بدلاً من أنْ يفعلوا ذلك أخذوا فى المساومة والتباطؤ .

فلو أن إنساناً يعقل أدنى عقل ثم يُطلب منه أنْ يذبح بقرة ، أهذه تحتاج إلى

---

(١) نتقنا الجبل : زعزعناه ورفعناه . والنتق : الزعزعة والهز والجذب والنفض . ونتق الشيء : جذبه واقتلعه . قال الفراء : كان نتق الجبل أنه قُطع منه شيء على قدر عسكر موسى فأظلَّ عليهم قال لهم موسى : إما أن تقبلوا التوراة ، وإما أن يسقط عليكم . [لسان العرب – مادة : نتق] .

إيضاح ؟ لو كانوا ذبحوا بقرة أى بقرة لكان كلّ شيء قد تم دون أيِّ جهد ، فما دام اللهُ قد طلب منهم أنْ يذبحوا بقرة ، فكلّ ما عليهم هو التنفيذ .

ولكن انظر إلى الغباء حتى فى السؤال ، إنهم يريدون أنْ يفعلوا أىّ شيء لإبطال التكليف ، فهم أُمِروا بالتكليف ولكنهم لم يعجبهم التنفيذ ، ولم يكُنْ موافقاً لهواهم .

وتعاليم الله ومنهجه بالنسبة لهم ما هى إلا أسفار وكتب ، وقد قال تعالى : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا .. (٩١) ﴾ [الأنعام]

فالكتاب هنا هو الكتاب الذى أنزله الله على موسى وهو التوراة ، وقد جعلوه قراطيس أى جعلوه أوراقاً منفصلة يُظهِرون منها ما يريدون ويُخفون منها ما لا يريدون ، مثلما فعلوا فى مسألة الرجم كعقاب للزنا .

وذلك أن اثنين من يهود خيبر ، رجل وامرأة زَنَيا ، وكان الاثنان من أشراف القوم وأراد قومهما ألاَّ يُبرزوا حكم الله الذى جاء بالتوراة وهو الرجْم ، فاحتالوا حيلة وهى أنْ يذهبوا إلى رسول الله .

إن مجرد ذهابهم إلى رسول الله يعطينا فكرة عنهم ، لقد كانوا يريدون حُكماً مخفّفاً غير الرجم ، إنهم أرادوا أنْ يستنقذوا الزانيين من حكم الرجم لأنهما من أشراف خيبر ، فذهبوا ومعهم الأحبار الذين يريدون أنْ يلووا حكم الله السابق نزوله فى التوراة وهو الرجم .

وعندما دخلوا على رسول الله كان هناك أحدهم يسمى عبد الله بن صوريا[1]

---

(١) عبد الله بن صوريا : كان من بنى ثعلبة بن الفطيون ، وقد كان أعور ، ولم يكن بالحجاز فى زمانه أحد أعلم بالتوراة منه [الروض الأنف للسهيلى] وهناك اختلاف فى إسلامه [الإصابة فى تمييز الصحابة – ابن حجر العسقلانى – ترجمة (٤٧٨٢)] .

فقال لهم رسول الله ﷺ : أيُّكم أعلم بالتوراة ؟ فأشاروا إليه ، فأعطوه التوراة وقالوا : اقرأ فجلس عبد الله بن صوريا يقرأ ، فلما مَرَّ على آية الرجم وضع كفَّه عليها ليُخفيه وقرأ غيرها .

وكان عبد الله بن سلام حاضراً فقال : يا رسول الله أما رأيتَه قد ستر بكفِّه آية وقرأ ما بعدها ؟ وزحزح ابن سلام كفَّ الرجل وقرأ هو فإذا هى آية الرجم[1] .

والحق سبحانه عندما يعطينا المثل بالحمار أو الكلب ليس هذا تحقيراً للحمار أو الكلب ، فالحق سبحانه عندما يُمثّل الذين حُمِّلوا التوراة ولكنهم لم يحملوها ولم يلتزموا بها ولا بتكاليف الله ومنهجه وهو شيء سيء ، فليس معنى هذا أن هذا تحقير للحمار .

وكذلك عندما قال الحق سبحانه : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (١٧٦) سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ (١٧٧) ﴾ [الأعراف]

فالحَمْل على الكلب ، فأنت حين تجلس ويقبل الكلب عليك وتزجره وتطرده

---

(١) أخرج البخارى فى صحيحه (٤٢٨٠) عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن اليهود جاؤوا إلى النبى ﷺ برجل منهم وامرأة وقد زنيا ، فقال لهم : كيف تفعلون بمن زنى منكم ؟ قالوا : نحممهما ونضربهما . فقال : لا تجدون فى التوراة الرجم . فقالوا : لا نجد فيها شيئاً . فقال لهم عبد الله بن سلام: كذبتم . فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين ، فوضع مدراسها الذى يدرسها (وهو عبد الله ابن صوريا) منهم كفَّه على آية الرجم فنزع يده عن آية الرجم ، فطفق يقرأ ما دون يده وما وراءها ولا يقرأ آية الرجم فنزع يده عن آية الرجم فقال : ما هذه ؟ فلما رأوا ذلك قالوا : هى آية الرجم فأمر بهما فرُجما قريباً من حيث موضع الجنائز عند المسجد فرأيت صاحبها يجنأ عليها يقيها الحجارة .

وتنهره ، فهذا تفسير لقوله «تحمل عليه » أى أنك تحمل عليه طرْداً أو زجْراً لذلك يلهث ، وإنْ تركتَ الكلب دون حمل عليه طرداً أو زجراً فهو يلهث ، لأن طبيعته أنه لاهث دائماً ، وهذه الخاصية فى الكلب وحده ، حيث يتنفس دائماً بسرعة مع إخراج لسانه .

والحيوانات لا تفعل مثل هذه المسألة إلا إذا كانت جائعة أو متعبة أو مهاجمة ، لكن الكلب وحده هو الذى يفعلها جائعاً أو شبعان ، عطشان أو غير عطشان ، مزجوراً أو غير مزجور إنه يلهث دائماً .

ولكن لماذا يُشبِّهه سبحانه بالكلب اللاهث ؟ فالذى ينسلخ من آيات الله ، ولاحظ أنه يتشابه مع الذى حُمِّل كتاب الله ولكنه لم يحمله ، ولم يُؤدِّ ما عليه فيه ، فالذى يظهر بهذه الصورة تجده مكروهاً دائماً لأنه مُتبِّع لهواه وتتحكَّم فيه شهواته .

وحين تتحقق له شهوة الآن يتساءل : هل سيفعل مثلها غداً ؟ وتتملك الشهوةُ كلَّ وقته ، لذلك يعيش فى كرْب مستمر لأنه يخاف أنْ يفوته النعيم أو أنْ يفوت هو النعيم ، ويصير حاله كحال الكلب يلهث آمناً أو غير آمن ، جائعاً أو غيرَ جائع ، عطشان أو غير عطشان .

وكما قال الحق سبحانه عن الذين حُمِّلوا التوراة ثم لم يحملوها ﴿ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ .. (٥) ﴾ [الجمعة] قال أيضاً عمَّن انسلخ من آيات الله ﴿ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَّٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا .. (١٧٦) ﴾ [الأعراف]

والذين كذَّبوا بآيات الله هم الكافرون وهم المشركون وهم الذين يرفضون

الإسلام ، ويحاربون الدين ، وهؤلاء جميعاً حدَّد الله لنا مصيرهم .

والذين كذَّبوا بآيات الله هم إما مَنْ كذَّب الرسول فى الآيات الدالة على صدقه ، وهو المبلّغ عن الله ، وهؤلاء دخلوا فى دائرة الكفر ، وإما هم الذين كذَّبوا بآيات المنهج فلم يستخدموا المنهج على أصوله وانحرفوا عن الطريق المستقيم والطريق السَّوى .

هم إذن كذّبوا بآيات الله وكذَّبوا باليوم الآخر ولم يعملوا وفْق منهج الإيمان، فلهم جزاء وعقاب من الحق الذى أنزل هذا المنهج ، ولكنهم أعرضوا عنه وكذَّبوه .

والذين كذَّبوا بالآيات إما أنهم لا يؤمنون بإله ، أو يؤمنون بإله ولا يؤمنون برسول ، أو يؤمنون بإله ويؤمنون برسول ، ولكن لا يؤمنون بما أُنزل على رسول الله ﷺ .

والحق سبحانه يقول : ﴿ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥) ﴾ [الجمعة] فالمطرودون من هداية الله فى المعونة على الإيمان هم الظالمون ، وهو سبحانه منع إعانته للهداية عن ثلاثة أنواع من الناس ، الكافرين والظالمين والفاسقين .

ولكن هل هو سبحانه منع معونة الهداية أولاً ؟ أم أنهم هم الذين ارتكبوا من الضلال ما جعلهم لا يستحقون هداية الله ؟

هم الذين رفضوا حَمْل أمانة الله فى الكتاب الذى أُنزِل عليهم ، ورفضوا الالتزام بمنهج الله وبما جاء به أنبياؤهم من عند الله ، وكانوا كالحمار يحمل أسفاراً وكتباً لا يفهم ممّا فيها شيئاً ، فهكذا هؤلاء أغلقوا قلوبهم عن فَهْم ما يطلبه الله منهم أنْ يلتزموا به .

لذلك لم يستحقوا هداية الله وتوفيقه وإعانته لهم على الإيمان وعلى حُسْن

الإيمـان بـالله وبرسالاتـه وأخْذ الكتاب الـذى أُنزل عليهم بقـوة وعزيمة وحُسْن إقبال .

والحـق سبحانـه يختم الآيـة بقولـه ﴿ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَـوْمَ الظَّالِمِينَ.. (٥) ﴾ [الجمعة] لا يهديهم إلى برهان ولا إلى دليل ولا إلى حجة ، لأن وليَّهم الشيطان .

ونعـرف أن الظلـم هـو نقل حَـقٍّ إلى غير صاحبـه ، وأعلى مراتـب الظلم هو الشرك بالله ، وهو الظلم العظيم ، والسبب فى عدم هدايتهم هو ظلمهم .

فظلمهـم هو الذى يمنعهم من الهداية ، والحق سبحانه جعل للعبد أنْ يختار الهدايـة أو أن يختار الضـلال ، وما يفعله العبد ويختاره لا يفعله قَهْراً عن الله، لأنـه سبحانه لـو لم يخلق كُلاًّ منا مختـاراً لما استطاع الإنسـانُ أنْ يفعل غير مراد الله .

ولكنـه خلق الإنسان مختاراً ، وساعة ما تختار – أيها الإنسان– الهداية أو تختـار الضلال فهذا مـا منحه اللهُ لك ، وسبحانه قد بـيَّن أنَّ الذى يظلم والذى يفسق هو أهْلٌ لأنْ يُعينه الله على ضلاله ، تماماً كما يعين مَنْ يختار الهداية ، لأنه أهْلٌ أنْ يُعينه الله على الهداية .

فعدم وجود الخير بدأ من ناحيتهم ، وسبحانه القائل : ﴿ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٢٦٤) ﴾ [البقرة] فهم إذن سبقوا بالكفر فلم يَهْدِهم الله .

﴿ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٢٥٨) ﴾ [البقرة] وهم سبقوا بالظلم فلم يهدهم الله سبحانـه وتعـالى القائل ﴿ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِـقِينَ (١٠٨) ﴾ [المائدة] وهم سبقوا بالفسق فلم يهدهم الله .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦﴾ ﴾

النداء لونٌ من ألوان الأساليب الكلامية ، والبلاغيون يُقسِّمون الكلام إلى خبر ، وهو أنْ تخبر عن شيء بكلام يحتمل الصدق والكذب . وإنشاء وهو أنْ تطلب بكلامك شيئاً ، والإنشاء قوْل لا يحتمل الصدق أو الكذب .

والنداء من الإنشاء ، لأنك تريد أنْ تنشىء شيئاً من عندك ، فلو قلتَ : يا محمد فأنت تريد أنْ تنشيء إقبالاً عليك ، فالنداء إذن طلب الإقبال عليك .

وقد تنوَّع النداء فى القرآن الكريم تنوعاً كبيراً ، منه ما هو نداء من الله عز وجل إلى خمسة عشر صنفاً من الناس والجمادات وغيرها ، ومنه ما هو نداء من الرسل لأقوامهم[1] ، ومنه ما هو نداء من الأمم والأقوام لرسلها[2] ، ومنه ما هو نداء من وإلى الملائكة ، ومنه أنواع أخرى كثيرة من النداءات .

---

(١) وهذا كثير فى القرآن ، منه نداء موسى لقومه : ﴿ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ.. (٥٤) ﴾ [البقرة] ، ومنه نداء نوح لقومه : ﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ .. (٥٩) ﴾ [الأعراف] ، ومنه نداء هود لقومه : ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٦٧) ﴾ [الأعراف] ، ومنه نداء صالح لقومه ﴿ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ (٧٩) ﴾ [الأعراف] ، ومنه قول شعيب لقومه : ﴿ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا .. (٨٨) ﴾ [هود] .

(٢) أما نداء الأمم لرسلها ، فمنها ما نادى به قوم نوح نوحاً ﴿ قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ (١١٦) ﴾ [الشعراء] . وكذلك هود : ﴿ يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (٥٣) ﴾ [هود] . وكذلك صالح : ﴿ يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٦٢) ﴾ [هود] وكذلك شعيب : ﴿ يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ .. (٨٧) ﴾ [هود] .

وأكثر نداء ورد فى القرآن الكريم كان من الله عزَّ وجلَّ للمؤمنين ، فجاء نداء ﴿ يَـأَيُّهَـا الَّذِيـنَ آمَنُوا ﴾ فى آيات كثيرة جداً تزيد علـى الثمانين آية ، تخاطب الذيـن آمنـوا بـالله وبرسولـه ، ولذلك كانـت النداءات لهـم كلها تأتـى وتطلب تكليفات يطالب بها كلّ مَنْ آمن بالمنهج .

والله عـز وجل خاطب ونـادى المؤمنين مباشرة دون أنْ يقول لمحمد ﷺ (قل) فلم تأت آية نداء للذين آمنوا تبدأ بـ (قُلْ) .

وذلك نحو قوله تعالى : ﴿ يَـأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّـابِرِينَ (١٥٣) ﴾ [البقرة] وقال : ﴿ يَـأَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ (١٠٠) ﴾ [آل عمران]

وقال : ﴿ يَـأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَـارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُـهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَـنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللهَ لَا يَهْـدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥١) ﴾ [المائدة] وغيرها كثير .

فهو نداء مباشر من الله سبحانه للمؤمنين ، أما عندما خاطب الحق سبحانه الذيـن هـادوا[1] قال : ﴿ قُلْ يَـأَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُـمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٦) ﴾ [الجمعة]

وهو النداء الوحيد الذى جاء بهذه الصيغة للذين هـادوا ، ومع هذا جاء مُصدَّراً بقوله (قُل) أى قُل يا محمد ، وهذا يعطى لفتةً أن الله قد غضب عليهم ، وأن هذا إبعادٌ لهم عن أنْ يكونوا أولياء لله ، فضلاً عن أنْ يكونوا أبناءً له وأحباء لله .

فـأنـت عندما تغضب مـن أحد بعد أنْ قرَّبته إليك وأحسنتَ إليه وأنعمتَ عليه

---

(١) هـادوا : هـاد إلى الشيء يهود هَوْداً : رجع إليه وتاب وأناب . [القاموس القويم ٢/٣٠٩] وقال الخليل ابن أحمد فى كتاب (العين) : يقال : نُسبوا إلى يهودا وهو أكبر ولد يعقوب ، وحُولت الذال إلى الدال حين عُربت . [باب الهاء والدال] .

ووقفتَ معه فى محنه وأنقذته من عدوه ، ولكنه تنكَّر لكلِّ هذا ، حينها لا تخاطبه، وإنْ خاطبتَه جعلتَ بينك وبينه حاجزاً وواسطة تُكلِّمه من خلالها .

والحق سبحانه قد تفضَّل على اليهود بأفضال ، وأنعم عليهم كثيراً ، قال تعالى : ﴿يَبَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٤٠)﴾ [البقرة]

ويقول تعالى أيضاً : ﴿ يَبَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ[1] الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى (٨٠) كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ.. (٨١)﴾ [طه]

ولكن بنى إسرائيل لم يرعَوا حَقَّ الله فيما أنعم عليهم به ، بل افتروا على الله الأكاذيب وقتلوا أنبياءهم .

والحق سبحانه عندما يقول : ﴿ قُلْ يَأَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا.. (٦)﴾ [الجمعة] يقصد أتباع موسى عليه السلام ، وجاء الاسم من قولهم ﴿ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ.. (١٥٦)﴾ [الأعراف] أى : عُدْنا إليك . فالذين هادوا هم اليهود .

وهاد أى رجع . و (هدنا إليك) أى : رجعنا إليك ، وهذا كلام موسى عن نفسه وعن أخيه وعن القوم الذين عبدوا العجل ثم تابوا .

وتوبتهم كانت حدثاً قاسياً على بنى إسرائيل ، قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٥٤)﴾ [البقرة]

لقد عبدوا غير الله والأنكى من هذا أنهم عبدوا عجلاً صنعه لهم السامريُّ من

---

(١) الطور : فى كلام العرب الجبل . وقال الفراء : هو الجبل الذى بمدين الذى كلّم الله تعالى موسى عليه تكليماً . وقال البغوى فى تفسيره : الطور جبل بين مصر ومدين . ومعنى ﴿ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ .. (٨٠)﴾ [طه] أى يمين موسى ، وكانت الشجرة فى جانب الجبل عن يمين موسى حين أقبل من مدين إلى مصر، قاله الطبرى وغيره فإن الجبال لا يمين لها ولا شمال .

الذهب الذى أخذوه معهم من مصر بعد أنِ ائتمنهم أهلُ مصر عليه .

وعندما نزل حكم الله بأنْ يقتلوا أنفسهم تكفيراً عن شركهم بالله وقف بنو إسرائيل صفوفاً ، وقال لهم : إن الذى لم يعبد العجل يقتل من عبده ، ولكنهم حين وقفوا للتنفيذ كان الواحد منهم يجد ابن عمه وأخاه وذوى رحمه أمامه فيشقّ عليه التنفيذ ، فرحمهم الله بأنْ بعث ضباباً يسترهم حتى لا يجدوا مشقة فى تنفيذ القتل ، وقيل : إنهم قتلوا من أنفسهم سبعين ألفاً[1] .

وقوله تعالى : ﴿ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ.. (٥٤) ﴾ [البقرة] لأن هذه الأنفس بشهوتها وعصيانها هى التى جعلتهم يتمردون على المنهج ، إنَّ التشريع هنا بالقتل هو كفارة الذنب ، لأن الذى عبد العجل واتخذ إلهاً آخر غير الله ثم يُقدِّم نفسه ليُقتل يعترف بأن العجل الذى كان يعبده إله باطل .

وهو بذلك يعيد نفسه التى تمردتْ على منهج الله إلى العبادة الصحيحة وهذا أقسى أنواع الكفارة ، وهو أنْ يقتل نفسه إثباتاً لإيمانه بأنه لا إله إلا الله ، وندماً على ما فعل وإعلاناً لذلك ، فكأن القتل هنا شهادةٌ صادقة للعودة إلى الإيمان .

لذلك أصبح ﴿ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ.. (١٥٦) ﴾ [الأعراف] دليلاً على وقوعهم فى الشرك الأعظم الذى اقتضى منهم قتْل بعضهم البعض ، وأصبح اسم اليهود دليلاً على هذا الجُرْم الذى محاه قتْل أنفسهم ، ولكنهم لم يكفُّوا عن قتْل الأنبياء والتطاول عليهم ، بل والتطاول على الله عز وجل .

ومن تطاولهم على الله عز وجل أنهم قالوا ﴿ إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ.. (١٨١) ﴾

---

(١) قال الزهرى : لما قيل لهم : ﴿ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ .. (٥٤) ﴾ [البقرة] قاموا صفين وقتل بعضهم بعضاً حتى قيل لهم : كفوا . وقال بعض المفسرين : أرسل الله عليهم ظلاماً ففعلوا ذلك . وقيل: وقف الذين عبدوا العجل صفاً ودخل الذين لم يعبدوه عليهم بالسلاح فقتلوهم . [أورده القرطبى فى تفسيره ١/ ٤٠١] وقد قال القرطبى : قال أرباب الخواطر : « ذللوها بالطاعات وكفُّوها عن الشهوات . والصحيح أنه قتل على الحقيقة هنا » .

[آل عمران] وذلك فى قوله سبحانه : ﴿ لَقَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (١٨١) ﴾ [آل عمران]

وتروى لنا السيرة أن أبا بكر الصديق رضى الله عنه دخل بيت المدراس[١] فوجد من يهود ناساً كثيرين قد اجتمعوا على رجل منهم يُقال له فنحاص ، وكان من علمائهم وأحبارهم ، ومعه حبر يقال له أشيع ، فقال له أبو بكر : ويحك يا فنحاص اتق الله وأسلم ، فو الله إنك لتعلم أن محمداً رسولُ الله من عند الله ، قد جاء بالحق من عنده تجدونه مكتوباً عندكم فى التوراة والإنجيل .

فقال فنحاص : والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله من حاجة من فقر إنه إلينا لفقير ، ما نتضرَّع إليه كما يتضرَّع إلينا وإنَّا عنه لأغنياء ، ولو كان عنّا غنياً ما استقرض منا كما يزعم صاحبكم ، ينهاكم عن الربا ويُعطينا ، ولو كان غنياً ما أعطانا الربا .

فغضب أبو بكر رضى الله عنه فضرب وجه فنحاص ضرباً شديداً وقال : والذى نفسى بيده لولا الذى بيننا وبينك من العهد لضربْتُ عنقك يا عدو الله فأكذِبُونا ما استطعتم إنْ كنتم صادقين .

فذهب فنحاص إلى رسول الله ﷺ فقال : يا محمد أبصر ما صنع بى صاحبك، فقال رسول الله : ما حملك على ما صنعتَ يا أبا بكر ؟ فقال : يا رسول الله إنَّ عدواً لله قال قولاً عظيماً يزعم أن الله فقير وأنهم عنه أغنياء ، فلما قال ذلك غضبتُ لله

---

(١) بيت المدراس : هو الذى يدرسون فيه الكتب ، والمدراس صاحب دراسة كتبهم . [لسان العرب – مادة: درس] . فبيوت المدراس مواضع يتدارس فيها رجال دينهم أحكام شريعتهم وأيامهم الماضية وما جاء فى التوراة والمشنا . فهو إذن مجمع الأحبار والرؤساء وأصحاب الشرف فيهم . [المفصل فى تاريخ العرب] .

مما قال فضربتُ وجهه فجحد فنحاصُ ذلك ، وقال : ما قلتُ ذلك[١] .

فأنزل الله فيما قال فنحاص ﴿ لَقَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ.. (١٨١) ﴾ [آل عمران] هؤلاء لم يفطنوا إلى عظمة الله عز وجل وتطاولوا عليه سبحانه .

ورغم هذا ادعوْا وزعموا أنهم أبناءُ الله وأحباؤه ، قال الحق سبحانه : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ.. (١٨) ﴾ [المائدة] فيبطل الحق سبحانه زعمهم الباطل فيقول :﴿ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ .. (١٨) ﴾ [المائدة]

فلو كنتُم أبناءَ الله حقيقةً وأحباءه لكنتم نجوتُم من العذاب على ما ارتكبتموه من ذنوب ، والحقيقة أنكم ﴿ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ.. (١٨) ﴾ [المائدة] وستدخلون فى مشيئة المغفرة ، أو المشيئة المعذّبة .

فهم يتوهمون أنهم مهما فعلوا من ذنوب فإن الله لن يعذبهم يوم القيامة، ولكن عدْلَ الله يأبى ذلك ، كيف يُعذِّب بشراً بذنوبهم ثم لا يعذِّب اليهود بما اقترفوا من ذنوب .

فكلُّ هذا غرور وافتراءات ، حتى أنهم ادعوْا أنهم لن تمسّهم النارُ إلا أياماً معدودات[٢] ، وزعموا أيضاً أنه ﴿ لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى.. (١١١) ﴾ [البقرة]

فاليهود قالوا أنهم سيدخلون الجنة وحدهم ، وقال النصارى نفس القول ،

---

(١) أخرجه ابن أبى حاتم فى تفسيره (٤٦٣٥) من حديث ابن عباس رضى الله عنهما . وذكره الواحدى النيسابورى فى أسباب النزول (١٢٦/١) وأخرجه ابن جرير الطبرى فى تفسيره (٨٣٠٠) .

(٢) وهم قصدوا بالأيام المعدودات الأربعون يوماً التى عبدوا فيها العجل ، ثم يُخرجهم ربهم منها . [تفسير الطبرى] وأورد الشوكانى فى تفسيره (فتح القدير) عن مجاهد قال : يعنون الأيام التى خلق الله فيها آدم .

فاحتكرتْ كلُّ طائفة الجنة لنفسها ، وقد ردّ عليهم الحق سبحانه هذه الادعاءات فقال ﴿ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ.. (١١١) ﴾ [البقرة]

والأمانى هى أنْ تُعلِّق نفسك بأمنية ، وليس لهذه الأمنية سند من الواقع يُوصلك إلى تحقيق هذه الأمنية ، فالأمانى هى مطامع الحمقى لأنها لا تتحقق .

ولذلك يقول لهم الحق سبحانه هنا ﴿ قُلْ يَأَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا.. (٦) ﴾ [الجمعة] وكأنه سبحانه يُذكِّرهم بما تابوا منه سابقاً ، فلا تتمادوا فى ادعاءاتكم ومزاعمكم الباطلة ، فسبق أن أخطأتم ثم هُدْتُم إلينا وعُدْتم وتبتم ، فلماذا استمرأتم الافتراء ؟

وها هم يزعمون زعماً آخر ، فيقول لهم الحق سبحانه : ﴿ إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ.. (٦) ﴾ [الجمعة]

وأولياء الله تأتى أحياناً بمعنى المعين للعباد المؤمنين فيكون الله ولىَّ الذين آمنوا، أى مُعينهم ومُقوّيهم ، وأولياء الله أيضاً هم الذين ينصرون الله فينصرهم الله .

فمرة تُطلق (الولى) ويُراد بها (المعين) ، ومرة أخرى تُطلق كلمة (الولى) ويُراد بها المُعان ، لأنك إنْ كنتَ أنت وليّ الله والله وليّك فإنْ الحق سبحانه معينٌ لك وأنت مُعان .

فكلمة (ولى) من وليه يليه أى : قريب منك ، وهو أول مَفْزع يَفزع إليه إنْ جاءه أمرٌ يحتاج فيه إلى معاونة من غيره ، وإن احتاج إلى نُصْرة فهو ينصره وخيره يفيض على مَنْ والاه .

فالوليّ هو القريب الناصر المعين الموالى ، فإذا كنتم أولياء الله كما تقولون يُواليكم وينصركم ويُفيض عليكم من فضله وخيره مهما ارتكبتُم من الذنوب، ولن تمسَّكم النار إلا أياماً معدودات ، وأنه لن يدخل أحدٌ الجنةَ إلا إذا كان يهودياً ، فلماذا لا تتمنوا الموت ؟

والحق سبحانه يسألهم هذا ، وهو يعلم تمام العلم أنهم لن يتمنوا الموت أبداً، لأنهم كما قال عنهم فى آية أخرى : ﴿ قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٩٤) ﴾ [البقرة]

فإنْ كانت الآخرةُ لهم وحدهم عند الله لا يشاركهم فيها أحد ، فكان الواجب عليهم أنْ يتمنوا الموت ليذهبوا إلى نعيم خالد ، فما دامتْ لهم الدار الآخرة ، وما داموا موقنين من دخول الجنة وحدهم ، فما الذى يجعلهم يبقون فى الدنيا ؟

ألاَ يتمنون الموت ليدخلوا الجنة ؟

وقد قال لهم رسول الله ﷺ : « إنْ كنتُم فى مقالتكم صادقين قولوا اللهم أمتْنا ، فو الذى نفسى بيده لا يقولها رجل منكم إلا غُصَّ بريقه فمات مكانه ، فأبَوْا أنْ يفعلوا وكرهوا ما قال لهم فنزل ﴿ وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ.. (٩٥) ﴾ [البقرة] يعنى : عملتْه أيديهم ﴿ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٩٥) ﴾ [البقرة] إنهم لن يتمنوه فقال رسول الله ﷺ عند نزول هذه الآية : والله لا يتمنونه أبداً[١] .

ولأن زعمهم أنهم أولياء لله من دون الناس زعمٌ كاذب فهم ليسوا على يقين من دخولهم الجنة فعلاً ، بل قد يكون مصيرهم النار .

وقد قال لهم رسول الله ﷺ : « لو أن اليهود تمنَّوْا الموت لماتوا ، ولرأوا مقاعدهم من النار »[٢] .

إنها الحسرة الكبرى أنْ يجدوا أنفسهم من أهل النار ، حينها ينكشف أمرهم

---

(١) أورده السيوطى فى الدر المنثور (١/ ٤٧١) وعزاه للبيهقى فى دلائل النبوة ، وهو هناك قال البيهقى: حدثنى الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس . دلائل النبوة (٦/ ٢٧٤) .

(٢) أخرج الإمام أحمد فى مسنده (٢٢٢٥) عن ابن عباس قال : قال أبو جهل : لئن رأيت رسول الله ﷺ يصلى عند الكعبة لآتينه حتى أطأ على عنقه . قال ابن عباس : فقال رسول الله : لو فعل لأخذته الملائكة عياناً ، ولو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا ورأوا مقاعدهم فى النار ، ولو خرج الذين يباهلون رسول الله لرجعوا لا يجدون مالاً ولا أهلاً . وكذا أخرجه البزار فى مسنده (٤٨١٤) والنسائى فى السنن الكبرى (١٠٩٩٥) وأبو يعلى الموصلى فى مسنده (٢٦٠٤) .

وأنهم ادعوا ادعاءات ليس لها أساس ، وقائمة على غرورهم وادعائهم أنهم شعبُ الله المختار .

وهم غير صادقين ، ولن يتمنوا الموت أبداً بما قدَّمَتْ أيديهم من الذنوب والمعاصى على الاجتراءات على الله ، ويعلمون جيداً أنهم سيُحاسبون عليها ، لذلك قال تعالى : ﴿ وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِم وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٩٥) ﴾ [البقرة]

والدليل على أنهم لن يتمنوا الموت أبداً أنهم أحرصُ الناس على الحياة ، قال تعالى : ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ .. (٩٦) ﴾ [البقرة]

حتى أنهم حريصون على الحياة حرصاً يفوق حرصَ الذين أشركوا ، فالمشرك حريص على الحياة لأنه يعتقد أن الدنيا هى الغاية ، واليهود أشدُّ حرصاً على الحياة من المشركين لأنهم يخافون الموت لسوء أعمالهم السابقة.

لذلك كلما طالتْ حياتهم ظنُّوا أنهم بعيدون عن عذاب الآخرة ، الحياة لا تجعلهم يُواجهون العذاب ، ولذلك فهم يفرحون بها ، ولكن لماذا هم حريصون على الحياة أكثر من المشركين ؟

إن المشرك لا آخرةَ له ، فالدنيا هى كل همِّه وكلّ حياته ، لذلك يتمنى أنْ تطول حياتُه بأىِّ ثمن وبأىِّ شكل ، لأنه يعتقد أن بعد ذلك لا شيء ، ولا يعرف أن بعد ذلك العذابَ ، واليهود أحرصُ من المشركين على حياتهم .

حتى أن الحق سبحانه وتعالى يصفهم فيقول : ﴿ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ .. (٩٦) ﴾ [البقرة] فهم يحبون أنْ يعيشوا ألف سنة أو أكثر وهم يظنون أن طولَ أعمارهم وبلوغ الواحد منهم ألف سنة أن هذا سيُنجيهم من العذاب .

ولكن الحق سبحانه يقطع أملهم من هذا ، فيقول : ﴿ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ .. (٩٦) ﴾ [البقرة] فهَبْ أنه عاش ألفَ سنة أو حتى أكثر من ذلك

أيُزحزحه هذا عن العذاب ؟ لا ، طول العمر لا يغير النهاية .

فما دامت النهاية هى الموت يتساوى مَنْ عاش سنواتٍ قليلة ومَنْ عاش ألوفَ السنين فلن يهرب من العذاب .

والحرص هو تعلُّق النفس وتعبئة جهوده للاحتفاظ بشيء نرى أنه يجلب لنا نفعاً أو يذهب بضُرٍّ ، وهو استمساك يتطلب جهداً .

وقد أعطانا الحق سبحانه مثالاً عملياً على حب اليهود للحياة ، حتى أنهم رفضوا نُصْرة موسى عليه السلام ونُصرة الله ودينه ، قال موسى لقومه : ﴿ يَقَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ (٢١) قَالُوا يَـٰمُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ (٢٢) ﴾ [المائدة]

ولكنهم قالوا : ﴿ يَـٰمُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ (٢٤) ﴾ [المائدة] فخلاصة قولهم لموسى عليه السلام : لا تُرهق نفسك ووفّر عليك جهدك ، فنحن لن ندخل هذه الأرض ما دام هؤلاء العمالقة[1] فيها ، وإنْ كنت مُصراً على دخولنا هذه الأرض فاذهب أنت وربُّك فقاتلا ، ونحن بانتظاركما هنا قاعدون .

هكذا بلغ بهم الخوف والحرص على حياتهم أنْ سخروا من موسى وربّ موسى ، إنهم دائماً يعصُون نبيهم موسى عليه السلام بل أنبياءهم جميعاً ، وقد قتلوا البعض منهم ، ومن عصيانهم لمن جاء بعد موسى عليه السلام أن الله عز وجل قال عنهم :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا

---

(١) العمالقة المقصودون هنا هم القوم الجبارون الذين ذُكروا فى الآية . قال ابن كثير فى تفسيره (٣/٧٥) أى ذوى خِلَقٍ هائلة وقوى شديدة . ومدينة الجبارين هذه هى مدينة أريحا . قاله عكرمة والسدى . قال البغوى (٣/٦٣) : كانوا من العمالقة وبقية قوم عاد .

نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٢٤٦) ﴾ [البقرة]

إنهم يخافون الموت حتى لو كان دفاعاً عن أبنائهم وديارهم ، فهم يدَّعون الالتزام بمنهج الله حتى أنهم قالوا لنبى لهم : ﴿ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ .. (٢٤٦) ﴾ [البقرة]

ولكنهم عند التنفيذ ﴿ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ .. (٢٤٦) ﴾ [البقرة] وحتى عندما بعث الله لهم طالوت ملكاً ليقاتل جالوت المتجبر رفضوا هذا ، يقول تعالى : ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ.. (٢٤٧) ﴾ [البقرة]

إن أعينهم على الدنيا دائماً ومقياسهم للأشياء دائماً دنيوى ، المال والثروة عندهم هو الأساس ، وكذلك عنصريتهم المستمدة من الاعتداد بجاههم وسلطانهم ، ثم ﴿ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ .. (٢٤٧) ﴾ [البقرة]

ولكن الله يلفت نظرهم أن مقياسكم خاطىء ، إنما المقياس هو أنه مصطفى من الله ، والله يعلم المصلح من المفسد ، اختاره الله بعلم وحكمة ، ولأن الله اختاره بعلم وحكمة فإنَّ الله يعطينا ويعطى اليهود مسوِّغات تكليف طالوت .

﴿ قَالَ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ .. (٢٤٧) ﴾ [البقرة] فهو جاء لمهمة تقتضى أنْ يكون قوياً على الحرب والقتال (بسطة فى الجسم)، وأنْ يكون عالماً عليماً حكيماً يقود الأمة بعلم وحكمة (بسطة العلم) .

ولكن لأنهم لا يريدون الآخرة بل يريدون الدنيا تمرَّد الكثير منهم على طالوت، وقد امتحنهم فى طاعته فسقطوا ، يقول الحق سبحانه : ﴿ فَلَمَّا فَصَلَ

طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ.. (٢٤٩) ﴾ [البقرة]

لقد كان الاختبار فى منعهم مما تصبو إليه نفوسهم ، لأنهم ساعة يروْنَ ما يحبونه ويشتهونه فسيندفعون إليه وينسون أمر الله ، ومَنْ كانت هذه صفته فهو غير مأمون أنْ يكون فى جند الله .

أما الذى يرى الماء ويمتنع عنه وهو فى حاجة إليه فهو صابر قادر على نفسه ، وسيكون من جند الله لأنه آثر مطلوب الله على مطلوب بطنه ، وهو أهْلٌ لأنْ يُبتلى .

فى البداية سبق لهم أنْ تولّوْا وأعرضوا عن القتال إلا قليلاً ، وهنا امتنع عن الشرب قليلٌ من قليل ، وهذه غرابيل الاصطفاء أو مصافى الاختبار .

يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ ﴾

القرآن تحدَّاهم أنْ يتمنوْا الموت ولم ولن يتمنوه أبداً ، وكان الكلام المنطقى أنه ما دامت الدارُ الآخرة خالصةً لهم والله تحداهم أنْ يتمنوا الموت إنْ كانوا صادقين لتمنوه ليذهبوا إلى نعيم أبدى .

ولكن الحق سبحانه حكم مُسْبقاً أن ذلك لن يحدث منهم ، لماذا ؟ لأنهم كاذبون ، ويعلمون أنهم كاذبون ، لذلك فهم يهربون من الموت ولا يتمنونه .

ولكن لماذا قطع الحق سبحانه بأنهم ﴿ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا .. (٧) ﴾ [الجمعة]
يوضح الحق سبحانه الأمر فيقول : ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ .. (٧) ﴾ [الجمعة]

أى : أن أعمالهم السيئة تجعلهم يخافون الموت ، أما صاحب الأعمال الصالحة فهو يسعد بالموت ، ولذلك نسمع أن فلاناً حين مات كان وجهه أشبه بالبدر لأن عمله صالح ، فساعة الموت يعرف فيها الإنسانُ يقيناً أنه ميِّت .

وقد قال رسول الله ﷺ : « مَنْ أحب لقاء الله أحبَّ اللهُ لقاءه ، ومَنْ كره لقاء الله كره اللهُ لقاءه . فقالت عائشة – أو بعض أزواجه – إنّا لنكره الموت . قال: ليس ذاك ، ولكن المؤمن إذا حضر الموت بُشِّر برضوان الله وكرامته ، فليس شيءٌ أحبّ إليه مما أمامه فأحبّ لقاء الله وأحبَّ الله لقاءه .

وإن الكافر إذا حُضر[1] بُشِّر بعذاب الله وعقوبته ، فليس شيءٌ أكره إليه مما أمامه ، كرِهَ لقاءَ الله وكره اللهُ لقاءه »[2] .

فالمهتدون الذين التزموا الطريق الموصِّل للغاية ، والغاية أن تغمرهم صلواتٌ من ربهم ورحمة ، هؤلاء يقول الحق سبحانه عنهم : ﴿ أُولَـٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (١٥٧) ﴾ [البقرة]

هؤلاء يحبون لقاءَ الله ويحب اللهُ لقاءهم لأنهم مُقدِمون على خير مما هم فيه من الدنيا ، فتجد علامات البشرى على وجوههم لحظة الاحتضار بما عملوا من الصالحات .

أما الذين أسلموا فى الدنيا وظلموا أنفسهم بالتمرد على منهج الله كهؤلاء اليهود الذين يحفل سجلُهم التاريخى – منذ أنْ كان هناك شعبٌ يهودى –

---

(١) حُضِر : واحتُضر مبنى للمفعول يقالان فيمن حضره الموت . قاله ابن طريف . وقال برهان الدين الخوارزمى فى (المغرب فى ترتيب المعرب) احتضر : مات لأن الوفاة حضرته أو ملائكة الموت ويقال : فلان محتضر أى قريب من الموت . (٢/٨) .

(٢) الحديث أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٥٠٧) وأورده ابن الأثير فى جامع الأصول فى أحاديث الرسول (٧٣٦٧) وعزاه للبخارى ومسلم والترمذى والنسائى ، وعند بعضهم اقتصروا على (من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه) دون زيادة ما قالته عائشة .

يحفل سجلهم بمعصية الله والتحايل على عدم تنفيذ أوامر الله .

هؤلاء تجدهم يكرهون لقاءَ الله لأنهم يدركون ما فعلوه فى الدنيا وما قدَّمَتْ أيديهم فيخافون من لقاء الله ويودُّون لو لم يكُنْ هناك بَعْثٌ أو حساب .

والإنسان إذا مرض يأمل فى الشفاء ويستبعد الموت ، ولكن ساعة الغرغرة يتأكد الإنسان أنه ميت ويستعرض حياته فى شريط عاجل ، فإنْ كان عمله صالحاً تنبسط أساريره ويفرح لأنه سينعم فى الآخرة نعيماً خالداً ، لأنه فى هذه الساعة – والروح تغادر الجسد – يعرف الإنسانُ مصيره ، إما إلى الجنة وإما إلى النار .

وتتسلَّمه إما ملائكة الرحمة وإما ملائكة العذاب ، فالذى أطاع الله يستبشر بملائكة الرحمة ، والذى عصى وفعل ما يُغضب الله يستعرض شريط أعماله ، فيجده شريطَ سوء وهو مُقْبِل على الله ، وليست هناك فرصة للتوبة أو لتغيير أعماله .

عندما يرى مصيره إلى النار تنقبض أساريره وتُقبض روحه على هذه الهيئة، فيقال : مات فلان وهو أسود الوجه منقبض الأسارير . إذن : فالذى أساءَ فى دُنياه لا يتمنى الموتَ أبداً ، أما صاحب العمل الصالح فإنه يستبشر بلقاء الله .

وقد يسأل سائلٌ : الله يطلب منهم أنْ يتمنوا الموت ، كيف ورسول الله ﷺ نهى عن تمنِّى الموت فقال : « لا يتمنينَّ أحدكم الموتَ ولا يدعو به من قبْل أنْ يأتيه إلا أنْ يكون قد وثق بعمله »[1] .

نقول : إنَّ تمنى الموت المنهى عنه هو تمنِّى اليأس وتمنِّى الاحتجاج على المصائب، يعنى يتمنى الموت لأنه لا يستطيع أنْ يتحمل قَدَرَ الله فى مصيبة حدثتْ له .. أو يتمناه احتجاجاً على أقدار الله فى حياته ، هذا هو تمنِّى الموت المنهيّ عنه .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٨٥٩٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه . بهذا اللفظ وتمامه : «فإنه إن مات أحدكم انقطع عنه عمله وإنه لا يزيد المؤمن عمره إلا خيراً » . قال شعيب الأرناؤوط : صحيح دون قوله « إلا أن يكون قد وثق بعمله » فإنها زيادة منكرة . وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد (١٧٥٧٠) : « فيه ابن لهيعة وهو مدلس وفيه ضعف وقد وُثِّق وبقية رجاله رجال الصحيح » .

أما صاحب العمل الصالح فمستحبٌّ له أن يتمنى لقاء الله ، واقرأ قوله تعالى فى آخر سورة يوسف : ﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .. (١٠١) ﴾ [يوسف] ثم قال ﴿ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (١٠١) ﴾ [يوسف]

وقوْل رسول الله ﷺ أى : لا تتمنوا الموت جزعاً مما يصيبكم من قدر الله ، ولكن اصبروا على قدر الله .

وقد ورد الحديث الشريف الذى يُرشدنا إذا ضاقتْ بنا الحياة ألاَّ نتمنى الموت، بل نقول : « اللهم أحْينى ما كانت الحياةُ خيراً لى ، وتوفَّنى ما كانت الوفاةُ خيراً لى »[1] .

وقُلنا : إنَّ تمنى الموت المنهيّ عنه ما كان فيه اعتراضٌ على قدر الله وتمرَّد على إرادته سبحانه ، كأن تكره الحياة والعيش إذا ضاقَ بك فتتمنَّى الموت ، أما أنْ تتمنى الموت لعلمك أنك ستصير إلى خير مما تركتَ فهذا أمر آخر .

ومَنْ يَعْصِ الله ويتمرَّد على أمره لا يتمنى الموت بما قدَّمت يداه ، ولكن هل معنى ذلك أن كل المعاصى من تقديم اليد فقط ؟ إن هناك معصيةً للعين ، ومعصية للسان ، ومعصية للرِّجْل ، ومعصية للقلب ، ولا حصرَ للمعاصى .

فلماذا إذن قال الحق سبحانه ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ .. (٧) ﴾ [الجمعة] قال الحق ذلك لأن الأعمال الظاهرة تُمارس عادة باليد ، فاليد هى الجارحة التى نفعل بها أكثر أمورنا ، وعلى ذلك يكون قوْل الحق ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ .. (٧) ﴾ [الجمعة] مقصودٌ به بما قدّموا ، بأيِّ جارحة من الجوارح .

---

(١) أخرج البخارى فى صحيحه من حديث أنس بن مالك (٦٣٥١) قال قال رسول الله ﷺ : « لا يتمنين أحد منكم الموت لضر نزل به ، فإن كان لابد متمنياً الموت فليقل : اللهم أحينى ما كانت الحياة خيراً لى ، وتوفنى إذا كانت الوفاة خيراً لى » . وكذا أخرجه مسلم فى صحيحه (٦٩٩٠) .

فالذنوب إما أقوال وإما أفعال وإما عمل من أعمال القلب ، كالحقد مثلاً أو النفاق .. إلخ لكن فى الغالب ما تُزاول بالأيدى .

ولكن ما الذى قدَّمتْه أيدى اليهود ، وبسبب ما قدمته أيديهم لنْ يتمنوا الموت لأنهم يخافون من عقابهم الأبدى ، على ما قدَّموه ؟

فمما قدَّمته أيديهم عبادتهم العجل ، قال تعالى : ﴿ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ (١٤٨) ﴾ [الأعراف]

لقد احتالوا على أهل مصر وأخذوا منهم الحُليّ كسُلْفة سيردُّونها من بعد ذلك، ثم جاء رحيلهم فأخذوا الحُلىَّ معهم ، وغرق قوم فرعون وبقيتْ الحُلىُّ مع قوم موسى ، وصنع موسى السامرى من ذهب هذه الحُلىِّ عجلاً .

وقد صنعه من الذهب وكأنه يريد أنْ يتميز عن الآلهة التى كانت من الأحجار، وحاول أنْ يجعله إلهاً نفيساً فصنعه من الحلى المسروقة .

لقد اتخذوا العجل بعد أنْ أتمَّ الله عليهم المنَّة العظيمة حين أنجاهم من فرعون وجنوده ، بل أغرق فرعون وجنوده وحاشيته .

وحدث أنه بعد أنْ جاوز الحقُّ سبحانه ببنى إسرائيل البحر ومرُّوا على قوم يعبدون الأصنام ، فقالوا لموسى عليه السلام : ﴿ اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ .. (١٣٨) ﴾ [الأعراف]

لقد قالوا ذلك وهم ما زالوا مغمورين فى نِعَم الله إنجاءً من عدو واستخلافاً فى الأرض ، ومع ذلك فبمجرد أنْ خرجوا إلى البَرِّ ورأوا جماعة يعبدون صنماً طالبوا موسى أنْ يجعل لهم صنماً يعبدونه .

لذلك توعدهم الحقُّ سبحانه فقال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ

مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ (١٥٢) ﴾ [الأعراف]

وقد نالهم الغضب من ربهم ونالتْهم الذلَّة والخزى فى الحياة الدنيا بأنْ أمرهم بأنْ يقتلوا أنفسهم إنْ كانوا من التائبين ، يقول تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٥٤) ﴾ [البقرة]

وهذه مخالفة خطيرة لمنهج الله ، وهى مخالفة فى القمة ، فى عبادة الله وحده .

ومما قدَّمتْ أيديهم أنهم طلبوا رؤية الله جَهْرة فهم لم يؤمنوا حقيقة ، إنما هم مؤمنون بالمادة المحسَّة المرئية لهم ، قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ (٥٥) ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٥٦) ﴾ [البقرة]

فبعد أنْ تاب الله على قوم موسى بعد عبادتهم للعجل عادوا مرة أخرى إلى عنادهم وماديتهم ، فهم كانوا يريدون إلهاً مادياً ، إلهاً يرونه ، ولكن الإله من عظمته أنه غَيْب لا تدركه الأبصار .

إنهم يطلبون رؤية جهرية واضحة يدركونها بحواسِّهم ، فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون ، بسبب اجترائهم هذا ، فأنت عندما ترى شيئاً بعينيك تكون قد حدّدته فى حيِّز ، وهذا لا يجوز على الحق سبحانه .

وقد قدَّمت أيديهم أربعة جرائم أخرى ارتكبوها ويرتكبونها ، يقول الحق سبحانه : ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ[1] بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (١٥٥) ﴾ [النساء]

هذه أربع جرائم ما زالوا يرتكبونها وهم قائمون عليها ، لذلك عبَّر الحق

---

(١) غلف : قال ابن عباس : غلف : مملوءة علماً لا تحتاج إلى علم محمد ﷺ ولا غيره [الدر المنثور للسيوطى ١/ ٤٦٠] ومن قوله أيضاً : فى غطاء ، فى أكنة ، هى القلوب المطبوع عليها ، عليها غشاوة. ذكره مجاهد . وقال قتادة : لا تفقه .

سبحانه بذكر الاسم لا الفعل ، فقال (نقضهم) (كفرهم) (قتلهم الأنبياء) (قولهم قلوبنا غلف) .

فالاسم يفيد الديمومة والاستمرار بعكس الفعل الذى يُعبر عن زمن ويكون محدوداً بصيغته .

فهم مستمرون على نَقْض المواثيق والعهود ، ومستمرون على كفرهم بآيات الله سواء التى نزلتْ فى التوراة تُبشر برسول الله ، أو آيات القرآن الكريم الذين طُولبوا بالإيمان به فرفضوا ، وقد ذهبوا بعيداً فى الاجتراء على الله فقتلوا أنبياءه .

ومما قدَّمته أيديهم أنهم كانوا يكتبون الكتاب بأيديهم، ثم يدَّعُون أنه من عند الله ، وفى ذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ (٧٩) ﴾ [البقرة]

فالله سبحانه يريد هنا أنْ يُبين لنا مدى تعمد هؤلاء للإثم ، فهم لا يكتفون مثلاً بأنْ يقولوا لغيرهم : اكتبوا ، ولكن لاهتمامهم بتزييف كلام الله سبحانه وتزويره يقومون بذلك بأيديهم ليتأكدوا أن الأمر قد تمَّ كما يريدون تماماً .

فليست المسألة نزوة عابرة أو أمراً عارضاً ، بل هو مع سبق الإصرار والترصُّد ، لذلك استحقُّوا عقاب الله ، وقد بدأت الآية الكريمة بقوله تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ .. (٧٩) ﴾ [البقرة] ثم جاء قوله تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ (٧٩) ﴾ [البقرة]

فساعة الكتابة لها ويل وعذاب ، وساعة بيْع الصفقة لها ويل وعذاب ، والذى يكسبونه هو ويل وعذاب .

﴿ أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (١٦) ﴾ [البقرة] ومن اشترائهم الضلالة بالهدى أولئك الذين نزل فيهم قول الله

عز وجل ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا .. (٧٧) ﴾ [آل عمران]

فواقعة الحال التى نزلت فيها الآية هى أن جماعة فى عهد جدب ومجاعة دخلت على كعب بن الأشرف[١] اليهودى يطلبون منه الميرة أى الطعام والكسوة، فقال لهم : هل تعلمون أن هذا الرجل رسولُ الله ؟ قالوا : نعم . قال : إنِّى هممتُ أنْ أطعمكم وأنْ أكسوكم ، ولكن الله حَرَمكم خيراً كثيراً ، وتساءلوا : لماذا حرمنا اللهُ خيراً كثيراً ؟

وجاءتهم الإجابة : لقد أعلنتم الإيمان بمحمد : فلما وجدوا أنفسهم فى هذا الموقف قالوا لكعب بن الأشرف : دَعْنا فترة لأنه ربما غلبتْنا شبهة فلنراجع فيها أنفسنا .

وبعدما مرَّتْ الفترة فضَّلوا الطعام والكسوة على الإيمان، وقالوا لكعب ابن الأشرف : لقد قرأنا فى كتبنا الموجودة لدينا خطأ ، ومحمد ليس رسولاً فأعطاهم كعبٌ القوتَ والكسْوة[٢] .

فهل تظنون أن أناساً كهؤلاء من الممكن أنْ يتمنوا الموت ؟ أولئك الذين يقول الله فيهم ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا

---

(١) كعب بن الأشرف : رجل من نبهان من طيىء وأمه من بنى النضير . كنيته أبو نائلة . كان أبوه قد أصاب دماً فى الجاهلية فقدم المدينة وحالف يهود بنى النضير وتزوج عقيلة بنت أبى الحقيق فولدت له كعباً ، وكان شاعراً ناصب الإسلام العداء .

(٢) أورده الواحدى النيسابورى فى أسباب النزول (١/١٠٦) من قول الكلبى : إن ناساً من علماء اليهود أولى فاقة أصابتهم سنة فاقتحموا إلى كعب بن الأشرف بالمدينة فسألهم كعب : هل تعلمون أن هذا الرجل رسول الله فى كتابكم ؟ قالوا : نعم وما تعلمه أنت ؟ قال : لا فقالوا : فإنا نشهد أنه عبد الله ورسوله .. قال : لقد حرمكم الله خيراً كثيراً لقد قدمتم علىَّ وأنا أريد أن أميركم وأكسو عيالكم فحرمكم الله وحرم عيالكم . قالوا : فإنه شُبِّه لنا ، فرويداً حتى نلقاه ، فانطلقوا فكتبوا صفة سوى صفة ، ثم انتهوا إلى نبى الله فكلّموه وسائلوه ثم رجعوا إلى كعب وقالوا : لقد كنا نرى أنه رسول الله ، فلما أتيناه إذا هو ليس بالنعت الذى نعت لنا ، ووجدنا نعته مخالفاً للذى عندنا وأخرجوا الذى كتب فنظر ومارهم وأنفق عليهم . فأنزل الله تعالى هذه الآية .

قَلِيلًا مِنْهُمْ .. (١٣) ﴾ [المائدة]

وفى آية أخرى يقول الحق سبحانه : ﴿ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا[1] لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ.. (٤٦) ﴾ [النساء]

ويقول تعالى : ﴿ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٨) ﴾ [آل عمران]

فهم يفتلون بعض المعانى المستنبطة من الكلمات حتى يُوهموا المؤمنين بأن هذه المعانى غير المرادة وغير الصحيحة هى معانٍ مُرادة لله وصحيحة المعنى ، إنهم يدَّعُون على المنهج المنزَّل من السماء ما ليس فيه .

ولذلك يقول سبحانه : ﴿ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ .. (٧٨) ﴾ [آل عمران] إنهم عندما يلوون ألسنتهم بالكتاب يُحرِّفونه رغبةً فى التلبيس والتدليس عليكم لتظنوا أنه من الكتاب المنزَّل من عند الله على رسولهم .

وهم لم يكتفوا بتحريف كتابهم والدسّ فيه وكتمان ما فيه ، بل عمدوا إلى صَدِّ المؤمنين عن الإسلام والقرآن ، فأرادوا أنْ يُشككوا المسلمين فى أمر المنهج، لذلك اصطنعوا حيلةً ذكرها الحق سبحانه فى قوله :

﴿ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ[2] النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٧٢) ﴾ [آل عمران]

وهذا خلطٌ للحق بالباطل وخداع للمؤمنين ، فحاول بعض أهل الكتاب من اليهود أنْ يخدعوا المؤمنين بإعلان الإيمان أوّل النهار ثم إعلان الكفر آخره،

---

(١) راعنا : التى تقصدون بها – أيها المؤمنون – الرعاية والمراقبة بقصد الخير وحفظ الجانب ، فاغتنمها اليهود لموافقة كلمة سيئة عندهم فصاروا يلوون بها ألسنتهم ويقصدون بها الرعونة وهى إفراط الجهالة ، فنهاهم عن موافقتهم فى القول [محاسن التأويل للقاسمى] .

(٢) وجه النهار : أوّله . فوجه النهار : أول النهار . قال مجاهد وقتادة والزجاج . [زاد المسير لابن الجوزى ١/٣٦٣] .

والهدف بطبيعة الحال هو إشاعة الشكِّ وزرع البلبلة فى نفوس المؤمنين بخصوص هذا الدين .

فقد يقول بعض القرشيين أو العرب : لقد اختبر أهلُ الكتاب هذا الدين الجديد وهم أهلُ علمٍ بمناهج السماء ، ولم يجدوه مطابقاً لمناهج السماء .

ولذلك عندما سألهم أهل قريش عن هذا الدين وسألوهم : أنحن أهدى أم محمد ؟ قالوا : بل أنتم الذين على الهدى . يقول تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ[1] وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا (٥١) ﴾ [النساء]

فقد سأل كعبُ بن الأشرف أبا سفيان : ماذا فعل محمد معكم ؟ قال له : فارقَ دين آبائه وقطع رحمه وتركهم وفرّ إلى المدينة ونحن على غير ذلك ، نحن نسقى الحجيج ونقري[2] الضيف ، ونفك العاني[3] ونصل الرحم ، ونعمر البيت ، ونطوف به .

وعظّم أبو سفيان فى أفعال قريش ، فقال الذين أوتوا الكتاب لعداوتهم لمحمد قالوا لأبى سفيان وقومه : أنتم أهدى من محمد سبيلاً[4] .

---

(١) الجبت : قال ابن الجوزى فى زاد المسير (٢/٤٥) : فيه سبعة أقوال : السحر ، الأصنام ، حى بن أخطب، كعب بن الأشرف ، الكاهن ، الشيطان ، الساحر . وذكر لكل قول قائلاً . قال أبو هلال العسكرى فى كتاب (الفروق اللغوية) : قيل : الجبت والطاغوت هما كل ما عُبد من دون الله من حجر أو صورة أو شيطان . (١/١٥٤) .

(٢) قرى الضيف قرى : أضافه . واستقرانى : طلب منى القرى . والمقراة : القصعة التى يقرى الضيف فيها. [المحكم والمحيط الأعظم – مادة قرى] .

(٣) العانى : الأسير . ويقال : العانى العبد والعانية الأمَة : وقال فى المعجم الوسيط : العانى الذليل والأسير . وكل من ذل واستكان فقد عَنَا .

(٤) أورده القرطبى فى تفسيره (٥/٢٤٩) أن كعب بن الأشرف خرج فى سبعين راكباً من اليهود إلى مكة بعد وقعة أُحد ليحالفوا قريشاً على قتال رسول الله ﷺ ، فنزل كعب على أبى سفيان فأحسن مثواه ونزلت اليهود فى دور قريش فتعاقدوا وتعاهدوا ليجتمعن على قتال محمد ، فقال أبو سفيان : إنك امرؤ تقرأ الكتاب وتعلم ونحن أميون لا نعلم ، فأينا أهدى سبيلاً وأقرب إلى الحق . نحن أم محمد ؟ فقال كعب : أنتم والله أهدى سبيلاً مما عليه محمد .

لذلك قال عنهم الحق سبحانه : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا (٥٢) ﴾ [النساء] وذلك جزاء صدهم عن سبيله وتفضيلهم الكافرين الوثنيين على مَنْ بشَّرت به كتبهم ، بل زوّروا القول ، إذا كيف يصير المشركون عبدة الأصنام أهدى من محمد سبيلاً .

فكيف يلاقى هؤلاء الحقَّ سبحانه يوم القيامة ؟ فبأيِّ وجه يقفون أمام الله؟ لذلك كان من المستحيل عليهم أن يتمنوا الموت أو يُحبون لقاء الله ، فهم قد أُشربوا حُبَّ معصية الله والتمرد على أوامره .

فلا هم يستطيعون تصوُّر أنهم سيموتون ويُحاسبون على ما قدمت أيديهم، وما فعلوه وما اكتسبوه ، ولا هم يستطيعون الخروج عن طبائعهم الشريرة الدنية .

لذلك كانوا ظالمين لأنفسهم قبل أنْ يكونوا ظالمين لمن أضلوهم ، ويقول سبحانه : ﴿ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٧) ﴾ [الجمعة]

فالله عليم بظلمهم ومعصيتهم ، هذا الظلم والمعصية هو الذى يجعلهم يخافون الموت ولا يتمنونه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾

فالحق سبحانه يخاطب نبيه ورسوله محمداً ﷺ أنْ يقول لهؤلاء الناس من أهل الكتاب الذين يظنون أنهم لن يموتوا ، أو أنهم مخلدون فى الأرض ، أو أنهم

يستطيعون أن يفروا من الموت .

فالحق سبحانه يقول له (قل) ، فالله تعالى لم يُرد أنْ يخاطبهم مباشرةً لعِظم ما افتروا على الله سبحانه ، ولعظيم ما منَّ الله عليهم به طوال تاريخهم ، فلغضبه سبحانه من أفعالهم وصنيعهم وجَّه نبيه ﷺ أنْ يخاطبهم .

لقد كانوا سابقاً الأمناء على وحى الله وكتبه واستُحفِظوا عليها ولكنهم نقضوا عهودهم ومواثيقهم مع الله ، فانتقل ميراث النبوة منهم إلى غيرهم ، فانتقل الوحى إلى محمد ﷺ .

لقد أصبحوا مخاطبين من قِبَل رسول الله ، فالله يرسل إليهم ما يريده من خلال رسول الله محمد ، فقال لنبيه (قل) .

إنهم يريدون أنْ يفروا من الموت لأنهم لم يفعلوا شيئاً حسناً يكون لهم ذُخْراً يوم يقابلون الله فى يوم لابدّ أنه آتٍ ، لقد نسوا أنَّ الموتَ مُقدَّر على الناس جميعاً ، وأن الحياة الدنيا هى مرحلة بين قوسين .

القوس الأول هو أن الله يخلقنا ويُوجدنا وتمضى رحلة الحياة إلى القوس الثانى الذى تخمد فيه بشريتنا وتتوقف حياتنا وهو الموت . أى أننا فى رحلة الحياة من الله وإليه ، إذن : فحركة الحياة الدنيا هى بداية من الله بالحق ونهاية بالموت .

ولا أحدَ يملك الحياة أو الموت ، فإنْ كان أحدٌ يملك هذا فليمنع إنساناً واحداً أنْ يموت ، والموت نقْضٌ للحياة ، وقد أخفى الله تبارك وتعالى عنّا الموت زماناً ومكاناً وسبباً وعمراً ، لم يُخفه ليحجبه ، وإنما أخفاه حتى نتوقعه فى كلِّ لحظة .

وهذا إعلامٌ واسع بالموت حتى يُسرع الناسُ إلى العمل الصالح وإلى المثوبة،

لأنـه لا يوجـد عمـر مُتيقَّن فى الدنيا فلا الصـغيرُ آمـنٌ على عمره ، ولا الشـابُّ آمـنٌ علـى عمره ، ولا الكهلُ آمن على عمره ، ولذلك يجب أنْ يسـارع كلٌّ منّا فى الخيرات حتى لا يفاجئه الموت ، فيموت وهو عَاصٍ .

فصـاحب الالتزام بالمنهج يطمئن إلى لقاء ربه ، ويطمئن إلى جزائه ، والذى لا يؤمـن بالآخرة أخذ مـن الله الحياة فأفناها فيما لا ينفع ، ثم بعد ذلك لا يجد شيئاً إلا الحساب والنار .

والنعمـة التـى أنت فيها زائلة عنـك ، إما أنْ تتركها بالمـوت ، أو تتركك هى وتزول عنك ، وتخرج من الدنيا تحمل أعمالك فقط ، كلّ شيء زال وبقيتْ ذنوبك تحملها إلى الآخرة .

وعند مواجهة الموت ونهاية العمر يصـبح الإنسـانُ مقهـوراً وليس مختاراً ، فهو لا يملك شـيئاً لنفسـه ولا يسـتطيع أنْ يقول لن أموت الآن ، انتهتْ بشريته ، وانتهتْ سيطرته على نفسه حتى أعضاؤه تشهد عليه .

والحق سبحانه يؤكد أمر ملاقاة الموت هنا باستخدام لفظ (إن) ويستخدمه مرتـين فـى نفس الآية فيقول : ﴿ قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ .. (٨) ﴾ [الجمعة]

فلا يحسـب أحدٌ أنه سـيفلت من الموت وملاقاة الله سـبحانه لأنه كما يقول عـز وجـل : ﴿ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللهُ جَمِيعًا .. (١٤٨) ﴾ [البقرة] أى : أنه ليس هناك مكانٌ تستطيعون أنْ تختفوا فيه عن علم الله تبارك وتعالى .

فالحـقُّ جلَّ جلاله يريدنـا أنْ نعرف يقيناً أننا لا نسـتطيع أنْ نفرَّ من علمه ولا مـن قَدَره ولا من عذابه ، وأن الطريق الوحيد المفتوح أمامنا هو أنْ نفرَّ إلى الله ، وأنـه لا منجـاةَ مـن الله إلا إليه ، ولذلك لا يظنّ كافر أو عاصٍ أنه سـيفلت من الله .

والإنسان قد يستقبلُ الموت فى أيّ لحظة ، فلا أحدَ بقادر علي الاحتياط من الموت لا زماناً ولا مكاناً ، وها هو ذا الحق سبحانه يقول : ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ .. (٧٨) ﴾ [النساء]

فالعقل البشرى الذى يتوهم أنَّ بإمكانه الاحتياطَ من الموت مكاناً عليه أنْ يعى جيداً أنه لا يستطيع ذلك ، فوجود الشخص عند ظرف ما لا يدفع ولا يمنع عنه الموت .

فالموت مخلوق بسرٍّ دقيق للغاية يناسب دقَّة الصانع ، وهو لطيف يأتى الإنسان ويدهمه فى لحظة ومكان غير معلوميْن له ، والحق سبحانه يقول : ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ .. (٧٨) ﴾ [النساء]

وكلمة (يدرككم) دليل على أن الإنسان عندما تدبّ فيه الروح ينطلق الموت مع الروح إلى أنْ يدركها فى الزمن الذى قدَّره الله .

وكلمة (يدرك) توضح لنا أنَّ الموتَ يلاحق الروحَ حتى إذا أدركها سلبها ، وكما قال الأثر الصالح عن ملاحقة الموت للحياة : « حتى إذا أدركها جرتْ لا أحدٌ منكم إلا هو مُدْرَك » .

ولذلك يقول أهل المعرفة والاستشراق : « الموت سهم أُرسل إليك وإنما عمرك هو بقدر سفره إليك » .

فالموت يلاحق حياة الإنسان ويجرى وراء روحه حتى يدركها ، فالموت سهم أُرسِل وعمرك بقدر سفره إليك[1] ، فالموت واقع لا محالة .

والدليل على هذا هو استخدام الحق سبحانه للفظة (تفرون) فهم يفرون من الموت ، هم يجرُون والموت يجرى وراءهم ، إنهم يفرُّون هرباً لعدم ملاقاة الموت وخشية أنْ يدركهم ويلحق بهم .

---

(١) أورده الثعالبى فى كتاب (الإعجاز والإيجاز) من قول عبد الله بن المعتز (الموت سهم مرسل إليك عمرك بقدر سفره إليك) .

ولكن الحق سبحانه يقطع أملهم فى هذا، ويحبط آمالهم وتمنياتهم بأنهم يستطيعون الفرار من الموت والهرب منه، فيقول تعالى: ﴿ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ .. (٨) ﴾ [الجمعة]

والقرآن يتميز بأسلوبه البديع فى التعبير عن الحدث وتصويره فى صورة حِسّية مُشاهدة بالأبصار، أناس يفرُّون من شيء ما، وهذا الشيء يطاردهم حتى يدركهم، فقال: ﴿ يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ .. (٧٨) ﴾ [النساء]

ولكنه هنا يقول لمحة أخرى ﴿ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ .. (٨) ﴾ [الجمعة]، والملاقاة فيها معنى المقابلة وجهاً لوجه، وهذا غير تعبير (يدرككم) الذى يعنى الملاحقة والإدراك.

ومعنى الإدراك والدرك يتضح فى قوْل الحق سبحانه: ﴿ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١) ﴾ [الشعراء]

فعندما لحق فرعون وجنوده بموسى وقومه، وصار كلٌّ منهما يرى الآخر، عندها ﴿ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١) ﴾ [الشعراء]

فالحال أن البحر من أمامهم وجنود فرعون من خلفهم، فلا مناصَ ولا مهرب، ولكن الحق سبحانه طمأنهم وطمأن موسى عليه السلام فقال: ﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ[1] بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى (٧٧) ﴾ [طه]

فمعنى ﴿ لَا تَخَافُ دَرَكًا .. (٧٧) ﴾ [طه] أى: لا تخَفْ من فرعون أنْ يدركك. فسيدنا موسى عليه السلام عندما أراد أنْ يأخذ بنى إسرائيل من فرعون ويخرج بهم وقبل أنْ يصل بهم إلى البحر تنبَّه لهم قوم فرعون وجاءوا بجيوشهم وكان

---

(١) أسر بعبادى: أى سر بهم ليلاً من أرض مصر. [تفسير البغوى ٥/٢٨٦] قال علم الدين السخاوى فى تفسيره: الإسراء لا يكون إلا ليلاً. وقال فى مختار الصحاح: سرى يسرى بالكسر سُرى ومسرى وأسرى أى سار ليلاً.

قوم فرعون من ورائهم والبحر من أمامهم .

فقال قوم موسى إيماناً بالأسباب ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١) ﴾ [الشعراء] فماذا قال موسى ؟ لم يقُلْ مثلما قال قومه ولكنه نظر للمسبِّب الأعلى ، فقال بملء فيه : ﴿ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢) ﴾ [الشعراء] فموسى المرسَل من الله عَلم أن الله لن يخذله ، لأنه يريد أنْ يُتمَّ نعمة الهداية على يديه ، فقد كان موسى ممتلئاً باليقين والثقة .

وإذا كان الموتُ يدرك الإنسان فيصيبه وينال منه فإنه في نفس الوقت يُلاقيه ، ويصبح الإنسان وجهاً لوجه مع ما كان يفرُّ منه ، فالموت مصير الإنسان وهو سابقه ، إنه سيسبقك وينتظرك عند اللحظة التى قدَّرها الله ، وفى المكان الذى سيشاؤه الحق سبحانه .

وهذا يعطى لفظة (يدرككم) معنى الإحاطة ، إن الموت سيأتى خلفك ، ولكنه فجأة يصبح أمامك ، أى أنك لا تعرف من أين أتى ، أهو من خلفك أم من أمامك؟

وملاقاةُ الموت ليستْ بالأمر الهيِّن ، خاصة على مَنْ أنفق حياته فى معصية الله ، فالعاصى والكافر الذى كان يعتقد أن لا موت ، أو كان يعتقد أنه من الممكن أن يفر منه تتكشَّف له الحقائق حينما تحضره سكرات الموت ويرى ما لا نراه نحن ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ [1] (٢٢) ﴾ [ق]

حينها يتمنى الإنسان أن يرجع إلى الدنيا وهو ما يزال يحتضر ، لماذا ؟ لأنه رأى الحقيقة التى كان ينكرها ويُكذِّب بها ولا يريد أنْ يواجهها ، لقد عاين ما كان يفر منه فإذا به يُلاقيه .

---

(١) حديد : قال مقاتل بن سليمان فى تفسيره (٣/ ٢٧١) : « يعنى يشخص بصره ويديم النظر فلا يطرف حتى يعاين فى الآخرة ما كان يكذب به فى الدنيا » . وقال الطبرى فى تفسيره (٢٢/ ٣٥٢) : فأنت اليوم نافذ البصر عالم بما كنت عنه فى الدنيا فى غفلة .

والذين يشاهدون حال الموتى ساعة الاحتضار يرون منهم إشاراتٍ تدل على أنهم يرونَ أشياء لا نراها نحن ، كُلٌّ حسب حاله وخاتمته .

يقول تعالى : ﴿ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ (٨٣) وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ (٨٤) وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ (٨٥) فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ (٨٦) تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٨٧) ﴾ [الواقعة]

فمَنْ حضره الموت ويُعاين شدَّته ويرى ملائكة الرحمة أو ملائكة العذاب حسب عمله ، يوقن أنه لا محالة منتقلٌ من هذه الدنيا ، وأن فرصة عمله للصالح من الأعمال أو الإيمان قد انتهتْ .

حينها يرى ما كان محجوباً عنه فى الدنيا ، حينئذ يستعرض أعماله ، فإنْ رأى شريط الحياة حُلواً منيراً ابتسم وانفرجتْ أساريره فيُقبض على هذا الوضع .

أما مَن امتلأتْ حياتُه بالسوء والمعاصى فوجهه يسودّ وتنقبض أساريره فيُقبض على هذا الوضع ، وهذا ما نُسميه الخاتمة ، فلحظة الاحتضار فيها يقينُ الموت ، تماماً كساعة الامتحان ، حيث تجد التلميذ الخائب مُصفرّ الوجه مرتعداً أو مُتشنجاً ، أما التلميذ المجتهد فيكون مبتسماً منفرج الأسارير .

وفى ساعة الاحتضار يخلو الذهن من أى شيء إلا صحيفة عمله ، فهى التى تبقى فى بؤرة شعوره ، حينها لا يجد الميت فى بؤرة شعوره خاطراً آخر يناقض أو يزاحم أمر الآخرة .

ثم يقول الحق سبحانه عن خروج روح الكافر والمنافق : ﴿ وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (٥٥) ﴾ [التوبة]

فساعةُ الموت تكون شاقة وصعبة على الكافر والمنافق ، لأنه يترك الأموال والأولاد والمساكن الطيبة والبروج التى شيَّدوها ويذهبون إلى العذاب .

والبروج التى شيَّدوها لن تحميهم من نزول الموت بهم فإنه لا يمنعه مانع مهما كان ، ولا يدفعه دافع ، ونلاحظ أن فكر اليهود من أهل الكتاب متجهٌ لإقامة الحصون والبروج والجدران ، يظنون أنها ستمنع نزول عذاب الله بهم .

يقول تعالى عنهم : ﴿ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا(١) مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ .. (٢) ﴾ [الحشر]

وقد كان لهم فى المدينة حصونٌ وقلاع كحصن خيبر ، وقد كانوا من أصحاب الحصون وأصحاب الزراعات ويعيشون على الربا ، لقد غفلوا عن أنهم لو كانوا جميعاً معتصمين بحصونهم وبأبراج مُحاطة بأبراج أخرى ، كأنه حِصْن مُحصَّن ، فالحصون فى بعض الأحيان يتم بناؤها وكأنها نقطة محاطة بدائرة صغيرة ، وحول الدائرة دائرة أخرى أوسع .

وبذلك تجد الحصن نقطة محاطة بعدد من الحصون ، والموت يدرك البشر ولو كانوا فى برج محاط ببروج ، فالحق سبحانه له القدرة المطلقة فى إنفاذ أمره بالموت .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ .. (٨) ﴾ [الجمعة]
والردّ إلى الله تعالى هو الرجوع إليه سبحانه بالبعث والإعادة يوم القيامة .

وكلمة (تردون) تفيد أنه كان التقاء به أولاً ، وبعد ذلك سوف يُرجعون ، فهم كانوا منه سبحانه إيجاداً ، ثم ردُّوا إليه حساباً ثواباً وعقاباً .

والحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ .. (٣٠) ﴾ [يونس]

---

(١) معنى ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ .. (٢) ﴾ [الحشر] أى الذين كفروا بمحمد وكفروا بالقرآن الذى أنزل عليه ، واكتفوا بكتابهم وبنبيهم واتهموا محمداً بالكذب ، فكان تكذيبهم وكفرهم به ﷺ تكذيباً لله وكفراً به سبحانه .

فكلمة (ردُّوا إليه كذا) لا تدل على أنهم كانوا مع الضد وجاءوا له ، بل تدل على أنهم كانوا معه أولاً ثم ذهبوا إلى الضد ، ثم رُدُّوا إليه ثانياً .

وهذا مثْل قوْل الحق سبحانه عن موسى عليه السلام : ﴿ فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ.. (١٣) ﴾ [القصص] فدلّتْ على أن موسى كان مع أمه ثم فارقها ، ثم رُدّ إليها .

ولا يحسبنَّ أحدٌ أنه بمفازة من الرجوع إلى الله والبعث والإعادة يوم القيامة، والحق سبحانه يحسم هذا الأمر فيقول : ﴿ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا (٤٧) ﴾ [الكهف] أى : جمعناهم ليوم الحساب ، لأنهم فارقوا الدنيا على مراحل من لَدُن آدم عليه السلام ، والموت يحصد الأرواح وقد جاء اليوم الذى يُجمع فيه هؤلاء .

﴿ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا (٤٧) ﴾ [الكهف] أى : لم نترك منهم واحداً حتى ولو كان ممَّنْ كانوا يدَّعُون أنهم أبناء الله وأحباؤه ، فالكل سيُعرض على الله .

وكلمة نغادر تُؤدى مادتها معنى الترك ، فالغدر مثلاً ترك الوفاء وخيانة الأمانة ، حتى (غدير) وهو جدول الماء الصغير سُمِّى غديراً لأن المطر حين ينزل على الأرض يذهب ويترك شيئاً قليلاً فى المواطىء .

وإذا كان المطر يترك شيئاً فى الغُدْران ، فإن الله – وله المثل الأعلى – لن يترك أحداً فلا يُعرض عليه ، فلن يُفلت واحدٌ ولا حتى ذرة من ذرات جسده من الوقوف بين يدى الله للحساب .

وهم سيُردُّون إلى ﴿ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ .. (٨) ﴾ [الجمعة] وهذا تعبير دقيق، فالحق سبحانه ما دامَ أنه عالمُ الغيب فمن باب أوْلَى أنه يعلم المشهود .

فهو سبحانه يعلم ما خَفِى من حجاب الماضى أو المستقبل وكلّ ما غابَ عن الإنسان ويعلم المشهود من الإنسان ، فلم يقتصر عِلْمه على الغيب وترْك المشهود بغير علم منه ، لا بل هو يعلم الغيب ويعلم المشهود .

والمراد بالغيب الغيب المطلق يعنى ما غاب عنك وعن غيرك ، فنحن الآن مشهد لمَنْ حضر مجلسنا هذا ، إنما نحن غَيْبٌ لمن غاب عنه ، ومنه الكهرباء والجاذبية وغيرهما من اكتشافات البشرية ، فهذه الأشياء كانت غيباً عمَّنْ قبلنا مع أنها كانت موجودة ، فلما توصَّلنا إلى مُقدِّماتها ظهرت لنا وصارتْ مشهداً .

لذلك قال تعالى : ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ.. (٢٥٥) ﴾ [البقرة] إذن: المعلوم لغيرك وغيبٌ عنك ليس غيباً ، وكذلك الغيب عنك وله مقدمات توصِّل إليه ليس غيباً ، إنما الغيبُ هو الغيب المطلق الذى غاب عنك وعن غيرك .

ولأنه سبحانه عالمُ الغيب والشهادة فإنه لا يغيب عن علمه شيءٌ من أفعال الناس وأقوالهم ، فإنه سبحانه يعلم ما هو أخفى من هذا ، يقول تعالى : ﴿ وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى (٧) ﴾ [طه]

فالجهر بالقول عند الله مثل السرِّ ، فكما يعلم اللهُ الجهرَ يعلم السرَّ ، بل هو يعلم ما هو أخفى من السِّرِّ ، والسرُّ هو أنْ تخصَّ واحداً بأنْ تضع فى أذنه كلاماً لا تحب أنْ يشيع عند الناس وتهمس فى أذنه بأنك المأمونُ على هذا الكلام ، وأنت ترتاح نفسياً حين تُلقى بسِرِّك إلى مَنْ تثق فيه وتأمن ألاَّ يذيعه .

ولكن هناك ما هو أخفى من السر ، فإنْ كان سرّك قد خرج من فمك إلى أذن سامعك فهناك سرٌّ احتفظتَ به لنفسك ولم تتفوَّه به لأحد ، لذلك يقول تعالى : ﴿ وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٣) ﴾ [الملك]

أى أنه سبحانه عليمٌ بمكنونات الصدور قبل أنْ تصير كلاماً . لكن بعض العارفين يقول : وهناك فى علم الله ما هو أخفى من الأخْفى ، فما هو ؟ يقول : إنه تعالى يعلم ما سيكون فى النفس قبل أن يكون .

إذن : لدينا جهر وسِرٌّ وأخفى من السرِّ وما هو أخفى من الأخفى كلُّ هذا يعلمه الله ، وعندما يُرد الناس إلى عالم الغيب والشهادة سيخبرهم الله بكل ما عملوه، يقول تعالى : ﴿ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٨) ﴾ [الجمعة] والإنباء هو الإخبار .

والحق سبحانه لم يقُلْ إنه سيُنبئهم بما كانوا يفعلون أو يصنعون ، بل بما كانوا يعملون ، فالفعل مختصٌّ بما تعمله أيديكم أو أرجلكم وكذلك ما يصنعون، أما (يعملون) فهى تشمل كل ما يعمله الإنسان ولو كان بلسانه ، فما يلفظه اللسان مِنْ قول هو عمل وليس فعلاً .

لذلك قال تعالى : ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) ﴾ [النور] فجمع الألسنة مع الأيدى والأرجل فيما كانوا يعملون .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٠) ﴾ [فصلت]

وعمل السمع والبصر ليس كعمل الأيدى والأرجل ، ولكنه سبحانه جمعها كلها فى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ (٢٠) ﴾ [فصلت] فالأذن سمعت ما حرَّم الله ، والبصر نظر إلى ما حرم الله ولكنه ليس فعلاً بل عملاً ، بمعنى أنه لم يفعل فعلاً إيجابياً فى المقابل له ، فمَنْ سمع قد يكون قد سمع أمراً سيئاً ، ولكنه لم يضر غيره بما سمعه فهذا عمل .

ورسول الله يحدد لنا أعقلَ الناس وأضبطهم لمعرفة حقيقة الدنيا ، وأن العاقل فيها مَنْ يعرف ويوقن أن الحياة الدنيا ما هى إلا معبر إلى الحياة الآخرة، الحياة الحقيقية التى وصفها الحق سبحانه فقال : ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٦٤) ﴾ [العنكبوت]

فقال ﷺ : « الكيِّس[١] مَنْ دانَ نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنَّى على الله »[٢] .

أى أن العاقل هو مَنْ حاسب نفسه وعمل لما بعد الموت ، لأن الموت هو الحاجز بيننا وبين الحياة الآخرة ، وأننا لابدَّ أنْ يلاقينا الموت ، فكلُّ نفس ذائقة الموت .

ولا يخدعنَّ أحدٌ نفسه فيظن أنه سيستطيع أنْ يفرَّ من مصيره المحتوم ، وإلاَّ أصبح عاجزاً وعنده قصور فى عقله ، فتجده يتبع هوى نفسه ويتمنَّى على الله، كيف وأنت لم تعمل لما بعد الموت الأعمال التى تُنزلك منازل المكرمين بل أنزلتَ نفسك منازل المهانين المعذبين بما قدَّمتْ يداك ، وبما لم تفعل من الخير ولم تزددْ من الحسنات .

يقول الحق سبحانه :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ ﴾

فالحق سبحانه وتعالى يريد من عباده أنْ يجتمعوا كلَّ أسبوع مرة ، لأنك قد تُصلِّى فرضاً فى مصنعك أو فى مزرعتك أو فى أيِّ مكان ، إنما يوم الجمعة لابدّ

---

(١) الكيِّس : العاقل . والكيْس العقل . وقال الجوهرى فى الصحاح فى اللغة : الكيْس : خلاف الحمق . وقال الصغانى فى العباب الزاخر : لأنه مجتمع الرأى والعقل . وقال أبو هلال العسكرى فى (الفروق اللغوية) : الكيس هو سرعة الحركة فى الأمور والأخذ فيما يعنى منها دون ما لا يعنى .

(٢) أخرجه الترمذى فى سننه (٢٤٥٩) . وابن ماجه فى سننه (٤٢٦٠) وأحمد فى مسنده (١٧١٦٤) ، والبزار فى مسنده (٣٤٨٩) وأبو داود الطيالسى فى مسنده (١٢١٨) من حديث شداد بن أوس .

أنْ تجتمع مع غيرك ، لماذا ؟ لأنه من الجائز أنك تذلّ لله بينك وبينه ، وتخضع وتسجد ، وتبكى بينك وبين الله .

لكنه سبحانه يريد هذا الأمر أمام الناس ، لترى كل مَنْ له سيادة وجاه يسجد ويخشع معك لله ، وفى الحج ترى كل مَنْ له جاه ورئاسة يؤدى المناسك مثلك ، فتقول بينك وبين نفسك أو تقول له : لقد استويْنا فى العبودية ، فلا يرتفع أحدٌ على أحد ولا يذلّ له ، بل كلُّنا عبيدٌ لله ونخضع له وحده .

وهناك يومان فى الأسبوع ذُكِرا فى القرآن بالاسم ، وهما يوم الجمعة ويوم السبت ، بينما أيام الأسبوع سبعة ، خمسة أيام منها لم تُذكر فى القرآن بالاسم، وهى الأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس .

الجمعة هى عيد المسلمين الذى شُرِع فيه اجتماعهم فى المساجد وأداء صلاة الجمعة ، ونلاحظ أن يوم الجمعة لم يأخذ اشتقاقه من العدد ، فأيام الأسبوع نُسبتْ إلى الأعداد فيما عدا الجمعة والسبت .

لذلك تجد الأحد منسوباً إلى واحد ، والاثنين منسوب إلى اثنين ، والثلاثاء منسوب إلى ثلاثة ، والأربعاء منسوب إلى أربعة ، والخميس منسوب إلى خمسة.

كان المفروض أنْ يُنسب يوم الجمعة إلى ستة ولكنه لم يُنسب ؟ لماذا ؟ لأنه اليوم الذى اجتمع فيه للكون نظامُ وجوده ، فسمَّاه الله تبارك وتعالى الجمعة وجعله له عيداً .

ورسول الله ﷺ يُحدِّثنا عن يوم الجمعة فيقول : « إن يوم الجمعة سيِّدُ الأيام وأعظمها عند الله ، وهو أعظم عند الله من يوم الأضحى ويوم الفطر . فيه خمس خلال : خلق اللهُ فيه آدم ، وأهبط اللهُ فيه آدمَ إلى الأرض ، وفيه توفَّى اللهُ آدم، وفيه ساعةٌ لا يسأل الله فيها العبدُ شيئاً إلا أعطاه ما لم يسأل حراماً، وفيه

تقوم الساعة ، ما من ملَك مُقرَّب ولا سماء ولا أرض ولا رياح ولا جبال ولا بحر إلا وهُنَّ يُشفقن من يوم الجمعة »[١] .

والعيد هو اجتماع كلِّ الكون فى هذا اليوم ، اجتماع نعمة الله فى إيجاده الكون وتمامها فى ذلك اليوم ، فالمؤمنون بالله يجتمعون اجتماعَ حفاوة بتمام خَلْق الكون لهم ، وكان تمام الخَلْق يوم الجمعة .

وقد شرع اللهُ اجتماعَ الجمعة لأمر اجتماعى ، وهو أنْ يتفقَّد الإنسان كلَّ أخ من إخوانه ، ما الذى أقعده ؟ أحاجة أم مرض ؟ أحدث أم مصيبة ؟ وحتى لا يُحوجه إلى أنْ يذلّ ويسأل ، وحين يفعل ذلك يكون له فطنة الإيمان .

وقد طلب بنو إسرائيل يوماً يرتاحون فيه من العمل ويتفرغون فيه لعبادة الله ، وقد اقترح عليهم نبيهم موسى عليه السلام أن يكون يوم الجمعة ، فهو اليوم الذى أتمَّ اللهُ فيه خَلْق الكون فى ستة أيام ، وهو اليوم الذى اختاره الخليل إبراهيم ، ولكنهم رفضوا الجمعة واختاروا هم يوم السبت .

وقالوا : إن الله خلق الدنيا فى ستة أيام ، بدأها بيوم الأحد وانتهى منها يوم الجمعة وارتاح يوم السبت ، وكذلك نحن نريد أنْ نرتاح ونتفرغ لعبادة الله يوم السبت ، وهكذا كانت هذه رغبتهم واختيارهم .

أما العيسويون فرفضوا أنْ يتبعوا اليهود فى يوم السبت ، أو إبراهيم عليه السلام فى يوم الجمعة ، واختاروا الأحد على اعتبار أنه أول بدء الخلق .

أما أمة محمد ﷺ فقد اختار لها اللهُ يوم الجمعة يوم الانتهاء وتمام النعمة .

---

(١) أخرجه ابن ماجه فى سننه (١٠٨٤) والطبرانى فى المعجم الكبير (٤٣٨٧) والبيهقى فى شُعب الإيمان (٢٧١٢) وابن أبى شيبة فى مصنفه (٨١٥) ، وأبو نعيم الأصبهانى فى معرفة الصحابة (٢٤٠٥) من حديث أبى لبابة بن عبد المنذر .

وهـذا التكليـف فى صـلاة الجمعة المفروضـة كصـلاة الجماعـة والجماعة مطلـوب فيها ، ومن الضـرورى أنْ نتواجد فيها كجمع ، لأن الجماعة مشروطةٌ فيها ، فلا تصحّ بدون الجماعة .

وقـوْل الحق سـبحانه : ﴿ يَـأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّـلاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَـوْا إِلَى ذِكْـرِ اللهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُـمْ تَعْلَمُونَ (٩) فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّـلاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠) ﴾ [الجمعة]

فهـذان أمران أحدهما فى الديـن والثانى يتعلق بالدنيا ، وكلاهما من منهج الله ، فـالله لا يريـدك أنْ تتاجر وتعمل وقت الصـلاة ، ولا أنْ تترك عملك بلا دَاعٍ وتبقى فى المسجد بعد الصلاة .

إذا نُودى للصلاة فإلى المسجد .. وإذا قُضيَتْ الصلاة فإلى السعى للرزق .

والحق سـبحانه يخاطب مَنْ آمن بالمنهج ، فيقـول : ﴿ يَـأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ .. (٩) ﴾ [الجمعة]

وعندمـا يرتفع صـوتُ المؤذن بقـوْل الله أكبر فهذه دعـوةٌ للإقبال على الله ، إقبـالٌ فى سـاعة معلومة لتقفوا أمامه سـبحانه وتعـالى وتكونوا فى حضرته يُعطيكم الله المدد .

وعندما يحضر الإنسـانُ لحضرة ربِّه بالصـلاة ويُكبِّر : الله أكبر فهو منذ تلك اللحظة يوجد فى حضرة الله .

وتلتفت سـاعةَ يقـول المؤذن (الله أكبر) أن الكلَّ قد جـاء الغنىُّ قبل الفقير ، والخفير مع الأمير ، ويخلع الجميعُ أقدارهم خارج المسجد مع نعالهم ليتساووا

فى الصلاة ، ومن له رئيس يتكبّر عليه يراه وهو ساجدٌ مثله لله ، فتريحه لحظةَ استطراق العبودية .

ولنفرض أن كُلاً منَّا سيُصلى بمفرده فى الصلاة اليومية ، لكن عندما يؤذّن لصلاة الجمعة يأمرنا أنْ نذرَ ونتركَ كلَّ شيء لنؤدى صلاة الجمعة معاً ، ويرى الضعيفَ عظيماً يتضرّع مثله إلى الله ، ويرى القويّ نفسه بجانب الضعيف ، وحين يعود كلٌّ منا إلى عمله تسقط أقنعةُ القوة والزهو ، لأننا جميعاً نقف أمام خالق واحد وكلنا سواء .

وكلمة (الله أكبر) فيها من اليقظة والانتباه ما يُذكّرنا بأن الله أكبر من كلِّ ما يشغلك ، ونعلم أنّ من إعجازات الأذان أنه جعل النداء باسم (الله أكبر) ولم يقل : الله كبير . وذلك احتراماً لما يشغلنا فى الدنيا من موضوعات قد نراها كبيرة .

ذلك أن الدنيا لا يجب أنْ تُهان ، لأنها المعبر إلى الجزاء القادم فى الآخرة ، ولذلك أقول دائماً : إن الدنيا أهمّ من أنْ تُنسَى ، وفى نفس الوقت هى أتفه من أنْ تكونَ غاية ، فأنت فى الدنيا تضرب فى الأرض وتسعى لقُوتك وقُوتِ مَنْ تعول ، وليعينك هذا القوت على العبادة .

لذلك فلا يحتقر أحدٌ الدنيا ، بل ليشكر الله ويدعوه أنْ يوفقه فيها وأنْ يبذل كلَّ جَهْد فى سبيل نجاحه فى عمله ، فالعمل الطيب ينال عليه العبدُ حُسْن الجزاء .

وفور أنْ يسمع المؤمن (الله أكبر) فعليه أنْ يتجه إلى مَنْ هو أكبر فعلاً ، وهو الحق سبحانه ، وأنْ يُؤدّى الصلاة ، هذا هو المعنى المسْتقى من المستقدم للصلاة والمستأخر عنها .

وحين تسمع (الله أكبر) يُنادى بها المؤذن لصلاة الجمعة مثلاً ، فعليك أنْ تترك أسبابَ الدنيا وتذهب لتقفَ بين يدى الله عزَّ وجلّ .

فعظمةُ الحق سبحانه فى نفس المؤمن أكبرُ من كلِّ شيء وأكبر من كلِّ كبير، لذلك جُعلتْ (الله أكبر) شعارَ أذانك وصلاتك ، فلا بدَّ أنْ تُكبّر الله وتجعله أكبرَ مما دونه من الأغيار .

فإنْ ناداك وأنت فى أيِّ عمل فقل : الله أكبر من عملى ، وإنْ ناداك وأنت فى حضرة عظيم فقُلْ : الله أكبر من كلِّ عظيم ، كبِّره تكبيراً بأنْ تقدم أوامره ونواهيه على كلِّ أمر وعلى كلِّ نهى .

ويقول الحق سبحانه : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي (١٤) ﴾ [طه] أى : لتذكّرى لأن دوامَ ورتابة النعمة قد تُنسيك المنعِم ، فحين تسمع نداء (الله أكبر) وترى الناسَ تُهرع إلى بيوت الله لا يشغلهم شاغل عنها ، تتذكر إنْ كنتَ ناسياً ، وينتبه قلبك إنْ كنتَ غافلاً .

والذكر مصدر ، والمصدر يُضاف للفاعل مثل : أعجبنى ضَرْب الأمير لزيد . ويُضاف للمفعول مثل : أعجبنى ضربُ زيد من الأمير . فحين تقول (ذكر الله) يصح أنْ يكون المعنى : ذكر صادر من الله ، أو ذكر صادر من العبد لله .

فإنْ قلتَ : ذِكْر صادر من الله أى للمصلِّى ، فحين يُصلى الإنسانُ ويذكر اللهَ بالكبرياء فى قوله (الله أكبر) ويُنزِّهه بقوله (سبحان الله) ويسجد له سبحانه ويخضع فقد فعلتَ إذنْ فعلاً ذكرتَ الله فيه ذِكْراً بالقول والفعل ، والله تعالى يُجازيك بذكْرك له بأنْ يذكرَك ، فالذكْر ذِكْر من الله لمن ذكَره فى صلاته .

ولا شكَّ أن ذِكْرَ الله لك أكبرُ وأعظم من ذِكْرك له سبحانه ؛ لأنك ذكرتَ الله منذ بلوغك إلى أنْ تموت ، أما هو سبحانه فسيعطيك بذكْرك له منازلَ عاليةً لا نهايةَ لها فى يوم لا تموتُ فيه ولا تنقطع عنك نِعَمه وآلاؤه .

وذِكْر الله لك بالثواب والرحمة أكبرُ من ذِكْرك له بالطاعة ، هذا على معنى أن الذكْرَ صادرٌ من الله للعبد .

المعنى الآخر أن يكون الذكرُ صادراً من العبد لله ، يعنى : ولذكر الله خارجَ الصلاة أكبرُ من ذكر الله فى الصلاة ، كيف ؟ قالوا : لأنك فى حضرة ربك بعد تكبيرة الإحرام ، فإذا ما انتهتْ الصلاة وخرجتَ منها إلى حركة الحياة فذِكْرك لله وأنت بعيدٌ عن حضرته ، وأنت مشغولٌ بحركة حياتك أعظم وأكبر من ذِكْرك فى الحضرة .

ولا تظنوا أنَّ الذكرَ قاصرٌ على الصلاة فقط ، إنما يجب ألاَ يغيبَ ذِكْرُ الله عن بالك أبداً ، لأن ذكركَ لربِّكَ خارج الصلاة أكبرُ من ذِكْرك له سبحانه فى الصلاة .

وربُّك لا ينتظرك أنْ تأتيه ، إنما يدعوك لزيارته ، يُقبل عليك قبل أنْ تُقبل عليه ، ألم يقُل فى الحديث الشريف : « إنّ ذكرنى فى نفسه ذكرتُه فى نفسى ، ومَنْ ذكرنى فى ملأ ذكرتُه فى ملأ خَيْرٍ منه ، ومَنْ أتانى يمشى أتيتُه هَرْولة، ومَنْ تقرَّب منّى ذراعاً تقرَّبتُ منه باعاً »(١) .

إذن : فالزمام فى يدك أنت ، ونِعْم الربُّ ربٌّ يعامل عباده هذه المعاملة ، ويُحسن إليهم كلَّ هذا الإحسان .

والسعى إلى ذكر الله وترْك البيع من أجل ذلك يعطى الإنسان طاقةً إيمانية يظهر آثارُها فى الحركة الثانية من حركات الإنسان ، ولذلك يقول الحق سبحانه بعد ذلك : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠) ﴾ [الجمعة]

والحق سبحانه إنما ناداهم لإعلان الولاء الجماعى ، وهو إعلانُ كل مؤمن بالعبودية لله أمام بقية المخلوقات ، فحين يُناديك الله تعالى ويستدعيك لأداء فريضته يقول (الله أكبر) لأن حركة الحياة وضروريات العيش عند الله أمرٌ

---

(١) أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه (٦٩٨١) وأحمد فى مسنده (٩٣٤٠، ١٠٢٥٨) والبيهقى فى الأربعين الصغرى (٤٣) والطبرانى فى الدعاء (١٨، ١٨٦٥، ١٨٧٠) وابن حبان فى صحيحه (٨١١) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

كبير وأمرٌ هام لا يُغفل .

لكن إنْ كانت حركةُ الحياة والسعى فيها أمراً كبيراً فالله أكبر ، فربُّك يُخرِجك للصلاة من عمل ، ويدعوك بعدها إلى العمل .

ولنا ملحظ فى (الله أكبر) ، فأكبر أفعل تفضيل نزل على المبالغة ودون أكبر نقول (كبير) وكأنها إشارة إلى أن العمل والسعى ليس شيئاً هيِّناً أو تافهاً ، إنما هو كبير ينبغى الاهتمام به ، لأنه عَصَب الحياة ، ولا تستقيم الأمورُ فى عمارة الأرض إلا به .

لكن ، إنْ كان العملُ كبيراً فالله أكبر ، فربُّك عز وجل لا يُزهِّدك فى العمل ، ولا يُزهِّدك فى الدنيا ، لأنه خالقها على هذه الصورة جاعلٌ للعمل فيها دوراً .

ويلفتنا الحق سبحانه إلى إعجاز فى الأسلوب القرآنى لقوله تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ .. (٩) ﴾ [الجمعة]

فالحق سبحانه لم يقُلْ : للصلاة يوم الجمعة ، بل قال ﴿ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ.. (٩) ﴾ [الجمعة] فلفظة (من) أفادتْ تحديدَ زمن الصلاة المقصودة ، وهى صلاة الجمعة كصلاةٍ مخصوصةٍ بوقت الظهر ، وتُؤدَّى ركعتين لا أربعاً كالظهر .

وهذا من أسلوب القرآن الدقيق ، فإن ﴿ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ .. (٩) ﴾ [الجمعة] لا تخصّ زمناً معيناً بل يشيع فرضية الاجتماع للصلاة فى كلِّ الصلوات فى يوم الجمعة ، وهذا فيه مشقة ، والله لا يريد بعباده مشقة .

يقول الحق سبحانه : ﴿ يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ .. (١٨٥) ﴾ [البقرة] ويقول تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ .. (٧٨) ﴾ [الحج]

فالله لا يريد أنْ يُعنتكم ، أو يُضيِّق عليكم ، أو يعسِّر عليكم الأمور ، إنما جعل اللهُ الأمر كله يُسْراً ، وشرعه على قدْر الاستطاعة ورخَّص لكم ما يُخفِّف عنكم ،

ويُذهب عنكم الحرج والضيق .

أما قوله ﴿ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللهِ .. (٩) ﴾ [الجمعة] فالسَّعى هنا هو التوجّه والسير إلى مساجد الله ، ولابد أنْ نعرف أننا ما دُمْنا قد خَصَصْنا مكاناً لعبادة الله ، فلابد أنْ نصحب هذ التخصيص فى المكانية إلى التخصيص فى المهمة التى يدخل الإنسانُ من أجلها للمسجد فيتجه إلى الله .

فالمسجد خاصٌّ لعبادة الله ، ومع أن الأرضَ كلها تصلح للصلاة فإنه لابدَّ حين تأتى إلى المسجد أنْ تصحب معك أخلاقَ التعبُّد .

ويجب أنْ يكونَ الانفعالُ والتفاعلُ والحركة والنشاط كله فى الله ، ولذلك فأفضل ما تفعله ساعةَ تدخل المسجد هو أنْ تنوى الاعتكاف ، فتنزع نفسك ممَّنْ ينوى أنْ يتكلم معك فى أحوال الدنيا .

وقد ورد الأثر بالنهى عن الحديث فى المساجد لأنه يحبط العمل ويمحو الحسنات[1] ، وأنت قد تصنع الحسنات كثيراً خارج المسجد ولكن عليك ألاَّ تدخل المسجد إلا بأدب المسجد ، فالحضور بين يدى الله تعالى فى مسجده وفى بيته له آدابه .

فيجب عليك ألاَّ تتخطّى الرقاب ، وهذه تحتاج إلى تنظيم ، بمعنى ألاّ تجعل الأماكن فى الأمام خالية وفى الخلف مزدحمة حتى يستطيع أنْ يجلس كلّ مَنْ يحب أنْ يصلى دون أنْ يتخطى الرقاب ، ويكون الجلوسُ فى المسجد الأولَ فالأول ، وهكذا يتحقق الأدبُ الإيمانى فى المساجد .

ورسول الله ﷺ قال لسلمان الفارسى يوماً : « أتدرى ما يومُ الجمعة ؟ قال :

---

(١) هو مما ورد على ألسنة الناس من نحو «الحديث فى المسجد يأكل الحسنات كما تأكل البهائم الحشيش». أورده الغزالى فى إحياء علوم الدين (١/١٣٦) وقال الحافظ العراقى فى تخريجه : لم أقف له على أصل . وقال السبكى فى طبقات الشافعية : لم أجد له إسناداً . ذكره الألبانى فى السلسلة الضعيفة (١/٦٠) وقال : لا أصل له .

الله ورسوله أعلم . قالها ثلاثَ مرات . ثم قال فى الثالثة : هو اليوم الذى جُمِع[١] فيه أبوكم آدم ، أفلا أحدِّثكم عن يوم الجمعة ؟ لا يتطهر رجلٌ فيُحسن طهوره ويلبس أحسن ثيابه ، ويصيب من طيب أهله إنْ كان لهم طيب وإلاَّ فالماء ، ثم يأتى المسجد فيجلس ويُنصت حتى يقضى الإمام صلاته إلا كانتْ كفّارة ما بين الجمعة ما اجتُنبَتْ الكبائر ، وذلك الدهر كله »[٢] .

فهذا اليوم هو يوم الجمعة ، ولتعظيم هذا اليوم قال رسول الله ﷺ : « أفلا أُحدِّثكم عن يوم الجمعة ؟ » أى : ما يستحقه هذا اليوم من اهتمامنا بالتطهُّر فيه فيُحسن الطهور ويلبس أحسن ثيابه .

فتمام النعمة على المخلوق من الخالق أنْ يتطهرَ الإنسانُ بما حدده الله له، وأنْ يسعى إلى بيت الله حيث يُذكر الله سبحانه ، والمسلم حين يغتسل غسل الجمعة أو يتوضأ يكون قد حدث له أمران : التطهُّر والطُّهر .

ويُحدِّثنا رسول الله ﷺ عن أثر الوضوء فى تطهر المسلم وطُهْره ونقاء أعضائه من الدَّنَس والذنوب ، قال ﷺ : « إذا توضأ العبد المسلم أو المؤمن فغسل وجهه خرج من وجهه كلُّ خطيئة نظر إليها بعينيه مع الماء أو مع آخر قَطْر الماء ، فإذا غسل يديه خرج من يديه كلّ خطيئة كان بطشتها يداه مع الماء أو مع آخر قطْر الماء ، فإذا غسل رجليْه خرجتْ كلُّ خطيئة مشتْها رجلاه مع

---

(١) أخرج ابن جرير الطبرى والبيهقى فى الأسماء والصفات وابن عساكر عن ابن مسعود وناس من الصحابة قالوا : بعث الله جبريل إلى الأرض ليأتيه بطين منها فقالت الأرض : أعوذ منك أن تنقص منى فرجع ولم يأخذ شيئاً وقال : يا رب إنها أعاذت بك فأعذتها ، فبعث الله ميكائيل كذلك ، فبعث ملك الموت فعاذت منه فقال : وأنا أعوذ بالله أن أرجع ولم أنفذ أمره فأخذ من وجه الأرض وخلط ولم يأخذ من مكان واحد ، وأخذ من تربة حمراء وبيضاء وسوداء – فلذلك خرج بنو آدم مختلفين – فصعد به فبلَّ التراب حتى صار طيناً لازباً . أورده السيوطى فى الدر المنثور (١/ ٢٥٤) .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٢٣٧٦٩ ، ٢٣٧٨٠) وابن خزيمة فى صحيحه (١٧٣٢) والبزار فى مسنده (٢٥٢٦) والنسائى فى السنن الكبرى (١٦٧٧ ، ١٧٣٧) والحاكم فى مستدركه (١٠٢٨) والطبرانى فى المعجم الكبير (٥٩٦٧) من حديث سلمان الفارسى .

الماء ، أو مع آخر قطر الماء حتى يخرج نقياً من الذنوب »[١] .

وعلى المسلم الساعى إلى مساجد الله حيث يذكر الله ألاَّ يجرى ويُسرع ليلحق بالإمام ويدرك الخطبة أو الصلاة لأنه فى صلاة من لحظة أنْ توضأ وخرج من بيته للصلاة ، وإياك أنْ تفعل حركة تتناقض مع الصلاة ، وادخل المسجد بسكينة ووقار لتؤدِّى الصلاة مع الإمام[٢] .

وقد جعل الحق سبحانه أول وَصْف للمؤمنين الذين أفلحوا ﴿ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) ﴾ [المؤمنون] فلم يقُل مثلاً : مؤدُّون . لأن أمر أداء الصلاة فى حَقِّ المؤمنين مفروغٌ منه ، العبرة هنا بالكيفية والهيئة ، العبرة بالخشوع والخضوع وسكينة القلب وطمأنينته واستحضار الله الذى تقف بين يديه .

كما تقول لولدك : اجلسْ أمام المعلم باهتمام واستمع إليه بإنصات ، فأنت لا تُوصيه بالذهاب إلى المدرسة أو حضور الدرس فهذا أمر مفروغٌ منه ، لذلك نهتم بجوهر الموضوع والحالة التى ينبغى أنْ يكون عليها .

والخشوع أنْ يكون القلبُ مطمئناً ساكناً فى مهمته هذه ، فلا ينشغل بشيء آخر غير الصلاة ، لأن الله ما جعل لرجل من قلبين فى جوفه .

وما دام فى حضرة ربه عز وجل فلا ينبغى أنْ ينشغل بسِواه ، حتى إنَّ بعض العارفين لمعنى الخشوع يقول : إن الذى يتعمد معرفة مَنْ على يمينه أو مَنْ على

---

(١) أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه (٦٠٠) ، والترمذى فى سننه (٢) وقال : حسن صحيح . وكذا أخرجه أحمد فى مسنده (٨٠٠٧) وابن خزيمة فى صحيحه (٤) وابن حبان فى صحيحه (١٠٤٠) والبيهقى فى السنن الكبرى (٣٨٥ ، ٣٨٧) كلهم من حديث أبى هريرة وفى الباب عن عبد الله الصنابحى .

(٢) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « إذا نودى بالصلاة فأتوها وأنتم تمشون وعليكم السكينة ، فما أدركتم فصلوا ، وما فاتكم فأتموه » أخرجه مسلم فى صحيحه (١٣٩١) والترمذى فى سننه (٣٢٧) وأحمد فى مسنده (٧٦٤٩ ، ٨٢٠٧) والبزار فى مسنده (٧٦٦٤) والبيهقى فى سننه الكبرى (٣٧٥٩ ، ٣٧٧٠ ، ٣٧٧٢) من حديث أبى هريرة .

يساره فى الصف تبطل صلاته[١] .

ولما دخل سيدنا عمر رضى الله عنه على رجل يصلى ويعبث بلحيته فضربه على يده وقال : لو خشع قلبك لخشعتْ جوارحك[٢] .

بل إن الحق سبحانه جعل هؤلاء من عباد الرحمن ، قال تعالى : ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا .. (٦٣) ﴾ [الفرقان]

يعنى : برفق وفى سكينة وبلين دون اختيال أو تكبُّر أو غطرسة ، لماذا ؟ لأن المشى هو الذى سيُعرِّضك لمقابلة مجتمعات متعددة ، وهذا الأدب الربانيّ فى المشى يُحدِث فى المجتمع استطراقاً إنسانياً يُسوِّى بين الجميع .

وفى موضع آخر يُعلِّمنا الحق سبحانه أدبَ المشى ، فيقول : ﴿ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ[٣] مِنْ صَوْتِكَ .. (١٩) ﴾ [لقمان] وقالوا : إن المراد بالمشى الهون ، وهو الذى يسير فيه الإنسانُ على سجيته دون افتعال للعظمة أو الكِبْر ، لكن دون انكسار وذلة .

وسيدنا عمر رضى الله عنه حينما رأى رجلاً يسير متماوتاً ضربه ونهاه عن الانكسار والتماوت فى المشية ، وهكذا فمشية المؤمن وسطٌ ، لا متكبر ولا

---

(١) أورده أبو حامد الغزالى فى (إحياء علوم الدين) (١/ ١٦٠) قال : « عن معاذ بن جبل : من عرف من على يمينه وشماله متعمداً وهو فى الصلاة فلا صلاة له » . وقال القشيرى فى رسالته القشيرية : «قيل شرط الخشوع فى الصلاة أن لا يعرف من على يمينه ومن على شماله » . وذكره السهروردى فى عوارف المعارف (١/ ٣٠٦) وعزاه لابن عباس من قوله .

(٢) المعروف أنه من قول سعيد بن المسيب ، أورده البيهقى فى سننه الكبرى (٣٦٩٢) ومحمد بن نصر المروزى (١٥١) فى كتاب « تعظيم قدر الصلاة » وابن أبى شيبة فى مصنفه (٦٨٥٤) وعبد الله بن المبارك فى الزهد (١١٨٨) ، وقد ذكره الحكيم الترمذى (٤/ ٢١٠) من حديث أبى هريرة مرفوعاً قال الألبانى (١١٠ – الضعيفة) : الحديث موضوع مرفوعاً ، ضعيف موقوفاً .

(٣) اغضض من صوتك : أى اخفض من صوتك عن الملأ ، فأمره بالاقتصاد فى صوته . فاجعله قصداً إذا تكلمت أى معتدلاً ، قاله يزيد بن أبى حبيب وذكره الطبرى فى تفسيره . وقال القرطبى : أى انقص منه فلا تتكلف رفع الصوت وخذ منه ما تحتاج إليه .

متماوت متهالك[١] .

والحق سبحانه يطلب منَّا حين يُنادينا للصلاة أنْ نسعى للمسجد ، ومع أن الأرض كلها مسجد وكلها طهور لكن المسجد خُصِّص للصلاة فينبغى أنْ تُؤدَّى فيه ، وأنت فى صلاة ما دُمْت تسعى للصلاة ، فمَنْ كان بعيدَ البيت عن المسجد عليه أنْ يأتى الصلاةَ فى سكينة ووقار ، ولا يخرج عن هذا السَّمْت حتى وإنْ تأخَّر عن تكبيرة الإحرام .

فلنجعل الجلوس فى المسجد خاصاً بالمنعِم ، وهو الله سبحانه ، أما فى خارج المسجد وفى سائر الأوقات فنحن نعيش مع النعمة التى أنعم اللهُ بها علينا .

والحق سبحانه عندما يأمرك بالسعى إلى ذكر الله فى بيوت الله فإنما يدعوك إلى بيته ليُريحك وليحمل عنك همومك ، ويُصلح ما فسد فيك ويفتح لك أبوابَ الفرج .

والمسجد مكانٌ للعبادة لا يُعصى اللهُ فيه أبداً على خلاف البيوت والأماكن الأخرى ، فعظَّم الله بيوته أنْ يُعصى فيها ، وعظَّم روادها أنْ يشتغلوا فيها بسفاسف الأمور الحياتية الدنيوية ، فعليك أنْ تترك الدنيا على باب المسجد كما تترك الحذاء .

لذلك نهى الإسلامُ أن نعقد صفقةً فى بيت الله ، أو حتى ننشد فيه الضالة ، لأن الصفقة التى تُعقد فى بيت الله خاسرةٌ بائرة .

كيف تعيش كلَّ وقتك لأمور الدنيا على مدار اليوم والليلة ، ثم تستكثر على ربك الدقائقَ التى تُؤدّى فيها فرضَ الله عليك ، فتُجرجر الدنيا معك حتى فى بيت الله ؟

---

(١) قال تعالى : ﴿ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ .. (١٩) ﴾ [لقمان] أى توسط فيه ، والقصد ما بين الإسراع والبطء . يقال: قصد فلان فى مَشيته : إذا مشى مستوياً لا يدب دبيب المتماوتين ولا يثب وثوب الشياطين . قاله الشوكانى فى فتح القدير (٥/ ٤٩٠) .

ألا تعلم أنَ بيوتَ الله ما جُعلتْ إلا لعبادة الله ؟ لابدَّ للمؤمن أنْ يترك دُنْياه خارج المسجد ، وأنْ ينوى الاعتكاف على عبادة ربه والمداومة على ذِكْره فى بيته ، فلا يليق بك أنْ تكون فى بيت الله وتنشغل بغيره .

فإن التزمتَ بآداب المسجد تلقيتَ من ربك نوراً على نور ، وزال عن كاهلك الهمُّ والغمُّ ، وحُلَّت مشاكلك من حيث لا تحتسب ، فاجعل لحظاتك فى المسجد لله ، فالمسجد مكان للعبادة .

لذلك أقول لمن يُحدِّثنى فى المسجد بأىِّ شيء يتعلق بحركة الحياة : أبشر بأنها لن تنفع لأنك دخلتَ المسجد للعبادة فقط ، إن لحظة دخولك المسجد هى لحظة جئت فيها لتقترب من ربك وتناجيه وتعيش فى حُضْن عنايته ، فلماذا تأتى بالدنيا معك ؟

وليكُنْ لنا فى أحد الصحابة قدوة حسنة ، كان يقول : كنا نخلع أمر الدنيا مع نعالنا ، وزاد صحابيٌّ آخر فقال له : وزد يا أخى أننا نترك أقدارنا مع نعالنا .

انظر إلى الدقة ، إن الصحابى المتبع لا يخلع الدنيا مع نعله فقط على باب المسجد . ولكن يخلع أيضاً قدْره فى الدنيا ، فيمكن أنْ تأخذك الدنيا ساعات كثيرة ، والمسجد لن يأخذ منك إلا الوقتَ القليل فضَعْ قدرك مع نعلِكَ خارج المسجد ، وادخُلْ بلا قدر إلا قَدْر إيمانك بالله .

واجلس فى المكان الذى تجده خالياً فلا تتخطَّ الرقاب لتصل إلى مكان معين فى المسجد ، فأنت تدخل بعبودية الله .

وقد يأتى مجلسك بجانب مَنْ يخدمك ، والصغير يقعد بجانب الكبير ، ولا نلحظ لك قدراً إلا قدرك عند الله .

إن النبى ﷺ كان يجلس حيث ينتهى به المجلس[١] أى عندما يجد مكاناً له، وهذا خلاف زماننا حيث يحجز إنسان مكاناً لإنسانٍ آخر بالسجادة .

وقد يدخل إنسانٌ ليتخطى الرقاب ويجلس فى الصف الأول ، وهو لا يعلم أن الله قد صَفَّ الصفوف قبل أنْ يأتى هو إلى المسجد .

وما دُمْنا سنترك أقدارنا فلا تقل : أين سأجلس وبجوار مَنْ ؟ بل اجلس حيث ينتهى بك المجلس ، ولا تتخطَّ الرقاب ، وانْوِ الاعتكاف ، ولا تتكلم فى أىّ أمر من أمور الدنيا حتى لا تدخلَ فى دعوة رَسول الله بألاَّ يبارك الله لك فى الضالة التى تنشدها وتطلبها[٢] .

وقد نهى النبى ﷺ أنْ يُوطِّن الإنسانُ لنفسه مكاناً فى المسجد يجلس فيه باستمرار[٣] ، لأن الأصل أنْ يجلس المصلى حيث ينتهى به المجلس ، فيجلس الناسُ بأولوية الحضور كلّ حسب مكانه ومبادرته للصلاة ، فلا يتخطى الرقاب ولا يفرق بين اثنين .

ونرى بعض المصلين يسارع إلى الصفِّ الأول مثلاً ويضع سجادته ليحجز بها مكاناً ثم ينصرف لحاجته ، فإذا ما تأخر عن الصلاة أتى ليتخطى رقابَ الناس ليصل إلى مكانه ، فإذا بالناس يضيقون من هذا التصرف ويُنحّون سجادته جانباً ويجلسون مكانها .

---

(١) أخرج الطبرانى فى معجمه الكبير (١٧٨٦٨) من حديث هند بن أبى هالة التميمى وكان وصافاً عن حلية النبى ﷺ من حديث طويل « أنه ﷺ كان إذا انتهى إلى قوم جلس حيث ينتهى به المجلس ويأمر بذلك » . وأخرجه عنه البيهقى فى دلائل النبوة (١/ ٢٩٠) .

(٢) عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إذا رأيتم من يبيع أو يبتاع فى المسجد فقولوا: لا أربح الله تجارتك ، وإذا رأيتم من ينشد فيه ضالة لا رد الله عليك » . أخرجه الترمذى فى سننه (١٣٢١) وابن خزيمة فى صحيحه (١٣٠٥) والبزار فى مسنده (٨٢٦٠) .

(٣) عن سلمان الفارسى قال قال النبى ﷺ : « لا يغتسل رجل يوم الجمعة ويتطهر ما استطاع من طهر ويدهن من دهنه أو يمس من طيب بيته ثم يخرج فلا يفرق بين اثنين ثم يصلى ما كتب له ثم ينصت إذا تكلم الإمام إلا غُفر له ما بينه وبين الجمعة الأخرى » . أخرجه البخارى فى صحيحه (٨٨٣ ، ٩١٠) وأحمد فى مسنده (٢٣٧٦١) وابن حبان فى صحيحه (٢٧٧٦) .

إنـه تصـرُّف لا يليق ببيوت الله التى تُسـوِّى بـين خَلْق الله جميعـاً ، وتُحقِّق استطراقَ العبوديـة لله ، فأنـت اليـوم بجوار فـلان ، وغداً بجوار آخـر ، الجميع خاضع لله راكع وساجد ، فليس لأحد أنْ يتعالى على أحد .

فمن أخطر ما مُنى به المسلمون أن تُجعل فى المسجد أماكن خاصة لنوعية معينـة يُخلَى لها المكان ، ويصـاحبها الحرس حتى فى بيـت الله ، ثم يأتى فى آخر الوقت ويجلس فى الصـف الأول ، وآخر يفرش سـجادته ليحجز بها مكاناً لحين حضوره فيجد المكان خالياً .

وينبغـى علـى عامة المسلمين أن يرفضـوا هذا السـلوك ، وعليـك أن تُنحِّى سجادته جانباً وتجلس أنت ، لأن أولوية الجلوس بأولوية الحضور ، فقد صفَّها اللهُ فى المسجد إقبالاً عليه .

وهذه العادة السـيئة تُوقِع صـاحبها فى كثير من المحظورات حيث يتخطّى رقـاب النـاس ويُميِّز نفسـه عنهـم دون حق ، ويحدثُ انتقاص عبوديٍّ فى بيت الله.

فـالله تعالى قد وزَّع الأماكن على حسْب الورود ، فإتيانـك إلى بيت الله أولاً يُعطيك ثوابَ الصف الأول ، وإنْ صليتَ فى الصفِّ الأخير .

وعدم توطين الأماكن ينشر الأُلْفة بين النـاس ، ويزيل الفوارق ويسـاعد على التعارف ، فكلُّ صلاة أنت بجانب شخص جديد تتعرَّف عليه وتعرف أحواله .

فإذا جلس فى مكانه فليُنصت إلى خطبة الإمام لأنها تشـتمل على آيات من القرآن ، والحق سـبحانه قـال : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَـهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٢٠٤) ﴾ [الأعراف]

ونبّـه البعضُ إلى أن الإنصـاتَ للخطبـة ثبت بدليـل قوْل النبـى ﷺ : « إذا

قلتَ لصاحبك والإمامُ يخطب يوم الجمعة أنصِتْ فقد لغوْتَ »[١] إذن : الإنصاتُ للخطبة جاء بدليل من السنة .

والخطبة مأخوذة من مادة (الخاء) و (الطاء) و (الباء) ، وتدل على أمور تشترك فى عدة معالم : منها خُطبة بضم الخاء ، ومنها خَطْب وهو الأمر العظيم، ومنها الخِطْبة بكسر الخاء .

وكلّ هذه المعالم تدل على أن هناك الأمر العظيم الذى يُعالج ، فالخَطْب أمر عظيم ، لأنه أمرٌ فاصل بين حياتين : حياة الانطلاق وحياة التقيد بأسرة وبنظام ، وكلّها معَانٍ مشتركة فى أمر ذى بال وأمر خطير .

وأمْر صلاة الجمعة يقتضى منك أنْ تأخذ عندها زينتك ، مصداقاً لقوْل الحق سبحانه : ﴿ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ .. (٣١) ﴾ [الأعراف]

وهذا ما عناه رسول الله ﷺ فى حديثه النبوى : « أفلا أُحدِّثكم عن يوم الجمعة ؟ لا يتطهّر رجلٌ فيُحسن طهوره ويلبس أحسن ثيابه ، ويُصيب من طِيبِ أهله إنْ كان لهم طِيبٌ ، وإلا فالماءُ ، ثم يأتى المسجد »[٢] .

وقوله ﴿ خُذُوا زِينَتَكُمْ .. (٣١) ﴾ [الأعراف] فالزينة إذا سمعتها تنصرف إلى تجميل فوق قوام الشيء ، وهذا يعنى أنْ يذهب المسلم إلى المسجد بأفخر ما عنده من ملابس .

ونحن نعلم أن المسجد هو مكانُ اجتماع عباد الله ، وهم متنوِّعون فى

---

(١) أخرجه مالك فى الموطأ (٢٣٢) والبخارى فى صحيحه (٩٣٤) ومسلم فى صحيحه (٢٠٠٢) وأبو داود فى سننه (١١١٤) والنسائى فى سننه (١٤٠٢ ، ١٥٧٧) وغيرهم .

(٢) وعن سلمان الفارسى قال قال رسول الله ﷺ : « يا سلمان ، هل تدرى ما يوم الجمعة ؟ قلت : هو الذى جُمِع فيه أبوك أو أبوكم . قال : لا ولكن أحدثك عن يوم الجمعة ، ما من مسلم يتطهر ويلبس أحسن ثيابه ويصيب من طيب أهله إن كان لهم طيب وإلا فالماء ، ثم يأتى المسجد فينصت حتى يخرج الإمام ثم يصلى إلا كانت كفارة له بينه وبين الجمعة الأخرى ما اجتنبت المقتلة وذلك الدهر كله » . أخرجه الطبرانى فى المعجم الكبير (٥٩٦٧) .

مُهمات حياتهم ، وكلّ مهمة فى الحياة لها زِيُّها ولها هندامها . فالذى يجلس على مكتب لمقابلة الناس له ملابس ، ومَنْ يعمل فى الحدادة له زِيٌّ خاصٌّ مناسبٌ للعمل .

ولكن إذا ذهبتم إلى المسجد لتجتمعوا جميعاً فى لقاء الله ، أيأتى كل واحد بلباس مهنته ليدخل المسجد ؟ لا ، فليجعل للمسجد لباساً لا يضايق غيره .

فإنْ كانت ملابس العمل فى مصنع أو غير ذلك لا تليق ، فاجعل للمسجد ملابسَ نظيفة حتى لا يُؤذى أحد بالوجود بجانبك ، لأننا نذهب إلى المسجد لعمل مشترك يحكم الجميع ، وهو لقاء الله فى بيت الله ، فلابد أنْ تحتفى بهذا اللقاء .

وفى حديث آخر عن سلمان الفارسى أيضاً قال قال ﷺ : « مَن اغتسل يوم الجمعة وتطهَّر بما استطاع من طُهْر ثم ادَّهن أو مسَّ من طيب ، ثم راح فلم يفرق بين اثنين فصلّى ما كُتب له ، ثم إذا خرج الإمام أنصتَ غُفِر له ما بينه وبين الجمعة الأخرى »[1] .

ثم إن الحق سبحانه الآمر بالسعى إلى الصلاة من يوم الجمعة ، هو سبحانه يأمر المؤمنين أنْ يذروا البيع من أجل صلاة الجمعة فقال : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ .. (٩) ﴾ [الجمعة]

والحق سبحانه لم يقل : اتركوا الزراعة أو اتركوا الصناعة أو اتركوا التدريس، بل اختار من كلِّ حركات الحياة حركةَ البيع على وجه الخصوص ، لأن فيه تجارة ، والتجارة هى الجامعة لكلِّ حركات الحياة .

والحق سبحانه إنما أخرجهم من البيع إلى الصلاة ولم يُخرجهم من فراغ ، بل أخرجهم من حركة البيع ، وجاء بـ (البيع) لأنه العملية التى يأتى ربحها مباشرة لأنك عندما تزرع زَرْعاً ستنتظر مدة تطول أو تقصر لتُخرج الثمار ،

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٩١٠) وابن حبان فى صحيحه (٢٧٧٦) والبيهقى فى السنن الكبرى (٦١٠٣) ، والدارمى فى سننه (١٥٤١) وابن حبان فى صحيحه (٢٧٧٦) من حديث سلمان الفارسى.

لكن البيعَ تأتى ثمرتُه مباشرة ، تبيع فتأخذ الربح فى الحال .

والبيع ينتظم كلّ حركات البيع ، لأن معنى البيع أنه وسط بين منتج ومستهلك ، فعندما تبيع سلعة ، هذه السلعة جاءت من منتج ، والمنتج يبحث عن وسيط يبيعها لمستهلك ، وهذا المستهلك تجده منتجاً أيضاً ، والمنتج تجده أيضاً مُستهلكاً .

فالإنتاج والاستهلاك تبادلٌ وحركة ، الحياة كلُّها فى البيع وفى الشراء ، وما دام هناك بيعٌ فهناك شراء ، فهذا استمرار لحركة الحياة ، فيوضح الله سبحانه : اتركوا هذه العملية التى يأتى ربحها مباشرة ، ولبُّوا النداء لصلاة الجمعة .

وحين يذر الإنسانُ البيعَ فهو يذرُ الشراءَ من باب أَوْلَى ، لأن البيع والشراء وجهان لعملية واحدة ، الخلاف فقط أن المشترى قد يشترى السلعة وهو كارِهٌ لأنْ يشترى ، لأنه يستهلك نقوده فيما يشتريه .

أما البائع فيريد أنْ يحصل على ثمن البيع فوراً ، وغالباً ما يحصل على ربح من وراء ذلك ، وتلك هى قمة الكسْب ، فكسْب الزارع على سبيل المثال يأتيه بعد شهور من الزراعة ، كسْب الموظف يأتيه أول الشهر ، أما البائع فيحصل على الكسب فوراً . ولذلك يأمرنا الحق أنْ نذرَ البيع إذا سمعنا نداء الصلاة يوم الجمعة .

ولو نظرنا إلى دقَّة الأداء فى البيع لوجدناها قمة الأخْذ المباشر للرزق ، فجاء الحق سبحانه بالبيع لأنه قمة النفعية العاجلة .

لقد جاء الأمرُ بترْك هذه الثمرة العاجلة لأداء صلاة الجمعة ، ويتضمن هذا الأمر ترْك كلِّ الأمور التى قد تأتى ثمراتها من بعد ذلك لأداء الصلاة .

إن البيع هو التعبير الدقيق لأن المتكلمَ هو الله ، والحق لم يتكلم هنا مثلاً عن الشراء ، لأن المشترى قد يشترى وهو كاره ، لكن البائع يملؤه السرور وهو يبيع، فقد يذهب رجلٌ لشراء أشياء لبيته فيسمع الأذان فيُسرع إلى الصلاة ويقول

لأهله من بعد ذلك : لقد ذهبت إلى الشراء لكن المؤذنَ قد أذَّن لصلاة الجمعة .

ذلك لأن الإنسان لا يحب أنْ يدفع نقوداً ، أما البائع فيستفيد بقيمة الفائدة، فشهوة الإنسان متعلقة بالبيع لا بالشراء ، فالشراء يحتاج منَّا إلى مال على خلاف البيع الذى يجلب المال .

لذلك يحزن البائع إذا لم يبع ، أما المشترى فيقول حين لا يجد الشيء أو يجد المحلّ مُغلقاً : بركة يا جامع .

واعلم أنك إنْ أقبلتَ على الله أعطاكَ من الفُيوضات ما يُعوِّضك مكاسبَ الدنيا وتجارتها ، إنْ تركتها لإجابة النداء ، لذلك كان شعار الأذان الذى ارتضاه رسول الله ﷺ (الله أكبر) . أى : أكبر من أيِّ شيء غيره .

فإنْ كنتَ فى نوم فالله أكبر من النوم ، وإنْ كنتَ فى تجارة فالله أكبر من التجارة ، وإنْ كنتَ فى عمل فالله أكبر من العمل .. إلخ .

وعجيبٌ أنْ نرى مَنْ يُقدِّم العمل على الصلاة بحجة امتداد الوقت وإمكانية الصلاة بعد انتهاء العمل ، وهذه حجة واهية ، لأن ربَّك حين يناديك (الله أكبر) يريدك أنْ تستجيب على الفَوْر لا على التراخى ، وإلاَّ كيف تُسمِّى الاستجابة للنداء إذا تأخرتْ عن وقتها ؟

فطول الوقت خاصة بين الصبح والظهر ، وبين العشاء والصبح لا يعنى أنْ تصلى فى طُول هذا الوقت ، لأن النداء يقتضى الإسراع والاستجابة .

وقوله تعالى ﴿ ذَٰلِكُمْ .. (٩) ﴾ [الجمعة] هو الإشارة إلى ما سبق من السعى إلى ذِكْر الله ، وهو صلاة الجمعة واقترانه بترْك البيع .

و (ذا) اسم إشارة و (الحكيم) تشير للخطاب ، لأن الحق سبحانه وتعالى يخاطب جماعة . وبعض مَنْ لا يفهم اللغة يقول (ذلكم) كلمة واحدة خطاباً

أو إشـارة ، وتقول لهم : لا بل هى كلمتان إشـارة وخطاب . والإشارة هنا لشيء واحد والخطاب لجماعة .

﴿ خَيْرٌ لَكُمْ .. (٩) ﴾ [الجمعة] وخير هى أفعل تفضيل أصلها أخْيَر . أى : يعطيك منفعةً ما وربحاً سريعاً ، وهذا شيء طيِّب يحمل خيراً للإنسان .

إذا كان هذا خيراً فإنَّ الأشدَّ خيْريَّة منه هو الاستجابة لنداء الصلاة من يوم الجمعة وترْك البيع ، والسعى إلى ذِكْر الله حيث ينادى به .

﴿ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٩) ﴾ [الجمعة] والعلم هو أنْ تأخذ قضية تعتقدها ولها واقع وتستطيع أنْ تُدلِّل عليها ، وإنْ اختلَّ شَرطٌ فيها فهذا خروجٌ عن العلم .

نقول ﴿ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٩) ﴾ [الجمعة] أى : تتيقَّنون من قضية نسبية واقعة معتقدة تستطيعون أنْ تُدلِّلوا عليها ، فهناك موازين نعرف بها ما هو خَيْر وما هو شَرٌّ ، وحينما يقول الحق سبحانه ﴿ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٩) ﴾ [الجمعة] فكأنَّ هناك مقدماتٍ للعلم ، فإن لم يكونوا يعلمون فالله يعلمهم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ ﴾

فالحق تبارك وتعالى حينما يُحدِّثنا عن الصلاة من يوم الجمعة يقول : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٩) فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ .. (١٠) ﴾ [الجمعة]

وهكذا أخرجنا الحق سبحانه إلى الصلاة من عمل ، وبعد الصلاة أمرنا بالعمل والسَّعى والانتشار فى الأرض والابتغاء من فضْل الله .

فمخالفة الأمر فى ﴿ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ .. (٩) ﴾ [الجمعة] كمخالفة الأمر فى ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ .. (١٠) ﴾ [الجمعة]

فالإسلام لا يعرف التكاسل ولا يرضى بالتنبلة والقعود ، ومَنْ أراد السكون فلا ينتفع بحركة متحرك ، وسيدنا عمر رضى الله عنه حينما رأى رجلاً يقيم بالمسجد لا يفارقه سأل : ومَنْ ينفق عليه ؟ قالوا : أخوه . قال : أخوه أعبدُ منه[1]. لماذا ؟ لأنه يسهم فى حركة الحياة ويوسع المنفعة على الناس .

إذن : فكل عمل نافع عبادةٌ شريطةَ أنْ تتوفر له النية ، فالكافر يعمل وفى نيته أنْ يرزق نفسه ، فلو فعل المؤمن كذلك ، فما الفرق بينهما ؟ المؤمن يعمل نعم ليقُوت نفسه ، وأيضاً ليسِّر لإخوانه قُوتهم وحركة حياتهم .

فسائق التاكسى مثلاً إذا عمل بمبلغ يكفيه ، ثم انصرف إلى بيته وأوقف سيارته ، فمَنْ للمريض الذى يحتاج لمن يُوصِّله للطبيب ؟ والبائع لو اكتسب رزقه ثم أغلق دكانه فمَنْ يبيع للناس ؟

إذن : اعمل لنفسك وفى بالك أيضاً مصلحة الغير وحاجتهم ، فإنْ فعلتَ ذلك فأنت فى عبادة ، تعمل على قدر طاقتك ، لا على قدر حاجتك ، ثم تأخذ حاجتك من منتوج الطاقة ، والباقى يُردّ على الناس إمّا فى صورة صدقة ، وإما بثمن، وحسْبُك أنْ يسَّرت له السبيل .

---

(١) ما ذكره الغزالى فى الإحياء (٢/٣٥٠) هو من قول عيسى عليه السلام أنه قال للرجل : أخوك أعبد منك . وقد أخرجه أبو بكر الدينورى بسنده فى كتابه (المجالسة وجواهر العلم) (٧٥٣) وابن قتيبة فى عيون الأخبار (١/١٣٧) . أما ما ورد عن عمر بن الخطاب إنما هو قوله لأحد المتبطلين : « إن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة» . ذكره أبو حامد الغزالى (٢/٣٥١) قال عمر : لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق يقول : اللهم ارزقنى فقد علمتم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة » .

إذن : نقول العبادة كل حركة تُؤدِّى خدمةً فى الكون نيتُك فيها لله ، والعبادة هى طاعة العابد للمعبود ، فلا تأخذها على أنها العبادات التى نفعلها فقط من الصلاة والصوم والزكاة والحج ، لأن هذه أركانُ الإسلام .

وما دامت هذه هى الأركان والأسس التى بُنى عليها الإسلام ، إذن : فالإسلام لا يتكوَّن من الأركان فقط ، بل الأركان هى الأسس التى بُنى عليها الإسلام .

والأسس التى بُنِى عليها البيت ليست هى كل البيت ، لذلك فالإسلام بُنيان متعدد ، فالذين يحاولون أنْ يأخذوا من المصطلح التصنيفى أو المصطلح الفنى فى العلوم ، ويقولون : إن العبادات هى الصلاة وما يتعلّق بها والزكاة والصوم والحج لأنها تُسمَّى فى كتب الفقه « العبادات » .

فلقد قلنا : إنَّ هذا هو الاسم الاصطلاحى، لكن كلّ أمر من الله فهو عبادة ، ولذلك فبعضُ الناسِ يقولون : نعبد الله ولا نعمل . نقول لهم : إن العبادةَ هى طاعة عابد لأمر معبود ، ولا تفهموا العبادة على أساس أنها الشعائر فقط ، فالشعائر هى إعلان واستدامةُ الولاء لله .

والشعائر تُعطى شحنة لتستقبل أحداثَ الحياة ، ولكن الشعائر وحدها ليستْ كلّ العبادة ، فالمعاملات عبادة ، والمفهوم الحقيقى للعبادة أنها تشمل عمارة الأرض .

لذلك قال تعالى : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ.. (١٠) ﴾ [الجمعة] فإنْ أطعنا الله فى الأمر الأول ﴿ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ.. (٩) ﴾ [الجمعة] فالأمر فى ﴿ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ .. (١٠) ﴾ [الجمعة] يستوجب الطاعة كذلك .

فكل حركة فى الحياة عبادة ، ثم ألاَ تحتاج الصلاةُ لقوام حياة ؟ لابد أنْ تتوافر لك مقومات حياة حتى تصلى ، فما هى مُقوِّمات حياتك ؟ إنها طعام

وشراب ومسكن وملبس ، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب .

مثال ذلك أن الإنسان حين يصلى فهو يحتاج إلى قوة ، والقوة تتولد فى الجسم نتيجة تناول الطعام . إذن : عملية صناعة الطعام أمر واجب ، وكلّ ما يترتب على ذلك عملية واجبة .

لذلك عندما يأتى واحد ويقول : أريد أنْ أنقطع للعبادة وأعتزل حركة الحياة نقول له : افعلْ ذلك بشرط واحد هو ألاَّ تنتفعَ بحركة متحرك واحد فى الحياة ، ولا تتناول أيَّ طعام ، ذلك أن الرغيف الذى يُقدِّمه لك إنسان هو من عمل بشر كثيرين لم ينقطعوا عن الحياة .

ونقول له أيضاً : لماذا ترتدى هذا الجلباب ؟ إنه نتيجة حركة حياة بشر آخرين ، فهناك مَنْ زرع القطن ، وآخر حلج هذا القطن ، وثالث حوّله إلى غَزْل، ورابع نسجه ، وخامس قام بتفصيل هذا الجلباب .

ولتنظر إلى ما خلف كل واحد من الآلات ، وإياك أنْ تنتفع بحركة واحد مشغول بالأسباب ما دُمْتَ قد قررت الانقطاع عن حركة الحياة .

إن الشغل بالأسباب عبادة ، لأن العبادة لا تتم إلا به ، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب ، ولذلك نتعلم المهارات المفيدة للحياة ، وهى فرض كفاية .

والفَرْض الواجب على الإنسان أحد اثنين : إما فرض عين وهو الأمر المكلَّف به الفرد ، ولابدّ أنْ يؤديه ولا يجوز أنْ يؤديه أحدٌ نيابةً عنه كالصلاة .

وإما فرض كفاية ، وهو ما لا يتم الواجب إلا به ، لذلك كان واجباً ، فكلٌّ منّا يريد الطعام ، لذلك لابدَّ من تقسيم العمل ، فهذا يزرع وهذا يصنع ، فلا بدَّ من زراعة القمح ، ولابدَّ من إقامة المطاحن ، ولابدَّ من إقامة الأفران ، ولابدَّ من مهندسين يُصمِّمون هذه الآلات .

وكل ذلك أمور تُسهِّل للإنسان أنْ يمتلكَ القوة لأداء الصلاة ، وأنْ يقف بين يدى الحق ليؤدى الصلاة ، ولكن ماذا بعد انتهاء الصلاة ؟ ها هو الحق سبحانه يقول :

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠) ﴾ [الجمعة]

إذن : فلا يقولنَّ أحدٌ أنا منقطع طوال حياتى للصلاة ، فلن يستطيع أحدٌ أنْ يذهب إلى الصلاة ما لم يكُنْ يملك مقوِّمات حياته ، ومقومات الحياة تقتضى أنْ يضربَ الإنسانُ فى الأرض ، ولابدَّ أنْ يبتغى الإنسانُ من فضل الله .

لقد أمر الحق سبحانه عباده المؤمنين بالانتشار فى الأرض ، لأن له هدفاً وغاية ، فالهدف السَّعى وطلب الرزق ، ومن معانى الانتشار السياحة وهى مأخوذة من ساح الماء إذا فاض وأخذ حيِّزاً أكبر .

والانتشار أو السياحة فى الأرض ينبغى أنْ تكون منظمة ، كما تنتشر نقطة الماء على القماش فتُحدث فيه دائرة منتظمة ، كذلك فى انتشاركم فى الأرض للسعى فى طلب الرزق يجب أنْ يكون بنظام معين ، بحيث لا يحدث تكدُّسٌ فى مكان أو زحام ، فى حين يخلو مكان آخر لا يجد مَنْ يعمره ويستنبط خيراته .

والسياحة فى الأرض أو الانتشار فيها الله تعالى يريده منا لغايتين : الأولى الضرب فى الأرض وابتغاء رزق الله وفضله ، كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللهِ.. (٢٠) ﴾ [المزمل]

والضَّربْ فى الأرض ليس مجرد الانتشار فيها ، إنما المراد العمل والكفاح واستخراج خيراتها ، لأن الخالق سبحانه نَثَر القُوتَ فى أنحاء الأرض بالتساوى ونثر فيها الخيرات .

لذلك كلّ يوم تُعطينا الأرضُ جديداً من نِعَم الله ، كنَّا لا نعرف من خيرات الأرض إلا الزراعة ، فلما تقدمتْ العلوم والاكتشافات وتطورت أدواته عرفنا المعادن والبترول والكنوز المطمورة فى أرض الله ، وكلُّ أثر كنزيٌّ فى الأرض لا نستخرجه ولا نعرفه إلا بالضرب فى الأرض ، وسبق أنْ قلنا : الضرب إيقاع شيء بقوة .

كنّا نتعجب من الناس الذين يسكنون البوادى والصحراء ونشفق عليهم ، كيف يعيشون فى هذا الجَدْب والقَحْط ؟ ولماذا لا يتركون هذا المكانَ إلى غيره ؟

والآن وبعد هذه الاكتشافات البترولية صاروا هم أغنى الناس وتأتيهم كلّ خيرات الدنيا تحت أقدامهم ، لماذا ؟ لأنهم تمسَّكوا بأرضهم وبلادهم وصبروا عليها، حتى آنَ الأوانُ لجنى خيراتها ، ولو أنهم يئسوا منها ما نالوا كلَّ هذا الخير.

أما الغاية الثانية للسياحة فى الأرض والضرب فيها أنْ تكون السياحة للاعتبار والتأمل فى آيات الله فى كَوْنه ، فبالتنقُّل والسير فى الأرض أرى آياتٍ ليستْ موجودة فى بيئتى .

وفى ذلك قال تعالى : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠) ﴾ [العنكبوت]

ويقول سبحانه فى موضع آخر : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا .. (١١) ﴾ [الأنعام] والمعنى أنَّ السير فى الأرض لابتغاء الرزق ينبغى أنْ يصاحبه نظرٌ وتأملٌ لآيات الله .

وإياك أنْ تظنَّ أن الله يريد أنْ تذكره ساعةً فحسْب ، إنما اذكره دائماً وأبداً، وإنْ كانت الصلاة لها ظرفٌ تُؤدّى فيه فَذِكْر الله لا وقتَ له ، لذلك جعله الله يسيراً سهلاً لا مشقةَ فيه ، لا بالوقت ولا بالجهد .

فيكفى فى ذكر الله أنْ تتأمل المرائى التى تمرُّ بها ويقع عليها نظرك لترى فيها قدرة الله ، ومن كرمه سبحانه أنْ يُثيب العبد على كلِّ حركة خَيْر فى دنياه، لأن هذه الحركة مطلوبةٌ للإيمان .

وأنت إذا أردتَ أنْ تؤدِّى فرْضَ الله فى الصلاة مثلاً ، فأنت تحتاج إلى قوة لتؤدى هذه الفريضة ، ولن تجد هذه القوة إلا بالطعام والشراب .

ولنأخذ أبسط ما يمكن تصوّره من الطعام .. رغيف العيش .. فانظر كم يد شاركتْ فيه منذ كان حبَّةَ قمح تُلْقى فى الأرض إلى أنْ أصبح رغيفاً شهياً .

إن هؤلاء جميعاً الذين أداروا دولاب هذه العملية يؤدون حركة إيجابية فى الحياة هى فى حَدِّ ذاتها عبادة ، لأنها أعانتْك على عبادة .

أيضاً إذا أردتَ أنْ تصلى فواجبٌ عليك أنْ تستر عورتك ، انظر إلى هذا القماش الذى لا تتم الصلاة إلا به ، كل مَنْ أسهم فى زراعة القطن أو تربية الضأن لأخذ الصوف وصناعته حتى وصل إليك جميعهم يؤدون عبادة بحركتهم فى صناعة هذا القماش .

إذن : كل شيء يُعينك على عبادة الله فهو عبادة ، وكل حركة فى الكون تؤدى إلى شيء من هذا فهى عبادة .

والحق سبحانه حينما استدعى المؤمنين لصلاة الجمعة قال سبحانه : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٩) ﴾ [الجمعة]

لم يأخذهم من فراغ بل من عمل ، فإذا انقضتْ الصلاة أمرنا بالعودة إلى العمل والسعى فى مناكب الأرض ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ.. (١٠) ﴾ [الجمعة]

واعلم أن ما تنتشر إليه من الرزق وما تبتغيه إنما هو من فَضْل الله ، فإياك أنْ يشغلك انتشارُك فى الأرض وابتغاؤك من فضل الله والأخْذ بأسباب الدنيا عن واجبك نحو الله ، بل عليك أنْ تذكره سبحانه .

﴿ وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ(١) وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ (٢٠٥) ﴾ [الأعراف]

أى : لا تكُنْ من الغافلين عن مطلوبات الله بالحدود التى بيَّنها الله عز وجل ، لأن الغفلة معناها انشغال البال بغير خالقك ، وأنت إنْ جعلتَ خالقك فى بالك دائماً فإنك لا تغفل عن مطلوباته فى الغدوِّ والآصال ، وفى كل وقت سواء كنتَ فى الصلوات الخمس ، أو كنتَ تضرب الأرض بأىِّ معنى من المعانى .

ونداء ربك أكبر من حركة الحياة ، فعليك أنْ تستجيب له ، لأن نداءَ ربك هو الذى سيمنحك القوة والطاقة ، ويعطيك الشحنة الإيمانية فتُقبل على عملك بهمَّة وإخلاص .

ولننظر إلى الدقة فى قوله تعالى : ﴿ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ .. (١٠) ﴾ [الجمعة] فالانتشار يعنى أنْ ينساح البشر لينتظموا فى كل حركات الحياة ، وبذلك تعمر كلّ حركة فيها ، فكلُّ حركة فى الحياة هى عبادة .

وكأنك ذهبتَ للمسجد لتأخذَ شحنة إيمانية تُعينك وتُسيطر على كلِّ حواسك ، فى حركتك فى التجارة ، وفى الإنتاج وفى الاستهلاك ، وفى كلِّ ما ينفعك ويُنمى حياتك .

وحين يأمرك ربُّك أنْ تفرُغَ لأداء الصلاة لا يريد من هذا الفراغ أنْ يُعطِّل لك حركة الحياة ، إنما ليعطيك الوقود اللازم لتصبح حركةُ حياتك على وفق ما أراده الله .

---

(١) الآصال : جمع أصيل – آخر النهار . وهو ما بين العصر والمغرب . وهو المساء . وفى البحر المديد : الآصال : صلاة الظهر والعصر والعشاءين . وهو ما بين العصر إلى الليل .

وما أشبه هذا الوقت الذى نختزنه من مصالح دنيانا فى عبادة الله بشحن بطارية الكهرباء ، فحين تذهب بالبطارية إلى جهاز الشحن لا نقول : إنك عطلتَ البطارية ، إنما زدتَ من صلاحيتها لأداء مهمتها وأخْذ خيرها .

فالمطلوب من المؤمن أنْ يسهم فى حركة الحياة مساهمةً إيجابية بنّاءة نافعة فى الحياة مُعينة على التدين ، فلو أخذنا مثلاً سَتْر العورة وهى واجب لا تتم الصلاة إلا به ، فلكى تستر عورتك لتصلى تحتاج إلى ثوبٍ تلبسه ، كيف يتوفر لك هذا الثوب ؟

إنه يحتاج إلى خياط يخيطه ، ويحتاج إلى تاجر التجزئة الذى تشترى منه القماش ، ثم تاجر الجملة ، ثم مصنع النسيج والغزل والصباغة والحلج ، ثم الفلاح الذى يزرع القطن ويجمعه .

كلُّ هذه العملية تحتاج إلى عِدَد وماكينات وآلات وأيْدٍ عاملة ، فكُلُّ هذه الحركة من أجلك تخدمك وتعينك ، فهذه الأعمال الدنيوية التى لا تقوم الديانة إلا بها هى واجبة لا يُستهان بها ، بل ينبغى المحافظة عليها وتقديسها لأنها فى منزلة الواجب .

وحين يأخذك ربُّك من هذه الأعمال إلى الصلاة مثلاً لا يأخذك من عمل تافه هيِّن لا قيمَة له ، إنما يأخذك من عمل هو فى حَدِّ ذاته عبادة ، لذلك جعله كبيراً، أما الذى يناديك للصلاة فأكبر من هذا كله .

لذلك لم يُناد الحق سبحانه المؤمن فى صلاة إلا فى صلاة الجمعة ، حيث قال سبحانه : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ .. (٩) ﴾ [الجمعة]

فإذا ما انتهت الصلاة ردّك ربُّك إلى العمل الذى استدعاك منه وأعادك إلى دنياك .

إذن : لا تستهِنْ بعمل الدنيا ولا تظنه بعيداً عن الدين بل هو جزء منه ، وما لا

يتم الواجبُ إلا به فهو واجب ، فأمرنا بالعودة إلى حركة الحياة لأنها الوسيلةُ للدار الآخرة والمزرعة التى تعد فيها الزاد للقاء الله تعالى .

إذن : الدنيا أهم من أنْ تُنسى من حيث هى معونة للآخرة ، ولكنها أتفه من أنْ تكونَ غايةً فى حَدِّ ذاتها ، أعطاك الحق سبحانه العقل لتفكر ، وأعطاك الطاقةَ لتفعل، وسخَّر لك الكون بالمطمور فيه من الرزق لتستخرجه وتتعيَّش منه .

وهكذا يتضح لك أنَّ كلَّ شيء يحتاج منك أنْ تتحرك ، وأنت فى حركتك تحتاج لطاقة تأخذها من الأعلى منك وتعطى للأدنى منك ، فأنت عندما تُدْعى إلى تلبية نداء الله تشحن طاقتك ، وتخرج للحياة بعد أنْ تُجدِّد ولاءك لمَن خلقك وخلق الأكوان كلها ، وإنْ أحسنتَ الوقوف بين يدى الله سيأتى مستقبلك مبنياً على هذا الإحسان .

ومن عِظم شعور التابعين بآيات الله عز وجل ذلك الذى رُوى عن عراك بن مالك[1] أنه كان إذا صلى الجمعة انصرف فوقف على باب المسجد وقال : اللهم أجبتُ دعوتك ، وصليْتُ فريضتك ، وانتشرتُ كما أمرْتنى ، فارزقنى من فضلك، وأنت خيْرُ الرازقين[2] .

وقد قلتَ وقولك الحق : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٩) فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠) ﴾ [الجمعة]

---

(١) عراك بن مالك : أحد بنى غفار بن مليل . توفى زمن يزيد بن عبد الملك فى منفاه عام ١٠٤ هجرية بدهلك ، كان شيخاً كبيراً ، تابعى ثقة من خيار التابعين وكان زاهداً عابداً ، كان من أشد أصحاب عمر ابن عبد العزيز على بنى مروان فى انتزاع ما حازوا من الفىء ، والمظالم من أيديهم .

(٢) ذكر هذا القرطبى فى تفسيره (١٠٩/١٨) وكذا ابن كثير (١٢٢/٨) وفخر الدين الرازى فى تفسيره مفاتيح الغيب (سورة الجمعة) ؛ وذكره أيضاً ابن رجب الحنبلى فى كتابه (فتح البارى بشرح صحيح البخارى) (ص ٥٤٦) .

وكان عبد الله بن بسر[١] إذا صلى الجمعة خرج من المسجد قدراً طويلاً ، ثم رجع إلى المسجد فيصلى ما شاء الله أنْ يصلى . فقيل له : يرحمك الله لأيِّ شيء تصنع هذا ؟ قال : لأنِّى رأيتُ سيد المسلمين ﷺ هكذا يصنع »[٢] يعنى النبى .

والذين يريدون أنْ يعزلوا الدين عن حركة الحياة يقولون : إن الدين يهتم بالعبادات كالصلاة والصوم والزكاة والحج ، لهؤلاء نقول : أنتم تتكلمون عمَّا بلغكم من دين لم يجيء لينظم حركة الحياة ، وإنما جاء ليعطى الجرعة المفقودة عند اليهود وهى الجرعة الروحية .

أما الدين الإسلامى فقد جاء خاتماً للأديان ، مُنظِّماً لحركة الحياة ، فكلُّ أمر فى الحياة وكلُّ حركة فيها داخلة فى حدود الطاعة ، فالإسلام أوسع من الأركان الخمس ، فالأركان هى الشحنة التى يستدعيك ربُّك إليها ، فتأخذ من لقائه المدد الذى يُعينك على القيام بحركة الحياة .

ومثّلنا ذلك بالبطارية حين تذهب بها إلى الشحن ، فنحن لا نستفيد بها فى فترة الشحن ، إنما نعطيها الشحنة اللازمة لنعملَ بها بعد ذلك .

ومن عجيب أمر الرحمة الإلهية أن الله تعالى جعل الذهاب إلى شحنة الطاقة فرضاً تكليفياً لا بدَّ لك من القيام به ، لابدَّ لك أنْ تقابلنى خمس مرات فى اليوم والليلة ، ولابدَّ لك أنْ تسعى للصلاة من يوم الجمعة .

فأنت خَلْقى وصنعتى ، والصانع أعلم بما يُصلح صنعته ، وتصوَّر صنعة تُعرض على صانعها خمس مرات فى اليوم والليلة ، هل يبقى فيها عَطَب ؟

---

(١) عبد الله بن بسر المازنى أبو صفوان من بنى مازن بن منصور صحابى كان ممن صلى إلى القبلتين توفى بحمص بالشام عام ٨٨ هجرية عن ٩٥ عاماً ، وهو آخر الصحابة موتاً بالشام . [الأعلام للزركلى ٤/٧٤] وصفه الذهبى فى سير أعلام النبلاء (٣/٤٣٠) بأنه بركة الشام .

(٢) أورده السيوطى فى الدر المنثور (سورة الجمعة) وعزاه لأبى عبيد وابن المنذر والطبرانى وابن مردويه. وأورده الألوسى فى روح المعانى (١٤/٢٩٨) .

هـذا فـى الصـانع إنْ كان من البشر ، فما بالك بالصـانع إنْ كان هو ربّ البشر وخالقهم سبحانه ؟

الصـانع من البشر يُصلح صنعته بشيء مادى ، ذلك لأن المهندس وصنعته شيءٌ مادى فيصلح بالمادة ، أما الخالق سبحانه فغيْب فحين يصلحك من عطب فيك يُصلحك بالغيب فلا تشعر به ولا تراه .

إذن : نقول لابد أنْ نفهم الدين على حقيقته ، وأنْ نفهم أنَّ لكل منا مهمةً فإذا تفـوَّق عليـك غيرُك فاعلم أنَّ تفوّقه لصـالحك وعائدٌ عليك ، لأنـه بتفوّقه يؤدى إليك خدمة فى حين أنه لا يستفيد منك .

وممـا يُلفـت إليه قـوْل الحق سـبحانه : ﴿ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْـرِ اللهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ .. (٩) ﴾ [الجمعـة] ثـم قوله ﴿ فَـإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِـرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ .. (١٠) ﴾ [الجمعة]

فالخطـاب كلُّه للرجال ، فالرجال هم المكلَّفون بصـلاة الجمعة حيث يُنادى بها ، وهم فى الغالب القائمون بعملية البيع ، ولاحظ أن الحق سـبحانه لم يذكر الشراء وهو قد يقع من المرأة أكثر .

ثـم يأتـى ﴿ فَانْتَشِـرُوا فِي الْأَرْضِ .. (١٠) ﴾ [الجمعة] فالانتشـار فى الأرض والسعى على الرزق إلا لضرورة ألجأتْها لهذا ، وعلى المجتمع أنْ لا يجعل المرأة عُرْضة لتحكم الضرورات بها وبحياتها .

فالرجل هو المكلَّف والمُطالَب بالتحرُّك فى هذا الكون ، أما المرأة فتدير بيتها لتكون سكناً لزوجها ولأولادها ، ولتخرج رجالاً لهذا المجتمع ، أما إذا ألجأتها الظـروف وضرورات الحياة فلها أنْ تتحرك لكسب الرزق ، ولكن بقدر ما يُحقِّق لهـا الاحـترام والتقدير مـن المجتمع ، وعلـى المجتمع أنْ يكفيهـا احتياجاتها فيحفظ لها مكانتها .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠) ﴾ [الجمعة] ، فالحق سبحانه حين يخاطب المسلمين لا يقول كما يقول لبنى إسرائيل : اذكروا نعمة الله .

وإنما يقول (اذكروا الله) لأن بنى إسرائيل ماديون ودُنيويون ، فكأنَّ الحق سبحانه يقول لهم : ما دُمتم ماديين ودنيويين فاذكروا نعمة الله المادية عليكم.

ولكننا نحن المسلمين أمةٌ غير مادية ، وهناك فَرْقٌ بين أنْ يكونَ الإنسانُ مع النعمة وأنْ يكون مع المنعم ، الماديون يحبون النعمة ، وغير الماديين يحبون المنْعِم ويعيشون فى معيته سبحانه .

ولذلك فخطابه سبحانه للمسلمين ﴿ وَاذْكُرُوا اللهَ.. (١٠) ﴾ [الجمعة] لأننا نحن مع المنعِم ، بينما خطابه سبحانه لبنى إسرائيل ﴿ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ.. (٦) ﴾ [إبراهيم]

والحق تبارك وتعالى يقول مرة : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (٤١) ﴾ [الأحزاب] ومرة يقول : ﴿ وَاذْكُرْ رَبَّكَ.. (٤١) ﴾ [آل عمران]

فقوله ﴿ وَاذْكُرُوا اللهَ.. (١٠) ﴾ [الجمعة] بلفظ الجلالة (الله) يستشعر سامعها التكاليف لأن الله هو المعبود ، والمعبود هو المطاع فى الأوامر والنواهى .

أما قوله ﴿ وَاذْكُرْ رَبَّكَ.. (٤١) ﴾ [آل عمران] فهو تذكير لك بما حَبَاك به من أفضال ، خَلَقك وربّاك وأعطاك من فيض نعمه ما لا يُعدُّ ولا يُحصى ، فاذكر ربك لأنك إنْ لم تعشقه تكليفاً فأنت قد عشقته لأنه مُمدُّك بالنعم ، وسبحانه يتفضَّل علينا ويُوالينا جميعاً بالنعم .

واذكر ربك على حالين : الأول تضرعاً أى بذلَّة لأنك قد تذكر واحداً بكبرياء، إنما الله الخالق المحسن يجب عليك أنْ تذكره بذلَّة عبوديةٍ لمقام الربوبية .

واذكر ربك خِيفة أى خائفاً متضرعاً ، لأنك كلما ذللتَ له يعزك ، ويطلق الذكر على تذكر الله دائماً .

وهو سبحانه القائل﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ .. (١٥٢) ﴾ [البقرة] أي : اذكرونى بالطاعة أذكركم بالخير والتجليات ، فإذا كان الذكر بهذه المعانى ، فنحن نجد الاطمئنان فى أيٍّ منها ، فالذكر بمعنى القرآن يُورِثُ الاطمئنان .

ولذلك يعطى رسولُ الله لنا المثل فيقول : « مَثَلُ الذي يذكر ربَّه ، والذي لا يذكر ربَّه مثل الحيِّ والميت »[١]

وعملية الذِّكْر نفسها عملية معنوية ، ولكى يُقرِّبه رسول الله ﷺ للأذهان ضرب مثلاً ، فمثَّله بالحى والميت ، فالحى كائن حَىّ يتحرك ويشعر ويسمع ويبصر ويتكلم أى فيه حياة ، أما الميت فقد ماتت فيه الأحاسيس ، بل هو جسد لا حِراكَ له .

فالذى يذكر الله قلبُه حَىٌّ وضميره حَىٌّ وأحاسيسه حيَّة تستقبل كلام الله بقلبٍ مفتوح وعقلٍ مستوعب ، أما الميت فلا تنتظر منه خيراً لأنه ببساطة ميت .

ولا تظنوا أن الذكرَ قاصرٌ على الصلاة فقط ، إنما ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠) ﴾ [الجمعة]

فيجب ألاَّ يغيبَ ذكْرُ الله عن بالك أبداً ، لأن ذِكْرك لربك خارج الصلاة أكبر من ذكرك له سبحانه في الصلاة .

ورُوى عن عطاء بن السائب[٢] أن ابن عباس سأل عبد الله بن ربيعة[٣] : ما

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٤٠٧) وأورده أبو محمد عبد الحق الإشبيلى فى كتابه (الأحكام الشرعية) (١٤١/٣) ، وأخرجه البغوى فى شرح السنة (١٢٤٣) من حديث أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه .

(٢) عطاء بن السائب إمام حافظ محدث الكوفة أبو السائب ، كان من كبار العلماء ، لكنه ساء حفظه قليلاً فى أواخر عمره . قال أبو حاتم : كان محله الصدق قديماً قبل أن يختلط ثم تغير حفظه . [سير أعلام النبلاء للذهبى] .

(٣) عبد الله بن ربيعة بن فرقد السلمى ، قيل : له صحبة ، فإن لم تكن فحديثه من قبيل المرسل نزل الكوفة، توفى بعد الثمانين . قال ابن ربيعة : صليت خلف عمر الفجر فقرأ سورة الحج وسورة يوسف قراءة بطيئة . (سير أعلام النبوة ١١٦ - ٥٠٤/٣) .

تقول فى قوله تعالى ﴿ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ (٤٥) ﴾ [العنكبوت]

فقال : قراءة القرآن حسن ، والصلاة حسن ، وتسبيح الله حسن ، وتحميده حسن ، وتكبيره حسن ، والتهليل له حسن ، لكن أحسن من ذلك أنْ يكونَ ذكرُ الله عند طروق المعصية على الإنسان ، فيذكر ربه فيمتنع عن معصيته .

فماذا قال ابن عباس مع أن هذا القول مخالفٌ لقوله فى الآية ؟ قال : عجيبٌ والله . فأُعجب بقول ابن ربيعة وبَارك فَهْمه للآية ، ولم ينكر عليه اجتهاده ، لأن الإنسان طبيعى أنْ يذكر الله فى حال الطاعة فهو متهيىءٌ للذكر .

أما أنْ يذكره حال المعصية فيرتدع عنها فهذا أقوى وأبلغ ، وهذا أكبر كما قال سبحانه ﴿ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ .. (٤٥) ﴾ [العنكبوت]

لذلك جاء فى الحديث الشريف « سبعة يُظلُّهم الله فى ظِلِّه يومَ لا ظِلَّ إلا ظِلُّه – ومنهم : ورجل دَعَتْهُ امرأةٌ ذاتُ مَنصبٍ وجمال فقال : إنى أخاف الله »[1] .

هذا هو ذكر الله الأكبر ، لأن الدواعى دواعى معصية فيحتاج الأمر إلى مجاهدة تُحوِّل المعصية إلى طاعة .

﴿ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ .. (٤٥) ﴾ [العنكبوت] فإياك أنْ تظنَّ أنَّ الله يريد أنْ تذكره ساعةَ الصلاة فحسب ، إنما اذكره دائماً وأبداً ، وإنْ كانت الصلاة لها ظرفٌ تُؤدَّى فيه ، فذِكْر الله لا وقتَ له .

لذلك جعل اللهُ الذكرَ سَهْلاً يسيراً ، لا مشقة فيه ، لا بالوقت ولا بالجهد ، فيكفى فى ذكر الله أنْ تتأمل المرائى التى تمرُّ بها ويقع عليها نظرك لترى فيها قدرةَ الله .

فذِكْر الله لا يُكلِّفك شيئاً ولا يشقّ عليك ، لذلك قال تعالى : ﴿ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ

---

(١) أخرجه الإمام مالك فى موطئه (١٧٠٩) والبخارى فى صحيحه (٦٦٠) ومسلم فى صحيحه (٢٤٢٧)، وأحمد فى مسنده (٩٦٦٣) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

.. (٤٥) ﴾ [العنكبوت] يعنى : أكبر من أيِّ طاعة أخرى لأنه يسيرٌ على لسانك ، تستطيعه فى كلِّ عملٍ من أعمالك وفى كلِّ وقت وفى أيِّ مكان .

فذِكْر الله أكبر من أيِّ عبادة ، لأن العبادات كما ذكرنا تحتاج إلى استعداد وإلى وقت وإلى مشقة وإلى تفرُّغ وعدم مشغولية ، أما ذكر الله فهو يجرى على لسانك فى أيِّ وقت ، وبدون استعداد أو مشقة ويلهج به لسانك فى أيِّ وقت وعلى أيِّ حال أنت فيه .

واقرأ فى ذلك قوله تعالى فى سورة الجمعة : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠) ﴾ [الجمعة]

فما دام أن الذكر هو أنْ تجعلَ الله على بالك وعلى لسانك ، فلا يمنعْك من ذلك سعيٌ ولا عمل ، لأن الذكر أخفّ العبادات وأيسرها على النفس وأثقلها فى الميزان .

ويقول الحق سبحانه : ﴿ يَـأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (٤١) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلا (٤٢) ﴾ [الأحزاب]

فالحقّ سبحانه أمرنا بذكره ذِكْراً كثيراً ، لأن الذكرَ عمدةُ العبادات وأيسرُها على المؤمن ، لذلك نجد ربّنا يأمرنا به عند الانتهاء من العبادات كالصلاة والصيام والحج .

والذكر شَغْل الذاكرة وهى منطقة فى المخ . قلنا : إنّ المعلومة يستقبلها الإنسانُ فى بُؤرة شعوره ، فإذا أراد أنْ يحتفظَ بها لحين الحاجة إليها حفظها فى الحافظة أو فى حاشية الشعور .

فأنت مثلاً ترى شخصاً فتقول : هذا الرجل لم أره منذ عشرين سنة ، وآخر مرة رأيتُه كان فى المكان الفلانى .

إذن : الذكر لشيء كان موجوداً فى بؤرة الشعور ، الذكر يعنى قضية موجودة عندك بواقع كان لها ساعة وجودها ، لكن حصلتْ عنها غفلةٌ نقلتْها إلى حاشية الشعور أو الحافظة بعد ذلك نريد منك ألاَّ تنساها فى الحاشية أو فى منطقة بعيدة بحيث تحتاج إلى مجهود لتذكّرها ، إنما اجعلها دائماً فى منطقة قريبة لك ، بحيث يسهل عليك تذكُّرها دون عناء .

وكذلك ينبغى أنْ يكون ذكرُكَ لله ، فهو القضية الحيوية التى ينبغى أنْ تظلَّ على ذِكْر لها دائماً وأبداً ، وكيف تنسى ذكر ربك وقد أخذ عليك العهد وأنت فى عالم الذر ، وأخذ منك الإقرار بأنه سبحانه ربك .

والذكر هو العبادة الوحيدة التى لا تُكلِّفك شيئاً ولا تعطل جارحةً من جوارحك ، ولا يحتاج منك إلى وقت ولا إلى مجهود وليس له وقتٌ مخصوص .

فمن ذكر الله قائماً ، أو ذكر الله على جَنْبه عُدَّ من الذاكرين ، هذا بالنسبة لوضعك حين الذكر ، ومن ذكر الله بُكرةً ، أو ذكر الله أصيلاً أو غُدواً أو عشياً أصبح من الذاكرين ، هذا بالنسبة لزمان ذكرك .

ومَنْ قال سبحان الله والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، ولا حوْلَ ولا قوةَ إلا بالله العليِّ العظيم ثلاثين مرة فى اليوم كُتب من الذاكرين[1] ، ومَن استيقظ ليلاً فأيقظ أهله وصلى ركعتين فهو من الذاكرين[2] .

إذن : فذكْر الله مسألةٌ سهلة تستطيع أنْ تذكر الله وأنت تعمل بالفأس أو تكتبَ بالقلم ، تذكر الله وأنت تأكل أو تشرب .. إلخ ، فذكْر الله وإن كان أكبر إلا أنه على المؤمن سهلٌ وهيِّن .

---

(١) عن الحسن قال : قال رسول الله ﷺ لأبى بكر : ألا أدلك على صدقة تملأ ما بين السماء والأرض : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله فى يوم ثلاثين مرة . أخرجه ابن أبى شيبة فى مصنفه (٢٩٧٢٨) .

(٢) أخرجه البيهقى فى سننه الصغرى (٦٠٩) عن أبى سعيد الخدرى وأبى هريرة رضى الله عنهما قالا : قال رسول الله ﷺ : « من استيقظ من الليل فأيقظ أهله فصليا ركعتين جميعاً كُتب ليلتئذ من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات » .

واعلم أن ذكر الله سبحانه وتعالى يجعلك فى ركن ركين لا يصل إليك مكروهٌ ولا شَرٌّ ، إنَّ ذكر الله المنعم يُعطينا حركة الحياة فى كلِّ شيء ، فذكر الله يُوجد فى القلوب الخشوعَ ، ويُقلِّل من المعاصى وينتفع الناسُ كلُّ الناس به ، ويجعل حركة الحياة مستقيمة .

وقد كان رسول الله ﷺ لا يجلس ولا يقوم إلا على ذكر[١] ، وفى الحديث « كان رسول الله يُكثر الذكر »[٢] لماذا ؟ لأن الجلوس والقيام هو إبطالٌ حركة بحركة، فمَنْ كان قائماً فقعد فقد أدَّى حركة هى القعود ، ومَنْ كان جالساً فقام فقد أدَّى حركةً هى القيام ، وكان الرسول ﷺ يذكر الله فى كل حركة شاكراً نعمة الخالق عز وجل .

وربُّ العزة سبحانه يقول فى الحديث القدسى : « أنا عند ظَنِّ عبدى بى ، وأنا معه إذا ذكرنى ، فإنْ ذكرنى فى نفسه ذكرتُه فى نفسى ، وإنْ ذكرنى فى ملأ ذكرتُه فى ملأ خيْرٍ منه ، وإنْ تقرَّب إليَّ بشبر تقرَّبتُ إليه ذراعاً ، وإنْ تقرَّب إليَّ ذراعاً تقربتُ إليه باعاً ، وإنْ أتانى يمشى أتيتُه هرولة »[٣] .

فأنت بإيمانك بالله تُعزِّز نفسك وتُقوِّيها بمعونة الله لك ، فإنْ أردتَ أنْ يذكرك الله فاذكر الله ، فإنْ ذكرتَهُ فى نفسك يذكرك فى نفسه ، وإنْ ذكرتَهُ فى ملأ يذكرك فى ملأ خيْر منه ، وإنْ تقرَّبْتَ إليه شبراً تقرَّب إليك ذراعاً .

---

(١) أخرجه البيهقى فى « شعب الإيمان » (١٣٦٢) عن الحسن بن على بن أبى طالب قال : سألت خالى هند ابن أبى هالة وكان وصافاً ، فكان منه : « فسألته عن مجلسه فقال : كان رسول الله ﷺ لا يجلس ولا يقوم إلا على ذكر ولا يوطن الأماكن وينهى عن إيطانها ، وإذا انتهى إلى قوم جلس حيث ينتهى به المجلس » ، وكذا أخرجه الطبرانى فى المعجم الكبير (١٧٨٦٨) .

(٢) عن عبد الله بن أبى أوفى قال : « كان رسول الله ﷺ يكثر الذكر ويقل اللغو ويطيل الصلاة ويقصر الخطبة ولا يأنف أن يمشى مع الأرملة والمسكين فيقضى له الحاجة » . أخرجه النسائى فى سننه (١٤١٤) والحاكم فى مستدركه (٤٢٢٥) والطبرانى فى المعجم الكبير (١٣٧٧) .

(٣) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٧٤٠٥) وكذا مسلم فى صحيحه (٦٩٨١ ، ٧٠٠٨) والترمذى فى سننه (٣٦٠٣) وابن ماجه فى سننه (٣٨٢٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

فماذا تريد أكثرَ من ذلك ، خاصةً أنك لن تضيف إليه شيئاً ، إذن : فالموقف فى يدك ، فإذا أردتَ أنْ يكونَ الله معك فسِرْ فى طريقه تأتِكَ معونته فوراً ، وهكذا يكون الموقفُ معك وينتقل إليك ، وذلك بإيمانك بالله وإقبالك على حُبِّ الارتباط به وذِكْره سبحانه .

ويُحدِّثنا الحقُّ سبحانه عن أثر ذِكْر الله فى القلوب والأبدان ، فيقول تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ[1] قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) ﴾ [الأنفال]

فذِكْر الله يُحدِثُ فى قلوب المؤمنين وَجَلاً وخشيةً ، والوَجَل هو الخوف فى فزع ينشأ منه قشعريرة واضطرابٌ فى القلب ، ولكن إذا كان ذكْر الله عز وجل يدفع قلوب المؤمنين إلى الوجل ألاَ يتناقض هذا مع قوْل الحق سبحانه : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨) ﴾ [الرعد]

وفى الحقيقة لا يوجد تعارض بين القولين ، لأن ذكرَ الله تعالى يأتى بأحوال متعددة ، فإنْ كان الإنسانُ مُسرفاً على نفسه فهو يرجف حين يذكر الله الذى خالف منهجه .

وإنْ كان الإنسانُ يُراعى حقَّ الله فى كلِّ عمل قَدْر الاستطاعة فلابدَّ أنْ يطمئنَّ قلبه لحظة ذِكْر الله ، لأنه اتبع منهج الله ما استطاع إلى ذلك سبيلاً .

إذن : فالخوف والوَجَل إنما ينشأ من مهابة وسطوة صفات الجلال ، والاطمئنان إنما يجيء من إشراقات وحنانِ صفات الجمال ، ولذلك تجمعها آية واحدة هى قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ .. (٢٣) ﴾ [الزمر]

---

(١) وجلت قلوبهم : أى خافت من الله جلَّ وعلا . وقال فى أيسر التفاسير : وجلت : فزعت ورقت استعظاماً وهيبة . الوجل هو الخوف لاسيما عند ذكر وعده ووعيده .

فالجلود تقشعرُّ خوفاً ووجلاً ومهابةً من الله عز وجل ، ثم تلين اطمئناناً وطمعاً فى حنان المنان سبحانه وتعالى ، لأن ربنا قال : ﴿ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٤٩) ﴾ [الحجر]

وذِكْر الله يتأكد عند أقسى اللحظات على الإنسان وهو فى مواجهة العدو فى ساحة القتال ، فيقول تعالى : ﴿ يَـأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٤٥) ﴾ [الأنفال]

وسبحانه وتعالى هو خالق النفس البشرية ، وهو العليم بها حين تكون أمام قوة لم تحسب حسابها ، وكيف تعانى النفس من كرْبٍ عظيم ، خصوصاً إذا كان ذلك فى ميدان القتال .

لذلك طلب من المؤمنين أنْ يتذكَّروا دائماً أنهم ليسوا وحدهم فى المعركة ، وأنه سبحانه وتعالى معهم فليذكروا هذا كثيراً ليُوالى نصرهم على عدوِّهم ، لأنهم إذا ما داوموا على ذِكْر الله تعالى فسيُقوِّى هذا الذكرُ إيمانهم ، ويجعل فى قلوبهم الشجاعة اللازمة لتحقيق النصر .

وقوْل الحق سبحانه هنا ﴿ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا .. (١٠) ﴾ [الجمعة] يعنى أن الإنسان لابدّ أنْ يذكر الله على كلِّ حال ، فى الرخاء والشدة .

وقد وصف الحق سبحانه الذاكرين الله كثيراً بأنهم أولو الألباب ، فقال تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَـوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٠) ﴾ [آل عمران]

ثم وصفهم فقال : ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ .. (١٩١) ﴾ [آل عمران] وقال بعض العلماء فى تفسيرهم للآية : إن المقصود بذلك هو الصلاة ، فمَنْ لا يستطيع الصلاة قائماً يُصلِّى قاعداً ، ومَنْ لا يستطيع الصلاة

قاعداً فليُصلِّ مُضطجعاً[١] .

ونقول لهؤلاء العلماء : لقد خصصتُم هذا المعنى حيث المقام للتعميم ، وحتى لا يظنّ أحدٌ أنّ الفروض الخمسة هى التى يُذكر فيها الله فقط قال سبحانه :

﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلاةَ فَاذْكُرُوا اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا (١٠٣) ﴾ [النساء]

فذِكْر الله أمر متصلٌ واجب فى الصلاة وفى غيرها . أى : اجعلوا الله دائماً على بالكم . والقلوب إنما تطمئن بذكر الله ، فالاطمئنان مستوعبٌ لكلِّ القلوب ، فكلُّ إنسانٍ له زاوية يضطرب فيها قلبه، وما أنْ يذكر الله حتى يجد الاطمئنان ويتثبَّت قلبه .

وذكر الله إنْ جاء بعد المخالفة لابدَّ للنفس أنْ تخاف وتَوْجَل وتضطرب هيبةً لله عزَّ وجل ، أما إنْ جاء ذكرُ الله بعد المصيبة أو الشدة فإنَّ النفسَ تطمئنُّ به وتأنس لما فيها من رصيد إيمانى ترجع إليه عند الشدة وتركن إليه عند الضيق والبلاء .

وما دام المؤمن قد ثبت قلبه بذكر الله وبالإيمان وبالقول الثابت فهو لا يتعرَّض لزيغ القلب ولا يتزعزع عن الحق .

ولكن ما هو الذكر ؟

الذكْر هو الحفظ من النسيان ، لأن روتينَ الحياة يجعلنا ننسى المُسبِّب للنعم، فالشمس تطلع كل يوم ، مَنْ منَّا يتذكر أنها لا تطلع إلا بإذن الله فيشكره ،

---

(١) عن الحسين بن علي رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال : « يصلى المريض قائماً إن استطاع فإن لم يستطع صلى قاعداً ، فإن لم يستطع أن يسجد أومأ وجعل سجوده أخفض من ركوعه ، فإن لم يستطع أن يصلى قاعداً صلى على جنبه الأيمن مستقبل القبلة ، فإن لم يستطع أن يصلى على جنبه الأيمن صلى مستلقياً رجله مما يلى القبلة » أخرجه البيهقى فى سننه (٣٤٩٣) .

والمطر ينزل كل فترة ، مَنْ منَّا يتذكر أن المطر يُنزله الله فيشكره .

فالذكر يكون باللسان وبالقلب ، والله سبحانه وتعالى غيْبٌ مستور . وعظمته أنه مستورٌ ، ولكن نِعَم الله سبحانه تدلُّنا عليه ، فبالذكر يكون اللهُ فى بالنا دائماً ، وبنعمه يكون ذكره وشكره دائماً .

فالله سبحانه وتعالى يريد من عباده الذكر ، وهم كلما ذكروه سبحانه وشكروه شكرهم وزادهم ، فرغبةُ الكريم فى أن يعطى بشرط أنْ نكون أهلاً للعطاء لأنه يريد أنْ يعطيك أكثر وأكثر .

فقوله تعالى : (اذكرونى) أى : اذكروا الله فى كلِّ شيء فى نعمه ، فى عطائه، فى سَتْره ، فى رحمته ، فى توبته .

يقول بعض الصالحين : سمعتُ فيمَنْ سمع عن حبيبى رسول الله ﷺ أنك إذا ما أقبلت على شرب الماء فقسِّمه ثلاثاً : أول جرعة قل باسم الله واشربها ، ثم قل الحمد لله ، وابدأ شرب الجرعة الثانية وقل باسم الله ، وبعد الانتهاء منها قل الحمد لله .

ثم قل باسم الله واشرب الجرعة الثالثة واختمها بقولك الحمد لله ، فما دام هذا الماء فى جوفك فلن تُحدِّثك ذرة من جسدك بمعصية الله[1] .

جرّبها يوماً فى نفسك وقُلْ باسم الله واشرب ، وقُل الحمد لله وكرّرها ثلاثَ مرات فإنك تكون قد استقبلتَ النعمة بذكر المُنعِم ، وأبعدتَ عن نفسك حوْلَك وقوتك ، وأنهيتَ النعمة بالحمد لله .

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يشرب فى ثلاثة أنفاس ، إذا أدنى الإناء إلى فيه سمَّى الله ، فإذا أخّره حمد الله ، يفعل به ثلاث مرات . أخرجه الطبرانى فى المعجم الكبير (٣٣٢) ، وكذا فى المعجم الأوسط (٨٤٠) . وأخرجه أبو الشيخ الأصبهانى فى (أخلاق النبى) (٦٥٦) من حديث ابن مسعود قال : « كان رسول الله ﷺ إذا شرب تنفس على الإناء ثلاثة أنفاس ، يحمد الله على كل نفَس، ويشكره عند آخرهن » .

والذكْر مطلقاً هو ذكرُ الله بآلائه وعظمته وقُدرته وصفات الكمال له ، والتسبيح هو التنزيه لله ، لأن ما فعله الله لا يمكن أنْ يحدث مِنْ سواه .

فسبحان الله معناها تنزيه الله ، لأنه القادر على أنْ يفعل ما لا تفعله الأسبابُ ولا يقدر أحدٌ أنْ يصنعه ، إنه يريد أنْ يشكر الحقَّ الذى يرزق مَنْ يشاء بغير حساب .

فيُراد بالذكر أحياناً التسبيح والتحميد ، انظر إلى قوله الحق ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ .. (٣٧) ﴾ [النور]

وهو ذِكْر ، لأن هناك مَنْ يُسبّح له فيها بالغدو والآصال ، وهم رجال موصوفون بأنهم لا تُلهيهم تجارة ولا بَيْع عن ذِكْر الله ، وقد يُطلق الذكر ويراد منه خيرُ الله على عباده ، ويُراد به كذلك ذِكْر عبادتهم له بالطاعة ، فسبحانه يذكُرهم بالخير وهم يذكرُونه بالطاعة .

فذِكْره لهم بالنِّعَم والخيرات فَضْل وإحسانٌ وهو الكبير المتعال ، فهناك إذن ذكْرٌ ثانٍ ذكر أقل منه وهو العبادة لربهم بالطاعة ، ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ .. (١٥٢) ﴾ [البقرة] أى : اذكرونى بالطاعة أذكركم بالخير .

ومحلُّ ذِكْر الله قد يكون المسجد أو غير المسجد ، داخله وخارجه ، فى بيتك ، فى عملك ، فى مَشْيك ، عند نومك ، فى انتباهتك من نومك ، وفى كلِّ حين وفى كلِّ مكان .

ولكن آكد ما يكون ذكر الله يكون فى المساجد بيوت الله ، لذلك يقول سبحانه : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا .. (١١٤) ﴾ [البقرة]

فلا يوجد أحدٌ أظلمَ من ذلك الذى يمنع مساجد الله أن يُذكر فيها اسمه ، فهذا هو الظلم العظيم وهو ظلم القمة ، وقوله تعالى : ﴿ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا ..(١١٤) ﴾ [البقرة] أى : فى إزالتها أو بقائها غير صالحة لأداء العبادة ، والسعى فى خراب المسجد هو هدمه .

إننى أحذر كلَّ مؤمن أنْ يتخاذل أو يضعف أمام أولئك الذين يحاولون أنْ يمنعوا ذكر الله فى مساجد الله ، لأنه فى هذه الحالة يكون مرتكباً لذنبهم نفسه وربما أكثر ، ولا يتركه الله يوم القيامة بل يسوقه إلى النار .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١﴾ ﴾

اثنا عشر رجلاً بقَوْا مع رسول الله ﷺ فيهم أبو بكر وعمر رضى الله عنهما ، لم يتركوه قائماً يخطب كما تركه آخرون ، بل بقوا معه ﷺ لأنهم أصحابُ يقين أن الخير فى معية الحبيب المصطفى ، فهم معه يكونون فى ضيافة الحق سبحانه .

لذلك ثبتُوا مع رسول الله حينما نظر آخرون إلى الدنيا ومتاعها الزائل فانفضوا عنه ﷺ ، وخرجوا يستقبلون قافلة جاءت من الشام مصحوبةً بلَهْوٍ وطَبْل .

وشاء الحق سبحانه أنْ لا يعاقبهم أو يُعذِّبهم بما فعلوه لوجود رسول الله الذى كان أماناً لهم من أنْ ينزلَ بهم عذابٌ ، ولابد أنْ نعلم أنَّ المدينة كانت قد أصبحتْ منزلاً ينزل فيه ناسٌ من بقاعٍ شتى طالبين التعرُّف على الدين الجديد،

وكان فى المدينة الكثيرُ من حُدثاء عهدٍ بالإسلام أو منافقون .

وقد روى جابر بن عبد الله رضى الله عنه أن النبى ﷺ كان يخطب قائماً يوم الجمعة ، فجاءت عِيرٌ من الشام فانفتل[1] الناسُ إليها حتى لم يبْقَ إلا اثنى عشر رجلاً[2] ، فأنزلت هذه الآية التى فى الجمعة ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١) ﴾ [الجمعة]

وللقرآن دقّة فى الأداء الأسلوبى واللغوى ، ومن هذا أن القرآن هنا يقول ﴿ وَإِذَا رَأَوْا .. (١١) ﴾ [الجمعة] فكلمة رأى تُطلق ويُراد بها العلم ، مثل قوله تعالى : ﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَـٰهَهُ هَوَاهُ .. (٤٣) ﴾ [الفرقان] أى : أعلمتَ .

فهؤلاء الذين كانوا فى مسجد رسول الله يستمعون لخطبته ﷺ فى يوم الجمعة لم يروا العير والقافلة التى جاءتْ رؤية العين ، إنما علموا بها أو سمعوا جلبةً وضوضاءَ للقافلة الآتية ، فإذا بهم يخرجون ويتركون رسول الله قائماً إلا اثنى عشر رجلاً فيهم أبو بكر وعمر .

ومثال أنّ (رأى) قد تأتى بمعنى (علم) أن الحق سبحانه يقول لنبيه ﷺ : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) ﴾ [الفيل]

يعنى : ألم تعلم علمَ اليقين ، فرسول الله وُلد عام الفيل فلم يَرَ هذه الحادثة ، وكأنَّ الله يُخبره بها ويقول له : ألم تعلم وكأنه يقول له : اعلم علماً يقينياً كأنك

---

(١) انفتل : التوى وانصرف ويقال انفتل عن رأيه وعن حاجته وانفتل وجهه عنهم . (المعجم الوسيط – باب الفاء) . وانفتل من الصلاة : انصرف .

(٢) أخرجه الطبرى فى تفسيره (٣٤٤٦٠) وذكره القرطبى فى تفسيره أنه فى صحيح مسلم وقال : فى رواية فيهم أبو بكر وعمر . (أى فى الذين بقوا مع رسول الله ﷺ) . وعند الدارقطنى أن الذين بقوا أربعون ، وقد ذكر الشوكانى فى فتح القدير (٧/٢٢٣) أنه كان بأهل المدينة فاقة وحاجة ، والحديث فى مسلم (٢٠٣٤) وصحيح ابن خزيمة (١٨٢٣) وأبو يعلى فى مسنده (١٨٨٨) والبيهقى فى سننه الكبرى (٥٨٣٢) .

تراه ، لأن ربك أوثقُ من عينيك .

هؤلاء رأوا عيناً ، أو رأوا سماعاً أو علماً ، رأوا تجارة أو لهواً ، رأوا تجارة كانوا ينتظرونها لِسَدِّ حاجتهم ، ولكن هذا لا يبيح لهم تَرْكَ رسول الله وهو يخطب فيهم، لذلك كان عتابُ الحق سبحانه لهم وحِلمه عليهم فلم يُعذِّبهم بما فعلوه .

والتجارة كانت تمثل أهمَّ نشاطٍ اقتصاديٍّ للعرب فى ذلك الوقت ، تجارة وقوافل وعير تنطلق إلى اليمن فى الشتاء ، وتنطلق إلى الشام فى الصيف ، وهو ما مَنَّ اللهُ به على أهل قريش ، فقال تعالى :

﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ (١) إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (٢) ﴾ [قريش]

فالتجارة كانت هى سِرّ معاشهم لجلْب البضائع من الشمال والجنوب لبيعها للزائرين للبيت الحرام فى مكة فى الجاهلية ، أو بيع تجارة الشام لأهل اليمن ، وبيع تجارة اليمن لأهل الشام .

فهما رحلتان كانتا لقريش فى العام : رحلة الشتاء إلى اليمن ، ورحلة الصيف إلى الشام ، وكانت تسلك سبلاً متعددة فتهتدى بالنجوم فى طريقها ، ولذلك كانوا أصحابَ قوة وأصحابَ مال .

وقد حقَّق اللهُ لهم الأمن والطمأنينة فى طريق التجارة بما كان لهم من السيادة على بيت الله الحرام ، والإنسان لا يطمئنُّ إلا فى المكان الخالى من المنغِّصات والذى يجد فيه كلَّ مُقوِّمات الحياة ، فالأمن والطمأنينة هما سِرُّ سعادة الحياة واستقرارها .

وحينما امتنَّ الله تعالى على قريش قال : ﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ (١) إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (٢) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَـٰذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ (٤) ﴾ [قريش]

وقال الحق سبحانه عن مكة ﴿ أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٥٧) ﴾ [القصص]

فهذه القرية كان يأتى إليها الرزقُ من كلِّ مكان ، أما المدينة فلم يكُنْ فيها البيتُ الحرام ، وتجارتها كانت مع الشام فقط ، فالطريق إلى اليمن كان محفوفاً بالمخاطر ، لأن قريشاً لم تكُنْ لتترك قوافلَ المسلمين تذهب إلى اليمن .

والروايات تروى أن صاحب القافلة[1] التى دخلتْ المدينة وقتذاك كان هو عبد الرحمن بن عوف ، وهو مَنْ هو فى عالم التجارة حتى أنه عندما هاجر من مكة إلى المدينة رفض أنْ يقاسم الأنصارى ماله وأهله وقال له : دُلَّنى على السوق[2] .

والتجارة بيعٌ وشراء ، وهى وساطةٌ بين المنتج والمستهلك ، المنتج يريد أنْ يبيعَ إنتاجه ، والمستهلك محتاجٌ إلى هذا الإنتاج ، وعملية الاتجار استخدمها الله سبحانه ليبيِّن لنا أنها أقصر طريق إلى النفع .

فالتجارة هى الجامعة لأعمال الحياة ، فتكون تجارة فى منتج زراعى أو صناعى أو خدمى ، لذلك كانت التجارةُ جامعةً لذلك كله .

وقد كانت هذه التجارةُ تتم على ظهور الجمال ، وكانت تأخذ وقتاً طويلاً حتى تعودَ إلى المدينة والجميع ينتظرها ، ووافق رجوعها وقت أنْ كان رسول الله ﷺ قائماً يخطب خطبة الجمعة ، فما ثبتَ جالساً يستمع إلى رسول الله إلا

---

(١) ذكر القرطبى فى تفسيره (١٠٩/١٨) دار الكتب المصرية أن الذى قدم بالقافلة هو دحية بن خليفة الكلبى ، وذكره صاحب التحرير والتنوير عن مجاهد ومقاتل . وقد ذكر مقاتل بن سليمان فى تفسيره (٣٦١/٣) أن دحية وهو من بنى عامر بن عوف أقبل بتجارة من الشام قبل أن يسلم ، وكان يتلقاه أهل المدينة بالطبل والتصفيق ووافق قدومه يوم الجمعة .

(٢) عن أنس رضى الله عنه قال : قدم عبد الرحمن بن عوف فآخى النبى ﷺ بينه وبين سعد بن الربيع الأنصارى ، فعرض عليه أن يناصفه أهله وماله ، فقال عبد الرحمن : بارك الله لك فى أهلك ومالك دلنى على السوق ، فربح شيئاً من أقط وسمن ، فرآه النبى ﷺ بعد أيام وعليه وضر من صفرة فقال النبى ﷺ : مهيم يا عبد الرحمن . قال : يا رسول الله تزوجت امرأة من الأنصار . قال : فما سقت فيها فقال : وزن نواة من ذهب . فقال النبى ﷺ : أولم ولو بشاة . أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٩٣٧) .

اثنى عشر رجلاً ، والباقون خرجوا لمقابلة القافلة .

أما اللهو فهو قَتْل الوقت فى عمل قد ينقضى ويشغل الإنسان عن الواجب. فمعنى اللهو أنْ ننصرفَ إلى عمل لا هدفَ له ولا فائدةَ منه ، وإنْ نظرنا إلى الحياة مجردة من منهج الله فهى لعبٌ ولهو .

واللعب قد يكون لهواً وقد لا يكون ، فإذا شغلك اللعبُ عن شيء مطلوبٍ منك فهو لهو ، لأنك لهيتَ عن أمر واجب عليك ، فحين تُوجِّه طاقتك إلى ما هو أدنى من المهم فهذا هو اللهو .

وتجد خيبةَ اللهو ثقيلةً ، لأن الإنسانَ اللاهى يترك الأمرَ المهمّ ويذهب إلى الأمر غير المهم ، فيجلس إلى لعبة النرد[1] وهى الطاولة ويترك العمل الذى يُعطيه دخلاً يعيش منه .

وليتَ هذا اللهو مقصورٌ على اللاهى ، ولكنه يجذب أنظار غير اللاهى ويأخذ وقته ، هذا الوقت الذى كان يجب أنْ يُستغلَّ فى طاقة نافعة ، وفساد المجتمعات كلها إنما يأتى من أنَّ بعضاً من أفرادها يستغلون طاقاتهم فيما لا يعود على ذواتهم ولا على أمتهم بالخير .

إذن : فاللهو طاقة معطلة ، ومثال اللاهى الذى لا يُحقِّق شيئاً فى حياته ذلك الطالب الذى لا يذهب إلى المدرسة ولا يذاكر ، ولكن يقضى وقته فى اللعب واللهو وقد أعطى نفسه ما تريد ولكنه أخذ متعة محدودة ، ثم بعد ذلك يعيش فى شقاء بقية عمره .

أما الذى قيَّد حركته بالمذاكرة فقد منع شهوات نفسه فى اللعب واللهو ، وتكون الثمرةُ أنه يُحقِّق لنفسه مستقبلاً مُريحاً ومرموقاً بقية عمره .

---

(١) أخرج الإمام مسلم فى صحيحه (٦٠٣٣) عن بريدة أن النبى ﷺ قال : « من لعب بالنردشير فكأنما صبغ يده فى لحم خنزير ودمه » . وكذا أخرجه أبو داود فى سننه (٤٩٤١) وابن ماجه (٣٧٦٣) وأحمد فى مسنده (٢٣٠٢٩ ، ٢٣٠٧٥ ، ٢٣١٠٦) .

فكلٌّ من الطالب الذى يجتهد وذلك الذى يلهو ويلعب ، كلٌّ منهما أخذ لوناً من المتعة ولكنَّ أحدهما أخذ متعة قصيرة جداً ، ثم أصبح من صعاليك الحياة ، أما الثانى فقد قيَّد نفسه سنوات معدودة ليستمتع بمستقبل ناجح .

كذلك أنت فى الدنيا إنْ قيَّدتَ نفسك بالتكاليف (افعل) و (لا تفعل) ، فظاهرُ الأمر أنك قيدتَ حريتك وإنْ فعلتَ ذلك برضاً ، فالله يعطيك راحة واطمئناناً ومتعةً فى النفس .

أما العمل النافع الذى ينبغى أنْ ينشغلَ الإنسانُ به فهو الذى يضعه لك مَنْ هو أعلى منك وأن يكون حكيماً مُحباً لك ، وهذه المواصفات لا تجدها إلاَّ فى الإله ، لذلك كلّ ما يُلهيك عمَّا يضعه لك إلهك فهو لهو لأنه شغلك عما هو أهمّ .

ومن اللهو ما ذكره الحق سبحانه فى سورة لقمان ، فقال تعالى :
﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ .. (٦) ﴾ [لقمان]

قال العلماء : لهو الحديث هو كلُّ ما يُلهى عن مطلوب الله ، وإنْ لم يكُنْ فى ذاته فى غير مطلوب الله لهواً ، وعليه فالعمل الذى يُلهى صاحبه من صناعة أو زراعة .. الخ يُعد من اللهو إنْ شغله مثلاً عن الصلاة أو عن أداء واجب لله تعالى.

لذلك قال تعالى فى سورة النور : ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ[1] فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ (٣٧) ﴾ [النور]

فالحق سبحانه وصف هؤلاء الذين يعمرون بيوت الله بالذكر والتسبيح بأنهم ﴿ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ.. (٣٧) ﴾ [النور]

---

(١) تتقلب فيه القلوب : أى تضطرب وتتغير من الهول والفزع وتبلغ إلى الحناجر . أو تتقلب القلوب إلى الإيمان بعد الكفران . (البحر المديد ٥/١٢٥) وفى التفسير الميسر (٦/٢٤١) : تتقلب فيه القلوب بين الرجاء فى النجاة والخوف من الهلاك .

وكلمة ﴿ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ .. (٣٧) ﴾ [النور]لا تعنى تحريم التجارة ، فالإنسان الصادق لا تلهيه التجارة عن ذكر الله . وقد كان يسع هؤلاء أنْ ينتظروا حتى ينتهى رسولُ الله من خطبته للجمعة وينتظروا انتهاء الصلاة ، ثم يتوجهون للعِير التى قدمتْ للتجارة ، ساعتها لن يكون انشغالهم بالتجارة لهواً .

وقد يسأل سائل : الله عز وجل يقول ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا .. (١١) ﴾ [الجمعة] هذان أمران تجارة ولهو ، فلماذا قال بعدها ﴿ انْفَضُّوا إِلَيْهَا .. (١١) ﴾ [الجمعة] ولم يقل : انفضوا إليهما .

الحق سبحانه استخدم المفرد معهما فقال ﴿ انْفَضُّوا إِلَيْهَا .. (١١) ﴾ [الجمعة] لأن التجارة واللهو لهما عمل واحد ، هو شَغْل المؤمنين عن العبادة والذكر واستماع الخير .

والانفضاض هو الانصراف عن شيء كانوا مجتمعين عليه أو مجتمعين له، ويقول الحق سبحانه فى آية أخرى : ﴿ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا .. (٧) ﴾ [المنافقون]

لقد أخطأوا الظنَّ بمَنْ آمنوا برسول الله ، فظنُّوا أنهم إنْ لم ينفقوا عليهم فسيرتدون عن إيمانهم ، ونسُوا أن المؤمنين المهاجرين قد تركوا أموالهم وتركوا بلادهم ، فمَنْ ترك أمواله للهجرة فى سبيل الله أيَكفر به عندما لا يجد شيئاً ؟ لا لأنه ترك كلَّ شيءٍ فى سبيل الله .

فعندما يقول المنافقون كعبد الله بن أُبىّ للأنصار : لا تنفقوا على مَنْ عند رسول الله حتى ينفضوا . أى : يرتدوا ويبتعدوا عن دين محمد ﷺ ، لكنهم لم ينفضُّوا ، لقد كان مقصدهم تجويع مَنْ عند النبى ﷺ فينفضُّوا من حوله .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَتَرَكُوكَ قَائِمًا .. (١١) ﴾ [الجمعة] وهذا القيام

كان فى الخطبة ، ويروى جابر بن عبد الله رضى الله عنه فيقول : ما رأيت رسول الله ﷺ فى الخطبة إلا وهو قائم[١] .

وسُئل عبد الله بن مسعود[٢] : أكان النبى ﷺ يخطب قائماً أو قاعداً ؟ فقرأ ﴿ وَتَرَكُوكَ قَائِمًا .. (١١) ﴾ [الجمعة]

وعن ابن عمر رضى الله عنهما أن النبى ﷺ كان يخطب خطبتين يجلس بينهما[٣] .

حتى أن كعب بن عجرة[٤] دخل المسجدَ وعبد الرحمن بن أُمِّ الحكم[٥] يخطب قاعداً ، فقال : انظروا إلى هذا الخبيث يخطب قاعداً[٦] وقد قال الله ﴿ وَتَرَكُوكَ قَائِمًا .. (١١) ﴾ [الجمعة]

---

(١) الحديث عن جابر بن سمرة وليس جابر بن عبد الله ، وقد أخرجه أحمد فى مسنده (٢٠٩٠٣ ، ٢٠٩٢٧) ولفظه : ما رأيت رسول الله ﷺ يخطب يوم الجمعة قط إلا وهو قائم ، فمن حدثك أنه رآه يخطب وهو قاعد فقد كذب .

(٢) أخرجه ابن ماجه فى سننه (١١٠٨) وأبو يعلى فى مسنده (٥٠٣٤) والطبرانى فى المعجم الكبير (٩٨٦٠) من حديث عبد الله بن مسعود . وفى الأنجم الزاهرات : « لا نزاع فى سنيته . قال ابن المنذر : وعليه أهل العلم فى الأمصار . وحكى ابن عبد البر إجماع العلماء على أن الخطبة لا تكون إلا قائماً لمن أطاقه . قلنا : ومن لا يطيقه فله أن يعتمد على عصا » . وقد فعله رسول الله ﷺ .

(٣) عن جابر بن سمرة قال : كانت للنبى ﷺ خطبتان يجلس بينهما يقرأ القرآن ويُذكِّر الناس . أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٠٣٢) وأبو داود فى سننه (١٠٩٦) وابن ماجه فى سننه (١١٠٣) من حديث ابن عمر .

(٤) هو : كعب بن عجرة بن أمية بن عدى البلوى ، حليف الأنصار ، صحابى يكنى أبا محمد . شهد المشاهد كلها ، سكن الكوفة ، توفى بالمدينة عام ٥١ هجرية عن ٧٥ عاماً . الأعلام للزركلى (٥/٢٢٧) .

(٥) هو عبد الرحمن بن عبد الله بن عثمان الثقفى بن أم الحكم . وأم الحكم هى أخت معاوية ، ولاه معاوية الكوفة . وقد ذكره محمد بن حبيب البغدادى فى كتابه « المحبّر » ضمن (حمقى ثقيف) أسلمت أمه فى فتح مكة ، أما أبوه فقد مات كافراً فى الطائف . عزله خاله معاوية عن الكوفة بسبب إقدامه على قتل أحد أهل الذمة .

(٦) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٠٣٨) والبيهقى فى السنن الكبرى (٥٩١٤) ، وقد أخرجه أبو عروبة فى كتاب الأوائل (١/١٥٦) ، فذكر أن أول من جلس فى الخطبة يوم الجمعة معاوية ، ثم ذكر عبد الرحمن ابن أم الحكم .

واعتبره طاوس بن كيسان[١] بدعة ، فقال : الجلوس على المنبر يوم الجمعة بدعة[٢] . وهذا لمن استطاع القيام فلا يجوز له أنْ يجلس وهو يخطب . وللعلماء فى هذا تفصيلات كثيرة بين المذاهب الفقهية .

لقد كان الأوْلَى بهؤلاء الذين تركوا رسول الله قائماً يخطب وخرجوا وانفضوا أنْ يتأدَّبوا بخُلَقى الحلْم والأنَاة والصبر ، وقد قال الحق سبحانه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (٤) وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥) ﴾ [الحجرات]

لقد كان عليهم إذا لم يظهر لهم رسول الله فى المسجد أنْ ينتظروا خروجه وألاّ يُزعجوه ، فهو ولا بدّ فى مهمة من هذه المهمات ، وربما كان مشغولاً فى خُلْوة مع ربه عز وجل أو مع أهله .

وهؤلاء نادَوْا رسولَ الله كما ينادى بعضهم بعضاً ولم يراعوا حُرْمة رسول الله ومنزلته ، لذلك وُصف أكثرهم بأنهم لا يعقلون ، فالعقل يقضى خلاف هذا التصرف .

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ .. (٥) ﴾ [الحجرات] نعم لو صبروا لكان خيراً لهم أى أكثرَ خيرية ، فإنهم بعد أنْ نادوه واضطروه للخروج أطلقَ نصف الأسرى الذين جاءوا فى فكاكهم ، وقال : والله لو صبروا حتى

---

(١) طاوس بن كيسان اليمانى ، مولى أبناء الفرس ، مات بمكة حاجاً سنة ١٠٦ هـ ، كان فقيهاً جليلاً (طبقات الحفاظ) (١/٧٣) ، أدرك خمسين صحابياً من كبار التابعين فى الفقه ورواية الحديث ، كان ذا جرأة على وعظ الخلفاء والملوك ، صلى عليه هشام بن عبد الملك أمير المؤمنين .

(٢) أورده السيوطى فى الدر المنثور (١٤/٤٨٨) طبعة دار هجر – وعزاه لابن أبى شيبة عن طاوس . وقد أخرجه ابن أبى شيبة فى مصنفه (٥٢٢٨) .

أخرج إليهم لأطلقتُ الأسرى كلهم[١] .

فلرسول الله حَقٌّ فى أنْ تتأدب معه ، سواء فى ندائه أو فى عدم تركه وهو يتحدّث أو يخطب أو فى التعامل مع سُنته ﷺ .

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿ قُلْ مَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١) ﴾ [الجمعة]

فما عند الله لا خَوْفٌ عليه بل هو يُضاعف ويزداد ، وما عند الله لا حُزْن عليه لأن الإنسانَ يحزن إذا فاته خَيْرٌ ، ولكن ما عند الله باقٍ لا يفوتك ولا تفوته ، فلا يوجد شيء عند الله سبحانه وتعالى تحزن عليه لأنه فات .

﴿ إِنَّمَا عِنْدَ اللهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ .. (٩٥) ﴾ [النحل] فالخير هو فى الحقيقة ليس فى متاع الدنيا مهما كثُر ، بل فيما عند الله تعالى ، فحظُّ الإنسان من دُنياه عَرَضٌ زائل ، فإما أنْ تفوته بالموت ، أو يفوتك هو بما يجرى عليك من أحداث ، أما ما عند الله فهو باقٍ لا نفادَ له .

فما عند الله خَيْر من لهوكم ومن تجارتكم ، فلا يجدر بكم ترك رسول الله لتخرجوا للهو أو حتى لتجارة ، فأنتم إنما أتيتم للجمعة بنداء الله لكم ﴿ يَـأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٩) ﴾ [الجمعة]

---

(١) ذكره البغوى فى تفسيره معالم التنزيل (٧/٣٣٣) دار طيبة . قال ابن عباس : بعث رسول الله ﷺ سرية إلى بنى العنبر وأمَّر عليهم عيينة بن حصن الفزارى ، فلما علموا أنه توجه نحوهم هربوا وتركوا عيالهم ، فسباهم عيينة بن حصن وقدم بهم على رسول الله ﷺ ، فجاء بعد ذلك رجالهم يفدون الذرارى ، فقدموا وقت الظهيرة ، ووافقوا رسول الله قائلاً فى أهله ، فلما رأتهم الذرارى أجهشوا إلى آبائهم يبكون ، وكان لكل امرأة من نساء رسول الله ﷺ حجرة فعجلوا أن يخرج إليهم رسول الله ﷺ فجعلوا ينادون : يا محمد اخرج إلينا حتى أيقظوه من نومه فخرج إليهم فقالوا : يا محمد فادنا عيالنا، فنزل جبريل عليه السلام فقال : إن الله يأمرك أن تجعل بينك وبينهم رجلاً ، فقال لهم رسول الله : أترضون أن يكون بينى وبينكم سبرة بن عمرو وهو على دينكم ؟ فقالوا : نعم . فقال سبرة : أنا لا أحكم بينهم إلا وعمى شاهد وهو الأعور بن بشامة فرضوا به . فقال الأعور : أرى أن تفادى نصفهم وتعتق نصفهم . فقال رسول الله : قد رضيت ففادى نصفهم وأعتق نصفهم .

فأنتم إذا تركتم مشاغل الدنيا لتلبُّوا نداء الله ، فكيف بعد أنْ لبَّيتم نداءه تنفضُّون عنه إذا رأيتم تجارة أو لهواً ، فالخير فيما عند الله وعند رسوله .

وإذا كنتم تبتغون الرزقَ فى ذهابكم للتجارة ، فأين ستبتغون الرزق ، أليس عند الله سبحانه ؟ أليس هو الرزاق ؟ بل هو سبحانه ﴿ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١) ﴾ [الجمعة]

والرزق ليس مالاً فقط ولا طعاماً فقط ، بل الملبس رزقٌ والعلم رزقٌ ، والحلم رزق، وكل شيء تنتفع به هو رزقٌ من عند الله ، والعبد سببٌ فى الرزق لأن الله تعالى هو خالق الرزق أولاً ، ثم أعطاك إياه تنتفع به وتعمل فيه وتُعطى منه للغير.

فالرزقُ منك مناولةٌ عن الرازق الأول سبحانه ، فأنت بهذا المعنى رازق ، وإنْ كرهوا أنْ يسمى الإنسان رازقاً حتى لا يفهم أحدٌ أنَّ الرزقَ من الناس .

لذلك نسمع كثيراً من العمال البسطاء أو موظفاً صغيراً أو بوابَ عمارة مثلاً حين يفصله صاحبُ العمل يقول له : يا سيدى الأرزاقُ بيد الله ، كيف وقد كنتَ تأخذ راتبك من يده ومن ماله ؟ قالوا : لأنه نظر إلى المناول الأول للرزق ، ولم ينظر إلى المناول الثانى .

وبعضُ القاصدين للطعن فى القرآن يقولون : قوله ﴿ وَاللهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١) ﴾ [الجمعة] تجعل شراكةً فى صفة الرزق ، فغيره سبحانه يرزق أيضاً ، لكن هو خَيْر الرازقين لأنه يرزقُ الخَلْق بأصول الأشياء التى يرزقون منها غيرهم ، فإنْ كنت ترزق غيرك طعاماً مثلاً فهو سبحانه أصلُ هذا الطعام ومصدره .

وقوله تعالى : ﴿ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١) ﴾ [الجمعة] مثله مثل قوله تعالى (أرحم الراحمين) أو (خير الوارثين) أو (أحسن الخالقين) وكل جَمْع هو وصف لله وإنه بهذا يدعو خَلْقه إلى التخلُّق بهذا الخُلُق ويُوصف به خَلْقه .

واعلم أن الله لم يحرمهم من وصفهم بهذه الصفات لأن لهم فيها عملاً وإنْ كان محدوداً يتناسب مع قدرتهم ومخلوقيتهم وعبوديتهم فضلاً على أنها عطاء ومنحةٌ منه سبحانه ، أما صفاتُ الله فهى صفاتٌ لا محدودة ولا متناهية جلالاً وكمالاً وجمالاً .

فإذا كان خَلْق الله هو (أرحم الراحمين) فهذا يعنى أنه سبحانه لم يمنع الرحمة من خَلْقه على خَلْقه ، فمن رحم أخاه سُمى رحيماً وراحماً ، ولكن الله أرحمُ الراحمين .

كذلك ﴿ خَيْرُ الْغَافِرِينَ (١٥٥) ﴾ [الأعراف] فالمغفرة قد تكون من الإنسان للإنسان ، ولكنا نعرف أن مغفرة الحق سبحانه فوق مغفرة الخَلْق ، لأن الغافر من البشر قد يغفر رياءً ، وقد يغفر سمعةً ، وقد يغفر لأنه خاف بطش المقابل ، لكنه سبحانه لا يخاف من أحد ، وهو خير الغافرين من غير مقابل .

ونلاحظ هنا أن هذه الآية ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا .. (١١) ﴾ [الجمعة]

هى تمهيدٌ وتوطئة ومقدمة للسورة الآتية بعدها ، وهى سورة (المنافقون) التى فضحتْهم وكشفَتْ أفعالهم .

وما موقفهم من تركْ رسول الله قائماً يخطب إلا ردّ فعل لِمَا فى نفوسهم من النفاق ، لذلك لم يستطيعوا أنْ يتحكَّموا فى ردِّ فعلهم ، فـ (انفضوا) تشعر فيها بسرعة الانصراف دون وعى ، لأن هذا هو حقيقة ما فى قلوبهم وعقولهم .

إنهم لا يؤمنون حقيقةً ، وإنْ أعلنوا إسلامهم وصلّوا مع رسول الله ومع المسلمين ، ولكنهم فى الحقيقة يُبطنون الكفر والنفاق وقد أُشرِبوا فى قلوبهم حُبّ الدنيا والمال وزينة الحياة الدنيا ، لذلك كان انفضاضهم سريعاً إلى ما يحبونه ويأملونه من دنياهم ، وليس لهم فى الآخرة من نصيب .

تفسير جزء عم

لفضيلة الشيخ
محمد متولي
الشعراوي

tion Of

1429 هـ
2008 م

اسم الكتاب : تفسير جزء عم
اسم المؤلف : الشيخ / محمد متولي الشعراوي
مقاس القطع : 24 X16.5
الإيداع القانوني : 3478 / 2007
الترقيم الدولي : 0 - 012 - 426 - 977
عدد الألوان : 2 لون

جميع حقوق الطبع محفوظة

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع ، والتصوير ، والنقل ، والترجمة ، والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي ، وغيرها من الصور إلا بإذن خطي من :

دار الراية للنشر والتوزيع

دار الراية للنشر والتوزيع

تليفون : ٠٢٣٣٤٤٦٧٢٧ فاكس : ٠٢٣٣٠٢٦٦٣٧
E-mail : rayatop@hotmail.com

بسم الله الرحمن الرحيم

١١٨ ٦٥
١٦

نموذج رقم ١٧

AL-AZHAR
ISLAMIC RESEARCH ACADEMY
GENERAL DEPARTMENT
For Research, Writting & Translation

الأزهـــر
مجمـع البحـوث الاســلامية
الادارة العـــامة
للبحـــوث والتـــاليف والترجمـــة

السـيد / ورثة صاحب الفضيلة الشيخ / محمد متولى الشعراوى

السـلام عليـكم ورحمـة اللـه وبركاته ـ وبعـد :

فبناء على الطلب الخاص بفحص ومراجعة كتاب : تفسير جزء عم
٦٧٧ صفحة تاليف : لفضيلة الشيخ ـ محمد متولى الشعراوى

نفيد بأن الـكتاب المذكور ليس فيه ما يتعارض مع العقيدة الاسلامية ولا مـانع من طبعـه على نفقتـكم الخـاصة .

مع التـأكيد على ضرورة العنـاية التامة بكتـابة الآيات القـرآنية والأحاديث النبـوية الشريفـة . اى زيادة او نقصان يعتبر التصريح لاغيا

واللـــه المـــوفق ،،،

والسـلام عليـكم ورحمـة اللـه وبركاته ،،،

مدير عـام
ادارة البحوث والتـاليف والترجمـة

تحريرا فى / / ١٤ هـ
الموافق / / ١٩ م

٢٨/١٢/٢٠٠٨

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله كما علمنا أن نحمده، وصلى الله وسلم على رحمته
وخاتم رسله سيدنا محمد وبعد..

فهذا جهاد عمري العلمي، وحصيلة جهادي الاجتهادي
شرفني فيه أن خدمت كتاب الله، وتطلعت لاستقبال فيضه الله
ولعلي أكون قد وفيت حقه إيمانا، وأديت واجبه عرفانا
وأسأل الله سبحانه أن تكون خواطري هذه مفتاح
خواطر من يأتي بعدي، وكتاب الله لا تنقضي عجائبه
حتى يرث الله الأرض ومن عليها، وحينئذ نعلم
من الله ما لم نعلمه لمن هداه.

وحسبنا الله ونعم الوكيل

محمد متولي الشعراوي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله كما علمنا أن نحمد ، وصلى الله وسلم على رحمته

وخاتم رسله سيدنا محمد ، وبعد . .

فهذا حصاد عمري العلمي ، وحصيلة جهادي الاجتهادي ، شرفي فيه أني

عشت كتاب الله ، وتطامنت لاستقبال فيض الله .

ولعلي أكون قد وفيت حق إيماني ، وأديت واجب عرفاني .

وأسأل الله سبحانه وتعالى أن تكون خواطري هذه مفتاح خواطر من يأتي بعدي .

وكتاب الله لا تنقضي عجائبه حتى يرث الله الأرض ومن عليها ،

وحينئذ نعلم من الله ما ادخره الله لمن هداه .

وحسبنا الله ونعم الوكيل .

محمد متولي الشعراوي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة دار الراية

الحمد لله الذي أنزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرًا . .

والصلاة والسلام على البشير النذير ، والسراج المنير ، الذي أرسله الله ﷻ رحمة للعالمين ، وهاديًا ومبشرًا ونذيرًا . .

أما بعد . .

فإن هذه البشرية من صنع الله ، ولن تفتح مغاليق فطرتها إلا بمفاتيح من عند الله ، ولن تعالج أمراضها وعللها إلا بالدواء المقدم لها من يد الله ﷻ.

ذلك الدواء هو القرآن ، الذي قال عنه نبينا ﷺ : " وَقَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ إِنْ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ : كِتَابَ اللهِ " [1] .

من أجل ذلك فقد استعنا بالله ﷻ في دار الراية لإخراج هذا السِّفر الجليل ، والكتاب القيم الجميل " تفسير جزء عم " لفضيلة الإمام الشيخ / محمد متولي الشعراوي .

وقد وقع الاختيار على هذا الجزء بالذات من القرآن " جزء عم " ؛ حيث إنه هو المبتدأ لغالبية من يريد حفظ القرآن الكريم .

وكذلك فقد اشتمل هذا الجزء على معظم مقاصد القرآن الكريم ، مما يجعلنا بنشره قد استوعبنا معظم أصول الدين ومقاصده وغاياته ، إن لم يكن كلها .

1 - أخرجه مسلم (2137) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما .

وقد اشتمل عملنا في هذا السفر الجليل على الآتي :

* تخريج الآيات القرآنية ، والأحاديث الشريفة النبوية تخريجاً مختصراً ، لا هو بالطويل الممل ، ولا المقتضب المخل .

* قمنا بإعادة صياغة المادة العلمية ؛ لتحويلها من طريقة الإلقاء حين ألقاها الشيخ لتتناسب مع روح الكتابة .

* بعض الآيات لم يفسرها الشيخ ، فقمنا بإضافتها من بعض كتب التفسير الأخرى ، والتي تقترب في أسلوبها من أسلوب الشيخ نفسه ، بحيث لا يوجد تباين في وحدة أسلوب الكتاب .

هذا وما كان من توفيق فمن الله وحده لا شريك له ، وما كان من خطأ أو زلل أو سهو فمنا ومن تقصيرنا ومن الشيطان ، والله ورسوله منه براء .

وفي الختام ..

نسأل الله ﷻ أن يجعل هذا العمل في موازين حسناتنا أجمعين ..

إنه ولي ذلك والقادر عليه ..

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

قسم التحقيق في

دار الراية

مقدمة جزء عم

الحمد لله رب العالمين . . والصلاة والسلام على سيدنا محمد

وعلى آله وصحبه أجمعين . .

خواطرى حول القرآن الكريم لا تعني تفسيرًا للقرآن ، وإنما هى هبات صفائية تخطر على قلب مؤمن في آية أو بضع آيات ، ولو أن القرآن من الممكن أن يفسر لكان رسول الله ﷺ أولى الناس بتفسيره ؛ لأنه عليه نزل ، وبه انفعل ، وله بلغ ، وبه علم وعمل ، وله ظهرت معجزاته .

ولكن رسول الله ﷺ .. اكتفى أن يبين للناس على قدر حاجتهم من العبادة التي تبين لهم أحكام التكليف في القرآن الكريم ، وهى : **افعل ولا تفعل** .. تلك الأحكام التي يثاب عليها الإنسان إن فعلها ، ويعاقب إن تركها .. هذه هى أسس العبادة لله ﷻ .. التي أنزلها في القرآن الكريم كمنهج لحياة البشر على الأرض ، أما الأسرار المكتنزة في القرآن حول الوجود ، فقد اكتفى رسول الله ﷺ بما علم منها ؛ لأنها – بمقياس العقل في هذا الوقت – لم تكن العقول تستطيع أن تتقبلها ، وكان طرح هذه الموضوعات قد يثير جدلاً يفسد قضية الدين ، ويجعل الناس ينصرفون عن فهم منهج الله في العبادة إلى جدل حول قضايا لن يصلوا فيها إلى شيء .

والقرآن لم يأتِ ليعلمنا أسرار الكون ، ولكنه جاء بأحكام التكليف واضحة ، وأسرار الوجود مكتنزة ؛ حتى تتقدم الحضارات ، ويتسع فهم العقل البشرى ، فيكشف الله ﷻ من

أسرار الكون ما يجعلنا أكثر فهمًا لعطاءات القرآن لأسرار الوجود ، فكلما تقدم الزمن وكشف الله للإنسان عن سر جديد في الكون ظهر إعجاز جديد في القرآن .. لأن الله ﷻ قد أشار إلى هذه الآيات الكونية في كتابه العزيز .. وقد تكون الإشارة إلى آية واحدة أو بضع آيات .. ولكن هذه الآية أو تلك الآيات تعطينا إعجازًا لا يستطيع العلم أن يصل إلى دفته .

والقرآن الكريم حمل معه وقت نزوله معجزات تدل على صدق البلاغ عن الله ﷻ ، وعن صدق رسالة رسول الله ﷺ .. وكانت أول معجزة هي أن القرآن كلام الله فيه من عطاء الله ما تحبه النفس البشريه ويستميلها .

إنه يخاطب ملكات خفية في النفس لا نعرفها نحن ، ولكن يعرفها الله ﷻ خالق الإنسان ، وهو أعلم به .. هذه الملكات تنفعل حين تسمع القرآن فتلين القلوب ويدخل الإيمان إليها .

ولقد تنبه الكفار إلى تأثير القرآن الكريم في النفس البشرية .. تأثيرًا لا يستطيع أن يفسره أحد .. ولكنه يجذب النفس إلى طريق الإيمان ، ويدخل الرحمه في القلوب .

لذلك كان أئمة الكفر يخافون أكثر ما يخافون .. من سماع الكفار للقرآن ويحاولون منع ذلك بأية وسيلة .. ويعتدون على من يتلو القرآن .. ولو أن هذا القرآن لم يكن كلام الله الذي وضع فيه من الأسرار ما يخاطب ملكات خفية في النفس البشرية .. ما اهتم أئمة الكفر أن يستمع أحد للقرآن أو لا يستمع .. ولكن شعورهم بما يفعله كلام الله .. جعلهم لا يمنعون سماع القرآن فقط .. بل قالوا كما يروي لنا القرآن الكريم :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لاَ تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾[1] .

وهكذا نعرف أنه حتى أهل الكفر كانوا لا يمنعون سماع القرآن فقط .. بل يطلبون من أنصارهم أن يلغوا فيه ، ومعناها (يشوشون عليه) ولا يمكن أن يكون هذا هو مسلكهم وتلك هي طريقتهم إلا خوفًا مما يفعله القرآن في كسب النفس البشرية إلى الإيمان ..

---

1 - سورة : فصلت ، الآية :26 .

إن مجرد تلاوة القرآن الكريم تجذب النفس الكافرة إلى منهج الله ﷻ.

وإذا أخذنا مثلاً قصة إسلام **عمر بن الخطاب** رضي الله عنه.. نجد أنه علم أن أخته **فاطمة** وزوجها ابن عمه **سعيد بن زيد** قد أسلما ، فأسرع إليهما ليبطش بهما ، وحاول أن يفتك بسعيد بن زيد ، فلما تدخلت زوجته **فاطمة** لحمايته ضربها حتى سال منها الدم ، وعندما رأى **عمر** الدم يسيل على وجه أخته **فاطمة** رق قلبه ، وحدث في قلبه انفعال الرحمة بدلاً من انفعال الإيذاء ، فخرج العناد من قلبه وملأه الصفاء .. فطلب من أخته صحيفة القرآن التي كانا يقرآن منها .. وقرأ من أول " **سورة طه** " ، ثم قال : ما أحسن هذا الكلام وأكرمه ! ! ثم أسرع إلى رسول الله ﷺ يعلن إسلامه .. ولذلك نقول : إذا خرج العناد والكفر من القلب .. واستمع الإنسان بصفاء إلى القرآن دخل الايمان إلى قلبه .

لقد سمع **عمر بن الخطاب** رضي الله عنه القرآن قبل ذلك ولم يسلم ، ولكنه عندما رأى الدم يسيل على وجه أخته وتبدل انفعال الإيذاء في قلبه بانفعال الرحمة .. استقبل القرآن بنفس صافية ، فأمتلأ قلبه بالإيمان وأسرع إلى رسول الله ﷺ يعلن إسلامه .

ولذلك كان الكفار يحاولون إهاجه مشاعر الكفر في القلوب ؛ حتى لا يدخلها القرآن ؛ لأنه لكى تستقبل الإيمان يجب أن تخلص قلبك من الكفر أولاً .

وهكذا نرى أن القرآن الكريم – لأنه كلام الله – فإن له تأثيرًا خاصًّا في النفس البشرية ، حتى إن الكفار كانوا يسترقون سماع القرآن من وراء بعضهم البعض وكانوا يقولون : " **إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وإنه يعلو ولا يُعلى عليه** " .. وكان هذا هو أول إعجاز ؛ لأن القرآن الكريم هو كلام الله تبارك وتعالى .

ولقد وقف الصحابه والمؤمنون الذين عاصروا رسول الله ﷺ عند عطاء القرآن وقت نزوله فيما استطاعت عقولهم أن تطيقه من أسرار الكون ومن أسرار القرآن الكريم ، فلم نجد صحابيًّا سأل رسول الله ﷺ عن معنى آيات الكون في القرآن ، أو عن عطاءات القرآن في اللغة ، فمثلاً

لم يسأل أحد عن معنى (الـم) أو (عسق) أو (حـم) ، مع أن رسول الله ﷺ كان يستقبل كثيرين يؤمنون بـكتاب الله ، وكثيرين يكفرون بما أنزل الله ، وكان هؤلاء الكفار يريدون أن يقيموا الحجة ضد رسول الله ﷺ وضد القرآن الكريم ، لم نسمع أن أحدًا منهم ، وهم قوم بلغاء فصحاء عندهم اللغه ملكة وموهبة ، وليست صناعة ، لم نسمع أن أحدًا من الكفار قـال : ماذا تعني (الـم) أو (عسق) أو (حـم) .

كيف يمر الكافر على فواتح السور هذه ولا يجد فيها ما يستطيع أن يواجه به رسول الله ﷺ ويجادله ؟! لقد كانت هذه هي فرصتهم في المجادلة ، ولا شك أن عدم استخدام الكفار لفواتح السـور هذه دليل على أنهم انفعلوا بـها وإن لم يؤمنوا بـها ، ولم يجدوا فيها ما يمكن أن يستخدموه لهدم القرآن أو التشكيك فيه ، ولو أن هذه الحروف في فواتح السور كانت تخدم هدفهم لقالوا للناس ذلك وجاهروا بذلك .

إن رسول الله ﷺ ، وهو الذي نزل عليه القرآن ، فسر وبيَّن كل ما يتعلق بالتكليف الإيماني ، وترك ما يتعلق بـغير التكليف للأجيال القـادمة ، ويمر الزمن ويتيح الله لعبـاده من أسـرار آياته في الأرض ما يشـاء ، فيكون عطاء القـرآن متسـاويًا مع قـدرة العقـول .. لماذا ؟! لأن الرسالات التي سبقت الإسلام كانت محدودة الزمان والمكان ، أما القرآن فزمنه ممتد حـتى يوم القيامة ؛ ولذلك فلابد أن يقدم إعجازًا لكل جيل ؛ ليظل القرآن معجزة في كل عصر .

والقـرآن نزل يتحـدى العرب في اللغة والبـلاغة ، ولكن لأنه دين للناس جميعًا فلابـد أن يتحدى غير العرب فيما نبغوا فيه ، ولذلك نزل متحديًا لغير العرب وقت نزوله ، فقـد قـامت حرب بـين الروم والفرس في وقـت نزول القـرآن ، وكان الروم والفرس أعظم وأقـوى دولتين في ذلك العصر ، كانا يمثلان في عصرنا الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتي .. وقامت الحرب بينهما ، وانهزم الروم .. وإذا بالقرآن ينزل بقوله ﷻ :

﴿ الم * غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ

لِلَّهِ الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴾[1] .

فلو أن هذا القرآن كان من عند رسول الله ﷺ فما الذي يجعله يدخل في قضية كهذه ، لم يطلب أحد منه أن يدخل فيها ؟! وكيف يغامر رسول الله ﷺ في كلام متعبد بتلاوته إلى يوم القيامة لا يتغير ولا يتبدل بإعلان نتيجة معركة ستحدث بعد سنين ؟! وماذا كان يمكن أن يحدث لقضية الدين كله لو أن الحرب حدثت وانتصر الفرس مرة أخرى ؟! أو أن الحرب لم تحدث وتوصل الطرفان إلى صلح ؟! إنها كانت ستضيع قضية الدين كله ، ولكن لأن الله ﷻ هو القائل ، وهو الفاعل ، جاءت هذه الآية كمعجزة لغير العرب وقت نزول القرآن ، وحدثت المعركة فعلاً وانتصر فيها الروم كما أخبر القرآن الكريم .

ولكن القرآن لم ينزل معجزة لفترة محدودة ، بل هو معجزة حتى قيام الساعة ، والقرآن هو كلام الله ، والكون هو خلق الله ؛ ولذلك جاء القرآن يعطي إعجازًا لكل جيل فيما نبغوا فيه .

إذا أخذنا العلوم الحديثة التي اكتشفت في القرن العشرين وأصبحت حقائق علمية .. نجد أن القرآن الكريم قد أشار إليها بإعجاز مذهل ، بحيث إن اللفظ لا يتصادم مع العقول وقت نزول القرآن ، ولا يتصادم معها بعد تقدم العلم واكتشاف آيات الله في الأرض ، ولا يقدر على هذا الإعجاز المذهل إلا الله ﷻ ، اقرأ مثلاً قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾[2] .

والمد معناه البسط ، وعندما نزل القرآن الكريم بقوله تعالى : " وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا " .. لم يكن هذا يمثل مشكلة للعقول التي عاصرها نزول القرآن الكريم ؛ فالناس ترى أن الأرض ممدودة ، والقرآن الكريم يقول : ﴿ وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا ﴾ ، وتقدم العلم وعرف الناس أن الأرض كروية ، وانطلق الإنسان إلى الفضاء ورأى الأرض على هيئة كرة .. هنا أحست بعض العقول بأن هناك تصادمات بين القرآن الكريم والعلم .. نقول لهم : هل قال الله ﷻ أي أرض تلك

1 - سورة : الزمر ، الآية : 1-4 .
2 - سورة : ق ، الآية : 7 .

المبسوطة أو الممدوة ؟ لم يقل ، ولكنه قال : الأرض .. على إطلاقها ، أي كل مكان على الأرض ترى فيه الأرض أمامك مبسوطة ممدودة .

إذا نزلت في القطب الشمالي تراها مبسوطة ، وإذا كنت في القطب الجنوبي تراها مبسوطة ، وعند خط الاستواء تراها مبسوطة ، وإذا سرت من نقطة على الأرض وظللت تسير إلى هذه النقطة فالأرض أمامك دائمًا مبسوطة ، ولا يمكن أن يحدث هذا أبدًا إلا إذا كانت الأرض كروية ، فلو أن الأرض مثلثة أو مربعة أو مسدسة أو على أي شكل هندسي آخر لوصلت فيها إلى حافة ليس بعدها شيء ، ولكن لكي تكون الأرض مبسوطة أمامك في أي مكان تسير فيه فلابد وأن تكون على هيئة كرة .

هذا الإعجاز الذي يتفق مع قدرات العقول وقت نزول القرآن الكريم ، فإذا تقدم العلم ووصل إلى حقيقة لما كان يعتقده الناس ، تجد أن آيات القرآن تتفق مع الحقيقة العلمية اتفاقًا مذهلاً ، ولا يقدر على ذلك الا الله ﷻ .

ولو أن النبي ﷺ تعرض لهذه الآيات الكونية تعرضًا لا يتناسب مع استعدادات العقول وقت نزول القرآن فإنه ربما صرف العقول عن أساسيات الدين إلى جدل في أسرار كونية لا يستطيع العقل أن يستوعبها أو يفهمها ، ولكن الحق تبارك وتعالى ترك في الكون أشياء لوَثبَات العقول في العلم ، بحيث كلما تقدم العلم وجد خيطًا يربط بين آيات الله في الكون وآياته في القرآن الكريم ، ولو أن رسول الله ﷺ فسر كونيات القرآن وقت نزوله لجمد القرآن ؛ لأنه لا أحد منا يستطيع أن يفسر بعد تفسير رسول الله ﷺ ، وبذلك يكون عطاء القرآن قد جمد ، ولكن ترك رسول الله ﷺ للتفسير أتاح الفرصة لعطاءات متجددة للقرآن الكريم إلى قيام الساعة ، وهكذا كان المنع هو عين العطاء ، وهذه معجزة أخرى من إعجاز القرآن الكريم .

كلمة : " **قرآن** " ساعه تسمعها تفهم أنه يقرأ ، وهي مصدر : " **قرأ** " ، مثل : غفر .. غفرانًا ، ولكن بعد نزول القرآن الكريم أصبح لفظ قرآن اسمًا بكلام موحى به من الله ﷻ

لرسول الله ﷺ بقصد التحدى ، ويسميه الله تبارك وتعالى كتابًا ..

إذًا هو قرآن حيث إنه يُقرأ ، وهو كتاب حيث إنه يُكتب ، والقراءة تستلزم حافظًا ، والكتابة لا تستلزم حافظًا ، فالإنسان حين يقرأ من كتاب ليس محتاجًا إلى الحفظ ؛ ولذلك فللقرآن وسيلتان من وسائل التلاوة .. يحفظ في الصدور ، ويسجل في السطور ، بحيث تستطيع في أي وقت أن تقرأ من الكتاب .

وحين بدأ تدوين القرآن الكريم كتابة كان لا يكتب منه آية إلا إذا كانت مكتوبة على جذوع النخل أو الجلود ، أو أي وسيلة أخرى من وسائل الكتابة في عصر نزول القرآن ، وزيادة على أن تكون الآية مكتوبة كان لابد أن يكون هناك اثنان على الأقل من الصحابة الحافظين لها ، إلا آية واحدة لم توجد مكتوبة بين يدي رسول الله ﷺ إلا عند حافظ واحد فقط ، وكان القياس يتقضي ألا تكتب هذه الآية ، وهي قوله ﷻ :

﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً ﴾[1] .

ولكن انظر إلى الخواطر الإيمانية يقذفها الحق سبحانه وتعالى في قلوب المؤمنين ليكمل منهجه .. هذه الآية لم يوجد من يحفظها إلا **خزيمة بن ثابت** رضي الله عنه ، وعندما ثار الجدل حول تدوينها ، ذكروا قول رسول الله ﷺ : " **من شهد له خزيمة فحسبه** "[2] .

عن **زيد بن ثابت** رضي الله عنه قال : لما نسخنا المصحف فقدت آية من سورة الأحزاب كنت أسمع رسول الله ﷺ يقرؤها ، لم أجدها مع أحد إلا مع **خزيمة بن ثابت الأنصاري** رضي الله عنه ، الذي جعل رسول الله ﷺ شهادته بشهادة رجلين ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ ﴾ ..

وكان الرسول الكريم ﷺ قد أعطى **خزيمة بن ثابت** وحده نصاب شهادة رجلين ، وهذه

---

1 - سورة : الأحزاب ، الآية : 23 .

2 - أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ، والطبراني في الكبير ، والقصة أخرجها البخاري في صحيحه .

لها قصة .. أن رسول الله ﷺ ابتاع فرسًا من أعرابي ، فاستتبعه النبي ﷺ المشي وأبطأ الأعرابي ، فطفق رجال (أي أخذ رجال) يعترضون الأعرابي ؛ ليساوموه في الفرس دون أن يعرفوا أن النبي ﷺ قد ابتاعه ، فنادى الأعرابي الرسول ﷺ فقال : إن كنت مبتاعًا هذا الفرس وإلا بعته .. أي هل تريد شراء الفرس أو أبيعه ؟

فقال النبي ﷺ : " **أو ليس ابتعته منك ؟!** " .. فقال الأعرابي : ما بعتكه (أي ما بعته لك) ، فقال النبي ﷺ : " **بلى قد ابتعته منك** " . فقال الأعرابي : هلم شهيدًا (أي ائتني بشاهد) ، فقال **خزيمة بن ثابت** : أنا أشهد أنك بايعته (أي بعته له) .

وبعد أن انصرف الناس أقبل النبي ﷺ على **خزيمة** فقال : " **بم تشهد ؟!** " ، (أي كيف شهدت على هذا ، ولم تكن موجودًا وقت المبايعة بيني وبين الأعرابي ؟! فقال خزيمة : بتصديقك يا رسول الله ، (أي هل نصدقك في كل ما تأتينا من خبر السماء ، ونكذبك في هذه ؟!) [1] .

فجعل رسول الله ﷺ شهادة **خزيمة** بشهادة رجلين ، فأخذت شهادته بشهادة رجلين ، وتم تدوين الآية ، وكان **خزيمة** يدعى بذي الشهادتين ؛ لأن رسول الله ﷺ أجاز شهادته بشهادتين .

وإذا أردنا أن نُعَرِّف القرآن فإنه لابد أن يخرج عن مقاييس البشر ، فالناس حين يُعَرِّفون الأشياء يقولون : حَدُّه كذا ، ورسمه كذا .. إلى آخره ، ولكننا كي نُعَرِّف القرآن الكريم نقول : إن القرآن هو ابتداء من قوله ﷻ :

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (فاتحة الكتاب) ، إلى أن نصل إلى قوله ﷻ :

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ * مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ * الَّذِي

---

1 - رواه أبو داود وأحمد والنسائي في سننه الكبرى .

يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ * مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴾[1].

أي أنه من أول **سورة الفاتحة** إلى آخر سورة الناس ، على أن نستعيذ بالله من الشيطان الرجيم قبل أن نقرأ أي آية من القرآن ، كما علّمنا الحق ﷻ في قوله :

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾[2].

لكن العلماء أرادوا التخفيف على الناس في تعريف القرآن الكريم فقالوا : هو كلام الله .. نزله على رسوله **محمد** ﷺ بقصد التحدي والإعجاز ليبين للناس منهج الله ، والقرآن يتفق مع المناهج التي سبقته ، ولكنه يضيف عليها ، ويصحح ما حذف منها ؛ لأنه موحى به من الله ، فالتوراة والإنجيل والزبور من الله ، ولكنها تحمل المنهج فقط ، أما القرآن الكريم فهو المنهج والمعجزة الدالة على صدق رسول الله ﷺ .

كانت التوراة هي منهج **موسى** عليه السلام ، وكانت معجزته هي **العصا** ، وكان الإنجيل هو منهج **عيسى** عليه السلام ، ومعجزاته هي **إبراء الأكمه والأبرص** بإذن الله ، إذًا فالرسل السابقون كانت المعجزة شيئًا والمنهج شيئًا آخر ، ولكن القرآن تميز بأنه هو المنهج والمعجزة معًا ، ذلك أن المناهج التي أرسلها الله على الرسل السابقين ، أنزلها كي يغيرها وينسخها بعد ذلك .

ولكن القرآن الكريم نزل بالثبات إلى يوم القيامة ؛ ولذلك كان لابد أن يؤيد المنهج بالمعجزة حتى يستطيع أي واحد من أتباع **محمد** ﷺ أن يقول : **محمد رسول الله** ، وتلك هي معجزته ، ولكن معجزات الرسل السابقين حدثت وانتهت ؛ لأنها معجزات حسية من رآها آمن بها ، ومن لم يرها فهو غير مقصود بها ؛ لأنها حدثت لتثبيت المؤمنين الذين يتبعون الرسول ، فمعجزة **عيسى** عليه السلام لا يمكن أن تعود الآن من جديد ، وعصا **موسى** عليه السلام التي شقت البحر لا يستطيع أتباع **موسى** أن يأتوا بها الآن ليقولوا : هذه هي معجزة **موسى** .

---

1 - سورة : الناس .

2 - سورة : النحل ، الآية : 68 .

إذًا فالرسل السابقون لرسول الله ﷺ كان لكل منهم منهج ومعجزة ، ولكن كليهما منفصل عن الآخر ، فأن يكون المنهج هو عين المعجزة فحالة مفقودة في الرسالات كلها ، ولكنها في رسالة **محمد** ﷺ أمر موجود يمكن أن يشار إليه في أي وقت من الأوقات .

ونظرة واحدة فيما قال الله ﷻ في كونيات الحياة التي أتيحت للعقل البشرى في القرن العشرين نجد أن القرآن الكريم يشير إليها ؛ لأن العمر في الرسالة القرآنية إلى أن تقوم الساعة ، ومادام إلى أن تقوم الساعة يظل القرآن معجزة حتى قيام الساعة ؛ ولذلك يقول الحق ﷻ :

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾[1] .

أي أن القرآن له عطاءان في الإعجاز .. **العطاء الأول** آيات في الآفاق ، وهذه هي الآيات الكونية ، **والعطاء الثاني** آيات في أنفسهم ، وهذه هي الآيات التي تتعلق بأسرار الجسد البشري .

وقول الحق ﷻ : ﴿ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ .. أي أن القرآن هو الحق ؛ ولذلك يمكن أن نقول : إن آيات الكون ستأتي موافقة لآيات القرآن الكريم ، أي أن الله ﷻ وضع في القرآن الكريم من آيات الكون وأسراره ، وعن الجسد البشري وتكوينه آيات يمكن أن يعطيها المؤمنين وغير المؤمنين .

لهذا كان لزامًا علينا أن نتأمل في القرآن الكريم تلك التأملات ؛ حتى نبين ما فيه من آيات وأسرار .. حتى يتبين لهم أنه الحق .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

---

1 - سورة : فصلت ، الآية : 53 .

تلك هي خواطرنا حول الجزء الأخير من القرآن الكريم

جزء عم

وهذا الجزء يتضمن السور القصار التي تدور على الألسنة في الصلاة ، وهي أيضاً المستهل لكثير من حفظة القرآن ، فإذا ما شرحنا خواطرنا حول هذا الجزء فإننا بلا شك نكون قد استوعبنا معظم مقاصد القرآن ، إن لم يكن كل مقاصده ، وكأن الحق سبحانه وتعالى حينما رتب كلامه ترتيبًا مصحفيًّا . . أي ذلك الترتيب الذي نقرأ القرآن عليه ، قد شاء سبحانه وتعالى أن يجعل آخر ما يقرع الآذان من كلامه منبهًا لكل أصول الدين ، ولكل قواعده ، ولكل غاياته .

سورة المنافقون(١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿١﴾ ﴾

فالمنافقون جاءوا إلى رسول الله ليشهدوا بصدق رسالته ، والله سبحانه يعلم أن هذه الشهادة حقٌّ وصدقٌ ، لأنه جلَّ جلاله يعلم أن رسوله ﷺ صادقُ الرسالة ، ولكنه فى الوقت نفسه يشهد بأنّ المنافقين كاذبون ، كيف ؟

كيف يتفق كلام الله مع ما قاله المنافقون ، ثم يكونون كاذبين ؟

نقول : لأن المنافقين قالوا بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم ، فهم شهدوا بألسنتهم فقط أن محمداً ﷺ رسولُ الله ، ولكنّ قلوبهم مُنكِرةٌ لذلك ، مكذِّبة به.

ولذلك فإن ما قاله المنافقون رغم أنه حقيقةٌ إلا أنهم يكذبون ويقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم ، لأن الصدق هو أن يوافق الكلامُ حقيقةَ ما فى

---

(١) سورة المنافقون هى السورة رقم (٦٣) فى ترتيب المصحف الشريف ، عدد آياتها ١١ آية . قال القرطبى فى تفسيره : مدنية فى قول الجميع . نزلت فى خصوص غزوة بنى المصطلق سنة ست هجرية بسبب ما قاله عبد الله بن أبى بن سلول . وقد نزلت سورة المنافقون بعد سورة الحج وقبل سورة المجادلة . [ذكره السيوطى فى الإتقان فى علوم القرآن ١/٧٨] .

القلب ، وهؤلاء كذبوا لأنهم فى شهادتهم لرسول الله لم يكونوا يُعبِّرون عن واقع قلوبهم ، بل قلوبهم تُكذِّب ما يقولون .

وكثيراً ما يخطيء الناس فى فَهْم الواقع ، فيجدون تناقضاً فى بعض الأساليب ، مثال ذلك حينما تعرَّض بعض المستشرقين لقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ .. (١) ﴾ [المنافقون]

تلك نسبة كلامية صدرتْ منهم ، فهل هى مطابقةٌ للواقع أم هي مخالفة له ؟ إنها مطابقة للواقع ، ويؤكد الحق سبحانه ذلك بقوله : ﴿ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ .. (١) ﴾ [المنافقون] بعد ذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (١) ﴾ [المنافقون] ففيمَ كذب المنافقون ؟ هل كذبوا فى قولهم ﴿ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ .. (١) ﴾ [المنافقون]

لا .. إن الحق سبحانه لم يُكذِّبهم فى قولهم ﴿ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ .. (١) ﴾ [المنافقون] لأن الله قد أيَّد هذه الحقيقة بقوله ﴿ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ .. (١) ﴾ [المنافقون]

ولكن كذّبهم الله فيما سَهَا عنه المستشرق الناقد عندما قالوا : ﴿ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ .. (١) ﴾ [المنافقون]

لقد كذّبهم الله فى شهادتهم ، لا فى المشهود به ، وهو أنَّ محمداً ﷺ رسولٌ من الله ، إن الله يعلم أن محمداً رسوله المبعوث منه رحمة للعالمين ، لكن الكذب كان فى شهادتهم هم .

فالحق سبحانه لا يُكذِّبهم فى أن محمداً رسول الله فهذه قضية صادقة ، ولكنه سبحانه قد كذَّبهم فى قضية قالوها وهى (نشهد) لأن قولهم (نشهد) تعنى أن يوافق الكلام المنطوق ما يعتقدون فى قلوبهم .

وقولهم (نشهد) هو قوْلٌ لا يتفق مع ما فى قلوبهم ، ولذلك صاروا كذابين ، فلسانُ كلٍّ منهم لا يوافق ما فى قلبه .

وقد قال الحق سبحانه فى آية أخرى : ﴿ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥) ﴾ [آل عمران] أى : أنهم يقولون كلاماً ليس له نسبة خارجية تطابقه ، وهم يعلمون أنه كذب حتى لا نقول إنهم نطقوا بذلك غفلة .

لقد تعمدوا الكذب وهم يعرفون أنهم يقولون الكذب ، والدقة تقتضى أننا يجب أنْ نفرِّق بين صِدْق الخبر وصِدق المخبر ، صدق المخبر هو أنْ يطابق الواقع لكن أحياناً يكون المخبرُ صادقاً ، والخبر فى ذاته كذبٌ .

كأنْ يقول واحد (إن فلاناً يستذكر طول الليل) لأنه شاهد حجرةَ فلان مضاءة وأنه يفتح كتاباً ، بينما يكون هذا الفلانُ غارقاً فى قراءة رواية ما ، إنَّ المخبر صادقٌ فى هذه الحالة ، لكن الخبر كاذب .

إذن : فهناك فَرْق بين صدق الخبر وصدق المخبر عن الخبر ، فإذا التقى الاعتقاد بالواقع ، صَدَق الخبرُ وصَدَق المخبرُ ، وإذا كان الخبرُ موافقاً للواقع ومخالفاً للاعتقاد فالخبر صادق ؛ ولكن المخبر كاذب .

فالمنافقون شهدوا لفظاً أن رسولَ الله مرسلٌ من عند الله ، هذه قضية صِدْق، لكن الله العليم بما فى القلوب يكشف أمرهم إلى الرسول فيقول : ﴿ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (١) ﴾ [المنافقون]

لقد وافقتْ شهادتُهم بألسنتهم ما علمه الله ، لكن القول منهم يخالف ما فى قلوبهم ، فشهد الحقُّ إنهم لكاذبون ، ويعلم سبحانه كذبهم فى شهادتهم ، لأن المنافق منهم لم يشهد صحيح الشهادة ، لأن الشهادة الحقَّة هى أنْ يواطيء اللسانُ القلبَ .

وبعض الأغبياء الذين يحاولون الاستدراك على القرآن قد عميتْ بصيرتهم عن الإحساس باللغة والفهم لأسرارها ، لذلك يتخبَّطون فى الفهم ، فهم لا يعرفون صفاء التلقِّى عن الله .

وقالوا : إن بالقرآن تضارباً ، وهم يعرفون أن كذب المنافقين لم يكُنْ فى مقولة : إن محمداً رسولُ الله ، ولكن فى شهادتهم بذلك وكذّبهم الله فى قولهم (نشهد) فقط ، فقد أعلنوا الإيمان بألسنتهم ولم تؤمن قلوبهم .

إن الحق سبحانه أراد أنْ يفضحهم ، فهم قد شهدوا بألسنتهم فقط ولكن قلوبهم منكرةٌ ، وفضح اللهُ ما فى قلوبهم ، وأوضح أنَّ ألسنتهم تكذب لأنها لا تنقل صِدْق ما فى قلوبهم .

فالمنافقون : ﴿ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ .. (١٦٧) ﴾ [آل عمران] فالقلب عملُه النية الإيمانية ، واللسان قد يقول ولا يفعل ما يقول . ولذلك قلنا : إن المنافق مُوزَّع النفس مُوزَّع الملَكات ، يقول بلسانه كلاماً وقلبه فيه إنكار ، ولذلك سيكونون فى الدرْك الأسفل من النار ، لأنهم غشاشون ونفوسهم مُوزَّعة .

والقول ضرورى بالفم ، لأن القول يُطلق ويُراد به البيان عما فى النفس ، فتوضيح الإنسان لما فى نفسه كتابة يعتبر قولاً – لغةً ، ولذلك فالذى يستحى من واحد أنْ يقول له كلاماً فهو يكتبه له فى ورقة ، فساعة يكتب يكون قد قال.

وهؤلاء المنافقون يقولون كلماتهم لا بوساطة كتاب بل بوساطة أفواههم، وهذا تبجُّح فى النفاق ، فلو كانوا يستحون لَهمَسُوا به ، والأنكَى من هذا أنهم قالوا (نشهد) والشهادة آكد القول وأشدُّه وأقواه .

وقد كان رجل يأتى إلى النبى ﷺ فيقول : أى رسول الله أشهد أنك جئتَ

بالحق والصدق من عند الله ، قال : حتى يعجب النبى ﷺ بقوله . ثم يقول الرجل : أما والله يا رسولَ الله ، إن الله ليعلم ما فى قلبى مثل ما نطق به لسانى. فذلك قوله ﴿ وَيُشْهِدُ اللهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ .. (٢٠٤) ﴾ [البقرة]

قال : هؤلاء المنافقون[١] وقرأ قول الله تبارك وتعالى : ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (١) ﴾ [المنافقون]

فالحق سبحانه يُحذِّرنا ممنْ قال فيهم : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. (٢٠٤) ﴾ [البقرة] أى : الذين يُظهرون من خير خلاف ما يُبطنون من شر .

وليس ممنوعاً أنْ يُعجبك القول ، ولكن فليعجبك فى غير الحياة الدنيا ، فالقول الذى يعجب هو ما يتعلَّق بأمر الحياة الآخرة الباقية ليضمنَ لنا الخير عند مَنْ يملك كلَّ الخير .

إن الله سبحانه ينبهنا إلى ضرورة أنْ يكون المسلمُ يقظاً وفطناً ، ولذلك عندما أرسل خليفة المسلمين للإمام جعفر الصادق[٢] يقول له : لماذا لا تغشانا. أى لا تزورنا – كما يغشانا الناس ؟

---

(١) أخرجه الطبرى فى تفسيره (٣٩٩٣) قال قال ابن زيد : كان رجل يأتى إلى النبى ﷺ فيقول : أى رسول الله أشهد أنك جئت بالحق والصدق من عند الله . قال : حتى يُعجب النبى ﷺ بقوله . ثم يقول : أما والله يا رسول الله إن الله ليعلم ما فى قلبى مثل ما نطق به لسانى . فذلك قوله : ﴿ وَيُشْهِدُ اللهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ .. (٢٠٤) ﴾ [البقرة] قال : هؤلاء المنافقون .

(٢) جعفر الصادق : هو جعفر بن محمد الباقر بن على زين العابدين الهاشمى القرشى أبو عبد الله الملقب بالصادق ، ولد بالمدينة المنورة عام ٨٠ هـ ، سادس الأئمة الاثنى عشر عند الإمامية ، كان من أجلاء التابعين وله منزلة رفيعة فى العلم ، أخذ عنه الإمامان أبو حنيفة ومالك . ولقب بالصادق لأنه لم يُعرف عنه الكذب قط ، كان جريئاً فى الحق . توفى بالمدينة عام ١٤٨ هـ . عن ٦٨ عاماً . [الأعلام للزركلى ٢/١٢٦] .

فكتب الإمام جعفر الصادق للخليفة يقول : أما بعد ، فليس عندى من الدنيا ما أخاف عليه ، وليس عندك من الآخرة ما أرجوك له[١] .

وكأنه يريد أنْ يقول له : اتركنا وحالنا ، فأنت محتاج لمن يجلس معك ويمدحك ، وأنت لا تعلم أنَّ أولَ أناس لهم رأى سيء فيك هم مَنْ يمدحونك .

وقد نزل قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. (٢٠٤) ﴾ [البقرة] فى الأخنس بن شريق الثقفى[٢] واسمه أُبيّ ، ولُقِّب بالأخنس لأنه خنس ورجع يوم بدر فلم يقاتل المسلمين مع قريش ، واعتذر لهم بأن العير قد نجتْ من المسلمين وعادت إليه .

وكان ساعة يقابل رسول الله ﷺ يُظهر إسلامه ويُلين القول للرسول ويدَّعى أنه يحبه ، ولكنه بعد أنْ خرج من عند رسول الله مرَّ بزرع وحُمر لقوم من المسلمين ، فأحرق الزرع وقتل الحُمر[٣] . والآية وإنْ نزلت فى الأخنس بن شريق فهى تشمل كلَّ منافق .

﴿ وَيُشْهِدُ اللهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ[٤] الْخِصَامِ .. (٢٠٤) ﴾ [البقرة] لا تقولوا

---

(١) حدث هذا مع الخليفة المنصور العباسى كتب لجعفر الصادق : لم لا تغشانا كما يغشانا سائر الناس؟ فأجابه : ليس لنا ما نخافك من أجله ، ولا عندك من أمر الآخرة ما نرجوك له ، ولا أنت فى نعمة فنهنئك ، ولا تراها نقمة فنعزيك بها ، فما نصنع عندك ؟ فكتب إليه المنصور : تصحبنا لتنصحنا فأجابه : من أراد الدنيا لا ينصحك ، ومن أراد الآخرة لا يصحبك . [التذكرة الحمدونية لابن حمدون ١/٢٤] .

(٢) الأخنس بن شريق ثقفى حليف بنى زهرة . واسمه أُبى بن عمرو بن وهب بن علاج بن أبى سلمة . وقد كان من المؤلفة قلوبهم وشهد حنيناً ومات فى أول خلافة عمر بن الخطاب . [الإصابة لابن حجر ١/٢٥] . خنس يوم بدر بثلثمائة رجل من حلفائه عن قتال رسول الله ، وكان رجلاً حلو القول والمنظر .

(٣) أورده السيوطى فى الدر المنثور (٢/٤٧٦) وعزاه لابن جرير الطبرى وابن المنذر وابن أبى حاتم عن السدى .

(٤) الألد : أى الأشد خصومة وجدلاً . لُدّ : جمع ألدّ أو جمع لدود . ومنها قوله : ﴿ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا (٩٧) ﴾ [مريم] أشداء الخصومة . [القاموس القويم ٢/١٩١] .

«الله يشهد» ، وإنما هاتوا شهداءكم ليشهدوا على صدق قولكم لأن معنى «يُشهد الله» هو إخبارٌ منه بأنَّ الله يشهد له ، وهو كاذبٌ في هذه ويريد أن يُضفي المصداقية على كذبه بإقحام الله فى المسألة .

وساعة تسمع واحداً يقول لك : أُشهد الله على أنِّى كذا فقُلْ له : هذا إخبارٌ منك بأن الله يشهد ، وأنت قد تكذب فى هذا الخبر ، أنا أفضّل أنْ يشهد اثنان من البشر ولا نقحم الله فى هذه الشهادة .

والمنافقون من أشدِّ الناس عداوةً للمؤمنين وأكثرهم خطراً ، لأنهم يصنعون الفتنة وينشرون الأكاذيب بين المسلمين وهم يدَّعُون أنهم منهم ، ويُخذّلون المجاهدين فى سبيل الله عن الجهاد ، ويُمنُّون المتقاعسين بالنجاة من الموت ويعِدونهم برَغَد العيش .

بل إنهم يطعنون فى ثوابت المجتمع من الفضيلة والأخلاق ، ويدعُون إلى كلِّ ما يهدم الشريعة ويريدون تصدُّع كيان المجتمع المسلم والأسرة المسلمة.

فقد مارس المنافقون هذا فى عهد رسول الله ، لذلك حذَّر منهم الحق سبحانه فى القرآن الكريم فى آياتٍ كثيرة وخاصة سورة البقرة وآل عمران ، وخصَّص لهم سورةً باسمهم وهى سورة (المنافقون) .

وفيها وفى غيرها يفضحهم الله عز وجل ، ويفضح نظرات عيونهم وخبيئات قلوبهم، ويكشف خلجات جوارحهم والمواضيع التى يثيرون فيها الفتن بين المسلمين.

والناسُ فى الحياة الدنيا على ثلاثة أحوال : إما مؤمن ، وإما كافر وإما منافق . والله سبحانه وتعالى فى بداية القرآن الكريم فى سورة البقرة أراد أنْ يعطينا وصف البشر جميعاً بالنسبة لمنهج الله وأنهم ثلاث فئات :

الفئة الأولى : هم المؤمنون ، عرّفنا اللهُ سبحانه صفاتهم فى ثلاث آيات

فقال : ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤) أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥) ﴾ [البقرة]

أما الفئة الثانية فهم الكفار ، وعرَّفنا الله سبحانه صفاتهم فى آيتين فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٦) خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٧) ﴾ [البقرة]

وجاء بذكْر المنافقين فعرَف صفاتهم فى ثلاث عشرة آية متتابعة لماذا ؟ لخطورتهم على الدين ، فالذى يهدم الدين هو المنافق ، أما الكافر فنحن نتقيه ونحذره لأنه يُعلن كفره .

أما المنافق فيتظاهر أمامك بالإيمان ولكنه يبطن الشر والكفر ، وقد تحسبه مؤمناً فتُطلعه على أسرارك فيتخذها سلاحاً لطَعْن الدين ، وقد خلق الله فى الإنسان ملكاتٍ متعددة ، ولكى يعيش الإنسان فى سلام مع نفسه ، فلا بدّ أنْ تكون ملكاتُه منسجمةً وغير متناقضة .

فالمؤمن ملكاته منسجمة لأنه اعتقد بقلبه فى الإيمان ، ونطق لسانه بما يعتقد ، فلا تناقض بين ملكاته أبداً ، والكافر قد يُقال إنه يعيش فى سلام مع نفسه ، فقد رفض الإيمان وأنكره بقلبه ولسانه وينطق بذلك .

ولكن الذى فقد السلام مع ملكاته هو المنافق ، إنه فقد السلام مع مجتمعه، وفقد السلام مع نفسه فهو يقول بلسانه ما لا يعتقد قلبه ، يُظهر غير ما يُبطن ويقول غير ما يعتقد ، ويخشى أنْ يكشفه الناسُ فيعيش فى خوف عميق وهو يعتقد أن ذلك شيءٌ مؤقتٌ سينتهى .

ولكـن هـذا التناقض يبقى معه إلى آخر يوم له فى الدنيا ، ثم ينتقل معه إلى الآخرة فينقضّ عليه ليقوده إلى النار ، واقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿ حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٠) وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢١) ﴾ [فصلت]

إذن كلّ ملَكاتهم انقضَّتْ عليهم فى الآخرة ، فالسلام الذى كانوا يتمنونه ويظنونه لم يُحققوه ، لا فى حياتهم ولا فى آخرتهم ، فلسان المنافق يشهد عليه، ويداه تشهدان عليه ، ورِجْلاه تشهدان عليه ، والجلود تشهد عليه ، فماذا بقى له ؟

بينه وبين ربه تناقض ، وبينه وبين نفسه تناقض ، وبينه وبين مجتمعه تناقض ، وبينه وبين آخرته تناقض ، وبينه وبين الكافرين تناقض ، يقول لسانُه ما ليس فى قلبه .

وقد وصف الحقُّ سبحانه المنافقين ، فقال : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ (٨) ﴾ [البقرة]

هـذه أول صفات المنافقين فى القرآن ، يُعلنون الإيمان وفى قلوبهم الكفر ، ولذلك فإنَّ إيمانهم كلّه تظاهر ، إذا ذهبوا للصلاة لا تكتب لهم لأنهم يتظاهرون بها ولا يُؤدُّونها عن إيمان .

وإذا أدَّوْا الزكاة فإنها تكون عليهم حسرةً لأنهم ينفقونها وهم لها كارهون، لأنها فى زعمهم نقصٌ من مالهم ، لا يأخذون عليها ثواباً فى الآخرة ، وإذا قُتِلَ واحدٌ منهم فى غزوة انتابهم الحزن والأسى لأنهم أهدروا حياتهم ولم يُقدِّموها فى سبيل الله ، وهكذا يكون كلّ ما يفعلونه شقاءً بالنسبة لهم .

أما المؤمن فحين يُصلِّى أو يؤدى الزكاة أو يستشهد فى سبيل الله فهو يرجو

الجنة ، وأما المنافقون فإنهم يفعلون كلّ هذا وهم لا يرجون شيئاً ، فكأنهم بنفاقهم قد حكم عليهم الله سبحانه بالشقاء فى الدنيا والآخرة ، فلا هُم فى الدنيا لهم متعة المؤمن فيما يفعل فى سبيل الله ، ولا هم فى الآخرة لهم ثوابُ المؤمن فيما يرجو من الله .

أما الصفة الثانية من صفات المنافقين فهى صفةٌ تدلُّ على غفلتهم وحُمْق تفكيرهم ، فإنهم يحسبون أنهم بنفاقهم يخدعون الله سبحانه وتعالى ، وهل يستطيع بشر أنْ يخدع ربّ العالمين ؟

إن الله عليمٌ بكلِّ شيء ، عليمٌ بما نُخفى وما نُعلن ، عليم بالسِّرِّ وما هو أخفى من السرِّ ، وهل يوجد ما هو أخفى من السرّ ؟

نقول : نعم السرّ هو ما أسررتَ به لغيرك فكأنه يعلمه اثنان ، أنت ومَنْ أسررْتَ إليه .

ولكن ما هو أخفى من السرِّ ما تُخفيه فى نفسك ولا تخبر به أحداً ، إنه يظلُّ فى قلبك لا تُسرُّ به لإنسان ، والله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى (٧) ﴾ [طه]

فلا يوجد مخلوقٌ يستطيع أنْ يخدع خالقه ، ولكنهم من غفلتهم يحسبون أنهم يستطيعون خداعَ اللهِ جَلَّ جلالُه ، وفى تصرُّفهم هذا لا يكون هناك سلامٌ بينهم وبين الله ، بل يكون هناك مقْتٌ وغضب .

وهم فى خداعهم يحسبون أيضاً أنهم يخدعون الذين آمنوا ، بأنهم يقولون أمامهم غير ما يُبطنون ، ولكن هذا الخداع شقاء لهم لأنهم يعيشون فى خوف مستمر من أنْ يكشفهم المؤمنون أو يستمعوا إليهم فى مجالسهم الخاصة وهم يتحدَّثون بالكفر ويسخرون من المؤمنين .

ولذلك إذا تحدّثوا لابدّ أنْ يتأكدوا أولاً من أنَّ أحداً من المؤمنين لا يسمعهم ويتأكدوا ثانياً من أنَّ أحداً من المؤمنين لن يدخل عليهم وهم يتحدَّثون ، فالخوف يملأ قلوبهم حتى وهم مع المؤمنين ، فكلُّ واحد منهم يخشى أنْ تفلت منه كلمة تفضح نفاقه وكفره .

وهكذا فلا سلامَ بينهم وبين المؤمنين ، والحقيقة أنهم لا يخدعون إلا أنفسهم، فالله سبحانه وتعالى يعلم نفاقهم ، والمؤمنون قد يعلمون هذا النفاق ، فإنْ لم يعلموه فإنَّ الله يُخبرهم به .

واقرأ قوْل الحق سبحانه : ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ[1] وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ[2] وَاللهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ .. (٣٠) ﴾ [محمد]

والحق سبحانه يقول : ﴿ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (١) ﴾ [المنافقون]

فالله يفضح المنافقين ويُنبيء رسوله ﷺ بما يُضمرونه في قلوبهم، فخداعهم للمؤمنين رغم أنه خداعُ بشر لبشر إلا أنه أحياناً تفلتُ ألسنتهم فتعرف حقيقتهم .

وإذا لم يُفلت اللسان جاء البيانُ من الله سبحانه وتعالى ليفضحهم وتكون حصيلة هذا كلِّه أنهم لا يخدعون أحداً فالله يعلم سرَّهم وجهرهم ، فمرَّةً يعين الله المؤمنين عليهم فيكشفونهم ، ومرّة تُفلت ألسنة المنافقين فيكشفون أنفسهم.

---

(١) بسيماهم : بعلامتهم . السيما والسيماء : العلامة . ويقول تعالى : ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ (٢٩) ﴾ [الفتح]. [القاموس القويم ١/٣٣٧] .

(٢) لحن القول : خطؤه وتحريفه . فقوله : ﴿ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ .. (٣٠) ﴾ [محمد] أى إنك ستعرف المنافقين فى أسلوبهم فى القول بإخفائه وتحريفه . أى : ستعرفهم فى خطأ القول وزلات اللسان . [القاموس القويم ٢/١٩١] .

يقول الحق سبحانه :

﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٢ ﴾

والأَيْمان جمع يمين وهو الحَلِف ، فالحلف والأَيْمان وسيلة من وسائل المنافقين للخداع التى يُجيدونها ويستترون خلفها فيتخذونها (جُنَّة) أى وقاية يختبئون وراءها ويحتمون بها حتى لا ينكشف أمرهم .

ومادة (جنَّ) تعنى : السَّتر والإخفاء ، ومنها (جن الليل) أى أظلم . والدرع الذى يحمى صدر الجندى اسمه المجنّ .

فالمنافقون يتخذون أيمانهم وحلفهم وقَسمهم الكاذب جُنَّة تقيهم وتسترهم، وتُخفى ما يُبطنونه من الكفر ليعيشوا بين المسلمين دون أنْ يكتشف أحدٌ أمرهم.

لذلك يقول تعالى : ﴿ **فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا** (٦٢) ﴾ [النساء]

فهم يروْنَ النفاق يُحقّق نفعاً لهم ، فبه يستفيدون من إجراء أحكام الإسلام عليهم ، لذلك فعندما تحدث لهم مصيبة تفضحهم أمام الناس وتكشفهم تجدهم يلجئون إلى الحلف بالله كذباً لأنهم يريدون استدامة نفاقهم ، ويحاولون أنْ يبرروا ذهابهم إلى الطاغوت بأنهم ما أرادوا إلا الإحسان والمصلحة للتوفيق بينهم وبين خصومهم .

حتى أن الحق سبحانه قال : ﴿ **يَحْلِفُونَ بِاللهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ** (٦٢) ﴾ [التوبة] فهدف الحلف كذباً هنا هو إرضاء

المؤمنين حتى يطمئنوا للمنافقين ولا يتوقعوا منهم الشرَّ .

وهذا دليل غبائهم فالذى يستحقّ الإرضاء هو الله سبحانه ورسوله ، فالإنسان قد يخدع البشر مثله ، ولكن لا يستطيع خداعَ الله سبحانه ، فلا يغيب عن علم الله ولا يفلت من عدالة الله .

والمنافق دائرٌ دائماً فى دائرة الحلف بأغلظ الأيمان لأنه يريد مُداراة كفره، وألاَّ يطلع أحدٌ على خبيئة نفسه المريضة ، أما الكافر الصريح الواضح فى كفره فلا يحتاج إلى ما يستر به كفره .

فالمنافق يُبطن الكفر ويُظهر الإسلام ، يقول الحق : ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ (١٤)﴾ [البقرة]

فهم مع هؤلاء بوجه ، ومع الآخرين بوجه آخر ، لذلك يحتاجون إلى الحلف لأن لا أحدَ يُصدِّقهم ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ .. (٧٤) ﴾ [التوبة]

فعندما دعا رسول الله ﷺ للجهاد فى سبيل الله والذهاب إلى قتال الروم فى غزوة تبوك تلمَّس المنافقون الأعذار الكاذبة حتى لا يذهبوا إلى الجهاد ، فظلَّ القرآن ينزل فى هؤلاء الذين تخلَّفوا عن هذه الغزوة شهرين كاملين .

فقال رجل اسمه الجلاس بن سويد[1] : والله إن كان ما يقوله محمد عن الذين تخلفوا عن القتال صدقاً فنحن شَرٌّ من الحمير ، وهنا قال عامر بن قيس الأنصارى : لقد صدق رسول الله وأنتم شر من الحمير ، وأنت يا جلاس شر من

---

(١) الجلاس بن سويد أحد ستة وثلاثين منافقاً ، وهو أحد الذين تخلفوا يوم تبوك . ذكره محمد بن حبيب البغدادى فى [المحبّر ١/٤٦٧] .

الحمار[١] .

وذهب عامر بن قيس إلى رسول الله وأخبره بما حدث ، فاستدعى رسول الله الجلاس بن سويد ، وسأله عن الخبر فحلف الجلاس بالله أن كل ما قاله عامر ابن قيس لم يحدث ، وأنه لم يقُلْ شيئاً يُغضب رسولَ الله .

تركه رسول الله بعد أنْ حلف بالله ، وهنا رفع عامر بن قيس يده إلى السماء وقال : اللهم إنِّي أسألك أنْ تُنزل على عبدك ونبيك محمد تصديقَ الصادق وتكذيبَ الكاذب .

فقال رسول الله ﷺ : آمين ، ولم ينتهوا من الدعاء حتى نزل الوحى بقول الحق جلَّ جلاله[٢] : ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ .. (٧٤) ﴾ [التوبة]

هؤلاء الذين تخلَّفوا عن رسول الله واختلقوا الأعذار الكاذبة حتى لا يخرجوا معه ﷺ ، وقالوا لبعضهم البعض ﴿ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ .. (٨١) ﴾ [التوبة]

هؤلاء ﴿ سَيَحْلِفُونَ بِاللهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ .. (٩٥) ﴾ [التوبة]

وكلمة (سيحلفون) تدلُّ بصيغتها على المستقبل ، أى أنهم لم يحلفوا بعد ، ورغم هذا جاءوا وحلفوا وأقسموا بالله مُبدين الأعذارَ الفارغة ، ولكنْ لماذا سيحلف المنافقون بالله للمؤمنين ؟

---

(١) أخرج أبو نعيم الأصفهانى فى معرفة الصحابة (١٥/٨٨) (٤٧١٦) عن محمد بن إسحاق قال : تخلف الجلاس بن سويد عن تبوك عن رسول الله ﷺ ، فقال : لئن كان هذا الرجل صادقاً فلنحن شر من الحمير ، فرفع ذلك من قوله إلى رسول الله ﷺ عمير بن سعد ، وكان فى حجر الجلاس خلف على أمه بعد أبيه ، فمشى إلى رسول الله ﷺ فذكر ذلك له ، فكذبه الجلاس وحلف أنه لم يقل ، فأنزل الله ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللهِ مَا قَالُوا .. (٧٤) ﴾ [التوبة] .

(٢) أورده الفخر الرازى فى تفسيره (مفاتيح الغيب) فى تفسير الآية ٧٤ من التوبة ، وكذا الزمخشرى فى تفسير الكشاف (٢/٢٩١) والنسفى فى تفسيره (١/٤٥٥) والألوسى فى روح المعانى (٥/٣٢٨) .

يقول الحق سبحانه : ﴿ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ .. (٩٥) ﴾ [التوبة]

أى : لتعرضوا عن توبيخهم ولَوْمهم وتعنيفهم لأنهم لم يجاهدوا معكم . ويرسم لنا الحقُّ سبحانه طريقةَ التعامل مع مثل هؤلاء ، فيقول : ﴿ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ .. (٩٥) ﴾ [التوبة]

هم قد طلبوا منكم أنْ تُعرضوا عنهم أى إعراض صَفْح ومغفرة ، ومن هذا قَوْلُ عزيز مصر ليوسف عليه السلام بعد أن انكشفتْ حيلةُ امرأته ﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَـٰذَا .. (٢٩) ﴾ [يوسف] أى : اصفح عمَّا حدث واغفر لنا ما أسأنا به إليك .

لا تُعرضوا عنهم إعراضَ الصفح والمغفرة ، بل اعرضوا عنهم إعراضَ الاحتقار والإهانة ، فلا تلوموهم ولا تُوبخوهم ولا تُؤثِّموهم ، فإنَّ لَوْمهم دليلُ أنكم تعتقدون أن فيهم أملاً فى العودة للصواب ، والحقيقة غير هذا .

فهؤلاء المنافقون لا ينفع معهم التوبيخُ أو الإيلام النفسى ، فلا أملَ فيهم ﴿ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٥) ﴾ [التوبة]

وهم لا يُراقبون الله فى أفعالهم ولا يعتقدون أن الله ينظر إليهم ويعلم ما فى قلوبهم وليس فى بالهم الله ، بل فى بالهم مَا يُحقّقونه من البشر من نَفْع أو مصلحة ، فهناك خللٌ فى اعتقادهم .

يقول الحق سبحانه : ﴿ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ .. (٩٦) ﴾ [التوبة] إنهم يطلبون رضاكم أنتم ، إنهم نَسُوا أن الرضا الحق هو رضا الله .

وقد ينالون بحلفهم وقسمهم رضاكم عنهم ، ولكن يقول الله : ﴿ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٩٦) ﴾ [التوبة]

فـإنْ لم يرض الله عنهم فرضاكم لـن ينفعهم ، فرضاكم لن يقدم ولن يؤخر إلا إنْ كان من باطن رضا الله ورضا رسوله .

وهـم باتخاذهـم أَيْمانهم جُنَّة يصـدُّون عن سبيل الله ، فهـم يُغرون غيرهم بانتهـاج الخديعـة والمكر وسيلـة للاختفاء والاختباء ، فـلا يقعوا تحت طائلة الأحكام ، وهذا يُغرى النـاسَ بـالالتفاف على منهج الله .

وعندنـا المثـل الدارج «قـالوا للحرامـى احلف قال جالك الفـرج» وهذا شأن المنحرفين الذين يصدُّون عن سبيل الله بسلوكهم المعوج .

والـذى يصـدُّ عن سبيل الله هـو مَن امتنع عن سبيل الله وصـدَّ غيره أى ضَلَّ فـى ذاتـه ثم أضلَّ غيره ، وهؤلاء هم الذين يطلبـون منهج الله مُعْوَجاً ويذمّونه ولا يؤمنـون به فيعترضون على إقامة الحدود والقصاص ويُنفِّرونَ النـاسَ من منهج الله ويُبغِّضونه إليهم لينصرف النـاسُ عن الدين .

فـالنـاسُ حين يرون الكفار المعاندين لمنهج الله ورسوله ﷺ وقد صارتْ لهم اليدُ العليا وهم يرقصون ويغنُّون لانتصارهم بـالحيلة والخداع والحلف الكاذب والنفاق ، فسوف يُغرى ذلك النـاسَ بـاتبـاع منهج المعاندين لمنهج الله.

والسبـب فـى صدِّهم عن سبيل الله أنهم يريدون الحـال مُعْوجاً ومـائلاً ، وأنْ يُنفِّـروا النـاسَ من الإيمـان ليضمنوا لأنفسهـم السلطة الزمنيـة ويُفسدون فى الأرض ، لأن مجـيء الإصلاح بـالإيمـان أمرٌ يُزعجهم تمامـاً ويسلب منهم ما ينتفعون به بـالفساد .

وكيـف يكون الصـدّ عن سبيـل الله ؟ بمحاولة أهل الضـلال أنْ يمنعوا آيات الهدى من أنْ تصل إلى آذان النـاس لأنهم يعرفون أن حلاوة الدعوة ستجعل مَنْ يستمع إلى دعوة الرسول يؤمن بها .

ومما فعلوه للصدِّ عن سبيل الله هو بناء المنافقين لمسجد سُمي بـ «مسجد الضرار»[١] . قال الحق سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ .. (١٠٧) ﴾ [التوبة]

فهؤلاء القوم أرادوا أن ينفِّسوا عن نفاقهم بمظهر من مظاهر الطاعة فقالوا: نقيم مسجداً وبذلك نفرق جماعة المسلمين ، فجماعة يصلون هنا وجماعة يصلون هناك .

وإنْ قعدنا نحن نصلى فيه نكون أحراراً ونتكلم مثلما نريد ، أما حين نذهب للصلاة فى المسجد الآخر فنحن نجلس هناك مكبوتين وغير قادرين على الكلام .

كان هدفهم التفريق بين المؤمنين ، وأيضاً ﴿ إِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ .. (١٠٧) ﴾ [التوبة] فالذين أقاموا هذا المسجد أرصدوه مترقبين ومنتظرين إنساناً له سابقةٌ فى عداء رسول الله ، وهو الذى طلب منهم إقامة هذا المسجد ، وهو أبو عامر الراهب وقد سمَّاه رسول الله (الفاسق) .

لقد بنوا ذلك المسجد ضراراً وكفراً وتفريقاً وإرصاداً وترقباً لذلك الراهب الذى سيذهب إلى الشام ويأتى بجنود لمحاربة الله ورسوله ، ورغم أنهم قد فعلوا ذلك فقد امتلكوا جراءة الحلف بالله كذباً ﴿ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى.. (١٠٧) ﴾ [التوبة]

---

(١) قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٠٧) لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا .. (١٠٨) ﴾ [التوبة] ، عن ابن عباس قال : هم أناس من الأنصار ابتنوا مسجداً فقال لهم أبو عامر : ابنوا مسجدكم واستمدوا بما استطعتم من قوة وسلاح فإنى ذاهب إلى قيصر ملك الروم فآتى بجند من الروم فأخرج محمداً وأصحابه، فلما فرغوا من مسجدهم أتوا النبى ﷺ فقالوا : قد فرغنا من بناء مسجدنا فنحب أن تصلى فيه وتدعو بالبركة فأنزل الله ﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا .. (١٠٨) ﴾ [التوبة] ، أورده السيوطى فى الدر المنثور (٥٢٢/٧) وعزاه لابن جرير الطبرى وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه والبيهقى فى الدلائل .

فهم أقسموا وقالوا : ما أردْنا باتخاذ هذا المسجد إلا مصلحة المسلمين وليُيسِّر على المعذورين والمرضى والعاجزين عن السير إلى المسجد الآخر ، وإنْ كانت ليلة مطيرة أو ليلة شاتية فيستطيع الناس أنْ يجدوا مسجداً ثانياً ليصلُّوا فيه .

إنهم أرادوا أنْ يصدُّوا عن سبيل الله ، لذلك نزل القرآن حاسماً فى قَطْع دابر هذا الأمر ، فقال الحق سبحانه : ﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ (١٠٨) ﴾ [التوبة]

ويقول الحق سبحانه : ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَـٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ[1] أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ (٥٣) ﴾ [المائدة]

فالمقسَم به هو الله ، والمقسِم هم المنافقون والمخالفون لرسول الله ، ولقد بالغوا فى القسَم مبالغة تُجهدهم ليُبيِّنوا لمَنْ يُقسمون لهم أنهم حريصون على أنْ يبرُّوا بالقسم ، فأفرغوا جهدهم ومشقتهم فى القسَم .

ومن الجائز أنهم حينما أقسموا بالله جَهْد أيمانهم كانوا قد اقتربوا فى هذا الوقت من الإيمان ، ولكن قلوبهم لا تثبت على عقيدة ، بل تتقلَّب دائماً ، وما دامتْ قلوبُهم لا تثبت فأنَّى لنا بتصديقهم لحظة أنْ أقسموا بالله جَهْد أيمانهم.

ومما فعلوه للصدِّ عن سبيل الله أنهم يشقُّون صَفَّ المسلمين الخارجين لملاقاة العدو ، يقول الحق سبحانه : ﴿ انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا[2] وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ

---

(١) حبط عمله يحبط : بطل ثوابه وأحبطه الله . [لسان العرب – مادة : حبط] . قال ابن الأثير : وهو من قولهم حبطت الدابة حبطاً بالتحريك إذا أصابت مرعىً طيباً فأفرطت فى الأكل حتى تنتفخ فتموت .

(٢) خفافاً : الخفة ضد الثقل والرجوح يكون فى الجسم والعقل والعمل . والخفوف : سرعة السير من المنزل . وقد يكون خفيف المتاع . أما الثقال فهو ضده .

وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٤١) ﴾ [التوبة]

هـذا أمْـر الله بإعلان النفير العـام ، ولكن المنافقين يريـدون أنْ يتفلَّتوا من هـذا الأمـر ، فبدأوا يختلقون الأعذار ، يقول تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا[1] لَاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ .. (٤٢) ﴾ [التوبة]

إنهـم لا يتحركـون عند المهمات إلا إذا كان الأمرُ سهلاً مُيسَّراً ، أما إذا كانت فيـه مشقـة فإنهم ﴿ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا .. (٦٣) ﴾ [النور] وآخر يقول ﴿ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا .. (٤٩) ﴾ [التوبة]

وقـد كان رسـول الله ﷺ قلَّما كان يخرج فى وجه مـن مغازيه إلا أظهر أنه يريـد غـيره ، غير أنه فى غزوة تبوك قال : أيها الناس إنى أريد الروم فأعلمهم، وذلـك فى زمـان البأس وشدة الحـر وجدب البلاد وحين طابـت ثمار المدينة ، والناس يحبون المقام فى ثمارهم وظلالهم ويكرهون الشخوص عنها .

فبينمـا رسـول الله ﷺ ذات يوم فى جهازه إذ قال للجد بن قيس : يا جَدُّ هل لـك فـى جِلاَد بنى الأصفر ؟ قال : يا رسول الله لقد علم قومى أنه ليس أحدٌ أشدّ عجبـاً بالنساء منى ، وإنى أخاف إنْ رأيـت نساء بنى الأصفر أنْ يفتننى فأذن لى يا رسول الله .

فأعرض عنه رسـول الله ﷺ وقـال : قد أذنت[2] . فأنزل الله : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ

---

(١) السفر القاصد : السهل الواضح المعروف هدفه وقصده . والسفر الذى كان مطلوباً منهم هو السفر إلى تبوك لغزو الروم ، وقد كان السفر إليها فى شدة الحر عسيراً فى وقت عسرة من النفقة والتجهيز فكان سفراً شاقاً وكان غير معروف الهدف ، لهذا تخلف المنافقون .

(٢) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٥/٢١٤) عن عاصم بن عمر بن قتادة وعبد الله بن أبى بكر بن حزم. وأورده السيوطى فى الدر المنثور (٧/٣٩٦) وعزاه لابن إسحاق وابن المنذر والبيهقى فى الدلائل . وقد أخرجه ابن أبى حاتم فى تفسيره (٦/١٨٠٩) من حديث جابر بن عبد الله رضى الله عنه .

يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا .. (٤٩) ﴾ [التوبة]

الغريب أن القرآن ينزل قبل رفضهم الخروج وينزل قبل أنْ يُقسموا بأغلظ الأيمان ، فيقول تعالى : ﴿ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٤٢) ﴾ [التوبة]

واستخدام حرف السين هنا يعنى أنهم لم يكونوا قد قالوها بعد ، ولكنهم سيقولونها فى المستقبل ، ولو أنهم تنبَّهوا إلى ذلك لامتنعوا عن الحلف ولقالوا: إن القرآن قال سنحلف ولكننا لن نحلف .

ولكن الله أعماهم فحلفوا ، وهكذا يأتى خصومُ الإسلام ليشهدوا رغم أنوفهم للإسلام .

إنهم بحلفهم وقَسَمهم قد شقُّوا صَفَّ المسلمين الخارجين لصدِّ العدو لأنهم بهذا الحلف تقاعسوا عن الخروج فشجعوا غيرهم على التخاذل فأوقعوا الفتنة فى الصفوف ، وهذا دأب المنافقين دائماً .

صحيح أنّ عدمَ خروجهم كان خيراً للمسلمين ، قال تعالى : ﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا[1] وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٤٧) ﴾ [التوبة]

فهم لن يكونوا إلا مصدراً لبلبلة الأفكار لو خرجوا معكم للقتال فلا تستطيعون اتخاذ القرار السليم ، فكأنهم عَيْنٌ عليكم وضدّكم وليسوا معكم ، وقد يكونون من عوامل الهزيمة التى لم يُرِدْها الله لكم .

---

(١) الخبال : النقصان والخسارة والهلاك . [القاموس القويم للقرآن الكريم ١/١٨٦] . وقال ابن الأعرابى : أى لا يُقصرون فى فسادكم . [لسان العرب – مادة : خبل] . أى : لا يقصرون فى فساد أمركم فى الحرب بالشائعات ووضع الفتنة والتحريش بينكم .

لـو خرجوا فيكـم كانوا سيُحدثـون فُرْقة بين صفوف المؤمنـين ويُفرِّقونهم وسيتغلغلون بينهم للإفساد ، فيدخل واحد منهم بين فريق من المؤمنين فيفسد وآخر يُفسد فريقاً آخر ، وهكذا يمشُون خلال المؤمنين ليُفرِّقوا بينهم .

ولاحظ أنَّ الحق سبحانه قال : ﴿ خَرَجُوا فِيكُمْ .. (٤٧) ﴾ [التوبة]

ولم يقُلْ : خرجـوا معكـم . وفَـرْق كبـير بـين الأسلوبـين وبـين استخـدام (فيكم) و (معكم) ، فكلمة (معكم) تعنى خروجاً يتسم بالطاعة منهم قولاً وعملاً، قلباً وقالباً .

أمـا يخرجـون فيكم ففيها دخـولٌ فى شيء وهـو مواضع الخلـل والضعف يدخلون فيها فيُحدثون فيها مشاكلَ وجدالاً وفُرْقة كتلك التى تُحدثه المكيروبات والجراثيم فيما حولها فى نقاط ضعف جسم الإنسان .

وذلك بالهمس فى آذان المؤمنين بتزيين الباطل للطعن فى أىِّ قرار يُصدره القائـد الذى يتولّى الأمر ، فهم يبغون الفتنة ويبغُون هزيمة المسلمين ليرجعوا إلى المدينة مهزومين ، فتعلو أسهمهم هم فى مجتمع المدينة .

حتى أنَّ كبيرهم[1] قال : ﴿ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ .. (٨) ﴾ [المنافقون]

ثـم يصف الحق سبحانـه عملهم هذا بحلفهم بالله كذبـاً واتخاذهم أيْمانهم جُنَّة للصدِّ عن سبيل الله ، فيقول تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢) ﴾ [المنافقون]

وسـاء أى قَبُـح . وليس قُبْحاً وقتياً الآن فقط ، بل هـو قُبْح حاليّ ومستقبليّ أيضـاً لأن آثاره مستمرة ، وقُبْح مـا يعملون لقولهم وفِعْلهم ، حلفهم بألسنتهم وتعمُّدهـم الكذب بقلوبهم ، ثم وَضْع الفتنة بين صفوف المسلمين وصدّهم عن سبيل الله .

---

(١) كبيرهم : المقصود به عبد الله بن أبى بن سلول رأس المنافقين فى المدينة .

لذلك قال الحق سبحانه : ﴿ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢) ﴾ [المنافقون] فأعمالهم السيئة القبيحة ليست عملاً واحداً ، ولكنها أعمال متعددة فهم يصدُّون الناسَ بالكلام ويمنعونهم باستخدام القوة فى بعض الأحيان .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (٣) ﴾

قوْل الحق سبحانه هذا يأتى بعد قوله ﴿ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .. (٢) ﴾ [المنافقون] فقوله ﴿ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢) ﴾ [المنافقون] فسوءُ عملهم يتعلق بالأمرين معاً ، اتخاذهم أيمانهم جُنة للصدِّ عن سبيل الله ، وكذلك إيمانهم ثم كفرهم .

وقد حدَّثنا القرآن عمَّنْ آمنوا ثم كفروا فى عدة مواضع ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا (١٣٧) ﴾ [النساء]

وهؤلاء هم المنافقون الذين أعلنوا الإيمانَ وأبطنوا الكفر ، فهم حوَّلوا الإيمان من عقيدة يعتقدها القلب ويُصدِّقها العمل ، حوَّلوه إلى مجرد كلمة تُقال .

وكانوا فى غاية الحرص على تأدية مطلوبات الإسلام بالأعمال الظاهرية حتى يدفعوا عن إسلامهم الريبة ، أما قلوبهم فهى مع الكفر ، لذلك أرادوا أنْ يلبسوا فى المنطق ويُدلسوا فيه .

ويذكر الحق سبحانه عن الأعراب أنهم قالوا : ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا

وَلَـكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ .. (١٤) ﴾ [الحجرات]

فالحق سبحانه يكشف دواخل نفوسهم عندما يعرفون أنهم مجرد مسلمين باللسان ولكن قلوبهم لم تؤمن ويُخبرهم الرسول بذلك ويقول لهم بلاغاً عن الله ﴿ قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَـكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ .. (١٤) ﴾ [الحجرات]

لقد كانوا أسبقَ الناس إلى صفوف الصلاة ، ولكن عندما كشف القرآنُ ما فى داخل نفوسهم عرفوا أن القرآن وَحْيٌ من الله ، عرف به محمد ﷺ خبايا قلوبهم .

ولو قالوا إنَّ محمداً هو الذى عَرَف خبايا نفوسهم لما اقتصر اعترافُهم به كرسُول ، بل ربما تمادَوْا فى الغَىِّ وأرادوا أنْ يجعلوه إلهاً ، ولكن رسولَ الله يحسم الأمرَ ويُبيِّن لهم أن الله هو الذى أبلغنى بدليل أنه أُمِر أنْ يقول لهم ﴿ قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا .. (١٤) ﴾ [الحجرات]

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا .. (١٣٧) ﴾ [النساء] أى ماتوا على الكفر . هؤلاء ﴿ لَمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا (١٣٧) ﴾ [النساء] لأنهم دخلوا فى الإيمان مرة ثم خرجوا من الإيمان .

وهم فى هذا يحققون ما جاء فى الآية قبلها : ﴿ فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ .. (٢) ﴾ [المنافقون] فهم بسلوكهم هذا يقصدون الفتنة ، لأن الآخرين سيشاهدونهم وقد آمنوا ، وسيشاهدونهم وهم يكفرون .

وسيُعلِّلون ذلك بأنهم عندما تعمَّقوا فى المسائل العقدية كفروا ، وهم يفعلون ذلك ليُهوِّنوا من شأن الإسلام ، فهم يقصدون الفتنة بإظهار الإيمان ثم إعلانهم الكفر ، وفى ذلك تشكيكٌ للمسلمين .

ويكون مصير مَنْ تردد بين الإيمان والكفر، وكان عاقبة أمرهم أنهم ازدادوا كفراً يكون مصيرهم ما جاء فى قوله: ﴿ لَمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا (١٣٧) ﴾ [النساء] فهم قد دخلوا فى الخيانة العظمى الإيمانية.

ويُحدِّثنا الحق سبحانه عن طائفة من أهل الكتاب آمنوا ثم كفروا، فقال تعالى: ﴿ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٧٢) ﴾ [آل عمران]

فلقد أراد بعضٌ من أهل الكتاب أنْ يُشكِّكوا المسلمين فى أمر المنهج، لذلك اصطنعوا تلك الحيلة، فالمؤمنون من العرب وقريش فى ذلك الزمن كانوا أُمّيين وكانوا يعرفون أن أهل الكتاب على علم بمناهج السماء، فإذا ما آمن بعضهم برسالة رسول الله وجه النهار وكفروا به آخر النهار، فهذا خَلْط للحق بالباطل، وفى هذا خداعٌ للمؤمنين وفتنةٌ لهم.

و ﴿ وَجْهَ النَّهَارِ .. (٧٢) ﴾ [آل عمران] أى أوله. ومقصود به ساعات الصبح والظهر ثم يكفرون آخر النهار، وهدفهم إشاعة الشك وزرع البلبلة فى نفوس المؤمنين بخصوص هذا الدين، وأيضاً صدّ مَنْ أراد الإيمان، فيجعله هذا السلوكُ يتردد ثم يُحجم عن الإيمان، وهذا لوقف انتشار هذا الدين.

والحق سبحانه يكشف ذلك المكر والخداع للذين حاولوا أنْ يكتموا خداعهم ولعبتهم الماكرة، فطالبوا بعضهم البعض أنْ يظلَّ الأمرُ سراً حتى لا يفقد المكرُ هدفه.

لذلك قال هؤلاء المتآمرون بعضهم لبعض ﴿ وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ .. (٧٣) ﴾ [آل عمران] أى: لا تكشفوا سرَّ هذه الخدعة إلا لمنْ هو على شاكلتكم.

لكن الحق سبحانه يكشف الأمر كلَّه بنزول هذه الآية على رسول الله ﷺ

وبلاغـه إياها للمؤمنين ، وبذلـك فسد أمر تلك البلبلة وارتـدتْ الحرب النفسية إلى صدور مَنْ أشعلوها .

وهـؤلاء لا يهديهـم الله سبيلاً ، فيقول تعالى : ﴿ كَيْـفَ يَهْدِي اللهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْـدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُـمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٨٦) ﴾ [آل عمران]

فهؤلاء آمنوا برسالة رسول الله ثم كفروا به ، كما حدث من بعضهم فى عهد الرسـول ، مثـال ذلك طعمة بـن أبيرق وابن الأسْلت والحارث بـن سويد ، هؤلاء أعلنـوا الإيمـان واتجهوا إلى مكة ومكثوا فيها ، تـاب منهم واحد وأخذ له أخوه ضماناً عند رسول الله ، والباقون لم يتوبوا .

وقـوْل الحق سبحانه : ﴿ ثُـمَّ كَفَرُوا .. (٣) ﴾ [المنافقون] أى : ستروا الإيمان بالله ورسوله ، والكفر أيضاً هو محاولة سَتْر وجود الله واجب الوجود ، ومحاولة سـتر هذا الوجـود هو إعلانٌ بـأنَّ الله تعالى موجود ، فأنت لا تحـاول أنْ تستر شيئاً إلا إذا كان له وجود أولاً .

إنَّ الشيء الذى لا وجودَ له لا يحتاج إلى سَتْر ، لأنه ليس موجوداً فى عقولنا ، فالذيـن كفروا يحاولـون ستر وجود الله ، وسَتْر وجود الله هـو إثباتٌ لوجوده ، لأنك لا تستر شيئاً غير موجود ، وهكذا يكون الكفرُ مُثبتاً للإيمان .

والكفـر هو سَتْر الوجود الأعلى ، والذى كفـر ستر وجود الله وحَرَم نفسه من المنهج الذى يأتى به الله ، إنه بذلك قد ضَلَّ ضلالاً بعيداً .

فالإيمان أصْلٌ فى وجود الخَلْق ، والخَلْق قد وُجدوا على الإيمان ثم جاء أناسٌ ستروا هذا الإيمان ، فكلمة الكفر التى معناها السَّتْر دليلٌ من أدلة الإيمان ، وإلا لو لم يكُنْ اللهُ موجوداً فكيف يسترون ما ليس له وجود ؟

فـإذا قـال لك أحدٌ : إنه كفـر – والعياذ بـالله – تقول : الكفر هو الستر ، فماذا سترتَ ؟ لابد أنك سترتَ ما هو موجود .

فمَـنْ كفـر بآيات الله الكونية فلـم يؤمن بها فهو قد سـتر وجودها وغطَّاه ، رغم الآيات الظاهرة التى تملأ الكون ، وكفروا بآيات الرسل فكذَّبوا رسلهم رغم أنهـم جاءوهم بمعجزات تخرق قوانـين الحياة ، ولم يُصدِّقوا آيات الكتاب التى أُنزِلَتْ من السماء لتبين لهم منهج الله تعالى .

وكانت نتيجة إيمانهم ثم كُفرهم بعد إيمانهم ﴿ فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ .. (٣) ﴾ [المنافقون]

أى : أن الله طَبَـع علـى قلوبهـم وخَتَـم عليها حتـى لا ينفُذَ إليهـا شعاعٌ من الهداية ، ولا يخرج منها شعاع من الكفر ، والله لم يطبع على قلوبهم بداية فقد كفـروا أولاً ، وبعـد ذلك تركهم الله فى غيهـم وضلالهم وطبع على القلوب ، فما فيها من كفر لا يخرج ، والخارج عنها لا يدخل إليها .

وقد كان بعضُ الكافرين يسمعون القرآن ثم يخرجون دون إيمان ، يقول تعالى: ﴿ وَمِنْهُـمْ مَـنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُـوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا[1] أُولَـئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (١٦) ﴾ [محمد]

فـالذيـن لا يؤمنـون بـالقـرآن آذانهم تصمّ عن الفهـم وأعماقهم بلا بصيرة ، فلذلـك لا يفهمـون عن الله ، وهذا ما نسميه الرَّان أو الرَّيْن ، يقول تعالى : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٤) ﴾ [المطففين]

أى : صـارتْ قلوبهـم مُغلقةً ومُغطَّاة بعد أنْ طبـعَ اللهُ وختم عليها فلا تقبل الخير ، ولا تميل إليه فلا يؤمنون .

والطَّبْع هو الخَتْم لأن قلوبهم ممتلئة بالضلال لذلك يعلنون التكذيب للرسول،

---

(١) الآنف : الماضى القريب . فقوله عنهم أنهم قالوا ﴿ مَاذَا قَالَ آنِفًا .. (١٦) ﴾ [محمد] أى سابقاً فى الوقت القريب . [القاموس القويم ١/٣٨] .

وقد طبع الله على قلوبهم لا قَهْراً منه ، ولكن لاستبطان الكفر وإخفائه فى قلوبهم ونفاقهم .

فهم الذين تسبَّبوا بهذا الطبْع لأنفسهم ، بعد أنْ بدأوا بالكفر . فطبع الحقُّ سبحانه على قلوبهم بما فيها من مرض ، ولو لم يبدءوا بالكفر لما طبع الله على قلوبهم .

وساعة يُنسب الطبع إلى الله يكون أقوى طَبْع على القلوب ، ويأتى الطبْع من الله سبحانه كحكم نهائى من أنَّ الله قضى عليهم به ، فلا يخرج من قلوبهم ولو كان قَدْراً ضئيلاً من النفاق ، ولا تغادر قلوبهم ذرةٌ من كفر .

والحق سبحانه يلفتنا إلى أن المنافقين هم الذين جلبوا لأنفسهم هذا الطبْع على القلوب ، لأنهم وضعوا فى قلوبهم الكفر ثم أخذوا يتحدَّثون بألسنتهم عن الإيمان ، ويحاولون خداع المؤمنين ويُخادعون الله .

فأراد الله سبحانه أنْ يُوضِّح لهم : ما دُمْتم قد اخترتم النفاق والكفر فى قلوبكم فسنطبع على هذه القلوب ونختم عليها حتى لا يخرجَ الكفرُ منها ، ولا يدخل إليها الإيمان .

وهم قد عبَّروا عن هذا الطبْع بقولهم : ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ[1] وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ (٥) ﴾ [فصلت]

والأكِنَّة : أغطية جمع كِنْ ، فجعل الله على قلوبهم أغطيةً فلا يدخلها الإيمانُ ولا يخرج منها الكفر ، وليس هذا اضطهاداً منه تعالى لعباده تعالى، تعالى الله عن ذلك ، بل استجابة لما طلبوا وتلبيةً لما أحبُّوا ، فلما أحبُّوا الكفر وانشرحتْ به صدورهم زادهم منه لأنه رَبٌّ يعطى عبده ما يريد .

---

(١) الوقْر : ثقل فى الأذن . وقيل : هو أن يذهب السمع كله ، والثقل أخف من ذلك (أى أخف من الوقر) [لسان العرب – مادة : وقر] .

كما قال عنهم في آية أخرى : ﴿ **فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ** (١٠) ﴾ [البقرة] فأجابهم الله إلى ما أرادوا وختم على قلوبهم ليزدادوا كفراً ، وطالما أنهم يحبونه فلنزدهم منه .

ويقول سبحانه : ﴿ **فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ** (٣) ﴾ [المنافقون] ، والفِقْه هو الفَهْم ، ويصير الفهمُ قضيةً مُرجِّحة انتهى إليها الاقتناع من المرائى والمحسَّات ، لكن هؤلاء الكافرين لا يروْنَ بأعينهم إلا هواهم .

وكذلك لا تسمع آذانهم إلا ما يروق لهم ، فلا يستمعون إلى الهدى ، ولا يلتفتون إلى الآيات التى يستدلون بها على الخالق ، فتعيش قلوبهم بلا فقه .

فحين يقال ﴿ **لَا يَفْقَهُونَ** (٣) ﴾ [المنافقون] أى : لا يفهمون بذواتهم ، والفَهْم هو أول مرحلة من مراحل الذات الإنسانية ، وهناك فَرْق بين الفَهْم والعلم ، والفَهْم يعنى أنك تملك القدرةَ على تفهُّم ذاتية الأشياء بمَلَكَةٍ فيك .

لكنَّ العلم يعنى أنك قد لا تفهم أنت بذاتك ، وإنما يفهم غيرك ويُعلِّمك ، ولكنْ قد يقول قائل : ما داموا لا يفقهون فما ذنبهم ؟

ونقول : الذى لا يفهم عليه أنْ يتقبَّل التعليم ، لكن هؤلاء لم يفهموا ولم يتعلموا وأصرُّوا على عدم قبول العلم فاستحقُّوا الخَتْم والطَّبْع على قلوبهم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٤) ﴾

الحق سبحانه يصف هؤلاء المنافقين بصفات متعددة ، منها ما يتعلق بمظهرهم البدنى ، فهم : ﴿ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ .. (٤) ﴾ [المنافقون] ومنها منطقهم وقولهم ﴿ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ .. (٤) ﴾ [المنافقون]

وهم كالخُشُب المسنَّدة ، ثم إنهم لنفاقهم وخَوْفهم من انكشاف أمرهم : ﴿ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ .. (٤) ﴾ [المنافقون]

وقد كان نفاقهم دليلاً على قوة الإسلام وقوة المسلمين فى المدينة ، فكانوا يأتون بأقوال وبأفعال تُعجب من يُنافَق ، ولذلك لم ينشأ النفاقُ فى مكة وإنما نشأ فى المدينة .

فالإسلامُ كان ضعيفاً فى مكة ، والضعيفُ لا ينافقه أحد ، والإسلام فى المدينة أصبح قوياً ، والقوى هو الذى ينافقه الناس .

فوجود النفاق فى المدينة كان ظاهرةً صحية تدلُّ على أن الإيمان أصبح قوياً بحيث يدعيه مَنْ ليس عنده إسلام .

وهؤلاء كانوا يقولون قَوْلاً حَسَناً جميلاً ، وقد يفعلون أمام مَنْ ينافقونه فِعْلاً يُعجب مَنْ يراهم أو يسمعهم ، ولكنهم لا يثبتُون على الحق ، فإذا ما تولوْا أى اختفَوْا عن أنظار مَنْ ينافقونه رجعوا إلى أصلهم الكُفْرى .

فكأنّ المظهر الذى يقول أو يفعل به ينافى التقوى لأنه قَوْلٌ معجب لا ينسجم مع باطن غير معجب ، صحيح أنه يصلى فى الصف الأول ويتحمَّس لقضايا الدين ، ويقول القول الجميل الذى يُعجب المؤمنين لكنه سلوك وقَوْل صادرٌ عن نِيَّة فاسدة .

والمؤمن لابدَّ وأنْ تكونَ عنده فِطْنة وذكاء وألمعية ويرى تصرفات المقابل

فلا يأخذ بظاهر الأمر ولا بمعسُول القول ولا بالفعل ، إنهْ لم يصادف فيه انسجام فِعْل مع انسجام قَوْل .

والحق سبحانه يكشف لنا واقعَ المنافقين بتجارب عملية حتى لا يقول واحد منهم : لستُ منافقاً . وعندما يظهر الله المنافق ويكشفه بحادثة مُدويَّة فعلية ومُخجلة تُبيِّن أنه منافق ، فيكون قد وُصِم بالنفاق .

فكثيرٌ من الناس الذين يظلُّون طوال عمرهم يُنافقون اعتماداً على أنهم مسلمون فى الظاهر لا يتركهم الله ، بل لابدّ أنْ يأتى الله لهم بخاطر من الخواطر ويقعوا فى فخّ اكتشاف المؤمنين لهم حتى يعرفهم المؤمنون ويُقيّموهم على حقيقتهم .

فالمؤمن حين يجلس مع جماعة من المنافقين ويأتى وقت صلاة الظهر ويدعو الأذان إلى الصلاة تجد المؤمن يقول : فَلنقُمْ إلى الصلاة ، وهنا يسخر المنافق ويقول للمؤمن : لتأخذنى على جناحك للجنة يوم القيامة .

أو عندما يدخل مؤمن على جماعة من الناس فيهم منافق ، فيستقبل المنافقُ المؤمنَ بلهجة من السُّخرية فى التحية : كيف حالك يا شيخ فلان ؟ معنى ذلك أنه غير مستريح لوجود المؤمن فيسخر منه .

والمنافقون لا يألُون فى مؤمن إلاًّ[1] ولا ذمة ، وهذا يتضح معنا فى تلك القصة التى أوردها المفسرون فى صحبة زيد بن ثابت رضى الله عنه لأحد هؤلاء الذين يُبطنون النفاق والعداوة ، ويُظهرون الالتزام بالإسلام وهم يُضمرون الشرَّ فأراد قَتْل زيد .

---

(١) الإلّ : بكسر الهمزة وتشديد اللام : العهد . والإلّ : القرابة . ويقول تعالى : ﴿ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً (١٠) ﴾ [التوبة] أى : لا يراعون فى مؤمن عهداً ، أو لا يُراعون قرابة ولا أماناً ولا كفالة ولا حرمة [القاموس القويم ١/ ٢٥] .

فقد خرج زيد بن ثابت مع منافق من مكة إلى الطائف فبلغا خَربة فقال المنافق : ندخل هاهنا ونستريح ، فدخلا ونام زيد فأوثق المنافقُ زيداً وأراد قَتْله ، فقال زيدٌ : لِمَ تقتلنى ؟ قال : لأن محمداً يُحبك وأنا أبغضه .

فقال زيد : يا رحمن أغثنى . فسمع المنافقُ صوتاً يقول : ويحك لا تقتله . فخرج من الخربة ونظر فلم يَرَ أحداً . فرجع وأراد قتله فسمع صائحاً أقربَ من الأول يقول : لا تقتله فنظر فلم يجد أحداً .

فرجع الثالثة وأراد قَتْله فسمع صوتاً قريباً يقول : لا تقتله .

فخرج فرأى فارساً معه رُمْحٌ ، فضربه الفارس ضَرْبةً فقتله ، ودخل الخربة وحَلَّ وثاق زيد . وقال له : أما تعرفنى ؟ أنا جبريل حين دعوتَ كنتُ فى السماء السابعة ، فقال الله عز وجل : أدرك عبدى .

وفى الثانية كنتُ فى السماء الدنيا . وفى الثالثة بلغتُ إلى المنافق[1] .

ولذلك قال تعالى : ﴿ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ .. (٤) ﴾ [المنافقون] فلا يأمن مؤمن لمنافق لا على حياته ، ولا على ماله ، ولا على عِرْضه ، ولا حتى على أفكاره وعقيدته ومبادئه .

فالمنافق استباح الكذبَ على الخالق ويظنُّ أنه غير مُطّلع عليه ، فما بالك بالكذب على العباد والتدليس عليهم ؟

ويقول تعالى : ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ .. (٣٠) ﴾ [محمد] فلو لاحظتَ كلامهم لعرفتَهم وللاحظتَ فى كلامهم لقطةً من نفاق .

---

(١) أورده فخر الدين الرازى فى تفسيره (مفاتيح الغيب) (١/١٥٤) وقد أورده بصيغة التمريض رُوى . وقد أورده عبد الرحمن الصفورى فى كتابه : « نزهة المجالس ومنتخب النفائس » (١/٨١) ونسبه للرازى فى تفسيره .

فلو شئنا أنْ نقول لك مَنْ هم لقُلْنا لك ودَلَلْناك عليهم حتى تعرفهم بأعيانهم ، ولكنَّ الله ستر عليهم إبقاءً عليهم لعلهم يتوبون ، ولتعرفنَّهم من فَحْوى كلامهم وأسلوبهم .

وفى هذا القول دعوةٌ لفحْص ما يقوله أهل النفاق ، حتى وإنْ بدا القول على ألسنتهم جميلاً .

ويُنبِّهنا الحقُّ سبحانه إلى ضرورة الاحتياط ، وأنْ يمتلك المؤمنون الفِطْنة والفراسة وصِدْق النظر إلى الأشياء ، فكشف لنا سبحانه كُلَّ أوجه النفاق ، فكشف منافقى المدينة حيث يوجد منافقون وغير منافقين ، ومنافقى الأعراب الذين يُوجد بينهم منافقون وغير منافقين .

وعلّم الحقُّ سبحانه المؤمنين كيف يتعرَّفون على المنافقين بالمظاهر التى تكشف ما يدور فى صدورهم .

ومعنى ﴿ لَحْنِ الْقَوْلِ .. (٣٠) ﴾ [محمد] أنْ يميلوا به عن غير معناه ، ومن ذلك قولهم فى السلام على رسول الله : السَّام عليكم . والسَّام هو الموت ، وكما لووا ألسنتهم بكلمة (رَاعِنَا) فقالوا : رَاعُونا يقصدون الرُّعونة .

لذلك فاحذروهم ، وسأفضح لكم أمرهم لتكونوا على بيِّنة من كلِّ تصرُّفاتهم وخائنات أعينهم وخائنات ألسنتهم .

ويقول الحق سبحانه : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ (٢٠٤) ﴾ [البقرة]

و ﴿ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ .. (٢٠٤) ﴾ [البقرة] هل الممنوع أنْ يُعجبك القول ؟ لا يعجبنى القول ولكن فى غير الحياة الدنيا ، فالقول الذى يُعجب هو ما يتعلّق

بأمر الحياة الآخرة الباقية ليضمَن لنا الخير عند مَنْ يملك الخير .

وكفى بالذى يسمع من مادح له مدحاً ، والمادح نفسه يُضمر فى قلبه كُرْهاً له ، وكفى بذلك شهادة تغفيل للممدوح ، بأنه يقول بينه وبين نفسه : «إن الممدوح غبى لأنى أمدحه وأنا له كاره وهو مصدق مدحى له» .

إن الله سبحانه وتعالى يُنبِّهنا إلى ضرورة أنْ يكون المسلمُ يقظاً وفَطِناً ، ومَنْ يقول لنا كلاماً يُعجبنا فى الحياة الدنيا نتهمه بأنَّ كلامه ليس حسناً ، لأن خَيْرَ الكلام هو ما يكون فى الأمر الباقى .

ولذلك عندما أرسل خليفة المسلمين للإمام جعفر الصادق يقول له : لماذا لا تغشانا – أى لا تزورنا – كما يغشانا الناس ؟ فكتب الإمام جعفر الصادق للخليفة يقول : أما بعد فليس عندى من الدنيا ما أخافك عليه ، وليس عندك من الآخرة ما أرجوك له .

وكأنه يريد أنْ يقولَ له : اتركْنَا وحالنا ، أنت محتاج لمَنْ يجلس معك ويمدحك وأنت لا تعلم أنَّ أول أُنَاس لهم رأى سيء فيك هم مَنْ يمدحونك .

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. (٢٠٤) ﴾ [البقرة] وهذه الآية نزلتْ فى الأخنس بن شريق الثقفى واسمه أُبيّ ولُقِّب بالأخنس لأنه خنس ورجع يوم بدر ، فلم يقاتل المسلمين مع قريش واعتذر لهم بأنَّ العير قد نجتْ من المسلمين وجاءت إليهم .

وكان الأخنس ساعة يقابل رسول الله ﷺ يُظهر إسلامه ويُلين القَوْلَ للرسول ويدَّعى أنه يحبه ، والآية وإنْ نزلت فى الأخنس فهى تشمل كُلَّ منافق .

كأنَّ الحق تبارك وتعالى يُعلِّمنا أنَّ الكلام النظرى شيء ، والعمل الواقعى

شـيءٌ آخـر ، فقد تسمع من أحدهم الجميل من القول الذى يُعجبك ، فإذا ما جاء وقـت العمـل والتنفيـذ لا تجد شيئـاً ، لأن الكلام قد يُقال فـى أول الأمر بعبارة الأريحيـة ، كمَـنْ يقول لك : أنا رَهْنُ أمرك ورقبتى لـك ، فإذا ما أحوجك الواقعُ إليه كنتَ كالقابض على الماء لا تجد منه شيئاً .

لذلك وصفهم الحق سبحانه فقال : ﴿ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ .. (٤) ﴾ [المنافقون] فهم خُشب ، والخُشُب جمع خشبة ، فوصفهم الله بحُسن الصورة وكلامهم الجميل المعسـول ولكنهـم تركـوا فَهْم مـا يسمعون وعزفوا عـن التحرك مع مـا يقتضيه الإيمـان والفَهْـم ، لذلك كانوا بمنزلة الخشب ، كمـا تقول لأحدهم : «ما لك مخشِّب كده ليه ؟» .

فهـو لا يريـد أنْ يستجيب لما أمرتَه أو نصحتَه بـه ولا يريد أنْ يطيع فتجده كالخشبـة جامـدةً لا تتحرك ولا تستجيب ، ثم إنها خُشُب مُسنَّدة ، فهى مسنودة أو مُمالة إلى حائط فهم حائط مائل ، ليس فيهم رجاءٌ ولا أملٌ .

وهـم أشباهُ ناسٍ بلا أرواح ، وأجسام بلا عقول ، ولذلك قال بعضهم : خُشب جمع خشباء ، وهى الخشبة المجوَّفة المفرّغة من لُبِّها لا منفعة فيها .

كذلك المنافقون أجسام ضخمـة تُعجب الرائى الناظر إليها وألسنَة فصيحة تنطق بما يريده السامع ، ولكن القلوبَ فارغةٌ من حقيقة الإيمان والطاعة .

ويقـول تعـالى : ﴿ يَحْسَبُـونَ كُلَّ صَيْحَـةٍ عَلَيْهِـمْ .. (٤) ﴾ [المنافقـون] وهم يتصرَّفون هكذا ، لأن الريبة تملأ أعماقهم ، وكلما رأى واحدٌ منهم مؤمناً يسير إلى ناحيته يظن أنه جاء ليؤدِّبه ضَرْباً أو قَتْلاً .

ونعلـم أنَّ المريـبَ يكاد أنْ يقول : خُذونى . إنه بسلوكه إنما يدلُّ على نفسه ، لقد قذف الله فى قلوبهم الرعب أى الخوف وهو جندى من جنود الله ، هذا الرعب

الـذى ألقاه الله فى قلوبهم يملأ عليهم كيانهم كله ، فتجدهم مذعورين يملؤهم الرعب من انكشاف أمرهم .

والمقصود بالصيحة هنا ليستْ صيحةَ العذاب الذى كان يُنزل الله مثله على أقـوام سابقـين ، كما قال تعالى عن قوم لوط : ﴿ لَعَمْرُكَ[1] إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ[2] يَعْمَهُونَ (٧٢) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ (٧٣) ﴾ [الحجر]

ولكـن المقصـود صيحة التنـادى بمواجهتهـم ، والصيحة تُحـدِث رعباً فى الخصـم ، ونحن نرى هذه الأيـام بعضاً من الألعاب كلعبـة «الكاراتيه» تصدر صيحةٌ من اللاعب فى مواجهة خَصْمه ليزيد من رُعْبه .

كمـا نرى فى تدريبـات الصاعقة العسكرية نوعاً مـن الصرخات هدفها أنْ يُدخلَ المقاتلُ الرعبَ فى قلب عدوِّه ، وكلّ ما يتطلب إرعابَ الخصم يبدأ بصيحة تُفقده توازنه الفكرى .

ويصـف الحقُّ سبحانه سلوكَ المنافقين ، فيقـول : ﴿ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ .. (١٩) ﴾ [الأحزاب]

فهـؤلاء تـدور أعينهم هنا وهناك لا تهدأ ، إما من خوف ، أو من قلق ، أو من اضطـراب ، فالهوْل والرعـب ساعة يستولى على الأعين ، فمـرة تشخصُ العين علـى مـا ترى لا تتعدَّاه إلى غيره من شدة الهول ، ومرة تدور هنا وهناك تبحث عن مفرٍّ أو مخرج مما هى فيه ، فهذه حالات يتعرَّض لها الخائفُ المفزَّع .

---

(١) لعمرك : أى لحياتك قسمى . أى أقسم بحياتك . والعَمرُ بالفتح : مدة الحياة . [القاموس القويم ٢ / ٣٥] .
(٢) سكرتهم : السكرة غلبة اللذة على الشباب . ويقال : ذهب بين الصحوة والسكرة إنما هو بين أن يعقل ولا يعقل . [لسان العرب – مادة : سكر] وقال فى القاموس القويم ١/ ٣٢٠ : قوله : ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٢) ﴾ [الحجر] أى : فى غشية شهواتهم على عقولهم وغفلتهم واغترارهم بالدنيا اغتراراً يُضلهم فيعمون عن الحق .

لا تستقر أبصارهم ولا تسكن إلى شيء ، زاغتْ أبصارهم ﴿ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ .. (١٩) ﴾ [الأحزاب] هذا حالهم عند الخوف والفزع : ﴿ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ[1] بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ .. (١٩) ﴾ [الأحزاب] ومعنى : ﴿ سَلَقُوكُمْ .. (١٩) ﴾ [الأحزاب] أى : آلموكم وآذوكم بألسنتهم بالتطاول بالقول والإيذاء والتأنيب .

ويقول تعالى : ﴿ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ .. (٤) ﴾ [المنافقون] فارصدوا حركاتهم حتى تأمنوا مكرهم وارصدوا كلامهم ، وارصدوا أفعالهم، ولا تجعلوهم يخرجون عن رقابتكم ، وافعلوا ما بوُسْعكم لتكونوا فى مأمن من شرورهم .

فإياكم أنْ يخدعوكم بمعسول الكلام وزَيْف الأساليب كى ترضوا عنهم ، فإنْ تحقَّق هذا الرضا منكم عنهم فهو رضا بعيد عن رضا الله ورسوله ، وليس من باطن رضا رسول الله .

وكلمة (عدو) فى ظاهرها أنها مفرد ، ولكنها تُطلق على الواحد ، وتُطلق على الاثنين ، وتُطلق على الجماعة . فتقول : هذا عدوٌّ لى ، وهذه عدوٌّ لى ، ولا تَقُلْ (عدوة) وتقول : هذانِ عدوٌّ لى ، وهاتان عدوٌّ لى ، لأن كلمة (عدو) تُطلق على الذكَر والأُنْثى وتُقال للمفرد وللمثنى وللجمع .

والحق سبحانه هنا يستخدم الضمير المنفصل (هم) ثم (الـ) التعريف فى كلمة (العدو) ، وكأنَّ الحقَّ سبحانه يحصر الأعداء جميعاً فى عدوٍّ واحد هم هؤلاء المنافقون ، لأنهم فى الحقيقة هم الأعداء الحقيقيون للمؤمنين .

---

(١) سلقوكم : سلقه بلسانه يسلقه سَلْقاً : بسط لسانه فيه بما يؤذيه [القاموس القويم ٣٢٣/١] سلقه بلسانه : أسمعه ما يكره فأكثره . ﴿ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ .. (١٩) ﴾ [الأحزاب] أى : بالغوا فيكم بالكلام وخاصموكم فى الغنيمة أشد مخاصمة وأبلغها . [لسان العرب – مادة : سلق] .

فهؤلاء المنافقون يفتنون الناسَ فى دينهم ويُوقعون الفتنة بين المسلمين ويميل لهم ضعافُ العقيدة والقلوب ، ويشقُّون صَفَّ المؤمنين ، ويُشِيعون الأفكار الضالَّة بينهم .

والعدو هو الخَصْم الذى يريد إلحاقَ الأذى والضرر بك ، وإذا كان العدوُّ الظاهر شَرُّه واضح ، فالعدو الخفيّ شَرٌّ من العدو الظاهر ، لأننا نكون على حذر من العدو الظاهر ، لكننا لا نأخذ الحذر من العدو الخفيِّ ، وهو يعرف ما فى نفسى ويعرف كُلَّ تحركاتى ويستطيع أنْ يغدرَ بى فى أىِّ وقت دون أنْ يكون مُنتبهاً لهذا الغدر .

والعداوة تُؤدِّى بنا إلى نشاط وتنبُّه ، فالمستشرقون مثلاً يُعادون الإسلام ، ولكن معاداتهم هذه تُعطينا نشاطاً لكى نبحثَ ونطّلع حتى نردَّ عليهم ، وجنود الشيطان من الإنس يُعادُون المؤمنين ، وعداوتهم هذه تُعطينا مناعةَ ألاَّ نُخطيء، ولا نغفل ، فأنت ما دام لك عدوٌّ فحاول أنْ تتفوق عليه بكلِّ السُّبل .

لذلك تجد رُوحَ الإيمان تقْوَى حين يُهاجَم الإسلام من أىِّ عدوٍّ من أعدائه ، وتجد الإسلامَ قد استيقظ فى نفوس الناس ، فلو لم يُوجد فى الكون آثارٌ ضارَّةٌ للشرِّ لما اتجه الناسُ إلى الخير .

وكلمة (عدو) تعنى وجود صراعٍ ، فالمؤمن سيدخل مع المنافقين فى صراع، وهو صراع بين الحق والباطل فى المبادىء والقيم ،وهو صراعٌ لا يهدأ أبداً ، لأنه صراعُ أهواءٍ تتحكَّم فى البشر ،ولذلك يختلفون اختلافات عميقة .

وتستعر العداوة وتزكُو نارُها ويحتدم بينهما صراعٌ ، والحق سبحانه يقول: ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللهُ يَعْلَمُهُمْ .. (٦٠) ﴾ [الأنفال]

وهـذه لَفْتةٌ من الحق سبحانه وتعـالى إلى أنَّ أعداء المسلمين ليسوا هم فقط الذين ظهروا أثناء الرسالة من كفار قريش واليهود والمنافقين وغيرهم ، ولكنَّ هنـاك خَلْقاً كثيراً سيأتُون بعد ذلك أو مع ذلك لا تعلمونهم ، ولكن الله سبحانه وتعالى يعلمهم .

كمـا يلفتنـا سبحانـه إلى أنَّ أعداء المسلمـين ليسوا هم الذيـن يظهرون فى ميـدان القتال فقط ليحاربوا المسلمـين ، ولكن هناك كثيراً ممَّنْ لا يظهرون فى ميدان القتال يحاربون دين الله ويحاربون المسلمين .

فكُـنْ صالحـاً فى أىِّ وقت أمـام أىِّ عـدو ستجد الله وهو يتـولاَّك بالنصر ، واعلـم أنَّ المنافق شَرٌّ من الكافر ، لأن الكافرَ يعلن عداءه للدين فهو عدوٌّ ظاهرٌ لـك فتأخـذ حذْرك منـه ، أما المنافق فهـو يتظاهر بالإيمـان فتأمن له ويكون إيذاؤُه لك أكبَر وقدرتُه على الغَدْر أشدَّ .

لذلك قال تعالى هنا : ﴿ هُمُ الْعَدُوُّ .. (٤) ﴾ [المنافقون] فإذا كنتم تظنون أنَّ الكافريـن هم أعداؤكم فلا تغفلوا عن أنَّ المنافقين هم العدو الحقيقى وتجمعتْ عداواتهم كلُّها فأصبحتْ عداوةً واحدةً ، وأصبح العدوُّ واحداً مُتمثِّلاً فيهم .

ثـم يقول تعـالى : ﴿ فَاحْذَرْهُمْ .. (٤) ﴾ [المنافقـون] وأخْذ الحذر من الأعداء مفروغٌ منه ، ولكن الحق سبحانه ينصُّ عليه هنا فى حَقِّ المنافقين .

والمنافقـون يشعـرون فى داخـل صدورهـم أنَّ كُلَّ مسلم فى قلبـه شَكٌّ من ناحية تصرُّفاتهم ، والمؤمنون قد متّعهم الله بمناعة إيمانية فى صدورهم فلا يُصدِّقـون ما يقوله المنافقون حتى يأخذوا حذرهم ويكونوا بمنجاة مما يُدبِّره هؤلاء المنافقون من أذى .

ولذلك حذر سبحانه وتعالى المؤمنين من تصديقِ كلام المنافقين حتى ولو حلفوا .

﴿ قَاتَلَهُمُ الله .. (٤) ﴾ [المنافقون] أى : لعنهم الله وطردهم ، وأنت إذا رأيت فِعْلاً قبيحاً من فرد تقول : قاتله الله لأنَّ حياته تزيد المنكرات .

﴿ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٤) ﴾ [المنافقون] وكلمة (أنَّى) تردُ بمعنيين ، فمرة تعنى: من أين ؟ ومرة أخرى تعنى : كيف ؟ ومثال المعنى الأول قوله سبحانه على لسان سيدنا زكريا عليه السلام لما دخل على مريم البتُول ﴿ أَنَّى لَكِ هَـٰذَا .. (٣٧) ﴾ [آل عمران] أى : من أين لكِ هذا ؟

أما هنا فبمعنى كيف ، ومثلُها قوله تعالى : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ الله وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ الله ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ[1] قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ الله أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٣٠) ﴾ [التوبة]

أى : كيف يعدلون عن الحقِّ ، فما كان يصحُّ أنْ تغيبَ عنهم الحقيقة التى تُوجبها الفطرة الإيمانية ، وكيف يضلُّون عن الحق وهو ظاهر ويعدلون إلى الباطل .

ومَنْ يقدر على مقاتلة الله له ، ومثال هذا قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا الله وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٧٨) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ الله وَرَسُولِهِ .. (٢٧٩) ﴾ [البقرة]

وحَرْب الله لا نقول منها إلا قَوْل الله : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ .. (٣١) ﴾ [المدثر] ، ولا أحدَ يستطيع أنْ يحتاط لها ، وأمّا حرب رسول الله ﷺ وحرب المؤمنين للمنافقين ، فهذا هو الأمر الظاهر .

كأن الله سبحانه يُجرِّد على المنافقين تجريدةً هائلة من جنوده التى لا

---

(١) يضاهئون : يحاكون ويشابهون ويقولون مثله . [القاموس القويم ١/٣٩٦] قال الليث : المضاهاة مشاكلة الشيء بالشيء . وقال أبو إسحاق : معنى يُضاهون قول الذين كفروا أى يشابهون فى قولهم هذا قول من تقدَّم من كفرتهم ، أى إنما قالوه اتباعاً لهم [لسان العرب – مادة : ضها] .

يعلمها إلا هو كما جرَّد على المرابين .

ويقول سبحانه : ﴿ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٤) ﴾ [المنافقون] أى : كيف ينصرفون عن الله وينصرفون عن الحق ، والإفْك صَرْف الشيء عن وجهه لذلك سُمّى الكذبُ إفكاً ، لأن الكاذب يخبر بقضية تخالف الواقع فيأتى بها على غير وجهها ، أو يُوجدها وهى غير موجودة أو يُنكر وجودها ، والمنافق كاذب .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى (٥٣) ﴾ [النجم] وهى القرى التى قلبها الله فجعل عاليها سافلها .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ (٥) ﴾

لقد كان أهلُ يثرب يستعدون لتنصيب عبد الله بن أُبىّ بن سلول ملكاً على يثرب حينما جاءها رسول الله ﷺ مهاجراً من مكة إلى المدينة[1] .

فلما جاء رسولُ الله المدينةَ انفضَّ الناسُ عن ابن أُبىّ ، وتوجهتْ الأنظارُ إليه ﷺ ، فغضب ابنُ أُبىٍّ وازداد كرهه لرسول الله وسعى لمحاربته ومناوأته ، وحسده على ما نال من حُبِّ الناس والتفافهم حوله .

ففى اليوم الذى دخل فيه رسول الله كانوا يصنعون لعبد الله بن أبيّ تاجاً ليُنصِّبوه ملكاً على المدينة ، فلما فُوجيء برسول الله واجتماع الناس عليه وانفضاضهم من حوله بقيتْ هذه فى نفسه .

---

(١) أورد ابن جرير فى تفسيره (٣٤٤٩٤) عن محمد بن إسحاق خبراً طويلاً فيه أن أسيد بن حضير قال لرسول الله : يا رسول الله ارفق به ، فوالله لقد جاء الله بك وإن قومه لينظمون له الخرز ليتوجوه ، فإنه ليرى أنك قد استلبته ملكاً . ومثله فى أسباب النزول للواحدى النيسابورى وكذلك البيهقى فى (دلائل النبوة) (٤/٥٣).

وحدث أن اجتمع الكافرون عند جبل أُحُد لمحاربة رسول الله فى ثلاثة آلاف مقاتل ، واستشار النبى ﷺ فى هذه المسألة أصحابه ، وأرسل إلى عبد الله بن أبيّ بن سلول ، وما استدعاه إلا فى هذه المعركة .

فقال عبد الله بن أُبيٍّ بن سلول وأكثرُ الأنصار : يا رسولَ الله نحن لم نخرج إلى عدوٍّ خارج المدينة إلا نَالَ منَّا ، ولم يدخل علينا عدو إلا نِلْنَا منه .

فإنّا نرى ألاَّ تخرج إليهم فإنْ أقاموا أقاموا بشَرِّ محبسٍ ، وإنْ دخلوها قاتلهم الرجالُ فى وجوههم ، ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم، وإنْ رجعوا رجعوا خائبين .

وأشار آخرون من الصحابة بالخروج إليهم وقالوا : يا رسول الله ، اخرجْ بنا إلى أعدائنا لا يرون أنّا جبُنَّا عنهم وضعُفْنا .

ولم يترك أصحابُ هذا الرأى رسولَ الله حتى وافقهم على ما أرادوا ، فدخل رسولُ الله ﷺ بيته ، فلبس دِرْعه وأخذ سلاحه ، وظنَّ الذين ألحُّوا على رسول الله بالخروج أنهم قد استكرهوه على ما لا يريد فندموا على ما كان منهم .

ولما خرج عليهم قالوا : «استكرهناك يا رسول الله ولم يكُنْ لنا ذلك ، فإنْ شئتَ فاقْعُدْ ، فقال رسول الله ﷺ : ما ينبغى لنبيٍّ لبس لأمته[1] أنْ يضعها حتى يقاتل»[2] وخرجوا إلى الحرب .

وعندما نتابع هذا المنطق فى القصة فى ذاتها نجد أن ابنَ أُبيٍّ كان من رأيه

---

(١) اللأمة هى الدرع . ولأمة الحرب : أداتها . وقال بعضهم : اللأمة الدرع الحصينة ، سميت لأمة لإحكامها وجودة حلقها . وقيل : سميت لأمة لأنها تلائم الجسم وتلازمه . [لسان العرب – مادة : لأم] .

(٢) أورده أبو عمر بن عبد البر فى كتابه (الدرر فى اختصار المغازى والسير ١/١٤٥) فى كلامه عن غزوة أحد ، وفيه أن المسلمين قالوا : يا رسول الله إن شئت فارجع فقال رسول الله ﷺ : « ما ينبغى لنبى إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل » . وكذا فى الرحيق المختوم للمباركفورى (١/٢١٥) والسهيلى فى الروض الأنف (٣/٢٤٣) .

أنْ يظلَّ رسولُ الله فى المدينة ، لمـاذا ؟ لأنه قد ثبت بالتجربة أنه إذا جاء قومٌ ليُغيروا على المدينة ودخلوها فأهْلُ المدينة ينتصرون عليهم ، وإذا خرج لهم أهل المدينة فهم ينهزمون .

إذن فالقضية واضحةٌ فى ذِهْن ابن أُبيٍّ ،فهو لم يَرْضَ أنْ يخرج لأن التجاربَ أثبتتْ له أنهم إذا خرجوا عن المدينة ليحاربوا العدو فعدُّوهم ينتصر عليهم، وإذا ظلُّوا انتصروا ، إذن فهو واثق من نتيجة الخروج .

ولكن ما دامتْ المسألة قد صدرتْ من رأس النفاق عبد الله بن أُبيٍّ فأنت لا تستطيع أنْ تحكمَ أين الحق ، فمن الجائز أنَّ آثار يوم الهجرة من مكة إلى المدينة ، كانت باقية فى نفس ابن أُبيٍّ .

ففى ذلك اليوم الذى جاء فيه الرسولُ إلى المدينة كان هو اليوم الذى كان سيُتوَّج فيه المنافق (ابن أُبيٍّ) ليكون مَلِكاً على المدينة ، فلما جاء الرسولُ بهذا الحدث الكبير تغيّر الوضع وصار التاجُ من غير رأسٍ تلبسه ، فهذه قد حملها فى نفسه .

وقد قال الحق سبحانه : ﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ (١٦٧) الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٦٨) ﴾ [آل عمران]

فعندما أراد ابن أُبيٍّ أنْ يخذلَ الجيش وافقه بعض المنافقين ولم يوافقه البعضُ، هؤلاء الذين خرجوا للقتال والجهاد ولم يُوافقوهم ثم قتلوا فرحوا فيهم ، وقالوا : لو كانوا أطاعونا ومكَثُوا فى المدينة ولم يخرجوا لَمَا انهزموا ولَمَا قتلوا .

وكأنَّ الحق سبحانه يُوضِّح لنا أسلوبهم ، لذلك سنأخذهم من منطقهم .. هم قعدوا وقالوا عن إخوانهم الذين قُتلوا فى المعركة والذين هم من جماعتهم ﴿ لَوْ أَطَاعُونَا .. (١٦٨) ﴾ [آل عمران]

كأنَّ قولاً صدر منهم : أنِ اقعدوا . ولكن القوم الآخرين الذين هم أقلُّ نفاقاً لم يُطاوعوهم وخرجوا ، فحدث لهم ما حدث .

فكيف يردُّ الله على هذه ؟ انظروا إلى الردِّ الجميل : أنتم تقولون : ﴿ لَوْ أَطَاعُونَا .. (١٦٨) ﴾ [آل عمران] فكأنَّ طاعتكم كانت وسيلة لسلامتهم من القتل . إذن : فأنتم تعرفون طريق السلامة من القتل .

والذى يعرف طريق السلامة من القتل هل يعرف طريق السلامة من الموت؟ ولذلك يقول الحق سُخريةً بهم : ﴿ فَادْرَءُوا[1] عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٦٨) ﴾ [آل عمران] ففى ذلك رَدٌّ عليهم من كلامهم ﴿ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا .. (١٦٨) ﴾ [آل عمران]

فقلبُ عبد الله بن أُبيٍّ بن سلول امتلأ حقداً فكانت ظلمة ، وملأت الحسرةُ قلبه فكانت ظلمة ، وملأتْ الكراهيةُ والبغضاء قلبه فكانت ظلمة ، فهى ظلماتٌ متعددة .

وقد كان ابن أُبيّ رأسَ النفاق فى المدينة ، ومن مواقف نفاقه ما ذكره حديث أنه لما قدم رسولُ الله المدينة – يعنى مرجعه من أُحُد ، وكان عبد الله ابن أُبيّ بن سلول له مقام يقومه كلَّ جمعة لا ينكر شرفاً له من نفسه ومن قومه وكان فيهم شريفاً .

---

(١) ادرءوا : الدرء الدفع . وفى الحديث « ادرءوا الحدود ما استطعتم » . وتدارأتم أى اختلفتم وتدافعتم . أدرؤه درءاً : دفعته . وتدارأ القوم : تدافعوا فى الخصومة . [لسان العرب – مادة : درأ] .

كان ابن أبيٍّ إذا جلس النبيُّ ﷺ يوم الجمعة وهو يخطب الناسَ قام ، فقال: أيُّها الناسُ ، هذا رسولُ الله بين أظهركم أكرمكم الله به وأعزَّكم به فانصروه وعزّروه واسمعوا له وأطيعوا .. ثم يجلس .

حتى إذا صنع يوم أُحُد ما صنع ، يعنى مرجعه بثلث الجيش ورجع الناس، قام بفِعْل ذلك كما كان يفعله ، فأخذ المسلمون بثيابه من نواحيه ، وقالوا: اجلس أىْ عدوَّ الله لسْتَ لذلك بأهْلٍ وقد صنعتَ ما صنعتَ ، فخرج يتخطّى رقابَ الناس وهو يقول : والله لَكأنَّما قلتَ بُجراً[1] أن قمتُ أشْدُدْ أمره .

فلقيه رجالٌ من الأنصار بباب المسجد ، فقالوا : ويلك مالك ؟ قال : قُمْتُ أشدُد أمره فوثب عليّ رجالٌ من أصحابه يجذبوننى ويُعنِّفوننى لكأنما قلتُ بجراً أنْ قمت أشدد أمره .

قالوا : ويلك ارجع يستغفر لك رسولُ الله . قال : والله ما أبتغى أنْ يستغفر لي[2] .

لقد أراد أنْ يقوم بعدما رجع رسولُ الله من غزوة أُحُد ليقول نفس الكلام ونفس المقالة رغم أنه ارتكبَ كبيرةً من الكبائر وهو الفرارُ من الزحف والانسحاب بثُلث الجيش الذى خرج ليواجه الكافرين فى غزوة أحد .

فالتولِّى يوم الزحْف إحدى الموبقات التى أمر الرسولُ ﷺ باجتنابها حيث قال : «اجتنبوا السبع الموبقات . قالوا : يا رسول الله وما هُنَّ ؟ وذكر منهن : التولِّى يوم الزحف»[3] .

---

(١) بُجراً : البجارى أى الدواهى . والبُجر : الشر والعجب والأمر العظيم . [المعجم الوسيط] .
(٢) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٣/٣١٨) من حديث محمد بن شهاب الزهرى مرسلاً .
(٣) عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : اجتنبوا السبع الموبقات . قالوا : يا رسول الله وما هنّ ؟ قال : الشرك بالله والسحر وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق وأكل الربا وأكل مال اليتيم والتولى يوم الزحف وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٧٦٦) ومسلم فى صحيحه (٢٧٢) .

قال تعالى فى شأن هذا ﴿ وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٦) ﴾ [الأنفال]

فالمنسحب الفارّ الذى يصحبه فى انسحابه غضبٌ من الله ، والفارّ من مواجهة العدو فى معارك الإسلام لن يجد مأوىً إلا النار ، وحين تكون النارُ هى المأوى ، أليس ذلك هو بئس المرجع ؟

كأن الراجع من الزحف والفَارّ من مواجهة الأعداء ومخافة أنْ يُقتل سيذهب إلى شيء شَرٍّ من القتل .

لقد صدق فى ابن أُبيٍّ بن سلول قَوْل الحق سبحانه : ﴿ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ .. (٤) ﴾ [المنافقون] فقال عن رسول الله كلاماً جميلاً معسولاً ، وظن أنَّ هذا سيقبله المسلمون وسيمرُّ عليهم .

«حتى إذا صنع يوم أُحد ما صنع يعنى مرجعه بثلث الجيش ورجع الناس، قام بفعل ذلك كما كان يفعله ، فأخذ المسلمون بثيابه من نواحيه وقالوا :

اجلس عدوَّ الله لستَ لذلك بأهْل وقد صنعتَ ما صنعتَ فخرج يتخطّىَ رقاب الناس وهو يقول : والله لكأنّما قلت بُجراً أنّ قمتُ أَشْدُد أمره .

والبُجرَ جمع بُجرة ، وهى نتوء السُّرة يُعبَّر بها عن العيوب ، أى : كأننى قلتُ كلاماً معيوباً أنْ قُمْتُ أشدُدْ به أمره .

وهو قال ما قال نفاقاً ومُداراةً لما ارتكبه من التولِّى يوم أُحد وانسحابه بثُلث الجيش بعد أنْ خرج لملاقاة أهل قريش مع رسول الله وأصحابه ، وما دام يريد أنْ يشدُد أمر رسول الله ، فلماذا لم يشدد أمره فى ساحة القتال وعلى أرض الواقع ، لماذا انسحب وكشف المسلمين ؟

ألم يـدرك أنَّ أهـلَ قريش لو انتصروا سيكون هذا وبالاً على كلِّ أهل المدينة، فـإذا انتصـروا سيدخلون المدينة ويَسْبُون مَنْ فيهـا ويأخذون أسرى ويقتلون ويفعلون كلَّ منكر.

ولذلـك قـال عبد الله بن عمـرو بن حرام الأنصـاري[1] للمنافقـين: اخرجوا وقاتلـوا معنـا، وإنْ لم تخرجوا لتقاتلوا معنا اخرجوا لتدفعوا عن أنفسكم وعن أموالكـم وعن نسائكم لأنهـم إذا انتصروا على المسلمـين فسيدخلون ويفعلون كذا وكذا[2].

إنـه دعاهم إلى القتال على طريق إثـارة الحميّة والأَنَفة فيهم، وذلك بعد أنّ يئس من أنهم لـن يقاتلوا فى سبيل الله، ولما رأى إصرارهم على عدم الخروج قال لهم عبد الله: اذهبوا أعداءَ الله فسيغنى اللهُ رسوله عنكم.

وقـد قـال تعـالى: ﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيـلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُـوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَوِ ادْفَعُـوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْـرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ (١٦٧) ﴾ [آل عمران]

إن الحقَّ سبحانه يفضحهم ﴿ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ .. (١٦٧) ﴾

---

(١) هو عبد الله بن عمرو بن حرام بن ثعلبة، أبو جابر الأنصارى الخزرجى السلمى صحابى من أجلائهم، كان أحد النقباء الاثنى عشر، وشهد العقبة مع السبعين من الأنصار وبدراً وقتل يوم أحد سنة ٣ هجرية. [الأعلام للزركلى ٤/١١١].

(٢) ذكر ابن هشام فى السيرة النبوية (٢/٦٤) فى خروج رسول الله لأُحد وكان عبد الله بن أبى بن سلول يعارض الخروج من المدينة للحرب، ولكن رسول الله نزل على رأى الشباب « حتى إذا كانوا بالشوط بين المدينة وأحد انخذل عنه عبد الله بن أبى بن سلول بثلث الناس وقال: أطاعهم وعصانى، ما ندرى علام نقتل أنفسنا هاهنا، أيها الناس فرجع بمن اتبعه من قومه من أهل النفاق والريب واتبعهم عبد الله بن عمرو بن حرام أخو بنى سلمة يقول: يا قوم أذكركم الله ألا تخذلوا قومكم ونبيكم عندما حضر من عدوهم، فقالوا: لو نعلم أنكم تقاتلون لما أسلمناكم ولكنا لا نرى أنه يكون قتال. قال: فلما استعصوا عليه وأبوا إلا الانصراف عنهم. قال: أبعدكم الله أعداء الله فسيغنى الله عنكم نبيه» وأخرجه الطبرى فى تفسيره (٨٢٣٦).

[آل عمران] فقبل ذلك كانوا فى نفاق مستور ، وما دام النفاقُ مستوراً فاللسان يقول ، والقلب ينكر ويجحد ، فهم مُذبذبون بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، هذه المسألة جعلتْه قريباً من الكفر الظاهر .

فلقيه – أى ابن أبيٍّ – رجالٌ من الأنصار بباب المسجد فقالوا : ويلك مالك؟ قال : قمتُ أَشْدُد أمره فوثبَ عليَّ رجالٌ من أصحابه يجذبوننى ويُعنِّفوننى لكأنما قلتُ بُجراً أنْ قمتُ أشدد أمره .

قالوا : ويلك ارجع يستغفر لك رسولُ الله . قال : والله ما أبتغى أنْ يستغفر لى .

فذلك قوله تعالى هنا : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ (٥) ﴾ [المنافقون]

فالقرآن الكريم يُعطينا صورة للإعراض عن الحقِّ والجدل ، فيقول : ﴿ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ .. (٥) ﴾ [المنافقون] ، والإعراض عن الحق دائماً يبدأ بلىِّ الرأس ثم الجانب ثم يعطيك دُبره وعَرْض أكتافه ، هذه كلُّها ملاحظ للفرار من الجدل حين لا يَقْوى على الإقناع .

وذلك مثْلُ قوله ﴿ ثَانِيَ عِطْفِهِ[1] لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ (٩) ﴾ [الحج]

فـ (ثانى) ثنى الشيء يعنى لواه . وعِطْفه يعنى جنبه . فالذى يجادل فى الله عن غير علم ولا هُدىً ولا كتاب مُنير يثنى عنك جانبه ويلوى رأسه ، لأن الكلام لا يعجبه ليس لأن كلامك باطل إنما لا يعجبه لأنه أفلسَ ، وليستْ لديه الحجة

---

(١) العطف : الجانب : عطفا الإنسان : جانباه . [القاموس القويم ٢ / ٢٥] قال قتادة : ثانى عطفه : هو المعرض من العظمة إنما ينظر فى جانب واحد . وقال ابن زيد : لاوى رأسه معرضاً مولياً لا يريد أن يسمع ما قيل له .

التى يُواجهك بها ، فلا يملك إلا هذه الحركة .

وهم إنما دعوْهُ ليرتفع لما هو أعلى ممَّا هو فيه ، لذلك قال تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا .. (٥) ﴾ [المنافقون] ومعناها : ارتفعوا من موقعكم الهابط ، فالمنهج جاء ليعصمنا من السقوط .

ومثلها قوله سبحانه : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللهُ وَإِلَى الرَّسُولِ .. (١٠٤) ﴾ [المائدة] أى : ارتفعوا من حضيض ما عندكم إلى الإيمان بمنهج السماء ، وارتفعوا إلى مستوى التلقِّى من الله ولا تتبعوا أهواءكم وآراء بعضكم أو تشريع بعضكم .

وابنُ أُبيٍّ قالوا له : تعالَ يستغفر لكم رسولُ الله ، واستغفار رسول الله رحمةٌ لمَنْ يستغفر له وذهاب بذنوبه .

والله عزَّ وجلَّ يقول : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّابًا رَحِيمًا (٦٤) ﴾ [النساء]

فالأمر يحتاج مِمَّنْ ظلم نفسه بالمعصية والاجتراء على أوامر الله والإضرار بالمسلمين أنْ يتوبوا أولاً عما اقترفوه ، وبعد ذلك يستغفرون الله ، وتطيب نفسُ رسول الله فيستغفر لهم ، واستغفارُ رسول الله هو دعاءٌ لله عزَّ وجلَّ أنْ يغفر لهم.

ولكنهم أركسوا ونكسوا فى الأرض وانقلبتْ الأمور عندهم ، فكان ردّ فعلهم على دعوتهم للمجيء لرسول الله ليستغفر لهم أنْ : ﴿ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ .. (٥) ﴾ [المنافقون]

﴿ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ (٥) ﴾ [المنافقون] ، ومثلها قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ

صُدُودًا (٦١) ﴾ [النساء]

أى : يُعرضون عنك . وهنا الصَّدُّ هو الإعراض والتولِّى عن اتباع الحق ، أما الصَّدُّ عن سبيل الله فهو صَدُّ الغير ومنعه من أنْ يتبع سبيلَ الله ومنهجه ، والصَّادُّ عن سبيل الله أكبر وأعظم جُرْماً لأنه صَدَّ وأعرض فى نفسه ولم يكتَفِ بهذا بل صَدَّ غيره .

والصَّادّ الذى يصدّ عن الحق يفعله وهو مُستكبر ، فهو يستكبر عن اتباع الحق ويرى نفسه أعلى وأكبر ممَّنْ يدعوه إليه ، وابنُ أبيّ وبعضُ زعماء النفاق كانوا يرونَ أنفسهم أعلى وأحقّ من رسول الله .

لذلك رفضوا أنْ يجيئوا لرسول الله ليستغفر لهم ، بل لووا رؤوسهم وصَدُّوا واستكبروا .

واستكبر أى نصَّب من نفسه كبيراً دون أنْ يملك مقوِّمات الكبير ، وصفات وكمالات الكبر ليستْ ذاتية فى أىٍّ منَّا ، وقد تُسلب ممَّنْ فاء الله عليه بها ، ولذلك يصبح من اللائق أنْ يتواضعَ كُلٌّ منَّا ، وأنْ يستحضر ربَّه ، وأنْ يتضاءلَ أمام خالقه .

فهذا عند تذكيره بآيات الله ورسوله ﴿ وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٧) ﴾ [لقمان]

ومعنى (ولَّى) أى أعرض وأعطانا عرض أكتافه ﴿وَلَّى مُسْتَكْبِرًا.. (٧) ﴾ [لقمان] أى : تكبَّر على ما يُدعى إليه . واستكباره فى غير محلِّه ، والمستكبر دائماً إنسانٌ فى غفلةٍ عن الله لأنه نظر إلى نفسه بالنسبة للناس وغفلَ عن الله .

ولو استحضر جلالَ ربِّه وكبرياءه سبحانه لاستحى أنْ يتكبَّر ، فالكبرياء

صفةُ العظمة وصفةُ الجلال التى لا تنبغى إلا لله تعالى ، فكبرياؤه سبحانه شرفٌ لنا وحماية تمنعنا أنْ نكونَ عبيداً لغيره سبحانه .

وهذا المستكبر استكبر عن سماع الآيات ﴿ كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا .. (٧) ﴾ [لقمان] أى : ثِقَلٌ وصَمَم .

قالوا : ويلك ارجع يستغفر لك رسولُ الله . قال : والله ما أبتغى أنْ يستغفر لى .

إنه الحسد والحقد الذى ملأ قلبه بظلمات النفاق والكِبْر والدَّسِّ على المسلمين ﴿ حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ .. (١٠٩) ﴾ [البقرة] . ويقول تعالى : ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ .. (٥٤) ﴾ [النساء]

والحسد هنا لرسول الله ﷺ ، لأن ربَّنا قد اصطفاه واختاره للرسالة ، والحسد لا يتأتَّى إلا عن قلْب حاقد ، قلْبٍ متمرد على قسمة الله فى خَلْقه .

والحسد هو تمنّى إنسانٍ زوالَ نعمة غيره ، وهو رَدٌّ لقدر الله فى خَلْق الله ، وقلبُه يحترق حِقْداً ، وابنُ أبيٍّ كان مثالاً واضحاً على هذا .

وهؤلاء لن يغفر الله لهم ، يقول الحق سبحانه :

﴿ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٦﴾ ﴾

أى : مهما استغفرتَ لهم فلن يغفر الله لهم ، ويقول تعالى فى آية أخرى : ﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٨٠) ﴾ [التوبة]

والأمر هنا له شقَّانِ : الشقّ الأول أنْ يغفر الله لهم . والشقّ الثانى : هو مجاملة رسول الله ﷺ لعبد الله بن عبد الله بن أبيّ الابن المؤمن لأب منافق ، فهو ﷺ يعلم أن الله لن يغفر للمنافقين .

وهناك استغفارٌ تنشأ عنه المغفرة ، واستغفار ينشأ عنه إرضاء عبد الله بن عبد الله بن أبيٍّ .

ثم إن الذى يريد أنْ يتوب ويستغفر لا يستغفر له رسول الله ﷺ إلا إذا استغفر مرتكبُ الذنب أولاً ، فلا بُدَّ أنْ يستغفروا الله من الذنوب أولاً ثم يستغفر لهم الرسول ، ولا يستغفر لهم الرسولُ بينما هم لا يستغفرون .

ورأْسُ النفاق ابن أُبيٍّ لم يفطن إلى كيفية الاستغفار ذلك لأنه لا يريده ، فقد كان عليه أنْ يأتى لرسول الله صاغراً ليستغفر الله أمامه ، لا أنْ يبحث عَمَّنْ يطلب له الاستغفار .

ثم يأتى الحق سبحانه وتعالى مُوضِّحاً سبب عدم غفرانه لهم ، سواء استغفر لهم الرسول أم لم يستغفر لهم ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٨٠) ﴾ [التوبة] وهنا قال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٦) ﴾ [المنافقون]

والحق سبحانه منع هداية معونته وتوفيقه عن ثلاثة أنواع من الناس .

منعها عن الكافرين ، فقال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٣٧) ﴾ [التوبة] ومنعها عن الظالمين فقال : ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٩) ﴾ [التوبة] ومنعها عن الفاسقين فقال : ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٢٤) ﴾ [التوبة]

ولكن هل هو سبحانه منع معونة الهداية أولاً ؟ أم أنهم هم الذين ارتكبوا من الضلال ما جعلهم لا يستحقُّون هداية الله ؟ إنسان واجه الله بالكفر .. كفر بالله.. رفض أنْ يستمع لآيات الله ورسله .

وهـم سبقوا بـالكفر فلم يـهدهم الله . وهـم سبقوا بـالظلم فلم يـهدهم الله ، وهـم سبقوا بـالفسق فلم يـهدهم الله .

وبعضـ النـاسـ يقولون : إنَّ الـهدى من الله ، ولـو أن الله هدانى ما قتلتُ وما سرقتُ وما ارتشيْتُ . ونقول : هذا فَهْم خاطيء ولنرجع إلى القرآن الكريم .

فـالحقُّ تبـارك وتـعالى يقول : ﴿ وَاللهُ لَا يَهْدِي .. (٨٠) ﴾ [التوبة] أى : نفى ما يستوجب الهداية عمَّنْ ظلم أو فسق أو كفر ، لأن الحق سبحانه لا يهدى مَنْ قدَّم الكفر ، أو قدَّم الظلم ، أو قدَّم الفسق ، فكأن الكافر أو الظالم أو الفاسق هو الذى يمنع الهداية عن نفسه .

ولـو قدَّم الإنسانُ الإيمانَ لدخلَ فى هداية الله تعالى ، فكأنَّ خروجَ الإنسان عـن مشيئـة هداية الله هـى مسألة من عمل الإنسـان وباختيـاره ، فقد يختار الإنسانُ طريقَ الغِواية ويترك طريقَ الهداية .

لذلـك لا يهديـه الله لأنه سبحانه لا يهدى إلا المؤمن به ، وإن اختار الإنسانُ طريـقَ الهداية ، فـالحق يعطيه المزيد من الهـدى ، لأنه آمن بـالله فـاختار طريقَ الهداية واستقبل منهجَ الله بـالرضى .

فـالحق سبحانه يهدى مَن استمعَ إلى القرآن برُوح الإيمان واستقر فى يقينه أنَّ له رباً ، واعتقد أنَّ له إلهاً .

وقد أوضح الحقُّ سبحانه أنه لا يهدى الكافرين . إذن : فهو يهدى المؤمنين، وأوضـح أنـه لا يهدى الظالمين . إذن : فهو يهـدى العادلين ، وأوضح جَلَّ وعَلا أنه لا يهدى الفاسقين . إذن : فهو يهدى الطائعين .

فـالحق سبحانه يهدى مَنْ قدّم أسباب الهداية وأسلم مقاليد زمامه للإيمان،

والله سبحانه يقول : ﴿ وَيَزِيدُ اللهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى (٧٦) ﴾ [مريم] ويقول أيضاً : ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧) ﴾ [محمد]

فالله أخبرنا مُسْبقاً بمَنْ يستحقُّ هدايته ومَنْ لا يدخل فيها وأنت باختيارك طريقك . إما أنْ تؤمن فتدخل فى الهداية ، وإما أنْ تختار طريقَ الكفر والظلم والعياذ بالله فتمتنع عنك الهداية .

من كُلِّ ذلك نفهم أن العمل السابق منهم هو الذى يجعله سبحانه لا يهديهم ، فمَنْ آثر الكفر وصَمَّم ألاّ يُؤمن فهو وشأنه ، بل ويزيده الله من الكفر ويختم على قلبه ، كما قال تعالى : ﴿ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١٠) ﴾ [الأنعام]

فهم امتنعوا عن هداية الدلالة فامتنعتْ عنهم هداية المعونة ، فالله سبحانه هدى الجميعَ هدايةَ الدلالة والإرشاد ، فلم يأخذْ بها هؤلاء فحُرِموا هدايةَ الإيمان .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ ۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ ﴾

محاربةُ المنافقين للرسول ﷺ والإسلام لم تقفْ عند حَدٍّ ، وهم أخطر الأعداء لأنهم يُظهرون إسلامهم ويُبطنون كفرهم وحقدهم وحسدهم لرسول الله وللمؤمنين به .

ومن محاربتهم لرسول الله أنهم أرادوا صَرْف الناس عنه بشتى الوسائل ، لأن زعيمهم يريد أنْ يكونَ مَلِكاً على أهل المدينة ، فظنُّوا أنَّ مَنْ حَوْل رسول الله سينفضُّون عنه إذا قطعوا عن فقرائهم ما يرفدونهم[١] به .

لقد غفلوا عن إيمان هؤلاء المهاجرين الوافدين عليهم وأنهم آمنوا لا لدُنيا ولا لمال ولا رغبة فى تقرُّب ممَّنْ معهم المال ، بل آمنوا رغبةً فى رِضاء الله ورسوله .

لقد أخطئوا الظنَّ بمَنْ آمنوا برسول الله ، ظنُّوا أنهم إن لم ينفقوا عليهم فسيرتدُّون عن إيمانهم ، ونسُوا أن المؤمنين المهاجرين قد تركوا أموالهم وتركوا بلادهم ، فمَنْ ترك أمواله للهجرة فى سبيل الله أيكفر به عندما لا يجد شيئاً ؟

لا ، لأنه ترك كلَّ شيءٍ فى سبيل الله .

وها هو ذا سيدنا مصعب بن عمير[٢] الفتى المدلَّل فى قريش ، وكانت أمه تُغدق عليه النعمة وهو صاحب العطور ، وبعد ذلك يذهب إلى المدينة فيلبس جلدَ شاةٍ يستر به نفسه ، فينظر له النبى ﷺ يقول لأصحابه : انظروا كيف

---

(١) الرفد : العطاء والصلة . رفده يرفده : أعطاه . ورفده : أعانه . وترافدوا : أعان بعضهم بعضاً . والرفادة: شيء كانت قريش تترافد به فى الجاهلية فيخرج كل إنسان مالاً بقدر طاقته فيجمعون من ذلك مالاً عظيماً أيام الموسم ، فيشترون به للحاج الجزر (الجمال) والطعام والزبيب للنبيذ ، فلا يزالون يطعمون الناس حتى تنقضى أيام موسم الحج . [لسان العرب – مادة : رفد] .

(٢) مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف قرشى من بنى عبد الدار صحابى من السابقين إلى الإسلام وأسلم فى مكة وكتم إسلامه ، أسلم على يده أسيد بن حضير وسعد بن معاذ وشهد بدراً وحمل اللواء يوم أحد فاستشهد عام ٣ هجرية . [الأعلام للزركلى ٢٤٨/٧] .

صنع الإيمان بصاحبكم ؟[١] .

فعندما يقول المنافقون كعبد الله بن أبيّ للأنصار : لا تنفقوا على مَنْ عند رسول الله حتى ينفضُّوا ، يظنُّونَ أنَّ المؤمنين يمكن أنْ يبيعوا إيمانهم بلُقْمة ، وكأنهم نسُوا أن الذى يبيع إيمانه باللقمة هو مَنْ يُحمل على مبدأ باطل .

لكن مَنْ يعتنق ويعتقد مبدأ حَقٍّ يجد حلاوته فى النفس ، وأجره مُدَّخر عند ربِّه ، إنه لا يتحوَّل عنه .

قال على بن أبى طالب رضى الله عنه : «فجئتُ المسجد فطلع علينا مصعب ابن عمير فى بُرْدة له مرقوعة بفروة ، وكان أنعمَ غلام بمكة وأرْفَه ، فلما رآه رسول الله ذكر ما كان فيه من النعيم ، ورأى حاله التى هو عليها فذرفَتْ عيناه عليه . ثم قال : أنتم اليوم خَيْر أم إذا غُدى على أحدكم بجفنة من خبز ولحم ؟ فقلنا : نحن يومئذ خَيْرٌ نُكْفَى المؤنة ونتفرغ للعبادة . فقال : بل أنتم اليوم خير منكم يومئذ»[٢] .

فيجب أنْ تذكروا جيداً أنَّ من حلاوة اليقين وحلاوة الإيمان أنَّ المؤمن يُضحِّى بكُلِّ شيء فى سبيل رِفْعة الإيمان ، لكن أصحابَ المبادىء الباطلة لا يُدخلون غيرهم فيها إلا إنْ دفعوا الثمن مُقدَّماً ، أى : أنهم يشترونهم .

---

(١) قال السهيلى فى الروض الأنف (٢/٢٥١) : كان مصعب بن عمير قبل إسلامه من أنعم قريش عيشاً وأعطرهم وكانت أمه شديدة الكلف به وكان يبيت وقعب الحيس عند رأسه يستيقظ فيأكل ، فلما أسلم أصابه من الشدة ما غيّر لونه وأذهب لحمه ونهكت جسمه حتى كان رسول الله ﷺ ينظر إليه وعليه فروة قد رفعها فيبكى لما كان يعرف من نعمته » .

(٢) أخرجه أبو يعلى الموصلى فى مسنده (٥٠٢) وفيه أن رسول الله ﷺ قال : «أنتم اليوم خير أم إذا غدى على أحدكم بجفنة من خبز ولحم وريح عليه بأخرى وغدا فى حلة وراح فى أخرى وسترتم بيوتكم كما تُستر الكعبة ؟ قلنا : نحن يومئذ خير نتفرغ للعبادة . قال : بل أنتم اليوم خير . قال حسين سليم: إسناده ضعيف . وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد (١٠/٢٣١) : روى الترمذى بعضه . رواه أبو يعلى وفيه راو لم يسم وبقية رجاله ثقات .

فإذا رأيتَ مبدأ من المبادىء يشترى البشر فاعرف أنه مبدأ باطل ، ولو كان مبدأ حَقٍّ لدفع الإنسان من أجل أنْ يدخل فيه نفيسَ ماله ، بل ويُضحِّى فى سبيله بنفسه أيضاً .

ومن عجائب مبادىء الإسلام أن رسول الله ﷺ حينما أخذ العهد لنفسه فى بيعة العقبة قال له الأنصار : فإنْ نحن وفَّينا بهذا فماذا يكون لنا ؟ كأنهم يقولون : أنت أخذتَ ما لك فماذا يبقى لنا ؟

انظروا إلى سُمو الإيمان ويقين المصطفى بأن الإيمان نفسه جائزة ، فهل بشَّرهم بأنه سيعطيهم الأرض ؟ هل وعدهم بأنَّ هؤلاء المستضعفين هم الذين سيُمكَّنون فيها ؟ لا بل قال لهم : لكم الجنة[1] . فلو قال لهم : لكم سيادة الدنيا لكان فى ذلك نظر .

صحيح أنَّ الدنيا دانَتْ وخضعتْ لهم ، لكن منهم مَنْ مات قبل أنْ تدنُوَ له الدنيا وتذلّ ، فأين صِدْق النبوءة ؟

إذن : فقد قال لهم عن الشيء المضمون ، الشيء الذى يجد المؤمن فيه نفسه فَوْرَ أنْ يموت ، قال لهم : لكم الجنة . فقد قال لهم رسول الله ﷺ – وحوله عصابةٌ من أصحابه – : تعالوا بايعونى على ألاَّ تشركوا بالله شيئاً ولا تسرقوا ولاتزنوا ولا تقتلوا أولادكم ، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ، ولا تعصُونى فى معروف ، فمَنْ وفَّى منكم فأجره على الله ، ومن أصاب من

---

(١) عن محمود بن لبيد أن القوم لما اجتمعوا لبيعة رسول الله ﷺ قام العباس بن عبادة بن نضلة الأنصارى ثم أحد بنى سالم بن عوف ، فقال : يا معشر الخزرج هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل ؟ قالوا : نعم. قال : إنكم تبايعون على حرب الأحمر والأسود من الناس ، وإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبة ، وأشرافكم قتلى أسلمتموه ، فمن الآن فهو والله إن فعلتم خزى الدنيا والآخرة ، وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه على نهكة الأموال وقتل الأشراف ، فما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفَّينا ؟ قال : الجنة . قالوا : ابسط يدك فبسط يده فبايعوه . أخرجه أبو نعيم الأصفهانى فى (معرفة الصحابة) . والسهيلى فى (الروض الأنف) (٢/ ٢٧١) .

ذلك شيئاً فعُوقب به فى الدنيا فهو كفارةٌ له ، ومَنْ أصاب من ذلك شيئاً فستره الله فأمره إلى الله ، إنّ شاء عاقبه ، وإنْ شاء عفا عنه[١] .

لم يُغرهم أنهم سيكونون أصحاب سلطان ، ولم يقُلْ لهم : أنتم ستجلسون على البُسط والدنيا ستدين لكم ، إنما قال لهم فى أول البيعة : لكم الجنة . فإياكم أنْ يطمع أحدٌ منكم فى شيء إلاَّ فى الجنة .

ولذلك فالأنصار محبوبون لرسول الله ﷺ ، ولما كانت غزوة حُنين وأعطى المهاجرين بعضاً من الغنائم ولم يكن للأنصار منها شيء وجد الأنصار فى نفوسهم ، فلفتهم رسول الله لفتة إيمانية وقال لهم :

«ألاَ ترضونَ يا معشرَ الأنصار أنْ يذهبَ الناسُ بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله إلى رِحَالكم ، فو الذى نفسُ محمد بيده لولا الهجرة لكنتُ امرءاً من الأنصار ، ولو سلكَ الناسُ شِعْباً ، وسلكتْ الأنصارُ شِعْباً آخر لَسلكتُ شِعْبَ الأنصار ، اللهم ارحمْ الأنصارَ ، وأبناءَ الأنصار ، وأبناء أبناء الأنصار»[٢] .

فبكى القوم حتى أخضلوا[٣] لحاهم وقالوا : رضينا برسول الله قسَماً وحظّاً.

أيّ سُمو إيمانى هذا ؟ لكن المنافقين قالوا للأنصار : لا تنفقوا أموالكم على مَنْ عند رسول الله حتى ينفضُّوا ، لكن المؤمنين لم ينفضُّوا .

إنهم قد تركوا النعيم والأموال فى مكة وجاءوا مهاجرين ، فهم لم يأتوا ليأخذوا

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (١٨ ، ٣٨٩٢ ، ٦٨٠١ ، ٧٢١٣ ، ٧٤٦٨) وأحمد فى مسنده (٢٢٧٨٥) والنسائى فى سننه (٤١٦١ ، ٤١٧٨) والدارقطنى فى سننه (٣٥٠٦ ، ٣٥٠٧) من حديث عبادة بن الصامت رضى الله عنه .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (١١٧٤٨) وأورده السهيلى فى الروض الأنف (٤/ ٢٧٤) وابن جرير الطبرى فى (تاريخ الأمم والملوك) (٢/ ١٧٧) من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه .

(٣) أخضلوا لحاهم أى بلُّوها بالدموع . واخضل الثوب : ابتلّ . وأخضلتنا السماء : بلَّتنا بلّاً شديداً . [لسان العرب – مادة : خضل] .

نعيماً مظنُوناً محدوداً قليلاً ، وحَسْبهم ما وُعدوا به من نعيم متيقَّن عريض بَاقٍ .

لقد عرفوا بالإيمان أنَّ نعيم الدنيا إما أنْ تفوته بالموت ، وإما أنْ يفوتك بالتقلُّب ، لكن نعيم الآخرة ليس له حَدٌّ ينتهى عنده ، ولا يفوتك ولا تفوته .

قال المنافقون للأنصار وهم أثرياء المدينة : ﴿ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا .. (٧) ﴾ [المنافقون]

لقد كانوا يريدون أنْ يضربوا المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار ، وقد قالوا: ﴿ رَسُولِ اللهِ .. (٧) ﴾ [المنافقون] تهكماً ، وهم يُحرِّضون أثرياء المدينة على تجويع المهاجرين .

أى : لا تُنفقوا عليهم حتى يجوعوا فينفضُّوا من حوله ، وهم يقولون عنه : ﴿ رَسُولِ اللهِ .. (٧) ﴾ [المنافقون] فهل آمنوا بذلك ؟ أم أن هذا من غَلَبة الحقِّ ؟

ورسولُ الله لم يسْلَم من سُخريتهم واستهزائهم ،والقرآن يحكى عنهم قولهم لرسول الله ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ (٦) ﴾ [الحجر] فقولهم: ﴿ نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ .. (٦) ﴾ [الحجر] أى : القرآن وهم لا يؤمنون به سُخريةً واستهزاءً .

فقولهم : ﴿ رَسُولِ اللهِ .. (٧) ﴾ [المنافقون] ليس إيماناً به ، ولكن إما غفلة منهم عن الكذب الذى يُمارسونه ، وإما سُخريةً واستهزاء ، كما لو كنتَ فى مجلس ورأيتَ أحدهم يدَّعى العلم ويتظاهر به فيقول : اسألوا هذا العالم .

وفى آية أخرى يقول سبحانه عن استهزائهم برسول الله : ﴿ وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ (٥١) ﴾ [القلم]

والعجيب أنه يعترف أن محمداً رسول الله ، ويقولها علانية ومع ذلك يُنكرها بأعماله وتصرُّفاته ويُحدِث تشويشاً فى الفكر وفى أداء العبارة .

فهم يعرفون أنه رسولُ الله ، ومع ذلك يمنعون الناسَ من الإنفاق على الفقراء الذين عنده ، إنه غباء حتى فى المواجهة .

فهم معترفون بالقرآن مقتنعون به ، لكن ما يقف فى حلوقهم أنْ ينزلَ القرآنُ على محمد من بين الناس جميعاً ، ثم نراهم يُناقضون أنفسهم فى هذه أيضاً ، ويعترفون من حيث لا يشعرون بأن محمداً رسولُ الله حينما قالوا :

﴿ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا .. (٧) ﴾ [المنافقون] فما دمتم تعرفون أنه رسولُ الله ، فلماذا تُعادونه ؟ إذن : فالبديهة الفطرية تكذبهم فينطق الحقُّ على ألسنتهم على حِين غفلةٍ منهم .

وهم بقولهم ﴿ لَا تُنْفِقُوا .. (٧) ﴾ [المنافقون] لا يبخلون فقط بل هم أيضاً يأمرون الناس بالبخل ، ويصدُق فيهم قَوْل الحق سبحانه : ﴿ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا (٣٧) ﴾ [النساء]

والبخيل تكون عنده مشقةٌ فى الإعطاء ، فعندما يقتطع شيئاً من خاصة ماله ليعطيها لغيره يجد فى ذلك مشقةً ولا يُقبل عليها ، لدرجة أنه قد يصل إلى درجة أنه يبخل حتى على نفسه .

والشاعر[1] يصور بخيلاً اسمه (عيسى) ويريد أنْ يذمه لأنه بخيل جداً ، ويظهر صورة البخل بأنه ليس على الناس فقط ، بل على نفسه أيضاً ، فيما لا يضرّ بذلُه ، ولا ينفعه منعه .

وما دام يُقتِّر على نفسه فسيكون تقتيره على غيره أمراً متوقعاً :

---

(١) الشاعر هو ابن الرومى على بن العباس بن جريج أبو الحسن ، ولد ببغداد ٢٢١ هـ ، شاعر كبير من طبقة بشار والمتنبى . قال المرزبانى : لا أعلم أنه مدح أحداً من رئيس أو مرؤوس إلا وعاد إليه فهجاه، له ديوان شعر فى ثلاثة أجزاء . توفى ببغداد مسموماً عام ٢٨٣ هـ عن ٦٢ عاماً . [الأعلام للزركلى ٤/٢٩٧] .

يُقتِّرُ عِيسَى عَلَى نَفْسِهِ وَلَيْسَ بِبَاقٍ وَلاَ خَالِدِ
فَلَوْ يَسْتَطِيعُ لِتَقْتِيرِهِ تنفَّسَ مِنْ مَنخَرٍ وَاحِدِ(١)

إنه بخيل لدرجة أنه يفكر لو استطاع أنْ يتنفس من فتحة أنف واحدة لفعلَ حتى لا يتنفَّس بفتحتى أنفه .

ويقول الحق سبحانه عن البخلاء : ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١٨٠) ﴾ [آل عمران]

وقد شاهدوا رسول الله ﷺ فى أول الهجرة وقد آخى بين المهاجرين والأنصار وكانت تمرُّ على المسلمين الليالى دون طعام فيراهم اليهود والمنافقون ، فيتندرون على تلك الحال ويقول اليهود : إن يد الله مغلولة عن محمد وآله .

وقد كانوا يلمزون الذين يتطوَّعون بالصدقات ، يقول تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ(٢) الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٩) ﴾ [التوبة]

وهذه لها واقعة ، فقد هاجر عبد الرحمن بن عوف إلى المدينة وترك أمواله وكلَّ ما يملك فى مكة ، وآخى رسولُ الله بين المهاجرين والأنصار ، فجعل لكلِّ

---

(١) أورده البغدادى فى تاريخ بغداد (١٢/٣٥) . قال على بن العباس : كان البحترى معى جالساً فسلم علينا ابن عيسى بن المنصور فقال له : من هذا ؟ فقلت : هذا عيسى بن المنصور الذى يقول ابن الرومى فى أبيه (وذكر البيتين) فقال لى : أف هذا من خاطر الجن لا من خاطر الإنس ووثب ومضى . وذكره أبو هلال العسكرى فى (الصناعتين) (١/٣٤) وكذا ابن حمدون فى التذكرة الحمدونية (١/٢٢٨) وعزاه لابن الرومى من بحر المتقارب .

(٢) لمزه : عابه وطعن عرضه . قال تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ .. (٥٨) ﴾ [التوبة] يطعن فى عدالتك فى توزيع الصدقات . وقال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ .. (٧٩) ﴾ [التوبة] يعيبونهم ويحقرون صدقات فقراء المؤمنين . [القاموس القويم ٢/٢٠٢] .

رجلٍ من الأنصار رجلاً من المهاجرين يشاركه فى ماله .

ولما جاء عبد الرحمن بن عوف قال له أخوه من الأنصار : أقاسمك مالى . قال : بارك الله لك فى مالك ، دُلَّنى على السوق وذهب إلى السوق ، وبارك الله له فى تجارته فكان يقسم ربحه نصفين نصفاً للصدقة ونصفاً لأهله[١] .

وقد جاء عبد الرحمن بن عوف إلى رسول الله ﷺ وقال : يا رسول الله اكتسبتُ ثمانية آلاف درهم أُقرِض اللهَ أربعة ، وأُبقى لأهلى أربعة .

فقال له رسول الله : بارك اللهُ لك فيما أقرضتَ وفيما أبقيتَ[٢] .

فلما بلغ المنافقين ما تصدق به عبد الرحمن بن عوف قالوا : ما تصدق عبد الرحمن إلا رياءً وسمعة ، وهل الرياء يطَّلع عليه الناسُ أم يعرفه الله وحده ؟

وجاء عاصم بن عدي[٣] وكان صاحبَ بستان أعطى ثمراً كثيراً ، فجاء بمائة حِمْل من التمر وتصدَّق بها ، فقال المنافقون : والله ما فعل عاصم هذا إلا رياءً .

وجاء رجل يُدعى أبا عقيل الأنصارى إلى رسول الله ﷺ : يا رسول الله : لقد بتُّ ليلتى أعمل وأخذتُ أجرى صاعين من التمر ، احتفظتُ لأهلى بصاعٍ

---

(١) عن أنس بن مالك قال : قدم عبد الرحمن بن عوف فآخى النبى ﷺ بينه وبين سعد بن الربيع الأنصارى فعرض عليه أن يناصفه أهله وماله ، فقال عبد الرحمن : بارك الله لك فى أهلك ومالك دلنى على السوق فربح شيئاً من أقط وسمن فرآه النبى ﷺ بعد أيام وعليه وضر من صفرة . [أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٩٣٧) والبزار فى مسنده (٦٥٤١ ، ٦٥٤٨) وأبو يعلى فى مسنده (٣٨٣٦)] .

(٢) أورده ابن عادل فى تفسير اللباب (١٠/١٥٧) والألوسى فى روح المعانى (٢/٣٣) والزحيلى فى التفسير الوسيط (١/١٥٤) والخازن فى (لباب التأويل) (٢/٣٨٩) أن رسول الله قال لابن عوف : بارك الله لك فيما أعطيت وفيما أمسكت . فبارك الله فى ماله الشيء الكثير .

(٣) هو عاصم بن عدى بن الجد البلوى العجلانى ، حليف الأنصار ، كان سيد بنى عجلان ، استخلفه رسول الله ﷺ على العالية من المدينة ، وعاش عمراً طويلاً قيل ١٢٠ عاماً . توفى عام ٤٥ هجرية . [الأعلام للزركلى ٣/٢٤٨)] . وذلك أن عاصم بن عدى قال : يا رسول الله عندى سبعون وسقاً جذاذ العام فتكاثر المنافقون ما جاء به وقالوا : ما جاء بها إلا رياء وسمعة . الدر المنثور (٧/٤٦٧)] .

وجئتُكَ بصاعٍ لأتصدَّق به . قال المنافقون : تصدَّق بصاع من التمر ، الله ورسوله غنيٌّ عن صاعك يا أبا عقيل[١] .

هم إذن قد عابوا على عبد الرحمن بن عوف الذى تصدَّق بالكثير وقالوا : هذا رياء ، وعندما جاء عاصم بن عدى قالوا : يُرائى بالتصدُّق بنصف ثمار حديقته ، وعندما جاء مَنْ لا يملك إلا صاعَ تمر يتصدَّق به قالوا : الله ورسوله غنيٌّ عن تمرك .

لقد سخروا مِمَّنْ أعطى الكثير وسخروا مِمَّنْ أعطى القليل ، وكان يحب أنْ يُمدح المتصدِّقون ولا يسخر منهم ، لأن كلاًّ منهم تصدَّق على قَدْر طاقته ، وهم أعطوا منه فضل ما أعطاهم الله ، قلّ أو كَثُر .

وممَّنْ كان (عند رسول الله) فقراء مُعدَمُون ، هم أهل الصُّفَّة[٢] الذين قال الله عنهم: ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ .. (٢٧٣) ﴾ [البقرة]

وعدم استطاعتهم ناشيء من أمر خارج عن إرادتهم ، أو من أمر كان فى نيتهم وهو أنْ يُرابطوا فى سبيل الله .

وكان الأنصارُ يأتون بالتمر ويتركونه فى سبائطه ويُعلِّقونه فى حبال مشدودة إلى صوارى المسجد ليأكل منها هؤلاء الفقراء ، ومنهم جماعة من أهل الله انقطعوا للعبادة فتناولتهم ألسنةُ الناس واعترضوا عليهم .

---

(١) ذكره مقاتل بن سليمان فى تفسيره (٢/٦٢) سورة الأنفال ، قال : جاء أبو عقيل بن قبيس الأنصارى من بنى عمرو بصاع فنثره فى الصدقة فقال : يا نبى الله بت ليلتى أعمل فى النخل أجر بالجرين على صاعين ، فصاع أقرضته ربى وصاع تركته لأهلى فأحببت أن يكون لى نصيب فى الصدقة . وأورده ابن جرير الطبرى فى تفسيره (١٤/٣٨٧) أن المنافقين قالوا : إن الله لغنيٌّ عن صاع أبى عقيل .

(٢) أهل الصُّفة هم فقراء المهاجرين ومن لم يكن لهم منهم منزل يسكنه فكانوا يأوون إلى موضع مظلل فى مسجد المدينة يسكنونه . والصَّفَّة موضع مظلل من المسجد كان يأوى إليه المساكين . [لسان العرب – مادة : صفف] .

لمـاذا لا يعملون ؟ ولماذا لا يشتغلـون كباقى الناس ؟ بل وذهبوا إلى رسول الله ﷺ يقولـون : نريـد أنْ تلتفتَ إلينا ، وأنْ تترك هؤلاء المجاذيب ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا (٢٨) ﴾ [الكهف]

هؤلاء أمر الله نبيَّه ﷺ برعايتهم فقال له : ﴿ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ .. (٢٨) ﴾ [الكهف] أى : اجعل عينيك فيهم ولا تصرفها عنهم إلى غيرهم من أهل الدنيا ، لأن مدد النظرة من رسول الله زاد للمؤمن .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا .. (٢٨) ﴾ [الكهف]

لأنـه لا يأمرك بالانصراف عن هـؤلاء والالتفات إلى أهل الدنيا إلا مَن غفل عـن ذكر الله ، أما مَـنْ اطمأنَّ قلبه إلى ذكرنا وذاقَ حلاوة الإيمان فإنه لا يأمر بمثل هذا الأمر .

ثـم يقول تعـالى : ﴿ وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَـوَاتِ وَالْأَرْضِ .. (٧) ﴾ [المنافقون] وهو رَدٌّ على المنافقين الذين يظنُّونَ أنهم الذين يملكون مَنْح مَنْ عند رسول الله الرزقَ أو منعه عنه .

والحـق سبحانـه غنيٌّ عن العالمين ، ولذلك فهـو لايطمع فيما فى أيدينا من خير لأنه من عنده ، ولا يطمع فيما معنا من مال لأن عنده خزائنَ السماوات والأرض .

وكلمة (خزائن) هذه مفردها «خزانة» وهى الشيء الذى يُكنز فيه كلُّ نفيس ليخـرجَ منه وقت الحاجـة ، ولا تقُلْ : خزانة إلا لشيء جعلتَهُ ظرفاً لشيء نفيس تخاف عليه من أنْ تُخرجه فى غير أوانِ وزمانِ إخراجه .

وخزائـنُ الأرض كلُّها يملكها الله ، فهو سبحانه وتعالى القائل : ﴿ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَـا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ (١٩) وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا

مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ (٢٠) وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ (٢١) ﴾ [الحجر]

والأشياء فى خزائن الله إما أنْ تكونَ مطمورة ، وإما أن تكون محكمة إحكاماً رقمياً يُظهره الله على يدى أحد فى وقت الحاجة إليه .

ومعنى أنَّ الحقَّ سبحانه يخاطب المنافقين ، فيقول : ﴿ وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ .. (٧) ﴾ [المنافقون] أى : إن كنتم تنظرون الآن إلى مَنْ عند رسول الله وحوله على أنهم فقراءُ مُعدمون فإنَّ الله له خزائنُ السماوات والأرض ، قادرٌ على إغنائهم وإعطائهم ، وأنْ يملكوا البلاد والأرض .

وهذا ما حدث وهذه نبوءة وبشارة لرسول الله أن الدنيا ستُفتح عليهم ، ومن هذا ما كان من أمر سُراقة بن مالك[1] الذى خرج خلف رسول الله فى رحلة الهجرة يريد طلبه والفوز بجائزة قريش .

وبعد أنْ تاب سراقة وعاد إلى الجادة كان الصحابة يعجبون لدقَّة ساعديه ويصفونهما بما يدعو إلى الضحك ، فكان ﷺ يقول عن ساعدى سراقة : كيف بهما فى سوارى كسرى[2] ؟

ويملك المسلمون بعد ذلك مُلْك كسرى ، ويكون سِوَارا كسرى من نصيب سراقة فيلبسهما ويراهما الناسُ فى يديه .

﴿ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ (٧) ﴾ [المنافقون] أى : لا يفهمون ذلك لأنهم

---

(١) هو : سراقة بن مالك بن جعشم المدلجى الكنانى ، أبو سفيان صحابى له شعر كان ينزل قديداً ، له فى كتب الحديث ١٩ حديثاً ، وكان فى الجاهلية قائفاً أخرجه أبو سفيان ليقتاف أثر رسول الله حين خرج إلى الغار مع أبى بكر ، أسلم بعد غزوة الطائف سنة ٨ هجرية . توفى عام ٢٤ هـ . [الأعلام للزركلى ٣/٨٠] .

(٢) أخرجه البيهقى فى السنن الكبرى (١٣٤١٤) وذكره ابن الأثير فى (أُسْد الغابة) (١/٤٢٢) . والصفدى فى الوافى بالوفيات (٥/٣٧) والذهبى فى (تاريخ الإسلام) (١/٣٧٧) .

﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا (٧) ﴾ [الروم] فهم يعلمون أموراً ظاهرة مُزْخرفة، لكن ليس لها عُمْق أو عُمر أو نفاسة .

فهم لا يعلمون حقائق الأمور وبواطنها وعواقبها وتغيُّر أحوال الدنيا ، ولكنهم يعلمون العلوم السطحية الظاهرة منها ، لذلك يقعون فى عدم الفَهْم .

مثلهم مثل قوم قارون ، قال تعالى : ﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٧٩) ﴾ [القصص]

فهم بُهروا بعظمة زينته لأنهم ينظرون دائماً للأمور من زاوية الارتفاع فى نصيب الحياة الدنيا كهؤلاء المنافقين الذين ينظرون لأقدار الناس بمدى غِناهم أو جاههم أو سَطْوتهم .

فهؤلاء لا يعنيهم إلا أمرُ الدنيا ومُتعها وزُخْرفها ، أما أهل العلم والمعرفة فلهم رأىٌ مخالفٌ ونظرةٌ أبعد للأمور .

هؤلاء قالوا : ﴿ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ (٨٠) ﴾ [القصص]

إنهم غفلوا عن حقيقة الأمر أن الزينة مظهرٌ دنيويٌّ لا يعبر عن عاقبة ما سيحدث لمَنْ يتجبَّر ويبطر ويفرح بزينته وما فى يده من مال .

﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ .. (٨١) ﴾ [القصص] والخسف كان به وبداره التى فيها كنوزه وخزائنه وما يملك .

والمنافقون لا يفهمون أن مَنْ عند رسول الله لا ينفضُّون عنه لمجرد أنهم لن ينفقوا عليهم وسيمنعون عنهم النفقة ، فهم لم يتحلَّقوا حول رسول الله ﷺ لدُنيا يصيبونها ، إنما طاعة واتباعاً لرسول الله .

يقول الحق سبحانه :

﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ ﴾

لم يَكُفَّ المنافقون وعلى رأسهم رأس النفاق ابن أبيٍّ بن سلول عن الإساءة لرسول الله ﷺ ، وها هم يقولون : ﴿ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ .. (٨) ﴾ [المنافقون] كانوا يقصدون أنهم هم الأعزُّ ، أما الأذلَّ فهم المؤمنون .

ووافقهم الحق سبحانه على ما قالوا : نعم سيُخرج منها الأعزّ الأذلّ، ولكنه سبحانه أراد أنْ يُبيِّنَ لهم مَنْ هو العزيز ومَنْ هو الذليل ، فقال : ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ .. (٨) ﴾ [المنافقون]

فكأنَّ الحق سبحانه يؤكد لهم أنَّ الأعزَّ سيُخرج الأذل ، ولكنهم يحسبون أنفسهم هم الأعزاء ، فيقول لهم : ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ .. (٨) ﴾ [المنافقون]

وهذا ما يسمُّونه القول بالموجب . أى : أنْ تتفق مع مَنْ يقول ويقصد أن يُوجِّه كلامه وجهةَ الشرِّ ، فتقلب المقصود من الكلام وتوجهه وجهة الخير .

وهذا مقصودٌ به هنا أنْ تزيد من ذلَّة المخاطب ، فأنت تجعله يعتقد أنك توافقه، فتنفرج أساريره ويشعر بالسعادة ، ثم بعد ذلك تنقض ما قاله فيُصاب بالذلِّ .

تماماً كما يأتى الحارس لسجين يشعر بظمأ شديد ويُلح فى طلب كوب ماء ، فيقول له الحارس : سأحضر لك كوبَ الماء ، وفعلاً يُحضر الكوب مليئاً بالماء المثلج ويفرح السجين ويظن أنه سينال منه ما يريده ولكن ما إنْ يُقرِّب الحارسُ الكوبَ من فم السجين حتى يُفرِغه على الأرض ، فيكون تعذيبُه أكبرَ مما لو رفض منذ البداية إحضار كوب الماء .

ومن هذا قوْل الله تعالى : ﴿ وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦١) ﴾ [التوبة]

وهذا يقصدون به سَبَّ رسول الله وإيذاءه ، فهم أرادوا أنْ يتهموا رسولَ الله أنه لا يُمحص القول الذى يُنقل إليه ويُصدِّق كُلَّ ما يُقال له ، كما نقول نحن فى العامية «فلان وِدَنى» أى : يعطى أذنه لكلِّ ما يُقال له .

فوافقهم على أن رسولَ الله ﷺ «أُذن» ، ثم جاء بنقيض ما كانوا يقصدونه ، فيردّ عليهم الحقُّ سبحانه ، نعم هو أُذن ولكن : ﴿أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ .. (٦١) ﴾ [التوبة]

فهو أُذن خَيْر لأنه الأُذن التى استمعتْ إلى آخر إرسال ينزل من السماء لهداية الأرض ، وهو خير يعودُ على البشرية كلِّها ، ولكن ليس بالمعنى الذى تعيبونه عليه ، فهو قد يسمع إساءاتكم ثم يسمع اعتذاركم فلا يؤذيكم ويعفو عنكم .

وكان ابن أُبيٍّ يعنى بـ «الأعزِّ» المنافقين فى المدينة ، وبـ «الأذل» المسلمين من المهاجرين والأنصار . وردَّ الله سبحانه بأنْ صدَّق على قوله أنَّ الأعزَّ سيُخرج الأذلَّ ، فقال الحقُّ سبحانه وتعالى : ﴿ يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٨) ﴾ [المنافقون]

فسيخرج المنافقون من المدينة ، وسيبقى فيها المؤمنون وتكون لهم العزة ولكن لماذا قال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ .. (٨) ﴾ [المنافقون] ولم تأتِ بأسلوب القصر ؟ نقول : لا . فالعزة لله لا تتعداه ، ولكنه سبحانه شاء أنْ تكون عزةُ رسوله ﷺ وعزةُ المؤمنين من باطن عِزَّة الله تعالى .

ويقول الحق سبحانه فى موضع آخر : ﴿ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا .. (٦٥) ﴾ [يونس]

أى: فى كلٍّ ألوانها هى لله سبحانه وتعالى ، إنْ كانت عزةَ حكمة فهو الحكيم، وإنْ كانت عزةَ القبض على الأمور فهو العزيز ، وإنْ كانت عزةَ الحلم فهو الحليم، وإنْ كانت عزَّةَ الغضب والانتقام فهو المنتقم الجبار ، وكلُّ ألوان العزَّة لله تعالى .

وما دام الأمر كذلك فأنتم الأذلَّة وأنتم الخارجون وقد كان .

وسبب نزول الآية رواه لنا جابر بن عبد الله رضى الله عنه فقال : كنَّا مع النبى ﷺ فى غزاة بنى المصطلق[١] فكسع[٢] رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار ، فسمع ذلك النبى فقال : دعوها فإنها منتنة .

فسمع ذلك عبد الله بن أُبيٍّ بن سلول فقال : أو قد فعلوها والله لئن رجعنا إلى المدينة ليُخرجن الأعز منها الأذل .

فبلغ ذلك النبى ﷺ فقال عمر : يا رسول الله دَعْنى أضرب عُنق هذا المنافق. فقال النبى ﷺ : دَعْه لا يتحدَّث الناسُ أنَّ محمداً يقتل أصحابه[٣] .

فقال له ابنه عبد الله : والله لا تنقلب حتى تُقِرّ أنكَ الذليلُ ورسولُ الله ﷺ العزيز ، ففعل[٤] .

---

(١) غزوة بنى المصطلق هى الغزوة التاسعة من غزوات الرسول التسعة عشر كما ذكره البخارى وكانت قبل الحديبية ، وقد كان بنو المصطلق حلفاء قريش من الأحابيش . وهم قوم من خزاعة كانت الوقعة بهم فى المريسيع من نحو قديد سنة ست من الهجرة . واسم المصطلق : جذيمة بن سعد .

(٢) كسع : الكسْع أن تضرب بيدك أو برجلك بصدر قدمك على دبر إنسان أو شيء . وكسعهم بالسيف : اتبع أدبارهم فضربهم بالسيف . والكسع أيضاً : تكلم فرماه على إثر قوله بكلمة يسوءه بها . وقيل : كسعه إذا همزه من ورائه بكلام قبيح . [لسان العرب – مادة : كسع] .

(٣) أخرج البخارى فى صحيحه (٤٩٠٥) عن جابر بن عبد الله قال : كنا فى غزاة فكسع رجل من المهاجرين رجلا من الأنصار فقال الأنصارى: يا للأنصار وقال المهاجرى : يا للمهاجرين . فسمع ذاك رسول الله ﷺ فقال : ما بال دعوى جاهلية ، قالوا : يا رسول الله كسع رجل من المهاجرين رجلا من الأنصار . فقال : دعوها فإنها منتنة . فسمع بذلك عبد الله بن أبى فقال : فعلوها أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، فبلغ النبى ﷺ فقام عمر فقال : يا رسول الله دعنى أضرب عنق هذا المنافق ، فقال النبى ﷺ : دعه لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه .

(٤) أورده السيوطى فى الدر المنثور (١٤/٥٠٣) وعزاه لسعيد بن منصور والبخارى ومسلم والترمذى وابن المنذر وابن مردويه والبيهقى فى الدلائل عن جابر بن عبد الله . قال السيوطى : زاد الترمذى: فقال له ابن عبد الله : والله لا تنقلب حتى تقر أنك الذليل ورسول الله العزيز ففعل . وقد أخرجه الترمذى فى سننه (٣٦٣١) وقال : حديث حسن صحيح .

فهذه الواقعة تُبيِّن لنا دوْرَ المنافقين السَّلْبى فى المجتمع وانتهازهم أىَّ فرصةٍ للإيقاع بين المسلمين وإثارة نعرات التعصُّب الجاهلى وإيقاع الفُرْقة بينهم .

فالحادثة التى وقعتْ بين رجل من المهاجرين ورجل من الأنصار حادثة قد تحدث فى أيِّ وقتٍ وفى أيِّ مكان ، ولكنْ أَبَى عبد الله بن أبيّ بن سلول إلا أنْ ينتهزها فرصة ليشفى الحقد الذى فى قلبه من ناحية رسول الله والإسلام والمسلمين .

وقد كان هذا دأبَ اليهود أيضاً ، فعندما جاء الإسلامُ إلى المدينة وحَّد رسولُ الله ﷺ بين الأوْس والخزرج وآخى بينهم .

فبهذه المؤاخاة ضاعتْ مكانة اليهود العلمية لأن الإسلامَ جاء بدين وكتاب مهيمن على الكتب السابقة له كلّها ، وكذلك ضاعتْ منهم المنزلة الحربية .

فقد رأوا قلَّة من المؤمنين هزموا الكفار وأنزلوا بهم هزيمة نَكْراء فى بدر ، وهكذا ضاع كلُّ سلطانٍ لليهود فى المدينة ، لذلك أرادوا أنْ يُعيدوا الأمر إلى ما كان عليه قبل أنْ يجيء الإسلام .

فقالوا : فَلْنُؤجج ونُشعل ما بين الأوس والخزرج من العداوات ونُهيِّجها ، وقال شخص اسمه «شأس بن قيس»[1] وقد رأى نور الإيمان يعلو وجوه الأوس والخزرج ويشملهم الانسجام الإيمانى ، وتوجد بينهم المودة وابتسامات الصفاء .

هيَّج ذلك شأس بن قيس وقال : «والله لابدَّ أنْ نُعيدها جَذَعة[2] ونُرجعهم

---

(١) شأس بن قيس هو من يهود بنى قينقاع . كان شديد الكفر والعداوة للمسلمين ، وقد كان أحد الذين قالوا (يد الله مغلولة) . وقد كان أعمى .

(٢) جَذَعة : بدايته من جديد . يقال : أعدت الأمر جذعاً أى جديداً كما بدأ . وإذا طفئت حرب بين قوم فقال بعضهم : إن شئتم أعدناها جَذْعة أى أوّل ما يُبتدأ فيها . [لسان العرب – مادة : جذع] .

إلى ما كانوا عليه من أحقاد وعداوات : فلا استقرار لنا ما داموا قد اجتمعوا»[١] .

فأرسل فتيً من اليهود وجلس بين الأوس والخزرج ، ثم تطرق الحديثُ منه إلى يوم يُسمَّى يوم «بُعاث» ، وهو اسم يوم من أيام العرب قبل الإسلام ، وكان بين الأوس والخزرج ، وكان النصر فيه للأوس على الخزرج .

جلس الفتى يذكر ويأتى بالشعر الذى قيل فى هذا اليوم ، فهيَّج حميَّة الأوس والخزرج ، وحدث النزاع وحصل التفاخر واستيقظ التباغض ، وقالوا : السلاح.. السلاح .

وهكذا نجحت المكيدة ونمى الخبر إلى سيدنا رسول الله ، فقام ﷺ ومعه صحابته حتى انتهوا إلى اجتماع الأوس والخزرج ، فوجدوا الحال على أشدِّ درجات الهياج ، نزاع وتباغض وسلاح محمول ، فقال الرسول ﷺ : أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم[٢] .

أى : كان من الواجب أنْ تخجلوا من أنفسكم ، لأن رسول الله ﷺ بينكم ،

---

(١) عن زيد بن أسلم (مرسلاً) قال : مرَّ شاس بن قيس وكان شيخاً قد عسا فى الجاهلية عظيم الكفر شديد الضغن على المسلمين شديد الحسد لهم على نفر من أصحاب رسول الله ﷺ من الأوس والخزرج فى مجلس قد جمعهم يتحدثون فيه فغاظه ما رأى من جماعتهم وألفتهم وصلاح ذات بينهم على الإسلام بعد الذى كان بينهم من العداوة فى الجاهلية ، فقال : قد اجتمع ملأ بنى قيلة بهذه البلاد لا ، والله ما لنا معهم إذا اجتمع ملؤهم بها من قرار ، فأمر فتى شاباً من اليهود وكان معه فقال : اعمد إليهم فاجلس معهم وذكرهم يوم بعاث وما كان قبله وأنشدهم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار.. الحديث بطوله فى تفسير الطبرى (٧٥٦٣) وكذا الشوكانى فى فتح القدير (٢/٥) .

(٢) أورده السيوطى فى الدر المنثور (٣/٦٩٩) وعزاه لابن إسحاق وابن جرير الطبرى وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبى الشيخ الأصبهانى عن زيد بن أسلم ، وفيه أن رسول الله قال لهم : يا معشر المسلمين الله الله ، أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد إذ هداكم الله إلى الإسلام وأكرمكم به وقطع به عنكم أمر الجاهلية ، واستنقذكم به من الكفر ، وألَّف به بينكم ، ترجعون إلى ما كنتم عليه كفاراً . فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان وكيد من عدوه لهم ، فألقوا السلاح وبكوا وعانق الرجال بعضهم بعضاً. وهو تفسير الطبرى (٥ / ٦٢٨) .

وأضاف رسول الله : لقد أكرمكم الله بالإسلام ، وقطع به عنكم أمر الجاهلية ، وألَّف بين قلوبكم ، فماذا كانت مواقع كلمات الرسول فى نفوس القوم ؟

لقد دفعتْهم كلماتُه ﷺ إلى إلقاء السلاح وبكَوْا ، وعانقَ بعضُهم بعضاً، وانصرفوا مع رسول الله ، فما كان يومٌ أقبح أولاً ، وأحسن آخراً من ذلك اليوم.

نفس هذا الدور القبيح الذى مارسه اليهود فى المدينة بين الأوس والخزرج فعله ابن أُبَىٍّ بن سلول للإيقاع وزيادة الفُرْقة والخلافات بين المهاجرين والأنصار .

يقول جابر بن عبد الله رضى الله عنه : كنَّا مع النبى ﷺ فى غزاة ، يقصد غزاة بنى المصطلق ، فحدث أنْ كسع رجلٌ من المهاجرين رجلاً من الأنصار .

والكسع هو أنْ تضرب دُبر إنسان بيدك أو بصدر قدمك . وكسعَ فلانٌ فلاناً طرده ، ويُقال أيضاً : كسع فلانٌ فلاناً بما ساءه إذا همزه من ورائه بكلام قبيح.

فسمع بذلك النبى ﷺ فقال : دَعُوها فإنها مُنْتِنة . أى : تجاوزوا عن هذا لأنها ستُؤدى إلى شَرٍّ عظيم ووقيعة .

فالفئة المؤمنة لا تخضع لعصبية الجاهلية ، ولا تنفعل لها ولا لحمية النفس، وهنا كَسَع رجلٌ من المهاجرين رجلاً من الأنصار فقال الأنصارى : يا للأنصار. وقال المهاجرى : يا للمهاجرين .

فسمع ذلك رسول الله ﷺ فقال : ما بال دعوى الجاهلية ؟

فدعوى الجاهلية دعوى تفريق بين الأنصار والمهاجرين ، أو أى طائفتين مختلفتين ، واستنهاض كلِّ فريق للتحزُّب والشِّقاق والاشتجار ، هذا يؤدى إلى أفعال كلّها من أفعال الجاهلية .

فقال ﷺ : « دعوها فإنها مُنتنة . أى : قبيحة ودنيئة لأنها تثير التعصُّب على غير الحق والتقاتل على الباطل ، ثم إنها تجرُّ إلى النار .

كما قال ﷺ : «مَنْ دعا بدعوى الجاهلية فليس منَّا ، وليتبوَّأ مقعده من النار»[1] .

ودعوى الجاهلية هى الاستغاثة عند إرادة الحرب ، فكانوا يقولون : يا آل فلان. فيجتمعون فينصرون القائل ولو كان ظالماً ، فجاء الإسلامُ بالنهى عن ذلك .

وقد كانت الجاهلية تتعاضد بالعصبية للقبائل فى أمور الدنيا ومتعلقاتها، وكانت الجاهلية تأخذ حقوقها بالعصبات والقبائل ، فجاء الإسلام بإبطال ذلك ، وفصّل القضايا بالأحكام الشرعية ، فإذا اعتدى إنسانٌ على آخر حكمَ القاضى بينهما وألزمه مقتضى عدوانه ، كما تقرَّر من قواعد الإسلام ، لا بمقتضى العصبية لقبيلة من القبائل .

ومع دعوى الجاهلية والاستنصار بالقبائل والعصبية يظهر المنافقون الذين يريدون اشتعالَ النار وتأجُّجها لأنهم مستفيدون من هذا .

وهنا ظهر عبد الله بن أُبيّ بن سلول رأس المنافقين وقد كان خارجَ المدينة ، فسمع ما حدث من اقتتال غلامين أحدهما مهاجرى والآخر أنصارى ، فضرب المهاجرىُّ الأنصارىَّ وعَلاَ عليه .

فقال ابن أُبيٍّ : أو قد فعلوها ؟ كأنه كان ينتظر هذا الحادث فهو يبغى الفتنة ، يقول تعالى : ﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٤٧) ﴾ [التوبة]

---

(١) أخرج البخارى فى صحيحه (١٢٩٤ ، ١٢٩٨ ، ٣٥٢٠) وكذا مسلم فى صحيحه (١٤٨) من حديث عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله ﷺ : « ليس منا من ضرب الخدود أو شق الجيوب أو دعا بدعوى الجاهلية » . وعن الحارث الأشعرى عن رسول الله ﷺ قال : « من دعا بدعوى الجاهلية فإنه من جثى جهنم . قال رجل : يا رسول الله وإن صام وصلى ؟ قال : نعم فادعوا بدعوة الله التى سماكم بها المسلمين والمؤمنين عباد الله . أخرجه الطيالسى وأحمد والترمذى وصححه وغيرهم .

فإنهم يُحدِثون فُرْقة بين صفوف المؤمنين ويُفرِّقونهم ويتغلغلون بينهم للإفساد ، فالخِلال الفُرْجة بين الشيئين أو الشخصين ، فيدخل واحد منهم بين فريق من المؤمنين فيفسد وآخر يفسد فريقاً آخر ، وهكذا يمشُون خلال المؤمنين ليُفرِّقوا بينهم .

فقال ابن أُبَيٍّ : أو قد فعلوها . أى أو قد تجرَّأ المهاجرون على الأنصار ، وقد كان الأنصار فى أوَّل الأمر أكثر من المهاجرين ، ثم كَثُر المهاجرون فيما بعد.

ثم قال ابن سلول : والله لئن رجعنا إلى المدينة ليُخرِجنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ .

ونحن نعرف أنَّ رأسَ المنافقين عبد الله بن أبيّ بن سلول كان سيُتوَّج مَلِكاً على المدينة ، وأثناء الإعداد لمهرجان التتويج فُوجئوا بوصول رسول الله ﷺ مهاجراً إلى المدينة .

وكان هذا من أسباب حقد عبد الله بن أبيّ على رسول الله ، فقد ضاع منه الملْك ، وكان لعبد الله بن أبيّ ولدٌ أسلم وحسُن إسلامه، اسمه عبد الله بن عبد الله بن أُبيّ .

وكان من حُسْن إسلام هذا الابن أنه ذهب إلى رسول الله ﷺ حين علم أنَّ رسولَ الله سيأمر بقتل أبيه، لأنه قال : ﴿ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ .. (٨) ﴾ [المنافقون]

فذهب الابنُ إلى رسول الله وقال : يا رسولَ الله ، إنْ كنت ولا بدَّ آمراً بقَتْل أبى فأمرنى أنا بقتله ، لأنى أخاف أنْ يقتله أخٌ مؤمن فأكرهه وأنا لا أحب أن أكره مؤمناً[1] .

---

(١) أخرجه الطبرى فى تفسيره (٢٣ / ٤٠٧) عن عاصم بن عمر بن قتادة أن عبد الله بن عبد الله بن أبىّ أتى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله إنه بلغنى أنك تريد قتل عبد الله بن أبى فيما بلغك عنه ، فإن كنت فاعلاً فمرنى به فأنا أحمل إليك رأسه ، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان فيها رجل أبرّ بوالده منى، وإنى أخشى أن تأمر به غيرى فيقتله ، فلا تدعنى نفسى أن أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبى يمشى فى الناس فأقتله فأقتل مؤمناً بكافر ، فأدخل النار ، فقال رسول الله ﷺ : « بل نرفق به ونحسن صحبته ما بقى معنا » . وكذا ابن الأثير فى (الكامل فى التاريخ) (١/٣٠٩) .

وهكذا نرى قوة وصدق الإيمان ، وأراد رسولُ الله ﷺ أنْ يكرم ذلك المنافق من أجل ابنه فلم يأمر بقتله ، ومن بعد ذلك قال الابن : يا رسولَ الله استغفر لأبى . أى : اطلب له من الله المغفرة .

ولأنه ﷺ يعلم أنه قد أُرسِلَ رحمةً للعالمين ، لذلك طلب المغفرة لعبد الله ابن أُبيٍّ ، وحينئذ نزلتْ الآية الكريمة : ﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٨٠) ﴾ [التوبة]

لقد أراد الابن الصالح أنْ يقتلَ أباه بنفسه حتى لا يكون له ثأر عند أحدٍ من المسلمين ، ومن أخبار عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه عندما مرَّ أمامه قاتلُ أخيه زيد بن الخطاب، فقال له عمر : ازْوِ نفسك عنِّى فإنِّى لا أحبك .

فردَّ الرجل بكُلِّ جرأة إيمانية : أو عدم حُبِّك لى يمنعنى حقاً من حقوقى ؟ قال عمر : لا . قال الرجل : إنما يبكى على الحب النساء .

ولقد استدعى رسولُ الله عبدَ الله بن أُبيّ بن سلول ليسأله فأنكر وحلَف بالله أنه ما قال ، فنزل قوله تعالى : ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ .. (٧٤) ﴾ [التوبة]

فجعل ابنُ سلول يحلف بالله ما قاله ، وقد قال زيد بن أرقم : خرجنا مع رسول الله ﷺ فى سفر ، فأصاب الناسَ شدةٌ ، فقال عبدُ الله بن أُبىٍّ لأصحابه: لا تنفقوا على مَنْ عند رسول الله حتى ينفضوا من حوله . وقال : لئن رجعنا إلى المدينة ليُخرجن الأعز منها الأذل فأتيتُ النبى ﷺ فأخبرتُه بذلك ، فأرسل إلى عبد الله بن أبىّ فسأله فاجتهد يمينه ما فعل .

فقالوا : كذبَ زيدٌ رسولَ الله . فوقع فى نفسى مما قالوا شدة حتى أنزل الله تصديقى فى : ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ .. (١) ﴾ [المنافقون] فدعاهم النبى ﷺ ليستغفر لهم فلووا رؤوسهم[١] .

ومن حُسْن إسلام الابن عبد الله أنَّ أباه لما عاد إلى المدينة أخذ ابنُه السيفَ، ثم قال لوالده : أنت تزعم لئن رجعنا إلى المدينة ليُخرجنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ ، والله لا تدخلها حتَّى يأذنَ رسولُ الله .

ومن كلامه أيضاً : والله لا تدخل المدينة أبداً حتى تقول : رسول الله ﷺ الأعزّ وأنا الأذلّ . والله عليَّ أنْ لا أغمده – أى السيف – حتى تقول : محمد الأعز وأنا الأذل . فأقرَّ له بها[٢] .

وقد كان ابنُ سلولٍ مُؤذياً على الدوام لرسول الله ﷺ حتى أن رجلين اقتتلا أحدهما من جهينة والآخر من غفار ، وكانت جهينة حلفاء الأنصار، فظهر الغفارى على الجهنيّ ، فنادى عبد الله بن أبيّ : يا بنى أوس انصروا أخاكم . وقال : والله ما مَثَلُنا ومَثَلُ محمد إلا كما قال القائل : سمِّنْ كلبك

---

(١) أورده السيوطى فى الدر المنثور (١٤/٥٠٤) وعزاه للطبرانى عن أسامة بن زيد : لما رجع رسول الله ﷺ من بنى المصطلق قام عبد الله بن عبد الله بن أُبى فسلَّ على أبيه السيف وقال : والله عليّ أن لا أغمَده حتى تقول : محمد الأعز وأنا الأذل . فقال : ويلك محمد الأعز وأنا الأذل ، فبلغت رسول الله فأعجبته وشكرها له . قال الهيثمى فى مجمع الزوائد (١٥٧٥٩) : « فيه محمد بن الحسن بن زبالة وهو ضعيف » .

(٢) عن زيد بن أرقم قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ فى سفر أصاب الناس فيه شدة، فقال عبد الله بن أبى لأصحابه : لا تنفقوا على من عند رسول الله ﷺ حتى ينفضوا من حوله . وقال : لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . قال زيد : فأتيت النبى فأخبرته بذلك فأرسل إلى عبد الله بن أبى فسأله فاجتهد يمينه ما فعل فقال : كذب زيدٌ رسولَ الله . قال زيد : فوقع فى نفسى مما قالوه شدة حتى أنزل الله تصديقى ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ .. (١) ﴾ [المنافقون] . قال : ثم دعاهم النبى ﷺ ليستغفر لهم . قال: فلووا رؤوسهم.

يأكلك.[١] .

وهـو نفسه ابن أُبيٍّ الـذى آذى رسول الله ﷺ فى أهله زوجه عائشة رضى الله عنهـا وفى غزوة بنى المصطلـق أيضاً ، فخاض وتولَّى كبر الإساءة لرسول الله ، ورمى زوجه عائشة بالفاحشة .

لذلـك قـال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ .. (١١) ﴾ [النور] ثم قال : ﴿ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ .. (١١) ﴾ [النور]

فالـذى تولّى كِبر الأمر منهم هو عبد الله بن أُبيّ بن سلـول ، فهو الذى ابتدأ هـذا الـكلام وقال : امـرأة نبيكم باتتْ مـع رجل حتى أصبحـت ، ثم جاء يقود بهـا[٢] .

لقـد غفل المنافقون أن العزة لله ولرسولـه وللمؤمنين وأن الذلةَ لهم ، ولذلك قال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ .. (٨) ﴾ [المنافقون]

فـالله هو العزيز الذى يغلب ولا يغلبه أحدٌ ، والرسول عزيز له كرامةٌ وعِرْض لا يُمسّ ، والمؤمنون باتباعهم لكتاب الله تنالهم عزة لا تُدانيها عزَّة .

والعـزة مأخوذة من معنىً مـاديٍّ وهو الصَّلابة والشـدة ، فالأرض العَزَاز .

---

(١) أخرجه ابن أبى حاتم فى تفسيره (١٠٤٠٣) عن قتادة قال : ذكر لنا أن رجلين اقتتلا أحدهما من جهينة والآخر من غفار وكانت جهينة حلفاء الأنصار فظهر الغفارى على الجهنى فنادى عبد الله بن أبى: يا بنى أوس انصروا أخاكم وقال : والله ما مثلنا ومثل محمد إلا كما قال القائل : سمِّن كلبك يأكلك . وقد عزاه السيوطى فى الدر المنثور (٧/ ٤٤٥) لابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم .

(٢) أخرجه ابن جرير الطبرى فى تفسيره جامع البيان (٢٦٠٥٠) وعزاه لابن زيد المفسر قال : أما الذى تولى كبره منهم ، فعبد الله بن أبى بن سلول الخبيث هو الذى ابتدأ هذا الكلام وقال : امرأة نبيكم باتت مع رجل حتى أصبحت ثم جاء يقود بها .

وقد روى ابن أبى مليكة عن عروة عن عائشة في حديث الإفك قالت : ثم ركبت وأخذ صفوان بالزمام فمررنا بملأ من المنافقين وكانت عادتهم أن ينزلوا منتبذين من الناس ، فقال عبد الله بن أبي رئيسهم: من هذه ؟ قالوا : عائشة . قال : والله ما نجت منه وما نجا منها . وقال : امرأة نبيكم مع رجل حتى أصبحت ثم جاء يقود بها . ذكره البغوى في تفسيره (٦/ ٢٣) .

أى: الصلبة التى لا ينال منها المعْول ، ثم نقلت إلى كلِّ شديد ، فكلُّ شيءٍ شديدٌ فيه عِزَّة .

فإذا قيل : الله عزيز أى أنه سبحانه وتعالى غالبٌ على أمره ، شديد لا يمكن أنْ يقدر على مِحَاله أو مَكْره أو قوته أو عقابه أحدٌ .

وإذا قيل : هذا الشيء عزيز أى نادر ، وما دام الشيءُ نادراً فهو نفيس ، والمعادن النفيسة كلها أخذتْ حظَّها من نُدْرتها وقلَّتها .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٨) ﴾ [المنافقون]

وليس هذا نفياً لعلمهم ووصول المعلومة إليهم ، بل هو نفيٌ لاستفادتهم للعلم الذى وصل إليهم .

فالعلم الذى لا يخضع حركة الإنسان له فكأنه لم يعلم شيئاً ، فكأنَّ العلم لم يثبت له لأنه لم ينتفع به ، فهم لا يعلمون العلم المفيد ولا يعلمون بواطن الأمور ولا عواقبها .

وهم لا يعلمون ، لأنهم لا يُوازنون الأمور بدقَّة تُؤدى إلى النفع الحقيقى، وهم لا يعلمون قدْرَ الإيمان الحقّ ، والإنسانُ قد لا يفهم شيئاً أى لا يفقهه ، ولكن قد يفهمه غيره ويعلمه هو عنه .

يقول الحق سبحانه :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٩) ﴾

نظـام الحياة يجعلنا ننسى المسبِّب للنِّعم سبحانه ، فالشمس تطلع كل يوم، كـم منـا يتذكر أنهـا لا تطلع إلا بإذن الله فيشكره ، والمطـر ينزل كل فترة ، مَنْ منَّا يتذكَّر أن المطر يُنزله الله فيشكره .

فالذكـر يكـون باللسان وبالقلـب ، والله سبحانه وتعالى غَيْـب مستور عنّا ، وعظمته أنه مستور ، ولكن نِعَم الله سبحانه تدلّنا عليه ، فالذكْر يكون فى بالنا دائماً ، وبنعمه يكون ذِكْره وشُكْره دائماً .

ذكْـر الله سبحانـه يعطينـا حركـة الحياة فى كل شـيء ، ذِكْـر الله يُوجِد فى القلـوب الخشوع ويُقلل المعاصى وينتفع الناسُ كلُّ الناس به ، ويجعل حركة الحياة مستقيمة .

والحق سبحانه هنا يقول : ﴿ يَـأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٩) ﴾ [المنافقون]

فالله يخاطب الذين آمنوا ليحفظ عليهم إيمانهم صافياً لا تشوبه شائبة ولا يجرحـه شـيء ، وهـذه الآية لا بـدّ أن نأخذها فى سياق ما قلنـاه فى تفسيرنا لسورة الجمعة .

فقـد قـال تعالى هناك : ﴿ يَـأَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّـلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَـوْا إِلَى ذِكْـرِ اللهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُـونَ (٩) فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّـلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠) وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١) ﴾ [الجمعة]

فهؤلاء مؤمنون أمِروا بالسعى إلى ذكر الله إذا نُودى للصلاة من يوم الجمعة وعليهم أن يتركوا البيع ، حتى إذا انتهت الصلاة انتشرتم في الأرض ، وابتغوا من فضل الله، وأنتم فى خلال هذا كله ﴿ وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠) ﴾ [الجمعة]

ونعَى الله على مَنْ انفضُّوا عن رسول الله ﷺ وهو يخطب خطبة الجمعة وألهتْهم التجارة التى وفدتْ على المدينة فى ذلك اليوم ، وهم مؤمنون .

لذلك يخاطب الله هنا الذين آمنوا ، وهم المخاطبون بالتكليف يأمرهم وينهاهم ، أما الذين لم يؤمنوا فغير مخاطبين لا بأمر ولا بنهى .

فالمؤمن يلزم نفسه بالتكليف وبمنهج الله فيدخل فى عقد إيمانى مع الله تبارك وتعالى ، لذلك نجد أن الله جلَّ جلاله لا يخاطب الناسَ جميعاً فى التكليف، وإنما يخاطب الذين آمنوا فقط .

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٨٣) ﴾ [البقرة] ويقول سبحانه : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (١٥٣) ﴾ [البقرة]

أى : أن الله جلَّ جلاله لا يكلف إلا المؤمن الذى يدخل فى عقد إيمانى ، فما دام العبد قد آمن فقد أصبحتْ مسئوليةُ حركته فى الحياة عند ربه ، ولذلك يُوحى إليه بمنهج الحياة ، أما الكافر فلا يُكلفه الله بشيء .

فالإيمان التزام ، وما دُمتَ قد التزمتَ بأنه إله حكيم فخُذْ منه أحكام دينك ، وعْدلُ الله اقتضى ألا نُكلّف إلا مَن يؤمن ، وهذا على خلاف مألوف البشر ، لأن تكليفات القادة من البشر للبشر تكون لمَنْ يرضى بقيادتهم ومَنْ لم يرْضَ .

وإذا كان للقائد من البشر قوة فإنه يستخدمها لإرغام مَنْ يُوجدون تحت ولايته على تنفيذ ما يقول .

ولذلك يجيء الحق سبحانه دائماً قبل آيات التكليف بقوله سبحانه : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا .. (٩) ﴾ [المنافقون] فهو لم يكلف مطلق الناس ، وإنما كلَّف مَنْ آمن به .

فهو سبحانه لم يقتحم على الناس تصرُّفاتهم الاختيارية لمنهجه ، بل يلزم ويأمر مَنْ آمن به ويُوجب عليه ، والحق سبحانه لم يكلف الكافر لأنه ليس بينه وبينه عهد ، إنما يكلف مَنْ آمن ، فتجد كل آية من آيات الأحكام تبدأ بهذا النداء الإيمانى ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا .. (٩) ﴾ [المنافقون]

فحيثية تلقِّى الأحكام وطلب الله أنْ نلتزم بها هى إيماننا بالله الذى يُكلف بافعل ولا تفعل ، فالإنسان الذى ارتضى دخول الإيمان بالله جلَّ جلاله قد دخل فى عقد إيمانى مع الله تبارك وتعالى .

وما دام قد دخل فى العقد الإيمانى فإنه يتلقَّى عن الله منهجه افعل ولا تفعل ، وهذا المنهج عليه أنْ يُطبِّقه دون أنْ يتساءل عن الحكمة فى كل شيء .

فحكمة أىِّ تكليف إيمانى هى أنه صادر من الله سبحانه وتعالى ، وما دام صادراً من الله فهو لم يصدر من مُساوٍ لك كى تناقشه ، ولكنه صادر من إله وجبتْ عليك له الطاعة لأنه إلهٌ وأنت له عابد .

فيكفى أنَّ الله سبحانه وتعالى قال : افعل حتى نفعل ، ويكفى أنه قال : لا تفعل حتى لا نفعل .

إذن : فكلُّ تكاليف من الله نفعلها لأن الله شرعها ولا نفعلها لأىِّ شيء آخر ، وكلُّ ما يأتينا من الله قرآنٌ نستقبله على أنه كلام الله ولا نستقبله بأىِّ صيغة أخرى ، ذلك هو الإيمان الذى يريد الله منَّا أنْ نتمسَّك به ، وأنْ يكون هو سلوك حياتنا .

وإذا كان الحق سبحانه قد نادى مَنْ آمن بقوله : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا .. (٩) ﴾

[المنافقون] فأمرهم بالسعى إلى ذكر الله : ﴿ يَـأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللهِ .. (٩) ﴾ [الجمعة] فهذا أمرٌ بافعل .

فإن الحق سبحانه نهى الذين آمنوا ، فقال هنا : ﴿ يَـأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ .. (٩) ﴾ [المنافقون]

واللهو هو قتْل الوقت فى عمل قد يشغل الإنسان عن الواجب ، والحياة الدنيا إذا كانت مجردة من منهج الله الذى خلقها وخلق الإنسان فيها فهى لهو ولعب .

فاللهو هو الترويح عن النفس بما لا تقتضيه الحكمة ، فالدنيا تمرُّ عليهم فى لهو ولعب ومشاغل ، ولم يأخذ الحياة بالجد اللائق بها ، فكلُّ ما يُلهيك عمَّا يضعه لك إلهك هو لهو ، لأنه شغلك عما هو أهمّ .

وكلمة اللهو أى الشيء الذى لا مصلحةَ فيه ويشغلك عن مطلوب منك ، وهنا فرْق بين اللهو واللعب ، وكلاهما لا مصلحة فيه ويشغلك عن مطلوب منك .

وقد ذكر القرآن اللهو واللعب فى عدة آيات ، فتقدم اللعب على اللهو فى قوله تعالى : ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٣٢) ﴾ [الأنعام]

وفى قوله تعالى : ﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ .. (٢٠) ﴾ [الحديد]
وتقدم اللهو فى قوله تعالى : ﴿ وَمَا هَـٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ .. (٦٤) ﴾

[العنكبوت]

فقدَّمت الآياتُ اللعب فى آيتين ، لأن اللعب أنْ تصنع حركة غير مقصودة لمصلحة كما يلعب الأطفال ، يعنى حركة لا هدفَ لها ونقول عنها (لعب عيال) ، وسُميتْ لعباً لأن الطفل يلعب قبل أن يُكلَّف بشيء ، فلم يشغل باللعب عن غيره من المهمات .

لكن إذا انتقل إلى مرحلة التكليف فإن اللعب يشغله عن شيء طُلِب منه ، ويُسمَّى فى هذه الحالة لهواً .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا .. (١١) ﴾ [الجمعة] إذن : فاللهو هو الشيء الذى لا مصلحةَ فيه ويشغلك عن مطلوب منك .

فآية سورة العنكبوت التى قدَّمتْ اللهو على اللعب تعنى أن أمور الاشتغال بغير الدين قد بلغت مبلغاً ، وأن الفساد قد طمَّ واستشرى الانشغال بغير المطلوب عن المطلوب .

ويقول الحق سبحانه : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِى لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ .. (٦) ﴾ [لقمان]

ومعنى (لهو الحديث) قال العلماء[1] : هو كل ما يُلهى عن مطلوب الله ، وعليه فالعمل الذى يُلهى صاحبه يُعد لهواً إنْ شغله مثلاً عن الصلاة ، أو عن أداء واجب لله تعالى .

ومنتهى اللهو واللعب أنْ يلعبوا عند سماع القرآن فلم يستمعوا له ، حتى على أنه لهو له غاية ، إنما على أنه لعب لا غاية له ولا فائدة منه ، لأن غايته ضارة .

واللعب وإنْ كان مُباحاً فى فترة ما قبل البلوغ ، إنما القلوب يجب أنْ تُربَّى على أنْ تلتفت إلى الله عزَّ وجلّ الخالق الرازق فى هذه الفترة المبكرة من حياة

---

(١) قال ابن عباس : لهو الحديث أى باطل الحديث . وهو الغناء ونحوه ، وقال ابن مسعود : هو رجل يشترى جارية تغنيه ليلاً أو نهاراً . ذكرهما السيوطى فى الدر المنثور . قال الشوكانى فى تفسيره فتح القدير (٥/٤٨٣) : هو كل ما يلهى عن الخير من الغناء والملاهى والأحاديث المكذوبة وكل ما هو منكر . وقال البقاعى فى (نظم الدرر) (٦/٦) : أى ما يلهى من الأشياء المتجددة التى تُستلذ فيقطع بها الزمان من الغناء والمضحكات وكل شيء لا اعتبار فيه .

الإنسان . وهذه مهمة الأب فإنْ أتى لولده بطعام أو شراب يقول أمام الولد الصغير : ربنا رزقنا به .

وهكذا فى كل أمور الحياة يسند الأمر إلى الله ، وينبه الولد الصغير : قُلْ بسم الله . قُلْ : الحمد لله .

وهكذا تُربِّى فى الولد مواجيده[1] على اليقين بالله القوى ، وإنْ كان الولد لا يراه فإنه يرى آثاره ونعمه ، ويرى أباه الذى يتعهده ويأتى له بكل شيء لا يتصيَّد المجد لنفسه ، إنما ينسب كلّ شيء إلى الله .

فأبوه – وهو المثل الأعلى له – يُزحزح هذه المسائل عنه وينسبها لله ، فيتربّى وجدان الولد على الإيمان ، فإذا لم يُربَّ الولد هذه التربية تسلَّل إلى نفسه اللهو واللعب .

والدنيا إذا ما بعدت عن منهج الله فهى دار لهو ولعب لا فائدةَ منها ، ولكنَّ الله خصَّ هنا من الدنيا أمرين : الأموال ، والأولاد ، فقال تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ .. (٩) ﴾ [المنافقون]

فالحق سبحانه ينهى الذين آمنوا أنْ تشغلهم أموالهم أو أولادهم عن ذكر الله، وهذان جمع الله بينهما فى آية آل عمران ، يقول تعالى : ﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا .. (٤٦) ﴾[2] [الكهف]

وهذان العنصران أساسيان فى فتنة الناس فى الدنيا : المال والبنون ، لكن

---

(١) المواجيد : هى ما يجده الإنسان فى نفسه من مشاعر الإيمان وحلاوة الطاعة وسرور المحبة . وهناك مواجيد ومشاعر معصية . وهناك مواجيد أهل التقوى وما يجدونه من العزة والشرف فى الدنيا .

(٢) قال القرطبى فى تفسيره (الكهف ٤٦) : إنما كان المال والبنون زينة الحياة الدنيا لأن فى المال جمالاً ونفعاً . وفى البنين قوة ودفعاً ، فصارا زينة الحياة الدنيا . وقال البيضاوى فى تفسيره (٣/ ٥٠٠): يتزين بها الإنسان فى دنياه وتفنى عنه عما قريب . وقال ابن الجوزى فى زاد المسير (٤/ ٢٢٨) : هذا رد على المشركين الذين كانوا يفتخرون بالأموال والأولاد فأخبر الله تعالى أن ذلك مما يُتزين به فى الدنيا .

لماذا قدَّم المال ؟ أهو أغلى عند الناس من البنين ؟

نقول : قدَّم الحق سبحانه المال على البنين، والأموال على الأولاد ليس لأنه أعزّ أو أغلى ، إنما لأن المال عام فى المخاطب على خلاف البنين ، فكلُّ إنسان لديه المال وإنْ قلَّ ، أما البنون فهذه خصوصية ، ومن الناس مَنْ حُرم منها .

كما أن الأولاد والبنين لا يأتُون إلا بالمال ، لأنه يحتاج إلى الزواج والنفقة لكى يتناسل وينجب . إذن : كلُّ واحد له مال ، وليس لكل واحد بنون .

ومعنى أن : ﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. (٤٦) ﴾ [الكهف] أنهما ليسا من ضروريات الحياة ، فهما مجرد شكل وزخرف ، لأن المؤمن الراضى بما قُسِم له يعيش حياته سعيداً بدون مال وبدون أولاد .

فالإنسان قد يشقى بماله أو يشقى بولده لدرجة أنه يتمنى لو مات قبل أنْ يُرزق هذا المال أو هذا الولد ، وقد ترى الرجل كدراً مهموماً لأنه يريد الولد ليكون له عِزْوة وعزة ، وربما يُرزق الولد ويرى الذلَّ على يديه .

وليس المقصود بالأموال هنا الذهب والفضة ، إنما الأموال كلمة عامة تعم الذهب والفضة والنقود ، وتعمُّ الخيل والزرع والماشية وكلّ ما يُتموّل به إلا أننا نصرفه إلى شيء يمكن أنْ يأتى بكلِّ ما يتمول ، وأسميناه النقد ، وأصبحت له الغلبة لأننا نشترى بالنقد كلَّ شيء .

والمال ينقسم قسمين : مال يمكن أنْ تنتفع به مباشرة ، فهناك مَنْ يملك الطعام ، وآخر يملك الشراب ، وثالث يملكَ أثواباً ، وهذا نوع من المال يُنتفع به مباشرة ، وهناك نوع آخر من المال وهو النقد ولا يُنتفع به مباشرة ، بل يُنتفع به بإيجاد ما يُنتفع به مباشرة .

فلا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله لأنها لن تُغنى عن أحد يوم

القيامة ، يقول تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا .. (١١٦) ﴾ [آل عمران]

فالأموال والأولاد هم من مظانِّ الفتنة ومصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٨) ﴾ [الأنفال]

والمنافقون والكافرون لا ينجحون في فتنة الأموال والأولاد ، بل سوف يأتي يومٌ لا يملكون فيه هذا المال ولا أولئك الأولاد ، وحتى إنْ ملكوا المال فلن يشتروا به في الآخرة شيئاً ، وسيكون كلُّ واحد من أولادهم مشغولاً بنفسه .

وذلك مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللهِ الْغَرُورُ [1] (٣٣) ﴾ [لقمان]

وإذا كانت الأموال والأولاد من زخرف وزينة الحياة الدنيا ، فلماذا نجعلها تُلهينا عن ذكر الله وتشغلنا عن واجبات وفرائض فرضها الله علينا وننصرف عمَّا هو أهمّ إلى ما هو زينة وزخرف ؟

وقد سُئل رسول الله ﷺ عن قوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ .. (٩) ﴾ [المنافقون] فقال ﷺ : « هم عباد من أمتي الصالحون منهم ، لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وعن الصلاة المفروضة الخمس »[2] .

---

(١) الغَرور : الشيطان . وهو الباطل . قاله قتادة . أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (٢٤٣٤) . والغرور : الشيطان يغر الناس بالأماني الباطلة والمواعيد الكاذبة . [فتح القدير للشوكاني ٢/٦٢] .

(٢) أورده السيوطي في الدر المنثور [المنافقون ٩] من حديث ابن عباس رضي الله عنهما وعزاه لابن مردويه . وذكره الشوكاني في فتح القدير (٥/٢٢٨) بلفظ آخر عن ابن عباس ومعزواً لابن مردويه أيضاً قال : كانوا رجالاً يبتغون من فضل الله يشترون ويبيعون ، فإذا سمعوا النداء بالصلاة ألقوا ما في أيديهم وقاموا إلى المسجد فصلوا .

فهؤلاء عبادٌ من أمة محمد ﷺ ، ولكن رسول الله يُخصِّص منهم صنفاً معينين ، فيقول « الصالحون منهم » ، أولئك الذين يَصلون أنفسهم بالله عز وجل بذكره سبحانه ، ويعطيهم المعونة ليكونوا أهلاً لقيادة حركة الحياة فى الأرض ، فيُوطدوا فيها الأمن والسلام والرحمة والعدل ، وهذا هو ما يجب أنْ يكون مجالاً للفخر .

والسبيل إلى ذكر الله هو تجديد الصلة به سبحانه والوقوف بين يديه مقيمين للصلاة ، حتى فى أثناء القتال والخوف لا ننسى ذكر الله .

والذكْر مطلقاً هو ذِكْر الله بآلائه وعظمته وقدرته وصفات الكمال له ، وذِكْر الله أمر متصلٌ واجب فى الصلاة وفى غيرها ، لذلك قال تعالى : ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ .. (١٠٣) ﴾ [النساء]

والذكر أيضاً الاعتبار والتذكُّر ، وأنْ تعيش كمسلم فى منهج الله ، ومرة يُراد بالذكر التسبيح والتحميد ، يقول تعالى : ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (١) (٣٦) رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ .. (٣٧) ﴾ [النور]

وهو ذِكْر لأن هناك مَنْ يُسبح له فيها بالغدو والآصال ، وهم رجال موصوفون بأنهم لا تُلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله .

وقد يُطلق الذكر ويُراد منه خير الله على عباده ، ويُراد به كذلك ذكر عبادتهم له بالطاعة ، فسبحانه يذكرهم بالخير ، وهم يذكرونه بالطاعة .

وإياكم أنْ تُلهيكم أعمالكم ومصالحكم الدنيوية عن ذكر الله ، قال تعالى : ﴿ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٩) ﴾ [الجمعة] هذا فى سورة

(١) الغدو صلاة الصبح . والآصال : صلاة الظهر والعصر والعشاءان . ومعنى بالغدو والآصال : بالغداة والعشى . [فتح القدير للشوكانى ٥/٢٢٤] .

الجمعة ، أما هنا فإياكم أنْ تلهيكم أموالكم وأولادكم عن ذكر الله .

قال تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ .. (٩) ﴾ [المنافقون]

وإياكم أنْ تعتقدوا أنْ ذِكْر الله في المسجد أو وقت الصلاة فقط ، بل داوموا على ذِكْر الله في كلِّ أحداث الحياة ، فإنْ فعلتم ذلك وذكرتم الله كثيراً فستكونون من المفلحين .

وذِكْر الله كثيراً معناه أنك تشعر في كل لحظة أن الله سبحانه وتعالى معك فتخشاه وتحمده وتستعين به ، وهكذا تكون الصلةُ دائمةً بينك وبين الله عزَّ وجلَّ في كلِّ وقت .

فمَنْ أخذه هواه وألهاه عن ذكر الله ، فما دام قد انشغل بشيء يوافق هواه فلن يهتم بمطلوب الله ، إنه مشغولٌ بمطلوب نفسه . فاستحضر ذكر الله واجعله على بالك دائماً .

لذلك قال تعالى : ﴿ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ .. (٤٥) ﴾ [العنكبوت] أي : أكبر من أيِّ عبادة ، لأن العبادات كما ذكرنا تحتاج إلى استعداد وإلى وقت وإلى مشقة وإلى تفرُّغ وعدم مشغولية .

أما ذِكْر الله فهو يجرى على لسانك في أيِّ وقت وبدون استعداد أو مشقة ويلهج به لسانك في أيِّ وقت ، وعلى أيِّ حال أنت فيه .

وما دام أن الذكْر هو أنْ تجعل الله على بالك ، فلا يمنعك من ذلك سَعْيٌ ولا عمل ، لأن الذكر أخفُّ العبادات وأيسرُها على النفس وأثقلُها في الميزان .

والذكر هو العبادة الوحيدة التي لا تُكلفك شيئاً ولا تعطل جارحة من جوارحك ولا يحتاج منك إلى وقت ولا إلى مجهود ، وليس له وقت مخصوص .

فمَنْ ذكر الله قائماً ، وذكر الله قاعداً ، وذكر الله على جَنْبه عُدَّ من الذاكرين[١] – هذا بالنسبة لوضعك – ومَنْ ذكر الله بُكْرة ، وذكر الله أصيلاً أو غدواً وعشياً أصبح من الذاكرين ، هذا بالنسبة للزمان .

ومن قال : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، ولا حوْلَ ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ثلاثين مرة فى اليوم كُتب من الذاكرين[٢] ، ومَن استيقظ ليلاً فأيقظ أهله وصلَّى ركعتين فهو من الذاكرين[٣] .

إذن : فذكْر الله مسألة سهلة تستطيع أنْ تذكر الله وأنت تعمل بالفأس أو تكتب بالقلم ، تذكر الله وأنت تأكل أو تشرب ، فذِكْر الله وإنْ كان أكبر إلا أنه على المؤمن سهلٌ هيِّن .

وقد يسأل سائل : وإذا كان ذِكْر الله سهلاً هيِّناً ويُعتبر أخفَّ العبادات ، فهل هذا يصعب على أحد أنْ يقوله ، ولماذا يقول تعالى : ﴿ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٩) ﴾ [المنافقون]

وهذا يُعطينا ملمحاً أن ذكر الله المقصود هنا هو أمر مطلق أكبر من الذِّكْر والتسبيح والتهليل ، وهو الالتزام بمنهج الله تعالى ، لذلك فمَنْ لا يلتزم بمنهج الله هم الخاسرون .

---

(١) أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ..(١٩١) ﴾ [آل عمران] قال : هذه حالاتك كلها يا ابن آدم ، اذكر الله وأنت قائم ، فإن لم تستطع فاذكره جالساً ، فإن لم تستطع فاذكره وأنت على جنبك . يُسر من الله وتخفيف . وأخرج ابن أبى حاتم في تفسيره (٤٦٥٧) عن مجاهد قال : لا يكون العبد من الذاكرين كثيراً حتى يذكر الله قائماً وقاعداً ومضطجعاً .

(٢) أورده السمعانى فى تفسيره (٤/ ٢٨٤) قال : روى الضحاك بن مزاحم عن ابن عباس أن النبى ﷺ قال: « من قال سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله كُتب من الذاكرين الله كثيراً وتحات عنه خطاياه كما يتحات الورق عن الشجر ونظر الله إليه ومن نظر الله إليه لم يعذبه » .

(٣) أخرج البيهقى فى سننه الصغرى (٦٠٩) عن أبى سعيد وأبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ « من استيقظ من الليل فأيقظ أهله فصليا ركعتين جميعاً كتب ليلتئذ من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات » .

والخسـران أنَّ الـذى وصلوا إليه هو من عملهم ، لأنهـم تركوا المنهج وبدأوا يُشرِّعون لأنفسهم بهوى النفس .

﴿ أُولَـئِكَ الَّذِيـنَ اشْـتَرَوُا الضَّـلالَةَ بِالْهُـدَى فَمَـا رَبِحَـتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَـا كَانُوا مُهْتَدِينَ.. (١٦) ﴾ [البقرة]

فهـم خسـروا كلَّ شيء لأنهم لم يربحوا ، فكأنهـم لم يحققوا شيئاً له فائدة ، وخسـروا الهدى أى خسروا الربح ورأس المال ، وخسروا دنيـاهم وآخـرتهم ، وخسروا أنفسهم .

وقولـه تعـالى : ﴿ هُمُ الْخَاسِـرُونَ .. (٩) ﴾ [المنافقون] يـدلُّ على أن الصفقة انتهت وضاع كلُّ شيء ، لأن نتيجتها كانت الخسران ، وليس الخسران موقوتاً، ولا هـو خسران يمكـن أنْ يُعوّض فى الصفقة القادمة ، بـل هو خسرانٌ أبديٌّ والندم عليها سيكون شديداً .

أمـا الذيـن يذكرون الله فيتمسَّكون بمنهجه سبحانـه وبذكْره الذى أنزله الله علـى رسولـه ﷺ فـ : ﴿ أُولَـئِكَ هُـمُ الْمُفْلِحُونَ .. (٥) ﴾ [البقـرة] والمعنى العام للفلاح هو الفوز ، والمفلح هو الفائز .

والفَـلاَح مأخوذ من شقِّ الأرض للبذر ، ومنـه سُمِّى الفلاَّح الذى صِفته شَقُّ الأرض ورَمْى البذور فيها .

فـإذا كانت الأرضُ صماء فحينما نشقُّها ونبذرهـا تعطى محصولاً عظيماً وافـراً ، ومـن هنا جاءت كلمة (المفلحون) ليعطينا الحق جلَّ جلاله من الأمور الماديـة المشهودة ما يُعـين عقولنا المحدودة على فَهْم الغيب ، فيشبِّه التكليف وجزاءه فى الآخرة بالبذور والفلاحة .

فكلمة (المفلحون) هى كلمة معها دليلها ، فالمفلح هو الذى أخذ الصفقة الرابحة ، لذلك كان مقابلها (الخاسرون) .

فكيف تُلهيك الأموال والأولاد عن ذِكْر الله ومنهجه ، ومَنْ يغتر بالمال أو الأولاد فى الحياة يأتى يوم القيامة ويجد أمواله وأولاده حسرةً عليه ؟ لماذا؟ لأنه كلَّما تذكر أنَّ المال والأولاد أبعداه وألهياه عمَّا يُؤهِّله لهذا الموقف فهو يُعانى من الأسى ويقع فى الحسرة .

ولذلك أشار إليهم الحق سبحانه بقوله : ﴿ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٩) ﴾ [المنافقون]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ (١٠) ﴾

أنا لا أطلب منكم أن تنفقوا عليّ، ولكن أنفقوا من رزقكى عليكم ، فالرزق يأتى من حركة الإنسان ، وحركة الإنسان تحتاج طاقةً تتحرك فى شيء أو مادة، وهذه الحركة تأتى على ترتيب فكر ، وهذا الفكر رتَّبه من خلقه ، والجوارح التى تنفعل ، واليد التى تتحرك ، والرِّجْل التى تمشى خلقها الله ، والمادة التى تفعل بها مخلوقة لله .

وسنأخذ الزارع نموذجاً فنجد أن الأرضَ التى فيها العناصر مخلوقة لله . إذن : فالإنسان يُعمل العقل الذى خلقه الله ، ويُخطِّط بالجوارح التى خلقها الله

لتأتى له بالطاقة التى يعمل بها فى المادة التى خلقها الله لتعطى للإنسان خيرها ، فأىُّ شيء للإنسان إذن ؟

فحين يقول الله تعالى : ﴿ وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ .. (١٠) ﴾ [المنافقون] فأنتم لا تتبرعون لذات الله ، بل تنفقون مما رزقكم الله ، ومن فضل الله عليكم أنه احترم أثر عملكم ونسبه لكم حتى أنه إن احتاج أخوك ، فإن الحق يستقرض منك .

فهو سبحانه يقول : ﴿ مَنْ ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٤٥) ﴾ [البقرة]

والحق سبحانه يُنبهنا أنْ ننفق من رزقه لنا من قبل أنْ يأتى اليوم الآخر الذى لا بيعٌ فيه ، يقول تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ[1] وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٥٤) ﴾ [البقرة]

فاليوم الآخر ليس فيه بيع ولا شراء ولا فيه خلة ولا شفاعة ، وهذه هى المنافذ التى يمكن للإنسان أنْ يستند عليها ، فأنت لا تملك ثمناً تشترى به ، ولا يملك غيرُك سلعة فى الآخرة ، إذن : فهذا الباب قد سُدَّ .

وكذلك لا توجد خُلَّة أو شفاعة ، فأنتم إذا أنفقتم اتقيتم ذلك اليوم ، فانتهزوا الفرصة من قبل أنْ يأتى يوم لا بيع فيه ولا خُلَّة ولا شفاعة .

وقوله تعالى : ﴿ مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ .. (١٠) ﴾ [المنافقون] فالرزق رزق الله ، ولكن الله جعله من كسب الإنسان ونسبه إليه ، فقال تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ .. (٢٦٧) ﴾ [البقرة]

ولكن لا تظن أن الكسبَ هو الأصل فى الرزق ، لا إنَّ الكسب هو حركة موهوبة لك من الله ، وهذا فى حَدِّ ذاته رزقٌ الله لك ، إنك أيها العبد إنما تتحرك بطاقة

(١) خلة : الخلة خالص المودة مأخوذة من تخلل الأسرار بين الصديقين . [فتح القدير للشوكانى ١/٣٦٥] والخلة : الصداقة كأنها تتخلل الأعضاء .

موهوبة لك من **الله** وبفكر ممنوح لك من **الله** ، وفى أرض سخَّرها **الله** لك .

والإنفاق خاصة المتوازن يُثرى حركة الحياة ويُسهم فى إنمائها ورُقيِّها على خلاف القبْض والإمساك ، فإنه يُعرقل حركة الحياة وينتج عنه عطالة وبطالة وركود فى الأسواق وكساد يفسد الحياة ويعُوق حركتها .

إذن لابدَّ من الإنفاق لكى تساهم فى سَيْر عجلة الحياة ، والإنفاق يقتضى إخراج المال عن ملكية الإنسان ببيع أو هِبَة أو صِلَة .

وأصل كلمة الإنفاق مأخوذة من نفقتْ السوق أى راجتْ لأن السوق تقوم على البضاعة ، وحين تأتى إلى السوق ولا تجد سلعاً فذلك يعنى أن السوق رائجة ، ولكن عندما تجد البضائع مُكدَّسة بالسوق فذلك يعنى أن السوق لا زالتْ قائمة .

إذن : فمعنى « نفقتْ السوق » أى : ذهبت كلُّ البضائع كما تذهب الحياة من الدابة .

ولفظة ﴿ وَأَنْفِقُوا .. (١٠) ﴾ [المنافقون] هنا لا تعنى الصدقة فقط أو إخراج الزكوات ، إنما تعنى مطلق الإنفاق وعدم كنز المال ، يقول الحق سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ .. (٣٤) ﴾ [التوبة]

والكنْز مأخوذ من الامتلاء والتجمُّع ، ولذلك يُقال « الشاة مكتنزة » أى مليئة باللحم وتجمَّع فيها لحم كثير . إذن : فيكنزون أى يجمعون .

وقوْل الحق سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ .. (٣٤) ﴾ [التوبة] وهذان المعدنان هما أساس الاقتصاد الدنيوى ، فقد بدأ التعامل الاقتصادى بالتبادل أى سلعة مقابل سلعة ، وهى ما تُسمَّى عمليات المقايضة ، وعندما ارتقى التعامل الاقتصادى اخترعت العملة التى صارت أساساً للتعامل بين الناس والدول .

فالحقُّ سبحانه أراد أنْ يلفتنا إلى أن الذهب والفضة هما أساس التعامل فى تسيير حركة الحياة الاقتصادية ، وأن هذا التعامل يقتضى الحركة الدائمة للمال ، لأن وظيفة المال هى الانتفاع به فى عمارة الأرض .

ولو أنك لم تُحرك مالك وكنتَ مؤمناً فإنه ينقص كلَّ عام بنسبة ٢,٥٪ وهى قيمة الزكاة ، ولذلك يفنى هذا المال فى أربعين سنة ، فإنْ أراد المؤمن أنْ يُبقى على ماله فيجب أنْ يُديره فى حركة الحياة ليستثمره وينميه ولا يكنزه حتى لا تأكله الزكاة ، وهى نسبة قليلة تُدفع من المال .

ولكن إذا أدار صاحب المال ما يملكه فى حركة الحياة فسينتفع به الناس وإنْ لم يقصد أنْ ينفعهم به ، لأن الذى يستثمر أمواله مثلاً فى بناء عمارة ليس فى باله إلا ما سيُحقِّقه من ربح لذاته .

ولكن الناس ينتفعون بهذا المال ولو لم يقصد هو نفعهم ، فمَنْ وضع الأساس يأخذ أجراً ، ومَنْ جاء بالطوب يأخذ قدْر ثمنه ، ومَنْ أحضر أسمنتاً أخذ ، ومَنْ جاء بالحديد أخذ ، والمعامل التى صنعت مواد البناء أخذتْ ، وأخذ العمالُ أجورهم فى مصانع الأدوات الصحية وأسلاك الكهرباء وغيرها .

والذين قاموا بتركيب هذه الأشياء أخذوا . إذن : فقد انتفع عدد كبير فى المجتمع من صاحب العمارة ، وإنْ لم يقصد هو أن ينفعهم ، ولذلك فإن الذى يبنى عمارة يُقدِّم للمجتمع خدمة اقتصادية ينتفع بها عددٌ من الناس ، وكذلك كل مَنْ يقيم مشروعاً استثمارياً .

إذن : سبحانه وتعالى لا يريد من المال أنْ يكون راكداً ، ولكنه يريده مُتحركاً ولو كان فى أيدى الكافرين ، لأنه إذا تحرّك وأنفق أفاد الناسَ جميعاً ، فيحدث بيع وشراء وإنتاج للسلع وإنشاء للمصانع وتشغيلٌ للأيدى العاملة إلى غير ذلك .

ولكن إنْ كنز كلُّ واحد مِنَّا ماله فلم يُنفقه ولم يستثمره فى حركة الحياة

فالسلع لن تُستهلك ، والمصانع ستتوقف ويتعطّل الناسُ عن العمل .

إذن : فالحقُّ سبحانه وتعالى يريد للمال أنْ يتحرك ولا يكنز ، ولكن الكنز فى هذه الآية لا يأتى فقط بمعنى الجمع ، ولكنه أيضاً بمعنى أنهم لا يؤدون حَقَّ الله فيها .

ولذلك فإنَّ المال الذى أخرجتَ زكاته لا يُعَدُّ كنْزاً ، لأنه يتناقص بالزكاة عاماً بعد آخر .

وأنت إنْ أنفقتَ ولم تكنز المال حدثَ رواجٌ فى السوق ، والرواج معناه إيجادُ العمل ووسائل الرزق ، وإيجاد الحافز الذى يؤدى إلى ارتقاء البشرية ، وأنت حين تشترى لبيتك غسالة أو ثلاجة أو بنيتَ بيتاً صغيراً فإنك تُوجِد رواجاً اقتصادياً فى المجتمع .

وفى نفس الوقت ارتقيتَ بوسائل استخداماتك ، والرواج يدفع إلى اكتشاف الأحسن الذى يفيد البشرية ، ولكن إذا كنزتَ كلَّ مالك ساد الكساد الاقتصادى.

وليس معنى ذلك أنْ ينفق صاحبُ المال كلَّ ماله وزيادة ، لأن الحق سبحانه يريد الوسط فى كل شيء ، ولذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ[1] قَوَامًا (٦٧) ﴾ [الفرقان]

والحق سبحانه فى هذه الآية يحذر من سفاهة الإنفاق وعدم الإبقاء على جزء من المال لمواجهة أىِّ أزمة مفاجئة ، لكنك إنِ قترتَ حدث كسادٌ فى السوق

---

(١) ﴿ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾ [الفرقان ٦٧] أى : عدلاً . يعنى بين الإسراف والإقتار مقتصداً . قال ابن زيد : القوام بين ذلك أن تنفقوا فى طاعة الله وتمسكوا عن محارم الله . [تفسير ابن أبى حاتم ١٥٣٩٥].

وتوقُّف الإنتاج وتعطّل العمال ، والإسلام يريد نفقة معتدلة تُوجد الرواج السلعى وادخاراً تستخدمه فى الارتقاء بحياتك ومواجهة الأزمات .

والإنفاق أنواع : إنفاقٌ فى المساوى لإبقاء الحركة الدائمة بين المنتج والمستهلك ، وإنفاق فى غير المساوى بإعطاء الزكاة للفقير والمحتاج والمعدم، والزكاة تُنقِّى المجتمع من مفاسد كثيرة ، فهى تمنع الحقد بين الناس .

فالفقير إذا وجد مَنْ يعطيه فهو يتمنى له دوام النعمة حتى يستمر العطاء ، فلا يسخط الفقير على الغنى ، والغنى والفقير متساويان فى الانتفاع .

فالفقير عندما يأخذ لا يسخط على أنه فقير ، ولكنه يُحِسُّ بالعطاء حوله ، والغنيُّ حين يُعطى يُحسُّ أنَّ هذا أمانٌ له ، لأنه إنْ ذهبتْ عنه النعمة فسوف يجد مَنْ يُعطيه .

وهكذا يحدث توازن فى المجتمع بين الناس ، فلا يوجد مَنْ لا يستطيع الحصول على ضروريات الحياة ، ولا يوجد مَنْ لديه فائضٌ يحبسه عن الناس.

ومعنى قوله تعالى : ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ .. (١٠) ﴾ [المنافقون] أى : انتهزوا الفرصة وبادروا مهلة الحياة ، فمن حكمته سبحانه أنه أخفى ساعة موته ، أخفاها للفرد وأخفاها للجميع ، وربما لو عرف الإنسان ساعته لقال : أفعل ما أريد ثم أتوب قبل الموت .

ولا يشك أحدٌ فى أنه سيموت ، فالموت مُقدَّر على الناس جميعاً ، الذى تخمد فيه بشريتنا ، وتتوقف حياتنا بالموت وينقطع عملنا .

وقد قال رسول الله ﷺ : « إذا ماتَ الإنسانُ انقطع عمله إلا من ثلاثة : صدقة

جارية ، أو علم يُنتفع به ، أو ولد صالح يدعو له »[١] .

فمَنْ مات انقطع عمله وطُويَتْ صحيفته ، ولا يمكنه تدارك ما فاته من الإيمان أو العمل الصالح ، فكأنَّ قيامته قامتْ بموته ، وإياك أنْ تستطيلَ عمر الدنيا ، لأن عمر الدنيا لك ولغيرك فلا تحسب الأمر بالنسبة إليك على أساس عمر غيرك الذى قد يطول عن عمرك .

إذن : مدة الحياة محدودة ، وما دام الموتُ قد جاء فعلى المؤمن أنْ يتذكَّر قوْلَ رسول الله ﷺ : « إذا مات أحدكم فقد قامت قيامته »[٢] .

ومن حكمة الله أنْ أبهم الموت ، أبهمه وقتاً ، وأبهمه سبباً وأبهمه مكاناً، فكان إبهام الموت هو عَيْن البيان للموت ، لأن إبهامه يجعل الإنسانَ على استعداد للقائه فى أىِّ وقت ، وبأيِّ سبب ، وفى أىِّ مكان ، فالموت يأتى غفلة لأنه لا يتوقف على وقت أو سبب أو مكان .

فالطفل يموت وهو فى بطن أمه ، ويموت بعد يوم أو أيام من ولادته ، ويموت بعد مائة عام ، ويموت بسبب وبدون سبب ، وقد نتعجَّب من موت أحدنا فجأة دون سبب ظاهر ، فلم تصدمه سيارة ، ولم يقع عليه جدار أو حجر ، ولم يداهمه مرض ، فما السبب ؟

السبب هو الموت ، إنه سيموت ، أى : أنه مات لأنه يموت ، كما يقال : والموت من دون أسباب هو السبب .

وهذا الموت له لحظة محددة وساعة محددة لا يعلمها إلا الله ، وإذا جاءتْ

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٤٣١٠) وأبو داود فى سننه (٢٨٨٢) والترمذى فى سننه (١٣٧٦) وقال : حديث حسن صحيح . وأحمد فى مسنده (٨٨٣١) وإسناده صحيح . عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية ، أو علم يُنتفع به ، أو ولد صالح يدعو له » .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه (٤٣١٠) وأحمد فى مسنده (٨٨٣١) وأبو داود فى سننه (٢٨٨٢) والترمذى فى سننه (١٣٧٦) وقال : حسن صحيح . وكذا النسائى فى سننه (٣٦٥١) وصححه الألبانى .

ساعةُ موتِ إنسانٍ لا يستأخر ولا يستقدم لحظة ، قال تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ .. (٦١) ﴾ [النحل]

فإذا جاء الأجل لا أحدَ يستطيع تأخيره لأن التوقيتَ فى يد قيُّوم الكون . وهم أيضاً لا يستقدمون هذا الأجل ، فالأجل إذا جاء فهو لا يتأخر عن ميعاده ولا يتقدَّم عن ميعاده .

والبعض ممَّنْ قصَّروا فى حياتهم وفى مدة عمرهم فلم يُنفقوا مما رزقهم الله أو لم يُزكُّوا أو لم يُصلُّوا ويفاجئهم الموت ، يقول تعالى : ﴿ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠) ﴾ [المنافقون]

﴿ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي .. (١٠) ﴾ [المنافقون] أى : هلاّ أمهلتنى ومددْتَ فى عمرى : ﴿ إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ .. (١٠) ﴾ [المنافقون] ولو لمدة يسيرة صغيرة ، فهو يريد أنْ يأخذ من الحياة فرصة أكبر .

والسبب فى هذا هو طُول الأمل الذى غرّه ، كهذا الذى عاجله الموت قبل أنْ يحجّ مثلاً ، فإنْ أمهله العمر حتى يحج فقد سقط عنه هذا الفرض ، لكن مَنْ يضمن له البقاء إلى أنْ يؤدى هذه الفريضة .

لذلك ورد فى الحديث : « حُجُّوا قبل أنْ لا تحجُّوا »[1] كذلك الحال فى وقت الصلاة فهو ممتد ، لكن مَنْ يضمن لك امتداده ، لذلك تارك الصلاة يأثم فى آخر لحظة من حياته ، فإنْ ظلَّ إلى أنْ يصلى فلا شيءَ عليه ، ثم إنَّ هذا العمر القصير مظنون غير متيقن ، فربما داهمك الموتُ فى أيِّ لحظة ، ومَنْ مات قامتْ قيامته .

---

(١) أخرج الدارقطنى فى سننه (٢٧٩٥) عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ : « حجوا قبل أن لا تحجوا. قيل : ما شأن الحج ؟ قال : تقعد أعرابها على أذناب أوديتها فلا يصل إلى الحج أحد . وكذا أخرجه البيهقى فى السنن الكبرى (٨٩٦٣) والفاكهى فى أخبار مكة (٨٠٩) .

﴿ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ .. (١٠) ﴾ [المنافقون] فهم يطلبون الرجعة ليُصلحوا أعمالهم ، ومعلوم أنهم لا يُجابون إلى ذلك .

والمعلوم من طَبْع الناس عند حضور الموت الإنابة والتوبة والندم على ما سلف من العمل السيء أو التقصير فى فعل العمل الصالح .

فهو يطلب المهلة حتى يُزكِّى ويحجّ ويتصدَّق ويُكثر من النوافل والأعمال الصالحة ، ويتقرَّب إلى الله بما يحب من أنواع القربات والطاعات ، ولكن لا ينفعه التمنى ولا الطلب والدعاء .

فالمؤمن يسأل ربه سؤالاً حثيثاً أنْ يحقق تأخير موته إلى أجل يستدرك فيه ما اشتغل عنه من إنفاق وعمل صالح .

وقد يسأل سائل : لماذا قال : ﴿ إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ .. (١٠) ﴾ [المنافقون] ولم يطلب أجلاً مُتسعاً بعيداً ؟

فنقول : إنَّ المتعارف عليه بين الناس أنَّ الأمر اليسير القريب أرْجَى لأنْ يستجيب له المسؤول فيغلب ذلك على شعورهم حين يسألون الله ، فتنساق بذلك نفوسهم إلى ما عرفوا .

﴿ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ .. (١٠) ﴾ [المنافقون] نقول فى حياتنا : فلانٌ رجل صالح ومقابله رجل طالح[1] ، والرجل الصالح يرى الأمر الصالح فى ذاته فيترك هذا الشيء على ما هو عليه أو يزيده صلاحاً ، أما الرجل الطالح أو المفسد فهو يأتى إلى الشيء الصالح فيفسده ولا يفعل صلاحاً .

فكلمة (رجل صالح) تعنى أنه صالح لأنْ يكون خليفةً عن الله فى الأرض

---

(١) طلح فلان : فسد وهو طالح بيِّن الطلاح . [أساس البلاغة للزمخشرى] قال ابن سيده فى المخصص (١/٢٨٥) : الطلاح ضد الصلاح . قال الأزهرى فى تهذيب اللغة (٤/٢٢٣) : رجل طالح أى فاسد الدين لا خير فيه .

يفعل الصلاح من كلِّ عمل ، ونلاحظ أن القرآن يربط بين التصدُّق والإنفاق فى سبيل الله وبين الصلاح وأنْ يكون الإنسانُ من الصالحين .

ففى آية أخرى يقول تعالى : ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥)﴾ [التوبة]

فهذا ثعلبة[١] قد طلب من رسول الله ﷺ أنْ يدعو له بالغنى ، فلما دعا له ، ورزقه اللهُ الرزقَ الوفير بخل عن الزكاة ، وحاول أنْ يتهرَّب من دفعها .

وعندما نزلتْ هذه الآيات جاء ثعلبة ليدفع الزكاة لرسول الله فلم يقبلها منه، وعندما تُوفى رسول الله جاء ثعلبة إلى أبى بكر رضى الله عنه فلم يقبل منه الزكاة ، وبعد أبى بكر جاء إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه فلم يقبلها منه ، ومات ثعلبة فى عهد عثمان ، هذا هو عدم القبول[٢] .

المهم هنا هو أن الصدقة والإنفاق فى سبيل الله وإيتاء الزكاة هو مظهرُ

---

(١) هو : ثعلبة بن حاطب بن عمرو بن عبيد الأوسي الأنصارى شهد بدراً ، قاله محمد بن إسحاق . وهو الذى سأل النبى ﷺ أن يدعو الله أن يرزقه مالاً ، ثم منع الزكاة ، وهو الذى نزل فيه قوله سبحانه ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥) فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ (٧٦) فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (٧٧) ﴾ [التوبة]

(٢) عن أبى أمامة الباهلى قال : جاء ثعلبة بن حاطب إلى رسول الله فقال : يا رسول الله ادع الله أن يرزقنى مالاً قال : ويحك يا ثعلبة ، قليل تطيق شكره خير من كثير لا تطيقه . قال : يا رسول الله ادع الله أن يرزقنى مالاً قال : ويحك يا ثعلبة أما تحب أن تكون مثلى فلو شئت أن يُسيِّر ربى هذه الجبال معى ذهباً لسارت . قال : يا رسول الله ادع الله أن يرزقنى مالاً فو الذى بعثك بالحق إن أتانى الله عز وجل مالاً لأعطين كل ذى حق حقه . قال : ويحك يا ثعلبة قليل تطيق شكره خير من كثير لا تطيقه. قال : يا رسول الله ادع الله . فقال رسول الله : اللهم ارزقه مالاً . قال : فاتخذ أو اشترى غنماً فبورك له فيها ونمتْ كما ينمو الدود حتى ضاقت به المدينة فتنحى بها فكان يشهد الصلاة بالنهار مع رسول الله ولا يشهدها بالليل ، ثم نمت كما ينمو الدود فتنحى بها ، وكان لا يشهد الصلاة بالليل ، ولا بالنهار إلا من جمعة إلى جمعة مع رسول الله ، ثم نمت كما ينمو الدود فضاق به مكانه فتنحى به فكان لا يشهد جمعة ولا جنازة مع رسول الله فجعل يتلقى الركبان ويسألهم عن الأخبار وفقده رسول الله فسأل عنه فأخبروه أنه اشترى غنماً وأن المدينة ضاقت به وأخبروه خبره فقال رسول الله : ويح ثعلبة بن حاطب ويح ثعلبة بن حاطب .

صلاح الإنسان ، فالصدقة تنشر الخير فى المجتمع ، وتحمى الفقراء من السقوط فى هاوية المعاصى والانحراف .

فالتكافل الاجتماعى لابد أنْ يكون موجوداً فى المجتمع ، حتى يتكافل المجتمع كله ، فأنت إنْ كنتَ فقيراً أو مسكيناً ويأتيك من رجل غنى ما يُعينك على حياتك ، فإنك ستتمنى له الخير لأن هذا الخير يُصيبك ، ولكن إذا كان هذا الغنى لا يعطيك شيئاً فهو يزداد غنىً وأنت تزداد فقراً ، تكون النتيجة أنَّ حقدك يزداد عليه .

والحق سبحانه وتعالى يريد أنْ يُشيعَ فى المجتمع روح التكافل الاجتماعى، لذلك كان بعض فقهاء الأندلس[1] إذا منع الرجل زكاة تقرب من النصاب أُمِر بقطع يده كأنه سرقه ، لأن الله تعالى أسماه (حقاً) ، فمَنْ منع صاحب الحق من حقه فكأنه سرقه منه .

وقد سلك فقهاء الأندلس هذا المسلك لأنهم فى بلد ترف وغنى ، فتشددوا فى هذه المسألة لأنه لا عذرَ لأحد فيها .

والفرد حين يعمل الصالحات تكون حصيلته من صلاح غيره أكثر من حصيلته من عمله هو لأنه فرد واحد ويستفيد بصلاح المجتمع كله .

ومن هنا لا ينبغى أنْ تستثقل أوامر الشارع وتكليفاته لأنه يأخذ منك

---

(١) ثم إن الله تعالى أمر رسوله أن يأخذ الصدقات وأنزل الله عز وجل ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا .. (١٠٣) ﴾ [التوبة] فبعث رسول الله رجلين رجلاً من جهينة ورجلاً من بنى سلمة يأخذان الصدقة وكتب لهما أسنان الإبل والغنم كيف يأخذانها على وجوهها وأمرهما أن يمرا على ثعلبة بن حاطب ورجل من سليم فخرجا فمرا بثعلبة فسألاه الصدقة فقال : أرياني كتابكما فنظر فيه فقال : ما هذا إلا جزية انطلقا حتى تفرغا ثم مُرَّا بى .
فنزل فيه قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ .. (٧٥) ﴾ [التوبة] فقدم ثعلبة على رسول الله فقال : يا رسول الله هذه صدقة مالى فقال رسول الله : إن الله قد منعنى أن أقبل منك. قال : فجعل يبكى ويحثى التراب على رأسه ، فقال رسول الله : هذا عملك بنفسك ، أمرتك فلم تطعنى فلم يقبل منه رسول الله حتى مضى ، ثم أتى أبا بكر فلم يقبلها منه ، وكذا عمر . أخرجه البيهقى فى (دلائل النبوة ٥/٢٩٠) .

ليعطيك وليُؤمّن حياتك وقت الحاجة والعوز، وحينما يتوفر لك هذا التكافل الاجتماعى تستقبل الحياة بنفس راضية حال اليُسْر مطمئنة حالَ العُسْر.

والمؤمن يسأل الرَّجْعة ويسأل الله إمهاله لعله يعمل صالحاً، وحديث رسول الله يدل على هذا « مَنْ كان له مالٌ يبلغه حجّ بيت ربِّه أو تجب عليه فيه الزكاة فلم يفعل، فيسأل الرجعة عند الموت »[1].

وعندما روى ابن عباس هذا الحديث قال له رجل: يا ابن عباس اتقِّ الله فإنما يسأل الرجعةَ الكفارُ. وذلك قوله سبحانه: ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٠٠) ﴾ [المؤمنون]

ولكن ترجمان القرآن ابن عباس أوضح لهم ما خفى عنهم، فقال: سأتلو عليكم بذلك قرآناً: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٩) وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠) ﴾ [المنافقون]

ويقول الحق سبحانه:

﴿ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾ ﴾

المطلوب من المؤمنين فى الحياة الدنيا أنْ يتسابقوا إلى الخيرات قبل أنْ

---

(١) أورده السيوطى فى الدر المنثور (المنافقون ٩) وعزاه لعبد بن حميد والترمذى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه عن ابن عباس، وقد أخرجه ابن أبى حاتم فى تفسيره (١٨٩٠١) والترمذى فى سننه (٣٣١٦) وحميد بن زنجويه فى كتاب (الأموال) (١٣٥٢).

يأتيهم الأجل ، ولا يحسب واحدٌ منهم أنه سيفلت من الله ، والحق سبحانه يقول:

﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ كِتَابًا مُؤَجَّلا .. (١٤٥) ﴾ [آل عمران]

والكتاب المؤجَّل يُطلق مرة على زمن العمر كله ، ومرة يُطلق على النهاية النهائية منه ، والنهاية النهائية هى الموت الحقيقى ، فالقاتل حين ينقض بِنْية القتيل إنما يوافق الأجل المكتوب الذى أراده الله ، لكن لماذا نعاقب القاتل إذن ؟ نحن نعاقبه لأنه نقض بِنْية إنسان آخر .

فالعلماء الذين يُدقِّقون فى الألفاظ يقولون : هذا المقتول لو لم يُقتل ، أكان يموت ؟ نقول : نعم لأن المقتول ميت بأجله ، لكن الذى قتله هل كان يعرف ميعاد الأجل ؟ لا . إذن فهو يُعاقب على ارتكابه جريمة إزهاقِ الروح .

أما المقتول فقد كتب اللهُ عليه أنْ يفارق الحياة بهذا العمل ، فالموت هو سَلْب الحياة بدون نَقْض بِنْية ، وهذا لا يُجريه إلا الله ، إنما القتْل بهدم البنية ، فأىُّ إنسان يستطيع أنْ يفعله فتخرج الروح بإذن الله .

وليس معنى ذلك أن أحداً عجّل بأجل القتيل ، لا ولكنه تدخَّل فى بُنيان أقامه اللهُ فهدمه ، ولو لم يتدخّل أحد فى بنيان الله ليهدمه لكان أجلُه قد جاء.

ولا أحدَ فينا يعلم أجله مهما عرض نفسه على الأطباء ، ويقول تعالى :

﴿ هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ (٢) ﴾

[الأنعام]

فقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ قَضَى أَجَلا .. (٢) ﴾ [الأنعام] أى : قضى أجلاً لكلِّ واحد، ثم جعل أجلاً مُسمى لكلِّ شيء ، والآجال فى الآحاد تتوارد إلى أنْ يأتى أجلُ الكل ، وهو يوم القيامة .

وتأجيل موت الإنسان لأجل معلوم لله سبحانه جاء لحكمة ، فالأجل لو

عُـرف فقد يعصـى مَنْ يعلمه مدة طويلة ، ثم يقـوم بـالعمل الصالح قبل ميعاد الأجل ، ولكن الله أراد من إبهام زمان الموت أنْ يشيع زمانه فى كلِّ وقت .

ويقول الحق سبحانه : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (٣٤) ﴾ [الأعراف]

فإذا جاء الأجل فلا أحدَ يستطيع تأخيره ، لأن التوقيت فى يد قيُّوم الكون ، وهم أيضاً لا يستقدمون هذا الأجل ، وأنت لا تعرف متى يجيء الأجل ، وإبهام الأجل من الله لنا إشاعةٌ للأجل ، والإبهام هو أوضح أنواع البيان ، فحين يريد ربنا أنْ يُوضِّح أمراً توضيحياً كاملاً فهو يُبهمه .

ومثـال ذلـك : لـو جعل الله للمـوت سِنـاً لَصارَ الأمـرُ محدداً بلا أمـل ، لكنه سبحانه لم يجعل للموت سِناً أو سبباً ، وأشاعه فى كلِّ الزمن ، والإنسان عُرْضة لأنْ يستقبل الموت فى أيِّ لحظة ، ونزول الموت لا يتوقف على سبب ، فقد يأتى بسبب وقد يأتى بغير سبب .

وما دام الإنسانُ يستقبل الموت فى أيِّ وقت ، فعلى العاصى ألاَّ يستقبل الموت وهو على عصيان لله ، وهناك العديد من الأسباب للموت ، واعلم أن الموتَ بدون أسباب هو السبب ، فالإنسان الذى نفقده بالموت مات لأنَّ أجله قد انتهى .

هنـاك غايـة تنتظركم ، غايـات فردية هى آجـال النـاس بذواتهـم ، وآجال جماعية تتمثل فى يوم القيامة ، وإذا جاء الأجل فهو لا يتأخر عن ميعاده ، ولا يتقدم عن ميعاده .

ولنعلـم أن كلَّ أجل – وإنْ طال – فهـو معدود – وكلّ معدود قليلٌ مهما بدا كثيراً ، لذلك فلنقُلْ أن كلَّ معدود قليل ما دمنا قادرين على إحصائه .

وهل يضمن أحدٌ أنْ يُمهلك الأجل إلى أنْ تتوب ، والموت يأتى بغتة ، والنفس

محكوم عليها بأنها لا تستأخر ، لأن الاستئخار بعد بلوغ الأجل مستحيل .

وواقع الحياة يؤكد أنه لا وحدةَ فى عمر ، ولا وحدةَ فى سبب ، وقد جعل الله النفس البشرية تترقبه فى كل لحظة ، فكلُّ لحظة تمرّ عليك يمكن أنْ يأتيك فيها الموت .

وهكذا أشاع الموت فى كلِّ الزمن ، وما دام الأمرُ كذلك فلابد أنْ ينتبه الإنسانُ ويخشى أنْ يموت وهو على معصية ، فالإبهام هو كما قلنا عيْن البيان .

ومعنى قول الحق سبحانه : ﴿ وَلَنْ يُؤَخِّرَ .. (١١) ﴾ [المنافقون] هو قَطْع لأمل العصاة والمجرمين والمنافقين الذين يظنون أنه من الممكن أنْ يُؤخر الله نفساً استوفتْ أجلها ، فيمهلها حتى تفعل ما لم تفعله حال الصحة والسّعة والمهلة فى الحياة الدنيا .

واستخدم الحقُّ سبحانه (لن) التى تعنى التأبيد ، فكلمة (لن) جاءتْ بنفى المستقبل فلم يقُلْ مثلاً : لم يؤخر . بل قال : (لن يؤخر) . فالنفى هنا للتأبيد، فلا تُمنُّوا أنفسكم بأوهام لا أساسَ لها ، ويقول تعالى : ﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ .. (١٢٣) ﴾ [النساء]

ما هى الأمنية ؟ الأمنية هى الشيء الذى يحب الإنسان أنْ يحدث ولكن حدوثه مستحيل ، إذن لن يحدث ولن يكون له وجود ، فالأمانى أنْ تعلّق نفسُك بأمنية وليس لهذه الأمنية سند من الواقع يُوصِّلك إلى تحقيق هذه الأمنية ، فالأمانى هى مطامع الحمقى لأنها لا تتحقق .

والحق سبحانه هنا اختار لفظة (نفساً) لأنها مُعبِّرة عن مجموع مادة الإنسان وروحه ، فباجتماعهما تُوجد النفس ، والنفس هى التى لها اختيار أنْ تطيع أو تعصى .

ويتضح هذا أكثر فى قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ[1] فِيهَا .. (٧٢) ﴾ [البقرة] ففِعْل القتل وقع على المادة وهو الجسم بنقض البنية ووقع على الروح بإزهاقها ، فالنفس تجمع الاثنين معاً ، فهما يُشكلان معاً الإنسان .

وقد استخدمها الحق سبحانه هنا وفى آيات كثيرة نكرة مقابل (نفساً) ، والمتأمل لآيات القرآن يجد أن كلمة نفس إذا استُخدمت مُعرَّفةً بـ (ال) فنجدها تعنى الروح والمادة أيضاً .

قال الحق سبحانه : ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ .. (٤٥) ﴾ [المائدة] وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ .. (١٥١) ﴾ [الأنعام] فالنفس هنا مُعرَّفة بـ (ال) مقصود بها مادة الإنسان وروحه معاً .

أما قوله تعالى : ﴿ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ .. (٥٣) ﴾ [يوسف] وقوله : ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ﴾ [الفجر] فالنفس فيهما مقصودٌ بها روح الإنسان .

ومن روعة الأسلوب القرآنى أنه يعبر باللفظ الموجز عن معانٍ كثيرة جداً، كقول الحق سبحانه هنا : ﴿ إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا .. (١١) ﴾ [المنافقون] فلم يَقُلْ القرآن : إذا جاء الأجل ، بل قال أجلها . فنسب الأجل إلى النفس التى أوردها هنا نكرة .

وهذا معناه أن لكلِّ نفس أجلاً خاصاً بها لا يتحد مع الآخرين ، فهناك مَنْ يموت فى بطن أمه ، وهناك مَنْ يعيش ساعةً أو ساعات ثم يموت ، وهناك مَنْ يعيش إلى أرذل العمر .

---

(١) فادارأتم : اختلفتم . قاله ابن عباس ومجاهد . وقال الزجاج : أى تدافعتم . وألقى بعضكم على بعض . [زاد المسير لابن الجوزى ١/ ٨٤] . وقال الربيع بن أنس : تدافعتم أى يحيل بعضكم على بعض من الدرء وهو الدفع ، فكان كل واحد يدفع عن نفسه . [تفسير البغوى ١/ ١٠٨] .

حتى الجنين الذى يموت فى بطن أمه نجده يختلف من جنين لآخر فهذا حَمْل يسقط من بعد ساعة ، وذاك حَمْل يسقط من بعد شهر أو شهور .

والموت يدرك كلَّ حيٍّ ، يقول تعالى : ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ .. (٧٨) ﴾ [النساء] وكلمة يدرككم الموت دليل على أن الإنسان عندما تدبّ فيه الروح ينطلق الموت مع الروح إلى أنْ يُدركها فى الزمن الذى قدرَّه الله .

ولذلك يقول أهل المعرفة والإشراق : « الموت سهمٌ أُرسِل إليك ، وإنما عمرك هو بقدر سفره إليك »[1] وهكذا نعرف أن قوله الحق : ﴿ يُدْرِككُّمُ .. (٧٨) ﴾ [النساء] يدل على أن الموت يلاحق حياة الإنسان ويجرى وراء روحه حتى يدركها .

ويقول الحق سبحانه عن لحظة الموت : ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ (٦١) ﴾ [الأنعام]

فهم لا يُهملون ولا يُقصرون ولا يتجاوزون الحدَّ ، إنهم يأتونه فى اللحظة المحددة سلفاً من الله عز وجل لا قبل ولا بعد ، لذلك قال تعالى : ﴿ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا .. (٦١) ﴾ [الأنعام] وقوله : ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا .. (٤٢) ﴾ [الزمر]

ومعنى : ﴿ مُتَوَفِّيكَ .. (٥٥) ﴾ [آل عمران] قد يكون هو أخْذك الشيء تاماً ، واللغة العربية توضح ذلك ، فأنت تقول – على سبيل المثال – لمن أقرضتَه مبلغاً من المال ويطلب منك أنْ تتنازل عن بعضه لا ، لابد أنْ أستوفى مالى ، وعندما يعطيك كلَّ مالك تقول له : استوفيت مالى تماماً ، فتوفيته أى : أنك أخذتَه بتمامه .

والحق سبحانه يقول : ﴿ وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا

---

(١) قاله عبد الله بن المعتز من فصوله القصار : « الموت سهم مرسل إليك عمرك بقدر سفره إليك » . [الإعجاز للثعالبى ١/ ٩٠] وأبو إسحاق القيروانى فى زهر الآداب وثمر الألباب [٢/ ٢٥١] .

رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ (٤٤) ﴾ [إبراهيم]

فهناك خشية أنْ يشابه قولكم ما يقوله الكافرون ويظنونه ، وأن الحق سبحانه سيُؤخِّر حسابهم ، وأنه سيعيدهم إلى الدنيا لعلَّهم يعملون عملاً صالحاً ويجيبون دعوة الرسل .

مع أنهم من قبل كانوا يقسمون أنه لا بعث بعد الموت ﴿ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ (٤٤) ﴾ [إبراهيم]

وهل يستطيع أحد أنْ يتمرد على الموت إذا نزل بساحته ؟ فهو مقهور على خروج روحه : ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً[1] حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ (٦١) ﴾ [الأنعام]

والحق سبحانه يُطلقها قضية مفروغاً منها ، حيث يقول تعالى : ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ .. (٢٨) ﴾ [الأنعام] فسواء رُدُّوا إلى الحياة مرة أخرى ، أو أُخِّر أجلهم وساعة موتهم لعادوا إلى الأعمال السيئة ، ولعادوا إلى ما نُهوا عنه .

فلا هم صادقون فى طلب الرجعة ، ولا هم صادقون فى طلب تأجيل وتأخير الأجل ، فمَنْ كان يريد فعل الصلاح لفعله فى زمن المهلة والصحة والقوة على الفعل فليفعله .

لذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا .. (١١) ﴾ [المنافقون] حضّ على المبادرة ومسابقة الأجل بالعمل الصالح ، فسارعوا فى الخيرات واستعدوا لما هو آتٍ .

---

(١) الحفظة: جمع حافظ ، قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً .. (٦١) ﴾ [الأنعام] أى : ملائكة رقباء . [القاموس القويم ١/١٦٣] قال ابن منظور فى لسان العرب (مادة حفظ) : « الحفظة الذين يحصون الأعمال ويكتبونها على بنى آدم من الملائكة وهم الحافظون » .

فلن يمهل الله أحداً أياً كان إذا انتهى أجله ولن يزيد فى عمره ، وفيه تحريض على المبادرة بأعمال الطاعات ، حذراً أنْ يجيء الأجل وقد فرط ولم يستعد للقاء ربِّه .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١١) ﴾ [المنافقون]

قضية أن الله سبحانه خبير بما نعمل تجعل القلبَ يرتجف خوفاً ورعباً ، فقد يُدلِّس الإنسانُ على البشر ، فتجد مَنْ يتهرب من الضرائب ويصنع تزويراً دفترين للضرائب ، واحداً للكسب الصحيح وآخر للخسارة الخاطئة ، ويكون هذا المتهرب من الضرائب يملك المال ثم ينكر ذلك .

هذا الإنسان عليه أنْ يعرف أن الله خبيرٌ بكلِّ ما يعمل ، ولذلك نجد الحق سبحانه يصف ذاته فى مواقع كثيرة من القرآن بأنه لطيف خبير ، لطيفٌ بعلم ما يدخل ويتغلغل فى الأشياء ، وخبيرٌ بكل شيء وقدير على كلِّ شيء .

ونحن فى حياتنا نسمع كلمة « خبير » فعندما نقابل أيَّ مشكلة من المشكلات نجد مَنْ يقول : نريد أنْ نسمع رأى الخبير فيها ، وفى القضاء نجد القاضى يستدعى خبيراً ليكتب تقريراً فى أمر يحتاج إلى مَنْ هو متخصِّص فيه وعليم به .

إذن : فالخبير فى مجال ما هو الذى يعرف تفاصيل الأمر ، فما بالنا بالخبير الأعلى الذى لا يستعصى عليه شيءٌ فى مُلكه ، ولا تخفى عليه خافيةٌ، فلا تخدعوا أنفسكم وتحسبوا أنكم إنْ أخفيتُم شيئاً عن عيون الخلق قد يخفى على الله أبداً ، فلن يخفى شيءٌ عن الخالق سبحانه ، لأنكم إنْ عمّيتم على قضاء الأرض فلن تُعمُّوا على قضاء السماء .

والحق سبحانه يقول : ﴿ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١١١) ﴾ [هود]

فالله سبحانه خبير بما يفعل العباد ، وهو سبحانه يعلم أفعال العبد قبل أنْ تقع ، ولكنها حين تقع لا يمكن أنْ تنسى أو تذهب أدراج الرياح ،لأن مَنْ يعلمها هو الخبير صاحب العلم الدقيق .

والخبير يختلف عن العالم الذى قد يعلم الإجماليات ، لكن الخبير هو المدرّب على التخصص ، ولذلك غالباً ما تأتى كلمتا (اللطيف والخبير) معاً ، لأن الخبير هو مَنْ يعلم مواقع الأشياء .

واللطيف هو مَنْ يعرف الوصول إلى مواقع تلك الأشياء .

ومثال هذا : أنك قد تعرف مكانَ اختباء رجل فى جبل مثلاً ، هذه المعرفة وهذا العلم لا يكفيان للوصول والنفاذ إلى مكانه ، بل إن هذا يحتاج إلى ما هو أكثر وهو الخبرة ، والأكثر من هذا الدقة واللطف .

ولا شيءَ يعوق الله تعالى أبداً ، وهو العليم بموقع وموضع كلِّ شيء ، فهو يجمع بين اللطْف والخبرة ، فلُطْفه لا يقف أمامه شيءٌ ، ولا يوجد ما هو مستور عنه ، ولا يقوم أمام مراده شيءٌ .

وسبحانه خبير بمواضع الأشياء ، وعلمه سبحانه مطلق ، وهو حكيم يُجرى كلَّ حدث بمراد دقيق ، ولا يضيف إليه أحدٌ أىَّ شيء ، فهو صاحب الكمال المطلق .

وقد جمع الحق سبحانه بين صفتى اللطيف والخبير ، فقال تعالى : ﴿ يَـٰبُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ(١) فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (١٦) ﴾ [لقمان]

وقوله تعالى : ﴿ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ .. (١٦) ﴾ [لقمان] أى : وزن حبة

---

(١) الخردل : نبات له حب صغير جداً وإذا جفت حبة الخردل كانت نهاية فى الصغر وهو نبات عشبى تستعمل بذوره فى الطب وهو حرِّيف . [القاموس القويم ١/١٩٠] .

الخردل ، وكانت أصغرَ شيء وقتها ، فجعلوها وحدة قياس للقلّة ، وليس لك الآن أنْ تقول : وهل حبة الخردل أصغر شيء فى الوجود ؟

فالقرآن ذكرها مثالاً للصِّغر على قدر معرفة الناس بالأشياء عند نزوله ، أما من حيث التحقيق فقد ذكر القرآن الذرَّة والأقل منها .

والحق سبحانه لطيف ، فمهما صَغُرت الأشياء ودقَّتْ يصل إليها ، فهو إذن عليم خبير بكلِّ شيء مهما صَغُر ، قادر على الإتيان بها مهما دقَّ ، لأنه لطيف لا يمنعه مانع ، فصفة اللطف هذه للتغلغل فى الأشياء .

فقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (١٦) ﴾ [لقمان] يعنى : لا يُعوزه علم بالمكان ، ولا سهولة ويُسْر فى الوصول إلى الأشياء .

وقوله تعالى : ﴿ وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١١) ﴾ [المنافقون] وما دام سبحانه خبيراً بما تعملون فهو الذى يُهيء لكم صلاحَ العمل بخبرته وحكمته وقدرته وقيوميته .

والخبرة تدلُّ على منتهى العلم وعلى العلم الواسع الذى لا تفوته جزئية مهما صَغُرتْ .

والله خبير بما فى النفوس ، وهو سبحانه أعلم بما فى نفس الإنسان ونيته من العمل الصالح ، وهَبْ أنه فعل أىَّ فعل على غير مرأى من أحد ، فلا تعتقد أن المجتمع وإنْ لم يشهد منك ذلك أن المسألة انتهتْ ، لا إن اللهَ عليمٌ بما تفعل وإنْ لم يطلع عليك أحدٌ من الناس .

وقد يسأل سائل : لماذا أنهى الحقُّ سبحانه سورة المنافقين بهذه الآية ﴿ وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١١) ﴾ [المنافقون] ؟

نقول : الأمر واضح ، فأصل النفاق هو إضمار شيء فى النفس غير ما يظهر

من الإنسان على لسانه أو فى جوارحه ، لذلك فالله يخبرهم أن الله خبيرٌ بحقيقة ما يفعلونه ويعملونه ويقولونه ، يعلم سِرَّهم ونجواهم وما تُخفيه صدورهم .

وقد تكلمتْ سورة المنافقين عن الصدقة والنفقة ، فقال تعالى : ﴿ وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠) ﴾ [المنافقون]

والله خبيرٌ بالنية وراء صدقتك سواء أعلنتها أو أخفيْتَها ، والله يُجازى على قدْر نية العبد فى الإبداء أو فى الإخفاء ، وإبداء الصدقات لا مانع منه إنْ كان مَنْ يفعل ذلك يريد أنْ يكون ذلك أسْوة .

المهم أنْ يخرج الرياءُ من القلب لحظة إعطاء الصدقة ، فالحق يوضح : إياك أنْ تنفق وفيك رياء ، أما مَنْ يُخرج الصدقة وفى قلبه رياء فالله لا يحرم المحتاجين من عطاء مُعْط ، لأنه سبحانه يؤكد : خذوا منه وهو الخاسر ، لأنه لن يأخذ ثواباً ، لكن المجتمع ينتفع .

فخاتمة سورة المنافقين مناسبة لموضوع السورة ، فقوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١١) ﴾ [المنافقون] هو تذكير للمنافقين وتنبيه لهم ، وتحذير أنه لا تَخْفى منهم خافية .

والحق سبحانه لم يقُلْ : خبير بما تفعلون . ولم يقُلْ : بما تقولون . بل قال سبحانه : ﴿ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١١) ﴾ [المنافقون] وتعملون تشمل الأمرين الفعل والقول .

فالله سبحانه خبير بكلِّ فعل وإحساس ، وذلك يحتاج إلى خبير لطيف ، والعمل ينقسم إلى ثلاثة أقسام : قول باللسان ، وفعل بجوارح غير اللسان ، ونيات قلوب وهوى .

وإياكم أنْ تعملوا أعمالاً ظاهرها عدلٌ وباطنها رياء ، لأننا نعلم أن لكلٍّ جارحة من الجوارح مجالاً تؤدى فيه وظيفتها ، فاللسان أداؤه ووظيفته القول، والأذن فعلها أنْ تسمع ، والأنف أداؤه أنْ يشُمّ ، ويجمع الجميع العمل ، فالعمل إما أنْ يكون قولاً ، وإما أن يكون فعلاً .

فالقول محلُّه اللسان ، والفعل محله بقية الجوارح ، والاثنان يجمعهما العمل.

وسورة المنافقين تعرضتْ لما قاله المنافقون ﴿ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ .. (١) ﴾ [المنافقون] ولأن الله خبير قال : ﴿ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (١) ﴾ [المنافقون]

وقال فيهم : ﴿ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا .. (٧) ﴾ [المنافقون]

وهم الذين قالوا : ﴿ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ .. (٨) ﴾

[المنافقون]

هذا عن القول ، أما عن الفعل فإن المنافقين تلهيهم أموالهم وأولادهم عن ذكر الله، لذلك وجَّه الحق سبحانه المؤمنين ألاَّ يشابهوا المنافقين فى فعلهم ، فقال : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ .. (٩) ﴾ [المنافقون]

ولأن هذا فعلٌ قال تعالى بعدها : ﴿ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٩) ﴾ [المنافقون]

ثم إن المنافقين لا يتصدَّقون ويمنعون غيرهم عن التصدُّق ، وهذا فعل . فكلمة : ﴿ وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١١) ﴾ [المنافقون] استوعبتْ ما قالوه وما لم يفعلوه ، فالعمل هو فعل وقول .

سُورَةُ التَّغَابُنِ

سورة التغابن[١]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾

يُقرر الحق سبحانه أمراً يغفل عنه الإنسان ، فالأرض التى تحته يسير عليها ويطؤها بقدميه وسخَّرها الله له تُسبِّح الله ، والسماء التى تعلوه وتُظله ويُمسكها الله أنْ تسقط على الأرض هى الأخرى تُسبح الله .

فلماذا يخرج الإنسان عن هذا فلا يُسبّح الله ويُنزِّهه عن النقائص كالجمادات التى يظنها الإنسان جماداتٍ لا تُحسّ ، ولكن حقيقة الأمر غير هذا .

وتسبيحهم لله ليس عارضاً ، إنما هو مستمر دائم ، لذلك عبّر الحق سبحانه بالفعل المضارع (يُسبح) الذى يعنى أن حدثَ تسبيحهم لله بدأ فى الماضى ،

---

(١) عدد آياتها ١٨ آية ، وهى مختلف فيها هل مكية أو مدنية . قال السمعانى فى تفسيره (٥/٤٤٨) : هى مدنية فى قول الأكثرين . وقال الضحاك : مكية . وقال الكلبى : مكية ومدنية . ومعناه أن بعضها آيات مكية وبعضها مدنية . نزلت بعد سورة التحريم . وهى السورة ٦٤ فى ترتيب المصحف الشريف. وهى آخر السور المفتتحة بالتسبيح .

وهو مستمر الآن ، ولا دليلَ على انقطاعه فى المستقبل .

والسماوات والأرض هما القدْر المُشَاهد للإنسان الذى يستطيع إدراكَ بعض حقائقه ويغفل عن الكثير منها ، ولكن الكون واسع مُمتد ، والسماوات والأرض فى قبضة الله سبحانه وملكه ، وهو قدير عليها تستجيب لأمره سبحانه .

وحتى لو لم يفهم الإنسانُ كُنْه تسبيح السماوات والأرض وكيفيته فليفهمه على أنَّ إمطار السماء بالماء هو تسبيح لله لأنها استجابتْ لأمر الله لتنزل غيْثاً على عباده ، وأن الأرضَ تسبيحها أنها تنبت نباتاً شتى ، وهو تسبيح عمليٌّ .

فماذا تفعل أنت أيها الإنسان ؟ أنت تتمرد على الله وتعصى أوامره ، فلا أنت مع ما فى السماوات فى تسبيحهم لله ، ولا أنت مع ما فى الأرض فى الخضوع لله وإعطاء الخير للناس .

والحق سبحانه يقول عن طاعة السماء والأرض : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) ﴾ [فصلت]

فيا مَنْ آمنت بالله إلهاً سبِّح كما سبّح كلّ الكون ، وإياك أنْ تظن أنك خارج عن مُلْكه ، لذلك قال تعالى بعدها ﴿ لَهُ الْمُلْكُ .. (١) ﴾ [التغابن] فأنت وكل ما تملك مِلْك لله ، وهو عليك قدير .

ثم يقول سبحانه ﴿ لَهُ الْمُلْكُ .. (١) ﴾ [التغابن] فسبحانه له الملْك وحده ، وقد جعل سبحانه الملْك فى الدنيا لأسباب الناس أيضاً ، أما فى الآخرة فلا مِلْكَ لأحد ولا مُلْكَ لأحد ﴿ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ .. (١٦) ﴾ [غافر]

وسبحانه القائل : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ .. (٢٦) ﴾ [آل عمران] فليس هناك مَنْ له المُلْك بذاته إلا الله سبحانه ، لذلك نقول لكل مَلِك : إن هذا الملْك الذى تتمتع به ليس بذاتك ، لأنه لو كان بذاتك لما سُلبك أحدٌ هذا المُلْكَ ولما زالَ عنك أبداً .

والحق سبحانه هو الذى يعطى الملْك لمَنْ يشاء ، وهو الذى يعطى السيادة والنفوذ والسلطان ، فلا أحدَ يملك قهراً عن الله ، وحتى الظالم لا يملك قهراً عن الله .

ولذلك يقول الحق سبحانه فى آية أخرى من القرآن : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦) ﴾ [آل عمران]

ولابدّ أنْ نعرف أن هناك فرْقاً بين (المِلْك) و (المُلْك) ، وكل إنسان له شيء يملكه مثل ملابسه أو قلمه أو أثاث بيته . ومثل هذا من الأشياء ، وهذا ما يُسمَّى (المِلْك) ، أما المُلْك فهو أنْ تملك مَنْ يملك .

وقد ملَّك الله بعضاً من خَلْقه لخَلْقه ، ملّكهم أولاً ما فى حوزتهم ، وملّكهم غيرهم ، وسبحانه ينزع الملْك من واحد ويهبه لآخر ، كى لا تصبح المسألةُ رتابةَ ذاتٍ .

فالحق سبحانه له الملْك الحق ويهَبُ من مُلكه لمَنْ يشاء ، لكنْ يظلّ الملك وما ملكه فى قبضة الله لأنه سبحانه قيُّوم على خَلْقه لا يخرج أحدٌ عن قيوميته .

وهو سبحانه له الملْك الدائم فى الدنيا وفى الآخرة ، فهناك ملك فى الدنيا يُملِّكه لخَلْقه كما قال سبحانه : ﴿ أَنْ آتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ .. (٢٥٨) ﴾ [البقرة]

وقال سبحانه : ﴿ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ .. (٢٦) ﴾ [آل عمران]

إذن : فالملْك مُلْك الله ، وهو سبحانه الذى يُملِّك خَلْقه فى الدنيا دنيا الأسباب، لكن فى الآخرة تُنزع الملكية من أىِّ أحد إلا الله وحده ، حتى إرادة الإنسان على جوارحه تُسلب منه ، فتشهد عليه بما كان منه فى الدنيا .

وكوْن المُلْك لله سبحانه هو تطمينٌ لنا أنَّ مقومات حياتك على الأرض ،

دائمة ؛ فلن ينقطع عنك الهواء فى يوم من الأيام ، ولن تتأبَّى عليك الشمس أو القمر أو الأرض لأنها مِلْك لله ، لا يُشاركه سبحانه فى ملكيتها أحدٌ يمنعها عنك، فاطمئن إلى أنها مضمونة فلا تشغل نفسك بها .

ولأن الملْك لله وحده سبحانه بسماواته وأرضه وما عليهما وما فيهما وما بينهما ، يقول تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُزْجِي(١) سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ(٢) يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ(٣) فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا(٤) بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ (٤٣) ﴾ [النور]

وعندما يقول الحق سبحانه : ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٨٨) ﴾ [آل عمران]

فهذا الوعيد سيتحقق لأن أحداً لا يفلت منه ، فلأنه سبحانه له مُلْك السماوات والأرض ، فالله حين يُوعد فهو سبحانه قادر على إنفاذ ما أوعد به ، ولن يُفلت أحدٌ منه أبداً .

ونحن بين قوسين ، سماء تُظِلّ وأرض تُقِلّ ، فكلٌّ منَّا محصور بين مملوكين لله ، وما دام كلٌّ منَّا محصوراً بين مملوكين لله ، فأين تذهبون ؟!

وقدرة الحق سبحانه تتجلى أمامنا فى مسألة الإنجاب ، فهو القائل سبحانه:

---

(١) زجا الشيء يزجو وأزجاه : ساقه برفق . قال تعالى : ﴿ رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ .. (٦٦) ﴾ [الإسراء] أى يدفعها ويُسيِّرها برفق فوق الماء . [القاموس القويم ١/ ٢٨٤] .

(٢) الودق : المطر . ودقت السحابة تدق ودقاً : أمطرت . أى أن المطر يخرج من خلال السحاب المتراكم فى السماء . [القاموس القويم ٢/ ٣٢٧] والودق : المطر كله شديده وهيِّنه .

(٣) البرد : حبات صغار من الثلج تسقط مع المطر أحياناً . والبرد أيضاً : سحاب كالجمد سُمى بذلك لشدة برده . [لسان العرب مادة : برد] .

(٤) يطلق السنا على الضوء : ﴿ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ(٤٣) ﴾ [النور] أى : ضوء برقه . [القاموس القويم ١/ ٣٣٢] .

﴿ لله مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا .. (٥٠) ﴾ [الشورى]

فربنا سبحانه له طلاقةُ القدرة فى أنْ يخلق ما يشاء ، وقد أراد خَلْقه على القسمة العقلية المنطقية الأربعة : إما أنْ يكون من أب وأم مثلنا جميعاً ، وإما أنْ يكون بعدمهما مثل آدم ، وإما أنْ يكون بالذكر دون الأنثى كحواء ، وإما أن يكون بالأنثى دون الذكر كعيسى عليه السلام .

والسماء والأرض هما ظرفان للوجود وللكائنات كلها من أبراج وشمس وكواكب وقمر ونجوم وهواء وغمام وماء وحيوان وإنسان ، فالأرض وهى المُلْك الأسفل الذى نراه وما فيه من أقوات وحيوان وإنسان .

والسماء وما تحوى وتضمُّ من الملكوت الأعلى هما جميعاً لله مِلْكاً ومُلْكاً ، فهو سبحانه الذى يملك كلَّ شيء ويملك كذلك المالك للشيء .

وليس لشيء من خَلْق الله أنْ يخرج عن مرادات الله ، أما فى الدنيا فقد جعل الله أسبابها فى أيدى الناس ، رزْق إنسان فى يد إنسان آخر ، وملّك بعضنا أمر بعض ، فهناك مالك الطعام ومالك الثوب .

ولكن ليس كلُّ مالك ملكاً ، لأن الملك هو الذى يملك المالك وهذه سنن الكون، وفى الآخرة هناك مالك واحد هو مَلِك يوم الدين ، فسبحانه يملك الكون كله ، والكون مُكوَّن من أجناس متعددة .

وأول جنس فى الكون هو الخادم الذى لا يُخدم وهو الجماد ، والجماد قد يكون ماءً أو جبالاً أو حديداً أو شمساً أو قمراً أو نجوماً ، كل هذه جمادات ، أى ليس لها حِسّ ، وهذه الجمادات تخدم أول ما تخدم النبات ، والنبات يخدم الحيوان ، والحيوان يخدم الإنسان .

هكذا يكون الجمادُ خادماً لكلٍ ما يعلوه من نبات وحيوان وإنسان ، والنبات أيضاً ما يعلوه ؛ فيخدم الحيوان والإنسان ، والحيوان يخدم ما يعلوه ، وهو الإنسان .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ لَهُ الْمُلْكُ .. (١) ﴾ [التغابن] ساعة تسمع كلمة الحمد ، فعليك أنْ تفهم أنها كلمة المدح والثناء والشكر ، فالحمد أمر فطريٌّ موجود ونُوجِّهه لله ، فهو سبحانه الذى أمدّ كلّ إنسان بشيء من أسبابه ، وهو سبحانه واهب النعم .

ومن رحمة الله سبحانه أنه جعل الشكر له فى كلمتين اثنتين هما : الحمد لله ، فأنت حين تريد أنْ تشكر بشراً على جميل فِعْله قد تظل ساعات وساعات تُعدّ كلمات الشكر والثناء وتحذف وتضيف وتأخذ رأى الناس حتى تصل إلى قصيدة أو خطاب ملىء بالثناء والشكر .

ومن رحمة الله سبحانه أنه علَّمنا صيغة الحمد ، فلو أنه تركها دون أنْ يُحدِّدها بكلمتين لكانَ من الصعب على البشر أنْ يجدوا الصيغة المناسبة ليحمدوا الله على هذا الكمال الإلهى .

فمهما أُوتى الناسُ من بلاغة وقدرة على التعبير فهم عاجزون عن أنْ يصلوا إلى صيغة الحمد التى تليق بجلال المنعم ، فكيف نحمد الله والعقل عاجز عن أنْ يدرك قدرته سبحانه أو يُحصى نِعَمه أو يحيط برحمته ؟

ورسول الله ﷺ أعطانا صورة العجز البشرى عن حَمْد كمال الألوهية لله تعالى ، فقال : « لا أُحصى ثناءً عليك ، أنت كما أثنيتَ على نفسك »(١) .

وكلمتا « الحمد لله » ساوى الله بهما بين البشر جميعاً ، يُعبر بهما الأميّ

---

(١) عن عائشة رضى الله عنها قالت : فقدت رسول الله ﷺ ليلة من الفراش ، فالتمسته فوقعت يدى على بطن قدميه وهو فى المسجد وهما منصوبتان وهو يقول : « اللهم أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك ، لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك » أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه (١١١٨) وأبو داود فى سننه (٨٧٩) والترمذى فى سننه (٣٤٩٣) .

الـذى لا يقرأ ولا يكتب ، ويُعبر بها العالم ، ولكن الحق تبارك وتعالى شاء عدله أنْ يُسوِّى بين عباده جميعاً فى صيغة الحمد لله .

فأول كلمات الله فى القرآن : ﴿ الْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) ﴾ [الفاتحة]

والحق سبحانه قبل أنْ يخلقنا خلق لنا مُوجبات الحمد من النِّعم ، فخلق لنا السمـاوات والأرض وأوجد لنـا الماء والهواء ، ووضع فـى الأرض أقواتها إلى يوم القيامة .

وهـذه نعمة يستحق الحمد عليها لأنه جعل النعمة تسبق الوجود الإنسانى، فعندمـا خلـق الإنسان كانـت النعمة موجودة تستقبله ، بـل إن الله جلَّ جلاله قبـل أنْ يخلـق آدم أبا البشر جميعاً سبقتْـه الجنة التى عاش فيها لا يتعب ولا يَشْقى .

فالحـق سبحانـه لـه الحمـد لأن مُوجبات الحمـد وهى النعمـة موجودة فى الكـون قبل الوجـود الإنسانـى ، والله سبحانه وتعالى خلق لنا فـى هذا الكون أشياء تعطى الإنسان بغير قدرة منه ودون خضوع له ، والإنسان عاجزٌ عن أنْ يُقدِّم لنفسه هذه النعم التى يُقدِّمها الحق تبارك وتعالى له بلا جهد .

فالشمس تعطـى الـدفء والحيـاة للأرض بـلا مقابل وبلا فعل مـن البشر والمطر ينزل من السماء دون أنْ يكون لك جَهْد فيه أو قدرة على إنزاله ، والهواء موجود حولك فى كلِّ مكان تتنفس منه دون جهد منك ولا قدرة .

والأرض تعطيـك الثمر بمجرد أنْ تبـذر فيها الحَبَّ وتسقيـه ، فالزرع ينبت بقـدرة الله ، والليل والنهار يتعاقبان حتى تستطيع أنْ تنام لترتاح وأنْ تسعى لحياتك .

لا أنـت أتيـتَ بضوء النهار ، ولا أنتَ الذى صنعـتَ ظلمة الليل ، ولكنك تأخذ

الراحة فى الليل والعمل فى النهار بقدرة الله دون أنْ تفعل شيئاً ، وهذا يقتضى وجوب الحمد .

عندما تقول (الحمد لله) كلها تحمل الثناء العاجز عن الشكر لكمال الله وعطائه .

والحمد لله ليس ألفاظاً تُردّد باللسان فحسب ، بل هو يمر أولاً على العقل ليعي معنى النِّعم ، ثم تستقر فى القلب فينفعل بها ، وتنتقل إلى الجوارح فأقوم وأصلى لله شاكراً ويهتزّ جسدى كله وتفيض الدمعة من عينى .

إننا بمجرد استيقاظنا من النوم وأن الله سبحانه ردَّ علينا أرواحنا وهذا الردّ يستوجب الحمد ، فإذا قُمْنا فالله سبحانه هو الذى يعطينا القدرة على الحركة ، ولولا عطاؤه ما استطعنا أنْ نقوم ، وهذا يستوجب منا الحمد[1] .

إن كلَّ حركة حياة فى الدنيا من الإنسان تستوجب منا الحمد ، ولهذا لابدَّ أنْ يكونَ الإنسانُ حامداً دائماً ، بل إن الإنسان يجب أنْ يحمد الله على أىِّ مكروه أصابه ، لأنه قد يكون الشيء الذى يعتبره شراً هو عينه الخير .

فأنت تحمد الله على كلِّ حال لأن قضاءه خير ، سواء أحببتَ القضاء أو كرهته فإنه خيرٌ لك ، لأنك لا تعلم والله سبحانه وتعالى يعلم .

ومن أسمائه الحسنى : ﴿ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ (٧٣) ﴾ [هود] فهو سبحانه يستحق الحمد لذاته ، وكلّ ما يصدر عنه يستوجب الحمد له من عباده فلا حَدَّ لخيره وإحسانه .

وكلمة : ﴿ حَمِيدٌ .. (٧٣) ﴾ [هود] تأتى بمعنيين (حامد) و (محمود) ،

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال إذا اضطجع فليقل : باسمك ربى وضعت جنبى وبك أرفعه ، فإن أمسكت نفسى فارحمها ، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين ، فإذا استيقظ فليقل : الحمد لله الذى عافانى فى جسدى وردّ علىَّ روحى وأذن لى بذكره . أخرجه الترمذى فى سننه (٣٤٠١) والنسائى فى سننه الكبرى (١٠٦٣٦) .

فالحق سبحانه حميد لأنه حامد لمَنْ يطيعه طاعة نابعة من الإيمان ، والله سبحانه محمود ممن أنعم عليهم نعمه السَّابغة .

ومما نحمد الله عليه أنَّ قضاء السماء وعلم الله بالغيب مسألة يجب أنْ نحمده عليها ، لأنه هو الذى سيحمى كلَّ واحد منَّا من غيره ، وعندما ستر الله غيبنا عن الآخرين فتلك نعمةٌ يجب أنْ نشكره عليها لأن النفوسَ مُتقلِّبة .

فلو علمتَ ما فى نفسى عليك فى لحظة فقد لا يسرُّك ، وقد لا تنساه أبداً ويظلّ رأيك فيَّ سيئاً ، لكن الظنون والآراء تمرُّ عندى وعندك وتنتهى .

ولو اطلع كلٌّ منَّا على غَيْب الآخر لكانت الحياةُ مرهقةً ، والقول المأثور يذكر ذلك : « لو تكاشفتم ما تدافنتم »[1] . إذن : فمن رحمة الله ومن أكبر نعمه على خَلْقه التى تستوجب الحمد له سبحانه أنْ ستر غَيْب خَلْقه عن خَلْقه .

والحمد لله أيضاً : ﴿ الَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِى الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا (١١١) ﴾ [الإسراء]

فقد تنزَّه سبحانه عن اتخاذ الولد وجعل الخَلْق جميعاً عياله وكلهم عنده سواء ، وأحبُّهم إليه تعالى أتقاهم له ، وهكذا يحظى الخَلْق جميعاً بكلِّ حنان ربهم وبكلِّ رحمة ربهم .

وإذا كانت آية سورة التغابن قالت ﴿ لَهُ الْمُلْكُ .. (١) ﴾ [التغابن] فإنه سبحانه يقول فى سورة الإسراء : ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِى الْمُلْكِ .. (١١١) ﴾ [الإسراء]

وهذا أيضاً من النِّعم التى تستوجب الحمد ، ولك أنْ تتصوَّر لو أن لله تعالى شريكاً فى الملك ، كم تكون حَيْرة العباد فأيُّهما تطيع ؟ وأيهما تُرضى ؟

---

(١) ذكره أبو بكر الدينورى فى كتابه (المجالسة وجواهر العلم) (٣/٢١) (٦١٦) عن الحسن البصرى: إنى أسمع حسيساً ولا أرى أنيساً ، ذهب الناس وبقى النسناس ، لو تكاشفتم لما تدافنتم ، تهاديتم الأطباق ولم تهادوا النصائح . وقال المبرد : لو علم بعضكم سريرة بعض لاستثقل تشييعه ودفنه . [غريب الحديث لابن الجوزى ٢/٢٩١] .

لقد أوضح لنا الحقُّ سبحانه هذه المسألة فى هذا المثل الذى ضربه لنا : ﴿ ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا[1] لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا .. (٢٩) ﴾ [الزمر]

فكوْنه سبحانه واحداً لا شريكَ له فى مُلكه يجعلك تطمئنّ إلى أمره ونَهيه فتطيعه وأنت مطمئنٌ ، فأوامره سبحانه نافذة لا مُعقِّبَ لها ولا مُعترضَ عليه ، فليس هناك إلهٌ آخر يأمرك بأمر مخالف ، أليستْ هذه نعمة تستوجب الحمد ؟

والحق سبحانه ليس له ولى يلجأ إليه ليعزه ، لأنه سبحانه العزيز المعزّ القائم بذاته سبحانه ، ولا حاجةَ له إلى أحد : ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ .. (١١١) ﴾ [الإسراء]

ونِعَم الله التى تستوجب أنْ نحمده عليها نعم لا تُعد ولا تُحصَى ، لكن هذه الثلاث هى قمة النِّعم التى تستوجب الحمد ، فالحمد لله الذى لم يتخذ ولداً فهو سبحانه واحد أحد ، والحمد لله الذى لم يتخذ شريكاً لأنه واحد ، والحمد لله الذى لم يكُنْ له وليٌّ من الذُّل لأنه القاهر العزيز المعز .

و (الحمد) بالألف واللام الدالة على الحصر ، فالمراد الحمد المطلق الكامل لله ، الحمد المستوعب لكلِّ شيْء ، لذلك قال : ﴿ وَلَهُ الْحَمْدُ .. (١) ﴾ [التغابن] فحصر الحمد المطلق لله سبحانه ، بتقديم له ثم تعريف الحمد .

والحمد المطلق لله هو حَمْد على حَمْد على حَمْد ، فيظل اللهُ محموداً دائماً ، ويظل العبد حامداً إلى ما لا نهاية .

ومن الحمد أننا نحمده على أنه مُسبَّح من الخلائق كلها : ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ .. (١) ﴾ [التغابن] فهو سبحانه مُتنزِّه عن مشابهة

---

(١) رجل سلماً لرجل : أى ملْكاً خالصاً له لا ينازعه فيه أحد . [القاموس القويم ١/ ٣٢٤] . قال القرطبى فى تفسيره (سورة الزمر آية ٢٩) أى خالصاً لسيد واحد وهو مثل من يعبد الله وحده . وقال البغوى (١١٨/٧) : أى « خالصاً له لا شريك ولا منازع له فيه » .

الأحداث كلها ، وهى نعمة يجب أنْ نشكر الله ونحمده عليها ، نحمده على أنه ليس كمثله شيء .

فهو القوى الذى لا يضعف أبداً ، وهو العليم الذى لا يخفى عليه شيءٌ فى الأرض ولا فى السماء ، وهو الكريم الذى لا يبخل أبداً ، وهو القدير الذى لا يعجز أبداً .

وهذه نعمة كبيرة تستحقّ وتستوجب الحمد ، فلو كان ضعيفاً فكيف ينصر مَنْ آمن به ، ولو كان لا يعلم فكيف يعلم بالمضطرين من عباده ؟ وكيف يجيب سُؤْلهم ؟ وكيف يبخل إله على مَنْ خلقهم ؟

لذلك كان سبحانه له الحمد أنْ كان مُنزّهاً عن النقص ، لذلك يقول سبحانه: ﴿ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) ﴾ [التغابن] ، فكلُّ شيء داخل فى إرادة الله وقدرته سبحانه ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ .. (٤٠) ﴾ [المائدة] ، فكلُّ شيء فى الوجود هو مُلك لله ، وهو يتصرّف بقدرته فيما يملك .

ولذلك عندما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة ، كان اليهود يملكون المال ولهم معرفة ببعض العلم الدنيوى ، لذلك سادوا المدينة ، وبدأوا يمكرون برسول الله ﷺ .

والله تبارك وتعالى طمأنَ رسوله بأن طلاقةَ القدرة فى الكون هى لله وحده، وأنه إذا كان لهم ملك فإنه لا يدوم لأن الله ينزع الملك ممَّنْ يشاء ويُعطيه لمَنْ يشاء .

وما دام الله هو المالك وحده فإنه يستطيع أنْ ينزع من اليهود وغيرهم ومن الدنيا كلها ما يملكونه ، فالحق سبحانه وتعالى لا يُعجزه شيء ، ولا يخرج عن طاعته شيء ، إنه سبحانه على كلِّ شيء قدير .

لذلك فأنت حين تلجأ ، تلجأ إلى الخالق الأعلى الذى بيده مقاليد كلِّ شيء، الذى لا يوجد مَنْ يغلبه على أمره ، وهو سبحانه القدير أبداً على أنْ يمنحك ويمسَّك بالخير ، وقدرتُه لا حدودَ لها .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾ ﴾

خبر الخلق إنما نأخذه عن الله سبحانه لأنه الخالق ، لذلك نحن نُصدِّق الذى خلقنا فى أمْر خَلْقنا ، وهو سبحانه يقول : ﴿ مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا[1] (٥١) ﴾ [الكهف]

ولم يدّع الخَلْقَ أحدٌ ، وهذه بدهية من بدهيات هذا الكون ، فالله تبارك وتعالى خلق الكون وخلق كلَّ ما فيه ، وقال سبحانه إنه خلق ، ولم يأتِ ولن يأتى مَنْ يدَّعى الخلق ، فالدَّعوى خالصة لله تبارك وتعالى .

ولو كان فى هذا الكون آلهة متعددة لادَّعى كلُّ واحد منهم الخَلْق ، ولكن لم يَقُمْ معارض يقول : أنا الذى خلقتُ ، فإذْ لم يأتِ مَنْ يقول هذا فقد ثبتتْ الدعوى لصاحبها .

ولا يستطيع أحدٌ ادّعاء أنه خلق نفسه أو خلق غيره ، والخَلْق قضية محسومة لله سبحانه .

والله سبحانه ذكر لنا غَيْب الخَلْق فى القرآن الكريم ، فقال جَلَّ جلاله أنه

---

(١) العضد : المُعين والنصير . أى : ما كنت يا محمد متخذ المضلين أنصاراً . والاعتضاد : التقوِّى والاستعانة. وفلان يعضد فلاناً أى يعينه ، واعتضدت بفلان : استعنت . [لسان العرب مادة : عضد].

خلق الإنسان من تراب ومن طين ومن حمأ مسنون[١] ثم نفخ فيه من روحه .

واقرأ قوْل الحق سبحانه : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ (٥) ﴾ [الحج] . وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (١٢) ﴾ [المؤمنون] ، وقوله : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ[٢] لَازِبٍ (١١) ﴾ [الصافات] ، وقوله: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٢٦) ﴾ [الحجر] ، وقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ .. (٧٢) ﴾ [ص]

الذى خلق قال : أنا خلقتُك من تراب .. من طين .. من حمأ مسنون .. من صلصال كالفخار .. فالماء وُضع على تراب فأصبح طيناً .. والطين تركناه فتغيَّر لونه ورائحته وأصبح حمأ مسنوناً .. فإذا جف وتصلب فهو صلصال كالفخار ، بعد أن سوَّاه فى صورة إنسان . ثم نفخ الحق سبحانه فيه الروح فأصبح بشراً .

هذه المراحل لم يَرَهَا الإنسانُ ولم يشهدها أحد ، ولكن الله جعل عليها دليلاً بما نراه عند الموت ، فأوّلُ شيء يخرج من الجسد هو الروح وهو آخر ما دخل فيه ، ثم بعد ذلك يتصلَّب الجسد ويصبح صلصالاً كالفخار ثم يتعفَّن ، فيصبح كالحمأ المسنون ، ثم يتبخر الماء الذى فيه فيعود تراباً .

فمما نراه عند موت الإنسان ومراحل تحلُّله ندرك مراحل خَلْقه من التراب ، وهذا الخَلْق من التراب حدث مرة واحدة مع آدم عليه السلام فقط ، ثم خلق حواء من لحم آدم ، ثم جعله تناسلاً من ماء الرجل وماء المرأة .

يقول تعالى : ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ (٥) خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ (٦) يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ

---

(١) الحمأ : الطين الأسود . والمسنون : المصبوب فى قالب إنسانى أو مصوَّر بصورة إنسانية أو طين كالفخار صالح للتصوير والصقل . [القاموس القويم ١/ ٣٣١] .

(٢) لزب الطين يلزب : قلَّ ماؤه وتماسكت أجزاؤه فهو لازب : لاصق متماسك [القاموس القويم ٢/ ١٩٢]. طين لازب أى لازق لاصق . [لسان العرب – مادة : لزب] .

الصُّلْبِ[١] وَالتَّرَائِبِ (٧) ﴾ [الطارق] وهو ماءٌ له خصوصية وهو المنىّ الذى قال الله فيه ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى (٣٨) ﴾ [القيامة]

والله يخلق من الشيء ذكراً أو أنثى ، ويعطيهما القدرة على التناسل فها هو ذا قَوْل الحق سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ﴾ [المؤمنون]

وقد جاء فى حديث رسول الله : « إنَّ أحدكم يُجمع فى بطن أمه أربعين يوماً، ثم يكون علقةً مثل ذلك ، ثم يكون مُضْغة مثل ذلك ، ثم يبعث الله مَلَكاً فيُؤمر بأربع كلمات ، ويُقال له : اكتب عمله ورزقه وأجله وشقيّ أو سعيد ، ثم يُنفخ فيه الروح »[٢] .

فأول مرحلة هى النطفة ، نطفة الرجل التى تخرج دافقةً من الرجل لتصل إلى رحم المرأة ، وهى ما نُسميه الحيوان المنوى ، وهو الذى يحمل خصائص الأنوثة أو الذكورة كما أثبت العلم الحديث .

وليس للمرأة شأنٌ بهذا التحديد ، وكأنَّ فى ذلك إشارة إلى مهمة المرأة كسكن، لأن البويضة تتلقَّى الحيوان المنوى وتحتضنه ، ليكتمل النمو إلى أنْ يصير كائناً بشرياً .

والنطفة تختلط بماء المرأة وتُكوّن ما يُسمَّى العلقة حيث تتعلق بجدار الرحم، وذلك بعد أربعين يوماً ، والعلماء يُسمونها (الزيجوت) وهى عبارة عن بويضة

---

(١) الترائب : عظام الصدر والنحر . قال ابن عباس : هى موضع القلادة من الصدر وروى الوالبى عنه : بين ثديى المرأة . [تفسير البغوى ٨/٣٩٤] .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٢٠٨ ، ٣٣٣٢ ، ٦٥٩٤) ومسلم فى صحيحه (٦٨٩٣) وأحمد فى مسنده (٣٦٢٤ ، ٤٠٩١) والبيهقى فى سننه الكبرى (١٥٨١٩ ، ٢١٨١٦) من حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه .

مُخصَّبة وتبدأ فى أَخْذ غذائها منه .

﴿ فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً .. (١٤) ﴾ [المؤمنون] والمضغة هى الشىء الممضوغ وهى قطعة لحم صغيرة قدْر ما يُمضغ من الطعام ، وهو خليط من عدة أشياء ، كما لو أكلتَ مثلاً قطعةَ لحم مع ملعقة خضار مع ملعقة أرز ، وبالمضغ يتحوَّل هذا إلى خليط .

والمضغة منها مُخلَّقة وغير مُخلّقة ، والمضغة المخلّقة هى التى تتكوَّن منها جوارحُ الإنسان وأعضاؤه ، وغير المخلقة لصيانة ما يتلف من الجسم، كما يحدث مثلاً فى الجروح وما شابه ذلك من عطب يصيب الإنسان ، فتقوم غير المخلَّقة بدورها الاحتياطى .

فالمخلَّقة هى التى تكوّن الأعضاء ، وغير المخلَّقة هى الرصيد المختزن فى الجسم ، وبه يعوض أىّ خلل فى الأعضاء المخلّقة فهى التى تمدّه بما يُصلحه.

وهى تبقى مُضغةً أربعين يوماً ثالثة ، ويحدث التصوير فى الأرحام ، وهو إيجاد المادة التى سيوجد منها الإنسان على هيئة خاصة ، هذه الهيئة تختلف نوعيتها : ذكورةً وأنوثةً ، والذكورة والأنوثة تختلفان أشكالاً ، بيضاء وسمراء وقمحية وخمرية وقصيرة وطويلة .

هذه الأشكال التى يوجد عليها الخَلْق ، ثم بعد التصوير « يبعث الله ملكاً فيؤمر بأربع كلمات ويُقال له : اكتب عمله ورزقه وأجله ، وشقى أو سعيد ، ثم ينفخ فيه الروح » .

والشقاء ثابتٌ لمن نُعت بالشقى ، وعَلِم الله بعلمه الأزلى أنه سيكون شقياً، والسعادة ثابتةٌ لمن نُعت بالسعيد ، وعلم الله بعلمه الأزلى أنه سيكون من السعداء .

وهـذا مـا لم يستطع العلم الحديث الوصولَ إليه ، فقـد استطاعوا معرفة نوع الجنين ذكراً أو أنثى ، ولكن لا يعرفون أهو طويل أم قصير ؟ ذكى أم غبى ؟ شقيٌّ أو سعيـد ؟ وأيضـاً أجله زمانـاً ومكانـاً ، وهذا ما أعجـزَ الأطباءَ والباحثين إلى اليوم وما بعد اليوم .

والحـق سبحانـه عبَّر باسـم الإشارة (الـذى) بعد الضمـير المنفصل (هو) فقـال: ﴿ هُوَ الَّـذِى خَلَقَكُمْ .. (٢) ﴾ [التغابن] ، وذلـك لحصر الخَلْق فى الله عز وجلّ ، ولتأكيد أنْ لا أحدَ فى الكون خلق الإنسان غير الله عز وجل .

وقد جاء هذا كثيراً فى القرآن الكريم فى ثمانية وعشرين موضعاً نحو قوله تعـالى : ﴿ هُوَ الَّـذِى خَلَقَ لَكُمْ مَا فِى الْأَرْضِ جَمِيعًـا .. (٢٩) ﴾ [البقرة] ، وقـال : ﴿ هُوَ الَّذِى يُصَـوِّرُكُمْ فِى الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَـاءُ .. (٦) ﴾ [آل عمران] ، وقـال : ﴿ هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ .. (٧) ﴾ [آل عمران]

وقـال : ﴿ هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا .. (٥) ﴾ [يونس] ، وقـال: ﴿ هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ[1] (١٠) ﴾ [النحل] ، وقـال : ﴿ قُلْ هُوَ الَّذِى أَنْشَـأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّـمْعَ وَالْأَبْصَـارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ (٢٣) ﴾ [الملك]

وقد يسأل سائل : وإذا كان الخَلْق هو لله عز وجل حَصْراً ، فلماذا يقول الحق سبحانه فى القرآن ﴿ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَـنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ﴾ [المؤمنون] فهل هناك خالقون والله أحسن الخالقين ؟

نقول : الحق سبحانه لم يمنع خَلْقه أنْ يخلقوا أشياء ، ولكن خَلْق الله أحسن، لمـاذا ؟ لأنـه يخلق من عدم ، أمـا البشر فيخلقون من موجـود ، الحق سبحانه

---

(١) تسيمون : ترعون فيه أنعامكم . قاله ابن عباس . معزواً لابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم . يقال: سامت السائمة تسوم رعت فهى سائمة . وقال النسفى فى تفسيره (٢/١٥٣) : « وهى من السومة وهى العلامة لأنها تؤثر بالرعى علامات فى الأرض » .

يخلـق ويُوجـد فى مخلوقاتـه حياة وتكاثـراً ، أما البشر فيخلقـون بلا نمو ولا حياة .

فـكأنَّ الحـق سبحانه جعـل من خَلْقه خالقـين ، لكن الخالقين مـن خَلْقه لم يخلقوا من عدم محض ، وإنما كوّنوا مُركّباً من موجود فى مواده ، فأخذوا من موادّ خلقها الله فركّبوا وأوجدوا .

فأنتم أيها البشر إنما تخلقون من مخلوقات خلقها الله ، ولم تخلقوا من غير مخلوق لله ، وإننا نرى دائماً أن خَلْق الإنسان لشيء إنما يظل معقوداً على حاله فلا ينسل ولا ينمو ولا يُحس ، والخالق العظيم يخلق من عدم .

وهكـذا شـاء الحق سبحانـه أنْ يفيضـ على عباده بـأنْ يعطيهـم صفة أنهم يخلقـون ولكنهـم لا يخلقـون كخَلْقـه ، فهو قد خلـق آدم ثم أوجدهم مـن نسله ، والبشـر قد يخلقون بعضاً مـن مُعدّات وأدوات حياتهم لكنهـم لا يخلقون كخَلْق الله، فهم لا يخلقون من معدوم بل من موجود ، وما يخلقونه جامد على حاله .

لذلـك الذين اعتقدوا فى ألوهية عيسـى عليه السلام ظنوا أن خَلْقه للطير من الطين هو دليلُ ألوهيته ، وهم بذلك أخطئوا خطأ كبيراً وضلُّوا ضلالاً بعيداً .

فالحـق سبحانه قال علـى لسان عيسى عليه السلام : ﴿ أَنِّـي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللهِ .. (٤٩) ﴾ [آل عمران]

فالمسيـح عليـه السلام لم يخلق الطير من العـدم ، إنما خلقه من طين مُكوَّن مـن تـراب ومـاء ، وكلاهما الله هـو الذى خلقهمـا لا أحدَ غيره ، فهـو شكَّل من الطين شكلاً على هيئة الطير من مخلوق خلقه الله أصلاً .

فعمـل المسيح هنا يتلخَّص فى التشكيل أو قُل النحت ، ثم قال : ﴿ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُـونُ طَـيْرًا بِإِذْنِ اللهِ .. (٤٩) ﴾ [آل عمـران] فنفْخ الروح فى الطير المشكّل ليس

لذاتية فى عيسى عليه السلام إنما هى ﴿ بِإِذْنِ اللهِ .. (٤٩) ﴾ [آل عمران]

فلو لم يأذن الله بأنْ تكون هذه النفخة هى باعثة الروح فى التمثال على هيئة طير ما صار طيراً ، ولو استمر النفخ فيه إلى يوم القيامة .

فخصائص عيسى ابن مريم عليه السلام لا تكون إلا بإذن من الله ، فقدرة عيسى عليه السلام أنْ يصنع من الطين ما هو على هيئة الطير ، وإذا نفخ فيه بإذن الله لأصبح طيراً ، وكذلك إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى ، إن ذلك كله بإذن ممنْ ؟ بإذن من الله .

إذن : فعيسى عليه السلام لا يخلق الطير ولكن يصنع من الطين مثل هيئة الطير ، فالحق وحده هو الذى يخلق ، فلأنه سبحانه الإله فهو الذى يخلق خَلْقاً عاماً ، أما البشر فبإمكانهم أنْ يخلقوا أشياء ويُشكِّلوها كمثل المخلوقات ، لكنها ليست مخلوقات على الحقيقة .

ونحن نرى ذلك فى التماثيل التى ينحتها المثَّال من الصخر أو يُشكِّلها من الطين كهيئة الجمل أو العصفور ، لكنه لا يملك أنْ ينفخ فيه الروح ، وقد يخترع الإنسانُ أشياء مثل الكوب من الرمل المصهور المنقَّى ، لكننا لم نسمع عن خَلْق كوب ذكر وكوب أنثى ليتوالد من الاثنين نسلٌ من الأكواب .

وقد سمّى اللهُ الإنسان خالقاً فأنصفه واحترم إيجاده للمعدوم ، لكنه سبحانه أحسن الخالقين ، ووجه الحُسْن أن الله تعالى خلق من لا شيء ، وأنت خلقتَ من موجود ، الله خلق خلقاً فيه حياة ونمو وتكاثر ، وأنت خلقتَ شيئاً جامداً على حالته الأولى .

ففى قوله تعالى : ﴿ أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ .. (٤٩) ﴾ [آل عمران]
معلوم أنه فى مقدور كلِّ إنسان أنْ يُصوِّر من الطين طيراً ؟ ويُصممه على شكله،

لكن أيُقال له : إنه خلق بهذا التصوير طيراً ؟

وهل العظمة فى تصويره على هيئة الطير ؟ العظمة فى أنْ تبعث فيه الحياة ، وهذه لا تكون إلا من عند الله ، لذلك قال عيسى عليه السلام : ﴿ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللهِ .. (٤٩) ﴾ [آل عمران]

والحق سبحانه يقول بعد ذلك : ﴿ هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ .. (٢) ﴾ [التغابن]

وقد تكلم العلماء على قوله تعالى : ﴿ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ .. (٢) ﴾ [التغابن] بعد قوله (خلقكم) ، هل معنى هذا أن الله خلق المؤمن مؤمناً والكافر كافراً ، فهل الإنسان مقهور ومجبور على كفره . إذاً فلماذا يُعذِّبه الله ويُدخله النار بل ويُخلده فيها ؟

البعض فهم الآية على أن الله خلق المؤمن يوم خلقه فى بطن أمه خلقه مؤمناً ، وخلق الكافر يوم خلقه فى بطن أمه خلقه كافراً .

واستدلُّوا على هذا بحديث رسول الله ﷺ : « خلق اللهُ فرعون فى بطن أمه كافراً ، وخلق يحيى بن زكريا فى بطن أمه مؤمناً »[١] .

ويستدلون أيضاً بقوله ﷺ : « إنَّ أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراعٌ أو باعٌ[٢] فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها ، وإنَّ أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى لم يبْقَ بينه وبينها إلا ذراعٌ

---

(١) أورده السيوطى فى الدر المنثور (٣/٥٢٩) عن ابن مسعود مرفوعاً وعزاه لابن عدى والدارقطنى فى الأفراد والبيهقى وابن عساكر . وأخرجه البيهقى فى القضاء والقدر (٦٩) (١/٨٠) وابن عدى فى (الكامل فى ضعفاء الرجال) (٨/٢٧٧) .

(٢) الذراع من الإنسان من المرفق إلى أطراف الأصابع ومقياس للأطوال بمقدار ٧٥ سنتيمتراً أو ٥٨ سنتيمتراً . والباع قدر مدّ اليدين من أطراف أصابع اليد إلى أطراف الأصابع الأخرى . فالباع هو المسافة بين طرف اليد اليمنى واليد اليسرى إذا مدهما الرجل [تأسيس الأحكام ٤/١٠٦] .

أو باع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها »[١] .

وهذه الآية وهذه الأحاديث لا تُعطى الفهم والمدلول الذى فهمه البعض من أنَّ العبد مجبور على عمله لا اختيارَ له كالورقة فى مَهبِّ الريح .

فليس معنى أن الله خلق فرعون فى بطن أمه كافراً أنه أجبره على الكفر وحكم عليه دون ذنب من فرعون ، إنما الأمر أنَّ الله خلقه كافراً بمقتضى علمه سبحانه الأزلى من أن فرعون لن يؤمن وسيموت كافراً .

ولو كان الحق سبحانه قد أجبر فرعون على الكفر لما أرسل إليه موسى رسولاً وأعطاه الفرصة للإيمان بالله ، ولكن سبق فيه علم الله سبحانه من أنه سيكفر وأنه سيدَّعى الألوهية .

ولذلك يقول رسول الله ﷺ : « فيسبق عليه الكتاب » أى : بما كتبه اللهُ فى اللوح المحفوظ بما هو كائن إلى يوم القيامة ، لا بما فرضه الله على عباده وعبيده ، بل بما علمه أنهم يفعلونه بمحض إرادتهم .

والبعض وقف فى القراءة عند كلمة (خلقكم) ثم استأنف ﴿ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ .. (٢) ﴾ [التغابن]

أى أن الله خلقكم يوم خلقكم على الفطرة ، كما يقول رسول الله ﷺ : « كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يُمجِّسانه أو يُهوِّدانه أو يُنصِّرانه »[٢] .

فالكفر والإيمان يأتى من كلٍّ من الكافر والمؤمن فيما بعد ، وهى إرادة

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٣٣٢) وكذا مسلم فى صحيحه (٦٨٩٣) من حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه .

(٢) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال النبى ﷺ : « كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهوِّدانه أو يُنصِّرانه أو يُمجسانه كمثل البهيمة تنتج البهيمة هل ترى فيها من جدعاء ؟ » أخرجه البخارى فى صحيحه (١٣٨٥) وأبو داود فى سننه (٤٧١٦) والترمذى فى سننه (٢١٣٨) وأحمد فى مسنده (٧١٨١، ٧٦٩٨) .

العبد فى أنْ يكفر أو يؤمن ، ونضرب لذلك مثلاً من قوله تعالى ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ .. (٤٥) ﴾ [النور] ثم ﴿ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ .. (٤٥) ﴾ [النور]

فالله خلق كلَّ الدواب من الماء ، ثم يأتى الفعلُ منهم بعد الخَلْق ، فيختلف الفعل بين دابة وأخرى ، فمن الدوابِّ مَنْ يمشى على بطنه كالزواحف والثعابين، ومنهم مَنْ يمشى على رِجْلَيْن كالإنسان وكالطيور مثلاً ، ومنهم مَنْ يمشى على أربع كالبهائم البقر والماعز والأغنام .

فالله خلقهم ولكن جعل المشى من فعلهم ، فقال : ﴿ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي .. (٤٥) ﴾ [النور] ، والقائلون بهذا غفلوا عن أنَّ مَشْى بعضهم على بطنه ، وبعضهم على رجلَيْن ، وبعضهم على أربع هو من تمام خِلْقتهم التى خلقهم الله عليها .

بمعنى أن الله سبحانه هو الذى أراد وخلق الثعبان والزواحف ماشية على بطنها فكان ، وهو سبحانه الذى أراد وشاء أنْ يمشى الإنسانُ على رجلين فكان ، وهو سبحانه الذى شاء أنْ تمشى البهائم والسِّباع على أربع فكان ، لا أن هذا محضُ إرادة منها وفعل مستقل بذاتها منها .

ولكن يبقى أنْ قوْلَ أهل السنة هو وَسَط بين طرفين ، بين مَنْ قالوا بالإرادة المطلقة لله ، وأن الله خالقُ العباد وخالق أفعالهم ، وليس للعبد أىُّ إرادة أو أىُّ فِعل ، وهؤلاء هم الجبرية[1] .

وكذلك بين مَنْ قالوا بإرادة الإنسان المطلقة ، وأن الله خلق الكون وخلق الناس وتركهم ، وليس لله إرادة مع إرادة البشر .

---

(١) الجبرية هم الذين يعتقدون أن العبد مجبور على أفعاله قسراً ولا فعل له أصلاً بل إثبات الفعل للعبد هو عين الشرك عندهم بل هو كالهاوى من أعلى إلى أسفل وكالسعفة تحركها الريح لم يعمل باختياره طاعة ولا معصية ولم يكلفه الله وسعه بل حمَّله ما لا طاقة له به ، ولم يخلق فيه اختياراً لأفعاله ولا قدرة له عليها ، فرفعوا اللوم عن كل كافر وفاسق وعاصٍ . [معارج القبول ١/٣٧٢] .

وكلا القولين خطأ ، والصواب هو الوسط بين القولين ، وقد ناقش الناسُ مسألة « خَلْق أفعال العباد » ، ولكن ما الفعل ؟ الفعل توجيه طاقة لإحداث حدث ، ففى اليد مثلاً طاقة تصلح لأنْ تفعل الخير وتفعل الشر .

فطاقة اليد أنها تعمل أىّ عمل تريده منها ، قد تضرب بها إنساناً ، أو تحمل بها إنساناً ساقطاً على الأرض ، أو تُربِّت بها على رأس يتيم .

فجوارحك واستعدادها للفعل سواء كان خيراً أو شراً الخالقُ لها الله ، أما توجيه الجارحة إلى فعل ما هو محلّ التكليف ، وهو فعل العبد الذى يُثاب عليه أو يُجازى .

إذن : فأنت تُحاسب لأنك فعلتَ ، لا لأنك خلقتَ ، لأن خالق الأفعال هو الله سبحانه وتعالى، وأنت تفعل بمجرد الإرادة والاختيار ، مثل اللسان فيه طاقة مخلوقة لبيان ما فى النفس ، إنّ أردتَ أنْ تقول بها « لا إله إلا الله » صَلُحتْ، وصلُحَتْ كذلك عند الملحد أنْ يقول – والعياذ بالله – لا يوجد إله . واللسان نفسه الذى خلقه الله فى الإنسان لم يعصِ الله فى هذه ولا فى تلك .

ولذلك فجوارح الإنسان هى مجرد شهود على الإنسان فتشهد عليه يوم القيامة، يقول الحق سبحانه : ﴿ حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٠) وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِى أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢١) ﴾ [فصلت]

ومَنْ يتأمل قوله تعالى : ﴿ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ .. (٢) ﴾ [التغابن] يجد أن الله قدّم ذِكْر الكافر على المؤمن ، لماذا ؟

المقام مقامُ توبيخ للإنسان الذى خلقه الله ووهبه الحياة والنِّعم التى لا تُعدُّ ولا تُحصَى ، ومع ذلك يكفر منه فريقٌ من الناس ، وهو الفريق الأغلب عدداً .

ولـذا يقـول الله فـى يوم الموقف : يـا آدم أخرج بعث النـار . قال : وما بعث النار ؟ (أى عدده) قال الله : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين[١] .

ويقول الحق سبحانه : ﴿ وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ (١٣) ﴾ [سبأ]

ويقول تعالى : ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (١) ﴾ [الرعد]

ونلاحـظ أن الآيـة القرآنيـة لم تذكـر إلا صنفين مـن الناس ، وهمـا الكافر والمؤمـن ، فقالـت ﴿ فَمِنْكُـمْ كَافِـرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِـنٌ .. (٢) ﴾ [التغابـن] فلم تذكر المنافق أو الفاسق أو الظالم .

وذلك لأن المقام هنا هو مقام الحديث عن خَلْق الإنسان ﴿ هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ (٢) ﴾ [التغابن] وسيأتى قوله تعالى : ﴿ خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ .. (٣) ﴾ [التغابن] والناس ينقسمون بهذا الاعتبار إلى مؤمنين أو كافرين ، إما مؤمنين بأن الله هو الخالق ، وإما أنهم كافرون بهذا ، لهذا لم يذكر الله إلا صنفين .

والبعض أخذ من هذا أنَّ الآية رَدٌّ على القائلين بالمنزلة بين المنزلتين ، أى منزلـة بين الإيمـان والكفر ، ورغم قولنـا أن هذا المبدأ خاطـيء إلا أن الآية لا علاقةَ لها هنا بموضوع المنزلة بين المنزلتين .

إنمـا الآية تتحدث عن مَنْ ينكرون وجـود الله عز وجل ويُنكرون خالقية الله للوجود بسماواته وأرضه وبشره وجنِّه وملائكته .

وإذا كانـت السورة السابقة سورة المنافقـين حدَّثتنا عن صنف المنافقين ، وكشفتهم وفضحتهم ، فإن المنافقين العليمى النفاق يندرجون تحت الكافرين،

---

(١) عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : يقول الله تعالى : يا آدم فيقول : لبيك وسعديك والخير فى يديك . فيقول : أخرج بعث النار . قال : وما بعث النار ؟ قال : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين . فعنده يشيب الصغير وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد . أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٣٤٨) ومسلم فى صحيحه (٥٥٤) .

لأنهم على الحقيقة كافرون ، وإنْ أظهروا غير ذلك .

بل إنَّ المنافقين أشدُّ خطراً من الكافرين الصريحى الكفر ، وقد قال تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ .. (١٤٥) ﴾ [النساء]

ولكن الكلام هنا فى المؤمنين بخالقية الله سبحانه وأنه الخالق البارى ، فمنكم كافر بخلقه وأنه خلقه ، ومنكم مؤمن مُصدِّق أنه خالقه أو بارئه ، وهذا ليس فيه منزلة بين المنزلتين .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢) ﴾ [التغابن] فقوله (بما تعملون) يشمل أفعالهم وأقوالهم ، فالعمل يشمل الفعل والقول .

وهذه الآية ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢) ﴾ [التغابن] تُعطينا دلالَة أن الآية تدلُّ على الأعمال التى يعملها كلُّ مخلوق ، إما أنْ تكون أعمالاً تدلُّ على إيمانه فيكون مؤمناً ، وإما أعمالاً تدلُّ على كفره فيكون كافراً .

فالكلام فى الأعمال ، والله لا يُجبر أحداً على عمل الإيمان أو عمل الكفر أو الفسق أو الظلم .

﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢) ﴾ [التغابن] أى : يعرف ما يعملونه فلا تعتقد أن هناك شيئاً يَخْفى على الله ، أو أنَّ أحداً يستطيع أنْ يخدع الله ، فالله سبحانه وتعالى بصير بكلِّ شيء ، ليس بالظاهر منك فقط ، ولكن بما تُخفيه فى نفسك ولا تُطلع عليه أحداً من خَلْق الله .

وقد قال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ .. (١٥) ﴾ [آل عمران] فلم يقل الله : إنه عليم بالعباد ، لأن « عليم » تكون للأمور العقدية ، لقد قال الحق سبحانه فى وصف ذاته هنا : ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢) ﴾ [التغابن] والبصر لا يأتى إلا ليدرك حركةً وسلوكاً .

فمـاذا يـرى الله من العباد ؟ إنه سبحانه يـرى العباد المتحركين فى الكون، وهـل حركـة العبد منهـم تطابـق الإسـلام أو لا ؟ ومتابعة الحركـة تحتاج إلى البصر، ولا تحتاج إلى العلم .

واختيـار (بصـير) يدلُّ على أنهم قد بلغوا من الغبـاء أنهم لم يستتروا حتى فى المعصية ، ولكنهم جعلوها حركة تُرى ، وهذا القول هنا أقوى من (عليم) ، لأن (عليم) تؤدى إلى أنْ نفهم أنهم يملكون بعضاً من حياء ويسترون الأشياء، ولكن حركتهم صارتْ واضحة بحيث تُبصر .

ومـن عجائـب القرآن أنه عنـد الكلام علـى المنافقين قـال : ﴿ وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُـونَ (١١) ﴾ [المنافقـون] فأعمالهـم الظاهـرة متوافقـة مـع قواعـد الدين وأحكامـه من صلاة وصيام مما يفعلـه كلُّ المسلمين بل حرص على الصفوف الأولى فـى المساجد ، ولكنّ أعمالهم هـذه تحتاج إلى خبرة الخبير سبحانه بما فى نياتهم ، وصِدْق ما تطويه نفوسهم .

أما المؤمنون والكافرون فأعمالهم ظاهرةٌ واضحةٌ للعيان ، سواء كانت أعمالَ خير أو أعمالَ سُوء ، لذلك ناسب هنا أنْ يقول تعالى : ﴿ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِـيرٌ (٢) ﴾ [التغابـن] فهـو سبحانـه يعلم حركـة العبـادة ، لأن حركة العبـادة مرئية ، وهو سبحانـه بصير بذنوب عباده ، وقـد جمع الله بين الخبير والبصير بأعمال العباد فى قوله تعالى : ﴿ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (١٧) ﴾ [الإسراء]

والبصر هو من مُوجبات أنْ يكونَ الإلهُ إلهاً ، لذلك كان إبراهيم عليه السلام يقول لأبيه : ﴿ يَـأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنْكَ شَيْئًا (٢٤) ﴾ [مريم]

فكيـف تعبـد إلهاً مزعومـاً لا يسمع ، فهـو أصم لا يسمع دعـاء الداعين من عبـاده ، ولا يسمـع تأوّهـاتهـم وآلامهـم ، ولا يبصـر فهو أعمى لا يـرى ، فهذه الصفات لا تكون فى المعبود .

وليس معنى أن الله بصير بعباده أن له عيناً كأعيننا ، إنما هذا يجب أنْ نأخذه فى إطار : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١١) ﴾ [الشورى] فأنت تسمع والله يسمع ، وأنت تبصر والله يبصر ؛ ولكن ليس السمع كالسمع ، وليس البصر كالبصر ، تعالى الله عن مشابهة الخلائق ، علواً كبيراً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾ ﴾

تستمر الآيات فى الحديث عن الخَلْق ، فذكرتْ أولاً خلقنا ، فقال تعالى ﴿ هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ .. (٢) ﴾ [التغابن] ، ثم تُحدِّثنا الآياتُ عما هو أكبر وأعظم من خَلْق الإنسان ، وهو خَلْق السماوات والأرض .

قال تعالى : ﴿ لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٥٧) ﴾ [غافر]

فالناسُ إنما خُلقوا من الأرض ، وقد قال رسول الله ﷺ : « إنَّ الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض ، فجاء بنُو آدم على قدر الأرض ، جاء منهم الأحمر والأسود والأبيض وبين ذلك ، والسهل والحَزَن[1] والخبيث والطيب »[2] .

ومسألة خَلْق السموات والأرض يجب أنْ يبدأ منها التعجب ، وأنت أيها

---

(١) الحزن هو الوعر . السهل يُوطأ ويُمتهن . والحزونة شدة . فالتربة الطيبة نفوسها سهلة كريمة وليست فيها كزازة ولا يبوسة ولا شعوثة ، فالآخرون كانت الحزونة فى تربتهم فجاءت الكزازة والشعوثة والصعوبة . [نوادر الأصول فى أحاديث الرسول ٣٣٢/١] .

(٢) أخرجه أبو داود فى سننه (٤٦٩٥) والترمذى فى سننه (٢٩٥٥) وأحمد فى مسنده (١٩٥٩٧ ، ١٩٦٥٩) والبزار فى مسنده (٣٠٢٦) والبيهقى فى سننه الكبرى (١٨١٦٣) من حديث أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه .

الإنسان يجب أنْ تفطن إلى ما خُلق لك لتستدلّ على خالقك ولتُؤمن وتشهد أنه إله واحد .

فلو أنَّ الإنسانَ نظر فى خَلْق السماوات والأرض لاهتدى بفطرته إلى أن لهذا الوجود المتقن المحكم صانعاً قد صنعه ، ولو فكرتَ أيها الإنسان فى خَلْق السماوات والأرض لوجدته أكبر من خَلْق الناس ، إنه الكونُ بسماواته وأرضه .

ولقد أوجد سبحانه السماوات والأرض من عدم ، وليس لأحد أنْ يجترىء ليقول لله: كيف خلقتَ السماوات والأرض ؟ لأنه سبحانه يقول : ﴿ مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا (٥١) ﴾ [الكهف]

فعلينا أنْ نأخذ خبر الخَلْق من خالقهما وهو الله ، وقد أتى بعضُ الناس وقالوا : إن الأرضَ انفصلتْ عن الشمس ثم بردتْ ، وهذه مجرد ظنون لا تثبت ، لأن أحداً منهم لم يَرَ خَلْق السماوات والأرض .

وهؤلاء هم أهل الظنون الذين يدخلون فى قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا (٥١) ﴾ [الكهف]

وحين تتأمل السماء والأرض تجد دقة الخَلْق ، وخَلْق السماوات والأرض هو الظرف الوجودى للإنسان الخليفة ، وطرأ الإنسان على هذا الكون بكلِّ ما فيه من قوى ونواميس ، فكأنَّ الله أعدَّ الكون للخليفة قبل أنْ يخلق الخليفة، ليجد كوْناً مسخَّراً له ، ولا يستطيع أيّ كائن فيه أنْ يخرج عن مراد الله فى شيء .

وقد شاء الحقُّ سبحانه أنْ يخلق الأرض والسماوات فى ستة أيام من أيام الدنيا ، وكان من الممكن أنْ يخلقها فى أقلّ من طَرْفة عين بكلمة (كُنْ) ، وهناك فرْق بين إيجاد الشيء وطرْح مُكوِّنات إيجاد الشيء .

وأنت حين تفكر فى خَلْق السماوات والأرض ستجده مسألة فى غاية الضخامة ، ويكفيك أنْ تتحيَّر فى مسألة خَلْقك وتكوينك ، وأنت مجرد فرد محدود بحيِّز ، ولك عمرٌ محدود ببداية ونهاية ، فما بالك بخَلْق السماوات والأرض التى وُجدت من قبلك ، وستستمر من بعدك إلى أنْ تنشقَّ بأمر الله وتتكسَّر لحظتها النجوم .

وقد حجز الحق سبحانه عن العقول المتطفلة أمرين ، فلا داعى أنْ تُرهق نفسك فيهما :

الأمر الأول : هو كيفية خَلْق الإنسان ، وهل كان فرداً فى البداية ثم تطوَّر ؟ تلك مسألة لا تخصُّك فلا تتدخل فيها بافتراضات تؤدى بك إلى الضلال .

والأمر الثانى : هو مسألة خَلْق السماوات والأرض فتقول : إن الأرض كانت جزءاً من الشمس ثم انفصل وبرد سطحه وتجمَّد ، ومثل هذا الكلام لا يستند إلى دليل أو واقع أو شواهد .

ولا أحدَ قادرٌ على أنْ يخلقَ مثل السماوات والأرض ، وهى مخلوقة على غير مثال سابق ، لذلك قال تعالى : ﴿ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ .. (١١٧) ﴾ [البقرة]

أى : أنه سبحانه خلق السماوات والأرض وكلّ ما فيهما من خَلْق على غير مثال سابق ، أى لم يكُن هناك سماء أو أرض أو ملائكة أو جنّ أو إنسان ، ثم جاء الله سبحانه وتعالى وأوجد مُشابهاً لهم فى شكل أو حجم أو قدرة ، فهو سبحانه لم يلجأ إلى ما نُسمِّيه نحن بالقالب .

إن الذى يصنع كوبَ الماء يصنع أولاً قالباً يصبُّ فيه خام الزجاج المنصهر، فتخرج فى النهاية أكوابٌ متشابهة ، وكلُّ صناعة لغير الله تتمّ على أساس صُنْع القالب أولاً ، ثم بعد ذلك يأتى الإنتاج .

ولذلك فإن التكلفة الحقيقية هى فى إعداد القالب الجيد الذى يعطينا صورةً لما نريد ، فالذى يخبز رغيفاً مثلاً قد لا يستخدم قالباً ، ولكنه يقلد شيئاً سبق، فشكل الرغيف وخامته سبق أنْ تمَّ وهو يقوم بتقليدها فى كلِّ مرة ، ولكنه لا يستطيع أنْ يُعطى التماثل فى الميزان أو الشكل أو الاستدارة ، بل هناك اختلافٌ فى التقليد ولا يوجد كمالٌ فى الصَّنْعة .

وحين خلق الله جلَّ جلاله الخَلْق من آدم إلى أنْ تقوم الساعة جعل الخَلْق متشابهين فى كلِّ شيء ، فى تكوين الجسم وفى شكله فى الرأس والقدمين واليدين والعينين وغير ذلك من أعضاء الجسم تماثلاً دقيقاً فى الشكل وفى الوظائف ، بحيث يؤدى كُلُّ عضو مهمته فى الحياة .

ولكن هذا التماثل لم يتم على قالب ، وإنما تمَّ بكلمة (كُنْ) وعلى غير مثال سابق ، فهو سبحانه الخالق البديع ، ومهمة آيات الله الكونية أنْ تلفتَ نظر المخلوق إلى بديع صُنْع الخالق وضرورة الإيمان به .

فمنها نعلم أنْ وراء الكون البديع خالقاً وقوة تُمدّه وتُديره ، فمَنْ يمد هذه الشمس بهذه القوة الهائلة ؟ ومَنْ خلقها من عدم وأمدَّها بالطاقة من عدم ؟

ولو نظرتَ إلى الشمس وسألتَ نفسك : كم من الأجيال قد استمتعوا بدفئها واستفادوا منها ، فمن المؤكد أنك لن تعرف عدد الأجيال ، لأن الشمس مخلوقة من قبْل خَلْق البشر ، وكلُّ إنسان يستمتع بالشمس ويستفيد منها عدد سنوات حياته ثم يذهب إلى الموت .

وقد حدَّثنا الحق سبحانه عن خَلْق السماوات والأرض ، فقال : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ (٣٠) ﴾ [الأنبياء]

وهـذا لم يصل مَـنْ سبقونا إلى فَهْمه الفَهْم العميق ، لكـن إنسان هذا العصر الذى نعيشه فهمها بعد أنْ توصَّل العلماء إلى أن السماوات والأرض كانتا كتلةً واحدة وفصلهما الحق بإرادته ، وجعل من الماء حياة لكلِّ كائن حَيٍّ .

والرتق : الشيء الملتحم الملتصق ، ومعنى : ﴿ فَفَتَقْنَاهُمَا.. (٣٠) ﴾ [الأنبياء] أى : فصلناهما وأزحْنا هذا الالتحام .

ومن العلماء[1] مَنْ رأى أن المعنى خاص بكلٍّ من الأرض والسماء ، كلّ على حدة ، وأنهما لم تكونا ملتحمتين ، واعتمدوا على بعض الآيات مثل قوله تعالى : ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ (٢٤) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (٢٨) ﴾ [عبس]

وفى موضع آخر قال : ﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ (١١) وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (١٢) ﴾ [القمر]

فالمراد إذن أن الأرض وحدها كانت رتْقاً فتفجرتْ بالنبات ، وأن السماء كانت رتْقاً فتفجرتْ بالمطر ، فشقّ الله السماء بالمطر ، وشقَّ الأرضَ بالنبات الذى يصدعها .

نفهم من هذا الرأى أن الفتْق ليس فتْق السماء عن الأرض ، إنما فَتْق كلٍّ منهما على حدة .

والحق سبحانه إنما خلق السماوات والأرض بالحق ، فالكون مبنيٌّ على الحق : ﴿ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٩) ﴾ [الدخان] ،

---

(١) عن ابن عباس قال : فتقت السماء بالغيث ، وفتقت الأرض بالنبات . أخرجه الفريابى وعبد بن حميد والحاكم وصححه والبيهقى فى الأسماء والصفات . وعن ابن عمر أن رجلاً أتاه فسأله عن (السماوات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما) قال : « اذهب إلى ذلك الشيخ فاسأله ثم تعال فأخبرنى ما قال ، فذهب إلى ابن عباس فسأله قال : نعم كانت السماء رتقاء لا تمطر ، وكانت الأرض رتقاء لا تنبت ، فلما خلق الله الأرض فتق هذه بالمطر وفتق هذه بالنبات .

والحق هو الشيء الثابت ، وما دام ثابتاً فهو لا يتغير ، وقضية الحق فيه تكون مُطردة ، فالله حَقٌّ ، خلق السماوات والأرض وكلّ الكون بالحق ، ونشأ الكون منه بقانون حق ، واستمرتْ سُنن الله فى الكون بالحق .

وقد جعل سبحانه من دعاء المؤمنين : ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١) ﴾ [آل عمران]

فسبحانك حَقٌّ وخلقتَ السماوات والأرض بالحق ، ووضعتَ لها نواميسها وقوانينها بالحق ، فيجب أنْ نستقبل النعمة التى خلقتَها لنا بالحق ، فإن استقبلها بعضُ الناس بغير الحقِّ ، فإنها تكونُ وبالاً عليهم .

والله سبحانه هو الحق الأعلى ، وهو الذى خلق كلَّ شيء بالحق : سماء مخلوقة بالحق ، وأرض مخلوقة بالحق ، وشمس تجرى بالحق ، ومطر ينزل بالحق ، وكلّ شيء ثابت ومتحرك بقوانين أرادها الحق سبحانه .

ومعنى الخَلْق بالحق أنَّ مَنْ خلق السماوات والأرض إنما فعل ذلك بموازين دقيقة مُحكمة وضعها على نظام ثابت له قضية تحكمه من الحق والحكمة .

فالشمس مثلاً لم تتخلَّف يوماً ، فتقول مثلاً : لن أطلع اليوم على هؤلاء الناس لأنهم ظالمون ، لأن لها قانوناً تسير به ، وهى مخلوقة بحق ثابت لا يتغيَّر ، وما دامت هذه الكونيات خُلقتْ بالحق وبشيء ثابت ، فلك أنْ تُرتِّب عليها حساباتك وتضبط بها وقتك ، وأنت لا تضبط وقتك على ساعة إلا إذا كانت هى فى ذاتها منضبطة .

لذلك يقول سبحانه : ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥) ﴾ [الرحمن] أى : مخلوقة بحساب ، ولأنه سبحانه خلقها بحساب جعلها آلةً للحساب .

وقد قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (٣٨) ﴾ [الدخان] فالله لم يخلق السماوات والأرض لعبة ، بل خلقهما بالحق ، وهناك فارقٌ بين اللعبة والحق ، فاللعبة قد يتوصَّل إليها مَنْ يعبث بشيء ، فتخرج له صدفة ، يستخدمها هو أو غيره كلعبة .

ولأن الخَلْق كله كان بالحق فالله لن يترك الناسَ سُدى ولم يخلقهم هَملاً ، بل كلُّ عمل يفعله الإنسان مُحصىً عليه وسيُسأل عنه يوم القيامة .

﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى (٣٦) أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى (٣٨) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى .. (٣٩) ﴾ [القيامة]

فنحن لم نُخلق عبثاً ولن نُترك سُدى ، كما قال سبحانه : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (١١٥) ﴾ [المؤمنون] ولو تركنا الله تعالى بلا حساب لكانَ المنحرف الذى أعطى لنفسه شهواتها فى الدنيا أوفرَ حظاً من المستقيم ، وما كان الله تعالى ليغُشّ عبده الذى آمن به وسار على منهجه ، أو يُسلمه للظلمة والمنحرفين .

فالله إنما خلق السماوات والأرض ، وخلق الشمس والقمر وجعلهما آيتين دالتين على كمال قدرته سبحانه وعظيم سلطانه ، ولم يخلقهما عبثاً ، بل لحكمة عظيمة : ﴿ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ .. (٥) ﴾ [يونس] فلا شيءَ يُخلق عبثاً بل بالحق .

والله سبحانه لا يمتنُّ بخَلق السماء والأرض وما بينهما لأنهما أعجب شيء، ولكن لأنهما مخلوقتان للناس ومُسخَّرتان لخدمتهم ، الكل مخلوق لك أيها الإنسان ، وكان يجب عليك أنْ تبحثَ بعقلك فيمن سخّر لك هذا كله ، كان عليك أنْ تهتدى إلى الخالق سبحانه للسماء والأرض وما بينهما ، لأنه سبحانه ما

خلقهما عبثاً ولا خلقهما للعب ، إنما خلقهما من أجلِكَ أنت .

ثم قال تعالى : ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ .. (٣) ﴾ [التغابن] والحق سبحانه يقصد هنا التصوير فى الأرحام ، وليس التصوير الأول عند خَلْق آدم الخَلْق الأول من الطين ، لذلك قال تعالى : ﴿ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ.. (٣) ﴾ [التغابن] فجمع (صوركم) .

والحق سبحانه يقول فى آية أخرى : ﴿ هُوَ الَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ .. (٦) ﴾ [آل عمران]

والتصوير فى الأرحام هو إيجاد المادة التى سيُوجد منها الإنسان على هيئة خاصة ، هذه الهيئة تختلف نوعيتها : ذكورةً وأنوثةً ، الذكورة والأنوثة تختلف أشكالاً : بيضاء وسمراء وقمحية وخمرية وقصيرة وطويلة .

وقوله ﴿ كَيْفَ يَشَاءُ .. (٦) ﴾ [آل عمران] معناه أن تصوير أشكالنا هو محْضُ اختيار الله سبحانه لنا ، وكلّ تصوير له حكمة ، وما دام كلُّ تصوير له حكمة فكلُّ خَلْق الله جميل .

وعليك ألاّ تأخذ الخَلْق مفصولاً عن حكمة خالقه ، بل خذ كُل خَلْق مع حكمته، فالذى يجعلك تقول : هذا قبيح أنك تفصل المخلوق عن حكمته .

ويقول الحق سبحانه : ﴿ يَاأَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (٦) الَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (٧) فِى أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ (٨) ﴾ [الانفطار]

فالحق سبحانه يُعدِّد شيئاً من مواد إكرامه للإنسان وخَلْقه فى أحسن صورة، من حيث الخَلْق والتسوية والتعديل ، وهذا أمر لا يشكّ فيه إنسان حين يجد فكره ، وحين يجد شكله ، وحين يجد تسويته واعتداله عن سائر ما خلق الله عز وجل .

فلم يخلقه الله ماشياً على بطنه ، ولم يخلقه يمشى على أربع ، ولم يجعل قامته مُلتوية إلى أسفل ، بل جعله مرتفع القامة ، هذا بخلاف التسوية والتعديل فى أجهزته الدقيقة التى لا يزال علماءُ كلِّ جهاز من هذه الأجهزة يقفون دائماً عندها عجباً ويكتشفون سِراً .

ويمتنُّ الحقُّ سبحانه على الإنسان ، فيقول : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (٨) وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ (٩) ﴾ [البلد]

وما دام المُلْك لله سبحانه وكذلك الخَلْق له وحده ، فكذلك تصوير الإنسان فى الأرحام له وحده : ﴿ هُوَ الَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ .. (٦) ﴾ [آل عمران]

ومعنى (لا إله إلا هو) أى سيُصور وهو عالم أنَّ ما يُصوِّره سيكون على هذه الصورة ، لأنه لا يوجد إلهٌ آخر يقول له : هذه الصورة لا تعجبنى وسأصوِّر صورة أخرى .

لا ، لأن الذى يفعل ذلك عزيز أى لا يُغلب على أمر ، وكل ما يريده يحدث، وكل أمر عنده لحكمة ، لأنه عندما يقول ﴿ يُصَوِّرُكُمْ فِى الْأَرْحَامِ .. (٦) ﴾ [آل عمران] قد يقول أحد الناس : إن هناك صُوراً شاذة وصوراً غير طبيعية .

وهو سبحانه يقول لك : أنا حكيم وأفعلها لحكمة ، فلا تفصل الحدث عن حكمته ، خُذ الحدث بحكمته ، وإذا أردتَ الحدث بحكمته تجده الجمال بعينه ، وهو سبحانه المصوِّر فى الرحم كيف يشاء .

وقد علَّمنا رسول الله ﷺ الإقرار بهذا في سجودنا ، فكان ﷺ إذا سجد قال: « اللهم لك سجدتُ ، وبك آمنتُ ، ولك أسلمتُ ، سجد وجهى للذى خلقه وصوّره ،

وشقّ سمعه وبصره ، تبارك الله أحسن الخالقين »[١] .

وقد كان رسول الله ﷺ إذا نظر فى المرآة قال : « الحمد لله الذى حسَّن خَلْقى وخُلقى ، وزانَ منى ما شانَ من غيرى »[٢] .

وقد قال تعالى : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (٤) ﴾ [التين] أى : سوَّاه البارى سبحانه على هيئة مستقيمة وعلى أحسن تقويمٍ ، فالإنسان خَلْقه وصنعته ، خلقه الله وصوَّره وشكّله فى أحسن تقويم وعلى أحسن هيئة .

هذا من حيث المادة ، ويريد الله أنْ يظلَّ هكذا سويَّ التكوين فى كل شيء ، فإذا ما خرج هذا الخليفة المخلوق لله على قانون صيانته فإنه ولا شكَّ لابدّ أنْ يُغضب الله لأن الله يريد أنْ تظل صنعته جميلة كما أبدعها سبحانه .

وإذا كان الحق سبحانه هنا حدَّثنا عن تصوير الإنسان فى أحسن صورة بعد الكلام عن خَلْق السماوات والأرض ، فإنه سبحانه فى آية أخرى قال : ﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ .. (٦٤) ﴾ [غافر]

فهناك خَلْق للسماوات و الأرض ، وهنا جعْل هذه الأرض المخلوقة قراراً أى مكاناً مُستقراً صالحاً لعيش الإنسان عليها ، وجعل السماء المخلوقة بناءً متماسكاً يُمسكها الحق سبحانه أنْ تسقط على الأرض .

واقترانُ خَلْق الإنسان وتصويره على هذه الصورة والهيئة ، اقتران هذا بخَلْق السماوات والأرض التى لم يدّع أحدٌ خَلْقها ، هذا دليل قاطع على أن

---

(١) عن على بن أبى طالب عن رسول الله ﷺ أنه كان إذا سجد قال : « اللهم لك سجدت وبك آمنت ولك أسلمت ، سجد وجهى للذى خلقه وصوَّره وشقَّ سمعه وبصره تبارك الله أحسن الخالقين » . أخرجه مسلم فى صحيحه (١٨٤٨) وأبو داود فى سننه (٧٦٠) والترمذى فى سننه (٣٤٢١) قال الترمذى : حديث حسن صحيح .

(٢) أخرجه أبو يعلى فى مسنده (٢٦١١) ، والطبرانى فى الدعاء (٤٠٢) عن ابن عباس رضى الله عنهما .

الله سبحانه هو المصوِّر للإنسان على غير مثال سابق ، كما أنه أبدع الوجود كله.

وهذا يقطع الطريق على القائلين بنظرية تطور الإنسان عن القرد ، وكيف نُصدِّق ترقى القرد إلى الإنسان ؟ ولماذا ترقى قرد داروين ولم تترقَّ باقى القرود ؟ ولماذا لم تؤثر فى بقية القرود ليكونوا أناساً وينعدم جنس القرد ؟

والذى يهدم نظرية داروين من أولها هو هذا الفهم لطبيعة التطور : ﴿ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ .. (٤٩) ﴾ [الذاريات] أى : أن كلَّ الكائنات مخلوقة ابتداءً من الله ، ولا يوجد جنسٌ قد نشأ من جنس آخر .

وتصوير الإنسان على هذه الصورة البديعة هو تكريم للإنسان ، وقد قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ .. (٧٠) ﴾ [الإسراء]

وأوجه التكريم فى الإنسان كثيرة ، فهو كُرِّم بالعقل ، وكرِّم بالتمييز ، وكُرِّم بالاختيار ، وكُرِّم أيضاً بأنه يسير مرفوع القامة لا على أربع منحنياً إلى الأرض كالبهائم ، وكُرِّم بشكل الأصابع وتناسقها فى شكل بديع يسمح لها بالحركة السلسة فى تناول الأشياء ومزاولة أعمال دقيقة .

وكُرِّم أيضاً بأنه يأكل بيده لا بفمه كالحيوان ، ولا بمنقاره كالطائر ، ولا بخرطومه كالفيل ، وكل هذا مُلاحظ فى تكريم الإنسان .

والحق سبحانه من أسمائه الحسنى (المصوِّر) ، اسم فاعل للموصوف بالتصوير ، وهو جَعْل الشيء على صورة لا يتماثل فيها جنسان أو نوعان ، بل لا يتساوى فردان ، فلكلٍّ صورته وسيرته وما يخصُّه ويتميز به عن غيره .

فالمصوِّر فى أسماء الله الحسنى هو مُبدع صُور المخلوقات ومُزيِّنها بحكمته ومعطى كلّ مخلوق صورته على ما اقتضتْ حكمته الأزلية ، وكذلك صورَ الله

الناسَ فى الأرحام أطواراً وشكَّلهم أشكالاً .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (٣) ﴾ [التغابن] أى : إلى الله المرجع والمآب فلن يستطيعوا أنْ يُفلتوا ، فمصير جميع العباد ومرجعهم يوم القيامة يكون إلى الله تعالى .

فمصير الجميع الرجوع والانقلاب إلى الله ، يقول تعالى : ﴿ قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ (٥٠) ﴾ [الشعراء] . وكوْن المصير إلى الله سبحانه هو اطمئنان لمن آمن ، وما دمنا إليه نرجع ومنه بدأنا ، فالحياة بدايتها من الله ونهايتها إلى الله فلنجعلها هى نفسها إلى الله .

وإذا كان الحقُّ سبحانه خلق السماوات والأرض بالحق فإنه سبحانه لم يخلق الناسَ عبثاً أو لعباً أو لهواً . إنما خلقهم أيضاً بالحق ، فقال تعالى : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (١١٥) ﴾ [المؤمنون]

وكوْننا نؤمن أنَّ إلى الله المصير هو من صلب الإيمان ، لأن هذا إيمانٌ باليوم الآخر وبالبعث بعد الموت ، وإذا كان إلى الله المصير فلماذا نعصيه ونخرج عن منهجه سبحانه ؟

وإذا كنتَ قد عصيتَ الله بما منحناه لك فى الدنيا من خيارات الطاعة أو المعصية ، فإنك بعد الموت ليس لك أىّ خيار إلا الرجوع إلى الله إما طائعاً مختاراً مُحباً للقاء الله ، وإما كارهاً مضطراً رغماً عنك ودون إرادتك .

ولا تظن أن هناك مفراً ﴿ يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ (٦) فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ (٧) وَخَسَفَ الْقَمَرُ (٨) وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ (٩) يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ (١٠) كَلَّا لَا وَزَرَ (١١) إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ (١٢) ﴾ [القيامة]

ويقول تعالى : ﴿ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ

تَخْتَلِفُونَ (٤٨) ﴾ [المائدة]

فلتتسابقوا فى الوصول إلى الخيرات وفِعْلها ، فإن الكلَّ يرجع إلى الله سواء الملتزم أو المنحرف ، فنُرد إلى مصيرنا المحتوم وهو الوقوف أمام الله فيُنبئنا بما كنا فيه نختلف .

وإذا كانت بدايتكم من صُنْع الله تعالى ﴿ هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ .. (٢) ﴾ [التغابن] ، وإذا كان الله هو الذى ﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ .. (٣) ﴾ [التغابن] ، بل إنه سبحانه هو الذى شكَّل صُوركم هذه التى أنتم عليها ، فلماذا يستبعد البعض منكم أنه سبحانه ﴿إِلَيْهِ الْمَصِيرُ (٣) ﴾ [التغابن]

وقد قدَّم الحق سبحانه الظرف الجار والمجرور (إليه) ليلفت أنظارنا أن المصير مفروغٌ منه ، وأن الإنسان لابدّ له من مرجع يعود إليه ، ولكن ليعلم أن هذا المصير هو (إليه) إلى الله سبحانه ، لا إلى إله آخر من آلهة البشر المزعومة.

فالمصير إنما هو إلى خالقكم وخالق السماوات والأرض ومُصوِّركم فى الأرحام كيف يشاء . ولا بد أنْ يكون المصير إلى الله ، وإلا لنجا الذى ملأ الدنيا شروراً دون أنْ يُجازَى على ما فعل ، ولكانَ الذى التزم بالتكليف والعبادة وحرم نفسه من متع دنيوية كثيرة إرضاءً لله قد شقى فى الحياة الدنيا عبثاً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤﴾ ﴾

الحق سبحانه له مُلْك السماوات والأرض ، وهو سبحانه خالقهما وخالق البشر ، خلق كلَّ شيء بالحق ، وهو سبحانه الذى صوَّرنا فأحسن صورنا وهيئاتنا .

وما دام الحق سبحانه هو مالك الملْك ، وهو خالق كلِّ شيء فإنه سبحانه يعلم كلّ شيء فيما خلق ، فكأنّ هذه الآية التى معنا هى نتيجة ومحصلة للآيات السابقة عليها من سورة التغابن .

﴿ يُسَبِّحُ لله مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَالله بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢) خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (٣) ﴾ [التغابن]

فعندما يُقال لنا : إن الله يعلم كلَّ شيء فيك ، لا يدخل معك فى متاهة ، هو سبحانه يقول لك : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤) ﴾ [الملك]

فالذى صنع الكرسى – ولله المثل الأعلى – ألاَ يعرف أن الكرسى مصنوع من الخشب ، ونوع الخشب (زان) أو (أرو) أو (مُجنة) ، وأن المسمار الذى يربط الجزء بالجزء ، إما مسمار صلب وإما من معدن آخر ، وكذلك يعلم صانع الكرسى أىّ صنف من الغراء استُعمل فىْ لصق أجزاء الكرسى ، وكذلك مواد الدهان التى دهن الكرسى بها .

إذن : فقول الحق سبحانه : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤) ﴾ [الملك] لا يحتاج إلى دليل ، ولذلك نجد النجار الذى يرغب أنْ تكون صنعتهُ مكشوفة واضحة يقول للمشترى : سوف أصنع الكرسى من خشب الزان ، وعليك أنْ تمرَّ يومياً لترى مراحل فِعْله .

وخَلْق الحق سبحانه ظاهرٌ للعيان واضح ، يقول تعالى : ﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ

بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ[١] بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (١٠) ﴾ [لقمان]

ثم قال تعالى فى وضوح : ﴿ هَـٰذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ .. (١١) ﴾ [لقمان]

فخَلْق السماوات والأرض والشمس والقمر إعجازٌ للدنيا كلها ، وهو من الوضوح بحيث لا يستطيع أحدٌ إنكاره ، لذلك عندما يقول لهم الحق سبحانه : ﴿ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ .. (١١) ﴾ [لقمان] لا تجد عندهم إجابة لهذا السؤال ، حيث لا واقع له يستدلون به ولا حتى بالمكابرة .

فالحق أبلج والباطل لجلج[٢] ، لذلك لم نسمع لهم صوتاً ولم يجرؤ واحد منهم مثلاً على أنْ يقول : آلهتنا خلقت الجبال مثلاً أو الشمس أو القمر ، فلم يستطيعوا الردّ رغم كفرهم وعنادهم .

ومعنى ﴿ هَـٰذَا خَلْقُ اللَّهِ .. (١١) ﴾ [لقمان] أى مخلوقاته . وأنت أيها الإنسان لن نطلب منك خَلْقاً كخلق السماء والأرض والجبال ولا إنزال المطر وإحياء الأرض بالنبات ، بل سنطلبْ منكم ما هو أهون من هذا بكثير وأدنى .

يقول تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ .. (٧٣) ﴾ [الحج] فأولئك الذين تدعونهم وتعبدونهم وتتجهون إليهم من دون الله

---

(١) أن تميد : أى لئلا تميد . وقال الزجاج : كراهة أن تميد . وقال ابن قتيبة : الميد الحركة والميل . ومادت الأغصان : تمايلت . ماد الشيء يميد : تحرك . قال الزبيدى فى تاج العروس (مادة ميد) : « أى تضطرب بكم وتدور بكم وتحرككم حركة شديدة » .

(٢) الحق أبلج : أبيض واضح . وكل واضح أبلج . واللجلجة والتلجلج : التردد فى الكلام . واللجلاج : من كان ثقيل اللسان يتردد فى كلامه (المعجم الوسيط) وأبلج الحق : ظهر . وكل متضح أبلج من صبح وحق وأمر ووجه . وقال الزبيدى : أى لا تخفى معالمه . [تاج العروس] .

﴿ لَـنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا .. (٧٣) ﴾ [الحـج] وهو أصغر المخلوقات ﴿ وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ .. (٧٣) ﴾ [الحج]

يعنى : ولو تضافرت جهودهم واجتمع أمرهم جميعاً لا واحداً واحداً ، فالحق سبحانـه لم يتحدهـم بخلْق السماوات ، ولا بخلـق الأرض ، ولا بخلق الإنسان ، بـل إنه سبحانـه تحداهم بخلق ذباب ، وحسم الأمر فقال : ﴿ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا .. (٧٣) ﴾ [الحج]

فالآيـة جاءت بنفـى المستقبل ، فهى لم تنْفِ الماضى إنمـا نَفتْ المستقبل ، فالنفـى هنـا للتأبيد ، فهم ما استطاعوا فى الماضى ولن يستطيعوا أيضاً فيما بعد حتى لا يظنّ أحدٌ أنهم ربما تمكَّنوا من ذلك فى مستقبل الأيام .

وإذا كان أمـر الخَلْـق محسوماً لله عـز وجل فإن أمر اتصـاف الخالق بالعلم محسـومٌ أيضـاً ، فمَـنْ خلق شيئاً يعلم كل شيء عما خلقـه : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤) ﴾ [الملك]

ومـا دام سبحانـه هـو خالق كل شيء ، فليس غريباً أنـه سبحانه يعلم كل شيء عما خلق ، وكل صانع فى مجاله يعلم أسرار صنعته ، فما بالنا بالخالق الأعظم سبحانه ، إنه خبير عليم بكلِّ شيء .

وقـد روى لنـا عبد الله بـن مسعود رضى الله عنـه قصة ثقفيـين وقرشى كثيرةٌ شحوم بطونهم ، قليل فقه قلوبهم ، اجتمعوا عند البيت الحرام ، فقال أحدهم : أترون أن الله يسمع ما نقول ؟ قال الآخر : يسمع إنْ جهرنا ، ولا يسمع إنْ أخفينا .

وقال الآخر : إنْ كان يسمع إذا جهرنا فإنه يسمع إذا أخفينا[1] .

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٨١٧ ، ٧٥٢١) وكذا مسلم فى صحيحه (٧٢٠٥) وأحمد فى مسنده (٣٨٧٥) وابن حبان فى صحيحه (٣٩١) ، وكذا البزار فى مسنده (١٧٩٨) والطيالسى فى مسنده (٣٦١)، عن ابن مسعود رضى الله عنه ، وقد صححه الألبانى فى صحيح وضعيف الترمذى (٣٢٤٨).

فأنزل الله تعالى : ﴿ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَـٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ (٢٢) ﴾ [فصلت]

فهؤلاء الثلاثة كانوا يظنون لضحالة فكرهم واهتمامهم بعظَم أجسامهم وإنْ صغُرتْ عقولهم ، كانوا يظنون أن الله لا يعلم كثيراً مما يقولون ومما يعملون ، فظنوا أن الله لا يعلم ما أسرُّوه لبعضهم البعض ولم يعلنوه ، وأنه لا يعلم ما يُخفونه فى داخل صدورهم .

ولكن أحدهم كان أكثر فهماً وإنْ كانوا جميعاً مشتركين فى قِلَّة فقه قلوبهم فقال : إنْ كان يسمع إذا جهرنا فإنه يسمع إذا أخفينا .

والحق سبحانه بيده الخَلْق من بدايته ، وبيده سبحانه الوفاة والمرجع ﴿ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ .. (٣) ﴾ [التغابن] ، وهذا يتطلب علماً ، فلا بدَّ من علم ، لأن الذى يصنع صنعةً لابد أنْ يعرف ما يُصلحها وما يفسدها ، وذلك يتطلب قدرة للإدراك ، فالعلم وحده لا يكفى .

لذلك قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ .. (٧٠) ﴾ [النحل] ، وقال : ﴿ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ .. (٥٤) ﴾ [الروم] ، فالخَلْق ناشىء عن علم ، لكن العلم وحده لا يكفى ، فقد تكون عالماً لكنك غيرُ قادر على تنفيذ ما تعلم .

وذلك كمهندس الكهرباء تجد عنده علماً واسعاً عن الكهرباء ، لكنه لا يستطيع تنفيذ شبكة أو معمل كهرباء ، فيذهب إلى أحد الممولين ليعينه على التنفيذ ، لذلك وصف الحق سبحانه نفسه بالعلم والقدرة .

والحق سبحانه يقول هنا ﴿ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ.. (٤) ﴾ [التغابن] فهو سبحانه الأعلم والأحكم ، فعلْمه مطلق وحكمته مطلقة ، فلا تخفى عليه خافيةٌ فى الأرض ولا فى السماء .

﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٥٩) ﴾ [الأنعام]

فعند الله علم جميع الغيب ويحيط علمه بكلِّ شيء ولا تخفى عليه خافية، فيعلم ما فى السماوات بكلِّ ما فيها من فضاءات وأجرام وشموس ونجوم، يعلم ما يجرى من السحاب الثقال بما يحمله من خير للناس وللأرض وما عليها من دواب.

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا .. (٢٧) ﴾ [فاطر]، فهو سبحانه الذى أنزل من السماء ماء، وليس لأحد من خلقه أى دخل فى هذا، لأن الماء إنما يتبخر دون أنْ يدرى الإنسان وعرفنا كيف يتكوَّن السحاب من المطر، ثم ينزل المطر من بعد ذلك.

﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ .. (٥٩) ﴾ [الأنعام] ففى البر من مخلوقات الله ما لا يُعد ولا يُحصى ولا يعلمه إلا الله، وكذلك ما فى البحر، ففيه من أنواع المخلوقات ما لا يحيط به علم إنسان.

والبَرُّ مُحسٌّ لكلِّ إنسان بما فيه من جمادات ونباتات وأشجار وحيوانات وأُناس وبلاد وطرق، وهناك من البلاد ما لا تُطل على بحار أبداً، ولذلك جاء الحق بالبَرِّ أولاً، ثم جاء بالبحر الذى يمكن أنْ يُشاهد.

وعِلْم الله بما فى السماوات والأرض ليس علماً إجمالياً، بل هو علم تفصيلى بكل ما يحدث فى السماوات والأرض وما بينهما، فالحق سبحانه يقول: ﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا .. (٥٩) ﴾ [الأنعام]

فالحق سبحانه يعلم كلَّ ما يتعلق بورقة شجرة بعد أنْ تؤدى مهمتها من

التمثيل (الكلورفيلى) وتغذية الشجرة وإنضاج الثمار ثم سقوطها على الأرض .

فالحق سبحانه يعلم أوقات حركة كلِّ ورقة من أية شجرة ، وهذا يدل على كمال الإحاطة والعلم .

﴿ وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٥٩) ﴾ [الأنعام] فالله جلَّتْ قدرته يعلم أمر كل كائن فى هذه الحياة ، لأن كلّ كائن فى هذه الدنيا إما رطب وإما يابس .

والحق سبحانه يقول : ﴿ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (١٦) ﴾ [لقمان]

فلقمان عليه السلام يدلُّ ولده على صفة من صفات الحق سبحانه ، هى صفة العلم المطلق الذى لا تخفى عليه خافية ، فكأنه يقول له : إياك أنْ تظن أنَّ ما يخفى على الناس يخفى على الله تعالى .

وكما أن الله تعالى لا يخفى عليه مثقال حبة من خردل حتى إن كانت فى باطن صخرة أو فى السماوات أو فى الأرض ، كذلك لا تخفى عليه حسنة ولا سيئة مهما دقَّتْ ، ومهما حاول صاحبها إخفاءها .

فعلْم الحق جلَّ جلاله لا يغيب عنه شيء ، والخردل مثال للصِّغر للدلالة على استقصاء كل شيء .

ثم ينقلنا الحق سبحانه إلى مجال علم آخر له سبحانه ، وهو علم ما يُسره الإنسان أو يُعلنه ، فيقول تعالى : ﴿ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ .. (٤) ﴾ [التغابن]

ويقول فى آية أخرى : ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (١٩) ﴾ [النحل]

والسرّ كما نعلم هو ما حبسْته فى نفسك ، أو ما أسررتَ به لغيرك ، وطلبتَ منه ألا يُعلمه لأحد ، والحق سبحانه يعلم السر بل يعلم ما هو أخفى ، فهو القائل : ﴿ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى (٧) ﴾ [طه]

أى أنه سبحانه يعلم ما نُسرُّه فى أنفسنا ، ويعلم أيضاً ما يمكن أن يكون سراً قبل أن نُسره فى أنفسنا ، وهو سبحانه لا يعلم السر فقط بل ما هو أخفى من السر .

فلا يستطيع بشر أنْ يخدع ربَّ العالمين ، فالله عليم بكلِّ شيء ، عليم بما نُخفى وما نُعلن ، عليم بالسر وما هو أخفى من السر ، وهل يوجد ما هو أخفى من السر ؟

نقول : نعم ، السرّ هو ما أسررتَ به لغيرك فكأنه يعلمه اثنان ، أنت ومن أسررتَ إليه ، ولكن ما هو أخفى من السر ما تُبقيه فى نفسك ولا تخبر به أحداً، إنه يظل فى قلبك لا تُسر به لإنسان ، والله سبحانه يقول : ﴿ وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى .. (٧) ﴾ [طه]

وينتقد الحق سبحانه أولئك المنافقين الذين يظنون أن بمقدورهم خداع الله تعالى، فيقول عنهم : ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٧٦) ﴾ [البقرة]

لذلك قال تعالى فى الآية بعدها : ﴿ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٧) ﴾ [البقرة]

ما هو السر وما هو العلن ؟ الأمر المعلن هو الذى يخرج منك إلى مَنْ عنده آلةٌ للسماع ليسمعك ، والأمر المعلن يخرج منك إلى مَنْ عنده آلةٌ للرؤية ليراك، فإنْ كان حركةً بلا صوت فهذا عُدته العين ، وإنْ كان بصوت فعُدته الأذن ،

هذه وسائل الإدراك الأصلية .

أما السر فهو ما لم تهمس به إلى غيرك ، لأن همسك للغير بالشيء لم يعد سراً ، ولكن السر هو ما تُسره فى نفسك ولا تهمس به لأحد من الناس ، وإذا كان السر هو ما تُسره فى نفسك فالعلن هو ما تجاهر به ، ويكون علناً ما دام قد علمه اثنان .

والعلن عند الناس واضح ، والسرّ عندهم أخفى ، والله سبحانه يعلم السر والعلن، بل إنه سبحانه يعلم ما هو أخفى من السر ، ﴿ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى (٧) ﴾ [طه]

فإذا كان السر هو ما تُخفيه فى نفسك وله واقعٌ داخلك (ما هو أخفى) هو أن الله يعلم أنك ستفعله قبل أنْ تفعله ، ويعلم أنه سيحدث منك قبل أنْ يحدث منك .

وقد يجعل الله عز وجل الإخفاء مقابلاً للإعلان ، فيقول تعالى : ﴿ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ[1] فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (٢٥) ﴾ [النمل]

وهذه الآية تُرجعنا مرة أخرى إلى ارتباط علم الله ما فى السماوات والأرض بعلم ما يُخفى الإنسان أو يُعلنه ، فالمراد بالخبء فى السماوات المطر ، والخبء فى الأرض النبات ، ومنهما تأتى مقوِّمات الحياة ، فمن ماء المطر وخصوبة الأرض يأتى النبات ، وعلى النبات يتغذَّى الحيوان ويتغذَّى الإنسان .

بل إن : ﴿ اللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٤) ﴾ [التغابن] فكلمة « ذات الصدور» معناها صاحبة الصدور ، وفى الصدر يحرص الإنسان على إخفاء الأمر

---

(١) الخبء : كل ما غاب . كل ما خبأته فهو خبء . فمعنى ﴿ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ..(٢٥) ﴾ [النمل] قال ابن قتيبة : أى المستقر فيهما . خبء السماوات : المطر وخبء الأرض : النبات. (زاد المسير لابن الجوزى – سورة النمل آية ٢٥) .

الـذى يجـب أنْ يحتفظ به لنفسه بحرص كحرص الصاحب على صاحبه ، كأن الصـدر حريصٌ على ألاَّ يسلم ما فيه ، ولكن الله سبحانه يفضحهم أمام الناس ويفضحهم أمام نفوسهم ، فقد يجوز أنْ يكونوا مغشوشين فى نفوسهم .

فيقصد بـ (ذات الصدور) أى المعانى التى لا تفارق الصدور ، فهى صاحبات دائمة الوجود فى تلك الصدور ، سواء كانت حقداً أو كراهية ، أو هى الأحاسيس التى لا تظهر فى الحركة العادية ، سواء أكانت نية حسنة أو نية سيئة .

والحـق سبحانـه يعطينا صورة لهـؤلاء الذين يظنـون أن الله لا يعلم سرهم ونجواهـم ، أو أنـه لا يعلم ما تكنُّـه صدورهم ، أو أنهم يخفـوْنَ على الله فيقول تعالى : ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ(١) ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٥) ﴾ [هود]

فحـين يثنى الإنسان صدره فهو يثنيه إلى الأمام ناحية بطنه ويدارى بذلك وجهه ، والغرض هنا من مداراة الوجه هو إخفاء الملامح ، لأن انفعال مواجيد النفس البشرية تنضح على الوجوه .

وهـم قـد استغشوا ثيابهم ليغطوا وجوههم مـداراةً للانفعالات التى تحملها هذه الوجوه .

والحق سبحانه يقول : ﴿ قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٩) ﴾ [آل عمران]

فإخفـاء مـا فى الصدور هو الـذى يعلمه الله ، أما إبداء مـا فى الصدر فإنه

---

(١) يستغشون : يأوون إلى فراشهم ويتدثرون بثيابهم ، وذلك أن بعض الكفار كان إذا مرّ به رسول الله ﷺ ثنى صدره وولى ظهره واستغشى ثيابه لئلا يسمع كلام رسول الله . [فتح القدير للشوكانى ٣/٤٢٥].

قد علمه أحدٌ غير الله ، لذلك كان ما يُخفيه الإنسان فى صدره هو محضُ علم الله سبحانه لا يطلع على ما فى صدر الإنسان إنسانٌ آخر ، أما الله الذى خلق الإنسان فهو يعلم ما فى الصدور .

ولاحظ أن الله بعد كلامه عن علم الله لما تُخفيه فى صدرك أو تُبديه لفت نظرنا إلى : ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ .. (٢٩) ﴾ [آل عمران]

والحق سبحانه هو العليم الذى يعلم كلَّ شيء خافياً كان أو ظاهراً ، والعلم كله منه سبحانه ، وهو سبحانه العليم بنيتنا ومدى إخلاصنا ، وهو العليم بما يُدبِّره الكافرون والمنافقون ، بل يعلم ما فى صدورهم قبل أنْ ينطقوا به .

وباستحضار الإنسان لصفة الله واسمه العليم ينضبط سلوكه فى الحياة؛ لأنه يعلم جيداً ويُوقن أن الله عليم بما يعلنه وبما يُسره ، وبما يستكنُّ فى صدورهم.

ويعطينا الحق سبحانه مثالاً لهذا ، فيقول : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (١٨٠) فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٨١) ﴾ [البقرة]

فالحق سبحانه يفترض وهو الأعلم بنفوس عباده أنَّ الموصى قد لا يكون على حق ، والوارث قد يكون على حق ، لذلك احتاط التشريع لهذه الحالة ، لأن الموصَى له حين يأخذ حظَّه من الوصية سينقص من نصيب الوارث .

ولذلك يريد الحق سبحانه أنْ يعصم الأطراف كلها ، إنه يحمى الذى وصّى والموصَى له والوارث ، ومن هنا يقول الحق سبحانه : ﴿ فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٨١) ﴾ [البقرة]

فالموصِى قد برئتْ ذمته ، أما ذمة الموصَى له والوارث فهى التى تستحق

أنْ تنتبه إلى أنَّ الله يعلم خفايا الصدور ، وهو السميع العليم .

وفى مجال آخر يقول تعالى : ﴿ وَلَا تَجْعَلُوا اللهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٢٤) ﴾ [البقرة]

فالحق سبحانه سميع باليمين الذى حلفته ، والله عليم بنيتك إنْ كانت خيراً أو شراً ، فلا تتخذ اليمين حُجة لأن تمنع البر والتقوى والإصلاح .

وعلم الله ذاتى ، أما علمُ الإنسان فقد يكون أثراً من ضغط الأحداث عليه فيفكر الإنسان فى تقنين شيء يُخرجه مما يكون فيه من شرّ ، ولكنّ علم العليم الأعلى سابقٌ على ذلك لأنه علم ذاتيّ .

وما دام علمُ الله ذاتياً ، وما دام سبحانه هو الحق العليم بما تُخفى الصدور فهو قادر ليس فقط على الجزاء بما يفعلونه من عمل نزوعى ، ولكنه قادرٌ على أنْ يُجازيهم أيضاً بأنْ يفضح الأعمال غير النزوعية الكامنة فى صدورهم .

وأكثر ما يكون العلم يكون لما لا يبدو من أمر الناس ، سواء كان مسموعاً أو مرئياً ، لذلك قرن الحق سبحانه السمع بالعلم ، فقال : ﴿وَاللهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٧٦) ﴾ [المائدة] فالسميع تدلّ على قوْلٍ قيل فسُمع ، أما كلمة (العليم) فتدلّ على شيء يدور فى الخواطر .

فإنْ كان قد حصل كلامٌ فهو قد سمعه ، وإنْ كانت قد دارتْ خواطر فى النفس فهو يعلمها ، لأن العاقل قبل أنْ يتكلم لابد أنْ يدير الكلام فى النفس ، وكل كلام يُقال لابدّ له من نزوع ، هذا النزوع يعلمه الله ، وهو سبحانه العليم أزلاً وأبداً .

ومثل هذا قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١) ﴾ [الإسراء] فالسميع

لمـا يُسمـع والبصير لما يُرى ، أما العليم فهو لمـا لا يُسمع ولا لما يُرى ، بل هو لمكنونـات النفس ، فسبحانـه يسمع قوْل مَنْ لا يستطيـع ولا يملك القدرة على سلوك ما ، وسبحانه بصير يرى صاحب كلِّ سلوك .

أمـا النيـة فهذه تحتـاج إلى علم العليم وخبرة الخبـير سبحانه ، يقول ﷺ : « إنمـا الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امريء ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه »[١] .

وكذلك كل فعل نيتك فيه يعلمها الله سبحانه ، فالذى يمسح على رأس اليتيم مثـلاً يكون صاحب حـظ عظيم فى الثواب[٢] ، ومَنْ يكفـل اليتيم فهو مع النبى ﷺ[٣] .

لكـن الـذى يُقـدِّر ذلك هـو الله سبحانـه العليم بخفايـا الإنسـان حسب نية الشخصـ الـذى يقوم بهـذا العمل، فقد يتقـرب واحد من يتيـم ويتكلف العطف والحنان بينما هو يقصد التقرب إلى أم اليتيم[٤] .

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (١) كتاب بدء الوحى ، وكذا أبو داود فى سننه (٢٢٠٣) وابن ماجه فى سننه (٤٢٢٧) والبيهقى فى سننه (١٨٤ ، ١٥٣٩١) من حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

(٢) أخرج أحمد فى مسنده (٧٥٦٦ ، ٩٠٠٦) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه أن رجلاً شكا إلى رسول الله ﷺ قسوة قلبه فقال له : « إن أردت تليين قلبك فأطعم المسكين وامسح رأس اليتيم » وكذا أخرجه البيهقى فى سننه الكبرى (٧٣٤٥) .

(٣) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « كافل اليتيم له أو لغيره أنا وهو كهاتين فى الجنة » وأشار مالك بالسبابة والوسطى . أخرجه مسلم فى صحيحه (٧٦٦٠) وأحمد فى مسنده (٨٨٦٨) .

(٤) أخرج البخارى فى صحيحه (٢٧٦٣) أن عروة كان يحدِّث أنه سأل عائشة رضى الله عنها ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ .. (٤)﴾ [النساء] قالت : هى اليتيمة فى حجر وليها فيرغب فى جمالها ومالها ويريد أن يتزوجها بأدنى من سنة نسائها فنهوا عن نكاحهن إلا أن يقسطوا لهن فى إكمال الصداق وأمروا بنكاح من سواهن من النساء . قالت عائشة : ثم استفتى الناس رسول الله بعد ، فأنزل الله ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ.. (١٢٧)﴾ [النساء] .

لذلك فمناط الجزاء ومناط الثواب هو فى النية الدافعة والباعثة على العمل، لذلك خذوا بالكم واجعلوا مسح رأس اليتيم لله ، ليس للتقرب من أمه الجميلة مثلاً .

والنية لا تكون لله ولا تكون صالحة إلا إذا اقترن هذا بتقوى الله ، يقول تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٧) ﴾ [المائدة]

فالتقوى لا تنشأ من الأفعال المحسَّة المدركة فقط ، بل تنشأ أيضاً فى الأحوال الدخيلة المضمرة ، ومثال ذلك نية سيئة ونية حسنة ، فالحقد والحسد والتبييت والمكر ، كلّ ذلك صفات سيئة وهى خبيئة النفس ودخيلته وذات صدْر الإنسان يعلمها الله من نفوسنا .

وتقوى الله تجعلُك تُطهِّر نفسك من هذه الصفات السيئة ، ليكون سلوكُك مبنياً على تقوى الله وعلى اليقين أنَّ الله يعلم ما فى نفسك حتى قبل أنْ تنطق به أو تمارسه فعلاً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٥ ﴾

ساعة يقول: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ .. (٥) ﴾ [التغابن] فهنا همزة الاستفهام ، ولم للنفى ، والهمزة تنفى هذا النفى ، أى : أتاكم نبأ هؤلاء ، وحين يُنفَى النفى لأمر فالمراد إثباتُ الأمر .

وأنت لا تستفهم الاستفهام الإنكارى إلا وأنت واثق من أنَّ الجواب عند مَنْ تسأله هو: نعم. فحين تقول لإنسان: أنت تخليتَ عنِّى فى محنتى. فيقول: ألم أزُرْكَ فى يوم كذا؟ ألم أُعطك كذا؟ ألم أصنع مع ابنك كذا؟

فهو واثق أنك لا تستطيع إنكارَ شيء من هذا لأنه ثابتٌ ثبوتاً حقيقياً.

ونلحظ أن الحق سبحانه جاء هنا بالخطاب للمخاطب، فقال: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ .. (٥) ﴾ [التغابن]، وذلك مثل قوله سبحانه مخاطباً الجن والإنس: ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي .. (١٣٠) ﴾ [الأنعام]

ومثل قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ .. (٩) ﴾ [إبراهيم]

والخطاب من بداية سورة التغابن هو للمخاطب: ﴿ هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ .. (٢) ﴾ [التغابن]، ثم قال: ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ .. (٣) ﴾ [التغابن]

فصيغة المخاطبة مستمرة، فخاطب أولاً الكافرين ثم تحدَّث عمّن آمن، لذلك عندما قال سبحانه: ﴿ هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ .. (٢) ﴾ [التغابن] وأراد أنْ يخاطب خَلْقه قال: ﴿ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ .. (٢) ﴾ [التغابن]

وما دام الحق سبحانه يخاطب الكافرين، فيقول: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ .. (٥) ﴾ [التغابن] فيكون الاستفهام هنا للتقريع والتبكيت لمن كذّب وكفر.

وقوله سبحانه ﴿ نبأ ﴾ يدل على أهمية ما يريد أنْ يلفتهم إليه، فكلمة (نبأ) لا تأتى إلا فى الخبر العظيم، والنبأ هو الخبر المهم، فنحن لا نطلق النبأ على مطلق الخبر، ولكن نطلقه على الخبر اللافت للنظر.

مثال ذلك قوله تعالى : ﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (١) عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ (٢) ﴾ [النبأ] إذن: فكلمة نبأ هى الخبر المهم الشديد الذى له وَقْع وأثر عظيم .

فليس كلُّ خبر نبأ ، ذلك أن هناك الكثير من الأخبار التافهة التى يتساوى فيها العلم الذى لا ينفع بالجهل الذى لا يضر . فالنبأ إذن هو الخبر العظيم المدهش ، الذى له جدوى اعتبارية ، ويمكن أن ننتفع به وليس مطلق خبر .

والنبأ أصله من نبا ينبو نبْوة ، والنبوة الأمر الواضح الظاهر وليس مطموساً، ولذلك فكل شيء هام ظاهر قد حدث يُقال عنه : نبأ .

ومن هذا قوله تعالى : ﴿ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٤٩) ﴾ [الحجر] فالإنباء هنا بأمر خطير له خطورته ، ولا يقال (نبىء) فى خبر بسيط لا قيمة له .

ومن الأنباء العظيمة قوله ﴿ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ (٦٧) أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ (٦٨) ﴾ [ص] فنبأ الآخرة نبأ عظيم ، لا يجب أنْ نغفل عنه ، بل نجعله نُصْب أعيننا ونستعد له ، لا أنْ نُعرض عنه ونتجاهله بسلوكنا فى مسالك تُوردنا المهالك .

فالنبأ يجب أنْ يُنصت له ، وأنْ تُؤخذ منه العبرة والعظة ، لأنه خبر هائل يهز الدنيا كلها ويملأ الأسماع .

والحق سبحانه إنما قال : ﴿ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا .. (٥) ﴾ [التغابن] ولم يقل : أنباء الذين كفروا . فأفرد النبأ رغم أن الذين كفروا جمع وأقوام كثيرة ، حتى عندما ذكر الحق سبحانه الأقوام الذين كفروا قال :

﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ[1] وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ

(١) مدين : مدينة كانت موجودة فى شمال غرب الجزيرة العربية منطقة البدع حاليا تابعة لمنطقة تبوك شمال غرب المملكة العربية السعودية وكان أهلها يعملون بالتجارة ، وقد كانوا ينقصون المكيال والميزان ، فأرسل الله إليهم شعيباً نبياً ﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ .. (٨٤) ﴾ [هود] .

يَظْلِمُونَ (٧٠) ﴾ [التوبة]

فأفرد (نبأ) وهذا إشارة إلى أن فعل الكفر منهم برسله هو فعل واحد وإنْ تعددت الرسل ، وكما نقول (ملة الكفر واحدة) .

أما عندما ذكر الرسل قال ﴿ وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ .. (١٢٠) ﴾ [هود] فقال (أنباء) بالجمع ، لأن الكلام هنا يتعلق بتجربة كل رسول مع قومه ، فما قاساه نوحٌ مع قومه غير ما قاساه صالح أو هود أو موسى أو عيسى أو إبراهيم .

كلٌّ له قصة مختلفة ، لذلك كان قصصهم (أنباء) ، ثم إن أخبار الرسل عليهم السلام تتناثر لقطات مختلفة عبْر سور القرآن الكريم ، مُوضِّحة ما جاء به كلّ رسول معالجاً الداء الذى عانى منه قومه ، وكذلك ما عاناه كلُّ رسول من عَنَت القوم المبعوث لهم .

وجاء ذِكْر تلك الأنباء فى القرآن لتثبيت فؤاد الرسول ﷺ ، لأن الرسول سيصادف فى الدعوة المتاعب والمصاعب .

ولكن كيف سيأتيهم نبأ الذين كفروا ؟ نقول : أهل قريش كانوا أهلَ تجارة وكانت لهم رحلتان فى العام ، إحداهما فى الصيف إلى الشام ، والأخرى فى الشتاء إلى اليمن .

قال تعالى : ﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ (١) إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (٢) ﴾ [قريش]، وقد أعطى الله لقريش السيادة ، لذلك كانت قوافلهم تذهب بالتجارة لليمن والشام ولا يجرؤ أحدٌ من القبائل أنْ يتعرَّض لها .

فعزّ قريش فى بيت الله الحرام وأمنهم وسيادتهم فى أنهم جالسون فى راحة، وتتنقل قوافلهم إلى الشام وإلى اليمن ، ثم تعود مُحمَّلة بالخير والربح وهم آمنون مطمئنون .

وهـم فى تجارتهم هذه كانـوا يسمعون بقصص الأمم السابقة ، وما حدث للأقـوام من قبل ، وكان سير قريش بقوافلهـا إلى الشام واليمن يجعلها قادرة علـى أن تـرى آثار المكذِّبين سـواء من أهل ثمود أو قوم عـاد أو غيرهم ، وكان عليهم أنْ يأخذوا العبرة فى أثناء سعيهم لتجارتهم .

يقـول الحـق سبحانه : ﴿ قُـلْ سِيرُوا فِـى الْأَرْضِ ثُـمَّ انْظُرُوا كَيْـفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِـينَ (١١) ﴾ [الأنعـام] فالغرض من السير الاعتبـار والاتعاظ ، ولابد إذن من وجود بقايا وأطلال تدلّ على هؤلاء السابقين المكذبين أصحاب الحضارات التى أصبحتْ أثراً بعد عين .

فهـؤلاء الذيـن سبقوكم بقيتْ لهم مساكن ، فمَنْ شـاء أنْ يذهب إليها ليتأكد فليذهـب ، ولا تـزال مدائن صالح ، ولا تزال هناك آثار عاد ، وكلّ مكان فيه أثر من الآثار .

ولذلك يوضح الحق سبحانه : فإنْ كنتم تريدون التأكد من ذلك فأنا قد أخبرت، ومَـنْ آمـن بى فليُصـدق خبرى ، ولغـير المؤمن ولمـن يريد اطمئنـان قلبه، يقول سبحانه : ﴿ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (٣٦) ﴾ [النحل]

وقـد قال تعالى عنهـم : ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِـينَ (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُـونَ (١٣٨) ﴾ [الصافـات] فقـد كنتـم تمرون على آثارهم فـى سدوم صباح مسـاء، فـى رحلاتكـم وأسفاركم وفـى تجارتكم فى رحلـة الشتـاء والصيف ، وتشاهدون آثارهم وما تبقَّى من ديارهم .

فأنتـم تمرون على تلـك الأماكن التـى أقامها بعضٌ ممـن سبقوكم وظلموا أنفسهم بالكفر ، وأنزل الحق سبحانه عليهم العقاب .

وقـد قال تعالى عـن مساكن سدوم ، وهى مساكن قوم لـوط الذين نزل بهم

العذاب : ﴿ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ (٧٦) ﴾ [الحجر] أى : أنها على طريق ثابت تمرُّون عليه إنْ ذهبتم ناحية هذا المكان .

فهذه المدينة إذن فى طريق ثابت ، لن تضيعه عوامل التعرية أو الأغيار ، ولن تضيعه تلك العوامل إلا إذا شاء الحق سبحانه ذلك ، فأنتم أهل سَيْر وترحال، وأهل نظر فى مصير من قبلكم ، فكيف يقبل منكم الانصراف عن آيات الله ؟ وكيف لا تعقلون آيات الله ؟ وكيف لا تحرك قلوبكم ؟!

حتى أن الله قال عنهم : ﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِى أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا (٤٠) ﴾ [الفرقان] والقرية التى أمطرت مطر السوء هم سدوم[1] قرية قوم لوط ﴿ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا .. (٤٠) ﴾ [الفرقان] أى : أفلم يشاهدوها فى أسفارهم ؟

وهى مشاهد ليست مجرد تاريخ يحكيه القرآن ، بل هى مشاهد ومَرَاءٍ رآها كفار مكة فى رحلة الصيف يمرُّون على هذه الديار فيجدونها خاوية : ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا .. (٥٢) ﴾ [النمل]

وقد روى عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : مررنا مع رسول الله ﷺ على الحِجْر[2] ، فقال لنا رسول الله : « لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين ، حذراً أنْ يصيبكم مثل ما أصابهم . ثم زجر[3] فأسرع حتى

---

(١) مدينتا سدوم وعمورية مدينتان تقعان فى وادى سديم ، فتقع مدينة سدوم جنوب شرق البحر الميت فى غور الأردن .

(٢) قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ (٨٠) ﴾ [الحجر] فأصحاب الحجر هم ثمود . قال ابن عباس : كانت منازلهم بالحجر بين المدينة والشام . وقال ابن جرير : هى أرض بين الحجاز والشام . وقال الشيخ الشعراوى : كانت المنطقة التى يقيمون فيها كلها من الحجارة ولا يزال مقامهم معروفاً فى المسافة بين خيبر وتبوك.

(٣) زجر الراعى النعَم : صاح بها . وزجر البعير : حثّه على السرعة .

خلّفها »[١] .

فالمسلم الحق تجده ذاكراً الله عز وجل ، فى حِلِّه وترحاله ، دارساً لتاريخ الأمم من قبله ، عارفاً ما حلَّ بهم ، مُتقياً أنْ يقع فيما وقعوا فيه فاستحقوا عذاب الله .

حتى إذا مرَّ على آثار ومواقع ومساكن مَنْ نزل بهم العذاب عليه أنْ لا يدخلها إلا إذا كان مُستحضراً ما نزل بهم ، باكياً داعياً الله أنْ لا يصيبه وقومه ما أصاب هؤلاء .

وقد كان رسول الله الحريص على أمته حريصاً على هذا ، وحدث أنْ كان رسول الله ومعه الصحابة فى غزوة تبوك ، وهى شمال المدينة المنورة على بُعْد كبير منها على طريق الشام .

يقول ابن عمر : « مررنا مع رسول الله على الحِجْر » وقد قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ (٨٠)﴾ [الحجر]

وأصحاب الحجر هم قوم صالح . وكانت المنطقة التى يقيمون فيها كلها من الحجارة ولا يزال مقامهم معروفاً بين خيبر وتبوك ، وقال فيهم الحق سبحانه : ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩)﴾ [الشعراء]

وقوم صالح هم ثمود الذين قال الله فيهم ﴿وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩)﴾ [الفجر] وكانت إمكانات ثمود أكبر من إمكانات قريش ، فقريش لا سيادةَ لها إلا بسبب وجود الكعبة ، ولو كان الحق سبحانه ترك أبرهة يهدم الكعبة لما مكّن لهم فى الأرض.

لقد كان قوم صالح مساكنهم فى الصخر ، وهم قوم كانوا نابغين فى نحت

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٧٦٥٦) وأورده ابن الخراط الإشبيلى فى كتابه (الأحكام الشرعية (٣/٣٥٤) وعزاه لمسلم ، وأخرجه ابن حبان فى صحيحه (٦١٩٩) من حديث عبد الله بن عمر رضى الله عنهما .

بيوتهم فى الجبال ، ومَنْ يزُر المنطقة الواقعة بين الشام والمدينة يمكنه أنْ يشاهد مدائن صالح وهى منحوتة فى الجبال .

قال الحق سبحانه فيهم : ﴿ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ (١٤٩) ﴾ [الشعراء] وقد كفروا بصالح عليه السلام رغم أنهم طلبوا منه أنْ يأتيهم بآية وحددوا الآية ناقة عُشَراء تخرج من صخرة معينة حددوها[١] .

ولكنهم عقروا الناقة ، وعَقْرهم الناقة كان علامة نزول العقاب والعذاب بهم ، قال تعالى : ﴿ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ[٢] ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ (٦٥) ﴾ [هود]

فتلك مساكن الذين ظلموا كانت دليلاً وما زالت على دعوة الحق التى رفضها قوم ثمود وقوم عاد وقوم لوط ، وكان من الواجب على المارِّ بها الاعتبار بها، وألاَّ يمرّ عليها مرورَ اللاهى الغافل .

وهم إنما ظلموا أنفسهم بكفرهم وتكذيبهم ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٨) ﴾ [النحل]

ومعنى قول رسول الله ﷺ : « إلاّ أنْ تكونوا باكين » أى : لا تدخلوها ولا تمرُّوا بها إلا وأنتم مُتعظون بما تروْنَه من رسومٍ دارسة وآثار قد تركها مَنْ سكنوها ، أو أميتوا داخلها وفيها .

وذلك حذراً وخوفاً من أن يصيبكم مثل ما أصابهم ، فاحذروا أنْ يصيبكم ما أصابهم ، فلستُم أشدَّ منهم قوة ولا مَنَعة ولا بطشاً ولا جبروتاً .

---

(١) ناقة عشراء : مضى لحملها عشرة أشهر .

(٢) أخرج سنيد وابن جرير والحاكم عن عمرو بن خارجة عن رسول الله ﷺ قال : كانت ثمود قوم صالح أعمرهم الله فى الدنيا .. وفيه : فقال صالح لقومه : لكل رغوة أجل فتمتعوا فى داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب ، ألا إن آية العذاب أن اليوم الأول تصبح وجوهكم مصفرة ، واليوم الثانى محمرة واليوم الثالث مسودة . أورده السيوطى فى الدر المنثور (٦/٤٥٨) .

وقد زجر رسول الله ناقته عند المرور بمساكن ثمود ، فنخس ناقته لتسرع السير لتخرج من هذه البقعة التى نزل عليها عذاب الله ، فأسرعت الناقةُ حتى خلَّفها أى حتى تجاوز مساكن قوم ثمود المنحوتة فى الجبال .

وقد طالب الله قريشاً بالإيمان بمحمد وبالقرآن الذى أنزله الله عليه ، ولكن الكثيرين منهم كفروا وحاربوه ، ولذلك ذكَّرهم الحق سبحانه بما يرونه صيفاً وشتاءً ، صباح مساء من ديار الأقوام السابقين .

وهم أتاهم نبأ الذين كفروا من قبل من عدة طرق ، فهم لم يكونوا فقط يمرُّون على ديار المعذّبين من الأقوام السابقة ، بل سكنوا فى مساكنهم ، يقول الحق سبحانه : ﴿ وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ (٤٥) ﴾ [إبراهيم]

فأنتم لم تتعظوا بالسوابق التى ما كان يجب أنْ تغيب عنكم ، فأنتم تمرون فى رحلات الصيف والشتاء على مدائن صالح . وترون آثار الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والشرك ، وتمرون على الأحقاف ، وترون ماذا حاق بقوم عاد .

وكلُّ أولئك نالوا العقاب من الله ، سواء بالريح الصرصر[1] العاتية ، أو أرسل على بعضهم حاصباً من السماء ، أو أنزل عليهم الصيحة ، أو أغرقهم كآل فرعون وأخذ كلّ قوم من هؤلاء بذنبه .

فالحق سبحانه يوضح أنَّ مشيئته فى إنزال العقاب قد وضحتْ أمام الذين عاصروا رسالة محمد ﷺ فى مساكن الأقوام التى سبقتْهم وكفروا برسالات الرسل .

والنبأ الذى أتاهم هنا ليس أيّ نبأ فى العموم ، إنما هو: ﴿ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا

---

(١) صرصر لصوت الريح الشديدة . وقال الأزهرى فى (الصحاح فى اللغة) : ريح صرصر أى باردة . ريح صرصر : مبالغة فى الشدة . صرصر : ريح شديدة البرد جداً . والصر : البرد الذى يضرب كل شيء ويحسُّه .

مِنْ قَبْلُ.. (٥) ﴾ [التغابن]

فـ: ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا .. (٥) ﴾ [التغابن] أى: ستروا الإيمان بالله ورسوله، هؤلاء يختم الله بكفرهم على آلات الإدراك كلها، القلب والسمع والبصر، فالكفر هو محاولة ستر وجود الله واجب الوجود، ومحاولة الستر هذه هى إعلان بأن الله تعالى موجودٌ، فأنت لا تحاول أنْ تستر شيئاً إلا إذا كان له وجود أولاً.

وسنة الله فى أرضه أنَّ الذين كفروا برسالات الله فى الأرض يتلقون بعض العذاب فى الدنيا، لأن الله لا يدخر كلَّ العقاب للآخرة وإلاَّ لشقى الناس بالكافرين وبالعاصين، ولذلك فإن الله يُعجل بشيء من العقاب للكافرين والعاصين فى هذه الدنيا.

﴿ سُنَّةَ اللهِ فِى الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلا (٦٢) ﴾ [الأحزاب]

والسنة هى الناموس الحاكم لحركة الحياة، فنبأ الذين كفروا من قبل عرفنا منه ما حدث للذين أطاعوا رسلهم، وما حدث للذين كذَّبوا رسلهم.

قال الحق سبحانه فى شأنهم: ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٠) ﴾ [العنكبوت]

وهذه عقوبات نزلتْ بمَنْ كفر ممنْ سبقوهم، وحدثتْ لهم أحداث يعلمونها، فهل هم ينتظرون أياماً مثل هذه، يقول تعالى: ﴿ فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّى مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ (١٠٢) ﴾ [يونس]

فما كان يصح لهم أنْ يستمرئوا الكفر حتى لا تتكرر معهم مآسٍ كالتى حدثتْ لمن سبقهم إلى الكفر.

ونلاحظ أنَّ الحق سبحانه قد جمع العقوبات التى نزلتْ بالكافرين ممن

سبق رغم اختلاف أزمانهم وسبب نزول العقاب بكلٍّ منهم ، فجمعهم سبحانه فى آية واحدة ، وذلك لأنهم طائفة واحدة .

﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ .. (٤٠) ﴾ [العنكبوت] ليس ظلماً ولا جبروتاً ولا جُزافاً، إنما جزاءً بذنوبهم وعدلاً ، لذلك قال تعالى فى تذييل الآية : ﴿ وَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٠) ﴾ [العنكبوت]

﴿ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا .. (٤٠) ﴾ [العنكبوت] والحاصب هو الحصى الصغار تُرمى لا لتجرح ، ولكن يُحمى عليها لتكون حامية وتلسع حين يرميهم بها الريح ، ولم يقُلْ هنا : أرسلنا عليهم ناراً مثلاً ، لأن النارَ ربما إنْ أحرقته يموت وينقطع أمله ، لكنّ رميهم بالحجارة المحمية تلسعهم وتُديم آلامهم .

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ .. (٤٠) ﴾ [العنكبوت] وهو الصوت الشديد الذى تتزلزل منه الأرض ، وهم ثمود : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ .. (٤٠) ﴾ [العنكبوت] أى قارون . ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا .. (٤٠) ﴾ [العنكبوت] وهم قوم نوح وفرعون .

وهذه وسائل أربعة لإهلاك المكذبين : النار فى الحصباء ، والهواء فى الصيحة ، والتراب فى الخسف ، ثم الماء فى الإغراق .

وهم بدل أنْ يتعظوا بمَنْ سبقوهم تجد رجلاً منهم اسمه عمرو بن لحي[1] سافر إلى بلاد الشام ، فوجد أوثاناً وأصناماً فنقل منها صنماً يُقال له (هبل) نقله إلى مكة ، وكان هو مَنْ أدخل الأصنام إلى مكة ، فالأصنام التى عبدوها جاءتهم من الروم ونصبوها حول الكعبة بيت الله .

---

(١) عمرو بن لحى كان من خزاعة وكان سيد مكة ، يعد أول من غيَّر دين إبراهيم (الحنيفية) ، حيث إنه أدخل الأصنام لتُعبد من دون الله بالجزيرة العربية ، من بلاد الشام ، وابتدع كل شيء خارج عن حنيفية إبراهيم ، فسيَّب السائبة وبحر البحيرة ووصل الوصيلة وحمى الحام . [ويكيبيديا] .

وقول الحق سبحانه : ﴿ مِنْ قَبْلُ .. (٥) ﴾ [التغابن] هو طمأنة لرسول الله ﷺ ، فإنهم ليسوا أوَّلَ من كذّب رسولهم ، فالأقوام من قبلهم كذّبتْ رسلها .

يقول تعالى : ﴿ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ (٤٢) ﴾ [الحج] ، فأنت لستَ في ذلك بدعاً من الرسل ، فقد كُذِّب كثيرٌ من الرسل قبلك .

ولا يجب أنْ ننظر إلى مسألة التكذيب منفصلة عن عاقبته ، نعم كذَّب القوم لكن كيف كانت العاقبة ؟ أتركناهم أم أخذناهم أخْذ عزيز مقتدر ؟

فلا تحزن فسوف يحلُّ بهم ما حَلَّ بسابقيهم من المكذِّبين والمعاندين مثل : ﴿ قَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ (٤٣) وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٤٤) ﴾ [الحج]

فأمليتُ لهم وأمهلتُهم حتى ظنّوه إهمالاً ، أعطاهم الفرصة والوقت كاملاً ليؤمنوا ويهتدوا ، ولكن كيف يؤمنون وهم مجرمون لا يكتفون بأنهم ضلُّوا ، بل يريدون إضلالَ مَنْ آمن ؛ فنزل بهم عقاب الله .

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ .. (٥) ﴾ [التغابن] والوبال : هو الثقل والعاقبة الوخيمة . ولكي تعرف معنى إذاقة الوبال اقرأ قوْل الحق سبحانه : ﴿ وَضَرَبَ اللهُ مَثَلًا قَرْيَةً (١) كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١١٢) ﴾ [النحل]

ونعلم أن الذى يُذاق هو الطعم ، والطعم يكون باللسان وحده ، أما اللباس فيعم كلّ الجسم ، والحق سبحانه هنا يعطى الإذاقة ولا يكون الذائق هو الفم

---

(١) القرية :مكة . قاله ابن جرير الطبرى [تفسير سورة النحل ١١٢] ذكره عن مجاهد بن جبر وقتادة. ولكن الطبرى ذكر أقوالاً أخرى منها المدينة مدينة رسول الله . وقال ابن الجوزى فى زاد المسير (١٣٢/٤) أن هذا على سبيل التمثيل لا على وجه التفسير . ولكن ذكر قولاً آخر وعزاه للحسن البصرى قال : إنها قرية أوسع الله على أهلها حتى كانوا يستنجون بالخبز ، فبعث الله عليهم الجوع حتى كانوا يأكلون ما يقعدون .

فقط بل كل الجسم ، فالفم إنما يتناول لصالح بقية الجسم ، وعندما لا تصل مادة الحياة إلى بقية الجسم ، فكلّ الجسم يذوق الجوع أيضاً .

والحق سبحانه جعل كلّ جارحة فيهم تذوق الوبال فتذوق العذاب ، ويجعل لكلٍّ عضو فى الجسم حساسية الذَّوْق كالتى فى اللسان ، وهذه هى الإذاقة كأنها صارت لباساً من الجوع يشمل الجسد كله ، والإذاقة أشدّ الإدراكات تأثيراً ، واللباس أشمل للجسد .

فكأنَّ الإذاقة تتعدى إلى كلِّ البدن ، فالأنامل تذوق ، والرِّجْل تذوق ، والصدر يذوق ، والرقبة تذوق .

ودقة الأسلوب القرآنى جاء بقوله : ﴿ فَذَاقُوا .. (٥) ﴾ [التغابن] والذوق غير البلْع والشِّبع ، والعذاب الذى رآه الكفار على أيدى المؤمنين فى غزوة بدر كان مجرد ذوْقٍ هيّن جداً بالنسبة لما سوف يروْنه فى الآخرة من العقاب الشديد والعذاب الأليم ، وسيأتى الشِّبع من العذاب فى الآخرة .

قال تعالى مخاطباً مشركى قريش بعد هزيمتهم فى غزوة بدر : ﴿ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ (١٤) ﴾ [الأنفال]

فـ : ﴿ ذَٰلِكُمْ .. (١٤) ﴾ [الأنفال] هنا إشارة لما حدث فى بدر من ضرب المؤمنين للكافرين فوق الأعناق ، وضرْب كلِّ بنان[1] كافر : ﴿ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ (١٢) ﴾ [الأنفال]

والكافرون فى كل زمن ذاقوا وبالَ أمرهم ، أى شأنهم الذى هم فيه من الكفر والجحود والتكذيب والخروج عن منهج الله ورفَضْ طاعة مَنْ أُرسل إليهم من الرسل .

---

(١) البنان الأصابع أو أطراف الأصابع . قيل : سميت بذلك لأن بها إصلاح الأحوال التى تمكّن الإنسان أن يبنَّ فيما يريد . وقال الزجاج : الأصابع وغيرها من جميع الأعضاء . وقال الليث : البنان فى كتاب الله تعالى ، هو الشَّوى وهى الأيدى والأرجل . [تاج العروس للزبيدى – مادة : بنن] .

هذه الإذاقة يذوقونها فى الدنيا ولكن فى الآخرة : ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٥) ﴾ [التغابن] ، فليت الأمر يقتصر عند حَدِّ عذاب الدنيا ، ولكن ينتظرهم فى الآخرة عذابٌ أليم غير العذاب الذى عانوه .

ومعنى ﴿ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٥) ﴾ [التغابن] أى مؤلم ، كأنّ هناك عذاباً فقط ، ثم يأتى عذابٌ أليم مُوجع مؤلم شديد بل هو الأشد ، ونحن فى أمثالنا نقول (ضربه فين يوجعه) .

فكأن (أليم) يُقصد بها إيقاع العذاب فى المواطن التى تسبب للإنسان أشدَّ الألم ، ولابد أنْ نأخذ قوة الحدث بفاعل الحدث .

وفى حياتنا العادية عندما يُقال : صفع الطفلُ فلاناً الرجل ، نفهم بطبيعة الحال أن صفعة الطفل تختلف فى قوتها عن صفعة الشاب ، وكذلك صفعة الشاب تختلف عن صفعة بطل فى الملاكمة .

إذن : فالحدث يختلف باختلاف فاعله قوةً وضعفاً على المفعول به الذى هو مناط الحدث ، فإذا كان فاعل العذاب هو الله فلابدّ أنْ يكون عذاباً أليماً ولا حدودَ لألمه ، أنجانا الله وإياكم منه .

والعذاب له جهات متعددة ، فقد يوجد عذاب أليم مؤلم ، ولكن المعذَّب يتجلَّد أمام مَنْ يُعذِّبه ويظهر أنه ما زال يملك بقيةً من جَلَد ، إنه يتألم لكنه يستكبر على الألم .

ولذلك قال الشاعر[١] :

وَتجلُّدِى لِلْشَّامِتينَ أُرِيهُمُو ... أَنِّى لريْبِ الدَّهْرِ لاَ أَتضَعْضَعُ[٢]

---

(١) الشاعر هو أبو ذؤيب الهذلى ، شاعر مخضرم ، وكان له سبعة أولاد فماتوا كلهم إلا طفلاً . أسلم على عهد النبى ﷺ إلا أنه لم يره . وهو خويلد بن خالد بن محرث ، سكن المدينة واشترك فى الغزو والفتوح ، عاش إلى أيام عثمان وشهد فتح إفريقية (تونس) . مات ٢٧ هجرية . [الأعلام للزركلى ٢/٣٢٥] .

(٢) هو من قصيدة من مشهورات المراثى من بحر الكامل .

فالتجلُّد هو نوع من الكبرياء على الواقع ، لذلك يأتيه عذابٌ من نوع آخر، وهو العذاب العظيم أى العظيم فى كميته وقدره ، وأليم فى وقعه ومهين فى إذلال ودَكّ النفس البشرية وغرورها .

فيُقال للمُعذَّب ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (٤٩) ﴾ [الدخان] وهذا هو العذاب المهين لغرور مَنْ كفر واستكبر واستعلى على الله سبحانه ورسله ، فلو كان الكافرُ عزيزاً كريماً عند نفسه لما كفر ولمَا استقرَّ فى الجحيم .

﴿ ذُقْ .. (٤٩) ﴾ [الدخان] أى ذُقْ طَعْم الإهانة والمذلَّة ، لا مما يُطعم أو مما يُشرب ، ولكن بالإحساس ، وهو أشدّ وأقسى وأعظمُ إيلاماً ، وقانا الله شرَّ النار وعذابها وطُول القيام للعرض والحساب .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٦﴾ ﴾

لابد أنْ نعرف أنَّ (ذلك) ليست كلمة واحدة ، وإنما هى ثلاث كلمات . (ذا) اسم إشارة . و (اللام) تدل على البُعد . و(ك) لمخاطبة الناس .

وكلمة (ذلك) هنا إشارة إلى سبب العذاب الذى وقع بهم ، فهى إشارةٌ إلى قوله تعالى : ﴿ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ .. (٥) ﴾ [التغابن] ، فما وقع بهم لم يكُنْ ظلماً لهم ، بل كان بسبب فعلهم وصُنْعهم هم .

وهذا مثل قوله سبحانه : ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨) ﴾ [المائدة]

فلعنُهم وإخراجهم من رحمة الله كان بسبب عصيانهم وتجاوزهم لأوامر الله واعتدائهم ، وفى آية أخرى يقول تعالى : ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ[1] وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ .. (٦١) ﴾ [البقرة] ثم قال : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ ثم قال : ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ .. (٦١) ﴾ [البقرة]

ويخاطبهم الحق سبحانه فيقول : ﴿ لَقَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا[2] إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (١٨١) ﴾ [آل عمران]

ثم يقول : ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (١٨٢) ﴾ [آل عمران] فـ (ذلك) إشارة إلى عذاب الحريق ، والحق سبحانه لم يظلمهم ،

---

(١) الذِّلة : الصَّغار وهى ضد العزة . أما المسكنة فهى الفقر والحاجة مشتقة من السكون لأن الفقر يقلل حركة صاحبه . [التحرير والتنوير] وقال ابن عطية فى تفسيره [المحرر الوجيز ١/٨٨] : الذلة : فعلة من الذل كأنها الهيئة والحال . والمسكنة من المسكين . قال الزجاج : « هى مأخوذة من السكون وهى هنا زى الفقر وخضوعه ، وإن وجد يهودى غنى فلا يخلو من زى الفقر ومهانته » .

(٢) عن ابن عباس قال : (دخل أبو بكر الصديق بيت المدراس فوجد يهود قد اجتمعوا إلى رجل منهم يقال له فنحاص وكان من علمائهم وأحبارهم فقال أبو بكر : ويلك يا فنحاص اتق الله وأسلم فوالله إنك لتعلم أن محمداً رسول الله تجدونه مكتوباً عندكم فى التوراة فقال فنحاص : والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله من فقر وإنه إلينا لفقير وما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا وإنّا عنه لأغنياء ولو كان غنياً عنا ما استقرض منا كما يزعم صاحبكم ينهاكم عن الربا ويعطينا ولو كان غنياً عنا ما أعطانا الربا. فغضب أبو بكر فضرب وجه فنحاص ضربة شديدة وقال : والذى نفسى بيده لولا العهد الذى بيننا وبينك لضربت عنقك يا عدو الله ، فذهب فنحاص إلى رسول الله ﷺ فقال : يا محمد انظر ما صنع صاحبك بى فقال رسول الله ﷺ لأبى بكر : ما حملك على ما صنعت ؟ قال : يا رسول الله قال قولاً عظيماً : يزعم أن الله فقير وأنهم عنه أغنياء ، فلما قال ذلك غضبت لله مما قال فضربت وجهه، فجحد فنحاص (أي أنكر) فقال : ما قلت ذلك ، فأنزل الله فيما قال فنحاص تصديقاً لأبى بكر ﴿ لَقَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ (١٨٢) ﴾ [آل عمران] الآية ، ونزل فى أبى بكر وما بلغه فى ذلك من الغضب ﴿ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا.. (١٨٦) ﴾ [آل عمران] ذكره السيوطى فى الدر المنثور فى التفسير بالمأثور ، وعزاه لابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم من طريق عكرمة عن ابن عباس .

لكنهم هم الذين ظلموا أنفسهم .

والقضية العامة فى الإسلام أن الله ليس بظلام للعبيد ، ويقول تعالى : ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ .. (٤٠)﴾ [العنكبوت] وهذا دليلٌ على أنَّ الحق سبحانه وتعالى يحاسبهم على قدر استيعابهم للمعجزة .

فالمعنى أنه لا ينبغى لله تعالى أنْ يظلمهم ، فساعة تسمع ما كان لك أنْ تفعل كذا ، فالمعنى أنك تقدر على هذا ، لكن لا يصح منك ، فالحق سبحانه ينفى الظلم عن نفسه ، لا لأنه لا يقدر عليه ، إنما لا ينبغى له أنْ يظلم ، لأن الظلم يعنى أنْ تأخذ حق الغير ، والله سبحانه مالك كل شيء، فلماذا يظلم إذن؟

﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللهُ وَلَـٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٣٣) ﴾ [النحل] فالحق سبحانه لم يظلمهم حين قدَّر أنْ يُجازيهم بكذا وكذا .

ونحن لم نعاقبهم دون إنذار ودون أنْ نُجرّم هذا الفعل ، لأنك لا تعاقب شخصاً على ذنب إلا إذا كنتَ قد نبّهته إليه ، وعرَّفته بعقوبته ، فإنْ عاقبته دون علمه بأنَّ هذا ذنب وهذه جريمة فقد ظلمته ، لذلك فأهلُ القانون يقولون: لا عقوبةَ إلا بتجريم ولا تجريمَ إلا بنصٍّ .

وقد جاءكم النصّ الذى يُبيِّن لكم ويُجرّم هذا الفعل ، وقد أبلغتكم الرسل وسبق إليكم الإنذار ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولا .. (١٥) ﴾ [الإسراء]

وهذه السببية تؤكد ما سبق أنْ قلناه فى قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ .. (٢) ﴾ [التغابن] ، فالله لم يجبرك على إيمان أو على كفر ، بل الأمر اختيارٌ منك تُصدِّقه أعمالك وأقوالك .

فالحق سبحانه خلقنا ولنا اختيارٌ فى أنْ نأتيه أو لا نأتيه ، فى أنْ نطيعه

أو نعصيه ، فى أنْ نؤمن به أو لا نؤمن به ، فالحق سبحانه أعطى الناسَ ذاتيةَ الاختيار فى الدنيا ، ولم يختاروا قهراً عن الله (حاشاه) سبحانه ، بل اختاروا عدم الإيمان بمشيئة الاختيار التى أعطاها الله لهم .

فالحقُّ سبحانه لو كان قهرهم على اختيارهم هذا ، فلِمَ يُعذِّبهم فهم محقِّقون لإرادته سبحانه فيهم .

والحق سبحانه خلقنا مختارين ولم يخلقْنا مقهورين ، وجعل لنا طاقة تستطيع أنْ تعصى وأنْ تطيع ، وما دام هناك اختيارٌ فالإنسانُ يختار هذه أو تلك .

فليس للبشر على الله حجة ، خلقهم مختارين وأرسل إليهم الرسل ليبشرهم إنْ هم أطاعوا . ولينذرهم عذاب الله إنْ عصوا ، بعث إليهم الرسل هُداةً لهم يهدونهم طريق الحق .

وقبل أنْ نتحدث عن إتيان الرسل إليهم وبأيِّ شيء أتوهم ، من الضرورى أن نقول إن هذه الآية قاطعةٌ لحجة الذين كفروا يوم القيامة الذى أسماه الله عز وجل هنا (يوم التغابن) .

ويوم التغابن هو يوم التظالم ، وسُمى يوم القيامة يوم التغابن لأنه غبن فيه أهلُ الجنة أهلَ النار ، أى : أن أهل الجنة أخذوا الجنة وأخذ أهل النار النارَ على طريق المبادلة .

فوقع الغبْن لأَجل مبادلتهم الخير بالشر ، والجيد بالردىء ، والنعيم بالعذاب ، وهذا مثل أننا نقول لك : لقد غبنتَ فلاناً إذا بايعته أو شاريته ، فكان النقصُ عليه والغلبة لك .

ولا شكّ أن مَنْ غُبن سيكون ألمه شديداً وحُزنه عظيماً ، فما بالك بمَنْ يشعر

بهذا يوم القيامة ، ففى الدنيا قد يقول أحدٌ لنفسه : يومٌ لك ويوم عليك ، أما فى الآخرة فهو التغابن الذى لا جبرانَ لنهايته .

ولكن على الكافر الذى خلق الله له مكاناً فى الجنة وخسره بكفره وذهب إلى مؤمن آمن بالله أنْ يُدرك أنْ هذا كان بسببه هو ، لا بسبب أحد آخر ، فهو الذى كفر وتنكَّب الطريق ورفض الإيمان وعاند فطرته التى خلقه الله عليها .

ونحن نعلم أن الحق سبحانه قال : ﴿ أُولَـٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (١٠) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١١) ﴾ [المؤمنون]

فساعةَ تقرأ هذه الآية الكريمة تعرف أنَّ الله سبحانه سيجعلك فى الجنة تأخذ ما كان لغيرك لو كان قد آمن ، فالميراث يأتيك من غيرك .

وقد سبق علمُ الله سبحانه خلْقَ الناسِ جميعاً ، وقبل أنْ يخلق أعدّ لكلِّ خَلْقه مقعداً فى النار ومقعداً فى الجنة ، فالذين سيدخلون النار خالدين فيها مقاعدهم فى الجنة ستكون خالية ، فيأتى الله سبحانه يعطيها للمؤمنين ليرثوها فوق مقاعدهم ومنازلهم فى الجنة .

وقد قال رسول الله ﷺ : « ما منكم من أحد إلا وله منزلان : منزلٌ فى الجنة، ومنزلٌ فى النار ، وإنْ مات ودخل النارَ ورث أهلُ الجنة منزله »[1] .

والكافر فقد مكانه فى الجنة بسبب منه ويظلم منه هو لنفسه ، لم يظلمه أحد ، وإنْ كان قد وقع عليه غبن فهو الذى أوقعه بنفسه ، فقوله سبحانه هنا (ذلك) تسبيبٌ لوقوع العذاب بالكافرين فى الدنيا ويوم القيامة ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٥) ﴾ [التغابن]

---

(١) أخرجه ابن ماجه فى سننه (٤٣٤١) والبيهقى فى كتابه (البعث والنشور) (١/١٥١) قال الألبانى فى السلسلة الضعيفة أنه مخرج فى الصحيحة (٢٢٧٩) .

ثم يُفصِّل الحق سبحانه الأمر فيقول : ﴿ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ .. (٦) ﴾[التغابن]

وإذا كان الحقُّ سبحانه هنا قد أجمل الأقوام الذين أتتهم رسلهم بقوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ .. (٥) ﴾ [التغابن] فإنه سبحانه يذكرهم بالتفصيل فى قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ(١) أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٧٠) ﴾ [التوبة]

فقوم نوح وقوم إبراهيم وغيرهم أتتهم رسالات السماء ولم تأتهم الرسالةُ كمنهج فقط ، بل جاءتْهم معجزات تثبت صدق بلاغ الرسل عن ربهم ، فكأنه لا حجةَ لهم أنْ ينصرفوا عن منهج السماء أو أنْ يُكذِّبوا به ، لأن كلَّ منهج مُؤيّد بمعجزة تثبت صدق الرسول فى رسالته .

وقد تتابع هؤلاء الرسل على البشر ليهدوهم إلى منهج السماء ، ويُبيِّنوا لهم طريق الحق .

وفى آية أخرى يقول تعالى : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٩) ﴾ [إبراهيم]

فالرسل حملوا لأقوامهم منهج الله ، فجاءوا أقوامهم برسالات ربهم ، ولكن ردَّ فعل أقوامهم أنْ ﴿ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ .. (٩) ﴾ [إبراهيم]

---

(١) المؤتفكات : جمع مؤتفكة وهى قرى لوط ، ائتفكت بهم الأرض أى انقلبت [تفسير زاد المسير لابن الجوزى ٣/٢٠٢] . وقال أبو بكر الجزائرى فى [أيسر التفاسير ٢/٨٩] أى المنقلبات حيث صار عاليها سافلها وهى ثلاث مدن . ولفظ مؤتفكات يعبر تماماً عما حدث لهذه القرى وهو من إعجاز القرآن ، فقد أثبتت الأبحاث الآثارية والجيولوجيةالمستمرة أن طبقات الأرض للمنطقة حول مدينة سدوم مرتبة بشكل معين معاكس للطبقات التى تحويها المنطقة المحيطة بقرية سدوم وتسلسل معاكس تماماً .

فالكافرون وضعوا أيديهم على أفواههم كأنهم يقولون للرسل : اصمتوا ولا تتكلموا بما جئتم به من بلاغ ، أو أن بعضهم قال للرسل : لا فائدة من كلامكم فى هؤلاء .

وهم هنا يعلنون كفرهم صراحةً : ﴿ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ .. (٩) ﴾ [إبراهيم] فيعلنون إنكارهم ، ولكنهم أرادوا أنْ يكونوا منطقيين مع أنفسهم ، وكأن هناك استعداداً عندهم للإيمان ولكنهم فى شكٍّ وارتياب مما أتتْهم رسلهم ، وكأنهم مستعدون لإزالة هذا الشك .

فقالوا : ﴿ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٩) ﴾ [إبراهيم] ، أما الآية التى معنا هنا فى سورة التغابن فيقولون ﴿ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا .. (٦) ﴾ [التغابن]

فهم يُعلِّقون كفرهم على سبب آخر غير الشك فى المنهج ، وهو مجرد (تماحيك) ومبررات لا أساسَ لها فيقولون : ﴿ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا .. (٦) ﴾ [التغابن] فهم مثلنا وليسوا أفضلَ منا ، فكيف يهدوننا ؟ وهل الرسول يهديكم ببشريته أم بشيء جاءه من أعلى ؟ هل المنهج الذى أتى به جاء من عنده ؟

فأيّ رسول هو مبلّغ عن الله ، وأرسل اللهُ عز وجل بشراً رجالاً ، فقال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ .. (١٠٩) ﴾ [يوسف] فالله اختارهم بشراً .

وقد كانت هذه حجةً يحتجُّ بها الكافرون على عدم إيمانهم ، قال تعالى : ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللهُ بَشَرًا رَسُولًا (٩٤) ﴾ [الإسراء] ، فهم كانوا يطلبون رسلاً من غير البشر .

ولماذا يرسل اللهُ ملائكةً إلى البشر ، فلو كان سكانُ الأرض ملائكةً لأرسل إليهم رسلاً ملائكة مثلاً ، ولكنّ البشر هم مَنْ يسكنون الأرضَ فكان المناسب

لهم أنْ يرسل لهم بشراً منهم ومن أوسطهم .

لذلك قال تعالى : ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا (٩٥) ﴾ [الإسراء]

حتى أن جبريل عليه السلام لما جاء لرسول الله يسأله : ما الإسلام ؟ ما الإيمان ؟ ما الإحسان ؟ لم يأتِ كملَك بل جاء فى صورة رجل ، وبعد أنْ أدَّى مهمته انصرف دون أنْ يشعر به أحد ، فلما سألوا عنه قال لهم رسول الله ﷺ : « إنه جبريل أتاكم ليعلمكم أمور دينكم »[1] .

وأحد مَنْ حضروا هذه الواقعة هو عمر بن الخطاب قال : بينما نحن عند رسول الله ذات يوم إذ طلع علينا رجلٌ شديدُ بياضِ الثياب ، شديدُ سوادِ الشعر، لا يُرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد ، حتى جلس إلى النبى ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ، ووضع كفَّيه على فخذيه » .

ونلاحظ فى حديث رسول الله أن عمر رضى الله عنه قال : طلع علينا رجل شديد بياض الثياب . أى أن ثيابه لم تتسخ ولم يُعفرها تراب الصحراء ، وأكد الفاروق عمر هذا فقال : « لا يُرى عليه أثر السفر » .

والمهم أنه « لا يعرفه منّا أحد » . إذن : فهو ليس بشراً بل مَلَك ظهر فجأة بينهم فى صورة بشرية على هيئة رجل .

لذلك قال تعالى : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ (٩) ﴾ [الأنعام] إنهم طلبوا أنْ ينزل الله عليهم ملكاً ، ولو استجاب الله لهم

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٠ ، ٤٧٧٧) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٠٦ ، ١٠٨) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال : كان النبى ﷺ بارزاً يوماً للناس فأتاه جبريل فقال: ما الإيمان ؟ ما الإسلام ؟ ما الإحسان ؟ ورسول الله يجيبه ، ثم أدبر جبريل فقال ﷺ : ردوه فلم يروا شيئاً فقال : « هذا جبريل جاء ليعلِّم الناس دينهم » .

وأرسل رسوله ملكاً لتجسد الملَك فى صورة بشرية ، وهم من بعد ذلك قد يستمرون على الكفر ويعاندون ولا يؤمنون .

إذن : فلو أراد الله أنْ يبعث رسولاً من الملائكة لجعله على هيئة البشر لعدم استطاعتهم معاينةَ الملَك على صورته الأصلية وقد يهلكون عند رؤيته .

حتى أن إبراهيم عليه السلام فزع من الملائكة الذين جاءوه فى صورة بشر ، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ[1] حَنِيذٍ (٦٩) فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ[2] مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ (٧٠) ﴾ [هود]

وكذلك الصبية مريم ابنة عمران فزعت من جبريل روح القدس حينما جاءها على هيئة بشر وهى فى المحراب تتعبد ، قال تعالى : ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ[3] مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا (١٦) فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (١٧) قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا (١٨) ﴾ [مريم]

ورغم أنه تمثَّل لها فى صورة بشرية لتأنس به ولا تفزع إنْ رأته على صورته الملائكية فى صورة سوية أى سوى الخِلْقة والتكوين ، وسيماً قد

---

(١) فى الحنيذ ستة أقوال :
أحدها : أنه النضيج . قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة .
والثانى : أنه الذى يقطر ماؤه ودسمه وقد شوى . قاله شمر بن عطية .
و الثالث : أنه ما حفرت الأرض ثم غممته وهو من فعل أهل البادية . قاله الفراء .
والرابع : أنه المشوى . قاله أبو عبيدة . والخامس : المشوى بالحجارة المحماة .
والسادس : السميط ذكره الزجاج . [ابن الجوزى فى زاد المسير ٣/٣٥٨] .

(٢) أوجس منهم خيفة . أى : أضمر فى نفسه خوفاً . وكانت سنة فى زمانهم إذا ورد عليهم القوم فأتوهم بالطعام فلم يمسوه ظنوا أنهم عدو أو لصوص . قاله الفراء .

(٣) انتبذت : انفردت من أهلها . ذكره ابن جرير الطبرى . وقال القرطبى : تنحت وتباعدت . وقال ابن قتيبة: اعتزلت . والمعانى متقاربة . [فتح القدير للشوكانى ٤/٤٤٧] .

انسجمتْ أعضاؤه وتناسقتْ على أجمل ما يكون البشر ، فلا يعيبه كِبَر جبهته أو أنفه أو فمه .

رغم هذا فإنها فزعتْ وارتعبت فقالت : ﴿ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَـٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا (١٨) ﴾ [مريم] أى : ألجأ وأعتصم بالله منك لأننى أخاف أنْ تفتك بى أو تعتدى عليَّ وأنا ضعيفة فأستعيذ به منك .

لذلك أرسل الله بشراً كرسل للبشر لا ملائكة ، وأرسلهم بآيات ومعجزات تؤيد إرسال الله لهم ، فقال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ .. (٦) ﴾ [التغابن]

أى : جاءوا بالآيات الواضحة الدلالة على المراد ، والآيات قد تكون لفتاً للآيات الكونية ، وقد تكون المعجزات الدالة على صدقهم ، وجاء كلُّ رسول إلى قومه بالبينات ، أى بالآيات الواضحات الدالة على صِدْق بلاغهم عن الله تعالى .

فالبينات إمَّا أنْ تكون المعجزات الدالة على صدقهم ، أو هى الآيات المشتملة على الأحكام الواضحة التى تنظم حركة حياتهم لتسعدهم .

وأصْل البينات أنها هى الأمر البيِّن الواضح الذى لا يشكّ فيه أحد ، ومع ذلك لم يؤمنوا وكذَّبوا .

وكلُّ الرسل جاءوا أقوامهم بالبينات ، قال تعالى : ﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ[1] وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ (١٨٤) ﴾ [آل عمران]

فموسى جاء قومه بالبينات ، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ

(١) الزبر : جمع زبور وهو الكتاب . وكل كتاب فهو زبور . [الطبرى ٧/٤٥١] وقال البغوى : أى الكتب المزبورة . يعنى المكتوبة . واحدها زبور مثل : رسول ورُسُل . قال رشيد رضا فى تفسير المنار (٤/٢٢٠) : « أصل معنى الزبْر القطع . ومنه زبر الحديد قطعه ، ويوشك أن تكون الزبر هنا المواعظ» أو الزبر صحف الأنبياء والكتاب المنير الإنجيل . وقال ابن الجوزى فى (زاد المسير ١/٤٦٧) : « الزبور : كل كتاب ذى حكمة » .

اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (٩٢) ﴾ [البقرة]

وقال : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ[١] بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا (١٠١) ﴾ [الإسراء]

وهي الآيات التي أُرسل بها موسى إلى فرعون وقومه وهي : العصا التي انقلبت حية ، واليد التي أخرجها من جيبه بيضاء منورة ، وأخْذ آل فرعون بالسنين ونقص من الأموال والأنفس والثمرات ، ثم لما كذّبوا أنزل الله عليهم الطوفان والجراد والقُمَّل والضفادع والدم .

وآيات أخرى كانت خاصة ببني إسرائيل كضرب الحجر بالعصا فانفجرتْ من الحجر اثنتا عشرة عيناً[٢] ، ونتق الجبل فوقهم كأنه ظلة ، وإنزل المنّ والسلوى عليهم .

ولكنهم كفروا وتولوا ، قال تعالى : ﴿ فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا .. (٦) ﴾ [التغابن] وهذا حدث من قوم هود وقوم نوح وقوم صالح وقوم شعيب وقوم لوط وغيرهم ، والتولّي هو الإعراض مع تعمد الإعراض وعدم الإيمان بما جاءهم به رسولهم بالبينات . فأعرضوا وصدوا .

وعلى أمة محمد ﷺ أن لا تتشبه بهؤلاء المتولِّين المعرضين ، لذلك قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ (٢٠) ﴾ [الأنفال]

فإنْ تولَّوا عنك فأبلغهم أنك تخاف عليهم من عذاب اليوم الآخر ، وأنني

---

(١) الآيات التسع هي : بياض يده كلما أدخلها في جيبه وأخرجها . وانقلاب العصا حية ، والطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم . والرجز وهو الدمل ، والقحط وهو السنون ونقص الثمرات .

(٢) قال ابن عطية : لا خلاف أنه كان حجراً مربعاً يخرج من كل جهة ثلاث عيون إذا ضربه موسى سالت العيون وإذا استغنت عن الماء جفت . [فتح القدير للشوكاني ١/١٠٩] . وعيون موسى الاثنى عشر تقع على بُعد ٦٠ كم جنوبي نفق الشهيد أحمد حمدي (أسفل قناة السويس) ولها فوائد صحية عديدة حيث تعالج بعض الأمراض الجلدية والروماتيزم وتفيد أيضاً الجهاز الهضمي .

﴿ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ .. (٥٧) ﴾ [هود]

وإنْ (تولَّوا) فقد أبلغتُكم المنهج الذى أُرسلتُ به إليكم ، ولا عُذْرَ لكم عندى ، لأن الحق سبحانه لا يعذب قوماً وهم غافلون .

وقد أخذ التولِّى والإعراض عند الأقوام السابقين صوراً كثيرة ، منها ما حدث مع نوح عليه السلام : ﴿ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ (١) فِى آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (٧) ﴾ [نوح]

إنهم جعلوا أنامل أصابعهم فى آذانهم حتى لا يسمعوا أيَّ دعوة ، بل إنهم غطُّوا رؤوسهم وآذانهم بثيابهم كراهية لمنهج الله وكراهية لدعوة التوحيد التى جاءهم بها نوح عليه السلام ، فصمُّوا آذانهم .

ومنهم اليهود الذين قالوا ﴿ قُلُوبُنَا غُلْفٌ .. (٨٨) ﴾ [البقرة] أى : أن قلوبهم مغلَّفة مغطاة أى جُعل عليها غلاف ، بحيث لا يخرج منها ما فيها ، ولا يدخل فيها ما هو خارجٌ عنها .

ومن هؤلاء أيضاً قومُ شعيب الذين قالوا : ﴿ يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ .. (٩١) ﴾ [هود] وهذا فى حقيقة الأمر إعراض عن الفهم رغم أنهم يفقهون ويفهمون ما يقول شعيب .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَاسْتَغْنَى اللَّهُ .. (٦) ﴾ [التغابن] فالله لن يزيده إيمانُ أحد شيئاً ، ولن ينقصه كفرُ العالمين شيئاً مما له سبحانه من كمالات الصفات وألوهيته وربوبيته سبحانه .

---

(١) جعلوا أصابعهم فى آذانهم : من البداهة أن الأصبع لا تدخل كلها إلى الأذن . إنما الأنملة تسد فقط فتحة السمع . فهو مجاز مرسل إذ المراد رؤوس أصابعهم من إطلاق الكل وإرادة الجزء . [التفسير المنير للزحيلى] ؛ وإنما جاء التعبير بالأصابع إظهاراً لشدة إدخال الأنامل إمعاناً فى الغلق .

فـالله سبحانـه غنيٌّ عـن العالمين ، فـإنْ أعرضـ بعضُ خَلْقه عـن الإيمان واستغنـوا واختـاروا الكفر ، فإنَّ الله يساعده على هذا الاستغناء ولا يعينه على أنْ يكون مؤمناً .

فالخالق جَلَّ جلاله أغنى الشركاء عن الشرك ، ومَنْ أشرك به فهو غنيٌّ عنه ، لذلك عاتب اللهُ رسوله فقال : ﴿ أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى (٥) فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى (٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى (٧) ﴾ [عبس]

فهـذا قد استغنى عن الإيمـان بالله وبمحمد ﷺ وعن منهجه الربانى بمنهج الجاهلية الشهوانى المتمثل فى الجاه والسيطرة والنفوذ والقوة .

فأنـت تتصدى وتحرص على مـن استغنى عن الإيمان ، فلماذا تحرص على مَن استغنى ، فمَنِ استغنى استغنى اللهُ عنه .

وقد روى أنس بن مالك رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يعظ أصحابه، فإذا ثلاثةُ نفر يمرُّون ، فجاء أحدهم فجلس إلى النبى ، ومضى الثانى قليلاً ثم جلس ، ومضى الثالث على وجهه .

فقال رسول الله : « ألاَ أُنبئكم بهؤلاء الثلاثة ؟ أما الذى جاء فجلس إلينا فإنه تاب فتاب الله عليه .

وأما الذى مضى قليلاً ثم جلس فإنه استحيا، فاستحيا الله منه .

وأما الذى مضى على وجهه فإنه استغنى فاستغنى الله عنه »[١] .

---

(١) أخرجه البزار فى مسنده (٧٢٤٣) عن أنس بن مالك ، وأصله فى صحيح البخارى (٦٦ ، ٤٧٤) وكذا مسلم فى صحيحه (٥٨١٠) من حديث أبى واقد الليثى أن رسول الله ﷺ بينما هو جالس فى المسجد والناس معه إذ أقبل نفر ثلاثة فأقبل اثنان إلى رسول الله وذهب واحد . فوقفا على رسول الله فأما أحدهما فرأى فرجة فى الحلقة فجلس فيها ، وأما الآخر فجلس خلفهم ، وأما الثالث فأدبر ذاهباً ، فلما فرغ رسول الله ﷺ قال : « ألا أخبركم عن النفر الثلاثة ، أما أحدهم فأوى إلى الله فآواه الله ، وأما الآخر فاستحيا فاستحيا الله منه ، وأما الآخر فأعرض فأعرض الله عنه » .

﴿ وَاللهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (٦) ﴾ [التغابن] فهو سبحانه الغنى الحميد أى المحمود فى غِنَاه عن خَلْقه ، فغناه لا يعود عليه سبحانه بمنفعة ، بل المنفعة عائدة إلى العبد ؛ ولا يكون الغنيُّ محموداً إلا إذا كان غيرُ الغنى مستفيداً من غِنَاه .

فمنفعة الإيمان إنما تعود على مَنْ آمن ، يقول تعالى : ﴿ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (١٢) ﴾ [لقمان]

فسبحانه هو الغنيُّ عن العباد : ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ .. (٢٩) ﴾ [الكهف]

ويقول سبحانه : ﴿ وَاللهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ (٣٨) ﴾ [محمد] فإنْ أعرض أناسٌ عن منهج الله ، فالله يستبدل بهم غيرهم .

فالمنهج الذى نزل على الخَلْق أنزله الحقُّ سبحانه لصلاح العباد ، وهو سبحانه خلق أولاً بكلِّ صفات الكمال فيه ، ولن يزيده العباد وصفاً من الأوصاف ، ولن يسلبه أحدٌ وصفاً من الأوصاف .

وهو سبحانه الحميد فى ذاته ، فسواء حمدته أم لم تحمده فهو الحميد ، فالحميد الذى يستحق الحمد ، وإنْ لم يوجد له حامد ، فصفاته سبحانه أزلية ، وحميد فعيل بمعنى محمود .

فالله غنى عن جميع خَلْقه ، محمود عند جميعهم بجميل أياديه عندهم ، وكريم فعاله فيهم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ (٧) ﴾

تكبَّر الذين كفروا من الأقوام السابقة عن أنْ يتبعوا أو يعترفوا بالرسل الذين أرسلهم الله تعالى ، واستبعدوا أنْ يرسل الله إليهم بشراً يهدونهم طريقَ الهداية.

وهذا استعلاء واستكبار منهم وحسد من نفوسهم لمن أرسلهم الله ، قال تعالى عنهم أنهم قالوا : ﴿ أَؤُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا .. (٨) ﴾ [ص]

فبعد أنْ كانوا يعترضون على بشرية الرسول ويطلبون أنْ يكون الرسولُ ملكاً ، الآن يتنازلون عن هذا المبدأ ويتحولون إلى الذات فقالوا : ﴿ أَؤُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا .. (٨) ﴾ [ص]

ويقولون في موضع آخر : ﴿ أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ (١) (٢٥) سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ (٢٦) ﴾ [القمر]

فكلّها مزاعم يزعمونها، والحقيقة سيعلمونها غداً عندما يجمعهم الله ليعاقبهم ويُجازيهم على كفرهم بالله .

ومشكلة هؤلاء الكافرين وكل كافرين في أيّ زمن أنهم ينكرون البعث والحساب ، وأن هناك يوماً يُرجعون فيه إلى الله ، لأنهم يريدون أنْ يستمروا في شرورهم وتسلطهم على العباد ؛ فيفعلوا ما يشاؤون من مُوبقات دون رادع من رسول أو كتاب أو مبادىء أو أخلاق .

يقول الحق سبحانه عنهم ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا .. (٧) ﴾ [التغابن] والزعم هو القول المخالف للواقع ويقولون : الزعم مطية الكذب .

ويخاطبهم الحق سبحانه فيقول : ﴿ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا (٤٨) ﴾

---

(١) الأشر ، فيها قولان ذكرهما ابن الجوزى فى تفسيره (زاد المسير ٥/٤٥٤) الأول : أنه المرِح المتكبر. قاله ابن قتيبة . الثانى : البَطِر . قاله الزجاج . وقال السعدى فى تفسيره (تيسير الكريم الرحمن ١/٨٢٦) : أى كثير الكذب والشر .

[الكهف] والخطاب هنا مُوجّه للكفار الذين أنكروا البعث والحساب .

و ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا .. (٧) ﴾ [التغابن] أى : كذبوا فى ادعائهم أنه لا بعثَ ، وأنهم لا يُبعثون ولا يُحاسبون ، والزعم ناتج عن ظنونهم وأوهامهم التى ليس لها نصيبٌ من الواقع والحقيقة .

﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ .. (٢٤) ﴾ [الجاثية]

وأمنية الكافر والمسرف على نفسه ألاّ يكون هناك بعثٌ أو حساب ، والمسرف على نفسه إنما ينكر البعث لأنه لا يقدر على ضبْط نفسه ويظن أنه بإنكار البعث لن يلقى المصير الأسود الذى سيلقاه فى الآخرة .

لذلك تجدهم يُشكِّكون فى البعث ، وهم لا ينتبهون أنهم سواء شككوا فى البعث أم لم يُشكِّكوا فإنهم مبعوثون لا محالة ، فالذى خلقهم من العدم قادرٌ على إعادتهم وهو أهون عليه .

والذى خلقهم هو الذى أرسل لهم الرسل يُحذرهم يوم القيامة، وهو الذى أرسل إليهم الرسل بالكتب ، وهو الذى له مُلْك السماوات والأرض .

ولكن ماذا زعم الذين كفروا ، زعموا : ﴿ أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا .. (٧) ﴾ [التغابن] وقد حاول الكفار والملحدون وأصحاب الفلسفات المادية أنْ ينكروا قضية البعث، وهم فى هذا لم يأتوا بجديد ، بل جاءوا بالكلام نفسه الذى قاله أصحاب الجاهلية الأولى .

وكان مما قاله أصحابُ الجاهلية الأولى أنهم قالوا : ﴿ وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا (١)

---

(١) ضللنا فى الأرض : أى صارت عظامنا ولحومنا تراباً كالأرض . [زاد المسير لابن الجوزى ٥/١١٥] قال ابن كثير فى تفسيره (٦/٣٦٠) : « أى تمزقت أجسامنا وتفرقت فى أجزاء الأرض وذهبت» .

فِي الْأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ (١٠) ﴾ [السجدة]

والضلال يأتى على معَانٍ متعددة ، منها ما جاء هنا : ﴿ ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ .. (١٠) ﴾ [السجدة] بمعنى الذهاب والفناء فى الشيء ، لقد تساءل الكافرون: أبعد أنْ نذوب فى الأرض ونتحلل إلى عناصرنا الأولية نعود ثانية ونُبعث من جديد ؟

فهم كمنكرين للبعث يتساءلون باندهاش : أئذا غابوا فى الأرض واختلطوا بعناصرها ، أيمكن أنْ يبعثهم ربُّهم من جديد ؟ فهم لا يُصدِّقون أن الذى أنشأهم أول مرة قادر على أنْ يعيدهم مرة أخرى .

وقد قال الكافرون ما ذكره القرآن ﴿ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ (٣) ﴾ [ق] . لذلك ردَّ الله عليهم فقال : ﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٤) ﴾ [يونس]

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : جاء أُبىّ بن خلف الجمحى إلى رسول الله ﷺ بعظم نَخِر ، فقال : أتعدنا يا محمد إذا بليتْ عظامنا فكانت رميماً أن الله باعثنا خَلْقاً جديداً ، ثم جعل يفتّ العظم ويذرُّه فى الريح ، فيقول : يا محمد مَنْ يُحى هذا ؟

فقال رسول الله ﷺ : « نعم ، يُميتك الله ، ثم يُحييك ويجعلك فى جهنم »[1] .

---

(١) أورده السيوطى فى الدر المنثور وعزاه لابن مردويه عن ابن عباس . وأخرج عبد الرزاق فى مصنفه (١٠٠١) عن معمر عن الزهرى فى قوله ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَى .. (١٧) ﴾ [الأنفال] . قال : جاء أبى بن خلف الجمحى بعظم حائل فقال : الله يحى هذا يا محمد وهو رميم ؟ وهو يفت العظم فقال النبى ﷺ : يحييك ثم يبعثك ثم يدخلك النار ، فلما كان يوم أُحد قال : لئن رأيت محمداً لأقتلنه فبلغ ذلك النبى ﷺ فقال : بل أنا قاتله إن شاء الله .

ونـزل على رسـول الله ﷺ قوله تعـالى : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩) ﴾ [يس]

وأُبـيّ بن خلف كان عدواً لدوداً خَصْماً شديداً للإسلام، ومن هذا موقفه هنا أنـه يأتـى لرسول الله بعظـم نَخر بالٍ ويُفتتـه ويفركه بيديه أمـام رسول الله ، ويقـول: أتعدنـا يا محمـد إذا بليتْ عظامنا فكانـت رميمـاً أن الله باعثُنا خَلْقاً جديداً ، ثم جعل يفتُّ العظم ويذرُّه فى الريح ويقول : يا محمد مَنْ يحيى هذا ؟

ولشدتـه وجبروته وقوته أجابه رسول الله ﷺ بردٍّ قويٍّ شديد حاسم : « نعم يميتك الله ثم يحييك ويجعلك فى جهنم » .

هـذا الجبـار قال لرسـول الله ﷺ يوماً مـا وكانت عنده رمكـة[١] فقال لرسـول الله : هذه الرمكة أنا أعلفها كل يوم فِرْقاً[٢] من ذرة لأقتلك عليها ، فيقـول له رسول الله قوْلةَ الواثق مـن أن ربه لن يخذله : « بل أنا أقتلك إنْ شاء الله »[٣] .

هـذا الرجل الذى يتوعد رسول الله لم يلتقِ مع رسول الله وهو فى قوته لينفذ وعيـده ، ولكنه جـاء لرسول الله وهو فى هذا الموقف الـذى أثخنتْه فيه الجراح وكُسـرت رباعيته[٤] ودخلـتْ حَلْقتا المغفر فى وجنتيه وسـال دمه ، وبعد ذلك

---

(١) الرمكة : الفرس والبرذونة تُتخذ للنسل . [المغرب فى ترتيب المعرب – مادة : رمك] والفرس هى أنثى الحصان .

(٢) الفرق : الفِلق من الشيء إذا انفلق . والفرق : القطيع من الغنم . هذا فى أصله اللغوى . وقال ابن فارس فى مقاييس اللغة : مما شذ عن هذا الباب الفَرق : مكيال من المكاييل . ويقال إنه ستة عشر رطلاً أى حوالى ٦ كجم . [مقاييس اللغة ٤/٣٩٣] .

(٣) أورده البغوى فى تفسيره (٢/١١٤) وأخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٣/٢١١) .

(٤) رباعيته : هى الأسنان فى مقدم الفم . بين الثنايا والأنياب . والجمع رباعيات ، وهن أربع رباعيات بعد الثنايا من فوق واسفل .

يأتى إليه هذا الرجل أُبى بن خلف الجمحى وهو يقول : أين محمد ؟ لا نجوتُ إنْ نجا .

فأخذ رسولُ الله الحرْبة وهو مُنهك القوى ، وضرب أُبىّ بن خلف بها فنالتْ منه ، فسقط من على فرسه يخور كما يخور الثور ، فقال له أصحابه : لا بأسَ عليك يا أُبيّ .. ما أجزعك إنما هو خدش .

هذا الجبار قال لأصحابه : لا والله لقد علمتُ أنه يقتلنى لأنه قال لى بمكة : أنا قاتلك إنْ شاء الله ، فو الله لو بصق عليَّ لقتلنى ، فمات وهم قافلون به إلى مكة[1] .

الذى خلقنا من عدم كتب علينا الموت وأخبرنا بالغيب أننا سنُبعث يوم القيامة ، وسيُعاد هذا الخَلْق مرة أخرى ، فالذين لم يملكوا إنكار الخَلْق أنكروا البعث ، فقالوا كما حكى القرآن :

﴿ ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ (١) بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ (٢) أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ (٣) ﴾ [ق]

فاستبعدوا البعث بعد الموت وتحلُّل الأجساد فى التراب ، ولكن الله يحسم الأمر ، فيقول : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ (١٦) ﴾ [المؤمنون]

وإذا كان الحق سبحانه هو القائل : ﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا .. (٤) ﴾ [يونس]

فلا بد أنه الوعد الحقُّ لأنه سبحانه يملك ما يعد به ، وسبحانه مُنزَّه عن الكذب وعن الخديعة ، لأنه القائل : ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا (١٢٢) ﴾ [النساء]

---

(١) أورده القرطبى فى تفسيره (٧/٣٨٥) والسمرقندى فى بحر العلوم (١/٣١٨) ومحمد الطاهر التونسى فى (التحرير والتنوير ٢٥/٢٠) .

والحق سبحانه هنا كأنه يقول : إياكم أنْ تظنُّوا أنكم أخذتم الحياة وأفلتم بها وتمتعتم ثم ينتهى الأمر ، لا إن هناك بعثاً وحساباً ، ولماذا تستبعدون هذا، فهو سبحانه القائل : ﴿ إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ .. (٤) ﴾ [يونس] فالذى قدر على أنْ يخلق من عدم أيعجز أنْ يعيد من موجود ؟

وهو سبحانه القائل : ﴿ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا (٩) ﴾ [مريم] فإذا شاء سبحانه أنْ يعيدكم فلا تتساءلوا كيف ؟ لأن ذراتكم موجودة ، والحق سبحانه يقول : ﴿ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ (١٥) ﴾ [ق]

وهكذا يستدل الحق سبحانه بالخَلْق الأول على إمكان الخَلْق الثانى ، فإنْ كنتم تتعجبون من أنكم تعودون بعد أنْ أوجد الحق أجزاءكم وذراتكم ومواصفاتكم فانظروا إلى الخلق الأول ، فقد خلقكم من لا شيء ، أفيعجز أنْ يُعيدكم من شيء؟

وهم قد استهزءوا بالبعث والحساب وما ينتظرهم من العذاب ، فقالوا كما حكى القرآن: ﴿ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (١٦) أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ (١٧) ﴾ [الصافات]

ثم بلغ بهم الاستهزاء أنْ تعجّلوا العذاب فقالوا : ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧٠) ﴾ [الأعراف] ، وقالوا : ﴿ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا .. (٩٢) ﴾ [الإسراء]

وهل يطلب أحدٌ من عدوه أنْ يُنزل به العذاب إلا إذا كان مُستهزئاً ؟ إنهم يسخرون من فكرة أنهم بعد أنْ يضلُّوا فى الأرض فتأكل الأرضُ ذراتهم وتُغيِّبهم فى بطنها أن ذراتهم تعود مرة أخرى .

وتكذيبهم للبعث ليس للبعث فى حَدِّ ذاته ، إنما هو تكذيبٌ للقاء الله وللحساب، لكنهم ينكرون البعث لأنه يؤدى إلى لقاء الله ، وهم يكرهون لقاء الله فينكرون المسألة من بدايتها .

فهم عندما قالوا ﴿ أَئِذَا ضَلَلْنَا فِى الْأَرْضِ أَئِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ .. (١٠) ﴾ [السجدة] لم يكونوا صادقين فى تكذيبهم للبعث والحشر ، لذلك قال تعالى : ﴿ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ (١٠) ﴾ [السجدة]

و (بل) تفيد الإضراب عن كلامهم السابق وتقرير حقيقة أخرى ، وهى أنهم لا ينكرون البعث والحشر إلا خوفاً وفَرَقاً ورعباً من لقاء ربهم.

﴿ وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٤٩) ﴾ [الإسراء] والرفات هو الفُتات ومسحوق الشيء وهو التراب أو الحطام ، فالرفات هو الفتات وزناً ومعنى ، وهو الشيء الجاف المتكسِّر .

لذلك جاءت بالترتيب هكذا : عظاماً ورُفاتاً ، لأن جسم الإنسان يتحلّل وتمتصّ الأرض عناصر تكوينه ، ولا يبقى منه إلا العظام ، وبمرور الزمن تتكسَّر هذه العظام ، وتتفتّت وتصير رُفاتاً ، وهم يستبعدون البعث بعدما صاروا عظاماً ورفاتاً .

وقولهم ﴿ أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ .. (٤٩) ﴾ [الإسراء] الهمزة هنا استفهام يفيد الإنكار، فلماذا ينكر هؤلاء مسألة البعث بعد الموت ؟

نقول : الكافر عنده لدد فى ذات إيمانه ، ومن مصلحة آماله أنْ ينكر البعث، وهم يظنون أنهم على فرض أنه سيحدث فإنهم سيكونون فى الآخرة سادةً ، كما كانوا سادةً فى الدنيا .

ويقول الحق سبحانه : ﴿ وَضَرَبَ (١) لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩) ﴾ [يس]

ومن الكافرين مَنْ قال : سنصير تراباً ثم نختلط بالتربة ويتم زراعة هذه التربة ، فتمتزج عناصرنا بما تُنبته الأرض من فواكه وخضر وأشجار ، ثم يأكل طفلٌ من الثمرة التى تغذَّتْ بعناصرنا ، فيصير بعضٌ منّا فى مكوِّنات هذا الطفل ، والقياس يوضح أننا سوف نتناثر فكيف يأتى بنا الله ؟ وكيف يُنشئنا من جديد ؟

والحق سبحانه يحسم الأمر ، فيقول : ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ..(٧٩) ﴾ [يس] فلو تذكر الإنسان خَلْقه الأول ما ضرب لنا هذا المثل . قُلْ لهم يا محمد : يُحييها الذى أنشأها أول مرة ، فقد خلقها من عدم .

ولذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٧) ﴾ [الروم]

إن الله سبحانه وتعالى قادرٌ على أنْ يبدأ الخَلْق على غير مثال ، ثم يُعيده بعد الموت ، وإعادته أهون عليه من ابتدائه بالنظر إلى مقاييس اعتقاد مَنْ يظن أن إعادة الشيء أسهلُ من ابتدائه ، فالله له مطلقُ القدرة فى خَلْقه ، وهو الغالب فى مُلْكه ، وهو الحكيم فى فعله وتقديره .

إن الذى يعيد إنما يعيد من موجود ، أما الذى بدأ فمن معدوم فالأهون هو الإعادة ، أما الابتداء فهو ابتداء من معدوم .

---

(١) الذى ضرب المثل لرسول الله وأتى بعظم نخر فقال : أتعدنا يا محمد إذا بليت عظامنا فكانت رميماً أن الله باعثنا خلقاً جديداً ثم جعل يفت العظم ويذره فى الريح ، هو أبى بن خلف . [أخرجه ابن مردويه وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر] . وذكر ابن مردويه رواية أخرى أنه أبو جهل بن هشام .

ويُوجِّـه الحـق سبحانه رسوله محمداً ﷺ ، فيقول : ﴿ قُلْ بَلَى وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ .. (٧) ﴾ [التغابن]

يعنى : قل بملء فيك (بلى) و (بلى) نفى للنفى السابق فى قولهم ﴿ أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا .. (٧) ﴾ [التغابن] وحين ننقض النفى فإننا نثبت المقابل له ، فمعنى (بلى) أنهم سيُبعثون .

ثم لا يكتفى الأسلوب بذلك ، إنما يؤكد هذه القضية بالقسم ، فالحق سبحانه يعلّم رسوله أنْ يحلف بذاته سبحانه وهو مطمئن أنهم سيُبعثون وسيُحشرون، والحق سبحانه لا يُلقّن رسوله يميناً كاذباً والحق سبحانه صادق دون حلِف ، فما بالك حين يحلف لك ؟

وكلمة (بلى) هى حرف جواب مثل نعم تماماً ، ولكن (بلى) حرف جواب فى النفى ، يعنى ينفى الذى قبله ، وهناك أمثلة قرآنية كثيرة لاستخدام هذا الأسلوب .

منها ما قاله أهل الكتاب : ﴿ وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً .. (٨٠) ﴾ [البقرة] ثم جاء الجواب بعدها ﴿ بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٨١) ﴾ [البقرة]

فجاءت (بلى) لتنفى ما سبق من اعتقادهم أن النار لن تمسهم إلا أياماً معدودة ، ثم أكدت أن النارَ مصيرُ مَنْ أحاطتْ به خطيئته واستمرأ عصيان الله والتمرد عليه سبحانه .

ومثلها قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى .. (١١١) ﴾ [البقرة] ثم قال : ﴿ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١١٢) ﴾ [البقرة]

فعندما يقول سبحانه (بلى) ، فهو سبحانه ينفى ما يقولونه وأن كلامهم غير صحيح ، وأنه سيدخلها غير هؤلاء .

فساعةَ تأتى قضيةٌ منفية ، ثم يأتى بعدها كلمة (بلى) فإنها تنقض القضية التى سبقتْها ، ومعنى ذلك أنها تثبت ضدها .

والغريب أن الكافرين يؤكدون أنه لا بعثَ ولا حشرَ ولا حساب وكأنهم أخذوا عهداً بذلك ، ممَّنْ ؟ لا أحدَ يعرف ، ولكن الله قال عن هذا : ﴿ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ .. (١١١) ﴾ [البقرة] ، والأمانى هى مطامع الحمقى لأنها لا تتحقق ، وهى أن تُعلِّق نفسك بأمنية ، وليس لهذه الأُمنية سندٌ من الواقع يُوصِّلك إلى تحقيق أمنيتك .

ويقول الحق سبحانه عنهم : ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ .. (٣٨) ﴾ [النحل] أى : أقسموا مبالغين فى اليمين مُؤكدينه ، فيرد عليهم الحق سبحانه : ﴿ بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا .. (٣٨) ﴾ [النحل]

﴿ قُلْ بَلَى وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ .. (٧) ﴾ [التغابن] ورغم أن مسألة البعث لا تحتاج إلى تأكيد ، إلا أن الحق سبحانه هنا أكَّد بعثَ الناس بعد الموت فى يوم يعلمه الله ، فاستخدم الحقّ سبحانه (اللام) ثم (النون) المؤكدة بعد (تُبعثُ) .

﴿ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ .. (٧) ﴾ [التغابن] فأنتم لن تُبعثوا فقط ، بل سننبئكم بما عملتم فى فترة حياتكم فى الدنيا إنْ خيراً فخير ، وإنْ شراً فشرّ .

وكلمة (تُنبؤن) من النبأ ، ولا يُطلق النبأ إلا على الخبر الهام ، وليس مطلق الخبر ، فالنبأ خبر عجيب وهام وعظيم ، فإخبارهم بما عملوا بعد بعثهم وفى هذا الموقف هو نبأٌ عجيب وهام بالنسبة لهم ، لأنهم كانوا يستبعدون هذا اليوم ويستبعدون أنْ يكون ما أخبرهم به الرسل حقاً ، فإذا بهم يُبعثون .

وليس هذا فقط، بل سيُنبئهم الله بما عملوا، أى يخبرهم إخباراً يزلزل كيانهم، فعن هؤلاء يقول: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ [1] يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩) ﴾ [النور]

فالكافر سيُفاجأ فى الآخرة بالله الذى لم يكُنْ فى باله أنه سيحاسبه على ما فعل، إنه يُفاجأ بوجود الله، ولم يكُنْ هذا الإله فى باله ساعة أنْ قام بهذا العمل.

وهم يعلمون أنْ لو كان هناك بعث وحساب سيُجازون بما عملوا، وهذه مسألة صعبة عليهم، ومن مصلحتهم أنْ تكون الآخرة كذباً.

وصدق أبو العلاء المعري[2] حين قال:

زَعَمَ المنجِّمُ وَالطَّبِيبُ كِلاَهُمَا ... لاَ تُحْشَرُ الأَجْسَادُ قُلْتُ إليكُمَا

إنْ صَحَّ قَوْلُكُمَا فَلسْتُ بخَاسِرٍ ... أَوْ صَحَّ قَوْلِى فَالخسَارُ عَلَيْكُمَا

أى: أن المؤمن بالبعث إنْ لم يكسب فلن يخسر، أما أنتم أيها المنكرون فخاسرون، فكُلُّ مكذِّب بالآخرة خاسر، والنفس البشرية لابد أنْ تحتاط للقاء الله، وأنْ تعترف أنَّ هناك حَشراً وتعمل لذلك.

---

(١) القيعة: أرض مستوية. أى قاع من الأرض. قال البغوى فى تفسيره (٦/٥٢): القيعة جمع القاع وهو المنبسط الواسع من الأرض وفيه يكون السراب. وقال السعدى: لا شجر فيه ولا نبت. والسراب ظاهرة خداع بصرى ضوئى تحدث نتيجة ظروف البيئة المحيطة من اشتداد درجات الحرارة والأرض المستوية واختلاف فى معامل الانكسار مما يجعلها فى حالة توهج شديد حيث تبدو كالماء الذى يلتصق بالأرض ليعكس صوراً وهمية للأجسام وكأنها منعكسة عن سطح مرآة كبيرة.

(٢) أبو العلاء المعرى: أحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخى المعرى، شاعر فيلسوف. ولد ٣٦٣ هجرية ومات ٤٤٩ هـ فى معرة النعمان. كان نحيف الجسم، أصيب بالجدرى صغيراً فعمى فى السنة الرابعة من عمره، قال الشعر وهو ابن إحدى عشرة سنة. لما مات وقف على قبره ٨٤ شاعراً يرثونه. كان يحرِّم إيلام الحيوان ولم يأكل اللحم خمساً وأربعين عاماً وكان يلبس خشن الثياب. [الأعلام للزركلى ١/١٥٧].

وهـذه الأبيـات أخرجتْ المعرى مما اتهموه به مـن أنه ينكر البعث ، صحيح أنه فى أول حياته قال :

تَحْطِمُنَا الأيَّامُ حَتَّى كَأَنَّنَا زُجَاجٌ وَلكِنْ لاَ يُعادُ لَنَا سَبْكُ(١)

فقولـه : (لا يُعـاد لنا سَبْكُ) معناه أنه ينفى قـدرة الحق على أنْ يبعثنا مرة أخرى ، مع أنه من الممكن أنْ يتأوَّل فيها ، أى لا يُعاد لنا سَبْكٌ فى حياتنا هذه، ونحن لا نرى مَنْ مات يعود مرة ثانية .

وهـذا قاله فـى أول حياته ، ولكنـه آخر الأمر طلب من الطبيـب والمنجِّم أنْ يكفَّـا عـن إفساد العقول بالشك ، وهَبْ أنه اعتقـد ألاّ بعث ، وواحد آخر اعتقد أن هناك بعثاً ، نقول له : إما أنْ يجيء بعثٌ فيكذب مَنْ قال : لا بعث .

وإما ألاَّ يجيء بعثٌ ، فإذا لم يجيء البعث ما الذى ضَرَّ مَنْ آمن بالبعث ، وإذا جاء البعث فمَنْ الذى خسر ؟ سيخسر مَنْ أنكره . إذن : فالذى ينكر البعث يخسر ولا يكسب ، لكن مَنْ قال : إن هناك بعثاً لا يخسر وهكذا .

فإنْ كان كلامكُم صحيحاً من أنه لا يوجد بعث - والعياذ بالله - فلن أخسر شيئـاً لأنِّـى أعمـل الأعمال الطيبة ، وإن كان هناك بعـث - وهو حقٌّ - فسوف ألقى الجزاء فى الجنة ، وبذلك لم أخسر بل كسبت .

لكـن افرضوا أنكم عملتم الشرَّ كلّه وجاء البعث فأنتم الخاسرون ، والقضية الفلسفيـة المنطقية هنا هـى : إنْ لم أكسب فلن أخسر ، وأنتم إنْ لم تخسروا فلن تكسبوا .

ومعنى قوله تعالى ﴿ بِمَا عَمِلْتُمْ .. (٧) ﴾ [التغابن] أن الله قد أحصى عليهم

(١) أورده صلاح الدين الصفدى فى نكت الهميان (١/٣٦) وعبد الرحيم العباسى فى معاهد التنصيص (١/١٤٠).

أعمالهم وهذه مفاجأة أخرى لهم ، يقول تعالى : ﴿ أَحْصَاهُ اللهُ وَنَسُوهُ .. (٦) ﴾ [المجادلة] فنحن نسجل عليهم أعمالهم ونُحصيها .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَذَٰلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ .. (٧) ﴾ [التغابن] فكلُّ فعل على الله يسير ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ (١٩) ﴾ [العنكبوت]

فأيهما يسيرٌ على الله ، الخَلْق أم الإعادة ؟ هل الذى خلق من عدم يعجز عن إعادة ما خلق ؟ الخَلْق الأول من عدم ، أما الإعادة فمن موجود ، فأيُّهما أهون وأيسر فى عُرْفكم وحسب منطقكم ؟

لذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ وَهُوَ الَّذِى يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ .. (٢٧) ﴾ [الروم] مع أن الحق سبحانه لا يُقال فى حقّه : هذا هيِّن وهذا أهون ، لكنه سبحانه يخاطبنا بما تفهمه عقولنا .

فإيجاد ما كان موجوداً أسهل من الإيجاد من عدم على غير مثال موجود ، فالبعث أهونُ على الله من بداية الخَلْق ، فبالنسبة للخالق سبحانه فليس عنده هيِّن وأهون منه ، لأنه سبحانه لا يفعل الأفعال معالجةً ولا يزاولها ، وإنما بقوله تعالى (كُنْ) .

فالحق سبحانه وتعالى إذا أراد أمراً فإنه يقول له (كُنْ فيكون) ، وكلمة (كُنْ) نفسها هى أقصر أمر ، إن أمره ألطف وأدقّ من أنْ يدركه على حقيقته مخلوق .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾ ﴾

الإيمـان منهج تطبيقى يمزج بين العقل والقلب من ناحية ، والقول باللسان مـن ناحية ثانيـة ، والعمل بجوارح الإنسان من ناحيـة ثالثة ، فالإيمان ليس نظريـة فكريـة يعتقدها عقل الإنسـان وقلبه فقط ، بل يجـب أن يكون فى قوْل الإنسان وسلوكه العملى ما يصدق هذا الفكر وهذا المعتقد .

لذلـك عندما قـال الحق سبحانه: ﴿ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِـهِ وَالنُّورِ الَّذِى أَنْزَلْنَا .. (٨) ﴾ [التغابـن] لم يقُـل الحـق بعدهـا : والله بما تعتقدون خبـير . أو : والله بما تؤمنون خبير .

لا .. قـال : ﴿ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٨) ﴾ [التغابن] فنقلنا من الإيمان النظرى إلى الإيمـان العملى ، فالمؤمـن عليه أنْ يتحرك فيمَنْ حولـه بسلوكيات توافق إيمانـه بـالله ورسولـه والقـرآن ، فلا يعمـل ولا يسلـك سلوكيـات تناقض هذا الإيمان .

فلا يسع المؤمن الذى آمن بالله وبالرسول وبالقرآن إلا أنْ يطبق ما جاء فى القـرآن وطاعة رسول الله فيما جاء به من عند الله تعالى ، وليس له أنْ يدعو أو يسعى لإبطال شريعة الله أو الخروج عليها أو الدعوة إلى غيرها .

وقـد نعى الحق سبحانه علـى أولئك الذين شابهوا الكافرين الذين كفروا من قبـل ، فشابهوهم فى رفضـ أنْ يكون رسلُ الله إليهم من البشـر ﴿ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا .. (٦) ﴾ [التغابن]

وأيضاً شابهوهم فى إنكار البعث ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا .. (٧) ﴾ [التغابن]

هم يريدون التملُّص من الإيمان فيُبدون الأعذار والتبريرات ، ويضعون العقبات تِلْو العقبات حتى لا يؤمنوا ، وعدم الإيمان بالرسل الذين يرسلهم الله هو فى الحقيقة عدم إيمان بالله عز وجل ، فإذا كنتَ لا تعترف بالرسل فأنت فى الواقع لا تعترف بمَنْ أرسلهم .

وكان لابدّ لهم أنْ يؤمنوا بمَنْ يرسلهم الله سواء كانوا بشراً أو غير بشر ، والله له حكمةٌ فى أنْ يكونوا من البشر ليكونَ أسهل فى التخاطب مع الناس، وأيضاً ليكونوا قدوة ، فلو كانوا ملائكةً لاحتجَّ هؤلاء الكافرون أيضاً بأنهم كيف يتبعون ملائكة ، فالملائكة قادرون على ما يُؤمرون به ، أما نحن فلا نستطيع تنفيذ ما أُمروا به .

وبعضهم أقرَّ بأنْ يكونوا من البشر ولكنْ أرادوا هم أنْ يختاروا لله مَنْ سيرسله لهم، فقالوا : ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْءانُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) ﴾ [الزخرف]

لقد كانوا يريدونه أنْ ينزل على سيد من سادة قريش ، فاعتبروا أن المشكلة ليست فى القرآن ، ولكن المشكلة والآفة بالنسبة إليهم أنه نزل على محمد ﷺ.

فقال أهل الجاهلية : لماذا لم ينزل القرآن على رجل عظيم من مكة أو من الطائف ، قالوا ذلك استهزاءً بشأن رسول الله وتقليلاً من مكانته ، فهم طلبوا أنْ تكون السيادةُ لغنى من أغنياء القريتين مكة أو الطائف(١) .

لقد أرادوا أنْ يظلُّوا فى السيادة والجبروت والقهر للغير ، والقرآن إنما جاء ليساوى بين البشر جميعاً أمام الحق الواحد الأحد .

---

(١) ذكر الطبرى فى (تفسير الزخرف ٣١) عن ابن عباس قال : يعنى بالعظيم الوليد بن المغيرة القرشي، أو حبيب بن عمرو بن عمير الثقفى . وعنى بالقريتين : مكة والطائف . وقال آخرون : بل عنى به عتبة ابن ربيعة من أهل مكة وابن عبد ياليل من أهل الطائف .

لقد استكثروا على رسول الله أنْ ينزل عليه هذا القرآنُ العظيم ، وفى هذا القول فتنةٌ واختبار لرسول الله ، وهو يصبر على ذلك ويمضى إلى إتمام البلاغ عن الله ولا يلتفت إلى ما يقولون ، بل يأخذ هذا دليلاً على قوة المعجزة الدالة على صِدْق رسالته .

والحق سبحانه يدعو هؤلاء الكافرين إلى الإيمان بالله أولاً ، ﴿ فَآمِنُوا بِاللهِ .. (٨) ﴾ [التغابن] ، فالإيمان بالله هو أصل العقيدة وفى القمة منها، وليس المقصود هنا هو الإيمان بوجود الله فقط ، بل المقصود الإيمان بالله إلهاً واحداً أحداً مستحقاً وحده للعبودية ، لأنه وحده الذى خلق هذا الكون بسمائه وأرضه وإنسانه وحيوانه ونباته .

فلا يكفى أنْ نقول نحن نؤمن بوجود الله وأننا لسنا ملحدين ، فإنَّ مشركى قريش الذين بُعث فيهم رسول الله ، يقول تعالى : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (٦١) ﴾ [العنكبوت]

ويقول سبحانه : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللهُ قُلِ الْحَمْدُ للهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (٦٣) ﴾ [العنكبوت]

حتى خلق الله للإنسان نفسه كانوا يعترفون ويُقرُّون به : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (٨٧) ﴾ [الزخرف]

فمشكلتهم وسبب كفرهم أنهم كانوا يشركون مع الله آلهة أخرى وأصناماً وأوثاناً ، ويتخذونها وسائط عند الله بزعمهم ، قالوا : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى .. (٣) ﴾ [الزمر]

ولو قالوا : لا نذبح لهم إلا ليقربونا إلى الله زُلْفى ، لكان من الجائز أنْ يدخلوا فى عبادة الله ، ولكنهم يثبتون العبادة للأصنام ، لذلك لا مفرَّ من دخولهم

فى الشرك .

وهم يعترفون أن المتقرِّب إليه هو الله ، ولكن الحق يحسم أمر الشرك فيقول على لسان رسوله : ﴿ قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (١٩) ﴾ [الأنعام] فالرسول ﷺ لا يشهد بأى آلهة غير الله .

ثم إن الجميع شهد لله عز وجل بالربوبية لحظة الخَلْق الأولى ، يقول الحق سبحانه : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا[1] .. (١٧٢) ﴾ [الأعراف]

هم إذن قد أقرُّوا لحظة الخَلْق الأول بوحدانية الله وعاهدوا الله تعالى على ذلك ، لكنهم كفروا بتلك الشهادة وأشركوا به سبحانه ووضعوا فى بيت الله الحرام أصناماً ، وادَّعوا الكذب وقالوا : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ .. (٣) ﴾ [الزمر]

ومن الإيمان بالله الإيمانُ بألوهيته سبحانه لا ربوبيته فقط ، أى : أنه صاحب التشريع والمنهج الذى يُنزله على رسله ليبلِّغوه للناس وليس للصنعة أنْ تتمرَّد على صانعها وتطلب صلاحها ممَّنْ تظنه صانعها ، أو أنها هى تُصلح نفسها .

---

(١) عن أبى سعيد الخدرى قال : حججنا مع عمر بن الخطاب ، فلما دخل الطواف استقبل الحجر فقال : إنى أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا أنى رأيت رسول الله ﷺ قبَّلك ما قبَّلتُك ثم قبَّله ، فقال له على ابن أبى طالب : بلى يا أمير المؤمنين إنه يضر وينفع ، قال ثم قال : بكتاب الله تبارك وتعالى . قال : وأين ذلك من كتاب الله ؟ قال الله عز وجل ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ .. (١٧٢) ﴾ [الأعراف] خلق الله آدم ومسح على ظهره فقرره بأنه الرب وأنهم العبيد، وأخذ عهودهم ومواثيقهم وكتب ذلك فى رقٍّ وكان لهذا الحجر عينان ولسان فقال له افتح فاك قال: ففتح فاه فألقمه ذلك الرق وقال : اشهد لمن وافاك بالموافاة يوم القيامة وإنى أشهد لسمعت رسول الله ﷺ يقول : يؤتى يوم القيامة بالحجر الأسود وله لسان ذلق يشهد لمن يستلمه بالتوحيد فهو يا أمير المؤمنين يضر وينفع ، فقال عمر : أعوذ بالله أن أعيش فى قوم لست فيهم يا أبا الحسن . [أخرجه الحاكم فى مستدركه (١٦٨٢)] .

فالله لم يبعث الرسل عبثاً ، ولم يُنزل الكتب لعباً ، بل أرسلهم بالحق ، وأنزل إليهم الكتب بالحق لتهدى الناس إلى المنهج الحق ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤) ﴾ [الملك]

والكون لا يصلح إلا بمنهج الله ، فالله هو الذى خلق، وهو الذى أوجد ، وهو أدرى وأعلم بصنعته وبما يُفسدها وبما يُصلحها ، لأنه هو الصانع ولا يوجد مَنْ يعلم سِرّ ما يُصلح صنعته أكثر من صانعها .

وهناك أناسٌ يكرهون الإيمانَ أشدَّ الكراهية ، هؤلاء قال الله فيهم : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ[1] أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣) ﴾ [البقرة]

فالرسول ﷺ يدعوهم للإيمان ، والمسلمون يدعونهم للإيمان ولكنهم يصفون الذين آمنوا بأنهم سفهاء ، أى أنهم فقراء من أراذل القوم ، أما سادة قريش فهم عقلاء مالكون للمال لا يليق بهم أنْ يؤمنوا .

ولفرط كراهيتهم للإيمان بألوهية الله ووحدانيته تجد الحق سبحانه يقول عنهم : ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ اللهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ[2] قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٥) ﴾ [الزمر]

والإنسان حين يسمع شيئاً لا يحبه يشمئز ، يعنى يظهر على سحنته الامتعاض، ثم تحدث منه نُفْرة وقشعريرة كئيبة ، ثم ينصرف عن هذا الشيء.

---

(١) السفهاء هنا : الجهلة ، وأصل السَّفه فى اللغة : خفة الحلم (خفة العقل) وقال الطبرى فى تفسيره (١/٢٩٣) : قال عامة أهل التأويل : هم النساء والصبيان لضعف آرائهم وقلة معرفتهم بمواضع المصالح والمضار التى تصرف إليها الأموال ، وذلك فى قوله تعالى ﴿ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللهُ لَكُمْ قِيَامًا .. (٥) ﴾ [النساء] .

(٢) اشمأزت ، فيها ثلاثة أقوال : الأول : انقبضت عن التوحيد . قاله ابن عباس ومجاهد . الثانى : استكبرت. قاله قتادة . والثالث : نفرت . قاله أبو عبيدة والزجاج . (زاد المسير لابن الجوزى ٥/٢٧١) .

كذلك حال هؤلاء لما سمعوا ذكر الله وحده نفرتْ نفوسهم وانقبضوا عن توحيد الله ، لكن لماذا ؟ فمعنى توحيدهم الله أنْ يؤمنوا بالبعث والحشر وملاقاة الله ، وقد يُلاقون عقاباً على ما فعلوا وهو ما قالتْه سورة التغابن هنا : ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٧) ﴾ [التغابن]

أما ما يعبدونه من أصنام فلا تأمرهم بأمر ولا تنهاهم عن شيء ، ولا هى تُحدِّثهم عن بعث أو حساب ، لذلك يستبشرون عندما يُذكر الذين من دون الله .

وهم يستبشرون لأسباب أخرى ، منها ظنُّهم أنهم يشفعون لهم ، لكنهم خائبون فى هذه وخائبون فى هذه ، فإنَّ ما عبدوهم من دون الله سيسبقونهم إلى النار .

يقول تعالى : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ[1] جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ (٩٨) لَوْ كَانَ هَٰؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ (٩٩) ﴾ [الأنبياء] ، فتلك الأصنام والحجارة التى عبدتموها من دون الله ستكون وقود النار التى يُعذّب بها مَنْ عبدها ، وبذلك ينقطع عن الكافرين المشركين كلُّ أمل فى أنْ تنقذهم آلهتهم المزيفة .

والحصب مثل الحطب وهو كلّ ما تُوقد به النار أيّاً كان، خشباً أو قشاً أو بترولاً أو كهرباء ، وهنا وقودها العابدون وما عبدوه ، فما عبدتموه لن يقيكم يومئذ من عذاب النار .

والحق سبحانه هنا عندما يطالبهم بالإيمان بالله فى سياق سورة التغابن

---

(١) الحصب مشتق من الحصباء والحجارة . يُرمى به فى جهنم . وأرض محصبة ذات حصى . وحصبت النار : إذا ألقيت فيها ما تستوقد به . [الاشتقاق لابن دريد ١/٥٢٩] قال أبو عبيدة : كل ما ألقيته فى النار فقد حصبتها به . [الصحاح فى اللغة ١/١٣١] .

نجد أن المطلوب هو الإيمان بالله خالقاً للسماوات والأرض ، خالقاً للإنسان صوَّره فأحسن صورته ، وأنه سبحانه له الملْك وأنه سبحانه لا يُعجزه شيء ، لأنه ﴿ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .. (١) ﴾ [التغابن]

وهو سبحانه العليم ﴿ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ .. (٤) ﴾ [التغابن]

وهو سبحانه غنيٌّ عن العالمين لا يحتاج إليهم ، قال ربُّ العزة فى الحديث القدسى : « يا عبادى ، لو أنَّ أولكم وآخركم وإنسكم وجنّكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زادَ ذلك فى مُلْكى شيئاً . يا عبادى لو أنّ أولكم وآخركم وإنسكم وجنّكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ، ما نقص ذلك من مُلْكى شيئاً »[١] .

وآفة هؤلاء الكافرين أنهم لم يقدروا الله حقَّ قدْره ، وظنوا أن المسألة بالنسبة للحقِ سبحانه هو تعذيبهم ، مع أنه سبحانه يقول فى وضوح : ﴿ مَا يَفْعَلُ اللهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللهُ شَاكِرًا عَلِيمًا (١٤٧) ﴾ [النساء]

وعظمة الحقِّ سبحانه أنه لا يوجد شيءٌ من طاعة يعود إلى الله بنفع ، ولا يوجد شيءٌ من معصية يعود إلى الله بالضرر .

ثم يقرن الحق سبحانه بين الإيمان بالله والإيمان برسوله ، فقال : ﴿ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ .. (٨) ﴾ [التغابن] وقد قال الإمام الشافعي[٢] : وضع الله رسوله من دينه وفَرْضه وكتابه الموضع الذى أبان جَلَّ ثناؤه أنه جعله عَلَماً لدينه بما

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٦٧٣٧) وأحمد بن حنبل فى مسنده (٢١٤٥٨) والبزار فى مسنده (٤٠٥٣) والبيهقى فى سننه الكبرى (١١٨٣٧) والبخارى فى الأدب المفرد (٤٩٠) عن أبى ذر الغفارى رضى الله عنه .

(٢) هو : محمد بن إدريس الشافعى الهاشمى القرشى أبو عبد الله ، ولد فى غزة عام ١٥٠ هـ ، زار بغداد مرتين وقصد مصر سنة ١٩٩ فتوفى بها عام ٢٠٤ هجرية . وقبره معروف فى القاهرة . كان الشافعى أشعر الناس وأعرفهم بالفقه والقراءات . أفتى وهو ابن عشرين سنة . له مؤلفات وكتب كثيرة . أشهرها: كتاب الأم فى الفقه ، وله المسند فى الحديث . و (أحكام القرآن) و (الرسالة) فى أصول الفقه . [الأعلام للزركلى ٦/٢٦] .

افترض من طاعته وحرم من معصيته وأبان من فضيلته بما قرن من الإيمان برسوله مع الإيمان به[1] ، فقال تعالى : ﴿ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ .. (٨) ﴾ [التغابن]

وثانى ما يطالبُ الله الكافرين بالإيمان به هو الإيمان برسوله ﷺ ، لأنهم إذا كانوا قد آمنوا بالله فلا بدّ أنْ يُؤمنوا برسوله الذى أرسله إليهم ليبلِّغهم منهج الله أمراً ونهياً ، أم أنكم تظنُّون أنّ الله خلقكم سُدى وترككم هملاً ؟

وكثيراً ما ربط القرآنُ بين الإيمان بالله والإيمان برسول الله فى آيات كثيرة ، يقول تعالى : ﴿ قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّى رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِى وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِى يُؤْمِنُ بِاللهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٨) ﴾ [الأعراف]

وهذه الآية آيةٌ جامعة فى ماهية الإيمان برسول الله ﷺ ، فهو : ﴿ رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا .. (١٥٨) ﴾ [الأعراف] فرسالته ﷺ عامة وليستْ خاصة بالعرب فقط ، بل هى رسالةٌ للعالمين الإنس والجن ، عربهم وعجمهم .

فكلُّ رسالة من الرسالات التى سبقتْ رسالة رسول الله ﷺ وجاءتْ لقوم مُحددين ولزمن مُحدّد ولعلاج داءات وآفات أصابتْ مجتمعاً ما ، أما رسول الله فهو رسولٌ إلى كلِّ الناس ، لذلك كان هو الرسول الخاتم الذى أعطى الخير كلَّه والنور كلَّه .

فرسالة الإسلام رسالة خاتمة ، وإيماننا بالرسول يقتضى أنْ نؤمن أنه خاتم الأنبياء بحقٍّ ، وقد قال رسول الله : « مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثَلِ رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله إلا موضعَ لبنة من زاوية من زواياه ، فجعل الناسُ يطوفون به ويعجبون له ويقولون : هلا وُضعتْ هذه اللبنة ، فأنا اللبنةُ

---

(١) قاله الشافعى فى كتابه (الرسالة) (١/٧٣) فقرة (٢٣٦) .

وأنا خاتمُ النبيين»[١] .

فهو ﷺ خاتم النبيين وخاتم المرسلين ، يقول تعالى : ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَـٰكِنْ رَسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ .. (٤٠) ﴾ [الأحزاب]

وبعض أهل الضلال يؤمنون برسول الله على نحو مخالف لمراد الله ، فيؤمنون به خاتماً للنبيين كما نصَّ عليه القرآن ، ولكنْ لا يؤمنون به ﷺ خاتماً للرسل ، فيدَّعون رسولاً بعد رسول الله ، ويدَّعون كتاباً بعد النور الذى أنزله الله مع نبيه ورسوله محمد .

وتجد مثل هذه الدعاوى فى البهائية[٢] والقاديانية[٣] وغيرها من المعتقدات الزائفة ، وهم ينسُون أو يتعمدون هذا ، فالرسول لا يكون رسولاً إلا إذا كان نبياً، فكلُّ رسولٍ نبيٌّ ، وليس كلُّ نبيٍّ رسولاً . هذا بالنظر إلى الشريعة التى تأتى مع الرسول ولا تأتى مع النبى .

أما بالمعنى اللغوى والمعنى الاصطلاحى فالقرآن يقول: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ .. (٥٢) ﴾ [الحج]

فالنبى أيضاً مُرسَلٌ من الله ، وعلى ذلك فكلاهما – النبى والرسول – مرسل من عند الله ، لكن يوجد فرْق بين أنْ يرسل الحقُّ تشريعاً مع رسول ، ويكون هذا التشريع مستوعباً لأشياء وأحكام لم تكُنْ موجودة فى الرسالة السابقة

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٥٣٥) والبزار فى مسنده (٨٢٣٣) ، والطبرانى فى مسند الشاميين (١٣٠) . من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

(٢) البهائية حركة نبعت من المذهب الشيعى الشيخى سنة ١٢٦٠ هـ تحت رعاية اليهودية العالمية والاستعمار الإنجليزى بهدف إفساد العقيدة الإسلامية وتفكيك وحدة المسلمين ، أسسها الميرزا على محمد رضا الشيرازى ، مقرهم الرئيسى فى إسرائيل فى حيفا ، ويقطن أغلبيتهم فى إيران .

(٣) القاديانية دين مخترع ظهر أواخر القرن التاسع عشر الميلادى بقاديان إحدى قرى البنجاب الهندية. أسسه ميرزا غلام أحمد القاديانى المولود عام ١٢٦٥، ادعى أنه المهدى المنتظر والمسيح الموعود ، ثم ادعى أنه المسيح نفسه ، ثم ادعى نبوته وأن نبوته أعلى وأرقى من نبوة رسول الله .

عليه ، وبين أنْ يأتى إنسانٌ مُصطفى من الله ليطبق فقط ما جاء فى الرسالات السابقة .

فالأنبياء قد أرسلهم الله ليكونوا نموذجاً تطبيقياً للشرع السابق عليهم ولم يأتُوا بشرع جديد ، لكنَّ الرسولَ هو مَنْ أرسله الله بشرع جديد ليعمل به وأمره الحقُّ بتطبيقه ، هذا هو الزائد فى مهمة الرسول .

إن الحقَّ سبحانه أرسل الأنبياء ليكونوا الأسوة السلوكية فيُطبقوا ما أُرسلَ به الرسلُ السابقون عليهم ، أما الرسلُ فأرسلهم الله بالشرع والتبليغ والتطبيق.

ومن الإيمان برسول الله أنْ تؤمن بأنه نبيٌّ أُميٌّ ، فالأمية فى رسُول الله شرف ، ولكنها أيضاً دليلٌ على صِدْقية القرآن ﴿ وَالنُّورِ الَّذِى أَنْزَلْنَا .. (٨) ﴾ [التغابن] وأنه وحيٌ مجرد من الله عزَّ وجل ، ليس لرسول الله فيه دورٌ إلا تبليغه فقط .

لذلك كان لابد له أنْ يكون أُمياً ، ورغم أن هذا واضحٌ الوضوح كله ، ولكن غير المؤمنين قديماً وحديثاً ادَّعوْا على رسول الله أن القرآنَ من تأليفه وأنه ليس وحياً ، ولكنه أخذه عن الكتب السابقة .

كيف وهو أُميٌّ لا يقرأ ولا يكتب ولم يُعرف بالبلاغة والشعر والخطابة بين قومه حتى يستطيع أنْ يأتى من عنده بهذا الكلام المعجز الذى لم يستطع فطاحل شعراء العرب الذين تمرَّسوا فى البلاغة واللغة أنْ يأتوا بآية من مثله .

لذلك قال تعالى : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِى رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٣) ﴾ [البقرة]

وثالث ما طلب الله ودعا إليه هو أنْ تؤمنوا بالنور الذى أنزله سبحانه على رسوله محمد وهو القرآن ، ولم يشأ الله سبحانه أنْ يقول هنا : والكتاب الذى

أنزلنا . بل قال هنا : النور .

وهذا إشارة لهم أنَّ ما أنتم عليه هو الظلام بذاته ، وأن إيمانهم بالله ورسوله سيُخرجهم من الظلمات إلى النور الذى أنزله الله على رسوله .

فمهمة هذا الكتاب حدَّدها الحقُّ سبحانه فى قوله تعالى : ﴿ الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (١) ﴾ [إبراهيم]

وهو كتاب يُبصِّرنا بقضية القمة فى العقيدة ، وهى أنه لا إله إلا الله وأن محمداً رسولُ الله ، وهو بهذا يُخرجهم من ظلمات الشرك إلى نور التوحيد .

وهو كتابٌ يلفتهم إلى آيات الكون ، وأنْ يعرفوا أن هناك آخرة ونعيماً أبدياً وشقاءً أبدياً ، وهو يقيم الدليل والحجة على الكافرين ويُحاججهم ويناقش ادعاءاتهم على مُنزِل الكتاب ، وعلى مَنْ نزل عليه ذلك الكتاب ، إنه كتابٌ يناقش صِدْقية القرآن نفسه ويردُّ على الطاعنين فيه .

وعندما جاء هذا النورُ ؛ فبدلاً من أنْ يأخذوا نور الإيمان انصرفوا عنه ، فكأنهم انصرفوا عن كلِّ ما يهديهم إلى طريق الله ، ولو آمنوا لأضاء نورُ الإيمان والإسلام طريقهم ، ولكن قلوبهم مملوءةٌ بظلمات الكفر فلا يروْنَ طريق النور .

إن القرآنَ هو وَحْيٌ مُنزَّل من عند الله ، يُعرف المؤمنين النور إلى الهداية وتكاليف الحق ويهدى مَنْ اختار الهدى ، وإنَّك يا محمد لتدعو بهذا القرآن إلى صراط مستقيم .

والإيمان بالله مسألة تطبيقية مرحلية ، فـ « الله » هو قمة الإيمان ، و« رسوله » هو المبلّغ عن الله ، لأنه جاء لنا بالنور وهو القرآن : ﴿ الَّذِى أَنْزَلْنَا .. (٨) ﴾ [التغابن]

وفي آية أخرى يقول تعالى : ﴿ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ[١] وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ .. (١٥٧) ﴾ [الأعراف] فالنور مرتبط برسول الله فهو أُنزل معه ﷺ وحَلَّ معه ، فلا تظنُّوا أنكم تستطيعون الفصل بين الإيمان بالله وبين الإيمان برسوله وبالنور والكتاب الذى أُنزل معه .

واعلموا أن ﴿ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٨) ﴾ [التغابن] وهذه الآية تلفتنا إلى أمر هام ، فصدر الآية يُحدِّثنا عن الإيمان ، وهو أمر قلبيٌّ يخصُّ معتقد الإنسان ، فهو أمر نظرى يتعلق بالنظرية والمعتقد .

أما عَجُز الآية فيُحدِّثنا عن التطبيق ، فنقلنا الحق سبحانه إلى الجانب العملى فى الإيمان ، فقال : ﴿ بِمَا تَعْمَلُونَ .. (٨) ﴾ [التغابن]

وقد قال الحسن البصري[٢]: « ليس الإيمانُ بالتحلِّى ولا بالتمنِّى ، إنما الإيمانُ ما وقر فى القلب وصدَّقه العمل »[٣] .

و ﴿ بِمَا تَعْمَلُونَ .. (٨) ﴾ [التغابن] تشمل قولك وفعلك ، فالقول عمل اللسان، والفعل عمل اليد أو الرِّجْل أو العين ، وسواءٌ كان الإيمان الذى فى القلب أو العمل الذى فى الجوارح فلا تظنُّوا أنَّ شيئاً من هذا يَخْفى على الله ، فإنه سبحانه : ﴿ خَبِيرٌ .. (٨) ﴾ [التغابن]

فإنه سبحانه خبيرٌ بما فى قلبك، عليمٌ بإيمانك بالله ورسوله والقرآن

---

(١) معنى عزروه : نصروه وأعانوه ، قاله مقاتل . وقال ابن قتيبة : عزروه أى عظموه . (زاد المسير لابن الجوزى ٣/٤٣) وقال الأخفش : أى عظموه ووقروه ، وقيل : معناه منعوه من عدوه وأصل العَزْر المنع. [فتح القدير للشوكانى ٣/١٠٢] .

(٢) الحسن البصرى هو : الحسن بن يسار أبو سعيد تابعى ، كان إمام أهل البصرة، ولد ٢١ هـ ، هو أحد العلماء الفقهاء النساك ، ولد بالمدينة وشب فى كنف على بن أبى طالب . سكن البصرة ، له مع الحجاج ابن يوسف الثقفى مواقف ، توفى ١١٠ هجرية [الأعلام للزركلى ٢/٢٢٦] .

(٣) قال ابن تيمية فى [أحكام المرتد ١/٢٢٩] : « هذا مشهور عن الحسن يروى عنه من غير وجه ، كما رواه عباس الدروى حدثنا حجاج حدثنا أبو عبيدة الناجى عن الحسن . وأخرجه من قول الحسن البصرى ابن بطة العكبرى فى [الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ١٠٩٣] .

ومدى وماهية إيمانك ، ويعلم بنيّتك عند عملك وفِعْلك وقولك ، خبير بما تفعله وتصنعه، وإنْ لم يطلع عليك أحدٌ من الناس .

فالله خبير بنية مَنْ أبدى صدقة ، أو جاهد فى سبيل الله ، والله يجازيك على قدْر نيتك وقصدك ، إنْ كنتَ تبتغى بما تفعل مرضاةَ الله سبحانه أم لا .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٩) ﴾

الحق سبحانه هنا يؤكد لمن يُنكرون البعث والحساب وإنباءهم بما عملوا فى الدنيا أنهم لا مفرَّ لهم ولا حيلةَ لهم فى الهروب والفرار من مواجهة ذلك اليوم الذى يجمعكم فيه .

وهو سبحانه يُبطل زعمهم : ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ .. (٧) ﴾ [التغابن]

ثم قال : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ .. (٩) ﴾ [التغابن]

فكأن (يوم) هنا وهى ظرف زمان يحدث فيه إنباؤهم بما عملوا فى الدنيا، كأنه سبحانه قال : والله يُنبئكم بما عملتم ويعاقبكم عليها يوم يجمعكم .

---

(١) يكفّر عنه سيئاته : يمحو عنه ذنوبه . قال مقاتل بن سليمان : أى يغفر له ذنوبه . وقال أبو بكر جابر الجزائرى فى تفسيره [أيسر التفاسير ٣/١٩٢] : « معنى يُكفرها عنهم يغطيها ويسترها ولم يطالبهم بها كأنهم لن يفعلوها » .

وبعض العلماء ذهبوا إلى أن (يوم) هنا متعلقة بـ (خبير) قبلها ، على معنى أنهم سيُفاجئون أن الله يوم يجمعهم خبيرٌ بما عملوا ، وقد كانوا يظنّون أنْ لا شيءَ مما عملوه سيُحصَى عليهم ويقابلونه ويجدونه أمامهم يوم القيامة.

وقد قال تعالى فى آية أخرى : ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا[1] بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ وَاللهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ (٣٠) ﴾ [آل عمران]

يعنى أنه يجد جزاءَ عمله خيراً كان أو شراً ، أما صاحب العمل الخيِّر فإنه يُثاب ويرفل فى نعيم الله ، أما ما عملتْه النفسُ من السوء فهو يود أنْ يكونَ بينه وبينه أمدٌ بعيد أى غاية بعيدة .

والبعض قال : إن (يوم) هنا ليست متعلقة بـ : ﴿ لَتُنَبَّؤُنَّ .. (٧) ﴾ [التغابن] أو خبير ، بل متعلِّقة بما دلَّ عليه الكلام والسياق الآتى والحادث بعده ، وهو تغابُن المؤمنين والكافرين وتظالمهم ، أى : تتفاوتون وتتغابنون يوم يجمعكم.

وكلُّه صحيحٌ ومُحتمل وقد لا يكون أيّ شيء من هذا ، وأنْ تكون (يوم) متعلقة بفعل محذوف هو (اذكر) أو (اذكروا) أى : اذكروا يوم يجمعكم ليوم الجمع ؛ ولكن ما لا يحتاج إلى تقدير أولى مما يحتاج ، والله أعلم .

ورسول الله ﷺ إنما أُرسلَ لينذركم هذا اليوم ، يقول تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ (٧) ﴾ [الشورى]

---

(١) الأمد : الغاية . [زاد المسير لابن الجوزى ١/٣٢٢] وقال الطبرى فى تفسيره (٦/٣١٩) : يعنى غاية بعيدة . قال الشيخ رشيد رضا فى تفسير المنار (٣/٢٣٣) : « قد اختلف فى تفسير الأمد فقيل : الغاية. وقيل الأجل ، وقيل : المكان . وقال الراغب (الأصفهانى) : الأمد والأبد يتقاربان ، لكن الأبد عبارة عن مدة من الزمان ليس لها حد محدود ولا يتقيد . والأمد مدة لها حد مجهول إذا أطلق . والفرق بين الزمان والأمد أن الأمد يقال باعتبار الغاية، والزمان عام فى المبدأ والغاية .

فاذكروا يوم الجمع الذى يجمع الله فيه الأولين والآخرين ﴿ هَـٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ (٣٨) ﴾ [المرسلات] فجمعناكم لموعدكم الذى كنا نعدكم فى الدنيا ، نجمع فيه بينكم وبين سائر مَنْ كان قبلكم من الأمم الهالكة .

فقد وفَّيْنا لكم بذلك ﴿ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ (٣٩) ﴾ [المرسلات] فالله مُنجز لكم ما وعدكم فى الدنيا من العقاب على تكذيبكم إيَّاه بأنكم مبعوثون لهذا اليوم ، فإنْ كانت لكم حيلةٌ تحتالونها فى التخلُّص من عقابه اليوم فاحتالوا .

إنَّ كذبهم سينكشف فى هذا اليوم ، فالفاضحة قد جاءت ، والفاضحة هى القيامة ، إنها تفضح كلَّ كذَّاب مكذِّب بيوم الدين ، وتفضح كلَّ غشاش وكلَّ داعية بغير الحق .

﴿ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢٥) ﴾ [آل عمران]

كيف يكون حالُهم يوم يجمعهم الله للجزاء فى يوم لا ريبَ فيه ولا شكَّ فى مجيئه ، وهذا اليوم قادمٌ لا محالةَ لقيام الأدلة على وجوده ، ورغم خصومتهم لله فإنَّ الله العادل الحق لا يظلمهم ، بل سيأخذهم بمقاييس العدل .

ويقول الحق سبحانه : ﴿ اللهُ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ حَدِيثًا (٨٧) ﴾ [النساء]

فالله سبحانه هو القادر على الجمع والحشر يوم القيامة ، وقد أكَّد الحق سبحانه الجمع باللام ثم نون التوكيد ، ولا تظنُّوا أن الله يكذب عليهم فى هذا لأنه لا أحدَ أصدقُ من الله ، ويسوقها الله لنا بصيغة الاستفهام : ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ حَدِيثًا (٨٧) ﴾ [النساء]

وعندما يأتى الخبر فى صيغة استفهام ويطلب منك اللهُ إجابة ، فالحق

سبحانه يعلم تمامَ العلم أنه لن يسعك إلا أنْ تجيب أن الله هو الأصدق حديثاً ، إنما هو سبحانه يُعطيك الفرصة لتبحث لتقتنع أنه لا أحدَ أصدقُ من الله ، فلا تخدعنّ نفسك .

فما وعدكم الحقُّ سبحانه ستجدونه ، يقول تعالى : ﴿ وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ[1] بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (٤٤) ﴾ [الأعراف]

وقد روى أنس بن مالك رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ كان ينادى على قليب[2] بدر : يا أبا جهل بن هشام ، يا عتبة بن ربيعة ، يا شيبة بن ربيعة ، يا أمية بن خلف : هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً ، فإنِّى وجدتُ ما وعدنى ربى حقاً . قالوا : يا رسول الله تنادى قوماً قد جيَّفوا . قال : ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكنهم لا يستطيعون أنْ يُجيبوا»[3] .

وكما يكون الجمعُ جمعاً للأولين والآخرين هو أيضاً جَمْع للأتباع والمتبوعين ، وحين يجتمعون يتبرءون من بعضهم البعض ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ (١٦٦) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً[4] فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ (١٦٧) ﴾ [البقرة]

---

(١) فأذن مؤذن : أى أعلم مُعْلِم ونادى مُناد . (ابن كثير فى تفسيره ٣/٤١٧) . وقال القرطبى فى تفسيره ٧/٢٠٩) « أى نادى وصوَّت يعنى من الملائكة » . ويُروى أن طاوساً دخل على هشام بن عبد الملك فقال له : اتق الله واحذر يوم الأذان . فقال : وما يوم الأذان ؟ قال : ﴿ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (٤٤) ﴾ [الأعراف] فصعق هشام فقال : هذا ذل الصفة فكيف ذل المعاينة ؟

(٢) القليب : البئر . جمعه أقلبة وقُلب . [معجم اللغة العربية المعاصرة مادة قلب] والقليب هو البئر التى لم تطو . وقيل : العادية القديمة التى لا يعرف صاحبها فائدة . [فتح البارى لابن حجر ١/٣٥٢] .

(٣) أخرجه النسائى فى سننه (٢٠٧٥) عن أنس بن مالك وصححه الألبانى . وأحمد فى مسنده (١٨٢ ، ١٢٠٣٩ ، ١٢٨٩٦) وأبو يعلى فى مسنده (٣٨٠٨) وابن أبى عاصم فى كتابه (السنة ٢٨٧٨) .

(٤) قال الطبرى فى تفسيره (٣/٢٩٣) : « يعنى بالكرَّة الرجعة إلى الدنيا . والكرة المرة الواحدة » . وقال أبو بكر الجزائرى فى (أيسر التفاسير ١/٧٠) : كرة : رجعة وعودة إلى الحياة الدنيا .

وقد أُمر رسول الله ﷺ أنْ يخاطب قومه فيقول : ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢٤) قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٢٥) ﴾ [سبأ]

ثم يقول : ﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ (٢٦) ﴾ [سبأ] فلن نطيل معكم النقاش والحجة ، لأننا نتكلم بالحق وأنتم تتلاعبون بالباطل ، فالخلاصة معكم أنْ يفصل الله بيننا وبينكم فى محكمته الإلهية : ﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا .. (٢٦) ﴾ [سبأ] أى : يوم القيامة .

﴿ فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (١٥) ﴾ [الشورى]

فما دُمْنا لم نجتمع على الحق فى الدنيا فسوف يجمعنا الله جميعاً يوم القيامة للحساب ، حيث يجازى كلاًّ بعمله ، ويعطى كل ذى حقٍّ حقه ، وكوْنك ترد الأمر فى الحكومة إلى إله عادل فهذا دليل على أنك على الحق ، وكفى بالله حَكَماً .

والبشر إنما يفارقون الدنيا على مراحل من لدن آدم عليه السلام ، والموت يحصد الأرواح ، وقد جاء اليوم الذى يُجمع فيه هؤلاء ، وإنْ تركوا الدنيا فى أوقات مختلفة متتابعة ، فإن هذا اليوم يُجمع فيه الجميع لا يتخلف منهم أحد.

﴿ وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا (٤٧) ﴾ [الكهف] أى : لم نترك منهم أحداً.

ويقول تعالى : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا (٩٩) ﴾ [الكهف] وهذه هى النفخة الثانية ، فالنفخة الأولى نفخة الصعق ، أما الثانية فهى نفخة البعث والقيامة والجمع من القبور والأجداث[١].

---

(١) الأجداث : القبور . جمع جدث . والمجتدث : الذى يحفر الجدث ويكوِّم التراب عليه . [المحيط فى اللغة — الجيم والدال مع الثاء] .

يقول الحق سبحانه : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ (٥١) ﴾ [يس] والأجداث القبور ، وهم يخرجون من القبور كالخيوط التى نُسلتْ من القماش .

فإذا ما خرجوا من قبورهم ورأوا الحقيقة التى طالما كذَّبوها قالوا : ﴿ يَـٰوَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا .. (٥٢) ﴾ [يس] وعجيبٌ منهم أنْ يقولوا الآن ﴿ مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا .. (٥٢) ﴾ [يس] فمعنى أنهم كانوا راقدين فى مراقدهم، فمعنى هذا أنهم سيستيقظون من مرقدهم .

إنهم نسُوا أن الله ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ (٩) ﴾ [آل عمران]

فالذى يخلف الميعاد إنما تمنعه قوةٌ قاهرة تأتيه تمنعه أنْ يفعل ، أما الله فلا تأتى قوة قاهرة لتغير ما يريد أنْ يفعل ، ولا يمكن أنْ يتغير ، لأن التغيُّر ليس من صفات القديم الأزلى .

فلا يظنَّنَ كافر أو منافق أن هناك شيئاً قد ينقذه مما سيحدث فى ذلك اليوم.

ثم يقول تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ .. (٩) ﴾ [التغابن] وبه سُميت السورة ، وهو من أسماء يوم القيامة ، وهو يوم غبْن أهل الجنة أهلَ النار ، وهم يتغابنون عند الله فى المنازل فريق فى الجنة وفريق فى السعير .

فأخذ أهلُ الجنةِ الجنةَ ، وأخذ أهل النارِ النارَ على طريق المبادلة ، فوقع الغبن لأجل مبادلتهم الخير بالشر ، والجيد بالرديء ، والنعيم بالعذاب .

وهذا نراه فى حياتنا عندما نبيع ونشترى ، ويُقال فى أمثالنا لمَنْ يبيع ملكه : البائع خسران والمشترى كسبان . ولو أن ظاهر الأمر أن البائع أخذ

نقـوداً نظير عقـاره ، ولكن فى الحقيقة أن المال الذى أخـذه عُرْضة للنقصان ، بعكس مشترى العقار الذى اشترى شيئاً تزداد قيمته مع الوقت حتى وإنْ دفع فيه ثمناً غالياً .

فهـؤلاء الكافـرون باعوا منازلهـم وبيوتهم وقصورهم التـى كانت لهم فى الجنـة ، والتـى كان قـد أعدَّهـا الله لهم يـوم خلقهـم ، باعوها واشـتروا الدنيا ومتعهـا، فآلـتْ إلى أهل الجنة فزادوا نعيماً إلى نعيمهـم وتركوا مقاعدهم فى النار لمن استحقَّ النارَ يُعذب فيها .

وهـذا هو قوله تعـالى : ﴿ أُولَـئِكَ هُـمُ الْوَارِثُـونَ (١٠) ﴾ [المؤمنون] فالحق سبحانـه عندمـا خلق الخَلْق ، وجعـل فيهم الاختيار بين الإيمـان والكفر وبين الطاعة والمعصية رتَّب على ذلك أموراً ، فجعل الجنة على فرض أن الخَلْق كلهم مؤمنون بحيث لو دخلوا الجنة جميعاً لكان لكلٍّ منهم مكانه فى الجنة .

وكذلك جعل النار على فرْض أن الخَلْق كلهم كافرون ، فلو كفر الناس جميعاً لكانَ لكلٍّ منهم مكانه فى النار .

وعليـه فحين يدخل أهـلُ الجنةِ الجنةَ يتركون أماكنهـم التى لهم فى النار ، وحين يدخل أهلُ النارِ النارَ يتركون أماكنهم التى كانت لهم فى الجنة ، فيرث أهلُ النار الأماكن الشاغرة فيها ، ويرث أهلُ الجنةِ الأماكنَ الشاغرة فيها .

﴿ ذَلِـكَ يَـوْمُ التَّغَابُنِ .. (٩) ﴾ [التغابن] أى التغابن الذى لا جبرانَ لنهايته ، وقد يحدث التغابن فى الدنيا ، وذلك ما قاله الحسن وقتادة : بلغنا أن التغابن فى ثلاثة أصناف :

– رجـل علـم علماً فعلّمه وضيّعه هو ولم يعمل بـه فشقى هو ، وعمل به مَنْ تعلَّمه منه فنجا به .

– ورجل اكتسب مالاً من وجوه يسأل عنها وشحَّ عليه وفرَّط فى طاعة ربه بسببه ولم يعمل فيه خيراً ، وتركه لوارث لا حسابَ عليه فيه فعمل ذلك الوارث فيه بطاعة ربه .

– ورجلٌ كان له عبد فعمل العبد بطاعة ربه فسعد ، وعمل السيد بمعصية ربه فشقى .

ورُوى عن النبى ﷺ أنه قال : « إن الله تعالى يقيم الرجل والمرأة يوم القيامة بين يديه ، فيقول الله تعالى لهما قولاً ، فما أنتما بقائلين ؟ فيقول الرجل : يا رب أوجبتَ نفقتها عليَّ فتعسفتها[1] من حلال وحرام ، وهؤلاء الخصوم يطلبون ذلك ولم يَبْق لى ما أوفى به . فتقول المرأة : يا رب وما عسى أنْ أقول : اكتسبه حراماً وأكلتُه حلالاً ، وعصاك فى مرضاتى ولم أرْضَ له بذلك ، فبُعداً له وسُحقاً .

فيقول الله تعالى : قد صدقتِ فيُؤمر به إلى النار ويُؤمر بها إلى الجنة ، فتطلع عليه من طبقات الجنة ، وتقول له : غبنّاك غبنّاك ، سعدنا بما شقيتَ أنت به »[2] .

فالتغابن تفاعلٌ من الغَبْن وهو فوْتُ الحظِّ ، والمراد بالمغبون من غُبن عن أهله ومنازله فى الجنة ، فيظهر يومئذ غبن كلِّ كافر بتركه الإيمان ، وغبن كلِّ مؤمن بتقصيره فى الإحسان .

فى ذلك اليوم يكون الناسُ فريقين ، فريق فى الجنة وفريق فى السعير ، أما فريق الجنة فيقول تعالى عنه: ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ

---

(١) العسيف : الأجير . وأعسف : إذا سار بالليل خبط عشواء . والمعنى هنا أنه سار خبط عشواء فى تحصيل ماله من الحلال والحرام .

(٢) ذكره القرطبى فى تفسيره (١٨/١٣٧) سورة التغابن بدون عزو ولا راوٍ بصيغة رُوى وهى صيغة تمريض تفيد الضعف . حتى أن ابن عادل فى تفسيره اللباب (١/٤٩٤٢) قال : روى القرطبى .

جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٩) ﴾ [التغابن]

فمَنْ يؤمن بالله أى يؤمن فى قلبه بالله سبحانه خالقاً ورازقاً ومالكاً لملْك السماوات والأرض ، خالقاً للإنسان فى أحسن صورة ، وأنه سبحانه يبعث الناسَ جميعاً ويحشرهم ويجازيهم على أفعالهم إنْ خيراً فخير ، وإنْ شراً فشرّ .

ثم يضيف إلى هذا العمل بالمنهج الذى أرسله الله وأنزله إلى رسوله ﷺ فى كتابه : ﴿ وَالنُّورِ الَّذِى أَنْزَلْنَا .. (٨) ﴾ [التغابن] أى : أنه أضاف إلى إيمانه القلبى العقلى عملاً تطبيقياً للمنهج .

وأنت عندما تعمل عملاً صالحاً فإنه يرجع عليك بالخير ، فلا تعتقد أن العمل الصالح يخرج منك ولا يعود ، ولكنه لابدّ أن يعود عليك بالخير .

والعمل الصالح هو مراد الله من إيماننا لتستقيم حياتنا ، فإنه لا يعمل صالحاً إلا إذا كان مؤمناً ، لذلك يقول تعالى : ﴿ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ (٤٤) ﴾ [الروم] ولم يقل : فهو يمهد لنفسه ، فلماذا ؟

لأن الذى يعمل الصالح لا يعود نفعه فى الدنيا على ذاته فقط ، بل يتعدَّى نفعه إلى المجتمع كله ويزداد صلاحاً ويستقيم ، فلو أن كلَّ فرد عمل الصالح ولم يفسد وترك الصالح على صلاحه لَعمَّ الصلاح ونبتتْ نبتات طيبة ، ولحفِظَ المسلمون طاقاتهم من إهدارها فى الرذيلة .

فمَنْ عمل صالحاً سيجد صلاحَ عمله ، ومَنْ أساء فسيجد عمله السيء ، لذلك فمَنْ عمل صالحاً يفرح بالرجوع إلى الله ، ومَنْ عصى وكفر فهو يحزن ويخاف ويتردد ويحاول ألاَّ يرجع ، ولكنه يرجع رغم أنفه .

هذا المؤمن بالله العامل بالصالحات قد يقع فى السيئات ، وخالق الخَلْق

يعلم ما خلقه ، لذلك قال بعدها : ﴿ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ .. (٩) ﴾ [التغابن]

فالحق سبحانه يذكر جزاء الإيمان والعمل الصالح : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (٧) ﴾ [العنكبوت]

وهنا تتجلَّى العظمة الإلهية ، حيث بدأ بتكفير السيئات وقدَّمها على إعطاء الحسنات ، فالتخلية قبل التحلية ، فهو سبحانه يُكفِّر عنه سيئاته ثم يُثيبه على أعماله الصالحة بإدخاله الجنةَ .

وكأنَّ الحقَّ سبحانه يقول لعباده : اطمئنوا فسوف أُطهركم من هذه الذنوب أولاً قبل أنْ أعطيكم الحسنات ، فالإنسان بطبعه أميلُ إلى السيئة منه إلى الحسنة .

بل هناك ما هو أعظم من هذا عند الله ، ففى آية أخرى يقول سبحانه : ﴿ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٧٠) ﴾ [الفرقان]

فالأمر لا يقف عند تكفيرها وتطهير المؤمن منها ، بل إن الأمر يتعدَّى هذا أنْ تُبدَّل له السيئات فتصبح حسنات ، وفى موضع آخر يقول سبحانه : ﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ .. (١١٤) ﴾ [هود]

وفى الحديث الشريف : « وأتبع السيئةَ الحسنةَ تمحُها »[1] .

فعطاء الله لا نهايةَ له ، ما دمتَ قد آمنتَ بالله وبرسوله وبالكتاب الذى أنزله الله على رسوله الذى وصفه الله بالنور، وهو تكفير سيئاتك وتطهيرك منها ، ثم إبدال سيئاتك حسنات ، ثم يعطيك ثواب ما عملت من العمل الصالح .

---

(١) عن أبى ذر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « اتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن » . أخرجه الترمذى فى سننه (١٩٨٧) وأحمد فى مسنده (٢١٣٩٢، ٢١٤٤١) والبزار فى مسنده (٤٠٢٢) والحاكم فى مستدركه (١٧٨) وقال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه . ووافقه الذهبى .

فكأنّ الله يُطهرك من ذنوبك وسيئاتك ويُكفّرها عنك لتكون محلاً طيباً صالحاً لاستقبال ثواب الله ، ولتعيش فى جنته طاهراً مُطهراً قبل أنْ تدخلها ، قد حلَّتْ عليك نعمةُ الله وثوابه فتدخل مُكرّماً .

بل إن الحقَّ سبحانه سيُطهر المؤمنين من غِلِّ قلوبهم وأمراض قلوبهم يقول تعالى : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَـٰذَا .. (٤٣) ﴾ [الأعراف]

فالمؤمنون فى الآخرة مطهرون من كلِّ نقائص الدنيا ومتاعبها، وأولها الغلّ والحقد .

وجزاء هؤلاء المؤمنين العاملين بالصالحات المطهرين من ذنوبهم وآثامهم جزاءٌ عظيم : ﴿ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ .. (٩) ﴾ [التغابن] ولم يقل : يسكنه . بل قال : يُدخله . والدخول فى ذاته هو فوز عظيم لا يدانيه فوز .

يقول تعالى : ﴿ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ .. (١٨٥) ﴾ [آل عمران] فمجرد أنْ تُزحزح عن النار فوزٌ عظيم ، فأولى درجات الفوز أنْ يُزحزح الإنسانُ عن النار ولو إلى الأعراف .

فمجرد الزحزحة عن النار نعيم ، وعندما تقول : زحزحتُ فلاناً ومعناه أنه كان متوقفاً برعب وقد رأى النار بأُم عينه وهى تُسعَّر وتُوقد وتشتعل وتحطم بعضُها بعضاً ، فإذا زحزح عنها فهذا نعيم ما بعده نعيم .

ولكن الله سيُدخله الجنة : ﴿ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ .. (٩) ﴾ [التغابن] فهى ليستْ جنة واحدة بل جناتٍ ، منها ما يخصّه ، ومنها ما يعمّ الجميع ويشتركون فيه .

ورسول الله ﷺ يقول : « موضع سَوْطٍ فى الجنة خير من الدنيا وما فيها،

اقـرأوا إنْ شئتـم : ﴿ فَمَـنْ زُحْـزِحَ عَنِ النَّـارِ وَأُدْخِـلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَـازَ .. (١٨٥) ﴾ [آل عمران]»[1] .

وهى جنات : ﴿ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ .. (٩) ﴾ [التغابن] ليست نهراً واحداً ، بل هـى أنهـارٌ جارية تجرى من تحت الجنات ، وقد فصّل الحق سبحانه هذه الأنهار ، فقال : ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِى وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى .. (١٥) ﴾ [محمد]

ماء ولبن وخمر وعسل ، وليس هذا فقط ، بل : ﴿ وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ .. (١٥) ﴾ [محمد]

هـذه الجنات وهذه الأنهـار سيُقيمون فيها خالدين أبـداً ، فلن يُخرجهم من نعيـم الله أحـدٌ ، وما داموا هـم خالدين فيها فكذلك هذا النعيـم خالد لا ينقطع عنهم ولا يتغيَّر ولا يزول ولا ينقص .

﴿ ذَلِـكَ الْفَـوْزُ الْعَظِيـمُ (٩) ﴾ [التغابن] فالفوز الـذى تحصله فى الدنيا من إيمانك ومن عملك الصالح ليس هو الفوز العظيم ، بل هناك ما هو أعظم ، وهو مثوبة الله لك يوم القيامة .

فـأيُّ نعيم تُحصِّله فى الدنيا زائل ، وأيُّ جائزة أو فوْز فى الدنيا ذاهب ، أما فوزك يوم الجمع فهو الفوز العظيم ، لأنه فوزٌ ليس بعده خسران .

ثم يقول الحق سبحانه :

---

(١) عن سهل بن سعد الساعدى قال قال رسول الله ﷺ : « موضع سوط فى الجنة خير من الدنيا وما فيها» أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٢٥٠ ، ٦٤١٥) وأضاف : « ولغدوة فى سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها » . أما أبو هريرة فقد رواه باللفظ الذى معنا ، أخرجه الترمذى فى سننه (٣٠١٣) وقال : حسن صحيح . والحاكم فى مستدركه (٣١٧٠) وصححه على شرط مسلم ، وابن حبان فى صحيحه (٧٤١٧) وحسَّن إسناده شعيب الأرناؤط .

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٠﴾﴾

حدَّثنا الحق سبحانه فى الآية السابقة فقال : ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا .. (٩) ﴾ [التغابن] ثم حدَّثنا عن ثوابهم فقال : ﴿ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٩) ﴾ [التغابن]

كذلك هنا قال سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ ثم قال : ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٠) ﴾ [التغابن] ، فكان جزاء الذين كفروا وكذَّبوا بآيات الله أنهم أصبحوا أصحابَ النار ، يُصاحبونها وتُصاحبهم .

والناس إما مؤمنون وإما كافرون ، هكذا خلقهم الله : ﴿ هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ .. (٢) ﴾ [التغابن] لذلك دائماً يُحدِّثنا القرآن عن الفريقين ، فيقول : ﴿ فَرِيقٌ فِى الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى السَّعِيرِ (٧) ﴾ [الشورى]

وقد تكلَّمنا عن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وعن ثوابهم ، ثم ثنَّى الحق سبحانه الكلامَ عن الذين كفروا ، فقال : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا .. (١٠) ﴾ [التغابن]

والكفر هو محاولة سَتْر وجود الله واجب الوجود ، وسَتْر وجود الله سبحانه هو إثباتٌ لوجوده ، لأنك لا تستر شيئاً غير موجود ، وهكذا يكون الكفرُ مثبتاً للإيمان .

وكيف تكفر بالله تبارك وتعالى وتستر وجوده ، وكلُّ ما فى الكون وما فى

نفسك شاهدٌ ودليل على وجود الحق سبحانه .

والذين كفروا صنفان .. صنف كفر بالله وعندما جاء الهدى حكّم عقله وعرف الحق فآمن ، والصنف الآخر مستفيد من الكفر ولذلك فهو متشبثٌ بالكفر مهما جاءه من الإيمان والأدلة الإيمانية والآيات فإنه يعاند ويكفر .

فهو يريد أنْ يحتفظ بسلطاته الدنيوية ، ونفوذه القائم على الظلم والطغيان، ولا يقبل أنْ يُجرَّد منهما ولو بالحق ، هذا الصِّنف هو الذى قال عنه الله تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٦) ﴾ [البقرة]

إنهم لم يكفروا لأن بلاغاً عن الله سبحانه وتعالى لم يصلهم ، ولم يكفروا لأنهم فى حاجة إلى أنْ يلفتهم رسولٌ أو نبيٌّ إلى منهج الله ، هؤلاء اتخذوا الكفرَ صناعةً ومنهجَ حياة ، فهم مستفيدون من الكفر لأنه جعلهم سادة . ولأنهم متميزون عن غيرهم بالباطل ، ولأنهم لو جاء الإيمانُ الذى يساوى بين الناس جميعاً ويرفض الظلم لأصبحوا أشخاصاً عاديين غير مُميزين فى أيِّ شيء .

وهم لم يستحقُّوا أنْ يكونوا أصحابَ النار لمجرد أنهم كفروا ، بل أيضاً لأنهم: ﴿ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا .. (١٠) ﴾ [التغابن]

هؤلاء الذين كذَّبوا بآيات الله وصفهم الله بأنهم : ﴿ صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ (٣٩) ﴾ [الأنعام] والصَّمم آفةٌ تصيب الأذن فلا تسمع ، والبكم آفةٌ تُصيب اللسانَ فلا ينطق .

ومعنى أنهم : ﴿ صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ .. (٣٩) ﴾ [الأنعام] أنهم بلا قدرة أيضاً على إبصار الهداية من أيِّ ناحية ، صُمٌّ لا يسمعون لكلمة الحق ، وبُكْم لا ينطقون ، وفى ظلماتٍ لا يهتدون إلى إدراكات الأشياء ولا إلى الإيمان .

والذين كذَّبوا بآيات الله هم إما مَنْ كذَّب الرسول فى الآيات الدالة على

صِدقِهِ وهو المبلِّغ عن الله ، وهؤلاء دخلوا فى دائرة الكفر ، وإما هم الذين كذَّبوا بآيات المنهج .

ومَنْ يكذِّب الآيات ويستكبر عن اتباع الرسول لا تُفتَّح له أبواب السماء ، يقول تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ (٤٠) ﴾ [الأعراف]

وبذلك نعرف مَنْ هم الذين لا تُفتَّح لهم أبواب السماء ، وبطبيعة الحال نعرف أن المقابلين لهم هم الذين تُفتَّح لهم أبواب السماء ، إنهم المؤمنون . وحين تصعد أرواحهم إلى الملأ الأعلى تجد أعمالهم الصالحة تصعد وترتفع بهم إلى أعلى ، أما المكذِّبون فهم لا يترقون بل يهبطون ولا يدخلون الجنة .

وقد علّق سبحانه دخولهم الجنة بمستحيل عقلاً وعادة وطبعاً ﴿ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ .. (٤٠) ﴾ [الأعراف]

و(سَمّ الخياط) هو ثُقب الإبرة ، أى : الذى تُدخل فيه فتلة الخيط ، ولا تدخل فتلة الخيط فى الثقب إلا أنْ يكون قُطر الفتلة أقلَّ من قطر الثقب ، وأنْ تكون الفتلةُ من الصلابة بحيث تنفذ ، وأنْ تكونَ الفتلةُ غير مستوية الطرف ، لأنها إنْ كانت مقصوصة وأطرافها مستوية فهى لا تدخل فى الثقب ، لذلك نجد الخياط يجعل للفتلة سِناً ليُدخلها فى ثقب الإبرة .

وحين تأتى بالجمل وتقول له : ادخل فى سمِّ الخياط فهل يستطيع ؟ طبعاً لا، لذلك نجد الحق سبحانه قد علَّق دخول هؤلاء الجنةَ على مستحيل .

والذين كذَّبوا بآيات الله الكونية ولم يعتبروا بها ولم يستنبطوا منها وجود إله قوى قادر حكيم ، وكذبوا الآيات المعجزات لصدق النبوة ، وكذلك كذَّبوا آيات القرآن فلم يعملوا بها ولم يتمسَّكوا بها ، هؤلاء يلقون الحكم من الله فلن

يُدخلهم الحقُّ الجنة .

وإذا كان مشركو قريش قد كفروا بآيات الله ، فلماذا يكفر أهل الكتاب الذين يؤمنون بوجود الله ، ونزلتْ عليهم الكتب السابقة ، لذلك يقول سبحانه وتعالى لرسول الله: ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَاللهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ (٩٨) ﴾ [آل عمران]

فكفرهم بآيات الله ليس سَتْراً أولياً لها ، إنما هم آمنوا بالله وآمنوا بأن له آيات ، وكانت البشارات بالإسلام وبمحمد ﷺ مكتوبةً فى التوراة ومكتوبة فى الإنجيل ، وهم قد آمنوا بها قبل أنْ يجيء سيدنا رسول الله ، فلما جاء رسول الله بالفعل كفروا بها .

وفى هذا جاء القول الكريم : ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ[1] عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٨٩) ﴾ [البقرة]

وفى آية أخرى يقول تعالى : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (٧٠) ﴾ [آل عمران]

إن الحق يسألهم على لسان رسوله ﷺ : لم تكفرون بآيات الله العجيبة وأنتم تشهدون ؟ لقد كانوا يستفتحون على مَنْ يقاتلونهم بمجيء نبى قادم .

إنهم كانوا يدعون الله قائلين : إنّا نسألك بحقِّ النبى الأمى الذى وعدتنا أنْ

---

(١) أخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر وأبو نعيم والبيهقى كلاهما فى الدلائل من طريق عاصم ابن عمر بن قتادة الأنصارى حدثنى أشياخ منا قالوا : لم يكن أحد من العرب أعلم بشأن رسول الله ﷺ منا ، كان معنا يهود وكانوا أهل كتاب وكنا أصحاب وثن وكنا إذا بلغنا منهم ما يكرهون قالوا : إن نبياً يُبعث الآن قد أظل زمانه نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم . فلما بعث الله رسوله اتبعناه وكفروا به ، ففينا والله وفيهم أنزل الله ﴿ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٨٩) ﴾ [البقرة] أورده السيوطى فى [الدر المنثور ١/٤٥٦] .

تُخرجه لنا فى آخر الزمان إلا تنصرنا عليهم ، فكانوا يُنصرون على أعدائهم فلما بُعث ﷺ كفروا به بغياً وحسداً .

لقد كفروا من أجل السلطة الزمنية ، فقد كانوا يريدون الملْك والحكم ، وهؤلاء لم يلجئوا فقط لمجرد التكذيب ، بل قاموا بتحريف ما بأيديهم من الكتب الدالة على صحَّة نبوة رسول الله .

وصنف آخر كذّب بالبعث والحشر يوم القيامة ثم الحساب والجزاء ، وكذّب بآيات الله الظاهرة للعيان فى الكون ، والتى تدلُّ بذاتها على قدرة الله على البعث والإعادة .

وهؤلاء ذكرهم فى السورة التى معنا ، فقال تعالى : ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا .. (٧) ﴾ [التغابن] هؤلاء أكَّد الحقُّ سبحانه لهم ﴿ قُلْ بَلَى وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ .. (٧) ﴾ [التغابن]

هؤلاء لن يدخلوا فقط النار ، بل سيُصبحون هم أصحابها ، سيُصبحون أصحابَ دار كما نقول فى الريف ، فبئس الدارُ دارهم ، دارُ نار وسعير وزقّوم وعويل وصياح وصديد وسلاسل وقيود واحتراق أجساد .

يقول تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا (٥٦) ﴾ [النساء]

فالحق يُديم عليهم الحياة ليُديم عليهم التعذيب ، إنهم سيذوقون العذاب بأمر من الحق دائماً وأبداً ، وقد توصَّل العلم إلى أن الإنسان تقلُّ حساسيته للألم الناتج من الضرب بالسوط بعد العشرين سوطاً الأولى ، وهو بذلك ينسى أن العذاب فى الآخرة على نمط آخر .

إن الله يخلُق للمعذّب إحساساً جديداً ليظلَّ مُستشعراً دائماً العذاب ، قال تعالى: ﴿ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (٨٨) ﴾ [آل عمران]

وهكذا يستمر العذاب باستمرار الجلود وتبديلها ، والمعروف عن النار أنها تأكل ما فيها ثم تنتهى ، أما هذه النار فلا نهايةَ لها ، فكلما نضجتْ جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ، وهكذا تظلُّ النارُ متوقدة لا تنطفيء .

ثم يُحدِّثنا الحق سبحانه عن هؤلاء الذين كفروا وكذَّبوا بآيات الله ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ .. (١٠) ﴾ [التغابن]

والحق سبحانه جمع الكافرين والمكذبين بآيات الله فى عقاب واحد ، فقال: ﴿ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ .. (١٠) ﴾ [التغابن] والصاحب هو الذى يألف صاحبه ويحب أنْ يجلس معه ويقضى أجمل أوقاته .

فكان قوله تعالى ﴿ أَصْحَابُ النَّارِ .. (١٠) ﴾ [التغابن] دليلاً على عشق النار لهم فهى تفرح بهم عندما يدخلونها ، كما يفرح الصديق بصديقه ولاتريد أنْ تفارقهم أبداً ، ولذلك اقرأ قول الحق سبحانه : ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ (٣٠) ﴾ [ق]

وهكذا نرى مدى العشق بين النار والكافرين ، إن النار تصاحبهم فى كلِّ مكان ، وهى ليستْ مصاحبة كريمة بالنسبة للنار ، ولكنها مصاحبة تحبُّها النار ، فالنار حين تحرق كل كافر وآثم ومنافق تكون سعيدة لأنها تعاقب الذين كفروا بمنهج الله وكذَّبوا بآياته فى الحياة الدنيا .

وكذلك الحال بالنسبة للجنة . فإن الجنة أيضاً تحب مصاحبة كلِّ مَنْ آمن بالله وأخلص له العبادة وطبَّق منهجه ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

وَأَخْبَتُوا(١) إِلَى رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٣) ﴾ [هود]

أى أن الجنة تصاحب المؤمنين وتحبهم وتلازمهم مثلما تصاحب النار الكافرين والمكذِّبين ، وكما أن النار تكون سعيدة وهى تحرق الكافر فالجنة تكون سعيدةً وهى تُمتع المؤمن .

فـ ﴿ أَصْحَابُ النَّارِ .. (١٠) ﴾ [التغابن] يعنى : أنْ يصاحب ويلازم المذنب النارَ كما يصاحب ويلازم الإنسانُ منا صاحبه، لأن النار على إلْفٍ بالعاصين، وهى التى تتساءل ﴿ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ (٣٠) ﴾ [ق]

فالصُّحبة تقتضى نوعاً من الملازمة فيها تجاذبُ المتصاحبين ، ومعنى ذلك أنه سيكون هناك تجاذبٌ بينهم وبين النار .

وكلمة (صاحب) تُطلق على مَنْ تعرفه معرفةً تروق كيانك وذاتك، فهناك مَنْ تصاحبه ، وهناك مَنْ تصادقه ، وهناك مَنْ تؤاخيه ، وهناك مَنْ تعرفه معرفةً سطحية ولا تقيم علاقةً عميقة معه .

إن المعرفة مراتب والصحبة تآلفٌ وتجاذبٌ بين اثنين ، ومَنْ يصاحب النار فهو مَنْ تعشقه النار ويعشق هو النار .

وهناك أيضاً ﴿ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١٠) ﴾ [المائدة] فقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ .. (١٠) ﴾ [المائدة]

وحين نسمع قوله تعالى : ﴿ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ .. (١٠) ﴾ [المائدة] تتزلزل النفوس رهبة من تلك الصُّحبة التى نبرأ منها ، فالصُّحبة كما قلنا تدلُّ على التلازم وتعنى الارتباط معاً ، وألاّ يتركَ أحدُهما الآخر ، كأن الجحيمَ لا تتركهم وهم لا يتركون الجحيم ، بل تكون الجحيمُ نفسُها فى اشتياق لهم .

---

(١) ورد فى معنى (أخبتوا) سبعة معان : خافوا ربهم ، أنابوا إلى ربهم ، وثابوا إلى ربهم ، اطمأنوا ، أخلصوا ، تخشّعوا لربهم ، تواضعوا لربهم . أوردها ابن الجوزى فى زاد المسير ٣/٣٣٣ .

وللجحيم يوم القيامة عملان ، العمل الأول الصحبة التى لا يقدر الكافر على الفكاك منها ، والثانى لا تترك الجحيمُ فرصةً للكافر ليفكّ منها . ولأن النار تعشق هؤلاء الكافرين وتنتظرهم ، قال تعالى : ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا[1] حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا .. (٧١) ﴾ [الزمر] أما أهل الجنة وأصحابها فيقول سبحانه : ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا .. (٧٣) ﴾ [الزمر]

فالنار تُفتَّح أبوابها بمجرد ورود الكفار مُساقين إلى النار زمراً وجماعات، وكما نقول نحن : من الدار للنار .

أما أهل الجنة فهناك حفلُ استقبال لهم وتكريم على أبواب الجنة ، فجاءت الواو ﴿ وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا .. (٧٣) ﴾ [الزمر] مُشعرةً بأنّ أبوابَ الجنة تُفتح على تُؤدة ومهل للاحتفاء بالأبرار الوافدين لتستقبلهم الملائكةُ على أبواب الجنة، أما الذين كفروا وكذَّبوا بآيات الله الذين هم أصحاب النار فيُؤخذون من الموقف العظيم المهول إلى تنفيذ العقوبة عليهم فوراً ، بل إنهم يُدفعون دَفْعاً ويُزجرون زجْراً .

يقول تعالى : ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا (١٣) ﴾ [الطور] أى يوم يُدفعون إلى نار جهنم دفعاً ، ويُساقون إليها سَوْقاً عنيفاً ، ويُجرُّون على وجوههم ويُقال لهم توبيخاً ولوْماً ﴿ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٤) ﴾ [الطور] فاليوم ذوقوا عذاب الخُلْد الذى لا يبلغ قدره ولا يُوصف أمره .

والدَّع هو الدفْع بعنف وجفْوة ، والمعنى أنهم يُدفعون إلى النار دفعاً عنيفاً شديداً ، وقال مقاتل : تُغلّ أيديهم إلى أعناقهم ، وتُجمع نواصيهم إلى أقدامهم ، ثم يُدفعون إلى جهنم دفْعاً على وجوههم .

---

(١) زمراً : جماعات . وقال ابن كثير فى تفسيره (١١٩/٧) : أى جماعة بعد جماعة . وقال البغوى : أفواجاً بعضها على إثر بعض : كل أمة على حدة . وقال السعدى : أى فرقاً متفرقة كل زمرة مع الزمرة التى تناسب عملها وتشاكل سعيها .

﴿ خَالِدِينَ فِيهَا .. (١٠) ﴾ [التغابن] هو قطعٌ لأمل هؤلاء الكافرين المكذِّبين لآيات الله فى أنْ يخرجوا من هذا العذاب ، إنه الخلود الذى لا يفنى ، ولا يتركه الإنسانُ ولايترك هو الإنسان .

فهم أصحاب النار تلازمهم ويلازمونها ، فلا هى تزولُ عنهم ولا هم يُزحزحون عنها .

ولكن هل الخلود هو المكْث طويلاً أو على طريقة التأبيد ؟ بمعنى أن زمن الخلود لا ينتهى ، ولو أن زمن الخلود لا ينتهى لَمَا وصف الحق سبحانه المكث فى النار مرةً بقوله : ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا .. (٨٨) ﴾ [آل عمران] ومرة أخرى بقوله : ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا .. (١٦٩) ﴾ [النساء]

هذا القول يدلُّ على أن لفظ التأبيد فى « أبداً » فيه ملحظٌ يزيد على معنى الخلود دون تأبيد ، وإذا اتحد القولان فى أن الخلود على إطلاقه يفيد التأبيد ، وأن ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا .. (١٦٩) ﴾ [النساء] تفيد التأبيد أيضاً ، فمعنى ذلك أن لفظ « أبداً » لم يأتِ بشىء زائد ، والقرآن كلامُ الله ، وكلامُ الله مُنزَّه عن العبث أو التكرار .

إذن : لابد من وقفة تفيدنا أن الخلود هو المكْث طويلاً ، وأن الخلود أبداً هو المكث طويلاً طُولاً لا ينتهى ، فكلُّ لفظٍ فى القرآن محكم وله معنى .

ثم إن كلمة (خالدين) حين وردتْ فى القرآن فإننا نجد الحقَّ سبحانه وتعالى يقول فى خلود النار : ﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ (١٠٥) فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ[1] وَشَهِيقٌ (١٠٦) خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ (١٠٧) ﴾ [هود]

---

(١) زفير وشهيق : أى صوت شديد وهو الزفير ، وصوت ضعيف وهو الشهيق . قاله أبو بكر الجزائرى فى تفسيره (أيسر التفاسير) . وقال السمرقندى فى بحر العلوم (٢/٣٥٥) : قال الربيع بن أنس : الزفير فى الحلق والشهيق فى الصدر . وروى عن ابن عباس أنه قال : زفير كزفير الحمار وهو أول ما ينهق الحمار والشهيق ، وهو أول ما يفرغ من نهيقه فى آخره . معناه : أنيناً وصراخاً .

ولم يقُل الحقُّ سبحانه بالخلود فى النار أبداً إلا فى ثلاث آيات فقط فى القرآن الكريم :

فى قوله تعالى : ﴿ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (١٦٩) ﴾ [النساء] ، وقوله جلَّ جلاله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا (٦٤) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (٦٥) ﴾ [الأحزاب] ، وقوله جلَّ جلاله : ﴿ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا (٢٣) ﴾ [الجن]

وقال رسول الله ﷺ : « يُؤتى بالموت كهيئة كبش أملح[1] ، فينادى مُنادٍ : يا أهل الجنة فيشرئبون وينظرون . فيقول : هل تعرفون هذا ؟ فيقولون : نعم هذا الموت . وكلهم قد رآه .

ثم ينادى : يا أهل النار فيشرئبون وينظرون ، فيقول : هل تعرفون هذا ؟ فيقولون : نعم هذا الموت . وكلهم قد رآه ، فيُذبح .

ثم يقول : يا أهلَ الجنة خلودٌ فلا موت . ويا أهلَ النار خلودٌ فلا موت »[2].

ثم قرأ ﴿ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ .. (٣٩) ﴾ [مريم]

وهؤلاء فى غفلة أهل الدنيا ﴿ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ .. (٣٩) ﴾ [مريم]

فتجسيد الموت فى صورة كبْش معناه أن للموت كينونةً ، ويُعلمنا الله أنه يقضى على الموت فنحيا فى خلود بلا موت ، فالله يجسد الموت أمامهم كهيئة كبش أملح ، فيشرئب أهل الجنة وأهل النار ناظرين إلى هذا الذى جِيءَ به

---

(١) الكبش الأملح هو الذى فى أطراف صوفه بياض يشتمل على سائر جسده [الاشتقاق لابن دريد ١٢/١] قال الكسائى وأبو زيد : الأملح الذى فيه بياض وسواد ويكون البياض أكثر . [ابن منظور فى لسان العرب – مادة : ملح] .

(٢) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٧٣٠) ومسلم فى صحيحه (٧٣٦٠) وكذا أخرجه الطبرانى فى المعجم الكبير (١٣١٦٥) .

فيروْنـه ويتحقَّقـون منه أنه الموت. فيذبحه الله أمامهم ، وهذا قطْعٌ لأمل الذين كفروا فى النجاة مما هم فيه من العذاب ، فالموتُ قد مات .

والحـق سبحانه كمـا أثبتَ الخلـود فى النار لهـؤلاء الكافريـن الذين كذَّبوا بآيـات الله ، فهـو سبحانه قطـع أملهم أيضاً فى تخفيف العـذاب عنهم أو حتى النظر فى أمرهم ، أو إليهم ، سواء كان نظراً حقيقياً أو نظر رحمة .

يقول تعالى : ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (١٦٢) ﴾ [البقـرة] فلا يجـب أنْ يعيشوا على أمل أن العذابَ فى الآخرة سيُخفف عنهم أو ستقلّ درجته أو تنقص مدته ، أو سيأتى العذاب يوماً ولا يأتى يوماً .

فالإنسان عندما يُعذَّب بشيء ، فإن تكرارَ العذاب عليه ربما يجعله يألف العذاب، ولكن الواقع يقول : إن العذابَ يشتد عليه ، فالتخفيف لا علاقةَ له بالزمن.

فالعـذاب يظلّ دائماً أبداً ، وقد يظنُّ بعض الناس أن الكافر ما دام سيدخل النار ويحـترق فسوف ينتهـى أمره ، لا إنه يغفل قضية ويذكر قضيـة ، إنه يتناسى قوْلَ الحق سبحانه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ[1] نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا (٥٦) ﴾ [النساء]

وعذابهم مؤكد ولا يتركهم الحق ليستريحوا من عذابهم ، وقد قال تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ (٤٩) ﴾ [غافر]

ويقـول تعـالى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (٨٦) ﴾ [البقرة] ولا يملك أحدٌ تخفيفه . ويقول تعالى أيضاً : ﴿ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ (٧٧) ﴾ [الزخرف]

فأصحاب النار ينادون مالكاً خازنَ النار ﴿ يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ .. (٧٧) ﴾

---

(١) سوف نصليهم : سوف ننضجهم فى نار يُصلوْن فيها أى يشوون فيها [الطبرى فى تفسيره (٨/ ٤٨٤) وقال البغوى فى تفسيره : ندخلهم ناراً . قال السمرقندى (١/ ٣٩٣) يقال : صلى إذا دخل النار لأجل شيء وأصلاه إذا أدخله للاحتراق . والاصطلاء بالنار الاستدفاء .

[الزخرف] يعنى : بالموت لنستريح مما نحن فيه من العذاب الدائم الذى لا ينتهى .

﴿ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ (٧٧) ﴾ [التغابن] أى : باقون فى النار خالدون فيها لأنه لاعذر لكم . وهكذا قضى الله الأمرَ ليقطع الأملَ على الكفار الذين قد يظنون أن الموت سيأتى ليُخرجهم مما هم فيه من العذاب ويُريحهم ، فقطع الله عليهم هذا الأمل وآيسهم منه ، حيث جاء بالموت مُشخَّصاً وذبحه أمامهم، فلا موتَ بعد الآن ، فقد مات الموت .

لذلك وصف الحق سبحانه مصيرهم هذا بأنه ﴿ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٠) ﴾ [التغابن]

والمصير هو المرجع الأخير لأى شيء ، ومعنى ﴿ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٠) ﴾ [التغابن] أى : ساءتْ نهايتكم ومرجعكم . وهى تُستعمل لذمٍّ وتقبيح الشيء . فحين تكون النار هى المأوى الأخير الدائم ، أليس ذلك هو بئس المرجع ؟

إنهم لم يجدوا منفذاً إلا أنْ يدخلوا جهنم ، وهى بطبيعة الحال بئس المصير.

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ (١١) ﴾

لاشيء يخرج عن تقدير الله ، وقد جفَّ القلم على ما كُتب ، وعلى ما قُدر ، فلا يستطيع أحدٌ أنْ يتأبَّى على الله إذا أراد أنْ يُمرضه أو يُفقره أو يُميته .

فليس فى كوْن الله شيءٌ يستطيع الخروج عن مرادات الله ، وما دُمْتَ لا تقدر فلتخضع راضياً وتكسب الأمر ، وتأخذ الصبر على مقادير الله ، لتذوق

وتستعذب طعم الإيمان بأنَّ الله عليم ، وأنه حكيم وأنه قادر .

وقال عبادة بن الصامت[١] لابنه : يا بُنى إنك لن تجد طعمَ حقيقة الإيمان حتى تعلم أنَّ ما أصابك لم يكُنْ ليُخطئك ، وما أخطأك لم يكُنْ ليصيبك . سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « إن أول ما خلق اللهُ القلم فقال له : اكتب . قال : ربِّ وماذا أكتب ؟ قال : اكتب مقادير كلِّ شيء حتى تقوم الساعة . يا بُنى إنى سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « مَنْ مات على غير هذا فليس منى »[٢] .

والحق سبحانه يقول هنا : ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١١) ﴾ [التغابن]

فبعد أنْ ذكر الحقُّ سبحانه ثوابَ مَنْ آمن ، فقال : ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٩) ﴾ [التغابن]

ثم ذكر سبحانه جزاء من كفر ، فقال : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٠) ﴾ [التغابن]

أراد الحقُّ سبحانه أنْ يوضح لنا عناصر هذا الإيمان الذى طلبه من الناس ﴿ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِى أَنْزَلْنَا وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٨) ﴾ [التغابن]

إيمانٌ بالله ، وإيمانٌ برسوله ، وإيمانٌ بالكتاب الذى أُنزل معه وهو القرآن، ثم إيمانٌ بالقدر ، لذلك قال تعالى هنا : ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ .. (١١) ﴾ [التغابن]

---

(١) هو : عبادة بن الصامت بن قيس الأنصارى الخزرجى أبو الوليد ، صحابى ، ولد ٣٨ قبل الهجرة . من الموصوفين بالورع ، شهد العقبة وكان أحد النقباء وبدراً وسائر المشاهد ، ثم حضر فتح مصر ، وهو أول من ولى القضاء بفلسطين ومات بالرملة أو ببيت المقدس عام ٣٤ هجرية عن ٧٢ عاماً ، كان من سادات الصحابة . [الأعلام للزركلى ٣/٢٥٨] .

(٢) أخرجه أبو داود فى سننه (٤٧٠٢) والبيهقى فى السنن الكبرى (٢١٤٠٠) والطبرانى فى مسند الشاميين (٥٩) والبيهقى فى القضاء والقدر (٨) وأبو نعيم الأصفهانى فى حلية الأولياء (٥/٢٤٨) عن عبادة بن الصامت رضى الله عنه .

وقد روى عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم إذ طلع علينا رجلٌ شديدُ بياضِ الثياب . شديدُ سواد الشعر لا يُرى عليه أثرُ السفر ، ولا يعرفه منَّا أحدٌ ، حتى جلس إلى النبى ﷺ ، فأسند رُكْبتيه إلى رُكْبتيه ، ووضع كفَّيه على فَخِذيه .

قال : يا محمد أخبرنى عن الإيمان ، فقال رسول الله ﷺ : أنْ تؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره قال : صدقتَ »[1] .

فهناك أشياء تجرى على الإنسان لا اختيارَ له فيها كأنْ يمرض ولا يقدر أنْ يقول : لا لن أمرض . أو قد يأتيه الموتُ فلا يقدر أنْ يقول : لن أموت .

وقد يهلك ماله أو تحترق داره فلا يستطيع رفْع القدر ، والمصائب هى من قَدر الله عزَّ وجل ، وهى تأتى لإفادة المؤمن ، فالمؤمن حين يُصاب إمَّا أنْ يُكفِّر الله عنه ذنباً ، وإمَّا أنْ يرفعه درجةً .

فإنْ استقبل المؤمن المصيبةَ بالرضا وعلم أنَّ الذى أجراها عليه حكيم ولا يجرى عليه إلا ما يعلم سبحانه أنه الخير وإنْ لم يعلمه المصاب ، فهو ينال الثواب على الصبر والأجر على الرضا ، وهكذا يخرج من دائرة الألم العنيف .

فالمؤمن يستقبل كلَّ قدر الله عليه بالرضا ، فالذى يُجرى عليه القدر ما دام لم يأمره بما لم يقع فى اختياره فهو حكيم ، ولا يُجرى سبحانه عليه إلا ما كان فى صالحه ، وبعد أنْ ترضى النفس بما أجرى عليها تعرف الحكمة .

فلو أحسنتَ استقبال القدر فيما يمرُّ بك من أحداث ، لعلمتَ تقصيرك فيما لك فيه دخْلٌ بأىِّ حادث وقع عليك نتيجة لعملك ، أما ما وقع عليك ولا دخْلَ لك

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٣٦٧) والنسائى فى سننه (٤٩٩٠) والطيالسى فى مسنده (٢١) والبيهقى فى سننه الكبرى (٢١٣٩٣) من حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وهو حديث جبريل يسأل عن الإسلام والإيمان والإحسان وقد كان على هيئة بشرية .

فيه فهذا من أمر القدر الذى أراده الحق لك لحكمةٍ قد لا تعلمها وهى خيرٌ لك .

إذن : استقبال القدر إنْ كان من خارج النفس فهو لك ، وإنْ كان من داخل النفس فهو عليك ، ولو قمتَ بإحصاء ما ينفعك من وقوع القدر عليك لوجدته أكثَر بكثير مما سلبه منك .

فعلى الإنسان المؤمن أنْ يكون موصولاً بالمسبِّب الأعلى وأنْ يتوكل عليه سبحانه وحده ، وأنْ يعلم أن التوكل على الله يعنى أن تعمل الجوارحُ ، وأنْ تتوكلَ القلوب ، لأنّ التوكلَ عملُ القلوب وليس عمل القوالب .

ولينتبه كلٌّ منَّا إلى أن الله قد يُغيِّب الأسباب كى لا نغتر بها ، وبذلك يعتدل إيمانك به ويعتدل إيمان غيرك ، فتسجد لله شكراً ، مُتقبِّلاً قضاء الله وقدره .

ولهذا يقول الحق سبحانه : ﴿ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٢١٦) ﴾ [البقرة]

وهكذا نجد أن مَنْ يقبل قدرَ الله فيه ، ويذكر أنَّ له رباً فوق كل الأسباب فالاطمئنان يعمر قلبه أمام أىِّ حدث مهما كان .

والمسلم إذا استسلم لقضاء الله ورضى بقدره فسوف يجنى ثمار هذا الاستسلام ، والذى يُطيل أمد القضاء على الناس أنهم لا يرضوْن به ، والحقُّ تبارك وتعالى لا يُجبره أحد ، فالقضاء نافذ نافذ ، رضيتَ به أم لم ترْضَ .

وحين تُسلِّم لله وترضى بقضائه يرفعه عنك ، أو يُبين لك وجه الخير فيه . إذن : عليك أنْ تحترم القدر وترضى به ، لأنه من ربك الخالق الحكيم ، ولا يُرفع قضاءُ الله عن الخَلْق حتى يرضوا به .

وكثيراً ما نرى اعتراض الناس على قضاء الله خاصة عند موت الطفل الصغير ، فتراهم يُكثرون عليه البكاء والعويل ، يقول أحدهم : إنه لم يتمتع بشبابه .

ونعجب من مثل هذه الجهالات : أىّ شباب ؟ وأية متعة هذه ؟ وقد فارق فى صِغَره دنيا باطلة زائلة ، ومتعة موقوتة إلى دار باقية ومتعة دائمة ؟ كيف وقد فارق العيش مع المخلوق ، وذهب إلى رحاب الخالق سبحانه ؟

وحين تجرى عليك الأقدار المؤلمة فيكفيك للصبر عليها أنْ تعلم أنها حكمة لله ، ويكفيك أنْ مُجريها عليك ربُّك .

وإذا أيقن المصابُ أنَّ ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ .. (١١) ﴾ [التغابن] فلا بدّ أنْ يرجع إلى الله ، يقول تعالى عمن أصيب ﴿ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) ﴾ [البقرة]

والمصيبة هى الأمر الذى ينال الإنسان منه المشقة والألم ، وهى مأخوذة من إصابة الهدف ، والمؤمن يستقبل المصيبة واثقاً أنها على قدْر إيلامها يكون الثوابُ عليها .

ومعنى قولهم ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) ﴾ [البقرة] أى نحن مملوكون لله ونحن راجعون إليه ، وحتى إنْ كان فى مصائب الدنيا ظلْم لنا وقع علينا من إنسان ، فسوف نأخذ ثوابَ ما ظُلمنا فيه عند الرجوع إلى الله .

إذن : فنحن لله ابتداء بالملكية ، ونحن لله نهاية فى المرجع ، هو سبحانه ملك القوسين الابتداء والانتهاء ، ولذلك علَّمنا رسولُ الله ﷺ عند أىِّ مصيبة تصيب الإنسان أنْ نسترجع ، أى أنْ نقول ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) ﴾ [البقرة]

وزادنا أيضاً أنْ نقول : « اللهم أَجِرْنى فى مصيبتى واخلُفْ لى خيراً منها »[1]

---

(١) أخرج مسلم فى صحيحه (٢١٦٥) عن أم سلمة رضى الله عنها أنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول: « ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول ما أمره الله إنا لله وإنا إليه راجعون ، اللهم أجرنى فى مصيبتى واخلف لى خيراً منها ، إلا أخلف الله له خيراً منها » وكذا أخرجه أحمد فى مسنده (١٦٣٨٨، ٢٦٦٧٧) والبيهقى فى السنن الكبرى (٧٣٧٦) .

إنـك إذا ما قلتهـا عند أى مصيبة تصيبك فلا بدَّ أنْ تجد فيما يأتى بعدها خيراً منها .

والمؤمن قد يُصاب فى عزيز لديه ، ثم يقف موقفاً إيمانياً فى استقبال هذه المصيبة ويقول : « إن حزنى لن يرده فالأفضل أنْ أكسب به الجنة » .

ويزيـد علـى ذلك : يكفينـى عزاءً الأجر عليـه ، فأنا لم أكُـنْ سآخذ منه طيلة حياته مثل الأجر الذى سآخذه فى صبرى على مصيبتى فيه .

فـإذا مـا أُصيب الإنسـان بمصيبة فما عليه إلا أنْ يرضـى ويقول : ما دامت هـذه المصيبة لا دخْـلَ لحركتى فيهـا وأجراها عليَّ خالقى فهـى اختبارٌ منه سبحانه .

فمَنْ تحدُث له مصيبة بأنْ يموت ولد له ، ويظل فاتحاً لباب الحزن فى البيت وتبكـى الأم كلما رأتْ مَنْ فى مثل سِنِّه فسيظل باب الحزن مفتوحاً، وإنْ أرادوا أنْ يزيل الله عنهما هذا الابتلاء فليقفلا باب الحزن بالرضا .

وليعلـم كل مؤمن أنَّ ما أُخذ منه هو مُعوَّض عنه بأجر خير منه ، والمأخوذ الذى قبضه الله إليه وتوفاه معوَّض بجزاء خير مما يترك فى الدنيا .

ولذلـك يُقال : المصـاب ليس مَنْ وقعت عليه مصيبـةٌ وفارقه الأحباب ، بل المصاب مَنْ حُرم الثواب[1] ، فكأنه باع نكبته بثمن بخس .

فصاحب المصيبة حين يستحضر الجزاء عليها إنما يحيا فى متعة ، ولذلك لا تتعجب حين يحمد أناسٌ خالقهم على المصائب ، لأن الحمد يكون على النعمة ، والمصيبة قد تأتى للإنسان بنعمة أوسع مما أفقدته .

---

(١) أخرج البيهقى فى سننه الكبرى (٧٣٤٢) عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده قال : لما توفى رسول الله ﷺ وجاءت التعزية سمعوا قائلاً يقول : إن فى الله عزاء من كل مصيبة وخلفاً من كل هالك ودركاً من كل ما فات فبالله فثقوا وإياه فارجوا فإن المصاب من حُرم الثواب . وقد أخرجه الحاكم فى مستدركه (٤٣٩١) وصححه ووافقه الذهبى .

فعليك أنْ تستقبل هذه المصيبة بالرضا ، وإياك أنْ تفصل المصيبة عن مُجريها وفاعلها ، بل تأمل ما يعقبها من الخير ، ولا تفصل المصيبة عن مجريها عليك ولا تقنط .

فالقنوط عند المصيبة لا محلّ له ، ولو ربطتَ المصيبة بمجريها لعلمتَ أنه حكيم ، ولابد أنْ تكون له حكمةٌ قد تغيب عنك الآن ، لكن إذا أدرْتَ المسألة فى نفسك فسوف تصل إلى هذه الحكمة .

والمصيبة لا تصيب أحداً إلا بإذن الله ، فلا يجرى فى مُلْك الله شيء لايريده الله .

لذلك يقول تعالى : ﴿ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللهُ لَنَا .. (٥١) ﴾ [التوبة] فإنه لن يحدث لنا إلا ما كتبه الله لنا . والحق سبحانه قال : ﴿ مَا كَتَبَ اللهُ لَنَا .. (٥١) ﴾ [التوبة] ولم يقُلْ : ما كتب اللهُ علينا .

وعندما نتأمل هذا نجد هذه المسألة ستكون لحسابنا ، وسنأخذ عليها حُسن الثواب من الله . ولم يقُل الحق : كتب اللهُ علينا لأنها لو كانت كذلك لكانَ معناها أنها جزاءٌ وعقابٌ من الله .

فالمؤمن يستقبل كلَّ مصيبة متوقعاً أنْ يأتى له منها خير ، وما دُمْنا لا نستطيع أنْ نمنع وقوع المصائب والأحداث فلنقبلها كمؤمنين .

وهو سبحانه الذى كتب لنا ، وهذا يُشعرنا أن المصيبة تقع لمصلحة مَنْ يُصاب بها ، فإنْ رأيتم مصيبةً قد نزلت بنا وظننتم أنها تُسيئنا فاعلموا أننا نثقُ فيمَنْ أجراها ، وأنه أجراها لحكمة تأديبية لنا ، وأنَّ كلَّ شيء مكتوبٌ لنا لا علينا .

فكلُّ ما كتبه الله هو لصالح المؤمنين به ، إما أدباً وإما ثواباً ، وإما ارتقاءً فى الحياة ، ولذلك فهو خير .

وقوله تعالى : ﴿ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ .. (١١) ﴾ [التغابن] فكوْن المصيبة لا تقع بالإنسان إلا بإذنه سبحانه ، وهذا محض نعمة من الله لأنه ينقذ الإنسانَ من التذلُّل للآخرين ، فهؤلاء الآخرون لا يستطيعون الإضرار به إلا إذا كان هذا مما كتبه الله .

وهذا تأكيد لما قاله رسول الله فى الحديث النبوى الشريف : « إذا سألتَ فاسأل الله ، وإذا استعنتَ فاستعِنْ بالله ، واعلم أن الأمةَ إذا اجتمعتْ على أنْ ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيءقد كتبه اللهُ لك ، ولو اجتمعوا على أنْ يضروك فلن يضروك إلا بشيء قد كتبه اللهُ عليك ، رُفِعت الأقلامُ وجفَّتْ الصُّحف »[1].

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ .. (١١) ﴾ [التغابن] ومن عظمة الإيمان أن الإنسان حين يؤمن بالله وتخلُص النية بهذا الإيمان ، وبعد ذلك جاء قدر الله بما لا يحبه الإنسان تجد هذا الإيمان يهدى قلبه .

ويهدى أى يدل ويرشد ويُبين ويُوضح ، هذه هداية الدلالة ، وهناك هداية التوفيق والمعونة ، وهو المعنى الأرجح هنا : ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ .. (١١) ﴾ [التغابن]

أى يوفق قلبه ويُعينه على تقبُّل قدر الله وقضائه فيما قد يصيبه من المصائب ، والله هو الهادى ونحن المهديون والغاية هى الصراط المستقيم .

فللاهتداء سبيلٌ واحد لا غير هو منهجُ الله تعالى ، وصراطه المستقيم الذى يجعله صابراً محتسباً راضياً .

وقد فسَّر حَبْر الأمة وترجمان القرآن عبد الله بن عباس قوله : ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ .. (١١) ﴾ [التغابن] يعنى : يهد قلبه لليقين ، فيعلم أنَّ ما أصابه لم يكُنْ ليُخطئه ، وما أخطأه لم يكُنْ ليُصيبه .

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه (٢٥١٦) وقال : حسن صحيح . وأخرجه أحمد فى مسنده (٢٧٦٣) ، وأبو يعلى فى مسنده (٢٥٥٦) وصححه حسين سليم أسد ، وهو عن ابن عباس رضى الله عنهما .

وعن أبي العالية[١] قال : إن الله قضى على نفسه أن مَنْ آمن به هداه ، ومَنْ توكل عليه كفاه ، ومَنْ أقرضه جازاه ، ومَنْ وثق به أنجاه ، ومَنْ دعاه استجابَ له بعد أنْ يستجيب لله [٢] .

وقال مقاتل بن سليمان[٣] : مَنْ يصدق بالله في المصيبة ويعلم أن المصيبة من الله ويسلم لأمر الله يهده الله تعالى للاسترجاع يقول : ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) ﴾ [البقرة]

فمعنى ﴿ يَهْدِ قَلْبَهُ .. (١١) ﴾ [التغابن] يوفق الله قلبه بالتسليم لأمره والرضا بقضائه ، لأنه يعلم أنها من عند الله فيسلم لها ويرضى .

حينها هدى الله قلبه فاطمأنَّ ولم ينزعج عند المصائب ويرزقه الثبات عند ورودها والقيام بموجب الصبر ، فيحصل له بذلك ثوابٌ عاجل مع ما يدخره الله له يوم الجزاء من الثواب .

كما قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ .. (١٠) ﴾ [الزمر]

---

(١) هو أبو العالية رفيع بن مهران الإمام المقرئ الحافظ المفسر ، الرياحي البصري أحد الأعلام . كان مولى لامرأة من بني رياح بن يربوع ثم من بني تميم ، أدرك زمان النبي ﷺ وهو شاب وأسلم في خلافة أبي بكر الصديق ، سمع من عمر وعلي وأبي ذر وجمع من الصحابة . مات سنة ٩٣ هجرية .

(٢) أورده الذهبي في سير أعلام النبلاء (٤/ ٢١١) قال أبو العالية : إن الله قضى على نفسه أن من آمن به هداه وتصديق ذلك في كتاب الله ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ .. (١١) ﴾ [التغابن] ومن توكل عليه كفاه وتصديق ذلك في كتاب الله ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ .. (٣) ﴾ [الطلاق] ومن أقرضه جازاه وتصديق ذلك في كتاب الله ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً .. (٢٤٥) ﴾ [البقرة] ومن استجار من عذابه أجاره ، وتصديق ذلك في كتاب الله ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا .. (١٠٣) ﴾ [آل عمران] والاعتصام بالله الثقة . ومن دعاه أجابه وتصديق ذلك في كتاب الله ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ .. (١٨٦) ﴾ [البقرة] وقد أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (٢/ ٢٢١) .

(٣) مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي بالولاء البلخي أبو الحسن ، من أعلام المفسرين ، أصله من بلخ انتقل إلى البصرة ودخل بغداد فحدث بها وتوفي بالبصرة عام ١٥٠ هجرية ، كان متروك الحديث، من كتبه التفسير الكبير ، ونوادر التفسير ، والرد على القدرية ، ومتشابه القرآن . الأعلام للزركلي (٧/ ٢٨١) .

أمـا مَنْ جزع وهلع فلا يثبت أمـام المصائب جميعها فى النفس والمال والولد والأحباب .

فمَـنْ هـدى الله قلبـه لا يجزع بل يصبر صـبراً جميلاً ، وهو يكـون صبراً لا شكوى فيه ولا جزع ولا فزع .

والإنسـان إذا ما وقع فى مأزق أقوى مـن قدراته ولا فجوة فيه للنجاة فهو يستقبـل هذا المأزق بأحد الاستقبالين : الاستقبـال الأول أنْ يجزع ويتضرع . والاستقبال الثانى أنْ يصمد ويصبر .

والمؤمنـون هـم أهـل الابتـلاء مـن الله ، والابتـلاء مـن الله نعمـة ، فمجرد الابتلاء ليس شراً ، ولكن الشر هو أنْ تسقط فى الابتلاء ، فكلُّ ابتلاءٍ هو اختبارٌ وامتحان.

ويقـول تعـالى : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُـمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَـوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِـنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) ﴾ [البقرة]

فـأول تلـك الابتلاءات هو الخـوف ، فـأنت بخوفك تُعـين مصدر الخوف على نفسك ، فلا تعِشْ فى فزعك وخوفك قبل أنْ يأتيك .

فآفـةُ النـاس أنهـم يعيشون فى المصائب قبل وقوعهـا ، وهم بذلك يطيلون علـى أنفسهم أمدَ المصائـب ، فـالمصيبة قد تـأتى مثلاً بعـد شهر ، فلماذا تطيل من عمر المصيبة بالتوجس منها والرهبة من مواجهتها ؟

ولك أنْ تعرف أنَّ الحق سبحانه ساعةَ تـأتى المصيبة فهو برحمته يُنزل معها اللطـف ، فكأنـك إنْ عِشْتَ فى المصيبة قبل أنْ تقـع ، فـأنت تعيش فى المصيبة وحدهـا معزولة عن اللطف المصاحب لها ، لكن لو ظللت صابراً محتسباً قـادراً على مواجهة أى أمرٍ صعب فـأنت لن تعيش فى المصيبة بدون اللطف .

وثانى الابتلاءات هو الجوع ، وثالثها نقص الأموال ، ورابعها نقص الأنفس، وخامسها صبر على نقص الثمرات .

المهم أنْ ينجح المؤمنُ فى كلِّ هذه الابتلاءات حتى يواجه الحياةَ صلباً ويواجه الحياة قوياً . والابتلاء غير مذموم فى ذاته ، وهو اختبارٌ قد ينجح فيه إنسان ، وقد يفشل فيه إنسانٌ آخر .

لذلك قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ .. (١١) ﴾ [التغابن] فالذى ينجح إنما هو مَنْ آمن حقَّ الإيمان ، وذاق حلاوة إيمانه بأن المقادير تجرى بيد الله ، هذا المؤمن يهدى الله قلبه .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١١) ﴾ [التغابن] فالله بكلِّ شيء ذو علم بما كان ويكون وما هو كائن من قبل أنْ يكون ، فلا يخفى عليه تسليمُ مَنْ انقاد وسلَّم لأمره ، ولا كراهةَ مَنْ كرهه . فالله عليمٌ بليغُ العلم لا تخفى عليه من ذلك خافية ، ولايحدث حدث فى الكون إلا بعلمه وإذنه .

وهو سبحانه عالمٌ بثواب مَنْ صبر على المصيبة ، عليمٌ بكل شىء ، عليم بما نُخفي وما نعلن ، عليمٌ بالسر وما هو أخفى من السر ، ولا تغيب ذرة من مُلكه عن علمه .

فالله عليمٌ بما تكون عليه أحوال الناس ، يعرف الأقوال وكذلك الأفعال والخبايا ، وعِلْم الله شاملٌ ، إنه يعلم ما فى نيتك ، ويعلم مدى صبرك على ما أصابك ومدى يقينك وتسليمك لله عز وجل .

والأب هنا يُوصى ابنه وصيةَ الموت الذى سيفارق بها الدنيا مُقبلاً على الله عزَّ وجل ، تاركاً الدنيا ، وذلك أن الوليد بن عبادة بن الصامت دخل على أبيه عُبادة وهو مريض يتخايل فيه الموت .

يقول الوليد : فقلتُ يا أبتاه أوصنى واجتهد لى . فقال : أجلسونى . فقال: يا

بنى إنك لن تطعم طعم الإيمان ، ولن تبلغ حقَّ حقيقة العلم بالله تبارك وتعالى حتى تؤمن بالقدر خيره وشره .

قال قلتُ : يا أبتاه فكيف لى أنْ أعلم ما خير القدر وشره ؟.

قال : تعلم أنَّ ما أخطأك لم يكن ليصيبك ، وما أصابك لم يكن ليخطئك ، يا بُنى إنى سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : إنَّ أولَ ما خلق اللهُ تبارك وتعالى القلم . ثم قال : اكتب . فجرى فى تلك الساعة بما هو كائنٌ إلى يوم القيامة ، يا بُنى إنْ متَّ ولسْتَ على ذلك دخلتَ النار[1] .

ولكن من المصائب ما يكون بسبب من المصاب نفسه ، يقول تعالى : ﴿ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ (٣٦) ﴾ [الروم]

ولو ربطتم وجود الرحمة أو المصيبة بمَنْ فعلها لعلمتُم أنه حكيم فى هذه وفى تلك ، ولو نظرتَ إلى المصيبة التى تُحزن الناس فيقنطون وييئسون بسببها. ولو نظرتَ إلى مَنْ أنزلها بك لارتاح بالُك واطمأنتْ نفسُك ، فالمصيبة تعنى الشيء الذى يُصيبك خيراً كان أو شراً .

وكلمة أصاب تدل على أنَّ سهم المصيبة أُطلق عليك ، وعمرها مقدار وصولها إليك ، فهى لابد صائبتُك لن تتخلَّف عنك أبداً ، ولن تُخطئك لأن الذى أطلقها إلهٌ وربٌّ حكيم .

فإنْ كانت حسنة فسوف تأتيك فلا تُتعب نفسك ولا تزاحم الناس عليها ، وإنْ كانت سيئة فإياك أنْ تقول : أحتاط لها لأدفعها عن نفسى لأنه لا مهربَ لك منها .

ثم لماذا تقنط وتيئس إنْ أصابتْك مصيبة ؟ لماذا لا تنتظر وتتأمل لعلَّ لها

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٢٢٧٥٧) والطبرانى فى مسند الشاميين (١٩٤٩) والضياء المقدسى فى الأحاديث المختارة . من حديث عبادة بن الصامت رضى الله عنه .

حكمة ، ولعلَّ من ورائها خيراً لاتعلمه الآن ، وربما كانت ضائقة سوف يكون لها فرجٌ قريب .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٢﴾ ﴾

يأمر الحق جل جلاله المسلمين بطاعة الرسول ﷺ لأنها من طاعة الله ، فيقول جَلَّ وعلا : ﴿ مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا (٨٠) ﴾ [النساء]

فطاعةُ رسول الله من طاعة الله ، ومَنْ يُعرض عن طاعته فله العقاب في الآخرة ، بل قال تعالى عمَّنْ تمرد على طاعة رسول الله : ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (٣٢) ﴾ [آل عمران]

وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : كنتُ جالساً مع رسول الله ﷺ في رجال من أصحابه ، فقال رسول الله : أليس تعلمون أنِّى رسول الله إليكم ؟ قالوا : نشهد أنك رسول الله .

قال : أليس تعلمون أن الله تبارك وتعالى أنزل فى كتابه أنه من أطاعنى فقد أطاع الله ؟

قالوا : نشهد أنه مَنْ أطاعك فقد أطاع الله ، أمر اللهُ بطاعتك . قال : أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ، فإنَّ طاعة الله طاعتى ، وإن طاعتى أنْ تُطيعوا أئمتكم ، فإنْ صلّى قاعداً فصلُّوا قعوداً[1] .

والطاعة أنْ تمتثل أمراً وتجتنب نهياً ، تلك هى الطاعة ، كل منهج أو دين ،

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٥٦٧٩) ، والبزار فى مسنده (٦٠٩٣) والطبرانى فى المعجم الكبير (١٣٠٦٠) وأبو جعفر الطحاوى فى شرح مشكل الآثار (٥٦٤٤) وابن عساكر فى معجم شيوخ ابن عساكر (٧٣٣).

أمر أو نهى ، فامتثل الأمر واجتنب النهى .

وأنت إذا تصفحتَ القرآن وجدت آيات الطاعة المطلوبة من المؤمن بمنهج الله، والذى شهد بأنه لا إله إلا الله وأنَّ محمداً رسولُ الله تتمثل فى الأمر والنهى.

فإذا ما استقرأتَ القرآن وجدت أن الحق سبحانه يقول مرة فى الطاعة : ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ .. (٣٢) ﴾ [آل عمران] ولم يكرر الحق هنا أمر الطاعة فالمطاع هو المكرر ، فـ (أطيعوا) أمر واحد ، نطيع مَنْ ؟ الله والرسول ، المطاع هنا هو الله والرسول .

ومرة يكرر أمر الطاعة ، فيقول : ﴿ وَأَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ .. (٩٢) ﴾ [المائدة] ومرة ثالثة يقول : ﴿ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٥٦) ﴾ [النور] ومرة رابعة يقول : ﴿ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ .. (٥٩) ﴾ [النساء]. وأدخل هنا أُولي الأمر أيضاً .

فإذا قال لك : أطيعوا الله والرسول ، فالأمر قد توارد فيه حكم الله وحكم الرسول . إذن : فتطيع فيه الله والرسول ، وإذا كان لله أمر إجماليٌّ وللرسول أمر تفصيليٌّ كالصلاة والزكاة والحج . إذن : فتطيع الله وتطيع الرسول .

وإذا لم يكُنْ لله أمرٌ فيه بل جاء من باطن التفويض فى قوله سبحانه : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا .. (٧) ﴾ [الحشر]

فهذا الأمر أطيع فيه الرسولَ لأنه جاء فى آية أخرى قوله : ﴿ مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ .. (٨٠) ﴾ [النساء] لماذا : لأن الرسول عمل بالتفويض الذى أعطاه الله له حسب قول الحق : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا .. (٧) ﴾ [الحشر]

فقوله : (أطيعوا الله) يلزم منها إطاعة الرسول ، فلرسول الله ثلاثةُ ملاحظ

في التشريع : ملحظ يشرع فيه ما شرع الله تأكيداً له ، أو أن الله قد شرع إجمالاً، والرسول عيَّن تفصيلاً .

والأمثلة على ذلك أن الله فرض علينا خمس صلوات ، وفرض علينا الزكاة ، وهذه تكليفاتٌ قالها ربّنا ، والرسول يُوضِّحها : النّصاب كذا ، والسهم كذا .

إذن : فنحن نطيع ربنا فى الأمر إجمالاً ، ونطيع الرسول فى الأمر التفصيلى. أو أن الأمر لم يتكلم فيه الله حكماً ، وإنما جاء من الرسول بتفويض من الله .

ولذلك فإن قال لك أيُّ إنسان عن أيِّ حكم من الأحكام : هات دليله من القرآن ولم تجد دليلاً من القرآن فقُلْ له : دليل أى أمر قال به الرسول من القرآن هو قول الحق : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا .. (٧) ﴾ [الحشر]

والحق سبحانه يأمر المسلمين بطاعة الرسول ﷺ لأنها من طاعة الله ، فيقول جلَّ وعلا : ﴿ مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا (٨٠) ﴾ [النساء]

فطاعة الرسول من طاعة الله ، ومَنْ يُعرض عن طاعته فله العقاب فى الآخرة، ويؤكد الحق سبحانه على طاعته وطاعة الرسول ، فطاعة الرحمن تستوجب طاعة الرسول .

والطاعة هى طاعةٌ بألوان التكليف وأنواعها ، فمرة يكون الأمر من الله قد جاء بها ، وأن يكون الرسول قد أكَّدها بقوله وسلوكه ، فالمؤمن حين يطيع فى هذا الأمر الواحد فهو يطيع الله والرسول معاً . ومرة يأتى حكمٌ من الله إجمالاً ويأتى الرسول ليُفصِّله .

﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٥٦) ﴾ [النور]

فالواحد منا لم يكُنْ يعرف كم صلاة فى اليوم ، ولا عدد الركعات فى كل

صلاة ، ولا نعرف كيفيتها لكنَ الرسول ﷺ قد فصَّل لنا الأمر فى كل صلاة .

إذن : فالمؤمن يطيع الله فى الإجمال ، ويطيع الرسول فى التفصيل ، إنَّ علينا أن نلتفت إلى أنَّ هنا طاعتين : الأولى طاعة الله . والثانية طاعة الرسول . أما فى الأمر المتحد فتكون الطاعةُ لله والرسول لأنه أمرٌ واحد ، وأما الأمر الذى جاء من الله فيه تكليف إجمالى فقد ترك اللهُ للرسول ﷺ بيانه .

فالمؤمن يطيع الله فى الأمر الإجمالى كأمر الصلاة وإقامتها ، ويطيع الرسول فى تفصيل أمر الصلاة وكيفيتها ، وأحياناً يجيء الحكم بالتفويض الأعلى من الله للرسول .

لقد ترك الحق سبحانه للرسول أنْ يصدر التشريعات اللازمة لاستقامة حياة المؤمنين ، لقد أعطاه الحق سبحانه التفويض العام ، وما دام سبحانه قد أعطى الرسول التفويض العام فإنَّ طاعة المؤمن تكون للرسول فيما يقوله الرسول ، وإنْ لم يقُلْ الله به .

إننا على سبيل المثال لا نجد فى القرآن دليلاً على أن صلاة الفجر ركعتان، لكن الرسول ﷺ هو الذى فصَّل لنا الصلاة فعرفنا أن الفجر ركعتان ، والظهر أربع ركعات ، والعصر مثل الظهر ، والمغرب ثلاث ركعات ، والعشاء أربع ركعات[1] .

والطاعة مطلوبة ممَّنْ آمن ، فيقول تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ .. (٥٩) ﴾ [النساء]

فما دُمْتَ قد آمنت بالله إلهاً حكيماً خالقاً عالماً مُكلِّفاً فاسمع مايريد أنْ يقوله لك ، فلم يكلف اللهُ مطلق الناس بأنْ يطيعوه ، إنما دعا مطلق الناس أنْ

---

(١) عن أبى مسعود قال : أتى جبريل عليه السلام النبى ﷺ فقال : قم فصل وذلك لزوال الشمس حين مالت الشمس ، فقام فصلى الظهر أربعاً ثم أتاه حين كان ظله مثله فقال : قم فصل فصلى العصر أربعاً . ثم أتاه حين غربت الشمس فقال : قم فصل فصلى المغرب ثلاثاً ، ثم أتاه حين غاب الشفق فقال : قم فصل العشاء الآخرة أربعاً ثم أتاه حين بزق الفجر فقال : قم فصلِّ فصلى الفجر ركعتين » الحديث بطوله أخرجه الطبرانى فى المعجم الكبير (١٤١٤٣) عن أبى مسعود الأنصارى .

يؤمنوا به ، ومَنْ يؤمن يقول له : أطعنى ما دمتَ قد آمنتَ بى .

فحيثية الطاعة للرسول ﷺ نشأتْ من الإيمان بالله وبالرسول ، وهذه عدالة كاملة لأنه سبحانه لا يكلف واحداً أنْ يفعل فعلاً إلا إذا كان قد آمن به سبحانه، أما الذى لا يؤمن به فهو لا يقول له : افعل كذا ولا تفعل كذا .

إنه سبحانه يطالبه أنْ يؤمن به أولاً ، فإذا ما آمن به يقول له : استمع إليَّ ، لذلك تجد كلّ تكليف يُصدّر بقوله سبحانه ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا .. (٥٩) ﴾ [النساء]

ولكن إياكم أنْ تُقبلوا على أحكام الله بالبحث فيها أولاً ، فإن اقتنعتم بها أخذتموها وإنْ لم تقتنعوا بها تركتموها ، فإنَّ مثل هذا التصرف معناه أنك شككتَ فى الحكم ، بل عليك أنْ تُقبل على تنفيذ أحكامه لأنه سبحانه قالها وأنت مؤمنٌ بأنه إله حكيم .

والحق سبحانه يُحذِّرنا من عدم طاعة الله ورسوله ، فيقول : ﴿ وَأَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا .. (٩٢) ﴾ [المائدة] لماذا هذا التحذير ؟ يأتى هذا التحذير ليُعلِّمنا الله أن الشيطان لن يدعنا ندخل فى مجال طاعة الله وطاعة الرسول ، وسيحاول جاهداً أنْ يُلبِّس علينا الأمر .

فعندما يعرف الشيطان ميلاً فى نفس الإنسان إلى لون من الشهوات يدخل إليه من باب المعاصى ، وإنْ كان الإنسانُ قد أوصد بعض السبل أمام الشيطان فلا يستطيع مثلاً إغراءه بالسرقة أو شرب الخمر .

لا يتركه بل يدخل إليه من باب الطاعة ، فيأتى الشيطانُ إلى الإنسان لحظة الوضوء ويُنسيه غسل هذه اليد أو تلك ، وهل أسبغ الوضوء أم لا ؟

أو يأتى الشيطان إلى المؤمن لحظة الصلاة فيُنسيه عدد الركعات أو عدد السجدات ، وهكذا يدخل الشيطان للمؤمن من ناحية الطاعة ، لذلك قال الحق سبحانه : ﴿ وَاحْذَرُوا .. (٩٢) ﴾ [المائدة]

وقد قال تعالى عن الشيطان أنه توعَّد فقال : ﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ .. (١٦) ﴾ [الأعراف] فهو قد أقسم أنْ يقعد لهم على الطريق المستقيم لا الطريق المعوج ، ويقعد لهم على طريق الطاعة ليصرفهم عن الطاعة .

ومثال ذلك : عندما يتصدَّق إنسانٌ بصدقة قد يُعلنها ويقول : لقد تصدقت أكثر من فلان . وهكذا يضيع منه الأجر . الشيطان يحاول أنْ يدخل علينا من بابٍ لا نفطن إليه ، وهو باب الطاعة .

والحق سبحانه لا يجبر الإنسان على الطاعة ، بل ترك لك الاختيار ، فأوجد لك هذا الاختيار حتى يكون الحساب في الآخرة عدلاً ، فإذا اخترتَ الكفر لا يُجبرك الله على الإيمان ، وإذا اخترتَ الفسوق لا يجبرك الله على الطاعة ، إنه يحترم اختيارك لأنه أعطاك هذا الاختيار ليحاسبك عليه يوم القيامة .

فالحق سبحانه يترك لنا الإيمان بالاختيار ، ويترك لنا الطاعة والمعصية اختياراً ، ليعلم مَنْ يأتيه حباً ومَنْ يأتيه قهراً .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ .. (١٢) ﴾ [التغابن] التولِّي هو الانصراف والإعراض . فقوله : ﴿ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ .. (١٢) ﴾ [التغابن] أي : فإنْ أعرضتم عن منهج الله ونسيتموه ولم تلتفتوا إليه ورفضتم طاعة الله وطاعة رسوله .

وقد أمر الحقُّ سبحانه المؤمنين بأنْ لا يتولوا وأنْ لا يُعرضوا ، فقال تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ (٢٠) ﴾ [الأنفال]

فما دمتم قد آمنتم فلا إعراضَ عما تؤمنون به ، والملحظ الجميل أنه سبحانه لم يقُلْ : ولا تولوا عنهما قياساً بالأسلوب البشرى ، لكنه قال : ﴿ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ .. (٢٠) ﴾ [الأنفال] أي : أنه سبحانه قد وحَّد الكلام في أمرين اثنين طاعة الله وطاعة الرسول ، ولأن الرسول مبلّغ عن الله فلا تقسيم بين الطاعتين ، لأن

طاعةَ الرسول هى طاعةٌ لله تعالى .

أو نقول : إنّ التولى لا يكون أبداً بالنسبة إلى الله ، فلا أحدَ بقادر على أنْ يتولى عن الله ، لأن الله لاحقه ومدركه فى أيّ وقت .

﴿ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (١٢) ﴾ [التغابن] أى : فإنْ أعرضتم عمّا كلفتكم به فاعلموا أنكم بتولّيكم وإعراضكم لن تضروا الرسول ، لأن الرسول ما كلف إلا أنْ يقوم بالبلاغ المبين .

وإنما أضررتم بأنفسكم حين أعرضتم عمّا كُلفتم به ، إن الحق سبحانه يعلم أزلاً أنَّ بعضاً من عباده قد يقول : إن هذا الحكم لم يرد فى القرآن ، لذلك جاء الأمرُ بطاعة الرسول .

وهكذا صارت للرسول طاعةٌ مستقلة ، وأرادها الله حتى يرد مقدَّماً على الذين يسألون عن نص فيه كل تفصيل ، بينما نجد هذه التفاصيل فى السنة النبوية الشريفة . فسبحانه قد علم أزلاً أن هناك مَنْ سيدّعى أنه لن يطيع إلا الله فى قرآنه .

ولذلك قال الرسول ﷺ : « يُوشك أنْ يقعد الرجلُ منكم على أريكته يُحدَّث بحديثى فيقول : بينى وبينكم كتاب الله عز وجل ، فما وجدنا فيه حلالاً استحللناه ، وما وجدنا فيه حراماً حرَّمناه ، وإن ما حرم رسول الله كما حرَّم الله »[1] .

أى أن الرسول هو المبلّغ عن ربه ، وأنَّ علينا أنْ نحذر الشيطان إذا أراد أنْ يدخل علينا من باب الطاعة .

ولكن لماذا قال الحق : ﴿ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ .. (١٢) ﴾ [التغابن] ؟ وعن أيِّ شيء يكون التولّى ؟

---

(١) أخرجه أبو داود فى سننه (٤٦٠٦) والترمذى فى سننه (٢٦٦٤) ، وابن ماجه فى سننه (١٢) وأحمد فى مسنده (١٧٢١٣ ، ١٧٢٣٣) والدار قطنى فى سننه (٤٧٦٧) من حديث المقدام بن معد يكرب .

قال الحق ذلك ليوضح لنا أنَّ الإنسان له الاختيار فى أنْ يذهب إلى الطاعة، وله الاختيار فى أنْ يذهب إلى المعصية ، وإنْ تولّى الإنسان عن الطاعة إلى المعصية وعن الإيمان الذى جاء به الرسول الذى بلغ عن الله إلى البقاء فى الكفر ، فليعلم ذلك الإنسان أن الرسول قد أوفى مهمته وأدّاها .

فالمطلوب من الرسول أنْ يبلغ المنهج، وقد بلَّغ ﷺ بلاغاً مبيناً محيطاً واضحاً ومُستوعباً لكلِّ أقضية الحياة .

لقد أبلغنا ﷺ مطلوبَ الله أنْ نؤمن بإله واحد قادر حكيم له كلُّ صفات الكمال ، وأبلغنا ﷺ أنْ نبتعد عما كان عليه العرب من الأنصاب ومن الأوثان ومن الأصنام .

وبلاغ رسول الله ﷺ يتطلَّب منا إيماناً وعملاً ، والعمل ينقسم إلى قسمين : عمل إيجابى ، وعمل سلبى . ويتركز العمل الإيجابى فى « افعل كذا» إذا لم تكُنْ تفعله ، أما العمل السلبى فهو أنْ تكُفّ عما نهاك عنه الله ونهاك عنه رسول الله.

والله لا يريد للرسل أنْ يتعبوا أنفسهم فى حَمْل الناس على الإيمان ، إنما وظيفة الرسول هى البلاغ حتى يكون الحسابُ حقاً وعدلاً .

ورسول الله ليس مسئولاً عن الذين سيلقون بأنفسهم فى النار والعذاب ، وليس مسئولاً عن هُداهم وإنما عليه البلاغ . لذلك قال تعالى : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ (١١٩) ﴾ [البقرة]

والرسول يحب أنْ يهتدى إلى الإيمان كلُّ فرد فى أمته ، فقال الحق : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ (١٢٨) ﴾ [آل عمران]

أى : ليس لك يا محمد من الأمر شيءٌ إلاَّ أنْ يتوب اللهُ عليهم فتفرح بتوبتهم أو يُعذِّبهم ، فلا يحزنك ذلك لأنهم ظالمون ، أى : ما عليك يا محمد إلا البلاغ فقط، أما هم فقد ظلموا أنفسهم بالكفر .

أرِحْ نفسك ، فما عليك إلا البلاغ فقط ، وهكذا يُخفّف الله مهمة الرسول ، لذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا (٨٠) ﴾ [النساء]

والحفيظ هو الذى يحافظ على مَنْ يُبلغه أمر الله ، وأنْ يكون سائراً على منهج الله ، إنْ أراد أن ينحرف يعدله ، فيوضح سبحانه : أنا لم أرسلك حفيظاً عليهم ، أنا أرسلتك لتبلغهم ، وهم أحرار يدخلون فى التكليف أو لا يدخلون .

فإذا بلّغ الرسول حُكماً من الأحكام فعليهم أنْ يستقبلوا الحكم على أساس أنه قادم من الله ، وسبحانه يعلم أنَّ رسوله لا يكتم البلاغ ولكن ليجعل لرسوله العذر عند البشر .

فمهمة الرسول ﷺ هى البلاغ ﴿ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ .. (٩٩) ﴾ [المائدة] أما تنفيذ البلاغ فهو دور المؤمنين برسالة رسول الله ، فإنْ أدَّوْها فلهم الجنة، وإنْ لم يُؤدوها فعليهم العقاب .

﴿ قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ[1] مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ (١٠٤) ﴾ [الأنعام]

وقد حكم الله أن البصائر جاءتنا ، وحكم بأن رسوله بلَّغ ، فسبحانه أعطى لرسوله والرسول ناولنا ، فالحقُّ قد شرَّع ورسوله قد بلَّغ ، وبقى أنْ تُؤدوا ، ولا عذرَ لكم من المشرِّع الأعلى الذى خلق وهو الرب ، ولا من المبلّغ المعصوم وهو الرسول .

والبلاغ يجب أنْ يكون بالرِّفْق واللِّين ، وقد قال تعالى على لسان رسوله نوح : ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦٢) ﴾ [الأعراف]

---

(١) بصائر : بينة وبينات . قال ابن الجوزى فى زاد المسير : البصائر جمع بصيرة وهى الدلالة التى توجب البصر بالشيء والعلم به . وقال البغوى : أى الحجج البينة التى تبصرون بها الهدى .

فالبلاغ يقتضى أنْ يقول لهم منهج الله ثم يدعو القوم لاتباع هذا المنهج بأنْ يُرقِّق قلوبهم ويخاطبهم بالأسلوب الهادىء وينصحهم ، والأداء القرآنى معجز ، فهو يقول : ﴿ وَأَنْصَحُ لَكُمْ .. (٦٢) ﴾ [الأعراف] فلم يقُلْ : وأنصحكم.

فمعنى : ﴿ لَكُمْ .. (٦٢) ﴾ [الأعراف] هنا أن النصيحة هنا والبلاغ ليس فيها مسألة خاصة بك ، بل كل ما فيها لصالح مَنْ تبلغه فقط ، وبذلك يتضح الفارق بين « نصحتك » و « نصحت لك » ، أو نصحته ونصحت له .

ولا تظنوا أن الرسول ﷺ له مصلحة فى إيمانكم ، فلن نعطيه مكافأة أو عمولة على كلِّ مَنْ يؤمن به ، فإياكم أنْ تظنُّوا أنكم بكفركم تُقلِّلون من مكافأة النبى خاصة ، وقد كانوا كارهين له .

فسواء آمنتم أو كفرتم فلن تعود عليَّ منفعة منكم ، فتولِّيكم عن سماع ما أبلغكم به لا يضرنى ولا ينفعنى لأنكم لا تملكون لى ضُراً ، ولا تملكون لى نفعاً، لأنِّى لن آخذ منكم أجراً .

كلمة : ﴿ عَلَى رَسُولِنَا .. (١٢) ﴾ [التغابن] تعطى معنى التكليف الذى يكلف به الرسول ، فحرف (على) مع (فإنما) يحصر ذلك التكليف فى التبليغ وبلاغ الرسالة وأنْ يُؤديها كما طلب منه لا ينقص فيه ولا يزيد .

فليس لرسول الله الزيادة على ما أنزل الله عليه من قرآن ، لذلك يقول تعالى: ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى .. (٤) ﴾ [النجم] فاطمئنوا إلى حكمه لأنه لا ينطق عن هوى ، فليس فى نفسه ما يريد تحقيقه إلا دعوة الخلق وتبليغهم قرآن ربهم ، يقول تعالى على لسان رسوله : ﴿ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ.. (٥٠) ﴾ [الأنعام] فهو ﷺ لا ينطق عن الهوى بل يُبلِّغ ما جاء به الوحى .

فما هو إلا بشر يُبلِّغكم رسالة ربكم وأفعل ما أمرنى به ، كما فى قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ

عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥) ﴾ [يونس]

ورسول الله يضيف لنا بُعداً آخر للطاعة فى قوله ﷺ : « وإن طاعتى أنْ تطيعوا أئمتكم ، فإنْ صلَّى قاعداً فصلُّوا قعوداً » .

فرسول الله يُحدِّثنا عن إمامة الصلاة ، وأنه لابدّ من الاقتداء بهم فى هيئات الصلاة ، فإنْ صلُّوا قعوداً فلابدَّ أنْ نقتدى بهم فنصلى قعوداً أيضاً .

وقد حدثنا جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال : اشتكى رسول الله ﷺ فصلَّينا وهو قاعد، وأبو بكر يُكبِّر يُسْمِع الناس ، فالتفتَ إلينا فرآنا قياماً ، فأومأ إلينا فقعدنا .

فلما سلَّم قال : إن فارس والروم يقومون على ملوكهم وهم قعود ، فلا تفعلوا ، ائتموا بأئمتكم ، فإنْ صلَّى الإمامُ قائماً فصلُّوا قياماً ، وإنْ صلَّى قاعداً فصلُّوا قعوداً »[1] .

ولابد أنْ يكون البلاغُ عن الله بلاغاً مبيناً ، لذلك قال هنا : ﴿ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ (١٢) ﴾ [التغابن] والمبين الذى يبين كلّ شيء تحتاجه حركة الإنسان الخليفة فى الأرض .

فمعنى ﴿ الْبَلاغُ الْمُبِينُ (١٢) ﴾ [التغابن] أى البلاغ التام الكامل الذى يشمل كل جزئيات الحياة وحركاتها ، فقد جاء المنهجُ الإلهى شاملاً لكلِّ جوانب الحياة بدايةً بقول : لا إله إلا الله حتى إماطة الأذى عن الطريق[2] فلم يترك شيئاً إلا حدَّثنا فيه .

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٩٥٥) وابن ماجه فى سننه (١٢٤٠) وأحمد فى مسنده (١٤٦٣٠) وابن خزيمة فى صحيحه (٤٨٦) من حديث جابر بن عبد الله رضى الله عنه .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٦٢) وكذا الترمذى فى سننه (٢٦١٤) والنسائى فى سننه (٥٠٠٥) وابن ماجه فى سننه (٥٧) وأحمد فى مسنده (٨٩١٣) من حديث أبى هريرة ، ولفظ مسلم « الإيمان بضع وسبعون – أو بضع وستون شعبة – فأفضلها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان » .

فهـذا بلاغٌ مبين محيط لمصالح النـاس ، فلا يأتى الآن مَنْ يتمحك ويقول : ربنا ترك كذا أو كذا .. فمنهج الله كامل .

ومعنـى (مبين) أى مُوضِّح كاشف لمنهـج الله ، فهو ليس بلاغاً بائناً فقط، بـل إنـه مُبين باستخدام اسـم الفاعل ، وذلك تأكيد وإمعـان فى وضوح البلاغ وتيسـير الله لـه ليصـل للأفهـام البسيطـة القاصرة قبـل الأفهام التـى تتسم بالثقافة والعقل والتفكر ، فلا يُحرم من الخير أحدٌ لتواضع استقباله لمعطيات القرآن ،بل يفهمه كل أحد .

لذلـك قـال تعالى : ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا .. (٩٧) ﴾ [مريم] ويسَّرنا القرآن أى طوَّعناه لك حفظاً وأداء وإلقاءَ معانٍ ، فأنت توظفه فى المهمة التى نزل من أجلها ، وهى البلاغ عن الله .

يقول الحق سبحانه :

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾ ﴾

عندمـا نقـول (الله) فإن الذِّهْن ينصرف إلى الـذات الواجبة الوجود ، فكلمة (الله) هى علَم على واجب الوجود .

والحـق سبحانـه حين أعلمنا باسمه (الله) أعطانا فكرة على أن كلمة (الله) هذه يتحدَّى بها سبحانه أنْ يُسمَّى بها سواه ، ورغم أن هناك ملحدين وكافرين ومتمردين ، فلم يجرؤ واحدٌ من هؤلاء أنْ يسمى نفسه الله .

ولم يجـرؤ واحـدٌ من هـؤلاء أنْ يدخل فى هـذه التجربة ، لقـد كان بوُسْعهم أنْ يقولـوا : سنسمـى ونـرى ما يحدث ، ولكـن هذا لم يحـدث . فكلمة (الله) هى الاسم الذى اختاره الله لنفسه وأعلمنا به ، وهو اسم شامل لكلِّ صفات الكمال، والصفـات الأخـرى نحـن نسميها الأسمـاء الحسنى : مثـل القـادر ، والسميع،

والبصير ، والحى القيوم القهار ، كلُّها صفات صارت أسماء لأنها مطلقة بالنسبة لله .

وهذه الصفات حين تنصرف على إطلاقها فهى (الله) ، ومن الجائز أنْ تُضاف فى نسبتها الحادثة إلى غير الله ، أما اسم (الله) فلا يُطلق إلا على الحق سبحانه .

وساعة تسمع لفظ الجلالة (الله) فعليك أنْ تأخذه بكلِّ ما يدل عليه من صفات الجلال وصفات الجمال ، ما عرفته وما لم تعرفه ، لأنه سبحانه خلق الكون كله وهو قيُّوم عليه .

وهذا الخَلْق وتلك القيومية فعلٌ يقتضى صفات متعددة ، تقتضى قدرة وحكمة وعلماً واسعاً ورحمةً وبَسْطة وقبضاً وغير ذلك ،وبدلاً من أنْ يأتى لك بصفات القدرة وصفات الجمال ويذكرها ويُعددها لك يقول سبحانه عن نفسه (الله) ، لأنه الاسم الجامع لكلِّ صفاته .

وأنت تقول فى بدء كلِّ عمل (باسم الله) ، وفى ذلك إيجاز لما يحتاج إليه أيّ عمل ، لأن أيّ عمل يحتاج إلى قدرة فتقول : باسم القادر . ويحتاج إلى علم فتقول : باسم العليم . ويحتاج إلى حكمة فتقول : باسم الحكيم . ويحتاج إلى عزة فتقول : باسم العزيز . وقد تحتاج إلى قهر عدوك لأنك قد تدخل معه فى حرب فتقول : باسم القاهر .

إذن : كلُّ عمل يحتاج إلى حشد من صفات الكمال والجلال يخدم الفعل ، فبدلاً من أنْ يقول : باسم القادر وباسم الحليم وباسم العليم وباسم القابض ، يوفر عليك سبحانه كلّ ذلك فتقول : باسم الله ، لأن اسم الجلالة وهو (الله) هو الجامع لكلِّ صفات الكمال .

فإنْ قلتَ : « باسم الله » فهى تكفيك ، فإذا احتجتَ إلى قدرة وجدتها ، وإنِ

احتجتَ إلى غنىّ وجدته ، وإنِ احتجتَ إلى بسط وجدته . فلحظة أنْ تقول (الله) كأنك قلت : القادر ، الضار ، النافع ، السميع ، البصير ، المعطى إلى آخر أسماء الله الحسنى . فلفظ (الله) اسم ذات لا يدل على صفة معينة ، لكنه يحمل فى طياته كلَّ صفات الكمال فيه .

والحق سبحانه أثبت لنفسه جميع صفات الكمال فى اسمه (الله) ، ثم جاء بالقضية الأساسية ، وهو قوله تعالى (لا إله إلا الله) أى : لا معبودَ بحقٍّ إلا الله .

وقد جعل الحق سبحانه كلمة (لا إله إلا الله) شعاراً للمؤمنين ، والشعار هو المعْلَم الذى يكون مُميزاً لمجموعة من الناس أو لشعيرة معينة من شعائر الله ، فشعار أذانك مثلاً وصلاتك هو (الله أكبر) أى : أن الله أكبر من كلِّ شيء غيره.

وشعار كلّ مؤمن واقع فى كرب : لا كربَ وأنت رب ، ومؤدَّى هذا الشعار أنه ما دام لك ربٌّ فلا تهتم ، ولا تيأس ، فليست مع الله مشكلة ، المشكلة ألاَّ يكون لك ربٌّ تلجأ إليه .

وقد كان شعار المصطفى ﷺ لمَّا تجمع الأحزاب وحاصروا وأحاطوا بمدينة رسول الله أنْ جعل شعاره الإيمانى « لا إله إلا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ،وأعزَّ جنده ، وهزم الأحزاب وحده »[1].

كذلك هنا قد جعل رسول الله شعار المؤمنين يوم يُبعثون من قبورهم « لا إله إلا الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون » فشعارهم التوحيد وقد بعثهم الله موحدين متوكلين عليه وحده .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « شعار المؤمنين

(١) أخرجه البزار فى مسنده (٨٤٣٨) عن أبى هريرة رضى الله عنه « أن رسول الله ﷺ كان يقول : لا إله إلا الله وحده ، نصر عبده ، وغلب الأحزاب وحده ، فلا شيء بعده » .

يوم يُبعثون من قبورهم : لا إله إلا الله ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون »[١] .

قد وحَّدوه فى الدنيا وتوكلوا عليه ، وهاهم يخرجون من أجداثهم وقبورهم وهم على ما عاشوا وما ماتوا عليه ويرجون رحمة الله .

وكلمة (لا إله إلا الله) كلمة تحمل نفياً وإثباتاً ، النفى فى (لا إله) والإثبات فى (إلا الله) ، فكلمة (لا إله إلا الله) معها دليلُ الصدق ، فلو كان هذا كذباً فهل سمعنا حساً أو حركة لمنْ يدَّعى أنه الله .

ولذلك ربنا سبحانه يأتى بهذه القضية من ناحية أخرى فيقول : ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا (٤٢) سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا (٤٣) ﴾ [الإسراء]

فلو كان عند تلك الآلهة المزعومة مظاهر قوة لذهبوا إلى الله سبحانه وأنكروا ألوهيته ، ولو كان هناك إلهٌ غير الله لحدثتْ معركةٌ بين الآلهة ، ولكنَّ هذا لم يحدث .

فكلمة (لا إله إلا هو) صِدْقٌ فى ذاتها حتى عند مَنْ ينكرها ، والدليل فيها هو عدم وجود المنازع لهذه الدعوة ، لأنه إنْ لم يوجد منازع فقد ثبت أنه سبحانه لا إله إلا الله ، وإنْ وُجد المنازع نقول : أين هو ؟

والله هو المعبود الذى يُتوجَّه إليه بالعبادة ، والعبادة هى الطاعة ، فمعنى عابد أى طائع ، وكل طاعة تقتضى أمراً وتقتضى نهياً .

والحق سبحانه شهد لنفسه بأنه لا إله إلا هو ، فقال تعالى : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٨) ﴾ [آل عمران]

فالله يشهد أن لا إله إلا هو ، ورسول الله يشهد أنْ لا إله إلا الله ، وهذه شهادة

---

(١) أورده السيوطى فى الجامع الصغير (٤٨٨٦) وعزاه لابن مردويه عن عائشة وحسَّنه . وكذا أورده المتقى الهندى فى كنز العمال (٣٩٠٣٢) .

الذات للذات ، وشهادة الملائكة أيضاً وكفى بالله شهيداً . فشهادة الملائكة شهادة المشهد ، ويُضاف إلى الملائكة ﴿ وَأُولُو الْعِلْمِ .. (١٨) ﴾ [آل عمران] الذين يستنبطون من كوْن الله أدلة على أنه لا إله إلا هو .

والله سبحانه وتعالى شهد أنه لا إله إلا هو قبل أن يوجد أحدٌ من خَلْقه يشهد بوحدانية ألوهيته ، شهد أنه لا إله إلا هو قبل أنْ يخلق الملائكة ، ليشهدوا شهادة مشهد بأنه لا إله إلا الله .

والحق سبحانه أطلقها على نفسه وقال ﴿ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ .. (١٨) ﴾ [آل عمران] وجعلها كلمة التوحيد وجعل الأمر فى غاية اليُسْروالسهولة والبساطة ، فلم يشأ الله أنْ يجعل دليلَ الإيمان بالقوة العليا دليلاً مُعقّداً ، أو دليلاً فلسفياً ، أو لا يستطيع أحدٌ أنْ يصل إليه إلا أهل الثقافة العالية .

لا إن الدينَ مطلبٌ للجميع من راعى الشاة إلى الفيلسوف ، إنه مطلوبٌ للذى يكنس فى الشارع ، كما هو مطلوب من الأستاذ الجامعى ، فيجب أنْ تكون هذه المسألة فى منتهى البساطة ، وأنْ تكون فى مستوى هذه العقول جميعاً ، فلا فلسفة فى المسألة .

فالله شهد بألوهيته من البداية ، ومن أسمائه سبحانه (المؤمن) ونحن مؤمنون بالله ، وربنا المؤمن بأنه إلهٌ واحد ، لذلك قبل أنْ يطلب منّا أنْ نشهد له بالوحدانية والتفرد بالألوهية شهد بها لذاته تعالى .

فلو قال معترض : كيف يشهد لذاته ؟ نقول : نعم يشهد لذاته سبحانه لأنه لا أحدَ غيره ، لا أحدَ معه ، فشهادة الذات للذات هنا شيءٌ طبيعى ، وكأنه سبحانه يقول : لا أحدَ غيرى ، وإنْ كان هناك إلهٌ غيرى فليُرني نفسه وليفصح عن وجوده .

فلو علمتْ الآلهة المدعّاة المزعومة بهذه الشهادة ، فسكوتهم عليها وعدم

اعتراضهم عجزٌ، وإنْ لم يدروا بها فهم غافلون نائمون، وفى كلتا الحالتين لا يصح أنْ يكونوا آلهة، فأيّ آلهة تلك التى لا تدرى بما يدور حولها أو تجبُن عن مواجهة خصمها.

ومادام « لا إله إلا هو » فليكن اعتمادك وتوكلك عليه وحده، واعلم أنك إنِ اعتمدتَ عليه وحده إلهاً فأنت قد اعتمدت على عزيز لا يُغلب على أمره.

قال ﷺ: « إذا سألتَ فاسأل الله، وإذا استعنتَ فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعتْ على أنْ ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أنْ يضرُّوك فلن يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رُفِعتْ الأقلام وجفَّتْ الصّحف »[١].

إنك هنا تلجأ إلى خالق أعلى بيده مقاليد كلِّ شيء وهو على كل شيء قدير، فـ « لا إله إلا هو » تُغنيك وتكفيك عن الكل، توكلْ واعمل لإله واحد ولوجه واحد يكفِكَ كل الأوجه، واعلم أنه لا يوجد مَنْ يغلبه على أمره.

واستعانتك بالله وحده، ولجوؤك إليه وحده، وتوكلك عليه وحده يُحررك من ذُلِّ الدنيا، بالحى الذى لا يموت، بالقوى الذى لا يضعف، بالقاهر الذى لا يخرج عن أمره أحد.

إذا استعنتَ بالله سبحانه وحده كان الله جل جلاله بجانبك، وهو وحده سبحانه الذى يملك أنْ يُحوِّل ضعفك إلى قوة، وذُلّك إلى عِزٍّ.

لذلك كان شعار المؤمنين بالله وحده « لا إله إلا الله »، فهذه الكلمة مَعْلَم من معالم هذا الدين، فالشعار هو المعْلَم الذى يدل على الشيء.

ومنها أيضاً الشعائر، وهى معالم دين الله المتركزة فى « افعل » و «لاتفعل» زماناً ومكاناً، عقائد وأحكاماً، لكن الشعائر غلبتْ على ما نُسميه « مناسك الحج ».

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٢٧٦٣) وكذا الترمذى فى سننه (٢٥١٦) وأبو يعلى الموصلى فى مسنده (٢٥٥٦)، والبيهقى فى شُعب الإيمان (١٠٤٣) من حديث عبد الله بن عباس رضى الله عنهما.

ومن شعار المؤمنين أيضاً التوكل على الله وحده ، فما دُمْنا قد آمنا بأنه لا إله إلا هو فلماذا يتوكَّلْ بعضُنا على غير الله ، ولماذا نضع أملنا ورغبتنا وثقتنا فى غير الله ؟

يقول الحق سبحانه : ﴿ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٣) ﴾ [التغابن] فالمؤمنون بالله هم الذين يتوكلون عليه ، ففائدة الإيمان أن الجوارح تعمل والقلوب تتوكل .

الجوارح تقول : نزرع ، نحرث ، نأتى بالبذر الجيد ونروى ونضع سماداً ، ونفترض أنَّ الصقيع قد يأتى ونخشى على النبات منه فنأتى بقشٍّ ونحوه ونغطيه .

كلُّ هذه عمل الجوارح ، وبعد ذلك القلوب تتوكل ، فإياك أنْ تقول : المحصول آتٍ لأننى أحسنتُ أسبابى . لا بل لأن فوق الأسباب مسبِّبها .

ففائدة الإيمان أننى مؤمن بإله له طلاقة القدرة ، يخلق بأسباب ويخلق بغير أسباب ، والأسباب لك ، أما الذى فوق الأسباب فهو الله ، فأنت حين تعمل أخذتَ بالأسباب ، وحين تتوكل ضمنتَ المسبِّب ، وهو الله سبحانه .

وإياك أنْ تظنّ أن التوكل يعنى أنْ تترك الجوارح بلا عمل ، لا فهذا هو التواكل أو الكسل ، إنه التوكل الكاذب ، والدليل على كذب مَنْ يقول ذلك أنه يحب أنْ يتوكل فيما فيه مشقة ، والسهل لا يُتوكل فيه .

والذى لا يتوكل على الله عليه أنْ يراجع إيمانه ، ولكل جارحة عمل ، وعملُ جارحة القلب هو اليقين والتوكل ، ولنتذكر أن السعى للقدم والعمل لليد والتوكل للقلب .

فلا تنقل عملَ القلب إلى القدم أو اليد ، لأن التوكل الحقيقى أنْ تعمل الجوارح وتتوكل القلوب ، وكم من عامل بلا توكل ، فتكون نتيجة عمله إحباطاً .

إننا نجد الزارع الذى لا يتوكل على الله ينمو زَرْعه بشكل جيد ومتميز ، ثم تهبُّ عليه عاصفة أو يتغيّر الجو فيُصيبه الهلاك ، وتكون النتيجة الإحباط .

واحذر إهمال الأسباب أو أنْ تفتنك الأسبابُ ، لأنك إنْ أهملتَ الأسباب فأنت غير متوكل بل متواكل ، تنقل عمل القلب إلى الجوارح .

وإذا قال لك واحد : أنا لا أعمل بل أتوكل على الله ، قل له : هيا نرى كيف يكون التوكل ، وأحضر له طبقَ طعام يُحبه ، وعندما يمد يده إلى الطعام قُلْ له: اترك الطعام يقفز من الطبق إلى فمك .

فالذين لا يعملون بجوارحهم ويُعلنون أنهم متوكلون على الله ، نقول لهم : أنتم كاذبون ، لأن التوكل ليس من عمل الجوارح بل من عمل القلوب ، فالجوارح تعمل والقلوب تتوكل .

لكن على مَنْ نتوكل ؟ يأتى قوله ﴿ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٣) ﴾ [التغابن] إنك حين تتوكل على الحيِّ الذى لا يموت ، فلن يضيع عملك ، أما إن اتكلتَ على إنسان مثلك – حتى وإنْ كان ذا قوة – فقد تنقلب قوته ضعفاً ، وقد يُكرهك أو يُذلّك ، وقد تصيبه كارثة فيموت . فعلى الله وحده يتوكل المؤمنون ويُفوضون كلّ أمورهم إليه وحده ، حتى أن المؤمنين يقولون : ﴿ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (١٢) ﴾ [إبراهيم]

والحق سبحانه يأمرنا أنْ نتوكل على الحى الذى لا يموت ، فلا تتكل على واحد من الأغيار ، فقد يصبح الصباح فتجده قد خلا بك وتخلَّى عنك ، أما إذا كان مولاك هو الحق فلن يخذلك .

فإذا كان المولى غير الله فهو من الأغيار ، فقد يكون اليوم قوياً قادراً على أنْ يأخذ بيدنا وينصرنا ونتوكل عليه ولكنه قد يموت غداً ، لذلك فهو لا يصلح مولى ، وقد يسقط عنه سلطانه وقوته ويصبح ضعيفاً محتاجاً لمنْ ينصره فلا ينفع ولياً ولا مُعيناً لأحد .

والمولى الحق الذى نتوكَّل عليه الذى يجب أنْ نتمسَّك به هو الذى لاتُصيبه الأغيار لأنه دائم الوجود لا ينتهى بالموت ، وهو دائم القوة والقدرة لا يضعف أبداً .

هذا هو المولى الذى تضع فيه ثقتك وتتوكل عليه ، ولذلك نجد الحق سبحانه وتعالى يُوضِّح لنا أننا يجب ألاَّ نضع ثقتنا وأملنا إلا فيه ، وتوكلنا إلا عليه سبحانه وتعالى ، فيقول : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ .. (٥٨) ﴾ [الفرقان]

أى : إذا أردتَ فعلاً أنْ تتوكل ، فتوكَّلْ على مَنْ هو موجود دائماً ، قويٌّ دائماً ، فتوكل على الله .

فإياك أنْ تتوكَّل على غير الله ، بل اجعل توكُّلك يكون على مَنْ لا يتغير . فالله هو القادر دائماً ، القاهر دائماً ، الغالب دائماً ، الموجود دائماً ، الناصر دائماً ، وهو سبحانه الدائم الباقى دائماً .

فلا تتوكل على مَنْ قد تصبح غداً فتجده ميتاً ولكن توكَّل على الحى الموجود دائماً ، العزيز الذى لا يُقهر ، القوى الذى لا يُغلب .

وصدق الشاعر حين قال :

اجْعَلْ بِربِّكَ كُلَّ عِزِّكَ يَسْتَقِرّ وَيَثْبُتُ
فَإِذَا اعْتَزَزْتَ بِمَنْ يَمُوتُ فَإِنَّ عِزَّكَ مَيِّتُ

والعاقل الفطن لايتوكل إلا على مَنْ يثق به ويضمن معاونته ، وأنه سيوافقك فى كلِّ ما تريد ، لكن ما جدوى أنْ تتوكل على أحد ليقضى لك مصلحة ، وفى الصباح تسمع خبر موته .

لذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ (٥٨) ﴾ [الفرقان] وكأنَّ الحق تبارك وتعالى يريد أنْ ينصح خَلْقه : إنْ أردتَ أن تتوكل فتوكل على مَنْ ينفعك ولا يتركك ، على مَنْ يظل على العهد معك لايتخلى عنك،

على مَنْ لايُعجزه شيء فى الأرض ولا فى السماء ، هذه هى الفِطنة .

لكن ما جدوى أنْ تتوكَّل على مَنْ ليس فيه حياة ؟ وعلى فرض أنّ فيه حياة دائمة فلا تضمن ألاَّ يتغير قلبُه عليك ؟

ويقول تعالى : ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ (٧٩) ﴾ [النمل] فأنت تتوكل على الله وأنت على الحق ، وعلى الطاعة له عز وجل ، لا على معصيته، وما دُمْتَ تتوكل على الله وأنت على حال الطاعة ، فلابدّ أنْ يكون نصيرك ومُعينك .

واستغْن بوكالة الله عن كلِّ شيء ﴿ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلا (٣) ﴾ [الأحزاب] وهو سبحانه نعم الوكيل ، وهذا يُطمئن عباده .

ويقول تعالى : ﴿ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٠٢) ﴾ [الأنعام] واعلم أن الله سبحانه ليس وكيلاً لك ، بل هو وكيل عنك ، لأن الوكيل لك ينفذ أوامرك ، لكن هو وكيل عليك ، مثل الوصى على القاصر هو وكيل عليه . ويقول للقاصر : افعل كذا فيفعل وسبحانه وكيل علينا .

وهم لايتخذون وكيلاً غير الله ، فالتوكل أنْ تؤمن بأن لك وكيلاً يقوم لك بمهام أمورك ، بدليل أن الشيء الذى لا تَقْوَى عليه تقول بصدده : « وكَّلتُ فلاناً ينجزه لى على خير وجه » .

فالمؤمنون يتوكلون على ربهم ، فهم يكلون أمورهم إلى مَن ائتمنوه على مصالحهم .

﴿ وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلا (٢) ﴾ [الإسراء]

فإياك أنْ تتخذ من دون الله وكيلاً ﴿ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلا (٦٥) ﴾ [الإسراء] فإنْ كان فى البشر مَنْ تثق به وتأتمنه على مصالحك ، فما بالك إنْ كان وكيلك

هـو الله عـز وجل ؟ لاشك إنْ كان وكيلك الله فهو كافيك ومُؤيِّدك وناصرك ، فلا يُحوجك لغيره سبحانه .

فيكفيك أنْ يكون الله وكيلك ، لأنه لا شيءَ يتأبّى عليه ، ولا يستحيل عليه شيء ، فإنه لا تُعوزه أسباب ، ولا يُثنيه عن إرادته شيء .

وإذا كان الحق سبحانه يقول هنا : ﴿ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٣) ﴾ [التغابن]، فإنه فى آيات أخرى يقول تعالى : ﴿ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (١٢) ﴾ [إبراهيم]

وفى آية أخرى يقول تعالى : ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (٦٧) ﴾ [يوسف]

فإذا كنتَ مُتوكلاً حقاً كما تدَّعى وتقول فتوكل على الله ، فإذا كان الإيمانُ ملحوظاً فى آية سورة التغابن : ﴿ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٣) ﴾ [التغابن]، فالملحوظ هنا هو أنْ يكون توكلك على الله توكلاً حقيقياً وليس ادعاءً .

فالتوكل الحقيقى للجوارح هو أنْ تعمل ، ولذلك لابدَّ من العمل والأخْذ بالأسباب مع التوكل ، أما التواكل فأنْ ترفض الأسباب التى قدَّمها الله لك وتقعد عن الأخْذ بها ، وتقول : توكلتُ على الله .لا .. إنما استنفد الأسباب الموجودة لك من ربك ، فإنْ عزَّتْ عليك الأسباب فلا تيأسْ ، لأن لك رباً أقوى من الأسباب لأنه سبحانه خالقُ الأسباب .

فلابدَّ أنْ نُفرِّق هنا بين التوكل والتواكل : التوكل أنْ تكون عاجزاً فى شيء، فتذهب إلى مَنْ هو أقوى منك فيه ، وتعتمد عليه فى أنْ يقضيه لك ، شريطةَ أنْ تستنفد فيه الأسباب التى خلقها الله لك .

وقد ضرب لنا سيدنا رسول الله ﷺ مثلاً توضيحياً فى هذه المسألة بالطير، فقال : « لو توكلتم على الله حَقَّ توكله لرزقكم كما يرزق الطير ، تغدو خماصاً

وتروح بطاناً »[١].

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ ﴾

يخاطب الحق سبحانه هنا الذين آمنوا بأنه لا إله إلا هو ، فهم يتوكلون على الله ، ويخاطب الذين أطاعوا الله وأطاعوا الرسول ، وما داموا آمنوا وأطاعوا فلن يرفضوا تحذير الله لهم من أزواجهم وأولادهم .

فهم فى حالة كفرهم بالله هم أعداء أنفسهم ، فلن يخاطب اللهُ الكافرين ويُحذِّرهم من أزواجهم وأولادهم ، فالتحذير أوجب لهم من أنفسهم ذاتهم قبل الأزواج والأولاد .

وقوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا .. (١٤) ﴾ [التغابن] أى : ياأيها الذين آمنتم بالله إلهاً ودخلتُم معه فى عقد إيمانى ، فيا مَنْ آمنت بالله رباً وإلهاً وخالقاً خُذْ عَنْ الله وافعل لأنك آمنت بمَنْ أمرك .

فالإيمان هنا هو سبب التكليف ، فالله لا يُكلف كافراً أو غير مؤمن ، ولا يأمر بتكليف إلا لمَنْ آمنوا ، فما دام العبد قد آمن فقد أصبحتْ مسئولية حركته فى الحياة عند ربه ، ولذلك يوحى إليه بمنهج الحياة ، أما الكافر فلا يُكلِّفه الله بشيء .

---

(١) عن عمر بن الخطاب قال قال رسول الله ﷺ : « لو أنكم كنتم توكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً » [أخرجه الترمذى فى سننه (٢٣٤٤) وقال : حسن صحيح . وكذا ابن ماجه فى سننه (٤١٦٤) وأحمد فى مسنده (٢٠٥ ، ٣٧٠ ، ٣٧٣)] .

فالآية تبدأ بنداء الذين آمنوا بالله وكأنه يقول لهم : يا مَنْ آمنتم بى استمعوا لحديثى ، فلم يكلف الله من لم يؤمن به ، وإنما خاطب الذين أحبوه وآمنوا به، وما داموا قد أحبُّوا الله فلابد أنْ يتجه كلُّ مؤمن إلى مَنْ يحبه، لأن الله لن يعطيه إلا ما يُسعده .

والحق سبحانه هنا يلفت نظر مَنْ آمن به إلى قضية هامة هى علاقة الإنسان بأزواجه وأولاده وتأثيرهم عليه فى صَرْفه عن مقتضيات ومتطلبات ما آمن به واعتقده بقلبه ومارسه بجوارحه .

فيقول تعالى : ﴿ إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ .. (١٤) ﴾ [التغابن] وقد اختار الحقُّ سبحانه صنفين من الناس حول كلِّ إنسان منا ، وهم الأزواج والأولاد ، فهؤلاء هم الملاصقون المباشرون للإنسان .

وسبحانه يقول : ﴿ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ .. (١٤) ﴾ [التغابن] و (من) للتبعيض ، أى : ليس كلُّ أزواجكم أو أولادكم عدواً لكم ، بل بعضهم .

وهذا مثل قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ .. (١١٢) ﴾ [طه] ، ومن هنا للتبعيض ، فيكفى أنْ تفعل بعض الصالحات ، لأن طاقة الإنسان لاتسع كلّ الصالحات ولا تقْوَى عليها ، فحسْبُك أنْ تأخذ منها طرفاً ، وآخر يأخذ طرفاً ، فإذا ما تجمعتْ كلُّ هذه الأطراف من العمل الصالح من الخلق كوَّنتْ لنا الصلاح الكامل في المجتمع كله .

ومثله أيضاً ﴿ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَٰلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ .. (٤٠) ﴾ [الروم] فتكررت (مِنْ) التى للتبعيض ، والمعنى لايستطيع أحدٌ من شركائكم أنْ يفعل شيئاً ولو هيِّناً من الخلق أو الرزق أو الإحياء أو الإماتة .

ويقول تعالى : ﴿ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ .. (١٤) ﴾ [التغابن] والأزواج متقدِّمون فى الإغواء والتوجيه إلى الشر قبل الأعداء ، لأن الزوج أو الزوجة قد يكون هو

الشيطان الملازم الذى يُهيء الانحراف إلى ما يريد .

وكلمة الأزواج جمع زوج . وتُقال للرجل والمرأة ، والزوج لا يعنى اثنين معاً كما يظن البعض ، إنما الزوج يعنى الفرد الذى معه مثله من جنسه ، ومثله تماماً كلمة (التوأم) . فهى تعنى (واحد) لكن معه مثله .

والدليل على ذلك قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ .. (٤٩) ﴾ [الذاريات] يعنى : ذكر وأنثى ، فالذكر وحده زوج ، والأنثى زوج ، وهذه القسمة موجودة فى المخلوقات ، وتُجمع زوج أيضاً على زوجات .

ونلحظ فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ .. (٥٠) ﴾ [الأحزاب] أن الأزواج جاءت بصيغة المذكّر ولم يقُلْ زوجاتك ، لأن الزوج يُطلق على الرجل وعلى المرأة .

وهذا تأخذ منه أن الله عندما نادى المؤمنين بندائه ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا .. (١٤) ﴾ [التغابن] لم يكُنْ يعنى الرجال فقط من المؤمنين بل النساء أيضاً ، فقد يكون الرجلُ مؤمناً صالحاً ، وزوجته هى التى تأخذه بعيداً عن منهج الإيمان.

وقد تكونُ المرأة مؤمنةً صالحة ، وزوجها هو الذى يأخذها بعيداً عن منهج الإيمان ، وهذا تجده فى حديث الله سبحانه عن زوجات أنبياء كُنَّ كافرات ، وأزواج مؤمنات كانوا كافرين .

ومثال ذلك قوله تعالى : ﴿ ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ (١٠) ﴾ [التحريم]

فلم يستطع نوح عليه السلام أنْ يستلب العقيدة الكافرة من زوجته ، ولم يستطع لوط عليه السلام أنْ يسلب العقيدة الفاسدة من زوجته ، بل كانت كلتا

المرأتين تتآمر كل منهما ضد زوجها – وهو الرسول – مع قومها ، لذلك كان مصير كلٍّ منهما النار .

وقد كانت امرأةُ لوط تدلُّ قومها على مَنْ يزور لوطاً من الرجال ليأتوا ويفعلوا بهم الفاحشة ، وقد حدث هذا فى وفد الملائكة الذى جاء فى هيئة شباب كأحسن الشباب .

ويقول تعالى :﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا[1] وَقَالَ هَـٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ (٧٧) وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَـٰقَوْمِ هَـٰؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ (٧٨) ﴾ [هود]

فلوطٌ عليه السلام يعلم أنْ آفةَ قومه هى إتيان الذكور ، وامرأته تعلم هذه الآفة ، لكن موقفها من هذا غير موقف لوط ، فهى ترحب بتلك الآفة . ويُقال: إنها انتبهت لمجيء الرجال الحسان ولم تعرف أنهم ملائكة العذاب وصعدت إلى سطح المنزل وصفَّقت لعلَّ القوم ينتبهون لها ، فلم يلتفت لها أحد ، فأشعلتْ ناراً فانتبه لها القوم ، وأشارتْ لهم بما يعبر عن مجيء ضيوف يتميزون بالجمال .

وفى حياتنا العادية نجد أن المرأة إنْ لم تكُنْ صالحة كانت عدوة لزوجها، فتجد مُنغِّصات تستطيع أنْ تضعها المرأة فى حياة زوجها تجعله شقياً فى حياته ، كأنْ تكون سليطةَ اللسان ، أو دائمة الشِّجار ، أو لا تعطى اهتماماً لزوجها ، أو تحاول إثارته بأنْ تجعله يشكّ فيها.

وقد يكون الرجلُ طاهرَ الأسلوب فى الحياة وتكون زوجتُه راغبة فى أنْ

---

(١) وضاق بهم ذرعاً : ضاق صبره وعظم المكروه عليه ، وأصله من ذرع فلاناً القيء : إذا غلبه وسبقه . وأيضاً معناه : ضاق بهم وُسْعه . فناب الذراع عن الوسع . ويقولون : ضقت بهذا الأمر ذراعاً . (زاد المسير لابن الجوزى) .

يأتيها بالمال من أيِّ طريق ، وقد تكون المرأةُ طاهرة الأسلوب فى الحياة ، فلا ترضى أنْ يتكسَّب زوجها من مال حرام .

والحق سبحانه عندما يقول : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ .. (١٤) ﴾ [التغابن]

وفى هذا القول نجد أن العداوة تأتى من الأزواج قبل الأولاد ، ونعلم أن الزوجة فى بعض الأحيان هى التى تكره أولاً ، ثم يتأثر بكراهيتها ويتشبَّه بها الأبناء.

وكثيراً ما يكون الأولادُ فتنةً للآباء ، والفتنةُ بالأولاد تأتى من حِرْص الآباء عليهم والسعى إلى جعلهم فى أحسن حال ، وربما كانت الإمكاناتُ غيرَ كافية، فيُضطر الأبُ إلى الحرام من أجل أولاده .

فالفتنة تأتى الإنسانَ غالباً من الزوجة لزوجها ، أو من الزوج لزوجته أو من الولد ، لماذا ؟ لأنهما يحملانك على ما لا تطيق ، ويضطرانك ربما للسرقة أو للرشوة لتوفر لهما ما يلزمهما .

ورسول الله ﷺ قال : « ليس عدوك الذى إنْ قتلتَه كان لك نوراً ، وإنْ قتلك دخلتَ الجنة ، ولكنَّ أعدى عدوك ولدك الذى خرج من صُلْبك ، ثم أعدى عدوٍّ لك مالُكَ الذى ملكتْ يمينُك » (١).

فالإنسان منا حينما يُرزق بالولد أو البنت يطير به فرحاً ، ويُؤثِره على نفسه ، ويُخرج اللقمة من فِيهِ ليضعها فى فم ولده ، ويسعى جاهداً ليوفر له رفاهية العيش ، ويُؤمِّن له المستقبل المُرضى .

---

(١) أخرجه الطبرانى فى المعجم الكبير (٣٣٦٧) وكذا فى مسند الشاميين (ص ٣٣٢) وقد ضعفه الألبانى فى السلسلة الضعيفة (٤٣٧٥) وقد قال ابن حجر الهيثمى فى مجمع الزوائد (١٧٧٩٩) : فيه محمد بن إسماعيل بن عياش وهو ضعيف

وصدق الشاعر[١] حين قال :

إِنَّمَا أَوْلادُنَا أَكْبَادُنَا تَمْشِي عَلَى الأَرْضِ
إِنْ هَبَّتْ الرِّيحُ عَلَى بَعْضِهِم امْتَنَعَتْ عَيْنِى عَنِ الغُمْضِ[٢]

ولكن أحياناً كثيرة يكون بعض الأولاد سببَ شقاء آبائهم ، ويكونون أعداء لذويهم ، إمّا بصَرْفهم عن الطاعة ، أو باضطرارهم إلى كسْب المال الحرام لتوفية متطلباتهم الحياتية التى لا تنتهى .

وليس الأولاد وحدهم بل الأزواج أيضاً ، ففى رواية لهذا الحديث : « ولكن أعدى عدوِّك نفسك التى بين جَنْبيْكَ ، وامرأتك تُضاجعك على فراشك وولدك من صُلْبك »[٣].

ونحن نجد فى القرآن قصة العبد الصالح الذى قتل غلاماً كان أبواه مؤمنين، فخشى العبد الصالح أنْ يُرهقهما طغياناً وكفراً ، فهذا الولد كان فتنة ، ولعله كان سيدفع أبويه إلى كلِّ محرَّم ويأتى لهما بالشقاء .

وذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا (٨٠) ﴾ [الكهف]

وكثيراً ما يكون الأولادُ فتنةً للآباء ، والفتنة بالأولاد تأتى من حِرْص الآباء عليهم والسَّعى إلى جَعْلهم فى أحسن حال ، وربما كانت الإمكاناتُ غيرَ كافية، فيُضطر الأب إلى الحرام من أجل أولاده .

---

(١) هو حبيب بن أوس الطائى أبو تمام ، ولد ١٨٨ هـ فى جاسم من قرى حوران بسورية نزل مصر وبغداد، كان أسمر طويلاً ، فى شعره قوة وجزالة ، توفى عام (٢٣١) عام قيام الدولة العباسية .

(٢) أورده ابن أبى عون فى التشبيهات وعزاه لـ (حطان بن المعلّى) ، وكذا البصرى فى الحماسة البصرية:

وإنما أولادنا بيننا أكبادنا تمشى على الأرض

ولكن أورده ابن العديم فى (الدرارى فى ذكر الذرارى) لأبى تمام حبيب بن أوس الطائى (البيتان معاً).

(٣) أخرجه الديلمى فى (الفردوس بمأثور الخطاب) (٥٢٤٨) وعزاه لأبى مالك الأشعرى . وأورده المتقى الهندى فى كنز العمال (١١٢٦٤) .

وقد علم الحق سبحانه وتعالى أنَّ هذا الغلام سيكون فتنة لأبويه وهما مؤمنان ، ولم يُرد الله تعالى لهما الفتنة وقضى أنْ يقبضهما إليه على حال الإيمان .

﴿ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا (٨٠) ﴾ [الكهف] وخشينا أى خِفْنا . فالواحد منا يُولد له ابنٌ فيكون قرة عَيْن وسنداً ، وقد يكون هذا الابن سبباً فى فساد دين أبيه ويحمله على الكذب والرشوة والسرقة ، فهذا الابن يقود أباه إلى الجحيم .

وأوضح قصة للولد الذى عصى أباه وصار عدواً لدعوته ابن نوح ﴿ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَـٰبُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ (٤٢) ﴾ [هود]

فكان ردّ الولد على أبيه : ﴿ قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ .. (٤٣) ﴾ [هود]

فقال نوح : ﴿ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ .. (٤٣) ﴾ [هود]

فعندما دعا نوحٌ عليه السلام ابنه ليركب معه فى السفينة ، رفض الولد طاعة أبيه ورفض الإيمان وآثر أنْ يظلّ فى جانب الكفر بما فيه من فناء للقوم الكافرين ، وظنَّ أنه قادر على أنْ يأوى إلى جبل يعصمه من الطوفان .

فظنَّ ابن نوح أنه سينجو إنْ آوى إلى جبل ، لعل ارتفاع الجبل يعصمه من الغرق ، لكن نوحاً عليه السلام يعلم أنْ لا نجاةَ لكافر ، بل النجاة فقط هى لمن رحمه الله بالإيمان .

فنبَّهه أبوه وحذَّره فقال : ﴿ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ .. (٤٣) ﴾ [هود]

فهذا عدو أبيه ، بل هو عدو نفسه لأنه أوردها المهالك ، ومعلومٌ أنّ الإنسانَ قد يظلم غيره لحظِّ نفسه ولصالحها ، فكيف يظلم هو نفسه ، وهذا يُسمُّونه الظلم الأحمق حين تظلم نفسك التى بين جنبيْك ، ولكن كيف ذلك ؟

نعرف أنَّ العدو إذا كان من الخارج فسهْلٌ التصدِّى له ، بخلاف إذا جاءك من نفسك التى بين جنبيك ، فهذا عدو خطير صَعْب التصدى له والتخلُّص منه .

والولد ونفسك التى بين جنبيْك ، وزوجك التى هى أقرب الناس إليك وقد أفضيتُما إلى بعضكما البعض ، قد تصبح هى أعدى أعدائك بأنْ تملك عليك لُبَّك وعقلك ونفسك ، فتقنعك بما فيه هلاكك وبما يبعدك عن منطق الإيمان .

وقد نزلت هذه الآية فى عوف بن مالك الأشجعي[١] وكان ذا أهل وولد ، فكان إذا أراد الغزو بكوا عليه ورقّقوه ، فقالوا : إلى مَنْ تدعنا ؟ فيرقّ ويقيم[٢] .

وقال مجاهد : يحمل أحدَكم حبُّ ولده وزوجته على قطيعة الرحم أو على معصية ربه ، ولا يستطيع مع حبه إلا أنْ يعطيه ، فنهى الله عن طاعتهم فى ذلك .

وهم فى هذا يُضاهون قوْلَ العدو الأول لبنى آدم وهو الشيطان ، فعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « إنَّ الشيطانَ قعد لابن آدم فى طريق الإيمان ، فقال له : أتؤمن وتذر دينك ودين أهلك ومالك ؟ فخالفه فآمن ، ثم قعد له على طريق الهجرة فقال له : أتهاجر وتترك أهلك ؟ فخالفه وهاجر . ثم قعد له على طريق الجهاد فقال له : أتجاهد فتقتل نفسك فتنكح نساؤك ويقسَّم مالك ؟ فخالفه فجاهد فقُتل ، فحقٌّ على الله أنْ يُدخله الجنة[٣] .

فعداوته للإنسان عداوة مُسبقة ، وقد أقسم أنْ يُغوى بنى آدم جميعاً ،

---

(١) عوف بن مالك الأشجعى ، يكنى أبا عبد الرحمن ، أول مشاهده خيبر ، كانت معه راية أشجع يوم الفتح وسكن الشام توفى بدمشق عام ٧٣ هـ [أسد الغابة ٢/٣٨] شهد غزوة ذات السلاسل ومؤتة وتبوك . كان من نبلاء الصحابة .

(٢) أخرجه الطبرى فى تفسيره (جامع البيان) فى تفسير آية ١٤ التغابن (٣٤٥١٧ طبعة دار هجر) . وأورده محمد الطاهر بن عاشور فى التحرير والتنوير .

(٣) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (١٦٠٠٠) والنسائى فى سننه (٣١٣٤) وابن حبان فى صحيحه (٤٥٩٣) وأبو القاسم البغوى فى معجم الصحابة (١١٨٨) والطبرانى فى المعجم الكبير (٦٤٢٨) عن سبرة بن أبى فاكه رضى الله عنه .

فقال : ﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ﴾ [الأعراف] ، وقال : ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣) ﴾ [ص] ، وقال : ﴿ لَأَحْتَنِكَنَّ(١) ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا (٦٢) ﴾ [الإسراء]

فأقسم بعزة الله سبحانه أنْ يُغوى خَلْقه ، لذلك كان الشيطانُ هو أول عدوٍّ للإنسان ، ويقف على الطريق المستقيم ، مثال ذلك عندما يتصدّق إنسان بصدقة قد يعلنها ويقول : لقد تصدقتُ أكثرَ من فلان .

ونجد أن إبراهيم عليه السلام قد نجح فى اختبار الله له بابنه إسماعيل ، فكان الولد عَوْناً لأبيه على طاعة ربه ، لا عدواً له ، لذلك نقرأ على لسان إبراهيم عليه السلام : ﴿ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى .. (١٠٢) ﴾ [الصافات]

ولننظر إلى ما قاله إسماعيل عليه السلام : ﴿ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢) ﴾ [الصافات] فإسماعيل أخذ الكلام على أنه أمرٌ من الله ، فكان ممتثلاً لأمره .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٤) ﴾ [التغابن]

قد يسأل سائل : ما مناسبة الكلام هنا عن العفو والصلح والمغفرة بعد الحديث عن عداوة بعض الأزواج والأولاد ، ولابد أنْ نعرف هنا سببَ نزول هذه الآية .

فقد نزلتْ فى أولاد الذين هاجروا من مكة إلى المدينة ، وأراد أهلوهم وزوجاتهم وعيالهم أنْ يصرفوهم عن الهجرة بقولهم : لمن تتركوننا ؟ فالبعض كان يستجيب لهم ويقعد عن الهجرة ، فيرقّ قلبه لتوسلاتهم بالبقاء وعدم الهجرة .

---

(١) لأحتنكن : لأستولين ولأحتوينهم ولأضلنهم ولأستأصلنهم . قال القرطبى : والمعنى متقارب أى لأستأصلن ذريته بالإغواء والإضلال .

والبعض الآخر كان لا يستجيب لهم ، فكانوا يقطعون عنهم النفقة ، وكان البعض يقول لمن تخلَّف من أزواجه وأولاده : لئن جمعنا الله وإياكم لا تصيبون منِّى خيراً ، ولأفعلن وأفعلن ، فأنزل الله هذه الآية [١].

لذلك جاء قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٤) ﴾ [التغابن] بعد قوله ﴿ فَاحْذَرُوهُمْ .. (١٤) ﴾ [التغابن]

فهو دعوة إلى الرفق فى الحذر والتلطف فى لقاء المكروه الذى يجيء إلى المؤمن من زوجه أو ولده ، فإذا كان من واجب المؤمن أنْ يحذر هذا العدو الكامن فى أقرب الناس إليه وآثرهم عنده .

فإنَّ هذا العدو يجب أنْ يُنظر إليه من جانب آخر على أنه صديق ، وأن هذه العداوة طارئة ، وأنه يمكن أنْ تعالج هذه العداوة بالحكمة والحسنى على ألاَّ يكون ذلك على حساب الدين .

فالعفو والصفح والمغفرة من المؤمن لزوجه وولده الواقعيْن فى موقع الفتنة والعداوة له فى دينه ، إنما هو صبرٌ على الأذى واحتمال الضّر فى سبيل الإبقاء على علائق الود ووشائج القربى التى هى من أمر الدين ومن طبيعة الحياة .

ونلاحظ أن الحق سبحانه هنا جمع بين مراتب ثلاثة : العفو والصفح والمغفرة . والواو التى بين (تعفوا) و (تصفحوا) و (تغفروا) هى واو المغايرة، أى : أن العفو مقام آخر ومرتبة أخرى غير الصفح وغير المغفرة .

فقد تعفو عمَّنْ أساء إليك فى خصوص موقف ما ولكنك لا تصفح عنه ، فإنَّ الصفحَ يدفعك أنْ تعفو عنه فى مواقف أخرى ، ولكنك لا تفعل لأنك لم تصفح، وكذلك الصفح غير المغفرة ، فقد تصفح عن إنسان فلا تذكر سيئته أمام أحد ولا تُعاقبه وتصفح عنه فى مواقف أخرى .

---

(١) أورده مقاتل بن سليمان فى تفسيره (٣/٣٦٩) وكذا أبو إسحاق الثعلبى فى (الكشف والبيان عن تفسير القرآن) (٩/٣٢٩) .

أمـا المغفـرة فإنها مرتبـة أخرى ومقـام آخر عـالٍ لا يتسم بـه إلا الأقلُّون أصحاب الحظ العظيم فى العفو والصفح ، فتجده يتخلَّق بخُلق الله سبحانه فى المغفرة .

فالمغفـرة أصبحتْ سلـوك حياته وأخلاقه فيتجاوز عـن كلِّ إساءات النـاس ولـو تكـررتْ ويكل أمره إلى الله ، فلا ينتصر لنفسه ولا ينتظر من أحد طلبَ عفو أو صفـح ، فتجـده سهلاً ليِّناً مُعرضاً عن الانتصار لنفسه ، ولو بالنظرة الحادة لمَنْ أساء إليه .

ومثـل هذه المقامات المتدرجة نجدها أيضاً فى قوله تعالى : ﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤) ﴾ [آل عمران]

فأنـت تكظـم غيظك فـى المرحلة الأولى ، وتعفـو فى المرحلـة الثانية ، وإنْ أخرجـت الانفعال من قلبـك وصلتَ إلى المرحلة الثالثـة ، وهى التى تمثل قمة الإيمان وهى الإحسان .

فـإذا كان المطلـوب فى المرحلة الأولى منع العمـل النزوعى فتكظم غيظك ، فالأرقى من ذلك أنْ تعفو ، والعفو هو أنْ تُخرج المسألة التى تغيظك من قلبك ، وإنْ كنتَ تطلب مرحلة أرقى فى كظم الغيظ والعفو فأحسِن إليه بالكلمة الطيبة ولو أنْ تهدى إليه شيئاً .

وقد يقول قائل : ولكن الآية التى معنا هنا بدأت بالعفو وليس بكظم الغيظ ، فقال : ﴿ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا .. (١٤) ﴾ [التغابن]

نعـم ، هنا العفو هـو المرحلة الأولى بينما هو فى سـورة آل عمران المرحلة الثانيـة بعد كظم الغيـظ ، وذلك لأن آية سورة آل عمران تتحدث عن ضرر واقع على نفس أو سَمْع الإنسان ، فكان لابدَّ من الكظم أولاً .

أمـا آيـة التغابن فالأمـر يتعلق بعـدم طاعة الأب فـى تنفيذ أمر مـن أوامر

منهج الله ، فيحتاج إلى العفو والملاينة والملاطفة لعلاج ما اعوجَّ من زوجه وأولاده.

والفرق بين العفو والصفح أنَّ العفو هو أنْ تمحو من نفسك أثر أى إساءة، وكأنه لم يحدث شيء . يقال : عفَتِ الريحُ الأثرَ أى : مسحته وأزالتْه ، فالإنسان حين يمشى على الرمال تترك قدمُه أثراً فتأتى الريح وتعفو الأثر أى تزيله .

أما الصفح فيعنى طَيّ صفحات هذا الموضوع لا تجعله فى بالك ، ولا تجعله يشغلك .

فهناك فرق بين أنْ تمحو الخطيئة ويبقى أثرها فى نفسك وتظل فى حالة من الغيظ والحقد ، والحق هنا يأمر بالعفو أى إزالة أثر ما حدث ، ويأمر بالصفح أى أنْ تُخرج أثر الخطيئة من بالك .

فعند الصفح لا يبقى أثرٌ لهذا الذنب مطلقاً فلا يعمل فى قلبه ، بل يأتى الصفح حتى لا ينشغل قلبُ المؤمن بشيء قد عفا عنه ، ثم تأتى المرحلة الثالثة، وهى فرصة مفتوحة لمَنْ يريد أنْ يتمادى فى مرتبة الإحسان وترقى اليقين والإيمان بأنْ يُحسن الإنسان إلى مَنْ أساء إليه .

وهذه المرتبة هى مقام المغفرة ﴿ وَتَغْفِرُوا .. (١٤) ﴾ [التغابن] هذه المغفرة تجعلك مُنفِّذاً لقول الرسول الكريم ﷺ مما رواه أبيّ بن كعب قال : لما أنزل الله عز وجل على نبيه : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (١٩٩) ﴾ [الأعراف]

قال رسول الله : ما هذا يا جبريل ؟ قال : إن الله أمرك أن تعفو عمن ظلمك ، وتعطى مَنْ حرمك ، وتصِل مَنْ قطعك »[1].

---

(١) أورده السيوطى فى الدر المنثور (٦/٧٠٨) من حديث الشعبى مرسلاً وعزاه لابن أبى الدنيا وابن جرير الطبرى وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبى الشيخ الأصبهانى . وأخرجه أبو نعيم الأصفهانى فى معرفة الصحابة (٥١٣٤) من حديث قيس بن سعد بن عبادة .

فمغفرتك تجعلك تعفو رغم الظلم الواقع عليك ، وتعطى رغم أنهم حرموك ، وتصل مَنْ طردك وقطعك .

ويُنهى الحق سبحانه الآية بقوله تعالى : ﴿ فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ .. (١٤) ﴾ [التغابن] . وغفور صيغة مبالغة (فعول) فهو سبحانه دائم المغفرة ، لأنه ربٌّ وبربوبيته يعفو ويصفح ويغفر ، وعلى العبد أنْ يتخلَّق بأخلاق الله سبحانه .

والحق سبحانه يقول : ﴿ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٢) ﴾ [النور]

فإنْ كنتَ تحب أنْ يغفر الله لك ، أفلا تغفر لمن فعل معك سيئة ؟ وما دمت تريد أن يغفر الله لك فاغفر للناس خطأهم ، وهو سبحانه ﴿ غَفُورٌ .. (١٤) ﴾ [التغابن] لما قد بدر وحصل منكم من ذنوب استغفرتم ربكم منها ، وهو أيضاً ﴿ رَحِيمٌ (١٤) ﴾ [التغابن] بكم فلا يعاجلكم بالعقوبة شفقةً عليكم وحُباً فى رجوعكم إليه .

يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ ﴾

فقد تجد البعضَ يستمتعون بالمال والولد ، ولا يلتفت الإنسانُ الناظر إليهم إلى أن المال والولد هما أدواتُ عذابه ،وقد يقول إنسانٌ : إنَّ الله قال : ﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. (٤٦) ﴾ [الكهف]

ونقول لمن يقول ذلك : أكمل الآية : ﴿ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا (٤٦) ﴾ [الكهف]

ولا يغتر أحدٌ بالمال والولد ، لذلك يقول تعالى : ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (٥٥) ﴾ [التوبة]

فإياكم أنْ تروا واحداً من هؤلاء ممَّنْ رزقهم الله المال والولد ثم تقولون : كيف يكون عذابهم فى الدنيا وهم يملكون المال والولد ؟ ومثل هذا التعجب يعنى استحسان المال والولد والظن أن فيهما الخير كله .

لكنك إنْ نظرتَ بعمق إلى المال والولد وكل حطام الدنيا فستجده لايستحق الإعجاب ، وإياك أنْ تغترَّ بشيء يمكن أنْ يتركك ، ويمكن أنْ يكون سبباً فى عذابك .

فالمال والولد قد يجعلان الإنسان مُلتفتاً إلى النعمة ويُلهيانه عن المنعم ، وإنْ لم يلتفت الإنسانُ إلى المنعم لا يذكره ، وإنْ لم يذكر الله أهمل منهجه .

والمال والولد فى الحياة الدنيا قد يكونان سببين فى أنْ يخاف الإنسان ترك الدنيا ، فإنْ لم يكُنْ لك إيمان بما عند الله فى الآخرة فقد تخاف أنْ يتركك المال أو الولد .

والذى لا يؤمن باليوم الآخر فالدنيا هى كل زمنه ، وإنْ فاتها كان ذلك مصيبة له ، وإنْ فاتته كان ذلك مصيبة عليه ، وإنْ آمن الإنسان بالله واليوم الآخر لَقالَ : لئن فاتتْنى الدنيا فلى عند الله خيرٌ منها .

ويريد الحق سبحانه أنْ يمنع عن المؤمنين به فتنة النعمة التى تُلهى عن المنعم . فيقول الحق سبحانه : ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ .. (٥٥) ﴾ [التوبة] وهذا يدلُّنا على أن للمال وحده إعجاباً ، وللأولاد وحدهم إعجاباً .

فمَنْ عنده مالٌ معجب بما عنده ، ومَنْ ليس عنده مالٌ وعنده أولاد معجبٌ بهم أيضاً ، فإذا اجتمع الاثنان معاً يكون الإعجابُ أكبرَ وأشملَ .

والحق سبحانه وتعالى يريدنا أنْ نفهم أنَّ اجتماعَ المال والولد يجب ألاَّ يثير الإعجاب فى نفوسنا ، بل إنَّ سياق الآية يحذرنا من أنْ نعجب بمن عنده المال وحده ، أو بمَنْ عنده الأولاد وحدهم ، لذلك كرر الحق سبحانه كلمة (لا) فقال : ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ .. (٥٥) ﴾ [التوبة]

وأفهمنا الحقّ سبحانه أنه إذا أمدّ الكافر أو المنافق بالمال والولد ، فذلك ليس رفعةً من شأنه ، وإنما ليُعذبه بهما فى الدنيا والآخرة ، فقال : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا .. (٥٥) ﴾ [التوبة]

واللام هنا فى ﴿ لِيُعَذِّبَهُمْ .. (٥٥) ﴾ [التوبة] هى لام تدخل على الفعل واسمها « لام العاقبة » ، وهى تعنى أننا ربما نقوم بالفعل لهدف معين ، ولكن قد تكون عاقبتُه شيئاً آخر تماماً غير الذى قصدناه ، بل ربما تكون عكس الذى قصدناه .

والأموال والأولاد لا يُغْنون من الله ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا .. (١١٦) ﴾ [آل عمران]

فالكافرون يظنُّون أن الأموال والأولاد قد تُغنى من الله ، إنهم لا يُحسنون التقدير ، فالأموال والأولاد هم من مظانِّ الفتن ، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٨) ﴾ [الأنفال]

وما دامت الأموال والأولاد فتنة فلا بد أنْ نفهم الأمر على حقيقته ، فالفتنة ليست مذمومة فى ذاتها ،لأن معنى (فتنة) اختبار وامتحان ، وقد يمر الإنسان بالفتنة وينجح .

وذلك كأنْ يكون عنده الأموال والأولاد ، وهم فتنة بالفعل فلا يغره المال ، بل إنه استعمله فى الخير ، ولم يُصبه الأولاد بالغرور بل علّمهم حَمْلَ منهج الله وجعلهم يَنشئون على النماذج السلوكية فى الدين .

لذلك فساعة يسمع الإنسانُ أيّ أمر فيه فتنة فلا يظن أنها أمر سيء ، بل عليه أنْ يتذكّر أنّ الفتنة هى اختبار وابتلاء وامتحان ، وعلى الإنسان أنْ ينجح مع هذه الفتنة ، فالفتنة إنما تضر مَنْ يُخفق ويضعف عند مواجهتها .

والكافرون لاينجحون فى فتنة الأموال والأولاد ، بل سوف يأتى يوم لا يملكون فيه هذا المال ، ولا أولئك الأولاد ، وحتى إنْ ملكوا المال فلن يشتروا به فى الآخرة شيئاً ، وسيكون كلُّ واحد من أولادهم مشغولاً بنفسه .

فالكافر من هؤلاء يخدع نفسه ويغشّها ويغتر بالمال والأولاد وينسى أن الحياة تسير بأمر مَنْ يملك المُلْك كله ، إن الكافر يأخذ مسألة الحياة فى غير موقعها ، فالغرور بالمال والأولاد فى الحياة أمر خادع ، فالإنسان يستطيع أنْ يعيش الحياةَ بلا مال أو أولاد .

ومَنْ يغتر بالمال أو الأولاد فى الحياة يأتى يوم القيامة ويجد أمواله وأولاده حسرةً عليه لماذا ؟ لأنه كلما تذكر أن المال والأولاد أبعداه عما يؤهله لهذا الموقف فهو يعانى من الأسى ويقع فى الحسرة .

ويقول الحق سبحانه عن هذا المغتر بالمال والأولاد وهو كافر بالله : ﴿ وَأُولَـٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١١٦) ﴾ [آل عمران] وهذا مصيرٌ يليق بمَنْ يقع فى خديعة نفسه بالمال أو الأولاد .

والحق سبحانه يقول : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ .. (٢٨) ﴾ [الأنفال]

وفى هذا المعنى نجد سيدنا عمر رضى الله عنه وقد دخل عليه حذيفة فسأله: كيف أصبحتَ ؟ أجاب حذيفة : أصبحتُ أحبُّ الفتنة ، وأكره الحقَّ ، وأصلى بغير وضوء ، ولى فى الأرض ما ليس لله فى السماء .

وغضب سيدنا عمر ، ولولا دخول سيدنا على بن أبى طالب لَكَانَ لسيدنا عمر شأن آخر مع حذيفة . وسأل عليٌّ عمرَ : ما يُغضبك يا أمير المؤمنين ؟ قال عمر:

سألت حذيفة كيف أصبحت فقال كذا وكذا .

فقال علي رضي الله عنه : نعم يا أمير المؤمنين ، أصبح يحب الفتنة ، أى يحب ماله وولده ، فالحق سبحانه قال : ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ .. (١٥) ﴾ [التغابن] وهو يكره الموت والموت حَقٌّ ، مَنْ فينا يحبه يا أمير المؤمنين ؟

وهو يصلى بغير وضوء على النبى ﷺ ، وله فى الأرض زوجة وله ولد وهو ما ليس لله فى السماء ، فقال عمر قولته المشهورة : بئس المقام بأرض ليس فيها أبو الحسن [١].

والحق سبحانه فى آية سورة الأنفال قال : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا .. (٢٨) ﴾ [الأنفال] وفى آية سورة التغابن قال ﴿ إِنَّمَا .. (١٥) ﴾ [التغابن] ، وكلاهما يدل على أن الله يخبرهم ويعلمهم ويعلمنا بحقيقة كونية ، وهى أن الأموال والأولاد فتنة أى محنة واختبار وابتلاء . ففى الآية الأخرى يؤكد الأمر بـ(إنما) .

وقد يسأل سائل : لماذا بدأ الكلام بالأموال أولاً ثم ذكر الأولاد ؟

نقول : المتتبع لآيات القرآن يجد أنها دائماً تذكر المال قبل الأولاد ، يقول تعالى : ﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. (٤٦) ﴾ [الكهف] فذكرَ المال أولاً ، ثم ذكر (البنون) .

ويقول تعالى لإبليس : ﴿ وَاسْتَفْزِزْ[٢] مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ .. (٦٤) ﴾ [الإسراء]

---

(١) أخرج ابن سعد فى الطبقات الكبرى (٢/٢٣٩) عن سعيد بن المسيب قال : كان عمر يتعوذ بالله من معضلة ليس فيها أبو الحسن ، وذكره السيوطى فى جامع الأحاديث (٣٠٨٢٩) .

(٢) واستفزز أى استزل واستخف . أى استنهض ليقوم ويخف ويتحرك . (بصوتك) أى بوسوستك . (وأجلب عليهم) أى صِحْ عليهم من الجلبة وهى الصياح ﴿ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ (٦٤) ﴾ [الإسراء] المقصود وأجلب راكبى الخيل وهم الفرسان . ورجلك : الماشين على أرجلهم . والمقصود بجيشك راكبين أو ماشين .

ويقـول : ﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَـاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُـرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ .. (٢٠) ﴾ [الحديد]

فدائمـاً القـرآن يذكر الأموال قبل الأولاد . فلماذا قَـدَّم المال ؟ أهو أغلى عند الناس من البنين ؟ وقد قَدَّمه سبحانه لأن المال عام فى المخاطب على خلاف البنين .

فـكلّ إنسان لديـه المال وإنْ قلَّ ، أما البنون فهـذه خصوصية ، ومن الناس مَـنْ حُـرم منها ، كمـا أن البنـين لا تأتى إلا بالمـال ، لأنه يحتـاج إلى الزواج والنفقة لكى يتناسل وينجب .

إذن : كلُّ واحد له مال وليس لكلِّ واحد بنون .

والحـق سبحانـه يقـول : ﴿ إِنَّمَـا أَمْوَالُكُـمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَـةٌ .. (١٥) ﴾ [التغابن] والفتنـة ابتـلاء واختبـار ، والحق سبحانـه يختبر الإيمان بـ[illegible]فتنـة ، ويخطىء الناس عندما يظنون أن الابتلاء فى ذاته شر ، لا إن الابتلاء [illegible]جردُ اختبار .

والاختبار عُرْضة أنْ تنجح فيه وأنْ ترسب ، فالفتنة ليسـ[illegible]شيئاً مذموماً ولا هى مصيبة تقع ، ولكن المصيبة تقع إذا رسب الإنسانُ فى [illegible]تنة .

والفتنـة مأخوذة من أمر حسِّـىٍّ هو فتنة الذهب وكذلك الـ[illegible]يد ، فتنة الذهب هى صَهْر الذهب فى البوتقة حتى ينصهر ، فتطفو كالزبد كـ[illegible]عناصر الشائبة المختلطـة بالذهب ، وكذلك الحديد يتم صَهْـره حتى تنفصل [illegible]رات المتماسكة بعضها فى بعض ويطفو الخبث .

ونعـرف أن الحديـد أنواع ، فالحديد الزهر شوائبه ظاهرة [illegible]به وسهل الكسر ، بينما نجد الحديد الصلب بلا خَبَث فهو صلب ، وفتنة الذهب [illegible]حديد تكشف عن المعادن الغريبة المختلطة به .

ونُقلت كلمة « الفتنة » من المحسَّات إلى المعانى وصارت الفتنة هى الاختبار الذى ينجح فيه الإنسان أو يرسب ، فهى ليستْ ضارة فى ذاتها ولكنها ضارة لمَنْ يرسب فيها .

فالاختبارات التى يمرُّ بها الإنسان كلّها هى فتنة ، والذى ينجح تكون الفتنةُ بالنسبة إليه طيبةً ، والذى يرسب ويفشل فالفتنة بالنسبة إليه سيئة .

وإذا كان رسول الله ﷺ قد استشهد هنا بآية سورة التغابن : ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ .. (١٥) ﴾ [التغابن] فى الحديث الشريف الذى رواه عبد الله بن بريدة عن أبيه بريدة الأسلمى [١] قال : رأيتُ رسول الله ﷺ يخطب ،فجاء الحسن والحسين رضى الله عنهما وعليهما قميصان أحمران يمشيانِ ويعثرانِ ، فنزل ﷺ فحملهما بين يديه ثم قال : « صدق الله عز وجل : ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ .. (١٥) ﴾ [التغابن] نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران فلم أصبر حتى قطعتُ حديثى ورفعتُهما [٢] ثم أخذ فى خطبته .

فرسول الله يقصد بفتنة الأولاد هنا الانشغال وأخْذ الفكر ، لا أنهما سيأخذانه لطريق غير طريق الإيمان ، بل هى الفتنة بمعنى أنْ يشغلاه عمَّا هو فيه من عمل وخطبة لا أكثر .

ومن هذا أيضاً ما رواه أنس بن مالك رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ تجوَّز ذات يوم فى صلاة الفجر . فقيل : يا رسول الله لم تجوَّزْتَ ؟ قال : سمعتُ بكاءَ صبيٍّ فظننتُ أنَّ أمه معنا تصلى فأردتُ أن أفرغ له أمه[٣] .

---

(١) بريدة الأسلمى هو بريدة بن الخصيب ، كان رئيس قبيلة أسلم ، ولما هاجر رسول الله ﷺ مر بكراع الغميم وبريدة بها فدعاهم رسول الله إلى الإسلام فأسلموا ، ثم قدم بريدة على رسول الله المدينة وهو يبنى المسجد ، ومات بريدة فى خلافة يزيد بن معاوية بمرو .

(٢) أخرجه أبو داود فى سننه (١١١١) والترمذى فى سننه (٣٧٧٤) والنسائى فى سننه (١٤١٣) وكذا ابن ماجه (٣٦٠٠) وأحمد فى مسنده (٢٣٠٤٥) من حديث بريدة الأسلمى .

(٣) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (١٣٧٢٦) من حديث أنس بن مالك . وقد أخرج ابن أبى داود فى كتاب (المصاحف) (٤٢٤) عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله ﷺ كان يقرأ فى الفجر بأول المفصل ، فقرأ ذات يوم بقصار المفصل . قيل له فقال : إنى سمعت بكاء صبى ، فأحببت أن أفرغ له أمه .

لقد شغله بكاء الصبى ، فما بال قلب أمه ؟! إنه أراد أنْ يرحم الأم ويرحم الصبيّ الذى يبكى يريد أمه لأمر ، وهذا إذا قلنا عنه أنه فتنة فى الصلاة بسبب الولد ، فإنه لا يصل إلى معنى الفتنة التى تقصده آية سورة التغابن .

فرقَّةُ قلب رسول الله وحُبه لابنيْ ابنته فاطمة الحسن والحسين ، وحُبه لفاطمة التى قال عنها « إنما هى بضعة منى »[1] لقد كانت أحبَّ بناته إليه ، لذلك كان الحسن والحسين أحبَّ أحفاده إلى قلبه ، فأبوهم علىّ ابن عمه الذى فاداه بنفسه ليلة الهجرة إلى المدينة .

لقد صَعُبَ عليه أنْ يرى حفيديْه يمشيان ويعثران فيما يلبسانه ، فأراد أنْ يقِيل عثرتهما ، فترك خطبته ونزل من على منبره الشريف وأخذهما بيديْه ورفعهما من على الأرض .

ثم قال : صدق الله : ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ .. (١٥) ﴾ [التغابن] ، فالأولاد قد يكونون فتنة واختباراً ، المهم هل هما فتنة واختبار خيْر أم شر .

فليست كلُّ فتنة شراً ، وليس كلُّها خيراً ، فالفتنة لابدَّ منها ، يقول تعالى : ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (٢) ﴾ [العنكبوت]

وفتنة الأموال تأمر الناس بالبخل والكنز والفساد بكلِّ أصنافه ، وفتنة الأولاد تدعو إلى التقاعس عن القيام بالمهمات الكبرى التى قد تطلب من الإنسان فتدعوه إلى الجُبْن والبُخْل والشُّح أيضاً .

والواجب على المؤمن أنْ يستعلى على فتنة المال ويُرخص من قيمته فى النفوس ، فلا يجعل المال يشغله أو يُعطله .

وإذا كان يبغى من وراء المال أو الأولاد المنفعة ، فلا تنظر إلى منفعة عاجلة

---

(١) عن المسور بن مخرمة قال قال رسول الله ﷺ : « إنما فاطمة بضعة منى يؤذينى ما آذاها » .؟ أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٤٦١) ومسلم فى صحيحه (٣٧١٤ ، ٣٧٦٧) .

مهما كبرتْ وكثرتْ ، ولكن انظر إلى منفعة آجلة عظيمة بعظمة مَنْ يعطيك أجراً عليها .

وأجرك ليس عند أحد من الخَلْق ، بل هو عند مَنْ خلق الخَلْق .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَاللهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٥) ﴾ [التغابن] الحق سبحانه يحب من عباده أنْ ينجحوا فى الاختبارات التى يتعرَّضون لها ، لا أنْ يفشلوا ، فأنت إذا كنتَ تسعى لتحصيل المال من أيِّ طريق ، أو تستجيب لفتنة أولادك لك فيصرفونك عما لابدَّ لك من الثبات على الطاعة والبُعْد عن المال الحرام حتى ينشأ أولادك من حلال .

واستقامتكم على منهج الله لن تضيع ويجعل الله لكم فى طاعتكم ونجاحكم فى الفتنة أجراً عظيماً ، لذلك قال تعالى : ﴿ وَاللهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٥) ﴾ [التغابن]

فالنفس البشرية مُولَعة بحكم تكوينها الفطرى من الله بحب النفع لنفسها، ولكن المختلَف فيه هو قيمة هذا النفع ، وعمر هذا النفع لأن الذى يسرق إنما يريد أنْ ينفع نفسه بجهد غيره ، ومَنْ لا يسرق يريد أيضاً أنْ ينفع نفسه ليبارك الله له فى المال ، وأنْ يعطيه الرزق الحلال .

وهكذا تكون النفعية وراء كلِّ عمل ، سواء أكان إيجاباً أم سلباً ، فإذا كانت الخيانةُ ستؤدى لك نفعاً فى أولادك أو أموالك ، فاذكر ما يقابل الأمانة من الأجر عند الله عزَّ وجل ، وضع هذه فى كفة وضَعْ تلك فى الكفّة الأخرى ، وانظر أيّ كفّة ترجح ، ولا بد أنْ ترجح كفّة الأجر عند الله عز وجل .

ولنا أنْ نتصوَّر عظمة عطاء الحق ، فالمنهج الإيمانى يعود خيره على مَنْ يُؤديه ، وفى هذا يقول تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً .. (٩٧) ﴾ [النحل] ثم يقول ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا

كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٧) ﴾ [النحل]

فالحياة الطيبة هى النتيجة الطبيعية للعمل الصالح الذى يبتغى صاحبه وجه الله والدار الآخرة ، فيجمع الله له حظَّيْن من الجزاء ، حظاً فى الدنيا بالحياة الطيبة الهانئة ،وحظاً فى الآخرة : ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٧) ﴾ [النحل]

فهو ينتفع من اتباعه منهجَ الله حياةً طيبة مطمئنةً سعيدةً بطاعة الله ، فهو يعيش فى نور الله وبركة رزق الله ، ومع هذا يعطيه الله أجراً على طاعته وثواباً على استقامته رغم أنه انتفع باستقامته .

ثم إن الأجر عند البشر يساوى قيمة العمل ، لكن الأجر عند الله لا يساوى العمل فقط ، بل هو عظيمٌ بطلاقة قدرة الحق سبحانه وتعالى .

فهناك فرْقٌ بين أجر الناس للناس فى الدنيا ، وأجْر المُنعم سبحانه فى الآخرةِ ، والناس قد أَلِفُوا الأجر على أنه جُعْل[1] على عمل ، فعلى قدْر ما تعمل يكون أجرك ، فإن لم تعمل فلا أجرَ لك .

أما أجر الله لعباده فى الآخرة فهو أجر عظيم دائم ، فإن ظلمك الناس فى تقدير أجرك فى الدنيا ، فالله تعالى عادل لا يظلم ، يعطيك بسخاء لأنه المنصف المتفضّل ، وإن انقطع الأجرُ فى الدنيا فإنه دائم فى الآخرة ، لأنك مهما أخذتَ من نعيم الدنيا فهو نعيمٌ زائل ، إما أنْ تتركه وإما أنْ يتركك .

ووصْف الأجر بأنه عظيم يدلُّ على كِبرَ فى الحجم ونفاسة فى الصفات وامتداد فى الزمن ، وهذه هى عناصر العظمة فى الشيء ، وأى أجر أعظم من أجر الله لعباده فى الآخرة !!؟

---

(١) الجُعْل : ما يُجعل من العطية أو غيرها أو أجر على عمل . فالجُعل بالضم ما جُعل للإنسان من شيء على شيء يفعله وكذلك الجِعالة بالكسر . وفى كتاب التعريفات للجرجانى : الجعل ما يُجعل للعامل على عمله .

وعظمةُ الأجر أيضاً أنه عند الله لا عند البشر، قال تعالى: ﴿ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٥) ﴾ [التغابن] وفى آية أخرى ﴿ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ .. (١١٢) ﴾ [البقرة]

فالله جعل التكليف منه سبحانه، فالمنطقى أنْ يكون الأجرُ عند الله، فلا يوجد خوفٌ أو حزن من أنْ لا ينالوا أجرهم الذى وعدهم الله به، فالخوف يكون من شيء سيقع، والحزنُ يأتى على شيء قد وقع، ولا هذه ولا تلك تحدث عندما يكون أجرُنا عند الله.

فما عند الله لا خوفٌ عليه بل هو يُضاعف ويزداد، وما عند الله لا حزن عليه، لأن الإنسان يحزن إذا فاته خيرٌ ولكن ما عند الله باق لا يفوتك ولا تفوته.

وقد كانت السيدة فاطمة بنت رسول الله ﷺ تجلو الدرهم وتُطيِّبه عند التصدُّق به، فلما قيل لها: ماذا تصنعين؟ قالت: أجلو درهماً وأطيِّبه لأنِّى نويتُ أنْ أتصدَّق به، فقيل لها: أتتصدقين به مجلواً ومُعطراً؟

قالت الزهراء بنت رسول الله ﷺ: لأنِّى أعلم أنه يقع فى يد الله قبل أنْ يقع فى يد الفقير [١].

إن الأجر يكون عند من يُغليه ويُعليه ويرتفع بقيمته، وهو الخالق الوهاب.

ومَنْ يتأمل آيات القرآن يجد فيها معنًى جميلاً فى الأجر العظيم، أن الأجر أحياناً لا يكون مقابلاً للعمل الحسن، بل يكون محْضَ الفضل.

يقول تعالى: ﴿ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا (٤٠) ﴾ [النساء] فقد أسماه الله أجراً مع أنه زائد، لأن هذا الفضل جاء تابعاً للأجر، فإذا لم يعمل الإنسان هذا العمل فإنه لا يستحق أجراً، وبالتالى لا ينال فضلاً.

وما دام الأجر من عند الله فهو عظيم، لأنه أجر مناسب للمعطى وهو الله عز وجل.

---

(١) ذكر السمعانى فى تفسيره (٣٤٦/٢): رُوى عن ابن مسعود أنه قال: إن الصدقة تقع فى يد الله قبل أن تقع فى يد الفقير.

ويقول تعالى : ﴿ وَفَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (٩٥) ﴾ [النساء] فما هو الأجر العظيم ؟ يأتى بعده قوله تعالى : ﴿ دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٩٦) ﴾ [النساء]

والدرجات جمع درجة ، وهى المنزلة الارتقائية التى يرتقى فيها الإنسان ، ويضيف عليها الحقُّ سبحانه المغفرة والرحمة .

وكلمة ﴿ عِنْدَهُ .. (١٥) ﴾ [التغابن] فى الآية تعطى ملمحين :

الملمح الأول : هو تيئيس مَنْ لم يؤمن بالله من أن يجد أجْراً فى الآخرة على ما قد يعمله من أفعال الخير دون أنْ يؤمن بالله ، فإنه لم يفعل الصالحات ابتغاءَ مرضاة الله ، أو فعلها لأجل آلهة أخرى مزعومة .

إذن : فخُذْ أجرك ممن فعلت له ، وهذا غير متحقق لأنه لا إله إلاَّ الله ، لا فى الدنيا ولا فى الآخرة .

والحق سبحانه يقول : ﴿ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦) ﴾ [غافر] فلا أحدَ له مُلْك يوم القيامة .

وكيف ينتظرون من الله أجراً على أعمالٍ لم يعملوها لله ، بل عملوها لينالوا حظوةً عند الناس فى الدنيا ، وقد نالوها ، وغيرهم فعلوها لآلهة أخرى .

الملمح الثانى : أن كلمة ﴿ عِنْدَهُ .. (١٥) ﴾ [التغابن] تعطى معنى أن الأجر سيكون فى الدنيا أو سيكون فى الآخرة ، لأن الله يملك الدنيا والآخرة ، فـ ﴿ عِنْدَهُ .. (١٥) ﴾ [التغابن] تحتمل العندية فى الدنيا والعندية فى الآخرة .

وهذا غير قوله تعالى عن إيتاء الأجر فى الآخرة ، يقول تعالى : ﴿ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (٧٤) ﴾ [النساء]

فنحن أمام ثلاث مراحل لترتيب الجزاء على الفعل : جزاء يأتى فور حصول

الشرط ، وجزاء يأتى بعد زمن يسير تؤديه « السين » . وجزاء يأتى بعد زمن أطول تؤديه « سوف » .

ويستخدم الحق سبحانه هنا كلمة (سوف) ، وكان من الممكن أنْ يأتى القول ﴿ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا .. (١٠) ﴾ [الفتح] ، ولكن لدقَّة الأداء القرآنى البالغة جاءتْ بأبعد المسافات وهى (سوف) .

ونعرف أنَّ جواب شرط الفعل إذا ما جاء على مسافة قريبة فنحن نستخدم (السين) ، وإذا ما جاء جوابُ الشرط على مسافة بعيدة فنحن نستخدم (سوف) .

وجاء الحق هنا بـ (سوف) لأن مناطَ الجزاء هو الآخرة ، فإيَّاك أيُّها العبد المؤمن أنْ تقول : لماذا لم يُعطنى الله الجزاءَ على الطيِّب فى الدنيا ؟

لأن الحق سبحانه وتعالى لم يقل (فسنؤتيه) ولكنه قال : ﴿ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (٧٤) ﴾ [النساء] مما يدلُّ على أنَّ الفضل والإكرام من الله ، وإنْ كان عاجلاً ليس هو الجزاء على هذا العمل ، لأن جزاء الحق لعباده المؤمنين سيكون كبيراً ، ولا يدلُّ على هذا الجزاء فى الآخرة إلا ﴿ فَسَوْفَ .. (٧٤) ﴾ [النساء]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٦) ﴾

الاتقاء من الوقاية ، والوقاية هى الاحتراس والبُعْد عن الشر ، وقوله تعالى: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ .. (١٦) ﴾ [التغابن] أى : اتقوا غضب الله الذى يؤدى بنا إلى أنْ نتقى كلَّ صفات جلاله ونجعل بيننا وبينها وقاية ، فمن اتقى صفات جلال

الله أخذ صفات جماله .

فصفات الجلال تجدها فى القهار والجبار والمذل والمنعم والضّار ، فمَن اتقى واحترس من قهر الله وجبروته وانتقامه أخذ صفات الجمال المتمثلة فى الغفار والرحيم والتواب والعفوّ .

﴿ فَاتَّقُوا اللهَ .. (١٦) ﴾ [التغابن] أى : جعلوا بينكم وبين صفات الجلال فى الله وقاية حتى لا يصيبكم عذابٌ عظيم ، ولا تصيبكم آثارُ صفات الجلال، وذلك بأنْ تكون أعمالكم فى الدنيا وفقاً لمنهج الله سبحانه وتعالى . إذن : فالتقوى مطلوبة فى الدنيا .

وأنتم لا تتحملون متعلقات آثار صفات الجلال ، فأنتم لا تتحملون غضب الله ولا قَهْر الله ولا بطش الله .

فإياكم أنْ تُغضبوا ربكم فى أيّ عمل من هذه الأعمال ، وكُنْ أيها المسلم فى هذه التقوى على يقين من أنك ملاقي الله ، ولا تشك فى هذا اللقاء أبداً ، وما دُمْت ستتقى الله وتكون على يقين أنك تلاقيه ؛ لم يَبْقَ لك إلا أنْ تُبشر بالجنة .

يقول تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (٢٢٣) ﴾ [البقرة]

وتقوى الله تعنى أنْ نفعل أوامر الله وأنْ نتجنَّب نواهيه ، لنحكم حركة اختياراتنا بمنهج ربنا ، فإنْ حكمنا حركة اختياراتنا بمنهج الله صِرْنا مع الكون كأننا مُسخَّرون لقضايا المصلحة والخير .

وبعض السطحيين قد ينظر إلى بعض من آيات القرآن ويقول : إن بها تناقضاً . فيقولون : بعض من آيات القرآن تقول :﴿ فَاتَّقُوا النَّارَ .. (٢٤) ﴾ [البقرة] . وبعض الآيات تقول ﴿ اتَّقُوا اللهَ .. (٢٧٨) ﴾ [البقرة] فهل للنار وقاية؟ وهل لله وقاية ؟

وهـؤلاء لا يفهمـون أن ﴿ اتَّقُوا اللهَ .. (٢٧٨) ﴾ [البقـرة] تعنى : اجعل وقـاية بينك وبين ما يؤذيك ويُتعبك ، فـ ﴿ اتَّقُوا اللهَ .. (٢٧٨) ﴾ [البقرة] تعنى : اجعل بينك وبين عقاب الله وقاية ، وهى الدرع التى يقيمها الإنسان بتنفيذ أوامر الله بـ (افعل) والامتثال لنواهى الله بـ (لا تفعل) .

وعندما تجعل بينك وبين الله وقاية فأنت تجعل بينك وبين غضب الله وقاية، وهكذا تتساوى « تقوى الله » مع « اتقاء النار » .

والمتقون هم الذين يجعلون بينهم وبين أيّ شيء يُغضب الله وقاية ، والطريق أنْ نتبع منهجه فلا ندخل النار التى هى جند من جنود الله ، والوقاية من النار لا تكون إلا بطاعة الله باتباع أوامره واجتناب نواهيه.

فمعنى اتق الله : اجعل بينك وبين عذاب الله وغضبه وقاية ، وهذا نفسه معنى : اتق النار . يعنى : ابتعد عن أسبابها حتى لا تمسَّك النار .

والحق سبحانه يقول هنا : ﴿ فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ .. (١٦) ﴾ [التغابن] والفاء هنا للتعقيب على ما سبق من قوله تعالى : ﴿ يَـأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٤) إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٥) ﴾ [التغابن]

فـلا تجعلوا أموالكم وأولادكم يصرفونكم عن طاعـة الله واتباع منهج الله ، وإلا تكونون قد فشلتم ورسبتم فى اختبار الله لكم ، وتكون نتيجة الفتنة سلبية بالنسبة لكم .

لذلك جاء بعدها (فاتقوا) بوضع فاء قبل (اتقوا) أى : انتبهوا واجعلوا تقوى الله وخشيته والخوف منه هو الذى يُحرككم لا أهواؤكم فى الميل مع رغبات أولادكم ورغباتكم فى كَنْز المال والشُّح به والبخل .

ولـو تأملنا القرآن نجـده يقول : ﴿ فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ .. (١٦) ﴾ [التغابن] فلمـاذا قال هنا ﴿ مَـا اسْتَطَعْتُمْ .. (١٦) ﴾ [التغابن] وعلَّق الأمر على استطاعة العبـد لتنفيذ التقـوى ، مع أنه سبحانه قال فى آية أخرى : ﴿ يَـا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ .. (١٠٢) ﴾ [آل عمران]

ومَـنْ يستطيـع أنْ يتقى الله حـقَّ تقاته ؟ ذلك صَعْب علـى المسلمين ، ولذلك عندمـا نزلـت آية سورة آل عمران قالوا : ليس منّا مَنْ يستطيع أنْ يتقى الله حقَّ تقاتـه ، فنزلت الآيـة الكريمة : ﴿ فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٦) ﴾ [التغابن]

والـذى يطبـق الآية الكريمـة : ﴿ اتَّقُوا اللهَ حَـقَّ تُقَاتِـهِ .. (١٠٢) ﴾ [آل عمران] يحقـق خـيراً أكبر فى عملـه ولكنه لا يستطيـع أنْ يتقى الله حـقَّ تقاته إلاَّ فى أعمال محدودة جداً . إذن : الخير هنا أكبر ، ولكن العمل الذى تنطبق عليه الآية محدود .

أمـا قولـه تعالى : ﴿ فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُـمْ .. (١٦) ﴾ [التغابن] فإنه قد حدد التقـوى بقدْر الاستطاعة ، ولذلك تكون الأعمال المقبولة كثيرة وإنْ كان الأجرُ عليها أقلّ .

وعندما نأتى إلى النتيجة العامة .. أعمالٌ أجرُها أعلى ولكنها قليلة ومحدودة جداً ، وأعمالٌ أجرُها أقلّ ولكنها كثيرة ، أيّهما فيه الخير ؟ طبعاً الأعمال الكثيرة ذات الأجر الأقل فى مجموعها تفوق الأعمال القليلة ذات الأجر المرتفع .

ولكـن ما حـقّ التُّقى ؟ هـو أنْ يكـون إيمانُك أيهـا المؤمن إيمانـاً راسخاً لا يغـادرك ولا تتذبـذب فيه ، واتقـاء الله حقَّ تُقاته هو اتبـاعُ منهجه فيُطاع الله باتباع المنهج فلا يُعصى ، ويُذكر فلا يُنسى ، ويُشكر فلا يكفر .

وقيل فى معنى : ﴿ حَقَّ تُقَاتِهِ .. (١٠٢) ﴾ [آل عمران] أى : أنه لا تأخذك فى الله لومة لائم ، أو أنْ تقول الحق ولو على نفسك . هذا ما يُقال عنه « حقّ التقى » أى : التُّقى الحق الذى يُعتبر تُقى بحقٍّ وصدق .

وقال العلماء : إن هذه الآية عندما نزلتْ وسمعها الصحابة استضعف الصحابة نفوسهم أمام مطلوبها ، فقال بعضهم : مَنْ يقدر على حقِّ التقى ؟ ويقال : إن الله أنزل بعد ذلك : ﴿ فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ .. (١٦) ﴾ [التغابن]

فهل معنى هذا أن الله كلّف الناس أولاً ما لا يستطيعون ، ثم قال من بعد ذلك: ﴿ فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ .. (١٦) ﴾ [التغابن]

لا .. إن الحق سبحانه لا يكلف إلا بما فى الوُسْع ، والناس قد يخطئون الفهم لقوله تعالى : ﴿ فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ .. (١٦) ﴾ [التغابن] فيقول العبد :أنا غير مستطيع أنْ أقوم بذلك التكليف ، ويظنُّ هذا العبد أن التكليف يسقط عنه ، لا إنَّ هذا فَهْم خاطيء .

إنَّ قوله تعالى : ﴿ فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ .. (١٦) ﴾ [التغابن] أى : إنك تتقى الله بما كان فى استطاعتك من الوُسْع ، فما باستطاعتك أن تقوم به عليك أن تقوم به ، فلا يهرب أحدٌ إلى المعنى المناقض ويقول : أنا غير مستطيع لأنَّ الله يعلم حدودَ استطاعتك .

وساعةَ تكون غيرَ مستطيع فهو سبحانه الذى يُخفِّف ، فالحق سبحانه هو الذى يعلم إذا كان الأمرُ خارجاً عن استطاعتك أو لا ، وساعة يكون الأمرُ خارجاً عن استطاعتك فالله هو الذى يُخفِّف عنك .

فقوله تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ .. (١٠٢) ﴾ [آل عمران] هذه منزلة عالية فى التقوى لا يقوم بها إلا الخواصّ من عباد الله ،وعندما

شقَّتْ هذه الآية على الصحابة وقالوا[١] : ومَنْ يستطيع ذلك يا رسول الله ؟

فنزلت ﴿ فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ .. (١٦) ﴾ [التغابن] وجعل الله التقوى على قدر الاستطاعة ، وهكذا نُسخت الآية الأولى مطلوباً لازماً ، ولكنها بقيتْ ارتقاءً، فمَنْ أراد أنْ يرتقى بتقواه إلى ﴿ حَقَّ تُقَاتِهِ .. (١٠٢) ﴾ [آل عمران] فبها ونعمتْ، ومَنْ لم يستطع أخذ بالثانية .

وفى تأمُّل آخر للآيتين سنجد ملمحاً آخر يردّ على مَنْ يقول بالتناقض فى الآيتين ، فآية ﴿ حَقَّ تُقَاتِهِ .. (١٠٢) ﴾ [آل عمران] جاءت فى سياق يختلف عن آية ﴿ فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ .. (١٦) ﴾ [التغابن]

فآية ﴿ حَقَّ تُقَاتِهِ .. (١٠٢) ﴾ [آل عمران] جاءت فى سياق آيات تُحدِّثنا عن الكفر والإيمان ، قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ (١٠٠) وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٠١) ﴾ [آل عمران]

فالكلام هنا عن إيمان وكفر ، فلا يناسبه فعله بحسب الاستطاعة ، فالذى يناسب المقام هو قوله : ﴿ اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ .. (١٠٢) ﴾ [آل عمران] ، فالإنسان مُطالب بالإيمان بالله بما أمر به الله ، ولا يقرب الكفر ولا الشرك بأيّ شكل من الأشكال .

وعليه فالإيمان بالله ورسُله وكتبه واليوم الآخر والقدر خيره وشره ، وهذه كلها

---

(١) قال سعيد بن جبير (وهو من كبار التابعين) : لما نزلت الآية ﴿ اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ .. (١٠٢) ﴾ [آل عمران] اشتد على القوم العمل ، فقاموا حتى ورمت عراقيبهم وتقرَّحت جباههم ، فأنزل الله تخفيفاً على المسلمين ﴿ فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ .. (١٦) ﴾ [التغابن] فنسخت الآية الأولى ، أورده ابن كثير فى تفسيره (٨/ ١٤٠) وعزاه لابن أبى حاتم .

معانٍ لا تقبل الاستطاعة ، بل لا بدّ من حق التقاة .

فالاستطاعة تأتى فى الأمور التى تجوز فيها ، وهذا يناسب الموقف الذى فى سورة التغابن ، فالإنسان يكون مؤمناً ولكن تغلبه نفسه أو حُبه للمال أو حُبه لأولاده وأهله فيستجيب لهم فى بعض الأمور التى ليس من بينها الكفر والشرك ، حينها يناسبه ﴿ فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ .. (١٦) ﴾ [التغابن]

فالله هو الخالق سبحانه يعلم ضعف الإنسان والظروف التى قد تأخذ به يميناً ويساراً ، ولكن ليس الإيمان من بين هذه التى تحتمل الاستطاعة ، تستطيع أو لا تستطيع إلا فى حالة الإكراه ﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ .. (١٠٦) ﴾ [النحل]

ثم يقول تعالى : ﴿ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا .. (١٦) ﴾ [التغابن] فالمطلوب ليس السمع بجارحة الأذن فقط ، بل المطلوب سمع يتبعه طاعة وتنفيذ لما سمعت .

فأنت تسمع كلَّ ما يُقال حولك ، وقد تنتبه إلى ما تسمع وقد لا تنتبه ، لذلك يقول تعالى : ﴿ وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ (١٢) ﴾ [الحاقة] فوعى الأذن لما تسمع يجعلها تستفيد مما تسمع وتعتبر بما يرد عليها ، فلا يكون ما تسمعه مجرد أصوات كهؤلاء الذين قال الله عنهم :

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا .. (١٦) ﴾ [محمد]

فهم استمعوا وسمعوا ما قال رسول الله ، ولكنهم خرجوا من عنده يقولون ﴿مَاذَا قَالَ آنِفًا .. (١٦) ﴾ [محمد] أى : أنهم يسمعون ولا يعقلون ولا يدخل النورُ إلى قلوبهم ، فكأنهم صُمٌّ عن آيات الله لا يسمعونها .

فالمؤمن يسمع ويتأثر بما يسمع فيزداد إيمانه ، أما الكافر فلا تستطيع أذنه أنْ تنقل الوعى والإدراك بما سمع .

المؤمنون تفيض أعينهم من الدمع عند سماع قول الله وسماع القرآن ، أما مَنْ غلُظت قلوبهم فلم يتخللها أو يدخلها ويخالطها نورُ القرآن ، فهؤلاء تغلظ قلوبهم عن سماع الحق وإنْ سمعوه بجارحة الأذن .

لذلك يقول تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ .. (٤٤) ﴾ [فصلت] أى : صَمَم فلا يسمعون ، وما دام فى الأذن وَقْر وصمم فلن تسمع ، وإنْ سمعت شيئاً أنكره القلب ، والجوارح لا تنفعل إلاَّ بما شُحن به القلب من عقائد .

أما الذين هداهم الله فيسمعون كلمة الحق وتستقبلها قلوبهم بالرضا فتنفعل لها جوارحهم بالالتزام ، فتسمع بالأذن وتقبل بالقلب وتنفعل بالجوارح طاعةً والتزاماً بما أمرت به .

وهذا هو مقصودُ الحق سبحانه هنا ﴿ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا .. (١٦) ﴾ [التغابن] وارتباط السمع والطاعة بالتقوى قد صرَّح به حديثُ رسول الله .

ويقول الحق سبحانه عن المؤمنين : ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا .. (٢٨٥) ﴾ [البقرة]

ويقول تعالى : ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا .. (٥١) ﴾ [النور]

فالسماع هو بلوغ الدعوة ، والطاعة هى انفعالٌ بالمطلوب ، وأن يمتثل المؤمن أمراً ويمتثل المؤمنُ نهياً فى كلِّ أمر يتعلق بحركة الكون .

فمعنى ﴿ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا .. (١٦) ﴾ [التغابن] أى : اسمعوا سمعاً واعياً يليه إجابة وطاعة ، لا مجرد أنْ يصل الصوتُ إلى أذن السامع دون أنْ يؤثر فيه شيئاً .

فالسمع له وظيفة ، وهو إبلاغ كلام الله لمدركات الإنسان العقلية والقلبية، ثم يتبعه تنفيذ وطاعة .

والحق سبحانه يريد لنا أن نكون ممن يسمعون ويطيعون ، لا أنْ نكون من هؤلاء الذين قالوا (سمعنا وعصينا) .

يقول الحق سبحانه عنْ أولئك اليهود : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا .. (٩٣) ﴾ [البقرة]

فهم سمعوا ما قاله لهم الله سبحانه وعصَوْهُ ، فهم سمعوا فى القول وعصوا فى الفعل ، فهم قالوا : سمعنا ولكنهم لم ينفذوا فلم يفعلوا ، والله سبحانه يريدهم أن يسمعوا سماع طاعة لا مجرد سماع بالجارحة .

لذلك يحب الله من المؤمنين أن يسمعوا سماع طاعة وسماع تنفيذ .

ومن هنا ينقلهم الحق سبحانه إلى الإنفاق كوجه من أوجه طاعة الله سبحانه، فيقول : ﴿ وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ .. (١٦) ﴾ [التغابن]

ولاحظ أن الحق سبحانه يقول (خيراً) أى : أن الحق سبحانه يقارن بين أمرين ، أحدهما خيرٌ من الآخر وأكثر نفعاً وخَيْرية من الأمر الآخر .

هذان الأمران هما الإنفاق والشح ، وشُح النفس يأتى لأن الإنسان لا يأمن أبداً أنْ يأتيه العجزُ من بعد القدرة ، لذلك فإنه يحاول إنْ كان يملك شيئاً أنْ يُؤمِّن العجز المتوهم ، فيحافظ على ما عنده من حاجات .

وهو يظن أنّ شُحه وبُخله واحتفاظه بالشيء عنده ، وفى ملكيته خيرٌ له ، لذلك يُلفت الحقُّ سبحانه نظرهم ، فيقول : ﴿ وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ .. (١٦) ﴾ [التغابن]

والحق سبحانه يُطمئن المنفقين ، فيقول : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ

والله وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦١) ﴾ [البقرة]

فالإنفاق فى سبيل الله يردُّه الله لك مضاعفاً ، لذلك لا تحزن ولا تخف على مالك لأنك أعطيتَه لمقتدر قادر واسع عليم ، فأنفق لأنه سبحانه سيزيدك .

وقد دخل رسول الله ﷺ على بلال وعنده صَبَرٌ[١] من المال ، فقال له رسول الله : أنفق يا بلال ولا تَخْشَ من ذى العرش إقلالاً[٢].

وفى رواية أنه كان تمراً ، فقال رسول الله : ما هذا يا بلال ؟ فقال : تمرٌ أدخره ، قال : ويحك يا بلال أو ما تخاف أنْ يكونَ له بُخار فى النار ؟ أنفق يا بلال ولا تخْشَ من ذى العرش إقلالاً[٣] .

فرسولُ الله يطلب من بلال أنْ ينفق ، على فَقْر بلال وحاجته ، فما بالنا بغيره ممَّنْ يعبُّون المال عباً ويكنزونه ولاينفقونه فى سبيل الله .

وقد كان بلال بن رباح رضى الله عنه رجلاً فقيراً لم يُؤْت سَعة من المال أو الرزق . وقد أراد أنْ يدَّخر بعض تمره لأضياف رسول الله عندما يأتيه ، ورغم هذا وجَّهه رسولُ الله إلى الإنفاق لا الادخار ، فقال له : أنفق يا بلال ، ولا تخْش من ذى العرش إقلالاً .

وليس معنى هذا أن رسول الله لا يحضُّ على أنْ يدخر الإنسان جزءاً من ماله أو رزقه لوقت حاجة ، أو ليرتقى بما يدخره فى مستقبل الأيام ، إنما هو خشى على بلال من أنْ يكون يدخر هذا خشية أنْ لا يرزقه اللهُ غيره ، فأراد أنْ تبقى قلوبُ أصحابه نقيةً من الدنيا .

---

(١) الصُّبرة : واحدة صبر . تقول : اشتريت الشيء صبرة أى بلا كيل ولا وزن . [أنيس الفقهاء ١/٧٣] وهو كما نقول فى العامية : شروة . فالصبرة : الكومة من أى شيء [المعجم الوسيط] .

(٢) أخرجه البزار فى مسنده (١٣٦٦) من حديث بلال بن رباح .

(٣) أخرجه البزار فى مسنده (١٩٧٨) من حديث ابن مسعود (٩٨٩٣) من حديث أبى هريرة ، وكذا أبو يعلى فى مسنده (٦٠٤٠) والطبرانى فى المعجم الكبير (١٠١٧) .

وهـذا أمر يرتبط بتقـوى قلبه وخوفه من الله ، وخـوف أنْ يسمع ولا يطيع ، وخوْف أنْ يعصى أمر الله ﴿ وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ .. (١٦) ﴾ [التغابن] وكذلك خـوْف أنْ يتأصَّـل فى قلبـه حُبُّ الدنيا فيقع فى قلبه بُخْـلٌ أو شُح ، فإنَّ ﴿ مَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٦) ﴾ [التغابن]

فقول الحق سبحانه ﴿ وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ .. (١٦) ﴾ [التغابن] هو قانون يريـد بـه الله أنْ يحارب الشـحَّ فى نفوس المخلوقين ، إنه يقـول لكلٍّ منَّا : انظر النظـرة الواعيـة ، فالصدقة والنفقة فى الخـير ، والمصلحة والصلاح لا تنقص ما عند الإنسان بل ستزيده .

فالأرضـ لا تنقصـ مـن مخزنـك حين تعطيهـا كيْلة مـن القمـح ، صحيحٌ أنـك أنقصـتَ كيلـةً من القمـح لتزرعهـا ، ولكنك تتوقـع أنْ تأخذ مـن الأرض أضعافها.

والحـق سبحانه حين تعرَّضـ لمنابع الشح فى النفس الإنسانية أوضح أنَّ أول شيء تتعرّض له النفسُ البشرية أن الإنسان يخاف من النفقة لأنها تنقص ما عنده .

وقد حذَّر رسول الله من الشُّح فى قوله « اتقوا الظلم ، فإنَّ الظلم ظلماتٌ يوم القيامـة واتقوا الشُّـحَّ فإن الشُّحَّ أهلـك مَنْ كان قبلكم ، حملهم علـى أنْ سفكوا دماءهم واستحلّوا محارمهم »[1].

لذلك يقول تعالى : ﴿ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٦) ﴾ [التغابن]

فشـحُّ النفسـ أمر غالب على النفس الإنسانية ، لذلك قـال : ﴿ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِـهِ .. (١٦) ﴾ [التغابـن] فيقيه الله أنْ يكونَ شحيحـاً بخيلاً ، فهذه نعمةٌ من

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٦٧٤١) وأحمد فى مسنده (١٤٥٠١) والبيهقى فى السنن الكبرى (١١٨٣٥ ، ٢٠٩٥٤) والبخارى فى الأدب المفرد (٤٨٣ ، ٤٨٨) وصححه الألبانى .

الله ورحمةٌ يرحمه الله بها ، لأن مَنْ تشح نفسه بالمال أو بالعلم الذى تعلَّمه ، أو بالحكمة التى وهبها الله له تجد مآله ومصيره إلى الخسران.

أما ﴿ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ .. (١٦) ﴾ [التغابن] فيكون ضمن مَنْ أفلح ونجا من الخسران وفاز ، لأنه أنفق المال فى سبيل الله فأعطاه الله أضعاف ما أنفق ، فهو تاجر مع الله سبحانه : ﴿ وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ .. (٢٦١) ﴾ [البقرة]

ومَنْ بذل علمه للآخرين أثابه الله عن كلِّ نفس تعلمت منه شيئاً نافعاً ، سواء فى علم دنيوى أو دينى ، ومَنْ آتاه الله حكمةً وعقلاً فنقله إلى غيره فإنه يجنب مَنْ لا خبرة عنده الوقوع فيما يُغضب الله .

لذلك قال تعالى : ﴿ فَأُولَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٦) ﴾ [التغابن] والفلاح هو الفوز والمفلح هو الفائز ، أى أولئك هُم الفائزون .

فكلمة ﴿ الْمُفْلِحُونَ (١٦) ﴾ [التغابن] معها دليلها ، فالمفلح هو الذى أخذ الصفقة الرابحة ، والكلمة مأخوذة من فلح الأرض ، فالذى يفلح الأرض ويحرثها ثم يزرعها يجد الثمرة تجيئه فى النهاية .

فالمفلح هو الفائز الناجى المستفيد بثمرة عمله ، والفلاح لايقتصر على الآخرة ، إنما هناك فلاح فى الدنيا يكون ثمرة للإنفاق ، لذلك قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤) ﴾ [التوبة]

والإنفاق فى سبيل الله يشمل مجالاتٍ متعددة ، ففى سبيل الله تحدث حركة فى المجتمع يستفيد منها الناس ، فحين تخرج الزكاة يستفيد منها الناس ، وحين تجهز بها جيوش المسلمين يستفيد منها الناس .

فأنت إنْ أنفقتَ ولم تكنز حدث رواجٌ فى السوق ، والرواج معناه العمل ووسائل الرزق ، وإيجاد الحافز الذى يؤدى إلى ارتقاء البشرية .

وأنت حين تشترى لبيتك غسالة أو ثلاجة أو بنيتَ بيتاً صغيراً فإنك تُوجد رواجاً اقتصادياً فى المجتمع ، وفى نفس الوقت ارتقيتَ بوسائل استخداماتك، والرواج يدفع إلى اكتشاف الأحسن الذى يفيد البشرية ، ولكن إذا كنزتَ كلَّ مالك ساد الكساد الاقتصادى .

وليس معنى ذلك أنْ ينفق صاحبُ المال كلَّ ماله وزيادة ، لأن الحق سبحانه يريد الوسط فى كلِّ شيء ، لذلك يقول تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا[1] وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا (٦٧) ﴾ [الفرقان]

فالحق سبحانه يحذر من سفاهة الإنفاق وعدم الإبقاء على جزء من المال لمواجهة أى أزمة مفاجئة ، لكنك إنْ قترتَ حدث كسادٌ فى السوق وتوقَّف الإنتاجُ وتعطّل العمال .

والإسلامُ يريد نفقةً معتدلة توجد الرواج السلعى وادخاراً تستخدمه فى الارتقاء بحياتك ومواجهة الأزمات ، حينها نكون من المفلحين فى الدنيا والآخرة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ﴾

حدَّثنا الحق سبحانه فى الآية السابقة عن الإنفاق ، فقال تعالى : ﴿ وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٦) ﴾ [التغابن]

فلا تجعل الدنيا فى قلبك ، بل اجعلها فى يدك لتنفقَ من مالك على أهلك

---

(١) الإقتار : التقصير عن الذى لابد منه ، بأن يجيعهم أو يعريهم بخلاً وشحاً ، فالتقتير التضييق الذى هو نقيض الإسراف .

وعلى مصالح أولادك ومجتمعك ، فإنَّ الدنيا إذا سكنت قلبك لم تخلص من الشحّ والبخل حتى ولو بعلمك أو رأيك أو نصيحتك .

لذلك قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٦) ﴾ [التغابن]، فالمشكلة فى النفس الشحيحة التى تشح حتى تبسّمه فى وجه أخيه ، رغم أن رسول الله ﷺ قال : « تبسُّمك فى وجه أخيك صدقة »[1] .

فطهِّر قلبك من الشّح ، لأنك لن تفلح إلا إذا طهّرتَ قلبك من الشح ، فمَنْ شحَّ إنما يشحّ على نفسه ، وليس ذلك فى صالح مَنْ يشحّ ؛ فالكريم يستزيد من الله العطاء ، أما الشحيح فليس له زيادةٌ من الله .

لذلك يقول تعالى : ﴿ هَـٰأَنتُمْ هَـٰؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ .. (٣٨) ﴾ [محمد]

وربك حين يراك تنفق مما أعطاك يزيدك ، لأنك مؤتمن على الرزق ، لذلك يقول أحد الصالحين : اللهم إنك عوّدتنى خيراً ، وعوَّدتَ خلقك خيراً ، فلا تقطع ما عوَّدتنى حتى لا أقطعَ عن الناس ما عوَّدتهم .

إذن : فالعطاء استدرارٌ لنعمة الله وسببٌ للمزيد منها .

وهَبْ أن لك عدة أولاد وأعطيتَ لواحد منهم جنيهاً مثلاً ، فذهب واشترى به حلوى ثم وزَّعها على إخوته ولم يُؤثر نفسه عليهم لا بد أنك ستأتمنه وتعطيه المزيد ، لأن الخير فى يده يفيض على الآخرين .

واعلم أنك أيها القادر حين تحرم فقيراً فأنت المحروم ، لأن الله غنيٌّ عنك بقدرته المطلقة ، غنيٌّ وقادر أنْ يستبدل بالقوم البخلاء قوماً يسخون بما أفاء

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه (١٩٥٦) وابن حبان فى صحيحه (٤٧٤) من حديث أبى ذر . وقد أخرجه البزار فى مسنده (٤٠٧٠) بأتم من هذا فقال : « تبسمك فى وجه أخيك صدقة ، وإفراغك من دلوك فى دلو أخيك صدقة ، وأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر تكتب لك صدقة ، وإماطتك الشوك والحجر عن الطريق صدقة ، وإرشادك الضال عن الطريق صدقة » .

الله عليهم من رزق فى سبيل الله ، فالذى يمسك عن العطاء إنما منع عن نفسه باب رحمة .

والإنفاق قد يكون صدقةً أو زكاة أو إنفاقاً يصبُّ فى رواج اقتصادى وتشغيل الشباب ، وهذا فى حَدِّ ذاته يقى المجتمعات من الانحراف وضياع الأجيال فى مهاوى الضياع .

ومن الإنفاق إقراض المحتاج ، وكان من الممكن ألاَّ يكون هناك محتاج إذا آتى كلٌّ منَّا قُرْباه ويحملهم على فائض ماله وفائض حركته ، فلو أن كل قادر تولَّى الفقراء والمساكين من أقربائه لما وُجد محتاج فى مجتمع المسلمين .

فإذا أردتَ أنْ تفتح لنفسك باب البر مع الله فوسِّع دائرة الإنفاق ، وأنت إذا أنفقتَ على المحتاج الذى استدعاه اللهُ للوجود فإنك تتودد إلى الله بمساعدة المحتاجين من خَلْقه دون أنْ يلزمك به الله .

والغنيُّ حين يقبض يده عن المحتاج فإنه يُدخل فى قلب المحتاج الحقد ، وأىّ مجتمع يدخل فى قلبه الحقد نجد كل المنكرات تنتشر فيه ، والحق سبحانه إنما يطلب تطهير المال بالإنفاق منه فى سبيل الله ليزيد وينمو ، وليخرج الضغن والحقد من المجتمع ، فالحقد إذا دخل مجتمعاً فعلى هذا المجتمع السلام .

وكأنَّ الحق سبحانه يقول للإنسان : تحرك فى الحياة وأنا أحمى نتيجة ما تتحرك فيه ، ولكن لى فى مالك الذى جعلتُك فيه خليفة حقٌّ عليك أنْ تعطى بعضاً منه لأخيك المحتاج .

وإنْ لم يقف الغنيُّ بجانب المحتاج فى لحظة احتياجه لمن يعينه ، فقد يأخذ المحتاج ما يحتاج تلصّصاً بأنْ يتحايل عليه ليسرقه أو ينهبه ، أو ربما دفعه

الحقد والحسد إلى أنْ يقتله أو يتآمر على قتْله .

وحين تعطى المحتاج فإنما أنت مناول عن **الله** ، ويدُ **الله** الممدودة بأسباب **الله** .

والحق سبحانه يقول : ﴿ **يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ** .. (٢٥٤) ﴾ [البقرة] فأنتم تنفقون من فضل **الله** عليكم ومما رزقكم ، ومن فضل **الله** عليكم أنه احترم أثر عملكم ونسبه لكم حتى وإن احتاج أخوك .

والحق سبحانه قد اعتبر النفقة فى سبيل **الله** هى قرض من العبد للربِّ الخالق الوهّاب لكلّ رزق ، والمال فى الحقيقة مال **الله** ، لكن إنْ ملَّكك **الله** وطلب منك أنْ تُعطى أخاك الفقير يحترم ملكيتك ولا يعود سبحانه فى هِبَته لك .

لذلك يأخذ منك الصدقة على أنها قرْضٌ لا يرده الفقير ، إنما يتولى ربك عز وجل ردّه ، فيقول تعالى : ﴿ **مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا** .. (٢٤٥) ﴾ [البقرة] ولم يقُلْ سبحانه : يُقرض فلاناً وإنما يُقرض **الله** لأنه تعالى هو الخالق .

وهنا قال تعالى أيضاً : ﴿ **إِنْ تُقْرِضُوا اللهَ** .. (١٧) ﴾ [التغابن] فأنت عندما تُقرض إنساناً فكأنك تُقرض **الله** .

والقرض فى اللغة معناه قضْم الشيء بالناب ، وهو سبحانه وتعالى يعلم أن عملية الإقراض هى مسألة صعبة ، وحتى يُبيِّن للناس أنه يعلم صعوبتها جاء بقوله (يقرض) ، إنه سبحانه المقدِّر لصعوبتها ويُقدِّر الجزاء على قدر الصعوبة .

فإعطاؤك للقرض أصعب من إعطائك الصدقة ، فأنت عندما تعطى الصدقة تجد نفسك غير قلقة على ما تُخرجه من مالك لأنك أصلاً قد أخرجتها من حساباتك فأنت لا تنتظر رداً ممَّنْ تصدّقت عليه .

أمـا القرض فـأنـت حين تُقرض أحداً وقبل أنْ تقرضـه تفكر فى أمور كثيرة وتسأل أسئلة عديدة ، هل سيردّ لك ما اقترضه منك ؟ هل تعطيه قرضاً أقلّ مما يقول ؟ وماذا لو لم يرد كيف أسترد مالى ؟

لذلـك تجـد القرضَ أصعبَ من الصدقة ، ثم إنه طـوال الوقت يحسب كم بقى مـن الوقـت ويحل السداد ، وقد تجده يقع فى ذنوب كثـيرة بسبب إقراضه لأحد الناس ، فكلما قابله كأنه يريد أنْ يطالبه بالقرض .

وقـد يحدث مَنٌّ وأذى وتلتقى أعينهما ، فتجـد نُفْرة وعتاباً وعدم قدرة على التحدّث معاً بشكل طبيعى ، ولذلك كان القرضُ أصعبَ .

لذلـك رتَّب الحق سبحانه على القرض ثواباً أكـبر وأعظم من ثواب الصدقة، وأذكر ونحن فى أمريكا سألنا أحد المستشرقين يقول : هناك تعارض بين قوْل القرآن ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا .. (١٦٠) ﴾ [الأنعام] وبين قول النبى ﷺ : « مكتـوب علـى بـاب الجنـة : الصدقة بعشر أمثالها ، والقرض بثمانية عشر»[١].

فشـاء الله أنْ يلهـم بكلمتين للـرد عليه ، فقلت للمترجم : نعـم الحسنة بعشر أمثالهـا حـين تتصدق ، لكـن فى القرض مثلاً لـو تصدَّق بـدولار فهو عند الله بعشرة دولارات ، لكن يعود عليك دولارك مرة أخرى ، فكأنَّ لك تسعةَ دولارات، فحين تضاعف تصير ثمانية عشر .

قالـوا : فلمـاذا زاد ثوابُ القرض ؟ نقول : لأن المتصدق حين يتصدَّق ينقطع أمله فيما قدَّم ، لكن المقرض لا يزال مُعلَّق البال في القرض ينتظر ردَّه ، فكلما صـبر عليه أخذ أجراً ، ثـم إن المقترض لا يقترض إلا عن حاجة ، أما المتصدَّق

---

(١) عن أنس بن مالك قال قال رسول الله ﷺ : « رأيت ليلة أسرى بى على باب الجنة مكتوباً : الصدقة بعشر أمثالها ، والقرض بثمانية عشر . فقلت : يا جبريل ما بال القرض أفضل من الصدقة ؟ قال : لأن السائل يسأل وعنده ، والمستقرض لا يستقرض إلا من حاجة . أخرجه ابن ماجه فى سننه (٢٤٣١) والطبرانى فى المعجم الأوسط (٦٧١٩) والبيهقى فى شعب الإيمان (٣٢٨٨) .

عليه فقد يقبل الصدقة وهو غير محتاج إليها ، وربما كان ممَّنْ يكنزون المال.

والحق سبحانه يريد أنْ ينمي القرض لماذا ؟ قالوا : لأن الله يريد أنْ تسير حركة الحياة وأنْ تتكامل ، وأنت تعتز بمالك وتخاف عليه وتريد له النماء ، وسوف تجد هذا كلَّه في القرض فاجعله قرضاً ، فهو الباب الذي فتحه الله لك للزيادة وللثواب .

لذلك يقول تعالى : ﴿ إِنْ تُقْرِضُوا اللهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ .. (١٧) ﴾ [التغابن]

ولكن الحق سبحانه وضع شرطاً في القرض لكى يُضاعفه لك ، وهو أن يكون قرضاً حسناً ، فما هو القرض الحسن ؟

والتعبير بالقرض الحسن هنا يدل على أن مصدر المال الذي تقرض منه لابد أن يكون من حلال ، وكما يقول رسول الله فإن الله طيب لا يقبل إلا طيباً[1].

فأنت عندما تُقرض أخاك المحتاج إنما تقرض الله عز وجل ، فأنت فى هذا تتعامل مع الله ، فلا بد أن يكون تعاملك مما اكتسبته من حلال ، إذ كيف تتعامل مع الله بمال حرام أخذته نُهْبة من الناس سرقةً أو اختلاساً أو رِباً أو من اقترافك أىّ معصية .

فلا بدَّ أنْ يكون مالُكَ الذي تُقرض منه مالاً حلالاً طيباً ليكون قرضاً حسناً.

ويصف الحق سبحانه القرض بأنه حسن حتى لا يكون فيه منٌّ ولا أذى أو

---

(١) عن أبى هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً ، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٥١) ﴾ [المؤمنون] وقال ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ .. (١٧٢) ﴾ [البقرة] ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء : يا رب .. يا رب .. ومطعمه حرام ، ومشربه حرام ، وملبسه حرام ، وغُذِّى بالحرام فأنى يستجاب لذلك » . أخرجه مسلم في صحيحه (٢٣٩٣) وأحمد فى مسنده (٨٢٣٠) والترمذي فى سننه (٢٩٨٩) .

منفعة تعود على المقرض وإلاَّ صار فى القرض ربا ، ولنا الأسوة الحسنة فى الإمام أبى حنيفة[١] عندما كان يجلس فى ظل بيت صاحب له ، ثم حدث أن اقترض صاحبُ هذا البيت من أبي حنيفة بعض المال .

وجاء اليوم التالى للقرض فجلس أبو حنيفة بعيداً عن ظل البيت فسأله صاحب البيت لماذا ؟ أجاب أبو حنيفة : خفْتُ أنْ يكون ذلك لوناً من الربا .

أما عن المنّ والأذى فقد نهى القرآن عن المنِّ والأذى ، فقال : ﴿ **الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٦٢) قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ (٢٦٣)** ﴾ [البقرة]

وإذا كان الحقُّ سبحانه يُحدِّثنا هنا عن الصدقة ، فإن القرض أيضاً يدخل في باب الإنفاق في سبيل **الله** ، وأيضاً فإن الإقراض كما قلنا عملية أشدّ من الصدقة على النفس .

فإياك حين تنفق مالك في سبيل **الله** سواء كانت صدقة أو قرضاً أنْ تمنّ على مَنْ تعطيه أو تؤذيه ، فالمنّ هو أنْ يعتدّ على مَنْ أحسن إليه بإحسانه ، ويُريه أنه أوجب عليه حقاً له ، وأنه أصبح صاحبَ فضل عليه .

فمن الأدب الإيماني في الإنسان أنْ ينسى أنه أهدى وينسى أنه أنفق ، ولا يُطلع أحداً من ذويه على إحسانه على الفقير أو تصدقه عليه ، وخاصة الأطفال الصغار الذين لا يفهمون منطق **الله** فى الأشياء .

فعندما يعرف ابني أنني أعطي لجارى كذا ، ربما دلّ ابني ومَنَّ على ابن جارى ، فإياك أنْ تُتبع النفقة منناً أو أذى لأنك إنْ أتبعتها بالمنّ كرهها مَنْ

---

(١) أبو حنيفة هو النعمان بن ثابت التيمى بالولاء الكوفى ، ولد بالكوفة عام ٨٠ هـ ونشأ بها ، كان يبيع الخز (الحرير) ويطلب العلم فى صباه ثم انقطع للتدريس والإفتاء . إمام الحنفية أحد الأئمة الأربعة توفي عام ١٥٠ هجرية عن ٧٠ عاماً . [الأعلام للزركلي ٣٦/٨] .

تصدَّقتَ عليه أو أقرضته ، وتولّد عنده حقد تجاهك وبغض .

لذلك تجد كثيراً من الناس يقولون : كم صنعتَ بفلان وفلان الجميل ، هذا كذا وهذا كذا ، ثم خرجوا عليّ فأنكروه . وما دمت تتذكر ما أسديته إليهم فمن العدالة من الله أنْ ينكروه ، ولو أنك عاملتَ الله لما أنكروه ، فما دُمْتَ لم تعامل الله فإنك تقابل بنكران ما أنفقت .

ويجب أنْ يظلَّ الإنفاق غير مصحوب بالمنِّ ، وأنْ يبتعد المنفق عن المنّ دائماً ، فلا يمتنع عن المنّ فقط وقت العطاء ، ولكن لابدّ أنْ يستمر عدم المنّ حتى بعد العطاء وإنْ طال الزمن .

فأنت فى الإنفاق تتعامل مع الله سبحانه ، ولتنظر إلى ما فعلته سيدتنا فاطمة[1] بنت رسول الله ﷺ ، لقد راحت تجلو الدرهم وتُطيِّبه ، فلما قيل لها : ماذا تصنعين ؟ قالت : أجلو درهماً وأُطيِّبه لأنى نويتُ أنْ أتصدَّق به . فقيل لها: أتتصدَّقين به مجلواً ومُعطراً ؟

قالت الزهراء بنت رسول الله : لأنِّى أعلم أنه يقع فى يد الله قبل أنْ يقع فى يد الفقير[2] .

والقرض لكى يكون قرضاً حسناً لابدّ أنْ يكون بلا فائدة ربوية تعود على المقرض ، فإن الربا يجعله قرضاً سيئاً يدخل الضيق والجهد والضنك على مَنْ يقترض بالربا وإنْ كان محتاجاً ، وأيضاً فهو يدخل الخراب على مَنْ يقرض ماله لآخر ويأخذ زيادة على ماله بازدياد المدة استغلالاً لحاجة المقترض .

---

(١) هى فاطمة بنت رسول الله الهاشمية القرشية وأمها خديجة بنت خويلد ، ولدت ١٨ قبل الهجرة ، إحدى الفصيحات العاقلات ، تزوجها ابن عم رسول الله على بن أبى طالب فى الثامنة عشرة من عمرها ، وولدت له الحسن والحسين وأم كلثوم وزينب . عاشت بعد أبيها ستة أشهر . عام ١١ هجرية عن ٢٩ عاماً . [الأعلام للزركلي ٥/١٣٢] .

(٢) الذى فى نزهة المجالس لعبد الرحمن الصفورى (١/ ٣٣٤) أن عائشة رضى الله عنها كانت إذا تصدقت بدرهم طيبته فسألها النبي ﷺ عن ذلك فقالت : يا نبى الله أحببت أن يكون درهمى مطيباً لأنه يقع فى يد الله قبل يد السائل فقال : « لقد وفقك الله يا عائشة » .

ورسول الله ﷺ يقول : « كلُّ قرض جَرَّ نفعاً فهو ربا »[١].

وربُّ العزة سبحانه يقول : ﴿ وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ (٣٩) ﴾[الروم]

فما آتيتم من ربا تبغُون به الزيادة ، سواء أكانت نفعاً أو مالاً أو غير مال، سواء أكانتْ مشروطة أو غير مشروطة ، والله سبحانه حرَّم الربا لأن المال فى الربا يصبح سلعة ، فالمائة تُردّ مائة وخمسين مثْلاً .

وهذا يفسد المجتمع لأنه من المفروض أنْ يزيد المال بالعمل ، فإذا أصبحت زيادة المال بدون عمل فسدتْ حركة الحياة ، وزاد الفقير فقراً ، وزاد الغنيُّ غنيً، وهذا ما نراه فى العالم اليوم .

حتى على مستوى الدول نجد الدول الفقيرة تزداد فقراً ، لأنها تقترض المال وتتراكم عليها فوائده حتى تكون الفائدةُ أكثر من الدَّيْن نفسه ، وكلما مرَّ الوقت زادتْ الفوائد فيتضاعف الدَّيْن ويستحيل التسديد ، والدول الغنية تزداد غِنىً ، لأنها تدفع القرض وتسترده بأضعاف قيمته .

وعقد الربا لا يحمى إلا الطرف الدائن فقط ، وهناك أمر خلقى آخر وهو أن الإنسان لا يعطى ربا إلا إذا كان عنده فائض زائد على حاجته ، ولا يأخذ إنسانٌ من المرابى إلا إذا كان محتاجاً .

فانظروا إلى النكسة الخلقية فى الكون ، إن المعدم الفقير الذى لا يجد ما يسُدُّ جوعه وحاجته يُضطر إلى الاستدانة ، وهذا الفقير المعدم هو الذى يتكفّل بأنْ يعطى الأصل والزائد إلى الغنى غير المحتاج .

---

(١) أورده العجلونى فى كتابه « كشف الخفاء» (١٩٩١) وقال : رواه الحارث بن أبى أسامة فى مسنده عن على رفعه . قال فى التمييز : إسناده ساقط . وأورده الزيلعى فى (نصب الراية) كتاب الحوالة، ومن طريق الحارث بن أبى أسامة ذكره عبد الحق فى أحكامه فى البيوع، وأعلّه بسوّار بن مصعب وقال : متروك .

فكيف يكون هذا القرض حلالاً ؟ وهو يخرج عن وَصْف القرض الحسن الذى يسُدّ حاجة الفقير المحتاج لمال لسَدِّ حاجة ما أو حلِّ مشكلة ما تعترضه ، ولكن فى نفس الوقت لا يضرّ به ولا يُكربه فى حياته ، ويجعله يعيش فى كرْب وهَمٍّ من الدَّيْن الذى عليه ، ومن الفائدة المفروضة على الدَّيْن .

ولكى يكون القرْضُ قرضاً حسناً لابد أنْ يكونَ محكوماً بضوابط الشرع الشريف الحكيم عندما يُوجب كتابة الدَّيْن والإشهاد عليه وإنْ كان صغيراً حتى لا تكونَ هناك مُضارّة للدائن أو المدين .

يقول تعالى : ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِى عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِى عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا .. (٢٨٢)﴾ [البقرة]

فالحق سبحانه يضع ضوابط للتداين والاقتراض بين الناس ، حتى يضبط القرض بكتابته حفْظاً للحقوق ونشْراً للأمان فى نفوس أصحاب الأموال على أموالهم ليستمر سيال الإقراض وإغاثة المحتاج والملهوف دون الإضرار بصاحب المال .

فالحق سبحانه كما أغلق باب الإقراض بالربا يفتح أبواب القرض الحسن ولكن بضوابط من الكتابة والإشهاد عليه ، وقد قال رسول الله ﷺ عن الربا « ربا الجاهلية موضوع ، وأول ربا أضعه ربانا ، ربا العباس بن عبد المطلب ،

فإنه موضوع كله »[١].

ويقول تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٧٨) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ (٢٧٩) ﴾ [البقرة]

وإذا كان الله قد حرَّم إقراض المال بالربا والزيادة فإنه أحلَّ الإقراض قرضاً حسناً ، بل ندب إليه ورغَّب فيه ليتكافل المجتمع ، ولكن بضوابطه بكتابته مثلاً .

فإلزام الحق سبحانه بكتابة الدَّيْن هو تنفيذ لأمر الله يحقق رفْع الحرج بين الأحباء خاصة ، ويظن كثيرٌ من الناس أن الله يريد بالكتابة حماية الدائن لا ، فالمقصود بذلك والمهم هو حماية المدين ، لأن المدين إنْ علم أن الدَّيْن موثَّقٌ عليه حرص أنْ يعمل ليؤدى دَيْنه .

أما إذا كان الدَّيْن غير مُوثَّق فمن الجائز أنْ يكسل عن العمل وعن سداد الدَّيْن، وبذلك يحصل هو وأسرته على حاجته مرة واحدة ، ثم يضنّ المجتمع الغنيُّ على المجتمع الفقير فلا يُقرضه ، ويأخذون عدم أداء ذلك الإنسان القرض الذى اقترضه ذريعةً لذلك .

ويقع هذا الإنسان الذى لم يُؤد دَيْنه فى دائرة تحمُّل الوِزْر المضاعف لأنه ضيّق باب القرض الحسن .

إن الله يريد أنْ يسير دولاب الحياة الاقتصادية عند مَنْ لا يملك ، لأن مَنْ يملك يستطيع أن يُسيِّر حياته ، أما مَنْ لا يملك فهو المحتاج ، ولذلك فهناك مثَل فى الريف المصرى يقول : مَنْ يأخذ ويعطى يصير المالُ ماله .

---

(١) أخرجه ابن خزيمة فى صحيحه (٢٨٠٩) من حديث جابر بن عبد الله رضى الله عنه . ومن حديث عمرو ابن الأحوص « ألا وإن كل ربا فى الجاهلية موضوع ، لكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تُظلمون غير ربا العباس بن عبد المطلب فإنه موضوع كله» أخرجه الترمذى فى سننه (٣٠٨٧) .

إنه يقترض ويسدد ، لذلك يثق فيه كل الناس ، ويرونه أميناً ويرونه مُجداً ، ويرونه مخلصاً ، ويعرفون عنه أنه إذا أخذ وفّى ، فكلُّ المال يصبح ماله . إذن: فالله سبحانه بكتابة الدَّيْن يريد حماية حركة الحياة عند غير الواجد ، لأن الواجد فى غير حاجة إلى القرض .

ويؤكد الحق سبحانه كتابة القرض الحسن بقوله : ﴿ وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا .. (٢٨٢) ﴾ [البقرة] فلا تملُّوا من كتابة أيّ دَيْن ، سواء كان صغيراً أو كبيراً .

ولتأكيد حماية المدين قال تعالى ﴿ وَلْيُمْلِلِ الَّذِى عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا .. (٢٨٢) ﴾ [البقرة] فالمدين الذى عليه الدَّيْن المقترض هو الذى يُملى الدَّيْن الذى عليه ﴿ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا .. (٢٨٢) ﴾ [البقرة]

ولماذا لا يُملى المقرض صاحب الدين ؟ لأن المدين يكون عادة فى مركز الضعف ، فلعلَّ الدائن عندما تأتي لحظة كتابة ميعاد السداد فقد يُقلل هذا الميعاد ، وقد يخجل المدين أنْ يتكلم ويصمت لأنه فى مركز الضعف .

ولا شكَّ أن كتابة الدَّيْن تحمى مصالح الدائن أيضاً ، فلا يرفض أنْ يُقرض أحداً ، وهذا فيه إشاعة للقرض الحسن بين الناس .

وقد يسأل سائل : الحق سبحانه يقول هنا ﴿ إِنْ تُقْرِضُوا اللهَ .. (١٧) ﴾ [التغابن] فيستخدم (إنْ) التى تدل على الشكّ ، بينما فى آية أخرى قال تعالى : ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٤٥) ﴾ [البقرة]

ويقول أيضاً ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ (١١) ﴾ [الحديد]

والجواب عن هذا أن آية سورة التغابن ﴿ إِنْ تُقْرِضُوا .. (١٧) ﴾ [التغابن] جاءت بعد حديث الله عن مَنْ يشحّ بماله ويبخل ، فقال : ﴿ وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٦) ﴾ [التغابن]

والشحيح الذى طبعه الشّح ، صعب عليه الإنفاق ، سواء كان صدقة أو قرضاً، ونحن فى أمثلتنا العامية نقول : الطبع غلب التطبّع ، لذلك قال تعالى: ﴿ إِنْ تُقْرِضُوا اللهَ .. (١٧) ﴾ [التغابن]

وقد رتَّب الحق سبحانه ثواباً مضاعفاً على الإقراض ، فقال : ﴿ إِنْ تُقْرِضُوا اللهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ .. (١٧) ﴾ [التغابن] فالله يعطيك أضعافاً مضاعفة نتيجة هذا القرض .

فإذا كان القرض يُنقص من مالك فى ظاهر الأمر لأنك كان من الممكن أنْ تستخدمه واستثماره بما يعود عليك بربح وفير يُعظم من مالك ، ولكنك اخترتَ أنْ تُقرضه لمحتاجين عوناً لهم ورغبةً فى ثواب الله .

لذلك فالله يزيد مالك ويبسطه ويعطيك ويُرجع إليك مالك أضعافاً مضاعفة، وفى الآخرة يكون الجزاء جزيلاً ، فأنت أقرضتَ الله والله يردّ ما اقترضه لأجل الفقراء أضعافاً مضاعفة ، فالله يعطيك أضعافاً مضاعفة نتيجة هذا القرض .

ثم إنه يُتبع هذا بقوله ﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ .. (١٧) ﴾ [التغابن] فالغفران هنا لأىّ شيء ؟ إنه لما يعتمل فى نفس المقرض من قلق على ماله ، ولما قد يصدر منه تجاه مَنْ اقترض منه.

وفـى آية أخـرى يقول تعالى﴿ لَئِـنْ أَقَمْتُمُ الصَّـلاةَ وَآتَيْتُمُ الـزَّكَاةَ وَآمَنْتُـمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ[1] وَأَقْرَضْتُمُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ .. (١٢) ﴾ [المائدة]

فغفـران الذنـوب وتكفير السـيئات هو جـزاء ومكافـأة فوق مضـاعفة مالك أضعافاً مضاعفة ، فيضم لكم إلى تلك المضاعفة غفرانَ ذنوبكم .

ويُنهى الحق سبحانه الآية بقوله : ﴿ وَاللهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ (١٧) ﴾ [التغابن]

فالله يشـكر للمنفق والمتصـدّق والمقرض أنْ وقفـوا بجانب المحتاجين من خَلْقـه ، وعن ابن عمر رضـى الله عنهما أن رجلاً جـاء إلى النبى ﷺ فقال : يا رسـول الله أيّ النـاس أحبّ إلى الله ؟ وأيّ الأعمـال أحبّ إلى الله؟ فقال رسـول الله ﷺ : « أحبّ النـاس إلى الله تعالى أنفعهم للناس ، وأحبّ الأعمال إلى الله تعالى سُرورٌ تُدخله على مسـلم ، أو تكشـف عنه كربة ، أو تقضـى عنه دَيْناً ، أو تطرد عنه جوعاً» [2].

وهو سـبحانه الشـكور الذى يعطى على القليل الكثير ، يشكر مَنْ يشكره على نعمـه بطاعتـه ، فمَنْ شـكر الله بـالحمد شـكره الله بـالزيـادة ، فذلك من أسـمائه تعالى (الشكور)

فالله يشـكر للعبد وقوفه بجانب خَلْقه ، وإذا كان الناس يشـكرون بعضـهم بعضـاً فما بالك بشـكر الله سبحانه ؟ وأنتَ إنْ شـكرتَ الله يزدك ، فهذه الزيـادة شُكْر لك على شُكْرك لربك ، أى مكافـأة لك .

---

(١) عزرتموهم : الإعانة والنصر . قاله ابن عباس والحسن ومجاهد وقتادة والسدى . ومعناه أيضاً : التعظيم والتوقير . قاله عطاء وأبو عبيدة . [زاد المسير] والتعزير : التعظيم وهو الثناء بخير ، وهو رد الظلم والمنع ، ورددتم وردعتم سفهاءهم عنهم . [الدر المصون فى علم الكتاب المكنون] .

(٢) أخرجه الطبرانى فى المعجم الكبير (١٣٤٦٨) وكذا فى معجمه الأوسط (٦٠٦) وكذا فى معجمه الصغير (٨٦١) من حديث ابن عمر رضى الله عنهما ، وفيه سكين بن سراج اتهمه ابن حبان برواية الموضوعات وتركه الحافظ فى التقريب . قال الألبانى فى السلسلة الصحيحة : « قد جاء بإسناد خير من هذا رواه ابن أبى الدنيا فى قضاء الحوائج وابن عساكر عن بعض أصحاب النبي» (٩٠٦) .

ولكن لماذا قال الحق سبحانه ﴿ وَاللهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ (١٧) ﴾ [التغابن] ؟ فما الذى يجمع بين الشكر والحلم ؟ خاصة أنه سبحانه فى آيات أخرى جمع بين المغفرة والحلم ، فقال تعالى : ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ(١) فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (٢٢٥) ﴾ [البقرة]

أما أنْ يجمع سبحانه بين الشكر والحلم فهذا يثير تساؤلاً ويدعو إلى التأمل، والحلم خُلق يجعل صاحبه صبوراً على الأذى صفوحاً عن الذنب ، وفى حَقِّ الله الحليم الذى لا يعاجل الغافلين بالعقوبة .

والحليم الذى يحلم على البعد إنْ أساء ويتجاوز للصالحين عن الهفوات ، فإنْ خالط عملك الصالح سوءٌ ، وإنْ خالفتَ منهج الله فى غفلة أو هفوة فلا تجعل هذا يُعكِّر صَفْو علاقتك بربك أو يُنغِّص عليك طمأنينة حياتك ، لأن ربك حليمٌ سيتجاوز عن مثل هذا على حَدِّ قولهم (حبيبك يبلع لك الزلط) .

فكأنَّ الحق سبحانه فى قوله ﴿ وَاللهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ (١٧) ﴾ [التغابن] يريد أنْ يقول لعباده : إننى شكور لإقراضكم للمحتاجين من عبادى وحليم لكم ، فلن أعاجلكم بعقوبة لو بدر فى إقراضكم منٌّ وإيذاءٌ عسى أنْ تتوبوا لتأخذوا ثوابكم أضعافاً مضاعفة ، المهم أنَّ مصلحة المحتاج تتحقق .

وقد روتْ لنا كتب السنة عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : لما نزلت ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا .. (٢٤٥) ﴾ [البقرة] قال أبو الدحداح:

---

(١) اللغو هنا له معان متعددة :

١ – أن يحلف على الشيء يظن أنه كما حلف ثم يتبين له أنه بخلافه .

٢ – أنه : لا والله ، وبلى والله من غير قصد لعقد اليمين .

٣ – أنه يمين الرجل وهو غضبان .

٤ – أنه حلف الرجل على معصية فليحنث وليكفِّر ولا إثم عليه .

٥ – أن يحلف الرجل على شيء ثم ينساه .

يا رسول الله إنَّ الله يريد منا القرض ؟ قال : نعم يا أبا الدحداح [١] . قال : أرنَا يدك . قال : فناوله يده .

قال : أقرضتُ ربى حائطى ، وحائطه فيه ستمائة نخلة ، فجاء يمشى حتى أتى الحائط ، وأم الدحداح فيها وعيالها . فنادى : يا أم الدحداح . قالت : لبيك. فقال : اخرجى فقد أقرضتُه ربي[٢].

فأبو الدحداح يعلم أن ربه شكور حليم ، فما كان منه إلا مدّ يده لرسول الله وقال : أقرضتُ ربى حائطى ، وهو بستان به ستمائة نخلة رغم أن امرأته وعياله فيه ، وما كان من امرأته إلا قالت : لبَّيكَ يا أبا الدحداح ولم ترفض أو تعترض ، فإنه أقرضه لله سبحانه ، ليذهب إنتاجه للفقراء والمساكين والمحتاجين وفى سبيل الله .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾

تُحدِّثنا الآيات هنا عن ثلاثة أسماء من أسماء الله الحسنى ، وسورة التغابن بها عدَّة أسماء من أسماء الله ، فمنها (القدير) ، ومنها (البصير) ، ومنها (العليم) ، ومنها (الغنى) ، ومنها (الحميد) ، ومنها (الخبير) ، ومنها (الغفور)، ومنها (الرحيم) ، ومنها (الشكور) ، ومنها (الحليم) .

ثم يُنهيها الحق سبحانه بقوله : ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٨)﴾ [التغابن]

فهو سبحانه أولاً ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ .. (١٨) ﴾ [التغابن] . والغيب هو

(١) أبو الدحداح ثابت بن الدحداح ، كان فى بنى أنيف أو فى بنى العجلان ، شهد أحداً وقتل بها شهيداً على يد خالد بن الوليد وقد كان مشركاً ، وقيل إنه مات على فراشه مرجع النبى ﷺ من الحديبية .

(٢) أخرجه أحمدبن حنبل فى مسنده (١٢٥٠٤) وابن حبان فى صحيحه (٧١٥٩) والبزار فى مسنده (٢٠٣٣) والحاكم فى مستدركه (٢١٩٤) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه .

ما لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى ، والله تعالى عالم الغيب فلا يُطلع أحداً من خَلْقه على غيبه إلا مَن ارتضاه واصطفاه من البشر .

﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا (٢٧) ﴾ [الجن]

والغيب هو ما يغيب عنك وعن غيرك ، أما الشيء الذى يغيب عنك ولا يغيب عن غيرك فلا يكون غيباً ، فإذا سُرق منك مال مثلاً فأنت لا تعرف مَن الذى سرق ، والسارق فى هذه الحالة غيْبٌ عنك ، ولكنه ليس غيباً عن غيرك .

فالسارق يعرف نفسه ، والذى دبّر له الجريمة يعرفه ، ومَنْ رآه وستر عليه يعرفه ، وأنت أيضاً لا تعرف مكان المسروقات ، ولكن السارق يعرف المكان الذى خبَّأها فيه .

إذن : فهى غيْبٌ عنك وليست غيباً عن غيرك ، ولكن هناك غيب عنك وعن غيرك ، وهذا ما ينفرد به الحق سبحانه وتعالى فى قوله سبحانه : ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ .. (٢٧) ﴾ [الجن]

فالغيب الذى يقصده الحق سبحانه فى قوله (عالم الغيب) ، هو غيب يختصُّ نفسه به ، وهو الغيب المطلق .

وبعض العارفين بالله قد يكشف لهم الله لمحةً من لمحات الغيب ، فيخبر الواحد منهم الناس فيخلف الله سبحانه وتعالى ما كشفه حتى يظلَّ الله وحده عالم الغيب ، فما دام ذلك اصطفاه الله بغيب أطلع الناس عليه ، فسبحانه قد يُغير أحداث الغيب ولا يعطى لذلك الشخص خبراً عن أىّ غيب آخر ، فلا يقال له (عالم الغيب) ولكن قل : إنه معلَّم غيب .

فالحق سبحانه عالمٌ بالغيب المطلق الذى لا توجد له مقدمات تُوصِّلنا إليه، ولذلك لا نستطيع أنْ نعرف الغيب المطلق لأنه ليس معروفاً عند البعض، ومجهولاً عند غيرهم ، وليس له مقدمات توصلنا إليه لأنه الغيب الذى ينفرد

به الحق عز وجل .

والغيب المطلق هو الذى لا يعرفه إلا الحق تبارك وتعالى وليس له مقدمات، ويكشفه الله لمن يرتضيه مِصْداقاً لقوله سبحانه ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ .. (٢٧)﴾ [الجن]

وهذا الغيب المطلق يختلف عن الغيب المقيد الذى له مقدمات ، ما إنْ يأخذ بها الإنسان ويُرتبها حتى يصل إلى اكتشاف سِرٍّ من أسرار الكون .

ومن هذا الغيب المطلق قضية القيامة ﴿ قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللهُ .. (٦٥) ﴾ [النمل] فالقيامة لا يعلم وقتها إلا الله سبحانه ، إلا أنه جعل لها مقدمات وعلاماتٍ تدلّ عليها وتُنبيء بقُرْبها .

والنبى ﷺ يفتخر بأنه لا يعلم موعد يوم القيامة ، فيقول حين سُئِل عن الساعة : « ما المسئول عنها بأعلم من السائل »[1].

وسَتْر الغيب عن الخَلْق نعمة كبرى لله تعالى ، لأنه سبحانه ربُّ الناس جميعاً، ويريد سبحانه أنْ ينتفع خَلْقه بخَلْقه ، ألا ترى أنك إنْ علمتَ فى إنسانٍ سيئة واحدة تزهدك فى كلِّ حسناته وتجعلك تكرهه ، وتكره كلّ حسنة من حسناته ، فستر الله عنك غيبَ الآخرين لتنتفع بحسناتهم .

والغيب حجزه الله عنَّا ، إما بحجاب الزمن الماضى أو الزمن المستقبل ، أو بحجاب المكان ، فأنت لا تعرف أحداث الماضى قبل أنْ تولد إلى أنْ يأتى مَنْ تثق به فيخبرك بما حدث فى الماضى ، وكذلك لا تعرف ما سيحدث فى المستقبل .

أما حاجز المكان فأنت لا تعرف ما يوجد فى مكان آخر غير مكانك ، وقد

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٠ ، ٤٧٧٧) وأخرجه مسلم فى صحيحه (١٠٢ ، ١٠٦ ، ١٠٨) وأخرجه أبو داود فى سننه (٤٦٩٧) والترمذى فى سننه (٢٦١٠) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه. قال السائل : متى الساعة ؟ قال : ما المسئول عنها بأعلم من السائل وسأخبرك عن أشراطها .

يكون الشيءُ فى مكانك لكن له مكينٌ فلا تطلع عليه .

والحق سبحانه يقول هنا : ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ .. (١٨) ﴾ [التغابن] وكلمة (عالم الغيب والشهادة) تشرح لنا أنه سبحانه ما دام عالم الغيب فمن باب أوْلَى أنه يعلم المشهود ، فيعلم عالم الشهادة .

وقد يظنّ ظانّ أنه جلس فى مكان معزول مستور ويفعل ما يريد ، فلن يشهده الله لأنه قد يفعل ما يريد دون أنْ يراه أحد ، لكن ذلك غير حقيقي، لأن الحقَّ سبحانه عالم الغيب والشهادة ، فلا يوجد مستورٌ عنه فى هذا الكون ، فلا الغيب يغيب عن علمه ، ولا العالم المشهود يغيب عن علمه .

فأىُّ سرٍّ يوجد لابد أنْ يعلمه سبحانه ، وهو سبحانه القائل : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى (٥) لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى (٦) وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى (٧) ﴾ [طه]

والشهادة يعنى المشهود ، والله يعلم الغيب الذى غيّب عنى ويعلم الشهادة لغيرى ، فربما ظنَّ البعض أنْ المستتر الغيب لا يعلم إلا الغيب ، فأراد سبحانه وتعالى أنْ يؤكد على هذه المسألة ، فهو سبحانه غيب لكنه يعلم الغيب والشهادة.

وكوْنُ الله سبحانه يعلم عالم الشهادة وهو المشهود من الناس للناس يحمى الناس من تطاولهم على بعضهم وتجاوزهم الحدّ ، لأنهم يوقنون أن الله يعلم مشهدهم كما يعلم غيبهم .

لذلك كان الله هو خير الشاهدين ، فالشهود قد يكونون عدولاً ، أو يكونون ممَّنْ يُدارون فسقهم فى ظاهر العدالة ، وهو سبحانه خير الشاهدين .

ويقول تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١٧) ﴾ [الحج] والشهيد هو الرائى الذى لا عملَ له فى تحريك المشهود إلى غير ما يشهده ، والله تعالى هو

الحكم الذى يفصل بين عباده .

والحكم يحتاج إلى بينة أو شهود ، والشهود لابد أنْ يكونوا عدولاً ، ولا يتحقق العدل فى الشهادة إلاَّ بدين يمنع الإنسان أنْ يميل عن الحق ، فإن كان الحكم هو الله فلا حاجة لبينة ، ولا حاجة لشهود ، لأنه سبحانه يحيط علمه بكلِّ شيء، ولا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى السماوات ولا فى الأرض .

وكلمة الشهادة تعنى تسجيل ما فعلوا وتسجيل أيضاً أنهم بُلِّغوا المنهج وعاندوه وخرجوا عليه ، فارتكبوا الجريمة التى تقتضى العقاب لأن العقوبة لا تكون إلا بجريمة ، ولا تجريم إلا بنصٍّ ، ولا نصَّ إلا بإعلام .

ولذلك يُقال ﴿ قُلْ كَفَى بِاللهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (٩٦) ﴾ [الإسراء] وشهادة الحق سبحانه تعنى أنه تعالى الشهيد الذى رأى ، والحاكم الذى يحكم ، والسلطة التنفيذية التى تنفذ .

ثم يصف الله سبحانه نفسه فيقول ﴿ الْعَزِيزُ .. (١٨) ﴾ [التغابن] ، والعزيز الذى لا يُغلب لجبروته ولا يسأله أحد ، فهو سبحانه الغالب على أمره ، لا تسيطر عليه قوة ، ولا تحمى هؤلاء الناس قوةٌ من دون الله ، فهو القادر العزيز .

فكلمة « العزيز » تفيد الغلبة والقهر ، فلا يستطيع أحد أنْ يعلو عليه فلا يُنال ولا يقدر عليه أحد ، والشيء العزيز أى نادر الوجود ، فالعزة تأتى لامتناع شيء إما لقدرته ، أو عزيز بمعنى نادر أو يستحيل .

والعزيز هو الأمر الذى يعزّ على الناس أنْ يتداولوه ، فيقال : عزَّ عليَّ أنْ أصل إلى قمة الجبل .

وهو سبحانه العزيز المطلق لأنه لا إله إلا هو ، لا يُغلب ولا يُقهر ، يقول تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (٦٦) ﴾ [هود]

وكلمة العزيز مأخوذة من المعانى الحسية ، فيقال : الأرض العزاز . أى : الأرض الصخرية التى يصعب المشى عليها ولا يقدر أحدٌ أنْ يطأها ، ومن هذا

المعنى جاءت كلمة « العزيز » .

والعزيز على إطلاقه هو الله ، ولكنّا نقول عن إنسان ما : عزيز قومه . فهى صفة أخذت مرتبة الأسماء ، وهى إذا أُطلقت إنما تشير إليه سبحانه ، وأسماء الله إما أنْ تكون أسماء ذات ، وإما أنْ تكون أسماء صفات ، فإنْ كان الاسم لا مقابلَ له فهو اسم ذات مثل « العزيز » .

أما إنْ كان الاسمُ صفة الصفة والفعل مثل (المعز) فلا بدّ أنْ له مقابلاً وهو هنا « المذل » ، ولو كان يقدر أنْ يُعز فقط ولا يقدر أنْ يُذل لما صار إلهاً .

فـ (العزيز) على إطلاقه لا تنصرف إلا لله تعالى ، لكن يمكن أنْ نقول : فلان العزيز فى قومه ، فلان الرحيم بمَنْ معه ، فلان النافع لمن يتصل به ، إنما لو قلت : النافع على إطلاقه فهو الله سبحانه وتعالى .

والحق سبحانه ليس (العزيز) فقط ، بل هو (رب العزة) ، قال تعالى :

﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٠) ﴾ [الصافات]

ويقول تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا (١٣٩) ﴾ [النساء]

فإذا أردتم العزة فاطلبوها من صاحب العزة الذاتية الأزلية الأبدية وهو الحق سبحانه وتعالى ، ولو أردتم العزة الحقيقية التى تُغنيكم عن الطلب من الأغيار مثلكم ، فلتذهبوا إلى مصدر العزة الذى لا تناله الأغيار ، وهو الحق سبحانه وتعالى .

فإنْ أردتم عزةً حقيقية فاطلبوها ممنّ لا تتغير عزّته ، وهو الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا (١٣٩) ﴾ [النساء] ، وفى هذا القول تصويبٌ لطلب العزة ، وليطلب كلّ إنسان العزة إيماناً بالله ، فسبحانه الذى يهب العزة ولا تتغير عزّته .

وكلمة ﴿ جَمِيعًا (١٣٩) ﴾ [النساء] تدلُّ على أن العزة لها أفرادٌ شتى : عزةُ غنى ، وعزة سلطان ، وعزة جاه ، فإنْ أراد واحد أنْ يعرفها ويعلمها فهى جميعاً فى الحق سبحانه وتعالى .

فإنْ أردتَ أيها الإنسان عزاً ينتظم ويفوق كل عزٍّ فاذهب إلى الله ، واجعلوا العزة والمرجع إليه وحده ، وما دام الله عزيزاً فالذى آمن به عزيز ، يقول تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ .. (٨) ﴾ [المنافقون] فلا تلتمس العزة إلا من الحق سبحانه .

فالعزة لله لا تتعداه ، ولكنه سبحانه شاء أنْ تكون عزةُ رسوله ﷺ وعزة المؤمنين من باطن عزة الله تعالى ، والعزة لله فى كلِّ ألوانها ، إنْ كانتِ عزةَ حكمة فهو الحكيم ، وإنْ كانت عزةَ القبض على الأمور فهو العزيز القابض، وإنْ كانت عزة الحلم فهو الحليم ، وإنْ كانت عزةَ الغضب والانتقام فهو المنتقم الجبار ، فكلُّ ألوان العزة لله تعالى .

وليس لأحد أنْ يسأله لمَ فعل هذا ؟ ولِمَ ترك هذا ؟ لذلك كان هذا هو معنى العزة ، ولذلك كان سبحانه عزيزاً .

ولكى تكون عزيزاً فخُذ العزة من الله ورسوله وبالبيئة الإيمانية ، وقد قال الحق سبحانه عن البعض : ﴿ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا (٨١) ﴾ [مريم]

فهم يطلبون العزة فى عبادة هذه الآلهة ، فما الذى سيعود عليكم من عبادتها؟ لذلك يردّ عليهم الحق تبارك وتعالى ﴿ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ .. (٨٢) ﴾ [مريم] و(كلا) تنفى أن يكون لهؤلاء عِزّ فى عبادة ما دون الله ، بل إنها ستكون ضِداً لهم وخَصْماً .

ثم يصف الحق سبحانه نفسه بأنه (الحكيم) الذى لا يصدر منه الشيء إلا بحكمة بالغة ، فمع أنه سبحانه العزيز الغالب على أمره فإنه سبحانه حكيم

فى تصرُّفه ، حكيمٌ يستعمل القهر والغلبة بحكمة .

وهذا نجده فى وَصْف خليل الله إبراهيم عليه السلام لربه سبحانه ، فيقول: ﴿ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٦) ﴾ [العنكبوت] ، فاختار من صفات ربه (العزيز) أى الذى لا يُغلب وهو يَغْلِب ، وهذه الصفة تناسب ما كان من محاولة إحراقه وكأنه يقول للقوم : أنا ذاهب إلى حِمىَ مَنْ لا يُغلب .

ثم يصف ربه بأنه (الحكيم) أى فى تصرفاته ، فلابدّ أنه سبحانه سينقلنى إلى مكان يناسب دعوتى ، وأناس يستحقون هذه الدعوة بما لديهم من آذان صاغية للحق وقلوب وأفئدة متشوِّقة إليه .

فهو سبحانه الحكيم فى كلِّ ما قضى وأمر ، وهو سبحانه عزيز بذاته ، ومع عزَّته سبحانه حكيم لا يظلم ، فهو صاحب العزة التى لا تُعارض ، والحكمة التى لا تخطيء .

والحكمة من (الْحَكَمَة) وهى قطعة الحديد التى تُوضع فى فم الفرس لتلجمه حتى يمكن للراكب أنْ يتحكَّم فيه ، ذلك أن الحصان حيوان مُدلَّل شارد يحتاج إلى ترويض ، وقطعة الحديد التى تُوضع فى فمه تجعله أكثرَ طاعة لصاحبه .

وكأن إطلاق صفة الحكيم على الخالق سبحانه وتعالى هو أنه جَلَّ جلاله يحكم المخلوقات حتى لا تسير بغير هدى ودون دراية .

والحكمة أنْ يُوضع هدف لكلِّ حركة لتنسجم الحركات بعضها مع بعض ، ويصير الكونُ محكوماً بالحق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والحكيم هو الذى يضع لكلِّ كائن إطاره وحدوده .

والحكمة هى أنْ يؤدى كل شيء ما هو مطلوب منه ببراعة ، والحكمة فى الفقه هى أنْ تستنبط الحكم السليم ، والحكمة فى الشعر أنْ تزنَ الكلمات على التفاعيل، والحكمة فى الطب أنْ تعرف تشخيص المرض والدواء الذى يعالجه.

والحكمة فى الهندسة أنْ تُصمّم المستشفى طبقاً لاحتياجات المريض والطبيب وأجهزة العلاج ومخازن الأدوية وغير ذلك أو فى تصميم المنزل للسكن المريح ، وحكمة بناء منزل مثلاً تختلف عن حكمة بناء مستشفى أو حتى (كوبرى) أى معبر .

ولو أننا تأملنا آيات سورة التغابن فى ضوء اسم **الله** (الحكيم) الذى أنهى **الله** به السورة سنجد أن **الله** حكيم فى خَلْقه الناس مؤمنين وكافرين ، وحكيم فى خَلْق السموات والأرض ، حكيم فيما أصاب الناسَ من مصائب ، حكيم فى أنه جعل من أزواجنا وأولادنا عدواً لنا ، حكيم فى أنْ جعل الناسَ أغنياءَ وفقراء ، وطالب الأغنياء بالإنفاق فى سبيل **الله** زكاةً وصدقةً وإقراضاً للفقراء والمحتاجين .

حكيم فى ترتيب الثواب العظيم المضاعف على إعانة المحتاجين بإقراضهم قرضاً حسناً .

وعظمة الحق سبحانه أنه عزيزٌ لا يُغلب على أمره ، وهو صاحبُ كلِّ الحكمة فى وَضْع الأشياء فى مواضعها ، بحيث إذا ما عرفتَ حكمة ما يُجريه **الله** سبحانه وتعالى على خَلْقه فأنتَ تتعجَّب من عظمة قدرة **الله** .

فالحكمة هى وَضْع الشيء فى موضعه ، وما دمتَ قد وضعتَ الشيء فى موضعه فإنه لا يكون هناك قلقٌ ، وما دام الشيء موضوعاً فى مكانه فهو مُستقر ، وما دام الشيءُ مُستقراً فإنه لا يتلوَّن وتزداد الثقة فيه .

وإذا كان الحق سبحانه يقول : ﴿ **فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ** (٨) ﴾ [التغابن] فإن الإيمان هو انقيادٌ وتسليم **لله** سبحانه وتعالى ، فإذا أمر **الله** بأمر من الأمور فلا اختيارَ لنا فيه ، لأنه سبحانه يرى بحكمته وعلمه هدفاً أو أهدافاً أو حكمة .

وهنا يجب أنْ يقف الاختيار البشرى بمعنى أنه لا أحدَ يملك تعديل مرادات

الله بأيِّ شكل من الأشكال ، لأننا في حياتنا اليومية حين نرى واحداً من البشر قد اشتهر بحكمته وعلمه في أمر من الأمور أكثر منّا ، نقول له : وكّلناك في هذا الأمر وسنسير وراءك فيما تقرره ، ومعنى هذا أننا سنُسلم اختيارنا لاختيارات هذا الحكيم .

إننا لا نعطى أحداً هذه الصلاحية إلا إذا تأكدنا بالتجربة أنه عليم بهذه المسألة ، وأنه حكيم في تصرّفه ، وإنْ سألك أحدٌ من الناس : لماذا تتصرف في ضوء ما يقوله لك فلان ؟ فتقول : إنه حكيم وخبير في هذه المسائل، وهذا دليلٌ منك على أنك واثقٌ في علمه ، وواثقٌ في صدقه ، وواثقٌ في حكمته.

فـ (الحكيم) لا ينظر إلى ظاهر معطيات الشيء الآن ويغفل ما قد يأتي به من مضرّة ، ولله المثل الأعلى : إنك قد تصل إلى الشيء ، وتظن أنه يُخلِّصك من متاعب أخرى ، لكنه قد يؤدى إلى شيء أضرّ ، وهذا هو السبب في اختلاف ألوان ووظائف العقاقير المختلفة .

ولذلك نجد الطبيب الحاذق يكتب عدداً من الأدوية ليستخلص المريض منها ما يشفيه ، ويحاول بقدر الإمكان أنْ يُجنِّبه الآثار الجانبية لتلك الأدوية .

إذن : فهذه حكمة لأن الطبيبَ لا يكتب الدواء الواحد الذى قد يأتى منه أثرٌ ضارٌّ ، بل يكتب معه دواءً يُخفِّف من ضرره ، وهذه حكمة منه لأنه يعمل احتياطات لما قد ينشأ من ضرر أو أثر جانبى .

وفي أريافنا يُسمون الطبيب (الحكيم) ، لأنه يتعامل مع الجسم البشرى بحكمة ، بإعطائه الأدوية التى تشفيه دون أنْ تضره ، أو لا تضرّه ضرراً بالغاً.

والحكيم هو الذى لا يترك شيئاً للعبث ، فهو المقدِّر لكلِّ أمر بحيث يكون موافقاً للصواب .

ووَصْف الحق سبحانه نفسه بأنه (الحكيم) ينسحب أيضاً على كتاب الله سبحانه ، فالحقّ سبحانه وصف قرآنه أيضاً بالحكمة ، قال تعالى : ﴿ الم (١)

تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (٢) ﴾ [لقمان] أى الموصوف بالحكمة ، أو الحكيم قائله ، أو الحكيم مُنزله .

وقد أنزل الله المنهج فى الكتاب ليقود حياتنا إلى كل صلاح ، فإنْ طبقناه فلسوف يأتى منه كلّ نفع ، ولن يأتى لنا أيّ ضرر ، وهذا هو عين الحكمة . فـ ﴿ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ .. (١) ﴾ [يونس] أنه الكتاب الذى يمتليء بالحكمة الصادرة من الله ، أو الكتاب الذى أنزله الربُّ الحكيم .

ومعنى كلمة (الحكيم) يتضح لنا من سياقها ، فإنْ نسبت الأمر إلى الحكم فهو كتابٌ صادرٌ من الحق سبحانه ، وإنْ أردتَ الوصف بمعنى فاعل فهو من حاكم ، والحاكم هو الذى يحكم فى قضايا ليبين وجه الحق فيها ، والقرآن يحكم فى كلِّ قضايا الإيمان .

وقد جعل رسول الله ﷺ الثناء على الله بأنه عالم الغيب والشهادة فى دعاء وذكر نقوله صباح مساء ، فعن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال أبو بكر : يا رسول الله مُرْنى بشيء أقوله إذا أصبحتُ وإذا أمسيت . فقال رسول الله ﷺ : « قل اللهم عالم الغيب والشهادة ، فاطرَ السماوات والأرض ، ربَّ كلِّ شيء ومليكه، أشهد أنْ لا إله إلا أنت ، أعوذ بك من شَرِّ نفسى ومن شرِّ الشيطان وشركه»[١].

فالإصباح على إيمان ، والإمساء على إيمان كان حرْصَ المؤمنين الأوائل بالإسلام ، حتى أن الحارث بن مالك الأنصارى مرَّ برسول الله ﷺ فقال له : كيف أصبحتَ يا حارث ؟ فقال : أصبحتُ مؤمناً حقاً . فقال له رسول الله : انظر ما تقول ، فإنَّ لكلِّ شيءٍ حقيقةً ، فما حقيقةُ إيمانك ؟

فقال : عزفت نفسى عن الدنيا فأسهرتُ ليلى ، وأظمأتُ نهارى ، وكأنِّى أنظر إلى عرش ربِّى بارزاً ، وكأنِّى أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها ، وكأنِّى أنظر

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه (٣٣٩٢) وقال الترمذى : حديث حسن صحيح . وكذا أحمد بن حنبل فى مسنده (٦٣) والطيالسى فى مسنده (٩) والنسائى فى السنن الكبرى (٧٦٥٢ ، ١٠٥٦٣) والبخارى فى الأدب المفرد (١٢٠٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

إلى أهل النار يتضاغوْن[١] فيها، فقال : يا حارث عرفتَ فالزم ، عرفتَ فالزم ، عرفتَ فالزم[٢].

وهنا يقول أبو بكر الصديق رضى الله عنه : يا رسول الله ، مُرْنى بشيء أقوله إذا أصبحتُ وإذا أمسيتُ .

وأبو بكر لا يسأل عن مجرد ألفاظ يحرِّك بها لسانه ، إنما يسأل عن دعاء وذكر يعيشه بكلِّ جوارحه الناطقة والفاعلة والنابضة . فالجوارح منها الناطقة كاللسان ، ومنها الفاعلة كاليد والرِّجْل ، ومنها النابضة كالقلب ، ومنها المفكرة كالعقل الكامن فى مركز التفكير فى المخ .

فأرشده رسول الله ﷺ إلى ذكر ودعاء يقوله إذا أصبح وإذا أمسى ، وأيضاً إذا أخذ مضجعه للنوم أو للراحة .

قال : قل اللهم عالم الغيب والشهادة ، فاطرَ السماوات والأرض ، ربَّ كلِّ شيء ومليكه ، أشهد أنْ لا إله إلاَّ إلا أنت ، أعوذ بك من شرِّ نفسى ومن شرِّ الشيطان وشَرَكه .

ذِكْر لله عز وجل وثناءٌ عليه بأنه سبحانه عالمُ الغيب والشهادة يعلم ما غاب عنَّا وعن غيرنا ، ويعلم المشهود منّا ومن غيرنا ، وكيف لا وهو سبحانه فاطر السماوات والأرض هو سبحانه الذى خلقها وابتدأها على غير مثال سابق .

وهو سبحانه ربّ كلِّ شيء ومليكه ، هو مالك كلِّ شيء فى السماء والأرض، يملكك ويملك ما تملكه ، بل يملك أعزّ ما يقوم به ذاتك وهو روحك .

فهو المتفرد وحده بالألوهية فلا إله إلا هو ، هو أوجدنا فى الحياة ووهبنا

---

(١) يتضاغون : يتصايحون ويتباكون . ضغا يضغو إذا صاح وضجَّ . ويقال : رأيت بنى فلان يتضاغون من الجوع أى يصيحون ويتباكون . [لسان العرب – مادة : ضغا] .

(٢) أخرجه أبو القاسم عبد الله بن محمد البغوى فى (معجم الصحابة) وابن أبى شيبة فى مصنفه (٣١٠٦٤) والطبرانى فى المعجم الكبير (٣٢٨٩) والبيهقى فى شعب الإيمان (١٠١٠٧) من حديث الحارث بن مالك .

أرواحنا لتتحرّك أجسادنا فى الأرض بمنهج الله وحده ، لا بمناهج أخرى تأخذ بنا بعيداً عمَّنْ يعلم غيبنا ومشهودنا .

وكما نُثنى على الله ونذكره وندعوه ونلجأ إليه سبحانه ، فنحن نعوذ به من شرِّ نفوسنا الأمَّارة بالسوء التى إن اتبعنا هوانا فى طاعتها وطاعة أهوائها فسنقع فيما هو أشدُّ ، وهو شرُّ الشيطان وشركه وأشراكه التى ينصبها لنا ، فالشيطان أقسم بعزة الله ليبذل كلَّ جهد لإغواء بنى آدم .

يقين الإنسان بأن الله هو فاطر السماوات والأرض ، ربُّ كل شيء ومليكه ، وأنه لا إله إلا الله ، ويجرى تأكيد هذا صباحاً ومساء ، وكذلك إذا أسلم الروحَ إلى الخالق سبحانه وديعة عنده عند النوم ، إنْ شاء قبضها وإنْ شاء أرسلها .

هذا اليقين يتأكد عندما تؤمن أنه سبحانه العليم البصير السميع عالم الغيب والشهادة ، لا يخفى عليه منك شيءٌ ، وأنه سبحانه العزيز ، وأنه سبحانه الحكيم.

ومن هنا ندرك معنى أنْ تبدأ سورة التغابن بالتسبيح ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) ﴾ [التغابن]

وتنتهى أيضاً بالتسبيح ، يقول تعالى : ﴿ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ (١٧) عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(١٨) ﴾ [التغابن]

سُورَةُ الطَّلَاقِ

سورة الطلاق[١]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يقول الحق سبحانه :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾ ﴾

تبدأ الآية بخطاب النبى ﷺ فقالت (يا أيها النبى) ، ومن عظمة نبينا ورسولنا محمد وعلو مكانته عند مَنْ اصطفاه خاتماً لرسالته فى الأرض أنّ الله ذكر الرسل والأنبياء فى خطابه لهم بنداء أسمائهم فقط ، كقوله تعالى :

﴿ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ .. (٣٣) ﴾ [البقرة] ، وقوله تعالى ﴿ يَا مُوسَى إِنِّي

---

(١) سورة الطلاق سورة مدنية عدد آياتها ١٢ آية . وتسمى أيضاً سورة النساء الصغرى أو القُصرى سماها بهذا ابن مسعود . نزلت بعد سورة البقرة [التحرير والتنوير سورة الطلاق] وقبل سورة البينة ، هى السورة رقم ٩٦ فى ترتيب النزول ، أما ترتيبها فى ترتيب المصحف فهو ٦٥ .

أَنَا الله .. (٣٠) ﴾ [القصص] ، وقوله تعالى ﴿ يَـعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ .. (١١٦) ﴾ [المائدة] ، وقوله تعالى ﴿ يَـنُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ .. (٤٨) ﴾ [هود]

فسبحانه ينادى كلَّ رسول له بالاسم المشخّص للذات بصرف النظر عن أيِّ صفة ، لكن رسول الله لم يُناد باسمه أبداً بل ناداه الحق بالمشخص للوصف ﴿ يَـأَيُّهَا الرَّسُولُ .. (٤١) ﴾ [المائدة] أو قوله الحق ﴿ يَـأَيُّهَا النَّبِيُّ .. (٦٥) ﴾ [الأنفال]

ولأن الحق سبحانه لم يُناد نبيه ورسوله محمداً باسمه ، فلا يجوز لنا أنْ نناديه ﷺ كما ننادى بعضنا بعضاً فلا نقول (يا محمد) ، قال تعالى ﴿ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا .. (٦٣) ﴾ [النور]

فلا يليق أنْ نناديه ﷺ باسمه : يا محمد . لأن الجامع بين الرسول وأمته ليس أنه محمد ، إنما الجامع أنه رسولُ الله ، فلابد أنْ نناديه بوصف النبى أو الرسول .

فإذا كان الحقُّ تبارك وتعالى لم يجعل دعاءه للرسول وللنبى كدعائه لباقى رسله وأنبيائه ، أفندعوه نحن باسمه ؟ ينبغى أنْ نقول : يا أيها الرسول ، يا أيها النبى ، يا رسول الله ، يا نبى الله ، فهذا هو الوصف اللائق المشرِّف .

ونُودى ﷺ بـ (يأيها النبى) و (يا أيها الرسول) تعظيماً له ، ونحن حين نريد أنْ نُعظِّم من ننادى نسبق الاسم بمقدمات ، فقول : يا سيدى فلان ، يا فضيلة الشيخ ، يا صاحب العزة .. إلخ .

والحق سبحانه نادى رسوله بـ (يا أيها النبى) و (يأيها الرسول) ، والرسول هو سفير بين الله وبين خَلْقه ، ليُبلغهم منهجه الذى يريد أنْ تسير عليه حياتهم، فالرسول مُبلّغ ، أما النبى فمُرْسَل أيضاً من قِبَل الحق سبحانه ، لكن ليس معه شرعٌ جديد ، إنما يسير على شرع مَنْ سبقه من الرسل ، أما هو فقدوة وأُسْوة سلوكية لقومه .

ومحمد ﷺ جمع الأمرين معاً ، فهو نبى ورسول له خصوصيات أُمر بها ولم يُؤمر بتبليغها ، وهذه مسائل خاصة بالنبوة ، وله أمورٌ أخرى أُمر بها وأُمِرَ بتبليغها .

وقد يسأل سائلٌ : ولكن لماذا نادى الله محمداً ﷺ هنا بالنبوة ؟ فقال : (يأيها النبى) ولم يُناده بالرسالة (يأيها الرسول) ، مع أن الأمر هنا بعد (يأيها النبى) يتعلق بتشريع ؟ ذلك لتغليب الأسوة السلوكية ؛ التى تمثلها النبوة .

ونلاحظ هنا أن كلمة (النبى) مأخوذةٌ من النبأ وهو الخبر الهام ، فالخبر يكون من البشر للبشر ، فإنْ كان من خالق البشر فهو نبأ . أى : أمر عظيم ينبغى الاهتمام به .

وهو هنا أمر الطلاق والذى يخص أمر العلاقات الزوجية التى تمسّ صميم الحياة الاجتماعية لأىّ مجتمع والذى ينظم علاقة الرجل بالمرأة ويمتد أثره للأبناء ، وعدم تنظيم هذا الأمر يؤدى إلى خلل بالغ يصيب المجتمعات بالاضطراب .

والطلاق مأخوذٌ من الانطلاق والتحرر ، وتشريع الطلاق حدٌّ من حدود الله، فإنْ حاولتَ أنْ تأتى بأمر لا يناسب ما أمر الله به فى تنظيم اجتماعى فقد نقلتَ المأمور به إلى حيز المنهى عنه ، وبذلك تُحدِث ظلماً .

والحق سبحانه وتعالى حينما يعالج قضايا المجتمع يعالجها علاجاً يمنع وقوع المجتمع فى الأمراض والآفات ، والبشر إنْ أحسنَّا الظن بهم فى أنهم يشرعون للخير وللمصلحة . فهم يشرعون على قدر علمهم بالأشياء ، لكننا لا نأمن أنْ يجهلوا شيئاً يحدث ولا يعرفوه .

فهم شرّعوا لما عرفوا ، وإذا شرعوا لما عرفوا وفوجئوا بأشياء لم يعرفوها، ماذا يكون الموقف ؟

إنْ كانوا مخلصين بحقٍّ داسوا على كبرياء غرورهم التشريعى وقالوا : نُعدِّل

ما شرعنا ، وإنْ ظلّوا فى غلوائهم فمَنْ الذى يشقى ؟ إنَّ المجتمع هو الذى يشقى بعنادهم .

فالذى يشقى بأخطاء المقننين من البشر هو المجتمع ، إلى أنْ يجيء مُقنِّن يعطف على المجتمع ويُعدل خطأ مَنْ سبقه .

أما الحق سبحانه فقد جاءنا بتشريع يحمى البشر من الشقاء واختلاف الأهواء ، حتى يضمن أن المجتمع لا يشقى بخطأ من المشرعين لفترة من الزمن إلى أنْ يجيء شرعٌ آخر ، ويُعدِّل للناس ما أخطأ فيه غيره .

فالذى وضع التشريع الأول لم يكن له من العلم ما يدل على مقتضيات الأمور التى تجدّ ، فلما جدَّت أمور فى الحياة لم تكُنْ فى ذهن مَنْ شرَّع أولاً ، احتاج الناس إلى تعديل التشريع .

ولنمسك بأىِّ قانون بشرى مُعدَّل فى أيّ قضية من قضايا الكون ، ولننظر إلى أيّ اتجاه يسير ؟ إنه دائماً يتجه إلى الإسلام ، وإنْ لم يلتق مع الإسلام فإنه يقرب من الإسلام .

وعندما قامت فى أوربا ضجة على الطلاق فى الإسلام ، ما الذى حدث ؟ جاء التشريع بالطلاق فى إيطاليا تحت سمع وبصر الفاتيكان ، هل شرعوا الطلاق لأن الإسلام أباح الطلاق ؟

لا ، إنما شرّعوه لأن أمور الحياة أخضعتهم إلى ضرورة تشريع الطلاق ، فكأنهم أقاموا الدليل بخضوعهم لأمور الحياة على أنَّ ما جاء به الإسلام قبل التجربة كان حقاً ، بدليل أنَّ أوربا لجأت إلى تشريع الطلاق لا كمسلمين ، ولكن لأن مصالح حياتهم لا تتأتّى إلا به .

والطلاق عملية صعبة ، فهو عملية تأتى والنفس فيها غضب ، وتأتى والزوج والزوجة وأهل الزوج وأهل الزوجة فى كدر .

والزواج صلَة مَبْناها السكن والمودة والرحمة ، فإن انعدمت هذه العناصر

فكيف يستمر الزواج ؟ وكيف ترغم زوجاً على أنْ يعايش زوجة لا يحبها ولا يقبلها ، وتُرغم زوجة أنْ تعيش مع زوج لا تحبه ؟

إن التفريق بينهما فى مثل هذه الحالة قد يكون وسيلة أرادها الله سبحانه ليرزق الزوجَ خيراً منها ، ويرزق الزوجةَ خيراً منه .

وكثيراً ما شهدنا هذا فى واقع الحياة ، وعاش الزوج مع الزوجة الجديدة سعيداً ، وعاشت الزوجة مع الزوج الجديد سعيدة .

صحيح أن مثل هذا الحل للعلاقة بين الرجل والمرأة قد يحمل الكثير من القسوة على الأسرة . .

والحق سبحانه يذكر عناصر ثلاثة لاستبقاء العلاقة الزوجية ، فيقول تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) ﴾ [الروم]

ولو تأملنا هذه المراحل الثلاثة لوجدنا السكن بين الزوجين ، حيث يرتاح كلٌّ منهما إلى الآخر ويطمئنّ له ويسعد به ويجد لديه حاجته ، فإذا ما اهتزتْ هذه الدرجة ونَفَر أحدهما من الآخر جاء دور المودة والمحبة التى تُمسك بزمام الحياة الزوجية ، وتوفر لكليهما قدراً كافياً من القبول .

فإذا ما ضَعُف أحدهما عن القيام بواجبه نحو الآخر جاء دور الرحمة ، فيرحم كلٌّ منهما صاحبه ، يرحم ضعفه ، يرحم مرضه ، وبذلك تستمر الحياة الزوجية ، ولا تكون عُرْضة للعواصف فى رحلة الحياة .

فإذا ما استنفد الزوجان هذه المراحل فلم يَعُدْ بينهما سكن ولا مودة ، ولا حتى يرحم أحدُهما صاحبه فقد استحالتْ بينهما العِشْرة ، وأصبح من الحكمة مفارقة أحدهما للآخر .

وهنا شرع الحق سبحانه الطلاق ليكون حلاً لمثل هذه الحالات ، ومع ذلك

جعله ربنا سبحانه أبغضَ الحلال حتى لا نُقدِم عليه إلا مضطرين مُجبرين .

والحق سبحانه يريدك أنْ تبتعد عن لفظ الطلاق ، وألاَّ تلجأ إليه إلاَّ عند الضرورة القصوى ، لذلك يُعلمنا رسول الله ﷺ فيقول : « إنَّ أبغضَ الحلال عند الله الطلاق »[1].

ولذلك يقول الحق سبحانه هنا ﴿ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ .. (١) ﴾ [الطلاق] فاستخدم سبحانه لفظة (إذا) الشرطية أى إذا حدث وطلقتم النساء ، وهى تعطى معنى أنه ليس القاعدة .

والحق سبحانه إذا كان استخدم هنا (إذا) الشرطية ، فإنه استخدم أيضاً (إن) فى آيات أخرى كقوله تعالى : ﴿ لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ[2] قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ (٢٣٦) ﴾ [البقرة]

فالحق سبحانه جاء بكلمة (إن) فى احتمال وقوع الطلاق ، و (إن) كما نعرف تُستخدم للشكّ ، فكأن الله عَزَّ وجلَّ لا يريد أنْ يكونَ الطلاقُ مُجترءاً عليه ومُحققاً .

وقد خاطب الحقُّ سبحانه هنا نبيه ﷺ ، فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ .. (١) ﴾ [الطلاق]وهو خطابٌ للأمة كلّها فى شخص رسول الله ، لأنه ﷺ هو المبلِّغ ، والمبلِّغ هو الذى يتلقَّى الأمر ويقتنع به أولاً ليستطيع أنْ يُبلِّغه .

ومثله قوله تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا .. (٣٠) ﴾ [الروم] فـ (أقم) هنا بمعنى أقيموا ، لأن خطابَ الرسول خطابٌ لأمته ، بدليل أنه سبحانه يقول

(١) أخرجه أبو داود فى سننه (٢١٨٠) ، وابن ماجه فى سننه (٢٠١٨) والبيهقى فى سننه الكبرى (١٥٢٩٢) من حديث عبد الله بن عمر رضى الله عنهما . وقد أخرج أبو نعيم الأصبهانى فى (أخبار أصبهان) (٥٤٠) من حديث على أن رسول الله قال : « تزوجوا ولا تطلقوا ، فإن الطلاق يهتز له العرش» ولكن رماه الألبانى بالوضع .

(٢) المقتر : المعسر . فالمقتر من أقتر الرجل إذا قلَّ ماله وافتقر وقتر على عياله : ضيق عليهم فى النفقة.

فـى الآيـة بعدها ﴿ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ .. (٣١) ﴾ [الروم] ولـو كان الأمر له وحده لقال منيباً إليه .

وقد يسأل سائلٌ هنا : لماذا لم يقُلْ هنا : يأيها الذين آمنوا إذا طلقتم النساء. بـل قـال ﴿ يَأَيُّهَا النَّبِيُّ .. (١) ﴾ [الطلاق] رغم أن الفعل بعدها يخاطب الجماعة (طلقتم) ؟

كما قلنا : الله يخاطب الأمة تبعاً لخطابه لرسـول الله ، وهو تكريمٌ وتشريف لرسول الله ، ولكن أيضاً فإنَّ الموضوع الذى تتعرض له سورةُ الطلاق موضوعٌ يمسُّ حياة الناس ويُنظّم العلاقات الزوجة زواجاً وطلاقاً ، إنها تتحدث فى أمر تنهدم به الأُسَر والمجتمعات .

لذلك كان لابدّ من تنظيم أمر الطلاق حتى لا تكون فوضى منعاً لظلم المرأة أو الرجل ، ومنعاً لاختلاط الأنساب ، فالأمر ليس متروكاً لآحاد الناس يُنظمونه كما يشاؤون ، بل هو منُوط بوليِّ الأمر أو مَنْ ينوب عنه من القضاة .

لذلـك خاطب الله هنا رسـول الله كولىٍّ لأمر المسـلمين والقاضـى بينهم فى أقضـيتهم فى زمن وجوده ﷺ ، فأمر الطـلاق وأحكامه تقوم الدولة على إلزام النـاس بأحـكام الشرع فيه ، لذلك نـاسـب هنـا أن لا يخاطب الذيـن آمنوا ، بل يخاطب ولى الأمر .

فليس لإنسـان أنْ يتزوج هكذا مع نفسـه دون ولى للمرأة ودون عقد وإشهار وصـداق ، وليس له أنْ يطلق دون أنْ يسـجل طلاقه أو يُشـهد عليه الثقات من النـاس ، وبالتالى ليس لـه أنْ يراجع امرأته إلا أن يُشـهد النـاس على مراجعته لامرأته، وذلك حفظاً لحقوق المرأة وعدم الوقوع فى الإثم .

فقد يُطلِّق رجل امرأة مع نفسه وينسى أو يَذْهل أو يسافر دون أنْ يخبر أحداً وتجد المرأة نفسها بعد سنين طويلة أنها كانت تعيش معه فى رباط غير رباط الزواج.

ولذلك لما سُئل ﷺ عن الرجل يُطلِّق امرأته ثم يقع بها ولم يُشهد على طلاقها ولا على رجعتها ، فقال : طلقتَ لغير سنة وراجعتَ لغير سُنة ، أشهِدْ على طلاقها وعلى رجعتها ، ولا تَعُدْ[1].

والحق سبحانه هنا يقول : ﴿ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ .. (١) ﴾ [الطلاق] ففِعْل الشرط هنا (طلقتم) ، وجوابه هو ﴿ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ .. (١) ﴾ [الطلاق] فالطلاق ليكون لِعدَّة محددة ، ولأجل محدد مُسمّى .

ونظام العدَّة له حالات :

– إنْ كانت المطلَّقة غير حامل فعدَّتها ثلاثة قروء ، أى ثلاثة أطهار إنْ كانت ممَّنْ يحضِنْ .

– وإنْ كانت حاملاً فعدَّتها أنْ تضع حملها .

– وإنْ لم تكُنْ حاملاً وقد بلغتْ سِنَّ اليأس ولم تَعُد تحيض ، أو كانت صغيرة ولم تصل لِسِنِّ الحيض ، هذه وتلك عدّتها ثلاثة أشهر .

أما الحالة الأولى فيقول تعالى : ﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ .. (٢٢٨) ﴾ [البقرة] والمقصود بالمطلقات هنا أى المطلقات طلاقاً رجعياً ، فمن حق الزوج أنْ يراجع زوجته فى أثناء فترة العدة فى الطلاق الرجعى ، فإن انتهت عدَّتها فقد سقط حقه فى مراجعة الزوجة بنفسه ، وله أنْ يراجعها ولكن بمهر وعقد جديدين ما دام قد بقى له حَقٌّ ، أى لم يستنفد مرات الطلاق .

والعِدَّة هى الفترة الزمنية التى شرَّعها الله بعد زواج انتهى بطلاق أو بوفاة الزوج ، فإنْ كانت العدَّة بعد طلاق فمدّتها ثلاثة قروء ، والقرء هو الحيضة أو الطُهْر ، فإنْ كانت المطلَّقة صغيرة لم تحِضْ بعد ، أو كانت كبيرة تعدَّتْ سِنَّ

---

(١) أخرجه أبو داود فى سننه (٢١٨٨) وابن ماجه فى سننه (٢٠٢٥) والطبرانى فى المعجم الكبير (١٤٦٩٠) من حديث عمران بن حصين . قال السندى فى حاشيته على سنن ابن ماجه : « يريد أن اللائق الإشهاد فى الحالتين لئلا يقع النزاع والتهمة» .

الحيض ، فالعدَّة تنقلب من القروء إلى الأشهر ، وتصبح « ثلاثة أشهر ».

فالعدَّة فى حالة الطلاق الرجعى تعطى للزوج فرصة أنْ يراجع زوجته ، وأنْ يعيدها بنفسه إلى عصمته ، والعدَّة تكون لاستبراء الرحم والتأكد من خُلوِّه من الحمل ، وقد تكون العدَّة لا لهذا ولا لذاك ، ولكن لأنه توفى عنها .

فالعدَّة قبل الدخول لها حكم ، وبعد الدخول لها حكم آخر .

وقول الحق سبحانه : ﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ .. (٢٢٨) ﴾ [البقرة] أى : ينتظرن، واللفظ هنا يناسب المقام تماماً ، فالمتربِّصة هى المطلَّقة ، ومعنى مطلقة أنها مزهودٌ فيها وتتربَّص انتهاءَ عدَّتها حتى ترد اعتبارها بصلاحيتها للزواج من زوج آخر .

وقوله ﴿ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ .. (٢٢٨) ﴾ [البقرة] المقصود به الطُّهْر ، لأنه قال (ثلاثة) بالتاء ، ونحن نعرف أن التاء تأتى مع المذكر فى تمييز العدد ، ولا تأتى مع المؤنث ، والحيضة مؤنثة . والطُّهْر مذكّر . إذن ﴿ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ .. (٢٢٨) ﴾ [البقرة] هى ثلاثة أطهار متواليات .

– أما الحالة الثانية فى العدَّة فهى المطلقة التى تُطلَّق وهى حامل فعدَّتها أنْ تضع حملها ، فيقول تعالى : ﴿ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ .. (٢٢٨) ﴾ [البقرة]

وعليها ألاَّ تكتمَ ذلك ، فقد يجوز أنْ تكون حاملاً وبعد ذلك تكتم ما فى بطنها حتى لا تنتظر طول مدة الحمل وتتزوج رجلاً آخر ، فيُنسب الولد لغير أبيه .

وقد تتزوَّج المرأة المطلَّقة بعد ثلاثة شهور وتدَّعى أنها حاملٌ من الزوج الجديد ، وأنَّ حملها لم يستمر سوى سبعة أشهر أو ستة أشهر .

– أما الحالة الثالثة فهى المطلَّقة التى بلغتْ سِنَّ اليأس ولم تَعُد تحيض

ولم تكُنْ حاملاً ، أو كانت صغيرة لم تصل لِسنِّ الحيض ، فهذه كما قلنا عدَّتها ثلاثة أشهر .

فكلمة (النساء) فى قوله تعالى : ﴿ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ .. (١) ﴾ [الطلاق] تشمل كل هذه الأصناف من المطلَّقات ، ﴿ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ .. (١) ﴾ [الطلاق] أى : طلِّقوا كل واحدة مِنْهُنّ بحسب حالتها ولعدَّتها التى حدَّدها الله لكلِّ حالة.

والكلام هنا ليس عن فرد واحد ولكن عن كثيرين ، والأمر لجماعة يعنى أمراً لكلِّ فرد فيها ، فإذا قال المدرس للتلاميذ : أخرجوا أقلامكم . فمعنى ذلك أن كلَّ تلميذ يُخرج قلمه . وإذا قال رئيس الجماعة : اركبوا سياراتكم ، فمعنى ذلك أن كل واحد يركب سيارته .

فمقابلة الجمع بالجمع تقتضى القسمة آحاداً ، ومثله قوله تعالى : ﴿ فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً .. (٣) ﴾ [النساء]

وهو قوْل يخاطب جماعة ، وليس فيه إلزام لكلِّ أحد أنْ يُعدِّد ، ولكنه واحد ينكح اثنتين ، وآخر ينكح ثلاث نساء ، وآخر ينكح أربع نساء ، وآخر لا يستطيع أيَّ شيء من هذا ، فله أنْ يتزوّج بواحدة ويقتصر عليها .

وهنا أمر يجب الالتفات إليه ، وهو أن قوله : ﴿ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ .. (١) ﴾ [الطلاق] معناه أن الطلاق يكون للعدَّة ، بمعنى أنْ لا يطلقها وهى حائض ، ولا يُطلِّقها فى طُهْر قد جامعها فيه ، ولكن يتركها حتى إذا حاضت وطهرت طلَّقها تطليقة ، فإنْ كانت تحيض فعدَّتها ثلاث حيض ، وإنْ كانت لا تحيض فعدَّتها ثلاثة أشهر ، وإنْ كانت حاملاً فعدّتها أنْ تضع حملها .

فالمعتبر فى العدَّة هو الطهر ، وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أنه طلَّق امرأته وهى حائض على عهد رسول الله ﷺ ، فسأل عمر بن الخطاب

رسول الله عن ذلك ، فقال رسول الله ﷺ :

« مُرْه فليراجعها ، ثم ليمسكها حتى تطهر ، ثم تحيض ، ثم تطهر ، ثم إنْ شاء أمسك بعد ، وإنْ شاء طلَّق قبل أنْ يمس ، فتلك العدَّة التى أمر الله أنْ تُطلَّق لها النساء»(١).

فقد شاءت إرادة الله عز وجل ألاَّ يُطلِّق الرجلُ زوجته وهى حائض ، لأن المرأة فى فترة الحيض لا يكون لزوجها رغبةٌ فيها وربما ينفر منها ، لكن يريد الحق عز وجل ألاَّ يُطلِّق الرجلُ زوجته إلا فى طُهْر لم يسبق له أنْ عاشرها فيه معاشرة الزوج زوجته ، وبعد أنْ تغتسل من الحيض ، وذلك حتى لا يُطلِّقها إلاّ وهو فى أشدِّ الأوقات رغبةً إليها .

وهذا ما حدث مع عبد الله بن عمر عندما طلَّق امرأته وهى حائض على عهد رسول الله ، فسأل عمر بن الخطاب رسول الله عن ذلك ، فأمره رسول الله أنْ يأمر ابنه عبد الله أنْ يراجع امرأته ، ثم ليُمسكها حتى تطهر من حيضها ، وليس هذا فقط بل تحيض مرة أخرى ثم تطهر ، أى أكثر من شهر ، طُهرين .

وله بعد ذلك أنْ يمسك زوجته فلا يُطلِّقها ، وإنْ شاء طلَّقها قبل أن يمسَّها ويعاشرها معاشرةَ الأزواج ، ثم قال ﷺ : « فتلك العدة التى أمر الله أنْ تُطلَّق لها النساء » .

ولا شك أنَّ هذا يعطى فرصة كبيرة ليراجع الرجل نفسه أكثر من مرة قبل أنْ يُطلِّق زوجته ويهدم بيته .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ .. (١) ﴾ [الطلاق] أى احفظوها أى : احفظوا الوقتَ الذى وقع فيه الطلاق ، حتى إذا بلغْنَ أجل عِدَّتهن بحسْب حالتها حَلَّتْ للأزواج .

فالإحصاء معرفة ابتداء وقت العدَّة ومعرفة انتهاء وقتها ، لئلا تطول فترة

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٢٥١) وكذا مسلم فى صحيحه (٣٧٢٥) من حديث عبدالله بن عمر . وكذا أبو داود فى سننه (٢١٨١) والنسائى فى سننه (٣٣٩٠) .

العدَّة على المرأة فتمتنع من الأزواج .

ولكن مَنْ المخاطب هنا بقوله : ﴿ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ .. (١) ﴾ [الطلاق] مَنِ الذى سيحصى العدة ، هل هم الأزواج ؟ أم الزوجات ؟ أم المسلمون على العموم ؟

البعض من العلماء قال : إن المُطالب بإحصاء العدَّة هم الأزواج لأنهم الذين تلزمهم الحقوق وتلزمهم النفقة ويلزمهم الرجعة إنْ أرادوها ، فإنْ لم يُحصوا العدَّة ومضتْ المدة قد يُراجِعُون ، بينما كان الوقت قد فات ولزمهم حينها عقد جديد بمهر جديد .

ففى الإحصاء فوائد ، منها مراعاة الرجعة ، وزمان النفقة والسُّكنى ، والإحصاء معرفة العدّ وضبطه ، وهو مشتق من الحصى وهى صغار الحجارة لأنهم كانوا إذا كثرتْ أعداد شيء جعلوا لكلٍّ معدود حصاة ، ثم عدُّوا ذلك الحصى .

ولاحظ أن الله لم يقُل : احسبوا العدة ولكنه قال (وأحصوا) والإحصاء فيه تدقيق أكثر فى حساب الشيء ، لأن التساهل قد يؤدى إلى أحد أمرين :

إما التزويج قبل انتهائها فربما اختلط النسب ، وإما تطويل المدة على المطلَّقة فى أيام منْعها من التزوّج لأنها فى مدّة العدّة لا تخلو من حاجة إلى مَنْ يقوم بها .

والمراد بالإحصاء هنا شدة الضبط والعناية بشأن العد حتى لا يحصل خطأ فى وقت العدة . والمعنى : يا أيها النبى أخبر المؤمنين ومُرْهم إذا أرادوا تطليق نسائهم المدخول بهن من المعتدَّات بالحيض ، فعليهم أنْ يطلقوهن فى وقت عدتهن .

أى فى طهر لم يُجامعوهن فيه ثم يتركوهن حتى تنقضى عدَّتهن ، وهذا ما فعله رسول الله عندما أمر عمر بن الخطاب أنْ يأمر ابنه عبد الله أنْ يراجع امرأته ، وأنْ لا يُطلِّقها إلاّ فى طهر لم يجامعها أو لم يمسّها فيه .

وهنا لفتةٌ أخرى فى قوله تعالى : ﴿ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ .. (١) ﴾ [الطلاق] أى : أن الكلام هنا بخصوص المرأة المطلَّقة المدخول بها ، لأن غير المدخول بها لا عدَّةَ لها .

وأيضاً فإن الحق سبحانه حمى حقَّ الزوج بهذه العدّة ، وكذلك حق المتوفَّى عنها زوجُها فى أثناء العدَّة ، وحمى أيضاً كرامة المرأة ، وجعل المرأة حرماً لا يقترب منه أحدٌ يخدش حياءها وحجابها ، إن عليها عدة محسوبة فى هذا الوقت لرجل آخر ، فلا يحقّ لأحد أنْ يقترب منها .

فالمرأة خاصةً إذا كانت مُطلّقة قد تمتلكها رغبةٌ فى أنْ تثأر لنفسها ولكرامتها ، وربما تعجلت الزواج ، وربما كانت مسائل الافتراق أو الخلاف ناشئةً عن اندساس رغبة راغبٍ فيها .

وبمجرد أنْ يتم طلاقها وتعيش فترة العدة فقد يحوم حولها الراغبون فيها، أو تستشرف هى من ناحيتها مَنْ تراه صالحاً كزوج لها ، ولذلك يفرض الحق سبحانه سياجاً من الزمن ويجعل العِدَّة كمنطقة حرام ليحمى المرأةَ حمايةً موضوعية لا شكلية .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ .. (١) ﴾ [الطلاق]

يلفتنا الحق سبحانه هنا إلى أمر هام ينتظم سورة الطلاق كلها ، وينتظم أمور العلاقات الزوجية زواجاً وطلاقاً ، عدةً ونفقة .

قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢) ﴾ [الطلاق] وقال : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا (٤) ﴾ [الطلاق] ، وقال : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ .. (٥) ﴾ [الطلاق] وقال : ﴿ فَاتَّقُوا اللهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا .. (١٠) ﴾ [الطلاق]

وتقوى الله تعنى أنْ نفعل أوامر الله وأنْ نتجنَّب نواهيه لنحكم حركة اختياراتنا بمنهج ربنا ، فإنْ حكمنا حركة اختياراتنا بمنهج الله صِرْنا مع الكون كأننا مسخرون لقضايا المصلحة والخير .

فالتقوى فى معناها العام طاعةُ الله باتباع أوامره واجتناب نواهيه ، فمعنى التقوى هو أنْ تتقى معضلات الحياة ومشكلاتها بأنْ تلتزم منهج الله ، وساعة ترى منهج الله وتُطبقه فتكون قد اتقيتَ المشكلات .

أما مَنْ يُعرض عن تقوى الله فإن الحقَّ سبحانه يقول عن مصيره : ﴿ فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا .. (١٢٤) ﴾ [طه]

ولا يظن أحدٌ أنَّ التقوى هى اتقاء النار ، لا إنها أعمّ من ذلك ، إنها اتقاء المشكلات والمخاطر التى تنشأ من مخالفة منهج الله ، وليعلم الإنسانُ أن كلَّ مخالفة ارتكبها لابد أنْ يمر عليها يومٌ ترتكب فيه هذه المخالفة كما ارتكبها فى غيره .

فالتقوى هى تقوى كل مشاكل الحياة ، فالذى يجعل الحياة مليئةً بالمشاكل هو أننا نأخذ بالقوانين التى نسُنها لأنفسنا ونعمل بها ، ولكن إذا أخذنا تقنين الله لنا فمعنى ذلك أننا نتقى المشاكل .

ولذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا .. (١٢٤) ﴾ [طه] أى : أن حياته تمتلئ بالهموم والمشاكل لأنه يخالف منهج الله، وإذا لم تنشأ المشاكل مع المخالفات لقال الناس : خالفنا منهج الله وفلحنا .

لذلك كان لابد أنْ توجد المشاكل لتنبهنا أنَّ منهج الله يجب أنْ يسيطر ، وحين يتمسَّك الناسُ بمنهج الله لا تأتى لهم المشاكل بإذن الله .

والضنك هو الضيق الشديد الذى تحاول أنْ تُفلت منه هنا أو هناك فلا تستطيع ، والضنك لا يعنى فقط الفقْر والحاجة ، إنما له صُور أخرى كثيرة .

فلا تقِسْ مستوى التحضُّر بالماديات فحسب ، إنما خُذْ فى حسبانك كُلَّ

النواحى الأخرى ، فمن أتقن النواحى المادية الدنيوية أخذها وترف بها فى الدنيا ، أما الصلاح الدينى والخلقى والقيمى فهو سبيلٌ لترف الدنيا ونعيم الآخرة .

والمسألة ليست حالة اقتصادية إنما هى مسألة منهج لله تعالى غير مُطبَّق وغير معمول به ، لذلك لو عِشنا بمنهج الله لوجدنا لذة العيش ولو مع الفقر .

فالمعيشة الضنك والعياذ بالله تأتى حين تنطمس النورانية الإيمانية، وحين لا تحافظ على إشراقية هذه الذرة التى شهدتْ خَلْق الله وشهدتْ له بالربوبية ولو حافظت عليها لظلَّتْ كل التعاليم واضحة أمامك ، وما غفلتَ عن منهج ربك هذه الغفلة التى جرَّتْ عليك المعيشة الضنك .

لذلك تسمع مَنْ يقول : العيشة ضنك ، فلا يقفز إلى ذهنك عند سماع هذه الكلمة إلا مشكلة الفقر ، لكن الضنك أوسع من ذلك بكثير ، فقد يوجد الغِنَى والترف ورَغد العيش ، وترى الناس مع ذلك فى ضنك شديد .

فانظر مثلاً إلى السويد ، وهى من أغنى دول العالم ، ومع ذلك يكثر بها الجنون والشذوذ والعُقد النفسية ، ويكثر بها الانتحار نتيجة الضيق الذى يعانونه ، مع أنهم أغنى وأعلى فى مستوى دخْل الفرد .

وارتباط تطليق النساء بتقوى الله ذكره القرآن فى قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ .. (٢٣١) ﴾ [البقرة]

فمعنى (تتقى) أى : أنْ تلتحم بمنهج الحق ، فالمؤمن التقى هو الذى يخاف الله ، وقد أوصى رسول الله ﷺ الرجال فقال : « الله الله فى النساء ، فإنهن

عَـوَانٌ[١] فى أيديكـم ، أخذتمـوهن بأمـانة الله ، واسـتحللتم فروجهـن بكلمـة الله »[٢].

والحـق سـبحانه يقـول ﴿ وَاتَّقُـوا الله .. (١) ﴾ [الطلاق] ثـم يـقـول بعدهـا : (ربكم) ، فهو سـبحانه يجمع بين صـفة الألوهية لله وصفة الربوبيـة ، فيقـول (الله ربكم) .

فالربُّ عطاؤه مكفول لكلِّ مَنْ خلق ، مؤمنهم وكافرهم ، فهو سبحانه وتعالى الذى استدعاهم للوجود وخلقهم ، فالربّ سبحانه يضمن لهم رزقهم وحياتهم، والله سبحانه لا يحرم خَلْقاً من خَلْقه من عطاء ربوبيته فى الدنيا .

وعطـاء الألوهيـة تكليف ، وعطـاء الربوبية رزق وتربيـة ، والرزق والتربية مطلوبـات لـكلِّ مَـنْ كان على الأرض ، لأننا لم نعلـم أن أحداً فـى الوجود قد اسـتدعى نفسـه فى الوجود ، وإنما اسـتدعاه خالقه، وما دام الخالق الأكرم هو الذى استدعى العبد مؤمناً أو كافراً فهو المتكفِّل برزقه .

وعطاء الربوبية يشـمل الخَلْق جميعاً ، فالخالـق الأكرم هو ربّ الناس كلهم ويتـولى تربيتهـم جميعـاً ، فعطاءُ الربوبيـة للجميع ، أما عطـاء الألوهيـة فهو « افعل » و « لا تفعل » .

والرب هو الذى يتولّى تربية المربى لبلوغه حدّ الكمال المنشود له ، وكلمة (رب) تعنـى أنـه تـولى تربية الخَلْـق إلى غاية ومهمة ، والتربيـة تحتاج إلى مقومـات ماديـة ومقومات معنويـة روحية ومنهجية ، لذلـك يأتى بها الحق سـبحانه شـاملةً للكون كله ، كما فى فاتحة الكتاب ﴿ الْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) ﴾ [الفاتحة]

---

(١) عوان : أسرى مستسلمات ، فهُنَّ بمنزلة الأسير . وعوان جمع عانية وهى الأسيرة . وما دامت المرأة أسيرة عند الرجل فليحسن عشرتها لأنها لا تملك من أمر نفسها شيئاً .

(٢) أخرج البيهقى فى شُعب الإيمان (٤٨٨١) عن جابر بن عبد الله عن النبى ﷺ فى خطبته بعرفات : « اتقوا الله فى النساء ، فإنهن عوان عندكم ، اتخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله ».

فهو سيِّد كل العالمين ومالكهم ومُربِّيهم ، وهو الذى يُنشِّئهم التنشئة التى تجعلهم صالحين لأداء مهمتهم فى الحياة بقوة البنيان وببقاء النوع بالتزاوج وبقوة القيم .

وفى آية يقول تعالى : ﴿ وَلَـٰكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ .. (٦١) ﴾ [الأعراف] أى من سيد العالمين ومن مُتولِّى تربية العالمين ، ومَنْ يتولَّ التربية لا يُنزل منهجاً يُضل به مَنْ يربيهم ، بل يُنزل منهجاً ليصلح مَنْ يُربيهم .

ومعنى ﴿ وَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ .. (١) ﴾ [الطلاق] أى : لا تعصوه فيما أمركم به، فلا تُطلِّقوا النساء فى الدم ولا فى الطهارة وقد جامعتموهن إلا فى الطهارة بعدما يغتسلْنَ من الحيض من قبْل أن تُجامعوهن .

وهو تحذيرٌ من التساهل فى أحكام الطلاق والعدة ، وذلك أنَّ أهل الجاهلية لم يكونوا يقيمون للنساء وزناً ، وكان قرابة المطلقات قلّما يُدافعن عنهنّ فتناسى الناسُ تلك الحقوق وغمصوها .

فلذلك كانت هذه الآياتُ شديدةَ اللهجة فى التحدى ، وعبَّر عن تلك الحقوق بالتقوى وبحدود الله ، ولزيادة الحرص على التقوى أتبع اسم الجلالة بوصف (ربكم) للتذكير بأنه حقيقٌ بأنْ يتقى غضبه .

فاتقوا الله ربكم فى تطويل العِدَّة عليهن والإضرار بهن ، فلا تعصوه فيما أمركم به .

وهى دعوةٌ للرجال خاصةً إلى تقوى الله فى هذا الموقف ، وألاَّ يكونَ الطلاقُ عن عدوان أو انتقام أو اتباع لشهوة عارضة أو نزوة طارئة ، فإن الرسول ﷺ يقول : «إنَّ من أبغض الحلال إلى الله الطلاق»[١].

فاتقوا الله ربكم بأنْ تصونوا أنفسكم عن معصيته التى من مظاهرها إلحاق

---

(١) أخرجه أبو داود فى سننه (٢١٨٠) وابن ماجه فى سننه (٢٠١٨) والبيهقى فى السنن الكبرى (١٥٢٩٢) من حديث عبد الله بن عمر رضى الله عنهما . وكذا أخرجه الطرسوسى فى مسنده (١٤) .

الضرر بأزواجكم بتطليقهن فى وقت حيضهن ، أو فى غير ذلك من الأوقات المنهيّ عن وقوع الطلاق فيها .

فعندما يأمركم الحقّ سبحانه بأمر يخصُّ زوجك وأهل بيتك بموجب أنه الله، وأنّ علينا أنْ نستجيب لأمر الله ، ولكنه أيضاً بموجب ربوبية الله يدلّنا على ما يُصلح حالك مع زوجك وأهل بيتك .

وعندما يحدث الطلاق لابد أنْ يحدثَ بما شرَّعه الله ، وأنْ تكون كل أموره محوطة بتقوى الله ، ومخافته وخشيته .

فالله يُربِّيكم بمنهجه ويكلؤكم تحت عينه ، ليستقيم أمر حياتكم على منهج الله ، وتقوى الله هنا تخصّ إحصاء عدة المرأة المطلقة ، وتخص أيضاً عدم إخراج المرأة المطلّقة طلاقاً رجعياً من مسكن الزوجية ، فالله ربٌّ ويعلم نفوس عباده رجالاً ونساء ، ويعلم أنَّ هذا قد يُقرب بين رجل طلّق امرأته فى لحظة طيش وبين مطلقته .

فيجعل المرأة قريبة من الرجل عسى أن يوفق الله بينهما، فيرجع الرجلُ امرأته وتستقيم الأمور بينهما .

وقد روى جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال : طُلِّقتْ خالتى ، فأرادت أنْ تجُدَّ[1] نخلها فزجرها رجل أنْ تخرج ، فأتت النبى ﷺ فقال : « بلى فجُدِّى نخلكِ ، فإنكِ عسى أنْ تصَّدَّقى أو تفعلى معروفاً »[2] .

والبعض قد يفهم تعارضاً بين هذا الحديث الشريف وبين قوله تعالى الذى نحن بصدد خواطرنا عنه ﴿ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ .. (١) ﴾ [الطلاق]

فالمرأة فى الإسلام لها ذمتها المالية المستقلة ، ولها أنْ ترعى مالها بذاتها أو بتوكيل مَنْ تثق فيه ، ولكن قد يقف أمامها أمرٌ شرعه الله ، وهو أنها قد

---

(١) تجد نخلها : تصرمها . وجداد النخل : صرامها . والصرام : القطع .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه (٣٧٩٤) وأبو داود فى سننه (٢٢٩٩) والنسائى فى سننه (٣٥٥٠) وابن ماجه فى سننه (٢٠٣٤) وأحمد فى مسنده (١٤٤٨٤) من حديث جابر بن عبد الله .

تكون مُطلَّقة لا يحقّ لها أنْ تخرج فى مدة عدَّتها .

ولكن هذا ليس على إطلاقه ، فإن المرأة المطلقة لها الحق فى الخروج لحاجاتها الضرورية ولمباشرة مالها ، والحديث يعطينا مثالاً عملياً ، فخالة جابر بن عبد الله طُلِّقَتْ فأرادت أنْ تجُدَّ نخلها أى تجزّه لتستفيد منه ، فزجرها أحد الرجال أنْ تخرج .

فأتت المرأة لنبى الله ﷺ لتسأله ، فأباح لها رسول الله أنْ تخرج لتجُدَّ نخلها ، فرسول الله نظر نظرةً أبعد ، فقال : « إنكِ عسى أنْ تصّدَّقى أو تفعلى معروفاً » .

فرسول الله أراد أنْ يُوجهها إلى فعل الخير ، كأنْ تتصدَّق أو تفعل معروفاً كإغاثة ملهوف أو سداد دَيْنِ مَن غلبَهُ الدين ، أو إعانة مَنْ يريد التزوج ، أو وضْع شيء من هذا النخل للفقراء والمحتاجين .

ثم يقول تعالى : ﴿ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ .. (١) ﴾ [الطلاق] أى : لا تُخرجوهن من بيوتهن حتى تنقضى عدتهن ، وليس لها أنْ تخرج إلا بإذنه، وليس للزوج أنْ يُخرِجها ما كانت فى العدة ، فإنْ خرجت فلا سُكْنى لها ولا نفقة .

وقد نسب الحقُّ سبحانه البيوت إلى ضمير النساء من المطلقات ، وهو إشارةٌ إلى أنهن مستحقات المكث فى البيوت مدة العِدَّة بمنزلة مالك الشيء ، وهذا ما يُسمى فى الفقه مِلْك الانتفاع دون العين ، وللمطلقة حكم الزوجة ما دامت فى العدة إلاَّ فى استمتاع المطلِّق .

فلا تُخرجوهن حتى تنقضى عدتهُنَّ من بيوتهن من مساكنهن التى يسكنّها قبل العدة وهى بيوت الأزواج ، وأضيفتْ إليهن لاختصاصها بهنَّ من حيث السُّكْنى .

فهذا نَهْى للرجال عن أنْ يُخرِجوا مُطلقاتهم قبل انقضاء العدة ، بل ينبغى أنْ يُمسِكوهن فى بيت الزوجة ، فإنهن زوجاتٌ إلى أنْ تنقضى العدة .

وفى إضافة بيوت الأزواج إلى الزوجات ما يُدخل فى شعور كلٍّ من الرجل والمرأة أن الزوجية لا تزال قائمة بينهما فى أثناء العدة ، وأن الزوجة ما زالت فى بيتها بيت الزوجية .

وهذا من شأنه أنْ يجعل المسافة النفسية قريبةً بينهما ، وأنْ يكون ذلك داعيةً إلى إصلاح ذات البين وإزالة أسباب الفُرْقة ، فالمرأة فى أثناء العدة لا تزال فى بيتها بيت الزوجية وليست غريبة عنه ، وهى بهذا الشعور تتصرف كما كانت تتصرف قبل إيقاع الطلاق عليها ، وهذا مدخل واسع إلى المصافاة وإصلاح ما بالنفوس .

فلا تُخرجوا المعتدات من المساكن التى كنتم تُساكنوهن فيها قبل الطلاق، غضباً عليهنَّ أو كراهة لمساكنتهن أو لحاجة لكم إلى المساكن ، لأن تلك السُّكْنى حقّ الله تعالى أوجبه للزوجات ، فليس لكم أنْ تتعدوه إلا لضرورة ، كانهدام المنزل أو الحريق أو السيل أو خوف الفتنة فى الدين .

فاتقوا الله ربكم فى الإضرار بهنَّ لا تُخرجوهن من بيوتهن أى من مساكنهن عند الفراق إلى أنْ تنقضى عِدّتهن ، فقوله ﴿ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ .. (١) ﴾ [الطلاق] فيه دليلٌ على وجوب السُّكنى لها ما دامت فى العدة .

فإنَّ بيوتهن التى نهى الله تعالى عن إخراجهنّ منها هى البيوت التى كانت تسكنها قبل الطلاق ، فأمره بإقرارها فى بيتها ، ونسبه إليها بالسُّكنى .

ويقول سبحانه : ﴿ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ .. (١) ﴾ [الطلاق] فلا تخرج المطلَّقة ما دام لزوجها عليها رجعة وكانت فى عدة ، وهذا الخروج ألاَّ تتحول من بيتها وإنِ احتاجتْ إلى الخروج بالنهار لحاجتها خرجت ولا تبيت إلا فى بيتها .

وليس للزوج أنْ يُخرجها من مسكن الزوجية ما دامت فى العدة ، ولا يجوز لها الخروج أيضاً لحقِّ الزوج إلا لضرورة ظاهرة ، فإنْ خرجت أثمت ولا تنقطع

العدة ، والرجعية والمبتوتة فى هذا سواء ، وهذا لصيانة ماء الرجل .

ويقول تعالى ﴿ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ .. (١) ﴾ [الطلاق] وفى سورة النساء يقول تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ(١) لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ .. (١٩) ﴾ [النساء]

ويقول تعالى فى سورة الأحزاب : ﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (٣٠) ﴾ [الأحزاب]

والفاحشة هى الذنب الفظيع ، وموقف العلماء من الفاحشة فيه اختلاف ، فبعض العلماء قال : إنها الكبيرة من الكبائر ، وقال بعض آخر من العلماء : إن الفاحشة هى الزنا .

والفاحشة مأخوذة من التفحُّش أى التزايد فى القبح ، ولذلك صرفها بعض العلماء إلى لوْنٍ خاص من الذنوب وهو الزنا ، لأن هذا تزيُّد فى القبح .

والذين قالوا : إن الفاحشة المقصود بها الزنا نظروا إلى قول الله سبحانه : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا (٣٢) ﴾ [الإسراء] أو الفاحشة هى ما فيه حدٌّ ، أو الفاحشة هى الكبائر ونحن نأخذها على أنها التزيُّد فى القبح على أىِّ لوْنٍ من الألوان .

فكلمة (فاحشة) ليست قُبحاً فقط ، بل تزيُّد وإيغال وتعمُّق فى القبح ومبالغة فيه .

والمتتبع لآيات القرآن الكريم سيجد أنَّ الزنا هو الذنب الوحيد الذى سماه القرآنُ فاحشةً فهى إذن الزنا ، أو كلّ شيء يخدش حكماً من أحكام الله تعالى،

---

(١) فى العضل عدة أقوال منها :
– أن الرجل يكره صحبة امرأته ولها عليه مهر فيحبسها ويضربها لتفتدى . قاله ابن عباس وقتادة .
– أن الرجل يطلق امرأته ثم يراجعها ثم يطلقها كذلك أبداً إلى غير غاية يقصد إضرارها .

ولكن لماذا الزنا بالذات ؟

نقول : لأن كلَّ الذنوب الأخرى غير الزنا إنما تتعلَّق بمحيطات النفس الإنسانية ، أما الزنا فيتعلق بالنفس الإنسانية ذاتها ، ويترتب عليه اختلاط الأنساب وبه تُدنّس الأعراض ، وبه يشكّ الرجل فى أهله وأولاده ، ويحدث بسبب هذا من الفساد مَا لا يعلمه إلا الله .

لذلك نصَّ عليه القرآن صراحةً فى قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا (٣٢) ﴾ [الإسراء]

ومن أقوال العلماء فى الفاحشة : أنها الذنب العظيم الذى يخجل صاحبه منه ويستره عن الناس ، فلا يستطيع أنْ يجاهر به ، كأنه هو نفسه حينما يقع فيه يعلم أنه لا يصح ولا ينبغى لأحد أنْ يطلع عليه .

فالفاحشة هى الشيء الذى اشتد قُبْحه ، والدليل على فُحْشه أن الموصوم به يحب ألاَّ يعرف وأنْ تظلّ جرائمه خِلْسةً من المجتمع ، وأن الذى يقترف هذه الفاحشة يكره أن تُفعل فى محارمه ، ويكفيها فحشاً أن الله تعالى سماها فاحشة ، وشرع لها حداً يُقام على مرتكبها علانية أمام أعين الجميع .

ولكن ما معنى الفاحشة هنا فى هذه الآية ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ .. (١) ﴾ [الطلاق]

البعض من العلماء قالوا : الفاحشة البغض والنشوز ، فإذا فعلتْ ذلك فقد حلّ له منها الفدية . وقال ابن مسعود : إذا آذتْك فقد حلّ لك أخْذ ما أخذَتْ منك[١].

ومن العلماء مَنْ قال : خروجها قبل انقضاء العدة من بيتها الفاحشة المبينة ومنهم مَنْ رأى أن فاحشةَ المرأة هنا هى أنْ تبذوَ[٢] المرأة على أهل الرجل ، فإذا

(١) أورده السيوطى فى الدر المنثور (٤/ ٢٩٠) وعزاه لابن جرير الطبرى فى تفسير الآية [النساء : ١٩] .
(٢) تبذو : تجيء بالكلام القبيح والفحش . وتبذو : تشتم وتسبّ وتسيء القول فى أقارب زوجها ، فهذه يجوز إخراجها ونقلها إلى مكان آخر لقطع إيذائها عنهم . فلسانها ذربٌ فتؤذيهم بلسانها السليط .

بذت عليهم بلسانها فقد حَلَّ لهم إخراجها .

فالفاحشة هنا بمعنى العصيان البيّن وهو النشوز ، فالفاحشة المبيّنة أنْ تفحُشَ المرأةُ على أهل الرجل وتُؤذيهم ، فتكون امرأةً سيئةَ الخُلق .

فالمرأة السيئة الخُلق البذيئة اللسان على زوجها وأهل زوجها لا تستحق أنْ يتم الاحتفاظ لها بحقِّها فى البقاء فى مسكن الزوجية مع طليقها إلى أنْ تنقضى عِدَّتها .

وقد أحلَّ الإمام الشافعى إخراجَ المرأة البذيئة على أحمائها ، فالفاحشة المبينة الأمر القبيح الواضح الموجب لإخراجها ، بحيث يدخل على أهل البيت الضرر من عدم إخراجها كالأذى بالأقوال والأفعال الفاحشة .

ففى هذه الحال يجوز لهم إخراجها ، لأنها هى التى تسببت لإخراج نفسها، والإسكان فيه جَبْر لخاطرها ورِفْق بها ، فهى التى أدخلت الضرر على نفسها.

وهذا فى المعتدَّة الرجعية ، أما البائن فليس لها سُكْنى واجبة ، لأن السكن تبع للنفقة ، والنفقة تجب للرجعية دون البائن .

ولأن الشارع سبحانه حكيم ، فوراء السُّكنى للمطلَّقة حكمة بالغة فهذا حِفْظ للأعراض ، فإن المطلقة يكثر التفات العيون لها .

والملفت أن الحق سبحانه استخدم كلمة (مبيِّنة) ولم يقل سبحانه : بفاحشة بيِّنة . أى واضحة ، ولكنه سبحانه قال (مبيِّنة) فالفاحشة هنا واضحة ظاهرة ظهوراً لا لبْسَ فيها ، فهى مبيِّنة بذاتها موضحة لنفسها وُضوحاً لا يَخْفى على أحد .

وهذا تعبيرٌ عن مجاهرة المرأة بفاحشتها أو ببذاءتها مجاهرةً لا يحتملها أحدٌ أو تطاولها على زوجها بالسُّباب والنشوز والارتفاع عليه والتمرد عليه وعلى أهله .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا (١) ﴾ [الطلاق]

قوله (وتلك) اسم إشارة لمؤنث ، ولابد أنْ نعرف أنَّ (تلك) ليست كلمة واحدة وإنما هى ثلاث كلمات . (ت) اسم إشارة وهو مؤنث (ذا) التى فى (ذلك). واللام تدلُّ على البُعد ورفعة هذه الحدود وتأكيد عدم تعدِّيها وتجاوزها . و (ك) لمخاطبة الناس جميعاً .

فـ (تلك) هى إشارةٌ لأمر بعيد ، فعندما نشير إلى شيء قريب فإننا نقول (ذا) . وعندما نستخدم صيغة الإشارة مع الخطاب نقول : ذاك . وعندما نشير إلى مؤنث فنقول (تِ) . وعندما نشير إلى خطاب مؤنث نقول : (تيك) . واللام كما عرفنا هنا للبُعد أو للمنزلة العالية .

فـ (تلك) إشارة ، ولابد أنْ نُفرِّق بين الإشارة والخطاب ، لأن البعض يخلط بينهما ، فالإشارةُ هى التى تشير إلى شيء مثل قولنا : هذا وذا أو تلك ، وهذا : إشارة لمذكر .

والمثال هو قولنا : هذا القلم جميل . أما قولنا : تلك الدواة جميلة فـ (تلك) إشارةٌ لمؤنثة . أما الكاف فهى حرف خطاب ، فالتاء إشارة للآيات وهى مؤنثة. والكاف فى (تلك) للمخاطب .

والمشار إليه هنا هو حدود **الله** والمتمثِّلة هنا فى هذه الآية فى أحكام التطليق ما دام لم يُعدْ هناك مجال لاستمرار الحياة الزوجية ، فإنْ كان الطلاقُ واقعاً لا محالة فلا بد أنْ يتمَّ بطريقة شرعية تحفظ للمرأة حقوقها ، وتحفظ للرجل رغبته فى إعادة امرأته إليه مرة أخرى ، وتحفظ للمجتمع حمايةَ النسل وعدم اختلاط الأنساب .

فتلك حدود **الله** ، وليس من الصواب أنْ نحصر الحدود فى حدود الجزاءات والعقوبات على السرقة والزنا والحرابة[1] والقتل ، فالحدود التى وضعها **الله**

(١) يقول تعالى : ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ..(٣٣) ﴾ [المائدة] وهذا حكم الله فى الحرابة أى قطع الطريق، فالحرابة هى أشد الجرائم لأن منها عدة جرائم كالسرقة بالإكراه والقتل والإخافة والترويع وهدم عامر البنيان وتهديد الأبرياء ، فعند فعل عمل يجمع بين هذه الجرائم فهذه حرابة يطبق فيها حكم الآية.

سبحانه هى أحكام ، ومرة تكون هذه الأحكام أوامر ، ومرّة تكون نواهى .

ومعنى « الحد » هو الفاصل المانع من اختلاط شيء بشيء ، وحدودُ الله هى محارمه ، والمحارم هى التى يضع الله لها حداً فلا تتعداه . فلكى تمنع نفسك من تلك المحرمات فعليك ألاَّ تقربَ النواهى ، وفى الأوامر عليك ألاَّ تتعداها .

فحدودُ الله هى ما شرعه لعباده حداً مانعاً بين الحِلِّ والحرمة ، وحدودُ الله إمّا أنْ ترد بعد المناهى ، وإما أنْ ترد بعد الأوامر .

فإنْ وردت بعد الأوامر فإنه يقول : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا .. (٢٢٩) ﴾ [البقرة] أى آخر غايتكم هنا ولا تتعدوا الحد ، ولكن إن جاءت بعد النواهى يقول ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا .. (١٨٧) ﴾ [البقرة]

فالحق سبحانه يريد أنْ يمنع النفس من تأثير المحرمات على النفس ، فتُلح عليها أنْ تفعل ، فإنْ كنت بعيداً عنها فالأفضل أنْ تظلَّ بعيداً .

وانظر جيداً فيما قال رسول الله ﷺ : «إن الحلال بيِّن ، وإنَّ الحرام بيّن ، وبينهما أمورٌ مشتبهات ، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعِرْضه ، ومَنْ وقع فى الشبهات وقع فى الحرام كالراعى يرعى حول الحِمَى يُوشك أنْ يقع فيه، ألا وإنَّ لكل ملك حِمى ، ألا وإنَّ حِمى الله فى أرضه محارمه »[1].

وما دامت الحدودُ تشمل مناهى الله وتشمل أوامر الله ، فكلُّ شيء مأمورٌ به، وكلُّ شيء منهىٌّ عنه يجب أنْ يظل فى مجاله من الفعل فى (افعل) ، ومن النهى فى (لا تفعل) .

وإذا انتقل نظام (افعل) إلى دائرة (لا تفعل) ، وانتقل ما يدخل فى دائرة (لا تفعل) إلى دائرة (افعل) . هنا يختلّ نظام الكون ، وما دام نظام الكون أصابه الخلل فقد حدث الظلم .

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٢ ، ٢٠٥١) وكذا مسلم فى صحيحه (٤١٧٨ ، ٤١٨١) وأبو داود فى سننه (٣٣٣١) والترمذى فى سننه (١٢٠٥) والنسائى فى سننه (٤٤٥٣) وابن ماجه فى سننه (٣٩٨٤) من حديث النعمان بن بشير رضى الله عنه .

فالظلم هو أنْ تنقل حقَّ إنسان وتعطيه لإنسان آخر ، وتشريع الطلاق حَدٌّ من حدود الله ، فإنْ حاولت أنْ تأتى بأمر لا يناسب ما أمر الله به فى تنظيم اجتماعى فقد نقلت المأمور به إلى حيز المنهيّ عنه وبذلك نحدث ظلماً .

وحين يحدّ الله حُدوداً أى يمنع أنْ يلتبس حقٌّ بحقٍّ ، أو أنْ يلتبس حقٌّ بباطل فهو الذى يضع الحدود ، وهو الذى فضل حقوقاً عن حقوق .

ونحن فى حياتنا عندما نقوم بفصل حقوق عن حقوق فى البيوت والأراضى فنحن نضع حدوداً واضحة ، ومعنى « حد » أى فاصل بين حقّيْن ، بحيث لا يأخذ أحدٌ ما ليس له من آخر .

والحدود التى نصنعها نحن والتى قد لا ينتبه إليها كثيرٌ من الناس هى نوعان : نوع لا يتعدّى بالبناء ، فعندما يريد واحد أنْ يبنى فالأول يبنى على الأرض التى هى حَقٌّ له ، ويكون الجداران ملتصقيْن بعضهما ببعض .

وعندما يزرع فلاح بجانب فلاح آخر ، فكلُّ فلاح يزرع فى أرضه وبين القطعتين حَدٌّ ، وهذا يحدث فى النفع .

لكن لنفترض أنَّ فلاحاً يريد أنْ يزرع أرزاً ، وجاره لن يزرع أرزاً ، فالذى لن يزرع الأرز قد تأخذ أرضه مياهاً زائدة ، فالمياه تصلح للأرز وقد تفسد غيره.

ولذلك يكون الحكم هنا أنْ يقيم زارع الأرز حداً اسمه « حدّ الجيرة » ليمنع الضرر، وهو ليس «حد الملكية » فزارع الأرز هنا ينقص من زراعته مسافة مترين ، ويصنع بهما حَدّ الجيرة ، حتى لا تتعدى المياه التى يُروى بها الأرز إلى أرض الجار ، إنه حَدٌّ يمنع الضرر وهو يختلف عن الحدِّ الذى يمنع التملُّك .

إذن : فمن ناحية حماية الإنسان لنفسه من أنْ يُوقع الضرر بالآخرين عليه أنْ ينتبه إلى المقولة الواضحة « لا تجعل حقَّك عند آخر حدِّك ، بل اجعل حقَّك فى الانتفاع بعيداً عن حدِّك » وهذا فى الملكية ، وذلك إذا كان انتفاعُكَ بما تملكه كله سيضرّ بجارك .

وكذلك يعاملنا الله ويقول في الأوامر: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا .. (٢٢٩) ﴾ [البقرة] ، وفي النواهي يقول سبحانه: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا .. (١٨٧) ﴾ [البقرة]

أي: أنك إذا ما تلقيتَ أمراً فلا تتعدَّ هذا الأمر وهذه هي الملكية، وإذا ما تلقيتَ نهياً فلا تقرب الأمر المنهيّ عنه.

مثال ذلك النهي عن الخمر، فالحق لا يقول « لا تشرب الخمر » وإنما يقول: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ .. (٩٠) ﴾ [المائدة]

أي لا تذهب إلى المكان الذي يوجد فيه من الأصل، كُنْ في جانب، وهذه الأشياء في جانب آخر.

والحق سبحانه يحب مَنْ يقف عند الحدود، ففي المنهيات لا تقترب. وفيما أحلَّه الله: لا تتعدَّ.

وهذه الأمور التي بيَّنتُها لكم من الطلاق للعدَّة وإحصاء العدة والأمر باتقاء الله، وأنْ لا تخرج المطلقة من بيتها إلا أنْ تأتي بفاحشة مبيّنة حدود الله التي حدَّها لكم أيها الناس.

وتلك طاعة الله فلا تعتدوها، فلُبُّ طاعتك الله وتقواك له أن تقفَ عند حدوده لا بالنقصان عنه ولا بالزيادة عليه، ومَنْ راعى مع الله حدَّه أخلص الله له عهده.

لذلك يقول تعالى: ﴿ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ .. (١) ﴾ [الطلاق]، وفي آية أخرى يقول: ﴿ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٢٩) ﴾ [البقرة]

فإياكم أنْ تتعدَّوا هذه الحدود، لأن الإنسان إذا ما تعدَّى هذه الحدود يقع

فـى ظلم نفسـه ، وظلم مَنْ يعول ، وظلم المجتمع . ومَـنْ تعدى هذه الحدود فقد أسرف .

والعَـادُون هم المعتـدون المتجاوزون لما شُرع لهـم ، وربنا تبارك وتعالى حينما يُحذِّرنا من التعدي يفرِّق بين التعدِّى فى الأوامر ، والتعدِّى فى النواهى، فـإنْ كان فـى الأوامر يقول ﴿ فَـلا تَعْتَدُوهَا .. (٢٢٩) ﴾ [البقـرة]، وإنْ كان فى النواهى يقول ﴿ فَلَا تَقْرَبُوهَا .. (١٨٧) ﴾ [البقرة]

ثـم يقـول تعالى : ﴿ فَقَدْ ظَلَـمَ نَفْسَهُ .. (١) ﴾ [الطـلاق] ومثلها قوله تعالى فى سـورة البقرة : ﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُـمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُـنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُـنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ .. (٢٣١) ﴾ [البقرة]

فالحق سـبحانه يحذر من مثل هذا السلوك ، فإياك أنْ تظنَّ أنك حين تعتدى علـى زوجتك بعـد أنْ تراجعها أنـك ظلمتها هى ، لا إنما أنت تظلم نفسـك لأنك حـين تعتـدى على إنسـان فقد جعلت رَبَّهُ فـى جانبه ، فإنْ دعـا عليك قبِل الله دعوته ، وبذلك تحرم نفسـك من رضـا الله عنك ، فهل هنـاك ظلمٌ أكثر من الظلم الذى يأتيك بسخط الله عليك ؟

فمن الظلم ظلم الإنسـان لنفسه حينما يُحقق لها شهوة عاجلة ومتعةً زائفة تُورثه ندماً وحسرة وألماً آجلاً ، وبذلك يكون قد ظلم نفسه ظلماً كبيراً وجرَّ عليها ما لا تطيق ، ذلك فضلاً عن ظلم الإنسان لغيره بشتى أنواع الظلم وأشكاله.

ومنتهى الحُمْق أنْ يظلم الإنسانُ نفسه ، لو ظلم غيره لقلنا : خيرٌ يجلبه لنفسه ، لكن ما الخير فى ظلم الإنسان لنفسه ؟ ومن ظلم نفسه لا تَلُمْه إنْ ظلم الآخرين .

وظلم النفس هو أنْ نخالف ما شرع الله للنفس لينفعها نفعاً أبدياً مستوفياً ، ولكن النفس قد تندفع وراء حُبها للشهوات وتمنيها للنفع العاجل الذى لا خلودَ

له ، وعندما يحقق الإنسان هذا النفع العاجل لنفسه فهو يظلم نفسه .

فظلمُ النفس هو الفعل الذى يُسيء إلى النفس وحدها ، أو أن الإنسان يصنع سيئة ويُمتع نفسه بها لحظة من اللحظات ، ولا يستحضر عقوبتها الشديدة فى الآخرة .

والحق سبحانه حين يُحرم عليك أنْ تظلم غيرك فهو قد حرَّم عليك أيضاً ظلم نفسك .

فظلمُ النفس هو الظلم الأحمق ، لأن ظلم الغير قد يعود على الظالم بنوع من النفع ، أما ظلم النفس فلا يعود عليها بشيء ، فمَنْ خالف منهج الله فى أحكامه حتى ولو كان مما بينه وبين زوجته ، وبذلك يكون قد فوَّت على نفسه نعيم الدنيا ونعيم الآخرة .

فمَنْ يتعدَّ حدود الله فى أحكام الطلاق والرجعة والعِدَّة وعدم إخراج المطلقة طلاقاً رجعياً من بيت الزوجية يكون قد ظلم نفسه قبل أنْ يظلم غيره .

فهو من البداية هدم بيته بطلاق قد يكون هو السبب فيه بعدم استطاعته التعامل السليم مع زوجته مما أدى إلى الشقاق والفراق وتشرُّد الأولاد .

فمَنْ يتعدَّ حدود الله وأمره فيُطلّق لغير العدّة التى هى ثلاثة طُهورات فقد ظلم نفسه ، ومن الناس مَنْ يريد بالتطليق مُضارة المرأة وإغاظتها والإضرار بها ، وهؤلاء الذين قال الله فيهم :

﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا[1] لِتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ .. (٢٣١) ﴾ [البقرة]

---

(١) قال الضحاك : إنما كانوا يضارّون المرأة لتفتدى . وقال عدة من العلماء : كان الرجل يطلق المرأة فإذا قاربت انقضاء العدة راجعها ضراراً لئلا تذهب إلى غيره ثم يطلقها فتعتد فإذا شارفت على انقضاء العدة طلق لتطول عليها العدة فنهاهم الله عن ذلك وتوعدهم عليه . تفسير ابن كثير (١/٦٢٩) .

فكان الرجل يطلق امرأته تطليقة واحدة ثم يدعها ، حتى إذا كادَ أنْ تخلو عدتها راجعها ، ثم يُطلّقها حتى إذا كاد أنْ تخلو عدتها راجعها ولا حاجة له فيها ، إنما هو ليطوّل عليها ليُضارها بذلك ، فنهى الله عن ذلك .

فلا تُبقِ أيها الرجل على الحياة الزوجية من أجل الإضرار بالمرأة وإذلالها، ومعنى الضرار أنك تصنع شيئاً فى ظاهره أنك تريد الخير ، وفى الباطن تريد الشر .

يقول الرجل أنا لا أريد طلاقها وسأعيدها لبيتها يقول ذلك ويُبيِّت فى نفسه أنْ يُعيدها ليُذلّها وينتقم منها ، وذلك لا يُقره الإسلام بل وينهى عنه .

فظُلْمك لامرأتك أو مطلقتك يؤدى إلى اختلال المعاشرة واضطراب حال البيت وفوْت المصالح بالمخاصمات والمشاحنات والمشاجرات والدخول فى تعاند الإرادات والتنابذ بالألفاظ .

فهو قد عبث بآيات الله واتخذ الرخصة التى جعلها الله له فى مراجعة زوجه، والتى من شأنها أنْ تُصلح ما أفسد اتخذها وسيلة لمزيد من الإفساد .

فالله قد أتاح للزوج فرصة مراجعتها وإمساكها بعد أنْ قطع حبل الزوجية ، فأسكن الله زوجته أو مطلقته الرجعية فى مسكن الزوجية حتى تنقضى عِدَّتها، فإنْ شاء راجعها فلا يُطلقها من يده مرة أخرى .

﴿ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا (١) ﴾ [الطلاق] فأنت لا تدرى فربما كان بقاء المرأة فى مسكنها مدة العدة يدعوك إلى أنْ تراجع نفسك وترجع عما فعلته فتراجعها فى العِدَّة ، وهذا كثيراً ما يحدث .

بخلاف ما لو خرجت من البيت وكثر القيل والقال وتدخّل الناس بالإفساد انقطع حبْل الصِّلة ، والمشرِّع حريص جداً على عدم انقطاعه .

وقوله ﴿ لَا تَدْرِي .. (١) ﴾ [الطلاق] وإنْ كنتَ لاتدرى فالتزم حكم الله الذى يعلم المصلحة وتوجيهها ، فالله يُصلحك بمنهجه .

ومعنى ﴿ لَا تَدْرِي .. (١) ﴾ [الطلاق] أى : لا تعلم ، يُقال : هل دريْتَ بالموضوع الفلانى ؟ يعنى : علمت به .

والحق سبحانه يقول : ﴿ لَا تَدْرِي لَعَلَّ الله .. (١) ﴾ [الطلاق] و « لعل » من أفعال الرجاء ، وذكرها يعنى الرجاء فى أنْ يتحقق ما يأتى بعدها ، ومراتب الرجاء بالنسبة للنفس وبالنسبة للغير وبالنسبة لله تختلف .

أنت تقول : اسأل فلاناً لعلّه يعطيك ، هذه مرتبة من الرجاء . وتقول : لعلِّى أعطيك . وهذه أقرب إلى التحقيق من أنْ أرجو غيرى أنْ يُعطيك .

إذن فهى مرحلة أعلى فى الإجابة وأنْ تقول : لعلَّ الله يعطيك مرحلةً ثالثة وعالية من الرجاء لأنك ترجو الله ولا ترجو أحداً من البشر ، فإذا قال الله ﴿ لَعَلَّ الله .. (١) ﴾ [الطلاق] ، فيكون هذا توقعاً مُؤكداً للعطاء .

فمراحل الرجاء رجاء لغيرك من غيرك ، ورجاء منك لغيرك ، ورجاء من الله لسواك ، فالرجاء من الله رجاءٌ مُحقَّق لأنه سبحانه كريم يحب أنْ يرحمنا ، ولا شيء يمنعه من أنْ يُحقق ذلك .

فأقوى درجات الرجاء وآكدها الرجاءُ من الله ، فالوعد من الله ، والرجاء فيه سبحانه لا يخيب .

وقد تقول : لعلِّى أعطيك ، فهو من كلامك أنت ومع ذلك قد لا تستطيع تحقيقه. أما إذا قال الله : لعلكم . فهذا أرجى الرجاءات ولا بد أنْ يتحقّق .

وعن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة أن أبا عمرو بن حفص بن المغيرة خرج مع على بن أبى طالب رضى الله عنه إلى اليمن ، فأرسل إلى امرأته فاطمة بنت قيس[1] بتطليقة كانت بقيتْ من طلاقها ، فأمر عليٌّ الحارثَ بنَ هشام وعيّاش ابنَ أبى ربيعة لها بنفقة . قالا : والله ما لكِ من نفقة إلا أنْ تكونى حاملاً .

---

(١) فاطمة بنت قيس بن خالد القرشية الفهرية أخت الأمير الضحاك بن قيس ، صحابية من المهاجرات الأول . لها رواية للحديث ، كانت ذات جمال وعقل ، وفى بيتها اجتمع أصحاب الشورى عند قتل عمر، توفيت عام (٥٠هـ) [الأعلام للزركلى] توفيت فى خلافة معاوية .

فأتت النبى ﷺ فذكرت له قولها ، فقال : لا نفقةَ لكِ .

واستأذنتْه فى الانتقال (أى فى الخروج من بيت مطلِّقها) فأذن لها ، فقالت: إلى أين يا رسول الله ؟ قال : إلى ابن أم مكتوم ، وكان أعمى تضع ثيابها عنده ولا يراها . فلما مضت عدتها أنكحها النبى ﷺ أسامة بن زيد .

فأرسل إليها مروان بن الحكم قبيصة بن ذؤيب يسألها عن هذا الحديث فحدَّثته به . فقال مروان : لم نسمع بهذا الحديث إلا من امرأة ، سنأخذ بالعصمة التى وجدنا الناس عليها[1] .

فقالت فاطمة حين بلغها قول مروان : بينى وبينكم القرآن ، قال الله عزَّ وجلَّ : ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ.. (١) ﴾ [الطلاق] حتى بلغ ﴿ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا (١) ﴾ [الطلاق]

قالت : هذا لمَنْ كانت له مراجعة فأيُّ أمر يحدث بعد الثلاث ؟ فكيف تقولون: لا نفقةَ لها إذا لم تكُنْ حاملاً فعلام تحبسونها ؟

هذا الحديث يُعطينا لمحة مهمة عن صحابية من الصحابيات كانت تفقه كتاب ربها ولها فيه استنباط وفَهْم ورأى تستدرك به على أفهام أخرى له ، وهى الصحابية فاطمة بنت قيس .

وقد طُلِّقَتْ فاطمة مرتين من أبى عمرو بن حفص بن المغيرة فطلَّقها التطليقة الثالثة ، فأمر عليُّ بن أبى طالب رضى الله عنه الحارثَ بن هشام وعيّاش بن أبى ربيعة أنْ يتكفَّلا بنفقتها ، فرفضا لأنها ليستْ حاملاً ، فلا يحقّ لها نفقة خاصة لأن طلقتها كانت طلقة بائنة بينونة كبرى لأنها طُلِّقت للمرة الثالثة .

وقد سألت رسول الله فقال : لا نفقةَ لكِ ، وما دام ليس لها نفقة فليس لها سُكْنى ، لذلك استأذنت رسول الله فى الانتقال من بيت مَنْ طلَّقها ، فأذن لها فى

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٣٧٧١ ، ٣٧٧٢ ، ٣٧٧٧) وأبو داود فى سننه (٢٢٩٢) والنسائى فى سننه الكبرى (٩١٩٩) والطبرانى فى المعجم الكبير (٢٠٣٦٦) من حديث فاطمة بنت قيس .

الانتقال إلى بيت عبد الله بن أم مكتوم ، وقد كان أعمى حتَّى تستوفى عِدَّتها .

فلما استوفتْ عِدَّتها زوَّجها[١] رسول الله أسامة بن زيد . وفى عهد مروان ابن الحكم[٢] سألها مروان عن هذا الحديث فقصَّته ، فلما استنكر مروانُ كلامَها قالت فاطمة : بينى وبينكم القرآن . وهو استنكر أمر خروجها وانتقالها .

لذلك قالت الآية : ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ.. (١)﴾ [الطلاق] حتى بلغ ﴿لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا (١)﴾ [الطلاق]

فقالت : هذا لمَنْ كانت له مراجعة واستشهدتْ بقوله تعالى : ﴿لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا (١)﴾ [الطلاق] أن الأمر هنا هو أمرُ رخصة المراجعة للرجل .

ومن نهاية الآية استشهدت على أنَّ عدم الإخراج والخروج إنما هو للمطلَّقة طلاقاً رجعياً ، لذلك قالت بعدها : فأيّ أمر يحدث بعد الثلاث ؟ أى الثلاث طلقات .

والمقصود بالعصمة أى ما كان عليه الناسُ من عدم خروج المطلَّقة أثناء العدَّة ، ولكن فاطمة بنت قيس قالت : لا نفقة لها إذا لَم تكُنْ حاملاً ، فعلام تحبسونها ؟

فالله سبحانه لأنه حكيم ولأنه رحيم لا يترك عباده فى حرج أو كرب دون

---

(١) بعدما طُلقت فاطمة بنت قيس طلبها للزواج معاوية بن أبى سفيان وأبو الجهم ، فقال لها رسول الله ﷺ : أما أبو الجهم فشديد . وأما معاوية فصعلوك لا مال له . ولكن أنكحك أسامة ؟ فقالت : أسامة ! تهاوناً بأمر أسامة ثم قالت : سمعاً وطاعة لله ولرسوله فزوجنيه فكرمنى الله بأبى زيد وشرفنى الله ورفعنى به [أخرجه مسلم فى صحيحه (١٤٨٠)] وقد كان أسامة بن زيد حب رسول الله صغير السن حتى أنه عندما مات رسول الله كان عمره عشرين سنة ، ولكنه كان متزوجاً قبلها بهند بنت الفاكه ، وأيضاً درة بنت عدى وكان له منها [محمد وهند] ثم تزوج فاطمة بنت قيس فولدت له جبيراً وزيداً وعائشة وتزوج غيرهن أيضاً توفى ٥٠ هـ . [طبقات ابن سعد ٤/٦٦] .

(٢) هو : مروان بن الحكم بن أبى العاص أبو عبد الملك خليفة أموى (ولد ٢ هـ) ، وإليه ينسب (بنو مروان) ودولتهم (المروانية) . ولد بمكة ونشأ بالطائف وسكن المدينة (توفى عام ٦٥ هـ) عن ٦٣ سنة . [الأعلام للزركلى ٧/٢٠٧] .

أنْ يُفرِّج هذا الكرب وهذه المشكلة عنهم ،وشريعة الله عدلٌ كلها ورحمة كلها .

فإذا كان الله قد أباح للرجل تطليق امرأته فإنه سبحانه وضع له حدوداً لا يتعداها ﴿ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ .. (١) ﴾ [الطلاق] ثم ﴿ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ .. (١) ﴾ [الطلاق] ثم ﴿ وَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ .. (١) ﴾ [الطلاق] ثم ﴿ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ .. (١) ﴾ [الطلاق]

والله يفتح للرجل المطلِّق طلاقاً رجعياً ، وللزوجة المطلَّقة طلاقاً رجعياً ، يفتح لهما باب الرجعة مرة واثنتين لرأب صَدْع حياتهما الزوجية ، فلعلَّ الله يُحدِث بعد طلاقكم إياهنَّ رجعة ، فلعل الرجل يراجعها فى عدَّتها .

فكأنَّ الحق سبحانه يقول : إنما أبقينا المطلَّقة فى منزل الزوج فى مدة العدة لعلَّ الزوج يندم على طلاقها ويخلق الله فى قلبه رجعتها ، فيكون ذلك أيسرَ وأسهل .

فلعلَّ الله أن يُحدث فى قلب المطلِّق الرحمة والمودة ، فيراجع مَنْ طلَّقها ويستأنف عِشْرتها فيتمكن من ذلك مدة العدة ، أو لعله يُطلِّقها لسبب منها فيزول ذلك السبب فى مدة العدة ، فيراجعها لانتفاء سبب الطلاق .

والبعض لفتَ إلى أمر آخر ، وهو أنَّ هذه الآية تحريضٌ على الطلاق الرجعى، والنهى عن الطلاق ثلاثاً أو طلاقاً غير رجعى ، فإنه إذا طلق ثلاثاً أضرَّ بنفسه عند الندم على الفراق والرغبة فى الارتجاع فلا يجد إلى المراجعة سبيلاً .

وقد يسأل سائل : قوله تعالى : ﴿ لَا تَدْرِي .. (١) ﴾ [الطلاق] هل المخاطب هنا هو رسول الله ؟ فنقول : هو خطابٌ للمتعدى لا للنبى ﷺ ، فالمعنى : ومَنْ يتعدَّ حدود الله فقد أضرَّ بنفسه ، فإنك لا تدرى أيها المتعدِّى عاقبةَ الأمر .

لعلَّ الله يُحدث فى قلبك بعد ذلك الذى فعلت من التعدِّى أمراً يقتضى خلاف ما فعلته فيبدل ببغضها محبة ، وبالإعراض عنها إقبالاً إليها ويتسنّى تلافيه

رجعةً أو استئناف نكاح .

وهذه الآية مثل قوله تعالى : ﴿ وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ .. (١٥) ﴾ [النساء] ثم قال : ﴿ أَوْ يَجْعَلَ اللهُ لَهُنَّ سَبِيلا (١٥) ﴾ [النساء]

فالسبيل هنا هو المخرج الذى يخرُجْنَ به من الحبس فى البيوت ، وهو الجَلْد أو الرجم ، أى توقيع عقوبة عليهن يتطهرن بها إنْ أخلصْنَ قلباً وقالباً .

ذلك أن الحق سبحانه يقول : ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ .. (٧٨) ﴾ [الحج] ويقول ﴿ مَا يُرِيدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ .. (٦) ﴾ [المائدة]

فالله ما اجتباكم ليُعنتكم أو ليُضيق عليكم ، أو ليعسِّر عليكم الأمور ، إنما جعل الأمرَ كله يُسْراً وشرعه على قدر الاستطاعة ، ورخَّص لكم ما يُخفِّف عنكم، ويُذهب عنكم الحرج والضيق .

فالله يُحدث من الأمور ما يُخفِّف ويرأب الصدع ليحيا المجتمع سليماً مُعافى.

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢) ﴾

قوله سبحانه : ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ .. (٢) ﴾ [الطلاق] فالبلوغ يأتى بمعنيين ، فمرَّة

يُطلق البلوغ على القرب ، ومرة أخرى يُطلق على البلوغ الحقيقى الفعلى، فمثال مقاربة الشيء يقول تعالى : ﴿ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ .. (٦) ﴾ [المائدة] أى : إذا قاربتم القيام إلى الصلاة فافعلوا كذا من أفعال الوضوء والاستعداد للصلاة ، أما البلوغ الحقيقى فمثاله عندما يصل الطيار بالطائرة إلى محطة الوصول فتجده يعلن أنه وصل إلى البلد الفلانى .

وهنا طلَّق الرجل زوجته لكن عدَّتها لم تنته بل قاربتْ على الانتهاء ، فربما يمكنه أنْ يُسرِّحها أو يُمسكها بإحسان ، وأصبح للزوج قدر من زمن العدة يبيح له أنْ يُمسك أو يُسرّح لكنه زمنٌ قليل .

إن الحق سبحانه يريد أنْ يتمسَّك الزوج بالإبقاء على زوجته إلى آخر لحظة ويستبقى أسباب الالتقاء وعدم الانفصال حتى آخر لحظة .

وهذه علَّة التعبير بقوله تعالى : ﴿ بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ .. (٢) ﴾ [الطلاق] أى : قاربْنَ بلوغ الأجل، إن الحق سبحانه يريدنا أنْ نتمسك باستبقاء الحياة الزوجية إلى آخر فرصة تتسع للإمساك ، فهى لحظة قد ينطق فيها الرجلُ بكلمة يترتب عليها إما طلاق، وإما عودة الحياة الزوجية .

أما قوله فى الآية الأخرى ﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ .. (٢٣٢) ﴾ [البقرة]

﴿ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ .. (٢٣٢) ﴾ [البقرة] هنا معناه إذا انتهت العدة ولم يَعُد للزوج حَقٌّ فى أنْ يراجعها إلا بعد عقد ومهر جديدين ، وهَبْ أن الزوج أراد أنْ يعيد زوجته إلى عصمته مرة أخرى ، وهنا يتدخّل أهل اللدد والخصومة من الأقارب ويقفون فى وجه إتمام الزواج .

ونقول لهؤلاء : ما دام الزوجان قد تراضيا على العودة فلا يصح أنْ يقف أحدٌ فى طريق عودة الأمور إلى ما كانت عليه .

فبلوغ الأجل فى سورة الطلاق معناه أن عدة المرأة لم تَنْتَه بعد ، بل قاربتْ على الانتهاء وإلا لم يكُن هناك معنى لقوله : ﴿ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ .. (٢) ﴾ [الطلاق]

أما بلوغ الأجل فى سورة البقرة فهو انتهاء عدة المرأة فعلياً ، ومثله قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٣٤) ﴾ [البقرة]

فهنا قوله ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ .. (٢٣٤) ﴾ [البقرة] أى انتهت عدَّتها ، وهى هنا عدَّة المرأة الأرملة التى تُوفِّى زوجها وعدَّتها أربعة أشهر وعشراً ، لذلك قال تعالى: ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ .. (٢٣٤) ﴾ [البقرة]

والمقصود هنا أنْ تتزوج زواجاً جديداً بعد انقضاء عدتها ، وهى لا تستطيع هذا إلا إذا انتهت عِدَّتها وانقضتْ .

أما الأجل المقصود فى العدة التى حددها الحق سبحانه للمطلَّقة بثلاثة قروء ﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ .. (٢٢٨) ﴾ [البقرة]

فهو هنا ليس أجلاً مُحدداً بزمن ، وإلا لكان الأجل هو الزمن نفسه ، إنما الأجل هنا محدد بحدث يحدث ، وهو الثلاثة قروء أى الثلاثة طهورات من دم الحيض ، وقد يتأخر الطُّهر من الحيض فيتأخر الأجل المضروب للمرأة لاستيفاء عِدَّتها .

وهذا الأجل للمطلَّقة التى تحيض ، أما التى يئستْ من المحيض أو لم تحِضْ من الأساس فأجلُها هو نفسه الزمن ، فلا تعلق عدَّتها على حدث يحدث ، لأن

الحدث أصلاً لن يحدث ، لذلك قال تعالى فى شأنها : ﴿ وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ .. (٤) ﴾ [الطلاق]

فالعدة هنا محددة بزمن وهو ثلاثة أشهر محددة .

ويقول تعالى : ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ .. (٢) ﴾ [الطلاق]وفى آية أخرى يُعبَّر بالمصدر فيقول : ﴿ الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ .. (٢٢٩) ﴾ [البقرة]

﴿ فَأَمْسِكُوهُنَّ .. (٢) ﴾ [الطلاق] هنا معناه راجعوهن بحُسن معاشرة ورغبة فيهن فأمسكوهن برجعة تراجعونهن بها إن أردتم ذلك ، فالزوج أمام خيارين إما الإمساك ومراجعتها إلى عصمة نكاحه والاستمرار بها على ما كانت عليه عنده .

ولكن لا بد أنْ يكون إمساكك بالمعروف ، والمعروف اسم جامع لكل ما عُرف من طاعة الله والتقرب إليه والإحسان إلى الناس وكل ما ندب إليه الشرع، ونهى عنه من المحسِّنات والمقبحات .

والمعروف ما يُستحسن من الأفعال ، والمعروف فى الإمساك النّصفة وحُسن العشرة والصُّحبة فيما للزوجة على زوجها .

والمعروف مقابل للمنكر ، فالأمر الخيِّر متعارف عليه بالسَّجية ، والفطرة وكأنَّ المتعارف عليه دائماً من جنس الجمال ومن جنس الخير ، أما الأمر الذى تُنكره النفس فمن جنس الشر وجنس القبح .

فمن شأن الجمال ومن شأن الحُسْن أنْ يكونَ معروفاً ، وكلمة المعروف تعنى الأمر المتداول عند الناس ، وقد حدَّثنا الحق سبحانه عن المعاشرة بالمعروف، فقال : ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ .. (١٩) ﴾ [النساء]

وهناك فرْق بين الود والمعروف ، فالود يكون عن حُب ، لكن المعروف ليس

ضرورياً أنْ يكون عن حُبٍّ ، فالبيوت لا تُبنى على المودة والحب فقط ، فهل لو لم يكُنْ هناك حُبٌّ ومودة أتخرب البيوت ؟

لا ، بل ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ .. (١٩) ﴾ [النساء] حتى لو لم تحبوهن ، وهذا يُرغِّب الرجل فى إرجاع زوجته إليه واستمرار الحياة معها ، وإنْ كان يكره منها سلوكاً أو خلقاً أو تصرفاً ، فإنه قد يُرجعها حفاظاً على أولادهما ولمحاولة الإصلاح .

فقوله تعالى : ﴿ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ .. (٢) ﴾ [الطلاق] يخفف الضغط النفسى الواقع على الزوج والذى يدفعه إلى عدم إرجاع زوجه إلى عصمته لأنه لم يَعُدْ يحبها ، فلا تنسَ أنّ المطلوب منك أنْ تعاملها بمعروف لا بالحب والود، وهذا تدرج مع الزواج ، فقد يبدأ الأمر بالمعاملة بالمعروف ، ثم ينقلب إلى وُدٍّ وحب .

فالإمساك بالمعروف هو القيام بما يجب لها من حَقٍّ على زوجها ، ولذلك قال بعض العلماء : من الإمساك بالمعروف أنَّ الزوج إذا لم يجد ما ينفق على الزوجة أنْ يُطلقها ، فإنْ لم يفعل خرج عن المعروف .

﴿ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ .. (٢) ﴾ [الطلاق] أى : فراجعهون بما أمركم الله به من الحقوق التى أوجبها الله لهنَّ من النفقة والكسوة والمسكن وحُسْن الصحبة.

وكلمة ﴿ فَأَمْسِكُوهُنَّ .. (٢) ﴾ [الطلاق] تعطى معنى الضنِّ بالشيء وعدم التفريط فيه ، فكأن الحق سبحانه يقول للمطلق : لا تفرط فى زوجتك لعلّ الله يجعل فيها خيراً ، ولعلَّ الأمور تنصلح فيما بينكم .

ومثل هذا قوله تعالى على لسان نبيه محمد ﷺ لزيد[1] : ﴿ أَمْسِكْ عَلَيْكَ

---

(١) هو زيد بن حارثة بن شراحيل بن عبد العزى ، شاعر وصحابى من بنى كلب وأمه من طيء ، أسره بنو القين فى غارة على طيء وباعوه بمكة فاشترته خديجة بنت خويلد التى وهبته للنبى ﷺ فتبناه ثم نزل تحريم التبنى بخصوصه ، ونزل فيه آية من القرآن فى تزويجه لزينب بنت جحش ﴿ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا (٣٧) ﴾ [الأحزاب] توفى عام ٨ هجرية .

زَوْجَكَ .. (٣٧) ﴾ [الأحزاب] ، وذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ .. (٣٧) ﴾ [الأحزاب]

ومن الإمساك بالمعروف أنْ لا تُمسكها ضراراً ، قال تعالى فى سورة البقرة: ﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا .. (٢٣١) ﴾ [البقرة]

فلا تُبْق أيها الرجل على الحياة الزوجية من أجل الإضرار بالمرأة وإذلالها، فالضِّرار فى الزواج أن الرجل يقول : أنا لا أريد طلاقها وسأعيدها لبيتها، يقول ذلك ويُبيِّت فى نفسه أنْ يعيدها ليذلها وينتقم منها ، وذلك لا يُقرّه الإسلام بل وينهى عنه .

ولكن كيف تكون المراجعة ، قال الشافعي[1] : لما لم يكُنْ نكاح ولا طلاق إلا بكلام لم تكُنْ الرجعة إلا بكلام . وقال أبو حنيفة : تصح الرجعة بالوطء . وقال مالك : إن نوى الرجعة بالوطء كانت رجعة وإلا فلا .

والرجعة بالقول كأن يقول : راجعتُ زوجتى ونحوها مثل : رددتها أو أعدتها. والأصل فى الرجْعة هى القول لأنه يصح أنْ يُراجعها قبل طهورها الثالث من حيضتها الثالثة ﴿ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ .. (٢٢٨) ﴾ [البقرة]

وهذا لا يكون بالوطء لأنه لن يطأها فى حيضتها ، فإنها إذا طهرتْ من حيضتها الثالثة دون أنْ يُرجعها تكون مُسرَّحة منه، وتكون قد حدثتْ المفارقة .

---

(١) أورد هذه الأقوال الماوردى فى الحاوى الكبير (١٠/٧٥٩ ، ٧٦٠) واستطرد : ولا تصح الرجعة إلا بكلام من الناطق وبالإشارة من الأخرس ولا تصح بالفعل من الوطء والاستمتاع . أما أبو حنيفة فقال : تصح الرجعة بالقول وبالفعل كالوطء والقبلة حتى لو نظر إليها بشهوة صحت الرجعة . أما الإمام مالك فعلّق الفعل بالنية منه .

أمـا المفارقة فقد قال عنها الحق سبحانه : ﴿ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ .. (٢) ﴾ [الطلاق]ويقول تعالى فى آية أخرى ﴿ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ .. (٢٣١) ﴾ [البقرة]

وذلك يدلُّ على أن المفارقة بين الزوجين إنْ تمت إنما تتم بالجمال أى اللطف والرقَّة والرحمة بدون بشاعة وبدون عنف ، لأن التسريح فى ذاته مفارقة مؤلمة، فلا يجمع الله عليها شدتين : شدة الطلاق وشدة العنف والقسوة .

والتسريح والمفارقة يكون دون مشاحنة ولا خصومة ولا خروج عن حَدِّ الاعتدال ، بل يكون ﴿ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ .. (٢٢٩) ﴾ [البقرة] ولا بد أنْ يكون السراحُ سراحاً جميلاً .

قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا (٤٩) ﴾ [الأحزاب]

وتسريح الزوجة عادة ما يُصاحبه غضب وانفعال ، فينبغى أنْ يكون التسريحُ جميلاً لا عنف فيه ، كأنْ يُطيِّب خاطرها بقوله : هذا قدرنا ، وأرجو أنْ يعوِّض الله عليك بخير منى أو غير ذلك مما يراه مناسباً لتخفيف الخطْب عليها .

ويكفى أنْ تتحمل هى ألم المفارقة ومصيبة الطلاق ، وأيّ جمال فيمَنْ يفارق زوجته بالسّباب والشتائم ويؤذيها بأنْ يمنعها حقاً من حقوقها ؟

ومن التسريح بمعروف إعطاء المرأة حقوقها ، يقول تعالى : ﴿ وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (٢٤١) ﴾ [البقرة] ، ولكل مطلَّقة متعةٌ بالقدر الذى يناله سبحانه .

فإنْ لم تفرضوا لهنَّ فريضة أى مهراً معيناً ، فقال : ﴿ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ .. (٢٣٦) ﴾ [البقرة] ، وإنْ كنتم فرضتم لها مهراً فنصفُ ما فرضتم ، فكأنَّ الله قد جعل لكل حالة حكماً يناسبها .

والحق سبحانه لم يجعل لكلِّ حالة حكماً يناسبها فقط ، بل جعل لكل حالة تعبيراً ولفظاً يناسب هذه الحالة .

فالمرأة التى تُطلَّق من قبل أنْ يمسَّها زوجها أى دون أنْ يجامعها ويعاشرها يقول تعالى عنها : ﴿ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلا (٤٩) ﴾ [الأحزاب] فيذكر الحق سبحانه فى حقها لفظ التسريح ، وهو لفظ يعبر عن المفارقة دون ألم يُذكر فى كلا الجانبين .

فالمرأة التى لم تُمس وتُطلَّق دون مسيس لا يجد الرجل شيئاً فى نفسه إنْ طلقها ، ولا يجد تعلقاً بها ولا رغبة فيها ، لذلك لابد أن يكون تسريحه لها سراحاً جميلاً لأنها لا شك متألمة أشد الألم .

ثم إنها ليست لها عدَّة لأنها طُلِّقت قبل الدخول بها وقبل الخلوة بها خلوة شرعية ، فحقَّ لها أنْ تتزوج فوراً إنْ جاءها مَنْ يخطبها ليُطيِّب خاطرها ، بل تُعطى أيضاً نفقة متعة تعويضاً لها عما أصابها من ألم نفسيٍّ .

أما المرأة المطلَّقة بعد الدخول بها ، فيقول الحق سبحانه عنها : ﴿ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ .. (٢) ﴾ [الطلاق] وكأنَّ الحق سبحانه يُذكِّر الرجل والمرأة معاً بأنه سبحانه جمع بينهما فى رباط الزوجية ، وقال ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ .. (١٨٧) ﴾ [البقرة] ، وقال : ﴿ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ .. (٢١) ﴾ [النساء]

والإفضاء معناه أنكم دخلتم معاً أوسعَ مداخلة ، وحسْبُك من قمة المداخلة أن عورتها التى تسترها عن أبيها وعن أخيها وحتى عن أمها وأختها تُظهرها لك

ولا يوجد إفضاء أكثر من هذا ودخلت معها فى الاتصال الواسع ، أنفاسك ملامستك ، مباشرتك ، معاشرتك ، مدخلك ، مخرجك ، فى حمامك ، فى المطبخ فى كل شيء حدثتْ إفضاءات .

وأنت ما دُمتَ قد أفضيتَ لها ، وهى قد أفضتْ لك فقد حدثتْ المداخلة الشاملة ﴿ هُنّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنّ .. (١٨٧) ﴾ [البقرة] هنا عندما يُطلِّق الرجلُ زوجته بعد أن أفضى بعضهم إلى بعض وتداخلا هكذا ، يقول تعالى : ﴿ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ .. (٢) ﴾ [الطلاق]

فيستخدم الحق سبحانه لفظ التفريق لا التسريح ، وكأن الحق سبحانه يُذكِّره بما كان بينه وبينها من حميم العلاقات ومن حبهما لبعضيهما ، فيستخدم لفظاً شديداً (فارقوهن) كأنه يقول له : تذكَّرْ أنك ستفارق ما أحببته ، وكأنه يحثُّه على مراجعتها .

وإنْ كان لا بدّ من المفارقة فليكُنْ فراقاً لا محذورَ فيه ، من غير تشاتم ولا تخاصم ولا قهر لها على أخْذ شيء من مالها ، بل يُطلِّقها على وجه جميل وسبيل حسن .

ونلاحظ أنَّ الحق سبحانه قد قدَّم الإمساك والمراجعة على المُضيِّ فى المفارقة ، وهذا إشارة إلى أن الإمساك أرضى لله تعالى وأوفق بمقاصد الشريعة، فالمراجعة مندوب إليها لأن أبغض الحلال عند الله الطلاق .

ولا بد أن يكون إمساكاً مأذوناً فيه ، بمعنى أنه إمساك مقيد بأن يكون بالمعروف ليس فيه إضرار .

ومن المفارقة بالمعروف الإشهاد على الرجعة ، فإذا أراد مراجعتها قبل أنْ تنقضى عدّتها أشهد على ذلك رجلين عند الطلاق وعند المراجعة ، فإنْ راجعها فهى عنده على تطليقتين ، وإن لم يراجعها فإذا انقضت عدَّتها فقد بانتْ منه واحدة ، وهى أملَكُ بنفسها ثم تتزوج مَنْ شاءت هو أو غيره .

وكلُّ مَنْ راجع فى العدة فإنه لا يلزمه شيءٌ من أحكام النكاح غير الإشهاد على المراجعة فقط ، فذكر الإشهاد فى المراجعة ولم يذكره فى النكاح ولا فى الطلاق .

وفائدة الإشهاد ألاَّ يقع بينهما التجاحد ، وألاَّ يُتهم فى إمساكها ، ولئلا يموت أحدهما فيدَّعى الباقى ثبوت الزوجية ليرث .

وإنْ سأل أحد : كيف نأتى بذوى العدل ؟ ونقول : انظر إلى عدالتهما فى نفسيهما وَلْنَرَ تصرفات الإنسان هل هى مستقيمة أو لا ؟ وهل هو مسرف أو معتدل سواء فى الطعام أو الغضب ، أو فى أيِّ لون من ألوان السلوك ؟

ومَنْ كان مأموناً على نفسه فهو مأمون على غيره ، ويجب كذلك أنْ يكون من ذوى الخبرة فى هذا الأمر .

وإذا كان الحقُّ قد أمرنا أنْ نختار ذوى العدل للحكم فى رقبة شاة[1] ، فما بالنا برقاب الناس ومصالح الناس ؟

ونحن إذاً مطالبون بأنْ نميز ذوى العدل بين الناس من خلال مراقبة حركة الإنسان مع نفسه وعلى نفسه وعلى أهله ، وعندما نكتشف أنه صار مأموناً على نفسه ، هنا نستطيع أنْ نُوليه أمور غيره بالخدمة العامة ، وذلك حتى لا تخيب الأمة ، فالأمم إنما تخيب باختيارٍ غير مدروس لقيادات المواقع المختلفة فيها .

ومعنى : ﴿ ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ .. (٢) ﴾ [الطلاق] أى اللذان يُرضى دينهما وأمانتهما وعدالتهما ، والعدالة هى الاعتدال فى الأحوال الدينية ، وذلك بأنْ يكون مجتنباً للكبائر محافظاً على مروءته وعلى ترْك الصغائر ، ظاهر الأمانة غير مغفل ، وأنْ يتسم بصفاء السريرة واستقامة السيرة .

وآيات القرآن فى الإشهاد والاستشهاد منها المطلق ومنها المقيد . قال تعالى فى اللاتى يأتين الفاحشة من المسلمات ﴿ وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ

---

(١) وذلك إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ .. (٩٥) ﴾ [المائدة] ..

فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ .. (١٥) ﴾ [النساء] فجاء قيد (منكم) .

وقال تعالى فى شأن المطلَّقات المعتدات : ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَٰلِكُمْ .. (٢) ﴾ [الطلاق] فجاء قيد (منكم) .

أما فى آية التداين فقال : ﴿ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ .. (٢٨٢) ﴾ [البقرة] ثم قال فيها: ﴿ وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ .. (٢٨٢) ﴾ [البقرة]

فلم يقيد الإشهاد أو الاستشهاد بالعدل ولا بـ (منكم) ، أى من المسلمين . وكذلك لم يضع هذين الشرطين .

فالحق سبحانه اشترط فى الاستشهاد أو الإشهاد فى الوقائع المتعلّقة بأمور المؤمنات الشخصية أنْ يكون الإشهادُ من المؤمنين ولم يذكر هذا القيد فى الإشهاد على دفع أموال اليتامى إليهم ، ولا فى الإشهاد على البيع ، والفرق بين الأحكام المالية المحضة وأحكام النساء المؤمنات جليّ واضح .

ولكن مجموع الآيات على أن الأصل أو الكمال فى الإشهاد أن يكون الشهودُ من عدول المؤمنين للثقة بشهادتهم والاحتراز من الكذب والزور والخيانة التى يكثر وقوعها ممَّنْ لا ثقةَ بأيمانهم وعدالتهم .

أما الإشهاد على الأمور الخاصة بنساء المسلمين وبيوتهم إذ لا يحتاج فيها إلى غيرهم وليس من شأن سواهم أنْ يعرفها ولوجوب الاحتياط فيها .

أما قوله تعالى : ﴿ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ .. (٢٨٢) ﴾ [البقرة] ففيه توسعة عظيمة فى الإشهاد ، فكثيرٌ من الجنايات والعقود والإقرار قد تقع من بعض المسلمين على مرأىً ومسمع من غيرهم ، وقد يكون هؤلاء الذين سمعوا ورأوا من أهل الصدق والأمانة ، لأن دينهم يحرم الكذب والخيانة .

وليس كلّ أحد صالحاً للشهادة ،ولقبول شهادة أحد هناك شرائط عشرة ، وهو أن يكون حُراً بالغاً مسلماً عدلاً عالماً بما شهد به ، ولم يجرّ بتلك الشهادة منفعة إلى نفسه ، ولا يدفع بها مضرَّة عن نفسه ، ولا يكون معروفاً بكثرة الغلط ، ولا بترك المروءة ، ولا يكون بينه وبين مَنْ يشهد عليه عداوة .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لله .. (٢) ﴾ [الطلاق] فإذا شهدتم على شيء فأقيموه ، ومن إقامة الشهادة أنْ لا تشهد إلا على مثل الشمس أو دَعْ[1] ، فلا تشهد على شهادة حتى تكون الشهادةُ عندك أضوأ من الشمس .

ومن إقامتها أنْ تشهد بها تقرّباً إلى الله فى إقامتها على وجهها إذا مسَّتْ الحاجة إليها من غير تبديل ، ولا تغيير ولا كتمان .

وليكُنْ أداؤها ابتغاءَ وجه الله فحينئذ تكون صحيحة عادلة حقاً ، وقد قال تعالى عن القائمين بشهاداتهم ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ (٣٣) ﴾ [المعارج]، ثم قال ﴿ أُولَـٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ (٣٥) ﴾ [المعارج]

وهم الذين لا يشهدون إلا بما يعلمونه ، ولا يُحابى فيها قريباً ولا صديقاً ولا نفسه ، رفيعاً كان أو وضيعاً ، ولا يكتمونها ولا يُغيرونها .

ويقول تعالى : ﴿ وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا .. (٢٨٢) ﴾ [البقرة] ، فما دُمتَ قد دُعيتَ للشهادة فلا يسعْكَ إلا المبادرة إلى الشهادة ، أما إذا لم تُدْعَ إلى الشهادة فالشهادة حينها على ثلاثة أقسام :

– حقوق الناس ، فلا يجوز أداء الشهادة حتى يدعوه صاحب الحق إلى ذلك.

– حقوق الله ، التى يُستدام فيها التحريم كالطلاق والعتق ، فيجب أداء

(١) عن ابن عباس قال : سئل النبى ﷺ عن الشهادة . قال : هل ترى الشمس ؟ قال : نعم . قال : على مثلها فاشهد أو دع . أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان (١٠٤٦٩) ومحمد بن يحى المزكى النيسابورى فى المزكيات (٢١) وأورده المتقى الهندى فى كنز العمال (١٧٧٨٢) وأورده الحافظ ابن حجر العسقلانى فى بلوغ المرام (١٤٠٥) ، وقال : أخرجه ابن عدى بإسناد ضعيف وصححه الحاكم فأخطأ .

الشهادة بذلك دُعِى أو لم يُدْعَ .

– حقوق الله التى لا يُستدام فيها التحريم كالحدود ، فهذا ينبغى سَتْره حتى يُدعَى إليها .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢) ﴾ [الطلاق]

قوله ﴿ ذَٰلِكُمْ .. (٢) ﴾ [الطلاق] ذا وحدها للإشارة و « الكاف » للخطاب، والخطاب إذا أُفرد فالمراد به خطاب الله لرسوله ، والمؤمنون فى طى ذلك الخطاب ، فيقول (ذلك) .

ومرة يقول ﴿ ذَٰلِكُمْ .. (٢) ﴾ [الطلاق] أى : أنه سبحانه يخاطبنا نحن ، والميم للجمع . مثل ﴿ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٩) ﴾ [الجمعة]

واللام للبُعد والميم للجمع . فحين يريد الحق أنْ يخاطب رسوله يقول : ﴿ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ .. (٢) ﴾ [البقرة] ، ولكنه هنا يخاطبنا فيقول ﴿ ذَٰلِكُمْ .. (٢) ﴾ [الطلاق] إشارة إلى كل ما سبق من أحكام الطلاق والعدَّة وإحصائها وعدم إخراج المعتدَّة من بيت الزوجية حتى تنقضى عِدَّتها .

وكذلك عدم تعدِّى الحدود التى حدَّها الله بأنْ لا يخرجْنَ إلاَّ أنْ يأتينَ بفاحشة مبيِّنة .

ومما يشير الله سبحانه إليه هو الإمساك بالمعروف إنْ وفَّقه الله لأنْ يمسك زوجته قبل انتهاء عِدّتها ، وليكُنْ هذا بالمعروف والإحسان دون قهر أو إذلال أو قصد الإضرار بها .

حتى إنْ عزما الفراق فليكُنْ هذا بالمعروف دون شَتْم أو أكل حَقٍّ لها عندك، ولا بد أنْ تشهد ذوى عدل من المسلمين على الطلاق وعلى الرجعة ليكون هذا

رادعاً لكلا الطرفين من التلاعب أو ادعاء غير الحقيقة .

ومما يُوعظون به إقامة الشهادة لله ، فيقول تعالى : ﴿ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لله .. (٢) ﴾ [الطلاق] ومعنى (أقيموا الشهادة) أى : أدّوها على الوجه الأكمل وأدوها على ما أحبّ منكم فى أدائها .

وإقامة الشيء أداؤه على الوجه الأكمل الذى يُؤدِّى غايته ، فالشهادة المطلوبة هى الشهادة المستوفاة الشروط والتى تقيمها كما يريدها مَنْ شرعها .

ومعنى إقامة الشهادة لله أنْ تجعل وجهتك لربك وحدك ، ولا تلتفت عنه يميناً ولا شمالاً .

ويقول تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ(١) بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لله وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ الله كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (١٣٥) ﴾ [النساء]

واللى هو التحريف أى تُحرِّفوا الشهادة وتُغيِّروها فإنَّ الله بما تعملون خبير، أو أن يُعرض الشخص عن أداء الشهادة لأنه يخاف من المشهود عليه ، لأن الشهادة ترجِّح حكم المشهود له ، لهذا فهو يُعرض عن الشهادة .

وإنْ جاء للشهادة فهو يلف الكلمات ويلوى لسانه بها ، لذلك قيل : الذى يُفسد العدل هو الهوى ، والهوى عمل القلب ، لذلك نحتاج إلى خبرة الخبير اللطيف .

وقد قال تعالى أيضاً : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لله شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ(٢) شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا الله إِنَّ الله

---

(١) القوّام : مبالغة من قائم . والقسط : العدل . قال ابن عباس : كونوا قوّالين بالعدل فى الشهادة على من كانت ولو على أنفسكم . [زاد المسير لابن الجوزى] .

(٢) لا يجرمنكم : لا يحملنكم . أو لا يدخلنكم الجرم . (شنآن) : بُغض قوم . [زاد المسير] قال الشوكانى فى فتح القدير : لا يحملنكم بغض قوم على الاعتداء عليهم .

خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (٨) ﴾ [المائدة]

فتدليس الشهادة يقود إلى خراب المجتمعات ، ولو أن المجتمع حينما يرى أن شهادة أفراده هى شهادة بالقسط وشهادة بالعدل ، فإن كلَّ فرد فى المجتمع إذا همَّ بظلم يرتدع قبل أنْ يفعل الظلم .

والمؤمن مطالب بالقيام لله بإصلاح ذاته ، ومطالب ثانياً أنْ يشهد بالقسط والعدل لإصلاح غيره .

والهدف هو أنْ تأتى الشهادة على الوجه الصحيح لها ، والشهادة تُطلق على أى أمر نحضره ، والشهادة تطلق على متلازمات متعددة يجمعها كلها « الحضور » كقوله تعالى : ﴿ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ[1] يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧) لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ .. (٢٨) ﴾ [الحج]

وما دام الشاهدُ صادقاً فلن يخشى محاورة أى طرف يسأله ، وما دامت الواقعة صادقة تظل كما هى مهما تنوعتْ الأسئلة وتغيرتْ الأساليب ، فالشاهد الصادق يستوحى واقعاً لا يتغير ، أما الشاهد الكاذب فهو يلفّ ويدور ويُغيِّر من أقواله .

والشهادة هى الفيصل من التنازع ، ولذلك يُوصى النبى ﷺ ألاَّ يشهد الرجل على أمر إلا بعد أنْ يكون قد رآه رأى العين كما يرى الشمس « على مثلها فاشهد أو دَعْ » .

والشهادة تتطلب أمرين : الأول هو حضور الشاهد لحظة وقوع المشهود به. والثانى هو أمانة النقل .

---

(١) ضامر : بعير أو فرس مهزول من بُعْد الشُّقة . فهى جمال هزيلة قد هزلت من طول السفر ، وقد ضمر جنباه من كثرة ما سيق إلى البيت أى اشتد عليه الحمل والركوب والسير إلى أن وصل إلى البيت العتيق فضمر جنب الدابة فسُمى ضامراً .

وقال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَا .. (١٠٨) ﴾ [المائدة] والشاهد والشهيد هو الذى يُرجح حكم الحق ، فإذا ظهر أمر من الأمور فى حياتنا الدنيا الذى نحتاج إلى حكم فيها ، فنحن نرفع الأمر الذى فيه خلاف إلى القاضى فيقول : هاتوا الشهود .

ويستجوب القاضى الشهود ليحكم فى ضوء الشهادة .

وإقامة الشهادة تعنى أيضاً أنْ تكون الغاية النهائية فى الشهادة وفى كل عمل هى ابتغاء مرضاة الله سبحانه ، فاقصد فى كل شهادة تشهدها وجه الله.

﴿ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ .. (٢) ﴾ [الطلاق] فهذا تشريع ربكم ، وهو موعظة لكم يا مَنْ تؤمنون بالله رباً حكيماً مشرعاً وعالماً بنوازع الخير والشر فى نفوس البشر .

والموعظة تعنى ألاَّ تُنشيء حكماً للسامع ، بل تعظه بتنفيذ ما عُلم له من قبل ، ولذلك يُقال : واعظ وهو الذى لا يُنشيء مسائل جديدة ، بل يعرف أن المستمع يعلم أركان الدين ويعظه بما يعلم .

ولأنها موعظة قادمة من ربكم فلا بدَّ من الالتفات والانتباه ، وهى من كمالات التربية ، فالموعظة نوع من التربية جاءت من ربكم الأمين عليكم، فالموعظة هنا تأتى ممَّنْ يعطى ولا ينتظر منك شيئاً ، فهو سبحانه مُنزَّه عن الغرض لأنه لن ينال شيئاً منك ، فأنت لا تقدر على شيء مع قدرته سبحانه .

والموعظة بالمنهج تخصُّ العقلاء الراشدين لأن حركة العاقل الراشد تمرُّ على عقله أولاً ويختار بين البدائل ، أما حركة المجنون فهى غير مرتَّبة ولا منسَّقة ولا تمر على عقله لأن عقله مختلّ الإدراك ، وفاقدٌ القدرة على الاختيار بين البدائل .

والعاقل الراشد هو الذى يُوعظ بما يُقال له ويُوعظ به ، فلا يُعرض عن الموعظة ، ولا يبعد عن منهج الله وشرعه الذى شرعه فى علاقاته الاجتماعية مع زوجه وطليقته .

﴿ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ .. (٢) ﴾ [الطلاق] فمَنْ يؤمن بالله يعرف أن للإيمان مطلوباً ووراءه مسئولية عملية ، وأن من مقتضى الإيمان بالله أنْ تعمل بمراده وتأخذ بمنهجه .

فحين تدخل إلى الإيمان مختاراً يجب أنْ تلتزم بعهد الإيمان ، وأول شيء استؤمنتَ عليه عهد الإيمان بالله الذى أخذه الله عليك ، وما دُمت قد آمنتَ بالإله فعليك أنْ تُنفِّذ أوامره .

والحق سبحانه بدأ هنا ببداية الإيمان وهو الإيمان بالله ، ثم يأتى بعد ذلك بنهاية الإيمان وهو ضرورة الإيمان بـ (اليوم الآخر) ، فبداية القوس هو الإيمان بالله ، وطرفه الأخير الإيمان باليوم الآخر .

والإيمان باليوم الآخر يأتى بأنْ تؤمن بالله ثم تؤمن بما يخبرك به الله ، فالإيمان بالله أولاً ، وبعد ذلك الإيمان بما أخبرنى به الله .

فهذا الذى أمرناكم به من الإشهاد وإقامة الشهادة إنما يأتمر به مَنْ يؤمن بالله وأنه شرع هذا ، ومَنْ يخاف عقاب الله فى الدار الآخرة .

فإنَّ مَنْ يؤمن بالله واليوم الآخر يتعظ بمواعظ الله ويُقدِّم لآخرته من الأعمال الصالحة ما استطاعه بخلاف مَنْ ترحل الإيمان عن قلبه فإنه لا يبالى بما أقدم عليه من الشر .

وخَصَّ الله تعالى المؤمن بالله واليوم الآخر لأنه المنتفع بذلك دون غيره ، فالوعظ التحذير مما يضرّ والتذكير المُلين للقلوب ، وقد قال تعالى فى سورة البقرة : ﴿ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ

وَأَطْهَرُ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٢٣٢) ﴾ [البقرة]

والحق سبحانه هنا يقول ﴿ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِ .. (٢٣٢) ﴾ [البقرة] بالإفراد فى (ذلك) ، أما فى سورة الطلاق ﴿ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ .. (٢) ﴾ [الطلاق] بالجمع فى (ذلكم) .

ففى سورة البقرة يخاطب شخصاً واحداً أو صنفاً واحداً ، وهو الذى يعضل المطلَّقة التى بانت من زوجها بينونةً صغرى بأن انقضت عِدَّتها ، فهو يعضلها أنْ تعود زوجة مرة أخرى لزوجها الأول بعقد جديد ومهر جديد .

أما فى سورة الطلاق فالحق سبحانه يخاطب متعددين بأوامرَ ونواهٍ مختلفة، يخاطب المطلّق بأنْ يُطلِّق المرأة لعدَّتها ، وأنْ يُحصى العدة ، وأنْ لا يُخرجها من بيتها ويخاطب المطلَّقة بأنْ تُحصى عِدَّتها ، وأنْ لا تخرج من بيتها .

يخاطب مَنْ يريد أنْ يراجع امرأته فى عِدَّتها أنْ يُمسكها بالمعروف أو يُفارقها بالمعروف ، ويخاطبه كذلك بأنْ يشهد ذوى عدلٍ منكم على رجعته، ويخاطب الشهود أنْ يقيموا الشهادة لله ، ثم قال :﴿ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ .. (٢) ﴾ [الطلاق]

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢) ﴾ [الطلاق]

ولكل آية من آيات القرآن مقام ومنزلة ومكانة ، منها هذه الآية التى جاءت فى سياق الكلام عن أحكام الطلاق والعدَّة وسُكْنى المطلَّقة وعدم إخراجها ، ولكنها آية عامة تعم كل مَنْ كان فى ضيق وهمٍّ وكرب .

لذلك قال رسول الله ﷺ[1] : « إنى لأعلم آية لو أخذ بها الناس لكفتهم ﴿ وَمَنْ

---

(١) أخرجه ابن ماجه فى سننه (٤٢٢٠) والنسائى فى سننه الكبرى (١١٥٣٩) والحاكم فى مستدركه (٣٨١٩) وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، والدارمى فى مسنده (٢٧٦٧) وأحمد فى مسنده (٢١٥٩١) وزاد فيه : فجعل يتلو بها ويرددها عليَّ حتى نعستُ .

يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢) ﴾ [الطلاق]

فهى كافية لعباد الله عن اللجوء أو التذلل لغيره ، لأنها آية تفتح باب الأمل لكلِّ مهموم وحزين ، أو مَنْ ضاقت عليه الدنيا .

ويقول تعالى مخاطباً مَنْ آمن به : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا .. (٢٩) ﴾ [الأنفال] . وفرقاناً هنا هى المخرج الذى يجعله الله لمن اتقاه، وهو أيضاً النجاة ، وهو أيضاً النصر ، وهو الهدى فى قلوب المتقين .

فالتقوى تُنجى المؤمن وتنصره على ذاته وعلى قلقه على ما هو فيه وعلى رزقه ، فأنت عندما تتقى الله فهو سبحانه يجعل لك مخرجاً ، وعليك أنْ تترك كلَّ عمل فيه معصية لله ، وانظر إلى يد الله الممدودة لك بخيره .

وهذه مسألة تحدث لمن يتقى الله ، فما دام يأخذ بالأسباب ويتقى الله فسوف يجد فى لحظة من لحظات الكرب أنَّ الفرج قد جاء من حيث لا يحتسب، لأن الله هو الرصيد النهائى للمؤمن .

فإذا فقدتَ الأسباب وضاقتْ بك الحيل لم يبْقَ لك إلاَّ أنْ تلجأ إلى المسبِّب سبحانه ، فمَنْ ضاقت به أسبابه فى حياته فليلجأ إلى الله فإنه لن يجد مخرجاً إلا عنده .

ومخرجه أنه يعلم أنه قَبل أمر الله ، وأن الله هو الذى يعطيه ، وهو يمنعه ، وهو يبتليه ، وهو يعافيه ، وهو يدفع عنه .

وقد ذكر عبادة بن الصامت[1] أن بعض آبائه طلَّق امرأته ألفاً فانطلق بنوه إلى رسول الله ﷺ ، فقالوا : يا رسول الله إن أبانا طلَّق أمنا ألفاً فهل له من

(١) عبادة بن الصامت بن قيس الأنصارى الخزرجى أبو الوليد صحابى من الموصوفين بالورع وُلد عام ٣٨ ق. هـ شهد العقبة وكان أحد النقباء وبدراً وسائر المشاهد ثم حضر فتح مصر . وهو أول من ولى القضاء بفلسطين ومات بالرملة أو ببيت المقدس عام ٣٤ هـ عن ٧٢ عاماً [الأعلام للزركلى ٣/٢٥٨] وكان أسود يفوق طوله المترين .

مخرج؟ فقال : إن أباكم لم يتق الله فيجعل له من أمره مخرجاً ، بانتْ منه بثلاث على غير السُّنة ، والباقى إثم فى عنقه[١] .

وقد سأل رجلٌ ابنَ عباسٍ رضى الله عنهما عن أنه طلَّق امرأته مائة ، فقال له ابن عباس[٢] : عصيتَ ربك ، وبانتْ منك امرأتُك ، ولم تتق الله فيجعل لك مخرجاً . وقرأ هذه الآية ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢) ﴾ [الطلاق]

فمَنْ يخفِ الله فيعمل بما أمره به ويجتنب ما نهاه عنه يجعل له من أمره مخرجاً ، فالمطلق إذا طلَّق جعل الله له عدَّة المرأة مخرجاً للمراجعة ، وحتى إذا انقضتْ عدّتها دون أنْ يراجعها ثم طلبتها نفسه وأرادها جعل الله له مخرجاً بأنْ جعل له السبيل إلى خطبتها ونكاحها .

أما إذا طلَّقها ثلاثاً فلم يكُنْ له إلى ذلك سبيل .

فمَنْ يتق الله يجعل له من أمره يُسْراً . قال : يعنى بالمخرج واليُسْر ما قلناه من أنه إذا طلَّق طلقة واحدة ثم سكت عنها ، فإنْ شاء راجعها بشهادة رجلين عدلين ، وإنْ مضتْ عدَّتها ولم يراجعها كان خاطباً من الخُطّاب .

فالتقوى هنا مع إيمانه بالله واليوم الآخر تجعله يخاف من الله أنْ يتخذ الطلاق لعبةً فيُطلِّق امرأته طلقةً عند كلِّ حيضة فقد أخطأ السنة وعصى الرب وأخذ بالعُسْر ، فمن أين له بالمخرج ؟

فمَنْ يتق الله بامتثال أوامره واجتناب نواهيه يجعل له مخرجاً من المعصية إلى الطاعة ، ويُقال : من الحرام والشبهات إلى الحلال . وقيل : يجعل له مخرجاً من شبهات الدنيا ومن غمرات الدنيا ومن شدائد يوم القيامة .

---

(١) أخرجه الدارقطنى فى سننه (٣٩٤٣) من حديث عبادة . قال الدارقطنى : رواته مجهولون وضعفاء كلهم إلا شيخنا (أبو محمد بن صاعد) وابن عبد الباقى . وقد أورده الهيثمى فى مجمع الزوائد (٧٧٧٢) ، وفيه أن رسول الله ﷺ قال لعبادة : « أما اتقى الله جدك ، أما ثلاثة فله ، وأما تسعمائة وسبعة وتسعون فعدوان وظلم ، إن شاء عذبه ، وإن شاء غفر له».

(٢) أخرجه البيهقى فى سننه الكبرى (١٥٣٧٣) وسعيد بن منصور فى سننه (١٠٦٤) والطبرانى فى المعجم الكبير (١٠٩٩٤) من حديث ابن عباس .

فاحذر من مخالفة منهج الله سبحانه ، لأن المخالفة تنافى التقوى ، فالتقوى هى أنْ تتقى معضلات الحياة ومشكلاتها بأنْ تلتزم منهج الله ، وساعة ترى منهجَ الله وتطبقه فأنت اتقيت المشكلات .

أما مَنْ يُعرض عن تقوى الله فإنَّ الله يقول عن مصيره ﴿ فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا .. (١٢٤) ﴾ [طه]

ولا يظن أحدٌ أن التقوى هى اتقاء النار ، لا إنها أعم من ذلك ، إنها اتقاء المشكلات والمخاطر التى تنشأ من مخالفة منهج الله .

فالذى يجعل الحياةَ مليئة بالمشاكل هو أننا نأخذ بالقوانين التى نسُنّها لأنفسنا ونعمل بها ، ولكن إذا أخذنا تقنين الله لنا فمعنى ذلك أننا نتقى المشاكل .

لذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا .. (١٢٤) ﴾ [طه] أى أن حياته تمتليء بالهموم والمشاكل لأنه يخالف منهج الله، أما المتبع للمنهج فإنه يأخذ نفعه ساعة تأدية هذا المنهج .

والضَّنك هو الضيق الشديد الذى تحاول أنْ تفلت منه هنا أو هناك فلا تستطيع ، والمعيشة الضنك هذه تصيب مَنْ أعرض عن الله ، لأن مَنْ آمن بالله إن عزَّتْ عليه الأسباب لا تضيق به الحياة أبداً ، لأنه يعلم أن له رباً يُخرجه مما هو فيه .

أما غير المؤمن فحينما تضيق به الأسباب وتُعجزه لا يجد مَنْ يلجأ إليه فينتحر ، وليس الضنك والضيق هو الفقر والحاجة فقط ، إنما له صور أخرى، فهناك مجتمعات راقية مادية ومعيشياً طعاماً وشراباً وترفاً ، ففى السويد -مثلاً- أعلى نسبة انتحار ، وأعلى نسبة شذوذ رغم أنها أعلى دول العالم دخلاً.

فلا تقيسوا مستوى التحضر بالماديات فحسب ، إنما خُذْ فى حسبانك كلَّ

النواحى الأخرى ، فمن أتقن النواحى المادية الدنيوية أخذها وترف بها فى الدنيا ، أما الصلاح الدينى والخلقى والقيمى فهو سبيلٌ لترف الدنيا ونعيم الآخرة .

وهذه الآية ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ .. (٣) ﴾ [الطلاق] البعض أخذها على أنها آيةٌ عامة فى كلّ أمر يصيبك بالضيق، وتحتاج فيه للخروج منه إلى مخرج ، ولم يُخصِّصها بأمر الطلاق .

فعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : جاء عوف بن مالك الأشجعى إلى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله إن ابنى أسره العدو وجزعتْ الأم ، فما تأمرنى؟ قال : اتقِّ الله واصبر . وآمرك وإياها أنْ تستكثر من قول : لا حوْلَ ولا قوة إلا بالله .

فانصرف إليها وقالت : ما قال لك النبى ﷺ ؟ قال : أمرنى وإياك أنْ نستكثر من قول : لا حول ولا قوة إلا بالله . قالت : نعْم ما أمرك به ، فجعلا يقولان ، فغفل عنه العدو فسَاقَ غنمهم فجاء بها إلى أبيه وهى أربعة آلاف شاة .

فنزلتْ ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ .. (٣) ﴾ [الطلاق] ما ساق من الغنيمة[١].

ويُحكى أنَّ رجلاً أتى عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال : ولِّنى ما ولاَّك الله . قال : أتقرأ القرآن ؟ قال : لا . فقال : إنَّا لا نُولى مَنْ لا يقرأ القرآن . فانصرف الرجل واجتهد فى تعلّم القرآن رجاء أنْ يعود إلى عمر فيولّيه عملاً .

فلما تعلّم القرآن تخلَّف عن عمر ، فرآه ذات يوم فقال : يا هذا هجرتنا . فقال: يا أمير المؤمنين لستَ ممَّنْ يُهْجَر ، ولكنى تعلمتُ القرآن فأغنانى الله

---

(١) رواه الثعلبى فى تفسيره بسنده إلى الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس . أورده الزيلعى فى تخريج أحاديث الكشاف (٤/٥٢) .

تعالى عن عمر وعن باب عمر[١].

فقال : أيّ آية أغنتْكَ ؟ فقال : قول الله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ .. (٣) ﴾ [الطلاق]

والله تعالى جعل للتقىِّ مخرجاً من كلِّ ما يضيق عليه ، ومَنْ لا يتقى يقع فى كلِّ شدة .

فمَنْ يلتزم حدود الله ويراقب ربَّه ويخشى سلطانه يجعل له مخرجاً مما هو فيه من معاناة وضيق ، فإذا اتقى الله ولزم حدوده اختار له الله سبحانه الطريق المستقيم ، الذى يتبدَّل فيه حاله من ضيق إلى سعة ، ومن همٍّ إلى فرج، سواء كان ذلك بإمساك الزوجة أو فراقها ، أو فى أى أمر من أمور الحياة يعرض له .

فالتقوى هى المخرج من الشدائد ، والتقوى ظاهر وباطن ، فالظاهر ما يحل بظاهر البدن ، وهو المحافظة على حدود الله تعالى فلا يتجاوز شيئاً منها ما استطاع ، وإذا أُكره يبادر حالاً للاستغفار والرجوع .

والباطن ما يحلّ بباطنه من الإخلاص فى العمل وحُسْن النية ، وقد اتفقتْ الأمة على فضلها ولزوم التحلى بها وعدم مرافقة غير أهلها ، فالذى يريد أنْ يحيا حياةً طيبة فعليه أنْ يقضى حياته مع المتقين كى يكون حَيَّ القلب ، دائمَ اليقظة ، بعيداً عن الغفلة .

والتقوى تُورث خشية الله ، وخشية الله تمنع صاحبها من كلِّ سوء .

وقد ضمن الله للمتقين أنْ يجعل لهم مخرجاً مما يضيق على الناس ، فإذا لم يحصل ذلك دلَّ على أن فى التقوى خللاً فليستغفر الله وليتُبْ إليه .

---

(١) أورده الثعلبى النيسابورى فى الكشف والبيان عن تفسير القرآن (٣٣٨/٩) سورة الطلاق . وكذا أورده شمس الدين الشربينى فى تفسير السراج المنير (٢٢٧/٤) . وكذا البقاعى فى (نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور)(٣١/٨) .

والله يجعل لك من كلِّ ضيق مخرجاً إنِ اتقيته ، والضيق أنْ يتضاءل الشيءُ الواسع أمامك عما كنتَ تُقدِّره ، والضيق يقع للإنسان على درجات فقد تضيق به بلده فينتقل إلى بلد آخر .

وربما ضاقتْ عليه الدنيا كلها ، وفى هذه الحالة يمكن أنْ تسعه نفسه ، فإذا ضاقتْ عليه نفسه فقد بلغ أقصى درجات الضيق ، والذى يضيق بأمرٍ ما ، هو الذى لا يجد فى مجال فكره وبدائله ما يخرج به من هذا الضيق ، إنما الذى يعرف أنَّ له منفذاً ومخرجاً فلا يكون فى ضيق .

ولذلك يقول : لا كرب وأنت رب ، فساعة أنْ تضيق بك الدنيا والأهل والأحباب، وتضيق بك نفسك فليسعك ربك ولتكن فى معيته سبحانه .

لذلك قال تعالى بعد ذلك واصفاً مَنْ ينجون من هذا الضيق ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ (١٢٨) ﴾ [النحل]

فالله فى معية مَنْ اتقاه ، فمَنِ اتقى الله فهو فى جواره ومعيته ، وإذا كنتَ فى معية ربك فكيف يجرؤ عليك ضيق ، والتقوى فى معناها العام طاعة الله باتباع أوامره واجتناب نواهيه .

كذلك مَنْ وقع فى ضيق بسبب مشاكله مع امرأته حتى وصل الأمر إلى الطلاق فإنه إذا كان مُتقياً لله يجعل له الله مخرجاً يُخرجه مما هو فيه ، ويحفظ عليه بيته وزوجه وأولاده ، فمن اتقى الله فى امرأته وأولاده هداه الله إلى طريق يستطيع بها إصلاحهم لا كسْرهم وتشتيتهم .

فالأساس فى أمور الزواج هى التقوى وخشية الله ، وهذا يمنع شروراً كثيرة، وأيضاً مَن احتكمت معه الأمور فاضطر إلى التطليق فليكُنْ الطلاق كما أمر الله، أى لا يكون فى حيضة المرأة بل فى طهرها منه ، وهذا يعطى فرصة للتعقّل وتدبُّر الأمر وتداركه .

وحتى إذا طلَّقها فى طهر فله أنْ يراجعها فى عِدَّتها ، وقد جعل الله الفرصة أكبر بعدم إخراج المرأة المطلقة طلاقاً رجعياً من بيت الزوجية ليكون المجالُ أوسعَ للتراضى والتقارب والهدوء فيراجعها ويرأب الصدع .

حتى مَنْ كان جاهلاً بتحريم طلاق البدعة فلم يعلم أنَّ الطلاق فى الحيض محرَّم أو أنَّ جمع الثلاث محرم ، فهذا إذا عرف التحريم وتاب صار مِمَّنْ اتقى الله فاستحقَّ أنْ يجعل الله له مخرجاً .

والأمر يحتمل معنى آخر ، فمَنْ طلَّق امرأته قد يكون طلَّقها اضطراراً لسبب يعود إليها هى ، ومعه منها أولاد فتضيق به الدنيا هو وأولاده، حينها لا بد أنْ يعلم أن الله سيجعل له مخرجاً بأنْ يُهيء الله له زوجة أخرى تحفظ عليه حياته وتحفظ له أولاده .

وسيرزقه الله حتماً من حيث لا يحتسب ، مصداقاً لقوله تعالى فيما بعد ﴿ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ .. (٣) ﴾ [الطلاق] يرزقه فرجاً ، ويرزقه زوجة، ويرزقه مالاً إنْ كان فقره هو سبب الطلاق ، ويرزقه صحةً إنْ كانت صحته العليلة هى سبب طلاقه لامرأته .

ولكلِّ آية من آيات القرآن مقام ومنزلة ومكانة ، منها هذه الآية التى جاءت فى سياق الكلام عن أحكام الطلاق والعدة وسُكْنى المطلقة وعدم إخراجها ، ولكنها آية عامة تعم كل مَنْ كان فى ضيق وهَمٍّ وكرب .

لذلك قال رسول الله ﷺ : « إنِّى لأعلم آيةً لو أخذ بها الناس لكفتْهم »[١] . فهى كافية لعباد الله عن اللجوء أو التذلّل لغيره ، لأنها آية تفتح باب الأمل لكلِّ مهموم وحزين، أو مَنْ ضاقت عليه الدنيا .

ويقول تعالى مخاطباً مَنْ آمن به : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَلْ لَكُمْ

(١) أخرجه ابن ماجه فى سننه (٤٢٢٠) مختصراً ، وكذا أخرجه النسائى فى السنن الكبرى (١١٥٣٩)، والحاكم فى مستدركه (٣٨١٩) . وأخرجه مطولاً الإمام أحمد فى مسنده (٢١٥٩١) وابن حبان فى صحيحه (٦٦٦٩) .

فُرْقَانًا .. (٢٩) ﴾ [الأنفال] وفرقاناً هنا هو المخرج الذى يجعله الله لمن اتقاه ، وهو أيضاً النجاة ، وهو أيضاً النصر ، وهو الهدى فى قلوب المتقين .

فالتقوى تُنجى المؤمن وتنصره على ذاته وعلى قلقه على ما هو فيه وعلى رزقه ، فمَن اتقى الله والتزم بحدود الله ولم يتعدَّها رزقه الله من حيث لا يحتسب وجعل له مخرجاً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾ ﴾

فأنت عندما تتقى الله فهو سبحانه يجعل لك مخرجاً ، وعليك أنْ تترك كل عمل فيه معصية لله ، وانظر إلى يد الله الممدودة لك بخيره ، ولا تُدخل فى بطنك وبطن مَنْ تعول إلا مالاً من حق ، ومالاً بحركة شريفة نظيفة .

وليكن سند المؤمن دائماً قول الحق سبحانه : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ .. (٣) ﴾ [الطلاق]

ويجب أنْ نفهم أيضاً أن قول الله سبحانه وتعالى ﴿ وَاللهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ .. (٢١٢) ﴾ [البقرة] ينسحب على معنى آخر وهو أنه سبحانه لا يحب أنْ تُقدر أنت رزقك بحساب حركة عملك فقط ، فحساب حركة عملك قد يخطيء.

فعلى الإنسان أنْ يعمل فى الأسباب ، ولكنه لا يأخذ حساباً من الأسباب ويظن أنْ ذلك هو رزقه ، لأن الرزق قد يأتى من طريق لم يدخل فى حسابك ولا فى حساباتك .

وقال الله فى ذلك : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ .. (٣) ﴾ [الطلاق]

وما دام المؤمن قد أخذ بالأسباب فسبحانه يهبه مما فوق الأسباب ، وهذه مسألة تحدث لمَنْ يتقى الله ، أتحدى أنْ يوجد مؤمن ليس فى حياته مثل هذه الأمور ما دام يأخذ بالأسباب ويتقى الله وسوف يجد فى لحظة من لحظات كربه أنَّ الفرج قد جاء من حيث لا يحتسب ، لأن الله هو الرصيد النهائى للمؤمن .

وهَبْ أنك سائر فى الطريق وفى جيبك جنيه واحد ، وليس عندك غيره وضاع منك ، هل تحزن ؟ نعم سوف تحزن ، ولكن إنْ كان فى بيتك عشرة جنيهات فحُزْنك يكون خفيفاً لضياع الجنيه ، ولو كان رصيدك فى البنك ألفاً من الجنيهات فلن تحزن على الجنيه الذى ضاع .

ومَنْ له ربٌّ ويبذل الجهد فى الأخْذ بالأسباب سيجد الحلَّ والفرج من أيّ كرب بما هو فوق الأسباب ، وأنت لا تبحث عن رزقك بقدر ما يبحث هو عنك ، ويقول أهل المعرفة : رزقك أعلم بمكانك منك بمكانه ، يعنى يعرف عنوانك .

أما أنتَ فلا تعرف عنوانه ، بدليل أنك قد تطلب الرزق فى مكان فلا تُرزق منه بشيء ، وقد ترى الزرع زاهياً فى الحقول تأمل فيه المحصول الوفير وتبنى عليه الآمال ، فإذا بعاصفة أو آفة تأتى عليه ، فلا تُرزق منه حتى بما يسدّ الرمق .

والحق سبحانه يرزق مَنْ يشاء بغير حساب ، ولا يظُنّن إنسانٌ أنَّ عمله هو الذى سيرزقه ، إنما يرزقه الله بسبب هذا العمل ، فإن انتقل من عمل باطل إلى عمل آخر حلال فلن يضنّ الله عليه بعمل حق ورزق حلال ليقتات منه .

ولكن ما هو الرزق ؟ الرزق عند القوم هو كل ما يُنتفع به ، فكلُّ شيء تنتفع به هو رزق ، والناس يقصدون كلمة الرزق على شيء واحد يشغل بالهم دائماً وهو المال .

نقول لهم : إن الرزق هو كلُّ ما يُنتفع به ، فكلُّ شيء يكون مجاله الانتفاع يدخل فى الرزق : علمك رزق ، وخلقك رزق ، وجاهك رزق ، وكل شيء تنتفع به هو رزق .

لكن الناس لا يفهمون الرزق إلا على أنه مال ، ولا يفهمون أنه يُطلق على كل شيء ينتفعون به .

والحق سبحانه يقول للمطلق والمطلقة إنْ حاولا كل الوسائل لعدم المفارقة ولكنهما لم يُفلحا ، فيقول تعالى : ﴿ وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللهُ وَاسِعًا حَكِيمًا (١٣٠) ﴾ [النساء]

فسبحانه عنده الفضل الواسع ، وهو القادر على أنْ يرزق الزوجَ زوجةً صالحة تُشبع كلَّ مطالبه ، ويرزق الزوجة زوجاً آخر يُشبع كل احتياجاتها ويقبل دمامتها لو كانت دميمة ، ويجعله الله صاحب عيون ترى نواحى الخير والجمال فيها .

فإياك أنْ تظن أنَّ الله ليس عنده ما يريح كل إنسان ، فسبحانه عنده كل ما يريح كل الناس ، وصيدلية منهج الله مليئة بالأدوية، ومن الحكمة أنه سبحانه لا يُرغم اثنين على أنْ يعيشا معاً وهما كارهان لأنهما افتقدا المودة والرحمة فيما بينهما .

والله واسع عليم ، أى يتسع لكل مُلْكه ، لا يشغله شيء عن شيء ، لذلك عندما سُئل الإمام على كرم الله وجهه : كيف يحاسب الله الناسَ جميعاً فى وقت واحد؟ قال : كما يرزقهم جميعاً فى وقت واحد[1] .

فالله واسعٌ فضله ، بمعنى أنه قادر على إعطاء الفضل لكلِّ الخلق ، ولن ينقص ذلك من فضله شيئاً .

---

(١) سئل الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه : كيف يحاسب الله الخلق على كثرتهم ؟ فقال : كما يرزقهم على كثرتهم [شرح نهج البلاغة للشريف الرضى – طبعة دار الشعب ص ٤٠٤ فقرة ٢٩٨] . وهناك زيادة : " فقيل : كيف يحاسبهم ولا يرونه فقال الإمام على : كما يرزقهم ولا يرونه " .

والـرزق كمـا قلنا هو كل ما يُنتفع بـه ، فالقوة رزقٌ ، والعلم رزقٌ ، والحكمة رزق ، والتواضع رزق ، والزوج رزق ، والزوجة رزق ، وكلُّ ما فيه حركة للحياة رزق .

فـإنْ لم يكُـنْ عندك مـال لتنفق منه فعنـدك عافية تعمل بها لتحصـل على المال ، وتتصـدق منه على العاجز والمريض ، وإنْ كان عندك حلم فإنك تنفقه بأنْ تقى الأحمق من تصرفات قد تؤذى المجتمع وتؤذيك ، وإنْ كان عندك علم فلتنفقه لتُعلِّم الجاهل ولتعمل به أولاً .

والبعض قد يكون رزقه علماً وحكمة فى مواجهة مواقف تحدث فى بيوتنا ومع أزواجنا ، فالأمر يحتاج توفيق الله سبحانه حتى لا يقع فى مأزق مفارقة زوجتـه ، وهـذا لا يكـون إلا باتبـاع منهج الله وشرعـه ، فى التعامـل معها أو إمساكها بالمعروف ، أو حتى مفارقتها بالمعروف .

ولا يظُـنّن أحـدٌ أنَّ مفارقـة الزوج أو الزوجة هو نهايـة الحياة ، بل قد يكون بدايةَ حياة على أسس جديدة .

﴿ مِـنْ حَيْـثُ لَا يَحْتَسِبُ .. (٣) ﴾ [الطـلاق] أى من حيث لا يدرى أو يُؤمِّل أو يرجو ، بل إنَّ الله يسبِّب له أسباب الرزق من حيث لا يشعر ولا يعلم .

حتـى أن بعض العلمـاء قال : إذا اتقى وآثر الحلال والتصـبُّر على أهله فتح الله عليه إنْ كان ذا ضـيقة ، ورزقه من حيث لا يحتسـب ، أى يرزقه من جهة لا تخطر بباله .

وفـى هذا يروى أبو ذر رضـى الله عنـه حواراً دار بينه وبين رسـول الله ﷺ قـال: جعل رسـول الله يتلـو عليَّ هذه الآيـة : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَـهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْـهُ مِـنْ حَيْـثُ لَا يَحْتَسِبُ .. (٣)﴾ [الطلاق] حتى فرغ مـن الآية ، ثم قال : « يا أبا ذر لو أن الناس كلهم أخذوا بها لكفتهم »

قـال أبـو ذر : فجعل يتلوها ويُردِّدها عليَّ حتى نعستُ ، ثم قـال : يا أبا ذر

كيف تصنع إنْ أُخرجتَ من المدينة ؟ قلت : إلى السعة والدعة[١] ، أنطلق فأكون حمامة من حمام مكة ؟ قال : كيف تصنع إنْ أخرجت من مكة ؟ قال قلت : إلى السعة والدعة وإلى الشام والأرض المقدسة .

قال : وكيف تصنع إنْ أُخرجت من الشام ؟ قلت : إذاً والذى بعثك بالحق أضع سيفى على عاتقى ، قال : أو خيرٌ من ذلك ؟ قلت : أو خير من ذلك ؟ قال : تسمع وتطيع وإنْ كان عبداً حبشياً[٢] .

فمن توكل على الله لم تضِقْ نفسه أبداً ، فهو يعلم تماماً أن الله سيجعل له من كل ضيق مخرجاً ، وسيهيء له فرجاً لا يحتسبه ولا يظنه ، ولا يدرى من أين يأتيه ، فالله يُنجيه من كلِّ كرْب فى الدنيا والآخرة .

هذا اليقين أتى به رسول الله ﷺ فى وصيته لابن عباس رضى الله عنهما ، وقد كان ابن عباس غلاماً صغيراً ، كان عمره يوم وفاة النبى ﷺ ١٤ عاماً .

قال رسول الله : « يا غلام ، إنِّى مُعلِّمك كلمات : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، وإذا سألتَ فاسأل الله ، وإذا استعنتَ فاستعِنْ بالله ، واعلم أنَّ الأمة لو اجتمعت على أنْ ينفعوك لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، ولو اجتمعت على أنْ يضروك لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك ، رُفعت الأقلام وجفَّتْ الصحف »[٣] .

ما كتبه الله سواء لك أو عليك هو ما سيكون ، كتبه سبحانه بموجب علمه تعالى ، فليكُنْ اعتمادك عليه وحده ، واعلم أنك إن اعتمدت عليه وحده إلهاً

(١) الدعة : السكون والراحة ولين العيش والرخاء والرفاهية . والدعة هى النِّعْمة المذكورة فى قوله تعالى ﴿ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ(٢٧) ﴾ [الدخان] قال البغوى فى تفسيره (ونعمة) ومتعة وعيش ليِّن .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٢١٥٩١) والطبرانى فى المعجم الأوسط (٢٤٧٤) من حديث أبى ذر رضى الله عنه .

(٣) أخرجه أحمد فى مسنده (٢٦٦٩ ، ٢٧٦٣ ، ٢٨٠٤) ، والترمذى فى مسنده (٢٥١٦) وأبو يعلى الموصلى فى مسنده (٢٥٥٦) ، والحاكم فى مستدركه (٦٣٠٤) والطبرانى فى المعجم الكبير (١١٠٨٠ ، ١١٣٩٤) ، والبيهقى فى شعب الإيمان (١٩٢ ، ١٠٤٣ ، ٩٥٢٨ ، ٩٥٢٩) عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما .

فأنت قد اعتمدتَ على عزيز لا يُغلب على أمره .

فاعمل لوجه الله وحده يكفكَ كلَّ الأوجه ، فلا تلجأ إلا إليه ولا تستعن إلا به سبحانه ، فالاستعانة بالله تُخرجك عن ذُلِّ الدنيا ، فأنت حين تستعين بغير الله فإنك تستعين ببشر مهما بلغ نفوذه وقوته ، فكلها فى حدود بشريته .

فلتكُنْ استعانتك بالحى الذى لا يموت ، فالاستعاذة طلب المعونة ، فإذا استنفد الإنسان أسبابه لا بد أنْ يتذكر أنَّ له رباً لا يُعبد سواه .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ[1] .. (٣) ﴾ [الطلاق] ويقول الحق سبحانه : ﴿ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٦٠) ﴾ [آل عمران] ويقول أيضاً: ﴿ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (١٥٩) ﴾ [آل عمران] والذى لا يتوكل على الله عليه أنْ يراجع إيمانه .

ولكلٍّ جارحة عمل ، وعمل جارحة القلب هو اليقين والتوكل ، ولنتذكر أن السعى للقدم ، والعمل لليد ، والتوكل للقلب ، فلا تنقل عمل القلب إلى القدم أو اليد ، لأن التوكل الحقيقى أنْ تعمل الجوارح وتتوكل القلوب ، وكم من عامل بلا توكل فتكون نتيجة عمله إحباطاً .

إننا نجد الزارع الذى لا يتوكل على الله ينمو زرعه بشكل جيد ومتميز ، ثم تهبُّ عليه عاصفة ، أو يتغير الجو فيصيبه الهلاك وتكون النتيجة الإحباط .

واحذر إهمال الأسباب أو أنْ تفتنك الأسباب ، لأنك إنْ أهملتَ الأسباب فأنت غير متوكل بل متواكل تنقل عمل القلب إلى الجوارح ، فالجوارح تعمل والقلوب تتوكل .

إياك أنْ تظن أنْ التوكل يعنى أنْ تترك الجوارح بلا عمل ، لا فهذا هو التواكل أو الكسل ، إنه التوكل الكاذب ، والدليل على كذب مَنْ يقول ذلك أنه يحب أنْ يتوكَّل فيما فيه مشقة ، والسهل لا يتوكل فيه .

ونقول للرجل الذى يدَّعى أنه يتوكل ولا يعمل : أنت لستَ متوكلاً ولو كنتَ

---

(١) فهو حسبه : كفاه الله ما أهمَّه . فمن وثق بالله فيما نابه كفاه ما أهمه .

صادقاً فى التوكل ، إياك أنْ تمدَّ يدك إلى لقمة وتضعها فى فمك ، كُنْ متوكلاً كما تدَّعى ودَع التوكل يضع لك اللقمة فى فمك واترك التوكل ليمضغها لك ، وادعاؤك التوكل دون أخذ بالأسباب هو بلادة حِسٍّ إيمانى وليس توكلاً .

ومعنى أنِّى أتوكل على الله أننى استنفدت أسبابى ، ولذلك أرجع إلى مَنْ عنده قدرة وليس عنده عجز ، وهذا هو التوكل المطلق ، والتوكل الإيمانى معناه تسليمك زمام أمورك إلى الحق ثقةً بحُسْن تدبيره ، ومن تدبيره أنْ أعطاك الأسباب فلا تردّ يدَ الله الممدودة بالأسباب ، زاعماً التوكل .

والله لا يترك مَنْ توكل عليه ، ومثال هذا توكل هاجر[1] عليها السلام امرأة إبراهيم الخليل عليه السلام ، فقد تركها إبراهيم عند بيت الله الحرام ، ليس معها إلا رضيعها إسماعيل فى مكان لا طعام فيه ولا ماء .

وهنا قالت هاجر قولتها المشهورة لإبراهيم عليه السلام : إلى مَنْ تكلنا؟ آللهُ أمرك بذلك ؟ فقال سيدنا إبراهيم : نعم . فقالت : إذن لن يُضيِّعنا[2]، لقد استغنتْ بالخالق عن المخلوق .

لقد عطش ولدها وأرادت أنْ تبحث عن منبع ماء أو طير ينزل فى مكان لتعلم أن فيه ماء أو ترى قافلة تسير ومعها ماء ، لذلك خرجت إلى أعلى مكان وتركت الوادى وصعدت إلى أعلى جبل الصفا فلم تجد شيئاً ، فنظرتْ إلى الجهة الأخرى إلى المروة وصعدتْ فلم تجد شيئاً .

وظلتْ تتردد بين الصفا والمروة سبعة أشواط ، ولنا أنْ نتصوَّر حالتها ، امرأة فى مثل سِنِّها ، وفى مثل وحدتها ، وفى مثل عدم وجود ماء عندها

---

(١) هاجر جارية مصرية . ومعناها بالهيروغليفية زهرة اللوتس . وهاجر من القبط من قرية نحو الفرما يقال لها أم العرب . فصارت العرب كافة من مصر بأمهم هاجر لأنها أم إسماعيل وهو أبو العرب . [فضائل مصر المحروسة – الكندى ١/٢] .

(٢) عن ابن عباس قال : جاء نبى الله إبراهيم بإسماعيل وهاجر فوضعهما بمكة فى موضع زمزم فلما مضى نادته هاجر : يا إبراهيم إنما أسألك ثلاث مرات : من أمرك أن تضعنى بأرض ليس فيها ضرع ولا زرع ولا أنيس ولا زاد ولا ماء ؟ قال : ربى أمرنى . قالت : فإنه لن يُضيعنا . أخرجه الطبرى فى تفسيره (٢٠٩٥٤) .

ولا بُدَّ أنها عطشتْ كما عطش وليدها .

وعندما بلغ منها الجهد انتهت محاولاتها وعادت إلى حيث يوجد وليدها، ولو أنَّ سعيها بين الصفا والمروة أجدى فرأت ماء لقُلْنا : إن السعى وحده قد جاء لها بالماء ، لكنها هى التى قالت من قبل : إذن لن يُضيعنا .

وهى بهذا القول قد ارتبطت بالمسبِّب لا بالسبب ، فلو أنه أعطاها بالسبب المباشر وهو بحثُها عن الماء لما كان عندها حجة على صِدْقها فى قولها : « إذن لن يضيعنا » .

ويريد الحق سبحانه أنْ ينتهى سعيها سبع مرات بلا نتيجة وتعود إلى وليدها فتجد الماء عند قدم الوليد ، وهكذا صدقت هاجر فى يقينها عندما وثقتْ أن الله لن يضيعها ، وأراد الله أنْ يقول لها : نعم لن أضيعك وليس بسعيك، ولكن بقدم طفلك الرضيع يضرب بها الأرض فينبع منها الماء .

وضربُ الوليد للأرض بقدمه سببٌ غير فاعل فى العادة ، لكن الله أراده سبباً حتى يستبقى السببية ولو لم تُؤدِّ إلى الغرض ، وعندما تتوكل توكَّلْ على الحى الذى لا يموت ، فلا تتوكل على مَنْ قد تصبح غداً فتجده ميتاً ، ولكن توكلْ على الحى الموجود دائماً ، العزيز الذى لا يُقهر ، القوى الذى لا يُغلب .

ومعنى ﴿ فَهُوَ حَسْبُهُ .. (٣) ﴾ [الطلاق] أى هو سنده ويكفيه ، ومنه قوله تعالى: ﴿ يَأَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٦٤) ﴾ [الأنفال] أى : يكفيك الله ، فحسبك الله وهو حسْب مَن اتبعك من المؤمنين ، أى يكفيكم الله .

ويمكن أنْ يكون المعنى : يكفيك الله فيما لا تستطيع أنْ تحققه بالأسباب ، ويكفيك المؤمنون فيما توجد فيه أسباب .

ويقول تعالى : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (١٢٨) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (١٢٩) ﴾ [التوبة]

وقد جاء سبحانه بـ (حسبى) من الحساب ، واحسبها فلن تجد إلا الله ، وما دام حسبك الله ولا إله إلا هو فسبحانه يبسط عليك حمايته ونُصْرته لك ، فمن العقل أنْ تضع نفسك بين يدى رسولك الذى أبلغك البلاغ الكامل عن الله ، وأنْ تتوكل عليه سبحانه .

وما دام سبحانه هو حسبك ولا إله إلا هو ، والواجب يفرض عليك أنْ تظلَّ فى معيته سبحانه ، ومعنى حسبك الله يعنى : كافيك عن الاحتياج لغيره لأنه يعطيك كل ما تحتاج إليه ويمنع عنك الشر وإنْ كنت تظنه خيراً لك .

وإذا توكلتَ على الحى الذى لا يموت ، فآثار هذا التوكل أنْ يحميك من ذنوب العباد ، فهو وحده الذى يعلم ذنوبهم ويعلم حتى ما يدور فى أنفسهم .

فمنْ يتق الله فى أموره ويُفوِّضها إليه فهو كافيه ، وقد قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه[1] : إنَّ أكبر آية فى القرآن تفويضاً آية ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ .. (٣) ﴾ [الطلاق]

فمن فوَّض إليه أمره كفاه ما أهمه ، والحسب الكافى ، فبيَّن أنه كافٍ مَنْ توكل عليه ، ولذلك قال رسول الله ﷺ : « مَنْ أحبَّ أنْ يكون أقوى الناس فليتوكلْ على الله »[2] .

فمعنى قوله ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ .. (٣) ﴾ [الطلاق] أى : يثق بالله ويُفوِّض أمره إليه . ويقال : التوكل على الله هو الرضا بقضائه . وقد قال

---

(١) أخرجه الطبرانى فى المعجم الكبير (٨٥٧٧) والبخارى فى الأدب المفرد (٤٨٩) وعبد الرزاق فى مصنفه (٦٠٠٢) والبيهقى فى شعب الإيمان (٢١٧٣) من حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه.

(٢) أخرجه الحاكم فى مستدركه (٧٧٠٧) وصححه . وكذا أخرجه عبد بن حميد فى مسنده (٦٧٥) من حديث ابن عباس : « إن لكل شيء شرفاً ، وإن أشرف المجالس ما استقبل به القبلة ، وإنما يجالس بالأمانة ، ولا تصلوا خلف النائم ولا المتحدث ، واقتلوا الحية والعقرب وإن كنتم فى صلاتكم، ولا تستروا الجدر بالثياب ، ومن نظر فى كتاب أخيه بغير إذنه فكأنما ينظر فى النار ، ومن أحب أن يكون أكرم الناس فليتق الله، ومن أحب أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله » .

وهب بن منبه[١] : « يقول الرب تبارك وتعالى : إذا توكل عليَّ عبدى لو كادتْه السماوات والأرض جعلتُ له من بين ذلك المخرج »[٢] .

فقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ .. (٣) ﴾ [الطلاق] شرط وجواب يدخل فيه كلٌ من الزوج والزوجة كما يدخل فى حَيِّزه الناس جميعاً ، فمَنْ يتوكل على الله ويُسلِّم أمره إليه فهو حسبه وكافيه ومُدبِّر أمره .

فمَنْ يتوكل على الله فى أمر دينه ودنياه بأنْ يعتمد على الله فى جَلْب ما ينفعه ودفْع ما يضره ويثق به فى تسهيل ذلك ﴿ فَهُوَ حَسْبُهُ .. (٣) ﴾ [الطلاق] أى : كافيه الأمر الذى توكَّل عليه فيه .

﴿ إِنَّ اللهَ بَالِغُ أَمْرِهِ .. (٣) ﴾ [الطلاق] أى لا بدّ من نفاذ قضائه وقدره ، فأمره يبلغ على من توكل وعلى مَنْ لم يتوكل ، فهو سبحانه منفذ قضاياه وأحكامه فى خَلْقه بما يريده ويشاؤه .

وقد قال عبد الله بن رافع : لما نزل قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ .. (٣) ﴾ [الطلاق] قال أصحاب النبى ﷺ : فنحن إذا توكلنا عليه نرسل ما كان لنا ولا نحفظه ، فنزلتْ ﴿ إِنَّ اللهَ بَالِغُ أَمْرِهِ .. (٣) ﴾ [الطلاق] فيكم وعليكم .

فلا بدّ من نفاذ أمر الله ، توكلتَ أيها المرء أو لم تتوكل ، فإنْ توكلت كفاك وتعجلتَ الراحة والبركة ، وإنْ لم تتوكل وكلك إلى عجزك وتسخطك ، وأمرُه فى الوجهين نافذ .

فلا تستبعدوا وقوع ما وعدكم الله حين ترون أسباب ذلك مفقودة ، فإنَّ الله إذا وعد وعداً فقد أراده ، وإذا أراد الله أمراً يسَّر أسبابه ، فهو سبحانه هو المالك

---

(١) وهب بن منبه أبو عبد الله ، من أبناء فارس ، إخبارى قصصى ، تابعى ثقة ، قاضى صنعاء ، وكان صاحب حكمة وفطنة .

(٢) أخرجه أحمد فى الزهد (٢٩١) عن وهب بن منبه قال يقول الرب تعالى : إذا توكل علىَّ عبدى لو كادته السماوات والأرض جعلت له من بين ذلك المخرج ، وأورده الألوسى فى تفسيره (روح المعانى) (١٤ / ٣٣١) وعزاه لأحمد فى الزهد عن وهب بن منبه . .

المتصرف فى هذا الوجود ، وكل شيء بيده خاضعٌ لمشيئته مستجيبٌ لإرادته ، وما يريده سبحانه واقع لا محالة دون أنْ يَعوقه مُعوّق أو يغيره أحد .

ومعنى ﴿ بَالِغُ أَمْرِهِ .. (٣) ﴾ [الطلاق] أى واصل إلى مراده ، والبلوغ مجاز فى الحصول على المراد .

﴿ قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا (٣) ﴾ [الطلاق] أى جعل لكلِّ شيء أجلاً ومنتهى يُنتهى إليه ، فالحق سبحانه قد جعل لكل شيء من الطلاق والعدة وغير ذلك حداً وأجلاً وقدراً ينتهى إليه .

لذلك قال تعالى هنا : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ .. (٣) ﴾ [الطلاق] فلا تقلق على شيء من الدنيا ما دُمْتَ فى معية الله ، فالله عنده المخرج مما أنت فيه ، وعنده الرزق، فقط توكَّلْ عليه سبحانه ، واعلم أنَّ أمر الله وقضاءه وقدره الذى قدَّره لك نافذ .

﴿ إِنَّ اللهَ بَالِغُ أَمْرِهِ .. (٣) ﴾ [الطلاق] وقد جعل لكلِّ شيء قدراً ، فالله حين يقدر قدراً لا يمكن لمخلوق أنْ يُفلت من هذا القدر .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ وَالَّٰٓـِٔي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَالَّٰٓـِٔي لَمْ يَحِضْنَ ۚ وَأُولَٰتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴿٤﴾ ﴾

عملية الحيض فى المرأة عملية كيماوية ضرورية لحياتها وحياة الإنجاب، والكلام هنا ليس عن الحيض ، ولكن عن عدة المرأة التى انقطع حيضها وقد طُلِّقتْ، فإذا كان الحق سبحانه قد حدَّد عدة المرأة المطلقة طلاقاً رجعياً

يراجعها فيها زوجها ، قد حددت هذه العدة بالنسبة لها ثلاثة طهورات أى تحيض وتطهر ، وتحيض وتطهر ، وتحيض وتطهر .

ولكن ما موقف التى انقطع حيْضها وقد يئستْ منه ، فكيف تحسب عدَّتها ،وقد أمرنا الحق سبحانه بإحصاء العدة ، فقال : ﴿ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ .. (١) ﴾ [الطلاق]

فالمرأة التى انقطعت عنها الدورة الشهرية فعدَّتها ليست عدَّةَ حيض وطهارة، إنما عدة زمنية محددة وهى ثلاثة أشهر .

وهو ما يُسمونه « سنّ اليأس » ، واليأس هو أنْ تقطع الأمل من أمر مراد لك ، ولا تملك الوسائل لتحقيقه ، فقد أصابهن اليأس من الحيض لكبرهِنَّ ببلوغهن سِنَّ الخامسة والخمسين والستين .

فعدَّتهن ثلاثة أشهر عوضاً عن الثلاثة قروء فى حَقِّ مَنْ تحيض، والتى ذكرتها سورة البقرة ﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ(١) بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ .. (٢٢٨) ﴾ [البقرة]

فأصل العدة بالحيض ، والأشهر بدل من الحيضات عند عدمها ، فاللائى يئسْنَ من المحيض هُنَّ القواعد اللائى قعدنَ عن المحيض ، بأنْ كُنَّ يحضن ثم ارتفع حيضهن لكبر أو غيره ولم يُرج رجوعه، فإنَّ عدتها ثلاثة أشهر، جعل لكلِّ شهر مقابله حيضة .

وسنّ اليأس يختلف تحديده باختلاف الذوات والأقطار كما يختلف سن ابتداء الحيض كذلك .

وكلمة (المحيض) هى مصدر ميمى أى مبدوء بالميم بمعنى الحيض ، أى: دم الحيض . وقد يأتى بمعنى مكان الحيض كما فى قوله تعالى : ﴿ فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ .. (٢٢٢) ﴾ [البقرة]

---

(١) يتربصن : ينتظرن ويعتددن مدة . والتربص : الانتظار . وهو خبر فى معنى الأمر أى ليتربصن قصد بإخراجه مخرج الخبر تأكيد وقوعه .

ومَنْ جعل المحيض بمعنى الحيض أراد اعتزلوهنَّ فى أيام حيضهنَّ ، فهو اسمٌ لمكان الحيض ، ومصدر لحدث الحيض نفسه ، ومنه الحوض لأن الماء يحيض أى يسيل إليه .

والحائض هى التى يقع لها حدث الحيض وإنْ لم يكُنْ واقعاً بها فى ذات اللحظة ، ومنه حديث رسول الله ﷺ : « لا تُقبل صلاةُ حائض إلا بخمار »[1] فهو لا يقصد وهى فى أيام حيضها لأن الحائض لا صلاةَ عليها أصلاً ، وإنما المراد : التى من شأنها أن تحيض .

فعندما ينقطع حيضها تزولُ عنها صفةُ أنها حائض ، وتصبح من القواعد من النساء اللاتى قعدْنَ عن المحيض ، ولكن لا يزول عنها أنها لا تصلى إلا بخمار سواء كانت قد بلغت سِنَّ المحيض أو يئستْ منه .

ويضع الحق سبحانه جملة ﴿ إِنِ ارْتَبْتُمْ .. (٤) ﴾ [الطلاق] والارتياب محله القلب ، فإنْ شككتم ولم تتيقنوا أتحيض أم لا تحيض ، هل انقطع حيضُها أم لا ، فالتى قعدتْ عن المحيض والتى لم تحِضْ بَعْد فعدَّتها ثلاثة أشهر .

أما إذا امتنع حيض المرأة وهى شابة ، فإنه يُتأنَّى بها حتى يُنظر ، حامل أم هى غير حامل ؟ فإن استبان حملها فأجلُها أنْ تضع حملها فإنْ لم يستبنْ حملُها فحتى يستبين بها وأقصى ذلك سنة .

فـ (ارتبتم) أى شككتم وجهلتم كيف عدتهن .

ومن هذه التى قد يقع الشك فيها والجهل ﴿ اللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ .. (٤) ﴾ [الطلاق] وهُنَّ الصغيرات إذا طلقهنَّ أزواجهن بعد الدخول ، فهن لم يبلغن المحيض وقد مُسسْن ، فعدتهن ثلاثة أشهر .

فاللاتى فى حال الصِّغر هُنَّ بمنزلة الكبيرة التى يئست من المحيض، فـ ﴿ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ .. (٤) ﴾ [الطلاق] معطوف على ﴿ وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ

(١) أخرجه أبو داود فى سننه (٦٤١) ، وابن ماجه فى سننه (٦٥٥) ، وأحمد فى مسنده (٢٥٢٠٨ ، ٢٥٨٧٥ ، ٢٦٢٦٩) ، وابن حبان فى صحيحه (١٧١١) والبيهقى فى سننه الكبرى (٣٣٧٩) عن عائشة رضى الله عنها .

.. (٤) ﴾ [الطلاق] فيأخذن حُكماً واحداً وهو أنَّ عدتهنَّ بالأشهر ، وليستْ بالطهر من الحيض ، لأنهنَّ إمَّا لم يحضْنَ أصلاً ، أو يئسْنَ من المحيض .

وزواج الصغيرة جائز بنصِّ هذه الآية ، ورسول الله ﷺ عقد على عائشة رضى الله عنها وعمرها ست سنوات[1] ، فالإسلام فيه سعة ، وتؤمن به مجتمعات متباينة ، والفقهاء أجازوا زواج الصغيرة بشرط عدم الإضرار بها بمعنى تحملها للوطء .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ .. (٤) ﴾ [الطلاق] فعدَّة المرأة الحامل التى طلَّقها زوجها هىْ أنْ تضع حملها ، وعلى هذه المرأة أنْ لا تكتم حملها .

قال تعالى : ﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ .. (٢٢٨) ﴾ [البقرة]

وهذا يدلُّ على أن المرأة لها شهادتها لنفسها فى الأمر الذى يخصُّها ولا يطَّلع عليه سواها ، وهى التى تُقرر المسألة بنفسها فتقول أنا حامل أو لا ، وعليها ألاَّ تكتم ذلك ، فقد يجوز أنْ تكون حاملاً وبعد ذلك تكتم ما فى بطنها حتى لا تنتظر طول مدة الحمل وتتزوج رجلاً آخر فينسب الولد لغير أبيه .

فغالباً ما يستمر الحمل تسعة أشهر ولكن هناك استثناء ، فهناك حملٌ مدّته سبعة أشهر ، وأحياناً ستة شهور .

فكتمان المطلَّقة لحملها يترتب عليه أكثر من إشكال ، منها ألاَّ يرث الولدُ من الأب الأول ، وأن محارمه لم تعُد مُحرَّمة عليه ، فأخته من أبيه لم تعُدْ أخته ، وكذلك عماته وخالاته وتنقلب الموازين ، هذا من جانب الأب الأصلى .

---

(١) أخرج البيهقى فى السنن الكبرى (١٣٨٠٥) وكذا فى (دلائل النبوة ٧/ ٢٨٤) باب تسمية أزواج النبى. وفيه : « ثم تزوج رسول الله عائشة بعد خديجة وعائشة يومئذ بنت ست سنين فنكحها رسول الله ﷺ بمكة وهى ابنة ست سنين ، ثم إن رسول الله ﷺ بنى بعائشة بعدما قدم المدينة وعائشة يوم بنى بها بنت تسع سنين» .

أما من جانب الزوج الثانى فالطفل يكتسب حقوقاً غير مشروعة له ، سيرث منه وتصبح محارم الرجل الثانى محارمه فيدخل عليهن بلا حَقٍّ ، ويرى عوراتهن وتحدث تداخلات غير مشروعة .

فقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ .. (٢٢٨) ﴾ [البقرة] هو قولٌ يريد به الحق أنْ تقوم الحياة على طُهْر وعلى شرف وعلى عفاف ، ولا يعتدى أحدٌ على حقوق الآخر .

فأجلهنَّ أنْ يضعْنَ حملهنَّ ، فإذا نفضت الرحم ما فيها فقد انقضتْ عدَّتها، وقد حدث أن وضعت امرأة على عهد رسول الله اسمها سُبَيْعة بنت الحارث الأسلمية[1] بعد وفاة زوجها بخمس عشرة ليلة فأمرها نبى الله ﷺ أن تزوج .

وكان عمر يقول : لو وضعتْ ما فى بطنها وهو موضوع على سريره من قبل أنْ يقبر حلَّتْ . أى حلَّتْ أنْ يتزوجها رجل آخر بعد وفاة زوجها .

وكلَّ مطلقة حامل أو مُتوفّى عنها زوجها وهى حامل أيضاً فأجلُها أنْ تضع حملها حتى ولو كان سقطاً ، فإذا ما وضعت ما فى رحمها فقد انقضتْ عدتها، فليس المحيض من أمرها فى شيء إذا كانت حاملاً .

ولا يحلُّ للمطلَّقة أنْ تقول إنِّى حائض وليستْ بحائض ، أو تقول إنى حُبْلَى وليست بحُبْلَى ، أو تقول لست بحائض وهى حائض ، أو تقول لست بحبلى وهى حُبْلى لتبين من زوجها قبل أنْ تنقضى العدة ، وتضيف الولد إلى الزوج الثانى وتستوجب الميراث إذا مات الرجل فتقول لم تنقض عدَّتى وقد انقضتْ عدَّتها .

وقد يسأل سائل : وما عِدَّة المرأة التى تُوفِّى عنها زوجها وهى حامل وقد

---

(١) سبيعة بنت الحارث الأسلمية ، كانت امرأة سعد بن خولة ، فتوفى عنها بمكة فى حجة الوداع وهى حامل ووضعت بعد وفاته بعشرين يوماً . وهى صحابية جليلة ، روت عن رسول الله أحاديث ، وروى عنها عبد الله بن عمر وزفر بن أوس ومسروق . وهى ممن نزل فيهن قوله تعالى ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ .. (١٠) ﴾ [الممتحنة] .

يكون حملها فى بدايته ، هل تعتد عدة المتوفَّى عنها زوجها أربعة أشهر وعشراً، أم عدة الحامل بوضع حملها ؟

ولهذا السائل نقول : الله عز وجل حدد عدَّة المرأة المتوفَّى عنها زوجها ، فقال: ﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٣٤) ﴾ [البقرة]

فعدَّة المتوفَّى عنها زوجها أنها تتربَّص بنفسها أربعة أشهر وعشراً ، هذا إذا لم تكُنْ حاملاً ، فإنْ كانت حاملاً فعدَّتها أبعد الأجلين ، فإنْ كان الأجلُ الأبعد هو أربعة أشهر وعشراً فتلك عدَّتها .

وإنْ كان الأجل الأبعد هو الحمل فعدَّتها أن ينتهى الحمل ، ولكن أليس من الجائز أنْ يموت زوجها وهى فى الشهر التاسع من الحمل فتلد قبل أنْ يُدفن ؟ وهل يعنى ذلك أنَّ عدَّتها انتهت ؟

لا ، إنها تنتهى بأبعد الأجلين وهو فى هذه الحالة مرور أربعة أشهر وعشْر، وإنْ قال بعض الفقهاء : إنَّ عدة الحامل بوضع الحمل .

لكن إذا لم يكُنْ زوجها متوفى عنها فعدَّتها أنْ تضع حملها ، وإنْ شاءت أن تتزوج بعد ذلك فلها ذلك ولو بعد لحظة .

وبعض الناس يفسرون الحكمة من جَعْل عدة المتوفى عنها زوجها أربعة أشهر وعشراً ، فيقولون : لأنها إنْ كانت حاملاً بذكر فسيظهر حملها عندما يتحرك بعد ثلاثة أشهر ، وإنْ كانت حاملاً بأنثى فستتحرك بعد أربعة أشهر ونعطيها مهلة عشر ليالٍ .

ونقول لهم : جزاكم الله خيراً على تفسيركم ،ولكن العدة ليست لاستبراء الرحم لأنها لو كانت لاستبراء الرحم لانتهتْ عدَّة المرأة بمجرد ولادتها .

ولو كان الأمر للتأكد من وجود حَمْل أو عدمه لكانتْ عِدَّتها ثلاث حيضات إنْ كانت من ذوات الحيض ، وإنْ كانت من غير ذوات الحيض لصغر أو لكبر سِنٍّ لكانت عدَّتها ثلاثة أشهر ، لكن الله اختصها بأربعة أشهر وعشر وفاءً لحق زوجها عليها وإكراماً لحياتهما الزوجية .

والمرأة الحامل التى تُوفِّى عنها زوجها إذا قعدت أقصى أو أبعد الأجلين تكون قد عملتْ بمقتضى الآيتين ، وإنْ اعتدَّتْ بوضع الحمل فقد تركتْ العمل بآية عدَّة الوفاة ، والجمع بين الآيتين أوْلَى من الترجيح باتفاق أهل الأصول .

فلو أنَّ امرأة حاملاً تُوفِّى عنها زوجها وهى حامل فى الشهر الأول مثلاً فعدَّتها ليست أربعة أشهر وعشراً ، بل عدتها وضعها الحمل فتنتهى عدتها بوضعها لحملها .

أما القول بأقرب الأجلين فهو قول خطأ لا يقول به أحد ، لأن مقتضى هذا القول هو أنها إذا كانت حاملاً الآن فى الشهر الأول فمرَّ عليها أربعة أشهر وعشر وهى ما زالت فى السادس يحل لها على هذا القول أنْ تتزوج . وهذا لا يجوز بحال ، فإن الرجل الجديد سيسقى ماؤه زرع غيره فلا يحل هذا بحال وهو من أكبر الكبائر .

ويقول رسول الله ﷺ : « لا تُوطأ حاملٌ حتى تضع »[1] ، وقال أيضاً « لا يحلّ لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أنْ يسقى ماؤه زرعَ غيره »[2] .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا (٤) ﴾ [الطلاق]

---

(١) عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه ورفعه أن رسول الله قال فى سبايا أوطاس : "لا تُوطأ حامل حتى تضع ولا غير ذات حمل حتى تحيض حيضة "أخرجه أبو داود فى سننه (٢١٥٩) وأحمد فى مسنده (١١٦١٤) والبيهقى فى سننه (١١١٠٥) والحاكم فى مستدركه (٢٧٩٠) وصححه على شرط مسلم .

(٢) عن رويفع بن ثابت الأنصارى قال قام فينا خطيباً قال : أما إنى لا أقول لكم إلا ما سمعت رسول الله ﷺ يقول يوم حنين قال : «لا يحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسقى ماؤه زرع غيره » يعنى إتيان الحبالى .

هذه هى المرة الثالثة التى يذكر الحق سبحانه فيها أمر التقوى فى سورة الطلاق فى خلال أربع آيات فقط ، فى الآية الأولى قال تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ .. (١) ﴾ [الطلاق]

وفى الآية الثانية قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢) ﴾ [الطلاق]
وهنا قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا (٤) ﴾ [الطلاق]

وذلك لعظم التقوى ومخافة ومراعاة حدود الله والخوف من عقابه سبحانه، لذلك أكَّد سبحانه على التقوى ، فمَنْ خاف الله فاجتنب معاصيه وأدَّى فرائضه، ولم يخالف إذنه فى طلاق امرأته فإنه يجعل الله له من طلاقه يُسْراً ، وهو أنْ يُسهِّل عليه إنْ أراد الرخصة .

فمَنْ يتق الله فى اجتناب معاصيه يجعل له من أمره يُسْراً فى توفيقه للطاعة، فيسهل له أمره ويُيسِّره عليه ويجعل له فرجاً قريباً ومخرجاً عاجلاً .

فمَن اتقى الله تعالى يسَّر له الأمور وسهَّل عليه كلَّ عسير ، وهو تسهيل الرجعة ما دامت فى عِدَّتها والقدرة على خطبتها إنْ انقضت ودعتْه إليها بسبب التقوى .

فالحق سبحانه يعظ الرجال والنساء للأخْذ بما فى هذه الأحكام مما عسى أنْ يكون فيه مشقةٌ على أحد بأنَّ على كلٍّ أنْ يصبر لذلك امتثالاً لأمر الله ، فإنَّ الممتثل لأمر الله وهو المتقى يجعل الله له يُسراً فيما لحقه من عُسْر .

والأمر فى قوله تعالى ﴿ مِنْ أَمْرِهِ .. (٤) ﴾ [الطلاق] هو الشأن والحال ، والمقصود يجعل له من أمره العسير فى نظره يُسْراً ، بدلالة أنه سبحانه يجعل من أمره نفسه الذى هو فيه يجعله يُسراً .

واليُسْر انتفاء الصعوبة أى انتفاء ما يُسبِّب له مشقة أو أمراً مكروهاً .

والمقصود من هذا تحقيق الوعد باليسر فيما شأنه العُسْر لحثِّ الأزواج على امتثال ما أمر الله به الزوج من الإنفاق فى مدة العدَّة ، ومن المراجعة وتَرْك

منزله لأجل سُكْناها إذا كان لا يسعهما ، وكذلك أمر المرأة من تربُّص أمد العدة وعدم الخروج ، فمَنْ يراقب الله ويخشاه فى أقواله وأفعاله ويجتنب ما حرّم الله عليه يسهُل عليه أمره ويُوفِّقه لكلِّ خير .

والحق سبحانه إنما يريد بنا اليُسْر ولا يريد بنا العُسْر ، قال تعالى : ﴿ يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ .. (١٨٥) ﴾ [البقرة] فالله يريد أنْ نعيش فى يسر وسهولة من أيسرنا ، لا أن نعيش فى عسر وضيق .

والذى يُسبِّب لنا العسر والضيق هو عدم الالتزام بمنهج الله وعدم تقوى الله، واعلم أنَّ مع العسر يُسْراً ، فالعسر الذى تظنه عُسْراً هو نفسه معه يُسْر .

ويقول تعالى ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ .. (٧٨) ﴾ [الحج] فالله لا يريد أنْ يُضيق عليكم أو يُعسِّر عليكم الأمور ، إنما جعل الأمر كله يُسْراً ورخّص لكم ما يُخفِّف عنكم ويُذهب عنكم الحرج والضيق .

ونلاحظ أنَّ الحق سبحانه يقول ﴿ يَجْعَلْ لَهُ .. (٤) ﴾ [الطلاق] فالله إنما يريد مصلحتك ويريد نفعك ، فالله ليس له هوى فيما يأمرك به ، إنما هى مصلحتك وسلامتك .

فمن الآثار المترتبة على تقوى الله عز وجل أنْ يُيسِّر له الأمور ، وأنْ يُهيء له سُبُل الخير ، وأنْ يفتح الطرق التى تُوصله إلى سعادة الدنيا وسعادة الآخرة .

فالمؤمن التقى يُيسِّر الله له أموره ويُيَسر لليُسْرى ويُجنِّبه العسرى ويُسهِّل عليه الصعاب ، ويجعل له من كلِّ هَمٍّ فرجاً ، ومن كل ضيق مخرجاً ، ويرزقه من حيث لا يحتسب .

فبالتقوى ينضج عقل الإنسان وتتكوَّن عنده ملكةٌ قوية وبصيرة نيِّرة تضيء له الطريق المظلم ، ويفرق بها بين الحق والباطل ، وبين النافع والضار.

يقول تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا[١] وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ .. (٢٩) ﴾ [الأنفال]

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ[٢] مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ .. (٢٨) ﴾ [الحديد]

بالتقوى يأمن الإنسان إذا خاف الناس ، ويُسَرُّ إذا حزنوا ، ويستبشر إذا قنطوا ويئسوا ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ .. (٦٤) ﴾ [يونس] بالتقوى تزداد علاقة الإنسان بربه ، وينال الفلاح والسعادة فى الدنيا والآخرة .

بالتقوى يطمئن المسلم على ذريته من بعده ، ولاسيما ضعفاؤهم ، قال تعالى : ﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٩) ﴾ [النساء]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ﴿٥﴾ ﴾

قوله (ذلك) إشارة إلى كلِّ ما سبق من أحكام الطلاق والرجْعة والعِدَّة وعدم إخراج المرأة المطلقة طلاقاً رجعياً من بيت الزوجية ، وكذلك أحكام العدة بين اللاتى يئسْنَ من المحيض ، واللاتى لم يحضْنَ أصلاً .

---

(١) الفرقان : المخرج . عن ابن عباس ، والمعنى : يجعل لكم مخرجاً فى الدين من الضلال . وهو أيضاً : النجاة . قاله قتادة والسدى . وهو أيضاً : النصر . قاله الفراء . وهو أيضاً هدى فى قلوبهم يفرقون به بين الحق والباطل . قاله ابن زيد وابن إسحاق . (زاد المسير لابن الجوزى) .

(٢) كفلين : نصيبين وحظين . يعنى يؤتكم أجرين لإيمانكم بعيسى ومحمد وبالإنجيل والقرآن . والمقصود نصيبين من رحمته بسبب إيمانكم برسوله بعد إيمانكم بمن قبله من الرسل . [فتح القدير للشوكانى] .

فقوله (ذلك) يعنى ما ذُكر من الأحكام وما عُلم من حكم هؤلاء المعتدَّات، ونلاحظ أن الحق سبحانه لم يقُلْ : هذا أمر الله . بل قال : ﴿ ذَٰلِكَ أَمْرُ اللَّهِ .. (٥) ﴾ [الطلاق]

واللام فى (ذلك) للبُعد إشارة لبُعد منزلة هذا الأمر وأهميته وعظيم اهتمام الشارع به . وقد أفرد الكاف مع أن الخطاب للجمع كما يُفصح عنه قوله تعالى : ﴿ أَمْرُ اللَّهِ أَنزَلَهُ إِلَيْكُمْ .. (٥) ﴾ [الطلاق] ؛ لأن الكاف هنا لتعيين الفرق بين البعد والقرب ، لا لتعيين خصوصية المخاطبين؛ فلم يقل سبحانه هنا (ذلكم) كما قاله فى آيات أخرى ، فقد قال تعالى : ﴿ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٥٤) ﴾ [البقرة] ، وقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٢٧) ﴾ [النور]

وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٩) ﴾ [الجمعة]

﴿ ذَٰلِكَ أَمْرُ اللَّهِ .. (٥) ﴾ [الطلاق] كلمة (أمر الله) وردت فى القرآن فى مواضع عدة بمعان ، منها قضاء الله أى ما قضاه الله على عباده ، مثل قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا (٤٧) ﴾ [النساء] وذلك فى الكلام عن بنى إسرائيل .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ(١) وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ(٢) وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ

---

(١) نطمس : الطمس هو المحو . أى نذهب بآثار الوجه وتخطيطه حتى يصير على هيئة القفا . وقيل : إنه بعد الطمس يردها إلى موضع القفا والقفا إلى مواضعها . [فتح القدير للشوكانى] .

(٢) أصحاب السبت هم أهل أيلة . وزاد ابن عباس : بين مدين والطور . وهى إيلات أو أم الرشراش . وتقع فى أقصى جنوب فلسطين بين مدينة العقبة الأردنية من الشرق وبلدة طابا المصرية من الغرب . وهى قرية مصرية يحتلها الإسرائيليون منذ عام ١٩٤٩م . بينما هى مصرية بموجب فرمان رسم الحدود مع فلسطين عام ١٩٠٦ .

مَفْعُولًا (٤٧) ﴾ [النساء]

فالحق سبحانه بقدرته الشاملة وصفات جلاله الكاملة لا يتخلف شيء فى وجوده عن أمره ، فإذا وعد بشيء فلا بد أنْ يحدث ، فأمر الله غير أوامر البشر ، فأوامرُ البشر هى التى تتخلَّف أحياناً ، سواء أكانت وعداً أم وعيداً .

فأنت قد تعد إنساناً بخير ولكنك ساعةَ أداء الخير لا تستطيعه ، فتكون قدرتك هى التى تحتاج إلى أداء الخير ، أو توعد إنساناً وتهدده بشرٍّ وستعمل فيه غداً كذا ، وقد يأتيك غداً مرض يُقعدك فلا تستطيع إنفاذ وعيدك .

إذن فأنت قد لا تستطيع إنفاذ شيءٍ من وعدك ولا شيءَ من وعيدك ، لأنَّ قدرتك من الأغيار ، وما دامت قدرتكم من الأغيار فقد تُوجد أو لا توجد .

لكن الحق سبحانه وتعالى إذا وعد بوعد أو أوعد بوعيد ، أيوجد شيء يُغيِّر هذا ؟ لا ، إذن فساعةَ يقول ربنا بوعد أو وعيد فاعرف أن هذا سيحدث فى الوعد، أما فى الوعيد فإنَّ الله قد يتجاوز عنه كرماً وفضلاً ما عدا الشرك بالله .

وأمْر الله قد يكون ما سيكون فى يوم القيامة وما سيحدث قبل وقوعها ، يقول تعالى : ﴿ أَتَى أَمْرُ اللهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ .. (١) ﴾ [النحل]

وأمْر الله قد يكونُ هنا قضاء الله وحُكْمه بنصر الرسول والمؤمنين لا شكَّ فيه ولا محالةَ ، وأن هزيمة أهل الكفر قادمة ولا مفرَّ منها إنْ هم استمروا على الكفر .

وساعة سمع الكلُّ ذلك فزعوا ، لأن أمر الله واقعٌ لا محالة ، ثم جاء قوله ﴿ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ .. (١) ﴾ [النحل] فالأمر الذى يعلنه محمد ﷺ لا يعلم ميعاده إلا الله سبحانه .

وكلمة (أتى) تدلُّ على أن الذى يخبرك وهو الله يستوى معه الزمن ، فـ (أتى) فعل ماض ، ولا تستعجلوه مستقبل ، كيف يقول الله سبحانه (أتى) ثم يقول (فلا تستعجلوه) ؟

إنه مستقبل بالنسبة لنا ، أما بالنسبة لله تبارك وتعالى ، فما دام قد قال (أتى) فمعنى ذلك أنه حدث ، فلا أحد يملك أنْ يمنع أمراً من أمور الله من الحدوث، فالعذاب آت لهم ، ولا يخفف عنهم لأن أحداً لا يملك تخفيفه .

وقد يكون ﴿ أَمْرُ اللهِ .. (٤٧) ﴾ [النساء] بمعنى قضاء الخير للإنسان ، قال تعالى : ﴿ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ (٧١) قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَـٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَـٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (٧٢) ﴾ [هود]

فقال لها تعالى : ﴿ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللهِ رَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ (٧٣) ﴾ [هود]

وأمر الله هنا هو أمرُ خيرٍ لامرأة إبراهيم عليه السلام المرأة العجوز العقيم وزوجها شيخ كبير ، والله يردُّها إلى مسبِّب الأسباب ، فالأسباب لا تعطى وحدها، فالأسباب عندها تعطلت ، أما حين تصل الأسباب إلى الله فلا عجب .

ولكم ما معنى (أمر اللهْ) هنا فى قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ أَمْرُ اللهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ .. (٥) ﴾ [الطلاق]

الأمر هنا هو الحكم أو التشريع الذى شرَّعه سبحانه ، فهو حكمه الذى حكم به بين عباده ، وشرعه الذى شرعه لهم ، وهو أمر الله لا أمر أحدٍ غير الله ، لذلك أضاف الأمر إلى صاحبه سبحانه وهو الله عز وجل .

وهذا الذى شرع لكم من الأحكام هو أمر الله الذى أنزله إليكم لتسيروا على منهجه وتعملوا به ، دون تحايل منكم على أمر الله ، فلا تكونوا مثل بنى إسرائيل الذين يعشقون التحايل على أمر الله لئلا يُنفِّذوا ما أمرهم به .

قال تعالى : ﴿ وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ[1] الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي

---

(١) فى تعيين هذه القرية خمسة أقوال ، ذكرها ابن الجوزى فى زاد المسير :
- أيلة . قاله ابن مسعود وابن عباس وسعيد بن جبير . وهى ما يعرف الآن بـ (إيلات) .
- مدين . عن ابن عباس . - ساحل مدين . عن قتادة - طبرية . قاله الزهرى .
- قرية يقال لها مقنا بين مدين وعينونا . قاله ابن زيد .

السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٣) ﴾ [الأعراف]

فهؤلاء كانوا أهل قرية حاضرة البحر أى قريبة من البحر ومشرفة عليه، لأننا نقول فلان حضر أى كان بعيداً فاقترب ، وهم من اليهود لأنهم حُرِّم عليهم العمل يوم السبت .

فابتلاهم الله عز وجل بلاءً عظيماً فحرَّم عليهم ما لم يحرمه على آخرين ، وذلك لتعنتهم وخروجهم عن أحكام الله فشدَّد الله عليهم ، فكان هؤلاء يروْنَ السمك فى المياه يوم السبت وهو يرفع زعانفه كشراع المركب وتطل عليهم أشرعة الحيتان وهم فى بيوتهم .

وهذا ابتلاءٌ من ربهم لهم فى يوم السبت وعقاب لأنهم ممنوعون من صيده ، ويروْنَ هذا السمك أمامهم في يوم السبت ، لكن فى بقية الأيام التى يُباح فيها العمل كيوم الأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة لا تظهر لهم ولا سمكة واحدة .

وهنا قالوا : ما دام ربنا قد حرَّم علينا أنْ نصطاد يوم السبت فعلينا أنْ نحتال وصنعوا أكياساً من السلك المضفَّر والذى نسميه الجوبية يدخل السمك فيها ولا يستطيع الخروج منها ، فيأتى السمك يوم السبت فى الجوبية ويستخرجونه يوم الأحد .

أو يصنعون حوضاً له مدخل وليس له مخرج ، وفى هذا المكر وتمكر لهم السماء بحيلة أشد ، لقد أراد الله ابتلاءهم لأنهم فسقوا عن المنهج ، وخرجوا عن الطاعة واستحلُّوا أشياء حرمها الله ، لذلك يُحرِّم الله عليهم أشياء أحلَّها لغيرهم .

فهم تحايلوا على أمر الله بأنْ صنعوا مصايد للأسماك تدخل فيها ولا تستطيع الخروج ، وهذا تحايل على أمر الله .

والله عز وجل لا يغيب عن علمه شيء ، فهو يعلم ما فى النفوس والنوايا ، وهذا مثل أمر الله ورسوله بالاصطفاف صفوفاً للصلاة ، وأنْ يقف الرجال أولاً ثم الأطفال ثم النساء ، ومن الرجال مَنْ يتقدم الصفوف كيْلا تقع عيونه على امرأة ، ومنهم مَنْ قد يتحايل ويقف فى الصفوف الأخيرة ليرى النساء من تحت أذرعه وهو راكع أو ساجد .

فأوضح الحقُّ سبحانه أنَّ مثل هذه الأمور لا تفوت عليه ، فهو العالم بالأسرار وأخفى منها .

وأمور الزواج والطلاق وأحكامهما وأحكام العدة والرجعة يحدثِ فيها تحايل كثير سواء من الرجل أو المرأة ، لذلك قال تعالى هنا : ﴿ ذَٰلِكَ أَمْرُ اللَّهِ .. (٥) ﴾ [الطلاق]

فهو أمر الله لا يجوز لأحد التحايل عليه أو التهرُّب من تنفيذه ، فتنفيذ أمر الله فى هذه العلاقات بين الرجل والمرأة يُجنِّبهما مشاكل كثيرة تسبب لدداً فى الخصومة .

ورسول الله ﷺ يقول : « اللهم إنى أحرِّج حقَّ الضعيفين المرأة واليتيم»[1]، وكأنه ﷺ يقول : إنى لا أسمح لأحد أنْ يجور أو يتحايل على حقِّ هذين الضعيفين : المرأة واليتيم .

والمرأة يشتد ضعفها عندما تكون مطلَّقة أو أرملة ، ففى كلتا الحالتين تفقد زوجها وتفقد وجوده إلى جوارها ، والأمر يحتاج إلى تقوى الله وخشيته حتى لا يتم الإضرار بها بقصد الإيذاء والإعضال .

إذ كيف نقف أمام الله ونحن قد أوقعناها فى حرج ، فهذا ما أحذر منه تحذيراً بالغاً وأزجر عنه زجراً أكيداً فإنه ظلم لهما ، والله لا يأمر بالظلم إنما

---

(١) أخرجه ابن ماجه فى سننه (٣٦٧٨) وأحمد فى مسنده (٩٦٦٤) والنسائى فى السنن الكبرى (٩١٠٤، ٩١٠٥) والحاكم فى مستدركه (٢١١) وصححه على شرط مسلم ، والبزار فى مسنده (٨٤٨٣ ، ٨٤٨٨) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

يأمر بالعدل والإحسان .

وقد حدَّد حدوداً لا للزواج فقط ، بل لإنهاء علاقة الزواج بالطلاق فوضع أموراً للعدة وإحصائها ، هذا أمر الله الذى ليس لأحد تجاوزه .

ورسول الله ﷺ يقول : « إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصِم »[1] فالذى يجابهك بالخصومة يجعلك تحتاط له ، أما الذى يقابلك بنفاق فهو الذى يريد أنْ يخدعك ، وهذا عنف فى الخصومة .

فالخصم الواضح أفضل لأنه يواجهك بما فى باطنه ، لكن إذا جابهتَ الذى يبطن خصومته ويُظهر محبته يكون قاسياً عليك فى خصومته لأنه يريد أنْ يخدعك ويُبيِّت لك .

لذلك قال تعالى بعدها : ﴿ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ .. (٥) ﴾ [الطلاق] فلم يقُل الحق سبحانه : أنزله إليك . رغم أن أمر الله وحكمه وتشريعه أنزله الله على محمد رسول الله ﷺ ، وهذا دليلٌ من الله على أن الله يخاطب بهذا التشريع كل أحد من أمة محمد ، وكأنه أنزله على كل فرد من أفراد الأمة .

ثم إن أمْر الله أمر خالق ربٍّ ، فالحق سبحانه هو المتولِّى التربية ، ومعنى التربية هو إيصال مَنْ تتم تربيته إلى الكمال المطلوب له ، فهناك ربٌّ يربِّى ، وهناك عبد تتم تربيته ، والرب يعطى الإنسان ما يؤهله إلى الكمال المطلوب له .

والله عز وجل ربٌّ ، ومن عادة الرب أنْ يتعهد المربَّى ليؤدى غايته على الوجه الأكمل ، أرأيتم أباً يربى أبناءه إلا لغاية ؟ وما دام هو سبحانه ربِّى فلا يأمرنى إلا لصالحى وصالح مجتمعى ، فلا شيء من طاعتنا يعود عليه بالنفع، ولا شيء من معاصينا يعود عليه بالضرر ، لأنه سبحانه خلق الكون كله بصفات الكمال المطلق .

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٤٥٧ ، ٧١٨٨) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٦٩٥١) والترمذى فى سننه (٢٩٧٦) والنسائى فى سننه (٥٤٢٣) وصححه الألبانى .

والفطرة السليمة تقتضى استقبال أوامر الله بالقبول والتسليم ، ولو تأملنا السورة من أولها سنجد أن الله كرر الحديث عن أمر الله ، فقال فى الآية الأولى: ﴿ لَا تَدْرِى لَعَلَّ اللهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا .. (١) ﴾ [الطلاق] وفى الآية الثالثة قال : ﴿ إِنَّ اللهَ بَالِغُ أَمْرِهِ .. (٣) ﴾ [الطلاق]

ثم يقول تعالى فى الآية الرابعة : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا .. (٤) ﴾ [الطلاق]

ثم يقول تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ أَمْرُ اللهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ .. (٥) ﴾ [الطلاق] فكأنَّ الأمر الذى سيُحدثه الله بعد ذلك هو ذلك التشريع والحكم فى العدَّة وقبلها الرجعة ، وهذا الأمر سيكون يُسْراً على عباده لا عسراً ، لذلك قال تعالى : ﴿ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا .. (٤) ﴾ [الطلاق]

ولم تتوقف الآيات عن ذكر أمر الله ، بل قال تعالى فى الآية الثامنة : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ[1] عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا .. (٨) ﴾ [الطلاق]

وكأنَّ الله يُحذر ويُنبه لعاقبة الخروج عن أمر الله وشرْعه وحكمه ، لذلك ناسب هنا أنْ يذكر الحقّ سبحانه تقوى الله وخشيته للمرة الرابعة من بداية السورة ، فيقول تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا (٥) ﴾ [الطلاق]

يُحدِّثنا الحق سبحانه مرة ثالثة عن ثواب التقوى وجزائها ، أما الأولى فقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ .. (٣) ﴾ [الطلاق] أما الثانية فقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا (٤) ﴾ [الطلاق]

---

(١) عتت : كفرت وتركت أمر ربها فلم تقبله . [زاد المسير الطلاق ٨] عتت : عصت وطغت . [البغوى فى تفسيره] . عتت : أعرضت . عتت : تكبرت وطغت .

إيجاد مخرج للمتقى مما هو فيه ، ثم التكفّل برزقه من حيث لا يحتسب ثم تيسير أمره ، وكلّ هذا فى الدنيا ، سنحلّ لك مشكلتك بإيجاد المخرج لك منها، وسنجعل رزقك من مصادر وموارد لم تكن تتوقعها ، وسنيُسّر لك أمرك ، كلُّ هذا بفضل تقواك لله ، فتقواك هى التى فتحت لك أبواب الخير كلها فى الدنيا .

ولكن ماذا عن الآخرة ؟ هنا تأتى آية ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا (٥) ﴾ [الطلاق] فجزاءُ التقوى فى الآخرة أمران ذكرتهما الآية : تكفير السيئات ، وإعظام الثواب والأجر .

وتكفير السيئات مرتبطٌ بأنْ يجتنبَ الإنسانِ كبائرِ الذنوب كالزنا والقتل، يقول تعالى : ﴿ إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا (٣١) ﴾ [النساء]

واجتناب الكبائر ليس معناه فقط عدم مزاولة الحدث أو الفعل ، ولكن أيضاً عدم الاقتراب من مظانّ الحدث حتى يسدّ المؤمنُ على نفسه مخايلة شهوة المعصية له وتصوّره لها وترائيها له .

ومعنى تكفير السيئات أى إماطة العقاب ، فإنِ ارتكب إنسانٌ أمراً يستحقّ عليه عقاباً وقد اجتنب الكبائر يُكفِّر عنه الله أى يضع ويستر عنه العقاب .

فالاجتناب إعطاءُ الشيء جانباً وهو التباعد ، وهو أبلغ من مزاولة الفعل. والكبائر جمع كبيرة وهى مقابلةٌ للصغير من السيئات ، وهناك ما هو أصغر من الصغيرة وهو اللمم[١] .

---

(١) اللمم فى كلام العرب : المقاربة للشيء . والمراد به هاهنا ستة أقوال :
- ما ألموا به من الإثم والفواحش فى الجاهلية فإنه يُغفر فى الإسلام .
- أن يلم بالذنب مرة ثم يتوب ولا يعود .
- أنه صغار الذنوب كالنظرة والقبلة .
- أنه ما يَهُم به الإنسان .
- أنه ما خطر بالقلب .
- أنه النظر من غير تعمد . [زاد المسير لابن الجوزى] .

والحق سبحانه هنا عندما يقول ﴿ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ .. (٣) ﴾ [الطلاق] المقصود بها صغائر الذنوب لا كبائرها ، لأن تكفير السيئات مشروطٌ باجتناب الكبائر ، إذن ليست الكبائر هي التي ستكفَّر بل الصغائر ، فالسيئات منوطةٌ بالأمر الصغير وبالأصغر .

والحق سبحانه لن يسقط العذاب والعقاب فقط ، بل سيزيدكم الله فسيعطيكم المدخل الكريم ، فقال تعالى : ﴿ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا (٣١) ﴾ [النساء] ، ويقول سبحانه : ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ .. (٢٦) ﴾ [يونس]

وقد كان يكفي تكفير السيئات وألاَّ تعاقب ، لكنك حين تتجنب الكبائر لا يسقط عنك العقاب فقط ، بل يُدخلك الله مُدخلاً كريماً .

والمدخل الكريم يتناسب مع مَن يُدخلك في مُدْخله ، فما بالك بمدخل يُدخلك إياه الله ؟

يقول رسول الله ﷺ : قال الله تعالى : « أعددتُ لعبادى الصالحين ما لا عينٌ رأتْ ، ولا أذن سمعتْ ، ولا خطر على قلب بشر واقرءوا إن شئتم : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ .. (١٧) ﴾ [السجدة] (١)

ولتكفير الذنوب والسيئات طرق أخرى هيأها الله لعباده تطهيراً لهم من السيئات والخطايا وتخفيفاً لأثقالهم فى يوم الحساب ، كالمرض والموت وغيرهما من القدريات التى يُجريها الله عليك ، حينها قُلْ إنَّ ربى أراد بى خيراً.

فبها تُكفَّر الذنوب والسيئات وبها أنال أجر الصابرين ، وربما أننى غفلتُ عن ربى أو غرَّتنى النعمة فابتلانى اللهُ ليلفتنى إليه ويُذكِّرنى به .

وقد فتح الحق سبحانه أبواباً أخرى لتكفير السيئات والذنوب ، فجعل من

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٢٤٤) وكذا مسلم فى صحيحه (٧٣١٠) والترمذى فى سننه (٣١٩٧) وابن ماجه فى سننه (٤٣٢٨) عن أبى هريرة رضى الله عنه .

أسس الاستغفار : من الصلاة للصلاة كفارةُ ما بينهما ، الجمعة للجمعة كفارة، الحج كفارة ، الصوم كفارة .

عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « الصلوات الخمس ، والجمعة إلى الجمعة كفارةٌ لما بينهن ما لم تُغْشَ الكبائر »(١).

أى أن ربنا قد جعل أبواباً متعددة للمغفرة والرحمة ، من هذه الأبواب أيضاً صوم يوم عرفة ، ألم يقُلْ رسول الله ﷺ : « صوم يوم عرفة إلى صوم يوم عرفة يُذهب السيئات »(٢) .

ويقول تعالى : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا(٣) مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ .. (١١٤) ﴾ [هود]

وأول هذه الحسنات التى تُذهِب السيئات هى الإيمان بالله وأنْ تشهد أن لا إله إلا الله ، وهذه حسنةٌ أذهبت الكفر ، فالإيمان بالله هو أكبر صفة ، وهذه الحسنة تُذهِب الكفر .

وذهاب السيئة يكون إما عن طريق مَنْ يحفظ عليك العمل ويكتبه عليك فيمحوه الله من كتاب سيئاتك ، أو أنْ يعفو الله سبحانه عنك فلا يعاقبك عليه، أو يكون ذهاب العمل فى ذاته فلا يتأتّى ، وما وقع لا يرتفع أو يحفظها الله إنْ وقعتْ .

فهو سبحانه القائل : ﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (١١٨) ﴾ [ق] ويقول سبحانه : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (١٠) كِرَامًا كَاتِبِينَ (١١) ﴾ [الانفطار]

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٥٧٢) ، وأخرجه الترمذى فى سننه (٢١٤) ، وابن ماجه فى سننه (١٠٨٦)، وأحمد فى مسنده (١٠٢٩٠) وابن خزيمة فى صحيحه (٣١٤) عن أبى هريرة رضى الله عنه .

(٢) مما ورد فى هذا ما أخرجه البيهقى عن الفضل بن عباس عن النبى ﷺ قال : "من حفظ لسانه وسمعه وبصره يوم عرفة غفر له من عرفة إلى عرفة " . شعب الإيمان (٣٤٩٠) .

(٣) الزلف : ساعات الليل ، واحدتها زلفة . وزلف الليل : المغرب والعشاء .

وهكذا يكون إذهاب السيئة وتكفيرها ، إما محوها من الكتاب ، وإما أنْ تظلّ فى الكتاب ، ويُذهب الله سبحانه عقوبتها بالمغفرة .

والتقوى تنتظم كلّ أفعال الخير والحسنات التى تُذهب السيئات ، لذلك قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ .. (٥) ﴾ [الطلاق] وأنت عندما تتقى الله فى زوجك وأولادك وأهل بيتك وتعاملهم بما يُرضى الله سبحانه وتجنِّبهم الحرج والعَوَز يغفر لك الله ويكفر عنك سيئاتك .

والتقوى مخاطبٌ بها الرجل الزوج أو المطلّق ، ومخاطبٌ بها الزوجة أو المطلَّقة ، فليتق الله كلٌّ منهما فى أحكام الله سواء الرجعة أو إحصاء العدَّة من قِبَل الزوج أو الزوجة ، وأنْ لا تتلاعب المرأة فى أمر حيضتها وحمْلها لتتلاعب بأمر ميراث أو غيره .

لهؤلاء جميعاً يقول تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ .. (٥) ﴾ [الطلاق] وليس هذا فقط ﴿ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا .. (٥) ﴾ [الطلاق]

بعد محو السيئات ومحو العقاب عليها يأتى إعظامُ الأجر والثواب ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ .. (٢٦) ﴾ [يونس]

وتعظيم الأجر قد يكون بمضاعفة الجزاء على الحسنة بعشرة أضعاف إلى سبعمائة ضعْف . يقول تعالى : ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١٦٠) ﴾ [الأنعام]

فالأصل هو الحسنة ، وهذا هو مطلق الرحمة والفضل ، ولذلك ورد الحديث: « إنَّ ربكم عز وجلّ رحيم ، ومَنْ هَمَّ بحسنة فلم يعملها كُتبت له حسنة ، فإنْ عملها كُتبتْ له عشراً إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ، ومَنْ همَّ بسيئة فلم يعملها كُتبت له حسنة ، فإنْ عملها كُتبت له واحدة أو يمحوها الله عز وجل، ولا يهلك على الله إلا هالك »[1].

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٢٥١٩) والنسائى فى السنن الكبرى (٧٦٢٣ ، ١١٨٠١) وأبو عوانة فى مستخرجه (١٨٧) والطبرانى فى المعجم الكبير (١٢٥٩١) وابن منده فى التوحيد (١٩٠) من حديث عبد الله بن عباس رضى الله عنهما .

ولكن لماذا يجعل الله لنا أجراً على فعلنا الخير وعلى تقوانا له ، أليس الأوْلَى أن يكون فعل الخير وتقوانا لله بدونِ أجر ؟

لقد وضع الحق سبحانه هذا الأجر لأنه جلَّ وعلا يريد للحسنة أن تُفعل وينتفع الغير بها ، فإنْ كان فاعلها حريصاً على الأجر الزائد فهو يقدمها بنية مخلصة، والناس يختلفون فيما بينهم ، والأكثرون يحبون أنْ يُؤجروا عما يفعلونه ، بل يزداد فعلهم للخير أكثر عندما يزداد الأجر ، هكذا طبيعة البشر .

والقليل هم الذين يفعلون الخير لحبِّهم لفعل الخير ويحبون الله لأنهم يحبونه، ولأنه أهْلٌ للطاعة ولأنه أهْلٌ للحب ، فمَنْ أطاع الله رغبةً في النعيم بالجنة يأخذ جنة الله ، ومَنْ أطاع الله لأن ذات الله أهْلٌ لأنْ تُطاع فإن الله يعطيه متعةَ ولذةَ النظر إليه سبحانه .

تقول رابعة العدوية[1] في هذا المعنى :

كُلُّهُمْ يَعْبُدُون مِنْ خَوْفِ نَارٍ ... وَيَرَوْنَ النَّجَاةَ حَظاً جَزِيلاً
إِنَّنِي لسْتُ مِثْلَهم وَلهذَا ... لَسْتُ أَبْغِي بمَنْ أُحِبُّ بَدِيلاً

وقالت أيضاً : اللهم إنْ كنتَ تعلم أنِّي أعبدك خوفاً من نارك فأدخلني فيها، وإنْ كنتَ تعلم أنِّي أعبدك طمعاً في جنتك فاحرمني منها ، إنما أعبدك لأنك تستحقّ أنْ تُعبد .

فحبُّك لله ولطاعته ولتقواه هو الذي يرتقي بك في مقامات الإيمان لا حُبك للثواب والأجر ، ورسول الله ﷺ يقول : « ثلاثٌ مَنْ كُنَّ فيه وجد بهنَّ حلاوة الإيمان: مَنْ كان الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما ، وأنْ يُحبّ المرء لا يحبه إلا لله ، وأنْ يكره أنْ يعود في الكفر بعد أنْ أنقذه الله منه كما يكره أنْ يُقذف في النار »[2] .

---

(١) هي رابعة بنت إسماعيل العدوية أم الخير مولاة آل عتيك البصرية ، صالحة مشهورة مولدها بالبصرة، لها أخبار في العبادة والنسك ولها شعر، توفيت بالقدس عام ١٣٥ هجرية .

(٢) حديث متفق عليه . أخرجه البخاري في صحيحه (١٦، ٢١ ، ٦٩٤١) وكذا مسلم في صحيحه (١٧٤، ١٧٥) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه ، وكذا أخرجه الترمذي في سننه (٢٦٢٤) والنسائي في سننه (٤٩٨٧ ، ٤٩٨٨) .

وفى الحديث القدسى : « أَوَلَوْ لمْ أخلق جنة وناراً ، أما كنت أهْلاً لأنْ أُعبد »؟ .

فالله تعالى بذاته سبحانه أكبر من أيِّ شيء حتى وإنْ كانت الجنة والأجر من الله ، ففى آخر سورة الكهف يقول تعالى : ﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (١١٠) ﴾ [الكهف]

فلم يقُلْ : مَنْ كان يرجو جزاء ربه أو أجر ربه أو جنة ربه أو نعيم ربه ، إنَّ المؤمن الحق لا ينظر إلى النعيم بل يطمع فى لقاء المنعم سبحانه .

ومن تعظيم الأجر تبديل السيئات حسنات ، قال تعالى : ﴿ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَـٰئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ .. (٧٠) ﴾ [الفرقان]

فالحسنة تعملها تُحسب لك بعشرة أضعاف إلى سبعمائة ضعف ، أما السيئة فتُحسب لك سيئة واحدة ، فكم من الحسنات ستكتب لك ؟ وكم من السيئات ستُكتب عليك ؟ ومع هذا فإن الله سيبدل سيئاتك هذه القليلة إلى حسنات .

وهذا دليلٌ على عظيم فضل الله ، وأنه سبحانه لا يريد أنْ يعذب عباده فهم خَلْقه خلقهم الله بيديه ، يقول تعالى : ﴿ مَا يَفْعَلُ اللهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللهُ شَاكِرًا عَلِيمًا (١٤٧) ﴾ [النساء]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ ۚ وَإِن كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۖ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ۖ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَىٰ (٦) ﴾

لقد رتَّب الحق سبحانه حقوقاً للمرأة المطلَّقة فى السُّكنى والنفقة لم يرتبها دينٌ من الأديان ، ولا تشريع من الشرائع ، رَاعَى فيها الحق سبحانه أحوال المرأة من حيث طلاقها الرجعى أو البات البائن بينونةً صُغْرى أو كبرى .

ورتَّب حقوقاً للمطلَّقة الحامل لأنها أَوْلَى بالرعاية ، هى وابنها الذى من حقِّه رضاعة أمه له وإنفاق أبيه على رضاعته ، وأمر الجميع بالتشاور والتناصح من أجل مصلحة طفلهما رغبةً فى إرضاء الله .

والإسلام يحفظ للمرأة حقوقها تجاه زوجها الذى طلَّقها ، أياً كانت الحالة التى طُلِّقت عليها ، فإنْ كان طلاقها رجعياً احتفظ لها بحق السكنى فى مسكن الزوجية ، وكذلك النفقة عليها عسى أنْ يذيبَ القُرْب ما حدث بينهما من جفاء، فيُرجعها زوجها وتستمر بهما الحياة ويستقر الأمر بينهما ، وينشأ الأولاد بينهما فى جو سليم .

بل إن الله حرَّم على الزوج طرْدَ مطلّقته الرجعية من البيت وإلقاءها فى الشارع ، أو إرجاع الزوجة إلى بيت أهلها ، إلا إنْ جاءت بفاحشة واضحة لا تحتمل اللبس أو الشك أو عدم اليقين .

قال تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ .. (١) ﴾ [الطلاق]

ولكن ماذا عن حقِّها وقد بانتْ منه ، سواء بانقضاء عدَّتها أو أنه طلقها طلاقاً بائناً ، حينها لا يحقّ لها الرجوع إليه إلا بعقد جديد ومهر جديد .

وإلى أنْ تعود إليه بعقد جديد وصَداق جديد لها عليه حَقّ السُّكنى ، قال تعالى : ﴿ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ .. (٦) ﴾ [الطلاق] فقوله تعالى : ﴿ أَسْكِنُوهُنَّ .. (٦) ﴾ [الطلاق] يعنى المطلقات اللاتى بِنَّ من أزواجهن فلا رجعة لهم عليهنَّ وليست حاملاً .

ولو كانت السُّكنى مع أزواجهن فى بيوتهن لما قال تعالى : (أسكنوهن) وكلمة ﴿ أَسْكِنُوهُنَّ .. (٦) ﴾ [الطلاق] فيها معنى السكينة والطمأنينة ، أى أنْ يكون المسكنُ آمناً لها ، فالسكن هو المكان الذى يستريح فيه الإنسان ويرجع إليه دائماً ،ولذلك قال تعالى : ﴿ وَقُلْنَا يَـآدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ .. (٣٥) ﴾ [البقرة]

فـ (اسكن) فيها عنصران : الهدوء والاطمئنان ، هذا هو معنى اسكن : توفير الهدوء والاطمئنان ، ومنه أخذ اسم السكن وكلمة المسكن ، وإذا فقد المكان الذى تسكن فيه عنصراً من هذين العنصرين ، وهما الهدوء والطمأنينة لا يقال عليه مسكن .

والسكن يحقق الاستقرار ويتيح للإنسان أنْ يأكل براحة وتأنٍّ ، فسكنُك الحقيقى هو الذى تشعر فيه بالهدوء والراحة والخصوصية ، فالسكن يحتاج إلى استقرار ذاتيٍّ لا يشاركك فيه أحد .

وقوله تعالى : ﴿ مِنْ حَيْثُ .. (٦) ﴾ [الطلاق] فـ (من) للتبعيض ، ومعناه : أسكنوهن مكاناً من بعض مساكنكم ، ولذلك قال قتادة : لو لم يكُنْ له إلا بيت واحد أسكنها فى بعض جوانبه[1] .

وذلك كقوله تعالى : ﴿ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ .. (٣٠) ﴾ [النور] أى بعض أبصارهم ، فمن الأبصار ما لا يُغضّ كالقاضى الذى يحكم فى قضية طرفها امرأة لا بدّ له من التحقُّق منها والنظر إليها .

وإذا كانت المرأة المطلَّقة من حقها مسكن مناسب هاديء مريح لها ولأولادها، فمن باب أوْلى أن يُسكِن الزوجُ زوجته التى معه سكناً كريماً مناسباً، فحق السُّكنى هو حقٌّ أوجبه الله تعالى .

---

(١) ذكره الطبرى فى تفسيره من قول سعيد بن جبير : فإن لم تجد إلا ناحية بيتك فأسكنها فيه . وذكره ابن كثير فى تفسيره من قول قتادة : إن لم تجد إلا جنب بيتك فأسكنها فيه . وكذا الشوكانى فى فتح القدير (٧/٢٤٦) .

فـإذا وجبت السُّكنى للمطلَّقـة فللتى فى صـلب النكاح أوْلَى ، قـال تعالى : ﴿ وَعَاشِرُوهُـنَّ بِالْمَعْـرُوفِ .. (١٩) ﴾ [النسـاء] ومـن المعروف أن يُسكنها فى مسـكن ، لأنها لا تسـتغنى عن المسكن للاسـتتار عن العيون وليكون لها حرية تصرُّف فى مسكنها وحفظ متاعها وحاجياتها .

ويجب أنْ يكون السـكن متناسـباً مع متطلبات العصر وتتوفر فيه مقومات الحيـاة الضرورية ، ولكن ليس معنى هذا أنْ تتعنت المرأة فى طلباتها وتُرهق زوجها أو حتى طليقها بطلبات لا يستطيعها .

لذلـك قـال تعالى : ﴿ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ .. (٦) ﴾ [الطلاق] أى سـكناً مناسـباً لحالتك المادية يتوافق معك قبل أنْ يتوافق معها، بحيث إنك ترضـى أنْ تسكن فيه ولا تعافه ولا تستقذره .

ثم يضيف الحق سبحانه : ﴿ مِنْ وُجْدِكُمْ .. (٦) ﴾ [الطلاق] فالشيء يتناسب مع قدرة صـاحبه ، فالرجل الفقير حين يبنى مسـكناً يكون المسـكن متواضعاً مجرد حوائط تسـتر الإنسـان ، أما صـاحبُ الإمكانات الضـخمة فيبنى قصراً كبيراً .

فالله أوجب السـكن للمطلَّقة على مُطلِّقها ولكن مما يسـتطيعه ومما يجده لا يُكلّـف أكـثر من طاقته ، ولا يقصـر عن طاقته الفعلية ، فلا يكـون ذا إمكانات مرتفعـة ، ثـم يُسـكن زوجتـه أو مُطلّقتـه سـكناً غـير مناسـب لهـا ولا لقدرته المادية.

فقوله تعالى : ﴿ مِنْ وُجْدِكُمْ .. (٦) ﴾ [الطلاق] قوْلٌ مُعجز يندرج تحته كلام كثير ، وهو حَلٌ لمشاكل اجتماعية كثيرة تقع بين الرجل والمرأة .

فقولـه ﴿ مِـنْ وُجْدِكُـمْ .. (٦) ﴾ [الطلاق] يعنى : من سـعتكم التى تجدون ، والوُجْد : الغنى والمقدرة . إنْ كان موسراً يُوسع عليها فى المسكن والنفقة ، وإنْ كان فقيراً فعلى قدْر الطاقة .

فقدْر وحالة المسكن تكون بالمعروف بين الناس ، فهو البيت الذى يسكنه مثلُه ومثلها بحسب وُجد الزوج وعُسْره ، والوُجْد المقدرة والطاقة على ما يجد، فإنْ كان مُوسَّعاً عليه وسَّع عليها فى المسكن والنفقة ، وإنْ كان مُقتَّراً عليه فعلى قدْر ذلك .

والحق سبحانه يقول في موضع آخر : ﴿ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ (٢٣٦) ﴾ [البقرة]

فنفقة المتعة تكون فى حدودٍ تناسب حالة الزوج . والموسّع الغنى عليه أنْ يعطى ما يليق بعطاء الله له ، والمقتر الفقير عليه أنْ يعطى فى حدود طاقته .

فالموسع هو الذى أوسع على نفسه بتوسيع حركة أسبابه فى الحياة ، والإقتار هو الإقلال ، وعلى قدْر السّعة وعلى قدْر الإقتار تكون المتعة ، كذلك السكن والنفقة .

والحق سبحانه لا يُكلّفنا إلا بما نقدر عليه ونطيقه ، يقول تعالى : ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا .. (٢٨٦) ﴾ [البقرة] ، وكلّ تكاليف الرحمن تدخل فى الوُسْع ، فإنْ كان سبحانه قد كلَّف فاعلم أيها الإنسان أنه سبحانه قد كلّف بما فى وُسْعك وبما يدخل فى طوْعك .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ .. (٦) ﴾ [الطلاق] يعطينا الحق سبحانه هنا لفتةً إلى استخدام كلمة ﴿ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ .. (٦) ﴾ [الطلاق] ولم يقُل تعالى : ولا تضروهن . وكلاهما من مادة واحدة (ض ر ر) ولكن الفرق كبير بين اللفظين .

فـ (تضروهن) تدل على إيقاع الضرر ولكن قد يكون عن غير قصد ، فالزوج قد يفعل فعلاً ونيته حسنة ، فيتسبَّب هذا فى وقوع ضرر بالمرأة .

أما المضارَّة فهى الإضرار عن قصد وعمد ، بل وببذل الجهْد الكبير والمال للإضرار بالمرأة ، وهذه المضارَّة لها صور كثيرة يفعلها ويقع فيها مَنْ لم

يتأدَّبوا بأدب الإسلام ، فتجد رجلاً يضارُّ امرأته لتفتدى نفسها منه بمالها ، أو تخرج من مسكنه الذى اتخذه لها .

وقد تكون للمضارَّة صورةٌ أخرى فقد يُطلِّقها ، فإذا بقى يومان راجعها ، وبذلك يضيع حقُّها فى السُّكنى ، إنه لا يريد أنْ يلتزم بما حدَّه الله من حدود فى علاقته بامرأته فتجده يبذل كلَّ جَهْد ليُضيع حقّ المرأة ، فهو غير مُوقِن باطلاع الله عليه .

فلا تضارُّوهن عند سُكْناهن بقول أو بفعل ، وغرضكم من هذا أنْ يَمْلَلْن فيخرجن من البيوت قبل تمام العدَّة ، لأنكم حينئذ تكونون قد وقعتم فى نَهْى الله عن إخراجهن ، قال تعالى : ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ .. (١)﴾ [الطلاق]

فالحق سبحانه نهى عن إخراجهن ، ونهاهُنَّ عن الخروج وأمر بسُكْناهن ، ولكن على وجه لا يضرُّ بهن ولا يُسبِّب لهنَّ مشقة أو عنتاً .

فقوله ﴿ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ .. (٦) ﴾ [الطلاق] هو خطاب للأزواج بأنْ يلتزموا حدود الله مع مطلقاتهن اللاتى أمسكوا بهن فى بيوتهم ، وألاَّ يستعملوا معهنَّ الكيْد والضرر وصولاً إلى حملهن على ترْك ما لهنَّ من حقوق على أزواجهن .

فحقوق المعتدَّة هى السُّكنى والنفقة ، فأسكنوا المطلَّقات فى مسكن مشابه لما تسكنون فيه بقدْر أحوالكم وسِعتكم ، ولو فى غرفة من غرف البيت الذى تسكنون فيه .

ولا تُلحقوا بهنَّ ضرراً فى النفقة والسُّكنى فتضطروهن إلى الخروج من المسكن أو التنازل عن النفقة ، فلا تؤذوهن ولو بالكلام ﴿ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ .. (٦) ﴾ [الطلاق] كى يخرجن من بيوتهن كرهاً ، بل عاملوهن بالحسنى مدة عدَّتهن ، وتذكَّروا وصية الله فيهن .

فالأمر يحتاج من الجميع مروءةً ومرحمةً وأدباً فى التعامل ووقوفاً عند حدود الله وأوامره ، غير عامدين إلى مضارّتهم ، سواء بالتضييق عليهن فى فسحة المسكن أو مستواه أو فى المعاملة فيه .

فحالات الطلاق دائماً فيها مُشادَّة وغيظ وحنق وكيد وتدبير مكائد ، لذلك يعالج الحق سبحانه هذا بشيء فوق القانون وهو الأخْذ بيد الجميع برفق ورحمة ليأخذوا من ينابيع المودة والمعروف التى فجَّرها فى القلوب بلمسات التقوى والأمل فى الله وانتظار رضاه وفرجه ويُسْره ومخرجه مما هم فيه .

فالله سبحانه يُرتِّب تعويضاً لمن يتقى الله ، فيقول : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ .. (٣) ﴾ [الطلاق] ويقول : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا .. (٤) ﴾ [الطلاق] ، ويقول : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا .. (٥) ﴾ [الطلاق]

وقد قال رسول الله ﷺ : « مَنْ ضارّ أضرَّ اللهُ بـه ، ومَنْ شاقّ شاقَّ اللهُ عليه »[١] .

بل إن أبا بكر الصديق رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ملعونٌ مَنْ ضارَّ مؤمناً أو مكر به » وقال : « ملعونٌ مَنْ ضارَّ مسلماً أو غرَّه »[٢] أى : خدعه وغشّه .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَإِنْ كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ .. (٦) ﴾ [الطلاق]

المطلَّقات قد يكُنَّ حوامل وقد يكُنَّ غير حوامل ، وقد خَصَّ اللهُ هنا ذوات الأحمال بحديث وبكلام يخصهنَّ لعظم الوصاية بهنّ ، فإن الله هو خالق

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (١٥٧٩٣) والترمذى فى سننه (١٩٤٠) وأبو داود (٣٦٣٧) ، وابن ماجه (٢٢٣٤٢) وأبو القاسم البغوى فى معجم الصحابة (١٩٦٥) ، من حديث أبى صِرْمة واسمه قيس الأنصارى .

(٢) أخرجه الترمذى فى سننه (١٩٤١) وقال : حديث غريب . وضعَّفه الألبانى وكذا أبو بكر المروزى فى مسند أبى بكر (١٠٠) مختصراً ، وقد رواه البزار فى مسنده (٤٣) مطولاً بلفظ : "لا يدخل الجنة جسد غُذِّى بحرام ، ولا يدخل الجنة سيء الملكة ، ملعون من ضارّ مسلماً أو غرَّه " .

الناس وعالمٌ بنفوسهم ، فهو سبحانه يعلم أنّ بعض الرجال قد يمتنعون عن النفقة على مطلّقاتهم من الحوامل رغم أنهن حوامل فى أبنائهن .

فإنَّ عدة الحامل هى حتى تضع حملها ، قال تعالى : ﴿ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ.. (٤) ﴾ [الطلاق] وهذه المدة قد تطول فقد يكون قد طلَّقها وهى فى الشهر الأول ، وهو مُلزم بالإنفاق عليها طول مدة عِدَّتها .

لذلك جاء قول الحق سبحانه : ﴿ وَإِنْ كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ .. (٦) ﴾ [الطلاق] ، فنفقتُها واجبة عليه حتى تضع حملها أى حتى تنتهى عِدَّتها .

والحق سبحانه تحدَّث فى عموم المطلّقات البائنات أولاً عند الكلام عن السُّكنى ، ولكنه سبحانه أوجب للحامل منهنَّ حقاً آخر وهو النفقة عليهن ، وقد قال بعض العلماء : إن الله سبحانه لما ذكر السُّكنى أطلقها لكلِّ مطلَّقة ، فلما ذكر النفقة قيَّدها بالحمْل ، فدلَّ على أن المطلقة البائن لا نفقةَ لها .

ويدلُّ على هذا حديث رسول الله ﷺ الذى حدَّثتْ به فاطمة بنت قيس[١] قالت: أرسل إليَّ زوجى أبو عمرو بن حفص بطلاقى ، وأرسل معه بخمسة آصع[٢] تمر وخمسة آصع شعير ، فقلت : أما لى نفقة إلا هذا ولا أعتدّ فى منزلكم ؟ قال : لا ، قالت : فشددتُ عليَّ ثيابى وأتيتُ رسول الله ﷺ ، فقال : كم طلَّقك ؟ قلتُ : ثلاثاً. قال : صدق ليس لك نفقة . اعتدّى فى بيت ابن عمك ابن أم مكتوم فإنه ضرير البصر تلقى ثوبك عنده ، فإذا انقضتْ عِدَّتك فآذنيني[٣] أى : أعلمينى .

---

(١) فاطمة بنت قيس هى أخت الضحاك بن قيس القريشية الفهرية ، إحدى المهاجرات الأوَل الجميلات العاقلات ، وهى التى روت قصة الجساسة بطولها فانفردت بها مطولة ، فى بيتها اجتمع أهل الشورى لما قتل عمر . قال ابن سعد : أمها أميمة بنت ربيعة من بنى كنانة . (طبقات ابن سعد ٨/ ٢٠٠) . وانظر أُسد الغابة لابن الأثير (٣/ ٤٠٠) .

(٢) آصع : جمع صاع . والصاع يساوى أربعة أمداد ، والمُدّ ملء كفَّى الرجل وذهبت هيئة كبار العلماء فى السعودية إلى أن الصاع يساوى ٢,٦٠٠ كيلو جرام ، على أساس أن المدّ لديهم هو ٦٥٠ جراماً . ومعلوم أن المد يختلف من رجل لآخر .

(٣) أخرجه مسلم فى صحيحه (٣٧٨٦) والترمذى فى سننه (١١٣٥) والنسائى فى سننه (٣٤١٨) وأحمد فى مسنده (٢٧٣٦١) والنسائى فى السنن الكبرى (٥٥٨١) من حديث فاطمة بنت قيس .

فهذه امرأة طُلِّقت طلاقاً بائناً فليس لها سُكنى ولا نفقة ، وإنْ كان الإمام أبو حنيفة قد ذهب إلى أنَّ لها سكنى ونفقة ، لأن منْع هذا عنها هو مضارَّة لها ، والمضارَّة نهى الله عنها ﴿ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ .. (٦) ﴾ [الطلاق]

ثم يُحدِّثنا الحق سبحانه عن حق الرضيع بعد وَضْع الحمل وقد انقطعتْ نفقتها فيُرتِّب الحق سبحانه حقاً مالياً آخر فى ذمة الزوج تجاه الرضيع ، فيقول تعالى : ﴿ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ .. (٦) ﴾ [الطلاق]

وكأنَّ الحق سبحانه يجعل للمرأة حقاً ولكن من خلال حق الرضيع ، فهى أم ، وعلى كل الأحوال فهى ستُرضع ابنها ، ولكن الله يجعل لها أجراً على إرضاعها ابنها .

والحق سبحانه يُنزل للرضيع لبناً فى صَدر أمه يجده وقت أنْ يجوع ويمتنع وقت أنْ يشبع وينتهى ، ويتوقف عندما تتوقف الرضاعة ، فالله يُنزله للرضيع، ومع ذلك يُوجب الحق سبحانه على مطلّق المرأة أنْ يدفع لها أجراً على إرضاعها لطفله الذى هو طفلها .

وذلك وضْع للرجل أمام مسؤلياته فهو مسئولٌ عن إرضاع ابنه ، ثم إنه مسئولٌ عن نفقة ابنه بعد انتهاء فترة رضاعته التى قد تصل إلى عامين كاملين .

يقول تعالى : ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ .. (٢٣٣) ﴾ [الطلاق]

فعظمةُ الحق سبحانه أنه يتكلم عن إرضاع الوالدات لأولادهنَّ بعد الطلاق، فالطلاق يُورث الشقاق بين الرجل والمرأة ، والحق سبحانه وتعالى ينظر للمسألة نظرةَ الرحيم العليم بعباده ، فيريد أنْ يحمى الثمرة التى نتجتْ من الزواج قبل أنْ يحدث الشقاق بين الأبوين . فيُبلغنا سبحانه : لا تجعلوا شقاقكم

وخلافكم وطلاقكم مصدر تعاسة للطفل البريء الرضيع .

وهـذا كلامٌ عـن المطلَّقات اللاتى تركْـنَ بيوت أزواجهن ، فهُـنَّ بعيدات عن الرجل ، لأنها لو كانت معه لكان رزقُ الوليد وكسوتُه أمراً مفروغاً منه ،والحق سبحانه هنا يفرض حقاً للرضيع ، وأمه لم تكُنْ تستحقه لولا الرضاع .

وبعضُ الناس فهموا خطأ أن الرزق والكسوة للزوجات عموماً ، ونقول لهم: إن الرزق والكسوة هنا للمطلَّقات اللاتى يُرضعن فقط .

وقد تُرضـع الأم المطلقة ابنها وقد لا تُرضـعه هى ، فإنْ أرضعته هى فعلى مُطلِّقها أبى الولد أنْ يعطيها أجرَ ما أرضعتْ ، هذا طبعاً فى المطلَّقات ، بالاتفاق بينهمـا ، فـإذا رضـيتْ بأنْ تُرضـعه بأجـر مثلها لم يكُـنْ للأب أنْ يسترضـع غيرهـا.

وعليه أنْ يُوفيها أجر رضاعتها وكلّ ما يلزم من أصناف النفقة ، وهى أحقُّ بولدهـا من غيرهـا ، فشفقة الأم على ابنها أتمّ من شفقة غيرهـا عليه .

فإذا وضـعنَ حملهن وهُنَّ طوالق فقد بنَّ بانقضـاء عِدَّتهن ، ولها حينئذ أنْ تُرضـع الولد ، ولها أنْ تمتنع منه ولكن بعد أنْ تُغذيه باللبأ وهو باكورة اللبن الذى لا قوامَ للولد غالباً إلا به ، وهو ما يسـميه العامة (لبن السرسـوب) ، فإنْ أرضـعتْ استحقتْ أجر مثلها ، ولها أنْ تُعاقد أباه أو وليّه على ما يتفقان عليه من أجرة .

وقـد نصَّ الحق سـبحانه هنا ﴿ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُـنَّ أُجُورَهُنَّ .. (٦) ﴾ [الطلاق] نصّ على أن أجر الرضـاع وما يلحق به من الكسـوة والرزق إنما هو على الرجل المطلق ، لأن الرضـاعة كانت حقـاً على المرأة دون طلب أجر وهى فى عصمة زوجها ، فلما بانتْ منه بوضْعها لحملها أراد الحق سبحانه أنْ يُنبه الرجل على مسئولية المطلِّق عن رضاع ولده .

ثـم يقـول تعـالى : ﴿ وَأْتَمِـرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْـرُوفٍ .. (٦) ﴾ [الطـلاق] هنا دعوة

للرجل والمرأة للتشاور فى أمر رضاعة الرضيع والتفاهم فيما بينهما فيما يتعلق بشئون أبنائهما ، وفيما هو أنفع لهم .

والحق سبحانه يحثُّهما على أن يكون تشاورهما وتفاهمهما بمعروف، بالحسنى وبرحابة الصدر والعقل . دون مماكسة وتهرُّب من جانب الزوج ، ودون معاسرة وإحراج للآباء من جانب المطلَّقة .

فلتتشاورا ولتأتمرا فيما بينكما بأمر ينتهى باتفاق على أجرة معقولة، لا إفراطَ فيها ولا تفريط ، من غير إضرار ولا مضارة ، كما قال تعالى : ﴿ **لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِه** .. (٢٣٣) ﴾ [البقرة]

فقوله تعالى : ﴿ **وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوف** .. (٦) ﴾ [الطلاق] هو خطاب للرجال والنساء ، أى يأمر كل واحد منكم صاحبه بخير من المسامحة والرفق والإحسان.

فتُؤمر أنت بالإحسان إليها ، وتؤمر هى بالطاعة لك ، فليقبل بعضكم من بعض ما أمره به من المعروف الجميل من كلٍّ منهما ، فالجميل منها إرضاع الولد من غير أجرة ، والجميل منه توفير الأجرة عليها للإرضاع ، فالمهم هو مصلحة الولد وألاَّ يلحق به ضرر .

وليأمر كلّ واحد صاحبه بخير ، ولا شكّ أن مَنْ أمر بخير فهو أسرع إلى فعل ذلك الخير ، ليقبل كلّ واحد ما أُمِر به من المعروف والقبول والامتثال بما ائتمروا عليه بمعروف .

والحق سبحانه يقول : ﴿ **وَلَا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** (٢٣٧) ﴾ [البقرة] فالعدل وحده قد يكون شاقاً ، وقد يُبقى البغضاء فى النفوس ، أما عملية الفضل فتُنهى المشاحّة والمخاصمة والبغضاء .

والمخاصمة إنما تأتى عندما أظن أنِّى صاحب الحق وأنت تظن أنك صاحب الحق ، ومن الجائز أنْ تأتى ظروف تُزيِّن لى فَهْمى ، وتأتى لك ظروف تُزيِّن لك

فهمك ، فحين نتمسَّك بقضية العدل لن نصل إلى مبلغ التراضى فى النفوس البشرية ،ولكن إذا جئنا للفضل تراضيْنا وانتهينا .

فالفضل أنْ تتنازلَ عن حقك ، وهو يتنازل عن حقه وتنتهى المسألة ، والحق سبحانه حين يُشرِّع الحقوق يضع الضمانات ، ولكنه لا يمنع الفضل بين الناس.

ولكن المشكلة هى أنه فى حالات كثيرة يكون العذر والمكابرة والمخاصمة والمشاحنة هو الأكثر بين الناس إلا مَنْ رحم ربِّى ، ووارد أنْ يحدث عدم اتفاق على أجر الإرضاع والنفقة ، إما من قِبَل الزوج الذى لا يريد أنْ يدفع ، أو يدفع ولكن يدفع أجراً زهيداً لا يقوم بالطفل ولا بأمه .

أو يأتى من قِبَل المطلَّقة بالشطط فى الحدِّ الذى تريده أجرةً على الرضاع ، بأنْ تطلب ما لا يستطيعه الزوج ويُسبِّب عُسْراً له ، وأحياناً يكون رفْض الزوج للدفع هو هذا الشطط .

فمعنى ﴿ وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ .. (٦) ﴾ [الطلاق] أى إذا تضايقتم وتشاكستم ، والتعاسر مأخوذ من العُسْر الذى هو ضد اليُسْر والسماحة .

فماذا يكون الحل أمام الأب إزاء تعنُّت المرأة فى طلباتها ، حينها من حقِّه أنْ يبحث عن مرضعة أخرى تُرضع له ولده .

ومن إعجاز القرآن قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى (٦) ﴾ [الطلاق] ، وكأن الحق سبحانه يلفت نظر المرأة أنَّ الأمر ليس وقفاً عليه ، فإنْ كنتِ لن تُرضعيه بالمعروف والإحسان ﴿ فَسَتُرْضِعُ لَهُ .. (٦) ﴾ [الطلاق] أى للأب ﴿ أُخْرَى (٦) ﴾ [الطلاق] أى امرأة أخرى .

فـ (الفاء) هنا تنبيه للمرأة أن هناك حلاً آخر بعيداً عنها ،وسيُنزع منها الطفل لتُرضعه أخرى وتضمّه لصدرها وتُحرم هى من نظرة طفلها لها وهى تُرضعه .

والمرأة هنا هى الأوْلَى بالمعاتبة لأن المطلوب منها هو اللين فقط مع الرجل وعدم إعساره وإعجازه ، فهو دافعٌ للمال فلا داعيَ للتعنُّت معه كثر أم قلّ، فلتلينى راضيةً وإلا ﴿ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى (٦) ﴾ [الطلاق]

وأيضاً فالمطلوب منها هو لبنها لولدها ، وهذا لن تدفع فيه شيئاً ، فالله يُنزله فى ثدييها دون إرادة منها إلا ما كان من الاهتمام بأمر غذائها ليجرى فيها لبنٌ يكفى طفلها ويقوم بها .

ولكن قد يُقال : ماذا لو لم يقبل الطفلُ ثدى امرأة أخرى ، حينها تُجبر أمه على إرضاعه بأجرة مثلها حتى لا يتضرَّر الولد .

وللاسترضاع آدابه التى حدَّثنا الحق سبحانه عنه ، فقال : ﴿ وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ .. (٢٣٣) ﴾ [البقرة]

فإنْ أردتم أنْ تأتوا للطفل بمرضعة فلا لوْمَ عليكم فى ذلك ، وهذه المرضعة التى تُرضع الوليد تحتاج إلى أنْ يُعطيها الأب ما يسخيها ويجعلها تُقبل على إرضاع الولد بأمانة والإشراف عليه بصدق .

وعلى الرجل ألاَّ يُدلِّس على المجتمع ويتظاهر بتنفيذ أحكام الله فى الاسترضاع، فيقول تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٣٣) ﴾ [الطلاق]

فتجد الأب عندما يرى مرضعةَ ابنه أمام الناس فهو يدَّعى أنه ينفق عليها ويُعطيها أجرها كاملاً ويقابلها بالحفاوة والتكريم ، بينما الواقع مخالفٌ لذلك، فأنت لا تعامل المجتمع وإنما تعامل الله .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾ ﴾

على الإنسان أنْ يُحسن الحركة فى الأرض ويعمل عملاً يكفيه ويكفى مَنْ يعول ، ثم يفيض لديه ما يُحسن به .

والفارق بين المؤمن والكافر فى حركة الحياة أن الكافر يعمل فى أسباب الحياة لينتج ما يقُوته ويقُوت مَنْ يعول فقط ، أما المؤمن فإنه يزيد عليه أنَّ ما يفيض عنه يتوجه به إلى غير القادر على العمل مُحتسباً ذلك عند الله .

فلم يُغر الله الإنسان أنْ يتحرَّك لنفسه فقط ، ولكن أغراه أنْ يتحرك فى الحياة حركةً تسعه وتسع مَنْ يعول ، فحركتُك ستنفع كلَّ الدوائر حولك .

هذه الدوائر هى المذكورة هنا فى حديث رسول الله : نفسك ، ولدك ، أهلك ، زوجتك ، خادمتك .

وما دام الحق قد وضع لنا الأسباب لاستبقاء الحياة ، ووضع لنا أسلوبَ السعى فى الأرض لتستبقى الحياة بالحركة فيها ، فقد وضع أيضاً الوسيلة الكريمة لاستبقاء النوع ، وجعل من حركة الأصل ما يعود على الفرع .

وقد أوجد الحق سبحانه فى نفس كل واحد غريزةَ الحب والحنان ، ونحن نرى هذه الغريزة كآية من آيات الله مُتمكِّنة فى نفوس الآباء ، ولهذا يسعى الأب فى الحياة ليستفيد هو وأولاده .

والذى يتحرك حركةً واسعة فى الحياة قد يأتى عليه زمان يكفيه عائد حركته بقية عمره لأنه تحرَّك بهمة وإخلاص ، وأفاء الله عليه الرزق الوفير ، وقد يتحرك رجلٌ لمدة عشرين عاماً أو يزيد ، ويضمن لنفسه ولأولاده من بعده الثروة الوفيرة .

وهناك مَنْ يكدّ ويتعب فى الحياة ويكسب رزقاً يكفيه ويكفى الأبناء والأحفاد، وهكذا نجد الذين يتحركون لا يستفيدون وحدهم فقط ، ولكن المجتمع يستفيد أيضاً .

والحق سبحانه يكلِّف كلَّ مؤمن أنْ يأخذ مسئولية الإنفاق على الدائرة

القريبة منه ، ليتحمل كلّ موجود فى الحياة مسئولية قطاع من المجتمع مربوط به رباطاً نسبياً كالوالدين والأقربين .

بل إنه سبحانه أمرنا أنْ نجعل الضعفاء من الأيتام مشاعاً على المجتمع مطلوبين من الجميع ، سواء كانت تربطهم بنا قرابةٌ أو لا تربطنا بهم قرابة ، فهم جميعاً أقاربنا لأن الله كلَّفنا بأنْ نرعاهم .

واعلم أن هذا رزقهم هم ساقه الله إليهم عن طريقك ، فقد تربح مالاً وفيراً ولكنك لا تنفقه ولا تستفيد منه فلا يكون هذا رزقك ولكنه رزق غيرك وأنت تظل حارساً عليه ، لا تنفق منه قرشاً واحداً حتى تُوصِّله إلى صاحبه .

ولو امتنَّ عليك خادمك بالخدمة فتقول له : بل خدمتَ نفسك وخدمتَ عيالك حينما خدمت لتوفر لك ولهم أسباب العيش ، وأنا الذى تعبتُ وعرقتُ لأوفِّر لك المال الذى تأخذه لتنفقه وتُوصِّله لعيالك .

فكلٌّ يخدم عياله ويسعى ويكدّ ليجنى مالاً ينفقه على عياله ، والرزق من الله عز وجل، والحق سبحانه يقول : ﴿ اللهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ .. (٢٦) ﴾ [الرعد] أى : أنه سبحانه يمدّ الرزق ﴿ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ .. (٢٦) ﴾ [الرعد] من القدْر .

أى فى حالة إقداره على المقدور عليه ، وهو مَنْ يعطيه سبحانه على قدر احتياجه ، لأن القَدْر هو قطع شيء على مساحة شيء ، كأنْ يعطى الفقير ويبسط له الرزق على قدر احتياجه .

أو يقدر بمعنى يضيق على إطلاقها ، ويقول سبحانه : ﴿ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللهُ .. (٧) ﴾ [الطلاق] ولأن الله آتاه فهذا يعنى أنه بسط له بقدره . والبسْط يكون بقدر أيضاً ، ومعنى ﴿ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ .. (٧) ﴾ [الطلاق] أى : يضيق عليه .

واللام فى قوله تعالى : (لينفق) هى لام الأمر وقد جاءتْ مكسورةً لأنها فى أول الجملة ، ولا يُبتدأ فى اللغة بساكن فحركت بالكسر للتخلُّص من السكون. ثم يقول سبحانه : ﴿ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللهُ .. (٧) ﴾ [الطلاق]

فجاءت لام الأمر ساكنة ، لأنها واقعة فى وسط الكلام .

والحق سبحانه يأمر بالإنفاق ، فالإنفاق فيه حركة للمجتمع وفيه تكافلٌ، أما عدم الإنفاق والتقتير فإنه يُوقف حركة المجتمع ، وما دام الحق سبحانه يأمر بالإنفاق فلا بدّ أنْ نعرف ما هو الشيء الذى سننفقه ، ومَن الذى يستحق أنْ ينفق عليه .

وقد روى أبو هريرة رضى الله عنه أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله عندى دينار . قال : أنفقه على نفسك . قال : عندى آخر . قال : أنفقه على ولدك . قال : عندى آخر . قال : أنفقه على أهلك ، قال : عندى آخر . قال : أنفقه على خادمك . قال : عندى آخر . قال : أنت أعلم[١] .

وقد كان أبو هريرة رضى الله عنه إذا حدَّث بهذا الحديث يقول : يقول ولدك: أنفق عليَّ إلى مَنْ تكلنى . تقول زوجتك : أنفق عليَّ أو طلِّقنى ، يقول خادمك : إلى مَنْ تكلنى أنفق عليَّ أو بعْني[٢] .

والحق سبحانه يقول : ﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٢١٥) ﴾ [البقرة]

فالإنفاق يكون من الخير الذى آتانا الله إياه وهو الشيء الحسن النافع ، والمنفق عليه هو دوائر الذى ينفق ، لأن الله يريد أنْ يحمل المؤمن دوائره الخاصة، حتى تلتحم الدوائر مع بعضها فيكون قد حمل المجتمع على كل المجتمع .

فالحق سبحانه حين يُحمِّلنى مهمة الإنفاق على أسرتى ووالديَّ والأقربين فهذه صيانة للأهل ، وكلٌّ واحد منّا له والدان وأقربون ودائرتى أنا تشمل والدى

---

(١) أخرجه ابن حبان فى صحيحه (٣٣٣٧) ، وأحمد فى مسنده (٢/٢٥١ ، ٤٧١) ، وأبو داود فى سننه (١٦٩١) والنسائى فى سننه (٥/٦٢) والحاكم فى مستدركه (١/٤١٥) والبيهقى فى سننه (٧/٤٦٦) . عن أبى هريرة رضى الله عنه . وفى بعض روايات الحديث : أنت أبصر .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٧٤٢٣) من حديث أبى هريرة ، وقالوا : يا أبا هريرة هذا شيء قاله رسول الله أم هذا من كيسك ؟ قال : بل هذا من كيسى . (أى من عقلى) .

وأقاربى وهكذا ، ثم تشيع مهمة الإنفاق فى أمر آخر فى اليتامى والمساكين .

ولو حسبنا دوائر كل واحد من الوالدين والأقربين وما يكون حوله من اليتامى والمساكين فسنجد الدوائر المتماسكة قد شملت كل المحتاجين ويكون المجتمع قد حمل بعضه بعضاً ، ولا يوجد بعد ذلك إلا العاجز عن العمل .

والإنفاق هو الإخراج ، أى إخراج المال عن ملكية الإنسان ببيع أو هبة أو صلة ، فإنْ أردتَ أنْ تفتح لنفسك باب البر مع الله ، فوسع دائرة الإنفاق وستجد أن البر قد أخذ حيزاً كبيراً من الإنفاق ، لأن المنفق مُستخلف عن الله .

فالله هو الذى استدعى الإنسان إلى الوجود ، وما دام هو المستدعى إلى الوجود فهو سبحانه مكلّف بإطعامه ، وأنت إذا أنفقتَ على مَنْ كلّفك الله بالإنفاق عليه فإنك تتودد إلى الله بمساعدة المحتاجين من خلقه دون أنْ يلزمك به الله .

إنَّ عليك أنْ تتحرك فى الحياة حركةً تسعك وتسع أنْ تنفق على مَنْ تعول، وإلا لو تحركتَ حركة على قدرك فقد لا تجد ما تنفقه ، فعلى كلِّ مؤمن أنْ يأخذ مسئولية الإنفاق على الدائرة القريبة منه ، ليتحمل كلُّ موجود فى الحياة مسئولية قطاع من المجتمع مربوط به رباطاً نسبياً كالوالدين والأقربين .

والرجل مُطالب بالكدح والسَّعى من أجل الإنفاق ، والإنفاق يجب أنْ يكون من الكسب الطيب الحلال ، فلا تأتِ بمال من مصدر غير حلال لتنفق منه .

والمنفق إما ذو سعة قد وسَّع الله عليه وبسطَ له الرزق ، وإما رجل قد قُدر عليه زرقه فله قدرٌ محدَّد من الرزق .

ومناسبة الآية هنا الكلام عن الإنفاق على قدر السعة جاء باعتبار الآية السابقة قوله تعالى : ﴿ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ .. (٦) ﴾ [الطلاق] أى : مما تجدونه دون إرهاقكم بشيء فوق طاقتكم . ثم قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ .. (٦) ﴾ [الطلاق]

يريد الحق سبحانه أنْ لا تشتط المرأة فى طلبات النفقة عليها وإلزامه بما

لا يستطيعه ، ويكون فوق طاقته واحتماله ورزقه الذى رزقه الله به وبما آتاه إياه .

فيُبيِّن الحق سبحانه أنَّ أمره للرجل بالإنفاق مرتبط بقدر سعة ماله وغناه ورزقه ، فينبغى أنْ تكون النفقةُ فى حدود تناسب حالة الزوج ، فالموسع الغنى عليه أنْ يعطى ما يليق بعطاء الله له ، والمقتر الفقير عليه أنْ يعطى ما يليق بعطاء الله له ، والمقتر الفقير عليه أن يعطى فى حدود طاقته .

يقول تعالى : ﴿ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ .. (٢٣٦) ﴾ [البقرة] و (الموسع) مشتق من « أوسع » واسم الفاعل (موسع) ، واسم المفعول (موسَع له) .

فإنْ نظرتَ إلى أنَّ الرزق من الحق فهو (موسَع له) ، وإنْ نظرتَ إلى أن الحقَّ يطلب منه أنْ توسع حركة حياتك ليأتيك رزقك ، وعلى قدر توسيعها يكون اتساع الله لك فهو موسع .

فـ (الموسع) هو الذى أوسع على نفسه بتوسيع حركة أسبابه فى الحياة . والإقتار هو الإقلال ، وعلى قدر السعة وعلى قدر الإقتار يكون الإنفاق .

والله سبحانه هو الواسع العليم ، مُلْكه واسع ورزقه واسع ، ولا تظنوا أنَّ كوْنَ الله سيضيق عن رزق الرجل المفارق لزوجته ، أو المرأة المفارقة لزوجها من عطاء الله لهما .

فما دام سبحانه قد قرر الفراق كحلٍّ لعدم توافق فى حياتهما معاً ، فهو سبحانه سيعطى عن سعة للزوج وعن سعة للزوجة ، فلينفق الرجل من سعته على مُطلَّقته وعلى رضيعه ، ولتتأكد الزوجة أن الله سيُوسع لها فى الرزق إنِ اتقتْ الله عز وجل ولم تتعنت فى طلباتها المالية وطلبات رضيعها .

يقول تعالى : ﴿ اللهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ .. (٢٦) ﴾ [الرعد] والبسط هو مدّ الشيء ، فالحق سبحانه يمد الرزق لمن يشاء ويقدر .

ويقول سبحانه أيضاً : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (٣٠) ﴾ [الإسراء]

فالله الذى لا تنفد خزائنه يعطى خلْقه بقدر ، فلا يبسط لهم الرزق كلّ البسط ولا يقبضه عنهم كلّ القبض ، بل يبسط على قوم ويقبض على آخرين لتسير حركة الحياة لأنه سبحانه لو بسط الرزق ووسَّعه على جميع الناس لاستغنى الناسُ عن الناس ، وحدثتْ بينهم مقاطعة تفسد عليهم حياتهم .

ووراء ذلك حكمة بالغة لله تعالى ، وعلى العبد أنْ يرضى بما قسم له فى الحالتين ، وأنْ يسير فى حركة حياته سيراً يناسب ما قدّره الله له من الرزق .

﴿ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللهُ .. (٧) ﴾ [الطلاق] أى : مَنْ ضيق عليه الرزق فلينفقْ على قدره ولا يتطلع إلى ما هو فوق قدرته وإمكانياته ، وهذه نظرية اقتصادية تضمن للإنسان الراحة فى الدنيا وتوفِّر له سلامة العيش .

ومَنْ يتأمل قوله تعالى : ﴿ لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ .. (٧) ﴾ [الطلاق] يجد أن الحق سبحانه نسب السعة إلى الإنسان الموسَّع عليه الغنى المتيسّر الحال ، أما مَنْ قُدر عليه رزقه ، فقال تعالى : ﴿ مِمَّا آتَاهُ اللهُ .. (٧) ﴾ [الطلاق]

فنسب ما عند الفقير إلى أن هذا هو ما آتاه الله إياه ، وكأنَّ الحق سبحانه فى الأولى يجعل السعة من سعى الإنسان مع أنَّ ما كسبه نتيجة سعيه هو أيضاً مما آتاه الله .

فالله كما قلنا يبسط الرزق لمَنْ يشاء ، أما قوله تعالى فى حالة التقدير ﴿ مِمَّا آتَاهُ اللهُ .. (٧) ﴾ [الطلاق] فهى لفتةٌ للمرأة أنه إذا كان مُطلِّقها غير قادر ، وليس عنده ما يُلبِّى طلباتها فهذا ليس ذنبه ، إنما هذا ما قدَّره الله له من رزق .

ولذلك قال تعالى : ﴿ وَمَنْ قُدِرَ .. (٧) ﴾ [الطلاق] ببناء الفعل للمجهول دلالةً على أنَّ أمر الرزق وتوسيعه أو تقريره ليس بيد الإنسان ، إنما هو محْضُ عطاء من الله ، فهذا الذى قدر عليه رزقه إنما قدّره الله وحدَّد له رزقاً محدداً .

والإنسان إنما يُنفق مما آتاه الله ويرزقه إياه ، بقدر غناه وثرائه أو فقره ، فعلى الوالد أنْ ينفق على الأم المرضع التى طلَّقها بقدر سعته وغناه .

ومَنْ كان رزقه بمقدار القوت فحسب فلينفقْ على مقدار ذلك لا يُكلف الله أحداً من النفقة على مَنْ تلزمه نفقتهم إلا بمقدار ما آتاه الله من الرزق .

وهذا بحسب إعساره أو يساره ، وغناه أو فقره ، فالله لا يُكلِّف نفساً إلا ما أعطاها من قدرة أو غِنى ، وعند الاختلاف يُقدِّر القاضى النفقة وتكون بحسب دخْل الرجل وما يملك من مال .

وهذا فيه مراعاةٌ لحال المعسر إنْ كان صادقاً ، وترغيب له فى أنْ يبذل مجهوده للإنفاق .

والإنسان إنما ينفق بحسب سعته ، وقد سأل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب عن أبى عبيدة أى عن حاله ، فقيل : إنه يلبس الغليظ من الثياب ويأكل أخشن الطعام فبعث إليه بألف دينار .

وقال للرسول : انظر ما يصنع بها إذا هو أخذها ، فما لبث أنْ لبس الليِّن من الثياب وأكل طيِّب الطعام فجاءه الرسول فأخبره فقال : رحمه الله تأوّل هذه الآية ﴿ لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللهُ .. ﴾ (٧) [الطلاق] [١]

وعن أبى مالك الأشعرى قال قال رسول الله ﷺ : ثلاثة نفر كان لأحدهم عشرة دنانير فتصدَّق منها بدينار ، وكان لآخر عشر أواق فتصدَّق منها بأوقية ، وكان لآخر مائة أوقية فتصدّق منها بعشر أواق[٢] .

---

(١) أورده السيوطى فى الدر المنثور وعزاه لابن جرير الطبري عن أبى سنان (الطلاق ٧) وأخرجه الطبرى فى تفسيره (٣٤٦٦٦) ، وهو فى جامع الأحاديث (٣٠١٢١) وكنز العمال (٤٦٥٧) وعزاه لابن جرير الطبرى .

(٢) أخرجه الطبرانى فى المعجم الكبير (٣٣٦١) ، وكذا فى معجم الشاميين (١٦٦٢) وضعَّفه الألبانى فى السلسلة الضعيفة (٣٤٤٩) من حديث أبى مالك الأشعرى ، وكذلك ضعفه فى ضعيف الجامع (حديث رقم ٢٥٨٨) .

فقال رسول الله : هم فى الأجر سواء ، كُلٌّ قد تصدَّق بعشر ماله ، قال تعالى: ﴿ لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ .. (٧) ﴾ [الطلاق] ، فلا يكلّف الفقير مثلما يكلَّف الغنى ، لذلك قال تعالى : ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا .. (٧) ﴾ [الطلاق]

فمَنْ وسَّع اللهُ عليه الرزق فلينفق عن سعة فى السكن والنفقة وأجر الرضاع، ومن كان رزقه ضيقاً فلا حرج عليه فلينفق بقدر ما يستطيع .

ويقول الحق سبحانه : ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا .. (٢٨٦) ﴾ [البقرة] والوسع هو الطاقة والقوة والقدرة ، فعلى قدْر طاقتك وقدرتك يُكلفك ربك .

وهو سبحانه لا يكلفُ إلا بما فى وُسْعك ، بدليل أن المشرع سبحانه يعطى الرخصة عندما يكون التكليفُ ليس فى الوسع ، وهنا سبحانه يأمر بالإنفاق فقال (لينفق) ثم يعطى الرخصة فى نفس الآية ، فيقول تعالى : ﴿ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ .. (٧) ﴾ [الطلاق]

فالتكليف مرتبط بالوسع والطاقة ، أما مَنْ لا يقدر ولا يستطيع فيفتح اللهُ له باباً فسيحاً يُهدِّىء النفوس ويحدُّ من الخلافات والمشاحنات ، فيضع الحقُّ سبحانه مبدأ :

﴿ لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا .. (٧) ﴾ [الطلاق] فلا تظنُّوا أنّ الله حين يكلف الإنسان يُكلِّفه شططاً ، ولكن الإنسان هو الذى يضع نفسه فى موضع الشطط .

فلا تفترض وتُقدِّر أنت تكاليف المعيشة ، ثم تحاول إخضاع إرادتك إلى هذا التصوّر ، بل انظر إلى الوارد إليك وعِشْ في حيز وإطار هذا الوارد ، ولا تختلس ولا ترتشِ . ثم تقول : هذا ما آتانى الله .

فإنْ كان دخلُك مائة جنيه فرتِّب حياتك على أنْ يكون مصروفك يساوى دخلك لأن الله لا يكلفك إلا ما آتاك ، ولننظر إلى ما آتانا الله ، لذلك لا تدخل فى حساب الرزق إلا ما شرع الله ، فلا تسرق ولا تنهب .

عليك ألاّ تأخذَ ولا تنتفع إلا بما أحلَّ الله لك ، فإنْ عشْتَ فى نطاق ما أحلَّ الله يُعنك الله على كلِّ أمرك وكلِّ حاجاتك ، لأنك تحيا بمنهج الله ، فيصرف عنك الحقُّ مهمات الحياة التى تتطلب أنْ تزيدَ على ما آتاك الله ، فلا تخطر على بالك أو على بال أولادك .

فأنت إذا دخلتَ السوق وآتاك اللهُ قدراً محدوداً من المال ، وترى الكثير من الخيرات لكن الحقَّ سبحانه يجعلك لا تنظر إلا فى حدود ما فى طاقتك ، وكذلك يحسِّن لك الله ما فى طاقتك ويُبعد عنك ما فوق طاقتك ، لأن الله لا يُكلِّف نفساً إلا ما آتاها ، ولا يُحرِّك شهوات النفس إلا فى حدود ذلك .

والحق سبحانه يُطمئن الجميع ، فيقول تعالى واعداً : ﴿ سَيَجْعَلُ اللهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا (٧) ﴾ [الطلاق] فمن قتر عليه رزقه سيُيسِّر الله حاله ويُزيل حالة عُسْره، ويُبدِّله بدلاً منها يُسراً .

وقد كان عبد الله بن مسعود رضى الله عنه يقول : ما أبالى على أيِّ حال رجعتُ إلى أهلى ، لئن كانوا على عُسْر إنِّى لأنتظر اليسر ، وإنْ كانوا على يُسْر إنِّى لأنتظر العسر[١] .

فمن بعد الشدة يأتى الرخاء ، ومن بعد الضيق تأتى السعة ، ومن بعد الفقر يأتى الغنى .

فهذا وعدٌ للمعسر أنْ ينتظر الرزق من الله ويتأكد أنْ اليُسْر آتٍ إليه ، يفرج به كرْبه ويُوسِّع عليه معيشته ، وما دام الله سيجعل بعد عُسْر يُسْراً ، فإنْ جاءك اليُسْر فلا تضنّ به ولا تبخل .

فهذه بشارة للمعسرين ، فالله تعالى سيزيل عنهم الشدة ويرفع عنهم المشقة، فهم وإنْ كانوا فى حالٍ ضيقة فإنه سبحانه سيفتح عليهم وسيوسرهم .

والله سبحانه هنا يجعل اليسر بعد العسر ، فالذى لا يتأبَّى ولا يتمرد على

---

(١) أورده الغزالى فى إحياء علوم الدين (٣/٣١٩) ، قال ابن مسعود : ما أصبحت على حال فتمنيت أن أكون على غيرها . وقال عمر : ما أبالى أصبحت على عسر أو يسر لأنى لا أدرى أيهما خير لى .

قدر الله فى رزقه وفى عمله فإن الله يجعل له بعد العُسْر يُسراً .

وفى آية أخرى يجعل الله اليُسْر مع العسر لا بعده ، فقال تعالى : ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٥) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٦) ﴾ [الشرح]

وقد خرج رسول الله ﷺ يوماً مسروراً فرحاً وهو يضحك وهو يقول : « لن يغلب عُسْرٌ يُسْرَيْن »[١] .

والله إنما يريد بنا اليسر ولا يريد بنا العسر ، فلماذا تُعسِّرون على أنفسكم فكأنكم لو خالفتم ما أمر الله به توقعون أنفسكم فى العُسْر والعنت والمشقة حينها ستكونون أنتم المعسِّرين على أنفسكم .

ولا تنسوا أنَّ الله هو سبحانه الذى سيجعل بعد العُسْر يُسْراً ، فكثير من الناس يُنسيهم اليُسْر أن الله أنعم عليهم ويظنون أن النعمة قد جاءتْ عن علم منهم ، وبعض الناس تلهيهم النعمة عن أنْ يُحسُّوا بآلام الغير ويشغلوا بآلام أنفسهم ، لكن المؤمنين لا ينسون ربهم أبداً .

وإذا كان الله سيجعل بعد عُسْر يُسراً فإنَّ من الجاهلين مَنْ يأتيهم اليُسْر فيريدونه عُسْراً ويأتيهم السهل فيريدونه صعباً ، يأتيهم الفرج والمخرج من الله فيرفضون فرج الله ويُسْره .

والله لا يُيسِّر إلا لمَنْ علم من قلبه إخلاصه وتجرّده والتزامه بأوامر الله سبحانه ، كهذا الذى يقترض من الناس مالاً وفى نيته أداؤه ، فإنَّ الله يُيسِّر له سبيل الأداء .

أما مَنْ أخذ أموال الناس يريد إتلافها فالله لا يُيسِّر له أنْ يُسدد[٢] .

---

(١) أخرجه الحاكم فى مستدركه (٣٩٥٠) عن الحسن البصرى مرسلاً . ولكن قد أخرج الإمام مالك فى موطئه (٩٦١) من قول عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : أما بعد فإنه مهما ينزل بعبد مؤمن من منزل شدة يجعل الله بعده فرجاً وإنه لن يغلب عسر يسرين .

(٢) أخرج البخارى فى صحيحه (٢٣٨٧) من حديث أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : «من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدى الله عنه ، ومن أخذ يريد إتلافها أتلفه الله » ، وكذا ابن ماجة فى سننه (٢٤١١)، وأحمد فى مسنده (٨٧١٨) والبزار فى مسنده (٨١٥٨) والبيهقى فى سننه الكبرى (١١٢٧٤) .

وإذا كان الحق سبحانه استخدم (السين) التى للمستقبل فى قوله : ﴿ سَيَجْعَلُ اللهُ .. (٧) ﴾ [الطلاق] فهذا معناه لا تستبطئوا يُسْر الله فكونوا على يقين أنه آتٍ، وأن الله يَفى بوعده لكم .

ولاحظ أن الحق سبحانه لم يقُلْ : سوف يجعل ، فإنَّ (سوف) فيها امتداد لتحقُّق الأمر فى المستقبل ، أما (السين) فإنها تدلّ على قرْب حدوث اليُسْر إن اتقيتُم الله وصبرتم .

ثم يُحدِّثنا الحق سبحانه عن عاقبة العتو عن أمر الله والخروج عنه ، فيقول:

﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ ﴾

قوله تعالى (وكأين) هى للتكثير مثل (كم) ، فعندما يقول لك إنسان مثلاً: لماذا تُجافينى ؟ فتقول له : كم زُرْتك ؟ وهو لا يقصد به الاستفهام أو أنْ يذكر لك عدد زياراتك له ، إنما المقصود هو اعترافه بكثرة زياراتك له . وأنت لا تقول له : كم زُرْتك . إلا وأنت واثقٌ أنه إذا أراد أنْ يجيبَ فسيقول : زُرْتنى كثيراً .

فعندما تقول له : كم زُرْتك ؟ كم تفضلت عليك ؟ كم واسيْتك ؟ كم أكرمتك؟ فإن (كم) تأتى للتكثير وتأتى مثلها (كأيِّن) فهى للتكثير أيضاً ، فعندما تقول مثلاً على قول بعض العامة « ياما حصل كذا » فـ « ياما » هذه معناها (كأيِّن) .

ومثل هذه الآية قوله فى آية أخرى ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ[1] كَثِيرٌ .. (١٤٦) ﴾ [آل عمران] فمعناها أنبياء كثيرون قاتل معهم مؤمنون برسالتهم كما حدث وحصل مع رسول الله .

---

(١) الربيون : الجموع الكثيرة . وقال الحسن : ربيون كثير : علماء كثير . وقال أيضاً : أبرار أتقياء صبر. قال ابن الجوزى فى زاد المسير (١/٤٢٦) : فى معنى الربيين خمسة أقوال : الألوف – الجماعات الكثيرة – الفقهاء والعلماء – الأتباع – المتألهون العارفون بالله .

ويقول تعالى أيضاً : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥) ﴾ [يوسف]

فإذا سمعت (كأين) فافهم أنَّ معناها كثير كثير بما يفوق الحصر ، والعدّ هو مظنّة الحصر ، والشيء الذى فوق الحصر تنصرف عن عدِّه ، ولا أحد يحصر رمال الصحراء مثلاً .

فالانصراف عن العَدِّ معناه أنَّ الأمر الذى نريد أنْ نتوجه لعدِّه فوق الحصر ولا أحدَ يعُد النجوم أو يُحصيها ، لذلك قال تعالى ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ .. (١٠٥) ﴾ [يوسف] لكثرة هذه الآيات فى السماوات والأرض بما يفوق الحصر والعَدَّ .

فحين يقول سبحانه (وكأين) معناه أنَّ ما يأتى بعدها كثير جداً ، الذى بلغ من الكثرة مبلغاً يُبرّر لنا العذر أمام الغير إنْ لم نُحصه ، وآيات الله فى السموات والأرض كثيرة كثيرةٌ لا تُحصى ، والآيات جمع آية وهى الشيء العجيب .

فـ (كأين) تدلُّ على الكثرة مثل (كم) الخبرية حين نقول : كم أحسنتُ إليك تعنى مرات عديدة تفوق الحصر ، فهى تدلّ على المبالغة فى العدد والكمية ، ومنها أيضاً قوله تعالى : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ .. (٦٠) ﴾ [العنكبوت]

فالكثرة الكاثرة من الدواب لا تحمل رزقها ومع ذلك تأكل وتعيش ، فالبعوض والذباب مع ضَعْفه فإنه يتغذَّى على دم الإنسان القوى ، كذلك الميكروب الذى يفتك بالإنسان لا يحمل رزقه .

والغريب أنّك تجد الحصان والحمار والماشية لا تحمل رزقها رغم قدرتها على الحمل ، لذلك تراه إنْ شبع لا يدخر شيئاً ليأكله فى وقت آخر ، ربما يدوس الطعام الباقى منه أو يبول عليه ، وكذلك كل الحيوانات حتى أنهم يقولون : لا يعرف الادخار من المخلوقات إلا الإنسان والفأر والنمل .

إذن: قوله تعالى : (كأيِّن) يدلّ على الكثرة التى تفوق الحصر والعد .

وهنا الحق سبحانه يقول : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ .. (٨) ﴾ [الطلاق]

والقرية هى تجمُّع جماعة من الناس يسكنون فى مكان محدود .

والمراد بالقرية ليس قرية الريف التى نتعارف عليها اليوم ، لأن القرية فى عُرْف العربى القديم هى المكان الذى يقابل العاصمة ، وكانت البيئة العربية قديماً بيئة « التبدّى » أى أنهم يُقيمون فى البادية وينتقلون من مكان إلى مكان ، ولم يكونوا مُتوطِّنين فى مكان واحد .

فكانت عاصمة البدو هى القرية التى تتكوَّن من عدد صغير من البيوت ، ولذلك يُسمِّى القرآن الكريم (مكة) بأم القرى ، فيقول تعالى : ﴿ وَهَـٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا .. (٩٢) ﴾ [الأنعام]

ويقول فى آية أخرى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا .. (٧) ﴾ [الشورى]

فـ (أم القرى) هى مكة ، وهى أعظم القرى شأناً وهى محطّ أنظار مَنْ حولها، وفيها حاجيات كثيرة تفى بحاجات مَنْ يقيم فيها ومَنْ ينزلها لحج أو تجارة أو غيره ، ففيها كلُّ متطلبات الحياة .

والقرية لها تسلسل فنقول (نَجْع) وهو المكان الذى تسكنه أسرة واحدة . و (كَفْر) لعدة أسر ، ثم (قرية) ثم (أم القرى) وهى الحضر أو العاصمة .

وقد حدَّثنا الحق سبحانه عن قرى كثيرة ، فحدَّثنا عن القرية التى كانت حاضرة البحر وهى أيلة أو طبرية ، قال تعالى : ﴿ وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ .. (١٦٣) ﴾ [الأعراف]

وهناك القرية التى هى بيت المقدس وفى قول آخر أنها أريحا ، وذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَـٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا .. (٥٨) ﴾ [البقرة]

وعندما يقول الحق سبحانه على لسان إخوة يوسف بعد خروجهم من مصر ورجوعهم إلى أبيهم بدون أخيهم بنيامين : ﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا .. (٨٢) ﴾ [يوسف] ، فإنما كانوا يقصدون بالقرية عاصمة مصر فى ذلك الوقت ، وهى مدينة منف[١] أو ما نعرفه الآن بـ « البدرشين » .

وكما ذكر القرآن (القرية) كحاضرة من حواضر المجتمعات فى ذلك الوقت حدثنا أيضاً عن (المدينة) .

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَـٰذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ .. (١٢٣) ﴾ [الأعراف] وقال تعالى عن موسى : ﴿ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا .. (١٥) ﴾ [القصص] وقال : ﴿ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ .. (١٨) ﴾ [القصص]

وقال : ﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ .. (٢٠) ﴾ [القصص] فالمدينة فى هذه الآيات هى عاصمة ملك فرعون مصر .

أما قوله تعالى : ﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (٢٠) ﴾ [يس] فالمقصود بها أنطاكية فى قول جميع المفسرين[٢] .

والمدينة تتميز بشيء ليس فى القرية حتى بالمعنى القديم لها ، فالمدينة الأمر فيها منظم بقوانين وملك ووزراء ومسئولين ودستور يحكم المكان ، وجيش منظم يدافع عنه .

ولذلك نجد مدينة الفرعون أو مدينة أنطاكية ، وفوق هذا مدينة رسول الله التى كانت فى البداية يثرب ثم أصبحت المدينة لأنها كانت قد أصبحت عاصمة لدولة وليدة .

---

(١) منف مدينة مصرية قديمة ، أسسها عام ٣٢٠٠ قبل الميلاد الملك نارمر وكانت عاصمة مصر فى عصر الدولة القديمة (الأسرات ٣-٦) وكانت فيها عبادة الإله بتاح ومكانها الحالى بالقرب من منطقة سقارة بقرية ميت رهينة . وهى أول عاصمة لمصر الموحدة ، وكلمة منف هى الاسم العربى لها . ومعناها الجدار الأبيض .

(٢) المدينة : أنطاكية. فهم المقصودون بقصة أصحاب القرية ، والرجل الذى جاء من أقصى المدينة هو حبيب النجار وكان مجذوماً ، وكان منزله فى أقصى البلد .

وقد قال تعالى عن المدينة مدينة رسول الله : ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ .. (١٠١) ﴾ [التوبة] ، وقال تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ .. (١٢٠) ﴾ [التوبة]

ويذكر لنا الحق سبحانه ويقول : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ .. (٨) ﴾ [الطلاق]

فالكثير من القرى عتتْ عن أمر ربِّها ، وذكر كثيراً من هذه القرى ، وأكثر قرية ذكرها الحق سبحانه فى القرآن قرية قوم لوط[1] ﴿ وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ (٧٤) ﴾ [الأنبياء]

وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ .. (٤٠) ﴾ [الفرقان] وقال تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ (٣١) ﴾ [العنكبوت]

وقال أيضاً : ﴿ إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا[2] مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٣٤) ﴾ [العنكبوت]

لقد كانت قرية لوط عليه السلام أكثر قرية عتتْ عن أمر ربِّها فاستحقت عذاب الله مطراً بالحجارة ، وجعل عاليها سافلها بما فعلوه من الفاحشة التى لم يسبقهم إليها أحدٌ من العالمين .

والحق سبحانه عندما يقول : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ .. (٨) ﴾ [الطلاق] لا يقصد المكان كبيوت وشوارع وحارات ، إنما يقصد سبحانه أهل القرية وسكانها ، فالقرية اسمٌ للمكان المُعدّ إعداداً خاصاً لمعيشة الناس فيه .

---

(١) سدوم وعمورة هى قرى قوم لوط عليه السلام والتى خسف الله بها بسبب ما كان يقترفه أهلها من مفاسد ، ويعتقد كثير من الباحثين وعلماء الدين أن القرى التى خسفها الله تقع فى منطقة البحر الميت وغور الأردن . وحسب المصادر العبرية القرى هى : سدوم وعمورة وأدومة ، وصبيم . وقد يأتون الذكور من دون النساء .

(٢) الرجز هنا معناه : الخسف والخسف . (زاد المسير لابن الجوزى ٥/٧٦) ورجزاً : عذاباً . وهو الرمى بالحجارة . وقيل : إحراقهم بنار نازلة من السماء [فتح القدير للشوكانى ٥/٤٤٠] .

وبطبيعة الحال ، عندما يقول ﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا .. (٨٢) ﴾ [يوسف] لن يسأل إنسان المكان أو المباني ، بل يسأل أهل القرية .

فالقرية هنا لم تتمرد على أمر الله وترفضه وتأباه ، إنما الذى تمرد هم أهلها ، فقوله : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ .. (٨) ﴾ [الطلاق] أى : أن أهلها عتوا وفسدوا وأفسدوا .

والعُتو كبرياء وإباء ، وهو المرود والتمرد على أمر الله وبلوغ الغاية من الفساد، وما هذا إلا لأنهم لم يكونوا يرجون أو ينتظرون لقاء الله ، لذلك وصفهم الحق سبحانه فقال : ﴿ لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا (٢١) ﴾ [الفرقان]

فـ (عتوا) أى بالغوا فى الظلم والتحدى وتجاوزوا الحدود ، بل أكد العتو بالمصدر (عتواً) ، ثم وصف المصدر أيضاً فقال ﴿ عُتُوًّا كَبِيرًا (٢١) ﴾ [الفرقان]

وعُتو هذه القرى كان عن أمر ربها ورسله ، فهم تعاتوا على أمر الله سبحانه وعلى أمر رسوله ، فالعاتى الذى بلغ فى الظلم الحد مثل الطاغوت الذى إنْ خاف الناس منه انتفش وتمادى وازداد قوة .

فـ (عتت) أى أبت وعصت واستكبرت فحقَّ عليها عذاب الله ، وقد ذكر الحق سبحانه ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ .. (٨) ﴾ [الطلاق] فى ثلاثة مواضع من القرآن ، فقال تعالى : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ (٤٨) ﴾ [الحج]

وقال : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ (١٣) ﴾ [محمد]

والموضع الثالث الذى معنا هنا فى سورة الطلاق ، فهم إنما استحقوا العذاب والهلاك لأنهم عتوا ﴿ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ .. (٨) ﴾ [الطلاق]

وأمر ربِّها ورسله هنا هو تهديد لمن يخرجون عن شرع الله فى أحكام الطلاق والعدة وعدم إخراج المرأة من مسكن الزوجية طالما أنها فى العدَّة

وعدم الالتزام بأحكام الرضاع .

لأن بهذا الخروج عن أمر الله تزداد المظالم فى المجتمعات ويتشرد الأبناء وتفسد النساء ويتعنت الرجال ويتمرد النساء ، ويعيش المجتمع فى ظلمات من التخبيط قد تؤدى إلى القتل وإراقة الدماء ، بل إنه بيقين يؤدى إلى تأخر المجتمع لأن المجتمع حينها يغرق فى المشاكل والمنازعات والخصومات والمشاكلات والكيد والاحتيال .

لذلك قال العلماء ﴿ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ .. (٨) ﴾ [الطلاق] أى لم تأتمر بأمر الله ورسوله ولم تنته بنهى الله ورسوله ، فأعرضت عن أمر الله إعراض العاتى المعاند .

فالحق سبحانه يوجه تهديداً شديداً لأولئك الذين يخالفون شريعة الله ويبتغون شرائعهم من مناهج أخرى وثقافات أخرى تمردتْ وعتتْ عن أمر الله .

والحق سبحانه لم يُنزل عذابه بأهل هذه القرى دون سابق إنذار أو إرشاد أو إرسال الرسل ، بل أرسل الرسل وأنزل الكتب لهداية أهل تلك القرى وأمهلهم لعلهم يرتدعون وينزجرون رغم إقامتهم على الظلم ،لذلك قال تعالى : ﴿ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ .. (٤٨) ﴾ [الحج]

فهى مقيمة على الظلم مُصرة عليه ، فالله يملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته كما قال رسول الله ﷺ .

وبعد الإملاء والإمهال يأتى الحساب الشديد ، يقول تعالى : ﴿ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا .. (٨) ﴾ [الطلاق] ، فالله سيحاسبهم حساباً عسيراً على أعمالهم كلها ، والحساب يكون بالتنقير والاستقصاء لذنوبهم ومحاسبتهم على كل شيء صغيراً أو كبيراً دون تجاوز لهم أو عفو .

فالحساب يكون بالمناقشة والاستقصاء ، والحق سبحانه أوجد لك الاختيار

حتى يكون الحساب عدلاً ، فإذا اختار أحد الكفر لا يجبره الله على الإيمان ، وإذا اختار الظلم لا يجبره الله على العدل ، وإذا اختار الفسوق لا يجبره الله على الطاعة .

فالحق سبحانه يحمى اختيارك لأنه أعطاك هذا الاختيار ليحاسبك عليه يوم القيامة .

وكلمة ﴿ حِسَابًا .. (٨) ﴾ [الطلاق] تدل على الدقة ، والحساب يفيد العدد والأرقام ، وأحياناً تفيد الظن والفكر .

وقد قرن الحق سبحانه بين الحساب والعذاب ، فقال : ﴿ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا (٨) ﴾ [الطلاق]

وقد قال رسول الله ﷺ : « مَنْ نُوقش الحساب عُذِّب »[١] فهناك ارتباط بين المحاسبة ومناقشة الإنسان فيما فعل فى الدنيا وسؤاله عن ماله وشبابه وبين إيقاع العذاب به ، فما من عبد يخلو من الذنوب .

وقد روت عائشة رضى الله عنها عن رسول الله ﷺ « مَنْ حُوسب يوم القيامة عُذِّب » . فقالت عائشة : أليس قد قال الله عز وجل : ﴿ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (٨) ﴾ [الانشقاق] فقال رسول الله : « ليس ذلك الحساب ، إنما ذلك العرض، مَنْ نُوقش الحساب يوم القيامة عُذِّب »[٢] .

فقوله تعالى : ﴿ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (٨) ﴾ [الانشقاق] خاص

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٥٣٦) والبزار فى مسنده (١٩٩) ، وأحمد فى مسنده (٢٤٩٥٨) من حديث عائشة رضى الله عنها قالت قلت أليس يقول الله تعالى ﴿ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (٨) ﴾ [الانشقاق] قال : ذلك العرض . وقد أخرجه الحاكم فى مستدركه (١٩٠) بلفظ آخر : سمعت رسول الله ﷺ يقول فى بعض صلاته : اللهم حاسبنى حساباً يسيراً فلما انصرف قلت : يا رسول الله ما الحساب؟ قال : ينظر فى كتابه ويتجاوز عنه إنه من نوقش الحساب يومئذ يا عائشة هلك ، وكل ما يصيب المؤمن يلقى الله عنه حتى الشوكة يشاكها .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٢٥٠٠٢) ، ومسلم فى صحيحه (٧٤٠٦) من حديث عائشة رضى الله عنها.

بصنف من أصناف أهل الجنة وهم مَنْ أوتى كتابه بيمينه ، لذلك قال تعالى بعدها : ﴿ وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا (٩) ﴾ [الانشقاق] أى : مسروراً بثواب الله وفضله عليه .

فمَنْ أُوتى كتابه بيمينه يقول ﴿ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ (١٩) إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ (٢٠) ﴾ [الحاقة] لذلك ﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (٢١) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (٢٢) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (٢٣) ﴾ [الحاقة]

إنه يدعو الناس ليقرءوا كتابه فإنه كتابُ حسنات كتاب نجاته من النار ، لذلك كان حسابه حساباً يسيراً وهو العرض وقراءة كتابه ، كأنَّ مجرد هذا هو حساب فى حقه أو عذاب ، عذاب انتظار القرار الإلهى ، هذه اللحظات العصيبة على المؤمن تجعلها حساباً .

فهذا حساب العرض لا حساب المناقشة ، والعرض أنْ يُقال له : فعلت كذا وفعلت كذا ، ثم يقال : سترتها عليك فى الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم ، فيتجاوز عنه الله .

أما الذى عتا عن أمر ربه وأمر رسوله وعصى الله تمرداً على أمره سبحانه فسوف يُحاسب حساباً شديداً عسيراً بالاستقصاء فى كل صغيرة وكبيرة والمباحثة والمناقشة فى كلِّ نقير وقطمير[1] .

حتى أنهم سيقولون ﴿ مَالِ هَـٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا .. (٤٩) ﴾ [الكهف]

وقد يكون حسابهم هذا فى الدنيا ، فيُحاسبون على أعمالهم حساباً شديداً

---

(١) النقير : النقرة التى فى ظهر النواة . [الصحاح فى اللغة] ، قال أبو على القالى فى كتابه (الأمالى) (١/٢٣٠) : فيكون معناه حقيراً متناهياً فى الحقارة . قال الواحدى فى شرح ديوان المتنبى (١/١٢٧) : النقير النقرة تكون فى ظهر النواة يضرب مثلاً للشيء الحقير .
القطمير : القشرة الرقيقة على النواة كاللفافة لها . قال فى المعجم الوسيط : الشيء الهين الحقير يقال: ما أصبت منه قطميراً .

فيقع بهم عذابٌ مهلك شديد ، وهذا مثل قوله تعالى : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا .. (٤٨) ﴾ [الحج]

فالأخذ هو في الدنيا أى إيقاع العذاب بهم وإهلاكهم مهما كانت قوتهم ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ .. (١٣) ﴾ [محمد]

والإهلاك شاءه الحقُّ سبحانه بوسائل كثيرة ، قال تعالى : ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا .. (٤٠) ﴾ [العنكبوت]

فالحاصب هو الحصى الصغار ترمى لتجرح ولكن يحمى عليها لتكوى وتلسع حين يرميهم بها الريح . ولم يقُلْ هنا : أرسلنا عليهم ناراً مثلاً لأن النار ربما إنْ أحرقته يموت وينقطع ألمه ، لكن رميهم بالحجارة المحمية تلسعهم وتديم آلامهم .

أما الصيحة فهى الصوت الشديد الذى تتزلزل منه الأرض وتُصم منه الآذان، وتلك كانت عقوبة ثمود ، وقد سماها الحق سبحانه أيضاً الطاغية ، فقال : ﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ (٥) ﴾ [الحاقة]

فالله يُملى للعتاة والمتجبرين ويمدّ لهم الأمر ثم يأخذهم بغتة بالعذاب ، وقد يأتى العذاب من فوقهم كما جاء لقوم أبرهة الذين أرادوا هدم الكعبة فسلط عليهم طيراً أبابيل[١] ترميهم بحجارة من سجيل[٢] فجعلهم كعصف مأكول ، وهناك مَنْ أخذهم بالصيحة ، وهناك من أهلكهم بريح صرصر[٣] عاتية .

---

(١) الأبابيل : جماعات متفرقة . (زاد المسير لابن الجوزى) . قال الطبرى فى تفسيره : طيراً متفرقة يتبع بعضها بعضاً من نواح شتى . فـ (أبابيل) : فرق شتى متتابعة مجتمعة ، أتتهم من كل مكان .

(٢) السجيل : الطين المتحجِّر . قال موسى بن أبى عائشة : كانت الحجارة التى رُموا بها أكبر من العدسة وأصغر من الحمّصة . وقال قتادة : كانت مع كل طير ثلاثة أحجار : حجران فى رجليه وحجر فى منقاره فجعلت ترميهم بها . [ذكره الطبرى فى تفسيره] .

(٣) قال تعالى : ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (٦) ﴾ [الحاقة] . الصرصر : صوت الريح الشديدة . وفى الصحاح : الريح الصرصر الباردة . فالأمر يحتمل المعنيين . والعاتية : الشديدة الغالبة .

ومنهم مَنْ أهلكه الله بأنْ انشقَّتْ الأرض من تحته فابتلعته وابتلعتْ قصره وكلّ ما يملك كقارون ، ومنهم مَنْ يغرق بالماء كفرعون ، وكلها عذابات استئصال .

ويُعطينا الحق سبحانه مثالاً آخر فى قصة مملكة سبأ باليمن ، فقال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ (١٥) فَأَعْرَضُوا .. (١٦) ﴾ [سبأ]

فكانت نتيجة إعراضهم ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ [١] وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ [٢] وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ (١٦) ﴾ [سبأ]

فأهل سبأ رزقهم الله فأعرضوا عن شكره وأمره ، وكانوا يتيهون بالسدِّ الذى يحفظ لهم مياه الأمطار ويمدّهم بما يحتاجون إليه منها طوال العام، وأخذوا يتفاخرون ونسوا الله ، فكان هذا السد هو النكبة أو الكارثة التى أهلكتْ زرعهم ، فكان فى هذا هلاكهم .

وكما كان الحساب حساباً شديداً كان العذاب عذاباً نُكْراً ، والعذاب النُّكر أى المنكر الذى لا نعرفه والذى لا عهد لنا به أو أُلْفة ، بل هو عذاب منكر فظيع عظيم ، فهو عذاب لا يخطر فى بال أحد لعظم شدته .

وبعض العلماء ذهب إلى أنّ هذه الآية ﴿ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا (٨) ﴾ [الطلاق] أنها على التقديم والتأخير ، يعنى فعذَّبناها فى الدنيا وحاسبناها فى الآخرة حساباً شديداً .

أى عذَّبنا أهلها عذاباً نكْراً فى الدنيا بالجوع والقحط والسيف والخسف

---

(١) ذكر ابن الجوزى فى زاد المسير (٥/ ١٦٠) أربعة أقوال :
أحدها : العرم : الشديد . وقال ابن الأعرابى : العرم السيل الذى لا يُطاق . الثانى : أنه اسم الوادى . والثالث : أنه المسنّاة . والرابع : أنه الجرذ الذى نقب عليهم السد .

(٢) المراد بالخمط ثلاثة أقوال : الأول : أنه الأراك . قاله ابن عباس والحسن ومجاهد . والثانى : أنه كل شجرة ذات شوك . قاله أبو عبيدة . والثالث : أنه كل نبْت قد أخذ طعماً من المرارة حتى لا يمكن أكله . [زاد المسير لابن الجوزى ٥/ ١٦٠] .

والمسْخ وحاسبناهم فى الآخرة حساباً شديداً .

وقد روتْ عائشة رضى الله عنها أنها قالت : يا رسول الله هل أتى عليك يومٌ كان أشدّ من يوم أُحُد ؟ فقال : لقد لقيت من قومك وكان أشدّ ما لقيت منهم يوم العقبة إذ عرضتُ نفسى على ابن عبد ياليل بن عبد كلال ، فلم يُجبْنى إلى ما أردت .

فانطلقت وأنا مهوم[1] على وجهى فلم أستفق إلا بقرن الثعالب فرفعت رأسى فإذا أنا بسحابة قد أظلّتنى ، فنظرت فإذا فيها جبريل فنادانى فقال : إنَّ الله عزَّ وجلَّ قد سمع قول قومك لك وما ردّوا عليك ،وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم .

قال : فنادانى ملك الجبال وسلَّم عليَّ ، ثم قال : يا محمد إنَّ الله قد سمع قوْل قومك لك وأنا ملك الجبال ، وقد بعثنى ربك إليك لتأمرنى بأمرك فما شئت ، إنْ شئت أنْ أطبق عليهم الأخشبين .

فقال له رسول الله ﷺ : بل أرجو أنْ يُخرج الله من أصلابهم مَنْ يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً[2] .

فلله سبحانه سنن فى خَلْقه وسنن فيما سبق من أقوام ، وقد عرفنا الذين أطاعوا رسلهم ماذا حدث لهم ، والذين كذَّبوا رسلهم ماذا حدث لهم .

وكان على أهل مكة الذين بُعث فيهم رسول الله أنْ يأخذوا عبرةً من الرسل السابقين ، وبما حلَّ بأعدائهم من عذاب الله ، لقد أرسل الله الرسل فكُذِّبوا وعُودوا واضطهدوا .

---

(١) مهوم : أى نام نوماً خفيفاً . ومثاله : هوَم المسافر فى القطار . ومعناه أيضاً : هزَّ رأسه من النعاس . ومثاله : هوَم وهو جالس . [معجم اللغة العربية المعاصرة ٢٣٧٦/٣] .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٢٣١) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٤٧٥٤) ، والبزار فى مسنده (١٠٣) ، والنسائى فى السنن الكبرى (٧٦٥٩) ، والطبرانى فى المعجم الأوسط (٨٩٠٢) من حديث عائشة رضى الله عنها .

وقد مرَّتْ على رسول الله أيام شديدة عصيبة ، حاربه فيها قومه وعادوه كيوم أُحُد ، وما حدث فيه من كسر إحدى أسنانه ، وكيوم حنين يوم فوجيء المسلمون بالمشركين ففروا لولا أن رسول الله نادى فيهم : أنا النبى لا كذب .. أنا ابن عبد المطلب[١] .

ولكن ما كان أشد على نفسه الشريفة ﷺ هو أنه دعا الناس فلم يستجيبوا وعرض نفسه بالدعوة إلى الله فلم يُبالوا به وأعرضوا عنه ، بل سلَّطوا عليه سفهاءهم .

كان هذا أشدّ على رسول الله لأنه يعلم عاقبة مَنْ كذَّب الرسل وأعرض عنهم، فمن شفقته وخوفه على أمته لم يدْعُ عليهم بل دعا لهم بالهداية ، فقال : « اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون »[٢] .

حتى إن ملك الجبال قال له : إنْ شئت أنْ أُطبق عليهم الأخشبين والأخشبان جبلا مكة المحيطان بها ، والأخشب هو الجبل العظيم ، ولو شاء رسول الله لأمر ملك الجبال بإطباق الجبلين على أهل مكة ، ولكن رسول الله مفطور على الرحمة.

فالرسول ﷺ لا يُبقى على هؤلاء ، ولكنه يحرص أيضاً على الأجيال القادمة، لذلك قال : « بل أرجو أنْ يُخرج الله من أصلابهم مَنْ يعبد الله وحده لا يشرك

---

(١) عن البراء بن عازب رضى الله عنه أن رجلاً سأله : أفررتم عن رسول الله ﷺ يوم حنين قال : لكن رسول الله لم يفر إن هوازن كانوا قوماً رماة وإنّا لما لقيناهم حملنا عليهم فانهزموا فأقبل المسلمون على الغنائم واستقبلونا بالسهام ، فأما رسول الله ﷺ فلم يفر ، فلقد رأيته وإنه لعلى بغلته البيضاء ، وإن أبا سفيان آخذ بلجامها والنبى ﷺ يقول : أنا النبى لا كذب أنا ابن عبد المطلب . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٨٦٤) وكذا مسلم فى صحيحه (٤٧١٦) وفيه زيادة : اللهم نزّل نصرك . قال البراء : كنا والله إذا احمر البأس نتقى به وإن الشجاع منا للذى يحاذى به يعنى النبى ﷺ .

(٢) أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان (١٣٧٥) من حديث عبد الله بن عبيد قال : لما كُسرت رباعية رسول الله ﷺ وشُجّ فى جبهته فجعلت الدماء تسيل على وجهه . قيل : يا رسول الله ادع الله عليهم فقال ﷺ : « إن الله تعالى لم يبعثنى طعاناً ولا لعاناً ولكن بعثنى داعية ورحمة ، اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون» . قال البيهقى : وهذا مرسل .

به شيئاً »[١] . وقد كان وخرج من أولاد كفار قريش صناديد وأبطال وجنود دعوة وشهداء .

ويقول الحق سبحانه : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ (٤٨) ﴾ [الحج] فالله يُمليهم ويُمهلهم ويُؤخِّرهم إلى أجل معين قد يكون لمدة ثم يقع بهم العذاب كما حدث مع الأمم السابقة التى أهلكها الله بسبب عُتُوِّهم وتمردهم وعصيانهم لله ورسله .

للذك قال الحق سبحانه بعدها :

﴿ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا (٩) ﴾

والإذاقة هى أشد الإدراكات تأثيراً ، فالإذاقة هى الإحساس الشديد بالمطعوم، شراباً كان أو طعاماً ، إلا أنه تعدّى كلَّ مُحسٍّ به ولو لم يكُنْ مطعوماً أو مشروباً.

والحق سبحانه يقول : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (٤٩) ﴾ [الدخان] أى ذُقْ الإهانة والمذلة ، لا مما يُطعم أو مما يُشرب ، ولكن بالإحساس فذوْقُ الطعام هو الحاسَّة الظاهرة فى الإنسان ، قد يجده بالذوق حريفاً أو حُلْواً أو خَشِناً أو ناعماً إلى غير ذلك .

ولكن الإذاقة التى يعنيها الحق سبحانه شيء أكبر من ذوْق المطعوم والمشروب ، إنما هو أمر يتعدى إلى كل البدن ، فالأنامل تذوق ، والرِّجْل تذوق، والصدر يذوق ، والرقبة تذوق .

وفى إطار هذا نفهم قوله تعالى : ﴿ وَضَرَبَ اللهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً

(١) أخرج البخارى فى صحيحه (٣٢٣١) من حديث عائشة أنها قالت للنبى ﷺ : هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد . قال : لقد لقيت من قومك ما لقيت ، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة إذ عرضت نفسى على ابن عبد ياليل بن كلال فلم يجبنى إلى ما أردت فانطلقت وأنا مهوم على وجهى فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب فرفعت رأسى ... "الحديث بطوله .

يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١١٢) ﴾ [النحل]

فالجوع سلب الطعام ، فكيف تكون إذاقة الجوع ؟ فالجوع ليس مما يُذاق ، ولا اللباس مما يُذاق . ولكن المقصود هنا هو الإحساس الشديد به ، فالذوق هو للإدراك لا للأكل ، فأنت حين تشترى فاكهة يقول لك البائع : تفضل ذُقْ فتأخذ واحدة منها لتستطيب طعامها .

فالذوق إذن هو تناول الشيء لإدراك طعمه ، والإذاقة من الذوق وهو أعم الملكات شُيوعاً فى النفس ، فأنت ترى بعينك ، وتسمع بأذنك وتشم بأنفك ، لكن المذاق تشترك فيه كلُّ الملكات الإدراكية ، بل هى أقوى أنواع الإدراك .

والحق سبحانه أخبر عن القرية التى عتت وتمردت على أمر ربها فقال : ﴿ فَذَاقَتْ .. (٩) ﴾ [الطلاق]

فاختار سبحانه حاسة الذوق لأن كلَّ وسيلة إدراك قد تتصل بلون من ألوان الترف فى الحياة ، أما الذوق فيتصل بإمداد الحياة وهو الأكل والشرب وبهما قوام حياة الإنسان ، فهما ضرورتان للحياة لا مجرد ترف فيها .

فليس الذائق هو الفم فقط بل كل الجسم ، والحق سبحانه يقول : ﴿ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (١٨١) ﴾ [آل عمران] ويقول أيضاً : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ (٨) ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ (٩) ﴾ [الحج]

والحريق ليس طعاماً يُذاق إنما هو يصنع إيلاماً إحساسياً فى الجلد وفى النفس ، وقد يفقد الإنسان حاسة ما من حواسه كالبصر أو اللمس أو الشم ، ولكنه لا يفقد حاسة الذوق أبداً ، بهذا المعنى ، الذى يتعدى اللسان ؛ فيستولى على كل الأعضاء .

ومثل عذاب الحريق فى الأثر (عذاب النار) ، قال تعالى : ﴿ ذُوقُوا عَذَابَ

النَّارِ الَّذِى كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢٠) ﴾ [السجدة] فالإذاقة تتعدى اللسان وتستولى على كل الأعضاء ، فكلّ ذرة فيه تذوق عذاب النار .

والحق سبحانه ينبه بلفظ الإذاقة (فذاقت) أن أهل هذه القرى أحسَّتْ بعذاب الله بكلّ الحواس التى فيها حِسّ ، حتى تلك الحاسة المختفية داخل النفس ، فذلك يشمل كل جزء فى الإنسان .

ومن الضرورى أن نفهم أنَّ الذوق غير البلع والشبع ، ونرى ذلك فى عالمنا السلعى والتجارى ، فساعة تشترى مثلاً فاكهة يقول لك البائع : إنها فاكهة حلوة ذُقْ منها . ولا يقول لك : كل منها واشبع . إنه يطلب منك أن تجرب طعم الفاكهة فقط ثم تشترى لتأكل بعد ذلك حسب رغبتك وطاقتك .

وإذا كان الأمر أمر ذوْق وتذوّق للعذاب ، فما بالك بالعذاب نفسه وألمه ، فعندما يقول الحق سبحانه : ﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَالٍ وَسُعُرٍ (٤٧) يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ (٤٨) ﴾ [القمر]

وفى آيات أخرى يقول تعالى : ﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (٢٦) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ (٢٧) لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ (٢٨) ﴾ [المدثر]

فنار سقر[1] لا تترك شيئاً من اللحم ولا العصب إلا أهلكته ثم يعود كما كان لإدامة العذاب ، وهى نار تغير البشرة وتُسود الجلود محرقة للجلود .

و (سقر) اسم لجهنم من سقرته الشمس إذا آلمتْ دماغه لشدة إيلامها ، فإذا كان مسُّ سقر بهذه البشاعة والقسوة والإيلام ، فما بالك بدخولها ؟

وقوله تعالى : ﴿ فَذَاقَتْ .. (٩) ﴾ [الطلاق] فيه ترتيب وتعقيب على الآية قبلها ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا (٨) ﴾ [الطلاق]

فبسبب عُتوّها وعصيانها وتمردها ذاقتْ وبال أمرها وعاقبة ما فعلوه .

---

(١) سقر : اسم من أسماء النار . والسقر : البُعد . وسقرته الشمس : لوّحته وآلمت دماغه بحرِّها . وقيل : سميت النار سقر لأنها تذيب الأجسام أما الأرواح فهى جوهر غير قابل للذوبان .

وقد قال تعالى : ﴿ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ .. (٥٢) ﴾ [يونس]

ويقول : ﴿ يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ .. (٥٥) ﴾ [العنكبوت]

ويقول الحق سبحانه : ﴿ أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (٢٤) ﴾ [الزمر]

فالحق سبحانه لم يظلمهم ، فذوقوا ما عملتم كأنّ العمل نفسه الذى عملوه هو نفسه سيكون هو النار التى تحرقهم ، وليس ذلك تجنياً من الله ولا بسلطة القهر لعباده ، ولكن بعدالة الحكم لأن ذلك إنما حدث بسبب ما كسبتم .

ونلاحظ أن الحق سبحانه لم يقُلْ : بما كنتم تكتسبون ، لأن اكتسابهم لم يعُدْ فيه افتعال ، بل صار أمراً طبيعياً بالنسبة لهم ، لذلك قال تعالى : ﴿ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ .. (٥٢) ﴾ [يونس]

فهؤلاء من إفراط إدمانهم للسيئات وعتوهم عن أمر الله فسدتْ فطرتهم ، ولم تعُدْ ملكاتهم تتضارب عند فعل السيئات .

وحين ترى جملة فيها الفاء فاعلم أنها مُسبَّبة عن شيء قبلها ، وإذا سمعت مثلاً قول الحق سبحانه : ﴿ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ .. (٢١) ﴾ [عبس] فمعنى ذلك أن القبر جاء بعد الموت ، فإذا وجدت « الفاء » فاعرف أن ما قبلها سببٌ فيما بعدها ، ويُسمونها « فاء » السببية[١] .

ولكن ماذا ذاقت القرية التى عتت عن أمرها ؟ يقول تعالى : ﴿ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا .. (٩) ﴾ [الطلاق]

---

(١) فاء السببية هى التى يكون ما قبلها سبباً لما بعدها "لا تظلم فتُظلم" . ويشترط لها أن تسبق بنفى أو طلب . فأما النفى فكقولك : لم تحضر فتستفيد . وتقول : جارك غير مقصر فتعنفه . لا فرق بين أن يكون باسم أو بفعل أو بحرف .

الوبـال هو الثقل والعاقبة ، وهو ما يجرُّه عليه عصيانه وتمرده من عاقبة السوء ، فكلُّ عاصٍ أو رافض لحكم الله يظن أن هذا سينفعه ويغيب عنه ما يجرُّ عليه من الوبال فيما بعد ذلك ، رغم أنه قد يكون استفاد استفادةً وقتيةً من فساده .

والحقّ سبحانه يقول : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ[1] (٤٤) ﴾ [الأنعام]

فهؤلاء قد فتح الله عليهم أبواب كل شيء ، مال وجاه وسلطة ، ولكنها لم تكن لهم بل عليهم ، ولكنهم فرحوا بها وبطروا نعمة الله فعاثوا فى الأرض فساداً بما أنعم الله عليهم .

﴿ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ (٤٤) ﴾ [الأنعام] فكان وبال عاقبتهم أنْ أخذهم الله بغتةً ، فليس هذا كله فى صالحهم بل هو وبالٌ عليهم فلا تغترُّوا بها ، فقد أعطاها الله لهم وهم سيبطرون بها فتكون سببَ عذابهم .

فمَنْ ضلَّ عن الحق وزاغ عن طريق الاستقامة فإنما يجنى على نفسه وإنما يعود وبالُ ذلك عليه ،لأنه هو الذى يجنى ثمرة عواقبه السيئة الوخيمة فيخلد فى النار .

والوبال فى أصله اللغوى مصدر الوبيل ، وهو الطعام الثقيل الذى لا يوافق أكله وتكون له عواقبُ سيئة ، وهذا اللفظ بهذا المعنى مناسب لقوله تعالى : ﴿ فَذَاقَتْ .. (٩) ﴾ [الطلاق]

وهى ذاقت ﴿ وَبَالَ أَمْرِهَا .. (٩) ﴾ [الطلاق] فأضاف الوبال إلى الأمر الذى فيه القرية وأهلها من إضافة المسبب إلى السبب ، أى ذاقوا الوبال الذى تسبَّب لهم فيه أمرهم وشأنهم الذى كانوا عليه .

---

(١) مبلسون : هو الآيس من رحمة الله . وهو المجهود المكروب الذى قد نزل به من الشر ما لا يستطيعه . وهو المكتئب الحزين النادم الشديد الحسرة وهو الساكت المتحير . ذكر هذه الأقوال ابن الجوزى فى زاد المسير . (٢/ ٣٣٤) .

والأمـر هو الحال والشـأن الذى هى عليه ، ويحتمل المعنى أيضـاً الذنب أى ذاقت جزاء ذنبها الذى فعلته بعتُوِّها عن أمر ربها وحكمه .

والقريـة التـى عتتْ عن أمر ربها إنمـا ذاقت وبال أمرهـا وذنبها فى الدنيا كالطاعـم يـأكل طعاماً وبيـلاً وخيماً فيجد وبال شره عليـه ، لذلك قال تعالى بعدها : ﴿ وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا (٩) ﴾ [الطلاق] أى فى الآخرة .

والعواقب هى أدبار الأشـياء وأعقابهـا ، والأمر كان يحتاج منهم النظر إلى أدبار الأشـياء وعواقبها ،ولكن طيشـهم وسفههم صرفهم عن التفكُّر فى عاقبة الأشياء فأذهله وجعله ينظر إلى الأمور نظرة سطحية متعجلة .

لقـد نظروا إلى متعة زائلة موقوتة ونسـوا تبعـة ثقيلة لن يقدروا عليها فيما بعد، ولو كانوا يهتدون بهدى الله وهدى رسوله ويرون العذاب الذى أنذرهم به حقيقة وواقعاً لا يتخلفون عنه لما حدث لهم هذا ولما واجهوا هذه العاقبة .

فمرجـع الخَلْق جميعاً إلى الله سـبحـانه ،ومشـكلة هؤلاء أنهـم لم يلتفتوا إلى عاقبـة الأمـور ولا إلى مَنْ بيده عاقبة الأمر كله فلم يرتدعـوا ، أما مَنْ نظر إلى عاقبة الأمر وأحسن فى الدنيا فمرجعه إلى حُسْن الثواب والجنة ، ومَنْ لم ينظر إلى عاقبة الأمر وعتا وعصا وتمرد فمآل أمره ومآبه إلى العذاب ..

وذلك مصـداق لقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٧٠) ﴾ [يونس]

فلو تبصَّروا بالعواقب ولو تفكَّروا فى عاقبة أمرهم ما تجرأوا على المعصية، فالحق سبحانه يقول : ﴿ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا .. (١٥) ﴾ [الإسراء]

أى تعـود عليـه عاقبـة انصرافـه عن منهـج الله ، لأن شرَّ الإنسـان فى عدم التزامـه بمنهج الله يعود عليك ويعود على الناس من حوله ، فيشـقى هو بشرِّه ويشقى به المجتمع .

وقـد قـال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ عَاقِبَـةُ الْأُمُورِ (٤١) ﴾ [الحج] يعنـى : النهاية إلينا

وآخر المطاف عندنا .

وقد قال تعالى : ﴿ وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا (٩) ﴾ [الطلاق] فعاقبة ذنبها وعُتوها هو الخسران ، واستخدام الحق سبحانه لكلمة (خسراً) تدل على أنهم كانوا يعتقدون أنهم بأعمالهم حققوا لأنفسهم نفعاً ، بينما هم لم يحققوا لأنفسهم إلا الخسران المبين .

وهو ليس خسراناً موقوتاً ، ولا هو خسران يمكن أنْ يُعوَّض فى الصفقة القادمة ، بل هو خسران أبديّ ، والندم سيكون عليها شديداً ،وخسرانهم لا ينتهى من فور مجيء الساعة ، ولكنه يبدأ لحظة مفاجأة الساعة لهم ، فهم يُفاجئون بوقوع ما كانوا يكذبون به ، ويعلمون جيداً أن ما صنعوه فى الدنيا لا يستوجب إلا العذاب .

و ﴿ خُسْرًا (٩) ﴾ [الطلاق] تعنى أنها خسران مبين يلازم الإنسان ولا ينفكّ عنه ، وهو خسران لا يقتصر على الدنيا فقط فيمكن أنْ تعوضه أو تصبر عليه، إنما يمتد للآخرة حيث لا عوض لخسارتها ولا صبر على شدتها .

ويقول تعالى أيضاً : ﴿ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ (٥) ﴾ [النمل] والأخسر مبالغة فى الخسران ، فلم يقل : خاسر إنما أخسر لأنه خسر النعيم لأنه لم يقدم صالحاً فى الدنيا ، وليته ظلّ بلا نعيم وترك فى حاله ، إنما يأتيه العذاب الذى يسوؤه .

لذلك قال تعالى : ﴿ هُمُ الْأَخْسَرُونَ (٥) ﴾ [النمل] لأنهم لم يدخلوا الجنة لعدم استحقاقهم لها ، وهذه خسارة لهم ، ثم هم فى النار وهذه خسارة أخرى.

خسروا دنياهم وخسروا آخرتهم وخسروا أنفسهم خسراناً أبدياً ، والأكثر خسارة هم الأخسرون الذين قال الله عنهم : ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤)

أُولَـئِـكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَـتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا (١٠٥) ﴾ [الكهف]

وقد استثنى الحقُّ سبحانه من الخسران ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُـوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣) ﴾ [العصر]

إيمـان بـالله ورسـوله وقرآنـه وعمل بالصـالحات . ثم التواصـى بالصـبر والتواصى بالحق يُخرج الإنسان من دائرة الخسران ، ويقول تعالى : ﴿ وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) ﴾ [العصر]

فالإنسـان على إطلاقه فى خُسْر ، ولكن مَنْ الذى ينجو من الخسران ؟ تأتى الإجابـة من الحق فيقـول : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَـاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣) ﴾ [العصر]

فالإنسان المعزول عن منهج الله هو الذي يحيا فى خسران ، أما مَنْ يعيش فى رحاب المنهج فهو الذى لا يخسر أبداً ، فالمنهج يحميه من الزلل والخسران .

والحق سبحانه إنما يخاطب الناس بالمنطق الذى يفهمونه منطق المكسب والخسـارة ، فالمؤمنون رابحون على كل حال ، أما الكافرون والعصـاة الذين تمرَّدوا على منهج الله فهم خاسرون على كلِّ حال .

فهـم خاسرون لأنهم ﴿ اشْتَرَوُا الضَّلَالَـةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ .. (١٦) ﴾ [البقرة]

فقوله : ﴿ فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ .. (١٦) ﴾ [البقرة] التجارة بيع وشراء ، كاسب وخاسر ، فحظّ البائع من البيـع والشراء أنْ يكسب ، فإذا كسب قيل : ربحت تجارته ، وإذا لم يكسب ولم يخسر ، أو إذا خسر ولم يكسب ففى الحالين لا يحقق ربحاً ونقول ما ربحت تجارته .

فقوله ﴿ فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (١٦) ﴾ [البقرة] يدل على أنهم خسروا كلّ شيء لأنهم لم يربحوا ، فكأنهم لم يحققوا شيئاً له فائدة ، وخسروا الهدى أى خسروا الربح ورأس المال .

ما ربحت تجارتهم ، وربما يكونون لم يكسبوا ولم يخسروا ، ولكن هم قدَّموا الهدى ثمناً للضلال فلم يربحوا وضاع منهم الهدى أى رأس مالهم .

فجنوا ثمار ما غرست أيديهم من أعمال السوء ، فكان عاقبة أمرهم الخسران والنكال ، ذلك لعُتوهم ولتكبُّرهم ، فكانت عاقبتهم الخسران والهلاك خُسْراناً لا خُسْرانَ بعده .

ثم يقول الحق سبحانه عما أعدَّه الله لهؤلاء التعساء الخاسرين :

﴿ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا (١٠) ﴾

قوله سبحانه ﴿ أَعَدَّ .. (١٠) ﴾ [الطلاق] أى أعددنا وهيّأنا ، والذى أعدَّ هو الله القوى القادر سبحانه هو الذى يُعد ، وهو يُعدّها على قدر سعة قدرته ، وقد أعدَّ الحقُّ العذاب الأليم لهم أى الشديد إيلامه .

وقال تعالى : ﴿ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا (٣٧) ﴾ [النساء] فمعنى (أعتدنا) : أعددنا ، فالمسألة منتهية مُسبقاً ،فالجنة والنار مخلوقة فعلاً ومُعدَّة ومجهزة ، لا أنها ستعد فى المستقبل ، وقد أُعِدَّت إعدادَ قادرٍ حكيم .

والعذاب إيلامُ حيٍّ يشعر بالعذاب ويُحسُّ به ، وهذا غير الإهلاك الذى يُذهب الحياة ، فالإهلاك والاستئصال يمنع الإحساس بالعذاب ، ولا بد لأيِّ قرية طغتْ وبغتْ أنْ ينالها شيءٌ من العذاب .

وشدة العذاب وقوته تناسب قوة مَنْ يُوقع العذاب ، فنأخذ الحدث قياساً

بالنسبة لفاعله ، فإذا كان الفاعل هو الله فهل لأحد طاقة على عذاب الله ؟

والعذاب يُوصف مرَّة بأنه أليم ، ويُوصف مرة بأنه مهين ، ويُوصف هنا بأنه شديد ، ولكلٍّ نوع من أنواع العذاب أثره السيء فى المعذَّب .

فالعذاب المهين الذى تكون فيه ذلة النفس ، أما العذاب الأليم فهو الذى يكون فى البنية ، فالإنسان له بنيةٌ جسدية وله معنويات ، فمن ناحية البنية الجسدية يصيبه العذاب الأليم ، ومن ناحية المعانى النفسية تصيبه الإهانة .

أما العذاب الشديد فهو الذى لا يقوى الإنسان على تحمُّله ، ودرجة العذاب وشدته وقوته تختلف باختلاف المعذِّب ، فإنْ كان المعذِّب ضعيفاً فتعذيبه يكون ضعيفاً ، وإنْ كان المعذِّب متوسط القوة فتعذيبه يكون متوسطاً .

أما إنْ كان المعذِّب هو قوة القوى فلابد أنْ يكون عذابه شديداً ، يقول تعالى : ﴿ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لله جَمِيعًا وَأَنَّ الله شَدِيدُ الْعَذَابِ (١٦٥) ﴾ [البقرة]

فهم ساعة يروْنَ العذاب حقَّ اليقين سيدركون عندها أنّ القوة لله ، وأنه شديد العقاب ﴿ وَاتَّقُوا الله وَاعْلَمُوا أَنَّ الله شَدِيدُ الْعِقَابِ (١٩٦) ﴾ [البقرة]

والعقاب من الله سيأتى فى وقت ليس للفرد فيه جاه من مال أو حسب أو نسب يحميه من الله ، فإنْ أطمعك ضعفُ المجتمع فى أنْ تعصى الله وتتمرّد على منهجه فعليك أنْ تخاف الله لأن عقابه شديد .

فالذين يُشاقون الله ورسوله يستحقُّون عذاب الله وعقابه ، وعليهم أن يتحملوا العقاب الشديد من الله .

﴿ فَأَخَذَهُمُ الله بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ الله قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٥٢) ﴾ [الأنفال] فالله أقوى من كلِّ ما تصنعون فى كونه ، وعقابه تعالى شديد وأليم .

ونعلم أن العقاب لا يعم الناس إلا بقدْر ذنوبهم ، فليس معنى أنّ الله شديد

العقاب أنْ تُصيب شدة العذاب من فعل ذنباً يسيراً ، ولكن لكلٍّ جزاؤه على قدر ذنبه ، وهذا العقاب والعذاب مهما كان يسيراً فهو شديد أليم .

أعدَّ الله عذاباً شديداً لمَنْ عتا عن أمر الله وعصى الله وتمرد على منهج الله ، ومن عذابه طعام الزقوم ، وهى شجرة ﴿ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ (٦٤) طَلْعُهَا[١] كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ (٦٥) ﴾ [الصافات]

ثم يقول تعالى : ﴿ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (٦٦) ﴾ [الصافات] ، ويقول تعالى فى آيات أخرى : ﴿ إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ (٤٣) طَعَامُ الْأَثِيمِ (٤٤) كَالْمُهْلِ[٢] يَغْلِي فِي الْبُطُونِ (٤٥) ﴾ [الدخان]

ورسول الله ﷺ يعطينا لمحةً عن هذا العذاب الشديد من طعام الزقوم ، ليس بأكلة منه إنما بقطرة واحدة ، فيقول رسول الله ﷺ : « لو أن قطرةً قُطرت فى بحار الدنيا لأفسدت على أهل الدنيا معايشهم »[٣] .

قطرة واحدة فى بحار الدنيا على عظمها وتلاطمها ومساحاتها الشاسعة لو سقطتْ تلك القطرة فيها لأفسدت على أهل الدنيا معايشهم ، فلا يستفيدون من تلك البحار بشيء أبداً ، لا بمائها ، ولا بحيواناتها البحرية فكيف بمَنْ يكون الزقوم طعامه ؟

---

(١) أول حمل النخل الطلع فإذا انشق فهو الضحك وهو الإغريض ثم البلح ثم السياب ثم الجدال إذا استدار واخضر قبل أن يشتد ثم البسر إذا عظم ، ثم الزهو إذا احمر . [أدب الكتاب لابن قتيبة ١/٢٢] .

(٢) المهل : الصديد والقيح . ودردى الزيت وما أذيب من نحاس أو فضة . وفى حديث أبى بكر : " ادفنونى فى ثوبيَّ هذين فإنما هما للمهل والتراب " . [الصحاح فى اللغة ٢/١٨١ للجوهرى] .

(٣) عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ(١٠٢) ﴾ [آل عمران] فلو أن قطرة من الزقوم قطرت فى بحار الدنيا أفسدت على أهل الدنيا معايشهم ، كيف من يكون طعامه ؟ "أخرجه أبو داود الطيالسى (٢٧٦٥) والطبرانى فى المعجم الكبير (١٠٩٠٥) وفى المعجم الأوسط (٧٥٢٥) وفى المعجم الصغير (٩١١) وكلها من طريق أبى داود الطيالسى .

وإذا كان الله قد أعدَّ لهم عذاباً شديداً فناسب أنْ يقول هنا : ﴿ فَاتَّقُوا اللهَ .. (١٠) ﴾ [الطلاق] وأمْر التقوى أمر عجيب ، فتجد الحق سبحانه يقول (اتقوا الله) وأحياناً يقول (اتقوا النار) ، فكيف نأخذ سلوكاً واحداً تجاه الحق سبحانه وتعالى ، وتجاه النار التى سيُعذّب فيها الكافرون ، والنار خَلْق من خَلْق الله؟

فالله تعالى يقول (اتقوا النار) أى : لا تفعلوا ما يغضب الله حتى لا تُعذّبوا فى النار ، فكأنك قد جعلت بينك وبين النار وقاية بأنْ تركت المعاصى وفعلت الخير .

والنار أحد جنود العذاب لله سبحانه ، فالله يريدنا أنْ نجعل بيننا وبين عذاب النار وقاية ، وأنْ نجعل بيننا وبين صفات الجلال فى الله وقاية .

والنار من متعلِّقات صفات الجلال ، لذلك فإنّ قوله (اتقوا الله) تساوى (اتقوا النار) ، والنار لا تفعل العذاب بالعصاة بذاتها ، إنما بتسليط الله لها على العاصى .

ويقول تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (٢٢٣) ﴾ [البقرة] أى : إياكم أنْ تغضبوا ربكم فى أى عمل من هذه الأعمال ، وكُنْ أيها المسلمَ فى هذه التقوى على يقين من أنك مُلاقى الله ، ولا تشك فى هذا اللقاء أبداً ، وما دُمت ستتقى الله وتكون على يقين أنك تلاقيه لم يبْقَ لك إلا أنْ تُبشَّر بالجنة .

فاجعلوا بينكم وبين صفات الجلال وقاية ، لأن الحق له صفات جلال هى الجبروت والانتقام والقهر ، وللحقّ صفات جمال فهو الغفور الرحيم المغنى الحكيم إلى غير ذلك من صفات الجمال ، إذن فلنجعل بيننا وبين صفات الجلال وقاية تقينا من جنود صفات الجلال ومنها النار .

ولا يعى هذا ويفهمه ويسلك سلوكاً قويماً يتقى الله فيه إلا أولو الألباب والعقول الذين يدركون بعقولهم أنَّ تقوى الله وإيمانهم بالله هو الذى سيُنجيهم

من عذاب الله الشديد المعدّ لمَنْ عتَا وتمرد .

وقوله ﴿ يَـٰأُولِي الْأَلْبَابِ .. (١٠) ﴾ [الطلاق] و (أولو الألباب) هم أصحاب العقول الراجحة ، والألباب جمع لُبّ . واللبّ هو جوهر الشيء المطلوب ، أما القشر فهو موجود لصيانة اللبّ . وسُمِّى العقلُ لُباً لأنه ينثر القشور بعيداً ويعطينا جوهر الأشياء وخيرها .

فـ (لُبّ الشيء) حقيقة جوهره ، فالقشرة توجد لتحفظ هذا اللبّ ، والمحفوظ دائماً هو أنفَسُ من الشيء الذى يُغلِّفه ليحفظه .

وهكذا يكون أولو الألباب هم البشر الذين يستقبلون القضية الإيمانية بعقولهم ، ويحركون عقولهم ليتذكروها دائماً ، ذلك أنّ مشاغل الحياة ومُتعها وشهواتها قد تصرف الإنسان عن المنهج .

ولذلك قال الحق سبحانه : ﴿ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ (٥٢) ﴾ [إبراهيم] أى : يتذَّكر أصحاب العقول أن الله واحدٌ أحد ، فلا إله إلا هو .

فـ (أولو الألباب) أى : أصحاب العقول المحفوظة من الهوى ، لأن آفة الرأى الهوى ، والهوى يتمايل به .

فـ (اللبّ) الذى هو العقل يحكم لُبَّ الأشياء لا ظواهر الأشياء وعوارضها ، فهناك أحكام تأتى للأمر الظاهر والحق للُبِّ .

فـ (أولو الألباب) هم أصحاب العقول القادرة على التدبُّر والتفكُّر والتمييز. وقد أسماهم الحق فى آيات أخرى (أولى النهى) قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى (٥٤) ﴾ [طه]

والنُّهى : العقول ، وبها تتم عملية التدبير فى الاختيارات ، والعقل من العقال الذى تعقل به الدابة حتى لا تشرد منك ، وكذلك العقل لم يُخلق لك كى تشطح به كما تحب ، إنما لتعقل غرائزك وتحكمها على قدر مهمتها فى حياتك .

وسُمِّيت العقول كذلك النُّهَى لأنها تنهى عن مثل هذه الشطحات . إذن : فلا بدّ للإنسان من عقل يعقل غرائزه حتى لا تتعدَّى المهمة التى جعلت لها ويُوقفها عند حدِّها المطلوب منها ، وإلا انطلقتْ وعربدت فى الكون .

لا بدَّ للإنسان من نُهْية تنهاه وتقول له : لا لشهوات النفس وأهوائها ، وإلاَّ فكيف تطلق العنان لشهواتك ، ولستَ وحدك فى الكون ؟ وما الحال لو أطلقَ غيُركَ العنان لشهواتهم ؟

وسُمّى العقل لُباً ليشير لك إلى حقائق الأشياء لا إلى قشورها ، ولتكون أبعدَ نظراً وأعمقَ فكراً فى الأمور .

فالعقل هو الميزان ، وهو الذى يُجرى المعادلة ويُوازن بين الأشياء ، وكذلك إنْ جاء بمعنى النُّهى أو اللبّ فإنها تؤدى نفس المعنى ، فالنّهى من النَّهْى عن الشيء . واللبّ أى حقيقة الشيء وأصله ، لا أنْ يكون سطحيَّ التفكير يشرد منك هنا وهناك .

والله لا يُنبِّه الناس إلى ما فيهم من عقل إلا وهو يريد منهم أنْ يحكِّموا عقولهم فى القضية ، لأنه جلَّ شأنه يريد منك أنْ تحكِّم عقلك ، فإنْ حكَّمت عقلك فى القضية فسيكون حكمُ العقل فى صَفِّ أمر الله .

فمجرد التعقُّل يعطى الإنسانَ الخيرَ ، والتعقُّل هو محاولة فَهْم نواميس الكون من الأسباب والمسبِّبات ، فيقول تعالى فى آيات كثيرة : ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٨٠) ﴾ [المؤمنون] ، ويقول تعالى : ﴿ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (٤) ﴾ [السجدة]

فهو يُحرِّض الإنسان على أنْ يتذكّر ويتفكّر ويعتبر ، ولو كان القرآن يريد أنْ يخدع الإنسان لما أثار انتباهه إلى ضرورة التذكّر والتفكّر والتدبّر والاعتبار.

وحين يُنبِّهك الحق سبحانه إلى أنْ تستعمل عقلك فهذا دليلٌ على الثقة فى أنك إذا استعملتَ عقلك وصلتَ إلى القضية المرادة ، فلو أنهم استعملوا عقولهم فى استخدام المقدِّمات المحسَّة التى يؤمنون بها ويسلمون .

فمهمة العقل مأخوذة من اشتقاقه ، فالعقل مأخوذ من عقال البعير ، وعقال البعير هو الحبل الذى يُربط به ساقا الجمل حتى لا ينهض ويقوم .

والعقل إنما جاء ليحكم الملكات ، لأن كل ملكة لها نزوع إلى شيء ، فالعين لها ملكة أنْ ترى كلّ شيء ، فيقول لها العقل : لا داعى أنْ تشاهدى ذلك لأنه منظر سيؤذيك ، والأذن تحب أنْ تسمع كل قول فيقول لها العقل : لا تسمعى إلى ذلك حتى لا يضرك .

فالعقل هو الضابط على بقية الجوارح ، ثم ينقلنا الحق سبحانه لوصف آخر للعقل وهو اللبّ ، أى العقل الذى يهتم بمعالى الأمور ويزِن الأمور بحكمة ويصل بلُبّه إلى حقائق الأشياء وجوهرها .

ولكن مَنْ هم أولو الألباب ؟

الحق سبحانه هنا يقول : ﴿ فَاتَّقُوا اللهَ يَـٰأُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا .. (١٠) ﴾ [الطلاق] فـ (الذين آمنوا) بدل من ﴿ أُولِي الْأَلْبَابِ ..(١٠) ﴾ [الطلاق] أى : أن أولى الألباب هم الذين آمنوا .

أى : الذين آمنوا بالله إلهاً ودخلوا معه فى عقد إيمانى ، فآمنوا بالله ورسوله ليس فى قلوبهم ريب ولا شكّ ، بل هم يؤمنون بأن القرآن مُوحى به من الله مُبلَّغ إلى محمد ﷺ بالوحي المُنزَّل من السماء .

آمنوا بالله رباً وإلهاً وخالقاً ، لذلك استحقوا وصف (أولى الألباب) فخذوا عن الله وافعلوا كما أُمرتم لأنكم آمنتم بمَنْ أمركم ، فالذين آمنوا ملتزمون ، وما دام الإنسان ملتزماً فسيعوق نفسه عن حركات الوجود التى تأتيه من غير حِلٍّ.

فيا مَنْ آمنتم بى بمحض اختياركم ، وآمنتم بى إلهاً له كلُّ صفات العلم والقدرة والحكمة والقيومية ، ما دُمتم قد آمنتم بهذا الإله فاسمعوا من الإله الأحكام التى يطلبها منكم .

والحق سبحانه لم يحدِّد فى قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا .. (١٠) ﴾ [الطلاق]

آمنوا بماذا ؟ فالإنسان إنْ آمن بالله فقط ، فهذا يقتضى أنْ يبحث المومنُ بالله عن مطلوب الله ، ومطلوبُ الله إنما جاء به رسول ، لذلك فالإيمان بالله يقتضى أنْ يؤمن الإنسانُ برسول ، لأن قصارى ما يعطيك العقل أيها الإنسان أنْ تؤمن بأن وراء الكون إلهاً خالقاً ويُدبِّره .

وإيمانك برسول يُعتبر إيماناً بالكتاب الذى جاء به وكذلك إيماناً بالملائكة، وكان الذين آمنوا من أولى الألباب ، أو هم أولو الألباب ؛ لأنهم استخدموا عقولهم استخداماً صحيحاً ووصلوا إلى الإيمان الحق بالله وبرسوله وبكتابه ، فلم تأخذهم الأهواء .

ومَن استعمل عقله فى استخدام المقدِّمات المحسَّة التى يؤمنون بها ويُسلمون ، فالعقل أراده الله سبحانه لنا ليحجزنا عن الانطلاق والفوضى فى تحقيق شهوات النفس ، فالحق سبحانه يعقلك عن الحركة التى فيها هوى بأنْ منحك العقلَ ليؤدى لكِ هذه المهمة .

ويقول الحق سبحانه : ﴿ قَدْ أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا (١٠) ﴾ [الطلاق] نحن نعلم أن (قد) للتحقيق . فـ (قد) إذا دخلت على الفعل الماضى تكون للتحقيق ، وإنْ دخلت على المضارع فهى للتكثير إنْ كانت منطقية الأسباب ، وهى للتقليل إنْ كانت غير منطقية الأسباب .

وكلمة ﴿ أَنْزَلَ .. (١٠) ﴾ [الطلاق] تعنى : أوجد وخلق من أعلى ، وما دام كلُّ شيء قد وُجِد بمشيئة مَنْ هو أعلى من كلِّ الوجود ، فكلُّ شيء لصالحك مباشرة أو بوسائط .

ولا تأخذ كلمة (أنزل) من جهة العلو الحسية ، بل خُذْها من جهة العلو المعنوية، فالمطر مثلاً ينزل من أعلى حِسِّياً ويختلط بالأرض فيأخذ النبات غذاءه منها ، والرزق بالمطر ومن الأرض مُقدَّر ممَّنْ خلق ، وهو الأعلى سبحانه .

وقد قال الحق سبحانه : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ

لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ .. (٢٥) ﴾ [الحديد]

فقد أنزل الحقُّ سبحانه منهجه على الرسل عليهم السلام لتصلح حياة الناس، وأنزل الحديد أيضاً هذا الذى نستخرجه من الجبال ومن الأرض ، فالمراد هنا بالإنزال الإيجاد ممنْ هو أعلى منك لصالحك أيها الإنسان .

فالله إنما أنزل المنهج ليعمل به الإنسانُ لتستقيم حركة حياته وحياة ذريته، فالله أنزل إلينا منهجه ليُرينا طريق الخير ويُبعدنا عن طريق الشر .

فمنهجُ الله الذى أنزله على رسوله قد عرَّفنا أن الله تبارك وتعالى هو الذى خلق لنا هذا الكون وخلقنا ، وبيَّن اللهُ لنا ماذا يريد الحق منا ، وكيف نعبده ، ومنهج الله أعطانا الطريق وشرعَ لنا أسلوبَ حياتنا تشريعاً حقاً .

أنزل اللهُ تعالى منهجاً للحياة الطيبة للإنسان على الأرض ، فإذا سمعت كلمة ﴿ أَنْزَلَ .. (١٠) ﴾ [الطلاق] تجدها منسوبةً إلى الله دائماً : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (١) ﴾ [القدر]. إذن : فكلمة (أنزل) مقصورة على الله ، إنما كلمة (نزَّل) تأتى من الملائكة ، و (نَزَل) تأتى من الروح الأمين الذى هو جبريل .

فكأن كلمة ﴿ أَنْزَلَ .. (١٠) ﴾ [الطلاق] بهمزة التعدية ، عدَّتْ القرآن من وجوده مسطوراً فى اللوح المحفوظ إلى أنْ يبرز إلى الوجود الإنسانى ليباشر مهمته .

فلغتنا العربية دقيقة ، وعندنا فرْق بين (أنزل) و (نَزَّل) و (نَزَل) ، ولذلك فكلمة (نَزَل) تأتى للكتاب ، وتأتى للنازل بالكتاب ، يقول تعالى : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) ﴾ [الشعراء]

ويقول سبحانه : ﴿ وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ .. (١٠٥) ﴾ [الإسراء] وكلمة (أنزل) ، (ونزل) تُشعرنا بعُلو المكانة التى نزل منها المنهج ، ونلاحظ أنَّ الحق سبحانه قال هنا : ﴿ قَدْ أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْكُمْ .. (١٠) ﴾ [الطلاق]

ويقول تعالى أيضاً : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤) ﴾ [البقرة]

ولكن الحق سبحانه يقول فى آيات أخرى : ﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٦٤) ﴾ [النحل]

وهكذا نجد أن الإنزال يأتى مرة مُتعدِّياً بـ (إلى) ، ويأتى مرة أخرى متعدياً بـ (على) ، وقال بعض من العلماء : إن الكلام حينما يكون موجهاً لرسول الله ﷺ ، فالحق يقول : ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ .. (٦٤) ﴾ [النحل]

وكأنَّ هؤلاء العلماء – دون قصد منهم – يفصلون بين بلاغ الله للرسول والبلاغ إلى أمة الرسول ﷺ ، ولم يلتفتوا إلى أن الغاية من إنزال المنهج على الرسول هو هداية الأمة .

وعلينا ألاَّ نأخذ الأمر بسطحية ، فـ (إلى) و (على) إنما تفيدان أن المنهج نزل للأمة وللرسول ﷺ ، فمرة يأتى الحق بالنزول مُتعدياً بـ (إلى) ، ومرة يأتى الحق بالنزول مُتعدياً بـ (على) ، ويوجه الخطاب لرسول الله كقوله سبحانه: ﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٦٤) ﴾ [النحل]

ومرة ثالثة يأتى الحق بالإنزال فى حديث إلى المؤمنين : ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ .. (١٤٠) ﴾ [النساء]

إنه كتابٌ مُنزَّل من السماء وملحوظ فيه العلو ، والغاية من النزول هو مصلحة الأمة ، فالإتيان بـ (على) يفيد العلو ، ولمصلحة الأمة . (العلوية) هنا ليُعلى مقام المنهج فى نظر المؤمنين فهو قد نزل لمصلحتهم .

فالمنهج هو من حيث العلو يأتى بـ (على) ، ومن حيث الغاية يأتى بـ (إلى)،

فهو منهج نزل من الحق الأعلى ونزل إلى الرسول وعلى الرسول ليُبلغه إلى المؤمنين لمصلحتهم . فكلمة (أنزل) تدل على أن هذا عطاء علوى .

﴿ قَدْ أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا (١٠) ﴾ [الطلاق] ، والذكْر هو حفظ الشيء أو استحضاره، وقد يكون الذكر بمعنى القول لأنك لا تقول الشيء إلا بعد أنْ تستحضره .

وقد أنزل سبحانه القرآنَ ، ورسولُ الله هو أول مَنْ طبَّق القرآن والسنة ، ويقول تعالى: ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٤٤) ﴾ [النحل]

فالذكر يأتى أحياناً مقصوداً به التذكير بالقرآن وهو المنهج النازل من السماء وطبَّقه رسول الله ، وسنة رسول الله من الذكر أيضاً ، والحق سبحانه يصف القرآن فيقول : ﴿ ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ (١) ﴾ [ص] والذكْر ضد النسيان ، وقد وردت معانٍ كثيرة للذكر فى القرآن ، وأول هذه المعاني وقمتها أن الذكر حين يُطلق يُراد به القرآن : ﴿ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ (٥٨) ﴾ [آل عمران]

وكذلك فى قوله الحق : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ .. (٩) ﴾ [الحجر]

إذن: يُطلق الذكر ويُراد به القرآن ، ومرة يُطلق الذكر ويُراد به الصيت أى الشهرة الإعلامية الواسعة ، وقد قال الحق لرسوله عن القرآن : ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ .. (٤٤) ﴾ [الزخرف]

أى أن القرآنَ شرفٌ كبير لك ولأمتك ، وسيجعل لكم به صيتاً إلى يوم القيامة، ويقول تعالى : ﴿ لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ .. (١٠) ﴾ [الأنبياء] أى : فيه شرفكم وفيه صيتكم وفيه تاريخكم .

وشرفُ القرآن دائم أبداً : ﴿ ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ (١) ﴾ [ص] ، وتجد القرآن يقرأ مُرتّلاً ، ويقرأ مُجوّداً ، وكلُّ هذا ذِكْر وشرف كبير .

وقد يُراد بالذكْر ما نزل على جميع الرسل ، فالحق سبحانه يقول : ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ (١) مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ[1] إِلَّا

---

(١) محدث : يعني ما يحدث الله من تنزيل شيء من القرآن ويعظهم به . قال مقاتل : يحدث الله الأمر بعد الأمر . وقيل : الذكر المحدث ما قاله النبي ﷺ وبيّنه من السنن والمواعظ سوى القرآن . [تفسير البغوي ٥/٣٠٦] .

اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٢) ﴾ [الأنبياء]

أى : أن كل ما نزل على الرسل ذكر ، ويقول سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ (٤٨) ﴾ [الأنبياء] فالمراد بالذكر كل ما نزل على الرسل من منهج الله .

والذكْر أيضاً التذكير ، فقد أنزل الله تعالى إليهم قرآناً يُذكِّرهم بربهم وخالقهم ليعملوا بما يُرضيه تعالى ، فـ (ذكراً) هنا أي قرآناً يُذكرهم ، فالله أنزل إليكم ذكراً يُذكركم به وينبهكم على حظكم من الإيمان بالله والعمل بطاعته ، فالله أنزل إليكم كتاباً لكم فيه شرفٌ وعزٌّ وهو القرآن .

ويخاطب الحق سبحانه : ﴿ المص (١) كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (٢) اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ .. (٣) ﴾ [الأعراف]

فهو كتابٌ أنزل من الله وهو المرسل ، و ﴿ إِلَيْكَ .. (٢) ﴾ [الأعراف] لأنك رسول ، والمرسَل إليهم هم الأمة ، إمَّا أنْ تنذرهم إنْ خالفوا ، وإما أنْ تُذكرهم وتهديهم وتُعينهم أو تُبشّرهم إنْ كانوا مؤمنين .

وذِكْر الله إنما أنزله الله ليُتَّبع : ﴿ اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ .. (٣) ﴾ [الأعراف] فالمنهج الذى يأتى من الرب الأعلى هو الذى يُصلح الحياة ، فاتبعوا ما أُنزِل إليكم من ربكم من أعلى .

فلا يصح أنْ تأتى لمن دونه وتأخذ منه ، مثلما يفعل العالم الآن حين يأخذ قوانينه من دون الله ومن هوى البشر ، فهذا يحب الرأسمالية فيفرضها بالسيف ، وآخر يحبّ الاشتراكية فيفرضها على البشر بالسيف ، وكل واحد يفرض بسيفه القوانين التى تلائمه .

وكلها دون منهج الله لأنها أفكار بشر وتتصادم بأفكار بشر ، والأوْلَى من هذا وذاك أنْ نأخذ ممن لا نستنكف جميعاً أنْ نكون عبيداً له ، ثم يقول الحق سبحانه: ﴿ رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا

الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللهُ لَهُ رِزْقًا (١١) ﴾ [الطلاق]

فقوله تعالى (رَسولاً) على البدل من (ذكراً) أى : أنزل **الله** إليكم ذكْراً هو الرسول . وهو معنىً من معانى الآية ، ولكن من معانيها أيضاً أنَّ **الله** أنزل إليكم ذِكْراً وأرسل رسولاً .

وعلى هذا لا تكون (رسولاً) بدلاً من (ذكراً) ، بل تكون بتقدير (أرسل). والرسول إما هو جبريل عليه السلام ، فيكون القرآن مُنزلاً ، ويكون جبريل الرسول مُنزلاً أيضاً ، لأنه نزل بالقرآن على محمد ﷺ .

فرسولُ **الله** من الملائكة إلى رسله من البشر هو جبريل عليه السلام ، وقد قال تعالى : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) ﴾ [الشعراء] أي نزل جبريل بالقرآن، فجبريل هو الروح الأمين على الوحى وعلى كلام **الله** ، فـ (نزل) تأتى للنازل بالكتاب .

فجبريل رسولٌ من **الله** إلى رسول **الله** ﷺ ، وهو حاملٌ للوحى من **الله** ، فالقرآن لم ينزل وحده ، وقد نالت الملائكة شرفَ أنْ يكون المبلّغ لرسول **الله** منهم ، وهو جبريل عليه السلام .

لذلك قال تعالى : ﴿ لَكِنِ اللهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ .. (١٦٦) ﴾ [النساء] والرسول أيضاً هو محمد ﷺ ، فيكونَ **الله** قد أنزل إليكم ذِكْراً وبعث إليكم رسولاً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ رَّسُولًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا (١١) ﴾

فمن نعمة الله علينا أنْ أرسل إلينا رسولاً يتلو علينا آيات الله ، والرسول جاء يتلو آيات الله وآيات القرآن ، وكانت عجيبة عليهم ، وقد جاءهم الرسول بآيات مقروءة ليلفت الناس إلى الآيات المنظورة .

والحق سبحانه يقول : ﴿ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ .. (١٦٤) ﴾ [آل عمران] ، وليست المسألة أنه يتلو الآيات ليعجبوا منها فحسب ، فالرسول له مهمة إيمانية تلفت كلَّ سامع للقرآن إلى مَنْ خلق ذلك الكون الجميل البديع الذى فيه الآيات العجيبة .

وهناك فرْقٌ بين التلاوة والتعليم ، فالتلاوة أنْ يتلو عليهم ، أى أنَّ الرسول هو الذى يتلو ، والتعليم يكون بأنْ يتلوا هم القرآن ، ثم قال : ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ .. (١٦٤) ﴾ [آل عمران] ، وعلَّم أى نقل العلم من معلِّم إلى معلَّم .

وقد كان رسول الله ﷺ ينزل عليه الوحى بعدة آيات ، وقد يطول إلى رُبْعين أو ثلاثة أرباع ، فلما أنْ يُسرَّي[1] عنه يتلو ما نزل عليه على صحابته ليكتبوه، ويتلوه كما أنزل عليه ، فيكتبه الكتبة ويحفظه مَنْ يحفظه منهم ، وكانوا أمةَ روايةٍ وأمةَ حفظٍ .

فالتلاوة هى أنْ تقرأ القرآن ، وأما التعليم فهو أنْ تعرف معنى آيات الله وما جاءتْ به لتُطبِّقه وتعرف من أين جاءت ، ومحمد ﷺ نشأ بينهم ولم يعرف له قراءة ، ولا تلاوة كتاب ، ولا جلوساً إلى معلم .

فمعنى ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ .. (٦٩) ﴾ [الشعراء] أى : اقرأ . ونقول للقراءة (تلاوة) لأنه لا يُتلى إلا المكتوب المعلوم المفهوم ﴿ عَلَيْهِمْ .. (٦٩) ﴾ [الشعراء] أى : على أمة الدعوة كلها ، المصدِّقين بالقرآن والرسول والمكذِّبين .

---

(١) يُسرَّى عنه : يُكشف عنه . سُرِّى عنه بضم السين المهملة وكسر الراء المشددة ، أي كشف عنه شيئاً بعد شيء بالتدريج (عمدة القاري شرح صحيح البخاري لبدر الدين العيني ١٤/٢٤٧) .

فهذه التلاوة للدعوة ، أما فى قوله تعالى : ﴿ اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ .. (٤٥) ﴾ [العنكبوت] فهى تلاوة المسلم للقرآن للأُنْس الذى لا ينقضى ، وهو كتابُ الله ومعجزته التى أنزلها الله ، فاشتغل بتلاوته ، فمع كل تلاوة له ستجد سكناً إلى ربك .

فـ (اتل) أى اقرأ ولا تعجز ولا تيأس ، فالقرآن سلوة لنفسك ، فميزة معجزتك يا محمد أنك تستطيع أنْ تُكرِّرها فى كلِّ وقت ، وأنْ تتلوها كما تشاء وأنْ يتلوها بعدك مَنْ سمعها ، وستظلّ تتردد إلى يوم القيامة ، والتلاوة قوْلٌ من فعل اللسان .

وقد كان رسول الله يتلو القرآن وآيات الله فى بيوت أزواجه ، قال تعالى : ﴿ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللهِ وَالْحِكْمَةِ .. (٣٤) ﴾ [الأحزاب]

فكتابُ الله المقصود هنا وآياته هى القرآن الكريم ، ويقول الحق سبحانه لنبيّه ورسوله محمد ﷺ : ﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ .. (٢٥٢) ﴾ [البقرة] فكلمة ﴿ آيَاتُ اللهِ .. (٢٥٢) ﴾ [البقرة] تعنى الأشياء العجيبة ، و﴿ نَتْلُوهَا .. (٢٥٢) ﴾ [البقرة] أى : نجعل كلمة بعد كلمة ، وهى من (ولى) أى جاء بعده بلا فاصل .

وآيات الله ثلاثة أنواع :

– آيات كونية ، وهى العجائب التى فى الكون ويُسمِّيها الله سبحانه آيات ، وقد سمَّى الحقُّ سبحانه الظواهر الكونية آيات ، فقال تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ .. (٣٧) ﴾ [فصلت] . وقال سبحانه : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا .. (٢١) ﴾ [الروم]

– وهناك آياتٌ ، هى الدليل على صِدْق الرسل عليهم السلام فى البلاغ عن الله وهى المعجزات لأنها خالفتْ ناموسَ الكون المألوف للناس ، فكلّ شيء له طبيعة ، فإذا خرج عن طبيعته ، فهذا يستدعى الانتباه .

ومثل هذه الآيات النار التى أُلقى فيها إبراهيم عليه السلام ولم تحرقه، فأعداؤه أخذوه وألقوْا به فى النار فنجَّاه الله سبحانه من النار فخرج منها سالماً.

ولم يكُنْ المقصود من ذلك أنْ ينجو إبراهيمُ من النار، فكان من الممكن أنْ لا يُمكّنهم الحق عزّ وجلَّ من أنْ يُمسكوه ابتداءً، ولو شاء الله تعالى أنْ يطفيء النارَ بقليل من المطر لفعلَ، لكن ذلك لم يحدث.

الذى حدث أنهم أمسكوا بإبراهيم عليه السلام وألقوا به فى نار عظيمة، ولكن النار لم تحرقه لأنَّ الله أمرها، فقال: ﴿يَـٰنَارُ كُونِي بَرْدًا[1] وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ .. (٦٩)﴾ [الأنبياء]

- وتُطلق الآيات أيضاً على آيات القرآن الكريم، وما دامت الآيات القرآنية من الله، والمعجزات من الله، وخَلْق الكون من الله، فهل هناك آية تصادم آية؟ لا لأن الذى خلق الكون وأرسل الرسل بالمعجزات وأنزل القرآن هو الله إلهاً واحداً، ولو كان الأمرُ غير ذلك لحدث التصادم بين الآيات.

وكلمة الآيات تُستعمل للأمور العجيبة اللافتة للنظر، تقول مثلاً: فلان آيةٌ فى الحسن، أى أن حُسْنه لافتٌ للنظر، وتقول: فلانٌ آية فى الذكاء، صحيح أنَّ هناك أذكياءَ كثيرين لكنه آية فى الذكاء. أى أن هذا الإنسان أمره عجيبٌ فى الذكاء، فالآيات هى التى يقف الإنسان عندها وقفةً طويلة ليتأمل فى عجائبها.

فالآيات قسمان: منظور ومقروء. المنظور: كل الكون .. والمقروء هو القرآن، فالقرآن يفسر آيات الكون، وآياتُ الكون تفسر آيات القرآن، والرسول جاء يتلو آيات القرآن، ليلفت الناسَ إلى الآيات المنظورة.

وبتلك الآيات المنظورة يكون العجب من دِقَّة خَلْق الكون، فينتهى الإنسانُ إلى الإيمان بمَنْ خلق هذا الكون.

---

(١) قال ابن عباس: لو لم يقل سلاماً لمات إبراهيم من بردها، ومن المعروف في الآثار أنه لم يبق يومئذ نار في الأرض إلا طفئت، فلم يُنتفع في ذلك اليوم بنار في العالم. [تفسير البغوي ٥/٣٢٨].

فالرسول له مهمة إيمانية تلفت كلَّ سامع للقرآن إلى مَنْ خلق هذا الكون الجميل البديع الذى فيه الآيات العجيبة ، ثم يعطى الرسول من بعد ذلك المنهج الذى يناسب جمال الكون ، فالرسول ينقل المؤمنين إلى المنهج الذى يُزكى الإنسان .

منهج النور الواضح فى كلماته ، فالمطلوب من الرسول أنْ يبلّغ المنهج ، وقد بلّغه ﷺ بلاغاً مبيناً محيطاً واضحاً ومستوعباً لكل أقضية الحياة .

وقوله تعالى ﴿ مُبَيِّنَاتٍ .. (١١) ﴾ [الطلاق] أى : مُبيّنات لمن سمعها وتدبّرها أنها من عند الله ، يُبين لكم ما تحتاجون إليه من الأحكام ، وهى فى ذاتها بيِّنة واضحة جلية .

و﴿ مُبَيِّنَاتٍ .. (١١) ﴾ [الطلاق] بكسر الياء هى قراءة حفص[1] وغيره على صيغة اسم الفاعل ، أى أن الآيات تبين للناس ما يحتاجون إليه من الأحكام، أما قراءة الجمهور فهي : مبيَّنات . بفتح الياء أى بيَّنها الله وأوضحها ، كقوله تعالى: ﴿ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ .. (١١٨) ﴾ [آل عمران] بيَّن الله فيه الحلال والحرام.

وقد قال تعالى فى آيات أخرى : ﴿ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ .. (٣٤) ﴾ [النور] فالله تعالى قد أنزل لكم الآيات الواضحة التى تضمن لكم شرف الحياة وطهارتها ونقاء نسل الخليفة لله فى الأرض .

وهذه الآيات ما تركت شيئاً من أقضية الحياة إلا تناولته وأنزلت الحكم فيه ، وقد نلتمس لكم العذر لو أن فى حياتكم مسألة أو قضية ما لم يتناولها التشريع ولم ينظمها .

---

(١) هو حفص بن عمر بن عبد العزيز الأزدي الدوري أبو عمر ، إمام القراءة في عصره ، كان ثقة ثبتاً ضابطاً ، هو أول من جمع القراءات ، كان ضريراً نسبته إلى الدور وهي محلة ببغداد ، نزل سامراء ، وتوفي بقرية من قرى الري وهي طهران حالياً وذلك عام ٢٤٦ هجرية [الأعلام للزركلي ٢/٢٦٤] وانظر تراجم القراء (١/١٣) للشيخ فائز بن عبد القادر .

لذلك يقول سيدنا على رضى الله عنه عن القرآن : فيه حكم مابينكم ، وخبر ما قبلكم . ونبأ ما بعدكم ، هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله[1].

ولا يزال الزمان يثبت صدق هذه المقولة ، وانظر هنا وهناك لتجد مصارع الآراء والمذاهب والأحزاب والدول التى قامت لتناقض الإسلام ، سواء كانت رأسمالية شرسة أو شيوعية ملحدة .. إلخ كلها انهارت على مرأى ومسمع من الجميع.

نعم . مَنْ تركه من جبار قصمه الله ، ومَنْ ابتغى الهدى فى غيره أضلّه الله لأنه خالقك ،وهو أعلمُ بما يُصلحك ، فلا يليق بك إذن أنْ تأخذ خَلْق الله لك ثم تتكبَّر عليه وتضع لنفسك قانوناً من عندك أنت .

ومعنى ﴿ مُبَيِّنَاتٍ .. (١١) ﴾ [الطلاق] أى : مبينات لاستقامة حركة الحياة ، لأن حركة الحياة تحتاج لأنْ يتحرك الجميع ، ويؤدى كلٌّ مهمته حتى تتساند الحركاتُ ولا تتعاند ، فالذى يُتعِب الناس فى هذه الدنيا أنْ تبنى وغيرك يهدم .

ومقصود هذه الآيات هو ما قاله تعالى هنا : ﴿ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ .. (١١) ﴾ [الطلاق]

والرسول عندما يأتى ليُخرج الناسَ من الظلمات إلى النور يريد أناساً تفهم عنه ، لذلك يأتى من أنفسهم ، ويكون إنساناً له مواصفاتكم ، لذلك قال تعالى : ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ .. (١٦٤) ﴾ [آل عمران]

فالقرآنُ نزل ليُخرج الناسَ من الظلمات إلى النور ، فيسير الناسُ على هدى وعلى بصيرة .

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه (٢٩٠٦) والبزار في مسنده (٨٣٦) والدارمي في سننه (٣٣٣١) وابن أبي شيبة في مصنفه (٣٠٦٢٩) من حديث علي بن أبي طالب عن رسول الله ﷺ : « ألا إنها ستكون فتنة . فقلت : ما المخرج منها يا رسول الله ؟ قال : «كتاب الله فيه نبأ ما كان قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم» . إلخ .

والحق سبحانه يعقد لنا مقارنة بين الذين آمنوا والذين كفروا ، يقول تعالى: ﴿ اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ .. (٢٥٧) ﴾ [البقرة] ثم يقول : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ .. (٢٥٧) ﴾ [البقرة]

فالمؤمنون وليّهم الله ، والله لا يترك عباده فى ظلمات الشرك والكفر، بل يُخرجهم من الظلمات إلى نور الإيمان والتوحيد والطاعة ، فالله وليّ الذين آمنوا يتولّى شئونهم وأمورهم ، وهو ناصرهم ومُحبّهم ومُعينهم .

وهو سبحانه يُخرجهم من ظلمات الجهل إلى نور الإيمان ، أما الذين كفروا فأولياؤهم الطاغوت يُخرجهم من النور إلى الظلمات .

والذين آمنوا هم الذين اتبعوا رضوانه فسلكوا سبل السلام ، قال تعالى : ﴿ يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ .. (١٦) ﴾ [المائدة]

فمَنِ اتبع رضوانه يهديه الله لسُبل السلام ، ففيه رضوان مُتبع ، وفيه سبل سلام كمكافأة ، هؤلاء يُخرجهم الله من الظلمات إلى النور ، والظلمات هى محلّ الاصطدام .

وعندما يُخرجهم من الظلمات إلى النور يروْنَ الطريق الصحيح الموصِّل إلى الخير والطريق الموصِّل إلى غير الخير ، والله لم يقُلْ : ليُخرج الذين آمنوا من الظلمات إلى الأنوار ، فلم يجمع (النور) بل جعله مفرداً ، فالنور واحد لا يتعدد، أما الظلمات فمتعددة بتعدُّد الأضواء ، ظلمة هنا وظلمة هناك .

والحياة لا تحتاج فقط إلى ما يثير المظاهر المادية بالنور ، بل تحتاج أيضاً إلى نور ينير ويكشف المظاهر المعنوية .

والنور الذى جاء به رسول الله ﷺ يجلى الحسَّ والمعنى فى آن واحد لنتجنب

الأشياء التى تطمسها الظلمة ، ولنسير على بيِّنة من المعانى فلا نصطدم بالعقبات.

وقد يقول قائل : لماذا يعيش الناسُ فى الظلام ولا يتجهون إلى النور من أول الأمر ؟ وتكون الإجابة : إنَّ هناك أناساً يستفيدون من وجود الناس في الظلمات ، لذلك يكون بينهم أناسٌ ظالمون وأناسٌ مظلومون .

والظالم الذى يأخذ – اغتصاباً – خير الآخرين ويُعربد فى الكون يخاف من رجل الدعوة الذى ينهاه عن الظلم ويدعوه إلى هداية العقل ومنطقه ، ومثل هذا الظالم عندما يسمع كلمة المنطق والدعوة إلى الإيمان لا يحب أنْ تُنطق هذه الكلمة ، إنه يكره الكلمة والقائل لها .

والذين يعيشون فى الظلام يكونون قد ألفوا الظلمة والفوضى ، وكُلٌّ منهم يعربد فى الآخرين ، وعندما جاء الدين فرَّ بعضهم من مجيء النور ، لأن النور يحرمهم من لذَّات الضلال ، ولأن النور يوضح الرؤية .

والظلمات هى محلّ الاصطدام ، وعندما يُخرجهم من الظلمات إلى النور يرونَ الطريق الصحيح الموصِّل إلى الخير ، والطريق الموصِّل إلى غير الخير، وبعدما يخرجون من الظلمات إلى النور تكون حركاتهم متساندة وليست متعاندة ، ولا يوجد صدام ولا شيءَ يُورثهم بغضاء وشحناء .

والظلمة المعنوية أقوى من الظلمة الحسِّية ، وكذلك النور المعنوى أقوى من النور الحسى .

والله إنما يُخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، فكلُّ عمل سلوكيٍّ لا بد أنْ يوجد من ينبوع عقديٍّ ، والإيمان أنْ تنسجم حركة الحياة مع ما فى القلب وفْق مراد الله سبحانه ، فكأنّ العملَ الصالح ينبوعه الإيمان .

ونحن حين نسمع ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا .. (١١) ﴾ [الطلاق] فهذا عمل قلبى ونسمع بعده ﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ .. (١١) ﴾ [الطلاق] وهذا عمل الجوارح ، فبعمل القلب مع عمل الجوارح يتحقق من السلوك ما يتفق مع العقيدة .

والاعتقاد القلبى يجعل مشاقّ التكليف فى الأعمال الصالحة مقبولة وهيِّنة، وفائدة الإيمان إنما تتحقق بالعمل الصالح .

والصالحات هى جمع صالحة ، والصالحة هى الأمر المستقيم مع المنهج، وضدها الفساد ، وأقلّ الصالحات هو أنْ يترك الصالح على صلاحه أو يزيده صلاحاً .

ولا يوجد إنسان يعمل كل الصالحات ، لذلك يقول تعالى : ﴿ **وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَـئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا** (١٢٤) ﴾ [النساء]

فهناك مَنْ يحاول عمل بعض من الصالحات حسْب قدرته ، والمطلوب من المؤمن أنْ يعمل من الصالحات على قدْر إمكاناته ومواهبه .

وأول مرتبة فى الأعمال الصالحة أنْ يترك الإنسانُ الأمورَ الصالحة على صلاحها ، فإبقاء الصالح على صلاحه معناه أن المؤمن لن يعمل الفساد ، وكلُّ عمل تصلح به خلافة الإنسان فى الأرض هو عمل صالح .

فالذى يرصف طريقاً حتى يستريح الناسُ من التعب عمل صالح ، وتهيئة المواصلات للبشر حتى يصلوا إلى غايتهم عملٌ صالح ، ومَنْ يعمل على ألاَّ ينشغلَ بالُ البشر بأشياء من ضروريات الحياة فهذا عملٌ صالح .

وقد رتَّب الحق سبحانه على الإيمان بالله وعمل الصالحات ثواباً فى الآخرة، فقال تعالى : ﴿ **وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ** .. (١١) ﴾ [الطلاق] فالحق سبحانه مع الحياة الطيبة التى يمنحها الله لمن أطاعه بإيمانه وعمله الصالح فيحيا فى الدنيا حياةً مطمئنةً بالإيمان، فالله أيضاً يُدخله جنات ، وليس جنة واحدة بل هى جنات تجرى من تحتها الأنهار.

فهى تجرى من تحتها فكأنَّ منبعها ومصدرها من تحت هذه الجنات بزروعها وبنيانها ، فإن الزروع هى التى تحتاج إلى مياه ، أما المبانى فنحن

نخشى على المبانى من المياه ، وهذا بتقديرنا نحن ، أما بتقدير الله فهو يُعد الشيءَ إعداداً يليق به سبحانه .

فالخَلْق قد يشقُّون نهراً ،و نجد بعد ذلك النشْع يضرب فى المبانى ، لكن تصميمات الحق بطلاقة قدرته سبحانه تكون فيه الجناتُ تجرى من تحتها الأنهار ولا يحدث منها نشعٍ ، سواء من تحت أبنية الجنات ، أو من تحت زروعها.

والحق سبحانه مرة يقول : ﴿ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ .. (١١) ﴾ [الطلاق] ومرة أخرى يقول : ﴿ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ .. (١٠٠) ﴾ [التوبة] فهذا ممكن وهذا ممكن .

وهى أنهار ذاتية ، وهى أنهار لا شُطآن لها ، وهى أنهارٌ من أشياء متنوعة مُحبَّبة للإنسان ، قال تعالى : ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ[1] وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى .. (١٥) ﴾ [محمد]

فآفة ماء النهر فى الدنيا أنه قد يقف ويركد ويصبح ماءً راكداً آسناً متغيرَ الرائحة ، وتظهر فيه الطحالب ،لذلك قال تعالى عن أنهار الماء فى الجنة أنها ﴿ أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ .. (١٥) ﴾ [محمد]

فالله ينزع منها الأكدار التى تراها فى الأنهار الحادثة فى الحياة الدنيا ، وهى جاريةٌ أبداً فى أنهار لا شطوط لها تحجز الماء .

وقد روى أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ مرفوعاً أنه قال: « أظنكم تظنون أن أنهارَ الجنة أخدودٌ فى الأرض ، لا والله إنها لسائحة على وجه الأرض، إحدى حافتيها اللؤلؤ والأخرى الياقوت ، وطينها المسك الأذفر . قلت : ما

(١) الماء الآسن : المتغير الريح . قاله أبو عبيدة والزجاج . وقال ابن قتيبة : هو الماء المتغير الريح والطعم. [زاد المسير لابن الجوزى ٥/٣٧٥] .

الأذفر ؟ قال : الذى لا خلطَ له »[١].

أما أنهار اللبن الذى لم يتغير طعمه ، فقد كان العربىُّ يأخذ اللبن من الإبل ويخزنه فى القِرَب ، وبعد ذلك ترحل الإبل بعيداً إلى المراعى إلى حيث تسافر، وعندما كان الأعرابى يحتاج إلى اللبن فلم يكُنْ أمامه غير اللبن المُخزَّن فى القِرَب، ويجده متغيرَ الطعم لكن لا يجد غيره .

لذلك يُعطيهم الحق سبحانه أنهاراً تجرى باللبن لم يتغير طعمه ، ولن يتغير طعمه لأنهم سيحيوْنَ فى هذه الجنة ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا .. (١١) ﴾ [الطلاق]

﴿ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ .. (١٥) ﴾ [محمد] ولكن خمر ليست كخمر الدنيا إضاعةً للعقل وذهاباً به ، إنما هى مجرد ﴿ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ .. (١٥) ﴾ [محمد]، وخمر الدنيا لا يشربها الناسُ بلذَّة ، بدليل أنك عندما ترى مَنْ يشرب كأسَ خمر فهو يسكبه فى فمه مرة واحدة .

ليس كما تشرب أنت كوباً من مانجو وتتلذذ به ، إنه يأخذه دفعة واحدة ليُقلِّل سرعة مروره على مذاقاته لأنه لاذع ومحمَّض وتغتال العقولَ وتفسدها، لكن خمر الآخرة لا اغتيالَ فيها للعقول .

ورابع الأنهار أنهار العسل المُصفَّى ، وهو عسلٌ لا رملَ فيه ولا حصى ولا شوائب ، فما يُعكر عليك العسل فى الدنيا سأُصفِّيه أنا لك فى الآخرة دون معالجة منك ، ودون بذْل مجهود .

عسلٌ ليس فيه كلّ الشوائب الموجودة فى عسل الدنيا ، فالله يُقدِّم لنا خير ما كنا نحبه من عسل الدنيا ولكن بدون ما يُكدره .

﴿ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا .. (١١) ﴾ [الطلاق] فجنةُ الآخرة لا تزول عنهم ولا هم يُزحزحون عنها ، والخلود أبداً هو المكث طويلاً طولاً لا ينتهى ، فإذا كان الخلودُ هو

---

(١) أخرجه أبو نعيم الأصفهاني في كتابه (حلية الأولياء) [٦/٢٠٥] ، وابن أبي الدنيا في (صفة الجنة ٦٦) والديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب (٥٤١٢) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه .

المكث طويلاً فإن ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا .. (١١) ﴾ [الطلاق] أى أن المكث فى الجنة ينتقل من المكث طويلاً إلى المكث الدائم .

وفى آية أخرى يقول تعالى : ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ .. (١٠٨) ﴾ [هود]

فعن أى سماء وأى أرض تلك التى تحدَّث عنها الحق سبحانه ؟ هل هى السماء التى نراها ؟ أو الأرض التى نعيش عليها ؟ كيف والله يقول : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ .. (٤٨) ﴾ [إبراهيم]

فهذه الأرض التى نعيش عليها والسماء التى تُظلنا ستدمَّران يوم القيامة ، فأين هى الأبدية والخلود ؟ ولا بد أنْ نغفل عن الخلود هنا بالأرض والسماوات المبدَّلات ، وهى أرض المعاد ، أرضٌ حياتُك فيها بدون أسباب ، لا تزرع ولا تحصد ولا تصنع لتعيش .

بل هى أرضٌ ساعةَ يخطر الشيء على بالك تجده أمامك دون أنْ تتحمل أيَّ مشقة .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ قَدْ أَحْسَنَ اللهُ لَهُ رِزْقًا .. (١١) ﴾ [الطلاق]

كلمة ﴿ رِزْقًا (١١) ﴾ [الطلاق] هنا تذكِّرنا بالوعد الذى قطعه الله على نفسه العلية لمن اتقى الله ، فقال : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ .. (٣) ﴾ [الطلاق]

فالله يرزق مَنْ يتقى الله فى الدنيا رزقاً واسعاً من حيث لا يظن أو يحتسب أو يتوقّع ، فيرزقه رزقَ نفسه وامرأته التى فى عصمته أو نفقة المرأة التى طلّقها، ويرزقه رزقَ أبنائه .

حتى إذا كانت الآخرةُ رزقه الله رزقاً آخر فيدخله جناتٍ تجرى من تحتها الأنهار

خالدين فيها أبداً ، ثم يُتبعها الله بقوله : ﴿ قَدْ أَحْسَنَ اللهُ لَهُ رِزْقًا (١١) ﴾ [الطلاق]

فالله يُوسِّع له فى الجنات رزقاً بما فيها من المطاعم والمشارب وسائر ما أعدَّ لأوليائه فيها فطيَّبه لهم ، فى جنة لا ينقطع نعيمها .

فهذا وعد كريم من ربٍّ رحيم يعد كل مَنْ آمنْ به وعمل صالحاً أنْ يُدخله جناتٍ تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ، قد أحسن الله له فيها رزقاً ، وهو نعيمُ الجنة الذى لا ينفد ولا ينقطع أبداً .

وأيّ جزاء أحسن من الجنة ؟! وأيّ رزق أحسن من رزقها ؟! فلا يُقاس رزق الأرض برزق الآخرة فى الجنة ، والله هو الرازق فى الدنيا والآخرة ولكن الله يُهوِّن من رزق الأرض إلى جانب رزق الجنة .

والحق سبحانه لم يقُلْ هنا : قد أحسن اللهُ لهم بل قال تعالى : ﴿ قَدْ أَحْسَنَ اللهُ لَهُ .. (١١) ﴾ [الطلاق] بالإفراد دلالةً على أن لكلٍ فرد رزقاً على وجه الخصوص به لا رزقاً على العموم ، والناسُ يتفاوتون فى رزق الدنيا وأيضاً يتفاوتون فى رزق الجنة من مطاعم ومشارب ومساكن .

أما الذى يشتركون فيه جميعاً فهو الخلود فى الجنة ، لذلك قال تعالى : ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا .. (١١) ﴾ [الطلاق] بالجمع ، فالخلود يشمل الجميع .

وقد حدَّثنا الله عن رزق الجنة فى آيات كثيرة ، فقال سبحانه : ﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَـٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا .. (٢٥) ﴾ [البقرة]

وكما فى البقرة حديث عن أنهار الجنة كذلك فى سورة الطلاق ، وأيضاً تحدثت الآيتان فى سورتين عن رزق الجنة ، وهو حديث عن ثمر الجنة وثمر الجنة يختلف عن ثمر الدنيا فى طعمه وفى رائحته حتى وإنْ تشابها فى الاسم[1].

---

(١) عن ابن مسعود وعن ناس من أصحاب النبي ﷺ : ﴿ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا .. (٢٥) ﴾ [البقرة] في اللون والمرأى وليس يشبه الطعم . وعن ابن عباس قال : ليس في الدنيا من الجنة شيء إلا الأسماء . وقال عبد الرحمن بن زيد : يعرفون أسماءه كما كانوا في الدنيا ، التفاح بالتفاح ، والرمان بالرمان [تفسير الطبري ١/٤١٦] .

فأهل الجنة يرونَ ثمرها ويتحدَّثون يقول ربما تكون هذه الثمرة هى ثمرة المانجو أو التين الذى أكلناه فى الدنيا ولكنها تختلف تماماً فى الحقيقة .

فطعام أهل الجنة لا ينتج عنه فضلات ، فالإنسان يأكل كما يشاء دون أنْ يحتاج إلى إخراج فضلات ، وذلك لاختلاف ثمار الدنيا عن الآخرة فى التكوين.

ورزق الدنيا قد يكون فتنة ، ثم إن الرزقَ فى الجنة يأتى من الله بدون أسباب، وهو أفضل وأعلى منزلة من الرزق الذى يتم بالأسباب .

وما دام قد أحسن الله له رزقاً والله يخبر كلَّ مؤمن بهذا من الآن فما عليه إلا أنْ يُحسن فى عمله الصالح ، وهذا كما قال قوم قارون له : ﴿ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦) وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا .. (٧٧) ﴾ [القصص]

ثم يقولون له : ﴿ وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٧٧) ﴾ [القصص]

فكما أحسن الله إليك أحسِنْ إلى الناس ، وكما تحب أنْ يغفر الله لك فاغفر لغيرك إساءته ، وما دام ربّك يعطيك فعليك أنْ تعطى ، ومن الإحسان أنْ لا تبغى الفساد فى الأرض ، والفساد يأتى من الخروج عن منهج الله فإنْ غيّرت فيه فقد أفسدتَ ، فالفساد كما يكون فى المادة يكون فى المنهج وفى المعنويات .

يقول سبحانه : ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا .. (٥٦) ﴾ [الأعراف] فالحق سبحانه خلق كل شيء على هيئة الصلاح لإسعاد خَلْقه فلا تعمد إليه أنت فتفسده ، ومن هذا الصلاح المنهج ، فالمنهج هو قوام الحياة المعنوية أوْلَى من قوام الحياة المادية .

إذن : فلتكُنْ مؤدّباً مع الكون من حولك ، فإذا لم تستطع أنْ تزيده حُسناً فلا

أقلّ من أنْ تدعه كما هو دون أنْ تُفسده .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾ ﴾

فمنهج الله الذى أنزله على رسله قد عرفنا أن الله تبارك وتعالى هو الذى خلق لنا هذا الكون وخلقنا ، فدقة الخلق وعظمته تدلّنا على أن هناك خالقاً عظيماً .

والله هنا يُذكِّرنا بعظمة الخالق سبحانه ، وقد قال تعالى فى آيات أخرى :

﴿ اللهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (٢) ﴾ [الرعد]

وقال : ﴿ اللهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (٢) ﴾ [إبراهيم]

﴿ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ (٣٢) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ (١) وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٣٣) وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤) ﴾ [إبراهيم]

---

(١) دائبين : دؤوبهما في طاعة الله . قاله ابن عباس . [الطبري ٢٠٩٣٧] قال ابن كثير في تفسيره (٥١١/٤) : دائبين أي يسيران لا يقران ليلاً ولا نهاراً . (٥٧٧/٦) : لا يفتران ولا يقفان إلي يوم القيامة .

والله سبحانه وتعالى يعطينا خبر خَلْقه السماوات والأرض ، وأوضح سبحانه أن السماوات سبع وقد جاءت مجموعة ، أما الأرض فجاء بها مفردة، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ .. (٥٤) ﴾ [الأعراف]

لكنه جلَّ وعلا يقول هنا فى سورة الطلاق : ﴿ اللهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَـٰوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ .. (١٢) ﴾ [الطلاق]

فكما خلق سبع سماوات خلق سبع أراضين ، ولكن لماذا جاء بالسماء بالجمع فقال (سموات) وترك لفظ (الأرض) مفرداً ؟ لماذا لم يقل : سبع أراضين ؟ وذلك لأن كلمة (أرضين) ثقيلة على اللسان فتركها لثقلها ، وأتى بالسماوات مجموعةً لخفّتها ويُسْر نطقها .

فحين تكلم الحق سبحانه عن الأرضِ والسماء قال ، إنها سبع سماوات ولم يقل سبع أراضين ، بل قال : ﴿ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ .. (١٢) ﴾ [الطلاق] فدلَّ على أن الأرض سبع كالسماء ، وإنْ كانت السماء كل ما أظلَّك ، فالأرض كلّ ما أقلَّك، لكن أين هذه الأراضين السبع ؟

لقد أخبرنا القرآن الكريم أن السماوات سبع ، وأخبرنا النبى ﷺ أنه مرَّ بها فى مرحلة المعراج فقال فى الأولى كذا وكذا ، وفى الثانية كذا وكذا[1] وما دامت السماء كل ما أظلّك والأرض كل ما أقلّك ، فالخَلْق فى السماء الأولى مثلاً سماؤهم السماء الثانية ، وأرضهم سماؤنا الأولى وهكذا وهكذا ..

فالسماء سقف ، قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا

---

(١) أخرج البخاري في صحيحه (٣٤٩ أبو ذر) (٣٨٨٧ مالك بن صعصعة) قال أبو ذر : فُرج عن سقف بيتي وأنا بمكة فنزل جبريل ففرج صدري ثم غسله بماء زمزم ثم جاء بطست من ذهب ممتلىء حكمة وإيماناً فأفرغه في صدري ثم أطبقه ثم أخذ بيدي فعرج بي إلى السماء الدنيا .. وفيه : فإذا رجل قاعد على يمينه أسودة وعلى يساره أسودة إذا نظر قبل يمينه ضحك وإذا نظر قبَل يساره بكى فقال : مرحباً بالنبي الصالح والابن الصالح . قلت لجبريل : من هذا ؟ قال : هذا آدم . وفي السماء الثانية ابنا الخالة يحى وعيسى عليهما السلام . وفي السماء الثالثة يوسف . وفي السماء الرابعة إدريس . وفي السماء الخامسة هارون . وفي السماء السادسة موسى عليه السلام .

مُعْرِضُونَ (٣٢) ﴾ [الأنبياء]وهو سقف من صُنْع الخالق العظيم ، سقف يغطى الأرض كلها ومحفوظ بلا أعمدة يراها البشر .

للذك قال تعالى : ﴿ اللهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا .. (٢) ﴾ [الرعد]، وقال : ﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ .. (١٠) ﴾ [لقمان]

فالله سبحانه خلق السماوات مرتفعة قائمة بقدرته لا تستند على شيء وأنتم تنظرون إليها وتشاهدونها بغير دعائم ، ويصح أيضاً أن تعود إلى العمد أى بغير العمد التى نعرفها ، ولكن رفعها الحق بقوانين الجاذبية .

أو رفع السماوات ﴿ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا .. (١٠) ﴾ [لقمان] أى أن العمد مختفية عن رؤية البشر .

فحين ننظر إلى الأفق نجد السماء من غير عمد ، وخَلْق السماوات والأرض ليست عملية سهلة وهو سبحانه القادر ، إنه سبحانه خلق الإنسان خَلْقاً عجيباً، وأعجب منه خَلْق السماوات والأرض ، فهو سبحانه القائل : ﴿ لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ .. (٥٧) ﴾ [غافر]

وهكذا نعلم أنه سبحانه إما أنه حمل السماوات على أعمدة أدقَّ وألطف من أنْ تراها أعيننا ، ولذلك نراها بغير أعمدة ، أو أنها مرفوعة بلا أعمدة على الإطلاق .

وقد تكون موجودة ، ولكنكم لا ترونها بحكم قانون إبصاركم ، ولا تعجب من أنْ يوجد مخلوق لا تراه ،فالعين وسيلة من وسائل الإدراك ولها قانون خاص فهى ترى أشياء ولا ترى أشياء أخرى .

و ﴿ اللهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ .. (١٢) ﴾ [الطلاق] فليس الله هو ما يعبده المشركون من الآلهة والأوثان التى لا تقدر على خَلْق شيء، ولذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ

الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ .. (٤٠) ﴾ [فاطر]

وخَلْق السماوات والأرض دليل على كمال قدرته سبحانه وعظمته ، يقول تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا (١٥) ﴾ [نوح] فالحق سبحانه هو الخالق لسبع سموات بإتقان بعضها فوق بعض ، فلا يرى الناظرُ أيَّ خلل فى هذا الخلق .

ويقول تعالى :﴿ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا[1] مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ [2] فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ .. (٣) ﴾ [الملك]

فليُعد الإنسانُ النظرَ إلى السماء فلن يجد أيَّ خلل من شقوق أو فروق ، و (فطور) معناها شقوق . وهذه صنعة الخالق سبحانه الذى يبنى ويُسوِّى ويُزيِّن .

﴿ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ .. (١٢) ﴾ [الطلاق] فالله خلق من الأرض مثل السبع سماوات ، فى كل واحدة منهن مثل ما فى السماوات من الخَلْق مالا يعلمه إلا الله .

والحق سبحانه يقول : ﴿ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ .. (١٢) ﴾ [الطلاق] يتنزل الأمر أمر الله بين السماء السابعة والأرض السابعة ، فبين كلِّ سماءين أرض وأمر ، والأمر قد يكون الوحى ، وقد يكون القضاء والقدر .

وذلك بحياة بعض وموت بعض ، وغِنَى قوم وفَقْر قوم ، ولله فى أمره تدابير، فيُنزل سبحانه المطر ويُخرج النبات ، ويأتى بالليل والنهار ، والصيف والشتاء.

---

(١) طباقاً : مطابقات بعضها فوق بعض . [زاد المسير لابن الجوزي ٦/٥٠] قال مقاتل بن سليمان في تفسيره (٣/٤٠٢) : ما بين كل سماءين مسيرة خمسمائة عام وعظمها مسيرة خمسمائة عام . وقال ابن جرير الطبري (٢٣/١١٩) : طبقاً فوق طبق .

(٢) تفاوت : تشقق . قاله ابن عباس . وقال قتادة : من تفاوت أى من اختلاف . قال ابن كثير في تفسيره (٨/١٧٧) : أي مستو ليس فيه اختلاف ولا تنافر ولا مخالفة ولا نقص ولا عيب ولا خلل .

وقال البعض من العلماء[١] : فى كل أرض من أرضه ، وسماء من سمائه خَلْقٌ من خلقه ، وأمر من أمره ، وقضاء من قضائه .

فالأمر يعم الوحى وجميع ما يأمر به سبحانه من تصريف الرياح والسحاب وغير ذلك من عجائب صُنْعه لا إله غيره .

ثم يقول سبحانه : ﴿ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٢) ﴾ [الطلاق] فقضاء الله وأمره يتنزّل بين ذلك كى تعلموا أيها الناس كُنْه قدرته وسلطانه ، وأنه لا يتعذَّر عليه شيء أراده ، ولا يمتنع عليه أمر شاءه ولكنه على ما يشاء قدير .

فكلُّ شيء يدخل فى إرادة الله وقدرته سبحانه ، فالله له مُلْك السماوات والأرض ، وهو على كل شيء قدير ، فلله طلاقة القدرة فى مُلْكه ، ولذلك إذا قال أنه سيأتى بأمر فسيتحقق هذا الأمر حتماً وسيتم ، ولا توجد قدرة فى هذا الكون إلا قدرة الله سبحانه ، ولا قوةَ إلا قوته جلَّ جلاله ، ولا فعل إلا ما أراد .

فالله لا يُعجزه شيء ولا يخرج عن طاعته شيء ، وهو سبحانه القادر الأعلى، القادر على كلِّ شيء ، وهو قدير على أنْ تظل سننه دائمة ولا توجد قوة تزحزح هذه القضية لأن السنن وضعها الله ، فمَن الذى يُغيِّرها ؟

إنها لن تتغير إلاَّ بقوة أعلى ، ومعاذ الله أنْ تكون هناك قوة أعلى من قوة الله .

والله قدير حتى قبل أنْ يوجد مقدورٌ عليه ، فلم يكُنْ قديراً فقط عندما خلق الإنسان ، بل بصفة القدرة خلق الإنسان ،لأن الله سبحانه وتعالى ليس له أغيار ، لذلك يظلّ قديراً وموجوداً فى كل لحظة ، وهو كان وما يزال .

وسبحانه وتعالى القدير أبداً ، فسبحانه قد قدر على أن يُوجد خَلقه كلهم،

---

(١) قاله قتادة فيما ذكره عنه السيوطي في الدر المنثور (١٤/٥٦١) وعزاه لعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر. وأخرجه عبد الرزاق في مصنفه (٣٢٤٠) وذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٦/٤٤) .

ويعطى لهم ما يحفظ لهم حياتهم ويحفظ لهم نوعهم ، إنه قادر على أنْ يعطى رزق القوت ورزق المباديء والقيم وأنْ يُوفى خَلْقه رزقهم في كلِّ عطاء .والله يُنزل قضاءه وأمره بين ذلك كى تعلموا أيها الناس كُنْه قدرته وسلطانه ، وأنه لا يتعذر عليه أمر شاءه ، ولكنه على ما يشاء قدير .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا (١٢) ﴾ [الطلاق] فالله سبحانه مدرك لكل الأشياء والخواطر ، فما بالسمع يسمعه ، وما بالعين يراه ، وما فى الصدر يعلمه . وما هو فى أيّ حِسٍّ من أحاسيس الإنسان هو عليم به، لأنه أحاط بكلِّ شيء علماً .

والإحاطة تقتضى العلم والقدرة على الناس ، فلن يُفلتوا من علم الله ولا من قدرته ، ولا بدَّ من العلم مع القدرة ، لذلك قال تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ .. (٦٠) ﴾ [الإسراء]

فإحاطته سبحانه بالناس تعنى أنه سبحانه يعلمهم ويقدر على تنفيذ أمره فيهم .

سُورَةُ التَّحْرِيمِ

سورة التحريم (١)

بسم الله الرحمن الرحيم

يقول الحق سبحانه : (٢)

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١﴾ ﴾

الجامع بين الرسول ﷺ وأمته ليس أنه محمد ، إنما الجامع أنه رسول الله وأنه نبيُّ الله ، فلا بد أنْ نناديه بهذا الوصف ، ولم لا وربّه عز وجل وهو خالقه ومصطفيه ، قد ميّزه عن سائر إخوانه من الرسل ومن أولى العزم ، فناداهم بأسمائهم .

---

(١) سورة التحريم سورة مدنية ، وهي رقم ٦٦ في ترتيب المصحف . عدد آياتها ١٢ آية . ترتيب نزولها ١٠٧ نزلت بعد سورة الحجرات . ومن أسمائها أيضاً سورة (لم تحرم) نزل بعدها سورة الجمعة .

(٢) سبب نزول الآية : عن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ يحب الحلواء والعسل وكان إذا انصرف من العصر دخل على نسائه فدخل على حفصة بنت عمرٍ واحتبس عندها أكثر مما كان يحتبس ، فعرفت فسألت عن ذلك فقيل لي : أهدت لها امرأة من قومها عُكة عسل فسقت منه النبي ﷺ شربة ، قلت : أما والله لنحتالن له . فقلت لسودة بن زمعة : إنه سيدنو منك إذا دخل عليك . فقولي له : يا رسول الله أكلت مغافير ؟ فإنه سيقول لك : سقتني حفصة شربة عسل . فقولي : جرستْ نحلُه العرفط . وسأقول ذلك وقولي أنت يا صفية ذلك . قالت سودة : فوالله ما هو إلا أن قام على الباب فكدت أن أبادئه بما أمرتني به ، فلما دنا منها قالت له سودة : يا رسول الله أكلت مغافير ؟ ...» الحديث بطوله أخرجه الواحدي في أسباب النزول (٤٣٠) .

﴿ يَـٰآدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ .. (٣٥) ﴾ [البقرة] ، وقال : ﴿ يَـٰنُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا .. (٤٨) ﴾ [هود] ، وقال : ﴿ يَـٰإِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا .. (١٠٥) ﴾ [الصافات] ، وقال : ﴿ يَـٰمُوسَى إِنِّي أَنَا اللهُ .. (٣٠) ﴾ [القصص] ، وقال : ﴿ يَـٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ .. (١١٦) ﴾ [المائدة] ، وقال : ﴿ يَـٰدَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ .. (٢٦) ﴾ [ص]

لكن لم يُناد رسول الله باسمه أبداً ، إنما ناداه بـ (يأيها الرسول) أو (يأيها النبى) ، فإذا كان الحقُّ تبارك وتعالى لم يجعل دعاءه للنبى كدعائه لباقى أنبيائه ورسله ، أفندعوه نحن باسمه .

ينبغى أنْ نقول : يأيها الرسول ، يأيها النبى ، يارسول الله ، يانبيَّ الله، فهذا هو الوصف اللائق المشرف به ﷺ .

وحين ينادى الحق سبحانه وتعالى أشرف مَنْ ناداهم وهم رسله ، نجد أنه سبحانه نادى كل الرسل بمشخصاتهم العَلَمية (يا آدم) والمشخَّص العَلَمى هو الاسم ، وهو لا يعطى وصفاً إلا تشخيص الذات بدون صفاتها .

فكلُّ الرسل ناداهم الحق سبحانه بالمشخَّص العَلَمَى الذى لا يعطى إلا التشخيص ، أما رسول الله خاتم الرسل فما ناداه الله باسمه أبداً ، إنما ناداه الله بالوصف الزائد عن مشخَّصات الذات .

وذلك لأن الله سبحانه يريد أنْ يبلغنا أن محمداً ﷺ هو الرسول الذى جاء ناسخاً ومؤمناً بالكل ، هو الذى يستحق النداء بالوصف الزائد عن مشخَّصات الذات (يأيها الرسول) ، وهو الرسول الذى تقوم عليه الساعة .

فقوله تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّبِيُّ .. (١) ﴾ [التحريم] نداء لرسول الله ﷺ ، والمنادِى هو الحق سبحانه ، رسول الله لقبه ، واسمه محمد ، واسمه أحمد كما ذكر فى القرآن ، والإنسان حين يُولد يُوضَع له اسم يدل على مُسمَّاه .

ورسـول الله لـه اسـم وكنية ولقـب ، أما اسـمه فمحمد ، وقد ورد فـى القرآن الكـريم أربـع مرات ، ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ .. (١٤٤) ﴾ [آل عمـران] ، ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَٰكِنْ رَسُولَ اللهِ .. (٤٠) ﴾ [الأحـزاب] ، ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ .. (٢٩) ﴾ [الفتح] ، ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ .. (٢) ﴾ [محمد]

وورد باسم أحمد فى موضع واحد هو ﴿ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ .. (٦) ﴾ [الصف]

أما كنيته فأبو القاسـم ،ولقبه رسـول الله ، فرسـول الله لما وُلد أسـماه جده بأحبّ الأسماء عنده ، وقال : سمّيته محمداً ليحمد فى الأرض وفى السماء [١].

ولما وُلد القاسم كُنِّى به رسول الله فقيل : أبو القاسم ، فلما اختاره الله للرسالة وللسـفارة بينه تعالى وبين الخَلْق لقبه برسـول الله وبالنبى وهذان اللقبان على قدر عظيم من الرِّفْعة لو جاءت من البشر ، فما بالك وهى من عند الله .

ونُـودى ﷺ بيأيها النبى ويأيها الرسـول تعظيماً لـه ، ونحن حين نريد أنْ نعظم مَن ننادى نسبق الاسم بمقدمات ، نقول : يا سيدى فلان يا فضيلة الشيخ، يا صاحب العزة .. الخ

وقـد تقدَّمـتْ (أيها) على المنادى هنا ، لأن الاسـم المنـادى المُحلَّى بأل لا يُنادى مباشرة إلا فى لفظ الجلالة (الله) فنقول : يا الله ، فكأنَّ الحق سـبحانه توحّد حتى فى النداء ، وهذا فى نداء المفرد .

والحق سـبحانه نادى رسـوله بيأيها النبى ، ويأيها الرسـول ، الرسـول هو

---

(١) ذكره محمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت ١٣٩٣ هـ) في كتابه (التحرير والتنوير ٣/٢٣٧) أن جد رسول الله عبد المطلب بن عبد مناف قيل له : لم سميته محمداً وليس من أسماء آبائك ؟ فقال : رجوت أن يحمده الناس .

سفير بين الله وبين خَلْقه ، ليُبلغهم منهجه الذى يريد أن تسير عليه حياتهم فالرسول مُبلِّغ ، أما النبى فرسول أيضاً من قِبَل الحق سبحانه ، لكن ليس معه شرع جديد ، إنما يسير على شرع مَنْ سبقه من الرسل ، أما هو فقدوة وأُسْوة سلوكية لقومه .

ومحمد ﷺ جمع الأمرين معاً ، فهو نبى ورسول له خصوصيات أُمر بها ولم يُؤمر بتبليغها – وهذه مسائل خاصة بالنبوة – وله أمور أخرى أُمر بها وأُمر بتبليغها .

والمعلوم من أقوال العلماء أن كل رسول نبى ، وليس كل نبى رسولاً بالمعنى الاصطلاحى ، وإلا فهم جميعاً مُرْسَلون من قِبَل الله .

وقوله تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّبِيُّ .. (١) ﴾ [التحريم] فكلمة النبى مأخوذة من النبأ وهو الخبر الهام ، فالخبر يكون من البشر للبشر ، فإنْ كان من خالق البشر فهو نبأ ، أى أمر عظيم ينبغى الاهتمام به وأصله من النَّبْوة ، وهى الشيء العالى المستدير فى وسط شيء مُسْتو .

فحين تقول : رأيت فلاناً اليوم . هذا لا يُسمَّى نبأ إنما خبر ، لذلك قال سبحانه: ﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (١) عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ .. (٢) ﴾ [النبأ] أى الخبر الهائل الذى هزَّ الدنيا كلها وملأ الأسماع وزلزل العروش .

ونبوة رسول الله نبوة رحيمة كانت سبباً فى تنزُّل الرحمة تِلْو الرحمة، ولنبوته أدبٌ وخُلُق عظيم عالٍ ، وأهل النبوة هم الذين اتبعوا منهج النبى .

والنبوة حينما تأتى إنما تأتى لتلفت الناسَ إلى السماء وإلى منهجها ، ولتنتظم حركة حياتها فى الكون ، وأن المنتفع أولاً وأخيراً بالمنهج هم أنفسهم، لأنهم هم الذين يشقُون بمخالفتهم منهج الله .

ومسألة النبوة هى اصطفاءٌ إلهيّ يكبر ويسمو على كلّ مقامات الدنيا ،

والنبوة رحمة ، قال تعالى : ﴿ آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا.. (٦٥) ﴾ [الكهف]

ولذلك عندما قالوا : ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْءانُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) ﴾ [الزخرف] ردَّ الله عليهم ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ .. (٣٢) ﴾ [الزخرف] أى النبوة .

ويقول تعالى : ﴿ مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (١٠٥) ﴾ [البقرة]

فالله يعطى الرحمة لمن يشاء لكى يؤدى مهمته أو يُنزل رحمته على مَنْ يشاء ، والرحمة هى عطاءات ألوهية ، وهى رحمة الله العليا أنْ يرسل رسولاً ، ومطلق الرحمة تأتى على يد جبريل عليه السلام وعلى يد الرسل ، فعطاؤه تعالى فى النبوات رحمة أشاعها الله فى ذرية إبراهيم عليه السلام .

فكيف يقسمون رحمة الله التى هى النبوة وهى قمة حياتهم ، ونحن نقسم لهم أرزاقهم ومعايشهم فى الدنيا ؟ فمعنى ﴿ وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا .. (٧٥) ﴾ [الأنبياء] أى فى ركْب النبوة ﴿ إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ .. (٧٥) ﴾ [الأنبياء] أى : للنبوة، والله أعلم حيث يجعل رسالته .

لكن قمة هذه الرحمة جاءت فى النبى الخاتم والرسول الذى لا يُستدرَك عليه برسول بعده ، لذلك خاطبه ربه بقوله : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ (١٠٧) ﴾ [الأنبياء] ، فالرسل قبل محمد ﷺ كانوا رحمة لأممهم ، أما محمد فرحمة لجميع العالمين .

والرسالة رحمة من الله يختصّ بها مَنْ يشاء من عباده ﴿ وَاللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ .. (١٢٤) ﴾ [الأنعام]

وحتى نفرق بين النبى والرسول نقول : النبى مُرسل والرسول مرسل كلاهما مُرْسَل من الله ، ولكن النبى لا يأتى بتشريع جديد ، وإنما هو مُرسل على منهج الرسول الذى سبقه .

واقرأ قوله سبحانه : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ .. (٥٢) ﴾ [الحج] فالنبيّ مُرْسَل أيضاً ولكنه أُسْوة سلوكية لتطبيق منهج الرسول الذى سبقه .

لكنْ هناك فرْقٌ بين أنْ يرسل الحقّ تشريعاً مع رسول ، ويكون هذا التشريع مُستوعباً لأشياء وأحكام لم تكُنْ موجودة فى الرسالة السابقة عليه وبين أنْ يأتى إنسانٌ مُصْطفى من الله ليطبق فقط ما جاء فى الرسالات السابقة .

فالأنبياء قد أرسلهم الله ليكونوا نموذجاً تطبيقياً للشرع السابق عليهم ولم يأتوا بشرع جديد ، لكن الرسول هو مَنْ أرسله الله بشرع جديد ليعمل به وأمره الحق بتطبيقه ، هذا هو الزائد فى مهمة الرسول .

إن الحقّ سبحانه أرسل الرسل بالشرع والتبليغ والتطبيق ، وأرسل الحقّ الأنبياء ليكونوا الأُسْوة السلوكية فيُطبِّقوا ما أرسل به الرسل السابقون عليهم.

والحق سبحانه هنا يخاطب نبيه ﷺ : ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ .. (١) ﴾ [التحريم]

وهو خطابٌ ونداء معاتبة لرسول الله ، وكثيراً ما تجد فى القرآن عتاباً لرسول الله ، وهو عتابٌ لصالحه لا عليه ، كما تعاتب ولدك الذى أجهد نفسه فى المذاكرة خوفاً عليه .

ومن ذلك قوله تعالى معاتباً نبيه ﷺ : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى (١) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى (٣) ﴾ [عبس]

والعتاب هنا لأن رسول الله ﷺ ترك الرجل المؤمن[1] الذى جاءه يستفهم عن أمور دينه وذهب يدعو الكفار والمكذِّبين به ، فكأنه اختار الصعب الشاق وترك السهل اليسير .

---

(١) هو عبد الله بن أم مكتوم . أخو بني فهر وقد كان أعمى . وعن عائشة قالت : أنزلت ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى ﴾ [عبس : ١] في ابن أم مكتوم قالت : أتى إلى رسول الله ﷺ فجعل يقول : أرشدني . قالت : وعند رسول الله من عظماء المشركين قالت : فجعل النبي ﷺ يعرض عنه ويقبل على الآخر . ويقول : أترى بما أقوله بأساً ؟ فيقول : لي . ففي هذا أنزلت ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى ﴾ تفسير الطبري (٢٤/٢١٧) .

إذن : فالعتاب هو عتابٌ لصالح الرسول لا ضده ، كما يظن البعض فى فهمهم لهذه الآيات .

كذلك الأمر فى قوله تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ .. (١) ﴾ [التحريم] فالله يعاتب رسوله لأنه ضيَّق على نفسه ، فحرَّم عليها ما أحلَّه الله لها .

فالله كثيراً ما عاتب رسوله ، وعتابه لرسوله له لا عليه ، ففى عتابه فى شأن ابن أم مكتوم نجد أن الرسول وجد طريق الإيمان برسالته يسير سيراً سهلاً بين الضعفاء ، ولكنه شغل نفسه وأجهدها رجاء أنْ يتذوق المستكبرون المتجبِّرون حلاوة الإيمان .

فالعتاب هنا لصالح مَنْ ؟ إنه عتابٌ لصالح رسول الله ، ولشدة حرصه ﷺ على هداية القوم أجمعين ، كان يحب أنْ يعامل الطغاة بشيء من اللين ليتألف قلوبهم .

وهنا يقول تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ .. (١) ﴾ [التحريم] وكان الرسول ﷺ قد حرَّم أموراً على نفسه[1] ولم يحرمها على الناس .

وهنا يوضح له الحق سبحانه : لا تُحرم على نفسك ما أحللتُ لك . إذن : هذا أمرٌ لمصلحة الرسول .

فأمر التحريم موكولٌ إلى الخالق سبحانه وكذا أمر التحليل ، وليس للإنسان أنْ يتدخّل فى ذلك أبداً ، فتدخُّل الإنسان يكون أحياناً بتحريم ما أحلَّ الله وأحياناً يكون تدخُّله بتحليل ما حرّم الله .

والله عزَّ وجلَّ يقول : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ .. (٨٧) ﴾ [المائدة]

---

(١) حرَّم على نفسه أكل العسل ، وفي رواية أنه حرّم على نفسه إتيان مارية لأنه أتاها في غرفة حفصة رضي الله عنها .

وآية ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ .. (١) ﴾ [التحريم] تشير إلى أمر أغضب النبى ﷺ ، فامتنع عن بعض ما ترغب فيه النفس البشرية من أمور حلَّلها الله.

والنبى ﷺ لم يُحل ما حرَّم الله بل حرَّم على نفسه ما أحلَّ الله له ، وهذا ضد مصلحته وكأنَّ الحق سبحانه يُسائله : لماذا ترهق نفسك ؟ فهدا عتب لمصلحة النبى ﷺ .

والتحريم تضييق على النفس ، فالحق سبحانه يعتب على رسوله لأنه ضيَّق على نفسه ، وحرَّم عليها ما أحلَّه الله له ، كما تعتب على ولدك الذى سهر طويلاً فى المذاكرة حتى أرهق نفسه ، فالعتاب لصالح الرسول لا ضدَّه .

والله تعالى أحلَّ أشياء وحرَّم أشياء ، فلا تنقل شيئاً مما حُرِّم إلى شيء أُحِلَّ، ولا شيئاً مما أُحلَّ إلى شيء حُرِّم ، كما قال الحق سبحانه : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ .. (٣٢) ﴾ [الأعراف]

وربُّك يا محمد لا يُضيِّق عليك ، وينهاك أنْ تضيِّق على نفسك وتحرِّم عليها ما أحلَّ لها ، كما يلومك على أن تحلل ما حرّم عليك ، لأن ذلك فى صالحك .

وقد روتْ السيدة عائشة رضى الله عنها أن النبى ﷺ كان يمكث عند زينب بنت جحش فيشرب عندها عسلاً ، قالت عائشة : فتواطأتُ أنا وحفصة أنْ أيّتنا ما دخل عليها رسول الله فلتقُلْ له : إنِّى أجد منك ريح مغافير أكلتَ مغافير[١].

فدخل رسول الله على إحداهما فقالت له ذلك . فقال ﷺ : بل شربتُ عسلاً عند زينب ولن أعود له ، فنزل قوله تعالى : ﴿ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ

---

(١) مغافير : صمغ كريه الرائحة يصدر عن شجر الطلح وهو العُرفط . وهو جمع مغفور . قال الكرماني : هو نوع من الصمغ يحلب عن بعض الشجر يحل بالماء ويشرب وله رائحة كريهة . [عمدة القاري ٨٧/٣٠] وقد كان رسول الله يكره أن تشم منه رائحة كريهة .

أَزْوَاجِكَ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١) قَدْ فَرَضَ اللهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ[١] أَيْمَانِكُمْ وَاللهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٢) وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ (٣) إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللهِ فَقَدْ صَغَتْ[٢] قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا[٣] عَلَيْهِ فَإِنَّ اللهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ .. (٤) ﴾ [التحريم]

وأصل هذه القضية أنَّ رسول الله كان إذا صلَّى الغداة دخل على نسائه امرأة امرأة ، وكانت قد أهديت لحفصة بنت عمر رضى الله عنه عكة[٤] من عسل، فكانت حفصةُ إذا دخل عليها رسول الله مسلِّماً حبسته وسقته منها ، وأنَّ عائشة رضى الله تعالى عنها أنكرت احتباسه عندها .

فقالت عائشة لجويرية عندها حبشية يُقال لها خضراء :[٥] إذا دخل رسول الله على حفصة فادخلى عليها فانظرى ماذا تصنع فأخبرتها الخبر وشأن العسل فغارت فأرسلت إلى صواحبها ، وقالت : إذا دخل عليكُنَّ رسول الله ، فقُلْنَ: إنَّا نجد منك ريح مغافير ، وهو صمغ العرفط[٦] كريه الرائحة ، وكان رسول الله يكره ويشقُّ عليه أنْ يوجد منه ريحٌ منتنة لأنه يأتيه الملَك .

---

(١) تحلة أيمانكم : كفارة أيمانكم . والمعنى : قد بيَّن الله لكم تحليل أيمانكم بالكفارة فأمره الله أن يكفِّر يمينه فأعتق رقبة . [زاد المسير لابن الجوزي ٦/٤٥] .

(٢) صغت قلوبكما : زاغت وأثمت . قال الزجاج : عدلت [فتح القدير للشوكاني ٧/٢٥٢] .

(٣) تظاهرا عليه : أي تتظاهرا . قرأ الجمهور (تظاهرا) بحذف إحدى التاءين تخفيفاً . والمراد بالتظاهر التعاضد والتعاون . والمعنى : إنْ تعاضدا وتعاونا في الغيرة عليه منكما وإفشاء سره . [فتح القدير للشوكاني ٧/٢٥٢] .

(٤) العُكة : آنية السمن أصغر من القرْبة . جمعها عُكَك وعكَاك . نقل السيوطي في (المزهر في علوم اللغة ١/٣٤٤) : الاسم العام في ظَروف الجلود للبن وغيره الزقف ، إن كان فيه لبن فهو وطيف ، وإن كان فيه سمن فهو نحْي ، فإن كان فيه عسل فهو عكة ، فإن كان فيه ماء فهو شكوة وقربة ، فإن كان فيه زيت فهو حمين .

(٥) في (الشمائل الشريفة) للسيوطي (١/٢٣٦) : « كانت ناقته تسمى العضباء وبغلته الشهباء وحماره يعفور وجاريته خضراء » . نقله عن البيهقي في سننه عن جعفر بن محمد عن أبيه مرسلاً .

(٦) العرفط : شجر من العضاه (كل شجر له شوك) ينضح المغفور منه . وهو يفترش على الأرض لا يذهب فى السماء (أي ليست له ساق) له ورقة عريضة وشوكة حديدة حجناء (مُعْوجَّة) . مفرد العرفط عرفطه .

وكان أنْ دخل رسولُ الله على امرأة امرأة وهُنَّ يقُلْنَ له ذلك ، ثم دخل على عائشة فأخذتْ بأنفها ، فقال لها النبى : ما شأنك ؟ قالت : أجد ريح المغافير أأكلتها يا رسول الله . قال : لا بل سقتْنى حفصة عسلاً . قالت : جرستْ نحلُه[1] العُرْفط . فقال لها : والله لا أطعمه أبداً فحرمه على نفسه[2] .

والحق سبحانه يربأ برسوله وحبيبه محمد ﷺ أنْ يقع فيما وقع فيه يعقوب عليه السلام عندما حرَّم على نفسه أشياء لم يحرمها الله بل كانت حلالاً .

قال تعالى : ﴿ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٩٣) ﴾ [آل عمران]

فيعقوب عليه السلام أو إسرائيل حرَّم بعضاً من الطعام على نفسه وهو حُرٌّ فى أنْ يأخذ أو يترك ، أو أنه قد حرَّم على نفسه فوافقه الله ، لأن الناذر حين ينذر شيئاً لم يفرضه الله عليه ، فهو قد ألزم نفسه بالنذر أمام الله .

وإسرائيل إنما حرَّم على نفسه بعضاً من الأطعمة ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ .. (٩٣) ﴾ [آل عمران]

وصار ما حرَّمه إسرائيل على نفسه مُحرَّماً على بنى إسرائيل ، أما ما حرّمه رسولُ الله على نفسه فقد عاتبه اللهُ فيه ولم يَسْرِ التحريم على أمته ﷺ ، بل أرسى الله قاعدة فى قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ .. (٣٢) ﴾ [الأعراف]

وما دام قد أخرج اللهُ الزينة لعباده فهو قد أرادها لهم .

وقوله : ﴿ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ .. (١) ﴾ [التحريم] أى تبتغى بذلك التحريم

---

(١) جرست : رعت . [مقدمة فتح الباري ١/ ٩٥] والمعنى أن نحل هذا العسل الذي شربته قد رعت شجر العرفط ، لذلك ظهرت رائحته الكريهة في العسل .

(٢) حديث متفق عليه . أخرجه البخاري في صحيحه (٥٢٦٨ ، ٦٩٧٢) وكذا مسلم في صحيحه (٣٧٥٢) . من حديث عائشة رضي الله عنها .

مرضاة زوجاتك ، فقوله (تبتغي) مفسِّر لقوله (تحرم) . وهو أيضاً بمعنى مُبتغياً به مرضاة أزواجك فى محلٍ نصب على الحال من فاعل (تحرم) .

و ﴿ مَرْضَاةَ .. (١) ﴾ [التحريم] لترضى أزواجك ، وأزواج جمع زوج ، وكلمة الزوج تعنى مفرداً معه مثله ، فلا نأخذ كلمة الزوج على أنها اثنان ، يقول تعالى : ﴿ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (٣٩) ﴾ [القيامة] إذن : فالذكر زوج والأنثى زوج أيضاً .

وقد كان رسول الله خيْرَ الناس لأهله وأزواجه ، وكان حريصاً على الإحسان إليهنَّ وإرضائهن ما استطاع ، فأراد الحق سبحانه أنْ يُصوِّب هذا الأمر ليضعه فى إطاره الصحيح ، أن الزوج لا يُحرِّم شيئاً أحلَّه الله له لمجرد إرضاء الزوجات، فالأغلب فيهنَّ أنْ لا يَرضَيْن بشيء .

ويُنهى الحق سبحانه الآية بقوله : ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١) ﴾ [التحريم] وهو دليلٌ على أن الله تعالى قد غفر لرسوله ما وقع فيه من تحريم ما أحلَّه وأباحه.

فالمغفرة من الله والرحمة منه أيضاً ، فالله ﴿ غَفُورٌ .. (١) ﴾ [التحريم] لما قد بدر وحصل منكم من ذنوب استغفرتم ربكم منها ، فهو ﴿ رَحِيمٌ (١) ﴾ [التحريم] بكم فلا يعاجلكم بالعقوبة شفقةً عليكم وحُباً فى رجوعكم إليه .

والله غفور رحيم حتى لمَنْ توانى قليلاً ، وذلك حتى يلحق بالركْب الإيمانى ويتدارك ما فاته ، لأن الله يغفر ما فات إنْ حاول العبد تداركه ، والله سبحانه غفور رحيم أزلاً ، فهو غفور رحيم قبل أنْ يوجد مغفور له ، وهو سبحانه رحيم قبل أنْ يوجد مرحوم .

فالصفات ثابتة له سبحانه ، والله هو الذى يُغير ولا يتغيَّر فلن يغيره زمنٌ ما ، بل كان فى الأزل غفوراً رحيماً ، وما يزال أيضاً غفوراً رحيماً ، وكذلك كان علمُ الله أزلياً وحكمته لا حدودَ لها .

وصفة المغفرة وصفة الرحمة فى مطلقهما تكون لله وحده ، وهى توبةٌ للجانى ورحمة للمجنى عليه ، فالله سبحانه له طلاقةُ القدرة فى أنْ يغفر وأنْ يرحم .

فاياك أنْ تقول : إنَّ فلاناً لا يستحق المغفرة والرحمة لأنه سبحانه مالك السماء والأرض ، وهو الذى أعطى للبشر ما يستحقون بالحق الذى أوجبه على نفسه وله طلاقةُ القدرة فى الكون .

والله غلبت رحمتُه ومغفرتُه غضبَه وعقابه ، وقد قال رسول الله ﷺ « إن الله كتب كتاباً قبل أنْ يخلق الخَلْق : إنَّ رحمتى سبقتْ غضبى ، فهو مكتوبٌ عنده فوق العرش»(١).

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ ۚ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾﴾

نحن نعلم أن (قد) للتحقيق . و (فرض) فعل ماضٍ يدلّ على أن حدث الفعل وقع فى زمن الماضى ، فكفّارة اليمين قد أوجبها الله قبل وقوع اليمين من رسول الله ﷺ .

و (قد) إذا دخلتْ على الفعل الماضي تكون للتحقيق ، أما إذا دخلتْ على المضارع فهى للتكثير إنْ كانت منطقية الأسباب ، وهى للتقليل إنْ كانت غير منطقية الأسباب .

ولكن (قد) أحياناً تكون للتحقيق إذا دخلتْ على المضارع إذا كان الفعلُ متعلقاً بصفة من صفات الله ، مثل قوله تعالى : ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِي

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٧٥٥٤) وأبو يعلي في مسنده (٦٤٣٢) وابن منده في التوحيد (٧١٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

يَقُولُونَ .. (٣٣) ﴾ [الأنعام]

فعلم الله علمٌ أزليٌّ ، ولا قوةَ ولا أمرَ يخرجان عن معلوم الله ، فـ (قد) هنا داخلةٌ على الفعل المضارع وهى هنا للتحقيق ، فالحق سبحانه أراد أنْ يُبلغنا أنه علم أزلاً بما حدث ، وجاء بـ (قد) لنستحضر صورة الفعل .

والفرض هو التكليف الذى كلَّفنا الله به ، فالله فرض علينا خمس صلوات فى اليوم والليلة ، وفرض علينا صيام شهر رمضان ، وفرض زكاةَ قدرُها باثنين ونصف بالمائة من مالك الذى بلغ النصاب وحال عليه حول أى عام كامل ، وفرض على المستطيع حج بيت الله الحرام مرة فى العمر .

فإذا زاد الإنسانُ ركعات كتطوع أو صيام أيام من غير شهر رمضان أو تصدّق بما يزيد على ما فرضه الله من زكاة أو حج أكثر من مرة حج الفريضة أو اعتمر، فهذا ليس فرضاً عليه إنما هو تطوُّع تطوَّع به من جنس ما فُرض عليه .

فالحق سبحانه عندما يقول ﴿ وَبِالْأَسْحَارِ[1] هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) ﴾ [الذاريات]
وقوله ﴿ كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) ﴾ [الذاريات]

هل الحق سبحانه هنا فرض على المؤمنين أنْ يُصلُّوا آناء الليل فلا يهجعون إلا قليلاً من الليل ؟ لا ، ولكن مَنْ يريد أنْ يدخل فى مقام الإحسان فهو يفعل ذلك .

أما المسلم العادى فيكتفى بصلاة العشاء ، وعندما يأتى الصبح فهو يؤدى الفريضة ، ولكن مَنْ يدخل فى مقام الإحسان فقليلاً من الليل ما يهجع .

وكلمة (فرض) تقتضى أنْ يوجد فارض ، ويوجد مفروض عليه ، والفارض هنا هو الله الذى ملك ، وهناك فرق دقيق بين (فرض) و (واجب) ، فالفرض يكون قادماً من أعلى ، لكن الواجب قد يكون من الإنسان نفسه ، فالإنسان قد يُوجب على نفسه شيئاً .

---

(١) الأسحار : قال محمد رشيد رضا في تفسير المنار (٣/٢٠٧) : هو الوقت الذي يطيب فيه النوم ويشق القيام . قال الطاهر بن عاشور في (التحرير والتنوير) الأسحار جمع السَّحَر وهو آخر الليل .

ولكى نُوضح أمر الفرض والفريضة نجد قوله تعالى عن المهور ﴿ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً .. (٢٤) ﴾ [النساء] أى : أن الذى فرض المهر أو الصداق للمرأة هو الله .

﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ .. (٢٤) ﴾ [النساء] ، ونلحظ هنا أن هناك فرقاً بين أنْ يشرع الحق لحق ، وأن يترك باب الفضل مفتوحاً ، فمن حقّها أنْ تأخذ المهر ، لكن ماذا إذا تراضتْ المرأة مع الرجل فى ألاّ تأخذ المهر وتنازلت له عنه ؟

أو أنْ يعطيها أكثر من المهر ؟ هذا ما يدخل فى قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ.. (٢٣٧) ﴾ [البقرة] فلا لوْمَ ولا تثريبَ فيما يتراضى به الزوجان من بعد الفريضة .

ويقول الحق سبحانه فى أول سورة النور : ﴿ سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا .. (١) ﴾ [النور] والشيء المفروض هنا معناه الواجب أن يُعمل لأنَّ المشرع قاله وحكم به وقدَّره .

ومنه قوله سبحانه : ﴿ وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ .. (٢٣٧) ﴾ [البقرة] أى نصف ما قدَّرتم . إذن : كل شيء له حكمٌ فى الشرع ، فإنَّ الله تعالى مقدره تقديراً حكيماً على قدره .

هذا الفرض غير فرض الأركان الخمسة للإسلام التى هى فرض من الله عز وجل ، أما هنا فهو إيجاب يُوجبه الفرد على نفسه .

ومعنى ﴿ فَرَضْنَاهَا .. (١) ﴾ [النور] أى فرضنا ما فيها من أحكام ، فهى سورة عظيمة من القرآن أنزلناها وأوجبنا العمل بأحكامها .

والحق سبحانه يقول هنا ﴿ قَدْ فَرَضَ اللهُ لَكُمْ .. (٢) ﴾ [التحريم] فقال تعالى : (لكم) ولم يقُلْ : عليكم . فالفرض هنا والإيجاب هو لمصلحتكم لتجدوا مخرجاً من الأيمان التى أقسمتموها وأوقعتم بها أنفسكم فى الحرج ، فهو سبحانه يُبين لكم المخرج من أيمانكم .

وقال بعض العلماء[١] : إذا وصل بـ (على) لم يحتمل غير الإيجاب كما فى قوله تعالى : ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ .. (٥٠) ﴾ [الأحزاب] ، أما إذا وُصل باللام (لكم) احتمل الوجهين ، التبيين والإيجاب .

ونلاحظ أن الحق سبحانه عندما خاطب رسوله ﷺ قال : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ .. (١) ﴾ [التحريم] فخاطب مفرداً ، ولكن عندما أشار إلى فرضه كفارة اليمين قال تعالى : ﴿ قَدْ فَرَضَ اللهُ لَكُمْ .. (٢) ﴾ [التحريم]

فانتقل من خطاب المفرد إلى خطاب المجموع ، ولذلك اختلف العلماء هل كفَّر رسول الله عن يمينه أم لا ؟ أمْ أن المطالب بتكفير اليمين هم ما دون رسول الله .

فذهب الحسن البصرى إلى أن رسول الله لم يكفّر عن يمينه لأنه كان مغفوراً له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخر[٢]، إنما هو تعليم للمؤمنين ، ولكن هل هذا ذنب ؟

هل امتناع رسول الله عن أكل العسل أو حلفه على هذا مرضاةٌ لأزواجه ؟ وهل هذا يُعد ذنباً لكى نقول إنه ﷺ قد غُفرت له ذنوبه المتقدمة والمتأخرة ، لذلك فهو لا يحتاج إلى التكفير عن يمينه ؟

ورسول الله ﷺ هو القائل لنفر من الأشعريين ، والله لا أحملكم وما عندى ما أحملكم . وأُتى رسول الله بنهب[٣] إبل ، فسأل عنّا فقال : أين النفر الأشعريون، فأمر لنا بخمس ذود غُر الذّرى ، فلما انطلقنا قلنا : ما صنعنا لا يُبارك لنا ، فرجعنا إليه فقلنا : إنّا سألناك أنْ تحملنا ، فحلفت أنْ لا تحملنا أفنسيت ؟

---

(١) قال فخر الدين الرازي في تفسيره (٣٠/٥٦٩) : قال صاحب (النظم) : إذا وصل بـ (علي) لم يحتمل غير الإيجاب كما في قوله تعالى ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ .. (٥٠) ﴾ [الأحزاب] وإذا وصل باللام احتمل الوجهين .

(٢) ذكره الفخر الرازي في (مفاتيح الغيب) (٣٠ / ٣٧٠) .

(٣) نهب إبل : غنيمة إبل ، والجمع : النِّهاب . [الصحاح في اللغة للجوهري ٢/٢٣٤] والنهب : الغنيمة . [كتاب العين للخليل بن أحمد – ٤/٥٩] والجمع نهاب ونهوب ، [لسان العرب – مادة نهب] .

قال : لستُ أنا حملتكم ولكن الله حملكم وإنّى والله إنْ شاء الله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلا أتيت الذى هو خير وتحللتها[١] وقد أنزل الله فى هؤلاء قرآناً فقال تعالى : ﴿ وَلاَ عَلَى الذينَ إذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ (٩٢) ﴾ [التوبة]

فلم يكن بحوزة رسول الله دواب تحملهم فينصرفون وأعينهم تفيض من الدمع حزناً لأنهم لا يجدون ما ينفقون ، وكان المؤمن من هؤلاء يحزن لأن رسول الله لم يجد له فرساً أو دابة تنقله إلى موقع القتال .

وهم لم يدمعوا أمام النبى ، ولكنهم أدمعوا فى حال تولِّيهم ، وهذا انفعال نفسيٌّ من فرط التأثر لأنهم لا يشتركون فى القتال ، ولو دمعوا أمامه ﷺ لقالَ المنافقون إنهم يتصنّعون تعصير أعينهم ويبذلون جهدهم للمراءاة ، ولكن انفعالهم كان بعيداً عن أعين رسول الله ، فكان نزولُ القرآن بقصتهم دليلَ صدقِ رسول الله وأن القرآن وَحْى من عند الله سبحانه .

إذن فكفَّارة اليمين كانت لرسول الله أيضاً ولعموم المسلمين وإذا تأملنا الآيتين معاً : ﴿ يَـأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ .. (١) ﴾ [التحريم] . ثم قوله : ﴿ قَدْ فَرَضَ اللهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللهُ مَوْلاَكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ .. (٢) ﴾ [التحريم] ثم قوله : ﴿ قَدْ فَرَضَ اللهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ .. (٢) ﴾ [التحريم]

الآية الأولى تكلَّمتْ عن التحريم ولم تُحدثنا عن يمين أقسمه رسول الله ، والآية الثانية تحدثنا عن كفارة اليمين ، فهل معنى هذا أنَّ مجرد التحريم دون قسَم يُعد يميناً وقسماً ؟

اختلف الناس فى هذا ، ولكن سواء كان مجرد التحريم يُوجب الكفارة ، أم أنه اقترن عند رسول الله بيمين كما جاء فى بعض روايات الحديث ، فالآية

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخاري في صحيحه (٣١٣٣ ، ٤٣٨٥ ، ٥٥١٨ ، ٦٦٤٩) وكذا مسلم في صحيحه (٤٣٥٤ ، ٤٣٥٨) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه .

تُوجب تحلَّة يمين أو بمعنى آخر كفارة يمين .

وكفارة اليمين ذكرها الله عزَّ وجل ، فقال : ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ [١] فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٨٩) ﴾ [المائدة]

والكفارة ستر العقوبة ، وليس معنى هذا أن الإنسان تلزمه الكفارة ما دام قد عقَّد الأيمان وأقسم يميناً مؤكداً ، فالكفارة تكون فقط حين يحنث فى القسم فلم يبر به .

فتكون الكفارة أحد أربعة أشياء : إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أى كسوة عشرة مساكين ، أو تحرير رقبة بإعتاق عبد أو غيره إنْ وُجد ، أو صوم ثلاثة أيام لمن لم يجد .

والحق سبحانه عندما قال فى سورة التحريم : ﴿ قَدْ فَرَضَ اللهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ .. (٢) ﴾ [التحريم] فهو سبحانه يشير إلى الكفارة التى فى سورة المائدة، فسورة التحريم نزلت بعد سورة المائدة .

والكفارة فيها جانبان : جانب منهما لزجر النفس وجانب آخر لجبر الذنب ، لذلك عندما حلف خليفة أندلسى يميناً وأراد أنْ يؤدى عن اليمين كفارة ، فأفتاه القاضى منذر بن سعيد[٢] بأن كفارة يمينه هذا هو صيام ثلاثة أيام ، مع أن الصيام لمن لم يجد مالاً ليطعم أو يكسو أو يعتق ، فهل الخليفة لا يجد مالاً ؟ لا؛

---

(١) اللغو في الأيمان : لغا الرجل تكلم باللغو وهو اختلاط الكلام ويستعمل اللغو فيما لا يعتد به ، ومنه اللغو في الأيمان أي ما لا يعقد عليه القلب . [التوقيف على مهمات التعاريف – للمناوي ٦٢٣/١] قال برهان الدين الخوارزمي (ت ٦١٠ هـ) في (المغرب في ترتيب المعرَّب) : اللغو الباطل من الكلام.

(٢) هو منذر بن سعيد البلوطي القاضي الأندلسي ، من فحص البلوط قرب قرطبة ، يكنى أبا الحكم ولد ٢٧٣ هـ . كان فقيهاً خطيباً شاعراً فصيحاً ، أخذ عن بعض علماء مكة ومصر ، ولي قضاء (ماردة) ثم قضاء (الثغور) ، ثم قضاء الجماعة (قرطبة) إلى أن توفي عام ٣٥٥ هجرية عن ٨٣ عاماً . [الأعلام للزركلي ٢٩٤/٧] .

ولكن القاضى منذر بن سعيد نظر إلى جانب زَجْر النفس فى الكفارة ، ولذلك قال لمن سأله : أمثل أمير المؤمنين يُزجر بعتق رقبة أو إطعام عشرة مساكين ؟

وقد يسأل سائل : ولكن رسول الله لم يحنث فى يمينه حتى تجب عليه الكفارة؟ نعم رسول الله لم يحنث فى يمينه بمعنى أنه لم يخالف يمينه فذهب وشرب عسلاً ، أو أنه خالف يمينه وجامع مارية فى رواية مَنْ قال أن الآية نزلتْ بسبب أن رسول الله جامع مارية زوجه فى غرفة حفصة رضى الله عنها ، فغضبتْ حفصة ، فحلف رسول الله أنْ لا يقربها وحرَّم مارية على نفسه فنزلت الآية .

ولكن الكفارة أيضاً شرعها الله ليس للعقوبة فقط على مَنْ حنث فى يمينه وأتى بعكس ما حلف عليه ، بل شرعها الله أيضاً ﴿ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ .. (٢) ﴾ [التحريم] أى شرع لكم وقدر ما به تنحلّ أيمانكم قبل الحنث ، وما به الكفارة بعد الحنث .

فكلّ مَنْ حرّم حلالاً عليه من طعام أو شراب أو سرية ، أو حلف يميناً بالله على فعل أو ترك ثم حنث أو أراد الحنث ، فعليه هذه الكفارة المذكورة .

وقوله تعالى : ﴿ تَحِلَّةَ .. (٢) ﴾ [التحريم] تحلة أصلها تحللة فأُدغمت اللامان، وهى من مصادر التفعيل كالتوصية والتسمية ، فكأنَّ اليمين عقد ، والكفارة حلّ، لأنها تُحل للحالف ما حرَّمه على نفسه .

فكلمة ﴿ تَحِلَّةَ .. (٢) ﴾ [التحريم] دليل على أن رسول الله لم يحنث فى يمينه، فالتحلة لا تكون بعد الحنث ، فإنه بالحنث ينحلّ اليمين وتجب حينها الكفارة، وإنما تكون التحلة إذا أُخرجت قبل الحنث لينحلّ اليمين ، وإنما هى بعد الحنث كفارة لأنها كفّرت ما فى الحنث من سبب الإثم لنقض عهد الله .

فإعجاز النظم القرآنى هنا أنه لم يذكر شيئاً عن الكفارة فلم يقُلْ الله تعالى : قد فرض الله عليكم كفارة أيمانكم ، بل قال : ﴿ قَدْ فَرَضَ اللهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ .. (٢) ﴾ [التحريم]

وسبق أنْ تكلَّمنا على (لكم) أى لمصلحتكم ، فلو كانت كفارة لقال عليكم عقوبة على الإثم الذى ارتكبتموه .

ونلحظ ملحظاً آخر فى قوله تعالى ﴿ تَحِلَّةَ .. (٢) ﴾ [التحريم] فنرى فيها تقليل استعمال اليمين ، لذلك قال تعالى هناك ﴿ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ .. (٨٩) ﴾ [المائدة]

والحفظ هو عدم التضييع ، فعلى الإنسان ألاَّ يجرى اليمين على لسانه والدليل على التقليل فى قوله (تحلة) قول رسول الله فى الحديث : « لا يموت لمسلم ثلاثةٌ من الولد فيلج النار إلا تحلَّة القسم »[1] ، أى القسم الذى قاله الله فى الآية ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا .. (٧١) ﴾ [مريم]

ومعنى تحلة القسم أى قدْر ما حللت به يمينى ولم أبالغ ، أى أن النار لا تمسّ مَنْ مات له ثلاثة من الولد فصبر ولم يجزع ولم يقنط ، ولم يكْفُر؛ فلا تمسُّه النار إلا بقدر الورود.

والله يعطينا مثالاً بمسألة تحلَّة القسم ، فقال تعالى فى قصة أيوب عليه السلام ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا [2] فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ .. (٤٤) ﴾ [ص]

فأيوب عليه السلام قد حلف أنْ يضرب امرأته إذا بريء من مرضه مائة سوط ، وأراد الله أنْ يُحلَّه من هذا القسم فأمره أنْ يأخذ حزمة من حشيش أو عُشْب فيها مائة عود ويضربها بها ضربة خفيفة ليبرَّ فى قسمه .

وكان ذلك رحمة من الله به وبزوجه التى قامت على رعايته وقت مرضه، وكان أيوب عبداً شاكراً لله كأنَّ الضربة الواحدة هى مائة ضربة ، وهذا تحليل للقسم .

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخاري في صحيحه (١٢٥١ ، ٦٦٥٦) وكذا مسلم في صحيحه (٦٨٦٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه . قال أبو عبد الله البخاري : ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ..(٧١) ﴾ [مريم]

(٢) الضغث : عثكال النخل بشماريخه . وقيل : هو قبضة من حشيش مختلط رطبها بيابسها . قال الواحدي: الضغث ملء الكف من الشجر والحشيش والشماريخ . [فتح القدير للشوكاني ٦/ ٢٥٠] .

ولا تقصير فى الأخذ بالرخصة بتحليل القسم ، ففى الكفارة ما يكفى للوفاء بتعظيم اليمين بالله ، لذلك ابتدأ الحق سبحانه الآية بحرف التحقيق (قد) فقال ﴿ قَدْ فَرَضَ اللهُ .. (٢) ﴾ [التحريم] فلا تستعظموا الأخْذ بالرخصة للتحلل من اليمين مع صدق قلوبكم ونياتكم .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَاللهُ مَوْلَاكُمْ .. (٢) ﴾ [التحريم] يعنى المتولّى شئونكم وكلمة (مولى) تأخذ معنى القريب والناصر والمعين الذى تفزع إليه فى شدائدك .

فقد يُوجد لك مولى فى الدنيا وهو من الأغيار ، ومن الجائز أنْ يتغير قلبه عليك ، ومن الجائز أنْ تنالك الأحداث التى هى فوق قدرتك وطاقتك .

ومن الجائز أن يكون لك مولى تنشده وتطلبه لنصرتك فيرفض ، لأنَّ خصمك له بهذا المولى ولاء أقوى وأشد ، فيقف بجانب خصمك وقد يُوهمك أنه معك لكن قلبه ليس معك .

أما الله عز وجل فهو المولى الحق ، فلا تُوجد قوة أعلى منه وهو لا يتغير لأن الأغيار من طبيعة الخَلْق ؛ فسبحان الخالق !

ثم يُنهى الحق سبحانه الآية بقوله عن ذاته العلية ﴿ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٢) ﴾ [التحريم] فيصف الحقّ سبحانه نفسه بصفتين : العلم والحكمة .

فهو سبحانه (العليم) أى الذى يعلم كل شيء خافياً كان أو ظاهراً ، والعلم كله منه سبحانه ، وهو سبحانه العليم بنيتنا ومدى إخلاصنا يعلم ما فى صدورنا قبل أنْ ننطق به .

فلا شيءَ يفوت على الله سبحانه أو يُفلت منه ، عليم بخبايا البشر ، عليم بالضرورات التى تطرأ على التكليف فهو سبحانه يشرع لهذه الضرورات . وهو سبحانه العليم بكلِّ خفايا عباده والكاشف لكلِّ الملكات النفسية فى خلقه ، عليم بما تسعه نفسُ الإنسان ، لذلك فهو لا يكلف نفساً إلا وُسْعها .

وهو سبحانه العليم بالمناسب لكلِّ حال ، وهو العليم أبداً بما ينفع الناس جميعاً ، وهو العليم بما تتطلبه الحكمة علماً يحيط بكل الزوايا والجهات ، العليم بما يجول فى الخواطر .

ثم إنه ﴿ الْحَكِيمُ (٢) ﴾ [التحريم] فهو الحكيم الذى لا يصدر منه الشيء إلا بحكمة بالغة ، وهو الحكيم فى فعله وتقديره وتصرُّفه .

فالحكيم هو الذى يضع كلَّ أمر فى مكانه ، الذى لا يأمر إلا بما فيه مصلحتكم، الذى يضع الشيء فى موضعه الدقيق بحكمة ، فلا ينظر إلى ظاهر معطيات الشيء الآن ، ويغفل ما قد يأتى به من مضرَّة .

فأنت قد تصل إلى الشيء وتظن أنه يُخلِّصك من متاعب أخرى ، لكنه قد يؤدى إلى شيء آخر ، فهو سبحانه الذى لا يترك شيئاً للعبث ، فهو المقدِّر لكلِّ أمر بحيث يكون موافقاً للصواب .

فهو سبحانه ﴿ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٢) ﴾ [التحريم] الذى أحاط علمه بظواهركم وبواطنكم ، وهو الحكيم فى جميع ما خلقه وحكم به ، فلذلك شرع لكم من الأحكام ما يعلم أنه موافق لمصالحكم ومناسب لأحوالكم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَن بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ (٣) ﴾

السر هو ما أسررتَ به لغيرك ، فكأنه يعلمه اثنان ، أنت ومَنْ أسررتَ إليه ، ولكن هناك ما هو أخفى من السر وهو ما تُبقيه فى نفسك ولا تخبر به أحداً ، إنه يظلّ فى قلبك لا تُسِرّ به لإنسان .

والله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى (٧) ﴾ [طه]

فما أُسرُّ به إلى غيرى فهو السر ، وما أُخفيه فى صدرى ولا يطلع عليه أحد هو أخْفى من السرِّ ، فلا يُقال أسررت إلا إذا بُحت به لغيرى ، أما ما أخفيه فى صدرى فلا يعلمه أحدٌ إلا الله ، فهذا ما هو أخفى من السرِّ .

وأنت عندما تضع سرَّك عند أحد فأنت تثق فيه وتستأمنه عليه ، وكأن الأسرار فى خزانة لن يعرف أحدٌ ما بداخلها ، فأنت عندما تُسرّ إلى إنسان أمراً ما فأنت تعتبره كنفسك ، وأن السرَّ لن يخرج خارجه .

أما عندما تُسرُّ إلى إنسان بكلام وسط مجموع من الناس ولكنك تهمس به فهذه نجوى ، ويكون السرُّ حينئذ هو ما احتفظتَ به داخل نفسك .

يقول تعالى : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ .. (٧٨) ﴾ [التوبة] فالسر هنا ما تكتمه فى نفسك ولا تُطلع عليه أحداً ، فليس السر هو ما تُسر به للغير لأن هذه هى النجوى ، وهى ما أسررت به للغير بحيث لا يعلمه مَنْ يجالسكما .

وسواء كان السر هو ما أسررتَ به لغيرك وخرج منك لأنك استأمنتَ الغير على ألاَّ يقوله ، أو كان السر ما أخفيتَه أنت فى نفسك ، فالله هو العالم به فى الحالتين .

فالسرُّ هنا فى الآية : ﴿ وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ .. (٣) ﴾ [التحريم] كان السر عند رسول الله ﷺ وانتقل إلى بعض من أزواجه .

والأخفى من السرِّ هو ما قبل أنْ تبوح بالسر وكتمته ولم تبح به ، وسبحانه

يعلم هذا السر وما تُخفيه ، أى السر الذى لم تقُلْه لأحد ، بل ويعلمه قبل أنْ يكون سراً .

فالسر ما تركته فى نفسك محبوساً وأسررته عن الخَلْق لا يعرفه إلا أنت ، أو السر ما أسررت به إلى الغير وساعتها لن يبقى سراً ، وإذا ضاق صدرك بأمرك فصدْرُ غيرك به أضْيق .

وقوله تعالى : ﴿ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ .. (٣) ﴾ [التحريم] أى ليس كل أزواجه وإلا لم يكُنْ سراً ، فرسول الله أسرّ إلى البعض من أزواجه .

وبعض الشيء طائفة منه ، والبعض يصدق على الواحد والواحدة ، وهى هنا حفصة بنت عمر بن الخطاب زوج النبى ﷺ .

وقد حدث أن رسول الله دخل بمارية[1] القبطية سريته بيت حفصة بنت عمر، فوجدتها معه . فقالت حفصة : يارسول الله فى بيتى من بين بيوت نسائك ؟! قال : فإنها عليّ حرام أن أمسَّها يا حفصة واكتمى هذا عليَّ .

فخرجت حفصةُ حتى أتتْ عائشة ، فقالت : يابنت أبى بكر ألا أُبشِّركِ ؟ فقالت: بماذا ؟ قالت : وجدتُ مارية مع رسول الله فى بيتى . فقلت : يا رسول الله فى بيتى من بين بيوت نسائك ؟! وبى تفعل هذا من بين نسائك ؟!

فكان أول السِّرّ أن حرَّمها على نفسه . ثم قال لى : يا حفصة ألا أبشركِ ؟ فقلت : بلى بأبى وأمى يارسول الله . فأعلمنى أن أباك يلى الأمر من بعده ، وأن أبى يليه بعد أبيك . وقد استكتمنى ذلك فاكتميه »[2].

---

(١) مارية القبطية : أم إبراهيم بن رسول الله . تسرَّى بها رسول الله فولدت له . وهي مارية بنت شمعون. مصرية الأصل بيضاء ، ولدت في قرية (حفن) من كورة (أنصنا) بصعيد مصر . أهداها المقوقس سنة ٧ هـ للنبى هى وأخت لها تُدعى (سيرين) ولدت لحسان بن ثابت ولده عبد الرحمن وماتت في خلافة عمر (١٦ هـ) ودفنت بالبقيع . [الأعلام للزركلي ٥/٢٥٥] .

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٥٠٤) ، وكذا في المعجم الأوسط (٢٣١٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه . قال ابن حجر العسقلاني في (تلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي) (٣/٤٤٦): « أصل هذا الحديث رواه النسائي والحاكم وصححه من حديث أنس » .

فـ (مارية) كانت سرية رسول الله أهداها له المقوقس[١] عظيم القبط فى مصر بعد رسالة رسول الله إليه « أسلم تسلم »[٢] فكان أنْ أهدى المقوقس لرسول الله مارية القبطية وتسرَّى بها رسول الله وولدتْ له إبراهيم فصارت أم ولد وأعتقتْ وأصبحتْ زوجةً لرسول الله .

وأزواج جمع زوج والزوج يُطلق على الشيء معه ما يقارنه فكلمة زوج تُطلق ويراد بها الشيء الواحد الذى معه ما يقارنه ، والحق سبحانه يقول : ﴿ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ .. (٣٥) ﴾ [البقرة] فكلمة زوج هنا أُطلقت على حواء ، فآدم زوج وحواء زوج .

فكلُّ زوجة من زوجات رسول الله هى زوج له ، فلا نأخذ كلمة زوج على أنها اثنان بل هى مفرد ، وقد قال تعالى : ﴿ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا .. (١) ﴾ [النساء]

ورسول الله حرَّم على نفسه مارية إرضاءً لحفصة ، وعاتبه الله فى ذلك كما عاتبه فى أمر تحريمه للعسل إرضاء لأزواجه ، فقال تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ .. (١) ﴾ [التحريم]

وأمر العسل معروف لمعظم أزواجه بل إنهنَّ اتفقن على أنْ تقول كلٌّ منهن لرسول الله إذا دخل عليها : شربتَ عسلاً ؟ فالأمر مستفيض بينهن .

أما أمر تحريم رسول الله مارية على نفسه فهو خاص بحفصة ، وكذلك أمر

(١) المقوقس : صاحب الإسكندرية . لا مدخل له في الصحابة فإنه لم يسلم ولم يزل نصرانياً . قال ابن ماكولا : اسم المقوقس جُريج ، يعني بجيمين أولهما مضمومة . [أسد الغابة ٣/٤٣] . وقال ابن الأثير في البداية والنهاية (٤/٣١٠) : « اسمه جريج بن مينا » . (٥/٣٢٦) أنه من بطاركة الروم . أي حكام مصر في ذلك الزمن .

(٢) نص كتاب رسول الله إلى المقوقس أرسل به حاطب بن أبي بلتعة فيه : بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلي المقوقس عظيم القبط سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم . أسلم يُؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإن عليك إثم القبط ﴿ يَـٰأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا .. (٦٤) ﴾ [آل عمران] [نصب الراية للزيلعي ٤/٤٢١] .

خلافة أبيها عمر بعد أبى بكر الصديق أبى عائشة ، وهذان الأمران هما اللذان أسرَّهما رسول الله لحفصة .

ولكنها لم تلبثِ حفصة أنْ أخبرت عائشة بأمر حديث رسول الله إليها ، فقال تعالى : ﴿ فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ .. (٣) ﴾ [التحريم] أى أخبرت به ، ولكن حفصة لم تخبر به خبراً عادياً على سبيل الكلام العادى أو كما نقول (الثرثرة) ، بل ﴿ نَبَّأَتْ بِهِ .. (٣) ﴾ [التحريم]

ونحن قلنا من قبل : إن كلمة (نبأ) لا تأتى إلا فى الخبر العظيم ، والنبأ هو الخبر المهم ، فنحن لا نطلق النبأ على مطلق الخبر ، بل نطلقه على الخبر اللافت للنظر .

فالنبأ هو الخبر المهم الشديد الذى له وقْع وأثر عظيم ، لذلك قال : ﴿ فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ .. (٣) ﴾ [التحريم] و(نبّأ) تعطى معنى أكثر من (أنبأ) فـ (نبأت) بتضعيف الباء ، أى أن الكلمة فيها حرفان من شكل واحد أى متماثلان .

و﴿ نَبَّأَتْ .. (٣) ﴾ [التحريم] تعطى معنى الاهتمام بالإخبار ، فليس مجرد إخبار بل هو خبر مهم جمعتْ حفصة رضى الله عنها نفسها له وحدَّثتْ عائشة عنه باهتمام شديد ، فلم يقُل (أنبأت) .

﴿ وَأَظْهَرَهُ اللهُ عَلَيْهِ .. (٣) ﴾ [التحريم] أى أظهره الله على قول حفصة لعائشة، فأظهر الله نبيه محمداً ﷺ على أنها قد أنبأت بذلك صاحبتها ، فـ (أظهره) أطلعه على أن حفصة قد نبَّأت عائشة بما أسرَّه إليها رسول الله .

ويظهر على كذا لها معنيان فى اللغة : الأول بمعنى يعلم كما فى قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ .. (٢٠) ﴾ [الكهف] يعنى : إنْ علموا بكم وعرفوا مكانكم .

والثانى بمعنى يعلو ويغلب ويقهر كما فى قوله تعالى : ﴿ فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ .. (٩٧) ﴾ [الكهف] أى السد الذى بناه ذو القرنين ، فالمعنى ما استطاعوا أنْ يعلوه ويرتفعوا عليه .

ومنها ﴿ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ .. (٣١) ﴾ [النور] يعنى : يعرفونها ويستبينونها أو يقدرون على مطلوباتها ، فليس لهم علم أو دراية بهذه المسائل، فهم لم يطلعوا على عورات النساء .

فـ ﴿ وَأَظْهَرَهُ اللهُ عَلَيْهِ .. (٣) ﴾ [التحريم] أى : أطلعه . ولكن أظهره تعطى معنى الاستعلاء والعلو على ما حدث وعلى إفشاء حفصة للسرِّ الذى أسرّ به لها على أنْ تكتمه .

لذلك قال بعدها ﴿ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ .. (٣) ﴾ [التحريم] فعاتب رسول الله حفصة على بعض ما أسرَّ لها به وأعرض عن بعضه تكرُّماً منه ﷺ، حتى أن بعض العلماء قال : ما استقصى كريمٌ قط[1].

فيقال : عرَّفها أمر تحدُّثها عن مارية وما حدث معها وتحريم رسول لها على نفسه ، وأعرض عن تحدُّثها عن خلافة أبى بكر وعمر رضى الله عنهما له ﷺ .

وأنت إذا أسررتَ إلى إنسان بعدة أمور ووجدته قد أفشى سِرَّك فعندما تواجهه تجده محتاراً هل وصلك الحديث كله أم بعضه ، فإذا ذكرت أمراً واحداً تجده قلقاً متحيراً خجلاً حيياً من أنْ يكون وصلك الحديث كله خاصة أنك طلبت كتمانه.

ورسول الله ﷺ قال هنا لحفصة : « واكتمى هذا علىَّ » .

﴿ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَـٰذَا .. (٣) ﴾ [التحريم] ، لقد ظنت حفصة أن عائشة رضى الله عنها هى التى أخبرته ، فلا يعتقد أحدٌ أن حفصة تشك فى أن الله يخبر نبيه ورسوله بما لا يحيط به علماً من أمر الأمة .

---

(١) ذكره أبو طالب المكي في كتابه (قوت القلوب في معاملة المحبوب) (٢/ ٤٣٤) وعزاه لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه . وذكره السيوطي في الدر المنثور (١٤/ ٥٧٧) وعزاه لابن مردويه من قول علي ، أما البغوي في تفسيره (٨/ ١٦٤) فقد عزاه للحسن البصري .

وبسبب ظنها أن عائشة قد تكون هى التى أخبرت رسول الله ، لذلك سألت ﴿ مَنْ أَنْبَأَكَ هَـٰذَا .. (٣) ﴾ [التحريم] أى مَنْ أعلمك وأخبرك أنِّى قد أفشيتُ سرَّك الذى أسررتَ إليَّ به .

كيف وصلك الأمر ، وما تحدَّثتُ به مع عائشة كان بينى وبينها ، فهل هى التى أخبرتك ؟

﴿ قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ (٣) ﴾ [التحريم] أى : الله الذى لا تخفى عليه خافية، فهو سبحانه العليم الخبير .

فالعليم الذى يعلم كل شيء خافياً كان أو ظاهراً ، والعلم كله منه ، سميع بما يُقال عليمٌ بما فى الصدور قبل أنْ ينطقوا به ، فكل حركة قبل أن تحدث يعلمها سبحانه .

والخبير يزيد على العلم بإحاطته التامة لكلِّ شيء ، فالخبير صاحب العلم الدقيق الذى يعلم خبايا الأمور ، ونحن حتى فى مسائل الدنيا الهامة نقول : نستدعى لها الخبير ، فالمختص العادى لا يقدر عليها .

فالخبير هو مَنْ وصل إلى منتهى العلم الدقيق ، فلا يسأل أهل العلم السطحى، فالخبير هو الذى لا يغيب عنه شيء .

ثم يخاطب الحق سبحانه حفصة وعائشة رضى الله عنهما فيقول :

﴿ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۖ وَإِن
تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ
وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ
ظَهِيرٌ ﴿٤﴾ ﴾

والتوبة مطلوب من الله طلبه من عباده ، فالتوبة رحمة بعباده ، فتشريع التوبة ليس رحمةً بالعاصى وحده ، ولكنه رحمة بالمجتمع كله ، فالتوبة لو لم تشرع لَعانَى المجتمع كله .

فلو لم يشرع الله التوبة ، ولو لم يُبشِّرنا بأنه سيقبلها لكانَ الذى يذنب ذنباً واحداً لا يرجع عن المعصية أبداً .

والله شرع قبول التوبة حتى لا ييأس الإنسان ، فيُحسُّ أن أبواب السماء مفتوحة له دائماً ، وأن الله الذى خلقه رحيمٌ به ، إذا أخطأ فتح له أبواب التوبة وغفر له ذنوبه ، حتى يُحسَّ كلُّ إنسان برعاية الله سبحانه له هو على الأرض من أول بداية الحياة .

فالمنهج موجود لمن يريد أنْ يؤمن ، والتوبة قائمة لكل مَنْ يخطيء ، والتوبة هى أصل المغفرة ، أنت تتوب عن فعلك للذنب وتعتزم ألاَّ تعود لمثله أبداً ، ويقبل الله توبتك ويعفو عنك .

والحق سبحانه يحب التوبة من عباده ، وهو سبحانه أفرح بتوبة عبده المؤمن من أحدكم وقع على بعيره وقد أضله فى فلاة[1].

فإنْ ترجعا إلى الله نادمتين تائبتين فقد فعلتما ما يوجب التوبة ، فقوْل الحق سبحانه ﴿ إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللهِ .. (٤) ﴾ [التحريم] هو حضٌّ على التوبة وهو أيضاً عرْضٌ للتوبة عليهما ، لأن الحق سبحانه يقول بعدها : ﴿ وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللهَ هُوَ مَوْلاَهُ .. (٤) ﴾ [التحريم]

﴿ إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا .. (٣) ﴾ [التحريم] والإصغاء هو ميْل الأذن إلى المتكلم ، لأنك قد لا تسمع مَنْ يتكلم بغير إصغاء ، وحين يسير الإنسان

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٦٣٠٩) عن أنس قال قال رسول الله ﷺ « الله أفرح بتوبة عبده من أحدكم سقط على بعيره وقد أضلّه في أرض فلاة » وكذا في صحيح مسلم (٧١٣٧) . والأرض الفلاة التي ليس فيها ما يقوم به البدن من المأكول والمشروب . وكأنها فليت من مقومات الحياة .

منّا فى الطريق فهو يسمع الكثير ، ولكن أذنه لا تتوقف عند كلِّ ما يسمع بل قد تقف الأذن عندما يظن الإنسانُ أنه كلامٌ مُهم .

وقد قال تعالى : ﴿ وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ (١١٣) ﴾ [الأنعام] والأفئدة هى القلوب ، صحيح أن الأذان هى التى تصغى ، لكن القلوب قد تتسمع ما يُقال .

وعندما يقول تعالى : ﴿ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا .. (٤) ﴾ [التحريم] أى : أنه سبحانه نقل الإصغاء من الآذان إلى القلوب وهذا إدراك ، فقلوبهم مالتْ إلى حبِّ تحريم رسول الله ماريةَ على نفسه رغم كراهيته ﷺ لذلك .

والبعض من العلماء ذهب إلى أن ﴿ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا .. (٤) ﴾ [التحريم] هنا المقصود بها أنها مالتْ إلى التوبة مما فعلتاه ، فقال : ﴿ إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا .. (٤) ﴾ [التحريم] أى : مالت واتجهت إلى التوبة .

فقلوبكما قد صغتْ إلى الحق ، وهو ما وجب من الابتعاد عن ما يُسخط رسول الله .

﴿ وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ .. (٤) ﴾ [التحريم] أى : تعاونا عليه . والظهير : المعين. والحق سبحانه يقول : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا .. (٤) ﴾ [التوبة]

ويُظاهر أى يُعاون ، وكلّها مأخوذة من مادة الظهر ، وهو يتحمل أكثر من اليد ، فالإنسان لا يقدر أنْ يحمل جوالَ قمح بيده مثلاً ، ولكنه يقدر أنْ يحمله على ظهره .

ولذلك يقول المثل العامى : مَنْ له ظهر لا يُضرب على بطنه . إذن : فالظهر للمعونة ، والحق سبحانه يقول : ﴿ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا

ظَاهِرِينَ (١٤) ﴾ [الصف] أى : عالين .

فقوله سبحانه : ﴿ وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ .. (٤) ﴾ [التحريم] يعنى تعاونا ، وهى مأخوذة من الظهر ، كأنك قلتَ : أعطنى ظهرك مع ظهرى لنحمل الحمل معاً ، والظهر محل الحمل .

﴿ وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ .. (٤) ﴾ [التحريم] أى : تظاهرا وتعاونا على أذى النبى ﷺ ، فإنْ تعاضدا وتعاونا فى الغيرة عليه منكما وإفشاء سِرِّه وتتفقا على ما يسوؤه من إفراطهم فى الغيرة .

فإنْ تعاونا على هذا وتآزرا ، وكان كلٌّ منهما عَوْناً للأخرى عليه ﴿ فَإِنَّ اللهَ هُوَ مَوْلَاهُ .. (٤) ﴾ [التحريم] أى ناصره ومُعينه ، وحين يكون الله فى معونته فهو يعطيه من قدرته غير المحدودة .

فالله هو المولى الحق ، فلا توجد قوة أعلى منه وهو لا يتغير ، والحق سبحانه يؤكد الأمر بالضمير المنفصل (هو) ، فيقول ﴿ فَإِنَّ اللهَ هُوَ مَوْلَاهُ .. (٤) ﴾ [التحريم] وكان من الممكن أنْ تكون العبارة : فإنَّ الله مولاه .

أما وقد جاء بـ (هو) بين لفظ الجلالة و (مولاه) فإنه تأكيد لإعانة الله لرسوله ونُصْرته له . وليس الله وحده سبحانه هو مولى رسول الله ، ولكن أيضاً ﴿ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ .. (٤) ﴾ [التحريم]

وقد خصَّ الله هنا (جبريل) بالذكر رغم أنه سبحانه سيذكر الملائكة بعد ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ .(٤) ﴾ [التحريم] . فجبريل عليه السلام هو أمين الوحى وهو أقرب الملائكة إلى الأنبياء والرسل لا سيما رسول الله ﷺ ، فكلُّ رسول كان مُؤيَّداً بروح القدس ، وهو جبريل عليه السلام .

وقد حدَّثنا ربُّ العزة سبحانه عن جبريل فقال : ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ (٩٧) مَنْ كَانَ عَدُوًّا

لله وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ(١) فَإِنَّ اللهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ (٩٨) ﴾ [البقرة]

وقد وصف الحق سبحانه جبريل فقال : ﴿ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى (٥) ذُو مِرَّةٍ(٢) فَاسْتَوَى (٦) ﴾ [النجم] أي : ذو قوة .

وقال الحق سبحانه : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (١٩) ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (٢٠) مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ (٢١) ﴾ [التكوير] فجبريل شديد القوة الظاهرة والباطنة، قويّ على تنفيذ ما أمره الله بتنفيذه ، قوى على إيصال الوحى إلى الرسول ﷺ .

وليس جبريل وحده ، بل : ﴿ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ .. (٤) ﴾ [التحريم] هما أبو بكر وعمر بن الخطاب رضى الله عنهما . والمقصود كلّ مؤمن صالح .

وقد كان عمر بن الخطاب يحفظ لرسول الله أمره ويشدد على ابنته حفصة فى أمر مراجعة رسول الله ، وقد كان يظن أن هذا لا يحدث .

قال عمر : بينما أنا فى أمر أتأمَّره إذ قالت امرأتى : لو صنعت كذا وكذا . قال فقلت لها : مالكِ ولما هاهنا فيما تكلفك فى أمر أريده . فقالت لى : عجباً لك يابن الخطاب ، ماتريد أنْ تُراجع أنت وإن ابنتك لتراجع رسول الله ﷺ حتى يظلّ يومه غضبان .

فقام عمر فأخذ رداءه مكانه حتى دخل على حفصة ، فقال لها : يابُنية إنك لتراجعين رسول الله ﷺ حتى يظلَّ يومه غضبان ، فقالت حفصة : والله إنَّا لنراجعه . فقلت : تعلمين أنِّى أحذرك عقوبة الله وغضب رسول الله .

يابنية لا يغرنك هذه التى أعجبها حُسْنها وحب رسول الله إياها . يقصد

(١) ميكال : مفعال بغير همز ، هي لغة أهل الحجاز ، وبها قراءة حفص ، وميكائيل لغة تميم وقيس وكثير من أهل نجد . وهناك قراءات أخرى ، قال ابن الجوزي في زاد المسير (١/١٠١) : قال الكسائى : جبريل وميكال اسمان لم تكن العرب تعرفهما فلما جاء عرَّبتهما .

(٢) المِرَّة : القوة والشدة في الخلق . وقيل : ذو صحة جسم وسلامة من الآفات . ومنه قول النبي ﷺ « لا تحل الصدقة لغني ولا لذي مِرَّة سوي » . وقيل : ذو حصانة عقل ومتانة رأي . [فتح القدير للشوكاني ٧/٦٧] .

عائشة[١] .

بل إن الحق سبحانه يذيِّل الآية بقوله ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ (٤) ﴾ [التحريم]

فالله هو مولاه وجبريل والصالحون من المؤمنين ، ويعين المؤمن فى نصرة رسول الله الملائكةُ ، فإنهم ﴿ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ (٤) ﴾ [التحريم]

والملائكة لفظها لفظٌ مؤنث ولكن لم يقُل الحق سبحانه : ظهيرة ، لأن (ظهير) يعنى معين ، والمعونة تتطلب القوة والعزم والمدد ، لذلك جاء لها باللفظ المناسب الذى يدلّ على القوة ، وهو (ظهير) .

فـ (ظهير) فى الآية الكريمة أى معين . لذلك يُقال : فلان يشد ظهرى أى يعاوننى بقوة . ويُقال : ظهر فلان على فلان أى غلبه وتفوّق عليه . ويقال : وعلا ظهره .

و (ظهير) على وزن فعيل ، وهذا الوزن يستوى فيه المذكر والمؤنث ، ومثلها قوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦) ﴾ [الأعراف]

فالجميع سيكونون أعواناً له ﷺ على مَنْ آذاه وأراد ما يسوءُه . وظهير هنا أيضاً بمعنى الجمع أى ظهراء ، كقوله تعالى : ﴿ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا (٦٩) ﴾ [النساء]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا (٥) ﴾

كلمة (عسى) فى اللغة تأخذ أوضاعاً متعددة ، فـ (عسى) معناها فى اللغة

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخاري في صحيحه (٤٩١٣) ، وكذا أخرجه مسلم في صحيحه (٣٧٦٥) من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما .

الرجـاء . كقول واحد : عسـى أنْ يجيء فـلان . أى : أرجو أن يجيء فلان أو قول واحـد مخاطباً صـاحباً له : عسـى أنْ يأتيك فلان بخير . وهذا رجـاء أنْ يأتى فـلان إلى فـلان بعض الخير ، وقد يأتى فلان بالخير وقد لا يأتى ، لكن الرجاء قد حدث .

وقد يقول واحد لصـاحبه : عسـى أنْ آتيك أنا بخير ، هنا يكون الرجاء أكثر قـوة ، لأن الرجـاء فى الأولى فى يد واحد آخر غير المتحدث ، أما الخير هنا فهو فى يد المتحدث ، لكن أيضـمن المتحدث أنْ توجد له القوة والوجود حتى يأتى بالخير لمَنْ يتحدَّث إليه ؟

وإذا قال قائل : عسى الله أنْ يأتيك بالفرج ، فهذه أوغل فى الرجاء ، لكن هل مَـنْ يقـول ذلك واثق من أن الله يجيب الرجاء ؟ قد يجيب الله وقد لا يجيب وفقاً لإرادة الله سبحانه ، لا لمعايير مَنْ يرجو أو المرجو له .

أما عندما يقول الحق سبحانه عن نفسه ﴿ عَسَى رَبُّهُ .. (٥) ﴾ [التحريم] ، فهذا هـو القول البالـغ لنهايات كلِّ الرجاءات ، فـ (عسـى) بمراحلها المختلفة تبلغ قيمتها عندما يقول الحقُّ ذلك .

فالأقـوى علـى الإطـلاق هـو أنْ يقول الله عـن نفسـه ﴿ عَسَى رَبُّـهُ .. (٥) ﴾ [التحريم] بالنسبة لله رجاء محقق لأنه إطماعٌ من الله عز وجلَّ .

ومثلهـا قولـه ﴿ فَأُولَـٰئِـكَ عَسَـى اللهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُـمْ .. (٩٩) ﴾ [النسـاء] فهذا إطماعٌ من كريم قادر .

والله لا شـيءَ يُعطله أو يستعصى أو يتأبّى عليه ، فإذا ما قال الحق سبحانه عن نفسه ﴿ عَسَى رَبُّهُ .. (٥) ﴾ [التحريم] فقد انتهتْ المسألة وتقرر الوعد وتحقَّق، وهذا ما يقال عنه رجاء محقق .

فلتكُـنْ علـى وجل مـن أنْ يحقق اللهُ هذا الرجـاء ويبدِّل رسـوله ﷺ أزواجاً

غيركُنَّ ، فالرجاء من الله إيجاب ، ونلاحظ أنّ يعقوب عليه السلام لثقته فى إنجاز الله لوعده نجده يقول : ﴿ عَسَى اللهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا .. (٨٣) ﴾ [يوسف]، ففى هذه الآية طلبُ الأمل الذى يُوحى بالفرج وقد كان .

فهو لم يقل : عسى أنْ يأتونى جميعاً ، بل نسب الأمر إلى الله طمعاً ورجاءً فى عظيم فضل الله فقال : ﴿ عَسَى اللهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا .. (٨٣) ﴾ [يوسف]

فإذا قلت ﴿ عَسَى اللهُ .. (٨٣) ﴾ [يوسف] أنْ يعطيك فهو أقوى الرجاء لأنك رجوتَ مَنْ لا يُعجزه شيء ولا يتعاظمه شيء ولا تناوله الأغيار . إذن : فالرجاء فيه محقَّق لا شكَّ فيه .

والمسألة ليست عند محمد ، إنما عند ربِّ محمد ، لذلك قال تعالى : ﴿ عَسَى رَبُّهُ .. (٥) ﴾ [التحريم] فلم يقل : عسى الله ، بل قال (ربه) ، فربُّه هو الذى سيُبدِّلكُن لأنكُنَّ لم ترعيْنَ حقَّ النبوة والرسالة .

والتعبير بـ (ربه) يُذكِّرنا بقوله ﷺ : « أدَّبنى ربى فأحسنَ تأديبى »[1]. فالله تعالى هو الذى ربَّاه وأدَّبه أحسن تأديب .

ومنزلة المربِّى تعظم فى التربية بمقدار كمال المربِّى ، فكأنه تعالى يقول : أنا ربك الذى أكملتُ تربيتك على أحسن حال ، فمَنْ أراد أنْ يرى قدرة الربوبية فليرها فى تربيتك أنت ، والمربَّى يبلغ القمة فى التربية إنْ كان مَنْ ربَّاه عظيماً.

فـ (ربه) الذى رباه لن يتخلَّى عنه ولن يخذله ، ونجد هذا نفسه فى دعاء يوسف عليه السلام والتجائه إلى ربه واعتصامه به ، فقال : ﴿ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ .. (٣٣) ﴾ [يوسف]

---

(١) أورده الألباني في السلسلة الضعيفة (١/١٧٢) وقال : ضعيف . قال ابن تيمية في (مجموعة الرسائل الكبرى) (٢/٣٣٦) : معناه صحيح ولكن لا يُعرف له إسناد ثابت وأيده السخاوي والسيوطى . انظر كشف الخفاء للعجلوني (١/٧٠) .

فدعا يوسف ربه باسم الربوبية اعترافاً بفضله سبحانه ، لأنه هو جلَّ جلاله مَنْ ربَّاه وتعهَّده ، وهو هنا يدعوه باسم الربوبية ألاَّ يتخلى عنه فى هذا الموقف.

فالربّ هو الذى يتولّى التربية والإعطاء ، بينما مطلوب (الله) هو العبودية والتكاليف ، لذلك ينادى المؤمن ربه فى الموقف الصعب (ياربنا) أى يا مَنْ خلقتنا وتتولَّانا وتمدّنا بالأسباب .

وقد قالت السيدة عائشة لرسول الله : « يا رسول الله ، ما أرى ربك إلا يسارع فى هواك »[1] . فقال لها ﷺ : وأنتِ يا عائشة لو اتقيتِ الله لسارع فى هواك »

فالله يسارع فى هواى لأننى سارعت فى هواه ، طلب منى فأديت ، لذلك يلبى لى ما أريد من قبل أنْ أطلب منه .

والحق سبحانه هنا جعل محمداً غائباً عبَّر عنه بضمير الغائب ، فقال ﴿ عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ .. (٥) ﴾ [التحريم] فالحق سبحانه يخاطب أزواج رسول الله مدافعاً عنه ، فرسول الله لم يخطيء معهن فى شيء .

فحقُّه أنْ يأكل ما شاء عند مَنْ يشاء منهن ، وحقُّه أنْ يقترب ممن شاء من زوجاته فى أيِّ بيت من بيوته ، ولكنه ﷺ تنازل فحرَّم على نفسه شرب العسل، وحرَّم على نفسه مارية أم ولده إبراهيم ، فماذا تريدون أكثر من هذا ؟

لذلك كان الخطاب هنا لأزواج رسول الله ، إنه سبحانه يضعهن أمام حقيقة أنه ربُّ محمد وأنه لن يتخلَّى عنه ، فهو كما قال سبحانه : ﴿ إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللهَ هُوَ مَوْلاَهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلاَئِكَةُ

---

(١) عن عائشة رضي الله عنها قالت : كنت أغار على اللاتي وهبن أنفسهن لرسول الله ﷺ وأقول : أتهب المرأة نفسها ؟ فلما أنزل الله تعالى : ﴿ تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ .. (٥١) ﴾ [الأحزاب] قلت : ما أرى ربك إلا يسارع في هواك . [أخرجه البخاري في صحيحه (٤٧٨٨)] قال النووي : معناه يخفف عنك ويوسع عليك في الأمور ولهذا خيَّرك .

بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ (٤) ﴾ [التحريم]

وقد قلنا إن ﴿ صَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ .. (٤) ﴾ [التحريم] هما أبو بكر وعمر ، وقد حدث أن قال عمر : بلغني عن بعض أمهاتنا أمهات المؤمنين شدة على رسول الله ﷺ وأذاهنَّ إياه ، فاستقريتهن امرأةً امرأةً ، أعظها وأنهاها عن أذى رسول الله وأقول : إنْ أبيتُنّ أبدَله الله خيراً منكن .

حتى أتيتُ على زينب فقالت : يا ابن الخطاب أما في رسول الله ما يعظ نساءه حتى تعظهن أنت ؟ فأنزل الله ﴿ عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ .. (٥) ﴾ [التحريم][1]

إذن : فالإبدال هنا سيكون بطلاقهن ولكنه مشروطٌ بطلاق رسول الله لأزواجه ﴿ إِن طَلَّقَكُنَّ .. (٥) ﴾ [التحريم] ، لذلك كانت (عسى) هنا لا تعنى وجوبَ وقوع الإبدال ، لأنه مشروطٌ بشرط تطليقه لهنَّ وهو ما لم يحدث . والأمر لم يتعدّ تخويفهن ونصيحتهن .

فإنْ طلقهنَّ رسول الله فسيُبدله أزواجاً ، أول صفة لهنَّ الإسلام لله في كلٍّ ما يأمر به ، وثانيها الإيمانُ بالله ورسوله . أي فيهما ما عندكم وأكثر ، فإسلامهن وإيمانهن لن يكونا قولاً فقط .

أما قوله تعالى : ﴿ قَانِتَاتٍ .. (٥) ﴾ [التحريم] القنوت هو دوام الطاعة لله سبحانه ، ومنه قنوتُ الفجر الذي نقنته ، وندعو ونقف مدة أطول في الصلاة التي فيها قنوت .

والمرأة القانتة خاضعةٌ لله ، لذلك فهي امرأة صالحة ، لذلك قال تعالى في آية أخرى : ﴿ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ .. (٣٤) ﴾ [النساء] فالمرأة الصالحة هي التي

---

(١) أخرجه أحمد بن حنبل في (فضائل الصحابة) (٤٣٤ ، ٤٩٥) عن أنس بن مالك رضي الله عنه . ومعنى استقريتهن أي مررت بهن واحدة واحدة . قال الأزهري في تهذيب اللغة (٩/٢٠٧) : « الإنسان يقتري أرضاً ويستقريها إذا سار فيها ينظر حالها وأمرها . وقال بعضهم : ما زلت أستقري هذه الأرض قرية قرية » .

استقامتْ على المنهج الذى وضعه لها مَنْ خلقها فى نوعها .

والقنوتُ هو عبادةٌ مع خشوع وخضوع واستدامة ، فالقنوت هو العبادة الخالصة لله الخاضعة الخاشعة .

والحق سبحانه يخاطبهنَّ : ﴿ يَـٰنِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (٣٠) ﴾ [الأحزاب] ثم يقول: ﴿ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا .. (٣١) ﴾ [الأحزاب]

ومعنى ﴿ وَمَن يَقْنُتْ .. (٣١) ﴾ [الأحزاب] أى : بالغ فى الصلاح والورع حتى وصل إلى درجة الخضوع ، وهو الخضوع والخشوع ، فالقنوت خضوعٌ تام وكاملٌ لله وتخشُّع وتذلّل لله فى دعائه .

ويقول تعالى : ﴿ يَـٰمَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ .. (٤٣) ﴾ [آل عمران] أى : بالغى فى الخشوع والخضوع لله بوضع الجبهة التى هى أشرف شيء فى الإنسان على الأرض ، لأن السجود هو أعلى مرتبةً من الخضوع .

والله لا يريد قوالب تعبده بل يريد قلوباً قانتة خاشعة ، فالذى يُقبل على طاعة الله ثم ينصرف عنها كأنه قد جرَّب وُدَّه لله ، فلم يجد الله أهلاً للود .

أما العبد الطائع القانت فلا ينصرف عن العبادة لأنه ذاق حلاوة استدامة العبادة لله ، وما دام قد أدرك حلاوة العبادة فهو يقبل عليها بخشوع واطمئنان واستدامة ويدخل فى دائرة القانتين .

فالله يُوجههنَّ لما هو أوْلَى بهنَّ وأليق وأجدر بأنْ يجتَهدْنَ لله فى الطاعة .

ثم إنهن سيكُنَّ ﴿ تَائِبَاتٍ .. (٥) ﴾ [التحريم] والتوبة تقتضى عزماً على ألاَّ تُنشئوا ذنوباً جديدة ، والله يفتح لنا أبواب التوبة باباً بعد آخر ، ونعصى فلا يأخذنا بذنوبنا ولا يحرمنا من نعمه ، ولا يُهلكنا بما فعلنا .

فمن رحمة الله سبحانه أنه شرع لنا التوبة ليرحمنا من شراسة الأذى والمعصية، ورسول الله ﷺ : « كلُّ بنى آدم خطَّاء ، وخَيْر الخطائين التوابون »[١].

ولو لم يشرع الله التوبة ولو لم يُبشِّرنا بأنه سيقبلها لكان الذى يذنب ذنباً واحداً لا يرجع عن المعصية أبداً وكان العالم كله سيعانى .

والله يحبُّ التوابين توبة نصوحاً صادقة خالصة لا رجوعَ فيها ، وهذه التوبة تتسم بالإقلاع عن الذنب والندم على ما فات ، والعزم على عدم العودة للذنب مرة أخرى .

وقد قال ﷺ : « إنَّ الله يبسط يده بالليل ليتوب مُسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوبَ مُسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها »[٢].

فـ ﴿ تَائِبَات .. (٥) ﴾ [التحريم] أى : من ذنوبهن راجعاتٍ إلى أمر رسول الله تاركات لما تحبه أنفسهن ؛ إنْ كان مكروهاً لرسول الله .

﴿ عَابِدَات .. (٥) ﴾ [التحريم] وتلك صفة أخرى وإنْ كانت مُتضمَّنة فى وصفهن بـ ﴿ قَانِتَات .. (٥) ﴾ [التحريم]، ولكن الله يؤكد عليها هنا ، وهذا دليلُ أن العبادة ليست فقطً أداءَ الصلاة والصيام والخشوع والخضوع فى أثناء العبادات .

ولكنَّ العبادة هى طاعةُ المعبود فى (افعل) و (لاتفعل) فـ (عابدات) هنا معناها طائعات لأمر الآمر وممتثلات لنهْى الناهى ، فالله هو الإله المعبود فى كونه ، ومعنى معبود أنه يُطاع فيما يأمر به ولا نُقدِم على ما نهى عنه .

والحق سبحانه يقول ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ .. (٥٦) ﴾ [الذاريات]

---

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه (٤٢٥١) والبزار في مسنده (٧٢٣٦) وأبو يعلي في مسنده (٢٩٢٢) والحاكم في مستدركه (٧٦١٧) وصحح إسناده ، وقد ليَّن الذهبي علي بن مسعدة . والدارمي في سننه (٢٧٢٧) والبيهقى في شعب الإيمان (٦٧٢٥) .

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٧١٦٥) وأحمد في مسنده (١٩٥٤٧ ، ١٩٦٣٥) وكذا البزار في مسنده (٣٠٢١) والطيالسي في مسنده (٤٩٢) من حديث أبي موسى الأشعرى .

فعلّة الخَلْق هى العبادة ، ولكن هل العبادة هى الجلوس فى المساجد والتسبيح ، أو أنها منهجٌ يشمل الحياة كلَّها فى بيتك وفى عملك وفى السعى فى الأرض ؟

فالعبادة هى طاعةُ أوامر الله واجتناب نواهيه ، فما قال لى الله : افعل فإنِّى أفعل . وما قال : لا تفعل . فإننى لا أفعل لأن العبادة هى طاعةُ مخلوقٍ لخالقه فى أوامره ونواهيه .

والله عز وجل يقول : ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللهِ .. (٥٣) ﴾ [الأحزاب] ، فهناك نهى عن إيذاء رسول الله ، فإنْ طلقكنَّ رسول الله فسأبدله بأخريات يكُنَّ عابدات لله يمتثلْنَ أمر الله فى أنْ لا يُؤذِين رسول الله ، وأنْ يخترْنَ ما يختاره ﷺ ويُسارعن فى مَحابِّه .

ثم يذكر الحق سبحانه صفة أخرى ، وهى قوله تعالى : ﴿ سَائِحَاتٍ .. (٥) ﴾ [التحريم] والسائح هو مَنْ ترك المكان الذى هو موطن له ، فيه بيتـه وأهلَه وأولاده وأُنْس بالناس ، ثم يسيح إلى مكان ليس له فيه شيء ، بل قد يتعرض فيه للمخاطر .

فالسياحة هى السير المستوعب سيْرَ اعتبار لينظر فى ملكوت السماوات والأرض ، وليستنبط من آيات الله ما يدل على تأكيد إيمانه بربه ، ومنه سير استثمار بأنْ يضربَ فى الأرض ليبتغيَ من فضل الله .

وسياحة الاعتبار هى أمر مشترك بين الرجل والمرأة ، بدليل أنَّ الله قال ذلك فى وصف النساء : ﴿ عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ .. (٥) ﴾ [التحريم]

إذن ﴿ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ .. (٥) ﴾ [التحريم] هنا مقصود بها سياحة اعتبار ، أو تكون السياحة التى تكون فيها الزوجة فى صُحْبة زوجها الذى يضرب فى الأرض .

والسياحة أيضاً تُطلق على الصيام ، لأن السياحة تُخرجك عما ألفْتَ من إقامة فى وطن ومال وأهل ، والصيام يُخرجك عمّا ألفْتَ من طعام وشراب

وشهوة . إذن : القدر المشترك بين الرجال والنساء هو فى سياحة الاعتبار وسياحة الصوم .

وقد حدث أنْ أراد رسول الله ﷺ أنْ يُطلِّق حفصة ، فجاء جبريل فقال : لا تُطلقها فإنها صوَّامة قوَّامة وإنها زوجتك فى الجنة[١].

حتى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه بلَغَه هذا ، فوضع التراب على رأسه ، فقال : ما يعبأ الله بك يا ابْنَ الخطاب بعدها ، فنزل جبريل على النبى ﷺ فقال: إنَّ الله يأمرك أنْ تُراجع حفصة رحمةً لعمر .

وعمر بن الخطاب يروى لنا هذا الموقف فيقول : لما اعتزل رسول الله نساءه دخلتُ المسجد ، فإذا الناسُ ينكتون بالحصى ويقولون : طلَّق رسولُ الله نساءه، وذلك قبل أنْ يُؤمر بالحجاب .

فدخلتُ على عائشة فقلت : يابنت أبى بكر ، أقد بلغ من شأنك أنْ تُؤذى رسول الله ؟ قالت : مالى ولكَ ياابن الخطاب .

فدخلتُ على حفصة ، فقلت لها : يا حفصة أقد بلغ من شأنك أنْ تُؤذى رسول الله ؟ والله لقد علمتُ أن رسول الله لا يحبك ، ولولا أنا لطلّقك رسول الله ، فبكتْ أشد البكاء .

فقلتُ لها : أين رسول الله ؟ قالت : هو فى خزانته فى المشْرُبة[٢] . فدخلتُ فإذا أنا برباح مولى رسول الله قاعداً على أسكفة[٣] المشربة مُدلياً رجله على نقير من خشب وهو جذْع يرقى عليه رسول الله وينحدر .

---

(١) أخرجه البزار في مسنده (١٤٠١) والطبراني في المعجم الكبير (١٨٨٢٧) وأبو بكر الشيباني في (الآحاد والمثاني) (٣٠٥٢) وأبو نعيم الأصبهاني في معرفة الصحابة (٦٧٧٠) وكذا في حلية الأولياء (٢/ ٥٠) من حديث عمار بن ياسر .

(٢) المشربة : الغرفة . قال ابن منظور في لسان العرب : قيل للغرفة المشربة لأنهم كانوا يشربون فيها وهي مشاربهم . (مادة شرب) . والخزانة : المخدع ، والمخدع هو البيت الصغير الذي يكون داخل البيت الكبير .

(٣) أسكفة الباب : عتبة الباب فالأسكفة العتبة للباب وللغرفة وهي هنا أسكفة المشربة أي عتبة الغرفة . وقال النضر : أسكفة الباب عتبتها التي تُوطأ .

فاستأذن عمر على رسول الله ثلاث مرات ، وفى الآخرة قال عمر : يا رباح استئذنْ لي عندك على رسول الله بضرب عنقها لأضربنَّ عنقها ، ورفعتُ صوتى فأومأ إليَّ بيده أنْ أرقِهْ ، فدخلتُ على رسول الله وهو مضطجع على حصير ودخلتُ عليه حين دخلتُ ، وأنا أرى فى وجهه الغضب فقلت :

يا رسول الله ما يشق عليك من شأن النساء ، فإنْ كنتَ طلقتهنَّ فإن الله تعالى معك وملائكته وجبريل وميكائيل وأنا وأبو بكر والمؤمنون معك .

وقلَّما تكلمت وأحمد الله بكلام إلا رجوتُ أنْ يكون الله يُصدِّق قولى الذى أقوله، ونزلت هذه الآية : ﴿ عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ .. (٥) ﴾ [التحريم] ﴿ وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللهَ هُوَ مَوْلاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ (٤) ﴾ [التحريم] وكانت عائشة بنت أبى بكر وحفصة تظاهران على سائر نساء النبى ، فقلتُ : يارسول الله أطلقتهن ؟ قال : لا . قلت :

يا رسول الله إنِّى دخلتُ المسجد والمؤمنون ينكتون الحصى ويقولون : طلَّق رسولُ الله نساءه ، أفأنزل فأخبرهم أنك لم تُطلقهنَّ . قال : نعم إنْ شئتَ . ثم لم أزلْ أُحدِّثه حتى تحسَّر الغضب عن وجهه وحتى كشَّر وضحك ، وكان من أحسن الناس ثَغْراً[١].

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا .. (٥) ﴾ [التحريم] ، وإذا كانت الصفات الستّ السابقة تتعلّق بصفاتٍ تخصُّ الإسلام والإيمان والقنوت والتوبة والعبادة والسياحة ، سواء كانت للاعتبار أو الاستثمار أو كانت الصيام ، فإنها كلّها صفاتٌ معنوية .

والله سبحانه يخاطب فى الآية نساءً منهن نساء تشتدّ عندهن الغيرة على

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٣٧٦٤) وابن حبان في صحيحه (٤١٨٨) والبزار في مسنده (١٩٥) وأبو يعلى في مسنده (١٦٤) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه . والثغر : ما تقدم من الأسنان [الصحاح في اللغة] والثغر : الفم . وقيل : هو اسم للأسنان كلها ما دامت في منابتها . [المحكم لابن سيده] .

رسول الله ، إنه سبحانه يريد أنْ يقضى على هذه الغيرة ، فإنْ كان منكنَّ ثيِّبات وأبكار ، فإن الله قادر على أنْ يُبدِّلكُنَّ ويأتى لرسول الله بنساء أخريات ثيِّبات، وليس ثيبات فقط بل وأبكاراً أيضاً .

والثيِّبات جمع ثيِّب ، وهى المرأة التى سبق لها الزواج سواء كانت مطلّقةً أو أرملة ، وسُمِّيت ثيِّباً لأنها تثوب إلى زوجها أى ترجع إليه أو تثوب وترجع إلى غيره إنْ فارقها بالطلاق أو بالموت ، حينها تثوب وترجع إلى بيت أبويْها .

أما الأبكار فهى جمع بِكْر التى بقيتْ على عُذريتها ، وهاتان الصفتان الثيبات والأبكار لا تجتمعان فى امرأة واحدة ، لذلك استخدم الحق سبحانه (الواو) بينهما ، فقال تعالى : ﴿ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا .. (٥) ﴾ [التحريم]

أما الصفات الستّ الأولى فقد تجتمع فى إنسان واحد رجلاً كان أو امرأة ، لذلك لم يستخدم الحق سبحانه (الواو) ، فقد تجد امرأة مسلمة مؤمنة قانتة تائبة عابدة سائحة صائمة فى وقت واحد .

والآية تحتمل أنها تشير إلى عائشة رضى الله عنها وحفصة رضى الله عنها، فالله يقول : ﴿ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا .. (٥) ﴾ [التحريم] ، وقد كانت حفصة ثيباً عندما تزوجها رسول الله .

أما عائشة فكانت بكْراً حينما تزوجها رسول الله ، بل إنها كانت رضى الله عنها تفتخر بهذا من بين النساء اللاتى تزوجهن رسول الله ، حتى أنها سألتْ رسول الله يوماً ، فقالت :

يارسول الله ، أرأيتَ لو نزلتَ وادياً وفيه شجرةٌ قد أُكل منها ، ووجدتَ شجراً لم يُؤكل منها ، فى أيِّها كنتَ تُرتع بعيرك . قال : فى الذى لم يُرتع منها[1] ، تعنى أن رسول الله لم يتزوج بكْراً غيرها .

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٥٠٧٧) وابن حبان في صحيحه (٤٣٣١) من حديث عائشة رضي الله عنها .

وقد يقول قائل : وإنْ كان رسول الله يميل إلى أنْ يُرتع بعيره فى الشجرة التى يُرتع فيها ، فما الفضيلة فى أنْ يعده الله بـ ﴿ ثَيِّبَاتٍ .. (٥) ﴾ [التحريم]

خاصة أنه ﷺ قد قال لجابر بن عبد الله وقدتزوج : هل تزوجتَ بكراً أم ثيباً؟ فقال : تزوجت ثيباً . فقال ﷺ : هلاَّ تزوجتَ بكراً تلاعبها وتلاعبك[١] .

ولكن للثيِّب فى الحياة العملية فوائد ، ذكرها جابر فى سبب تفضيله للثيب على البكْر ، فقال : يا رسول الله تُوفى والدى ولى أخواتٌ صغار ، فكرهتُ أنْ أتزوَّج مثلهن فلا تُؤدِّبهن ولا تقوم عليهنَّ ، فتزوجت ثيباً لتقوم عليهنّ وتُؤدِّبهنّ[٢] .

وقد كان لجابر بن عبد الله تسع بنات صغيرات أخوات تركهنَّ له أبوه عبد الله بن حرام[٣] ، فأراد أنْ يتزوَّج ثيباً ترعاهن وتقوم على أمورهن .

وهذا المعنى لم يغبْ عن رسول الله ، ولكنه ﷺ أراد أنْ يُسرِّى عن جابر بعد وفاة أبيه .

فقوله تعالى (ثيبات) دليل أنه كان يقصد حفصة رضى الله عنها ، وأنه كما له زوجات ثيِّبات فى الدنيا سنُبدله ثيِّبات أيضاً ، وكذلك أبكاراً ، ولكن ﴿ خَيْرًا مِنْكُنَّ .. (٥) ﴾ [التحريم]

ولا شيءَ أشدّ وأقسى على المرأة من الطلاق والعزم على التزوج بزوجة أخرى ، فذلك قاصم لظهر المرأة مُؤرِّق لبالها ، لذلك كان هذا التهديدُ تهديداً غاية فى الشدة .

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٢٩٦٧ – ٥٢٤٧) ، وكذا مسلم في صحيحه (٣٧٠٩) من حديث جابر ابن عبد الله . وفي لفظ مسلم زيادة : « قلت يا رسول الله إن لي أخوات فخشيت أن تدخل بيني وبينهن. قال : فذاك إذاً ، إن المرأة تنكح على دينها ومالها وجمالها فعليك بذات الدين تربت يداك » .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه مطولاً (٢٩٦٧) وكذا مسلم في صحيحه (٤١٨٤) وأبو عوانة في مستخرجه (٣٩٢٤) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه .

(٣) عبد الله بن حرام بن ثعلبة أبو جابر الأنصاري الخزرجي صحابي من أجلائهم كان أحد النقباء الاثنى عشر شهد العقبة مع السبعين من الأنصار وبدراً وقُتِل يوم أحد عام ٣ هجرية .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ٦ ﴾

الحق سبحانه هنا يخاطب الذين آمنوا ، أى : يا أيها الذين آمنتم بالله إلهاً ودخلتم معه فى عقد إيمانى .

فالحق سبحانه ساعةَ يخاطب الناس جميعاً فهو يلفتهم إلى قضية الإيمان، ولكن حين يخاطب المؤمنين فهو يعطيهم أحكام الإيمان ، فالله لا يكلف بحكم إلا مَنْ آمن به ، أما مَنْ لم يؤمن به فلا يُكلِّفه بأيِّ حكم لأن الإيمانَ التزام ، وما دُمت قد التزمتَ بأنه إلهٌ حكيم فخُذْ منه أحكام دينك .

والمؤمنون يأخذون خطاب الحق لهم ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا .. (٦) ﴾ [التحريم] بمقياس المحبة لكلِّ ما يأتى منه سبحانه من تكليف ، حتى وإنْ كان فيه مشقة ، سواء كان صياماً أو قتالاً فى سبيل الله .

ففى الصيام قال تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٨٣) ﴾ [البقرة]

فالصيام نوعٌ من الإمساك ، وهو فى الإسلام صومٌ عن شهوتَيْ البطن والفَرْج منْ الفجر وحتى الغروب ، إنه إمساكٌ مطلق عن الطعام والشراب ونكاح النساء خلال هذه المدة الزمنية من اليوم لمدة شهر كامل .

ولا شكَّ أن الصيامَ تكليفٌ شاق ، ولكن المؤمن لأنه مؤمن يفرح به وينتظره من العام للعام .

والحق سبحانه يقول فى آية أخرى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى (١٧٨) ﴾ [البقرة]

فالقصاص قد يكون قاسياً ولكن المؤمنين يتقبَّلونه ، لأن فيه صلاحَ المجتمع ورَدْعِ المجرمين ، لذلك قال تعالى فى الآية بعدها : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَـٰأُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧٩) ﴾ [البقرة]

فالمؤمنون بالله يؤمنون أنّ تشريعه دقيقٌ ومحكمٌ يأتى بواجبات وبحقوق، فلا واجبَ بغير حَقٍّ ، ولا حقَّ بغير واجب ، وحتى نعرف سُمو التشريع مطلوبٌ من كلِّ مؤمن أنْ ينظر إلى ما يجب عليه من تكاليفه ويقرنه بما له من حقوق ، ولسوف يكتشف المؤمنُ أنه فى ضوء منهج الله قد نال مطلق العدالة .

وهنا يقول الحقّ سبحانه : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا .. (٦) ﴾ [التحريم] أى : اعملوا بينكم وبين النارِ وقايةً ، واحترسوا من أنْ تقعوا فيها ، فالوقاية هى الاحتراس والبُعْد عن الشر .

ولا يُطلب منك أنْ تجعلِ وقايةً بينكِ وبين شيء إلا إنْ كنتَ لا تتحمل هذا الشيء ، فمعنى : ﴿ قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا .. (٦) ﴾ [التحريم] أى : اجعلوا بينكم وبين النار حاجزاً .

والحق سبحانه هو الذى سوَّى النفس البشرية بعظمته ، ففى الذات الواحدة آمرٌ ومأمورٌ ، فالإنسان يقى نفسه بأنْ يجعل الآمر يُوجِّه الأمر للمأمور ، ويجعل المأمور يطيع الآمر .

فأنت مطلوبٌ منك أنْ تقى نفسك مواردَ الهلاك فتأمرها وتنهاها ، ومثال هذا قوله تعالى عن قابيل : ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ.. (٣٠) ﴾ [المائدة]

وهذا معناه أنَّ جزءاً من الذات هو الذى طوَّع بقية ذات قابيل لتقتل هابيل، فقد خلق الله النفسَ البشرية كملكات متعددة ، ملكة تحب الأريحية وأخرى تحب الشّح ، والملَكة التى تحب الأريحية إنما تطلب ثناء الناس ، والتى تحب

الشح إنما تفعل ذلك ليطمئنَ صاحبُها أنه يملك ما يُغنيه .

وكلتا الملكتين تتصارعان فى النفس الواحدة ، لذلك يقول الحق سبحانه: ﴿ قُوا أَنْفُسَكُمْ .. (٦) ﴾ [التحريم] ، فالنفس تقى النفس ، لأن الملكات فيها متعددة.

فبعضُ الملكات تحبُّ تحقيق المتعة والشهوة ، لكن هناك مَلَكة إيمانية تقول: تذكَّر أنَّ هذه الشهوات عاجلة ولكنها عظيمةُ المتاعب فيما بعد ، إذن : فهناك صراعٌ داخل ملكَات الإنسان .

فالنفس البشرية لها ألوانٌ ، فهناك النفسُ اللوامة تصنع شراً مرة فيأتى من داخل النفس ما يستنكر هذا الشر فتعود إلى الخير .

والحق سبحانه وتعالى ساعة ينزل منهجه يجعل فى كلِّ نفس خلية إيمانية، والخلية الإيمانية تستيقظ مرة فتلتزم ، وتغفل مرة ، فتنحرف ، ثم يأتى الاستيقاظ بعد الانحراف فيكون الانتباه .

وهكذا توجد النفس اللوامة ، تلك النفس التى تهمس للإنسان عند الفعل الخاطيء ، أن الله لم يأمر بذلك ، ويعود الإنسان إلى منهج الله تائباً ومستغفراً.

فإنْ لم توجد النفس اللوامة صارت النفسُ أمَّارة بالسوء ، وهى التى تتجه دائماً إلى الانحراف .

وحول النفس الواحدة توجد نفوسٌ متعددة تحاول أنْ تقاوم وتقوّم المعوج، وهى نفوس من البيئة والمجتمع ، فمرَّة يكون الاعتدال والاتجاه إلى الصواب بعد الخطأ قادماً من ذات الإنسان أى من النفس اللوامة ، ومرة لا توجد النفسُ اللوَّامة ، بل توجد النفس الأمّارة بالسوء .

والغفلة عن المنهج إنما تتم على مراحل ، فبعد بلاغ المنهج نجد إنساناً يغفل عن جزئية ما فى هذا المنهج ، وتُنبِّهه نفسه وتلومه على تركه لتلك الجزئية ، ونُسمِّى هذا الموقف بصاحب النفس اللوامة .

إنه يفعل السيئة لكن نفسه تعود إلى اليقظة لمنهج الله ، لأنه يتمتع بوجود خلية المناعة الإيمانية فيه .

وهناك إنسانٌ آخر يستمريء المخالفة للمنهج وتُلح عليه نفسه بالمخالفة ، إنه صاحبُ النفس الأمَّارة بالسوء ، وتتوالى به دواعى ارتكاب السيئات ، ومثل هذا الإنسان يحتاج إلى غيره من خارج نفسه ليلفته إلى الخير .

وقد جعل الله فى النفس الإنسانية نفساً لوَّامة ونفساً تأمر بالسوء ، ونفساً مطمئنة ، إن مهمة النفس اللوامة هى أنْ ترد على كلِّ ما تُوسوس به النفس الأمَّارة بالسوء .

لكن إنْ لم تَلُم النفس اللوامة ، فالنفس الآمرة بالسوء تتمادى ولا يردعها رادعٌ ، أما النفسُ المطمئنة فهى النفس التى تطمئن إلى منهج الله .

ولنعلم أن النفسَ البشرية قد فُطرتْ على محبة الخير ، فإنْ لم يحكمها هواها فهى تفعل الخير وتحبه ، فإنْ حكمها هواها ستر عنها الخير وفتح الهوى للنفس أبوابَ الشر .

وقد يطيع الإنسانُ هواه فى أمر من الأمور ثم يفيق فتلومه نفسه على ما فعل ، هذه هى النفس اللوَّامة التى تلوم صاحبها على الشر وتدفعه إلى الخير.

وإذا وُجدت النفس المطمئنة والنفس اللوامة ، فاعلم أنَّ المجتمع بخير لأن النفسَ المطمئنة تطيع وتأمر بالطاعة ، والنفس اللوَّامة تلوم صاحبها على الشر .

ولكلِّ مؤمن نقطة ضعف ، فإذا ضعف مؤمن يُسرع له أخوه المؤمن ليلومه

على ضعفه ويُصحِّح له مساره .

وإذا كان الإنسانُ مسئولاً عن نفسه ليقى نفسه النار ، فإنَّ الإنسانَ مسئولٌ أيضاً عن أهله ، والأهل هنا تعنى أهلَ بيته من زوجة وأولاد .

وقد سُئِل رسولُ الله ﷺ : كيف نقى أهلنا ناراً ؟ قال : « تأمرونهم بما يحبه الله ، وتنهونهم عمّا يكره الله »[١].

أى : علِّموا أنفسكم وأهليكم الخير ، فعلِّموا بعضكم بعضاً ما تقُون به مَنْ تُعلِّمونه النار وتدفعونها عنه إذا عمل به من طاعة الله واعملوا بطاعة الله .

ورسول الله ﷺ يقول : « ابدأ بنفسك ثم بمَنْ تعول »[٢]فالإنسان يبدأ بنفسه أولاً، ثم إلى القرابة القريبة ، ثم القرابة البعيدة ، ثم على الأباعد .

والإنسانُ مسئولٌ عن أهل بيته ورَاع لهم ، وقد قال رسول الله ﷺ : « كلكم راعٍ ، وكلكم مسئولٌ عن رعيته » .

وأصل المادة مأخوذةٌ من راعى الأغنام ، لأن راعى الغنم لا بدّ أنْ يتجه بها إلى الأماكن التى فيها العُشب والماء ، أى إلى أماكن الرعى ، وأنْ يكون حارساً عليها حتى لا تشردَ واحدةٌ أو تضلّ فتفتك بها ذئاب الصحارى ، وأنْ يُوفِّر لها الراحة حتى لا تتعب وتَنْفَق فى الطريق .

---

(١) أورده السيوطي في الدر المنثور (٥٨٨/١٤) وعزاه لابن مردويه عن زيد بن أسلم مرسلاً . وقال علي ابن أبي طالب : علموا أنفسكم وأهليكم الخير وأدِّبوهم . أخرجه عبد الرزاق والفريابي وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وغيرهم .

(٢) هذان حديثان : الأول : عن جابر بن عبد الله أن رسول الله قال : « ابدأ بنفسك فتصدق عليها ، فإن فضل شيء فلأهلك ، فإن فضل عن أهلك شيء فلذي قرابتك ، فإن فضل عن ذي قرابتك شيء فهكذا وهكذا » . [مسلم في صحيحه ٢٣٦٠] .

أما الحديث الثاني : عن أبي هريرة عن النبي قال : « خير الصدقة ما كان عن ظهر غِنىً وابدأ بمن تعول » . [البخاري في صحيحه ١٤٢٦] .

فالرجل عليه مسئولية نحو أهل بيته ، فـ « الرجل راعٍ على أهل بيته وهو مسئول عنهم ، والمرأة راعية على بيت بعلها وولده وهى مسئولة عنهم ، والعبد راعٍ على مال سيده وهو مسئول عنه ، ألا فكلهم راعٍ وكلهم مسئول عن رعيته »[١].

وقد أعطانا الله مثلاً من أنبيائه وقيامه على أهل بيته ، قال تعالى : ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا (٥٥)﴾ [مريم] فقد كان من خصال إسماعيل عليه السلام العظيمة أنه كان يأمر أهله أى زوجته وأولاده بالصلاة والصدقة .

والحق سبحانه لا يهتم بخصلة ولا يذكرها إلا إنْ كانت كبيرة عنده تساوى كوْن إسماعيل صادقَ الوعد وكوْنه رسولاً ونبياً ، فمَنْ أراد أنْ يتصف بصفة من صفات النبوة فعليه أنْ يأمر أهله بالصلاة والزكاة .

لكن لماذا اختصَّ أهله بالذات ؟ اختصَّ أهله لأنهم البيئة المباشرة التى إنْ صلُحت للرجل صَلُح له بيته وصَلُحت له ذريته ، فالرجل إذا كان يلفت أهله إلى ذِكْر الله والصلاة خمس مرات فى اليوم والليلة فإنه بذلك يسدُّ الطريق على الشيطان ، فليس للشيطان مجالٌ فى بيت يصلى أهلُه الخمسَ صلوات .

لذلك فالنبى ﷺ يقول : « رحم اللهُ امرءاً استيقظ من الليل فصلّى ركعتين ثم أيقظ أهله ، فإنِ امتنعت نضح فى وجهها الماء ، ورحم اللهُ امرأةً قامت من الليل فصلَّت ركعتين ، ثم أيقظتْ زوجها فإنِ امتنع نضحتْ فى وجهه الماء »[٢].

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه مسلم فى صحيحه (٤٨٢٨) والبخارى فى صحيحه (٧١٣٨) عن ابن عمر أن رسول الله قال : « ألا كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ، فالإمام الذى على الناس راع وهو مسئول عن رعيته ، والرجل راع على أهل بيته وهو مسئول عن رعيته ، والمرأة راعية على أهلَ بيت زوجها وولده وهى مسئولة عنهم ، وعبد الرجل راع على مال سيده وهو مسئول عنه ، ألا فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » .

(٢) أخرجه أبو داود فى سننه (١٣١٠ ، ١٤٥٢) ، والنسائى فى سننه (١٦١٠) وأحمد فى مسنده (٧٤٠٤، ٩٦٢٥) ، والبزار فى مسنده (٨٥٠٢) والنسائى فى سننه (١٣٠٢) والحاكم فى مستدركه (١١٦٤) وصححه على شرط مسلم . كلهم من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

فكلُّ رجل وكلُّ امرأة يستطيع فى كلِّ ليلة أنْ يكون رسولاً لأهله ولبيئته يقوم فيها بمهمة الرسول .

ويقول الحق سبحانه فى موضع آخر : ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى (١٣٢)﴾ [طه]

وقد شرح لنا النبيُّ ﷺ هذه القضية ، فقال : « مُروا أولادكم بالصلاة لسبع، واضربوهم عليها لعشر »[١].

وهذا التكليف وإنْ كان فى ظاهره من الأهل لأولادهم ، إلا أنه فى حقيقته من الله تعالى فهو الآمرُ للجميع ، ولكن أراد الحقّ سبحانه أنْ يكون التكليفُ الأول فى هذه السنِّ من القريب المباشر المُحسّ أمام الطفل .

فأبوه هو صاحبُ النعمة المُحسَّة حيث يُوفِّر لولده الطعام والشراب وكلّ متطلبات حياته ، فإذا ما كلَّفه أبوه كان أدعى إلى الانصياع والطاعة لأن الولد فى هذه السنِّ المبكرة لا تتسع مداركه لمعرفة المنعم الحقيقى . وهو الله تعالى .

لذلك أمر الأب أن يُعوِّد ولده على تحمُّل التكليف ، وأنْ يعاقبه إن قصَّر ، لأن الآمر بالفعل هو الذى يعاقب على الإهمال فيه ، حتى إذا بلغ الولدُ سنَّ التكليفِ الحقيقى من المنعم الأعلى سبحانه كان عند الولد أُنْسٌ بالتكليف وتعوّد عليه، وبذلك يأتى التكليف الإلهى خفيفاً على النفس مألوفاً عندها .

ولاحظ أنَّ الحق سبحانه يقول : ﴿وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا .. (١٣٢)﴾ [طه] فالمسألة هنا لا تقتصر على مجرد الأمر وتنتهى مسئولية الأب أو الأم عند هذا الحد ، إنما ﴿وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا .. (١٣٢)﴾ [طه] ، وفرْقٌ بين اصبر واصطبر .

اصبر الفعل العادى ، أما اصطبر ففيها مبالغة أى تكلَّف حتى الصبر وتعمده ، ومن

---

(١) عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال قال رسول الله ﷺ : « مروا أبناءكم بالصلاة لسبع سنين ، واضربوهم عليها لعشر سنين ، وفرِّقوا بينهم فى المضاجع » . أخرجه أحمد فى مسنده (٦٧٥٦) . وحسَّن شعيب الأرناؤوط سنده . وأخرجه أبو داود فى سننه (٤٩٥) ولفظه : « وهم أبناء سبع سنين .. وهم أبناء عشر سنين » .

ذلك أنْ تحرص على أداء الصلاة أمام أولادك لترسخ فى أذهانهم أهمية الصلاة .

فمثلاً عندما تدخل بيتك فتجد الطعام قد حضر ، فتقول لأولادك : انتظرونى دقائق حتى أصلى ، هنا يلتفت الأولاد إلى أنَّ الصلاة أهمّ حتى من الطعام وتغرس فى نفوسهم مهابة التكليف واحترام فريضة الصلاة والحرص على تقديمها على أيِّ عمل مهما كان .

وكان سيدنا عمر رضى الله عنه يقوم من الليل يصلى ما شاء الله له أنْ يصلّى حتى يُؤذَّن للفجر ، فيُوقظ أهله للصلاة فإنْ أبَوْا رشّ فى وجوههم الماء.

وعليك أنْ تعوِّد أولادك احترامَ نداء الله أكبر ، فبمجرد أنْ يسمعوا الله أكبر يُلبُّون النداء ، ولا يُقدمون عليه شيئاً آخر ، فالله لا يبارك فى عمل ألهاك عن نداء (الله أكبر) .

إذن : ﴿ قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ .. (٦) ﴾ [التحريم] من أى شيء سنقى أنفسنا ونقى أهلينا ﴿ قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ .. (٦) ﴾ [التحريم]

ويقول تعالى فى آية أخرى ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ .. (٢٤) ﴾ [البقرة] ، فالناس والحجارة سيكونان بمثابة الوقود الذى يشعل النار بل يزيدها اشتعالاً ، وسيكونان بمثابة حطب جهنم .

ويقول تعالى : ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ [1] جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ (٩٨) ﴾ [الأنبياء]

فـ ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ .. (٩٨) ﴾ [الأنبياء] هو كل ما تُوقد به النار أياً كان خشباً أو قشاً أو بترولاً أو كهرباء ، فما بالك لو كان حطب جهنم هو من الناس أنفسهم ممَّنْ كفروا بالله .

والنار تشتاق إلى الكفار وتنتظرهم وتتلهف عليهم كما يقول تعالى : ﴿يَوْمَ

---

(١) حصب جهنم : كل ما يُرمى به فيها . قال ابن قتيبة : الحصب ما أُلقى فيها وأصله من الحصباء وهو الحصى ، يقال : حصبت فلاناً إذا رميته . [زاد المسير لابن الجوزى ٤/٣٦١] .

نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ (٣٠) ﴾ [ق] ، ويقول تعالى : ﴿ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ (٧) ﴾ [الملك]

فالكافرون سيُلقى بهم فى النار فتزداد اشتعالاً فيكون لها صوتٌ عظيم ، ولها شهيقٌ يخطف القلوب وكأنها (تشفط) ما يُلقى فيها وهى تفور .

وقد رُوى أنه لما نزلتْ هذه الآية ﴿ وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ .. (٦) ﴾ [التحريم] قرأها النبى ﷺ فسمعها شاب إلى جنبه فصُعِق ، فجعل رسولُ الله رأسه فى حِجْره رحمةً له ، فمكث ما شاء الله أنْ يمكث ، ثم فتح عينيه فإذا رأسُه فى حِجْر رسول الله فقال :

بأبى أنت وأمى مثل أيّ شيء الحجر ؟ فقال : أما يكفيك ما أصابك على أن الحجر منها لو وُضع على جبال الدنيا لذابتْ منه[1].

هذه النار يقف على أمرها ملائكة وهم خَزَنة جهنم ، وهم ﴿ غِلَاظٌ شِدَادٌ .. (٦) ﴾ [التحريم]

والغِلاظ جمع غليظ وهو القويّ البنْية عظيمها ، ما بين منكبى أحدهم مسيرة عام[2] ، وهم أيضاً غلاظُ القوْل على الكافرين ، فهم غِلاظ على أهل النار شداد عليهم .

فهم غِلاظُ القلوب لا يرحمون إذا استرحمهم الكافرون ، فطباعهم غليظةٌ قد نزعتْ من قلوبهم الرحمة بالكافرين بالله ، فهم جُفاة قُساة شداد الأيدى إذا بطشوا .

قد نزعت من قلوبهم الرحمة بالكافرين بالله رغم أنهم ملائكة ، يقول الحق

---

(١) أورده المنذرى فى الترغيب والترهيب ، وضعَّفه الألبانى فى ضعيف الترغيب (٢١٥٢) وهو عن محمد بن هاشم ، وتمامه : وإن مع كل إنسان منهم حجراً وشيطاناً . وأورده السيوطى فى الدر المنثور (٥٨٩/١٤) وعزاه لابن أبى الدنيا وابن قدامة فى كتاب البكاء والرقة .

(٢) قال ابن عباس : خزنة النار تسعة عشر ، ما بين منكبى أحدهم مسيرة سنة . [زاد المسير لابن الجوزى ٤٨/٦] .

سبحانه : ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا.. (٣١)﴾ [المدثر]

وهم تسعة عشر كما قال تعالى ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ (٣٠)﴾ [المدثر] وهم غلاظ شداد فى ردودهم على كلام أهل النار لهم ، وقد قال تعالى : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ (٤٩)﴾ [غافر]

فردُّوا عليهم رداً موئساً لهم ﴿قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (٥٠)﴾ [غافر]

بل إنهم يطلبون القضاء عليهم ليستريحوا من العذاب ، واقرأ قول الحق سبحانه : ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ (٧٧)﴾ [الزخرف]

ورُوى عن رسول الله أن الله حينما يُدخل أهلَ الجنة الجنةَ ، ويُدخل أهلَ النارِ النارَ يأتى بالموت على هيئة كبش فيقول للمؤمنين : أتعرفون هذا ؟ قالوا : نعم هو الموت جاءنا وعرفناه . ويقول للكفار : أتعرفون هذا ؟ يقولون : عرفناه فيميت الله الموت . ويقول لأهل الجنة : خلود بلا موت . ولأهل النار : خلود بلا موت[١] .

فأهلُ النار يتمنون الموت لأن الموتَ سيُريحهم من العذاب ، وفرْق بين عذاب وموت ، فالموتُ إنهاءٌ للحياة ، وليس بعد الموت إيلام، أما العذاب فلا ينشأ إلا مع الحياة لأنه إيلامُ حَيٍّ .

ولك أنْ تتصوَّر بشاعة العذاب الذى يجعل صاحبه يتمنى الموت ويدعو به لنفسه، يقول تعالى : ﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ[٢] دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا (١٣)

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٧٣٠) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٧٣٦٠) من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه .

(٢) ضيقاً مقرنين : قال المفسرون : تضيق عليهم كما يضيق الزج على الرمح ، وهم قد قُرنوا مع الشياطين. [زاد المسير ٤/٤٦٦] . قال البغوى (٦/٧٥) (مقرنين) : مصفدين قد قرنت أيديهم إلى أعناقهم فى الأغلال . وقيل : مقرنين مع الشياطين فى السلاسل .

لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا (١٤)﴾ [الفرقان]

وهذا على حدِّ قوْل الشاعر[١]:

كَفَى بِكَ دَاءً أَنْ تَرَى الموْتَ شَافِياً وَحَسْبُ المنَايَا أَنْ يكُنَّ أَمَانِيَا[٢]

ويصف الحق سبحانه الملائكة عموماً وخزنة جهنم خاصة أنهم : ﴿ لَا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٦)﴾ [التحريم]

فالملائكة طبيعة خِلْقتهم أنهم لا يعصُونَ الله أمراً ويفعلُون ما يأمرهم به، ولا يحيدون عن أمره أبداً ، فلا تظنُّوا أنَّ خازناً من خُزَّان جهنم سيميل مع أهوائكم ويُخرجكم من النار مثلاً ، لا؛ إنهم مجبولون على تنفيذ أوامر الله ومفطورون على عدم معصية الله .

لذلك جعل اللهُ خزنةَ جهنم من الملائكة ، وهم من نور ولا تصيبهم الأغيار ولا شهوةَ لهم ، فلا يتناكحون ولا يتناسلون ، وهم أقرب إلى الصفاء ، فهم خَلْق جُبِلُوا على طاعة الله .

ويصفهم الحق سبحانه فيقول : ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٥٠) ﴾ [النحل] ، ويقول تعالى : ﴿ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ (١٩) ﴾ [الأنبياء]

فهم ليسوا أمثالكم يكذبون ويكفرون ، بل هم فى عبادة دائمة لا تنقطع ﴿وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ (١٩) ﴾ [الأنبياء] لا يضعفون ولا يكلُّون ولايتعبون ولا يملُّون من طاعة الله .

---

(١) هو : المتنبى . أحمد بن الحسين أبو الطيب . ولد ٣٠٣ هجرية – شاعر حكيم وأحد مفاخر الأدب العربي، ولد بالكوفة فى محلة تسمى (كندة) ، نشأ بالشام ، قال الشعر صبياً ، ادعى النبوة فى بادية السماوة فتبعه كثيرون أسره أمير حمص وسجنه حتى تاب . ورجع عن دعواه . قتل بالنعمانية عام ٣٥٤ هـ. [الأعلام للزركلى ١/١١٥] .

(٢) البيت من قصيدة لأبى الطيب المتنبى من بحر الطويل .

﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا.. (٧) ﴾ [غافر]

وهم لا يُسبِّحون الله ويعبدونه عن خوْفٍ ورهبة ، بل تسبيحهم عن حبٍّ وعن إيمان ، لذلك قال تعالى : ﴿ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ.. (٧) ﴾ [غافر]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعْتَذِرُواْ ٱلْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ ﴾

نأتى فى النداء بحرف الإقبال وهو (يا) ونُدخله على المنادى ، أى أنك تطلب إقباله ، فهل نطلب إقباله لمجرد الإقبال أو لشيء آخر ؟

والنداء فى القرآن أنواعٌ كثيرة بحسْب المنادَى ، فهناك نداءٌ للذين آمنوا فى آيات كثيرة عديدة : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) ﴾ [الصف]

ويقول تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ (٢٠) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (٢١) إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (٢٢) ﴾ [الأنفال]

وهناك نداءٌ للأنبياء والرسُل ، ونداءٌ لأهل الكتاب ، وليس هناك نداءٌ للذين كفروا إلا هذه الآية : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٧) ﴾ [التحريم]

وإنْ كان الحقُّ سبحانه قد نادى الذين كفروا ضمن ندائه للناس وطالبهم

بالإيمان بالله ﴿ يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١) ﴾ [الحج]

﴿ يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِى وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللهِ الْغَرُورُ .. (٣٣) ﴾ [لقمان]

فالله يخاطب الناس كلَّ الناس ، مؤمنهم وكافرهم ، أما قوله سبحانه ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ .. (٧) ﴾ [التحريم] فإنه سبحانه لم يخاطبهم إلا وهم فى النار يلقوْنَ العذاب أصنافاً.

والذين كفروا كانوا يتعلَّقون بأمل كاذب فى أن النعيم فى الدنيا فقط ، ولكن الحقيقة غير ذلك وسوف يعلمون وها هم يُعاينونها ، لذلك قال تعالى : ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٣) ﴾ [الحجر]

والذين كفروا صنفان ، صنف كفر بالله وعندما جاء الهدى حكَّم عقله وعرف الحق فآمن ، والصنف الآخر مستفيد من الكفر ، ولذلك فهو متشبِّث به مهما جاءه من الإيمان والأدلة الإيمانية فإنه يعاند ويكفر .

إنهم لم يكفروا لأنَّ بلاغاً عن الله سبحانه وتعالى لم يصلهم، ولم يكفروا لأنهم فى حاجة إلى أنْ يلفتهم رسول أو نبى إلى منهج الله ؛ هؤلاء اتخذوا الكفر صناعةً ومنهجَ حياةٍ ، فهم مستفيدون من الكفر لأنه جعلهم سادةً ولأنهم متميزون عن غيرهم بالباطل .

والكفر هو محاولة سَتْر وجود الله واجب الوجود ، ومحاولة ستر هذا الوجود هو إعلانٌ بأن الله تعالى موجود فأنت لا تحاول أنْ تسترَ شيئاً إلا إذا كان له وجودٌ أولاً .

فسَتْر وجود الله سبحانه هو إثباتٌ لوجوده ،وهكذا يكون الكفر مُثبتاً للإيمان ، وأشدّ الكافرين جُرْماً مَنْ يكفر بعد إيمانه ، فيقول الحق سبحانه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا

بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ (٩٠) ﴾ [آل عمران]

والذى يزداد كفراً هو الذى قد كفر فى ذاته وكان عائقاً لغيره عن أنْ يؤمن وهو لا يكتفى بخيبته ، بل يحاول أنْ ينشر خيبته على الآخرين ، وفى ذلك ازديادٌ فى الكفر والعياذ بالله .

بل إنه سبحانه لن يقبلَ من أحدهم ملء الأرض ذهباً لو أراد الافتداءَ به ، يقول تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٩١) ﴾ [آل عمران]

فيُقال لهم : ﴿ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (١٠٦) ﴾ [آل عمران] فهم آمنوا أولاً ثم طرأ كفرهم على الإيمان ، وماتوا على ذلك الكفر .

هؤلاء تسْوَدّ وجوههم يوم القيامة ، وإنْ كانوا فى الدنيا سيكونون سادةً يتقلَّبون ويرتعون فى الدنيا ، وقد قال الحق سبحانه لرسوله وأمته تبع له : ﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ (١) الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ (١٩٦) ﴾ [آل عمران]

فالكافرون يأخذون الحياة العاجلة المنتهية ، أما المؤمنون فيأخذون الآجلة التى لا تنتهى ، وينسى الكافرون أن الدنيا : ﴿ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٩٧) ﴾ [آل عمران]

ولذلك يُقال لهم يوم القيامة ﴿ لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ .. (٧) ﴾ [التحريم] فالأمر قد انتهى ومهلتكم انتهت فى الدنيا ، وفُرصتكم قد أضعتموها بأنفسكم ، فأعذاركم غير مقبولة .

---

(١) تقلب الذين كفروا : فيه ثلاثة أقوال :
- تصرفهم فى التجارات . قاله ابن عباس .
- تقلب ليلهم ونهارهم وما يجرى عليهم من النعم . قاله عكرمة ومقاتل .
- تقلبهم غير مأخوذين بذنوبهم . ذكره بعض المفسرين . [زاد المسير لابن الجوزى ١/ ٤٨٠]

فعذركم لا ينفع ، فقد ذهب وقتُ الاعتذار فلم يبْقَ إلا الجزاء على الأعمال ، وأنتم لم تقدموا إلا الكفر بالله والتكذيب بآياته ومحاربة رسله وأوليائه .

وهم يُقدِّمون أعذاراً كثيرة فى الآخرة ، فقال تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا(١) فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ (٣٨) ﴾ [الأعراف]

وعذركم غير مقبول ، بل كلكم جميعاً فى النار ﴿ لِكُلٍّ ضِعْفٌ .. (٣٨) ﴾ [الأعراف] الذين قلَّدوا غيرهم فى الضلال كثروا عدد الداعين إلى الضلال وتقوَّتْ بهم شوكتهم ، وأغريتم الناسَ باتباعهم .

ومما اعتذروا به أنَّ الذين استُضْعفوا استَنْكروا ممن استكبروا من الكافرين أن ضلالهم كان بسبب مكر الليل والنهار الذى مارسه عليهم مَن استكبر ، ﴿ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ (٣٢) ﴾ [سبأ]

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٣٣) ﴾ [سبأ]

فكلٌّ يُلقى بالمسئولية على الآخر ، فلما اتهمهم المستكبرون بالإجرام وأنهم انساقوا خلفهم طمعاً فى دنيا ردَّ المستضعفون ﴿ بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ .. (٣٣) ﴾ [سبأ] فقد قضيتم الليل والنهار تُلحون علينا وتلعبون فى آذاننا حتى اتبعناكم.

أعذار وراء أعذار ﴿ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ (١٠٦) رَبَّنَا

---

(١) اداركوا فيها : تداركوا . والتدارك : التلاحق والتتابع والاجتماع فى النار . وقرأ ابن مسعود (حتى إذا ادركوا) أى : أدرك بعضهم بعضاً [فتح القدير للشوكانى ٣/ ٣٤] .

أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ (١٠٧) ﴾ [المؤمنون]

فكان ردّ الحق سبحانه عليهم : ﴿ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ (١٠٨) ﴾ [المؤمنون]

هم يريدون أنْ يبعدوا المسألة عن أنفسهم ويُلْقُوا بها عند الله تعالى ، يقولون : ياربّ لقد كتبتَ علينا الشقوة من الأزل فلا ذنبَ لنا ، وكيف نسعد نحن أنفسنا ؟ يقولون : لو شاء ربنا ما فعلنا ذلك، فكان ردَّ الحق سبحانه ﴿ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ (١٠٨) ﴾ [المؤمنون] أى : اسكتوا سكوتاً بذلّة وهوان، ويكفى ما صنعتموه بالمؤمنين بى .

وهذا يُقال لهم عند إدخالهم النار تأييساً لهم وقطعاً لأطماعهم ، ويقول تعالى: ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٥٧) ﴾ [الروم]

فلا يُقبل منهم عذر ، ولا يقف الأمرُ عند عدم قبول العذر إنما ﴿ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ .. (٥٧) ﴾ [الروم] والعتاب حوارٌ بلطف ودلال بين اثنين فى أمر أغضبَ أحدهما ، ولكن هؤلاء لا يجرؤ حتى أى شفيع أنْ يقول لهم : استعتبوا ربكم واسألوه أنْ يعتبكم أى يزيل العتاب عنكم .

فليس اليومُ يومَ اعتذار ، إنما هو يوم الجزاء على ما كان من عمل ، وقد عملتم ما تجزوْنَ عليه بهذه النار ، فلا تعتذروا عن ذنوبكم وإجرامكم فلا ينفعكم اليوم الاعتذار ، لأنه قد قدَّم إليكم الإنذار والإعذار .

ويقول تعالى : ﴿ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ(٧) ﴾ [التحريم] فمصيركم هذا ليس ظلماً لكم ولا افتراء عليكم ، فلا نجامل صاحبَ الحسنة ولا نظلم صاحب السيئة ﴿ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ.. (١٧) ﴾ [غافر]

ويقول تعالى : ﴿ وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً(١) كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٨) ﴾ [الجاثية]

---

(١) جاثية : أى جالسة على الرُّكب . يقال : قد جثا فلان جثواً : إذا جلس على ركبتيه . [زاد المسير لابن الجوزى ٣٥٦/٥] قال ابن زيد : هذا يوم القيامة جاثية على ركبهم . وقال الضحاك : جاثية على الركب عند الحساب .

فالحق سبحانه لم يظلمهم ، بل إنَّ الحق سبحانه يخاطبهم فيقول : ﴿ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٥٥) ﴾ [العنكبوت] لم يقُلْ : ذوقوا النار ، إنما ذوقوا ما عملتم كأنَّ العمل نفسه سيكون هو النار التى تحرقهم .

فالإنسانُ لا يُسأل ولا يُجازى إلا ما عملتْ يداه ، فلا يُسأل عن شيءٍ لا دخْلَ له فيه .

والإنسانُ على كلِّ حال مطلوب منه التوبة عما هو عليه ، إنْ كان كافراً فتوبته إيمانه ، وإنْ كان مؤمناً فتوبته إقلاعه عن المعاصى والذنوب وظلم الناس وأكْل حقوقهم .

ولكن الحق سبحانه هنا خصَّ المؤمنين بطلب التوبة إلى الله ، فقال تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا[1] عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٨) ﴾

وقد يسأل سائل : لماذا نادى الله الذين كفروا بين نداءين للذين آمنوا ، فقال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ.. (٦) ﴾ [التحريم] ، ثم ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٧) ﴾ [التحريم]

(١) قرأها أهل المدينة بفتح النون (نصوحاً) فجعلوها صفة التوبة ، أى أن يحدِّث نفسه إذا تاب من ذلك الذنب ألاَّ يعود إليه أبداً . [تهذيب اللغة لأبى منصور الأزهرى ت ٣٧٠ هـ] . أما (نصُوحاً) بضم النون فمعناها راجع إلى صفة التائب نفسه فيكون صادقاً خالصاً فى توبته .

ثم جاء نداء الذين آمنوا ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَصُوحًا (٨) ﴾ [التحريم]، مَنْ يتأمل هذا يجد أنَّ الله يُشفق على الكافرين من عباده ، فهو سبحانه يضعهم بين المؤمنين ووسطهم ، هو يريدهم مؤمنين فلماذا تشذُّون عن دعوة الإيمان ؟

ثم إن ما حذّر الله منه المؤمنين وطلب منهم أنْ يقوا أنفسهم منه هو النار التى وقودها الناس والحجارة ، فقد قال تعالى فى آية أخرى : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِى رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٣) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِى وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (٢٤) ﴾ [البقرة]

ولذلك ناسب أنْ يقول بعد ذكْر النار وينادى الكافرين ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٧) ﴾ [التحريم]

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ (٨) ﴾ [التحريم] ، فسبحانه هو المنادى ﴿ تُوبُوا إِلَى اللهِ (٨) ﴾ [التحريم] ورسول الله ﷺ هو القائل : « لله أشد فرحاً بتوبة عبده من أحدكم إذا سقط على بعيره قد أضله بأرض فلاة »[1] وإذا قَرُبْتَ من الله هداك.

والتوبة تقتضى العزم على ألاَّ تُنشئوا ذنوباً جديدة ، وألاَّ تعودوا إلى ما ارتكبتموه من ذنوب سابقة ، فالحق سبحانه لا يردُّ مَنْ قصد بابه .

واقرأ الحديث القدسى لتعرف رحمة الله بعباده ، يقول الله عز وجل : « ما من يوم تطلع فيه شمسُه إلاَّ وتنادى السماء تقول : يا رب ائذن لى أنْ أسقط كسفاً على ابن آدم فقد طعم خيرك ومنع شكرك . وتقول البحار : يا رب ائذن لى أنْ أغرق ابن آدم فقد طعم خيرك ومنع شكرك .

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٣٠٩) عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : «الله أفرح بتوبة عبده من أحدكم سقط على بعيره وقد أضلَّه فى أرض فلاة »، وهو عند مسلم أيضاً (٢٧٤٧) دون قوله «سقط على بعيره » .

وتقول الجبال : يا ربِّ ائذن لى أنْ أطبِق على ابن آدم فقد طعم خيرك ومنع شكرك ، فيقول الله تعالى : دعوهم لو خلقتموهم لرحمتموهم إنهم عبادى ، فإنْ تابوا إلىَّ فأنا حبيبهم ، وإنْ لم يتوبوا فأنا طبيبهم »[1] .

ومادة (تاب) تعنى الرجوع إلى الله ، فعندما يتوب العبد فهو يعود إلى ربه طالباً المغفرة عن العصيان والذنب ، وعندما يتوب الله على العبد فذلك يعنى أن الله قَبِل توبته .

فالتوبة كلها رجوع إلى الله ، ومن لُطْف الله سبحانه بالإنسان أنْ شرع التوبة حتى يشعر الناسُ بالذنب وجعلها من فعل التائب ، ومن فعل قابل التوبة وهو الله سبحانه ، فقال (توبوا) و (أتوب) .

كلُّ ذلك حتى لا يستشعر الإنسان عندما يرتكب ذنباً ويتوب أنها مسألة مستعصية ، إنَّ الحق سبحانه يقول : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَـٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٦٠) ﴾ [البقرة]

إنه سبحانه يتوب على مَنْ تاب عن الذنب ويتوب عن المذنبين جميعاً ، فهو تعالى (توَّاب) وهى كلمة تعنى المبالغة فى الصفة .

لقد شرع اللهُ سبحانه التوبة ليتوب عباده ، فإذا تابوا قَبِل توبتهم ، وقد شرع الحقُّ التوبة للخَلْق ليرحمهم من شرور مَن ارتكبوا المعاصى ، وليرحم أيضاً أصحاب المعاصى ما داموا قد تابوا عنها ، وهو سبحانه عظيمُ الرحمة بالعباد التوابين .

ويقول تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٥٣) ﴾ [الأعراف]

---

(١) أورده الغزالى فى إحياء علوم الدين (٤/٥٢) من قول بعض السلف ولفظه : « ما من عبد يعصى إلا استأذن مكانه من الأرض أن يخسف به ، واستأذن سقفه من السماء أن يسقط عليه كسفاً ، فيقول الله تعالى للأرض والسماء : « كُفَّا عن عبدى وأمهلاه فإنكما لم تخلقاه ، ولو خلقتماه لرحمتماه ، ولعله يتوب إلىَّ فأغفر له ، ولعله يستبدل صالحاً فأبدله له حسنات» . قال الهيثمى فى مجمع الزوائد : رواه الطبرانى بأسانيد أحدها رجاله وثقوا .

فقوله ﴿ثُمَّ تَابُوا.. (١٥٣)﴾ [الأعراف] أى : ندموا على ما فعلوا وأصرُّوا وعزموا على ألاَّ يعودوا .

والتوبة هى الرجوع عن أيِّ باطل إلى حق ، ومن التائبين التائبون عن الكفر الطاريء على إيمان الفطرة وأخذوا منهج الله الذى آمنوا به ، فهم تائبون يأخذون منهج الإيمان من المعبود .

وفتْح باب التوبة أمام العاصين رحمة يرحم اللهُ بها المجتمع كلّه من أصحاب الشهوات والانحرافات ، وإلاَّ لو أغلقنا الباب فى وجوههم لشقى بهم المجتمع ، حيث سيتمادَوْن فى باطلهم وغيِّهم ، فليس أمامهم ما يستقيمون من أجله .

ولا بدَّ أنْ تكون التوبةُ توبةً نصوحاً ﴿يَـأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَصُوحًا (٨)﴾ [التحريم]

فالله سبحانه يأمر عباده أنْ يتوبوا إليه توبة نصوحاً أى توبة صادقة خالصة لا رجوع فيها ، هذه التوبة تتسم بالإقلاع عن الذنب والندم على ما فات والعزم على عدم العودة للذنب مرة أخرى وردِّ المظالم لأصحابها إنْ كانت هناك مظالم .

فالتوبة النصوح هى التوبة التى لا عودةَ بعدها إلى المعصية ، لا يرجع فى توبته كالمستهزيء بربه يقول : أفعل كذا ثم أتوب ، كلمة ﴿مَتَابًا .. (٧١)﴾ [الفرقان] تعنى العزم ساعة أنْ يتوب ألاَّ يعود.

وللتوبة شروطٌ يجب مراعاتها لتكون توبةً نصوحاً ، وهى أنْ تقلع عن الذنب الذى تقع فيه ، وأنْ تندم على ما بدر منك ، وأنْ تنوى وتعزم عدم العَوْد إليه مرة أخرى .

وليس معنى ذلك أنك إنْ عُدتَ فلن تُقبل منك التوبة فقد تتعرض لظروف

توقعك فى الذنب مرة أخرى .

لكن المراد أنْ تعزم صادقاً عند التوبة عدم العوْد ، فإنْ وقعت فيه مرة أخرى تكون عن غير قصد ودون إصرار ، وإلاَّ لو دبرتَ لهذه المسألة فقلتَ : أذنب ثم أتوب ، فمَنْ يُدريك أن الله تعالى سيمهلك إلى أنْ تتوب ؟ إذن : فبادر بها قبل فوات أوانها .

هذه إذن شروط التوبة إن كانت فى أمر بين العبد وربه ، فإنْ كانت تتعلق بالعباد فلا بُدَّ أنْ يتوفر لها شرط آخر وهو ردُّ المظالم إلى أهلها إنْ كانت تُرد ، أو التبرع بها فى وجوه الخير على أنْ ينوى ثوابها لأصحابها ، إنْ كانت مظالم لا تُردُّ .

﴿ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ (٨) ﴾ [التحريم] ، فسبحانه يكفّر عنكم سيئاتكم صغائرها وكبائرها .

وتكفير السيئات له أسباب كثيرة منها هنا التوبة ، ومنها إخفاء الصدقة وإعطاؤها الفقراء فإنَّ الله يُكفّر عنكم بذلك من سيئاتكم ، يقول تعالى : ﴿ إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٧١) ﴾ [البقرة]

ومنها التقوى ، يقول تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا[1] وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢٩) ﴾ [الأنفال]

فالله يستر عنهم السيئات ويغفر لهم ، أى لا يعاقب عليها ويميط العقاب ، ومما يُكفّر السيئات أيضاً اجتناب الكبائر وهى كبائر الذنوب كالقتل والزنا والتولِّى يوم الزحف .

يقول تعالى : ﴿ إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ

(١) فرقاناً : مخرجاً فى الدنيا والآخرة . وقال عبد الكريم الجزرى : نجاة . قال الطبرى فى تفسيره للآية يجعل لكم فصلاً وفرقاً بين حقكم وباطل من يبغيكم السوء من أعدائكم المشركين .

مُدْخَلًا كَرِيمًا (٣١) ﴾ [النساء]

لكن هذه المسألة وقف فيها العلماء فقالوا : معنى ذلك أننا سنغرى الناس بفعل السيئات ما داموا قد اجتنبوا الكبائر فقد يفعلون الصغائر .

نقول : لا ، فالإصرار على الصغيرة كبيرة من الكبائر ، لذلك لا تُجزْ الصغائر لنفسك ، فالحق يُكفِّر ما فلتَ منك فقط ، ولذلك يقول سبحانه : ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَـٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١٧) ﴾ [النساء]

فهم يفعلون الأمر السيء بدون ترتيب وتقدير سابق ، والتوبة لا تكون لمن استمرأ الذنوب والمعاصى وفعل السوء ولا يفكر فى التوبة إلا لحظة الغرغرة والاحتضار .

يقول تعالى : ﴿ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ (١٨) ﴾ [النساء]

ولاحظ أن القرآن عبَّر عن صاحب السيئة بوصْف هذه الزلَّة بكلمة « السوء» أما الشارد الموغل فى الشرود عن منهج الله ، فوصفه بأنه يفعل السيئات ، وليس سوءاً واحداً بل ارتكبوا السيئات .

فالذى ارتكب سوءاً واحداً فذلك يعنى أنه ضعيفٌ فى ناحية واحدة ويبالغ ويجهتد فى الزوايا والجوانب الأخرى من الطاعات التى لا ضعفَ له فيها ليحاول ستر ضَعْفه ، أما الذى يفعل السيئات فهو ليس صاحبَ نقطة ضعف واحدة لكنه يقترف سيئات متعددة ويُمعن فى الضلال ، ولا يقتصر الأمر على هذا بل يؤجِّل التوبة إلى لحظة بلوغ الأجل .

﴿ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ (١٨) ﴾ [النساء] وتكفير السيئات على نوعين : أولاً أنْ يسترها عليك فى الدنيا ، أو يُذهب عنك عقوبة الآخرة .

فالذى يتوب توبةً نصُوحاً ويُكفر الله عنه سيئاته هو الرجل يعمل الذنب ثم يتوب أى يقلع عنه ، ولا تُحدِّثه نفسه بعمل الذنب ، ولا يعود فعلاً لعمل الذنوب .

فكأنَّ التوبة النصوح قد طهَّرتْ جارحتَه يداً ورجْلاً وسمعاً وبصراً ، وطهَّرَتْ قلبه من إرادة السوء ، وطهَّرت عقله من التفكير فيه .

وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال فى قوله تعالى : ﴿ تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَصُوحًا ..(٨)﴾[التحريم] ، قال : هو الرجل يعمل الذنب ثم يتوب ولا يريد أنْ يعمل به ولا يعود[١].

فرحمةُ الله سبحانه تسع كلَّ ذنوب خَلْقه ، وهو سبحانه يغفر الذنوب جميعاً ، وليست كلُّ الذنوب تسقط ، وإنما تسقط الذنوبُ المتعلقة بالله سبحانه وتعالى، لأن الذنب المتعلِّق بالله أنت لم تظلم الله به ، لكن ظلمتَ نفسك ، ولكن الذنب المتعلِّق بالبشر فيه إساءةٌ لهم أو انتقاص من حقوقهم ، وبالتالى فإنَّ ظلم العباد لا يسقط إلا بردّ حقوق العباد .

والإسلام دين يُقدِّر الواقع البشرى ، فإنه سبحانه يعلم أنَّ العباد سيرتكبون الذنوب فيرسم لهم أيضاً طريق الاستغفار ، وإذا ما ارتكب العبادُ ذنوباً فإنَّ الحق يطلب منهم أنْ يتوبوا عنها .

الذنب الأكبر الذى لا يغفره الله هو الشرك به سبحانه ، يقول تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ لَا

---

(١) أورده الفخر الرازى فى تفسيره (٣/٤٦٩) وعزاه لعمر بن الخطاب رضى الله عنه : إنه هو الرجل يعمل الذنب ثم يتوب ولا يريد أن يعمل به ولا يعود . وقال ابن مسعود : هو أن يهجر الذنب ويعزم على أن لا يعود إليه أبداً .

يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا (٤٨) ﴾ [النساء]

فمَنْ أشرك بالله ولم يتُبْ من شركه ومات وهو مقيم على شركه لم يغفر له وأدخله ناراً وقودها الناس والحجارة ، فهؤلاء يُقال لهم : ﴿ لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٧) ﴾ [التحريم]

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ(١) لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٨) ﴾ [التحريم]

الجنات متنوعة ، فهناك جنات الفردوس وجنات عدن وجنات نعيم ، وهناك دار الخلد ودار السلام وجنة المأوى ، وهناك علّيون الذى هو أعلى وأفضل الجنات ، وأعلى ما فيها التمتُّع برؤية الحق تبارك وتعالى ، وهو نعيم يعلو كثيراً عن أيِّ نعيم فى الطعام والشراب فى الدنيا .

والجنات جاهزة لا تتطلب من المؤمن حركة أو تعباً ، تجرى من تحتها الأنهار وفيها للإنسان المؤمن ما وعده الله به ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ (١٥) ﴾ [آل عمران] إنه الخلود الذى لا يفنى ولا يترك الإنسان ، ولا يترك هو الإنسان .

والجنة مخلوقة لله باقية بإبقاء الله لها ، والحق سبحانه يقول : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ(٢) وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٧٢) ﴾ [التوبة]

---

(١) قال الطبرى فى تفسيره : يسألون ربهم أن يبقى لهم نورهم فلا يطفئه حتى يجوزوا الصراط . قال الزجاج فى معانى القرآن وإعرابه (٥/١٢٤) : أى بلّغنا به إلى جنتك . قال ابن عباس : ليس أحد من المسلمين إلا يعطى نوراً يوم القيامة فأما المنافق فيُطفأ نوره ، والمؤمن مشفق مما رأى من إطفاء نور المنافق ، فهم يقولون : ربنا أتمم لنا نورنا . [زاد المسير لابن الجوزى ٤/٣١١] .

(٢) المعدن : مكان كل شيء أصله ومبتدؤه ومنه جنات عدن . عدن بالمكان : أقام أى جنات إقامة وخلود.

فهنـاك جنات والجنـات مساكن لأن الإنسـان يحب فى بعض الأوقات أنْ يجلس بمفرده وحوله المتعة التى تخصُّـه ، وفى أحيان أخرى يحب أنْ يجلس مـع الناس فى مكان جميل مثلما يحدث فى الأعياد والمناسبات عندما نخرج إلى الحدائق والبساتين ونجلس معاً .

فكأنَّ الجنات هى للرفاهية الزائدة عندما تحب أنْ تجتمع مع الناس ، أتمتع بهـا أنا وأنت وغيرنا ، أما المساكن فهـى للخصوصية فيكون لكل واحد مكان خاص يجلس فيه ويتمتع بما حوله .

إذن : فالجنـات صورة مـن البساتين ، ولكنها ليست مصنوعة بالأسباب بل هى من صناعة المسبِّب جلَّ وعلا .

ونحـن حينمـا نذهب إلى بيت إنسـان ثريٍّ قد نجد أن للبيت حديقة يشرف عليهـا بستانيّ متمكِّن من عمله ويقوم بتنسيق الزهور والأشجار بشكل يناسب ثراء المالك .

ويكـون إعجابنا فى هذه الحالة بالحديقـة إعجاباً كبيراً بحيث نجلس فيها ونكـره أنْ نغادرهـا ، فـإذا كان هذا هو مـا يحدث بقدرات البشر فكيف بهذه الحقائـق التـى صُنعت بقدرة الله سبحانـه ؟ وكيف يكـون جمالها وحلاوتها والمتعة فيها ؟

إنَّ الـذى وعدنا بهذه الجنات هو الحـق سبحانه ، وهو قادر على أنْ ينفذ ما وعدنـا بـه من جنات فيها من الكماليـات والرفاهية ممَّا لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعتْ ، ولا خطر على قلب بشر .

وجعل سبحانه هذه الجنات واسعة شاسعة فيها زروع وأزهار وأشكال تسرُّ العين بجمالها وتمتع اللمس بنعومتها وتملأ الأنوف برائحتها الزكية .

ومـن ميـزات جمالهـا أن الأنهار تجرى مـن خلالها ، ولكنهـا لا تجرى من فوقها بل تجرى من تحتها ومنابعها من مكان آخر أو تحتها ومنابعها ذاتية ، أى تنبع من نفس المكان .

وكأنَّ كل نهر ينبع من تحت جنة خاصة به ، وإذا أردتَ أنْ تعرف جمال هذه الأنهار فهو جمال قد صنعه الحقُّ سبحانه .

وإذا كنَّا فى حياتنا نرى أنَّ لكل نهر شاطئين فإن أنهار الجنة تجرى من غير شواطىء ، وتجد الأنهار قد تشترك فى المجرى نهر اللبن ونهر العسل ونهر الماء ونهر الخمر ، وكلها تجرى فى مجرى واحد ولكنها لا تختلط ببعضها البعض ، فكل منها منفصل لأن الحق سبحانه هو الصانع وتبارك مَنْ صنع .

فالجنات هى الحدائق وفيها مساكن ، ونحن فى حياتنا الدنيا نجد الفيلات فى وسط الحدائق ، فما بالنا بما يعد به الله من طيب المساكن وسط الجنات ؟

والجنة فى أصل اللغة هى الستر ، ومنها الجنون أى ستر العقل ، والجنة تستر مَنْ فيها بما فيها من أشجار كثيرة بحيث مَنْ يمشى فيها لا يظهر لأن أشجارها تستره ، أو أن مَنْ يدخلها يجلس فيها ولا يراه أحد ، لأن كلَّ خير فيها لا يُلجئه أنْ يخرج منها .

وهى جنات عدن أى جنات إقامة دائمة ، لأن فيها كلَّ ما يحتاجه الإنسان فلا حاجةَ له إلى غيرها ، أما الجنة فهى جنة عدن تحب أنْ تقيم فيها إقامةً دائمة .

ويصف الحق سبحانه هذه الجنات ، فيقول : ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ (٣١) ﴾ [النحل] ، وفى آية أخرى يقول سبحانه : ﴿ تَجْرِى تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ (١٠٠) ﴾ [التوبة] ومعنى ﴿ تَجْرِى تَحْتَهَا (١٠٠) ﴾ [التوبة] أى أنها تجرى تحتها وربما تأتى من مكان آخر .

وقد يقول هنا قائل : يمكن أنْ يُمنع عنك جريانُ هذه الأنهار ، لذلك جاءت الآية ﴿ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ (٣١) ﴾ [النحل] أى : ذاتية فى الجنة لا يمنعها عنك مانع ، فالماء ذاتيٌّ فيها لا يأتيها من مكان آخر ربما ينقطع عنها .

فـ ﴿ تَجْرِى تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ (١٠٠) ﴾ [التوبة] فنبْع الماء من مكان بعيد وهو

يمرُّ تحتها . أما قوله تعالى : ﴿ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ (٣١) ﴾ [النحل] فكأنَّ الأنهار تنبع من تحتها حتى لا يخاف إنسانٌ من أن الماء الذى يأتى من بعيد يُقطع عنه أو يجفّ ، وهذه زيادة لاطمئنان المؤمنين أنَّ نعيم الجنة باقٍ وخالد .

والأنهار جمع نهر ، والنهر هو الشقّ الذى يسيل فيه الماء أى مجراه وليس هو الماء، والحق سبحانه يقول : ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ (٣١) ﴾ [النحل] فأين تجرى الأنهار؟ أتجرى الأنهار تحت زروعها أم تحت بنيانها ؟

والجنة هى البستان الذى به شجرة إذا سار فيه الإنسان يستره ، وهو غير البساتين الزهرية التى تُخرج زهراً قريباً من الأرض تمثل ترفاً للعين فقط ، أما الجنة ففيها أشجارٌ عالية كثيفة بحيث لو سار فيها أحدٌ يُستر ، ففيها الاقتيات وفيها كلُّ شيء .

فهى تسترك عن أنْ تلتفت إلى غيرها لأن فيها ما يكفيك ؛ فالذى عنده حاجة لا تكفيه يتطلَّع إلى ما يكفيه ، لكن مَنْ عنده حاجة تكفيه فقد انستر عن بقية الوجود .

فالجنة تستر مَنْ فيها ، فأشجارها كبرتْ ونمتْ وترعرعْت بحيث يكون مَنْ يسير فيها مستوراً بأغصان الشجر وأوراقه فلا يراه أحد ، ويكون مستوراً فى كلِّ مطلوبات حياته فلا يحتاج أنْ يخرج منها لأن فيها كلَّ مطلوبات الحياة من الماء والطعام والمكان يجلس أو يتريض فيه وغيرها من النِّعم التى أنعم الله بها عليه .

والفارق بين أنهار الدنيا وأنهار الجنة أن أنهار الدنيا عبارة عن شقوق فى الأرض لها شواطيء تحتضنها ، أما أنهار الآخرة فهى تسير على الأرض دون شواطيء تحجزها .

ونجد أنهار الخمر تسير أيضاً فى الأرض ولا تتداخل مع أنهار الماء، وكذلك أنهار اللبن، وكلُّ ذلك من صنعة ربٍّ حكيم قادر، فلا شيءَ يمنع أنهار الجنة، فظاهرةُ جريان الأنهار فى الدنيا وسيلة للخضرة والخصب والإيناع.

و ﴿ مِنْ تَحْتِهَا (٧٦) ﴾ [طه] أى أن الماء ذاتيٌّ فيها ونابعٌ منها، ليس جارياً إليك من مكان آخر ربما يُمنع عنك أو تُحرم منه.

وقد حدَّثنا الحق سبحانه عن أنهار الجنة، فقال: ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ (١٥) ﴾ [محمد]

فالحق سبحانه يعطينا اسماً موجوداً وهو النهر وكلُّنا نعرفه، لكنه سبحانه يوضح: أنا سأنزع منه الأكدار التى نراها فى النهر الحادث فى الحياة الدنيا، وأيضاً فأنهار الدنيا تسير وتجرى فى شقٍّ بين شاطئين، لكن أنهار الجنة سترى الماء فيها وليس لها شطوط تحجز الماء لأنها محجوزةٌ بقدرة الله.

وسنجد أيضاً أنهاراً من لبن لم يتغير طعمه، وأنهاراً من خمر ليست كخمر الدنيا، فهو خمرٌ لذَّة للشاربين بعكس خمر الدنيا فالناس لا يشربونها بلذَّة، فهو يسكبه فى فمه مرة واحدة ليُقلِّل سرعة مروره على مذاقاته لأنه لاذع ومُحمّض.

وهناك أنهارٌ من عسل مُصفًّى مما يُعكره عليك فى الدنيا أو يُكدِّره لك، فأنا أصفِّيه لك فى الآخرة كنهر يجرى على وجه الأرض، فقد كان العرب يُخرجون العسل من الجبال يجدون فيه رملاً وحصى.

فالله يُصفِّى النعيم من كلِّ الشوائب، فيُصفِّى الماء من أنْ يكونَ آسناً، ويُصفِّى اللبن من أنْ يتغير طعمه، ويُصفِّى الخمر من أنْ تغتال العقل وتذهب به، ويُصفِّى العسل من الكدر والشوائب.

فقد خلّص المثل الذى ضربه من شوائبه التى نعرفها فى الدنيا ، فالمياه عندما تجرى تكون حُلْوةً ورائقةً وصافيةً ، وإنْ ركدتْ فهى تأسن وتكون عَطِنة، فخلَّص الله الماءَ من هذا .

وكذا الخمر ، فخمرُ الآخرة تختلف عن خمر الدنيا ، فخمرُ الآخرة لا تؤثر على التكوين العضوى للعقل ، كما أنَّ خمرَ الدنيا ليس فيها لذة للشاربين لأنها من كحول يكوى الفم ويلسعه ، ولذلك تجد مَنْ يشربها وهو يسكبها فى فمه لتمرَّ بسرعة فلا يشعر بلسْعها فى فمه ، فتذهب إلى معدته مباشرة فتُلهبها .

ويختلف الحال لو كان المشروب هو شراب عصير المانجو أو البرتقال أو القصب حيث تستطيب النفس مذاقَ تلك الفواكه ، فنجد مَنْ يشربها بتمهُّل ليستبقى أثرها فى فمه .

ويقول الحقُّ سبحانه عن خمر أنهار الجنة ﴿ لَا فِيهَا غَوْلٌ (٤٧) ﴾ [الصافات] أى أنه سبحانه ينفى عن خمر أنهار الجنة كلَّ المكدِّرات التى توجد فى خمر الدنيا ، فآفة خمر الدنيا أنها تغتال العقل وتذهب به وليس فى شربها لذة .

وعظمة هذا فى الآخرة فى الجنة أنه مهما بلغ بنا ترف الحياة ونعيمها ، ومهما عظُمت إمكاناتنا فى الدنيا فلن نرى فيها نهراً من الخمر أو من اللبن أو من العسل .

ثم إنَّ هذه الأنهار تجرى فى الجنة بلا شُطآن ، بل ويتداخل بعضها فى بعض دون أنْ يطغى أحدٌ منها على الآخر ، وهذه طلاقةُ القدرة التى لا حدودَ لها .

وهذا يتحقَّق ﴿ يَوْمَ لَا يُخْزِى اللهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ (٨) ﴾ [التحريم] كلمة (خزى) ترد فى اللغة بمعنيين ، مرة بمعنى الفضيحة (خزى يخزى خزياً) أى: انفضح ، ومرة ثانية هى (خزى يخزَى خِزَاية وخزِّى) بمعنى : استحى .

والمعنيان يلتقيان ، فما دام قد افتُضح أمر عبد فهو يستحى مما فعل والخزى

هو الشيء القبيح الذى تكره أنْ يراك عليه الناس ، والخزى مرتبة أشدّ من عذاب النار ، وقمة الخزْى أنْ يأخذ أحدٌ مثلَ ما فى الدنيا معه ويريد أنْ يُقدِّمه افتداءً لنفسه من عذاب جهنم ، فيرفضه الحقُّ منه .

يقول تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٣٦) ﴾ [المائدة] وتلك هى قمة الخزى التى يجب أنْ يبتعد عنها الإنسان .

وكذلك الذين هادوا يأتيهم الخزى أى الافتضاح ﴿ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٤١) ﴾ [المائدة] ، وليس الخزى هو الجزاء الوحيد لهم بل يلقوْنَ فى الآخرة عذاباً عظيماً .

والخزى أقسى على النفس من العذاب لأن معناه الفضيحة ، كأنْ يكون هناك إنسانٌ له مهابة فى الحى الذى يسكن فيه مثل فتوة الحى ، ثم يأتى شاب ويدخل معه فى مشاجرة أمام الناس ويلقيه على الأرض ، هذا الإلقاء لا يُعذِّبه ولا يُؤلمه ، وإنما يُخزيه ويفضحه أمام الناس ، بحيث لا يستطيع أنْ يرفع رأسه بين الناس مرة أخرى ، والخزى هنا أشدّ إيلاماً لنفسه من العذاب .

وعذاب الخزى فى الحياة الدنيا يمكن أنْ تراه مُجسداً فيمن افترى وتكبَّر على الناس ، ثم يراه الناسُ فى هوان ومذلَّة ، هذا هو عذاب الخزى فى الدنيا ، ولا بدّ أنَّ عذاب الآخرة أخزى وأشدّ ، والذي يأتيه الخزى يشعر باحتقار نفسه وهوانها ويعانى من الفضيحة أمام الخَلْق .

فالخزى هو الهوان والمذلَّة ، وهو أقوى من الضرب والإيذاء ، ولا يتجلَّد أمامه أحد ، فالخزى قشعريرة تغشَى البدن فلا يفلت منها مَنْ تصيبه وإنْ كان الإنسانَ قادراً على أنْ يكتم الإيلام فالخزى معنى نفسى ، والمعانى النفسية تنضح على البشرة ولا يقدر أحدٌ أنْ يكتم أثرها ، لأنه يقتل حِمْيَةَ الاستكبار التى عاش بها .

فـالله لا يُخـزى النبـى ولا يُخزى الذين آمنـوا معه ، يقول تعـالى : ﴿ يَوْمَ لَا يُخْزِى اللهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ (٨) ﴾ [التحريم] ، وهذا تعريضٌ بـالذين لم يؤمنوا فسينالهـم الخزى والصَّغار الذى يترك الإنسان حيرانَ خجلاً مهموماً بأنْ يرى نقصه وسُوء منزلته .

والله لا يُخـزى المؤمنـين ، وطالما هم مع النبـى ﷺ لا يحصل لهم الإخزاء، ومعنى الذين آمنوا معه أى كانوا على منهجه وسُنّته ، أما إذا خرجوا على منهجه وسنته فقد يحدث لهم الإخزاء ، كأصحاب الكبائر مثلاً بدخولهم النار.

يقـول تعـالى : ﴿ إِنَّكَ مَنْ تُدْخِـلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَـهُ (١٩٢) ﴾ [آل عمران] وهم لا يذكرون عذاب مَنْ يدخل النار ، ولكنهم يذكرون خزى الله لمَنْ دخل النار .

وكلمـة (الخـزى) هذه لها معنا موقف طريف أيام كنا صغاراً نحفظ القرآن على يد سيدنا فضيلة الشيخ حسن زغلول عليه رحمة الله ، وكان رجلاً مكفوفَ البصـر ، وكنـا نَسْتَخِفُّ به ، فإذا وجدنا فرصة تفلتنا منه وهربنا من تصحيح اللـوح الـذى نحفظـه ، فالذى يحفظ بمفـرده هكذا من المصحف يكـون عُرْضة للخطأ .

ومن ذلك ما حدث فعلاً من زميل لنا كان اسمه الشيخ محمد حسن عبدالبارى، وقـد حضر مدير المدرسة فجـأة وأراد أن يُسمِّع له ، وكان الشيخ عبدالبارى لم يُصحِّـح لوحـه الذى سيقرأ منه فقرأ ﴿ إِنَّكَ مَنْ تُدْخِـلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ (١٩٢) ﴾ [آل عمـران]

فقرأها بالراء بدلاً من الزاي ، فضحك الشيخ طويلاً رحمه الله وقال : يا بنى المعنى صحيح ، لكن الرواية ليست هكذا ، فكُنَّا نأخذها على الشيخ عبدالبارى، فمَنْ أراد أنْ يغيظه قال : (إنك من تدخل النار ..) ويسكت .

ثـم يقول تعالى ﴿ نُورُهُـمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِـمْ وَبِأَيْمَانِهِـمْ (٨) ﴾ [التحريم] ومثل

قولـه تعالى : ﴿ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ (١٢) ﴾ [الحديد]

أي أن نورهم يضيء أمامهم ، أما المنافقون فيقولون للذين آمنوا : ﴿ انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا (١٣) ﴾ [الحديد] أي أن هذا ليس وقت التماس النور ، فالوقت لالتماس النور كان في الدنيا باتباع المنهج والقيام بالصالح من الأعمال .

إذن : فالحق سبحانه يهدى للمؤمنين نوراً فوق نورهم في الآخرة ، فمَنْ أخذ هداية الله بالدلالة وهي المنهج واتبع هذا المنهج ، فالحق سبحانه يجعل له نوراً يسعى بين يديه .

﴿ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا (٨) ﴾ [التحريم] وذلك إذا رأى المؤمنون نور المنافقين يُطفأ سألوا الله تعالى أنْ يُتمم لهم نورهم ويُبلغهم به الجنة . وقال ابن عباس : ليس أحدٌ من المسلمين إلا يُعطَى نوراً يوم القيامة[1] .

فأما المنافق فيُطفأ نوره ، والمؤمن مشفق مما رأى من إطفاء نور المنافق ، فهم يقولون ﴿ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا (٨) ﴾ [التحريم]

ولا ينال أهلَ النار شيءٌ من نعيم أهل الجنة ونورهم ، ويسمع أهل النار رداً على طمعهم في أنْ ينالهم بعضٌ من نور أهل الجنة : إنكم تلتمسون الهدى في غير موطن الهدى ، فزمن التكليف قد انتهى .

ومَنْ كان يرغب في نور الآخرة كان عليه أنْ يعمل من أجله في الدنيا ، فهذا النور ليس هبةً من خَلْق لخَلْق ، وإنما هو هبةٌ من خالق لمخلوق آمن به .

وأنتم تقولون : انظرونا نقتبسْ من نوركم ، وليس في مقدور أهل الجنة أنْ

---

(١) ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير (٣١١/٤) وأورده ابن كثير فى تفسيره (١٩٢/١) وعزاه لابن أبى حاتم فى تفسيره عن ابن عباس . وقد ذكره السيوطى فى الدر المنثور (٢٢٨/٨) وعزاه للحاكم والبيهقى فى البعث .

يُعطوا شيئاً من نور أهل الجنة فالعطاء حينئذ لله .

أما المنافقون فيقول تعالى : ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِى اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ (١٧) ﴾ [البقرة]

فهم أوقدوا ناراً لتعطيهم نُوراً يُريهم طريق الإيمان ، وعندما جاء هذا النور بدلاً من أنْ يأخذوا نور الإيمان انصرفوا عنه ، وعندما حدث ذلك ذهب الله بنورهم فلم يَبْقَ فى قلوبهم شيءٌ من نور الإيمان .

فهم الذين طلبوا نُورَ الإيمان أولاً ، فلما استجاب الله لهم انصرفوا عنه .

﴿ وَاغْفِرْ لَنَا (٨) ﴾ [التحريم] فنحن ندعوه سبحانه ألاَّ يُدخلنا في الذنب الذى يؤدي إلى غضبه والعياذ بالله ، يقول تعالى فى آية أخرى ﴿ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا (١٤٧) ﴾ [آل عمران]

والاستغفار هو إقرارٌ بالتقصير وارتكاب الذنوب ، فنقول يارب اغفر لنا ، وساعة تطلب المغفرة من الله تعالى فهذا إعلانٌ منك بالإيمان ، واعترافٌ بأنَّ تكليفَ الحق لك هو تكليفٌ حقّ .

وما دام الإنسان قد طلب من الله تعالى أنْ يغفر له الذى فات من ذنوب فعليه ألاَّ يرتكب ذنوباً جديدة ، وبعد التوبة على العبد أنْ يحرص على تجنُّب المعاصى .

وهو سبحانه الذى يغفر الذنوب جميعاً ، وقد حدث أنْ كان الأصمعي[1] واقفاً عند الكعبة فَسَمع أعرابياً يدعو ويقول : يارب أنت تعلم أنِّى عاصيك وكان من حقك عليَّ ألاَّ أدعوك وأنا عاصٍ ، ولكنى أعلم أنه لا إله إلا أنت فلمَنْ

(١) الأصمعى : هو عبد الملك بن قريب أبو سعيد الأصمعى وُلد بالبصرة عام (١٢٢هـ) ، راوية العرب، كان كثير التطواف فى البوادى ، يقتبس علومها ويتلقى أخبارها ، كان الرشيد يسميه (شيطان الشعر)، كان أعلمهم بالشعر وأتقنهم باللغة كان يحفظ عشرة آلاف أرجوزة . توفى عام (٢١٦ هـ) عن ٩٤ عاماً . [الأعلام – للزركلى ٤/١٦٢] .

أذهب . فقال الأصمعى : يا هذا إن الله يغفر لك لحُسْن مسألتك .

ويقول تعالى : ﴿ قُلْ يَـعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣) ﴾ [الزمر]

وهو سبحانه قادر على كلِّ شيء ، لذلك يقول المؤمنون فى دعائهم ﴿ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٨) ﴾ [التحريم]

فهو القادر القدير الذى يعلم عنَّا الغفلة فيُنبِّهنا دائماً إلى كمال قدرته فهو القادر على كلِّ شيء ، فكلُّ شيء يدخل فى إرادة الله وقدرته سبحانه ، فالله له طلاقة القدرة فى مُلْكه ، ولا توجد قدرة فى هذا الكون إلا قدرة الله سبحانه ، ولاقوة إلا قوته جلَّ جلاله ، ولا فعل إلاَّ ما أراد .

والله قدير حتى قبل أنْ يوجد مقدور عليه ، فلم يكُنْ قديراً فقط عندما خلق الإنسان ، بل بصفة القدرة خلق الإنسان ، والله يظلُّ قديراً وموجوداً فى كلِّ لحظة ، وهو كان ولا يزال .

فالله هو الذى خلق الجنات بما فيها من أنهار ، وهو القادر عليها يدخل فيها مَنْ يشاء بقدرته ، فمَنْ آمن أدخله فيها بقدرته ، وجعل للمؤمنين نوراً يسعى بين أيديهم وبأيمانهم بقدرته ، وحرم من كفر من هذا النور ، فكانت نارُهم ظلاماً لا يُنيرها إلا النار الموقدة عليهم .

وهم يستديمون التضرع والابتهال فى السؤال أنْ يُتم الله عليهم نورهم ، أما المنافقون فيقولون للذين آمنوا ﴿ انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ (١٣) ﴾ [الحديد]

أى انظروا إلينا من أجل أنْ نقتبسَ من أنواركم . أو انظرونا بمعنى انتظروا حتى نلحق بكم ونمشى على نوركم ، فيُقال لهم : ﴿ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ (١٣) ﴾ [الحديد]

أى اذهبوا إلى الدنيا ، فالأنوار التى تريدونها فى الآخرة تأخذونها من الدنيا،

و ﴿ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ (١٣) ﴾ [الحديد] تُقال لهم على سبيل التهكم ، وإلا ليس هناك إمكانيةٌ للرجوع إلى الدنيا لتبحثُوا لكم عن نور ، فلا نورَ لمن لا نورَ له .

وليس أحدٌ من الموحِّدين إلا يكون له نورٌ يوم القيامة يهديه ويدلُّه على الصراط ، فأما المنافق فيطفيء الله له نوره ، فيقطع الله وصلهم بالمؤمنين فالله جعل النور متاعاً للمؤمنين في الآخرة ويحرم المنافقين منه لأنهم لم يتبعوا النور الذى أنزله الله لهم فى الدنيا .

ويقول ترجمان القرآن[1] في قول الله عز وجل : ﴿ يَوْمَ لَا يُخْزِى اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا (٨) ﴾ [التحريم]

قال : ليس أحدٌ من الموحدين إلا يُعطَى نوراً يوم القيامة ، فأما المنافق فيُطفأ نوره ، والمؤمن مشفقٌ مما رأى من إطفاء نور المنافق ، فهو يقول : ﴿ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا (٨) ﴾ [التحريم]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٩) ﴾

(جاهد) من فاعِل مثل : شارك ، فأنت تشارك فلاناً ، ومثل (قاتل) فأنت تقاتل فلاناً . إذن : فهناك مُفاعلة ومجاهدة .

فـ (جاهد) و (قاتل) مبنية على المفاعلة ، بمعنى : إنْ قاتلك واحد من الكفار فلا بدَّ أنْ تبذل كلَّ جهدك فى قتاله . وجاهد مثل شارك . فهل تقول :

---

(١) ترجمان القرآن هو عبد الله بن عباس ، وهو حبر الأمة ، وقد كان عمر بن الخطاب يقول : « نعم ترجمان القرآن عبد الله بن عباس ، جاء فتى الكهول وذو اللسان السئول والقلب العقول » . ذكره ابن كثير فى البداية والنهاية (١٢/٨٨) وكذا الطبرى فى تفسيره (١٠٤ - ١٠٦) .

شارَك زيد ثم تسكت . أم تقول : شارك زيد عمرواً ، وقاتَل زيد عمرواً . إذن : فهناك مفاعلة .

فمعنى (جاهِد) أى اصمد أمامهم فى المعركة ، والجهاد يقتضى الصبر والمواجهة ، والجهاد بذْل الجهد فى إنفاذ المراد ، ومنه اجتهد فلانٌ فى كذا يعنى عمل أقصى ما فى وُسْعه من الجدِّ والاجتهاد فى أنْ يستنبط الحكم . وجاهد مفاعلة كأنَّ الشيء الذى تريده صعبٌ يحتاج إلى جَهْد منك ومحاولة ، والمفاعلة تكون من الجانبين : منك ومن الشيء الذى يقابلك .

فـ (جاهد) فيها مفاعلةٌ مع الغير ، تقول : جاهد فلانٌ فلاناً مثل قاتل ، فهى تدلُّ على المشاركة فى الفعل ، كما لو قلت : شارك عمرو زيداً فكلّ منهما فاعل ، وكلّ منهما مفعول ، لكن تُغَلّب الفاعلية فى واحد والمفعولية فى الآخر .

فالمجاهدة تشمل ميادين عديدة : مجاهدة الغرائز والعواطف ، ومجاهدة مشقة المنهج فى افعل ولا تفعل ، ومجاهدة شياطين الإنس والجن ، ومجاهدة خصوم الإسلام الذين يريدون أن يطفئوا نور الله .

والجهاد يكون بوسائل كثيرة ، فمَنْ يملك القوة والمال ، فعليه أنْ يجاهد بهما ، ومَنْ يملك عنصراً من الاثنين القوة أو المال فعليه أنْ يجاهد به ، فإنْ كان ضعيفاً فعليه أن يُعين بماله القويَّ القادر على القتال ، بأنْ يوفر له الأسلحة والخيول والدروع وغير ذلك من وسائل القتال .

والذى يجاهد بماله ونفسه يكون قد اقتنع بيقين أنه سوف يحصل من الجهاد على ما هو خير من المال والنفس .

وهنا يطلب الحق سبحانه من رسول الله ﷺ أنْ يجاهد الكفار والمنافقين، والكفار منتفعون بالفساد ، ولكى يستمر هذا الانتفاع لا بدَّ أنْ يقف الكفار ضد حَمَلة منهج الحق ، وأنْ يقاوموهم ليضمنوا لأنفسهم استمرار الميزات التى

يعطيها الباطل لهم .

وينبه الله سبحانه وتعالى رسوله إلى حقيقة هؤلاء الكفار المنتفعين بالفساد وأنهم سيحاربونه ، ولذلك قال الحق سبحانه لرسوله ﷺ : ﴿ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ (٩) ﴾ [التحريم]

ومجاهدة الكافرين غير المسلمين تكون لأمرين :

الأمر الأول : حين يعارض غير المسلمين الدعوة إلى الإيمان ، وأنْ يقفوا فى سبيل الداعى إليه ليُسكتوه عن الدعوة إلى الله .

والأمر الثانى : أنْ ينتشر المسلمون فى الأرض ليُعلوا كلمة الله ، ليس إكراهاً عليها فالدين لا إكراه فيه ، والسيف الذى حُمل فى الإسلام لم يُحمل ليفرض ديناً ، وإنما حُمل ليكفل حرية الاختيار للإنسان فى أنْ يختار الدين الذى يريد اعتناقه بلا إكراه .

وتحرير اختيار الإنسان إنما ينشأ بإزاحة العقبات التى تفرض عليه ديناً آخر ، ثم يستقبل الإنسان الأديان كلها فيختار بحرية الدينَ الذى يرتضيه .

وما دام الجهادُ فريضةً بهذا المعنى ، فكلُّ مسلم مكلَّف بأنْ يجاهد ، إما فرض عين إنْ غلب المؤمنون على أمر مكروه ، وإما فرض كفاية إنْ قام به البعض سقط عن الباقين .

وجهاد الكافرين غير جهاد المنافقين ، وقد عرَّفنا الله سبحانه وتعالى صفاتهم فى آيتين فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٦) خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٧) ﴾ [البقرة]

فالكافر صريح فى عداوته ، ولذلك نحن نتقيه ونحذره لأنه يعلن كفره والكافر هو الذى جحد الإيمان بقلبه وأعلن الكفر بلسانه ، أما المنافق فهو مَنْ

كفر فى باطنه ويعلن الإيمان فى ظاهره .

والمنافق هو الذى يجب أنْ نحذر منه أشدّ الحذر ، لأننا لا نعرفه فنتقى شرّه مثل الكافر ، فالمنافق قد يطعن من الخلف ونحن آمنون له مطمئنون ، فتكون طعنتُه أليمة .

فالعداوة التى يواجهها المؤمنون تأتى من صنفين ، من الكافر ومن المنافق، فالكافر يجاهر بعدم إيمانه ويعرف الجميع أنه كافر ، ويظهر هذا فى لسانه وفعله فهو كافر قلباً وقالباً .

أما المنافق فإنه يُظهر بلسانه الإيمان ولكنه يُضمر الكفر فى قلبه ، لذلك فهو عدوٌّ صعب لأنه يغشّنا فلا نأمنه ، وأنت قد تحسبه مؤمناً فتُطلعه على أسرارك فيتخذها سلاحاً لطعن الدين .

والمنافق يقول بلسانه ما لا يعتقد قلبه ، ويُظهر غير ما يبطن ويقول ما يخشى أنْ يكشفه الناس .

وإذا كان المنافقُ قد أظهر بلسانه ما ليس فى قلبه فإنَّ الله سبحانه يعامله بمثل فِعْله ، فإذا كان له ظاهر وباطن يعامله فى ظاهر الدنيا معاملة المسلمين، وفى الآخرة يوم تُبْلَى السرائر يجعله فى الدرْك الأسفل من النار ، ولا يسويه بالكافر لأن ذنب المنافق أشدّ .

والنفاق مأخوذ من نافقاء اليربوع[1]، وهى إحدى جُحوره التى يستتر ويختفى فيها ، واليربوع حيوان صحراوى يخادع مَنْ يريد به شراً فيفتح لنفسه بابين ، يدخل أمام الرجل من باب ثم يخرج من باب آخر ، فإن انتظره الرجلُ على باب فاليربوع يخرج من الآخر .

---

(١) اليربوع هو الفأرة الكبيرة تكون فى الصحراء ، تثقب الأرض إلى القعر ، ثم يصعد من ذلك القعر إلى وجه الأرض من جانب آخر [تفسير الفخر الرازى مفاتيح الغيب ١٢/٤٣١] . وهو حيوان له ذَنب طويل ينتهى بخصلة من الشعر وهو قصير اليدين طويل الرِّجلين ، لونه كلون الغزال .

فالكافر بكفره قد أعطانا مناعةً ، فإنه قد أعلن الكفر فنحن نأخذ حذرنا منه ، فلا يُلحق بنا إلا ضرراً محدوداً ، أما المنافق فهو قد تظاهر بالإيمان فآمناه، ويستطيع أنْ يُلحق بنا شراً رهيباً ، لأنه بحكم ما أخذه من أمان منَّا يعرف أسرارنا ومواطن الضعف فينا ، وقد تكون طعنته قاتلة .

فالكافر عدو ظاهر واضح صريح ، أما المنافق فإنه عدوٌّ خفيٌّ ، والعدو الخفى شرٌّ من العدو الظاهر ، لأننا نكون على حذر من العدو الظاهر لكننا لا نأخذ الحذر من العدو الخفى ، وهو يعرف كلَّ تحركاتى ويستطيع أنْ يغدر بى فى أيِّ وقت دون أكون منتبهاً لهذا الغدر .

وأولى مراحل الجهاد هى الجهاد بالحجة ، فالمؤمنون كانوا فى أول الأمر قلَّةً ضعيفة لا يملكون قوة يواجهون بها هذا المدّ الكبير من الكفار .

ويقول الحق سبحانه : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (١٢٣) ﴾[التوبة] وهذا يعنى أن هناك قوماً قريبين منهم ما زالوا كافرين ، وهناك قوم أبعد منهم .

والحق سبحانه قد قال : ﴿ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً (٣٦) ﴾ [التوبة] ، ويقول تعالى : ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (١٩٠) ﴾ [البقرة]

ولا بدّ أنْ تكون نية القتال فى سبيل الله ، لا أنْ يكون القتال بنية الاستعلاء والجبروت والطغيان ، فلا قتالَ من أجل الحياة أو المال أو لضمان سوق اقتصادى ، وإنما القتال لإعلاء كلمة الله ونُصْرة دين الله ، هذا هو غرض القتال فى الإسلام ، قتالٌ لردِّ العدوان لا بداية عدوان .

والسيف لم يأت ليفرض العقيدة ، إنما ليحمى الاختيار فى النفس الإيمانية .

ولم يأمر اللهُ بقتال قبل رسول الله ، فقد كان الرسول من السابقين على

محمد ﷺ يُبلغ قومه برسالته ، فإنْ آمنوا فبها ونعمتْ ، وإنْ لم يؤمنوا تتدخّل السماءُ بالعقاب ، بريح صرصر ، رجفة ، صيحة ، خسف الأرض بهم ، إغراق .

فالرسول قبل محمد ﷺ كان يُبلِّغ ، والله يعاقب مَنْ لم يؤمن ، وما وُجد قتال إلا إذا اقترحوا هم القتال مثل بنى إسرائيل ، قال الحق سبحانه : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ (٢٤٦) ﴾ [البقرة]

هم الذين اقترحوا ، لكن القتال الذى يثبِّت المبدأ أو ينشر المنهج لإعلاء كلمة الله وسيطرة الخلافة الإيمانية على الأرض لم يشرع إلا على يد رسول الله . فكأنَّ الله لم يأمن خَلْقاً على خَلْق إلا أمة محمد ﷺ ، فقد جعلها أمينة على البشر .

وقد يسأل سائل : ولماذا لا ينصر اللهُ المؤمنين والرسول مباشرة دون قتال لغيرهم من الكفار والمشركين ؟ نقول : لأن النصر لو جاء بسبب غيبيٍّ من الحق ربما قالوا ظاهرة طبيعية قد نشأت ، ولكن الحق يريد أنْ يُظهر أن القلّة المؤمنة هى التى غلبتْ .

وعندما يقول الحق سبحانه : (وقاتلوهم) نفهم أن هذا أمرٌ للمؤمنين ليقاتلوا الكفار ، ولا بدَّ أنْ يكون الكفار قد فعلوا شيئاً يستحق أنْ يقاتلوا عليه ، أو أنهم يُبيِّتون للمؤمنين القتال ، وعلى المؤمنين أنْ يواجهوهم ويقاتلوهم .

والكافرون سعوا لقتال المسلمين فى بدر وأُحد ، ثم زحفوا على المدينة وتحزَّبوا مع اليهود ، فكانت غزوة الخندق وذلك للقضاء على الدولة التى نشأت فى المدينة ، لذلك وجب الجهاد والقتال على المؤمنين دفاعاً عن الإسلام وعن بقائه .

وقد زيَّن الشيطانُ للكفّار قتالَ المؤمنين فجعله مُحبَّباً إلى نفوسهم ، وأنهم سيحققون النصر ويصبحون حديث الجزيرة العربية كلها ، وتخافهم الناس

وتهابهم ويصبحون هم الكبراء وأصحاب الكلمة .

يقول تعالى : ﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ[1] عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٤٨) ﴾ [الأنفال]

فجهاد المؤمنين للكافرين هنا هو جهادٌ صريح ، قتالٌ فى أرض المعركة، فيها غالبٌ ومغلوب ، ومنتصر ومهزوم ، أما جهاد المنافقين فهو جهاد من نوع آخر لأن المنافق لا يُظهر لك عداوته ، بل إنه يُظهر لك أنه منك ومعك .

فالجهاد معهم هو توقيع العقاب عليهم ، وقد كان المنافقون يرتكبون الإثم ويسألهم رسول الله فينكرونه فيصفح عنهم ، وقد كانوا يُكثرون الحلف أنهم ما فعلوا .

فيذكر الحق سبحانه : ﴿ وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ .. (٥٦) ﴾ [التوبة] ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا (٧٤) ﴾ [التوبة] ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ (٦٢) ﴾ [التوبة]

وقال تعالى ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (١) ﴾ [المنافقون]

لقد كان المنافقون أسبقَ الناس إلى الصفوف الأولى فى الصلاة لأن كلَّ منافق منهم أراد أنْ يحبُكَ مسألة نفاقه ويُواريه ، فيحرص على ما يندفع المؤمنون إليه .

والمنافقون أخطر على المؤمنين من الكافرين، لذلك قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا (١٤٠) الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ

---

(١) نكص على عقبيه : ولّى مدبراً . ومعنى نكص : رجع بخزى من حيث جاء . والنكوص أن يهرب ذليلاً خازياً . والنكوص : الإحجام عن الشيء .

الله قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ(١) عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا (١٤١) ﴾ [النساء]

وهم يتربصون بالمؤمنين ، فإنْ وجدوا خيراً قد أتى لهم فهم يريدون الاستفادة منه ، وإنْ جاء شرٌّ فالمنافقون يتجهون للاستفادة من الخصوم ، فظاهراً هم يُعلنون الإيمان وهم فى باطنهم كفار ، وهم يتربَّصون بالمؤمنين انتظاراً لما يحدث وليُرتِّبوا أمورهم على ما يجيء .

فإنْ فتح الله بنصره على المؤمنين فى معركة وأخذوا مغانم قال المنافقون: ﴿ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ (١٤١) ﴾[النساء] فلا بدَّ لنا من سهم فى هذه الغنيمة ، وإذا انتصر الكفار يذهبون إلى الكافرين مصداقاً لقول الحق سبحانه: ﴿وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٤١) ﴾ [النساء]

فقوْل الكافرين ﴿أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ (١٤١) ﴾[النساء] يكشف موقفهم عندما تقوم معركة بين معسكرى الكفر والإيمان ، فيحاول المنافقون معرفة تفاصيل ما ينويه المؤمنون ، ولحظة أنْ يدخل المنافقون أرض المعركة فهم يُمثِّلون دورَ مَنْ يأسر الكافرين حماية لهم من سيوف المؤمنين ، ثم يقول للكافرين : نحن استحوذنا عليكم أى منعناكم أن يقتلكم المؤمنون ويطلبون منهم الثمن .

لذلك جمع الحق سبحانه بين الكافرين والمنافقين فى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ (٩) ﴾ [التحريم]

ومعنى ﴿ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ (٩) ﴾ [التحريم] أى : أنذرهم بالعذاب الرهيب الذى

---

(١) ألم نستحوذ عليكم . أى : ألم نحط بكم من ورائكم ونمنعكم من المؤمنين ونجادل المؤمنين عنكم فنحبسهم عنكم ونخبرهم أنّا معكم . قال الطبرى فى تفسيره : أصل الاستحواذ فى كلام العرب فيما بلغنا الغلبة . وقال السمرقندى فى تفسيره (١/٣٥٠) : « ألم نخبركم بصورة المسلمين ونطلعكم على سرهم ونخبركم عن حالهم » .

ينتظرهم علَّهم يُفيقون ، والغلظة ليست صفةً دائمة ، بل تعنى أنك إنْ تطلَّب الأمر فيجب أنْ تتوافر فيه .

لذلك قال تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً (١٢٣) ﴾ [التوبة]

والغِلْظة الشدة ، فحين تضرب عدوك اضربه بقوة وبجرأة وبشجاعة ، وحين يحاول عدوك أن يضربك استقبل الضربة بتحمُّل ، وهكذا نجد أنَّ الغلظة مطلوبة فى الحالتين .

فى حالة الإرسال منك وفى حالة الاستقبال منه فلا يكفى أنْ تضرب عدوك ضربةً قوية ، وحين يرد لك الضربة تخور وتضعف ، إنَّ الحق يطلب منك غلظةً تحمل على عدوك ، وغلظة تتحمل من عدوك .

فالغلظة تتطلب منك أنْ تهاجم ، وتتطلب منك أنْ تتحمّل ، والتحمُّل يقتضى صبراً ، والتحامل يقتضى شجاعة ، فإذا كان فى خَصْمك صبر وشجاعة فعليك أنْ تُصابره أى تصبر أكثر منه .

والغلظة والشدة إنما تكون فى ميدان المعركة وهى القوة فى القتال هجوماً ودفاعاً ، ويقول تعالى : ﴿ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ[1] .. (١٢) ﴾ [الأنفال]

والضرب لما هو فوق الأعناق هو ضَرْب الرأس فيفقد القدرة على التفكير أو تذهب حياته لينتهى ، وإنْ بقى على قيد الحياة فسوف يشاهد مصارع زملائهم وذِلّتهم .

والضرب منهم كلَّ بنان أى ضربهم بالسيوف فى أيديهم ، لأن الضرب فى

(١) البنان : أطراف الأصابع . ويقال : البنان الأصابع بعينها . [الزاهر فى معانى كلمات الناس – ابن الأنبارى ٢/١٤٩] .

الأيدى إنما يجرحها ويجعلها عاجزةً عن القتال .

والكافرون والمنافقون كلاهما ﴿مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ (٩)﴾ [التحريم] أى أن المرجع الذى يأوون إليه هو النار ، والمأوى الموضع الذى ترجع أنت إليه ، فالنار مأواهم ومثواهم الذى يرجعون إليه .

فكلمة (مأوى) معناها المكان الذى يُضطر الإنسان إلى أنْ يأوى إليه ، وأنت تقول : أويتُ إلى كذا ، إذا كان هذا هو المكان الذى يعصمك من شيء .

فإذا كانت النارُ مأواهم فلا بدّ أنَّ ما خارجها بالنسبة لهم أشدّ عذاباً ، فهم يأوون إلى النار ، فمأواهم مصيرهم ونهايتهم النار .

والحق سبحانه هنا قال : ﴿مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ (٩)﴾ [التحريم] وإذا كان المأوى الذى يفزعون إليه هو جهنم ، فمعنى ذلك أنهم بحثوا عن منفذ فلم يجدوا منفذاً إلا أنْ يدخلوا جهنم .

﴿ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ (٢٩) ﴾ [إبراهيم] ، ولجهنم أبواب ﴿ فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (٢٩) ﴾ [النحل]

وجهنم اسمٌ لنار الآخرة من الجهامة وهى كراهة المنظر ، وكذلك بُعْد قَعْرها ، والجحيم اسمٌ من أسماء جهنم .

﴿ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٩) ﴾ [التحريم] والمصير المرجع الأخير لأيِّ شيء . أى : ساءت نهايتكم ومرجعكم ، وهو لن يذهب إلى هذا المصير باختياره ، فالحق سبحانه يقول : ﴿ ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٢٦) ﴾ [البقرة]

فالله تعالى يحذر الكافرين أنَّ لهم النارَ والعذاب فى الآخرة ، ليس على اختيار منهم ولكن وهم مقهورون ، ولا بدّ أنْ يكون المصير المؤدى إلى جهنم غاية فى السوء .

ومن رحمة الحق سبحانه بخلقه أنْ أنزل للناس المنهجَ الذى يهديهم الحياة

الباقية بدلاً من أنْ يظلُّوا أسرى الحياة الفانية وحدها .

ومن رحمته أيضاً أنْ حذَّرهم من المصير السيء الذى ينتظر مَنْ يكفر به ، ومثل هذا التحذير لا يصدر إلا من مُحبٍّ ، فسبحانه يحب خَلْقه .

وما دام الحق سبحانه يحب خَلْقه فإنه لا يحب أنْ تكون نهايتهم سيئة ، أو أنْ يكون مصيرهم إلى النار ، ولكن يعلم الكافرون أنَّ مصيرهم جهنم ، وبئس الدار التى يدخلونها فى اليوم الآخر .

والمثوى الذى سيبقى خلوداً للظالمين هو النار وهو بئس المثوى ، وكلمة (بئس) تُستعمل لذمٍّ وتقبيح الشيء ، وحين تكون النار هى المأوى ، أليس ذلك هو بئس المرجع ؟

ومما جاهد به رسول الله الكافرين والمنافقين ما حدث فى غزوة الأحزاب، ويقول عنها الحق سبحانه : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٩) إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا (١٠) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا (١١) ﴾ [الأحزاب]

وهذه المعركة كانت قاسية ، حرَّك الحقُّ فيها الريح وتفرَّق فيها أعداء الإسلام وصرفَ الحقُّ الأحزاب ورجع الرسول ﷺ إلى المدينة ، وقد كان من المفترض أنْ يرتاح المؤمنون المقاتلون .

ولكن قبل أنْ يخلعوا ملابس الحرب جاء جبريل إلى رسول الله ﷺ وقال : أو قد وضعتَ السلاح يا رسول الله ؟ قال : نعم . فقال جبريل : فما وضعتْ الملائكة السلاح بعد ، وما رجعتُ الآن إلا من طلب القوم .

إنَّ الله عز وجل يأمرك يا محمد بالمسير إلى بنى قريظة ، فإنى عامد إليهم

فمزلزل بهم . فأمر رسول الله ﷺ مؤذناً فأذَّن فى الناس : لايصلين أحد العصر إلا فى بنى قريظة، فأدرك بعضهم العصر فى الطريق ، فقال بعضهم : لا نصلى العصر حتى نأتيها ، وقال بعضهم : بل نصلى لم يُرد منا ذلك . فذُكر للنبى ﷺ فلم يُعنِّف أحداً منهم[1].

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ[2] كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾

الحق سبحانه يضرب لنا الأمثال بالأمور المُحسَّة كى ينقل المعانى إلى أذهاننا ، فالإنسان له إلْفٌ بالمُحسِّ ، وإدراكات حواسِّه تعطيه أموراً حِسية أولاً ثم تحقق له المعانى بعد ذلك .

وهو سبحانه القادر على ضَرْب الأمثال حتى بأقلّ المخلوقات وأتفهها فى نظرنا ، والحق سبحانه يقول : ﴿ إِنَّ اللهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ..(٢٦)﴾ [البقرة]

فلا تستقلّ أمرَ هذه البعوضة ، ولا تستحقر أنْ يجعلها الله مثلاً ، لأنه سبحانه

---

(١) عن ابن عمر قال قال النبى ﷺ لنا لما رجع من الأحزاب : « لا يصلين أحد العصر إلا فى بنى قريظة ». فأدرك بعضهم العصر فى الطريق . فقال بعضهم : لا نصلى حتى نأتيها . وقال بعضهم : بل نصلى لم يُرد منا ذلك ، فذُكر للنبى ﷺ ، فلم يُعنِّف واحداً منهم . أخرجه البخارى فى صحيحه (٩٤٦، ٤١١٩). وكذا مسلم فى صحيحه (١٧٧٠) .

(٢) فخانتاهما : فخالفتاهما بالمعصية . وقال مقاتل بن سليمان فى تفسيره (٢/١٠٩) : فخالفتاهما فى الدين ولم يكن فى الفرج . وقد رواه عبد الرزاق فى مصنفه (١٢٣٤) .

لا يستحيى أنْ يضرب بها المثَل ، لأن فى هذه البعوضة كل أجهزة تكوين الحياة التى فيك ، وفى أضخم الحيوانات مثل الفيل والجمل ، ولأن هذه البعوضة التى تستحقرها قد تكون أقوى منك وقد تُعجزك أنت على قوتك وحيلتك وجبروتك .

فالحق سبحانه جاء بهذا المثَل لهذا المخلوق الحقير فى نظرك ليوضح لك قضيةً غامضة يُنبِّهك إليها .

ولأهمية ضَرْب المثل فى توضيح الغامض يلجأ إليه الشعراء ليُقرِّبوا المعنى من الأفهام ، فقد يقف الشاعر أمام قضية معقدة لا يدركها إلا العقلاء ، ويريد الشاعر الوصولَ بها إلى أفهام العامة .

وذلك مِثْل قضية الحاسد الذى يظهر بحسده مزايا محسوده ومكارمه ، فقد يتهم البريء بتهمة ظلماً ، فتكون سبباً فى رفعته بين قومه .

أخذ الشاعر العربى[1] هذا المعنى وصاغه شعراً وضرب له مثلاً توضيحياً فقال :

إِذَا أَرَادَ اللهُ نَشْرَ فَضِيلَةٍ طُوِيَتْ ... أَتَاحَ لَهَا لِسَانَ حَسُودِ

لَوْلاَ اشْتِعَالُ النَّارِ فِيمَا جَاوَرَتْ ... مَا كَانَ يُعْرَفُ طِيبُ عَرْفِ العُودِ[2]

فقد يكون لديك فضيلة مكتومة مغمورة لا يعرفها أحد ، حتى تتعرض لحاسد لك يتهمك ويُشوِّه صورتك ، فإذا بالحقيقة تتكشَّف للجميع ويُظهر ما عندك من مواهب ، وما لديك من فضائل .

وما أشبه ذلك بالعُود طيِّب الرائحة الذى لا نشمُّ رائحته إلا إذا حرقناه .

---

(١) هو حبيب بن أوس الطائى أبو تمام . ولد ١٨٨ هجرية . شاعر أديب أحد أمراء البيان ، وُلد فى قرية جاسم من قرى حوران بسورية ، نزل مصر وبغداد ، وتوفى ببغداد عام ٢٣١ هـ . كان أسمر طويلاً فصيحاً يحفظ أربعة عشر ألف أرجوزة . فى شعره قوة وجزالة . [الأعلام للزركلى ٢/١٦٥] .

(٢) البيت من بحر الكامل . وهو من قصيدة لأبى تمام فى ديوانه ٨٥ يمدح فيها أبا عبد الله أحمد بن أبى دؤاد ويعتذر إليه . وعرْف العود أى رائحة العود الذى يُتبخر به .

فالهدف من ضَرْب الأمثال أنْ يُوضِّح لك مجهولاً بمعلوم ، فإذا كنتَ مثلاً لا تعرف شخصاً نتحدث عنه فيمكن أنْ نقول لك : هو مثل فلان المعلوم لك فى الطول ، ومثل فلان فى اللون من الصور المعلومة لك ، وبعد أنْ تجمع هذه الصور تكوّن صورة كاملة لهذا الشخص الذى لا تعرفه .

ففى القرآن الكريم أمثالٌ كثيرة تُوضِّح لنا المجهول بمعلوم لنا ، وتوضح الأمر المعنوى بالأمر الحسيِّ الملموس لنا .

ومن ذلك ما ضربه الله لنا مثلاً فى الإنفاق فى سبيل الله وأن الله يضاعف النفقة ، ويُخلف على صاحبها أضعافاً مضاعفة ، فقال تعالى : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦١) ﴾ [البقرة]

وكلمة (ضرب) مأخوذة من ضَرْب العملة ، حيث كانت فى الماضى من الذهب أو الفضة ، فكان الناسُ قديماً يأتون بقطع من الفضة أو الذهب ويُشكِّلونهما بقدر وشكل مُحدَّد لتدلّ على قيمة ما ، وتصير بذلك عملة متداولة ويقال : ضُرب فى مصر .

أى : اعتُمد وصار أمراً واقعاً ، وكذلك المثَل حين ينتشر ويصبح أمراً واقعاً .

فضَرْب العملة كان فى الماضى من الذهب أو الفضة ، ولخوْف الغش فيها حيث كانوا يخلطون الذهب مثلاً بالنحاس ، فكان النُّقاد أى الخبراء فى تمييز العملة يضربونها أى يختمون عليها فتصير معتمدةً مَوْثوقاً بها ونافذة وصالحة للتداول .

كذلك إذا ضرب الله مَثَلاً لشيء مجهول بشيء معلوم استقرّ فى الذهن واعتُمد .

فالضرب : إيقاع شيء من ضارب بآلة على مضروب ، ومنه ضَرْب العملة

أى سكَّها وخَتْمها ، فبعد أنْ كان قطعة معدن أصبح عملةً متداولةً .

ومنه ضَرْب موسى البحر بعصاه ، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ[1] بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى (٧٧) ﴾ [طه]

فضربَ موسى البحر بعصاه فانفلق البحرُ وانحسر الماء عن طريق جاف صالح للمشى بالأقدام ، فالطريق المضروب أى المُعدّ والممهّد والصالح لهذه المهمة .

والضرْب هنا لايعنى إحداثَ أثرٍ ضارٍّ بالضربِ ، إنما إحداث أثر نافع إيجابى كما فى قوله تعالى : ﴿وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ (٢٠)﴾ [المزمل]

فكأنَّ الضرب يُحدِث فى المضروب أثراً باقياً ، ففى الأرض بإثارة دفائنها واستخراج كنوزها ، وفى العملة بترْك أثر بارز لا تمحوه الأيدى فى حركة التداول .

وكأنَّ ضرْب المثَل يُوضِّح الشيء الغامض توضيحاً بيِّناً كما تُسك العملة ويجعل الفكرة فى الذِّهْن قائمةً واضحةَ المعالم ، وللضرْب عناصرُ ثلاثة : الضارب ، والمضروب ، والمضروب به .

ومن الأمثلة التى ضربها الله لنا ليُوضِّح لنا قضية التوحيد قوله تعالى : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٢٩) ﴾ [الزمر]

فالذى يتخذ مع الله إلهاً آخر كالذى يخدم سيدين وليتهما متفقان ، إنما هما متشاكسان مختلفان ، فإنْ أرضى أحدهما أسخط الآخر ، فهو متعب بينهما ،

---

(١) أسر بعبادى : أى سر ببنى إسرائيل ليلاً من أرض مصر . [تفسير الطبرى ١٩/ ٣٥٠] أسرى : سار ليلاً . وقال الثعلبى (٦/ ٢٥٥) : أى سر بهم أول الليل من أرض مصر .

فهل يستوى هذا العبد وعبد آخر يخدم سيداً واحداً ؟ كذلك فى عبادة الله وحده لا شريكَ له .

فبالمثال اتضحت القضيةُ ورسختْ فى الأذهان ، لذلك يقول سبحانه : أنا لا أستحيى أنْ أضرب الأمثال ، لأننى أريد أنْ أوضح لعبادى الحقائق ، وأُبيِّن لهم المعانى .

والحق سبحانه يقول : ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَـٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ (٥٨) ﴾ [الروم] يعنى : أتيناهم بأمثال ودلائل لا يمكن لأحد إلا أنْ يستقبلها كما يستقبل الضرب ، لأن الضرب آخر مرحلة من مراحل الإدراك .

ولكن لماذا يضرب الله الأمثالَ للناس ؟ قالوا : لأن الإنسانَ له حواس متعددة، فهو يرى ويسمع ويشمّ ويتذوّق ويلمس ، ولو تأملتَ كلّ هذه الحواسّ لوجدتَ أنَّ ألصق شيء بالحس أنْ يضرب ، لذلك حين تريد أنْ تُوقِظ شخصاً من النوم فقد لا يسمع نداءك فتذهب إليه وتهزّه كأنك تضربه فيقوم .

إذن : فالضرب هو الأثر الذى لا يتخلَّف مدلوله أبداً ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ (٢٠) ﴾ [المزمل] أى : يُؤثرون فيها تأثيراً واضحاً كالحرْث مثلاً ، وهو أشبه ما يكون بالضرب .

فالحق سبحانه يضرب المثل ليُشعركم به وتُحسّوا به حسَّ الألم من الضرب، فإذا لم يحُسّ الإنسانُ بضرْب المثل فهو كالذى لا يحسُّ بالضرب الحقيقى المادى .

والحق سبحانه يضرب هنا المثل للذين كفروا بامرأتين من نساء الأنبياء، فيقول تعالى : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا (١٠) ﴾ [التحريم]

فهذان رسولان ومع ذلك لم يستطيعا إقناع زوجتيهما بالتوحيد ، وليس

المقصود بالخيانة هنا الخيانة الجنسية ، لكن لنستدلَّ على أن الرسول وإنْ كان رسولاً ليس له من القدرة على أنْ يقهر زوجه وامرأته على العقيدة .

فهى تملك حرية الاعتقاد ، فلا ولايةَ هنا للرجل على المرأة فى العقيدة، حتى إن ادَّعى الألوهية ، كفرعون مثلاً ، يقول الحق سبحانه عن امرأته : ﴿ وَضَرَبَ اللهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١١) ﴾ [التحريم]

فهذه اللقطات تدلُّنا على أنَّ قضية الإيمان لا ينفع فيها النسب أو الزواج ، والله سبحانه يوضح لنا أنَّ الرسول مع أنه رسولٌ من الله إلا أنه لا يستطيع أنْ يفرض إيماناً على امرأته ، فالمسألة هى حرية الاعتقاد .

وانظر إلى التعبير القرآنى ﴿ ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ (١٠) ﴾ [التحريم]

إياك أنْ تظنّ أنَّ أيّاً منهما متكبِّرة على زوجها ، لأن الحق سبحانه يقول: ﴿ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا (١٠) ﴾ [التحريم] أى أن إمرة وقوامة الرجل مؤكَّدة عليهما ، يشير إلى ذلك قوله تعالى : ﴿ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا (١٠) ﴾ [التحريم]، لكن الإيمان هو مسألة اختيار، وهذا الاختيار متروك لكلِّ إنسان .

وحاول البعض أنْ يلصق تهمة الزنا بامرأة نوح وامرأة لوط ، وهم فى ذلك يُجانبون الصدق ، إنه محْضُ افتراء .

ولنفهم أنَّ الاختيار فى العقيدة هو الذى جعلهما من الكافرين ، وأنَّ الرسولين نوحاً ولوطاً لم يستطيعا إدخال الإيمان فى قلبيْ الزوجتين ، حتى يتأكَّد لدينا أنَّ العقيدة لا يقدر عليها إلا الإنسان نفسه .

والحق سبحانه لم يذكرهما باسميهما ولم يُشخِّصهما ، لأن التشخيص هنا لا يفيد ، فالمهم والمراد من الآية بيان أنَّ الهداية بيد الله وحده ، وأنَّ النهى

المرسَل من الله لم يستطع هداية زوجته وأقرب الناس إليه ، وأن للمرأة حرية عقيدةٍ مطلقة .

فالحق سبحانه هنا لم يُحدد اسم أيّ امرأة من هاتين المرأتين ، بل ذكر فقط الأمر المهم ، وهو أنَّ كلاًّ منهما كانت زوجة لرسول كريم ، ومع ذلك لم يستطع نوحٌ عليه السلام أنْ يستلب العقيدة الكافرة من زوجته .

ولم يستطع لوطٌ عليه السلام أنْ يستلب العقيدة الكافرة من زوجته ، بل كانت كلٌّ من المرأتين تتآمر ضد زوجها وهو الرسول مع قومها ، لذلك كان مصير كلٍّ منهما النار ، والعبرة من القصة أنَّ اختيار العقيدة هو أمر متروك للإنسان ، فحرية العقيدة أساسٌ واضح من أُسس المنهج .

إذن : فالقدر المشترك هو حرية الاعتقاد ، فلا سلطانَ لنوع على نوع ، فلا يوجد رجلٌ يرغم امرأةً على عقيدة ، أما الذين قالوا السوء فى امرأة نوح فعليهم أن يستغفروا الله ، فالحق سبحانه مُنزَّه عن التدليس على رسوله .

فخيانةُ امرأة نوح كانت عدم إيمانها بما جاء به نوح عليه السلام ، أما خيانةُ امرأة لوط فكانت بموالاتها للقوم المفسدين ، وإفشائها للأسرار ، وقد كانت تدلّ قومها على ضيوف لوط عليه السلام .

وتوصى الملائكة لوطاً عليه السلام ألاَّ يصحب امرأته معه لأنها خانته، وعليه أنْ يتركها مع الذين يصيبهم العذاب ، ولكنها لحظة الخروج ادعتْ أنها مخلصة للوط وقالت : سأخرج حيث تخرج ، ثم نظرتْ إلى القوم وقالت : واقوماه[1]. ورجعتْ لتمكثَ معهم ، ولينالها العذاب الذى نالهم فى الموعد الذى حدَّدته الملائكة وهو الصبح .

---

(١) ذكر ابن أبى حاتم فى تفسيره (١٢/٥٥٨) أن امرأة لوط خرجت معهم ، وأنها لما سمعت الوجبة التفتت وقالت : واقوماه . فجاءها حجر من السماء فقتلها .

﴿ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ (٨١) ﴾ [هود] وقال تعالى : ﴿ قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ (٨١) ﴾ [هود]

فلما أنْ أصابه السوء بمرآهم بدل أنْ يسعد بهم وخاف عليهم طمأنوه ﴿ وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٣٣) ﴾ [العنكبوت]

لا تخفْ علينا من هؤلاء الأراذل فلسْنا بشراً ، إنما نحن ملائكة ما جئنا إلاَّ لنريحك منهم ونقطع جذور هذه الفِعْلة الخبيثة ، وسوف نُنجيك وأهلك من العذاب النازل بهم .

ثم يستثنون من أهله ﴿ إِلَّا امْرَأَتَكَ (٣٣) ﴾ [العنكبوت] ، فكثيراً ما ضايقتْه وأفشتْ أسراره ودلَّتْ القوم على أضيافه ﴿ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٣٣) ﴾ [العنكبوت] الباقين فى العذاب .

فامرأة لوط لم تدخل فى الإنجاء لأنها من الغابرين . و (غبر) تأتى لمعانٍ متعددة ، فهى تعنى إقامةً ومُكْثاً بالمكان ، أو تعنى أيَّ شيء مضى .

وما دام الحق يُنجيه من العذاب الذى نزل على قوم لوط فى القرية فنجد زوجته لم تخرج معه ، بل بقيتْ فى المكان الذى نزل فيه العذاب وبقيت فى الماضى .

ونحن لا ندخل فى تفاصيل ، لماذا كانت امرأتُه من الغابرين لأن البعض تكلَّم فى حقها بما لا يُقال ، وكأنَّ الله يُدلِّس على نبى من أنبيائه ، لا ، نحن لا نأخذ إلا ما قاله الحق بأنها كانت مخالفةً لمنهجه وغير مؤمنة به .

وكلٌّ من امرأة نوح وامرأة لوط كانتا ﴿ تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ

(١٠)﴾ [التحريم] والحق سبحانه يقول عن نوح ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا (٣) ﴾ [الإسراء]

فعملُه الصالح ينفع ذرية صاحبه ، لذلك سنلاحظ ذرية نوح بعنايتنا ، ولن نتركهم يتخبطون فى متاهات الحياة ، وسنرسل لهم الهدى الذى يرسم لهم الطريق القويم ويُجنِّبهم الزلل والانحراف .

ومعنى ﴿ صَالِحَيْنِ (١٠) ﴾ [التحريم] أى أنه توفر فى كلٍّ من الرسولين نوح ولوط شرط الصلاح ، فهما عبدان من عباد الله وليس صلاحُهما قهراً من الله لهما ، بل إنَّ الحق سبحانه ينسب الصلاح إليهما ، فهما صالحان فى ذاتيهما، لذلك اصطفاهما الله .

فمعنى (صالح) أنه صالح لأنْ يكون خليفةً فى الأرض ، وصالح لاستعمار الأرض أى أنْ يجعلها عامرةً فيترك الصالح فى ذاته أو يزيده صلاحاً ويحاول أنْ يصلح أيَّ أمر غير صالح ، فالرجل الصالح عندما يعمل فهو يحاول أنْ يجعل عمله عن عُمْق علم ، فلا يُقدم على العمل الذى يعطى سطحيةَ نفْعٍ ثم يسبِّب الضرر من بعد ذلك .

ولا شيءَ يُغنى من الله شيئاً ، لذلك قال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَـٰئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ (١٠)﴾ [آل عمران]

فلا شيءَ سيُنقذ الكافر من النار ومما سيحدث فى ذلك اليوم ، كعزوة الأولاد أو كثرة مال يشترى نفسه به أو خُلّة أو شفاعة ، فالأموال والأولاد لا تُغنى أحداً يوم القيامة ، والمسألة ليستْ عزوةً فيها ، ولا أنساب بينهم يومئذ والجنة ليست للبيع ، فلا أحد يستطيع شراء مكان فى الجنة بمال يملكه .

وهنا فى الآية التى معنا ﴿ فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا (١٠) ﴾ [التحريم] فلم يُغن نوح ولوط امرأتيهما شيئاً ولن ينقذاهما من النار ، حتى ولو كانا رسولين مُقرَّبين من الله .

بل سيُقال لهما ﴿ ادْخُلا النَّارَ .. (١٠) ﴾ [التحريم] وليس هذا فقط، بل ﴿ مَعَ الدَّاخِلِينَ (١٠) ﴾ [التحريم] مثلكم مثل الآخرين، فلن نميزكُن بشيء أيّاً كان، ولن ينجيكما أنكما زَوْجا رسولين من رُسل الله.

ولذلك لفتَ بعضُ العلماء إلى مناسبة قوله تعالى هنا عن امرأة نوح وامرأة لوط، بعد قوله تعالى: ﴿ إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللهِ فَقَدْ صَغَتْ[1] قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا[2] عَلَيْهِ فَإِنَّ اللهَ هُوَ مَوْلاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ (٤) ﴾ [التحريم] في ذكر عائشة وحفصة رضى الله عنهما.

قالوا: ضرب الله مثلاً للذين كفروا يحذر به عائشة وحفصة من المخالفة لرسول الله ﷺ حين تظاهرتا عليه.

وما أحسن مَنْ قال: فإنَّ ذِكْر امرأتي النبيين بعد ذِكْر قصتهما ومظاهرتهما على رسول الله ﷺ يلفت إلى أن المراد تخويفهما مع سائر أمهات المؤمنين وبيان أنهما وإنْ كانتا تحت عصمة خَيْر خَلْق الله وخاتم رسله، فإن ذلك لا يُغني عنهما من الله شيئاً، وقد عصمهما الله عن ذنب تلك المظاهِرة بما وقع منهما من التوبة الصحيحة الخالصة.

فلم يُغْنِ نوحٌ عن ابنه ولا عن امرأته، ولا إبراهيم عن أبيه، ولا لوط عن امرأته، وقد قال تعالى: ﴿ لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ (٣) ﴾ [الممتحنة]

---

(١) فقد صغت قلوبكما: فقد زاغت قلوبكما. يعني مالت قلوبكما. [تفسير مقاتل بن سليمان ٤/٣٧٧] وذكره عبد الرزاق في مصنفه (٣٢٤٨) وعزاه لقتادة. ويقال: معناه إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما يعني مالت إلى الحق. ذكره السمرقندي في تفسيره (٣/٤٦٧).

(٢) تظاهرا عليه: يعني تعاونتما. قال الماوردي في تفسيره (زاد المسير ٦/٤٠): يعني تعاونا على معصية رسول الله. فهما توافقتا على فعل ما يشتد عليه ويؤذيه غيرةً عليه. قاله أبو المظفر السمعاني في تفسيره (٥/٤٧٤).

وقال تعالى : ﴿ مَعَ الدَّاخِلِينَ.. (١٠) ﴾ [التحريم] مع الداخلين النارَ ممنْ لا وُصْلة بينهم وبين الأنبياء ، أو مع مَنْ دخلها من إخوانكما من قوم نوح وقوم لوط الذين ناصرتموهم على نوح ولوط ، وكفرتما معهم بنوح ولوط عليهما السلام .

فالحق سبحانه يقطع أمل كلِّ مَنْ يرتكب المعصية أنْ ينفعه صلاحُ غيره، فلا كرامةَ ولا شفاعةَ فى أمْر الكفر والإيمان، وقد كان بوُسْعهما أنْ تؤمنا وتكونا من الداخلين الجنةَ لا النار .

ومن عجائب الرسم القرآنى لألفاظه هنا أن كلمة امرأة هنا لم تُكتب بالتاء المربوطة إنما بالتاء المفتوحة (امرأت نوح) (امرأت لوط) ، فالرابطة الزوجية كانت قائمةً بين كلِّ نبيٍّ وزَوْجه ، فكلمة امرأة إذا أضيفتْ إلى زوجها فهى بالتاء المفتوحة .

وقد بُنى الفعل للمجهول أو لما لم يُسمَّ فاعله فى قوله ﴿ وَقِيلَ ادْخُلَا (١٠) ﴾ [التحريم] تجاهلاً لهما وعدم اعتداد بهما وذلك لكفرهما مع أنه كان الأليق بهما الإيمان ، فكُلٌّ منهما زوجٌ لنبى ورسول من رسل الله .

فهما كانا ﴿ تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا (١٠) ﴾ [التحريم] أى فى عصمتهما وملازمتان لهما ووحْى الله ينزل فى وجودهما ، فلماذا يتنكبان الطريق وقد أتاح اللهُ لهما وأنعم عليهما بأنْ تكون كلٌّ منهما فى بيت من بيوت النبوة ؟

فالاعتزاز يكون بالإسلام والإيمان لا بحسبك ولا نسبك ولا أخوتك البشرية أو والديتك ، وإذا تأملتَ تاريخ المسلمين الأوائل لوجدتهم يعتزون بالإسلام لا بالأنساب ، فالدين والعقيدة هما اللُّحْمة وهما الرابطة القوية التى تربط الإنسانَ بغيره ، وإنْ كان أدنى منه فى مقاييس الحياة .

وعن حذيفة رضى الله عنه قال : جئتُ إلى النبى ﷺ والعباسُ جالسٌ عن

يمينه ، وفاطمةُ رضى الله عنها عن يساره ، فقال : يا فاطمة بنت رسول الله اعملى لله خيراً إنِّى لا أغنى عنكِ من الله شيئاً يوم القيامة . ثلاثاً. يا عباس بن عبدالمطلب ، يا عم رسول الله اعمل لله خيراً إنِّى لا أغنى عنك يوم القيامة من الله شيئاً . ثلاثاً[١].

فالوزن فى القيامة للأعمال لا للأعيان ، لذلك قال النبى ﷺ لقرابته : " لا يأتينى الناس بأعمالهم وتأتونى بأحسابكم "[٢] . وقال ﷺ : " يا فاطمة بنت محمد ، اعملى فإنى لا أغنى عنك من الله شيئاً "

فالأحساب والأنساب لا قيمةَ لها فى هذا الموقف ، وقد علّمنا الحق سبحانه فى قصة إبراهيم عليه السلام أنَّ الأنسابَ بالدم واللحم عند الأنبياء لا اعتبارَ لها ، وإنما الأنساب المعترف بها بالنسبة للأنبياء هى أنسابُ القيم والدين .

فـ ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (٣٨) ﴾ [المدثر] فالاعتبار إنما هو للعمل والإيمان ، لا لكونك ابنَ نبيٍّ أو ابنَ عالم أو زوجة نبى أو رسول ، وقد أوضح الحقُّ سبحانه هذا فى آيات كثيرة .

وقرأنا فى قصة بدر أن مصعب بن عمير[٣] رضوان الله عليه ، وكان فتى

---

(١) عن أبى هريرة قال : قام رسول الله ﷺ حين أنزل الله عز وجل ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (٢١٤) ﴾ [الشعراء] . قال : « يا معشر قريش اشتروا أنفسكم لا أغنى عنكم من الله شيئاً ، يا بنى عبد مناف لا أغنى عنكم من الله شيئاً ، يا عباس بن عبد المطلب لا أغنى عنك من الله شيئاً ، ويا صفية عمة رسول الله لا أغنى عنك من الله شيئاً ، ويا فاطمة بنت محمد سلينى ما شئت من مالى لا أغنى عنك من الله شيئاً » . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٧٥٣) وكذا مسلم فى صحيحه (٣٥١) .

(٢) عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « إن أوليائى يوم القيامة المتقون وإن كان نسب أقرب من نسب فلا يأتينى الناس بالأعمال ، وتأتون بالدنيا تحملونها على رقابكم فتقولون : يا محمد فأقول: هكذا وهكذا لا ». أخرجه البخارى فى الأدب المفرد (٨٩٧) وكذا ابن أبى عاصم فى السنة (٢١٣) عن أبى هريرة .

(٣) هو مصعب بن عمير بن هاشم القرشى من بنى عبد الدار صحابى شجاع من السابقين إلى الإسلام أسلم فى مكة وكتم إسلامه ، شهد بدراً ، أسلم على يده أسيد بن حضير ، وسعد بن معاذ ، وحمل اللواء يوم أحد فاستشهد ، وكان فى الجاهلية فتى مكة شباباً وجمالاً ونعمة ، كان يُلقَب (مصعب الخير) توفى ٣ هجرية . [الأعلام للزركلى ٢٤٨/٧] .

قريش المدلَّل وأغنى أغنيائها يلبس أفخر الثياب ويعيش ألينَ عيشة ، فلما أُشرب قلبه الإيمان زهد فى كلِّ هذا النعيم ، وحُرم من خير أهله ثم هاجر إلى المدينة ، وهناك رآه رسول الله ﷺ يلبس جلد شاة فقال : انظروا ماذا فعل الإيمان بأخيكم [١]؟

وفى المعركة رأى مصعبٌ أخاه أبا عزيز[٢] أسيراً فى يد واحد من الأنصار هو الصحابى أبو اليَسر[٣] فقال له مصعب : اشدُدْ على أسيرك. يعنى : إياك أنْ يفلتَ منك فإنَّ أمَّه غنية ، وستفديه بمال كثير ، فنظر أبو عزيز إلى مصعب وقال : هذا وصاتك بأخيك ؟ فقال : هذا أخى دونك يشير إلى أبى اليسر .

إذن : فلا أنسابَ بينهم حتى فى الدنيا قبل الآخرة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ ﴾

---

(١) عن عمر بن الخطاب قال : نظر النبى ﷺ إلى مصعب بن عمير مقبلاً وعليه إهاب كبش قد تنطق به، فقال النبى : « انظروا إلى هذا الرجل الذى قد نوَّر الله قلبه ، لقد رأيته بين أبوين يغذوانه بأطيب الطعام والشراب ، فدعاه حب الله ورسوله إلى ما ترون » . أخرجه أبو نعيم فى حلية الأولياء (١/١٠٨) والبيهقى فى شعب الإيمان (٥٧٧٩) وابن الجوزى فى صفة الصفوة (١/٢٠٦) . قال العراقى فى تخريجه لأحاديث الإحياء (٤/٢٩٥) : إسناده حسن .

(٢) أبو عزيز : هو زرارة بن عمير أخو مصعب بن عمير ، له صحبة وسماع من النبى ﷺ ، واتفق أهل المغازى على أنه أسر يوم بدر . انظر الإصابة لابن حجر [ترجمة ٧٥٣ الكنى] .

(٣) أبو اليسر هو كعب بن عمرو الأنصارى ، شهد العقبة وبدراً وله فيها آثار كثيرة وهو الذى أسر العباس بن عبدالمطلب ، كان قصيراً عظيم البطن ، مات بالمدينة عام ٥٥ هجرية . [الإصابة ترجمة ١٢٤٣]. وقد ضبط الحافظ ابن حجر كنيته (أبو اليَسَر) فقال (٥/٣٠٧) : « بفتح التحتانية باثنتين والمهملة» . وقال (٧/٢١٨) : بفتحتين .

والحق سبحانه لم يذكر اسم امرأت فرعون ، لأن المهم فى المسألة هو أنها امرأة من ادعى الألوهية ، فقال : ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى (٣٨) ﴾ [القصص]، ورغم أنه أدعى الألوهية فإنه لم يستطع أن يقنع امرأته بأنه إله .

ولم يستطع أنْ يرغم امرأته على أنْ تكفر ، وهذا دليلُ أنه لا ولايةَ للرجل على المرأة فى العقيدة حتى إنِ ادَّعَى الألوهية ، وهو فرعون المتجبر لذلك لم يكُنْ مهماً ذكْر اسم امرأة فرعون لأنَّ تعيُّنها لا يُقدِّم ولا يُؤخِّر .

ففرعون الذى أضلَّ الناسَ وادَّعى الألوهية زوجته مؤمنة ، وكأنَّ الحق سبحانه يُلمح للناس جميعاً أنَّ رأيك فى الدين وفى العقائد رأيٌ ذاتيٌّ لا يتأثَّر بأحد أياً كان ، لا فى الهداية بنبيٍّ ، ولا فى الغواية بأضلِّ الضالين الذى ادَّعى الألوهية .

وهكذا يحفظ الإسلام للمرأة دورها وطاقتها ويحترم رأيها ، إذن الحق سبحانه وتعالى أتى بهذه القصة غير مُشخّصة لتكون نموذجاً وأُسْوة يحتذى بها كلُّ أحد ، وإلاَّ لو شُخِّصت لارتبطتْ بهذا الشخص دون غيره .

فلماذا إبهامُ اسمها ؟ ذلك لنعلم أنه من الجائز جداً أنْ يحصل مثل هذا الأمر لأيِّ امرأة ، فقد تكون تحت جبار وكافر ، وتكون هى مؤمنة ، وقد تكون تحت عبد مؤمن ولا يلمس الإيمانُ قلبها .

وقد قال تعالى : ﴿ فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ (٨٣) ﴾ [يونس]

وحين أراد المفسرون أنْ يُوضِّحوا معنى (ذرية) قالوا : إن المقصود بها امرأة فرعون (آسية) ، وخازن فرعون ، وامرأة الخازن ، وماشطة فرعون ، ومَنْ آمن من قوم موسى عليه السلام وكتم إيمانه .

كلُّ هؤلاء منعتْهم خشيةُ عذاب فرعون من إعلان الإيمان برسالة موسى،

لأن فرعونَ كان جباراً فى الأرض ، مُدعياً للألوهية ، وإذا ما رأى فرعونُ إنساناً يخدش ادعاءه للألوهية ، فلا بدَّ أنْ يبطش به بطشةً فاتكةً .

لذلك كانوا على خوْفٍ من هذا البطش ، فقد سبق وأنْ ذبح فرعون بواسطة زبانيته أبناءَ بنى إسرائيل واستحيا نساءهم ، وهم خافوا من هؤلاء الزبانية الذين نفَّذوا ما أراده فرعون .

لذلك جاء الضمير مرة تعبيراً عن الجمع فى قوله سبحانه (وملئهم) وجاء الضمير مفرداً مُعبِّراً عن فرعون الآمر فى قوله سبحانه : ﴿أَنْ يَفْتِنَهُمْ (٨٣)﴾ [يونس] فهم خافوا أنْ يفتنهم فرعونُ بالتعذيب الذى يقوم به أعوانه .

وقد شاء الحقُّ سبحانه أنْ ينشرح صَدْر آسية امرأة فرعون لرؤية موسى وهو طفل فى المهد ، وقد قال تعالى : ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّى (٣٩) ﴾ [طه]

أى : ليس بذاتك أنْ يُحبك مَنْ يراك إنما بمحبة الله ، لذلك ساعة رأتْه آسية أحبَّته وانشرح صدرُها برؤيته ، فتمسَّكتْ به رغم معارضة فرعون لذلك .

كما أن ابنة فرعون وكانت فتاةً مبروصة أصابها البرص[1]، ورأت فى الرؤيا أن شفاءها سيكون بشيء يخرج من البحر ، فتأخذ من ريقه وتدهن موضع البرص فيشفى ، فلما رأتْ موسى تذكرتْ رؤياها ، فأخذت من ريقه ودهنتْ جلدها ، فشُفيَتْ فى الحال فتشبَّثتْ به هى أيضاً .

ورغم هذا آمنوا بموسى ، فلم يستطع فرعون المتجبر الذى قال : ﴿ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (٢٤) ﴾ [النازعات] لم يقدر أنْ يمنع امرأته من أنْ تؤمن بالله ، فكان عاجزاً عن أنْ يجعل امرأته كافرة مثله .

وهذا يدلُّ على أن العقيدةَ أمر اختيارى محميٌّ بكلِّ أنواع الحماية ، حتى لا يختار الإنسانُ دينه إلاَّ على أساس من اقتناعه لا على أساس قهره .

---

(١) البرص : مرض جلدى يُحدث بُقعاً بيضاء فى الجلد تُشوِّهه ، وهو من أعراض مرض الجذام الكثيرة [القاموس القويم ١/ ٦٤] .

فزوجة فرعون كانت مثالاً للإيمان الذى قام فى بيت الكفر وفى عُقر داره، وليقينها فى الله سبحانه وإيمانها به وباليوم الآخر ووجود الجنة قالت : ﴿ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ (١١) ﴾ [التحريم]

وكانت امرأةُ فرعون تُعذَّب بالشمس ، فكان يُقيدها بأوتاد أربعة من يديها ورجليها ويتركها تحت الشمس الحارقة، فإذا انصرفوا عنها أظلَّتْها الملائكةُ بأجنحتها تقيها حرارة الشمس ، وكانت ترى بيتها فى الجنة[١] .

وقد كان سببُ إيمان امرأة فرعون أنها رأتْ عذاب فرعون لامرأة خازن فرعون وقد كانت ماشطة ابنة فرعون ، وقد وقع منها المشط يوماً فقالت : تعس مَنْ كفر بالله ، فقالت لها ابنة فرعون : ألكِ ربّ غير أبى ؟ فقالت : ربِّى وربّ أبيك وربك ورب كل شيء الله .

فلطمتْها ابنةُ فرعون وضربتها وأخبرت أباها ، فأرسل إليها فرعون فقال لها : أتعبدين رباً غيرى ؟ فقالت : ربى وربك ورب كل شيء الله ، وإياه أعبد .

فكذَّبها فرعون وأوتد لها أوتاداً فشدَّ يديْها ورِجْلَيْها وأرسل عليها الحيَّات فأتى عليها يوماً فقال لها : أما أنت منتهية ؟ فقالت له : ربى وربك ورب كل شيء الله ، فقال لها : فإنى ذابح ابنك فى فيك إن لم ترجعى . فقالت له : اقْضِ ما أنت قاضٍ ، فذبح ابنها فى فيها ، وأن روح ابنها بشَّرها فقال لها : اصبرى يا أمه فإن لكِ عند الله من الثواب كذا وكذا ، فصبرت ثم أتى عليها فرعون يوماً آخر فقال لها مثل ذلك .

فقالت له مثل ذلك فذبح ابنها الأصغر فى فيها فبشَّرها روحه أيضاً وقال

---

(١) عن سلمان قال : كانت امرأة فرعون تُعذَّب بالشمس ، فإذا انصرف عنها أظلتها الملائكة بأجنحتها وكانت ترى بيتها فى الجنة . أخرجه الطبرى فى تفسيره (٢٣/١١٤) وأورده السيوطى فى الدر المنثور (٨/٢٢٩) وعزاه لابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه والبيهقى فى شعب الإيمان عن سلمان .

لها : اصبرى يا أمه فإنَّ لكِ عند الله من الثواب كذا وكذا[١].

وذلك كله بعين امرأة فرعون ، وسمعت كلام روح ابنها الأكبر ثم الأصغر فآمنتْ امرأةُ فرعون ، وقبض روح امرأة خازن فرعون ، وكشف الغطاء عن ثوابها ومنزلتها وكرامتها فى الجنة لامرأة فرعون حتى رأتْه ، فازدادت إيماناً ويقيناً وتصديقاً .

واطلع فرعون على إيمان زوجته آسية ، فخرج إلى الملأ فقال لهم : ما تعلمون من آسية بنت مزاحم ؟ فأثنوا عليها فقال لهم : فإنها تعبد رباً غيرى. فقالوا له : اقتلها . فأوتد لها أوتاداً وشدَّ يديْها ورجْليهْا ، فدعَتْ آسيةُ ربَّها فقالت : ﴿رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١١)﴾ [التحريم]

فكشف لها الغطاء فنظرتْ إلى بيتها مبنياً ، ووافق ذلك أن حضرها فرعون فضحكت حين رأت بيتها مبنياً فى الجنة ؟ فقال فرعون : ألا تعجبون من جنونها ؟ إنَّا نعذبها وهى تضحك فقبض روحها، فأبصرت بيتها فى الجنة من دُرَّة بيضاء[٢] ، ولماذا طلبت أن يبنى لها الله بيتاً عنده فى الجنة ؟ هذا مؤذن بأن فرعون وقومهما كانوا يصدونها عن الإيمان بالله ويُزيِّنون لها أنها إنْ آمنت بفرعون تضيع مُلكاً عظيماً وقصراً مهيباً ، فإنْ آمنتْ بربِّ موسى فلن يكون مدفنها الهرم الذى بناه فرعون لنفسه لدفنه مع زوجه .

لذلك طلبتْ أنْ يكون ذلك البيت عند الله ، فقالت مخاطبة ربها ﴿عِندَكَ.. (١١)﴾ [التحريم] فهى اختارت جوار الله مالك الملك لا جوار فرعون ، أرادتْ بيتها قريباً من رحمة الله أو فى أعلى درجات المقربين ، وكأنها أرادت الدرجة العليا لأنه تعالى مُنزَّه عن المكان .

---

(١) أورده مجاهد فى تفسيره (١/٥٢٣) وكذا الثعلبى فى تفسيره (١٠/١٩٨) والبغوى فى تفسيره (٥/٢٥٠) عن ابن عباس .

(٢) ذكره القرطبى فى تفسيره (١٨/٢٠٣) من قول أبى العالية . وكذلك من قول سلمان الفارسى فيما روى عنه عثمان النهدى .

و ﴿عِنْدَكَ (١١)﴾ [التحريم] بمعنى عند عرشك ومقرّ عزّك ، حيث لا تصرف لفرعون ولا ملْكَ له .

وكلمة (البيت) مأخوذة من البيتوتة ، وهو المأوى الذى تأوى إليه وتسكن فيه وتستريح ، فكأنَّ امرأةَ فرعون تريد أنْ تستريح من عذاب فرعون لها .

ثم تقول ﴿وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ (١١)﴾ [التحريم] تطلب النجاة من فرعون وظلمه وشِرْكه وتجبُّره ، فأنقذنى من عذاب فرعون ومن أنْ أعملَ عمله ، وذلك كفره بالله .

فهى تسأل الثبات على الإيمان بالله ، فخلِّصنى من كفره فإنى أبرأ إليك من عمله ونفسه الخبيثة وسلطانه الغشُوم وتعذيبه لعباد الله بغير جُرْم .

﴿ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١١) ﴾ [التحريم] الذين ارتكبوا الظلم الأصيل وهو الشرك بالله ، فأشركوا الفرعون مع الله وتبعوه فى ادعائه الألوهية والربوبية .

ونعرف أنَّ الظلم هو نَقْل حَقٍّ إلى غير صاحبه ، وأعلى مراتبِ الظلم هو الشرك بالله وهو الظلم العظيم ، فالحق سبحانه يقول ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣)﴾ [لقمان] وهم أهل دين فرعون.

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ ﴿١٢﴾ ﴾

وليستْ امرأةَ فرعون فقط التى ضربها الله مثلاً للذين آمنوا من النساء ، بل ضرب الله مريمَ ابنة عمران مثلاً ، قال تعالى :﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ (١٢) ﴾ [التحريم]

وقد ذكر الحق سبحانه هنا مريم باسمها المشخِّص لها وذكر اسم والدها لأن الحدث الذى حدث لها لن يتكرر فى امرأة أخرى ، فهو حدث فريد وشيءٌ خاصٌّ بها لن يتكرر فى غيرها ، لذلك عيَّنها الله وعرَّفها .

أما الأمر العام الذى يتكرر فمن الحكمة أنْ يظلَّ مُبهماً غير مرتبط بشخص أو زمان أو مكان ، كما فى قصة أهل الكهف ، فقد أبهم الحق سبحانه شُخوصها لتكون مثالاً وقدوةً لكلِّ مؤمن فى كلِّ زمان ومكان .

لذلك جاءت شخصيات قصص القرآن مُجهَّلة إلا قصة واحدة هى قصة عيسى بن مريم ومريم ابنة عمران ، لماذا ؟ لأنها معجزة لن تتكرَّر ، ولذلك حدَّدها الله بالاسم .

وكلمة (عمران) هذه حين ترد فى الإسلام فلنَا أنْ نعرف أنَّ هناك اثنين لهما نفس الاسم ، هناك (عمران) والد موسى وهارون عليهما السلام ، وهناك عمران آخر .

إنَّ عمران والد موسى وهارون ، كان اسم أبيه يصهر وجدّه اسمه (قاهاث) ومن بعده لاوى ومن بعده يعقوب ، ومن بعده إسحاق وبعده إبراهيم ، أما عمران الآخر فهو والد مريم عليها السلام .

وعمران والد مريم هو ابن ماثان ، وهو من نسل سليمان ، وسليمان من داود .

وقد قال الله عن مريم ﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ (٤٢) ﴾ [آل عمران]

والاصطفاء اختيارٌ واجتباءٌ ، والشيء المصطفى هو الشيء الخالص من الكَدر، وقد اصطفاها الله اصطفاءيْن ، الاصطفاء الأول ورد دون أنْ تسبقه كلمة (على) ، أما الاصطفاء الثانى فتسبقه كلمة (على) .

والمقصود بالاصطفاء الأول هو إبلاغ مريم أنَّ الله ميَّزها بالإيمان والصلاح

والخُلُق الطيب ، وهذا الاصطفاء قد يشترك فيه أفراد متعددون فيهم الرجال والنساء .

أما الاصطفاء الثانى المسبوق بـ (على) فقال : ﴿ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ (٤٢) ﴾ [آل عمران] فهذا اصطفاء خاصّ على النساء وتمييز مريم بأمر لا تشترك فيه مع النساء ، فهى الوحيدة التى ستلد دون ذكَر، وستكون أماً لمولود بلا أب .

وهنا يَذكرها الحق سبحانه فيقول﴿ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا (١٢) ﴾ [التحريم] و (أحصنت فرجها) أى : أنها عفَّتْ ومنعتْ أيَّ إنسان أنْ يقتربَ منها ، التى أحكمتْ صيانة عِفَّتها فلم تُمكِّن منها أحداً .

وأصل الإحصان هو العفَّة تُوصف به الحرة ، لأنَّ الحرة عادة لا يقربها أحد ، وتُطلق المحصنات على الحرائر ، فالوضع العام للحرة هو الذى يجعل لها أهلاً ولا يجترىء عليها أحد .

والمحصنة لها إطلاقاتٌ ثلاث ، فهى المتزوِّجة لأن الإحصانَ الحفظ وكأنها حفظتْ نفسها بالزواج أو هى العفيفة وإنْ لم تتزوج ، فهى مُحصَنة فى ذاتها ، والمحصنة هى أيضاً الحرة لأن عملية البغاء والزنا كانت خاصةً بالإماء .

والإحصان هو الحفظ وهو من كلمة الحصن ، وهو الشيء المنيع الذى يحمى مَنْ بداخله ، وحصَّنت نفسها بالزواج أنْ تميل إلى الفاحشة ، فهى حفظتْ نفسها بالزواج أو هى العفيفة وإنْ لم تتزوج ، فهى مُحصنةٌ فى ذاتها ، ومريم عليها السلام لم تتزوَّج ولكنها عفيفة فى ذاتها .

ولكن إذا كانت ﴿ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا (١٢) ﴾[التحريم] فمن أين جاء ابنها عيسى عليه السلام ، يقول تعالى : ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا (١٢) ﴾ [التحريم]

والنفخ هنا فى الفرج وليس فى هيئة الشيء ، وقد كانت هذه خصيصةً

لعيسى بن مريم عليهما السلام ﴿ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ (٤٩) ﴾ [آل عمران]

فهذا نَفْخ فى طين مُشكَّل فى هيئة طيْر فتنفخ فيه الروح فيتحرك ، أما النفخُ فى السيدة مريم فكان نفخاً فيها هى كما فى قوله تعالى : ﴿ وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ (٩١) ﴾ [الأنبياء]

وكان أيضاً نَفْخاً فى فَرْجها ، قال تعالى : ﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا (١٢) ﴾ [التحريم] والقولان متساويان ، والنفخة التى نفخها الله فى آدم وهو مُنجدل[1] فى طينته جاءت منها روح واحدة .

ولم يكُن النفخ فى فَرْجها مباشرة إنما كان النفخ فى جَيْب درعها أى فتحة الرقبة من ثوبها حتى وصلتْ النفخةُ إلى الرحم فاشتملتْ على عيسى عليه السلام وحملتْ به .

وكلُّ خُرْق فى الثوب يُسمَّى جَيْباً وفَرْجاً ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ (٦) ﴾ [ق]

وقوله ﴿ مِنْ رُوحِنَا (١٢) ﴾ [التحريم] وكلمة الروح فى القرآن الكريم لها إطلاقاتٌ متعددة ، أولها الروح التى بها قوام حياتنا المادية ، فإذا نفخ الله الروحَ فى المادة دبَّتْ فيها الحياةُ والحِسُّ والحركة ، ودارتْ كلّ أجهزة الجسم .

والروح أيضاً جبريل عليه السلام ، قال تعالى : ﴿ فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا (١٧) ﴾ [مريم] أى جبريل عليه السلام ﴿ فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (١٧) ﴾ [مريم] معنى (تمثَّل) أى ليستْ هذه حقيقته إنه تمثَّل بها ، أما حقيقته فنُورانية ذاتُ صفاتٍ أخرى ،

---

(١) منجدل فى طينته أى مطروح على وجه الأرض صورة من طين لم تجر فيه الروح بعد [غريب الحديث للخطابى ١٥٦/٢] ، والمنجدل : الساقط . (لسان العرب – مادة : جدل) . وقد أخرج الحاكم فى مستدركه (٣٥٦٦) عن عرباض بن سارية صاحب رسول الله ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنى عبد الله وخاتم النبيين وأبى منجدل فى طينته وسأخبركم عن ذلك، ، أنا دعوة أبى إبراهيم وبشارة عيسى ورؤيا أمى آمنة التى رأت » وقال الحاكم : حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه . وأقره الذهبى.

وذاتُ أجنحة مثنى وثلاث ورباع[١] .

فجبريل عليه السلام جاءها فى صورة بشرية لأنهما سيلتقيان ، ولا يمكن أنْ يتمَّ هذا اللقاء خُفْية ، وكذلك يستحيل أنْ يلتقى الملَكُ بملكيته مع البشر ببشريته .

فلكُلٍّ منهما قانُونه الخاص الذى لا يناسب الآخر ، ولا بدَّ فى لقائهما أنْ يتصور الملَكُ فى صورة بشر ، أو يُرقِّى البشر إلى صفات الملائكة كما رقى محمد ﷺ إلى صفات الملائكة فى حادثة الإسراء والمعراج ، ولا يتم الالتقاء بين الجنسين إلا بهذا التقارب .

﴿ وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ (١٢) ﴾ [التحريم] ومعنى (وصدقت) أى : آمنت . والتصديق هو الإقرار والإقرار هو الأداء ، والأداء هو العمل ، والمؤمن إنما يُعرف إيمانُه بالعمل ، فالدليل الصحيح على إيمان المؤمن هو عمله .

إذن : فالتصديق هو أمرٌ فوق الإيمان القلبى المجرد ، ولكن مدخل الإيمان هو التصديق بالقضية العقدية الجازمة ، فالصدق هو رأس الأمر كلِّه .

و (كلمات الله) هى كُنْ وكل مرادات الله فى كونه ، ما علمنا منه وما سنعلم، وما لم نعلم إلا حين تقوم الساعة ، وعيسى عليه السلام هو كلمة ﴿ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ (١٧١) ﴾ [النساء]

والمعنى أنه لم يُخلق بالطريق الطبيعى فى خَلْق البشر من أب وأم ، إنما خُلِق بهذه الكلمة (كن) لماذا ؟ لأن الله تعالى يريد أنْ يُثبت لنفسه طلاقة

---

(١) يقول الحق سبحانه : ﴿ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ (١) ﴾ [فاطر] ذكر السيوطى فى كتابه (الحبائك فى أخبار الملائك ١/٢٠٢) أن لجبريل ستة أجنحة جناح بالمشرق وجناح بالمغرب وجناحان على عينيه وجناحان منهم من يقول : على ظهره ومنهم من يقول : متسرولاً بهما . وعن قتادة قال : بعضهم له جناحان ، وبعضهم له ثلاثة أجنحة ، وبعضهم له أربعة أجنحة . أخرجه عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم (الدر المنثور ٧/٤) .

القدرة فى الإيجادات ، وأنه سبحانه يخلُق كما يشاء .

فمرَّة يخلق بلا أب وبلا أم كما خلق آدم عليه السلام ، ومرة يخلق بأم دون أب كما خلق عيسى عليه السلام ، ومرة يخلق بأب وأم ، ويخلق بأب دون أم كما خلق حواء .

فتصديقها ﴿ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا (١٢) ﴾ [التحريم] هو تصديقٌ بما قاله لها جبريل عليه السلام : ﴿ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا (١٩) قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (٢٠) قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا (٢١) ﴾ [مريم]

وهى أى مريم صدَّقتْ بكلمات ربِّها وكُتبه ، أى بما أنزله الله من كتب على رسله السابقين وكانت مؤمنة بتوراة موسى ، ولذلك كانت تتعبَّد الله فى محرابها ، وزوج أختها كان زكريا النبى عليه السلام ، وابن أختها كان النبى يحيى عليه السلام.

﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ (١٢) ﴾ [التحريم] والقانتون جمع قانت ، وهو العبد الذى يُؤدِّى عبادة ربه بخشوع وباطمئنان وباستدامة ، فالذى يُقبل على الطاعة ثم ينصرف عنها كأنه قد جرَّب وُدَّه لله ، فلم يجد الله أهلاً للود .

أما العبد الطائع القانت فهو لا ينصرف عن العبادة لأنه ذاقَ حلاوة استدامة العبادة لله ، وما دام قد أدرك حلاوة العبادة فهو يُقبل عليها بخشوع واطمئنان واستدامةٍ ويدخل فى دائرة القانتين .

والمرأة الصالحة هى المرأة التى استقامت على المنهج الذى وضعه لها مَنْ خلقها فى نوعها ، فما دامتْ هى صالحةً تكون قانتة ، والقنوت هو دوامُ

الطاعة لله ، ومنه قنوت الفجر الذى نقنته وندعو ونقف مدةً أطولَ فى الصلاة التى فيها قنوت .

والمرأة القانتة خاضعة لله ، إذن فحين تكون خاضعةً لله تلتزم منهج الله وأمره .

فهى ﴿ وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا (١٢) ﴾ [التحريم] وهى ﴿ مِنَ الْقَانِتِينَ (١٢) ﴾ [التحريم] وقد وصفها الحق سبحانه بأنها صِدِّيقة ، فقال تعالى : ﴿ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ ..(٧٥) ﴾ [المائدة]

﴿ صِدِّيقَةٌ .. (٧٥) ﴾ [المائدة] أى مُصدِّقة بما جاء به ، فالصِّديق والصِّديقة ليس هو الذى يَصدُق بل الذى يُصدِّق ، والصِّديقية صفةٌ ذاتية إشراقية من الله.

﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِى أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ (١٢) ﴾ [التحريم]

سورة الملك (١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ﴾

الملك لله وحده ليس لأحد غيره ، وهو سبحانه قدير على كل شيء ، كُنَّا عدماً فأحيانا الله فى كوْن هو سبحانه خالقه ، هو سبحانه أعدَّه لنا قبل أنْ يخلقنا.

وسورة تبارك تُقدِّم لنا تصوراً واسعاً شاملاً يتجاوز عالم الأرض الضيق وحيِّز الدنيا المحدود إلى عوالم فى السماوات لا يعتريها الخلل ، ففهْم الإنسان لطبيعة تواجده فى هذا الكون المنضبط بأمر الله وحده يجعله متوافقاً مع منظومة الكون الكبرى المسبِّحة لله .

---

(١) سورة الملك سورة مكية عدد آياتها ٣٠ ، نزلت بعد سورة الطور ، وتُسمَّى الواقية والمنجية والدافعة ، وعن ابن عباس قال ، قال رسول الله ﷺ « وددت أن تبارك الذى بيده الملك فى قلب كل مؤمن » . وعن أبى هريرة أن رسول الله قال : « إن سورة من كتاب الله ما هى إلا ثلاثون آية شفعت لرجل وأخرجته يوم القيامة من النار وأدخلته الجنة وهى سورة تبارك » . ذكرهما الثعلبى فى تفسيره (٩/٣٥٤) .

ويقول الحق سبحانه ﴿ تَبَارَكَ .. (١)﴾ [تبارك] وتبارك أى تنزَّه الله تعالى . ولو استعرضتَ كلمة (تبارك) فى القرآن الكريم ستجد فيها ألفاً بعد الباء ، وتأتى مرة بغير ألف ، فالمسألة ليست لها رتابةُ كتابة لأنها لو كانت رتابةَ كتابة لجاءتْ على نظام واحد .

وقد شاء الحق سبحانه هذا الأمر لتكون كتابةُ القرآن معجزة ، كما كانت ألفاظُه وتراكيبه معجزةً . وقد قال البعض : إن العرب المعاصرين لرسول الله ﷺ لم يكونوا أهلَ إتقانٍ للكتابة .

ونقول : لو كانوا على غير دراية بالكتابة لما كتبوا (بسم) من غير ألف فى موقعها ، لقد علموا أنَّ القرآن يجب أنْ يُكتب كما نزل به جبريل عليه السلام على رسول الله كتابةً توقيفية ، أى كما أمر الحق سبحانه .

وكلمة ﴿ تَبَارَكَ .. (١)﴾ [تبارك] مادة الباء والراء والكاف عادة تدل على البركة ، وهى أنْ يعطيك الشيءُ من الخير فوق ما تظن فيه ويزيد عن تقديرك ، كما لو رأيتَ طعام الثلاثة يكفى العشرة فتقول : إنَّ هذا الطعام مبارك أو فيه بركة .

ومن معانى تبارك : تعالى قدْره . وتبارك : تنزَّه عن شبه ما سواه ، وتبارك: عظُمَ خيره وعطاؤه . وهذه الثلاثة مُكمِّلة لبعضها .

ومن العجيب أن هذا اللفظ ﴿ تَبَارَكَ .. (١)﴾ [تبارك] مُعجز فى رَسْمه ، ومُعجز فى اشتقاقه ، فلو تتبعتَ القرآن لوجدتَ أنَّ هذه الكلمة وردتْ فى القرآن تسع مرات ؛ سبع منها بالألف (تبارك) ، ومرتان بدون الألف .

فلماذا لم تُكتب بالألف فى الجميع أو بدونها فى الجميع ؟ ذلك ليدلّك على أنّ رسم القرآن رسمٌ توقيفىٌّ ، ليس أمراً (ميكانيكياً) ، كما فى قوله تعالى فى أول سورة العلق ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ (١)﴾ [العلق] ، فرسم كلمة اسم هنا

بالألف ، وفى باقى القرآن بدون الألف .

فالقرآن ليس عادياً فى رَسْمه وكتابته ، وليس عادياً فى قراءته ، فأنت تقرأ في أى كتاب آخر على أىّ حال كنت ، إلا فى القرآن لابدّ أنْ تكون على وضوء وتدخل عليه بطهر .

إذن فـ ﴿ تَبَارَكَ ..(١)﴾ [الفرقان] تدور حول معانٍ ثلاثة : تعالى قَدْره وتنزَّه عن مشابهة ما سواه ، وعَظُم خَيْره وعطاؤه ، ومن تعاظم خيره سبحانه أنه لا مثيلَ له : فى قدره ، ولا فى ذاته ، ولا فى صفاته ، ولا فى فعله . وهذا كلُّه من مصلحتنا نحن ، فلا كبيرَ إلا الله ، ولا جبَّارَ إلا الله ، ولا غنيَّ إلا الله .

وعندما نقرأ كلمة ﴿ بِيَدِهِ ..(١)﴾ [تبارك] لابد أنْ نعلم أنَّ الله سبحانه وتعالى أعلمُ بذاته فنقف عند الوصف ، نعم له يدٌ ، وله يدان ، وإياك أنْ تتصور أنَّ كلَّ ما يتعلق بالله مثل ما يتعلق بك .

فالأصل أنَّ لك وجوداً ، ولله سبحانه وجود ، لكن وجودك غير وجود الله ، وكذلك يده ليست كيدك ، حتى لا نُشبِّه ونقول : إنَّ له يداً مثل أيدينا ، فلنقُلْ إنَّ المراد باليد هو القدرة أو النعمة ، والهدف الراقى هو تنزيه الحق .

وهناك مَنْ يقول : إنَّ لله يداً ولكن ليست كأيدينا لأننا نأخذ كلَّ ما يأتى وَصْفاً لله على أنه ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ .. (١١)﴾ [الشورى] والتأويل ممكن .

ويقول الحق ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ .. (٦٤)﴾ [المائدة] والحق سبحانه عندما يقول ﴿ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ .. (١٠)﴾ [الفتح] أى أن قدرة الله فوق قدرتهم ، وكما قال سبحانه عن قدرته فى الخلق : ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ[١]

---

(١) بأييد : أى بقوة وقدرة . وهى مكتوبة فى رسم المصحف بياءين بعد الألف (بأييد) ، فرقاً بين (الأيد) الذى هو القوة ، وبين (الأيدى) جمع (يد) ولا شك أن القوة التى بنى بها الله السماء هى أحق بالثبوت فى الوجود من (الأيدى) [الموسوعة القرآنية – الإبيارى ٣/١٠٤] .

وَإِنَّـا لَمُوسِعُـونَ (٤٧)﴾ [الذاريـات]

فإذا كان الملْك بيد **الله** فلا تقلق على رزق ، فاطمئن فما دام **الله** قد استدعاك فإنــه ضمن لك رزقك ، ورزقُكَ ينزل من السماء على الأرض فينبت نباتٌ يأكل منه كل كائن على الأرض ، والإنسان أحد هذه الكائنات ، وقد يأكل بعض ما يأكل النبات كالأنعام والماشية .

ورزقــك إنما هــو مرتبط بكلِّ ظواهــر الطبيعة على الأرض مــن رياح وهواء ودفء شمس أو مطـر ينـزل من السحاب ، وهذا كله فى مُلْـك **الله** سبحانه ، هو بيده سبحانه لا بيد إله آخر لأنه لا يوجد إله آخر ، فَلِمَ تقلقُ على رزقك ؟

والحق سبحانه ﴿ **بِيَدِهِ الْمُلْكُ** .. (١)﴾ [تبارك] والملْك يقتضى مالكاً ويقتضى مملوكاً ، ويقتضى قدرةً على استمرار هذا الملْك وعدم زواله ، فكأنَّ الحق سبحانه وتعالى يريد أنْ يبين لنا أنه يقدر ويملك المقدرة .

والإنســان ليست له قدرة التملك ولا المقدرة على استبقاء ما يملكه ، وهناك كلمتــان (ملْـك) و (مُلْـك) . وكلمــة (مِلـك) تعنــى أن للإنســان ملكيــةَ بعض الأشياء، كملكية إنسان لملابسه وكتبه وأشيائه .

لكـنّ تملّـكَ مالكِ هذا الملك فهذا نُسمِّيه (مُلْـك) ؛ فإذا كانت هذه الملكية فى الأمـر الظاهر لنا فإننــا نُسمِّيه (عالم المُلك) ، وهو العالم المُشاهد ، وإذا كانت هذه المِلكية فى الأمر الخفى فإننا نسميه (عالم الملكوت) .

إذن نحن هنا أمام (مِلك) و (مُلك) و (ملكوت) . والملكية بالنسبة للإنسان تتلخص فى أنْ يملك الإنسانُ شيئاً فيصير مالكاً ، وإنسانٌ آخر يُولِّيه **الله** على جماعة من البشر فيصير ملكاً ، هذا فى المجال البشرى .

أمـا فى المجال الإلهى فإننا نصعد لـنرى مَنْ يملك كل مالكٍ وملك ، إنه الله سبحانـه وتعالى ، ولا يظن أحدٌ أن هناك إنساناً قد ملك شيئاً أو جاهاً فى هذه الدنيا بغير مراد الله فيه .

والحـق سبحانـه يقول : ﴿ قُـلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْـكِ تُؤْتِى الْمُلْكَ مَـنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْـكَ مِمَّـنْ تَشَـاءُ وَتُعِـزُّ مَـنْ تَشَـاءُ وَتُـذِلُّ مَنْ تَشَـاءُ بِيَـدِكَ الْخَـيْرُ إِنَّـكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦)﴾ [آل عمـران]

فمَـنْ كان لـه ملْك فإنه لا يدوم ، لأن الله ينزع الملْك ممنْ يشاء ويعطيه لمَنْ يشـاء ، فالله سبحانه هو الذى يعطى الملْك لمَنْ يشاء وهو سبحانه الذى ينزعه ممَّنْ يشاء ، إنها إرادةُ الله الخالق الأعلى ، فعندما يريد فلا رادّ لقضائه .

فـالله بمطلق قدرته وقوته على الملْك خلق الموت والحياة ، وخلق السماوات بكواكبهـا وشموسهـا ونجومهـا ، الله بقدرتـه ذلَّـلَ الأرض والجبـال والأنهار لخدمـة الإنسـان ، وطلب من الإنسـان أنْ يسعى فى مناكـب الأرض ونواحيها ابتغاءَ رزق الله .

فـالله سبحانـه هو القادر والقدير خلق إنسانـاً وأعطى له القدرة على تعمير الأرض وشقّ الطرق والجبال ، ولكن هذا بإقدار الله له لا لذاتية فى الإنسان .

والحـق سبحانـه يقول : ﴿ وَهُوَ عَلَـى كُلِّ شَـيْءٍ قَدِيرٌ(١)﴾ [تبـارك] ، فللحق سبحانه طلاقةُ القدرة فى مُلكه ، ولذلك إذا قال إنه سيأتى بأمر فسيتحقق هذا الأمر حتماً وسيتم ، ولا توجد قدرة فى هذا الكون إلا قدرة الله سبحانه ، ولا قوةَ إلا قوته جلَّ جلاله ، ولا فعْلَ إلا ما أراد .

والله سبحانـه لا يُعجـزه شيء ولا يخرج عن طاعته شيء ، إنه سبحانه على

كل شـيء قديـر ، فكلّ شيء يدخل فى إرادة الله وقدرته ، فالله له ملك السماوات والأرض ، وهو على كل شيء قدير .

وهـو سبحانـه القادر الأعلـى ، القادر علـى كل شيء ، القـادر على الإيجاد وعلـى الإمداد ، وعلـى البداية والنهاية المحدودة ، وبدايـة الخلود إما إلى جنة وإما إلى نار ، فهو القادر على كل شيء .

ومـا دامـت الأحداث تختلف باختلاف القدرات فقـدرة الله هى القدرة العليا التى لا تحتاج لزمنٍ لفعل الأحداث .

والحق سبحانه يقول : ﴿ فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٥٠) ﴾ [الـروم]

فالحق سبحانه له صفاتُ الكمال والقدرة على كلِّ شيء عِلْماً وقدرةً وحكمة وبسْطاً وقبضاً ونفعاً وضراً.

والله قديـر حتـى قبل أنْ يُوجد مقدور عليه ، فلم يكُنْ قديراً فقط عندما خلق الإنسان ، بل بصفة القدرة خلق الإنسانَ ، لأن الله سبحانه وتعالى ليس أغياراً، لذلك يظل قديراً وموجوداً فى كل لحظة ، وهو القدير أبداً .

وكلمـة (قديـر) بصيغـة (فعيل) التى تأتى بمعنى (فاعـل) وتأتى بمعنى (مفعول) مثلما تقول : الله رحيم . أى : أنه راحم هو فاعل ، ونقول : فلان قتيل: أى مقتول أى مفعول به .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ﴾

الله جعـل للإنسـان روحاً يهبه بها الحياة ، ولذلك لنـا أنْ نتصوَّر أنَّ للموت حقيقة ، فإذا ما تسلل للإنسان فإنه يسلب الروحَ منه .

وبذلك نستطيع أنْ نفهم قوْلَ الحق سبحانه ﴿ الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ .. (٢)﴾ [تبارك] إذن : فالموت ليس عملية سلبية كما يتوهم بعض الناس ، بل هو عملية إيجابية ، وهو مخلوق بسرٍّ دقيق للغاية يناسب دقَّة الصانع .

والحق سبحانه هنا قدَّم الموت على الحياة ، مع أننا فى ظاهر الأمر نرى أن الحياة تأتى أولاً ثم يأتى الموت ، لا ، إن الموت يكون أولاً ، ومن بعده تكون الحياة .

فالحياة تعطى للإنسان ذاتيةً ليستقبل بها الأسباب المخلوقة ، فيحرث الأرض أو يتاجر فى الأشياء أو يصنع ما يلائم حياته ويمتع به السمع والبصر فيظن أن الحياة هى المخلوقة أولاً .

يُنبِّهنا ويُوضِّح لنا الحق : لا تستقبل الحياة إلا إذا استقبلتَ قبلها ما يناقض الحياة ، فيقول لنا عن نفسه : ﴿ الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ .. (٢)﴾ [تبارك]

وهذا ما يسهِّل علينا فَهْم الحديث القدسى الشريف الذى يشرح لنا كيف يكون الحال بعد أنْ يوجد أهلُ الجنة فى الجنة وأهل النار فى النار ، ويأتى الحق سبحانه بالموت فى صورة كبش ويذبحه .

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال ، قال رسول الله ﷺ : « يُؤتَى بالموت يوم القيامة فيُوقف على الصراط . فيقال : يا أهل الجنة . فيطلعون خائفين وجلين أنْ يخرجوا من مكانهم الذى هم فيه . فيقال : هل تعرفون هذا ؟ قالوا : نعم ربنا هذا الموت . ثم يُقال : يا أهل النار . فيطلعون فرحين مستبشرين أن يخرجوا من مكانهم الذى هم فيه . فيُقال : هل تعرفون هذا ؟ قالوا : نعم هذا الموت ، فيأمر به فيُذبح على الصراط . ثم يُقال للفريقين كليهما : خلود فيما تجدون لا موتَ فيه أبداً »(١) .

وتجسيد الموت فى صورة كبش معناه أن للموت كينونة ، ويعلمنا الله أنه

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٧٣٠) والترمذى فى سننه (٣١٥٦) وقال : حسن صحيح . والآجرى فى كتابه الشريعة (٩٤٢) من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه .

يقضى على الموت فنحيا فى خلود بلا موت .

والحق سبحانه وتعالى هو الذى خلق الموت والحياة وهو الباقى أبداً ، وليس فى حاجة لاستبقاء حياته إلى أحد من البشر ؛ فهو سبحانه قادر على كل شيء ولا يخرج شيءٌ عن نطاق قدرته .

وهو سبحانه قبل أنْ يمتنَّ علينا بالحياة فهو يُحذِّرنا أنْ يأخذنا الغرور بهذه الحياة ، فالحق سبحانه ينبه الإنسان إلى أنْ يستقبل الحياة وهو يعرف أنه سبحانه أوجد ناقض الحياة وهو الموت .

فإياك أنْ تأخذ الحياة على أنها تعطيك قوة الحركة والإدراك والإرادة برتابة وأبدية ، لأن هناك ناقضاً للحياة وهو الموت .

والحق سبحانه لم يقل إنه خلق الحياة والموت ، بل قال : ﴿ خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ .. (٢)﴾ [تبارك] وذلك حتى يستقبل كلٌّ منّا الحياة ويسبقها فى الذِّهْن ما ينقض هذه الحياة وهو الموت .

وذلك حتى لا تتعالى ولا تغفل عن هذه النهاية ولتكُنْ على بالك ، فتُرتِّب حركة حياتك على هذا الأساس .

وكأنَّ الحق سبحانه ينعى إلينا أنفسنا قبل أنْ يخلق فينا الحياة ، وقدَّم الموت على الحياة لتستقبل قبلها الموت الذى ينقضها فلا تغتر بالحياة وتعمل لما بعد الموت .

والذى يستعرض آيات القرآن يجد أن الحياة سبقتْ الموت فى كلِّ الآيات إلا فى آية واحدة فى سورة تبارك ﴿ الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ .. (٢)﴾ [تبارك]

وعِلَّة ذلك أن الله تعالى يعطى للإنسان بالحياة إرادة تنشيء الحركة فى كلِّ أجهزته ، والحياة قد تُورث الإنسان غروراً فى سيطرته وإرادته على جوارحه فيطغى ، فأراد ربُّه عز وجل أنْ يُنبِّهه : تذكَّرْ أننى أميت؛ ليستقبل الحياة ومعها

نقيضها فيستقيم فى حركة الحياة .

وصفة الخَلْق والإماتة صفاتٌ لله قديمة قبل أنْ يخلق شيئاً أو يُميت شيئاً ، لأنها صفاتٌ ثابتة لله قبل أنْ يباشر متعلقات هذه الصفات .

وكما أن الحياة مخلوقة ، فالموت كذلك مخلوق ، والموت أمر حِسِّى مُشَاهد، والموت والحياة بيد الله ، وأمرُ الموت مرهونٌ بمشيئة الله وطلاقة قدرته وتحديده لكلِّ أجل بوقت معلوم لا يتقدَّم ولا يتأخَّر ، وسيلقى كلّ إنسان نتيجة عمله .

فأمر الموت والحياة بيد واهب الحياة ، فلا يظن ظَانّ أن القتال هو الذى يُسبِّب الموت ، وها هو ذا قوْل خالد بن الوليد على فراش الموت باقياً ليعرفه كلُّ مؤمن بالله :

لقد شهدتُ مائة زحف أو زُهَاءها وما فى جسدى شبر إلا وفيه ضربة سيف أو طعنة برمح ، وها أنذا أموت على فراشى كما يموت البعير ، فلا نامت أعين الجبناء[1] .

إذن : فأمر الحياة والموت ليس مرهوناً بقتال أو غيره ، إنما هو محدَّد بمشيئة الله ، والحق سبحانه يقول: ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ (٢٣)﴾ [الحجر]

وحين يتناول الحق سبحانه فى هذه الآية أمر الموت والحياة ، وعودة الكون فى النهاية إلى منشئه سبحانه ، فهو يُحدثنا عن أمرين يعتوران حياة كل موجود ، هما الحياة والموت ، وكلاهما يجرى على كل الكائنات ، فكلّ شيء له مدة يحياها وأجَل يقضيه .

وخلْق الموت والحياة له غايةٌ ذكرها الحق سبحانه فى قوله تعالى :

---

(١) ذكره ابن عبد البر فى الاستيعاب (١/ ٤٠٩) والذهبى فى سير أعلام النبلاء (١/ ٣٨٢) والكاندهلوى فى حياة الصحابة (١/ ٥٦٥) . وذكره ابن كثير فى البداية والنهاية (٧/ ١٢٩) وعزاه للواقدى عن ابن أبى الزناد .

﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا .. (٢)﴾ [تبارك]

فالابتلاء غاية للحياة والموت ، فالحياة ليست رتابة ، بل هى ابتلاء واختبار للبشر ، والابتلاء ليس أمراً مذموماً فى ذاته ، هو مذموم باعتبار ما تئول إليه نهايته ، وما دام سبحانه يبتلينا فيما آتانا فيجب أنْ نكون حكماء، وأنْ نتسابق إلى الخير .

يقول تعالى : ﴿ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٤٨)﴾ [المائدة]

والتسابق إلى الخيرات إنما يكون بهدف النجاح فى الابتلاء ، والنجاح يعطينا أكثر مما ننال بعدم الانصياع . إذن : فالابتلاء فى مصلحتنا يعطى الناجحين فيه نجاحاً أخلد .

فمعنى ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ .. (٢)﴾ [تبارك] أى ليختبركم اختبارَ إقرارٍ على نفوسكم أى ليختبركم أيّكم أحسنُ عملاً ، ولكن مَنِ الذى يُحدِّد العمل ؟ إنه الله سبحانه وتعالى .

وهل الحق سبحانه فى حاجة إلى أنْ يختبر مخلوقاته ؟ لا ، فالله سبحانه يعلم أزلاً كلَّ ما يأتى من الخَلْق ، ولكنه سبحانه أراد بالاختبار أنْ يُطابقَ ما يأتى منهم على ما عمله أزلاً حجة عليهم ، وهكذا فاختبار الحق سبحانه لنا اختبارُ الحجة علينا .

والابتلاء من الله نعمة وليس شراً كما يظن بعضُ الناس ، فالابتلاء هو امتحان إنْ نجحنا فيه فهو خير ، وإنْ رسبنا فيه فهو شرٌّ ، فالابتلاء ليس شراً ولكنه مقياسٌ لاختبار الخير والشر .

الذى ابتلى هو الله سبحانه ، هو الرب والربّ معناه المربِّى الذى يأخذ مَنْ يُربّيه بأساليب تؤهله إلى الكمال المطلوب منه ، ومن أساس التربية أنْ يمتحن المربِّى مَنْ يربيه ليعلم هل نجح فى التربية أم لا ؟

ولا بدّ أنه سيأتينى من الابتلاء خير ، وقد يكون الابتلاء فتنة يتعرض

لهـا الإنسـان ، فالفتنة أيضاً هـى الابتلاء والاختبـار ، ويُقال : فتنتُ الذهب أى وضعـتُ الذهب فـى بوتقة وحوَّلته بالحرارة العالية مـن جسم صلب إلى سائل حتى تستخلصه من المواد العالقة الشائبة التى فيه ليصير نقياً .

والفتنة فى ذاتها ليست مذمومة ، ولكن المذموم منها هو النتيجة التى تصل إليهـا ، أينجح الإنسان فيها أم يرسـب ؟ لأن الاختبارات التى يمرُّ بها الإنسان كلها هى فتنة ، والذى ينجح تكون الفتنة بالنسبة إليه طيبة .

والـذى يرسب ويفشـل فالفتنة بالنسبـة إليه سيئة ، والحـق سبحانه أعطى للإنسـان قدرة الاختيار ، وقد أراده الله مختـاراً وأن يُبتلى وأن يُختبر ، أينجح أم يرسب ؟ أيكون مؤمناً أم كافراً ؟

والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً وكان فى باله الله حين عمل ، والخاسرون هم الذين يعملون للناس ، لأن الناس لا يملكون لهم نفعاً ، فمَنْ أحسن عملاً لله أخذ أجره من الله فى الدنيا والآخرة .

وقـد قـال تعـالى : ﴿ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا (٣٠)﴾ [الكهف]

و (مَنْ) هنا عامة للمؤمن والكافر ، لذلك لم يقُلْ سبحانه : إنَّا لا نضيع أجر مَنْ أحسن الإيمان ، لأن العامل الذى يحسن العمل قد يكون كافراً ؟ ومع ذلك لا يبخسه الله تعالى حقّه ، بل يعطيه حظه من الجزاء فى الدنيا .

فالكافـر إن اجتهـد وأحسـن فـى علم أو زراعـة أو تجـارة لا يُحرم ثمـرة عمله واجتهاده ، لكنها تُعجَّل له فى الدنيا وتنتهى المسألة حيث لا حظَّ له فى الآخرة.

وهو سبحانه ﴿ الْعَزِيزُ .. (٢)﴾ [تبارك] العزيز الذى لا يُغلب لجبروته ولا يسأله أحد ، فهو سبحانه الغالب على أمره ، وهو القوى الشديد الذى لا ينال منه أحد .

فكلمة (العزيز) تفيد الغلبة والقهر والقدرة فلا يستطيع أحدٌ أنْ يعلو عليه، فالعزة هى القوة والغلبة ، وهو سبحانه العزيز المطلق لأنه لا إله إلا هو لا يُغلب ولا يُقهر .

وهو سبحانه (رب العزة) فى كل ألوانها ، إنْ كانت عزة حكمة فهو الحكيم،

وإنْ كانت عزة غضب وانتقام فهو المنتقم الجبار، وإنْ كانت عزة قبْض على الأمور فهو العزيز، وإنْ كانت عزة حلم فهو الحليم.

ولأنه سبحانه (العزيز) الذى لا يُغلب ولا يُقهر، فهو أيضاً ﴿الْعَزِيزُ الْغَفُورُ (٢)﴾ [تبارك]، فهو لعزته يغفر ولجبروته يصفح لأنه غنيٌّ عن العالمين.

ولكى نفهم هذا نقرأ قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١١٦)﴾ [المائدة]

إلى أنْ يقول: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨)﴾ [المائدة]. وكان المنطق العقلى يقتضى أنْ نقول: فإنك أنت الغفور الرحيم، فالمقام مقام مغفرة.

لكن عيسى عليه السلام يأتى بها لا من ناحية الغفران والرحمة، وإنما من ناحية طلاقة القدرة والعزة التى لا يستدرك عليها أحد، لذلك قال: ﴿فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨)﴾ [المائدة]

فلو قال الناسُ: لماذا غفرت لهم مع أنهم قالوا كذا وكذا؟ فالإجابة أننى أنا العزيز الذى أغلب ولا أُغلب، ولا يستدرك أحدٌ على حكمى.

ثم يقول الحق سبحانه:

﴿ٱلَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا[1] مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣﴾

---

(١) طباقاً: بعضها فوق بعض بين كل سماءين مسيرة خمسمائة عاماً وغلظ كل سماء مسيرة خمسمائة عام. قال الأخفش فى معانى القرآن (٢/٥٤٦): طباقاً واحدها الطبق. وقال الطبرى فى تفسيره (٢٣/٥٠٥): أى طبقاً فوق طبق بعضها فوق بعض.

تفاوت: اختلاف. فلا خلل فى خلق الله، ولا اختلاف ولا اضطراب ولا تشقّق فلا ترى فيها شقوقاً.

فطور: يعنى من فروج. وقال قتادة: من خلل. [تفسير عبد الرزاق ٣٢٦٣] والفطور: الصدوع.

الله هو الإله الخالق للكون ، وهو سبحانه الخالق البديع الحكيم الرحيم بعباده ، وهو الخالق لكلِّ ما فى السماوات والأرض ، ومنزه سبحانه عن أنْ يكون له شريكٌ فيما خلق فهو ﴿ الَّذِى خَلَقَ .. (٣)﴾ [تبارك]

والله خالق ، والله رحمن ، والله رحيم ، والله قهار ، وسبحانه رحمن ورحيم وقهار ، وخالق حتى قبل أنْ يبرز ويظهر ما يخلقه ، لأنه بصفة الخالقية فيه خلق ، وهو رازق قبل أنْ يخلق المرزوق ، فالصفة موجودة فيه قائمة به ، وبوجود هذه الصفات فيه يقول للشيء : كُنْ فيكون .

وإذا جاء الرسول وأبلغنا أنَّ الله هو الذى خلق الشمس ، فإما أنْ يكون صادقاً فنُسلِّم جميعاً بأنَّ الله هو الخالق والموجد ، وإما أنه غير صادق فنقول : لماذا لم يخرج إذن أحد يدَّعى أنه هو الذى خلقها .

ولكن دقة وإعجاز الخلق الذى لا يمكن أنْ تصل إليه قوة بشرية مفردة ، أو قوى بشرية متعددة متعاونة ، جعل القضية محسومة له سبحانه وتعالى، وإلى أنْ يأتى مَنْ يدَّعى أنه خلق شيئاً من الكون – ولن يأتى – فقضية الخَلق محسومة لله سبحانه، ولا يوجد هناك منازع .

ويأتى رسولٌ ليقول : إن خالق الأرض والشمس والسماوات والكون هو الحقّ سبحانه وتعالى ، فلم يأتِ أحدٌ يدَّعى أنه قد خلق شيئاً من هذا ، مما يؤكد صحة دعوى الرسول ، مما يؤكد أن مَنْ أوجد هذا الكون هو قوة بلا حدود ، وقدرة بلا قيود .

والحق سبحانه يسأل : ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥)﴾ [الطور]

فإذا كان الجواب لا هذا ولا هذه ، فلا هم خُلقوا هكذا من غير شيء ولا هم الخالقون . إذن فلابدّ أنْ هناك خالقاً وموجداً لنا ، فإذا جاء لنا الرسول وأبلغنا: إنَّ خالق هذا الكون وخالقنا هو الله فلابد أنْ نُصدِّقه ، لأنه لم يدَّعِ أحدٌ ولا يستطيع أنْ يدَّعى أنه خالق هذا الكون أو أنه خلق نفسه .

والله هو الخالق بتدبير دقيق ، ولله سبحانه آيات فى كونه ، فحينما تتأمل فى كَوْن الله من حولك تجد آيات تدلّ على إبداع الخالق سبحانه وعجيب صَنْعته، وتجد تناسقاً وانسجاماً بين هذه الآيات الكونية .

يقول تعالى عن هذا النوع من الآيات : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ.. (٣٧)﴾ [فصلت] ، ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِى الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ (٣٢)﴾ [الشورى] ، وهذه الآيات تلفتنا إلى قدرة الخالق سبحانه وتعالى .

والخالق جلَّ وعلا خلق الكون بأرضه وسمائه ، وخلق الخَلْق ، وأنزل القرآن ليُنظم حياتهم ، وبعد أن استتبَّ له الأمر لم يترك الكون هكذا يعمل ميكانيكياً، ولم ينعزل عن كونه وعن خَلْقه ، لأنهم فى حاجة إلى قيوميته تعالى فى خَلْقه.

وقد يشترك الخَلْق مع الخالق فى بعض الصفات ، كما فى قوله تعالى : ﴿فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤)﴾ [المؤمنون] ، وقال تعالى : ﴿ وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا .. (١٧)﴾ [العنكبوت]

ومعنى ذلك أن هناك خالقين غيره سبحانه ، ومعنى الخَلْق الإيجاد من عدم ، فالذى جاء بالرمل وصنع منه كوباً فهو خالق للكوب صانع له ، فأنت أوجدتَ شيئاً لم يكُنْ موجوداً ، والله أوجد شيئاً ، ولكنك أوجدت من موجود الله قبل أنْ توجد أنت .

فهو إذن أحسن الخالقين فى حين لم يضنّ عليك ربُّك بأنْ ينصفك ويُسمِّيك خالقاً ، وهذا يُوجِب عليك أنْ تنصفه سبحانه وتقول :﴿ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤)﴾ [المؤمنون]

والله تعالى احترم إيجادك لمعدوم فسمَّاك خالقاً له ، ولم يضنّ عليك فأعطاك صفةً من صفاته إنما أخبرك أنه أحسن الخالقين ، فهو سبحانه هو أحسن الخالقين ، وهو خير الرازقين ، وهو خير الوارثين ، وهو خير الماكرين .

ومن الأَوْلَى أنْ نلتفت إلى الخالق العظيم الذى أبدع لنا هذا الكون ، ومهمة آيات الله الكونية أنْ تلفت نظر المخلوق إلى بديع صُنْع الخالق وضرورة الإيمان به ، فمنها نعلم أنَّ وراء الكون البديع خالقاً وقوة تمدّه وتُديرُه .

والله سبحانه وتعالى قبل أنْ يخلقنا خلق لنا السماوات والأرض ، وأوجد لنا الماء والهواء ، ووضع فى الأرض أقواتها إلى يوم القيامة ، وخَلْق السماوات والأرض أكبر من خَلْق الإنسان .

واقرأ قوله تعالى : ﴿ لَخَلْقُ السَّمَـٰوَاتُ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٥٧) ﴾ [غافر]

ولذلك عندما جاء الإسلام ليعرض العلم التجريبى أو المادى جاء ليلفتنا إلى آيات الخالق فى الكون ، وطلب منا أنْ نتأمل فى هذه الآيات ونُعمِل فيها العقل والإدراك .

واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥) ﴾ [يوسف]

وهكذا يلفتنا الله جلَّ جلاله إلى آياته التى فى السماوات والأرض لنُعمل فيها العقل والإدراك لنستنبط منها ما يعطينا الحضارة ، والله قد خلق السماوات والأرض وكلّ ما فيها من خَلْق على غير مثال سابق .

قال تعالى :﴿ بَدِيعُ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ (١١٧) ﴾ [البقرة] أى لم يكن هناك سماء أو أرض أو ملائكة أو جنّ أو إنسان ، ثم أوجد الله سبحانه متشابهاً لهم فى شكل أو حجم أو قدرة ، أى أنه سبحانه لم يلجأ إلى ما نُسمّيه نحن بالقالب.

فمسألة خَلْق السماوات والأرض يجب أنْ يبدأ منها التعجب ، وأنت أيها الإنسان يجب أنْ تفطن إلى ما خُلق لك لتستدلّ على خالقك ولتؤمن ولتشهد أنه إلهٌ واحد .

فلو أنهم نظروا فى خَلْق السماوات والأرض لاهتدوا بفطرتهم إلى أن لهذا الوجود المتقن المحكم صانعاً قد صنعه لكنهم لا يعقلون ، والحقّ سبحانه وحده الذى يحفظ السماوات والأرض فى توازن عجيب ومذهل .

يقول تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (٤١) ﴾ [فاطر]

فلئن قُدِّر لهما أنْ تزولا فلن يحفظهما أحد بعد الله ، أى لا يستطيع أحدٌ إمساكهما فهما قائمتان بقدرة الواحد القهار ، وإذا أراد الله أنْ تزولا فلا يستطيع أحدٌ أنْ يمسكهما ويمنعهما من الزوال .

والله خلق ﴿ سَبْعَ سَمَـٰوَاتٍ (٣) ﴾ [الملك] وكلمة السماوات فى اللغة جمع ، وفى آية أخرى يقول سبحانه : ﴿ فَقَضَاهُنَّ[1] سَبْعَ سَمَـٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (١٢) ﴾ [فصلت]

وقديماً كانوا يقولون : إن المقصود بالسبع سماوات هو الكواكب السبعة الشمس والقمر وعطارد والزهرة والمريخ والمشترى والأرض .

وشاء سبحانه أنْ يكذِّب هذا القول وأصحابه أحياء ، فرأى علماء الفلك كواكبَ أخرى مثل : نبتون وبلوتو . وكان فى ذلك لفتة سماوية لمن قالوا : إنَّ المقصود بالسماوات السبع هو الكواكب السبعة .

وقد قالوا هذا القول بحُسْن نية وبرغبة فى ربط القرآن بالعلم ، لكنهم نسوا أنْ يُدقِّقوا الفهم لما فى كتاب الله ، فسبحانه قد أوضح أن الشمس والقمر والكواكب زينة السماء الدنيا ، فما بالنا بطبيعة وزينة بقية السماوات ؟

---

(١) فقضاهن : خلقهن وفرغ منهن . قال أبو ذؤيب : فقضاهن : فخلقهن وصنعهن . وقال الثعلبى : فقضاهن: أتمهن وفرغ من خلقهن ، وقال الواحدى : فقضاهن : صنعهن وأحكمهن . [التفسير الوسيط للواحدى ٤/٢٧] .

ويقول الحق سبحانه ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ (١٧) ﴾ [المؤمنون] وطرائق جمع طريقة أى مطروقة للملائكة ، والشيء المطروق ما له حجم يتسع بالطّرْق ، كما تطرق قطعة من الحديد مثلاً ، فانظر إلى السماء واتساعها ، وقُلْ : سبحان مَنْ طرقها .

وتلحظ أنَّ الحق سبحانه لم يذكر هنا الأرض ، لماذا ؟ قالوا : لأن الأرض نقف عليها ثابتين لا نخاف من شيء ، إنما الخوف من السماء أنْ تندكَّ فوقنا ، لذلك يقول سبحانه بعدها : ﴿ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ (١٧) ﴾ [المؤمنون]

فلن نغفل عن السماء من فوقكم وسوف نُمسكها بأيدينا ، والحق سبحانه يعطينا الدليل الحسيَّ على هذا ، وكيف أن الله تعالى رفع السماء فوقنا بلا عمد، ومثال ذلك الطير يُمسكه الله فى السماء .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ[1] وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَـٰنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ (١٩) ﴾ [الملك]

والسماء هى كلّ ما علاك فأظلَّك ، هذا معنى السماء فى اللغة ، لكن هل السماء التى يريدها الله هى كلّ ما علاك ؟ إن النجم هو ما علاك ، وقد يُقال : إن الشمس علتْكَ والقمر علانا جميعاً .

ونلفت الانتباه هنا ونقول للذين أحبوا أنْ يجعلوا السماوات هى الكواكب: إنها ليست دائماً ما علانا ، فالشمس تعلو وقتاً وتنخفض وقتاً آخر ، وكذلك القمر .

إذن فالوصف منحسرٌ عن الشمس أو القمر بعض الوقت ، ولا يصح أنْ يُوصف أيٌّ منهما بأنه سماء دائماً ، وشيء آخر وهو أنهم حينما قالوا عن الكواكب التى كانت معروفة بأنها كواكب سبعة ، وقالوا : إنها هى السماوات

---

(١) صافات : يبسطن أجنحتهن فى جو السماء . مفتوحة الأجنحة . قال ابن الجوزى فى زاد المسير (٣١٦/٤) : أى نصف أجنحتها فى الهواء ، وتقبض أجنحتها بعد البسط .

قد وقعوا فى خطأ .

وقد كشف الله لهم بالعلم أنَّ للشمس توابع أخرى ، فمرة رأى العلماء ثمانية توابع ، ومرّة تسعة ، وأخرى عشرة توابع ، وهكذا انهدمت فكرة أن التوابع هى السماء وبقيتْ السماء هى ما فوق هذا كله .

وقد خلق اللهُ السماوات طبقاتٍ فوق بعضها ، والحق سبحانه يقول : ﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ (١٩) ﴾ [الانشقاق] يعنى : طبقاً بعد طبق .

فالله هو الخالق لسبع سماوات بإتقان بعضها فوق بعض ، فلا يرى الناظرُ أيَّ خلل فى هذا الخَلْق ، وليُعد الإنسانُ النظرَ إلى السماء فلن يجد أيَّ خلل من شقوق أو فروق .

ولك أنْ تلاحظ صنعة البشر إذا أراد أحدُنا أنْ يبنى مثلاً أو يصنع سقفاً، فالبناء يُبنى بمنتهى الدقة ، ومع ذلك ترى طوبة بارزة عن طوبة ، فيأتى عامل المحارة فيحاول تسوية الجدار ويزنه بميزان الماء ، ومع ذلك نجد فى الجدار تعاريج ، ثم يأتى عامل الدهانات فيحاول إصلاح مثل هذه العيوب فيُعد لها معجوناً ويكون له فى الحائط دور هام .

وبعد أنْ يستنفد الإنسانُ كلَّ وسائله فى إعداد بيته كما يحب تأتى بعد عدة أيام ، فترى الحق سبحانه يُعدِّل على الجميع ويُظهر لهم عيوب صنعتهم مهما بلغت من الدقة بقليل من الغبار ينزل عمودياً فيُريك بوضوح ما فى الحائط من عيوب .

وإذا كانت صنعة البشر تختلف باختلاف مهارة كل منهم وحذقه فى عمله ، فما بالك إنْ كان الصانعُ هو الله الذى يبنى ويُسوِّى ويُزيِّن ؟

﴿ مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَـٰنِ مِنْ تَفَاوُتٍ (٣) ﴾ [الملك] فبرحمته سبحانه خلق اللهُ الكونَ على هذه الكيفية ، فأتى الحقُ سبحانه هنا بالاسم الذى كان يجب أنْ يقدره حقَّ قدْره وهو (الرحمن) .

فهم يعيشون فى كون الله الذى أعدَّه لهم برحمته ، فكلّ ما حولهم وما يقيتهم وما يستمتعون به من نعم الله من عطاءات الله ، وكان الواجب أنْ يقدروا صنعةَ الرحمن دون أنْ يكون لهم حَوْلٌ أو قوة .

فالرحمن الذى يُنعم بالنعم كلها ، وقد اختار الرحمن دون الجبار أو القهار، لأن الرحمةَ صفةُ تحنين للخَلْق .

وخَلْق الرحمن ليس فيه ﴿ مِنْ تَفَاوُتٍ (٣) ﴾ [الملك] وانظر إلى أمهر الصُّناع الآن يُسوى سقفاً لعدة حجرات ويستخدم مادة واحدة ويُلوِّنها بلون واحد ، لا بد أنْ تجد اختلافاً من واحدة للأخرى ، حتى إن خلط العاملُ اللونَ مرة واحدة لكلِّ الحجرات يأتى اللون مختلفاً ، لماذا ؟لأنه حين يأخذ من هذا الخليط تجد ما يتبقى أكثر تركيزاً ، فإذا لم يكمل العمل فى نفس اليوم تجد ما تبقى إلى الغد يفقد كمية من الماء تؤثر أيضاً فى درجة اللون .

وقوله ﴿ مِنْ تَفَاوُتٍ (٣) ﴾ [الملك] أى أن خَلْق الرحمن خالٍ من أى شيء مما قد يُسمى تفاوتاً واختلافاً. ومثال هذا حين تذهب إلى إنسان وتطلب منه مالاً يقول لك : ما عندى مال . أى لا أملك مالاً ولكنه قد يملك جنيهاً أو جنيهين، ولا يعتبر هذا مالاً يمكن أنْ يُوفى بما تريده .

وتذهب إلى رجل آخر بنفس الغرض تقول أريد مالاً ، يقول لك : ما عندى من مال أى ليس عندى ولا قرش واحد . ما عندى أيّ مبلغ مما يُقال له مال حتى ولو كان عدة قروش .

فلا ترى فى خَلْق الله من اختلاف فى الخِلْقة والصنعة فهى مستوية لا تنافرَ فيها ولا مخالفة ولا نقصَ ولا عيب ولا خلل ، فلا ترى فى السماء اضطراباً وتبايناً فى الخِلْقة ولا اعوجاجاً .

وحقيقة التفاوت عدم التناسب كأنَّ بعض الشيء يفوت بعضه ولا يلائمه ولا يتناسب معه ، وهذا لا يجوز على خَلْق الله ، فيقول الناظر : لو كان كذا كان

أحسن ، ولكن الله خلقها محكمة متقنة .

﴿ فَارْجِعِ الْبَصَرَ (٣) ﴾ [الملك] فليُعد الإنسانُ النظر إلى السماء وليس مجرد النظر بل النظر المقترن بالتأمل والتفكّر فى خَلْق الله فهو بصر وليس نظراً حسياً مجرداً ، لذلك قال تعالى ﴿ فَارْجِعِ الْبَصَرَ (٣) ﴾ [الملك]

وأنت قد ترى بعض الألفاظ فتظن أنَّ معناها واحد فى الجملة ، إلا أن لكل لفظ منها ملحظاً ، فأنت قد تسمع مثلاً : رأى ، نظر ، لمح ، رمق ، رنا . كل هذه تدلُّ على البصر والرؤية ؛ لكن لكلٍّ لفظ معنى : رمق : رأى بمؤخَّر عينه ، ولمح: شاهد من بُعْد . رنا : نظر بإطالة . وهكذا .

والبصر مهمة العين فى الأمور الحسية ، لكن عندما يقترن البصر بالبصيرة فيضيء القلب بالنور حتى يصل ببصره إلى إدراك أنَّ خَلْق الله لا يعتوره تفاوتٌ ولا خللٌ ، فمَنْ وهبه الله دقةَ العلم وبصيرة العلماء يرى بإشعاعات البصر والعلم عالم الملكوت ويستخرج الأسرار ويستنبط الحقائق .

﴿ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ (٣) ﴾ [الملك] فليُعد الإنسانُ النظر إلى السماء فلن يجد أيَّ خلل من شقوق أو فروق . و (فطور) هنا معناها شقوق .

فالحق سبحانه بتمام قدرته يعطى الشيء من الصفات ما يجعله صالحاً لأداء ما خُلق له فلا يظننَّ ظانٌّ أنه خرج عن قدرة خالقه سبحانه ، وخلق السماوات والأرض بتمام إبداع وإحكام ، وهو القادر على أنْ يفطرهما ، ويجعلهما غير صالحين فى أيِّ وقت شاء ، ومثلهما الشمس تُكوَّر والنجوم تُطمس والجبال تُنسَف .

فالسماء العليا هى بشكل واحد لا ترى فيها من فطور ، والحق سبحانه قد أحكم خَلْق السماء ، فقال تعالى : ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ (٤٧) ﴾ [الذاريات] وفى آية أخرى قال : ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ (٧) ﴾ [الذاريات]

يعنى : محبوكة ومحكمة ، والحبكة معناها أن ذراتها التى لا تُدرك ملتحمة مع بعضها ، ليس التحاماً كلياً إنما التحامُ ذرات ، لذلك ترى السماء ملساء .

ولذلك قال عنها الخالق عزَّ وجل : ﴿ رَفَعَ سَمْكَهَا[1] فَسَوَّاهَا (٢٨) ﴾ [النازعات] ولك أنْ تنظر إلى السماء حالَ صفائها وسوف تراها ملساء لا نتوءَ فيها ولا اعوجاج على اتساعها هذا ، وقيامها هكذا بلا عمد .

لذلك يدعوك الحق تبارك وتعالى إلى النظر والتأمل يقول لك : لن نغشّك انظر فى السماء وتأمل ﴿ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ (٣) ﴾ [الملك]

والحق سبحانه يقول : ﴿ قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ (١٠١) ﴾ [يونس] فالكون كله أمامكم فلماذا لا تنظرون ولا تتأملون ؟

فالحق سبحانه قد رفع السماء ووضع الميزان ، فالسماء لا تقع على الأرض والنظام محكم تماماً ، والشمس تطلع من الشرق وتغرب فى الغرب ، والقمر والنجوم تسير فى مُنتهى الدقّة والإبداع ، لأنه لا دخْلَ لأحد من البشر فيه .

فإنْ أردتم أنْ تصلُحَ حياتكم ، وأنْ تستقيم أموركم كما استقامت هندسةُ السماء والأرض فخذوا الميزان من السماء فى أعمالكم ، واتبعوا القول الحق : ﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧) أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (٨) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (٩) ﴾ [الرحمن]

وما دمتم قد رأيتم أنَّ الأمور الموجودة التى تسير بنظام لا تتحكمون فيه تعمل باستقامة وترون أن الفساد قد جاء من ناحية الأمور التى دخلتم فيها ، فلماذا لا نتبع منهج الله فى الأمور التى لنا دَخْلٌ فيها ؟

إنك إنْ عملتَ فى الحياة بمنهج الله الذى خلق الحياة فإنَّ أمورك تستقيم

---

(١) سَمْكها : بناءها وبنيانها . وقال السمرقندى : سمكها سقفها . قال الفراء : كل شيء حمل شيئاً من البناء وغيره فهو سمك وبناء . وقال الواحدى فى الوجيز (١/ ١١٧١) : سمكها : سقفها .

لك كما استقامتْ الأمور العُلْيا فى الكون ، فالسماء لا تقع على الأرض لأنها محكومةٌ بنظام محكم تماماً ، والأرض لا تدور بعيداً عن فلكها ، لأن خالقها قد قدَّر لها النظام المحكم تماماً .

إنه نظامٌ دقيق مُحكم لأنه لا دَخْل للإنسان فيه ، اصنعوا ميزاناً فى كل الأمور التى لكم فيها اختيارٌ حتى لا تطغوا فى الميزان ، فكمالُ قدرة الله أحكمت خَلْق السماء .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ ﴾

فَأعِدْ البصر ثانية مرة بعد أخرى ، فانظر هل ترى من فطور أو تفاوت أو خلل ؟ فإنْ لم تستدرك التثبُّت والتأمل بالمرة الأولى فرُدَّ البصر مرة أخرى مُسْتقصياً ، وردِّد البصر مرة أخرى بعد مرة ، وذلك لأن الإنسان إذا نظر فى الشيء مرة لا يرى عيبه ما لم ينظر إليه مرة أخرى .

فإنْ كنتَ تظنُّ أنَّ فى خَلْق السماء عيباً ما أو اختلافاً فانظر المرة بعد الأخرى ليزول ما تتوهّمه ، كأنَّ الله يقول له : انظر كما تشاء وخُذْ راحتك فى النظر والتأمل .

والنتيجة أنك سينقلب إليك البصر خاسئاً ، فبصرك سينقلب إليك كليلاً ضعيفاً لا يقوى على مواجهة الضوء الشديد كما لو واجهتَ بعينيك ضوءَ الشمس أو ضوءَ سيارة مباشر ، فإنه يمنعك من الرؤية لأن الضوءَ الأصل فيه

أن نرى به ما لا نراه.

فـ ﴿ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ (٤) ﴾ [الملك] أى يرجع إليك البصر (خاسئاً) صاغراً بمنزلة الخاسيء وهو الذليل القطرود المبعد عن أنْ ينظر باستدامة ، فالخاسيء الذى لم يَرَ ما يهوى ، فهو خاسيءٌ ولم يحصل له ما طلب من رؤية التشقق والخلل .

ولن ينقلب ويرجع إليك البصرُ خاسئاً فقط ، بل سينقلب ﴿ وَهُوَ حَسِيرٌ (٤) ﴾ [الملك] أى كليل ضعيف عن تحمّل الضوء ، والحسرةُ شدة التلهف على الشيءِ الفائت .

ويقول تعالى : ﴿ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ (١٩) ﴾ [الأنبياء] فيستحسرون من حسر يعنى ضعف وكلَّ وتعب وأصابه الملل والإعياء .

والحقُّ سبحانه قد ذكر خَلْق السماوات والأرض فقال : ﴿ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ (٤) ﴾ [السجدة]

فذكر سبحانه استواءه تعالى على العرش بعد خَلْق السماوات والأرض ، ونحن نأخذ كلَّ صفة عن الله فى نطاق التنزيه ، سبحان الله وليس كمثله شيء فليس استواءُ الله مثل استواء البشر .

ويقول تعالى : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى (٥) ﴾ [طه] فهل لله جسمٌ يستقرُّ به على عرش ؟ فنقول : هذا هو المتشابه الذى يجب على المؤمن الإيمانُ به ، ذلك أن وجودك أيها الإنسان ليس كوجود الله ، ويدك ليست كيد الله ، واستواؤك ليس كاستواء الله .

ورسول الله ﷺ يقول عن عرش الله :

(ثم على ظهورهم العرش بين أسفله وأعلاه مثل ما بين سماء إلى سماء) وهذا يدلُّ على عظيم خلق الله سبحانه (ثم الله تبارك وتعالى فوق ذلك)[1] نؤمن بها كما هى ، لا نحاول أن نفهمها بمفهومنا البشرى ، فكلُّ ما خطر ببالك فالله سبحانه على خلاف ذلك .

يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴿٥﴾ ﴾

(قد) حرف تحقيق للخبر ، فهو من حروف توكيد الخبر ، وهو حرفٌ يدخل على الفعل ، ويدخل على الماضى والمضارع . وقوله تعالى (ولقد) فالواو استئنافية ، واللام واقعةٌ فى جواب القسم . وقد حرف تحقيق .

والله قد زيَّن السماء الدنيا بمصابيح ، والمصابيح هى النجوم ، ونحن نُذهَل عندما نعرف أنَّ بعض النجوم يصل ضوؤها إلينا فى خمسين سنة ضوئية ، وعندما نريد أنْ نرصد المسافة بيننا وبين أحد النجوم فلسوف نُضطر إلى استخدام أعداد كثيرة من الأصفار أمام رقم ما .

وقد وضع علماءُ الفلك وحدةً ملائمة لقياس أبعاد النجوم ، وهى ما نُسميه

---

(١) عن عباس بن عبد المطلب قال : كنا جلوساً مع رسول الله ﷺ بالبطحاء فمرت سحابة فقال رسول الله : أتدرون ما هذا ؟ قلنا : السحاب . قال : والمزن ؟ قلنا : والمزن . قال : والعنان . قال : فسكتنا فقال : هل تدرون كم بين السماء والأرض ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم . قال : بينهما مسيرة خمسمائة سنة ومن كل سماء إلى سماء مسيرة خمسمائة سنة ،وكثف كل سماء مسيرة خمسمائة سنة ، وفوق السماء السابعة بحر بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض ثم فوق ذلك ثمانية أوعال بين ركبهن وأظلافهن كما بين السماء والأرض ثم فوق ذلك العرش بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض ، والله فوق ذلك وليس يخفى عليه من أعمال بنى آدم شيء . [أخرجه أحمد فى مسنده ١٧٧٠]

السنة الضوئية ، ونحن نعرف أن سرعة الضوء حوالى ثلاثمائة ألف كيلو متر فى الثانية .

والشمس كنجم مضيء كبير بيننا وبينها ثلاثة وتسعون مليوناً من الأميال ، ويصلنا ضوؤها فى خلال ثمانى دقائق وثلث الدقيقة ، والشِّعرى اليمانية[1]، وهى ألمع نجوم السماء يصل إلينا ضوؤها فى تسع سنوات ضوئية ، والسنة الضوئية هى وحدة لقياس المسافات الفلكية .

ونحن ننظر فنجد نجوماً لامعة تحت السماء الدنيا ، والله قد أوضح أنَّ الشمس والقمر والكواكب زينة السماء الدنيا ، فما بالنا بطبيعة وزينة بقية السماوات ؟

وهذه المصابيح النجوم والكواكب هى الزينة المدلاَّة من السماء الدنيا ، تُضيء لنا ولكنها ليستْ هى السماء الدنيا ، والله عزَّ وجلَّ يقول : ﴿ وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ (١٢) ﴾ [فصلت]

فأين السماء الدنيا من النجوم المضيئة التى نُشاهدها ؟ وبيننا وبين الشمس ثمانى دقائق ضوئية ، وبيننا وبين المرأة المسلسلة[2] مائة سنة ضوئية ، وبيننا وبين المجرة مليون سنة ضوئية .

ولك أنْ تضرب مليون سنة فى ٣٦٥ يوماً ، وتضرب الناتج فى ٢٤ ساعة، وتضرب الناتج فى ستين دقيقة ، ثم فى ستين ثانية ، ثم تضرب الناتج من ذلك فى ٣٠٠ ألف كيلو ، ثم تأمل الرقم الذى وصلتَ إليه .

والشمس هى أكبر نجم تُزيِّن سماءنا ، يستفيد منه كلُّ الخَلْق المؤمن والعاصى، والكافر والمشرك ، فإذا غابتْ الشمس نجد كلَّ واحد منا يستعين

(١) الشعرى اليمانية أسطع النجوم فى السماء ليلاً ورابع ألمع جرم فى السماء بعد الشمس والقمر ، وهو عبارة عن نجمين مترافقين . وقال تعالى ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى (٤٩) ﴾ [النجم] .

(٢) مجرة المرأة المسلسلة هى أقرب المجرات لمجرتنا وهى تبعد عنا نحو ٢,٥ مليون سنة ضوئية وتحتوى على ٢٥٠ مليار نجم ويبلغ قطرها ١٥٠ ألف سنة ضوئية ، يمكن رؤية المجرة بالعين المجردة .

بنور يعطيه الضوء فى حيِّز محدود وعلى قدْر إمكاناته .

فواحدٌ يُوقِد شمعة ، وواحدٌ يأتى بمصباح (جاز) صغير ، وواحد يستخدم الكهرباء فيأتى بمصباحٍ (نيون) ، وواحد يأتى بالعديد من مصابيح الكهرباء ليملأ المكانَ بالنور ، كُلٌّ على قدْر إمكاناته .

فإذا طلعتْ شمسُ الله فهل يُبقى أحدٌ على مصباحه مُضَاء ؟ إن الجميع يُطفئون مصابيحهم لأن شمس الله قد سطعتْ تُنير للجميع ؟ ذلك هو النور الحسيّ ، والفرْق بين نور بقدرات الإنسان ونور من خَلْق الله يتمثَّل فى أنَّ النور الذى من خَلْق الله يُطفيء المصابيح كلها لأنه يغمر الجميع .

والله لم يجعل النجوم مجرد مصابيح تُزيِّن السماء فقط ، بل جعلها علامات يهتدى بها الناس ، قال تعالى : ﴿ وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (١٦) ﴾ [النحل]

ونعلم أنَّ كلَّ مَنْ يسير فى البحر إنما يهتدى بالنجم ، وكذلك فى الصحراء . وقد كانت قريش لها رحلتان فى العام رحلة الشتاء ورحلة الصيف ، وكانت تسلك سُبلاً متعددة فتهتدى بالنجوم فى طريقها ، ولذلك لا بدّ أنْ يكون عندها خبرة بمواقع النجوم .

والحق سبحانه يقول : ﴿ وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِى ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٩٧) ﴾ [الأنعام]

وقد جعل الحقُّ سبحانه النجومَ ليهتدى بها هؤلاء الذين يسهرون أو يضربون فى الأرض أو يمشُون فى البحر بسفنهم ، وهم يحتاجون إلى ضوء قليل ليهديهم ، ولذلك كان العرب يهتدون بالنجوم .

يقول الواحد منهم للآخر : اجعل النجم الفلانى أمام عينيك ، واجعل النجم الفلانى عن يسارك وامش تجد كذا ، أو اجعل النجم الفلانى خلفك وامش تجد كذا .

والنجوم ليست فقط للاهتداء فى ظلمات البر والبحر ، لأنه لو كان القصد منها أنْ نهتدى بها فى ظلمات البر والبحر لكانتْ كلُّها متساوية فى الأحجام، لكنا نرى نجماً كبيراً وآخر صغيراً ، وقد يكون النجم الصغير أكبرَ فى الواقع من النجم الكبير لكنه يبعد عنا بمسافة أكبر .

وقد جعل الحق سبحانه للنجوم مهمة جمالية كبيرة ، وهى أنْ تكون زينة لكلِّ مَنْ ينظر إليها ، لذلك قال سبحانه ﴿ وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ (١٦) ﴾ [الحجر] ذلك أن الشىء قد يكون نافعاً ، لكن ليس له قيمة جمالية .

وشاء الحق سبحانه أنْ يجعل للنجوم قيمة جمالية ، وللنفس الإنسانية ملكة لرؤية الزينة ، فالزينة تستميل النفس الإنسانية ، لذلك يقول تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا[1] وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ (١٦) ﴾ [الحجر]

والجمال قيمة ونعمة يُنعم الله بها ، ونجده سبحانه يقول عن بعض نعمه التى أنعم بها علينا ﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً (٨) ﴾ [النحل]

وهو سبحانه وتعالى الذى جعل تلك الدواب لها منظر جميل ، فهو سبحانه القائل : ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ (٦) ﴾ [النحل] ، وهو سبحانه لم يخلق النعم لنستخدمها فقط فى أغراضها المتاحة ، ولكن بعضاً منها يروى أحاسيس الجمال التى خلقها فينا سبحانه ، وكلما تأثرنا بالجمال وجدنا الجميل ، وفى توحيده تفريدٌ لجلاله .

والله بتزيين السماء الدنيا بمصابيح يشيع نعم الله على خَلْق الله ، فالله يعطى فائدة حَمْل الأثقال لمن يملك الأثقال ، يقول تعالى : ﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (٧) ﴾ [النحل]

---

(١) البروج : الكواكب . قاله مجاهد . وقد فسَّره مقاتل بن سليمان بالنجوم . وقال عطية بن سعد : قصوراً فى السماء فيها الحرس . وكذا قال أبو صالح . وقال آخرون : هى النجوم الكبار [تفسير الطبرى ١٧/٤٨٣] .

أمـا الـذى لا يملك الأثقال فهو يرى الحصـان يسير بجمال فيسـعد برؤيته فيستمتع بما لا يملك ، وهذه إشاعةٌ لنِعَم الله على خَلْق الله .

فالحـق سـبحانه قد أعطانا الترف بجانب الضروريـات ، فالدفء والمنافع والأكل ضروريـاتٌ للحياة ، أما الجمال فهـو من ترف الحياة ، والجمال هو ما تراه العين فيتحقق السرور فى النفس .

والـدفء والمنافـع والأكل هو أمور خاصـة لمَنْ يملك الأنعـام ، أما الجمال فمشاع عام للناس ، فحين ترى حصاناً جميلاً ، أو ترى بقرة مزهوة بالصحة فأنت ترى نعمة الله التى خلقها لتسُرَّ الناظر إليها .

فهناك جمال وأُبَّهة تُرضـى شـيئاً فى نفوسكم ، وتشـيع ملكة من ملكاتها فـالله عزَّ وجـلَّ أعطانا ضروريـات الحياة وأعطانـا كمالياتهـا وجمالياتها ، والزينة من أجل الجمال .

ويقول الحق سبحانه ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ (٦) وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ (٧) لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ (٨) دُحُورًا[١] وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ (٩) ﴾ [الصافات]

فحين تنظر إلى السماء ليلاً نجدها مزدَانة بالنجوم تتلألأ ، وقد قال عبدالله ابن مسـعود رضـى الله عنه أن جرير بن عبدالله قال لرسـول الله ﷺ : « حدِّثنى يارسـول الله عـن السـماء الدنيا . فقال : أما السـماء الدنيا فـإنَّ الله خلقها من دخـان ثـم رفعها ، وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً ، وزيَّنها بمصـابيح النجوم وجعلها رجوماً للشياطين ، وحفظها من كل شيطان رجيم»[٢] .

والحق سبحانه قال : ﴿وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ(٥)﴾ [الملك] ، ويقول تعالى:

---

(١) دحوراً : مطرودين . [مجاهد فى تفسيره ٥٦٦/١] قال مقاتل بن سليمان فى تفسيره (٦٠٢/٣) : دحوراً يعنى طرداً بالشهب من الكواكب . والدحر : الدفع والإبعاد . وقال ابن الجوزى فى زاد المسير (٣٩/٥) دحوراً فيه تأويلان . أحدهما : قذفاً فى النار . الثانى : طرداً بالشهب . والدحور : الدفع بعنف.

(٢) أورده السيوطى فى الدر المنثور (٦٩/٥) وعزاه لابن مردويه عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه.

﴿ وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (١٢) ﴾ [فصلت]

فالله جعل المصابيح التى زيَّن بها السماء الدنيا رجوماً للشياطين تُرجم بها . (حفظاً) وحرساً من الشياطين أنْ تستمع للملأ الأعلى .

وقوله ﴿وَجَعَلْنَاهَا(٥) ﴾ [الملك] يعود على جنس المصابيح لا على عين المصابيح ، لأنه لا يُرمى بالكواكب التى فى السماء ، بل يُرمى بشُهب من دون الكواكب ، وقد تكون مستمدة منها .

فبعض النجوم زينةٌ للسماء لا يتحرك ، وبعضها يُهتدى بها فى ظلمات البر والبحر ، وبعضها رجوم للشياطين .

والنجوم التى زُينتْ بها السماء ليست هى التى يُرمى بها ، بل هى نجوم وكواكب مضيئة متلألئة عليها كتلؤلؤ المصابيح ، فالسماء الدنيا كالسقف المرفوع المُزيَّن بمصابيح معلَّقة به .

وقد وصف الله هذه النجوم بأنها مصابيح ملحوظٌ فيها إضاءتها ، فالمصابيح تعطى ضوءاً ، أما القمر فيعطى نوراً ، يقول تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا (٥) ﴾ [يونس] ، وقال تعالى : ﴿ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا (١٦) ﴾ [نوح]

أما الشمس فتعطى ضياءً ولذلك فهى سراج ، والفرق بين الضياء والنور يتمثل فى أنَّ الضياء تصحبه الحرارة والدفء ، أما نور القمر فهو نور حليم .

والنور هو ضوء ليس فيه حرارة ، والحرارة لا تنشأ إلا حين يكون الضوء ذاتياً من المضيء مثل الشمس ، أما القمر فضوؤه غير ذاتى ويكتسب ضوءه من أشعة الشمس حين تنعكس عليه ، فهو مثل المرآة حين تُسلّط عليها بعضاً من الضوء فهى تعكسه.

والرجوم والرُّجم هى النجوم التى يُرمى بها ، وهى الشُّهب التى جعلناها .

مرامى لهم ، وهم لا يُرمون بالنجوم نفسها إنما بشُهب أُخذت من النجوم ، وما ذاك إلا كقبس يُؤخذ من نار والنار ثابتة فى مكانها .

وذلك مثل قوله تعالى : : ﴿ إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ[1] نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى (١٠) ﴾ [طه]

سيأتيهم بقبس من النار وتبقى النار كما هى ، والقبس هو شعلةُ النار التى تُتخذ من النار إنْ أدركت النار وهى ذات لهب ، فتأخذ منها عوداً مُشتعلاً مثل الشمعة.

وفى سياق آخر قال : جذوة . وهى النار حينما ينطفيء لهيبها ويبقى منها جمرات يمكن أنْ تشعل منها النار ، وفى موضع آخر قال : ﴿ سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ (٧) ﴾ [النمل]

والله جعل الشُّهب ﴿رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ (٥) ﴾ [الملك] وكان الشياطين قبل نزول القرآن يسترقون السَّمْع ، وكان للشياطين مقاعد للسمع فى السماء تقعد فيها لتستمع إلى ما ينزل من السماء إلى الأرض ليتم تنفيذه[2].

يقول تعالى : ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا (٩) ﴾[الجن] فكانوا يسترقون السمع ويأخذون بضعاً من كلمات المنهج ويزيدون عليها فتبدو بها حقيقةٌ واحدة وألف كذبة .

ولذلك نجد الشياطين تقول ما ذكره الحق سبحانه على ألسنتهم فى كتابه

---

(١) آنست الشيء : رأيته . وسُمِّى الإنس إنساً لظهورهم . وقال أبو زيد : أنست الشيء أبصرته من بُعْد . [المخصص لابن سيده المرسى ١/١١٢] .

(٢) عن ابن عباس أنه لم تكن قبيلة من الجن إلا ولهم مقاعد للسمع ، فكان إذا نزل الوحى سمعت الملائكة صوتاً كصوت الحديدة ألقيتها على الصفا ، فإذا سمعته الملائكة خروا سجداً فلم يرفعوا رؤوسهم حتى ينزل فإذا نزل قال بعضهم لبعض : ماذا قال ربكم ؟ فإن كان مما يكون فى السماء قالوا : الحق وهو العلى الكبير ، وإن كان مما يكون فى الأرض من أمر الغيب أو موت أو شيء مما يكون فى الأرض تكلموا به فقالوا : يكون كذا وكذا ، فتسمعه الشياطين فينزلونه على أوليائهم ، فلما بعث الله محمداً دُحروا بالنجوم . [مصنف ابن أبى شيبة ٣٦٥٤٢] .

العزيز: ﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا (٨) وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا (٩) ﴾ [الجن]

ثم يقول الحق سبحانه ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ(٥) ﴾ [الملك] أى: أعددنا للشياطين فى الآخرة عذاب السعير، فرجمهم بالشهب هو فى الدنيا، وعذابُ السعير هو عذابهم فى الآخرة.

والمقصود بالشياطين مردة الجنِّ، وقد قال تعالى: ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ (٦) وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ (٧) لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ (٨) دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ (٩) إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ (١٠) ﴾ [الصافات]

والسُّعر اسم من أسماء الجحيم، وقسم من أقسام النار، فهناك لظى، وهناك حُطمة، وهناك سقر، وهناك الهاوية. والسعير هى النار المتوهِّجة التى لا تخمد ولا تنطفيء، فالسعير اسمٌ للنار المسعورة التى تلتهم كلَّ ما أمامها. كما نقول: كلب مسعور.

ثم يقول الحق سبحانه:

﴿ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ﴿٧﴾ ﴾

وإذا كان للشياطين عذابُ السعير فإن للذين كفروا بربهم عذابَ جهنم، فالذين كفروا بالله لهم العذاب الذى يبدأ بسماع شهيق جهنم فى أثناء فورانها.

والشهيق هو قوة تجذب وتسحب الهواء إلى الأنف والصدر، فما بالنا بقوة شهيق جهنم وهى تجذب وتسحب الذين وقع عليهم الأمر بالعذاب؟

وهذه النار نفسها تردُّ على سؤال الحق لها عندما تسمع قوله: ﴿ يَوْمَ نَقُولُ

لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ (٣٠) ﴾ [ق] ، فقوة العذاب التى جعلها الله مهمة لجهنم هى التى تُلحُّ وتندفع لطلب المزيد من عقاب الكافرين .

ولأن للنار شهيقاً فهى تستنشق المكتوبَ عليهم العذاب ، والشهيق يتم بسرعة أكبر من الزفير ، والشهيق فى الحياة يكون للهواء ، وهذا الشهيق الذى يعطى الحياة فى الأرض يوجد أيضاً فى الآخرة ولكنه شهيق النار .

إنها تشهق لتبتلع العصاة ، فالنار تشتاق للكفار وتنتظرهم وتتلهَّف عليهم، كما يقول تعالى : ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ (٣٠) ﴾ [ق]

وكما للنار شهيقٌ فإن لها زفيراً أيضاً ، يقول تعالى : ﴿ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا (١٢) ﴾ [الفرقان] ، والزفير : النفَس الخارج .

ومَنْ يدخل النار سيكون له شهيقٌ وزفير أيضاً ، يقول تعالى : ﴿ فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ (١٠٦) ﴾ [هود] ونحن نعلم أن الذى يتنفس فى النار سيخرج الهواء من صدره ساخناً مثلما يأخذ الشهيق ساخناً .

ولنا أنْ نتخيَّل صورة التنفس داخل النار وسط جوِّها المكفهر باللهب ، فالإنسان يتنفس ليستروح بالهواء ، فكيف يأخذه من النار ؟ إن فى ذلك عذاباً عظيماً .

كيف يستروح بهواء نار تفور ﴿ وَهِيَ تَفُورُ (٧) ﴾ [الملك] ومعنى كلمة (تفور) أى أنها وصلتْ إلى درجة الغليان كالماء مثلاً ، والماء يحتوى على هواء بدليل أنَّ السمك يتنفس من الماء ، وحين نغلى الماء نرى فقاقيع الهواء ، وهى تخرج من الماء ، فكيف يتنفس السمك ؟

وهم إنما يُلقوْن فى النار إلقاءً ، فليس دخولهم دخولاً هيِّناً ليِّناً فيه رفْق ورحمة ، والإلقاء لا يكون إلا لمادة وعين ، وفعل الإلقاء ورد فى آيات كثيرة .

فقال تعالى : ﴿ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ[1] وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي(١٥٠)﴾[الأعراف]،فإلقاء الألواح إلقاءٌ لأمر مادى.

ويقول تعالى : ﴿ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ (٤٤) ﴾ [الشعراء] إلقاء للحبال والعصى .

وهنا أيضاً فى قوله تعالى : ﴿ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا (٧) ﴾[الملك] وهو إلقاءٌ لأجسامهم وأبدانهم بما فيها من أرواح وإلقاؤها فى النار .

ولكن الله سبحانه قد يذكر الإلقاء فى الأمور المعنوية ، يقول تعالى : ﴿ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ (١٥١) ﴾ [آل عمران]

كأن الله يريد أنْ يجعل المعنى وهو الرعب شائعاً ، فكأنَّ الله سيجمع الرعب ويضعه فى قلوب الذين كفروا ، ويكون عمله فى القلوب مادياً ، والرعب أمر معنوى ولكن أصبح أثرُه فى القلوب مادياً .

﴿ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا (٧) ﴾ [الملك] فهم عند إلقائهم فى النار يسمعون للنار شهيقاً وهى تلتهمهم وتبلعهم ، كأنها عملية شفط لهم وإدخالهم إلى داخل النار .

فالمشهد حافلٌ بالحياة والحركة ، أناسٌ يلقون فى نارٍ متقدمة تشهق تبتلع ما يُلقَى فيها فتتلقَّاهم بألسنة لهبها وهى تغلى وتفور . وقد وصف الحق سبحانه هذا المصير فقال : ﴿ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٦) ﴾ [الملك]

والمصير هو المرجع الأخير لأى شيء ، وهنا معناها أى ساءت نهايتكم

---

(١) قيل فى التفسير إنهما كانا لوحين ، قال الزجاج : يجوز فى اللغة أن يقال للوحين ألواح . واللوح هو كل صفيحة عريضة خشباً كانت أو عظماً أو غيرهما وما يُكتب فيه من خشب ونحوه . [المعجم الوسيط ٢/٨٤٥].

ومرجعكم ، فمصيركم المؤدى إلى جهنم غاية فى السوء ، ولأن مصير هؤلاء هو جهنم ، فكان عليهم أنْ يستحضر هذا الجزاء وقت الاختيار للفعل .

وأسوأ ما فى هذا المصير أنه لا مفرَّ منه ، يقول الحق سبحانه : ﴿ يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ (١٠) كَلَّا لَا وَزَرَ (١١) إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ (١٢) ﴾ [القيامة]

ويقول الحق سبحانه : ﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ (٣٧) ﴾ [المائدة]

فكلما مسَّهم لَفْح النار يريدون أنْ يخرجوا منها ، لكن كيف تأتى لهم إرادةُ الخروج من النار فكأنهم لحظة لفحها عليهم وتقلّبهم هنا وهناك تدفعهم ألسنة اللهب إلى القرب من الخارج فيظنون أنَّ العذاب قد انتهى .

﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ (٣٧) ﴾ [المائدة] أى عذاب دائم ، فإنْ كان العذاب أليماً يبقى الألم على شدَّته ولا يُخفَّف أبداً ، وإنْ كان مهيناً تبقى الإهانةُ مستمرة ولا تزول أبداً ، وفى كلتا الحالتين هو عذاب فيه إقامة ، وفيه دوام واستمرار .

ثم يقول الحق سبحانه يصف النار :

﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ[1] مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ ﴾

فالنار من فورانها وغليانها وشهيقها وزفيرها ﴿ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ (٨) ﴾ [الملك] فالنار تتميز من الغيظ على الكافرين ، مثلما ترى قِدْراً يفور ويغلى ما فيه ، فبعضُ الفقاقيع تخرج منه وتنفصل عمَّا فى القِدْر .

والإنسان منا عندما يكون فى حالة من الغيظ تخرج منه وتنفصل عنه أشياء كفقاقيع غليان القدْر ، إنه يرغى ويزبد أى يشتد غضبه ، وهذه الفقاقيع من شدة

(١) تكاد تميز : تكاد تتفرَّق جهنم عليهم من الغيظ . قال ابن عباس : تكاد يفارق بعضها بعضاً وتنفطر . قال ابن زيد : التميز التفرق من الغيظ .

فورانها تتميز وتنفصل عن بعضها وتنفصل عن القدر.

كذلك النار تتميز من الغيظ، فتؤدى مهمتها الموكولة إليها، وهى تؤدى مهمتها بغيظ لأن الكافر من هؤلاء لم يعرف قيمة الإيمان.

والله يعطينا مثالاً آخر فيقول: ﴿ كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٢٥) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٢٦) وَنَعْمَةٍ[1] كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ (٢٧) كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ (٢٨) فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ (٢٩) ﴾ [الدخان]

فالأرض تغضب وتسخط وتضجّ بوجود الكافرين بنعمة الله فيها، ولذلك لا تبكى السماء والأرض على الخسْف والتنكيل بهؤلاء العصاة الكافرين المشركين، بينما تبكى السماء والأرض إنْ فارقها مؤمن.

فالأرض لا انسجامَ لها مع كائن عاص، كذلك النار تتميز غضباً وغيظاً وحنقاً ممَّنْ كفر بالله، وهى مع هذا تعشق أنْ تعذب الكافر وكأنَّ العقوبة تعشق أنْ تقع على المجرم، كأنَّ العذاب سعى إليه ليناله ويمسَّه.

فالنار مغتاظةٌ من هؤلاء تتأهّب لهم وتنتظرهم، وما دام الغيظ فوق تحمُّل النفس وسِعتها فلا بدَّ أنْ يشعر الإنسان بالضيق وأنه يكادُ ينفجر.

فمعنى ﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ (٨) ﴾ [الملك] أى تكاد أبعاضُها تنفصل بعضها عن بعض، والغيظ هو انفعال محبوس فى الصدور، وهو حالةُ غليان بالغضب أو القهر.

فالغيظُ نوعٌ من الغضب مصحوبٌ ومشُوبٌ بحزن وأسى وحسرة، والغيظ يقع للمؤمن والكافر، فحين نرى عناد الكفار وسخريتهم واستهزاءهم بالإيمان نغتاظ، لكن يُذهب الله غيظ قلوبنا.

فالنار ﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ (٨) ﴾ [الملك]، ثم يقول تعالى: ﴿ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا

(١) النعمة هنا لها أربعة أوجه: نيل مصر قاله ابن عمر. ثانيها: الفيوم قاله ابن لهيعة. الثالث: أرض مصر لكثرة خيرها قاله ابن زياد. الرابع: ما كانوا فيه من السعة والدعة.

فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ (٨)﴾ [الملك]

وأهل النار إنما كانوا يُلْقَوْن فى النار فوجاً وراء فوج ، ويقول تعالى ﴿هَـٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ (٥٩)﴾ [ص]

ويقول تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ[1] (٨٣)﴾ [النمل]

والفوج هم الجماعة والزُّمرة من الناس ، ويقول الحق سبحانه : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ (١٠٦) ﴾ [هود] فالذين حكموا على أنفسهم بالشقاء لخروجهم عن منهج الله يجمعهم الشقاء ، لكنهم يدخلون النارَ أفراداً وزمراً.

والحق سبحانه يقول : ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا (٧١) ﴾ [الزمر]، وفى آية أخرى يقول سبحانه : ﴿ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا (٣٨)﴾ [الأعراف] إنهم يأتون إلى الله زُمراً وجماعات.

﴿ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا (٨) ﴾ [الملك] خزنة جهنم من الملائكة ، مالك وأعوانه وهذا السؤال نفسه قد ساقته آية سورة الزمر ، قال تعالى ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا قَالُوا بَلَى وَلَـٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٧١) ﴾ [الزمر]

فـ ﴿خَزَنَتُهَا(٨)﴾ [الملك] أى خزنة النار قالوا لهم على سبيل التقريع والتوبيخ ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا(٧١)﴾ [الزمر]

---

(١) يوزعون : يُحبس أولهم على آخرهم . قال ابن قتيبة : أصل الوزع الكف والمنع . زاد المسير ٣/٣٥٦.

هـذا الاستفهام ألزمهم الحجـة وأفحمهم ، فربُّهم عزَّ وجـلَّ لم يأخذهم على غِرّة، إنما أرسل لهم رسلاً ، وهؤلاء الرسل (منكم) أى من جنسكم ومن أوسطكم، والأقرب إليكم لتسهل القدوة به .

وهنا ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ (٨) ﴾[الملك] والإنذارات التى تحدث للناس فى حياتهم مـن تمام رحمة الله بالخَلْق، والنذير يكون شـهيداً علـى أمة من الأمم أنه بلَّغها المنهج ، ورسول الله ﷺ شهيد على أمته أنه بلَّغ .

والنذير هو مَنْ يخبر بشرٍّ زمنُه لم يجئ ، لتكون هناك فرصـةٌ لتلافى العمل الـذى يُوقـع فى الشر ، ويقابله البشـير وهو مَنْ يبشر بخير سـيأتى إنْ سـلك الإنسـانُ الطريقَ إلى ذلك الخير . إذن : الإنذار والبشـارة هى أخبار تتعلق بأمر لم يجئ .

وفى الإنذار تخويفٌ ونوعٌ من التعليم ، وأنت حين تريد أنْ تجعل ابنك مُجدّاً فى دراسته تقول له : إنْ لم تذاكر فسوف تكون كابن فلان الذى أصبح صعلوكاً تافهاً فى الحياة .

إذن فأنت تنذر ابنك ليتلافى من الآن العمل الذى يؤدى به إلى الفشل الدراسى ، والبشـارة والنذارة لا تكون إلا للمُخيَّر ، ونعلم أنَّ الحق سبحانه أخبرنا ﴿ وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ (٢٤) ﴾ [فاطر]

وهذا النذير شـهيدٌ على تلك الأمة أنه بلَّغها المنهج ، وكل الرسـل جاءوا نذيراً لأممهم ، يقول تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٢٥) ﴾ [هود]

والرسل مُبشِّرون ومُنذرون ، فمَنْ يؤمن هو مَنْ يتلقَّى البشارة ، أما مَنْ عليه أنْ يتوقَّع النذارة فهو الكافر المنكر ، وفى الإنذار تخويفٌ بشـيء ينال منك فى المستقبل ، وعليك أنْ تُعدّ العُدَّة لتبتعد بنفسك أنْ تكون فيه .

والتبشير يكون بأمر تتمناه النفس ، وبالإنذار والتبشير يتضح الموقفُ بجلاء ويُحاط الإنسان بكلِّ قضايا الحياة ويتضح مسار كلِّ أمر من الأمور ، فالبشارة تصلح للإخبار بخبر يسُرّ أو بخبر يُحزن ويسيء ، ولكنها غلبت على الخبر السَّار وخصّت النذارة بالخبر الذى يُحزن وتنقبض النفسُ له .

ولكن الإنذار بالشر قبل أنْ يقع والتحذير منه قبل أوانه نعمة ، بل من أعظم نِعَم الله على الإنسان ليحتاط للأمر ، فالتهديد والوعيد والتبصير والتخويف إنما لنحذر المخوف منه فلا نقع فيه .

والنذارة لا بدّ لها من فترة حتى يتجنَّب الإنسانُ ما يأتى بالشر ، فالإنذار إعلامٌ بشيء مخيف قبل وقوعه لنتفادى أنْ نقع فيه وأنْ نتلافاه ، فأنت تحثّ الإنسان على ألاَّ يُقبل أو يُقدم على ما يضُّره .

فكلمة (الإنذار) كلمةٌ عامة لكلِّ الناس حتى يتجنبوا ما يقودهم إلى النار ، فالإنذار لوْنٌ من ضرورة التخلية من العيوب قبل التحلية بالكمال ، فأنت تدفع عن نفسك الأمرَ الذى يأتى بالضر أولاً ثم تتجه إلى ما يجلب النفع من بعد ذلك ، لأن درْءَ المفسدة مُقدَّم على جَلْب المصلحة .

والمنذر الذى يحذر من الشر قبل وقوعه ليحتاط السامعُ فلا يقع فى دواعى الشر ، ولا يكون الإنذارُ ساعةَ وقوع الشَّر ، لأنه فى هذه الحالة لا يُجدى .

فالجن والإنس يُرسَل لهم رُسُل ومنذرون ، قال تعالى : ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا (١٣٠) ﴾ [الأنعام]

فالجن لهم رسل والإنس لهم رسل ، وقال البعض : الرسل من الإنس خاصة لأن القرآن جاء فيه على لسانهم : ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ (٣٠) ﴾ [الأحقاف]

فالجن احتجُّوا بكتاب أُنزل من بعد موسى عليه السلام وعندهم خبر عن الكتاب الذى جاء بعده ، كأنَّ الجن يأخذون رسالتهم من الإنس . فكأنَّ الله قد أرسل رسلاً من الإنس فقط وبلغ الجنُّ ما قاله الرسول .

والله يرسل منذرين لكى لا يكون للناس حجةٌ ، يقول تعالى ﴿ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ (١٦٥) ﴾ [النساء]

فالله يرسل الرسل مبلِّغين عن الله حتى لا يكونَ لأحد حجةٌ بعد الرسل .

﴿ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ۝٩ ﴾

فالحق سبحانه قبل أنْ يعاقب على جُرْم ، وقبل أنْ يُجرِّم يُنزل النصَّ بواسطة الرسل . أى أن الله لا يهلكهم بسبب ظلم وقع منهم إلا بعد ذلك البلاغ. وليس لأحد عذرٌ بعد البلاغ ، فالحكمة من إرسال الرسل إقامة الحجة على المرسل إليهم .

وهنا لما سُئل الكافرون عن الإتيان بهم والإلقاء بهم فى النار : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ (٨) قَالُوا بَلَى (٩) ﴾ [الملك] و (بلى) حرف جواب مثل نعم تماماً ، ولكن (بلى) حرف جواب لإثبات ما بعد النفى .

فـ (بلى) تأتى بعد النفى ، ونعم تأتى بعد الإجابة . فإذا قال إنسانٌ : ليس لك عندى شيءٌ وقلت نعم ، فمعناها أنه صحيح أنك ليس لك عنده شيء ، أما إذا قلت بلى فمعنى ذلك أنَّ لك عنده شيئاً أو أشياء .

وساعة تأتى قضية منفية ثم تأتى بعدها كلمة (بلى) فإنها تنقض القضية التى سبقتْها ومعنى ذلك أنها تثبت ضدها ، فـ (بلى) تأتى فى جواب سؤال

منفـى ، وذلك مثل قوله تعالى ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى (١٧٢) ﴾ [الأعراف] فهى أداةُ نفى للنفى السابق عليها ، ومعلومٌ أنَّ نفى النفى إثباتٌ .

ومثلـه قوله تعـالى : ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا (٣٨) ﴾ [النحل]

فكان ما أقسموا عليه بالله أنـه ﴿ لَا يَبْعَثُ اللهُ مَنْ يَمُوتُ (٣٨) ﴾ [النحل] وهذا إنكارٌ للبعث ، فيردّ عليهم الحق سبحانه (بلى) ، وهى أداة لنفى السابق عليها، وإثبات ما بعدها ؛ فيكون المعنى : بل يبعث الله مَنْ يموت .

﴿ قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ (٩) ﴾ [الملك] وهنا هم يعترفون بأنه قد جاءهم نذير ولكنهم كذَّبوا ، وقد أرسل الله إليهم الرسول على فترة حتى يقطع عنهم الحجة والعذر فلا يقولوا ﴿ مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ (١٩) ﴾ [المائدة]

فقد جاءنا نذير فأنذرنا وخوَّفنا وأخبرنا بهذا اليوم ، فكذَّبنا ذلك النذير وكذّبنا الرسل وأفرطنا فى التكذيب حتى نفينا الإنزال والإرسال رأساً .

﴿ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ (٩) ﴾ [الملك] والتكذيب مسألة منكرة وهو تأبٍّ من المكذِّب ، والتكذيب هو الوقوف إيجابياً فى موقف الضّد وموقف الصَّدِّ عن سبيل الله .

فالكافرون لهم ثلاثُ مراحل : الإعراض ، والتكذيب ، والاستهزاء ، فالإعراض أمرٌ سلبيٌّ ، أما التكذيب فهو عمل إيجابى وإنْ كان فى اتجاه مضاد للإيمان ، أما الاستهزاء فيتجاوز التكذيب إلى السخرية والاصطدام بمَنْ آمن .

وهم بهذا لا يقدرون الله حَقَّ قدْره ، فهم يقولون ﴿ مَا نَزَّلَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ (٩) ﴾ [الملك] ويقول تعالى : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ (٩١) ﴾ [الأنعام]

وهـؤلاء يسـألهم الله ﴿ قُلْ مَنْ أَنـزَلَ الْكِتَابَ الَّذِى جَاءَ بِـهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ (٩١) ﴾ [الأنعام] فهـم أنكروا أنْ يكون الله قد اختار مـن بعض خَلْقه مَنْ يجعلهم أهلاً لتلقِّى منهجه لإبلاغه إلى خَلْقه .

وممَّـنْ قالوا ﴿ مَا نَزَّلَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ (٩) ﴾ [الملك] بعضٌ من أهل الكتاب ، ففى السيرة نجد واحداً من الأحبار كان دائبَ الخوض فى الإسلام وكان اسمه (مالك بن الصيف) ، فلقيه رسول الله ﷺ .

والحَبْر هو عالم اليهود والمفترض فيه أنْ يكون من الزهاد فيهم منقطعاً للعلم إلا أنه كان سميناً على الرغم من أنَّ عادة المنقطعين للعبادة وللعلم أنهم لا يأخذون من الزاد إلا ما يقيت ويقيم الأود.

فلما علم رسول الله ﷺ أن مالك بن الصيف وهو من أحبار اليهود يخوض كثيراً فى الإسلام قال له : أفى توراتكم : إن الله يبغض الحبر السمين ، فبُهِتَ الرجلُ وقال : ﴿ مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ (٩١) ﴾ [الأنعام]

يعنى ما أنزل الله على بشر من شيء من الذى أنت تقوله ، وهكذا نعلم أن مثل هذا القول قد يأتى من أهل الكتاب ، وحين قال مالك هذه القولة قام عليه رجالٌ من اليهود وقالوا له : كيف تقول ﴿ مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ (٩١) ﴾ [الأنعام]

فقال لهم : أغضبنى محمد . فرددتُ على الغضب بباطل .

وهنا قال مَنْ سمعه من اليهود : إذن أنت لا تصلح أنْ تكونَ حبراً لأنك فضحتنا وعزلوه ، وجاءوا بكعب بن الأشرف وولَّوه مكانه[1].

---

(١) أورده السيوطى فى الدر المنثور (٣/٣١٤) وعزاه لابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير قال : جاء رجل من اليهود يقال له مالك بن الصيف ، فخاصم النبى ﷺ فقال له النبى : أنشدك بالذى أنزل التوراة على موسى : هل تجد فى التوراة أن الله يبغض الحبر السمين وكان حبراً سميناً فغضب وقال : والله ما أنزل الله على بشر من شيء فقال له أصحابه : ويحك . ولا على موسى .

ويحكم الله سبحانه عليهم فيصفهم ﴿ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ (٩) ﴾ [الملك] يعني ما أنتم إلا فى ضلال كبير، واستخدام (إن أنتم) موجود فى القرآن كثيراً.

ومثله قوله تعالى ﴿ وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ (٥٠) ﴾ [هود] أى: ما أنتم إلا كاذبون فى إشراككم مع الله الأوثان.

وقال تعالى: ﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا (١٠) ﴾ [إبراهيم] أى: ما أنتم إلا بشر مثلنا فليس لكم علينا فضلٌ.

ويقول تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ (٥٨) ﴾ [الروم]

فيصفون محمداً وأصحابه بأنهم مبطلون، أى ما أنتم يا محمد وأصحابك إلا مبطلون، أى أصحاب أباطيل، فهم يتهمون الرسل فى بلاغهم عن الله بأنهم أهلُ باطل وكذب.

لذلك قال تعالى لهم: ﴿ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ (٩) ﴾ [الملك] والضلال هو أنْ تسلك سبيلاً لا يؤدى بك إلى غايتك، فأهل الضلال أغواهم ضلالهم فلم يعُدْ لهم هَادٍ.

فالضلال يأتى على معانٍ متعددة، فقد يأتى الضلالُ مرة بمعنى الذهاب والفناء فى الشيء، مثل قوله الحق: ﴿ وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ (١٠) ﴾ [السجدة]

وقد يأتى الضلال مرة أخرى بمعنى عدم اهتداء الإنسان إلى وجه الحق،

كما قال الحق وصفاً لرسوله ﷺ ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى (٧) ﴾[الضحي] أى : أنك لم يعجبك يا محمد منهج قريش فى عبادة الأصنام ، وظللتَ تبحث عن المنهج الحق إلى أنْ هداك الله فأنزل إليك هذا المنهج القويم ، لقد كنت ضالاً تبحث عن الهداية فجاءتْك النعمةُ الكاملة من الله .

وهناك لوْنٌ آخر من الضلال وهو أنْ يتعرَّف الإنسانُ على المنهج الحق لكنه ينحرف عنه ويتجه بعيداً عن هذا المنهج إلى مناهج بشرية نابعة من الأهواء تقود حتماً إلى الضلال .

والضلال فى الدنيا والأمور المادية قد لا يوصلنى لغايتى المرجوة ، وقد لا يوصلنى لشرٍّ منها أو لمقابلها ، لكن فى الأمر القيمى ماذا يفعل ؟ إنه لا يُوصلك إلى الغاية المرجوة وهى الجنة فحسب ، ولكنه يُوصل للمقابل وهو النار ، هذا هو الضلال المبين الواضح .

فالضلال إذن أنْ يسلك الإنسانُ سبيلاً غيرَ مُوصِّل للغاية ، وكلما خطا الإنسان خطوةً فى هذا السبيل ابتعد عنها ، وهذا الابتعاد عن الغاية هو الضلال البعيد.

فالضلال لا يقتصر عليهم ، لكن الضلال سيكون ممتداً ، وقد قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا (١٣٦) ﴾ [النساء]

فـ (ضل) أى سار على غير هُدى ، فعندما يتوه الإنسان عن هدفه المقصود يُقال : ضَلَّ الطريق . والذى ﴿ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا (١٣٦) ﴾ [النساء] هو مَنْ يذهب إلى متاهة بعيدة ، والمقصود بها متاهة الكفر .

وهناك ضلال عن الهدى يمكن استدراكه ، أما الضلال البعيد والغرق فى

متاهة الكفر فمن الصعب استدراكه ، والشيء البعيد هو الذى بينه وبين مصدره مسافةٌ زمنية طويلة .

والذى يضلُّ قصارى ضلاله أنْ ينتهى بانتهاء حياته ، لكن الذى يعمل على إضلال غيره فهو يجعل الضلال يمتدّ ، أى أن الضلال سيأخذ فى هذه الحالة زمناً أكبر من حياة المُضل ، ويتوالى الضلال عن المضلِّين أجيالاً ، وهكذا يصبح الضلالُ مُمتداً .

و (ضل) يقابلها اهتدى . و (ضَلَّ) أى لم يذهب إلى السبيل الموصِّلة للغاية. و (اهتدى) أى ذهب إلى السبيل الموصِّلة إلى الغاية . ومَنْ لا يعرف السبيل الموصِّلة إلى الغاية يكون قد ضَلَّ أيضاً .

ولكن هناك مَنْ يضل وهو يعلم السبيل الموصِّلة إلى الغاية وهذا هو الكفر، وعندما يتكلَّم الحق عن الذين كفروا يصفهم بأنهم ضلُّوا ضلالاً بعيداً لأن الطريق إلى الهداية كان أمامهم ولم يسلكوه ، وهذا هو ضلالُ القمة .

وقوله ﴿ فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ (٩) ﴾ [الملك] أى ضلال عظيم كثير ، فهم لم يكتفوا بمجرد الضلال بل جعلوا ضلالهم كبيراً ، فى ذهاب عن الحقِّ وبُعْد عن الصواب كبير .

والبعض من العلماء ذهب إلى أنَّ قوله ﴿ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ (٩) ﴾ [الملك] هو من قول الكافرين أنفسهم تكملةً لقولهم ﴿ وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ (٩) ﴾ [الملك] ثم يستطردون أنهم خاطبوا رسلهم قائلين : ﴿ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ (٩) ﴾ [الملك]

وقد ذكر الله لنا بعض هذا فى القرآن الكريم ، قال تعالى بخصوص نوح عليه السلام : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ (٩) ﴾

[القمر] فاتهموا نوحاً عليه السلام بالجنون .

ويقول تعالى : ﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (٣٨) ﴾ [هود]

فقد كانوا يسخرون منه كيف تصل هذه السفينة من (نينوى)[١] إلى البحر، وليس عندها بحر ولا نهر ، ولم يكونوا يعلمون ما علمه نوح عليه السلام من أن الماء هو الذى سوف يأتى ليحمل السفينة .

حتى أنهم قالوا له : ﴿ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٦٠) ﴾ [الأعراف] فهم خائفون أنْ تكون دعوة نوح عليه السلام هى الدعوة إلى الطريق المستقيم وأن كلامه هو الهداية فيمُنّون أنفسهم أن هذا ضلال وخروجٌ عن المنهج الحق ، فيرمون ما بهم من ضلال على نوح عليه السلام .

ثم يستطردون كلامهم فيقولون كما يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (١٠) ﴾

أى لو كانت لنا عقولٌ ننتفع بها أو نسمع ما أنزله الله من الحق ، وقال البعض من العلماء : لو كنا نسمع سمْعَ مَنْ يعى ويتفكَّر ، أو نعقل عقلَ مَنْ يُميِّز وينظر ما كُنَّا من أهل النار .

ووسائل الإدراك والهدى السمع والعقل ، فالسمع لما أنزل الله وجاءتْ به الرسل والعقل الذى ينفع صاحبه ويُوقفه على حقائق الأشياء ، فلا سمعَ لهم ولا عقل .

فوسائلُ الإدراك عندهم تعطلت ، فآذانهم صُمَّتْ فهى لا تسمع منهجَ الحق،

---

(١) نينوى : محافظة فى شمال العراق ومركزها الموصل التى تعد ثانى أكبر مدن العراق تبعد عن بغداد ٤٠٢ كم ، ومن معالمها جامع النبى يونس وهو على تلة والضريح فى تجويف هذه التلة ينظر إليها الزائرون من أعلى .

وألسنتُهم تعطلتْ عن نقْل ما فى قلوبهم ، وأبصارهم لا ترى آيات الله فى الكون، فآلات إدراكهم لهدى الله معطلة عندهم .

لذلك وصف الحق سبحانه الذين كفروا فقالوا : ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِى يَنْعِقُ[1] بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (١٧١) ﴾ [البقرة]

فهناك شيء قد سدَّ منفذ السمع فلا تسمع ، ويسبِّب الصمم فهم بُكْم، فالإنسان إنْ لم يسمع فهو لن يتكلم ، فالأذن جُعِلت لتسمع السماع المفيد فكأنّها مُعطَّلة لا تسمع شيئاً .

والعقل وُجد ليفكر به ، فإذا لم يفكر تفكيراً سليماً منطقياً فكأن صاحبه لا عقلَ له ، فالأصمّ حقيقةً خيرٌ من الذى يملك حاسة السمع ولا يفهم بها ، لأن الأصمَّ له عذره والأبكم كذلك ، والمجنون أيضاً له عذره .

وعملية العقل تنشأ بعد أنْ تسمع وبعد اكتمال الحواس ، ولذلك فالإنسان فى تكوينه الأول حركيّ حِسِّيّ يرى ويسمع ويتذوق ثم يتكوَّن عنده من ذلك القضايا العقلية .

وليس معنى أنهم لا يسمعون أنهم صُمٌّ بجارحة الأذن ، فهم يسمعونه بآذانهم ولكنهم لا يفقهون ما يسمعونه ، وقد قال الحق سبحانه عنهم : ﴿ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا (٧٨) ﴾ [النساء]

وساعة تقول فلان لا يفقه ، فهذا معناه أنَّ عقله ممنوعٌ من الفهم ، أما عندما نقول : لا يكاد يفقه . فهو يعنى : لا يقرب حتى من الفهم ، فمنطق العقل والفكر يقودان إلى ضرورة الفهم ، وعندما لا يفهمون ذلك فنحن نستعجب من عدم فهمهم ، ولا نستعجب من عدم فهمهم إلا إذا كان الأمرُ المطروح أمامهم

---

(١) النَّعْق : مصدر نعق ينعق وهو صياح الراعى بالغنم وزجره إياها . ووجه الكلام : كمثل المنعوق به فجاء الناعق فى موضع المنعوق به لأنه جعل الكفار بمنزلة الغنم المنعوق بها [جمهرة اللغة لابن دريد ٢/٩٤٣] .

أمراً يستوعبه العقل .

فالفقه هو أنْ تفهم ، أى أن يكون عندك مَلَكة فَهْم تفهم بها ما يُقال لك علماً، فالفهم أوّلُ مرحلة والعلم مرحلة تالية ، فالفقه هو الفهم .

ويقول تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِى فِى الصُّدُورِ (٤٦) ﴾ [الحج]

فهل يعقل الإنسانُ بقلبه ، فنحن نعلم أن العقل فى المخ والقلب فى الصدر ، فللإنسان وسائلُ إدراك هى الحواس التى تلتقط المحسَّات كالعين واللمس .

فلما يدرك الإنسان هذه الأشياء بوسائل الإدراك يتدخَّل العقلُ ليغربل هذه المدركات ويختار من البدائل ما يناسبه ، وبعد أنْ يختار العقل ويوازن بين البدائل يحكم بقضية تستقر فى الذِّهْن وتقتنع بها ، ولا تحتاج لإدراك بعد ذلك، ولا لاختيار بين البدائل .

وللعقل مهام أخرى غير أنه يختار ويفاضل بين البدائل ، فالعقل من مهامِّه أنْ يعقل صاحبه عن الخطأ ، ويعقله عن أنْ يشرد فى المتاهات والبعض يظنُّ أنَّ معنى عقل يعنى حرية الفكر وأنْ يشطح المرءُ بعقله فى الأفكار كيف يشاء، لا ، العقل من عقال الناقة الذى يمنعها ويحجزها أنْ تشرد منك .

فليس العقل لأنْ ترتع به فى خواطرك ، إنما جاء العقل ليقيد هذه الخواطر ويضبط السلوك . يقول لك : اعقل خواطرك وادرسها لا تنطلق فيها على هواك تفعل ما تحب ، بل تفعل ما يصحّ وتقول ما ينبغى .

وهم تركوا أنفسهم لضلالهم وأهوائهم الفاسدة البعيدة عن منهج الله ، فهم لم يكونوا يسمعون لهدى الله السمعَ الذى يفيدهم ويجعلهم يعقلون ويفقهون ويفهمون ويعقلون أنفسهم عن الوقوع فى الكفر والخطأ .

ولأنهم لم يكونوا يسمعون أو يعقلون أصبحوا فى أصحاب السعير، والشيطان هو الذى أوقعهم فى هذا ودعاهم لأنْ يكونوا فى أصحاب السعير، قال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ (٦)﴾ [فاطر]

فهم سيصبحون من أصحاب السعير وستكون بينهم وبين النار أُلْفة، وأنها تريدهم وتعشقهم حتى صارت بينهما مصاحبة.

ولكن الحق يقول هنا ﴿فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (١٠)﴾ [الملك] فلم يستخدم الحق سبحانه كلمة (من) بل استخدم (فى)، فكأنَّ هؤلاء الذين نتحدَّث عنهم فى وسط النار، وأهلُ النار محيطون بهم، فهم فى المركز.

هذا الفهم جاء من معنى (فى) هنا، لكن لماذا استحقَّ هؤلاء أنْ يكونوا فى الوسط وفى المركز وأهل النار حولهم؟

ثم يقول الحق سبحانه:

﴿فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ١١﴾

إنه اعترافٌ منهم باقترافهم الظلم وقيامهم عليه، فهذا اعترافٌ وإقرار منهم، وهما سيِّدا الأدلة، لأن كلام المقابل إنما يكون شهادة، ولكن كلام المقرِّ هو إقرارُ اعتراف.

وقد ذكر الحق سبحانه إقرارهم واعترافهم فى آيات أخرى نحو قوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا[1] إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٥)﴾ [الأعراف]، وفى آية أخرى يقول تعالى: ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (١٤)﴾ [الأنبياء]

فقد كنا ظالمين لأنفسنا بظلمنا لربنا فى أننا كفرنا به، كما قال تعالى

---

(١) البأس: الشدة والبلاء. والبأس: العذاب فى الدنيا. والبأس النقمات.

فى آية أخرى : ﴿ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ[1] فِي جَنْبِ اللهِ (٥٦) ﴾ [الزمر]

ويحدِّثنا الحق سبحانه عن آخرين ﴿ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٠٢) ﴾ [التوبة]

وهؤلاء إنما اعترفوا ولم يُصرُّوا على النفاق ، وليسوا كالأوَّلين الذين أصرُّوا على نفاقهم وكفرهم فاعترفوا عند معاينتهم للعذاب ، واعترافهم هو اعترافٌ بذنب واحد يجمعهم هو كفرهم بالله ، لذلك قال تعالى فى سورة الملك ﴿ فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ (١١) ﴾ [الملك]

أما ﴿ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ (١٠٢) ﴾ [التوبة] فهى ذنوب متعددة ومعاصٍ وقعوا فيها رغم إيمانهم ، لذلك جاءت بصيغة الجمع لاختلاف الذنب من واحد إلى آخر .

والاعتراف لونٌ من الإقرار ، والإقرار بالذنب أنواعٌ ، فهناك مَنْ يُقرّ بالذنب إفاقة ، وآخر يُقر بالذنب فى صفاقة ، مثلما تقول لواحد : هل ضربتَ فلاناً ؟ فيقول : نعم ضربتُه أى أنه اعترف بذنبه ، وقد يضيف : وسأضرب مَنْ يدافع عنه أيضاً ، وهذا اعترافٌ فيه صفاقة . أما مَنْ يعترف اعترافَ إفاقة فهو يُقرُّ بأنه ارتكب الذنب ويطلب الصفح عنه ، وهذا هو الاعتراف المقبول عند الله ، وهم قد ﴿ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ (١٠٢) ﴾ [التوبة] اعترافَ إفاقة .

بدليل أن الله قال فيهم ﴿ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا (١٠٢) ﴾ [التوبة] وعملهم الصالح هنا هو إقرارهم بالذنب ومعرفتهم أن فضيحة الدنيا أهون من فضيحة الآخرة ، أما عملهم السيء فهو التخلّف عن الجهاد والإنفاق ،

---

(١) قال مجاهد : يعنى ما ضيَّعت من أمر الله وقصَّرت فيه . وقال الطبرى : أى ما ضيعت من العمل بما أمرنى الله به ، وقصرت فى الدنيا فى طاعة الله .

واعترافهم هذا هو اعتراف الإفاقة .

والاعتراف منهم إجابةٌ بالإقرار ، والإقرار هو سيد الأدلة ، ومن نحو اعترافهم وإقرارهم ماذكره الحق سبحانه عنهم ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (٦١) ﴾ [العنكبوت]

فمسألة الخَلْق هذه من الوضوح بحيث لا يستطيع أحدٌ إنكارها ، لذلك يقولون هنا فى إجابة السؤال ، ﴿ لَيَقُولُنَّ اللهُ (٦١) ﴾ [العنكبوت] ، وهذا الاعتراف منهم يستوجب من المؤمن أنْ يحمد الله عليه فيقول : الحمد لله أن اعترفوا بهذه الحقيقة بأنفسهم ، الحمد لله الذى أنطقهم بكلمة الحق وأظهر الحجة التى تبطل كفرهم .

لذلك يقول تعالى بعدها ﴿ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (٦١) ﴾ [العنكبوت] أى : كيف بعد هذا الاعتراف ينصرفون عن الله وينصرفون عن الحق ؟

والحق سبحانه يقول ﴿ فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ (١١) ﴾ [الملك] ، لكن ما فائدة هذا الاعتراف الآن ؟ وبماذا ينفعهم وهو فى دار الحساب ؟ لا فى دار العمل والتكليف؟

وما أشبه هذا الاعتراف باعتراف فرعون قبل أنْ يغرق ﴿ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِى آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ (٩٠) ﴾ [يونس] لذلك ردَّ الله عليه : ﴿ آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٩١) ﴾ [يونس]

فلم تكُنْ فى جعبته إلا كفرٌ بالله وعصيان لأوامره ، فكيف يعترف بالبعث والقيامة والحساب ، فكان يؤنس نفسه بتكذيب ما أخبره به الرسول .

والنفس البشرية وإنْ كانت لها شهوات إلا أنَّ لها اعتدالاً مزاجياً يتدخَّل بالندم عندما يرتكب الإنسان إثماً أو معصية ، ولذلك تجد كثيراً من الناس

يعانـى من متاعب لأنهم ارتكبوا معاصـىَ ، لكنهم يريـدون الاعتراف بها لأيّ إنسان .

وأى إنسان يتلقى الاعتراف ليست لديه القدرة على تدارك آثار تلك المتاعب ، لأنها وقعت وانتهى الأمر ، لكن لماذا يريد الإنسانُ أنْ يعترف لآخر بمعصية ؟

إنه اعترافٌ للتنفيس ، لأن كلَّ حركة فى النفس البشرية ينتج عنها تأثير فى النزوع ، فعندما يُغضبك أحدٌ فأنت تنزع إلى الانتقام ولهذا يأمرك الشرعُ حين يغضبك أحدٌ أنْ تُغيِّر من وضعك .

﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ (١١)﴾ [الملك] وهم لا يعترفون إلا إذا سُقط فى أيديهم فقالوا : لئن لم يتداركنا الله برحمته ومغفرته لنكونن من الهالكين ، وهذا اعترافٌ منهم بذنبهم والتجاءٌ إلى الله عز وجل .

وذنبهم هو إنكارُ وجود الله ، وإنكارُ وجود الله ليس بعده ذنب ، ولا يوجد ما هو أكثر منه فى الذنوب ، فليس بعد الكفر ذنب ، فالكفر أكبر الذنوب .

هؤلاء يُقال لهم : ﴿فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ (١١)﴾ [الملك] ومعنى سُحْقاً أى بُعداً لهم وخسارة وشقاء ، فما أشقاهم وأرداهم حيث فاتهم ثوابُ الله وكانوا ملازمين للسعير التى تستعر فى أبدانهم وتطلع على أفئدتهم .

فبُعداً لهم من الله ومن رحمته ، و (سُحْقاً) منصوب على المصدر أى : أسحقهم الله سُحْقاً . وكان القياس إسحاقاً . والسحيق البعيد .

ومنه قوله تعالى : ﴿ فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤١) ﴾ [المؤمنون] أى بُعداً لهم عن رحمتنا ونعيمنا الذى كنا نُمنِّيهم به ونعدهم به لو آمنوا .

وليس البُعد عن العذاب لأن البُعد مسافة زمنية أو مكانية نقول هذا بعيد . أى زمنه أو مكانه . المراد هنا البُعد عن النعيم الذى كان ينتظرهم إنْ آمنوا .

ويقول تعالى : ﴿ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ (٤٤) ﴾ [المؤمنون] يعنى : بُعداً لهم عن

رحمة الله ، وبُعداً لهم عن نعيم الله الذى كان ينتظرهم ولو أنهم آمنوا لنالوه ، فمَنْ يبعد عن الله يزده بُعداً ، وهو بُعد نهائى .

والحق سبحانه يقول عن قوم هود : ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ (٦٠)﴾ [هود]

فهم يستحقون ما وقع عليهم من إهلاك وطرد من رحمة الله ولن يعطف عليهم أحد لضخامة ذنبهم ، وكلمة (بُعداً) ليست دعاء على قوم هود بالبُعْد ، لأنها هلكت بالفعل .

ومادة كلمة (بُعداً) هى (الباء) و (العين) و (الدال) وتُستعمل استعمالين ، مرة تريد منها الفراق ، والفراق بينونة إلى لقاء مظنون ، أما إذا كانت إلى بينونة متيقنة ألا تكون ، ولذلك جاء بعدها ﴿كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ (٩٥)﴾ [هود]

وهى تدلّ على أنه بُعْدٌ لا لقاءَ بعده إلا حين يجمع الحق سبحانه الناس يوم القيامة ، والشاعر يقول :

يَقُولونَ لاَ تَبْعُد وَهَم يَدفِنُونني ... وَأَيْنَ مكَانُ البُعْد إلاَّمكَانِيا

فهذا هو البُعْد الذى يذهب إليه الإنسان ولا يعود ، ورسول الله إنما قال سُحْقاً سُحْقاً للذين بعدوا عن منهج الله وتنكّبوا الطريق وغيَّروا وبدَّلوا .

فقال رسول الله لأصحابه : أنا فرطكم على الحوض . قالوا : يا رسول الله كيف تعرف منْ لم يأتِ من أمتك ؟ قال : أرأيتم لو أن رجلاً له خيل غر مُحجلة[1] بين ظهرانى خيل دُهْم[2] بهْم ، ألم يكن يعرفها ؟ قالوا : بلى . قال : فإنهم يأتون يوم القيامة غراً مُحجَّلين من أثر الوضوء . قال : أنا فرطكم على الحوض ،

---

(١) الغر جمع الأغر من الخيل : الأبيض موضع الجبهة ، فالغرة بياض فى وجه الفرس . والمحجلة فى قوائمها بالبياض أيضاً . يريد أن علامة أمته فى القيامة فى وجوهها ومواضع وضوئها [مشارق الأنوار على صحاح الآثار - مادة غرر] .

(٢) الدُّهم : السُّود . والبُهْم : التى لا يخالط سوادها لون آخر . فالبهيم الأسود الذى لا شية فيه . [مشارق الأنوار على صحاح الآثار ١/١٠٢] .

لَيُذَادَنَّ رجال عن حوضى كما يُذاد البعير الضال فأناديهم : ألاَ هَلُموا فيُقال : إنهم قد بدَّلوا بعدك ولم يزالوا يرجعون على أعقابهم فأقول : ألا سُحْقاً سُحْقاً. أى : بُعداً بُعداً (١) .

والسحيق : البعيد . وبعض العلماء قالوا : السُّحق وادٍ فى جهنم يُسعَّر ويُوقد ويشتعل ناراً وسعيراً فيصبحون هم أصحاب السعير .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ ﴾

الخشية لله وحده والمؤمن لا يخشى بشراً لأنه يعلم أنَّ القوة لله جميعاً ، ولذلك فإنه يُقدم على كل عمل بقلب لا يهاب أحداً إلا الحق ، والخشية تكونُ لله، فإنْ خفتم فخافوا الله وحافظوا على تنفيذ منهج الله .

والخشية خوفٌ متوهَّم ممَّنْ تظنّ أنه قادر على الضر ، ولا أحدَ غير الله قادرٌ على النفع والضُّر ، لذلك لا يصح أنْ يخاف الإنسان من سواه ، أمَّا أنْ تظن أن السلطان أو القريب منه قادر على الضر فهذا أمرٌ غير صحيح ، وليخْشَ كُلُّ إنسان الحق سبحانه وهو جلَّ وعلا نصحنا أنْ تكون الخشية منه دون سواه.

فالخشية تكون من الذى يمكن أنْ يصيب بمكروه ، ولذلك جعل الحق هنا الخشية منه سبحانه ، أى أنهم يخافون الله مالكهم وخالقهم ومُربِّيَهمْ خوْف إجلالٍ وتعظيم .

فالخشية خوفٌ بمهابة لأن الخوف قد يكون خوفاً دون مهابة ، أما الخوفُ من الله فخوفٌ ومهابة معاً ، فهى خوفٌ بتعظيم ومهابة ، فقد تخاف من شيء وأنت تكرهه أو تحتقره .

---

(١) أخرجه ابن ماجه فى سننه (٤٣٠٦) ومالك فى موطئه (٧٢) وأحمد فى مسنده (٩٢٩٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

فالخشية كأنْ تخاف من أبيك أو من أستاذك أنْ يراك مُقصِّراً ، فمعنى الخوف من الله أنْ تخاف أنْ تكون مُقصِّراً فيما طُلب منك وفيما كلَّفك به ، لأنَّ مقاييسه تعالى عالية .

والذين يخشَوْنَ ربهم بالغيب صفة للمتقين ، الذين قال الله فيهم : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ (٤٨) الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ (٤٩)﴾ [الأنبياء]

ومعنى ﴿بِالْغَيْبِ (١٢)﴾ [الملك] أنهم يخافون الله مع أنهم لا يرونه بأعينهم ، إنما يرونه فى آثار صُنعه . أو بالغيب يعنى الأمور الغيبية التى لا يشاهدونها لكن أخبرهم الله بها فأصبحتْ بعد إخبار الله كأنها مشهدٌ لهم يروْنَها بأعينهم .

أو يكون المعنى : يخشون ربهم فى خلواتهم عن الخَلْق ، فمهابة الله والأدب معه تلازمهم حتى فى خُلْوتهم وانفرادهم على خلاف من يُظهر هذا السلوك أمام الناس رياءً وهو نمرود فى خلوته .

هؤلاء الذين يخشون ربهم بالغيب تجدهم ﴿مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ (٤٩)﴾ [الأنبياء] والإشفاق بمعنى الخوف ، لكنه خوفٌ يصاحب الحذر مما تخاف فالخوف من الله مصحوب بالمهابة ، والخوف من الساعة مصحوبٌ بالحذر منها ، مخافة أنْ تقوم عليهم قبل أنْ يُعدُّوا أنفسهم لها إعداداً كاملاً يُفرحهم بجزاء الله ساعة يلقونه .

فالخشية أشد الخوف ، والإنسان قد يخاف من شيء ، لكن يبقى عنده أملٌ فى النجاة ويتوقَّع من الأسباب ما ينقذه ويُؤمِّن خوفه ، لكن حين تخاف من الله فهو خوفٌ لامنفذ للأمل فيه ، ولا تَهبُّ فيه هبَّة تُشعرك بلطف .

وهناك نوعان من الخشية ذكرهما الحق سبحانه فى قوله : ﴿وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ (٣٧)﴾ [الأحزاب]

فالخشية نوعان : خشية من شيء تخاف أنْ يضرك وخشية استحياء ، فالخشية فى قوله : ﴿ وَتَخْشَى النَّاسَ (٣٧) ﴾ [الأحزاب] خشية استحياء ، ويكفى أنَّ الحق سبحانه قال فى حقِّ رسول الله ﷺ : ﴿ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ (٥٣) ﴾ [الأحزاب]

فالخشية هنا تعنى خوفَ رسول الله من ألسنة الكفار التى ستخوضُ فى حقه ، والتى ستقول إنّ محمداً تزوَّج من امرأة مُتبناه ، لكن غاب عن هؤلاء أنَّ الله تعالى ألغى مسألة التبنِّى فليس لهم حجة .

وطبيعيٌّ أنْ يخاف رسولُ الله من ألسنة الكفار لأنه جاء لنقْض عاداتٍ وتقاليد جاهلية ، وكان هو ﷺ أول من تحمَّل تبعة هذا التغيير ، لأنه جاء على يديه وفى شخصه ﷺ .

وسيدنا رسول الله حين يستحى من زواجه من زينب أو من كلام الناس فإنما يريد أنْ يُبريء عِرْضه وساحته مما يشين ، وقد كان ﷺ يدفع الشبهة عن نفسه دائماً .

لذلك لما رآه بعض أصحابه مع امرأةٍ مالوا عنه ﷺ خشية أنْ يتسبَّبوا له فى حرج ، فناداهما رسول الله « على رِسْلكما إنها صفية » فقالوا : نحن لا نشُكّ فيك يا رسول الله . فقال : « إنَّ الشيطان ليجرى من ابن آدم مجرى الدم » [١] .

فرسول الله يريد أنْ ينفض عن نفسه أيَّ شبهة ، يريد ألاَّ يجعل لأحد جميلاً

---

(١) عن صفية بنت حُيى زوج النبى ﷺ أنها جاءت إلى رسول الله تزوره وهو معتكف فى المسجد فى العشر الأواخر من شهر رمضان فتحدثت عنده ساعة من العشاء ثم قامت تنقلب فقام معها رسول الله ﷺ يقلبها ، حتى إذا بلغت باب المسجد الذى كان عند مسكن أم سلمة زوج النبى فمرّ بهما رجلان من الأنصار فسلّما على رسول الله ﷺ ثم نفذا ، فقال لهما رسول الله : على رسلكما إنها صفية بنت حُيي. قالا : سبحان الله يا رسول الله وكبُر عليهما ذلك فقال رسول الله : « إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم ، وإنى خشيت أن يقذف فى قلوبكما شيئاً » [أخرجه أحمد فى مسنده (٢٦٨٦٣) ، وابن ماجه فى سننه (١٧٧٩) ، وعبد بن حميد فى مسنده (١٥٥٦)] .

عليه بأنه ستر على رسول الله .

فخشيته ﷺ لم تكُنْ خشيةَ خَوْف من شيء يضره ، إنما خشية استحياء ليدفع رسول الله الشبهة عن نفسه ، والرسل لا يخشوْن شيئاً فى البلاغ عن الله.

فكأنه تعالى نفى عن الرسول أنْ تكون خشيته فى البلاغ ، إنما خشيته استحياؤُه مخافةَ أنْ تلُوكه ألسنةُ قومه ، وإلا فهم لا يملكون له شيئاً يضرُّه أو يُخيفه .

لذلك يصف اللهُ رسله فيقول : ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللهَ وَكَفَى بِاللهِ حَسِيبًا (٣٩)﴾ [الأحزاب]

وهم يخشوْنَ ربهم بالغيب ، والغيبُ هو كلُّ ما غاب عن مدركات الحسِّ ، فالأشياءُ المُحسَّة التى نراها ونلمسها لا يختلف فيها أحد ، ولذلك يُقال ليس مع العين أين ، لأن ما تراه لا تريد عليه دليلاً ، أما الغيب فلا تدركه الحواسُّ إنما يُدرك بغيرها .

فهم يخافون الله مالكهم وخالقهم ومُربِّيَهم خوْفَ إجلال وتعظيم ، وأولو الألباب يخافون سُوء حِساب الحق سبحانه لهم ، فيدعوهم هذا الخوف إلى أنْ يصلوا ما أمر به سبحانه أن يُوصل ، وأنْ يبتعدوا عن أيِّ شيء يُغضبه .

هؤلاء الذين يخافون الله ويخشوْنه بالغيب ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (١٢)﴾ [الملك] وخشيةُ الله تجعل العبد ممَّنْ قال الله فيهم ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ

وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ (٣٥) ﴾ [الأحزاب]

لولا خشيةُ الإنسان لله واستحضاره عقابَ الله له وتمثُّله ثوابَ الله ومراقبته لله عزَّ وجلَّ ما أصبح مسلماً ومؤمناً قانتاً صادقاً صابراً خاشعاً متصدِّقاً صائماً حافظاً لفرْجه ذاكراً لله .

أولئك ﴿ أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٣٥) ﴾ [الأحزاب] بعد كلِّ هذه الصفات يحتاجون للمغفرة ، الله يُطهِّرهم من كل أدران الذنوب قبل أنْ يأخذوا أجرهم ، فالحق سبحانه يُزيل الذنوبَ أولاً بالمغفرة .

وهو (أجر عظيم) (أجر كبير) وكل أجر على عمل يأخذ عمره بقدر حيِّزه الزمنى ، فأجرُ الإنسان على عمله فى الدنيا يذهب ويزول ، لأن الإنسانَ نفسه يذهب إلى الموت ، أما أجر الآخرة فهو الباقى أبداً ، وهو أجرٌ لا يفوت الإنسانَ ولا يفوته الإنسان ، ذلك هو الأجر العظيم .

فلا شيءَ يضيع عند الله ، يقول تعالى : ﴿ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللهِ إِنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١٠) ﴾ [البقرة]

فليطمئن كلُّ مؤمن لأن حركة حياته هى ثوابٌ وأجر عند الله ، فإذا صلَّى له أجر ، وإذا زكَّى له أجر ، وإذا تصدَّق له أجر ، وإذا صام له أجر ، وإذا حَجَّ له أجر ، كلُّ ما يفعله من منهج الله له أجر .

وليس أجراً بقدر العمل بل أضعاف العمل ، أجر مضاعف أضعافاً مضاعفة ، وهو أجر ليس بقدرات البشر ولكنه بقدرة الله سبحانه ، وهو أجرٌ ليس زائلاً كعطاء الدنيا ولكنه باقٍ وخالد.

والخير الذى ستفعله لن تدخره عندك أو عند مَنْ قد ينكره ويقول : لا شيءَ لك عندى ، ولكن الله سيدخره لك . فانظر إلى الاطمئنان والعمل فى يد الله الأمينة وفى قدرته التى تُضاعف ما ادخرته عنده أضعافاً مضاعفة وتجده فى الوقت الذى تكون فى أحوج اللحظات إليه ، وهو وقت الحساب .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ ﴾

كيف تنادى ربك وهو أقرب إليك من حبل الوريد ؟ وكيف تناديه سبحانه وهو يسمعك حتى قبل أنْ تتكلم ؟ فإذا كان إقبالُه عليك موجوداً فى كلِّ وقت ، فما الغرض من النداء ؟

ونداؤك ودعاؤك لله ليس كنداء ودعاء الخَلْق للخَلْق ، يحتاج إلى رفع الصوت حتى يسمع ، إنه نداء ودعاء الله تبارك وتعالى الذى يستوى عنده السرُّ والجهر.

ومن أدب دعاء الله سبحانه أنْ ندعوه كما أمرنا ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً (٥٥) ﴾ [الأعراف] ، وهو سبحانه ﴿ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى (٧) ﴾ [طه] أى : وما هو أخفى من السر لأن السر قبل أنْ يكون سِراً علم أنه سيكون سراً .

وقد جعل الحق سبحانه أحسنَ الدعاء الدعاء الخفى ، فالإنسان قد يدعو ربه بشيء إنْ سمعه غيره ربما استنقصه ، فجعل الدعاء خفياً بين العبد وربه حتى لا يُفتضح أمره عند الناس ، والله سبحانه ستَّار يحب الستر حتى على العاصين .

وقد يكون الدعاء من طائع ولكنه يريد من الله أمراً لا يحب أنْ يطلع عليه أحدٌ ، مثال ذلك دعاء زكريا عليه السلام : ﴿ ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا (٢) إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا (٣) قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا (٤) وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا (٥) يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا (٦) ﴾ [مريم]

أخفى زكريا عليه السلام دعاءه لله لأنه طلب الولد فى وجود أبناء عمومته الذين سيحملون منهجه من بعده ، إلا أنه لم يأتمنهم على منهج الله ، لأن ظاهر حركتهم فى الحياة غير متّسق مع المنهج ، فكيف يأمنهم على منهج الله وهم غير مؤتمنين على أنفسهم ؟

فإذا دعا زكريا ربه أن يرزقه الولد ليرث النبوة من بعده ، فسوف يغضب هؤلاء من دعاء زكريا ويعادونه ، لذلك جاء دعاؤه خفياً يُسرّه بينه وبين ربه تعالى .

﴿ وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى (٧) ﴾ [طه] والله كما يعلم الجهر يعلم السر ، وما هو أخفى من السر ، والجهر هو أنْ تُسمع مَنْ يريد أنْ يسمع ، أما السر فهو أنْ تخصَّ واحداً بأنْ تضع فى أذنه كلاماً لا تحب أنْ يشيع عند الناس .

فسواء أسررتُم قولكم أو جهرتم به فإنه سبحانه ﴿ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٣) ﴾ [الملك] أى يعلم مكنونات صدوركم قبل أنْ تصير كلاماً .

بل إنه سبحانه يعلم ﴿ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ (١٦) ﴾ [ق] فوسوسة النفس وذات الصدور هى الأخفى من السرِّ ، فلدينا جَهْر وسِرٌّ وأخفى من السرِّ .

﴿ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ (١) صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (٦٩) ﴾ [القصص] ، ويقول فى آية أخرى ﴿ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ (١١٠) ﴾ [الأنبياء]

وكلمة ﴿ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٣) ﴾ [الملك] معناها صاحبة الصدور ، وفى الصدر يحرص الإنسان على إخفاء الأمر الذى يحب أنْ يحتفظ به لنفسه بحرص كحرص الصاحب على صاحبه ، كأنَّ الصدر حريصٌ على ألاَّ يسلم ما فيه .

فيقصد بـ ﴿ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٣) ﴾ [الملك] أى المعانى التى لا تفارق الصدور،

---

(١) تُكن صدورهم ، يعنى ما تُسر قلوبهم . قاله مقاتل بن سليمان . أى ما تخفى صدورهم . قال الطبرى فى تفسيره (١٩/٤٩٣) : « يعلم ضمائر صدور خلقه ومكنون أنفسهم وخفيّ أسرارهم » .

فهى صاحبات دائمة الوجود فى تلك الصدور ، سواء كانت حقداً أو كراهية ، أو هى الأحاسيس التى لا تظهر فى الحركة العادية سواء كانت نيةً حسنة أو نيةً سيئة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾

منهج الله هو أقوم المناهج وأصلحها ، لأنه منهجُ الخالق سبحانه الذى يعلم مَنْ خلق ويعلم ما يصلحهم ، فالصانع من البشر يعلم صنعته ويضع لها من تعليمات التشغيل والصيانة ما يضمن لها سلامة الأداء وأمن الاستعمال.

فإذا ما استعملت الآلة حَسْب قانون صانعها أدَّتْ مهمتها بدقَّة ، وسلمتْ من الأعطال ، فالذى خلق الإنسان أعلم بقانون صيانته فيقول له : افعل كذا ولا تفعل كذا .

فآفة الناس فى الدنيا أنهم وهم صنعة الحق سبحانه يتركون قانونه ويأخذون قانون صيانتهم من أمثالهم ، وهى قوانين وضعية قاصرة لا تسمو بحال من الأحوال إلى قانون الحق سبحانه ، بل لا وجه للمقارنة بينهما .

إذن : لا تستقيم الحياةُ إلاَّ بمنهج الله تعالى ، ومَنْ ينفذ هذا المنهج الإلهى يتمتع باستقامة الحياة وسلامتها وينعم بالأمن الإيمانى ، وهذه نعمة فى الدنيا ، وإنْ كانت وحدها لكانت كافية .

لكن الحق سبحانه يُبشِّرنا بما هو أعظم منها ، وبما ينتظرنا من نعيم الآخرة وجزائها ، فجمع لنا ربنا تبارك وتعالى نعيمى الدنيا والآخرة .

نعيم الدنيا لأنك سِرْتَ فيها على منهج معتدل ونظام دقيق ، يضمن لك فيها الاستقامة والسلام والتعايش الآمن مع الخلق .

ومن ذلك قول الحق سبحانه ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨) ﴾ [البقرة]

قوله تعالى فى آية أخرى : ﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى (١٢٣) ﴾ [طه]

ويقول تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٧) ﴾ [النحل]

والله يعلم كلَّ شيء فيك ، لا يدخل معك فى متاهة ، هو سبحانه يقول لك : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤) ﴾ [الملك]

فالذى صنع الكرسى – ولله المثل الأعلى – ألا يعرف أنّ الكرسى مصنوعٌ من الخشب ، ونوع الخشب (زان) أو (أرو) أو (مُجنة) ، وأن المسمار الذى يربط الجزء بالجزء إما مسمار صلب ، وإما من مصدر آخر .

وكذلك يعلم صانع الكرسى أى صنف من الغراء استعمل فى لصق أجزاء الكرسى ، وكذلك مواد الدهان التى تم دهن الكرسى بها .

فقول الحق سبحانه : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤) ﴾ [الملك] لا يحتاج إلى جدال ، ولذلك نجد النجار الذى يرغب فى أنْ تكون صنعته مكشوفة واضحة يقول للمشترى :

سوف أصنع الكرسى من خشب الزان وعليك أنْ تمرَّ يومياً لترى مراحل صُنعه، ويبدأ صناعة الكرسى مرحلة مرحلة تحت إشراف الزبون ، وكذلك يعرف البدوى كيف يتكون الرَّحْل ، وهو ما يُوضع على ظهر البعير للركوب ، العربى يعرف كيف يتكوَّن الفسطاط وهو بيتٌ يُتَّخذ من الشعر .

وقد جاء سبحانه بما يدحضْ أيَّ جدل ، وبدون الدخول فى أية مهاترات أو مناقشات لها مقدمات ونتائج ومقدم وتالٍ .

جاء الحق بهذا القول الفَصْل : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ

الْخَبِيرُ (١٤) ﴾ [الملك] فهو سبحانه الذى لا تخفى عليه خافية ، وهو الذى خلق كل الخَلْق ويعلم – وهو العليم – ما يصلح للبشر من قوانين .

وفى أعرافنا البشرية نجد أن الذى يصنع الصنعة يضع قانون صيانتها لتؤدى مهمتها كما ينبغى ، كذلك الله الذى خلق الإنسان هو سبحانه الذى وضع له قانون صيانته بـ (افعل) و (لا تفعل) .

ولذلك يقول سبحانه : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤) ﴾ [الملك] ونجد الإنسان منّا يذهب بساعته إلى عامل إصلاح الساعات فيكشف عليها ويقرر ما فيها من فساد ، فما بالنا بخالق الإنسان ؟

إن العبث الذى يوجد فى العالم سببه أنَّ الناس قد استقبلوا خَلْق الله لهم ، ولم يدَّع أحدٌ أنه خلق نفسه أو خلق غيره ، ومع ذلك يحاولون أنْ يُقنِّنوا قوانين صيانة للإنسان خارجة عن منهج الله .

ونقول : دعوا خالق الإنسان يضع لكم قانون صيانة الإنسان ، بـ (افعل) و (لا تفعل) ، وإنْ أردتم أنْ تشرِّعوا فلتُشرِّعوا فى ضوء منهج الله ، وإنْ حدث أيّ عطب فى الإنسان فلنرده إلى قانون صيانة الصانع الأول ، وهو القرآن .

فالمتاعب إنما تنبع من أنَّ الإنسان يتناسى فى بعض الأحيان أنه من صنعة الله ، ويحاول أنْ يصنع لنفسه قانون صيانة بعيداً عن منهج الله .

والذى يزيل متاعب الإنسانية هو أنْ تعود إلى قانون صيانتها الذى وضعه الخالق تبارك وتعالى .

ونحن فى حياتنا نجد الذى صنع جهازاً يستفيد منه غيره ، يوضح مواصفات استعمال الجهاز أو الأداة حتى ولو كانت نورجاً أو محراثاً ، وذلك ليضمن للجهاز الحركة السوية التى يؤدى بها الجهاز عمله .

والواحد منا إنْ تعطلت منه السيارة يستدعى الميكانيكى الذى ينظر ما فيها ،

فإنْ كان أميناً فهو يشخِّص بدقة ما تحتاجه السيارة ويُصلحها ، وإنْ كان غير أمين ستجده يفسد الصالح ويزيد من الأعمال التى لا تحتاجها السيارة .

وهكذا نرى أن كلَّ صانع فى مجاله يعلم أسرار صنعته ، فما بالنا بالخالق الأعظم سبحانه وتعالى ؟ إنه خبيرٌ عليمٌ بكلِّ شيء ، فلا بدَّ من علم لأن الذى يصنع صنعة لا بد أنْ يعرف ما يصلحها وما يفسدها ، وذلك يتطلب قدرة للإدراك ، فالعلم وحده لا يكفى .

وكلُّ صانع أدرى بصنعته ، وهو الذى يضع لها قانون صيانتها ، لأنه يعلم ما يُصلحها وما يُفسدها ، ومنهج الله الذى جاء بـ (افعل) و (لا تفعل) هو منهج لا يقبل الزيادة أو التعديل ، فما كان فيه أمر ونهى فعليك الالتزام به .

وإلا لو خرجتَ عن هذا الإطار الذى رسمه لك ربُّك وخالقك فسوف تُحدث فى الكون فساداً بترك الأمر أو بإتيان النهى ، فكلُّ صاحب صنعة عالمٌ بصنعته وخبيرٌ بدقائقها ومواطن العطب فيها ، فما بالك بالخالق سبحانه ؟

وصاحب الصنعة فى الدنيا يجعل معها (كتالوجاً) يُبيِّن طريقة صيانتها، وأول فشل فى الكون أن الناس المخلوقين لله يريدون أنْ يضعوا للبشر قانون صيانتهم من عند أنفسهم .

ونقول : هذا لا يصح لأن الذى يُقنِّن ويضع للناس ما يصونهم ينبغى أنْ تتوفر فيه شروط : أولها أنْ يكون على علم محيط لا يستدرك عليه ، وأنت أيها الإنسان علمك محدود كثيراً ما تستدرك أنت عليه بعد حين ، ويتبين لك عدم مناسبته وعدم صلاحيته .

والحق سبحانه وتعالى هو وحده الذى لا يُستدرك عليه ، لأن علمه محيطٌ بكلِّ شيء لا تخفى عليه خافية .

والخلق جميعاً الذين يُشرِّع لهم أمامه سواء ، وكلهم عباده لا يحابى منهم أحداً ، ولا يميز أحداً على أحد ، وليس له سبحانه من خَلْقه صاحبة ولا ولد .

لذلك يُطمئننا سبحانه بقوله : ﴿ وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ(١) رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا(٣) ﴾ [الجن]

وكأن الله تعالى يقول : اطمئنوا فربُّكم ليس له صاحبة تُؤثِّر عليه ، ولا ولد يُحابيه ، فالصاحبة والولد نقطة الضعف وسبب الميل فى مسألة التشريع .

وكذلك هو سبحانه لا ينتفع بما يُشرِّعه لنا لأنه سبحانه خلقنا بقدرته ، وهو الغنيُّ عنّا لا تنفعه طاعةُ الطائعين ولا تضرّه معصية العاصين . إذن فهو سبحانه وحده المستكمل لشروط التشريع والمستحق له سبحانه .

فالحق سبحانه المستحقّ وحده للتشريع لأنه سبحانه العليم ، وهو اللطيف وهو الخبير .

والعليم أى الذى يعلم كلَّ شيء خافياً كان أو ظاهراً ، والعلم كله منه وعلمه هو الذى يجعله يصنع كلَّ شيء بحكمة ، وهو سبحانه العليم بكلِّ خبايا البشر ، وعلم الله علم ذاتيّ .

ولو أخذتْ البشرية عن الله العلم بكلِّ شيء لصارت الدنيا إلى انسجامها ، وهو سبحانه العليم بكلِّ خفايا عباده والكاشف لكلِّ الملَكات النفسية فى خَلْقه .

وقد علم سبحانه أزلاً بكل سلوك وكل خافية ، وهو العليم أبداً بما ينفع الناس جميعاً ، والحق سبحانه يعلم الظاهر والباطن ، ويعلم خائنةَ الأعين وما تُخفى الصدور ، وهو العليم بما تتطلبه الحكمة علماً يحيط بكلِّ الزوايا والجهات .

والحق سبحانه هو القائل فى آية أخرى : ﴿ اللهُ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ

---

(١) تعالى جد ربنا : ارتفع ذكره وعظمته . [تفسير مقاتل بن سليمان ٤/٤٦١] أى تعالت عظمته وعلا جلاله . تعالى فعله وأمره وقدرته ، وهو مستعار من الجدِّ بمعنى الحظ والبخت . (غاية الأمانى فى تفسير الكلام الربانى لشهاب الدين الكورانى الشافعى ١/٢٤٨) .

جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ (٥٤) ﴾ [الروم]

فقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ (٥٤) ﴾ [الروم] أى أن هذا الخَلْق ناشيءٌ عن علم ، لكن العلم وحده لا يكفى ، فقد تكون عالماً لكنك غير قادر على تنفيذ ما تعلم كمهندس الكهرباء ، لديه علم واسع عنها ، لكنه لا يستطيع تنفيذ شبكة أو معمل كهرباء فيذهب إلى أحد الممولين ليُعينه على التنفيذ ، لذلك وصف الحق سبحانه نفسه بالعلم والقدرة .

وفى آية أخرى يؤكد الحقُّ سبحانه المعنى فيقول : ﴿ لله مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٥٠) ﴾ [الشورى]

علم وقدرة ، علم بالقوانين التى وضعها الحق سبحانه لخَلْقه وقدرة مطلقة لله سبحانه على خرق هذه القوانين ، وجعل القوانين تفعل أو لا تفعل .

وهو سبحانه (اللطيف) يقول تعالى : ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٠٣) ﴾ [الأنعام] فأنت أيها المؤمن تصدق ذلك ، فذات الحق لاتبصرها العيون وهو يعلم كلَّ ما هو خفىٌّ عنك ، ولا تدركه عيونك .

وفى الكون أشياء قد لاندركها على الرغم من أنه سبحانه وتعالى خلقها وعملت فى خدمتك ، وبعد أن أدركتها ظلت تعمل فى خدمتك ، فإنْ حدَّثك الحق سبحانه بشيء لاتدركه فلا تقُلْ : ما دام هذا الشيء غير مدرك فهو غير موجود.

وعلى سبيل المثال أنت لاتدرك الكهرباء ولا الجاذبية ولا قمة أسرار الحياة، وهى الروح التى تعطيك سر الحياة وتنفعل بها كل جوارحك ، وإنْ خرجتْ الروح صِرْتَ جثة هامدة ، إنَّ أحداً لا يعرف مكان الروح ولا يدركها ولا سمعها أحد أو شمّها أو ذاقها أو لمسها .

إن الـروحَ موجـودةٌ فى ذاتـك ولا تدركها ، وهـا أنت ذا لا تسـتطيع أنْ تدرك مخلوقاً لله فكيف تدرك خالقك وهو الله ؟ إنك لو أدركته لما صـار إلهاً لأنك إنْ أدركتَ شيئاً فقد قدرتْ عليه جوارحك ويصير مقدوراً عليه لعينك أو ليدك .

و (اللطيف) لها معنى خاص ، فالشيء اللطيف يُستعمل فى الدقيق التكوين ولله المثـل الأعلـى ، فالميكروب لم نعرفه إلا مؤخـراً لأنه بلغ من اللطف والدقة بحيـث لا تدركـه العين ، لكن عندما اخترعنا الميكروسـكوب رأينـاه ، وإنْ بَعُدَ الميكروب عن ذلك فلن نراه .

فكلمـا دَقَّ الشـيء يلطـف ولا يمكن أنْ نراه ، فالشـيء إذا لَطُـفَ شَرُف وعلا ونقول ولله المثل الأعلى : فلان لطيف المعشر ، والحق سبحانه لطيف فى ذاته ويلطف بعباده .

فساعة تسمع (لاطف) فهذا اسم فاعل مثل (آكل) وحين نقول (لطيف) فهى مبالغة فى اللطف ، لأنه لاطف بكل إنسان وكل كائن ، وهذا يحتاج إلى مبالغة، ولذلك نقول (رحيم) ، وهى صيغة مبالغة لأنه يُسبغ رحمته على عباده .

وأول مظهـر مـن مظاهـر اللطـف هو تدبـير أمورهـم الدقيقة تدبـيراً يحقق مصالحهم فى وجودهم ، إننا حين ندبر كوب ماء لكل إنسان ندبر الكثير ، فما بالنا بتدبير اللطيف بعباده ؟

لقـد خلـق الله لنا الأرض ، ثلاثة أرباعها مـاء والرُّبْع يابس ، لأنه جَلَّ وعلا يريد أنْ يُوسِّع رقعة الماء لأن المياه كلما اتسعتْ رقعتها كان البخْر فيها أسهل وأكثر ، لكن لو كانت المياه عميقة ومساحتها قليلة فالبخر على مستوى السطح فقط ، وهنا لا يأتى السحاب بما يكفى الخَلْق من الماء .

لقد وسَّع الله سبحانه رقعة الماء كى يتبخَّر الماء ثم ينعقد كسُحب فى السماء ، ويصـادف منطقة باردة لينزل لنا المياه العذبة لنشرب منها وتشرب أنعامنا

ونسقى الزرع ، وكلُّ ذلك من لطف التدبير .

ومن مظاهر اللطف فى الحق نجد أموراً لا تُوصف ، ولذلك كل واحد من العلماء ينظر لزاوية من زوايا لُطْف الله بخَلْقه ، فواحد قال هو سُبوغ النعمة[1]. وقال الثانى : هو دقة التدبير . وقال الثالث : إن من مظاهر لطف الحق أنه يستقل كثيراً من النعم على خَلْقه ، فالنعم التى منحها خَلْقه قليلة لأن خزائنه سبحانه ملأى وعطاياه لا تنفد ولا يعتريها نقص .

فمظاهر اللطف لا حصر لها ، وعلى قدر دقَّة اللطف تكون دقة مأتاه وإحصائه ، فهو اللطيف الذى إذا ناديته لبّاك ، وإذا قصدته آواك ، وإذا أحببتَه أدناك ، وإذا أطعتَه كافأك ، وإذا أعطيته وأقرضته من فضله وماله الذى منحك عافاك ، وإذا أعرضتَ عنه دعاك .

ويأتى عالم آخر ممَّنْ انفعلوا بصفات اللطف فيقول : الذى يجازيك إنْ وفَّيْت ويعفو عنك إنْ قصَّرت . وعالم آخر يضيف إلى معانى اللطف فيقول : مَن افتخر به أعزّه ، ومَن افتقر إليه أغناه . وعالم ينفعل انفعالاً آخر بمظاهر اللطف فيقول : مَنْ عطاؤه خير ومنعه ذخيرة ، أى أنه لو منع عبده شيئاً فإنه يدخره له فى الآخرة ، كل هذه مظاهر للطف .

والحق سبحانه يصف ذاته بأنه هو ﴿اللَّطِيفُ[2] الْخَبِيرُ (١٤)﴾ [الملك]فهو لطيف يعلم ما يدخل ويتغلغل فى الأشياء ، خبير بكلِّ شيء، وقدير على كلِّ شيء .

ويقول تعالى : ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (١٠٠)﴾ [يوسف] فسبحانه هو المدبّر الذى لا تخفى عليه خافية أبداً ، وكلمة (لُطْف) ضد كلمة كثافة ، فاللطيف هو الذى له جُرْم دقيق ، والشيء كلما لَطُف عَنُف ، لأنه لا

---

(١) سبوغ النعمة : اتساعها ووفرتها . والدرع السابغة : التامة الوافرة الطويلة الواسعة . [تاج العروس – مادة سبغ] .

(٢) اللطيف : لطف علمه بما فى القلوب خبير بما فيها .

توجد عوائق تمنعه .

ولا شيءَ يعوق الله أبداً ، وهو العليم بموقع وموضع كل شيء ، فهو سبحانه يجمع بين اللطف والخبرة ، فلُطْفه لا يقف أمامه شيءٌ ، ولا يوجد ما هو مستور عنه ، ولا يقوم أمام مراده شيء .

وسبحانه خبير بمواضع الأشياء ، وعلمه سبحانه مطلق ، وهو حكيم يُجرى كلَّ حدث بمراد دقيق ، ولا يضيف إليه أحد أيّ شيء فهو صاحب الكمال المطلق ، وهو سبحانه الخبير بما نعمل ويعلم كلَّ شيء بإحاطة تامة .

والخبير يختلف عن العالم الذى قد يعلم الإجماليات ، لكن الخبير هو المدرّب على التخصص ، ولذلك غالباً ما تأتى كلمتا (اللطيف والخبير) معاً ، لأن الخبير هو مَنْ يعلم مواقع الأشياء ؛ واللطيف هو مَنْ يعرف الوصول إلى مواقع تلك الأشياء .

ومثال هذا أنك قد تعرف مكان اختباء رجل فى جبل مثلاً ، هذه المعرفة وهذه الخبرة لا تكفيان للوصول ، والنفاذ إلى مكانه ، بل إنَّ هذا يحتاج إلى ما هو أكثر ، وهو الدقة واللطف .

فالخبير الذى يعلم خبايا الأمور حتى فى مسائل الدنيا الهامة ، نقول : نستدعى لها الخبير ، لأن المختصّ العادى لا يقدر عليها ، فالخبير مَنْ وصل إلى منتهى العلم الدقيق ، ومنه قولنا : اسأل أهل الخبرة ، يعنى لا يسأل أهل العلم السطحى ، فالخبير هو الذى لا يغيب عنه شيء[1] .

فاللطف هو الدقّة فى تناول الأشياء وحُسْن تأتّى الأمور مهما كانت وسائلها ضيقة . وسبق أنْ قلنا : إن الأشياء الضارة كلما لطفت عنفت ، فالحديد الذى تجعله على النوافذ ليحميك من الذئاب غير الحديد الذى يحميك من الثعابين أو

---

(١) ويقول تعالى : ﴿ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا (٥٩) ﴾ [الفرقان] أى اسأل عنه إنساناً خبيراً . ويقال : فلان بهذا الأمر خبير وله به خبر وهو أخبر به من فلان أى أعلم.

من الناموس والذباب .. إلخ .

لذلك نجد أن أفتك الأمراض تأتى من الفيروسات اللطيفة التى لم تُعرف ، وحُسْن التأتِّى للأمور يعنى التغلغل فى الأشياء مهما دقَّتْ ، فقد تُضطر مثلاً لأن تُدخل يدك فى شيء ضيق لتتناول شيئاً بداخله ، فلا تستطيع ، فنستعين على ذلك بالولد الصغير لأن يده ألطف من يدك ، أو تستعين على ذلك بآلة أدقّ لتؤدى بها هذا الغرض .

ووصف اللطيف يُتمِّمه وصف الخبير ، فإذا كان اللطيف يعنى الدقة فى تناول الأشياء وحُسْن التأتى ، فالخبرة تعنى معرفة الموضع ، فاللطف لا يتأتَّى إلا بالخبرة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا(١) فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا(٢) وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾ ﴾

فالحق سبحانه يلفتنا إلى خلق الأرض ، والأرض هى المكان الذى يعيش فيه الناسُ ، ولا يستطيع أحد أنْ يدّعى أنه خلق الأرض أو أوجدها ، ولنا أنْ نلتفت إلى فارق مهم بين (الخلق) وبين (الجعل) ، فالخَلْق شيءٌ والجَعْل شيء آخر .

الخَلْق هو إيجادٌ من عدم ، والجعل هو توجيه مخلوق لله إلى مهمته فى

---

(١) ذلولاً : مُذللة سهلة لم يجعلها ممتنعة بالحزونة والغلظ (زاد المسير لابن الجوزى ٤/٣١٥) . فجعلها مهاداً ذلولاً توطأ بالأقدام وتضرب بالمعاول والفؤوس فهى ذلول مسخرة لما يريد العبد منها .

(٢) مناكبها ، فيه ثلاثة أقوال :

أحدها : طرقاتها . رواه العوفى عن ابن عباس وبه قال مجاهد .

ثانيها : جبالها . رواه ابن أبى طلحة عن ابن عباس وبه قال قتادة . واختاره الزجاج .

ثالثها : جوانبها . قاله مقاتل والفراء وأبو عبيدة واختاره ابن قتيبة .

الحياة ، فخلْق الله لا يخلقون شيئاً ، إنما الخَلْق والإيجاد له سبحانه ، وعلينا – نحن الخَلْق – أنْ نُخصِّص كل شيء لمهمته فى حياته التى أرادها الله .

أي أنْ نترك (الجعل) لله ولا نتدخَّل فيه ، بمعنى أن الخالق سبحانه وتعالى خلق الخنزير – على سبيل المثال – ليأكل من القاذورات ، وليحمى الإنسان من أمراض وأضرار كثيرة .

وعلى الإنسان أنْ يُخصِّص الخنزير لهذه المهمة فلا يحوّله إلى غير مهمته كأنْ يأكله مثلاً ، لأن تحويل مهمة مخلوق لله إلى غير مهمته هو أمر يضرُّ بالإنسان الذى أراده الله سيداً مُستخلفاً فى الكون .

والخالق سبحانه هو الذى (خلق) وهو الذى (جعل) ، ومثال هذا يقول تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا (٥) ﴾ [يونس] فالأمر ليس أمر التذكير بخَلْق الله للشمس والقمر ، بل هو أمر التذكير بما جُعلت له الشمس وبما جُعل له القمر ، أى المهمة التى خُلق من أجلها كل منهما .

فالفساد إنما ينشأ فى الكون حينما نجعل مخلوقاً لله فى مهمة غير تلك التى جعلها الله له ، وعلينا أنْ نُسلِّم بأنَّ كلَّ شيء مخلوق لمهمة ، فلا يصح أنْ نُوجِّه شيئاً إلى غير مهمته ، وتوجيه أشياء إلى غير ما جُعلت له أنتج آثاراً ضارة .

فالأرض خلقها الله وجعلها لمهام محددة حدَّدها الله فى كتابه ، قال تعالى: ﴿ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا (٢٢) ﴾ [البقرة] فكلمة فراشاً توحى بأنه أعدّ الأرض إعداداً مريحاً بشرياً ، كما تفرش على الأرض شيئاً تجلس عليه أو تنام عليه فيكون فراشاً مريحاً .

ونحن نتوارث الأرض جيلاً بعد جيل ، وهى تصلح لحياتنا جميعاً ، ومنذ أنْ خُلقت الأرض إلى يوم القيامة ستظل فراشاً للإنسان ، وحتى عندما تقدَّمتْ الحضارة وزادت الرفاهية ظلَّتْ الأرض فراشاً رغم ما وُجد عليها من أشياء ليِّنة .

فكأنَّ الله تعالى قد أعدّها لنا إعداداً يتناسب مع كل جيل ، فكُلُّ جيل رُفِّه فى العيش بسبب تقدُّم الحضارة كشف الله سبحانه من العلم ما يُطوِّع له الأرض ويجعلها فراشاً .

وفى آية أخرى يقول تعالى : ﴿جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا (١٠)﴾ [الزخرف] والمهد هو فراش الطفل ، ولا بدَّ أن يكون مريحاً لأن الطفل إذا وجد فى الفراش أيَّ شيء يُتعبه فإنه لا يملك الإمكانات التى تجعله يريحه .

ولذلك تُمهِّد الأم لطفلها مكان نومه حتى ينام نوماً مريحاً ، ولكن الذى يمهد الأرض لكلِّ خَلْقه هو الله سبحانه وتعالى ، فيجعلها فراشاً لعباده.

فقوله تعالى : ﴿مَهْدًا (١٠)﴾ [الزخرف] من التمهيد وتوطئة الشيء ليكون صالحاً لمهمته كما تفعل فى فراشك قبل أنْ تنام ، ومن ذلك يُسمَّى فراش الطفل مهداً لأنك تمهِّده له وتُسوِّيه وتُزيل عنه ما يقلقه أو يزعجه ليستقرَّ فى مهده ويستريح .

فمعنى ﴿جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا (٥٣)﴾ [طه] أى : سوَّاها ومهَّدها لتكون صالحة لحياتكم ومعيشتكم عليها ، وليس معنى مهَّدها جعلها مستوية ، إنما سوَّاها لمهمتها . وإلا ففى الأرض جبال ومرتفعات ووديان ، وبدونها لا يستقيم لنا العيش عليها .

فتسويتها تقتضى إصلاحها للعيش عليها ، سواء بالاستواء أو التعرّج والارتفاع أو الانخفاض ، فالتسوية جَعْل الشيء صالحاً لمهمته ، سواء كان بالاعتدال أو الاعوجاج ، سواء أكان بالأمت أو بالاستقامة .

ومن هذا قوله ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ (٤٤)﴾ [الروم] فكأنَّ الذى يعمل الصالح فى الدنيا يُمهِّد لنفسه فراشاً فى الآخرة ، كما يحكى أبو

منصور بن حازم عن أبى عبدالله الحسين يقول : العمل الصالح يسبق صاحبه إلى الجنة ليمهد له فراشه كما يُمهِّد الخادم لأحدكم فراشه .

وقد جعل الحق سبحانه الأرض مطيعة للإنسان تعطيه كلَّ ما يحتاج إليه . فالأرض مُسخَّرة من الحق سبحانه للإنسان يسعى فيها ويضرب فيها ، ويأكل من رزق الله الناتج منها ، فالأرض الذَّلول المسخَّرة ، وهذا مِثْل وَصْف الحق سبحانه للبقرة التى طلب الله من اليهود .

﴿ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ (٧٠) قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ ..(٧١) ﴾ [البقرة] ، فلم تكن بقرة بنى إسرائيل ذلولاً مسخَّرة فى أعمال الأرض .

فالبقرة الذلول هى البقرة المروَّضة الممرنة التى تؤدى مهمتها بلا تعب ، تماماً مثل الخيل المروضة التى لا تتعب راكبها لأنها تم ترويضها .

وقال الله سبحانه لهم أول وَصْف للبقرة أنها ليست مروَّضة ، لا أحدَ قادها ولا قامت بعمل ، إنها انطلقت على طبيعتها وعلى سجيَّتها فى الحقول بدون قائد .

فالبقرة المطلوبة كانت بقرة مرفهة غير سهلة الانقياد ، فلا تُستخدم لا فى حرث الأرض وإثارتها ، ولا فى سقيها بعد أنْ تحرث ، فهى بقرة غير ذلول .

وقد ذلَّل الله لنا الأنعام ، فقال تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (٧١) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ[1] وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (٧٢) ﴾ [يس]

---

(١) فمنها ركوبهم : أى منها ما يركبون . لأنك تقول : هذه دابة ركُوب . والرُّكوب هو فعلهم . وقال الثعلبى فى الكشف والبيان : (فمنها ركوبهم) قرأ العامة بفتح الراء أى مركوبهم . كما يقال : ناقة حلوب أى محلوب . وقرأ الأعمش والحسن : بضم الراء على المصدر .

وعلى المؤمن أنْ يتذكَّر أيضـاً أن الحق سبحانه ذلَّل الجمل لصاحبه ، وجعل الطفـل الصـغير يأمر الجمـل فيرقد على الأرض ليضـع عليه الأحمـال الثقيلة ويأمره فيقوم .

أمـا إنْ واجـه الثعبان أو الحية فهـو لا يجرؤ على تذليلهمـا ، وهنا لفْتٌ من الحـق للخَلْـق لقدرته المطلقـة ، فقد ذلَّل لهم الكبير، وأفزعهم أضـعاف ذلك من الثعبان ذى الجسم الصغير .

ومـن التذليل يأتى رضـوخ بقية الكائنات للإنسـان ، فالحمـار عند الفلاح يحمل السـماد للأرض من بقايا فضلات الإنسان والحيوان ، ولا ينطق الحمار معترضاً .

ويأتـى الفلاح ليرتقى فى حياته ويصـير شـيخاً للخفر ، فيأمر أنْ يسـتحم الحمار ويشـترى لـه السَّرْج ليركبـه وهو ذاهبٌ للقـاء المأمور فـى المركز ولم يعص الحمار فى الحالتين ، إنه التذليل .

إياك أنْ تظن أنَّ مهارتك وحدها أيها الإنسـان هى التى ذللتْ لك الكائنات، فلـو اعتمـد الأمر علـى المهارة وحدهـا لذلَّل الإنسـان البرغوث الصـغير الذى يهاجمه فى أيِّ وقت ، وقد يُفزعك ذلك البرغوث الصـغير طوال الليل وقد تسـهر أسرة بأكملها من أجل قتل برغوث واحد .

والحق سبحانه هو الذى ذلَّلَ للإنسان كلَّ شيء ، ولو لم يُذللها لما استجابتْ لك أيها الإنسان ، ومن حكمته تعالى ورحمته بنا أنْ ذلَّل لنا سُبُل الحياة ، وذلَّل لنا ما ننتفع به ، ولولا تذليله هذه الأشياء ما انتفعنا بها .

فنرى الجمل الضـخم يسـوقه الصـبى الصـغير ويتحكم فيه يُنيخه ويُحمِّله الأثقال ويسـير به كما أراد ، فى حين إذا ثار الجمل أو غضـب لا يسـتطيع أحدٌ التحكم فيه ، وما تحكّم فيه الصبى الصغير بقوته ولكن بتذليل الله له .

أمـا الثعبـان مثـلاً فهو على صِـغَر حجمـه يُمثل خطـراً يفزع منـه الجميع ويهابُون الاقتراب منه ، ذلك لأن الله سبحانه لم يُذللـه لنا ، فأفزعنا على صِغَر حجمه .

وفى ذلك حكمة بالغة وكأنَّ الحق سبحانه يقول لنا : إذا ذلَّلت لكم شيئاً ولو كان أكبر المخلوقات كالجمل والفيل تستطيعون الانتفاع به ، وإنْ لم أذلّله لكم فلا قدرةَ لكم على تذليله مهما كان حقيراً صغيراً .

إذن الأمـور ليسـت بقدرتك ، ولكـن خُذْها كما خلقها الله لـك ، يقول تعالى : ﴿وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ (٧٢)﴾ [يس]

أى جعلناهـا خاضـعة لتصرُّفهـم ، وهـذا التذليل ليس بقهر من الإنسـان للأنعام ولكنه بتسخير من الله وهى مُيسَّرة لخدمة الإنسان .

ومثال آخر قوله الحق : ﴿فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا (٦٩)﴾ [النحل] أى : متطامنة مُهيأة ، تنقَّلى حُرَّة بين الأزهار هنا وهناك ، ولذلك لا نستطيع أنْ نبنى للنحل بيوتاً يقيم فيها ، لا بدَّ له من التنقل من بستان لآخر .

فقوله تعالى ﴿ذُلُلًا (٦٩)﴾ [النحل] أى مُذلَّلـة مُمهدة طيِّعة ، فتخرج النحل تسعى فى هذه السُّبل فلا يردّها شيء ولا يمنعها مانع ، تطير هنا وهناك من زهرة لأخرى ، وهل رأيتَ شجرة مثلاً ردَّتْ نحلة ؟ لا قد ذلَّل الله لها حياتها ويسَّرها .

والكون مُسخَّر لخدمة الإنسان والتسخير معناه التذليل ، وأنْ لا تتمرد ظواهر الكـون علـى الإنسـان ، وإذا كانت هناك ظواهر فى الكـون تتمرد بقدر الله مثل الفيضـانات والبراكين والكوارث الطبيعية نقـول : إن ذلك يحدث ليلفتنا الحق سـبحانه إلى أنَّ كلَّ ما فى الكون لا يخدمنا بذاتنا ولا بسـيطرتنا عليه ، وإنما يخدمنا بأمر الله له .

وإلاَّ لو كانت المخلوقات تخدمك بذاتك فاقدر عليها حينما تتمرد على خدمتك ، وكلَّ ما فى الكون خاضع لطلاقة قدرة الله ، حتى الأسباب والمسبِّبات خاضعة أيضاً لطلاقة القدرة الإلهية ، فالأسباب والمسبِّبات فى الكون لا تخرج عن إرادة الله .

لذلك إذا تمرد الماء بالطوفان وتمردت الرياح بالعاصفة وتمردت الأرض بالزلازل والبراكين ، فما ذلك إلا ليعرف الإنسان أنه ليس بقدرته أنْ يسيطر على الكون الذى يعيش فيه .

والإنسان عاجز عن أنْ يُخضع حيواناً إلا بتذليل الله له ، ومن عجيب أنك ترى الحيوانات تدرك مالا يدركه الإنسان فى الكون فهى تحسُّ بالزلزال قبل أنْ يقع وتخرج من مكان الزلزال هاربة ، بينما الإنسان لا يستطيع بعقله أنْ يفهم ما سيحدث .

والله جعل لنا الأرضَ ذلولاً مُذلَّلة مُسخَّرة مُهيئة لنا للاستفادة بها حرثاً وبذراً وزرعاً ويسَّر لنا السير فيها ، قال تعالى : ﴿ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ (١٠) ﴾ [الجمعة]

فالله أمرنا بالسعى فى الأرض ، فالمشى والسعى فى الأرض مطلوب ﴿ فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا (١٥) ﴾ [الملك]

وقد قرن الحق سبحانه بين الضاربين فى الأرض للرزق والمقاتلين فى سبيل الله فى قراءة ما تيسَّر من القرآن . قال تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ (٢٠) ﴾ [المزمل]

ثم قال تعالى : ﴿ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي

الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ (٢٠) ﴾ [المزمل]

وقانون الإصلاح الذى جعله الله لحياة البشر يقوم على دعامتين : الضرب فى الأرض والسعى فى مناكبها وفيه مقومات الحياة ، ثم نقاتل فى سبيل الله لبقاء الدعوة والمنهج ، فالأولى للقالب ، وبها نأكل ونشرب ونعيش ، والأخرى للقيم .

فإنْ قعدتْ الأمة أو تكاسلتْ عن أيٍّ من هاتين الدعامتين ضاعت وهلكت وصارت مطمعاً لأعدائها ، لذلك تجد الآن الأمم المتخلفة فقيرة تعيش على صدقات الأمم الغنية لأنها كفرت بأنعم الله وسترتْها ولم تعمل على استنباطها قعدت عن الاستعمار[1] والاستصلاح .

وأنت حين تذهب فى الأرض فعليك أنْ تضربها حرثاً وتضربها بذراً ، لا تأخذ الأمر بهوادة ولين ، فالأرض مُسخَّرة من الحق سبحانه للإنسان يسعى فيها ويضرب فيها ويأكل من رزق الله الناتج منها .

والسير فى الأرض منه سير اعتبار لينظر فى ملكوت السماوات والأرض وليستنبط من آيات الله ما يدلُّ على تأكيد إيمانه بربه ، ومنه سير استثمار بأنْ يضرب فى الأرض ليبتغى من فضل الله .

وقوله ﴿مَنَاكِبِهَا (١٥) ﴾ [الملك] أى : جوانبها وأطرافها ونواحيها وطرقها وفجاجها .

ثم قال ﴿وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ (١٥) ﴾ [الملك] فنسب الرزق إلى الله وفى آيات أخرى ينسب الرزق إلى الإنسان : ﴿ فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦) ﴾ [الفجر]

---

(١) قال ابن عربى قال بعض علماء الشافعية : الاستعمار طلب العمارة . وقوله تعالى : ﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا (٦١) ﴾ [هود] خلقكم لعمارتها . وقال الشيخ رشيد رضا فى تفسير المنار (١٢/١٠١) : جعلكم عُماراً فيها من العمران فقد كانوا زراعاً وصُناعاً وبنائين . واستعمل الاستعمار فى عصرنا بمعنى استيلاء الدول القوية على بلاد المستضعفين واستعباد أهلها لمصالحهم . والمراد أنه هو المنشىء لخلقكم والممدكم بأسباب العمران » .

والحق سبحانه يُطمئن كلَّ إنسان أنَّ رزقه يعرف عنوانه ، والإنسان لا يعلم عنوان الرزق ، فالرزق يأتى لك من حيث لا تحتسب ، لكن السعى إلى الرزق شيءٌ آخر ، فقد تسعى إلى رزق ليس لك ، بل هو رزقٌ لغيرك .

فمثلاً أنت قد تزرع أرضك قمحاً فيأتى لك سفر للخارج وتترك قمحك ، ليأكله غيرك وتأكل أنت من قمح غيرك .

ورزقُ الله عطاؤه ، وقد يأتى رزقه من بعد ذلك من منطقة أخرى ، وبسبب آخر ﴿ اللهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ (٢٦) ﴾ [الرعد]

والناس ينظرون إلى الرزق من ناحية واحدة ، فهو عندهم المال ، فهذا غنيّ وهذا فقير ، والحقيقة أن الرزق ليس المال فقط ، بل كل شيء تنتفع به فهو رزقك ، فهذا رزقه عقله ، وهذا رزقه قوته العضلية .

إذن يجب ألاَّ ننظر إلى الرزق على أنه لونٌ واحد ، بل ننظر إلى كلِّ ما خلق الله لخَلْقه من مواهب مختلفة : صحة ، قدرة ، ذكاء ، حلْم ، شجاعة ، كلّ هذا من الرزق الذى يحدث فيه التفاضل بين الناس .

والحق سبحانه هو الرازق الأعلى ومن بحره يغترف الجميع ، ولله تعالى فى رزقه حكمة وقدر ، فليس بسْط الرزق دليل كرامة ، ولا تضييقه دليل إهانة ، بدليل أنَّ الله يبسط الرزق لقارون ، ثم أخذه أخْذ عزيز مقتدر .

والحق سبحانه يقول ﴿ يَـٰعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ (٥٦) ﴾ [العنكبوت] والمعنى : إنْ ضاق رزقك فى مكان فاطلبه فى مكان آخر .

فالأرض كلُّها لله لا حدودَ فيها ولا فواصلَ بينها ، فلما قسَّمها الناس وجعلوا لها حدوداً تمنع الحركة فيها حدثتْ كثيرٌ من الإشكالات ، وصَعُبَ على الناس التنقُّل للسياحة أو لطلب الرزق إنْ ضاق بأحد رزقه .

وهاهى السودان بجوارنا بها مساحاتٌ شاسعة من الأراضى الخصبة التى إنْ زُرِعَتْ سدَّت حاجة العالم العربى كله ، أنستطيع الذهاب لزراعتها ؟ ساعتها سيقولون : جاءوا ليستعمرونا .

لذلك لما أُتيح لى التحدث فى هيئة الأمم قلت : إنه لا يمكن أنْ تُحلّ قضايا العالم الراهنة ، والحق سبحانه قد استخلفنا فى الأرض من أجل أنْ نعمرها .

فخلافة الإنسان فى الأرض تقتضى أنْ يتحرَّك ويعمر الأرض ، وحين يريد الله منَّا أنْ نتحرك ونعمر الأرض فلا بدّ من أعمال تنظم هذه الحركة ، ولا بدَّ من فنون متعددة تقوم على العمارة ، ويوزِّع الله الطاقات الفاعلة لهذه الفنون المتعددة ويجعلها مواهبَ مفكرة ومُخططة فى البشر .

فكلُّ عمل يؤدى إلى عمارة الكون واستنباط أسرار الله فى الوجود يُعتبر عبادةً لله ، لأنك تُخرِج من كنوز الله التى أودعها فى الأرض ما يلفت الناسَ إلى الحقيقة التى جاء بها الإيمان ؛ فاقرأ قول الحق ﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ (١٠)﴾ [الرحمن] أى : الأرض كل الأرض للأنام كل الأنام ، بلا استطالة سيطرة ولا احتكار.

ثم يقول تعالى : ﴿وَإِلَيْهِ النُّشُورُ (١٥)﴾ [الملك] أى النشر، والنشر يعنى الانطلاق فى الأرض بالحركة ، كما فى قوله تعالى : ﴿فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ (١٠)﴾ [الجمعة]

والحق سبحانه قد جعل النهار نُشُوراً بعد سبات الليل ، ولذلك يقول الحق سبحانه : ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا [١] وَالنَّوْمَ سُبَاتًا [٢] وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا (٤٧)﴾ [الفرقان]

---

(١) لباساً : أى أن الليل ساتر بظلمته ، لأن ظلمته تغشى الأشخاص وتشتمل عليها اشتمال اللباس على لابسه . (زاد المسير لابن الجوزى ٣/٣٢٣) وقال القطان فى تفسيره (تيسير التفسير ٣/٣٩٨) : « وجعلنا الليل بظلامه ساتراً لكم كاللباس الذى يغطى الجسم ويستره » .

(٢) سباتاً : أى راحة لأبدانكم قاله ابن قتيبة . والسبات ليس بموت ، رجل مسبوت فيه روح . وليس السبات ها هنا النوم فيكون معناه : وجعلنا نومكم نوماً ولكن السبات الراحة أى جعلنا النوم راحة لأبدانكم . [تأويل مشكل القرآن ١/٥٤] .

فأنت أيُّها المتحرك فى الكون ينطبق عليك ما ينطبق على كلِّ متحرك ، لا بدَّ لك من سُكون بقدر حركتك ، ولذلك انقسم الزمان إلى ليل تسكن فيه ، وإلى نهار تتحرَّك فيه .

ويعلم سبحانه أزلاً أنه لا يمكن أنْ يكون الليل – أى وقت الراحة – سُباتاً لكل الناس ، بل لا بدَّ من أناس يقومون بأمور تقتضى اليقظة بالليل ،ولهؤلاء يقول سبحانه : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ (٢٣) ﴾ [الروم]

إنه يعطى فرصة لهؤلاء الذين تظلّ عيونهم ساهرة طوال الليل ليستريحوا بالنهار ، إذن فمن عظمة الحق أنه جعل الزمان خِلفة[1] ، فلو كان الليل سرمداً والنهار سرمداً لفسدت الحياة .

ولذلك نجد أن الحق أقسم بقوله ﴿ وَالضُّحَى (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (٢) ﴾ [الضحى] ، فالضحى محلّ الحركة والكدح ، والليل محلّ السكون ، ولا بدَّ أنْ يُوجد الاثنان معاً .

والنشور أيضاً الانتشار من القبور للبعث ، قال تعالى : ﴿ وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا (٣) ﴾ [الفرقان] أى موتاً أو حياة لغيرهم ، فهم لا يملكون شيئاً من هذا كله ، لأن من صفات الإله الحق الذى يُحيى ويُميت ، ثم ينشر الناس فى الآخرة .

فالنشور البعث للحساب ، والنشر معناه تفريق المنشور فى الحيِّز ، فهناك شيءٌ مطويٌّ وشيء آخر منشور ، والشيء المطويّ فيه تجمُّع ، والشيء المنشور فيه تفريقٌ وتوزيع .

---

(١) يقول تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً..(٦٢) ﴾ [الفرقان] قال مجاهد : يعنى أسود وأبيض . وقال الحسن البصرى فيما رواه عبد الرزاق فى تفسيره (٢٠٩٦) أى جعل أحدهما خلفاً للآخر ، إن فات الرجل من النهار شيء أدركه من الليل ، وإن فاته من الليل أدركه من النهار » .

فحيِّز الشيء المتجمِّع ضيق ، وحيِّز الشيء المبثوث واسع ، والحق سبحانه يقول : ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً (١) ﴾ [النساء]

﴿ وَبَثَّ (١) ﴾ [النساء] أى نشر ، وسنقف عند كلمة (نشر) لأن الخَلْق يجب أنْ ينتشروا فى الأرض كى يأخذوا جميعاً من خيرات الله فى الأرض جميعاً .

ولا بدَّ أنْ يُوجِّه العبد المؤمن حركة حياته إلى عمل نافع يتسع له ولمَنْ لا يقدر على الحركة فى الحياة ، والله سبحانه وتعالى حينما يطالبنا بالسعى فى الأرض لا يطالبنا أنْ يكون ذلك على قدر احتياجاتنا فقط .

بل يطالبنا أنْ يكون تحرُّكنا أكثر من حاجة حياتنا حتى يتسع هذا التحرك ليشملَ حياةَ غير القادر على حركة الحياة ، فيتسع المجتمع للجميع ويزول منه الحقد والحسد وتُصفّى النفوس .

والله يريد أنْ تكون حركةُ حياتنا نظيفةً شريفة ، حركة كريمة ، فلا يدخل فى بطنك إلا ما عرقتَ من أجله ويأخذ كلّ إنسان حقَّه ، وقبل أنْ يفكر الإنسانُ فى أنْ يأكل عليه أنْ يتحرَّك ليأكل ، لا أنْ ينتظر ثمرة حركة الآخرين ، لماذا ؟

لأن هذا الكسل يُشيع الفوضى فى الحياة ، وحين نرى إنساناً لا يعمل ويعيش فى راحة ويأكل من عمل غيره فإنَّ هذا الإنسان يصبح مثلاً يحتذى به الآخرون، فيقنع الناسَ جميعاً بالسكون عن الحركة ويعيشون عالةً على الآخرين .

ويترتَّب على ذلك توقُّف حركة الحياة ، وهذا باطلٌ زائل وبه تنتهى ثمارُ حركة المتحرك وهنا يجوع الكلّ ، إنَّ الحقّ يريد للإنسان أنْ يتحرك ليُشبع حاجته من طعام وشراب ومأوى ، وبذلك تستمر دورة الحياة .

إنه سبحانه يريد أنْ يضمن لنا شرف الحركة فى الحياة بمعنى أنْ تكون

لك حركة فى كل شـيء تنتفع به ، لأنَّ حركتك لن يقتصر نفعُها عليك ، ولكنها سلسلةٌ متدافعة من الحركات المختلفة .

وحين تشيع أنت شرف الحركة فالكلّ سيتحرك نحو هذا الشرف ، لكنَّ الباطلَ سيتحقّق بعكس ذلك ، فأنت حين تأكل من حركة الآخرين تُشيع الفوضى فى الكون .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ ﴾

والحق سبحانه يقول ﴿وَهُوَ الَّذِى فِى السَّمَاءِ إِلَـٰهٌ وَفِى الْأَرْضِ إِلَـٰهٌ (٨٤) ﴾ [الزخرف] ، وأمْن مكر الله سبحانه قال فيه الحق سبحانه : ﴿ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ (٩٩) ﴾ [الأعراف] وأمْن مكر الله كبيرةٌ من الكبائر .

يقول تعالى : ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى[1] أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ (٩٧) أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٩٨) أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ (٩٩) ﴾ [الأعراف]

فما الذى جعلهم يأمنون على أنفسهم أنْ تنزل بهم أهوالٌ كالتى نزلت بمَنْ سبقهم من الأمم ، فلا تأمن يا صاحب النهار أنْ يأتى البأس ليلاً أو نهاراً ، وأنت يا صاحب الليل لا تأمن أنْ يكون البأسُ نهاراً أو ليلاً .

والأمن هو الاطمئنان إلى قضية لا تثير مخاوفَ ولا متاعب ، ويُقال : فلان

(١) قال أبو بكر بن الأنبارى : القرية معناها فى كلام العرب : الموضع الذى يجتمع الناس فيه . يقال : قد قريت الماء فى الحوض إذا جمعته فيه . ويقال لمكة : أم القرى لأنها أصل القرى . [الزاهر فى معانى كلمات الناس ٢/ ١٠٠] والقرية : المصر الجامع .

آمن ، أى لا يوجد ما يُكدِّر حياته .

والحق سبحانه يقول : ﴿ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللهِ (٩٩) ﴾ [الأعراف] ونحن نسمع بعض الكلمات حين ينسبها الله لنفسه نستعظمها ونقول : هل يمكر ربنا ؟ لأننا ننظر إلى المكر كعملية لا تليق . وهنا نقول : انتبه إلى أن القرآن قد قال ﴿ وَلَا يَحِيقُ[1] الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ (٤٣) ﴾ [فاطر]

إذن فهناك مكر خير ، ويقول تعالى : ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ (٩٩) ﴾ [الأعراف] ، وجاء فى منهج الرسل جميعاً أن الذى يأمن مكر الله هو الخاسر .

مكْر الله سبحانه إذن أقوى من أى مكر بشرى ، فمكر البشر قد يُهدم من بعض الماكرين أو من التجسس عليهم ، لكن إذا كاد الله لهم أيعلمون من كيده شيئاً ؟ طبعاً لا يعلمون .

وفى سورة الإسراء يقول تعالى : ﴿ أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا[2] ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا (٦٨) ﴾ [الإسراء] وقال : ﴿ أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا[3] مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا (٦٩) ﴾ [الإسراء]

فلا تظنوا أن البَرَّ أمان لا خطر فيه ، لا بل خطرى موجود غير بعيد منكم

---

(١) يحيق : حاق به البلاء أحاط به [الصحاح للجوهرى – مادة حيق] . ويحيق أيضاً : نزل . قال ابن فارس فى معجم مقاييس اللغة : هو نزول الشيء بالشيء .. وقال العسكرى فى الفروق اللغوية (١/٣٠٤) : لا يقال حاق إلا فى نزول المكروه فقط .

(٢) الحاصب : ريح تحمل التراب والحصباء وهو الحصى الصغار . [تهذيب اللغة ٤/١٥٣] وقال الرازى أبو عبد الله فى مختار الصحاح (مادة حصب) : الحاصب الريح الشديدة تثير الحصباء .

(٣) قاصفاً من الريح : أى عاصفاً من الريح وهى الشدة . والقاصف : الريح الشديدة [تفسير يحى بن سلام] قال أبو عبيدة معمر بن المثنى فى مجاز القرآن (١/٣٨٥) أى تقصف كل شيء أى تحطم كل شيء لا تبقى لهم ثاغية ولا راغية .

سواء أكنتم فى البحر أو فى البر .

والخسْف هو تغييب الأرض ما على ظهرها ، فانخسف الشيء أى غاب فى باطن الأرض ومنه خسوف القمر أى غياب ضوئه . ومن ذلك أيضاً قوله تعالى عن قارون : ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ (٨١) ﴾ [القصص]

وهذا نوع من العذاب الذى جاء على صور متعددة كما ذكرها القرآن الكريم: ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ (٤٠) ﴾ [العنكبوت]

فالخسف أنْ تنشقّ الأرض فتبتلع ما عليها ، كالذى يقول : يا أرض انشقى وابلعينى . والخسف كان حدث مع قارون فكان خسفاً به وبداره التى فيها كنوزه وخزائنه وما يملك .

فهل يأمن أحد أنْ يخسف الله بهم الأرض فإذا هى تمور ، يعنى فإذا هى تدور بكم إلى الأرض السفلى ، ومورُها تحرّكها فتفور بهم الأرض فالله يحرك الأرض عند الخسف بهم حتى تضطرب وتتحرك فتعلو عليهم وهم يخسفون فيها، والأرض تمور فوقهم فتقلبهم إلى أسفل .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ ﴾

عذاب البشر للبشر على قدر البشر ، لكن عذاب الله يتناسب مع قدرة الله فهل لنا طاقة بهذا العذاب والعياذ بالله ؟ ليس لنا طاقة به ، والعذاب يأتى بغتة مرة ويأتى جهرة مرة أخرى .

إنــه يأتى بغتة حتى يكون الإنســانُ متوقِّعاً له فــى أيّ لحظة ، ويأتى جهرة حتى يرعب الإنسان ويخيفه قبل أنْ يقع ، يقول تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ (٤٧) ﴾ [الأنعام]

والحق سبحانه يقول ﴿ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (٥٥) ﴾ [البقرة] فالمــوت إنْ جاءهم بغتة فقد لا يشــعرون بهوله إلا لحظة وقوعه ، ولكن حينما يأتيهم الموت وهم ينظرون فهم يرونه وهم فى فزع ورعب .

فهل أنتم تأمنون عذاب الله ، فاجعلوا بينكم وبين عذاب الله وقاية لأنكم لستم بقادريــن على تحمُّل عذاب الله ، والعــذاب يأتى بغتة عقاباً ويأتى جهرة حتى لا يقولــنّ أحــد : لولا مجــىء العذاب بغتة لكان قد احتاط لذلــك الأمر ، ويأتيهم العذاب وهم مُبلسون . أى يائسون لا منجى ولا منقذ ولا خلاص لهم.

ولكن ما السبب فى تلوين العذاب بين « بغتة » و (جهرة) البغتة تثبت لمن يعبــد غير الله أنــه مخدوع فى عبادته لغير الله ، لأنه لو كان يعبد إلهاً حقاً لما قَبِل هذا الإله أنْ يُعذّب أتباعه من حيث لا يشعر .

إذن : فالبغتــة تُثبــت عجز المعبودين من أصــنام وغيرهــا، فقد عجزتْ تلك الأصنام أنْ تحتاط للعابدين لها .

وقــد يقــول قائل منهم : لقد جاءنــا العذاب فجأة ، لكن لو جــاء لنا مواجهة لكُنَّــا قادرين على مواجهته والوقوف أمامه ، فيأتى الله أيضــاً بالعذاب جهرةً فلا يستطيعون مواجهته فتنقطع حُجتهم ، وعلى الرغم من ذلك تموت فى قلوب هؤلاء المعاندين القدرةُ على إبصار ضرورة الإيمان .

ولا أحدَ بقادر على أنْ يردَّ عذابَ الله ، يقول تعالى : ﴿ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ (٧٦) ﴾ [هود] ، فعذابُ الله إذا جاء لا يُردّ .

فالله يُذكِّر هؤلاء الظالمين بأنَّ عذابَ الله حين يجيء لا يمكن أن يقوم أمامه

قائمٌ يمنعه ، فتنبَّهوا جيداً إلى أنكم عُرْضة أنْ يُنزل الله تعالى بكم العذاب ، فمَنْ يدفع عذابَ الله إنْ حلَّ ؟

وباستقراء تاريخ الأمم السابقة نلاحظ ما حاقَ بهم من سنة إهلاك الظالمين ، فقوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط نزل بهم عذاب الله الذى لا يُردّ عن القوم الكافرين ، ولكنه كان عذابَ استئصال .

يقول الحق سبحانه عن عذاب هؤلاء : ﴿ أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٠) ﴾ [العنكبوت]

فالله عزَّ وجلَّ هو الذى كان يتولّى التأديب ، فالله لم يطلب من أيِّ رسول أن يحارب فى سبيل العقيدة ، فعيسى عليه السلام لم يجئ ليقاتل بالسيف ليحمى العقيدة إنما جاء واعظاً ليدلّ الناس على العقيدة .

ولكن أمة محمد ﷺ هى التى أَذن اللهُ لها أنْ تحمل السيف لتؤدب به الذين يحولون دون بلوغ العقيدة الصحيحة للناس ، والسيف لم يأتِ ليفرض العقيدة إنما ليحمى الاختيار فى النفس الإيمانية .

فبدلاً من أنْ يترك الناسَ مقهورين على اعتناق عقيدة خاطئة ، فالمسلمون يرفعون السيف فى وجه الظالم القاهر لعباد الله ، وعباد الله لهم أنْ يختاروا عقيدتهم .

وهذه الأنواع من العذابات نزلتْ بالمكذِّبين من قوم عاد وثمود ومدين وقوم لوط وقارون وفرعون وهامان ، فهم مشتركون فى التكذيب لكنهم مختلفون فى العذاب الواقع بكلٍّ منهم .

وأول أنواع هذه العذابات المذكورة فى سورة العنكبوت ، وهنا فى سورة الملْك هو إرسال الحاصب على القوم المكذِّبين المعذَّبين ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا (٤٠) ﴾ [العنكبوت]

وهنا يقول سبحانه : ﴿ أَمْ أَمِنتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا (١٧) ﴾ [الملك] ، والحاصب هو الريح التى تهبُّ محمَّلة بالحصى .

ويقول تعالى أيضاً ﴿ أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ[1] أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا (٦٨) ﴾ [الإسراء]

أى يرسل عليكم ريحاً تحمل الحصباء وترجمكم بها رجماً ، والحصباء الحصى الصِّغار وهى لونٌ من ألوان العذاب الذى لا يُدفع ولا يُردّ ، لذلك قال بعدها : ﴿ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا (٦٨) ﴾ [الإسراء]

أى : لا تجدوا مَنْ ينصركم أو يدفع عنكم : فلا تأمنوا سواء كنتم فى بحر أو فى بَرٍّ .

فالحاصب هو الحصى الصِّغار ترمى لا لتجرح ولكن يُحمى عليها لتكوى وتلسع حين يرميهم بها الريح ، ولم يقُلْ هنا : أن يرسل عليكم ناراً ، مثلاً لأن النار ربما إنْ أحرقتْه يموت وينقطع ألمه ، لكن رميهم بالحجارة المحمية تلسعهم وتُديم آلامهم ، كما نسمعهم يقولون : سأحرقه لكن على نار هادئة ذلك ليطيل أمد إيلامه .

وأصل الحاصب الريح تحصب بالحصباء وهى صغار الحصى ، وإنما وُصفت الريح بأنها تحصب لرميها الناس بذلك ، فالحاصب الريح العاصف التى فيها الحصى الصِّغار .

والمتأمل لقوله تعالى : ﴿ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ (١٧) ﴾ [الملك] يجد أن الله سبحانه قال : ﴿ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ (١٧) ﴾ [الملك] كأنها مُسلَّطة عليهم كل فرد منهم بذاته .

---

(١) جانب البر : ناحية من البر . [قاله مقاتل بن سليمان ٢/٤٩٩] فيخسف الله جانب البر الذى هو مأمنكم أى أن يغيبه الله تعالى ، جانبه الذى هم فيه استلزم خسفه هلاكهم . [تفسير الألوسى ٨/١٦٠] .

ومثله قوله تعالى : ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ[1] مِنْ نَارٍ (٣٥) ﴾ [الرحمن]

ويقول تعالى أيضاً : ﴿ أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا (٦٩) ﴾ [الإسراء]

وهى مرسلة من فوقهم ، وقد كان عذاب قوم لوط أن قُذِفوا بحجارة من السماء كتلك الحجارة التى ألقتْها الطيرُ الأبابيل بحجارة من سجِّيل طين مُتحجِّر على مَنْ أراد سوءاً ببيت الله الحرام .

وقد يسأل سائل : الحق سبحانه هنا ذكر الخسف بالأرض أولاً ، ثم جاء ذكْر ما يأتى من السماء ، فقال تعالى : ﴿ أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ (١٦) ﴾ [الملك]

ثم قال : ﴿ أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا (١٧) ﴾ [الملك] ولكن الحق سبحانه قال فى موضع آخر : ﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ (٦٥) ﴾[الأنعام] ثم ﴿ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ (٦٥) ﴾ [الأنعام]

وهذا من عجيب نَظْم القرآن الذى وضع اللفظ الصحيح فى مكانه ، فسورة الملك ساقتْ أولاً ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ (١٥) ﴾ [الملك]

فملاءمة السياق هنا تقتضى التذكير بأن الله قادرٌ على خَسْف الأرض منْ تحتهم ، أما فى سورة الأنعام فالله قال : ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً .. (٦١) ﴾ [الأنعام] فناسب أنْ يذكر ﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ (٦٥) ﴾ [الأنعام] ، فبدأ بالعذاب الآتى من فوقهم لا من

---

(١) شواظ : يعنى لهب من نار ليس له دخان . وقال الطبرى : الشواظ هو اللهب الأخضر المتقطع من النار.

الأرض أو عليها .

﴿ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ (١٧) ﴾ [الملك] أى : فستعلمون يا أهل مكة عند نزول العذاب كيف نذير ، فستعلمون كيف عاقبة نذيرى لكم و ﴿ نَذِيرِ (١٧) ﴾ [الملك] هنا أى إنذارى لكم .

وفى آية أخرى يقول تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (١٨) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا[1] فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ (١٩) تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ (٢٠) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (٢١) ﴾ [القمر]

و (النُّذر) جمع نذير . والنذر تأتى قبل العذاب ، فالله لا يعذب أحداً إلاَّ بعد أنْ ينذره ، و الواو هنا فى ﴿ عَذَابِي وَنُذُرِ (١٨) ﴾[القمر] لا تقتضى الترتيب فى الحدث ، إنما تفيد الجمع بين الحدثين فقط .

وإرسال الرسل هو إيصال لإنذار الله للمكذبين أنهم سيتعرضون لعذاب الله إنْ كذَّبوا وبقوا مكذِّبين لله ولرسله وغير مؤمنين بالكتب ، وقال تعالى :﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا (١٥) ﴾ [الإسراء]

فالله رحم الخَلْق بإرسال الرسل ليُبيِّنوا للإنسان الطريق الصحيح من الطريق المعوج ، فلا عقوبةَ إلا بتجريم ، ولا تجريمَ إلا بنص ، ولا نصَّ إلا بإبلاغ ، وقد أبلغتكم الرسل وسبق إليكم الإنذار .

وعن أبى أمامة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « يبيتُ من هذه الأمة قوم على أَكْل وشُرْب ولهو ولعب ، فيصبحون قد مُسخوا قردةً وخنازير وليُصيبنَّهم خَسْف وقذف حتى يصبح الناس . فيقولون : خسف الليلة ببنى فلان ، وخُسِف

---

(١) ريحاً صرصراً : أى ريحاً باردة شديدة . وعن مجاهد : شديدة السَّموم عليهم . وقال السدى : باردة ذات الصوت . فالصرر صوت الريح إذا هبَّت بشدة . [الطبرى فى تفسيره ٢١/٤٤٥] .

الليلة بدار فلان .

وليرسلنَّ عليهم حاصبَ حجارة من السماء كما أُرسلت على قوم لوط على قبائل منها وعلى دُورٍ .

وليُرسلنَّ عليهم الريح العقيم التى أهلكتْ قوم عاد على قبائل منها وعلى دور بشُربْهم الخمر ولُبْسهم الحرير واتخاذهم القَيْنات وأكلهم الربا وقطيعتهم الرحم »[١] .

فلا تفعلوا ما يُغضب الله حتى لا يصيبكم عذاب مَنْ قبلكم من الأمم ، واجعلوا بينكم وبين النار وغضب الله وقاية ، فالحرام لا يأتى منه خير مُطلقاً ، بل ينقلب على صاحبه شراً ووبالاً ونقمة ، فإنْ كان طعامُكَ حراماً ولبسك حراماً ، فإنَّ هذا يدخل فى تكوين خلاياك ويصبح الحرام فى جسدك ، فإذا دخل الحرام إلى الجسد يميل فعلُك إلى الحرام ، وتصبح طباعك قريبةً إلى طباع القردة والخنازير.

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ ﴾

فليسوا هم أول مَنْ كذَّب ، بل هو دأب الذين من قبل ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ[٢] الْمُرْسَلِينَ (٨٠) ﴾ [الحجر] وأصحاب الحجر هم قوم صالح .

وهؤلاء مثل آل فرعون ، قال تعالى : ﴿ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١١) ﴾ [آل عمران]

---

(١) أخرجه أبو داود الطيالسى فى مسنده (١٢٣٣) . والقينات جمع قينة وهى المغنية .

(٢) أصحاب الحجر : أصحاب الوادى . وهم ثمود قوم صالح . وهم قوم من العرب العاربة ، سكنوا الحجر بين الحجاز وتبوك ، وهو وادٍ بين المدينة والشام .

فكان دأب آل فرعون هو التكذيب والطغيان ، ولأن التكذيب أصبح دأبهم وعادتهم وديدنهم ، أوقع الله عليهم العذاب ويجازيهم على ذلك بتعذيبهم .

والتكذيب هو تأبٍّ من المكذِّب ، وهو إنكار لقول أو فعل ، والتكذيب هو الوقوف إيجابياً فى موقف الضدِّ والصَّدِّ عن سبيل الله ، والتكذيب كان سبباً أيضاً فى إغراق الذين كذَّبوا من قوم نوح عليه السلام .

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ (٦٤) ﴾ [الأعراف]

وكان هذا أول حدث عقابيٍّ فى تاريخ الديانات ، لأن رسالة نوح عليه السلام هى أول رسالة تعرضت إلى مثل هذا التكذيب ومثل هذا العناد ، والتكذيب بآيات الله تعالى يعنى إخراج الصدق إلى الكذب وإخراج الواقع إلى غير الواقع.

والذين كذَّبوا بالآيات إما أنهم لا يؤمنون بإله أو يؤمنون بإله ولا يؤمنون برسول ، أو يؤمنون بإله ، ويؤمنون برسول ولا يؤمنون بما أُنزل على الرسول ﷺ .

وهذا التكذيب ظاهرة عانى منها كلّ الرسل السابقين لك لأنهم يجيئون بما ينكره المرسل إليهم أولاً فلا بدّ أنْ يكذِّبوا ، والحق سبحانه يقول : ﴿ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ (٤٢) ﴾ [الحج]

فإنْ يكذِّبوك فى دعوتك فيواجهونك ويقفون فى سبيل دعوتك ليُبطلوها فاعلم أنك لسْت فى ذلك بدعاً من الرسل ، فقد كُذِّب كثير من الرسل قبلك ، ومسألة التكذيب منفصلة عن عاقبته .

نعم كذّب القوم ، ولكن أتركناهم أم أخذناهم أخْذ عزيز مقتدر ، سوف يحلّ بهم ما حَلَّ بسابقيهم من المكذبين والمعاندين ، ولذلك قال تعالى : ﴿ وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ (١٨) ﴾ [العنكبوت]

فعليكم أنْ تنتبهوا إلى ما صُنع بالأمم المكذّبة وكيف كانت عاقبتهم ، فاحذروا أنْ يُصيبكم ما أصابهم ، والحق سبحانه يوضح : إنْ كانوا قد كذّبوك فلا تحزن فقد كذبوا من قبلك رسلاً كثيرين .

وكأنَّ الله يقول لرسوله ﷺ : يا محمد لسْتَ بدعاً من الرسل فإنْ وقف منك قومك موقفَ العناد والتكذيب ، فكُنْ على يقين وعلى ثقة من نصر الله لك .

﴿ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (١٨) ﴾ [الملك] فالحقُّ سبحانه يُلقى الخبر فى صورة استفهام لتقول أنت ما حدث وتشهد به . والمراد : أعاقبناهم بما يستحقون ؟

والنكير هو الإنكار على شخص بتغيير حاله من نعمة إلى نقمة ، كالذى يُكرمك ويُواسيك ويبشّ فى وجهك ويُغدق عليك ، ثم يقطع عنك هذا كله ، فتقول: لماذا تنكَّرَ لى فلان ؟ يعنى : قطع عنى نعمته .

﴿ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (١٨) ﴾ [الملك] أى : فكيف كان إنكارى لموقفهم من عدم أداء حقوق النعمة فبدَّلها الله عليهم نقمة .

ثم يقول تعالى :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ ﴾

فالله تعالى يلفت نظر هؤلاء المكذبين لله ورسوله ولكتابه إلى السماء ، ولكن الحق سبحانه يسوق الأمر فى هيئة استفهام ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا (١٩) ﴾ [الملك] ، وهذا تأكيد أنهم فعلاً رأوا ، فلماذا يكفرون ويكذّبون إذن ؟!

ومثل هذا قوله تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (٧١) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (٧٢)﴾ [يس]

وفـى آية أخرى يقول تعـالى : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٤١)﴾ [الرعد]

ويذكِّرهم الحق سبحانه بأمر يعيشونه فى حياتهم ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا (٦٧)﴾ [العنكبوت]

ويَذكر الحق سبحانه عاداً فيقول تعالى : ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً (١٥)﴾ [فصلت]

و (يروا) هنا بمعنى (يعلموا) ولم يقُلْ الحق سبحانه ذلك لأن العلم قد يكون علماً بغيب ، ولكن (يروا) تعنى أنهم قد علموا ماجاء بالآية على مشهد ورؤية واضحة ، وليس مع العين أين .

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا (١٩)﴾ [الملك] أى أعمُوا ولم يروا ولم يتدبروا فيما خلق الله ، ومما خلق الله الماء الذى يسوقه إلى الأرض الجرز[1] الخالية من كل شيء الجرداء ، يقول تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ (٢٧)﴾ [السجدة]

وهنا يلفت الحق سبحانه إلى الطير السابح فى السماء ؛ يقول تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ (١٩)﴾ [الملك]

فالطير يطير فى السماء بحركة الجناحين التى تدفع الهواء وتقاوم الجاذبية فلا يسقط ، كالسبع الذى يدفع بذراعيه الماء ليسبح ، فإذا ما قبض الطائرُ جناحيه ومع ذلك يظل مُعلَّقاً فى السماء لا يسقط ، فمَنْ يُمسكه فى هذه الحالة؟

---

(١) الأرض الجُرُز التى لا تُمطر إلا مطراً لا يغنى عنها شيئاً إلا ما يأتيها من السيول . [تفسير مجاهد] وقال مقاتل بن سليمان فى تفسيره (٣/٤٥٣) : يعنى الملساء ليس فيها نبت فنخرج به بالماء زرعاً تأكل منه أنعامهم وأنفسهم .

هذه صورة تشاهدونها لا يشك فيها أحد ، وهذه الطير تسبِّح الله سبحانه ، يقول تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ (٤١) ﴾ [النور]

ونحن نرى الطير فى جو السماء ﴿ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٧٩) ﴾ [النحل] وهى ليست رفرفة أجنحة ، فنحن نرى الطائر يُثبِّت أجنحته فى الهواء ، ومع ذلك لا يقع إلى الأرض .

فهناك إذن ما يمسكه من الوقوع ، لذلك قال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ (١٩) ﴾ [الملك] أى أنها فى حالة بسْط الأجنحة وفى حالة قبْضها تظلّ معلّقة لا تسقط، وكذلك نجد من الطيور ما له أجنحة طويلة ، لكنه لا يطير مثل الأوز وغيره من الطيور .

إذن ليست المسألة مسألة أجنحة ، بل هى آية من آيات الله تمسك هذا الطير في جوِّ السماء ، فتراه حراً طليقاً لا يجذبه شىء إلى الأرض ، ولا يجذبه شىءٌ إلى السماء ، بل هو حُرّ يرتفع إنْ أراد الارتفاع وينزل إنْ أراد النزول .

والله يريد أنْ يجعل الطير مثلاً ونموذجاً لشىء أعظم ، فالطير كائنٌ له وزن وثقل يخضع لقانون الجاذبية التي تجذب للأرض كل ثقل يُعلَّق فى الهواء .

لكن الحق سبحانه يخرق هذا القانون للطير حين يصُفُّ أجنحته في الهواء يظل مُعلَّقاً لا يسقط ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ (١٩) ﴾ [الملك]

فترى الطير في السماء مَادًّا جناحيه ثابتاً بدون حركة ، ومع ذلك لا يقع على الأرض ولا يُمسكه فى جَوِّ السماء إذن إلا قدرة الله .

وكأنَّ الخالق يقول : خُذوا من الطير المشاهد نموذجاً ووسيلة إيضاح ، فإذا قلت لكم ﴿ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ (٦٥) ﴾ [الحج]

فصدِّقوا وآمنوا أنَّ الله يمسك السماء ، بل ﴿ إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ (٤١) ﴾[فاطر] فخُذْ من المشهد الذى تدركه دليلاً على ما لا تدركه .

والحق سبحانه وتعالى ، يُطمئننا فيقول : ﴿ إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (٤١) ﴾ [فاطر]

فالحقُّ سبحانه وتعالى وحده الذى يحفظ السماوات والأرض فى توازن عجيب ومذهل ، ولئن قدَّر لهما أنْ تزولا فلن يحفظهما أحدٌ بعد الله ، أي لا يستطيع أحدٌ إمساكهما ، فهما قائمتان بقدرة الواحد القهار ، وإذا أراد الله أنْ تزولا فلا يستطيع أحدٌ أنْ يمسكهما ويمنعهما من الزوال .

وقد أوجد الحق سبحانه قوانين الجاذبية لتمارس السماوات والأرض أعمالهما ويحفظهما بقدرته من الزوال وجعل من الجاذبية نظاماً بديعاً يحفظ الكون من الاختلال .

فالأمر قائم على قدرة الله دون وجود عَمَد تحمل السماء ، فالسماء مرفوعة فوقنا بلا عمد ، لا يُمسكها فوقنا إلا الله بقدرته وقيوميته أنْ تقع على الأرض إلا بإذنه تعالى .

والله عز وجل يقول : ﴿ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ (١٧) ﴾ [المؤمنون] فلن نغفل عن السماء من فوقكم وسوف نمسكها ، وإمساك الطير في جَوِّ السماء دليل حِسِّى على إمساك الله للسماء أنْ تقع على الأرض .

وقد أوجد الحق قوانين الجاذبية لتمارس السماوات والأرض أعمالهما ويحفظهما بقدرته من الزوال ، وجعل من الجاذبية نظاماً بعيداً يحفظ الكون من الاختلال ، فالجاذبية كانت موجودة ولم يعرفها الإنسان إلا مؤخراً .

والحق سبحانه استحقَّ بهذا بإمساكه السماوات والأرض وبإمساكه الطير في جوِّ السماء استحقّ الله بهذا وَصْف الرحمن ، قال تعالى : ﴿ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَـٰنُ (١٩) ﴾ [الملك]

وكلمة (الرحمن) من صيغ المبالغة ، فإذا قيل رحمن تكون مبالغة فى الصفة ، وكذا إذا قيل رحيم تكون مبالغة في الصفة ، والله سبحانه رحمن الدنيا ورحيم الآخرة .

واسم (الرحمن) يفيد أن رحمته سبحانه تعُم الخَلْق جميعاً ، والرحمن ينعم بالنعم كلها ، والرحمة صفة التحنين للخَلْق ، ولم يقُلْ الحق سبحانه : ما يمسكهن إلا الجبار أو القهار رغم أنَّ إمساك السماء أنْ تقع على الأرض وإمساك الطير في جَوِّ السماء يقتضى اسم الجبار في ظاهر الأمر ، فهو يحفظ السماء بجبروته وقهره .

فأسماء الجبار والقهار من خدم الرحمة ومن أسبابها ، فالله يرحم عباده حتى بصفات القهر والانتقام ، والله أرحم الراحمين ورحمته وسعتْ كل شيء ومسائل الخَلْق كلها تدور في إطار الرحمانية .

فالله سبحانه وتعالى للمؤمن والكافر ، فهو الذي استدعاهم جميعاً إلى الوجود ، ولذلك فإنه يعطيهم من النعم برحمته وليس بما يستحقون ، فالشمس تشرق على المؤمن والكافر ، ولا تحجب أشعتها عن الكافر وتعطيها للمؤمن فقط ، والمطر ينزل على مَنْ يعبدون الله ومَنْ يعبدون أوثاناً من دون الله ، والهواء يتنفسه من قال لا إله إلا الله ومَنْ لم يقُلها .

وكل النعم التى هى من عطاء الربوبية لله هى فى الدنيا لخَلْقه جميعاً وهذه رحمة ، فالله ربُّ الجميع مَنْ أطاعه ومَنْ عصاه وهذه رحمة ، والله قابلٌ للتوبة وهذه رحمة .

﴿ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ (١٩) ﴾ [الملك] فلا تعتقدوا أنَّ هناك شيئاً يخفى على الله، أو أنّ أحداً يستطيع أنْ يخدع الله ، فالله سبحانه وتعالى بصيرٌ بكلِّ شيء، ليس بالظاهر منك فقط ، ولكن بما تُخفيه فى نفسك ولا تُطلع عليه أحداً من خَلْق الله .

فالله يعلم ويرى كلَّ ما تصنعون ، وأنتم تحت سمعى وبصرى وكلاءتى ، حتى أن الله عز وجل عندما ذكر نوحاً عليه السلام قال : ﴿ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ (٣٧) ﴾ [هود]

ومعنى ﴿ بِأَعْيُنِنَا (٣٧) ﴾[هود] أى : بحفظنا ورعايتنا ، وكلمة (بأعيننا) تفيد شمول الحفظ وكمال الرعاية .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَٰنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ ﴾

كلمة (جند) مفردة لكنها تدل على جماعة ، وأصل الكلمة من (جند) وهى الأرض الغليظة الصلبة القوية ، ونظراً لأن الجنود المفروض فيهم الغلظة والقوة فقد أُطلق عليهم لفظ (جند) .

وبرغم أن كلمة (جند) مفرد إلا أنها تدلّ على القوم مثل (رهط) و (طائفة) ويُسمُّونها اسم جمع .

فمَـنْ هذا الذى هو جند لكم أيهـا الكافرون به ينصركم مِن دون الرحمن إنْ أراد بكم سوءاً فيدفع عنكم ما أراد بكم من ذلك ، فقوله ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِى(٢٠)﴾ [الملك] هو استفهام بمعنى التوبيخ والإنكار .

فـأى هـذه الأصنـام والأوثان تمنعكـم من عـذاب الله وتدفعه عنكـم ، نحو قولـه تعـالى : ﴿ أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ[1] (٤٣) ﴾ [الأنبياء]

فهذه الآلهة لا تستطيع نصر أنفسها فكيف ينصرونكم ويمنعونكم من عذاب الله إنْ وقع بكم ؟ وقوله ﴿ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ (٤٣) ﴾ [الأنبياء] ، فالمراد يصحبه كـى يحميـه بهذه الصحبة وينجـو من العذاب ، فهؤلاء لـن نكون فى صحبتهم لنُنجيهم ، ولا أحدَ يستطيع أنْ يصحبهم لينجيهم من عذابنا ، لا هذه ولا تلك .

فقولـه ﴿ أَمَّنْ هَـٰذَا الَّـذِى(٢٠)﴾ [الملك] خطاب للكافريـن على وجه التوبيخ والتهديـد وإقامة الحجة عليهم ، فلا جنـدَ لكم ينصركم ويمنعكم منى إنْ أردتُ عذابكم ، فليس لكم من دون الله من ولى ولا واقٍ ولا ناصرَ لكم غيره .

فلـن تجدوا مَنْ ينصركم أو يدفـع عنكم ، ولا أملَ لكم فى ناصر ينصركم أو مدافـع يحميكـم ، فعندما تقعون فى عداء مع منهـج الله ؛ يتخلى الله عنكم ولا ينصركم أحد ؛ لأنه لا ولى ولا ناصر إلا الله تعالى .

والحق سبحانه يقول ﴿ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا[2] مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِـنْ نَاصِرِيـنَ(٢٥)﴾ [العنكبـوت]

---

(١) ولا هم منا يُصحبون : أى لا يُجارون ولا ينقذهم صاحب لهم من عذابنا . [القاموس القويم للقرآن الكريم ١/٣٦٩] وقال ابن منظور فى لسان العرب مادة : صحب . يصحب : يمنع ويحفظ ، وهو من قوله تعالى : ﴿ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ (٤٣) ﴾ [الأنبياء] أى يمنعون . وتقول : صحبك الله أى حفظك.

(٢) الأوثان : الأصنام . مفرده وثن . وأصل الكلمة من وثن بالمكان أى أقام به وثبت فيه فهو أثن أى مقيم ثابت . [القاموس القويم ٢/٣٢٠] .

فلا ناصرَ لكم من أوليائكم الذين عبدتموهم من دون الله حيث يطلبون النصرة من أحجار وأصنام لا تنطق ولا تجيب.

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٥٦) ﴾ [آل عمران] ، فليس لأحد من هؤلاء من ناصر لأن الذى يهزمه الله ويعذبه لا ناصر له.

فلن يجد الظالم مَنْ يدرأ عنه هذا العذاب لأنه لن يجد ناصراً له ولن يجد شفيعاً فلن يأتى أحد ويقول : إن فلاناً يتعذب فهيا بنا ننصره ، لن يأتى أحدٌ لينصره ، ولن يجد ناصراً أو معيناً يخلِّصهم من العذاب.

وفى سورة الصافات يقول تعالى : ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ (٢٤) مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ (٢٥) بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (٢٦) ﴾ [الصافات] أين الفتوات الأقوياء ينصرونكم؟

وهذا الاستفهام على سبيل السخرية والتهكم . يعنى : مالكم الآن لا ينصر بعضكم بعضاً وكنتم تناصرون فى الدنيا ، الأتباع ينصرون السادة ، والسادة يُجنِّدون الأتباع ويدعمونهم ويحفزونهم.

ولأن لا أحدَ سينصرهم أو يعينهم تجدهم مستسلمين خاضعين مُنقادين أذلاء مُهانين ، أى رفع الراية البيضاء ، فلم يعد لديه شيءٌ من القوة يدافع بها عن نفسه ولا حجةَ ولا منطق ، إنه الآن ينتظر أمر الله فيه فى ذلَّة وصَغار.

والحق سبحانه يقول هنا (ينصركم) ، فالنصير هو الذى ينصرك بالقوة والفتونة فمَنْ هذا الذى يستطيع أنْ يدفع عنكم الله من الأنصار والأعوان ؟ فمَنْ ينصركم منى إنْ أردت عذابكم ؟ فلا جندَ لهم ولا أعوان .

والحق سبحانه لم يقُلْ : أمَّن ذا الذى ؟ بل قال تعالى : ﴿ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي (٢٠) ﴾ [الملك] فاستخدم سبحانه هاء التنبيه فى (هذا) ، فالمقام مقام ترهيب وإنذار

وتخويف وتحذير، فجاء بـ (هـا) التنبيه زيادةً فى التحذير والتنبيه وهو ما يقتضيه المقام .

والنُّصرة تأتى على معنيين ، تأتى بمعنى أنه لا يغلب ، وتأتى بمعنى أنَّ هناك قوة تنتصر له أى تنصره ، ولكن هؤلاء لا ناصر لهم من أوليائهم الذين عبدوهم من دون الله حيث يطلبون النصرة من أحجار وأصنام لا تنطق ولا تجيب .

﴿ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٥١) ﴾ [الأنعام] والولى هو الذى ينصرك إنْ كنتَ فى مأزق ، ومأزق الآخرة كبير ، فماذا عن الإنسان الذى ليس له ولاية ؟ إنه العذاب الحق .

وقوله سبحانه : ﴿ وَلَا شَفِيعٌ (٥١) ﴾ [الأنعام] أى ليس له من يشفع عند مَنْ يملك النصرة وهو الله ، فالذى يحبك إنْ لم ينصرك بذاته فإنه قد يشفع لك عند مَنْ يستطيع أنْ ينصرك ، وهذا أيضاً لا يوجد لمن لم يتعظ ويتذكر ولم يتبع المنهج الإيمانى .

وقوله تعالى : ﴿ مِنْ دُونِ الرَّحْمَٰنِ (٢٠) ﴾ [الملك] يذكر صفة الرحمة والرحمانية لله عز وجل فيذكر اسم الرحمن ، ولم يقُلْ تعالى : من دون الله . فالحق سبحانه يذكِّر عباده برحمانية الله ، وأنه إنْ كان قد تخلى عنكم المناصرون والمؤيدون إلاَّ أنَّ الله عز وجل برحمانيته سينصركم إنْ آمنتم بالله .

فالله عز وجل إنما يريد أنْ يؤمن عباده لا أنْ يكفروا ، يقول تعالى ﴿ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا (١٤٧) ﴾ [النساء]

ثم يقول تعالى : ﴿ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ (٢٠) ﴾ [الملك] فغرور الدنيا قد يركب بعض الناس فيظنون أنهم فى مَنعَة من الله ، وأنهم لن يلاقوه .

وهناك (غُرور) بضم الغين ، و(غَرور) بفتح العين ، فالغرور بضم العين هو

الشيء يُصوَّر لك على أنه حقيقة وهو فى الواقع وهم ، أما الغرور بفتح الغين فهو مَنْ يفعل هذه العملية . ولذلك فالغَرور هو الشيطان لأنه يزين للإنسان الأمر الوهمى ويؤثر مثلما يؤثر السراب ، فالإنسان حين يرى انكسار الأشعة يُخيَّل إليه أنه يرى ماء ، ويقول الحق عن ذلك ﴿ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا (٣٩) ﴾ [النور]

وكذلك الغرور حيث يزين الشيطان شيئاً للإنسان ويُوهمه أنه سيستمتع به ، فإذا ما ذهب الإنسان إليه فلن يجد له حقيقة ، بل العكس . فالغرور هو الإطماع فيما لا يصح ولا يحصل ، فعندما تقول لواحد والعياذ بالله (أنت مغرور) فأنت تقصد أنه يسلك سبيلاً لا يوصله إلى الهدف المنشود .

والحق سبحانه يقول : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللهِ الْغَرُورُ (٥) ﴾ [فاطر]

ويقول تعالى : ﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ (٢٠) ﴾ [الحديد]

ويُقال عن الرجل الذى ليس له تجربة : إنه غِرٌّ ، فيأتى بأشياء بدون تجربة فلا ينتفع منها ولا تصح ، لذلك سمَّى الله الشيطان (الغرور) ، لأنه يُطمعنا نحن البشر بأشياء متوهَّمة لن تحدث .

فالغرور يجعل العمر كله يضيع ، لأن الإنسانَ لم يتبع المنهج الحق ، بل يمتد الضياع والعذاب إلى العمر الثانى وهو الحياة فى الآخرة ، يقول الحق : ﴿ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٤) ﴾ [آل عمران]

والكافر من هؤلاء يتملَّكه الغرور وهو يتقلَّب فى النعمة التى وهبه الله

إياهـا فيأتيه عذابُ الله بغتةً ، لأنه استجاب لوعود الشيطان ، ووعودُ الشيطان ليستْ إلا غروراً ﴿ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا (٦٤) ﴾ [الإسراء]

وهو سبحانه يُحذِّرنا أنْ يأخذنا الغرور بهذه الحياة ، فالإنسان بدون منهج الله يسبح فى بحر الغرور والتكبُّر ، ومعنى الغرور أنْ يغترّ فيعزل النعمة عن المنعم وينسبها لنفسه كما فعل قارون فاغترَّ بماله وعلمه .

واستخدام الحق سبحانه (إنْ) ثم (إلاَّ) هذا لتأكيد أن الكافرين فى غرور ، وليس لحالهم وجهٌ آخر لأنهم فى الحقيقة يغرُّون أنفسهم ويخدعونها ، يغترون بدنيا زائلة وبآلهة مُدَّعاة موهومة لا تنفع ولا تضر .

يغرُّهم الشيطان ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا (٦٤) ﴾ [الإسراء] ولكن الشيطان لا يستطيع أنْ يغُرَّ بوعوده إلا صاحب الغرَّة والغفلة ، ومنها الغرور أى يزيِّن لك الباطل فى صورة الحق فيقولون : غرَّه .

وأنت لا تستطيع أبداً أنْ تصور لإنسان الباطل فى صورة الحق إلا إذا كان عقلُه قاصراً غافلاً ، لأنه لو عقل وانتبه لتبيَّن له الحق من الباطل ، إنما تأخذه على غرَّة من فكره ، وعلى غفلة من عقله .

والغرور يوضحه لنا الشاعر[١] وهو يخاطب محبوبته ، فيقول :

أَفَاطِمُ مَهْلاً بَعْضَ هَذَا التَّدلُّلِ ... وَإِنْ كُنْتِ قَدْ أزمَعْتِ صَرْمِى[٢] فَأجمِلِ

أَغرَّكِ مِنِّى أَنَّ حُبَّكِ قَاتِلى ... وَأَنَّكِ مَهْمَا تَأمُرِى القَلْبَ يَفْعلِ

---

(١) هو امرؤ القيس بن حُجر بن الحارث الكندى ، أشهر شعراء العرب ، يمانى الأصل ولد بنجد عام ١٣٠ قبل الهجرة ، كان أبوه ملك أسد وغطفان وأمه أخت المهلهل الشاعر ، فلقنه المهلهل الشعر فقاله وهو غلام . ويُعرف امرؤ القيس بالملك الضليل لاضطراب أمره طول حياته ، وذى القروح لما أصابه فى مرض موته توفى عام ٨٠ قبل الهجرة عن ٥٠ عاماً .

(٢) الصرم : القطع البائن . والصرم : الهجران . [لسان العرب – مادة : صرم] والبيتان من معلقة امرئ القيس وهي من بحر الطويل أولها :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل ... بسقط اللوى بين الدخول فحومل

فمعنى غرَّك : أدخل فيك الغرور بحيث تقبل على الأشياء وتتصرف فيها فى كَنَف هذا الغرور وعلى ضوئه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ ۚ بَل لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ (٢١) ﴾

فمَنْ هذا الذى يُطعمكم ويسقيكم ويأتى بأقواتكم إنْ أمسك رزقه عنكم ، مَنْ يرزقكم إنْ حبس رزقه عنكم ؟ فمَن الذى يرزقكم سواه ؟ فهل أحد من تلك الآلهة يرزقكم إنْ أمسك الله رزقه عنكم ؟

فلا أحدَ يعطى ويمنع ويخلق ويرزق وينصر إلا الله عز وجل ، فالله هو يعطيكم منافع الدنيا ، وهو سبحانه الذى يعطيكم أسبابَ رزقه من الأمطار وغيرها أو إيقاف الهواء فلم تجر الرياح ، أو جَعْل الماء غوراً .

وسيأتى قوله تعالى فى آخر سورة الملك ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ (٣٠) ﴾ [الملك]

قوله (أمسك) مادة الميم والسين والكاف تدل على الارتباط الوثيق ، فالذى يجعل الإنسان متصلاً بالشيء هو ماسكه وتقول (مسك) و (أمسك) وتقول (استمسك) و (تماسك) وكلها مادة واحدة . وقوله الحق ﴿ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ (١٧٠) ﴾[الأعراف] مبالغة فى المسك .

فـ (أمسك) منع رزقه والرزق هنا منسوب لله عز وجل ، ونلحظ أن كلمة (رزقه) وردت فى القرآن أربع مرات ، مرتين منها مضافة إلى الإنسان يقول

---

(١) لجَّ فى الأمر : تمادى فيه وألحَّ واستمرّ . قال تعالى : ﴿ لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٥) ﴾ [المؤمنون] أى : لتمادوا واستمروا .

تعالى : ﴿ لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ[1] عَلَيْهِ رِزْقُهُ (٧) ﴾ [الطلاق] ، وفى سورة الفجر يقول سبحانه : ﴿ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ (١٦) ﴾ [الفجر]

ومرتان مضافة إلى الحق سبحانه ، والمرتان فى سورة واحدة هى سورة الملك ، قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ (١٥) ﴾ [الملك] ويقول أيضاً : ﴿ أَمَّنْ هَـٰذَا الَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ (٢١) ﴾ [الملك]

فالرزق رزقُ الله سبحانه ، ووردت هنا فى سورة الملْك مضافةً لله عز وجل ، وهذا يناسب أنَّ بيده سبحانه الملك : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِى بِيَدِهِ الْمُلْكُ (١) ﴾ [الملك] فبيده سبحانه كلّ شيء ، وهو القادر على كل شيء .

وحين نتكلم عن الرزق يظن كثيرٌ من الناس أن الرزق هو المال ، نقول له : لا.. الرزق هو ما يُنتفع به فالقوة رزق ، والعلم رزق ، والحكمة رزق ، والتواضع رزق ، وكلُّ ما فيه حركةٌ للحياة رزق .

ومن الرزق المطر وما ينتج عنه وينبت من الأرض ، يقول تعالى : ﴿ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٢) ﴾ [البقرة]

فالمطر ينزل من السماء فينبت به الزرع والثمر وهذا رزقٌ لنا ، والرزق هو ما يُنتفع به وليس هو ما تحصَّل عليه ، فالمال جزء من الرزق ، والصحة رزق، والولد رزق ، والطعام رزق ، والبركة فى الرزق ، وكلُّ نعمة من الله سبحانه هى رزق .

---

(١) قدر الله الرزق يقدره : جعله ضيقاً على قدر الحاجة لا يزيد ومنه قوله تعالى : ﴿ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ.. (١٦) ﴾ [الفجر] أى ضيَّقه وجعله على قدر الحاجات الضرورية لا يزيد عليها . [القاموس القويم ١٠٢/٢].

والحق سبحانه يلفتنا بقوله: ﴿ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ (٢٢) ﴾ [البقرة] إلى أن الرزق يأتى من أعلى، وذلك مثل قوله: ﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (٢٢) ﴾ [الذاريات]

ولذلك قال بعض العلماء هنا أن الرزق المقصود هنا ﴿ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَل لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ (٢١) ﴾ [الملك] هو المطر، فمَنِ الذى يرزقكم مطراً إنْ أمسك الله ماء السماء عنكم.

والبعض يقول: إنما ينزل المطر بقوانين الكون، فيلفتنا الله تبارك وتعالى إلى خطأ هذا الكلام بأنْ تأتى مواسمُ جفاف لا تسقط فيها حبة مطر واحدة لنعلم أنَّ المطر لا يسقط بقوانين الكون ولكن بإرادة خالق الكون، مقنن القوانين.

فإذا كانت القوانين وحدها تعمل، فمَنْ الذى عطَّلها؟ ولكن إرادة الخالق فوق القوانين إنْ شاءت جعلتْها تعمل، وإنْ شاءتْ جعلتْها لا تعمل، إذن فكلُّ شيء فى الكون باسم الله هو الذى سخَّر وأعطى، وهو الذى يمنح ويمنع.

والحق سبحانه لم يحكمنا فى قضية الخَلْق الأولى بشيء واحد بأنْ يجبرنا على كلِّ شيء، بل جبرنا سبحانه بأنه لم يُدخل أسبابنا ولا حركتنا فى كثير من الحركات التى تترتب عليها الحياة، فلم يجعل الشمس بأيدينا ولا القمر ولا الريح ولا المطر.

كلُّ هذه الأسباب جعلها بيده هو، لماذا؟ لأن هذه الأسباب ستفعل للمخلوق قبل أنْ تكون له قدرة، هذه الأسباب تفعل للإنسان قبل أنْ تُوجد له حياة، لتمهد للحياة التى يهبك الله إياها.

فلو ترك اللهُ كلَّ هذه الأشياء لأسباب الإنسان لتأخرتْ هذه الأشياء إلى أنْ يُوجد للإنسان إرادةٌ، وتُوجد له قدرة وعلم.

ومِن عظيم حكمة الله سبحانه ﴿ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ (٢١) ﴾ [الزمر] ، فجعل الله للحياة مسارب فى الأرض حتى تستطيع البلاد ذات الحرارة الشديدة الوصول إلى المياه الجوفية ولا تتعرض المياه المنتشرة فى مسطحات كبيرة للتبخر .

لقد أخفى الله جزءاً من المياه فى الأرض لصالح الإنسان ، وفى البلاد الحارة نجد الملح واضحاً على سطح التربة دليلاً على أن الحق سبحانه وضع قانون تقطير المياه العَذْبة لتكون صالحة للشرب والزراعة .

وهو سبحانه الذى أنزل من السماء ماء ، وليس لأحد من خَلْقه أى دخْل فى هذا ، لأن الماء إنما يتبخر دون أنْ يدرى الإنسان ، ولم يُعرف ذلك إلا منذ قرون قليلة ، وعرفنا كيف يتكوَّن السحاب من البخار ثم ينزل المطر من بعد ذلك .

فلا دخْلَ للإنسان بهذا الأمر ، لذلك يقول الحق سبحانه : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً (٦٣) ﴾ [الحج]

ولكن هل استقبل الكافرون معطيات الله لنا فى الكونِ بالإيمان أم عتَوْا وتجبَّروا وتكبَّروا عن أنْ يؤمنوا ، يقول تعالى : ﴿ بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ (٢١) ﴾ [الملك]

كلمة (بل) للإضراب فهى تنفى ما قبلها وتثبت ما بعدها ، فالمعنى أنهم لم يؤمنوا ولم يسلكوا ما يقتضيه ما اطلعوا عليه من بعثات الرسل ، بل أضربوا عن هذا وذهبوا إلى سلوك العُتو والنفور .

فـ (بل) حرفٌ يفيد الإضراب عن الكلام السابق ، وتقرير كلام جديد يُثبت الحكم للكلام بعدها .

﴿ بَلْ لَجُّوا (٢١) ﴾ [الملك] أى دخلوا دخولاً أدَّى إلى تماديهم فى العتو والنفور وأبَوْا غير هذا ، فهم لا يعتبرون ولا يتفكرون بل لجوا فى طغيانهم وتماديهم وتباعدهم عن الإيمان .

فـ (لجوا): تقحَّموا فى المعاصى، واللجاج: تقحُّم الأمر مع كثرة الصوارف الواضحة عنه. واستمروا فى طغيانهم وإفكهم وضلالهم، فهم داموا على اللجاج والعناد.

﴿ بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ(٢١)﴾ [الملك] والعتو الكبرياء والإباء، وعتوا يعنى أبوْا وعصوْا واستكبروا. وهذا مُرودٌ منهم وبلوغ الغاية من الفساد، وعتوْا: بالغوا فى الظلم والتحدى وتجاوزوا الحدود.

والعاتى الذى بلغ فى الظلم الحدّ مثل الطاغوت الذى إنْ خاف الناسُ منه انتفش وتمادى وازداد قوة.

والعُتو: الكفر والطغيان والتجبُّر والإفساد كثيراً: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا (٢١) ﴾ [الفرقان]

فاستكبروا وحاولوا أنْ يجعلوا أنفسهم فوق قدرهم، وكلّ إنسان منَّا له قدْرٌ محدود.

والنّفور: الكفور والتباعد عن الإيمان والنفور من الحق والاستكبار عن اتباع الإيمان، فالعتو هو التمادى فى الكفر، والنفور هو التباعد عن الحق، فقد حملهم اللجاج على الكفر والنفور عن الحق.

وهل ينفر الإنسانُ من الحق والإيمان؟ ذكر الله هذا فقال تعالى: ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٥) ﴾ [الزمر]

كلمة ﴿ اشْمَأَزَّتْ (٤٥) ﴾ [الزمر] يعنى نفرت، والإنسان حينما يحس أو يدرك شيئاً لا يحبه يشمئز يعنى يظهر على سحنته الامتعاض ثم تحدث منه نفْرة وقشعريرة كئيبة ثم ينصرف عن هذا الشيء، كذلك حالُ هؤلاء لما سمعوا ذكر الله وحده نفرتْ نفوسهم وانقبضوا عن توحيد الله.

واشمئـزاز القلـوب أمر غيبيّ ينضح على الوجـه بالانفعال ، وقد قال تعالى أيضـاً : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا[1] فِي هَـٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا (٤١) ﴾ [الإسراء]

فبـدل أنْ يذكروا ويعودوا إلى جادة الصـواب ازدادوا إعراضاً ونفوراً ، ولكن لمـاذا نفروا ؟ لأنك أتيت لهـم بما يُخوِّفهم ويُزعجهم ، فهـم يُولُّون مدبرين فى خوف ونفور .

والنفـور الانفـكاك عن الشيء بكُـره . يقول تعالى : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَـٰنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَـٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا (٦٠) ﴾ [الفرقان]

بـل إنَّ الحـق سبحانـه يُعطينا صـورة لهذا النفور عـن الإيمـان والتذكرة ، فيصـف الحـق سبحانه إعراضهم فيقول : ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ (٤٩) كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ[2] مُسْتَنْفِرَةٌ (٥٠) فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ[3] (٥١) ﴾ [المدثر]

فـكان القياس ألاَّ يُعرضـوا عـن التذكرة ، وهـم لم يُعرضوا إعراضـاً هـادئاً طبيعيـاً ، بـل أعرضوا كأنهـم حُمر وحشية قد نفرتْ من شـيء ما فجأة فتكون ردودُ أفعالها على غير اتساق .

فهم يفعلون الأفعال جزافاً بدون تفكير فى حيثيات الفعل أو عدم الفعل، فهذا ليس عمل العاقلين ، فهذه الحمر الوحشية كأنها فرَّتْ من قسورة ، والقسورة هو الأسد ، فالحُمر تنفر من الأسد مذعورة مستنفرة .

---

(١) ولقد صرَّفنا : أى بيَّنا . بأنواع تصاريف الكلام من الخبر والعِبر وضرب الأمثال والأمر والنهى والوعظ والزجر . وضربنا لهم مثلاً من كل جنس.

(٢) الحُمر : جمع حمار والمقصود به الحمار الوحشى أو المخطط لأن الله قال بعدها ﴿ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ (٥١) ﴾ [المدثر] والقسورة هو الأسد فالحق سبحانه يتحدث هنا عن بيئة برية ، أما الحمار الأهلى فقد ذكره الله فى آياتٍ أخرى ﴿ كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا.. (٥) ﴾ [الجمعة] ولما جمع الحمار الأهلى قال حمير ﴿ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ (١٩) ﴾ [لقمان] . عادل أبو المعاطى.

(٣) القسورة : الأسد . [القاموس القويم ٢/١١٥] وللكلمة معانٍ أخرى ذكرها ابن منظور فى اللسان (مادة قسر) : فقال ابن الأعرابى : القسورة الرماة من الصيادين كذا قاله ابن الأثير . فكأن الحُمر هنا فرت من الصيادين وسهامهم .

فهم فارُّون أمام الدعوة ، لا يلوون على شيء سائرين على غير هُدَى ، تجدّ في هربها لا تلوى على شيء تبغى الفرار .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ ﴾

يعطينا الحق سبحانه هنا مقابلة ويعقد مقارنة بين صنفين من الناس ، الأول يمشى مُكباً على وجهه قد تنكَّب طريق الحق واستبدل به الضلال والزيغ عن الحق ، والصنف الثانى مَنْ يمشى على صراط مستقيم .

ولكن الحق سبحانه يعقد هذه المقارنة فى صورة استفهام يسأله ﴿أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٢٢)﴾[الملك] فأيهما أهدى منهما وقد سلك الهداية ؟

والاهتداء سبيل واحد لا غير هو منهج الله تعالى وصراطه المستقيم فللهداية طريقٌ واحد أوضحه رسول الله ﷺ بقوله : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به»[١].

أما طرق الضلال فمتعددة ومناهجه مختلفة ، فللضلال ألف طريق ، وهذا واضح فى قول الحق سبحانه : ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ (١٥٣)﴾ [الأنعام]

والنبى ﷺ حينما قرأ هذه الآية خطَّ للصحابة خطاً مستقيماً ، وخطَّ حوله

---

(١) أخرجه ابن أبى عاصم فى كتاب السنة (١٥) وقال الألبانى فى (ظلال الجنة فى تخريج السنة ١/١٢): إسناده ضعيف رجاله ثقات غير نعيم بن حماد ضعيف لكثرة خطئه ، والحديث أخرجه الحسن بن سفيان فى الأربعين له (ق ١/٦٥) .

خطوطاً متعرِّجة ، ثم أشار إلى الخط المستقيم وقال : « هذا ما أنا عليه وأصحابى »[١].

إذن الهداية طريق واحد ، وللضلال ألفُ مذهب وألف منهج ، لذلك لو نظرتَ إلى أهل الضلال لوجدتَ لهم فى ضلالهم مذاهب ، ولكلٍّ واحد منهم هواه الخاص فى الضلال .

ويقول تعالى : ﴿ وَمَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ[٢] زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا (٩٧) ﴾ [الإسراء]

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : يُحشر الناس يوم القيامة ثلاثةَ أصناف : صنف مشاة ، وصنف ركبان ، وصنف على وجوههم، فقالوا : يا رسول الله وكيف يمشُون على وجوههم ؟ قال : إنَّ الذى أمشاهم على أرجلهم قادر على أنْ يُمشيهم على وجوههم ، أما إنهم يتقون بوجوههم كل حدب وشوك »[٣].

---

(١) أخرج أحمد فى مسنده (٤١٤٢ ، ١٥٢٧٧) عن ابن مسعود وعن جابر بن عبد الله وأخرجه ابن ماجه فى سننه من حديث جابر (١١) قال : كنا عند النبى ﷺ فخط خطاً وخط خطين عن يمينه وخط خطين عن يساره ثم وضع يده فى الخط الأوسط فقال : « هذا سبيل الله » ثم تلا الآية .
أما قوله « ما أنا عليه وأصحابى » . فقد أخرج الترمذى فى سننه (٢٦٤١) عن عبد الله بن عمرو قال رسول الله : « ليأتين على أمتى ما أتى على بنى إسرائيل حذو النعل بالنعل ، وإن بنى إسرائيل تفرقت على ثنتين وسبعين ملة ، وتفترق أمتى على ثلاث وسبعين ملة كلهم فى النار إلا ملة واحدة ، هى ما أنا عليه وأصحابى » .

(٢) كلما خبت : أى كلما أطفئت . قاله مجاهد فى تفسيره (١/٤٤٢) وقال مقاتل بن سليمان : ذلك إذا أكلتهم النار فلم يبق منهم غير العظام وصاروا فحماً سكنت النار وهو الخبت . [تفسير مقاتل ٢/٥٥٢].

(٣) أخرجه أحمد فى مسنده (٨٦٤٧) عن أبى هريرة وكذا (١٢٧٠٨) عن أنس بن مالك مختصراً . وأصله عند مسلم فى صحيحه (٥٤/٢٨٠٦) أن رجلاً قال : يا رسول الله كيف يُحشر الكافر على وجهه يوم القيامة؟ قال : أليس الذى أمشاه على رجليه فى الدنيا قادراً على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة ؟ .

وما العجب فى ذلك ؟ ونحن نرى مخلوقات الله ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤٥) ﴾ [النور]

ألم تَرَ الثعبان كيف هو سريعٌ فى مشيته خفيف فى حركته ، فالذى خلق قادرٌ أنْ يُمشِى مَنْ ضلَّ فى القيامة على بطنه ، لأن المسألة إرادةُ مريد ليُوقع بهم غاية الذلة والهوان .

وياليتهم تنتهى بهم المهانة والمذلَّة عند هذا الحد ، بل ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا (٩٧) ﴾ [الإسراء]

وهذا استطراق لوسائل الإهانة ، ففضلاً عن مشيهم على الوجوه فهم عُمى لا يروْن شيئاً ولا يهتدون ، وهم صُم لا يسمعون نداءً ، وهم بُكْم لا يقدرون على الكلام .

وهذه صفاتُ الكافر فى الدنيا أيضاً ، وهو المكبّ على وجهه فى الضلال يسير على غير هدى ، يقول تعالى : ﴿ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٥) ﴾ [البقرة]

والعمه عمى البصيرة ، ويعمهون أى يتخبَّطون ، فالعمه ينشأ عنه التخبُّط سواء التخبُّط الحسى من عمى البصر ، أو التخبُّط فى القيم ومنهج الحياة من عمى البصيرة .

والعمه أيضاً هو التردد والحيرة ، فهم فى طغيانهم يترددون ، وهم فاقدو القلب والبصيرة ، وهم مضطربون فى اختياراتهم ، فهم يتحيَّرون ويعمون عن الرشْد والصواب ، فلا يميزون بين خير وشر ، ولا يعرفون أين يذهبون ؟

وهم ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (١٨) ﴾[البقرة] فمنافذ الإدراك عندهم لا تعمل ، فهم لا يروْن آيات الله ويقين الإيمان ، ولا يسمعون آيات القرآن

ويعقلونها ، فقد سُدَّتْ عليهم جميع منافذ الإدراك .

ومع صممهم وبكمهم تجدهم يُولُّون مدبرين ، يقول تعالى : ﴿ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (٥٢) ﴾ [الروم] يعنى : أعطوك ظهورهم . إذن : لم يعُدْ لهم منفذ للتلقى ولا للإدراك فهم صُم بُكم .

وبالإدبار تعطلت أيضاً حاسة الصبر ، فلا أملَ فى مثل هؤلاء ، ولا سبيلَ إلى هدايتهم ، والدلالة على الطريق والهداية إليه لا تتأتَّى مع العمى خصوصاً إذا أصرَّ الأعمى على عماه .

فهو ﴿ يَمْشِي مُكِبًّا (٢٢) ﴾ [الملك] فى الضلالة والكفر أعمى القلب ، فهو مُطرق إلى هوى نفسه بغير هدى من ربه ، لا يبصر ما بين يديه وما عن يمينه وشماله . فـ (مُكباً) أى مُطرقاً إلى الأرض .

والمقصود هنا أنه الكافر قد أكبَّ على معاصى الله فى الدنيا ، فهذا يحشره الله على وجهه . فقيل : يا نبى الله كيف يُحشر الكافر على وجهه ؟ قال : إنَّ الذى أمشاه على رجليه قادر أنْ يحشره يوم القيامة على وجهه[1].

فالكافر يمشى ضالاً فى الظلمة أعمى القلب لا يبصر موضع قدميه ، راكباً رأسه فى الضلالة والجهالة ، أعمى القلب والعين ، لا يبصر يميناً ولا شمالاً .

و ﴿ مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ (٢٢) ﴾[الملك] هو انتكاسٌ وارتكاسٌ لخِلْقة البشر ، لأن الله عز وجل إنما خلق الإنسان ﴿ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (٤) ﴾[التين] والله خلق كلَّ ذى روح مُكباً على وجهه إلا الإنسان ، خلقه الله مديدَ القامة يمشى على قدميه منتصبَ القامة ، يتناول مأكوله بيده .

وقد بيَّن الحقُّ سبحانه أنَّ الكافرين هم كالأنعام التى تأكل وتشرب ، بل إن

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (١٣٣٩٢) وعبد بن حميد فى مسنده (١١٨١) وابن حبان فى صحيحه (٧٣٢٣) ومسلم فى صحيحه (٥٤/٢٨٠٦) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه .

الأنعامَ أفضلُ منهم ، فالأنعام تقوم بمهمتها فى الحياة ، بينما هم لا يقومون بمهمة العبادة .

ويقول تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَـٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَـٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٧٩) ﴾ [الأعراف]

والأنعام ليست ضالة لأنها محكومةٌ بالغريزة لا اختيارَ لها فى شيء ، لكن الكفار الذين ذرأهم ربُّنا لجهنم من الجن والإنس ، لا يعرفون ربهم بينما الأنعام والجمادات والنباتات تعرف ربها ، لأن الحق سبحانه يقول : ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَـٰكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ (٤٤) ﴾ [الإسراء]

وقد سأل أهلُ قريش الكافرون بعضَ أحبار اليهود أيهم أهدى هم أم محمد ، يقول تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ[1] وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَـٰؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا (٥١) ﴾ [النساء]

فقال بعض سادة قريش : أنتم أهل الكتاب وأهل العلم القديم فأخبرونا عنا وعن محمد ، فقال الأحبار : ما أنتم وما محمد ؟ فقال سادة قريش : نحن ننحر الكوماء[2] ونسقى اللبن على الماء ونفكّ العانى ونصل الأرحام ونسقى الحجيج ودين محمد الحديث . فقال الأحبار : أنتم خيرٌ منه وأهدى سبيلاً [3].

فاليهود قالوا : إن عبدة الأصنام أهدى من رسول الله ﷺ وأتباعه : قالوا

---

(١) الجبت بكسر الجيم : كل ما عُبد من دون الله كالصنم والكاهن ونحو ذلك . [القاموس القويم ١/١١٥] قال الجوهرى : وهذا ليس من محض العربية لاجتماع الجيم والتاء فى كلمة من غير حرف ذولقى . [اللسان – مادة : جبت] .

(٢) الكوماء : الناقة العظيمة السنام . وهى المرتفعة السنام . [غريب الحديث للقاسم بن سلام ٣/٨٤] والزمخشرى فى كتاب [الفائق فى غريب الحديث والأثر ١/٣٨٨] .

(٣) أخرجه ابن جرير الطبرى فى تفسيره (٩٧٨٩) وعزاه السيوطى فى الدر المنثور (٢/٥٦٢) للطبرانى والبيهقى فى دلائل النبوة من طريق عكرمة عن ابن عباس . والعانى : الأسير .

ذلك رغم أن كتبهم قد ذكرتْ لهم أنَّ رسول الله سيأتى بالدين الخاتم ، حتى إنهم كانوا يقولون لأهل المدينة من المشركين : لقد أطلَّ زمانُ نبيٍّ سنتبعه ونقتلكم به قتل عاد وإرم[1].

وهنا السؤال مستمر إلى يوم القيامة : ﴿أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٢٢)﴾ [الملك]

فأيُّهما أهدى ؟ الكافر الذى تمرَّد على خالقه وعصى ويسير وجهُهُ إلى الأرض ، كمَنْ أخلد إلى الأرض ، هل هذا يستوى مع مَنْ يمشى سوياً على صراط مستقيم ؟

و ﴿ سَوِيًّا (٢٢)﴾[الملك] أى مُسْتوياً غير ذى عِوَج ، والحق سبحانه يصف هنا الإنسان المتبع للإيمان بأنه يمشى سوياً ، وأحياناً يصف الحق سبحانه الطريق نفسه والصراط أنه سوىّ ، يقول تعالى : ﴿ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (٤٣)﴾ [مريم]

والصراط السوى هو الطريق المستقيم الذى يُوصِّلك للغاية بأيسر مشقة وفى أقصر وقت ، وهو الطريق الذى لا التواءَ فيه بحيث يكون أقربَ المسافات إلى الهدف ، فالطريق إذا التوى انحرف عن الهدف .

وما هو الصراط ؟ إنه الطريق الموصِّلة إلى الغاية ، والصراط المستقيم هو أقصر الطرق إلى تحقيق الغاية ، فأقصر طريق بين نقطتين هو الطريق المستقيم ،ولذلك إذا كنتَ تقصد مكاناً فأقصرُ طريق تسلكه هو الطريق الذى لا اعوجاجَ فيه ، ولكنه مستقيم تماماً .

والبُعْد عن الطريق المستقيم لا يبدأ بانحراف كبير ، بل بانحراف صغير جداً، ولكنه ينتهى إلى تباعد كبير .

ويكفى أنْ تراقب قضبان السكة الحديد عندما يبدأ القطار فى اتخاذ طريق

---

(١) أورده الطبرى فى تفسيره (٢/٣٣٣) فى قوله تعالى : ﴿لَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا.. (٨٩)﴾ [البقرة] .

غير الذى كان يسلكه ، فهو لا ينحرف فى أول الأمر إلا بضعةَ ملليمترات ، أى : أن أول التحويلة ضيق جداً ، وكلما مشيتَ اتسع الفارق وازدادَ اتساعاً .

بحيث عند النهاية تجد أن الطريق الذى مشيتَ فيه يبعد عن الطريق الأول عشرات الكيلو مترات وربما مئات (الكيلومترات) . إذن : فأىّ انحراف مهما كان بسيطاً يُبعدك عن الطريق المستقيم بُعداً كبيراً .

والصراط السوى هو الطريق المستقيم الذى يُوصِّلك للغاية بأيسر مشقة ، وفى أقصر وقت .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ (٢٣) ﴾

أى قُلْ يا محمد أن الله هو الذى أنشأكم ، والحق سبحانه هنا لم يذكر من أى شيء أنشأنا ، ولكنه سبحانه قال فى آيات أخرى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ (٩٨) ﴾ [الأنعام] ، ويقول : ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا (٦١) ﴾ [هود]

ويقول تعالى : ﴿ كَمَا أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ (١٣٣) ﴾ [الأنعام] والإنشاء هو الإيجاد ابتداءً من غير واسطة شيء ، ويُقال : أنشأ أى أوجد وجوداً ابتداء من غير الاستعانة بشيء آخر ، لذلك لا نقول لمن اخترع : إنه أنشأ . لأنه استعان بأشياء كثيرة ليصل إلى اختراعه .

فقد يكون مستعيناً بمادة أخذها من الجبال ، وبخبرة تجارب صنعها مَنْ سبقوه ، ولكن الحق سبحانه وتعالى هو الذى ينشيء من عدم ، والوجود من العدم قسمان : قسم أوجدته باستعانة موجود ، وقسم أوجدته من عدم محض.

وهذا الأخير هو الإنشاء ولا يقدر عليه إلا الله سبحانه وتعالى ، والحق سبحانه جلّتْ مشيئته فى الإنشاء ، فهو يُنشيء الإنسان من التقاء الزوج والزوجة .

وإنْ أرجعتَ هذا الإنشاء إلى البداية الأولى فى آدم عليه السلام ، فستجد أن الحق سبحانه وتعالى قد خلقه من نفس مادة الأرض ، والأرض مخلوقٌ من مخلوقات الله .

فمنىُّ الزوج وبويضة الزوجة يتكوّنان من خلاصة الدم الذى هو خلاصة الأغذية وهى تأتى من الأرض ، فسواء رمزت لآدم بإنشائه من الأرض أو أبقيتها فى ذريته ، فكلُّ شيء مردُّه إلى الله .

والإنشاء هو عملية بناء ، والذى خلق قال أنا خلقتك من تراب ، من طين، من حمأ مسنون ، من صلصال كالفخار ، فالماء وُضِع على تراب فأصبح طيناً، والطين تركناه فتغيَّر لونه وأصبح صلصالاً ، الصلصال جفَّ فأصبح حمأ مسنوناً ، ثم نحته فى صورة إنسان ونفخ الحق سبحانه وتعالى فيه الروح فأصبح بشراً ، ثم يأتى الموت وهو نقْضٌ للحياة ، ونقضُ كلِّ شيء يأتى على عكس بنائه .

بناء العمارة يبدأ من أسفل إلى أعلى ، وهدمها يبدأ من أعلى إلى أسفل ، ولذلك فإن آخر مرحلة من رحلة ما هى أول خطوة فى طريق العودة ، فإذا كنتَ مسافراً إلى الإسكندرية ، فأول مكان فى طريق العودة هو آخر مكان وصلت إليه.

أول شيء يخرج من الجسد هو الروح وهو آخر ما دخل فيه ، ثم بعد ذلك يتصلَّب الجسم ويصبح كالحمأ المسنون ثم يتعفَّن فيصبح كالصلصال ، ثم يتبخَّر الماء الذى فيه فيعود تراباً ، وهكذا يكون الموت نقض صورة الحياة متفقاً مع المراحل التى بيَّنها لنا الحق سبحانه .

والحق سبحانه يعطينا وصفاً لإنشاء الإنسان ، فيقول تعالى فى إنشاء

الإنسان فى بطن أمه : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ﴾ [المؤمنون]

فهو أنشأه فى بطن أمه خَلْقاً تابعاً لأمه فى أطوار ومراحل ، ثم يُنشئه خَلْقاً آخر ونشأة أخرى عند إخراجه كوليد يحيا حياة أخرى لا يعتمد فيها على أحد ؛ كأنه كان تابعاً لأمه فيُخرجه الله خَلْقاً آخر مستقلاً بذاته ، فتكون الرأس إلى أسفل، وهى أول ما ينزل من المولود ، وبمجرد نزوله تبدأ عملية التنفس ، ومن هذه اللحظة ينفصل الجنين عن أمه ، وبالتنفس تكون له ذاتية .

فإذا ما تعسّر خروج باقى جسمه فتكون له فرصة التنفس ، وهذا من لطف الله سبحانه لأن الجنين فى هذه الحالة لا يختنق أثناء معالجة باقى جسمه .

وهو فى كل هذه الأطوار : النطفة ثم العلقة ثم المضغة ثم العظام واللحم ما يزال تابعاً لأمه متصلاً بها ويتغذى منها ، فلما شاء الله له أنْ يُولد ينفصل عن أمه ليباشر حياته بذاته .

والله أنشأنا من عدم ، وسوَّانا على هيئة مستقيمة وعلى أحسن تقويم ، ولذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى (٣) ﴾ [الأعلى]

وهذه التسوية كانت أولاً للإنسان الأول الذى خلقه الله من الطين ، كما قال سبحانه : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٢٩) ﴾ [الحجر]

قال تعالى : ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ (٧) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ[1] (٨) ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ

---

(١) مهين : حقير الشأن لا قيمة له . [القاموس القويم ٢/٢٤٣] والمهين : الضعيف ، وماء الرجل ضعيف فأى شيء يؤثر على الحيوانات المنوية فيه ، فتضعف عن تلقيح بويضة المرأة . وتذكير الإنسان بأنه من هذا الماء لئلا يتكبر على من خلقه .

السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ (٩) ﴾ [السجدة]

وقد مرَّ آدم عليه السلام فى هذه التسوية بالمراحل التى ذكرتْها الآيات الطين ثم التشكيل والتصوير ثم النفخ فى الروح ، كذلك الأمر فى سلالته يُسوِّيها الخالق عز وجل وتمر بمثل هذه المراحل : من نطفة ، ثم من علقة ، ثم من مضغة ثم تُنفخ فيه الروح .

والله بعد أنْ ينشيء الإنسان ويخلقه من ماء أبيه وبويضة أمه ، فإنه سبحانه يجعل له ﴿ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ (٢٣)﴾ [الملك] فقوله ﴿ وَجَعَلَ (٢٣)﴾ [الملك] فالجعْل غير الخَلْق وغير الإنشاء ، فالخَلْق شيء والجعْل شيء آخر ، فالخَلْق هو إيجادٌ من عدم ، والجَعْل هو توجيه مخلوق لله إلى مهمته فى الحياة .

فالله خلق الإنسان وأنشأه إنشاءً ، ولكن ليمارس مهمته فى الحياة جعل له سمعاً وبصراً وفؤاداً ، وكذلك خلق الله الشمس والقمر ، ثم جعل أحدهما للضياء ، وجعل الآخر نوراً .

وفى المستوى البشرى أنت تجعل الطين إبريقاً ، وقد تجعله جرَّة أو أى شيء آخر من الفخاريات وأنت لم تخلق القطن الذى صُنع منه القماش .

أما الحق سبحانه فقد خلق الإنسان من العدم بل خلق المادة التى خلق منها الإنسان الماء والتراب الذى أصبح طيناً ، ثم جعل له سمعاً وبصراً ليمارس مهمته ، فالجَعْل هو توجيه ما خلق إلى مهمته .

والحق سبحانه يقول : ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨) ﴾ [النحل]

وهذه الثلاثة هى آلاتٌ للإدراك ، ومنافذ للعلم ، فوسيلة العلم تأتى من الحواس ، وسيدة الحواس هى العين ، لأنه من الممكن أنْ تسمع شيئاً من واحد بتجربته هو ، لكن عندما ترى أنت بنفسك فتكون التجربة خاصة بك ، ولذلك

يقال : ليس مَنْ رأى كمن سمع .

وقد أورد سبحانه السمع والأبصار أولاً لأنهما الوسيلتان الأساسيتان ، وأورد من بعد ذلك (الأفئدة) وهى المختصة بالمعانى والقلبيات وغيرها ، فحواسّ الإنسان من سمع وبصر تعطيه القدرة على تكوين الخبرة ، وهى منافذ الإدراك .

فوسائل الإدراك من سمع وبصر وفؤاد ، وما تراه العين هو تجربة الإنسان بنفسه ، أما ما يسمعه الإنسان فهو تجربة كل غَيْرٍ له ، وبذلك يكون السمع أكثر اتساعاً من العين .

والسمع هو وسيلة الإدراك التى تُوجد أولاً فى الإنسان حين يُولد ، ونجد المولود لا يهتز عندما يقترب شيءٌ من عينيه لأنه لا يرى بدقة ، وقد يستمر ذلك لمدة عشرة أيام ، ومن بعد ذلك يبدأ فى الرؤية .

لكن الطفل إذا سمع صوتاً بجانب أذنيه ينفعل ، فحاسَّة السمع هى التى توجد أولاً ، ولذلك يأتى لنا الحق بذلك السمع أولاً ، ومن بعد ذلك الأبصار ثم الأفئدة .

فـ (الجَعْل) هنا هو أنه سبحانه خصَّص جزءاً من خلايا الإنسان ليكون عيناً، وجزءاً آخر ليكون أذناً ، وجزءاً ثالثاً ليكون لساناً ، وقد رتَّب الحق سبحانه ممارسة هذه الحواس لمهامها . فالأذن تؤدى مهمتها من فور ولادته ، بينما عينه لا تؤدى مهمة الرؤية إلا بعد مدة ، فأولاً يأتى السمع ثم يأتى البصر ، ومن السمع والبصر تتكوَّن المعلومات ، فتنشأ عند الإنسان معلومات عقلية .

فيقولون للطفل مثلاً : إياك أنْ تُقبل على هذه النار حتى لا تحرقك فلا يصدق، ومنظر النار يجذبه فيلمسها فتلسعه مرة واحدة ، وبعد أنْ لسعته مرة واحدة لم يعُدْ فى حاجة إلى أنْ يتكرر له القول بأنَّ النارَ مُحرقة .

فقد تكوَّنتْ عنده معلومة عقلية ، فأولاً يأتىْ السمع ثم الأبصار ثم تأتى الأفئدة ، فوسائلُ الإدراك العلمى فى الإنسان هى السمع والبصر والذوق واللمس والشَّم ، هذه هى الحواس التى تعطى العلم للإنسان الذى لم يكُنْ يعلم شيئاً .

ولكن لماذا أفرد الحق سبحانه السمع ، وأورد البصر والفؤاد هنا مجموعاً، فقال تعالى : ﴿ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ (٢٣)﴾ [الملك] ؟ فالأذن تستقبل بها أصواتاً متعددة فى وقت واحد ، أما مجال الرؤية فمحدودة ، وأنت حين لا تريد أن ترى شيئاً تُبعد عينيك عنه ، والأصوات تصل إلى أذنك من كل مكان دون أنْ تستطيع منعها .

لذلك يأتى السمعُ مفرداً والأبصارُ متعددة ، لأن هذا يرى شيئاً وهذا يرى شيئاً ، لكنك بالأذن تسمع نائماً أو متيقظاً وتأتيك الأصوات ويتوحَّد المدرَك من السمع ، فهى آلة الاستدعاء والإيقاظ .

والسمع والبصر سيِّدا الحواس ، فآياتُ الكون تحتاج إلى الرؤية ، وإبلاغ الرسل يحتاج للسماع ، وقد لفتنا الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه إلى العجائب فقال : « اعجبوا لهذا الإنسان ، ينظر بشحم ، ويتكلم بلحم ، ويسمع بعظم ، ويتنفس من خرم » وأضاف البعض : « ونشم بغضروف ، ونلمس بجلد، ونفكر بعجين » .

فالإنسان يُولد وكأن مخَّه قطعة من العجين التى تعمل فى استقبال المعلومات من الكون وتخزينها فيه ، وهى التى ستكون ركيزة لتشكيل الفؤاد من بعد ذلك .

وحين نظر العلماء فى معانى الألفاظ قالوا : « النظائر حين تخالف فلا بدَّ من علّة للمخالفة » فالسمع آلة إدراك ، والبصر آلة إدراك ، فلماذا قال الحق

سبحانه فى آلة الإدراك (السمع) . وقال فى الآلة الثانية (الأبصار) ؟ ولماذا جاء السمع بالإفراد وجاء الأبصار بالجمع ، ولم يأتِ بالاثنين على وتيرة واحدة؟

والمتكلِّم هو الله تعالى ، وكلُّ كلمة منه لها حكمةٌ وموضوعة بميزان ، وأنت حين تسمع تسمع أى صوت قادم من أى مكان ، لكنك بالعين ترى من جهة واحدة ، فإنْ أردتَ أنْ ترى ما على يمينك فأنت تتجه بعينيك إلى اليمين ، وإنْ أردت أنْ ترى ما خلفك فأنت تُغيِّر من وقفتك .

فالأذن تسمع بدون عمل منك ، لكن البصر يحتاج إلى عمليات متعددة لترى ما تريد ، وأيضاً فالسمع لا اختيارَ لك فيه ، فأنت لا تستطيع أنْ تحجبَ أذنك عن سماع شيء ، أما الإبصار فأنت تتحكم فيه بالحركة أو بإغلاق العين .

والإنسان مسئول عن كل ما يسمعه بأذنه ويُبصره بعينه ويعتقده بقلبه ، يقول تعالى : ﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَـٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا (٣٦) ﴾ [الإسراء]

فعليك أنْ تعرف أيها المسلم أنك مسئولٌ عن السمع والبصر والقلب واللسان ، ستُسأل عن ذلك يوم القيامة ، لذلك لا يصح أنْ تتوانى عن إحسان قولك وفعلك ، وبذلك لا يكون هناك خوفٌ عليك فى الدنيا أو الآخرة .

والمسئولية عن سمعك وبصرك ولسانك وحواسّك كلها مسئولية فردية ذاتية ، فكلُّ واحد مسئولٌ عن سمعه وبصره وفؤاده هو ، وليس مسئولاً عن أسماع وأبصار وأفئدة الناس وألسنتهم .

ولسانك إنْ صُنْته عن قول السوء والفُحْش صان كرامتك واحترمك الناس وقدَّروك لحُسْن منطقك ومقالتك ، ولتعلم أنَّ جوارحك كلها ستصبح ألسنةً تشهد عليك بما فعلتَ وأذنبتَ وجرحْتَ فى الدنيا .

يقول تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٠) وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ (٢١) ﴾ [فصلت]

ستشهد الأرجل والجلود وغيرها من الأبعاض ،لأنها فى الدنيا كانت مقهورة لإرادتى ، أنا أقول ليدى : افعلى كذا ،ولرِجْلى : اسعى لكذا ، وللسانى : سبّ فلاناً.

فالله سخَّر الجوارح وأمرها : يا جوارح أنت خاضعةٌ لإرادة صاحبك فى الدنيا ، لكن فى يوم القيامة أيكون لى إرادةٌ على جوارحى ؟ لا . ستتمرد علىّ جوارحى : ﴿ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ (٢١) ﴾ [فصلت]

فجوارح الإنسان من يد ورِجْل وجلد ستنطق يوم القيامة ، فهل تعقلْتَ كيف تنطق اليد ؟ وكيف ينطق الجلد ؟ وكيف تنطق الرِّجْل فى الآخرة ، فالجوارح تنطق لتقيم الحجة على أولئك المذنبين .

فالجوارح كانت هى أدوات المذنبين فى ارتكاب الجرائم ، فاليد هى التى امتدت لتسرق ، واللسان هو الذى نطق قول الزور ، والقلب هو الذى عقد ، والساق هى التى مشتْ إلى المعصية .

والإنسان مُركَّب من جوارح ، وهذه الجوارح لها أجهزة تكوِّن الكُلَّ الإنسانى ، ومدير كل الجسم هو العقل ، فهو الذى يأمر اليد لتمتد وتسرق ، وتمتد لتُربِّت على اليتيم ، والعين تأخذ أوامرها من العقل ، فإما أنْ يأمرها أن تنظر إلى جمال الكون وتعتبر بما تراه من أحداث ، أو يأمرها بأن تنظر إلى الحرام .

فبيدك تستطيع أن تضرب وتعتدى ، وبيدك تنفق وتقيل عثرة المحتاج ، وبرِجْلك تسعى إلى بيت الله ، أو تسعى إلى مجلس الخمر والفساد .

فجوارح الإنسان وطاقاته مُسخَّرة لإرادته ، فلسانك تستطيع أنْ تقول : لا إله إلا الله ، كما تستطيع أن تقول : لا إله ، أو تقول : الله ثالثُ ثلاثة ، واللسان مِطواع لك لا يعصاك فى هذه أو تلك ، وما أعطاك الله هذه الحرية وكفل لك الاختيار إلا لأنه سيحاسبك عليها يوم القيامة : أردتَ الخير الذى وجَّهك إليه ؟ أم أردتَ الشر الذى نهاك عنه ؟

أما يوم القيامة فتنحلّ هذه الإرادة ويبطل سلطانها على الجوارح فى يوم ينادى فيه الحق تبارك وتعالى : ﴿ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦) ﴾ [غافر]

يوم ستشهد الجوارحُ على صاحبها وتنطق وتكون كلُّها ألسنة ناطقة ، يقول تعالى : ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) ﴾ [النور]

لقد تحررت الجوارح من قيد الإرادة وجاء الوقت لتشتكي إلى الله وتنطق بكلمة الحق التى كتمتها تحت وطأة الإرادة وقهرها . ومعنى ﴿ الَّذِى أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ (٢١) ﴾ [فصلت] أن لكل شيء فى الكون نُطْقاً يناسبه ، كما نطقتْ النملة وقالت : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ (١٨) ﴾ [النمل]

ونطق الهدهد ، فقال : ﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (٢٢) ﴾ [النمل]

وللجوارح نفسها حياةٌ ولها كلامٌ ومنطق لكن لا ندركه نحن ، لأن حياتها ليست كحياتنا ، والله سبحانه هو الذى جعل لنا هذه الجوارح سمعاً وبصراً وفؤاداً ولساناً .

قال تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ الَّذِى أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ (٢٣) ﴾ [الملك] وشُكْرنا لله لهذه الجوارح أنْ نصونها عن أنْ نجعلها تأتى بما هو معصيةٌ لله ، لا فى سمع ولا فى بصر ولا فى نطق ، وأنْ نخزن ألسنتنا عن قالة السوء والفُحْش .

فإذا تحدَّثنا مع الناس فالله سبحانه وتعالى هو الذى أعطى ألسنتنا القدرة

على النطق ، ولو شاء لجعلها خرساء لا تنطق ، وهذا يستوجب منَّا الشكر والحمد.

وفى هذه الآية يقطع الحق سبحانه بأننا قليلاً ما نشكر نعم الله علينا ، ولكنه سبحانه يمتنُّ علينا فى آية أخرى رجاء أنْ نشكره سبحانه ، يقول تعالى : ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨)﴾ [النحل]

وساعة نسمع (لعلك تشكر) فهذا يعنى أنك إنْ فعلتَ ما أمرك به فستجد أمراً عظيماً ، والأمر الطبيعى يقتضى أنْ تشكر عليه كأنَّ ما فعله الله للإنسان يُوجب عند الإنسان نعمة أخرى لا يمكن أنْ يستقبلها إلا بالشكر .

فالسمع والأبصار والأفئدة هى منافذ الإدراك ، والحق سبحانه يوضح : أنا خلقتُ لك هذه الأدوات للإدراك لعلك تشكر ، أى لعلك تلمح آثارها فى نفسك مما يُربِّى عندك ملكةَ الإدراك للمدركات .

والشكر هو الثناء من المنعَم عليه على المنعِم بالنعمة ، وقول الحق سبحانه ﴿ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ (٢٣)﴾ [الملك] يدلّ على أن هناك مَنْ يشكر من الناس نِعمَ الله شُكراً عاماً على مجموع النعم ، أو يشكره شكراً خاصاً عند كل نعمة ، ومنهم مَنْ يشكر شُكْراً خاصاً لا عند كل نعمة ، ولكن عند جزئيات النعمة الواحدة .

فعندما يبدأ فى الأكل يقول : بسم الله الرحمن الرحيم ، ويقول بعد الأكل : الحمد لله . وهناك مَنْ يقول عند تناول لقمة واحدة : بسم الله . وعندما يمضغها ويبلعها يقول : الحمد لله لأنها لم تقف فى حَلْقه .

وأيضاً حين نشرب علينا أنْ نشرب على ثلاث دفعات : أول دفعة نقول : بسم الله . وننتهى منها فنقول : الحمد لله . وكذلك فى الدفعة الثانية والدفعة الثالثة.

ومَـنْ يفعـل ذلك فلا تتأتى منه معصية ، مـا دامت آثار شَرْبة الماء هذه فى جسمـه لأنهـا كلهـا (بسم الله) فتحرسه مـن الخطيئة ، لأن النعمـة الواحدة لو استقصيتها لوجدتَ فيها نعماً كثيرة .

وأنتـم حين لا تشكـرون إنما تُضيِّقون عليكم أبواب النعـم من الله ، لأنكم لو شكرتمـوه على النعم لزادت النعم عليكم ، يقول تعالى : ﴿ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ (٧) ﴾ [إبراهيم] ومن الحمق ألاَّ نشكر .

والشكـر لا يكـون إلا علـى النعمـة ، فكأنَّ وسائـل الإدراك هذه ممـا تسمعه بأذنـك وتـراه ببصرك أو تُدركـه بفؤادك هى من نعم الله التـى يجب أنْ نشكره عليهـا لأنهـا أعطتْنا العلـم الحسى بعد أنْ كنـا لا نعلم شيئـاً ، فالحق سبحانه يستحق الشكر عليها .

وشـاء سبحانه أنْ يترك الشكـر للبشر على تلك النعم ولم يُسخِّرهم شاكرين، فكلمـا سمعـتَ صوتـاً أو حكمة تحمـد الله أنْ جعل لـك أذناً تسمع بهـا ، وكلما أبصرتَ منظراً بديعاً تحمد الله أنْ جعل لك عيناً ترى ، وكلما شممتَ رائحة زكية تحمد الله أنْ جعل لك أنفاً تشم ، وهكذا تستوجب النعم شكر المنعم سبحانه .

ولكـى تقـف على نِعـم الله عليك انظـر إلى مَنْ حُرمـوا منهـا ، وتأمَّل حالك وحالهم، وما أنت فيه من نعم الحياة ولذاتها ، وما هم فيه من حرمان .

والبعض يقول فى معنى ﴿ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ (٢٣) ﴾ [الملك] أنه تعالى عبَّر عن عـدم الشكـر بالقلة ، وهذا الفهم لا يستقيم هنـا ، فالله تعالى أثبت لعباده شكراً لكنه قليل ، وربّك عز وجل يريد شكراً دائماً يصاحب كلّ نعمة يُنعم بها عليك .

فساعـةَ ترى الأعمى الـذى حُرم نعمة البصر يتخبَّط فى الطريق تقول الحمد لله لأنك تعيش وتتقلَّب فى نِعَم الله ، لكن لا تتذكرهـا إلا حين ترى مَنْ حُرم منهـا .

فـإن أردتَ أنْ تدوم لك النعمـةُ فاعقلها بذكر الله ، فإنْ أردتَ صيانة النعمة فلا تنسَ المنعم لأنه وحده القادر على حفظها وصيانتها ، ولا يُصاب الإنسان

فى النعمة إلا إذا غفل عن المنعم وترك الشكر عليها .

والشكر لله هو أول الحكمة ، لأن مَنْ يشكر تعود إليه ثمرة شكره ، وشكر المؤمن لربه لا ينتهى ، وشُكْرك لنعمة اللسان والنطق بأنْ تصون لسانك وتحفظه عن أنْ ينطلق فى إيذاء الناس والاعتداء عليهم بالقول ، واعلم أن الله قد جعل على لسانك أبواباً ، أسنانك وشفتيْك ، فلماذا تفتح للسانك هذه الأبواب ؟

وعن عمرو بن دينار قال : تكلم رجل عند النبى ﷺ فأكثر فقال رسول الله: «كم دون لسانك من باب ؟ قال : أسنانى وشفتاى . قال : أما كان فى ذلك ما يرد كلامك»[١] .

فإنْ لم تجد خيراً تقوله فاصمت ، وكما يقول لقمان عليه السلام : الصمت حُكْم وقليل فاعله[٢] . ورسولنا الكريم ﷺ : « مَنْ كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقُلْ خيراً أو ليصمت »[٣].

ومن حُسْن الصمت أن تكون من عباد الرحمن الذين قال الله فيهم : ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا (٦٣) ﴾ [الفرقان] والجاهل هو السفيه الذى لا يزن الكلام ولا يضع الكلمة فى موضعها ، ولا يدرك مقاييس الأمور لا فى الخَلْق ولا فى الأدب .

---

(١) ذكره أبو حامد الغزالى فى إحياء علوم الدين ، حديث عمرو بن دينار : تكلم رجل عند النبى ﷺ فأكثر فقال : كم دون لسانك من حجاب ؟ فقال : شفتاى وأسنانى . قال : أفما كان لك ما يرد كلامك . قال الحافظ العراقى : أخرجه ابن أبى الدنيا هكذا مرسلاً ورجاله ثقات .

(٢) أورده السيوطى فى الدر المنثور (٦/٥١٩) وعزاه للإمام أحمد بن حنبل عن ابن أبى نجيح قال قال لقمان عليه السلام : الصمت حكم وقليل فاعله . قال الميدانى فى الأمثال : الحكم بضم الحاء الحكمة ومنه ﴿ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا (١٢) ﴾ [مريم] يعنى أن استعمال الصمت حكمة ولكن قلّ من يستعملها.

(٣) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٠١٨ ، ٦١٣٦ ، ٦١٣٨ ، ٦٤٧٥) وكذا مسلم فى صحيحه (٧٤ / ٤٧) الحث على إكرام الجار وكذلك (٧٥ /٤٧) . وتمامه : « ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه » .

فإذا خاطبك الجاهل فحذار أنْ تكون مثله فى الردّ عليه كما سفه عليك ، بل قَرِّعه بأدب وقُلْ ﴿سَلَامًا (٦٣)﴾ [الفرقان] لتُشعره بالفرق بينكما.

وما أجملَ ما قاله الإمام الشافعي[1] فى هذا المعنى :

إِذَا نَطَقَ السَّفِيهُ فَلاَ تُجِبْهُ ... فَخَيْرٌ مِنْ إِجَابتِه السُّكُوتُ

فَإِنْ كَلَّمتَهُ فَرَّجْتَ عَنْهُ ... وَإِنْ خَلَّيْتَهُ كَمِداً يَمُوتُ

فإذا اشتدَّ السفيه سفاهةً وطغى عليك وتجبَّر فلا بدّ لك من ردِّ العدوان بمثله لأنك حلمتَ عليه فلم يتواضع لك وظنَّ حلمك ضعفاً ، وهنا عليك أنْ تُريه الفرق بين الضعف وكرم الخلق .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤) ﴾

فهو الذى بثَّكم ونشركم فى أنحاء الأرض لتعمر كلها ، وتعجب حين ترى أناساً متشبثين بالجبال والصحراء القفر الجرداء ، ولا يرضون بها بديلاً ، ويتحملون فى سبيل البقاء بها العنت والمشقة ، حتى إنك لتقول : لماذا لا يتركون هذا المكان إلى مكان خصب ؟

فالخالق عزَّ وجل نثر خيراته فى أنحاء الأرض بالتساوى ، فكل قطعة طولية من الأرض فيها من الخيرات مثل ما فى القطعة الأخرى .

وقد رأينا فى اليمن والسعودية والكويت مَنْ صبروا على أقدار الله فى هذه البلاد الصحراوية التى كانت جدباء ، رأيناهم فى اليمن بعد أنْ أغرقها سيل العرم .

---

(١) هو محمد بن إدريس الهاشمى القرشى أبو عبد الله ، أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة ، ولد فى غزة عام ١٥٠ هجرية ، زار بغداد مرتين ، وقصد مصر سنة ١٩٩ هجرية وكان عمره ٤٩ عاماً فتوفى بها عام ٢٠٤ هـ عن ٥٤ سنة ، كان بارعاً فى الشعر واللغة وأيام العرب والفقه والحديث له كتاب الأم والرسالة والمسند وغيرها .

وقد حكى لنا أهلُ هذه البلاد ما كانوا فيه من الضيق وقسوة الحياة ، ثم جاءتهم عاقبةُ صبرهم وجعل اللهُ سبحانه هذه الجبال وهذه الصحراوات أغنى بلاد الدنيا ، لأنهم رَضُوا فى الأولى بقضاء الله ، فأبدلهم بصبرهم على لأواء الصحراء نعيماً ، لو حُرم منه المنعّمون فى الدنيا لماتوا من البرد .

فبثُّ الخليقة ونَشْرها فى أنحاء الأرض له حكمة أرادها الخالق عزَّ وجل، فـ (ذَرأ) أى خلق وبثّ ونشر ، بأنْ جعله خَلْقاً يتكاثر بذاته ، إما بالحمل للأنثى من الذكر فى الإنسان أو الحيوان والنبات ، وإما بواسطة تفريخ البيض كما فى الطيور .

فالذَّرْء ليس هو مطلق الخَلْق ، بل هو خَلْق بذاته فى التكاثر بذاته ، والحق سبحانه قد خلق آدم أولاً ، ثم أخرج منه النسل ليتكاثر النسل بذاته حين يجتمع زوجان فينتجان مثيلاً لهما .

والحق سبحانه يقول ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً (١)﴾ [النساء]

فـ (بث منهما) أى بث من آدم وحواء وهما اثنان ، والجمع البشرى الذى ظهر من الاثنين سيبث منه أكثر ، وبعد ذلك يبث من المبثوث الثانى مبثوثاً ثالثاً .

وكلما امتددنا فى البث تنشأ كثرة ، وعندما تنظر لأى بلد من البلاد تجد تعداده منذ قرن مضى أقلّ بكثير جداً من تعداده الآن ، مثال ذلك كان تعداد مصر منذ قرن لا يتعدى خمسة ملايين ، ومنذ قرنين كان أقلَّ عدداً ، ومن عشرة قرون كان أقلّ ، ومن عشرين قرناً كان أقلّ .

إذن فكلما امتدَّ بك المستقبل بالتعداد يزيد لأنه سبحانه يبث من الذكورة والأنوثة رجالاً كثيراً ونساء ، وسيبث منهم أيضاً عدداً أكبر .

والبَثُّ والذّرْء هو الانتشار ، ونلحظ أن الحق سبحانه قال هنا ﴿ وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا (١) ﴾ [النساء] فالنشر فى الأرض خاصّ بالرجل ، فالحق سبحانه يقول : ﴿ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ (١٠) ﴾ [الجمعة]

ويقول سبحانه : ﴿ فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ (١٥) ﴾ [الملك] والأنثى تجلس فى بيتها تديره لتكون سكناً يسكن إليها ، والرجل هو المتحرك فى هذا الكون ، وهى بذلك تؤدى مهمتها .

ولكن الحق سبحانه لم يقُلْ (رجالاً كثيراً) وسكت ، بل أضاف (ونساء) فالنساء مُتضمّنات فى داخل الرجل فهُنَّ شقائق الرجال[1] ، ولكن لسْنَ هُنَّ المطالَبات بالانتشار فى الأرض .

والمبثوث فى الأرض قسمان : قسم اكتملتْ له القوة وأصبحت له صلاحية فى أنْ يحقق أموره النفعية بذاته ، وقسم ضعيف ليست له صلاحية فى أنْ يقوم بأمر ذاته ، وهُنَّ النساء واليتامى .

والحق سبحانه يعطينا صورةً لانتشار الإنسان فى الأرض ، فيقول تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ (٢٠) ﴾ [الروم]

فالأصل الذى خُلق منه آدم هو التراب ، والتراب مع الماء يصير طيناً ، والإنسان خُلق من هذا الطين ، فكيف أصبح من لحم ودم وأصبح نسلاً يتناسل ويتكاثر بذاته ؟ هنا تكون الآية : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ (٢٠) ﴾ [الروم]

فبعد أنْ خلقنا اللهُ من تراب تكاثر الخَلْق وتزايدوا بسرعة فى الأرض ، لذلك قال تعالى : ﴿ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ (٢٠) ﴾ [الروم] فاستخدم الحق سبحانه (إذا) الفجائية .

---

(١) عن عائشة رضى الله عنها قالت : سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يجد البلل ولا يذكر احتلاماً قال يغتسل . وعن الرجل يرى أنه قد احتلم ولا يرى بللاً . قال : لا غسل عليه . فقالت أم سليم : هل على المرأة ترى ذلك شيء ؟ قال : نعم إنما النساء شقائق الرجال » . أخرجه أحمد فى مسنده (٢٦١٩٥) .

والخَلْـق يجب أنْ ينتشروا فى الأرضـ أى يأخذوا جميعاً من خيرات الله فى الأرضـ جميعاً ، والنشر معناه تفريق المنشـور فى الحيز ، فهناك شيء مطوىّ وشـيء آخـر منشور ، والشيء المطوى فيه تجمع ، والشـيء المنشور فيه تفريق وتوزيع . إذن فحيز الشيء المتجمع ضيق ، وحيّز الشيء المبثوث واسع .

والانتشار يعنى أنْ ينساح البشر فى الأرض لينتظموا فى كل حركات الحياة، وبذلك تعمر كلَّ حركة فيها ، والحق سبحانه أمر عباده المؤمنين بالانتشار لأن له هدفاً وغاية ، والهدف والغاية هو السعى وطلب الرزق .

﴿ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ (١٠) ﴾ [الجمعة] والانتشـار فى الأرضـ للسعـى فى طلب الرزق يجـب أنْ يكون بنظام معـين ، بحيث لا يحدث تكدس فى مكان أو زحام ، فى حين يخلو مكان آخر لا يجد مَنْ يعمره ويستنبط خيراته .

والانتشـار هـو الضرب فى الأرض ، ولكنه ليس مجـرد الانتشار فيها ، إنما المـراد العمل والكفـاح واستخراج خيراتهـا ، فالخالق سبحانه نـثر القُوت فى أنحاء الأرض بالتساوى ونثر فيها الخيرات .

لذلـك كل يـوم تعطينا الأرضُ جديداً من نعـم الله ، كنا لا نعرف من خيرات الأرضـ إلا الزراعـة ، فلما تقدَّمت العلوم والاكتشافـات وتطورت أدواته عرفنا المعادن والبترول والكنوز المطمورة فى الأرض .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤) ﴾ [الملك] فلا تفهموا أنكم بنشركم فـى الأرض وتفريقكم فيها أنكم تَفلتون منـا ، أو أننا لا نقدر على جمعكم مرة أخرى ، فكما نشرناكم لحكمة نجمعكم لحكمة لا يخرج من أيدينا أحد .

وهـو سبحانه القـادر أن يحشركم وليس لكم اختيار ، والحـق سبحانه هو القادر على أنْ يأتى بك وقد سلب منك الاختيار .

والحق سبحانه هو القائل : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ (٢٩) ﴾ [الشورى]

والحشر هو الجمع والحشد ، ويوم الحشر هو يوم الجمع أى جمع الناس أجمعين من لدُنْ آدم عليه السلام وإلى أنْ تقوم الساعة فى مكان واحد ، ولغاية واحدة ، وإذا كنا الآن نضجّ من الزحام ونشكو من ضيق الأرض بأهلها ونحن فى جيل واحد ، فما بالك بموقف يُجمع فيه كل الخلائق من آدم إلى قيام الساعة ؟

ورسول الله ﷺ يقول : « يحشر الله الخَلْق ثم ينادى : يا عبادى أحضروا حجتكم ويسِّروا جوابكم ، فإنكم مجموعون مُحاسبون مسئولون ، يا ملائكتى أقيموا عبادى صفوفاً على أطراف أنامل أقدامهم للحساب »(١).

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾

وهم يكذِّبون أن الله سيحشرهم وسيجمعهم يوم القيامة للحساب بعد أنْ يكونوا تراباً ، وهذا الإنكار والتكذيب والاستهزاء هو منطق المشركين والملحدين فى كل زمان ومكان ، ولكن وعد الله حَقّ ووعد الله قادم ، وهم يتساءلون بسخرية عن هذا الوعد بالعذاب .

فقولهم عن وقت تحقق هذا الوعد بـ (متى) هو استبطاءٌ منهم لوعد الله بالآخرة والعَرْض عليه سبحانه ، وأنه سيعذبهم بالنار التى تُنضج جلودهم ويبدلهم الله جُلوداً غيرها ، وذلك لأنهم لا يُصدِّقون هذا ولا يؤمنون به .

---

(١) أورده السيوطى فى الدر المنثور (٥/٤٠٠) وعزاه لابن منده فى التوحيد عن معاذ بن جبل أن النبى ﷺ قال : « إن الله ينادى يوم القيامة يا عبادى أنا الله لا إله إلا أنا أرحم الراحمين وأحكم الحاكمين وأسرع الحاسبين » الحديث .

فيقول المكذِّبون بالبعث والحشر ﴿مَتَى هَـٰذَا الْوَعْدُ (٢٥)﴾ [الملك] أى البعث ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٥)﴾ [الملك] فى أن هناك بعثاً ، وسمَّوا إخبار الله لهم بالبعث وعداً مع أنه فى حقهم وعيد .

وفرْق بين وعد وأوعد : وعد للخير وأوعد للشر ، لكن الله يطمس على ألسنتهم وهم أهل الفصاحة فيقولون : ﴿ مَتَى هَـٰذَا الْوَعْدُ (٧١)﴾ [النمل] ، وهو بالنسبة إليهم وعيد ، لأن إيعاد المخالف لك بشرّ وعدٌ لك بخير .

ووَعْد الله آت ، يقول تعالى : ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (١٣٤)﴾ [الأنعام] ، فالله إذا وعد فلا بد أنْ يتحقق وعده وإذا أوعد فلا بد أنْ يأتى وعيده ، والوعد إذا أُطلق فهو فى الخير ، والوعيد يكون فى الشر .

والغريب أنهم يقولون ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٥)﴾ [الملك] ويغفلون عن أن الذى يُخلف الوعد أو الوعيد من الخَلْق فهذا أمر متوقَّع لأنه من الأغيار ويتغير رأيه فلم يعُدْ أهلاً لهذا الوعد ، لأنه ربما يكون قد وعد بشيء كان يظن أنه فى مُكْنته وبعد ذلك خرج عن مُكْنته . فليس له سيطرة على الأشياء .

لكن إذا كان مَنْ وعد قادراً ولا يوجد إله آخر يناقضه فيما وعد أو أوعد به فلا بدّ أنْ يتحقق الوعد أو يأتى الوعيد ، ولذلك حينما يحكم الله حكماً فالمؤمن يأخذ هذا الحكم قضية مُسلَّمة لأنه لا إله مع الله سيغير الحكم ، وسبحانه ليس من الأغيار .

ومثال هذا قوله تعالى : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (٢) سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (٣) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (٤) فِي جِيدِهَا(١) حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ (٥) ﴾ [المسد]

وهذا وعيد فى أمر لهم فيه اختيار ومع ذلك لم يُسلموا ، وجاء بعدها ما

(١) الجيد : بكسر الجيم : العنق . وقيل موضع القلادة من العنق ، وقد غلب على عنق المرأة . [لسان العرب – مادة : جيد] .

يؤكد لكل مسلم : إياك أنْ تأخذ هذه القضية مأخذ الشك ، وتقول : قد يتوب أبو لهب هذا وزوجه ويُسلمان ، ألم تتُبْ هند ؟ ألم يُسلم أبو سفيان ؟

لكنه سبحانه عالم بما يصير إليه اختيار أبى لهب واختيار زوجه وإنْ كان كل منهما مختاراً ، ولا يوجد إله سواه ليغير الأمر عما قال ، فلا يوجد إلهٌ آخر ليُعدّل هذا الأمر .

وقد يظن بعض الناس أن الله قد يأتى بما وعد به لكنهم قد يهربون منه ولكن ليس الأمر كما يظنون ، فالوعد آتٍ وأنتم لا تستطيعون الهرب منه ، ولا أحدَ بقادر على أنْ يمنع الله عن تحقيق ما وعد أو أوعد ، ولن تفرُّوا من وعده أو وعيده ، ولن تغلبوا الله أو تفوتوه وتُعجزوه ، فالله غالبٌ على أمره .

والله حين يوعد فهو سبحانه قادر على إنفاذ ما أوعد به ، ولن يفلت أحدٌ منه أبداً ، فوعد الله وعْد مطلق لا إخلالَ به ، لأن الذى يُخل بالوعد هو الإنسان الذى تعتريه الأغيار ، فقد يأتى ميعاد الوفاء بالوعد ، ويجد الإنسان نفسه فى موقف العاجز أو المتغير قلبياً .

لكن ساعة يكون الله هو الذى وعد فسبحانه الذى لا تُداخله الأغيار ، بل هو الذى يُجرى الأغيار ، لذلك يكون وعده هو الوعد الخالص الذى لا توجد قوة أخرى تحول دون أنْ ينفذ الله وعده .

والحق سبحانه يقول : ﴿ اللهُ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ حَدِيثًا (٨٧) ﴾ [النساء]

وكلمة (يجمع) تعنى أنه يُخرجنا مع بعضنا من قبورنا جميعاً ويحشرنا جميعاً أمامه ، وقد تعنى (ليجمعنكم) أى ليحشرنكم من قبوركم لتلقِّى جزاء يوم القيامة .

ثم يقول الحق سبحانه لمحمد ﷺ :

﴿قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢٦)﴾

هنا قال ﴿إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللهِ (٢٦)﴾ [الملك] ولكن في آية أخرى أُمر ﷺ أن يقول ﴿قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ (٣٠)﴾ [سبأ]

فالميعاد مُقدَّر قد قدَّره الله لا يعلمه إلا الله، لذلك عندما سُئل رسول الله: متى الساعة؟ قال: ما المسئول عنها بأعلم من السائل[١].

وقد قال الحق سبحانه: ﴿إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ (٣٤)﴾ [لقمان] فالسؤال عن الساعة أمر غيبي لا يعلمه إلا الله، فهو سؤال لاجدوى منه، لذلك لما سئل رسول الله من أحد الصحابة: متى الساعة؟ قال للسائل: وماذا أعددتَ لها؟[٢] فأخذه إلى ما ينبغي له أنْ يسأل عنه ويهتم به.

والكافرون يكذِّبون بالساعة، يقول تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ[٣] عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ (٣)﴾ [سبأ]

وعلم الساعة عند الله تعالى، والساعة لا تعني القيامة فحسب، إنما لكلٍّ منا ساعته لأنه مَنْ مات فقد قامت قيامته، ونحن لا نملك أمر الساعة، فالساعة تأتي بغتة ومفاجئة، وصاخّة طامّة مُرجفة مُزلزلة، فاحذروا أنْ تصيبكم هذه الرجفة وأنتم في غفلة عنها.

---

(١) حديث متفق عليه. وهو حديث جبريل الذي سأل فيه عن الإسلام والإيمان والإحسان ثم سأل عن موعد الساعة. أخرجه البخاري في صحيحه (٥٠، ٤٧٧٧) وكذلك مسلم في صحيحه (٨، ٩، ١٠) وهو حديث طويل.

(٢) عن أنس بن مالك قال: بينما أنا والنبي ﷺ خارجان من المسجد فلقينا رجل عند سدة المسجد فقال: يا رسول الله متى الساعة؟ قال ﷺ: ما أعددت لها؟ فكأن الرجل استكان ثم قال: يا رسول الله ما أعددت لها كبير صيام ولا صلاة ولا صدقة ولكني أحب الله ورسوله. قال: أنت مع من أحببت. أخرجه البخاري في صحيحه (٧١٥٣) وكذا مسلم في صحيحه (٢٦٣٩).

(٣) عزب الأمر يعزب: بعد وغاب وصعب مطلبه. قال تعالى: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ.. (٣)﴾ [سبأ] أي لا يغيب ولا يبعد عنه أي شيء، فهو يعلم الصغير والكبير من الأمور والأشياء. [القاموس القويم ٢/١٨].

يقول الحق سبحانه : ﴿ يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا (٦٣) ﴾ [الأحزاب]

وقد سُئل رسول الله كثيراً عن الساعة ، والسؤال الذى سُئله رسول الله ﷺ كان مُتوجهاً إلى أمرين : الأول إعجازى لأنهم كانوا يعلمون من كتبهم وأنبيائهم بعض الأمور فيريدون أنْ يُحرجوا بها رسول الله حين يسألونه عنها فلا يجدون جواباً .

وهم يعرفون أن رسول الله أمى لا يقرأ ولا يكتب ، ولم يجلس إلى معلم أبداً، لكن الحق سبحانه كان يسعف رسوله ويُعلِّمه الجواب فيجيب لهم الجواب الصحيح فيموتون غيظاً ويتمحَّكون فى أى مسألة ليُثبتوا لأنفسهم أن محمداً لا يعلمها .

ثم يسأل اليهود رسول الله عن الساعة ﴿ يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ (٦٣) ﴾ [الأحزاب]

وهم يسألون عن الساعة يعنى عن يوم القيامة لأنهم ينكرونه ، ومن مصلحتهم ألاَّ يكون هذا اليوم حتى لا يقفوا موقفَ المساءلة والحساب على ما أجرموه فى الدنيا من ظلم وشرك وعربدة وسفك للدماء وولوغ فى أعراض الناس .

وقضية القيامة والحساب واضحة بالفطرة ، والمنكرون لها هم الذين أسرفوا على أنفسهم ويخافون ما ينتظرهم من العقاب فى هذا اليوم ، ولا يملكون إلا إنكاره وعدم الاعتراف به .

والمعنى ﴿ يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ (٦٣) ﴾ [الأحزاب] يعنى : أتوجد أم لا توجد ؟ وإذا كانت توجد قالوا : ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧٠) ﴾ [الأعراف] فكان ردّ رسول الله على مَنْ سأله عن الساعة:

﴿ قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللهِ (٢٦)﴾ [الملك] ، ثم عقّب هذا بقوله ﴿ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ(٢٦)﴾ [الملك] ، فهذه هى مهمتى أنْ أنذركم ، فأنا نذير واضح لكم ، فمهمتى النذارة والبلاغ .

والنذير هو مَنْ يخبر بشرٍّ لم يأت وقته بَعْد ، وقد خصَّ الإنذار لأنهم أهلُ لجاج وأهل باطل وجحود ، فيناسبهم كلمة الإنذار دون البشارة .

ففى آيات أخرى قال تعالى : ﴿ الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (١) أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ (٢) ﴾ [هود] ، والنذير هو مَنْ يخبر بشرٍّ زمنه لم يجئ لتكون هناك فرصةٌ لتلافى العمل الذى يُوقع فى الشر ، والبشير هو مَنْ يبشِّر بخير سيأتى إنْ سلك الإنسانُ الطريقَ إلى ذلك الخير .

فالإنذار والبشارة هى أخبار تتعلق بأمر لم يأت ، وفى الإنذار تخويف ونوع من التعليم ، وهو ﷺ قد نزل عليه القرآن بالنذارة والبشارة .

والإنذار إنما هو بالوحى الذى أوحاه الله إلى نبيه محمد ﷺ : ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٥١) ﴾ [الأنعام]

فأنذر بالوحى الذى تتبعه هؤلاء الذين يخشون يوم اللقاء مع الله ، والإنذار هو إعلامٌ بشيء مخيف قبل وقوعه لنتفادى أنْ يقع ، فالوحى إنذارٌ لهم ، والرسل إنما أُرسلوا مبشرين ومنذرين ، قال سبحانه : ﴿ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ (٤٨) ﴾ [الأنعام]

فمهمة الرسل هى البشارة والإنذار فلا تخرجوا بهم أيها الناس إلى مرتبة أخرى أو منزلة ليست لهم فتطلبوا منهم آيات أو أشياء ، فالآيات والأشياء كلها من تصريف الحق تبارك وتعالى .

ومهمة التبشير والإنذار هى أنْ يتذكر الناس أن هناك جنةً وناراً ، ولذلك

يبشر كل رسول مَنْ آمن من قومه بالجنة ، وينذر من كفر من هؤلاء القوم بالنار .

والتبشير والإنذار يقطع حجة الناس على الله ، يقول تعالى : ﴿ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ (١٦٥) ﴾ [النساء] ، فليس للناس على الله حجة بعد الرسل ، وليس لأحد عذر بعد البلاغ .

لذلك حينما يدخل أهلُ النارِ النارَ يخاطبهم ربهم : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ (٧١) ﴾ [الزمر] ، فالله قطع عليهم الحجة حين بعث إليهم رسول الله بمنهج الحق الذى يدلهم على الخير والثواب عليه فى الجنة ، ويحذرهم من الشر والعقاب عليه فى النار .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً[1] سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ (٢٧) ﴾

فلما رأوا يوم الحساب والذى أوعدهم الله به قد اقترب سيئت وجوههم بما رأوه من عذاب الذل والمهانة والإيلام ، وقد خصّ الله الوجوه بالذكر لأن آثار انفعالاتهم لما رأوه إنما تظهر على وجوههم حزناً وقلقاً .

وفى آية أخرى ذكر الحق سبحانه اسوداد الوجه ، قال تعالى : ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (١٠٦) ﴾ [آل عمران]

فتسودُّ الوجوه الكافرة ، فما فى داخل النفس إنما ينضح على قالب الإنسان وتظهره ملامحه ، فمَنْ يرى مقعده من النار لا بد أنْ يكون مظلمَ الوجه ، وهؤلاء قد رآهم الناسُ بيضَ الوجوه فى الدنيا ، ولكن يرونهم يوم القيامة

---

(١) زلف إليه زلفة : قرب ودنا ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً .. (٢٧) ﴾ [الملك] أى قريباً وهو وصف بالمصدر بلفظه ويُعرب حالاً أى ذا قرب أى قريباً قريباً شديداً . [القاموس القويم ١/٢٨٨] .

وعلى وجوههم غبرة سوداء وترهقهم قترة .

فوجوههم تسودُّ وتصبح قبيحة المنظر وتضطرب أبصارهم وتتقلّب هنا وهناك ، فهى حين ترى الفزع الذى يخيفها تتقلب ، تنظر هنا وتنظر هنا علّها ترى ما يُطمئنها أو يُخفِّف عنها ما تجد ، لكن هيهات فلن ترى إلا فزعاً آخر أشدَّ وأنكى .

لذلك تخشع أبصارهم ذُلاًّ وانكساراً ﴿ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ (٤٣) ﴾ [القلم] ويقول تعالى : ﴿ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ (٨) أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ (٩) ﴾ [النازعات] يعنى : ذليلة منكسرة حيث لا مفرّ ولا منجى .

ويقول تعالى : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ (١) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ (٢) عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ (٣) تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً (٤) تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ (٥) لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ (٦) لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ (٧) ﴾ [الغاشية]

﴿وَقِيلَ هَـٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَدَّعُونَ(٢٧)﴾ [الملك] وهو توبيخ لهم لما ادعوه من تكذيب يوم الحساب ، أو هو توبيخ لهم من أنهم طلبوا ما أوعدهم الله به ، فقالوا : ﴿ مَتَىٰ هَـٰذَا الْوَعْدُ (٢٥)﴾ [الملك]

فها هو وعدُ الله ، فهذا هو يوم القيامة الذى كنتم أيها المشركون تدعون به أى تدعون بطلانه ، تزعمون أنه لا يأتيكم ، فها أنتم ترونه زلفة أى قريباً منكم .

والحق سبحانه هنا استخدم ثلاثة أفعال ماضية (رأوه) (سيئت) (قيل)، والكلام إنما هو عن مستقبل سيأتى يوم القيامة ، لكنه سبحانه أتى بها وكأنها فى الماضى .

كأن الحق سبحانه يقول : إن هذه الأمور الآتية محققة الوقوع بحيث يصح اعتبارها ماضية ، فالزمن المستقبل بالنسبة للحق سبحانه هو ماض لعلمه سبحانه بما سيحدث فى المستقبل ؛ لأنه سبحانه يعلم الأشياء دفعة واحدة ؛ فلا ترتب لعلمه سبحانه.

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ ﴾

قولـه تعالى ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ (٢٨) ﴾ [الملك] استخدمه الحق سبحانه فى آيات كثيرة، منهـا : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا[١] إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٧٢) ﴾ [القصص]

ويقول تعالى فى آية أخرى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ (٤٦) ﴾ [الأنعام]

وبعدها يقول تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ (٤٧) ﴾ [الأنعام]

فقوله تعالى : ﴿ أَرَأَيْتَكُمْ (٤٧) ﴾ [الأنعام] يشمل ويضم ضمير المخاطب وهو التـاء المفتوحة ، ويشمل أيضاً كاف الخطـاب والجمع بين علامتى الخطاب (التاء) و (الكاف) يدل على أن ذلك تنبيه على شيء ما عليه من مزيد .

ومـرة يقول الحـق (أرأيتـم) أى أخبرونى أنتـم وأعلمونى إعلامـاً يؤكد لى صدق القضية ، ويأتى الاستفهام هنا من مادة (أرى) و (رأى) .

فالحـق سبحانـه فـى معرض تعـداد نعمـه علينا يقـول : (أرأيتـم) يعنى : أخبرونى ماذا تفعلون . وهو استفهام معناه التقرير يستخبرهم ليقررهم .

---

(١) السرمد : دوام الزمان من ليل أو نهار . وليل سرمد : طويل . والسرمد : الدائم الذى لا ينقطع . [لسان العرب – مادة سرمد] . قال أبو عبيدة فى مجاز القرآن (٢/١٠٩) : كل شيء لا ينقطع من عيش أو رخاء أو غم أو بلاء دائم فهو سرمد .

﴿ إِنْ أَهْلَكَنِي اللهُ (٢٨)﴾ [الملك] والهلاك ضد الحياة . ومعنى (هالك) أى ليس فيه حياة ، والهلاك : الموت .

فـ ﴿ أَرَأَيْتُمْ (٢٨)﴾ [الملك] إنْ أهلكنى الله فأماتنى ومن معى أو رحمنا فأبقانا وأخَّر فى آجالنا . وقد كان الكفار يتمنون هلاك النبى ﷺ وهلاك المسلمين . فأمره الله أنْ يقول لهم : إنْ أهلكنى الله ، وأهلك مَنْ معى أو رحمنا فإنكم لا تنجون من عذاب الله فى كل الأحوال .

فإذا كنتُ أنا كنبى ورسول من الله قد يرحمنى الله وقد يهلكنى ونحن مؤمنون بالله ، فما بالُ مَنْ كفر به سبحانه ؟ من الذى يجيركم من عذاب الله إذا نزل بكم ؟ أتظنون أن الأصنام تجيركم ؟

فلا أحدَ يجير إلا الله ، والحق سبحانه يقول : ﴿ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٨)﴾ [المؤمنون]

ومسألة الإجارة لها ثلاثة عناصر : مجير وهو الذى يقبل أنْ يغيثك ويحتضنك ويدافع عنك . ومُجار وهو الضعيف الذى يطلب الحماية . ومُجار عليه وهو القوى الذى يريد أنْ يبطش .

فالحق سبحانه يجير مَن استجار به ، ويغيث مَنْ استغاثه ، والذى يجيرك إنما يجيرك من مُساوٍ له فى القوة فيستطيع أنْ يمنعك منه ، ويحميك من بطشه، فمَنْ ذا الذى يحميك من الله ؟ ومَنْ يجيرك إنْ كان الله هو طالبك ؟

﴿ فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٨)﴾ [الملك] أى عذاب مؤلم . وعندما تسمع صيغة (فعيل) فنحن نأخذها بمعنى فاعل أو مفعول ، لذلك نفهم (أليم) على أنه مؤلم .

ولا بد أنْ نأخذ قوة الحدث بفاعل الحدث ، فالحدث يختلف باختلاف فاعله قوة وضعفاً على المفعول به الذى هو مناط الحدث ، فإذا كان فاعل العذاب هو

الله فلا بدّ أنْ يكون عذاباً أليماً ولا حدود لألمه .

فإذا كان الحدث التعذيبى منسوباً إلى الله وله مطلق القوة والقدرة ، لذلك فالعذاب لن يُطاق ، ولن يجد الظالم مَنْ يدرأ عنه هذا العذاب لأنه لن يجد ناصراً له ولن يجد شفيعاً ، فلن يأتى أحد ويقول : إنّ فلاناً يتعذب فهيا بنا ننصره ، لا يأتى أحد لينصره .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ ﴾

﴿الرَّحْمَٰنُ (٢٩)﴾ [الملك] من صيغ المبالغة ، والله سبحانه هو رحمن الدنيا ورحيم الآخرة ، والله رحمن بربوبيته لخَلْقه ، فهو سبحانه يمهل العاصى ويفتح أبواب التوبة لكلِّ مَنْ يلجأ إليه .

وهو سبحانه يأتى باسمه (الرحمن) ، والذى يفيد التطوع بالخير ، وكان من الواجب أنْ يقدرُوا هذا الخير الذى قدَّمه لهم سبحانه دون أنْ يكون لهم حَوْلٌ أو قوة .

و (الرحمن) ينعم بالنعم كلها وهو المتولِّى تربية الخلق ، ولو لم يفعل سوى خَلْقهم وتربيتهم ومدّهم بالحياة ومقوماتها لكان يكفى ذلك ليعبدوه وحده ولا يشركوا به أحداً .

والرحمة صفة تحنين للخَلْق ، واختار اسم (الرحمن) ، فمجال التكليف كله الرحمة ، وما نزل المنهج من الله إلا لينظم حياة الناس ويحقق لهم السعادة فى حركة الحياة .

فالرحمانية الإلهية هى الغالبة فى كل التشريع ، ألا ترى قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَٰنُ (١) عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ (٢) ﴾ [الرحمن] فالقرآن الذى نزل لينظم حياة

الناس ويحكمها ويُصلح حركة الحياة ويضع السلام بينك وبين الله ، وبينك وبين نفسك ، وبينك وبين الناس ، هذا القرآن مظهر من مظاهر هذه الرحمانية الإلهية .

والله يجير برحمته مَنْ يشاء ، أما أنتم فلن تتداركم رحمة الله فلن تجدوا مُجيراً يجيركم من عذاب الله ، والحق سبحانه باختيار اسم (الرحمن) هو ليُطمئن الذين أسرفوا على أنفسهم بالمعاصى أن ربهم رحمن رحيم ، إنْ تابوا إليه قبلهم ، وإنْ وعدهم وعْداً أوفى .

ومسألة الخَلْق تدور فى إطار الرحمانية ، وكان من الواجب أنْ تطيع ، وأنْ تخضع له .

﴿ قُلْ هُوَ الرَّحْمَـٰنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا (٢٩) ﴾ [الملك] وآمنا به . أى : اعتقدنا وصدَّقنا . ويُقال : آمن بالشيء أى صدَّقه . وآمن بكذا أى صدَّق ما قيل. وقال إخوة يوسف لأبيهم : ﴿ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ (١٧) ﴾ [يوسف]

أى لن تُصدِّقنا . وآمن إذا تعدَّت بالباء فمعناها الاعتقاد ، وإنْ تعدت باللام ، فمعناها التصديق ، وإنْ تعدت بغير الباء وغير اللام فمعناها إعطاء الأمان ، مثل قوله تعالى ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَـٰذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِى أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ (٤) ﴾ [قريش]

وتجيء أيضاً (آمن) و (أمن) بمعنى الائتمان ، مثل قول الحق سبحانه وتعالى على لسان يعقوب ﴿ قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ (٦٤) ﴾ [يوسف]

إذن ، فـ (آمن) إنْ تعدت بالباء فيكون معناها الاعتقاد الإيمانى ، وإنْ تعدَّت باللام فمعناها التصديق ، وإنْ تعدَّت بنفسها إلى الفعل فهى إعطاء الأمان والسلام والاطمئنان ، وإنْ تعدت بالمفعول أيضاً فمعناها القدرة على

أداء الأمانات ، مصداقاً لقوله الحق : ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا (٧٥)﴾ [آل عمران]

فـ ﴿آمَنَّا بِهِ (٢٩)﴾ [الملك] اعتقدنا وصدَّقنا ، أما أنتم فكفرتم وكذَّبتم وكفرتم نعمة الله وأشركتم بالله .

ونحن لم نؤمن بالرحمن فقط بل عليه توكلنا ، وقد تقدم الجار والمجرور ، ومعنى ذلك قصْر وحَصْر الأمر والتوكل على الله فحسب ، فلا توكل على سواه، والتوكل الحقيقى أن تعمل الجوارح وتتوكل القلوب ، وكم من عامل بلا توكل فتكون نتيجة عمله إحباطاً .

والمؤمنون يتوكلون على الله ليتولاهم ، وهم لا يتوكلون على مَنْ قد يصبح غداً ميْتاً ؛ ولكنهم يتوكلون على الحى الموجود دائماً ، العزيز الذى لا يُقهر ، القوى الذى لا يُغلب .

والحق سبحانه يقول : ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٢١٧)﴾ [الشعراء] فعزَّته سبحانه ورحمته لك أنت ولمصلحتك ، فتوكل على الذى يحبك ويُقدِّر عملك. ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلًا (٣)﴾ [الأحزاب]

وقد ضرب لنا رسول الله ﷺ مثلاً توضيحياً بتوكُّل الطير ، فقال « لو أنكم توكلتم على الله حقّ توكله لرزقكم كما يرزق الطير ، تغدو خماصاً وتروح بطاناً »[1] .

فالطير تسعى على رزقها وتبحث عنه ، فتخرج من وكناتها وأوكارها طلباً للرزق (تغدو خماصاً) فتخرج فى الغدوات ضامرةَ البطن جائعة ، وتعود فى الرواح ممتلئةَ البطن قد شبعتْ من رزق الله .

فالطير استخدمت الأسباب ، فإذا توكلت على الله فاستنفد الأسباب الموجودة

---

(١) أخرجه ابن ماجه فى سننه (٤١٦٤) وأحمد فى مسنده (٢٠٥ ، ٣٠٧ ، ٣٧٣) والترمذى فى سننه (٢٣٤٤) وقال : هذا حديث حسن صحيح . وهو من حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

لك من ربك ، فإنْ عزَّتْ عليك الأسباب فلا تيأس ، لأن لك رباً أقوى من الأسباب لأنه سبحانه خالق الأسباب .

﴿ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢٩) ﴾ [الملك]، وفى آية أخرى يقول سبحانه: ﴿ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى (١٣٥) ﴾ [طه]

هذا العلم بأصحاب الصراط السوى وبمن اهتدى ممن هو فى ضلال مبين سيحدث ساعةَ تقوم الساعة حين الانصراف إما إلى جنة وإما إلى نار ، ساعتها ستعلمون مَنْ أصحاب الصراط السوى ، نحن أم أنتم ؟

لكنه سيكون علماً لا ينفع ولا يُجدى ، فقد جاء بعد فوات الأوان ، فالوقت وقت الحساب وقد فات وقت الأفعال والأعمال .

ولكن ما هو الضلال ؟ الضلال هو أن تسلك سبيلاً لا يؤدى بك إلى غايتك . والضلال يأتى على معانٍ متعددة ، فقد يأتى الضلال مرّة بمعنى الذهاب والفناء فى الشيء ، مثل قوله الحق ﴿ وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ (١٠) ﴾ [السجدة]

وقد يأتى الضلال مرة أخرى بمعنى عدم اهتداء الإنسان إلى وجه الحق كما قال الحق وَصْفاً لرسوله ﷺ عندما رفض عبادة الأصنام وظلّ يبحث عن المنهج الحق ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى (٧) ﴾ [الضحى]

أى أنك يا محمد لم يعجبك منهج قريش فى عبادة الأصنام وظللتَ تبحث عن المنهج الحق إلى أنْ هداك الله فأنزل إليك هذا المنهج القويم ، لقد كنتَ ضالاً تبحث عن الهداية فجاءتْك النعمة الكاملة من الله .

وهناك لونٌ آخر من الضلال وهو أنْ يتعرَّف الإنسان على المنهج الحق ، لكنه ينحرف عنه ويتجه بعيداً عن هذا المنهج مثل قوله الحق : ﴿ وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ (٦٩) ﴾ [آل عمران]

وهم ﴿فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢٩)﴾ [الملك] أى فى ضلال ظاهر وهو ضلال واضح صريح يعرفه صاحبه فيقع فى غيبة عن الحق أوتيه عن الحق ، و﴿مُبِينٍ (٢٩)﴾ [الملك] أى محيط بصورة لا يمكن النفاذ منها .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾﴾

الحق سبحانه جعل لنا خزانات للماء تحت الأرض ، لا لنُحرم منه حين يوجد ، لكن لنجده حين يُفقد ، وكوْن الماء ينابيع فى الأرض يجعلنا نتغلب على مشاكل كثيرة ، فالأرض تحفظه لنا فلا يتبخر ولا نحتاج إلى بناء السدود وغيرها مما يحفظ لنا الماء العذب .

وقد أعطانا رسول الله ﷺ مثلاً فقال : « مثَل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً ، فكان منها نقياً - أرضاً خصبة - قبلتْ الماء ، فأنبتت الكلأ والعشب ، وكان منها أجادب أمسكتْ الماء ، فشرب الناس منه وسقوا أنعامهم وزروعهم ، وكان منها قيعان لا تمسك ماء ، ولا تنبت كلأ، فذلك مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم »[1].

فهذه أنواع ثلاثة من الأرض تمثل انتفاع الناس بالعلم ، فالأولى تمسك الماء وتخرج الزرع ، والثانية تمسك الماء حتى ينتفع الناس به ولك أنْ تسأل : فما فائدة الثالثة القيعان التى لا تمسك ماء ، ولا تنبت كلأ ؟ ولماذا خلقها الله إذن ؟

نقول : هذه القيعان هى التى تسلك الماء فى باطن الأرض ، وصدق الله إذ قال : ﴿فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ (٢٢)﴾ [الحجر]،

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٧٩) وكذا مسلم فى صحيحه (٢٢٨٢) من حديث أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه .

وقال سبحانه : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ (٣٠)﴾ [الملك]

إذن هذه القيعان لها مهمة يعرفها مَنْ فطن لهذه المسألة ، وإلا فالله تعالى لم يخلق شيئاً عبثاً أبداً ، كذلك يكون انتفاع الناس بالعلم ، فمنهم مَنْ نرى أثر علمه خيراً عاجلاً ، ومنهم مَنْ يتأخر نَفْع علمه للأجيال القادمة .

ثم إياك أنْ تظن أن الماء حين يسلكه الله ينابيع فى باطن الأرض يسيح فيها أو يحدث له استطراقٌ سائلى يختلط فيه العذب بالمالح ، لا ... إنما يسير الماء العذب فى شبه أنابيب ومسارب خاصة ، يجدونها حتى تحت مياه الخليج المالحة .

وهذه من عجائب الخلق الدالة على قدرة الخالق عز وجل ، وكما يوجد برزخ بين الماءين على وجه الأرض ﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (١٩) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ (٢٠)﴾[الرحمن]،كذلك هناك برزخ للماءين تحت الأرض.

والله قد أعدَّ لنا الأرض صالحة بكلِّ نواميسها وقوانينها ، فالمناطق التى لا ينزل بها المطر يعوضها الله عنه بالمياه الجوفية فى باطن الأرض ، فماء المطر الزائد يسلكه الله ينابيع فى الأرض ويجعله مخزوناً لوقت الحاجة إليه ، وتخزين الماء العذب فى باطن الأرض حتى لا تُبخره الشمس .

يقول تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ (٣٠)﴾ [الملك]

ومعنى ﴿ غَوْرًا (٣٠)﴾ [الملك] أى : غائراً فى الأرض ، فإنْ قلت : يمكن أن يكون الماء غائراً ، ويقول تعالى : ﴿ أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا (٤١)﴾ [الكهف]

وألسنتهم تعطلتْ عن نقل ما فى قلوبهم ، وأبصارهم لا ترى آيات الله فى الكون، فآلات إدراكهم لهدى الله معطلة عندهم .

لذلك وصف الحق سبحانه الذين كفروا فقالوا : ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِى يَنْعِقُ[1] بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (١٧١) ﴾ [البقرة]

فهناك شيء قد سدَّ منفذ السمع فلا تسمع ، ويسبِّب الصمم فهم بُكْم، فالإنسان إنْ لم يسمع فهو لن يتكلم ، فالأذن جُعِلت لتسمع السماع المفيد فكأنّها مُعطَّلة لا تسمع شيئاً .

والعقل وُجد ليفكر به ، فإذا لم يفكر تفكيراً سليماً منطقياً فكأن صاحبه لا عقلَ له ، فالأصمّ حقيقةً خيرٌ من الذى يملك حاسة السمع ولا يفهم بها ، لأن الأصمَّ له عذره والأبكم كذلك ، والمجنون أيضاً له عذره .

وعملية العقل تنشأ بعد أنْ تسمع وبعد اكتمال الحواس ، ولذلك فالإنسان فى تكوينه الأول حركيّ حِسِّيّ يرى ويسمع ويتذوق ثم يتكوَّن عنده من ذلك القضايا العقلية .

وليس معنى أنهم لا يسمعون أنهم صُمٌّ بجارحة الأذن ، فهم يسمعونه بآذانهم ولكنهم لا يفقهون ما يسمعونه ، وقد قال الحق سبحانه عنهم : ﴿ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا (٧٨) ﴾ [النساء]

وساعة تقول فلان لا يفقه ، فهذا معناه أنَّ عقله ممنوعٌ من الفهم ، أما عندما نقول : لا يكاد يفقه . فهو يعنى : لا يقرب حتى من الفهم ، فمنطق العقل والفكر يقودان إلى ضرورة الفهم ، وعندما لا يفهمون ذلك فنحن نستعجب من عدم فهمهم ، ولا نستعجب من عدم فهمهم إلا إذا كان الأمرُ المطروح أمامهم

---

(١) النَّعْق : مصدر نعق ينعق وهو صياح الراعى بالغنم وزجره إياها . ووجه الكلام : كمثل المنعوق به فجاء الناعق فى موضع المنعوق به لأنه جعل الكفار بمنزلة الغنم المنعوق بها [جمهرة اللغة لابن دريد ٢/٩٤٣] .

يصنع له الحق مسارب فى الأرض لأنه ماء عذب ، حتى يستخدم الإنسان ذكاءه الموهوب له من الله فيستخرج المياه من الأرض ، فالحق سبحانه خلق لنا كل ما يمكن أنْ يحقق لنا استخراج قوت الحياة .

ويقول الحق سبحانه : ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ (١٨) ﴾ [المؤمنون] فنأخذ حاجتنا من ماء المطر ، والباقى يتسرب فى باطن الأرض ، كما قال سبحانه : ﴿ فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ (٢١) ﴾ [الزمر]

ومن عجيب قدرة الله فى المياه الجوفية أنها تسير فى مسارب مختلفة بحيث لا يختلط الماء العذب بالماء المالح مع ما يتميز به الماء من خاصية الاستطراق ، والعاملون فى مجال حفر الآبار يجدون من ذلك عجائب ، فقد يجدون الماء العذب بجوار المالح ، بل وفى وسط البحر لأنها ليست مستطرقة ، إنما تسير فى شعيرات ينفصل بعضها عن بعض .

والمياه الجوفية مخزون طبيعى من الماء نُخرجه عند الحاجة ، ويُسعدنا إذا نضب الماء العذب الموجود على السطح ﴿ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ (١٨) ﴾ [المؤمنون] ليكون احتياطياً لحين الحاجة إليه ، فإذا جفَّ المطر تستطيعون أن تستنبطوه .

ثم يُذكّرنا الحق سبحانه بقدرته على سلب هذه النعمة ﴿ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ (١٨) ﴾ [المؤمنون] يعني : سيروا فى هذه النعمة سيراً لن يُعرِّضها للزوال ، وقال هنا : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ (٣٠) ﴾ [الملك]

والماء المعين الماء الجارى الظاهر الذى تناله وسائل الناس العادية فى الاستخراج ، فمَنْ يأتيكم بهذا الماء المعين إنْ ذهب الماء فى الأرض وغار ولم تعودوا قادرين على تحصيله والوصول إليه ؟

ومَنْ يتأمل قوله تعالى ﴿ مَاؤُكُمْ (٣٠) ﴾ [الملك] يجد عجباً ، فالحق سبحانه نسب الماء إليهم وأنه ماؤهم ، ومع هذا فهم غير قادرين عليه ، ولا على الإتيان

به ، بل أنتم تعدونه فى أيديكم .

والله وحده هو القادر أنْ يأتى به ، فهو سبحانه ﴿ الَّذِى بِيَدِهِ الْمُلْكُ (١)﴾ [الملك] وإذا كان الله هو القادر ، وإذا كان الله مالك الملك فلم تشركون معه غيره ؟

والحق سبحانه يسألهم وهو سبحانه يعلم إجابتهم ، وأنهم لا بد لهم أن يقولوا : لا يأتينا به إلا الله تعالى ، فقُل لهم : فلم تشركون به مَنْ لا يقدر على أنْ يأتيكم به .

والحق سبحانه مقتدر على كل شيء ، فقد اقتدر سبحانه على الإيجاد واقتدر على الإعدام ، فلا تنفكّ عنه صفة القدرة أبداً ، أحيا وأمات، وأعزَّ وأذلّ ، وقبض وبسط ، وضرَّ ونفع .

فالحق سبحانه يُذكِّرنا بقدرته على سلب هذه النعمة ﴿وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ (١٨)﴾ [المؤمنون] فسيروا فى هذه النعمة سيراً لا يُعرِّضها للزوال .

والجئوا إلى مسبِّب الأسباب ، وارفعوا أيديكم لربكم ، ونحن إذا استنفدنا الأسباب نطلب من المسبِّب ، ولذلك أتحدى أنْ يستنفد واحد أسبابَ الله الممدودة إليه ويلجأ إلى الله فيرده .

والله قد أرسل محمداً ﷺ بالهدى والعلم ، فمن الناس من يقبل الهدى والعلم فيثمر خيراً لنفسه ولغيره وينتفع بهدايته وعلمه للناس ، فذلك مثل المطر الذى أصاب أرضاً فأنبتت الكلأ والعشب الكثير فانتفع به الحيوان وتغذَّى الإنسان على الحيوان .

ومن الناس مَنْ يحتفظ بالهدى والعلم ويُعلِّمه لغيره فيستمر النفع ويستمر أثر الهدى ، كتلك الأرض التى أمسكت ماء المطر فنفع الله عز وجل بها ناساً فشربوا فرعَوْا وسقوا وزرعوا وأسقوا .

ولكن من الناس مَنْ لا يقبل الهدى والعلم ولم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل

هدى الله عز وجل الذى أُرسل به ﷺ ، فذلك مثل الأرض التى هى مجرد قيعان لا تُمسك ماء ولا تُنبت كَلأً ، فلم تنتفع بماء المطر النازل عليها بل ذهبت فى جوف الأرض فى مسالك ومسارب ، فلم ينتفع به نبات أو حيوان أو إنسان

والإنسان على إطلاقه لفى خُسْر ، ولكن مَنْ الذى ينجو من الخسران ؟ وتأتى الإجابة من الحق سبحانه : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣) ﴾ [العصر]

فالإيمان والعمل الصالح هو منهج الله وهو الحبل الممدود إلينا ، فمَنْ يعتصم به ينجو من الهاوية ، أما مَنْ كفر فإنه لن ينجو من عذاب الله كافر ، ورحمة الله وفضله هو وسيلةٌ للنجاة ، وبهما ندخل الجنة ، وبدونهما لن ينجو أحد .

والحق سبحانه يهيء لنا طريق النجاة ، ولكن للنجاة شروط من الهلاك ومن الدرك الأسفل من النار ، وهى التوبة وإصلاح ما أفسد والاعتصام بالله وإخلاص دينه لله .

سُورَةُ القَلَمِ

سورة القلم [١]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ ﴾

الإسلام يُعلى من قدر القلم والدواة والكتابة والقراءة ، فخصَّص الحق سبحانه سورة سُمِّيت سورة القلم ، وتُسمى أيضاً سورة (ن) أى الدواة والمحبرة التى كان يستخدمها الكُتَّاب فى الكتابة .

فأولُ شيء خلقه الله القلم ثم الدواة ، وأمر القلم أنْ يكتب بما هو كائنٌ فى خَلْقه ومن خلقه وفى كوْنه إلى يوم القيامة ، فذلك اللوح المحفوظ من عمل أو أثر أو رزق أو أجل ، فكتب ما يكون وما هو كائن إلى يوم القيامة .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « أولُ شيء

(١) سورة القلم هى السورة رقم (٦٨) فى ترتيب المصحف الشريف ، نزلت بمكة ، كل آياتها محكمة ليس فيها ناسخ ولا منسوخ ، وتسمى أيضاً سورة (ن) باعتبار بدايتها . وكانت ثانية السور نزولاً بمكة ، وهى اثنتان وخمسون آية ، نزلت بعد سورة اقرأ ، فيكون نزولها فيما بين ابتداء الوحى والهجرة إلى الحبشة .

الله بى الحقر ، وانا الحاشر الذى يحشر الناس على قدمى ، وانا العاقب » .

خلقه الله عز وجل القلم ، ثم خلق النون وهى الدواة ، ثم قال له : اكتب. قال : وما أكتب ؟ قال : اكتب ما يكون وما هو كائن من عمل أو أثر أو رزق أو أجَل ، فكتب ما يكون وما هو كائن إلى يوم القيامة[1] . فذلك قوله عز وجل : ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (١)﴾ [القلم]

فالله تعالى كتب أزلاً ، لأنه تعالى علم أنك تفعل آجلاً ، وعلم الله مطلق لا حدودَ له ، فالله كتب ما هو كائن مُسبقاً ، لأنه يعلم ما يكون فى كوْنه قبل أنْ يكون .

ويقول تعالى : ﴿ وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا (٥٨) ﴾ [الإسراء] ، فكلُّ ذلك مُسجَّل ومُسطر فى اللوح المحفوظ .

والحق سبحانه يقول : ﴿ ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (١) ﴾ [القلم]

الحروف المقطَّعة ثمانية وعشرون حرفاً ، ونجد نصفها أربعة عشر حرفاً فى فواتح السور ، وقد يوجد منها فى أول السورة حرف واحد مثل ﴿ ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ (١) ﴾ [ق] ، وكذلك قوله الحق ﴿ ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ (١) ﴾ [ص] ، وكذلك قوله هنا : ﴿ ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (١) ﴾ [القلم]

ومرة يأتى من الحروف المقطعة اثنان مثل قوله الحق ﴿حم(١)﴾ [الأحقاف] ، ومرة يأتى ثلاثة حروف مقطعة مثل ﴿ الم (١) ﴾ [البقرة] ، ومرة يأتى الحق بأربعة

---

(١) أخرجه من حديث أبى هريرة رضى الله عنه الفريابى فى كتاب (القدر) (٢٩/١) ومن طريقه أخرجه الآجرى فى كتاب الشريعة (١٧٩) بهذا اللفظ . ولكن أخرجه الطيالسى فى مسنده (٥٧٨) عن عبادة ابن الصامت بلفظ أنه قال لابنه الوليد : يا بنى اتق الله واعلم أنك لن تتقى الله حتى تؤمن بالله وتؤمن بالقدر كله خيره وشره إن مت على غير هذا دخلت النار إنى سمعت رسول الله يقول : إن أول ما خلق الله القلم فقال : اكتب . فقال : يا رب ما أكتب ؟ قال : اكتب القدر ما كان وما هو كائن إلى الأبد .

حروف مقطعة مثل قوله ﴿ المص (١) ﴾ [الأعراف] ، ومرة يأتى بخمسة حروف مثل قوله تعالى : ﴿ كهيعص (١) ﴾ [مريم]

ونلاحظ أن الحرف فى السور البادئة بحرف واحد ليس آية ، ولكنك تقرأ قول الحق سبحانه ﴿ حم (١) ﴾ [الشورى] وهى آية ، وكذلك تقرأ قول الحق سبحانه ﴿ عسق (٢) ﴾ [الشورى] كآية مع أنها حروف مقطعة.

وتقرأ قوْل الحق سبحانه : ﴿ كهيعص (١) ﴾ [مريم] كآية بمفردها . وتقرأ قوْل الحق سبحانه : ﴿ طه (١) ﴾ [طه] كآية بمفردها، وكذلك تقرأ قول الحق ﴿ يس (١) ﴾ [يس] كآية بأكملها . وتجد أيضاً ﴿ المص (١) ﴾ [الأعراف]

وتجد أيضاً ﴿ المر (١) ﴾ [الرعد] ملتحمة بما بعدها فى آية واحدة ، وتقرأ فى أول سورة النمل ﴿ طس (١) ﴾ [النمل] ملتحمة بما بعدها فى آية واحدة.

وإذا رأيتَ هذه الحروف المقطعة فاعلم أن الحق سبحانه وتعالى نطق بها بأسماء الحروف ، ونحن نتكلم بمُسمّيات الحروف لا بأسمائها .

وقد تدل هذه الحروف المقطعة على اسم من الأسماء ، مثل (طه) ، فـ طه اسم من أسماء رسول الله ﷺ[1] ، ومثل (ن) حرف وهو اسم للحوت ، قال تعالى: ﴿ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا (٨٧) ﴾ [الأنبياء] و (ق) حرف ، وهو اسم لجبل اسمه جبل قاف .

وسرُّ الإعجاز فى القرآن الكريم أن تكون مادته ومادة غيره من الكلام واحدة ، حروفاً وكلمات ، لذلك كثيراً ما يقول الحق تبارك وتعالى بعد الحروف

---

(١) ليس فى صحيح السنة ما يدل على أن (طه) اسم من أسماء رسول الله ، إلا من بعض الإشارة إلى مرويات فى بعض كتب التفسير مثل : (أنا عند الله وفى كتابه اسمى محمد وأحمد وطه ويس) ومثل: « أنا عند ربى قد سميت بعشرة أسماء فذكر منها طه وياسين » . لكن الذى فى صحيح البخارى (٣٥٣٢) عن جبير بن مطعم أن رسول الله قال : « لى خمسة أسماء : أنا محمد وأحمد وأنا الماحى الذى يمحو الله بى الكفر ، وأنا الحاشر الذى يحشر الناس على قدمى ، وأنا العاقب » .

المقطعة : ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) ﴾ [الشعراء] أى أن الكتاب المبين مكوَّن من مثل هذه الحروف ، وفى آية أخرى يقول تعالى : ﴿طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ (١) ﴾ [النمل]

ولكل حرف من الحروف المقطعة مفتاح وأسرار لم يفتح علينا بعد لمعرفته، وما قلنا فى معنى هذه الحروف مجرد محاولات على الطريق ، والحق سبحانه يكرر الحديث عن الحروف المقطعة لتظلَّ دائماً على البال .

وهذه الحروف مبنية على الوقف ألفْ لام ميم هكذا بالسكون ، ولم يقل : ألفٌ لامٌ ميمٌ على الوصل لأنها حروفٌ مقطعة قد يظنها البعض كلمة واحدة ففصل بينها بالوقف .

لذلك يقول ﷺ : « لا أقول الم حرف ، ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف»[1] وليؤكد هذا المعنى جعلها على الوقف ، كلّ حرف على حِدَة .

وهذه الحروف خامات القرآن ، فمن مثل هذه الحروف يُنسج كلام الله ، وأنت إنْ أردتَ أنْ تميز مهارة النسج عند بعض العمال مثلاً لا تعطى أحدهم قطناً والآخر صوفاً والآخر حريراً مثلاً ، لأنك لا تستطيع التمييز بينهم لأن الخامات مختلفة ، فالحرير بطبيعته سيكون أنعم وأرقَّ ، فإنْ أردت معرفة المهارة فوحّد المادة الخام عند الجميع .

فكأنَّ الحق تبارك وتعالى يقول لنا : القرآن معجز بدليل أنكم تملكون نفس حروفه ، ومع ذلك عجزتم عن معارضته ، فقد استخدم القرآنُ نفسَ حروفكم ونفسَ كلماتكم وألفاظكم ، وجاء بها فى صورة بليغة عزَّ عليكم الإتيان بمثلها.

فالقرآن نزل بأسلوب عربى وتحدَّى العرب وهم أهل الفصاحة والبلاغة

(١) أخرجه الترمذى فى سننه (٢٩١٠) وابن المبارك فى الزهد والرقائق (٨٠٨) من حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه .

والبيـان وأصحاب التعبير الجميل والأداء الرائع ، ونزل فى قريش التى جمعتْ فـى لغتهـا كل لغات القبائـل العربية ، وقد خـرج منها صناديـد كذَّبوا محمداً وكفروا بدعوته ، فهل سمعنا منهم مَنْ يقول مثلاً : ما معنى (الم) أو (حم) .

والله لـو كان فيهـا مطعنٌ مـا تركوه . إذن : فهذا دليل علـى أنهم فهموا هذه الحـروف ، وعرفـوا أن لها معنى أبسطها أنْ نقول : هى من حروف التنبيه التى كان يستخدمها العرب فى كلامهم ، فهى مثل (ألا) فى قول الشاعر :(١)

أَلاَ هُبِّى بِصَحْنِكِ فَاصْبِحِينَا وَلاَ تُبْقِ خُمُورَ الأَنْدرِينَا(٢)

﴿ ن (١) ﴾ [القلـم] والبعضـ أخذهـا أنهـا الحوت ، فالنون مـن أسماء الحوت وجمعـه (نينـان) كحوت وحيتـان ، لذلك سُمِّى به يونس عليـه السلام ، فقال تعالى : ﴿ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا (٨٧) ﴾ [الأنبيـاء]

وقول الحق سبحانه ﴿ وَالْقَلَمِ (١) ﴾ [القلم] قَسَم بالقلم ، والواو هنا واو القسم، وللحق سبحانه أنْ يُقسم بما يشاء على ما يشاء .

والقَسَـم يأتـى لتأكيد المقسَم عليـه بالمقسم به ، وتأكيـد المقسم عليه إنما يأتـى لأن هنـاك مَـنْ يشك فيه ، وقد أقسـم سبحانه بالتين والزيتـون ، وأقسم بالقرآن الحكيم ، وأقسم بغير ذلك .

ونجـده فـى مواقع أخرى يقـول : ﴿ لَا أُقْسِمُ بِهَـٰذَا الْبَلَـدِ (١) وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَـٰذَا الْبَلَـدِ (٢) وَوَالِـدٍ وَمَا وَلَـدَ (٣) ﴾ [البلـد] . والعجيب أنه يأتى بجـواب القسم ، فيقـول: ﴿ لَقَـدْ خَلَقْنَـا الْإِنْسَـانَ فِـى كَبَـدٍ (٤) ﴾ [البلـد]

(١) هو : عمرو بن كلثوم بن مالك من بنى تغلب أبو الأسود شاعر جاهلى من الطبقة الأولى أصحاب المعلقات ، ولد فى شمال جزيرة العرب فى بلاد ربيعة ، ساد قومه تغلب وهو فتى وعمر طويلاً ، توفى عام ٤٠ قبل الهجرة . (الأعلام ٥/٨٤) .

(٢) البيت من معلقة عمرو بن كلثوم من بحر الوافر . والصحن هو القدح الكبير . وأصبحينا أى اسقينا الصبوح وهو شرب أول النهار . ولا تبقى خمور الأندرينا أى لا تبعثيها لغيرنا . والأندرين قرية من قرى الشام كانوا يأتون منها بهذا النوع من الخمور .

وقد يقول قائل : كيف يقول ﴿ لَا أُقْسِمُ (١) ﴾ [البلد] ثم يأتى بجواب القسم؟ وأقول : لقد جاء هنا بقوله ﴿ لَا أُقْسِمُ (١) ﴾ [البلد] وكأنه يوضح ألاَّ حقَّ لكم فى الإنكار ، ولذلك ما كان يصح أنْ أقسم لكم ، ولو كنت مُقسماً ، لأقسمتُ بكذا وكذا وكذا .

والحق سبحانه يقسم بما شاء على ما شاء ، أقسم بالشمس وبمواقع النجوم ، وبالنجم إذا هوى ، فهو الخالق العليم بكل ما خلق ، ولا يعرف عظمة المخلوق إلا خالقه ، وهو العالم بمهمة كل كائن خلقه ، لكنه أمرنا ألاَّ نقسم إلا به ، لأننا نجعل حقائق الأشياء مكتملة .

وقد جاء القسَم لتأكيد المعنى ، ولذلك يقول أحد الصالحين[1] : مَنْ أغضب الكريم حتى ألجأه أنْ يقسم ؟

والحق سبحانه لا يقسم إلا على الشيء العظيم ، ونحن البشر نقسم لنؤكد كلامنا ، كما تقول : والله إنْ ما حدث من فلان كذا وكذا سأفعل كذا وكذا ، أما الحق سبحانه فكلامه صادق ونافذ دون قسم ، فما بالك إنْ أقسم ؟

فالحق سبحانه هنا يُقسم بالقلم ، والقلم يُطلق على القلم الذى نكتب به ، لذلك قال هنا ﴿ وَمَا يَسْطُرُونَ (١) ﴾ [القلم] ويُطلق القلم أيضاً على القداح التى كانوا يقترعون بها إذا اختلفوا على شيء ﴿ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ (٤٤) ﴾ [آل عمران]

وقد ذكر الحق سبحانه القلم مجموعاً فى آية أخرى ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٧) ﴾ [لقمان]

والأقلام إنما كانت تُؤخذ من الأشجار ذات الغصون والفروع ، ولا تُؤخذ من النبات الذى ليس له ساق مثل العُشب ؛ أو النجم الذى ينتشر على سطح الأرض.

---

(١) هذا من قول الشيخ الشعراوى نفسه رحمه الله .

ثـم يقـول الحق سبحانه : ﴿ وَمَا يَسْطُرُونَ (١) ﴾ [القلم] أى : يكتبون . والبعض من العلماء قال : ﴿ مَا يَسْطُرُونَ (١) ﴾ [القلم] أى ما تكتبه الحفظة من أعمال بنى آدم . وغيرهم قالوا : أى ما تولَّى الله لعباده من الكتابة التى فيها منافعُ الخلق ومصالح العباد والبلاد .

ومـا تكتبـه الحفظة من أعمال البشر ، ذكره الحـق سبحانه فى قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (١٠) كِرَامًا كَاتِبِينَ (١١) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ (١٢) ﴾ [الانفطار] ويقول تعالى : ﴿ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ (٢١) ﴾ [يونس]

ويقـول الحق سبحانـه : ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ (٨٠) ﴾ [الزخرف]

فهـم يكتبون كل ما يفعله البشر ويُسطرونه فى كتب تكون عند مليك مقتدر بكيفية لا نعلمها ، ويوم القيامة يُقال للإنسان ﴿ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (١٤) ﴾ [الإسراء]

فكلّ إنسان يقرأ كتابه بنفسه ، والكتابة ليست كما نظن فقط ، ولكنها تسجيل للصوت والأنفاس ويأتى يوم القيامة ليجد كلُّ إنسان ما فعله مسطوراً ، فاقرأ كتابك بنفسك حتى تُقام عليك الحجة ولا يكون عندك اعتراض .

ويقـول تعـالى : ﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا (٤٩) ﴾ [الكهف]

هـذا الكتاب سيلقاه يوم القيامة منشـوراً أى مفتوحاً مُعداً للقراءة ، لا يترك كبيرة أو صغيرة إلا عدَّها وحسبها ، فكلُّ ما فعلوه مُسجَّل مُسطّر فى كتبهم .

فالملائكـة يكتبـون الحسنـات ويكتبـون السيئـات ، و(واو الجماعـة) فـى

﴿يَسْطُرُونَ (١)﴾ [القلم] المقصود بها الملائكة . وقد قال رسول الله ﷺ : « إذا كان يوم الجمعة وقفت الملائكة على باب المسجد يكتبون الأولَ فالأولَ ، ومثل المهجِّر[١] كمثل الذى يهدى بدنة ، ثم كالذى يهدى بقرة ، ثم كبشاً ثم دجاجة ثم بيضة ، فإذا خرج الإمام طووا صحفهم ويستمعون الذكر»[٢].

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢﴾

المجنون أى المستور عقله ، الذى يفعل الأفعال بدون أى غاية ، أما العاقل فيفعل الفعل لغاية ولهدف يرجوه ، وكلام المجنون لا ينسجم مع بعضه .

إن أفعال المجنون وأعماله تكون متقطعة غير مستقيمة ، فالمجنون لا ضابط له فى حركاته ولا فى سكناته ولا فيما يدع ، فالمجنون هو مَنْ فقد التوازن الفكرى فى الاختيار بين البدائل ، وحين تُؤخذ منه هذه القدرة على التوازن الفكرى يصبح غير أهْل للتكليف .

فالتكليف فيه اختيارُ أنْ تفعل كذا ولا تفعل كذا ، والمجنون لا يملك القدرة على هذا الترجيح ، فالمجنونُ لا عقلَ له ، حتى إنَّ الله عز وجل قد أعفاه من التكليف .

ونقول : انظروا إلى المجنون بالنسبة لأصحاب العقول ، صاحب العقل قصارى ما يصل إليه أنْ تكون كلمته نافذة لا يعترض عليه أحد ، وأنْ يقول ما يريد ولا يحاسبه أحد .

---

(١) قال الأزهرى : الصواب فى معنى التهجير هنا ما قاله النضر بن شميل : التهجير إلى الجمعة وغيرها التبكير والمبادرة إلى كل شيء . وقد قال ﷺ : « لو يعلم الناس ما فى التهجير لاستبقوا إليه » . أراد التبكير إلى جميع الصلوات وهو المضى إليها فى أول أوقاتها . [لسان العرب – مادة : هجر] .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (١٠٥٦٨) والبخارى فى صحيحه (٩٢٩) والبيهقى فى السنن الكبرى (٥٨٦٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

أما المجنون فهو يصل إلى هذا لأنه إنْ قال قولاً فلا أحد يعترض عليه ، وإنْ فعل فعلاً غير لائق فلا أحد يحاسبه ، بل إنه سبحانه وتعالى لا يحاسبه يوم القيامة .

ولكن هذا لا يمنع أن حركة المجنون غير مرتَّبة ولا منسّقة ، ولا تمر على عقله لأن عقله مختلُّ الإدراك وفاقد للقدرة على الاختيار بين البدائل .

والمجنون يعمل ما يخطر له دون أنْ يعرض الأعمال على العقل أو التفكير لذلك من عدالة الله فى خَلْقه أننا لا نؤاخذ المجنون على تصرُّفاته حين يعتدى على أحد منا بالسبِّ أو الضرب مثلاً ، ولا نملك إلا أنْ نبتسم له وندعو الله أنْ يعافينا مما ابتلاه به .

وأنتَ يا محمد بنعمة ربك لستَ بمجنون ، والنعمة هنا هى ما أنزله الله على رسول الله من الكتاب والحكمة ، فهى المنهج الحق ، وقد هداك الله إلى هذا المنهج القويم ، فلقد كنت ضالاً تبحث عن الهداية ، فجاءتك النعمة الكاملة من الله .

ومَنْ هداه الله إلى النعمة الكبرى لا يكون مجنوناً أبداً ، فالمجنون يتصرف بلا منطق ، يضحك بلا سبب ويبكى بلا سبب ، ويضرب الناس بلا سبب ، فهل رأيتم محمداً ﷺ يفعل شيئاً من هذا ؟

والنعمة التى أنزلها الله على رسوله ليست بسحر كما قال بعضكم لأنه يملك من البيان ما يملكون وفوق ما يملكون ويُحسنون ، ولا يفعل رسول الله معهم ما يجعلهم يؤمنون على الرغم منهم .

وليس القرآن كذلك بكلام كهنة ، لأن رسول الله نشأ بينهم ويعلمون أنه الصادق الأمين الذى لم يتلقَّ علماً من أحد ، فضلاً عن أن كلام الكهان له سَمْت خاص وسجع معروف ، والقرآن ليس كذلك .

ويعلمون أنه كلامٌ نطق به رجل عاقل، فكلام المجنون لا ينسجم مع بعضه، فهل أحد من المشركين أخذ على رسول الله أيَّ سلوك يمكن أن يشير إلى عدم ترتيب الأفعال ؟ لا .

وإذا كان المجنون فاقد الميزان العقلى الذى يختار بين البديلات، فكيف يقولون ذلك عن سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام وهو قد عاش بينهم، ولم يكُنْ قط فاقداً لميزان الاختيار بين البديلات، بل كانوا يعتبرونه الصادق الأمين، وكانوا يحفظون عنده كل غال ونفيس لهم حتى وهم كافرون به[1].

لقد قالوا ذلك على محمد ظلماً له وبغوغائية، وكل واحد يُلقى اتهاماً ليس له من الواقع نصيب، لذلك قال الحق تبارك وتعالى لأصحاب هذه الاتهامات: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ (٤٦) ﴾ [سبأ]

أى أنْ يجلس كلُّ اثنين ويتدارسان: هل محمد عاقل أم مجنون ؟ وسيجد كلٌّ منهما من واقع تجربته أن محمداً هو أكثر الناس أمانة، وكان الجميع يسمونه الأمين حتى قبل أنْ يتصل به الوحى، وليس من المعقول أنْ تضره نعمة ربه، أو أنْ يفقد بالوحى توازنه الخلقى .

فلم يكُنْ فى سلوكه ﷺ أدنى أثر من جنون، فالمجنون لا يدرى ما يفعل ولا يعقل تصرفاته ولا يُسأل عنها ولا نستطيع أنْ نتهمه بشيء فنقول عنه مثلاً كذاب أو قبيح، لأن آلة الاختيار عنده معطلة، وليس لديه انسجام فى التصرفات، فيمكن أنْ يضحك فى وجهك ثم يضربك فى نفس الوقت، يمكن أنْ يعطيك شيئاً ثم يتفُل فى وجهك .

---

(١) قال ابن إسحاق فيما ذكره ابن هشام فى السيرة النبوية (١/ ٤٨٥): أما على فإن رسول الله ﷺ أخبره بخروجه وأمره أن يتخلف بعده بمكة حتى يؤدى عن رسول الله الودائع التى كانت عنده للناس، وكان رسول الله ليس بمكة أحد عنده شيء يخشى عليه إلا وضعه عنده، لما يُعلم من صدقه وأمانته ﷺ. وقال السهيلى فى الروض الأنف (٤/ ١٥٣): أقام على بن أبى طالب بمكة ثلاث ليال وأيامها حتى أدى عن رسول الله الودائع التى كانت عنده للناس حتى إذا فرغ منها لحق برسول الله فنزل معه على كلثوم بن هدْم .

وقد نصح الحق سبحانه هؤلاء الذين اتهموا رسول الله أن به والعياذ بالله مسًّا من الجنون ، فالجنون هو أنْ تحدث الأفعال بلا مقدمات وبدون تدبُّر أو نظر فى آثارها ، وتكون خالية من حكمة فاعلها .

أما العاقل فهو الذى يرتّب الأفعال بحكمة ويوازن ويدرس وينتهى به عقله وحكمته إلى حسن ما يفعل ويعامل الناس بانسجام وسوية خلقية عالية ، فهل أحد من المشركين أخذ على رسول الله ﷺ أىّ سلوك يمكن أن يشير إلى عدم ترتيب الأفعال ؟ لا .

فاجلسوا مثنى أو فرادى وادرسوا تصرفاته ستجدون أنها تصرفات منطقية مبنية على خُلُق كامل مكتملْ ، وهو سلوك يختلف بالتأكيد عن سلوك المجنون، لأن المجنون لا ضابطَ له فى حركاته ولا فى سكناته ، فـ (الجِنَّة) هى اختلال العقل ، فمَنْ به جِنَّة إنما يتصرف ويسلك بأعمال لا يرتضيها العقل .

ولم يكن رسول الله وحده الذى اتُّهم بالجنون ، بل اتُّهم من قبله كل الأنبياء والرسل ، قال تعالى : ﴿كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٥٢)﴾ [الذاريات]

فلستَ أول رسول يكذِّبه قومه ويتهمونه بالسحر والجنون ، والنبى لا يكون أبداً ساحراً أو مجنوناً ، فهاتان الصفتان أبعد ما تكونان عن وصف النبى ، لأنه قدوة فى السلوك ، وما شاهدتم عليه أبداً علامة من علامات السحر أو الجنون .

ثم إن الاتهام بالسحر ينافى الاتهام بالجنون ، فكيف جمعتم عليه هاتين الصفتين ، وأيضاً فإنهم اتهموه بالكهانة وجمعوا بين الجنون والكهانة ، فقال تعالى : ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ (٢٩)﴾ [الطور]

وفى سورة الصافات قالوا : ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ (٣٦)﴾ [الصافات] ، فكيف يستقيم نظم الشعر وترتيب أفكاره وأبياته مع

الجنـون الذى تحدث الأفعال معـه بلا مقدمات وبدون تدبُّر أو نظر فى آثارها ، وتكون خالية من حكمة فاعلها .

إذن فالخلـل فى تفكيركم أنتم ، والحـق سبحانه يُسلِّى رسوله فيقول : ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَـٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ (٣٣) ﴾ [الأنعـام]

فالحـق سبحانه هنا يخاطـب رسوله للتسلية ، ويعطيـه الأسوة التى تجعله غـير حزيـن لما يقولونـه ، وكان رسول الله يحـزن لأن هناك أناسـاً لم يؤمنوا فيُسليه الحق سبحانه بأنه يعلم أنه يُحزنه الذى يقولون من الكفر ومن اتهامات لرسول الله .

ألم يقولوا إنه شاعر ؟ ألم يقولوا إنه ساحر ؟ ألم يقولوا إنه مجنون ؟ ألم يقولوا إنه كذاب ؟ ألم يقولوا إنه كاهن ؟

فـلا تحزن أنهم يُكذِّبونك ، فأنت يا محمد منزه عن كل ما اتهموك به ، وأنت فـى نظرهـم الصادق الأمين ، ولكنهم يحسدونك على مـا أنعم الله به عليك من نعمته سبحانه ، هم يُكذِّبون آيات الله والقرآن لأنها تأمرهم بالتخلى عن عبادة ما يعبدون ، وأنْ يعبدوا إلهاً واحداً هو الله .

والحق سبحانه يزيح عن رسوله محمد ﷺ هموم اتهاماتهم له بأنه مجنون، فيقول تعالى :

﴿ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ ﴾

فالحـق سبحانـه أعدَّ رسولـه ليستقبل النبوة بقـوة الفعل ، لا بسفـه الرأى ،

ولـه فى إبلاغ رسالة ربه ثواب لا مقطـوع ولا ممنوع ، فجزاؤه ﷺ موصول لا منقوص .

ويُقـال فى اللغة : مننتُ الحبل إذا قطعته ، فأجرك وثوابك غير مقطوع وغير محسوب عليك ولا يُمنّ به عليك .

فلك يا محمد على صبرك على أذاهم ثوابٌ عظيم ، وأجرك وثوابك غير مُقدَّر ، وهو تفضّل من الله لأن الجزاء مقدَّر ، أما التفضل فغير مقدَّر ، ولذلك قال رسول الله ﷺ :

« لـن يُدخـل أحداً عملُه الجنةَ . قالـوا : ولا أنت يارسول الله ؟ قال : ولا أنا إلا أنْ يتغمدنى الله بفضل ورحمة »[1].

ويقـول الحـق سبحانه : ﴿ فَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُـهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٤) ﴾ [البقـرة] ، والفضـل هو الزيادة عما تستحق ، وعمل الدنيا كله لا يساوى نعمـة من نعم الله على خَلْقـه ، فأنت تذكرت العمل ولم تتذكر الفضل ، وكل من يدخل الجنة فبفضل الله سبحانه .

حتى الشهداء الذين أعطوا حياتهم وهى كل ما يملكون فى هذه الدنيا ، يقول الحق سبحانه عنهم : ﴿ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِـمْ مِـنْ خَلْفِهِـمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُـونَ (١٧٠) ﴾ [آل عمـران]

فـإذا كان هـؤلاء الشهداء وهم فى أعلى مراتب الجنة قـد دخلوا بفضل الله ، فما بالك بمَنْ هم أقلّ منهم أجراً ، والله سبحانه له فضل على عباده جميعاً .

واقرأ قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (٢٤٣) ﴾ [البقـرة]

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٦٧٣ ، ٦٤٦٣) وكذا مسلم فى صحيحه (٢٨١٦) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

ولذلك أحب أنْ أقول دائماً مع إخوانى هذا الدعاء : « اللهم بالفضل لا بالعدل ، وبالإحسان لا بالميزان ، وبالجبر لا بالحساب وبالجود لا بالمجهود » أى : عاملنا بالفضل لا بالعدل ، وبإحسانك لا بالميزان ، لأن الميزان يتعبنا .

فدخول الجنة لا يكون بالأعمال وحدها ، ولكن بفضل الله ورحمته ومغفرته ، فالفضل هو الذى يعطينا المنازل المتميزة وقد يُضيِّعنا العدل .

فالمسألة كلها بالفضل من الله ، ولكن فضل الله سبحانه شرطه العمل الصالح فأنت تعمل العمل الصالح ويعطينا ربنا أضعافه ، فالنجاة لا تكون إلا برحمة الله وفضل منه سبحانه .

فالمؤمن الحق لا يفرح بعمل إنما يفرح : إنْ نال فضل الله ورحمته كأنه يقول لربه : لن أتكل يارب على عملى بل فضلك ورحمتك هما المتكل ، لأننى لو قارنتُ العبادة التى كلَّفتنى بها بما أسديت إلىَّ من نِعَم وآلاء لقصُرَتْ عبادتى عن أداء حقك علىَّ ، فإنْ أكرمتنى بالجنة فبفضلك .

فالجزاء فى الآخرة عند التحقيق والتعقل محضُ فضلٍ من الله ، فالفرح لا يكون إلا حين يشملك فضلُ الله وتعمُّك رحمته .

وأجرك على صبرك عليهم مؤكد ثابت واقع ، لذلك قال تعالى : ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ (٣)﴾ [القلم] فاستخدم الحق سبحانه (إن) وهى للتوكيد ثم استخدم لام التوكيد (لأجراً) زيادة فى تأكيد الأمر .

فـ (إنَّ) هنا مؤكدة ، واللام التى فى أول قوله (لأجراً) لزيادة التأكيد ، ومن أجره ﷺ الذى لاينقطع ليلاً ولا نهاراً صلاة الله تعالى عليه وصلوات الملائكة وصلوات المؤمنين عليه .

يقول تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا

عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٥٦) ﴾ [الأحزاب] ، وصلاة الله تعالى عليه رحمة ، ومن المؤمنين والملائكة دعاء .

والصلاة من الله تعالى على نبيه وصلاة الملائكة والمؤمنين عليه من الأجر غير الممنون ، وهى تعنى الرحمة والعطف والحنان ، والصلاة من الله رحمة شاملة وعامة ، ويكفى من رحمته سبحانه لنبيه ﷺ أنْ جعله خاتمَ الرسل .

والحق سبحانه يقول واصفاً نبيه محمداً :

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾

فإذا كنتم تتهمون رسول الله بالجنون ، فهل يكون المجنون على خُلُق عظيم؟ وقد خلق الله محمداً على خلق عظيم .

وقد أعدَّ الله رسوله ليستقبل النبوة بقوة الفعل لا بسفه الرأى ، وله فى إبلاغ رسالة ربه ثواب لا مقطوع ولا ممنوع ، وهو على الخُلق العظيم ، والخُلق العظيم هو استقبال الأحداث بملَكات مستوية وليست متعارضة ، ولا يملك ذلك إلا عاقل .

وقد شهدوا بخُلُق محمد ﷺ، فكيف يأتى هذا الخلق العظيم من مجنون ؟ وكيف يصدر السلوك المتصف بالسلامة والصلاح والخير من مجنون ؟

كانت كل اتهاماتهم إذن لرسول الله تنبع من إصرارهم على الكفر ، لا من واقع لمسوه ، فكلُّ ما قالوه فى رسول الله هم أول الناس الذين شهدوا عكسه ولمسوا نقيضه .

فالخلق العظيم يتنافى مع الجنون ، وكذلك فعل كل قوم مع رسولهم ، إنهم رموه بالسفه والجنون ، فكلما جاء رسول لقومه بمنهج حقٍّ ليطمس معالم

الباطل قابله قومه بمثل تلك المقابلة .

فالخلق العظيم معناه الخلق المضبوط بالقيم ، وخلق رسول الله ﷺ مضبوط بالقيم حتى صار ملكةً وليس أمراً افتعالياً ، وحين يقول الناس عن إنسان إنَّ خلقه الكرم أى تأصلتْ فيه صفة الكرم تأصُّلاً بحيث أصبحت تصدر عنه أفعال البذل بيُسْر وسهولة ، وفى أعمال المعانى نسميها خُلقاً ، وفى أعمال المادة نُسميها آلية .

فأنتم تقولون عن الرسول : إنه مجنون فاجلسوا مثنى أو فرادى وادرسوا تصرفاته ستجدون أنها تصرفات منطقية مبنية على خلق كامل مكتمل ، وهو سلوك يختلف بالتأكيد عن سلوك المجنون ، لأن المجنون لا ضابط له فى حركاته ولا فى سكناته ولا فيما يدع .

لقد كان خلق رسول الله خلقاً عظيماً ، لأن الخلق هى الصفات التى تؤهل الإنسان لأنْ يعيش فى مجتمع سليم وهو مسالم ، وما دام خُلقه سليماً فمعيار الحكم عنده سليم .

والحق سبحانه يقرن بين العقل والخلق ، فيقول : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤) ﴾ [القلم]

ويُقال : فلان على خُلق أى يملك من الصفات ما يجعله على الجادّة من الفضائل مثل الصدق والأمانة ، وهذه صفات ينظمها فى مواقفها الفكر العقلى، وهو الذى يميز لنا أى المواقف تحتاج إلى شدة أو لين أو حكمة ، وكلّ هذه أمور يرتبها العقل .

والخلق الرفيع لا يصدر عن مجنون لأنه لا يعرف كيف يختار بين البدائل ، لذلك لا نحاسبه نحن ولا يحاسبه الله أيضاً ، والخلق العظيم لا يكون فى مجنون لأن الخُلق الفاضل لا يُوضع إلا فى مكانه ، بدليل قوله تعالى : ﴿ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (٢) ﴾ [القلم]

فالحق سبحانه نفى عن رسول الله صفة الجنون ، وأثبت له صفة الخلق العظيم ، والمجنون لا خلق له ، ولا يُحاسب على تصرفاته فهو يشتم هذا ويضرب هذا ويبصق فى وجه هذا ، ولا نملك إلا أنْ نبتسم فى وجهه ونشفق عليه .

ولقائل أنْ يقول : كيف يسلب الله إنساناً نعمة العقل ، وهو الإنسان الذى كرّمه الله ؟ وكيف يعيش هكذا مجرد نسخة لإنسان ؟

ولنعلم الحكمة من هذه القضية علينا أنْ نقارن بين حال العقلاء وحال المجنون ، لنعرف عدالة السماء وحكمة الخالق سبحانه ، فالعاقل نحاسبه على كل كبيرة وصغيرة ومقتضى ما تطلبه من عظمة فى الكون ، ومن جاه وسلطان ألاَّ يعقِّب على كلامك أحد وأنْ تفعل ما تريد .

ألا ترى أن المجنون كذلك يقول ويفعل ما يريد ، ثم يمتاز عنك أنه لا يُسأل فى الدنيا ولا فى الآخرة ؟ أليستْ هذه كافية لتعوِّضه عن فَقْد العقل ؟ فلا تنظر إلى ما سُلب منه ، ولكن إلى ما أعطاه من ميزات فى الدنيا والآخرة .

والمخبول تتأتى منه حركات وأقوال دون أن تمر على العقل الواعى الذى يختار بين البديلات ، فلا يكون له سيطرة على إرادته ولا على خلقه ، فهل عهدكم بمحمد أنْ كان مخبولاً ؟ هل رأيتم عليه مثل هذه الصفات ؟

لذلك ردَّ الله سبحانه عليهم هذا الافتراء بقوله تعالى : ﴿ ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (١) مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (٢) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ (٣) وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤) فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ (٥) ﴾ [القلم]

والمجنون لا يكون على خلق أبداً ، فالمجنون ليس له خلق ، فالخلق هو الملَكة المستقرة للخير ، فكيف يكون محمد مجنوناً وهو على خلق عظيم ؟ ثم هل جرَّبتم عليه شيئاً مما يفعله المجانين ؟

فكيف يكون ذو الخلق مجنوناً ؟ ولو كان ﷺ مجنوناً فلماذا استأمنوه على ودائعهم ونفائسهم واطمأنوا إليه وسمَّوه الصادق الأمين ؟ إنهم ما فعلوا ذلك إلا لأنهم يعلمون خلقه ، وأنه محكوم بقيم من الحق والخير لا تتزحزح .

والأخلاق مقاييسها واحدة ، فقيسوا محمداً بأخلاقه ، لا بالدين والرسالة التى جاء بها ، انظروا إلى خُلُقه فيكم ، ولن يستطيع واحد منكم أنْ يتهمه فى خُلقه بشيء ، وما دام لا يُتهم فى خُلقه فلا يُتّهم كذلك فى عقله ، لأن العقل هو ميزان الخلق وأساسه .

لذلك يخاطب الحق سبحانه نبيه محمداً ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤) ﴾ [القلم]، فخُلقك العظيم أكبر دليل على أنك لست مجنوناً ، فأنت يا محمدُ بريء من هذه التهمة .

ففاقد العقل لا يمكن أنْ يكون منطقياً فى تصرفاته ولا فى كلامه ، ومحمد ﷺ ليس كذلك ، فأنتم تعرفون خلقه وأمانته ، وتسمونه « الصادق الأمين » ، وتعترفون بسلامة تصرفاته وحكمته ، فكيف تقولون عنه مجنون ؟

والخلق يسوى تصرفات الإنسان فيجعلها مُسْعدة غير مفسدة ، فكيف إذن يكون ذو الخلق مجنوناً ؟ إذن ليس محمد مجنوناً ، وما كان محمد ليكون صاحبَ خلق عظيم مع الناس ، ثم يكون غير سوىّ التصرفات ؟

وقد قال سعد بن هاشم بن عامر : أتيت أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها ، فقلت : أخبرينى بخلق رسول الله . قالت : كان خلقه القرآن ، أما تقرأ القرآن قول الله عز وجل : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤) ﴾ [القلم] (١)

ولقد كان خلق رسول الله خلقاً عظيماً ، لأن الخلق هو الصفات التى تؤهل الإنسان لأنْ يعيش فى مجتمع سليم وهو مسالم ، وما دام خُلقه سليماً فمعيار

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٢٤٦٠١) والبخارى فى كتاب (الأدب المفرد) (٣٠٨) وكذا فى كتاب (خلق أفعال العباد) (٨٧/١) من حديث عائشة رضى الله عنها .

الحكم عنده سليم .

فعندما يُقال : فلان على خلق . أى : يملك من الصفات ما يجعله على الجادَّة من الفضائل مثل الصدق والأمانة ، وهذه صفات ينظمها فى مواقفها الفكر العقلى ، وهو الذى يميز لنا أىَّ الموقف تحتاج إلى شدة أو لين أو حكمة ، وكل هذه أمور يرتبها العقل .

وإذا كانت أم المؤمنين عائشة قد قالت عن رسول الله : « كان خلقه القرآن » فإن زوجه السيدة خديجة قالت عنه ﷺ فى بداية الإسلام وعند بدء الوحى تصف رسول الله وتصف أخلاقه ، فقالت تشجعه وتؤازره : « والله لا يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم، وتقرى الضيف ، وتحمل الكلَّ ، وتعين على نوائب الدهر »[(١)].

فأنت تصل رحمك وعشيرتك وأهلك وتطعم الضيف وتعين الضعيف واليتيم على نوائب الدهر ومصائبه ، فكيف يخزيك الله ويتخلَّى عنك ؟

فها هى خديجة صدَّقت به ولم تكُنْ سمعت القرآن ، وما أنْ أخبرها رسول الله ﷺ بمخاوفه من أنَّ ما يأتيه قد يكون جناً ، فقد بادرت رضى الله عنها وأرضاها إلى الإيمان به دون أنْ تسمع منه آية واحدة ، وكذلك الصِّديق أبو بكر وغيرهما من المؤمنين الأوائل .

لماذا ؟ لأنهم بنوْا على تاريخه السابق واعتمدوا على سيرته فيهم قبل الرسالة ، فعلموا أن الذى لا يكذب على الناس مستحيل أنْ يكذب على رب الناس .

وها هو أبو بكر الصديق رضى الله عنه يصدق أن محمداً رسول من الله فَوْر أن يخبره بذلك ، وعندما علم بحادثة الإسراء والمعراج بادر بالتصديق ولم

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٦٠) كتاب الإيمان ، والبخارى فى صحيحه (٣) من حديث عائشة رضى الله عنها . والكلّ هو العاجز الثقيل لا خير فيه . وتقرى الضيف : أى تكرم الضيف ، والنوائب جمع نائبة وهى ما بالإنسان من الملمات والمصائب والحوادث . [لسان العرب – مادة : ندب] .

يتردد ، ولما سُئل عن ذلك قال : إننا نصدِّقه فى الأمر يأتى من السماء ، فكيف لا نصدقه فى هذه ، فإن كان قال فقد صدق[١].

وهكذا نجده ﷺ قد امتلك سماتاً وقد صاغ الله لرسوله أخلاقاً ، تجعل مَنْ حوله يصدقون كلَّ ما يقول فور أنْ ينطق ، وكما قال رسول الله : « أدبنى ربى فأحسن تأديبى »[٢] ، فرسول الله هو الذى بلغ المرتبة العليا فى التربية والأدب ، وهى تربية حقَّة لأن الله تعالى هو الذى ربَّاه وأدَّبه أحسنَ تأديب .

وقد كان من صفاته وأخلاقه ﷺ أنه إذا جلس فى مجلس توزعتْ نظراتُ عينه على كل الجالسين حتى يُسوِّى بينهم ولا ينظر لأحد أكثر من الآخر ، ولا يميز أحداً منهم على أحد ، حتى لا يظن أحدهم أن النبى فضَّله على غيره .

وكان رسول الله لا يقرِّب إلا أهل الفضل والتقوى الذين يعرف منهم أنهم لا يستغلون هذه المكانة لنيل سلطة بين الناس .

وكان رسول الله إذا وضع يده فى يد أحد الصحابة يسلم عليه لا ينزع يده منه حتى يكون هو الذى ينزع يده من يد رسول الله[٣] ، وهذا أدب عالٍ من أدب الحق تبارك وتعالى له .

---

(١) قالت عائشة : لما أسرى بالنبى إلى المسجد الأقصى أصبح الناس يتحدثون بذلك فارتد ناس ممن كانوا آمنوا به وصدقوه وسعوا بذلك إلى أبى بكر فقالوا : هل لك إلى صاحبك يزعم أنه أسرى به الليلة إلى بيت المقدس . قال : أو قال ذلك ؟ قالوا : نعم قال : لئن كان قال ذلك لقد صدق . قالوا : أو تصدقه أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس وجاء قبل أن يصبح ؟ قال : نعم إنى لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك وأصدقه بخبر السماء فى غدوة وروحة ، أخرجه الحاكم فى مستدركه (٣/٦٢) وصححه وأقره الذهبى.

(٢) حديث : أدبنى ربى فأحسن تأديبى . قال ابن حجر العسقلانى فى الإمتاع بالأربعين المتباينة السماع (١/٩٧) : أخرجه العسكرى ضعيف فى الأمثال فى أول حديث وسنده غريب وقد سئل عنه بعض الأئمة فأنكر وجوده ، وذكره السيوطى فى ضعيف الجامع الصغير (٢٤٩) وعزاه لابن السمعانى فى أدب الإملاء عن ابن مسعود وضعفه الألبانى .

(٣) أخرج ابن ماجه فى سننه (٣٧١٦) وابن المبارك فى الزهد (٣٩٢) عن أنس بن مالك قال : كان رسول الله إذا لقى الرجل فكلَّمه ، لم يصرف وجهه عنه حتى يكون هو الذى ينصرف ، وإذا صافحه لم ينزع يده من يده حتى يكون هو الذى ينزعها ، ولم يُر متقدماً بركبتيه جليساً له قط » .

ولقد كان رسول الله يجلس حيث انتهى به المجلس ، وكذلك كان صحابته فلا أحدَ يجلس دائماً بجانبه حتى لا يأخذ أحد من مكانته عند الرسول فرصة يتخيل معها الآخرون أنه صاحب حظوة فكلُّهم سواسية .

ويضيف علىّ كرم الله وجهه فى وصف مجلس رسول الله وخلقه فيه ، فيقول: « وكان إذا ذهب إلى قوم جلس حيث انتهى به المجلس ، وكان يجلس على الأرض ويأكل على الأرض : يعتقل الشاة أى يحلبها ويجيب دعوة المملوك»(١).

أهناك أدبٌ أكثر من هذا ؟ إنه الرسول الكريم ، يجلس حيث ينتهى به المجلس، لقد أراد أنْ يضرب لنا المثل حتى تتنوع اللقاءات ، فاليوم قد يجلس مؤمن بجانب اثنين جاء كل منهما من مكان آخر ، وهكذا تتحقق اندماجية الإيمان بتنوع اللقاءات .

وانظر إلى عظيم خلق رسول الله وأدبه رغم كونه نبيَّ الله ورسوله ، فقد كان يحمل حاجته بنفسه ، فإنْ عرض عليه أحدُ صحابته أنْ يحملها عنه قال : صاحبُ الشيء أولَى بحمله (٢). وهذا دليل تواضعه ﷺ وعدم تكبُّره .

ومما قاله أنس بن مالك مولى رسول الله الذى كان يخدمه وعشق خدمته ﷺ : « لقد خدمتُ رسول الله عشْر سنين ، فما قال لشيء فعلته : لم فعلته ؟ ولا

---

(١) عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ يجلس على الأرض ويأكل على الأرض ويعتقل الشاة ويجيب دعوة المملوك على خبز الشعير ، أخرجه الطبرانى فى المعجم الكبير (١٢٤٩٤) والبيهقى فى شعب الإيمان (٧٨٤٣) .

(٢) أورده الهيثمى فى مجمع الزوائد (١٢٢/٥) من حديث أبى هريرة وقال : « رواه أبو يعلى والطبرانى فى الأوسط وفيه يوسف بن زياد البصرى وهو ضعيف » . قال العجلونى فى كشف الخفاء (٢٥/٢) : ذكره القاضى عياض فى الشفاء بدون عزْو وهو ضعيف : بل بالغ ابن الجوزى فعدَّه فى الموضوعات. وخطّأه الملا على القارى فى « الأسرار المرفوعة » (حديث ٥٥٣) ..

لشيء تركته : لم تركته ؟ » [١].

وهـذه المعاملـة أثَّرت في زيد بن حارثـة كثيراً ، حتى أنـه عندما جاء أهله ليأخذوه لم يقبل أنْ يترك رسول الله ، فقد كان زيد من بنى كلب ولكن اللصوص سرقـوه من أهله وادعـوا أنه عبد فباعوه في سوق الرقيـق ، فاشتراه حكيم بن حـزام لحسـاب السيدة خديجـة ، وعندما تزوجهـا رسول الله أهـدتْ له زيد بن حارثة خادماً له .

وفي يـوم مـن الأيـام رآه أحدُ بنـي كلب في طرقـات مكة ، فأخـبر أهله به فأسـرع أبـو زيد إلى مكة يبحث عن ولده ، فدلوه عليه ، وأنه عند محمد ، فذهب إلى سيدنا رسول الله ، وأخبره خبر ولده ، وطلب منه أنْ يعود معه إلى بني كلب .

ولكن ، ما كان رسول الله ليتخلَّى عن خادمه الذى يحبه كل هذا الحب فقال لأبيـه : خـيِّره ، فإن اختاركـم فخذوه ، وإن اختارنى فأنا لـه أبٌ ، فلما خيَّروه قال سيدنا زيد : والله ما كنتُ لأختار على رسول الله أحداً [٢].

ومـا كان هذا من زيد إلا لأدب رسول الله معه وخلقه العظيم الكريم ، وهو ممـا أدَّبه ربه عز وجل الـذى قال له : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ (١٥٩) ﴾ [آل عمـران]

كأنَّ الحق سبحانه يقول : إن طبيعتك يا محمد طبيعة تتناسب مع ما يُطلب منك في هذه المسألة ، هم خالفوك وهم لم يستجيبوا لك حينما قلت : إلىَّ عباد الله ، إلى عباد الله إنى رسول الله .

وهذا شيء يُحفظ ويُغضب ، ولكنه لا يُحفظ طبيعتك ولا يُغضب سجيتك لأنك مفطور مع أمتك على الرحمة .

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده من حديث أنس بن مـالك (١٣٠٢١ ، ١٣٠٣٤) وكذا البزار فى مسـنده (٦٣٨٦ ، ٧١٢٢) وابن حبان فى صحيحه (٢٨٩٣ ، ٢٨٩٤) والبيهقي فى شُعب الإيمان (٨٣٨٣) ولفظه: « خدمت رسول الله فما قال لشيء فعلته : لم فعلته ؟ ولا قال لشيء كسرته : لم كسرته ؟ » .

(٢) أورده ابن حجر العسقلانى فى كتاب « الإصابة فى تمييز الصحابة » (ترجمة رقم ٢٨٨٤) فى ترجمة زيد بن حارثة الكلبى .

فكأنه يريد أنْ يُحنِّن رسول الله على أمته التى أصابته بالغم ، فقال له : إياك أنْ تُجازيها على هذا ، لأن طبيعتك أنك رحيم وطبيعتك أنك لستَ فظاً ، طبيعتك أنك لستَ غليظ القلب ، فلا تخرج عن طبيعتك فى هذه المسألة .

فبالرحمة المودعة ممّن خلقك فيك والتى تناسب مهمتك فى الأمة لِنْتَ لهم ، وما دامت تلك طبيعتك فلِنْ لهم فى هذا الأمر واعْفُ عنهم واستغفر لهم .

فأنا أطلب منك الرحمة التى أودعتها فى قلبك فاستعملها فى كلِّ مجال ، وبهذه الرحمة لنْتَ لهم ، وبهذه الرحمة التفوا حولك لأدبك الجمِّ ولتواضعك الوافر ، لجمال خُلقك ، لبسمتك الحانية ، ونظرتك المواسية ، ولتقديرك لظرف كل واحد حتى إنك إذا وضع أىّ واحد منهم يده فى يدك لم تسحب يدك أنت حتى يسحبها هو ، خُلق عالٍ .

كل ذلك أنا أجعله حيثية لتتنازل عن كل تلك الهفوات ، وليسعها خلقك وليسعها حلمك ، لأنك فى دور التربية والتأديب ، وهما يقتضيان ألاَّ تغضب لأىِّ بادرة تبدر منهم ، وإلا ما كنت مُربياً ولا مؤدباً .

إنها رحمةٌ طبعتَ عليها يا رسول الله من الحق الذى أرسلك وبالرحمة لنتَ لهم ، وظهر أثر ذلك فى إقبالهم عليك وحُبهم لك ، لأنك لو كنت على نقيض ذلك لما وجدت أحداً حولك . إذن : فالسوابق تثبت أن هذه هى طباعك ، وخُلقك هو الرحمة واللين .

ومن هذه الرحمة والسماحة التى كانت خُلقاً فطرياً فى رسول الله موقفه من أهله أهل مكة يوم فتح مكة ، فحين تمكَّن من الذين أساءوا إليه قال عندما دخل مكة : « يا معشر قريش ما ترون أنِّى فاعل بكم ؟ قالوا : خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم . قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء »[1].

فرغم أنهم عاندوه وتكبّروا على الحق وأخرجوا رسول الله من أحب البلاد

---

(١) أورده ابن هشام فى السيرة النبوية (٢/٤١٢) والسهيلى فى الروض الأنف (٧/٢٣٢) ، وابن سيد الناس فى عيون الأثر (٢/٢٢٦) وذلك أن رسول الله وقف على باب الكعبة فقال : « لا إله إلا الله وحده لا شريك له صدق الله وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده ، ألا كل مأثرة أو دم أو مال يُدعى فهو تحت قدمىَّ هاتين إلا سدانة البيت وسقاية الحاج ، ثم تلا هذه الآية : ﴿ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى (١٣) ﴾ [الحجرات] » .

إليه ، وها هو اليوم يدخلها منتصراً ، ولكن الحق لم يأت لاستعباد الناس ولكن لراحتهم ورفع رءوسهم ، لقد كان فى استطاعة رسول الله بعد أنْ تمكّن من كفار مكة أنْ يقضى عليهم جميعاً .

ولكنه لخلقه العظيم قال لهم : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » فأىّ رحمة هذه؟ وأىّ لين هذا الذى جعله الله فى قلبه ﷺ ؟ وهل مثل هذا النبى يُعارَض ويُنصَرف عنه ؟

فعلى الرغم من عداوة وشراسة مَنْ صادموا دعوته ﷺ ومحاولتهم إيذاءه بكل طريق ، فكان ﷺ لا يكفّ عن الدعاء لهم فيقول : « اللهم اهْد قومى فإنهم لا يعلمون »[١] ، وكان لا يكف عن قول : « لعل الله يُخرج من أصلابهم من يعبد الله »[٢] وقد تم ذلك بالفعل .

وقد كانوا على علم كامل بتاريخه وأخلاقه ، وسلوكه يعرفون حركاته وسكناته ، لقد حاربوه حرباً شعواء وحاربوا وعذّبوا الضعفاء من المؤمنين به، ورغم هذا كان يُوصى أتباعه أنْ يصلوا أرحامهم ومعاملتهم بالخُلق الحسن رغم كفرهم .

وها هى ذى أسماء بنت أبى بكر الصديق وأمها « قُتيْلة »[٣] كانت ما زالت

---

(١) لما كسرت رباعية رسول الله وشج وجهه يوم أحد شق ذلك على أصحابه وقال : « لو دعوت عليهم فقال : إنى لم أُبعث لعاناً ولكنى بعثت داعياً ورحمة ، اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون » . أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان بهذا اللفظ عن عبد الله بن عبيد وقال : مرسل ، ثم أخرجه مختصراً « اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون» فحُسب موصولاً عن سهل بن سعد . [مناهل الصفا فى تخريج أحاديث الشفاء ١/ ٦٠] .

(٢) لما خرج رسول الله إلى الطائف دعاهم إلى الله تعالى فردوا عليه رداً عنيفاً وكذّبوه ورموه بالحجارة حتى أدموا رجليه ، فرجع رسول الله مهموماً فلم يستفق من همومه إلا عند قرن الثعالب ، فناداه ملك الجبال فقال : يا محمد إن الله يقرئك السلام وقد سمع قولة قومك وما ردوا عليك فإن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين فعلت ، فقال ﷺ « بل أستأنى بهم لعل الله أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله » (أورده السهيلى فى الهدى والرشاد ٥/ ٤٠٩) .».

(٣) هى : قُتيلة بنت عبد العزى بن عامر بن لؤى ، قرشية زوجة أبى بكر الصديق وأم أسماء بنت أبى بكر وعبد الله بن أبى بكر طلقها أبو بكر فى الجاهلية فقدمت إلى ابنتها بهدايا فلم تقبلها وأبت أن تدخلها لأنها كانت مشركة ثم أسلمت وهاجرت إلى المدينة .

كافرة ، وتسأل أسماء رسول الله ﷺ أن تعطىْ من مالها شيئاً لأمها حتى تعيش وتقتات ، فسألت أسماء رسول الله : أفأصل أمى ؟ قال : نعم صِلِى أمك[١] .

ذلك هو سُمو الخلق الإسلامى ، فهو ﷺ يُعدِّى هذه المعاملة الحسنة حتى إلى الكفار ، بل وأكثر من ذلك إنْ كان الوالدان كافرين ليس ذلك فحسب بل ويدعوان الابن إلى الكفر ويجاهدانه عليه .

وما قالت عائشة رضى الله عنها أن رسول الله كان خلقه القرآن إلا بعد أنْ خبرتْ خُلقه وأدبه ، فقد كانت أم المؤمنين عائشة تغار حتى من ذكر خديجة أم المؤمنين ، فقد دخلتْ فاطمة بنت محمد على أبيها مغضبة ، فقال ﷺ :

« ما أغضبكِ يا أم أبيها ؟ » فقالت : والله إن عائشة قالت لى : إن رسول الله تزوج أمك ثيباً . ولم يتزوج بكراً غيرى . فقال لها رسول الله : إذا أعادت عليك هذا القول ، وانظر هنا إلى أدب النبوة فى الرد وسرعة الخاطر فقولى لها : ولكن أمى تزوجت رسول الله وهو بكر ، وتزوجتيه أنت وهو ثيب »[٢].

هذا كلام النبوة ، ومن بعدها لم تُعدها عائشة مرة أخرى .

ومن عظيم خُلقه ﷺ أنه أوصى أصحابه فقال : « لا يبلغنى أحد عن أحد

---

(١) أخرجه أبو داود الطيالسى فى مسنده (١٧٤٨) ، وأحمد فى مسنده (٢٦٩١٥ ، ٢٦٩٣٩) والسنن المأثورة للشافعى (٥٢٩) والطبرانى فى معجمه الكبير (٢٠٣ ، ٣٤٢) . والبخارى فى صحيحه (٢٦٢٠) وكذا مسلم فى صحيحه (١٠٠٣/٥٠) .

(٢) لقد كانت عائشة تغار من خديجة رضى الله عنها رغم أن رسول الله ﷺ ما تزوج عائشة إلا بعد وفاة خديجة ومن هذا ما أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٤٣٧) باب فضائل خديجة أن عائشة قالت لرسول الله : ما تذكر من عجوز من عجائز قريش حمراء الشدقين ، هلكت فى الدهر ، أبدلك الله خيراً منها فتغيَّر وجهه ﷺ وزجر عائشة غاضباً ، والله ما أبدلنى الله خيراً منها : آمنت بى حين كفر الناس ، وصدَّقتنى إذ كذبنى الناس ، وواستنى بمالها إذ حرمنى الناس ، ورزقنى منها الله الولد دون غيرها من النساء .

من أصحابى شيئاً ، فإنِّى أحب أنْ أخرج إليكم وأنا سليم الصدر »[١] أى : بدون انقباض عن أحد حتى يتجلى نوره على الجميع ، لعلَّ شعاعاً من النور يمسّ عاصياً أو منافقاً فيتوب إلى الله ويعود إلى الإيمان الصحيح .

بل إن رسول الله كان ذا حسٍّ عالٍ ، وانظر إليه ﷺ وهو يوصى بالجار ، فيقول : الجيران ثلاثة : فجار له حَقٌّ واحد وهو أدنى الجيران حقاً ، وجار له حقّان ، وجار له ثلاثة حقوق ، فأما الذى له حق واحد فجار مشرك لا رحم له، له حَقُّ الجوار .

وأما الذى له حقّان فجارٌ مسلم له حَقُّ الإسلام وحقُّ الجوار ، وأما الذى له ثلاثة حقوق فجارٌ مسلم ذو رحم ، له حق الإسلام وحق الجوار وحق الرحم [٢].

وهذا امتثالٌ للخلق الذى أمر به القرآن ، فقد قال تعالى : ﴿ وَاعْبُدُوا اللهَ وَلَا تُشْرِكُوا به شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ (٣٦) ﴾ [النساء]

حتى أنه ﷺ قال : « ما زال جبريل يُوصينى بالجار حتى ظننتُ أنه سيورثه»[٣] وقد كان هَمّ رسول الله أنْ يتواصل المسلمون مع بعضهم البعض بإحساس عالٍ وخلق عظيم ، فقال لأبى ذر : «يا أباذر إذا طبخت مرقة فأكثر

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٣٧٥٩) والبزار فى مسنده (٢٠٣٨) والبيهقى فى شعب الإيمان (١٠٥٩٧، ١٠٥٩٨) وأبو داود فى سننه (٤٨٦٠) والترمذى فى سننه (٣٨٩٦) والبيهقى فى سننه الكبرى (١٦٦٧٥) من حديث ابن مسعود وتمامه : فأتى رسول الله مال فقسمه ، فسمعت رجلين يقولان : هذه القسمة التى قسمها لا يريد الله بها ولا الدار الآخرة ثم أتيت النبى فقلت : يا رسول الله إنك كنت قلت (وذكر الحديث) وإنى سمعت فلاناً وفلاناً يقولان كذا وكذا فاحمر وجه رسول الله وقال : دعنا منك فقد أوذى موسى بأكثر من هذا فصبر . .

(٢) أخرجه الخرائطى فى مكارم الأخلاق (٢٤٧) والطبرانى فى مسند الشاميين (٢٤٣٠) والبيهقى فى شعب الإيمان (٩١١٣) عن عبد الله بن عمرو بن العاص .

(٣) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٠١٤ ، ٦٠١٥) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٤١/٢٦٢٥) من حديث عائشة رضى الله عنها . وكذا أحمد فى مسلم (٢٤٢٦٠ ، ٢٦٠١٣) .

ماءها وتعاهد جيرانك »[١].

هذا هو رسول الله ، وهذا هو خلقه العظيم ، فقد كان خلقه القرآن ، وهو ﷺ يجسد لنا مثلاً حياً للمؤمن الذى قال عنه : «إن مثل المؤمن كمثل النحلة أكلتْ طيباً ووضعتْ طيباً »[٢].

لقد كان رسول الله قرآناً يمشى على الأرض ، وقد كان تطبيقاً كاملاً للمنهج الذى جاء به من الحق تبارك وتعالى ، وهو أسوة سلوك .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝٥ بِأَيِّيكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ۝٦ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ۝٧ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۝٨ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ۝٩ ﴾

فسترى يا محمد وسيرى أهل مكة إذا نزل بهم العذاب ببدر ، هؤلاء الذين ادعوا أنك مجنون ، فستبصر فى الدنيا عاقبتهم وسيبصرون جزاءهم ، وأنهم سيصيرون ذليلين ملعونين ، وسيبصرون أنك ستصير معظماً فى القلوب .

والبعض من العلماء جعل هذا إبصاراً لأحوالهم يوم القيامة وعاقبتهم فى الآخرة ، وقد قال تعالى فى آية سورة القمر : ﴿ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَنِ الْكَذَّابُ[٣] الْأَشِرُ (٢٦) ﴾ [القمر]

---

(١) عن أبى ذر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يا أبا ذر إذا طبخت مرقة فأكثر ماءها وتعاهد جيرانك » . أخرجه مسلم فى صحيحه (١٤٢/٢٦٢٥) باب الوصية بالجار . وقد أخرجه ابن ماجه فى سننه (٣٣٦٢) ولفظه « إذا عملت مرقة فأكثر ماءها واغترف لجيرانك منها ». وقد أخرجه أحمد فى مسنده (٢١٤٢٨) بلفظ : « إذا صنعت مرقة فأكثر ماءها ثم انظر أهل بيت من جيرانك فأصبهم منه بمعروف » .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٦٨٧٢) والبيهقى فى سننه (٥٣٨٢) والحاكم فى مستدركه (٢٥٣) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص .

(٣) الكذاب الأشر : الذى لا يبالى ما قال . وقال البيضاوى فى تفسيره (٥/١٦٦) : الكذاب الأشر الذى حمله أشره على الاستكبار عن الحق وطلب الباطل .

والحق سبحانه سبق الكلام عن حدث إبصار العاقبة والمآل أى المستقبل بحرف (السين) ، كأنْ نقول (سيعلمون) وهذا عن المستقبل القريب ، أما عن المستقبل البعيد فتأتى كلمة (سوف) . فـ (سوف) تأتى لتدلّ على أوسع مدىً زمنىٍّ .

ولذلك فالآية تحتمل الأمرين ، أنهم سيرون عاقبة أمرهم فى الدنيا ثم فى الآخرة ، وذلك مثل قوله تعالى : ﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ (٢٢٧) ﴾ [الشعراء]

أى سيعلمون مرجعهم ونهايتهم كيف تكون ؟ والمنقلب هو المرجع والمآب والمصير الذى ينتظرهم .

وستبصرون يوم القيامة وتعلمون أن المجنون كان فيكم ، لا فى رسول الله وأصحابه ، وستعلمون فى أىِّ الفريقين المجنون ، فى فريقك أم فى فريقهم ؟

وقول الحق سبحانه ﴿ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ (٥) ﴾ [القلم] معلّق بالاستفهام بعده لأنه فعلٌ بمعنى الرؤية . وقد تأتى أبصر بمعنى علم وأدرك فالبصر يُقال للجارحه الناظرة . ويُقال أيضاً لقوة القلب المدركة .

فالمعنى على هذا : ستعلم ويعلمون يوم القيامة حين يتبين الحق من الباطل .

﴿ بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ (٦) ﴾

فستعلم يا محمد وسيعلم مخالفوك ومكذِّبوك مَن المفتون الضال منك ومنهم . ومعنى المفتون الذى قد افتُتن عن الحق وضلَّ عنه . والمفتون مفعول بمعنى المصدر أى الجنون والضلال ، أى بأيّكم الجنون والضلال؟ .

ولنا هنا وقفة لفظية مع قوله تعالى : (بأييكم) لأن السياق كان من الممكن أنْ يكون : أيّكم المفتون . أى أيُّكم المجنون .

فالفهم السطحى للأسلوب قد يتساءل : لماذا جاءت الباء هنا ؟ والبعض

قال : إن الباء هنا زائدة . ونقول :إياك أن تقول إن فى كلام الله حرفاً زائداً ، لأن معنى ذلك أن المعنى يتم بغير وجوده ويكون فضولاً وزائداً على الحاجة ولافائدة فيه .

ولكن عليك أنْ تقول : أنا لا أفهم لماذا جاء هذا الحرف . والعربى قديماً سمع القرآن ساعة نزوله ، وسمعوا قول الحق سبحانه :﴿ بِأَيِّيكُمُ الْمَفْتُونُ (٦) ﴾ [القلم]، ولم يعترض واحد منهم ولم يقل واحد منهم أن وجودَ الباء هنا خروجٌ عن الأسلوب الصحيح للغة .

فلو كان هناك حرفٌ واحد خارج عن مألوف وصحيح اللغة لصرخوا بها وأعلنوها ، والحق سبحانه قد تحداهم أنْ يأتوا باختلاف واحد فى القرآن أو بمطعن واحد فيه ، ولم يقُل واحد منهم إن فى القرآن لحناً ، وهذا دليل على أن الأسلوب القرآنى يتفق مع الملكة العربية .

وقوله الحق ﴿ بِأَيِّيكُمُ الْمَفْتُونُ (٦) ﴾[القلم] هى فى الأصل : فتبصر ويبصرون أيّكم المفتون . أى أييكم الضال المجنون ، ولكن الباء جاءت هنا لتؤدى معنى آخر ، فـ (مفتون) أى مفعول بمعنى المصدر أى : بأيّكم الجنون أو الضلال .

والبعض قال : أى بأيّكم الشيطان ؟ فالشيطان هو المفتون الذى إن اتبعه شخصٌ وأصبح كالساكن فى روحه فيكون متلبساً به ، لذلك قال : بأييكم المفتون ، أى فالشيطان هو الذى يسبب الضلال والجنون للإنسان .

ويقول الحق سبحانه عن الذى يمسه الشيطان فيقوم يتخبط كأنه مجنون: ﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ (٢٧٥) ﴾ [البقرة]

فالتخبُّط هو الضرب على غير استواء وهدى ، فتقول : فلان يتخبط أى أن حركته غير رتيبة وغير منطقية ، فهى حركة ليس لها ضابط ، ذلك هو التخبط وذلك هو الجنون .

فقوله تعالى : ﴿ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ..(٢٧٥) ﴾

[البقرة] فكأنَّ الشيطان قد مسَّ التكوين الإنسانى مساً أفسد استقامة ملكاته ، فالتكوين الإنسانى له استقامة ملكات مع بعضها البعض .

فكلُّ حركة لها استقامة ، فإذا ما مسَّه الشيطانُ فسد تآزر الملَكات ، فملَكاته النفسية تكون غير مستقيمة وغير منسجمة مع بعضها البعض ، فتكون حركتُه غير رتيبة وغير منطقية .

والباء فى قوله تعالى : ﴿ بِأَيِّيكُمُ الْمَفْتُونُ (٦)﴾ [القلم] ليست هى زائدة ، فالزيادة تكون عند البشر لا عند الله ولا يمكن أنْ يكون بالقرآن شىءٌ زائد ، فكلُّ كلمة فى القرآن جاءت لمقتضى حال يتحتم أنْ يكون فى هذا الموضع .

فالذى يتكلم هو الله ، وليس فى كلام الله حرف زائد بحيث لو حذفته يصح الكلام ، لا إنك إذا حذفتَ شيئاً فالكلام يفسد ولا يؤدى المراد منه ، لأن لله مراداتٍ فى كلامه ، وهذه المرادات لا بد أنْ يحقِّقها أسلوبه .

ومن العلماء مَنْ قال إن الباء فى قوله ﴿ بِأَيِّيكُمُ الْمَفْتُونُ (٦) ﴾ [القلم] بمعنى (فى) أى فى أيكم فى أى طائفة منكم الجنون .

ونلحظ أنَّ الحق سبحانه أشبع ياء (أى) بياء أخرى فكانا ياءين (بأييكم) ، وهذا إشارة أن جنون المشركين بلغ الغاية وتجاوز الحد ، وأنهم المجانين لا أنت ، لأن مثلك يا محمد لا يصح أنْ يُرْمى بالجنون ، فالذى على خلق عظيم لا يكون مجنوناً أبداً ، ومَنْ رماك بالجنون فقد رجع على نفسه بالجنون .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (٧) ﴾

فالحقُّ سبحانه أعلم بحال هؤلاء الكافرين وأعلم بحالك وحال المؤمنين معك ، فهم مشركون ضالون قد استحوذ عليهم الشيطان ، أما محمد ﷺ وأصحابه فمؤمنون مهتدون .

فربُّك يا محمد هو أعلم بمَنْ ضلَّ عن سبيله كضلال كفار قريش عن دين الله وطريق الهدى ، وهو سبحانه أعلم بمن اهتدى فاتبع الحق كما اهتديتَ أنت فاتبعتَ الحق .

إنَّ ربك يا محمد هو أعلم بمن أخطأ الطريق عن دينه ، وهو أعلم بالمهتدين لدينه ، فالله يعلم المهتدى والضال ، والمؤمن والكافر ، ولا يخفى عليه شيءٌ من أمرهم .

ولكن مَنْ هو (من ضلَّ عن سبيله) ، مَنْ ضل عن سبيله هو الذى ضلَّ الطريق فاتخذ منهجاً غير منهج الله ، ومشى فى الضلالة بعيداً عن الهدى وعن دين الله .

أى أنه تاه فى الدنيا فأصبح ولياً للشيطان وابتعد عن طريق الله المستقيم ، هذا هو الضال .

وهو إنما ضلَّ عن سبيله ، فغاية الإسلام أنْ تتبعوا السبيل الذى حدده الله لنا ، لأن سبيل الله هو الموصِّل حقيقةً للغاية التى نبتغيها ، فسُبلكم أنتم لا تُوصلكم إلىَّ لأنكم حددتموها بغاياتكم أنتم .

أما أنا فقد حدَّدتُ السبيل بغايتى ، فمَنْ أراد أنْ يصل إلىَّ فليتبع سبيلى ومنهجى لتهتدوا .

وكلمة (السبيل) أمر حسىّ ، والحق سبحانه يستعمله ليدلنا على المعنى العقدى والمعنوى ، فيوضحه لنا بأمر حسى أمامنا ، وعندما توجد فى مفترق طرق وتريد أنْ تصل إلى المنطقة الفلانية فانحرافك بمقدار ملليمتر واحد فى بداية الطريق يُبعدك عن الهدف ، وكلما امتدَّ بك السير اتسع المشوار وتبعد المسافة فأنت تتوه .

لذلك قال تعالى : ﴿ وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ (١٥٣) ﴾ [الأنعام]

والحق سبحانه إنما يهدى لطريق الحق والهدى بالقرآن ، يقول

تعالى :﴿ يَـأَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٦) ﴾ [المائدة]

فالرسول نور والكتاب مبين للحق والهدى ، والحق سبحانه يهدى من اتبع منهجه وهداه ، يهديهم سبل السلام ، فهناك رضوانٌ مُتّبع ، وكأنَّ اتباع الرسول النورَ الذى جاء بالكتاب المبين هو فى حَدِّ ذاته رضوانٌ من الله ، فالرضا كلَّ الرضا لمن اهتدى فاتبع .

ثم تأتى المكافأة ، الهداية إلى سبل السلام ، وسبل السلامُ متعددة ، فهناك سلام نفس مع نفسها ، وهناك سلام نفس مع أسرتها، وهناك سلامٌ مع جماعتها، وهناك سلامُ نفس مع أمتها ، وهناك سلامُ نفس مع العالم ، وسلامُ نفس مع الكون كله ، وهناك سلامُ نفس مع الله .

لذلك فالحق سبحانه يحذر رسول الله ﷺ من إطاعة هؤلاء الضالِّين المكذِّبين، فيقول سبحانه :

﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ ﴾

فلا تُطع يا محمد المكذبين بآيات الله ورسوله ، فهم كانوا يدعونه إلى دين آبائه ، فأمره الله تعالى أنْ يثبت على دينه ، فلا تطع المكذبين بوحدانية الله تعالى .

والذين كذَّبوا بآيات الله هم الكافرون ، وهم المشركون ، وهم الذين يرفضون الإسلام ويحاربون الدين ، فالتكذيب هو تأبٍّ من المكذِّب ، وهو الوقوف إيجابياً فى موقف الضد والصَّد عن سبيل الله والعمل على إبطال الدعوة إلى الله والقضاء عليها وإيقافها .

وهم لا يصلون إلى مرحلة التكذيب إلا بعد أن تكون قلوبهم قد امتلأت بالضلال ، لذلك يعلنون التكذيب للرسول ويتهمونه بالكذب فى بلاغه عن الله، وأنه أتى بالقرآن من عند الله .

فهم مكذِّبون فلا تُطعهم ولا تتبع أهواءهم ، يقول تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَمَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ (٣٧) ﴾ [الرعد]

لذلك قال الحق سبحانه مخاطباً نبيه ﷺ : ﴿ قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (٥٦) ﴾ [الأنعام] ، فما عليك إلا أنْ تبلغ هؤلاء المشركين ما أرسلناك به إليهم ، ولا تتبع أهواءهم التى تقود إلى الضلالة ، فمَنْ يتبع مثل تلك الأهواء ينحرف عن الحق ، ولا يكون من المهتدين .

ولتعلن ذلك عليهم صريحة واضحة ، لذلك قال تعالى : (قل) ، لئلاَّ يظنوا أنَّ هناك مجالاً عندك لمداهنتهم ، أو أن عندك أمراً وسطاً بين الحق والباطل .

لذلك نبَّه الحق سبحانه رسوله فقال :

﴿ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ۝٩ ﴾

فإياك أنْ يخدعوك أو يُخادعوك يا رسول الله فى شىء ، أو يساوموك على شىء ، مثلما قالوا : نعبد إلهك سنة وتعبد آلهتنا سنة[1].

وقد قطع الحق سبحانه هذا الأمر بأنْ أنزل :﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ (٤) ﴾ [الكافرون]

وهذا هو قطع العلاقات التام فى تلك المسألة التى لا تقبل المساومة ، وهى العبادة ، ونحن نعلم أن العبادة أمرٌ قلبى لا يمكن المساومة فيه ، وقطع العلاقات فى مثل هذا الأمر أمرٌ واجب ، لأنه لا يمكن التفاوض حوله فهى ليست علاقات ظرف سياسى ، ولكنه أمر ربانى يحكمه الحق سبحانه وحده .

---

(١) أخرج الطبرى فى تفسيره (٢٤/٦٦٢) عن ابن عباس أن قريشاً قالت لرسول الله : إنا نعرض عليك خصلة واحدة فهى لك ولنا فيها صلاح . قال : ما هى ؟ قالوا : تعبد آلهتنا سنة اللات والعزى ، ونعبد إلهك سنة قال : حتى أنظر ما يأتى من عند ربى فجاء الوحى من اللوح المحفوظ ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) ﴾ [الكافرون] .

وقد قال تعالى : ﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا (٧٣) ﴾ [الإسراء]

وهذه خبيثة من خبائثهم مع رسول الله ﷺ ، فقد كانوا يحاولون جادِّين أنْ يصرفوا رسول الله عمَّا بعثه الله به ، فمرَّة يقولون له : دَعْ آلهتنا نتمتع بها سنة ونأخذ الغنائم من ورائها وتحرم لنا بلدنا أى ثقيف كما حرَّمت مكة. ومرَّة يقولون له : لا تستلم الحجر ويمنعونه من استلامه حتى يستلم آلهتهم أولاً .

وهم يريدون أنْ يتعايش الإيمان والكفر ، لكن الحق تبارك وتعالى يريد قطع العلاقات معهم بصورة نهائية قطعية ، لا تعرف هذه الحلول الوسط .

وقطع العلاقات هنا ليس كالذى نراه مثلاً بين دولتين ، تقطع كلٌّ منهما علاقتها سياسياً بالأخرى ، وقد تحكم الأوضاع بعد ذلك بالتصالح بينهما والعودة إلى ما كانا عليه .

إنما قطع العلاقات مع الكفار قطعاً حتمياً ودون رجعة ، وكأنه يقول لهم : إياكم أنْ تظنُّوا أننا قد نعيد العلاقات معكم مرة أخرى ، لذلك تكرر النفى فى هذه السورة حتى ظنَّ البعض أنه تكرار ، ذلك لأنهم يستقبلون القرآنَ بدون تدبُّر .

فالمراد الآن : لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد ، وكذلك فى المستقبل : ولا أنا عابد ما عبدتم ، ولا أنتم عابدون ما أعبد ، فلن يرغمنا أحدٌ على تعديل هذا القرار أو العودة إلى المصالحة .

والحق سبحانه يقول :﴿ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ (٩) ﴾ [القلم] والودادة عمل القلب ، وعمل القلب تخضع له جميع الجوارح إن استطاعت فما داموا يودّون منك أنْ تداهنهم فى سبيل أنْ تستمر عبادتهم لأصنامهم وأوثانهم ، فاعلم أنهم لن يؤمنوا .

واعلم أنهم سيقفون فى وجه الدعوة ، وهذا يحقق ما توده قلوبهم وتطلبه إنْ لم تداهنهم فاحذروهم ، سأفضح لكم أمرهم لتكونوا على بينة من كل

تصرفاتهم وخائنات أعينهم وخائنات ألسنتهم .

فإياكم أنْ تأمنوهم على شيء يتعلق بمصالحكم وإيمانكم ، فإنما ودّ المكذّبون بآيات الله لو تكفر بالله يا محمد فيكفرون .

والإدهان إنما هو الملاينة والمصانعة والمقاربة فى الكلام ، فهم يودون يا محمد لو تلين لهم فى دينك بأنْ تُجيبهم إلى ما يريدونه من الركون إلى آلهتهم ، فيلينون لك فى عبادتك إلهك . وقد كان المشركون يحاولون بشتى الطرق صرف رسول الله عن دينه وعن دعوته ، فحاولوا أنْ يشتروه بالسيادة والمُلْك فلم ينجحوا وقال قولته المشهورة : «والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أنْ أترك هذا الأمر حتى يُظهره الله أو أهلك فيه ما تركته»[(١)].

وقد أرسلوا إليه وفداً قالوا : يا محمد إنّا بعثنا إليك لنُعذر فيك ، لقد أدخلتَ على قومك ما لم يُدخله أحد قبلك ، شتمت آلهتنا وسفّهت أحلامنا ، وسبَبْت ديننا ، فإنْ كنت تريد مالاً جمعنا لك المال حتى تصير أغنانا ، وإنْ كنتَ تريد جاهاً سوَّدناك علينا وجعلناك رئيسنا ، وإنْ كنت تريد مُلْكاً ملّكناك .

فقال ﷺ : « والله ما بى ما تقولون ولكن ربى أرسلنى بالحقِّ إليكم ، فإنْ أنتم أطعتم فبها ، وإلاَّ فإنَّ الله ناصرى عليكم ».

وكانت هذه المحاولة بينهم وبينه ﷺ لعلَّ الأمر حين يكون سراً يتساهل فيه رسول الله ، فلما لم يجدوا بُغيتهم قالوا : نتوسل إليك بمَنْ تحب ، فربما خجل أنْ يقبل منا ونحن خصومه ، فلنرسل إليه مَنْ يحبه .

فذهبوا إلى عمه أبى طالب ، فلما كلَّمه عمه قال قولته المشهورة : والله ياعمِّ لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أنْ أترك هذا الأمر ما

---

(١) بعث أبو طالب إلى رسول الله ﷺ فقال له : يا بن أخى إن قومك قد جاءونى فقالوا لى كذا وكذا للذى قالوا له فأبق علىَّ وعلى نفسك ولا تحملنى من الأمر ما لا أطيق . فظن رسول الله ﷺ أنه قد بدا لعمه فيه وأنه خاذله ومُسلمه ، وأنه قد ضعف عن نصرته والقيام معه فقال رسول الله : يا عم والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته . ثم استعبر رسول الله فبكى ثم قام ، فلما ولَّى ناداه أبو طالب فقال : أقبل يا ابن أخى، فأقبل عليه رسول الله فقال : اذهب ابن أخى فقل ما أحببت فوالله لا أسلمك لشيء أبداً . [دلائل النبوة ١٨٧/٢] .

تركته حتى يُظهره الله أو أهلك دونه » ولم تنته محاولاتهم ولم تقف جهودهم عن صرف رسول الله عن دينه ، فإذا كان ما سبق يتعلق أيام كان رسول الله فى مكة فى بداية الدعوة ، ولكن حتى لما استتبَّ الأمر للمسلمين لم تقف محاولاتهم ، لذلك قال الحق سبحانه : ﴿ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللهُ إِلَيْكَ .. (٤٩) ﴾ [المائدة]

فهم دخلوا عليه بصورة خادعة ، فقد قالوا : نحن جئناك لتحكم لنا ، فإنْ حكمتَ لصالحنا فلسوف نتبعك ، وهذا أمر يبدو فى صورة شىء نافع .

وجاء القول الحق ليحسم هذه المسألة : ﴿ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللهُ إِلَيْكَ .. (٤٩) ﴾ [المائدة] ، وهنا يحذِّر الله رسوله من الفتنة عن بعض ما أنزله إليه سبحانه .

والحذر من هذا هو احتياط الإنسان واحترازه ممن يريد أنْ يُوقع به ضرراً فى أمر ذى نفع ، والذى يرغب الضر قد يزيّن لنفسه ولغيره الشر كأنه الخير ، على الرغم من أن ما فى باطنه هو كل الشر .

فالحذر هو ضرورة الانتباه لمن يريد بالإنسان شراً حتى لا يدخل عليه ضراً فى صورة نفع ، كأنْ يأتى خصمٌ ويقول لك : سأصنع لك كذا . وافعل من أجلى كذا وكذا . يجب عليك هنا أنْ تقول له : لا .

والحق سبحانه يقول :

﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ ﴾

كلمة (حلف) هى القسم أو اليمين ، وحين نتمعن فى القرآن نجد أنَّ الحلف لا يُطلق إلا على اليمين الكاذبة ، أما القسَم فإنه يُطلق على اليمين الصادقة واليمين الكاذبة .

فمثلاً عندما نقرأ فى سورة المائدة : ﴿ ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ (٨٩) ﴾ [المائدة] ، وما دامتْ هناك كفارة يمين يكون الحلف كاذباً ، لأن الذى يستوجب الكفارة هو الكذب .

وإذا استعرضنا بعد ذلك كل (حلف) فى القرآن نجد أنه يقصد بها اليمين الكاذبة ، ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ(١٠)﴾ [القلم]

فالحلف هنا مقصود به القسَم الكاذب ، ولكن إذا قال الحق سبحانه وتعالى (أقسموا) فقد يكون اليمين صادقاً وقد يكون كاذباً .

والحق سبحانه يقول : ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ (٦٢)﴾ [التوبة] أى أن هدف الحلف كذباً هو إرضاء المؤمنين حتى يطمئنوا للمنافقين ولا يتوقعوا منهم الشر .

ثم يأتى الحق سبحانه وتعالى بالحقيقة ﴿ وَاللهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ (٦٢)﴾ [التوبة] إذن فهم يحلفون لترضوا أنتم عنهم ، أما المؤمن الحق فهو لا يُقسم إلا ليرضى الله ، لأن الإنسان قد يخدع البشر ، وقد يفلت من عدالة الأرض، ولكنك لا تخدع الله ولا تفلت من عدالته أبداً .

ومن العجيب أنَّ سورة التوبة فيها أكبرُ عدد من لفظ (يحلفون) ولم ترد مادة (يحلف) فى سورة المائدة إلا مرة واحدة ، وفى سورة النساء مرة ، وفى سورة المجادلة ثلاث مرات .

أما فى سورة التوبة فقد جاءت سبع مرات ، وفى سورة القلم التى معنا جاءت (حلاّف) ، حتى أن سورة التوبة سميت (سورة يحلف) لأن فيها أكبر عدد من (يحلفون) فى القرآن الكريم[1].

فلا تُطع يا محمد كل ذى إكثار للحلف الباطل ، وقد نزلت فى الأخنس بن

---

(١) وردت كلمة (يحلفون) في سورة التوبة :
- ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ (٦٢) ﴾ [التوبة] .
- ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا .. (٧٤) ﴾ [التوبة] .
- ﴿ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٩٦) ﴾ [التوبة] .

شريق[١]، والبعض قال إنها نزلت فى حق الوليد بن المغيرة أو الأسود بن عبد يغوث ، والآية لا تخصّ واحداً بعينه بل هى على العموم .

والحلاَّف الكثير الحلف ، وهو مهين أى حقير ، ومعناه هاهنا قلة الرأى والتمييز ، والواجب أنْ يحفظ الإنسان يمينه ، يقول تعالى : ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ (٨٩)﴾ [المائدة] وقد كان العرب يمدحون الإنسان بالإقلال من الحلف .

والحكمة فى الأمر بتقليل الأيمان أن مَنْ حلف فى كل قليل وكثير بالله انطلق لسانه بذلك ، ولا يبقى لليمين فى قلبه وقع ، فلا يُؤمَن إقدامه على اليمين الكاذبة .

والقرآن يفضح أمر هؤلاء الذين يقسمون عن غير صدق فى القسم ، كمَنْ تعوَّد كثرة الحلف والحنث فيه ، لذلك ينهاهم عن هذا الحلف : ﴿قُلْ لَا تُقْسِمُوا (٥٣)﴾ [النور]

ولا يمكن أنْ ينهى المتكلم المخاطب عن القسم خصوصاً إذا أقسم على خير ، لكن هؤلاء حانثون فى قسمهم فهو كعدمه ، فهم يقسمون باللسان ، ويخالفون بالوجدان .

والحق سبحانه أمر رسوله ﷺ بعدم إطاعة كلِّ كثير الحلف ، وأمره بعدم إطاعة أصناف أخرى ، فقال تعالى : ﴿وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ (٤٨)﴾ [الأحزاب]

ويقول تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (١)﴾ [الأحزاب]

ويقول تعالى : ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا (٢٨)﴾ [الكهف]

---

(١) الأخنس بن شريق ثقفى ، أسلم يوم فتح مكة وشهد حنيناً وأعطاه رسول الله مع المؤلفة قلوبهم ، توفى فى أول خلافة عمر بن الخطاب [الطبقات الكبرى ٢٩٣/١] قال ابن حجر فى الإصابة (١٩٢/١) : اسمه أبىّ وإنما لقب الأخنس لأنه رجع ببنى زهرة من بدر لما جاءهم الخبر أن أبا سفيان نجا بالعير فقيل خنس الأخنس ببنى زهرة فسمى بذلك .

والطاعة استجابة للأمر فى (افعل) والنهى فى (لا تفعل) ، وهم قد طلبوا منه أنْ يجمعهم مع المستضعفين فى مجلس واحد ، ولكن الله أراده أنْ يكرم هؤلاء القوم المستضعفين بعد أنْ نهاه عن طردهم .

وفى هذا قمة التكرم للدائمين على ذكر الله من المستضعفين لأنهم أهلُ محبة الإيمان وهم الذين سبقوا إليه .

وسبب عدم طاعة مَنْ أغفلنا قلبه عن ذكرنا أن هذا يُضلنا عن سبيل الله ومنهجه ، يقول تعالى : ﴿ وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ (١١٦)﴾ [الأنعام]

فمَنْ أغفلنا قلبه عن ذكرنا يتبع هواه ويسير خلف أهوائه وشهواته فيأخذه هواه ويُلهيه عن ذكر الله ، وما دام قد انشغل بشىء يوافق هواه فلن يهتم بمطلوب الله ، إنه مشغولٌ بمطلوب نفسه .

فالمؤمن الحق سليم الإيمان مَنْ كان هواه ورغبته موافقة لمنهج الله لا يحيد عنه ،﴿ فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا (٥٢)﴾ [الفرقان]

فلا تُطعهم إنْ لوَّحوا لك بالملك أو بالمال أو بالجاه والشرف ، واعلم أنَّ ما أعدَّه الله لك وما ادخره لك فوق هذا كله ، ونهى الرسول عن طاعة الكافرين لايعنى أنه ﷺ كان يطيعهم ، فهذه كقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا (١٣٦)﴾ [النساء]

فلا تطع مَنْ يعرض عليك المال على أنْ ترجع عن دينه كالوليد بن المغيرة الذى كان تاجراً ضعيفَ القلب مهيناً ، وذلك كقوله تعالى أيضاً ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا (٢٤)﴾ [الإنسان]

والمهين الكذاب الضعيف المكثار فى الشر ، الضعيف الرأى والتمييز .

ثم يذكر الحق سبحانه صفتين أخريين لهذا الحلاَّف المهين ، فيقول :

﴿ هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ (١١) ﴾

ويقول تعالى فى آية أخرى : ﴿ وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ (١)﴾ [الهمزة] والهُمزة هو الذى يسخر من الناس ولو بالإشارة ، يرى إنساناً مصاباً بعاهة فى قدمه يمشى وهو يعرج فيحاول أنْ يقلده بطريقة تثير السخرية إما بالإشارة وإما بالكلام ، وهناك همز وهمزة .

الهمز الاستهزاء والسخرية من الناس علامة عدم الإيمان ، والهماز مغتابُ الناس يأكل لحومهم ، فالهمز الاغتياب وذكر الناس بما يكرهون يأكل لحوم المسلمين ويطعن فى أعراض الناس بما يكرهون ويعيبهم .

فهو فتَّان طعَّان يلوى شدقيه من وراء الناس ، والمراد كسْر أعراض الناس والغضّ منهم والطعن فيهم .

وهناك فرق بينَ الهمزة واللمزة ، فالهمزة جهراً بالمواجهة ، أما اللمزة فيظهر الغيب سراً بالحاجب والعين ، وقد كان الوليد بن المغيرة يفعل ذلك وهو من عادة السقاط ويدخل فيه مَنْ يحاكى الناس بأقوالهم وأفعالهم وأصواتهم ليضحك الناس .

فالهمزة هو مَنْ يعيب فى الآخرين عيباً خفياً ويسخر منهم خفية ، ويكون ذلك بإشارة من عينه ، أو بأىّ حركة من جوارحه .

ومثال هذا حين تكون هناك مجموعة من الناس جالسين ويحاول أحدهم النّيْل من أحد الحضور خُفية فيغمز بطرف عينه لإنسان آخر أو يكون باللسان همساً فى أذن إنسان أو بأىّ طريقة أخرى ، المهم أنْ يُشار إلى العيب بطريقة خفية لا يلحظها معظم الحاضرين .

أما اللمزة العيابون فى غيرهم فى حضورهم ، فهناك القوى الذى يكشف العيوب بشجاعة وصراحة وهو اللمازِ ، أما الضعيف فهو يعيب خُفْية وهو الهماز ، واللمزة تُطلق على مَنْ يعيب كثيراً فى الناس .

وهمزة لمزة من صيغ المبالغة (فُعلة) وتدل على كثرة فعل الشىء ، فاللمزة هى كثرة العيب فى الغير ، وهى تدل على ضعف مَنْ يقول بها ولو لم يكُنْ

ضعيفاً لقال ما يريد صراحة .

ومن اللمز قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ (٥٨)﴾ [التوبة]

وكان بعض المنافقين يغتابون ويلمزون تشريع الصدقة ، وكانوا يعيبون أنْ يتعب الغنى ويشقى فى الحصول على المال ثم يأخذ الفقير المال بلا تعب، فهل يعيبون التشريع نفسه ؟ أم يعيبون كمية الصدقات المفروضة عليهم ويرونها كثيرة ؟ أم يعيبون حث الله الناس على الصدقة ؟ أم يعيبون الطريقة التى يتم بها صرف الصدقة للفقراء وأنَّ بعضهم يعطى كثيراً ، وبعضهم يعطى قليلاً ؟ لقد كانوا يعيبون فى كل الأمور أو بعضها .

فالهُمزة هو الذى يعيب بالقول ، واللمزة هو الذى يعيب بالفعل .

وهو لا يهمز ولا يسخر ويلمز فحسب ، بل إنه أيضاً ﴿ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ (١١)﴾ [القلم]

فهو يمشى بالنميمة أى يسعى بين الناس بالنميمة . والسعاية عادة تأخذ جانب الشر وتعنى الوشاية والسعى بين الناس بالنميمة تقول : فلان سعَّاء بين الخلق يعنى بالشر ينقله بين الناس بقصد الأذى ، وهؤلاء إنْ علموا الخير أخفوه ، وإنْ علموا الشر أذاعوه وإنْ لم يعلموا كذبوا .

و (مشّاء) صيغة مبالغة (فعَّال) فالمشى بالنميمة طبيعة فيه ويعملها بقصد وبكثرة ومبالغة ، فهو يمشى بحديث الناس بعضهم فى بعض ، ينقل حديث بعضهم إلى بعض ويمشى بالكذب .

فالمشّاء بنميم يفسد ذات البين فيسعى بالنمائم بين الناس ، ورسول الله ﷺ يقول : « لا يدخل الجنة قتات »[1] أى نمام فهو يقتّ الحديث قتاً فيسمع

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٢٣٢٤٧ ، ٢٣٣٠٥) والبخارى فى صحيحه (٦٠٥٦) وكذا مسلم فى صحيحه (١٧٠) باب بيان غلظ تحريم النميمة أن همام بن الحارث قال : كنا جلوساً مع حذيفة فى المسجد فجاء رجل حتى جلس إلينا فقيل لحذيفة : إن هذا يرفع إلى السلطان أشياء فقال حذيفة إرادة أن يُسمعه : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا يدخل الجنة قتات ».

الحديث من الناس على بعضهم وينقله فيفسد الأواصر الاجتماعية والعلاقات الإنسانية بين الناس .

وقد قال ابن عباس رضى الله عنهما : مرَّ رسول الله ﷺ بقبرين فقال : «إنهما يُعذَّبان وما يُعذَّبان فى كبير ، أما أحدهما فكان لا يستتر من البول ، وأما الآخر فكان يمشى بين الناس بالنميمة »(١) .

وقد روتْ أسماء بنت يزيد بن السكن أن النبى ﷺ قال : « ألا أخبركم بشراركم؟ المشَّاءون بالنميمة ، المفسدون بين الأحبة والباغون للبرآء العنت»(٢).

وإفساد ذات البين من أخطر الأمور ، لذلك قال رسول الله لأصحابه : «ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصدقة والصلاة ؟ قلنا : بلى . قال : إصلاح ذات البين ، وفساد ذات البين هى الحالقة ، لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين »(٣).

ويصف الحق سبحانه هذا الفعل بأنه فعلٌ شيطانى ، يقول تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ (٩١)﴾ [المائدة]

فكلمة (يُوقع) معناها أن هناك شيئين الأصل فيهما الالتحام ، وهناك مَنْ يريد أنْ يجعل بينهما ما يفصل هذا الالتحام ، ولذلك يقال : فلان مشى بالوقيعة. أى أنه أراد أنْ يصنع فجوة وشرخاً بين اثنين الأصل فيهما الالتحام، وكلمة (بينكم) تفيد الانفصال ، وهذا الانفصال هو الذى توضع فيه الوقيعة .

---

(١) أخرجه أبو عوانة فى مستخرجه (٤٩٥) وتمامه : ثم أخذ جريدة رطبة فشقها بنصفين وغرز فى كل قبر واحدة فقيل : يا رسول الله لم صنعت هذا ؟ قال : لعله أن يخفف عنهما ما لم ييبسا . وكذا أخرجه البخارى فى صحيحه (٢١٨ ، ١٣٦١) والبيهقى فى السنن الكبرى (٤١٤٠) وابن أبى شيبة فى مصنفه (١٢٠٤٥) وعبد الرزاق فى مصنفه (٦٧٥٣) من حديث ابن عباس .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٢٧٥٩٩ ، ٢٧٦٠١) والبخارى فى كتاب (الأدب المفرد) (٣٢٣) والطبرانى فى المعجم الكبير (٤٢٣) والبيهقى فى شعب الإيمان (١٠٥٩٦) من حديث أسماء بنت يزيد بن السكن. رضى الله عنها .

(٣) أخرجه ابن حبان فى صحيحه (٥٠٩٢) والترمذى فى سننه (٢٥٠٩) من حديث أبى الدرداء رضى الله عنه وقال : حديث حسن صحيح .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ ﴾

فقد كان صناديد قريش يمنعون الخير عن الناس ، فقد كانوا يمنعونهم عن الإيمان وعن كل خير .

وبعض العلماء خصُّوا الخير هنا بالزكاة المفروضة ، فقالوا : المقصود هنا منع الزكاة ، ولكن منع الخير هنا عام لكلِّ خير ، زكاة أو مالاً أو غيره .

ويقول الحق سبحانه فى سورة الماعون : ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (١) فَذَٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ[1] الْيَتِيمَ (٢) وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ (٣) فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ (٤) الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ (٥) الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ (٦) وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ (٧) ﴾ [الماعون]

فمن الماعون الذى يمتنع منعه هو ماجور العجين أو المنخل أو الغربال أو الهون .. الخ ، ومثل هذه الأشياء قد لا تتوفر للفقير ، فيذهب إلى جاره فيستعيرها منه .

فالمنَّاع للخير بخيلٌ بالمال ضنين به عن الحقوق ، والوليد بن المغيرة كان رجلاً مُوسراً كثير المال ، وكان له عشرة من البنين فكان يقول لهم : من أسلم منكم منعته رفدى[2] ، أى حرمتُه من عطائى لذلك قال تعالى : ﴿ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ (١٤) ﴾ [القلم]

فهو كثير المنع للخير ، يمنعه حتى عن نفسه بعد أنْ منعه عن الآخرين حين وقف فى وجه الدعوة للإيمان ، وحين منع ماله ولم يُعط المحتاجين .

---

(١) يدع اليتيم : يدفع اليتيم عن حقه ويظلمه . قاله مجاهد . وقال مقاتل بن سليمان : يدفعه عن حقه فلا يعطيه . وقال قتادة : يقهره ويظلمه . قال ابن زيد : يدفعه ويُغلظ عليه . وقال الزمخشرى فى تفسير الكشاف : يدفعه دفعاً عنيفاً بجفوة وأذى ويرده رداً قبيحاً بزجر وخشونة .

(٢) أورده الزمخشرى فى تفسير الكشاف (٤/٥٨٧) وأنه من قول الوليد بن المغيرة المخزومى أنه كان له عشرة من البنين فكان يقول لهم وللحمته : من أسلم منكم منعته رفدى .

وهو لم يكتفِ بمنْع الخير بل تعدى على الخير عند غيره ، فأخذه دون وجه حق ، أخذه مرة بالسرقة ، ومرة بالرشوة ، ومرة بالخطف والغصب ، ومرة بالتدليس ، ومرة بالغشِّ .

فهو إذن مُعتد بأىّ وجه من وجوه التعدى ، ولذلك فهو ﴿ أَثِيمٍ (١٢)﴾ [القلم]، وأثيم فعيل من صيغ المبالغة .

وهو أثيم لا مجرد آثم ، بل هو أثيم بربه لغشمه وظلمه ، وهو مُتمادٍ فى الإثم لا ينزجر عنه ولايرعوى ، ولايتعظ بموعظة ربه .

وفى آية أخرى يقول تعالى : ﴿ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ (٢٥)﴾ [ق] فهو مريب أى شاكّ مرتاب فى هذا اليوم ، فلو كان مؤمناً به وبالحساب والجزاء ما منع الخير عن أهله ونفسه ، وما كان منعهم من الإيمان ، وما كان منع حقَّ الله .

والمريب أثيم يخشى أنْ يراه الناسُ فيكشفوا أمره ، وفى أمثال الناس : يكاد المريب يقول خذونى ، لأنه فاعلٌ للإثم مقيم عليه فهو أثيم .

﴿ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ (١٣) ﴾

والعُتل هو الرجل الفاحش اللئيم ، الجافى الشديد فى كفره ، وكل شديد قوى فالعرب تسميه عُتلاً ، وهو الشديد الخصومة ، وأصله من العتل ، وهو الدفع بقوة وعنف .

ومنه قوله تعالى :﴿ خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ (٤٧)﴾ [الدخان] أى : ادفعوه على وجهه إلى سواء الجحيم ، فالعتل السَّوْق والدفع والجذب ، فالعتل أنْ يؤخذ فيُمضى به بعسف وشدة .

فالعتل الزنيم هو الرجل يُعرف بالشر كما تُعرف الشاة بزنمتها[1] التى تعلَّق

---

(١) معنى زنيم أنه كان فى أصل أذنه مثل زنمة الشاة مثل الزنمة التى تكون معلقة فى لحى الشاة زيادة فى خلقه . وهى جلدة تقطع من أذنه فتترك معلقة .

فى لحى الشاة ، وقد قال رسول الله ﷺ : « تبكى السماء من رجل أصحَّ الله له جسمه ، وأرحب جوفه ، وأعطاه من الدنيا مقضماً ، فكان للناس ظلوماً ، فذلك العتل الزنيم »[١].

والزنيم فى كلام العرب الملصق بالقوم وليس منهم ، فليس يعرف من أبوه بغىّ الأم فهو منتسب لغير أبيه دخيل فى قومه .

وليس معنى هذا أن كل نمام هو زنيم لا يُعرف له أب ، إنما أن الشخص المقصود هنا كانت تجتمع فيه كل هذه الصفات ، لذلك قال تعالى : ﴿ بَعْدَ ذَٰلِكَ (١٣)﴾ [القلم] أى إضافة إلى ما سبق وهو هنا يشير إلى ما سبق من صفات .

فهى صفات متوالية متتابعة ، كلُّ خصلة أشد من الأخرى ، فهو حلاَّف كثير الحلف يعلم من نفسه عدم صدقه وشكّ الناس فيه ، مهين حقير ، والمهانة صفة نفسية تلصق بالمرء ، ولو كان ذا جاه أو مال أو جمال .

وهو همَّاز غمَّاز لماز بالنظرة واللفظ والإشارة فى الحضور والغيبة ، منَّاع للخير عن نفسه وعن غيره ، مُعتدٍ متجاوز للحق والعدل والإنصاف أثيم واقع فى الآثام والذنوب والمحرمات ، عُتل فظ قاسٍ مكروه معروف بشرِّه وصَلَفه يستمتع بزرع الأحقاد بين الناس .

نمام يقابل هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه ، مُتلوِّن وَاشٍ يشتغل بعيوب غيره، إنْ علم خيراً أخفاه ، وإنْ علم شراً أفشاه ، وإنْ لم يكُنْ تجده يكذب ويختلق الشائعات .

وهو فوق ذلك كله ﴿ زَنِيمٍ (١٣)﴾ [القلم] من أراذل القوم لو فتشت فى حقيقته ستجده لا أبَ له معروف ، مُلَّصق بالقوم وليس منهم ، وكأنه صدر فى كل هذه الصفات عن أصله الوضيع .

---

(١) أخرجه الطبرى فى تفسيره مرسلاً (٢٣/٥٣٦) عن زيد بن أسلم قال ابن كثير فى تفسيره (٨/٢١١): رواه ابن أبى حاتم من طريقين مرسلين ونص عليه غير واحد من السلف منهم مجاهد وعكرمة والحسن وقتادة .

ثم يقول سبحانه :

﴿ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ ﴾

وأصله هذا ليس له علاقة بـ ﴿ أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ (١٤) ﴾[القلم] فالله جمع له بين المال والبنين ، والحق سبحانه يقول : ﴿ فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ[١] حَتَّى حِينٍ (٥٤) أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ (٥٥) نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ (٥٦) ﴾ [المؤمنون]

أيظنون أنّ هذا خير لهم ؟ لا ، بل هو إمهال واستدراج ليزدادوا طغياناً ، فلا تُطعه ليساره وعدده ، فلا تُطعه وإنْ كان ذا مال وبنين .

وقد قيل : إن المقصود هنا هو الوليد بن المغيرة وقد كانت له حديقة بالطائف ، وكان له اثنا عشر ابناً .

ولكن لا ماله ولا أبناؤه جعله ينفك عن أصله الزنيم فجاءت صفاته مناسبة لأصله الوضيع ، وقد قال رسول الله ﷺ : «لا تزال أمتى بخير ما لم يفْشُ فيهم ولد الزنى ، فإذا فشَا فيهم ولد الزنى أوشك أنْ يعمّهم الله بعقاب »[٢] .

حتى أن عكرمة قال : إذا كثر ولد الزنى قحط المطر[٣] ، وقد قال تعالى فى سورة المدثر ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (١١) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا (١٢) وَبَنِينَ[٤]

(١) غمرتهم : غفلتهم . وقال قتادة : ضلالتهم . قال ابن عباس : كفرهم وضلالتهم . قال الزمخشرى فى الكشاف (٣/١٩١) : الغمرة الماء الذى يغمر القامة فضربت مثلاً لما هم مغمورون فيه من جهلهم وعمايتهم .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٢٦٨٣٠) من حديث ميمونة رضى الله عنها وأخرجه البخارى فى التاريخ الكبير (١/١٣٨) وأبو يعلى (٧٠٩١) والطبرانى فى الكبير (٢٤/٥٥) .

(٣) أورده القرطبى فى تفسيره (١٨/٢٣٥) وعزاه لعكرمة من قوله .

(٤) شهوداً يعنى حضوراً لا يغيبون أبداً عنه فى تجارة ولا غيرها لكثرة أموالهم بمكة ، وكلهم رجال منهم الوليد بن الوليد وخالد بن الوليد وعمارة بن الوليد وهشام بن الوليد والعاص بن الوليد وقيس بن الوليد وعبد شمس بن الوليد . كان بنوه عشرة وقال مقاتل : سبع بنين . أسلم منهم ثلاثة : خالد ، هشام ، عمارة .

شُهُودًا (١٣) وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا (١٤) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (١٥) كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا (١٦) ﴾ [المدثر]

بسطت له فى المال والولد والخير بسطاً ثم يرجو أنْ أزيده فى ماله وولده ، كلا لا أزيده بل أقطع ذلك عنه وأهلكه ثم منعه الله المال فلم يُعطه شيئاً حتى افتقر .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ ﴾

الآية هى الشىء العجيب اللافت ، فهناك فى الكون آيات كونية مثل الشمس والقمر والنجوم والأرض والجبال والبحار وغير ذلك ، هذه تسمى آيات ، شىء فوق قدرة البشر خلقها الله سبحانه وتعالى لتكون آيةً فى كونه وتخدم الإنسان.

وهناك الآيات وهى المعجزات عندما يرسل الله رسولاً أو نبياً إلى قومه ، فإنه سبحانه يخرق له قوانين الكون ليثبت لقومه أنه نبىٌّ مُرسَل من عند الله سبحانه وتعالى .

وهذه الآيات مقصودٌ بها مَنْ شهدها ، لأنها تأتى لتثبيت المؤمنين بالرسل، وهم يمرّون بأزمة يحتاجون فيها إلى التثبيت ودلالة على صدق رسالة النبى لقومه .

وتُطلق الآيات على آيات القرآن الكريم كلام الله المعجز الذى وضع فيه سبحانه وتعالى ما يثبت صدق الرسالة إلى يوم الدين ، يُحدثنا الله سبحانه فى آياته عن كيفية خَلْق الإنسان وعن منهج السماء للأرض وغير ذلك .

فالآية هى الأمر العجيب ، وهو عجيب لأنه معجز ، والآيات معجزات للرسول تدل على صدق بلاغه عن الله ، وهى كذلك الآيات فى القرآن الكريم .

والآيات التى أيَّد الله بها سبحانه وتعالى محمداً ﷺ ظاهرةٌ أمام الكفار وليستْ محتاجةً إلى دليل ، فرسول الله الذى لم يقرأ كلمة فى حياته يأتى بهذا القرآن المعجز لفظاً ومعنى ، وهذه معجزة ظاهرةٌ لا تحتاج إلى دليل .

ورسول الله الذى يخبر بقرآن مُوحى من السماء عن نتيجة حرب ستقع بعد تسع سنواتٍ ، ويخبر الكفار والمنافقين بما فى قلوبهم ويفضحهم ويتنبأ بأحداث قادمة وبقوانين الكون وغير ذلك مما احتواه القرآن المعجز من كلِّ أنواع الإعجاز علمياً وفلكياً وكونياً .

كلُّ هذه آيات بينات يتحدى القرآن بها الكفار ، كلها آيات واضحة لا يمكن أنْ يكفر بها إلا الذى يريد أن يخرج عن منهج الله ويفعل ما تهواه نفسه .

إن الإعجاز فى الكون وفى القرآن وفى رسول الله ﷺ كل هذا لا يحتاج إلا لمجرد فكر محايد لنعرف أن هذا القرآنَ هو من عند الله ملىء بالمعجزات علماً ولغة ، وإنه سيظلّ معجزة لكلِّ جيل له عطاء جديد .

والكافرون لا يؤمنون بآيات الله حتى لو كانت ظاهرةً واضحةَ الدلالة، حتى ولو كانوا هم الذين طلبوها ، والحق سبحانه يقول : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (١١٨) ﴾ [البقرة]

لقد جاءهم القرآن ليتحدى فى أحداث المستقبل وفى أسرار النفس البشرية ، وكان ذلك يكفيهم لو أنهم استخدموا عقولهم ولكنهم أرادوا العناد كلما جاءتهم آيةٌ كذَّبوا بها وطلبوا آية أخرى .

والآيات التى يطلبها الكفار ويأتى بها الله سبحانه ويحققها لهم لا يؤمنون بها ، بل يزدادون كفراً وعناداً ، فالآيات التى يطلبونها لا تجعلهم يؤمنون ، ولكن يزدادون كفراً حتى ولو علموا يقيناً أنَّ هذه الآيات من عند الله سبحانه.

ومهمة رسول الله التى أرسله الله بها ذكرها الحق سبحانه فى قوله :﴿ كَمَا

أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (١٥١) ﴾ [البقرة]

فالآيات قسمان : منظور ومقروء ، أما المنظور فهو كل الكون ، وآيات الكون تفسر آيات القرآن ، والرسول جاء يتلو آيات القرآن وكانت عجيبة عليهم ، لكن الآيات الأخرى التى فى الكون يشاهدونها ويرونَها .

لقد جاء الرسول بآيات مقروءة ليلفت الناس إلى الآيات المنظورة وبتلك الآيات المنظورة يكون العجب من دقة خلق الكون ، فينتهى الإنسان إلى الإيمان بمن خلق هذا الكون .

ورسول الله لا يتلو عليهم آيات القرآن ليعجبوا منها فحسب ، لا فالرسول له مهمة إيمانية تلفت كلَّ سامع للقرآن إلى مَنْ خلق ذلك الكون الجميل البديع الذى فيه الآيات العجيبة ، ثم يعطى الرسول من بعد ذلك المنهج الذى يناسب جمال الكون .

فرسول الله جاء يتلو عليهم آيات الله ، وجاء يزكيهم طهارة ونقاء ، ونماء ، وجاء ليعلِّمهم الكتاب والحكمة ، ورسول الله كان ينزل عليه الوحى بعدة آيات، وقد يطول إلى ربعين أو ثلاثة أرباع .

فلما أنْ يُسْرى عنه يتلو ما نزل عليه على صحابته ليكتبوه ، يتلوه كما أُنزل عليه فيكتبه الكتبة ويحفظه من يحفظه منهم ، وكانوا أمة رواية وأمة حفظ .

والحق سبحانه هنا بنى الفعل (تلا) للمجهول ، فقال تعالى : (إذا تُتلى) لأنه معلوم من آيات أخرى ، ولأن العبرة بحدوث ذلك إذا تُليت آيات الله على مَنْ لا يؤمن .

فكلُّ كافر لا يؤمن بالقرآن إذا تُليتْ عليه آيات الله قال عنه ووصف القرآن بأنه ﴿ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٥) ﴾ [القلم]

وممَّنْ قالوا أن القرآن ما هو إلا أساطير الأولين ، كان هو النضر بن الحارث أخو بنى عبد الدار يختلف إلى الحيرة فيسمع سجع أهلها وكلامهم ، فلما قدم

مكة سمع كلام النبى ﷺ والقرآن فقال : قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا[١] إنْ هذا إلا أساطير الأولين ، يقول : أساجيع أهل الحيرة .

ومنهم أيضاً الوليد بن المغيرة ، وقد كانوا من قبل يستهزئون برسول الله ﷺ، ومثال على ذلك الوليد بن المغيرة وهو السيد فى قومه يأتى فيه قول الحق: ﴿ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٥) سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ (١٦) ﴾ [القلم]

وكانَ الوليد صاحب ثراء من المال ومنعة وقوة من البنين وأعرض عن القرآن وسخر منه ، فجعل الحق منه أمثولة للناس .

والأساطير جمع أسطورة ، والأسطورة شىء يُسطَّر ليُتحدث به من العجائب والأحداث الوهمية ووصفهم له بهذا دليل إفلاسهم فهم حاولوا وصف القرآن بالسحر ، وتارة بالشعر ، وتارة بالكهانة وأخيراً قالوا (أساطير الأولين) .

وهم يعلمون عظمة القرآن فكيف يقولون إنه أساطير الأولين ؟ لقد كانوا من المعجبين بعظمة أسلوب القرآن الكريم ، فهم أمة بلاغة ولكنهم يعلمون أن مطلوبات القرآن صعبة على أنفسهم .

فالأساطير هى الحوادث والأحاديث الخرافية مثل ألف ليلة وليلة وكليلة ودمنة والإلياذة وغيرها من كتب الأساطير ، وأساطير مثل أعاجيب وأعجوبة.

وهناك من يقول : إن أساطير جمع سطر أسطار أساطير مثل شكل وأشكال فهى جمع للجمع ، وسواء أكانت جمع أسطورة أو جمع سطر فالمعنى لا يختلف لأن الشىء المسطور قد يعتبره الناسُ خرافة وكلاماً لا معنى له .

والأساطير هى الكلام المكذوب الذى لا أصل له ، فلا يُسمَّى الكلام أسطورة إلا إذا جاء وقته ولم يحدث ، فلك أنْ تقول أساطير .

والحق سبحانه يقول : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَـٰذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا (٤) ﴾ [الفرقان]

ثم يقول تعالى ﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً

---

(١) أورده الثعلبى فى تفسير الكشف والبيان (٤/ ٣٥٠) .

وَأَصِيلًا (٥) ﴾ [الفرقان] ، فهم قالوا إن القرآن حكايات وأساطير السابقين (اكتتبها) يعنى أمر بكتابتها .

وهذا من ترددهم واضطراب أقوالهم ، فالنبى ﷺ أُمىّ لا يقرأ ولا يكتب ، وقولهم ﴿ فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٥) ﴾ [الفرقان] أى باستمرار ليكرِّرها ويحفظها .

وهم اتهموا رسول الله وهم فى قمة غفلتهم أنه يتعلم من رجل كان بمكة فيلفتهم القرآن إلى أن الرجل الذى قالوا إنه معلِّم للرسول ﷺ كان أعجمياً غير عربى .

يقول الحق سبحانه : ﴿ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ[1] إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ (١٠٣) ﴾ [النحل]

وهم لا يؤمنون بالآخرة ، فقلوبهم منكرة وهم مستكبرون ، ووصفهم الله عز وجل بقوله : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٢٤) ﴾ [النحل]

والعجيب أنهم لم ينكروا الله وأقروا بربوبيته ، فلما سُئلوا : ماذا أنزل ربكم ؟ قالوا : أساطير الأولين ، فوصفوا ما أنزل ولم يعترضوا على مَنْ أنزل .

فلو كانوا صادقين مع أنفسهم لمَا أقرُّوا بالألوهية ورفضوا أيضاً القول المُنزل إليهم .

أما الذين آمنوا واتقوا فعندما سُئلوا هذا السؤال ﴿ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ (٣٠) ﴾ [النحل] ﴿ قَالُوا خَيْرًا (٣٠) ﴾ [النحل] ، ووراء ذلك قصة توضح جوانب الخلاف بين فريق مؤمن وفريق كافر .

فحين دعا رسول الله قومه وعشيرته إلى الإيمان بالله الواحد الذى أنزل عليه منهجاً فى كتاب معجز ، بدأت أخبار رسول الله تنتشر بين قبائل الجزيرة العربية كلها ، وأرسلت كل قبيلة وفداً منها لتتعرف وتستطلع مسألة هذا الرسول .

---

(١) يلحدون إليه : يميلون إليه ويزعمون أنه يعلمه أعجمى ، أصل الإلحاد : الميل . يقال : لحد وألحد إذا مال عن القصد . وقال ابن قتيبة : يشيرون إليه ويومئون .

ولكن كفار قريش أرادوا أنْ يصدوا عن رسول الله ، فقسَّموا أنفسهم على مداخل مكة الأربعة ، فإذا سألهم سائل من وفود القبائل : ماذا قال ربكم الذى أرسل لكم رسولاً ؟

هنا يرد عليهم قسم الكفار الذى يستقبلهم : إنه رسول كاذب يُحرِّف ويجدِّف، والهدف طبعاً أنْ يصد الكفار وفود القبائل .

ويخبر الحق سبحانه رسوله ﷺ بما حدث ، وإذا قيل للواقفين على أبواب مكة من الوفود التى جاءت تستطلع أخبار الرسول : ماذا أنزل ربكم ؟ يردون : إنه يردد أساطير الأولين .

وهذا الجواب الواحد من الواقفين على أبواب مكة الأربعة يدل على أنها إجابة متفق عليها وسبق الإعداد لها ، وقد أرادوا بذلك أنْ يصرفوا وفود القبائل عن الاستماع لرسول الله ﷺ .

فشبَّهوا الذكر المنزّل من الله بمثل ما كان يرويه لهم على سبيل المثال النضر بن الحارث من قصص القدماء التى تتشابه مع قصص عنترة وأبى زيد الهلالى التى تُرْوَى فى قرانا .

ثم يقول الحق سبحانه متوعداً مَنْ يقول هذا القول :

﴿ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾ ﴾

أى : سنضربه بالسيف ضربة تجعل على أنفه علامة فى أعلى منطقة فيه ، ويأتى يوم بدر فيجدون الضربة على أنف الوليد .

لقد قالها الحق سبحانه على لسان رسوله فى زمن ماض ويأتى بها الزمن المستقبل ، وعندما تحدث هذه المسألة فالذين آمنوا بمحمد وبالقرآن الذى نزل على محمد يتأكدون من صدق رسول الله فى كل شىء ، ويأخذون الجزئية البسيطة ويُرقُّونها فيصدقون ما يخبرهم به من أمر الدنيا والآخرة .

وها هو : ذا سيدنا عمر كان يسمع قول الله عز وجل : ﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ

الدُّبُرَ (٤٥) ﴾ [القمر] فيقول : أيُّ جمعٍ هذا [١] ؟ ونحن لا نقدر أنْ نحمى أنفسنا؟ ويقول الحق : ﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ (١٦) ﴾ [القلم] فيقول عمر : كيف ونحن لا نقدر أنْ ندافع عن أنفسنا ؟

وبعد ذلك تأتى موقعة بدر فتثبت له صدق هذا ، والعجيب أن الآية تنزل وهم لا يستطيعون أنْ يدافعوا عن أنفسهم ، فلا يمكن أنْ يُقال : إن هناك مقدمات لذلك بحيث تستنتج النتيجة .

فالمقدمات لا توحى بأىّ نصر ، لكن ربنا هو الذى قال ، ورأوا صحيحاً أن الوليد بن المغيرة ضُرب على أنفه وتركت الضربة علامة على أنفه ، لأن الذى قال ذلك من قبل قادر على إنفاذ ما يقول بدون قوة تحول دون ذلك أبداً .

وحين نزلت الآية ﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ (١٦) ﴾ [القلم] فى حق الوليد بن المغيرة تساءل بعض المسلمين : هل نحن قادرون أن نصل إليه ؟ وبعد ذلك تأتى غزوة بدر ، فينظرون أنفه فيجدون السيف قد خرطه وترك سمة وعلامة عليه ، فمن الذى خرق حجاب الزمن المستقبل ؟ إنه الله وليس محمداً .

فإذا تدبرتم المسائل حقَّ التدبّر لعلمتم أن محمداً ما هو إلا مُبلِّغ للقرآن ، وأن الذى قال القرآن هو الإله الذى ليس عنده ماضٍ ولا حاضر ولا مستقبل ، بل كل الزمن له .

وقد نزل هذا القول فى القرآن ﴿ سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ (١٦) ﴾ [القلم] فى وقت ضعف المسلمين ، ثم يأتى خبر ضَرْبه على أنفه الذى هو محل الأنفة والكبرياء والعنجهية .

ثم تأتى بدر ليرى المسلمون تحقيق ذلك ، إنه كلام إلهى متحدًّى به ومُتعبَّد بتلاوته ، وهكذا تصدق كل قضية يأتى بها الله .

والحق سبحانه إنما قال ذلك عن واحد من أكابر قريش وهم لا يقدرون

---

(١) أخرج عبد الرزاق فى تفسيره (٣٠٦٩) أن عمر قال : لما نزلت ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ .. (٤٥) ﴾ [القمر] جعلت أقول : أىّ جمع هذا ؟ فلما كان يوم بدر ورأيت النبى ﷺ يثب فى الدرع وهو يقول ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) ﴾ [القمر] وفى بعض التفاسير أن عمر رضى الله عنه قال : نزل قوله تعالى: ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ .. (٤٥) ﴾ [القمر] ولم أعرف تأويله حتى كان يوم بدر فرأيت النبى .

حينئذ أنْ يدافعوا أو يذودوا عن أنفسهم ، وذهبوا وهاجروا إلى الحبشة حماية لأنفسهم من بطش هؤلاء الأكابر ، وكل مؤمن يبحث له عمّن يحميه .

ويأتي يوم بدر فيوجد أنفه وقد ضُرب وخُطم ويتحقق قول الله ﴿ سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ (١٦) ﴾ [القلم] ، فمن يحدد إذن ضربة قتال بسيف فى يد مقاتل قبل أنْ يبدأ القتال ؟ لقد حددها الأعلم بما يكون عليه الأمر .

ومن العجيب أنه ﷺ خطط على الأرض مواقع مصرع بعض كبار الكافرين وأماكن إصاباتهم ، وهكذا شاء الحق سبحانه أن يأتى الواقع بما يؤيد صدق الرسول ﷺ ، حين كان يشير إلى مواقع مصرع القوم فى بدر قبل أنْ تقع المعركة ويقول : «هذا مصرع فلان وهذا مصرع فلان »[1] .

حتى أنهم أتوا برأس الوليد بن المغيرة فيجدون الضربة قد جاءت على أنفه، فمَنْ ذا الذى يتحكم فى مواقع الموت ؟ إن ذلك لا يتأتى إلا من إله هو الله ، وهو الذى أخبر محمداً ﷺ بهذا الخبر .

وهم لم يعرفوا الوليد يوم بدر بين القتلى إلا بضربة على خرطومه .

ونلاحظ أنَّ الحق سبحانه استخدم (السين) فى التعبير عن المستقبل ولم يستخدم (سوف) ، فـ (سوف) فيها تسويف وإمهال وامتداد فترة ما يعد الله بتحقيقه فى المستقبل .

يقول تعالى :﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٣) ﴾ [الحجر] ، ويقول : ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ[2] أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا (٥٩) ﴾ [مريم] ، وهذا تحققه فى الآخرة .

---

(١) أخرج أبو داود الطيالسى فى مسنده (٤٠) عن أنس قال : أخبرنا رسول الله ﷺ بمصارع القوم بالأمس : هذا مصرع فلان إن شاء الله غداً ، هذا مصرع فلان إن شاء الله غداً ، فو الذى بعثه بالحق ما أخطئوا تلك الحدود وجعلوا يُصرعون عليها ثم ألقوا فى القليب . وأخرجه أحمد فى مسنده (١٨٢ ، ١٣٢٩٦ ، ١٣٧٠٣) والبزار فى مسنده (٢٢٢) وابن حبان فى صحيحه (٦٤٩٨) عن أنس بن مالك .

(٢) فخلف من بعدهم : أى من بعد النبيين خَلْف أى خلف السوء يعنى اليهود . وقال الواحدى فى تفسير الوسيط (٣/١٨٧) : قال السدى : هم اليهود والنصارى .

وفي آية أخرى يقول تعالى لموسى عليه السلام : ﴿ لَنْ تَرَانِي وَلَـٰكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي (١٤٣) ﴾ [الأعراف] وهذا لشيء لم يتحقق .

أما استخدام السين فيدل على اقتراف حدوث مابعده ، ولو أعطينا مثالاً على ذلك نقول : احضر لي أكرمك ، فبمجرد الحضور يحدث الإكرام ، ولكن إنْ قلت لك : إن حضرت إليَّ فسأكرمك .

فهذا يعنى أن الزمن يمتد قليلاً ، فلن تكرم من فور أنْ تأتى ، بل أن تحضر عندى بعد ذلك تأخذ تحيتك ، ويأتيك الإكرام بعد قليل .

وإنْ أردت أنْ أطيل الزمن أكثر فإنى أقول : إن حضرت إليَّ فسوف أكرمك .

إذن فنحن أمام ثلاث مراحل لترتيب الجزاء على الفعل : جزاء يأتى بعد فور حصول الشرط ، وجزاء يأتى بعد زمن يسير تؤديه (السين) ، وجزاء يأتى بعد زمن أطول تؤديه (سوف) .

فإذا رأيت السين تسبق قولاً فإن هذا يعني أن الزمن الذى يفصل بين الحدث والحدث قريب وقليل مثل قوله الحق :﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ (١٤٢) ﴾ [البقرة]

أما عندما تقرأ (سوف) فاعلم أن الزمن الذى يفصل بين الحدث والحدث متسع وبعيد ، وهنا يقول تعالى : ﴿ سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ (١٦) ﴾ [القلم] فاستخدام السين دلالة على أن العقاب واقع به سريعاً .

﴿ سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ (١٦) ﴾ [القلم] أى سنخطمه بالسيف ، فنجعل ذلك علامة باقية وسمة ثابتة فيه ما عاش ، وكأنَّ العلامة هذه ليكون أمره واضحاً للجميع ، فسنبين أمره بياناً واضحاً حتى يعرفوه ، فلا يخفى عليهم كما لا تخفى السِّمة على الخرطوم .

والخرطوم الأنف تعبيراً عن الوجه ، والوجه أشرف ما فى الإنسان ، وعندما يرى الإنسانُ جباراً يشمخ بأنفه ويتكبَّر يقول : أريد أنْ أكسر أنف فلان .

والخرطوم يُستعار فى أنف الإنسان ، وبعض العلماء قال إنه فى هذه الدنيا وقد حلَّ به هذا فى يوم بدر ، ولكن البعض قال إن ذلك فى عذاب الآخرة فى جهنم ، وهو تعذيب بنار على أنفه ، ثم يقول الحق سبحانه:

﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (١٧) ﴾

هذه قصة الإخوة الذين كانوا يملكون جنة من جنان الأرض ، فمنعوا حق الفقير والمسكين واليتيم ، فذهب الله بثمر الجنة كلها وأحرق أشجارها .

لقد جزاهم الله بظلمهم ، ولكن ألا نرى رجلاً لم يظلم نفسه وتصيب زراعته كارثة ؟ إننا نرى ذلك فى الحياة والرجل الذى لم يظلم نفسه وتصيب زراعته كارثة ويصبر على كارثته يأخذ الجزاء والثواب من الله ، ولعلَّ الله قد أهلك بها مالاً كانت الغفلة قد أدخلته فى ماله من طريق غير مشروع .

هكذا تكون الكارثة بالنسبة للمؤمن لها ثواب وجزاء أو تكون تطهيراً للمال ، أما الذى ينفق على غير نية الله وهو كافر فلا ثواب له ، وليس هناك مَنْ يضمن لك بقاء ما أنت فيه من نعمة .

ولو حلَّلتَ أى نعمة من النّعم التى لك فيها عمل لوجدتَ أن نصيبك فيها راجعٌ إلى الله وموهوب منه سبحانه ، وحتى بعد أنْ ينمو الزرع ويزهر أو يثمر لاتأمن أنْ تأتيه آفة أو تحلّ به جائحة فتهلكه .

والحق سبحانه يقول : ﴿ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (٦٥) إِنَّا لَمُغْرَمُونَ (٦٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٦٧) ﴾ [الواقعة]

و﴿ بَلَوْنَاهُمْ (١٧) ﴾ [القلم] أى اختبرناهم ، وهناك ابتلاء بالخير وابتلاء بالشر ، والبلاء كلمة لاتخيف أما الذى يخيف فهو نتيجة هذا البلاء ، فالبلاء هو امتحان أو اختبار ، إن أديته ونجحت فيه كان خيراً لك ، وإنْ لم تُؤدّه كان وبالاً عليك .

فالابتلاء مقياس لاختيار الخير والشر ، والابتلاء من الله نعمة فمجرد الابتلاء ليس شراً ، ولكن الشر هو أنْ تسقط فى الابتلاء ، فكل ابتلاء هو اختبار

وامتحـان ، ولم يقـل أحد إن الامتحانات شر ، إنها تصـير شراً من وجهة نظر الذى لم يتحمل مشاق العمل للوصول إلى النجاح .

ولذلـك قال تعالى فى سـورة الفجر : ﴿ فَأَمَّا الْإِنْسَـانُ إِذَا مَا ابْتَـلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَـهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَـنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْـهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦) ﴾ [الفجر]

فلا المال دليل الكرامة ، ولا الفقر دليل الإهانة ، ولكن متى يكون المال دليل الكرامـة ؟ يكـون المال دليل كرامة إنْ جاءك وكنت موفقاً فى أنْ تؤدى مطلوب المـال عندك للمحتـاج إليه ، وإنْ لم تُؤد حق الله فالمـال مذلَّة لك وإهانة ، فقد أكون غنياً لا أعطى الحق ، فالفقر فى هذه الحالة أفضل .

ولذلـك قـال الله للاثنـين (كلا) ، وذلك يعنى : لا إعطاء المـال دليل الكرامة ولا الفقـر دليـل الإهانة ، وأراد سـبحانه أنْ يدلل على ذلك فقـال : ﴿ كَلَّا بَل لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ (١٧) وَلَا تَحَاضُّـونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْـكِينِ (١٨) وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا (١٩) ﴾ [الفجر]

فمـا دمتـم لا تكرمون اليتيم فكيف يكون المال دليل الكرامة ؟ إن المال هنا وزر ، وكيف إن سـلبه منك يا مَنْ لا تكرم اليتيم يكون إهانة ؟ إنه سـبحانه قد نزَّهك أنْ تكون مُهاناً فلا تتحمل مسئولية المال .

إذن : فلا المال دليل الكرامة ، ولا الفقر دليل الإهانة .

وحتى إنْ كنتَ لا تمتلك ولا تعطى أفلا تحث مَنْ عنده أنْ يعطى ؟ أنت ضنينٌ حتـى بالكلمـة ، فمعنى تحض على طعام المسكين أى تحث غـيرك ، فإذا كنتَ تضنّ حتى بالنصح فكيف تقول : إن المال كرامة والفقر إهانة ؟

والابتـلاء غـير مذموم فى ذاته ، إنما المذموم فيـه الغاية منه ، لأن الابتلاء اختبار ، وقد ينجح إنسان وقد يفشل إنسان آخر ، فهناك الابتلاء بالنِّعم ، وهناك

الابتلاء بالنِّقم ، والابتلاء بالنقم ليرى الحق هل يصبر العبد أو لا يصبر.

والحق سبحانه يقول ﴿ بَلَوْنَاهُمْ (١٧) ﴾ [القلم] فـ (هم) هنا تعنى أهل مكة فبلوناهم بالجوع فامتحنّا واختبرنا مشركى قريش حين دعا عليهم رسول الله ﷺ فقال : «اللهم اشددْ وطأتك على مُضر ، واجعلها عليهم سنين كسِنىّ يوسف»(١) .

﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ (١٧) ﴾ [القلم] وابتلاؤهم هنا كان عقوبة لهم ، وإلاّ فقد يسألك سائل : وماذا عن قول الحق سبحانه : ﴿ مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَـٰذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ(٢) أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَـٰكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٧) ﴾ [آل عمران]

والحق سبحانه يقول هنا : ﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ (١٧) ﴾ [القلم]

والجنة المقصودة هنا هى بستان كان لهؤلاء ، وكلمة (الجنة) مأخوذة من (الجَن) والستر ، و (الجنة) هى البستان الذى به شجر إذا سار فيه الإنسان يستره ، وهو غير البساتين الزهرية التى تخرج زهراً قريباً من الأرض تمثل ترفاً للعيون فقط .

أما الجنة ففيها أشجار عالية كثيفة بحيث لو سار فيها أحد يُستر ، ففيها الاقتيات وفيها كل شىء فهى تسترك عن أنْ تلتفت إلى غيرها لأن فيها ما يكفيك ، فالذى عنده حاجة لا تكفيه يتطلع إلى ما يكفيه ، لكن مَنْ عنده حاجة تكفيه فقد انستر عن بقية الوجود .

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٨٠٤ ، ١٠٠٦ ، ٢٩٣٢) وكذا مسلم فى صحيحه (٢٩٤ ، ٢٩٥) أن أبا هريرة قال : كان رسول الله يقول حين يفرغ من صلاة الفجر من القراءة ويكبر ويرفع رأسه : سمع الله لمن حمده ربنا ولك الحمد . ثم يقول وهو قائم : اللهم أنج الوليد بن الوليد وسلمة بن هشام ... اللهم اشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم كسنى يوسف .

(٢) الصر : شدة البرد . قال ابن الأنبارى : فى قوله تعالى ﴿ كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ (١١٧) ﴾ [آل عمران] ثلاثة أقوال : أحدها فيها برد . والثانى : فيها تصويت وحركة . والثالث : فيها نار .

فـ (جنَّ) تفيد السَّتر والتغطية ، ومنها الجنون أى ستر العقل ، و (جن الليل) أى أظلم وستر عنك ، فلا ترى غيرك ولا غيرك يراك ، و (الجنة) كذلك لأن فيها الأشجار والأشياء التى تستر من يمشى فيها ، إذن المادة كلها تفيد الستر .

فالجنة هى المكان الممتلىء بالزروع والثمار وتعلو الأشجار فيه وتكثف وتلتفّ أغصانها وفروعها بحيث تستر مَنْ يكون بداخلها وتستره أيضاً عن بقية الأمكنة ، لأنه لا حاجة له إلى الأمكنة الأخرى .

ففى الجنة كل مقومات الحياة من غذاء وفاكهة ومرعى وماء وخضرة ومتعة ، وفيها كل شىء .

وأصحاب الجنة هؤلاء ورثوها عن أبيهم ، وكان أبوهم يجعل مما فيها من كل شىء حظاً للمساكين عند الحصاد والصرام ، فقال بنوه : المال قليل والعيال كثير ، ولا يسعنا أنْ نفعل كما كان يفعل أبونا ، وعزموا على حرمان المساكين فصارت عاقبتهم إلى ما قصَّ الله فى كتابه .

قال تعالى : ﴿ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (١٧) ﴾ [القلم] فحلفوا ليقطعن ثمر نخيلهم من غير أنْ يشعر المساكين ، فقد اتفقوا على قطف ثمار بستانهم فى الصباح ولم يقولوا : إن شاء الله ، فدمرها الله وأهلكها وهم نائمون ، وفى الصباح انطلقوا إلى جنتهم وهم يقولون فيما بينهم : ﴿ أَنْ لَا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ (٢٤) ﴾ [القلم]

وهكذا قطعوا الطريق على أنفسهم حينما حرموا المسكين : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ (٢٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٢٧) ﴾ [القلم] ثم تنبهوا إلى ما وقعوا فيه من خطأ وعادوا إلى صوابهم ، فقالوا : ﴿ عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ (٣٢) ﴾ [القلم]

والصَّرم : القطع . أى ليقطعنها قبل أنْ يخرج المساكين فى الصباح .

﴿ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

أى لم يقولوا إن شاء الله ، فإياك أنْ تقول إنى سأفعل شيئاً إلا أنْ تشتمله وتربطه بمشيئة الله ، لأنك إنْ دعوتَ فأنت لا تضمن عمرك ولا إنفاذ وعدك، وإنك لن تفعل شيئاً إلا بإرادة الله لذلك فلا تعد إلا بالمشيئة .

لذلك قال تعالى : ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا (٢٣) ﴾ [الكهف] فالإنسان لا يملك الزمن ولا يملك المكان ، بل لا يملك الإنسان أنْ يظل السبب قائماً ليفعل ما كان يريد أنْ يفعله ، فكل هذه العناصر الفاعل والمفعول والزمان والمكان والسبب لا يملكها إلا الله .

لذلك فليحم الإنسان نفسه من أنْ يكون كاذباً ومجازفاً ، وليكن فى ظل قوله تعالى :﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا (٢٣) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ (٢٤) ﴾ [الكهف] ، فكلمة (إلا أن يشاء الله) تعصم الإنسان من أنْ يكون كاذباً .

وأنت لا تملك وجود نفسك ولا تملك وجود المفعول ولا السبب ولا تملك القدرة، ولا تملك شيئاً ، فأدباً منك عليك أنْ تقول : إنْ شاء الله . فإنْ لم يحدث تقول : أنا قلت إنْ شاء الله وهو لم يشأ فتكون قد خرجت من التبعة ولم تكن كذاباً .

ولكن بعض العلماء ذهبوا إلى تأويل ﴿ وَلَا يَسْتَثْنُونَ (١٨) ﴾ [القلم] أن معناه لا يتركون شيئاً من ثمر أشجار جنتهم ، فلن يتركوا شيئاً يوزعونه على الفقراء والمساكين كما كان يفعل أبوهم .

والحق سبحانه قرر حقاً للسائل والمحروم ، فقال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ (٢٤) لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (٢٥) ﴾ [المعارج] ، فالحق المعلوم هو الزكاة ، أما المحسن فللسائل والمحروم فى ماله حق غير معلوم .

فلا يصح أنْ ينسب الإنسان المال كله لنفسه ، لأن له شركاء فيه هما السائل

والمحروم ، فالمال إذن ملكية صاحبه باستثناء حق السائل والمحروم .

ولم يحدد الحق سبحانه هنا هذا الحق بأنه حقٌّ معلوم ، بل جعله حقاً غير معلوم أو محدد ، والله سبحانه لم يفرض على المسلم إلا الزكاة ، ولكن مَنْ يرغب فى مقام الإحسان فهو يبذل من ماله للسائل والمحروم .

والشارع حين كفل هذا الحق للفقراء فإنما يحمى به الفقراء والأغنياء على حدٍّ سواء ، وقد حدد الشارع هذا الحق حتى لا تزهد فى العطاء خاصة فى الزكاة .

وقد رأينا بعض الفقهاء قد اعتبروا الزكاة ما دامت حقاً للفقير عند الغنى ، فإنْ منع الغنى ما قدره نصاب سرقة تُقطع يد الغنى ، لأنه أخذ حق الفقير .

وحق الفقير محفوظ فى ذمة صاحب المال ، وهذا أفضل للفقير ، فإن الغنى لو لم يُؤدِّ الزكاة فى ساعتها ، وبعد ذلك حدث أن هلك المال ، فالغنى ضامن لحقِّ الفقير .

فالغنى راعٍ لحقِّ الفقير وضرورى أنْ تجعله كنفسك ، فلا يكُنْ هيِّناً عليك فتمنعه حقه أو تعطيه أردأ ما عندك .

والله إنما أفاضَ عليك بالمال والغنى لترعى حقَّ الفقير ، فلا تبخس حقَّ الفقير .

وهؤلاء مكروا سيئاً فحاق بهم ما مكروه ، يقول تعالى : ﴿ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ (٤٣) ﴾ [فاطر] ، والذى يمكر يدارى نواياه فقد يظهر لك الحب بينما هو مبغض ، فمن أسس المكر التبييت ، وهو يحتاج إلى حنكة وخبرة، فالذى يحاول التبييت قد يجد قبالته مَنْ يلتقط خبايا التبييت بالحدس والتخمين ، والله يُنزل العقاب على أصحاب المكر السيء .

فكان عقابهم :

﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ ﴾

أى أرسل الله سبحانه مَنْ طاف بها ، أى مشى فى كل جزء منها فأحرق أشجارها ، فالطائف هو الذى يطوف .

ولا يكون الطائف إلا ليلاً ولا يكون نهاراً ، وهو أمر من أمر الله ، فأرسل الله عليها عذاباً من السماء فاحترقت كلها ، وصارت سوداء كالليل المظلم .

﴿ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ ﴾

والصريم هو الرماد الأسود فأصبحت سوداء محترقة كالليل ، وقد ذهب ما فيها من الثمر ، فكأنه قد صُرم وقُطع وجُذّ .

وهم أقسموا أنهم سيصرمونها ويجذُّون ثمرها قبل أنْ يصبح الصباح وقبل مجىء الفقراء لأخْذ صدقاتهم .

واستخدام الحق سبحانه لنفس مادة (صرم) دليلٌ كأنَّ الحق يقول لهم : أنتم أردتم صرمها وقطع ثمرها لأنفسكم فقط ، وها نحن صرمناها لكم فلم تستفيدوا بها عقاباً لكم على مكركم السىء .

﴿ فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾

وعندما جاء الصباح تنادوا ونادى كلّ واحد على الآخر ﴿ أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ (٢٢) ﴾ [القلم] ، فهم لم يصلهم أن بستانهم قد احترق ، وأن زرعهم قد ضاع وذهب .

وهم ينسبون الثمر إلى أنفسهم ، فيقولون ﴿ أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ (٢٢) ﴾ [القلم] ، والحرث محلّ الإنبات والزرع ومحل الاستنبات ، والحرث أيضاً هو الزرع المستنبت من الأرض .

والحق سبحانه يُذكِّرهم : ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (٦٤) لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (٦٥) إِنَّا لَمُغْرَمُونَ (٦٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٦٧) ﴾ [الواقعة]

ويقول تعالى : ﴿ كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٧) ﴾ [آل عمران]

فحتى بعد أنْ ينمو الزرع ويُزهر أو يثمر لا تأمن أنْ تأتيه آفة أو تحلّ به جائحة فتهلكه ، فلا يراودك الغرور بعملك ، فإنْ كانت هذه صنعتكم فحافظوا عليها ، ولا تظنوا أنَّ لكم قدرة عليه .

لقد تنادوا مصبحين ﴿ أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ (٢٢) ﴾ [القلم] أى إنْ كنتم جادّين فى تنفيذ ما تواعدنا عليه من قطع الثمر وجذّه والاحتفاظ به لأنفسنا ، أى إنْ كنتم حاصدى زرعكم قبل أنْ يحضرها المساكين .

و ﴿ صَارِمِينَ (٢٢) ﴾ [القلم] من معانيها عازمين ، أى إنْ كنتم عازمين على صرم حرثكم فى هذا اليوم ، أى إنْ كنتم من أهل العزم والإقدام على آرائكم من قولك: سيف صارم .

﴿ فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ (٢٣) ﴾

والانطلاق فيه اندفاعٌ وتصميم وإرادة على فعل شىء ما ، وإرادتهم هنا متجهة إلى منع الخير عن الناس ، وهذا يتوافق ومثال لما ذكره الحق سبحانه قبل آيات ﴿ مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ (١٢) ﴾ [القلم]

ولأنهم عزموا على فعل شىء سىء ولا يريدون أنْ يطلع عليه أحدٌ خرجوا

بعد أنْ تنادوا ، خرجوا وهم يتخافتون ، وهذه جملة حالية تصف حالهم حين الانطلاق ، فهم يتحركون فى الظلام كالأشباح يُحدِّثون بعضهم بأصوات خفيضة حتى لا يسمعهم أحد ولا ينتبه إليهم أحد .

والحق سبحانه يستخدم واو الجماعة هنا دليلاً على اجتماع رأيهم على هذا الفعل ، فليس فيهم أحد به نزعة خير أو دليل تراجع ، فتجد (أقسموا) (ولا يستثنون) (فتنادوا) (أن اغدوا) (فانطلقوا) (وهم يتخافتون) (وغدوا) .

فهناك اجتماع على نية القطع ، واجتماع على المسارعة فيه ، واجتماع على أمر خبيث فلم يعلنوه ولكن تخافتوا وأسرُّوا القول فيه ، فتخافتوا على ألاَّ يعطوا المساكين شيئاً .

وهم لا يمنعون المساكين حقهم من الحصاد والثمر ، بل إنهم سيمنعونهم حتى من مجرد الدخول فقالوا :

﴿ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ ﴾

فسيمنعون المساكين والفقراء من الدخول أصلاً ، ولو بالقوة فضلاً عن الطرد والزجر وإغلاق الأبواب واتخاذ كل وسائل المنع .

وهم يؤكدون كلامهم باستخدام النون المشددة ﴿ أَنْ لَا يَدْخُلَنَّهَا (٢٤) ﴾ [القلم]

وقد كان المساكين يدخلون هذه الحديقة لأخذ نصيبهم منها ، هذا ما اعتادوا عليه من الأب ، أما الأبناء فكانوا مانعين للخير بخلاء قد أشربوا حبَّ الدنيا فى قلوبهم ، ولا يجدون لأحد عندهم حقاً .

وهم يعلمون مدى حاجة هؤلاء الناس وهم أنفسهم يقولون ﴿ أَنْ لَا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ (٢٤) ﴾ [القلم] إذن فهم يعترفون أن هؤلاء الناس مساكين محتاجون فقراء معدمون .

﴿ وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ (٢٥) ﴾

والغُدو الإبكار والإصباح . والحرد القصد . وهم كان قصدهم المنع ، والمحاردة المنع . يُقال : حاردتْ السَّنة إذا لم يكن فيها مطر ، وحاردت الناقة إذا لم يكُنْ لها لبن .

فما اتفقوا عليه وقصدوه بَنوْهُ على قصد وتأسيس ومؤامرة بينهم قادرين عليه فى ظنهم ، وهو ما نقول عنه : سبْق الإصرار والترصد .

وهذا يعنى أن الله قد غاب عن بالهم مدة التحضير لهذا التآمر ، اتفقوا وافترقوا وناموا وأصبحوا فى الصباح مصممين على إنفاذ ما اتفقوا عليه وخرجوا معاً عامدين إلى منع المساكين من دخول حديقتهم بكل الوسائل .

ولغياب الله عن بالهم لم يدركوا أنهم إذا كانوا قد مكروا فإن الله قد مكر لهم سبحانه ، ويقول تعالى : ﴿ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٥٤) ﴾ [آل عمران]

فإذا كنتم قد مكرتم ودبرتم فإن لله تدبيراً آخر يعطيكم به درساً ، ولا تظنوا أنكم قادرون على شىء .

والحق سبحانه يقول : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ[1] بِالْأَمْسِ (٢٤) ﴾ [يونس]

فخيبة بعض الخَلْق الذين يتوهمون أنهم قادرون على أنْ يخططوا ويمكروا متناسين أو ناسين أن فوقهم قيوماً لا تأخذه سِنَة ولا نوم .

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ (٢٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٢٧) ﴾

---

(١) كأن لم تغن بالأمس : أى لم تنعم بالأمس . قال الطبرى فى تفسيره (١٥/٥٦) : كأن لم تكن تلك الزروع والنبات على ظهر الأرض نابتة قائمة على الأرض قبل ذلك بالأمس .

فهؤلاء اتفقوا على قطف ثمار بستانهم فى الصباح ، ولم يقولوا : إنْ شاء الله، فدمّرها الله وأهلكها وهم نائمون ، وفي الصباح انطلقوا إلى جنتهم وهم يقولون فيما بينهم : ﴿ لَا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ (٢٤)﴾ [القلم]

وهكذا قطعوا الطريق على أنفسهم حينما حرموا المسكين ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ (٢٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٢٧) ﴾ [القلم] ثم تنبهوا إلى ما وقعوا فيه من خطأ ، وعادوا إلى صوابهم فقالوا : ﴿ عَسَى رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ (٣٢)﴾ [القلم]

فهؤلاء لما وقفوا أمام جنتهم فى الصباح وقد رأوها قد احترق ثمرها وحرثها وشجرها ، ظنوا أنهم قد ضلوا الطريق إلى جنتهم ، فالضلال المقصود هنا هو التيه ، أى أنهم تاهوا عن جنتهم ، لذلك قال البعض منهم : أخطأنا الطريق ما هذه بجنتنا .

لقد تركوها بالأمس عامرة بالثمار ، واليوم يجدون حطاماً وشجراً محترقاً يعلوه السواد قد احترقت الثمار التى كانوا يريدون قطعها وصَرْمها فى الصباح دون أنْ يعطوا الفقراء حقهم من الحصاد الذى كانوا يأخذونه أيام أبى هؤلاء الأبناء .

فقد رأوها محترقةً لا شىءَ فيها قد صارت كالليل الأسود ينظرون إليها كالرماد ، لذلك شكُّوا أنْ تكون هذه جنتهم التى رأوها بالأمس ناضرة مزهرة عامرة بالثمار .

لذلك ظنوا أنهم تاهوا فى الطريق إليها ، وأن هذه جنة غير جنتهم ، ولكن بعضهم قالوا : ﴿ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٢٧)﴾ [القلم] ، مؤكدين أنها جنتهم فعلاً ، وأنهم لم يضلوا الطريق إليها ، بل إنها الحقيقة ماثلة أمامهم ، أنها جنتهم وأنهم إنما حُرموا خيرها وحُرموا من ثمرها بسبب نيتهم السيئة فى عدم إعطاء الفقراء حقَّهم ، فكان عقابهم حرمانهم من ثمار جنتهم أصلاً .

فلا يجب أنْ نغتر بحركتنا فى الحياة ، لذلك يقول تعالى فى سورة الواقعة: ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (٦٤) لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (٦٥) إِنَّا لَمُغْرَمُونَ (٦٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٦٧) ﴾ [الواقعة]

فهذه الحبة التى تبذرها فى حقلك ، هل تجلس بجوارها تُنميها وتشدّها من الأرض فتنمو معك يوماً بعد يوم ؟ إن كل عملك فيها أنْ تحرث الأرض وتبذر البذور .

وحتى بعد أنْ ينمو الزرع ويزهر أو يثمر لا تأمن أنْ تأتيه آفة أو تحل به جائحة فتهلكه ، لذلك يقول تعالى : ﴿ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (٦٥) إِنَّا لَمُغْرَمُونَ (٦٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٦٧) ﴾ [الواقعة]

والمحروم الذى يُصاب زرعه أو ثمره أو نسل ماشيته ، فيكون له حق على مَنْ لم يصبه ذلك من المسلمين ، وهنا لفتة عجيبة فهم قد أصبحوا محرومين أى مستحقين للزكاة ، وكأنهم بعد أنْ كانوا أصحابَ مال يتمثل فى جنتهم وكانوا أغنياء عن أنْ يمدوا أيديهم للناس ، بل هم الذين يعطون الناس .

لقد تحولوا إلى فقراء يستحقون عطف الآخرين عليهم ، لقد أنكروا على الفقراء حقهم فى زرعهم وزكاتهم وحصادهم ، فما بالهم اليوم ؟

لقد غفلوا عن حكمة الزكاة والصدقة وأنْ يعطوا الفقير مما رزقهم الله ، فالضعيف حين يجد نفسه فى مجتمع متكافل ويجد صاحب القوة قد عدّى من أثر قوته وحركته إليه ، أيحقد على ذى القوة ؟ لا ، لأن خيره يأتيه .

ونحن فى الريف نجد البهيمة التى تُدر لبناً ساعة تسير فى الحارة ، كان الكل يدعو الله لها ويقول : يحميك . لماذا ؟ لأن صاحبها يعطى كل مَنْ حوله من لبنها ومن جبنتها ومن سمنها .

لذلك يدعو لها الجميع ولا يربطها صاحبها ولا يعلفها ولا ينشغل عليها ،

والخير القادم منها يذهب إلى كل الأهل ، وحين نجد مجتمعاً بهذا الشكل ويجد العاجز من القوى معيناً له ، هنا يقول العاجز : إننى فى عالم متكامل .

وإذا ما وُجد فى إنسان قوة وفى آخر ضعف ، فالضعيف لا يحقد وإنما يقول: إنَّ خير غيرى يصلنى . وكذلك يطمئن الواهب أنه إنْ عجز فى يوم ما سيجد مَنْ يكفله والقدرة أغيار ما دام الإنسان من الأغيار ، فقد يكون قوياً اليوم ضعيفاً غداً .

لذلك نقول للذين يصلون إلى المرتبة العالية فى الغنى أو الجاه أو أى مجال. لهؤلاء نقول : احذروا حين تتم لكم النعمة ، لماذا ؟ لأن النعمة إنْ تمَّتْ لك عُلواً وغِنىً وعافية وأولاداً ، أنت من الأغيار ، وما دامت النعمة قد تمت وصارت إلى النهاية وأنت لا شكَّ من الأغيار ، فإن النعمة لا بد تتغير إلى الأقل .

فإذا ما صعد إنسان إلى القمة وهو متغير فلا بد له أنْ ينزل عن هذه القمة، ولذا يقول الشاعر :

إذَا تَمَّ شَىءٌ بَدَا نَقْصُهُ ترَقَّبْ زَوَالاً إذَا قِيلَ تَم

وخيرات الحياة من مال وثروة إنما تأتى نتيجة الحركة فى الحياة ، وحركة المتحرك فى الحياة تقتضى قدرة ، فإذا كان الإنسانُ عاجزاً ولا يجد القدرة على الحركة ، فمن أين يعيش ، إن الله لابد أنْ يضمن له فى حركة القادر ما يعوله .

لقد جعل اللهُ القدرةَ عرضاً من أعراض الحياة ، فالقادر اليوم قد يصير عاجزاً غداً ، وما دامت القدرة عرضاً من أعراض الحياة، فالقادر الآن عندما يسمع الأمر من الله بأنْ ينفق على غير القادر ، فلابد أنْ يُقدر فى نفسه أن قدرته هى عَرَض من أعراض الحياة ، والقادر الآن عُرْضة لأنْ يصير غداً من العاجزين ، ويقول القادر لنفسه : عندما أصبح عاجزاً سوف أجد مَنْ يعطينى.

أليس ذلك هو التأمين الحق ؟ إنه تأمين المؤمن ، فالمؤمن يعطى عند قدرته، وذلك حتى يُجنِّبه الله مشقة السؤال إنْ اصبح عاجزاً غير قادر ، فالأغيار إنْ جاءت سوف يجد مَنْ يعطيه .

وهنا أصحاب الجنة تحولوا بين ليلة وضحاها إلى محتاجين معوزين محرومين ، والمحروم محتاج للصدقة والزكاة والمساعدة ، قال تعالى : ﴿ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩)﴾ [الذاريات]

ويقول الحق سبحانه :﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ (٢٤) لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (٢٥)﴾ [المعارج]

والحق سبحانه غنيٌّ عن الأغنياء من عباده ، لذلك يقول تعالى :﴿ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ (٢٦٣)﴾ [البقرة] ، ففى ذلك تنبيه للقادر الذى حرم الفقير ، وكأنما يقول له: إنما حرمتَ نفسك أيها القادر من أجر الله .

إنك أيها القادر حين تحرم فقيراً فأنت المحروم ، لأن الله غنيٌّ عنك ، وهو سبحانه يقول : ﴿ هَـأَنْتُمْ هَـؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ (٣٨)﴾ [محمد]

إن الله غنى بقدرته المطلقة ، غنى وقادر أنْ يستبدل بالقوم البخلاء قوماً يسخون بما أفاء الله عليهم من رزق فى سبيل الله ، فالذى يمسك عن العطاء إنما منع عن نفسه باب رحمة .

وقد قال رسول الله ﷺ لأنس : يا أنس ويل للأغنياء من الفقراء يوم القيامة، يقولون : يا رب ظلمونا حقوقنا التى فرضتها عليهم . قال : وعزتى وجلالى لأقربنكم ولأبعدنهم .

فتلا رسول الله ﷺ هذه الآية (وفى أموالهم حق للسائل والمحروم)[١].

وقد كان رجل من أهل اليمامة له مال ، فجاء سيل فذهب بماله فقال رجل من أصحاب النبى ﷺ : هذا المحروم فاقسموا له[٢] .

فالمحروم ضد المرزوق ، فهم ممنوعون من الانتفاع بثمرة كدِّهم وتعبهم لأنهم أرادوا قطع الثمر وأنْ لا يعطوا للفقراء حقهم .

فهؤلاء انقلب حالهم من الغنى إلى الفقر ، وأصبحوا محرومين مُستحقين للصدقة والزكاة بسبب نيتهم وإرادتهم السيئة .

وهنا بدأ الإخوة يتلاومون ويحاول كل منهم التملص من مسئولية ما حدث، فيقول الحق سبحانه عنهم :

﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

الوسط يعنى أن هناك طرفين حتى يتحدد الوسط ،هذا طرف ثم الوسط ثم طرف آخر ، ووسط الشىء منتصفه أو ما بين الطرفين . ولا بد أنْ تعرف الطرفين أولاً ثم تحدد ، لأن الوسط لا يُعرف إلا بتحديد الطرفين .

فالوسط فى موقع بين طرفين متناقضين ، وما دام الشىء فى الوسط فالطرفان متساويان ، وعندما نقول وسط فهذا يقتضى أنْ نجعل المسافة بينه وبين كل طرف متساوية ، وخير الأمور الوسط .

---

(١) أخرجه الطبرانى فى المعجم الصغير (٦٩٣) والمعجم الأوسط (٤٨١٣) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه . وأورده المتقى الهندى فى كنز العمال (١٥٨٢٢) وعزاه للعسكرى فى المواعظ وابن مردويه عن أنس .

(٢) أخرجه الثعلبى فى الكشف والبيان (٩/١١٢) عن أبى قلابة قال : كان رجل من أهل اليمامة له مال فجاء سيل فذهب بماله فقال رجل من أصحاب النبى ﷺ : هذا المحروم فاقسموا له . وقاله القرطبى فى التفسير (١٧/٣٩) وقال : قيل : إنه الذى يطلب الدنيا وتدبر عنه . وقال عبد الرحمن بن حميد : المحروم المملوك .

وتتحدد نهاية الطرفين من منطقة وسط الشى ، فالوسط هو الفاصل بين الطرفين ، فما على يمين الوسط يُعد طرفاً ، وما على يسار الوسط يُعد طرفاً آخر، وكل جزء بعد الوسط طرف ، وكذلك ما قبله .

وعادة ما يُعد الوسط هو نقطة المنتصف تماماً ، وما على يمينها يقسم إلى عشرة أجزاء ، وما على يسارها يقسم إلى عشرة أجزاء أخرى ، وكل قسم من تلك الأجزاء التى على اليمين والتى على اليسار يُعد طرفاً .

ومعنى أن الحق سبحانه يقول : ﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ (٢٨)﴾ [القلم] هذا معناه أن الإخوة بعد أنْ عاينوا ما حدث لجنتهم وبستانهم وثمارهم لم يصبحوا على رأى واحد .

فهم حين الاتفاق على قطع الثمار والحصاد فى الصباح الباكر قبل أنْ يأتى الفقراء حتى لا يعطوهم منها شيئاً ، كانوا حينها على رأى واحد ، لذلك قال تعالى :

﴿ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (١٧) وَلَا يَسْتَثْنُونَ (١٨) ﴾ [القلم] ثم قال : ﴿ فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ (٢١) أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ (٢٢) فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ (٢٣) أَنْ لَا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ (٢٤) وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ (٢٥)﴾ [القلم]

وكانت لحظة الاختلاف فى الرأى بينهم هى ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ (٢٦)﴾ [القلم] فقال بعضهم (إنَّا لضالون) أى نحن ضللنا الطريق إلى جنتنا وليست هذه جنتنا .

وبعضهم أيقن أن هذه هى الجنة التى تخصُّهم ، وأيقن أيضاً أن الله قد حرمهم أنْ ينتفعوا بثمرة جنتهم ، فقال : ﴿ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٢٧) ﴾ [القلم]

فالرأى الأول فى أنهم لم يسلكوا الطريق الصحيح إلى جنتهم وأنها ليست جنتهم لم يكن صحيحاً ، والرأى الآخر أنهم محرومون ممنوعون ، فجاء

أوسطهم وكأنه لا يغلق باب رحمة الله ، ووَصْف الحق سبحانه لهذا القول بأنه (أوسطهم) هو دليل على أن الله لم يغلق باب الرحمة فى وجوههم .

﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ (٢٨)﴾ [القلم] فرأيه أن المشكلة كانت أنهم لم يُسبِّحوا الله . أى : لم يستثنوا ويقولوا إنْ شاء الله .

وهذا فى الحقيقة ليس اختلافاً مع إخوته فى منع الفقراء من ثمرة جنتهم، إنما هو على سبيل تعليق الأمر على مشيئة الله ، كما يقول أحدنا للآخر : يا عم قول إن شاء الله .

وقد يكون سارقاً ، وقد تجده يخرج للسرقة ويقول : ربنا يسهل أو يقول : اتكالنا عليك يا رب ، ربنا يستر .

فقوله هذا ليس دليل خيرية مطلقة له ، بل هو دليل استهتار بعظمة الله وقدره وقد يعتبر دليلَ خير فى قلبه أنه لم ينس الله بالكلية ، فلا هو شديد العداوة للفقراء ، ولا هو يخدع نفسه ويقول : لقد ضللنا الطريق إلى جنتنا . فهذه ليست جنتنا .

ولم يقطع الأمل فى الله وأنهم كانوا الأجدر بهم أنْ يقولوا إنْ شاء الله .. وأنَّ الله لم يمنعهم الخير بالكلية وأن هناك فرصة أخرى لهم العام القادم ، لذلك فبعد مداولات كثيرة قالوا معاً : ﴿ عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ (٣٢)﴾ [القلم]

وقد يسأل أحدهم سؤالاً : هؤلاء أصابتهم جائحة لنيتهم السيئة لأنهم ظلموا أنفسهم ،فهل لا تصيب الجوائح والمصائب أصحاب النية الحسنة والذين لم يظلموا أنفسهم ؟

نقول : نعم تصيب الجوائح الجميع ، فالحق سبحانه يقول فى حق الذين ظلموا أنفسهم : ﴿ مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَـٰذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَـٰكِنْ أَنْفُسَهُمْ

يَظْلِمُونَ (١١٧) ﴾ [آل عمران]

فالذين ظلموا أنفسهم تنزل بهم هذه الكارثة كعقوبة ، مثلهم فى ذلك مثل أصحاب الجنة الذين يقول فيهم الحق سبحانه :﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (١٧) وَلَا يَسْتَثْنُونَ (١٨) فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ (١٩) فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ (٢٠)﴾ [القلم]

لقد جزاهم الله بظلمهم ، ولكن ألا نرى رجلاً لم يظلم نفسه وتصيب زراعته كارثة ؟ إننا نرى ذلك فى الحياة ، والرجل الذى لم يظلم نفسه وتصيب زراعته كارثة ويصبر على كارثته يأخذ الجزاء والثواب من الله .

ولعل الله قد أهلك بهذه الكارثة مالاً قد أدخلتْه غفلته فى ماله من طريق غير مشروع ، هكذا تكون الكارثة بالنسبة للمؤمن لها ثواب وجزاء أو تكون تطهيراً للمال .

ومن الظلم للنفس أنْ يظن الإنسان بقاء ما هو فيه من نعمة ، فلا أحد يضمن لنفسه أو لغيره هذا ، لذلك فإن صاحب الجنتين فى سورة الكهف قال : ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَـٰذِهِ أَبَدًا (٣٥)﴾ [الكهف]

فالظلم بنفسه هنا ليس أنه دخل جنته ، لا ؛ لأنها جنته يدخلها كما يشاء ، إنما المراد بالظلم هنا ما دار فى خاطره ، وما حدَّث به نفسه حال دخوله ، فخطر بباله الاستعلاء بالغنى والغرور بالنعمة ، فقال : ما أظن أن تبيد هذه النعمة أو تزول هذه الجنة الوارفة أو تهلك ، لقد غرَّه واقع ملموس أمام عينيه استبعد معه أن يزول عنه كل هذا النعيم .

وكلمة (لولا) هنا تحضيضية ، أى ألم أقل لكم هلاَّ تُسبِّحون ، وهذا معناه أنه حثّهم على تسبيح الله وقول إنْ شاء الله إنْ أرادوا فعل شىء كهذا ، ولكنهم لم يستمعوا له ، فكان قوله غير مؤثر فيهم، فتبعهم هو فيما هم فاعلون .

ومجيء لولا هنا معناه أنهم لم يسبّحوا ولم يستثنوا وبالتالى فهم لم يصلوا إلى ما يريدون ولم يتحقق مبتغاهم .

وساعة تسمع كلمة (لولا) فهذا يعنى أن هناك حكماً بامتناع شيئين ، شيء امتنع لامتناع شيء ، مثل قولك : لو كان عندك زيد لجئتك . وهنا يمتنع مجيئك لامتناع مجيء زيد ، فكلمة (لولا) حرف امتناع لامتناع .

و (لولا) التى معنا فى الآية ﴿ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ (٢٨)﴾ [القلم] جاء بعدها فعل مثل قولك : لولا فعلت كذا .

هنا يكون فى القول حضٌ على الفعل ، مثل قوله الحق : ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا (١٢)﴾ [النور]

ومثل قوله : ﴿ لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ ..(١٣)﴾ [النور]

فـ (لولا) إنْ دخلت على جملة اسمية ، فالمقصود بها عدم شيء لوجود شيء ، كقولك لإنسان آخر : لولا زيد عندك لأتيتك ، وبذلك ينعدم ذهابه إلى فلان لوجود زيد عنده .وقد تكون لولا نقصد بها عدم شيء لامتناع وجود شيء . أما إنْ دخلتْ على جملة فعلية فاعلم أنها حثٌّ وتحضيض .

فأوسطهم قال :﴿ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ (٢٨)﴾ [القلم] أى هلاَّ تستثنون فى قسمكم الذى أقسمتموه ويمينكم الذى حلفتموه ، فلولا قلتم سبحان الله فندموا على فعلهم .

﴿ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٢٩) ﴾

لقد رأوا أن ما قاله أوسطهم هو الصواب الآن ، فجنتهم قد احترقت وفقدوا حصاد هذا العام ، والظن أن هذه ليست جنتهم وأنهم ضلُّوا الطريق لم يعُدْ يفيدهم فى شيء ، ولم يعُد الهروب من الحقيقة مُجدياً .

لذلك قالوا مع أخيهم : ﴿سُبْحَانَ رَبِّنَا (٢٩)﴾ [القلم]، فنزهوا الله عن أن يكون قد ظلمهم فى شىء مما حدث ، لذلك اعترفوا أنهم الذين كانوا ظالمين ، ولذلك استحقوا ما حدث لهم .

فـ (سبحان الله) تنزيه لذاته سبحانه عن كل صفة نقص من الممكن أنْ تلحق به سبحانه ، فكل صفاته وكل أفعاله هى صفات الكمال وهى أفعال الكمال .

والله لا يظلم أحداً ، والحق سبحانه يقول : ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ (٤٠)﴾ [النساء]، ويقول : ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (٤٦)﴾ [فصلت]، فما يحدث للناس إنما هو بما كسبته أيديهم من الذنوب والآثام .

﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (١٨٢)﴾ [آل عمران]

والحق لا يريد الظلم على إطلاقه من نفسه أو منكم أنتم أيها العباد ، ولذلك يقول تعالى فى الحديث القدسى : « يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلتُه بينكم محرماً ، فلا تظالموا »[1].

وأنت حينما تصنع سوءاً يضر بغيرك . فهذا اسمه (سوء) وهو ظلم لغيرك ، أما حين تصنع فعلاً تضرُّ به نفسك فهذا ظلم النفس .

فظلم النفس هو الفعل الذي يسىء إلى النفس وحدها ، أو أن الإنسان يصنع سيئة ويمتع بها نفسه لحظة من اللحظات ولا يستحضر عقوبتها الشديدة فى الدنيا وفى الآخرة .

فهم الذين ظلموا أنفسهم بما اقترفت أيديهم ، كما قال سبحانه : ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٥٧٧/٥٥) باب تحريم الظلم عن أبى إدريس الخولانى عن أبى ذر عن النبى ﷺ فيما روى عن الله أنه قال : يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا ، يا عبادى كلكم ضال إلا من هديته فاستهدونى أهدكم ، يا عبادى كلكم جائع إلا من أطعمته . الحديث بطوله .

وَلَـٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٨) ﴾ [النحل]

وهم قد أقروا بخطئهم فقالوا: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٢٩) ﴾ [القلم] أي كنا ظالمين لأنفسنا بظلمنا لربنا فى أننا لم نُسبِّحه كما أمر ولم نُنزهه عن النقص، ولم نستحضر مشيئته تعالى فيما نحن مُقدمون عليه، ولأننا منعنا الفقراء حقهم.

وهو اعترافٌ باقترافهم الظلم، والعجيب أنهم يقولون ﴿سُبْحَانَ رَبِّنَا (٢٩) ﴾ [القلم] ولم يقولوا: سبحان الله، أو سبحان إلهنا. فهم لم يذكروه سبحانه بموجب ألوهيته ولكن بربوبيته طمعاً فى عطائه.

يقول أحد العابدين: أنا لا أواجه الله بعبوديتى ولكن أواجهه بربوبيته فأرتاح لأنه ربى ورب العالمين، فالذى له أبٌ يعينه لا يحمل هماً، فما بالك بالذى له رب يعينه وينصره؟

﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ ﴿٣٠﴾
قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ ﴿٣١﴾ ﴾

فأقبل بعضهم على بعض يلوم بعضهم بعضاً على تفريطهم فيما فرّطوا فيه من الاستثناء وعزمهم على ما كانوا عليه من ترك إطعام المساكين من جنتهم.

فيقول كل واحد منهم للآخر: أنت السبب فيما حدث والذنب عليك، وهكذا كل واحد يحاول أنْ يلقى المسئولية على غيره.

وسبب تلاوم الجميع أنهم جميعاً متورطون بشكل أو بآخر، فمنهم مَنْ زيَّن الأمر، ومنهم مَنْ قبل ووافق، ومنهم مَنْ نصح وحذر واعتزل الأمر، ومنهم مَنْ سكت وهو راضٍ، لذلك أقبل الجميع، يلوم بعضهم بعضاً.

لقد دار نقاش وحوار وتبادل اتهامات ، فواحد يقول للآخر : أنت خوَّفتنا بالفقر ، وثالث يقول : أنت الذى رغَّبتنى فى جمع المال ، ورابع يقول أنت الذى زيَّنت لى منع الصدقة عمن يستحقها من الفقراء والمساكين .

وكل إخوة أو مجتمع من الناس تكون فيهم الآراء المختلفة المتخالفة ، آراء تجنح نحو اليمين وآراء تجنح نحو اليسار ، وآراء فى الوسط بين الأمرين .

حدث هذا مع إخوة يوسف عندما عزموا على التخلص من يوسف عليه السلام لمحبة أبيه له أكثر منهم ، فكان اتفاقهم الذى تعددت فيه آراؤهم عند التنفيذ .

يقول الحق سبحانه عنهم أنهم قالوا : ﴿ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ(١) أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ (٩) ﴾ [يوسف] قتْل ثم انخفض شرهم إلى الضرب والطرح أرضاً دون قتل ، وقد يموت عن غير قصد للقتل ، ثم ينخفض الشر مرة أخرى فيقول :﴿ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (١٠) ﴾ [يوسف]

وهكذا نرى اختلاف الآراء عند التنفيذ رغم انعقاد العزم من الجميع على الفعل ، فتجد أحدهم يرفض مبدأ القتل ويستبدله بالإخفاء بإلقائه فى الجب .

ونلاحظ أن صاحب رأى الإخفاء فى الجب لم يقف بالعنف والمواجهة ضد اقتراح إخوته بقتل يوسف أو طرحه فى الأرض ، بل أخذ يستدرجهم ليستلّ منهم ثورة الغضب ، فلم يقل لهم :لا تقتلوه ، ولكنه قال ﴿ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ (١٠)﴾ [يوسف] وفى نطقه لاسم أخيهم يوسف تحنينٌ لهم عليه أملاً فى أنْ يتراجعوا عن مخططهم .

---

(١) يخل لكم وجه أبيكم : يقبل بكليته عليكم ويخلص لكم عن شغله بيوسف . [التفسير الوسيط للواحدى ٦٠١/٢] وقال الزمخشرى فى الكشاف (٤٤٧/٢) : أى يقبل عليكم إقبالة واحدة لا يلتفت عنكم إلى غيركم . فكان ذكر الوجه لتصوير معنى إقباله عليهم لأن الرجل إذا أقبل على الشيء أقبل بوجهه .

ولكنهم فى النهاية اعترفوا بخطئهم وأقروا بما فعلوه فى حقِّ أنفسهم ، بل وصل بهم الأمر أنهم دعوا على أنفسهم بالويل ، ﴿ قَالُوا يَٰوَيْلَنَا (٣١) ﴾ [القلم]

وهذا مثلما يجلس المجرم يُعزِّى نفسه نادماً يقول أنا مخطىء أنا أستحق السجن ، أنا كذا كذا . هى حالة من تأنيب الضمير وجَلْد الذات .

وكلمة الويل تُستعمل للتحسُّر على غفلة الإنسان عن العذاب ، وتعنى التحسُّر وقت رؤية هلاك جنتهم وبستانهم ، فهم فى موقف صعب فلا عودة لثمرهم الذى احترق وأصبح حطاماً ورماداً .

فلما وجدوا أنفسهم فى هذا الموقف لم يجدوا شيئاً إلا الحسرة فتوجهوا إلى أنفسهم ليقرعوها ويحكموا عليها بأنها تستحق ما نزل بهم .

فقولهم : ﴿ يَٰوَيْلَنَا (٣١) ﴾[القلم] هو نداء على العذاب ، كما تقول : يا بؤسى أو يا شقائى ، وهل أحد ينادى على العذاب أو البؤس أو الشقاء ؟ الإنسان لا ينادى إلا على ما يُفرح .

فهم يتحسَّرون ويندمون على ما كان منهم ، الآن يعلمون أنهم يستحقون ما نزل بهم ويلومون أنفسهم .

والويل هو الهلاك السريع ينادونه ، فهل يطلب الإنسان الهلاك ويدعو به لنفسه ؟ نقول : نعم حين يفعل الإنسان الفعل ويجد عواقبه السيئة ، وتواجهه الحقيقة المرَّة يميل إلى تعذيب نفسه ، ألاَ تسمع مثل هؤلاء يقولون : أنا أستحق .. أنا أستاهل الضرب . إنه لوم النفس وتأنيبها على ما كان منها فهى التى أوقعتْه فى هذه الورطة .

هم ينسبون الويل إلى أنفسهم فيقولون (يا ويلنا) مع أنه شيء خارج عن أنفسهم سيُعذَّبون به ، ولكن هذا دليل على أنهم سببُ ما وقع بهم ، وأنهم يستحقون هذا الويل ، وأنْ يكون مصاحباً وملازماً لهم .

﴿ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ (٣١) ﴾ [القلم] أى إنَّا كنا متجاوزين حدود الله تعالى ، فمنعنا حق الفقراء وتركنا تقديم مشيئة الله وتركنا تسبيحه وهو صاحب النعمة .

آباؤنا من قبل لم يطغوا بنعمة الله بل شكروها وأدوا ما عليهم فيها للفقراء، فأدام الله عليهم نعمته وزادها لهم ، أما نحن فقد كفرنا نعمة الله ولم نُقر بها ولم نُقر بحق الفقراء فيها ، فكان جزاؤنا أنْ أكلتْ النار ما كنا نملك .

وقد أشار الحق سبحانه إلى طغيان الإنسان بنعمة الله ، فقال الحق سبحانه :
﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى (٦) أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى (٧) ﴾ [العلق]

ذلك أن الإنسان يحرث الأرض فتعطيه الثمر ، فيعتقد أنه هو الذى أخضع الأرض ، ووضع لها قوانينها لتعطيه ما يريد .

الإنسان يظن أنه أخضع كلّ شيء بذاته ، بينما كل هذا مُسخّر من الله سبحانه لخدمة الإنسان ، وهو الذى خلق ووضع القوانين .

وأنت فى حياتك كلها ليس لك ذاتية ، فكلّ شىء حولك متغير بدون إرادتك، وأنت طفل محتاج إلى أبيك فى بدء حياتك ، فإذا كبرتَ وأصبح لك قوة واستجابت الأحداث لك فإنك لا تستطيع أنْ تجعل فترة الشباب والفتوة هذه تبقى .

فإذا وصلتَ إلى مرحلة الشيخوخة فستحتاج إلى مَنْ يأخذ بيدك ويعينك ، ربما على أدق حاجاتك وهى الطعام والشراب ، فأنت تبدأ بالطفولة محتاجاً إلى غيرك ، وتنتهى بالشيخوخة محتاجاً إلى غيرك ، وحتى عندما تكون فى شبابك قد يصيبك مرض يقعدك عن الحركة ، فإذا كانت لك ذاتٌ حقيقية فادفع هذا المرض عنك وقُلْ لن أمرض ، إنك لا تستطيع .

والله سبحانه أوجد هذه المتغيرات حتى ينتهى الغرور من الإنسان نفسه ويعرف أنه قوى قادر بما أخضع الله له من قوانين الكون ، لنعلم جميعاً أننا

محتاجون إلى القادر، وهو الله سبحانه.

فالله غنى بذاته عن كل خَلْقه، يغير ولا يتغير، يميت وهو دائم الوجود، يجعل من بعد قوة ضعفاً وهو القوى دائماً، ما عند الناس ينفد وما عنده تبارك وتعالى لا ينفد أبداً، هو الله فى السماوات والأرض.

إذن فليست لك ذاتية حتى تدَّعى أنك أخضعتَ الكون بقدراتك، لأنه لا قدرة لك أنْ تبقى على حال واحد، وتجعله لا يتبدل ولا يتغير.

والإنسان بطبيعته عندما يجد حياته مُكتفيةً بما يملكه قد يقع فيما قاله الحق سبحانه: ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى (٦) أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى (٧) ﴾ [العلق]

والإنسان قد يتجاوز حدوده ويتكبَّر على مَنْ حوله، بل وعلى ربه إنْ رأى نفسه صاحب ثراء، ولا يعصم الإنسان من مثل هذا الموقف إلا الإيمان بالله.

فالإنسان بدون منهج الله يسبح فى بحر الغرور والتكبر، ولكن مَنْ يحيا فى ضوء منهج الله فهو يعرف كيف يرعى الله فى كلِّ إمكانات أو ثراء يمنحه له الله، وينشر معونته ليستظل بها المحتاج غير الواجد.

وربما اغترَّ الإنسان بالأسباب وهى تستجيب له، فهو يحرث ويبذر ويروى وإذا بالأرض تعطيه أكلها، وهو يصنع الشىء فيستجيب له، كل ذلك قد يُغريه بأنَّ الأشياء استجابت لذاتيته فيذكِّره الله: ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى (٦) أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى (٧) ﴾ [العلق]

فالواجب أنْ نشكر نعمة الله ونؤديها فى مظانِّ الخير لها، فإنْ كان العبد سيؤديها بالشكر فقد نجح، وإنْ أدَّاها على عكس ذلك فهو يرسب فى الاختبار.

الحق سبحانه يبين دائماً أن كل الأسباب بيده، فترى مَنْ يحرث ويبذر ويروى ويرعى ثم يقترب الزرع من النضج، ثم تأتى موجة حارة تميته أو ينزل سيل يجرفه.

والإنسان لا يذل إلا حين يعاني من آفة ما ، ولا يأتى طغيانه إلا عند استكمال النعمة فى الخارج والنعمة فى الداخل ، وإنْ بدأت النعمة فى الانقباض عن الإنسان فكبرياؤه يتطاير .

ومَنْ كان يستعرض قوته على الناس قد يرجو القيام من الرقود ليخطو بضع خطوات فلا يستطيع ، والإنسان لا يستغنى إلا بما هو ذاتى فيه ، لا بما هو موهوب له ، لذلك فعليه ألاَّ يغتر .

فالواهب الأعلى قد يقبض هبته ، فقد يأخذ منك العافية ، وكثيراً ما رأينا أصحاء قد مرضوا ، ورأينا أغنياء قد افتقروا ، وأصحاب جاه قد خرجوا من جاههم .

إذن فلا داعى للغرور ، لأن الله قد وهبك كل شىء ، وليس لك شىء ذاتى فيك أبداً ، لذلك يجب أنْ ينعدم الغرور ، فما دام كل ما فيك موهوباً من الواهب الأعلى سبحانه ، فالواهب قد يسلب ما وهب ، وما إنْ تُسلبُ من الإنسان نعمة فهو ينتبه ، فلا داعى إذن لأنْ يغتر أحدٌ حتى لا يسلم نفسه رخيصة للضياع .

ثم يقول الحق سبحانه عنهم أنهم قالوا :

﴿ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾

الرغبة فى الشىء تعنى حبه وعشقه ، والرغبة فى الطريق الموصّل إليه ، إلا أنك لم تسلك هذا الطريق بالفعل ، ولم تأخذ بالأسباب التى توصّلك إلى ما ترغب فيه .

وهذا المعنى واضح فى قصة أصحاب الجنة التى نحن بصدد خواطرنا عنها، حيث يقول تعالى : ﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (١٧) وَلَا يَسْتَثْنُونَ (١٨) فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ (١٩)

فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ (٢٠)﴾ [القلم]

فقد اتفقوا على قطف ثمار بستانهم فى الصباح ، ولم يقولوا إنْ شاء الله، فدمّرها الله وأهلكها وهم نائمون ، وفى الصباح انطلقوا إلى جنتهم وهم يقولون فيما بينهم :

﴿ لَا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ (٢٤)﴾ [القلم] ، وهكذا قطعوا الطريق على أنفسهم حينما حرموا المسكين ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ (٢٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٢٧)﴾ [القلم]

ثم تنبَّهوا إلى ما وقعوا فيه من خطأ وعادوا إلى صوابهم ، فقالوا : ﴿ عَسَى رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ (٣٢)﴾ [القلم]

أى : راغبون فى الطريق الموصّل إليه تعالى ، فقبل أنْ تقول : أنا راغب فى الله . قل أنا راغب إلى الله . فالمسألة ليست حباً فقط بل حباً بثمن وسعى وعمل يوصلك إلى ما تحب .

إذن : قبل أنْ تكونوا راغبين فى ربكم ارغبوا إليه أولاً .

و (عسى) معناها فى اللغة الرجاء ، كقول واحد : عسى أنْ يجىء فلان . أى أرجو أنْ يجىء فلان ، أو قول واحد مخاطباً صاحباً له : عسى أنْ يأتيك فلان بخير ، وقد يأتى فلان بالخير وقد لا يأتى ، لكن الرجاء قد حدث .

وقد يقول واحد لصاحبه : عسى أنْ آتيك أنا بخير . هنا يكون الرجاء أكثر قوة لأن الرجاء فى الأولى فى يد واحد آخر غير المتحدث ، أما الخير هنا فهو فى يد المتحدث ، لكن أيضمن المتحدث أنْ توجد له القوة والوجود حتى يأتى بالخير لمَنْ يتحدث إليه ؟

وإذا قال قائل : عسى الله أنْ يأتيك بالفرج ، وهذه هى الأوغل فى الرجاء ، لكن هل مَنْ يقول ذلك واثق من أن الله يجيب هذا الرجاء ؟

قد يجيب الله وقد لا يجيب وفقاً لإرادة الله ، لا لإرادة مَنْ يرجو أو المرجو له .

وأصحاب الجنة هنا فى المرحلة الثانية من مراحل الرجاء ، فهم يرجون أنْ يبدلهم الله جنة أخرى خيراً مما كانت لهم واحترقت بسبب نيتهم السيئة ، فيقولون : ﴿ عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِنْهَا (٣٢)﴾ [القلم]

وقد يجيب الله رجاءهم وقد لا يستجيب لرجائهم ، فـ (عسى) تُستخدم حين يأتى بعدها أمر محجوب نحب أن يقع .

﴿ عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِنْهَا (٣٢)﴾ [القلم]

وقد أبدلهم الله جنة خيراً من جنتهم لعلمه سبحانه بصدق توبتهم وصدق إقرارهم بالخطأ . حتى أن عبدالله بن مسعود رضى الله عنه قال : بلغنى أن القوم أخلصوا وعرف الله منهم الصدق فأبدلهم بها جنة يُقال لها : الحيوان ، فيها عنب يحمل البغل منه عنقوداً واحداً[١] .

وقد فرَّق بعض العلماء بين التبديل والإبدال ، فهل الحق سبحانه غيَّر حال جنتهم وصفتها من الحطام والحريق إلى النضارة والإزهار مرة أخرى ؟ وعين الجنة هى نفسها .

أم أنه سبحانه أبدلهم بها جنة أخرى تماماً فى مكان آخر غير هذه العين ؟ على اختلاف بين العلماء .

ويذكر العلماء أنَّ هؤلاء كانوا من أهل اليمن ، وقد كانت اليمن مملوءة بالجنات والبساتين ، قال تعالى عن قوم سبأ وهم من اليمن : ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ (١٥)﴾ [سبأ]

---

(١) أورده البغوى فى تفسيره (٥/١٣٩) (٨/١٩٧) والزمخشرى فى الكشاف (٤/٥٩٢) والنسفى فى تفسيره (٣/٥٢٣) ، وأبو الطيب محمد صديق خان فى (فتح البيان فى مقاصد القرآن) (١٤/٢٦٩).

جنان عن أيمانهم وجنان عن شمائلهم ، ورغم هذا لم يشكروا الله على ما وهبهم الله من بلد طيب ورب غفور لهم ، ﴿ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ[1] وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ[2] وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ (١٦) ﴾ [سبأ]

فأهل سبأ رزقهم الله فأعرضوا عن شكره سبحانه ، كانوا يتيهون بالسد الذى يحفظ لهم مياه الأمطار ويمدّهم بما يحتاجون إليه منها طوال العام ، فكان هذا السد هو النكبة أو الكارثة التى أهلكت زرعهم .

وقد كان مسكن مملكة سبأ آية دالةً على قدرة الله ، حديقتان وارفتان عن يمين وشمال ، ليأكل أهل سبأ من رزق الله ويشكروا نعمة الله ، ولكنهم أعرضوا عن الرزق الوفير الذى منحهم الله إياه فكانت عاقبة إعراضهم أنْ أرسل الله عليهم سيل العرم ، فسلَّط الله عليهم حيواناً من أضعف الحيوانات وأحقرها وهو الجرذان فنقب السد فأغرق أموالهم ودفن بيوتهم .

أما أصحاب الجنة فكانوا أهل خير لخيرية أبيهم ، لذلك اعترفوا بذنبهم وتابوا إلى الله ، وقد كانوا راغبين فى قبول توبتهم ، ﴿ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ (٣٢) ﴾ [القلم]

ولابدّ أنْ نعى هنا تكرارهم وتأكيدهم على ربوبية الله لهم ﴿ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا .. (٢٩) ﴾ [القلم] ، ﴿ عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِنْهَا (٣٢) ﴾ [القلم] ، ﴿ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ (٣٢) ﴾ [القلم]

فتكررت كلمة (ربنا) ثلاث مرات ، لذلك فهم راغبون طامعون فى فضل الله بموجب ربوبيته سبحانه لهم .

---

(١) العرم : السد والمسناة التى تحبس الماء واحدتها عرمة وأصلها من العرامة وهى الشدة والقوة [الثعلبى فى الكشف والبيان ٨/٨٣] وقيل : العرم هو المطر الشديد من العرامة وهى التمرد والعصيان . وقال ابن الأعرابى : العرم السيل الذى لا يُطاق . [التفسير الوسيط للواحدى ٣/٤٩١] .

(٢) الخمط : شجر الأراك وقيل كل شجر ذى شوك ، والأثل : شجر يشبه الطرفاء أعظم منه وأجود عوداً .

ويُقال رغب فى كذا أى أراده . ويُقال : رغب عن كذا أى ترك هذا الأمر . ويُقال : رغب إلى كذا أى سار فى الطريق نحوه .

وهنا قال الحق ﴿ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ (٣٢) ﴾ [القلم] ، وما دمنا إلى الله راغبين، فكان يجب ألاَّ نعزل عطاء الدنيا عن عطاء الآخرة . فالدنيا ليست كل شىء عندك ، ما دمتَ راغباً إلى الله الذى سيعطيك نعيماً لا حدود له فى الآخرة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

(كذلك) إشارة إلى عذاب الدنيا الذى عاينوه فى احتراق جنتهم وفقدانهم لثمرهم ، فكما فعلنا بجنة أصحاب الجنة فعلنا بمن خالف أمرنا وكفر برسلنا فى عاجل الدنيا .

فبمثل هذا العذاب الدنيوى سنعذب هذا الذى قال أن القرآن ما هو إلا أساطير الأولين ، وذلك فى قوله تعالى : ﴿ أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ (١٤) إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٥) ﴾ [القلم]

فكأنَّ الحق سبحانه أورد قصة أصحاب الجنة ليرد بها على مَنْ كفر بالقرآن وبأنه وحى من عند الله ، فالله أعطاه المال والبنين ومع هذا كفر بالله ، وأصحاب الجنة أعطاهم الله الثمر النضر والجنة الوارفة ولكنهم بسبب معصيتهم وإرادتهم منع حق الله زالتْ جنتهم .

فكذلك سيكون العذاب ، فمثل هذا العذاب الذى ينزل بأصحاب الجنة ينزل العذاب بقريش ، وقد أصاب قريشاً جدب أصابهم سبع سنين حتى رأوا الدخان وأكلوا الجلود .

والحق سبحانه صدَّر قصة أصحاب الجنة بقوله : ﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ .. (١٧) ﴾ [القلم]

فإنَّا لم نُعطهم وننعم عليهم بالمال والبنين إلا لنختبرهم ونبتليهم ونمتحنهم، ولكنه استعمل هذا فى مخاصمة الحق سبحانه ومخاصمة دعوة الله والصَّد عن دين الله .

لذلك كان عذابهم مشابهاً لعذاب أصحاب الجنة ، وليعلم الجميع أن عذاب الآخرة أكبر ، فقال تعالى ، ﴿ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ (٣٣) ﴾ [القلم]

ولا تعتقدوا أن تعذيبى إياكم فى الدنيا سيعفيكم من عذاب الآخرة ، فالعذاب فى الدنيا قد يصيب مَنْ آمن بى ومَنْ كفر بى ، أما مَنْ كفر فإننى أضيف إلى عذابه فى الدنيا عذاباً آخر أكبر فى الآخرة .

وهناك ألوان متعددة من عذاب الآخرة ، فهناك العذاب العظيم والأليم والمهين والمقيم ، والعذاب العظيم يأتى إما بأسباب وإما بمسبب ، وعذاب الدنيا كله بأسباب ، فقد يكون العذاب بالعصا أو بالكرباج أو بالإهانة ، والأسباب تختلف قوة وضعفاً .

أما عذاب الآخرة فهو بمسبِّب ، والمعذِّب فى الآخرة واحد وقوته لا نهايةَ لها، وإنْ قِسْتَ عذاب الآخرة بالعذاب فى الدنيا فمن المؤكد أن عذاب الآخرة عذاب عظيم ، وهو أكبر من كل عذاب .

والحق سبحانه يسمى عذاب الآخرة بأنه عذاب الخلد ، فيقول : ﴿ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ .. (٥٢) ﴾ [يونس]

فـ ﴿ عَذَابَ الْخُلْدِ (٥٢) ﴾ [يونس] هو عذاب لا ينتهى ، أما عذاب الدنيا فموقوت فيه خزىٌ وهوان ، لكن محدوديته فى الحياة تجعله عذاباً قليلاً بالقياس إلى عذاب الآخرة المؤبد .

فعذاب الآخرة هو أشدّ شراً من عذاب الدنيا ، وعذاب الدنيا مهما بلغ فلن يصل إلى مرتبة عذاب الآخرة .

وقد أسماه الحق سبحانه بالمشهد العظيم ، وقد قال الحق سبحانه : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٣٧) ﴾ [مريم] ، فهو يوم مشهود يشهده الجميع، لأن العذاب فى الدنيا مثلاً لا يشهده إلا الحاضرون المعاصرون ، ولا يشهده السابقون ولا اللاحقون ، أما عذاب الآخرة فهو المشهد العظيم الذى يراه كل الخلق .

ومَنْ أفلت من عذاب الدنيا فلن يفلت من عذاب الآخرة .

﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٣٣) ﴾ [القلم] ، فالله ينفى عنهم العلم ويُشكك فى علمهم ، فالعلم الذى لا يخضع حركة الإنسان له فكأنه لم يعلم شيئاً ، فالعلم لم يثبت لهم لأنهم لم ينتفعوا به .

والحق سبحانه يقول ﴿ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٦) ﴾ [الروم]، فنفى عنهم العلم الحقيقى ، وأثبت لهم العلم الدنيوى الظاهرى ، فقال تعالى : ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. (٧) ﴾ [الروم]

فقوله : ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٣٣) ﴾ [القلم] يحتمل أنْ تكون الجملة هنا امتناعية يعنى امتنع علمهم بها ، أو تكون تمنياً يعنى : ياليتهم يعلمون هذه الحقيقة ، حقيقة الدنيا وحقيقة الآخرة .

فهم لو علموها لأقبلوا على منهج ربهم لينالوا كل هذا العطاء الممتد ، ولسلكوا طريق الإيمان بدل طريق الكفر فكأنَّ المعنى أنهم لم يعرفوا .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٣٤) ﴾

المتقون جمع مُتقٍ ، والاتقاء من الوقاية والوقاية هى الاحتراس والبُعد عن

الشر ، لذلك يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ (٦)﴾ [التحريم]

أى اعملوا بينكم وبين النار وقاية ، احترسوا من أنْ تقعوا فيها ، فلا تفعلوا ما يغضب الله حتى لا تُعذَّبوا فى النار ، فلتجعل بينك وبين النار وقاية بأنْ تترك المعاصى وتفعل الخير .

والتقوى من عجائب التأويل القرآنى ، فالقرآن يقول : (اتقوا الله) ويقول: (اتقوا النار) ، والمعنى عند تحقيق الأمر واحد ، لأن اتق النار يعنى : اجعل بينك وبين النار وقاية وحاجزاً يمنعك منها ، كذلك اتق الله ، لا أن تجعل بينك وبين ربك حاجزاً لأن المؤمن دائماً يكون فى معية الله.

إنما اجعل بينك وبين صفات الجلال ومتعلقاتها من الله وقاية ، اتقِّ صفات المنتقم الجبار القهار . والتقوى أنْ تبعد شيئاً ضاراً عنك ، فعندما تُبعد عنك الكفر الذى يُوردك النار ، أو تُبعد عنك الشح والبخل ، أو تُبعد عنك مخالفةَ أوامر الله ، فهذا هو عيْنُ التقوى .

والمتقون هم الذين يُحبُّون أنْ يتقوا الله بألاَّ يكونوا كافرين به ، وما دام الإنسانُ اتقى الكفر فهو محسن ومؤمن ، فالتقوى وقاية واحتراس وبُعد عن الشر . فساعة تسمع كلمة (المتقون) أو اتقوا ، فذلك يعنى أنهم جعلوا وقايةً بينهم وبين شىء ، ولا يُطلب منك أنْ تجعل وقاية بينك وبين شىء إنْ كنت لا تتحمل هذا الشىء .

فأنتم لا تتحملون غضب الله ولا قهر الله ولا بطش الله ، فاجعلوا بينكم وبين صفات جلاله وقاية، ومن آثار صفات جلاله تعالى النار .

والمتقون هم الذين يخافون الله وتثمر فيهم الموعظة والعبرة والحق ، وأساس التقوى والخوف من الله هو يوم الدين ، والمتقى يهذّب ويشذّب سلوكه فيبتعد عن المعاصى ويبتعد عن شَرَه مادية نفسه .

والتقوى هى أنْ تتقى معضلات الحياة ومشكلاتها بأنْ تلتزم منهج الله،

وساعةَ ترى منهج الله وتطبقه فأنت اتقيت المشكلات ، أما مَنْ يُعرض عن تقوى الله فإن الله يقول عن مصيره ﴿ فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا (١٢٤) ﴾ [طه]

وكلام الحق سبحانه هنا عن المتقين وما أعدَّه لهم يأتى بعد كلامه سبحانه عن أصحاب الجنة وما حدث لجنَّتهم من احتراقها بسبب عزمهم على حرمان أصحاب الحقوق من حقهم ، فقال تعالى :﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا[1] مُصْبِحِينَ (١٧) وَلَا يَسْتَثْنُونَ (١٨) فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ[2] وَهُمْ نَائِمُونَ (١٩) فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ (٢٠) ﴾ [القلم]

وذلك بسبب عدم تقواهم وخوفهم من الله المطلع عليهم ، وهذا ضعف فى الإيمان ، لذلك تجدهم خافوا من رؤية أصحاب الحقوق لهم أو شعورهم بما ينتوون فعله .

قال تعالى عنهم : ﴿ فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ (٢١) أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ (٢٢) ﴾ [القلم] ثم قال : ﴿فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ (٢٣)﴾ [القلم] أى يتشاورون فيما بينهم بكلام خفى لا يسمعه أحد ، فهم يتسارُّون ويتحدثون سراً ، أنْ لايدخلنها اليوم عليهم مسكين .

إنهم يخشون الناس ويخشون اطلاع الناس عليهم ولا يخشون الله .

وقد أكد الحق سبحانه على ثواب المتقين باستخدام (إنَّ) وهى لتوكيد الأمر، ثم يقول سبحانه ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ (٣٤)﴾ [القلم] فهذا الأجر وهذا الثواب هو عند ربهم عند مالك أمرهم .

وكلمة ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ (٣٤)﴾ [القلم] لها ملحظ ، فعندما يكون لك الأجر عند المساوى لك قد يأكلك ، أما أجرك عند رب تولّى هو تربيتك فلن يضيع أبداً .

والمؤمن هو مَنْ ينظر بثقة إلى كلمة ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ (٣٤)﴾ [القلم] أى الرب

---

(١) يصرمنها : يقطعنها . صرمه قطعه أى يقطعون ثمارها . والصرم : القطع مادياً كقطع الثمار . والصريم : الأرض التى قُطعت أشجارها ولا نبات فيها . (القاموس القويم ١/ ٣٧٥)

(٢) الطائف هنا العذاب المحيط . ﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ (١٩) ﴾ [القلم] أى أحاط بها دمار وهلاك سلطه الله عليها .

المتولِّى التربية والذى يتعهد المربَّى حتى يبلغه درجة الكمال المطلوب منه .
والعندية هنا هى عند الرب الأعلى .

وقد ذكر الحق سبحانه لفظة ﴿ عِنْدَ رَبِّهِمْ (٣٤)﴾ [القلم] فى آيات كثيرة منها:
﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ[1] عِنْدَ رَبِّهِمْ (٢)﴾ [يونس]

وقال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ (٦٢)﴾ [البقرة]

ويقول تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٦٢)﴾ [البقرة]

﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ (٢٧٤)﴾ [البقرة]

فالذين آمنوا والذين ينفقون أموالهم لهم عند ربهم أجرهم فهؤلاء يتقون الله يؤمنون بالله وينفقون من مال الله الذى وهبهم إياه ، وهذا لعظيم إيمانهم باطلاع الله عليهم .

فالذين منعوا حقَّ المساكين والفقراء وتآمروا على أنْ يقطعوا ثمر الحديقة فى الخفاء دون حضور أصحاب الحقوق إيمانهم به ضعف لأنهم ظنوا أنّ الله غيرُ مطلع عليهم .

وكلمة ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ (٣٤)﴾ [القلم] فى القرآن ليست خاصة بمن آمن بالله لأنَّ الله ربٌّ لجميع خَلْقه مؤمنهم وكافرهم ، لذلك قال تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ (١٢)﴾ [السجدة] فالله ربٌّ لمن أجرم أيضاً وليس لمن آمن فقط ، إذ كيف يخلقهم ويتركهم دون رعاية ورزق ، وهم فى النهاية سيقفون أمامه سبحانه فهو ربهم شاءوا أم أبوا .

والعندية هنا هى عند الربِّ الأعلى ، فماذا أعدّ المربِّى الأعلى للمتقين ؟ لقد

---

(١) قدم صدق : منزلة عالية ومثوبة عظيمة على مآثر ومكارم وأفعال خيِّرة قدَّموها أولهم سابقة خير وسعى مشكور . [القاموس القويم للقرآن الكريم ٢/١٠٧] .

أعدَّ لهم ﴿ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٣٤)﴾ [القلم]، وجنات النعيم جناتٌ دائمة فلا أنت تموت ولا هى تذهب، ولا هى كجنتكم التى احترقت والتى طاف بها طائفٌ من النار فأصبحتْ حطيماً كالصريم.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٩)﴾ [يونس]

ويقول الحق سبحانه: ﴿ الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٥٦)﴾ [الحج]

فالحق سبحانه يذكر جزاء الإيمان والعمل الصالح ﴿ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٣٤)﴾ [القلم] فهى جنات لا جنة واحدة، ثم هى جنات النعيم أى المقيم الذى لا تفوته ولا يفوتك.

فالجنات نفسها متنوعة، فهناك جنات الفردوس وجنات عدن، وجنات النعيم، وهناك دار الخلد ودار السلام وجنة المأوى، وهناك عليُّون الذى هو أعلى وأفضل الجنات، وأعلى ما فيها التمتع برؤية الحق تبارك وتعالى.

هذه الجنات فضلٌ من الله عز وجل، قال تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦)﴾ [الذاريات]

﴿ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ[1] وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (١٥)﴾ [آل عمران]

وجنات الآخرة هى جنات النعيم، فالمؤمن يجد فى جنة الآخرة كلَّ ما تشتهيه الأنفسُ وكلّ ما يخطر ببال مَنْ يرزقه الله الجنة سوف يجده، بل وما لا يخطر بباله!! والحق سبحانه قد أعدَّ هذه الجنات لـ ﴿ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ (١٧)﴾ [آل عمران]

وهذه كلها صفات الذين اتقوا الله، وأعدَّ الله لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار والأزواج المطهرة ورضوان من الله أكبر. والله جعل الإنفاق وصْفاً من

---

(١) أزواج مطهرة: عفيفة مؤمنة صالحة. طهرهن الله من كل بول وغائط وقذر ومن كل مأثم.

أوصاف الذين اتقوا ، والذين أعدَّ اللهُ لهم جناتٍ تجرى من تحتها الأنهار ، وذلك حتى يحمى الله الضعيفَ الذى خلقه الله لحكمة فى الوجود .

والإنفاق ليس أخْذاً من العبد إنما هو مناولة ، هذه المناولة تتضح فى أنه ما كان لك ما يزيد عن حاجتك إلا بحركتك فى الحياة .

هذه الحركة فى الحياة تتطلب عقلاً يخطط للحركة ، وجوارح تنفذ المخطط الفكرى ، ومادة يتم الفعل فيها سواء كانت أرضاً تتم زراعتها أو آلة يتم الصُنْع بها ، ولا شىءَ للإنسان من هذا فى الكون .

إن المخ الذى يدبر هو عطاءٌ من الله ، والطاقة التى تنفذ هى عطاء من الله، ونحن نرى فى الحياة إنساناً قد نزع الله عنه المخ الذى يفكر ويدبر ، ونجد إنساناً آخر قد نزع الله منه الطاقة التى تنفذ ، فقد يمنع الله عن عبد المادة التى يتفاعل معها .

إذن فلا شىءَ من هذه الأشياء ذاتىٌّ للإنسان ، إنها كلها عطاء من الله ، فليعمل المؤمن مُضارباً عند الله ، وليُعْط المؤمن للعاجز حقَّ الله ، إنَّ الله لا يأخذ هذا الحق لنفسه إنما يريده الله لأخيك العاجز ، وسوف يطلب الله هذا الحقَّ لك إذا ألمَّت بك حاجةٌ من فقر أو عجز بسبب الأغيار .

هكذا يكون الإنفاق الذى منعه أصحاب الجنة عن الفقراء هو صفة من صفات الذين اتقوا ربهم ، ففى النفقة حمايةُ العاجز الذى لا يقدر .

والجنة ستكون نعيماً ليس على قدر تصوُّرك ، ولكن على قدر كمال وجمال قدرة الحق ، فالنعيم الذى يتنعم فيه الإنسان يكون على قدر التصور فى معطيات النعيم .

وقد يقول عمدة إحدى القرى : أريد أنْ أبنى مَضْيَفة وحجرة للتليفون ومصطبة نفرشها ، هذا هو النعيم فى تصوُّر العمدة ، لكن كيف يكون النعيم عند صانع كلِّ التصورات وهو الحق سبحانه ، لذلك تكون جناتُ النعيم دائمة ، فلا أنت تموت ولا هى تذهب .

فهم خالدون فى نعيم الجنة ، والحق سبحانه يخاطب قوماً شهدوا بعض النعيم فى دنياهم من آثار نعمه عليهم ، لكنهم شهدوا أيضاً أن النعمة تزول عن الناس ، أو شهدوا أناساً يزولون عن النعمة .

فقال سبحانه عن جنة الآخرة : ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا(٥٧)﴾ [النساء] فلا هى تزول عنهم ، ولا هم يُزحزحون عنها .

والجنة على إطلاقها تنصرف إلى جنة الآخرة فهى الجنة بحقٍّ ، أما جنة الدنيا فمن الممكن أنْ يتصوّح نباتُها وشجرها وييبس ويتناثر أو يحترق كما حدث لأصحاب الجنة ، أو يصيبها الجدب ، أما جنة الآخرة فهى ذات الأُكل الدائم .

فالدنيا بكل ما فيها من نعيم هو نعيم على قدر إمكانات الإنسان وتصوُّره، وهو نعيم مهدد بشيئين : أن يزول النعيم عن الإنسان وكثيراً ما رأينا منعَّمين زال عنهم النعيم ، أو أنْ يترك الإنسان هذا النعيم بالموت ونرى ذلك كثيراً .

أما النعيم الذى هو الفوز العظيم فهو النعيم الموصول الذى لا يمنعه أحد ولا يقطعه شىء .

وقد قال الحق سبحانه : ﴿ كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٢٥) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٢٦) وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ (٢٧) كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ (٢٨) فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ (٢٩)﴾ [الدخان]

فهؤلاء كانوا فى نعمة وفى جنات وعيون وزروع وقد كانوا يتنعمون فيها ولكنها نعمة موقوتة ولذلك تركوها وذهبوا وورثها قومٌ آخرون ، فهذا ليس نعيماً على الحقيقة ، إنما النعيم على الحقيقة هو نعيم الآخرة النعيم الذى لا يزول .

وكلمة (جنات) تؤدى ما نعرفه من المكان المحدد الذى يجمع صنوف الزروع والثمار مما نقتات ومما نتفكَّه به ، وتسمى جنة وتسمى جنات ، لأن المادة كلَّها تدل على الستر والتغطية .

فالجنة هى المكان الممتلىء بالزروع والثمار وتعلو الأشجار فيه وتكثف وتلتف أغصانها وفروعها بحيث تستر مَنْ يكون بداخلها وتستره أيضاً عن بقية الأمكنة ، لأنه لا حاجة له إلى الأمكنة الأخرى .

ففى الجنة كلُّ مقومات الحياة من غذاء وفاكهة ومرعى ، وماء وخضرة ومتعة ، وفيها كل شىء ، كما تسمى البيت العظيم المكتمل الذى يضم ويشتمل على كل المرافق «قصراً» لأنه قصرك عن أىِّ مكان سواه لأن فيه الأشياءَ التى تحتاج إليها كلها فلا تحتاج إلى شىء بعده .

وقد يسأل سائل : لماذا أتى الحقُّ سبحانه بلفظ الجنة هنا جمعاً فقال : (جنات) مع أنه سبحانه ذكر فى آيات أخرى الجنة مفردة ، وفى آيات ذكرها مثنى (جنتان) .

وليس معنى أن الحق سبحانه قال (جنات) أن كلَّ مؤمن يدخل كل الجنات، ولكن المعنى والمقصود أنْ يدخل كلّ منهم جنته على حسب الأعمال التى اكتسبها ، والمنزلة التى وصل إليها .

ومن المهم أنْ نعلم أنَّ صاحب الجنة عالية المنزلة لن يتلقى حسداً من صاحب الجنة متوسطة المنزلة ، وصاحب الجنة الدنيا لن يحسد مَنْ هو أعلى منه ، وكذلك لن يزهو صاحب الجنة عالية المنزلة على غيره .

وكل واحد منهم يفرح بمكانة الآخر ، مثلما يحدث أحياناً فى الدنيا حين يتفوَّق إنسانٌ فى دراسته فقد نجد مَنْ هو أقل منه درجة يفرح له بصفاء نفسى، وكذلك لا يزهو متفوق بمكانته على الأدنى منه . وإذا كان ذلك هو ما يحدث فى الدنيا فما بالنا بالآخرة ؟

حيث يقول الحق سبحانه : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ (٤٧) ﴾ [الحجر] أى أنَّ كلاًّ من أهل الجنة يفرح بمنزلته ويفرح بمنزلة الأعلى منه لأنه سينال من فيوضات الخير التى عند الأعلى منزلة عندما يأتى لزيارته .

والحق سبحانه يقول : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (٤٦) ﴾ [الرحمن] فكلُّ مَنْ علَتْ منزلته فى الجنة له جنة خاصة به ، وجنة أخرى ليتكرم بها على مَنْ هم دونه وكأنها مَضْيَفة لمن يحبهم .

إذن ففى الآخرة يفرح أهلُ الجنة بمَنْ هم أعلى منهم ، لأنهم سينالون منهم خيراً .

وأهل الجنة لا يعرفون الحقد والحسد ولا الغلَّ ، وقد قال رسول الله ﷺ لأصحابه وهم جالسون معه ذات يوم : « يطلع عليكم الآن رجلٌ من أهل الجنة». ودخل رجل وعرفه الصحابة فأرادوا أنْ يعرفوا ماذا يعمله هذا الصحابى حتى يستحقّ بشارة رسول الله ﷺ بالجنة .

قالوا له : ونحن نريد أن نعرف ماذا تفعل لنكون معك . فقال الرجل : إنى لأصلِّى كما تُصلُّون ، وأصوم كما تصومون ، وأزكِّى كما تُزكون ، ولكنى أبيت وليس فى قلبى غِلٌّ لأحد .

فذهبوا إلى رسول الله ﷺ وقالوا له : لقد قال الرجل كذا وكذا . فقال ﷺ : «وهل فُضلتْ الجنة على الدنيا إلا بهذا »[1] .

يقول الحق سبحانه : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٤٥) ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ (٤٦) وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ (٤٧) ﴾ [الحجر]

ولنعلم أنَّ الحق سبحانه لم يخلق للمتقين جناتٍ تكفيهم وحدهم ، أو يخلق للكفار ناراً تكفيهم وحدهم ، بل خلق لكلٍّ واحد من خَلْقه إلى أنْ تقوم الساعة جنة ، ولكلٍّ واحد من خَلْقه إلى أنْ تقوم الساعة ناراً .

---

(١) عن أنس بن مالك قال : كنا يوماً جلوساً عند رسول الله ﷺ فقال : يطلع عليكم الآن من هذا الفج رجل من أهل الجنة . فطلع رجل من أهل الأنصار تنطف لحيته من وضوئه قد علّق نعليه فى يده الشمال فسلّم . قال أنس : كان عبد الله يحدث أنه بات معه ثلاث ليال فلم ير يقوم من الليل شيئاً غير أنه إذا تعار انقلب على فراشه وذكر الله وكبَّر حتى يقوم لصلاة الفجر غير أنى لم أسمعه يقول إلا خيراً فلما مضت الثلاث وكدت أحتقر عمله ... فكان رده : ما هو إلا ما رأيت غير أنى لا أجد فى نفسى على أحد من المسلمين غشاً ولا أحسده على ما أعطاه الله إياه إليه . (الزهد لابن المبارك ٦٩٤) .

فإذا دخل أهلُ الجنةِ الجنةَ بقيتْ الجناتُ التى خلقت ولم يدخلها أحد ، لأن أصحابها من أهل النار ، فيورثها الحق سبحانه للمؤمنين من أصحاب الجنة، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٧٢) ﴾ [الزخرف]

أما نعيم هذه الجنات فالاستجابة لمنهج الله تعطيك الحياة العالية فى الآخرة وتمتعك بنعيم الله ، ليس بقدرات البشر كما يحدث فى الدنيا ، ولكن بقدرة الله تبارك وتعالى .

وإذا كانت نِعَم الدنيا لا تُعدُّ ولا تُحصَى فكيف بنعم الآخرة ؟

لقد قال الله سبحانه وتعالى عنها : ﴿ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ (٣٥) ﴾ [ق] أى أنه ليس كلّ ما تطلب فقط ستجده أمامك بمجرد وروده على خاطرك ، ولكن مهما طلبتَ من النعم ، ومهما تمنيتَ فالله جلَّ جلالُه عنده مزيد .

ولذلك فإنه يعطيك كلَّ ما تشاء ويزيد عليه بما لم تطلب ولا تعرف من النعيم ، فالنعيم فى الدنيا على قدر قدرات البشر ، أما النعيم فى الآخرة فهو على قدر قدرات الله سبحانه .

والذى يُقرِّبك ويجعلك مُسْتحقاً لنعيم الله فى الآخرة هو فعل الخير والالتزام بمنهج الله ، وقد يكون فعلُ الخير مُتعباً للجسد والنفس ولكنه موقوت ، ولكن النهاية متاعٌ أبدىّ فى جنة الخلد .

فالخير هو ما ليس بعده بعد ، فأنت تولد ثم تكبر ثم تتخرج فى الجامعة ثم تصبح فى أعلى المناصب ثم تموت ثم تُبعث ثم تدخل الجنة وبعدها لا شىءَ إلا الخلود فى النعيم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٦) ﴾

يعطينا الحق سبحانه هنا استفهاماً استنكارياً فيقول تعالى : وإجابته

معروفة أنهم لا يستوون ، فليس المسلمون كالمجرمين .

كيف يستوى مَنْ أسلم نفسه لله واتبع منهجه وآمن بربه وبشرعه ، مع مَنْ خرج على منهج الله ورفض اتباعه وعصى وأبَى ؟ لا يستوون طبعاً !.

والحق سبحانه يعطينا أمثلة كثيرة على عدم التساوى ، فالتساوى أحياناً يكون ظلماً ، والله سبحانه مُنزَّه عن الظلم .

فيقول تعالى : ﴿ ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٧٥) ﴾ [النحل]

فالحق سبحانه يعطينا طرفين فى المثل المضروب ويترك لنا السياق القرآنى الحكم بينهما ، وكأنَّ الحق سبحانه يقول : أنا أرتضى حكمكم أنتم : هل يستوون ؟

والحق سبحانه لا يترك لنا الجواب إلا إذا كان الجواب سيأتى على وفق ما يريد ، ولا جوابَ يُعقل لهذا السؤال إلا أنْ نقول : لا يستوون . وكأنَّ الحق سبحانه جعلنا ننطق نحن بهذا الحكم .

وقد يسأل سائل هنا : الحق سبحانه يضرب المثل هنا بطرفين أى بمثنى، فلماذا قال ﴿ هَلْ يَسْتَوُونَ (٧٥) ﴾ [النحل] بصيغة الجمع ولم يقل : هل يستويان؟

نقول : المثل وإنْ ضُرب بمفرد مقابل مفرد إلا أنه ينطبق على عديدين مفرد شائع فى عديد من المملوكين ، وشائع أيضاً فى العديد من السادة أصحاب الرزق الحسن ، ذلك ليُعمِّم ضرب المثل .

وفى آية أخرى يقول الحق سبحانه : ﴿ أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ (١٨) ﴾ [السجدة]

فـ (مؤمناً) و (فاسقاً) جاءت بصيغة المفرد ومع ذلك لم يقل الحق سبحانه:

لا يستويان . بالمثنى . بل قال (لا يستوون) بالجمع فالحق سبحانه لا يتكلم عن المفرد إنما عن الجمع ، أو أنها قيلت رداً لحالة مخصوصة بين مؤمن وكافر، وأراد الحق سبحانه أنْ يعطيها العموم لا خصوصَ السبب .

فراعى السياق خصوص السبب فى مؤمن وكافر ، وراعى عموم الموضوع فقال : ﴿ لَا يَسْتَوُونَ (١٨) ﴾ [السجدة]

وكما لا يستوى المؤمن والفاسق ، ولا يستوى العبد المملوك الذى لا يقدر على شىء مع مَنْ يملك أمر نفسه ورزقناه رزقاً حسناً فهو ينفق منه سِراً وجهراً.

وهكذا لا يستوى المسلم والمجرم ، ونلحظ أنَّ الحق سبحانه جعل المجرم فى مقابلة المسلم ، وجعل المؤمن فى مقابلة الفاسق ، فالمؤمن مَنْ آمن قلبُه واستقر الإيمان فى قلبه ، ولذلك تجد أن الفاسق الذى فسقتْ جوارحه عن منهج الله عنده خللٌ فى معتقده القلبى ، لذلك فهو نقيض للمؤمن .

أما المسلم فقد قال عنه رسول الله ﷺ : «المسلم مَنْ سلم المسلمون من لسانه ويده ».(١) فالإسلام يتعلق بجوارح الإنسان ومنها لسانه ويده ، فلا يؤذى أحداً بلسانه بنميمة أو غيبة أو سبٍّ أو قذف أو بظلم أو إعانة لظالم .

وكذا لا يؤذى أحداً بيده بضرْب أو قتْل أو رشوة أو إعانة لظالم ، فإيذاء الآخرين باليد أو اللسان هى فى الحقيقة جرائم يعاقب على البعض منها بحدود حدَّها الله أو بتعزيرات يفرضها الحاكم أو القاضى .

والحق سبحانه يقول : ﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا (٤٩) ﴾ [الكهف]

فهؤلاء أجرموا جرائم سطّرتها عليهم الملائكة فى صحف وكتب خاصة بهم، كلّ له كتابه الذى سيقرأه بنفسه ، وقد ظنُّوا أنْ لا شىءَ سيُحصى عليهم أو

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٦٥١٥ ، ٦٨٠٦) والبخارى فى الأدب المفرد (١١٤٤) والنسائى فى سننه (٤٩٩٦) والبخارى فى صحيحه (١٠) وابن حبان فى صحيحه (٢٣٠) من حديث عبد الله بن عمرو ابن العاص .

أنهم لن يُعاقبوا ، وذلك لأن هناك خللاً فى معتقدهم الإيمانى فى وجود الآخرة واليوم الآخر يوم الحساب .

فهؤلاء المجرمون يتحكَّمون فى مصائر الناس ويفسدون فى الأرض ولا يقدر أحدٌ أنْ يقف فى مواجهتهم ، ولكن يجب أنْ يتأكدوا من وعيد الله لهم ، فهو سبحانه القائل : ﴿ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ (١) عِنْدَ اللهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ (١٢٤) ﴾ [الأنعام]

والمقابلون للمجرمين هم المؤمنون ، فإذا استبنتَ سبيل المجرمين، أو إذا استبان لك سبيل المجرمين ألا تعرف المقابل وهو سبيل المؤمنين ؟

فإذا كان الحق سبحانه بيَّن سبيل المجرمين لعناً وطرداً فسبيل المؤمنين يختلف عن ذلك ، إنه الرحمة والتكريم ، أما المجرمون فقد قال الحق سبحانه عنهم : ﴿ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (١٤٧) ﴾ [الأنعام] فلن يُرد ويُمنع بأسُه وعذابُه عن القوم المجرمين منكم .

والمجرمون أيضاً هم المكذِّبون بآيات الله ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ (٢) الْخِيَاطِ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ (٤٠) ﴾ [الأعراف] وهم يستحقون هذا الجزاء بما أجرموا .

فهم لن يدخلوا الجنة ، وعلى ذلك فقد سلب منهم نفعاً ولا يتوقف الأمر على ذلك ولكنهم يدخلون النار . إذن فهنا أمران : سلْبُ النافع وهو دخولهم الجنة، وإيجاب الضار وهو دخولهم النار ؛ إنه سبحانه حرمهم ومنعهم ذلك النعيم وذلك جزاء إجرامهم ، وبعد ذلك كان إدخالهم النار وهذا جزاء آخر .

---

(١) صغار : مذلة وعذاب شديد . والصَّغار : أشد الذل . فيصيبهم ذل وحقارة يوم القيامة بعد تكبُّرهم وارتفاعهم فى الدنيا .

(٢) سم الخياط : ثقب الإبرة الضيق . والخياط : الإبرة نفسها يُخاط بها . أما الجمل ففيه قولان أنه الجمل الحيوان المعروف ، أو هو الحبل الغليظ وكلاهما إدخاله فى سَمِّ الخياط مستحيل .

فقال تعالى : ﴿ لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ(١) وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ (٢) وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٤١) ﴾[الأعراف]. فى الأولى قال سبحانه : ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ (٤٠) ﴾ [الأعراف] وفى الثانية قال ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٤١) ﴾ [الأعراف]

فكأنَّ الإجرام كان سبباً فى ألاَّ يدخلوا الجنة ، والظلم كان سبباً فى أنْ يكون فوقهم غواشٍ ، لهم من جهنم مهاد وهم فى النار يحيطهم سرادقها .

فالظلم مرتبط بالإجرام ، وقد يكون الظلم إجراماً ، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (١٣) ﴾ [يونس]

والمجرم مَنْ ارتكب ذنباً ، وقد يكون هذا الذنبُ ذنبَ القمة وهو الكفر بالله ، وهذا ما عناه الحقُّ سبحانه بقوله : ﴿ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (٤٩) ﴾ [إبراهيم]

فترى المجرمين جميعاً مجموعين بعضهم مع بعض فى قرن ، وهو الحبل أو اليد الذى يقيدون به ، والأصفاد جمع صفد وهو القيد الذى يُوضع فى الرِّجْل وهو مثل الخلخال .

وهناك مَنْ يُقيَّدون فى الأصفاد أى من أرجلهم ، وهناك مَنْ يُقيَّد بالأغلال أى تُوضع أيديهم فى سلاسل وتُعلَّق تلك السلاسل فى رقابهم أيضاً .

وكل أصحاب جريمة معينة يجمعهم رباط واحد ، ذلك أن أهل كلّ جريمة تجمعهم أثناء الحياة الدنيا مودة وتعاطف .

والمجرم هو المنقطع عن الحق ، والجريمة هى الانقطاع عن الحق لانتصار الباطل ، والمجرمون يكونون مميَّزين عند الحشر بزُرْقة وجوههم ، قال تعالى :

---

(١) المهاد : المهد وهو الفراش . وهو هنا فراش من نار والعياذ بالله . قال الطبرى فى تفسيره (١٢/٤٣٥): «هو ما امتهدوه مما يُقعد عليه ويضطجع كالفراش الذى يُفرش ، والبساط الذى يُبسط . وقال الواحدى فى الوجيز (١/٣٩٤) : لهم منها غطاء ووطاء وفراش ولحاف ».

(٢) غواش : يغشاهم . وغواش : جمع غاشية وذلك ما غشَّاهم فغطاهم من فوقهم . قال السمرقندى : يغشاهم النار من فوق رؤوسهم ومعناه : أن من تحتهم ناراً ومن فوقهم ناراً (تفسير السمرقندى ١/٥١٥).

﴿ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا (١٠٢) ﴾ [طه]

أى نجمعهم ونسوقهم زُرْقاً ، والزُّرْقة هى لونهم ، كما ترى شخصاً احتقن وجهه وازرقَّ لونه بسبب شىء تعرَّض له والبعض يفسر ﴿ زُرْقًا (١٠٢) ﴾ [طه] أى عُمياً ومن الزرقة ما ينشأ عنها العمى ، ومنها المياه الزرقاء التى تصيب العين وقد تُسبِّب العمى .

ومعلوم أن زرقة الجسم لا تأتى إلا نتيجة ضربات شديدة وكدمات تُحدث تفاعلات ضارة تحت الجلد فتُسبب زُرْقته ، وكذلك زرقة العين .

ويُستخدم اللون الأزرق للتبشيع والتخويف ، وقد كانوا فى العصور الوسطى يطلُون وجوه الجنود باللون الأزرق لإخافة الأعداء وإرهابهم ، وتعارف الناس أنه لونُ الشيطان .

ومن علاماتهم يوم القيامة أيضاً أنكم ترونهم ناكسى رؤوسهم ، يقول تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ (١٢) ﴾ [السجدة]

وتنكيس رءوس المجرمين فيه إشارةٌ إلى أن هذه هى العاقبة فاحذر المخالفة، فمن تكبّر وتغطرس رافعاً رأسه فى الدنيا ؛ نُكِّست رأسه فى الآخرة ذلاً .

وفى تنكيس رءوس المجرمين يوم القيامة معنى آخر ، فالحق سبحانه سيفعل في كل مخالف فى الآخرة من جنس ما فعل فى الدنيا ، وهؤلاء الذين نكَّس الله رءوسهم فى الآخرة حياء وندماً فعلوا ذلك فى الدنيا بلا حياء أو خجل.

وكثيرٌ من المجرمين يرتكبون جرائمهم فى غفلة من القانون أو يعمُّون على العدالة ويهربون من العقاب ويفلتون من القوانين الوضعية فى الدنيا ، ولو تركنا هؤلاء بلا عقاب أيضاً فى الآخرة ، فهم إذن الفائزون وسوف نشجع بذلك كلَّ منحرف خارج عن القانون .

أما إنْ علم أنَّ له رباً قيُوماً عليه ، وإنْ عمَّى على قضاء الأرض فلن يُعمِّى على قضاء السماء ، وإنْ أفلتَ من عقاب الدنيا فلن يفلت أبداً من عقاب الآخرة إنْ علم ذلك استقام .

فالمجرم الذى يعيش بيننا أليس معلوماً لأهل المنزل الذى يعيش فيه بل لأهل الحى والشارع ؟ فهل ذهب واحدٌ منهم إلى تاجر فقال له : أعطنى كذا فقال : لا ليس عندى وقاطعه ، هل سلّم واحد منهم على شخص فلم يرد عليه السلام ؟

إذن : المجتمع كله يتحمل هذه المسئولية فالمجتمع نفسه مجرم أكثر من المجرمين .

وما استشرى الإجرام إلا حين خاف الناسُ من المجرمين وتملَّقوهم وتوددوا إليهم ربما اتقاءً لشرِّهم ، ولم لا يزداد المجرم فى إجرامه والأمر كذلك ؟

لذلك جعل الشارعُ الحكيم الدية فى القتل الخطأ ليست على القاتل وحده، إنما على العاقلة ، أى على جميع العائلة لأنها المنوط بها تقويم أبنائها والأخْذ على أيدى المنحرف منهم لأنها هى التى ستتحمل العاقبة ، وبذلك يحدث التوازن فى المجتمع .

والحق سبحانه يستنكر عليهم أنْ يُساووا المسلمين بالمجرمين ، قال تعالى : ﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (٣٥) ﴾ [القلم] ، استفهام استنكارى ﴿ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٦) ﴾ [القلم]

وفي موضع آخر يقول تعالى : ﴿ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ (١٥٣) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (١٥٤) ﴾ [الصافات]

ولكن فى آية آخرى يقول : ﴿ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٥) ﴾ [يونس] والمعنى فى الجميع : ماذا أصاب عقولكم لتحكموا هذا الحكم ، وساعة تسمع (كيف) فهى للاستفسار عن عملية عجيبة ما كان فى عُرْف العاقل أنْ تحدث .

وقوله سبحانه : ﴿ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٦) ﴾ [القلم] كأنه أمر عجيب ما كان يصح أنْ يحدث ، إذ كيف تُسوُّون بين المسلمين والمجرمين ؟

يقول الحق سبحانه :

﴿ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾

كيف تحكمون بمساواة المسلمين والمجرمين ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٦)﴾ [القلم] ، والحق سبحانه يناقشهم ليكشف لهم أنهم إنما يحكمون بمجرد الأهواء، وليس بناءً على مقدمات صحيحة .

لذلك يسألهم الحق سبحانه : ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ (٣٧)﴾ [القلم] هل حكمتم بهذا لأن عندكم كتاباً قرأتم فيه هذا ، فى أى كتاب هذا ؟ أنْ يتساوى المجرم مع المسلم ، ويتساوى الصالح مع الطالح ، والمفسد مع المصلح ؟

فهل لكم كتابٌ نزل من عند الله أتاكم به رسولٌ من رسله قرأتم فيه أو درستم فيه أن المسلمين والمجرمين يستوون ؟ ألكم كتاب تقرأون فيه هذا الجور ؟

وقد كان صناديد قريش يرون أنَّ حظهم من الدنيا وافرٌ ، وأن المسلمين حظّهم من الدنيا قليل ، حتى إذا سمعوا بحديث الآخرة وما وعد الله المسلمين قالوا : إن صحَّ أننا نُبعث كما يزعم محمد ومَنْ معه لم تكُنْ حالهم وحالنا إلا مثل ما هى فى الدنيا ، وإلا لم يزيدوا علينا ولم يفضلونا ، وأقصى أمرهم أنْ يساوونا .

فكان قوْل الحق سبحانه : ﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ(٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٦) أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ (٣٧) ﴾ [القلم]

كيف نسوِّى بين الكافرين والمؤمنين ، كيف تظنون أن الله ظالم فالله أعدلُ من أنْ يجعل المسلمين كالمجرمين .

والحق سبحانه يقول : ﴿ وَمَا يَسْتَوِى الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ (١٩) وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ (٢٠) وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ[1] (٢١) وَمَا يَسْتَوِى الْأَحْيَاءُ

---

(١) الحرور : الحر الشديد أو الريح الحارة . فالحرور : حر الشمس الشديد . [القاموس القويم ١/١٤٨] وهذا عكس الظل .

وَلَا الْأَمْوَاتُ (٢٢) ﴾ [فاطر]

والحق سبحانه يخاطب رسوله محمداً ﷺ قائلاً : ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠٠)﴾ [المائدة]

فالخبيث لا يستوى أبداً مع الطيب ، وهذه قضية كونية ، مثلها تماماً مثل عدم تساوى الأعمى والبصير ، وعدم استواء الظلمات والنور .

وساعة يأتى الحقُ سبحانه بقضية يستخدمها كمثل ، فلا بدَّ أنْ يأتى بقضية متفق عليها حتى من الخصوم المواجهين له ، فهم يعرفون أن الأعمى لا يستوى مع البصير ، تماماً مثلما لا يستوى الظل والحرور ، أو الظلمات والنور .

وعدم التسوية هذه موجودة فى آيات كثيرة منها : ﴿ أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢٢) ﴾ [الأنعام]

وهذا تساؤل جوابه : لا أى ليس كل منهما مساوياً للآخر ، والفطرة تقول هنا : لا .

والإسلام قائم على العدل وإنزال كلٍّ منزلته التى يستحقها ، ومن ذلك عدم المساواة بين القاعدين عن الجهاد من المؤمنين غير أولى الضرر وبين المجاهدين فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم .

كيف نُسوِّى بينهم ، لذلك قال الحق سبحانه : ﴿ لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ (٩٥) ﴾ [النساء]

وقد أمر رسول الله ﷺ زيد بن ثابت كاتب الوحى بعد أنْ نزل عليه الوحى وسُرِّى عنه : اكتب ﴿ لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ

فِي سَبِيلِ اللهِ (٩٥) ﴾ [النساء]

فقال سيدنا ابن أم مكتوم[١] وكان كما نعلم ضريراً مكفوفَ البصر قال : فكيف بمَنْ لا يستطيع الجهاد من المؤمنين يا رسول الله ؟

إنها اليقظة الإيمانية من ابن أم مكتوم لأنه فهم موقفه من هذا القول ، ومن أنه لا يستطيع الجهاد ، وعلم أنه إنْ كانت الآية ستظل على هذا فلن يكون مستوياً مع مَنْ جاهد .

ولهذا قال قولته اليقظة : فكيف بمَنْ لا يستطيع ذلك يا رسول الله ؟ فأخذتْ رسولَ الله السكينةُ ثانية ثم سُرِّى عنه ، فقال لزيد بن ثابت : اكتب ﴿ لَا يَسْتَوِى الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِى الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ (٩٥) ﴾ [النساء]

فكأنها نزلت جواباً مطمئناً لمن لا يستطيع القتال مثل ابن أم مكتوم ، ولقائل أنْ يقول : وهل كانت الآية تنتظر أن يستدرك ابن أم مكتوم ليقول هذا ؟

ونقول : إنَّ الحق سبحانه وتعالى أراد أنْ ينبه كلَّ مؤمنٍ أنه حين يتلقّى كلمة من الله أنْ يتدبر ويتبيّن موقعه من هذه الكلمة ، فإذا كان ذلك حال سيدنا ابن أم مكتوم فيما سمع رسول الله عن ربه فهو يُعلِّمنا كيف نستحضر دورنا من أية قضية نسمعها .

وحينما سمع ابن أم مكتوم الآية رأى موقفه من هذه الآية ، وهذا ما يريده الحق من خَلْقه . وقال زيد بن ثابت : فكتبتُها[٢].

---

(١) ابن أم مكتوم اسمه عبد الله والبعض يسميه عمرو أمه عاتكة وهى أم مكتوم. أسلم بمكة قديماً وكان ضرير البصر وقدم المدينة مهاجراً بعد بدر استخلفه رسول الله على المدينة مرتين ، كان صاحب راية المسلمين يوم القادسية ثم رجع إلى المدينة فمات بها فى خلافة عمر بن الخطاب

(٢) قال زيد بن ثابت : كنت عند النبى ﷺ حين نزلت عليه (لايستوى القاعدون من المؤمنين والمجاهدون فى سبيل الله) ولم يذكر ﴿ غَيْرُ أُولِى الضَّرَرِ . . (٩٥) ﴾ [النساء] فقال ابن أم مكتوم : فكيف وأنا أعمى لا أبصر ؟ فتغشى النبى ﷺ الوحى ثم سُرِّى عنه فقال : اكتب ﴿ لَا يَسْتَوِى الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِى الضَّرَرِ . . (٩٥) ﴾ [النساء] فكتبتُها أورده الواحدى فى التفسير الوسيط (٢/١٠٣)

وعندما يقول الحق ﴿لَا يَسْتَوِى (٩٥)﴾ [النساء] فهذا يدل على أنَّ هناك شيئين لا يتساويان ، فأيهما غير المساوى للآخر ؟ كلاهما لا يتساوى مع الآخر، ولذلك يكون الاثنان فى الإعراب فاعلاً ، فلا يساوى المجاهدون القاعدين ، ولا يساوى القاعدون المجاهدين ، لأن كلاً منهما فاعل ومفعول .

وعندما يقول الحق : ﴿ لَا يَسْتَوِى الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِى الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ (٩٥) ﴾ [النساء] هل معنى ذلك أن عقلاً واحداً فى زمن رسول الله كان يظن المساواة بين القاعد والمجاهد ؟

لا ولكن الحق يريدها قضيةً إيمانية فى بلاغ إيمانى من الله ، والحق سبحانه ينكر عليهم أنْ يكونوا قد قرأوا هذه التسوية فى أىِّ كتاب نزل من عند الحق سبحانه .

وقد قال الحق سبحانه فى آية أخرى : ﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ (٢١)﴾ [الزخرف]

فلماذا يقولون هذا ؟ هل جاءهم بذلك رسولٌ يقول لهم هذا الكلام ، فتحكمون منه لأنفسكم ما حكمتم ، فهل بأيديكم كتابٌ مُنزَّل من السماء تدرسونه وتحفظونه وتتداولونه بنقل الخلف عن السلف ، ألكم كتاب تجدون فيه المطيع كالعاصى ؟

والمدارسةُ إعمالُ الفكر فى الفهم عن النص ، فالفهم عن النص يحتاج إلى مدارسة ، ومعنى المدارسة هو أخْذٌ وعطاء ، ويُقال : دارسه أى أن واحداً قد قام بتبادل التدريس مع آخر ، ويقال أيضاً : تدارسنا . أى أننى قلتُ ما عندى وأنت قد قلتَ ما عندك حتى يمكن أن نستخلص ونستنبط الحكم الذى يوجد فى النص .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ (٣٨) ﴾ [القلم]

فهل عندكم كتابٌ فيه تدرسون وتقرأون وتستنبطون ، تختارون منه ما تشتهونه ، وتخيّر الشيء واختاره أخذ خيره ، كمن ينخل شيئاً وأخذ منخوله .

وكلمة ﴿ تَخَيَّرُونَ (٣٨) ﴾ [القلم] أصلها تتخيرون حُذف أحد التاءين من تخيرون، فتبالغون فى انتقائه وأخْذ خياره .

وخلاصة تأويل الآية : أفسدتْ عقولكم حتى حكمتم بهذا ، أم جاءكم كتاب فيه تخييركم وتفويض الأمر إليكم ؟

﴿ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ (٣٩) ﴾

الأيمان جمع يمين . واليمين هو الحلف أو القَسم ، وسُمِّى يميناً لأنهم كانوا قديماً إذا تحالفوا ضرب كلُّ امرىء منهم يمينه على يمين صاحبه ، وذلك لأن اليمين هو الجارحة الفاعلة .

والمقصود بالأيمان الحلف ، والحلف من معانيه التقوية ، وهى مأخوذة من الحلْف وهو أنْ يتحالف الناس على عمل ما .

والأيمان أيضاً العهود ، قال تعالى : ﴿وَإِنْ نَكَثُوا(١) أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ (١٢) ﴾ [التوبة] وفائدة الأيمان أو العهد أنْ يحافظ عليه ومَنْ لا يحافظ على يمينه أو عهده يكون لا أيمانَ له ، لأن أيمانه أى عهده لا قيمةَ له لأنه مجردٌ من الوفاء .

فالأيمان العهود ؛ لذلك يقول الحق سبحانه هنا : ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا(٣٩) ﴾ [القلم] أى : أم لكم عهودٌ علينا بالغة إلى يوم القيامة فلا تنقطع إلى يوم القيامة.

فهى أيمانٌ مؤكَّدة بالغةُ النهاية ، فهل لكم أيمانٌ مؤكدة ألاَّ نعذبكم إلى يوم القيامة ؟ وهل أقسمنا لكم قسَماً فهو عهد لكم بأنَّا نُنعمكم فى يوم القيامة وما بعده ؟

---

(١) نكثوا : نقضوا عهودهم ولم يفوا بشروطها . والأنكاث : هو الغَزْل يُحلُّ بعد فتله وإحكامه (القاموس القويم ٢/ ٢٨٤)

فهل لكم عهودٌ منا ومواثيقُ مؤكدة أنه سيحصل لكم ما تريدون وتشتهون ، وألاَّ تُحاسبوا على ما أجرمتموه فى حياتكم الدنيا ، فترِدُون علينا يوم القيامة فتنالوا ما لا يناله مَنْ أسلم لله وحده .

﴿ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾

الزعيم الضامن والمتكلم عن القوم الكفيل ، فسلْهم يا رسول الله وانظر أيّهم كفيل وضامن أن المسلمين كالمجرمين ؟ ومَنْ يكفل لكم أنكم ستنجون من عذاب الله يوم القيامة .

مَنْ منهم كفيل لكم بأنَّ لكم فى الآخرة ما للمسلمين ، فاسأل قريشاً أيهم زعيمٌ وضامن لهذا الأمر ؟

والحق سبحانه يقول عن كفالة زكريا عليه السلام لمريم عليها السلام: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ (٣٧)﴾ [آل عمران]، وكلمة (كفّلها) أى تولى كلَّ مهمة تربيتها ، هذه هى الكفالة ، والكفيل فى عُرفنا هو الضامن ، وقد كان زكريا عليه السلام هو الذى قام برعاية شئون مريم ، وكان ضامناً لأمورها من طعام وشراب .

فأيُّهم الكفيل بهذه الدعوى الفاسدة فإنه لا يمكن التصدر بها ولا الزعامة فيها ، مَنْ منكم يتعهد لكم أن لكم على الله ما تشاءون ، وأن لكم على الله ميثاقاً وعهداً ، ما لكم كيف تحكمون ؟

وقوله سبحانه (أيهم) قول مُعجز ، فهو يُحملهم الأمر ، ما دمتم تقولون بهذا وتحكمون به ، فمَنْ فيكم زعيم وضامن لهذا الذى تريدونه ؟وهو زيادة فى التهكم فطلب زعيماً منهم ، وهو سبحانه يعلم أن لا زعيم لهم بهذا .

وما دمتم عجزتم عن أنْ يتقدَّم أحدُكم يعلن أنه كافلٌ وضامن لزعمكم ،

فلماذا تتكبّرون على الله وتتألون على الله وتقولون على الله ما لا تعلمون وتفترون الكذب ؟

ولا تكونوا مثل اليهود الذين : ﴿ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨٠) ﴾ [البقرة]

فإذا كان ذلك وعداً من الله فالله لا يخلف وعده ، والله يأمر رسوله ﷺ أنْ يقول لهم لستم أنتم الذين تحكمون وتقررون ماذا سيفعل الله سبحانه وتعالى بكم ، بل هو جلَّ جلاله الذى يحكم فإنْ كان قد أعطاكم عهداً فالله لا يخلف وعده .

﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٤١﴾ ﴾

الحق سبحانه ينقلهم من سؤال إلى سؤال ، ومن مقام إلى مقام ، من مقام عقلى منطقى : ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٦) ﴾ [القلم]

ثم مقام النص الذى قد يكونون قد اعتمدوا عليه من كتاب أُنزل إليهم أو غيره : ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ (٣٧) إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ (٣٨) ﴾ [القلم]

ثم مقام الحلف والأيمان والعهود ، ﴿ أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ (٣٩) ﴾ [القلم] ، فهل أخذتم على الله عهوداً وأيماناً تبلغ بكم يوم القيامة تضمن لكم أنْ تتساووا مع مَنْ آمن فى ثوابه ودخوله الجنة .

ثم يأتى مقام الشركاء والشهداء ، فيقول سبحانه : ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ (٤١) ﴾ [القلم] ، هل لهؤلاء القوم شركاء فيما يقولون ويصفون من

الأمور التى يزعمون أنها لهم ، فليأتوا بشركائهم فى ذلك إنْ كانوا فيما يدعون من الشركاء صادقين .

والشركاء هم بطبيعة الحال شهودٌ على فحوى القضية ، فهل لكم شهداء يشهدون أنَّ الذى قالوا لهم حقّ ، فليأتوا بشهداء يشهدون أنّ لهم فى الآخرة ما للمسلمين ، والمراد زجرهم ويأسهم ، فليس لهم ادعاءُ هذا .

لذلك يتحداهم الحق سبحانه ويؤكد عدم صدقهم ، فيقول تعالى:﴿إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ(٤١)﴾ [القلم]

صادقين فيماذا ؟ وما هو الصدق ؟

نقول : الصدق يقابل الكذب ، والصدق والكذب كلٌّ منهما نسبىّ، فالصدق أنْ تتطابق النسبة الكلامية والنسبة الواقعية ، والكذب ألاَّ تتطابق النسبة الكلامية مع النسبة الواقعية .

فقوله تعالى : ﴿صَادِقِينَ (٤١)﴾ [القلم] أى أنْ تتطابق النسبةُ الكلامية التى ستقولونها مع نسبة واقعية تستطيعون أنْ تدللوا عليها ، فإنْ لم يحدث ذلك فأنتم كاذبون ، فالله سبحانه وتعالى يريد منكم الدليل على صدقكم .

والحق سبحانه يقول : ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١١١)﴾ [البقرة] أى إنْ كنتم واثقين من أنْ ما تقولونه صحيح ، لأن الله يعرف يقيناً أنكم تكذبون .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾

فإذا كنتم تسوون بين المسلمين والمجرمين وتظنون أنكم ستُفلتون بكفركم يوم القيامة فظنكم خاطىء وحكمهم باطل ، وليس عندكم دليل على هذا من كتاب أو عهد من الله لكم ، ولستم صادقين فيما تقولون .

لكن الحقيقة التى ستواجهونها يوم القيامة هى: ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ (٤٢) ﴾ [القلم]

والكشف عن الساق كنايةٌ عن شدة كرْب يوم القيامة ، فيشتد الكرب والضيق، ويُدعى هؤلاء المتكبرون الذين رفضوا السجود لله فى الدنيا وطاعة الله وعبادته سيُدعون إلى السجود فلا يستطيعونه ولا يملكونه .

وقد كان ترجمان القرآن عبد الله بن عباس يقول : يُكشف عن أمر عظيم ، تقول العرب : وقامت الحرب بنا على ساق . أى اشتدتْ وحمى وطيسها .

فالكشف عن الساق علامةٌ على شدة الأمر وهوله ، وهى أشدّ ساعة فى يوم القيامة ، عندما يقف الجميع على ساق ينتظرون الحساب وينتظرون تحديد مصيرهم .

فهو يوم كرْب وشدة شديدة ، أى يوم يُكشف عن شدة أمر القيامة وحشر الناس والساعة والميزان .

وقد كان العرب إذا اشتدَّ القتال فيهم واحتدمتْ الحرب واستعرت وعَظُم الأمر فيهم واشتد قالوا : قد كشفت الحربُ عن ساق ، فذكر اللهُ شدةَ يوم القيامة وهوْله بما يعرفون .

وساق الشىء أيضاً أصله الذى به قوامه كساق الشجر وساق الإنسان أى يوم يُكشف عن أصل الأمر فتظهر حقائقُ الأمور وأصولها بحيث تصير عياناً وتنكيره للتهويل والتعظيم .

والحق سبحانه حدَّثنا عن هول ذلك اليوم ، فقال تعالى : ﴿يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ[١] كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ (٢) ﴾ [الحج]

---

(١) تذهل : تغفل عن رضيعها كناية عن شدة الهول والفزع [القاموس القويم ١/ ٢٤٦] قال ابن منظور فى لسان العرب : الذهل تركك الشىء تناساه عن عمد أو يشغلك عنه شغل [مادة : ذهل]

ويقول جلَّ جلاله : ﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا (١٧) ﴾ [المزمل]

والحق سبحانه وصف هذا الزلزال بأنه شيء عظيم ، فحين تقول أنت أيها الإنسان: هذا شيءٌ عظيم فهو عظيم بمقياسك أنت ، أما العظيم هنا فعظيم بمقاييس الحق سبحانه ، فلكَ أنْ تتصور فظاعة زلزال وصفه الله سبحانه بأنه عظيم .

ومن هول هذا اليوم : ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا (٢) ﴾ [الحج] والذهول هو انصرافٌ عن المهمة الحقيقية لهوْل رأته ، كما يذهل الخادم حين يرى شخصاً مهيباً أو عظيماً فيسقط ما بيده مثلاً .

فالذهول سلوكٌ لا إرادى قد يكون ذهولاً عن شيء تفرضه العاطفة ، أو عن شيء تفرضه الغريزة .

فانظر إلى المرضعة وكيف تذهل عن رضيعها وتنصرف عنه ، وأىّ هول هذا الذى يشغلها ويعطِّل عندها عاطفةَ الأمومة والحنان ، ويعطل حتى الغريزة.

وقد أعطانا القرآنُ صورةً أخرى فى قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) ﴾ [عبس]

فلكلِّ امرىءٍ منهم شيء يُغنيه عن معرفة مصير أخيه أو حتى أمه أو أبيه أو زوجته أو بنيه ، فالهولُ أعظُم من هذا ، ما له والآخرين ، إنه يريد أنْ ينجو هو .

هذا اليوم يجعل الناسَ ﴿ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ (٢) ﴾ [الحج] ، فهم سكارى يتمايلون مضطربين مثل السكارى حين تلعب بهم الخمر وتطوِّحهم يميناً ويساراً ، وتلقى بهم على الأرض ، وكلما زاد سكرهم وخروجهم عن طبيعتهم كان النوع شديداً .

وهكذا سيكون الحال فى موقف القيامة لا من سُكْر ولكن من خوف وهوْل وفزع ﴿وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ (٢)﴾ [الحج] إنهم لم يروا العذاب بعد ، إنها مجرد قيام الساعة وأهوالها أفقدتهم توازنهم .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ (٤٢) ﴾ [القلم]

والحق سبحانه قد ميَّز أهلَ الإيمان وأهل النفاق بالسجود ، فقال تعالى :

﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ (٤٢) ﴾ [القلم]

وقد كانوا فى الدنيا كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ (٤٨)﴾ [المرسلات]

وفى آية أخرى : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ (٢١) ﴾ [الانشقاق]

فهم لم يستجيبوا فى الدنيا لداعى الإيمان ، فلم يركعوا إلا رياء وسمعةً ، ولم يسجدوا إلا مضطرين مكرهين ، ولم ينفعلوا بآيات الله تتلى عليهم ، بل صموا وعموا .

لذلك إذا دُعوا إلى السجود فى هذا اليوم العظيم لم يستطيعوا السجود ، والحديث النبوى الشريف يعطينا صورة هذا الموقف العظيم[1] :

«إذا كان يوم القيامة مُثِّل لكلِّ قوم ما كانوا يعبدون فى الدنيا ، فيذهب كلُّ قوم إلى ما كانوا يعبدون فى الدنيا ، فيذهب كلُّ قوم إلى ماكانوا يعبدون فى الدنيا ويبقى أهل التوحيد ، فيُقال لهم : ما تنتظرون وقد ذهب الناس» ؟

فيقولون : إن لنا رباً كنا نعبده فى الدنيا لم نره قال : وتعرفونه إذا رأيتموه؟ فيقولون : نعم . فيقال : وكيف تعرفونه ولم تروه ؟ قالوا : إنه لا شبه له فيُكشف لهم الحجاب ، فينظرون إلى الله عز وجل فيخرُّون له سجداً .

---

(١) أخرجه ابن أبى عاصم فى كتاب (السنة) (٦٣٠) عن أبى بردة . وأخرجه بنحوه محمد بن نصر المروزى فى كتاب (تعظيم قدر الصلاة) (٢٨٠) عن عبد الله بن مسعود

ويبقى قومٌ فى ظهورهم مثل صياصى البقر[١] فيريدون السجود فلا يستطيعون، فذلك قول الله عز وجل : ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ (٤٢) ﴾ [القلم]

والسجود هو علامة الخضوع وعلامة العبودية لأنك تضع أشرفَ شىء فيك وهو وجهك على الأرض خضوعاً لله وخشوعاً له .

فالسجود هو منتهى الخضوع للرب ، نخضع بها لله خمس مرات فى اليوم والليلة ، فالخشوع والخضوع بوضع الجبهة التى هى أشرفُ شىء فى الإنسان على الأرض ، لأن السجود هو أعلى مرتبة من الخضوع .

وسجود الإنسان يكون بالوجه ليعرف أنه مستخلفٌ ، وكلّ الكائنات مُسخَّرة لخدمته وطائعة وكلُّها تسبح ربَّنا ، فإذا كان السيد الذى تخدمه كل هذه الأجناس حيواناً ونباتاً وجماداً قد وضع وجهه على الأرض فهو خاضعٌ من أول الأمر حين نقول عنه إنه ساجد .

فالسجود هو الحركة التى تبرز كاملَ الخضوع لله ، فالسجود وضع لأعلى ما فى الإنسان فى مستوى الأدنى وهو قدم الإنسان ، ونجد العامة وهم يقولون: لا ترفع رأسك علىَّ .

أى : لا تتعالَ علىَّ لأن رفْعَ الرأس معناه التعالى ، وتخفيضها بالركوع أو السجود هو إظهار للخضوع .

والعزة فى العبودية لله ، والعزة فى السجود له تعالى ، فعبوديتك لله تعصمك من العبودية لغيره ، وسجودك له تعالى يعصمك من السجود لغيره .

ولكن لأنَّ هؤلاء لم يخضعوا لله عز وجل فى الدنيا ولم يسجدوا له ولم يركعوا ولم ينزلوا من علياء كبريائهم ، لذلك عندما دُعوا إلى السجود يوم

(١) صياصى البقر : قرونها مفردها (صيصة) [لسان العرب – مادة : صيص] ومن هذا ما ذكره أبو هريرة فى حديثه : أصحاب الدجال شواربهم كالصياصى ، يعنى أنهم أطالوها وفتلوها حتى صارت كأنها قرون بقر .

القيامة لم يستطيعوا ، فكلما أرادوا أنْ يسجدوا صارت ظهورهم كطبقة واحدة لا تنثنى .

وقد أعطانا رسولنا ﷺ مثالاً لهذا ، فقد رأى رسول الله رجلاً يأكل بشماله فقال : كُلْ بيمينك . فقال : لا أستطيع . فقال ﷺ : «لا استطعتَ . فما رجعتْ إليه وما وصلت يمينه إلى فمه بعد» (١) .

فعدم الاستطاعة كانت بسبب رفضه الانصياع لأمر رسول الله والخضوع والتنازل عن كبريائه .

ثم يواصل الحق سبحانه وصْف حال هؤلاء ، فيقول :

(٢)

﴿ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾

تضطرب أبصارهم من هوْل ما رأوا فتتقلب هنا وهناك ، لأنها حيث ترى الفزع الذى يخيفها تتقلب ، تنظر هنا وهناك علَّها ترى ما يُطمئنها أو يخفِّف عنها ما تجد ، لكن هيهات فلن ترى إلا فزعاً آخر أشدّ وأنكى .

لذلك ينتهى الموقف إلى: ﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ (٤٣) ﴾ [القلم] ﴿ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ (٨) أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ (٩) ﴾ [النازعات] يعنى ذليلةً منكسرة حيث لا مفرَّ ولا منجى، ولن يجد فى هذا اليوم راحةً إلا من قدم له العمل الصالح كالتلميذ المجتهد الواثق من نفسه ومعلوماته ، يتلهف إلى ورقة الأسئلة ، أما الآخر فيقف حائراً لا يدرى .

---

(١) عن سلمة بن الأكوع أن النبى ﷺ رأى رجلاً يأكل بشماله فقال : كل بيمينك فقال : لا أستطيع فقال : لا استطعت قال : فما رجعت إليه أخرجه أحمد فى مسنده (١٦٤٩٣) وفى رواية أخرى (١٦٤٩٩) أسمى الرجل بُسْر ابن راعى العير وفيه : فما وصلت يمينه إلى فمه بعد .

(٢) ترهقهم ذلة : تغشاهم مذلة من عذاب الله فتغشاهم كآبة وسواد . قال قتادة : سود الوجوه يغشاهم هوان . وقال الواحدى فى التفسير الوسيط : يغشاهم ذل الندامة والحسرة .

فخشوع أبصارهم إطراقها فى ذُلٍّ ومهانة ، لذلك قال تعالى ﴿تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ (٤٣)﴾ [القلم] ، فتغشاهم ذلَّة فأطرقوا بأبصارهم إلىٰ الأرض من شدة الخوف المحيط بهم .

والخشوع وصفٌ قلبى وحسيٌّ ، يكون فى الصلاة وغيرها ، ويُوصف به الإنسان وغيره ، قال تعالى : ﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَـٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا (١٠٨)﴾ [طه] ، فوصف الأصوات بالخشوع .

وقال تعالى : ﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ (٤٣)﴾ [القلم] فوصف الأبصار بالخشوع .

وقال الحق سبحانه : ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ (٢)﴾ [الغاشية] فوصف الوجوه بالخشوع .

ففى يوم القيامة يأتى أصحاب العوج فى العقيدة ، ويصوِّرهم الحق سبحانه فى قوله : ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَـٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا (١٠٨)﴾ [طه]

فهم يصطفُّون بلا اعوجاج ، كما يصطفّ المجرمون تبعاً لأوامر مَنْ يقودهم إلى السجن فى ذلَّة وصَغَار ، ولا ينطقون إلا همساً .

هذا الهمس الذى قال عنه : ﴿يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ (١٠٣)﴾ [طه] ونعرف أنَّ كلّ تجمع كبير لا تستطيع أنْ تضبط فيه جلبة الصوت ، فما بالك بجمع القيامة من لدن آدم عليه السلام حتى قيام الساعة .

ومع ذلك: ﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَـٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا (١٠٨)﴾ [طه] فلماذا كتمت هذه الأصوات التى طالما قالت ما تحب ، وطالما كان لها جلبة وضجيج ؟

الموقف الآن مختلف والهول عظيم ، لا يجرؤ أحدٌ من الهول على رفْع صوته،

والجميع كلٌّ منشغلٌ بحاله ، مفكر فيما هو قادم عليه ، فإنْ تحدَّثوا تحدَّثوا سراً ومُخافتة : ماذا حدث ؟ وماذا جرى ؟

ذلك خشوع الأصوات ، وكذلك تخشع أبصارهم فتنكسر .

ويصف الحق سبحانه خشوعَ الأبصار بصورة أخرى فيقول سبحانه : ﴿وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ (٤٥)﴾ [الشورى]

فهم خاشعون خاضعون من الذل أذلاء من شدة الخوف ، لذلك ﴿يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ (٤٥)﴾ [الشورى] يعنى : يختلسون النظرة ولا يستطيعون المواجهة بأعينهم ، فما هم فيه من خزى يكسر أعينهم .

لذلك تقول لخصمك الذى يفترى عليك كذباً (هات عينى فى عينك) لماذا ؟ لأن المواجهة بالأعين تُظهر الحق ، فصاحب الحق عينه قوية جريئة ، تستمد قوتها من قوة الحق الذى يدافع عنه ، أما عين المبطل فمنكسرةٌ ذليلة تتوارى من شعاع الحق الذى يكشف زيفها .

فتغشاهم مذلَّة من عذاب الله ، فتعلوهم كآبة وسواد ، فالمؤمنون إذا رفعوا رؤوسهم من السجود صارت وجوههم بيضاء كالثلج ، أما الكافرون فقد عجزوا عن السجود فاغتمُّوا واسودتْ وجوههم .

فيغشاهم هوانٌ وذلٌّ ، ندامةً وحسرةً أنهم لم يكونوا يسجدون لله فى الدنيا وكانوا يتكبَّرون على الله .

﴿وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ (٤٣)﴾ [القلم]

والحق سبحانه عندما دعاهم إلى السجود يوم القيامة لم يدعهم تعبُّداً وتكليفاً ، إنما توبيخاً وتعنيفاً لهم على تركهم السجود فى الدنيا ، وهم لم يستطيعوا السجود لأنهم تكبَّروا على الله فلم يسجدوا لله فى الدنيا .

لذلك قال تعالى : ﴿ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ (٤٢) ﴾ [القلم] هذا فى الآخرة ، أما فى الدنيا فقد ﴿ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ (٤٣) ﴾ [القلم]

وقد قال قتادة : بلغنى أنه يُؤذَن للمؤمنين يوم القيامة فى السجود ، وبين كل مؤمنيْن منافق فيسجد المؤمنون ولا يستطيع المنافقون أنْ يسجدوا ، تقسو ظهورهم ويكون سجود المؤمنين توبيخاً لهم[١].

ومعنى ﴿ سَالِمُونَ (٤٣) ﴾ [القلم] أنه لم يكُنْ يمنعهم مانعٌ من السجود ولا يحول بينهم وبين السجود حائل ، وقد كانوا آمنين ، أما اليوم فى الآخرة فيُدعون إلى السجود وهم خائفون من مصيرهم المحتوم .

وقد كانوا يسمعون حىّ على الفلاح فى الدنيا فلا يجيبون النداء وهم سالمون أصحاء ، حتى أن كعب الأحبار[٢] قال : والله مانزلت هذه الآية إلا فى الذين يتخلفون عن الجماعات[٣] .

فعُوقبوا فى الآخرة بعدم قدرتهم على السجود ، فإذا تجلَّى الحق سبحانه سجد له المؤمنون ولم يستطع أحد من الكافرين والمنافقين أنْ يسجد ، بل يصبح ظهرُ الواحد منهم طبقاً واحداً ، فكلما همَّ بالسجود خرّ لقفاه بعكس السجود فى الدنيا .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (٤٤) ﴾

يخاطب الحق سبحانه رسوله محمداً ﷺ وأمته متضمنة فى خطاب الله

---

(١) أخرجه عبد الرزاق فى تفسيره (٣٢٩٤) من قول قتادة . وكذا الطبرى فى تفسيره (٥٦١/٢٣)

(٢) كعب الأحبار هو كعب بن ماتع الحميرى ثقة مخضرم أدرك النبى ﷺ وأسلم بعد موته ، يمنى سكن الشام . مات فى خلافة عثمان وقد زاد على المائة يكنى أبا إسحاق وهو من حمير من آل ذى رعين توفى عام ٣٢ هـ فى خلافة عثمان . الطبقات الكبرى لابن سعد

(٣) أورده من قول كعب الأحبار البغوى فى تفسيره (٨/ ٢٠٠) ، وابن الأثير فى تفسيره (زاد المسير ٣٢٦/٤) وقال الرازى فى مفاتيح الغيب (٣٠ / ٦١٥) : « فى هذا وعيد لمن قعد عن الجماعة ولم يُجب المؤذن إلى إقامة الصلاة فى الجماعة» .

لرسوله: ﴿فَذَرْنِي (٤٤)﴾ [القلم] يعنى دعنى والعرب لم تستعمل الماضى من هذين الفعلين، فورد فيهما يدع ويذر ، وقد ورد هذا الفعل أيضاً فى قوله تعالى : ﴿ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ (١١)﴾ [المزمل]

فمعنى قوله تعالى : ﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَـٰذَا الْحَدِيثِ (٤٤)﴾ [القلم]

والمعنى : ذرهم لى أنا أتولى عقابهم وأفعل بهم ما أشاء ، أو : ذرهم يفعلون ما يشاءون ليستحقّوا العقاب وينزل بهم العذاب .

فـ (ذرنى) أى دَعْنى واتركنى ، ومثله قوله : ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ (١١)﴾ [المزمل] . أى اتركهم لى فأنا الذى أعاقبهم ، وأنا الذى أعلم أجل الإمهال وأجل العقوبة .

ويستعمل من (ذرنى) فعل مضارع هو (يذر) ، وقد قال الحق سبحانه: ﴿وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ (١٢٧)﴾ [الأعراف]

ولم يُستعمل منها فى اللغة فعلٌ ماضٍ إلا فيما رُوى من حديث رسول الله ﷺ : «ذروا اليمن ماذروكم» أى : اتركوهم ما تركوكم .

ويشارك فى هذا الفعل فعلٌ آخر هو (دَعْ) بمعنى (اترك) ، وقيل : أهملت العرب ماضى (يدع) و(يذر) إلا فى قراءةٍ فى قوْل الحق سبحانه : ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (٣)﴾ [الضحى]

فدعنى يا محمد والمكذبين بهذا القرآن ، فلا تنشغل بهم ، فكله إلىّ فإنى أكفيك أمره ، فما عليك يا محمد إلا البلاغ واتركهم لى ، وإياك أنْ يؤثر فيك عنادهم ، أو يُحزنك أنْ يأتمروا بك أو يكيدوا لك .

وقد وصف الحق سبحانه القرآن بأنه حديثٌ فى قوله سبحانه أيضاً : ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا (٢٣)﴾ [الزمر]

فهو أحسن الحديث لأنه كلامُ الله ، وكلامُ الله صفته ، وهو كامل الكمال

المطلق ، وهو أحسن القصص ، قال تعالى : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَـٰذَا الْقُرْآنَ (٣) ﴾ [يوسف]

والتكذيب بهذا الحديث هو تكذيبٌ بآيات الله ، والتكذيب بآيات الله يعنى إخراجَ الصدق إلى الكذب ، وإخراج الواقع إلى غير الواقع ، والذين كذَّبوا بآيات الله إما أنهم لا يؤمنون بإله ، أو يؤمنون بإله ولا يؤمنون برسول ، أو يؤمنون بإله ويؤمنون برسول ولا يؤمنون بما أُنزل على الرسول ﷺ .

والتكذيب مسألة منكرة ، وأول التمرد التكذيب ، وهو تأبٍّ من المكذِّب ، وقد قال الحق سبحانه عن المكذبين : ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٤) فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٥) ﴾ [الأنعام]

والتكذيب ظاهرة عانى منها كلُّ الرسل ، لذلك قال الحق سبحانه : ﴿ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ (٤٢) ﴾ [الحج]

فإنْ يكذّبوك فى دعوتك فيواجهوك ويقفون فى سبيل دعوتك ليبطلوها فاعلم أنك لستَ فى ذلك بدعاً من الرسل فقد كذّب كثير من الرسل قبلك .

كذّب القوم لكن كيف كانت العاقبة ؟ أتركناهم أم أخذناهم أخْذ عزيز مقتدر؟

فلا تحزن فسوف يحلّ بهم ما حلَّ بسابقيهم من المكذِّبين والمعاندين .

فهؤلاء الذين سبقوكم من الأمم جُبلوا على التكذيب ، وكانوا ثابتين عليه لم يزحزحهم عن التكذيب شيءٌ ، فاحذروا أنْ تكونوا مثلهم فينزل بكم ما نزل بهم .

﴿وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (١٨) ﴾ [العنكبوت]

فلستم بدعاً فى التكذيب ، لكن يجب عليكم أنْ تتنبهوا إلى ما صنع بالأمم

المكذِّبة ، وكيف كانت عاقبتهم ، فاحذروا أنْ يصيبكم ما أصابهم .

وأحياناً يكون التكذيبُ متعمداً مثلما حدث لآل فرعون عندما أصابهم الله بآفات وأمراض وبالعذاب الأصغر حتى يؤمنوا ، ولكنهم رغم يقينهم بأن هذه الآيات من الله سبحانه وتعالى لم يعترفوا بها ، لذلك يقول الحق سبحانه: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا (١٤)﴾ [النمل]

والحق سبحانه يوضح لنا كيف سيعاقب هؤلاء المكذبين ، فيقول سبحانه: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (١٨٢)﴾ [الأعراف]

حين تقول : أنا استدرجتُ فلاناً فأنت تعنى أنك أخذتَ تحتال عليه حتى يقرّ بما فعل ، مثل وكيل النيابة حين يحقق مع المجرم ويحاصره بالأسئلة من هنا ومن هناك إلى أنْ يُقرّ ويعترف ، وهذا هو الاستدراج .

والاستدراج من الدرج ونسميه فى لغتنا اليومية«السُّلم» ، وهو وسيلة للانتقال من أسفل إلى أعلى ومن أعلى إلى أسفل ، فمن المستحيل على الإنسان أنْ يقفز بخطوة واحدة إلى الدور الخامس مثلاً فى عمارة ما .

ولذلك صمموا الصعود على درجات إلى مستويات متعددة على وفق الحركة العادية للنفس ، فمعنى الاستدراج أى نأخذهم درجةً درجةً ، ونعطى لهم نعمة ثم نرهقهم بما وصلوا إليه .

والحق سبحانه يقول : ﴿حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً(٤٤)﴾ [الأنعام]

فالله حين يريد أنْ يعاقب واحداً على قدر جُرْمه فى حَقِّ أخيه الإنسان فى الدنيا لا يأخذه من أول جُرْم ، لأن الأَخْذة فى هذه الحالة ستكون ليِّنة ، لكنه يملى له ويُعليه ثم يلقيه من عَلٍ .

وهكذا يكون الأخذ أَخْذَ عزيز مقتدر ، وحين يستدرج البشر فإنَّ الطرف المستدرج له أيضاً ذكاء ، ويعرف أن هذا نوعٌ من الكيد وفخ منصوب له ، لكن

حين يكون ربُّنا القوى العزيز هو الذى يستدرج فلن يعرف أحدٌ كيف يفلت .

والعلّة فى قوله تعالى : ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (١٨٢)﴾ [الأعراف] لأن البشر يعلمون طرق استدراج بعضهم لبعض .

وهذا الاستدراج يُسمَّى أيضاً الإملاء ، قال تعالى : ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (٣٢)﴾ [الرعد]

والإملاء بمعنى الإمهال ليس معناه ترك العقوبة على الذنب ، وإنما تأخير العقوبة لذنب قادم ، والمثل هو أنْ تترك مخطئاً ارتكب هفوة إلى أنْ يرتكب هفوة ثانية ثم ثالثة ، ثم تُنزل به العقاب من حيث لا يتوقع .

وإذا كان هذا ما يحدث فى عالم البشر ، فما بالنا بقوة الحق سبحانه اللامتناهية ، وهو القائل : ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (٤٤)﴾ [القلم]

ويقول تعالى : ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (١٧٨)﴾ [آل عمران] ، تماماً مثلما نجد مَنْ يصنع فخا لعدوه .

وبداية الاستدراج الفتح على المستدرج ، قال تعالى : ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ[1] (٤٤)﴾ [الأنعام] أى لم نعجل بعقابهم بل تركناهم فتمادوا فى المعصية ، حتى إذا فرحوا بما أوتوا من النعمة والثروة وكثرة العدد جاءهم العقاب .

وأهل السياسة عندما يريدون أنْ يُنزلوا بخصومهم العقاب ، يرفعون خصومهم ويمدُّون لهم فى حبال الصبر والإمهال حتى يعلو الخصم كثيراً ثم ينكشف ويظهر سوء سلوكه فيقع أمام الناس .

---

(١) أبلس : حزن ويئس وتحير وسكت هماً أو سكت لانقطاع حجته . واسم الفاعل (مبلس) وجمعه (مبلسون) .
[القاموس القويم لالفاظ القران الكريم ١/ ٨٢]

والحق سبحانه يمدّ ويُملى لهم ليأخذوا وليبنُوا وليترفوا وليفرحوا بما أخذوا ، ومن بعد ذلك يفتح الله عليهم أبوابَ كلِّ شىء .

ففتح عليهم أىَّ سلَّط عليهم ، وهذا غير قوله سبحانه : ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا (١)﴾ [الفتح] ، فالفتح لك غير الفتح عليك ، لأن الفتح على أحد يعنى الاستدراج إلى إذلال قسرىٍّ سوف يحدث له .

فالفتح لك لصالح المتلقِّى وليس عليه فإنه يُحسُّ بالانشراح والسرور .

وحين يستدرج البشرُ البشرَ فإن الطرفَ المستدرج له أيضاً ذكاء ويعرف أن هذا نوعٌ من الكيد وفخٌّ منصوب له ، لكن حين يكون ربُّنا القوى العزيز هو الذى يستدرج فلن يعرف أحدٌ كيف يفلت .

والعلَّة فى قوله ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ (٤٤)﴾ [القلم] هى قوله ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (٤٤)﴾ [القلم] لأن البشر يعلمون طرق استدراج بعضهم لبعض .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَأُمْلِي لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (٤٥)﴾

الإملاء هو الإمهال وهو التأخير . أى أنه لا يأخذهم مرةً واحدة ، والإملاء للظالم الكافر ليس إهمالاً له من المولى تعالى، بل هو إمهالٌ فقط ثم يأخذه الله أَخْذَ عزيز مقتدر .

فمَنْ يمسك عدوه ليرفعه فلا يظنّ أنه يُدلله ولكنه يرفعه ليلقيه من عَلٍ فيزداد ويعظم ألمه ، فالفتح على الكافرين والمنافقين ليس فى صالحهم ، بل هو وبالٌ عليهم فلا تغترُّوا بها ، فقد أعطاها الله لهم وهم سيبطرون بها فتكون سبب عذابهم .

وساعة يقوم الفاسدُ بالكثير من الشرِّ فى المجتمع ، نجد أهل الخير وهم يزيدون من فعل الخيرات ونسمع دائماً مَنْ يقول : لو لم يكُنْ هناك إيمانٌ لأكل

الناسُ بعضهم بعضاً .

فالإيمان يعطى الأُسْوة واليقين ، والإملاء للظالم الكافر ليس إهمالاً له من المولى تعالى ، بل هو إمهالٌ فقط ، ثم يأخذه الله أخْذ عزيز مقتدر .

وهنا يوضح الحق سبحانه : إذا كنتُ سأستدرج وسأملى فاعلم أن كيدى متين ، والكيد هو المكر والمكر أخْذُهم من حيث لا يشعرون ، وهو عملية خفيّة تسوء الممكورَ به .

وهو تدبيرٌ خفيٌّ حتى لا يملك الممكورُ به ملكات الدفع ، وإذا كان البشرُ يمكرون ويدبرون تدبيراً يخفى على بعضهم ، فماذا حين يدبر اللهُ للكافرين مكيدةً أو مكراً ، أيستطيع واحدٌ أنْ يكشف من ذلك شيئاً ؟

طبعاً لن يستطيع أحدٌ ذلك ، هذا هو معنى : ﴿ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (٤٥) ﴾ [القلم] ومتين أى قوى ، والمتانة مأخوذة من المتن وهو الظهر ، ونعرف أن الظهر مُكوَّنٌ من عمود فقرى وفقرات عظمية ، تحيط بها عضلات .

فلو كان العمود الفقرى من عظم فقط لكان أى حمل عليه يكسره ، فشاءتْ تجلياتُ ربنا عز وجل واقتضتْ رحمتُه وقدرتُه أنْ تُحاط هذه العظام بعضلتين كبيرتين .

وإذا نظرنا إلى كلمة (متين) نجد المتن هو الشىء العمودى فى الأشياء .

والحق سبحانه ليس غافلاً عما يعمل الظالمون : ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ [1] فِيهِ الْأَبْصَارُ (٤٢) ﴾ [إبراهيم]

فالذى يفعل ظلماً سيتلقَّى عقاباً عليه ، وحين يتأخر العقاب يتساءل الذين رأوا فعل الظلم فهم يتهامسون : تُرى هل تم نسيان الظلم الذى ارتكبه فلان ؟ هل هناك غفلةٌ فى الأمر ؟

---

(١) شخوص الأبصار : ارتفاع الجفون إلى فوق وتحديد النظر وانزعاجه [لسان العرب – مادة : شخص]

ولمّنْ يتساءلون عليهم أنْ يتذكروا قول الحق سبحانه : ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (١٨٣)﴾ [الأعراف]

فليستْ هناك غفلةٌ ، ولكن هناك تأجيلٌ للعقوبة لهؤلاء الظالمين ، وفى سورة الحج يقول تعالى : ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٤٤)﴾ [الحج]

أمليتُ : أمهلتُ حتى ظنَّوه إهمالاً ، وهو إمهالٌ بأنْ يمدّ الله لهم ، ويطيل فى مدتهم ، لا إكراماً لهم ولكن ليأخذهم بعد هذا أخْذَ عزيز مقتدر .

والكافرون يكيدون للمؤمنين وهم لن يتركوهم على إيمانهم أبداً ، بل لا بدَّ أنْ يكيدوا لهم ، وهذا الكيد يتجلَّى فى أنهم يدسُّون لهم أشياء وينفذون إليكم .

فهم لن يتورعوا أنْ يدخلوا عليكم من باب الكيد لكم ولدينكم بكلِّ لون من الألوان ، وهم لا يقصِّرون فى هذا أبداً .

والكيد هو أنْ تبيِّت وتحتال على إيقاع الضرر بالغير بحيث يبدو أنه كيدٌ من غيرك ، أى تدبر لغيرك لتضره .

فالكيد هو محاولة إفساد الحال بالاحتيال ، فهناك مَنْ يفسد الحال لكن ليس بحيلة ، وهناك مَنْ يريد أنْ يفسدها بحيث إذا أمسكتَ به يقول لك : لم أفعل شيئاً لأنه يفعل الخطأ فى الخفاء .

والكيد لا يُقبل عليه إلا الضعيف ، فالقوىُّ يواجه مَنْ يكيد له ، فالذى يدسُّ السُّم لإنسان آخر فى القهوة مثلاً هو مَنْ يرتكب عملاً لإفساد الحال باحتيال لأنه لا يقدر على المواجهة .

وتجد أن كيد الشيطان جاء ضعيفاً ، فقال تعالى : ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا (٧٦)﴾ [النساء]

فكيد الشيطان ضعيفٌ لأنه لا يملك قوةً يقهر بها قالباً ،ولا يملك حجة يقهر بها قلباً ليقنعك ، فهو يشير لك باحتيال وتزيين وأنت تأتيه ولا يحتال إلا الضعيف .

والكيد من لوازمه المكر ، والمكر هو الكيد الخفى ، والمكر مأخوذ من التفاف أغصان الشجرة كالضفيرة ، فلا تتعرف على منبت ورقة الشجر ومن أىِّ غصن خرجت ، فقد اختلطت منابت الأوراق حتى صارتْ خفية عليك وأخذ من ذلك الكيد الخفى .

وأنت قد تكيد لمساويك ، لكنك لن تقدر على أنْ تكيد لمن هو أعلى منك فإنْ كنتم تمكرون فإنَّ الله أسرعُ مكراً ، والحق سبحانه يقول : ﴿ قُلِ اللهُ أَسْرَعُ مَكْرًا (٢١) ﴾ [يونس]

ومكْرُ الله سبحانه أقوى من أىِّ مكر بشرىٍّ ، لأن مكر البشر قد يُهدم من بعض الماكرين أو من التجسُّس عليهم ، لكن إذا كاد الله لهم أيعلمون من كيده شيئاً ؟ طبعاً لا يعلمون .

ومكركم البشرى هو أمر حادث لكنِ الله سبحانه أزلىُّ الوجود ، يعلم كلَّ شىء قبل أنْ يقع ويرتب كلَّ أمر قبل أنْ يحدث ، لذلك فهو سبحانه الأسرعُ فى الردِّ على مكركم إنْ مكرتم .

وقد وصف الحق سبحانه كيده بأنه (متين) فقال : ﴿ وَأُمْلِى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ (٤٥) ﴾ [القلم]

وهو متين ، لأن لا أحد بقادر على كيده ، وهو القائل سبحانه : ﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (١٥) وَأَكِيدُ كَيْدًا (١٦) فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا (١٧) ﴾ [الطارق]

فكيدُ الله لا غالبَ له ، وهو كيدٌ غير مفضوح لأحد ، ولذلك قال تعالى : ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٣٠) ﴾ [الأنفال]

والحق سبحانه إذا أراد أنْ يكيد لهم فلن يشعروا به .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ (٤٦) ﴾

فالرسول لا يسأل قومه أجراً على هدايته لهم، فأجرُه على الله وحده، والحقُّ سبحانه يخاطب رسوله ﷺ: ﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (١٠٤)﴾ [يوسف]

ويقول على لسان رسوله فى موقع آخر: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللهِ (٤٧)﴾ [سبأ]

وهو هنا يُعلى الأجر، فبدلاً من أنْ يأخذ الأجرَ من محدود القدرة على الدفع فهو يطلبها من الذى لا تُحدّ قدرته فى إعطاء الأجر، فكأنَّ العمل الذى يقوم به لا يمكن أنْ يُجازى عليه إلا من الله، لأن العمل الذى يؤديه بمنهج الله ومن الله، فلا يمكن إلا أنْ يكون الأجرُ عليه من أحد غير الله.

والأمر أصبح واضحاً أن الرسول ﷺ لا يريد أجراً، وإنما أجره على الله وهذا حكم به الله سبحانه، ورسول الله قال لهم هذا.

لذلك هنا يأتى الأمرُ فى صورة استفهام من الحق سبحانه لرسوله: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ (٤٦)﴾ [القلم]

فهل هم غير قادرين على دَفْع الثمن لأنهم بخلاء؟ أو لا يريدون أنْ يُخرجوا من جيوبهم شيئاً تنتفع أنت به؟ مع أنك لم تسألهم أجراً، فهل يعنى ذلك أنَّ النبى كان من المفروض أن يسألهم أجراً؟

فالإنسان إذا قدّم لإنسان شيئاً نافعاً فعليه أنْ يدفع له أجراً بمقتضى التبادل والمعاوضة، وكأنه ﷺ يقول لهم: لقد قدّمت إليكم جميلاً يفترض أنَّ لى عليه أجراً لكنى لا أريد منكم أجراً، والمسألة من عندى تفضُّل.

والأجر جُعْل يقابل عملاً، وقيمة هذا الجُعل تختلف باختلاف مشقة العمل وطول زمنه ومهارة العامل فيما يقتضيه العمل ومخاطر ما يقتضيه العمل.

وكلُّ أجر يُقدَّر بما يقابله من عمل ويتناسب مع ما يقتضيه العمل من وقت ومجهود ومشقة ومخاطر ومهارة.

وإذا كان الأمرُ كذلك فانظروا إلى عمل الرسول وإلى مدى إفادتكم من رسالته، انظروا إلى المنهج الذى جاءكم به وكيف أنه يُريحكم مع أنفسكم، ويريحكم مع المجتمع ، ويُريحكم مع ربكم عز وجل ، ويريحكم من شرور أنفسكم ومن شرور الناس جميعاً .

إذن للرسول عمل كبير ومجهود عظيم لو قدَّرت له أجراً لكان كذلك عظيماً، إنّ الإنسان إذا أجَّر مثلاً حارساً يحرسه بالليل ، كم يدفع له ؟

. فالنبى يأتيك بمنهج يحرسك ويحميك فى نفسك وفى مالك وفى عِرْضك وفى كلِّ ما تملك ، ولا يحميك من فئة معينة ، إنمَا يحميك من الناس أجمعين ، بل إن حماية منهج الله لك لا تقتصر على الدنيا إنما تتعدّى إلى الآخرة فتحميك فيها حمايةً ممتدة لا نهايةَ لها ، فإن قدَّرتَ لهذه الحماية أجراً ، فكم يكون ؟

إنما أنا أقولُ لك : لا أريد أجراً ، لا كراهيةً فى الأجر ، بل لأنك أنت أيها الإنسانُ لا تستطيع تقدير هذا العمل أو تقييم الأجر عليه ، أما الذى يقدِّر ذلك فهو ربىالذى بعثنى ، وأنت أيها العبد مهما قدَّمْتَ لى من أجر على ذلك فهو قليل .

والرسول ﷺ لا يريد أجراً من أحد ، فاطمئنوا ولا تخافوا من أنْ نثقلكم بشىء ، إنما أجرى على الله : ﴿ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٧٢) ﴾ [يونس]

وقال تعالى : ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ (١٠٩) ﴾ [الشعراء]

﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا (٥٧) ﴾ [الفرقان]

أى سبيلاً للمثوبة وسبيلاً للأجر من جهاد فى سبيل الله ، أو صدقة على الفقراء . فأجْرُ الرسول العمل للغير لتأخذ أنت الأجر من الله ، فالرسول لا يأخذ شيئاً لنفسه .

ثم يقول تعالى :

﴿ أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾

هل عندهم علم الغيب فهم يكتبون ذلك للناس ، فينبئونهم بما شاءوا ويخبرونهم بما أرادوا ، فهل عندهم اللوح المحفوظ الذى فيه نبأ ما هو كائنٌ فهم يكتبون منه ما فيه ويجادلونك به .

فهل عندهم شيءٌ من الغيب انفردوا به وأوجب لهم أنْ لا يستجيبوا ، وقد سمَّى الله اللوح المحفوظَ غيباً لأنه كتب فيه ما غاب عن العباد ، فهم يكتبون منه ما يحكمون لأنفسهم ويقع بشهواتهم .

وهذا استفهام استنكاريٌّ فليس عندهم علم الغيب كما يظنون ، فلا يعلم أحدٌ من أهل السماوات والأرض الغيبَ إلا الله .

أيدَّعون أن عندهم علمَ الغيب فهم يكتبون للناس ما أرادوا من علم الغيب ، وهم يعلمون أن ليس عندهم الغيب وأن ليس لهم به علم ، وأنْ ليس لهم عليه قدرةٌ وهم لا يكتبون فى سجل الغيب شيئاً .

وجواب السؤالين : ﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ (٤٦) أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (٤٧) ﴾ [القلم] جواب كلا السؤالين : لا .

فأنت يا محمد لم تسألهم أجراً ، وليس عندهم علمٌ بالغيب ، حتى رسول الله لا يعلم شيئاً من الغيب ؛ فمَنْ هو أقل منه لا يعلم الغيب ، وقد أمره الله تعالى أنْ يعلن أنه لا يعلم الغيب فقال تعالى : ﴿ قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِى خَزَائِنُ اللهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ (٥٠) ﴾ [الأنعام]

وهنا يقول تعالى لهؤلاء المكذِّبين : ﴿ أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (٤٧) ﴾ [القلم] والجواب : لا .

ثم يوجِّه الحق سبحانه نبيَّه ورسوله محمداً ﷺ :

﴿ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ ﴾

قوله سبحانه هنا جاء لتسلية رسول الله ﷺ موضحاً له : إنهم يكذِّبونك ويكفرون بالله وبك وبالنور الذى أنزلناه معك ، وقد ترغب فى أنْ نأخذهم أخْذ عزيز مقتدر .

لكن الحق سبحانه جعل لكلِّ مسألة كتاباً ، فهو قد خلق السماوات والأرض فى ستة أيام ، ونحن فى حياتنا نقول لمن يتعجل أمراً : يا سيدى إنَّ ربنا خلق السماء والأرض فى ستة أيام ، فلا تتعجل الأمور .

فربُّنا سبحانه هو القادر على أنْ ينجز خَلْق السماء والأرض فى لحظة ، لكنه أمر بـ (كُنْ) وترك المواد تتفاعل لستة أيام . ولماذا لا نقول : جاء بكلِّ ذلك ليعلِّمنا التأنِّى وألاَّ نتعجل الأشياء .

﴿ فَاصْبِرْ (٤٨) ﴾ [القلم] ولا ترهق نفسك ، فسيأتى لهؤلاء الجاحدين يومهم الذى يُؤاخذون فيه بسوء أعمالهم وسوف يأتى حتماً .

والصبر قد يكون ميسوراً سهلاً فى بعض المواقف ، وقد يكون شديداً وصعباً ويحتاج إلى مجاهدة ، فمرَّة يقول الحق لرسوله : اصبر ، ومرَّة يقول : اصطبر .

فما الأقوال التى يصبر عليها رسول الله ؟ قولهم له : ساحر . وقولهم : شاعر . وقولهم : مجنون وكاهن . كما قالوا عن القرآن : أضغاث أحلام . وقالوا : أساطير الأولين . فاصبر يا محمد على هذا كله . لأن كل قوْلَة من أقوالهم تحمل معها دليلَ كذبهم .

فدعْك يا محمد من هؤلاء المكذبين ، واثبت على ما أنت عليه ، اصبر على كُرْههم ، واصبر على لَددهم وعنادهم ، واصبر على إيذائهم لك ولمَنْ يؤمن بك اصبر على هذا كله لأن العاقبةَ فى صالحك .

وفى آية أخرى يقول : ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ (٦٠) ﴾ [الروم]

يعنى لن تُخرجونى عن ثباتى وحِلْمى ولن تستفزونى .

﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ (٤٨) ﴾ [القلم] فاصبر يا محمد لقضاء ربك وحكمه فيك وفى هؤلاء المشركين بما أتيتهم به من هذا القرآن وهذا الدين وامْض لما أمرك به ربُّك ، ولا يُثنيك عن تبليغ ما أمرت بتبليغه تكذيبهم إيّاك وأذاهم لك .

اصبر على أذاهم لقضاء ربك الذى هو آتٍ ولا تكُنْ فى الضجر والغضب والعجلة وترْك الصبر ، واصبر لحكم ربك فى إمهالهم وتأخير نصرتك عليهم .

فعليك بتبليغ الرسالة واحتمال الأذى ، واحتمال تأخير نصرتك على أعدائك.

والحق سبحانه لا يكتفى بأمر رسوله ﷺ بالصبر على حكم ربه وقضائه وما كلَّفه الله به من الصبر والاحتمال ، بل إنه سبحانه يذكر لرسوله مثلاً من قصص أنبيائه ، ليأخذ رسول الله وأمته معه العبرة من قصص الأمم السابقة.

فيقول تعالى : ﴿ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ (٤٨) ﴾ [القلم]

فلا تكُنْ يا محمد كصاحب الحوت فى العجلة وعدم الصبر على قومه ، وصاحب الحوت هو النبى يونس بن متى عليه السلام ، وهو ذو النون ، والنون من أسماء الحوت وجمعه (نينان) كحوت وحيتان .

والحق سبحانه يقول : ﴿ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) ﴾ [الأنبياء]

فاسم النبى يونس ارتبط واقترن بالحوت الذى ابتلعه ، بعدما دعا قومه إلى الإيمان بالله ، ولكنهم كفروا به فأغضبوه وغضب منهم .

وكان المفروض أنْ يتحملَ الأذى الصادر منهم تجاهه ، وكانت معارضة دعوته شديدة تُحفظ وتملأ القلب بالألم والتعب ، وكان عليه أنْ يُوطِّن نفسه على مواجهة مشقات الدعوة .

ونحن نعلم أنّ العبد الصالح يونس عليه السلام قد تأثر وحزن وغضب من عدم استجابة قومه لرسالته الإيمانية إلى أنْ رأوا غيماً يملأ السماء وعواصف.

وألقى الله تعالى فى خواطرهم أن هذه العواصف هى بداية عذاب الله لهم، فهُرعوا إلى ذوى الرأى فيهم ، فأشاروا عليهم بأن هذه هى بوادر العذاب ، وقالوا لهم : عليكم بإرضاء يونس لأن الله سبحانه وتعالى هو الذى أرسله فآمنوا به ليكشف عنكم الغمة .

وهرع الناس إلى الإيمان بالحىِّ الذى لا يموت ، وذهب قوم يونس عليه السلام لا سترضائه بعد عودته من محنة التقام الحوت له ، وحين رضى عنهم بدأوا ينظرون فى المظالم التى ارتكبوها ، حتى إن الرجل منهم كان ينقُض ويهدم جدار بيته ، لأن فيه حجراً قد اختلسه من جار له .

ويونس عليه السلام فى أثناء مغاضبته ركب سفينة ، ولكن السفينة تعرضت للعب الأمواج بها فاضطربت اضطراباً شديداً ، وأشرفتْ على الغرق بركابها فألقوا الأمتعة فى البحر لتخفّ بهم السفينة فاستمر اضطرابها ، فاقترعوا على أن يلقوا إلى البحر مَنْ تقع عليه القرعة ، فوقعت القرعة على نبى الله يونس.

يقول الحق سبحانه : ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٩) إِذْ أَبَقَ[١] إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١٤٠) فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ[٢] (١٤١) فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (١٤٢) فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤٤)﴾ [الصافات]

فكان يونس عليه السلام ممن خسروا القرعة فى عرف الناس ، ووقعت

---

(١) أبق : هرب من مالكه وقد جعل الله ترك يونس عليه السلام قومه إباقاً لأنه مملوك لله وللرسالة التى كلفه الله أن يقوم بها [القاموس القويم ١/ ٤]

(٢) المدحضين أى أنه تارعهم فكان من المقروعين المغلوبين (تفسير مقاتل بن سليمان ٣/ ٦٢٠) وقال يحيى بن سلام فى تفسيره (١/ ٣٣٧) : من المسهومين يعنى أنه وقع السهم عليه .

القرعة عليه ليتم إلقاؤه فى البحر ، فابتلعه الحوت : ﴿فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (١٤٢)﴾ [الصافات]

أى ابتلعه الحوت وقد فعل ما يُلام عليه ، وكأنَّ الله يقول له : لقد تسرعتَ حين تركتَ قومك وضِقت بهم لأول إيذاء تتعرَّض له ، وكان عليك أنْ تصبر وأنْ تتحمل الأذى فى سبيل دعوتك ، ومعلوم أنك لا تعاتب إلا مَنْ تحرص عليه ليظلَّ فى صحبتك .

فالله عاتبه ولامه مجرد لَوْم على أمر لا يصح من نبى ، والعتاب دليل المحبة.

فما كان من يونس عليه إلا أنْ دعا ربه وهو فى بطن الحوت ، قال تعالى هنا : ﴿ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ (٤٨) ﴾ [القلم]

والنداء هنا الدعاء ، وأحسن الدعاء الدعاء الخفى ، وذلك كدعاء زكريا عليه السلام: ﴿كهيعص (١) ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا (٢) إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا (٣) ﴾ [مريم]

أما هنا فيونس عليه السلام نادى ربه ودعاه : ﴿وَهُوَ مَكْظُومٌ (٤٨) ﴾ [القلم]

والكظم كتم الشىء ، وهو مأخوذ من كَظْم القربة حين تمتلىء بالماء ثم يكظمها أى يربطها فتراها ممتلئة كأنها ستنفجر ، هكذا الغضبان تنتفخ عروقه ، ويتوارد الدم فى وجهه ويحدث له احتقان ، فهو مكظوم ممنوع أنْ ينفجر .

وذلك مثل الذى يكره أنْ تكون له البنات فإذا بشَّره أحدٌ بالأنثى تجد وجهه مُسوداً يكاد ينفجر من السُّخط والغضب ، يقول تعالى : ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (٥٨) يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ (٥٩) ﴾ [النحل]

ورسول الله ﷺ تعرَّض لمصاعب جمة فى طريق الدعوة ، فقد آذاه قومه وكذَّبوه وألجئوه إلى الطائف ، وكان أهلها أشدَّ قسوة من إخوانهم فى مكة ، فعاد مُنكراً دامياً ، وكان من دعائه : «اللهم إنى أشكو إليك ضعف قوتى ، وقلة

حيلتى وهوانى على الناس يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين وأنت ربى ، إلى مَنْ تكلنى ؟ إلى بعيد يتجهمنى ؟ أم إلى عدو ملّكته أمرى ؟ إنْ لم يكن بك علىَّ غضب فلا أبالى ، ولكن عافيتك هى أوسع لى ، أعوذ بنورْ وجهك الذى أشرقتْ له الظلمات ، وصَلُحَ عليه أمر الدنيا والآخرة من أنْ تُنزل بى غضبك ، أو يحل علىَّ سخطك لك العتبى حتى ترضى ، ولا حوْلَ ولا قوة إلا بك»[١] .

لقد كان رسول الله فى محنة فلجأ إلى ربه ونادى ربه مستجيراً به ، ألم يُرْمَ رسول الله بالحجارة حتى دميت قدماه فى الطائف ؟ ألم يضعوا على ظهره الشريف سلا[٢] البعير فى مكة – أى سَقَط البعير – ألم تكسر رباعيته[٣] يوم أُحُد ويُشجّ ويسيل دمه ﷺ ؟ .

فرسول الله ناله مع ربه عز وجل إيذاءٌ بالقول ، ثم ناله إيذاءٌ آخر بالفعل ، إيذاءٌ بشريّ فيه إيلام ، وقمةُ الإيذاء بالفعل ما يتعرَّض لأمر محارمه وأزواجه ﷺ .

فلا تكُنْ يا محمد كيونس عليه السلام صاحب الحوت إذ ذهب مغاضباً ولم يصبر على عدم إيمان قومه به وبدعوته ، فنادى ودعا ربه وهو مستشيطٌ غضباً من تكذيب قومه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ ﴾

لولا أن الحق سبحانه تداركه عبده يونس عليه السلام برحمة منه لأُلْقى ونُبذ بالعراء وهى الأرض التى لا زرعَ فيها ولا نبات .

---

(١) أورده ابن هشام فى السيرة النبوية (١/ ٤٢٠) والبيهقى فى دلائل النبوة (٢ / ٤١٦) والسهيلى فى الروض الأنف (٤ / ٢٦) وابن كثير فى السيرة النبوية (٢/ ١٥٠)

(٢) سلا البعير : السَّلَى الجلد الرقيق الذى يخرج فيه الولد من بطن أمه ملفوفاً فيه، وهو فى الناس المشيمة. وفى الماشية السلا [لسان العرب – مادة سلا]

(٣) الرباعية : إحدى الأسنان الأربع التى تلى الثنايا ، بين الثنية والناب تكون للإنسان وغيره والجمع رباعيات قال الأصمعى : للإنسان من فوق ثنيتان ورباعيتان بعدهما ونابان وضاحكان وستة أرحاء من كل جانب وناجذان ، وكذلك من أسفل [لسان العرب – مادة ربع]

فيونس عليه السلام كان مكظوماً مكروباً مغموماً من الغم الذى أصابه بسبب إلقائه فى البحر وابتلاع الحوت له ولُبْثه فى بطن الحوت .

وابتلاع الحوت له هو فى حد ذاته نعمة من ربه ، فلولا التقامُ الحوت له لضاع فى البحر الواسع وقد لا يخرُج منه ولا يصل إليه أحد ، ولكن الله تداركه برحمته ، فحدد الظرف الذى يكون فيه وهو بطن الحوت .

ورحمة الله تداركتْه بأنه لم يُنبذ بالعراء وهو مذموم بل نُبذ بالعراء وهو سقيم ، والسقيم المريض ، فنُبذ مريضاً ولم ينبذ مجرماً مطروداً من رحمة الله.

قال تعالى : ﴿ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ (١٤٥) وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ (١٤٦) ﴾ [الصافات]

فنبْذُ النبى يونس عليه السلام بالعراء كان قدراً مقدوراً ، ومع هذا فلا خروجَ له عما قُدر عليه ، فلو رضى العبد باختيار الله أصابه القدر وهو محمود مشكور ملطوف به فيه ، وإلا لجرى عليه القدر وهو مذموم عنده غير ملطوف به فيه مع اختياره لنفسه .

ومتى صح تفويضه ورضاه اكتنفه فى المقدور العطف عليه واللطف به . فيصير بين عطف الله ولطفه ، فعطفه يقيه ما يحذره ، ولطفه يهوّن عليه ما قدَّره.

ويونس نُبذ بالعراء ولكن الله أنبتَ عليه شجرةً من يقطين ، وكلُّ شيء ينبسط مثل القرع والكرم والقثاء يُسمَّى يقطيناً .

وقد قال أبو هريرة عن يونس : طُرح بالعراء فأنبت الله عليه يقطينة فقلنا: يا أبا هريرة وما اليقطينة ؟ قال : الشجرة الدباء ، هيّأ الله له أروية وحشية تأكل من خشاش الأرض فتفشح عليه فترويه من لبنها كلَّ عشية وبكرة حتى نبتَ[1].

ونلحظ فى هذه الآية أن الحق سبحانه قال : ﴿ لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ (٤٩) ﴾

---

(١) أخرجه الطبرى فى تفسيره (٢١ / ١١٣) (١٩ / ٦٣٥) ، وابن كثير فى تفسيره (٧ / ٣٥) ، وذكره السيوطى فى الدر المنثور (٧ / ١٣٠) وعزاه لابن جرير من طريق ابن قسيط .

[القلم] بتذكير(تداركه) مع أن (نعمة) مؤنث ، ولكنه مؤنث غير حقيقى .

وكان نتيجة أن الحق سبحانه تداركه برحمته أن الله اجتباه واصطفاه وجعله نبياً ، قال الحق سبحانه :

﴿ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾

والاجتباء الاصطفاء ، فالله اصطفاه واختاره بعد تلك المحن المتتابعة التى تعرَّض لها ، والاجتباء نعمة أخرى ، وتاج نعمة الدنيا أن الله اجتباه نبياً .

الاجتباء الاصطفاء والاختيار للنبوة ، وقد كان اجتباء يونس عليه السلام عن اختبار ، وقد كان هذا مع كلٍّ من اختاره الله للنبوة ، قال تعالى عن آدم عليه السلام : ﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ (١٢١) ثُمَّ ٱجْتَبَاهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ (١٢٢) ﴾ [طه]

فالاجتباء والعصمة كان بعد التجريب ، والتحقق من أن آدم ويونس أهلٌ لهذا الاجتباء والاختيار وعلى مستوى مسئوليته ، وأنْ يحقق ما أراده الله منه.

وإذا كان كلامنا هنا هو عن يونس عليه السلام ، فإن آدم مرَّ بتجربة إيمانية مثلما مرَّ بها يونس ، وآدم مرَّ بهذه التجربة قبل أنْ يجتبيه الله للنبوة .

وكثيرون يظنون أن عصيان آدم جاء بعد أنْ كُلِّف بالنبوة فيقولون : كيف يعصى آدم ربّه وهو نبيّ والنبى معصوم ؟

ونقول : نعم عصى آدم ربه لكن قبل النبوة ، وكان ما يزال بشراً عادياً ، لذلك قال سبحانه فى حقه : ﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ (١٢١) ثُمَّ ٱجْتَبَاهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ (١٢٢) ﴾ [طه]

فالاجتباء جاء بعد المعصية ، وهكذا كان يونس عليه السلام جاء اجتباؤه من الله بعد ما مرَّ به من محنة مغاضبته لقومه وهروبه منهم ، ومحنة الفُلْك وما حدث فيه ، ومحنة الإلقاء فى البحر ، ومحنة ابتلاع الحوت له ، ومحنة إلقاء الحوت له على الشط بأرض عراء كالفَرْخ الذى اهترى جلده وسقط ريشه عرياناً .

والذى اجتباه هو ﴿رَبُّهُ (٥٠)﴾ [القلم] فالحق سبحانه يذكِّرنا بربوبيته ، فالربوبية ليس فيها من القسوة بقدر ما فيها من رحمة ، فبربوبيته يمهل الله العصاةَ والظالمين لأنفسهم ويفتح أبواب التوبة لكلِّ مَنْ يلجأ إليه .

فربوبيته تعالى ليست ربوبية جبروت ، بل ربوبية (الرحمن الرحيم) .

والحق سبحانه اجتبى واصطفى يونس صاحب الحوت : ﴿ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٥٠) ﴾ [القلم]

وهنا يبرز سؤالٌ هو : لأيِّ عمل هم صالحون ؟ ونحن نقول فى حياتنا: « فلان رجل صالح » ومقابله (رجل طالح) ، والإنسان صالح للخلافة ، والرجل الصالح يرى الشيء الصالح فى ذاته فيترك هذا الشيء على ما هو عليه أو يزيده صلاحاً .

أما الرجل الطالح أو المفسد فهو يأتى إلى الشيء الصالح فيفسده ولا يفعل صلاحاً.

وقد ذكر الحق سبحانه يونس عليه السلام ضمن كوكبة من أنبياء الله الصالحين ، فقال تعالى : ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٨٣) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٤) وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٨٥) وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ (٨٦) ﴾ [الأنعام]

والصلاح والنبوة رحمة من الله لأنبيائه ، لذلك قال تعالى فى حق نبى من الأنبياء هو لوط عليه السلام : ﴿وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥) ﴾ [الأنبياء]

أى أدخلناه فى ركب النبوة : ﴿إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥) ﴾ [الأنبياء] أى من الصالحين للنبوة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ ﴾ (١)

لم يسلم رسول الله ﷺ من سخرية الذين كفروا واستهزائهم وقد كانوا شديدى العداوة له ، فيرمونه بأنظارهم غيظاً عليه وحقداً .

فإذا قرأتَ القرآن تجدهم ينظرون إليك نظراً شديداً بالعداوة يكاد يُزلقك أى يسقطك من شدة النظر .

و (يزلقونك) من أزلقه عن موضعه إذا نحَّاه . والزلق هو السقوط ، والإزلاق: الإسقاط ، فتجد مَنْ يبغض إنساناً تجده ينظر إليه نظراً يتمنى لو صرعه به ، أو كما نقول : يأكله بنظره أكلاً .

والبعض من العلماء قال : إن الإزلاق بالأبصار أى ما تفعله العين فى المعيون أى المحسود ، وقد كان العربُ إذا أرادوا إيذاءَ أحد فى نفسه أو ماله يأتون برجل يمكث اليومين والثلاثة لا يأكل شيئاً ، ثم يرفع جانب خبائه أو خيمته ، فتمرّ به النَّعَم والإبل فيقول : لم أر كاليوم إبلاً ولا غنماً أحسن من هذه، فما تذهب إلا قليلاً حتى يسقط منها ما يسقط صريعاً .

فكان الذين كفروا يأتون بهذا الرجل لينظر إلى رسول الله نظرَ العائن لعله يصرعه بنظره .

ولكن المتأمل لهذا يجد أن القول الأول هو الصحيح فهماً ، لأن الحاسد إنما ينظر إلى الشيء نظر استحسان وإعجاب ، ولكن الذى معنا هنا نظر بغض وكراهية وبغضاء وعداوة .

وهم كانوا يكرهون سماع القرآن ، ويكرهون مَنْ نزل عليه القرآن ، ويكرهون من أنزل القرآن على محمد ﷺ على وجه الخصوص .

---

(١) أزلقه : جعله يزلق كأن أبصارهم أدوات إزلاق لشدة حسدهم وحقدهم [القاموس القويم ١/٢٨٩]
قال أبو إسحاق : مذهب أهل اللغة فى مثل هذا أن الكفار من شدة إبغاضهم لك وعداوتهم يكادون بنظرهم إليك نظر البُغضاء أن يصرعوك [لسان العرب – مادة : زلق]

لهذا كان إزلاقهم لرسول الله بأبصارهم إنما كان حين يُقرأ عليهم القرآن ، لذلك قال الحق سبحانه : ﴿ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ (٥١) ﴾ [القلم]

والذكر المقصود هنا القرآن ، وقد قال تعالى : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩) ﴾ [الحجر] ، وقال الحق فى آية أخرى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٤٤) ﴾ [النحل]

فالذكر حين يُطلق يُراد به القرآن : ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ (٥٨) ﴾ [آل عمران]

وقد قال الحق لرسوله عن القرآن : ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ (٤٤) ﴾ [الزخرف]

أى أن القرآنَ شرفٌ كبير لك ولأُمتك ، وسيجعل لكم به صيتاً إلى يوم القيامة ، فالقرآن شرفٌ لكم .

ويقول سبحانه : ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٠) ﴾ [الأنبياء] أى : فيه شرفكم ، وفيه صيتكم ، وفيه تاريخكم .

فشرفُ القوم يجيء من شرف القرآن ومن صيت القرآن ، والحق سبحانه يقول : ﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ (١) ﴾ [ص] ، فشرفه دائم أبداً .

وهم سمعوا الذكرَ ، ولكنهم لم يتعرَّضوا هنا للطعن فى الذكر الذى هو القرآن، بل تعرَّضوا بالطعن للذى سمعوا منه القرآن فقالوا : ﴿إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ (٥١) ﴾ [القلم]

وهذا من عمى بصيرتهم وضلالهم ، وهم فى آية أخرى يقول تعالى : ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ (٦) ﴾ [الحجر]

وهذا قول يؤكد غباء تفكيرهم ، فما داموا قد قالوا : ﴿ نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ (٦) ﴾ [الحجر]

فمَنْ الذى نزَّل هذا الذكر ؟ والذكر هو القرآن والذى نزّله هو الله سبحانه ، فكيف يعترفون بالقرآن كذكر ثم يتهمون الرسول بأنه مجنون ؟

لأنهم ما داموا قد قالوا عن القرآن إنه ذكر وإنه قد نزل عليه ولم يأت به من عنده، فكيف يكون مجنوناً ؟ إنهم هم الكاذبون وقولهم يؤكد أن فكرهم نازل هابط .

وكيف يقولون عن رسول الله إنه مجنون ، والمجنون يتصرف بلا منطق ، يضحك بلا سبب ، ويبكى بلا سبب ، ويضرب الناس بلا سبب .

ونلاحظ أن الحق سبحانه بدأ هذه السورة سورة القلم بالرد على الكافرين الذين رموا رسول الله بالجنون، فقال تعالى: ﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (١) مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (٢) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ[1] (٣) وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤)﴾ [القلم]

وأنهى سبحانه السورة بالرد أيضاً عليهم فى نفس الفرية ، فقال تعالى : ﴿وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ (٥١)﴾ [القلم]

ثم يردف الحق سبحانه فيقول :

﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٥٢﴾﴾

الحق استخدم أسلوب القصر لتأكيد أن القرآن ما هو إلا ذكر ، فاستخدم سبحانه (ما) التى للنفى ثم الضمير المنفصل (هو) العائد إلى القرآن حَصْراً، ثم أداة الاستثناء (إلا) .

ومثلها قوله تعالى : ﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (١٠٤)﴾ [يوسف] وكلمة (ذكر) تدل على أن الفطرة فى الإنسان كان يجب أنْ تظل واعيةً ذاكرةً لله ، وقد قدَّر الله غفلة الأحداث فجعل لهم الذكر كله فى القرآن الكريم .

وكلمة (العالمين) جمع عالَم ، والعالَم هو ما سوى الله تعالى : عالم الملائكة وعالم الجن وعالم الإنس وعالم الجماد وعالم الحيوان وعالم النبات . إلا أن بعض هذه العوالم لم يأتها بشير ولا نذير ، لأنها ليست مُخيَّرة ، والبشارة والنذارة لا تكون إلا للمخيّر .

---

(١) غير ممنون : غير مقطوع أى دائم . غير ممنون : غير منقوص. قاله مجاهد ومقاتل بن سليمان . وقال التسترى فى تفسيره (١ / ١٩٩) : « أى لا ينقطع عنهم أجور أعمالهم وإن ضعفوا عنها».

سُورَةُ الحَاقَّةِ

سورة الحاقة[1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الْحَاقَّةُ ۝١ مَا الْحَاقَّةُ ۝٢ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ۝٣ ﴾

الحاقة يوم القيامة الثابتة حقيقتها التى لا تتزحزح ، فالحاقة اسم من أسماء القيامة ، فهو يوم الواقعة التى لا واقعةَ بعدها ، ويوم الصّاخة التى تصخ الآذان التى انصرفت عنها فى الدنيا ، ويوم الطامة التى تطمّ ، ويوم الدين أى الذى يقع فيه الدين أي الحساب .

والحق سبحانه يقول : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ (٣٦) ﴾ [النحل]

فـ (حقت) أى أصبحت حقاً له ووجبت له بما قدَّم من أعمال لا يستحق معها إلا الضلالة ، فما حقَّتْ عليهم وما وجبت لهم إلا بما عملوا .

---

(١) سورة الحاقة سورة مكية ، عدد آياتها ٥٢ آية ، نزلت بعد سورة الملك وقبل سورة المعارج ﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ (١) ﴾ [المعارج] فهى السورة رقم (٧٧) فى ترتيب النزول بمكة ، أما فى ترتيب المصحف الشريف فهى السورة رقم (٦٩) . قال أبو القاسم هبة الله بن سلامة فى كتابه (علوم القرآن) (١ / ١٨٤) : « جميعها محكم وليس فيها ناسخ ولا منسوخ» .

ونجد قوْل الحق : ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ (١٦) ﴾ [الإسراء]

أى أوجب لها العذاب ، فمن ارتكب جناية أو ما يستوجب العقوبة حقَّت عليه العقوبة وأصبح ثابتاً فى حقه ، وكذلك حقَّت كلمة ربك على هؤلاء الذين فسقوا ولا ينتهون عن فسقهم وكفرهم .

فالحاقة الساعة التى تحقُّ فيها حقائق الأعمال فيحق للكافرين عملهم ويحق للمؤمنين عملهم ، ويحق فيه جزاء الأعمال لكل طائفة .

فالحاقة هى الصادقة الواجبة الصدق ، وجميع أحكام القيامة صادقة واجبة الوقوع والوجود .

وقوْل الحق سبحانه ﴿ مَا الْحَاقَّةُ (٢) ﴾ [الحاقة] استفهام معناه التفخيم والتعظيم لشأنها . وسُميت القيامة حاقة لأن فيها تحقّ حقائق الأمور .

والاستفهام هنا يحقق أن يُعمل السامعُ أقصى جهده للوصول إلى ماهية الحاقة ، فرغم أن الله سبحانه ذكر كلمة (الحاقة) مُعرَّفة بـ (ال) إلا أنها كالنكرة لأن شدةَ هولها غير معروفة .

وأنت لا علمَ لك بمدى عظمتها وشدة هولها ، فهى فى العِظَم والشدة بحيث لا يبلغه درايةُ أحد ولا وهمه ، ومهما تخيلتَ حالها فهى أعظم من ذلك .

والإدراك معناه الإحاطة ، فأنت قد ترى الشمس ولكن أتدَّعى أنك أدركتها؟ لا . فوجود الشيء مختلف تماماً عن إدراك كيفية وجوده ، وهناك أشياء كثيرة فى الكون موجودة وتزاول مهمتها ونحن لا ندرك كيفية هذا الوجود ، وليس معنى عدم إدراكنا لها أنها غير موجودة .

ثم يذكر الحق سبحانه أمر الأقوام المكذِّبة لرسلها :

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ﴿٤﴾ ﴾

فقوم ثمود طلبوا ناقة للدلالة على صدق رسالة صالح عليه السلام ، وعندما حدثت المعجزة كفروا بها فعاقبهم الله شر العقاب .

وقد بيَّن لهم الحق طريق الهداية لكنهم اختاروا الضلال واستحبوا لأنفسهم الكفر على الإيمان ، وكذّبوا نبيَّ الله صالحاً وعقروا الناقة .

والحق سبحانه يقول: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى (١٧) ﴾ [فصلت]

فالحق سبحانه قصَّ علينا قصص الأنبياء حين أرسلهم إلى أقوامهم ، فمن كذّب بالرسل أخذه الله أخْذ عزيز مقتدر بواقع يشهده الجميع ، فذكر نوحاً مع قومه ، وذكر عاداً وأخاهم هوداً ، وذكر ثمود وأخاهم صالحاً ، ومدين وأخاهم شعيباً ، وقوم لوط وأخاهم لوطاً .

ومدائن صالح وآثارهم فى السعودية وقد حفروا بيوتهم فى صخور الجبال، ويقول الحق سبحانه عن حضارة ثمود : ﴿ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) ﴾ [الفجر]

وقد كان دأب الأمم السابقة التكذيب، وقد قال تعالى: ﴿ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١١) ﴾ [آل عمران]

فدأبهم التكذيب وجزاءُ الله لهم على ذلك هو العذاب والعقاب ، وإنْ كانوا قد كذَّبوا من قبلك رسلاً كثيرين فلا تحزن ، وأنت يا محمد لستَ بدعاً من الرسل .

﴿ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ (١) وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ (١٨٤) ﴾ [آل عمران]

---

(١) الزبُر : جمع زبُور بمعنى مكتوب . وزبر الكتاب : كتبه فهو مزبور أى مكتوب [القاموس القويم ١ /٢٨٣]

والحق سبحانه جمع بين قوم ثمود وقوم عاد : ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (١٥) ﴾ [فصلت]

وقوم عاد كذَّبوا رسولهم : ﴿ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (٥٣) ﴾ [هود]

فعاد وثمود كذَّبوا الرسل ، وكذَّبوا بالبينات التى جاءتهم بها رسلهم ، وهم أيضاً كذَّبوا بالقارعة المذكورة هنا فى الآية التى معنا : ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ (٤) ﴾ [الحاقة]

فما هى القارعة ؟ القارعة هى الشيء الذى يطرق بعنف على هادىء ساكن، ومنها نأخذ قَرْع الباب ، وهناك فَرْق بين (نقر الباب) و (قرع الباب) .

والقارعة تقرع القلوب والأسماع والجوارح بما يهز القلوب بالأهوال ، فالقارعة تقرع القلوب بشدة الخوف ، والقرع الضرب بشدة ، سُميت قارعة لأنها تقرعهم .

فالقارعة تفزع القلوب بالقرع ، وتفزع أعداء الله بالعذاب ، إنها تقرع القلوب وتغشاها وتفزعها .

فعاد وثمود كذَّبوا باليوم الآخر ، وأن هناك بعثاً وحشراً وجمعاً ليوم الجمع يوم التغابن .

والمتأمل هنا يجد فى القرآن عجباً ، فالسورة سورة الحاقة ، وهى تبدأ بـ ﴿ الْحَاقَّةُ (١) مَا الْحَاقَّةُ (٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ (٣) ﴾ [الحاقة] ولكن الحق سبحانه عندما ذكر تكذيب قوم هود وقوم عاد لم يقُلْ سبحانه أنهم كذَّبوا بالحاقة .

بل قال تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ (٤) ﴾ [الحاقة] فذكر اسماً آخر من

أسماء القيامة وهو القارعة ، فهى فوق أنها حاقة تحقُّ فيها الحقائق ويفصل الله فيها بين الخلائق ، فيحق للمؤمنين ثوابهم ويحق للكافرين عقابهم .

فوق أنها حاقة فهى أيضاً قارعة ، والقرع ضرب الشيء الصلب والنقر عليه بشيء مثله ، والقارعة تقرع القلوب بالهول والرعب ، وتقرع الكون .

فهى تقرع قلوب الناس بهجومها عليهم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ۝٥ ﴾

الحق سبحانه ذكر ما فعله قوْمَا ثمود وعاد مُجملاً ، فقال ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ (٤) ﴾ [الحاقة] ، هذه جريمة كل من القومين ، فالجريمة واحدة مشتركة بينهما .

أما العقوبة فمختلفتان ، وجاء الحق أولاً بالعقوبة الواقعة بقوم ثمود أنهم أُهلكوا (بالطاغية) ، وفى آية أخرى أنهم عُوقبوا وعُذِّبوا بالصيحة ، فقال تعالى :

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ (٤٠) ﴾ [العنكبوت]

وفى آية أخرى أن قوم ثمود عُذبوا بالرجفة[1] ، فقال تعالى : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٧٨) ﴾ [الأعراف]

الحق سبحانه استخدم ثلاثة أوصاف للعذاب الذى نزل بقوم هود الذين كذَّبوا أخاهم صالحاً وعقروا الناقة التى أرسلها إليهم الله : الطاغية ، الصيحة، الرجفة .

---

(١) قال الليث : الرجفة فى القرآن كل عذاب أخذ قوماً فهى رجفة وصيحة وصاعقة. وقال ابن الأنبارى : الرجفة معها تحريك الأرض . وقال ابن الأعرابى : رجف البلد إذا تزلزل [لسان العرب – مادة رجف]

هذا العذاب وهذه العقوبة جعل الواحد منهم إنْ كان واقفاً ظلَّ على وقوفه، وإنْ كان قاعداً ظلَّ على قعوده ، وإنْ كان نائماً ظلَّ على نومه . أو كما نقول: انسخطوا على هيئاتهم . فالجاثم هو مَنْ لزم مكانه فلم يبرح أو لصق بالأرض.

وفى آية أخرى سمَّى الله هذا العذاب (الصاعقة) ، قال تعالى : ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ (١٣) ﴾ [فصلت]

والمتأمل لهذه الألفاظ الأربعة : الطاغية ، الصيحة ، الرجفة ، الصاعقة ، كلها تؤدى معنى الحدث الذى يَدْهَم ولا يمكن الفكاك منه ، حتى أنهم أُلقوا على رُكبهم وعلى جباههم بلا حركة .

وقد وصف الحق سبحانه هيئتهم بعد إرسال الصيحة التى رجفتهم ، فقال تعالى : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ (٣١) ﴾ [القمر]

فأصبحوا كرماد يحترق ، فالهشيم حطام الشجر ، فكانوا كالهشيم الذى يجمعه صاحب الحظيرة ليمنع ما يدخل إلى غنمه أو غيره ، فما يبس وسقط وتفتت وداسته الأغنام أصبح هشيماً .

والطاغية التى تجاوزت الحد ، ويُقال لمن تجاوز الحدَّ طاغية بتاء التأنيث الدالة على المبالغة ، فالصيحة التى كانت هى عذاب قوم ثمود تجاوزتْ الحدود التى قد يتحملها الإنسان .

﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ٦ ﴾

فمادة الصاد والراء تدل على الشدة والضجة والصخب ، فالريح الصرصر هى التى تحمل الصقيع ولها صوتٌ مسموع .

ومثل هذا قوله تعالى : ﴿ كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ (١١٧) ﴾ [آل عمران] أى أن الريح جعلت البرد شائعاً وشديداً ، فالبرد قد يكون فى منطقة لا ريحَ فيها ويظلُّ باقياً فى منطقته تلك .

وعندما تأتى الريح فإنها تنقل هذا البرد من مكان إلى مكان آخر ، فتتسع دائرة الضرر به ، وهذه الريح تفعل الكوارث .

فالريح الصَّرْصر هى ريحٌ فيها صوتٌ شديد مصحوب ببرد ، فالصّر فيه الشدة والبرودة والعنف ، ونعرف فى قرانا أن الصقيع ينزل على بعض المزروعات فيتلفها .

فالريح الصرصر ريح عقيم ضارة .

لقد تكبَّر قومُ عاد على سيدنا هود عليه السلام والذين آمنوا معه وظنوا أنهم أقوى الأقوياء وأنكروا آيات الله ، فماذا كان مصيرهم ؟

فاجأهم الحق سبحانه بإرسال ريح ذات صوت شديد فى أيام كلها شؤمٌ ليذيقهم عذابَ الهون والخزى والذل .

وها هو الحق سبحانه يقول عن قوم عاد : ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (١٥) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ (١٦) ﴾ [فصلت]

فهى أيام نحسات ، والنحس الشؤم ، وحينما يأتى اليوم بشىء من الشر يتشاءمون منه ، فهى ريح صرصر باردة شداد ، ليس فيها من الخير شىء .

لذلك قال تعالى عنها :

﴿ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا (١) فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (٧) ﴾

هذه الريح المدمرة قال عنها الحق سبحانه : ﴿ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا (٢٥) ﴾ [الأحقاف]

فكلمة (ريح) تعبر عن القوة المدمرة للهواء ، فالريح إذا اتحدت قوتها واتجاهها أصبحت مدمرة ، ولكن إنْ قابلتها ريحٌ ثانية فالتوازن يحدث بين القوتين .

ولذلك حين يستخدم الحق سبحانه كلمة الريح لا يتكلم عنها إلا للتخريب والتدمير ، أما إنْ تكلم عنها للخير فسبحانه يأتى بكلمة (رياح) ، فتعدُّد اتجاهات الرياح هو الذى يوجد التوازن فى الحياة .

فإذا أراد الله أنْ يهلك بالريح جاء بها من جهة واحدة فتصير قوة الريح من ناحية لا تعادلها قوة أخرى للريح من الجهة المقابلة لتتعادل القوتان .

فإذا كانت هذه الريحُ ريحاً صرصراً عاتية ، ريحاً مدمرة لا تُبقى ولا تذر ، فما بالكم أنَّ الله : ﴿ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ (٧) ﴾ [الحاقة] ، أى أن الله سلَّطها عليهم ، فهى مُسلَّطة عليهم ومُذلَّلة لتدميرهم .

﴿ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا (٧) ﴾ [الحاقة] متتالية متتابعة لا تفتر ولا تضعف ولا تتوقف ، ثمانية أيام بلياليها السبعة أيام نحسات دائمات .

---

(١) الأيام الحسوم الدائمة فى الشر خاصة. وقال الفراء : الحسوم التّباع إذا تتابع الشىء فلم ينقطع أوله عن آخره. وقال الجوهرى : الليالى الحسوم لأنها تحسم الخير عن أهلها (أى تمنعه وتقطعه) [لسان العرب – مادة حسم] .

والحق سبحانه استخدم لفظة ﴿ حُسُومًا (٧) ﴾ [الحاقة] أى أنها لم تُبْقِ منهم أحداً ، مثلما نقول : حسمتُ الأمر ، أى أنهيتُه على التمام .

وقد قال رسول الله ﷺ : «ما فتح الله على عاد من الريح التى أُهلكوا فيها إلا مثل موضع الخاتم ، فمرت بأهل البادية فحملتهم ومواشيهم وأموالهم فجعلتهم بين السماء والأرض ، فلما رأى ذلك أهلُ الحاضرة الريح وما فيها . قالوا : هذا عارض ممطرنا . فألقت أهل البادية ومواشيهم على أهل الحاضرة»[١].

فسمَّى الحق سبحانه الريح التى سلَّطها على قوم عاد حسوماً لأنها قتلتهم وأفنتهم ، فالحسم هو القطع ، حتى أنه يُروى أن عجوزاً من قوم عاد دخلتْ سرباً لتفلت من الريح فتبعتها الريح فقتلتها فى اليوم الثامن من نزول العذاب وانقطع العذاب[٢] .

ولتتابع الأيام الثمانية واتصال العذاب دون انقطاع عبَّر عنه الحق سبحانه فى سورة أخرى بقوله : ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (١٨) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ (١٩) ﴾ [القمر]

فكأن الأيام الثمانية بلياليها السبع كانت يوماً واحداً وذلك لاتصال العذاب لذلك قال تعالى :﴿ فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ (١٩) ﴾ [القمر] فهو يوم شؤم ودمار استمرَّ عليهم مدةً قدَّرها الله حتى أهلكهم عن آخرهم .

وقد كان فِعْل هذه الريح فيهم شديداً كل الشدة ، وقد كان من شدتها

---

(١) أخرجه ابن أبى حاتم فى تفسيره (١٨٩٦٠) عن ابن عمر وكذا ابن كثير فى تفسيره (٨/ ٢٠٩)

(٢) قال البغوى فى تفسيره (٥/ ١٤٤) : الأيام الحسوم التى تسميها العرب أيام العجوز ذات برد ورياح شديدة. قيل : سميت عجوزاً لأنها فى عجز الشتاء. وقيل : سميت بذلك لأن عجوزاً من قوم عاد دخلت سرباً فتبعتها الريح فقتلتها اليوم الثامن من نزول العذاب وانقطع العذاب .

﴿ تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ (٢٠) ﴾ [القمر] فكانت هذه الريح الشديدة تنزعهم من أماكنهم وتقتلعهم وترمى بهم وتطيح بمتاعهم .

فكانت الريح تقتلعهم من أصولهم وتأخذهم من بيوتهم وترمى بهم كما تُقتلع النخلة من جذرها .

﴿ فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (٧) ﴾ [الحاقة]

لفظة ﴿ فَتَرَى (٧) ﴾ [الحاقة] فيها من إعجاز القرآن ما فيها ، وكأنها تضع السامع لها أو القارىء لها فى موقف المشاهد لما نزل بهؤلاء القوم من العذاب وكأنه يطلع عليهم اطلاعَ المراقب المشاهد .

والحق سبحانه يخاطب نبيه ﷺ (فترى) ولكنه يخاطب كل مَنْ يقرأ القرآن، ومثل هذه الآية قوله تعالى : ﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَـٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَـٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا (٤٩) ﴾ [الكهف]

فترى القوم موتى قتلى مطروحين ، كأنهم أعجاز نخل ساقطة فكأنهم أصول نخل منقطعة عن أماكنها ومطروحة بالأرض، لذلك قال تعالى : ﴿ صَرْعَى (٧) ﴾ [الحاقة]

فترى قوم عاد فى تلك السبع الليالى والثمانية الأيام المتتابعة صرعى هالكين ، كأنهم أصول نخل متآكلة الأجواف لم يبق منهم ولا من نسلهم أحد.

﴿ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾ ﴾

مازال خطاب الله سبحانه موجهاً لرسول الله ﷺ ، أطلع الحق سبحانه

رسوله على مشهد هذه العاصفة المدمرة وما فعلتْه بقوم عاد فجعلتهم قتلى صَرْعى كأعجاز النخل المقطوعة من أصولها الملقاة كيفما كانت .

وها أنت مطلع يا محمد على هذا المنظر الكئيب ﴿ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ (٨) ﴾ [الحاقة]، فهل شاهدتَ أحداً منهم على قيد الحياة ، لقد استأصلتهم ريح الدَّبُور [١] وأتت عليهم أجمعين .

ويقول الحق سبحانه عن عقاب وعذاب الأمم السابقة : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا (٩٨) ﴾ [مريم]

والركز : الصوت الخفى الذى لا تكاد تسمعه . وحين تسمع هذا السؤال : ﴿ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا (٩٨) ﴾ [مريم] لا يسعك إلا أنْ تجيب : لا أحسّ منهم من أحد ولا أسمع لهم ركزاً .

فهل ترى يا محمد لعاد قوم هود من بقاء ، فهل ترى لهم من نفس باقية ؟ فلم يبق منهم أحدٌ ولم يبق منهم أثرٌ . ولم يبق من نسل أولئك أحدٌ .

﴿ فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ (٢٥) ﴾ [الأحقاف] ، ولم يفلت من العذاب إلا من آمن مصداقاً لقوله الحق : ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ [٢] الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ (٧٢) ﴾ [الأعراف]

وقد قال رسول الله : « نُصرت بالصَّبا [٣] وأُهلكت عاد بالدبور» [٤] .

---

(١) الدبور : ريح تهب من جهة المغرب متجهة نحو المشرق . أى أنها ريح غربية شرقية تأتى من خلفك وأنت متجه نحو القبلة لذلك سميت دبوراً .

(٢) دابر الشيء : آخره . وقال الأصمعى : الدابر الأصل أى أذهب الله أصله . ودابر القوم : جميعهم حتى لايبقى منهم أحد [لسان العرب – مادة دبر]

(٣) الصبا : ريح لطيفة تهب من المشرق

(٤) أخرجه أحمد فى مسنده (١٩٥٥) (٢٠١٣) من حديث ابن عباس ، وكذا عبد بن حميد فى مسنده (٦٣٧) والبزار فى مسنده (٤٨٩٤)

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾ ﴾

فالحق سبحانه بدأ ذكر الأقوام الهالكة بذكر قوم ثمود وقوم عاد ، وكلهم هلكوا فى الأزمان البعيدة المتباعدة ولم يبق من نسل ثمود وعاد أحد رغم أنهم كانوا أشدَّ قوة ومنعة .

ففرعون جاء بالخاطئة وكذلك من قبله من الأمم جاءوا أيضاً بالخاطئة ، وجاءت المؤتفكات بالخاطئة .

والمؤتفكات أى قرى قوم لوط ، ومعنى المؤتفك أى المنقلب . وقد جعل الله عاليها سافلها ، ويقول الحق سبحانه : ﴿ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى (٥٣) فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى (٥٤) ﴾ [النجم]

أى كانت عالية فأنزلها للهاوية ، والإفك هو الصرف عن الحقيقة ، كما قالوا لإبراهيم عليه السلام : ﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٢) ﴾ [الأحقاف] أى لتصرفنا عنهم .

والمؤتفكة هى القرى التى كُفئت أعلاها إلى أسفلها ، والمؤتفكة من الإفك وهو الكذب المتعمَّد ، فالمؤتفكة أى القرى التى جُعِل عاليها سافلها فانقلبتْ فيها الأوضاع .

يقول الحق سبحانه : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ[1] مَنْضُودٍ (٨٢) ﴾ [هود]

---

(١) السجيل : الطين المتحجر والمنضود : المتتابع المنتظم السقوط عليهم . وكلمة سجيل كلمة فارسية تم تعريبها ودخولها فى لغة العرب تتكون من مقطعين (سنك) وهو الحجر و (جل) وهو الطين. أى الطين المتحجر .

فقرى قوم لوط خمس : سدوم ، دادوما ، ضعوه ، عامورا ، قتم . فانقلبتْ انقلاباً تاماً .

فقوم فرعون مصر ومَنْ جاء قبله ، وقرى قوم لوط المؤتفكات جاءوا بالخاطئة ، فما هى الخاطئة التى جاءوا بها ؟

أى جاءت هذه الأقوام بالخطأ العظيم أى بالذنب العظيم . وهو الشرك والأفعال الخاطئة ، كفعل ثمود بعقر ناقة صالح ، وككفر عاد بهود وككفر فرعون وقومه وادعائه الألوهية ، أو ما فعله قوم لوط من الأفعال الخبيثة التى لم يأتِ بها أحدٌ من العالمين من قبل .

﴿ فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾ ﴾

فعصى هؤلاء الأقوام رسل الله وأنبياءه الذين أرسلهم إليهم ، فعصى كلُّ قوم رسولهم الذى أُرسل إليهم ، فعصى قوم فرعون رسولهم موسى عليه السلام ، وعصت ثمود رسولها صالحاً عليه السلام ، وعصى قوم لوط لوطاً .

وقد يسأل سائل : ولماذا لم يقل الله فعصوا رسل ربهم . بجمع (رسول) ؟

أفرد الحق سبحانه كلمة رسول للأقوام كلها ، فالرسل جميعاً مرسلون من إله واحد هو الله ، وهم جميعاً مرسلون برسالة واحدة هى الإيمان بالله وحده إيمان ربوبية وإيمان ألوهية وأنْ لا يعبدوا إلا الله .

قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (٣٦) ﴾ [النحل]

فكلمة (رسول) هنا اسم جنس يعبر عن كل الرسل الذين أرسلهم الله .

ويحتمل تأويل الآية أنهم عصوا رسالة ربهم .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً (١٠) ﴾ [الحاقة] فكانت أخذتُهم أخذة شديدة زادت على معاصيهم التى عملوها ، وزادت على كل العذابات التى نزلتْ بالأمم السابقة ، لذلك كانت هذه الأخْذةُ رابيةً من كلِّ الأوجه .

فالحق سبحانه أخذهم أخذة رابية متزايدة متنامية متصاعدة ، وسُميت الأخذة رابية كأنها ربت وزادت بنفسها ، فاستخدم سبحانه اسم الفاعل من ربا.

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ ﴾

الطغيان مجاوزة الحد ، فالله تعالى جعل لكلِّ شىء فى الوجود حداً مرسوماً لا ينقص ولا يزيد ، فإنِ اتبعتَ هذا الحد الذى رسمه الله لك استقمتْ واستقامتْ حركة حياتك بلا منازع .

ولو طغا الشىءُ أفسد حركةَ الحياة حتى لو كان الماء الذى جعل الله منه كل شىء حى ، لو طغى الماء يُغرق ويُدمر بعد أنْ كان سرَّ الحياة حال اعتداله .

لذلك قال تعالى : ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ (١١) ﴾ [الحاقة]

فطغيانُ الماء تمرُّده على تسخيره للإنسان ، فالماء لا يخدمنا إلا بأمر الله له ، فالمخلوقات لا تخدمك بذاتك ، وإلا فاقدر عليها حينما تتمرد على خدمتك.

فإذا تمرد الماءُ بالطوفان ، وتمردت الرياح بالعاصفة ، وتمردت الأرضُ بالزلازل والبراكين ، فما ذلك إلا ليعرف الإنسان أنه ليس بقدرته أنْ يسيطر

على الكون الذى يعيش فيه .

وطغيان الماء يُعبَّر عنه فى القرآن بكلمة (الطوفان) ، فالطوفان يُراد به طغيان الماء ، والماء هو سبب الحياة ، وقد يجعله الله سبباً للدمار ، فالمسائل ليست بذاتيتها بل بتوجيهات القادر عليها .

فالحق سبحانه يعذِّب بالماء كما يعذب بالنار ، مع أنهما ضدان لا يلتقيان، فلا يقدر على هذه المسألة إلا خالقهما سبحانه وتعالى .

وقصة غرق قوم نوح وأهل سبأ بعد انهيار سد مأرب أحدثا عقدة عند أهل الجزيرة العربية ، فصاروا حين يرون الماء يخافون منه ويبتعدون عنه ، حتى إذا احتاجوا لماء يذهبون إلى مكان بعيد يملأون قِرَبهم ، ذلك لعلمهم بخطر الطوفان وأنه لا يُصد ولا يرده عنهم شيء .

والطوفان أنْ يزيد الماءُ عن الحاجة الرتيبة للناس ، فبعد أنْ كان وسيلة حياة ومنه كل شيء حتى يصبح وسيلة موت وهلاك .

لذلك يمتنُّ الله على الناس جميعاً بقوله : ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ (١١) ﴾ [الحاقة]

فالماء تجاوز الحد الذى يزيل الشَّرَق والعطش إلى حدٍّ أنه يغرق فتجاوز الحدَّ الذى ينتفع به إلى العطب والهلاك .

والحق سبحانه يقول فى قصة نوح عليه السلام وطغيان الماء وطوفانه : ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ(١) قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ (٤٠) ﴾ [هود]

---

(١) التنور : نوع من الكوانين قال الجوهرى : التنور الذى يخبز فيه . والتنور أيضاً وجه الأرض . وهو فارسى معرّب [لسان العرب – مادة تنر] والتنور مكان تفجُّر الماء والمقصود أن الأرض تتفجر بماء كثير يشبه فوران النار فى التنور ، وكل ذلك يدل على كثرة الماء وقوة اندفاعه

ومعنى ﴿ احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ (٤٠) ﴾ [هود] أى أن يحمل من كل الكائنات، فاحمل فى السفينة من كل شىء تطلبه حياة الناجين من جميع أصناف النباتات والحيوانات .

فالحق سبحانه شاء أنْ يستبقى الحياة بنجاة كل ما تحتاجه الحياة بالسفينة .

و (الجارية) هنا المقصود بها السفينة جمعها جَوارٍ ، قال تعالى : ﴿ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ (٢٣) ﴾ [الرحمن] فالجوارى أى التى تجرى فى البحر وتمخر عُباب البحر وأمواجه .

وهى بوارج وسفن كبيرة متعددة الأدوار ، وكذلك كانت سفينة نوح التى حمل فيها من كل الكائنات ذكراً وأنثى ، لتستمر الحياة .

وقهد جعل الله الفُلْك والسفن آية من آيات الله ، فقال تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ(١٦٤) ﴾ [البقرة] فالفُلْك هى السفن ، وهى تجرى فى البحر ، ولكن كيف يكون جريانُ الفلك فى الماء آية ؟

الإنسان يدرك أن الماء لو لم يكن على هذه السيولة لما استطاعتْ المراكب أو الفُلْك الإبحار فوقه ، بل لا بد أنْ يكون الماء سائلاً حتى تستطيع أنْ تجرى فوقها الفلك ، وقبل اختراع آلات البخار كانت هذه الفُلْك تجرى فى البحر بقوة الرياح ؟ لماذا ؟

لذلك قال تعالى : ﴿ إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ (٣٣) ﴾ [الشورى] أى تبقى السفن راكدة واقفة لا تستطيع الحركة ، وهذا قبل اختراع آلة البخار وتسيير السفن بها .

فالله حين يشاء يعطل القوة المحركة لأى شىء فهو سبحانه يفعل ، فالسفن تحتاج للريح لتتحرك وتجرى هذا إذا لم تكن تجرى فى النهر ، ففى النهر الماء يجرى من أعلى إلى أسفل نحو المصبّ ، أما إذا أردنا سير السفن من أسفل إلى أعلى فنحن نحتاج إلى الريح .

فالفُلْك سخَّره الله ليقضى بها الناسُ مصالحهم ومنافعهم ولينتقلوا ، قال تعالى : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ (٣٢) ﴾ [إبراهيم]

ولقائل أنْ يقول : لم نعُد فى حاجة إلى الريح تُسيِّر السفن أو تُوجهها ، لأنها أصبحت تسير الآن بآلات ومحركات ، نعم السفن الآن تسير بالمحركات لكن للريح معنى أوسع من ذلك ، فالريح ليست هذه القوة الذاتية التى تدفع السفن على صفحة الماء ، إنما الريح تعنى القوة فى ذاتها ، أياً كانت ريحاً أم بخاراً أم كهرباء أم ذرَّة .. الخ .

والضمير فى قوله : ﴿ حَمَلْنَاكُمْ (١١) ﴾ [الحاقة] يعود فى بعض تأويلات الآية إلى الآباء الذين حملهم نوح عليه السلام فى السفينة ، فحملنا الآباء وأنتم فى أصلابهم فى السفينة .

والحق سبحانه يخاطب الذين نزل فيهم القرآن ، وإنما حمل أجدادهم نوحاً وولده ، فالذين خُوطبوا بذلك ولد الذين حُملوا فى الجارية ، فكان حمْلُ الذين حُملوا فيها من الأجداد حملاً لذريتهم .

وكان حمل آبائهم منَّةً عليهم وكأنهم هم المحمولون ، لأن نجاتهم سبب ولادتهم .

فمعنى ﴿ حَمَلْنَاكُمْ (١١) ﴾ [الحاقة] حملنا آباءكم لأن كلّ مَنْ على الأرض من ذرية نوح وأولاده الثلاثة الذين كانوا معه فى السفينة ، وإنْ أراد جنس

السفن فالخطاب على حقيقته .

والمتأمل فى معنى كلمة (الجارية) يجد أن سفينة نوح كانت تسمى الفلك أثناء صناعتها ، قال تعالى : ﴿ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا (٣٧) ﴾ [هود] ثم بعد ما عملها سمَّاها سفينة ، فقال : ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ (١٥) ﴾ [العنكبوت]

أما بعدما أصبحت جاهزة للجريان فى البحر أسماها (الجارية) ، ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ (١١) ﴾ [الحاقة]

﴿ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴿١٢﴾ ﴾

فأبقينا سفينة نوح لنجعلها تذكرةً وعبرة وآية وموعظة لكم تتعظون بها : ﴿ إِنَّ هَـٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا (٢٩) ﴾ [الإنسان]

و ﴿ تَذْكِرَةً (١٢) ﴾ [الحاقة] أى تذكيراً لكم أى لنجعل هلاكَ قوم نوح لكم عبرة لتعتبروا بها . فتذكروا هذه القصة فتكون لكم ولمن سمعها عبرة وعظة .

ولا يكفى أنْ تكون تذكرة فقط وموعظة وعبرة ، بل أيضاً : ﴿ وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ (١٢) ﴾ [الحاقة]

فالأذن الواعية حافظة لما سمعت فانتفعت بما سمعت من الموعظة ، حتى أن قتادة بن النعمان قال فى تأويل الآية : «أذنٌ سمعت وعقلتْ وأوعتْ»[1] .

فصاحب الأذن الواعية يحذر معاصى الله أنْ يعذِّبه الله عليها كما عذّب مَنْ كان قبله فتسمع أذنه وتعى ما تسمعه ويعى قلبه ما سمعتْه أذنه فيعمل بمقتضاه ، فيكون هذا هو سفينة نجاته .

---

(١) أخرجه عبد الرزاق فى تفسيره (٣٣٠٦) من قول قتادة بن النعمان وكذا الطبرى فى تفسيره جامع البيان (٢٣ / ٥٧٩)

فتحفظها كل أذن لتكون عظة لمن يأتى بعد ، والهاء فى ﴿ وَتَعِيَهَا (١٢) ﴾ [الحاقة] راجعة على التذكرة وجعل للأذن وعياً ، والمعروف أن الوعى للقلب وللأذن السمع ، ولكنه استعار الوعى للأذن إما لشدة استماع الأذن ، وإما لأداء الأذن ما تسمع إلى القلب فيعيه القلب .

والوعى أنْ تحفظ الشىء فى نفسك ، كأنْ تحفظ الشىء فى عقلك أو فى قلبك ، فلا تضيع ما سمعته أذنك بترك العمل به ، فا لأذن الواعية هى التى عقلت عن الله تعالى ، وانتفعتْ بما سمعت من كتاب الله .

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ (١٣) ﴾

تعود بنا الآيات إلى بدايات السورة فى حديثها عن القيامة وأهوالها : ﴿ الْحَاقَّةُ (١) مَا الْحَاقَّةُ (٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ (٣) ﴾ [الحاقة]

ثم حدثتنا الآيات عن جزاء وعقوبة الأقوام التى كذبت بالقارعة وقد نزل بهم العذاب الدنيوى ، ولكن لا مفر لهم من العذاب فى الآخرة ، وقد كانوا يكذبون به، ولكن سيفاجأون به قد واجههم ويجدون أنفسهم أمام الحقيقة واضحةً جلية، ولأنها مفاجأة لهم ، رغم أن الله أنذرهم وأرسل الله إليهم الرسل تنذرهم هذا اليوم قال :

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ (١٣) ﴾ [الحاقة]

﴿ فَإِذَا (١٣) ﴾ [الحاقة] تعبر عن الفجائية . والنفخ فى الصُّور يفيد الإيذان بمقدم أمر ما ، فبعد النفخة الأولى يموت مَنْ كان حياً ، وبعد النفخة الثانية يصحو الموتى ويقومون .

والنفخ فى الصُّور النفخة الثانية دعوةٌ للكائنات جميعاً للخروج من

قبورهم، يقول تعالى : ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا (٥٢) ﴾ [الإسراء]

فقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ(٥٢) ﴾ [الإسراء] أى يقول لكم اخرجوا من القبور للبعث بالنفخة الثانية فى الصُّور .

﴿ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ (٥٢) ﴾ [الإسراء] أى تقومون فى طاعة واستكانة ، لا قوْمةَ مستنكفٍ أو متقاعس أو متغطرس ، فكلُّ هذا انتهى وقته فى الدنيا ونحن الآن فى الآخرة.

وهذه هى النفخة الثانية ، لأن الأولى نفخة الصعق ، ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ (٦٨) ﴾ [الزمر]

فالنفخة الأولى نفخة الصَّعْق ، والثانية نفخة البعث والقيامة ، والصُّور هو البوق الذى يُنفخ فيه النفخة الأولى والثانية ، والنافخ فيه هو إسرافيل .

وقد حدَّث رسول الله ﷺ أصحابه قال : « إن الله لما خلق السماوات والأرض خلق الصُّور فأعطاه إسرافيل فهو واضعه على فيه ، شاخص بصره إلى العرش ينتظر متى يؤمر . قال أبو هريرة : فقلت : يا رسول الله وما الصُّور ؟ قال : القرن. قلت : وكيف هو ؟ قال : عظيم والذى نفسى بيده إن عظم دارة فيه كعرض السماوات والأرض ، يأمر الله إسرافيلَ أنْ ينفخ ثلاث نفخات . الأولى نفخة الفزع ، والثانية نفخة الصعق . والثالثة نفخة القيام لرب العالمين »[1] .

---

(١) أخرجه إسحاق بن راهويه فى مسنده (١٠) ، وأخرجه محمد بن نصر فى كتاب (قدر الصلاة) (٢٧٣) ، وأبو الشيخ الأصبهانى فى كتاب (العظمة) (٣٨٦) والبيهقى فى البعث والنشور (٦٠٩) عن أبى هريرة.

فحين فُوجئوا بالنفخ فى الصور وداهمتهم القيامة التى كانوا يكذبون بها بُهتوا ودُهشوا وخرستْ ألسنتهم عن الكلام من شدة دهشتهم ، وكيف وما كانوا ينكرونه ماثل أمامهم فجأة .

﴿ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ ﴾

فتُحمل الأرض وما عليها ومَنْ عليها ، فتُحمل الأرض بمائها وشجرها وكل ما عليها ، وتُحمل الجبال من أماكنها فتضرب على الأرض ، فدُكتا معاً دكة واحدة .

فكُسِّرت الأرض والجبال كسْرةً واحدة فاستوتْ بما عليها . وفى آية أخرى قال : ﴿ كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا (٢١) ﴾ [الفجر]

وقد أعطانا الله مثالاً فى الدنيا لهذا الدكِّ ، وذلك قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا (١٤٣) ﴾ [الأعراف]

فالحق سبحانه يُذكِّرنا بدكِّ الجبل عندما طلب موسى عليه السلام رؤية الله عز وجل ، فتجلى اللهُ للجبل فجعله دكاً ، فهبط الجبل وانهار من خشية الله .

فعندما تجلَّى الله للجبل المتماسك الصلب صار الجبل دكاً أى مفتتاً ، فصار تراباً وظهر وجه الأرض ، فالأرض والجبال قُلعا قلْعاً وضُربا فانهارت الجبال وتفتت على الأرض ، وصارت هباء مُنبثاً .

والجبل المفروض فيه الصلابة والقوة والثبات والتماسك، ولكنه اندكّ وانهار، والدكُّ هو الضغط على شىء من أعلى ليسوَّى بشىء أسفل منه .

وقد بنى ذو القرنين سداً من الحديد والنحاس : ﴿ آتُونِي زُبَرَ[1] الْحَدِيدِ

---

(١) زبر الحديد : قطع الحديد . فالزبرة : القطعة من الحديد الضخمة [المعجم الوسيط ١ / ٣٨٨]

حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ(١) قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا (٩٦) ﴾ [الكهف]

فهو سدٌّ صَلْب عالٍ أملس من حديد مسبوك ملتهب مع نحاس مذاب ، هذا السد الذى وصفه ذو القرنين فقال : ﴿ هَـٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي (٩٨) ﴾ [الكهف]

هذا السد قال عنه الحق سبحانه : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا (٩٨) ﴾ [الكهف]

فإياكم أنْ تظنوا أن صلابة هذا السد ومتانته باقية خالدة ، إنما هذا عملٌ للدنيا فحسب ، فإذا أتى وعد الله بالآخرة والقيامة جعله الله دكاً وسوَّاه بالأرض ، ذلك لكى لا يغتروا به ولا يتمردوا على غيرهم بعد أنْ كانوا مُستذلين مستضعفين ليأجوج ومأجوج .

فليست الجبال التى من الصخور والحجارة هى فقط التى ستندك بل أيضاً السدود المصنوعة من الفولاذ والصلب ستندك دكاً كأنها مصنوعةٌ من الورق.

ومعنى ﴿ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً (١٤) ﴾ [الحاقة] أى صارتا شيئاً واحداً .

ولا يهم فى هذا كيف تدك الأرض وكيف تدك الجبال ، فالدكُّ سيحدث وإنْ كذبتم به ، فسواءٌ كان سبب الدك زلزال يوم القيامة العظيم ، أو ريح تبلغ من قوة عَصْفها أنها تحمل الأرض والجبال ، أو أن هذا يحدث بواسطة ملك من الملائكة فلا فرق ، فكلها أسبابٌ تحدث بأمر الله وكلها جندٌ من جند الله .

وقد يسأل سائلٌ : هل الجبال ستندك أم ستُنسف ، أم ستصير كالصوف

---

(١) الصدفين : رؤوس الجبلين قاله مجاهد بن جبر فى تفسيره (١ / ٤٥١) والصدفان الجبلان وبينهما وادٍ عظيم ، قاله مقاتل بن سليمان فى تفسيره (٢ / ٦٠١)

وذكر الطبرى فى تفسيره (١٨ / ١٠٨) أن ذا القرنين قاس ما بينهما وهو فى منقطع أرض الترك مما يلى مشرق الشمس ، فوجد بُعد ما بينهما مائة فرسخ ، فلما أنشأ فى عمله حفر له أساساً حتى بلغ الماء ثم جعل عرضه خمسين فرسخاً وجعل حشوه الصخور وطينه النحاس يذاب ثم يصب عليه فصار كأنه عرق من جبل تحت الأرض ثم علاه وشرفه بزبر الحديد والنحاس المذاب .

المنفوش ؟ أم ستصير كالهباء ؟ أم ستصير سراباً ؟

وكل هذه حالات للجبال أولها أنْ تندك ، ثم تصير كالعهن المنفوش أى الصوف المنفوش : ﴿ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ (٤) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ (٥) ﴾ [القارعة]

فبعد اندكاكها صارت على الأرض كالصوف المنفوش فى كل جهة ، ثم تصير كالهباء وذلك أن تنقطع وتتبدد بفعل الرياح وهو قوله : ﴿ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا (٤) وَبُسَّتِ[1] الْجِبَالُ بَسًّا (٥) فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا (٦) ﴾ [الواقعة]

ثم تُنسف الجبال أى تأخذها الريح فى كل اتجاه بعد أنْ أصبحت مبسوسة منبثة فتُؤخذ عن وجه الأرض .

إذن فالدكّ أولاً من أعلى إلى أسفل ثم صيرورته كالصوف المنفوش أو المندوف ، ثم يصير هباء منثوراً على الأرض ، ثم تنسفه الريح .

﴿ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (١٥) وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ (١٦) ﴾

يوم يحدث هذا تكون قد وقعتْ الواقعة ، وكلمة (وقعت) تدل على أن شيئاً سقط من أعلى لا يستطيع أحد منعه .

ومادة كلمة (وقعت) تأتى فى المسائل الهامة العظيمة الحاسمة ، مثل قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ (٨٢) ﴾ [النمل]

والوقوع هنا هو سقوط ولكنه ليس كالسقوط الذى نعرفه بل هو الذهاب إلى الله ، والواقع هنا يدلّ على أنهم سيتعرضون لشدائد ومتاعب .

---

(١) بُسَّت الجبال : فُتِّتت وقيل : سُيِّرت [البحرالمحيط فى التفسير ١٠ / ٧٤]

وبتتبع مادة (وقع) فى القرآن نجد أنها جاءت كلها فى الشدائد إلاّ فى موضع واحد هو قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ (١٠٠) ﴾ [النساء]

أى أن أجره وثوابه قد ألزم الحق سبحانه ذاته العلية به لذلك قال : ﴿ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ (١٠٠) ﴾ [النساء]

فكلمة (وقعت) تعنى أمراً واقعاً لا مردَّ له ، والواقعة اسم من أسماء القيامة، ولها أسماء عدة لكل منها معنى وكل اسم يعطينا لقطة من هذا اليوم الخطير الفزع ، تأمل فهى : الطامة والحاقة والقارعة والصاخّة والواقعة ، لكل منها ملحظ ، وهى جامعة لكلِّ هذه المعانى من زوايا مختلفة فى الوقت الواحد .

هذه الواقعة واقعة لا محالة : ﴿ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ (٢) ﴾ [الواقعة] أى ساعة أنْ تقع ليس لأحد أنْ يُكذب بها .

وإذا كان الحق سبحانه قد ذكر ما سيحدث فى هذا اليوم العظيم على الأرض: ﴿وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً (١٤) ﴾ [الحاقة] فالحق سبحانه يذكر هنا ما سيحدث للسماء فى هذا اليوم .

﴿وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ (١٦) ﴾ [الحاقة]

ومَنْ يتأمل يجد أنَّ آية : ﴿ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (١٥) ﴾ [الحاقة] بين ما سيحدث فى الأرض والجبال وبين ما سيحدث للسماء ، وكأنَّ الحق سبحانه يضع الإنسان بين هذا وذاك .

فها هى الأرض التى تعرفها وتعيش عليها تندك ، وها هى الجبال تنسحق.

ولا تظن أن هناك ملجئاً لك ، فحتى السماء التى تعلوك ستنشق وستصبح

كسفاً، هل هناك هوْلٌ أكثر من هذا ؟

﴿ وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ (١٦) ﴾ [الحاقة] وانشقاق السماء ليس من ذاتها ، إنما هو امتثالٌ لأمر الله لها ، قال تعالى : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ (١) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٢) ﴾ [الانشقاق]

فالسماء فوْر سماعها من الله أمره بأنْ تنشق تستجيب على الفور وتطيع أمره بالانشقاق وذلك يوم القيامة ، فهى بمجرد السمع نفذت أمر الحق سبحانه وتأتى لحظة الحساب .

فإذا انشقتْ السماء كُوِّرت الشمس وانكدرتْ النجوم ، فالسماء لم تسمع الأمر فقط بل نفذته فور صدوره دون أدنى ذرة من تخلُّف ، فأمر الله يُنفذ فور صدوره من الحق سبحانه .

﴿ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ (١٦) ﴾ [الحاقة]

فيومئذ تكون السماءُ منشقةً مُتصدِّعة متمزقة ضعيفة ، فكلُّ ما ضعف جداً فقد وَهَى فهو واهٍ ، ووهْيُها تشقُّقها ، فأصبحتْ غير متماسكة بعد أنْ كانت محكمة شديدة قد أحكم اللهُ بناءها .

حتى أن الحق سبحانه قال عن السماء : ﴿ أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا (٢٧) رَفَعَ سَمْكَهَا[1] فَسَوَّاهَا (٢٨) ﴾ [النازعات]

وكذلك قال فى خَلْق السماء : ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ (٤٧) ﴾ [الذاريات] أى بقوة. وفى آية أخرى قال سبحانه : ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ (٧) ﴾ [الذاريات] يعنى محبوكة ومحكمة .

---

(١) رفع سمكها أى رفع بنيانها. قال الفراء : كل شىء حمل شيئاً من البناء وغيره فهو سمك وبناء وسموك. [تفسير الثعلبى ١٠ / ١٢٧] وقال الواحدى فى تفسيره (٤ / ٤٢٠) : رفع سقفها وما ارتفع منها .

والحبكة معناها أنَّ ذراتها التى لا تُدرك ملتحمة مع بعضها ، ليس التحاماً كلياً إنما التحام ذرات ، لذلك ترى السماء ملساء . قوية محكمة .

ولكن هذا البناء المحكم سيصبح يوم القيامة واهياً ضعيفاً متشققاً .

لقد تشققت السماء وتصدَّعت صدوعاً ، وأصبحت أنحاء وجوانب وأرجاء ، لذلك قال تعالى :

﴿ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾ ﴾

فالملائكة على نواحى السماء وأطرافها وحافاتها ، فالأرجاء حافات السماء ونواحيها ، فإذا كان يوم القيامة أمر الله السماء الدنيا فتشققتْ ، وتكون الملائكة على حافاتها حتى يأمرهم الرب فينزلون إلى الأرض فيحيطون بالأرض ومَنْ عليها .

ولكن البعض من العلماء أعاد الضمير فى : ﴿ أَرْجَائِهَا (١٧) ﴾ [الحاقة] إلى الأرض أى أرجاء الأرض ، حتى أنهم رووا أن الله تعالى يأمر ملائكة سماء الدنيا فيقفون صفاً على حافات الأرض ، ثم يأمر ملائكة السماء الثانية فيُصفون خلفهم ، ثم كذلك ملائكة كل سماء ، فكلما مرَّ أحدٌ من الجن والإنس وجد الأرضَ قد أُحيط بها .

فالملَك على ما لم يَهِ من أرجاء السماوات ، وأرجاؤها هى نواحيها وأطرافها وهى السماء الدنيا .

﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ (١٧) ﴾ [الحاقة]

كلمة العرش نجدها فى القرآن بالنسبة لله ، إما مضافاً لاسم ظاهر ﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ (١٧) ﴾ [الحاقة] ، وإما مضافاً للضمير المخاطب أو الغائب ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ (٧) ﴾ [هود]

وإما مضافاً للتنسيب : ﴿ فَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٢٢) ﴾ [الأنبياء]

وعرش الله عرش كريم ، قال تعالى : ﴿ فَتَعَالَى اللهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ (١١٦) ﴾ [المؤمنون]

وإياك أنْ تفهم أن عرش ربك للسيطرة والعلو والجبروت لأنه عرش كريم .

وقد وردت كلمة (العرش) فى عروش الدنيا ، وفى عرش الله سبحانه ، فعروش الدنيا ترمز إلى استتباب الأمر لمَنْ يجلس عليها ، والعرش بالنسبة لله رمز لاستتباب أمر الكون كله له سبحانه لا ينغِّص عليه شىء ولا يخرج من ملكه شىء .

والحق سبحانه يقول : ﴿ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (١٢٩) ﴾ [التوبة] ولا يُوصف العرش بأنه عظيم إلا وفى أذهان الناس عروش الملوك التى نراها فى حياتنا ، مثلما قال الهدهد عن ملكة سبأ: ﴿ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) ﴾ [النمل] أى بمقاييس البشر .

أما قوله تعالى هنا : ﴿ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (١٢٩) ﴾ [التوبة] فهو بمقاييس رب البشر إنه عرش الخالق العظيم سبحانه وهو فوق التصور البشرى ، لذلك نفهمه فى إطار : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ (١١) ﴾ [الشورى]

عن أبى ذر الغفارى رضى الله عنه : « سألت النبى ﷺ عن الكرسى فقال : يا أبا ذر ما السماوات السبع والأرضون السبع عند الكرسى إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة ، وإن فضل العرش على الكرسى كفضل الفلاة على تلك الحلقة »[1].

ومادة العرش تدلُّ على العلو ، ومنه قيل للسقف (عرش) ويطلق العرش أيضاً على السرير مثل قوله الحق : ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ (١٠٠) ﴾ [يوسف]

---

(١) أخرجه ابن حبان فى صحيحه (٣٦١) من حديث طويل لأبى ذر الغفارى .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ ﴾

الحق سبحانه وتعالى لا تخفى عليه خافية ، والحق سبحانه يقول : ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا (١٠٨) ﴾ [النساء]

حين نسمع كلمة (محيط) فلنعلم أن الإحاطة هى تطويق المحيط للمحاط، بحيث لا يستطيع أنْ يفلت منه علماً بحاله التى هو عليها ، ولاقدرة على أن يفلت منه مآلاً وعاقبة ، فهو سبحانه محيط علماً لأنه هو الذى لا تخفى عليه خافية .

وسبحانه لايشغله سمعٌ عن سمع ، ولا بصر عن بصر ، فبصره سبحانه محيط واطلاعه دقيق ، لذلك يأتى جزاؤه حقاً يناسب دقة اطلاعه ، فإياك إذن أنْ تغفل هذه الحقيقة ، فربك قائم عليك ناظر إليك لا تخفى عليه منك خافية .

وقد حدثنا الحق سبحانه عن العرض على الله : ﴿ وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا (٤٨) ﴾ [الكهف]

والعرض أنْ يستقبل العارض المعروض استقبالاً منظماً يدل على كل هيئاته ، كما يستعرض القائد الجنود فى العرض العسكرى مثلاً ، فيرى كل واحد من جنوده (صفاً) أى صفوفاً منتظمة .

فالعرض على الله عملية منظمة لا يستطيع فيها أحد التخفى ، ولن يكون لأحد منها مفرّ ، وهى صفوف متداخلة بطريقة لا يُخفى فيها صفٌّ الصف الذى يليه ، فالجميع واضح بكلِّ أحواله .

﴿ وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ (٤٨) ﴾ [الكهف]

أى على الحالة التى نزلتَ عليها من بطن أمك عرياناً لا تملك شيئاً حتى ما

يستر عورتك .

والحق سبحانه يُظهر ما كان مخفياً منهم حين يعرض الكل على الله تعالى، والحق سبحانه لا تخفى عليه خافية .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ ﴾

فالحق سبحانه هو القادر الأعلى ، القادر على كل شيء ويأتى لكل منا بكتاب حسابه يوم الحساب ، وهذا مثل قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا[1] بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ (٣٠) ﴾ [آل عمران]

والحق سبحانه لا يحاسبنا على مقتضى ما علم فحسب ، بل يحاسبنا على ما تم تسجيله علينا ، فكلُّ إنسان يقرأ كتابه بنفسه ، فسبحانه يقول : ﴿ وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا (١٣) اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (١٤) ﴾ [الإسراء]

فالحق سبحانه لا يؤاخذ الناس بما يقول هو إنهم فعلوه ، ولكن بما كتب عليهم وليقرأوه بأنفسهم ، وليكون حجة عليهم ، كأنَّ الكتابة ليستْ كما نظن

---

(١) الأمد : الزمن والغاية . قال تعالى ﴿ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ (١٦) ﴾ [الحديد] أى امتدت بهم مدة حياتهم فاغتروا فقست قلوبهم . (القاموس القويم ١/ ٣٠).

فقط ، ولكنها تسجيل للأصوات والأنفاس .

ويأتي يوم القيامة ليجد كل إنسان ما فعله مسطوراً .

﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (١٤)﴾ [الإسراء]

وهذا القول يدل على أنه ساعة يرى الإنسان ما كُتِب فى الكتاب سيعرف أنه منه ، وإذا كنا نحن الآن نسجل على خصومنا أنفاسهم وكلماتهم أتستبعد على مَنْ علّمنا ذلك أنْ يسجل الأنفاس والأصوات والحركات ، بحيث إذا قرأها الإنسان ورآها لا يستطيع أنْ يكابر فيها أنْ ينكرها ؟

ويُقال عن يوم القيامة (يوم الفاضحة) لأن كلَّ إنسان سيجد كتابه فى عنقه ويُقال له : ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (١٤)﴾ [الإسراء]

فإذا كنا فى الدنيا نسجل الأحداث بالصوت والصورة فما بالنا بتسجيل الحق لنا ؟ ويرى الإنسانُ مكره يوم القيامة بالصوت والصورة ، وكل فعل فعله سيراه بطريقة لا يمكن معها أنْ ينكره .

وكأنَّ الحق سبحانه يوضح لكل عبد : أنا لن أحاسبك بل سأترك لك أنْ تحاسب نفسك .

فكلُّ ما يصدر منك مُسجَّل عليك ، ولذلك يأتيك كتابك يوم القيامة لتقرأه وتكون على نفسك حسيباً ، فكل شىء فى الكون محفوظ ولا يضيع ، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (١٠) كِرَامًا كَاتِبِينَ (١٠) ﴾ [الانفطار]

ويحلو للبعض أنْ ينكر إمكانية تسجيل الأعمال وكتابتها ، ونقول لهؤلاء: تعالوا إلى ما توصّل إليه العقل البشرى الآن من تسجيل الصور والأصوات والبصمات وغيرها ، وهذا كله يُسهِّل علينا هذه المسألة عندما ترقى إمكانات العقل البشرى إلى الإمكانات الإلهية التى لا حدود لها .

فالكتاب المسجَّلة فيه أعمالك هو كتابك ، لذلك يقول تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ

كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (١٩) ﴾ [الحاقة]

وكلمة ﴿ بِيَمِينِهِ (١٩) ﴾ [الحاقة] هى علامة على البشرى بتيسير الحساب والنجاة من عقاب النار، فالإنسان يبيض وجهه حين يأخذ الإنسان من هؤلاء كتابه بيمينه، وهذه بشرى فى الدنيا وفى الآخرة.

ويقول تعالى: ﴿ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَـٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا[1] (٧١) ﴾ [الإسراء]

فكونه أخذ كتابه بيمينه فهذه بشارة الخير وبداية السلامة، فإذا به يسارع إلى قراءته بل ويتباهى به بين الناس قائلاً:

﴿ هَـٰؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ (١٩) ﴾ [الحاقة] إنه مسرورٌ بعمله الصالح الذى يحب أنْ يطلع عليه الناس.

فمَنْ أُوتى كتابه بيمينه وقرأه وتباهى به لم يكُنْ أعمى فى دنياه، بل كان بصيراً واعياً فاهتدى إلى منهج الله وسار عليه، فكانت هذه نهايته وهذا جزاءه.

والحق سبحانه يقول: ﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ (٤٩) ﴾ [الكهف] أى: وضعتْه الملائكة بأمر من الله تعالى فيعطون كلَّ واحد كتابه، فمَنْ أخذ كتابه بيمينه فرح وقال:

﴿ هَـٰؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ (١٩) ﴾ [الحاقة]

يعرضه على الناس وهو فخور بما فيه، لأنه كتاب مشرِّف ليس فيه ما يُخجل لذلك يتباهى به ويدعو الناس إلى قراءته، فهو كالتلميذ الذى حصل على درجات عالية، فطار بها ليعرضها ويذيعها.

وهذا بخلاف مَنْ أُوتى كتابه بشماله فإنه يقول: ﴿ يَـٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ (٢٥) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ (٢٦) يَـٰلَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ (٢٧) مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ (٢٨)

---

(١) الفتيل: ما كان فى شق النواة وبه سميت فتيلة. وقيل: الفتيل: ما يخرج من بين الإصبعين إذا فتلتهما. (لسان العرب مادة فتل).

هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ (٢٩) ﴾ [الحاقة]

فاحذروا أنْ تقفوا موقفاً حرجاً يوم القيامة ، ثم تُفاجأوا بكتاب لايغادر صغيرة ولا كبيرة ، وها أنا أذكركم من الآن فى وقت السعة والتدارك ، فحاولوا التوبة إلى الله وأنْ تصلحوا ما بينكم وبين ربكم .

﴿ هَـــؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ (١٩) ﴾ [الحاقة] الهاء لتنبيه السامعين أى تعالوا اقرءوا كتابيه ، فهو فرِحٌ بكتابه وبحسناته ، لذلك لا يُخفى كتابه بل يحب أنْ يُطلع الناس عليه .

والعرب تقول للواحد : هاء . وللاثنين: هاؤما . وللجماعة: هاؤموا . وهى أيضاً بمعنى خذوا اقرءوا كتابيه .

فالحق سبحانه يخبرنا عن سعادة مَنْ يُؤتَى كتابه يوم القيامة بيمينه وفرحه بذلك ، وهو من شدة فرحه يقول لكل مَنْ لقيه هاؤم اقرءوا كتابيه . أى: خذوا اقرءوا كتابيه لأنه يعلم أن الذى فيه خير وحسنات محضة .

ونلحظ الهاء فى آخر كلمات (كتابيه) (حسابيه) هذه هاء السكت . كأنها إشارةٌ إلى شدة الكرب فى ذلك اليوم للدلالة على أنه إذا كان هذا السعيد يسكت فى كل جملة للاستراحة لا يقدر على المضى فى الكلام ، فما الظن بغيره ؟

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ (٢٠) ﴾ [الحاقة] ليس الظن هنا بمعنى الشك وإلا لو شكَّ فى أنه مُلاقٍ حسابه فى يوم القيامة لما كان مؤمناً ، ولما أخذ كتابه بيمينه .

إنما الظن هنا بمعنى اليقين فهو من ألفاظ الأضداد أى أيقنت ، وعلمت أن هناك حساباً فى الآخرة وأننى سألاقيه .

يقول الحق سبحانه : ﴿ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (٤٦) ﴾ [البقرة]

لم يقل الذين يتيقنون أنهم ملاقو ربهم ، لماذا لم يستخدم الحق تعالى لفظ

اليقين وأبدله بالظن ؟ فمجرد الظن أنك ملاق الله سبحانه كافٍ أنْ يجعلك تلتزم بالمنهج ، فما بالك إذا كنتَ متيقناً ، فمجرد الظن يكفى .

فقوله تعالى : ﴿ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ (٤٦) ﴾ [البقرة] فمجرد أنَّ القضية راجحة هذا يكفى لاتباع منهج الله فتقى نفسك من عذاب عظيم .

فمجرد الظن بلقاء الله جعلهم يعملون الأعمال الصالحة ، فما بالك إذا كان العبد متيقناً ؟ إنَّ المتيقن يقوم بالأعمال الصالحة من باب أوْلَى .

وقد قال قوم نوح : ﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٦٦) ﴾ [الأعراف]

والظن رُجحان الأمر بدون يقين ، فهناك راجح ومرجوح ، أو أن الظن هنا هو التيقن ، على حد قوله سبحانه : ﴿ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ (٤٦) ﴾ [البقرة] أى : يتيقنون .

ويقول تعالى عن المجرمين : ﴿ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا (٥٣) ﴾ [الكهف] الظن هنا يُراد منه اليقين . أى : أيقنوا أنهم واقعون فيها .

﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (٢١) ﴾ [الحاقة] وذلك مثل قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ (٦) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (٧) ﴾ [القارعة]

أى فى حالة من العيش مرضية فى الجنة يرضاها صاحبها ، فلا يسخط بعد دخولها أبداً ، فهو يعيش فى الجنة لا موت فيها ولا فقر ولا مرض ولا خوف ولا جنون ، فهو آمن من كل خوف ومن كل فقر .

وكلمة (راضية) اسم فاعل بمعنى اسم المفعول : مرضية ، فهى عيشة مرضية تنال رضا مَنْ يعيشها ، ولكنها أيضاً (راضية) عن أن هذا المؤمن

يتمتع بها فهى أيضاً راضية ، فالجنة تشتاق للمؤمنين بها الداخلين إليها .

إنه النعيم الذى يجعل الوجوه ناضرة ، فيقول تعالى : ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (٢٢) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣)﴾ [القيامة]

ويقول الحق سبحانه : ﴿ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ (٢٤) ﴾ [المطففين]

فالنضرة تفيض على وجوههم وملامحهم ، حتى إن كلَّ راءٍ يراها .

والحق سبحانه يحدد مكان هذه العيشة الراضية ، فيقول : ﴿ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (٢٢) ﴾ [الحاقة]

وكلمة (الجنة) مأخوذة من (الجن) والستر ، والجنة هى البستان الذى به شجرة إذا سار فيه الإنسان يستره ، وهو غير البساتين الزهرية التى تخرج زهراً قريباً من الأرض تمثل ترفاً للعيون فقط .

أما الجنة ففيها أشجار عالية كثيفة ، بحيث لو سار فيها أحد يُستر ، ففيها الاقتيات وفيها كل شىء .

فهى تسترك عن أنْ تلتفت إلى غيرها لأن فيها ما يكفيك ، فالذى عنده حاجة لا تكفيه يتطلع إلى ما يكفيه ، لكن مَنْ عنده حاجة تكفيه فقد انستر عن بقية الوجود .

وفى آية أخرى يقول تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ (٨) لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ (٩) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (١٠) ﴾ [الغاشية]

والجنة عالية فى ذاتها رفيعة مجيدة ، ثم هى عالية الدرجات عالية المقامات، والجنات جمع جنة وهى جمع لأنها كثيرة ومتنوعة وهناك درجات فى كل جنة أكثر من الدنيا .

والجنات متنوعة فهناك جنات الفردوس وجنات عدن وجنات النعيم، وهناك دار الخلد ودار السلام وجنة المأوى ، وهناك عليون الذى هو أعلى وأفضل الجنات .

ثم يصف الحق سبحانه هذه الجنة العالية ، فيقول تعالى : ﴿ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (٢٣) ﴾ [الحاقة] فالحق سبحانه يدنى لعبده المؤمن فاكهة الجنة حتى لا يتعبه.

وفى آية أخرى يقول سبحانه :﴿ وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا (١٤) ﴾ [الإنسان] أى دُليت عناقيدها . فالفاكهة تنزل إلى المكان الذى يوجد فيه المؤمن ، وإن وقف المؤمن لطال بيده أن يقطف الثمار ، وإن اضطجع لاستطاع أن ينال أيضاً من الثمار ، لأنها تتدانى له .

وإن نام المؤمن لتدانى قطاف الثمار إلى مكانه، وبذلك يستطيع أن يأكل منها فى أى وقت وعلى أى وضع .

ومعنى الإدناء تقريب شىء من شىء ، ومن ذلك قوله تعالى هنا ﴿ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (٢٣) ﴾ [الحاقة] أى قريبة التناول سهلة الجنى .

وقد قال رسول الله ﷺ عن الجنة فقال «عُرضت علىَّ الجنة لو مددتُ يدى لتناولت من قطوفها» .

فقطوفها دانية أى ثمارها قريبة لمن يتناولها ينالها قائماً وقاعداً ومضطجعاً يقطفونها كيف شاؤوا ، إن شاءوا جالسين وإن شاءوا متكئين .

وقد قال البراء بن عازب : يتناول الرجل من فواكهها وهو نائم . وقال قتادة : لا يرد أيديهم عنها بُعد ولا شوك .

فإذا هَمَّ أنْ يتناول من ثمارها نزلت إليه حتى يتناول منها ما يريد . فقطوفها قريب منهم مذلل كيف شاءوا .

فثمارها قريبة التناول يأخذها الرجل كما يريد إنْ أحب أن يأخذها بيده انقادت له ، قائماً كان أو جالساً أو مضطجعاً ، وإن أحب أن تدنو إلى فيه دنت .

﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (٢٤) ﴾ [الحاقة]

ذكر الحق سبحانه صدر هذه الآية فى عدة آيات ، منها قوله تعالى : ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٦٠) ﴾ [البقرة]

وفى آية الصيام : ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ (١٨٧) ﴾ [البقرة]

وهاتان فى الدنيا ، فى الآية الأولى لكم أن تأكلوا وتشربوا ولكن لا تفسدوا فى الأرض ولا تنشروا فى الأرض الفساد ، فالأكل والشرب مشروط بعدم الإفساد .

وفى الآية الثانية الأكل والشرب مشروط بموعد يبدأ فيه صيامكم ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ (١٨٧) ﴾ [البقرة]

أما الآية التى معنا فهى فى الآخرة ، يقول تعالى: ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (٢٤) ﴾ [الحاقة] بدون شروط فأنت حين تفعل الطاعة تكون صعبة عليك ولكن يجب أن تذكر رد الفعل فيها وهو الراحة وحسن الثواب، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (٢٤) ﴾ [الحاقة]

وفى هذا القول فعل ورد فعل ، الفعل هو العمل الصالح فى الأيام التى مضت ، ورد الفعل هو الطعام والشراب الهنىء فى الآخرة .

فهذا وقت الجزاء وهو جزاء أطول وأدوم ، وهو جزاء لما قدَّموا ، فقوله تعالى ﴿ بِمَا أَسْلَفْتُمْ (٢٤) ﴾ [الحاقة] فهذا تعليل ما هم فيه من النعيم أنهم كثيراً ما تعبوا واضطهدوا وعُذِّبوا ، وجزاء من عُذِّب فى ديننا أن نسعده الآن فى الآخرة.

وقوله ﴿ هَنِيئًا (٢٤) ﴾ [الحاقة] الهنىء هو الشىء المأكول وتستسيغه حين يدخل فمك ، لكنك قد تأكل شيئاً هنيئاً فى اللذة وفى المضغ والأكل ولكنه يورث متاعب صحية ، وفى هذه الحالة يكون هنيئاً غير مرىء .

ولا تخشوا شيئاً فطعامكم وشرابكم مأمون العاقبة من التخمة والسقم ، فكلوا واشربوا معشر من رضيت عنهم ، هنيئاً لكم لا تتأذون بما تأكلون ولا بما تشربون ولا تحتاجون من أكل ذلك إلى غائط أو بول .

فكلوا من ثمار الجنة وفواكهها ، واشربوا من أنهارها وعيونها ، اشربوا من ماء غير آسن ومن عسل مصفًّى ، ومن لبن لم يتغير طعمه .

بل إن الله يصف شراب أهل الجنة ويصف حتى الآنية التى يُوضع فيها الشراب فهو يُقدّم لأهل الجنة فى أفضل صورة ، يقول تعالى :

﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٧١) ﴾ [الزخرف]

ويقول تعالى : ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ (١٧) بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ (١٨) لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ (١٩) ﴾ [الواقعة]

وإذا كان أكل الإنسان وشربه فى الدنيا بسعى منه وتعب ونصب فإنه فى الجنة بدون سعى ولا عمل ، بل ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ (٧١) ﴾ [الزخرف] وفى آية ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ (١٧) ﴾ [الواقعة]

ويقدَّم لهم الشراب فى الأكواب يُصبُّ فيها من أباريق ، والطعام يقدَّم لهم فى صحاف من ذهب ، إنه قمة النعيم ، فالمسألة ليست (حشو بطن) فحسب ، لذلك قال ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ (٧١) ﴾ [الزخرف]

فمجرد النظر إليه فيه لذة ، فما بالك بطعمه ومذاقه ، لذلك حينما تستضيف مثلاً عزيزاً لديك تقول له : ماذا تحب أن تأكل ، لماذا ؟ لتصنع له ما يشتهيه وما تميل إليه نفسه .

والمؤمنون ينالون هذا الجزاء وهذا النعيم بما أسلفوا فى الأيام الخالية أى الأيام السالفة الماضية ، والحق سبحانه يقول : ﴿ هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ (٣٠) ﴾ [يونس] أى عرفت كل نفس ما فعلت فى الماضى .

وقد عبَّر الحق سبحانه فى آية آخرى فقال : ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٩) ﴾ [الطور] أى بما كنتم تعملون فى الدنيا من أعمال الخير .

وقد قال قتادة : إن أيامكم هذه أيام خالية فهى أيام فانية تؤدى إلى أيام باقية فاعملوا فى هذه الأيام وقدّموا فيها خيراً إن استطعتم .

ثم يذكر الحق سبحانه الفريق الآخر فيقول تعالى :

﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ (٢٥) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ (٢٦) يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ (٢٧) مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ (٢٨) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ (٢٩) ﴾

ففى مقابل مَنْ أوتى كتابه بيمينه أتى بمن أُوتى كتابه بشماله فقال تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ (٢٥) ﴾ [الحاقة] ، وفى آية أخرى قال : ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ (١٠) ﴾ [الانشقاق]

فمن أُوتى كتابه بشماله أو وراء ظهره مثله مثل من قال الله فيهم: ﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ

رَبُّكَ أَحَدًا (٤٩) ﴾ [الكهف]

فمن أخذ كتابه بيمينه فرح وقال : ﴿ هَـؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ (١٩) ﴾ [الحاقة] يعرضه على الناس وهو فخور بما فيه لأنه كتاب مشرف لا يُخجل ، وهذا بخلاف من أوتى كتابه بشماله ، فهو الخزى والانكسار والندم على صحيفة مخجلة .

فكل ما فعلوه مُسجَّل مُسطَّر فى كتبهم .

﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا (٣٠) ﴾ [آل عمران]

فما عملته النفس من السوء تود أن يكون بينه وبينها أمد بعيد .

فهم خائفون يرتعدون والحق سبحانه وتعالى يصور لنا حالة الخوف هذه ليفزع عباده ويحذرهم ويُضخم لهم العقوبة ، وهم ما يزالون فى وقت التدارك والتعديل من السلوك .

فحالتهم الأولى الإشفاق وهو عملية هبوط القلب ولجلجته ، ثم يأتى نزوع القول ﴿ وَيَقُولُونَ يَـوَيْلَتَنَا (٤٩) ﴾ [الكهف] كأنهم يقولون : يا حسرتنا يا هلاكنا، هذا أوانُك فاحضرى .

﴿ يَـلَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ (٢٧) ﴾ [الحاقة] فيتمنى الموت ، ليستريح من هذا البلاء فيتمنى أن لم يكن قد بُعث فيواجه أعماله السيئة أمام عينيه ، فياليت الموتة التى مُتَّها فى الدنيا كانت هى الفراغ من كل ما بعدها ولم يكن بعدها حياة ولا بعث .

إنه يتمنى أكثر شىء كان يكرهه فى الدنيا وهو الموت ، لأن الموت حينها سيخلصه من مواجهة ما اقترف فى الدنيا ، فلم يكن فى الدنيا شىء أكره عنده من الموت .

فالقضية هنا هى الموتة التى تقضى عليه فتكون قضاءاً وفراغاً مما سبق من أعماله .

وفي سورة الزخرف يقول الحق سبحانه : ﴿ وَنَادَوْا يَـٰمَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ (٧٧) ﴾ [الزخرف]

فأهل النار ينادون مالكاً خازن النار أن يقضى عليهم ربه بالموت ليستريحوا مما هم فيه من العذاب الدائم الذى لا ينتهى .

فهم طلبوا الموت عند تطاير كتب أعمالهم حتى لا يروا أعمالهم القبيحة، ولكن هذا لم يُجْد وحُوسبوا ، وها هم يطلبون الموت مرة أخرى بعد أن عاينوا العذاب وأصبحوا وسط النار .

فقوله (ليقض) هنا معناها يميتنا . ولكن كيف يميتهم الله والموت قد أُتى به على هيئة كبش وذُبِح أمام الجميع ، وقيل لأهل الجنة : خلود بلا موت . وقيل لأهل النار : خلود بلا موت .

وهكذا قضى الله الأمر ليقطع الأمل على الكفار الذين قد يظنون أن الموت سيأتى ليُخرجهم مما هم فيه من العذاب ويريحهم فقطع الله عليهم هذا الأمل وآيسهم منه حيث جاء بالموت مُشخصاً وذبحه أمامهم ، فلا موت بعد الآن فقد مات الموت .

﴿مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ (٢٨) ﴾ [الحاقة] فمالى لم يدفع عنى شيئاً ، ولم يغننى عن العذاب ومقابلة ما أسلفت فى الدنيا من أعمال السوء والقبح .

فمالى ما أغنى عنى من النار ، فكثرة مالى تخلت عنى فأنا حتى لم أؤد منه حق الله ولم أصل به قرابتى . فماله الذى كان يملكه فى الدنيا من عذاب الله لم ينفعه رغم أنه أراد افتداء نفسه به .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ.. (٩١) ﴾ [آل عمران]

فلن يقبل الله منه ملء الأرض ذهباً لو افتدى به نفسه فى الآخرة إنْ كان سيجد ملء الأرض ذهباً ، وعلى فرض أنه قد وجد ملء الأرض ذهباً فهل يجد مَنْ يقبل ذلك منه ؟

لا ، إنه فى الحقيقة لن يجد الذهب ، لأنه لم يعُدْ يملك شيئاً فى الآخرة .

ويقول سبحانه فى آية أخرى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ (٤٧) ﴾ [الزمر]

ويقولون : خذوا ما نملك كله واعتقونى لكن لا يُستجاب لهم .

﴿ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ (٢٩) ﴾ [الحاقة] السلطان القوة التى تقنع الإنسان بعمل فعل ما ، وهو إما أنْ يكون سلطانَ الحجة فيقنعك بفعل ما تفعله . وإما أنْ يكون سلطان القوة فيرغمك أنْ تفعل .

السلطان إذن نوعان : سلطان حجة وسلطان قوة . والفرق بين سلطان الحجة وسلطان القوة القاهرة على الفعل ، هو أن سلطان الحجة يقنعك أنْ تفعل وأنت مقتنع .

أما سلطان القوة القاهرة فهو لا يقنع الإنسان ، ولكنه يُرغم الإنسان على فعل ما .

فالسلطان هو القوة العالية التى تجبر مَنْ دونها ، فالإنسان تُجبر مادته وبنيته بسلطان القهر المادى ، ويُقهر فى اعتقاداته بالدليل والحجة .

والإكراه فى المادة إنما يتحكم فى القالب ، لكنه لا يتحكم فى القلب ، فالفارق بين سلطان القوة وسلطان الحجة أن سلطان القوة قد يقهر الإنسانَ على السجود ، لكن سلطان الحجة يجعل الإنسان يسجد بالاقتناع .

لذلك فتأويل الآية يحتمل الأمرين معاً :

﴿ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ (٢٩) ﴾ [الحاقة] أى ضلَّتْ عنِّى حجتى التى كنتُ أحتج بها فى الدنيا . أو زال عنى مُلْكى وقوتى وتسلطى على الناس وبقيتُ ذليلاً حقيراً .

قد ذهبتْ عنى حجتى وضلَّتْ فلا حجةَ لى أحتجُّ بها ولا بينةَ لي، وذهب عنى سلطانى الذى كان فى الدنيا .

ومَنْ يتأمل قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ (٢٥) ﴾ [الحاقة] ويضع معه قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ (١٠) ﴾ [الانشقاق] يجد عجباً .فكيف يُؤتى كتابه بشماله ، وفى آية يُؤتى كتابه وراء ظهره ، وقد اجتهد العلماءُ فى تأويل هذا ، حتى أن البعض من العلماء قال : تُلْوَى يده اليسرى من صدره خلف ظهره ثم يُعطى كتابه[1] .

فأيمانهم تُغلّ إلى أعناقهم ، وشمائلهم تكون وراء ظهورهم .

والبعض من العلماء أخذ آية الحاقة وإتيان الكتاب بالشمال لعصاة المؤمنين ومرتكبى الكبائر ، أما الذين أوتوا الكتاب وراء ظهورهم ، فأخذوها على أنهم الكافرون أصحاب النار ، وتمام الآيات ﴿ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا (١١) وَيَصْلَى سَعِيرًا (١٢) إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا (١٣) إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ (١٤) ﴾ [الانشقاق]

والثبور الهلاك ، فهو يدعو بالويل والهلاك عند إعطائه كتابه بشماله من وراء ظهره ، فكان هذا جمعاً بين الآيتين فهم يأخذون كتبهم بشمائلهم من وراء ظهورهم لبشاعة ما فيها لا يريدون رؤيتها .

وفى الآيات رنَّة حزينة تعبر عن الحسرة الممتدة فى قوله ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ (٢٥) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ (٢٦) يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ (٢٧) مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ (٢٨) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ (٢٩) ﴾ [الحاقة]

فى أواخر الخمس الآيات نجد هاء السكت فى طرف الفاصلة الساكنة ، وفى

(١) قاله ابن السائب . ذكره الإمام البغوى فى تفسيره (١٤٨/٥) طبعة إحياء التراث العربى بيروت (١٤٢٠هـ).

ياء العلة قبلها بعد المدِّ بالألف فى تحزُّن وتحسُّر .

(كتابيه) (حسابيه) (القاضيه) (ماليه) (سلطانيه)

ولا يقطع هذه الرنَّة الحزينة المديدة إلا الأمر العلوى الحاسم بجلاله وهَوْله وروعته ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (٣٠) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (٣١) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا[١] سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ (٣٢)﴾ [الحاقة]

إنه هول ورعب قاتل .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ ﴾

﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (٣٠)﴾ [الحاقة] أى اجمعوا يديه إلى عنقه . فالغَلّ من غَلِّ اليد إلى العنق أو يُشد قدمه برقبته ثم يُجرُّ على وجهه، فإذا سمع الملائكةُ الأمرَ من الله ابتدره سبعون ألف مَلَكٍ أيُّهم يجعل الغل فى عنقه ، فيُغلّ بالأغلال الضيقة الثقيلة .

إنه الجزاء الرهيب والقضاء الخطير من الله سبحانه ، فبعد طول انتظار لانتهاء الحساب وتطاير الكتب ليقرأ كلٌّ منهم ذنوبه ومعاصيه أو كفره بالله ورسوله ، فإذا الحكم يصدر رهيباً مجلجلاً .

﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (٣٠)﴾ [الحاقة] تجهيز للمذنب الذى صدر ضده الحكم ، إنه مشهد رهيب يسمع بأذنيه الحكم عليه ، ويرى بعينيه كيف يتسابق المأمورون إلى تنفيذ الأمر الرهيب الجلل فى ذلك الظالم لنفسه .

والغُلّ هو الحديدة التى تجمع اليدين إلى العنق لتقييد الحركة ، فالغُلُّ هو

---

(١) ذرعها أى مقدارها وقياسها وهو كناية عن الإذلال والإرهاق للمذنبين يوم القيامة . والذراع من الإنسان من المرفق إلى أطراف الأصابع ومقياس للأطوال بمقدار ٥٧ سنتيمتراً أو ٥٨ سنتيمتراً .

طوْقُ الحديد الذى له طرف فى كل يد ليقيدها ، وطرف معلّق فى الرقبة ليقلل من مساحة حركة اليدين لمزيد من الإذلال والإهانة .

يقول تعالى : ﴿ وَأُولَـٰئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَـٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٥) ﴾ [الرعد]

أما الأصفاد فهى القيود التى تُوضع فى القدمين فيُقيَّدون من أرجلهم .

﴿ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (٣١) ﴾ [الحاقة] الجحيم : جهنم . أى أدخلوه النار ليَصْلَى عذاب جهنم ويحترق فيها ، ومنها قوله تعالى : ﴿ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ (١٦٣) ﴾ [الصافات] وقوله ﴿ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى (١٥) ﴾ [الليل] أى لا يدخلها إلا الأشقى .

والجحيم النار العظمى فهو كان يتعظَّم على الناس ، لذلك قال من قبل ﴿ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ (٢٩) ﴾ [الحاقة]

فلا تُدخلوه إلا الجحيم ولا تحرقوه إلا فيها ، وهى النار العظمى ليكون الجزاءُ على وفق المعصية حيث كان يتعاظم على الناس .

﴿ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ (٣٢) ﴾ [الحاقة] والسلسلة حِلَقٌ منتظمة كل حلقة منها فى حلقة ذرْعها أى مقدارها سبعون ذراعاً، كلُّ ذراع سبعون باعاً ، كلُّ باع أبعد مما بين الكوفة ومكة.

﴿ فَاسْلُكُوهُ (٣٢) ﴾ [الحاقة] تُسلك فى دُبره حتى تخرج من منخريه حتى لا يقوم على رجليه ، والسلسلة حِلَق منتظمة وكل شيء مستمر بعد شيء على الولاء والنظام فهو مسلسل .

والحق سبحانه يقول : ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا (٤) ﴾ [الإنسان] ، ويقول تعالى :﴿ إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ (٧١) ﴾ [غافر]

فمعنى ﴿ فَاسْلُكُوهُ (٣٢) ﴾ [الحاقة] أى فادخلوه ، وإدخاله فيها بأن تُلفَّ على جسده وتُلْوى عليه من جميع جهاته فيبقى مُرهقاً فيما بينها لا يستطيع حراكاً ما.

وهذا تأويلٌ فى الآية أيضاً ، فالسلسلة تُلفُّ على جسده مرات حتى تستغرقه فيكون قد أدخل فيها لأن معنى السَّلْك الإدخال .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ ﴾

قوله ﴿ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللهِ الْعَظِيمِ (٣٣)﴾ [الحاقة] فلا يُصدِّق بوحدانية الله وعظمته ، فالحق سبحانه لم يعاقبه ظلماً فالله قد حرم الظلم على نفسه ، وكأنه يقول لخزنة جهنم : افعلوا ذلك به جزاءً له على كفره بالله فى الدنيا .

فهذه حيثيات حكمه سبحانه عليه ، ودائماً تأتى الحيثيات بعد إصدار الحكم، فأنت عندما ترى حكماً من القاضى تجد أن هناك حيثيات الحكم أى التبرير القانونى للعقوبة أو البراءة .

فيقول القاضى : بما أنه حدث كذا فقانونه كذا حسب المادة كذا ، وهذه هى الحيثيات ، و(الحيثيات) مأخوذة من : حيث إنه حدث كذا فحكمنا كذا ، أو حيث إنه لم يحدث كذا فحكمنا بكذا .

إذن فحيثيات الحكم معناها التبريرات التى تدلُّ على سند الحكم لمن حكم .

فحيثية تعذيبه أنه لا يصدِّق بوحدانية الله وعظمته ، افعلوا ذلك به جزاءً له على كفره بالله فى الدنيا .

ولكن لماذا استخدم الحق سبحانه هنا اسم الله (العظيم) فالحق سبحانه عظيم ، ومن عظمة الله أنه تجلَّى على الخلق بصفات من صفاته .

فالقويّ يعين الضعيف ، والحق سبحانه له مطلق القوة ويهَبُ الخَلْق من حكمته حكمةً ، ومن قبْضه قبضاً ، ومن البسْط بَسْطاً ، ومن غِنَاه غنىً ، ولكن الصفات الحسنى كلها ذاتية فيه وموهوبة منه لنا .

ومن عظمة الحق سبحانه أنْ يكون له الكبرياءُ ، فساعة يعلم الجميع أن

الكبرياء لله وحده لا يتكبّر أحدٌ على أحد ، فالذى يتعالى لا يتعالى إلا فى غفلة منه عن ملاحظة كبرياء ربه .

وإلا فالذى يستحضر عظمة ربه وكبريائه لا بد له أن يتواضع وأن يتضاءل أمام كبريائه تعالى ، وأنْ يستحى أنْ يتكبَّر على خَلْقه .

فلو كان يستحضر عظمة ربه لآمن وصدَّق بوحدانية الله واستحقاقه وحده للعبودية واتباع منهجه .

ومشكلة هذا الذى لا يؤمن بالله العظيم ولا تشعر من حياته أنه يُقرّ بوجود الله وإنْ أسلم فتجده دائماً حيث لا يرضى الله ، وهو كما لا يشعر ولا يستحضر عظمة الله .

فهو أيضاً لا يُحس ولا يشعر بالمساكين والفقراء من حوله ، فهو كما أنه لا يستحضر الخالق العظيم لا يستحضر وجود فقراء محتاجين ومعوزين .

فتجده ﴿ وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (٣٤)﴾ [الحاقة] وفى آيات أخرى يقول تعالى : ﴿ كَلَّا بَل لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ (١٧) وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (١٨)﴾ [الفجر]

فالمال الذى يوجد عند إنسان ولا يرعى حقَّ الضعفاء فيه هو وبال وشرٌّ . وعندما سمع الأغنياءُ هذا القول عرفوا سلوكهم ، فكأنهم قالوا : نحن لا نملك ما نطعم به المسكين ، فكأن فى قوله تعالى :﴿ وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (١٨)﴾ [الفجر] ما يوضح لهم الطريق إلى العطاء : أى حُضُّوا غيركم على العطاء.

فالذى لا يملك يمكنه أنْ يكلم الغنى ليعطى المسكين ، والحضُّ هو كلام ، والكلام من العمل .

فقلب هذا الذى لا يؤمن بالله العظيم قد خلا من الإيمان بالله فهو قلبٌ موات خرب بور وهو خُلو من النور ، وهو قلب قد خلا أيضاً من الرحمة بالعباد ، والمسكين هو أحوج العباد إلى الرحمة .

فهذا لم يستشعر قلبه ما يدعو إلى الاحتفال بأمر المسكين ، ولم يحض على طعامه ، وهذا واجب اجتماعى يتحاضّ عليه المؤمنون .

لذلك اعتبر عدم التحاضّ والتواصى على إطعام المسكين قبيحاً مستنكراً ، فلو كان يؤمن بالله العظيم ويستحضر عظمته سبحانه ، ولو صدَّق بالدين حقاً ولو استقرت حقيقة التصديق فى قلبه ما كان ليدُعّ اليتيم ، وما كان ليقعد عن الحضِّ على طعام المسكين .

إن حقيقة التصديق بالله وبالدين ليست كلمة تُقال باللسان ، إنما هى تحول فى القلب يدفعه إلى الخير والبر بإخوانه فى البشرية المحتاجين إلى الرعاية والحماية .

وهذا يجعلنا نقطع بأنه لا يطعم المسكين ولا يحضّ على إطعامه، ولا يحسّ بالفقير إلا مَنْ آمن بالله العظيم وصدَّق بوحدانية الله.

إنهم ينسون أن المال الذى لديهم لكى يكون نعمة لا نقمة ، لا بد أنْ يُطعموا المسكين أو حتى يحضوا عليه ، فأيُّ نعمة فى مال يكون وبالاً على صاحبه.

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾ ﴾

إنه لم يؤمن بالله العظيم فى الدنيا ولم يحض على طعام المسكين، لقد تخلّى عن الناس فى حياته وعن مساعدتهم والوقوف بجانبهم فى محنتهم الدنيوية ، ولم يؤمن بالله ، فأين يجد النصير له .

فلن يجد الله بجانبه ، ولن يجد الناس يقفون بجانبه ، حتى جوارحه ستتخلى عنه وستشهد عليه .

والحميم القريب المشفق الذى يرقّ ويحترق قلبه له أو يحميه مما نزل به، فليس له فى الآخرة قريبٌ يدفع عنه ، ويحزن عليه ، فليس له من صديق يستطيع أنْ يُخلِّصه وينقذه من عذاب الله ، أو يتطوع بالنيابة عنه فى تحمل العقاب .

فليس له صديقٌ ملاطف وادٌّ ، لطيف المودة ، فلا قريبَ ينفعه أو يشفع له لأنه يوم يفرّ فيه القريب من قريبه ، ويهرب عنده الحبيبُ من حبيبه .

بل إنه حتى لو كان له خليلٌ يناصره فى الدنيا ويقف بجانبه فيما هو فيه، فإنه يوم القيامة يتخلَّى عنه ويكون له عدواً ، يقول تعالى :﴿ الْأَخِلَّاءُ[1] يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ (٦٧)﴾ [الزخرف]

فالمتقون يعين بعضهم بعضاً على الطاعة ، فالواحد منهم يقول لصاحبه: كنتَ تعيننى على الطاعة ، كنت توجهنى وتذكّرنى إنْ غفلت فيزداد الحب بينهما ، لكن الإنسان يلعن مَنْ أغواه .

فإذا التقى الأخلاء فى الله تعالى فرحوا ببعضهم ، لأن كلاًّ منهم حمى أخاه من معصيته ، أما مَنْ كانوا يجتمعون فى الدنيا على المعصية فكلٌّ منهم يلعن الآخر .

فهؤلاء ليس لهم يوم القيامة من ينقذهم من عذاب الله تعالى ، لأنه يوم يفرّ فيه القريبُ من قريبه ، ويهرب الحبيبُ من حبيبه .

وإذا كان قُطِع من الرفاق والأصدقاء والأنصار فإنهم محرومون من الطعام إلا من الغسلين ، فيقول تعالى :﴿ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ (٣٦)﴾ [الحاقة]

والغسلين هو غُسالة أهل جهنم من قيح وصديد ، وما يسيل من أبدانهم من القيح والصديد والدم ، أى ليس لهؤلاء الأشقياء التعساء طعام يطعمونه إلا هذا الصنف البشع المنتن .

وهكذا تصير النكبة نكبتين ، نكبة عدم وجود نصير ، ثم نكبة أكل الصديد المتخلِّف عن لحوم أهل النار وعُصارتهم وصديدهم ، وهو شرُّ الطعام وأخبثه وأبشعه .

---

(١) الأخلاء جمع خِلّ وهو الصديق المخلص . [القاموس القويم ١/ ٢٠٨]

وقد قال ابن عباس : الغسلين ما يسقط عن عروقهم وذاب من أجسادهم [١].

ولكى نعرف مدى بشاعة هذا الطعام ننصت لابن عباس وهو يقول : لو أن قطرة من الغسلين وقعت فى الأرض أفسدت على الناس معايشهم [٢].

وفى آية أخرى يقول تعالى : ﴿ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ (٦) لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ (٧) ﴾ [الغاشية] والضريع شجر فى النار يشبه الشوك أمرّ من الصبر ، وأنتنَ من الجيفة وهو شرُّ الطعام وأبشعه وأخبثه .

وهو طعامٌ يجدون غُصَّة فى حلوقهم عند الرضا به وتناوله ، يقول تعالى : ﴿ إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا (١٢) وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا (١٣)﴾ [المزمل] فهو طعام لا يُستساغ ويعترض وينشب فى الحلوق.

فسواء كان الطعام غِسْلِيناً أو ضريعاً أو زقُّوماً فهو ذو غُصَّة يقف فى الحلق، لأنه طعام بشع مستقذر لا تستسيغه الدوابّ ، فكيف يستسيغه البشر ؟

﴿ لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ (٣٧)﴾ [الحاقة] فهذا الطعام مُخصَّص ومقتصر ومقصور على الخاطئين ، فالخاطئون جمع خاطيء وهو الذى يتعمد فعل الذنب .

هؤلاء الذين يتعمدون ويقصدون فعل الآثام والذنوب ، ولذا لا يدخلون تحت عفو الله وغفرانه ، لأنهم جاهروا الله بالمعاصى ، وقد قال رسول الله ﷺ: « كلُّ أمتى معافى إلا المجاهرون »[٣]

والخاطئون أيضاً هم المذنبون الذين ذنوبهم كفر بالله ، الكافرون المشركون .

والخاطيء اسم فاعل من خطيء يخطأ إذا فعل غير الصواب متعمداً ،

---

(١) أورده السمرقندى فى تفسيره بحر العلوم (٣/ ٤٩١) عن ابن عباس رضى الله عنهما .

(٢) أخرجه أبو الحسن الواحدى النيسابورى (ت ٤٦٨ هـ) فى كتابه (الوسيط فى تفسير القرآن المجيد) دار الكتب العلمية بيروت (٤/ ٣٤٨) من رواية مجاهد بن جبر عن ابن عباس .

(٣) أخرجه أبو بكر البزار (ت ٢٩٢ هـ) فى مسنده البحر الزخار (٨٠٩٦) عن أبى هريرة رضى الله عنه وتمامه « وإن من الجهار أن يعمل الرجل سراً ثم يخبر به » . وأخرجه الخرائطى فى مكارم الأخلاق (٤٥٣) عن ابن عمر ولفظه «يعمل الرجل سوءاً» .

والمخطيء مَنْ يفعله غير متعمد ، فالخاطئون المتعمِّدون للخطايا لا غيرهم، أما المخطيء فهو مَنْ قصد الخير فلم يُصبه بغير تعمد .

وقد قال تعالى :﴿ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ (٥)﴾ [الأحزاب] أى أردتم الصواب فلم تصيبوه .

أما الخاطئون فهم الذين تمردوا على الله تعالى وعلى منهجه ورفضوا منهجه، ويقفون حجر عثرة فى تطبيق شرعه ، فهم منصرفون عن طريق الحق.

وقد وصف الحق سبحانه الأقوام المتمردة على الله ، فقال :﴿ وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ[1] بِالْخَاطِئَةِ (٩)﴾ [الحاقة] أى ارتكبوا الفعلة الخاطئة والفعال الخاطئة أو الخاطيء أصحابها .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾

فأقسم بالمشاهدات المرئيات والمغيبات المستورات ، فأقسم وأحلف بما تبصرونه وتشاهدونه مما خلق الله وأبدعه ، وجعله دليلاً على كمال قدرته وعظيم إتقانه وإبداعه .

وكلمة (لا) فى قوله تعالى : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ (٣٨) ﴾ [الحاقة] لتأكيد القسم وليست للنفى .

ومعنى (فلا أقسم) أن هذا الأمر واضح جليّ وضوحاً لا يحتاج إلى القسم ، ولو كنت مقسماً لأقسمتُ به .

والقسم هنا بعموم ما نبصره وما لا نبصره ، سواء كانت هى الدنيا التى نراها أو الآخرة التى لا نراها ، وسواء كان ما نبصره هو ما فى ظاهر السماء والأرض أو ما فى باطنها .

---

(١) المؤتفكات جمع مؤتفكة وهى القرى المنقلبة عند خسفها ، فالمؤتفكات : المخسوفات وهى قرى قوم لوط التى جعل الله عاليها سافلها . [القاموس القويم ١/٢٢] .

وسواءٌ كان ما نبصره هو الأجسام ، وما لا نبصره ما غاب عنا من رؤية الأرواح ، وقد يكون ما نبصره هو الإنس وما لا نبصره هو الجن والملائكة .

﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾

قوله تعالى (إنه لقول رسول كريم) جاء فى القرآن مرتين، التى هنا فى سورة الحاقة ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (٤٠)﴾ [الحاقة] ويقصد بها رسول الله محمد ﷺ.

أما الثانية فهى قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (١٩) ذِى قُوَّةٍ عِنْدَ ذِى الْعَرْشِ مَكِينٍ (٢٠) مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ (٢١)﴾ [التكوير] فالرسول هنا جبريل.

فتارة يكون الرسولُ من البشر تارة ، ومن الملائكة تارة ، وفى الحالتين هو رسولٌ ليس عليه إلا البلاغ ، كما قال تعالى :﴿ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٥٤)﴾ [النور]

فجبريل لم يأت بهذا القرآن من عنده هو ، بل من عند الله بالحق ، وكذا محمد ﷺ لم يأتِ بالقرآن من عنده ، وكذلك جبريل، فالقرآن من عند الله ليس افتراءً على الله لا من محمد ، ولا من جبريل .

وهو رسولٌ كريم ، والكريم لا يكتم شيئاً مما أُوحى إليه .

فالقرآن الكريم يقوله ويتكلم به رسولٌ من عند الله أى يبلغه عن الله ، وليس لهذا الرسول بعد ذلك ولا قبله شأنٌ فيه .

فهذا القرآن قَولُ رسول كريم على الله تعالى يعنى جبريل . ويُقال : قول رسول كريم يعنى قول رسول الله ﷺ يعنى محمداً ﷺ.

والرسول الكريم هو الوجيه عند الله المكرَّم .

وقوله ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (٤٠)﴾ [الحاقة] هو جواب القسم ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (٣٨)﴾ [الحاقة]

﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ (٤١)﴾ [الحاقة]

لقد قالوا : إن الرسول ﷺ شاعر ، ولو أن أحداً غيرهم قال مثل هذا الكلام لكان مقبولاً لأنه يجهل رسول الله، ولأنه ليس من قوم هم أهل فصاحة وأهل بلاغة وأهل بيان ، إنهم يعرفون الشعر والنثر والخطابة والكتابة .

فلو كان هذا القول من غيرهم لكان مقبولاً ، ولذلك نجد منهم مَنْ تصفو نفسه فيقول : والله ما هو بقول شاعر.

وقد اتهم الكفارُ رسول الله بأنه شاعر ، وعجيب من كفار مكة وهم العرب أهل اللسان والبلاغة والبيان وأهل الخبرة فى الكلام الموزون المقفَّى بحيث كانوا يجعلون للشعر أسواقاً فى ذى مجاز وذى المجنَّة وعكاظ ، ويعلِّقون أجود أشعارهم على أستار الكعبة ، ومع ذلك لا يستطيعون التمييز بين الشعر وأسلوب القرآن .

إذن : هم يعرفون الفرق ، لكن يقصدون بقولهم كما حكاه القرآن ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ (٣٠) ﴾ [الطور] يقصدون بالشعر الكلام العذب الذى يستميل النفس ويؤثر فى الوجدان .

وقد حسم الحقُّ سبحانه هذا الأمر ، فقال : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ (٦٩) ﴾ [يس]

فالحق سبحانه لم يعلمه الشعر لأنه لا ينبغى له أنْ يتعلمه ، لماذا ؟ لأن العرب يعلمون أن أعذب الشعر أكذبه ، وما دام أعذبه أكذبه فالحق سبحانه لا يريد أنْ يعلم الناس أن محمداً ﷺ مرتاض على صناعة البيان وأساليب الأدب ، وبعد ذلك يفاجيء الدنيا بالبيان الأعلى فى القرآن ، ويعلن ﷺ أن هذا البيان ليس من عنده .

وقد عاش الرسول ﷺ بينهم مدة طويلة ، ولم يسمعوا منه شعراً، فكلُّ ما جاء به بلاغاً عن الله لا يُنسب لمحمد ، ولكنه منسوب إلى ربِّ محمد .

وقوله الحق : ﴿ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ (٦٩) ﴾ [يس] أى : لا يصح أنْ يكون الأمر رغم

استعداد محمد ﷺ لذلك ، وكان من الممكن أنْ يعلّمه ربه الشعر وفنون القول.

ولذلك حينما قال أناسٌ : إن القرآن من عند محمد جاء القول الحق مبلّغاً محمداً ﴿ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٦) ﴾ [يونس]، فقد عاش بينهم رسول الله ﷺ أربعين عاماً ولم يقُلْ قصيدة .

فالحق سبحانه لم يشأ له أنْ يكون شاعراً ، فهناك فرق بين « نفي الوجود » وبين « نفى انبغاء الوجود » .

فقد نفى الحق سبحانه عنه قول الشعر ونفى عنه انبغاء ذلك له ، فقد يظنّ ظانّ أن النبى لا يستطيع أن يقول شعراً ، أو أن أدوات الشعر من اللغة ورقّة الإحساس غير متوافرة لديه ﷺ، لكن رسول الله قادر على قول الشعر إنْ أراد، فهو قادر على الحدث إلا أنه لا ينبغى له .

فالشعر مبنيٌّ على التخيُّل . لذلك أبعده الله عن الشعر حتى لا يظن القوم أنَّ ما يأتى به محمد من القرآن تخيلات شاعر ، فلم تكُنْ طبيعة رسول الله جامدة لا تصلح للشعر ، إنما كان ﷺ ذا إحساس مرهف .

﴿ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ (٤١) ﴾ [الحاقة] فهم لا يؤمنون أصلاً ، فالعرب تقول : قلما يأتينا وهم يريدون أنه لا يأتينا ، أو أنهم يؤمنون ولكنهم سرعان ما يرجعون عن إيمانهم .

فقليلاً ما تؤمنون بالقرآن ولا تصدقون أنه من عند الله ، فـ (ما) هنا إنْ كانت نافية فهو نفى للإيمان بالجملة ، وإنْ كانت (ما) مصدرية فهو وصْفٌ لإيمانهم بالقلة .. وقليلاً هنا منصوبة بـ (تؤمنون) .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (٤٢) ﴾ [الحاقة]

فليس القرآنُ بقول شاعر ، ولا هو أيضاً بقول كاهن ، فالكهان تلهمهم وتمدّهم الشياطين بالغى والضلال ، فالله طهَّر القرآن من الكهانة وعصمه منها .

فهو ليس بقول رجل كاهن ، ولا هو من جنس الكهانة ، فمحمد ليس بكاهن

والقرآن ليس من سجع الكهان ، والكاهن هو الذى يتكهَّن ويخبر عن الغيب كذباً .

فالكاهن هو المنجِّم الذى يخبر عن أشياء أغلبها ليس صحيحاً ، والكاهن ينصِّب نفسه للدلالة على الضوائع ما يضيع من الناس ويخبرهم بمغيبات يتوهمها ويأخذ أجراً على هذا .

وهو يدَّعى أنّ الجن تخبره ، وقد يكون يستعين بالتنجيم واستطلاع النجوم أو الحسابات الفلكية .

والقرآن ليس بسجع الكهان الذى تعهدون ، حتى أن رسول الله نهى عن سجع الكهان [١].

وقد قال عتبة بن ربيعة : والله لقد سمعت سجع الكهان ، وشعر الشعراء وخطب البلغاء فما سمعتُ شيئاً كهذا القرآن .

والحق سبحانه يقول فى آية أخرى ﴿ فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ (٢٩) ﴾ [الطور]

فما فيك شيءٌ من الكهانة أبداً ، والكهانة هى العرافة وادعاء علم الغيب ، وكانوا يغرُّون الناس بأشياء فيها قليل من الحقيقة وكثير من الباطل يزيدونه من عندهم فيضلونهم .

وهؤلاء الكهان كانت لهم كلمة مسموعة ، وكان الناس يستشيرونهم ويأخذون برأيهم فى كلِّ أمور دينهم ودنياهم .

﴿ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (٤٢) ﴾ [الحاقة] أى قليلاً ما تتذكرون . وأمثال هذه الآية وردت فى آيات كثيرة ، فقد قال تعالى : ﴿ اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (٣) ﴾ [الأعراف]

وقال : ﴿ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ

---

(١) سجع الكهان : الكلام المزوق المتكلَّف . [القاموس الفقهى ١/٣٢٦] مادة كهن . وفى معجم مجمع اللغة العربية (الوسيط) سجع الكهان : كلامهم الموزون المتكلف . ومقصود به استمالة السامعين.

أَءِلَـٰهٌ مَعَ اللهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (٦٢) ﴾ [النمل]

فلو تفكرتم وتذكرتم لعرفتم أن محمداً ﷺ ليس بشاعر ولا بكاهن ، وأن ما جاء به من عند الله ليس شعراً ولا هو سجعاً كسجع الكهان .

بل هو :

﴿ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٤٣) ﴾

فهو تنزيل من لدن عزيز حكيم ، والتنزيل معناه موالاة النزول لأبعاض القرآن ، فالقرآن قد أُنزل كله ثم بعد ذلك نزَّله الحق ونزل به جبريل عليه السلام على سيدنا محمد ﷺ.

فالحق تبارك وتعالى يوالى تنزيل القرآن عليهم آيةً بعد آية ، فلعلّ نجماً من نجومه يصادف فراغاً وقلباً صافياً من الموجدة على رسول الله فيؤمن .

وليس القرآن وحده تنزيلاً من رب العالمين ، فكلُّ الكتب السابقة السماوية كانت تنزيلَ رب العالمين ، لكن الفرق بين القرآن والكتب السابقة أنها كانت تأتى بمنهج الرسول فقط ، ثم تكون له معجزة فى أمر آخر تثبت صدقه فى البلاغ عن الله .

أما رسول الله فمعجزته عيْن المنهج ، القرآن المنزَّل من عند الله . ومادة نزل وما يُشتق منها من إنزال وتنزيل تفيد كلها أنه جاء من جهة العلو إلى جهة أسفل منه ، كأنك تتلقى من جهة أعلى منك وأرفع وما دُمْتَ تتلقى من جهة أعلى منك ، فإياك أنْ يضلّ بك الفكر لناحية أخرى .

وهو : ﴿ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٣) ﴾ [الحاقة] ولأنه رب العالمين فالكون كله لا يخرج عن حكمه ، فليطمئن الناس فى الدنيا أن ربهم لن يخلقهم هملاً ولا سُدىً ولم يتركهم ، بل لأنه ربٌّ أنزل لهم منهجاً ليهديهم سبيل الحق .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ (٤٥)
ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ (٤٧) ﴾

هذا مجال تهديد ووعيد لرسول الله ، ولو كان القرآنُ من عند محمد ﷺ لما ضمَّن القرآنَ هذا ، ولكن لأنه وحى من عند الله فإن رسول الله لم يكتم حرفاً واحداً من الوحى المنزَّل إليه من رب العالمين .

إنها الأمانة المطلقة والصدق الذى لا يُخفى شيئاً ، ألم يكن جديراً بالقوم أنْ يفقهوا هذه الناحية من رسول الله ، ويتفكروا فى صدقه ﷺ حين يخبرهم عن نفسه أشياء لم يعرفوها ، وكان من المنتظر أنْ يُخفيها عنهم ؟ أليس فى ذلك دليلٌ قاطع على صدقه فيما يقول.

فاطمئنوا إلى أن القرآنَ كتابُ الله الذى بين أيديكم هو كلام الله الذى جاء من علمه تعالى فى اللوح المحفوظ الذى قال عنه .

﴿ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ (١)(٧٨) لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ (٧٩)﴾ [الواقعة]

ثم نزل به الروح الأمين وهو مؤتمن عليه لم يتصرف فيه ، ثم نزل على قلب سيد المرسلين الذى قال الله عنه : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ﴾ [الحاقة]

إذن : حُفظ القرآن علماً فى اللوح المحفوظ ، وحُفظ فى أمانة مَنْ نزل به من السماء ، وحُفظ فى مَنْ استقبله وهو النبى ﷺ، فلا حجةَ لنا بعد أنْ جمع الحق سبحانه وتعالى للقرآن كلّ ألوان الحفظ .

وكان بوسع رسول الله أنْ يكتم الآيات التى عاتبه الله فيها نحو قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ ..(١)﴾ [التحريم] ويقول سبحانه : ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ ..(٤٣)﴾ [التوبة]

لكنه ﷺ كان أميناً يقول ما له وما عليه ، فالقرآن كما نزل من عند الله لم يُغيَّر فيه حرفٌ واحد ، وسيظل كذلك محفوظاً بحفظ الله له إلى أنْ تقوم الساعة .

وكلمة (تقوَّل) أى افترى وادَّعى واختلق ، أى أتى بشيء من عند نفسه لم

---

(١) المكنون : المحفوظ ﴿ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ (٧٨) ﴾ [الواقعة] قيل : هو اللوح المحفوظ . وقيل : هو القرآن يصونه المؤمن مكتوباً أو يصونه فى قلبه محفوظاً .

نقُلْه نحن ، قاله من تلقاء نفسه ، ولم نأذن له فيه .

فلو فُرض أن محمداً افترى علينا كلمة واحدة أو قولاً من الأقوال ونحن لم نقُلْه له ﴿ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥)﴾ [الحاقة] أى بقوة شديدة، فاليمين عند العرب أقوى من اليسار ، وإنْ كانت كلتا يدى ربى يميناً مباركة ، لكن لتقريب المعنى للناس .

و(الأقاويل) الأكاذيب المفتراة التى لا تعدو وأنْ تكون أقاويل لا حقيقة لها .

والحق سبحانه يقول فى سورة الطور ﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٣)﴾ [الطور]

فـ (تقوَّله) أى اختلقه وأتى به من عند نفسه ، وإذا كان محمد قد اختلقه وافتراه فلتأتوا بمثله ، فإذا كان شعراً فأنتم الأعلم والأقدر على قول الشعر ، وإنْ كان سجعاً كسجع الكهان فأنتم تعرفونه .

لذلك قال تعالى : ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ(٣٤)﴾ [الطور]

ولكن لتعلموا أن محمداً لا يستطيع أنْ يختلق فى القرآن شيئاً لم نقُلْه نحن وإلا أخذناه بالقوة والقدرة وانتقمنا منه باليمين أى بالحق .

﴿ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦)﴾ [الحاقة] والوتين : عرق فى القلب إذا قُطع مات صاحبه . وقال ابن عباس : يعنى نياط القلب ، وقد قال بعض العلماء : ليس المقصود أننا نقطعه بعينه ، بل المراد أنه لو كذب علينا لأمتناه فكان كمن قطع وتينه [1] . فالوتين هو ما نعرفه بالشريان الأورطى ويسمونه الأبهر .

﴿ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (٤٧)﴾ [الحاقة] فلا يقدر أحدٌ من الناس أنْ يحجزنا ويمنعنا ويحول بيننا وبينه فى أخذه بيميننا أو فى قطعنا وتينه ، إذ ليس ذلك فى قدرة أحد أو فى إمكانه .

---

(١) قاله ابن قتيبة الدينورى . ذكره الخازن فى تفسيره (لباب التأويل فى معانى التنزيل) (٤/٣٢٨) دار الكتب العلمية بيروت . وكذا ذكره الرازى فى مفاتيح الغيب (٣٠/٦٣٥) . وابن عادل الدمشقى (ت ٧٧٩ هـ) فى (اللباب فى علوم الكتاب) (١٩/٣٤٥) .

وقد يسأل سائل : الحق سبحانه قال (من أحد) بالمفرد . ثم عبَّر سبحانه بالجمع (حاجزين) . نقول : قد قال (حاجزين) بلفظ الجمع وهو وصف أحد ردًّا على معناه .

يعنى لو اجتمع آحادٌ كثيرون ، والعرب تجعل أحداً للواحد والاثنين والجمع .

وليس هناك من أحد أياً كان هذا الأحد ، مهما كانت قوته ومكانته يستطيع أنْ يحجزنا عنه ويمنعنا من معاقبته إذا تقوَّل علينا فى القرآن ما لم نقله .

لذلك قال (من أحد) . يعنى أى أحد .من بداية ما يُقال له أحد .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾ ﴾

فالقرآن ليس شعراً ولا هو بسجع الكهان ، إنما هو ﴿ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٣) ﴾ [الحاقة] ، وهذا القرآن لم يُنزله الله بلا هدف ولا هو لمجرد القصِّ والتلاوة ، إنما للتذكرة .

لذلك يقول تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ (٤٨) ﴾ [الحاقة] ويقول تعالى: ﴿ كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ (٥٤) فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ (٥٥) ﴾ [المدثر]

فهذا يعطينا حكمة التنزيل وغايته ، ويقول تعالى : ﴿ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى (٢) إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى (٣) ﴾ [طه]

أى ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ، وإنما أنزلناه (تذكرة) أى تذكيراً لمن يخشى ويخاف بمهابة .

فالقرآن تذكرة للمتقين ، والحق سبحانه يؤكد هذا باستخدام (إنَّ) فيقول (وإنه) ثم اللام (لتذكرة) .

وهو تذكرة للمتقين ، فالمتقون هم الذين يخشون ربهم ويخافون عذابه

وتصلح معهم التذكرة ويستجيبون لها تبشيراً وإنذاراً، يقول تعالى : ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ (٥٥) ﴾ [الذاريات]

فالتذكرة والذكرى عظة وتذكير للمتقين الذين يتقون عقابَ الله بأداء فرائضه واجتناب معاصيه ، فهم يتقون عقاب الله بطاعته .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُمْ مُكَذِّبِينَ (٤٩) ﴾ [الحاقة]، ما زال الحق سبحانه يؤكد بـ (إنّ) ثم (اللام) فيقول ﴿ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ (٤٩) ﴾ [الحاقة]

وعلمنا ليس لمن يصرح ويجاهر بالتكذيب فقط ، إنما نحن نعلم حتى مَنْ يُخفى التكذيب فى قلبه ولم يصرح به .

فهم مكذِّبون بالله وبالآخرة ، ولو لم يكونوا مكذِّبين بالآخرة لآمنوا واتبعوا منهج الله ، وهم أيضاً مكذّبون أنه رسولٌ من الله.

وهذا وعيدٌ وتهديد للمكذبين ، فنحن نعلم أن منكم مَنْ يكذّب بالقرآن رغم وضوح إعجازه، فيقولون إنه شاعر وكهانة وأساطير الأولين، فهم كذبوا على الله.

ولكن هل (منكم) هنا تعني من المسلمين ، أى منافقون . البعض من العلماء قال هذا ﴿ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُمْ مُكَذِّبِينَ (٤٩) ﴾ [الحاقة] يعنى : إنَّا لنعلم أن منكم أيها المؤمنون مكذبين بالقرآن يعنى منافقين .

ولكن هذه السورة سورة الحاقة وهى سورة مكية ولم يكن قد ظهر فيها النفاق بعد، فـ (منكم) هنا لا تعنى المؤمنين ولا المتقين إنما تعنى أهل مكة .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ (٥٠) ﴾ [الحاقة]

الهاء فى ﴿وَإِنَّهُ (٥٠)﴾ [الحاقة] عائدة على التكذيب المفهوم من فحوى الآية قبلها ، بينما الهاء فى (وإنه) فى قوله ﴿ وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ (٤٨) ﴾[الحاقة] عائدة على القرآن الذى جاء به محمد ﷺ من عند الله . الذى هو ﴿ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٤٣) ﴾ [الحاقة]

والحق سبحانه يستخدم نفس أدوات التوكيد (وإنه) ثم اللام فى (لحسرة) .

والحسرة ألمٌ فى القلب ، ولا تكون الحسرةُ إلا إذا أُصيب الإنسان بمصيبة لا منأى من النجاة منها ، وقد قال تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ (١٦٧)﴾ [البقرة]

فالخاسر الذى خسر دنياه وآخرته بتكذيبه لله وللرسول والقرآن تجده يعيش فى الحسرة والألم على ما فقد ، وتجده فى فقر دائم فى الدنيا ، وتجده يتحسَّر أكثر عندما يعاين العذاب يوم القيامة ، ويكون قد فات أوانُ الرجوع والعودة.

والحق سبحانة يقول : ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَـٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ (٣١)﴾ [الأنعام]

فهم لا يستطيعون كتمان حسرتهم فيقولون ﴿ يَـٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا (٣١)﴾ [الأنعام] أى على تفريطنا وإسرافنا فى أمرنا .

فالتكذيب بالله وبالقرآن الذى أنزله الله على محمد ﷺ سيكون حسرةً على الكافرين لأنهم سيجدون ما كذَّبوا به ماثلاً أمام أعينهم، ويحاسبهم الله على تكذيبهم وكفرهم .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ (٥١)﴾ [الحاقة]

فحقُ اليقين وهو يوم يدخل المكذب الكافر النار ويباشر حرَّها ، يقول تعالى: ﴿ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ (٩٢) فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ (٩٣) وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ (٩٤) إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ (٩٥) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٩٦)﴾ [الواقعة]

فعندنا علم اليقين وهو الصورة العلمية للنار ، وعين اليقين فى الآخرة عندما نمر على الصراط ونرى النار رؤيا العين ، ثم حقُّ اليقين وهذه للكفار حين يُلقون فيها ويباشرونها فعلاً ، ويذوقون حرَّها ولظاها .

فحقّ اليقين محضه وخالصه ، وهو من إضافة الشيء إلى نعته أو صفته ، فاليقين هنا صفة للحق ، و هو حق لا شكَّ فيه ولا شبهة بأنه مُنزَّل من لدُنا .

فهو حقٌّ لا بطلانَ فيه ، ويقينٌ لا ريْبَ فيه ، ثم أضيف أحد الوصفين إلى الآخر للتأكيد .

ثم يُنهى الحق سبحانه سورة الحاقة فيقول :

﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾ ﴾

فنزِّه الحق سبحانه عن أنْ يكون له شريكٌ فى أمور الخَلْق والكون ، بل هو سبحانه العظيم فى قدرته ، العظيم فى رحمته ، العظيم فى حكمته ، العظيم فى قيوميته على كَوْنه وخَلْقه ، العظيم فى علمه ، العظيم فى ثوابه ، العظيم فى جزائه .

سُورَةُ المَعَارِجِ

سورة المعارج[1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١ لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ۝٢ ﴾

﴿ سَأَلَ سَائِلٌ (١)﴾[المعارج] طلب ودعا داع ، وطلب كافر من كفار مكة لنفسه ولقومه نزولَ عذاب ، والسائل هو النضر بن الحارث ، فإن رسول الله ﷺ لما خوَّفهم نزول العذاب قال استهزاء وإنكاراً: ﴿ اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَـٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢)﴾ [الأنفال]

وقد بلغ بهم العجز إلى أنْ قالوا : إنْ كان هذا القرآن هو الحق القادم من عندك فأمطر علينا حجارة أو ائتنا بعذاب أليم .

أليس هذا الكلام دليلاً على غباء قائليه ؟ لو كان عندهم عقل ومنطق وتفكير ما كانوا يقولون ذلك ، ولكنهم بغبائهم طلبوا الموت بدلاً من الهداية .

---

(١) سورة المعارج هى السورة رقم (٧٠) فى ترتيب المصحف الشريف ، عدد آياتها ٤٤ آية ، نزلت بعد سورة الحاقة ، نزلت بمكة فهى سورة مكية باتفاق . قاله القرطبى فى تفسيره (١٨/٢٧٨) .

وهذا دعاء مَنْ لا عقل له ، ولو كانوا يعقلون لقالوا : إن كان هذا الحق من عندك فاهْدنا يارب إليه أو اجعلنا نؤمن به ، ولكنهم من فرط حقدهم وضلالهم تمنَّوا العذاب على الإيمان بالحق ؛ وهذا يكشف لنا تفاهة عقول الكفار.

ولو استجاب الحق لمثل هذا الدعاء لكان وبالاً على مَنْ دعوا ذلك الدعاء . ومَنْ قالوا هذا القول هم : العاص بن وائل السهمى ، والوليد بن المغيرة ، والأسود بن عبد المطلب ، والأسود بن عبد يهود . وكانوا قد وصلوا إلى قمة الاضطراب .

فهم قد اضطربوا أولاً حين اتهموه بأنه ساحر ، واضطربوا ثانياً وحاولوا أن يقولوا : إن القرآن شعر ، والقرآن ليس كذلك .

حاولوا أن يتهموا رسول الله بالجنون ليطعنوا فيما جاء به من القرآن حتى لا يؤمنوا به .

وقالوا (كاهن) ولكن وجدوا أنَّ كلَّ هذا لا يستقيم .

فاضطربت عقولهم فدعوا بأنْ ينزل عليهم العذاب ، وقد قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا (١) قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ (١٦)﴾ [ص]

والقِطُّ هو جزاء العمل وهو مأخوذ من القط أى القطع ، والقسط : والقط والنصيب ، فقالوا بطريق الاستهزاء والسخرية : يا ربنا عجّل لنا قِطّنا ونصيبنا من العذاب الذى تتوعدنا به ولا تُؤخِّره إلى يوم الحساب .

﴿ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ (١)﴾ [المعارج] أى : بعذاب نازل بهم وحاصل لا محالة .

﴿ لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ (٢) ﴾ [المعارج] فهو عذاب للكافرين خاصَّة دون المؤمنين . واللام هنا فى ﴿ لِلْكَافِرِينَ (٢)﴾ [المعارج] بمعنى على : أى واقع على الكافرين . ويحتمل أنْ تكون بمعنى (الباء) بمعنى : أى بالكافرين واقع .

والدافع : المانع الذى يدفع ويمنع العذاب عنه ، فليس له دافع يردُّ عنه العذاب .

---

(١) قطنا : نصيبنا ، والقط : الحساب . وذكر الأزهرى فى تهذيب اللغة (باب القاف والطاء) : أى نصيبنا من العذاب .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ۝٣ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ۝٤ ﴾

هذا العذاب واقعٌ على الكافرين من الله ذى المعارج ، والمعارج هى المصاعد والدرجات التى تصعد فيها الملائكةُ من سماء إلى سماء ، فهى مراقٍ فى السماء يُرتقى فيها .

وذلك كقوله تعالى : ﴿وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ(٣٣)﴾ [الزخرف] ويظهرون يعنى: يصعدون ويرتقون .

وقوْلُ الله سبحانه ﴿مِنَ اللهِ ذِى الْمَعَارِجِ (٣) تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ (٤)﴾ [المعارج] يُدخِلُ الخوف والرهبة فى قلوب الكافرين ، إذ إن كل المخلوقات تحت قهر سلطانه سبحانه ، والملائكة هى من هذه المخلوقات تصعد إليه فى معارج السماوات .

﴿ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ (٤)﴾ [المعارج] الروح هو جبريل عليه السلام ،ذكره الحق سبحانه بعد ذكر الملائكة ، فذكْر الخاص بعد العام يعطى أهمية وعظمة للخاص لتميُّزه وفضله .

والملائكة إنما تعرجِ إلى الله كما تصعد أرواحُ بنى آدم إليه عند قبضها حين الموت ، فالهاء فى ﴿ إِلَيْهِ (٤)﴾ [المعارج] عائدة على اسم الله سبحانه .

وقد قال بعض أهل التأويل أن الضمير في(إليه) يعود إلى الموضع الذى لا يجرى لأحد سواه فيه حكمٌ ، فجعل عروجهم إلى ذلك الموضوع عُروجاً إليه ، كقوْل إبراهيم عليه السلام : ﴿ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّى (٩٩)﴾ [الصافات] أى : إلى حيث أمرنى ربى بالذهاب إليه .

﴿ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ (٤)﴾ [المعارج]

ولكى نعرف معنى كلمة (يوم) عند الله كان لا بد أنْ نضم إلى هذه الآية قوله تعالى : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (٤٧)﴾ [الحج]

فالله عزَّ وجل هو خالق الزمن ، فلذلك فإنه يستطيع أنْ يخلق يوماً مقداره ساعة ، ويوماً كأيام الدنيا مقداره أربع وعشرون ساعة ، ويوماً مقداره ألف سنة ، ويوماً مقداره خمسون ألف سنة، ويوماً مقداره مليون سنة ، فذلك خاضعٌ لمشيئة الله .

فالأزمنة متعددة ومنوَّعة وتختلف من قياس إلى آخر ، ومن كوكب إلى آخر ، وما أظهره الله لنا فى القرآن من الأزمنة إنما يدلُّ على اختلافها لا على التعارض والتناقض .

فإذا كان الحق سبحانه يتحدث عن العروج إليه هنا ، فيقول:

﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ (٤)﴾ [المعارج] فإنه سبحانه ينقص هذه المدة فيقول تعالى فى آية أخرى : ﴿ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (٥)﴾ [السجدة]

لماذا ؟ لأن الزمن عندكم فى هذه الحالة معطّل ، فأنتم من هوْلِ ما ترونَ تستطيلون القصير ، ويمرّ عليكم الوقتُ ثقيلاً ، لذلك تتمنون الانصراف ولو إلى النار .

كما أن صاحب النعيم يستقصر الطويل ، ويمرُّ عليه الوقت كأنه لمح البصر .

وقد سُئِل رسول الله ﷺ عن ﴿ يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ (٤)﴾ [المعارج] ما أطولَ هذ اليوم ! فقال : والذى نفسى بيده ، إنه ليُخفَّف على المؤمن حتى يكونَ أهونَ عليه من صلاة مكتوبة يصليها فى الدنيا [١].

---

(١) أخرجه الثعلبى فى تفسيره (الكشف والبيان عن تفسير القرآن) (١٠/٣٦) عن أبى سعيد الخدرى. وذكره ابن كثير فى تفسيره (٦/١٠٧) من رواية الإمام أحمد عن أبى سعيد الخدرى أيضاً . وكذا السيوطى فى الدر المنثور (٨/٢٨٠) وعزاه لأحمد وأبى يعلى وابن جرير وابن حبان والبيهقى فى البعث والنشور ، كلهم من حديث الخدرى .

فيوم القيامة هو فى حَقِّ المؤمن أهون عليه من صلاة مكتوبة يصليها فى الدنيا ، وكأنه ربع الساعة ، أما الكافر فهو فى شدة استطالته وشدته وكأنه خمسون ألف سنة .

وقد يسأل سائل : هل تحتاج الملائكة إلى خمسين ألف سنة لتعرج إلى ربها؟ لذلك قيل إنه يوم فى حساب الملائكة ، ولكن حساب هذا اليوم بحسابكم أنتم هو خمسون ألف سنة .

فالملائكة يقطعون فى يوم ما يقطعه الإنسان فى خمسين ألف سنة .

﴿ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ۝٥ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ۝٧ ﴾

فاصبر يا محمد صبراً جميلاً ، أى صبراً حسناً لا جزعَ فيه ، اصبر على أذى هؤلاء المشركين لك ، ولا يُثنيك ولا يصرفك ما تلقى منهم من المكروه عن تبليغ ما أمرك ربك أن تبلغهم الرسالة .

فاصبر صبراً جميلاً لا يشوبه استعجال واضطراب قلب ، فاصبر على سؤالهم ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ (١) ﴾ [المعارج] لأن السؤال كان عن استهزاء أو تعنُّت .

فهو سؤال يستبعد وقوع يوم القيامة ووقوع العذاب بهم ، لذلك كان قول الحق سبحانه : ﴿ لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ (٢) ﴾ [المعارج]

وهذا العذاب واقع بكم من الله صاحب العظمة فى يوم شديد طويل على الكافرين .

وقد ذكر الحق سبحانه الصبر الجميل فى حقِّ نبى الله يعقوب وعلى لسانه فقال لأبنائه : ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ(١) لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ (١٨)﴾ [يوسف]

والصبر عادة يكون مؤلماً ، فكيف يكون جميلاً ؟ يكون جميلاً حينما لا

---

(١) سوَّلت : زينت . والتسويل من سُول الإنسان وهو أمنيته التى يتمناها فتزين لطالبها الباطل والغرور . [تهذيب اللغة للأزهرى س و ل] .

تكون فيه شكوى أو جزع . وهناك الهجر الجميل فى قوله تعالى :﴿ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا (١٠)﴾ [المزمل] الذى لا يقترن بغيبة أو نميمة أو جدال .

وقد أمر الحق سبحانه رسوله محمداً بالصبر على قومه فى آيات كثيرة من قرآنه ، ﴿ فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا (١٣٠)﴾ [طه]، وفى آية أخرى قال تعالى: ﴿ اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ (١٧)﴾ [ص]

تأمره بالصبر ثم تسبيح الله عز وجل ، وكأن التسبيح يجعل صبره صبراً جميلاً ، لأنه حين التسبيح لا يرى تكذيبهم واتهامه له بما لا يجوز ، إنما هو يرى الحق سبحانه فيسبِّحه وينزِّهه .

ثم يحدِّثنا الحق سبحانه عن يوم القيامة وعن العذاب الواقع بهم والذى سألوا عنه واستعجلوه : ﴿ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا (٦)﴾ [المعارج] أى يرونه غير متحقق، فهم يستبعدون حدوث هذا اليوم ، لا أنهم مؤمنون به ، ولكنهم يرونه سيحدث فى زمن بعيد ، إنما هم يستبعدون حدوثه من الأساس .

لذلك كان قوله تعالى بعده :﴿ وَنَرَاهُ قَرِيبًا (٧)﴾ [المعارج] أى : نراه متحققاً كائناً لا ريبَ فى حدوثه .

فهم يرونه غير واقع ونحن نراه قريباً لأنه كائن ، وكل ما هو آت قريب ، وما استبعده مَنْ استبعده إلا لأنه مرتابٌ شاكّ ، فأما المؤمن بالشيء الواثق به فلا يستبعده .

ثم يذكر لنا الحق سبحانه أهوال هذا اليوم ومشاهده ، فيقول تعالى :

﴿ يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ ﴾

يقول تعالى : ﴿ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ (٨)﴾ [المعارج]

فالسماء يوم القيامة تتشقق وتتداعى ، فيتغير لونها من الزُّرْقة إلى الحمرة،

والمهل هو عكر الزيت فى أسفل إنائه ، أو هو ما يُذاب من المعادن كالنحاس والرصاص والحديد .

فالقرآن يقرر أنَّ أحداثاً كونية كبرى ستقع فى هذا اليوم الذى مقداره خمسون ألف سنة ، تتغير بسببها أوضاع الكواكب والنجوم والمجرَّات وتتغيَّر صفاتها .

﴿ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ(٩)﴾ [المعارج] أى حينها تكون الجبال كالصوف المندوف ، كما قال تعالى فى آية أخرى :﴿ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ (٥)﴾ [القارعة]

فالجبال ستتفتت وتتناثر ، وتصبح كالصوف المندوف ، هذه حال الجبال يوم القيامة ، وأحداثها المروِّعة بعد صلابتها وقوتها التى كانت عليها ، فتصبح كأنها لم تكُنْ .

﴿ وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا(١٠)﴾ [المعارج] فليس لأحد قريب أو صديق يدفع عنه ويحزن عليه ، فهم يتحامونه ويفرُّون منه ، وهم أنفسهم لا يجدون مدافعين عنهم ، فكل واحد ينشغل بنفسه ، فلا يسأل صديقٌ عن صديق ، ولا قريب عن قريب ، وإنْ كان يراه فى أسوأ الأحوال إذ هو مشغول بنفسه قبل كل شيء .

إنه لا يستطيع حتى أنْ يسأله عن حاله ، ولا أنْ يقول له : كيف حالك ولا يكلمه لهول ذلك اليوم وشدته .

ثم يقول تعالى :

﴿ يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ (١١) وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ (١٢) وَفَصِيلَتِهِ(١) الَّتِي تُؤْوِيهِ (١٣) وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ (١٤) ﴾

(١) وضعت القبائل على خلقة الجسد : الشعب ثم القبيلة ثم العمارة ثم البطن ثم الفخذ ثم الفصيلة وهى القطعة من أعضاء الجسد (الزاهر فى غريب ألفاظ الشافعى ١/١٨٥) . ولكن الكلبي وضع الفصيلة بعد القبيلة فجعلها أكبر . وقال ابن الأثير فى النهاية في غريب الحديث (٣/٤٥١) : الفصيلة من أقرب عشيرة الإنسان .

﴿يُبَصَّرُونَهُمْ (١١) ﴾ [المعارج] أى يرونهم ويعرفونهم ولكنهم لتشاغلهم بأنفسهم لم يتمكنوا من تساؤلهم ، أو لأنهم لا يرون جدوى لذلك ، فهذا المجرم الآثم الظالم الذى تناهى إجرامه بكفره بربِّه واستكباره عن عبادة مولاه .

﴿ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ (١١) ﴾ [المعارج]

وهو لإجرامه يريد أنْ ينجو من عذاب الله له على آثامه وذنوبه ، فيودُّ لو يقدم بنيه الذين كان يترجاهم من الله وهو فى الدنيا ، ولو يقدم صاحبته التى هى زوجته التى شاركته دنياه ، بل ويقدم أخاه بل ويقدم فصيلته وعشيرته وأهله وناسه ، بل يقدم مَنْ فى الأرض جميعاً .

هو على استعداد أنْ يقدِّم الجميع فداءً لنفسه فى سبيل أنْ يُنجيه الله من العذاب .

إنه يتمنى لو ملك هؤلاء وكانوا تحت يده ، إذن لافتدى بهم نفسه ظناً منه أن هذا سيُنجيه من العذاب .

وقد قطع الله أمل الكافرين والظالمين والمجرمين فى الافتداء من العذاب ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ أُولَـٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٩١) ﴾ [آل عمران]

وإذا كان الحق سبحانه قد قطع أملهم ﴿ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا (٩١) ﴾[آل عمران] فإنه سبحانه يقطع أملهم فى النجاة ، فيقول هنا فى المعارج :

﴿ كَلَّا إِنَّهَا لَظَىٰ (١٥) نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ (١٦) (١)
تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ (١٧) وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ (١٨) ﴾

فهذه هى الحقيقة تقولها كلمة ﴿ كَلَّا إِنَّهَا لَظَى (١٥) ﴾[المعارج]، فهذا الظن

---

(١) نزاعة للشوى : هى النار التى تنزع الأيدى والأرجل وتبقى الأنفس فى الأغلال لا حية ولا ميتة. [كتاب العين للخليل بن أحمد ٦/٢٩٨]

وهو إمكانية الافتداء غير صادق ، وأيضاً إمكانية النجاة غير متحققة لكم .

فالعذاب واقع بكم لا محالة ﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ (١) ﴾[المعارج] فيقول تعالى : ﴿ كَلَّا إِنَّهَا لَظَى (١٥) ﴾ [المعارج]

فـ (كلا) ردع وزجرٌ للمجرم عن أنْ يود ذلك ، فلن ينفعه الافتداء ولن ينجيه من العذاب .

إنها نار شديدة السعير عظيمة التلظى وهي ﴿ نَزَّاعَةً لِلشَّوَى (١٦) ﴾ [المعارج] فلا تأخذها رحمة ولا شفقة ولا هوادة فى أخْذ المجرمين وتعذيبهم .

فهى تشويهم بنارها ولظاها فيحترقون فيها ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ (٥٦) ﴾ [النساء]

و (لظى) اسم من أسماء النار ، وهى تتلظى أى تتلهَّب بلهب خالص ، وقد وصف الحق سبحانه ذلك اللهب فى آية أخرى : ﴿ انْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ (٣٠) لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ (٣١) ﴾ [المرسلات] شُعَب النار لهبها الذى إذا سطع وارتفع تشعَّب وتفرَّق ثلاث شُعَب .

والنار ﴿ نَزَّاعَةً لِلشَّوَى (١٦) ﴾ [المعارج] فالنار تنزع الأطراف كاليدين والرِّجليْن فلا تترك عليها لحماً ولا جلداً ، فالشوى جمع شواة وهو الطرف كاليد والرِّجل وأطراف الأصابع وجلدة الرأس .

إنه عذابٌ ما بعده عذاب ، نار تنزع أم الرأس وتنزع لحم ساقيه ، ولكن قلبه نضيج حيٌّ ، وهذا عذاب ما بعده عذاب ، أن تأكل النار أطرافه وفروة رأسه وهو حَيٌّ يشعر بلظى النار وسعيرها .

والنار ﴿ تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى (١٧) وَجَمَعَ فَأَوْعَى (١٨) ﴾ [المعارج]

وهذا خبر ثانٍ عنْ النار ، فالنار لظى ، وهى تدعو مَنْ أدبر وتولى ، ودعاء النار ونداؤها ليس على الحقيقة بل هو لون من ألوان المجاز ، وذلك كقوله تعالى : ﴿ حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا (٤) ﴾ [محمد] فليست الحرب هى التى تضع أوزارها حقيقةً ، إنما مَنْ أوقدوها والمنغمسون فيها والواقعون فيها .

فالنار تدعو إليها الكافرين والمجرمين الذين يحاولون الفرار منها ، كما تدعو الأغنياء والمترفين الذين كانوا يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله ، ويمنعون الفقراء من حَقِّ الله .

وقد ذهب بعض العلماء إلى أن النار تناديهم بأسمائهم واحداً واحداً ، فهى تدعو مَنْ أدبر عن الإيمان وتولى عن الحق ، فتقول : إليَّ يا مشرك .. إليَّ يا منافق .

حتى أن ابن عباس قال : تدعو الكافرين والمنافقين بأسمائهم بلسان فصيح ، ثم تلتقطهم كما يلتقط الطير الحَبَّ[1] .

هذا عن دعاء النار وندائها ، ولكن مَنْ تدعو النار وتناديهم ؟ إنها تدعو ﴿ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى (١٧) ﴾ [المعارج] فهى تدعو مَنْ أعرض عن الإيمان ونأى بجانبه وكفر بدعوة الرسل إلى توحيد الله وعبادة الله وحده .

﴿ أَدْبَرَ (١٧) ﴾ [المعارج] أى أعطى ظهره ودبره للحق وأعرض عن الطاعة للدخول فيها ﴿ وَتَوَلَّى (١٧) ﴾ [المعارج] أعرض عن الحق وعن الإيمان بكتابه ورسله .

وإذا كان قد أدبر وتولى عن الحق ، ففى أيِّ شيء قضى حياته ، وأنفق عمره، فإدباره وتولِّيه كان لأنه اختار الدنيا على الآخرة ، فهو ﴿ وَجَمَعَ فَأَوْعَى (١٨) ﴾ [المعارج]

فهو مع كفره وفسقه ونفاقه يجمع المالَ من كلِّ طريق ويكنز ماله ، فهو جمع المال من حلِّه ومن غير حلِّه ، ولم يؤدِّ حقَّ الله فيه .

وقد قال عنه الحق سبحانه فى موضع آخر : ﴿ الَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ (٢) يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ (٣) ﴾ [الهمزة]

---

(١) أورده الخازن فى لباب التأويل (٤/٣٤١) وقد أخرج ابن أبى حاتم فى تفسيره (١٧٧٧٤) عن قتادة مرسلاً أن كعباً كان يقول : يخرج يوم القيامة عنق من النار فيقول : يأيها الناس إنى وكلت منكم بثلاث ، بكل عزيز كريم ، وبكل جبار عنيد ، وبمن دعا مع الله إلهاً آخر فيلتقطهم كما يلتقط الطير الحب من الأرض .

فهذا قد أطغاه الغِنَى والمال حتى أنه نظر إلى مَنْ هو دونه من الفقراء نظرةَ التحقير والازدراء ، وهو يظن أنَّ ماله سيمنحه الخلود فلا يموت حتى يفنى ماله .

فلم ينفعه ماله ولم يُنجه كنزه للمال ﴿ كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ[1] (٤) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ (٥) نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ (٦) الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ (٧) إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ (٨) فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ (٩) ﴾ [الهمزة]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (٢١) ﴾

هلوع صيغة مبالغة تدل على شدة الهلع ، فهى فعول ، والهلع شدة الحرص وقلَّة الصبر فهو ضَجِر ملول متقلب يسعى وراء شهواته ونزواته وهواه .

فالهلع شدة الجزع إذا أصابه شَرٌّ أو خاف من شيء ما ، وهو مع جزعه شديد الحرص والضجر بخيلاً شحيحاً إذا رزقه الله رزقاً تجده منوعاً .

فهو إذا قلّ ماله وناله الفقر والعدم تجده لا صبر له ، حتى إذا كثر ماله ونال الغنى تجده منوعاً لما فى يده، بخيلاً به لا ينفقه فى طاعة الله ولا يؤدى حقَّ الله منه .

وكلمة إنسان هنا تفيد عموم جنس الإنسان ، ويحدثنا الحق سبحانه فى آية أخرى عن صفات الإنسان ، فيقول : ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ (٩) ﴾ [هود]

فالنعمة حين يشاء الحق سبحانه أنْ تصيب الإنسان ثم تُنزع منه هنا يُصاب الإنسانُ بالقلق أو الحزن أو الهلع أو اليأس والنعمة مهما قلَّت فالإنسان

---

(١) الحطمة : النار تحطم ما ألقى فيها . وهى من أسماء النار مثل جهنم وسقر ولظى [غريب الحديث لإبراهيم الحربى ٢/٣٨٩] .

يستطيبها وإنْ نُزعتْ منه فهو يئوسٌ كفور . فاليئوس الكفور هو أيضاً الهلوع الجزوع المنوع ولاحظ أنها كلها صيغ مبالغة ، فالمقصود به الإنسان الشديد الجزع المنَّاع للخير الشديد الكفر بالله ، اليئوسٌ من رحمة الله ونعمته .

والمتأمل هنا نجد أن الحق سبحانه استخدم لفظة (مسَّه) بينما هو فى سورة هود (أذقنا) . فهما أمران المسّ والإذاقة . والذَّوْق هو للإدراك لا للأكل، فأنت حين تشترى فاكهة يقول لك البائع : تفضَّل ذُقْ ، فتأخذ واحدة منها لتستطيب طعمها .

والذوق قد يكون بأنْ تدع لسانك يلمس مطعوماً ما لذوقه فقط ، فيقرِّب الشيء من لسانه ويمسّه ، وهذا معنى المسِّ ، أى اللمس الخفيف ، أو اقتراب شيء من شيء ، فالمسّ لمسٌ خفيف، وقد يكون المسُّ للحظة .

فهذا الإنسان الهلوع لعدم إيمانه الذى كان من الممكن أنْ يُكسبه طمأنينة وسكينة وتقبُّلاً لتقلبات الحياة تجده مع أول مسٍّ من فقر أو احتياج ، أو مصيبة، أو شر تجده جزوعاً شديد الجزع ، والهلع والخوف .

وإذا أصابتْه نعمة صغرت أو كبرت تجده لا يعترف بفضل الله عليه أنه رزقه، فتجده يمنع الخير الذى وصله عن الناس ، فلا يؤدى حقَّ الله عليه ، لأنه لا يؤمن بالله .

لذلك قال تعالى بعدها :

﴿ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾
وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ ﴾

إذا كان الحق سبحانه فى الآيات الثلاث السابقة ذكر الإنسان وقال : ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) ﴾ [المعارج] فإنه سبحانه هنا استثنى فقال : ﴿ إِلَّا الْمُصَلِّينَ (٢٢) ﴾ [المعارج]

وعندما نستقريء القرآن الكريم نجد أن كلَّ خبر عن الإنسان وهو معزول عن منهج الله هو خبر كله شرٌّ ، فسبحانه يقول : ﴿ وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) ﴾ [العصر]

إن الإنسان على إطلاقه لفى خُسْر ، ولكن مَن الذى ينجو من الخسران ؟ وتأتى الإجابة من الحق فيقول: ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣) ﴾ [العصر]

فكلُّ كلام فى القرآن عن الإنسان على إطلاقه يأتى من ناحية الشر ، وما الذى يُنجيه من ذلك ؟ إنه منهج الله .

والحق سبحانه يضع لنا منهجه بدايةً من هذه الآية (إلا المصلين) حتى قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ (٢٣) ﴾ [المعارج]

أول عناصر هذا المنهج الإلهى قوله تعالى : ﴿ إِلَّا الْمُصَلِّينَ (٢٢) الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ (٢٣) ﴾ [المعارج]

فأوله الصلاة وطاعة الله بأداء ما افترض عليه منها ، ولا تكون الصلاة إلا عن إيمان بالله وبرسوله وبكتابه ، فاستغنى الأمر عن ذكر الإيمان ، ثم إن الحقَّ سبحانه هنا يرسم عناصر منهج تطبيقى ، والإيمان أمرٌ عقديٌ قلبيّ .

﴿ إِلَّا الْمُصَلِّينَ (٢٢) الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ (٢٣) ﴾ [المعارج] يقيمونها فى أوقاتها لا يدَعُونها بالليل والنهار ، فلا يتركون صلاةً مكتوبة إلا أتوْهَا حيث يُنادَى بها .

ولكنه يصليها بحقها ، فلا يلتفت عن يمينه ولا عن شماله ، ولا يزيلون وجوههم عن سمْت القبلة .

وهم دائمون على صلاتهم مستمرون على أدائها لا يشغلهم عنها شاغل ، ولا يضيعون منها شيئاً ، هذه الديمومة تعطى صورة الاستقرار والاستطراد ، فهى صلاة لا يقطعها الترك والإهمال .

وقد كان أحبُّ الأعمال إلى رسول الله ما دام وإنْ قلَّ ، فالديمومة تعطى صفة

ثبات الصلة بالله تعالى .

ثم يعطى لنا الحق سبحانه صفة أخرى وركناً آخر من أركان منهج الله ، فيقول تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ (٢٤) ﴾ [المعارج]

الحق سبحانه هنا يتحدث عن المؤمنين الذين آمنوا بالله ورسوله وكتابه لذلك قال: ﴿حَقٌّ مَعْلُومٌ (٢٤)﴾ [المعارج] . والحق المعلوم فى أموال المؤمنين المكلَّفين هو الزكاة .

أما فى مقام الإحسان الذى يعلو مقام الإيمان فإن الله يجعل فى أمواله حقاً ولكن ليس معلوماً ، فيطلقها الحق سبحانه : ﴿ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩) ﴾ [الذاريات]

ففى مقام الإحسان يكون فى مالهم حق للإحسان إلى الفقير وإنْ لم يكُنْ معلوماً أى لم يحدَّد ، وهذا فى صالح الفقير ، فالإنسان فى مقام الإيمان قد يقيد الإخراج من ماله بحدود الزكاة أو فوقها قليلاً ، أما فى مقام الإحسان فلا حدود لما يخرج من المال .

فالحق سبحانه يريد أنْ يفسح المجال للطموحات الإيمانية . فمَنْ يزد فى العطاء فله رصيدٌ عند الله .

ومَنْ يتأمل قوله تعالى : ﴿ فِي أَمْوَالِهِمْ (٢٤) ﴾ [المعارج] يجد عجباً ، فالحق سبحانه ينسب أموالهم إليهم ، وهو سبحانه صاحبُ المال يعطيه لمَنْ يشاء ، ولأنه سبحانه صاحب المال فهو يفرض فيه حقاً معلوماً .

قال تعالى :﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ ..(١٠٣) ﴾ [التوبة]

وكلمة (أموالهم) وردت فى القرآن إحدى وثلاثين مرة ، بضمير الغائب المتصل (هم) ، ووردت كلمة (أموالكم) بضمير المخاطب أربع عشرة مرة .

فالمالُ مالكم بنسبة الله إياه لكم ، لا أنه مالكم على الحقيقة ، وإلا فلو أراد الله أنْ يسلبكم إياه مااستطعتم حيلةً ، وما استطعتم لهذا دفعاً .

وما دام المالُ مالَ الله على الحقيقة ، فمن حقِّ الله سبحانه أنْ يفرض فى مالك حقاً معلوماً ، ولكن الحقّ المعلوم هنا فى هذه الآية هو الزكاة المفروضة ذات المقادير والأنصبة المحددة ؟

نقول : لا ، لأن هذه الآية فى سورة المعارج وهى سورة مكية لم تكُنْ قد فُرضت الزكاة بعد إنما فُرضتْ الزكاة فى المدينة ، إذن فالمقصود هنا هو قدرٌ معين يستوجبونه على أنفسهم تقرباً إلى الله .

فهو شيء يُوظِّفه الرجل على نفسه يُخرجه على سبيل الندب فى أوقات معلومة ، لذلك لم يذكر الحق سبحانه مصارف الزكاة الشرعية التى ذكرها الله فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ [1] وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦٠) ﴾ [التوبة]

فهذه الفريضة إنما فُرضت فى المدينة بعد أنْ أقيمت دولة الإسلام وقويتْ شوكتها ، فأصبحت هناك مصارف للزكاة غير الفقراء والمساكين مثل العاملين على جمع الزكاة والمؤلفة قلوبهم ، والغارمين المديونين ، وفى سبيل الله .

أما الذى فى سورة المعارج فهو حقٌّ أوجبه المخرج له على نفسه إشفاقاً منه على الفقراء فيخصص من ماله ما يحقق نفعاً للآخرين ويسدُّ فقرهم وعوزهم .

عندما سُئل ابن عمر عن قوله: ﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ (٢٤) لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (٢٥) ﴾ [المعارج] أهى الزكاة ؟ فقال : إنَّ عليك حقوقاً سوى ذلك .

وابن عباس حبر الأمة وترجمان القرآن قال : هو حَقٌّ سوى الصدقة يصل بها رحمه ، أى يقرى بها ضيفاً ، أو يحمل بها كَلاًّ [2] ، أو يعين بها محروماً .

---

(١) الغارم : المدين والغُرم الدَّيْن . وقال محمد بن قاسم الأنصارى فى شرح حدود ابن عرفة (١/٧٧): الغارم مدين آدمى لا فى فساد . وقال فى تاج العروس للزبيدى : الغارم هو الذى لزمه الدَّين فى الحمالة .

(٢) الكلّ : اليتيم ، والكل الذى هو عيال وثقل على صاحبه ، قال عز وجل : ﴿ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ (٧٦) ﴾ [النمل] أى عيال . وكلَّ الرجال : إذا أتعب .

لذلك قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ (٢٤) لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (٢٥) ﴾ [المعارج]

فهو حقٌّ لصنفين : السائل ، والمحروم ، فالسائل هو الذى يسأل الناس ، أما المحروم فيعنى الفقير المتعفف عن السؤال ويحسبه الناسُ غنياً ، فيُحرم من عطاء الناس له ، وهو أحوج إليه .

فالسائل أوصى به الحق سبحانه : ﴿ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ (١٠) ﴾ [الضحى]

والبعض لمح فى قوله (المحروم) معانى أخرى غير الفقير المتعفف ، فالمحروم عند البعض الذى لا يُنمِى له مال ، فتجارته كاسدة بائرة أو أنه لا يكسب ما يُعينه على الحياة وعلى ازدياد احتياجاته ، فتجد معيشته ضيقة ، وليست عنده القدرة على الكسب الذى يجعل حياته أفضل .

والبعض قال : المحروم من اجتيح ماله والمصابُ زرعه وثمره بآفة أو جائحة[1] أو ماشية وطيوره بمرض أو سيارته التى يرتزق منها ، فهذا كانت عنده النعمة ولكن عَرَضَ له عارض حرمه منها .

وقد قال أصحاب الجنة عندما احترقت جنتهم : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ (٢٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٢٧) ﴾ [القلم]

وقد يسأل سائل : هل قوله تعالى :﴿ أَمْوَالِهِمْ (٢٤) ﴾ [المعارج] يقصد بها المال بمعنى النقود أو الذهب والفضة فقط ؟

نقول : لا ، بل إن المالَ قد يكون زرعاً أو ماشية أو طعاماً ، فالمال هو كل ما يُتموَّل إلا أننا نصرفه إلى شيء يمكن أنْ يأتى بكلِّ متموَّل وأسميناه بالنقد، وأصبحت له الغلبة لأننا نشترى بالنقد كلَّ شيء ، لكن المعنى الأصلى للمال هو كلّ ما يُتموَّل .

---

(١) قال الليث : الجوح من الاجتياح . وهى سنة جائحة جدبة ونزلت بفلان جائحة من الجوائح . وقال الشافعى : جماع الجوائح كل ما أذهب الثمرة أو بعضها من أمر سماوى بغير جناية آدمى . (تهذيب اللغة ٥/٨٨) .

ثم يذكر الحق سبحانه صفةً أخرى ، فيقول تعالى :

﴿ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ ﴾

الإيمان بيوم الدين هو أساس الدين ، لأن الذى لا يؤمن بالآخرة يفعل ما يشاء ، فما دام يعتقد أنه ليس هناك آخرةٌ ، وليس هناك حساب فمِمَّ يخاف ؟ ومن أجل مَنْ يقيد حركته فى الحياة ؟

إن الدين بكلِّ طاعاته وكل منهجه قائم على أن هناك حساباً فى الآخرة ، وأن هناك يوماً نقف فيه جميعاً أمام الله سبحانه وتعالى ، ليحاسب المخطيء ويثيب الطائع ، وهذا هو الحكم فى كلِّ تصرفاتنا الإيمانية .

فلو لم يكُنْ هناك يوم يُحاسب فيه ، فلماذا نصلى ؟ ولماذا نصوم ؟ ولماذا نتصدَّق ؟

ومن عدل الله سبحانه أن هناك يوماً للحساب ، لأن بعض الناس الذين ظلموا وبغوا فى الأرض ربما يفلتون من عقاب الدنيا ، هل هؤلاء الذين أفلتوا فى الدنيا من العقاب ، هل يفلتون من عدل الله ؟

فـ (يوم الدين) هو يوم الجزاء على الطاعة وعلى المعصية .

والحق سبحانه هنا لا يقول : والذين يؤمنون بيوم الدين ، بل يقول سبحانه: ﴿ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (٢٦) ﴾ [المعارج]

فالتصديق شيء فوق الإيمان .

والرسول ﷺ يقول : « الإيمانهم ما وقر فى القلب وصدَّقه العمل »[١] .

فهم يصدِّقون لإيمانهم بأعمالهم وهو أنْ يُتعب نفسه ويبذل ماله للسائل

---

(١) قاله الحسن البصرى : ليس الإيمان بالتحلى ولا بالتمنى ، ولكن ما وقر فى القلب وصدقته الأعمال . ذكره ابن تيمية فى كتاب الإيمان (١/ ٢٣٠) مسنداً .

والمحروم ، طمعاً في المثوبة الأخروية .

فمعنى ﴿ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (٢٦) ﴾ [المعارج] أى يوقنون بالميعاد والحساب والجزاء ، فهم يعملون عملَ مَنْ يرجو الثواب ويخاف العقاب .

فمجرد الإيمان بالقلب والنطق باللسان وإنْ كان يُنجى من الخلود فى النار إلا أنه لا بدَّ من تصديق هذا بالعمل بمقتضى إيمانه .

والمصدِّق يستمر فى تصديقه إلى أنْ يصبح صِدِّيقاً من الصِّديقين ، ومثالنا فى هذا أبو بكر الصديق ، صدِّيق لماذا ؟ لأنه هو المبالغ فى تصديق كلِّ ما يقوله سيدنا رسول الله .

فعندما قالوا لسيدنا أبى بكر : إن صاحبك يدَّعى أنه أتى بيت المقدس وعاد فى ليلة ونحن نضرب إليها أكباد الإبل ، ماذا قال أبو بكر ؟ قال : إنْ كان قال ذلك لقد صدق [١].

لم يُعلِّل صدقه إلا بـ « إنْ كان قد قال ذلك » فهذا هو الصِّدِّيق الحق ، فكلما قال محمد شيئاً صدّقه أبو بكر ، وأبو بكر لم ينتظر حتى ينزل القرآنُ مصدِّقاً للرسول ﷺ، بل بمجرد أنْ قال ﷺ : إنِّى رسول . قال أبو بكر : نعم إذن فهو صدِّيق .

هؤلاء ﴿ الَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (٢٦) ﴾ [المعارج] تصديقهم بهذا اليوم سببٌ لصفتهم التالية :﴿ وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (٢٧) ﴾ [المعارج]

فهم رغم أنهم من ﴿ الْمُصَلِّينَ (٢٢) الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ (٢٣) ﴾ [المعارج] ورغم أن فى أموالهم حقاً معلوماً للسائلين والمحرومين ، وأنهم

---

(١) أخرج البيهقى فى دلائل النبوة (٢/٣٦١) عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : لما أسرى بالنبى ﷺ إلى المسجد الأقصى أصبح يتحدث الناس بذلك ، فارتد ناس ممن كانوا آمنوا به وصدقوه ، وسعوا بذلك إلى أبى بكر فقالوا : هل لك فى صاحبك يزعم أنه أسرى به فى الليل إلى بيت المقدس . قال : أو قال ذلك ؟ قالوا : نعم . قال : لئن كان قال ذلك لقد صدق . قالوا : وتصدقه أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس وجاء قبل أن يصبح قال : نعم إنى لأصدقه بما هو أبعد من ذلك ، أصدقه بخبر السماء فى غدوة أو روحة . فلذلك سُمى أبو بكر الصديق . الحاكم فى مستدركه (٣/٦٢) وصححه .

يؤمنون ويُصدِّقون بيوم الدين إلا أنهم مشفقون من عذاب الله .

فهم خائفون وجِلُون خشيةً من الله ، والإشفاق الخوف لكنه خوف يصاحبه الحذر مما تخاف ، فالخوف من الله مصحوبٌ بالمهابة ، والخوف من الساعة مصحوبٌ بالحذر منها ، مخافة أنْ تقوم عليهم قبل أنْ يُعِدُّوا أنفسهم لها إعداداً كاملاً يُفرحهم بجزاء الله ساعةَ يلقونه .

هم مُشفقون من عذاب ربهم ، والحق سبحانه يعطينا حيثية ذلك فى قوله : ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ (٢٨) ﴾ [المعارج]

فلا يستطيع إنسانٌ أنْ يقطع بأنه أدى الواجبات كما ينبغى ، ولا اجتنبَ المحظورات كما ينبغى ، بل قد يكون قد وقع منه تقصيرٌ فى أحد الجانبين .

فعذاب الله غير مأمون ، فلا يأمن من عذاب الله تعالى إلا مَنْ غرَّته نفسه ، وظنَّ أنه ناجٍ لمجرد عمله ، ورسول الله يقول : « لا يدخل أحدكم الجنة بعمله ، إلا أنْ يتغمَّده الله برحمته ، قالوا : حتى أنت يا رسول الله . قال : حتى أنا »[1].

فذنوبُ الإنسان فى الدنيا كثيرة ، إذا حكم فقد يظلم ، وإذا ظنَّ فقد يسيء ، وإذا تحدث فقد يكذب ، وإذا شهد فقد يبتعد عن الحق ، وإذا تكلم فقد يغتاب .

ولا يمكن لأحد منَّا أنْ ينسب الكمالَ لنفسه حتى الذين يبذلون أقصى جهدهم فى الطاعة لا يصلون إلى الكمال ، فالكمال لله وحده ورسول الله ﷺ يقول : « كلُّ بنى آدم خطَّاء ، وخير الخطائين التوابون »[2].

والحق سبحانه يقول : ﴿ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ (٩٩) ﴾ [الأعراف]

والأمن هو الاطمئنان إلى قضية لا تثير مخاوف ولا متاعب ، والذى يأمن مكر الله هو الخاسر .

---

(١) عن أبى هريرة قال قال رسول الله : « قاربوا وسددوا فإنه ليس أحد منكم ينجيه عمله . قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمة منه وفضل» . أخرجه البخارى (٤٣) و (١١٥١) ومسلم (٧٨٥) وابن ماجه (٤٢٣٨) والترمذى (٣٠٧٣) .

(٢) أخرجه ابن ماجه فى سننه (٤٢٥١) وأبو محمد الكشى فى المنتخب من مسند عبد بن حميد (١١٩٧) والبزار فى مسنده (٧٢٣٦) والرويانى فى مسنده (١٣٦٦) من حديث أنس بن مالك .

فعذابُ النار أيضاً غير مأمون ، فلا تستهنْ بالأمر ، فلا أحد يضمن شيئاً .

ثم يذكر الله عز وجل صفة أخرى فيقول :

﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾ ﴾

الفروج جمع فرج والمقصود سَوْءَتا كل من الرجل والمرأة ، وقد أمر الله بحفظها على المهمة التى خُلقت لها ، وعلى الإنسان أنْ يحفظ فرجه على ما أحلّه له .

والله يريد أنْ لا يلتقى رجلٌ وامرأة إلا على نور من الله وهدى من شريعته الحكيمة ، لأنه عز وجلَّ هو خالق الإنسان ، وهو أعلم بما يُصلحه وهو خالقُ ذراته .

فلا بدَّ أنْ يلتقى الزوجان على ما شرع الله فى وضح النهار ، لا أنْ يندس كلٌّ منهما على الآخر فى ظلمة الإثم ، فيحدث المحظور الذى تختلط به الأنساب ، ويتفكك رباط المجتمع .

و ﴿ حَافِظُونَ (٢٩) ﴾ [المعارج] فيها الحفظ والصيانة ، وجاءت بصيغة فاعل كاسم ، والاسم دائماً يعبر عن الثبات والديمومة ، ولكى نعرف الفرق علينا أنْ ننظر إلي قوله تعالى بالنسبة للصلاة :

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٣٤) ﴾ [المعارج] عبر هنا بالفعل ، وهو أقلُّ درجةً فى الديمومة والثبات ، فقد تحافظ أياماً ولكنك لا تحافظ على الصلاة على وقتها ، وفى المسجد أياماً أخرى لظروف قد تعرض لك .

أما حفظ الفروج والعورات عن ملابسة الفاحشة فهذا لا بدَّ أنْ يكون صفة

ثابتة لا تنفكّ عنك مهما كانت المغريات والظروف ، فهى أمر يمسُّ الأعراض والشرف فلا يصلح معه إلا ﴿ حَافِظُونَ (٢٩) ﴾ [المعارج]

ولكن هذا الحفظ وهذه الصيانة لا يُستثنى منها إلا صنفان من النساء : ﴿ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٣٠) ﴾ [المعارج]

أى إلا من أزواجهم اللاتى أحلَّ الله لهم من الأربع ، وهذا يقتضى تحريم ما يُسمَّى بزواج المتعة المؤقت بوقت ، فهى ليست بزوجة ولا هى ملك يمين .

وقد يسأل سائل : الحق سبحانه استخدم هنا لفظة (على) ولم يستخدم (عن) مع أنه مطلوب من الرجل حفظ فرجه إلا عن أزواجه لا على . نقول : على هنا بمعنى (عن) وقد يكون متعلقاً بمحذوف تقديره : فلا يرسلون فروجهم إلا على أزواجهم .

والحق سبحانه استثنى هنا صنفين هما الأزواج وملْك اليمين . وقد قال رسول الله : « احفظْ عورتك إلا من زوجتك »[١] .

فكلُّ فرْج سوى الزوجة وملْك اليمين هو حرام ، مع عدم الجمع بين الأختين، أو بين المرأة وعمتها أو خالتها.

وهذه الآية ومثيلتها فى سورة المؤمنون خاصة بالرجال ، فالنساء لا يسوغ لهن الاستمتاع بملْك أيمانهن من العبيد .

وقد حدث على أيام عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنْ تسرَّت[٢] امرأة غلاماً فذكرتْ لعمر رضى الله عنه فسألها : ما حملك على هذا ؟ فقالت : كنتُ أرى أنه يحلّ لى ما يحلّ للرجال من ملْك اليمين .

فاستشار عمر رضى الله عنه أصحاب النبى ﷺ فقالوا : تأولتْ كتاب الله

---

(١) أخرجه أبو داود فى سننه (٤٠١٧) وابن ماجه فى سننه (١٩٢٠) ، وأحمد فى مسنده (٢٠٠٣٤) (٢٠٠٤٠) من حديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جده أنه قال لرسول الله : يا رسول الله عوراتنا ما نأتى منها وما نذر ؟ قال : احفظ عورتك إلا من زوجتك أو ما ملكت يمينك » الحديث .

(٢) التسرِّى هو أن يعاشر الرجل ملك يمينه معاشرة الأزواج ، وهذا إن كان يجوز للرجل نحو أمته فإنه لا يجوز من المرأة نحو عبدها لأنه فى وضع أقل منها ، هذا عند وجود نظام ملك اليمين .

على غير تأويله[١] . أى لا حدَّ عليها لأن التأويل يدرأ الحد .

فعاقبها بأنْ لا يحلها لحُرٍّ بعده أبداً ، وأمر العبد أنْ لا يقربها .

فعلى الإنسان أنْ يحفظ فرجه إلا على الزوجة أو الزوجات أو مِلْك اليمين .

﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ (٣٠) ﴾ [المعارج] ومِلْك اليمين حلال ولكن لم يعُدْ له موضع ولم يعُدْ له وجودٌ الآن ، فلم يَعُدْ هناك إماء كما كان قبل الإسلام ، فهذا حكم معطل لم يعُدْ له مدلول .

وفرق بين أنْ يُعطل الحكم لعدم وجود موضوعه وبين أنْ يُلغى الحكم ، فمِلْك اليمين حكم لم يُلْغ ، الحكم قائم إنما لا يوجد له موضوع ، يتم تفعيل حكمه عندما يوجد مرة أخرى فى أرض الواقع .

والبعض يحاول أنْ يُشكِّك المسلمين فى دينهم وقرآنهم ، فيقول : لو أن الإسلام فعلاً يريد تحرير الإنسان من العبودية والرقِّ ، فلماذا ذكر مِلْك اليمين؟ ولماذا لم ينسخ هذه الآيات كما نسخ غيرها ؟

نقول : الإسلام كافح الرقَّ والعبودية وجاء ليحرر العبيد ورتَّب أحكاماً على مَن ارتكب ذنباً بوجوب فكِّ رقبة أى إعتاق عبد .

فمَنْ قتل مؤمناً على سبيل الخطأ عليه أنْ يحرر رقبة ، قال تعالى : ﴿ وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ (٩٢) ﴾ [النساء]

حتى اليمين المنعقدة المغلَّظة إذا أراد المؤمنُ الرجوعَ فيها كان أحد إمكانات تحليله من هذا القسم هو تحرير رقبة .

قال تعالى : ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ[٢] فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ..(٨٩) ﴾ [المائدة]

---

(١) أخرجه الطبرى فى تفسيره (١١٢٧٧) عن قتادة أن امرأة اتخذت مملوكها (أى أمكنته من نفسها وتسرت به كأنه زوج لها) وقالت : تأولت كتاب الله (أوما ملكت أيمانهم) قال : فأتى بها عمر بن الخطاب فقال له ناس من أصحاب النبى : تأولت آية من كتاب الله على غير وجهها . قال : فغرَّب العبد وجز رأسه (أى قص شعره) وقال : أنتِ بعده حرام على كل مسلم .

(٢) عقد الأيمان وتعقيدها : توكيدها بالقصد والتصميم . قال الخازن فى تفسيره (٢/٧٢) لكن يؤاخذكم بما تعمدتم وقصدتم به اليمين .

حتى مَنْ يقول لامرأته أنت حرام عليَّ كظهر أمى ، يقول تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٣) ﴾ [المجادلة]

فتحرير الرقِّ والعبودية عالجه الإسلام ، حتى تشريعه لملْك اليمين هو فى حدِّ ذاته علاجٌ لظاهرة الرقِّ ، وقد يستغرب البعض هذا ، ثم إن تشريع مِلْك اليمين هو إعزازٌ وإكرامٌ للمرأة التى كانت تُسبى فى الحروب .

فالمرأة المسبيّة فى الحروب كانت قبل الإسلام لا ضمانات لها ، يأخذها المقاتلون المنتصرون يفعلون بها ما يشاؤون من اغتصاب وغيره ، وقد يكون اغتصاباً جماعياً ، وقد يقتلونها فى النهاية .

أما فى الإسلام فى أثناء تلك الحروب فكان يضع المرأة المسبيَّة فى عُهْدة رجل معين يطعمها ويسقيها ويُلبسها ويعتنى بها فى مقابل خدمتها له .

فإذا حدث وتسرَّى بها وحملتْ منه أصبحت أم ولد ، فتُعتق من أجل ولدها، لذلك لا بد من التأكد أنها غير حامل أولاً .

وإذا كان السَّبى شريعة المتحاربين حينها ، ووُضِع هذا التشريع لمواجهة أمرٍ موجود ومتجذِّر فى الواقع ، وقد يعود فى أزمان أخرى لا نعلمها فلا بدَّ من أنْ يكون التشريع موجوداً لعلاجه حينما يعود السَّبى ، وهذا من عظمة القرآن ودليل على أبديته إلى أنْ تقوم الساعة .

فهذا أمر يُحسَب للقرآن وللإسلام ولا يُحسب عليه .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٣٠) ﴾ [المعارج] فإنهم لا يُلامون. إذا لم يحفظوا فروجهم لأزواجهم أو ما ملكتْ أيمانهم ، إنما يلامون فى غير ذلك.

وذِكْر الفروج فى أول الآية يجعل اللوم منعقداً لمن أتى امرأته فى دبرها فى غير الموضع الذى جعله الله وهيَّأه للنكاح ولإتيان الولد .

فإنهم لا يُلامون على الحلال ، فلا لوْمَ عليهم فى ذلك ولا إثم ، إنما اللوم

على مَنْ تجاوز هذا وتعدَّى .

لذلك يقول الحق سبحانه بعدها : ﴿ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٣١) ﴾ [المعارج]

﴿ فَمَنِ ابْتَغَى (٣١) ﴾ [المعارج] أى فمَنْ طلب وأراد ، ولكن ابتغى فيها معنى السعى إلى الشيء بإلحاح ، وقد يكون هذا لأنه خارج عن حدود الشيء الطبيعى، فهو يسعى وراء أمر قد حرَّمه الله ، يسعى وراء أنْ يعصى الله خارج إطار الزواج، وخارج إطار ملْك اليمين .

﴿ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَٰلِكَ (٣١) ﴾ [المعارج]

كلمة وراء تأتى فى القرآن بمعانٍ كثيرة ، وهى هنا بمعنى (غير) أى : فمَن ابتغى غير ذلك ، ولكن هنا فى الآية كلمة (وراء) تؤدى معنى أعمق من كلمة (غير) .

فقد يكون أحد الرجال عنده الزوجة حليلته وزوجات ، وعنده ملك يمين ، ولكن قد يبتغى وراء ذلك كله ، أى أكثر من ذلك كله فتجده يبتغى الحرام مع وجود الحلال عنده فى جانب ، وتجده يأتى امرأته فى دُبرها رغم أنَّ حلاله عنده .

فكلمة (وراء) تحتمل المعنيين معاً ، معنى (غير) ، ومعنى (فوق) .

لذلك قال تعالى عن هؤلاء المبتغين وراء ذلك ﴿ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٣١) ﴾ [المعارج] أى أولئك الزُّناة هم العادون المتخطون حدود ما أمر الله به أو نهى عنه ، فهم المتجاوزون من الحلال إلى الحرام .

ثم ينقلنا الحق سبحانه إلى أمر آخر فيقول :

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٣٢) ﴾

الأمانة كل ما استُؤمنت عليه ، وأول شيء استؤمنت عليه هو عهدُ إيمانك بالله الذى أُخذ عليك وأنت فى ظهر آدم عليه السلام .

فهناك أمانةٌ للحق سبحانه يجب أنْ تُؤدِيها ، وهناك أمانات للخَلْق ، وكلٌّ من هذه الأمانات تستوجب منك أنْ تؤديها إلى أصحابها على الوجه الأكمل وأنْ تراعيها .

أما العهد فكلُّ ما يتعهد به الإنسان فى غير معصية ويلزمه الوفاء بما عاهد به ، لأنك حين تعاهد إنساناً على شيء فقد ربطت حركته وقيَّدتها فى دائرة إنفاذ هذا العهد .

فإذا أخلفتَ عهدك ووعدك له فقد أطلقت نفسك فى زمنك ، وتصرفت حسب راحتك، وقيَّدت حركتى أنا فى زمنى وضيَّعت مصالحى وأربكت حركة يومى ، لذلك شدد الإسلام على مسألة خُلْف الوعد .

ومعنى الأمانة هو ما يكون لغيرك عندك من حقوق وأنت أمينٌ عليها إنْ شئتَ رددتها وإنْ شئتَ لم تردها ، فأنت تقول : أنا أودعتُ عند فلان أمانة ، هذه الأمانة لو كانت بإيصال لما كانت أمانة ، لأن هناك دليلاً ، ولو كان ما أودعته عند ذلك الإنسان عليه شهود لا تكون أمانة .

فالأمانة أنْ تُودع عنده شيئاً وضميره هو الحكم إنْ شاء أقرَّ بما عنده لك حين تطلبه ، وإنْ شاء لم يُقر به ، قال الحق : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ[1] أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا (٧٢) ﴾ [الأحزاب]

والحق سبحانه يقول : ﴿ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا (٥٨) ﴾ [النساء]

ورسول الله ﷺ يقول : « أدِّ الأمانة إلى من ائتمنك ، ولا تخُنْ مَنْ خانك »[2].

فأداء الأمانة إلى أهلها من أعظم القربات إلى الله ، فكونوا لها راعين ،

---

(١) فأبين : رفضْن . الإباء : الرفض وعدم الانصياع والامتناع عن فعل شيء .

(٢) أخرجه أبو داود فى سننه (٣٥٣٥) ، والبزار فى مسنده (٩٠٠٢) والطبرانى فى المعجم الأوسط (٣٥٩٥)، والحاكم فى مستدركه (٢٢٩٦) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

والرعاية هنا أنْ تبقى قائماً على الأمانة حتى تؤديها ولا تحاول أنْ تدخل فى باب من أبواب الحيل للاستيلاء عليها ، ولأكل أموال الناس بالباطل .

فإنَّ الحيل تؤدى إلى اضطراب العهود والأمانات ، ولا تكون هناك ثقة لا فى عهد ولا فى وعد ولا فى متحمل لأمانة ، وبهذا يضطرب المجتمع ، ويفقد أفراده الثقةَ فى أنفسهم .

ونلحظ أن الحق سبحانه هنا نسب الأمانات والعهود إلى من تحمَّل هذه الأمانات والعهود فقال : ﴿ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ (٣٢)﴾ [المعارج] فما دُمتم قد تحملتموها فقد أصبحتْ ملازمةً لكم تلزمكم وأصبحتم مسئولين عنها تؤدونها كاملة غير منقوصة عند طلبها أو مجيء موعدها .

وكأنَّ الحق سبحانه يقول لهم : هى تلزمكم وإنْ لم يكُنْ عليها دليل أو وثيقة تلزمكم بها ، والحق سبحانه وصفهم بأنهم يرعوْنَ أمانة الله عندهم ، ويرعوْنَ أمانات الناس لديهم ، ويرعوْن عهودهم قِبَلهم ، فلا يُخلُّون بشيء من حقوقها.

والمتأمل فى هذه الآية ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٣٢)﴾ [المعارج] والآيات قبلها ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٢٩) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ(٣٠) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٣١) ﴾ [المعارج]

المتأمل فى هذه الآيات يجد رابطاً يربط بينها ، فكلٌّ من الفروج والأمانات والعهود ينبغى أنْ تُحفظ وتُراعى حقَّ رعايتها ، ومَنْ لم يحفظ الأمانات والعهود فهو ملوم كما هو شأن مَنْ لم يحفظ فرجه ، ومَن ابتغى ما لا يحلّ له من الفروج عادٍ معتدٍ ، كذلك الباغى على الأمانة غير الملتزم بعهده ووعده وعقده فهو عادٍ ظالم .

﴿ وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ (٣٣) ﴾

بدأت الآيات المفصِّلة لمنهج الله بالمصلين الذين هم على صلاتهم دائمون، أناس أتقياء عبادٌ لله ، لا يتركون صلاة بل يتطوعون من الصلوات النوافل وقيام الليل وأنواع العبادات التى يظهر فيها مقام الإحسان .

ثم إنهم يعطفون ويشفقون على الفقراء والمساكين من السائلين والمحرومين فيتصدَّقون عليهم ويجعلون لهم حقاً فى أموالهم ، وما هذا إلا لأنهم يخافون رباً ويخشون عذابه ويتقون ناره ، فهم من عذاب ربهم مُشفقون .

ثم إنهم محافظون على فروجهم عفيفون لا يقتربون من حرام ، فيحفظون فروجهم إلا على أزواجهم أو ماملكتْ أيمانهم ، ثم إنهم يراعون الأمانات التى ائتمنوا عليها ، ويحافظون على عهودهم التى قطعوها على أنفسهم .

كل هذا يجعل من الإنسان عبداً ربّانياً لله سبحانه ، سَمْتُه سَمْتُ المؤمنين الصادقين ، ولكن هناك ما هو الأهم ، التنفيذ العملى لمنهج الله فيه ، وهو قوْلُ الحق وشهادة الحق .

يقول تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ (٣٣) ﴾ [المعارج] فالشهادة احتكاكٌ بمجتمع لتشهد فيه وتعرف ما يحدث ، والشهادة هى الإخبار بمشاهد، والقاضى يسأل الشهود لأنهم رأوا الحادث فيروون ما شاهدوا ، وأنت حين تروى ما شاهدت فكأن الذين سمعوا أصبح ما وقع مشهوداً وواقعاً لديهم .. وشاهد الزور يُغيِّر الواقع .

والحق سبحانه يقول : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (١٣٥) ﴾ [النساء]

وحين تكون شاهداً بالقسط والعدل لا يتمادى ظالمٌ فى ظلمه ، فالذى يجعل الظالم يشتدّ ويستشرى ظلمه ويتفاقم شرُّه هو أنه يجد مَنْ يدلسون على العدالة ويسترون ويخفون العيوب ويخادعون الناس .

لكن لو وُجد الإنسان الذى يُنير طريق العدالة لما وُجد ظلم ، لكنَّ الظالم يحب

مَنْ يدلس عليه ، فيقول لنفسه : إنَّ فلاناً ارتكب جريمة مثل جريمتى ونال البراءة .

وتدليس الشهادة يقود إلى خراب المجتمعات ، ولو أن المجتمع حينما يرى أنَّ شهادة أفراده هى شهادةٌ بالقسط وشهادة بالعدل ، فإنَّ كلَّ فرد فى المجتمع إذا همَّ بظلم يرتدع قبل أنْ يفعل الظلم ، ولكان الظالمُ ينال عقابه ويصير مثالاً لارتداع غيره .

والمؤمن مُطالبٌ بالقيام لله بإصلاح ذاته ، ومطالبٌ ثانياً أن يشهد بالقسط والعدل لإصلاح غيره .

وإذا كان الحق سبحانه وتعالى قد طلب منا أنْ يكون قيامنا بالشهادة مبالغاً فيه ، أى ألاَّ نترك فرصة لشهادة الحق والقسط إلاَّ وانتهزناها ، ليأخذ كلّ إنسان حقَّه فلا يقدر قويٌّ أنْ يظلم ضعيفاً ، لأن الضعيف سيجد أناساً يشهدون معه بالحق .

وإقامة الشهادة هى شهادة الحق لا اعتداء ولا جَوْرَ فيها ، وأنْ تأتى الشهادةُ على الوجه الصحيح لها .

والشهادة الحق تتطلب أمرين : الأول هو حضور الشاهد لحظة وقوع المشهود به ، والثانى هو أمانة النقل .

فلا تشهد على شيء لم تشهده ولم تحضره ، وإذا رأيتَ شيئاً فلا تحرفه وانقله بأمانة بالعدل والصدق ، فأنت إذا شهدت الزور ضيعتَ صاحب الحق ، وضيعتَ حقه ومصلحته .

فإذا دُعيتَ للشهادة فلا تتقاعس ، لأن مَنْ يكتم الشهادة فهو آثم قلبه ، ولا تشهد إلا بالحق الذى شهدته فى الواقع ، فإذا دعيت فقُم بها على وجه الحق الذى يرضاه الله .

فشهادة الزور ركنٌ من أركان فساد المجتمعات كلها ، لأنها لا تجعل المؤمن مطمئناً على حقِّه ، فشهادة الزور جماع لكلِّ حيثيات الظلم ، وتهدم كل قضايا

الحق فى المجتمع .

فقوْل الزور شهادةٌ بغير الحق وتقلب الحقائق وتضر بالمجتمع ، لأنك حين تشهد بالزور تأخذ الحق من صاحبه وتعطيه لغيره ، وهذا يؤدى إلى تعطُّل حركة الحياة ، وتجعل الإنسان لا يأمن على ثمار تعبه وعرقه ، فيحجم الناس عن السعى والعمل ما دامت المسألة زوراً فى النهاية .

لذلك قال النبى ﷺ : « ألاَ أُنبئكم بأكبر الكبائر ؟ الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين ، وشهادة الزور ، وكان رسول الله ﷺ متكئاً فجلس ، فما زال يكرِّرها حتى قلنا : ليته سكت »[1] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾

بدأت آيات الحديث عن منهج الله بالصلاة ﴿ إِلَّا الْمُصَلِّينَ (٢٢) الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ (٢٣) ﴾ [المعارج]، وانتهت بالكلام عن الصلاة أيضاً ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٣٤) ﴾ [المعارج]

وذلك لعظم الوصية بالصلاة ، فالصلاةُ إعلانٌ إيمانيّ لله كل يوم خمس مرات، نترك كل ما فى الدنيا ونتجه إلى الله بالصلاة ، إنها عماد الدين وأساسه.

فالصلاة عمدة أركان الإسلام وقد اشتملتْ على كلِّ الأركان ، وهى إدامةُ ولاء العبودية للحق سبحانه ، وتهب المؤمنين الاطمئنان ، وهى علامة الخضوع لله عز وجل .

الصلاة تجعلك منضبطاً مع منهج الله ، وتنهاك عن مخالفته والتمرد عليه ، أما ترك الصلاة فمعناه أنك تمردت على إعلان العبودية والولاء للحق .

والمحافظة على الصلاة فعلها لوقتها ، ويحافظون على وضوئها ومواقيتها وركوعها وسجودها ويراعون شرائطها ويُكملون فرائضها وسننها

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٢٠٣٨٥) ، والبخارى فى الأدب المفرد (١٥) ، والبزار فى مسنده (٣٦٢٩) من حديث أبى بكرة رضى الله عنه .

ومستحباتها .

وهذا شيْءٌ غير الدوام على الصلاة ، فالدوام عليها عدم تركها حتى يمرّ وقتها ، فهو مثل قول رسول الله : « إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان »[1] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ فِي جَنَّـٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

﴿ أُولَـٰئِكَ (٣٥) ﴾ [المعارج] إشارة إلى ما سبق من المؤمنين المصلين المتصدقين المصدِّقين بيوم الدين المشفقين من عذاب ربهم الحافظين لفروجهم إلا على أزواجهم أو ما ملكتْ أيمانهم ، المراعين لأماناتهم وعهودهم القائمين بشهاداتهم المحافظين على صلاتهم .

كل أولئك ﴿ فِي جَنَّاتٍ (٣٥) ﴾ [المعارج] إخبار عن أولئك أنهم فى جنات ، وتكون (مكرمون) خبراً ثانياً ، ويحتمل أنْ تكون (فى جنات) ظرف مكان لـ (مكرمون) أى أن محل الإكرام ومكانه هو (فى جنات) ، فتكون (مكرمون) خبراً . فيكون تقدير الآية : أولئك مكرمون فى جنات .

لفظة (مكرمون) وردت فى القرآن ثلاث مرات ؛ أحدها قال تعالى : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ (٢٦) لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (٢٧) ﴾ [الأنبياء] وهؤلاء هنا هم الملائكة ، لصفاء عبادتهم لربهم وإخلاصهم لربهم وطاعتهم المطلقة .

ثم مرتان فى حقِّ مَنْ أكرمهم الله لأنهم استحقوا هذا ، فقال تعالى : ﴿ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (٤٠) أُولَـٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ (٤١) فَوَاكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ (٤٢) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٤٣) ﴾ [الصافات]

---

(١) أخرجه ابن ماجه فى سننه (٨٠٢) ، والهيثمى فى موارد الظمآن (٣١٠) ، والبيهقى فى شعب الإيمان (٢٦٨٠) ، والسنن الكبرى (٤٩٨٨) من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه .

وهنا فى المعارج قال : ﴿ أُولَـئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ (٣٥) ﴾ [المعارج]

أهناك إكرام أكثر من أنهم يشابهون الملائكة فى أنهم (مكرمون) تتألق وجوههم بنضرة النعيم ، فلا يلحقها قتر ، ولا تلحقها ذلة وانكسار .

وقد ذكر لنا الحق سبحانه مظاهر إكرامهم وتكريمهم ، فقال تعالى فى سورة الصافات : ﴿ عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ (٤٤) يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ (٤٥) بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ (٤٦) لَا فِيهَا غَوْلٌ[1] وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ (٤٧) وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ (٤٨) كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ (٤٩) ﴾ [الصافات]

والإكرام لا يقتصر على هذا بل يشمله ويشمل غيره « ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر »[2].

وإذا ما التزم العبد بمنهج ربه فى حال الاختيار ، فهو لا يتساوى مع الملائكة فقط ، بل قد يسمو عنهم لأنهم مقهورون بالتسخير ، بينما تتمتع أنت بالاختيار وآثرت منهج ربك .

فهم يدخلون الجنة مُدْخلاً كريماً ، وأعدَّ لهم أجراً كريماً .

والمدخل الكريم يتناسب مع مَنْ يُدخلك فى مدخله ، فانظر إلى المدخل الكريم من الله وما شكله ؟ حتى ثوابه وأجره سبحانه كريم ، والذى يُوصف بالكرم الذى أعدَّ الأجر ، فوصف الأجر بأنه كريم يعنى أن الكرم تعدَّى من الرب سبحانه الذى أعده إلى الأجر نفسه ، حتى صار الأجرُ نفسه كريماً.

هذا عمَّنْ اتبع منهج الله وثوابهم وأجرهم وعظيم مقامهم فى الجنة ، فماذا

---

(١) غوْل : لا تغتال عقولهم وصحتهم فتذهب بعقولهم وقيل لا إثم فيها ولا وجع البطن ولا صداع

(٢) أخرج أحمد فى مسنده (٨٨٢٧) وابن حبان فى صحيحه (٣٦٩) والطبرانى فى المعجم الأوسط (٢٠٠) عن أبى هريرة أنه قال قال رسول الله ﷺ « من يدخل الجنة ينعم لا يبؤس ولا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه، فى الجنة ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » .

عمَّنْ كفر بالله ورسوله وكتابه ؟

قال تعالى :

﴿ فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ (٣٦) عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ (٣٧) ﴾

﴿ مُهْطِعِينَ (٣٦)﴾ [المعارج] جمع مُهطِع . والمهطع هو مَنْ يظهر من فَرْط تسرُّعه وكأنَّ رقبته قد طالت ، فالمهطع هو مَنْ فيه طول .

فهم مسرعون فى الابتعاد عنك وعن دعوتك نافرين معرضين ، مثل قوله تعالى عنهم : ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ (٤٩) ﴾ [المدثر]

والحق سبحانه هنا يعطينا صورة لما كان عليه حال الكافرين برسول الله، وقد نزلتْ الآية فى جماعة منهم كانوا يجتمعون حول رسول الله يسمعون كلامه ويستهزئون به ويكذِّبونه .

فوصف الحق سبحانه صنيعهم وموقفهم من رسول الله ودعوته بهاتين الآيتين ، أناس معرضون عن رسول الله ولكنهم يجتمعون حوله فى حِلَق ومجموعات متفرقة غير مقبلين عليه ﷺ، بل يجلسون البعضَ عن اليمين والبعض عن اليسار .

كل ما يفعلونه أنهم مادُّون أعناقهم إلى رسول الله لا يستمعون إليه بل هم يسخرون منه ويستهزئون ، وكأنهم يقولون : ماذا يقول هذا الرجل ؟

فهم لا يسرعون (قِبَلك) أى تجاهك ليسمعوا ما تقول ويهتدوا إنما فقط ليستطلعوا فى دهشة ثم ينصرفوا عنك متحلِّقين فى حِلَق متفرقة ﴿ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ (٣٧)﴾ [المعارج]

﴿ أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ (٣٨) كَلَّآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ (٣٩) ﴾

عند كل واحد منهم أمل كاذب بأنهم سينالون جنة النعيم فى النهاية ، كيف وهم لم يكونوا من المؤمنين بالله ورسوله وكتابه القرآن فلم يلتزموا بمنهج الله، لأنهم كفروا به وردُّوا الأمر على الآمر .

ففى أيِّ شيء يطمعون ؟ ﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (١٢٣) ﴾ [النساء]

والأمانيّ جمع أمنية وهو أنْ يطمح الإنسان إلى أمر ممتع مسعد بدون رصيد من عمل ، فماذا قدمتم من إيمان أو عمل ؟

والطمع شيء فوق الأمنية والأمانى ، وقد ذكر الحق سبحانه أحد هؤلاء الطامعين ، فقال تعالى : ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (١١) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا (١٢) وَبَنِينَ شُهُودًا (١٣) وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا (١٤) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (١٥) ﴾ [المدثر]

أعطاه الله كلَّ شيء ، خلقه وحيداً لا أحد معه ولا شيء له ، وجعلتُ له مالاً لا نهاية له من كل ما يُطلق عليه مال ، وجعلت له أولاداً بنين كما كان يريد وهم بنين شهود ، أى يشهدون معه أندية القوم ويخرجون فى التجارة أناساً بالغين، أعطاه من كل شيء ، ثم هو يطمع أنْ يزيد نعمة وقوةً وثراء أكثر .

وأنت إذا أردتَ أنْ تطمع فى شيء من الضرورى أنْ تكون عندك مؤهلات ما تطمع فيه ، إذ كيف تتمنى شيئاً أو تطمع فى شيء لا تعمل من أجله ، ولا تملك ما يجعلك مستحقاً له ؟

وقد ذكر الحق سبحانه أناساً مؤمنين يطمعون ، قال تعالى عنهم أنهم يقولون : ﴿ إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا (٥١) ﴾ [الشعراء] ولكنهم ذكروا حيثية طمعهم هذا وسببه ﴿ أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ (٥١) ﴾ [الشعراء]

أما هؤلاء الذين عاندوا الحق وأصروا على الكفر فإنهم يطمعون أنْ يُدخلوا جنة نعيم ، ولاحظ أنَّ الفعل مبنيٌّ للمجهول (يُدخَل) ، فكلّ منهم يعرف جيداً أنه لم يعمل شيئاً يستحق أنْ يدخل به الجنة فذكر الفعل للمجهول ، إنه يريد أنْ

يدخله أحدٌ الجنة .

﴿ كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ (٣٩) ﴾ [المعارج]

إنْ كانوا يسخرون من نبيي ورسولى محمد ، ويستهزئون بكتابى القرآن ويقولون لو كان هناك جنة لأدخلنا الجنة مع مَنْ آمن بها يقولون هذا استهزاء وسخرية .

كلا ، ليس لهم أنْ يطمعوا فى جنة نعيم ، فليس لهم فيها نصيب يقول تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ (١) الْخِيَاطِ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ (٤٠) ﴾ [الأعراف]

من أيِّ شيء يسخرون ويستهزئون وقد خلقناهم مما يعلمون ، من ماء مهين من نطفة ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى (٣٧) ﴾ [القيامة]

وقد تفل رسول الله ﷺ على يده وقال : يقول الله تعالى : « ابن آدم أنَّى تُعجزنى لقد خلقتُك من مثلِ هذه»(٢) .

وقال تعالى : ﴿ أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ (٢٠) ﴾ [المرسلات]

إنهم يعرفون من أيِّ شيء خلقناهم ، فلا مفر لهم من الاعتراف بالخالق الذى خلقهم ، وقد قال قتادة فى هذه الآية : خُلقت من قذر يا بن آدم فاتق الله(٣) .

لقد خلقتكم من الماء المهين الذى يعلمونه فلم يتكبرون ؟ ولم يعرضوا ؟

---

(١) سم الخياط : ثقب الإبرة . وهو من أضيق المنافذ ، فكان ولوج الجمل مع عظم جسمه فى ثقب الإبرة الضيق محالاً .

(٢) روى البغوى بإسناد الثعلبى عن بُسْر بن جحاش قال قال رسول الله ﷺ وبصق يوماً فى كفه ووضع عليه إصبعه فقال : يقول الله عز وجل : يا ابن آدم أنَّى تعجزنى وقد خلقتك من مثل هذه حتى إذا سويتك وعدلتك ومشيت بين بردين والأرض منك وئيد فجمعت ومنعت حتى إذا بلغت التراقى قلت أتصدق وأنَّى أوان الصدقة » ذكره الخازن فى تفسيره (٤/٣٤٢) . وهو فى سنن ابن ماجه (٢٧٠٧) وأحمد فى مسنده (١٧٨٤٢).

(٣) أخرجه عبدالرزاق فى تفسيره (٣٣٣٢) والطبرى فى تفسيره (٢٣/٦٢١) عن قتادة من طريق بشر عن يزيد عن سعيد ، وأورده الكرمانى فى تفسيره (غرائب التفسير وعجائب التأويل) (٢/١٢٥٤)

﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥) ﴾ [الطور] ولن يستطيعوا أنْ يقولوا أنهم خُلِقوا من غير شيء ، ولن يستطيعوا أنْ يقولوا أنهم هم الخالقون .

لذلك يسألهم الحق سؤالاً ثالثاً ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ (٥٨) أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ (٥٩) ﴾ [الواقعة] وهذا أيضاً لن يستطيعوا أنْ يقولوا أنهم صانعوه أو خالقوه .

فكيف تدَّعُون أنكم ستدخلون جنة نعيم وتتألوْن على الله وتدعون التقدم على المؤمنين الصادقين وأنكم ستجتمعون معهم فى الجنة ، إنَّ هذا فى حقيقة الأمر إساءة أدب منكم نحو الله ، لأنكم بهذا تصفون الله بالظلم ، إذ كيف يجمع بينكم وبين مَنْ آمن به سبحانه فى الجنة .. لا تستوون .

﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾
عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾ ﴾

كل مكان على الأرض له مشرق وله مغرب ، فالشمس حين تشرق عندى تغرب عند قوم آخرين ، وحين تغرب عندى تشرق عند قوم آخرين ، إذن فمع كلِّ مشرق مغرب ومع كل مغرب مشرق ، فيكون هناك مشرقان ومغربان .

لذلك قال تعالى : ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ (١٧) ﴾ [الرحمن]

ثم إن الشمس لها مشرقٌ كل يوم ومغرب كل يوم يختلف عن الآخر ؛ وفى كل ثانية هناك شروق وغروب ، إذن فالقسم هنا ﴿ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ (٤٠) ﴾ [المعارج] لأن المشارق والمغارب تختلف على مدار السنة .

فقوله تعالى : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ (٤٠) ﴾ [المعارج] إشارة إلى اختلاف مطالع الشمس وتنقلها فى كل يوم ، بالإضافة إلى ما

يتضمنه الشروق والغروب فى حَدِّ ذاتهما من المنافع والفوائد للإنسان وبقية الأحياء .

وقد وسَّع بعض العلماء الكلام فى هذا مثل البغوي[١] فقال : أراد الله تعالى أنه خلق للشمس ثلاثمائة وستين كوّة فى المشرق ، وثلاثمائة وستين كوة فى المغرب على عدد أيام السنة ، تطلع الشمس منها من ذلك اليوم إلى العام المقبل، فهى تغرب فى كوَّة منها لا ترجع إلى الكوّة التى تطلع الشمس منها من ذلك اليوم إلى العام المقبل فهى المشارق والمغارب [٢].

﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ (٤٠)﴾ [المعارج]

قوله تعالى (إنَّا) عبارة عن (إنَّ) التى للتوكيد والنصب . و (نا) التى تعبر عن العظمة أصلها (إننا) .

﴿ إِنَّا لَقَادِرُونَ (٤٠)﴾ [المعارج] فنحن قادرون على إهلاكهم وعلى أنْ نخلق أمثلَ منهم وأطوعَ لله وأرضى منهم .

﴿ إِنَّا لَقَادِرُونَ (٤٠) عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ (٤١)﴾ [المعارج] فهل أبدلهم الله بخير منهم ، البعض قال بدَّل الله بهم الأنصار والمهاجرين . وقال آخرون : بل بدَّل الله كفر بعضهم بالإيمان .

والبعض قال : إنه لم يحدث التبديل أصلاً ، لأن الإبدال يكون بطريق الإهلاك، وإنما هدَّد تعالى القوم بذلك ليؤمنوا .

وقد قال تعالى فى حقِّ الذين يُعرضون عن الإنفاق فى سبيل الله : ﴿ وَإِنْ

---

(١) البغوى : هو الحسين بن مسعود الفراء أو ابن الفراء أبو محمد ويلقب بمحى السنة ، فقيه محدث مفسر، نسبته إلى (بغا) من قرى خراسان بين هراة ومرو . ولد عام ٤٣٦ هـ وتوفى ٥١٠هـ عن ٧٤ عاماً . له (التهذيب) فى فقه الشافعية . و (شرح السنة) فى الحديث . و (لباب التأويل فى معالم التنزيل) فى التفسير . [الأعلام لخير الدين الزركلى ٢/٢٥٩]

(٢) أخرجه الطبرى فى تفسيره (٢٣/٢٨٣) والثعلبى فى تفسيره (الكشف والبيان) (٨/١٣٩) والبغوى فى تفسيره (٤/٢٦) .

تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ (٣٨)﴾ [محمد]

فالله غنى وقادر بقدرته المطلقة أن يستبدل بالقوم البخلاء قوماً يسخون بما أفاء الله عليهم من رزق فى سبيل الله ، فالذى يمسك عن العطاء إنما منع عن نفسه باب رحمة .

ومَنْ يرتد يستبدله الله ، قال تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ ..(٥٤)﴾ [المائدة]

فمَنْ يتراجع منكم عن الإسلام فسيأتى الله بعوض عنه ، وسيأتى بقوم لن يكونوا مثل هؤلاء المرتدين .

وهذا ليس معناه إهلاك غير المنفق ، أو إهلاك المرتد ، بالعكس قد يزداد غير المنفق مالاً ويصبح أكثر سلطاناً وجاهاً وأتباعاً ، وكذا المرتد قد يزداد شهرةً ومالاً .

فالتبديل هنا معناه الطرد من رحمة الله ، وأنهم قد تُودِّع منهم ، كما أنك تنفض يديك من شخص لم يقبل نصيحتك عدة مرات وأصرَّ على السير فى طريق الخطأ تجد مَنْ يقول لك : دعْكَ منه .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « إذا رأيتم أمتى تهاب الظالم أنْ تقول له : إنك أنت ظالم . فقد تُودّع منهم »[١] .

﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٤١)﴾ [المعارج] فما نحن بعاجزين ولا مغلوبين ، فلا يفوتنا شيءٌ نريده ، ولا يمتنع منا أحد ، فلسنا عاجزين عن إبدالهم بآخرين ثم لا يكونوا أمثالهم .

فلا أحدَ يسبق إرادة الله أو مشيئته أو يعجزها عن أنْ تصل لمرادها ، فهو

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٦٥٢١، ٦٧٨٤٢) وكذا البزار فى مسنده (٢٣٧٤ ، ٢٣٧٥) والطبرانى فى المعجم الكبير (١٤٣١٤ ، ١٤٣٥١) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص .

سبحانه ربُّ المشارق والمغارب ، وهذا ليس محدوداً بالأرض التى نعيش عليها فقط ، فالأرض هى كوكب من تسعة كواكب ضمن مجموعة شمسنا ولكن هناك مجموعات شمسية تُعد بالملايين ضمن مجرات فى الفضاء الواسع.

كل مجموعة شمسية لها شمسٌ تشرق وتغرب ، فالله إنما هو للكون كله، وليس رباً لأرضنا وحدنا وشمسنا وحدنا ، من هنا فهو ﴿ رَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ (٤٠)﴾ [المعارج] القادر القدير الذى لا يُعجزه شيء .

﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾

﴿ فَذَرْهُمْ (٤٢) ﴾ [المعارج] أمر بأنْ يدعهم ويتركهم ، ويستعمل من (ذرهم) فعل مضارع هو (يذر) ، ولم يستعمل منها فى اللغة فعل ماض إلا فيما رُوى من حديث رسول الله ﷺ : « ذروا اليمن ما ذروكم » أى : اتركوهم ما تركوكم.

ويشارك فى هذا الفعل فعل آخر هو (دع) بمعنى : اترك . وقيل : أهملت العرب ماض (يدع) و (يذر) إلا فى قراءة فى قول الحق سبحانه : ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣) ﴾ [الضحى]

والمعنى : ذرهم لى أنا أتولى عقابهم وأفعل بهم ما أشاء ، أو ذرهم يفعلون ما يشاءون ليستحقوا العقاب وينزل بهم العذاب .

﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا(٤٢)﴾ [المعارج] كلمة (يخوضوا) تعطى معنى واضحاً مجسَّماً ، لأن الأصل فى الخوض أنْ تدخل فى مائع أى سائل مثل الخوض فى المياه أو الطين .

فكلمة (الخوض) تُشعرنا بالدخول فى الماء الكثير ، والماء الكثير ساتر لما تحت قدمى الذى يخوض فيه ، وما دام قد ستر ما تحت قدميه فهو لا يدرى إلى أيِّ موقع تقع قدماه ، وربما وقعتا فى حفرة ، أما الذى يسير فى غير ماء فالطريق واضح أمامه يضع قدميه حيث يرى فيها ثباتاً واستقراراً وعدم

إيذاء.

﴿ وَيَلْعَبُوا (٤٢) ﴾ [المعارج] اللعب هو شغل النفس بشيء غير مطلوب ، فما يفعلونه لعب لن يستطيع الصمود أمام الدعوة ، فالدعوة سائرة فى طريقها ولن يتمكنوا منها أبداً ، فكلّ الذى يصنعونه هو خوض فى باطل ، ولعب لا جدوى منه ، ولا صلة له بالجد ، بل هو هزل .

وذلك مثل قوله تعالى : ﴿ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٩٨) ﴾ [الأعراف]

فنهارهم هو حركة غير مُجدية وغير نافعة بل هى لعب فى الحياة الدنيا ، وليلهم نوم وفَقْد للحركة أو عبث ومجون وانحراف ، وكل مَنْ يسير على غير منهج الله يقضى ليله نائماً أو لاهياً عاصياً ، ونهاره لاعباً .

ويقول تعالى : ﴿ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٢) ﴾ [الأنبياء] فهم لايعطونه اهتماماً ، ولا يلقون له بالاً ، وهم يتعمدون هذا ويُوصى بعضهم بعضاً به ويُحرِّضون عليه .

﴿ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِى يُوعَدُونَ (٤٢) ﴾ [المعارج]

ذرهم فى خوضهم ولعبهم وعمايتهم حتى يلاقوا يوم القيامة الذى وُعدوه، ولاحظ أن الحق سبحانه يقول (يلاقوا) أى أنهم هم الساعون للقاء هذا اليوم رغم أنهم يفرُّون منه ويكرهون لقاءه وينكرونه .

ثم إنه ﴿ يَوْمَهُمُ (٤٢) ﴾ [المعارج] فينسب اليوم إليهم ، فلن تستطيعوا منه فكاكاً ولا مفراً ، وهو يومهم الذى ينتظرهم لإيقاع الجزاء بهم على كفرهم وعدم إيمانهم ، وسوف يُلاقون فيه مصيرهم .

﴿ الَّذِى يُوعَدُونَ (٤٢) ﴾ [المعارج] أوعدهم الله به على لسان جميع رسله ، أنَّ

هناك يوماً للحساب والجزاء .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ (٤٣) خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ (٤٤) ﴾

ماذا سيحدث فى ذلك اليوم الموعود الذى يُوعدون به ؟ ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا (٤٣) ﴾ [المعارج] ففى هذا اليوم العظيم الهول يُنفخ فى الصور النفخة الثانية ، فيخرج الناس جميعاً من أجداثهم ، أى يخرجون من قبورهم.

يقول تعالى : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ (٥١) ﴾ [يس] أى يُسرعون ، وهى نفسها كلمة (سراعاً) التى ذُكرتْ هنا فى سورة المعارج .

وانظر إلى عظمة تصوير الحق سبحانه لهذا المشهد ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ (٥١) قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ (٥٢) إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ (٥٣) ﴾ [يس]

إنها الحقيقة التى طالما كذَّبوا بها ، وماتوا وقُبروا وفى يقينهم أنهم لن يُبعثوا ، وأنه لا وجود ليوم يقومون فيه من قبورهم ويعودون للحياة مرة أخرى ، فإذا بهم تنشقّ قبورهم عن أجسادهم ويجدون أنفسهم أحياء رغماً عنهم ، وإذا بهم يصرخون داعين على أنفسهم بالويل ، فقد ظهر أنهم كانوا على الباطل .

﴿ قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ (٥٢) ﴾ [يس] فيقول لهم الله ، أو تقول لهم الملائكة ﴿ هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ

---

(١) الأجداث : القبور . واحدها جدث . [كتاب العين للخليل بن أحمد ٦/٧٣] .

وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ (٥٢) ﴾ [يس]

وانظر إلى القوة فى إحضار هؤلاء رغماً عنهم ﴿ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ (٥٣) ﴾ [يس] ومُحضر اسم مفعول من أحضر. يعنى أُجبر على الحضور والمثول بين يدى الله للحساب.

ولن يفلت منهم أحد ﴿ وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ (٣٢) ﴾ [يس]

ويصف الحق سبحانه خروجهم بتنسيل القماش. فيقول ﴿ يَنْسِلُونَ (٥١) ﴾ [يس] فهم فى سرعتهم فى الخروج كتنسيل القماش.

ويضيف الحق سبحانه هنا الوصف إيضاحاً، فيقول تعالى: ﴿ كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ (٤٣) ﴾ [المعارج]

والنُّصُب الشيء المنصوب، وهى من الكلمات التى وردت مفرداً ووردتْ جمعاً، وهى فى الأصل حجارة كانت منصوبة حول الكعبة يذبح عليها المشركون الذبائح تقرّباً للآلهة.

فالنُّصب عَلَم يُنصب ويُوقف يستبق العابدون له إليه، كذلك إسراع هؤلاء واستباقهم وانطلاقهم، وفى هذه الحركة خروج من القبور وإسراع فيه قلق واضطراب على مصيرهم.

ولكن هل هم يسرعون مبتهجين فرحين، تعلو وجوههم الفرحةُ لأنهم سيقابلون خالقهم الذى آمنوا به؟

إنهم ليسوا من هؤلاء؛ إنهم ممَّنْ كفر بالله وجحد أمر الله ورفضوا منهج الله وتمرّدوا عليه وعلى مَنْ يحمله، فقتلوا الأنبياء وقتلوا ورثة الأنبياء من العلماء والدعاة.

وقد قال رسول الله: «العلماء ورثة الأنبياء»[1].

هم فى البداية يخرجون فزعين مضطربين أعينهم زائغة تذهب فى كلِّ مكان

---

(١) جاء من حديث طويل أخرجه أبو داود فى سننه (٣٦٤١) وابن حبان (٨٠) وابن ماجه فى سننه [illegible]

تستطلع ما يحدث غير مصدِّقة أنهم قاموا من قبورهم ، إنهم فى مشهد مهيب ، مليارات الجثث الآدمية تقوم من أجداثها ، لا يعرف أحدٌ منهم مصيره .

وهذه هى اللحظات التى قال الله فيها : ﴿ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ (٣٧) ﴾ [النور]

يعنى رجفة القلب واضطراب حركته ، وما ينتابه من خفقان شديد ، وكذلك تضطرب الأبصار وتتقلب هنا وهناك ، لأنها حين ترى الفزع الذى يخيفها تتقلب ، تنظر هنا وهناك علَّها ترى ما يُطمئنها أو يخفِّف عنها ما تجد .

لكن هيهات فلن ترى إلا فزعاً آخر شديداً أشدّ وأنكى ، عندما يتأكد من مصيره المحتوم تجده ذليلاً منكسراً ، هنا يأتي وصف الحق سبحانه الذى معنا فى هذه الآية : ﴿ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ (٤٤) ﴾ [المعارج]

فأبصارهم ذليلة منكسرة حيث لا مفرَّ ولا منجى ، ووجوههم ترهقهم ذلة ، أى تغشاهم ذلَّة ويكسو وجوههم هوان عند تحقُّق عذابهم .

﴿أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢١)﴾ [هود]

ثم يُنهى الحق سبحانه سورة المعارج بقوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الَّذِى كَانُوا يُوعَدُونَ (٤٤) ﴾ [المعارج]

يكرر الحق سبحانه أن ذلك اليوم هو الذى أوعدناهم إياه على لسان جميع الرسل من لدن آدم حتى خاتم المرسلين محمد ، فليس لكم حجة ، حذرناكم يومكم هذا وحذرناكم هذا الموقف ، فما استجبتم لوعيدنا ، وما اهتممتم بالإيمان بما نقول فظلمتم أنفسكم ، وها أنتم واجهتم ما كنتم تكذِّبون .

سُورَةُ نُوحٍ

سورة نوح (١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١ ﴾

قصة سيدنا نوح من القصص التى وردت كثيراً فى القرآن الكريم مثل قصة موسى عليه السلام ، ومن العجيب أنَّ لقطات القصة تنتشر فى بعض السور، لكن السورة التى سُمِّيت بسورة نوح ليس فيها من المواقف التى تعتبر من عيون القصة ، تعالج لقطات أخرى .

تعالج سورة نوح إلحاحه فى دعوة قومه ، وأنه ما قصَّر فى دعوتهم ليلاً ونهاراً وسِراً وعلانية ، كلما دعاهم ابتعدوا ، ولم تأتِ قصة السفينة فى سورة نوح ، ولا قصة الطوفان ، وهذه لقطات من عيون القصة ، وكذلك لم تأتِ فيها

(١) سورة نوح هى السورة رقم (٧١) فى ترتيب المصحف الشريف ، نزلت بمكة وهى مُحكمة ليس فيها ناسخ ولا منسوخ . وهى ٢٨ آية نزلت بعد سورة النحل وقبل سورة إبراهيم . ونوح هو نوح بن لامك ابن متوشلخ بن إدريس بن يرد بن مهلائيل بن قينان بن أنوش بن شيث بن آدم (بينه وبين آدم ٨ آباء) .

قصته مع ابنه ، بل جاء بها فى سورة هود .

إذن كل لقطة جاءت لوضع مقصود ، ولهذا رأينا قصة نوح فى سورة نوح وقد خلتْ من عناصر مهمة فى القصة ، وجاءت هذه العناصر فى سورة هود أو فى سورة الأعراف .

إذا كان الحق سبحانه قد أنهى سورة المعارج السابقة على سورة نوح التى نحن بصدد خواطرنا عنها ، إذا كان قد أنهاها بتأكيد أنه سبحانه قد أوعد وأنذر الناس جميع الناس بيوم الحساب ، وأنهم لا بد أنه آتٍ ولا ريب .

إذا كان هذا فإن الحق سبحانه يبدأ سورة نوح بإعطائنا مثالاً لهذا الإنذار وهذا الإيعاد على لسان نبى ورسول من رسله ، فخصَّص سورة لرسوله نوح عليه السلام .

وبدأ السورة بتأكيده على أنه أرسل نوحاً إلى قومه أنْ ينذرهم وينبههم قبل أن يأتيهم عذاب أليم ، قد يكون هو الطوفان الذى حدث فى الدنيا ، وقد يكون الإنذار بيوم القيامة الذى يُجمع له الناس .

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ (١)﴾ [نوح] فرسالة نوح عليه السلام كانت لقومه، وكذلك إبراهيم ولوط وشعيب وصالح عليهم السلام ، كلُّ هذه رسالات كان لها وقتٌ محدود تمارس مهمتها فى الحياة ، حتى يأتى الكتاب ، وهو القرآن الكريم الجامع لمنهج الله سبحانه .

ونوح رسول ككلِّ الرسل أُوحى إليه بتوحيد الله عز وجل ، وقال تعالى : ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ[1] وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا (١٦٣)﴾ [النساء]

---

(١) الأسباط جمع مفرده سبط وهم أولاد بنى إسرائيل اثنا عشر سبطاً كل سبط قبيلة ، وهم بنو يعقوب عليه السلام إخوة يوسف . والأسباط من بنى إسرائيل كالقبائل من العرب . [جمهرة اللغة للأزدى]، [معجم ديوان الأدب للفارابى ١/١٨٧] .

﴿ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١) ﴾ [نوح] أى حذِّر قومك ونبِّههم وأنذرهم قبل أنْ يحلّ بهم عذاب أليم ، عذاب عاجل وهو الطوفان فى حقِّ قوم نوح ، وعذاب آجل وهو عذاب الآخرة لمن مات دون أنْ يتوب من كفره بأنْ يؤمن بالله العظيم .

وكلمة ﴿ أَنْ أَنْذِرْ (١) ﴾ [نوح] أصلها : بأنْ أنذر . لأن تقدير الكلام : أرسلنا نوحاً بأنْ أنذر . ولكن حُذف الجار وأوصل الفعل. والمعنى : أرسلنا نوحاً بأن قلنا له : أنذر .

ولكن لماذا أنذر فى هذه الآية ؟ نقول : نوح عاش فى قومه داعياً إلى الله تسعمائة وخمسين عاماً ، ووصل معهم كما نقول إلى طريق مسدود ، وما آمن معه بعد كل هذه المدة الطويلة إلا ثلاث عشر رجلاً وامرأة .

فالحالة التى كان قوم نوح قد انتهوا إليها من إعراض واستكبار وعناد وضلال تجعل الإنذار هو أنسب ما تلخص به رسالته .

لقد وصل الأمرُ بنوح عليه السلام أنْ دعا على قومه دعاءً مؤلماً ، سيأتى فى هذه السورة : ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (٢٦) ﴾ [نوح] أى : لا تُبقى على أحد منهم ، ولا تذر منهم نسمة إلا أهلكتها .

والعذاب الأليم هنا هو الطوفان والغرق فى مياهه ، وهذا هو الأرجح لأنه استخدم هنا لفظة (يأتيهم) ، الطوفان هو الذى سيأتى إليهم ، أما عند الحديث عن اليوم الآخر قال فى سورة المعارج قبل بضعة آيات : ﴿ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِى يُوعَدُونَ (٤٢) ﴾ [المعارج]

هم الذاهبون لملاقاة عذاب الآخرة فى يوم القيامة ، لا أنه سيأتى إليهم ، أما الطوفان فإنه سيأتى إليهم ويدخل عليهم بيوتهم ويغرقها ويُغرق أرضهم ويأخذ فى طريقه كل شيء من مواشيهم وأموالهم إلا ما أخذه نوح معه فى السفينة .

وهو عذابٌ أليم مؤلم لهم سيفقدون فيه كل شيء ، أرواحهم وبيوتهم وأولادهم وأموالهم وماشيتهم وأرضهم .

ثم يقول تعالى :

﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٢ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣ ﴾

كلَّف الحق سبحانه نوحاً بالرسالة وبإنذار قومه ، وقد دعا نوح قومه كما دعا أيّ رسول قومه (قال ياقوم) ، والقوم مجتمع أناس ، وكلمة (قوم) إذا سمعتها ففيها معنى القيام ، والقيام هو أنشط حالات الإنسان .

والقوم هم الجماعة وعادة يُطلق على الرجال لأنهم أهل القيام بالمهمات، وحين تجد القرآن تجد كلمة (قوم) وتفهم أن المقصود منها الجماعة التى تربطهم رابطة .

والقوم هم الرجال خاصة من المعشر ، لأن القوم عادة هم المواجهون للرسالة ، والمرأة محتجبة ، تسمع من أبيها أو أخيها أو زوجها .

والقرآن يقول : ﴿ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ (١١) ﴾ [الحجرات] فالنساء لا يدخلن فى القوم، فالقوم هم المواجهون للرسول ومنهم تأتى المتاعب والتصلُّب فى الرأى ، ويكون الإنكار والجحود والحرب منهم في الأغلب .

وقد خاطب نوح قومه فقال: ﴿ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٢) أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ (٣) ﴾ [نوح] فبدأ هنا بالنذارة ، أما فى سورة الأعراف فقد بدأ بمطلوب رسالته ثم النذارة ، فقال : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَـٰقَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٥٩) ﴾ [الأعراف]

فنوح أراد هنا أنْ ينبههم إلى عظيم ما سيدعوهم إليه فقال : ﴿ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٢) ﴾ [نوح] أى نذير واضح . وهو نفس ما قاله نوح لقومه فى سورة هود، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٢٥) ﴾ [هود]

ونحن نلحظ أن همزة (إن) فى إحدى قراءتى الآية تكون مكسورة ، وفى قراءة أخرى تكون مفتوحة ، أما فى القراءة بالكسر فتعنى أن نوحاً عليه السلام قد جاء بالرسالة فبلَّغ قومه وقال : ﴿ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٢٥) ﴾ [هود]

وأما القراءة الأخرى فتعنى أن الرسالة هى : أنى لكم نذير مبين فكأنَّ القراءة الأولى تعنى الرواية عن قصة البلاغ ، والقراءة الثانية تحدد مضمون الرسالة: ﴿ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٢٥) ﴾ [هود]

وكما قلنا فإن النذير هو مَنْ يخبر بشرٍّ لم يأت وقته بعد ، حتى يستعدَّ السامع لملاقاته ، والإنذار إنما يكون للعاصى أو الكافر ، أما المؤمن فله بشير يخبره بخير قادم ليستعد السامع أيضاً لاستقباله بنفس مطمئنة .

﴿ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ (٣) ﴾ [نوح] فرسالة نوح عليه السلام لقومه ثلاثة أمور : عبادة الله ، تقواه ، طاعة نوح فيما أمره الله به .

فاعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، وقد جاء الأمر بها بعد (أنْ) التفسيرية، كما فى قوله تعالى : (وأوحينا إلى أم موسى) ماذا ؟ ﴿ أَنْ أَرْضِعِيهِ (٧) ﴾ [القصص]

والعبادة أنْ نطيع الله بفعل ما أمر وبترك ما نهى عنه وزجر ، فالعبادة معناها التزام بأمر فيُفعل ، ويُنهى عن أمر فلا يُفعل ، لذلك إذا جاء مَنْ يدعى الألوهية وليس معه منهج نقول له : كيف نعبدك ؟ وما المنهج الذى جئتَ به ؟ بماذا تأمرنا ؟ عن أيِّ شيء تنهانا ؟

وقد كان قوم نوح من عُبَّاد الأصنام من دون الله ، فقد كانوا يعبدون وداً وسواعاً ويغوث ويعوق ونسراً ، وهؤلاء كانوا رجالاً صالحين فلما ماتوا صنعوا

لهم تماثيل ليتذكروا صلاحهم برؤيتهم لتماثيلهم ، فلما تقادم الزمن عبدوهم من دون الله .

لذلك كانت رسالة نوح لهم ﴿ أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاتَّقُوهُ (٣)﴾ [نوح] أى اعبدوا الله وحده لا شريك له وخافوا من الله واخشوا عقابه وهذه هى تقوى الله ، لذلك قال لهم نوح ﴿ وَاتَّقُوهُ (٣)﴾ [نوح] أى اتقوا الله واتقوا عقابه وجزاءه ، فاتخذوا من الإيمان به سبحانه ردءاً ووقاية لكم من عقابه لكم .

﴿ وَأَطِيعُونِ (٣) ﴾ [نوح] لم يقل : وأطيعوه . أى أطيعوا الله ، فطاعتهم لنوح هى طاعة لله ، فقال (وأطيعون) لأنِّى أنذركم عقاب الله وأريد لكم الخير ، فأطيعونى حتى لا يقع بكم عذاب الله .

وكل الرسل خاطبوا أقوامهم نفس الخطاب ، فهود عليه السلام خاطب قومه عاداً فقال :﴿ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٠٧) فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ (١٠٨) ﴾ [الشعراء]

وقالها صالح لقومه ثمود ، وقالها لوط لقومه ، وقالها شعيب لقومه أصحاب الأيكة .

ثم يقول :

﴿ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ﴾

هذه الآية الكريمة يوردها الحق سبحانه كنتيجة وثمرة لعبادة الله وحده وتقواه وطاعته ، فثمرة ذلك ﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ (٤) ﴾ [نوح]

وهذه الآية بهذا النظم جاءت فى آيات أخرى منها ﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى (١٠) ﴾ [إبراهيم]

فلم يقل تعالى : يغفر لكم ذنوبكم ، لأنه إنما يخاطب كافرين ، بينما يخاطب

الحق سبحانه المؤمنين فيقول : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ (١٢) ﴾ [الصف]

فالله لا يساوى فى خطابه بين المؤمنين والكافرين .

﴿ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى (٤) ﴾ [نوح] الأجل هو الزمن المضروب ، والمقرر للحدث ، وهو مقصود به هنا يوم القيامة ، فهذا الأجل هو انقضاء الدنيا وقيام الآخرة .

﴿ إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٤) ﴾ [نوح]

فأكَّده بـ (إِنَّ) ، ولفظة الأجل جاءت فى القرآن فى مواضع كثيرة منها ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (٣٤) ﴾ [الأعراف] ، وهنا ﴿ إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ (٤) ﴾ [نوح]

والأجلان مختلفان بالنسبة للحضور الحياتى للإنسان ، فالأجل الأول يُنهى الحياة الدنيا ، والأجل الآخر يعيد الحياة فى الآخرة للقاء الله عز وجل . فالأجلان مرتبطان .

وأجل الله سواء كان الذى يُنهى الحياة الدنيا ، أو الذى يعيد الحياة يوم القيامة لا يُؤخَّر ، فأجل الله الذى قد كتبه على خَلْقه فى أم الكتاب إذا جاء عنده لا يُؤخَّر عن ميقاته ، ولا يستطيع أنْ يؤخره أحد .

﴿ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٤) ﴾ [نوح] أى لو كنتم تعلمون ما يحلّ بكم من الندامة عند انقضاء أجلكم لآمنتم ، لبادرتم إلى عبادته وتقواه وطاعتى فيما جئتكم به منه تعالى .

ولأن قومه لم يستجيبوا توجَّه بخطابه إلى الله عز وجل :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا (٥) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاءِي إِلَّا فِرَارًا (٦) ﴾

دعوة نوح لقومه كانت مستمرة على مدار اليوم ليلاً ونهاراً ، لم يقصر فى دعوتهم ، ولم يكتم عنهم نصحه وإرشاده ، ولكنهم لم يستجيبوا ، فها أنا ذا ياربى قد بلَّغت رسالتى ، وأتوجه إليك ربى ، وأبرأ إليك من صنيعهم .

فدعوتُ قومى ليلاً ونهاراً إلى توحيدك وعبادتك وحذّرتهم بأسك وسطوتك.

﴿ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا (٦) ﴾ [نوح] فاستخدم الحق سبحانه (الفاء) التى تقتضى التعقيب وتفيد الإلحاح عليهم ، وقد ظل سيدنا نوح قرابة ألف سنه يدعو قومه ليلاً ونهاراً ، سراً وعلانية ، لكنهم كانوا يفرون من الإيمان .

لذلك يأتى الحق سبحانه فى أمر دعوة نوح بالفاء التى تدل على المتابعة ، وهم لم تزدهم متابعة نوح على مدى تسعمائة وخمسين سنة إلا كفراً وعناداً وتباعداً من الإيمان .

فدعائى لم يزدهم إلا فراراً مما دعوتُهم إليه .

﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (٧) ﴾

يستمر نوح عليه السلام فى شكايته لربه التى تمثلت فى أنه كلما دعا قومه لعبادة الله وحده وتقواه فعلوا فعلة تدلُّ على شدة إعراضهم عن دعوة نوح وإصرارهم على كفرهم .

﴿ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ (٧) ﴾ [نوح] ومن البداهة أنْ نعرف أن الإصبع لا تدخل كلها إلى الأذن ، إنما الأنملة تسُد فقط فتحة السمع .

وعدَّل القرآنُ ذلك بمبالغة تكشف موقف نوح عليه السلام ، فكلٌّ منهم أراد أنْ يُدخل إصبعه فى أذنه حتى لا يسمع أيَّ دعوة ، وهذا دليل كراهية ، وهذه

شهادة ضدهم لأنهم يفهمون أنهم لو سمعوا فقد تميل قلوبهم لما يُقال .

وأهل الباطل دائماً لا يحبون أنْ يسمعوا صوت الحق ، وأول شيء يفعلونه هو سدّ آذانهم عن سماع الحق ، إمَّا بأن يصمُّوا آذانهم أو بمنع أهل الحق من الكلام أو بقتلهم .

وقد حدث أن مشركى مكة تواصوا فيما بينهم ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ (٢٦)﴾ [فصلت] فتواصوا بالتشويش على القرآن ثقةً منهم فى أن القرآن لو تناهى إلى الأذن فقد يؤثر فى نفسية السامع ، ولو كان هذا القرآنُ باطلاً فلماذا خافوا من سماعه ؟

وهم لم يكتفوا بوضع أصابعهم فى آذانهم ، أى أطراف أصابعهم حتى لا يسمعوا ، وقد كان هذا يكفى ليتحقق غرضهم في عدم سماع نوح ودعوته .

لكنهم أيضاً ﴿ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (٧)﴾ [نوح] أى غطوا رؤوسهم بثيابهم ، فهم لا يريدون سماعه فقط ، بل إنهم أيضاً لا يريدون رؤيته .

فهم ﴿ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ (٧)﴾ [نوح] لئلا يسمعوا كلامه ﴿ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ (٧)﴾ [نوح] لئلا يروه.

فالحق سبحانه يرسم لنا صورة مرتبطة بالسياق الواردة فيه ، لتصوير إعراض قوم نوح عن الدعوة ورفضهم لها ، فاستخدم كلمة ﴿ أَصَابِعَهُمْ (٧)﴾ [نوح] للإيحاء بشدة إعراضهم ومبالغتهم فى ذلك إلى الحدِّ غير المعقول ، وهو محاولتهم إدخال الأصابع كلها فى الآذان .

وتكملة لهذه الصورة المعرضة عن السماع أضاف إليها الحق سبحانه إعراضهم عن رؤية مَنْ يكلمهم أيضاً فقال : ﴿وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ (٧)﴾ [نوح]

وقد كانوا مُصرِّين على الإعراض عن دعوة نوح لهم ، فقال تعالى : ﴿ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (٧)﴾ [نوح]

وقد كان نوح يأتى أصنامهم ليلاً وينادى بأعلى صوته : يا قوم قولوا : لا إله إلا الله وإنى نوح رسول الله . فتنكّس الأصنام ، وكانوا يضربون نوحاً ضرباً شديداً ، ويدوسون بطنه حتى يخرج الدم من أنفه وأذنيه[1] .

وكان الرجل منهم عند وفاته يُوصى أولاده ويأخذ عليهم العهد ألاَّ يؤمنوا به ، ويأتى الرجل بابنه إلى نوح ويقول : يابنيّ انظر إلى هذا ، فإن أبى حملنى إليه وحذرنى منه فاحذره أنْ يزيلك عما أنت عليه فإنه ساحر كذاب .

وقد كان هذا على تتابع القرون كل عقد وكل قرن يوصى الذى بعده أنْ لا يؤمن بنوح وأن يحذره الأجداد يوصون الآباء ، والآباء يوصون الأبناء وهكذا.

فهم أصروا على كفرهم إصراراً رغم كل ما بذله نوح عليه السلام من محاولات مضنية أنْ يؤمنوا أو يعطوا لأنفسهم الفرصة لأنْ يسمعوا .

ولكنهم ﴿ وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (٧)﴾ [نوح] فحقَّ عليهم عذاب الله لأنهم تأبوا وعاندوا وأخذتهم العزة بالإثم ، وأرادوا بالاستكبار الهرب من الالتزام بالمنهج الذى جاءهم به الرسول ﷺ .

واستكبر وتكبَّر وكل ما جاء على وزن (تفعَّل) يدل على أن كبرهم هذا غير ذاتى ، لأن تكبُّرهم واستكبارهم سرعان ما يزول وينمحى ، وقوم نوح لم يستكبروا فقط بل استكبروا استكباراً .

فاستكبارهم فاق الحد والتصور ، لذلك استحقوا عذاباً لم يُعذَّبه أحدٌ من قبلهم ولا من بعدهم فكان الطوفان ، رسول يبقى فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً ومع ذلك لا يؤمنون ، فاستحقوا دعاء نوح عليهم بالإبادة والاستئصال واستجاب الله له .

ونوح إنما دعاهم لعبودية الله وحده ليغفر لهم الله ، فقال : ﴿ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ (٧) ﴾ [نوح] ، فهو لم يدعهم لمصلحة ذاتية له ، بل ليغفر لهم

---

(١) أورده شهاب الدين النويرى (ت ٧٢٣ هـ) فى كتابه (نهاية الإرب فى فنون الأدب) (١٣/ ٤٤ ، ٤٥)

الله كفرهم وإعراضهم ، أى أن إيمانهم سيعود عليهم هم بالمنفعة ، أنْ يغفر الله لهم ويرحمهم فلا يقع بهم عذابه ، بل يفيض الله عليهم من وافر نعمه على عباده المؤمنين .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ ﴾

يُبرِّيء نوح عليه السلام ساحته من أنْ يكون قد قصَّر في دعوته لقومه ، أو أنه فرَّط فيما أمره الله به ، فرغم إعراضهم عن نوح وجَعْلهم أصابعهم في آذانهم حتى لايسمعوه واستغشائهم ثيابهم حتى لايروه. وليس هذا فقط ، بل ﴿وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (٧)﴾ [نوح]

رغم هذا لم ييأس نوحٌ واستمر في دعوتهم ، فيقول :﴿ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا (٨) ﴾[نوح] أي أنني ثم بعد ذلك دعوتُهم جهراً في أسواقهم وطرقهم، ولم أخْشَ سخريتهم بي ولا اعتداءهم عليَّ .

جهاراً : مجاهراً بدعوتي بأعلى صوتي لا أُخفضه ولا أخافت به، بل ظاهراً في غير خفاء ، فالجهار الكلام المعلن به ؛ فصرختُ بهم داعياً لهم وصِحْتُ بالذي أمرتني به من الإنذار .

فنوحٌ عليه السلام إنما أرسله الله بإنذار قومه ، قال :

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ (١) ﴾ [نوح]

فقد دعوتُهم يارب إلى الإيمان علانيةً من غير خُفْية، بل أظهرتُ لهم الدعوة .

﴿ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا (٩) ﴾ [نوح] جرَّبتُ معهم كلَّ أنواع وأساليب دعوتهم إلي الإيمان ، إعلاناً وإسراراً، دعوةً علنية على الملأ

ودعوةً سرية في إسرار بيني وبين أفراد قومي .

وكلمة (إسْراراً) مصدر فيه معنى التوكيد ، وتُعرب مفعولاً مطلقاً ، واستخدام كلمة (لهم) تعطينا لفتةً في أن نوحاً كان يودُّ إيمانَ قومه وكان حريصاً عليهم ، فالنَّظْم القرآني أتى بـ (لهم) وكررها ليعطي معنى إلحاح نوح عليهم ورغبته في إيمان قومه ، فهم في باله طوال الوقت .

بل إنه تعدَّى هذا إلى أنه كان يرغب في مغفرة الله لهم ، فكان يوصي قومه باستغفار الله ، ولكن كيف وهم لايؤمنون بالله إلهاً مستحقاً وحده بالعبودية ، فكانوا يشركون معه أوثاناً لا تضر ولا تنفع ، ولا تسمع ولا تبصر .

﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) ﴾ [نوح] لقدأراد نوح أنْ يرحم قومه بأنْ يجعلهم يستغفرون ربهم ، فالاستغفار توبة وإقرار واعتراف بالذنب .

فهَبَ أنَّ الله لم يشرع التوبة والاستغفار وأذنب واحدٌ ذنباً ، وبمجرد أنْ أذنب ذنباً خرج من رحمة الله ، فماذا يصيب المجتمع منه ؟ إنَّ كل الشرور تصيب المجتمع من هذا الإنسان لأنه فقد الأمل في نفسه فيصبح أكثر شراً وعدوانية وأكثر ذنوباً .

فالاستغفار إقرارٌ بالتقصير وارتكاب الذنوب ، وساعة تطلب المغفرة من الله تعالى فهذا إعلانٌ منك بالإيمان ، وبأن تكليفه سبحانه تكليف حق .

ومادام استغفر الله فعليه أنْ لا يعود إلى ذنب أبداً ، وأنْ يحرص على تجنُّب المعاصي والذنوب .

واعلموا أنكم عندما تستغفرون إنما تستغفرون (ربكم) الذي خلقكم وأوجدكم في الدنيا ، وهو يتولاكم برزقه وعنايته ورعايته ، فإذا وقفتم ببابه مستغفرين لم يردكم خائبين .

﴿ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) ﴾ [نوح] كلمة (غفار) أعلى صيغ المبالغة مبالغةً، فهناك غافر بصيغة اسم الفاعل ، يقول تعالى :

﴿ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ (٣) ﴾ [غافر]

فهناك فى صفات الله سبحانه : غافر ، غفور ، غفار ، وهناك تائب وتواب . وقد تكون صيغة المبالغة لتكرار حدوث الفعل ، فتتعدد المغفرة بتكرار ذنوب العبد ، فهو سبحانه غافرٌ للذنب الواحد ، وهو غفور دائم، أما غفَّار فهو الغفور فى كل وقت ومهما تعددتْ الذنوب .

وليس معنى قوله سبحانه : ﴿كَانَ غَفَّارًا (١٠) ﴾ [نوح] أنه كان ولم يَعُدْ الآن غفاراً ، فليس فى حَقِّ الله زمن ، وهو سبحانه غفور وغفَّار قبل أن يكون هناك محتاجٌ للمغفرة .

﴿ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ ﴾

فاستغفاركم وتوبتكم إلى الله تفتح لكم أبواب السماء بالمطر، ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا (١١)﴾ [نوح] فالحق سبحانه الذى لم تكونوا تؤمنون به متى استغفرتموه وتبتم إليه لا يحرمكم من عطاء ربوبيته.

وإرسال السماء يعنى تواصل نزول المطر عليهم ، والفارق بين (الإنزال) وبين (الإرسال) أن الإنزال يكون مرة واحدة ، أما الإرسال فهو مسترسل ومتواصل .

لذلك يقول الحق سبحانه فى المطر : ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا (٤٨) ﴾ [الفرقان] لأن المطر لا ينزل طوال الوقت من السماء ، ولكن فى الإرسال استمرار .

لذلك يقول الحق سبحانه :﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ (٢٢) ﴾ [الحجر] ، فالذى

يحتاج إلى استمرارية فى الفعل يقول فيه (أرسل) بدليل أن الله حينما أراد أنْ يجيء بالطوفان قال : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ (١٣٣) ﴾ [الأعراف]

وعندما أراد أنْ يُرغِّب عاداً قوم سيدنا هود فى الاستغفار والتوبة والرجوع عما كانوا عليه من الكفر والآثام قال لهم : ﴿ وَيَـٰقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا (٥٢) ﴾ [هود]

والحق سبحانه هنا يعلِّق إرسال المطر باستغفارهم ، وفى نوح أيضاً يعلقه باستغفارهم ، يقول تعالى : ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا (١١) ﴾ [نوح]

ولقائل أنْ يقول : ما صلة الاستغفار بمسألة كونية مثل نزول المطر ؟ فنقول : للكون مالك لكلِّ ما فيه جماده ونباته وحيوانه ، وهو سبحانه قادر ، وهو القادر أنْ يُخرج الأشياء عن طبيعتها ، فإذا جاءت غَيْمة وتحسب أنها ممطرة قد يأمرها الحق سبحانه فلا تمطر .

مثلما قال الحق سبحانه فى موضع آخر من كتابه :

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَـٰذَا عَارِضٌ[1] مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) ﴾ [الأحقاف]

فلاتأخذوا الأسباب على أنها تأتيكم برتابة ، ولتعلموا أن للأسباب رباً يملكها بأمره سبحانه يستطيع أنْ لا تجعلها تفعل فعلها ، فيجعل السماء لا تمطر لكم ماءً فتصبح أرضكم جرداء لا نباتَ فيها ، وبالتالى لا حيوانَ ، فلن تجدوا نباتاً ولا لحماً تأكلونه .

وقوله تعالى : ﴿ مِّدْرَارًا (١١) ﴾ [نوح] فالمدرار هو الذى يُدر بتتابع لا ضرر فيه ، فالمطر قد يهطل بطغيان ضارٍّ ، فالمدرار هو المطر الذى يتوالى تواليا مُصلحاً لا مُفسداً .

---

(١) العارض : السحاب . والعارض من كل شيء : ما يستقبلك . وقال أبو عبيدة : العارض من السحاب الذى يعرض فى قطر من أقطار السماء من العشى ثم يصبح قد حبا واستوى . (مقاييس اللغة – مادة: عرض) .

ومتى أُرسل المطر مدراراً متتابعاً مصلحاً ، فالأرض تخضرّ وتعمر الدنيا ونزداد قوة إلى قوتنا .

فالماء هو مادة حياة البشر وقوتهم ، لذلك حدثنا الحق سبحانه بعدها فقال : ﴿ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا (١٢) ﴾ [نوح]

أربعة أشياء تأتى بعد الاستغفار والتوبة ونزول ماء السماء يُعتبرون مصدر قوة لكم : الأموال ، البنون ، الجنات ، الأنهار .

والإمداد نعمة من نعم الله سبحانه ، فنعم الله هى : نعم الإيجاد ، ونعم الإمداد ، ونعم التكليف ، فإنْ أحببتَ الله للإيجاد والإمداد ، فهذا يقتضى أنْ تحبه أيضاً للتكليف .

وهو سبحانه القادر على الإيجاد وعلى الإمداد ، فالحق سبحانه أوجدكم فى هذه الدنيا وأعطاكم أموالاً وبنين يُكثِّرها عندكم ويزيد فيما عندكم منها .

﴿ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا (١٢) ﴾ [نوح] هذه الآية فيها من المعانى مالايحدُّه حَدٌّ ، فالنظم القرآنى الذى هو من لدن حكيم خبير عندما تتأمله فى هذه الآية تجد جمالاً لايستطيع أحدٌ من البشر مضاهاته أو الإتيان بمثله .

فقد يسأل سائلٌ : لماذا قدَّم الحقُّ سبحانه ذكر الجنات عن الأنهار، مع أن الأنهار سببٌ فى حصول الجنات ؟

نقول : فى الإجابة على هذا السؤال تتجلى عظمة هذا النظم القرآني، فالحق سبحانه تحدَّث فى الآية قبلها عن نزول مطر السماء عليهم ، فقال تعالى : ﴿ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا (١١) ﴾ [نوح] لذلك ناسب أنْ يذكر بعدها الجنات التى هى البساتين ذات الأشجار الملتفة الكثيفة، وهذه إنما تكون بماء المطر.

فماءُ المطر جعله **الله** سبباً فى وجود البساتين المغدقة مما قد لا يكون للإنسان دخْلٌ فيه ، وجعله أيضاً سبباً فى وجود الأنهار مما يستعمله الإنسانُ فى شرابه وسقى زرعه ورى حيواناته .

فكلُّ الأنهار إنما تنشأ من سقوط الأمطار على المرتفعات الجبلية كنهر النيل مثلاً الذى يسقط مطره على جبال إثيوبيا مثلاً وينساب حتى يصل إلينا .

ثم إنه قد ينقطع المطر سنين فلا تقلقوا ، فالله جعل هذه الأنهار مخازنَ للماء مُمتدَّة لتسقوا بساتينكم وترووها .

وقومُ نوح كانوا قوماً حريصين على الدنيا فمنَّاهم الحقُّ سبحانه بما يريدونه من أموال وبنين وبساتين وحدائق وأنهار ، فهل آمنوا بالله ؟ هل وقَّروا **الله** وعظّموه ؟ لا .

لذلك قال تعالى :

﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ ﴾

فما لكم لا ترْوْنَ **لله** عظمة ووقاراً ولا تبالون ولا تخافون **الله** هيبةً وخشيةً وتعظيماً ، وقد كان الأليق بكم والأجدر بكم بعد نعم الإيجاد والإمداد أنْ توقروه سبحانه .

فما لكم لا تخافون له عظمة ولا تُبجِّلوه سبحانه ، ولا تُعظِّمون **الله** حَقَّ عظمته ، وقد قال تعالى فى آية أخرى : ﴿**وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ** (٩١)﴾ [الأنعام] وفى سورة الحج قال تعالى : ﴿ **مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ** (٧٤)﴾ [الحج]

وفى آية أخرى يقول تعالى : ﴿**وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ**[1] **بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ** (٦٧)﴾ [الزمر]

---

(١) مطويات : فى قدرته ويمينه وقوته . ذكرت اليمين للمبالغة فى الاقتدار . وللطى معان منها الإدراج كطى القرطاس والثوب ، ومنه الإخفاء . ومنه الإعراض . ومنه الإفناء . قال الواحدى فى تفسيره (٥٩٣/٣) : يطويها بقدرته كما يطوى الواحد منا الشيء المقدور له طيه بيمينه .

فهم لم يعطوا الله حَقَّ قدره ، ومعنى القدر معرفة المقدار ، فلو عرفوا قدر الله وعظمته ما عبدوا غيره وما أشركوا معه سبحانه غيره .

وإذا كان الحق سبحانه قد لفت أنظارنا إلى قدره العظيم بأنه قوى عزيز وبخلق الأرض والسموات وأنهما تحت قدرته سبحانه يوم القيامة ، فإنَّ الحق سبحانه لفتنا هنا إلى خَلْق الإنسان ، فقال : ﴿ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا (١٤) ﴾ [نوح]

والأطوار جمع طَوْر وهى الأحوال ، أى خلقكم الله أحوالاً ، حالاً بعد حال ، وقد قال سبحانه وتعالى : ﴿ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ (٦) ﴾ [الزمر]

بعد أنْ كنتم نُطفاً تصيرون علقاً ثم مضغاً ثم عظاماً ، قال الحق سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ﴾ [المؤمنون]

ثم يلفتنا سبحانه إلى خلق السماوات فيقول :

﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا (١٥) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا (١٦) ﴾

خلقناكم أطواراً فى بطون أمهاتكم وخلقنا فوقكم ﴿ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا (١٥) ﴾ [نوح] فالحق سبحانه لا يعجز عن شيء ، وهو الخالق لسبع سماوات بإتقانٍ بعضها فوق بعض ، فلا يرى الناظرُ أى خَلَل فى هذا الخَلْق ، وليُعِدْ الإنسانُ النظر إلى السماء فلن يجد أى خَلَلٍ من شقوق أو فروق .

﴿ الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَـٰوَاتٍ طِبَاقًا[١] مَا تَرَىٰ فِى خَلْقِ الرَّحْمَـٰنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ (٣) ﴾ [الملك]

والسماء هى كلّ ما علاك فأظلك ، ولكن هل السماء هى الشمس أو القمر أو النجوم ، فإنَّ كلَّ هذا يعلونا وهو فوقنا ؟ وهل السماء هى الكواكب ؟

وكلُّ هذا غير صحيح ، فالكواكب إنما جُعلَتْ لتزيين السماء ، قال تعالى : ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ (٦) ﴾ [الصافات] والشمس لإنارة الأرض فى النهار ، والقمر لإنارة الأرض فى الليل حين يكون فى التمام ، أما النجوم فهى أيضاً لتزيين السماء وعلامات للاهتداء بها فى الصحراء والفلوات والبحار .

قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِى ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ..(٩٧) ﴾ [الأنعام]

إذن فالسماء شيءٌ أعظم من هذا ، والحق سبحانه لا يحدِّثنا عن سماء بل عن سماوات ، يحدِّثنا سبحانه عن سبع سماوات طبقات فوق بعضها .

وفى خَلْق السماء عظمة خَلْق ، وعظمة تكوين ، وعظمة صيانة تناسب قدرته تعالى ، فكونها (طباقاً) وفى آية أخرى ﴿ طَبَقًا عَن طَبَقٍ (١٩) ﴾ [الانشقاق] أى طبقاً فوق طبق ، وطبقاً بعد طبق . أو هى طبقات متطابقة تطابق بعضها .

ثم يلفت نوحٌ نظَر قومه إلى تأمُّل ما فى هذا السماوات فيقول عن ربه: ﴿ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا (١٦) ﴾ [نوح] فيلفت نظرهم إلى القمر والشمس .

---

(١) طباقاً : يعنى طبقاً على طبق بعضها فوق بعض كل سماء مقببة على الأخرى ، وسماء الدنيا كالقبة على الأرض . [الخازن فى لباب التأويل ٤/٣١٩]

وهنا الحق سبحانه بدأ بذكر القمر ثم الشمس ، بينما فى آية سورة يونس قال : ﴿ هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا (٥) ﴾ [يونس]

فالشمس سراجٌ وضياء ، أما القمر فهو فى الآيتين نور . والفرق بين الضياء أو السراج وبين النور أن السراج تصحبه الحرارة والدفء، لذلك قد تحتاج إلى الظل لتستظل من حرارته ، أما النور فلا تحتاج إلى الظل ، فالنور ضوءٌ ليس فيه حرارة ، والحرارة لاتنشأ إلا حين يكون الضوءُ ذاتياً من المضىء مثل الشمس .

أما القمر فضوؤه غير ذاتى ويكتسب ضوءه من أشعة الشمس حين تنعكس عليه ، فالقمر مثل المرآة حين تسلط عليها بعضاً من الضوء فهى تعكسه .

والحق سبحانه وصف الشمس بأنها سراج ، والسراج هو ما يعطى الضوء والحرارة ، وهو المصباح الذى نشعله ليعطى حرارة وضوءاً ذاتياً .

﴿ وَاللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ أَنْبَتَكُمْ (١٧) ﴾ [نوح] تُعبِّر عن عملية الإنبات ، والأرض تُخرج نباتاً لا إنباتاً ، فمرة يأتى الله بالفعل ويأتى من بعد ذلك بالمصدر من الفعل لأنه يريد به الاسم . و(أنبت) يدل على معنى: وينشيء الله لكم منها نباتاً .

والإنبات إنشاء ، قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ (٩٨) ﴾ [الأنعام] والإنشاء هو الإيجاد ابتداءً من غير واسطة شيء ويقال :أنشأ أى أوجد وجوداً ابتداءً من غير الاستعانة بشيء آخر : ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ

الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ[1] فِيهَا (٦١) ﴾ [هود]

والله ينشيء البشر من التقاء الزوج والزوجة ، ولكن إنْ أرجعتَ هذا الإنشاء وهذا الإنبات إلى البداية الأولى فى آدم عليه السلام فستجد أن الحق سبحانه قد خلق الإنسان من نفس مادة الأرض والأرض مخلوقٌ من مخلوقات الله .

فمنىُّ الزوج وبويضة الزوجة يتكونان من خلاصة الدم الذى هو خلاصة الأغذية وهى تأتى من الأرض، فسواء رمزتَ لآدم بإنشائه من الأرض ، أو أبقيتها فى الذرية ، فكلُّ شيء مردُّه إلى الأرض .

فإنباتُ الله للإنسان من الأرض وتأكيد هذا بقوله (نباتاً) يوحى بالوحدة بين أصول الحياة على وجه الأرض ، وأن نشأة الإنسان من الأرض كنشأة النبات ، بذرة تُوضع فى الأرض وتُسقى وتُرْوى بماء مع عوامل من الضوء والحرارة والغذاء الصاعد من الأرض إلى الأوراق من خلال الجذور والسيقان .

فالإنسان من عناصر الأرض الأولية يتكوَّن ، ومن عناصرها الأولية يتغذى وينمو فهو نبات من نباتها .

﴿ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا (١٨) ﴾ [نوح] فما دُمتم قد نبتُّم من الأرض فعند انتهاء آجالكم المكتوبة ستعودون إلى ما جئتم منها وهى الأرض، فستعودون إلى جوفها فيختلط رفاتكم بتربتها وتندمج ذراتكم فى ذراتها .

فإذا شاء أنْ يعيدكم فلا تتساءلوا كيف ؟ فذراتكم موجودة ، والحق سبحانه يقول : ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ(١٥)﴾ [ق]

هكذا يستدل الحق سبحانه بالخَلْق الأول على إمكان الخلق الثاني،

---

(١) استعمركم : خلقكم لعمارتها . والسين والتاء فى كلمة (استعمركم) معناها التكليف لعباده أن يعمروها فهو سبحانه مظهرهم على ما جعلهم يسخِّرون السماوات والأرض بما قدره تعالى لهم . [زهرة التفاسير – محمد أبو زهرة ٧/٣٧٢٣] .

فإنْ كنتم تتعجبون من أنكم تعودون بعد أنْ أوجد الحق أجزاءكم وذراتكم ومواصفاتكم ، فانظروا إلى الخلق الأول ، فقد خلقكم من لاشيء ، أفيعجز أنْ يعيدكم من شيء ؟

وهو سبحانه ﴿ يُعِيدُكُمْ فِيهَا (١٨) ﴾ [نوح] فإنه سبحانه يعيدهم فى الأرض التى خُلقوا منها ، فيعودون إلى أمهم الأرض وهى أصل خِلْقتهم ، فيعيدكم فى الأرض فتصيرون تراباً .

﴿ وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا (١٨) ﴾ [نوح] أى يُخرجكم من الأرض إلى البعث . فيُخرجكم إخراجاً ، فيؤكد سبحانه أمر إخراجهم بالمصدر (إخراجاً) كأنه قال يُخرجكم حقاً لا محالة ، لا شكَّ فى هذا .

﴿ واللهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا(١٩) ﴾[نوح] الحق سبحانه وصف الأرض هنا بأنها بساطٌ ، وفى آية أخرى : ﴿ الذى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا (٢٢) ﴾[البقرة] يعنى بساطاً ، وفى آية أخرى قال : ﴿ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا (٥٣) ﴾ [طه] أي: بساطاً .

فالحق سبحانه يذكِّر قوم نوح بنعمه على الخَلْق ﴿ وَاللهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا(١٩) ﴾ [نوح] تستقرون عليها وتمتهدونها .

فجعلها الحق سبحانه كالشيء المبسوط الذى ينتفع ببسْطه ، ولو لم يجعلها كذلك لم يتوصلوا إلى حوائجهم ولا الانتفاع بها ، وهذا يسهِّل عليكم التصرف فيها من بلد إلى بلد .

فإن الأرض إنْ لم تُبسط وتُمدَ لم تكُنْ صالحةً للإنسان لأنْ يعيش عليها براحة وسهولة ، وإلا كانت الحياة عليها بشقِّ الأنفس كهؤلاء الذين يعيشون فى الجبال ، أما الكثرة الكاثرة من الناس فيعيشون فيما مدَّ الله وبسط من الأرض فى الوديان وحول الأنهار .

لذلك يمتنُّ اللهُ على قوم نوح بأنه جعل لهم الأرض بساطاً أرضاً ممهدة يعيشون عليها ويتنقَّلون فيها بسهولة .

لذلك قال تعالى بعدها ﴿ لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا (٢٠) ﴾ [نوح] فمن حكمة الله أنْ جعل فى الأرض سُبلاً نسير فيها ، فلو أن الجبال كانت كتلة تملأ وجه الأرض ما صَلُحتْ لحياة البشر وحركتهم فيها .

فقال تعالى ﴿سُبُلًا فِجَاجًا (٢٠) ﴾ [نوح] . وفى آية أخرى ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣١)﴾ [الأنبياء]

أى طرقاً واسعة فى الوديان والأماكن السهلة ، ومعنى (وجعلنا فيها) يصح فى الجبال أو فى الأرض ، ففى كل منهما طرق يسلكها الناس ، وهى فى الجبال على شكل شِعاب ووديان .

ونَظْم القرآن دقيقٌ وعجيب ، فالقرآن لم يقُلْ : لتسلكوا فيها . بل قال: لتسلكوا منها . لأن (فيها) معناها الدخول فى باطن الأرض ، أما منها فمعناها اتخاذ سُبل وطرق على الأرض كمدقات قد تكون متعرِّجة مُلتوية ولكنها على الأرض .

ولكن الحق سبحانه استخدم (فيها) فى آية أخرى ، يقول تعالى: ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا (٥٣) ﴾ [طه] أى طرقاً مُمهَّدة توصّلكم إلى مُهماتكم بسهولة .

وسلك بمعنى دخل وتأتى متعدية تقول : سلك فلانٌ الطريق . ومنها ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (٤٢) ﴾ [المدثر] يعنى : ما أدخلكم فى سقر . وقال لموسى عليه السلام : ﴿ اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ (٣٢) ﴾ [القصص] أى أدخلها.

وهى سُبل فجاج ، والعربى القديم قال يصف الكون : « سماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج » . والفجاج جمع فَجّ ، قال تعالى : ﴿ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا[1] وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ[2] يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧) ﴾ [الحج]

---

(١) رجالاً : مُشَاة على أرجلهم . قال الفقيه أبو الليث : هذا إذا كان بيته قريباً من مكة فإذا حج ماشياً فهو أحسن ، وأما إذا كان بيته بعيداً فالركوب أفضل . [تفسير السمرقندى ٢/٤٥٦] .

(٢) ضامر : أى ضامر الخصر من الدواب كالإبل .

والفج هو الطريق الواسع كما نقول نحن الآن الأوتوستراد ، فهم يأتون من كل طريق ومكان ومسلك بعيد . والجمع فجاج طرق بين الجبال والرمال ومسالك مختلفة .

ثم يقول الحق سبحانه عن رسوله نوح عليه السلام :

﴿ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا (٢١) ﴾

يخاطب نوحٌ عليه السلام ربَّه ويخبره سبحانه أن قومه قد عصوه، ونوح يعلم أن الله يعلم ما كان منه ومن قومه ، حتى قبل أنْ يرسل نوحاً إلى قومه .

ولكن نوحاً مُرْسلٌ من ربه إلى قوم أشركوا بالله آلهة أخرى مع الله أصناماً وأوثاناً ، ودّاً وسُواعاً ويغوث ويعوق ونَسْراً ، وما دام نوحٌ مرسلاً من ربه فلا بد أنْ يخبر مَنْ أرسله بنتيجة رسالته إعذاراً أنه بلَّغ قومه ما أمره الله به أنْ يبلِّغه .

فيا رب قد بلَّغتُ رسالتك ، قال تعالى عن رسالة نوح التى أُمر أن يبلّغها لقومه : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٢٣) ﴾ [المؤمنون]

وهم لم يقبلوا دعوته وعصوه واعتبروه مجرد بشر يريد أنْ يتفضل عليهم ويتكبَّر ويصبح رئيساً عليهم أو زعيمَ قومه من دونهم ، قال تعالى : ﴿ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ ..(٢٤) ﴾ [المؤمنون]

﴿ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي (٢١) ﴾ [نوح] خالفوا أمرى ورفضوا دعوتى لهم إلى الهدى والرشاد ، فعصونى فيما أمرتُهم به ، أو فيما دعوتهم إليه من توحيد الله تعالى .

﴿ وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا (٢١) ﴾ [نوح]

فاتبع سِفْلَةُ القوم وضعفاؤهم رؤساءهم وقادتهم الذين كانوا يحوزون المال والثروة ويحوزون من الولد ما جعل لهم منعةً وقوة وعزوة استخدموها فى رفض دعوة الله .

لقد رزقهم الله المال والولد فلم يزدهم كفرهم وأموالهم وأولادهم إلا خُسْراناً وضلالاً فى الدنيا وهلاكاً فى الآخرة ، أما الضعفاء والغوغاء فقد اتبعوا رؤساءهم البطرين بأموالهم ، المغترين بكثرة أولادهم ، بحيث صار ذلك سبباً لزيادة خسارهم فى الآخرة .

وهم إنما اتبعوهم لقِصَر نظرهم الذى جعلهم ينظرون إلى مظاهر القوة والثراء فى الدنيا ، فقاسوا الأمر بانبهارهم بقوة هؤلاء وثرائهم.

وذلك يحدث دائماً ، قال تعالى فى قصة قارون : ﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦) ﴾ [القصص]

ولكنه لم يمتثل واغتر بماله وبنعمة الله عليه ، لذلك : ﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٧٩) ﴾ [القصص]

هؤلاء الذين يريدون الحياة الدنيا هم أنفسهم الذين اتبعوا : ﴿ مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا (٢١) ﴾ [نوح]

وقد خسر من اتَّبعَ ومن اتُّبع من قوم نوح فغرقوا بالطوفان وخسر قارون بأن خسف الله به وبداره الأرض فلم ينصره أحد ، أو يمنع عنه عذاب الله : ﴿ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾

فمصيرهم الخسار ، فالذى يشرك بالله لا يأخذ إلا الخسار ، وذلك هو كل الخيبة ، فكفرهم وتكذيبهم موصِّل إلى الخسران ، وخسرانهم يبدأ لحظة مفاجأة الساعة لهم .

وقوم نوح الذين لم يؤمنوا به خسروا فى الدنيا بأنْ غرقوا بالطوفان، وخسروا فى الآخرة بأن سيُحشروا إلى جهنم ، وذلك هو الخسار ، لأنه ليس خسراناً مؤقتاً أو عابراً قد يأتى بعده مكسب بالتوبة مثلاً ، إنما هو خسار لا مكسب بعده .

والحق سبحانه يوضح لنا ما فعله الذين اتبعهم الناس فضلُّوا باتباعهم هذا ، يقول تعالى :

﴿ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ ﴾

المكر مأخوذ من قولهم : شجرة ممكورة . وهذا فى الشجر رفيع الساق المتسلق حين تلتف سيقانه وأغصانه بعضها على بعض فلاتستطيع أنْ تميزها من بعضها ، فكل منها ممكور فى الآخر مستتر فيه ، وكذلك المكر أنْ تصنع شيئاً تداريه عن الخصم .

فالرجل الذى يلف ويدور هو الذى يمكر ، فإنْ كان المكر بغير قصد الضرر نسميه حيلة ، وإنْ كان بقصد الضرر فهذا هو المكر السيء .

ومن أسس المكر التبييت ، والتبييت يحتاج إلى حِنكة وخبرة ، وما دام المكر يحتاج إلى التبييت فإن ذلك علامةٌ على الضعف فى البشر ، لأن القوى لا يمكر ولا يكيد ولكن يواجه .

ويقول تعالى : ﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ (٤٦)﴾ [إبراهيم]

فمكرهم رغم عنفه وشدته والذى قد يؤدى إلى زوال الجبال ، هذا المكر

يبور عند مواجهته لمكر الله الذى يحمى رسله وعباده الصالحين.

والحق سبحانه يكشف ذلك المكر والخداع للذين حاولوا أنْ يكتموا خداعهم ولعبتهم الماكرة ، والتى أرادوا بها التشكيك والخداع .

وقد وصف الحق سبحانه هذا المكر بأنه ﴿ مَكْرًا كُبَّارًا (٢٢) ﴾ [نوح]

أى مكر عظيم عجيب . والعرب تقول : أمر عجيب وعجاب بالتخفيف وعُجَّاب بالتشديد .. فهو مكر مُتناهٍ فى الكِبَر ، مكروا لإبطال دعوة الله وإغلاق الطريق فى وجه الدعوة ، زيَّنوا الكفر والضلال وأعانوا عليه.

والمكر أنواع منه ما يكون باللسان للصد عن سبيل الله، وهذا قد يكون فردياً أو جماعياً، وفى حياتنا المعاصرة تجد من الإعلام ما يقوم بهذا المكر العظيم ليصرف الناس عن دعوة الله بشتى الوسائل الممكنة فيلبِّس على الناس دينهم .

ومن المكر أنهم كانوا يأتون بأولادهم الصغار إلى نوح عليه السلام ويقولون لهم : إياكم واتباع هذا فإنه ضالٌّ مُضلّ فكان هذا مكرهم بصغارهم ، لذلك مكث نوح فى قومه تسعة قرون ونصف قرن ، كل قرن يوصى القرن الذى بعده بعدم الإيمان بنوح وبرسالته .

والحق سبحانه ذكر بعدها قولهم وهو تواصيهم فيما بينهم أنْ لا يتركوا آلهتهم وأنْ يثبتوا عليها ولا يتنازلوا عن عبادتها .

﴿ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ (٢٣) ﴾ [نوح] فلا تتركوا آلهتكم ولا تدعوا عبادتها والتقرب إليها ، وفعل (ذروا) أى : اتركوا ودعوا وتناسوا .

والفعل هنا منفى (لاتذرن) و (آلهتكم) معبوداتكم من أصنام وأوثان . ثم يذكرون آلهتهم بالاسم : ﴿ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا (٢٣) ﴾ [نوح]

وقد كان هؤلاء قوماً صالحين من بنى آدم وكان لهم أتباع يقتدون بهم ، فلما ماتوا قال أصحابهم : لو صوّرناهم كان أشوقَ لنا إلى

العبادة إذا ذكرناهم فصوروهم أى عملوا لهم تماثيل ، فلما ماتوا وجاء آخرون دبَّ إليهم إبليس فقال : إنما كانوا يعبدونهم وبهم كانوا يُسقون المطر فعبدوهم .

وقد ذكر قتادة بن النعمان أن هذه كانت آلهة يعبدها قوم نوح ثم عبدتها العرب بعد ذلك ، فكان وَدٌّ لكلب بدومة الجندل ، وكان سواعٌ لهذيل ، وكان يغوثُ لبنى غُطيف ، وكان يعوق لهمدان، وكان نسْر لذى الكلاع من حِمْيَر .

ودعوة الكافرين أتباعهم إلى عدم ترك عبادة الآلهة المزعومة سواء كانت أصناماً أو بشراً أو كواكب كانت فى كل الأقوام، يقول تعالى: ﴿ وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَـٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ (٦) ﴾ [ص]

وهو صبر مذموم لأنه إصرار وإقامة على الشرك والكفر ، لذلك توعدهم الله سبحانه فقال : ﴿ فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ (٢٤)﴾ [فصلت] فإنْ يتمسكوا بآلهتهم المزعومة فالنار مقامهم الأبدى .

ثم يقول تعالى :

﴿ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا (٢٤) ﴾

هذه الأصنام والأوثان والآلهة المزعومة قد أضلَّتْ كثيراً من الناس، وهى لا تزيد الظالمين إلا ضلالاً ، وهم ظالمون لأنهم ظلموا أنفسهم بعبادة ما لا يسمع ولا يبصر .

ولكن الأمر يحتمل تأويلاً آخر أنَّ هذا كلامُ نوح عليه السلام ، لذلك قال ﴿ وَلَا تَزِدِ (٢٤)﴾ [نوح] بالفعل المضارع المجزوم بلا الناهية ، فهو دعاء يدعو به نوح على قومه أنْ لا يزيدهم الله إلا ضلالاً وخساراً فهم ظالمون معتدون .

وما أضلتهم أصنام وأوثان من الحجر أو الخشب إلا لفساد عقولهم

فسحرتهم ، وهذا حدث أيضاً مع إبراهيم عليه السلام وقومه ، قال تعالى عن إبراهيم أنه قال : ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ (٣٦) ﴾[إبراهيم]

ونلاحظ أن الحق سبحانه فى سورة نوح قال : ﴿ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا (٢٤) ﴾ [نوح] أما فى سورة إبراهيم فقد قال : ﴿ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا (٣٦) ﴾ [إبراهيم]

فـ (أضلوا) جائز أنْ يُراد به الكبراء أنهم أضلوا كثيراً ، وجائز أنْ يكون أريد به الأصنام ، ولكن هذا كان يقتضى أن يقول (أضللن) لكى تعود على الأصنام .

ولكن الأصنام ليست لها أفعال على الحقيقة فخرج الكلام مخرجاً ينسب الفعل إلى مَنْ فعله وهم الكبراء فقال (أضلوا) كقوله تعالى : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا (٨) ﴾ [الطلاق] فأضاف إلى القرية فعل أهلها .

﴿ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا (٢٤) ﴾ [نوح] أى أضلوا كثيراً من الناس حتى أنه لم يؤمن بنوح طوال ٩ تسعة قرون إلا نفر قليلون ، قال تعالى : ﴿ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ (٤٠) ﴾ [هود]

حتى أنه كان مع نوح يوم أُغرق قومه ثمانون[1] من أهل الإيمان ، ثمانون مؤمناً فقط الذين ركبوا معه السفينة بعد تسعة قرون دعوة إلى الإيمان ، مؤكد أنه مات خلالها مؤمنون آخرون قبل السفينة وقبل الطوفان .

ثم يحدِّثنا الحق سبحانه عن سبب إيقاع العذاب بقوم نوح ، فيقول تعالى :

﴿ مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا (٢٥) ﴾

---

(١) أخرج ابن أبى حاتم فى تفسيره (١٠٨٧٩) عن زيد بن أسلم أنه كان مع نوح يوم أغرق قومه ثمانون من أهل الإيمان ، وفى رواية أخرى عن كعب الأحبار (١٠٨٧٨) أنهم اثنان وسبعون . قال : والمؤمنون يومئذ اثنان وسبعون فأرسل الله الماء من السماء وفتح الأرض .

أُغرقوا لأجل خطيئاتهم فبخطيئاتهم وكفرهم أُغرقوا ، والنظم القرآنى لم يقل : من خطيئاتهم . بل أضاف (ما) التى للصلة ، فالعرب تجعل (ما) صلة فيما يكون فيه عاقبة ، كما يقال : أينما تكن أكن ، وحيثما تجلس أجلس .

﴿فَأُدْخِلُوا نَارًا (٢٥)﴾ [نوح] فأُدخلوا ناراً فى الآخرة إذ أغرقت أبدانهم وأجسادهم ورُدَّت أرواحهم إلى النار .

﴿فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْصَارًا (٢٥)﴾ [نوح] فلم يجدوا لهم مانعاً يمنعهم من الغرق ودخول النار فى الآخرة ، فلم يجدوا لأنفسهم بعبادتهم من عبدوا من دون الله تعالى أنصاراً معينين لهم ومنجين لهم من عذاب الله .

﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾

وصل نوح عليه السلام إلى أقصى درجة من دعوته لقومه ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا (٥) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا (٦) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (٧) ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا (٨) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا (٩)﴾ [نوح]

لقد بذل نوحٌ الجهدَ كلَّ الجهدِ فى دعوة قومه لعلّهم يهتدون أو يؤمنون ، ولكنهم رفضوا وأبوا إباءً شديداً الايمان بالله ، ورفضوا ما جاء به نوح عليه السلام ، وما أرسله الله به إليهم .

لذلك دعا نوح ربه داعياً على قومه بعد أنْ بذل وُسْع جهده وآذوه إيذاءً لايُطيقه إنسانٌ وأشبعوه سخرية واستهزاء ، وأوصى الأجدادُ الآباءَ وأوصى الآباءُ الأبناءَ بأنْ لا يؤمنوا بنوح .

وليس نوح فقط الذى دعا على قومه ، بل إن موسى دعا على فرعون وآل فرعون فقال : ﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ[1] عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ[2] عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٨٨)﴾ [يونس]

ومعنى الطمس إخفاء المعالم مثل قوله تعالى: ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا (٤٧)﴾ [النساء] ومعنى الطمس هنا إخفاء معالم الوجه فتكون قطعة واحدة بلا جبهة أو حواجب أو عينين أو أنف أو شفاه أو ذقن .

فطمس الأموال مسخها ، فمَنْ كان يملك بعضاً من سبائك الذهب وجدها حجارةً ، ومَنْ كان يملك أحجاراً كريمة كالماس وجدها زجاجاً، فالأموال كانت وسيلة إضلال .

ثم دعا عليهم بشدِّ الأربطة على قلوبهم فلا يخرج ما فيها من كفر، ولا يدخل ما هو خارجها من الإيمان ، وأنْ تظل الأربطة على قلوبهم حتى يروا العذاب الأليم .

نوح عليه السلام دعا على قومه فقال :﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (٢٦)﴾ [نوح] فلا تترك يارب أحداً من الكافرين يمشى على الأرض .

وديَّار إنما هو دوّار فعَّال من دار يدور ، ويُقال للرجل الكثير الدوران: الديَّار ، والديَّار أيضاً ساكن الدار ، فلاتذر على الأرض من الكافرين ساكنَ دارٍ ، وإذا لم يبْقَ منهم ساكنُ دارٍ فقد بادوا جميعاً وهلكوا ، فكأنه يقول : لا تذر منهم أحداً .

---

(١) اطمس على أموالهم : الطمس إزالة أثر الشيء بالمحو ، ومعنى اطمس على أموالهم أزل صورها وهيئاتها . وأهلك أموالهم . وقال السدى : اجعل دنانيرهم ودراهمهم حجارة . [تفسير ابن أبى حاتم ١٠٥٤٤].

(٢) اشدد على قلوبهم : أى اطبع عليها حتى لا تلين ولا تنشرح بالإيمان [تفسير الطبرى ١٧٨٣٤] .

﴿ إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا(٢٧)﴾ [نوح] فلو تركتهم يارب على ما هم عليه من الضلال والكفر والإعراض عن دعوة الحق يُضلوا عبادك الذين هديتهم للإيمان ، ولا يلدوا من ذرية إلا فاجراً فاسقاً خارجاً عما تريده يارب ، وهو كفَّار شديد الكفر لا يهتدى إلى هدى ، ولا ينفتح قلبُه للحق والصلاح .

وقد كان الرجلُ ينطلق بولده إلى نوح عليه السلام ، فيقول لولده: احذر هذا فإنه كذاب يقصد نوحاً ، وإنَّ والدى قد حذرنيه فيموت الكبيرُ على الكفر، وينشأ الصغيرُ على وصية أبيه .

ثم يُنهى الحق سبحانه سورة نوح بدعاء نوح عليه السلام :

﴿ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ﴿٢٨﴾ ﴾

هنا خاصٌ وعام ، فكم مرة دخل الأب والأمر هنا ؟ لقد دخلوا فى قوله تعالى ﴿اغْفِرْ لِى وَلِوَالِدَىَّ (٢٨)﴾ [نوح] وفى قوله ﴿وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِى مُؤْمِنًا (٢٨)﴾ [نوح] وفى قوله ﴿ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ (٢٨)﴾ [نوح] أى دخلوا ثلاث مرات .

إذن فإيجاد عام بعد خاص يعنى أن يدخل الخاص فى العام فيتكرر الأمر بالنسبة للخاص تكراراً يناسب خصوصيته .

وقد كان لإبراهيم عليه السلام دعاء مثل هذا ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِى وَلِوَالِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ (٤١)﴾ [إبراهيم]

ونلحظ أن طلب المغفرة هنا قد شمل الوالدين والمؤمنين ، والإنسان كما نعلم له وجودٌ أصلىٌّ من آدم عليه السلام وله وجود مباشر من أبويه ، وما دام الإنسان قد جاء إلى الدنيا بسبب من والديه ، وصار مؤمناً فهو يدعو لهما بالمغفرة ، أو أن الأسوة كانت منهما لذلك يدعو

لهما بالمغفرة .

والإنسان يدعو للمؤمنين بالمغفرة لأنهم كانوا صحبة له وقدوة ، وتواصى معهم وتواصوا معه بالحق والصبر . فكأن نوحاً يدعو يقول: ربِّ اعْفُ عني واستر عليَّ ذنوبي وعلى والديَّ .

﴿وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا (٢٨)﴾ [نوح] أي : لمن دخل مسجدي ومصلاي مصلياً مؤمناً ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ (٢٨)﴾ [نوح]

﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا (٢٨)﴾ [نوح] إذا كان نوح يدعو بالمغفرة له ولوالديه ولمن دخل بيته مؤمناً ولعامة المؤمنين والمؤمنات ، فإنه يدعو على الظالمين أنْ لا يزيدهم إلا تباراً .

والتتبير الإهلاك والتدمير لكلٍّ من كذّب الرسل بأنواع مختلفة ومتعددة من ألوان العذاب ، فعُوقبوا بالطوفان .

سُورَةُ الجِنِّ

سورة الجن [1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ۝٢﴾

جعل الحق سبحانه سورة للجن أسماها سورة الجن كما جعل سورة للإنسان أسماها الإنسان ، وهناك سورة فاطر أسماها بعض العلماء سورة الملائكة ، لمناسبة قوله تعالى : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١)﴾ [فاطر]

فَخَلق الله الذى قدَّر أنْ يسكن الأرض والسماء هم الإنس والجن والملائكة ، ولكل خَلْق من خَلْقه سبحانه صفات تميزه عن الخَلْق الآخرين ، فالإنس إنس لأنهم مرئيون بالنسبة للجن والملائكة ، أما

(١) سورة الجن هى السورة رقم ٧٢ فى ترتيب المصحف الشريف ، عدد آياتها ٢٨ آية . قال أبو القاسم هبة الله في (الناسخ والمنسوخ) ١/١٨٥ : نزلت بمكة وهى محكمة ليس فيها ناسخ ولا منسوخ . وقد سميت بسورة الجن لاشتمالها على الكلام على الجن . نزلت بعد سورة الأعراف مع رجوع النبي ﷺ من الطائف في السنة العاشرة من بعثته وقبل حادثة الإسراء ثم الهجرة .

الجن والملائكة فهم غير مرئيين للإنس .

يقول تعالى عن الجن : ﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ (٢٧)﴾ [الأعراف]

والجن مستور عنَّا ، ومثله من نفس المادة اللغوية الجنين الذى لانراه ، فهو مجنون أى مستور ومنه الجنة لأنها ما يجن الشخص فيها ويستره عن أعين الناس ، فيتمتع بنعيم الجنة فى حرية .

والجن يمتاز بخفَّة الحركة وسرعتها ، والجن فيهم المؤمن والكافر والمؤمنون من الجن فيهم الطائع والعاصى ، والشياطين هم مردة الجن المتمردون على منهج الله ، وكلُّ متمرد على منهج الله نسميه شيطاناً ، سواء كان من الجن أو من الإنس .

والجن أمة من الأمم مطالبون برسالات الله إلى البشر ، وليس منهم أنبياء ولا رسل ، إنما فيهم المسلمون وفيهم الكافرون .

يقول تعالى هنا: ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ (١)﴾ [الجن] أى قُلْ يا محمد أنه قد أُوحى إليك ، والوحى لرسول الله يأتى عن طريق جبريل عليه السلام فهو أمينُ الوحى .

والوحى يأتى لرسول الله فى معاناة شديدة حتى إنه كان يتفصد عرقاً فى الليلة الشاتية من ثقل الوحى عليه .

﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ (١)﴾ [الجن] مادة سمع منها : سمع واستمع وتسمَّع . قولنا : سمع أى مصادفة وأنت تسير فى الطريق تسمع كلاماً كثيراً . منه ما يُهمك ومالا يهمك . فليس على الأذن حجاب يمنع السمع كالجفن للعين .

إذن أنت تسمع كلَّ ما يصل إلى أذنك فليس لك فيه خيار . إنما استمع أنْ تتكلف السماع والمتكلم حرٌّ فى أنْ يتكلم أو لايتكلم . وتسمَّع أى تكلّف أشدَّ التكلُّف لكى يسمع .

ومعنى استمع أى جنَّد كلَّ جوارحه وهيَّأ كل حواسه لأنْ يسمع فإنْ كانت الأذنُ للسمع فهناك حواسّ أخرى يمكنْ أن تشغلها عن الانتباه ،

فالعين تبصر والأنف يشم واللسان يتكلم ، فعليك أنْ تجند كلَّ الحواس لكى تسمع وتستحضر قلبك لتعى ما تسمعه وتنفذ ما طُلب منك ، لذلك حين تخاطب صاحبك فتجده منشغلاً عنك تقول : كأنك لستَ معنا . لماذا ؟ لأن جارحة من جوارحه شردت فشغلتْه عن السماع .

فهؤلاء النفر من الجن عندما سمعوا القرآن من فم رسول الله أعطوه آذانهم وحواسهم فأصبح سماعهم استماعاً ،واتجهوا بكليتهم لسماع القرآن من رسول الله .

وقد حدث أن رسول الله ﷺ انطلق فى طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ وقد حِيلَ بين الشياطين وبين خبر السماء ، وأُرسلت عليهم الشهب ، فرجعت الشياطين إلى قومهم فقالوا : مالكم ؟ قالوا : حيل بيننا وبين خبر السماء وأرسلت علينا الشهب . قالوا : ما حَالَ بينكم وبين خبر السماء إلا شيءٌ حدث ، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها، فانظروا ما هذا الذى حال بينكم وبين خبر السماء ، فانصرف أولئك الذين توجهوا نحو تهامة إلى النبي ﷺ وهو بنخلة عامدين إلى سوق عكاظ وهو يصلى بأصحابه صلاة الفجر ، فلما سمعوا القرآن استمعوا له ، فقالوا : هذا والله الذى حال بينكم وبين خبر السماء ، فهنالك حين رجعوا إلى قومهم وقالوا : ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (١) يَهْدِى إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا (٢)﴾ [الجن]

فأنزل الله على نبيه ﷺ : ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ (١)﴾ [الجن] وإنما أوحى إليه قول الجن [١].

وحديث رسول الله يبين بوضوح الفرق بين سمع واستمع ، قال : فلما سمعوا القرآن استمعوا له . وفى آية أخرى يقول الله لرسوله: ﴿ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى (١٣)﴾ [طه] استقبل وحيى بكلِّ حواسك ومُدْركاتك وكيانك .

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٢٢٧١) والبخارى فى صحيحه (٧٧٣ ، ٤٩٢١) وأبو عوانة فى مستخرجه (٣٧٩٤) والطبرانى فى المعجم الكبير (١٢٤٤٩) والبيهقى فى السنن الكبرى (٣٠٦٨) عن ابن عباس رضى الله عنهما .

والنفر اسم يقع على الثلاثة إلى العشرة ، فهى طائفة وفرقة من الجن وكانوا تسعة من جنٍّ نصيبين ، وأياً كان عددهم فقد استمعوا إلى القرآن من فم رسول الله .

وانقلبوا إلى أهلهم من الجن فقالوا لهم : ﴿ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (١)﴾ [الجن] قد تقول لماذا لم يقولوا : استمعنا . إن سمع هنا مع ما بعدها: ﴿قُرْآنًا عَجَبًا (١)﴾ [الجن] تؤدى معنى الاستماع لأنهم أدركوا أنَّ ما سمعوه قرآن، وأنه كتاب أنزل على رسول من بعد موسى .

والأكثر من هذا أنه ﴿قُرْآنًا عَجَبًا (١)﴾ [الجن] ومعنى عجباً فريداً ،وهذه الكلمة العجيبة جاءت فى عدة آيات من القرآن .

﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ (٢)﴾ [يونس] ، وقال تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ[1] كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا (٩)﴾ [الكهف]، وقال عن حوت غداء موسى ﴿وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا (٦٣)﴾ [الكهف]

العجب والتعجب حالة تعرض للإنسان عند الجهل بسبب الشيء وقد قال البعض : العجب ما لا يُعرف سببه ، ويقال : عجبت عجباً ، ويُقال للشيء الذى يُتعجب منه : عجب ، ولما لم يُعهد مثله عجيب .

فالعجب هو الذى ظاهره أنيق وباطنه عميق ، وهو الذي يعجز عنه كل فهم لقول الله تعالى : ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ(٢٩)قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ (٣٠)﴾ [الأحقاف]

والعجب العزيز الشريف الكريم الذى لا يوجد مثله فى فصاحته وبيانه وصدق إخباره ، عجباً فى نظمه وتأليفه وصحة معناه .

﴿يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا (٢)﴾ [الجن] الرشد هو طريق النجاة ، فالقرآن يهدى إلى سبيل النجاة ، أما الغى فهو طريق النجاة.

---

(١) الرقيم : اسم الوادى الذى فيه أصحاب الكهف ، وقال كعب الأحبار : هو اسم للقرية التى خرج منها أصحاب الكهف ، وقيل : اسم للجبل . [تفسير الخازن ٣/١٥٣] .

ويقول الحق سبحانه إيضاحاً للرشد والغى فى آية أخرى :

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٤٦)﴾ [الأعراف]

فالذين يتكبرون فى الأرض حين يرون سبيل الرشد لا يتخذونه سبيلاً ، لأن سبيل الرشد يضغط على شهوات النفس وهواها فينهى عن السيئات وهم لا يقدرون على كبح جماح شهواتهم لأنها تمكنت منهم ، ولكن سبيل الغى يطلق العنان لشهوات النفس .

فالقرآن يهدى إلى الرشد أى يدل عليه ، فمَنْ آمن به رشد ، ومَنْ كفر به غوى . فمَنْ حكم به عدل ومَنْ تركه من جبار قصمه الله ، ومَن ابتغى الهدى فى غيره أضلَّه الله ، وهو حبل الله المتين ، ونوره المبين والذكر الحكيم ، وهو الذى لا تزيغ به الأهواء ، ولا تتشعب معه الآراء، ولا يملُّه العلماء ، ولا يخْلَق[1] على كثرة الرد ، ولا تنقضى عجائبه ، مَنْ علم علمه سبق ، ومَنْ قال به صدق ، ومَنْ عمل بما فيه أُجر ، ومَنْ دعا إليه هُدى إلى صراط مستقيم[2] .

هذا الرشد آمنا به ﴿وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا(٢)﴾ [الجن] فقد فهموا باستماعهم للقرآن أن مقتضى إيمانهم أنْ لا يشركوا بالله أحداً ، لأن هذا مقصود رسالات الأنبياء جميعاً .

وكلمة (أحداً) تقطع الطريق على الإشراك بأى أحد ، وكلمة (أحد) تعطينا لفتة إلى أنهم يقصدون بـ (أحداً) المسيح عيسى بن مريم .

---

(١) لا يخْلَق : لا يبلى . وهو لا يخلق كالشَّن البالى . والشَّن هو الجلد الرقيق . [غريب الحديث لابن الجوزى ١/٥٦٥].

(٢) أخرجه البزار فى مسنده (٨٣٦) من حديث على بن أبى طالب قال : سمعت رسول الله ﷺ : « إنها ستكون فتنة قال : قلت فما المخرج منها يا رسول الله ؟ قال : كتاب فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم ، وهو الفصل ليس بالهزل من يرده من جبار قصمه الله ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله » الحديث .

فهم قالوا ﴿يَـقَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى (٣٠)﴾ [الأحقاف] لأن موسى جاء بشريعة ، ثم جاء عيسى عليه السلام بدون شريعة يُكلّفون بها ، وقد اتخذه النصارى إلهاً من دون الله ، والبعض منهم أشركه مع الله ، وبعضهم قال إنه ثالث ثلاثة .

لذلك أعلن الجن براءتهم من أنْ يشركوا مع الله أحداً من خَلْقه، ثم يُعظِّمون قدْر الله عز وجل فيقولون :

﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ۝٣﴾

﴿ وَأَنَّهُ تَعَالَى (٣)﴾ [الجن]معطوفة على قوله ﴿ أَنَّهُ اسْتَمَعَ (١)﴾ [الجن] فيكون هذا من قول الوحى ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ (١)﴾ [الجن] كذا وكذا فـ (أنه) بالفتح .

وقد وردت قراءة بالكسر (إنه) على أنه من قول الجن يعظمون جَدَّ ربنا أى عظمته وجلاله وأمره وقدرته ، فهو سبحانه صاحب النصيب الأوفر الذى لا يُضاهى من العظمة والجلال والقدرة والأمر والحكم .

فكيف يدَّعى أحدٌ أنه سبحانه اتخذ صاحبة وولداً ، وليس له سبحانك من خلقه صاحبة ولا ولداً ، لذلك يطمئننا سبحانه بقوله :

﴿ وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا (٣)﴾ [الجن]

وكأن الله تعالى يقول : اطمئنوا فربكم ليس له صاحبة تؤثر عليه ولا ولد يحابيه ، فالصاحبة والولد نقطة الضعف وسبب الميل فى مسألة التشريع ، فالخَلْق جميعاً سواء عند الله ، وكلهم عباده لا يحابى منهم أحداً ولا يميز أحداً على أحد .

﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ۝٤﴾

﴿سَفِيهُنَا (٤)﴾ [الجن] وسفيه الجن هو إبليس الذى رَدَّ الأمر على الآمر ، وعصى ربه في السجود لآدم الذى خلقه الله بيديه ، فقولة إبليس:

﴿ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا (٦١)﴾ [الإسراء]

فهو اعتبر رأيه أفضل من رأى الله سبحانه ، لذلك اعتُبر سفيهاً ، وليس معنى هذا أنه سفيه واحد هو إبليس ، فإنَّ إبليس هو رمز لكل سفيه يرد الأمر على الله ويرفض ما يأمر الله به ، وهو جاهل بالله لا يعرف قدر الله سبحانه .

فهو راجع إلى كل مَنْ يوجد منه فعل السَّفه ، وليس بمقتصر على الواحد بل هو راجع إلى كل مَنْ يوجد منه ذلك ،لذلك قال البعض : هم كفرة الجن .

﴿وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللهِ شَطَطًا (٤)﴾ [الجن] الشطط : البعد عن الصواب فى القول ، وأصل الشطط الزيادة فى الحد . فالشطط هو القول الذى ينافى الحقيقة ويخرج عن حدود الصواب .

﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۝٥ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦﴾

﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّا (٥)﴾ [الجن] الظن هنا بمعنى الشك أى شككنا أن لن تقول بنو آدم وهم الإنس والجن على الله قولاً كاذباً مفترى ، فلما تحقق عندهم الكذب خافوا علىأنفسهم أن يُبتلوا به ، وأنْ يشتبه عليهم الصراط السوى ، فتفرقوا فى الأرض على رجاء أنْ يجدوا مَنْ يدلُّهم على الطريقة المثلى حتى وجدوا رسول الله ﷺ، فسمعوا القرآن منه .

فهم كانوا قد اعتقدوا أن لله تعالى صاحبةً وولداً ، بما سمعوا الجن والإنس يقولون ذلك ، وكان عندهم أنهم فى ذلك صادقون ، فلما ظهر عندهم كذب مَنْ يدعى اتخاذ الولد والصاحبة تبرَّءوا ممن يقول ذلك فثبت بهذا أنهم كانوا أهلَ شرك إلى ذلك الوقت .

لقد ظننا أنَّ الإنس والجن لا يصدر عنهم الكذب على الله .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا (٦)﴾ [الجن]

فالذى يستعين بالجن ينقلب عليه ويذيقه ألواناً من العذاب ، وقد حكى ربنا سبحانه كثيراً أن الشياطين لهم التصاقٌ واتصالٌ بكثير من الإنس .

فرجالُ الإنس هم السحرة ، كانوا يعوذون برجال من الجن ، والذى يتبع هؤلاء السحرة ويذهب لهم ليفكّوا له السحر ويذهب لهم ليسحروا له الخصوم ، يعيش طوال عمره مرهقاً .

صحيح أنهم يقدرون أنْ يسحروا ، لكن ذلك السحر يزيد المتسبِّب فيه رهقاً وتعباً .

لذلك تجد كل العاملين بالسحر والشعوذة يموتون فقراء ، بَشِعى الهيئة ، مصابين فى الذرية ، لأن الواحد منهم استغل فرصة لا توجد لكلِّ واحد من جنسه البشرى ، وذلك للإضرار بالناس .

فتجد كل الذين يشتغلون بهذه العملية على سَمْتهم الغضب وعلى سحنتهم آثار الذنوب وشؤمها ينفر منهم مَنْ رآهم ، يعيشون فى أضيق صور العيش ، فترى الساحر يجنى أموالاً كثيرة ، ومع ذلك تراه شحاذاً يعيش فى ضنك ، ويموت كافراً مُبعداً من رحمة الله حتى أولاده من بعده لا يَسْلمون من شؤمه .

والرَّهق الغى والخطيئة والإثم ، فإن رجال الجن زادوا رجال الإنس إثماً وخطيئة ، وازدادوا عليهم جراءة وطغياناً .

والملاحظ هنا أن الحقَّ سبحانه سمَّى الجنَّ رجالاً كما أسمانا رجالاً، فخاطبهم فى الكتاب كما خاطبنا ، ففى الجن رجال كما فى الإنس وأنهم يتناسلون ، فكلمة رجل تُطلق على هذا الجنس من الثقلين .

﴿ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾ وَأَنَّا لَمَسْنَا
السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا
نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا
رَّصَدًا ﴿٩﴾ ﴾

لم يكونوا يعتقدون أن هناك رسولاً بعد عيسى بن مريم، فرجال الجن كانوا مثل رجال الإنس فى هذا ، فقد اعتقد هؤلاء وأولئك أن الله لن يبعث أحداً رسولاً إلى خلقه يدعوهم إلى توحيد الله .

وقد أوضح الحق سبحانه هذا فى سورة ص : ﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَـٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٤) أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَـٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَـٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ (٥) وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَـٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ (٦) مَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَـٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ (٧) أَؤُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ (٨)﴾ [ص]

فكفار قريش وجدوا أن اليهود قالوا : عزير ابن الله ، والنصارى قالوا : المسيح ابن الله . وقالوا : إن الله ثالث ثلاثة . لذلك قال كفار مكة : ما سمعنا بتوحيد الله فى الملة الآخرة .

الجن كذلك منهم من اعتقد اعتقاد النصارى ، ومنهم من اعتقد اعتقاد اليهود ، ومنهم من عبد الأوثان ككفار مكة ، وظنوا أنه لن يبعث الله أحداً ينقض هذا فقالوا مع مَنْ قال : ﴿لَنْ يَبْعَثَ اللهُ أَحَدًا(٧)﴾ [الجن]

ثم يقول الجن : ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا(٨)﴾ [الجن]

قبل نزول القرآن كان الشياطين يسترقون السمع ولكن عند بعث رسول الله ﷺ امتنع ذلك كله ، فعرفوا أن نبياً ورسولاً آخر سيُبعث ، وقد امتنع عليهم ذلك لأن الله أراد أنَّ لا تضع الشياطين خرافاتهم فى منهج الله .

وانظر إلى دقة الأداء القرآنى فى قوله تعالى : ﴿أَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ(٨)﴾ [الجن] كأنهم صعدوا إلى السماء حتى بلغوها لدرجة أنها أصبحت قريبة لهم حتى كادوا يلمسونها .

واللمس إدراك بظاهر البشرة كالمسِّ ويُعبَّر به عن الطلب ، فهم طلبوا السماء ليتسمعوا أخبارها والأوامر والوحى النازل فلم يستطيعوا ، لمسوا والتمسوا غيب السماء وطلبوا سماعه .

فقد طلبنا بلوغها لاستماع كلام أهلها وطلبنا خبرها .

﴿أَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا(٨)﴾ [الجن]

لقد أراد الجن أن يستمعوا خبر السماء فوجدوها ﴿مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا (٨)﴾ [الجن] من الملائكة يحرسون السماء من كل جانب ، فهم حراس من الملائكة تمنعهم من الوصول إلى أرجاء السماء أو حتى الدنو والقرب منها .

لقد تمت حراسة السماء من أنْ يقترب منها الجن والشياطين ، لنزول آيات القرآن على محمد ﷺ .

وليست الحراسة فقط بل مُلئت السماء ﴿وَشُهُبًا(٨)﴾ [الجن] والشُّهب جمع شهاب ، فالجن وجدوا السماء مُلِئت حرساً شديداً من الملائكة وشُهباً مُحرقة تترصَّد مَنْ يقترب من السماء .

فالشهب هى النجوم المحترقة ، فكانت الشياطين عندما تحاول الاستماع إلى ما ينزل من السماء ينزل عليهم شهاب يحرقهم .

فالشهب جمع شهاب ، وهى النجوم التى كانت تُرجم بها الشياطين، والحق سبحانه يقول عن السماء : ﴿ وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ (١٧) إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ (١٨)﴾ [الحجر]

فقد كان العاصون من الجن قبل رسول الله ﷺ يسترقون السمع للمنهج المنزّل على الرسل السابقين لرسول الله ، واختلف الأمر بعد رسالته الكريمة حيث شاء الحق أنْ يحرس السماء وما أنْ يقترب منها شيطان حتى يتبعه شهاب ثاقب .

والشهاب هو النار المرتفعة ، وهو عبارة عن جذوة تشبه قطعة الفحم المشتعلة ويخرج منها اللهب ، وهو ما يُسمَّى بالشهاب .

﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا(٩)﴾ [الجن]

فالشياطين كان لها مقاعد فى السماء تقعد فيها لتستمع لما ينزل من السماء إلى الأرض ليتم تنفيذه ، فكانوا يأخذون بضعاً من كلمات

المنهج ويزيدون عليها فتبدو بها حقيقة واحدة وألف كذبة ، فلما بعث الله رسولَ الله مُنعوا من تلك المقاعد .

يقول الحق سبحانه عن الجن والشياطين الذين كانوا يقعدون هذه المقاعد للسمع ﴿ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ (٢١٢)﴾ [الشعراء] فعُزلوا عن السمع برجمهم بالكواكب والنجوم والنيازك وهى الشهب .

فكانوا معزولين عن استماع الوحى والأمر من السماء وممنوعين من استماع كلام الملائكة فيما يكون فى الأرض من موت أو غيث أو أمر.

﴿فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا(٩)﴾ [الجن] بعض الجن كانوا يحاولون الاستماع فكانوا يُقابلون بالشهب ، شهاب نار قد رصد لكل مَنْ يحاول أنْ يتسمَّع .

لذلك كان استماعهم استراقاً وخطفاً ، قال تعالى : ﴿ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ (١٠)﴾ [الصافات]

فبعض هؤلاء المردة سيستطيعون خطف بعض الأخبار ، لكن لن يتمكنوا من الفرار بها وتوصيلها إلى أوليائهم ، ولكن هيهات لهم ذلك لأنه ﴿ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ (١٠) ﴾[الصافات] يعنى كوكب ينقصُّ عليه، ومعنى (ثاقب) يعنى : نافذ يخترق الأجواء حتى يصل إلى هدفه فى أسرع وقت .

فإنْ سأل سائل : فلماذا لا يُمنع بداية من استراق السمع ؟ قالوا : فَرْق بين أنْ يُمنع من الشيء أصلاً ، وبين أنْ يناله ثم لا ينفذ به ولا يستفيد منه ، فالله يمكّنه من بعض الأخبار فيسمعها ، لكن تعاجله الزاجرات والشهب من كل ناحية فتكون حسرته أعظم ، حسرة أنه تعب وتحمَّل المشاقّ فى استراق السمع والخطف ، وحسرة أنه لم ينتفع بما سمع .

ثم يقول تعالى :

﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾
وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾﴾

هذا استمرار لكلام الجن ، فهم لايدرون سبب حراسة السماء الشديدة بالملائكة ، ورمى الجن بالشهب النارية لمنعهم من الاستماع ، هل هذا لشر أُريد بمَنْ فى الأرض حتى لا يفطنوا لما قد يحدث لأرضهم . أم أن الله قد أراد بهم رشداً وهدى .

فالأمر قد اختلط على الشياطين لأنهم لم يعودوا يستطيعون استراق السمع ، ولذلك لم يعرفوا هل الذى ينزل من السماء خير أم شر ؟

فالجن لا يعلمون السر فى حراسة السماء ، وهل فى ذلك شر بالبشر، أو أراد الله بهم خيراً وهُدى ، والشر قد يكون عذاباً ينزل بأهل الأرض.

أما الرشد فهو الهدى بأنْ يبعث منهم رسولاً مرشداً يرشدهم إلى الحق ، وهل الشر أو الرشد باعتبار المقصود من الأمر النازل أم بنتيجته ، فهم كانوا علموا أن مَنْ آمن بالرسول المبعوث ونظر إليه بعين الاستهداء والإرشاد فقد رشد ، ومَنْ نظر إليه بعين الاستخفاف والاستهزاء استؤصل ، فلم يدر الجن أيكذبون الرسل فيحلّ بهم الهلاك فى العاقبة أو يُصدِّقونه فيرشدوا به ؟

ويوصِّف الجن أنفسهم بقولهم ﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا (١١)﴾ [الجن]

فلأنهم لم يدروا أيُصدِّقون الرسل أم يكذِّبونه ، انقسموا ، فمنهم مَنْ آمن ، ومنهم مَنْ كان دون ذلك .

فالجن منهم العاصون والطائعون والمؤمنون ، فهم مثلنا فمنهم الصالحون المصلحون الذين يُعينون على الخير ، ومنهم مَنْ هو أقلّ من

ذلك صالح غير مصلح ، مُهتدٍ غير هادٍ ، فمنهم الطائع ومنهم العاصى. ومنهم المتمرد ، وقد يكون مَنْ هو دون الصالحين هم الشياطين .

﴿كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا (١١)﴾ [الجن] أى كنا أهل ملل شتى ، مؤمنين وكافرين ويهود ونصارى . أى أنهم كانوا ذوى أهواء مختلفة .

والطرائق جمع طريقة وهى طريقة الرجل ومذهبه ، والقدد : جمع قدَّة وهى الضروب والأجناس المختلفة . فكانوا فِرقاً شتى وقد قال السُّدى : الجن مثلكم فيهم قدرية ومرجئة ورافضة وشيعة[1]. وهذا يدلُّ على أن فيهم مجتهدين ومتأولين للآيات ، ومنهم مَنْ تقف أمامه آيات مشتبهة ، لذلك فهم أصناف مختلفون .

﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾﴾

﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا (١٢)﴾ [الجن] الظن هنا بمعنى أيقنا وآمنا أننا ﴿لَنْ نُعجِزَ اللهَ فِى الْأَرْضِ (١٢)﴾ [الجن]

والشيء المعجز هو الذى يثبت العجز للمقابل ، نقول : عملنا شيئاً معجزاً لفلان يعنى لايستطيع الإتيان بمثله ، فهم آمنوا أنهم لن يستطيعوا الإفلات من عقاب الله ، ولن يُعجزوه ولن يعجز عنهم أبداً ، وهو سبحانه مدركهم لا محالة .

ومثله قوله تعالى : ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِى الْأَرْضِ (٥٧)﴾ [النور] فلن نسبق الله فى الأرض فنفوته ، ولن نُعجزه هرباً فلن نسبقه ونفلت منه سبحانه ، إنْ إراد الله بنا سوءاً ، فالله قادر علينا حيث كنا .

لذلك قال : ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعجِزَ اللهَ فِى الْأَرْضِ (١٢)﴾ [الجن] أى وإنْ دخلنا تحت تخوم الأرضين ، ولن نعجزه بالهرب على وجه الأرض،

(١) ذكره الثعلبى فى تفسيره (الكشف والبيان ١٠/٥١) من قول السدى . وقد ذكره الواحدى فى تفسيره (الوسيط فى تفسير القرآن المجيد) (٤/٣٦٦) أن الحسن البصرى قال : الجن أمثالكم فمنهم قدرية ومنهم مرجئة ورافضة وشيعة .

وهذا إقرار منهم بأنهم لايستطيعون بحيلهم وأسبابهم أنْ يحترزوا من عذاب الله تعالى .

﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾﴾

الهدى : القرآن الذى سمعوه من فم رسول الله ، وهو هدى لأنه يهدى إلى الطريق المستقيم ، وقد قال تعالى : ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللهُ بَشَرًا رَسُولًا (٩٤)﴾ [الإسراء]

فالهدى هو الدلالة على طريق يوصلك إلى ما تطلبه ، فالإشارات التى تدل المسافر على الطريق هى هدى له لأنها تبين له الطريق الذى توصله إلى المكان الذى يقصده .

وقد وصف الحق سبحانه القرآن فقال ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (٢)﴾ [البقرة] ، وقال : ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى (١٢٠)﴾ [البقرة]

فالقرآن الكريم هو هدى الله يحمل هداية الدلالة للذين يريدون أنْ يجعلوا بينهم وبين غضب الله وعذابه وقاية .

والجن يقولون ﴿ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ (١٣)﴾ [الجن] فبدلاً من أنْ يقولوا : وأنَّا لما سمعنا القرآن . انتقلوا إلى وصفه مباشرة على اعتبار أن القرآن هو الهدى بأل التى للعهد تمييزاً له عن الكتب الأخرى .

﴿ فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا (١٣)﴾ [الجن] إيمانك بالقرآن هو إيمانٌ بالهدى ، وإيمانك بالهدى هو إيمانٌ بمَنْ أنزل القرآن على رسوله محمد .

ولهذا الإيمان بربك عاقبة وهى ﴿فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا (١٣)﴾ [الجن]، فالإنسان إنما يخاف من البَخْس والرَّهَق ، فإنْ كنتَ لا تريد الوقوع فيهما فآمن بربك يكفك الأمرين .

فما هو البَخْس ؟ وما هو الرَّهَق ؟

البَخْس هو إنقاصُ الحق ، ويقول تعالى عن يوسف عليه السلام : ﴿ وَشَرَوْهُ[1] بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ (٢١)﴾ [يوسف]، ويقول تعالى : ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ (١٨٣)﴾ [الشعراء] ومعنى (أشياءهم) حقوقهم .

فالبَخْس والنقص من حقِّ الغير ذنب ، وقد يكون بأخْذ الشيء كله غصباً أو بالتصرف فيه دون أمر صاحبه ، أو على وجه لا يرضاه .

والحق سبحانه لا يبخس الناسَ شيئاً ، يقول تعالى : ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا (١١٢)﴾ [طه]

والهضم هو البَخْس وهو النقصان فلا ننقصه أجره وثوابه . ومنه نقول : فلانٌ مهضوم الحق . يعنى كان له حَقٌّ فلم يأخذه .

والله لا يظلم أحداً مثقال ذرة ، يقول تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا (٤٠)﴾ [النساء]

أما الرَّهَق فهو ألوان من العذاب ، لا يخاف بَخْساً فيُبخس حقه كله ولارهقاً يبخس بعض حقه ، فمَنْ يصدّق بربه لا يخاف أنْ ينقص من حسناته فلا يجازى عليها ، ولا رَهَقاً إنما يحمل عليه من سيئات غيره .

﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾﴾

يقول تعالى : ﴿وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ (١٤)﴾ [الجن] فالجن فيهم المؤمن والكفار . والقاسطون الجائرون الظالمون ، والحق سبحانه

---

(١) شروه : باعوه . يطلق لفظ الشراء على البيع . يقال : شريت الشيء بمعنى بعته وإنما حمل هذا الشراء على البيع ، لأن الضمير فى (شروه) وفى (كانوا فيه من الزاهدين) يرجع إلى شيء واحد . [السراج المنير لشمس الدين الخطيب ٢/٩٨] .

يقول : ﴿ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا(١٥)﴾ [الجن] فالقاسط يذهب إلى النار ، وهى مأخوذة من (قسط يقسُط) . فالقاسطون الجائرون على حقوق غيرهم .

ولكن القاسطين هنا مقابلون للمسلمين ، فيكون القاسطون هم الظالمون الذين ظلموا أنفسهم بأنهم عدلوا بالله غيره سبحانه، فالمسلمون هم الذين خضعوا لله بالطاعة ، أما القاسطون فهم الجائرون عن الإسلام وقصد السبيل .

﴿ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا (١٤)﴾ [الجن] فمَنْ أسلم وخضع لله بالطاعة فأولئك تعمدوا وترجوا رشداً فى دينهم ، والتحرى والتوخِّى هو القصد ، فهم قصدوا نوراً وثواباً ، وقصدوا طريق الحق .

أما الظالمون الجائرون فيقول تعالى : ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا(١٥)﴾ [الجن] وقد جعلناهم حطباً للنار ليقوى التذاذ المؤمن بالنعيم كما لا تتبين لذة الصحيح إلا عند رؤية المريض . فحطباً أى وقوداً للنار.

﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾
لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾﴾

ثم يُعرِّج الحق سبحانه على كفار مكة فيقول : ﴿ وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ (١٦)﴾[الجن] أى طريقة الهدى﴿ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا (١٦)﴾ [الجن] أى ماء كثيراً من السماء .

فلو آمنوا لوسَّع الله عليهم فى الرزق ، فلو استقاموا على طريقة الحق والاستقامة لوسَّعنا عليهم فى الرزق وبَسْطنا لهم فى الدنيا .

والحنيفية السَّمحة هي الاستقامة ، وقد قال تعالى : ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَـٰكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٦٧)﴾ [آل عمران]

والذى يسير فى طريق مستقيم ما الذى يدعوه إلى أنْ ينحرف عن

الطريق المستقيم ليطيل على نفسه السبيل ؟ إنْ كان يريد الغاية مباشرة فإنه يفضِّل الطريق المستقيم ، أما الذى ينحرف عن الطريق المستقيم فهو لا يصل للغاية المنشودة ، بل يطيل على نفسه المسافة وقد لايصل إلى الغاية .

أما إذا استقام على الطريقة وهى الملَّة الحنيفية والسنة والشريعة، قال تعالى : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (١٨)﴾ [الجاثية]

والماء الغدق قد يكون المطر ، وقد يكون المال الكثير الوفير لأنه يقول بعدها ﴿ لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ (١٧)﴾ [الجن] أى : لنبتليهم به ونختبرهم .

وقد قال عمر رضى الله عنه : أينما كان الماء كان المال ، وأينما كان المال كانت الفتنة[1] .

فرزق الدنيا فتنة وابتلاء ، ومَنْ فتن برزق الدنيا مالاً أو جاهاً أو نساء فقد خسر وخاب ويكون الابتلاء والفتنة شراً له .

ثم يقول الحق سبحانه :﴿وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا (١٧)﴾ [الجن]، ففى الآية السابقة قال (وألو استقاموا على الطريقة) ماذا يحدث لهم ؟﴿ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا (١٦)﴾ [الجن]

هذا لمَنْ آمن واستقام على منهج الله وشرعه ، أما مَنْ لم يؤمن بل أعرض ونأى بجانبه وصَدَّ عن سبيل الله ﴿ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا (١٧)﴾ [الجن]

كان مطلوباً منه أنْ يسلك سبيل الرشاد والهدى والاستقامة على الطريقة ولكنه أعرض ، لذلك ﴿يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا (١٧)﴾ [الجن] أى يُدخله الله عذاباً شديداً شاقاً متصاعداً لا راحةَ فيه .

وقد أعطانا الحق سبحانه مثالاً لهذا العذاب الشديد الشاق المتصاعد، فقال : ﴿سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا (١٧)﴾ [المدثر]

أى سأكلفه أنْ يصعد على صخرة من النار ملساء فى تلك الصخرة،

---

(١) أخرجه الطبرى فى تفسيره (٢٣/ ٦٦٣) والثعلبى فى تفسيره (١٠/٥٣) وكذا القرطبى (١٩/١٨)

كُوىً تخرج منها ريح حارة ملتهبة ، وهو عذاب السَّموم فإذا أصابته تلك الريح تناثر لحمه .

ثم يذكر لنا الحق سبحانه قضية لابدَّ أنْ نضعها فى أذهاننا وهي:

﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾

المساجد جمع مسجد ، وهو المكان الذى يُسجد فيه لله وحده ، فهو مكانٌ للعبادة ، فإذا دخلتَ المسجد للعبادة فإنَّ لحظة دخولك المسجد هى لحظة جئت فيها لتقترب من ربك وتناجيه وتعيش فى حضن عنايته فلا تأتِ بالدنيا معك .

وقد كان أحدُ الصحابة يقول : كنا نخلع أمر الدنيا مع نعالنا .

والمسجد لن يأخذ منك إلا الوقت القليل فضَعْ قدرك مع نعلك خارج المسجد ، وادخل بلا قدر إلا قدر إيمانك بالله ، ادخل بعبوديتك لله ، ولا تلحظ لك قدْراً إلا قدرك عند الله .

واجلس حيث ينتهى بك المجلس ولا تتخط الرقاب وانْوِ الاعتكاف ولا تتكلم فى أى أمر من أمور الدنيا .

فالمساجد هى فيوضات الحق النورانية على خَلْقه ، فالذى يريد فيْضَ الحق بنوره ، فليذهب إلى المسجد ، فالمسجد هو مكان لا يزاول فيه إلا لقاء الله .

فليخصِّص الإنسانُ المؤمنُ ساعةً لله وحده فى اليوم ، وليخلع كل أغراض الحياة الدنيا كما يخلع النعال على باب المسجد ، فليس من حُسْن الأدب واللياقة أنْ ينشغل الإنسان بأى شيء غير لقاء الله فى الوقت المخصص للقاء الله ، وفى المكان المخصص لهذا اللقاء .

فعلينا ألاَّ نناقش أمورنا الدنيوية من بيع وشراء فى المسجد ، فكأننا لا يكفينا حبُّ الدنيا خارج المسجد ونطمع فى الدقائق التى

نخصِّصها للصلاة فنجرجر الدنيا معنا إلى المسجد .

ومع أن الأرض كلها تصلح للصلاة لكنك حين تأتى إلى المسجد اصحب معك أخلاقَ التعبُّد ، ويجب أنْ يكون الانفعال والتفاعل والحركة والنشاط كله فى الله .

فالمساجد لله ﴿ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَدًا (١٨)﴾ [الجن] والدعاء هو العبادة[١]، فلا تعبدوا مع الله أحداً ، بل قوموا بما يجب لله من توحيد .

ولكن البعض تأوَّل هذه المساجد أنها الأعضاء التى يسجد عليها الإنسان ، وهى سبعة : الجبهة واليدان والركبتان والقدمان ، فهذه الأعضاء مخلوقةٌ لله عز وجل فلا تسجدوا عليها لغير الله .

وقد قال رسول الله ﷺ : « أُمرتُ أنْ أسجد على سبعة ، على الجبهة وأشار بيده إلى أنفه واليدين والركبتين » [٢].

وكلا المعنيين محتمل ، فالمساجد قد تكون مواضع الصلاة ، وقد تكون أعضاء السجود .

والحق سبحانه يقول عن المساجد : ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (١٨)﴾ [التوبة]

فقوله ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللهَ (١٨)﴾ [التوبة] يدل على أن التحدث فى المساجد بما يهمّ أمور المسلمين وانتقاد أمور يروْنَها خارجةً عن منهج الله لا يطعن فى كوْن المساجد لا يُعبد فيها إلا الله ، فلا يُدعَى فيها لأشخاص ولا غيره .

فـ﴿ لَمْ يَخْشَ إِلَّا اللهَ (١٨)﴾ [التوبة] أى لم يخْشَ فى دينه إلا الله فجاهر

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (١٨٣٥٢، ١٨٣٨٦) وعبد الله بن المبارك فى كتابه (الزهد والرقائق) (١٢٩٨) وأبو داود الطيالسى فى مسنده (٨٣٨) من حديث النعمان بن بشير أن رسول الله ﷺ قال :«إن الدعاء هو العبادة ، قال ربكم ﴿ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ (٦٠) ﴾ [غافر]

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٢٧٧٧) وأبو عوانة فى مستخرجه (١٨٦٧) ، والبخارى فى صحيحه (٨١٢) ومسلم فى صحيحه (٢٣٠) من حديث ابن عباس .

بالحق وعمل بمقتضى إيمانه بالله واليوم الآخر ، وأنه لا يدعو ولا يعبد إلا الله .

فالإيمان بالله يقتضى خشيته فهو أحقُّ أنْ يُخشى .

ثم يقول تعالى :

﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾﴾

لما قام رسولُ الله يدعو ربه ويقرأ القرآن تجمَّع هؤلاء الجن التسعة ليستمعوا منه القرآن ، فعبد الله هو رسول الله محمد قام يعبد ربه فى بطن نخلة بين مكة والطائف .

فكان الجن من حبهم لما استمعوه من رسول الله من آى الذكر الحكيم ﴿كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا (١٩)﴾ [الجن] أى كادوا أنْ يقعوا عليه من تراكبهم عليه من شدة حرصهم على استماعه .

فكادوا يركب بعضهم بعضاً من الازدحام عليه حرصاً على استماع القرآن ، فكادوا يكونون على محمد جماعاتٍ بعضها فوق بعض ، واحدها لبدة ، والعرب تُسمِّى الجراد الكثير الذى قد ركب بعضه بعضاً لُبْدة .

وفى كلامنا العامى نقول : شعر مُلبَّد . أى متشابك متراكب داخل فى بعضه ، بعضه فوق بعض .

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾

(قُلْ) يا محمد ﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّى وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا (٢٠)﴾ [الجن] فإذا كان الجن كانوا يبحثون عن الحق بين رسالات سابقة ووجدوا السماء قد حُرِسَتْ بحراسة شديدة من الملائكة ، وأصبح الاقتراب من السماء

لتسمُع الأخبار أمراً خطيراً .

فرسول الله يعلن لهم إعلاناً واضحاً عن رسالته وما جاء به : ﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا (٢٠)﴾ [الجن]

فأنا إنما أعبد ربى ، وما جئت إلا بتوحيده وعدم الإشراك به شيئاً أو أحداً ، فلا أصنام ولا أوثان ، ولا بشر ولا حجر ، ولا كواكب ولا نجوم ولا قطط ولا حيوانات ولا شمس ولا قمر .

إنما هو الله الواحد الأحد لا ربَّ سواه ، ولا إله غيره .

والبعض من العلماء تأوَّل هذه الآيات أن المقصود بها كفار مكة قالوا للنبى ﷺ: لقد جئتَ بأمر عظيم فارجع عنه فنحن نجيرك، فقال لهم النبى ﷺ: إنما أدعو ربى ولا أشرك به أحداً [١].

﴿ قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا (٢١)﴾ [الجن] نلحظ أن الحق سبحانه كرر فى هذه السورة مادة (ر ش د) عدة مرات ، ﴿ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ (٢)﴾ [الجن] ، ﴿ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا (١٠)﴾ [الجن] ، ﴿فَأُولَـٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا (١٤)﴾ [الجن] ، ﴿ قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا (٢١)﴾ [الجن]

أربعة مواضع : الرُّشْد ، ثم رَشَداً ثلاث مرات .

ولماذا لم يقُلْ الحق سبحانه : قل إنى لا أملك لكم ضراً ولا نفعاً فإنَّ الضر يقابله النفع ؟ نقول : لم يكن الجن الذين استمعوا لرسول الله يبحثون عن نفع وإنما كانوا يبحثون عن الحق ، لذلك لما سمعوا القرآن قالوا : ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ (٢)﴾ [الجن]

كانوا يبحثون عن الهدى وعن الرُّشْد والرَّشَد . ولا يبحثون عن نَفْع دنيوى . والرُّشْد والرَّشَد والرشاد كلها واحد نقيض الغَى .

ولو قلنا : إن المقصود بهذه الآيات هم كفار مكة فإن الله عزَّ وجلَّ يقول لمحمد : يا محمد قُلْ لمشركى العرب إنِّى لا أملك لكم ضراً فى

---

(١) أورده الخازن فى تفسيره (لباب التأويل فى معانى التنزيل) (٣٥٢/٤) ، وكذا البغوى فى تفسيره (١٦٣/٥) ، والشوكانى فى (فتح القدير) (٣٧١/٥) .

دينكم ولا دنياكم ولا رشداً أرشدكم ، لأن الذى يملك ذلك هو الله الذى يملك كلَّ شيء .

ثم يقول القرآن : ﴿ قُلْ إِنِّى لَنْ يُجِيرَنِى مِنَ اللهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا (٢٢)﴾ [الجن]

لا أحدَ يجير إلا الله ، واعلم أنه لا سلطانَ لأحد أبداً ، ولا أحد يجير على أحد ، فهو سبحانه الذى يجير ولا يُجار عليه ، ولن يجير شيء على الله تعالى .

وقد قال تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِى اللهُ وَمَنْ مَعِى أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٨)﴾ [الملك]

﴿ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٨)﴾ [المؤمنون] يجير تقول استجار بفلان فأجاره يعنى استغاث به فأغاثه، ومنه قوله تعالى : ﴿وَإِنِّى جَارٌ لَكُمْ (٤٨)﴾ [الأنفال] والإنسان لا يستجير بغيره إلا إذا ضعفتْ قوته عن حمايته ، فيلجأ إلى قوى يحميه ويدافع عنه .

إنْ خرجت عما أرسلنى الله به فلن يستطيع أحدٌ حمايتى من الله إنْ أراد بى إنزالَ عقوبة إن عصيته .

﴿وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا (٢٢)﴾ [الجن] كلمة (ملتحداً) وردت فى القرآن مرتين ، هذه التى معنا فى سورة الجن ، والأخرى فى قوله تعالى: ﴿ وَاتْلُ مَا أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا (٢٧)﴾ [الكهف]

أى ملجأ تلجأ إليه ، فلن تجد من دون الله ملجئاً تلوذ به ، فإنْ لم أتبع ما جئت به فلن أجد من دونه حرزاً أعدل إليه وألجأ ، وقيل مدخلاً فى الأرض مثل السرب أدخل فيه .

وكلمة ﴿مُلْتَحَدًا (٢٧)﴾ [الكهف] من اللحد يكون فى شِقٍّ من الأرض يُوضع فيه الميت كأنَّ الأرض تحتضنه وتخفيه فى داخلها .

﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾﴾

فالذى يجيرنى من عذاب الله هو البلاغ عن الله سبحانه ، ففيه الجوار والأمن والنجاة ، وذلك الذى أملكه ، فأنا لا أملك لكم ضراً ولا رشداً .

فالرشد والخذلان بيد الله وحده هو مالكه دون سائر خَلْقه يهدى مَنْ يشاء ويخذل مَنْ أراد .

وبعض العلماء نظر إلى كلمة (إلا) فى أول الآية أنها مكونة من حرفين (إنْ) و (لا) . فتكون (لا) منقطعة من (إن) فيكون معنى الكلام : قُلْ إنى لَن يجيرنى من الله أحدٌ إنْ لم أبلغ رسالاته ..

إن الأمر جدىٌّ فلن يجيرنى من الله أحدٌ ، ولن أجد من دونه ملجأً أو حماية إلا أنْ أبلغ هذا الأمر وأؤدى هذه الأمانة ، فهذا هو الملجأ الوحيد ، وهذه هى الإجارة المأمونة .

فهى أمانة لا بدَّ أنْ يُبلّغها رسول الله ، لذلك عندما ساوم كفارُ مكة رسولَ الله قال لعمه أبى طالب : « والله يا عم لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى يسارى على أنْ أترك هذا الأمر ما تركتُه حتى يُظهره الله أو أهلك دونه »[1] .

وقد جمع الحق سبحانه كلمة (رسالة) فقال ﴿وَرِسَالَاتِهِ (٢٣)﴾ [الجن]
وقد مدح الحق سبحانه الذين يبلِّغون رسالاته فقال : ﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللهَ وَكَفَى بِاللهِ حَسِيبًا (٣٩)﴾ [الأحزاب]

ويقول سبحانه على لسان رسوله ﷺ: ﴿ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ (٩٣)﴾ [الأعراف]

---

(١) أورده ابن هشام فى السيرة النبوية (١/٢٦٦) ، والبيهقى فى (دلائل النبوة) (المقدمة – ص ٦٦) ، وكذا السهيلى فى (الروض الأنف) (٣/١٠) ، وابن سيد الناس فى عيون الأثر (١/١١٨) .

والمقصود برسالات الله ما أرسله الله به من أوامر ونواهٍ وشرائع وتكاليف ، فكأنَّ كلاً منها رسالة .

﴿ وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ ..(٢٣)﴾ [الجن]

المعصية هنا ليست هى ارتكاب الذنوب والآثام ، إنما هى المعصية فى الإيمان نفسه وإباء ورَفْض الإيمان بالله وكتبه ورسالاته ورسله.

وقد قال رسول الله ﷺ: « كلُّ أمتى يدخلون الجنة إلا مَنْ أبى . قالوا: ومَنْ يأبى يارسول الله ؟ قال : مَنْ أطاعنى دخل الجنة ، ومَنْ عصانى فقد أبى[1] فَمَنْ يَعْصِ الله ورسوله فى التوحيد فلا يؤمن به فإن له ﴿ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا (٢٣)﴾ [الجن] فمَنْ يعصِ الله فيما أمره ونهاه ويكذّب به ورسوله فجحد رسالاته ، فإن له نار جهنم يصلاها ماكثين فيها أبداً إلى غير نهاية .

والحق سبحانه يقول : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٦١) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (١٦٢)﴾ [البقرة]

الحق سبحانه يحدثنا عن عذاب النار الذى يلحق بالكافرين وهو عذاب يخلدون فيه ، ثم يصعِّد الحق سبحانه الخلود بالأبدية ، فهناك عذاب فى النار ، وهناك خلود فيها ، وهناك أبدية خلود .

ولكن أبدية الخلود فى النار لم تُذكر إلا فى هذه الآية فى سورة الجن ﴿ وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا (٢٣) ﴾[الجن]

ولفظ (أبداً) يدل على ملحظ يزيد على معنى الخلود دون تأبيد . فالقرآن كلام الله ، وكلام الله مُنزَّه عن العبث أو التكرار ، فكلّ لفظ من القرآن محكم وله معنى .

فكلمة (خالدين فيها) لا تفيد التأبيد الذى لا نهاية له ، فكلمة ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا (٢٣)﴾ [الجن] تعنى أن المكْثَ فى الجنة ينتقل من المكث

(١) أخرجَه البخارى فى صحيحه (٧٢٨٠) والمهلب بن أحمد الأندلسى فى المختصر النصيح فى تهذيب الكتاب الجامع (٧٢٨٠) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

طويلاً إلى المكث الدائم الذى لا ينتهى.

ثم يقول تعالى:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾﴾

الحق سبحانه يثبت لهم هنا الرؤية ومثلها قوله تعالى : ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا (٥٣)﴾ [الكهف] بينما فى آية أخرى يقول تعالى : ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا (٩٧)﴾ [الإسراء]

والمتأمل فى حال هؤلاء يجد أن العمى كان ساعة البعث ، حيث قاموا من قبورهم عُمياً ليتحقق لهم الإذلال والحيرة والارتباك ، ثم بعد ذلك يعودون إلى توازنهم ، ويعود إليهم بصرهم ليشاهدوا به ألوان العذاب الخاصة بهم ، وهكذا جمع الله عليهم الذل فى الحالين : حال العمى وحال البصر .

والحق سبحانه يقول فى آية أخرى : ﴿حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا (٧٥)﴾ [مريم]

و ﴿ يُوعَدُونَ (٢٤)﴾ [الجن] من أوعد . من الوعيد والتهديد والله حين يُوعد قادر على إنفاذ ما أوعد به ، ولن يفلت أحد منه أبداً ، فإذا أوعد فلا بد أن يأتى وعيده .

﴿ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (١٣٤)﴾ [الأنعام]

فلا أحد بقادر علىَّ أنْ يمنع الله عن تحقيق ما وعد أو أوعد ، ولن تفروا من وعده أو وعيده ، ولن تغلبوا الله أو تفوتوه وتُعجزوه ، فالله غالب على أمره .

﴿ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا (٢٤)﴾ [الجن] فمَنْ أضعف ناصراً

كفار مكة أو المؤمنون، ومَنْ أقل عدداً أى جنداً . فلا ناصرَ لهم فى الآخرة .

وقد كان المشركون يعيِّرون النبى والمؤمنين بقلَّة الناصر وقلَّة العدد ، فقال ﴿ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا (٢٤)﴾ [الجن] أى فى القيامة.

وهذا تهديد ظاهر لمن يبلغه هذا الأمر ثم يعصى ، وإذا كان المشركون يقيسون قوتهم إلى قوة محمد ، ويركنون إلى القوة العدد ، فعندما يرون إنفاذ وعيدنا فيهم حينها سيعلمون مَنْ أضعف ناصراً حين يغيب المناصرون لهم ،وسيعلمون مَنْ أقلّ عدداً حينما يتخلى عنهم أخلاؤهم الذين كانوا لهم أعواناً فى الدنيا .

يقول تعالى : ﴿ الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ (٦٧) ﴾ [الزخرف] فسيكونون أعداء لبعضهم يتبرأون من بعضهم البعض

ويقول تعالى : ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ (١٦٦) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً[1] فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ (١٦٧)﴾ [البقرة]

ثم يقول تعالى :

﴿قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا ﴿٢٥﴾﴾

(إنْ) هنا للنفى معناها (ما) أى ما أدرى أقريب ما أوعدكم الله به وهددكم به من عذاب خُلْد أبدى ، لا أدرى أقريب هو أم بعيد ، وهو قوله تعالى : ﴿ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا (٢٥)﴾ [الجن]

مادة الأمد (أ م د) وردت فى القرآن أربع مرات .

---

(١) كرَّة : أى رجعة فى الدنيا . أى أنهم تمنوا الرجعة حين لا رجعة لهم . (تفسير الخازن ٣/٣٢٨) .

قال تعالى : ﴿ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ (١٦)﴾ [الحديد]

الأمد : الوقت والزمن والدهر . وقال تعالى : ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا (٣٠)﴾ [آل عمران]

فقوله ﴿ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا (٢٥) ﴾[الجن] فقوله أى أجلاً وغاية تطول مدتها فيكون أجلاً بعيداً .

﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾

فالغيب هو ما لا يعلمه إلا الله سبحانه ، وهذا ما استأثر الله بعلمه، فالله هو عالم الغيب ، فلا يُطلع أحداً من خَلْقه على غيبه إلا مَنْ ارتضاه واصطفاه من البشر .

فالحق سبحانه يقول : ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٥٩)﴾ [الأنعام]

وهو سبحانه لا يعطى المفتاح لأحد من خَلْقه ، والغيب هو ما غاب عن الكل ، وهو الغيب المطلق ، أما الأمر المخفى فى الكون وكان غيباً على بعض من الخَلْق ، ثم يصبح مشهداً لخَلْق آخرين فلا يُقال إنه غيب .

﴿فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦)﴾ [الجن] أى لا يُطلع أحداً على غيبه ، ومثل هذا قوله تعالى فى سورة التحريم : ﴿ فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ (٣)﴾ [التحريم]

أى أن الله أطلعه على ما غاب عن رسول الله من شأن حفصة رضى الله عنها أنها أخبرت عائشة بما أسرّه رسول الله لها .

والحق سبحانه استثنى من هؤلاء الذين لا يطلعهم على الغيب ، استثنى فقال :

﴿إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿٢٧﴾﴾

فالحق سبحانه استثنى مَنْ ارتضاه سبحانه من الرسل فأطلعهم على بعض الغيب مما أراده الله ، فالرسل لا يعلمون الغيب ولكن الله سبحانه يعلمهم بما يشاء من الغيب، ويكون هذا معجزة لهم ولمن اتبعوهم .

والله لا يُطلع على غيبه أحداً إلا لرسول يختاره الحق ليعلم بعضاً من الغيب ويحميه الله ويعصمه ويحفظه بالملائكة لتحول بينه وبين وساوس الشياطين وتخليطهم حتى يبلِّغ ما أوحى به إليه .

فيحمى الحق سبحانه وحيه من تعرُّض الجن لما يريد إطلاعه عليه لئلا يسترقوه ويهمسوا به إلى الكهنة قبل أن يُبلِّغه الرسول ،وحتى يصل الوحى إلى الناس خالصاً من تخليط الجن وعبثهم .

فالرسول مُعلَّم غيب وليس عالم غيب ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ..(٥٠)﴾ [الأنعام]

فرسول الله ينفى عن نفسه علم الغيب ، ولقائل أنْ يقول : ولكن ماذا عن الأشياء والأحداث التى أخبرنا بها رسول الله ، وهى أحداث مستقبلية ؟

أقول : إن ذلك ليس علماً للغيب ولكن الرسول مُعلَّم غيب ، أي أن ربهم سبحانه قد علَّمه ، ومثال ذلك قول الله : ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٤٤)﴾ [آل عمران]

الحق سبحانه هو الذى علَّم رسوله تلك الأخبار التى كانت من أنباء الغيب ، وهذا اختراق لحجاب الزمن الماضى .

أما الشيء الذى سوف يحدث فى المستقبل فهو محجوب عنك بحجاب الزمن المستقبل .

فالحق سبحانه يفيض من غيبه الذاتى على بعض خَلْقه ، والقرآن الكريم فيه الكثير من الغيب ، وأفاضه الله تعالى على رسوله ﷺ وتحققتْ الأحداث كما جاءت فى القرآن .

والحق سبحانه يهب بعضاً من خَلْقه بعضاً من فيوضاته ، وقد أعطى الله سبحانه رسوله ﷺ بعضاً من الهبات وحدَّد مَنْ يعطيه بعضاً من الغيب ﴿ إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ (٢٧)﴾ [الجن]

وهى ليست للحصر لأن الرسول أسوة ، ومَنْ يعمل بعمل الرسول ويقتدى به ، يهبه الله تعالى هبة يراها الناس ، فيعرفون أن مَنْ يتبع الرسول كقدوة يعطيه الله سبحانه الهبات النورانية، ولكن هذه الهبة ليست وظيفة وليست دكاناً للغيب ، بل هى من عطاءات الله تعالى .

والحق سبحانه يقول : ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ (٥٩)﴾[الأنعام]

فالحق سبحانه لم يُعطِ مفتاح الغيب لأحد ، والولى من أولياء الله إنما يأخذ الهبة منه سبحانه ، لكن مفتاح الغيب هو عند الله وحده.

فإذا ما أعلمنا رسول الله غيباً من الغيبيات فلا نقول : إنه يعلم الغيب لأنه لا يعلم إلا ما أعلمه الله من الغيب .

إذن : هذا غيب لا يدركه أحد بذاته أبداً.

ومن هذا الغيب المطلق غيب استأثر الله به ولا يُطلع أحداً عليه حتى الرسل ، فقد « سُئل رسولُ الله عن الساعة ، فقال : ما المسئول عنها بأعلم من السائل » [(١)].

فعلم الساعة من الغيب الذى استأثر الله به، فلم يُعطِ علمه فيها لأحد من الخَلْق .

ثم يقول تعالى : ﴿ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا (٢٧)﴾ [الجن]

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٠، ٤٧٧٧) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٨ ، ٩، ١٠) من حديث أبى هريرة ، وهو حديث جبريل الطويل وفيه سؤاله عن الإسلام والإيمان والإحسان والساعة .

لقد حفظ الله رسوله من محاولات استراق الجن لأخبار السماء والوحى ، فالضمير فى (يديه) ، (خلفه) يعود على الرسول ، أى من بين يدى الرسول ومن خلفه .

وقد يسال سائل : لماذا خصص الحق سبحانه الجهات بالأمام والخلف ولم يذكر باقىْ الجهات ، نقول : ذِكْر بعض الجهات دالٌ على جميعها .

وقيل : إن الله تعالى كان إذا بعث رسولاً أتاه إبليس فى صورة مَلَكٍ يخبره ، فيبعث الله من بين يديه ومن خلفه رصداً أى طائفة من الملائكة تكون مهمتها رصد الجن والشياطين فيحرسونه منهم ويطردون الشيطان عنه .

وقد تولَّى اللهُ سبحانه حفظ الذكر الحكيم بحراسة السماوات وغيرها ، والرصد من الملائكة يدفعون الشياطين عن أنْ تستمع ما ينزل من الوحى ، فهم رصدٌ لمن يأتى للرسول ليخطف الخَطْفة من أوامر السماء.

ثم يَنهى الحق سبحانه سورة الجن بقوله :

﴿ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴿٢٨﴾ ﴾

ليعلم رسول الله محمدﷺ أن الرسل قبله قد أبلغوا رسالات ربهم، وأن جبريل عليه السلام قد أبلغه رسالات ربه أوامره ونواهيه وأحكامه.

فلو لم يكُنْ هناك رصد من الملائكة للجن والشياطين لأفشوا أوامر السماء إلى الكهنة ، فلم يبق بينهم وبين الأنبياء فَرْق ولا يكون للأنبياء آيةٌ ولا معجزة ولا دلالة ثم لا يُقبل قولهم .

فرسالات ربهم تُبلَّغ كما هى محروسة من الزيادة والنقصان ، وقد

قيل فى تأويل هذه الآية أقوال وتأويلات كثيرة .

منها أى ليعلم إبليس أن الرسل قد بلَّغوا رسالات ربهم سليمةً من تخليطه وإسراف أصحابه ، ومحاولات استراق السمع قد فشلت .

﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ (٢٨)﴾ [الجن] فلا يجدون معه منفذاً للفكاك ، والإحاطة تقتضى العلم بهم والقدرة عليهم ، فلن يفلتوا من علم الله ولا من قدرته .

فالله علم ما عند الرسل فلا يخفى شيء من أمورهم ، فالله أحاط بما عند الرسل ، أو بما عند الملائكة ، أو بما عند الخلق .

فأحاط بما عند الرسل من الحكم والشرائع لا يفوته منها شيء ولا ينسى منها حرفاً ، فهو مهيمن عليها .

﴿ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا (٢٨)﴾ [الجن] أحصى سبحانه ما خلق وعرف ما خلق لم يَفُتْه شيءٌ حتى مثاقيل الذر والخردل . فكلُّ شيء عنده معدود ومُحصى لا يغفل جل جلاله عن معرفة عدده .

و ﴿ عَدَدًا (٢٨)﴾ [الجن] قد تُنصب على أنها حال ، وقد تُنصب على أنها مفعول مطلق بتقدير فعل (عَدَّ) أى عدَّ عدداً .

فلا شيءَ يخفى على الله كثيراً كان أو قليلاً ، جليلاً أو دقيقاً ، فالله أحصى كلَّ شيء من القَطْر والرمل وورق الأشجار وزَبَد البحر ، فكيف لا يحيط بما عند الرسل من وحيه وكلامه .

وهو سبحانه المحصى العالم الحافظ لكل شيء .

وهنا تنتهى سورة الجن التى تهز الوجدان والقلوب ، فهى تتحدث عن عالم غير مرئى لنا يرانا ولا نراه ، قد لا نهتم كثيراً لعالم الملائكة لأنهم مأمونو الجانب ، هم جانب الخير ، إنما دائماً نحن نتوجس من عالم الجن .

جِنٌّ يبحثون عن الدين والعقيدة الحق ، فيجدونها فى قرآنٍ سمعوه من فم خاتم الرسل والأنبياء ، فإذا بهم قد أصبحوا دعاة لقومهم من الجن ، فالجن منهم مؤمنون وكافرون ، ومنهم عصاة وطائعون .

سُورَةُ المُزَّمِّلِ

سورة المزمل[١]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ۝٤ ﴾

يخاطب الحق سبحانه نبيه وحبيبه محمداً ليقرِّبه إليه أكثر ، فالعابد لله يجب أنْ يقف بين يدى الله يناجيه ويدعوه ويتودد إليه ، فما بالُ الله هو الذى يطلب من حبيبه محمد أنْ يقوم من الليل متهجداً عابداً متقرِّباً إليه سبحانه .

وفى آية أخرى يقول تعالى : ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا[٢] مَحْمُودًا (٧٩) ﴾ [الإسراء]

فالهجود هو النوم ، وتهجَّد أى أزاح النوم والهجودَ عن نفسه ، وهو

---

(١) سورة المزمل : هى السورة رقم ٧٣ فى ترتيب المصحف ، وهى سورة مكية ، قال ابن عباس وعطاء : إلا آية من آخرها وهى قوله تعالى (إن ربك يعلم أنك تقوم) إلى آخر السورة فإنها نزلت بالمدينة . عدد آياتها ٢٠ آية . نزلت بمكة بعد سورة القلم ، عدا الآيات ١٠ ، ١١، ٢٠ فإنها نزلت بالمدينة .

(٢) المقام المحمود : هو مقام الشفاعة العظمى الذى يقومه رسول الله ﷺ بين يدى الله يوم القيامة ، وهى الشفاعة التى ستتدافعها الرسل ، كل منهم يقول نفسى نفسى ولكن رسول الله يقول : أنا لها أنا لها . ويخر ساجداً عند العرش ويفتح الله عليه بمحامد لم يكن يعلمها من قبل ، حتى يقول الجبار جل وعلا: يا محمد ارفع رأسك وسل تُعط واشفع تشفع فيرفع النبى ﷺ رأسه فيشفع ويقول : يارب أمتى أمتى

خصوصية لرسول الله وزيادة على ما فرض على أمته أنْ يتهجد لله فى الليل .

وهذه الخصوصية لرسول الله وإنْ كانت فرضاً عليه إلا أنها ليست فى قالب من حديد ، بل له ﷺ مساحة من الحرية فى هذه العبادة ، المهم أنْ يقوم لله تعالي جزءاً من الليل .

ويقول تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (٦٤)﴾ [الفرقان]

فحين يأوى الإنسانُ إلى بيته بعد عناء اليوم وسعيه يتذكر نعم الله التى تجلَّتْ عليه فى ذلك اليوم، وهى نِعَم ليست ذاتية فيه ، وإنما موهوبة له من الله ، لذلك يتوجَّه إليه سبحانه بالشكر عليها فيبيت لله ساجداً وقائماً .

وليس المراد قيام الليل كله ، إنما جزءٌ منه حين تجد عندك النشاط للعبادة ، وقد قال ابن عباس : مَنْ صلى بعد العشاء ركعتين فأكثر كان كمَنْ بات لله ساجداً وقائماً . فربك يريد منك أن تذكره قبل أن تنام وأن تتأمل نعمه عليك فتشكره عليها .

(المزمِّل) أصله المتزمِّل ، وهو الذى تزمَّل فى ثيابه أى تلفَّف . وقد كان النبيﷺ يتزمل فى ثيابه أول ما جاءه جبريل فَرَقاً منه، فكان يقول : زمِّلونى زملونى حتى أنس به[1] .

والمزمّل أيضاً حامل النبوة ، والمعنى زملتَ هذا الأمر فقُمْ به واحمله فإنه أمر عظيم ، ولم يُخَاطب بالنبى والرسول لأنه كان فى أول الأمر ومبدئه ، ثم خُوطب بالنبى والرسول بعد ذلك .

---

(١) قاله الخازن فى تفسيره (لباب التأويل) (٤/٣٥٥) ، وابن الجوزى فى (زاد المسير) (٤/٣٥٢) . وأخرج الطبرانى فى تفسيره (٢٣/٤٠٠) عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله ﷺ وهو يحدث عن فترة الوحى : بينما أنا أمشى سمعت صوتاً من السماء فرفعت رأسى فإذا الملك الذى جاءنى بحراء جالس على كرسى بين السماء والأرض ، قال رسول الله : فجثيت منه فرقاً وجئت أهلى فقلت : زمّلونى زمّلونى فدثرونى .

ويُروى فى سبب نزول هذه السورة أن قريشاً اجتمعت فى دار الندوة تكيد لرسول الله ، فبلغ ذلك رسول الله فاغتمَّ له والتفَّ بثيابه وتزمَّل ونام مهموماً ، فجاءه جبريل عليه السلام بقوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (٢) نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا(٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا (٤)﴾ [المزمل]

كأنَّ الحق سبحانه يقول لنبيه لا تغتم ولا تحزن ، فراحتك فى قُرْبك منى ، قُمْ بين يدىَّ يذهب عنك ما تشعر من ألم من قومك . لذلك كان رسول الله يقول دائماً لبلال : « أرحْنَا بها يا بلال »[١] .

فالصلاة راحةٌ لقلبه ونفسه وروحه من تعب وشقاء الحياة التى تكاد تذهب بروح الإنسان، فمن حبه لله أصبحت طاعة الله وعبادته مرغوبة مُحبَّبة إلى النفس .

فهؤلاء يؤدونها بالمحبة والعشق ، ألفوا الراحة بالصلاة حينما يحزبهم ويشتد عليهم أمرٌ خارج عن نطاق أسبابهم ، فعشق التكليف شيء يدل على أنك ذقتَ حلاوة الطاعة .

﴿ يَأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (٢)﴾ [المزمل] ، وقد كان رسول الله ﷺ يقوم الليل حتى انتفخت قدماه ، فقيل له فى ذلك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال : أفلا أكون عبداً شكوراً [٢].

فقُم الليل للصلاة والعبادة واهجُرْ فراشك وما تتزمل به وتتغطى وانهض لتقوم بين يدىَّ ، فصلِّ الليل إلا قليلاً تنام فيه وهو الثلث ،

---

(١) أخرجه أبو داود فى سننه (٤٩٨٥) وأحمد فى مسنده (٢٣٠٨٨) عن سالم بن أبى الجعد قال قال رجل: ليتنى صليت فاسترحت ، فكأنهم عابوا ذلك عليه، فقال : سمعت رسول الله يقول : يا بلال أقم الصلاة أرحنا بها .

(٢) عن المغيرة بن شعبة قال قام رسول الله ﷺ حتى تفطرت قدماه دماً ، قالوا : يا رسول الله قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر . قال: أفلا أكون عبداً شكوراً . أخرجه ابن المبارك فى الزهد والرقائق (١٠٧) وأبو داود الطيالسى فى مسنده (٧٢٨) ، والحميدى فى مسنده (٧٧٧) ، وأحمد فى مسنده (١٨١٩٨).

تقوم مُصلياً ثلثى الليل وتنام الثلث الباقى .

وقد يسأل سائل : هل هذا الخطاب لرسول الله وحده ، أم أن أمته مخاطبة أيضاً ، وقد ورد ما يثبت أن الخطاب كان لرسول الله ومعه أمته .

فعن عائشة قالت : كنتُ أجعل لرسول الله ﷺ حصيراً يصلى عليه من الليل ، فتسامع الناسُ به فاجتمعوا فخرج كالمغضب ، وكان بهم رحيماً ، فخشى أنْ يُكتب عليهم قيام الليل فقال : « يا يأيها الناس اكلفوا من الأعمال ما تطيقون ، فإنَّ الله لا يملُّ من الثواب حتى تملُّوا من العمل ، وخير الأعمال ما ديمَ عليه ونزل القرآن ﴿يَأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (٢) نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا(٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا (٤)﴾ [المزمل] حتى كان الرجل يربط الحبل ويتعلق فمكثوا بذلك ثمانية أشهر فرأى الله ما يبتغون من رضوانه فرحمهم فردَّهم إلى الفريضة وترك قيام الليل »[1] .

﴿نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا(٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا (٤)﴾ [المزمل] قُمْ نصف الليل أو انقص من النصف قليلاً إلى الثلث ، أو زِدْ على النصف قليلاً إلى الثلثين .

فخيَّره ربُّه بين ثلاثة مقامات : النصف ، الثلث ، الثلثين . يقوم بأيتهن شاء ، فكان رسول الله وطائفة من المؤمنين معه يقومون على هذه المقادير ، وشقَّ ذلك عليهم ، فكان الرجل لا يدرى كم صلى ؟ وكم بقى من الليل ؟ فكان يقوم الليل كله مخافة أنْ لا يحفظ القدر الواجب، حتى خفَّف الله عنهم بآخر هذه السورة .

وقد سئلتْ عائشة رضى الله عنها : أنبئينى عن قيام رسول الله ﷺ

---

(١) أخرجه ابن أبى حاتم فى تفسيره (١٩٠١٠) والطبرى فى تفسيره (٢٣/٣٥٩) من حديث عائشة رضى الله عنها ، والقاسمى فى تفسيره (محاسن التأويل) (٩/٣٤٥) وعزاه لابن جرير الطبرى .

بالليل ، فقالت : ألستَ تقرأ ﴿يَأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١)﴾ [المزمل] قلت : بلى . قالت: فإن الله عز وجل افترض قيام الليل فى أول هذه السورة ، فقام نبى الله وأصحابه حولاً ، وأمسك الله خاتمتها اثنى عشر شهراً فى السماء حتى أنزل الله فى آخر هذه السورة التخفيف ، فصار قيام الليل تطوعاً بعد فريضة [(١)].

﴿ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلا (٤) ﴾ [المزمل] قُمْ ليلك متعبِّداً راغباً فى فضل الله عز وجل ، وليكُنْ زادك فى ليلك هو القرآن فرتّله ترتيلاً .

أى بيِّنه بياناً وترسَّل فى قراءته وتمهَّل وبيِّن حروفه حرفاً واعْطِ لكل حرف حقَّه بالمد والإشباع والتحقيق . حتى أن ابن عباس كان يقول : اقرأه على هَيْنتك ثلاث آيات وأربعاً وخمساً .

أحضر قلبك وعقلك عند قراءتك للقرآن فى صلاتك فى تأمل وتفكُّر فى حقائق الآيات ومعانيها ، ذكر لله وتعظيمه وذكر لوعده للمؤمنين بالجنة والثواب العظيم ، وذكر لوعيده للكافرين بالنار وسوء المصير، وذكر لقصص الأنبياء والأمم السابقة للاعتبار بما حدث مع الأمم السالفة الماضية .

فالمقصود بالترتيل إنما هو حضور القلب عند قراءة القرآن .

وقد سُئل أنس بن مالك : كيف كانت قراءة رسول الله ؟ فقال : كانت مدًّا ، ثم قرأ (بسم الله الرحمن الرحيم) يمد (بسم الله) ويمد (الرحمن) ويمد (الرحيم) [(٢)].

---

(١) أورده الواحدى فى التفسير الوسيط (١٢٥٠) ، والقرطبى فى تفسيره (١٩/٣٤) والسيوطى فى الدر المنثور (٨/٣١٢) وأحمد فى مسنده (٢٤٢٦٩) ومسلم فى صحيحه (٧٤٦) من حديث عائشة رضى الله عنها .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (١٣٠٥٠) ، والبخارى فى خلق أفعال العباد (١/٧٣) والحاكم فى مستدركه (٨٥٢) والبيهقى فى السنن الصغير (٩٧٨) ، والبخارى فى صحيحه (٥٠٤٦) عن قتادة قال : سُئل أنس بن مالك .

والقرآن لم ينزل لمجرد قراءته فقط ، لكن نزل ليُقرأ للحفظ والبقاء إلى يوم القيامة لئلاً يذهب ولا يُنسى . ولنتذكر ما فيه ولفهم ما أُودع فيه من الأحكام ، وما لله على العباد من حقوق ، وما لبعضهم على بعض .

والقرآن أيضاً نزل ليُعملَ بما فيه ويُتعظ بمواعظه ويجعلوه إماماً يتبعون أمره ، وينتهوا عن نهيه ، وهذا كله لا يُدرك إلا بالتأمل وذلك عند قراءته على الترتيل .

اقرأه بتؤدة وتبيين حروفه ترتيلاً بليغاً بحيث يتمكن السامع من عدِّها ، وترتيل القرآن واجبٌ ، فمَنْ لم يُرتِّله فهو آثم كترْك الإشباع مثلاً .

وتدبُّر القرآن إنما يحدث بالترتيل ، يقول تعالى :﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (٢٤)﴾ [محمد] فـ (يتدبرون) و (يتفكرون) هما أم كلِّ المعانى ، عليك أنْ تفهم آيات القرآن وتتدبرها وتتفكرها وتتفهمها عن معرفة وعلم .

ويقول تعالى : ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ (٢٩)﴾ [ص]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥ إِنَّ نَاشِئَةَ الَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝٦ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ۝٧ ﴾

كأنَّ الحقَّ سبحانه كان يُعدُّ رسول الله ﷺ للمهمة الكبرى لحمل الرسالة ، فأعدَّه إعداداً ربانياً بقيام الليل والتهجد والقرب منه سبحانه ، والوقوف بين يديه فى جوف الليل .

فكأنَّ التهجد ليلاً والوقوف بين يدى الله فى هذا الوقت سيعطى

رسول الله ﷺ القوة والطاقة اللازمة للقيام بهذه المسئولية الملقاة على عاتقه ، ألا وهى مسئولية حمل المنهج وتبليغه للناس .

والقول الثقيل هنا هو الوحى ، والحق سبحانه لم يقُلْ : سننزل عليك قولاً ثقيلاً ، بل قال: سنلقى. لأن كلمة سنلقى تناسب ﴿قَوْلًا ثَقِيلًا (٥)﴾ [المزمل] ، فالإلقاء فيه قوة وشدة وصعوبة .

والوحى كان كذلك ، وقد كان رسول الله يتفصَّد[١] جبينه عرقاً لما يحدث فى جسمه من تفاعل وعمليات كيماوية ، ثم حينما يسرّى عنه تذهب عنه هذه الأعراض .

وقد أخبر بعض الصحابة وكان يجلس بجوار رسول الله والرسول ﷺ يضع ركبته على ركبته ، فلما نزل على رسول الله الوحى قال الصحابى : شعرت بركبة رسول الله وكأنها جبل .

وإذا أتاه الوحى وهو على دابة كانت الدابة تئط . أى : تنخ من ثقل الوحى [٢]، وقد قال تعالى : ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا (٥)﴾ [المزمل]

إذن كان النبى ﷺ يتعب بعد هذا اللقاء ، ويشقُّ عليه حتى يذهب إلى السيدة خديجة رضى الله عنها يقول : زملونى زملونى . أو : دثرونى دثرونى. كأن به حُمَّى مما لاقى من لقاء الملَك ومباشرة الوحى أولاً .

ولأن الوحى كان قولاً ثقيلاً يشقُّ على رسول الله كان الوحى يفتر عن رسوله ليرتاح من تعبه ومشقته ، فإذا ما ارتاح وذهب عنه التعب بقيتْ له حلاوة ما نزل من الوحى فيتشوَّق إليه من جديد .

---

(١) عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : « لقد رأيته ينزل عليه (أى الوحى) فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه يتفصد عرقاً » أخرجه الجوهرى فى مسند الموطأ (٧٤٣). وأورده البغوى فى شرح السنة (٣٧٣٧).

(٢) عن أسماء بنت يزيد قالت : إنى لآخذة بزمام العضباء ناقة رسول الله ﷺ إذ نزلت عليه سورة المائدة كلها وكادت من ثقلها تدق عنق الناقة . أخرجه أحمد فى مسنده (٦/٤٥٥) وابن راهويه فى مسنده (٢٢٩٨).

فقال تعالى: ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (١) وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ (٢) الَّذِى أَنْقَضَ ظَهْرَكَ (٣) ﴾ [الشرح] والوزر هو الحمل الثقيل الذى كان يحمله رسولُ الله فى نزول الوحى عليه .

فالحق سبحانه شاء أنْ يرفع عنه ﷺ هذه المعاناة ، وأنْ يريحه مما أنقض ظهره وأتعبه ، ففترَ الوحى فترةً عن رسول الله حتى استراحتْ أعصابه وهدأتْ طاقته وبقيتْ معه حلاوة ما أوحى إليه هذه الحلاوة التى جعلتْ رسول الله يشتاق للوحى من جديد ، وشوقك إلى الشيء يُنسيك التعب فى سبيله .

فُتور الوحى هذا وانقطاعه فترةً عن رسول الله جعل المشركين يقولون : إن ربَّ محمد قلاه . ففى الجفوة عرفوا أن لمحمد رباً يجفوه، أما حين الخلوة والجَلْوة فقالوا : مفتر وكذاب وشاعر .

فنزلت سورة الضحى ، قال تعالى : ﴿ وَالضُّحَى (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (٣) وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى (٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى (٥) ﴾ [الضحى]

ومعنى ﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى (٤) ﴾ [الضحى] يعنى ستكون عودة الوحى خيراً لك من بدايته ، لأنه جاءك أولاً فوق طاقتك فأجهدك ، أما فى الأخرى فسوف تستدعيه أنت بنفسك وتنتظره على شوق إليه، فطاقتُك هذه المرة مستعدةٌ لاستقباله ، قادرة على تحمُّله دون تعب أو إجهاد .

إذن فالحق سبحانه جعل لرسوله ما يُيسِّر له أمر الاندماج فى المستقبل ، لذلك لما عاوده الوحى لم يتفصَّد جبينه عرقاً ، ولا أُجهد كالمرة الأولى ، لأن طاقة الشوق عنده وطاقة الحب تغلبتا على هذا التعب وهذا الإجهاد .

فقوله تعالى: ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا (٥) ﴾ [المزمل] تعبير عن شدة ما يُوحى إلى النبى ﷺ من جهة أنه يحتاج فى تبليغه وتفهيمه والعمل به إلى مجهود قوى .

ومثله قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَـٰؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا (٢٧) ﴾ [الإنسان] فهو وصْفٌ ليوم القيامة باعتبار ما فيه من الشدائد والأهوال .

وفى قوله تعالى : ﴿ قَوْلًا ثَقِيلًا (٥)﴾ [المزمل] أقوال أخرى ذكرها العلماء ، فهو قول ثقيل فى فروضه وأحكامه ، وهو ثقيل فى الميزان يوم القيامة ، وهو مهيبٌ ليس بالخفيف ، ولا يتعلق بسفاسف الأمور، فهو كلام رصين .

ثم يقول تعالى : ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا (٦)﴾ [المزمل]

ففى الوقت الذى ينام فيه الناس ويخلدون إلى الراحة وتتثاقل رؤوسهم عن العبادة ، تقوم بين يدى ربك مُناجياً متضرِّعاً ، فتتنزل عليك الرحمات والفيوضات ، فمَنْ قام من الناس فى هذا الوقت واقتدى بك فله نصيبٌ من هذه الرحمات ، وحظ من هذه الفيوضات ، ومَنْ تثاقلت رأسه عن القيام فلا حظَّ له .

إذن فى قيام الليل قوة إيمانية وطاقة روحية ، ولما كانت مهمة الرسول فوق مهمة الخَلْق كان حظّه من قيام الليل أزيد من حظِّهم ، فأعباءُ الرسول ﷺ كثيرة ، والعبء الثقيل يحتاج الاتصال بالحق الأحد القيوم ، حتى يستعين بلقاء ربِّه على قضاء مصالحه .

فـ ﴿نَاشِئَةَ اللَّيْلِ (٦)﴾ [المزمل] هى ساعاته ، وكلُّ ساعة منها ناشئة، لأنها تنشأ عن التى قبلها ، فكلُّ صلاة بعد العشاء الآخرة هى ناشئة الليل[١] .

---

(١) أورده مجاهد بن جبر فى تفسيره (٦٧٩/١) عن الحسن قال : « كل صلاة بعد العشاء الآخرة فهى ناشئة الليل » .

وقد تُنسب الناشئة إلى قائم الليل نفسه ، فهو الذى ينشيء عبادته لله الليلية ، وهو ينشئها فى أى ساعة من ساعات الله شاء ، فالله فى بداية السورة أعطى القائم الليل ثلاثة اختيارات فقال تعالى :

﴿يَأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (٢) نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا(٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا (٤)﴾ [المزمل]

فأنت تختار الساعة التى تقوم فيها لقيام الليل بين يدى الله ، فى الساعة التى توافقك ، وتكون أكثر مواطأةً لك ، لذلك قال تعالى : ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا (٦) ﴾ [المزمل] من المواطأة، فساعات الليل أكثر موافقةً ومواطأة لأنْ تصلى وتقترب فيها من الله من ساعات النهار .

فالقلب يكون أفرغَ فى الليل لإدراك وتأمُّل الآيات وتدبُّر معانيها ، وكذلك السمع والبصر يكون أحفظَ للقرآن .

وقد تكون (وطئاً) بمعنى الوطأة كالوطء بالأقدام ، فقيام الليل أشدُّ على البدن وأصعب ، فالليل هو وقت راحة الإنسان فإنْ قضاه فى قيام الليل كان أشدَّ عليه .

﴿وَأَقْوَمُ قِيلًا (٦)﴾ [المزمل] فترتيلُ القرآن وقراءتُه أصوب قراءةً وأصحُّ قولاً من النهار لهدأة الناس وسكون الأصوات ، إنه خير ما تقرأه فى ليلك ، وأصوب ما ينطقه لسانُك بعيداً عن الرياء ، وملاحظة نظر الآخرين .

فأصحُّ القول وأصوبه ما تخرجه فى حال الهدوء والسكون والبُعد عن ملاحظة الناس ، فلا أحد معك وأنت تناجى ربك ولا شيءَ يشغلُك بعكس حالك فى النهار حيث المعاش .

فعبادةُ الليل أشدُّ نشاطاً وأتمُّ إخلاصاً وأكثرُ بركة ، وأبلغُ فى الثواب من عبادة النهار .

هذا عن الليل ، أما عن النهار فقد قال الحق سبحانه : ﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا (٧)﴾ [المزمل] ففى النهار لك فرصة وتوسُّع وفراغٌ لتقضى حوائجك وإقبالاً وإدباراً وذهاباً ومجيئاً .

وأصل السَّبْح الجرى والدوران ، ومنه السابح فى الماء لتقلّبه بيديه.. ورِجْلَيْه ، ولكن السَّبح أيضاً النوم والتسبُّح التمدد ، فمعنى ﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا (٧) ﴾ [المزمل] أى لك فراغٌ طويل لنومك وراحتك ، فاجعل ناشئة الليل لعبادتك .

ومن أهم مهمات رسول الله ﷺ فى نهاره تبليغ رسالته سبحانه وتعليم أمته وجهاد عدوه ، فالحق سبحانه يُعدُّ نبيه ورسوله محمداً ليتلقَّى القول الثقيل ، وينهض بالعبء الجسيم ، قياماً لله فى الليل وفراغاً فى النهار لمشاغله ونشاطه .

فلينقَضِ نهارك فى هذا السَّبح والنشاط ، ولتُخلص لربك فى الليل تقوم له بالصلاة والذكر وترتيل القرآن ترتيلاً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ رَّبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾ ﴾

اذكر ربك الذى شرع لك ثم وفَّقك وأعانك ، والحق سبحانه يقول :

﴿ وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً (٢٠٥) ﴾ [الأعراف]

ويقول : ﴿ اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (٤١) ﴾ [الأحزاب]

وهناك فارق بين : ﴿ وَاذْكُرْ رَبَّكَ (٤١) ﴾ [آل عمران] و ﴿ اذْكُرُوا اللَّهَ (٤١) ﴾ [الأحزاب] فقوله (اذكر الله) يستشعر سامعها التكاليف ، لأن الله هو المعبود ، والمعبود هو المطاع فى الأوامر والنواهى .

أما قوله ﴿ وَاذْكُرْ رَبَّكَ (٤١) ﴾ [آل عمران] فهو تذكير لك بما حباك به

من أفضال ، خلقك وربّاك ، وأعطاك من فيض نعمه ما لا يُعد ولا يُحصى، فاذكر ربك لأنك إنْ لم تعشقه تكليفاً فأنت قد عشقته لأنه مُمدُّك بالنعم، وسبحانه يتفضَّل علينا ويُوالينا جميعاً بالنِّعم .

واذكره على حالين : الأول تضرعاً أى بذلَّة لأنكَ قد تذكر واحداً بكبرياء ، إنما الله الخالق المحسن يجب عليك أنْ تذكره بذلَّة عبودية لمقام الربوبية .

واذكر اسم ربك خيفةً أى خائفاً متضرِّعاً ، لأنك كلما ذللْتَ له يُعزُّك، ولذلك نجد العبودية مكروهةً فى البشر وهى استعباد ، والناس ينفرون ممنْ يستعبدهم لأن عبودية الإنسان لمساويه طغيانٌ كبير وظلم عظيم ، فهى تعطى خير العبد للسيد ، ولكن عبوديتك لله تعطى خير الله لك .

وأنت عندما تكون بين يدى الله تقيم الليل ، فاذكر اسم ربِّك بربوبيته سبحانه لك وقِفْ أمامه خاشعاً خاضعاً متضرعاً ، فأنت ترفع دعاءك للخالق المربِّى .

فاذكر اسم ربِّك بالتوحيد والتعظيم والتقديس والتسبيح والإخلاص. ﴿ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا (٨) ﴾ [المزمل] التبتُّل : الانقطاع عن الدنيا ورفض الدنيا وما فيها والتماس ما عند الله ، فأخلص لله إخلاصاً وتفرَّغ لعبادته ، واقطع نفسك عن الشهوات واللذات .

وأصل التبتل القطع ، ولذلك قيل لمريم العذراء البتول ، فالتبتل الانقطاع عن كل شيء إلا من عبادة الله وطاعته .

وقد يسأل سائل : نظم السياق كان يقتضى أنْ يقول : وتبتَّل إليه تبتُّلاً . ولكن الحق سبحانه قال :﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا (٨) ﴾ [المزمل] فتقدير الكلام : وبتِّل نفسك إليه تبتيلاً .

فكأنه لا يحدث التبتيل إلا إذا حدث التبتُّل . فبتِّل نفسك واجتهد ، فكأنَّ الأمر يحتاج إلى مجاهدة للنفس شديدة تجعلك تنقطع عن ملذات

الدنيا وراحتها لتقف بين يدى الله تذكره وتعبده .

فـ (تبتيلاً) مصدر على غير المصدر وهو واقع موقع التبتُّل ، فمصدر « تفعَّل » (تفعُّل) ، تبتل تبتُّلاً . مثلما نقول : تصرَّف تصرُّفاً وتكرَّم تكرُّماً ، أما التفعيل فمصدر فعَّل ، أى بتَّل تبتيلاً .

وأنت لاتتبتَّل وتنقطع إلى الله إلا إذا كنتَ تعيش معنى أنه سبحانه ربُّ السماوات والأرض ، مالك الملْكِ سبحانه، لذلك يقول الحق سبحانه بعدها :

﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا (٩)﴾ [المزمل]

فالحقُّ سبحانه ربُّ المشرق والمغرب ، وقد جعلنا التقدم العلمى نفهم بعمق معنى هذه الآية ، فكلُّ مكان على الأرض له مشرق وله مغرب ، ثم عرفنا أن الشمس حين تشرق عندى تغرب عند قوم آخرين، وحين تغرب عندى تشرق عند قوم آخرين .

إذن فمع كل مشرق مغرب ، ومع كل مغرب مشرق ، فيكون هناك مشرقان ومغربان ، ثم عرفنا أن الشمس لها مشرق كل يوم ومغرب كل يوم يختلف عن الآخر ، وفى كل ثانية هناك شروق وغروب .

فالحق سبحانه رب المشرق والمغرب ، ربّ ليلك ونهارك ، وهذا يناسب قوله تعالى قبلها : ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا (٦) إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا (٧)﴾ [المزمل]

وكلٌّ من المشرق والمغرب له مهمته التى يقوم بها فى الكون ، فالليل والنهار إنما ينتج عنهما ، وأنت لك مهمة فى ليلك تختلف عن مهمتك فى نهارك ، فكُنْ حيث يريدك الله .

وهذا اعترافٌ بربوبية الله سبحانه ، ثم يأتى قوله : ﴿لَا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ(٩)﴾ [المزمل] المعبِّر عن وحدانية الله، فلا ربّ ولا معبودَ بحقٍّ إلا الله، هو وحده المستحق للربوبية والعبودية والألوهية ، فتبتَّل إليه تبتيلاً ،

وأخلص له وحده التوجه .

وإذا كان الحقُّ سبحانه ربّ المشرق والمغرب الذى بهما معاش الناس ، وإذا كان هو وحده المستحق للعبادة فلا يسعك إلا أنْ تتخذه وكيلاً ، لذلك قال تعالى : ﴿ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا (٩) ﴾ [المزمل]

فـ﴿ تَوَكَّلْ عَلَى اللهِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلًا (٨١) ﴾ [النساء] ، فأنت محدود القدرة محدود الحيلة محدود العدة ، فتوكَّلْ عليه وحده ، واتخذه وكيلاً عنك أى أنه سبحانه يكون وكيلاً عنك ، فلماذا تقلق ؟

أنت وكَّلتَ ربَّ العالمين عنك فدعْكَ من الدنيا وما فيها :﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا (٨) ﴾ [المزمل]

فكفى بالله وكيلاً وهو نِعْم الوكيل سبحانه ، فالله ربُّ الجميع ومربِّى الجميع وراعى الجميع ورزّاق الجميع ﴿فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا (٩)﴾ [المزمل]

وكُنْ متوكلاً عليه وحده ولا تتوكل على غيره ، بل اقصر توكلك على الله وحده ، وأنت عندما تعجز عن فعل شيء بنفسك توكل عنك مَنْ يستطيع، ومَنْ يستطيع غير ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ (٩)﴾ [المزمل]

﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ ﴾

الحق سبحانه يُعدُّ نبيه ورسوله لأمر عظيم ، وهو أمر دعوة قومه للإسلام ، وهو يعلم سبحانه أنهم لا بدَّ سيؤذونه بالقول والفعل ، لذلك أراد سبحانه أنْ يُعدَّه إعداداً ربانياً .

أنْ يكون رسولُه عبداً لله وحده لا يعبد غيره سبحانه يقوم الليل من أجله سبحانه يخلو بربه حينما تنام النفوس وتغمض العيون وتهدأ حركات الناس ، يقوم هو لله يعبده ويناجيه ويرجوه ويخافه .

يذكر اسم ربه ويتبتَّل إليه تبتيلاً يعترف لله وحده بأنه ربُّ المشرق والمغرب ، وأنه لا إله إلا هو ، وإذا كان هذا فيا محمد ويا أمة محمد لا

تتخذوا غير الله وكيلاً .

ولأن الله سبحانه يعلم أن قومه سيرفضون دعوته ورسالته كما رفضتها أمم الأنبياء والمرسلين قبله ، لذلك قال له ﴿وَاصْبِرْ(١٠)﴾ [المزمل]

فاصبر على ما يقولون من التكذيب لك والأذى ، وقد أُمر المسلمون عند قلَّتهم وضعفهم بالصبر والتحمُّل ، ثم أُمروا عند قوتهم بالقتال وصدّ العدوان ، فليس فى الأمر بالقتال نسخ للأمر بالصفح والعفو، بل هو من باب تغيير الحكم لتغيير العلة ، فالحكم يدور مع عِلَّته وجوداً وعدماً .

فاصبر على تكذيبهم إياك ، واصبر على ما يقولونه عنك من أنك ساحر أو شاعر أو مجنون أو كاهن ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَـٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ (٣٣)﴾ [الأنعام]

وإذا كانوا يكذِّبونك فى أنك رسولٌ من عند الله يُوحَى إليه فإن كل قوم جاء فيهم رسولٌ أو نبى كذَّبوه ﴿ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ (١٨٤)﴾ [آل عمران]

جاءتهم الرسل بالبينات والكتاب والآيات الدالة على صدقهم ، ولكنهم رغم هذا لم يؤمنوا ، بل كذَّبوا وأصرُّوا على تكذيبهم وكفرهم.

فاصبر على ما يقولون من الأذى والسَّبِّ والاستهزاء ، ولا تجزع من قولهم ، ولا تمتنع من دعائهم .

وقد قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ (٣٤)﴾ [الأنعام]

فإذا كان الرسل الذين سبقوك قد كُذِّبوا وصبروا على ذلك ، وهم رسل لقومهم أو لأمة خاصة ولزمان خاص ، فماذا عنك يا خاتم الرسل وأنت للناس كافة وللأزمان عامة ؟ إن عليك أنْ تتحمل هذا ،

فالحقُّ سبحانه اختارك لهذه المهمة ، وهو العليم أنك أهلٌ لها .

سيقولون عنك ما لا يُقال من كونك ساحراً أو كاهناً أو مجنوناً أو شاعراً أو كاذباً فلا تلتفت إليهم ولا تعبأ بهم .

﴿وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا (١٠)﴾ [المزمل] فإذا كان الصبر فيه إيلام لك ، فليكُنْ صبرك عليهم صبراً جميلاً ، وليكُنْ هجرك لهم واعتزالك إياهم هَجْراً جميلاً .

ومادة هجر وما يُشتق منها تدلُّ على تَرْك شيء إلى شيء آخر ، والهجر فيه كراهية النفس للشيء المؤدى إلى قطْع الصلة بين رسول الله وبين قومه واعتزالهم ، فالهجْر يعنى أن الإنسان قد عدل من مكان إلى مكان ، أو عدل عن وُدٍّ إلى وُدٍّ آخر ، أو عن خصلة إلى خصلة .

ولكن الحق سبحانه يصف الهجر المطلوب بأنه ﴿هَجْرًا جَمِيلًا (١٠)﴾ [المزمل] أى اعتزلهم اعتزالاً حسناً لا جزع فيه ، رغم أنهم آذوْك بكلِّ أنواع الأذى .

فالاعتزال والهجر الجميل ألاَّ يدع شفقته عليهم ، ولا يدعو عليهم بالهلاك ، ولا يمتنع عن دعائهم إلى ما فيه رُشْدهم وصلاحهم ، ولذلك تروى لنا سيرة رسول الله ﷺ أنه قال فى وقت أذاهم إياه : « اللهم اهْدِ قومى فإنهم لا يعلمون » (١).

ونجد أن النبيﷺ وقد جاء له جبريل قائلاً : « إن الله قد سمع قوْلَ قومك لك ، وما ردُّوا عليك وقد بعث إليك ملكَ الجبال لتأمره بما شِئْتَ فيهم ، فنادانى ملك الجبال فسلم علىَّ . ثم قال: يا محمد إن الله قد سمع قوْل قومك وأنا ملك الجبال ، وقد بعثنى ربّك إليك لتأمرنى

---

(١) لما كسرت رباعية رسول الله وشجّ وجهه يوم أحد شق ذلك على أصحابه وقالوا : لو دعوت عليهم فقال رسول الله : إنى لم أبعث لعّاناً ولكن بعثت داعياً ورحمة « اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون» أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان مرسلاً (١٣٧٥) .

بأمرك مما شئت ؟ إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين[١] فقال رسول الله ﷺ : « بل أرجو أن يُخرج الله من أصلابهم مَنْ يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً » [٢].

وهذا من رحمة رسول الله بقومه بل بالعالمين ، قال تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ (١٠٧)﴾ [الأنبياء]

فهم محتاجون لأدبك الجمِّ ، ولتواضعك الوافر ، ولجمال خُلقك ، ولبسمتك الحانية ، ولنظرتك المواسية ، فتنازل عن هفوات خصومك وليسعها خُلقك ، وليسعها حِلْمك ، ولا تغضب لأى بادرة تبدر منهم .

وقد كان رسول الله يؤلمه ويؤذيه تكذيبُ قومه له ، لأنه كان يريد هدايتهم ونجاتهم ، وكان يكاد يُهلك نفسه ، لذلك قال الحق سبحانه لرسوله : ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ(٨)﴾ [فاطر]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾ ﴾

قوْل الحق سبحانه : ﴿ وَذَرْنِي (١١)﴾ [المزمل] أى : اتركهم لى فأنا الذى أعاقبهم وأنا الذى أعلم أجل الإمهال وأجل العقوبة . وهو فعل أمر مثاله قوله تعالى : ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ(٣)﴾ [الحجر]

فهو أمر بأنْه يدعهم ويتركهم ، ويستعمل من مادة هذا الفعل فعل مضارع هو « يذر » ، وقد قال الحق سبحانه : ﴿ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ (١٢٧)﴾ [الأعراف]

---

(١) الأخشبين : الأخشب من الجبال : الخشن الغليظ . (تهذيب اللغة للأزهرى) وقال ابن الأثير فى (النهاية فى غريب الحديث) مادة خشب : الأخشبان الجبلان المطيفان بمكة وهما أبو قبيس والأحمر وهو جبل مشرف وجهه على قيقعان .

(٢) أخرجه الفاكهى فى أخبار مكة (٢٦٢٤) وابن خزيمة فى التوحيد (١/١١٠) وأبو عوانة فى المستخرج (٦٩٠٢) ، والطبرانى فى المعجم الأوسط (٨٩٠٢) عن عائشة رضى الله عنها .

ويشارك فى هذا الفعل فعلٌ آخر هو (دع) بمعنى اترك . وقيل : أهملت العربُ ماضي (يدع) و (يذر) إلا فى قراءة فى قول الحق سبحانه : ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (٣)﴾ [الضحى]

﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ (١١)﴾ [المزمل] فدعني ومَنْ كذَّبك لا تهتم به فإنِّى أكفيك أولى النعمة أى أصحاب النعم والترفُّه ، وهؤلاء غالباً ما يكونون عقبة فى طريق الدعوة والرسالة وتطبيق شرع الله، فأصحاب العيش المترف لا يحبون منهج الله لأنه يقيد حركاتهم وتصرفاتهم الفاسدة ، لذلك يحاربون الدعاة إلى الله وإلى الالتزام بمنهج الله .

فأهل الخِصْب ورغد العيش ورفاهيته هم الذين اشتغلوا بالتكذيب ، وهم الذين كانوا يصدُّون الناس عن سبيل الله ، وقد قال تعالى :

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا (١٢٣)﴾ [الأنعام]

فالإجرام يجعل الإنسان يريد كلَّ شيء لنفسه ، لذلك تجد المجرمين وخاصة أكابرهم يسعوْنَ دائماً إلى التسلُّط وارتكاب الرذائل ، لذلك تجدهم يريدون من كل المجتمع أن تنتشر فيه مثل هذه الرذائل لأنه لا يستطيع أنْ يعيش إلا فى جو الفساد والرشوة والإجرام .

ويقول الحق سبحانه أيضاً : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (٣٤)﴾ [سبأ]

فأولو النَّعْمة هم أصحاب المال والغِنى ، والنعمة التنعُّم والترفُّه ، والنَّعمة بالفتح : التنعم . والنِّعمة بالكسر : الإنعام ، والنُّعمة بالضم: المسرة .

وقد اختلفوا فيمَنْ عُنى بـ (أُولى النعمة) على ثلاثة أقوال : أحدها أنهم المُطعمون ببدر . والثانى : أنهم بنو المغيرة بن عبد الله . والثالث: أنهم المستهزئون وهم صناديد قريش .

فأولو النعمة المكذِّبون للرسل هم أهل المعصية المترفون من كل

صنف من أصناف الفساد البشرى .

والحق سبحانه يهددهم ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ .. (١١)﴾ [المزمل] فهو تهديد مزلزل مفزع لهؤلاء السادة المتنعمين من مشركى القوم، فإنهم هم الرءوس العفنة التى تقود تلك الحملة الضالة التى تؤذى النبى وتقف لدعوته بالمرصاد .

﴿وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا (١١)﴾ [المزمل] والإمهال لا يعنى الإهمال والترك ، بل يعنى أن الله تعالى يُملى للكافر ويُمهله لأجَل ، فإذا جاء أَجَل العقاب أخذه ، وقد قال تعالى : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ (٤٨)﴾ [الحج]

فأمليتُ لهم أى أمهلتهم ، ثم يحدث الأخْذ ، وأخْذ الشيء يتناسب مع قوة الأخْذ وقدرته وعنف الانتقام بحسب المنتقم ، فإذا كان الآخذ هو الله عز وجل فكيف سيكون أخْذه ؟

وكلمة الأخْذ فيها معنى الشدة والعنف والقهر .

والحق سبحانه يقول : ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (١٨٢) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (١٨٣)﴾ [الأعراف]

والإملاء هو الإمهال أى أنه لا يأخذهم مرة واحدة ، فساعة يقوم الفاسد بالكثير من الشر فى المجتمع فإن الله يمهله حتى يزداد إثماً وظلماً حتى إذا أراد الله أنْ يأخذه أخذه أخْذ عزيز مقتدر .

والحق سبحانه قال : ﴿وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا (١١)﴾ [المزمل] قوله (قليلاً) هنا البعض قال : إن الأجل هنا إلى يوم بدر ، فلم يمكثوا كثيراً بعد هذا التهديد لهم حتى قُتلوا ببدر ، فالمراد من القليل تلك المدة القليلة الباقية إلى يوم بدر ، فإن الله أهلكهم فى ذلك اليوم .

ولكن فى الآية قوْلٌ آخر أن أجلهم هو عمر الدنيا كلها ، وهو مهما طال فهو قليل ، فإنْ هى إلا يوم أو بعض يوم فى حساب الله ، وفى

حسابهم هم أنفسهم حين تطوى ، بل إنهم ليحسّونها فى يوم القيامة ساعة من نهار فهى قليل أيًّا كان الأمد .

ولهذا التأويل وجاهته أيضاً ، فإن الحق سبحانه قال بعدها :

﴿ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ ﴾

إذا كنا أمهلنا هؤلاء المكذبين فى الدنيا إلى أجل قليل أنزلنا بهم بعده عقاباً فى الدنيا كهذا العذاب الذى نزل بهم فى بدر ، فإنه ينتظرهم فى الآخرة عذابٌ أشدّ جزاءَ تكذيبهم رسلنا ورسالاتنا إليهم.

والحق سبحانه يوضح لنا ما أعدَّه من ألوان العذاب لهؤلاء المكذبين الكافرين ، فيقول : ﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا (١٢)﴾ [المزمل] أى عندنا فى الآخرة قيود عظام ثقال لاتنفك أبداً .

فالأنكال عقوبة من ألوان العذاب ، فالسلاسل والقيود فى حدِّ ذاتها عذابٌ نفسى للمقيد بالقيود وإذلال وقهر له ، فيامَنْ كنتَ تكذِّب بآيات الله وتصدّ عن سبيل الله وتحارب دين الله ورسله والمؤمنين بمنهج الله قد تركناك فى الدنيا حراً ، وأعطيناك المهلة والإملاء ، وهاأنت الآن مقيَّد بالقيود والسلاسل ، فهل تقدر على تحرير نفسك وإنجائها ؟

وإذا كان الحق سبحانه قد وصفهم بأنهم أهل تنعُّم وترف ورفاهية فإن الحق سبحانه يذكر لهم ما يضاد هذا التنعُّم والترف ، فهاهم فى القيود والسلاسل يُسحبون نكالاً لهم وعقوبةً وجزاءً .

﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا (١٢)﴾ [المزمل]

والجحيم اسم من أسماء النار وهو ما عَظُم منها ، فالجحيم مأخوذة من الجموح وجمحت النار اضطربت ، وعندما ترى النار متأججة يقال جحمت النار ، أى أصبح لهيبها مضاعفاً بحيث يلتهم كل ما يصل إليها فلا تخمد أبداً .

والحق سبحانه يقول : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَـٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١٠)﴾ [المائدة] وحين نسمع هذا تتزلزل النفوس رهبةً من تلك الصحبة التى نبرأ منها ، فالصحبة تدل على التلازم والارتباط معاً، وألاَّ يترك أحدهما الآخر ، كأنَّ الجحيم لا تتركهم وهم لا يتركون الجحيم.

ومما أعدَّه الله للمكذِّبين الطعام ، كيف يتركهم بدون طعام ، ولكنه طعام ذو غصة ، يقول تعالى : ﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ (١٣)﴾ [المزمل]

والطعام ذو الغصَّة هو طعام غير سائغ فى الحلق لا ينزل ولا يخرج وهو الزقوم والضريع . وهو طعام لا يستطيع ابتلاعه لحقارته ونتنه وخبث رائحته ، فهو طعام كريه لا يُستساغ .

فكأن فى الطعام شوكاً ناشزاً يعلق بالحلق فلا يدخل ولا يخرج .

وقد كان التابعون وتابعو التابعين يفْرقون ويشفقون من مثل هذه الآيات ، فعن خليد بن حسان الهجرى قال : أمسى الحسن صائماً فلما أُتى بإفطاره عرضتْ له هذه الآية ﴿ إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا (١٢) وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا (١٣)﴾ [المزمل] فقلصت يداه عن عشائه ، فقال: ارفعوه.

فرُفع فأصبح صائماً ، فلما أُتى بإفطاره عرضتْ له أيضاً هذه الآية فرُفع الطعام ، فلما كان اليوم الثالث انطلق ابنه إلى ثابت البُنانى ويزيد الضبى ويحيى البكَّاء وناس من أصحابه فقال : أدركوا أبى فإنه لم يذق طعاماً منذ ثلاثة أيام ، كلما قربنا إليه الطعام عرضت له هذه الآية ﴿ إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا (١٢) ﴾ [المزمل] فيتركه ، فأتوه فلم يزالوا به حتى سقوه شربة من سويق[١] .

---

(١) أورده الثعلبى فى تفسيره (١٠/ ٦٤) والواحدى فى تفسيره الوسيط (٤/ ٣٧٦) والزمخشرى فى تفسير الكشاف (٤/ ٦٤١) وكذا المراغى فى تفسيره (٢٩/ ١١٧) .

وقد ذكر لنا الحق سبحانه ثلاثة أنواع من الطعام الذى أعدَّه لأهل النار مما لا يُستساغ : الزقوم ، الضريع، الغسلين .

أما الزقوم فهى شجرة فى أصل الجحيم ، قال عنها الحق سبحانه: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ (٦٢) إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ (٦٣) إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ (٦٤) طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ (٦٥)﴾ [الصافات]

ويقول فى آية أخرى : ﴿ إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ (٤٣) طَعَامُ الْأَثِيمِ (٤٤) كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ (٤٥) كَغَلْيِ الْحَمِيمِ (٤٦)﴾ [الدخان]

فطعام الزقوم سيأكله الكافر ويتعذّب به ، إنها أداة من أدوات العقاب ووسيلة من وسائل التعذيب لأعداء الله ، ولا يأكل منها إلا الأثيم والأثيم ملعون .

أما الضريع فقد قال عنه الحق سبحانه :﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ (٦)﴾ [الغاشية] والضريع نبْتٌ ذو شوك لاطيءِ بالأرض ، تسميه قريش الشِّبْرق ، فإذا هاج سموه الضريع ، وهو أخبث طعام وأبشعه .

وقال ابن عباس عنه : الضريع شيء فى النار يشبه الشوك ، أمرّ من الصبر ، وأنتن من الجيفة ، وأشد حراً من النار [١].

وهو يُسمَّى طعاماً ولكنه لا يحقق الهدف منه ، لذلك قال تعالى: ﴿ لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ (٧)﴾ [الغاشية]

لا يستسيغه الطاعم لذلك، فيبقى الطاعم جائعاً أبداً ، فليس أمامه إلا الزقوم والضريع .

أما الغسلين فقد قال تعالى : ﴿ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ (٣٥) وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ (٣٦)﴾ [الحاقة]

والغسلين هو صديد أهل النار ، مأخوذ من الغسل ، كأنه غُسَالة

---

(١) أورده الخازن فى تفسيره (٤/٤٢٠) وكذا الثعلبى فى تفسيره (١٠/١٨٨) ، والواحدى فى تفسيره (١٣٣٧) عن ابن عباس ، وسراج الدين الدمشقى فى كتابه [اللباب فى علوم الكتاب] (٢٠/٢٩٤).

جروحهم وقروحهم ، وقيل : هو شجر يأكله أهل النار لا يأكله إلا الخاطئون ، وقد قال ابن عباس عنه : لو أن قطرة من غسلين وقعت على الأرض أفسدت على الناس معايشهم [(١)].

ثم يقول تعالى : ﴿ وَعَذَابًا أَلِيمًا (١٣)﴾ [المزمل]، أعدَّ الله أنكالاً وجحيماً، وطعاماً ذا غُصَّة ، ثم جمع الله عليهم رابع الكوارث على المكذِّبين الكافرين وهو العذاب الأليم .

وكأنَّ ما سبق ليس عذاباً أليماً ، قيود وأغلال ونار محرقة مشتعلة وطعام ليس بطعام ، بل هو عذاب حتى فى الاقتراب منه ، لا يمر من الحَلْق أصلاً .

فهو عذاب أليم لن يُطاق ، فالله سيعذِّب المكذبين عذاباً أليماً وعظيماً ومهيناً ، ولكلٍّ وصف مراده فى النص حتى يستوعب كلّ حالات الإهانة من إيلام .

فهناك عذاب أليم وعذاب عظيم وعذاب مهين ، وكلها صفات للعذاب، فالعذاب هو الإيلام ، ولكن هناك مَنْ يفزعه الألم فيصرخ، وهناك مَنْ يحاول أنْ يتجلّد ويتحمل لأن كبرياءه يمنعه أنْ يصرخ ، وفى هذه الحالة يكون عذابه مهيناً لأنه بكبريائه تحمَّل الألم ، فيُهان فى كبريائه ، وبذلك يكون عذابه مهيناً .

و (أليم) فعيل بمعنى مؤلم ، وعندما تسمع صيغة (فعيل) فنحن نأخذها بمعنى فاعل أو مفعول ، لذلك نفهم (أليم) على أنه مؤلم مُوجع .

﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا (١٤) ﴾

﴿ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ .. (١٤)﴾ [المزمل] : تتزلزل وتهتز وتضطرب

---

(١) أخرجه عبد الله بن وهب (ت ١٩٧ هـ) فى تفسير القرآن من الجامع لابن وهب (٩٩) عن ابن عباس.

وتتزعزع ، مثلها قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ (٦) تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ (٧)﴾ [النازعات]

وذلك يوم القيامة ، لذلك قال تعالى : ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ (١٤)﴾[المزمل] وذلك للنفخة الأولى في الصُّور ، أما الثانية فهى التى قال عنها الحق سبحانه : ﴿تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ (٧)﴾ [النازعات]

ورجف الشيء رجفاً ورجفاناً كما يرجف الشجر إذا أرجفته الريح. فحتى الأرض التى أنتم تعيشون عليها ستتزلزل زلزالاً شديداً ، وقد قال تعالى : ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا(١) وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا (٢)﴾ [الزلزلة]

ويقول تعالى : ﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١)﴾ [الحج] والزلزلة الحركة الشديدة التى تزيل الأشياء عن أماكنها ، واستخدم الحق سبحانه أيضاً لفظة (الرجّ) فقال تعالى : ﴿ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا (٤)﴾ [الواقعة]

والزلزال أو الرجفة أو الرجَّة يوم القيامة ليس زلزالاً كالذى نراه من هزات أرضية تهدم بعض البيوت أو حتى تبتلع بعض القرى ، فهذه مجرد صورة مصغرة لما سيحدث فى الآخرة وتنبهنا إلى الزلزال الكبير فى الآخرة ، حتى لا نغتر بسيادتنا فى الدنيا .

فليس هذا زلزالاً عاماً إنما هو زلزال مخصوص منسوب إلى الأرض بوحى من الله ، وبأمر منه سبحانه أنْ تتزلزل ، لذلك وُصف زلزال يوم القيامة بأنه شيء عظيم : ﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١)﴾ [الحج]

رجفة عظيمة ليست بمقياسك أنت ، بل بمقياس الحق سبحانه ، ولك أنْ تتصور فظاعة زلزال وصفه الله سبحانه بأنه عظيم .

والأرض تتزلزل وترجف بما عليها من جبال رغم أن الجبال خلقها الله رواسى للأرض لكى لا تضطرب ولا تختل .

يقول تعالى : ﴿ وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ .. (١٥)﴾ [النحل] أى حتى لا تضطرب بكم الأرض ، ولو كانت الأرض مخلوقة على هيئة الثبات لما احتجنا إلى الجبال الرواسى كى تثبتها ، ولكن الأرض مخلوقة متحركة وهى عُرْضة للاضطراب ، ولولا الجبال الرواسى لمادت الأرض .

ولكن فى يوم القيامة الأمر مختلف، فالجبال لن تصبح رواسى للأرض ، ولكن الجبال ستُنسف ، حينها يضطرب نظام الأرض وتتزلزل وتميد وتتحرك ويضطرب كلُّ شىء فيها .

لذلك ذكر الحق سبحانه هنا الجبال مقرونةً بالأرض ، لأن اختفاء الجبال بسبب نسفها سيجعلها غير قائمة بمهمتها .

حينها تكون الجبال ﴿كَثِيبًا مَهِيلًا (١٤) ﴾ [المزمل] أى تصبح الجبال رملاً سائلاً مجرد رمال متحركة ، بعد أنْ كانت الجبال صخوراً صلبة تستعصى على النحت فيها أو التقطيع إلا بوسائل خاصة .

الآن أصبحت مجرد رمال سائلة ، مجرد كثبان رملية مهيلة أى إذا حُرِّك تبع بعضه بعضاً ، فإذا كانت الجبال وهى أثبت وأصلب شىء فى دنيا الناس قد أصبح رملاً مهيلاً متحركاً ، وقد قال تعالى فى آية أخرى أنها ستصبح ﴿ هَبَاءً مَنْثُورًا (٢٣) ﴾ [الفرقان] وتصبح ﴿ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ (٥) ﴾ [القارعة] أى الصوف المندوف.

وهذه مراحل ، فالجبال تُنسف فتصبح رمالاً متحركة وتصبح

كالصوف المندوف ، فإذا هبَّتْ ريح فتصبح هباء منثوراً وكأنها لم تكُنْ .

نقول : فإذا كان هذا حال الجبال فى ذلك اليوم العظيم ، فما حال الإنسان الضعيف وإلى أين يذهب ؟ وماذا يصبح ؟

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ ﴾

الحق سبحانه يخاطب أهل مكة الذين لم يؤمنوا بمحمد ﷺ بل كذَّبوه وآذوه ورفضوا رسالته وراحوا يصدُّون عنه مَنْ يريد أنْ يؤمن به ، فيقول لهم الحق سبحانه : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا (١٥) ﴾ [المزمل]

لقد أرسل الله محمداً رسولاً ليبلغهم بمنهج السماء ، وأرسل معه القرآن كلام الله المعجز ، وهو رسول أمى ، سألوه عن أشياء حدثت فأوحى الله بها إليه بالتفصيل ، جاء القرآن ليتحدى فى أحداث المستقبل وفى أسرار النفس البشرية ، وكان ذلك يكفيهم لو أنهم استخدموا عقولهم ، ولكنهم أرادوا العناد كلما جاءتهم آية كذَّبوا بها وطلبوا آية أخرى .

ويخاطب الحق سبحانه نبيه ورسوله محمداً : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ (١١٩) ﴾ [البقرة]

فقد أرسلناك وبعثناك بالحق ، والحق هو الشىء الثابت الذى لا يتغير ولا يتناقض .

والحق سبحانه إنما يرسل الرسل رحمة بالخَلْق ليبينوا للناس الطريق الصحيح من الطريق المعوج .

والحق سبحانه يقول لهم : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (١٢٨) ﴾ [التوبة]

وهو رسول محبٌّ لكم يشقُّ عليه ويُتعبه ما يشقّ عليكم ويتعبكم ، ولذلك كان رسول الله ﷺ مشغولاً بأمته .

ولكن الحق سبحانه هنا يضيف صفة أخرى لرسول الله ، وهو أنه أرسل محمداً ﷺ : ﴿ شَاهِدًا عَلَيْكُمْ (١٥) ﴾ [المزمل]

والحق سبحانه يقول فى آية أخرى : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٨) لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٩) ﴾ [الفتح]

أى أرسلناك شاهداً على أمتك وعلى مَنْ سبقك من الرسل أنهم قد بلَّغوا الرسالة ، فهو شاهد عليكم بما أخبره الله به فى القرآن . وشاهد عليكم يوم القيامة أنه قد بلَّغكم رسالات الله ، فمنكم مَنْ آمن ومنكم مَنْ كفر .

والحق سبحانه وصف رسوله هنا بأنه ﴿ شَاهِدًا عَلَيْكُمْ (١٥) ﴾[المزمل] ولكنه فى آيات أخرى وصفه بأنه (شهيداً عليكم) ، قال تعالى: ﴿ وَفِي هَـٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ (٧٨) ﴾ [الحج]

فكلٌّ منَّا كأنه مبعوثٌ من الله ، وكما شهد رسول الله عليه أنه أبلغه، كذلك هو يشهد أنه بلَّغ من بعد رسول الله ، لذلك جاءت هذه الآية للأمرين ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس .

فرسول الله شاهدٌ عليهم بكلِّ ما قالوه وفعلوه به وبأصحابه الذين آمنوا به وصدّهم عن سبيل الله ومحاولات قتله وإيذائه .

ورسول الله ليس بِدْعاً من الرسل ، فالحق سبحانه أرسله إليكم ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا (١٥) ﴾ [المزمل] فقد أرسلنا موسى بن عمران عليه السلام رسولاً إلى فرعون مصر .

وقد يسأل سائل : لماذا ذكر هنا فرعون وإرسال موسى له ولم يذكر أقواماً آخرين فى الجزيرة العربية وعلى أطرافها ؟

نقول : فرعون ازدرى موسى عليه السلام باعتبار أن موسى تربَّى فى بيت الفرعون ، فكيف يتبع مَنْ ربَّاه هو ؟ وقد قال الفرعون لموسى:

﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (١٨) ﴾ [الشعراء]

فهنا فرعون يمتنُّ على موسى ويُذكِّره بأنه رباه فى قصره إلى أن كبر ، ولكن موسى عليه السلام لا يجامل فى الحق ، لأن الحق سبحانه وتعالى هو من ربَّاه ، قال تعالى يخاطب موسى :

﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي (٣٩) ﴾ [طه]

أما تربية فرعون فلم يكُنْ لها اعتبار فى ميزان الحق فكان يوبِّخ موسى كيف يقف منه هذا الموقف العدائى بعد ما كان منه .

لذلك رد عليه موسى : ﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (٢٢) ﴾ [الشعراء]

كأنه يقول له : أتمنُّ علىَّ بهذا ، وتذكر هذه الحسنة وهى لا تساوى شيئاً لو قارنتها بما حدث منك من استعباد بنى إسرائيل وتذبيح أبنائهم واستحياء نسائهم وتسخيرهم فى خدمتك .

كذلك كان رسول الله ، رفضه كفار قريش لأنهم نَفَسُوا عليه أنْ ينزل

عليه الوحى وهو واحد منهم وفى القوم مَنْ هو أعظم منه فى نظرهم، لذلك قالوا : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْءَانُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) ﴾ [الزخرف]

يقصدون الوليد بن المغيرة أو عروة بن مسعود الثقفى ، فردَّ الله عليهم : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ (٣٢) ﴾ [الزخرف]

ثم إن محمداً ﷺ أنجاه الله من كيد ومكر الكافرين بهجرته ﷺ من مكة إلى المدينة وقد اجتمعوا ليقتلوه ، ولكن الله أنجاه ، كذلك موسى عليه السلام أنجاه الله من فرعون رغم أنه خرج إليه بجيشه ليلحق به ويدركه ، ولكن الله أنجى موسى بأنْ فرقَ لموسى البحر حتى عبره موسى وقومه ، ثم أطبق البحر على فرعون وجنوده فكان من المغرقين فكانت أشد هزيمة على مَنْ كذَّب وأعرض .

وقد فعل الله بكفار قريش فى غزوة بدر هزيمة قاسية أذلَّتْ صناديد قريش وعظماءها .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَـٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾ ﴾

الحق سبحانه هنا يخوِّف كفار مكة من عاقبة كفرهم وتكذيبهم فى الدنيا ، فأعطى لهم مثلاً مما حدث لفرعون الذى لم يؤمن برسول الله إليه ، وهو موسى عليه السلام ومعه هارون رسولاً أيضاً .

وكلمة فرعون ليست اسماً لشخص ، بل هو تصنيف لوظيفة ، وكان لقب كل حاكم لمصر قديماً هو « فرعون » ، ونحن نعلم من التاريخ أن

الأسر الحاكمة توالت وكانوا فراعنة وكان منهم من يضطهد المؤمنين ولا بد أنْ يكون خليفة كل فرعون اضطهد المؤمنين أنْ يكون أشدَّ ضراوة وأكثر شحنة ضد المؤمنين .

فقد أرسل الله موسى وهارون إلى فرعون وقال لهما : ﴿اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا[1] فِي ذِكْرِي (٤٢) اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (٤٣) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى (٤٤)﴾ [طه]

﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى (٤٧) إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (٤٨)﴾ [طه]

يقول الحق سبحانه :

﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴿١٧﴾﴾

هذا اليوم يجب أنْ نحتاط له حيطة كبرى وأنْ نترقبه لأنه يوم عظيم، والحق سبحانه يقول : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ (٢)﴾ [الحج]

﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ (١٧)﴾ [المزمل] كيف تقون أنفسكم وتحمونها من يوم عظيم مهول كهذا إنْ كفرتم بالله ولم تؤمنوا به وبرسوله وكتابه ، وهو يوم آتٍ لا محالة.

---

(١) تنيا : لاتنيا أى لا تضعفا [مجاهد فى تفسيره ١/٤٦٢] وقال الماتريدى فى تفسيره (٧/٢٨٤) أى لا تضعفا فى تبليغ الرسالة .

فبأىِّ شىء تتحصَّنون من عذاب ذلك اليوم وكيف تنجون منه إنْ كفرتم فى الدنيا ، فمن كفر بالله لا يتقى ذلك اليوم وهو لا يؤمن بذلك اليوم أبداً، فلو كان يؤمن به لاتقى عذابه ولخاف أهواله ، فاجتنب معصية الله .

والحق سبحانه يصف لنا هذا اليوم العظيم الشديد ﴿ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا (١٧) ﴾ [المزمل]

فالشيب لا يوجد فى الدنيا للولدان الصِّغار إنما يوجد للإنسان بسبب كِبَره فى السنِّ غالباً ، ولكن فى هذا اليوم العظيم يرى الوليد ما يشيب له شعره من النار والعذاب والجحيم .

فيجعلهم ذلك اليوم شيوخاً شُمطاً ، وذلك حين يُقال لآدم : أخرج بعث النار . قال : يارب وما بعث النار ؟ قال : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون[1] . فحينئذ تضع الحامل حملها ويشيب الوليد ، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد .

فهذا اليوم العظيم ﴿ يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا (١٧) ﴾ [المزمل] ، وشيباً هنا جمع شائب وشايب أى الرجل أو المرأة التى شاب شعرها فابيضَّ ، فإنما تشيب الولدان من شدة هَوْل وكَرْب هذا اليوم .

فالولدان فى ذلك اليوم يشيبون لا بسبب المشيب ، والمشيب فى الدنيا لا يوجد إلا بعد وجود سببه وهو الكبَر ، وهذا ما ذكره القرآن من قول زكريا عليه السلام : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا (٤) ﴾ [مريم]

---

(١) أخرج البخارى فى صحيحه (٣٣٤٨، ٦٥٣٠) وكذا مسلم فى صحيحه (٣٧٩) من حديث أبى سعيد الخدرى أن رسول الله ﷺ قال : « يقول الله يا آدم فيقول : لبيك وسعديك والخير فى يديك . قال : أخرج بعث النار . قال : وما بعث النار ؟ قال : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين . قال : فذاك حين يشيب الصغير وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد . فاشتد ذلك عليهم قالوا : يا رسول الله أيّنا ذلك الرجل ؟ فقال : أبشروا فإن من يأجوج ومأجوج ألفاً ومنكم رجل ».

فالشِّيب هنا بسبب كِبَر زكريا حتى أن عظمه وَهَن وضَعُف من كِبَر سنِّه، وقد قال الحق سبحانه أيضاً : ﴿ اللهُ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ (٥٤) ﴾ [الروم]

فالشيبة مرحلة من مراحل عمر الإنسان فى حياته الدنيا ، ضعف ثم قوة الشباب ، ثم ضعف الشيخوخة والشيب .

أما فى يوم القيامة فليس كِبَر السنِّ والشيخوخة سبباً لشيب الشعر ، لذلك تجد الولدان يشيبون وهم صغار السن الذين لم يصبحوا شباباً .

﴿ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾ ﴾

فالسماء مع عظمها تنفطر وتتشقق فى هذا اليوم ، فما ظنك بغيرها من الخلائق ، فالحق سبحانه هنا ينبه إلى يوم الهول الأعظم الذى تنشقّ فيه السماء وتتساقط فيه الكواكب فلا أى شىء منها مهمته ، فالله قد سلبها ما كانت به صالحة .

والحق سبحانه يقول : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ (١) ﴾ [الانفطار]

أى تسقط قطعاً صغيرة ، فالسماوات بقوتها وعظمها تتفطر أى تتشقق وتكاد تكون مِزَعاً ، تقرب أنْ تنفطر وتنشق .

وقد قال الحق سبحانه ﴿ مُنْفَطِرٌ بِهِ (١٨) ﴾ [المزمل] فبعض العلماء أن (به) هنا معناها بأمر الله سبحانه ، وَالسماء مُثقلة بذلك اليوم متصدِّعة متشققة .

ونلحظ أن الحق سبحانه لم يقل : السماء منفطرة به . فالسماء مؤنث

ولكن قال : ﴿ السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ (١٨) ﴾ [المزمل] أى ذات انفطار فعبَّر بها كما يعبَّر عن الذكور كما يقال امرأة مرضع . أى : ذات إرضاع .

وقد يكون عبَّر عن السماء بالمذكَّر نظراً للمعنى ، فالسماء معناها السقف كقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا (٣٢) ﴾ [الأنبياء]

والحق سبحانه يقول فى آية أخرى عن تشقُّق السماء : ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلا (٢٥) ﴾ [الفرقان]

ولهذا قال بعض العلماء أن السماء تنفطر وتتشقق بنزول الملائكة من السماء فى هذا اليوم ، فيوم تنشقُّ السماء بالغمام وينزل الغمام من الشقوق ، وقد ذُكر الغمام أيضاً فى قوله تعالى : ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِى ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ (٢١٠) ﴾ [البقرة]

﴿ مُنْفَطِرٌ بِهِ (١٨) ﴾ [المزمل] والانفطار التصدُّع والانشقاق على غير نظام وبغير قصد ، والضمير فى (به) قال المنذر وغيره : هو عائدعلى اليوم . وقال مجاهد : هو عائد على الله تعالى .

﴿ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا (١٨) ﴾ [المزمل] لأن الحق سبحانه وتعالى بقدرته الشاملة وصفات جلاله الكاملة لا يتخلَّف شىء فى وجوده عن أمره ، فإذا وعد بشىء فلا بد أنْ يحدث .

فأمر الله غير أوامر البشر ، فأوامر البشر هى التى تتخلف أحياناً سواء أكانت وعداً أو وعيداً ، لأنك قد تعد إنساناً بخير ولكنك ساعة أداء الخير لا تستطيعه فتكون قدرتك هى التى تحتاج إلى أداء الخير . وقد تُوعد إنساناً وتهدده بشرٍّ وستعمل فيه كذا وكذا غداً ، ولكن قد يأتيك الغد ولاتستطيع إنفاذ وعيدك .

أما الحق سبحانه فإذا وعد بشىء أو أوعد فلا يوجد ما يغير هذا ، فساعة يقول ربنا بوعد أو وعيد فاعرف أن هذا سيحدث فى الوعد ، أما فى الوعيد فإن الله قد يتجاوز عنه كرماً وفضلاً ماعدا الشرك بالله .

﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾ ﴾

وردتْ هذه الآية بهذا النص فى القرآن الكريم مرتين ، هذه التى فى سورة المزمل ، والثانية ستأتى فى سورة الإنسان (آية ٢٩) ، وكلاهما جاءت بعد الكلام عن اليوم العظيم .

فى المزمل قال تعالى فيها : ﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا (١٧) السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا (١٨) ﴾ [المزمل]

أما فى الإنسان فقال تعالى : ﴿ إِنَّ هَـٰؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا (٢٧) نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا (٢٨) ﴾ [الإنسان]

فهذه تذكرة لهم لعلهم يتفكرون فى منطق الحق ويخشون الله ويبعدون أنفسهم عن الوقوع فى الباطل حتى يكونوا فى وقاية من عذاب الله وسخطه.

﴿ إِنَّ هَـٰذِهِ تَذْكِرَةٌ (١٩) ﴾ [المزمل] أى تذكيراً بهول ذلك اليوم العظيم وما فيه.

﴿ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا (١٩) ﴾ [المزمل] فمن شاء أنْ ينجو فى هذا

اليوم فليتخذ إلى ربه سبيلاً بالإيمان والطاعة . والبعض ممَّنْ ينفون القدر ويسمون القدرية يستدلون بهذه الآية على أن المعوّل على مشيئة الإنسان واختياره .

ولكن الحق سبحانه في سورة الإنسان ربط مشيئة الإنسان بمشيئة الله ، فقال بعدها: ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ (٣٠) ﴾ [الإنسان]

فلستم تشاءون إلا بمشيئة الله تعالى فالأمر إلى الله ، ومشيئة الله مستلزمة لفعل العبد فجميع ما يصدر عن العبد بمشيئة الله .

وهذا لا ينفى مشيئة العبد ، فمَنْ شاء اتخذ إلى ماوعد له ربه فى الآخرة سبيلاً فى أنْ يُقبل على طاعته ويشغل نفسه بعبادته .

حينها سيجد رحمة الله وثوابه ، أما إن لم يشأ هذا ولم يسْعَ إليه ولم يؤمن ولم يُطع فسيجد عقابه أمامه .

فهذه الآيات مشتملة على أنواع الهداية والإرشاد ، فمَنْ شاء أنْ يؤمن ويتخذ بذلك إلى ربه سبيلاً أى طريقاً إلى رضاه ورحمته فليرغب .

والسبيل الطريق الموصّل للغاية .

والحق سبحانه يقول : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٤٦) ﴾

[الأعراف]

سبيل الرشد يضغط على شهوات النفس وهواها ، فينهى عن السيئات وهم لا يقدرون على كَبْح جماح شهواتهم لأنها تمكنت منهم ، ولكن سبيل الغى يطلق العنان لشهوات النفس ، ولا يكون كذلك إذا غفل عن معطيات

الإيمان الذى يحرمه من شىء ليعطيه أشياء أثمن .

ثم يُنهى الحق سبحانه سورة المزمل بقوله :

﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿٢٠﴾ ﴾

فالحق سبحانه يخاطب نبيه ﷺ فى الخلوة الليلية معه ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى (٢٠) ﴾ [المزمل]

والمرضى غير قادرين على العمل ، فعلى القادر إذن أنْ يعمل ليسُدَّ حاجته وحاجة غير القادر : ﴿ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ (٢٠) ﴾ [المزمل]

فقانون الإصلاح الذى جعله الله لحياة البشر يقوم على دعامتين : الضرب فى الأرض والسَّعى فى مناكبها وفيه مقومات الحياة ثم نقاتل

فى سبيل الله لبقاء الدعوة والمنهج فالأولى للقالب وبها نأكل ونشرب ونعيش، والأخرى للقيم .

فإنْ قعدت الأمة أو تكاسلت عن أىٍّ من هاتين الدعامتين ضاعت وهلكت وصارت مطمعاً لأعدائها ، لذلك تجد الآن الأمم المتخلفة فقيرة تعيش على صدقات الأمم الغنية لأنها كفرت بأنعم الله وسترتها ، ولم تعمل على استنباطها قعدت عن الاستعمار أى عمران الأرض واستصلاحها .

وقد كان النبى ﷺ والمؤمنون يقومون فى أول الإسلام من الليل نصفه وثلثه ، وهذا قبل أنْ تفرض الصلوات الخمس ، فقاموا سنة فشقَّ ذلك عليهم فنزلت الرخصة بعد ذلك عند السنة .

ففى أول سورة المزمل قال تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (٢) نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا (٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا (٤) ﴾ [المزمل]

فكان الأمر شاقاً عليهم ووجدوا حرجاً فى الاستمرار ، لذلك نزل قوله تعالى بالرخصة لهم فى آخر سورة المزمل : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ (٢٠) ﴾ [المزمل]

وقد علم الله أنكم لن تُحصوه ولن تستطيعوه ولن تداوموا عليه ﴿ فَتَابَ عَلَيْكُمْ (٢٠) ﴾ [المزمل] يعنى فتجاوز عنكم وخفف عنكم فقال : ﴿ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ (٢٠) ﴾ [المزمل]

فلم يفرض وقتاً من الليل ولا مقداراً منه ، بل جعله على السَّعة وحسب الاستطاعة ، وكان بين أول سورة المزمل وآخرها سنة حتى فُرضت الصلوات الخمس والزكاة .

فذلك قوله تعالى : ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ (٢٠) ﴾ [المزمل]

وأسلوب القرآن أسلوب معجز ، فقد استخدم الحق سبحانه كلمة ﴿ أَدْنَى (٢٠) ﴾[المزمل] وهى تشمل ثلاث حالات فأجملها أى أدنى من ثلثى الليل ، وأدنى من نصفه ، وأدنى من ثلثه . وأدنى أى أقرب من الثلث أو النصف أو الثلثين على حسب حال كل قائم لليل وقارىء للقرآن فيه .

والحق سبحانه يقول: ﴿ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٢٠) ﴾[المزمل] فالله هو العالم بمقادير الليل والنهار وأجزائهما وساعاتهما لا يفوته علم ما يفعلون ، فيعلم القدر الذى يقومون من الليل والذى ينامون منه .

ومقدِّر الليل والنهار ومُدبِّرهما واحد هو الحق سبحانه ، ولا يقدر على تقدير الليل والنهار ومعرفة مقادير ساعاتهما إلا الله وحده ، لذلك نجد النظم القرآنى يقدم لفظ الجلالة فيقول : ﴿ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ (٢٠) ﴾[المزمل] دلالة على انحصار تقدير الليل والنهار فى يد الله .

﴿ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ (٢٠) ﴾[المزمل] فالله تعالى علم أنكم لن تطيقوه ، أى : لن تُطيقوا قيام الليل نصفه أو ثلثه أو ثلثيه . وقد كان الرجل يصلى الليل كله مخافة أنْ لا يصيب ما أمر الله به من القيام .

والإحصاء إطاقة الشىء والقيام والتزامه ، ومثلها قوله ﷺ : « خلتان لا يحصيهما رجل مسلم إلا أدخلتاه الجنة وهما يسير ، ومن يعمل بهما قليل ، يسبِّح الله فِى دبر كل صلاة عشراً ويحمده عشراً ويكبِّره عشراً » .

وفى حديث أسماء الله الحسنى قال رسول الله ﷺ : « إن لله تسعة وتسعين اسماً مائة إلا واحداً من أحصاها دخل الجنة » .

والإحصاء فى اللغة على وجهين : أحدهما بمعنى الإحاطة بعلم عدد

الشيء وقدره . ومنه قوله تعالى : ﴿ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا (٢٨) ﴾ [الجن]. والثانى بمعنى الإطاقة له ، كقوله تعالى هنا ﴿ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ (٢٠) ﴾ [المزمل] أى: لن تطيقوه .

﴿ فَتَابَ عَلَيْكُمْ (٢٠) ﴾ [المزمل] فردَّهم إلى الفريضة ووضع عنهم النافلة إلا ما تطوَّعوا به ، وكلمة ﴿ فَتَابَ عَلَيْكُمْ (٢٠) ﴾ هنا لها عدة معانٍ .

فتعنى العفو عنهم ، وهذا يدل على أنه كان فيهم مَنْ ترك بعض ما أُمر به. وتعنى فتاب عليكم من فرض القيام إذ عجزتم ، وأصل التوبة الرجوع.

وهم قد أُمروا بحفظ أوقات قيام الليل على وجه الإحصاء والتحرِّى أى تحرِّى الأوقات ، فخفَّف الله عنهم هذا التحرى والإحصاء لذلك قال: ﴿ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ (٢٠) ﴾ [المزمل]

لن تستطعيوا القيام به على الوجه الذى أُمرتم به .

﴿ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ (٢٠) ﴾ [المزمل] يعنى صلُّوا ما تيسَّر لكم أنْ يكون ، فجعل ذلك إليهم فلتُصلُّوا متى شئتم تطوعاً غير متحرِّين أوقاتاً معينة أو أجزاء من الليل .

فكان ذلك تخفيفاً عنهم ، فإنهم كانوا قد قاموا حَوْلاً حتى ورمتْ أقدامهم وسُوقهم .

﴿ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ (٢٠) ﴾ [المزمل]

ثلاثة أصناف كانوا سبباً فى تخفيف الله : مرضى لا يستطيعون القيام، مسافرون فى الأرض يسعوْنَ على أرزاقهم يبتغون الرزق من فضل الله تعالى ، والأخيرون مجاهدون فى سبيل الله .

فالمريض يضعف عن التهجد بالليل ، فخفَّف الله عز وجل عنه لأجل

ضعفه وعجزه عنه ، فالله يعلم أنْ سيكون منكم أهلُ مرض قد أضعفهم المرض عن قيام الليل .

وآخرون أعجزهم عن قيام الليل خروجهم للتجارة والتنقُّل فى البلاد طلباً للرزق ، وقد يصعب عليهم التهجد لله فى الليل لأن هذا قد يُسبِّب لهم حرجاً فى التحرك نهاراً ، فلا يستطيعون طلب الرزق والمعاش والضرب فى الأرض.

والضرب هو انفعالُ الجارحة على شىء آخر بعنف وقوة ، وهذا معناه أن الحياة كلها حركة وانفعال ، فالله أودع فى الأرض كل أقوات الخَلْق ، فحين يحبون أنْ يُخرجوا خيراتها يقومون بحرثها حتى يهيجوها ويرموا البذور وبعد ذلك الرى . فكلُّ حركة تحتاج إلى شدة ومكافحة .

والحق سبحانه يقول : ﴿ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللهِ (٢٠) ﴾[المزمل] وما دامت المسألة ضرباً فى الأرض فهى تحتاج إلى عزم من الإنسان وإلى قوة .

ولذلك يقال : الأرض تحب مَنْ يهينها بالعزق والحرث ، وكلما اشتدت حركة الإنسان فى الأرض أخرجت له خيراً .

﴿ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ (٢٠) ﴾[المزمل] وهذا هو الصنف الثالث الذى كان سبباً فى نسخ حكم قيام الليل بالأوقات المحددة بالنصف والثلث والثلثين .

لأن فى القتال مقاساة ومعاناة وتربُّصاً وترقُّباً لهجوم العدو ، وقد يكون قيام الليل عبئاً على المقاتلين ومشقةً عليهم فى القتال والمرابطة على ثغور الإسلام .

لذلك يسَّر الله الأمر ، فقال : ﴿ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ (٢٠) ﴾[المزمل] فأقيموا من الليل ما استطعتم .

وجعل الحق سبحانه الأمر فيما فرضه الله من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، فقال تعالى : ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ (٢٠) ﴾ [المزمل] والحق سبحانه قرن بين الصلاة والزكاة فى آيات كثيرة .

وإقامة الصلاة هى الركن الذى لا يسقط أبداً عن الإنسان ، فالتفتوا إلى نداءات ربكم للصلاة ، وعندما يرتفع صوت المؤذن بقوله الله أكبر فهذه دعوة للإقبال على الله .. إقبال فى ساعة معلومة لتقفوا أمامه سبحانه وتعالى وتكونوا فى حضرته يعطيكم الله المدد .

وذِكْر إقامة الصلاة هنا ثم إيتاء الزكاة بعد الضرب فى الأرض والضرب فى سبيل الله ، فى الأولى ابتغوا من فضل الله فعليهم أنْ يحمدوا الله على فضل الله ورزقه لهم ، وأنْ يُخرجوا مما أنعم الله عليهم به زكاة تطهر مالهم وتشيع التكافل والتعاون والإحساس بالفقير بين أبناء المجتمع .

والضرب فى سبيل الله يحتاج أيضاً إلى تجهيز الغازين بالعتاد والسلاح، وكذا يحتاج من المقاتلين اقتراباً من الله بأداء وإقامة الصلاة .

والحق سبحانه يُعقِب الزكاة بالقول ﴿ وَأَقْرِضُوا اللهَ قَرْضًا حَسَنًا (٢٠) ﴾ [المزمل] والقرض شىء غير الزكاة وغير الصدقة ، فلا يتوقف إنفاقك على ما فُرض عليك أو ما تطوعتَ به ، بل أيضاً يطلب منك أنْ تقرض قرضاً حسناً ، والله لا يحتاج منك قرضاً ، والقرض إنما هو للمحتاجين ، وأنت عندما تُقرض إنما تقرض مَنْ تفضَّلْتَ عليه بالنعمة ، ورغم هذا يسألك أنْ تُقرضه هو .

والحق سبحانه يقول : ﴿ مَنْ ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٤٥) ﴾ [البقرة]

والقرض فى اللغة معناه قَضْم الشىء بالناب ، ولذلك الحق سبحانه هو

يُقدِّر الجزاء على قَدْر صعوبة القرض . والقرض شيء تُخرجه من مالك على أمل أنْ تستعيده ، وهو سبحانه يُطمئنك على أنه هو الذى سيقترض منك ، وأنه سيرد ما اقترضه لكن ليس فى صورة ما قدمت إنما فى صورة مستثمرة أضعافاً مضاعفة .

فأصْل مالك محفوظ ومُستثمر ، فهى أضعافٌ كثيرة بمقاييس الله ، لا بمقاييسنا نحن كبشر .

فلا شيءَ يضيع عند الله ﴿ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللهِ (٢٠) ﴾ [المزمل] فليطمئن المؤمن أنَّ حركة حياته مقدرة عند الله ، وسنجد ثواب هذا عند الله ، فكلُّ ما تفعله من منهج الله له أجر ، وليس أجراً بقدر العمل بل أضعاف العمل أضعافاً مضاعفة .

والحق سبحانه يقول فى آية أخرى ﴿ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللهِ بَاقٍ (٩٦) ﴾ [النحل] فما عند الله باقٍ لا نفادَ له ، فخزائنُ الله ملأى لا ينفد ما فيها .

وما عند الله ليس هيِّناً ، بل ﴿ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا (٢٠) ﴾ [المزمل]

ثم يقول تعالى : ﴿ وَاسْتَغْفِرُوا اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٠) ﴾ [المزمل] فالحق سبحانه يعلم أن بنى آدم لا يمكن لهم أنْ يراعوا حقوقه كما يجب أنْ تُراعى، فلا بد أنْ تفلت منهم أشياء ، وهو سبحانه وتعالى يعلم ذلك لأنه خالقهم فأمرهم جلَّتْ حكمته أنْ يستغفروه ليكفّروا عن سيئاتهم .

﴿ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٠) ﴾ [المزمل] والمغفرة والرحمة تقتضيان ذنوباً، والله ﴿ غَفُورٌ (٢٠) ﴾ [المزمل] لما قد بدر وحصل منكم من ذنوب استغفرتم ربكم منها ﴿ رَحِيمٌ (٢٠) ﴾ [المزمل] بكم فلا يعاجلكم بالعقوبة شفقةً عليكم وحباً فى رجوعكم إليه .

فالله غفور رحيم حتى لمن توانى قليلاً ، وذلك حتى يلحق بالركْب

الإيمانى ويتدارك ما فاته ، لأن يغفر ما فات إنْ حاول العبد تداركه .

والله غفور قبل أنْ يوجد مغفورٌ له أو مرحوم ، وصفة المغفرة وصفة الرحمة كلٌّ فى مُطلقها تكون لله وحده ، وهى توبة للجانى ورحمة للمجنى عليه .

والحق سبحانه له طلاقةُ القدرة فى أنْ يغفر وأنْ يرحم ، فإياك أنْ تقول: إن فلاناً لا يستحق المغفرة والرحمة ، لأنه سبحانه مالك السماء والأرض، وهو الذى أعطى للبشر ما يستحقون بالحق الذى أوجبه على نفسه .

سُورَةُ المُدَّثِّرِ

سورة المدثر[١]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (٥) وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ (٦) وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ (٧) ﴾

يخاطب الحق سبحانه رسوله هنا بـ ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ (١) ﴾ [المدثر] وفى السورة قبلها خاطبه بوصف المزمل فقال : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ (١) ﴾ [المزمل]

وقد كان النبى ﷺ يُحدِّث عن فترة الوحى قال: فبينا أنا أمشى يوماً إذ رأيتُ الملَك الذى كان أتانى بحراء على كرسى بين السماء والأرض، فجثيتُ منه رعباً فرجعتُ إلى خديجة ، فقلت : زمّلونى زمّلونى . قالت

---

(١) سورة المدثر : هى السورة رقم (٧٤) فى ترتيب المصحف الشريف ، عدد آياتها (٥٦) آية ، نزلت بمكة بعد سورة المزمل وهى سورة محكمة وما يُدّعى فيها أن آية ﴿ ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (١١) ﴾ [المدثر] منسوخة بآية السيف فهو خطأ فهذا وعيد للوليد بن المغيرة فلا وجه للنسخ . وأيضاً فإن الوليد هلك قبل نزول آية السيف

خديجة : فدثَّرناه [١]. فأنزل الله تعالى عليه : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤) ﴾ [المدثر]

فيأيها المتدثر بثيابه عند نومه ، وأصل (المدثر) المتدثر بثيابه إذا نام ، فأُدغمت التاء فى الدال وشُدِّدت ، والدثار الثوبِ الذى يتدثر به الإنسان فوق الشعار ، أما الشعار فهو الثوب الذى يلى جلد الإنسان .

وهذا على أن التدثُّر هنا على ظاهره ، وأنه متغطٍّ فعلاً بدثاره وغطائه .

ولكن الآية تحتمل تأويلاً آخر ، أنه ليس المراد من المدثر المتدثر بالثياب، بل هو دثار معنوى ، وهو هنا التدثر بدثار النبوة والرسالة ، فيا أيها المتدثر بأثواب العلم العظيم والخُلق الكريم والرحمة الكاملة ﴿ قُمْ فَأَنذِرْ (٢) ﴾ [المدثر] قم من مضجعك وانفض دثارك وغطاءك عنك. قُمْ لما أرسلك الله لأجله ، قم قيام عزم وتصميم .

والقيام فى لغة العرب إما أنه قيام جِدٍّ وعزم أو قيام انتصاب فأنذر الناس وأهل مكة عذاب ربك ووقائعه فى الأمم وشدة نقمته إذا انتقم، فحذِّر الناس من العذاب إنْ لم يؤمنوا ، ومثلها قوله تعالى : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ (٢١٤) ﴾ [الشعراء] فبعد أنْ كان متوجهاً إلى الله تعالى مشتغلاً بعبادته والتحنُّث فى غار حراء ، وهو التعبُّد فى الليالى ذوات العدد .

فكان ﴿ قُمْ فَأَنذِرْ (٢) ﴾ [المدثر] توجيه له ﷺ أنْ يخرج من تحنثه وعبادته للقيام بالمهمة التى كُلِّفَ بها وهى الإنذار وتبليغ الرسالة .

﴿ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) ﴾ [المدثر] عظِّم ربك عمَّا يقوله عبدة الأوثان، ولا يعظم كفار مكة وجبروتهم وطغيانهم فى نفسك فالله أكبر، حينها قام رسول الله

---

(١) أخرجه عبد الرزاق فى تفسيره (٣٣٧٧) وكذا الطبرى فى تفسيره (٨/٢٣) من طريق الزهرى أيضاً .

من مضجعه فقال : الله أكبر كبيراً فكبّرت خديجة وخرجت وعلمتْ أنه قد أُوحى إليه[١] .

وليس المقصود طبعاً مجرد التكبير باللسان إنما المراد تعظيم الله وتنزيهه ، فعظمة الحق سبحانه فى نفس المؤمن أكبر من كل شىء ، وأكبر من كلِّ كبير ، لذلك جُعلتْ (الله أكبر) شعار أذانك وصلاتك فلا بد أنْ تكبِّر الله وتجعله أكبر مما دونه من الأغيار .

فالله أكبر من أى عظيم ، كبِّره تكبيراً بأنْ تقدِّم أوامره ونواهيه على كلِّ أمر وعلى كلِّ نهى ، ولا تنسَ أنك إنْ كبَّرت الحق سبحانه أعززْتَ نفسك بعزة الله التى لا يعطيها إلا لمَنْ يخلص العبودية له سبحانه .

﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ(٤)﴾[المدثر] طهِّر ثيابك من الأدناس والنجاسات والأرجاس، وليس المعنى هنا أن ثياب رسول الله كانت بها دَنَس أو نجاسة ، لا فرسول الله خيار من خيار.

ولكن المقصود أن لا يلبس ثوباً على فخر أو غدر، ولا تطوِّل ثوباً فتقع أطرافها على الأرض فتصيبها النجاسات ، كما كان يفعل صناديد قريش.

فطهِّر نفسك ، وطهِّر عملك بالإخلاص ، وطهِّر ظنك بحُسْن الظن ، وطهِّر قلبك من الغِلّ والحسد .

فالمقصود تطهير النفس والثياب والجسم . ورسول الله مُقدم على الدعوة إلى رسالة التوحيد ، وهذا يقتضى طهارة القلب من الشرك ، وطهارة النفس من الخبث ، وكانت العرب تقول على الرجل الوفى فى تعاملاته : طاهر

---

(١) أورده مقاتل بن سليمان فى تفسيره (٤/٤٩٠) والرازى فى مفاتيح الغيب (٣٠/٦٩٧) والقرطبى (١٩/٦٢) وأبو السعود فى تفسيره (إرشاد العقول) (٩/٥٤) وابن عجيبة فى تفسيره البحر المديد (٧/١٧٢).

الثياب . ونحن نقول هكذا عمَّنْ اتصف بالعفة مثلاً نقول : ثوبه طاهر . أى لم يتدنَّس بدنس .

ثم يقول تعالى ﴿ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (٥) ﴾ [المدثر] أى اهجر الرجز . أى اهجر المآثم والمعاصى والذنوب لتسلم من الرِّجز أى من العذاب . يقول تعالى : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا[1] مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ (١٦٢) ﴾ [الأعراف]

فاهجر الأوثان والأصنام ، والخطاب وإنْ كان لرسول الله إلا أنه خطاب لكلِّ مَنْ آمن بالإسلام أنْ يجتنبوا الأوثان والأصنام. ومثله قول إبراهيم عليه السلام : ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ (٤٨) ﴾[مريم]

والاعتزال تَرْك صحبة إلى خير منها ولو فى اعتقاده ، إبراهيم عليه السلام لم يعتزلهم لا لطلب الرزق وسعة العيش بل الاعتزال من أجل الله وفى سبيل مبدأ إيمانى يدعو إليه .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ (٦) ﴾[المدثر] أى لاتُعْطِ وتطلب أكثر مما أعطيتَ ، فلا تُعط شيئاً لتُثاب أفضلَ منه ، فلا تُعطِ مالك رجاء فضل من الثواب فى الدنيا بل ابتغ ثواب الآخرة .

فلا تُعْطِ بغرض الاستكثار ، فافعل الطاعة أو أعط لوجه الله لا لوجه الدنيا ، ولا لتستزيد ، وهذا غير قوله تعالى لسليمان عليه السلام: ﴿ هَـٰذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٩) ﴾ [ص]

فاعط مَنْ شئتَ أو أمسك ، وليس عليك حساب لم أعطيت ولم منعتَ وأمسكتَ. فهناك يتحدث عن المنِّ والعطاء بغرض الاستكثار وفى آية سورة (ص) يُحدِّثنا عن العطاء الواسع ، فالله أعطى سليمان مُلْكاً لم يُؤته لأحد .

وأنت فى قيامك لتنذر وفى هجرك لأوثانهم وأصنامهم وتركك

---

(١) رجزاً : العذاب وقيل الطاعون . قال ابن عباس : كل شىء فى كتاب الله من (الرجز) يعنى به العذاب . قاله الطبرى فى تفسيره (٢/١١٨) . وأخرجه ابن أبى حاتم فى تفسيره (٥٩٢)

لعبادتهم لآلهتهم ستجد منهم عنتاً وإعراضاً وإيذاء واستهزاء ومحاولاتٍ كثيرة للتعريض بك .

لذلك يُوصيك ربك فيقول : ﴿ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ (٧) ﴾ [المدثر] فاصبر على طاعته وأوامره ونواهيه لأجل ثواب الله تعالى ، واصبر على ما أُوذيتَ فيه فلقد حُمِّلتَ أمراً عظيماً فاصبر على محاربة الناس لدعوة الله .

فاصبر على ما تُؤذَى ولا تُجازهم بصنيعهم ، فإن الله تعالى سيكفيكهم، وهذا معناه أن رسول الله مُقدِم على أحداث جسام وعلى إيذاء وتكذيب من قومه.

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ (٨) فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ (٩) عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ (١٠) ﴾

الناقور الصُّور وهو القرن الذى ينفخ فيه إسرافيل ، وهما نفختان ، والمقصود هنا النفخة الثانية .

وقد قال رسول الله ﷺ: « كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وحَنَى جبهته يستمع متى يُؤمر ينفخ فيه » فقال أصحاب رسول الله ﷺ : كيف نقول ؟ فقال تقولون : حسبنا الله ونعم الوكيل على الله توكلنا [١].

و﴿ نُقِرَ (٨) ﴾[المدثر] أى نُفخ فى الصُّور وهو كهيئة البوق . وهى آية تهز الوجدان والقلوب حتى أن زرارة بن أبى أوفى كان يصلى بقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ (٨) ﴾[المدثر] فخرَّ مغشياً عليه[٢] .

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٣٠٠٨ ، ١١٠٣٩ ، ١٩٣٤٥) ، والترمذى فى سننه (٢٤٣١ ، ٣٢٤٣) حسَّنه الترمذى ، وأخرجه كذلك ابن ماجه فى سننه (٤٢٧٣) من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه .

(٢) أورده الترمذى (٤٤٥) وأخرجه أبو بكر الدينورى (ت ٣٣٣هـ) فى المجالسة وجواهر العلم (١/٤٤٨) عن بهز بن حكيم وتمامه : (فحملناه ميتاً رحمه الله) .

والله تعالى يُعرِّف الناس أمورَ الآخرة بأمثال ما شوهد فى الدنيا وقد كان عادة الناس النفخ فى البوق عند الأسفار وفى العساكر .

والنفخ فى البوق فيه رهبة وخوف وفزع كأنه يقول للموتى قوموا فقد حانتْ ساعة القيام من الموت والحشر من أجل الحساب .

وقد قال تعالى فى آية أخرى : ﴿ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (٧٣) ﴾[الأنعام] فالنفخ فى الصور تفيد الإيذان بمقدم أمرٍ ما ، فبعد النفخة الأولى يموت مَنْ كان حياً ، وبعد النفخة الثانية يصحو الموتى ويقومون .

﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ (٦٨)﴾ [الزمر]

والنفخ فى الصُّور دعوة عظيمة مهيبة للموتى للخروج من قبورهم، فقال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا (٥٢) ﴾ [الإسراء]

فقوله تعالى :﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ (٥٢) ﴾ [الإسراء] أى يقول لكم اخرجوا من القبور للبعث بالنفخة الثانية فى الصُّور ﴿ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ (٥٢) ﴾[الإسراء] أى تقومون فى طاعة واستكانة لا قومة مستنكفٍ أو متقاعسٍ أو متغطرس فكلّ هذا انتهى وقته فى الدنيا ونحن الآن فى الآخرة .

ثم يقول الحق سبحانه ﴿ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ (٩)﴾[المدثر] فيوم النفخة وهو يوم القيامة يوم عسير شديد ، فهو يوم شاقٌّ وليس معنى وصفه لهذا اليوم بأنه عسير أن هذا على إطلاقه ، بل هو عسير على فريق ، يسير على غيرهم .

لذلك قال تعالى بعدها : ﴿ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ (١٠) ﴾[المدثر] وإنما يقع العذاب على الكفرة ويحقّ عليهم ، فلذلك سماه عسيراً ، وهو إذا كان عسيراً

على فريق فهو يسير على غيرهم .

وقد يكون عسيراً على الخلائق أجمع ، بعض هول ذلك اليوم يشمل الفرق كلها ، كما قال تعالى : ﴿ وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ (٢) ﴾ [الحج]

فالناس هنا تشمل الجميع ، ثم إن المؤمنين تفرج عنهم الأهوال بما يأتيهم من البشارات والكرامات عن الله تعالى ويبقى عُسْره على أصحاب النار .

ويُقال (عَسُر) الأمر إذا صَعُب فهو عسير . و (عَسِر) فهو عَسِرٌ فإذا نُفخ فى الصُّور ، فذلك يوم شديد صعب غير سهل على الكافرين .

فهذا اليوم على الكافرين ﴿ غَيْرُ يَسِيرٍ (١٠) ﴾[المدثر] أى غير هيِّن . ويهون ذلك على المؤمن كأدنى صلاته فهو على المؤمنين هيِّن .

ورسول الله ﷺ يقول : « إنه ليهوّن يوم القيامة على المؤمن حتى يكون أخفّ عليه من صلاة مكتوبة صلاَّها فى دار الدنيا » [(١)].

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (١١) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا (١٢) وَبَنِينَ شُهُودًا (١٣) وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا (١٤) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (١٥) ﴾

فذرنى ومَنْ خلقتُه فى بطن أمه وحيداً فريداً لامالَ له ، ولا ولد ، فذرنى وإيَّاه فأنا أكفيكه ، وقد نزلتْ هذه الآية فى الوليد بن المغيرة[(٢)] وكان

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (١١٧١٧) وابن حبان فى صحيحه (٧٣٣٤) وأبو يعلى الموصلى في مسنده (١٣٩٠) والبغوى فى شرح السنة (٤٣١٨) عن أبى سعيد الخدرى، وقد ضعَّفه الألبانى فى المشكاة (٥٥٦٤) .

(٢) الوليد بن المغيرة أحد قادة قريش فى العصر الجاهلى والد خالد بن الوليد كانت قريش تسميه الوحيد أو وحيد مكة وكان أغنى أغنيائهم وكانت قافلة تجارته تقدر بمائة بعير .

يُسمَّى الوحيد فى قومه .

فخلِّ بينى يا محمد وبين مَنْ خلقته وحدى لم يشترك أحد معى فى خَلْقه، فأنا وحدى الخالق خلقتُ كلَّ شىء وحدى . وهذا تهديد مرعب ومفزع ، فكأن الحقَّ سبحانه يقول : (إنى أتولى عذابه يوم القيامة وحدى كما تفردت بخَلْقى إياه وحدى).

وأنا لم أخلقه وأُوجده فى الدنيا وتركته هملاً ، بل تكفلت برزقه ، لذلك يقول الحق سبحانه ﴿ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا (١٢) ﴾ [المدثر]

فكلّ النعم التى هى من عطاء الربوبية لله هى فى الدنيا لخَلْقه جميعاً، فالله ربُّ الجميع مَنْ أطاعه ومَنْ عصاه ، فالله سبحانه خلق كل الخلق مؤمنهم وكافرهم ، وما دام قد خلقهم واستدعاهم إلى الوجود فهو لا يتركهم.

فالحق سبحانه رزق الإنسان وسخَّر الأشياء له ، فهو لم يسخِّر الكونَ للمؤمن فقط ، وإنما سخَّره للمؤمن وللكافر .

ولله عطاءان : عطاء الربوبية فهو المربِّى الذى استدعى إلى الكون المؤمن والكافر ، وسبحانه سخَّر الأسبابَ للكل ، فالشمس تشرق على المؤمن والكافر ، والأسباب قد تعطى المؤمن والكافر ، أما عطاء الألوهية فيتمثل فى (افعل) و (لا تفعل) .

وهذا الذى خلقته رزقتَه مالاً ممدوداً غير منقطع يمدُّ بعضه بعضاً دائماً، وهو ما يُمدُّ بالنماء كالزرع والضرع والتجارة ، وقد كان للوليد ابن المغيرة بستانٌ بالطائف لا تنقطع ثماره شتاءً ولا صيفاً .

وقوله تعالى : ﴿ مَالًا مَّمْدُودًا (١٢) ﴾ [المدثر] مثل قوله تعالى : ﴿ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ (٣٠) ﴾ [الواقعة] أى ظل لا ينقطع . وقد قال رسول الله ﷺ : « إن فى

الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة عام لا يقطعها »[١] . فهو ظِلٌّ دائم لا تنسخه الشمس كما تنسخ ظل أهل الدنيا .

فالله أمده وأنعم عليه بمال ممدود متتابع لا ينقطع مدده والذى لا ينقطع مدده لا يقع تحت الإحصاء ، وهو مال ممتدّ يأتيه المدد وتلحقه الزيادة شيئاً بعد شىء .

والمال هو كلّ ما يتموّل وكل ما يتموّل يعتبر مالاً ، إلا أن المال – ينقسم قسمين : مال يمكن أن تنتفع به مباشرة ، فهناك مَنْ يملك الطعام، وآخر يملك الشراب ، وثالث يملك أثواباً ، وهذا نوع من المال ينتفع به مباشرة .

وهناك نوع آخر من المال وهو النقد ولا ينتفع به مباشرة بل يُنتفع به بإيجاد ما ينتفع به مباشرة ، وهكذا ينقسم المال إلى رزق مباشر ورزق غير مباشر .

ثم إن الحق سبحانه لم يُعطه مالاً فقط ، بل أعطاه البنين أيضاً ، فقال تعالى : ﴿ وَبَنِينَ شُهُودًا (١٣) ﴾ [المدثر]

والمال والبنون قال عنهم الحق سبحانه ﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا (٤٦) ﴾ [الكهف]، فهو أنعم عليه بالمال الممدود وغير المنقطع ، وأنعم عليه بالبنين الشهود ، أى الرجال الذين يشهدون معه المحافل والمجامع ، وقد كانوا عشرة من الرجال .

ومن معنى ﴿ وَبَنِينَ شُهُودًا (١٣) ﴾ [المدثر] أنهم كانوا لا يغيبون أبداً عنه فى تجارة ولا غيرها لكثرة أموالهم بمكة ، فهو لم يَحْتَجْ إلى تفريق أولاده فى الجمع والاكتساب ، بل كان المال يأتيه سمحاً يأتيه بسهولة لا يحتاج إلى مشقة وتكلّف أسباب جمع المال .

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٢٥١ ، ٣٢٥٢ ، ٤٨٨١) ومسلم فى صحيحه (٢٨٢٧) من حديث سهل ابن سعد الساعدى رضى الله عنه .

لذلك متَّعه الله برؤيتهم حوله ، فمتعة الأب برؤية أبنائه حوله لا تعدلها متعة خاصة إذا كانوا رجالاً يكونون عزوة له .

ثم يقول تعالى ﴿ وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا (١٤) ﴾[المدثر] أى بسطت له فى العيش وطول العمر بَسْطاً مع الجاه العريض والرياسة فى قومه .

والتمهيد هو التمكين ، فقد مهَّد الله له سبل العيش الرغيد ، فمكَّنه الله بأنْ أعطاه المال وأعطاه القوة المتمثلة فى أبنائه العشرة ، فمكَّنته من التصرُّف فى الأمور .

فوجود هؤلاء البنين بحضرة أبيهم ، يغدون معه ويروحون ، زينة فى المجالس وعَوْنٌ على تصريف الأمور ، وقد امتنَّ اللهُ على عباده بهذا فقال: ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ (٧٢) ﴾ [النحل]

فالبنون هم الحلقة الأولى لاستبقاء الحياة ، والحفدة وهم ولد الولد هم الحلقة الثانية لاستبقاء الحياة ، ومن هنا جاء حب الكثيرين منا للذكور الذين يمثلون امتداداً للآباء .

ولكنه رغم كلِّ هذا ، رغم المال والثروة الواسعة والبنين الشهود والتمهيد والتمكين والسلطان والجاه فإنه يطمع فيما هو أكثر ، قال تعالى: ﴿ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (١٥) ﴾ [المدثر]

فهو يطمع فى المزيد من المال والولد والتمهيد ، إن الله أعطاه مالاً لم يُعطه لأحد فى قريش ، حتى أنه كان يقول : لو قسمت مالى يميناً وشمالاً على قريش مادمت حياً ما فنى . فكيف تعدنى الفقر يا محمد ؟ فقال ﷺ: أما والله إن الذى أعطاك قادرٌ أنْ يأخذه منك ، فوقع فى قلبه من ذلك شىءٌ، ثم عمد إلى ماله فعدَّه ، ما كان من ذهب وفضة أو حديقة أو رقيق

فعدَّه وأحصاه [١].

ورغم هذا ﴿ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (١٥) ﴾ [المدثر] يطمع أنْ أزيده من المال والولد والجاه والسلطان .

ولكن الله يقطع أمله فى الزيادة ، فيقول سبحانه :

﴿ كَلَّآ إِنَّهُۥ كَانَ لِآيَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ ﴾

﴿ كَلَّا.. (١٦) ﴾ [المدثر] قاطعة حاسمة من الحق سبحانه فيها الهيبة ، قطع اللهُ بها أملَ هذا المكذِّب لآيات الله والمتبطر بنعمته ، فلن ينال ما يرجو ويأمل من زيادة المال والولد فوق ما أعطيته .

وقد أخذ أمره فى النقصان من بعد قوله سبحانه هذا ، فأخذ ماله فى النقصان لا الزيادة ، وذهب سلطانه وجاهه بموت أبنائه وقد أسلم من أولاده الوليد بن المغيرة اثنان : خالد بن الوليد ، وهشام بن الوليد .

فمازال الوليد بن المغيرة بعد نزول هذه الآية فى نقصان من ماله وولده حتى هلك .

والحق سبحانه يعطينا سبب (كلا) القاطعة الحاسمة هذه بأن الوليد ابن المغيرة ﴿ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا (١٦) ﴾ [المدثر] إنه لم يكن مُكذِّباً عادياً لرسول الله ولقرآنه ، ولم يكن مجرد كافر يرفض الإيمان إنما كان ﴿ عَنِيدًا (١٦) ﴾ [المدثر]

فكان عنيداً فى رَفْض جميع دلائل التوحيد والقدرة والبعث والنبوة منكراً للكل ، وقد قال البعض أن كفره كفر عناد ، لا أنه كان لا يؤمن بالبعث حقيقة أو أنه كان لا يؤمن أن القرآن من عند الله فعلاً ، أو أنه تأليف محمد ﷺ فعلاً .

---

(١) أورده مقاتل بن سليمان فى تفسيره (٤/٨٣٨) .

كلمة ﴿ عَنِيدًا (١٦) ﴾ [المدثر] هنا تعطينا دلالة أن كفره كان لمجرد العنْد، وهذا مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَـٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ (٣٣) ﴾ [الأنعام]

إنهم يعرفون أنك يا محمد صادق لا تكذب أبداً ، لقد كانوا يقولون عنه أنه الصادق الأمين ، لقد عرفوا صدق النبى ﷺ وحقيقة رسالته ما فى ذلك ريب ، ولكن لأن لهم أهواء أصرُّوا على الضلال تمسكاً بالسلطة الزمنية ، لذلك نرى سيدنا رسول الله ﷺ يدع علياً ويتركه فى مكة ليؤدى الأمانات التى كانت عنده لهؤلاء جميعاً .

والجحد هو إباء اللسان وترفّعه وعدم رضاه بأنْ ينطق بكلمة الحق ، والله يعلم أزلاً أن بعضهم فى خبايا نفوسهم يوقنون بقيمة الإيمان لكنهم يجحدونها ، ومنهم من علم قيمة الإيمان جحدوها عناداً واستكباراً .

وقد قال الوليد بن المغيرة نفسه عن القرآن : « والله إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وإنه يعلو ولا يُعلى عليه ، وما هو بقول بشر » [(١)].

إذن فهو كان عنيداً معانداً لآياتنا ، والآيات هى الدلائل الدالة على صدقك .

فالحق سبحانه لن يعطيه زيادةً على ما أعطاه ، بل سيؤول أمره إلى نقصان وانتزاع لما أعطاه سابقاً ، فمات أبناؤه ونقص ماله وضاع سلطانه وجاهه .

والأكثر من هذا أن الله توعده فقال ﴿ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا (١٧) ﴾ [المدثر] أى

(١) أورده البيهقى فى الاعتقاد والهداية (١/٢٦٨) مرسلاً عن عكرمة . وأورده الثعلبى فى تفسيره [الكشف والبيان] (٦/٣٨) والبغوى فى تفسيره (١٢٦٤) والمراغى فى تفسيره (١٤/١٣٠).

سأكلفه مشقة من العذاب لا راحة له فيها . وقد وصف رسول الله هذا فقال: « الصَّعُود عقبة فى النار يتصعَّد فيها الكافر سبعين خريفاً ، ثم يهوي فيها سبعين خريفاً فهو كذلك أبداً » (١).

وقد قال أبو سعيد الخدرى : الصعود صخرة فى جهنم إذا وضعوا أيديهم عليها ذابت أيديهم ، وإذا رفعوها عادت ، وإذا وضع رِجْله ذابت ، فإذا رفعها عادت» .

وفى آية أخرى يقول تعالى : ﴿وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا (١٧) ﴾ [الجن] فهم يُكلَّفون الصعود على جبلٍ من نار فلا يقدرون على صعوده إلا بعد شدة عظيمة ، ثم إذا بلغوا أعلاها يهوون فيها فيكون ذلك دأبهم ، فهو عذاب لا راحةَ فيه ولا منه .

ثم يقول تعالى :

﴿ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾
ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ ﴾

﴿ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) ﴾ [المدثر] أى فكَّر فى الأمر الذى يريده ونظر فيه وتدبَّره ورتَّب فى قلبه كلاماً وهيَّأه لذلك .

وذلك أن الله تعالى لما أنزل على نبيه ﷺ : ﴿ حم (١) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٢) ﴾ [غافر] إلى قوله ﴿ الْمَصِيرُ (٣) ﴾ [غافر] قام النبى ﷺ فى المسجد يصلى والوليد بن المغيرة قريب منه يسمع قراءته ، ففطن رسول

(١) أورده الخازن فى تفسيره (٤/٣٦٤) وعزاه للترمذى من حديث أبى سعيد الخدرى .

الله لاستماعه فأعاد قراءة الآية ، فانطلق الوليد حتى أتى مجلس قومه من بنى مخزوم فقال : والله لقد سمعتُ من محمد آنفاً كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن .

والله إن له لحلاوةً ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وإنه يعلو وما يُعلى عليه.

ثم انصرف إلى منزله فقالت قريش : صبأ والله الوليد ولتصبون قريش كلهم . فقام الوليد حتى أتى مجلس قومه فقال لهم : تزعمون أن محمداً مجنون فهل رأيتموه يخنق قط ؟ قالوا : اللهم لا .

قال : تزعمون أنه كاهن فهل رأيتموه قط تكهن ؟ قالوا : اللهم لا . قال: تزعمون أنه شاعر فهل رأيتموه ينطق بشعر قط ؟ قالوا : اللهم لا . قال : تزعمون أنه كذاب فهل جربتم عليه شيئاً من الكذب . قالوا : اللهم لا وكان رسول الله ﷺ يسمى الأمين قبل النبوة لصدقه[1] .

فقالت قريش : فما هو ؟ فتفكَّر فى نفسه . فذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (٢٠) ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢) ﴾ [المدثر]

لقد ثبت كذبهم فى أن محمداً مجنون أو كاهن أو شاعر ، لذلك أخذ الوليد يفكر وقد فكَّر كثيراً ﴿ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩) ﴾ [المدثر] فكر فيما أنزل الله على نبيه من القرآن ، وقدَّر فيما يقول فيه .

﴿ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (٢٠) ﴾[المدثر] أى لُعن لعنةً وطُرد من رحمة الله بسبب ما فكَّر فيه فيما يقول فى محمد وفيما قدَّر .

---

(١) أورده الخازن فى تفسيره (٤/٣٦٤) والثعلبى فى الكشف والبيان (١٠/٧٣) والبغوى فى تفسيره (٢٢٩٣) وابن عجيبة فى البحر المديد (٧/١٧٦) والمراغى فى تفسيره (٢٩/١٣٠) .

﴿ ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢) ﴾[المدثر] قطَّب وجهه وحاجبيه ، فهو أخذ يفكر ويفكر حتى ضاق صدره بالفكر ، فبدا أثر العبوس والبسور فى وجهه .

إنه فى آخر التفكير والتقدير والنظر والعبوس والبسور قال : ﴿ إِنْ هَـٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ (٢٤) ﴾ [المدثر] .

هذا ما انتهى إليه تفكيره ﴿ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (٢٣) ﴾[المدثر] والاستكبار إباء ورفض للإيمان ، وفيه تنصيب لنفسه كبيراً دون أن يملك مقومات الكبر .

فـ ﴿ اسْتَكْبَرَ (٢٣) ﴾[المدثر] حاول أنْ يجعل نفسه فوق قدره ، وكل إنسان منا له قدر محدود .

﴿ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ ﴾

ما توصَّل إليه الوليد بن المغيرة بعد طول تفكير أنْ قال ما هذا القرآن ما هو إلا سحر ، فما يقوله محمد ويقرؤه ما هو إلا سحر ، وهو سحر ﴿ يُؤْثَرُ (٢٤) ﴾[المدثر] أى يؤثره عن غيره أى يرويه عن غيره .

وقد ذكر الحق سبحانه فاء التعقيب فى (فقال) ليعلم أنه لما ولَّى واستكبر ذكر هذه الشبهة أن القرآن سحر ، وأنه يُفرِّق بين الرجل وامرأته، والأب وابنه ، والأخ وأخيه .

وهو ﴿ سِحْرٌ يُؤْثَرُ (٢٤) ﴾[المدثر] أخذه عمَّنْ تقدمه . ويحتمل وجهاً آخر أنه سحر يُؤثر فى الناس لحلاوته ، فكأن القرآن سحر يظهر الباطل فى صورة الحق .

فأطلقوا على رسول الله أنه ساحر ، وجعل لا يَلْقى أحد منهم النبى ﷺ

إلا قالوا : يا ساحر ، يا ساحر ، فاشتد ذلك على رسول الله .

فهؤلاء لم يجدوا حجة يواجهون بها القرآن فقالوا ساحر وهل للمسحور إرادة مع الساحر ؟ وإذا كان رسول الله ساحراً فلماذا لم يسحركم أنتم ؟إنَّ بقاءكم على العناد دليل على أنه لا يملك شيئاً من أمر السحرة ودليل على أن دعواكم كاذبة .

فلو كان ما جاء به محمد هو السحر وأن محمداً ساحر قد سحر العبيد والضعاف وأدخلهم فى الإسلام بسحره ، فلماذا لم يسحركم أنتم أيضاً ؟

ولم يكتفِ الوليد بن المغيرة بوصف القرآن بأنه سحر بل قال أيضاً أنه من قول البشر فقال : ﴿ إِنْ هَـٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ (٢٥) ﴾ [المدثر] ويعنى هنا بالبشر يسار أبا فكيهة[١] وأنه الذى كان يأتى محمداً بالقرآن من مسيلمة الكذاب يلقنه إياه .

وهم ينسون أو يتناسون أنه لو كان من قول البشر لاستطاعوا هم أنْ يأتوا بمثله ، فلماذا لم يفعلوا ؟ لماذا عجزوا ؟ وقد تحداهم الله أنْ يأتوا بمثله ، تحداهم بأن يأتوا بعشر سور ، وحين فشلوا تحداهم بأن يأتوا بسورة فلم يأتوا بشىء فتدرج القرآن معهم فى التحدى .

فطلب أنْ يأتوا بسورة واحدة فلم يستطيعوا فقال تعالى: ﴿ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ (٣٨) ﴾ [يونس] ومرة يقول ﴿ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ (٢٣) ﴾ [البقرة] . وفى مقام آخر طلب أنْ يأتوا بعشر سور مثله ، فى قوله تعالى : ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ (١٣) ﴾ [هود]

حتى أن الله حسم هذا الأمر ، فقال : ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَـٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (٨٨) ﴾ [الإسراء]

---

(١) يسار أبو فكيهة هو أحد الذين اتهموا رسول الله به أنه يعلمه القرآن ، وهو مولى لقريش مولى لعبد الدار ويقال مولى لصفوان بن أمية وأن أصله من الأزد .

فكيف تقولون أن القرآن من قول البشر ؟

ثم يقول الحق سبحانه بعدها :

﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ ﴾

﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (٢٦) ﴾ [المدثر] سأورده باباً من أبواب جهنم اسمه سقر، فهذا وعيد من الله تعالى بأنْ يُصليه سقر ، وهى الدركة الخامسة من دركات النار ، فسقر إما باب من أبواب جهنم ، وإما دركة من دركات جهنم .

فـ ﴿ سَأُصْلِيهِ (٢٦) ﴾ [المدثر] أى سأُدخله سقر ، ومنها قوله تعالى ﴿ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ (١٦٢) إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ (١٦٣) ﴾ [الصافات] ، ويقول تعالى : ﴿ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى (١٤) لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى (١٥) ﴾ [الليل]

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ (٢٧) ﴾ [المدثر] ما أعلمك يا محمد أى شىء هى سقر والمقصود ما أعظم هولها وعظمتها وشدتها .

وإنما سُميت سقر من سقرته الشمس إذا أذابته ولوَّحته وأحرقت جلدة وجهه .

﴿ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ (٢٨) ﴾ [المدثر] فلا تُبقى أحداً من المستحقين للعذاب إلا أخذته ، ولا تذر مَنْ لحوم أولئك شيئاً إلا أكلته وأهلكته ، وهى لا تُبقى مَنْ فيها حياً ، ولا تذر من فيها ميتاً ، كلما احترقوا جُدِّدوا وأُعيدوا .

﴿ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ (٢٩) ﴾ [المدثر] البشر جمع بشرة ، فهذه النار لوَّاحة لأبشار المعذبين مغيِّرة للجلد حتى تجعله أسود ، فهى محرقة للجلد لافحة له بلفح النار فتدعه أشد سواداً من الليل .

﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ (٣٠) ﴾ [المدثر] أى على النار تسعة عشر من الملائكة وهم خزنتها مالك ومعه ثمانية عشر ، وقد رُوى عن ترجمان القرن ابن عباس أن خزنة جهنم مع كل واحد من الأعوان ما لا يُحصى ، وذكر أن ستة منهم يقودون الكفرة إلى النار ، وستة يسوقونهم ، وستة يضربونهم بمقامع من الحديد والنار ، والآخر هو الخازن الأكبر وهو مالك يأمرهم بما أُمر هو به[1] .

وقد وصفهم الحق سبحانه فى آية أخرى ، فقال : ﴿ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٦) ﴾ [التحريم]

فهم فِظاظ على أهل النار شِداد أقوياء يدفع الواحد منهم بالدفعة الواحدة سبعين ألفاً فى النار لم يخلق الله الرحمة فيهم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ (٣١) ﴾

يقول الحق سبحانه : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ (٣١) ﴾ [المدثر] والصاحب هو الذى يألف صاحبه ويحب أنْ يجلس معه ويقضى أجمل أوقاته ، وليس المقصود بأصحاب النار الذين يُعذَّبون بها ، إنما المقصود بهم خزنة

(١) أورده الماتريدى فى تفسيره (١٠/٣١٣) وكذا النسفى فى (مدارك التنزيل ٣/٥٦٥) وابن عجيبة فى (البحر المديد فى تفسير القرآن ٧/١٧٩) .

النار التسعة عشر .

وقد نسب إليهم الحق سبحانه النار وكأنهم هم أصحابها لهم حقّ التصرف فيمَنْ يدخل النار ، فأمرهم كأنه قد انتهى ، حتى أن البعض من أهل النار يناشد مالك خازن النار فيقول : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ (٤٩) ﴾ [غافر]

مَنْ فى النار يُعذَّب فيها يطلب من خزنة جهنم أنْ يدعوا الله ليخفف عنهم يوماً من العذاب ، ولكنهم يقال لهم : ﴿ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (٥٠) ﴾ [غافر]

﴿ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً (٣١) ﴾ [المدثر] فلم نجعل خزنة النار وحراسها رجالاً آدميين بل هم ملائكة ، فهم ليسوا من جنس المعذّبين أى أنهم لن يرأفوا بهم ولن يرحموهم.

﴿ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا (٣١) ﴾ [المدثر]

فما جعلنا عددهم الذى قلناه وهو قليل فى نظركم إلا فتنة أى اختباراً وامتحاناً أو ضلالة لهم حتى قالوا ما قالوا ، فهم قد قالوا : كيف يقدر هذا العدد القليل على تعذيب جميع مَنْ فى النار ؟

حتى أن أبا جهل قال : ما لمحمد من الجنود إلا تسعة عشر ، أما يستطيع كل عشرة منكم أنْ يغلبوا منهم واحداً ، فقد نادى أبو جهل فى قريش هازئاً برسول الله : يا معشر قريش يزعم محمد أن جنود الله الذين يُعذّبونكم فى النار ويحبسونكم فيها تسعة عشر ، وأنتم أكثر الناس عدداً وكثرة أفيعجزكم مائة رجل منكم عن رجل منهم ؟[1] فأنزل الله تعالى فى ذلك من

(١) أخرجه ابن أبى حاتم فى تفسيره (١٥١٩٦) من قول محمد بن إسحاق أن أباجهل قال يوماً وهو يهزأ برسول الله . وأورده ابن هشام فى سيرة النبى (١/٣١٣) وكذا السهيلى فى الروض الأنُف (٣/١٠٦) .

قوله : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا (٣١) ﴾ [المدثر]

فأمْرُ العدد كان فتنة لهم أوقعهم فى الضلال ، لأنهم لم يؤمنوا بالله وبقدرته وعظمته ، أما من آمن بالله حقاً فنظر فى آيات الله فلم يزده ذلك إلا إيماناً وتصديقاً .

﴿ لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ (٣١) ﴾ [المدثر] وذلك أن أهل الكتاب وجدوا فى كتابهم أن مالكاً رئيسهم وثمانية عشر من الرؤساء ، فبيَّن لهم أن ما يقوله النبى ﷺ يقوله الوحى .

﴿ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا (٣١) ﴾ [المدثر] تصديقاً لله ولما أنزله الله على محمد ، فيزدادون إيماناً إلى إيمانهم وتصديقاً إلى تصديقهم إذا وجدوا ما يخبرهم به من عدد خزنة جهنم موافقاً لما فى كتابهم .

﴿ وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ (٣١) ﴾ [المدثر]

والارتياب محله القلب ، ويقول تعالى فى آية أخرى ﴿ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ (٤٥) ﴾ [التوبة] فالإيمان عندهم يتردد بين العقل والقلب، والارتياب لا يعنى مجرد الشك إنما هو شكٌّ باتهام :

﴿ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا (٣١) ﴾ [المدثر]

فالذين فى قلوبهم مرض ضعيفو الإيمان ، مسلمون ساعة الرخاء فارُّون من الدين ساعة الشدة ، والذين فى قلوبهم مرض ليسوا منافقين ولكنهم ضعيفو الإسلام .

وقد فرَّق الحق سبحانه بين الذين فى قلوبهم مرض وبين المنافقين، فقال تعالى : ﴿ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَـٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ (٤٩) ﴾ [الأنفال]

وفرَّق هنا بين الذين فى قلوبهم مرض وبين الكافرين وإنْ كانوا قد

اشتركوا معاً فى قولهم : ﴿ مَاذَا أَرَادَ اللهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا (٣١) ﴾ [المدثر]

وهذا مثل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ (٢٦) ﴾ [البقرة]

فالذين كفروا يكذبون المثل فيزدادون به ضلالاً ويهدى به المؤمنين يصدقونه ويعلمون أنه الحق .

﴿ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ (٣١) ﴾ [المدثر]

فالله يخبرنا بمَنْ يستحق هدايته ومَنْ لا يدخل فيها وأنت باختيارك طريقك ، إما أنْ تؤمن فتدخل فى الهداية ، وإما أنْ تختار طريق الكفر والظلم فتمتنع عنك الهداية .

فإذا جاء أحد يجادلك ويقول لك : إن الله سبحانه قد قال : ﴿ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ (٣١) ﴾ [المدثر] لك أنْ تقول له : لقد بيَّن الله مَنْ شاء له الهداية ومَنْ شاء له الضلال .

وقلنا سابقاً أن الهداية نوعان دلالة على الطريق وهذه هداية للجميع فهى هداية عامة ، ثم هناك هداية خاصة للمؤمنين وهى التى بيّنها الله فى قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧) ﴾ [محمد]

أى أعانهم على منهجه فيسَّر لهم الطاعة وصعَّب عليهم المعاصى ، فإذا امتثل المؤمنُ لمنهج الله وأطاعه فالحق عز وجل يشرح صدره بذلك ويحبِّب الطاعة إليه فيزداد طاعة ، وإذا شرع فى ارتكاب المعصية بغَّضها له وجعلها ثقيلة على نفسه حتى يتركها .

﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ (٣١) ﴾ [المدثر] فلا تعوِّل فقط على قوتك

وتحسب مدى تكافؤك مع عدوك ، دعك من هذه الحسابات وما عليك إلا أن تستنفد وسائلك وأسبابك ثم تدع المجال لأسباب السماء .

وأقل جنود ربك أنْ يلقى الرعب فى قلوب أعدائك ، وهذه وحدها كافية، ويُروى أنهم فى إحدى المعارك الإسلامية تغيرت رائحة أفواه المسلمين وأحسُّوا فيها بالمرارة لطول فترة القتال فأخرجوا السواك ينظفون أسنانهم، ويطيِّبون أفواههم عندها . قال الكفار : إنهم يسنُّون أسنانهم ليأكلونا وقذف الله فى قلوبهم الرعب من حيث لا يدرون .

﴿ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ (٣١) ﴾[المدثر] ضمير (هى) المنفصل يعود على النار ، أى أن النار ما هى إلا تذكرة للبشر وموعظة للناس ، وهى سقر التى ذكرها الحق سبحانه فقال : ﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (٢٦) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ (٢٧) ﴾ [المدثر]

تلك النار التى عليها تسعة عشر من الملائكة الغلاظ الشداد ، وقد جعل الله عددهم فتنة للذين كفروا واختلف فى موقفهم منهم الناس : الذين كفروا ، الذين أوتوا الكتاب ، الذين آمنوا ، الذين فى قلوبهم مرض . كل فرقة لها موقف مخالف للآخر من هذه النار وما عليها من ملائكة .

ولكن بعض المفسرين ذهبوا إلى أن الذكرى هنا هى القرآن ومواعظه ، فهو تذكرة للناس وموعظة ، ولكن تسلسل الكلام فى الآيات هنا هو عن النار .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ كَلَّا وَالْقَمَرِ (٣٢) وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ (٣٣) وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ (٣٤) ﴾

(كلا) ليس الأمر كما قالوا أنهم يستطيعون هزيمة ملائكة النار ، من جهلهم أطمعهم أنَّ عِدَّتهم تسعة عشر نسوا أن هؤلاء خزنة جهنم

المتحكمين فيها فقط ، لا زبانية جهنم الذين يأتمرون بأمر التسعة عشر وعددهم بالآلاف .

كلهم يفعلون ما يُؤمرون ولا يعصون ولا يجاملون ، ولن يفلت أحدٌ من العقاب الذى قرِّر له من الواحد الديَّان .

ثم يقسم الله بالقمر وبالليل وبالصبح ، وكلها مخلوقات خلقها الله، والحق سبحانه وحده له أنْ يقسم بما يشاء على ما يشاء ، فيقسم مرة بالضحى والليل ، فيقول : ﴿وَالضُّحَى (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى[1] (٢)﴾ [الضحى]

فأقسم بالريح والضحى والليل والملائكة ، بل إن الحق سبحانه يقسم بحياة رسول الله ، فيقول : ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٢)﴾ [الحجر] وأقسم بالنجم إذا هوى .

وهو سبحانه الخالق العليم بكل ما خلق ، ولا يعرف عظمة المخلوق إلا خالقه ، وهو العالم بمهمة كل كائن خلقه ، لكنه أمرنا ألا نقسم إلا به لأننا نجهل حقائق الأشياء مكتملة .

والحق سبحانه يقسم هنا بالمشاهد لهم كالقمر والليل ، وبعد الليل يأتى النهار ولكنه يذكر أول وقت فى النهار وهو الصبح ، لأن فى الصبح شيئاً ليس فى باقى أوقات النهار .

قاله الحق سبحانه فى آية أخرى وهو يقسم بالصبح فقال : ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ (١٨)﴾ [التكوير] وهنا يقول ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ (٣٤)﴾ [المدثر]

وإسفار الصبح يكون بعد إدبار الليل وذهابه ، فإسفار الصبح أى أضاء وتبيَّن ، أى أسفر ضوؤه عن ظلمة الليل ، فأضاء وأقبل وأنار . ومنه : أسفرتْ المرأة عن وجهها إذا كشفته .

---

(١) سجى : أى أظلم وركد فى طوله . [كتاب العين للخليل بن أحمد الفراهيدى] وسجى أيضاً : غطى النهار بظلمته [مشارق الأنوار مادة س ج ى] وسجَّى الميت تسجية أى مدَّ عليه ثوباً .

والصبح إذا أسفر تجد لإقباله رَوْحاً ونسيماً ، فجعل الله له نفساً على المجاز كأنه إنسان يتنفس فقال : ﴿ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ (١٨) ﴾ [التكوير]

ورسول الله ﷺ يقول : « أسفروا بالفجر فإنه أعظم للأجر »[١] .

أى صلوا صلاة الصبح مُسفرين حتى تنير السماء والإسفار الإنارة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾ ﴾

الكُبَر جمع كبرى ، وهذا مثل قوله تعالى : ﴿ تَنْزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَا (٤) ﴾ [طه] العُلا جمع عُليا .

فـ (سقر) إحدى الأمور العظام ، ثم إن عذاب أهل النار ألوان وفى جهنم دركات سقر هى إحدى دركاتها ودركاتها سبعة : جهنم ولظى والحطمة والسعير وسقر والجحيم والهاوية .

وقوله تعالى ﴿ إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ (٣٥) ﴾ [المدثر] جواب القسم ﴿ كَلَّا وَالْقَمَرِ (٣٢) ﴾ [المدثر]

﴿ نَذِيرًا لِلْبَشَرِ (٣٦) ﴾ [المدثر] فالنار نذير للبشر ، حتى أن الحسن البصرى قال : والله ما أنذر بشىء أدهى من النار[٢] . والنار هنا تشمل دركاتها وعذابها وخزنة جهنم وزبانيتها ، فهؤلاء جميعاً إنذار للبشر .

وتأول البعض هذه الآية أنها عائدة على رسول الله ﷺ ، فقد قال الحق سبحانه فى أول السورة ﴿ قُمْ فَأَنْذِرْ (٢) ﴾ [المدثر] فأنت يا محمد نذير للبشر

---

(١) أخرجه الشافعى فى مسنده (١٥١) وابن أبى شيبة فى مسنده (٦٤) وأحمد فى مسنده (١٧٢٧٩) حديث رافع بن خديج وفى بعض رواياته عن أحمد مرسلاً عن محمود بن لبيد .

(٢) أورده الخازن فى تفسيره (لباب التأويل ٤/٣٦٦) .

تنذرهم عقاب الله وعذابه ناراً موقدة ، فمحمد ﷺ نذير للخلق جميعاً .

﴿ لِمَنْ شَاءَ مِنكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ (٣٧) ﴾[المدثر] أى يسبق غيره فى عمل الخير أو يتأخر عنه ، فلكم الخيار فى أن تتقدموا فيما أُمرتم به أو تتأخروا.

والتقدم والتأخر قد يكون فى الطاعة والمعصية ، أو فى الخير والشر ، أو فى التقدم إلى النار أو التأخر عن الجنة .

وهذا مثل قوله تعالى : ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ (٢٩) ﴾[الكهف] فلك أنْ تؤمن ولك أن تكفر ، وفائدة إيمانك تعود عليك أنت ولا تعود على الله ، فالله لا يفيده إيمانك ولا يضره سبحانه كفرك .

﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ ﴾

فكلُّ نفس من نفوس الكفار مرتهنة فى النار بكسبها ومأخوذة بعملها، فكل كافر مرتهن بذنوبه فى النار . والرهن فى اللغة الثبوت والدوام وهو أيضاً من الحبس ، فهم محبوسون نتيجة معاصيهم وذنوبهم ، فهى معتقلة بعملها يوم القيامة .

فكلّ امرىء مرتهن بعمله لا يحمل عليه ذنب غيره من الناس سواء كان أباً أو ابناً ، فلا تزر وازرة وزر أخرى ، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى .

فهم دائمون فى الارتهان فى سقر لا تنفعهم شفاعة شافع . فكلُّ فرد يحمل همّ نفسه وتبعتها ويضع نفسه حيث شاء أنْ يضعها ، يتقدم بها أو يتأخر ويكرمها أو يهينها ، فهى رهينة بما تكسب مقيدة بما تفعل .

﴿إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ (٣٩) ﴾ [المدثر] فاستثنى اللهُ أصحابَ اليمين من

المرتهنين المحبوسين فى النار نتيجة ما عملوه من ذنوب ومعاصٍ، فأصحاب اليمين غير مرتهنين بذنوبهم فى النار ولكن الله يغفرها لهم ، فهم قد فكُّوا رقاب أنفسهم بأعمالهم الصالحة كما يفك الراهنُ رهنه بأداء الحق الذى عليه .

فأصحاب اليمين الذين أُعطوا كتبهم بأيمانهم ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (١٩) ﴾ [الحاقة] فاستثنى الحق سبحانه أصحاب اليمين من جملة المرتهنين.

ولكن استثناءهم من الارتهان بذنوبهم جعل على بن أبي طالب يقول أن أصحاب اليمين هم أطفال المسلمين ، فهؤلاء لم يكتسبوا إثماً يرتهنون به .

﴿ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ (٤٠) عَنِ الْمُجْرِمِينَ (٤١) ﴾ [المدثر] فهم فى جنات يتساءلون فيما بينهم عن المجرمين الذين رأوهم فى الدنيا وقاسوا من إجرامهم وظلمهم أو صاحب لهم كان عاصياً وأرادوا معرفة مصيرهم .

وذلك نحو قوله تعالى : ﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٥٠) قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ (٥١) يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ (٥٢) أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ (٥٣) قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ (٥٤) فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٥٥) ﴾ [الصافات]

فيطلعوا فيجدوه ﴿ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٥٥) ﴾ [الصافات] أى فى وسطها فكانوا يقبلون على بعضهم بعضاً يتساءلون عن حاله فى الدنيا .

﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ ﴾

﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (٤٢) ﴾ [المدثر] أى : ما أدخلكم وحبسكم فى سقر ، سألوهم توبيخاً وتقريعاً لهم ، ما جعلكم فيها وكان سبباً فى دخولكم النار . و ﴿ سَقَرَ (٤٢) ﴾ [المدثر] دركة من دركات النار .

﴿ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (٤٣) ﴾ [المدثر] إنهم كفار وقد يسأل سائل : إذا كانوا كفاراً فكيف يصلون ؟ إنه اعتراف منهم بأنهم كفار ولم يكونوا مسلوكين فى سلك مَنْ يصلى واعتراف بأنهم لم يكونوا مسلمين أو مؤمنين بالله .

وإسلاكهم فى سقر إدخالهم كما نُدخل الخيط فى ثقب الإبرة . يقولون : لم نَكُ فى الدنيا من المصلين لله .

﴿ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ (٤٤) ﴾ [المدثر] فلم نكُن نتصدق عليه . وهل مجرد عدم التصدُّق موجب لدخول سقر ؟ لا طبعاً فهم لم يُقروا بالصلاة ولم يُؤدوها ، ولم يُقروا بالزكاة ولا بحق المسكين فى مالهم فلم يُؤدوها .

﴿ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ (٤٥) ﴾ [المدثر] فكنا نخوض فى الباطل مع مَنْ خاضوا فى الاستهزاء بالرسول والمسلمين وبكتاب الله القرآن .

وقد قال تعالى فى قوله : ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا (١٤٠) ﴾ [النساء]

وكلمة ﴿ نَخُوضُ (٤٥) ﴾ [المدثر] تعطى معنى واضحاً مجسماً لأن الأصل فى الخوض أنْ تدخل فى مائع أى سائل مثل الخوض فى المياه أو الطين ، وساعة تخوض فى مائع ، فالمائع لا ينفصل حتى يصير جزءاً هنا وجزءاً هناك ويفسح لك طريقاً ، بل مجرد أنْ يمشى الإنسان ويترك المائع يختلط المائع مرة أخرى ، ولذلك يستحيل أنْ تصنع فى المائع طريقاً لك .

والخوض هو الدخول فى باطل أو الدخول إلى ما لا ينتهى الكلام فيه

إلى غاية ، وما دمت قد دخلت فى مائع فلن تجد فيه طريقاً محدداً بل يختلط المدخول عليه فلا تتميز الأشياء وأخذ منه الخوض بالباطل ، أو الخوض باللعب الذى ليس فيه غاية .

فكان هؤلاء يخوضون مع مَنْ خاضوا فى الاستهزاء بالرسل وبكتب الله والمؤمنين به ، لذلك استحقوا سقر .

﴿ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ (٤٦) ﴾ [المدثر] فكنا نكذب بيوم الجزاء على الأعمال وهو يوم القيامة ، فكنا نكذب بيوم المجازاة والثواب والعذاب ، ولا نصدق بثواب ولا عقاب ولا حساب .

﴿ حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ (٤٧) ﴾ [المدثر] لم نحاول أنْ نتوب أو نعرف الحق فنتبعه بل كذّبنا ما جاءنا به الرسل من عند الله واستمررنا على هذا حتى آتانا اليقين .

واليقين هو الموت ، واليقين هو أمر الثابت المعقود فى الواقع والأعماق بحيث لا يطفو إلى الذهن ليناقش من جديد أو يتغير .

ولا شىء ثابت فى الواقع والأعماق مثل الموت الذى يراه ويُقر به الجميع، فالناس قد تختلف فى وجود الله ، ولكنها لا تختلف حول حتمية موت الإنسان .

فهؤلاء بقوا على كفرهم ولم يُصلّوا ولم يُزكّوا وبقوا يكذِّبون بيوم الدين حتى فاجأهم الموت دون رجوعهم ولا توبتهم .

﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾
فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾

فلن تنفعهم شفاعة الشافعين ، والشافعون جمع شافع أو شفيع . والحق

سبحانه يقول : ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (٤٨) ﴾ [البقرة]

وقال تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (١٢٣) ﴾ [البقرة]

والشفاعة تقتضى شافعاً ومشفوعاً عنده ومشفوعاً له ومشفوعاً فيه ، هذه هى الأربعة العناصر فى الشفاعة ، والمشفوع عنده وهو الله سبحانه، والمشفوع فيه هو الذنوب وهى معروفة .

والله سبحانه لا يقبل الشفاعة من أى أحد إنما يقبلها ممن يرتضى قوله، قال تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَـٰنُ وَرَضِىَ لَهُ قَوْلًا (١٠٩) ﴾ [طه]

﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ (٤٩) ﴾ [المدثر] وهذا مثل قوله ﴿ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٢٠) ﴾ [الانشقاق] فالقياس كان يقتضى أن يؤمنوا وكذا هنا كان القياس ألاَّ يُعرضوا عن التذكرة ، فأسلوب (فما له) و (فما لك) و (فما لهم) و (فما لكم) على أن العمل يجب أن يُستقبل أولاً بترجيح ما يصنع أو بترجيح ما لا يصنع .

أما أن يفعل الأفعال جزافاً بدون تفكير فى حيثيات فعلها أو فى حيثيات عدم فعلها ، فهذا ليس عمل العاقلين .

﴿ وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٨١) ﴾ [الحجر] أى تكبَّروا وأعرضوا عن المنهج الذى جاءهم به رسلهم والإعراض هو أنْ تعطى الشىء عرضك بأنْ تبتعد عنه ولا تقبل عليه ، ولو أنك أقبلتَ عليه لوجدتَ فيه الخير لك .

﴿ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ (٥٠) فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ (٥١) ﴾

كلمة (حمار) تُجمع فنقول (حُمُر) وهى حُمُر مستنفرة أى نافرة فرَّتْ من رجال أقوياء ، وكل ضخم شديد عند العرب قسورة ، والقسورة أيضاً الأسد تهرب منه الحُمر المستنفرة النافرة الهاربة من الأسد .

فالحُمر إما أنها هاربة من الرماة والصيادين ، وإما أنها هاربة من الأسد ، فانظر كيف جَرْيُها وكيف فرارها ، فتعجب من فرارهم من دعوة الله ودينه ورسله وكأنهم حمير فى البرية تهرب ممَّنْ يريد اصطيادها .

﴿ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٥٣﴾ ﴾

فالمشركون هؤلاء المكذِّبون طلبوا أنْ يصبحوا عند رأس كل رجل منهم كتاب منشور من الله أن محمداً رسول الله ويأمر فيه باتباعه .

وكانوا يقولون : كان الرجل من بنى إسرائيل ذنبه وكفارة ذنبه يصبح مكتوباً عند رأسه فهلا تُرينا مثل هؤلاء الآيات إنْ كنتَ رسولاً كما تزعم فقال جبريل : إنْ شئت فعلنا بهم كفعلنا ببنى إسرائيل وأخذناهم بما أخذنا به بنىَ إسرائيل ، فكره النبى ﷺ ذلك[1] .

والغريب أنهم يكذبون ولا يؤمنون ، ورغم هذا يريدون أن يُنزل الله على كل واحد منهم كتاباً خاصاً به يأمره فيه الله بأنْ يؤمن بمحمد ، كيف تكذب ولا تؤمن وتطلب مثل هذا ؟

﴿ كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ (٥٣) ﴾ [المدثر] فالمسألة بالنسبة لهم ليست أنهم يريدون كتباً وصحفاً تنزل عليهم فعلاً ، فلو نزلت عليهم فعلاً ما آمنوا ، وذلك مثل قوله تعالى :

---

(١) أورده مقاتل بن سليمان فى تفسيره (٤/٥٠٠) والخازن فى تفسيره (٤/٣٦٨) والبغوى فى تفسيره (٥/١٨٠) .

﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ[١] فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَـٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (٧) ﴾ [الأنعام]

هم لن يؤمنوا على أى حال كان الأمر ، إنما هى مبررات يعطونها لأنفسهم حتى لا يؤمنوا وإن تحقق ما يريدونه لن يؤمنوا أيضاً ، لأنهم يريدون أن يهربوا من البعث والحساب واليوم الآخر ، ولا يريدون أن يلزمهم أحد بمنهج وأوامر ونواهى .

﴿ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾ ﴾

تجد فى نصوص القرآن عجيباً فتجد نصاً مساوياً لنص ، ثم يختلف السياق فيختلف النص ، فيقول الحق سبحانه هنا : ﴿ كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ (٥٤) فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ (٥٥) ﴾ [المدثر]

ومرة أخرى يقول ﴿ كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (١١) فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ (١٢) ﴾ [عبس] ، ومرة أخرى يقول ﴿ إِنَّ هَـٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا (٢٩) ﴾ [الإنسان]

فهذا لون ونوع من المتشابه من الآيات ليقول لنا الحق : ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (١٨) ﴾ [القيامة]

فالمسألة إذن ليست (أكلاشيه) ثابتاً ، وليست عملية (ميكانيكية) صماء ، إنه كلام رب حكيم .

﴿ إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ (٥٤) ﴾ [المدثر] إنه عظة عظيمة ، فليس الأمر كما يقول هؤلاء

---

(١) قرطاس : الصحيفة يُكتب فيه من ورق أو غيره . وجمعه قراطيس قال تعالى : ﴿ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا (٩١) ﴾ [الأنعام]

المشركون فى هذا القرآن من أنه سحر يؤثر وأنه قول البشر ، ولكنه تذكرة من الله لخَلْقه .

﴿ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ (٥٥) ﴾ [المدثر] فمَنْ شاء اتعظ به فإنما يعود نَفْع ذلك عليه ، فاستعمل ما فيه من أمر الله ونهيه ، فليس أحد بممنوع ولا مجبور على الفعل ، فمَنْ ترك التذكُّر فهو الذى ضيَّع ذلك حيث آثر واختار ضده واشتغل بغيره وأعرض عن ذكره .

﴿ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ (٥٦) ﴾ [المدثر] فإذا شاء الله لهم الهدى تذكَّروا واتعظوا ، فلا أحدَ يقدر على شىء إلا بأنْ يشاء الله يقدره عليه ويعطيه القدرة عليه .

﴿ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ (٥٦) ﴾ [المدثر] ينهى الحق سبحانه سورة المدثر بالثناء على الله عز وجل ، فهو سبحانه حقيق وجدير بأنْ يتقيه عباده ويخافوا عقابه فيؤمنوا به ويطيعوه ، وهو حقيق بأنْ يغفر لهم ما سلف من كفرهم وذنوبهم .

وعن أنس رضى الله عنه أن رسول الله قال فى هذه الآية : قال الله تبارك وتعالى : أنا أهلٌ أنْ أُتّقَى ، فمَن اتقانى فلم يجعل معى إلهاً فأنا أهل أنْ أغفر له[1] .

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (١٢٤٤٢ ، ١٣٣٤٩) وابن ماجه فى سننه (٤٢٩٩) وابن أبي عاصم فى السنة (٩٦٩) والطبرانى فى المعجم الأوسط (٨٥١٥) والحاكم فى مستدركه (٣٨٦٧) وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه وأقره الذهبى .

سُورَةُ القِيَامَةِ

سورة القيامة[١]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢ ﴾

لقد جاء هنا الحق سبحانه بقوله ﴿ لَا أُقْسِمُ (١) ﴾ [القيامة] وكأنه يوضح ألاَّ حقَّ لكم فى الإنكار ، ولذلك ما كان يصح أنْ أقسم لكم ، ولو كنت مقسماً لأقسمت بكذا وكذا وكذا .

فمعنى ﴿ لَا أُقْسِمُ (١) ﴾ [القيامة] أن هذا الأمر واضح جلىّ وضوحاً لا يحتاج إلى القَسَم ، ولو كنتُ مقسماً لأقسمتُ به .

والحق سبحانه هنا يقسم ﴿ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ (١) ﴾ [القيامة] ، وهو لا يقسم إلا بشىء عظيم له قدر عند مَنْ أقسم ، فما بالك أن الله هو الذى يقسم ؟

ثم يقسم سبحانه قسَماً آخر ﴿ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ (٢) ﴾ [القيامة] ،

---

(١) سورة القيامة هى السورة رقم (٧٥) فى ترتيب المصحف ، نزلت بعد سورة القارعة وقبل سورة الهُمزة وترتيبها فى النزول السورة رقم (٣٠) وهى سورة مكية عدد آياتها (٤٠) آية .

وهى النفس التى تصنع شراً مرة ، فيأتى من داخل النفس ما يستنكر هذا الشر فتعود إلى الخير .

فهى نفس تهمس للإنسان عند الفعل الخاطىء : الله لم يأمر بذلك . فيعود الإنسان إلى منهج الله تائباً ومستغفراً ، فهو يفعل السيئة لكن نفسه تعود إلى اليقظة إلى منهج الله لأنه يتمتع بوجود خلية المناعة الإيمانية فيه .

وقد جعل الله فى النفس الإنسانية نفساً لوَّامة ونفساً تأمر بالسوء ونفساً مطمئنة ، ومهمة النفس اللوامة هى أنْ تردَّ على كلِّ ما توسوس به النفس الأمَّارة بالسوء ، لكن إنْ لم تلُمْ النفس اللوامة فالنفس الأمَّارة بالسوء تتمادى ولا يردعها رادع .

﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ۝٤ ﴾

﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ (٣) ﴾[القيامة] أيظن هذا الكافر أن العظام بعد تفرقها ورجوعها رميماً ورفاتاً مختلطة بالتراب وبعدما نسفتها الريح فطيَّرتها فى أباعد الأرض ، أيحسب أنْ لن نجمع عظامه؟

والفعل (حسب) هنا جاء بالمضارع لأنه يتحدث عن شىء يحدث فى المستقبل ، وهو عند النفخ فى الصور النفخة الثانية ، فقال : ﴿ أَيَحْسَبُ (٣) ﴾

وقد ورد (حسب) بالماضى فى قوله تعالى : ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (٢) ﴾[العنكبوت] أى أظنَّ الناسُ وتوهَّموا أنْ يقولوا آمنا دون أنْ يُفتنوا ، فهم وقعت بهم الفتنة فعلاً والاختبار والابتلاء .

وقد قال الأخنس بن شريق الثقفي[١] لرسول الله : يا محمد حدِّثنى متى تكون القيامة وكيف أمرها وحالها ؟ فأخبره النبى ﷺ فقال عدى بن ربيعة حليف بنى زُهْرة وهو ختن الأخنس : لو عاينت ذلك اليوم لم أصدقك ولم أؤمن بك ، أو يجمع الله العظام ؟[٢]

فأنزل الله ﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ (٣) بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ (٤) ﴾ [القيامة]

فنحن قادرون على جَمْع العظام وتأليفها وإعادتها إلى التركيب الأول والحالة والهيئة الأولى وعلى ما هو أعظم من ذلك ، وهو ﴿ أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ (٤) ﴾ [القيامة]

بنانه أى أصابعه ، وقد قال المفسرون أنه تسوية الأصابع براحة اليد حتى نجعله مثل خُفِّ البعير فلا ينتفع بها كما لا ينتفع البعير بها ما كان حياً .

حتى أن قتادة قال : « لو شاء اللهُ لجعلَ بنانه مثل خُفِّ البقر أو مثل حافر الدابة »[٣] . فلا يستطيع أنْ يأخذ ما يأكل إلا بفيه كسائر البهائم كعقوبة له على إنكاره للبعث .

---

(١) الأخنس بن شريق : اسمه أُبىّ بن شريق ، سُمِّى بالأخنس لما أشار على بنى زُهرة بن كلاب بالرجوع إلى مكة حين توجهوا بالنفير إلى بدر ليمنعوا العير فقبلوا منه فرجعوا فقيل خنس بهم . أسلم يوم فتح مكة وشهد مع رسول الله حنيناً وأعطاه رسول الله مع المؤلَّفة توفى فى أول خلافة عمر بن الخطاب .

(٢) أورده الخازن فى تفسيره (٤/٣٧٠) وكذا مقاتل بن سليمان (٤/٥٠٩) .

(٣) أخرجه عبد الرزاق فى مصنفه (٣٤٠٣) عن قتادة بن النعمان السدوسى .

فإن الحق سبحانه خلق أصابع يدى الإنسان ورجليْه مُفرَّقة يتناول طعامه بيديه ويقبضهما إذا شاء ويبسطهما .

﴿ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ۝٥ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝٦ ﴾

هذا الإنسان الجاحد غير المؤمن بالبعث يريد أنْ لا يأمره أحد ، يريد أن يعصى ويرتكب المعاصى والفواحش ، فلو آمن بالبعث لأصبح لزاماً عليه أنْ لا يعصى الله ، وكأنه بهذا لن يكون بعث .

فهو يقدِّم المعصية ويؤخِّر التوبة يوماً بيوم يقول سأتوب ولكنه لا يتوب ، نفسه لا تطاوعه أنْ يتوب حتى يموت على شرِّ عمله .

فهو يمضى قُدماً راكباً رأسه فى معاصيه لا يردعه شىء ولا يرعوى ولا ينزع عن فجور ، بل دائماً طالباً الدنيا ولا يذكر الموت .

وكلمة (بل) هنا للإضراب عما سبق ، كأنَّ الحق سبحانه يقول لنا : دعك من كلامه أنه غير مؤمن بالبعث والإعادة فهو ينكر هذا لأنه يريد أنْ يعيش فى الدنيا دون منهج (افعل) و (لا تفعل) .

﴿ بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ (٥) يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ (٦) ﴾ [القيامة]

ويقول تعالى فى آية أخرى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا (١٨٧) ﴾ [الأعراف]

ومعنى ﴿ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ (٦) ﴾[القيامة] أى متى يكون يوم القيامة ، وهو يسأل السؤال مُكذِّباً بيوم القيامة .

﴿ فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝٧ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ۝٨ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۝٩
يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ۝١٠ ﴾

الآن هو يسأل متى يوم القيامة ، وغداً عندما تدهمه القيامة سيعرف أنه أضاع حياته التى أعطاه الله إياها فى تكذيب وإباء ، ﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ(٧)﴾[القيامة] فإذا شَخَص بصره وبرق لما يرى من أهوال القيامة سيعرف أنه كان مخطئاً .

فـ ﴿ بَرِقَ الْبَصَرُ (٧) ﴾[القيامة] أى فتح عينيه وشخص وكان له بريقُ الفزع والرعب والدهشة والرهبة مما يرى، وهذا مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ (٤٢) ﴾ [إبراهيم]

وقوله : ﴿ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا (٩٧) ﴾ [الأنبياء]

فأبصارهم تشخص بصورة لا يتقلب بها يمنة أو يَسْرة من هول ما يرى، فحين ترى إنساناً مذعوراً من فرط الخوف فسحنته تتشكل بشكل هذا الخوف ، فيستولى الرعب على أصحابها فلا يتحولون عن المشهد المرعب .

وفى ظل هذا المشهد المرعب يخسف وينطفىء ضوء القمر ﴿وَخَسَفَ الْقَمَرُ(٨)﴾[القيامة] أى غاب ضوؤه أى أظلم وذهب وخُسف على البناء للمفعول .

﴿وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ (٩) ﴾ [القيامة] أى : جُمعا فى ذهاب ضوئيهما ويُطلعهما الله من المغرب ثم يكوِّرهما الله ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (١) ﴾ [التكوير]

فالشمس تقترن بالقمر بعد افتراق ويختل نظامهما الفلكى المعهود حيث ينفرط عقد ذلك النظام الكونى الدقيق .

وفى وسط كل هذا قمر بلا ضوء مخسوف وشمس منطفئة ظلام كونى وهول وفزع ليس له حدود ، تجد هذا الإنسان المغرور المتكبر على خالقه

يقول : ﴿ أَيْنَ الْمَفَرُّ (١٠) ﴾ [القيامة]

تشعر من سؤاله بالرعب والفزع الذى يملأ جوانحه ، فلا عودة للدنيا وليس له مهرب ولا مفر ، ولا صاحب له ولا نصير .

إنه يشعر أنه قد أحيط به لذلك يقول ﴿ أَيْنَ الْمَفَرُّ (١٠) ﴾ [القيامة]

وهم إذا كانوا فى السورة السابقة قد ذكرهم الله وهم يفرون من الموعظة والتذكرة ، فقال : ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ (٤٩) كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ (٥٠) فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ (٥١) ﴾ [المدثر]

فإنهم هنا عند مواقعة الحدث وتيقنهم أنه الحق الذى لم يريدوا أن يعترفوا به يقولون ﴿ أَيْنَ الْمَفَرُّ (١٠) ﴾ [القيامة]

والحق سبحانه يقطع عليهم الأمل فى القدرة على الفرار ، فإلى أين فراركم ؟ ﴿ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ (٢٦) ﴾ [التكوير]

ثم يقول تعالى :

﴿ كَلَّا لَا وَزَرَ (١١) إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ (١٢) ﴾

الحق سبحانه لمَّا أراد أن يخوِّف الناس من الآخرة قال : ﴿ كَلَّا لَا وَزَرَ (١١) إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ (١٢) ﴾ [القيامة] فلا ملجأ ولا معين تفزع إليه إلا الله .

فكأنه يقول (لا وزر) أى : لا معين ولا نصير ﴿ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ (١٢) ﴾ [القيامة] فالآخرة هى المستقر لأنها الدار الباقية .

والمستقر المكان الذى تستقر أنت فيه ومستقرك ومرجعك ومصيرك إنما هو إلى الله ، فمستقر الخَلْق إنما هو إلى الله ، وقال عبد الله بن مسعود: إليه المصير والمرجع .

فإلى ربك أيها الإنسان يومئذ الاستقرار ، ومستقرهم الجنة أو النار .

ثم يقول تعالى :

﴿ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾ ﴾

﴿ يُنَبَّأُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ (١٠) ﴾[القيامة] أى يُخبر الإنسان يومئذ يعنى يوم يُجمع الشمس والقمر فيكوَّران ، وذلك مثل قوله تعالى : ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا (١٣) اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (١٤) ﴾ [الإسراء]

﴿ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ (١٣) ﴾[القيامة] أى بما قدَّم قبل موته من عمل صالح أو سيء ، وما أخّر بعد موته من سُنة حسنة أو سيئة يعمل بها ، فالله يُنبئه بما قدَّم من أنواع الطاعة وما أخَّره منه فلم يفعله .

﴿ بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (١٤) ﴾[القيامة] فالإنسان على نفسه من نفسه رقباء يرقبونه ويشهدون عليه بعمله ، وهى سمعه وبصره وجوارحه.

وقد يسأل سائل : لماذا لم يقُل الله : بل الإنسان على نفسه بصير ؟ لماذا كانت (بصيرة) ؟ وتقدير الكلام : بل الإنسان على نفسه عين بصيرة ، فلا شاهدَ أفضلُ من نفسك ، وذلك قوله تعالى ﴿ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (١٤) ﴾ [الإسراء] يعنى شاهداً .

والحق سبحانه جعل الإنسان هو البصيرة على نفسه كما تقول للرجل: أنت حجة على نفسك .

﴿ وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ (١٥) ﴾[القيامة] ولو اعتذر بكل عذر وجادل عن نفسه

فإنه لا ينفعه ، لأنه قد شهد عليه شاهدٌ من نفسه .

و ﴿ مَعَاذِيرَهُ (١٥) ﴾[القيامة] جمع معذرة . وقد أوضح الحق سبحانه فى قرآنه بعض معاذيرهم مثل قوله تعالى : ﴿ وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ (٢٣) ﴾ [الأنعام] وقال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ (١٨) ﴾ [المجادلة]

﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾ ﴾

الحق سبحانه يُطمئن رسوله على حفظ القرآن لأنه ﷺ كان ينزل عليه الوحى ، فيحاول إعادته كلمة كلمة ، فإذا قال الوحى مثلاً ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ (١) ﴾ [الجن] فيأخذ الرسول من تكرارها فى سِرِّه ويرددها خلف جبريل عليه السلام مخافة أنْ ينساها لشدة حرصه على القرآن .

فنهاه الله عن هذه العجلة فقال : ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ (١١٤) ﴾ [طه] أى : لا تتعجل ولا تنشغل بالتكرار والترديد ، فلا تخْشَ أنْ يفوتك شيءٌ منه فقد تكفلت بحفظه .

وفى آية أخرى يقول سبحانه : ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى (٦) ﴾ [الأعلي] وهنا يقول سبحانه : ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (١٦) ﴾ [القيامة] أى لما تكتمل الآيات فلكَ أنْ تقرأها كما تحب .

وقد كان ينزل عليه ﷺ عدة أرباع من القرآن أو السورة كاملة ، حيث يُسرى عنه الوحى يعيدها كما أنزلت عليه ، ولو أن السورة نزلت كاملة مرة واحدة لكان الأمرُ إلى حَدٍّ ما سهلاً إنما تنزل الآيات متفرقة .

ومن عجيب أمر القرآن أنك لا تجد شخصاً يلقى كلمة لمدة خمس دقائق مثلاً ثم يعيدها عليك كما قالها نصاً ، أما النبى ﷺ فكانت تُلقى عليه السورة فيعيدها كما هى .

أرِحْ نفسك يا محمد ولا تخْش النسيان ، وانتظر حتى تنتهى الآيات وسوف تعيدها كما هى لا تنسى منها حرفاً واحداً .

﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١٧)﴾ [القيامة] إن علينا جمعه فى صدرك ونُقدرك على قراءته فلا تنسَ منه شيئاً ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (١٨)﴾ [القيامة] فاستمع وأنصت .

فإذا جمعناه فى صدرك ﴿فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (١٨)﴾ [القيامة] أى : ما جمع فيه فاعمل به من أمر أو نهى ، واستمع له ثم اقرأه كما أقرأك .

﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ (١٩)﴾ [القيامة] وبيان الشيء توضيحه وشرحه وتأويله، بعد أنْ تحفظه وتقرأه كما أقرأناه لك فسنوضحه لك وسنبيِّن لك معناه وتفسيره .

وسنبين لك حلاله وحرامه ، وقد خاطب الحق سبحانه النبى ﷺ فى آية أخرى ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ (٤٤)﴾ [النحل] فالبيان من الله تعالى والتبيين من النبى ﷺ.

ثم إنَّ علينا بيانَ ما فيه من حلاله وحرامه وأحكامه نبيِّنها لك مُفصَّلة، وكلمة (علينا) تعطى معنى أن الله ألزم نفسه أنْ يجمع له آيات القرآن فى صدره ، وأنَّ عليه أنْ يُبيِّنه ويبيِّن له أحكامه .

فسنبيِّن إليك ما أجملناه فنفصِّله لك بفرائضه وآدابه وأركانه .

ثم يقول تعالى :

﴿ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ﴿٢١﴾ ﴾

﴿ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ (٢٠) ﴾[القيامة] والعاجلة هى الدار الدنيا ، والحق سبحانه يقول : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا (١٨) ﴾ [الإسراء]

ويقول تعالى فى آية أخرى : ﴿ وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِى الشَّاكِرِينَ (١٤٥) ﴾ [آل عمران]

فالذى يريد جزاء الدنيا وهو الذى يطلب جزاء حركته فيها يأخذها ولو كان كافراً .والكافرون قد يأخذون العاجلة المنتهية ولكن المؤمنين يأخذون الآجلة التى لا تنتهى ، والعاجلة هى عطاء الدنيا ومُتعها ورُقيها وتقدمها . فمَنْ كان يريد العاجلة ﴿ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ (١٨) ﴾ [الإسراء] أى : أَجبْناه لما يريد من متاع الدنيا .

وهم يحبون العاجلة ، يحبون الدنيا ، والحق سبحانه يقول لهؤلاء ﴿ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ (٣٨) ﴾ [التوبة] والرضا هو حبُّ القلب .

وفى آية أخرى يقول : ﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ (٣) ﴾ [إبراهيم] و (استحب) لأنه أزاد الحبَّ عن حَدِّه الطبيعى ، فإذا أحببتَ الدنيا لأنها تُعينك على تكاليف دينك وجعلتها مزرعة للآخرة فهذا أمرٌ مطلوب لأنك تفعل فيها ما يجعلك تسعد فى آخرتك ، فهذا طلبٌ للدنيا من أجل الآخرة.

وهنا لا نجد هؤلاء الذين يستحبون الحياة من أجل أنْ يجعلوها مزرعة للآخرة ، بل هم يستحبون الحياة .

﴿ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ (٢٠) وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ (٢١) ﴾ [القيامة] فأنتم تتكالبون على تحصيل الدنيا من كلِّ طريق حتى ولو كان من الحرام ، وتصدون عن سبيل الله ، وتتفلتون من منهج الله ظناً منكم أن لا حسابَ فى الآخرة .

لذلك ﴿ تَذَرُونَ الْآخِرَةَ (٢١) ﴾ [القيامة] فلا تؤمنون بها على الحقيقة بل تتركون العمل لها وتختارون عليها الدنيا ، وأكثر الناس تختار الدنيا على الآخرة .

والآية خطابٌ للكافرين لأنهم كانوا يعملون للدنيا ولا يعملون للآخرة، وهم إنما يحملهم على التكذيب بيوم القيامة ومخالفته ما أنزله الله عز وجل على رسوله ﷺ، إنما هو حبهم الشديد للدنيا العاجلة ، وهم لاهون متشاغلون عن الآخرة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣) ﴾

والنضارة الحُسْن والبياض والبهاء ، فيعلو وجوههم النور ، فوجوههم حسنة مسرورة من النعيم ، فالناضرة الناعمة من النعيم والغبطة ، فالحق سبحانه يصف وجوههم بما هم عليه من غاية السرور بالكرامات التى أُكرموا بها حتى نضرتْ وجوههم بذلك .

فوجوههم مشرقة مضيئة ، وقد قال الحق سبحانه فى آية أخرى ﴿ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ (٢٤) ﴾ [المطففين]

وقد قال السُّدى : إن أهل الجنة إذا سِيقوا إلى الجنة فبلغوا وجدوا عند بابها شجرة فى أصل ساقها عينان فشربوا من إحداهما فينزع ما فى صدورهم من غِلٍّ فهو الشراب الطهور واغتسلوا من الأخرى فجرت عليهم

نضرة النعيم ، فلن يشعثوا ولن يسحنوا [١] بعدها أبداً .

فنضرة النعيم والعيش بادية على بشرتهم ، مُنعَّمين بأنواع النعيم المختلفة ، بهذه الوجوه الناضرة المنعَّمة تنظر إلى ربها المتفضل على أصحاب تلك الوجوه بالنعمة .

فيقول تعالى : ﴿ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣) ﴾[القيامة] فإذا كانت المقاييس يوم القيامة تختلف عن مقاييس الدنيا ، فإعدادك وجسدك لا يمكن به أنْ ترى الله ، أما فى الآخرة فيسمح إعدادك وجسدك بأنْ يتجلَّى عليك الله سبحانه وتعالى .

وهذا قمة النعيم فى الآخرة ، وأنت الآن تعيش فى آثار قدرة الله ، وفى الآخرة تعيش عيشة الناظر إلى الله تبارك وتعالى ، فيعيش فى رضوان الله الأكبر وهو أنْ يضمن المؤمن الظفر برؤية ربه .

وقد قال الحسن البصرى : « تنظر إلى ربها ،حسَّنها الله بالنظر إليه وحقَّ لها أنْ تنضر وهى تنظر إلى ربها عز وجل »[٢] .

فهم ينظرون إلى الله تعالى معاينةً ، وذلك الرضوان الأكبر من الله ، ولكن لا تحيط أبصارهم به سبحانه من عظمته وبصره يحيط بهم ، فذلك قوله تعالى : ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٠٣) ﴾

[الأنعام]

ورسول الله ﷺ يقول : « إنكم سترون ربكم عياناً كما ترون القمر لا

---

(١) ذكره الخازن فى (لباب التفسير) (٢/٢٠١) والبغوى فى تفسيره (٣/٢٣٠) . والسَّحْنة هى بشرة الوجه وهيأته وحاله وهى من الأضداد بمعنى أنها تعبر عن لين البشرة وحسنها أو عدم حسنها وعبوسها حسب سياق الجملة وهى تعنى هنا المعنى الثانى .

(٢) أورده مجاهد بن جبر فى تفسيره (١/٦٨٧) وكذا الطبرى فى تفسيره جامع البيان (٢٤/٧٢) والثعلبى فى الكشف والبيان عن تفسير القرآن . والبغوى فى تفسيره (٨/٢٨٤) .

تُضامون فى رؤيته »[١] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾ ﴾

إذا كانت وجوه المؤمنين ناضرةً ناعمةً تعبر عن التنعُّم فى جنة النعيم، فإن وجوه الكافرين المكذِّبين تكون ﴿ بَاسِرَةٌ (٢٤) ﴾[القيامة] أى عابسةً كالحةً متغيرة مُسودة قد أظلمتْ ألوانها ، قد خلَتْ من آثار النعمة والسرور.

والحق سبحانه قال فى آية أخرى ﴿ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢) ﴾ [المدثر] فاستخدم سبحانه الفعل (بسر) أما (باسرة) فهى (فاعلة) .

فـ (بسر) كلح وقطَّب وجهه قد أصابه الهمّ أو الاهتمام بأمر ما يفكر فى شيء يدبره .

فوجوههم باسرة عابسة كالحة تعلوها الظُّلْمة والغبار ، كما قال الله عز وجل ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤٠) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (٤١) أُولَـٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ (٤٢) ﴾ [عبس]

فعلى وجوههم غبرة سوداء وترهقهم قترة ، والقترة الغبار وهى مأخوذة من القتار ، وهو الهواء الذى يمتليء بدخان الدهن المحترق من اللحم المشوى ، وقد تكون رائحته أخَّاذة ويسيل لها اللعاب ، ولكن مَنْ يُوضع على وجهه هذا القتار يصنع له طبقة سوداء .

﴿ تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ (٢٥) ﴾[القيامة] والظنُّ هنا بمعنى اليقين أنْ يُفعل بها فاقرة . أى : يُفعل بهم أمرٌ عظيم من العذاب يقصم فقار ظهره .

---

(١) أخرجه الحميدى فى مسنده (٨١٧) وأحمد فى مسنده (١٩١٩٠) وابن ماجه فى سننه (١٧٧) وأبو عوانة فى مستخرجه (١١١٢) من حديث جرير بن عبد الله البجلى .

والفاقرة الداهية العظيمة والأمر العظيم الشديد الذى يكسر فقار ظهره ويقصمه ، وقيل : الفاقرة دخول النار .

وقيل : هى أنْ تُحجب تلك الوجوه عن رؤية الله تعالى .

فالفاقرة هى الداهية أو المصيبة التى إذا حلَّتْ بالإنسان كسرتْ فَقَار ظهره.

ومن العلماء مَنْ فسَّر الفاقرة بأنواع العذاب فى النار ، وقد فسَّرها الكلبى فقال : الفاقرة هى أنْ تُحجب عن رؤية ربها ولا تنظر إليه[1] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ ﴾

التراقي جمع تُرْقوة ، وهى العظم الذى بين ثغرة النحر والعاتق وعند مخرج الصوت . أى إذا بلغت الروحُ الحلقومَ . والتراقى هى عروقُ العنق .

وبلوغ التراقى أى حين تزول النفسُ والروح عن مكانها وتنتهى إلى التراقى ، وهى مُقدَّم الحَلْق من أعلى الصدر تترقى إليه النفس عند الموت، وهناك تقع الحشرجة واحدته ترقوة .

فالتراقى العظام المكتنفة لثغرة النحر عن يمين وشمال ، فروح الإنسان تُنزع من أصابع القدم إلى أمشاط القدمين ثم إلى الساقين فتبرد الساقان بعد أنْ تمرّ الروح بهما ومنها إلى الفخذين ، ثم تصعد الروح إلى التراقى .

ثم يُسمع للعبد حشرجة ويُسمع لصدره قعقعة ، فما هى إلا لحظات حتى يرتفع بصره ، والبصر يتبع الروح من حيث خرجتْ .

---

(١) أورده الرازى فى مفاتيح الغيب (٣٠/٧٣٣) ومثل تفسير الكلبى قاله السائب : هى أن تُحجب عن ربها فلا تنظر إليه .

﴿ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ (٢٧) ﴾ [القيامة] إنها لحظة الاحتضار وخروج الروح وحوله أهله ، يظنون أنهم يستطيعون إنقاذ روحه ، فيقول بعضهم ﴿ مَنْ رَاقٍ (٢٧) ﴾ [القيامة]

هل من طبيب يرقيه ويداويه مما نزل به ويشفيه ويُخلِّصه من ذلك برقيته ودوائه والتمسوا له الأطباء ، فلم يُغنوا عنه من قضاء الله شيئاً .

وقيل : هذا من قول الملائكة الذين يحضرونه عند الموت يقول بعضهم لبعض : مَنْ يَرقَى بروحه إذا خرجتْ فيصعد بها ملائكة الرحمة أو ملائكة العذاب .

﴿ وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ (٢٨) ﴾ [القيامة] لقد تأكد المحتضر أن هذه هى ساعته، وأنها ساعة فراق الأحبة والأبناء والأصدقاء ، ساعة فراق ما اكتسبه فى الدنيا من مال وعقار ، فالموت فى هذه الحالة أمر مقطوع به .

فالفراق الخروج من الدنيا ، وفراق المال والأهل والولد وهو تأكد له أنه خارجٌ من هذه الدنيا ، وأنه الموت لا محالة .

إن ما فيه لا حيلةَ للطبيب فيه ، عند ذلك ييئس من الحياة ومن أهلها ، فقد دنا فراقه من الدنيا ، ودنا توديع الأهل والأقارب والأصحاب ، ودنا انتقاله من هذه الدار لينتقل إلى عالم آخر إلى عالم القبور .

إنه سيفارق كلّ شيء لازمه فى حياته ، سيفارق منصبه ومكانته التى كانت له فى الدنيا ، سيفارق سيارته وزوجته وأولاده وأهله وأحبابه ، سيفارق الدنيا بكل ما فيها .

إنها لحظة الفراق ، لحظة تنتهى فيها حياةُ إنسان وحكايته وقصته على الأرض بكل ما فيها ، لحظة تدمع فيها عيون الصادقين المحبين لمن يعالج سكرات الموت ، ويفرح فيها خصومه الذين كانوا يكرهونه

ويتمنون موته .

﴿ وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ ﴾

مَنْ يتأمل هذه الآية ويعيش تلك اللحظة التى يحتضر فيها إنسان يترك دنياه بكل ما فيها ، يتركها إلى حياة أخرى لا يدرى ما يُفعل به فيها .

مَنْ يرى مُغسِّلاً يغسِّل ميتاً ، إنه يقلب الميت يميناً ويساراً ، ولكى يتحكم فى رجليه من أنْ تسقط يضع اليمين على اليسار ، ويجعل الساقين تلتفان على بعضهما .

والبعض تأول هذه الآية على اجتماع شدة الموت بشدة الآخرة عليه ، وذلك آخر يومه من الدنيا وأول يومه من الآخرة ، وقيل : ما من ميت يموت إلا التفَّت ساقاه من شدة ما يقاسى من الموت[1] .

فشدائد الموت وسكراته تلتف بشدائد القيامة والقبر وتجتمع عليه ، فهو من كرب إلى كرب إن لم يكُنْ مؤمناً طائعاً لله .

والعرب تقول : قامت الحرب على ساق أى اشتدت ، فالتفت شدة مفارقة الدنيا ولذَّاتها بشدة ترك الأهل وترك الولد وترك المال والجاه .

والإنسان إذا مات تيبَّس ساقاه وتلتصق إحداهما بالأخرى .

﴿ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ (٣٠) ﴾ [القيامة] فمرجع العباد إلى الله تعالى ، يُساقون إليه يوم القيامة ليفصل بينهم ، فلا تظن أن مرجعك إلى غير الله، تسوق الملائكةُ روحه حيث أمرهم الله سبحانه ، فإمَّا إلى الجنة وإما إلى النار .

---

(١) أورده الماتريدى فى تفسيره (١٠/٣٥٣) ولم يعزه لأحد . وقد أورد ابن الجوزى فى تفسيره للآية خمسة أقوال : الأول التف أمر الدنيا بأمر الآخرة . قاله ابن عباس . والثانى : اجتمعت فيه الحياة والموت . قاله الحسن . والثالث : التفت ساقاه عند الموت . قاله الشعبى . والرابع : التفت ساقاه فى الكفن قاله سعيد بن المسيب . والخامس : التفت الشدة بالشدة قاله قتادة .

وساعة ترى ﴿ يَوْمَئِذٍ (٣٠) ﴾ [القيامة] وتجد فيها هذا التنوين فاعلم أنه عِوَضٌ عن شيء محذوفٍ ، والمحذوف هنا أكثر من جملة ويصبح المعنى : يوم إذ نجيء بهم يوم القيامة يُساقون إلى مصيرهم.

﴿ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾ ﴾

فلم يصدق بل أعرض عن الإيمان وكذَّب رسول الله ، وهذا فعله كبار صناديد قريش مثل أبى جهل وأبى لهب والوليد بن المغيرة .

لذلك ساق المفسرون هذه الآية فى أبى جهل وغيره قالوا : فلا صدَّق أبو جهل بالقرآن ولا صلَّى لله تعالى ، فلا صدَّق بما جاء من عند الله تعالى ولا صدق رسوله ﷺ(١) .

وليس المقصود أبو جهل أو الوليد بن عقبة ، إنما المقصود جنس الإنسان المذكور فى أول السورة ﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ (٣) ﴾ [القيامة] فكلمة ﴿ الْإِنسَانُ (٣) ﴾ [القيامة] اسم جنس . فلا هو صدَّق بالرسول أو بالقرآن أو بالبعث ولا صلَّى ﴿ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (٣٢) ﴾ [القيامة] أى كذَّب بالحق وتولى عن الطاعة .

وقد تكون (صدَّق) بمعنى : تصدق . من الصدقة فإنه لم يتصدق بماله على الفقراء ولم يكُنْ يُطعم المسكين ، فلم يكُن يعبد الله على أى وجه بل كذَّب بالبعث والقرآن والرسول ، وتولَّى وأعرض عن الله والرسول .

﴿ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ (٣٣) ﴾ [القيامة] يتمطى أى يتبختر ، ومن حديث رسول الله ﷺ: « إذا مشتْ أمتى المطيطاء وخدمتهم فارسُ والروم كان

---

(١) أورده مقاتل بن سليمان فى تفسيره (٤/٥١٣) .

بأسهم بينهم » [١].

فهو تولىَّ مُعرضاً وذهب يتبختر ويتيه ويفتخر ، ويتمطى هنا فى محلِّ نصب حال ، ومعنى يتمطى أى يمد مطاه أى ظهره . والمطية ما يُركب مطاه من البعير .

فهو يتبختر عُتواً واستكباراً وفرحاً وتجبراً ، وكلمة (يتمطى) فيها شيء عجيب يدل على ارتباط الصوت بالصورة التى يريد أنْ ينقلها لنا الحق سبحانه .

فنستطيع أن نتلمس تطاول أعضاء مَنْ يتمطى بعد شَدِّ العضلات من الوقوف فى الشَّدة التى على الطاء ، والذى تتبعه الألف المقصورة ذات المد الطويل، وهذا المد يمثل انفراج الأعضاء وتعالى الرجل فى مباهاة وخيلاء.

﴿ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٥﴾ ﴾

وسبب هذه الآيات أن أبا جهل تهدَّد رسول الله ﷺ بالقتل، فقال أبو جهل : إليك عنى فإنك لا تستطيع أنتَ ولا ربك أنْ تفعلا بى شيئاً ، لقد علمتْ قريش أنِّى أعزُّ أهل البطحاء وأكرمها ، فبأىِّ ذلك تخوِّفنى يابن أبى كبشة ، ثم انسلَّ ذاهباً إلى منزله فذلك قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ (٣٣) أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ (٣٤) ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ (٣٥) ﴾ [القيامة]

فأخذ رسول الله ﷺ بتلابيب أبى جهل بالبطحاء فدفع فى صدره وقال (أولى لك فأولى ثم أولى لك فأولى) أى يُهدده ويتوعده . وهو يُقال لمَنْ

---

(١) أخرجه عبد الله بن المبارك فى الرقائق والزهد (٥٢/٢) ولفظه : « إذا مشت أمتى المطيطاء وخدمتهم أبناء الملوك أبناء فارس والروم سلط الله شرارها على خيارها » . وأخرجه كذلك الخرائطى فى [مساويء الأخلاق] (٥٧٨) والبغوى فى شرح السنة (٤٢٠٠) من حديث ابن عمر رضى الله عنه .

وقع فى هلكة أو قاربها .

وقد قال أبو جهل عندما سمع قول رسول الله هذا له : أيوعدنى محمد وما بين جبليها أعزُّ منى ولا أكرم ، فأنزل الله ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (٤٩) ﴾ [الدخان]

وقد يُسأل سائل : ولماذا التكرار ؟ تكراره للتأكيد ويحتمل أنْ يُراد به ويْلٌ لك فى الدنيا بالقتل واللعن ، وويلٌ لك يوم الموت ، وويلٌ لك إذا بُعثت، وويلٌ لك إذا دخلت النار .

لذلك استخدم الحق سبحانه حرف العطف (ثم) وهو يفيد التراخى، وليس الترتيب والتعقيب كحرف الفاء ، وذلك مثل قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ (١١١) ﴾ [آل عمران]

فإذا دققنا الفهم فى العبارة حروفاً ، فقد يظن إنسان أن القول كان يقتضى أنْ يتأتَّى على نحو مغاير هو : يولوكم الأدبار فلا يُنصرون ، لأن الذى يأتى بعد الـ (فاء) يعطى أنهم لا ينتصرون عليكم فى بداية عهدكم.

وهذا ما تفيده الفاء لأنها للترتيب والتعقيب ، لكن أورد الحق (ثُمَّ) وهو يفيد التراخى ، وهذا يعنى أنهم لا ينتصرون عليكم أيها المؤمنون حتى لو استعدوا بعد فترة لمعركة .

(ثم) تأتى للتعقيب مع التراخى ، والفاء تأتى للتعقيب المباشر بدون تراخ ، لذلك فعندما نقرأ القرآن نجد وضع الفاء كالآتى ﴿ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ (٢١) ﴾ [عبس] فدخول القبر يكون بعد الموت مباشرة ، وبعدها يقول الحق ﴿ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ (٢٢) ﴾ [عبس]

فإذا كان هناك تعقيبٌ بعد مدة زمنية ، فالحق يأتى بـ (ثم) وإذا كان هناك تعقيب فورى بلا مدة يأتى الحق بـ (ف) .

﴿ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى (٣٤) ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى (٣٥) ﴾ [القيامة] اثنان فى الدنيا، واثنان فى الآخرة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ ﴾

أيظنّ الإنسانُ أن الله خلقه عبثاً ، وأنه سيتركه سُدىً بدون حساب ولا عقاب ، بل كلُّ عمل يفعله الإنسانُ فى الدنيا مُحصى عليه ، وسيُسأل عنه يوم القيامة .

فلا يظن الإنسان أنه سيفلت من الله أو أنه سيهرب من عقابه فى الآخرة، أو أنه سيُترك سُدى . لذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (١١٥) ﴾ [المؤمنون]

ولو تركنا الله تعالى بلا حساب لكان المنحرف الذى أعطى لنفسه شهواتها فى الدنيا أوفرَ حظاً من المستقيم .

وكلُّ مخلوق لغاية فلا شيء يُخلق عبثاً ، والعبث هو الفعل الذى لا غايةَ له ولا فائدةَ منه ، كما تقول : فيما تعبث ؟ لمن يفعل فعلاً لا جدوى منه . وغير العبث نقول : الجد .

فنفى الحق سبحانه أنْ يكونَ الخَلْق عبثاً بلا غاية ، لأن الله خلق الخَلْق لغاية مرسومة ووضع لها منهجاً يحدد هذه الغاية ، ولا يضع المنهج للخلق إلا الخالق .

فقوله تعالى : ﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنْسَٰنُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى (٣٦) ﴾ [القيامة] أى هملاً لا يُؤمر ولا يُنهى ولا يُكلَّف فى الدنيا ولا يُحاسب فى الآخرة .

وقد قال البعض : أيحسب الإنسانُ أنْ يُترك فى قبره كذلك أبداً لا يُبعث .

ولايحسب هذا إلا الكافر الذى لا يؤمن ببعثه مرة أخرى إلى الحياة بعد الموت ، ولا يؤمن بحساب ولا جزاء ولا جنة ، ولا نار .

﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣٩﴾ ﴾

النطفة فى الأصل هى قطرة الماء العذب ، وكذلك هى خلاصة الخلاصة، لأن جسم الإنسان تحدث فيه عملية الاحتراق ، وعملية الأيض أى الهدم والبناء بصفة مستمرة ينتج عنها خروج الفضلات المختلفة من الجسم .

فالبول والغائط والعرق والدموع وصمغ الأذن ، كلها فضلات ناتجة عن احتراق الطعام بداخل الجسم حيث يمتص الجسمُ خلاصةَ الغذاء وينقلها إلى الدم .

ومن هذه الخلاصة يُستخلص منىُّ الإنسان الذى تُؤخذ منه النطفة ، فهو خلاصة الخلاصة فى الإنسان ، ومنه يحدث الحمل ويتكوَّن الجنين .

وكأنَّ الخالقَ عز وجل قد صفَّاها هذه التصفية ونقَّاها كل هذا النقاء لأنها ستكون أصلاً لأكرم مخلوقاته وهو الإنسان . فالله خلق آدم من طين ثم جعل نسله من هذه النطفة الحية التى وضعها فى حواء ، ثم أتى منها كل الخَلْق بعده ، فكأنَّ فى كل واحد منا ذرة من أبيه آدم ، فهذه الذرة موجودة فيك فى النطفة التى تلقيها ويأتى منها ولدك ، وهى أصفى شيء فيك .

والنطفة التى هى أساس خَلْق الإنسان تعيش فى وسط مناسب هو السائل المنوى ، لذلك قال سبحانه : ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِي يُمْنَى (٣٧) ﴾ [القيامة]

وهى الحيوان المنوىّ الذى يتزاوج مع البويضة الموجودة فى رحم المرأة فتنتج العلقة ، فالقذفة الواحدة من الرجل قد يوجد فيها من الإنسان

ما يكفى خَلْق الملايين ، ولا يمكن للعين المجردة أنْ ترى الحيوان المنوى الواحد نظراً لدقته المتناهية .

وقد شاء الحق سبحانه ألاَّ ينفذ إلى بويضة المرأة إلا الحيوان المنوى الأقوى ، ليؤكد لنا أن لا بقاء إلاّ للأصلح ، فإنْ كان الحيوانُ المنوىّ يحمل الصفات الوراثية لميلاد أنثى جاء المولود أنثى ، وإنْ كان يحمل الصفات الوراثية لميلاد الذكر جاء المولود ذكراً .

وهو ما يسميه العلماء (الإكس والإكس واى) فالحيوان المنوى يخرج من الرجل ، منه ما هو خاصّ بالذكورة ، ومنه ما هو خاص بالأنوثة ، ثم تتم عملية انتخاب للأقوى الذى يستطيع تلقيح البويضة .

وقد وصفه الحق سبحانه بالماء الدافق فقال ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ (٥) خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ (٦) يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ (٧) ﴾ [الطارق]

فـ ﴿ أَلَمْ يَكُ (٣٧) ﴾ [القيامة] هذا المنكر المكذّب لقدرة الله على إحيائه بعد موته ماءً قليلاً فى صُلْب الرجل (نطفة) هيِّنة يُمنيها الرجل فى موضع امرأته كالماء الذى ينزل منه عند التبول ، فهو بهذا الاعتبار ﴿ مَاءٍ مَهِينٍ (٢٠) ﴾ [المرسلات] وإن كان منه الإنسان المكرَّم عند الله .

فالنطفة منىٌّ يُمنى فى الرحم ويُصبُّ ويُقذف ، وهذا فيه إشارة إلى حقارة حاله ، فهو مخلوق من المنى الذى جرى ونزل من مخرج البول وهو نجس ، فلا يليق بمثل هذا أنْ يتمرد على طاعة الله عز وجل .

ثم يقول سبحانه : ﴿ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى (٣٨) ﴾ [القيامة] العلقة جاء اسمها من مهمتها حيث تتعلق بجدار الرحم كما أثبت العلم المعاصر ، يقول سبحانه ﴿ فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً (١٤) ﴾ [المؤمنون]

ويقول العلماء : تتحول هذه النطفة إلى علقة بعد أربعين يوماً ، والعلماء يسمونها الزيجوت وهى عبارة عن بويضة مُخصَّبة وتبدأ فى أخْذ غذائها منه .

﴿ فَخَلَقَ فَسَوَّى (٣٨) ﴾ [القيامة] أى فقدَّر خَلْقه وسوَّاه وعدله ، وبنفخ الروح فيه وكمل أعضاءه وسوَّاها وجعله سميعاً وبصيراً ناطقاً ، وجعله مُستوياً معتدلَ القامة .

جعله إنساناً يمشى ويتحرك ويتكلم ويسمع ويبصر ويفكر بعد أنْ كان مجرد ماء جرى من أبيه لأمه وأصبح علقة تعلَّقت برحم أمه ثم مضغة ثم سوَّى الله أعضاءه فى رحم أمه ، ثم خرج إلى الحياة .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (٣٩) ﴾ [القيامة] كلمة (زوج) تعنى مفرداً معه مثله ، فالذكر زوج والأنثى زوج أيضاً ، والذكر والأنثى كلاهما من المنىِّ ، والجنس البشرى جعل منه سبحانه الذكر والأنثى ، ومنهما يأتى الإنجاب الخلافى ، فهو محمول أولاً فى ظهر أبيه نطفةً ، ثم فى أمه جنيناً ، ثم تضعه لترعاه مع والده ويربيه الاثنان حتى يبلغ رشده .

فجعل سبحانه من الإنسان أولاداً ذكوراً وإناثاً ، و﴿ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (٣٩) ﴾ [القيامة] بدل من الزوجين ، والضمير فى ﴿ مِنْهُ (٣٩) ﴾ [القيامة] عائدة على ماء الرجل .

والمقصود بالزوجين الصنفين ، وإلاَّ فقد تحمل المرأة ذكراً فقط أو أنثى فقط أو ذكرين أو أنثيين أو ذكرين وأنثى ، أو أنثيين وذكر ، أو غير ذلك مما يقضى الله به.

ويقول الحق سبحانه :

﴿ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾ ﴾

السورة سورة القيامة ، ومدار الكلام فيها على إثبات البعث والقيامة، فقال من بدايتها ﴿ لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ (١) وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ (٢) أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ (٣) ﴾ [القيامة]

فهل يظن الإنسانُ أننا لن نجمع عظامه التى تفرقت وتفتتت ، ثم يذكر الحق سبحانه بعضَ أحداث يوم القيامة ﴿ فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ (٧) وَخَسَفَ الْقَمَرُ (٨) وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ (٩) ﴾ [القيامة]

فأنت أيها الإنسان المكذِّب الذى لا صدَّقْتَ ولا صليْتَ ستموت حتماً ﴿ كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ (٢٦) وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ (٢٧) وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ (٢٨) وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ (٢٩) ﴾ [القيامة]

وإياك أنْ تفكر أيها الإنسان أن الله خلقك عبثاً ، وأنه سيتركك سُدى بدون أمر أو نهى ، أو دون ثواب وعقاب .

ولا تترفع عن أمر ربك ، فما أنت إلا نطفة أمناها أبوك فى رحم أمك ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى (٣٨) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (٣٩) ﴾ [القيامة]

ثم ختم الحق السورة بقوله : ﴿ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى (٤٠) ﴾ [القيامة] والمنكرون للبعث يقولون ﴿ أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ (١٠) ﴾ [السجدة]

فهم لا يصدقون أن الذى أنشأهم أول مرة بقادر على أنْ يعيدهم مرة أخرى ، لذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى (٤٠) ﴾ [القيامة]

سُورَةُ الإِنسَانِ

سورة الإنسان(١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ۝١﴾

الحق سبحانه خلق الكون وعوالمه بكل مكوناته ، وذكرها كلها فى القرآن لم يترك منها شيئاً ، لذلك قال تعالى : ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ (٣٨)﴾ [الأنعام]

وكما ذكر الله سبحانه الإنسان هنا وسُميت السورة بهذا الاسم ، ذكر الجن وسُميت سورة باسم (الجن) ، وذكر الملائكة فى سورة أخرى أُسميت (فاطر) ، وقيل عنها : السورة التى يُذكر فيها الملائكة.

وقال تعالى : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١)﴾[فاطر]

وكما ذكر الحق سبحانه هذه العوالم الثلاث ذكر الكون الذى سيعيش فيه الإنسان من أرض وسماء وجبال وأنهار ، فذكر الله الشمس وخصَّص لها (سورة الشمس) ، وذكر القمر وخصص له (سورة القمر)، وذكر النجم وخصص لها (سورة النجم) .

وذكر الحق الإنسان فى سورة باسمه وكأنه يُحدِّثنا عن أصل الإنسان وبدايته وصولاً إلى مصيره ، إنها تحدِّثنا عن ذلك المخلوق الذى خلقه الله

---

(١) سورة الإنسان وتسمى سورة الدهر لذكر الدهر فيها ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا (١)﴾ [الإنسان] وهى سورة مدنية وقيل نزلت بمكة . وهى ٣١ آية والبعض يسميها سورة هل أتى . قال علم الدين السخاوى فى (جمال القراء وكمال الإقراء) (١/٤٩٣) : ليس فيها منسوخ ، نزلت بعد سورة القيامة وقبل سورة المرسلات .

ليكون خليفة له في الأرض، وأسكنه في كون أعدَّه له.

فإذا كان الحق سبحانه هو الذى جعل الإنسان خليفة فى الأرض فقد أعدَّ له كلَّ هذه المقومات للحياة من قبل آدم عليه السلام، أعدَّ سبحانه لخَلْقه الأرض والسماء والماء والهواء ومما ذخر وخبّأ وأوجد فى الأرض من أقوات لا تنتهى إلى يوم القيامة.

فالإنسان قد طرأ على النعم، بمعنى أن الله لم يخلق الإنسان ثم خلق له النعم، بل خلق النعم أولاً ثم جاء الإنسان إلى كون أُعدَّ له إعداداً كاملاً، وفيه كلّ مقومات الحياة ومقومات استمرارها.

وليس هناك تفرقة فى هذا بين مؤمن وغير مؤمن، فغير المؤمن مخلوقٌ لله كالمؤمن بالضبط، استدعاه الله إلى هذا الوجود، وسبحانه قد أعدَّ له مكانه فى هذا العالم.

وقبل أنْ يخلق سبحانه الإنسانَ أعدّ له الكون الذى يعيش فيه الأرض والشمس والقمر والسماء والكواكب والنجوم، ثم جاء الإنسان إلى الكون ليجد كل شيء قد أُعدَّ لخدمته خاضعاً له، فلا يوجد جنس من الأجناس يتأبى عن خدمة الإنسان. فلا الأرض إذا زُرعتْ رفضت إنبات الزرع، ولا الحيوان الذى سخره الله جل جلاله لخدمة الإنسان يتأبَّى عليه.

فسبحانه قد خلق لنا السماوات والأرض من قبل أنْ يخلقنا وقدَّر الأرزاق، ولو نظرت إلى خلقك أنت لوجدت العالم الكبير قد انطوى فيك، وهو القائل سبحانه: ﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ(٢١)﴾ [الذاريات]

والشيء الذى يجب أنْ يتأمله الإنسان جيداً ويتحققه أنه وهو فى بطن أمه وعند تكونه يجد أن الله قد أعدَّ له حياته الخاصة داخل رحم أمه، فيهيء الله له حبلاً سُرياً يمده الله من خلاله بالغذاء من خلاصة ما تأكله أمه دماً به كل العناصر الغذائية، لا يسعى لرزق ولا يمضغ

طعاماً ولا يهضم أكلاً ، بل يستفيد مما تكوَّن داخل رحم أمه .

حتى عندما يخرج إلى الحياة يجد مَنْ يستقبله ويرحب به يجد عالماً جديداً قد أعدَّه الله له فهو طاريء على حياة أُعدَّتْ له ، هذا مثل وجود الإنسان على الأرض فقد أوجد الله الإنسان على أرض قد أعدها للإنسان قبل إهباطه إليها فهيأ الله له ماء عذباً فى أنهار تخترق الجبال والوديان حيث يوجد الإنسان وهيَّأ له ثمراً وزرعاً وعلَّمه كيف يستفيد مما حوله ، والله سبحانه وتعالى خلق لنا فى هذا الكون أشياء تعطى الإنسان بغير قدرة منه ودون خضوع له، والإنسان عاجز عن أنْ يقدم لنفسه هذه النعم التى يقدمها الحق تعالى له بلا جهد.

ونعمة الله على الإنسان التى يستحق عليها الحمد أنه سبحانه جعل النعمة تسبق الوجود الإنسانى ، فعندما خلق الإنسان كانت النعمة موجودة تستقبله .

بل إن الله جل جلاله قبل أنْ يخلق آدم أبا البشر جميعاً سبقته الجنة التى عاش فيها لا يتعب ولا يشقى ، فقد خلق فوجد ما يأكله وما يشربه وما يقيم حياته وما يتمتع به موجوداً وجاهزاً ومُعداً قبل الخَلْق .

وحينما نزل آدم وحواء إلى الأرض كانت النعمة قد سبقتهما فوجدا مايأكلانه وما يشربانه وما يقيم حياتهما ، ولو أن النعمة لم تسبق الوجود الإنسانى وخُلقت بعده لهلك الإنسان وهو ينتظر مجيء النعمة.

وُجد الكون قبل أنْ يوجد الإنسان ، وُجد قبل أنْ يكون الإنسان شيئاً مذكوراً ، لذلك يسأل الله السؤال وهو يعلم سبحانه أنه لن يسع الإنسان سواء كان مؤمناً أو كافراً إلا أنْ يجيب بنعم ، نعم أتى على الإنسان حينٌ من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً.

والحق سبحانه لم يقل : هل أتى على الإنسان حينٌ من الدهر لم يكن شيئاً . وسكت . بل أضاف سبحانه كلمة (مذكوراً) لأن الإنسان كان

شيئاً ولكنه كان شيئاً لا قيمة له ولا وزن ، كان طيناً ماء وتراباً .

والحق سبحانه وإنْ كان قد خلق الإنسان الأول آدم من ماء وتراب الذى أصبح طيناً فإنه جعله سلالة من ماء مهين ، وقال : ﴿ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ (٧)﴾ [السجدة] فبدء خلق الإنسان كان من الطين ، ولكن لا يُعقل أنْ يخلق كل أفراد الإنسان من الطين ، لذلك جعله الله نسلاً وصهراً يتناسل ويتكاثر .

لذلك قال تعالى : ﴿ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ (٨)﴾[السجدة] والسلالة هى خلاصة الشيء ، فالخالق سبحانه خلقنا أولاً من الطين، ثم جعل لنا الأزواج والتناسل الذى نتج عنه رجال ونساء، فالسلالة هى أجود مافى الشيء ، وقد خلق الله الإنسان الأول من أجود عناصر الطين وأنواعه وهى زبد الطين .

فلو أخذتَ قبضة من الطين وضغطت عليها بين أصابعك يتفلت منها الزبد وهو أجود مافى الطين ويبقى فى قبضتك بقايا رمال وأشياء خشنة .

والله جعل الإنسان سلالة من نطفة تُصفَّى من الرجل والمرأة ، فتكون علقة من سلالة منتقاة من منى يُمنى ، من ماء هيِّن يقذفه الرجل من عضوه ليُفرغه فى عضو زوجته ، فكيف يتكبَّر مثل هذا ؟

والبعض يسوق كلمة (الإنسان) هنا ليس عن جنس الإنسان ونوعه بل عن آدم عليه السلام نفسه ، فمعنى ﴿ هَلْ أَتَى (١)﴾ أى قد أتى ﴿ عَلَى الْإِنْسَانِ(١)﴾ [الإنسان] أى آدم عليه السلام ﴿حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ(١)﴾ [الإنسان] أى مدة أربعين سنة وهو من طين مُلقى .

فعن أنس رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : «لما صوَّر الله آدم فى الجنة تركه ما شاء الله أنْ يتركه فجعل إبليس يطوف به وينظر إليه ، فلما رآه أجوف عرف أنه خَلْق لا يتمالك» .(١)

---

(١) أخرجه أبو داود الطيالسى (٢١٣٦) وأحمد فى مسنده (١٢٥٣٩) والحاكم فى مستدركه (١٠٥) وقال : حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه وأقره الذهبى . من حديث أنس بن مالك .

والبعض روى أن آدم بقى أربعين سنة طيناً ، ثم أربعين سنة حمأً مسنوناً ، ثم أربعين سنة صلصالاً كالفخار ، فتمّ خلقه بعد مائة وعشرين سنة .

لقد بقى مائة وعشرين سنة لم يكُنْ شيئاً مذكوراً أى لا يُذكر ولا يُعرف ولا يُدرى ما اسمه ولا ما يُراد به . ولكن الله هو وحده الذى يعلم ما يراد بما خلقه وما هو، لذلك سمَّاه (الإنسان).

ويلفت نظرنا هنا كلمة (الدهر) والدهر الزمن الطويل ، وهذا يدل على أن آدم بقى فى طينته زمناً طويلاً يصل فعلاً لمائة وعشرين سنة.

وهذه السورة فى أحد تسمياتها (الدهر) ، وفى بعض تسمياتها سورة (هل أتى) . وهو لم يكن شيئاً مذكوراً لا فى السماء ولا فى الأرض، فقد كان جسداً مُلقى من طين قبل أنْ يُنفخ فيه الروح.

ثم يقول الحق سبحانه:

﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ ﴾

إذا تحدَّث الله سبحانه عن فعل يحتاج إلى كمال المواهب من الله تعالى يقول :(إنَّا) ففى الفعل الذى يفعله الله يأتى بنون العظمة حتى نفهم أن الفعل من الله تعالى ليس وليد قدرته وحدها ولا علمه وحده، ولا حكمته وحدها ، ولا رحمته وحدها ، وإنما كل فعل من أفعال الله تكاملت فيه صفات الكمال المطلق لله .

إن نون العظمة تأتى لتلفتنا إلى هذه الحقيقة لتبرز للعقل تكامل الصفات فى الله لأنك قد تقدر ولا تعلم وقد تعلم ولا تقدر وقد تعلم وتغيب عنك الحكمة . إذن : فتكامل الصفات مطلوب .

فكل فعل من أفعال الله يقتضى حشداً من الصفات علماً وإرادة وقدرة وحكمة وقبضاً وبسطاً وإعزازاً وإذلالاً وقهارية ورحمانية .

وقد عظّم الحق سبحانه نفسه لأن الأمر هنا حشد صفات يتطلبها إيجاد الكون والقيام على أمر الكون ، فهو سيال القدرة الشاملة العامة لكل صفات الكمال التى تتطلب إيجاد الشيء ، فيأتى بنون التعظيم فيقول تعالى (إنَّا).

﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ (٢)﴾ [الإنسان] فالله خلق الإنسان الذى هو ولد آدم من نطفة أى منى الرجل ومنى المرأة يختلطان ببعضهما، فقال تعالى (أمشاج) أى أخلاط ، يختلطان فى رحم المرأة.

فماء الرجل غليظ أبيض ، فمنه العصب والعظم والقوة ، ونطفة المرأة صفراء رقيقة ، فمنها اللحم والدم والشعر والظفر فيختلطان .

وقد ذهب البعض إلى أن الأمشاج هى العروق التى تكون فى النطفة، والمشج أيضاً المزج فقد امتزج الماءان فتكون منهما العلقة وينتقل من طوْرإلى طوْر، ومن حال إلى حال ، ومن لون إلى لون .

ونحن إنما خلقنا الإنسان من نطفة اختلط فيها ماء الرجل بماء المرأة مريدين ابتلاءه واختباره بالتكليف فيما بعد إذا شبَّ وبلغ الحلم.

وربما كانت (أمشاج) إشارة إلى تكوُّن النطفة من خلية الذكر وبويضة الأنثى بعد التلقيح ، وربما كانت هذه الأخلاط تعنى الجينات الكامنة فى النطفة وهى وحدات الوراثة الحاملة للصفات المميزة لجنس الإنسان أولاً ، ولصفات الجنين العائلية أخيراً.

فهذه الصفات الوراثية والجينات المختلطة هى التى تأتى بهذا الإنسان الذى تتماير أخلاقه وتصرفاته وطرق وأساليب تفكيره وتختلط ردود أفعاله بين الحزن والفرح ، بين الضحك والبكاء ، بين التعقل والجنون .

وإذا كان الحق سبحانه بدأ الآية بالأمر المادى من خلق الإنسان

﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَـٰنَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ(٢)﴾ [الإنسان] وهذا الأمر المادى المُحسُّ، نطفة رجل مع ماء امرأة يلتقيان ويختلطان ويصبحان مشيجاً أو مزيجاً ينتقل من حالة إلى حالة إلى أن يصبح إنساناً.

ولكن الحق سبحانه قال بعدها ﴿ نَبْتَلِيهِ (٢)﴾ [الإنسان] فنقلنا الحق سبحانه من الأمر المادى للخلق إلى الأمر المعنوى وهو الابتلاء أى الاختبار، فالحق سبحانه لم يخلق الإنسان عبثاً ولا جزافاً ولا تسلية، ولكنه خلق الإنسان ليُبتلى ويُمتحن ويُختبر.

فـ ﴿ نَبْتَلِيهِ (٢)﴾ [الإنسان] حال مقدرة أى مريدين ابتلاءه حين تأهُّله، ﴿فَجَعَلْنَـٰهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (٢)﴾ [الإنسان] فلأننا سنبتليه ونختبره ونمتحنه فإننا جعلناه سميعاً بصيراً، فابتلاؤه يأتى بعد إعطاء الإنسان وسائل الإدراك التى يدرك بها المُحسَّات، وأهم تلك الوسائل الإدراكية السمع والبصر.

الحق سبحانه يتفضل على هذا الإنسان الذى كان تراباً مخلوطاً بماء فأصبح طيناً وظل حيناً طويلاً لم يكُنْ شيئاً مذكوراً، فتفضل الله على هذا المخلوق الجديد بأنْ أسبغ عليه صفاتاً من صفاته فجعله ﴿سَمِيعًا بَصِيرًا (٢)﴾ [الإنسان]

فلولا أن الله شاء أن يجعله سميعاً بصيراً لظلَّ فى طينته أصمَّ أعمى، فلا يحس ولا يدرك أى شيء حوله، فيكون كأنْ لم يكُنْ ولا يصبح شيئاً.

وبجعله آدم سميعاً بصيراً علَّمه الأسماء كلها وجعل له منه إنساناً آخر سميعاً بصيراً أيضاً هو حواء أدرك وجودها وأدركتْ وجوده، كان منهما البشر جميعاً وجنس الإنسان كله، إنها حكاية الإنسان الذى لم يكُنْ شيئاً مذكوراً.

ومن السمع والبصر تتكون المعلومات فتنشأ عند الإنسان معلومات عقلية ، ووسائل الإدراك العلمى فى الإنسان هى السمع والبصر والذوق واللمس والشم ، التى تعطى العلم للإنسان الذى لم يكن يعلم شيئاً .

وهو سبحانه القائل ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨)﴾ [النحل]

كلٌ من الأذن والعين وسيلة إدراك، والجوارح كلها وسائل إدراك ، وكل إنسان له ملكات متعددة منها ملكات إدراكية وملكات نفسية .

والملكات الإدراكية هى التى تُدرك بها الأشياء مثل السمع والبصر والشم والذوق ، وكلها من وسائل الإدراك الحسية التى تتكون منها الخمائر المعنوية ثم تصبح عقائد.

فوسائل الإدراك هذه تتلقى من العالم الحسى ما يعطيه لها من معلومات وتخزنها لتتصرف بعد ذلك على أساسها وتكون فى مجموعها هى ما يعلمه الإنسان.

والله خلق الإنسان وجعله سميعاً بصيراً ولم يتركه يعتمد على نفسه يهتدى أو لا يهتدى ، يؤمن أو يكفر ، يعرف ربه أو لا يعرفه ، بل يقول الحق سبحانه بعدها:

﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾

السبيل : الطريق وهو الصراط ، وسبيل الله المستقيم هو عبادة الله الحق وحده ، والحق سبحانه يدل الناس على الطريق المستقيم فيقول: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٥٣)﴾ [الأنعام]

وما دام هناك طريق لغاية ما فلا بد أنْ نحدد الغاية أولاً ، وتحديد الغاية إنما يهدف إلى إيضاح السبيل أمام الإنسان ليسلك الطريق

الموصِّل إلى تلك الغاية .

وسبيل الله هو الطريق المستقيم ، فالطريق المعوج يطيل المسافة،فيطيل على نفسه السبيل ، فالخط المستقيم هو أقصر الخطوط للوصول للغاية .

وكلمة (السبيل) و (الطريق) كلها أمور حسية ، على المعانى العقدية المعنوية يوضحها سبحانه بأمور حسِّية أمامنا .

وعندما توجد فى مفترق طريق وتريد أنْ تصل إلى المنطقة الفلانية فانحرافك بمقدار ملليمتر واحد فى بداية الطريق يبعدك عن الهدف ، وكلما امتد بك السير اتسع المشوار وبعدت المسافة .

وليس للحق إلا سبيل واحد ، ومَنْ يخرج عن هذا السبيل ﴿ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (١١٥)﴾ [النساء] لذلك كان الضلال هو أنْ يسلك الإنسانُ سبيلاً غير موصِّل للغاية ، فيبتعد عن الغاية ، وذلك هو الضلال البعيد .

والهداية هنا فى قوله تعالى : ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ (٣)﴾ [الإنسان] أى الدلالة على السبيل الموصِّل إلى الجنة وليست هداية التوفيق والإعانة ، لذلك قال تعالى بعدها ﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا(٣)﴾ [الإنسان]

الله أنعم علينا بإيجادنا من العدم وأعدَّ لنا الكون لاستقبالنا وهيَّأ لنا الرزق وأسبابه ولا حيلة لنا فيه ، وهذا إنما يستحق الشكر منا .

ومن رحمة الله تعالى أنه جعل الشكر له فى كلمتين اثنتين هما : الحمد لله . ومن رحمة الله سبحانه أنه علَّمنا صيغة الحمد ، فلو أنه تركها دون أنْ يحددها بكلمتين لكان من الصعب على البشر أنْ يجدوا الصيغة المناسبة ليحمدوا الله على هذا الكمال الإلهى .

فمهما أُوتى الناس من بلاغة وقدرة على التعبير ، فهم عاجزون أنْ يصلوا إلى صيغة الحمد التى تليق بجلال المنعم .

عطاء الله سبحانه ومنعه العطاء يستوجبان الحمد ، ووجود الله سبحانه الواجب الوجود يستوجب الحمد ، فالله يستحق الحمد لذاته .

وشُكْر الله يُذهب الغرور عن نفسك فلا تفتنك الأسباب ، والشكر إنما يؤديه العبد على نعمة التمحيص والتعليم ، ولقد تعلَّم المؤمنون أن الله يستحق منهم الشكر على النعم .

والحق سبحانه ربط بين الشكر والإيمان فقال : ﴿ مَا يَفْعَلُ اللهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ (١٤٧)﴾ [النساء] ، فلماذا وضع الله الشكر مع الإيمان ؟

لنعرف أولاً ما الشكر ؟ الشكر هو إسداء ثناء إلى المنعم ممَّنْ نالته نعمته فتوجيه الشكر يعنى أنْ تقول لمن أسدى لك معروفاً «كثر خيرك» وما الإيمان ؟ إنه اليقين بأن الله واحد .

فالحق سبحانه يدل الإنسان على الطريق المستقيم ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا (٣)﴾ [الإنسان] فإنْ آمن الإنسان بأن الله يدلُّه على طريق الحق والخير فآمن بكتبه ورسله يكون قد شكر نعمة الله عليه .

والشكر يكون أولاً ثم يوجد الإيمان ، فالشكر عرفان إجمالي، والإيمان عرفان تفصيلى ، والشكر متعلق بالنعمة والإيمان متعلق بالذات التى وهبت النعمة ، ولابد أنْ يشكر الإنسانُ واهب النعمة .

لو فطن الناسُ لشكروا الأنبياء والرسل على المنهج الذى بلَّغوه عن الله لأنه يهديهم إلى حُسْن إدارة الدنيا ، وفوق ذلك يهديهم للجنة .

وقد ذكر الحق سبحانه الكفر مقابلاً للشكر ، فقال تعالى : ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ (٧)﴾ [إبراهيم]

وشاء سبحانه أنْ يترك الشكر للبشر على تلك النعم ولم يسخرهم شاكرين ، وقد وصف الحق سبحانه أحد هؤلاء الشاكرين نوحاً عليه السلام، فقال تعالى : ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا (٣)﴾ [الإسراء]

وشكور صيغة مبالغة فى الشكر فلم يقل شاكر ، لأن الشاكر الذى يشكر مرة واحدة ، أما الشكور فهو الدائب على الشكر المداوم عليه .

وكما هو فى الناس مَنْ هو شكور ، ففى الناس مَنْ هو كفور ، ليس كافراً فحسب بل (كفور) وهى صيغة مبالغة من الكفر لأنه كفر وعمل على تكفير غيره ، وهو كثير الكفر للنعمة .

﴿ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَاْ وَأَغۡلَٰلٗا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ ﴾

لقد أعددنا وهيَّأنا ، فالمسألة موجودة وقد أُعدت فالجنة مُعدَّة وموجودة ، ورسول الله ﷺ حينما يتكلم عن الجنة يقول : «عُرضت علىَّ الجنة ، لو مددتُ يدى لتناولتُ من قطوفها» .(١)

فالمسألة جاهزة وليست تحت الإعداد ، ومن الذى أعد ؟ إنه الله قوة القوى وقدرة القُدَر هى التى تُعد ، وسبحانه يعدها على قدر سعة قدرته .

ويقول تعالى فى آية أخرى : ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا (٢٩)﴾ [الكهف] فالمسألة منتهية مسبقاً ، فالجنة والنار مخلوقتان فعلاً ومُعدَّتان ومُجهزتان ، لا أنها ستُعد فى المستقبل .

وقد أُعدَّت إعداد قادر حكيم ، فأعدَّ الله الجنة لتسع كل الخلق إنْ آمنوا ، وأعدَّ النار لتسع كل الخلق إنْ كفروا . فإنْ آمن بعض الخلق وكفر البعض فالذى آمن وفَّر مكانه فى النار ، والذى كفر وفَّر مكانه فى الجنة .

والحق يذكر هنا تفاصيل ما أعدَّ للكافرين فقال ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا (٤)﴾ [الإنسان] ثلاثة أشياء ضمن أشياء كثيرة أعدَّها الله عذاباً للذين كفروا وللظالمين : السلاسل ، الأغلال ، السعير .

---

(١) أخرجه أبو داود الطيالسى فى مسنده (١٨٦١) وأحمد فى مسنده (٦٤٨٣، ٦٧٦٣، ٢١٢٥٠) من حديث طويل عن جابر بن عبد الله وفيه ألفاظ كثيرة : «لقد عُرضت علىَّ الجنة حتى لو شئت لتعاطيت من قطوفها» ويقول : «لقد عُرضت علىَّ الجنة حتى لو أشاء لتعاطيت بعض أغصانها» .

فيُوثقون بالسلاسل فى الجحيم ، وتُغلّ أيديهم إلى أعناقهم بالأغلال، فهم يُقادون إلى جهنم والسلاسل فى أيديهم ، ولكنهم يُقيَّدون بالأغلال فى مستقرهم فى جهنم.

والسلاسل جمع سلسلة وهى حلقات حديدية متصلة ببعضها ، والأغلال جمع غُلّ ، وهو الحديدة التى تجمع اليدين إلى العنق لتقييد الحركة ، فهى أطواق الحديد التى لها طرف فى كل يد ليقيدها ، وطرف آخر مُعلَّق فى الرقبة ليقلل مساحة حركة اليدين لمزيد من الإذلال.

وهناك الأصفاد ، قال تعالى : ﴿ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (٤٩)﴾ [إبراهيم] والأصفاد جمع صفد وهو القيد الذى يُوضع فى الرِّجْل وهو مثل الخلخال ، فيُقيِّدون فى الأصفاد أى من أرجلهم ، هناك من يُقيَّد بالأغلال أي توضع أيديهم فى سلاسل وتُعلَّق تلك السلاسل فى رقابهم أيضاً .

قيود وسلاسل وأصفاد وأغلال ، وهم فى السعير النار المستعرة الموقدة عليهم . والسعير اسم للنار المسعورة التى تلتهم كل ما يُلقى فيها .

ثم يذكر الحق سبحانه الصنف المقابل لهؤلاء الكافرين وهم المؤمنون بالله وكتابه ورسوله ووصفهم بالأبرار وذكر ما أعدَّه لهم، فقال:

﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ ﴾

والأبرار يقابلهم الفُجَّار ، قال تعالى: ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (١٤)﴾ [الانفطار] ، فكما جاء بمقابل الأشقياء لا بد أن يفتح القلوب لتنعم بسعادة مصير وجزاء الذين سُعدوا بالإيمان ، فجمْع المتقابلين يزيد من فرحة المؤمن ، ويزيد من حسرة الكافر .

والأبرار هم المؤمنون الصادقون فى إيمانهم المطيعون لربهم ، واحدهم بارّ وبَرّ ، وهم الأنبياء والصالحون ، وهم الذين برُّوا الله

بأداء فرائضهم واجتناب محارمه.

ثواب هؤلاء الأبرار المتقين أنهم يشربون شراباً في كؤوس ﴿ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا (٥)﴾ [الإنسان] وهو اسم عين في الجنة، فهذا الشراب في الكأس يمازجه ماء هذه العين التي تسمى كافوراً، وليس في الجنة من الدنيا إلا الأسماء. وحتى لو كان كافوراً حقيقياً فليس ككافور الدنيا، بل هو كافور لذيذ لا ككافور الدنيا.

والكأس إناء بما فيه من الشراب، لذلك ذكر الكأس وذكر مزاجها ولم يذكر ما فيها من شراب، فقال تعالى: ﴿ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا (٥)﴾ [الإنسان]

وسيأتي فيما بعد قوله تعالى: ﴿ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا (١٧)﴾ [الإنسان] وكل كأس ذُكر في القرآن هي كأس خمر إنما خمر لا تستنزف العقول ولا تغيبها ليس فيها أضرار خمر الدنيا إنما هي ﴿ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ (٤٦)﴾ [الصافات] وتكون إما باردة كالكافور أو لاذعة فيها لذعة الزنجبيل.

ولا يُطلق على الكأس كأساً إلا وهي مملوءة بالشراب، وإلا فهي زجاجة أو كوب أو إبريق، ثم يقول الحق سبحانه:

﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ ﴾

البعض قال: ﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا (٦)﴾ [الإنسان] أي يشرب منها عباد الله إذ لا يُشرب بالعين وإنما يُشرب منها. فعين الكافور يشرب بها أولياء الله تعالى في الجنة.

وفي سورة المطففين يقول تعالى: ﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ (٢٨)﴾ [المطففين] يقولون أي منها، ولكنّ في هذه الكلمة (بها) سراً فقد كان يسع الحق سبحانه أنْ يقول: يشرب منها.

ونجد أن الحق سبحانه يقول في آية سابقة ﴿ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ (٥)﴾ [الإنسان]

أما عند ذكر العين فقال: ﴿يَشْرَبُ بِهَا (٦)﴾ [الإنسان] أى يشرب الخمر ممزوجةً بالكافور رائحته أو مادته ، والبعض اعتبر الباء زائدة فى (بها) فقال: يشرب بها.

والحق سبحانه عبَّر عمن يشرب من هذه العين التى مزاجها كافوراً أنهم ﴿عِبَادُ اللهِ(٦)﴾[الإنسان]فمَنْ هم عباد الله ؟

عباد الله هم مَنْ تخلوا عن اختياراتهم إلى مرادات الله سبحانه ، فهم الذين يتنازلون عن منطقة الاختيار لمراد الله فى التكليف.

لذلك يفرِّق الله سبحانه بين العباد والعبيد ، فيقول سبحانه: ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَـٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا (٦٣) وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (٦٤) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (٦٥)﴾ [الفرقان]

هكذا نرى أن الله أعطى أوصاف المؤمنين وسماهم عباداً، لكن عندما يتحدث عن البشر جميعاً يقول عبيد ، وهناك فرق بين «عبيد» و«عباد» ، فالعبيد هم المرغمون على القهر فى أى لون من ألوان حياتهم ولايستطيعون أنْ يدخلوا اختيارهم فيما يُجريه الله عليهم قهراً.

أما العباد فهم الذين يأتون إلى ما فيه اختيار لهم ويقولون : لقد نزعنا من أنفسنا صفة الاختيار هذه ورضينا بما تأمرنا وتنهانا.

إذن فالعبيد مقهورون بما يُجريه عليهم الحق بما يريد ، والعباد هم الذين يرضون ويكون اختيارهم وفق ما يحبه الله ويرضاه ، إنهم أسلموا الوجه لله فهم مقهورون بالاختيار ، أما العبيد فمقهورون بالإجبار.

هؤلاء الذين يشربون من عين مزاجها كافور ﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا (٦)﴾[الإنسان]

جملة ﴿يُفَجِّرُونَهَا (٦)﴾ [الإنسان] حال تعبر عن ما يفعله الشاربون فى هذه العين ، فإنهم يفجرونها تفجيراً سهلاً حيث شاؤوا من منازلهم لا

يصعب عليهم فهم يُجرونها حيث شاؤوا إجراءً سهلاً لا يمتنع عليهم ، وفى بعض الآثار[١] أن هذه العين فى دار رسول الله ﷺ تفجَّر إلى دور الأنبياء.

ويصف الحق سبحانه عباد الله فيقول:

﴿ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ ﴾

النذر هو أنْ تُلزم نفسك بشيء من جنس ما شرع الله فوق ما أوجب الله ، فإذا نذرت أن تصلى لله كل ليلة عدداً من الركعات فهذا نذر من جنس ما شرع الله ، لأن الله قد شرع الصلاة وفرضها خمسة فروض ، فإنْ نذرت فوق ما فرضه الله فهذا هو النذر.

ويقال فى الذى ينذر شيئاً من جنس ما شرع الله فوق ما فرضه الله، إن هذا دليل على أن العبادة قد حلَّتْ له فأحبها وعشقها ، ودليل على أنه قارب أنْ يعرف قدْر ربه ، وأن ربه يستحق منه فوق ما افترضه عليه .

فكأنَّ الله فى افتراضه كان رحيماً بنا لأنه لو فرض ما يستحقه منا لما استطاع واحد أنْ يفى بحقِّ الله ، إذن فعندما تنذر أيها العبد المؤمن نذراً فإنك تلزم نفسك بشيء من جنس ما شرع الله لك فوق فوق ما فرض الله عليك.

وأنت مخيَّر أنْ تقبل على نذر ما أو لا تقبل ، لكن إنْ نطقت بنذر فقد لزم ، لماذا؟ لأنك ألزمتَ نفسك به.

وأهل القرب من الله يقولون لمن يُخلّ بالنذر بعد أن نذر : هل جربْتَ ربك فلم تجده أهلاً لاستمرار الود ، وليس فينا مَنْ يجرؤ على ذلك لأن الله أهلٌ لعميق الود ، ولهذا فمن الأفضل أنْ يتريث الإنسان قبل أنْ ينذر شيئاً .

---

(١) أورده الثعلبى فى تفسيره (١٠/١٠١) وابن عطية الأندلسى فى (المحرر الوجيز من تفسير الكتاب العزيز (٥/٤١٠) الثعلبى ذكره من قول قتادة بن مهران.

﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ (٧)﴾ [الإنسان] أى يتمون وينفذون نذورهم التى نذروها وألزموا أنفسهم بها، فلا بد أنْ يُوفوا بما أوجبوه على أنفسهم.

وصيغة النذر أنْ يقول: لله علىَّ كذا وكذا من صدقة أو صلاة أو صوم أو حج أو عمرة، يعلِّق ذلك بأمر يلتمسه من الله، وذلك بأن يقول: إن شفى الله مريضى أو قدم غائبى كان لله علىَّ كذا.

ولكن لو نذر فى معصية فلا يجب الوفاء به، وقد روت عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ نذر أنْ يطيع الله فليفِ بنذره، ومَنْ نذر أنْ يعصى الله فلا يفِ به».[1]

ولوجوب الوفاء بالنذر لا بد أنْ يقضيه الرجل عن أبيه أو أمه المتوفاة، فعن ابن عباس قال: «استفتى سعد بن عبادة رسول الله ﷺ فى نذر على أمه فتوفيت قبل أنْ تقضيه فأمره أنْ يقضيه عنها».[2] فعباد الله ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ (٧)﴾، ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا (٧)﴾ [الإنسان]

واليوم المقصود هنا هو اليوم الآخر، والمؤمنون عباد الله يخافون هذا اليوم لعظيم يقينهم أنه آتٍ لا ريب فيه، والحق سبحانه كما ذكر خوف وإشفاق الذين كفروا من اليوم الآخر ذكر أيضاً خوف الذين آمنوا.

الفارق أن الذين آمنوا يشفقون من يوم القيامة وهم فى الدنيا يعملون الصالحات يخافون أنْ لا تقبل أعمالهم ولا توبتهم من ذنوبهم، أما الذين كفروا فاليوم الآخر ليس فى بالهم، ولذلك عندما يعاينون العذاب وأنه حَقٌّ يصيبهم الهلع والخوف والرعب.

يقول تعالى: ﴿تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ (٢٢)﴾ [الشورى]

وهذا عندما عاينوا العذاب بأعينهم، أما المؤمنون فهم مشفقون فى

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٢٤٠٧٥) من حديث عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصى الله عز وجل فلا يعصه». وكذا أخرجه ابن ماجه فى سننه (٢١٢٦)

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٣٥٠٦) وأبو عوانة فى مستخرجه (٥٨٣١) والطبرانى فى المعجم الكبير (٥٣٧٢، ٥٣٧٥) وأبو يعلى فى مسنده (٢٣٨٣) وأخرجه البخارى فى صحيحه (٦٩٥٩) وكذا مسلم فى صحيحه (١٦٣٨) من حديث عائشة.

الدنيا ، قال الحق سبحانه : ﴿ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ (٢٦) ﴾ [الطور]

إنهم يخافون يوماً ﴿ كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا (٧) ﴾ [الإنسان] إنه شرٌّ فاشٍ منتشر كالحريق حين ينتشر وكضوء النهار عندما يستطير وينتشر ضوؤه فى جو السماء .

وقد قال رسول الله ﷺ : «لا يغرنكم من سحوركم أذان بلال ولا بياض الأفق المستطيل هكذا حتى يستطير هكذا» .[1] فالفرق بين الفجر الصادق والفجر الكاذب أن الفجر الكاذب يبدو فى الأفق فيرتفع مستطيلاً ثم يضمحل ويذهب ثم يبدو الفجر الصادق بعده منتشراً فى الأفق مستطيراً .

وهو يوم يستطير خوفه فى أهل السماوات والأرض ، واستطار فى السماوات فانشقت وتناثرت كواكبه وفزعت الملائكة وكوِّرتْ الشمس والقمر وفى الأرض فتشققتْ الجبال وغارت المياه وكسر كل شيء على الأرض من جبل وبناء وشجر.

فاستطار شرُّ ذلك اليوم حتى ملأ السماوات والأرض ، وهم لم يكونوا يوفون بالنذر ويؤدونه وافياً كاملاً غير ناقص بل كانوا:

﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ ﴾

فعباد الله بجانب الوفاء بالنذر على أتم وجه وأكمله يطعمون الطعام ﴿ عَلَىٰ حُبِّهِ (٨) ﴾ [الإنسان] رغم حب الإنسان لطعامه وماله ورزقه الذى اكتسبه بعرقه وكَدِّه ، ولكنه ينفقه ابتغاءَ مرضاة الله .

وقد وصف الحق سبحانه البر ، فقال : ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٢٠١٥٨) من حديث سمرة بن جندب أن رسول الله ﷺ قال : «لا يمنعكم من سحوركم أذان بلال ولا الفجر المستطيل ولكن الفجر المستطير فى الأفق » وأخرجه أبو عوانة فى مستخرجه (١١٠٧) باللفظ الذى أورده الشيخ .

وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ ..(١٧٧)﴾ [البقرة]

فليس البر أنْ تختلفوا حول تغيير القبلة ولا تجعلوا مسألة التوجه إلى الكعبة أو إلى بيت المقدس أو المشرق هو المشكلة ، ولكن البر هو الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين.

وهذه أمور عقدية ، ثم يُتبع الحق سبحانه هذا بأمر عملي يمسُّ حياة الناس والمجتمع الذى يعيشون فيه ، وهو ﴿ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ (١٧٧)﴾ [البقرة]

وإعطاء المال هو الإنفاق بصور شتى قد يكون صدقة أو زكاة أو قرضاً حسناً ، وكلمة (على حبه) يمكن أنْ نفهمها على أكثر من معنى.

يمكننا أن نفهمها على أنه يعطى المال وهو يحب المال ، ويحتمل أن نفهمها على أنه يؤتى المال لأنه يحب أن يعطى مما يحبه من المال عملاً بقول الله تعالى: ﴿ لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ (٩٢)﴾ [آل عمران]

ويمكن أن تصعِّد المعنى فيصير : وآتى المال على حب الإيتاء أى يحب الإعطاء وترتاح نفسه له ، ويقول الحق سبحانه أيضاً : ﴿ لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ (٩٢)﴾ [آل عمران]

وهم يُطعمون المسكين واليتيم والأسير ، ثلاثة أصناف نصَّ عليهم الحق سبحانه اهتماماً بهم ، لأنهم الأضعف والأكثر احتياجاً للإطعام والمساعدة .

أما المسكين فليس هو الذى لا يملك شيئاً على الإطلاق ليقيم به حياته ، فالحق سبحانه يقول : ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ (٧٩)﴾[الكهف] فعرفنا أن المسكين قد يملك ولكنه لا يملك ما يكفيه.

وقد شاء الحق سبحانه أنْ يجعل للفقير نصيباً من البر وللمسكين أيضاً نصيباً كالآخر ، فكلٌ من المسكين والفقير يستحق من مال الله .

فكلمة (مسكيناً) هنا تشمل الفقير أيضاً والمحتاج أياً كان ، ومنهم

عابر السبيل أيضاً فإنه غريب لا يملك ما يقوته ويقوم به ، فقد يكون ابن السبيل ذا مال فى مكانه إلا أن الطريق قد قطعه عن ماله وباعد بينه وبين ما يملك ، أو يكون ذا مال وسُرق منه ماله .

فهو بمثابة المسكين والفقير ويستحق ما يستحقانه من الإطعام وغيره، وإياك أنْ تقول : ما دخلى أنا بالمسكين ؟ عليك أن تعلم أن المسكنة عرض ، والعرض من الممكن أنْ يلحق بك أنت ، فلا تقدِّر أنك مُعطٍ دائماً، ولكن قدِّر أنك ربما حدث لك ما يجعلك تأخذ لا أنْ تعطي.

والإنسان الضعيف ضعفاً طبيعياً وليس ضعف التوسل أو الكسل أو الاحتراف بل ضعف عدم القدرة على العمل هو مسئولية المؤمنين ، فسبحانه وتعالى يجعل القوى مسئولاً أنْ يساعدك وأنت ضعيف .

وهم أيضاً يطعمون اليتيم ، واليتيم الذى فقد أباه ، فقد مَنْ يعوله ومَنْ يسعى لأجله ويدافع عنه ، واليتيم يكون منكسراً لأنه فقد والده فأصبح لا نصير له .

فإذا رأيتَ فى المجتمع الإسلامى أن كل يتيم يرعاه رعاية الأب كل رجال المجتمع ، فذلك يجعل الأب لا يخشى أنْ يترك ابنه بعد وفاته .

فرعاية المجتمع لليتيم تضمن أولاً حماية حقه ، لأنه إذا كان يتيماً وله مال فإن الناس كلهم يطعمون فى ماله لأنه لا يقدر أنْ يحميه ، والثانية أن هذا التكافل يُذهب الحقد من المجتمع ويجعل كلَّ إنسان مطمئناً على أولاده .

واليتيم لا يكون له وصى إلا إذا كان عنده مال ، فيكون هناك وصىٌّ لإدارة أمور اليتيم ، لذلك جاء الحق بالأمر بإعطاء المال على حبه لليتامى ولم يقل : لذوى اليتامى .

فربما كان هناك يتيم ضاع لا يتقدم أحدٌ للوصاية عليه ، وليس عنده ما يستحق الوصاية ، لذلك فعلينا أنْ نؤتى اليتيم من مال الله

حتى ندخل فى صفات البر ، أو نعطى للوصى على اليتيم لينفق عليه إنْ كان له وصىٌّ .

والمسألة فى اليتيم ليست مسألة احتياج إلى الاقتيات ولكنه فى حاجة إلى أنْ نعوضه بالتكافل الإيمانى عما فقده من الأب ، وذلك يمنع عنه الحقد على الأطفال الذين لم يمت آباؤهم ، وحين يجد اليتيم أن كل المؤمنين آباء له فيشعر بالتكافل الذى يعوضه حنان الأب ولا يعانى من نظرة الأسى التى ينظر بها إلى أقرانه المتميزين عليه بوجود آبائهم ، وبذلك تخلع منه الحقد .

أطعم اليتيم وأدِّ الأمانة ولا تأكل ماله فى بطنك ، فمَنْ يأكل مال اليتيم فإنما يحشو بطنه ناراً فهو يأكل ما يؤدى به إلى النار .

وهذا قد يحدث عقاباً فى الدنيا ، فيُصاب آكل اليتيم فى بطنه بأمراض تحرق أحشاءه ، ويوم القيامة يرى المؤمنون الذين أكلوا مال اليتيم وعليهم سمات أكْل مال اليتيم ، فالدخان يخرج من أفواههم .

والذين يخافون أنْ يموتوا ويتركوا من بعدهم ذرية ضعافاً عليهم بالإحسان إلى اليتيم ، فلو رأى الواحد منا يتيماً يُكرم فى بيئة أبوية إيمانية لما شغل نفسه ولما خاف أنْ يموت ويترك ولداً صغيراً .

بل يقول الإنسان لنفسه : إن المجتمع فيه خير كثير وبذلك يستقبل الإنسان قدر الله بنفس راضية ولا يؤرِّق نفسه . لذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٩) ﴾ [النساء]

لأنك إنْ رأيت المجتمع الإيمانى قد رعى أيتام غيرك فستكون على ثقة من أنه يرعى أيتامك إنْ جاء الموت أو لم يأت فلا تشغل نفسك به .

لكن إذا رأى الإنسان يتيماً مضيَّعاً فهو يعضُّ على أسباب الحياة

ويريد أنْ يأتى بالدنيا كلها لولده ، فاعمل لابنك بأن تضع ما تريد أن تدخره له فى يد الله ، فالذى خلق آمنُ من المخلوق .

ثم يذكر الحق سبحانه الأسير ضمن مَنْ يوصى بإطعامهم ، فقال تعالى ﴿وَأَسِيرًا(٨)﴾ [الإنسان]

أنت قيَّدتَ حركة الأسير ، وأسره كان نتيجة حرب وقعت اقتضتْ الالتقاء والالتحام ويكون كل واحد منهم يريد أنْ يقتل عدوه ، فكأنَّ الله أراد أنْ يحمى القوم من شراسة نفوسهم وقت الحرب فقال استأسروهم لا تقتلوهم إلا إذا كنتم مضطرين للقتل ولكن خذوهم أسرى .

وفى هذا مصلحة لكم لأنكم ستأخذون منهم الفدية ، وهذا تشريع من ضمن تشريعات الرحمة لأنه لو لم يكن الأَسْر مباحاً لكان لا بد إذا التقى مقاتلان أن يقتل أحدهما الآخر . لذلك يقال خذه أسيراً إلا إذا كان وجوده خطراً على حياتك .

فمَنْ ينتقد الإسلام فى أمر الأسير عليه أنْ يعلم أنَّ الذى أسرته فى المعركة قد قدرت عليه وتمكنت منه وإنْ شئت قتلته ، فحين يتدخل الشرع ويجعل الأسير ملكاً لك فإنما يحقن دمه أولاً ثم الانتفاع به ثانياً ، إما بالمال حين يدفع أهله فديته ، وإما بأن يخدمك بنفسه .

الله سبحانه جعلك تحقن دمه لا أنْ تذله ، واقرأ قول النبى ﷺ: «إخوانكم خولكم ، جعلهم الله تحت أيديكم ، فمَنْ كان أخوه عنده فليطعمه مما يطعم ، وليُلبسه مما يلبس ، ولا يكلفه مالا يطيق ، فإنْ كلَّفه فليُعنه »[1].

فأىُّ إكرام للأسير بعد هذا ، بعد أنْ حقن دمه أولاً ثم كرَّمه بأنْ جعله أخاً لك ، واحترم آدميته بالمعاملة الطيبة ، ثم فتح له عدة منافذ تؤدى إلى عتقه وحريته ، فإنْ كان للرق فى الإسلام باب واحد،

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٥٤٥،٣٠) ومسلم (١٦٦١) وكذا أحمد فى مسنده (٢١٤٣٢) والبيهقى فى الآداب (٥٢) .

فللحرية عدة أبواب ، منها العتق فى الكفارات وهى فى تكفير الذنوب التى بين العبد وربه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ ﴾

لم يقل المطعمون ذلك حينما أطعموا المسكين واليتيم والأسير إنما علم الله من قلوبهم هذا فأثنى به عليهم ، علم إخلاص قلوبهم لله عز وجل ، فمدح ما عليه قلوبهم وحسن توجههم وبما علم من نياتهم ، فذكر ما أتوا به .

وهم أطعموا مَنْ أطعموا ويعلمون أن مَنْ أطعموهم لا يملكون لهم جزاء ولا شكوراً ، فلن يستطيعوا ردَّ ما فعلوه .

وقد قيل إن هذه الآية ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا (٩) ﴾ [الإنسان] إنما نزلت فى رجل من الأنصار يقال له أبو الدحداح صام يوماً ، فلما كان وقت الإفطار جاءه مسكين ويتيم وأسير فأطعمهم ثلاثة أرغفة وبقى له ولأهله رغيف واحد .

والإطعام يكون لوجه الله أى رغبةً فى رضا الله ، لذلك نحن نضع الإخلاص أولاً فى كل عمل ، وقد يكون العمل واحداً أمام الناس، هذا يأخذ ثواباً وذلك يأخذ به وزراً وعذاباً ، فالمهم أن يكون العمل خالصاً لله .

قد يقول إنسان : الإخلاص مكانه القلب ، وما دام الإنسان لا يؤذى أحداً ولا يفعل منكراً فليس من الضرورى أنْ يصلى ما دامت النية خالصة نقول : إن المسألة ليست نيات فقط ولكنها أعمال ونيات .

ورسول الله ﷺ يقول «إنما الأعمال بالنيات»[1] فلا بد من عمل بعد النية ، لأن النية تنتفع بها وحدك والعمل يعود على الناس ، فإذا كان

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (١) والبيهقى فى سننه (١٠٣١,١٨١) وابن ماجه فى سننه (٤٢٢٧) من حديث عمر بن الخطاب.

فـى نيتـك أنْ تتصـدق وتصـدقت انتفـع الفقـراء بمالـك .

ولكـن إذا لم يكـن فى نيتك فعـل الخير وفعلته لتحصـل على سـمعة أو لترضـى بشـراً انتفع الفقـراء بمالك ، ولن تنتفـع أنت بثواب هذا المـال .

والله سـبحانه وتعالى يريد أنْ يقترن عملـك بنية الإخلاص لله والعمل حركة فـى الحيـاة ، والنيـة هى التى تعطـى الثـواب لصـاحبه أو تمنـع عنـه الثـواب .

ومعنى الإخلاص تصـفية أى شيء من الشـوائب التى فيه والشوائب فى العقائـد والأعمال تفسـد الإتقان والإخلاص ، فالإخلاص عمليـة قلبيـة .

والإنسـان مهمـا تحـرَّى الإخلاص فـى عملـه وقصـد بـه وجه الله لا يأمـن أنْ يخالطـه شـيء من ريـاء أو سـمعة ، حتى أن المعصـوم محمداً ﷺ ليقـول: «اللهـم إنِّى أسـتغفرك من كل عمل أردت به وجهـك فخالطنى فيـه مـا ليس لـك» .[1]

فالعمل الإيمانى ما كان لله خالصاً وعلى قدر الإخلاص يكون الجزاء. ﴿ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا (٩)﴾ [الإنسان] والمجازاة هـى المكافأة لما أُسدى إليـه . والشـكر هو الثناء عليه . فـلا نريد منكم مكافـأة فى الدنيا ولا ثوابـاً فـى الآخـرة .

والشـكور مصـدر كالقعود والدخول والخـروج ، فمعنى ﴿ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا (٩)﴾ [الإنسان] أى لا نطلب منكـم مجـازاة تكافئونا بها ، ولا أنْ تشـكرونا عنـد النـاس .

﴿ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا (١٠) ﴾

فهـم يُطعمون المسـكين واليتيم والأسـير ابتغاء وجه الله لا لشـيء من

---

(١) عن ابن عمر قال : كان رسول الله كثيراً ما يقول لنا : معاشر أصحابى ما يمنعكم أن تكفروا ذنوبكم بكلمات يسيرة ؟ قالوا : يارسول الله وما هى ؟ قال : تقولون مقالة أخى الخضر . قلنا : يارسول الله ما كان يقول ؟ قال كان يقول : اللهم إنى أستغفرك لما تبت إليك منه ثم عدت فيه ، وأستغفرك لما أعطيتك من نفسى ثم لم أوف لك به . الحديث وعزاه للديلمى . كنز العمال (٢/٧٠١)

مكافأة ولا ثناء وشكر، بل ابتغاء مرضاة الله وحده، وخوفاً من يوم عبوس قمطرير.

فوجوههم تعبس وتتجهم من هول ذلك اليوم وشدته فلا تكون منبسطة مسرورة، فترى وجوههم مسودة. يقول تعالى: ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ (٦٠)﴾ [الزمر] والعبوس شيء يضاف إلى سواد الوجه يقبِّض الإنسان ما بين عينيه، حتى أن ابن عباس قال: يعبس الكافر يومئذ حتى يسيل من بين عينيه مثل القطران.(١)

وقد يكون العبوس صفة لليوم نفسه، فهو يعبس كالإنسان العبوس فهو يوم متجهم أسود حالك السواد، فوصف الحق سبحانه اليوم بصفة أهله من الأشقياء. ﴿ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا (٩)﴾ [الإنسان] نخاف عذاب يوم تعبس فيه الوجوه أشد العبوسة، من شدة مكاره هذا اليوم وطول بلائه.

أما القمطرير فهو الصعب الشديد أشد ما يكون من الأيام وأطوله في البلاء، فهو يوم طويل الشر، وإذا كان العبوس بالشفتين فإن القمطرير بالجبهة والحاجبين.

﴿ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ ﴾

فالحق سبحانه يقيهم شر ذلك اليوم العبوس القمطرير الذى يخافونه ويخشون منه ﴿ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا (١٠)﴾ [الإنسان]

فالله يقيهم عبوسه وشدته ويدفع شره عنهم ويحميهم، وقد كانوا يدعون الله أنْ يقيهم عذابَ وشرَّ ذلك اليوم وطول الوقوف والحساب فيه.

---

(١) أورده الطبرى فى تفسيره (٥٤٧/٢٣) والثعلبى فى تفسيره (٩٧/١٠) والقرطبى فى تفسيره (١٢٥/١٩).

وقد كانوا يقولون فى الدنيا ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١)﴾ [آل عمران] لقد طلبوا الوقاية من عذاب النار وصبروا وصدقوا وقنتوا في العبادة وأنفقوا فى سبيل الله ، فاستحقوا الوقاية منها ومن ﴿شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ (١١)﴾ [الإنسان] و (ذلك) تشير إلى اليوم المذكور آنفاً فى آيتين هنا ، قال تعالى : ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا (٧)﴾ [الإنسان] ثم ذكره مرة أخرى فى قوله تعالى : ﴿إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا (١٠)﴾ [الإنسان]

ولو تأملنا القرآن نجد أن الحق سبحانه قال ﴿ذَٰلِكَ الْيَوْمُ (١١)﴾ [الإنسان] اليوم مفرد وإذا كان يوماً واحداً فما مقدار ذلك اليوم ؟

يقول تعالى: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ (٤)﴾ [المعارج] ، والله جل جلاله هو خالق الزمن ، ولذلك فإنه يستطيع أن يخلق يوماً مقداره ساعة ، ويوماً كأيام الدنيا مقداره أربع وعشرون ساعة ، ويوماً مقداره ألف سنة ، ويوماً مقداره خمسون ألف سنة ، ويوماً مقداره مليون سنة ، فذلك خاضع لمشيئة الله .

فالأزمنة متعددة وتختلف من قياس إلى آخر ، ومن كوكب إلى آخر. ففى آية ذكر سبحانه أنه كألف سنة ، فقال : ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (٥)﴾ [السجدة] وفى آية أخرى قال : ﴿تَعْرُجُ (١) الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ (٤)﴾ [المعارج] فاليوم عند الله تعالى يختلف عن يومنا ، فلله تعالى تقدير لليوم فى الدنيا ولليوم فى الآخرة.

فهو يوم بحساب البشر ، يوم طويل ثقيل شديد الوطأة ﴿فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ (١١)﴾ [الإنسان] ، وفوق وقايتهم من شر يوم عبوس قمطرير عصيب ، فإنه سبحانه : ﴿وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا (١١)﴾ [الإنسان]

(١) تعرج : تصعد . والمعارج المصاعد والدرج ، والمعرج : الطريق الذى تصعد فيه الملائكة ، والمعراج : شبه سُلم أو درجة تعرج عليه الأرواح إذا قبضت . [لسان العرب مادة عرج] .

اللقاء رؤية تقتضى مصادفة ومعاينة وتُستعار لإصابة الخير والشر، فهؤلاء ﴿وَلَقَّاهُمْ (١١)﴾ [الإنسان] أى التقاهم ﴿نَضْرَةً وَسُرُورًا (١١)﴾ [الإنسان] نضرة فى الوجوه وسروراً فى القلوب.

فأعطاهم بدل عبوس الفجار وحزنهم النضرة والسرور، النضرة للوجوه كما قال تعالى ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (٢٢)﴾ [القيامة] وفى مقابلها ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ (٢٤)﴾ [القيامة]

فما فى داخل النفس إنما ينضح على قالب الإنسان وتظهر ملامحه، فقد يكون الأسود مضيء الوجه بالبشر والإشراق والتجلى بالجاذبية الآسرة، وقد يكون الإنسان أبيض الوجه لكنه مظلم الروح.

أما السرور فهو انشراح فى القلب وتصبح الملكات راضية والنفس مطمئنة، والانفعالات يظهر أثرها على بشرة الوجوه، فإن كان الانفعال حزناً فالوجه يظهر عليه الحزن بالانقباض، وإنْ كان الانفعال بالسرور فالوجه يظهر عليه السرور بالانبساط وتعكس البشرة انفعالات النفس من سرور وبشاشة وإشراق أو عبوس وتجهُّم.

﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا (١٢)﴾

المجازاة والمكافأة من الله، ففاعل الفعل جزى هو لفظ الجلالة، وتقديره: وجزاهم الله بصبرهم الجنة والحرير.

فالله جزاهم بما صبروا على طاعة الله واجتناب معصيته، فأثابهم وكافأهم جنة يسكنونها، وحريراً يلبسونه ويفترشونه.

وقد سُئل رسول الله ﷺ عن الصبر فقال: «الصبر أربعة: أولها الصبر عند الصدمة الأولى، والصبر على أداء الفرائض، والصبر على

اجتناب محارم الله ، والصبر على المصائب » . [١]

وقد جزاهم الله جنة بستاناً فيه من كل ما تشتهى أنفسهم من المأكل والمشرب مما لم تره عين ولم تسمع عنه أذن .

وقد حدَّثنا الحق سبحانه عن شراب من أشربة أهل الجنة ،فقال ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا (٥)﴾ [الإنسان] وسيذكر الله قريباً مزاجاً آخر من مزاجات أشربة أهل الجنة فى الجنة ﴿ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا (١٧)﴾ [الإنسان]

ولكن الحق سبحانه أتى بلباس من ألبسة أهل الجنة وخصَّ منها هنا الحرير ، فقال تعالى : ﴿ وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا (١٢)﴾ [الإنسان]

والحق سبحانه إنما خصَّ الحرير هنا لأنه سبحانه تحدَّث عن صبرهم ومنه الصبر عن المحرمات ، ومنها الحرير الذى حرمه الشرع على رجال أمة محمد.

وقد قال رسول الله : مَنْ يلبس الحرير فى الدنيا فلا يُكساه فى الآخرة.[٢]

فالصبر على عدم لبس الحرير فى الدنيا كان ثوابه وجزاؤه أنْ يلبسه من صبر فى الجنة ، والحرير ولبسه دليل التنعم والرغد والرفاهية ، فالحرير أنعم الأقمشة ملمساً .

وفى سورة الحج يقول تعالى : ﴿ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٢٣)﴾ [الحج] فهم لم يلبسوا الحرير فى الدنيا فلبسوه فى الآخرة لأنهم التزموا حدود الله والتزموا قول الرسول ﷺ : لا تلبسوا الحرير ولا تأكلوا فى آنية الذهب والفضة ، فإنها لهم فى الدنيا ولنا فى الآخرة « .[٣]فكانوا لا يلبسون

(١) أورده الثعلبى فى تفسيره (١٠/٩٧) قال : روى سعيد بن المسيب عن عمر قال : سئل رسول الله (الحديث) وكذا أورده القرطبى فى تفسيره (١٩/١٣٦) وكذا الزحيلى فى التفسير المنير (٢٩/٢٩٣) كلهم دون سند .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (١٢٣) من حديث عمر بن الخطاب أنه قال فى خطبته أنه سمع من رسول الله ﷺ : «من يلبس الحرير فى الدنيا فلا يُكساه فى الآخرة ».

(٣) أخرجه أبو عوانة فى مستخرجه (٨٤٤٦) والبخارى فى صحيحه (٥٤٢٦) وكذا مسلم فى صحيحه (٥/٢٠٦٧- ١١/٢٠٦٩) من حديث حذيفة بن اليمان .

الحرير، فكان جزاؤهم ﴿بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا (١٢)﴾ [الإنسان]

﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾﴾

﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ (١٣)﴾ [الإنسان] الاتكاء أن يجلس الإنسان على الجنب الذى يريحه، والأرائك هى السُّرر التى لها حلية مثل الناموسية مثلاً.

ولكى نفهم معنى الاتكاء ودلالته على الترفه والتنعم تجد الإنسان إذا وقف أو جلس طويلاً ولم تجد له متكأ تراه قلقاً غير مستقر، ومن هنا كان المتكأ من مظاهر النعمة والترف فى الدنيا وفى الآخرة، كما قال تعالى فى شأن امرأة العزيز: ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً (٣١)﴾ [يوسف]

فالاتكاء وسيلة من وسائل الراحة.

وقد ذكر الحق سبحانه الأرائك فى موقف آخر لأهل الجنة فى الجنة، فقال تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٣٤) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ (٣٥) هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦)﴾ [المطففين] فسيجلس المؤمنون على الأرائك فى الجنة متكئين ينظرون ويرقبون ماذا سيكون مصير الكفار، ويتساءلون: ﴿هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦)﴾ [المطففين]

ويقول تعالى فى آية أخرى عن أهل الجنة وانشغالهم: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ (٥٥) هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ (٥٦) لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ (٥٧) سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ (٥٨)﴾ [يس]

إنه النعيم الذى وعد به ربُّ العزة المتقين ﴿بِمَا صَبَرُوا (١٢)﴾ [الإنسان]

والأرائك جمع أريكة وهى السرير فى الحجال وهو بيت كالقبة يُستر بالثياب مُكللة بالدر والياقوت.

فجزاؤهم جنة فيها طعامهم وشرابهم ولباسهم فيها الحرير من أنعم الثياب فى قبة عالية عليها الستور متكئين على أسرَّة.

وليس هذا فحسب بل ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا (١٣)﴾ [الإنسان] فقد هيَّأ لهم الله المقام فى هذا الرغد وهذا النعيم فلا يصيبهم فيه حر ولا برد ، فلا يرون فيها شمساً أى شمساً محرقة يؤذيهم حرُّها أو تصيبهم بالعرق .

فلا يؤذيهم حرُّ شمس ولا برد زمهرير ، فيضطرون أن يقوموا من على أسرَّتهم ليدخلوا أخبيتهم ، لا إن جلساتهم متكئين على الأرائك لا يزعجهم فيها شيء ، ومن يتأمل هذه الآية يجد شيئاً عجيباً ، هل معنى قوله تعالى ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا(١٣)﴾ [الإنسان] أنه لا شمس أصلاً فى الجنة ، أم أن هناك شمساً لكنها ليست حارة حرارة تؤذى مَنْ يتعرض لها .

بعض العلماء قال: الجنة ضياء من غير وجود شمس أو قمر ، ولهذا فسروا قوله تعالى ﴿زَمْهَرِيرًا(١٣)﴾ [الإنسان] أى قمراً ، وبهذا فسَّره الزمخشري.

والآية تحتمل هذا أى لا يرون فيها شمساً حارة محرقة ، أولا يرون فيها شمساً من الأساس لأن الجنة مضيئة بذاتها وبهذا لا حاجة لقمر أيضاً ، فالقمر كانت مهمته التى نعرفها فى الدنيا أنه يضيء .

ولو وضعنا مع هذه آية أخرى ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا(٢٤)﴾ [الفرقان] ولنا أنْ نسأل : أفى الجنة قيلولةً وليس فيها حَرٌّ ولا برد ولا زمهرير؟

فالمقيل أى وقت القيلولة وهو فى الدنيا عند شدة الحر ، كيف وليس فى الجنة حر . قلنا : إن القيلولة تعنى محلّ فراغ الإنسان لخاصة نفسه ، ألا ترى أن الحق حينما ذكر أوقات الاستئذان جعل منها هذا الوقت ، فقال سبحانه : ﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ (٥٨)﴾ [النور]

فأمر الصغار أن يستأذنوا علينا فى هذا الوقت لأنها من أوقات العورة ، ولأنها من أوقات الخلود إلى الراحة النفسية ، فى مكان

خاص ووضع خاص وتحرُّر من الملابس والرسميات.

ولأن الجنة ليس فيها شمس ولا زمهرير، لذلك كان ظلها ممدوداً دانياً عليهم، قال تعالى:

﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾﴾

جزاهم الله بما صبروا وأثابهم جنة دانية ظلالها عليهم، لا يجدون حَرَّ شمس ولا زمهرير برد، قد دنت أفرع شجرها منهم حتى أن الظل يغطيهم، وهذا دليل أن هناك شمساً ولكن ليس لها تأثير إلا في الإضاءة فقط، أما حرُّها فقد أذهبه الله فلا يحس مَنْ في الجنة بحرٍّ.

فأصل الظل الستر من الشمس، والحق سبحانه يقول ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا (٥٧)﴾ [النساء] فهو ظل لا يدخله الحر ولا السمائم أي الرياح الحارة الذي نقول عنه (الصهد).

فمعنى أن الظل ظليل أنه يُظل من الحر والريح معاً، وهذا معناه أن شجر الجنة أغصان متراكبة فوق بعضها، لا يمر منها حرارة شمس أو صهد ريح.

ومَنْ يتأمل هذه الآية يدرك معنى قوله في الآية السابقة ﴿لَا يَرَوْنَ (١٣)﴾ [الإنسان] لأن هذه الكلمة جعلت بعض العلماء يقول أنه لا شمس ولا قمر في الجنة، لأن أهل الجنة ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا (١٣)﴾ [الإنسان]

والرؤية هنا بصرية إذن فهي غير موجودة، ولكن مَنْ يضيف إليها الآية التي بعدها ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا (١٤)﴾ [الإنسان] ويضيف إليها قوله تعالى ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا (٥٧)﴾ [النساء] يدرك أنهم وهم في هذا الظل الظليل من أغصان وأوراق الشجر لا يرون الشمس ولا تأثيرها فهي مستورة عنهم بالظل الوارف فكأنها غير موجودة.

فالظل الظليل لا يترك فُرْجة ولا خَلَلاً لنفاذ الهواء الحار ولا البارد

إلى مَنْ يجلس فيه ، وليس الأمر يتعلق بظل هذه الأشجار فقط ، بل هى أيضاً أشجار مثمرة تعطى ثماراً لا تُحوج مَنْ يجلس متكئاً أن يتكلف أىَّ مشقة فى الحصول على ثمار.

لذلك قال تعالى: ﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا (١٤)﴾ [الإنسان] ، فالحق سبحانه يريد إراحةَ عبده المؤمن الذى ثبت وصبر على إيمانه فى الدنيا رغم الصعاب ورغم المغريات لارتكاب المعاصى ، ولكنه صبر على طاعة الله وصبر عن معصية الله .

فأثابه الله ثواباً مضاعفاً ، فمع كل ما ذكرته الآيات من أوجه النعيم يذكر الحق سبحانه نعيماً آخر يُقدِّره مَنْ يتأمله حقَّ التأمل .

فالحق سبحانه يريد للثمر أنْ تتدانى من المؤمن حتى لا يتعب، فيقول تعالى: ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (٢٣)﴾ [الحاقة] ويقول هنا ﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا(١٤)﴾[الإنسان]أى دُليت عناقيدها .

فالفاكهة تنزل إلى المكان الذى يوجد فيه المؤمن وإن وقف المؤمن لطال بيده أنْ يقطف الثمار ، وإن اضطجع لاستطاع أن ينال أيضاً من الثمار لأنها تتدانى له ، وإنْ نام المؤمن لتدانى قطاف الثمار إلى مكانه . وبذلك يستطيع أنْ يأكل منها فى أى وقت وعلى أى وضع .

والإدناء المذكور فى قوله تعالى :﴿ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا (١٤)﴾ [الإنسان] هو تقريب شيء من شيء ، ومن ذلك قوله تعالى فى وصف ثمار الجنة ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ(٢٣)﴾[الحاقة]أى قريبة التناول سهلة الجنى .

ولكن الحق سبحانه هنا ذكر الإدناء خاصاً بالظلال ، والتذليل للقطوف والثمار وكأنها مُسخَّرة مُذلَّلة تقول للمؤمن اقطفنى وكأنه يعيش بين الثمار وقتما شاء يجدها بين يديه ، ناهيك عن روائح هذه الثمار وهى روائح فى الجنة وليس فى الدنيا .

وهناك معنى آخر نستطيع أنْ نلمحه فى الآية وهو قوله ﴿وَذُلِّلَتْ (١٤)﴾

[الإنسان] وهى من الذل كأنَّ الثمار تتدانى وتتدلى على المؤمنين فى ذل وكأنها تنتظر اللحظة التى يمدُّ فيها المؤمن يده ليقطفها.

فالله أمرها وذلَّلها وسخَّرها لعبده المؤمن وكأنه سبحانه قال لها: أنتِ لعبدى فظلت تتدلى فى ذل منتظرة أنْ يمد مَنْ آمن بالله وجاهد فى سبيله يده ليقطفها ، فهى تشتاق إليه كما تشتاق إليه الجنة نفسها .

ثم ينقلنا الحق سبحانه إلى نعيم آخر، فيقول:

﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۠ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾﴾

تلك متعة أخرى ونعيم آخر ، فلن يُترك الإنسان المؤمن هكذا ، بل سيطوف عليه ولدان مخلدون بآنية من فضة وأكواب فيها من أصناف الشراب ما تلذ به الأعين قبل أنْ تلتذ به ألسنتهم وأفواههم.

فالآنية التى فيها الشراب كيزان وأكواب بدون عُرى ، فليس لها يد تمسك به لأنك لن تحتاج هذه العُرَى ، فالإنسان فى الدنيا يحتاج العرى فى الأكواب ليتجنب حرارة الشراب الساخن.

أما فى الجنة فلن تجد مايكدرك أو يزعجك أو تحتاج للاحتياط له، فكانت كيزاناً وأكواباً دون عرى.

والغريب أنها تجمع بين أنها من فضة وأنها صافية كالزجاج ترى الشراب فيه وهو بعيد عنك ، فإذا كانت الأكواب فى الدنيا من قوارير أى من زجاج يُصنع من الرمل ، فإن أكواب وقواير الجنة من فضة ولكنها فى صفاء الزجاج . فلا تخشَ أن ينكسر أو يصيبك منه ضرر.

لقد اجتمع لهذه الآنية والأكواب صفاء القوارير وشفوفها ورقتها مع أنها من فضة ، وهل هناك فرق بين الآنية والأكواب؟

نقول : نعم فالآنية هى الأباريق التى يكون فيها الشراب ثم يُصب

منهـا فـى الأكـواب ، لذلك قال ﴿بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَ (١٥)﴾ [الإنسان]، ففرَّق بين الصنفين .

ولكن هل معنى هذا أن الآنية من فضة غير شفافة ، أما الأكواب فهى فقط التى كانت قوارير أى مثل القوارير فى صفائها وشفافيتها، فنرى الشراب من وراء جدار الكوب .؟

الأمر يحتمل هذا ، لذلك أعربوا جملة ﴿ كَانَتْ قَوَارِيرَ (١٥)﴾ [الإنسان] فى محل جر نعت لأكواب، فالأكواب فقط هى التى تشبه القوارير فى شفافيتها رغم أنها من الفضة.

ولو تأملنا هذا لوجدنا فيه معنى جميلاً ، فعندما ترى الإبريق غير شفاف تكون مشتاقاً لمعرفة ما فيه ، فإذا به عندما يُصب منه فى الكوب الشفاف تسعد أكثر .

وحتى فى بناء الآية تجد تشويقاً ، فالآية الأولى تنتهى عند قوله تعالى ﴿كَانَتْ قَوَارِيرَ (١٥)﴾ [الإنسان] ولكن الله لا يتركك هكذا بل يحدد فيقول ﴿قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ (١٦)﴾ [الإنسان] فتزداد عجباً (قوارير) (من فضة) زجاج من فضة وليس من الرمل!!

يزيدك الله عجباً أنهم ﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا (١٦)﴾ [الإنسان] فمَنْ صَبَّ لك الشراب فى الكوب الخاص بك صبَّ لك على قدر احتياجك بالضبط بما يرويك لا نقص بحيث تحتاج إلى أكثر ، ولا زيادة بحيث تحتار أين تذهب بما تبقى فى الكوب . كيف عرف مَنْ صَبَّ لك قدر احتياجك؟!

ولكن لماذا قال ﴿قَدَّرُوهَا (١٦)﴾ [الإنسان] فهل هم قدَّروا الأكواب أم قدَّروا الشراب الذى فى الأكواب ؟ لو كانت الأولى فهذا معناه كل مُنعَّم له كوب أو أكواب خاصة به قُدِّرت على قدر ريِّه.

وإنْ كانت الثانية فالأمر أعجب لأن الشراب يُوضع فى الكوب على قدر ريِّ الإنسان وحاجته ، فكأن من يصب الشراب عنده معرفة ودراية

أو شيء من هذا بقدر ريِّ كل شخص .

وصدق رسول الله الذى نقل لنا عن رب العزة الحديث القدسى : «أعددتُ لعبادى الصالحين ما لا عينٌ رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر» .(١)

ولكن ماذا فى هذه الكؤوس والأكواب والآنية ؟ يذكره الحق سبحانه فى الآية بعدها :

﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾﴾

نلاحظ أن الحق سبحانه مازال يستخدم الفعل المبنى للمجهول ، فقال : ﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا (١٤)﴾ [الإنسان] وكان من الممكن أنْ يقول الحق : وذللنا لهم قطوفها تذليلاً . وقال : ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ (١٥)﴾ [الإنسان] وهنا يقول : ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا (١٧)﴾ [الإنسان] وكان من الممكن أنْ يقول الحق : ونسقيهم فيها كأساً : بالبناء للمعلوم .

لكن الحق سبحانه أراد أنْ يقول للإنسان الذى سُميت به هذه أنه إذا كنت قد قاسيتَ فى الدنيا وصبرت على مقاساتها ومعاناتها ، وكانت الدنيا لك متعبة تحاربك لأنك صبرت على إيمانك وطاعتك لله .

فإن أمر الجنة أمرٌ آخر قد أعددتها لتخدمك وسخرتها لك تسخيراً تفعل لك كل ما تريده دون أنْ تطلبه ، فلا تحزن ولا تهتم لما تلاقيه فى الدنيا ، فالعاقبة للمتقين .

الله يخاطب الإنسان ، يخاطب ما يرغب فيه ويخاطب آماله ، إنْ كنت تريد حياة أبدية منعَّمة فما عليك إلا أنْ تؤمن بالله وتطيعه وتصبر على طاعته وتصبر عن معصيته ، فسيجزيك الله ثواب هذا الصبر حياة تطاوعك فى كل شيء .

---

(١) حديث متفق عليه ، أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٢٤٤) وكذا مسلم فى صحيحه(٢/٢٨٢٤) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه فى الحديث القدسى .

وهنا يقول تعالى : ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا (١٧)﴾ [الإنسان] فهم يُسقون ، لا يُعدون ما يريدون بأنفسهم بل يُعد لهم ويُسقوْنَ إياه دون تدخُّل منهم، وليس مهماً هنا مَنْ يسقيهم ، بل المهم هنا ما يشربونه .

لذلك بنى الحق سبحانه الفعل للمجهول ، فهم يُسقون ﴿كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا (١٧)﴾ [الإنسان]

وأى كأس فى القرآن المقصود بها كأس خمر ولكنها خمر ليست كخمر الدنيا التى تذهب بالعقول ، وتجعل الإنسان لايدرى ما يفعل .

والخمر فى الآخرة تمزج بأشياء أخرى وهنا مُزجت بالزنجبيل ، وفى آية أخرى هنا كان مزاجها كافوراً ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا (٥)﴾ [الإنسان]

فالطعوم مختلفة والنكهات متعددة حتى لو اتحدَّ الشراب ، ومعنى ﴿مِزَاجُهَا (١٧)﴾ [الإنسان] أى أنها مختلطة مشوبة بالزنجبيل بشيء قليل منه ، لأن الإنسان يعرف الزنجبيل فى الدنيا بلذوعته . ولكن أيضاً فإن زنجبيل الآخرة شيءٌ آخر غير زنجبيل الدنيا .

﴿ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا (١٨)﴾ [الإنسان] إنها من عين فى الجنة تُسمَّى سلسبيلاً ، فالخمر يُمزج بالزنجبيل ، والزنجبيل من عين تُسمَّى تلك العين سلسبيلاً .

قال ابن الأعرابى : لم أسمع السلسبيل إلا فى القرآن . فهى عين يصدر منها هذا الشراب سلساً تسيل وتذهب فى مجرى نهر بلا شطآن.

والسلسبيل : الطيب الطعم والمذاق ، وهو أيضاً يتسلسل فى سلاسة فى الحلق ويستسيغه اللسان والحلق عَذْباً سلسالاً ، وهى تسيل عليهم من جنة عدن فتمر على كل جنة سلسة منقادة فهى ماء عذبة زلال .

وعلى هذا فكلمة (سلسبيلا) قد تكون صفة للماء نفسه أو اسم عَلَم للعين . والبعض ذهب إلى أن كلمة (سلسبيلاً) ليست كلمة بل

هـى جملة تقدير الكلام فيها : سَلْ سبيلاً . أولها سل فعل أمر والفاعل مستتر تقديره أنت أو يا محمد . وسبيلاً : مفعول به .

﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ ﴾

هنا بنى الحق سبحانه الفعل للمعلوم فقال ﴿وَيَطُوفُ (١٩)﴾ [الإنسان] أما هناك فقال ﴿وَيُطَافُ (١٥)﴾ [الإنسان] ، فهناك يحدِّثنا الحق عمّا يُطاف على المؤمنين به وهو الكؤوس والأكواب والشراب ، أما هنا فيحدثنا الحق سبحانه عمَّنْ يقوم بالطواف والإطافة بأوانى السقاء.

فيقول تعالى :﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ (١٩)﴾ [الإنسان] فهم ولدان مخلدون أى لا يكبرون ولا يهرمون ، بل يبقون على حالهم لا يتغيرون ولا يكبرون وهم فى سِنٍّ واحد.

ونلاحظ أن الحق سبحانه قال (ولدان) فهم صبيان ، لكن الله يقول فى آية أخرى : ﴿ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا (١٧)﴾ [المزمل] ، ومفهوم أنه لا يشيب الصبيان فقط من هول يوم القيامة ، إنما تشيب البنات أيضاً، فالولدان هم القريبون من عهد الولادة . ومفرده وليد أى مولود.

والولد والوليد والولدان يشمل الصبى والصبية ، الذكر والأنثى ومثل هذا آيات الميراث ، قال تعالى : ﴿وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ(١١)﴾ [النساء]

وإذا كان معنى وِلْدان يحتمل الذكر والأنثى معاً ، فقد خصصت آية أخرى المعنى وحصرته فى الصبيان فقط ، فقال تعالى :﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ (٢٤)﴾ [الطور] إذن الوِلْدان فى الآية معناها الصبيان ، فإن الغلام لا تُطلق إلا على الصبى .

ويصف الحق سبحانه هؤلاء الولدان بأنهم ﴿مُّخَلَّدُونَ (١٩)﴾ [الإنسان] مع أن التخليد ليس صفة مخصوصة بالولدان فى الجنة ، فكل أهل

الجنة مخلدون فيها لا يشيبون ولا يهرمون .

لذلك قال بعض المفسرين أن معنى (مخلدون) هنا أن هؤلاء الولدان مقرَّطون أى يلبسون الأقراط فى آذانهم ، أو أنهم مُسوَّرون أى يلبسون الأساور فى معاصمهم ، من التنعُّم والترف .

أما الأقراط فالعرب يسمون الحلق الذى فى الأذن قُرْطاً وخلدة . لذلك قال تعالى ﴿مُخَلَّدُونَ(١٩)﴾ [الإنسان] أى مقرَّطون . ويقال لجمع الحلىّ : الخلد .

ثم يقول تعالى :﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنْثُورًا (١٩)﴾ [الإنسان] وهو من عجيب القرآن ، فاللؤلؤ المنثور غير اللؤلؤ المكنون الذى وصف به هؤلاء الغلمان فقال : ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ (٢٤)﴾ [الطور] فاللؤلؤ المكنون كأنه كنَّ فى كنانه أو مكانه وهو مُصَان حتى أن الله وصف الحور العين بنفس هذه الصفة فقال :﴿ وَحُورٌ عِينٌ (٢٢) كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ (٢٣)﴾ [الواقعة]

فهم وهُنَّ كاللؤلؤ المصون فى الصدف لم تنله الأيدى وقد قاله ابن جبير . ولا يُصان ولا يُكنُّ ولا يُحزن إلا الحسن الغالى الثمن الثمين ، فهو مصون لم تعبث به يد عابثة .

وكلمة﴿ مَكْنُونٌ (٢٤)﴾ [الطور] تتفق تماماً مع كلمة (لهم) قبلها فى قوله: ﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ (٢٤)﴾ [الطور] فهم خاصون بهم ولا يطوفون على العموم ، وهذا معناه أن كل واحد من أهل الجنة له غلمان خاصُّون به يخدمونه غير الولدان الذين يطوفون عامة بشراب أو طعام .

وإذا فهمنا هذا نستطيع أنْ ندرك الفرق بين الغلمان المذكورين فى سورة الطور وبين الولدان المذكورين هنا فى سورة الإنسان . فهناك﴿ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ (٢٤)﴾ [الطور] ، وهنا ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنْثُورًا (١٩)﴾ [الإنسان]

فهم هنا كاللؤلؤ المنثور يتلألأ فى كل مكان ، وكأنهم يطوفون على العموم لذلك انتشروا وانتثروا . فآية سورة الطور تعطى جواً أسرياً لحياة هؤلاء ، لذلك كان هؤلاء الغلمان مكنونين مُصانين .

يقول تعالى : ﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ (٢٠) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ (٢١)﴾ [الطور]

وما دام قد ذكر الحور العين وذكر إلحاق الذرية بهم إذن فهو جو أسرى يحتاج إلى غلمان مخصوصين خاصين بهذه الأسرة أو تلك .

أما هنا فى سورة الإنسان فالوضع يختلف ، وقد يكون يتحدث عن جلسات المؤمنين فى جلسات عامة يكون فيها الولدان الطائفون عليهم عامّين لا يخصون أحداً فينتثرون كاللؤلؤ بعدد لا نهاية له .

ولك أنْ تتأمل الآيات تأملاً آخر ، وهو أنه لا تعارض بين اللؤلؤ المكنون واللؤلؤ المنثور ، ونلاحظ أن الحق سبحانه قال فى آية سورة الإنسان: ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنْثُورًا (١٩)﴾ [الإنسان]

وكأن المشهد غير ما ذكرنا سابقاً ، وكأنَّ الله يطلب منك أن ترى مشهد هؤلاء المنعَّمين من أعلى من خارج ، فكل مؤمن له أريكة فى قبة عالية يتكيء عليها يعيش فى ظلال دانية وعناقيد ثمار متدلية يقطف منها كيفما يشاء ، معه ذريته والحور العين يطوف عليهم غلمان أو ولدان لهم بأنواع الشراب والطعام .

لو نظرت إلى هذه القباب العالية ، كل قبة مقصورة على مَنْ فيها ستتخيل أن الولدان الطائفين لؤلؤ منثور لأنهم يتلألأون فلا ترى إلا تلؤلؤ ضيائهم ونورهم ، بينما هم فى الحقيقة مكنونون ، كل ولدان فى قبتهم مع مَنْ يخدمونه .

قال تعالى : ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنْثُورًا (١٩)﴾ [الإنسان] أى ظننتهم ﴿لُؤْلُؤًا مَنْثُورًا (١٩)﴾ [الإنسان] بينما هم على الحقيقة ﴿ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ (٢٤)﴾ [الطور]

ولكن لماذا ذكر الحق سبحانه اللؤلؤ بالذات ، اللؤلؤ يتميز بالصفاء والنفاسة وهو مثل الياقوت والمرجان فى لمعانه ونضارته وشرفه، ولكن اللؤلؤ أبيض ، لذلك وصف الولدان والغلمان باللؤلؤ لبياض وجوههم وصفائها .

ثم يقول تعالى:

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ ﴾

النعيم فى الدنيا على قَدْر قدرات البشر ، أما النعيم فى الآخرة فهو على قدر قدرات الله سبحانه ، المقاييس هنا غير المقاييس يوم القيامة ، فى الدنيا بإعدادك ، وجسدُك لا يمكن أن يرى الله .

أما فى الآخرة فيسمح إعدادك وحسدك بأنْ يتجلى عليك الله سبحانه، وهذا قمة النعيم فى الآخرة ، أنت تعيش الآن فى آثار قدرة الله ، أما فى الآخرة فتعيش عيشة الناظر إلى الله تبارك وتعالى .

فى الدنيا ألوان من المتع هى كذا وكذا ، والدنيا محدودة ولا تدوم لإنسان ولا يدوم إنسانٌ لها ، وإمكانات الإنسان فى النعيم الدنيوى محدودة على قدر الإنسان . أما إمكانات النعيم فى الآخرة فهى على قدر قدرة الخالق المربِّى بطلاقة قدرته وسعة رحمته ، إنه النعيم الموصول الذى لا يمنعه أحدٌ ولا يقطعه شيء .

والدنيا ليست خالصة النعيم لما فيها من أغيار تأتيك فتسوءك ، أما الإيمان فهو ثوابه النعيم المقيم والثواب العظيم .

والحق سبحانه يقول ﴿ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ (٢١) ﴾ [التوبة] والرضوان هو ما يفوق النعيم ، ولكن ما سبب ذكر النعيم بعد الجنات ، أليس الجنة ليس فيها نعيم ؟

الجنة وُجدتْ أصلاً لينعم فيها الإنسان ، لكنه نعيم مقيم دائم لا

ينتهى لا يزول عنك وأنت خالد فيه لا تزول عن النعمة بالفناء أو الموت. فكأن المتاع والنعيم فى الجنة أكبر كثيراً من قدرتك وأعلى كثيراً من كل ما تستطيع أنْ تحققه.

لذلك يقول تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ (٢٠)﴾ [الإنسان] أى إذا رأيتَ ما ثَمَّ. أى إذا رأيت ما هناك، والعرب تضمر (التى والذى ومَنْ وما) وتكتفى بصلاتها منها.

وهذا مثلما قال تعالى: ﴿هَـٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ (٧٨)﴾ [الكهف] أى: هذا فراق ما بينى وبينك، ومثله قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ (٩٤)﴾ [الأنعام] أى: لقد تقطع ما بينكم.

فإذا نظرتَ يا محمد ببصرك ورميتَ بطرفك فيما أعطيت هؤلاء الأبرار فى الجنة من الكرامة: ﴿ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا (٢٠)﴾ [الإنسان] والآية تقول (رأيت نعيماً) ثم ﴿ وَمُلْكًا كَبِيرًا (٢٠)﴾ [الإنسان] إذن النعيم غير الملْك الكبير. النعيم معروف وحدثنا الله عن بعضه.

﴿ وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا (١٢) مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا (١٣) وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا (١٤) وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا (١٥) قَوَارِيرَا مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا (١٦) وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا (١٧) عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا (١٨) وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا (١٩)﴾ [الإنسان]

كل هذه عناصر هذا النعيم الذى سيتنعم فيه الأبرار، نعيم دائم مقيم لا ينتهى ولا يتغير ولا يزول، والحق سبحانه ذكر هذا النعيم بصيغة النكرة فقال (نعيماً) لأنه لا يُعدُّ ولا يُحصى ولا يعلمه إلا الله. فداخل النعيم نعيم، فكيف نُعرِّفه وكيف يكون معرفة؟

ثم يأتى قوله تعالى: ﴿ وَمُلْكًا كَبِيرًا (٢٠)﴾ [الإنسان] ماذا بعد هذا النعيم؟ إنه الملْك، أى تملك كل هذا للأبد، لا يزول عنك ولا تزول

عنه، واعلم أن هناك مِلْكاً وهناك مُلْك والملْك هو ما تملكه جلَباباً أو بيتاً أو غير ذلك، أما المُلك فهو أنْ تملك من له مِلْك وتسيطر عليه ، فالنعمة إذن فى المُلْك .

لو فهمنا هذا وتأملناه وسمعنا قوله تعالى:﴿وَمُلْكًا كَبِيرًا (٢٠)﴾ [الإنسان] فإنْ كنتَ تفتقد المُلْك فى الدنيا فإنك ستناله فى الآخرة، سيكون لك سلطانٌ على ما حولك من نعيم ، وكذلك مَنْ حولك من الغلمان والولدان والحور العين .

وأيضاً سيكون لك جاه فى الجنة التى تعيش فيها ، فقد يعيش إنسانٌ وسط نعيم ورغد وعيش وترفُّه ولكنه يعيش فيه فقط ، لا يملك سلطة أو جاهاً على مَن يقوم بخدمته . أما فى الجنة فلك جاهٌ ووجاهة وسلطان حتى أن الملائكة تستأذن على الأبرار فى محالِّهم وأماكنهم وتسَلِّم عليهم ، وهذا من الكرامة بمكان .

وقال الكلبى : هو أن يأتى الملاك رسولاً من عند الله بكرامة من الكسوة والطعام والشراب والتحف إلى ولى الله وهو فى منازله التى أعدها الله له فيستأذن عليه الملاك ، فذلك المُلْك الكبير .

أهناك أعظم من هذا نعيم ، أو أكبر من هذا مُلْك ؟ والمُلْك أيضاً قد يكون المقصود به اتساع هذا الملك لكل مؤمن بَرٍّ تقىٍّ دخل الجنة ، فقد رُوى أن أدنى أهل الجنة وأقلَّهم منزلاً ينظر فى مُلْكه فى مسيرة ألف عام .

ثم يقول تعالى:

﴿عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾﴾

كلمة ﴿عَالِيَهُمْ (٢١)﴾ [الإنسان] تعطى معنى العلو والارتفاع ، فثياب

أهل الإيمان ثيابُ عزٍّ وكرامة ورفعة ومجد وأبَّهة ، وعلو الثياب سواء كانت على أهل الجنة أنفسهم أو على ما يجلسون تحته فهى تدخل فى الملك الكبير.

العلاء الرفعة والبعض أخذ (عاليهم) أن الثياب فوقهم ملامسة لهم ، وهذا ليس شرطاً فالحق سبحانه لم يقل : عليهم ، لكن قال ﴿عَالِيَهُمْ (٢١)﴾ [الإنسان] ولو تأملنا قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ (١٩)﴾ [الملك] وكذلك قوله تعالى : ﴿ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ (١٥٤)﴾ [النساء]

ففوقهم لا تعنى الملامسة إنما تعنى العلو الذى لا حدود له.

فالألف فى (عاليهم) أضافت معنى زائداً للعلو لذلك تكون عاليهم ظرفاً للمكان المكسو بالثياب والستائر والأردية . والبعض أخذ (عاليهم) على أنها حالٌ للولدان المخلدين وأن ثياب السندس الخضر والإستبرق هى ثيابُ أولئك الولدان.

فسواء كانت عاليهم حالاً للولدان المخلدين ، أو حالاً لأهل الجنة، أو وصفاً لما يعلو قبابهم والأرائك والأسِرَّة أنها عاليهم ثياب السندس. فهو مُلْك كبير.

والسندس هو ما رقَّ من الحرير ونَعِمَ وكان ملمسه ناعماً حريرياً، أما الإستبرق فهو ما غَلُظ وخَشُن منه ، وقد يكون السندس منسوجاً بخيوط من الذهب.

وقد جمع الحق سبحانه هنا بين السندس والإستبرق ، بين ما رقَّ من الحرير وما خَشُن ، وقد قال الحق سبحانه فى آية أخرى ولكن عن الفُرش ﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ (٥٤)﴾ [الرحمن]

فإذا كانت بطائن الفُرش من حرير ولكنه خشنٌ غليظ ، فإن الظهائر وما اتكأ عليه المتكئون فهو من السندس الحرير الناعم الرقيق.

ذلك حديث الله عن الثياب ، فما بال حلية أهل الجنة من الحلى ،

يقول تعالى : ﴿وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ (٢١)﴾ [الإنسان] وفى آية آخرى أنها من ذهب ، قال تعالى : ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ (٣١)﴾ [الكهف]

وفى آية أخرى : ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا (٣٣)﴾ [فاطر] فالأساور إما من ذهب أو فضة أو لؤلؤ .

ونلاحظ أن الحق سبحانه بنى الفعل للمجهول فى الآيات الثلاثة ﴿وَحُلُّوا (٢١)﴾ [الإنسان] ثم (يُحلون) فى آيتى الكهف وفاطر ، فليسوا هم الذين يُحلون أنفسهم بهذه الحلية ، بل حلاَّهم غيرهم .

أما الملبس فهم الذين يلبسون ثيابهم بأنفسهم ثم يُحلِّيهم غيرهم، قال تعالى:﴿ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ (٣١)﴾ [الكهف] فأتى الفعلُ مبنياً للمعلوم لأن الفعل حدث منهم أنفسهم بالعمل .

والأساور جمع أسورة وهى ما تكون حول معصم اليد ، والتحلية هنا للزينة فهى زيادة على ما هم فيه من نعيم ، كالرجل الذى يجهز ابنته للزواج فيأتى لها بضروريات الحياة ثم يزيدها على ذلك من الكماليات وزخرف الحياة من نجف أو سجاد أو خلافه .

ثم يأتى الشراب بعد أنْ يلبس الأبرار ثيابهم ويُحلَّون بأساور الذهب والفضة واللؤلؤ، فيقول:﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا (٢١)﴾ [الإنسان]

أعطاهم ما يشربونه فى لحظته وساعته ، ولكنه سقاءٌ من الله سبحانه فنسبه إليه سبحانه أن ربهم الذى سقاهم ، لذلك استحق وصف ﴿طَهُورًا (٢١)﴾ [الإنسان]

فهو شراب طاهر من الأقذار لم تمسه الأيدى ولم تُدنِّسه الأرجل كخمر الدنيا ، ومن طهره أنه لا يصير بولاً نجساً ، ولكنه يصير رشحاً من أبدانهم كرشح المسك .

وقد صلَّى سهل بن عبد الله صلاة العشاء فقرأ قوله تعالى: ﴿ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا (٢١)﴾ [الإنسان] فجعل يحرك فمه كأنه يمصّ،

فلما فرغ من صلاته قيل له : أتشرب أم تقرأ ؟ قال : والله لو لم أجد لذّته عند قراءته كلذّتى عند شربه ما قرأته .

﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾﴾

فهذا النعيم الذي ليس له حدود ، وذلك الملْك الكبير جزاء وثواب لكم ﴿بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (٢٤)﴾ [الحاقة] فحين تفعل الطاعة تكون صعبة عليك ، ولكن يجب أنْ تتذكر ثوابها وردّ فعل طاعتك وهو الراحة وحُسْن الثواب .

﴿كَذَٰلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ (٣١)﴾ [النحل] وهو جزاء أطول وأدوم ، فهم تعبوا واضطهدوا وعُذِّبوا ، فحقَّ له أنْ نسعده فى الآخرة سعادة أبدية. وحقَّ له أنْ نشكر سعيه ﴿وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا (٢٢)﴾ [الإنسان] وهو خطابُ الله لمن استحقوا ثواب الله وجزاءه .

والسعى هو الحركة الموصِّلة للغاية ، وكل فرد من أفراد الكون له سَعى يختلف عن سعى الآخرين ، لذلك قال تعالى ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى (٤)﴾ [الليل] أى إن سعيكم لمختلف ، فكلٌّ منكم مهمته وسعيه وحركته .

وقد يكون السعى ممدوحاً وقد يكون مذموماً ، فمن السعى المذموم ما ذكره الحق سبحانه فقال : ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا (١١٤)﴾ [البقرة]

فيمنع ذكر الله فى مساجده ويسعى فى خرابها بكل السبل ويتخذ من الوسائل والقرارات ما يجعلها خاوية من عُمَّارها وأهلها بإهمالها أوالتضييق على مَنْ يدخلها أو يهدمها ويحرقها أو يجعلها فارغة من مضمونها وارتباطها بما حولها من دوائر الناس .

ومن السعى المذموم أيضاً ما قاله سبحانه : ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ (٢٠٥)﴾ [البقرة]

فحركته وسعيه وجهده ووقته فى الأرض كان بهدف الفسادوالإفساد فى الأرض وإبادة الحرث والنسل ، والحرث الزرع ، والنسل الذرية.

أما السعى المحمود المشكور غير المنكور فضله ، فكسعى الأب لإطعام أبنائه ورعايتهم ، وكسعيه من أجل الآخرة لا الدنيا ، ويتخذ الدنيا مطية له للوصول إلى الآخرة . فالحياة الدنيا بما فيها من سعى وتعب وجهد وفناء ليست هى الغاية التى يجب أنْ يسعى إليها الإنسان ، بل على الإنسان أنْ يسعى إلى الحياة الأرقى .

ولك أنْ تسعى إلى بيت الله ، ولك أنْ تسعى إلى مجلس الخمر والفساد ، فالحق سبحانه جعل للإنسان سيطرة على جوارحه فى الدنيا وجعلها خاضعة لإرادته لا تعصيه فى خير أو شر ، فبيده يضرب ويعتدى ، وبيده أيضاً ينفق على المحتاجين.

فللآخرة سعى ومَنْ سعى إليه كان سعيه مشكوراً ، قال تعالى : ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا (١٩)﴾ [الإسراء] ومعلوم أن الشكر يكون لله استدراراً لمزيد نعمه ، كما قال تعالى: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ (٧)﴾ [إبراهيم] ، فما بالك إنْ كان الشاكر هو الله تعالى يشكر عبده على طاعته ؟

ثم ينقلنا الحق سبحانه إلى الكلام عن القرآن ، فيقول:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾﴾

إذا تحدَّث الله سبحانه عن فعل يحتاج إلى كمال المواهب من الله تبارك وتعالى يقول (إنا) : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩)﴾ [الحجر] ولكن حين يتكلم الله عن ألوهيته وحده وعن عبادته وحده يستخدم ضمير المفرد مثل قوله سبحانه : ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا (١٤)﴾ [طه] فإنزال

القرآن وحفظه ليس وليد قدرته وحدها ، ولا علمه وحده ، ولا حكمته وحدها ، ولا رحمته وحدها ، وإنما كل فعل من أفعال الله تكاملت فيه صفات الكمال المطلق لله .

فإنزال الذكر عملية عظيمة ، لأننا سنُنزله بقدرة وسننزله بحكمة، وننزله بعلم وننزله ببصر ، وننزله بقيومية ، وننزله بقبض ، وننزله ببسط .

وكلمة ﴿ نَزَّلْنَا (٢٣)﴾ [الإنسان] تفيد التتابع وموالاة النزول ، فالقرآن أُنزل جملة واحدة من اللوح المحفوظ ، ثم نزّله الله بعد ذلك منجّماً حسب الوقائع. لذلك قال تعالى : ﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا (١٠٦)﴾ [الإسراء] وفى آية أخرى :﴿ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا (٣٢)﴾ [الفرقان]

أى نزلناه مرتلاً مفرقاً آية بعد آية ، فنزل القرآن مجموعة من الآيات بعد الأخرى ، وهذه الطريقة فى التنزيل كانت تيسر للصحابة حفظه وفهمه والعمل به.

يقول تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا (٣٢)﴾ [الفرقان]

فالحق سبحانه نزّل القرآن على الهيئة التى نزل بها لزوماً لتثبيت فؤاد رسول الله ﷺ والمؤمنين ، وله نزل مرة واحدة لكان تكليفاً واحداً.

وأحداث الدعوة شتى وكل لحظة تحتاج إلى تثبيت فحين يأتى الحدث ينزل نجمٌ قرآنى فيثبِّت به الحق النبى ﷺ والمؤمنين.

﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ (٢٤)﴾ [الإنسان] فكلُّ من قام بالقرآن الذى نزّلناه عليك لابد أنْ ينَاله ما يناله من الأمور التى تحتاج إلى صبر عظيم .

فمعنى ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ (٢٤)﴾ [الإنسان] أى اصبر لقضاء ربك الذى يترتب على هذا التنزيل ، وهذا يدل على أنه سيناله منه ما يحتاج إلى صبر .

﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا (٢٤)﴾ [الإنسان] لقد قال عتبة بن ربيعة

والوليد بن المغيرة للنبى ﷺ : إن كنتَ صنعت ما صنعت لأجل النساء والمال فارجع عن هذا الأمر . وقال عتبة : أنا أزوّجك ابنتى وأسوقها إليك بغير مهر . وقال الوليد : أنا أعطيك من المال حتى ترضى فارجع عن هذا الأمر فأنزل الله تعالى هذه الآية .

لذلك قال تعالى ﴿مِنْهُمْ (٢٤)﴾ [الإنسان] أى من أهل مكة الذين لم يؤمنوا بك ، وهذا ليس خاصاً بهم فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

والخطاب وإنْ كان لرسول الله فإن أمة محمد متضمنة فى هذا الخطاب فلا تطيعوا آثماً أو كفوراً ، والآثم المذنب العاصى الذى يرتكب الذنوب والمعاصى ، وليس شرطاً أنْ يكون كافراً ، أما الكافر فهو آثم بذنب الكفر نفسه وينضاف إليه ذنوب وآثام ، لأنه لا ضابط لسلوكه ، فهو لا يؤمن بكتاب ولا برسول ولا بيوم القيامة ، فلِمَ يستقيم ؟

لذلك فصل الحق سبحانه بين الآثم والكفور بـ (أو) ، فلا يسعك أنْ تطيع الآثم أو تطيع الكفور كل على حدة أو مجتمعين .

والكَفُور صيغة مبالغة على وزن (فعول) أى الشديد الكفر المصرّ على كفره الذى يجحد كل شيء وينكره ولا يُقر به معاند فى كفره ويدعو غيره إلى كفره ويصد عن سبيل الله .

فالكافر فقط قد يكون كافراً فى نفسه لا يدعو غيره ولا يصد عن سبيل الله ، وقد يكفر بأمر دون آخر ، أما الكفور فهو مبالغ متجاوز الحدّ فى كفره .

﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾﴾

وذِكْر الله هو تسبيحه وتنزيهه ، لذلك قال تعالى : ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (١) الَّذِى خَلَقَ فَسَوَّى (٢) وَالَّذِى قَدَّرَ فَهَدَى (٣)﴾ [الأعلى]

فكيف لا تسبِّح أنت الله بينما الكل يسبِّح لله وأنت سيد هذا الكون؟ فاستح أن يكون الكون كله مُسبِّحاً وأنت غير مسبِّح ، فصِلْ أنت تسبيحك بتسبيح كل هذه المخلوقات .

فاذكر ربك لأنه بذكرك له سيذكرك فى الملأ الأعلى ، قال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ (١٥٢)﴾ [البقرة] فالله سبحانه يريد من عباده الذكر وهم كلما ذكروه سبحانه وشكروه شكرهم وزادهم .

والله سبحانه يقول فى حديث قدسى : «أنا عند حُسْن ظن عبدى بى وأنا معه إذا ذكرنى ، فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، وإنْ ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منه» .

فمعنى قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ (٢٥)﴾ [الإنسان] أى اذكر اسم ربك فى كل شيء فى نعمه وعطائه وستره ورحمته وتوبته .

فـ ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ (٢٥)﴾ [الإنسان] تذكيرٌ لك بما حباك به من أفضال خلقك وربَّاك وأعطاك من فيض نعمه مالا يُعد ولا يُحصَى . فاذكر اسم ربك لأنك إنْ لم تعشقه تكليفاً فأنت قد عشقته لأنه مُمدّك بالنعم .

اذكر ربك وسبِّح باسم ربك ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٢٥)﴾ [الإنسان] ، وفى آية أخرى يقول :﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (٤١) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٤٢)﴾ [الأحزاب]

وكأنَّ الحق سبحانه يريد أنْ نذكره ونسبِّحه ونلهج باسمه سبحانه آناء الليل وأطراف النهار.

﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ وَسَبِّحۡهُ لَيۡلٗا طَوِيلًا ٢٦﴾

الحق سبحانه لا يريد العنتَ بمَنْ آمن به فيكلفهم مالا يطيقون ، فلا يطلب من عباده قضاء ليلهم كله فى عبادته والركوع والسجود

له ، بل يقول تعالى : ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ (٢٦)﴾ [الإنسان] وفى آية أخرى يقول : ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ (٧٩)﴾ [الإسراء]

فالله لا يأمر بقيام الليل كله ، حتى ما خاطب به رسول الله قال : ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (٢) نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا (٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا (٤)﴾ [المزمل] فقُمْ من الليل جزءاً منه لذلك قال : ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ (٢٦)﴾ [الإنسان] فمن للبعضية أى بعض الليل .

﴿فَاسْجُدْ لَهُ (٢٦)﴾ [الإنسان] السجود علامة الخضوع وعلامة العبودية لأنك تضع أشرفَ شيء فيك وهو وجهك على الأرض خضوعاً له وخشوعاً له ، والسجود هو منتهى الخضوع .

والسجود لله تشريف للمؤمن الساجد لله ورَفْع لمقامه ، فهو لا يسجد لموازٍ له أو لمخلوق مثله ، بل هو يسجد لمن خلقه يسجد للعظيم الذى لا أعظم منه .

﴿وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا (٢٦)﴾ [الإنسان] والتسبيح هو التنزيه عما لا يليق بذات المنزه ، فاجعل نفسك مسبِّحاً لذاته العلية دائماً ، والتسبيح فعل مستمر لا ينقطع ولا ينقضى .

وستجد فى هذه الآية أمراً عجيباً ، ففى بداية الآية قال : ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ (٢٦)﴾ [الإنسان] أى اسجد وصلِّ له تعالى جزءاً من الليل لا كله .

إنما عند التسبيح قال : ﴿وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا (٢٦)﴾ [الإنسان] فتسبيحك لله لا ينقطع ولا يجب أنْ ينقطع ، والكون كله مسبِّح لله ، فلا تتأخر أيها الإنسان عن ركْب المسبِّحين ، والسورة التى معنا سورة الإنسان كأنها ترسم للإنسان طريق فلاحه ونجاحه فى الآخرة .

والحق سبحانه يقول فى آية أخرى : ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ (٤٨) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ (٤٩)﴾ [الطور]

هنا أيضاً تسبيح مستمر ﴿حِينَ تَقُومُ (٤٨)﴾ [الطور] أى حين تقوم

الليلَ صلاةً وتسبيحاً وتحميداً وتكبيراً لله .

وقد سُئلت عائشة رضى الله عنها : بأى شيء كان رسول الله يفتتح قيام الليل فقالت : سألتنى عن شيء ما سألنى عنه أحد قبلك ، كان إذا قام كبَّر عشراً وحمد الله عشراً وسبَّح عشراً وهلّل عشراً واستغفر عشراً وقال : اللهم اغفر لى وارحمنى واهدنى وارزقنى وعافنى . وكان يتعوذ من ضيق المقام يوم القيامة .

ثم ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ (٤٩)﴾ [الطور] تسبيح دائم مستمر يلهج به لسانك حتى تدبر النجوم ويذهب الليل وتظهر تباشير الفجر فيصلى الفجر ، ثم تسبيح إلى أنْ تشرق الشمس وذِكْرلله .

ثم يقول تعالى:

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾﴾

كلمة ﴿هَٰٓؤُلَآءِ (٢٧)﴾ [الإنسان] هنا تعود على الكافرين الذين قال الله فيهم هنا فى أول السورة : ﴿ وَإِمَّا كَفُورًا (٣) إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا (٤)﴾ [الإنسان]

ونلحظ أن الحق سبحانه بعد هذه الآية الرابعة لم يذكرهم بل ذكر الأبرار وذكر جزاءهم وثوابهم وأعمالهم التى اقتضت هذا الثواب ، حتى جاءت الآية ٢٤ فقال تعالى : ﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا (٢٤)﴾ [الإنسان]

فكلمة ﴿هَٰٓؤُلَآءِ (٢٧)﴾ [الإنسان] تشير إلى هذا الآثم أو الكفور ، ويصفهم الحق سبحانه أنهم :﴿يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ (٢٧)﴾ [الإنسان] والعاجلة هى الدنيا وصفها الله بصفة من صفاتها من النعيم العاجل المتعجِّل .

فالكافرون إنما يريدون العاجلة المنتهية ، فهم طالبو دنيا لا طالبو آخرة ، والإنسان لابد أنْ لا ينظر إلى حياته العاجلة فى الدنيا وشهواتها

فقط بل عليه أنْ يدبر أمر نفسه فيما يستقبله من أمر الآخرة.

إنك إنْ أحببت العاجلة ولم تنظر إلى الحياة الآجلة تكون قد ظلمتَ نفسك ظلماً عظيماً، فما فائدة متعة عاجلة لها مدة محدودة أمام عذاب غير محدود على تلك المتعة؟

والمشكلة ليست فيمن يريد أنْ يتمتع بمتاع الدنيا إنما هى فيمَنْ يريد أن يتمتع بها من أى طريق حلالاً كان أو حراماً، فيحب متعته العاجلة وينسى أنَّ هناك حياة أخروية آجلة.

وإلا فالحق سبحانه قال: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا (٧٧)﴾ [القصص]

فالله أعطاك نعماً لا تُحصى، ورزقك رزقاً على قدر نصيبك من هذه الدنيا، فإنِ ابتغيتَ برزق الله لك الحياة الدنيا فسوف يفنى معك فى الدنيا، لكن إنْ نقلته للآخرة لأبقيتَ عليه نعيماً دائماً لا يزول.

وحين تحب نعيم الدنيا وتحتضنه وتتشبث به فاعلم أن دنياك لن تمهلك، فإنك إما أنْ تتركه وترحل عنه وعن الدنيا كلها، وإما أنْ يزول هو فتصبح فقيراً معدماً.

فإن كنتَ عاشقاً ومحباً للمال مثلاً ولبقائه فى حوزتك فانقله إلى الدار الباقية ليظلَّ فى حضنك دائماً نعيماً باقياً لا يفارقك فسارع إذن واجعله يسبقك إلى الآخرة.

وإذا كان ربّنا عز وجل يوصينا بأنْ نبتغى الآخرة فهذا لا يعنى أنْ نترك الدنيا ﴿وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا (٧٧)﴾ [القصص] فنصيبك من الدنيا هو الحسنة التى تبقى لك وتظل معك وتصحبك بعد الدنيا إلى الآخرة، فكأن نصيبك من الدنيا يصبُّ فى نصيبك من الآخرة فتخدم دنياك آخرتك.

المشكلة أن الكافر أو الفاجر أو الظالم يظن أنه لا عقابَ ولا حسابَ

أولا يستحضر عذاب الله ، لذلك تجدهم :﴿وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا (٢٧)﴾[الإنسان] أى يذرون وراءهم يوماً عسيراً شديداً ، فيتركونه فلا يؤمنون به ولا يهتمون لوقوعه ، فقد تركوه من كل وجه .

فهو يومٌ ثقيل على الكافرين إذا حُشروا وإذا وقفوا للحساب ، فالمشركون بالله يحبون الدنيا والبقاء فيها ويدعون خلف ظهورهم العمل للآخرة وما ينجيهم من العذاب فيتركونه فلا يؤمنون به ولا يعملون له .

وقد يسأل سائل : لماذا قال تعالى ﴿وَرَاءَهُمْ (٢٧)﴾[الإنسان] ويوم القيامة يومٌ سيأتى فهو أمامنا . فالبعض قال : ويذرون وراءهم عملَ يوم ثقيل . أى لا يعملون للآخرة .

وكلمة وراء أيضاً مشتقة من توارى ، والشيء المتوارى عنك يقع لما بين يديك وما خلفك ، فيقع لما هو أمامك أو لما هو وراءك .

ثم إن يوم القيامة وراءهم يطلبهم مهما طالت أعمارهم ، فهم تركوه وتركوا العمل به ولكنه يطلبهم وليسوا بفارِّين منه ، ولا بدّ أنه سيلحقهم ويجدونه أمامهم فيقع بهم الحساب والعقاب .

﴿نَّحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا (٢٨)﴾

يذكر الحق سبحانه دلائل قدرته لهؤلاء الكافرين المكذبين،﴿نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ (٢٨)﴾[الإنسان] فنحن خلقناهم وشددنا خلقهم ، ويدخل فى شَدِّ الخلق شدّ مفاصلهم وقوتهم وخلقناهم خَلْقاً محكماً ذا بصر وسمع وذوق وشَمٍّ وحركة لليدين وللرجليْن وقلب ينبض وأجهزة داخل أجسامهم تعمل وجلد يحس ويشعر وأعصاب تنقل الإحساس

باللذة أو بالألم إلى مخ يستوعب كُل هذا أو يصدر أوامر لجوارح الإنسان بفعل فعْلٍ ما.

فشددنا مفاصلهم بالعصب والعروق والجلد لئلا تنقطع المفاصل وقت تحريكها ، وشددنا قُبُلهم ودُبرهم لئلا يسيل بولهم وغائطهم إلا عند إرادة الإنسان قضاء حاجته أو أصابه مرض .

﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا (٢٨)﴾ [الإنسان] أى إذا شئنا أهلكناهم وأتينا بأشباههم فجعلناهم بدلاً منهم ، مخالفين لهم فى العمل ، فلا يذرون وراءهم يوم القيامة بل يعملون له .

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾﴾

وفى آية أخرى يقول تعالى : ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى (٢) إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَى (٣)﴾ [طه] فإنما أنزلنا القرآن تذكرة أى تذكيراً ﴿لِّمَن يَخْشَى (٣)﴾ [طه] أى لمن يخاف من الله بمهابة وإجلال .

﴿فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا (٢٩)﴾ [الإنسان] السبيل الطريق ، أى فمَنْ شاء الانتفاع بتذكير الله له اتخذ إلى ربه طريقاً يُوصِّله للغاية من التذكرة، وهى الاهتداء بآيات القرآن .

وتحديد الغاية والهدف إنما يهدف إلى إيضاح السبيل أمام الإنسان ليسلك الطريق الموصِّل إلى تلك الغاية .

ونتأمل الآية نجد أن الله ذكر السبيل بصيغة النكرة ، فقال : ﴿سَبِيلًا (٢٩)﴾ [الإنسان] أى وجهةً وطريقاً إلى الخير ، ووجوه الخير كثيرة قد تكون فى الصلاة أو الصيام أو الزكاة أو مساعدة المحتاجين .

فما دمتَ قد سلكتَ سبيل الإيمان بالله ورسوله فلك أنْ تُعرف بسلوك سبيل من سبل الخير والطاعات ، فسبيل الله آمنُ لكم وأيسر من السبيل الذى يوصِّل إلى عذاب جهنم .

ثم يقول الحق سبحانه:

﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾﴾

إذا كان الحق سبحانه قد أثبت للإنسان مشيئة ، فقال :﴿فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا (٢٩)﴾ [الإنسان] فإنه هنا أثبت أن مشيئتنا من داخل مشيئة الله ، فلو لم يشأ الله لم تكُنْ مشيئتنا ،

فقال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ (٣٠)﴾ [الإنسان] فلا أحدَ يستطيع أنْ يخرج عن مشيئة الله أو إرادته ، وكل شيء من فعل الله ، فالله هو الذى خلق اختيار الإنسان لأمر معين.

فلا يحدث فى كون الله إلا ما يريده ، فاختيار الكافر للإيمان لم يكُنْ غَصْباً عن الله بل بإرادته سبحانه ، والله هو الذى خلق له الاختيار.

فالإنسان خُلق على هيئة القَسْر فى أمور ، وعلى هيئة الاختيار فى أمور ، فلا الفقير يستطيع أنْ يثْرى دون مشيئة الله ، ولا المريض يستطيع أنْ يشفى دون مشيئة الله ، ولا الضعيف يستطيع أنْ يقوى ضد إرادة الله .

لذلك قال الحق سبحانه : ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا (٢٣) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ (٢٤)﴾ [الكهف] فإياك أنْ تقول : إنى سأفعل شيئاً إلا أنْ تشتمله وتربطه بمشيئة الله ، فأنت لا تفعل شيئاً إلا بإرادة الله ، فلا تعد إلا بالمشيئة .

﴿إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (٣٠)﴾ [الإنسان] فقد ثبت لله العلم والحكمة أزلاً، لذلك قال ﴿إِنَّ اللهَ كَانَ (٣٠)﴾ [الإنسان] فنحن نسمعها فى إطار أن الله لا يتغير، وما دام كان فى الأزل عليماً حكيماً فهو كذلك إلى الأبد.

ونعلم أنه إذا جاءت أى صفة من صفات الحق داخلة فى صورة كينونة أى مسبوقة بـ (كان) ، فإياكم أنْ تأخذوا (كان) على أنها

وَصْفٌ لما حدث فى زمن ماضٍ ، ولكن لنقُلْ (كان وما زال) .

لماذا ؟ لأن الله كان أزلاً ، فهو سبحانه عليم قبل أنْ يوجد معلوم ، وهو سبحانه حكيم قبل أنْ يوجد ما يحتاج إلى الحكمة . والحكيم لابد أنْ يكون عليماً ، وإلا كيف يكون حكيماً فى تدبير أمر لا يعلم كُنْهه ولا ماهيته .

ثم يُنهى الحق سبحانه سورة الإنسان بقوله تعالى :

﴿ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا ﴿٣١﴾ ﴾

فالحق سبحانه بمشيئته يُدخل مَنْ يشاء فى رحمته ، ورحمته دينه وقيل جنته ، والدخول فى الدين يُوجب الجنة بمشيئته سبحانه ، فلا تعارض بين الدخول فى الدين والدخول فى الجنة . والمؤمنون إنما يدخلون الجنة برحمة الله ومشيئته لا بموجب العمل وحده ، فدخول الجنة إنما هو بموجب الفضل والإحسان ، لا بسبب الاستحقاق .

فالأمر متعلق بمشيئة الله سبحانه ، فالله لم يشأ أنْ يدخل فى رحمته مَنْ علم منه أنه يختار الضلال ، ولكن إنما شاء أنْ يدخل فى رحمته مَن علم منه أنه يختار الهدى .

فالذين ظلموا أنفسهم فماتوا على شركهم وكفرهم أعدَّ لهم فى الآخرة عذاباً أليماً مؤلماً موجعاً وهو عذاب جهنم ، الذى فصَّل فيه الحق سبحانه القول فى آيات سورة الإنسان .

والله هو الذى أعدَّ لهم هذا العذاب الأليم ، وكل حدث من الأحداث إنما يأخذ قوته من قوة فاعله ، فإذا كان الحدث التعذيبى منسوباً إلى الله وله مطلق القوة والقدرة ، لذلك فالعذاب لن يُطاق ولن يجد الظالم مَنْ يدرأ عنه هذا العذاب

سُورَةُ المُرْسَلَاتِ

سورة المرسلات

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ۝١ فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا ۝٢ وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا ۝٣
فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا ۝٤ فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا ۝٥ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ۝٦﴾

يقول تعالى ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا (١)﴾ [المرسلات] يقسم الله بالرياح المرسلة، فالله يرسلها يقول تعالى ﴿يُرْسِلُ الرِّيَاحَ (٥٧)﴾ [الأعراف] وهى تُرسَل كهيئة عُرْف الفرس متتابعة يتبع بعضها بعضاً ، وأحياناً تكون مرسلة برحمة الله رخاء تسوق الخير إلى الناس .

يقول تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِى يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَى رَحْمَتِه حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا[1] سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِه الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِه مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ (٥٧)﴾ [الأعراف]

هذه الرياح المرسلة بالخير والبشرى ، أما تلك المرسلة شراً وعَصْفاً فقد قال الله عنها : ﴿فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا (٢)﴾ [المرسلات]

---

(١) ثقالاً : أى سحباً ممتلئة ماء كثيراً . [القاموس القويم ١/١٠٨] فنجد لونها داكناً لما تحمله من ماء.

والريح العاصفة أى الريح الشديدة القوية ، وهى غير الرُّخاء السهلة اللينة ، فالعاصفة سريعة قوية شديدة تعصف بما يكون أمامها من أشياء ، ونحن نرى الريح العاصفة على الطرق الصحراوية إذا هبَّت واحدة منها فإنها تغطى الطرق بحيث تعوق حركة المرور إلى أنْ تُزاح عنها هذه الطبقة من الرمال.

وإذا هبَّتْ على مياه البحار تكون نوَّة أو تسونامى يعلو فيها الموج ارتفاعات عالية تعصف بالسفن العملاقة حينها يغلقون الموانيء والبوغازات أمام حركة السفن والصيد.

﴿وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا(٣)﴾ [المرسلات] الواوهنا للقسم والناشرات الرياح التى تنشر السحب الثقال فتأتى بالمطر، والنشر ضد الطىّ.

والبعض قرأ الآية : بُشْراً ، وحجته قوله تعالى ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ(٤٦)﴾[الروم] وذلك أن الريح تبشر بالمطر.

ورياح الرَّحمة ثلاث منشرات كقوله تعالى: ﴿وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا (٣)﴾ [المرسلات] والمبشرة كقوله (مبشرات) والثالثة الذاريات فهذه رياح الرحمة تهبُّ على كل شيء فى الدنيا.

﴿فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا (٤)﴾ [المرسلات] فالفارقات هى الرياح التى تفرق بين السحاب فتبدده ، فيذهب بعضه فى أفق ، والبعض فى أفق آخر.

﴿ فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا (٥)﴾ [المرسلات] فالرياح إذا كانت عاصفة شديدة قوية قلعت الأشجار وهدمت المنازل ، حينها يحصل خوفٌ للعباد فى قلوبهم فيلجئون إلى الله تعالى ويذكرونه فصارت تلك الرياح كأنها ألقتْ الذكر والمعرفة فى القلوب عند هبوبها.

فالرياح تظهر بها النعم ، إذ تسوق النعم بسوْقها للسحب المحمَّلة بالماء فتكون خيراً ونماءً لقوم عطشت أرضهم ، فيكون اهتزاز أرضهم خضراً ، فيذكرون نعمة الله عليهم.

﴿هُوَ الَّذِى يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَى رَحْمَتِه حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِه الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِه مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ (٥٧)﴾ [الأعراف]

نلاحظ أن الحق سبحانه ذكر عدة كلمات مما هى فى آيات سورة المرسلات التى معنا مما يكون حجة لمن ساق الآيات فى الرياح.

فكلمات (يرسل) هى (والمرسلات) ، وكلمة بشراً هى ما ذكرناه من قراءة مَنْ قرأها : والناشرات بُشراً ثم ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٥٧)﴾ [الأعراف] هى (الملقيات ذكراً) فتترك أثراً فيمن يرى آية الله فى هذا فيذكر الله ويُسبِّحه على ما أنعم به.

﴿عُذْرًا أَوْ نُذْرًا (٦)﴾ [المرسلات] أى إعذاراً إلى الله ، والعذر محو الإساءة وطمسها وهى من إبداء العذر للخروج من الذنب ، ومنه قوله تعالى: ﴿قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ (١٦٤)﴾ [الأعراف] أى فعظهم اعتذاراً إلى الله وأننا قد أبلغناهم رسالة ربنا فلم يعد لهم عذر.

أما نُذراً أى إنذاراً وتخويفاً ، والذكر يحقق الأمرين الإعذار والإنذار.

وإذا كنا قد سُقْنا الآيات هنا أنها فى وصف الرياح ، وأنها مُرسَلة من الله ، وأنها قد تكون عاصفة تهب أو ناشرات تنشر السحاب وتفرِّقه وتبدده فى كل اتجاه ليصل إلى بلاد بعيدة ، وأنها تذكِّر عباد الله بنعمه ونقمه ، إنْ كانت خيراً فهى نعمة ، وإنْ كانت شراً فهى نقمة .

إذا كان هذا كله فى الرياح فإن بعض العلماء تأول هذه الآيات كلها تأويلاً آخر أنها الملائكة ، والبعض ساق بعض الآيات فى الرياح وبعضها فى الملائكة ، والبعض ساقها كلها فى الأنبياء ، والبعض ساقها كلها فى القرآن.

فآيات القرآن كانت تتنزل متتابعة تعصف القلوب بذكر الوعيد فهى العاصفات ، وتنشر أنوار الهداية والمعرفة فى قلوب المؤمنين فهى الناشرات نَشْراً .

وهى التى تفرق بين الحق والباطل ، فهى الفارقات فرقاً ، وهى ﴿فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا(٥)﴾ [المرسلات] فتلقى الإيمان والنور وحب الطاعة فى قلوب المؤمنين ، إعذاراً إلى الله وإنذاراً لعباده وتخويفاً فهى ﴿عُذْرًا أَوْ نُذْرًا (٦)﴾ [المرسلات]

بعد هذه الآيات المقسَم بها يذكر الحق سبحانه المقسَم عليه ، فيقول تعالى :

﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ ۝٧﴾

وفى آية أخرى يقول تعالى : ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ (١٣٤)﴾ [الأنعام] ووعده وإيعاده لا بد أنْ يتحقق وأنْ يأتى أوانه فيصبح واقعاً ، لذلك قال ﴿لَوَاقِعٌ (٧)﴾ [المرسلات] أى متحقق فى عالم الواقع وستشهدونه بأنفسكم ، وفى آية أخرى يقول : ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ (٥)﴾ [الذاريات] إذن : ما وعدكم الله به آتٍ وواقع وصادق .

وسواء كان المقسم به هو الرياح أو الأنبياء أو القرآن أو الملائكة، فإن اجتماع هذا كله يدلّ على عظيم المقسَم عليه ، وهو يوم القيامة، فالله إنما يقسم بالعظيم على العظيم .

وكلمة ﴿لَوَاقِعٌ (٧)﴾ [المرسلات] لها وقع عظيم وشديد على الأسماع والقلوب تجعل القلوب ترتجف ، ولذلك سُمِّيت القيامة بالواقعة ، وجعل لها الحق سبحانه سورة بهذا الاسم .

وقد ذكر الحسن البصرى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قرأ قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ (٧) مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ (٨)﴾ [الطور] فربا منها ربوة عيد منها عشرين يوماً »[1] أى مرض منها وزاره العُوَّاد عشرين يوماً .

---

(١) أورده ابن عطية الأندلسى (ت ٥٤٢ هـ) فى كتابه المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز (١/٣٨) وفيه أن عمر أنَّ أنَّة . وأورده ابن كثير فى تفسيره (٧/٤٣٠) وعزاه للإمام أبى عبيد فى فضائل القرآن (١/١٣٦) وبنحو ما ذكره ابن عطية ذكره الثعالبى فى تفسيره (الجواهر الحسان) (١/١٣٠) .

﴿فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾ وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾﴾

فأول ما يحدث من وقائع يوم القيامة أنْ تُطمس النجوم التى تزيِّن السماء وتنيرها، فتظلم الدنيا وتصبح سواداً حالكاً مظلماً.

فطمْسُ النجوم إذهابُ ضوئها ونورها، فأنت عندما تريد أنْ تلقى الفزع فى قلوب الناس تظلم عليهم المكان فلا يروْنَ شيئاً مما يجرى حولهم، وهذا يكون أشدَّ عليهم، فهم لا يعرفون إلى أين يذهبون.

ومثل هذا قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ (٦٦)﴾ [يس] فأوَّل ما يحدث الطمس على أعينهم وجعلهم لا يرون شيئاً فيتسابقون على الصراط كالعميان يخبطون فى بعضهم البعض لا يدرون إلى أين هم ذاهبون.

فأول مشهد من مشاهد يوم القيامة أن النجوم ينطفيء نورها، فتظلم السماء والأرض وتصبح حالكةَ السواد.

﴿وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ (٩)﴾ [المرسلات] أى وإذا السماء انشقت، لكن الانشقاق هنا له معنى آخر، فمعناه انفراجها وانفتاحها لنزول الملائكة.

وهو معنى قوله فى سورة النبأ الآتية بعد سورة المرسلات: ﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا (١٩)﴾ [النبأ] فانفراج السماء وانفتاحها وانشقاقها إنما هو لنزول الملائكة للحساب.

فينزل الملائكة من السماء ويحيطون بالأرض التى تُبدَّل غير الأرض يحيطون بها من كل جانب على أطرافها، يقول تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (١٥) وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ (١٦) وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا (١٧)﴾ [الحاقة] أى على أطرافها ونواحيها حين تشقق السماء.

﴿وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ (١٠)﴾ [المرسلات] ونلحظ أن الحق سبحانه ذكر أقوى مظهر ثابت فى الحياة الدنيا ، وإلا ففى الأرض أشياء أخرى قوية وثابتة كالعمائر ناطحات السحاب ، فإذا كان الحق سبحانه سينسف هذه الجبال ويزيلها عن وجه الأرض فغيرها زائل من باب أوْلى .

والإنسان ينظر إلى الجبال نظرةَ رهبةٍ وإعظام لقوتها وصلابتها ورهبتها ، فيقول لك جبال الألب وجبال الهيمالاَيا والتبت وأطلس وطوروس ويتحاكى الإنسان بقوتها وارتفاعها وصلابتها .

فها هى الجبال أيها الإنسان تُنسف فيختلّ توازن الأرض التى تعيش عليها بإيجادنا إياك عليها ، فماذا ستفعل ؟ وإلى أين ستذهب، وها هى السماء فوقك قد انشقتْ وفُرجت وانفطرتْ ، ونزل منها الملائكة لتحقيق وعد الله ووعيده ، فلماذا تكذِّب ؟

تنسف الجبال فتصبح ﴿كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ (٥)﴾ [القارعة] أى كالصوف المندوف ، وتصير هباءً منثوراً أى ذرات تراب متناثرة تذروها الرياح .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴿١١﴾ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾
لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ﴿١٤﴾﴾

﴿أُقِّتَتْ (١١)﴾ [المرسلات] أى وقتِّت وهى قراءة أخرى فى الآية ، أى ضُرب لهم ميقات معين لا يعلمه إلا الله للبعث بعد الموت وللجمع والحشر والحساب والعقاب .

فكلمة (أقتت) من الميقات والوقت ، والحق سبحانه يقول : ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ (٤٩) لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (٥٠)﴾ [الواقعة] والميقات من الوقت ، والوقت هو الزمن فحينها يُجمعون لوقتٍ واحد تجتمع فيه كل الأمم .

ومَنْ يتأمل النسق القرآنى يجد عجباً ، ففى آية سورة الواقعة قال تعالى : ﴿لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (٥٠)﴾[الواقعة] فى شأن الجمع إلى يوم القيامة ، أما فى جمع سَحرةً فرعون فقد قال تعالى : ﴿فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (٣٨)﴾ [الشعراء]

الأولى (إلى ميقات)والثانية (لميقات) . فى شأن جمع السحرة استخدم الحق سبحانه اللام فقط متصلةً بكلمة ميقات مباشرة دلالةً على قِصَر المدى الزمنى لتحقُّق الميقات .

أما فى شأن القيامة الموعود بقيامها منذ بدء الخليقة فاستخدم الحق سبحانه (إلى) ، وزيادة المبنى تدلُّ على زيادة المعنى ، وهذا دلالة على البُعد الزمنى لتحقّق هذا ، ولكنه آتٍ وواقع ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ (٧)﴾ [المرسلات]

ثم يسأل الحق سؤالاً يعلمْ إجابته فيقول : ﴿لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ (١٢)﴾ [المرسلات] أى لأى يوم أخِّرت ، وضُرب الأجل للجميع لأنه لنْ يتخلف أحد ولن يفر أحد ، والتاء الساكنة فى (أجلت) تعود على الساعة والقيامة . وهذا تعظيم للوقت الذى يقع فيه الفصل والجزاء ، والمراد باليوم الحين والزمان .

﴿لِيَوْمِ الْفَصْلِ (١٣)﴾ [المرسلات] إنه يوم الفصل أى يوم الحكم بين المختلفين والمتخاصمين ، وهذا يحكم فيه الله ، وهو القادر سبحانه على أنْ يفصل بينهم بالحق .

ومتى يكون موعد هذا الفصل أو الحكم ؟ أهو فى الدنيا ؟ لا فالدنيا دار اختبار وليستْ دار حساب ولا محاسبة ولا فصْلَ فى قضايا الإيمان .

ولذلك فإن الفصل والحكم بينهم يتم يوم القيامة وعلى مشهد من خلق الله جميعاً : ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١١٣)﴾ [البقرة] والذى سيفصل بين الناس هو الله الذى لا هوى له ولا مصلحة له

سبحانه فى أنْ يميل حكمه وفصله ناحية أحد بعينه ، ولا بد أنْ يكون الفصل بين الأمرين بلا هوى ، فالحكم بالميزان يقتضى أنْ تكون له كفّة هنا وكفة تقابلها . ونحن نسمى هذا الإنصاف فى الحكم أى نقف فى النصف دون ميل أو حَيْف .

ثم يؤكد الحق المعنى فيقول : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ (١٤)﴾ [المرسلات] إنك لا تعلم ما يوم الفصل يُعظمه الله ويهوِّل منه تعظيماً لشدتها .

فمن أين تعلم كُنهه وماهيته ولم تَرَ مثله فى شدته ومهابته فما علمك يا أشرفَ الخلق بيوم الفصل وشدته ، فلا تعلم عِظمه وأهواله على سبيل التفصيل وإنْ كنتَ تعلمها إجمالاً .

﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (١٥) ﴾

هذه الآية ذُكرت فى هذه السورة عشر مرات بدءاً من هذه الآية ، فالسورة كلها تهديدٌ شديد ووعيد للمكذبين الذين كذَّبوا بيوم القيامة يوم الفصل .

وكلمة (ويل) تعنى الهلاك والعذاب وتُستعمل للتحسُّر على غفلة الإنسان عن العذاب ، مثل قوله تعالى : ﴿ يَـٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَـٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا (٤٩)﴾ [الكهف] وقوله جلَّ جلاله : ﴿ يَـٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَـٰذَا (٩٧)﴾ [الأنبياء]

هذه الويلات تعنى الحسرة وقتَ رؤية العذاب ، وقيل : إن الويل وادٍ فى جهنم يهوى الإنسانُ فيه أربعين خريفاً والعياذ بالله .

وساعة ترى ﴿ يَوْمَئِذٍ (١٥) ﴾ [المرسلات] وتجد فيها هذا التنوين فاعلم أنه عِوَضٌ عن شيء محذوف ، والمحذوف هنا جملة ، والمعنى : يوم إذ يأتى يوم الفصل .

حينها ﴿يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا (٤٢)﴾ [النساء] فهو يوم عظيم يوم يقوم الناس لرب العالمين، وقد أسماه الحق سبحانه مشهد اليوم العظيم، فقال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٣٧)﴾ [مريم] فهو يوم مشهود يشهده الجميع، فالعذاب في الدنيا مثلاً لا يشهده إلا الحاضرون المعاصرون ولا يشهده السابقون ولا اللاحقون، أما عذاب الآخرة فهو المشهد العظيم الذي يراه كلُّ الخلق.

والحق سبحانه يقول عن المكذبين: ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ (٩٢) فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ (٩٣) وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ (٩٤) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ (٩٥)﴾ [الواقعة]

فكلُّ مكذِّب ضال سينزل إلى الحميم ويَصْلى الجحيم ويعاني من عذابها حقَّ اليقين، وهم عندما يعانون عقابهم لتكذيبهم يقولون: ﴿يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٧)﴾ [الأنعام]

﴿أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾﴾

الأولون: الأقوام السابقة التي كذَّبت بالله والإيمان والقرآن، كذَّبوا برسلهم، فالحق سبحانه يسأل أهل مكة الذين لم يؤمنوا بمحمد ﷺ: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ (١٦)﴾ [المرسلات]

لقد وصل إلى أسماعكم جزاء الأقوام السابقة عليكم وما حدث لهم نتيجة تكذيبهم وكفرهم، فأهلكناهم حين كذَّبوا رسلهم، فأهلكنا بعضهم بالصيحة وبعضهم بالخسف وبعضهم بالمسخ.

والأولون هم قوم نوح وعاد وثمود الموغلون في القدم، أما

الأخيرون فهم قوم فرعون وقوم لوط وغيرهم القريبون من زمان بعثة رسول الله .

﴿كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (١٨)﴾ [المرسلات] فكذلك سنفعل بمجرمى هذه الأمة من كفار قريش الذين كذَّبوا رسول الله وكفروا بالله وصدوا وأعرضوا ، وصدوا غيرهم عن الإيمان بالله .

فكفرهم وتكذيبهم هو أعظم جُرْم يرتكبونه ويترتب عليه كل الأفعال التى تُعتبر جرائمَ فى عرف القانون والشرع ، فما دام لم يؤمن فتوقع من الكافر أنْ يفعل كلَّ الموبقات من قتل وزنا وسرقة لأنه كذَّب بالمنهج أصلاً ، فهو ينطلق فى حياته بموجب هواه .

لذلك توعد الله هؤلاء المكذبين المجرمين بالويل ، فقال ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (١٩)﴾ [المرسلات]

ثم يقول تعالى مذكِّراً لهم بأنه الذى خلقهم وأوجدهم ، فقال تعالى:

﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ (٢٠) فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (٢١) إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ (٢٢) فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ (٢٣) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (٢٤)﴾

لِمَ تكفرون وتتكبَّرون على الله وتُكذِّبون رسله ونحن خلقناكم من ماء مهين ، وقد وصف الله الماء الذى خُلق منه الإنسان بأنه ﴿مَاءٍ مَّهِينٍ (٢٠)﴾ [المرسلات] لأنه يجرى فى مجرى البول ويذهب مذهبه إذا لم يصل إلى الرحم .

والمهين أيضاً الضعيف ، فهو ماء ضعيف وهو نطفة الرجل أو المرأة ، ورغم ضعف أصل خِلْقة الإنسان فقد خلق الله منه إنساناً

سميعاً بصيراً عاقلاً مفكراً ، وشدَّ الله أَسْره وشد عضلاته وأعصابه وعظامه ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ (٢٨)﴾ [الإنسان]

﴿فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (٢١)﴾ [المرسلات] الهاء فى ﴿فَجَعَلْنَاهُ (٢١)﴾ [المرسلات] أى فصيَّرناه وسهَّلنا له طريقاً يصل به هذا الماء المهين وهو النطفة إلى الرحم ، ليتحقق به مراد الله من خَلْق نسمة إنسانية .

وسمَّى الله رحم المرأة بـ ﴿قَرَارٍ مَكِينٍ (٢١)﴾ [المرسلات] لأن فيه تستقر نطفة الرجل بعد تلقيح بويضة المرأة تسعة أشهر أو أقل أو أكثر ، فهو مكان مُحصَّن جعله الله صالحاً لاستقرار النطفة التى تصبح علقة ثم مضغة ثم تصبح عظاماً ثم يكسو اللهُ العظامَ اللحم ، ثم يُنشئه اللهُ خَلْقاً آخر فيخلق له السمع والبصر.

وقرار يعنى مستقر تستقر فيه النطفة ، وهو الرحم خلقه الله على هذه الهيئة ، فحصَّنه بعظام الحوض وجعله مُعداً لاستقبال هذه النطفة والحفاظ عليها .

﴿إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ (٢٢)﴾ [المرسلات] هو مدة حمل المرأة لجنينها فى رحمها وهى مدة معلومة لنا . حينها تلد المرأةُ فى الوقت الذى يشاؤه الله ، والقدر وقت الشيء المقدَّر له والمكان المقدَّر له .

﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ (٢٣)﴾ [المرسلات] فقدرنا على خَلْقه وتصويره فى أحسن تقويم وأحسن هيئة ونصبنا ظهره فلا يسير على أربع كالدواب، وجعلنا خَلْقه صالحاً لأنْ يعيش فى أى بيئة كانت فتجد الإنسان يعيش فى كوخ أو خيمة أو كهف أو حتى فى ناطحة سحاب .

فجاءت هنا (فقدرنا) من القدرة لذلك ناسب أنْ يأتى بعدها ﴿فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ (٢٣)﴾ [المرسلات] ولكن البعض قرأ هذه الكلمة بتشديد الدال من

(فقدرنا) فقال : فقدَّرنا ، من التقدير . مثل قوله تعالى: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ (٣٩)﴾ [يس]

واستحسن بعضُ العلماء قراءة (فقدرنا) من القدرة لأن الله قال بعدها ﴿فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ(٢٣)﴾[المرسلات]ولم يقُلْ: المقدِّرون.

ولكن كلاهما محتمل فإن مَنْ يُقدِّر الشيء ويخلقه على هيئة حسنة فهو قادر بقدرته، وقادر بتقديره وعلمه.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٢٤)﴾ [المرسلات] فإذا كنا خلقناكم ونخلقكم وسنخلقكم من ماء مهين حقير ضعيف ونجعله حال خرج منكم فى محله المخلوق له نجعله فى قرار مكين مستقر حصين إلى زمن معلوم لله ، فلِمَ تكذِّبون ؟

ثم يُذكِّرهم الله بالأرض التى يعيشون عليها :

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾﴾

فجعلنا الأرض تكفت الناس أحياء وأمواتاً ، أى تضمهم وتجمعهم، فهى تكفت الأحياءَ فيسكنون ظهرها وتكفت الأموات فى بطنها.

مَنْ يتأمل معنى الكَفْت يجده عجيباً فهم يصنعون من مواد الأرض قوالب الطوب يبنون به مساكنهم ، ويصنعون أسمنتاً يمسكون به الطوب ببعضه ، ومن الشجر أسقفاً لبيوتهم ، كله من الأرض.

وتلمح فى الآية ملمحاً يؤدى بك إلى القول أن الله ذكر فيها جاذبية الأرض ، فالأرض تكفتهم أحياء فتضمهم إليها ولا تتخلى عنهم

وكأنهم مجذوبون إليها بشيء يربطهم بها حتى إذا سقطوا من عَلٍ فإنها تضمهم إليها، ولا يخرجون خارجها.

حتى الأموات تضمهم قبور الأرض إليها ولا تتخلى عنهم إلا في يوم البعث، يقول تعالى: ﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ (٤)﴾ [الانفطار] ويقول: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ(٩)﴾ [العاديات]

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ (٢٧)﴾ [المرسلات] حفظنا لهم الأرض التي يعيشون عليها بأنْ جعلنا فيها رواسي تجعل الأرض راسيةً لا تضطرب ولا تتحرك ولا تميد بهم.

قال تعالى: ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ (١٥)﴾ [النحل] والرواسي جمع (راسٍ) وهو الشيء الثابت، ولو كانت الأرض مخلوقة على هيئة الثبات لَمَا احتجنا إلى الجبال الرواسي كي تثبتها، لكن الأرض مخلوقة متحركة وهي عُرْضة للاضطراب، ولولا الجبال الرواسي لمادت الأرض.

﴿شَامِخَاتٍ (٢٧)﴾ [المرسلات] أي عاليات طوال مرتفعات في السماء شاهقات، وكل عالٍ فهو شامخ. ونلحظ أن الحق سبحانه ذكر الجبال هنا بصفة من صفاتها واختار هنا صفة الشموخ.

فإنْ كنتَ أيها الإنسان المخلوق من ماء يجرى من قُبل الرجل إلى ماء موجود في قُبل المرأة ليستقر في رحم المرأة فهناك ما هو أكبر منك وأشمخ وأرفع أنا خالقه لك لتستطيع أنْ تعيش على هذه الأرض فخلقت الجبال لتمسك الأرض.

﴿وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا (٢٧)﴾ [المرسلات] لماذا ذكر الله الماء الفرات بعد ذكر الجبال؟ لأن الأمطار الغزيرة إنما تنزل على قمم الجبال الشامخة العالية، ثم تنحدر نازلة حتى تجرى أنهاراً على وجه الأرض.

كل الأنهار يأتى ماؤها هكذا ، من فوق قمم الجبال كجبال الحبشة مثلاً التى ينحدر منها الماء العذب ويتجمع حتى يصبح نهر النيل ، والماء الفرات هو الماء العذب الزلال الذى يصلح للشرب يرتوى منه الإنسان وتشرب منه الأنعام ونروى به الزرع .

فالماء الفرات الشديد العذوبة الذى يستسقيه الإنسان يقول تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى الْبَحْرَانِ هَـٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَـٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ (١٢)﴾ [فاطر]

وقد يسأل سائل : وهل فى جزيرة العرب ماء فرات وأنهار ؟ بالطبع لا ، ولكنها حول الجزيرة العربية فى العراق والشام ومصر وأهل مكة يعرفون بها وإنما كانت سُقياهم من ماء الآبار.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (٢٨)﴾ [المرسلات] هل مازلتم تكذِّبون وتكفرون وتنكرون ؟ فاعلموا أن الأرض ستبدّل غير الأرض والجبال سننسفها والماء العذب الفرات سيصبح ماءً مِلْحاً أُجاجاً فـ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (٢٨)﴾ [المرسلات]

﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾﴾

رغم تكذيبكم بالبعث والحساب والعقاب فها أنتم تواجهونه حقيقة فهو حَقٌّ وواقع رغم تكذيبكم به ، فتكذيبكم لن ينفى أنه حق ، وقد أنذرناكم وحذرناكم وأكدنا لكم فما آمنتم وما صدَّقتم.

الآن عليكم أنْ تواجهوا ما كنتم تكذِّبونه وتظنون أنه لن يحدث، الآن ﴿انْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢٩)﴾ [المرسلات] إنهم يخرجون من قبورهم سراعاً، يقول تعالى: ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا (٤٤)﴾ [ق]

لذلك يقول لهم: ﴿انْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢٩)﴾[المرسلات] والانطلاق فيه إسراعٌ بقوة، مثل انطلاق الفرس من مربطه فذهب على وجهه.

ولكن هناك انطلاقٌ فى استخفاء وانطلاق فى جدٍّ، والمقصود هنا فى الآية الانطلاق فى إسراع، وقد يكون الانطلاق هنا هو مجرد الذهاب إلى مكانٍ ما.

﴿انْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ (٣٠)﴾ [المرسلات] انطلقوا إلى ظل من يحموم، ظل نار موقدة، فدخان جهنم إذا سطع وارتفع تشعَّب وتفرَّق ثلاث فرق، فيُقال لهم كونوا فيه إلى أنْ يُفرغ من الحساب كما يكون أولياء الله تعالى فى ظِلِّ عرشه.

وقيل: يخرج عنق من النار فيتشعَّب ثلاث شُعب على رؤوسهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم، إنه ظل خانق حار لافح، وتسميته بالظل ليس إلا امتداداً للتهكم.

لأنه ظِلٌّ: ﴿لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ (٣١)﴾ [المرسلات] فلا هو ظِلٌّ حقيقى يقيك حَرَّ النار، ولا هو يُغنيك عن اللهب.

وقد تكلمنا عن أهل الجنة وأن الله يُدخلهم: ﴿ظِلًّا ظَلِيلًا (٥٧)﴾ [النساء] وأنه ليس مجرد ظل بل هو ظل ظليل هو نفسه يُظلل بعضه، فلا يصل لمَنْ يجلس فى ظل الشجرة لا الشمس ولا الهواء الحار ولا الزمهرير.

أما الظل فى النار فهو ليس ظليلاً، لذلك فهو ﴿لَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ (٣١)﴾

[المرسلات] فيصل حر النار ووهجها إلى الوجوه فتشويها ، فما بالنا إذا قاسوا الإلقاء في النار نفسها .

﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ (٣٢)﴾ [المرسلات] لك أنْ تتخيل هذا المشهد، يقف المكذِّب يرى النار وهي تتقد وتشتعل وتتوهج يأكل بعضُها بعضاً، وهو واقفٌ في ظِلٍّ يظنه ظلاً وأنه سيُغنيه من اللهب ، ولكن النار ترمي بشرر بحُمَم ومقذوفات تخرج من النار تصيب أولئك الواقفين المنتظرين للإلقاء فيها .

وهو ليس أي شرر بل هو شرر ﴿كَالْقَصْرِ (٣٢)﴾ [المرسلات] شرر عظيم كالقصر بضخامته وكبر حجمه ، والقَصْر المقصود هو أصول الشجر يكون في الصحراء ، فإذا جاءالشتاء قطعت أغصانها فتبقى أصولها، فتراها كأمثال الجمال إذا أنيخت في الصحراء . والآية تحتمل أيضاً أنْ يكون القَصْر هو القصر المعروف الكبير الضخم .

﴿كَأَنَّهُ جِمَالَةٌ صُفْرٌ(٣٣)﴾ [المرسلات] جمالة جمع جَمَل . فإنها تبدو كأنها جمال عظيمة صفراء متناثرة في الصحراء ، والبعض فسَّر (صفر) هنا بأنها سوداء . ولكنها صفراء كقطع النحاس إذا توهج من الاحتراق ، والبعض قال إنها لسواد النار وظلمتها تبدو سوداء تميل إلى الاصفرار .

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ(٣٤)﴾ [المرسلات] فأيًّا كان لون الشرر وصفته فإنه شررٌ ولهب ونار محرقة ، فلم تكذِّبون وتُوردون أنفسكم موارد الهلاك؟ لم تعرِّضون أنفسكم للإلقاء في هذا الوادي السحيق في النار الذي يسمى (ويل) ؟

ثم يقول الحق سبحانه:

﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾
وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾﴾

إنهم فى يوم الهول الأكبر يعرفون أنهم كذبوا فى الدنيا ، وهم لا ينطقون بأى قول ينفعهم ولا يأذن لهم الحق بأنْ يقدِّموا أعذاراً أو اعتذاراً.

فهم لا ينطقون قولاً يغيثهم من العذاب الذى ينتظرهم ، لا ينطقون قولاً ينفعهم فى الموقف الذى هم فيه قد تكون مجرد إلقاء اللوم على بعضهم أو التبرؤ من الآخرين ، فماذا يُجدى هذا ؟ وبماذا ينفعهم ؟

والحق سبحانه يقول : ﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا (١١١) ﴾ [النحل]

وفى موضع آخر يقول : ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ (٢٤) ﴾ [الصافات]

وهكذا قد يُخيَّل للبعض أن هناك آياتٍ تناقض بعضها ، فهناك آياتٌ تسمح بالكلام ، وهناك آيات تنفى القدرة على الكلام.

ويجب أنْ نفهم أنَّ الكلام الذى سيعجز الأشقياء عن نطقه يوم القيامة هو الكلام المجدى النافع ، وسيتكلم البعض كلام السفسطة الذى لا يفيد مثل لومهم بعضهم البعض.

وقد ذكر الله بعضه فقال : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا (٢٩) ﴾ [فصلت]

وهذا كلام لا يشفع لصاحبه ولا يجدى . إذن فالممنوع هو الكلام المجدى المفيد ، أو أن مقامات القيامة متفاوتة فوقت يتكلمون فيه ، ووقت يُؤخذون فيه فلا يستطيعون التكلم.

والمقام هنا ليس مقامَ كلام أو نُطْق ، لقد انعقدتْ ألسنتهم عن الكلام والنطق ، لقد صدر الحكم عليهم ، فليس المقام مقامَ حساب يجيبون عليه ، بل هو مقام الجمع والحشد للإلقاء فى النار ، فماذا عساهم أنْ يقولوا ؟

لقد انتهى الأمر فلن يُؤذن لهم ليبدوا أعذاراً أو اعتذاراً، فلن يجديهم هذا شيئاً ، لقد قالوا كلَّ شيء عند الحساب ، أما وقد صدر الحكم

عليهم أنهم من أصحاب النار فلا نطق ولا كلامَ ولا اعتذار.

﴿ هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ (٣٨) فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ (٣٩) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (٤٠) ﴾

هذا اليوم الذى جعلناه لكم موعداً للبعث والحشر والحساب ، هذا هو اليوم الذى جُعل لكم ميقاتاً تنالون فيه جزاء كفركم وتكذيبكم لرسلنا وكتبنا . هذا هو اليوم الذى قيل فيه : ﴿وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ (١١) لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ (١٢) لِيَوْمِ الْفَصْلِ (١٣)﴾ [المرسلات]

وهنا يقول تعالى : ﴿هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ (٣٨)﴾[المرسلات] والجمع الحشر والحشد ، جمعناكم مع مَنْ سبقوا فى العصور الموغلة فى القدم لم يتخلف منهم أحد ، بل أتينا بكم جميعاً وتحقق الوعد الذى كنتم تكذِّبون به وتفرُّون منه وتعتقدون أنه ليس بآتٍ.

﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ (٣٩)﴾ [المرسلات] قد كنتم فى الدنيا تكيدون لأوليائى وللمؤمنين بى وتمكرون بهم وتتآمرون عليهم وتؤذونهم ، فالآن أرونى كيدكم ومكركم وتآمركم:

فإن كان لكم حيلة فاحتالوا لإنجاء أنفسكم من عقابه ، ولكنهم لا يستطيعون ، فلقد انقطع مكرهم وكيدهم وحَوْلهم وحيلهم ﴿بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ(٢٦)﴾[الصافات] إنهم حتى لا يستطيعون النطق.

ثم يذكر الحق سبحانه المتقين كأنه يُذكِّرهم بما لهم إنْ هم آمنوا واتقوا ولم يكذِّبوا:

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا۟
وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾﴾

الحق سبحانه منح الإنسانَ الاختيار بين المتقابلات : الإيمان والكفر، التقوى والفجور، الهداية والضلالة، النعيم والجحيم، الجنة والنار.

لذلك ذكر لنا الحقُّ سبحانه عقابَ وحساب الذين كفروا وكذَّبوا، ثم يذكر لنا المتقين الذين آمنوا وصدقوا. قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ (٤١)﴾ [المرسلات] تلك ظلالٌ وارفة فى حدائق غنَّاء، لا كتلك الظلال التى من يحموم التى لا تُغنى من اللهب.

فالمتقون فى جنات هى الظلال ويُضاف إليها العيون والأنهار والنعيم. فهم فى ظلال وعيون تجرى بالماء، والعيون ليست هى الآبار إنما هى فتحات كالعيون ينبع منها الماء وهذا أبهج.

كما نقول نحن (مجرى العيون) أى العيون التى تجرى منها الماء، ولم تعد مجرى للعيون إنما عيون صماء لا يجرى فيها شيء.

كما قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ (١٣٢) أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ (١٣٣) وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٣٤)﴾ [الشعراء] فقد كانت لهم عيون يجرى منها الماء، أما الآن فهى تحت أطباق التراب.

﴿وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ (٤١)﴾ [المرسلات] فليس الأمر أمر طعام وشراب فقط إنما الحق سبحانه يمتنُّ علينا بما نشتهى من الفواكه التى تسرُّ القلب وتُفرحه.

فواكه يتلذذون بها يأكلون منها كلما اشتهوا لا يخافون ضررها ولا عاقبة مكروهها، وهى فواكه من سائر أنواع الثمار مهما طلبوا وجدوا.

وقد وصف الحق سبحانه فاكهة الجنة ، فقال : ﴿وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ (٣٢) لا مَقْطُوعَةٍ وَلا مَمْنُوعَةٍ (٣٣)﴾ [الواقعة] فنفى عنها عيوب فواكه الدنيا لأنها تأتى فى وقت ، وتنقطع فى وقت ، ولأنها ممنوعة إلا بالثمن ولها آفات كثيرة وليس فى فواكه الجنة آفة .

﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣)﴾ [المرسلات] وفى هذا القول فعلٌ وردّ فعل ، الفعل هو العمل الصالح فى الأيام السالفة الماضية التى خلتْ ، وردّ الفعل هو الطعام والشراب الهنيء فى الآخرة .

وهذا مثل قوله تعالى : ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (٢٤)﴾ [الحاقة] فهذا تعليل لما هم فيه من نعيم أنهم كثيراً ما تعبوا واضطهدوا وعُذِّبوا ، وجزاء مَنْ عُذِّب فى الدنيا أنْ نسعده فى الآخرة .

﴿هَنِيئًا (٤٣)﴾ [المرسلات] فلتهنأْ أنفسكم وتسعد بما تأكلونه وتشربونه بدون أنْ يضركم أو يُلجئكم إلى المهضمات من العقاقير . إنه طعام وشراب هنيء تستلذون به .

﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣)﴾ [المرسلات] وتعملون غير تفعلون وغير تصنعون ، فالعمل يشمل كل الأفعال التى بالجوارح اليد والقدم والعين وغيرها ، وتشمل أيضاً عمل القلب من الصدق والإخلاص والتسامح ، لذلك قال ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣)﴾ [المرسلات]

ولا يفكر أحد أنْ يكون نصيبه من العمل عمل قلبه فقط ، بل ليأخذ معه إلى الدار الآخرة أعمالَ جوارحه أيضاً ليثيبه الله جزاءَ عمله ما يسرُّه ويُقال له : ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣)﴾ [المرسلات]

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٤٤)﴾ [المرسلات] فكلُّ مَنْ أحسن العمل وهو مؤمن بالله وبكتابه وبرسوله يجزيه الله أجزلَ الثواب .

هذا جزاء مَنْ أحسن: ظلال وعيون وفواكه مما يشتهون أكل وشراب هنيء.

وتعود الآياتُ بنا إلى ما ينتظر المكذبين فتقول:

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾﴾

يقول الحق سبحانه لهؤلاء المكذبين ﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا (٤٦)﴾ [المرسلات] فى الدنيا إلى منتهى آجالكم، لقد كفرتم بى وكذبتم مَنْ أرسلتهم إليكم وكذَّبتم بالبعث والجنة والنار، ولكن أنا من خلقتكم، وبربوبيتى لن أمنع عنكم عطائى وإنْ كنتم كافرين، فأنا الذى أوجدتكم فى هذه الحياة الدنيا وقد تعهدتُ برزقكم.

فـ ﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا (٤٦)﴾ [المرسلات] ولكن أكلكم أكل أنعام وبهائم، يقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ (١٢)﴾ [محمد]

ومتعتكم فى الدنيا قليلة، ستزولون عنها بوفاتكم أو ستزول هى عنكم بفنائها، فتصبحون فقراء بعد أن كنتم أغنياء، ضعفاء بعد أنْ كنتم أقوياء، مرضى بعد أنْ كنتم أصحاء.

﴿إِنَّكُمْ مُّجْرِمُونَ (٤٦)﴾ [المرسلات] فوصفهم الله بالإجرام، وقد جعل الله لكلِّ صاحب دعوة سماوية عدواً من المجرمين، فالسماء لا تتدخل إلا حين صار الإجرام لا مقاومَ له.

وهكذا يجعل الله لكلِّ نبى ورسول عدواً من المجرمين، وهذا العدو يُفتن به الناس ويميل له ضعاف العقائد ظناً منهم أنَّ لهم الغلبة، ولا يعرفون أن هذه الغلبة الظاهرة هى غلبة مؤقتة.

لأن لهم الويلَ حين البعث، ذلك الذى كانوا يُكذِّبون به فسيلاقوا جزاءهم ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (٤٧)﴾ [المرسلات]

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾

لقد كانوا مجرمين خارجين عن منهج الإيمان والإسلام، وكانوا ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ (٤٨)﴾ [المرسلات] فكانوا يُعرضون عن الركوع لله سبحانه والصلاة لمن خلقهم وأسبغ عليهم نعمه ، والصلاة علامةٌ الإيمان والخضوع لله .

ولكن البعضَ كابن عباس قال : إنما يُقال لهم هذا يوم القيامة حين يُدعَوْن إلى السجود فلا يستطيعون ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ (٤٢) خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ (٤٣)﴾ [القلم]

قد كنتم ترفضون السجود والركوع والصلاة وعبادة الله لأنكم لم تؤمنوا بل كذَّبتم وكفرتم فـ ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (٤٩)﴾ [المرسلات]

﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (٥٠)﴾ [المرسلات]

الضمير فى ﴿بَعْدَهُ (٥٠)﴾ [المرسلات] يعود على القرآن وكتاب الله ، فبأىِّ حديثٍ بعد القرآن وآياته يؤمنون ؟ فإنْ لم يُصدقوا بهذا القرآن فبأى كتاب بعد هذا القرآن يُصدِّقون ، كقوله تعالى : ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ (٦)﴾ [الجاثية]

وقد كان رسول الله ﷺ إذا قرأ ﴿فَبِأَىِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (٥٠)﴾ [المرسلات] قال: «آمنتُ بالله وبما أُنزل».(١)

فلا حديثَ أصدقُ من القرآن ولا أقوى فى الدلالة منه، فليس هناك حديثٌ بعد القرآن، فالقرآن هو الكتاب الخاتم الذى لا كتابَ بعده، فالإيمان بالقرآن والتصديق به هو آخر فرصة لهم.

فلتؤمنوا قبل أنْ يأتى يومُ النبأ العظيم الذى كنتم به تكذِّبون أو تؤمنون به، ولكن لا تعملون له أعمالاً تنجيكم من الموقف العظيم.

لذلك ناسبَ بعدها أنْ تأتى سورة النبأ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (١) عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ (٢) الَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ (٣) كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٤) ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٥)﴾ [النبأ]

(١) أخرجه عبد الرزاق فى تفسيره (٣٦٥٤) والطبرى فى (جامع البيان) (٢٤/٥٣٦) عن معمر عن إسماعيل بن أمية.

علم

تفسیر جزء

سورۂ النبأ

سُورَةُ النَّبَأِ

الحمد لله بخير ما يُحمد ، وأصلي وأسلم على خير خلقه سيدنا محمد ﷺ ، وبعد . .

مرحبًا بك أخي القارئ الكريم على هذه الصفحات في رحاب القرآن الكريم ، وأسأل الله ﷻ أن يمدنا بأرزاق قلوبكم وأفهامكم ، وأن يهبنا التوفيق في كل ما نأتي ، وكل ما نذر .

إذا ما أرادنا أن نعرف موقع قول الله ﷻ : ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ من السورة قبلها وجدنا الارتباط المعنوي والسياقي يتطلب ذلك الإلحاق ، فالسورة التي قبلها هي سورة (**المرسلات**) ، وإذا قرأنا سورة (**المرسلات**) وجدنا قوله ﷻ : ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا * فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا * وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا * فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا * فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا * عُذْرًا أَوْ نُذْرًا * إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ﴾[1] ، فكأن السورة قد استهلت بقسم متعدد الألوان ، والمقسم عليه هو ما كان المشركون يكذبونه ، وهو اليوم الآخر ، فقال في جواب القسم : ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ﴾ ، وبعد ذلك ذكر علامات ذلك الوقوع ، فقال : ﴿فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ * وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ * وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ * وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ * لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ * لِيَوْمِ الْفَصْلِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾[2] ، فناسب أن تكون السورة التي بعد هذه السورة شارحة ليوم الفصل ؛ لأن الحق حينما يقول : ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾ يدل بذلك على أن يوم الفصل شيء عظيم .. شيء مهول .. شيء يجب أن تتنبه الأذهان إليه .. شيء يجب أن يُستعد له ، وحين يقول : ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾ نعلم أن قول الله دائمًا : ﴿وَمَا

---

1 - سورة : المرسلات ، الآية : 1 - 7 .

2 - سورة : المرسلات ، الآية : 8 - 15 .

أَدْرَاكَ ﴾ يأتي لشيء يعطي الله رسوله فيه البيان ، ما أدراك سابقًا : أي لم تتلق أي شيء عن هذا اليوم من قبل ، ولكن لا مانع أن تتلقى منه بعد ، ولكن حين يقول : ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ ﴾ فإنه بذلك ينفي عنه أن يعرف عن ذلك الأمر شيئًا حتى في المستقبل ، فكأنه نفي للإدراك ، نفي لأن يعطيه أحد أي معلومات عما يقول ، فإذا رأيت (**ما أدراك**) فاعلم أنه سيدريه ، وإذا رأيت (**وما يدريك**) فاقطع الأمل في أنه سيدريه ؛ ولذلك جاء بعد سورة (**المرسلات**) وقوله ﷻ : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ ﴾ جاء بعدها بسورة (**النبأ**) ليدريه ما هو يوم الفصل .

وأيضًا هناك مناسبة ، وهذه المناسبة هي أن سورة (**المرسلات**) تعرضت لأشياء كونية في الكون المحيط بالإنسان ، فمثلاً قال الحق فيها : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ كِفَاتًا ﴾[1] بعد أن قال : ﴿ أَلَمْ نُهْلِكِ الأَوَّلِينَ ﴾[2] . ﴿ أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ﴾[3] . ﴿ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ ﴾[4] ، وكذلك قال في سورة (**النبأ**) : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَادًا * وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴾ فالسياق إذًا واحد .

وكذلك نجد في السورتين اللتين قبل سورة (**النبأ**) مباشرة (**المرسلات والدهر**) نجد فيهما أمرًا عجيبًا ، وهو أن سورة (**الإنسان**) تعرضت لأحوال النعيم للمتقين ، ولم تتعرض لأحوال العذاب للكافرين إلا تعرضًا يسيرًا في قوله ﷻ : ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلاَسِلَ وَأَغْلاَلاً وَسَعِيرًا ﴾[5] ، وبعد ذلك قال : ﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ .. ﴾ ثم أخذ في تعريف النعيم الذي ينتظر المؤمنين ، ثم جاء في آخر السورة : ﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾[6] ، ثم تعرض أيضًا للكافرين في

---

1 - سورة : المرسلات ، الآية : 25 .

2 - سورة : المرسلات ، الآية : 16 .

3 - سورة : المرسلات ، الآية : 20 .

4 - سورة : المرسلات ، الآية : 23 .

5 - سورة : الإنسان ، الآية : 4 .

6 - سورة : الإنسان ، الآية : 24 .

آية أخرى ، ولكن السياق كله متعرض لنعمة المؤمنين في الآخرة .

ثم جاءت سورة (**المرسلات**) على العكس ، فتعرضت لألوان العذاب للكافرين في الآخرة ، ولم تتعرض لألوان النعيم إلا للون واحد وهو قوله ﷻ : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ ﴾[1] ، وكأن سورة (**الدهر**) تعلقت بأحوال النعيم إلا اللفتة اليسيرة فيما يتعلق بأحوال الكافرين ، وسورة (**المرسلات**) تعرضت لأحوال العذاب الذي ينتظر الكافرين إلا اللفتة اليسيرة المتعلقة بالمؤمنين ، فجاءت سورة (**النبأ**) لتعطي الجزاء الوفاق ، تعطي لكل واحد من الفريقين حظه من النعيم أو العذاب .

عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾
كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾

حين نقرأ قوله ﷻ : ﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴾[2] نجد التفخيم بالإبهام ، يعني عن أي شيء يتساءلون ؟ هذا التفخيم بالإبهام دلالة على تعظيم المسئول عنه ، وحين يعظم الحق المسئول عنه يكون هذا التعظيم دلالة على أن ذلك أمر عظيم حتى يقول الحق عنه : إنه عظيم ؛ لأن الإنسان منا قد يقول عن الشيء إنه عظيم بمقتضى فهمه عن العظمة ، ولكن حين يفخم الله شيئًا ويعظمه فإن تعظيمه يكون على قدر علمه ﷻ ، ومن العجيب أن هذا السؤال في قول الله ﷻ : ﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ يجيب الله ﷻ عنه سريعًا فيقول : ﴿ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ﴾[3] ، فكأن الحق ﷻ فخم بالإشارة حين استفهم بما ، ثم فخم بالعبارة بقوله : ﴿ عَنِ النَّبَإِ

1 - سورة : المرسلات ، الآية : 41 .

2 - سورة : النبأ ، الآية : 1 .

3 - سورة : النبأ ، الآية : 2 .

الْعَظِيمِ﴾ ، ونحن نعلم أن النبأ ليس مطلق الخبر ، وإنما هو الخبر الخطير الشأن الذي يتعلق بأمر عظيم ، ولا شك أن غايات الدين كلها إنما تؤول لمعرفة سر ذلك اليوم ؛ لأنه الحصيلة ، ولأنه الحصاد الذي سيأتي في نهاية الدنيا ليحاسب فيه كل إنسان عما قدم .. إن خيرًا فخير ، وإن شرًّا فشر ، فلا بد أن يكون أعظم حدث يتعلق بالإنسان .

والحق ﷻ حينما يقول : ﴿ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ﴾ يعطينا لفتة ، هذه اللفتة هي استنكار للسؤال عنه ﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ ، كأنك تستنكر : أهذا أمر يمكن أن يكون مسئولاً عنه ؟! هذا أمر من الوضوح ، ومن البداهة بحيث يجب أن لا يكون موضع سؤال ؛ لأنه نبأ عظيم ، وأمر واضح جلي ، تقوم عليه الأدلة ، ولكن خطأ المنهج في الكافرين إنما جاء من ناحية أنهم أرادوا أن يناقشوا الجزئيات العَقَدية ، ومناقشة الجزئيات العقدية لا يصح أن يأتي أبدًا من عاقل ، إلا أن يناقش القمة العقدية أولاً ، فنحن لم نؤمن باليوم الآخر أولاً ، وبعد ذلك آمنا بالله ﷻ ، وإنما آمنا بالله ﷻ أولاً ، وحين آمنا به علمنا أنه ﷻ يخبرنا أن هناك يومًا آخر ، فعند ذلك صدقنا فورًا ما قال ﷻ.

إذًا فالمناقشة يجب أن لا تكون في اليوم الآخر وقوفًا واستبعادًا واستغرابًا وتعجبًا ، كان يجب أن تكون المناقشة في قمة العقيدة للإيمان : تؤمنون بالله أو لا تؤمنون ، فإن آمنتم بالله فالتزموا ، وإن لم تؤمنوا بالله فما الذي يضير إذا لم تؤمنوا بما يقوله الله ، إذن فالقمة الإيمانية أولاً هي أن تؤمن بالله ، فأنا لم أومن بالملائكة ولا بالكتب ولا بالرسل ولا بالقضاء والقدر خيره وشره ولا بيوم القيامة إلا لأن الله قال ذلك ؛ لأنها أمور غيبية ، والأمور الغيبية التي لا تقع تحت الحس لا يمكن أن أصدقها إلا إذا قال بها من أثق بصدقه ، فإذا توقف عقلي في الكيفية ، نقول : معرفة الكيفية لا يعني الوقوع أو عدم الوقوع ، الحدث وقوعه شيء وكيفية وقوعه شيء آخر .

ويظهر الفرق بين وقوع الحدث ذاته ووقوعه على كيفية خاصة عند فهمنا قول إبراهيم

عليه السلام لربه : ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾[1] ،إبراهيم حينما قال لله : ﴿أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى ﴾ قال بعض العلماء : كيف يوجد ذلك التناقض الظاهري في القرآن ؟! فإن الله ﷻ حين قال إبراهيم ذلك ﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ ﴾ فأجاب إبراهيم : ﴿قَالَ بَلَى ﴾ ، ومعنى ﴿بَلَى ﴾ أي : آمنت ، ومعنى الإيمان هو اطمئنان القلب إلى عقيدة ما ، بحيث لا تطفو العقيدة مرة أخرى إلى الذهن لتناقش من جديد ، فإن طفت العقيدة إلى الذهن لتناقش من جديد لا يكون ذلك إيمانًا ، ولا تكون عقيدة ، وإنما تكون فكرة لا تزال قيد البحث ، فقول الله على لسان إبراهيم : ﴿بَلَى ﴾ أي آمنت ، وإذا كان قد آمن واطمأن قلبه فلماذا يقول بعد ذلك : ﴿وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾ ؟ فكأن اطمئنان القلب عند إبراهيم كان مفقودًا ، أو هو يطلبه بذلك ، وما دام اطمئنان القلب غير موجود فما كان يصح لإبراهيم أن يقول جوابًا لله حين قال : ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ ﴾ أن يقول له : ﴿بَلَى ﴾ ، ولكن هذا التناقض الظاهري جاء من إهمال لفظ في الآية ، وإهمال لفظ أو حرف يغير مجرى الفهم في الآية ، ولكن إبراهيم لم يسأل ربه قائلاً : هل تحيي الموتى ؟ وإنما قال له : ﴿كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى ﴾ ، فكأن السؤال عن الكيفية لا عن وقوع الحدث ، فهو مؤمن بأن ربه يحيي الموتى ، أي أنها قضية مسلمة ، ولكن المسئول عنه أنه يريد أن يرى الكيفية ، فقوله : ﴿بَلَى ﴾ أنا آمنت أنك تحيي الموتى ، وهذا هو المطلوب التكليفي من العبد المكلف .. أن يؤمن بأن الله يحيي الموتى ، أما معرفة الكيفية ، فهذا أمر لا يضير في العقيدة .. عرفتها أم لم تعرفها ؛ لأن انتفاعك بالأشياء لا يعني ضرورة فهم كيفيتها ؛ فمثلا : الأمي والبدوي والفلاح ينتفع كل منهم بالكهرباء في بيته ، لكن هل يعرف كيف تأتي تلك الكهرباء ؟ لا يعرف شيئًا عن ذلك ، إذن فهو ينتفع بالحدث ، لكن معرفة كيفيته لا يغير من انتفاعه أو عدم انتفاعه ، والله كذلك قادر على أن يحيي الموتى ، ولكن الله ﷻ يلفت

---

1 - سورة : البقرة ، الآية : 260 .

إبراهيم لفتة عقدية ، هذه اللفتة العقدية هي أنه يقول : ليس من عظمتي ولا من قدرتي أن أنقل إلى الغير أثر قدرتي ، ولكن العظمة أن أنقل إلى الغير بعض قدرتي ليفعل ، فالقوي من البشر إذا ما وجد رجلاً عاجزًا عن حمل شيء ثقيل عليه ماذا يصنع معه ؟ إنه يحمله له ، إذن فقد عدى إلى الغير أثر قوته ، ولكن العاجز ظل عاجزًا ، ولكن الله حين يريد أن ينقل إلى العاجز قوة تفعل هي ، كأنه يقول : أنت لا تقدر على أن تحمل فأنا لا أحمل عنك ، وإنما أجعلك تقدر على أن تحمل ، تلك هي عظمة الحق في أنه ينقل قوته إلى فاقد القوة ، ولكن البشر لا ينقلون قوتهم إلى فاقد القوة ، وإنما ينقلون أثر قوتهم إلى فاقد القوة ، ويظل فاقد القوة فاقدًا للقوة ، فكان جواب الحق ﷻ في الكيفية التي يريدها إبراهيم أنه قال له : خذ أنت أربعة من الطير ، ثم قطعهم ، واجعل على كل جبل منهن جزءًا ، وبعد ذلك تتجلى قدرة العظيم ، لا يقول الله : أنا أدعو الطير فتأتيها الحياة ، لكن ادعهن أنت ، تلك هي العظمة في أن يجعل من لا يقدر قادرًا بإرادة أن يفعل ، ﴿ ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ﴾ ، فلم يقل : أنا أدعوهم ؛ لأن دعوتهم عملية بسيطة ، ولكن العظمة هي أن يجعله الله ﷻ يستطيع أن يفعل ذلك ، إذن فقد أجابه الله بالكيفية على أبلغ مدى ، وعلى أوسع نطاق في أن الحق يمتاز عن الخلق بأنه يعدي قوته للغير ليفعل ، ولكن الخلق لا يستطيعون أن يعدوا إلا أثر قوتهم للآخرين ليفعلوا .

فإذا ما أراد الحق ﷻ أن يستنكر السؤال : ﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ * عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ﴾ .. ما كان يجب أن يتساءلوا ؛ لأن ذلك الأمر من الوضوح بمكان .

ومن الذي يتساءل ؟!

أولاً ما دام الحق يستنكر السؤال ، فلا بد أن يكون التساؤل من المنكرين للبعث : ﴿ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [1] .. متى الساعة ؟! ﴿ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا

1 - سورة : يونس ، الآية : 48 .

وَعِظَامًا أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ * هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴾[1] ، وهذا تعجب ، فكأن التساؤل وقع من المشركين ، أو من المكذبين بالبعث فيما بينهم ، أو كانوا هم يسائلون النبي والمؤمنين .

ومادة التساؤل غير مادة سأل ، كما تقول : سألت فلانًا عن كذا ؛ تقتضي فاعلاً ، وتقتضي مفعولاً ليقع عليه السؤال ، لكن تساءل تجمع الأمرين معًا ، تساءل القوم ، أي : أن كل واحد منهم صار سائلاً مرة ومسئولاً مرة أخرى ، فهو إذًا فاعل ومفعول معًا ، إذن فـ ﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ أي : إنهم يتساءلون فيما بينهم سؤال استنكار واستهزاء ﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ * عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ * الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴾ وإذا كانوا يتساءلون ؛ فكيف يكون الخلاف بينهم في السؤال ، فكلهم منكرون ؟!

وجواب ذلك أن الإنكار يختلف في الدرجة ، فهناك منكِر جزمًا وآخر مرتاب ، وما دام منكرًا جزمًا إذن فهو مخالف للشاكِّ ، لأن المنكر جزمًا جزم بالأمر ، والشاك متأرجح ، إذن فهذا لون من الخلاف ، أو هم مختلفون مع النبي والمؤمنين ، فهذا يصدق وهذا يكذب .

﴿ كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ ﴾ .. كلا ، كلمة ردع وزجر ، ومعنى الردع والزجر أن الكلام الذي قبلها يجب أن يُنتهى عنه ، لصالح المنتهي أو غير المنتهي ، ليس لصالح من يقول به ؛ لأن الله لا يفيده أن يكذِّب الناس بهذه المسألة ، لأن هذه المسألة مسألة فرعية ، فكان يجب أن ينقلوا مجال النقاش إلى القمة ، وهي الإله ، ولكنهم اضطربوا في موضوع النقاش ، ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾[2] ، إذن فمسألة الوجود الإلهي والخلق والربوبية لم يقدروا على إنكارها ، فذهبوا إلى الفرعيات ، علمنا أجوبتهم عن الله ، وأما عن الرسول والقرآن ، فيقول الله ﷻ : ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ ﴾ فأنت صادق عندهم

---

1 - سورة : المؤمنون ، الآية : 35 ، 36 .

2 - سورة : الزخرف ، الآية : 87 .

﴿ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾[1] .. فقالوا في القرآن : إنه سحر وشعر وكهانة ، وكل هذا قالوه وبعد ذلك تورطوا ، ماذا كان تورطهم ؟!

تورطهم أنهم قالوا : ﴿ لَوْلاَ نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾[2] ، فكأن هذا القرآن قرآن عندهم هم أيضًا ، ولكن الذي أتعبهم أن يجيء على لسان هذا الرجل ، إذن فالقرآن ليس فيه نقاش ، ثم بعد ذلك تورطوا تورطًا آخر يدل على السفه في الجدال ، ﴿ وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا ﴾[3] ..إذن فقد أقروا بأن ما جاء به رسول الله هو الهدى ، أقروا في نهاية المطاف والجدل أن رسول الله ﷺ جاءهم بالهدى ، ولكنهم خافوا من أنهم لو اتبعوا الهدى أن يتخطفوا من أرضهم ، إذن فكان من المنطق أن لا يُبحث يوم البعث إنكارًا أو تحقيقًا ، إنما يجب أن يبحثوا في القمة ، وبعد ذلك إذا بحثوا في القمة فإنهم يستوثقون من الخبر ، فالحق ﷻ يقول : ﴿ كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ ﴾ ، و" ثم " تدل على شيئين اثنين : أن طريقة العلم لهم سوف تختلف ، وهي أنهم سيعلمون أنه الحق .

ومراتب العلم ثلاثة:

المرتبة الأولى : علم اليقين .

المرتبة الثانية : عين اليقين .

المرتبة الثالثة : حق اليقين .

إذن هناك ثلاث مراحل للعلم . .

تجد ذلك المعنى في سورة التكاثر في قوله ﷻ : ﴿ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ

---

1 - سورة : الأنعام ، الآية : 33 .

2 - سورة : الزخرف ، الآية : 31 .

3 - سورة : القصص ، الآية : 57 .

تَعْلَمُونَ * كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴾ [1]، وكذلك في قول الحق ﷻ : ﴿ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ [2] أي : الذي كنت لا تراه أولاً أصبحت تراه الآن ، ويتضح له مثال عالم الملكوت والأشياء التي كان مكذبًا بها ، وبعد ذلك حين يبعثون على حقيقتهم يعلمون علمًا آخر ، أو لأن المكذب يعارض مصدقًا ، والفريقان : هذا مؤمن مصدق ، وذلك كافر مكذب ﴿ كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ ﴾ سيعلمون موقعهم من يوم الفصل ، ويعلمون موقع الفريق المقابل في يوم الفصل ، وحين توجد المقارنة بين الضدين تكون الحسرة ، أي الذي يعذب في يوم الفصل كان يكفيه من آلامه أن يعذب ، أما أن يعذب ويرى الفريق المقابل يُنعم ؛ فذلك تعذيب آخر ، والذي كان مصدقًا ثم يرى نفسه في نعيم ، ويرى المكذب في جحيم ، يكون ذلك نعيمًا آخر .

إذًا فالتنعيم والتعذيب له لونان :

اللون الأول: أن يصيبه الألم ، ويرى الفريق المقابل في نعيم .

اللون الثاني: يرى العذاب ويرى غيره في النعيم ، وحينئذٍ تتأكد الحسرة بالنسبة لهم .. ثم ترك الحق ﷻ الأمر المقسم عليه ، وبعد ذلك قال : ﴿ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ ثم انتقل إلى شيء آخر ، هذا الشيء الآخر في ظاهره أنه بعيد عن القصد ، ولكنه في حقيقته لم يبعد عن القصد ، وإنما اقترب من القصد بإيجاد دليل القصد ؛ فكأن الحق يريد أن يعرض صورًا كونية تصل الإنسان بها من حياته ؛ ليتفكر في الصور الكونية المحدثة له دليلاً على صدق الله فيما يحضره .

والحق ﷻ حينما يريد عرض قضية مختلف فيها لأنها غيبية ، يأتي بقضية متفق عليها ؛ ليجعل من المتفق منطلقًا إلى المختلف فيه .

---

1 - سورة : التكاثر ، الآية : 3 - 6 .

2 - سورة : ق ، الآية : 22 .

وهذه القضية شائعة في القرآن كثيرًا ، فمثلاً : قضية الحياة ، وكيف خُلقنا ، هذا أمر لم يشهده الإنسان ، إذن فهذه مسألة وضع فيها الحجز أمام النشاط الذهني العلمي في معرفة كيف بدأ الخلق ، فهي مسألة مفروغ من أن الإخبار بها يأتي من الخالق ، فإذا أرادوا أن يعرفوا كيف خلق الله السماوات والأرض فإنهم يرهفون آذانهم لمن خلق ؛ ليقول لهم كيف خلقهم ، وعندما تحدث الحق ﷻ عن مسألة الخلق حكى عن الإنسان الأول أنه خلقه من سلالة من طين ، وقال : من تراب ، ومن طين ، ومن حمأ مسنون ، ومن صلصال كالفخار .

فهذه مرحليات وأطوار مر بها الإنسان عند خلقه ، وليست تناقضًا ، وهذا أمر غيبي عنا ، ونحن صدقنا هذا لأننا نثق بالله ﷻ ونصدقه ، لكن الحق ﷻ حينما يريد أن يعرض صدقه في هذه القضية ماذا يقول ؟

يأتي بأمر حسي ليجعله دليلاً على أمر الغيب ، فنحن لا يمكننا أن نعرف كيف جاءتنا الحياة ، ولكننا بالتأكيد نعرف كيف نموت ، إذن جعل الموت – وهو من المظاهر الحسية التي نراها – وسيلة للتصديق بالظاهرة الغيبية ، وإذا مات الإنسان فآخر شيء يحدث هو خروج الروح ، وهي آخر شيء وضع في قصة الحياة .

إذن فآخر شيء جاء لإيجاد الحياة هو نفخ الروح ، وأول شيء يذهب منه هو الروح ، وهذا أمر منطقي ؛ فإنك إذا سرت في طريق إلى نهايته ، ثم أردت العودة من نفس الطريق فحتمًا ستكون آخر محطة وصلت إليها هي أول محطة تعود منها ، وكذلك حياة الإنسان ، فأنت ترى الميت يبدأ في التحلل ، وبعد ذلك ينتن ، ذلك هو الحمأ المسنون ، وبعد ذلك يتبخر الماء الذي في جسم الإنسان فتصير العناصر الأخرى ترابًا ، فهذا مشهد نراه كلنا ؛ ولذلك فلا تعجب حينما تقرأ في سورة الملك قوله ﷻ : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ ﴾[1] .. فذكر الموت قبل الحياة ؛ لأن الموت ملحوظ وتقدر أن تراه ، وبعد ذلك تستدل من وقائع الموت وترتيبها إذا عكستها على وقائع الحياة .

---

1 – سورة : الملك ، الآية : 1 .

أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا
نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ
سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾
لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾

بعد ذلك قال : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَادًا ﴾ أمر مشاهد محس ﴿ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا * وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا * وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا * وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا * وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا * وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا * وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا * وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا * لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا * وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴾ أخذ الأمر المحس في الكون الذي يتصل بالإنسان .

الأرض ممهدة للراحة فيها ، وبعد ذلك ينتقل من المهاد إلى الجبال الأوتاد ، فكأن ارتفاع الجبال مكمل لجزئية الأرض ، وكلمة أوتاد نفسها تشعر بالتثبيت ؛ ولذلك عندما تكلم العلماء عن هذه الآية قالوا : إن قول الله ﷻ : ﴿ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴾ و: ﴿ وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ [1].. معنى ذلك أن الجبال لها صلة بتثبيت الأرض ، فلو أن الأرض مخلوقة على هيئة الثبوت والاستقرار لكانت لا تميد ولا تضطرب ، إذن فمعنى : ﴿ وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ ﴾ أنها عرضة للحركة ، وما دامت عرضة للحركة فقد تضطرب .

ولقد توقف العلماء طويلاً عند هذه الآية ليقولوا : إنها مثبتات .. ولكن التشبيه هنا لا يعطي فقط أنها مثبتات ؛ لأن الحق ﷻ حين يأتي بأمثلة من البيئة التي يعيش فيها الذين

1 - سورة : النحل ، الآية : 15 .

استقبلوا القرآن أولاً نجد أن هذا الأمر معروف لكل إنسان ؛ حيث إن بيوتهم مصنوعة من الخيام ، وهذه الأوتاد هي أدوات تثبيت البيوت ، فما دام الوتد يثبت البيت ، فنضرب لهم مثلاً من بيئتهم ومن مثل ما يصنعونه ، ولو لم تُثبت هذه الأوتاد الخيمة ، فالعُمد لا تكفي لتثبيت البيت ، لكن الأوتاد هذه تختلف ، ولكن الله يقول : ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴾ لم يقل : الجبال كالأوتاد ، حتى يكون تشبيه الجبال بالأوتاد ، ولكن جاء بها على طريقة التشبيه البليغ ، فالحق ﷻ قال : ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴾ جاء بها على طريقة التشبيه البليغ ، فكيف جاء الحق بالمشبه الضخم ويشبهه بالشيء التافه البسيط ، مع أن المفهوم من التشبيه أن الشيء الأقل هو الذي يشبه بالكبير .

لكن شبه الجبال بالأوتاد ، وفيها لفتة ، وهذه اللفتة لكي يلفت الإنسان إلى أن الأوتاد وضعت لتثبيت شيء على الأرض .

وعندما أراد العلماء أن يبحثوا في كتلة جبل من الجبال لكي يعينوا بها كتلة الأرض ، رأوا أن الأرض لا تصلح للحياة إلا بوجود الهواء فيها ؛ لأن الهواء هو العنصر الأول من عناصر مقومات الحياة ، وقد عرفنا أن هناك غلافًا هوائيًا حول الأرض ، وهذا الغلاف الهوائي من مكونات الأرض ؛ ولذلك عندما تكلم الله ﷻ عن السير قال : ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ﴾[1] .. ولم يقل : سيروا على الأرض ؛ لأن القبة الهوائية التي تغلف الأرض التي يعيش الناس عليها من متممات تلك الأرض ، فتكلموا عن هذه القبة الهوائية ، وقالوا : إنها تمنع أشياء ضارة كثيرة جدًّا ، مثل : الأشعة البنفسجية وفوق البنفسجية ، وإلا كنا نهلك .

والله ﷻ هو الذي وضع هذه القبة الهوائية ، ولا بد أن يوجد شيء يشدها فبحثوا عن هذا الشيء فوجدوا أن هناك قانونًا يسمى : (**قانون الجاذبية**) ، كأن قانون الجاذبية يجذب القبة لكي لا تتفلت في الفضاء الكوني ، فجاء عالم من العلماء ، وقال : هل لثقل كتلة الأرض

---

1 - سورة : النمل ، الآية : 69 .

دخلٌ في قوة جاذبيتها ؟ إن كان ذلك فوجود الجبال لقوة الجذب ، ويكون على ذلك قوله : ﴿ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴾ متمشيًا مع واقع الخيمة وموقع الوتد ومهمته في الخيمة ، والدور الذي يقوم به الوتد في عملية الجذب ليحتفظ بهذا الشيء الذي فوقه ، وهذه مسائل لم يذكرها القرآن بالتفصيل عند قوم لا توجد لديهم ثقافة ، وإنما القرآن فيه زادٌ للنشاط الذهني بحيث إذا ارتقى الإنسان في بحث من البحوث لا يجد في القرآن صادًّا له عن نشاطه الذهني ؛ لأن القرآن له عطاء إلى أن تقوم الساعة ، ولو لم يكن للقرآن عطاء إلى أن تقوم الساعة لكان فسرها رسول الله ﷺ ، وحين يفسره سيفسره بما يلائم العقول المعاصرة ، وإذا فسره بما يلائم العقول المعاصرة فإنه يكون قد جمده ، وإذا جمده فإن صلاحيته لكل زمان ومكان تمتنع ، فرسول الله ﷺ يشرح الأحكام المطلوبة من المؤمن في كل عصر ، وإلى أن تقوم الساعة ، وبعد ذلك ما يتعلق بالكونيات التي تخضع للنشاط الذهني واستنباط أسراره يتركها ليأخذ الذهن منها على قدر ما يستطيع ؛ ولذلك بيَّن في القرآن كل شيء ، ومنه يأخذ كل إنسان قدر ذهنه .

وحين يقول الحق ﷻ : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَادًا ﴾ يلفتنا لفتة في الاستفهام : أي جعلنا الأرض مهادًا ، ولماذا لم يقل : إننا جعلنا الأرض مهادًا مباشرة ؛ لأن كلمة : (جعلنا الأرض مهادًا) خبر من الله ، أما ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَادًا ﴾ فكأن الله استأمننا على أن يسأل هو ذلك السؤال لنجيب نحن ، وجاءت صيغة الاستفهام بالنفي لئلا يكون تلقينًا بالجواب ، وليكون أبعد ما يكون عن التهمة .

إذًا كان من المعقول أن تنكروا قضية البعث إذا لم نكن صنعنا لكم مقدمات في حياتكم تستلزم قدرتنا الفائقة ، وعندما قالوا : إن الإنسان خُلق بالصدفة ، وجاء فيلسوف فرنسي واعتقد أنه جاء بالرد على أهل الصدفة ، الرد الذي لا ينقض ، فقال : العجيب أن الذين يقولون بالصدفة لم يتنبهوا إلى شيء ، وهو أن الصدفة من أعدائها الرتابة ، والصدفة يحكمها قانون الاحتمال ، وقانون الاحتمال هذا نسبته من 1 إلى 200 مليون ، ومن المحال أن الصدفة هي

الموجِدة ؛ لأن الصدفة إذا كانت هي التي خلقت الرجل فهل من المعقول أن الصدفة نفسها خلقت شيئًا آخر هو الأنثى من جنسه ، ومختلفة معه في النوع ؛ بحيث إذا التقيا لقاء غريزيًا خاصًا وُجد نسل منهما ؟ إن ذلك لا يكون بالصدفة ، وإنما هناك قصد وغاية .

فهذا الذي قال : إن الإنسان خلق بالصدفة .. نقول له : لقد نبهتنا إلى قرآننا .. حيث قال ﷻ : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[1] ، وهذا دليل على القصد والغاية ، وهذا الخلق لا بد له من مقومات ، وذلك يدخل في قوله ﷻ : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ﴾ .

ومقومات الحياة لونان : **لون فيه يقظة** ، وهي للحركة والعمل ، **ولون فيه موت "نوم"** ، وكأن أول مقوم للحياة ليس هو الطعام والشراب فقط ، ولكن هناك النوم أيضًا ، وهو الذي عجز الفلاسفة عن معرفة سببه ، وآخر ما انتهوا إليه هو أنه ردع ذاتي في الآلة الإنسانية .

ومعنى ردع ذاتي في الآلة الإنسانية أن الآلة الإنسانية تعبت ، قد تتعب تعبًا يتحمل عقل الإنسان معه ، ثم يغلبه النوم فلا يستطيع أن يواجه الحياة بأي طاقة ، فينام إلى أن يعود إلى نشاطه سريعًا ؛ ولذلك نجد القرآن يعرض تلك العملية بقوله : ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ ﴾[2] ، كأن النوم عملية حياتية ضرورية ، ولذلك فبعد قوله ﷻ : ﴿ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ﴾ قال : ﴿ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴾ ، إذ إن النوم نعمة عظيمة من نعم الله ﷻ على الإنسان : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ ﴾[3] ، ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾[4] ، وما دام النوم يفقد الإنسان صلته بحركة الحياة سُمي موتًا ؛ لأنه قطع عن

---

1 - سورة : الروم ، الآية : 21 .

2 - سورة : الأنفال ، الآية : 11 .

3 - سورة : الروم ، الآية : 23 .

4 - سورة : القصص ، الآية : 71 .

الحياة بالنوم ، وكذلك سُمي بالسُّبات ؛ لأنه قطع عن الحركة ، ولكنه قطع عن الحركة إلى أن تحدث العودة .

وكذلك عدم الوعي في النوم نعمة أخرى من نعم الله الكبيرة ؛ حيث إن المريض بمجرد أن ينام ويذهب عن الوعي لا يشعر بآلام المرض ، مما يدل على أن الذي يتألم ليس هو العضو المريض ، ولكنه النفس ووعيها ، وإلا فأين ذهب الألم حين غابت النفس عن الوعي .

لذلك جعل الله النوم ردعًا طبيعيًّا للجسم ؛ لكي يُعلم الجسم بأنه لم يعد صالحًا لحركة الحياة ، فليعتزل حركة الحياة قسرًا عنه وليَنَم ، فإذا نام وارتاح عاد تفاعله (الفسيولوجي) إلى طبيعته ، ثم قام نشيطًا فاستأنف حياته ؛ ولذلك فإن النوم يأتي دائمًا رغمًا عن الإنسان ، قد يطلبه الإنسان فلا يأتيه ، ولكنه يفاجئه ليذهب في نوم لا يعرف كيف بدأ به ، هذا ردع ذاتي للآلة الإنسانية ، حيث لم تعد صالحة لمواجهة حركة الحياة ؛ ولذلك سمى الله النوم سباتًا ، ثم قال ﷻ ..

﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴾ .. أي : سترًا ، وهذا الستر له فوائد كثيرة ، منها : أن الإنسان حين يخلو بنفسه ويخلد إلى النوم يحب ألا يطلع عليه أحد ؛ لأنه في نومه فاقد الوعي ، وقد تصدر منه أشياء لا يجب أن يراها أحد ؛ فلذلك جعل الله ﷻ الليل لباسًا وسترًا .

وكذلك هناك ضرورات حركية تقتضي وجود اللباس ، كأن تباغت عدوًّا ، أو أن تبيت له كي لا يرى ما تعده له ؛ لذلك فهناك ضرورات في وجود الستر .

وكذلك مادام هناك ليل وستر ، فلابد من نهار ومعاش للحياة ، لذلك عقب الله ﷻ بعد ذلك بقوله ..

﴿ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴾ .. وهذا أمر واضح ـ كما قلنا ـ ، ففيه حركة الحياة وسير أمور الناس ومعاشهم .

ثم يقول الحق بعد ذلك ..

﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴾ السبع الشداد ـ كما تدل عليها السياقات الكثيرة في القرآن ـ هي السماوات السبع ، وأما كون السماوات سبعًا فقد ورد في نصوص متعددة ، وكذلك كونها طباقًا ، إلا أن الناس ـ نظرًا لأن إدراكهم لم يصل بعد إلى جرم السماء ليعرفوا حقيقة ذلك الجرم ـ حاولوا جاهدين أن يعبِّروا عن معنى السماء بأشياء تطيقها عقول الناس ، وخاصة عندما تبرز في ميدان الفكر نظريات تبهر الناس حين يسمعونها ، أما الذين يحبون ـ إخلاصًا لدينهم ـ ألا يُبعدوا الدين عن واقع الحياة فإنهم يحاولون جاهدين أن يقربوا قضايا الدين ـ وخاصة الغيبيات ـ إلى عقولهم .

والتقريب إلى العقل عملية تعرض لها مفكرو العصر الحديث ، وكان على رأس هؤلاء المفكرين **الشيخ محمد عبده** ، وهو رائد المدرسة العقلانية ، تلك المدرسة التي كانت تحاول دائمًا أن تقرب قضايا الدين التي تتعلق بالغيب إلى عقول الناس ، وهي ظاهرة إن دلت على شيء فإنما تدل على الغيرة على الدين والحرص عليه ، ولكنها للأسف تضر أكثر مما تنفع .

وذلك لأن قضايا الدين جميعًا ، خاصة في الأمور الغيبية يجب الإيمان بها مطلقًا ، أما كُنْه وكيفية ما نؤمن به فليس من الضروري أن نعرف تفاصيله .

ولابد أن نعرف أن للإيمان قمة ، وهو أن تؤمن بالله ، فإذا ما آمنت بالله باختيارك ووصلت إلى القمة بعقلك ، فيجب أن تتقبل كل ما يصلك عن الله ﷻ ، وسعه عقلك أم لم يسعه .

وفي ماديات الحياة ما يؤكد صدق هذه القضية ، فكم من أمور لم تكن غيبًا بحتًا ، وإنما كانت غيبًا فقط عن مشاهدنا ؛ لأن آلات إدراكنا لم تكن تستوعبها ، وإن كانت مادية ، كالميكروبات مثلاً ، ولكن حين تقدم العلم وتقدمت آلاته من مجاهر وميكروسكوبات ، أمكننا أن نرى ما لم نكن نراه من قبل .

إذن فكونك لا تدرك الأمر بحسك لا يعني أنه غير موجود ، يجب أن تتهم أنت حسك لأنه لم يصل إلى إدراك ذلك الأمر ، ووجود أشياء كانت غيبًا ثم صارت الآن مشهدًا دليل على أن

عقلك يجب ألا يتوقف في الأمر الغيبي بحجة أنه لم يدركه ، بل يقول : ما دام أن الله قد أخبر به فهو موجود ، أدركته أم لم أدركه ، وإذا كان العلم لا يزال يكشف لنا مستورًا من مستورات الله في كونه ، بعد أن كانت غيبًا عن الناس ، ثم صارت الآن مشهدًا ، أفلا يكون ذلك دليلاً لي حين يخبرني الحق عن غيب أن لا أرفض هذا الكلام لمجرد أنني لا أدركه ؟! لأننا نقول : إن هناك ماديات حياتية كانت أمور غيب ، ثم أصبحت مشهدًا ، فخذ من ذلك وسيلة أيضًا إلى الإيمان بأن مغيبات كثيرة لم يكن عقلك يدركها ، ولكن الله أخبر بها ؛ لذلك فيجب أن تصدقها .

ولذلك فنحن دائمًا نقول : إن القرآن حينما يميز المؤمنين يقول : ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴾[1] ؛ لأن الإيمان بالمشهود أمر قد يشترك فيه المؤمن وغير المؤمن ، فلا مزية للمؤمن إلا أن يؤمن بأمر الغيب .

أما إذا كان العقل مقتنعًا بأمر ما والحِسُّ يؤيده ، فما الداعي لعدم الإيمان إذًا ؟! لا داعي لعدم الإيمان أبدًا .

ولذلك لما رأوا أن السماوات لا تدخل تحت حسِّنا ، ولا تحت تجربتنا ، ولا نستطيع أن نعرف عنها شيئًا قالوا : إن السماء هي كل ما علاك فأظلك ، والكواكب والشمس والقمر والنجوم فوقنا عبارة عن السماء ، ونقلوها عن الغيب إلى عالم الحس ، فاعتبروا أن الكواكب السيارة التي كانوا يعرفونها في ذلك الزمن الغابر كانت سبعًا ، وأنها مطابقة لعدد السماوات السبع ، لكن تبيَّن فيما بعد أن السيارات حول الشمس ليست سبعًا ، فقد اكتُشفت سيارات أخرى ، فهل كانت السماء فارغة إلا من الشمس وتوابعها من السيارات ؟! كلا ، إن هناك نجومًا وكواكب كثيرة نراها أمامنا ، ولكنهم أردوا أن يقربوا تلك المسألة للعقول المعاصرة ، فقالوا : إن السماء هي عبارة عن الشمس والقمر والكواكب .

---

1 - سورة : البقرة ، الآية : 3 .

وقد أراد الإمام محمد عبده أن يفسر كلمة : ﴿ بَنَاهَا ﴾ في قول الله ﷻ : ﴿ أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا * رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا * وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴾ [1] ، وفي قوله ﷻ : ﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴾ ، فقال : إن معنى البناء هو إيجاد أشياء تتماسك تماسكًا قويًّا بحيث لا تنفصل عن بعضها البعض ، كما تُبنى اللبنة فوق اللبنة ، ثم يتماسك ما بين اللبنات بطين أو أسمنت أو ما شابه ذلك ، وكل ذلك يعتبر ضمن عملية البناء .

وعلى ذلك فقد فسر الإمام محمد عبده كلمة : ﴿ بَنَاهَا ﴾ في هذه الحالة بقوله : جعلها متماسكة مع بعضها البعض ، بحيث تظل مترابطة متماسكة ، لا يسقط شيء منها بفعل قانون الجاذبية الذي حاولوا استعماله لإثبات أن القرآن يساير القوانين العلمية .

ومع أن هذا الكلام كلام طيب من الإمام ، إلا أن القرآن لا يؤخذ آية آية ، وإنما يؤخذ القرآن جملة واحدة ، فهو كتاب كامل متكامل ، وإن كان نزل منجمًا مفرقًا ، إلا أن آياته لابد وأن تؤخذ جملة واحدة .. والقرآن بيَّن لنا أن السماء غير النجوم غير الشمس غير القمر .. وهكذا .

والدليل على ذلك أننا إذا قرأنا ـ مثلاً ـ قول الحق ﷻ : ﴿ فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ * وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ﴾ [2] ، فإننا نجد ما يدل على أن السماء غير النجوم ، وبعد ذلك يأتي استهلال سورة الانفطار ، يقول الله ﷻ فيها : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ * وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ ﴾ [3] ، فمرة تكون النجوم مغايرة للسماء ، ومرة تكون الكواكب مغايرة للسماء .. وهكذا .

---

1 ـ سورة : النازعات ، الآية : 27 ـ 29 .

2 ـ سورة : المرسلات ، الآية : 8 ، 9 .

3 ـ سورة : الانفطار ، الآية : 1 ، 2 .

يقـول الحق ﷻ : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا * وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴾[1] ، فالشمس والقمر من مكونات السماء ، والسماء تشتمل عليهما .

ويلاحظ أن القرآن دقيق في استيعاب هذه الأشياء ، فمرة يقول : ﴿ فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ * وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ﴾[2] ، ومرة يقـول : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ * وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ ﴾[3] ، فيأتي مرة بالنجوم مقابل السماء ، ومرة بالكواكب مقابل السماء .

ثم علمنا أخيرًا أنهم قد فرقوا بين النجوم والكواكب ، حيث قالوا : إن النجم مضيء وملتهب بذاته ، لكن الكوكب يعكس ضوء غيره ؛ ولذلك نجد في القرآن الكريم دقة الخالق في الأداء ، حيث يقول : ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ﴾[4] ، ويقول : ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ ﴾[5] ، فأتى بالكواكب مرة وبالمصابيح مرة ، وذكر أنها زينة للسماء ؛ لأن الكواكب ومعها القمر ، تستمد ضوءها من الشمس ، فهي متلألئة وضاءة ومشرقة ؛ لذلك فهي زينة .

إذن لا يشترط أن تكون متوهجة في ذاتها ، ولكن يكفي أن تكون آخذة الضوء من غيرها كي تكون زينة ، سواء أطلق عليها كواكب ، أو أطلق عليها مصابيح .

ولو أردنا أن نفرق بين الكواكب والمصابيح ، فسنجد أن القرآن هو الفيصل في هذا ، حيث يدلنا على أن المصباح متوقد بذاته ، ولكن يوجد شيء يمنحه الإشعاع ولو كان غير متوقد بذاته ، فنجد قول الله ﷻ : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا

---

1 - سورة : نوح ، الآية : 15 ، 16 .

2 - سورة : المرسلات ، الآية : 8 ، 9 .

3 - سورة : الانفطار ، الآية : 1 ، 2 .

4 - سورة : الصافات ، الآية : 6 .

5 - سورة : الملك ، الآية : 5 .

مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَ شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ﴾ [1]، فالزجاجة ليست مضيئة بذاتها ، ولكنها تعكس ضوء المصباح الذي هو مضيء بذاته .

وعندما يقول ﷻ : ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ ﴾ ، ثم في مرة أخرى يقول : ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ﴾ [2].. ، فإن الحق ﷻ ذكر الاثنين : إما أن تكون كوكبًا ، وإما أن تكون نجمًا مضيئًا بذاته .

والخلاصة من هذا كله أن السماء شيء والكواكب والشمس والقمر شيء آخر ، خصوصًا أنهم بعد أن اكتشفوا سيارات أخرى مثل : أورانوس ونبتون وبلوتو ، زادت السيارات عن سبع ، ومع ذلك فعندما جاء عالم الفلك وقال : أين هذه الكواكب السبعة السيارة التي حول الشمس من ملك الله ؟ هذه مجموعة واحدة من مائة مليون مجموعة في مجرتنا ، ويوجد في الكون مائة مليون مجرة مثلها ، فالكواكب والنجوم عددها مثل عدد حبات الرمال على شواطئ البحار ، فماذا أفاد **الإمام محمد عبده** ومدرسته عندما قال : إن الكون كله ليس فيه إلا المجموعة الشمسية : الشمس والقمر والأرض ، فأين هذا من ملك الله ؟! إن بيننا وبين الشعرى أربع عشرة سنة ضوئية ، بينما بيننا وبين الشمس ثمان دقائق ضوئية فقط ، وهي مع ذلك تعطي ضوءًا وحرارة مثل الشمس 26 مرة ، وإذا كانوا يقولون : إن الأرض هي مركز الكون ، فهذا غير صحيح ؛ لأن الأرض لا تساوي شيئًا بالنسبة لملك الله ، ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ [3]، فهذا الكون واسع جدًّا ، فكونهم يقولون : إن السماء هي هذه ، والجاذبية هي التي تمسكها ، فإننا نرد عليهم بأن القرآن عندما يتعرض لمباني السماء فإنه يأتي بصيغة واحدة وهي كلمة بناء ، وعندما يتعرض لمباني الأرض يطلق عليها اسم

1 - سورة : النور ، الآية : 35 .

2 - سورة : الصافات ، الآية : 6 .

3 - سورة : الذاريات ، الآية : 47 .

البـنيان ، ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً ﴾[1].. ، فكل ما يتعلق بالسماء يسميه بناء ، وحين يتعرض لمباني الأرض يقول : ﴿ قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ ﴾[2]. ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * لاَ يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلاَ أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾[3].. فكل ما يتعلق بالمباني في الأرض يسميه بنيانًا ، وكل ما يتعلق بالبناء في السماء يسميه بناء فقط .

وإذا كان البناء يمكن أن تميز فيه لبنة عن لبنة ، ويوجد بين اللبنات ما يعمل على تماسكها ، فإن السماء لا ترى فيها من فطور (ثقوب) ، فالبناء هنا متماسك ومتلاحم بحيث لا تستطيع أن تتبيَّن فاصلاً بين شيء وشيء آخر ؛ ولذلك يقول الله ﷻ : ﴿ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾[4].

ولذلك عندما ترى السماء صافية تجدها بلون واحد وشكل واحد ، أما عندما تنظر إلى القمر تجد فيه ما يسمونه بالكلف ، وعندما تنظر إلى الشمس تجد فيها البقع ، فمعنى بناء السماء أنها بناء لا يوجد فيه شقوق ولا فطور .

والحق ﷻ حينما يسري برسوله في رحلة الإسراء والمعراج ، ثم يأتي الرسول ﷺ ويقول صعدت إلى السماء ، واستفتح **جبريل** ، وبعد ذلك قيل : من معك ؟ قال : **محمد** ، ففتحوا له ، ثم صعد إلى السماء الثانية ، فهل بعد ذلك يا إمام تقول أنت ومدرستك : إن السماء هي ما علانا فأظلنا من شمس وكواكب ونجوم ؛ لتقرِّبوا هذه المسألة إلى العقول لكي تقولوا : إن الدين ليس متعارضًا مع العلم .. صحيح أن الدين لا يتعارض مع العلم ، ولكن أي علم ؟! العلم الذي

---

1 - سورة : البقرة ، الآية : 22 .

2 - سورة : الصافات ، الآية : 97 .

3 - سورة : التوبة ، الآية : 109 .

4 - سورة : الملك ، الآية : 4 .

يصل إلى حقيقة العلم ؛ لأن التضارب لا يمكن أن يتأتى بين كلام الله وبين كون الله ، فالله هو الذي خلق الكون ، وهو الذي قال القرآن ، فلا تعارض أبدًا ، إنما ينشأ التعارض عندما تعتبر حقيقة في القرآن على فهمك ، وهي ليست بحقيقة ، أو تعتبر حقيقة في الكون على فهمك ، وهي ليست بحقيقة ، أما إذا توصلت إلى حقيقة قرآنية كحقيقة قرآنية ، وإلى حقيقة كونية كحقيقة كونية ، فلا يمكن أن يوجد تعارض أبدًا ، ولكن الناس دائمًا يتعجلون ، وكلما رأوا بارقة من علم نظري يحاولون أن يفسروا بها غيب الله ﷻ ، ورغم إخلاصهم إلا أنهم قد يضرون ؛ لأنه ليس من مهمة الدين أن ينزل إلى مستوى عقول الناس ، إنما المهم أن يرفع من عقول الناس إلى مستواه ، فهذه مسألة تتساوى فيها المعرفة وعدم المعرفة ، أي أن هذا طرف عقلي وعلمي ، فإن عرفت أن السماء هي كذا أو كذا ، فهذا لن يترتب عليه من نفعك منها والذي قصده الله لك شيئًا ، بل أنت في كل الأحوال منتفع .

وبعد ذلك ، ماذا ترك عقل القرن العشرين لعقل القرن الثلاثين والأربعين ، إذا كنا كل يوم نخطو في العلم خطوات تدلنا على حقائق ، فإذا كان العقل في القرن العشرين يريد أن يفهم الحقائق الغيبية الآن ؛ فماذا ترك لعقل القرن الثلاثين ؟! إن أسرار الله تأتي تباعًا ، كل يوم يعطي الله ﷻ خلقه بعض الأسرار ؛ ولذلك جاء قول الحق ﷻ : ﴿ **سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ** ﴾[1]..أي سنظل نريهم ، وليس أريناهم ، وسنبقى نقرؤها إلى قيام الساعة سنريهم .

إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾

وبعد أن تكلم الحق عن مظاهر قدرته وإبداعه ، ومظاهر حكمته الموضحة في هذه الأشياء ،

1 - سورة : فصلت ، الآية : 53 .

ينتقل إلى المعني المطلوب ..

﴿ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا ﴾ .. أي إنه لا بد أن لا تكذبوا الخالق الذي فعل ذلك ؛ لأنكم ستلقونه في يوم الفصل .

وكلمة : ﴿ كَانَ مِيقَاتًا ﴾ .. تدل على أن الذين يستعجلونه يريدون أن ينفعل الله ﷻ لاستعجالهم ، فيعجل اليوم إلى وقت قريب ، ولكنهم لا يعلمون أن الله لا ينفعل ؛ لأن الانفعال تغيُّر ، والحق ﷻ لا يتغير .

والميقات : هو الوقت المعلوم .

﴿ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴾ .. وكأنها بداية يوم الفصل .. ﴿ يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ ﴾[1] .

وعن **معاذ بن جبل** ﷺ أنه لما نزلت هذه الآية سأل عنها رسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ له : " **يا معاذ ، سألت عن أمر عظيم من الأمور** " . ثم أرسل عينيه ، وقال : " **تحشر عشرة أصناف من أمتي ، بعضهم على صورة القردة ، وبعضهم على صورة الخنازير ، وبعضهم منكّسون أرجلهم فوق وجوههم يسحبون عليها ، وبعضهم عمي ، وبعضهم صم وبكم ، وبعضهم يمضعون ألسنتهم فهي مدلاة على صدورهم يسيل القيح من أفواههم يتقذرهم أهل الجمع ، وبعضهم مقطعة أيديهم وأرجلهم ، وبعضهم مصلَّبون على جذوع من نار ، وبعضهم أشد نتنًا من الجيف ، وبعضهم يلبسون جبابًا سابغة من قطران لازقة بجلودهم ، فأما الذين على صورة القردة فالقُتَّات من الناس[2] ، وأما الذين على صورة الخنازير فأهل السحت ، وأما المنكّسون على وجوههم فأكلة الربا ، وأما العمي فالذين يجورون في الحكم ، وأما الصم والبكم فالمعجبون بأعمالهم ، وأما الذين**

---

1 - سورة : الإسراء ، الآية : 71 .

2 - القتّات : أي الذين يسعون بين الناس بالنميمة .

يمضغون ألسنتهم فالعلماء الذين خالفت أقوالهم أعمالهم ، وأما الذين قطعت أيديهم وأرجلهم فهم الذين يؤذون جيرانهم ، وأما المصلّبون على جذوع من نار فالسعاة بالناس إلى السلطان ، وأما الذين هم أشد نتنًا من الجيف فالذين يتبعون الشهوات واللذات ومنعوا حق الله ﷻ في أموالهم ، وأما الذين يلبسون الجباب فأهل الكبر والفخر والخيلاء "[1] .

وعن أبي هريرة ﷺ ، أن الناس قالوا : يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ فقال رسول الله ﷺ : " هل تمارون في القمر ليلة البدر ؟ " قالوا : لا يا رسول الله . قال : " فهل تمارون في الشمس ليس دونها سحاب ؟ " قالوا : لا يا رسول الله . قال : " فإنكم ترونه كذلك ، يجمع الله الناس يوم القيامة فيقول : من كان يعبد شيئًا فليتبعه ؛ فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس ، ويتبع من كان يعبد القمر القمر ، ويتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت ، وتبقى هذه الأمة فيها شافعوها ، أو منافقوها (شك الراوي) ، فيأتيهم الله ﷻ ، فيقول : أنا ربكم . فيقولون : هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا ، فإذا جاءنا ربنا عرفناه . فيأتيهم الله ﷻ في صورته التي يعرفون ، فيقول : أنا ربكم . فيقولون : أنت ربنا . فيتبعونه ... إلى آخر الحديث[2] .

﴿ وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ﴾ .. أي أنها ليست مفتوحة الآن ، وستفتح حينها .

﴿ وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴾ .. والجبال هي أثبت شيء يراه الإنسان ، والجبال أخذت حظًّا وافرًا في القرآن ، حيث نجد أن تسعًا وعشرين سورة متعلقة بالجبال ، منها إحدى عشرة آية متعلقة بأحوال الجبال يوم القيامة ، ومسألة التسيير .

والسراب : هو الشيء الذي تتوهم أنه شيء وليس بشيء .

---

1 - تفسير أبي السعود 6 / 439 .

2 - البخاري : (6885) ، ومسلم : (276) .

والتسيير يكون بالنسبة للجبال ، كما في قول الحق ﷻ : ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ * وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴾ [1]، وقوله ﷻ أيضًا : ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ [2]، وقوله : ﴿ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ﴾ [3]، وقوله ﷻ : ﴿ وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ * وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ * لأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ * لِيَوْمِ الْفَصْلِ ﴾ [4].

ولكن السور الثلاث لم تتعرض لما تسير إليه بعد التسيير ، ولكن في **سورة النبأ** كان التفصيل : ﴿ وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴾ ، فنتيجة التسيير أنها تصير سرابًا ، وهنا تحرك من أماكنها بالسير ، ثم تصير سرابًا ، وهناك في **سورة المزمل** : ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلاً ﴾ [5]، **والكثيب** : هو الرمل المهيل الهائل بعد ما كان متماسكًا ، والرمل حين يتماسك يصبح ثابتًا في مكانه ، ولا يكون سرابًا ، وكلمة : ﴿ كَثِيبًا مَهِيلاً ﴾ تدل على التفكك والتفتت .

وهذه المعاني الكثيرة الواردة في الآيات تدل على أنه إما أن يكون النسف هو التسيير ، أو أن يكون النسف لبعض الجبال ، والتسيير لبعض ، وذلك لاختلاف طبيعة الجبال ، فالجبال طبائعها مختلفة ، واختلاف طبائعها يجعل الحالة التي تؤول إليها الجبال لتنتقل إلى العدم تأخذ صورتين اثنتين : صورة تسيير فتصبح سرابًا ، أو صورة نسف .

إذن فالجبال نوعان : نوع فيه نسف ، ونوع فيه تسيير .

---

1 - سورة : التكوير ، الآية : 1 - 3 .

2 - سورة : الكهف ، الآية : 47 .

3 - سورة : الطور ، الآية : 10 .

4 - سورة : المرسلات ، الآية : 10 - 13 .

5 - سورة : المزمل ، الآية : 14 .

إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّاغِينَ مَآبًا ﴿٢٢﴾ لَّابِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ
فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا
يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ كِتَـٰبًا ﴿٢٩﴾
فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾

إن الكون كله خاضع للحـق ، الكون كله مسبـح ، الكون كله مؤدٍ لمهمة يريدها الله ﷻ ، فعندما يرى الكون إنسانًا فاجرًا طاغيًا فإنه ينبو عنه وينفر منه ، وينتظر حتى يأتي يوم عذاب ذلك الإنسان فيتميز من الغيظ ، حتى يقال : هل امتلأت ، فتقول : هل من مزيد ؟

فهذا هو انفعال **الكون المسخر.. الكون المسبح.. الكون العابد..** كان متغيظًا ، وكان محنقًا من جنس الإنسان الذي انقسم إلى طائع وعاصٍ ، في حين أن بقية الأجناس طائعة بالإجماع .

ويتضح هذا الإجماع عندما نعرض لقـول الحق ﷻ : ﴿ **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ** ﴾ ، ولكن عندما كان الكلام عن الإنسان .. سيد هذه الدنيا قـال : ﴿ **وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ** ﴾[1] .

إذن فلم ينقسم الخلق إلا عند الإنسـان ، أما الجميع فبـالإجماع ؛ ولذلك فجهنم معذورة في أنها تظل مترصدة لهؤلاء الذين خالفوا منهج الله ﷻ .. ﴿ **إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا** ﴾ .

﴿ **لِلطَّاغِينَ مَآبًا** ﴾ .. وكلمة ﴿ **مَآبًا** ﴾ تدل على أن أمر الأوبـة مقـطوع بـه ، وكأنهم في رحـلة وسـيعودون منها إلى مستقـرهم الحقيقـي ، ﴿ **لِلطَّاغِينَ مَآبًا * لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا** ﴾ ،

1 - سورة : الحج ، الآية : 18 .

وهنا وقفة للعلماء ، حيث يقدرون الحقبة بثمانين سنة ، ولا يكون اللبث أحقابًا إلا إذا كان متتابعًا ؛ لأن الحقبة مشتقة من حقيبة الراكب التي يضعها خلفه ، فهي تابعة لرَحله ، لذلك فإن ﴿ لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ﴾ لا تعني عددًا محدودًا من الزمن ؛ لأن كلمة أحقاب لا تطلق إلا على أزمنة متلاحقة متتابعة ، أي : كلما ينتهي حقب يأتي حقب آخر بعده .

وقد قال بعض الناس : ما دام أن الله ﷻ قد قال : ﴿ لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ﴾ فإنه ﷻ قد عدَّها ، والحقب ثمانون سنة ، ومع إعطاء الجمع أكثره لا تدل كلمة أحقاب على استمرار التتابع .

ونقول لهؤلاء : إن كلمة أحقاب تدل على العذاب المقيم ، كما قال الله ﷻ : ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾ ، أما عن فائدة كلمة أحقاب ، فإنها تدل على أنه استدامة لعذاب هؤلاء وبعد أن ينالوا قسطًا من العذاب يوجه وجوههم تلقاء الجنة ، فيتجدد عندهم الأمل في الخروج من النار ودخول الجنة ، ثم يعيدهم بعد ذلك إلى النار تارة أخرى ، فيكون ذلك أشد في النكاية بهم ، ووصلاً في العذاب فوق العذاب ، كما لو منعت إنسانًا من الماء ، واستمر منعك له من الماء ، فيستحكم منه اليأس ويعلم أن قد قضي الأمر ، أما إذا أمَّلته ومددت إليه يدك بكوب من الماء ، حتى إذا ما مد يده ليأخذها أعدت يدك ولم تعطه إياها ، فإن ذلك سيكون أشد استدامة للعذاب .

فكلمة **أحقاب** معناها : أنهم يأخذونهم فترة ، ثم بعد ذلك يأنسون إلى أن الله ﷻ سيعفو عنهم ، ثم يُعادون بعد ذلك ، وهكذا ، كما قال الشاعر العربي :

كما أبرقت قومًا عطاشًا غمامة فلما رأوها أقشعت وتجلت

أو كما قال الآخر :

فأصبحت من ليلى الغداةَ كقابض على الماء خانته فروج الأصابع

حيث تسرب الماء من بين أصابعه .

﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا * لِلطَّاغِينَ مَآبًا * لاَبِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا * لاَ يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلاَ شَرَابًا * إِلاَّ حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴾ وكلمة (إلا) عندما تذكر فإنها تعطي لسامعها أملاً ؛ لأن كلمة (إلا) من المعروف في الاستثناء أنها للإخراج ، وما دامت إخراجًا من عذاب فإنها تصبح أداة للرحمة ، فإذا به يجد بعدها عذابًا أنكى ، فالله ﷻ أطمعه ، ثم أخبره بما أعده له من العذاب ، ولذلك قال الصحابة : " هذه أشق آية في القرآن " .

﴿ لاَ يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلاَ شَرَابًا * إِلاَّ حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴾ .. وهذا السياق يأتي على طريقة المدح في معرض الذم ، أو الذم في معرض المدح ، فساعة أن يسمع (إلا) يظن أن باب الفرج قد انفتح ، ثم بعد ذلك يقول : ﴿ إِلاَّ حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴾ ، وقوله ﷻ : ﴿ إِلاَّ حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴾ ..

الحميم : هو الماء المتناهي في الحرارة ، فهل يكون هذا بردًا ؟!

والغساق : هو الصديد .. صديد أهل النار ، فهل يكون هذا شرابًا ؟!

ولكي لا تأخذنا بشاعة الجزاء ، وهول الوصف يقول الحق ﷻ ..

﴿ جَزَاءً وِفَاقًا ﴾ هنا قال : ﴿ جَزَاءً وِفَاقًا ﴾ وهناك : جزاء فيه عطاء أي يأخذون حسنة مقابل الحسنة التي صنعوها ثم تزيد بعد ذلك تسعة ، وهو العطاء ، أي أنه جمع بين الجزاء وبين العطاء .

عندما نقرأ ﴿ لِلطَّاغِينَ مَآبًا * لاَبِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا * لاَ يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلاَ شَرَابًا * إِلاَّ حَمِيمًا وَغَسَّاقًا * جَزَاءً وِفَاقًا * إِنَّهُمْ كَانُوا لاَ يَرْجُونَ حِسَابًا ﴾ .. نجد الحق يأتي بالحيثية التي تجعل السامع يؤمن تمام الإيمان أن الجزاء جزاء عادل ، فقال : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا لاَ يَرْجُونَ حِسَابًا * وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا ﴾ .. هذا الجزاء الذي تقدم لماذا استحقوه ؟!

استحقوه لأمرين : الأمر الأول : أنهم كانوا لا يرجون حسابًا ، كيف لا يرجون حسابا ؟! لأنهم لا يؤمنون بالحساب ، أو يؤمنون بالحساب ولكنهم يتعجبون كيف يعودون ثانية بعد أن كانوا عظامًا ورفاتًا .

فإذا استقـــرأت كل فســـاد الدنيا وجدته ناشـــئًا من أنهم ﴿ لاَ يَرْجُونَ حِسَابًا ﴾ ، فإن المجتمع يفسد حين لا يرجو أعضاء المجتمع أو لا يتوقـعون حسـابًا على تصرفاتهم ، فحـين توجد هذه الصفة في المجتمع ، ولا يتوقـع أحـد حســابًا على تصرفاته ينطلق كلٌّ في حــركة حياته كما يحب ويشتهي ، إذن فالضامن لصلاح المجتمع هو بعينه الضامن لصلاح الآخرة ، فهؤلاء حدث لهم هذا لأنهم .. ﴿ كَانُوا لاَ يَرْجُونَ حِسَابًا ﴾ .

إذن فعدم توقع الحساب من الإنسـان يجعله ينفلت في حـركة حـياته غير متقـيد لا بـنظام عقدي ولا بنظام قيمي ؛ لأنه لا يتوقع حسابًا ، وكذلك الدنيا يكون الفساد فيها حين لا يتوقع الناس في المجتمع حسـابًا ، أما إذا توقـعوا حسـابًا ، وتذكر كل إنسـان أنه سيحاســب على تصرفه .. فهنا ينتظم المجتمع ، وحين لا يتوقع حسابًا .. يفسد المجتمع فسادًا كبيرًا .

إن هؤلاء حــدث لهم هذا لأنهم ﴿ كَانُوا لاَ يَرْجُونَ حِسَابًا ﴾ مما يدل على أن عدم توقــع الحساب من الإنسـان يجعله ينفلت في حـركة حـياته غير متقـيد لا بـنظام قـيمي ولا بـنظام عقدي ؛ لأنه لا يتوقع حسابًا .

فالمحاسب سيكون في مجتمعنا ثلاثة أشياء : إما الحاكم الذي نصبـه الله ليقـيم حـدوده ، وإما المجتمع ، وإما النفس ، وهذا هو ما انتهت إليه مدارس الجزاء الحديثة كلها ، إلا أنهـا تمتاز بـــأن هناك حســـابًا آخر ترجوه في الآخرة ، وتلك المدارس الحديثة لا تنظر إلى هذا الحساب ، بل تنظر إلى حساب الدنيا .. المجتمع .. حساب الحاكم بتقـنيناته .. حساب النفس ؛ ولذلك نشـأت مدرسـة اسمها مدرســة الضمير ، ونشـأت مدرســة اسمها مدرســة المجتمع ، ونشأت مدرسة الحاكم .. وهكذا .

ولكنا نقول لأصحاب هذه المدارس جميعًا : إن هذه الأشـياء الثلاثة لم يهملها القـرآن ، ولم يهملها المذهب العقـدي الإسـلامي ، لكن ما رأيك فيمن يحتاط للجريمة بحيث لا تقـع عليه عين الحاكم ، ولا عين المجتمع ؟!

إذًا فالعاصم النهائي القوي الذي يستوعب كل هذا هو أن يعتقد الإنسان أنه محكوم أمام عين خبير لا تخفى عليه خافية ، لا يستطيع أن يستتر عنه ، وهو مردود إليه قطعًا ليجازيه .

إذا تأملنا قوله ﷻ : ﴿ لاَ يَرْجُونَ حِسَابًا ﴾ وجدناها قضية تنصرف ، فالذين لا يرجون حسابًا في الآخرة يفسدون الفساد الأصيل ، من القمة كفرًا بالله ﷻ .. إلى أصغر الصغائر ، أما في الدنيا فإن الفساد فيها لا يتأتى إلا إذا كان الناس لا يرجون حسابًا ، فإذا وجد حاكم يقيم القانون على طائفة دون طائفة ، فماذا تظنه يحدث ؟ لا شك أن التي يقام عليها القانون ستشعر بالظلم ، مما سيؤديها دائمًا إلى المخالفة ، وأما الطائفة الأخرى فبشعورها أن ليس من حساب لا شك ستفسد ، وهذا هو معنى قول رسول الله ﷺ : **" إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد "**[1] .

ويقول الله ﷻ : ﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ﴾ .. وهذه من الوازع الديني .. ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾[2] .. يعني : الجو المحيط بكم .

إذن فقول الحق ﷻ : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا لاَ يَرْجُونَ حِسَابًا ﴾ بيان علة فسادهم وكفرهم واستهزائهم .. علة وقوفهم من النبي ﷺ موقف الصد والعدوان والاضطهاد ، كل هذا ناشئ من .. ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا لاَ يَرْجُونَ حِسَابًا ﴾ .

وبعد ذلك يقول الحق ﷻ : ﴿ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا ﴾ .. وإذا تأملنا كلمة ﴿ كِذَّابًا ﴾ نجد أنها وردت للتوكيد بالتشديد . فلِمَ لَمْ يقل : تكذيبًا ، أو كذبًا ؟! مع أنها كلها لغات فيها .. ولكن كلمة (كِذَّاب) مصدر مثل التكذيب ، ويقال : إن هذه هي لغة أهل اليمن ، كما تجد الرجل اليمني يسأل في الحج فيقول : أيهما أفضل الحلق أم القصار ؟ يعني الحلق أم التقصير .

---

1 - متفق عليه : البخاري (3288 ، 3526 ، 4053 ، 6406) ، ومسلم (1688) كلاهما من حديث عائشة رضي الله عنها .

2 - سورة : التوبة ، الآية : 105 .

ووردت قراءة ثانية : (**وكذبوا بآياتنا كِذَابا**) ، ووردت قراءة ثالثة : (**كُذَّابا**) .. جمع كاذب ، كفساق جمع فاسق .

فإنك لو قلت : كَذَّب فلان فلانًا ، فإن تكذيب فلان لفلان لا يجعلك تلقي اللائمة على من كذب ؛ لأنه من الجائز أن يكون صادقًا ، فأنت كذبته في الخبر ، أليس من الجائز أن يكون تكذيبك صحيحًا ، فبقي أن تقول : كذبوا بآياتنا ، وهل صدقوا في ذلك أم كذبوا ؟ فيقول لك : بل كذَّبوا ثم ترك مصدرها لتفهمها ، وبعد ذلك قال : (وكذبوا كذابا) ، أو (وكذبوا كذَّابا) ؛ ليقول لنا : إنهم ليسوا صادقين ، إنهم كذبوا ويبقى مصدرها محذوفا (تكذيبًا) ، ولم يَصدقوا في ذلك ، بل كذَبوا في ذلك التكذيب كذابا ، وتكون (كذابا) راجعة لفعل غير المذكور فيكون مصدر المذكور محذوفًا ، (كذبوا) كأنه قال : كذبوا تكذيبًا ، وهم غير محقين في ذلك التكذيب .

وهنا شيء يسمونه في اللغة احتباكًا ، وهو أن تأتي بجملتين ، كل جملة لها ركنان ، ثم تحذف من الأولى ركنًا ومن الثانية ركنًا ، لكن الركن المحذوف من الثانية عليه دليل في الأولى ، والمحذوف في الأولى عليه دليل في الثانية ، وذلك مثل قول الحق ﷻ : ﴿ **قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ** ﴾[1] ، كان المفترض أن يقال : فئة تقاتل في سبيل الله ، وأخرى تقاتل في سبيل الشيطان ، لكن القرآن مبني على الأسلوب العالي من البلاغة فحذف ﷻ كلمة مؤمنة من الأولى واستدل عليها بمقابلها في الثانية ، فقال : ﴿ **فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ** ﴾ كأن الأولى مؤمنة أي : فئة مؤمنة ، أخذنا مؤمنة من مقابل ما ذكر في الثانية .

فجاءت كلمة : ﴿ **كَافِرَةٌ** ﴾ لتستدل على المؤمنة الأولى ، وجاء في الأولى ﴿ **فِي سَبِيلِ اللَّهِ** ﴾ لتستدل على أن معنى الثانية هو : في سبيل الشيطان .

---

1 - سورة : آل عمران ، الآية : 13 .

وهذا هو ما يسمى بالاحتباك .. حيث حذف من الأولى نظير ما وجد في الثانية ، وحذف من الثانية نظير ما وجد في الأولى .

أي : وكذبوا بآياتنا تكذيبًا ، أو وكذبوا في ذلك كذبا أو كذَّابا ، جاء بالفعل في الأول وترك المصدر ، وجاء بالمصدر في الثاني وترك الفعل .

وهناك من استشكل بآية من القرآن ، وهي قول الحق ﷻ : ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾[1] .. قال : فلماذا كذبهم الله ﷻ ، مع أنهم لم يشهدوا بقضية كاذبة ، وإنما شهدوا للنبي ﷺ بالرسالة ؟!

فنقول : لقد أخذت متعلق الفعل وتركت الفعل .. إنهم لم يقولوا : إنك رسول الله فقط ، بل إنهم قالوا : ﴿ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ﴾ ، فالتكذيب في قولهم : (نشهد) ، وليس في شهادتهم نفسها ؛ لأنها ليست شهادة فهي مجرد كلام من لسانهم لم يصادف إيمانًا في قلوبهم ، فالشهادة هي أن يقول الإنسان قولاً مطابقًا لما في ضميره ، وهم ليسوا مؤمنين بهذه الشهادة ، فقالوها بألسنتهم ولم تؤمن قلوبهم .

﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ﴾ .. الإحصاء هو معرفة الشيء وعده ، ومع الإحصاء هناك الكتابة ؛ لأنك إن أردت أن تعد الشيء لعددته في ذهنك ، ولكن إن أردت أن تؤكد هذا الإحصاء فلابد من كتابته ؛ ولذلك عدل عن مصدر الإحصاء فلم يقل : وكل شيء أحصيناه إحصاء ؛ لأن كلمة : (أحصيناه) .. أي : علِمناه علما لا يغادر صغيرة ولا كبيرة ، لكن هذا العلم يكون حجة عندي أنا ، وليس حجة عليهم ، إنما أنا أريد حجة عليهم ، فلم يكتفِ الحق ﷻ بالإحصاء ، وهو العلم الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة ، بل تعدى ذلك إلى الكتابة أيضا ؛ وذلك حتى يقرأ كل إنسان كتابه يوم القيامة ، كما قال ﷻ في ذلك : ﴿ اقْرَأْ كِتَابَكَ

---

1 - سورة : المنافقون ، الآية : 1 .

كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾[1].

﴿ فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَابًا ﴾ .. ويلاحظ في هذا الأسلوب أن الحق ﷻ يتكلم عن الكافرين وعن المنكرين للبعث فيرد عليهم بالغيب كله : ﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا * لِلطَّاغِينَ مَآبًا * لاَبِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا * لاَ يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلاَ شَرَابًا * إِلاَّ حَمِيمًا وَغَسَّاقًا * جَزَاءً وِفَاقًا ﴾ ، كان يمكن أن يقول السياق : فليذوقوا ، لكن المسألة انتقلت من الغيبة إلى الخطاب ؛ لأن ﴿ فَذُوقُوا ﴾ خطاب من متكلم والمخاطبون يسمعون ، لكن الأول غيب ، فهو يريد أن يجعل الأسلوب يشف عن المعنى شفافية مطلقة ؛ لأن الآخرة غيب ، فقد يكذب الناس بها ، لكن عندما تكون مشهدًا فكأنه قيل : ستواجهون بها هكذا ، بعد ما كان الأمر غيبًا أصبح مواجهة .. ﴿ فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَابًا ﴾ .

﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا لاَ يَرْجُونَ حِسَابًا * وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا * وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا * فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَابًا ﴾ .. وكلمة (لن) للتأبيد ، مثل (إلا) الأولى ﴿ فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلاَّ ﴾ فعندما نقرأ (إلا) نقول : سيأتي هنا تخفيف ، ولكنه يقول : ﴿ إِلاَّ عَذَابًا ﴾ ، وكما قدمنا أن التيئيس بعد الإطماع أبلغ في النكاية ، وأعظم في الترويع والتخويف ، وضربنا لذلك مثلاً : أن الإنسان إذا كان عطشانًا بشدة ويطلب منك كوب ماء ، وأنت لا تعطيه الماء ، ثم بعد ذلك التفت إليك فوجدك تذهب نحو القارورة وتملأ الكوب ماءً وتتوجه به إليه ، فكل ذلك يعطي له الأمل في أنك سترق وتعطيه كوب الماء ، ثم بعد ذلك يمسكه ليشربه فتقوم بضرب الماء من يده فيقع منه ، فلو أنك من أول الأمر لم تتحرك في اتجاه الماء لكان الأمر هينًا عليه ، أما أن تطمعه هذا الإطماع ، ثم بعد ذلك تقنطه ، فهذا أبلغ في النكاية فيه .. ﴿ فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَابًا ﴾ .

وبعد ذلك ينتقل السياق لإيلامهم أكثر بالحديث عن المقابل ، وهو جزاء المتقين يوم

---

1 - سورة : الإسراء ، الآية : 14 .

القيامة ، وهو : ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴾ ، إن المتقين لم يكونوا مكذبين ، وليس لهم علاقة في هذا الموضوع ، ولكن ذلك من أجل التقابل ، وهذه هي عدالته ؛ ولذلك فإن الحق ﷻ دائمًا يقابل بين الفريقين فيقول : ﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴾[1] ، إذن فهذه العملية فيها نكاية أخرى ؛ لأن العذاب على السيئة عذاب ، ثم تنعيم المقابل يكون لونًا آخر من ألوان العذاب .

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَـٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ رَّبِّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَـٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾

﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴾ .. كلمة : (مفازًا) هذه تطلق على عدة معان ، تطلق ويراد بها الفوز .. إن للمتقين فوزًا ، والفوز هو بلوغ الخير المؤمل للنفس ، (فاز) يعني بلغ الخير الذي كان يؤمله ، أو (مفازًا) أي منجاة من المعاطب ، فاللفظ يحتمل الاثنين ، وفي الآخرة يكون هذا وذاك ، كما في قوله ﷻ : ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ﴾[2] .. لأننا سنمر ونشاهد لهيب النار ونحن نمشي على الصراط ، وكون أني أرى النار ، ثم بعد ذلك أنجو منها ، فهذه نعمة حتى ولو كنت مع أهل الأعراف ، لا في جنة ولا نار ، فما بالك إذا ذهب هذا ، ثم بعد ذلك دخل الإنسان الجنة ..

إذًا .. ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴾ أي نجاة ، كما في قوله ﷻ : ﴿ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾[3] ، إذًا فعناصر الفوز نوعان : أن يزحزح الله الإنسان المؤمن عن

1 - سورة : الانفطار ، الآية : 13 ، 14 .

2 - سورة : مريم ، الآية : 71 .

3 - سورة : آل عمران ، الآية : 185 .

النار فهذه مزية ، ولو ظل بلا نار ولا جنة ، فما بالك إذا زحزحه عن النار وأدخله الجنة ، فهو الفوز ﴿ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾ ، وكان العرب يسمون الصحراء (مفازة) ؛ لأن الصحراء عادة تكون مهلكة ، فعندما يمشي فيها أحد لا يجد عين ماء يشرب منها ، وقد يعترضه وحوش أو سباع أو عدو يبغته ، فينجو منها ؛ ولذلك فهم يسمونها مفازة تيمنًا ؛ كي لا يناله فيها معاطب ، فأول درجات الفوز ألا توجد المعاطب ، والمرتبة العالية : ألا توجد المعاطب وتوجد المَحَاسن ، ﴿ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾ .

﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا * حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ﴾ .. بعد ذلك أعطانا لونًا من ألوان نعيم الجنة ، والحق ﷻ حين يتكلم عن الجنة يتكلم عنها بالأسلوب الذي وجد في لغتنا ، حيث إن الجنة أمر أخبرنا الله به غيبًا ، ولكن أخبرنا عن أصول المسائل فيه : ﴿ فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [1] ، والرسول ﷺ يشرح لنا ذلك ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : قال الله ﷻ : " **أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر** " ، فاقرءوا إن شئتم : ﴿ فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [2] ، فإن قيل : فما دام فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، فكيف يوجد في لغة الناس ما يؤدي معانيها ؟! والجواب : نسأل كيف جاءت لغة الناس ؟ إنما جاءت اللغة حيث وجد المعنى في الذهن أولاً ، ثم وضع له اللفظ الذي يؤدي معناه .

إذن فلا لفظة في اللغة إلا وقد سبق الذهن إلى معناها ، وإذا كانت فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، فهل عندنا ألفاظ تؤدي مدلول هذه الأشياء؟! إن الألفاظ لا توجد في لغة الناس إلا بعد أن تتشخص المعاني في الذهن ، وعندما تتشخص المعاني في

---

1 - سورة : السجدة ، الآية : 17 .

2 - رواه البخاري (3072 ، 4501 ، 4502) ، ومسلم (2824 ، 2825) .

الذهن توجد لها الألفاظ ، أما أن لا يوجد المعنى في الذهن فلا يوجد لفظ يؤديه ، فإذا كانت الجنة فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، فمن أين تأتي الألفاظ التي تؤدي هذا ، فيكون لا ألفاظ في لغتنا لتؤدي المعاني التي في الجنة ، ولكن الله أعطانا فقط مثالاً من نعيم الدنيا ؛ ولذلك فهو لم يقل : الجنة التي وعد المتقون ، وإنما قال : ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ﴾ ، ومعلوم أن المثل معدل ، ﴿ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ ﴾ معدل : ﴿ غَيْرِ آسِنٍ ﴾ ، ﴿ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ ﴾ معدل ﴿ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ ﴾ ، ﴿ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى ﴾[1] ، والخمر لا غول فيها ، حتى رغم أنه يقول : إني أعطيكم مثلاً فقط ، فليس حقيقة ما في الجنة ، بل معدل أيضًا في المثل .

لابد أن نعرف أن الذي كان يمتلك حديقة أو بستانًا أو حائطًا في البيئة العربية هو من عُرف بالثراء والترف ، والحديقة هي البستان ذو السور وهذا السور دليل على الخصوصية ، أي أن من مُتَع الجنة متعة الخصوصية ، وقد أعطانا ربنا ﷻ رمزية لها فقال : ﴿ حَدَائِقَ ﴾ ؛ ولذلك جاء في موضع آخر يقول : ﴿ حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ ﴾[2] ، وفوق ذلك : ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلاَ جَانٌّ ﴾[3] ، ففضْل الله ﷻ متسع لأن يعطي كل إنسان خصوصية ، والدليل على ذلك هو قوله ﷻ : ﴿ حَدَائِقَ ﴾ أي ذات أسوار .

وبعد ذلك أتى بأمتع ما في الحدائق وهو الأعناب ، عندما يأتينا لفظ في القرآن له نظير في الدنيا فلا نأخذه على ذلك النظير ، بل نأخذه على مقياس زمنها ، فيكون هناك عنب الدنيا وعنب الآخرة ، وخمر الدنيا وخمر الآخرة ؛ ولذلك يقول : ﴿ لاَ يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلاَ يُنْزِفُونَ ﴾[4] ، فيعطيها لفظًا من ألفاظ الدنيا .

---

1 - سورة : محمد ، الآية : 15 .

2 - سورة : الرحمن ، الآية : 72 .

3 - سورة : الرحمن ، الآية : 74 .

4 - سورة : الواقعة ، الآية : 19 .

ولذلك فإن الله ﷻ يقول في آية أخرى : ﴿ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا ﴾[1] ، وقبل ذلك ﴿ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ ﴾ .. فالمرء في الجنة يخيل إليه أن هذا الذي رزقه هو ما رزقه من قبل ، فإذا أكله وجده ليس هو ، بل شيئًا آخر ، اللون واحد .. والطعم مختلف .

إذًا فما الحكمة في أن تأتي هذه النعم على هيئة ما نراه في الدنيا ، ولم تأتِ على صورة أخرى جديدة لم نرها من قبل ؟! والجواب : هو أن إلف النفس للأشياء هو الذي يشجع على تناولها ، فمثلاً إذا رأيت في مكان ما طعامًا أو فاكهة لم ترها من قبل في بيئتك فلن تقبل عليها غالبًا ؛ لأنك لا تعرفها ، وبالتالي فإنك قد تزهد فيها .

وكذلك إذا قيل لك إن في الجنة حور عين ، فإنك قد تتساءل : هل هي مسألة جنسية فحسب ؟! أم حب وعاطفة ؟! أم غير ذلك ؟! والجواب : أن هذا هو أمتع ما وجد في الحياة من متع النفس ، ولكنك لا تتصوره .. بواقع العملية ، أو بمقدمات العملية ، إنما أنت تتصوره بنهايات العملية ، فالإنسان قبل أن تتم هذه العملية تكون هي ألذ شيء عنده ، ولكن بعد ذلك إن استقذر شيئًا فذلك بعد أن تذهب ثورته .

فالمقدمات محبوبة لا شك ، وواقع العملية محبوب كذلك ، فما الذي يجعلها مستقذرة ؟! هو ما يأتي بعدها من منغصات للذة في الدنيا ، فكما نزع من خمر الدنيا منغصاتها ، فهو ينزع من هذه العملية أيضًا منغصاتها ، فلا تجد لها منغصات ؛ لذلك فلا ينبغي أن تقيس المسائل دائمًا على واقعها في الدنيا .

﴿ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴾ .. الكعاب من النساء .. هي البنت التي ثدياها يشبه الكعب ، أي لم يتهدل لأسفل كالقربة ، وهؤلاء الكواعب أتراب ، ومعنى أتراب : أنهن متساويات في السن .

﴿ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴾ .. الكأس : هو وعاء الخمر ، وكأس دهاق يعني : ممتلئة صافية

1 - سورة : البقرة ، الآية : 25 .

متتابعة ، وهي كذلك ذات مذاقات مختلفة ، فتجد كأسًا مزاجها الكافور ، وكأسًا مزاجها الزنجبيل ، وهكذا .. ألوان متعددة من هذا الكأس الدهاق .

ثم تجد ذلك القيد الجميل : ﴿ لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلاَ كِذَّابًا ﴾ .. حيث إن أصل اللغو إنما ينشأ من ذهاب العقل ، وهذه الخمر لا تذهب العقل ولا تؤثر فيه ، فلا يخرف ولا يلغو ، ولا يفرح باللغو دائمًا إلا اللاغي ، أما إذا كان الإنسان واعيًا متزنًا فإنه يتأذى إذا سمع من يلغو ؛ لذلك قال ﷻ بمنتهى الدقة : ﴿ لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلاَ كِذَّابًا ﴾ ، فليس النفي للغو فقط ، وإنما النفي للكذب كذلك ، فالجنة لا لغو فيها منهم ولا من غيرهم ، فالمجلس بعيد كل البعد عن أن يشابه مجلسًا من مجالس خمر الدنيا .

بخلاف ما يكون في الدنيا من مجالس تشرب فيها الخمر ، سواء أثناء شربها أو بعد أن تشرب .

﴿ جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا ﴾ .. الجزاء أجر على عمل ، والعطاء هبة بلا عمل ، فإذا تأملنا كلمة : ﴿ حِسَابًا ﴾ فقد نظن أن هناك تناقضًا في الكلام ، فكلمة : ﴿ حِسَابًا ﴾ تشعر أن العطاء يكون بالحساب ، مع أنه سيعطي من غير حساب ! !

فنقول : إننا إذا أردنا أن ننظر في مدلول كلمة في اللغة فلا بد من أن ننظر إلى كل مدلولاتها اللغوية ، وهذا المعنى هو الشائع لكلمة : ﴿ حِسَابًا ﴾ ،ولكن الحساب كما يأتي للعدِّ فإنه يأتي ويقصد به المحاسبة كذلك ، ويأتي كذلك ويقصد به معنى من (أَحْسبه الشيء) أي تقول : حسبي ، أي بلغ الكفاية ، فتكون : ﴿ جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا ﴾ ليست للحساب ، بل من أحسب الشيء ، أي غمره حتى قال : حسبي .

﴿ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنِ لاَ يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴾ .. ولماذا لا يكون منه ذلك وهو رب السماوات والأرض ، وهو المالك المتصرف ؟! وعندما يعطيك حتى تقول : حسبي ، أي كفاني فليس هناك قوة فوقه تقول له : لماذا فعلت هذا ؛ لأنه ﴿ لاَ يُسْأَلُ

عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾[1].

وكذلك ما دام هذا العطاء من عند ﴿ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ فهو لا ينقص ما عنده .

ثم يأتي بالوصف المناسب للإنعام ودوامه فيقول : ﴿ الرَّحْمَنِ لاَ يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴾ ، ولماذا لا يملكون منه خطابًا ؟! لأن الحق ﷻ حينما خلق الدنيا جعل فيها أسبابًا هو الذي خلقها أيضًا ، ولكن الإنسان قد يغفل بالسبب عن المسبب ؛ لأنه لا يرى أمامه دائمًا إلا هذه الأسباب .

ولكن هذه الأسباب ممنوعة في الآخرة ، فيكون الإنعام كله من المسبب ﷻ مباشرة ، فأصبحت المسألة بغير وسائط بين الحق ﷻ وبين العباد من أسباب ، بل أصبحت في القدرة المباشرة .. أصبحت في (كُنْ) ، وما دامت المسألة هكذا فلا يملك أحد خطابًا .

يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴿٤٠﴾

ثم يؤكد ﷻ ذلك المعنى قائلاً : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلاَئِكَةُ صَفًّا لاَ يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴾ ، وإذا كان ليس للملائكة ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ ﴾ وهو الناموس الذي كان ينزل على الأنبياء جبريل ، ﴿ وَالْمَلاَئِكَةُ صَفًّا لاَ يَتَكَلَّمُونَ ﴾ مع أن هؤلاء لم يفعلوا معاص ، إنما مهابة الرب وإجلاله ﷻ تجعلهم .. ﴿ لاَ يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴾ .

---

1 - سورة : الأنبياء ، الآية : 23 .

مع أن هؤلاء الملائكة الكرام لم يكونوا يقولون في الدنيا غير الصواب ، ولم ينطقوا من قبل بباطل أبدًا ، فهل من المعقول أن يقولوا في الآخرة غير الصواب ؟! قطعًا كلا ، ولكن الصواب هو موافقة الحق والواقع ، ولأن الحق ﷻ لا يأذن لأحد أن يشفع لأحد إلا لمن شاء الله أن تكون شفاعته مقبولة ، فهم لا يشفعون إلا لمن أراد الله ﷻ أن يشفعوا فيه .. ﴿ وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى ﴾ .

﴿ ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ ﴾ .. ذلك اليوم الواقع الذي لا شك فيه .. هو اليوم الحق ، وإن كان قبل ذلك عندكم فيه شك ، هل هو حق أم باطل ، أما اليوم فهو الحق فقط ؛ لأنكم كنتم في الدنيا متروك لكم بعض الاختيار ، قد تفعلون الصواب وقد لا تفعلونه ، ولكن في يوم القيامة ذلك هو اليوم الحق .

﴿ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآبًا ﴾ يضع الله ﷻ مسألة إياب العبد لربه ﷻ أمام عينيه ، ﴿ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآبًا ﴾ .. ثم يؤكد الإنذار بقوله :

﴿ إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا ﴾ .. فكل آتٍ فهو قريب ، بدليل قوله ﷻ : ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴾ ، أو أن هناك عذابًا بعيدًا نوعًا ما وعذابًا قريبًا ، فالقريب هو ما يرونه بعد ما يموتون ، حين تعرض عليهم أعمالهم ، ويشاهدون مقاعدهم من النار ، ويذقون نوعًا من العذاب إلى أن تقوم الساعة ، كما قال ﷻ : ﴿ فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلاَقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ * يَوْمَ لاَ يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلاَ هُمْ يُنْصَرُونَ ﴾ .. فهذا يكون يوم القيامة ، ولكن قبل ذلك : ﴿ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ .

فقد يكون المعنى المقصود هنا هو ما يكون في القبر قبل يوم القيامة ، وقد يكون المراد هو يوم القيامة نفسه ، وسماه قريبًا لأن كل ما هو آت قريب .

﴿يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ .. وذلك كما في قوله ﷻ : ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴾[1] .

﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا ﴾ .. حين ينظر الكافر إلى أهوال يوم القيامة .. وهو الذي خُلق من تراب .. يقول : يا ليتني لم أخلق أصلاً ولم أولد ، وظللت ترابًا كما كانت أصل خلقتي .

نسأل الله ﷻ أن يجعلنا دائمًا من المتقين ، وأن يجعل لنا مآبًا إليه ، وأن يكفينا شر أنفسنا ، وأن يكفينا شر الشيطان ، وأن يحقق لنا آمالنا أجمعين .

والحمد لله رب العالمين .

1 - سورة : آل عمران ، الآية : 30 .

علم

تفسیر جزء

سُورَةُ النَّازِعَاتِ

سُورَةُ النَّازِعَاتِ

بسم الله الرحمن الرحيم أحمدك ربي ، وأصلي وأسلم على سيدنا محمد رحمة الله للعالمين ، وخاتم الأنبياء والمرسلين ، وبعد :

فقد انتهينا في خواطرنا حول (**سورة النبأ**) إلى أن هذه السورة قدمت قسم بيان الحقيقة بالشهادة ؛ لأن الحق عرض أدلة ذلك فقال : ﴿ **أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَادًا * وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا** ﴾[1] ، إلى آخر ما قال ﷻ ..

تلك هي البينة التي تشهد لله ﷻ الذي خلق هذه الأشياء بقدرته ، وأبدعها ونظمها بحكمته ، ونسقها تنسيقًا متسقًا مؤتلفًا ، بحيث يؤدي كل جنس في الوجود مهمته على أكمل وجه ، تلك هي الشهادة على الكون لصدق الحقيقة البعثية .

بقي أن يستوعب الحق ﷻ إثبات الحقيقة بلون آخر ، وهو اليمين الحق ، حينما قال ﷻ : ﴿ **شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ** ﴾[2].. تلك هي الشهادة ، ثم بعد ذلك يثبت الحقيقة أيضا باليمين : ﴿ **فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ** ﴾[3]، إذًا فقد استوعب الحق إثبات الحقائق بالشهادة مرة وباليمين مرة أخرى .

ولقد تعرضت سورة (**النبأ**) للبيان الذي يثبت بالشهادة ، ثم جاءت بعد ذلك سورة (**النازعات**) ، أو سورة (**الساهرة**) ، أو سورة (**الطامة**) ، لكي تبدأ بالقَسَم ، وكأن سورة

---

1 - سورة : النبأ ، الآية : 6 ، 7 .

2 - سورة : آل عمران ، الآية : 18 .

3 - سورة : الذاريات ، الآية : 23 .

(**النبأ**) أدت مهمة الشهادة ، ثم جاءت **سورة** (**النازعات**) لكي تؤدي مهمة القَسَم .

ليتم إثبات حقيقة البعث بأمرين : بالشهادة في **سورة** (**النبأ**) ، وبالقَسَم في **سورة** (**النازعات**) ؛ لكي يتم استيعاب الحقيقة بهذين الركنين الأساسيين .

إن الحق ﷻ حين يقسم بقوله : ﴿ وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا * وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا * وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا * فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا * فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا * يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ * تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ﴾[1] .. يريد بذلك أيضًا إثبات حقيقة البعث .

ولكن **سورة** (**النبأ**) تعرضت لإثبات أن يوم الفصل حقيقة لا ارتياب فيها ، ولكن لم تتكلم **سورة** (**النبأ**) عن المقدمات التي تسبق ذلك البعث ، فجاءت هذه السورة .. جاءت **سورة** (**النازعات**) بعد أن أقسم الله بما أقسم به من خلقه لتثبت العلامات والأشراط التي تواكب ذلك اليوم من الانقلاب الهائل في الأرض وفي السماء .

فالمناسبة إذًا واضحة بين **سورة** (**النازعات**) وبين **سورة** (**النبأ**) ، **سورة** (**النبأ**) قالت : ﴿ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا ﴾[2] هذا خبر ، وقالت : ﴿ إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾[3] ، ثم جاءت **سورة** (**النازعات**) بعد ذلك فقالت : ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ * تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ * قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ * أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ * يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ * أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً * قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴾[4] ، فما دامت السورة قد استهلت بالقسم لتكمل إثبات الحقيقة بعنصر اليمين كما أكدته الأولى بعنصر البينة والشهادة .. فنحن أمام ظاهرة أسلوبية في القرآن ، وهي ظاهرة القسم ، والقسم هو الحلف ، ولكن الحلف هنا من الله ﷻ ، والحلف يقتضي عناصر ليتكون منها : يقتضي

---

1 - سورة : النازعات ، الآية : 1 - 7 .

2 - سورة : النبأ ، الآية : 17 .

3 - سورة : النبأ ، الآية : 40 .

4 - سورة : النازعات ، الآية : 6 - 12 .

حالفا ، ويقتضي محلوفًا عليه وهو جواب القسم ، ويقتضي صيغة للحلف ، ويقتضي سببًا موجبًا للحلف ، ويقتضي محلوفًا به .

والحالف والمقسم هنا هو الله ﷻ ، والمحلوف عليه هو إثبات يوم القيامة وما فيه من هول ، والمحلوف به هو ما يلي أداة القسم .. وهو كل ما جاء في أول السورة ، من قوله ﷻ : ﴿ وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا * وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا * وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا * فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا * فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴾ ، والمحلوف له هم الذين يكذبون بذلك اليوم ، وأما سبب الحلف فسيأتي الكلام عنه إن شاء الله .

إذا أراد إنسان أن يحلف على شيء فماذا يريد بذلك الحلف ؟! لابد أنه يريد توكيد وتوثيق المحلوف عليه كي يصدقه المخاطَب تصديقًا يذهب بأي شك فيه أو ريب ، ولكنك تلحظ أن القَسَم يأتي على لونين :

الأول : قسم يأتي على أمر وقع قبل أن يقع القسم ، كمن يقول : والله لقد فعلت كذا بالأمس ، فهذا أمر سبق القسم .

والثاني : قسم يقع على أمر يكون بعد أن يقع القسم ، كالذي يقسم ويقول : والله إني سأفعل كذا غدًا ، فهذا أمر جاء بعد القسم .

فما الفرق بين النوعين ؟!

إن أقسمت على شيء قد مضى فمعنى ذلك أنك تريد أن توثقه عند من تخبره ؛ لتذهب بشكه وارتيابه في ذلك الأمر ، ولكنك لابد أن تقسم له بشيء ، هذا الشيء الذي تقسم به لابد أن يكون معظمًا عندك ، ولابد أن يكون له قهر وسلطان ، بحيث تخافه أنت إن كذبت في قسمك به في أمر فعلته أو لم تفعله على خلاف ما تقول ، فتخاف عقوبته .

وكذلك إذا أردت أن تحلف على أمر في المستقبل ، فأنت تلزم نفسك فعل أمر ما ، وهذا الإلزام إنما يتأتى من ناحية أنك تربط ذلك بأن تقسم بشيء عظيم تخافه إن أنت لم تفعل ذلك

الأمر .

فإذا كان هذا هو شأن القسم في الخلق ، فكيف نفسر القسم بالنسبة لله ﷻ على وجه من هذين الوجهين ؟!

هل يقسم الله على شيء حدث قبل أن يقسم ؟! أو على شيء يكون بعد أن يقسم ؟! وكذلك هل يقسم بشيء عظيم ، ولهذا الشيء العظيم جبروت وقهر عليه .. بحيث يخاف إن هو كذب أو حنث في شيء أن يناله منه عقاب أو عذاب ؟! حاشا لله ، بل إن هذا محال بالنسبة لله ﷻ .

إذن : فيجب أن نبحث عن سر قسم الله ﷻ ؛ بحيث نخرجه عن طريقة قسم المخلوقين ، فأنا حين أقسم بالله على شيء فعلته أو على شيء لم أفعله ، أو على شيء سأفعله أو شيء لن أفعله .. فإنني أخاف إن أنا كذبت في يميني الأول ، أو حنثت في يميني الثاني أن يأخذني الله بذلك الكذب أو الحنث ، فينتقم مني بجبروته وسلطانه .

لكن ذلك محال بالنسبة لله ﷻ حين يقسم بأشياء من خلقه ، وما دامت الأشياء التي يقسم بها من خلقه فكيف نضع الله موضع من يخاف سطوة ذلك المخلوق لينتقم منه إذا حنث ؟!

إننا إذا أمعنَّا الفكر بدقة ؛ كي نستطيع أن نفهم مسوغ القسم من الله ببعض خلقه على شيء من الأشياء ، وكذلك باستعراض القسم في القرآن فسنجد أن القسم يتأتى بأشياء هي في نظر المخلوقين عظيمة ، وقد يفتن بها المخلوقون ؛ لما يرون فيها من المنافع ومن الأثر في حياتهم ، هذه الفتنة قد تلفتهم إلى عظمة ذاتية فيها ، فالذين يعبدون الشمس مثلاً رأوا في الشمس نفعًا ، ووجدوا فيها آثارًا تعود عليهم في حياتهم ، فعظموها تعظيمًا ذاتيًّا ولم يلتفتوا إلى أنها مخلوق من مخلوقات الله ﷻ ، فإذا ما أرادوا أن يعظموا فينبغي عليهم أن لا يعظموا المسخَّر ، بل من سخر هذا المسخَّر له .

والعقول التي تبحث في الأشياء بحثًا سببيًّا ، فترتبط بالسبب المباشر وتترك المسبِّب

افتتنت فيها ، وكذلك من قد فتنوا بالملائكة فعظموها وعبدوها .. وهكذا .

فالحق ﷻ يقسم بهذه الأشياء لينبه الأذهان حين يقسم بهذه الأشياء ؛ لأنها عظيمة عند السامعين ، فيلفت انتباههم إلى ما يكون بعدها .

ثم إذا به ﷻ حين يقسم بهذه الأشياء المعظمة عند الكثيرين من الخلق يذكر في نفس القسم ظاهرة كونية من الظواهر التي يراها الناس في ذلك المعظَّم ، ولكن بشيء يناقض الفتنة بها .. بشيء يردهم عن فتنتهم ؛ لأنه يظهر لهم فيها ظواهر التغيير والتبديل ، فمثلاً حين يسمع الناس قول الله ﷻ : ﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴾ [1] .. فإنهم يلتفتون إلى أن الشمس عظيمة وفيها منافع وضوء ودفء وحرارة .. إلى آخر هذه المنافع ؛ ولذلك قد يعظمونها ، ولكنهم حين يتمون ما أقسم الله به تكون المفاجأة ، حين يقول الله ﷻ : ﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا * وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاَهَا * وَالنَّهَارِ إِذَا جَلاَّهَا * وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴾ [2] أي : يغطيها فتزول وتختفي ، فيلفت نظر الناس إلى آية تناقض فتنتهم بها ؛ لأن الذي يأفل لا يصح أن يُعبد ؛ ولذلك قال الله ﷻ عن إبراهيم عليه السلام: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ * وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ * فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لاَ أُحِبُّ الآفِلِينَ * فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ * فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [3] .

---

1 - سورة : الشمس ، الآية : 1 .

2 - سورة : الشمس ، الآية : 1 - 4 .

3 - سورة : الأنعام ، الآية : 74 - 79 .

وكذلك حين فتن بعض الناس بالملائكة قال لهم الله ﷻ : ﴿ وَالصَّافَّاتِ صَفًّا * فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا * فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ﴾[1] ، هؤلاء هم الملائكة الذين كنتم تعبدون ، يتلون ذكرًا ويسبحون ويحمدون ، ثم يعقب فيقول : ﴿ إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ ﴾[2].

هذا نوع من أنواع القسم الذي يقسم به الله ﷻ .

وهناك أشياء يقسم بها الله ﷻ ؛ لأن مجرى الإلف والعادة جعلها أمرًا عاديًا لا يؤبه له ولا يُلتفت إليه ، فيقسم به الحق ﷻ ؛ لكي يكون القسم به لَفتة للذهن لينتبه ، فلابد وأن يكون فيها فوائد عظيمة .

إن الحق ﷻ أقسم بأشياء كثيرة ، فأقسم مثلاً بذاته وبربوبيته فقال : ﴿ وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي ﴾[3] ، ويقول أيضا : ﴿ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ﴾[4] ، ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾[5] ، ﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ ﴾[6] ،﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لاَ تُبْصِرُونَ ﴾[7] .

إذًا فالحق ﷻ يقسم مرة بذاته ، ومرة بشيء من خلقه ، أما ذاته فهي عظيمة بالاتفاق ، وأما قسمه بشيء من خلقه فقد أقسم بشيء من الجمادات ، كقوله ﷻ : ﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴾[8] ، وقوله : ﴿ وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ﴾[9] ، ويقسم أيضا بنباتات كما في

---

1 - سورة : الصافات ، الآية : 1 - 3 .
2 - سورة : الصافات ، الآية : 4 .
3 - سورة : يونس ، الآية : 53 .
4 - سورة : التغابن ، الآية : 7 .
5 - سورة : الحجر ، الآية : 92 .
6 - سورة : المعارج ، الآية : 40 .
7 - سورة : الحاقة ، الآية : 38 ، 39 .
8 - سورة : الشمس ، الآية : 1 .
9 - سورة : الضحى ، الآية : 1 ، 2 .

قوله : ﴿ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ﴾[1] ، ويقسم أيضا بالملائكة : ﴿ وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ﴾[2] ، ويقسم أيضا بأشياء أخرى ، كل ذلك لماذا ؟! ما هو المقسم عليه في كل هذه الأنواع من القسم ؟!

إنه ﷻ يقسم بها على إثبات حقيقة شيء ، فيقسم الحق ليثبت ألوهيته الواحدة : ﴿ إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ ﴾[3] ، ويقسم مرة أخرى لإثبات أن القرآن حق : ﴿ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ ﴾[4] ، ويقسم على صدق رسوله ﷺ ؛ لأنهم كانوا يكذبونه : ﴿ يس * وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ * إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾[5] ، ويقسم الحق ﷻ على أمر يتعلق بالإنسان .. ذلك الإنسان الذي يُفتن بنفسه حين يجد في نفسه قدرة أو تدبيرًا ، أو حين يجد استجابة من الأجناس التي دونه لخدمته ، فحين يفتن بذلك يظن أن له الحق في الغرور ، وأنه أصبح ذاتيًّا ، وأنه أصبح أصيلاً في الكون ، فيقسم الحق ويقول : ﴿ وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾[6] .

وتجد أن الحق ﷻ حينما يتكلم عن الإنسان مطلقًا ، فإنه يقصد الإنسان غير المقيد بمنهج السماء ، فتجد أن كل ما يأتي بعد ذلك من صفات لذلك الإنسان إنما هي من صفات الخسران والبوار .

﴿ كَلاَّ إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَى * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى ﴾[7] ، ولكننا قد نجد أناسًا اغتنوا ومع ذلك

---

1 - سورة : التين ، الآية : 1 .

2 - سورة : الصافات ، الآية : 1 .

3 - سورة : الصافات ، الآية : 4 .

4 - سورة : الذاريات ، الآية : 23 .

5 - سورة : يس ، الآية : 1 - 3 .

6 - سورة : العصر .

7 - سورة : العلق ، الآية : 6 ، 7 .

لم يطغوا ، فما الذي حماهم من الطغيان مع الغنى ؟!

إن الإنسان الذي يطغى هو ذلك الإنسان المجرد عن الارتباط بمنهج السماء ، أما الإنسان المرتبط بمنهج السماء فكلما آتاه الله غنى ذكر المعطي ، وحين يذكر المعطي يقل طغيانه وكبريائه .

كما في قوله ﷻ : ﴿ وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنْسَانَ ﴾ على إطلاقه .. البعيد عن منهج الله ﴿ لَفِي خُسْرٍ ﴾ ، فما الذي ينجيه من ذلك الخسر ؟ ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ .

وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا ﴿١﴾ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا ﴿٢﴾ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا ﴿٣﴾
فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا ﴿٤﴾ فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا ﴿٥﴾

ابتدأت هذه السورة بالقسم : ﴿ وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا * وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا * وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا * فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا * فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴾ .. قسم بأشياء ، إلا أن هذه الأشياء يكتنفها الغموض ، مما يذهب فيها الذهن مذاهب شتى .

والإبهام مقصد من مقاصد البيان ؛ لأنه لو بيَّن دائمًا لجاء الأسلوب دائمًا على وجه واحد ، ولكنه حين يبهم يذهب الفكر مذاهب شتى ؛ ليتساءل : ما هي النازعات ؟! وما هي الناشطات؟!

فيجد أن ﴿ وَالنَّازِعَاتِ ﴾ تفسر على معانٍ متعددة ، و ﴿ وَالنَّاشِطَاتِ ﴾ تفسر على معانٍ متعددة ، و ﴿ وَالسَّابِحَاتِ ﴾ تفسر على معانٍ متعددة ، و ﴿ فَالسَّابِقَاتِ ﴾ تفسر على معانٍ

متعددة ، وكلها مما يحتمله اللفظ .

إذًا .. فإذا رأيت في القرآن إبهامًا لشيء فاعلم أن ذلك الإبهام مقصد من مقاصد البيان ؛ لأن الشيء إذا بيِّن يبيَّن على وجه واحد ، والحق يريد أن يذهب فكرك فيه مذاهب شتى ، وكل مذهب فيه تجد النص يسعفه ويسنده .

لذلك نستطيع أن نقول : إن البيان يحدد ، والإبهام يعدد .

كما في قول الحق ﷻ في وصف شجرة الزقوم : ﴿ أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ * إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ * إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴾ [1] ، وشجرة الزقوم الآن في النار ، والنار لا تزال غيبًا عنا ، ونحن لم نعرفها ، ولم نؤمن بها إلا لأن الحق ﷻ قد أخبرنا بها ؛ لأننا لا نعرف شجرة الزقوم ، وما دمنا لا نعرف شجرة الزقوم فكان ينبغي أن يضرب لنا مثلها بشيء نعرفه ، وذلك شأن التشبيه في اللغة دائمًا ، فالشبيه يكون بتشبيه شيء مجهول بشيء معلوم لتقريب صورة ذلك المجهول من الذهن ، فإذا قلت لك : (زيد مثل فلان) فلابد وأن يكون فلان هذا معلومًا لك ، ويكون زيد مجهولاً .

لكن شجرة الزقوم في النار ونحن لازلنا لا نعرفها ، فلما أراد القرآن أن يشبهها لنا قال : ﴿ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴾ [2]، ونحن لم نرَ رءوس الشياطين ، فكيف يأتي تشبيه مبهم بمبهم ؟! إذا نظرت تلك النظرة الدقيقة التي ننظر بها إلى ذلك الكلام على أنه كلام الله ﷻ ، وفيه من الأسرار ما فيه ، والتي يجب على العقل أن يستنبطها ، وعلى قدر يقظة العقل يخرج منها ما يراد ، علمت أن ذلك الإبهام هو غاية البيان ؛ لأن الله لو مثَّل طلع شجرة الزقوم بشيء نعرفه ، مهما كان ذلك الشيء قبيحًا بشعًا مفزعًا مخيفًا فقد حدد القبح والبشاعة في شيء نعرفه ، والقبح والبشاعة مما تختلف فيه الأنظار ، فقد يكون الشيء بشعًا

---

1 - سورة : الصافات ، الآية : 62 ، 64 .

2 - سورة : الصافات ، الآية : 65 .

عند شخص وغير بشع عند شخص آخر ، وقد يكون الشيء جميلاً عند قوم وغير جميل عند آخرين ، فمثلاً : من علامة الجمال عند الزنوج كبر الفم وغلظ الشفاه ، بينما هذه الصفات عند آخرين من علامات القبح .

ولذلك .. فإذا أقمنا لرسامي الكاريكاتير في العالم مسابقة لرسم صورة للشيطان ، وجاء مليون رسام ، وأخذ كل واحد منهم ريشته وألوانه وأوراقه ، وظل كل واحد يتخيل البشاعة في الشيطان ليرسمها لنا ، ثم استقبلت لجنة التحكيم الرسومات المختلفة ، فلمن سوف تعطي الجائزة ؟! سوف تعطيها لأقبح صورة .

لكن إذا استعرضت الصور وقارنتها ببعضها فإنك سوف تجد صورًا مختلفة في البشاعة ، فرأى أحدهم البشاعة في أن يجعل عينيه مشقوقتين ، ورأى الآخر البشاعة في أن يجعل له قرونًا ، وجعل الآخر البشاعة في أن يجعل للشيطان عينًا واحدة .

إذًا .. فالبشاعة مما تختلف فيها الأنظار ، فلو أن الحق مثَّل طلع شجرة الزقوم بشيء بشع محدد لحدَّد البشاعة بطرف واحد ، ولكنه حين قال ﷻ : ﴿ **طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ** ﴾ .. فرءوس الشياطين يتوهمها الناس على اختلاف مذاهبهم ، كل إنسان يصفها بالبشاعة التي تفزعه هو .

﴿ **وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا** ﴾ .. وللعلماء في تفسير قول الله ﷻ : ﴿ **وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا** ﴾ أقوال كثيرة .. فما المراد بالنازعات ؟!

إن أرجح أقوال العلماء فيها أنها هي الملائكة التي تنزع أرواح الناس حين الموت ، وبخاصة أرواح الكافرين ؛ لأن الكافر حين يعالج سكرات الموت يتشبث بالحياة ، فتنتزع الملائكة منه روحه نزعًا .

﴿ **وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا** ﴾ .. والنَّشْط : هو العَقْد ، ومنه " الأنشوطة " ، وهي التي نسميها في العامية : " عقدة وشنيطة " .

والعقدة تكون لأجل أن تحزم الشيء ، ولكني أريد أن أحله فيما بعد ، فحينما أريد أن أحله أشدها كما أحل عقدة السراويل .

فكأن أرواح المؤمنين تنشط ، وأرواح الكافرين تنزع نزعًا وتقتلع اقتلاعًا .

فالملائكة حين تقبض روح الكافر يكون هناك عملية نزع ؛ لأنه متشبث بالحياة وحريص عليها ، وهذا النزع يقتضي نوع مقاومة ، فلو أن الكافر يمتلك قدرة لنازع عملية الموت ، فهو لا يحب أن تخرج روحه منه ، لكن المؤمن يريد أن تخرج روحه لأنه يستقبل الحياة الحقيقية .

إذًا : ﴿ وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا * وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ﴾ هي الملائكة تنزع الأرواح وتنشطها ، تنزع أرواح الكافرين وتنشط أرواح المؤمنين .

﴿ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ﴾ هي الملائكة تسبح في كون الله ﷻ ؛ لأن لها مهمات مكلفة بها ، كما يقول الحق ﷻ : ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾[1] .

وقيل : إن معنى الآية أنها تأخذ الأرواح وتسبح بها لترد كل روح إلى مكانها الذي أعده الله لها .

﴿ فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا ﴾ إلى تنفيذ أوامر الله ﷻ ؛ لأنهم ﴿ لاَ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾[2] .

﴿ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴾ .. كل ملك موكل بأمر يقوم به ، فهذا موكل بالوحي ، وذلك موكل بالموت ، وآخر موكل بالرزق .

فكأن الحق ﷻ أقسم بخلق من خلقه في حالات لهم شتى ليثبت أمر القيامة والبعث .

وهناك قول آخر يقول : ﴿ وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ﴾ .. هي النجوم والكواكب في أفلاكها ، وقيل كذلك : ﴿ وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ﴾ أي : الإغراق في الشيء ، بمعنى الجد والاجتهاد فيه ،

---

1 - سورة : الرعد ، الآية : 11 .

2 - سورة : التحريم ، الآية : 6 .

لأن للكواكب أفلاكًا تسبح فيها ، فهي مجددة في سبحها لا تتوانى ، وتنتقل من برج إلى برج ، وذلك كقولهم : " نزعت الخيل " .. إذا جرت .

إذًا .. فقوله : ﴿ وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ﴾ : أي الجاريات جريًا فيه جد ؛ لأن كل كوكب من الكواكب له مسار يقطعه .

﴿ وَالنَّاشِطَاتِ ﴾ .. كما يقال : " نشط الدلو " .. أي : أُخرِج من البئر ، فكأن أي كوكب من الكواكب أو أي نجم من النجوم يسير في فلكه وينتقل ويخرج من برج فيدخل إلى برج .

وقوله : ﴿ وَالسَّابِحَاتِ ﴾ ، كما يقول عنها القرآن : ﴿ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾[1] ، أي هذه المجرات تسبح وتدور في مساراتها ، كلٌّ في مساره :

﴿فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا ﴾ .. وذلك لأن الكل لا يسير بسرعة واحدة ، فكلٌّ يدور ويسير حسب محيطه ، وحسب مجاله الذي يقطعه .

إلا أن هذا التفسير قد يوجد إشكالاً ، وذلك في قوله ﷻ : ﴿ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴾ ، فهو إن كان يقسم بالنجوم ، فهل النجوم تدبر الأمور ؟!

نقول : إن التدبير يكون على عدة معانٍ ، منها أن يكون الشيء مخلوقًا ليكون سببًا في إيجاد شيء ، فالنار مثلاً سبب للإحراق ، والماء سبب للري ، فلو قيل : كيف يأتي التعبير بقوله : ﴿ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴾ في الكلام عن الكواكب ؟!

نقول : هي أسباب جعلها الله لتدبير الأشياء .

فما هي تلك الأشياء التي تدبرها الأفلاك ؟! إنها تدبر أمرين .. أمر دينك وأمر دنياك ، فإن قيل : كيف تدبر أمر دينك ؟!

نقول : أليست الشمس تبين لك اليوم تحديدًا ؟! وتبين لك السنة ؟! وأليس القمر يبين لك الشهر ؟! وتلك هي مواقيت العبادات ، فبالشمس تعرف متى تصلي الفجر قبل أن تشرق

---

1 - سورة : يس ، الآية : 40 .

الشمس ، ومتى تصلي الظهر عند الاستواء ، ومتى تصلي العصر حين يكون ظل كل شيء مثليه ، ومتى تصلي المغرب حين تغرب الشمس ، ومتى تصلي العشاء حين يغيب الشفق الأحمر ، وهكذا .

كذلك هي تدبر لك أمر الحج بمعرفة منازل القمر ، وأيضًا تدبر لك أمر إيفاء زكاتك ، وتدبر لك أمر صومك .

وكذلك هي تدبر لك أمورًا من الأمور المتعلقة بدنياك ، كيف ؟!

إن الشمس مثلاً تعطي ضوءًا فنسبح في الحياة ، وتغيب فتحل ظلامًا فننام ، وكذلك تبث حرارتها في الماء فيتبخر ، ويصعد إلى الجو فينزل المطر ، فتسقي الحرث ، وهكذا .. إذا تدبرنا في كل هذه الأسباب التي أعطانا الله ﷻ نجد أنها سبب في تدبير أمور حياتنا ، ولكن الخطأ فقط أن نقف عند السبب وننسى المسبب .

وهناك قول آخر يقول : إن المقصود **بالنازعات** هي النفوس المؤمنة أو الفئات المجاهدة ؛ لأنها (تنزع القوس) ، ومعلوم أن القوس مصنوع من غصن لين ينثني ولا ينكسر ، ومشدود بوتر وفيه سهم ، فكلما نزعت القوس والوتر وانثنى أكثر كلما كان عند تركه أقوى وأشد رميًا ، فهؤلاء المجاهدون في سبيل الله ينزعون قسيهم بإغراق ، أي إلى آخر ما يمكن أن يتحمل ثني القوس ؛ كي يكون رمي القوس أبعد .

﴿ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ﴾ .. بمجرد ما يكون النزع ويترك القوس ينشط السهم في خروجه إلى العدو ، فهذا هو معنى : ﴿ وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا * وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ﴾ .

ومعنى : ﴿ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ﴾ .. هي الخيل التي هي وسائل للغزو ، ومعنى كلمة : ﴿ سَبْحًا ﴾ : أي تجري جريًا لا اضطراب فيه ، جريًا رتيبًا لا يشعر راكبها أنها توقفت ثم سارت ، بل تسير سيرًا انسيابيًّا لا توقف فيه ولا اضطراب .

ولذلك فعندما أراد الشاعر العربي أن يمدح فرسه قال :

..... سبوح لها منها عليها شواهد

أي أنه عندما يركب فرسه لا يجري به ، بل إنه يشعره أنه يسبح ، حيث يسير على وتيرة واحدة لا يضطرب لها من يركبه .

﴿ فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا ﴾ .. أي تتسابق إلى أن تصل إلى العدو .

﴿ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴾ .. مدبرات بمعنى مخلوقة لتدبر ، أي منوط بها سبب من أسباب التدبير ، ليست هي التي تدبر .

إذًا : فحين قال الله ﷻ : ﴿ وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا * وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا * وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا * فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا * فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴾ .. بإبهامها هكذا أعطانا صورًا متعددة ؛ ليذهب فيها الفكر كل مذهب .

يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَٰرُهَا
خَٰشِعَةٌ ﴿٩﴾ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾ قَالُوا۟
تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾

إن كل قسم لابد له من جواب ، وقد أقسم الحق ﷻ بقوله : ﴿ وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا * وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا * وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا * فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا * فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴾ .. ولذلك يتطلب هذا القسم جوابًا ، فأين الجواب ؟!

الجواب هو : ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴾ ، أتى بالظرف لذلك البعث المقسم على وجوده ، وهذه هي أساليب القرآن ، فأحيانًا يجيب الحق ﷻ عن مثل هذا القسم بقوله : ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ * وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴾[1] ، وكذلك يقول : ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ * مَا لَهُ

1 - سورة : الذاريات ، الآية : 5 ، 6 .

مِنْ دَافِعٍ ﴾[1] ، وهكذا .. وأحيانًا لا يجيب عن القسم بالإجابة المتوقعة المباشرة ، وإنما يجيب بأساليب مختلفة ، ولكنها مشتركة في شيء واحد ، وهو إثبات يوم البعث .

إذًا فحين يقسم الله بأشياء ، ثم يأتي بعدها بما يمس يوم القيامة ، يكون المقسم عليه هو إثبات يوم القيامة .

فقول الحق ﷻ : ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴾ بعد قوله : ﴿ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴾ : دليل على أن هذا اليوم فيه أمر عظيم ، ذلك الأمر هو البعث ، فكأنه قال : لتبعثن ، ومتى يكون هذا البعث ؟ ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴾ .

ولكن .. نفترض أني لم أفهم السور التي قبلها ، أو كانت هذه هي أول سورة أقرأها في القرآن ، فلم أقرأ **سورة الذاريات** ، أو **المرسلات** ، أو قرأتها ولم أنتبه إليها ، فلا يتركني الله ﷻ هكذا ، بل يعطيني ما يفهمني ذلك فيقول : ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ * تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ * قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ * أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ * يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ * أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً ﴾ .

وهنا زادت هذه السورة عن **سورة النبأ** ؛ لأن **سورة النبأ** لم تتكلم إلا عن وجود ذلك اليوم ﴿ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا ﴾[2] ، ولم تتحدث عن أحداثه بشيء ، ولكن هذه السورة تكفلت بالأمور التي تحدث يوم الفصل ، الذي هو يوم الميقات .

﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ * تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ * قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ * أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ﴾ ، حال يحدث في الكون ، وحال آخر يظهر بانفعال الإنسان يوم القيامة فيه ، أما الذي يظهر في الكون فهذا هو المؤثر الأول عند حدوثه ، ثم انفعل الإنسان له فحدث ما حدث .

إذن .. ظهر هذا الانقلاب في الكون .. ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ * تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ﴾ ، هذا ما

---

1 - سورة : الطور ، الآية : 7 ، 8 .

2 - سورة : النبأ ، الآية : 17 .

حدث ، فكانت النتيجة .. ﴿ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ * أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ﴾ .

و ﴿ الرَّاجِفَةُ ﴾ فسرها الله ﷻ لنا بقوله : ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ ﴾[1] ، إذًا ﴿ الرَّاجِفَةُ ﴾ هي الأرض حين يحدث لها الاهتزاز الذي يبدلها ويغيرها .

﴿ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ﴾ والتي أردفت بها هي السماء ؛ لأن السماء خلقت بعد الأرض .

لكن .. هل الأرض راجفة أم مرجوفة ؟! إن الأرض ليست راجفة ، بل إن شيئًا ما قد رجفها ، فالأرض مرجوفة ومضطربة وليست راجفة ، ولكن هذا أسلوب من أساليب البلاغة العربية .. المجاز .. وذلك مثل قوله ﷻ : ﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴾[2] ، هل العيشة هي الراضية أم مرضي عنها ؟! إن العيشة مرضي عنها ، ولكن بلغ من رضاك عنها وحبك لها أن أصبحت ليست من جانب واحد ، ولكنها أصبحت أيضًا راضية ومتعلقة بك ؛ لأن الحب أسوأ ما يكون حينما يكون من جانب واحد فقط ، لكن إذا كان الحب متبادلاً من الطرفين فيحدث الامتزاج .

فكأن الحق ﷻ حينما يقول : ﴿ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴾ فمعناها أنه بلغ من الرضا عن العيشة أن نفس العيشة راضية عنك وتحبك ومنسجمة معك تمام الانسجام ، حتى أصبحتما كالشيء الواحد .

وكذلك في قوله ﷻ : ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴾ .. فقد بلغ من هول الموقف بعد أن أرجفت قدرةُ الله الأرضَ أن أصبحت هي في ذاتها راجفة ، فكأن الله أمدها بقوة ترجف هي نفسها ذاتيًا ، قال لها : ارجفي ، فأعطاها القوة لتكون راجفة ، إذن : فهي مرجوفة في الواقع ، ولكنها راجفة .

﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ * تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ﴾ حين يحدث في الأرض ما يحدث ، ويحدث

---

1 - سورة : المزمل ، الآية : 14 .

2 - سورة : الحاقة ، الآية : 21 .

في السماء ما يحدث ، حين تكور الأرض ويحدث فيها فتور ، وتتشقق السماء وتفتح أبوابها ، كل هذا ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ * تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ﴾ ، فإذا حدث ذلك في الكون علم الناس جميعًا ، وخاصة أولئك الذين كانوا ينكرون أن الأمر جد ، الذين كانوا يقولون : إن الدنيا هي الباقية ، وإن الناس يذهبون وغيرهم يجيئون .. كل أولئك يعلمون أن المسألة ليست كذلك ، فلقد جاءهم بوادر ما كانوا يكذبون به .

فإذا جاءهم بوادر ما كانوا به يكذبون ، وعرضت عليهم أعمالهم ومواقفهم العقدية والسلوكية ، يقولون : لقد بدأت ظواهر ما كنا نكذب به .

فقلوبهم واجفة مضطربة فزعة ؛ كل ذلك لأنها رأت بوادر ما كانوا يكذبون به ، فاستحضرت النفوس أعمالها ، فلما استحضرت أعمالها وجدت نفسها على خلاف المنهج الذي كان يجب أن يكون .

إذًا فلابد أنهم ينتظرهم مصير مؤلم ، كالذي بشرتهم به الرسل أصحاب هذه المناهج ، فلقد أصبحت المسألة حقًا واقعًا ؛ لذلك فقلوبهم .. ﴿ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ * أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ﴾ ، وجيف القلوب أمر مختفٍ عن نظر الناس ؛ لذلك فلابد أن يوجد له أمر واضح يحس لدى الناس جميعًا ، فيأتي في منفذ الأحاديث كلها وهو العين ، فالعين هي المنفذ الذي يستطيع أن يدرك كل حقيقة النفس الإنسانية ، فتستطيع من نظرة العين أن تعرف أهي نظرة محب أم نظرة مبغض ، وتستطيع من نظرة العين أن تعرف أهي نظرة إعجاب أم نظرة احتقار وتهكم ، تستطيع أن تعرف من نظرة العين كل ما تكنه النفس ؛ ولذلك يقول الحق ﷻ : ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾[1] ، حتى عندما يريد الأطباء أن يعرفوا شرايين إنسان أهي سليمة وتعمل بكفاءتها أم لا فإنهم ينظرون إلى شرايين العين ، فهي أصدق وسيلة لمعرفة حالة باقي شرايين الجسم .

---

1 - سورة : غافر ، الآية : 19 .

﴿ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ﴾ .. ذليلة .. منكسرة .. متواضعة ، بعد أن كانت أبصارًا وقحة .. مستهزئة .. منكرة ، لقد تغير الموقف وتبدل ؛ لأن الانفعال أتى من الخارج ، فأثر على القلوب ، فأفشت العين الأمر .

ونلاحظ هنا أن القرآن لم يقل : " أبصارهم خاشعة " ، بل نسب الأبصار إلى القلوب ، وهذا يعلمنا أسلوبًا جديدًا أيضًا ، وهو أن القلوب حين تضطرب وتقلق ، يسري القلق منها إلى كل جزء من أجزاء النفس ، فكأن القلب ليس وحده هو الذي وجف ، بل أصبح كل الجسم واجفًا ، فصار سمت القلوب سمتًا للأنفس والأجساد كلها ؛ لذلك قال : ﴿ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ﴾ ، فكأنهم جميعًا باضطرابهم وقلقهم أصبحت كل ذاتهم مضطربة قلقة ، وليس القلب وحده .

وفي ذلك يقول الشاعر:

خطرات ذكرك تستثير موديّ ... فأحس منها في الفؤاد دبيبا
لا عضو لي إلا وفيه صبابة ... فكأن أعضائي خُلِقن قلوبا

وإذا تساءلنا : لماذا كل هذا القسم على البعث ؟ !

والجواب : لأنهم كانوا .. ﴿ يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ * أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً * قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴾ .. هذا هو قولهم ، قالوا : ﴿ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ﴾ .. بمنتهى الإنكار والتكذيب والاستبعاد أن يبعثوا بعد موتهم .

والحافرة : أي المحفورة ، يقال : رجع فلان في حافرته ، أي عاد فيما كان عليه من الأمر ، وذلك مأخوذ من الطريق إذا حفر فيه الإنسان سردابًا يسير فيه ، أو هو الطريق الذي أخذت قدم الإنسان منه فنزلت به عن مستوى الأرض ، فكان كالقناة يسير فيها ، هذه هي الحافرة ، فكأنهم قالوا : أئنا راجعون إلى ما كنا فيه من الحياة مرة أخرى ، ثم أرادوا أن

يدللوا على قولهم هذا بقول آخر ، فقالوا : ﴿ أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً ﴾ ، أي عظامًا بالية .. تتهشم إذا لمستها يد ، أو بمعنى منخورة الجوف كأن نخاعها قد ذهب وسارت مجوفة كالأسطوانة ؛ وسميت نخرة لأن الريح حينما تضرب فيها تأتي بصوت كالنخير .

فلما رأوا أن الإنسان بعد موته يكون عظامًا نخرة استبعدوا أن يعيد الله هذه العظام ثانية .

ثم استمروا في غيهم ، وحساباتهم العقلية الفاسدة ، فقالوا : حتى وإن قدر الله على إعادتنا مرة أخرى : ﴿ قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴾ ، أي : رجعة خاسرة علينا ، أو رجعة نحن خاسرون فيها ، وأسند الحق الخسران للكرة أي للرجعة على طريقة .. ﴿ فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ ﴾[1] ، إن الذي يربح هو صاحب التجارة ، ولكن ما دامت التجارة هي الوسيلة للربح نسب الربح والخسران لها ، وكذلك نسب الخسران إلى الكرة والرجعة .

إنهم حين أرادوا أن يستوعبوا هذه القضية قاسوا على عقولهم القاصرة وقدراتهم الضعيفة ، ولم ينتبهوا إلى أنهم يجب أن ينظروا لقدرة الخالق لا المخلوق ، فلابد أن يقارن كل فعل بفاعله ، فلا تستبعد أي فعل من أي فاعل ، ولكن الاستبعاد أو عدمه يكون بالمقارنة بين الفعل وبين قدرة الفاعل ، فإذا أردتم أن تعيدوا أنفسكم فسيكون صعبًا عليكم ، لكن إذا أردنا نحن أن نعيدكم فهذه مسألة هينة علينا ، لأن فعل الله لا يتكلف الله فيه مشقة أو عسرًا .

إن المسألة لا تتطلب من الله جهدًا أو مشقة .. حاشا لله .. ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴾ ، إن قيامكم من قبوركم وبعثكم لا يتطلب منا عناءً ؛ لأننا كما بدأنا خلق كل إنسان منكم ونفخنا فيه الروح ، فإننا نعيد كل فرد كما بدأناه ، وننفخ فيه الروح كما نفخناها فيه من قبل .

يقول ﷻ : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾[2].. فمن المعلوم أن الإعادة دائمًا أهون من

---

1 - سورة : البقرة ، الآية : 16 .

2 - سورة : الروم ، الآية : 27 .

البداية ، فأنتم إذا كنتم قد آمنتم أن الله ﷻ هو الذي خلقكم من عدم ، فإن قال لكم : سوف أعيدكم من العدم .. فأيهما أهون بمقاييس العقل البشري ؟! إن الإعادة أهون من الابتداء طبعًا باعتبار أساليب البشر ، فليس هناك شيء أهون من شيء عند الله في الحقيقة ، ولكن هذا باعتبار مقاييس البشر .

﴿ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ﴾ .. يفاجؤون بعد هذه الصيحة مباشرة أنهم بالساهرة ، فما هي الساهرة ؟!

الساهرة : هي الأرض البيضاء ، وستكون أرض المحشر بلون واحد .. نقية كالفضة ؛ لأن الأرض إنما تلونت لتلون العناصر المطلوبة للحياة ، أما في الآخرة فلا احتياج لمثل هذه الأسباب .

وقيل : ﴿ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ﴾ ، أي : التي يسهر مَن عليها ؛ لأن الذي يقوم إلى ذلك الهول لا يجد النوم وإن طلبه .

هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ ٱلْـَٔايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾

انتقل القرآن بنا إلى مشهد من قصة موسى عليه السلام ، هذا المشهد يعطينا فكرة عامة عن

القصص في القرآن ، فالقصص لم يأتِ في القرآن ليعطينا تأريخًا ، وإنما يأتي بالجزء الذي يؤكد العبرة من القصة فقط .

فإن المهم من أي قصة هو الأحداث الضخام المثيرة ، الأحداث التي أوجدت عُقَدًا وفيها حلولها ، تلك هي عناصر القصة ، فالقصة حدث ، ولابد وأن يكون هذا الحدث مثيرًا ، وهو مثير لأن فيه عقدًا ، ولهذه العقد حلول ، وكلما كانت القصة مستوفية لهذه العناصر كانت مستوفية للأداء الفني ، فالحق ﷻ يأتي فقط بالجزء الذي يقتضيه المقام من القصة .

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴾ .. لا شك أنه قد أتاه وقد عرفه ، ولكن الحق ﷻ يريد أن يبرز جزءًا من قصة موسى يناسب السياق الذي جاء فيه ، سياق الحديث عن البعث وإثبات حقيقته لأولئك الكفار الذين أنكروه وكذبوا رسول الله وأعنتوه ، حتى بلغ من عنتهم له أن الحق ﷻ كان يسليه كثيرًا ، كقوله ﷻ : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ ، وكقوله : ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ ، فرسول الله ﷺ لفرط رحمته بالناس جميعًا كان يريدهم جميعًا مؤمنين مهتدين ، فلقد ذاق ﷺ حلاوة الإيمان ؛ لذلك فهو يحب أن يذوقوا جميعًا تلك الحلاوة .

فيقول الله ﷻ له : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴾ .. أي : ما لهؤلاء القوم يبالغون في عنتهم وتكذيبهم وطغيانهم ، ألم يعلموا قصة موسى مع فرعون ؟! مع أنهم لم يصلوا لما وصل إليه فرعون من الملك ، ولم يطغوا طغيانه هو ، فلقد وصل فرعون لقمة الطغيان ، فادعى أنه إله ، بل ادعى أنه هو إله العالمين الوحيد ، فقال : ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾[1] ، وادعى أنه ربهم ، بل ربهم الأعلى ، فقال : ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى ﴾[2] ، فكان طغيان فرعون أقصى من طغيان هؤلاء ، ومع ذلك ما تخلى الله ﷻ عن رسوله موسى عليه السلام في أن ينصره على

---

1 - سورة : القصص ، الآية : 38 .

2 - سورة : النازعات ، الآية : 24 .

فرعون في الدنيا قبل الآخرة .

نفهم من ذلك أنه يريد أن يبلغهم رسالة ، وهي أن لا يظنوا أن ما يخوفهم به هو عذاب القيامة فقط ، بل هناك عذاب قبل ذلك ، فلن نكذب رسلنا ، سنجعل رسلنا دائمًا صادقين ، ونجعل رسلنا دائما منتصرين .

فمهما بلغ خصومك يا **محمد** من الطغيان ومن العنت ، ومن إرهاق الفئة المؤمنة وإتعابهم ، فلينظروا إلى قصة **فرعون** .

ذلك تخويف للقوم المنكرين ، ومن ناحية أخرى فهو إيناس لقلب رسول الله ﷺ ، وهو : ﴿ **فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلاَ تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ** ﴾[1] ، وها هي الأمثلة أمامك ، هذه الأمثلة انتهت دائمًا بنصر رسل الله ، فلا يغرنك من هؤلاء المعاندين ذلك العناد والإعراض ، ولا يبلغن منك اليأس مبلغه بسبب موقفهم .

إن القرآن حينما يعرض لمثل هذا القصص يأتي بالغرض المزدوج ، أي أنه يأتي بالأمر الواحد ويجعل له مغزيين اثنين معًا ، فهي تهديد للعدو وطمأنة للرسول ﷺ في نفس الوقت ، فالآية تشمل الأمرين معًا : تهديدهم وتخويفهم من العذاب في الدنيا والآخرة ، وطمأنة النبي ﷺ بأن هناك رسولاً من قبله فعل معه قومه ذلك ، ومع ذلك نصرناه ، فالأسلوب الواحد أعطى الغرضين معًا .

ولقد جاء هذا الأسلوب في القرآن كثيرًا ، كما في قول الحق ﷻ : ﴿ **وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ** ﴾[2] ، فيرد عليهم القرآن قائلاً : لو أننا صدقناكم فيما تزعمون من أنكم تؤمنون بما أنزل إليكم وهو من التوراة فقط ، ولا تريدون أن تؤمنوا بما وراء ذلك من الكتب ، فإذا كنتم مؤمنين

---

1 - سورة : الأحقاف ، الآية : 35 .

2 - سورة : البقرة ، الآية : 91 .

بالتوراة فهاتوا لنا نصًّا من التوراة يبيح لكم أن تقتلوا أنبياءكم .. ﴿ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ .. إذًا فأنتم لم تؤمنوا أيضًا بما أنزل إليكم ، بدليل أنكم إن كنتم آمنتم بما أنزل عليكم .. ﴿ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ ، والشاهد هنا في كلمة : ﴿ فَلِمَ تَقْتُلُونَ ﴾ والتي أتت بصيغة المضارع ، مع كلمة : ﴿ مِنْ قَبْلِ ﴾ والتي تدل على الزمن الماضي ، فكأن السياق يقتضي معنى : " قتل آباؤكم الأنبياء من قبل " ، ولكن الحق ﷻ قال : ﴿ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ ﴾ ؛ لأن الخبر عن جريمة واقعة يمكن أن يُضعف تأثيرها بعد أن تثبت الجريمة في النفس ، فأراد الحق ﷻ أن يجعلنا نستحضر صورة الجريمة كاملة ، وكأننا نراهم موغلين في دم أنبيائهم ؛ لأن المجرم حين يرتكب جريمته ثم يتعرض للون من العقاب ، يكون القوم قد بدأوا في التعاطف معه ؛ لأن عملية العقاب تكون حالية على أمر قد انتهى ، ولكنهم لو استحضروا ما فعله المجرم ساعة فعلها ، ووضعوا هذه الصورة مع تلك في إطار واحد ، لهان في مرآهم ما يصيبه من عقاب .

وكذلك هم لم يقتلوا ، إنما آباؤهم هم الذين قتلوا ، ولكن هم ذرية من قتل ، والذي قتل وعاصر الأنبياء هو الذي بلغ ذلك التحريف وبلغ الأشياء إليهم ، فكأنكم جميعًا أنتم الذين قتلتم أنبياء الله .

قد يظن البعض أن كلمة : " من قبل " زائدة ، لكن إذا أمعنَّا النظر فيها نجد أنها زادت هنا فهمين : فهمًا لليهود ، وفهمًا للنور الذي جاء لرسول الله ﷺ ؛ لأنهم ما دام لهم سوابق في قتل الأنبياء ، فما الذي لا يجعل فكرة القتل تدور برءوسهم كما دارت من قبل في رءوس آبائهم فقتلوا أنبيائهم .

فالحق ﷻ أيأسهم من أن يفكروا مجرد تفكير في فكرة القتل هذه ؛ لأنه يعلم ما قلوبهم ، ويعلم ما فعله آباؤهم مع أنبيائه من قبل ، وهو ﷻ سيحمي نبيه ويعصمه منهم ، فلن يقتلوه ﷺ ، ولن يخلصوا إليه أبدًا ، ومع ذلك فقد حاولوا ولم يفلحوا .

وكذلك هو طمأنة لرسول الله ﷺ ؛ لئلا يدور في خاطره أنهم طالما أنهم قتلة الأنبياء فما الذي يمنعهم من قتله ، فتكون الطمأنة من الله ﷻ لنبيه ﷺ .

كذلك هذه القصة .. قصة موسى عليه السلام مع فرعون لعنه الله ، نجد فيها أن الله ﷻ حين أراد أن يقص القصة لم يقصها كاملة كما وردت في مواضع أخرى ، لم يقل مثلاً هنا : ﴿ فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا ﴾ [1] ، ولم يذكر قصة : ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى ﴾ [2]، ولا حتى ذكر أحداث قصته مع فرعون كما في : ﴿ اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ ﴾ [3].

ولكن الحق ﷻ قال : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى * إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِي الْمُقَدَّسِ طُوًى * اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴾ .. وبما أن فرعون قد طغى فمن الضروري أن يأتي له رسول يرده إلى منهج الله ﷻ .

و ﴿ طَغَى ﴾ أي : تجبر وزاد عن حده ؛ لذلك كان من المتوقع أن يأتيه رسول من عند الله يكون عنيفًا شديدًا كي يقابل هذا الطاغية بعنف وشدة وقوة وقهر ، لكنه قال : ﴿ فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى ﴾ ، وتأمل هذا اللين وهذه الرقة في عرض الهداية على ذلك الطاغية المتجبر ، إنه حتى لم يأمره بالانقياد لهذا الدين الذي جاءه به موسى عليه السلام ، بل إن الله ﷻ قد أمر نبيه موسى عليه السلام أن يعرض عليه ذلك الأمر ؛ لأن الله ﷻ يراعي أن فرعون الذي طغى وادعى الألوهية على قومه لم يَعرف ولم تَعْتَدْ أُذُنهُ أمرًا من أحد ، فهو دائمًا آمر ، فإذا فاجأه أحد بخطاب فيه نوع أمر فسيكون ذلك الأمر داعيًا لصده عن سبيل الله .

فالحق ﷻ بعد كلمة : ﴿ طَغَى ﴾ المناسبة للشدة ، أنزل الخطاب من الطغيان إلى القول

---

1 - سورة : القصص ، الآية : 29 .

2 - سورة : طه ، الآية : 17 .

3 - سورة : القصص ، الآية : 32 .

اللين والرفق في العرض ، كما جاء في موضع آخر : ﴿ فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَيِّنًا ﴾[1] ؛ لأنه اعتاد الطاعة والخضوع من الناس ، فينبغي أن تدخل له من الطريق اللين .

هذه هي الدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، إننا لا نريد أن نعاقب ، بل نريد أن نهدي .

﴿ فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى ﴾ ، هل لك إلى أن تتطهر من رجس ما أنت فيه ومن دعوى الألوهية ، ومن طغيانك وتعذيبك لبني إسرائيل ، ومن تقتيل الأبناء واستحياء النساء ، تتزكى من كل هذا ، ﴿ هَلْ لَكَ ﴾ استفهام للعرض ، ﴿ إِلَى أَنْ تَزَكَّى ﴾ أي : هل ترغب في أن تتزكى وأن تتطهر ؟

﴿ وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ ﴾ ؛ لأنك ضللت طريقَ الربوبية ، وما دمت تدعي أنك رب فأنت تمهد للناس طريقهم إليك ، وما دمت تمهد لهم طريقك فأنت في ضلال عن طريق ربك أنت ، فأنا أريد أن أهديك إلى ربك أنت ، فأنت تجعل نفسك ربًّا لهؤلاء الناس ، وأنا أريد أن أهديك إلى ربك ﷻ .

﴿ وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى ﴾ .. فكأن الخشية المطلوبة لا تتأتى إلا بعد الهداية ؛ لأنه إذا هداه إلى ربه ثم علم عظمة ربه فإنه يقينًا سيعلم قدرة ربه ويعلم رحمة ربه ، وحينئذٍ لابد وأنه سيستصغر نفسه ويستقلها ويعتبر أن الذي فات من عمره ما هو إلا نزوة يجب عليه أن يرجع عنها ويتوب ويتطهر منها .

إن الإنسان يخشى الله ﷻ إذا علم عظمته ، وزادت عظمه الله ﷻ في نفسه ، وقد تذهب خشية الله من نفس بالكلية إذا لم يعلم قدر الله ولا قدر عظمته ﷻ ، كما يقول الله ﷻ : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾[2] .

---

1 - سورة : طه ، الآية : 44 .

2 - سورة : فاطر ، الآية : 28 .

﴿ فَأَرَاهُ الآيَةَ الْكُبْرَى ﴾ التي هي آية العصا ، ومعنى ذلك أنه كَذَّبَ ؛ فإن أحدًا لا يريد آية على صدق محدثه إلا إذا كان قد أعرض عن مجرد العرض وعن مجرد الكلام ، وأحوجه في دعواه إلى بينة .. فماذا كان بعدما رأى تلك الآية الكبرى ؟! هل آمن وعلم أنها من عند الله ﷻ كما هو المتوقع ممن يرى مثل هذه الآية ، كلا ، لقد كانت النتيجة ..

﴿ فَكَذَّبَ وَعَصَى ﴾ ، ولم يكتفِ بذلك التكذيب والعصيان ، بل زاد على ذلك ..

﴿ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى ﴾ ، فهل أدبر يسعى خوفًا من الآية التي هي الحية ؟! كلا ، بل إنه أدبر يسعى ليدبر المكيدة بجمع السحرة ، ومحاربة **موسى** عليه السلام بكل وسيلة .

﴿ فَحَشَرَ فَنَادَى ﴾ .. حشر أي : جمع .. جمع كل سحار عليم ؛ لينشئوا مبارزة مع **موسى** عليه السلام .

﴿ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى ﴾ .. فيكون **فرعون** قد أذنب ذنبين : أذنب أولاً ذنبًا في حق الرسول ﴿ فَكَذَّبَ وَعَصَى ﴾ ، ثم بعد ذلك اجترأ على مقام الألوهية نفسه ، ﴿ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى ﴾ ، فلم يكتفِ بمجرد التكذيب ، ولكنه جمع مع التكذيب بالرسول التطاول على مقام الألوهية .

﴿ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الآخِرَةِ وَالأُولَى ﴾ .. نَكَالَ أي : عقوبة وجزاء ، وبما أن **فرعون** لعنه الله أذنب ذنبين ، فلابد وأن يعاقب بعقابين ، فكان عقابه أن جمع الله ﷻ له بين عقوبتي الآخرة والأولى .

ولكننا نجد أن الله ﷻ قد ذكر الآخرة قبل الأولى ؛ لأن هذه هي قمة الكفر ، أن يدعي إنسان الألوهية ؛ لذلك قال الله ﷻ : ﴿ نَكَالَ الآخِرَةِ ﴾ .. يعني جزاء الزلَّة الآخرة التي هي قوله ﷻ : ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى ﴾ ، ولم يغفر له الزلة الأولى ، فلم تتداخل الجرائم ، بل هو معاقب على الأولى أيضًا ، وكان جزاء الآخرة هو النار ، وجزاء الأولى هو العذاب الأدنى .. كما قال ﷻ : ﴿ وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ * النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا

وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾[1].

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى ﴾ أي : في ذلك المشهد من القصة عبرة لمن يخشى ، وهنا رجع القرآن إلى ما كان يتكلم عنه ، وهو أمر قريش ، أي : يا من كفرتم **بمحمد** وكذبتموه ، وادعيتم أن القرآن سحر .. خذوا عبرة لكم من هذه القصة الواقعة ، فلقد كان **فرعون** أشد منكم قوة وحضارة ومدنية ، وبالرغم من ذلك ، فقد أغرقناه وجنوده في اليم .

فلا تصادروا دعوة **محمد** ؛ لأنكم إما أن تؤمنوا ، أو يأخذكم الله كما أخذ **فرعون** وقومه .

﴿ لَعِبْرَةً ﴾ أي : نصيحة وذكرى واعتبار ، ﴿ لِمَنْ يَخْشَى ﴾ أي : لمن يخاف العواقب ، ويجعل لنفسه الآن عبرة بما حدث في أمم قبله من المكذبين بالرسل .

ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا
وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾
وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾

﴿ أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ ﴾ .. يعود بنا القرآن ليؤكد أمر البعث مرة أخرى ، فمن المعلوم أنه لا يمكن أن يُطرح سؤال لمعاند إلا إذا كان السائل على يقين بأن الجواب سيكون في صفه ، لا يمكن أن يطرح سائل هذا السؤال إلا إذا كان واثقًا من أن المجيب لن يقول إلا : " السماء أشد خلقًا " .

﴿ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ﴾ **السمك** : هو البعد في ارتفاعه ، أي : رفعها رفعًا عاليًا .

﴿ فَسَوَّاهَا ﴾ أي : فسواها تسوية بحيث لا تستطيع أن تدرك الفواصل بين لبنات بنائها ،

---

1 - سورة : غافر ، الآية : 45 ، 46 .

ومعلوم أن البناء عادة هو ضم شيء إلى شيء بواسطة تضم بعضه البعض ، ومعلوم أنه مهما بلغت الدقة في الشيء المبني فلابد من فروق وفتوق تكون بين ثنايا ذلك الشيء المبني ، لكن التحدي حين تجد أنها مبنية بناء محكمًا مستويًا لا فروق أو رتوق فيه .

فالله ﷻ يوجه البشر إلى النظر إلى قدرته العجيبة في الكون ، من خلق السماء ، ورفع سمكها ، ومن تسويتها ، ومن دحو الأرض ، ومن إيجاد ما تتطلبه الحياة على وجه الأرض ليضمن لكم بقاء حياتكم .

﴿ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴾ أي : جعل لكم في الزمان خِلْفة ، فلم يجعله ليلاً مظلمًا دائمًا ، ولا نهارًا مضيئًا دائمًا ، فالظلمة الدائمة لا تصلح ، والنور الدائم لا يصلح ؛ لأن حياتكم تقتضي وجود هذين اللونين المتكاملين من الضوء والظلمة ، فذلك هو التكامل لا التضارب .

﴿ وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴾ .. وهنا قد يرد سؤال ، وهو ما المقصود بكلمة : ﴿ بَعْدَ ﴾ في قول الحق ﷻ : ﴿ وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴾ ؟!

إن هناك فرقًا بين بعدية الحدث وبعدية الذكر ، فبعدية الحدث هي أن تذكر حدثًا أولاً ثم تذكر حدثًا وقع في زمان بعد زمن الحدث الأول ، أما بعدية الذكر فلا تقتضي أن يكون زمن الحدث الثاني حاصلاً بعد زمن الحدث الأول .

لكن هذه البعدية الذكرية لا تكون إلا في الامتنان ، كأن تكرم أحدًا أو تصنع له جميلاً مرة ، ثم بعد ذلك أرسلت إليه بهدية بعد تلك المرة ، فإذا ما أردت أن تذكر ذلك في موضع الامتنان فليس من الضروري أن تذكرهما بالترتيب ، ولكن لك أن تذكر الجميل أولاً ثم تعقب بذكر الهدية ، أو أن تذكر الهدية أولاً معقبًا إياها بذكر الجميل الأول .

فكأن الحق ﷻ لفتنا أولاً إلى القمة العالية ، وهي السماء ، ثم تكلم بعد ذلك عن الأرض ، وهذا لا يعني أن حدث الأرض كان بعد حدث السماء .

وقد يقال : إن خلق الأرض قد أخذ طورين : الطور الأول أنه خلق مادتها ، ثم بعد ذلك خلق مادة السماء ، ثم عاد إلى الأرض بعد ذلك فدحاها ، وهذا هو الطور الثاني من أطوار خلق الأرض ، ودحاها أي : بسطها وجعلها مهيأة لحياة الإنسان عليها .

﴿ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴾ .. وهذه هي أهم عملية لإبقاء الحياة .

﴿ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴾ .. أي أثبتها على سطح الأرض لتثبت الأرض ولا تميد بأهلها .

﴿ مَتَاعًا لَكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ ﴾ .. وتلك هي اللفتة التي يجب أن نتنبه إليها هنا ، وهي أن قول الحق ﷻ : ﴿ مَتَاعًا لَكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ ﴾ جاء بعد .. ﴿ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا * وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴾ ، فإرساء الجبال وإنبات الأرض وإخراج المرعى ووجود الجبال في ذلك متاع لنا ولأنعامنا .

وفي ذلك يخبرنا علماء الطبيعة بأن تلك الجبال تؤثر فيها عوامل التعرية فتؤدي إلى شيء من التفتت الصخري ، ثم بعد ذلك يسقط عليها المطر فيجرف هذه الأجزاء المفتتة ويجعلها تنزل على الأرض ، فيتكون ما يُسمى بالغرين ، تلك المادة التي تنجرف إلى الوديان ، فتكون بإذن الله سببًا لخصوبة الأرض ، فكأن هذه الجبال الصماء هي مخازن الأقوات .

أما إذا لم يحدث ذلك ، أو منعنا وصول ذلك الغرين إلى الأرض فإنها تقوم بإخراج هذه العناصر من نفسها على سطحها ، وبالتالي تفقد عناصرها شيئًا فشيئًا ، وهذا هو ما حدث في مصر عندما قلَّت مياه السد العالي ولم يعد النيل يحمل الغرين والطمي الذي كان يجرفه من جبال الحبشة ، كي يكسو أرض مصر والوادي كله بطبقة خصبة ، تجدد خصوبة الأرض كل سنة .

هذه هي العلاقة في قوله ﷻ : ﴿ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا * وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا * مَتَاعًا لَكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ ﴾ .

فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾

يرجع الحديث مرة أخرى لتلك القضية التي يؤكد عليها مرارًا ، وهي قضية البعث ؛ لأن قضية البعث إذا اتضحت في ذهن الإنسان فلابد أن يؤمن بالله ﷻ وبرسوله ﷺ ، ولابد من أن يقبل ذلك المنهج الرباني ويُقبل عليه بكل كيانه ، إن لم يكن رهبًا من ذات الله ، فرهبًا من ذلك اليوم .

﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ ﴾ .. والطامة هي الحدث الضخم المروع المهول الذي ينسي الإنسان كل حدث قبله ، فهذا طَمَّ على ذاك ، أي : هذا أنسى ذاك وهوَّنه بالنسبة إليه .

﴿ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الإِنْسَانُ مَا سَعَى ﴾ .. ساعة أن يأتيه هذا الحدث المفاجئ الذي لم يكن ينتظره ، إذا به يستعرض ذكريات حياته كلها ، يقول يومها : هذا هو اليوم الذي كنت أكذِّب به ، فدعاني التكذيب به إلى تكذيب الرسل ، وتكذيب وجود الإله ، وأداني إلى الإسراف في الطغيان .

ولِمَ لا يكذب نفسه ؟! وقد تأكد أنه أمام حدث سيقطع عليه كل شهوة ، وسيستقبل فيه عقاب ما قدمت يداه .. ﴿ أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ ﴾ ، فلما نسوه جاءهم هذا اليوم ..

﴿ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الإِنْسَانُ مَا سَعَى * وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى ﴾ .. **برزت** : أي أصبحت الجحيم التي كانوا يكذبون بها ، ولا يصدقون إخبار الرسل عنها ، أصبحت بارزة للعيان ، برزت الجحيم لكل من تتأتى منه الرؤية ، فكل من عنده رؤية يلزم أن يراها .

﴿ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ ﴾ .. ومعنى ذلك أنها ستظهر للبر والفاجر ، والمؤمن والكافر ، والتقي والعاصي .

﴿ لِمَنْ يَرَى ﴾ أي : لكل الناس حينذاك ؛ لأنه فسرها ﷻ في آية أخرى فقال : ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ﴾[1] ، فإن المؤمن يتنعم بالنعيم مرتين : مرة حين يرى عذابًا نجاه الله منه ، ومرة حين يرى نعيمًا ينعمه الله به .

﴿ فَأَمَّا مَنْ طَغَى * وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾ وصفان : ﴿ طَغَى ﴾ و ﴿ آثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ ، وبعدها جاء وصفان آخران : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ * وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾ ، فهنا تقابل بين ﴿ طَغَى ﴾ و ﴿ آثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ ، فطبيعي أن ﴿ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾ ، وبين ﴿ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ * وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ﴾ ، فطبيعي كذلك أن ﴿ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾ ، ويلاحظ هنا أن التقابل في غاية الانسجام ؛ لأن الطغيان هو تجاوز الحد ، وتجاوز الحد ينشأ من فساد القوى العقلية ؛ لأن الإنسان حين يتجاوز حده ويطغى ويظلم ويتعالى ويتكبر فإن هذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن عقله غير سليم ؛ لأن الإنسان لا يطغى بقوته إلا على ضعيف ، ومعنى طغيانه على الضعيف هو أن تفكيره غير سليم من جهتين ..

الأولى : أنه ظن أنه هو القوي ولا قوي فوقه ، في حين أنه لو علم أن قويًّا فوقه ما كان تكبر ولا تجبر ..

والثانية: أنه ظن أن قوته هذه قوة ذاتية فيه ، لا تضعف ولا تتغير ، في حين أنه لو علم أنها تتغير لما تكبر ولا تجبر .

إذًا فالطغيان نتيجة استشعار الإنسان دائمًا أن لا يوجد مثله في المحيط الموجود فيه ، فيجعله ذلك لا يستحضر خشية الله أمامه ؛ لأنه لو استحضر عظمة ربه لتضاءل بكل عظمته

---

1 - سورة : مريم، الآية : 71 .

أمام ربه ﷻ ، وما دام يتضاءل بكل عظمته أمام ربه فلا يطرق الكبر بابه .

﴿ فَأَمَّا مَنْ طَغَى ﴾ وهذا دليل فساد القوة العاقلة ، ﴿ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ .. فهو عنده خياران : عاجلة فانية بزخرفها ، وآجلة باقية بنعيمها ، وهو يقول : أنا أريد العاجلة ، فهذا آثر الحياة الدنيا ، وأعطى نفسه شهواتها كلها ، وهذه هي القوة الفعالة .

إذًا .. فهنا عنصران اثنان : فساد القوة العاقلة في قوله ﷻ : ﴿ طَغَى ﴾ ، وفساد القوة الفعالة في قوله ﷻ : ﴿ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ ، ثم جاء بالمقابل لـ ﴿ طَغَى ﴾ بقوله ﷻ : ﴿ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ ﴾ ، والثانية : ﴿ آثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ ، ومقابلها : ﴿ نَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ﴾ ، فكان من الطبيعي بعد أن ذكر المقابل هنا في الدنيا أن يذكر المقابل هناك في الآخرة ، وهو الجزاء ، فقال عن الأول : ﴿ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾ ، ومقابله : ﴿ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾ .

يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾
إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴾ .. يعود فيستأنف ذكر استهزائهم تعجيبًا منهم فقال : ﴿ يَسْأَلُونَكَ ﴾ .. أي : قريش على سبيل التجديد والاستمرار سؤال استهزاء وإنكار واستبعاد ، ﴿ عَنِ السَّاعَةِ ﴾ .. أي : البعث الآخر ؛ وذلك لكثرة ما تتوعدهم بها عن أمرنا .

ولما كان السؤال عنها مبهمًا بينه بقوله : ﴿ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴾ أي : في أي وقتٍ إرساؤها ، أي وقوعها ، أو ثباتها واستقرارها .

﴿ فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا ﴾ .. ولما كان إيراد هذا الرد هكذا مفهمًا للإنكار عليهم في هذا

السؤال ، وكان من المعلوم أنه يقول : إنهم ليسألونني وربما تحركت نفسه الشريفة ﷺ إلى إجابتهم لحرصه على إسلامهم شفقة عليهم ، فرده عن ذلك وصرح بالإنكار بقوله : ﴿ فِيمَ ﴾ .. أي في أي شيء ﴿ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا ﴾ .. أي ذكرها العظيم ؛ لتعرفها وتبين وقتها لهم ؛ حرصًا على إسلامهم ، وعلمها لا يفيدهم شيئًا ليؤمنوا بها .

﴿ إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا ﴾ .. ثم عَرَّفها بما لا يمكن المزيد عليه مما أفادته الجملة التي قبل ، من أنه لا يمكن علمها لغيره ﷻ فقال : ﴿ إِلَى رَبِّكَ ﴾ أي المحسن إليك وحده ﴿ مُنْتَهَاهَا ﴾ أي منتهى علمها وجميع أمرها .

﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا ﴾ .. ولما كان غاية أمرهم أنهم يقولون : إنه متقول من عند نفسه ، قلب عليهم الأمر فقال : ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ ﴾ أي يا أشرف المرسلين ﴿ مُنْذِرُ ﴾ أي مخوف على سبيل الحتم الذي لا بد منه مع علمك بما تخوف به العلم الذي لا مرية فيه ﴿ مَنْ يَخْشَاهَا ﴾ أي فيه أهلية أن يخافها خوفًا عظيمًا فيعمل لها لعلمه بإتيانها لا محالة ، وعلمه بموته لا محالة ، وعلمه بأن كل ما تحقق وقوعه فهو قريب ، وذلك لا يناسب تعيين وقتها فإن من فيه أهلية الخشية لا يزيده إبهامها إلا خشية ، وغيره لا يزيده ذلك إلا اجتراء وإجرامًا ، فما أرسلناك إلا للإنذار بها لا للإعلام بوقتها ، فإن النافع الأول دون الثاني ، ولست في شيء مما يصفونك به كذبًا منهم ؛ لأنا ما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين ، ولا أنت مبعوث لتحرير وقت الساعة وعلم عينه ، وإنما قصره على من يخشى لأن غيره لا ينتفع بإنذاره ، فكان كأنه لم يحصل له الإنذار ، ولهذا المعنى أضاف إشارة إلى أنه عريق في إنذار من يخشى ، وأما غيره فهو منذر له في الجملة أي يحصل له صورة الإنذار لأنه منذره بمعنى أنه لا يحصل له معنى الإنذار .

﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴾ .. ولما أثبت أنه منذر ، وكان أخوف الإنذار الإسراع ، قال مستأنفًا محقرًا لهم الدنيا مزهدًا لهم فيها : ﴿ كَأَنَّهُمْ ﴾ أي

هؤلاء المنكرين لصحة الإنذار بها ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَهَا ﴾ أي يعلمون قيامها علمًا هو كالرؤية ، ويرون ما يحدث فيها بعد سماع الصيحة وقيامهم من القبور من علمهم بما مر من زمانهم وما يأتي منه ﴿ لَمْ يَلْبَثُوا ﴾ أي في الدنيا وفي القبور ﴿ إِلاَّ عَشِيَّةً ﴾ أي من الزوال إلى غروب الشمس ، ولما كانوا على غير ثقة من شيء مما يقولونه قال : ﴿ أَوْ ضُحَاهَا ﴾ أي ضحى عشية من العشايا ، وهو البكرة إلى الزوال ، والعشية ما بعد ذلك ، أضيف إليها الضحى لأنه من النهار ، والإضافة تحصل بأدنى ملابسة ، وهي هنا كونهما من نهار واحد ، فالمراد ساعة من نهار أوله أو آخره ، لم يستكملوا نهارًا تامًّا ، ولم يجمعوا بين طرفيه .

نسأل الله ﷻ أن يجعلنا دائمًا من المصدقين بالساعة ، وأن يكفينا شر أنفسنا ، وأن يكفينا شر الشيطان ، وأن يحقق لنا آمالنا أجمعين . .

والحمد لله رب العالمين . .

علم

تفسیر جزء

سُورَةُ عَبَسَ

سورة عبس

بسم الله الرحمن الرحيم أحمدك ربي ، وأصلي وأسلم على سيدنا محمد رحمة الله للعالمين ، وخاتم الأنبياء والمرسلين ، وبعد :

نحن الآن بصدد الحديث عن **سورة (عبس)** ، **وسورة (عبس)** وردت في المصحف الشريف بعد **سورة (النازعات)** مباشرة ، والمناسبة التي تربط بين السورتين مناسبة وثيقة ، فإن آخر **سورة (النازعات)** كان عن الساعة وعن سؤال الكفار لرسول الله ﷺ : ﴿ **أَيَّانَ مُرْسَاهَا** ﴾[1] ، ثم الرد من الحق ﷻ : ﴿ **إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا** ﴾[2] ، فإذا نظرنا إلى قول الحق ﷻ : ﴿ **إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا** ﴾ وجدنا مقابلاً لذلك أن من لا يخشاها لا ينفعه إنذار .

فكأننا بصدد قضيتين : قضية من ينفعه إنذار النبي ﷺ ، وقضية من لا ينفعه الإنذار ، فجاءت **سورة (عبس)** وتعرضت للفريقين .

إن القرآن كلام الله ﷻ ، وتوجيهه إنما هو إلى عباده الذين آمنوا به ، وإن كان هو كمعجزة تدعو إلى الإيمان برسول الله ﷺ المبلغ عن الله ﷻ ، فهو كمعجزة حجة ، ولكنه ككتاب منهج لا يتقبله إلا من يقبل هذه الحجة ، ويؤمن بالله ﷻ ، فليس معنى أن هذا القرآن من عند الله ﷻ أن يتلقى الناس ما فيه من عظة ومن حكمة ومن اعتبار بمجرد أن يسمعوه ؛ لأن ذلك راجع إلى القابل نفسه .

وكما هو معلوم أن الفاعل قد يكون واحدًا ، وقد يكون فعله واحدًا ، ولكن أثره في القابل

---

1 - سورة : النازعات ، الآية : 42 .

2 - سورة : النازعات ، الآية : 43 .

يختلف باختلاف ذلك القابل .

يشرح القرآن هذه القضية في قوله ﷻ : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلاَ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴾[1] ، فاختلاف أثره يكون باختلاف القابل له : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا ﴾[2] ، وكأنهم لم يلتفتوا إلى العجيب في القرآن ؛ لأن القابلية فيهم مفقودة ، فليست المسألة في طبيعة القرآن ، ولكن في طبيعة من تلقى هذا القرآن .

إذن فقول الحق ﷻ : ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا ﴾[3] أي : لا ينفع إنذارك من لم يخشَ الساعة ، وليس ذلك لفساد في المنذِر ولا في المنذَر به ، ولكن الفساد في من يتلقى الإنذار .

لذلك جاء عرض هذه القضية بالتفصيل في **سورة** (**عبس**) .

ومن أسماء **سورة عبس** (**سورة الصاخة**) ؛ لأن هذا هو اللفظ المخوف به في السورة ، وبعض الناس يسمونها (**سورة الأعمى**) ؛ لأن مناسبة نزول هذه السورة كان هو قصة **عبد الله بن أم مكتوم** رضي الله عنه .

وتتعرض (**سورة عبس**) كذلك إلى عدة أمور بخلاف قصة **ابن أم مكتوم** : أولها هو هذه القصة ، والقصة واقع ، ودائمًا ما يكون الواقع هو منطلق تثبيت العقائد في النفوس ، فالعقائد والأحكام لا تأتي غالبًا من أوامر نظرية تصب صبًّا ، ولكن حين تحدث في الأرض حادثة تتطلب حكمًا من الذي في السماء ﷻ ، فينزل الحكم مع تلك الحادثة التي مسَّت كيان الواقع ، فترتبط المبادئ التي تنزل في الحادثة الواقعة بنفس تلك الواقعة ، وما دام الواقع لا

---

1 - سورة : فصلت ، الآية : 44 .

2 - سورة : محمد ، الآية : 16 .

3 - سورة : النازعات ، الآية : 43 .

يغيب أبدًا عن الذهن ، فتظل بالتالي العقائد التي جاءت من أجل هذه القصة ثابتة في النفس ؛ ولذلك نزل القرآن منجمًا مفرقًا ، كما قال الله ﷻ : ﴿ **كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً** ﴾ [1] ، فلقد كان النبي ﷺ متعرضًا في مدة دعوته لأشياء كثيرة ، كل شيء منها يحتاج إلى تثبيت جديد من السماء ، فلو أن القرآن نزل جملة واحدة لكان له تثبيت واحد ، ولكن كلما حدثت حادثة قد تزعزع شيئًا في نفس النبي ﷺ أو في نفوس أصحابه نزل نجم من القرآن ، وكان كل نجم ينزل يستقبله المسلمون فيحفظونه ويتدبرون معانيه ، فإذا ما فرغوا من ذلك النجم ، وقد تفتر هممهم وعزائمهم – كحال جميع البشر – ينزل نجم آخر .. وهكذا .

وهناك فائدة أخرى نجدها في ذلك التعقيب القرآني ، حيث يقول الله ﷻ : ﴿ **وَلاَ يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا** ﴾ [2] ، أي إذا كانوا لم يقترحوا شيئًا جديدًا بعد ، ولم يتكلموا عن شيء كي نأتي لكم بالحكم ، ولكن لو أنهم تكلموا أو اقترحوا فسنأتي بالرد عليه وأحسن منه تفسيرًا ، فإذا كان القرآن قد نزل جملة واحدة فكيف يُفسح لهم المجال للاقتراح ؟!

قصة هذه السورة عبارة عن حادثة حدثت ، أبطالها رسول الله ﷺ **وابن أم مكتوم** رضي الله عنه وصناديد قريش ، هؤلاء هم أبطال القصة .

وكان **ابن أم مكتوم** رضي الله عنه أعمى ، وكانت له مكانة عند **خديجة** رضوان الله عليها ، فلقد كان ابن خالتها رضوان الله عليهما ، وذات يوم جاء إلى رسول الله ﷺ يطلب منه معرفة المزيد من أحكام الله ﷻ ، وهذا دليل على أنه مقبل على الإسلام ليتعلمه إقبال عاشق ، ولكن رسول الله ﷺ كان مشغولاً بدعوة صناديد قريش ، **شيبة وعتبة** ابني **ربيعة والوليد بن المغيرة وأمية بن خلف وأبو جهل بن هشام** ، ومعهم **العباس بن عبد المطلب** رضي الله عنه ، وكان آنذاك

---

1 – سورة : الفرقان ، الآية : 32 .

2 – سورة : الفرقان ، الآية : 33 .

مشركًا لم يسلم بعد .

ولقد كان الرسول ﷺ يتمنى أن يسلموا ويهتدوا إلى الإيمان ، فمن الممكن أن يفادي الإسلام من شرهم ، أو على الأقل أن يكفوا عن إيذائهم لضعفاء المسلمين ، وثانيًا : قد يستطيع الخائف من إعلان إسلامه أن يعلنه ، وثالثًا : سوف تصير القوة التي ضده معه .

هذه جميعًا هي أهداف جهاد النبي **محمد** ﷺ ، فهل هذا الاجتهاد من رسول الله ﷺ لصالح الدعوة أم ليس لصالحها ؟! وهل كان عمله هذا واحتياله في إقناعهم يكلفه مشقة أم لم يكن يكلفه مشقة ؟!

قطعًا كان كل ذلك لصالح الدعوة ، وقطعًا كان يكلفه من المشقة والعنت ما يكلفه ، فحين يعاتبه الله ﷻ على تصرف تصرفه في تلك اللحظات فلا يجب أن يُفهم أنه يعاتبه على أنه مقصر ، بل يعاتبه لأنه حمَّل نفسه من المشقة فوق ما تتطلبه الرسالة ، أو فوق ما يطيق ، فهذا العتب لصالح رسول الله ﷺ لا عليه .

أما السورة فقد أتت بكل المقومات التي ذكرناها آنفًا ، ذكرت القصة ، ثم عقبت بعدها بالحكم الذي يبين الحق في هذا التصرف ، ثم أعلنت المبدأ الذي يجب أن يسير عليه منهج الدعوة ، ثم بينت حيثيات ذلك المنهج ، ثم التفتت إلى الإنسان الذي جاء إليه ذلك المنهج ودعت عليه دعوة : ﴿ قُتِلَ الإِنْسَانُ ﴾ والدعاء بـ ﴿ قُتِلَ ﴾ هو منتهى ما يصيب من الشر ، وبينت العجب من كفره ، وبعد ذلك ذكرت الأشياء التي كان يجب أن تؤديه إلى الإيمان ، لا أن تؤديه إلى الكفر ، فذكر أصل خلقته ومن أين جاء ، وذكر إمداد القيومية له بما أمده الله فيه من رزق في الأرض ، ثم بعد ذلك عقب أخيرًا بأن الذي لم يحمد الله ويؤمن به لأنه خلقه من كذا ورزقه بكذا ، فيجب عليه أن يؤمن به خوفًا من أنه سيعود إليه ، فمن لم يأتِ رغبًا فليأتِ على الأقل رهبًا ، فسوف تأتي صاخة ، ومعنى الصاخة أن من لم يكن يسمع من قبل فسيسمعها ، ومن كان غافلاً تشغله غفلته فلم يعد هناك غفلة ؛ لأنها صاخة تصخ أذنه .

وبعد ذلك يعطينا نتيجة ذلك ، يعطينا الوجوه المسفرة الضاحكة المستبشرة ، والوجوه التي عليها غبرة ترهقها قترة أولئك هم الكفرة الفجرة .

عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخۡشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى ﴾ .. نرى هنا أن العبارة جاءت بضمير الغائب ، لا بضمير المخاطب ، فلم يقل : عبستَ وتوليتَ ؛ حتى لا يعرضه إلى المواجهة بضمير الخطاب في العبارة ، حتى نفهم أن الله ﷻ يعرض لنا صورة من إخلاص نبيه ﷺ في الدعوة ، كأنه يقول لنا : يا أمة محمد ، انظروا كيف كان رسولكم ﷺ يغار على هذه الدعوة ، فهو عبس في الطريق الميسر السهل ، ويريد أن يذهب للطريق الصعب ، بدليل أنه جاء بعدها : ﴿ أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى * فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى ﴾ ، والتصدي يحتاج إلى مجهود وقوة مقاومة .

فالحق ﷻ تلطف مع رسوله ﷺ تلطفًا كبيرًا ، حتى في أسلوب الخطاب .

والعبوس : هو تقطيب الوجه ، وتقطيب الوجه ليست عملية عقلية ، بل هي عملية غريزية ، فلا يستطيع أحد أن يقول : والله سأقطب وجهي وأعبس عندما يأتي فلان ، فهي لا تُسْتَدعى ، بل تُفْرَض .

﴿ أَنْ جَاءَهُ الأَعْمَى ﴾ .. ويلاحظ أن القرآن حين أراد أن يذكر ابن أم مكتوم لم يأتِ بغير كلمة " الأعمى " ، مع أنها صفة من الممكن أن يتأذى صاحبها منها ، ولكن القرآن حرص

على أن يأتي بـها ؛ لأنه يريد أن يقـول لنا : إن الظروف كلها كانت مواتية لأن ينتبـه له الرسـول ﷺ وألا يعرض عنه ، فهو مع أنه " أعمى " إلا أنه قـد .. ﴿ جَاءَكَ يَسْعَى ﴾ .. أي يسرع ، ومعنى ذلك أنه راغب في معرفة منهج السماء ، وأراد أن يعلمه الرسـول ﷺ ليزداد من ذلك العلم ، ولا شك أنه كلما تعلم مسألة من المسائل كلما تقيد سلوكه ، فالإنسان الذي يسـعى ليقيد سلوكه راغب في المنهج .

وعلى الرغم من أنه معلوم أن الأعمى يمشي ببطء وتؤدة ، إلا أن الله ﷻ قـال : ﴿ يَسْعَى ﴾ .. فكأن طبيعة ما عنده من الشـوق إلى أن يلتقـي برسـول الله ﷺ وأن يسـمع منه جعلت لديه طاقة جعلته يسعى ، مع وجود حيثيات تجعله لا يستطيع أن يسعى .

وبـعد ذلك جاء بـالحيثية الأخرى ﴿ وَهُوَ يَخْشَى ﴾ .. يسـعى وهو أعمى .. ﴿ وَهُوَ يَخْشَى ﴾ ، ولم يذكر ماذا يخشى ، وهذا من عطاء القرآن وثرائه وخصوبة أدائه ؛ كي تبحث أنت عن مفعول لهذا الفعل ، فطالما أنه أعمى ويسـرع فقـد يخشـى أن يقـع في حـفرة ، أو أن يصطدم بشـيء ، وقـد يخشـى خصوم الإسـلام الصناديد الذين كانوا يراقبـون هؤلاء الضعفاء ويتلقفونهم ويسلطون أذاهم عليهم ، أو هو يخشـى ما فوق ذلك .. يخشـى الله ﷻ ، كل ذلك تعطينا إياه كلمة ﴿ يَخْشَى ﴾ .

فالمسألة إذًا سهلة ، مؤمن جاءك يسعى ليتعلم منك الإسلام ، وعنده كل مقومات الإيمان ، وكل الاستعداد لتنفيذ ما تأمره به ، فلماذا تعرض عنه وتتصدى لهؤلاء الكافرين المعاندين ؟!

وهذا هو سبـــب العتاب ، فلم يكن العتاب لأن النبي ﷺ ترك الطريق الوعرة ، والتمس لنفسـه الطريق السـهلة الممهدة ، بـل لأنه ترك هذه الطريق السـهلة التي يأمره بـها المنهج ، وأخذ الطريق الوعرة الصعبة التي لم يكلَّف بـها ، وذلك بـلا شـك غيرة منه ﷺ على الدعوة ، فلقد كان النبي ﷺ يحمل همَّ الناس جميعًا ، ويتمنى أن يدخلوا جميعًا في الإسلام ، بـل لقـد عاتبـه الله ﷻ على هذا أيضًا ، كما قـال الله ﷻ له : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ

إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾[1] ، أي : لعلك حزين من أجلهم ، وتهلك نفسك أسىً عليهم وأسفًا ، فلا تحزن ، فماذا سيقدمون للإسلام ؟! وهل سيعطون الإسلام شيئًا ؟! كلا ، بل إن الإسلام هو الذي سيعطيهم ، فمن يطع الرسول فقد اهتدى ، وأما من لم يطع الرسول فقد غوى .

﴿ وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى * وَهُوَ يَخْشَى * فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى ﴾ .. كلمة : ﴿ تَلَهَّى ﴾ لها معنى آخر غير ما نتصور .. فهناك اللهو ، وهناك اللعب ، فاللعب هو أن تشغل نفسك بشيء غير مطلوب لذاته ، ولكنه لم يصرفك عن أمر مطلوب ، أما اللهو فهو أن تشغل نفسك بشيء مطلوب لذاته ، ولكنه يشغلك عن أمر مطلوب لذاته ، فكأن الحق ﷻ أراد أن يقول للنبي ﷺ : يا **محمد** .. يجب أن يكون ميدان عملك مع هؤلاء المقبلين عليك عشقًا للدعوة وحبًّا لهذا المنهج ، أما أن تتلهى بأولئك المعاندين المعرضين فهذا لا ينبغي أن يكون .

وكلمة : ﴿ تَلَهَّى ﴾ تدل على أن انشغال النبي ﷺ بهؤلاء لا يجدي شيئًا ؛ لأنه شغل بما لا يفيد ، وهو يعطله عما يفيد ؛ ولذلك فإذا استقرأت حالهم وجدتهم جميعًا لم يموتوا على الكفر ، إلا **العباس** عم النبي ﷺ ، ونحن نعلم موقف **العباس** رضي الله عنه من النبي ﷺ ، لدرجة أنني أعتقد أنه كان مسلمًا ، ولكنه أخفى إسلامه حتى لا يجترئ الكفار على رسول الله ﷺ ولو احترامًا له و**لأبي طالب** ، بدليل أنه هو الذي ذهب ليوثق للنبي ﷺ أمره مع الأنصار يوم العقبة ، كما روى ذلك **الإمام أحمد** في مسنده قال :

حَدَّثَنَا **يعقوب** قَالَ : حَدَّثَنَا أَبِي عَنْ **ابن إسحاق** قَالَ : فَحَدَّثَنِي **معبد بن كعب بن مالك بن أبي كعب بن القين** أَخُو **بني سلمة** أَنَّ أَخَاهُ **عبيد الله بن كعب** ، وَكَانَ مِنْ أَعْلَمِ الأَنْصَارِ حَدَّثَهُ أَنَّ أَبَاهُ **كعب بن مالك** ، وَكَانَ **كعب** مِمَّنْ شَهِدَ الْعَقَبَةَ وَبَايَعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ بِهَا قَالَ : خَرَجْنَا فِي حُجَّاجِ قَوْمِنَا مِنْ الْمُشْرِكِينَ ، وَقَدْ صَلَّيْنَا وَفَقِهْنَا ، وَمَعَنَا **البراء بن معرور** كَبِيرُنَا

---

1 - سورة : الكهف ، الآية : 6 .

وَسَيِّدُنَا ، فَلَمَّا تَوَجَّهْنَا لِسَفَرِنَا وَخَرَجْنَا مِنْ الْمَدِينَةِ قَالَ البراء لَنَا : يَا هَؤُلاَءِ إِنِّي قَدْ رَأَيْتُ وَاللهِ رَأْيًا ، وَإِنِّي وَاللهِ مَا أَدْرِي تُوَافِقُونِي عَلَيْهِ أَمْ لاَ . قَالَ : قُلْنَا لَهُ : وَمَا ذَاكَ ؟ قَالَ : قَدْ رَأَيْتُ أَنْ لاَ أَدَعَ هَذِهِ الْبَنِيَّةِ مِنِّي بِظَهْرٍ – يَعْنِي الْكَعْبَةَ – وَأَنْ أُصَلِّيَ إِلَيْهَا . قَالَ : فَقُلْنَا : وَاللهِ مَا بَلَغَنَا أَنَّ نَبِيَّنَا يُصَلِّي إِلاَّ إِلَى الشَّامِ ، وَمَا نُرِيدُ أَنْ نُخَالِفَهُ . فَقَالَ : إِنِّي أُصَلِّي إِلَيْهَا . قَالَ : فَقُلْنَا لَهُ : لَكِنَّا لاَ نَفْعَلُ . فَكُنَّا إِذَا حَضَرَتْ الصَّلاَةُ صَلَّيْنَا إِلَى الشَّامِ وَصَلَّى إِلَى الْكَعْبَةِ ، حَتَّى قَدِمْنَا مَكَّةَ ، قَالَ أَخِي : وَقَدْ كُنَّا عِبْنَا عَلَيْهِ مَا صَنَعَ ، وَأَبَى إِلاَّ الإِقَامَةَ عَلَيْهِ ، فَلَمَّا قَدِمْنَا مَكَّةَ قَالَ : يَا ابْنَ أَخِي انْطَلِقْ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَاسْأَلْهُ عَمَّا صَنَعْتُ فِي سَفَرِي هَذَا ، فَإِنَّهُ وَاللهِ قَدْ وَقَعَ فِي نَفْسِي مِنْهُ شَيْءٌ لَمَّا رَأَيْتُ مِنْ خِلاَفِكُمْ إِيَّايَ فِيهِ . قَالَ : فَخَرَجْنَا نَسْأَلُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، وَكُنَّا لاَ نَعْرِفُهُ ، لَمْ نَرَهُ قَبْلَ ذَلِكَ ، فَلَقِيَنَا رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ ، فَسَأَلْنَاهُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، فَقَالَ : هَلْ تَعْرِفَانِهِ ؟ قَالَ : قُلْنَا : لاَ . قَالَ : فَهَلْ تَعْرِفَانِ العباس بن عبد المطلب عَمَّهُ ؟ قُلْنَا : نَعَمْ . قَالَ : وَكُنَّا نَعْرِفُ العباس ، كَانَ لاَ يَزَالُ يَقْدَمُ عَلَيْنَا تَاجِرًا . قَالَ : فَإِذَا دَخَلْتُمَا الْمَسْجِدَ فَهُوَ الرَّجُلُ الْجَالِسُ مَعَ العباس . قَالَ : فَدَخَلْنَا الْمَسْجِدَ فَإِذَا العباس جَالِسٌ وَرَسُولُ اللهِ ﷺ مَعَهُ جَالِسٌ ، فَسَلَّمْنَا ثُمَّ جَلَسْنَا إِلَيْهِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ للعباس : هَلْ تَعْرِفُ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ يَا أَبَا الفضل ؟ قَالَ : نَعَمْ ، هَذَا البراء بن معرور سَيِّدُ قَوْمِهِ ، وَهَذَا كعب بن مالك . قَالَ : فَوَاللهِ مَا أَنْسَى قَوْلَ رَسُولِ اللهِ ﷺ : الشَّاعِرُ ؟ قَالَ : نَعَمْ . قَالَ : فَقَالَ البراء بن معرور : يَا نَبِيَّ اللهِ إِنِّي خَرَجْتُ فِي سَفَرِي هَذَا ، وَهَدَانِي اللهُ لِلإِسْلاَمِ ، فَرَأَيْتُ أَنْ لاَ أَجْعَلَ هَذِهِ الْبَنِيَّةَ مِنِّي بِظَهْرٍ ، فَصَلَّيْتُ إِلَيْهَا ، وَقَدْ خَالَفَنِي أَصْحَابِي فِي ذَلِكَ ، حَتَّى وَقَعَ فِي نَفْسِي مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ ، فَمَاذَا تَرَى يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ : لَقَدْ كُنْتَ عَلَى قِبْلَةٍ ، لَوْ صَبَرْتَ عَلَيْهَا ، قَالَ : فَرَجَعَ البراء إِلَى قِبْلَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، فَصَلَّى مَعَنَا إِلَى الشَّامِ ، قَالَ : وَأَهْلُهُ يَزْعُمُونَ أَنَّهُ صَلَّى إِلَى الْكَعْبَةِ حَتَّى مَاتَ وَلَيْسَ ذَلِكَ كَمَا قَالُوا ، نَحْنُ أَعْلَمُ بِهِ مِنْهُمْ ، قَالَ : وَخَرَجْنَا إِلَى الْحَجِّ ، فَوَاعَدْنَا رَسُولَ اللهِ ﷺ الْعَقَبَةَ مِنْ أَوْسَطِ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ ،

فَلَمَّا فَرَغْنَا مِنْ الْحَجِّ ، وَكَانَتْ اللَّيْلَةُ الَّتِي وَعَدْنَا رَسُولَ اللهِ ﷺ ، وَمَعَنَا **عبد الله بن عمرو بن حرام أبو جابر** سَيِّدٌ مِنْ سَادَتِنَا ، وَكُنَّا نَكْتُمُ مَنْ مَعَنَا مِنْ قَوْمِنَا مِنْ الْمُشْرِكِينَ أَمْرَنَا ، فَكَلَّمْنَاهُ وَقُلْنَا لَهُ : يَا **أبا جابر** ، إِنَّكَ سَيِّدٌ مِنْ سَادَتِنَا ، وَشَرِيفٌ مِنْ أَشْرَافِنَا ، وَإِنَّا نَرْغَبُ بِكَ عَمَّا أَنْتَ فِيهِ أَنْ تَكُونَ حَطَبًا لِلنَّارِ غَدًا ، ثُمَّ دَعَوْتُهُ إِلَى الإِسْلَامِ ، وَأَخْبَرْتُهُ بِمِيعَادِ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، فَأَسْلَمَ وَشَهِدَ مَعَنَا الْعَقَبَةَ ، وَكَانَ نَقِيبًا ، قَالَ : فَنِمْنَا تِلْكَ اللَّيْلَةَ مَعَ قَوْمِنَا فِي رِحَالِنَا ، حَتَّى إِذَا مَضَى ثُلُثُ اللَّيْلِ خَرَجْنَا مِنْ رِحَالِنَا لِمِيعَادِ رَسُولِ اللهِ ﷺ نَتَسَلَّلُ مُسْتَخْفِينَ تَسَلُّلَ الْقَطَا ، حَتَّى اجْتَمَعْنَا فِي الشِّعْبِ عِنْدَ الْعَقَبَةِ ، وَنَحْنُ سَبْعُونَ رَجُلاً وَمَعَنَا امْرَأَتَانِ مِنْ نِسَائِهِمْ ، **نسيبة بنت كعب أم عمارة** إِحْدَى نِسَاءِ **بني مازن بن النجار** ، و**أسماء بنت عمرو بن عدي بن ثابت** ، إِحْدَى نِسَاءِ **بني سلمة** وَهِيَ **أم منيع** ، قَالَ : فَاجْتَمَعْنَا بِالشِّعْبِ نَنْتَظِرُ رَسُولَ اللهِ ﷺ ، حَتَّى جَاءَنَا ، وَمَعَهُ يَوْمَئِذٍ عَمُّهُ **العباس بن عبد المطلب** وَهُوَ يَوْمَئِذٍ عَلَى دِينِ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنَّهُ أَحَبَّ أَنْ يَحْضُرَ أَمْرَ ابْنِ أَخِيهِ وَيَتَوَثَّقُ لَهُ ، فَلَمَّا جَلَسْنَا كَانَ **العباس بن عبد المطلب** أَوَّلَ مُتَكَلِّمٍ ، فَقَالَ : يَا مَعْشَرَ الْخَزْرَجِ – قَالَ : وَكَانَتْ الْعَرَبُ مِمَّا يُسَمُّونَ هَذَا الْحَيَّ مِنْ الأَنْصَارِ الْخَزْرَجَ أَوْسَهَا وَخَزْرَجَهَا – إِنَّ **محمدا** مِنَّا حَيْثُ قَدْ عَلِمْتُمْ ، وَقَدْ مَنَعْنَاهُ مِنْ قَوْمِنَا مِمَّنْ هُوَ عَلَى مِثْلِ رَأْيِنَا فِيهِ ، وَهُوَ فِي عِزٍّ مِنْ قَوْمِهِ وَمَنَعَةٍ فِي بَلَدِهِ ، قَالَ : فَقُلْنَا : قَدْ سَمِعْنَا مَا قُلْتَ ، فَتَكَلَّمْ يَا رَسُولَ اللهِ ، فَخُذْ لِنَفْسِكَ وَلِرَبِّكَ مَا أَحْبَبْتَ . قَالَ : فَتَكَلَّمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ، فَتَلاَ وَدَعَا إِلَى اللهِ ﷻ ، وَرَغَّبَ فِي الإِسْلَامِ ، قَالَ : **أُبَايِعُكُمْ عَلَى أَنْ تَمْنَعُونِي مِمَّا تَمْنَعُونَ مِنْهُ نِسَاءَكُمْ وَأَبْنَاءَكُمْ** . قَالَ : فَأَخَذَ **البراء بن معرور** بِيَدِهِ ثُمَّ قَالَ : نَعَمْ ، وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَنَمْنَعَنَّكَ مِمَّا نَمْنَعُ مِنْهُ أُزُرَنَا ، فَبَايِعْنَا يَا رَسُولَ اللهِ ، فَنَحْنُ أَهْلُ الْحُرُوبِ وَأَهْلُ الْحَلْقَةِ ، وَرِثْنَاهَا كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ . قَالَ : فَاعْتَرَضَ الْقَوْلَ – وَ**البراء** يُكَلِّمُ رَسُولَ اللهِ ﷺ – **أبو الهيثم بن التيهان** حَلِيفُ **بني عبد الأشهل** ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنَّ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الرِّجَالِ حِبَالاً ، وَإِنَّا قَاطِعُوهَا – يَعْنِي الْعُهُودَ – فَهَلْ عَسَيْتَ إِنْ نَحْنُ فَعَلْنَا ذَلِكَ ثُمَّ أَظْهَرَكَ

اللهُ أَنْ تَرْجِعَ إِلَى قَوْمِكَ وَتَدَعَنَا ، قَالَ : فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ، ثُمَّ قَالَ : بَلْ الدَّمَ الدَّمَ ، وَالْهَدْمَ الْهَدْمَ ، أَنَا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مِنِّي ، أُحَارِبُ مَنْ حَارَبْتُمْ ، وَأُسَالِمُ مَنْ سَالَمْتُمْ "[1].

فكيف يكون **العباس** على الكفر ثم يوثق لرسول الله ﷺ مع الأنصار ؟! فهذا دليل على أنه كان على الإسلام ، أو على الأقل كانت عنده ميول إسلامية .

إن منهج السماء جاء ليصحح ما يفهمه البشر في منهج الأرض ، ففي المنهج الأرضي البشري حين يريد الناس أن يختاروا من بينهم أحدًا لأمورهم العظيمة فإنهم يصطفون له الصفوة والوجهاء والأقوياء والأعيان والأغنياء ، أما حسابات ومقاييس منهج السماء فغير ذلك ، غير كل تلك الأوضاع ، بل لقد جاء هذا المنهج السماوي ليهلك أمثال أولئك المغرورين الذين يُغتر بهم ، فكيف يعتز يومًا بأمثالهم ؟!

فلو أن الإسلام حين جاء كانت كل القوى معه لقالوا : إن مبدأه من المبادئ التي يلتف حولها الأقوياء ، فمجال القوة الذي كان لهم في غير الإسلام أصبح لهم في الإسلام ، وبالتالي يسود المبدأ .. ولكنهم يقولون : ﴿ وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴾[2].

ولذلك فإننا نرد على من يقولون : إن الإسلام انتشر بالقوة ، فنقول لهم : إن الإسلام في بدايته لم يتبعه إلا الضعفاء لا الأقوياء ، ثم إنه لم ينتشر في **مكة** ، بل لقد أعلن الإسلام دعوته في آذان سادات الجزيرة ، ولم يعلن في مكان بعيد عنهم ، وهم الذين كانوا مهابين في شبه الجزيرة ، ولا يستطيع أحد أن يقف أمامهم أو أن يعترضهم .

ولكن الإسلام حين يتحقق له النصر فلا يكون النصر بهؤلاء أبدًا ، بل ينتصر بالمدينة وبين أهلها ؛ لأن القضية التي يريد القرآن أن يؤكدها هي أن الإيمان **بمحمد** هو الذي أوجد

---

1 - أخرجه أحمد في مسنده (31 /432) .

2 - سورة : هود ، الآية : 27 .

العصبية **لمحمد** ، ولم توجد العصبية **لمحمد** الإيمان **بمحمد** ، فلم يؤمن **بمحمد** من تعصب له ، ولو كان الأمر كذلك لقالوا : هم قوم تعصبوا لواحد منهم لكي يسودوا به العالم ، بل إن قومه لم يؤمنوا به ابتداءً ، بل وكانوا ضده ، وانتصر الإسلام من بعيد ، فلم ينتصر الإسلام بالأقوياء ، بل انتصر بأولئك الضعفاء الذين تقووا بالإسلام ، فكانوا أقوى وأعظم من أي قوة ظهرت على وجه الأرض ، وقهروا كل قوة كانت على ظهر هذه البسيطة .

﴿ **وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى * أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى** ﴾ .. ورد هنا لفظان متقاربان في المعنى : ﴿ **لَعَلَّهُ يَزَّكَّى** ﴾ ، و ﴿ **أَوْ يَذَّكَّرُ** ﴾ .. فـ ﴿ **يَزَّكَّى** ﴾ أي : " يتطهر " ، ويدل هذا التطهر على وجود أقذار يجب التطهر منها ، ولا شك في وجود مثل هذه الأقذار في ذلك المجتمع الجاهلي ، وربما كان هناك من لم يلتفتوا إلى هذه الأقذار ولم يرتكبوها ، فهؤلاء يكفيهم منك التذكرة ؛ لأنهم يريدون طريق الحق ، ولا يشغلون أنفسهم بعبادتهم لأصنام لا تضر ولا تنفع ، ومنهم من أراد البحث عن الحقيقة ، ومن خلد للتفكير في ذلك ، وما هذه إلا أدلة على قلقهم من تلك الحال ، وإرادتهم لسلوك الطريق الصحيح .

فالناس في الجاهلية كانوا فريقين : فريق به من أوزار الجاهلية ما به ، فهذا ﴿ **يَزَّكَى** ﴾ ، فيتطهر من تلك الآثام ، وفريق يبحث عن الحقيقة وينتقد ذلك الواقع ، وهذا ﴿ **يَذَّكَّرُ** ﴾ ، وكأن فطرتهم تحتاج إلى تنبيه بسيط .

﴿ **أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى** ﴾ .. وكلمة ﴿ **اسْتَغْنَى** ﴾ تقتضي مستغنيًا وهو هذا المخاطب ، ومستغنىً عنه ، ومستغنىً به ، فهو يستغني عن شيء بشيء آخر ، فقد استغنى عن الإيمان بالله و**بمحمد** ﷺ وعن منهجه الرباني بمنهج الجاهلية الشهواني المتمثل في الجاه والسيطرة والنفوذ والقوة .

﴿ **أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى * فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى** ﴾ .. وكلمة : ﴿ **تَصَدَّى** ﴾ فيها الكثير من العطاء القرآني الجميل والمبدع ، فهي مأخوذة من : " دار صدد دار فلان " .. أي : مقابلة ، أو من

" الصَّدَى " .. وهو العطش ، أو التلهف على الشيء والصبوة إليه ، أو أنك تتبع حتى صداه ، أي : مردوده .

هذا هو العطاء القرآني ، فالكلمة قد تؤخذ على مناحٍ عدة ، ولكن كلها تخدم المعنى المراد ، وهذه هي عظمة القرآن الكريم .

﴿ وَمَا عَلَيْكَ أَلاَّ يَزَّكَّى ﴾ .. فلو أنك تدفع عن نفسك ضررًا بالإقبال عليه لكان ممكنًا ، ولكن الذي بعثك ﷻ هو من قال لك : ﴿ إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاَغُ ﴾ [1] ، وما دام ليس عليك إلا البلاغ فليس عليك حرج يدفعك للتصدي لأمثال هؤلاء .

﴿ وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى * وَهُوَ يَخْشَى * فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى ﴾ .. فعرض الحق ﷻ القصة كاملة ، وذكر أبطالها .. وذكر لكل دوره الذي يخصه ، وبعد ذلك قال أولا : ﴿ وَمَا عَلَيْكَ أَلاَّ يَزَّكَّى ﴾ ، وذلك بالنسبة لصناديد قريش ، ثم قال : ﴿ وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى * وَهُوَ يَخْشَى * فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى ﴾ ، وذلك لأولئك المؤمنين الذين يريدون أن يتعلموا هذا الدين .

إذن فالدرس الذي ينبغي أن نتعلمه من توجيه السماء لرسول الله ﷺ في هذا الموقف هو أن الجندي المقبل على الدعوة هو فقط الذي يستحق أن يستقطب دون غيره ، والذي يجب إمداده حتى يكوِّن خلية إيمانية قوية تستطيع أن تكون أسوة سلوكية تُرَغِّب غيرها في الإسلام وتحببهم فيه ، بعكس أولئك الذين امتلأوا بالعنهجية والكبر فإنهم هم المتضررون ؛ ولذلك عرض الله ﷻ تلك القضية فقال ﷻ عنهم : ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلاَمَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ ﴾ [2] .

---

1 - سورة : الشورى ، الآية : 48 .

2 - سورة : الحجرات ، الآية : 17 .

كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾

﴿ كَلاَّ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴾ .. إن دعوتك ومنهجك يا محمد تذكرة ، ومدلول كلمة تذكرة أن هناك شيئًا قد تكون غافلاً عنه ويجب أن تذكره ، ولكنه موجود في طبيعة تكوينك ، ومعنى ذلك أن الفطرة السليمة في النفس البشرية فطرة إيمانية ، وكل ما يكون من انحراف فيها إنما هو نتيجة للبيئة غير الطيبة ، أو للغفلة ، فالفطرة تحتاج لمن يصقلها وينزع عنها غبار الغفلة ، فالذي لم يقعِّد لنفسه قاعدة في الضلال ولم يصنع لنفسه إيديولوجية فيه فيكفيه منك التذكرة .

ويلاحظ هنا أن الضمير جاء مؤنثًا : " إِنَّهَا " ؛ لأن الخبر مؤنث كذلك : " تَذْكِرَةٌ " ، فالعلماء يقولون : إن تأويله : " كلا ، إن القرآن تذكرة " ، فكيف يقول : " إنها " ؟! والجواب : لأن الخبر عندما يكون مؤنثًا فلك أن تُذكِّر مراعاةً للأصل ، أو أن تؤنث مراعاة للخبر .. وقد يكون المعنى هو : " كلا ، إن دعوتك ومهمتك تذكرة " .

﴿ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ ﴾ .. فما دامت هذه التذكرة للتذكير بشيء ، هو أصل ما انطبع في الفطرة البشرية ، والفطرة البشرية مطبوعة على التوحيد منذ العهد الذي أخذ منهم وهم في ظهر أبيهم آدم كالذر .. ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾[1] .. إذن فالذي ينقض عهد

1 - سورة : الأعراف ، الآية : 172 ، 173 .

الذر والفطرة السليمة هذه شيئان : الغفلة ، وتقليد الآباء ، أي البيئة التي يتربى فيها أولئك الأبناء .

فالتذكرة لتنبيه الغافل والمقلد الأعمى ، فإذا كان التذكير بعهد الفطرة يكون بالقرآن ، فمنهج الإسلام يطمئننا بأن هذا النهج الذي هو القرآن الذي جاء ليذكرك بعهد الفطرة الأصيل ، وينفض عنك الغفلة ، وينفض عنك تقليد البيئة فيه مواصفات تجعلك تثق ثقة مطلقة بأنه لم يحدث فيه أي تغيير ، وذلك بذاتيته ، وبمكانه ، وبكل ما يتصل به ، فقال : ﴿ كَلاَّ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ * فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ * فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ ﴾ .. وهذه هي أول وقفة .. ﴿ مَرْفُوعَةٍ ﴾ .. أي لا تتناولها أيدي عابث .. ﴿ مُطَهَّرَةٍ ﴾ .. لا يمسها إلا المطهرون ، كي تعلم مدى الصيانة والحفظ ، فهي مكرمة ، ومرفوعة ليست في المتناول ، ومطهرة لا يمسها إلا مطهر ، ﴿ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴾ .. هم الذين يسفرون بها بين الله وبين خلقه .. ﴿ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴾ .

فالمذكر بعهد الفطرة له مواصفات متعددة ، مكرم في ذاته ، مرفوع في منزلته ، مصون من أن تمسه أيدٍ ليست طاهرة ، فالذي ينقله من الله إلى خلقه كرام بررة ، فهذه مواصفات تجعلك تطمئن بأن المذكر لك بالعهد الأصيل أو ما يرجع إلى الفطرة موثوق فيه ؛ لأنه جاءك كما هو .. كما صدر عن الله ﷻ ، لم يحدث فيه تغيير ، وهذه مسألة يؤكد عليها القرآن ؛ لأن آفة الديانتين السابقتين للإسلام هو التغيير والتبديل في المنهج والكتاب ، هذا التغيير والتبديل الذي أضاع المنهج من أصحابه بالتحريف تارة والتبديل أخرى والنسيان أيضًا ، فقد لا يكون ذلك عن قصد ، بل نسوا أشياء ، وأما الذي لم ينسوه فقد كتموا بعضه ، والذي لم يكتموه حرفوه ولووا ألسنتهم به ، وليتهم اقتصروا على هذا الحد ! ! بل زادوا أشياء من عند أنفسهم ثم قالوا : هو من عند الله .

و" **السفرة الكرام البررة** " .. إما أن تكون من السفارة العلوية التي هي بين الملائكة وبين سيدنا **محمد** ﷺ ، ثم بين سيدنا **محمد** ﷺ وبيننا ، أو أن الذين سينقلونه إلينا هنا

سينقلونه إلينا بكل أمانة ؛ ولذلك تنظر فتجد دقة في التلاوة ، ودقة في الأحكام ، ودقة في التوثيق .

ولذلك سيظل المنهج محفوظًا بإذن الله كما وعد الحق ﷻ بقوله : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾[1] ، وبذلك يصبح لا حجة لإنسان في أن لا يؤمن به .

قُتِلَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾
ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾

﴿ قُتِلَ الإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ﴾ .. وورد التعبير القرآني بكلمة : ﴿ قُتِلَ الإِنْسَانُ ﴾ لأن الإنسان أشد ما يدعى عليه به هو القتل لا مجرد الموت ؛ لأن الموت أمر يدرك ، أما القتل فهو أمر مفزع ، فكلنا سنموت ، ولكن ليس كلنا سنقتل .

وكلمة : ﴿ الإِنْسَانُ ﴾ تعطيك حيثية ﴿ قُتِلَ ﴾ لأن القرآن إذا ذكر كلمة الإنسان في أمر ما فإنه دائمًا ما يأتي الخبر من ناحية الشر .. ﴿ إِنَّ الإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴾[2] ، ﴿ وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴾[3] ، ﴿ وَيَدْعُ الإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ ﴾[4] ، ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ﴾[5] ، ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ

1 - سورة : الحجر ، الآية : 9 .
2 - سورة : المعارج ، الآية : 19 .
3 - سورة : العصر ، الآية : 1 ، 2 .
4 - سورة : الإسراء ، الآية : 11 .
5 - سورة : البلد ، الآية : 4 .

سَافِلِينَ ﴾[1] ... وهكذا .

ولا ينجو من خبر الشر إلا من استثني ، أي لا بد أن يأتي بعده استثناء .. ﴿ إِنَّ الإِنْسَانَ ﴾ أي إن ذلك بطبيعته كإنسان دون أن يصونه منهج سماوي لا بد من خسر ، بدليل : ﴿ إِنَّ الإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا * إِلاَّ الْمُصَلِّينَ ﴾[2] .. أي أن الذي يعصم من خبر الشر في الإنسان هو المنهج السليم ، وفي موضع آخر يقول : ﴿ وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾[3] ، إذن فلن ينجيه من ذلك الشر إلا الإيمان والمنهج ، وإلا فالإنسان لا يختلف عن الحيوان إلا بكونه يمتلك عقلاً يرجح به بين الأشياء ، فإذا تمكنت منه شهوته وليس عنده منهج يروض تلك الشهوانية يصبح مثل الحيوان .

إذًا فالمقصود هنا هو الإنسان الذي أخذ من الحق عطاء الربوبية ولم يأخذ منه عطاء الألوهية ، فعطاء الربوبية ممتد للمؤمن وللكافر ؛ فالله ﷻ هو الخالق لنا جميعا ، لكن عطاء الألوهية لا ينتفع به إلا المؤمن فحسب ، فالمؤمن يأخذ عطاء الربوبية وعطاء الألوهية ، والكافر يأخذ عطاء الربوبية فقط ، فنقول له : كن منطقيًّا يا من أخذت عطاء الربوبية ، فما هو عطاء الربوبية ؟! أليس هو أن ينعم عليك بالنعم ؟! إن تلذذك بهذه النعم وانتفاعك بها فرع وجودك ، فالنعمة الأولى والمنة الكبرى هي في الإيجاد من العَدَم ، ثم المنة الثانية هي الرزق والإمداد من العُدْم .

﴿ قُتِلَ الإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ﴾ .. وكلمة : ﴿ مَا أَكْفَرَهُ ﴾ تُحمَل على أسلوبين ، فقد تحمل على التعجب ، كأن تقول : ما أفصح عمر ! وقد تحمل على السؤال ، أي : ما هو الداعي

---

1 - سورة : التين ، الآية : 4 ، 5 .

2 - سورة : المعارج ، الآية : 19 - 22 .

3 - سورة : العصر .

الذي دعاه إلى هذا الكفر ؟!

كما جاء في قصة أبي الأسود الدؤلي مع ابنته حين نظرت إلى السماء متعجبة ثم قالت لأبيها : ما أحسنُ السماءِ ؟ فقال لها : نجومُها . فقالت : يا أبتِ ما أردت السؤال ، ولكن أردت التعجب . فقال لها : يا بنية فقولي : ما أحسنَ السماءَ ! وافتحي فاكِ .

وهذا هو الفرق بين المحملين في العبارة ، فقد تحمل على التعجب ، والتعجب لا يتأتى إلا من شيء جاء على خلاف ما يقتضيه العقل والمنطق ، فكأن الذي يقتضيه العقل والمنطق أن يكون الإنسان مؤمنًا ، وذلك كقول الحق ﷻ في سورة البقرة : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[1] ، فكأن كفرهم بالله ﷻ مسألة عجيبة تدعو إلى الدهشة من ذلك الشيء الذي جعلهم يكفرون بالله ﷻ ، وكأن العاقل ليس له سبيل إلى أن يكفر بالله ﷻ ، فأخبرونا كيف كفرتم به ؟! لأن ذلك أمر عجيب ، فكل الأدلة توحي بأن الإنسان يجب أن يرتقي بعقله وبنفسه وبوجدانه وبمشاعره وبأحاسيسه إلى قضية الإيمان ، فحتى لفظ : "**الكفر**" نفسه ، الذي هو ضد الإيمان يوحي إلينا بمعنى الإيمان ؛ لأن معنى الكفر هو : الستر ، والستر يقتضي مستورًا ، فكأن الكفر – وهو الستر – طرأ على شيء موجود ، وكأن أصل الوجود هو الإيمان ، فأصل الفطرة هو أن تؤمن بالله ، فإذا جاء الكفر فقد جاء شيء ستر شيئًا موجودًا ، فكأن الشيء الموجود الواضح كان أولاً ، ثم طرأ منك كفر عليه .

ثم بعد ذلك رد أسباب التعجب من كفره إلى شيء في طبيعة تكوين النفس ، فأنت أيها الإنسان الذي هو ، ولو كان كافرًا " **سيد في هذا الكون** " ، ومعنى " **سيد في هذا الكون** " أن كل أجناس الكون في خدمته .. الحيوانات في خدمته ، والنباتات في خدمة الحيوانات ، ثم تنتهي إلى خدمته ، والجماد في خدمة كل من الحيوان والنبات ، ثم تنتهي إلى خدمته .

إذن فأنت مخدوم بالمباشرة من أشياء ، وبالوسيلة من أشياء أخرى ، فكل أجناس الوجود

1 – سورة : البقرة ، الآية : 28 .

تصب في خدمتك ، فإذا كانت هذه الأجناس تصب في خدمتك أنت فمن الذي أعطاك هذه السيادة ؟! هل دخلت هذه الأجناس تحت قدرتك بحيث ترغمها أنت على أن تكون في خدمتك ؟! كلا ، بل إنها خدمتك قبل أن تكون لك قوة ، فإذا علمت أنها قد خدمتك قبل أن تكون لك قوة فيجب عليك أن تلتفت إلى تلك القوة التي هي أقوى منك ومنها ، وسخرتها لخدمتك .

ثم هبَ أن لك قوة على بعض الأشياء التي هي أقل منك قوة ، فهل لك قوة على الأشياء التي ليست في متناولك ؟! هل عندك قدرة على الشمس أو القمر ؟! هل لك قدرة على السحاب أو على الماء ؟! كلا ، فليس لك قدرة على أي شيء من هذه الأشياء ؛ لذلك فإن من واجبك أن تتنبه إلى من أعطاك هذه السيادة ﷻ .

لقد خص هذه السيادة بعنصر تكوينك ، فالشيء يشرف إما بالعنصر المكون منه ، أو بما آل إليه ، فانظر إلى هذه الأشياء الداخلة تحت سيطرتك .. هل ترغمها على الدخول تحت سيطرتك ؟ كلا ، إنك لا ترغمها ولا تستطيع أن ترغمها ، فهل عنصرك هو الذي تحكم في هذه السيطرة ؟! إن هذا العنصر شيء تافه .. ﴿ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ﴾[1] ، ثم ما هذا الميكروب الضئيل الذي يحتوي على كل هذه الخصائص ؟! فيوجهك الله ﷻ إلى النظر في بدايات وجودك ، وأنك لم تستفد كل هذه العظمة في الكون ، ولم تستفد هذه السيادة ، ولم تستفد ذلك التكريم من عنصر وجودك ؛ لأن عنصر وجودك شيء تافه .. ﴿ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ﴾ ، إذًا فمن الذي خلع عليك هذه العظمة ؟ لا شك أنه هو الله ﷻ .

وقد تُحمَل الآية أيضًا على الاستفهام ، وإذا كانت على سبيل الاستفهام فسيكون أيضًا استفهامًا تعجبيًّا ، أي : ما هو السبب في كفر ذلك الإنسان بربه الذي خلقه ؟!

فتدبر بلاغة الأسلوب الذي يعطيك معنى التعجب والاستفهام معًا في عبارة واحدة ، وعلى

---

1 - سورة : السجدة ، الآية : 8 .

أي نحو منهما حملتها يعطيك المعنى الخاص بكل على حدة .

﴿ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴾ .. ابتدأ من أصل الخلق ، ﴿ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ﴾ .. وكما هو معلوم أن كلمة : " نطفة " هي الماء الخاص الذي تكون فيه الحيوانات المنوية ، ولم نكن نعرف أن النطفة تعيش في سائل خاص بها ، بعدما كنا نظن أن كل ما يخرج من الرجل هو الحيوانات المنوية التي تعيش في هذا السائل ، حتى جاء القرآن وأخبرنا بهذه الحقيقة حين قال : ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى ﴾[1] ، والنطفة شيء حقير تافه ، فالذي خلقك من ذلك الشيء التافه ثم أعطاك هذه العظمة التكوينية وأعطاك كذا وكذا ، فهو عندما خلقك قدر لك كل شيء تقديرًا .

كالذي نطالعه في الصحف والأبحاث المختلفة عن علم الوراثة من أن خواص الإنسان تكون في محتوى هذا الميكروب ، فانظر وتدبر عظمة الصنعة التي تتأتى في أمرين متضادين : أن تكون من الضخامة والعظم بحيث لا تدرك ، وأن تكون من الضآلة والصغر بحيث لا تدرك أيضًا ، فهي إما كبيرة جدًّا أو صغيرة جدًّا ، وفي كلتا الحالتين لا تدركان ، ففي التكوين الميكروبي هي دقيقة جدًّا ، حتى أنك قد تتساءل مستغربًا : كيف جاء هذا العالم الكبير وأولئك الناس الكثيرون من تلك النطفة الصغيرة الحقيرة ؟! ثم بعد ذلك تجد كل إنسان له صفاته المختلفة عن غيره ، إنه حقًّا لشيء عجيب ، وذلك من قدرة الله ﷻ الذي قدر كل تلك المخلوقات من خلال ذلك الشيء التافه الدقيق ، وعلى العكس فالسماء والأرض كبيرتان جدًّا بحيث لا أستطيع أبدًا الإحاطة بها .

ولذلك يقول الله ﷻ : ﴿ لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ﴾[2] ، والنكرة ضد المعرفة ، فالمعرفة تفيد تحديد تشخيص الأشياء ، أما النكرة فتفيد العموم والشيوع ،

---

1 - سورة : القيامة ، الآية : 37 .

2 - سورة : غافر ، الآية : 57 .

ويقال أيضًا : إن الشيء قد ينكَّر مرة للتعظيم وقد ينكَّر في مرة أخرى للتحقير ، كما قيل :

له حاجب عن كل أمر يشينه وليس له عن طالب العرف حاجب

معناه أنه حاجب عظيم عن أي فحشاء ، وكلمة : " **وليس له عن طالب العرف حاجب** " هنا تفيد العموم ، فالمقصود هو أي حاجب ، والنكرة تأتي مرة للتعظيم ومرة للتحقير ، وتأتي مرة للتقليل ومرة للتكثير ، كأن تقول : إن له غنمًا صالحة ، وهنا يتبادر إلى الذهن سؤال : هل هذا الإبهام في الجملة يأتي من ناحية البداية أم من ناحية النهاية ؟ فإن كان الإبهام من ناحية البداية فالغنم إذن قليلة ، وإن كان من ناحية النهاية فالغنم كثيرة .. فيصح أن تأتي النكرة للتعظيم وللتحقير ، ويصح أن تأتي للتكثير وللتقليل .

فقول الحق ﷻ : ﴿ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴾ ساعدنا في الجواب ، فمن الجائز أنه لو لم يعلمنا بذلك لما عرفنا أن العملية الجنسية هي السبب في وجودنا ، فلربما لم يخطر ببالنا ذلك ، وربما ذلك لمصاحبة اللذة الذاتية لهذه العملية ، وربما توهمنا أن تلك اللذة الوقتية هي فائدتها فقط ، فنبهنا الله لذلك فقال : ﴿ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ﴾ ، فكلمة : ﴿ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ﴾ تدل على أنه مخلوق بتقدير خاص .. تقدير لصفاته ، وتقدير لغرائزه ، وتقدير لعواطفه ، وتقدير للونه ، وتقدير لشكله ، كل هذه المسائل بتقدير من خلال تلك النطفة البسيطة .

﴿ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ﴾ .. لأنه من الممكن أن يبدأ خلقك ثم بعد ذلك يتركك حرًّا طليقًا تفعل ما تشاء ، ولكنه لم يتركك ، فقد خلقك بقدرته ، ثم أمَدَّك بقيوميته ، أي إنك لن تستطيع الاستغناء عنه ؛ ولذلك فحينما يمتن الله ﷻ على عباده في **سورة الواقعة** فيمتن بالخلق أولاً ، ثم بوسائل البقاء ثانيًا ، مقومات استبقاء الحياة ، ففي **سورة الواقعة** تجدها فصولاً ، فيقول الله ﷻ : ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ * أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ * نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لاَ تَعْلَمُونَ * وَلَقَدْ

عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الأُولَى فَلَوْلاَ تَذَكَّرُونَ * أَفَرَأَيْتُم مَا تَحْرُثُونَ * أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ * لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ * إِنَّا لَمُغْرَمُونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ * أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ * أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ * لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلاَ تَشْكُرُونَ * أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ * أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ * نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ * فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾[1].

فذكر الإيجاد وذكر ما يهدم الإيجاد : ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَا تُمْنُونَ * أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ * نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ .. هذا خلق ، ثم يأتي بعد ذلك الاستبقاء فيقول الله ﷻ : ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ * أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ * لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ * إِنَّا لَمُغْرَمُونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ * أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ * أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ * لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلاَ تَشْكُرُونَ * أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ * أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ ﴾ .

والمهم أنه لا يجد معارضًا في أي من هذه الدعاوى أبدًا ، والعجيب أنه في الآية الأولى ﴿ مَّا تُمْنُونَ ﴾ ذكر إيجاد الحياة ثم ذكر ما يهدم هذه الحياة ، وهو الموت ، وفي إيجاد الزرع ﴿ أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ * لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا ﴾ .. وهذا هو ما يحدث كثيرًا ، فهناك أقوام تقوم على الزرع وترعاه حتى يستوي ويعجبهم ، ثم يكون – بقدرة الله – حطامًا ، وفي الماء يقول : ﴿ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا ﴾ ، ثم عندما تكلم ﷻ عن النار امتن بها ، ولم يذكر ما يفسدها ، فقال عز من قائل : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ * أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ ﴾ ، ولم يقل مثلاً : لو نشاء لجعلناها بردًا ، أو : لو نشاء لأخمدناها .. وذلك حتى تظل دائمًا مذكرة بنار الآخرة ، ومحذرة منها ؛ فلم يذكر ما يفسد

---

1 – سورة : الواقعة ، الآية : 58 – 74 .

هذه النار ؛ لأنها موصولة إلى يوم القيامة .

وحين قال الحق ﷻ في هذه السورة : ﴿ قُتِلَ الإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ * مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ * مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ﴾ .. فهو لم يتركنا نبحث عن الجواب ؛ لأننا سنعجز عن الجواب ، ولكنه أجاب هو ﷻ بمنه علينا ، ثم بعد ذلك أطلقها إطلاقًا ، ثم يأتي بعد ذلك العلم التشريحي والمعملي فيثبت المسائل كما أخبر بها الحق ﷻ تمامًا .

﴿ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ﴾ .. ولم يقل الله ﷻ : يسره سبيله ؛ لأن منطق الآية لو كان على الصورة الثانية – وهي التعريف بالإضافة – لكان المعنى أن كل إنسان يمشي في طريقه على حدة ، ولكن يجب أن يعرف الناس أن كلاً ميسر لما خُلِق له ، أي أنك ميسر لأن تقول كلمة : " **لا إله إلا الله** " ، والكافر ميسر لأن يقول : " **لا إله** " فقط .. والعياذ بالله ، فيدك مثلاً تستطيع أن تضرب بها إنسانًا ، وتستطيع أن تقيل بها عثرة إنسان آخر .

فيسر الله ﷻ السبيل على إطلاقه ، فيستطيع أن يكون خيِّرًا ، ويستطيع أن يكون غير ذلك ، فأنت عندما تختار لا تختار شيئًا لم يجعل الله لك فيه صلاحية ، بل خلقك صالحًا لهذا وصالحًا لذلك أيضًا ، وأعطاك المنهج ، وأعطاك الفكرة ؛ كي ترجح أي سبيل تسلكه .

وذلك كي يقطع الطريق أمام أولئك الجبرية الذين يقولون : إن كل شيء نفعله من خير أو شر مكتوب ومحتوم علينا ، ونحن عليه مجبرون ، فلو قال الله ﷻ : " سبيله يسره " لظن المجرم المذنب أن ذلك هو المقدر الحتمي عليه ولا يستطيع مغايرته وإصلاحه ، ولكن الله أتى بذلك التيسير على إطلاقه ، فإن أردت أن تتجه إلى سبيل الخير كانت فيك الصلاحية لذلك ، وإن أردت أن تتجه إلى سبيل الشر باختيارك كان لك فيه أيضًا صلاحية ، وما دمت صالحًا لهذا ولذاك فأنت ميسر لما خلقت له ، بدليل أن الفرد العادي قد يتصرف تصرفًا صحيحًا في موقف ما ، ثم بعد ذلك يتصرف تصرفًا سيئًا في موقف آخر .

﴿ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ﴾ .. يسّرك لما خُلقت له ، فهل تدري لماذا أنت خُلقت ؟ لقد خُلقت

للخلافة في الأرض ، والخلافة منهج من قبيل المنهج العبادي (منهج العبادة) ، تلك هي مهمتك ، وأنت حين تكلف بمهمة فإن الله ﷻ ييسرك لها ، فلا يكلفك الله ﷻ إلا بما يعلم أنه في وسعك ؛ لذلك فيجب عليك أن تنظر إلى التكليف ، لا أن تنظر إلى الوسع ، لا تأخذ من مناط التكليف أولاً ، وإنما خذ التكليف أولاً لتحقق به الوسع ، فما دام الله قد كلفك بشيء فمعنى ذلك أنه بوسعك أن تفعله ، فلتبحث أولاً من زاوية : أكلفني الله ذلك أم لم يكلفني ؟ فإن كان قد كلفك فقد حكم بأن ذلك في وسعك ، فلا تجعل وسعك هو الحَكَم ، ثم ترى أنك غير قادر ، وبالتالي فأنت غير مكلف به ، كلا ، فإن الذي كلفك يعلم جيدًا أن ذلك بوسعك ، بدليل أنه حين يرى أن الشيء الذي تكلف به وأنت في عادة استقامتك وتناسق ملكاتك تقدر عليه فيكلفك ، فإذا اختل فيك شيء أسقط عنك هذا التكليف ، فيأمرك مثلاً بالصلاة ، ثم تسافر ، وفي السفر مشقة ؛ فيكون الأمر بقصر الصلاة وجمعها .

إذًا فالتكليف هو الأصل ، فإذا ثبت التكليف من الله فإنه بوسعك ، وأنت صالح وميسر لما كلفك الله به ، فإذا ما عرض لك أي ظرف فإنه يخفف عنك ذلك التكليف ، بل قد يسقطه بالكلية ، وما ذاك إلا لأن الحق ﷻ يَعْلمك ويَعْلم ما تقدر عليه أكثر مما تعرف أنت نفسك عن نفسك .. ﴿ أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ ﴾[1] .

﴿ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴾ .. ومن عجب أننا نلحظ في مادة الموت خاصة من بين سائر مواد اللغة أن الفعل فيها يستعمل لازمًا ومتعديًا ، والفاعل مرة يقع فاعلاً ، ويقع مفعولاً مرة أخرى ، مع أن الفاعل لشيء لا يأتي مفعولاً لنفس ذلك الشيء أبدًا ، فإذا قلنا : مات زيد .. فأين الفاعل ؟ إنه زيد ، وتقول : أمات الله زيدًا ، فماذا يكون زيد هنا ؟ إنه مفعول به ، فزيد جاء مرة فاعلاً ومرة مفعولاً به ، أي أن الفاعل والمفعول قد اتحدا في هذه المادة ، فإن أردته فاعلاً قلت : مات فلان ، وإن أردته مفعولاً قلت : أمات الله فلانًا ، فهي مسألة عجيبة في هذا اللفظ على وجه

1 - سورة : الملك ، الآية : 14 .

الخصوص .

فما هو الموت؟ الموت : هو انعزال عنصر الروح عن عنصر المادة ، ومعنى ذلك أن الزوجية المكونة للحياة قد انفصلت عن بعضها البعض ، فيحدث أن تتوفى النفس .. ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾[1] ، فقبل أن تلتصق الروح بالمادة لا يقال للروح : نفس ، وكذلك المادة بمفردها لا يقال لها : نفس ، إذًا **فالنفس هي المزيج المكون من الروح والمادة** .

وعندما يريد الله أن يتوفى الأنفس فإنه يقبض الروح ، فينحل هذا التركيب ، وما دام قد انحل التركيب وأُخذ عنصر من العنصرين وتُرك الآخر فتحدث الوفاة .

والوفاة تأتي منسوبة مرة إلى الله ﷻ : ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾[2] ، وتأتي مرة أخرى منسوبة إلى ملك الموت : ﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ﴾[3] .. فالفاعل في الأولى كان الله ﷻ ، وفي الثانية ملك الموت ، فالحدث واحد ، لكنه أُسند إلى الله مرة ، وإلى ملك الموت مرة أخرى ، ثم في مرة ثالثة أُسند إلى الملائكة ، وهم جنود ملك الموت : ﴿ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا ﴾[4] .

وملك الموت مأمور من الله ﷻ ، فمرة ينسب الفعل إلى الآمر به ، وهو الله ﷻ ، ومرة ينسب إلى المنفذ المتلقي لذلك الأمر ، وهو ملك الموت ، ومرة ينسب إلى المنفذ المباشر ، وهم الملائكة الذين هم جنود ملك الموت ، فلكل واحد في الحدث عمل ، فالله هو الذي يقضي أولاً ، ثم بعد ذلك يبلِّغه ملك الموت ، ثم بعد ذلك ينفذه جنود ملك الموت .

وإذا نظرنا إلى تعريف الفاعل عند أهل النحو فإنه : **هو من فعل الفعل أو اتصف به** .. نقول : مات فلان ، فهل هو من فعل الموت ؟ كلا ، ولكنه هو من اتصف بالموت ، فاتصافه

---

1 - سورة : الزمر ، الآية : 42 .

2 - سورة : الزمر ، الآية : 42 .

3 - سورة : السجدة ، الآية : 11 .

4 - سورة : الأنعام ، الآية : 61 .

بـالموت يُسـميه فاعلاً ،مع أنه في الواقـع غير فاعل ، إنما في ظاهر اللفظ فهو فاعل ، إذًا فقـد تجوزوا ، فجعلوا الذي وُصف بـالفعل فاعلاً ، مع أنه إذا أردنا أن نجعله فاعلاً حقيقـة فلا نقـول : " مات فلان " ، وإنما نقـول : " انتحـر فلان " ، فيختلف اللفظ تمامًا ، إذا مات أحدهم من غير الأسباب العادية للموت نقول : " قتل فلان فلانًا " .

إذًا فإزالة الحياة لها حالات ثلاث : إما موت ، وإما قـتل ، وإما انتحـار ، **فالانتحـار** هو أن يستعجل الإنسان أجله على الله ﷻ ، هو حـقًّا مات بـأجل ، ولكنه لم يكن يعلم أن أجله الآن ، وفعل فعلاً لم يكن مأمورًا به ، وإذا قتل أحدهم آخر نقـول : " قـتل فلان فلانًا " ، وهو أيضًا استعجل ما ادخره الله في علمه ، أما إذا كان موتًا طبـيعيًّا فنقـول : " مات فلان " ، أو : " أماته الله " ، فهذا الفعل الواحد يأتي له الفاعل ويأتي له المفعول .

﴿ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴾ .. إن الله ﷻ يذكر هذا الكلام في معرض المن على ذلك الإنسـان الذي يتعجب من كفره حـين يقـول : ﴿ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ * مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ * ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ﴾ .. هو قـد امتن عليه بـكل ذلك ، فهل الموت من قبـيل الامتنان ؟! نعم ، فقـد يكون لإنسان أو لقوة ما سبب في إيجاد شيء ما ، ولكنه حـين يوجد ينطلق منها ولا تقـدر عليه تلك القـوة ، كأن تهب لأحـدهم نعمة من النعم – وأنت حـر في إعطائك له إياها – فيكفر بـك بـعد ذلك ؛ لعلمه أنك لن تقدر عليه بعدها ، ولكن الله ﷻ يعلمنا أن الأمر معه ليس كذلك ، فليس معنى أنني خلقت فيكم الحياة أن تنطلقوا مني ولا أقدر عليكم بعد ذلك ، كلا ، فأنا سـأميتكم وسترجعون إليَّ مرة أخرى ، فأنا لم أخلقك من نطفة بسـيطة ، وأعطيتك ذلك التكوين العظيم وأنت انفلتَّ من قـدرتي لتنفد بـنعمي وينتهي الأمر عند ذلك ، فأنا مثلما وهبـتك الحياة أستطيع أن أسلبك إياها ، فإن كنت لم تعبدني وتؤمن بي شكرًا على ما فعلت لك ، فاعبـدني وآمن بـي خوفًا ، فمن العجيب أن تكفروا وأنتم غير مدركين لنعمي ، وأنني خلقـتكم من كذا وكذا ويسرتكم السبيل .. فآمنوا بي ؛ لأنكم سترجعون إليَّ مرة ثانية .

﴿ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴾ .. وكلمة : ﴿ أَقْبَرَهُ ﴾ فيها لون من الامتنان أيضًا ، فنحن نرى جثث الحيوانات أمامنا تملأ الطرقات والشوارع ، لكن الإنسان هو المخلوق المكرم حيًّا وميتًا ، حيث إن جثته تقبر بعد موته ، تكريمًا من الله ﷻ له ؛ حتى لا يكون مُثْلَة ، وأيضًا لأجل أن لا يتأفف الناس من رائحتها ، وحتى لا تكون أكلاً للسباع أو الوحوش أو الطير ، وهذا نوع من التكريم .

ولكن الكائنات الأخرى ليست كالإنسان ، فجثثها ترمى في الطرقات ؛ لأن فيها رزقًا لكائن آخر ، فتأتي كائنات أخرى فتأكلها.

وهذه القضية يشير إليها القرآن في قول الحق ﷻ : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ * لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ * إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ * فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ * فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴾[1] .

فإذا تدبرنا قوله : ﴿ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ .. وجدنا أنه يعطينا سلبية في الدفاع عن النفس ، وكان من المفترض أن يعلمني القرآن كيف أدافع عن نفسي إذا أتى أحدهم ليقتلني ، ولكنه علمنا أن الإيجابية لها شكل آخر ، إن الإيجابية ليست بإظهار حركة عضلية أو انفعالية ، ولكنها قد تكون بترقيق النفس ، كما يقول له هنا : ﴿ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ .. فكأنه يقول له : إن الذي يوقفني عن

---

1 - سورة : المائدة ، الآية : 27 - 31 .

مقاومتك عند مجيئك لتقتلني أني أخاف الله رب العالمين ، فإذا كان هو يخاف الله مع أنه سيقتله دفاعًا عن نفسه حتى لا يُقتل فما هو الحال إذا كان هو البادئ بالقتل ؟! إذًا فهذه ليست إيجابية من نوع عضلي ، وإنما هي إيجابية بترقيق قلب الذي يهدد بالقتل ، ولكي ينبهه قال له : أنا وأنت لنا إله ، وسوف نرجع إليه ؛ ولذلك فإنك لو قتلتني فلن أقتلك ؛ لأنني أخاف الله رب العالمين ، فإذا كان يخاف الله وهو معتدىً عليه وخائف ، فمن باب أولى أن يخاف الآخر من الله ﷻ ؛ لأنه هو المعتدي .

ثم لما قتله جلس أمام جثته لا يعرف ماذا يفعل ؛ لأنها كانت أول حادثة من نوعها على الأرض .. ﴿ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ ﴾ .. إذًا فقد علمه حيوان الدفن ، فكأن الحيوان نفسه كان معلِّمًا لقاتل أخيه أن يواري سوأة أخيه .

﴿ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴾ .. لم يقل الحق ﷻ : " فقبره " ، وإنما قال : ﴿ فَأَقْبَرَهُ ﴾ ؛ وذلك للفرق الأسلوبي بين : " قبره " و : " أقبره " ، فـ " قبره " للذي يواري بالفعل ، و" أقبره" .. أي علَّم غيره أن يقبره ، أي علَّم الموجودين أن يقبروه .

﴿ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ ﴾ .. وكأن عملية القبر هذه أو الإقبار ليست آخرة صلته بالوجود ، وإنما ستكون له عودة إلى وجود آخر .

لكن يلاحظ أنه في الآيات الأولى لم يقدم المشيئة ، ولكنه في هذه الآية قدمها ؛ وذلك لأن الساعة علمها عند الله ﷻ وحده ، فالمشيئة ليست متعلقة بالنشر ، وإنما بتحديد ساعة النشر ، وهذا يدل على مدى الدقة .. ﴿ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ ﴾ ؛ لأنه لو قال : " أنشره " مباشرة ، دون أن يقدم المشيئة فمن الممكن حينئذٍ أن يأمل أحد في معرفة وقتها ، ولكنه قدم المشيئة حتى يظل سر الساعة محفوظًا ، لا يأمل أحد في معرفته .

كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ
صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾
وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾

﴿ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ ﴾ .. بعد أن تكلم الحق ﷻ عن هذه المقدمات قال : ﴿ كَلَّا ﴾ .. وهي كلمة ردع وزجر عن الكفر بعد هذه النعم ، فما كان يصح أن يكفر بعد هذا كله لا رغبًا ولا رهبًا ، فهو ليس بعاقل ، ولا يفعل ما هو في مصلحة نفسه .

﴿ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ ﴾ .. ولنتأمل تلك الدقة في الأسلوب ، فلم يقل : " لم يقض ما أمره " ، مع أن " **لم** " نافية ، و " **لما** " أيضًا نافية ، فما الذي جعل الحق يعدل في أسلوبه عن " **لم** " إلى " **لما** " ؟!

وذلك لأن " **لم** " إذا دخلت على الأسلوب فإنها تفيد نفي الفعل في الماضي ، ومن الجائز في وقت الكلام أن يكون النفي قد انتهى ، كأن تقول : " لم يحضر زيد ، ثم حضر " .. أي : لم يحضر في الماضي ، ولكنه حضر الآن ، ولكن : ﴿ لَمَّا يَقْضِ ﴾ دليل على أنه إلى ساعة الكلام ، وإلى ساعة التوبيخ ، وإلى ساعة هذا العرض .. لم يحدث قضاؤه ، فكأن عدم قضائه لما أمره به ربه مستمر أيضًا حتى لم ينقطع النفي ، فإن " لم " ينقطع نفيها ، أما " لما " فلا ينقطع نفيها .

وكذلك توجد في " **لما** " ميزة أخرى ، وهي أنك تستطيع أن تقول : " لم يحضر زيد ، ولن يحضر " .. أي إنها قد تعطي معنى نفي الماضي والمستقبل ، أما " لما " فمن لطف الله ﷻ في

الأسلوب أنها لا تأتي نافية للمستقبل فتقول : " لما يثمر بستاننا وقد أثمرت البساتين " ؛ لذلك فمن يسمع هذه العبارة فقد يعود إلى الحق ﷻ فينزجر وينتهي عن ما يفعله .

﴿ فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ﴾ .. وبعد أن تكلم عن أصل خلق الإنسان ، وبيَّن أن تكريمه وسيادته ليست من عنصره ، وأن هذا الإنسان لم يؤمن بربه رغبًا أو شكرًا على ما أوجده وزوده في هذا العالم ، ولم يكن رهبًا مما يئول إليه ، لا هذا ولا ذاك ، وهذان هما لونا الإنسان ، فالإنسان لونان : لون يأتي بالرغبة والإقناع ، ولون يأتي بالبطش ، فلم يفد معه البطش ولا الإقناع .

أراد بعد ذلك أن يتكلم عن تقنيات الحياة ، هناك تكلم عن أصل الحياة : ﴿ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴾ ، ثم بعد ذلك أراد أن يتكلم عن مستبقيات تلك الحياة : ﴿ فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ﴾ .. فهو يريد أن يلفته إلى صفة القدرة أولاً ، وإلى صفة القيومية ثانيًا ، ويقول له : إنه ﷻ قائم على أمرك ، فلقد خلقك وأمدك بالحياة ، ثم أعطاك مقومات استبقاء هذه الحياة .

﴿ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴾ .. كلمة الصب في : ﴿ صَبَبْنَا الْمَاءَ ﴾ تشعر بالتدفق بغزارة وقوة ، فهل هذا يعني أنَّا صببنا الماء صبًّا بالأمطار ؟! ومن أين تأتي تلك الأمطار؟! إنها تأتي من تبخر الماء الذي يوجد في الأرض أصلاً ، ثم يصعد البخار إلى السماء ، أي يتقطر تقطيرًا ، ثم يتبخر ، ثم يصعد ويتجمع سحابًا ، فيصادف المنطقة الباردة فيتقاطر مطرًا بإذن الله ﷻ.

إذًا فالآية تتحدث عن الماء الموجود في الكون أولاً قبل أن يحدث البخر والمطر ، عندما خلق الله الأرض واستخلف فيها الإنسان أعطاه كمية من المياه ، ثم سلكه ينابيع في الأرض ، وجعل له البحار والأنهار والعيون ... إلى آخره ، ثم بعد ذلك فإن عوامل التبخير تتحكم ، ثم يعطينا الله ﷻ المطر ، فكأن كلمة : ﴿ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴾ تعطينا العملية الأولى .

﴿ ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا ﴾ .. وهذا الكلام واضح ، فهو يعمل بالزراعة ، فهذه النبتة الضئيلة تنبت من الطين ، ومن الممكن أن تكون حاملة لجزء كبير منه ، هذه النبتة إذا

أمسكتها تجدها صغيرة ، فكيف استطاعت هذه النبتة أن تفرع هكذا لولا وجود قيومية تمدها بهذه الحياة ، فإذا نظرنا مثلاً إلى حبة الحلبة نجدها تتعمق في الأرض ، وفي نفس الوقت تنمو لأعلى ، وإذا كانت الأرض جافة ومتشققة فإنها تلفظها إلى الخارج ، فكيف يقوى هذا النبات الضعيف على هذه العملية ؟! إلا بما أودع الله فيه من قوة بقيوميته ﷻ .

وكلمة : ﴿ ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا ﴾ تدلنا على أن التشقيق أيضًا فيه أشياء ، بدليل أننا عندما نقوم بزرع شيء فلابد من حرث الأرض ؛ كي نجعل الأرض هشة ؛ وتكون هشة حتى يتخللها الهواء ، وأيضًا حتى تنفذ أشعة الشمس إليها ، وإذا لم تحدث هذه العملية فلن تصلح الأرض للزراعة ، إذًا فهذا النبات الذي يتطلب وجود أكسوجين أسفل التربة لنمو جذوره .. يحتاج إلى تربة لها مواصفات خاصة ، فلا هي رملية لا تمسك الماء ، ولا هي طينية سوداء تمسك الماء بشدة لا تسمح بتخلله للنبات ، فالتربة الطينية الملتصقة لا تقبل الماء ، ولا تسمح بدخول الهواء وأشعة الشمس لعدم وجود تشققات بها ، والتربة الرملية مع أنها مخللة وتسمح للعناصر السابقة بالدخول إلا أنها لا تمسك الماء فيها ؛ لذلك فالنبات يحتاج لتربة بين بين ؛ كي تمسك الماء ، ثم نقوم نحن بمساعدة التربة بتخليلها بالحرث ونحوه .

﴿ ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا ﴾ .. لحدث يأتي من أعلى ، ولحدث يأتي من أسفل ، والحدث الذي يأتي من أعلى هو أن يدخل فيها الهواء وأشعة الشمس ، والحدث الذي يأتي من أسفل أنها تقوى وتخضر .

﴿ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا * وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴾ .. والحب هو كل ما نتغذى به ، فأتى بالحب مثل الأرز والفول وكل ما نعرف من الحبوب ، ثم أتى بالعنب ؛ لأن في العنب خاصيتين : فمن الممكن أن يكون فاكهة ، ومن الممكن أن يكون غذاء لنا ، والقضب هو النباتات التي تؤخذ طرية خضراء ، مثل البقدونس والجرجير ، ثم تنبت مرة أخرى .

﴿ وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً * وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴾ .. وبعد أن أورد هذه النعم من البقوليات وغيرها أتى

بالدهنيات ، فقال : ﴿ وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً ﴾ ، ثم بعد ذلك قال : ﴿ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴾ ؛ لأن كل الأشياء السابقة قد تفيدني في غذائي ، ولكن مقومات الحياة ليست غذاء فقط ، وإنما هناك أشياء أخرى ؛ لذلك قال الحق ﷻ : ﴿ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴾ .. و﴿ غُلْبًا ﴾ جمع أغلب أو غلباء ، والأغلب والغلباء الأصل فيها أنها العنق تنتفخ أوداجه وتشد أعصابه ، وذلك عند غضب الإنسان ، فهو بهذا التعبير يريد أن يعطيني صورة للغابات ، حيث الأشجار الكثيفة الضخمة ؛ لأنني أريد لغير الأكل أخشابًا لأصنع منها أشياء أخرى ، كنول أو محراث أو أسقف بيت أو ما شابه ذلك ، فـ﴿ حَدَائِقَ غُلْبًا ﴾ .. أي كثيفة .

﴿ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴾ .. الفاكهة نعرفها ، فما الأب ؟!

لسيدنا **أبي بكر** رضي الله عنه قصة مشهورة حين سئل عن الأب ، فقال : " **أيُّ أرض تقلني ، وأيُّ سماء تظلني إن قلت في كتاب الله بغير علم؟!** " .. فسيدنا **أبو بكر** رضي الله عنه وقف عند مجرد اللفظ .

وقريب منها قصة لسيدنا **عمر** رضي الله عنه ، حين قال : " **الفاكهة عرفناها ، فما هو الأب؟!** " فهز ربطة كانت معه ، وقال : " **هذا هو التكلف يا ابن أم عمر ، وما عليك إن لم تعرف معنى الأب ؟! شيء امتن به الله على عباده ، وهل كل أجناس النبات تعرف؟!** " .. فما عليك إلا أن تجدها وتتمتع بها ، فهل انتفاعك بالشيء يترتب على معرفتك اسمه ؟!

فسيدنا **عمر** رضي الله عنه ينبهنا بهذه القصة إلى أن لا نتنطع ؛ لأن انتفاعك بالشيء لا يستلزم بالضرورة أن تعرفه ، فهل إذا وجدت فاكهة يأكلها الناس لا أنتفع بها لعدم معرفتي اسمها ؟! فكأنه يقول للناس : إن الذي تعرفونه من كتاب أنتم عاملون به ، والذي لا تعرفونه فخذوه على اعتبار أنه من عظمة الله ﷻ ، ومن خلق الله ﷻ .

وكذلك يدلنا على أن **أبا بكر** رضي الله عنه على جلالة قدره ، **وعمر** رضي الله عنه بسمو منزلته لم يجدا غضاضة ولا خجلاً في أن يمر عليهما لفظ لا يعرفانه ، فهما يُعلِّمان الناس أمانة أداء العلم ،

الخليفة نفسه يعلِّم الناس أمانة أداء العلم ، وهذا ليس فيه أي غضاضة ، فإن الذي يغض من نفس الإنسان ، بل قد يحمله على أن يَكذِب في العلم هو كبرياء ذاته أمام السائل ؛ لذلك فهذا هو السبب في قولهم : **من قال، لا أدري.. فقد أجاب** .. كيف أجاب وقد قال : لا أدري ؟! لقد أجاب فعلاً ؛ لأنه بقوله هذا فقد كلفك بأن تسأل غيره ، أما لو كان أجابك خطأ فكنت ستطمئن إلى أن هذا هو الجواب ، فتضيع الحقيقة منك ، ويضيع منك الصواب ، وليس من العيب أن يُسأل الإنسان عن شيء لا يعرفه فيقول : لا أعرف .

ولقد كان **لسيدنا عمر** رضي الله عنه مواقف كثيرة مثل ذلك ، وهو لا يبالي ، فمثلاً ذات مرة كان يجلس مع القوم فأحدث .. خرج منه ريح ، فلما أرادوا أن يصلُّوا قال : والله هممت أن أصلي ، حياء أن يقال : أحدث أمير المؤمنين وهو جالس في المجلس ، ولكنه رضي الله عنه وجدها كبيرة أن يصلي هكذا ، وتلك هي أمانة الإمامة ، ولكن هناك من يقوم للصلاة وهو محدث خوفًا من أن يقول الناس : إنه أحدث ، مع أن هذا الأمر ليس به أي غضاضة ؛ لأنه أمر طبيعي يحدث لكل الناس ؛ لذلك قام **سيدنا عمر** رضي الله عنه فتوضأ ، ولم يرضَ أن يصلي هكذا ، فالحق أكبر من نفوسنا ، وفضوح الدنيا أهون من فضوح الآخرة .

﴿ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴾ .. ﴿ مَتَاعًا لَكُمْ ﴾ أي ذاتية مباشرة ، ﴿ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴾ أي غير مباشرة ، ولكنها ستئول إليكم أيضًا بطريق غير مباشر ؛ لأن هذه الأنعام متاع لنا أيضًا .

فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾

﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ ﴾ .. وتأمل اختيار كلمة : " الصاخة " ، حيث تؤدي إلى إسماع من لم يسمع ، فكلمة : " صاخة " مثل فرقة الحجر التي تكسر الرأس وتُسيل الدماء ، كأن الناس كانوا في حياتهم يسمعون ولا يستمعون ، فيقول : كلا ، فسيأتي صوت يرغمهم أن يستمعوا له ، فقد كانوا يدعون عدم السماع ، ولكن ذلك الصوت " صاخة " .

أفرأيت الأسلوب : ﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ ﴾ التي تصخ الأسماع ، فلا تملك أُذُن إلا أن تسمع ، لقد كان عندما ينادَى إلى الحق من قبل يدَّعي أنه لم يسمع ، فسيرغم على السماع ، فاللفظ نفسه مخيف ﴿ الصَّاخَّةُ ﴾ ، هي النفخة التي سيحدث بها ثورة الكون ، هي انقلاب في الوجود كله .

﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴾ .. فإن الود والوفاء والمحبة ، وكل هذه العواطف ستنتهي وتزول في ذلك اليوم .

وتأمل الترتيب في الفرار ، فإنه هام جدًّا : ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴾ .. فقد يقول قائل : إن هذا الترتيب مخالف للطبيعة ، فلو قيل : يرتبها استعلاء ، يعني : يفر من أخيه ، ومن أمه وأبيه ، ومن صاحبته ، ومن بنيه ..

أو يرتبها على اعتبار الأهم فالمهم ، يعني : إنها تأتي طردًا وعكسًا ، كأن يفر أحدهم من آخر ، فالذي يفر إنما يفر لأنه لا يستطيع أن يفعل شيئًا ، إما لأنه كان قديمًا يستطيع أن يفعل له ، ثم أصبح الآن لا يستطيع ، فيفر منه حتى لا يحرج ، أو يفر منه لأنه قد قصر في حقوقه ، فهو يخاف ولا يقدر على مواجهته ، فإذا أتيت إلى المعنى الأول تجد أنها ترتب عكسًا ، وفي المعنى الثاني ترتب طردًا ، كل إنسان في الوجود يدرك الحياة مع أخ ، وليس المقصود به الأخ الصلبي خاصة ، ولكن هو الأخ الذي ارتضيت أخوته ، ومن الممكن أن يموت الفرد أو يموت أبوه ، وهو مازال في بطن أمه ، أو تموت أمه أثناء ولادته ، أو قبل أن يدرك أن له أمًّا أو أبًا ، إنما قطعًا ما دام له وجود وأصبح مخاطبًا ومكلفًا فله إخوان ، فهذا أمر لابد من وجوده ، وليس من الضروري أن يكون له سوابق مع أم وأب ؛ لجواز أنه ربما بعد نضوجه لا يجد أمًّا ولا أبًا ، كما أنه ليس من الضروري أن يكون لكل واحد صاحبة ، وليس من الضروري أيضًا أن يكون لكل واحد بنون ، ولكن كل واحد لابد له من أخ ، وقبل أن يكون له صاحبة وبنون يكون له أب وأم ، وحاجته للأم أولية ؛ لأن الإنسان عند ولادته تحتضنه أمه ، وتقوم بكل ما هو متعلق به في أوليات حياته ، ولا يتنبه إلى مهمة أبيه إلا بعد أن يكبر ، وذلك من خلال إرجاء الأم لمتطلباته المادية حتى يعود الأب ، إنما الأوليات التي كانت موجودة فهي موكولة للأم ؛ ولذلك فالحق ﷻ حين وصى قال : ﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا ﴾[1] ، فالوصية للاثنين معًا ، ومع ذلك فالحيثيات المذكورة إنما هي للأم ، حيث قال : ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا ﴾ ، فهذه الحيثيات للأم ، فأين هي حيثيات الأب ؟! فأنت حين وُصيت في الاستهلال وُصيت بهما معًا ، فلماذا عند عرض الحيثيات عرضت حيثيات الأم فقط ؟! وذلك لأن حيثيات الأب ليست في حاجة إلى تذكير ؛ لأن الإنسان حين ينضج يعرف أن مرد كل أموره لأبيه ، لكنه لم يكن مدركًا لحنان أمه

1 - سورة : الأحقاف ، الآية : 15 .

وعطفها عليه ، فالذي لم يدركه وُجِّه إلى الحيثيات فيه ، والذي أدركه لم يوجه إليه ؛ ولعل هذا هو سبب قول الرسول ﷺ حين سأله أحد الصحابة : من أحق الناس بحسن صحبتي ؟ قال : " **أمك** " قال : ثم من ؟ قال : " **ثم أمك** " قال : ثم من ؟ قال : " **ثم أمك** " قال : ثم من ؟ قال : " **ثم أبوك** " [1] ؛ لأنه بعد أن ينضج عقل الإنسان يفهم أنه وأمه تبعًا للأب .

وإذا قيل : فلماذا يفر من أخيه ؟! نقول : لأنه من الممكن أن يخنقه أخوه لو تمكن منه ؛ فقد يكون قد أضله أو أغواه يومًا من الأيام ، أو زين له السوء ، وإما أن يكون من الناحية السلبية قد قصَّر في بعض حقوقه ، وكلا السببين يستلزم الفرار ، وكذلك الأم ، وكذلك الأب ، وكذلك الصاحبة ، وكذلك البنين ، ويفر من الأم والأب لأنه لم يبرهم كما ينبغي ، ولهم عليه حقوق ، ويفر من زوجته لأنه قد يكون أطعمها من حرام وحملها على محرم أو قبيح ، ويفر من بنيه لأنه لم يقم بحسن تربيتهم التربية المرادة ، أو قصر في حقوقهم ، فلهم عليه حقوق لم يؤدها إليهم ، وإلا لو كانوا في مناط المساعدة لما كان الفرار ، فما دام وُجد الفرار فهم في موقف مؤاخذة .

﴿ **لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ** ﴾ .. أي أن كل واحد منهم مكتفٍ بأمره ، وذاهل عما حوله ؛ ولذلك فلما قال رسول الله ﷺ : " **يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلاً** " . قالت **عائشة رضي الله عنها** : يا رسول الله .. النساء والرجال جميعًا ، ينظر بعضهم إلى بعض ؟! قال ﷺ : " **يا عائشة ، الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض** " [2] .

وبعد ذلك تأتي النتيجة .. ﴿ **وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ * وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ * تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ** ﴾ .. فكأن الناس قد انقسموا إلى قسمين : القسم الأول : ضاحك مستبشر ؛ لأن هذه هي أولى عتبات الغيب ، فإنه كان يحدث عن ذلك فيؤمن به إيمانًا

---

1 - أخرجه البخاري (5514) ، ومسلم (4621 ، 4622) كلاهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

2 - أخرجه مسلم (5102) .

غيبيًّا ؛ لأن الله قاله ، وقد كان وقتها غيبًا ، واليوم أصبح مشهدًا ، فالذي وافق منهج الله وأطاع يجد ما آمن به حقًّا ، وما قيل له صدقًا ، فيحمد الله أن أنقذه ، ويشكره على توفيقه له ، ويذكر إيمانه ، ويذكر ورعه ، ويذكر متاعب إيمانه فيضحك ويستبشر .

أما القسم الثاني فقد كان يقال له : هناك يوم آخر ، ينادى فيه ويحدث فيه كيت وكيت ، وكان ذلك غيبًا ، فلم يصدقه ، ولكن بمجرد حدوث أولى خطوة من خطوات الغيب وتحوله إلى مشهد تأكد أن كل ما كان يكذب به صحيح ، وأن ما فعله من أعمال سيئة سيحاسب عليها ، فماذا سيكون موقفه ؟! يحدث له انقباض نفسي ، ينطبع على وجهه ساعتها .

فالوجوه الأولى ابيضت ؛ لأنهم أيقنوا أن ما كان الله يعدهم به حق ، وأن الحياة السابقة تهون متاعبها أمام ما يقدمه الله لهم من نعيم مقيم ، وما دامت هذه أولية النعيم ، وكانت كما قال الله ﷻ ، فالذي سيأتي بعد ذلك سيكون كما قال الله ﷻ ، والوجوه الثانية على العكس من ذلك تمامًا والعياذ بالله .

﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴾ .. وبهذا التعقيب ختمت السورة الكريمة .

نسأل الله ﷻ أن يعدنا لهذا اليوم ؛ حتى نكون فيه من الضاحكين المستبشرين ، وأن يكفينا شر أنفسنا ، وأن يكفينا شر الشيطان ، وأن يحقق لنا آمالنا أجمعين ..

والحمد لله رب العالمين ..

علم

تفسير جزء

سورة التكوير

سورة التكوير

بسم الله الرحمن الرحيم .. أحمدك ربي ، وأصلي وأسلم على سيدنا محمد رحمة الله للعالمين ، وخاتم الأنبياء والمرسلين ، وبعد ..

نحن الآن مع خواطرنا حول سورة (**التكوير**) ، وسورة (**التكوير**) ككل سور القرآن لها عطاؤها وإيحاؤها الخاص بها ، وإذا ما استعرضنا آيات السورة الكريمة وجدنا أنها تتعلق من ناحية الأغراض بغرض يتعلق بأهوال يوم القيامة ، وغرض آخر يتعلق بالوحي من الله ووسائله ، من رسول مصطفى من الملائكة ، وآخر من البشر ، ثم موقف الناس من ذلك الوحي ، ثم تحقيق قضية تتعلق بمشيئة الله الأعلى .

هذا من ناحية الأغراض التي تتعرض بها السورة ، وأما من ناحية الأسلوب الذي أدى هذه الأغراض .. فإن الأسلوب ينقسم فيها إلى قسمين :

القسم الأول : شرط بأداة التحقيق في الشرط ، وهي " إذا " وجواب يتبع ذلك الشرط .

القسم الثاني : قَسَم ، وجواب يتبع هذا القسم ، ولكن القَسَم جاء على طريقة الإيجاب بنفي القسم ، وبعد ذلك المقسم عليه بأحواله .

إذًا فللسورة أغراض ، وأساليب تحقق هذه الأغراض .

فإذا ما استقبلنا الغرض الأول ، وهو شرح الأهوال التي تتعلق بقيام الساعة ، فإن هذا الشرح يأتي في اثنتي عشرة صورة ، كل صورة منها مقدمة بإذا والشرط في الاثنتي عشرة ، ثم يأتي جواب واحد على كل تلك الصور ، وهو : ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ ﴾ ..

فإذا ما استقرأت الشرط وجدت قول الله ﷻ :

﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ .. ثم عطف على الشرط في قوله ﷻ :

﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ * وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ * وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ * وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ * وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ * وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ * وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ * وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ * وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ * وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ * وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴾ ..

فالشرط معطوف عليه باثنتي عشرة صورة ، ولكن جواب الشرط في الجميع واحد .. هو : ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ ﴾ ، وهنا نجد أن الشرط بصوره المتعددة الاثنتي عشرة التي تتعلق بأحداث تتعلق بعضها بالسماء ، وبعضها تتعلق بالأرض ، وأخرى تتعلق بالأنعام المستأنسة ، وأحداث تتعلق بالوحوش المتوحشة ، وأحداث تتعلق بالنفس الموءودة ، وأحداث تتعلق بالبحار ، وأحداث تتعلق بالنار ، وأحداث تتعلق بالجنة ، كل ذلك يلاحظ في ذلك الشرط أنه يصور انقلابًا هائلاً للوجود المعتاد والكون الموجود ؛ لأن ما نعلمه واعتدنا عليه أن الشمس تؤدي مهمتها ، والنجوم تؤدي مهمتها ، والبحار كذلك ، ولا نلتفت إلى غير ذلك بسبب الرتابة والتعود .

وعرفنا أن الأنعام التي ننتفع بها وتؤدي مهمتها ، وعرفنا وتعودنا أن الوحوش حينًا تنفر من بعضها ولا تتجمع وحينًا تثبت ، وعرفنا كل تلك الصور المألوفة المعتادة ، والإلف والعادة تقتضي أن الإنسان قد يغفل عن الحدث الكوني ، وأي شيء اعتدت عليه دائمًا ولا تنتبه إلى خطره إلا حين يخرج الشيء عما اعتدت وألفت ، فالإنسان منا له حواسه وله أجهزته المتعددة المعروفة باستقامتها وانسجامها وأداء مهامِّها على الوجه السليم المعافى ، فلا تكاد تشعر بجهد من أجل ذلك ، فأنت ترى بعينيك ، ولكنك لا تشعر بوجودهما دائمًا ، وتشم بأنفك ، وتتكلم بلسانك ، ولا تشعر أو تحس بها بسبب تلك الرتابة والتعود ، رغم ما تؤديه

جميعًا لك من مهام جيدة ومهمة .

فإذا ما حصل للعين آفة ، ابتدأت تنتبه إلى وجود تلك النعمة .

إذًا فلابد من أن ينتبه الإنسان دائمًا إلى وجود نعمة معتادة مألوفة ؛ لأن رتابتها جعلته يفقد الشعور بها .

فوجود الأحداث في ذات النفس ضروري لينبه الإنسان إلى قيمة تلك الحواس فيه ؛ ولذلك تجد غالبًا أن أقرب الناس إلى الله هم أصحاب الابتلاء والآفات ؛ لأنه يشعر دائمًا بقيمة هذا العضو ، وما أصابه من عطب ، فيذكر نعمة الله ﷻ ، ويتذكر الله حين يتذكر نعمة الله فيه ، وحين لا يجد العلاجات يلجأ إلى الله وحده .

وإذا نظرت إلى " **كلمة التوجع** " التي يقولها الإنسان حين يتألم ، كلمة : " آه " ، تشعر أنها مختزل لكلمة : " الله " ، وكأن معناها أنه يفزع إلى من خلقه وكوّنه وحده ، وهو الذي وهبه تلك النعم ، وهو وحده الذي يستطيع أن يحفظ له إياها .

تلك الأحداث في الكون ترينا أن الإنسان يفقد الإحساس بالنعمة عندما تكون رتيبة ولا تتغير ، فيظل الناس ينعمون بما تعطي الأمطار من خير ، ولكنهم لا يشعرون بقيمة هذه الأمطار إلا إذا انقطعت عنهم فترة ، وحين تنعدم الأمطار لا يلتفت الناس إلى انعدامها إلا حين يرون آثار منع المطر ، فلا يجدون زرعًا ولا عُشبًا ، وبامتداد الأثر المباشر لهم في أن انعدمت حاجاتهم فيرجعون إلى السماء ويدعون .

إذًا فرتابة النعمة هي التي تُفقد الإنسان الشعور بها ، وهي التي تصيب الإنسان في نفسه أو فيما يحيط به مما ينفعه قيمة مذكرة بالخالق المنعم .

هذه القيمة المذكرة بالخالق المنعم تعطينا فكرة عن أن الوجود في نظامه العام قد تلحظ فيه بعض الشذوذ ، أو الخروج عن المألوف ، مما يعرفك أن هذا الوجود ليس آليًّا .

فالمكونات الفردية للأجناس العامة تنبهك أن وراء الناموس الذي أراده الله يوجد ناموس

أكبر وأقوى .

فمثلا .. يشذ العقل الإلكتروني فيقال : هو لا يُخطئ ، لماذا ؟! لأنه ليس له اختيار ، فكيفما تعده وتبرمجه فإنه لا يخطئ فيما برمجته فيه ، لكن العقل العادي للإنسان قد يخطئ ، وهذه مزية فيه ، حيث يستطيع أن يفتي في مسألة ، يستطيع أن يجرب ، فهذا دليل على قدرته ؛ لأنه لو كان لا يخطئ أبدًا ، ولو لم يكن مخيرًا ، ولا يستطيع أن يخالف ، لكان آلة جافة جامدة .

إذًا فمخالفته للطبيعة دليل كونيته ودليل حياته .

وكذلك نواميس الوجود .. لو كانت أموره رتيبة في الكون كنا نقول : إن هذا الكون يعيش بصفة القيومية لله ، وأن الله يطلق القانون في كونه ، وهو من فوق القانون قد يعطل ذلك القانون ، ولكن تأتي هذه الشواذ ، فإذا نظرنا فيها ، وأخذنا منها العبرة وجدنا أن وراء الكون ونواميس الوجود قوة ، إن شاءت جعلتها تؤدي نتائجها ، وإن شاءت عطلتها .

هذه النواميس ، وذلك التعطيل لها يعطينا فوائد ، أولها الفائدة العقدية ، وهي تثبيت إيمان المؤمنين ، ولفت انتباه الكافرين إلى قدرة الله ﷻ ، وبعد ذلك لها فائدة أنها تلفت الإنسان إلى النعمة .

وقد يسأل سائل فيقول: وما ذنب هؤلاء في أن يكونوا وسيلة إيضاح لغيرهم ؟! فنقول له : هو جعلهم وسيلة إيضاح ، ولكنه عوَّض أمام ما أفقده ؛ فتجد كل من أصيب بإعاقة في ناحية من النواحي قد أعطي شيئًا من المواهب التي تعوضه عن هذه الآفة ؛ ولذلك سمعنا قديمًا في لغة الناس : " **كل ذي عاهة جبار** " ، وربما كان النقص في التكوين في ناحية من النواحي سببًا من أسباب إيجاد موهبة من نوع آخر .

فمثلا قد نجد اعتراضًا من الناس الذين لا دين لهم فيقولون : إن الإنسان أصله حيوان ، وإن هذا الإنسان قد تميز بفكره عن الجنس الذي سبقه أي : الحيوان ، فلماذا خلق الله

مخلوقًا على صورة إنسان ، ثم بعد ذلك يسلب منه ما يميز هذا الإنسان وهو العقل ؟!

والجواب: لأن هذا العقل الذي هو أداة الإصلاح غالبًا ، يكون كذلك أحيانًا أداة إفساد ، فكما أن العقل يوجه الإنسان إلى الخير ، فإنه قد يمنعه عن الخير .

فإذا سلبه العقل ، وأعطاه شيئًا من صفاته فلا يُسأل عما يفعل ، لا في الدنيا ولا في الآخرة .

فرتابة الأشياء ، واعتياد الإنسان لها هو الذي يفقده الإحساس بها ، فإذا ما فقدها فإنه يشعر بها ، فالكون أمامنا رتيب مستقر ، فكيف نلتفت إلى أن وراء هذا الكون قوة أخرى إلا إذا وجدنا أن ذلك الكون قد خرج عن المألوف ، فيحدث في منطقة من المناطق زلزال مثلاً ، في حين أننا لا نستطيع أن نسجل الزلزال إلا بعد أن يقع ، بل إن بعض الحيوانات قد تتنبه قبل الإنسان إلى حدوث الزلازل ، وهذا الزلزال لم يحدث بقدرة الإنسان ولا غيره من المخلوقات ، بل بقدرة الله ﷻ.

فكل شيء لا يستطيع البشر أن يعرفوه دليلٌ على أن وراء الكون قوة أخرى ؛ ولذلك فعندما يظن الإنسان أنه يستطيع أن يتحكم في شيء من الكون تأتيه الأحداث لتخرج ذلك الكون عن المألوف ؛ حتى تلفت أنظارنا إلى الحق ﷻ.

فالسورة تصور لنا هذه الأشياء التي قد فتن الناس بها وبثباتها ودوامها واستقرارها واستمرارها وأداء مهمتها ، فيأتي عليها يوم تتغير وتتبدل ؛ لأنها مخلوقة يطرأ عليها التغيير ممن خلقها ﷻ.

فالمقطع الأول من السورة يحدثنا عن انقلاب هائل في الكون ، يجعل الإنسان يؤمن بأن هذا الكون متغير ، وما دام متغيرًا فهو مخلوق ، فلا دوام ولا استقرار له .

فيكون من النصاحة والوعي والعقل أن لا تتمسك بما يتغير ، وبما لا دوام له ولا استقرار ، بل يكون تعلقك بمن له الدوام والاستمرار ﷻ.

إذًا .. فمقدمة السورة تنبهنا إلى أن الأعمال التي يزاولها الإنسان غايات تدفع إلى وسائل ،

والإنسان لا يُقبل على الوسائل بهمة ونشاط وإقبال إلا أن تتضخم في نفسه الغاية ، فربنا سبحانه وتعالى يريد أن ينبهنا إلى أن الذي غايته هي الكون فستصير هذه الغاية إلى زوال ، وتلك الرتابة الموجودة في الكون ، وذلك المألوف كله سيتغير ، فوجب أن تقترن كل حركاتك بمن لا يتغير ، وهو الحق ﷻ .

ولنا هنا أن نتساءل تساؤلا هاما : لماذا يستهل الله ﷻ السورة بالغاية ؟! **والجواب** : لكي يُعرِّف الغاية بهذا الهول ، وبهذا الاضطراب ، وبهذا الفزع ، وأن كل ما تظنه أمامك رتيبًا وثابتًا ومستقرًّا سيزول .

خلق المتغير ، وهو الذي لا يتغير ﷻ ، وهذا يدفعك إلى التساؤل : إن الذي يغير هذه الأشياء عن رتابتها وعن نظامها .. ماذا يريد مني ؟!

فتكون الغاية قد اتضحت أمامك ، فتطلب الوسيلة عندئذ ، فتقديم الغاية والإشعار بها عن الوسيلة مراد ليوجهك إلى الوسيلة بحرارة وشوق ، وما دمت توجهت إلى الوسيلة بحرارة وشوق ، وأنها هي المنفذ الوحيد لإنقاذك من ذلك الهول ، وتلك الثورة في الوجود ، فيجب أن تقبل على تلك الوسيلة ، التي هي المنهج الإلهي .. منهج ربك ﷻ .

وكيف وصل إليك هذا المنهج ؟ لقد وصل إليك بواسطة الوحي ، الوحي من الله ﷻ لرسوله من الملائكة عليهم السلام ، ثم إلى رسوله من البشر ﷺ ؛ ليبلغه إلى الخلق ، فبعد أن ضخَّم لنا الغاية أعطانا الوسيلة .

ثم بعد ذلك تكلم عن قضيتين اثنتين متعارضتين ، ولكنهما في الواقع متفقتان ، وهما : **مشيئة العبد المختار فيما يختار ، ومشيئة المكوِّن له** ﷻ فيختم السورة بقوله ﷻ : ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ .

إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾

نعود للحديث عن الشرط وجزئياته ، فالشرط يتكون عادة من مقدمة تأتي أولاً ، ثم نأتي لها بالجواب ، فإذا وُجد الشرط وُجد جواب الشرط ، نعم وجود الجواب متعلق بوجود الشرط ، لكن إذا لاحظت التحقق وجدت أن الشرط نابع من الجواب ، كأن تقول لولدك : إن تذاكر تنجح ، أي لما تذاكر ستنجح ، لكنه لكي يذاكر يجب أن تتضخم مسألة النجاح في نفسه ، فيعرف لها متصورات ، ويعرف لها تبعات ، ويعرف لها ثمارًا .

إذًا فوجود الشرط في الذهن أولاً هو الذي يدفعك إلى إيجاد الجواب في الواقع ، أي أنه هو الذي يدفعك إلى أن تُقبل على الشرط لتحقق الجواب واقعًا ، فكأن الشرط واقع بين جوابين : جواب دافع ، وجواب واقع ، فالنجاح هو الذي يدفع التلميذ إلى أن يذاكر ، ثم بعد أن يذاكر بالفعل يتحقق له ذلك النجاح واقعًا .

﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ .. الصور موجودة : تكوير الشمس .. انفجار النجوم .. تسجر البحار .. تعطيل العشار .. سؤال الموءودة .. قرب الجنة .. وغير ذلك ، كل هذه المسائل تصويرية فقط لتقريب الصورة .

فنحن لا نستطيع أن نتصور أي شيء من الأشياء التي تغيب عنا إلا على ضوء ما نحسه .

فعندما يقول ﷻ : ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ .. فإن ذلك التعبير ليس فيه ما يدل على أن هذه الصورة ستحدث بالضبط ، وإنما هو يقرب لك الصورة تقريبًا يستوعبه الفهم من تصورات تكويرها ، وماذا يعني بمكورة ؟! فهي في واقعها مكورة .

﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ .. وقد يقول قائل : هي بالفعل مكورة ، فكيف ستكور يومئذٍ ؟!

نقول له : هل يصلك التكوير ، أم أثر ذلك التكوير وما ينبعث منه من أشعة ؟ ولكن عندما تحجب أشعتها فلن تراها ، إذًا فأشعة الشمس منبسطة في الوجود ، ولكن هذه الأشعة ستنقبض يومًا ما ، ولن تراها .

إذًا فهناك شيء تأتي مهمته بالبسط ، فإذا انتهت مهمته جمعته وطويته ، وآخر تأتي مهمته بالطي ، فإذا انتهت مهمته بسط .

فالمعنى في الآية أن الشمس انتهت مهمتها في ذلك الوجود ؛ ولذلك طويت أشعتها .

﴿ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ﴾ .. ومعنى الانكدار : هو الانصباب ، فالنجوم موجودة ، ومهمتها تتأتى وهي في وجودها ، فإذا ما هوت انتهت مهمتها .

﴿ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴾ .. تلك الجبال الثابتة الراسية التي تتحكم في استقرار الأرض فلا يحدث فيها اضطراب أو اهتزاز ، تلك الجبال ستزول أيضًا هي الأخرى ، حتى كأنها سراب ، كما في قول الحق ﷻ : ﴿ وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴾[1] .

﴿ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴾ .. وهنا نجد أن القرآن يأتي بكل الاستعمالات اللغوية ، وهو يستعمل أنسب معنى لغوي يؤدي هذا المفهوم .

العشار : هي النياق الحوامل ، ومفردها : عُشَراء ، والعشراء هي التي مر على حملها عشرة أشهر ، أي قاربت أن تلد ، فبعد أن كانت واحدة ستصبح اثنتين ، ثم بعد ذلك يأتي

---

1 - سورة : النبأ ، الآية : 20 .

منها اللبن ، وأهم شيء عند البدوي أن تأتيه الناقة باللبن الذي يكون منه غذاؤه ، وتلك هي أمتع أموال العرب .. العشار .

فهذه العشار لا يصبح لها قيمة يوم القيامة ، رغم قيمتها بالنسبة لذلك العربي .

﴿ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴾ .. ومعنى : " **حشرت** " أي : جمعت ، والوحوش هي الأنعام غير المستأنسة ، وهي لا تقبل أي مخلوق أن يجتمع مع ذوات جنسها .

وهذه الوحوش رغم توحشها وخطرها إلا أن الله ﷻ ذللها ، وجعل لها ما تُقاد به ، فالحق ﷻ هو الذي خلقها ، وهو الذي ذللها ، بدليل أنه ترك بعض الحيوانات الضعيفة عن تلك التي استأنستها ، وأنت لا تستطيع أن تستأنسها ، وهذا هو الامتنان الذي امتن الله به على عباده في قوله ﷻ : ﴿ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ ﴾[1] .

وهو يلفتنا إلى أن القوة التي ذللت هي الأكبر ، والتي لم تذلل هي الأقل .. ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴾[2].

والتعبير بكلمة : ﴿ حُشِرَتْ ﴾ يشعرنا أنها في طبيعة تكوينها لم تكن محشورة ، فالوحوش لا تجتمع بجميع أنواعها واختلاف أجناسها ؛ لأنها نافرة من بعضها ، وكذلك نحن ننفر ونخاف منها ، وهي دائما تهاجم فرائسها ، وتخاف بعضها البعض ؛ لأنها – مع أنها متوحشة – إلا أن هناك وحش يفترس آخر ، وهذا يفترس ذاك ، وهكذا ، فيخاف أحدهم من الآخر ، وكل وحش له وسيلة الدفاع التي يدافع بها عن نفسه ، فإذا صادف القويُّ الضعيفَ افترسه .

هذه الوحوش التي هذه هي صفاتها .. نجدها في ذلك اليوم قد جُمعت كلها ، بل ومذهولة أيضًا ، فكأن الهول والفزع الذي سيصيب الكون سيعم الجميع ، حتى تلك الوحوش

---

1 – سورة : يس ، الآية : 72 .

2 – سورة : يس ، الآية : 71 .

المتوحشة النافرة .

﴿ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴾ .. بمعنى : **اتقـــدت ، وصارت نارًا** ، و ﴿ سُجِّرَتْ ﴾ بمعنى : **امتلأت** ، و ﴿ سُجِّرَتْ ﴾ بمعنى : **حُفظت من أن تهيج وتضطرب** ، ثلاثة معانٍ في اللغة ، فأي معنى من هذه المعاني يقصده الحق ﷻ ؟!

إن إطلاق اللفظ يشتمل على كل هذه المعاني ، وهذا يعطينا الفائدة ، وهي زوايا متعددة من المعاني .

فستكون البحار كلها نارًا ، فهو يقرب لنا الصورة ، و**سجرت التنور** أي : ملأته بالحطب ، و**سجرت** بمعنى : منعت من أن تضطرب وتهيج ، فيكون أي معنى من هذه المعاني يمكن أن يذهب إليه الذهن ، والمراد أنها ستخرج عما ألفتم واعتدتم إلى أمر لم تعتادوه ولم تألفوه ، أمر مهول مفزع ، وهذا هو المعنى النهائي المراد .

﴿ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴾ ..

ما هي النفس ؟ النفس : هي كلمة لم يستطع الفلاسفة من قديم أن يحددوا معناها ، فتخبطوا فيها ، فمرة يقولون : هي الروح ، ومرة يقولون كلامًا آخر بعيدًا عن معناها ، فلم يستطع أن يأتي بتحديد لها إلا القرآن .

فكلمة **نفس** تطلق على امتزاج الروح بالمادة ، فقبل أن يمتزج عنصر الروح بالمادة لا يكون هناك نفس ، فالروح وحدها لا تكون نفسًا والمادة وحدها لا تكون نفسًا ؛ ولذلك فإن الحق ﷻ حين أراد أن يعبر عن سلب الحياة عن أي إنسان قال : ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾[1]، ومعنى : " **يتوفاها** " أي : يفصل روحها عن جسدها ، ومن هنا نفهم معنى الأنفس ، فمدلول النفس : هو امتزاج الروح والجسد معًا .

فما دام هذا هو مدلول النفس ، فكيف يقال : ﴿ زُوِّجَتْ ﴾ ؟! يقول بعض العلماء : إن

---

1 - سورة : الزمر ، الآية : 42 .

معنى : ﴿ زُوِّجَتْ ﴾ أي : التقت الروح بالجسد يوم القيامة مرة أخرى ، بعد أن كانا قد افترقا في الدنيا ، فجمع الشيء إلى الشيء يسمى تزويجاً ، زوج المادة بالروح فعادت إليها مرة أخرى .

وهناك معنى آخر لقول الحق ﷻ : ﴿ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴾ .. أي : أن خلق الله أصبحوا أزواجًا ، أي : أصنافًا ، فالمتقون في الدرجة الأولى وحدهم ، والمتقون في الدرجة الثانية وحدهم ، والمتقون في الدرجة الثالثة وحدهم ، وأهل الشمال وحدهم كلٌّ في درجة .. وهكذا .

وهذا هو ما جاء في **سورة الواقعة** ، حيث قال الله ﷻ : ﴿ وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلاثَةً ﴾ أي : أصنافًا ثلاثة .. ﴿ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ * وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ * وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ * فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ .. ثم بعد ذلك : ﴿ ثُلَّةٌ مِنَ الأَوَّلِينَ * وَثُلَّةٌ مِنَ الآخِرِينَ ﴾[1].

فـ : ﴿ زُوِّجَتْ ﴾ يعني وُزعت أصنافًا ، أو أنها في ساعة الحشر تأتي كل فرقة بإمامها ، كما قال الله ﷻ : ﴿ يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ ﴾[2].

وقد يكون معنى : ﴿ زُوِّجَتْ ﴾ أي : قرنت بعملها ، فهناك أشياء كثيرة تصير إلى الفناء والزوال ، وهناك أشياء قليلة تدوم بعض الدوام ، ومعنى ذلك أن هذه الأشياء التي تزول تفارقني لأني أفارقها ، أما تلك التي تدوم فهي لا تفارقني ولا أفارقها ، فاقتراني بعملي في الدنيا ليس طبيعيًّا ، والإنسان قد يعمل العمل في الدنيا ويظن أنه قد انتهى ، أي : يذنب ذنبًا ويظن أن هذا الذنب قد انتهى وفارقه بعد أن فعله ، أو يعمل خيرًا ويظن أن ذلك الخير قد انتهى .

---

1 - سورة : الواقعة ، الآية : 7 - 14 .

2 - سورة : الإسراء ، الآية : 71 .

فـ ﴿ زُوِّجَتْ ﴾ أي : قرنت بأعمالها ، فالذي كنت تهرب منه ، أو كنت قد نسيته ستجده أمامك .

﴿ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ﴾ .. وهل تُسأل الموءودة ؟! أم أن وائدها هو الذي يُسأل ؟! تلك هي عظمة القرآن في العطاء اللغوي .

﴿ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ﴾ .. وهذا التعبير الرائع بأن وأد البنات عملية فظيعة جدًّا ؛ لأنها اعتداء على جزء منك كنت أنت سببًا في إيجاده ، ومن مثله أنت وُجدت ، ومن مثله تطلب الكون نظامه ، والدليل على قسوة القلب وقسوة العاطفة ، أن السبب في مجيئها هو نفسه السبب في ذهابها .

أنت أقدمت على هذه العملية إقدامًا يخالف منطق العقل والوجدان وكل منطق ، فلابد أن يكون هناك سبب قد دعاك إلى تلك الفعلة المشينة .

فالله ﷻ يسأل تلك الموءودة : ماذا فعلتِ لكي يقتلك أبوك وأنت في هذا السن ؟! فهذا السؤال وإن كان موجهًا إلى الموءودة إلا أنه تقريع للأب ، كما يسأل الله ﷻ يوم القيامة عيسى ابن مريم عليه السلام ، ولكن يكون هذا السؤال موجهًا إلى أولئك الذين ادعوا في عيسى أنه إله أو ابن إله ، فيقول له : ﴿ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾[1] .

فكأن قوله ﷻ : ﴿ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ﴾ أي : أخبريني أي ذنب فعلتِه حتى يئدك أبوك ، فكأن هذا تقريع للأب ، بأنه ما كان يصح أن يعتدي عليها أبدًا إلا إذا كانت قد ارتكبت ذنبًا ، وحيث لا ذنب ، فمعنى ذلك أنك قد افتريت عليها بدون ذنب تستحقه ، فهذا تقريع على أعنف صور التقريع .

﴿ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴾ .. ومعنى : ﴿ نُشِرَتْ ﴾ أنها كانت مطوية ، وهذا النشر له

---

1 - سورة : المائدة ، الآية : 116 .

صُوَر ، لقد نشرت الصحف ليأخذ كل واحد صحيفته ، كأن صور الأعمال في الأرشيف ، ثم تأتي الريح وتبعثر ذلك الورق ، فتذهب كل صحفية إلى صاحبها لا تخطئه .. ﴿ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾[1] .

ولذلك يقول الله ﷻ : ﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾[2] .

﴿ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ﴾ .. حتى تلك السماء التي لا نعرف عنها إلا أنها شيء نراه فوقنا فحسب ، تلك السماء سوف نجدها غير موجودة ، وهذا أمر مفزع جدًّا ، فالشمس والنجوم والبحار والسماء .. كلها ستتغير وتتبدل .

﴿ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ * وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴾ ..

إذًا فتحدث أولاً عملية هول تفزع الناس جميعًا ، ثم بعد ذلك ينتهي الهول في الصورة بأن ترى الناس عيانًا بيانًا ويقينًا أمام أعينها ، وهذا هو معنى قول الحق ﷻ : ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ * كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ * كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴾[3] .. شاهده كان خبرًا سمعته ، فكان علم يقين ، فصار الآن عندك عين يقين .

فبعد أن كان صورة ذهنية ، وهي علم اليقين ، أصبحت صورة حسية تراها بعينك ، وهي عين اليقين ، ثم الصورة الثالثة والأخيرة ، والتي ليس فيها جدال ، وهي حق اليقين .

كما في قول الحق ﷻ : ﴿ فَلَوْلاَ إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ * تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ *

---

1 - سورة : الإسراء ، الآية : 14 .

2 - سورة : الكهف ، الآية : 49 .

3 - سورة : التكاثر ، الآية : 1 - 7 .

فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ * وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ * فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ * وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ﴾[1].

ففي قـــول الحق ﷻ : ﴿ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ * وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ * عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ ﴾ .. كان القياس اللغوي يقتضي أن يكون الجواب هو : " علمت نفس ما أُحضر لها " ، إنما قال : ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ ﴾ ، وكأن النفس هي التي أحضرت ، فهي لم يُحضر لها شيء ، وإنما هي التي فعلت ، ولو لم تفعل لما أحضرت ، فكأن هذه النفس هي أساس عملية الإحضار .

فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾

تنتقـل السـورة بـعد ذلك إلى الغرض الثاني ، وذلك بـعد تضخيم الغاية بـهذا التضخيم والتخويف ، ذلك الغرض هو أن لا تغتروا بثبـات هذا الوجود أمامكم ، ولا برتابـة هذه الموجودات ، فسوف يأتي عليها يوم لا تكون شيئًا ، وسيحدث ثورة في الكون ، وانقلاب في الوجود ، وفي كل شيء ألفتموه .

1 - سورة : الواقعة ، الآية : 86 - 95 .

فبذلك يكون قد ضخم لنا تلك الغاية ، ونبهنا إلى أن نستعد لهذه الغاية بالوسيلة المناسبة .

فما هي تلك الوسيلة ؟!

إنها منهج الله ﷻ .

وهذا المنهج العظيم .. كيف وصل إلينا ؟!

لقد وصل إلينا عن طريق الوحي .

وما هي مراحل ذلك الوحي ودرجاته ؟!

إنها عبارة عن مصطفى من الملائكة يأخذ من الله ليعطي مصطفى من البشر ، وهذا المصطفى من البشر يبلغنا بمراد الله ﷻ منا ، إذن فكان ولابد أن يعالج الأمر بتلك الصورة .

هذه هي القضية باختصار ..

فإذا أردنا أن نتكلم عن تلك الوسيلة بشيء من التفصيل فنقول : **الوسيلة** : هي أن يتبع الإنسان منهج الله ، ومنهج الله لا يمكن للعقل أن يبتكره ، فقصارى ما يفهمه العقل من قضية العقيدة هو أن يؤمن بوجود قوة عُليا وراء ذلك الكون ، أما اسم تلك القوة فالعقل لا يعرفها ، وكذلك مطلوبات هذه القوة لا يعرفها العقل ، والغاية التي تنشأ من مخالفتها كذلك لا يعرفها ، والغاية التي تنشأ من طاعتها لا يعرفها العقل أيضًا .

فمنتهى قدرات العقل هي أن يؤمن إيمان القمة بوجود قوة وراء ذلك الكون ، وهذه القوة هي التي تعبر عن نفسها ، فتقول : اسمي كذا ، ومطلوبي كذا ، ومن أطاعني فله كذا ، ومن عصاني فعليه كذا ، فلابد إذًا أن يوجد تبليغ .

فحتى ينجح المنهج أو الوسيلة في تلك الغاية فلابد أن يكون صادرًا عن الحق ﷻ ، فنجد أن الحق ﷻ يوثق لنا المنهج الذي ينظم حركة حياتنا .

فإن كنت قد آمنت بوجود الله ﷻ ، وبأن الله ﷻ هو الذي صنعك وخلقك ، وهو الذي سيضع لك قانون صيانتك ؛ لتكون صائرًا إلى غاية تحبها وتحمدها ، فلابد من أن تأخذ ذلك

المنهج من الله ﷻ ، وهذا أمر مفروغ منه ، فهذا المنهج لابد من أن يكون من الله ﷻ .

إذًا فما هي الآفات التي قد تطرأ على هذا المنهج ؟!..

من أخطر ما يطرأ من آفات على ذلك المنهج هو أن يقـــنن الخلق للخلق ، فالخلق جميعًا متساوون في كل شيء ، فما الذي يجعل واحدًا من الخلق أهلاً لأن يقنن لبقية الخلق ؟!

فالذي يقنن لحركة شـيء يجب أن تتوافر فيه خصال ، وهي : أن يكون عالمًا بـها ، وأن يكون حـكيمًا ، وأن يكون لا هوى له ولا منفعة فيما يقنن ، وإلا فإن أي إنسـان من البشـر إذا قنَّن فلابد أن يكون له هوى في نفسه يسبق تقنيناته بما يجعلها مجنحة إلى صالحه ، وهذا أمر لا يتأتى في الحق ﷻ .

فكيف وصل إلينا إذًا هذا المنهج من الحق ﷻ ؟!..

إن الحق ﷻ لن يخاطب كل فرد خطابًا مفردًا خاصًا بـه ؛ لذلك فإن الخبر يجب أن يأتينا منه بواسطة ، هذه الواسطة هي التي تقوم بـعمليات التوالي التي تعطي من الأقـوى إلى القـوي إلى الأقـل قـوة ، فوسـائل المنهج من الله هي رسـول مصطفى من البشـر ، يتلقـى عن رسـول مصطفى من الملائكة ، كما قـال ﷻ : ﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلاَئِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ ﴾[1] .. أي : قـمة مصطفاة من البشـر تتلقـى عن قـمة مصطفاة من الملائكة ، وهذه القـمة المصطفاة من الملائكة تتلقى عن الحق ﷻ .

فالحق يريد أن يقول : إن المنهج الذي يحقق لك الغاية التي تقدمت في أول السورة ، وسبق الكلام عنها لا يتأتى إلا بـذلك المنهج ، من المنهج تطمئن إلى منهج دينك ، وتطمئن إلى منهج إسلامك ؛ لأن مبلغه مصطفى من الملائكة وصفته كذا وكذا ، إلى مصطفى من البشـر وصفته كذا وكذا ، وهذا المصطفى من البشـر نعرفه ، ونعرف طفولته ، ونعرف طبـاعه وصفاته ، ونعرف حـياته كلها ؛ فلذلك لم يطنب الحق ﷻ في بـيان صفته ﷺ ، فقـال ﷻ : ﴿ وَمَا صَاحِبُكُمْ

1 - سورة : الحج ، الآية : 75 .

بِمَجْنُونٍ ﴾ ، وكلمة : " صاحبكم " أي : من تعرفونه جيدًا من قبل أن يؤدي هذا المنهج إليكم ، عرفتموه أمينًا ، عرفتموه حكيمًا ، عرفتموه عاقلاً ، أي : لم آت إليكم برسول من جهة أخرى بعيدة عنكم ، بل هو منكم ؛ وهذا هو معنى قول الحق ﷻ : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾[1] .

ولكن **جبريل** عليه السلام المصطفى من الملائكة غائب عنا ؛ فلذلك أطنب الحق ﷻ في وصف ذلك المصطفى من الملائكة .

فإن آفة المناهج التي سبقت الإسلام أنها فسدت بالتناولات ، فسدت من جهة المبلغين عن هؤلاء الرسل المصطفين من الله ﷻ ، فحرَّفوا ، ولووا ألسنتهم ، وكتموا ، وزادوا ، وفعلوا كل شيء ، فالله ﷻ يريد أن يبين أن منهج الإسلام مخالف لكل هذه المناهج قبلنا ، فهو منهج موثق تمام التوثيق ، فصاحبكم **محمد** ﷺ أنتم تعرفونه جيدًا ، وخبرتموه :

لَقَّبْتُموه أَمينَ القَومِ في صِغَرٍ وَما الأَمينُ عَلى قَولٍ بِمُتَّهَمِ

خاصة وأنكم حتى بعد ما أخبركم بهذه الرسالة ، وكان بعضكم لا يزال كافرًا ، فكان لا يأتمن على ودائعه النفيسة إلا هذا الرجل ﷺ ، أليست هذه شهادة منكم لأمانته ؟!

وأما الذي لا تعرفونه وهو **جبريل** عليه السلام فوقِّر بحيثيات ، هذا هو الغرض ، فالغرض هو الوسيلة للغاية ، والوسيلة للغاية إنما هو المنهج ، والمنهج يحتاج إلى نقل ، والنقل يحتاج إلى مصطفى من البشر ، ومصطفى من الملائكة .

فتكلم الحق ﷻ عن هذا الغرض في القسم الثاني من السورة ، وعالجه بأسلوب القسم ، فعالج الغرض الأول بأسلوب الشرط والجواب ، وهذا عالجه بأسلوب القسم ؛ لأن القسم هو غاية البرهان .

فيقول الحق ﷻ : ﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ * الْجَوَارِ الْكُنَّسِ * وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ *

---

1 - سورة : التوبة ، الآية : 128 .

وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ على أي شيء يقسم ؟! ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ * مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ وهذا هو ما يتعلق بالمصطفى من الملائكة ، وهو جبريل عليه السلام ، ذلك الغائب عنا ، ثم عن النبي ﷺ يقول : ﴿ وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾ ثم يثبت الالتقاء بين المصطفى من البشر وبين المصطفى من الملائكة ، فيقول : ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ﴾ ، ثم يسد عليهم جميع الأبواب : ﴿ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ .. كل المنافذ مغلَّقة عليكم .. ﴿ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ ، فلا مذهب إلا أن نلتقي بذلك المنهج ، بواسطة ذلك الرسول .

﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ﴾ .. وجاء القسم هنا على طريقة النفي ، وظاهر هذا القسم أنه لم يقسم ، ولكنه لو لم يكن قد أقسم لما أتى بجواب للقسم ، ولكنه أتى بالجواب فقال : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ .. فهذا هو جواب القسم ، فكيف يكون جواب قسم مع قوله تعالى : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ﴾ ؟!

لابد أن نعلم أن القسم بكلمة : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ﴾ آكد من قسم الإثبات ؛ لأنك حين تقسم بشيء على شيء فقد يكون عند المخاطب شبهة شك ؛ لأنك تؤكد له بالقسم ، والاعتراف بالشك يجعلك تؤكد ، لكن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يقول : إذا كان من يقسم على شيء يقسم لوجود شبهة فيه ، فهذا أمر لا يصح أن نقسم عليه ؛ لأنه من الوضوح بحيث لا يصح أن يتأتى فيه شك .

ومثل ذلك كمثل المريض يذهب للطبيب ، فالطبيب الذي يريد أن يؤكد له أنه بكامل صحته هل يصف له الدواء ؟! أم يقول له : أنت لا تستحق أن أكتب لك دواءً ، ومعنى أنه لا يستحق أن يكتب له دواء هو إزاحة ما بنفسه من شبهة المرض ، ولكن إذا كتب له دواء حتى وإن كان قليلاً يكون قد أكد على ما في نفسه من شبهة المرض ، فهذا آكد له أنه في منتهى الصحة .

وكذلك الحق ﷻ حين يقول : ﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ * الْجَوَارِ الْكُنَّسِ ﴾ ، بدليل أنه ذكر المقسم به ﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ ﴾ ، أي : لو كنت مقسمًا لأقسمت : ﴿ بِالْخُنَّسِ * الْجَوَارِ الْكُنَّسِ * وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ * وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ * إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ .

إذًا فالقسم مؤداه كله أن يثبت صدق التبليغ عن الله ﷻ ، وأمانة الوسائط التي توسطت بيننا وبين الله ﷻ في نقل ذلك العهد ، وهو المصطفى من الملائكة والمصطفى من البشر ، وتقوم العلاقة بين تنسيق هذا الطريق إلينا وبين القَسَم .

﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ ﴾ .. **والخنس** : هي الكواكب أو النجوم ، تطلع من أماكنها في أبراجها ، فتطلع من الأول ثم ترجع إلى الآخر ، ثم تعود إلى أبراجها ، فمعنى : (**خنس**) أي : خرج ورجع .

﴿ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ ﴾ .. **والكنس** : مأخوذة من : **كناس الظبي** وهو مأوى الظبي .

فلو أننا استطعنا أن نعرف أن أوقات رؤيتنا لهذه الكواكب والنجوم التي يقسم ربنا علينا بها ليست مستمرة ، نعم وجودها مستمر ، ولكن أوقات رؤيتنا لها ليست مستمرة ، فمثلاً لما تطلع الشمس لا نرى النجوم أبدًا ، لكن لما تغيب الشمس نستطيع رؤية تلك النجوم ، ونستطيع أن نرصدها .

إذن فسبب عدم ظهور النجوم في النهار هو وجود ضوء أقوى من ضوئها ، ذلك الضوء الأقوى جعل أعيننا لا تستطيع أن ترى تلك النجوم ، كما قيل : " **ومن شدة الوضوح الخفاء** " ، وكما قيل : " **بضدها تتميز الأشياء** " .

﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ * وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ ..

إن الرسالات التي سبقت الإسلام ظهرت جميعها ثم اختفت ، ولما اختفت وانطمست معالمها طمَّت الجهالة في الدنيا كلها ، فكأن الليل قد أصبح ثابتًا ؛ لذلك كان لابد من نهار يأتي ليذهب بهذا الليل .

وكلمة : ﴿ عَسْعَسَ ﴾ في اللغة كلمة معبرة؛ لأنها تتكون من مقطعين، هما : " عس عس " العين والسين والعين والسين ، ومعني : "عس" أي : سار في الظلام ، ومنه : " العسس " أي : الذي يعس في الظلام ، ليس ماشيًا على هدى ، فهو يمد يديه كي يتعرف بها على الأشياء .

ونلاحظ أنه لم يقل : " والليل إذا عس فيه الناس " ، بل نسب العس إلى الليل نفسه ، فالليل نفسه يعس ، فكأنه لا اهتداء له ، فنسب العس إلى الظرف ، فإذا كان الليل في ذاته – وهو الزمن – هو الذي يعس ، فكيف يكون حال الإنسان الذي يعيش فيه ؟! وهذه من بلاغة القرآن ، فعندما نعطي الشيء صفة منتهى الخفاء ، فهي للملتصق به أشد وأقوى .

فما دام الليل هو الذي يعسعس ، فيكون الذي فيه أشد عسعسة منه ، وذلك كما يقول الحق ﷻ ضاربًا مثلاً للظلمة : ﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ﴾[1] ، فيده التي يعرف مكانها جيدًا لا يراها ، فما بالك بالشيء الذي لا يعلم موقعه جيدًا ، فأتى بأشد شيء التصاقًا بالنفس ، ومع ذلك لا يراها .

فيقول : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴾ ثم يقول : ﴿ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ .. وكأن الصبح من وطأة ظلمة الليل قد أُرهق بالظلمة ، ثم أخذ يتنفس ، كأنه كانت مخمودة أنفاسه .

وكذلك يعطينا هذا التعبير الحيوي معنى أن النهار وإشراق الضوء يمنحنا الهواء النقي للتنفس ، فبالليل يخرج ثاني أكسيد الكربون من الأشجار والخضروات ، ثم بالصبح تنتج النباتات كلها الأكسجين الصالح الذي يجعل الناس تستطيع التنفس ، فالكون بالصبح ابتدأ يتنفس .

وكأن ذلك رمز للرسالات التي كانت موجودة ثم ذهبت ، ثم طمَّ الظلام بعدها ، فكان هذا

---

1 – سورة : النور ، الآية : 40 .

الظلام يحتاج أن يخرج الله صبحًا .. صبح هداية ، وصبح خير ببعث النبي ﷺ بالإسلام ، فكأن منهج النبي ﷺ هو متنفس الصبح للبشرية .

﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ .. لم يبدأ بالكلام عن ذات الحق ﷻ هنا ؛ لأن مسألة الحق قضية منتهية ، كأنها أصل فطري ، فإن نشأ خلاف فيجب ألا يكون في القمة ، فالخلاف الذي قد ينشأ فيكون في الوسائط التي تبلِّغ عن الله ﷻ فقط ، أما الله ﷻ فحقيقة فطرية لا يمكن للعقل أن يتوقف فيها ، وأما ما قد يتوقف فيه في الدين فهي تلك الوسائط التي يصلنا بها هذا المنهج .

فتكلم عن الوسيط الأول فقال : ﴿ إِنَّه لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ .. أي المنهج الذي نزل به القرآن ﴿ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ ، مع أنه قول الله ﷻ ، فمرة ينسبه إلى **جبريل** عليه السلام ، كما جاء هنا في قوله : ﴿ إِنَّه لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ ، ومرة أخرى ينسبه إلى النبي ﷺ ، كما قال : ﴿ إِنَّه لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ﴾ [1] ، فالحدث الواحد إذا كان يمر بمراحل متعددة ، فينسب مرة إلى المصدر الأصيل منكم ، ومرة ينسب إلى الواسطة الأولى ، ومرة ينسب إلى الله ﷻ .

إذن فكلمة : ﴿ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ توحي بأن الرسول هو الواسطة في التبليغ بين مرسِل ومرسَل إليه ، فالمرسل إليه لا رأي له في الرسول الذي يبلغ ، إنما الرأي لمن جاء منه ذلك البلاغ ، فما دام هو رسوله فيجب أن يكون باختياره هو ، كما قد قال الله ﷻ : ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ [2] ، فيكفيكم أن تعلموا أنه ﷺ رسول من عند الله ﷻ ، وما دام رسولاً من عند الله ﷻ فالله يعلم حيث يجعل رسالته ، فهو ﷺ مختار مصنوع على عينه .

ثم وصفه بأنه كريم ؛ وذلك لأن الكرم عندنا في التصوير البشري : مَلَكة في النفس يصدر

---

1 - سورة : الحاقة ، الآية : 40 ، 41 .

2 - سورة : الأنعام ، الآية : 124 .

عنها السخاء ، والسخاء فوق المطلوب ، فلا يقال لمن يؤدي حق الله في ماله : إنه كريم ، ولكن يقال له : هو مؤدٍ لركن من أركان الإسلام، إنما الذي يؤدي فوق ما طُلب منه فهذا هو الكريم .

فقوله : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ أي : يؤدي فوق ما طلب منه ، فكيف بما طلب منه ، هذه هي صفة الكرم ، وهي مع كل صفات التطوع في النفس البشرية الخارجة عن نطاق التكليف تدل في صاحبها على عشقه الأمر الذي كلف به ، فالذي يتطوع بصلاة فوق الصلوات الخمس لم يتطوع بها إلا لأنه أحب وعشق التكليف بهؤلاء الخمس ، فلو أنه شعر بمشقة في التكليف بهذه الخمس ما تطوع بغيرها .

ولكن كلمة ﴿ كَرِيمٍ ﴾ هنا لا تعني أنه قد أتى بشيء زائد عما طلب منه ، بل إنه أراد أن يثبت له أنه عاشق لأداء ما وُكل به ، وأنه إن كان على مقاييسكم أنتم فإنه يكون كريمًا ومؤديًا أكثر مما طلب منه .

﴿ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴾ .. قد يكون الإنسان كريمًا بما يقدر عليه ، ثم قد تأتيه ساعة ليس عنده فيها إمكانيات ، أما هذا الرسول فهو كريم وعنده إمكانيات ، هو كريم وقادر ، كريم وقوي .. ﴿ ذِي قُوَّةٍ ﴾ ، وحين يصف الحق ﷻ شيئًا من خلقه بالقوة فهي بمقاييس الحق وليست بمقاييس البشر .

وقد يكون كريمًا وذا قوة ، إلا أنه ليس ممكنًا في مكانته من الله ﷻ ، أما هذا الرسول فهو : ﴿ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴾ .

وقد يكون كل ذلك ، ولكن الأقل منه لا يطيعون أوامره ، فقال : ﴿ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴾ أي : لا يشذ واحد من جنوده عن أداء ما أمره به .

بقي أن نتساءل سؤالاً ، وهو : هل هذه الأوصاف خاصة **بجبريل** عليه السلام أم **بمحمد** ﷺ ؟

قيل : إن تلك الأوصاف خاصة **بجبريل** عليه السلام ؛ لأنه عطف بقوله : ﴿ وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ ﴾ .

وقال آخرون : إن ذلك الوصف كله خاص برسول الله ﷺ .

وسواء كان الوصف خاصًّا برسول الله ﷺ ، أو خاصًّا **بجبريل** عليه السلام ، فالمهمة الأساسية من ذلك كله أن يطمئن الخلق على أن المنهج الصادر من الله إلينا منهج موثق بوثائق موثقة ، لا تقبل النقاش أو التبديل .

﴿ وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ ﴾ .. وكلمة : ﴿ صَاحِبُكُمْ ﴾ توحي بأن الحكم كان منكم قبل أن يصدر مني لاصطفائه رسولاً ، فالحكم صادر منكم أنتم ، ﴿ وَمَا صَاحِبُكُمْ ﴾ فهو ليس غريبًا عنكم ، وكلمة : ﴿ بِمَجْنُونٍ ﴾ أنفى لكل خصال التلف والشر ؛ ولذلك جاء في **سورة القلم** : ﴿ ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ * مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ * وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ * وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾[1] ؛ لأن الخلق العظيم ينافي أن يكون مجنونًا .

﴿ وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ ﴾ .. فلو قلتم : إنه مجنون فتكون مردودة عليكم ، بدليل أنكم اضطربتم في وصفه ، فمرة تقولون : هو مجنون ، وهل يقال للمجنون : إن كنت تريد ملكًا ملكناك علينا ، كما قلتم أنتم **لمحمد** ؟! فهذا شيء عجيب ، فإذا كان مجنونًا فهل تُملِّكونه عليكم ؟! وهذا مما يدل على أن كلمة : " **مجنون** " كلمة جماهيرية غوغائية ، أي أنك إذا أردت أن تحققها لا تجد لها مدلولاً في الواقع ؛ ولذلك فالحق ﷻ يحدثهم عن الجنون فيقول لهم : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ ﴾[2] ، فلا تتكلموا بكلام الجمهور ، ولا بكلام الغوغاء ، بل نريد منكم أن يحسب كل واحد منكم كلامه على نفسه .

فربنا بهذه القضية القرآنية أعطانا كيفية حل إشكالات الحوار ، فإن أي حوار قد يفسده أن يكون الإنسان جاهلاً بالحقيقة ، أي عنده قضية مناقضة للواقع ، أو أن تكون نفس

---

1 - سورة : القلم ، الآية : 1 - 4 .

2 - سورة : سبأ ، الآية : 46 .

الإنســـان أعز عليه من الحق ، فهو لا يريد أن ينهزم أمام الناس ، ولذلك عندما يجلس اثنان مع بــعضهما ليتناقشــا في موضوع فإنهما عادة ما ينتهون إلى رأي ، ولكنهم إذا كانوا ثلاثة أو أربـعة فلا يمكن أن ينتهوا لرأي بسـهولة ؛ لأن كل واحـد يكابـر على أن الحق معه ، فكيف ينهزم أمام الناس ؟! فدخل هنا عنصر آخر غير عنصر الحق ، وهو عنصر النفس ، فقــال لهم الله ﷻ : دعوا هذه الغوغائية والجماهيرية واتبــعوا الحق فقــط ، فقــال ﷻ : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ ﴾ .. في قـضية الحكم بجنونه .. ﴿ مَثْنَى وَفُرَادَى ﴾ ، أي : أن يقـوم أحــدكم ويتفكر ويرى ما هو الجنون ويعرِّفه ثم يطبــق ســلوكه ﷺ على ما عرفه من الجنون ، فسينتهي بنفسه ويقـول : إنه ﷺ ليس بمجنون ، وإن لم يسـتطع أن يحاور نفسـه فليأتِ بآخر فقـط معه ، ثم ليتحــاورا وليتناقشـا في ذلك الموضوع ؛ لأن الذي ينهزم منهما أمام الآخر فسينهزم بحق ، وليس له فضيحة ، ولا حرج فيما بعد أمام الناس .

وقــالوا : كذابٌ ومفترٍ ، فما دام هو كذابًا ومفتريًا وعرفتم أنه كذاب ومفتر ، فلتكذبــوا لنا كذبة ولتأتوا لنا بقرآن مكذوب ومفتَرىً أنتم أيضًا ، فلم ينفعهم ذلك أيضًا .

فقالوا : هو شاعر .. فقـال : ﴿ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ ﴾ ؛ لأن أي إنسـان يعيش في أمة صنعتها البيان وسجيتها الأداء وشهرتها بالبلاغة والفصاحة فليس من المعقول أن لا تسـتطيع أن تفرق بين الشعر وبين هذا الكلام ، فهذا دليل على عدم وجود الإيمان فقـط ، إنما هي حـجة عقـلية باهتة .

ثم قال : ﴿ وَلاَ بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ ﴾[1] .. فأسـلوب الكهانة قـد يكون أسـلوبًا مسجوعًا وفيه ما قد يشتبـه على غير اللبـيب أنه مثل كلام **محمد** بـزعمكم ، لكنك لما تتبـينه تجد موضوعه تافهًا وسجعه قلقًا ، فالتذكر مناسب لكم هنا .

فلما لم ينفعهم قولهم : مجنون ، وشـاعر ، وكاذب ، وكاهن قـالوا : آخر ما نقـول عليه :

---

1 - سورة : الحاقة ، الآية : 42 .

إنه ساحـر ، ولم يفطن أولئك المغفلون أن الحجة في هذه المسـألة أقـوى وأشـد ، فما دام هو ساحرًا فهل للمسحور اختيار مع الساحر ؟! ثم لماذا سحر الذين آمنوا به ولم يسحركم أنتم ؟! فلو كان ساحرًا لسحركم لتقروا له ، إنما بقاؤكم غير مسحورين دليل على أنه غير ساحر ، وبذلك انهدمت المسألة من أساسها ، وهذا يدل على أن العداوة فيه خاصة ، ليس في موضوع ما أتى بـه ، بـدليل أنهم قـالوا : ﴿ وَقَالُوا لَوْلاَ نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾[1] ، إذن فالقرآن ليس فيه كلام ، ولكن الذي يغضبهم أنه نزل على **محمد** ﷺ ، ولو نزل على رجل آخر عظيم من الطائف أو ثقيف لكان مقبولاً عندهم .

ومن الأدلة أيضًا على أن ما جاء بـه **محمد** حـق وصدق أنكم قـلتم له : ﴿ إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا ﴾[2].. فإن كانوا قالوا : إن نتبع الضلال معك نتخطف من أرضنا ، لكان أوجه لما يزعمونه ، ولكن الحق أبلج ، ويظهر دومًا في المقدمة ، فيجعل الله ﷻ الخصم نفسه ينطق به .

وكذلك قـالوا : ﴿ اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾[3] ، فكيف يقولون : يا رب إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة ، بل لقد كان الأنسب أن يقولوا : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه ، ولكنه تعصبهم الأعمى ضد **محمد** ﷺ .

﴿ وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ ﴾ .. وما دام قد رآه بالأفق المبين فهي ليست صورة نفسية ، فلا يستطيع أحد أن يقول : إن هذا حديث نفس عند **محمد** ﷺ لما يتمثل له الوحي الذي يأتيه من السماء في أي صورة ، ثم بعد ذلك يأتيه على حقيقته ، فيعرف أنه أمام قوة أخرى لها ذات مستقلة ولها شكل مستقل ، إذن فهي ليست من نفسه ، ولا هي خواطر نفس ، ولا

1 - سورة : الزخرف ، الآية : 31 .

2 - سورة : القصص ، الآية : 57 .

3 - سورة : الأنفال ، الآية : 32 .

هواجس فكر ، ولا شيء من هذا القبيل .

فحين يظهر الله ﷻ جبريل عليه السلام لمحمد ﷺ الذي قانونه كباقي البشر أن لا يرى الملائكة ، فحتى لا يعتقد محمد ﷺ أن هذا حديث نفس فيمثل له الذي يوحي إليه مرة بشكله الخاص فيقدره على أن يراه على صورته ، حتى يحكم الحكم بأمر خالص عن ذات تكوينه .

ونحن نعرف أن جبريل عليه السلام كان يأتي رسول الله ﷺ على صور متعددة ، ولم يره على صورته الحقيقية غير مرتين : مرة عند سدرة المنتهى ، ومرة في الأرض .. ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى * عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى ﴾[1].. أي على صورته الحقيقية ؛ وعلى صورته الحقيقية ليبين له المصدر الذي يتلقى منه بأنه ليس خواطر نفس ولا هواجس فكر ولا أي شيء ، بل أمر جاءت به ذاتية منفصلة عنه وهذه صورتها ، فإذا ما عرف ذلك اطمأن إلى ما يأتي بعد ذلك .

﴿ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴾ .. وكلمة : ﴿ ضَنِينٍ ﴾ فيها قراءتان : ﴿ ضَنِينٍ ﴾ بالضاد ، و ﴿ ظَنِينٍ ﴾ بالظاء ، وكلتاهما تؤديان لمعانٍ عدة ، وذلك اسمه تربيب الفائدة ، فالقراءات حين تأتي تربب الفائدة التي تؤكدها الآية ، أي تزيد فيها وتكثرها .

﴿ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴾ .. فما دام ليس بمجنون ، وما دام صاحبكم وأنتم تعرفونه ، فلا يمكن أن يتهم بأنه لم يبلغ ؛ لأنه أمين ، ﴿ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِظَنِينٍ ﴾ أي : بمتهم ، أو : ﴿ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴾ أي : لا يكتم شيئًا أمره الله أن يؤديه ، فالكلمتان تعطيان معًا معنى قوة الآية .

﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴾ .. لأن هناك سوابق ؛ فمن قومه من كان الشياطين يسترقون السمع ثم يلقونه لهم، كما جاء على لسان الجن : ﴿ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ ﴾[2]؛

---

1 - سورة : النجم، الآية : 12 - 14 .

2 - سورة : الجن، الآية : 9 .

فلذلك نفى تلك الصورة الموجودة في أذهان البشر من هؤلاء الناس .

﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴾ .. لأن مما قاله حرب على الشيطان ، وما دام مما فيه حرب على الشيطان فلا يمكن أن يكون من الشيطان أبدًا .

فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٩﴾

حين سدَّ الحق ﷻ عليهم جميع المنافذ ، وعلموا أنه لا سبيل إلا منهج الله ﷻ ، الواصل لكم عن **محمد** ﷺ ، المبلغ له عن **جبريل** عليه السلام ، فإذا كان لا سبيل إلا هذا فلا تحاولوا أن تذهبوا إلى أي سبيل آخر ، فأخبروني الآن .. أين تذهبون ؟!

وكلمة : ﴿ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴾ لا يقولها إلا من حبس جميع الطرق المؤدية للغاية ، ولم يُبقِ إلا طريقًا واحدًا ، وهو قائم على هذا الطريق .

﴿ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴾ .. سؤال من الحق ﷻ ، ولا ينبغي أن يجيب الخلق إلا بشيء واحد ، وهو : لا سبيل إلا هذا ، وكان الأسلوب هو أسلوب الاستفهام حتى لا يكون كلامًا خبريًّا ، فالكلام الخبري يكون حجة من جهته ، أما عندما يقول : ﴿ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴾ فمعنى ذلك : لقد سألتكم سؤالاً فأجيبوني ، فإذا أرادوا أن يجيبوا لا يجدون إلا إجابة واحدة ، وهي : ليس إلا هذا السبيل ، وهذا يسمى بسؤال التضييق ، أي أنه لا سبيل من السبل إلا هذا السبيل .

﴿ إِنْ هُوَ إِلاَ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴾ .. وكلمة : ﴿ ذِكْرٌ ﴾ تلفتنا لفتة ثانية ؛ لأن معنى الذكر

هو أن شيئًا كان عندك فغفلت عنه ، فكأن الأصل الأصيل في الإنسان أنه حين خلقه الله تلقى ذلك المنهج ، وكان ذلك عند خلق آدم عليه السلام ، وكان الواجب أن يبلغه آدم لأمته ، ولكن مع تباعد الزمن تغفل النفس عن المنهج رويدًا رويدًا ، فيبعث ربنا رسولاً مذكرًا ، ليبلغ منهج الله المطلوب إلى الخلق بعد أن انطمست معالم ذلك المنهج .

والدليل على ذلك هو قول الله عز وجل : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴾[1] .

فكأن الإيمان أمر مركوز في الفطرة ، وكان من الواجب أن ينقل إلينا كما نقل إلينا كثير من أصول حياتنا بواسطة آبائنا ، ولكن قضية الدين بالذات يغفل أغلب الناس عن نقلها إلى الناس ، ولماذا لم يُخفوا عنهم كيف يُخبز الخبز ؟! بل بالله قل لي : هل من أحد يعلم من هو أول من فكر في طحن الحب وعجن العجين وتركه يخمر ؟! من أين أتتنا هذه الطريقة ؟ إنها منقولة إلينا من الابتداء الأول ، فما دام قد نُقل لنا أصول حياتنا كلها فكيف لم يُنقل لنا منهج الدين ؟!

إن المنهج دائمًا يضيق حركة الإنسان في هذه الحياة ، والنفس تحب أن لا تضيق حركتها ، ولكن منهج الله دائمًا يقف أمام شهوات النفس ، والنفس تريد أن تنطلق من شهواتها .

﴿ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ﴾ .. فهو ذكر لمن يبحث عن منهج الاستقامة ، ولكن أغلب الناس لا يبحثون عن منهج الاستقامة ؛ لأنه يقيد شهواتهم ، إنما الذي يبحث عن ما ينجيه ويضع ذلك في عقله فيجب عليه أن يؤمن بالقرآن .

ولكن الناس مهملون في هذا الأمر ، فالرجل من هؤلاء لو توجع ابنه فإنه يهتم ويذهب به للطبيب ، ويقلب الدنيا رأسًا على عقب ، إنما حين يعرف أن ابنه لم يُصَلِّ فإنه لا يهتم ،

---

1 - سورة : الأعراف ، الآية : 172 .

فلماذا نحرص على منهج دنياه ، ونحافظ على بدنه ؟! ولماذا يؤرقك منهج الشهادة الدراسية التي تريده أن يحصل عليها ؟! فلماذا يأخذ هذا المنهج الدنيوي القليل اهتمامك واهتمام كل من حولك كي تصلح له شيئًا من بدنه أو ماديات حياته ، بينما منهج الدين ليس في بالك ولا من اهتماماتك ، لو كان في بالك أو من اهتماماتك لكان لك تصرف عندما يضعف الابن في أي خلق أو تصرف شرعي كما كان لك عند ضعفه في الدنيا أو الصحة .

﴿ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ﴾ .. لا تظنوا أن هذا الذكر كالمغناطيس سيجذبكم غصبًا عنكم ، كلا ، بل يجب أن يكون لديكم استعداد ، وتريدون صلاح أمركم ، فإذا وجد عندكم هذا الاستعداد لصلاح أمركم فالقرآن يعطيكم هذه الاستقامة .

فإن هناك فرقًا بين الفاعل والقابل ، فالقرآن واحد ، يسمعه رجل فيجنح بروحه ، ويسمو بنفسه وتصفو ، وآخر يسمعه ولا شيء ، كما قال الله ﷻ : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا ﴾[1] ، ولكن .. ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾[2].

﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ .. وهنا قد يحدث بعض الإشكال في الأسلوب ، فإنه ﷻ قال : ﴿ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ﴾ ، ثم بعد ذلك رد المشيئة إليه ، فقال : ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ .

لذلك يجب أن يُفهم الأسلوب على معناه الحقيقي ، فإن هذه لها مدلول وتلك لها مدلول آخر ، فإن الإنسان يعيش في الحياة فيجد نفسه مقهورًا على أشياء ، ومهما حاول أن يخرج عنها فإنه لا يستطيع ، ويجد نفسه مختارًا في أشياء أخرى ، هذا هو واقع الحياة كله ، فأنا مثلاً أختار أن ألبس ثوبًا أبيض أو ثوبًا أسود ، وأختار من القماش له كما أشاء ، أو أبني بيتًا

---

1 - سورة : محمد، الآية : 16 .

2 - سورة : فصلت، الآية : 44 .

في مكان معين ، وأن أفعل في ذلك البيت شكلاً معينًا ، فهذه وغيرها مسائل كثيرة خاضعة لاختياراتي ، ولكن هناك مسائل أخرى ليست خاضعة لاختياراتي ، فأنا لا أختار مثلاً أن تشرق الشمس في أي وقت ، ولا أختار بعد أن سرت في طريق قد اخترته أن تحدث لي حادثة أو لا تحدث ، فهناك مسائل داخلة في اختياراتي ، وذلك مثل المسائل التي تدخل تحت علمي ، وهناك مسائل لا تدخل تحت علمي ، ولا تدخل تحت اختياراتي ، وأيضًا الذي يعلم متفاوت في علمه .

فلا أنا صاحب المشيئة بإطلاق ، ولا أنا مسلوب المشيئة بإطلاق ، فعندما يجد الإنسان نفسه مقيد المشيئة في أشياء ومطلقها في أشياء فإنه يتأكد أن القوة الكبرى لشيء آخر ، فلا تكون القوة لي وأنا مقيد في أمور ، فلو أنني لست مقيدًا في الكل كانت القوة المطلقة قوتي أنا ، لكن مشيئتي مطلقة في أشياء ومقيدة في أشياء ، فأعلم حينها أن الأقوى مني هو الذي يقيدني .

وتلك الأشياء التي ليس لي فيها مشيئة ليست داخلة في نطاق تكليفي ، أما الأشياء الأخرى الداخلة في نطاق تكليفك فهي داخلة في نطاق التكليف ؛ لأن لله ﷻ صفات ، وكل صفة تطلب مجالاتها في الكون ، فمن صفاته أنه الجبار ﷻ .. فيجب أن يكون لها متعلق ، والرحيم .. ويجب أن يكون لها متعلق كذلك ، وقادر .. ويجب أن يكون لها متعلق أيضًا ، وكذلك هو عادل ﷻ ، فيجب أن يكون لها متعلق ، فلو أنك أخذت صفتي القدرة والخلق وصببتهما على كل شيء فإنك تكون قد عطلت صفة العدل عن الله ﷻ ، فعندما تقول : إن الله قد قهرك على ترك الصلاة مثلاً فإنك تكون قد سلبت من الله ﷻ صفة من صفاته ، وهي العدل ، وإن أثبت أنه ليس من شيء يخرج عن قدرته ، وليس هناك صفة تأخذ حظها على حساب صفة أخرى ، فهذه يجب أن تأخذ مجالها وهذه يجب أن تأخذ مجالها ، فعند ذلك يجب أن تعرض آيات القرآن ، وعندما تعرض آيات الإطلاق يجب أن تبحث وتنقب عن آيات التقييد ، فإذا بحثت ونقبت عن آيات التقييد مع آيات الإطلاق علمت أن المقيد حجة

على المطلق ، فإن الله يهدي من يشاء ويضل من يشاء ، ثم بيَّن في آيات أخرى من شاء هدايته ومن شاء إضلاله ، كما قال ﷻ : ﴿ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾[1] ، ﴿ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾[2] ، ﴿ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾[3] .

فيكون قوله ﷻ : ﴿ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾[4] .. مطلقًا ، ثم بين في آية التقييد من يشاء هدايته ومن يشاء إضلاله .

ثم بعد ذلك يجب أن تعرف معاني هذه الهداية في القرآن ، فإن هناك آيات في القرآن أثبتت الهداية لقوم ثم نفتها عنهم مثل قوله ﷻ : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ ﴾ .. فأثبت أنه هداهم ، ثم قال : ﴿ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى ﴾[5] ، فإذا كان الله قد هداهم ، فكيف يكون لهم اختيار كي يستحبوا العمى على الهدى ؟! فلابد أن يكون للهداية هنا معنى آخر ، وأوضح من ذلك قول الله ﷻ للنبي ﷺ : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ .. فإنه أثبت له الهداية هنا ، ثم في موضع آخر قال له : ﴿ إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ فنفى عنه هنا الهداية ، ولكننا نقول : إن هذا كلام ربٍّ حكيم ، ولا يمكن أن يتضارب أبدًا ، فيجب أن تبحث في نفسك لكي تستطيع أن تجمع بين الجميع .

فإن الهداية ترد على معنيين في القرآن :

فقد تأتي بمعنى مطلق الدلالة على طريق الخير ، والدلالة فقط .

وقد تأتي مرة أخرى بمعنى المعونة على الخير ، أي : يدلك أولاً على الطريق الموصل للخير ، ثم يحملك على الطريق الموصل إلى الخير ، فهذان معنيان ، ومثال ذلك ، ولله المثل

---

1 - سورة : البقرة ، الآية : 258 .

2 - سورة : البقرة ، الآية : 264 .

3 - سورة : المائدة ، الآية : 108 .

4 - سورة : النحل ، الآية : 93 .

5 - سورة : فصلت ، الآية : 17 .

الأعلى في السماوات والأرض ، ولكننا نضرب المثال للتقريب ، فمثلاً عندما تكون سائرًا في طريق ما ، وتريد أن تذهب إلى مكان ما ، وعند مفترق الطرق وجدت خمس طرق مثلاً ، فقلت لرجل : ما هو الطريق المؤدي إلى مدينة كذا ؟ فقال لك : إن الطريق المؤدي إليها هو طريق كذا ، فهو هنا قد هداك بمعنى أنه دلك ، ثم بعد ذلك إن عملت بكلامه أو لم تعمل فإنك تشكره بكلام طيب ، فإذا وجدك الرجل قد أقبلت على كلامه وصدقته فإنه يقول لك : والله أنت أهل لأن أدلك أكثر ، فهذا هو الطريق ، ثم يزيدك : أن تنبه ، فبعد كيلو متر واحد ستجد حفرة أو عقبة هناك صعبة ، فسأقوم معك وأنقدك منها ، فبهذا يكون قد عمل معك عملين :

العمل الأول : هو الدلالة على الطريق .

والعمل الثاني : لما آمنت به وشكرته واعتقدت أن هذا نعمة أعانك .

وكذلك الحق ﷻ يدل الناس على الخير ، فمن آمن به سهل عليه مهمة الخير ، فليس منك إلا أن تتوجه لتفعل الخير ، ثم بعد ذلك يعينك الحق ، وييسر لك الأسباب .

فإذا أثبت الله الهداية لرسوله فهي هداية الدلالة .. ﴿ **وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ** ﴾ ، وإذا نفاها الله ﷻ عنه فإنما ينفي هداية المعونة .. ﴿ **إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ** ﴾ .. أي : لا تعين على الهداية من أحببت .

فكأن هذا الأسلوب في ظاهره متناقض ، ولكن حين ننظر بدقة في الآيات جميعًا نجد بالجمع بينها منتهى التوافق .

نسأل الله ﷻ أن يهدينا دائمًا إلى الخير ، وأن يوفقنا إلى الخير في كل ما نأتي وكل ما نذر .

إنه ولي ذلك والقادر عليه .

علم

تفسير جزء

سورة الانفطار

سورة الانفطار

بسم الله الرحمن الرحيم . . أحمدك ربي ، وأصلي وأسلم على سيدنا محمد رحمة الله للعالمين ، وخاتم الأنبياء والمرسلين ، وبعد . .

نحن الآن مع **سورة الانفطار** ، تلك السورة القصيرة التي تتحدث عن الانقلاب الكوني الذي قد تحدثت عنه **سورة التكوير** ، ولكنها تتخذ لها شخصية أخرى ، وسمتًا خاصًا بها ، وتتجه إلى مجالات خاصة بها تطوّف بالقلب البشري فيها ؛ وإلى لمسات وإيقاعات من لون جديد .. هادئ .. عميق .. لمسات كأنها عتاب ، وإن كان في طياته وعيد .

ومن ثم فإنها تختصر في مشاهد الانقلاب ، فلا تكون هي طابع السورة الغالب كما هو الشأن في **سورة التكوير** ؛ لأن جو العتاب أهدأ ، وإيقاع العتاب أبطأ ، وكذلك إيقاع السورة يحمل هذا الطابع أيضًا ، فيتم التناسق والتوافق في شخصية السورة .

إنها تتحدث في المقطع الأول عن انفطار السماء وانتثار الكواكب ، وتفجير البحار وبعثرة القبور .. كحالات مصاحبة لعلم كل نفس بما قدمت وأخرت ، في ذلك اليوم الخطير .

وفي المقطع الثاني تبدأ لمسة العتاب المبطنة بالوعيد لهذا الإنسان الذي يتلقى من ربه فيوض النعمة في ذاته وخلقته ، ولكنه لا يعرف للنعمة حقها ، ولا يعرف لربه قدره ، ولا يشكر على الفضل والنعمة والكرامة : ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾ .

وفي المقطع الثالث يقرر علة هذا الجحود والإنكار .. وهي التكذيب بالدين .. أي التكذيب بالحساب ، وعن هذا التكذيب ينشأ كل سوء وكل جحود ، ومن ثم يؤكد ذلك الحساب

* مقدمة تفسير السورة والمقطع الأول مقتبس بتصرف من : " في ظلال القرآن " .

توكيدًا ، ويؤكد عاقبـــــــته وجزاءه المحتوم : ﴿ كَلاَّ بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ * وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ * إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيـــمٍ * وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ * يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ * وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴾ .

وأما المقطع الأخير فيصور ضخامة يوم الحساب وهوله ، وتجرد النفوس من كل حول فيه ، وتفرد الله ﷻ بأمره الجليل : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ * ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ * يَوْمَ لاَ تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴾ .

فالسورة في مجموعها حلقة في سلسلة الإيقاعات والطرقات التي يتولاها هذا الجزء كله بشتى الطرق والأساليب .

إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾

﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ﴾ .. يذكر هنا مظهرًا من مظاهر الانقلاب ، وهو انفطار السماء .. أي : انشقاقها ، وقد ذكر انشقاق السماء في مواضع أخرى ، كما في **سورة الرحمن** : ﴿ فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴾[1] ، وكذلك في **سورة الحاقة** : ﴿ وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴾[2] ، وقال في **سورة الانشقاق** : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ ﴾[3] .

فانشقاق السماء حقيقة من حقائق ذلك اليوم العصيب ، أما المقصود بانشقاق السماء على وجه التحديد فيصعب القول به ، كما يصعب القول عن هيئة الانشقاق التي تكون آنذاك ،

---

1 - سورة : الرحمن ، الآية : 37 .

2 - سورة : الحاقة ، الآية : 16 .

3 - سورة : الانشقاق ، الآية : 1 .

ولكن كل ما يستقر في الحس هو مشهد التغيُّر العنيف في هيئة الكون المنظور ، وانتهاء نظامه المعهود ، وانفراط عقده الذي يمسك به في هذا النظام الدقيق .

﴿ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ ﴾ .. ويشارك في تكوين هذا المشهد ما يذكر عن انتثار الكواكب بعد تماسكها هذا الذي تجري معه في أفلاكها بسرعات هائلة مرعبة ، وهي ممسكة في داخل مداراتها لا تتعداها ، ولا تهيم على وجهها في هذا الفضاء الذي لا يعلم أحد له نهاية ، ولو انتثرت كما سيقع لها يوم ينتهي أجلها وأفلتت من ذلك الرباط الوثيق غير المنظور الذي يشدها ويحفظها لذهبت في الفضاء بددًا ، كما تذهب الذرة التي تنفلت من عقالها .

﴿ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴾ .. وتفجير البحار يحتمل أن يكون هو امتلاؤها وغمرها لليابسة وطغيانها على الأنهار ، كما يحتمل أن يكون هو تفجير مائها إلى عنصريه : الأكسجين والهيدروجين ، فتتحول مياهها إلى هذين الغازين كما كانت قبل أن يأذن الله بتجمعهما وتكوين البحار منهما ، وكذلك يحتمل أن يكون هو تفجير ذرات هذين الغازين ، كما يقع في تفجير القنابل الذرية والهيدروجينية اليوم .. فيكون هذا التفجير من الضخامة والهول بحيث تعتبر هذه القنابل الحاضرة المروعة لعب أطفال ساذجة .

أو أن يكون بهيئة أخرى غير ما يعرف البشر على كل حال .. إنما هو الهول الذي لم تعهده أعصاب البشر في حال من الأحوال .

﴿ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴾ .. وبعثرة القبور إما أن تكون بسبب من هذه الأحداث السابقة ، وإما أن تكون حادثًا بذاته يقع في ذلك اليوم الطويل ، الكثير المشاهد والأحداث .. فتخرج منها الأجساد التي أعاد الله إنشاءها ، كما أنشأها أول مرة ، لتتلقى حسابها وجزاءها .

ويؤيد هذا ويتناسق معه قوله بعد عرض هذه المشاهد والأحداث : ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾ .. أي ما فعلته أولاً وما فعلته أخيرًا ، أو ما فعلته في الدنيا ، وما تركته وراءها من آثار فعلها ، أو ما استمتعت به في الدنيا وحدها ، وما ادخرته للآخرة بعدها .

على أي حال سيكون علم كل نفس بهذا مصاحبًا لتلك الأهوال العظام ، وواحد منها مروّع لها كترويع هذه المشاهد والأحداث كلها .

﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾ .. والتعبير القرآني الفريد يقول : ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ ﴾ .. وهو يفيد من جهة المعنى : كل نفس ، ولكنه أرشق وأوقع ، كما أن الأمر لا يقف عند حدود علمها بما قدمت وأخرت .

فلهذا العلم وقعه العنيف الذي يشبه عنف تلك المشاهد الكونية المتقلبة ، والتعبير يلقي هذا الظل دون أن يذكره نصًّا ، فإذا هو أرشق كذلك وأوقع .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨ كَلَّا بَلۡ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ۝٩ وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ ۝١٢

﴿ يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴾ .. يذكر الحق ﷻ أن الناس في غفلتهم عن ذلك اليوم ، وفي إهمالهم لمقتضيات الاستعداد له ، وفي انصرافهم عما يتطلبه من زاد التقوى ، وقد صدروا في كل ذلك عن شيء واحد ، وهو الغرور ، ذلك الغرور الذي خاطب الله ﷻ به الإنسان في قوله ﷻ : ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ ﴾ ، وهو تبكيت بكلمة إنسان ؛ لأن كلمة إنسان توحي بأن إنسانيته كان يجب أن تردعه عن غروره ذلك ؛ لأنه لم يتميز بهذه الإنسانية إلا بوجود الفكر ، والفكر هو الذي ينظر ويتدبر ويتفكر ويستنبط ، فكان من الممكن إذا ما أعمل الإنسان إنسانيته في قمتها ألا يوجد منه هذا الغرور؛

لأن الغرور غفلة من المغتر عن وضعه بالنسبة للقيم التي يغتر بـها ، فالإنسـان إذا شـاء أن يغتر فيجب عليه أن يغتر بشيء ذاتي فيه ، أما بشـيء موهوب له من غيره فلا يصح أن يغتر بـه ، فلو أن أمور حياته والوجود الذي يعيش فيه كان من صنعة نفسه لكان من الممكن أن يغتر بتلك الصنعة ، ولكن بما أنه لم يدَّعها ولو دعوى ، فمن الواجب أن لا يغتر بشيء ليس ذاتيًا فيه .

فتصدير الآية القرآنية بقـوله ﷻ : ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ ﴾ ، أي : تنبـه ! ! إن الصفة التي أعطيتك إياها ما كان ينبـــغي أن يوجد معها الغرور ، ومع ذلك وجد منك الغرور ، واغتررت بربك الكريم ، فلو أنك اغتررت بالذي وهب لو كان غير كريم لكان من الممكن أن تكون حفيظة نفسك قد أثرت فيك ، ولكنه ﷻ رب كريم ، فما داعي الغرور إذًا ؟!

فأنت تغتر بشيء لا ذاتية لك فيه ، بل هو لغيرك ، والذي تغتر بـه ليس لك ، بـل للواهب ﷻ ، والواهب ليس على صفة تتطلب منك غرورًا .

إذًا .. فكل الحيثيات تشير إلى أن الذي يغتر غافل عن إنسانيته وهاجر لها ، فلو كان مقيمًا لإنسانيته لما صدر منه ذلك الغرور بالذي وهب ، وهو الموصوف بأنه كريم .

﴿ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴾ .. يعدد الحق شيئًا من مواد إكرامه .. الخلق والتسوية والتعديل ، وهذا أمر لا يشك فيه إنسان حـين يجد فكره ، وحـين يجد شـكله ، وحـين يجد تسويته واعتداله عن سـائر ما خلق الله ﷻ ، فلم يخلقـه الله ماشـيًا على بـطنه ، ولم يخلقـه الحق ﷻ يمشي على أربع ، ولم يجعل قامته ملتوية إلى أسفل ، بل جعله مرتفع القامة ، هذا بخلاف التسـوية والتعديل في أجهزته الدقيقـة التي لا يزال علماء كل جهاز من هذه الأجهزة يقفون دائمًا عندها عجبًا ، ويكتشفون سرًّا .

﴿ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾ .. أراد الحق ﷻ بـعد ذلك أن يزجر ذلك الإنســان ، ومن حق الإله الخالق المنعم أن يزجر عباده ؛ لأن ذلك الزجر وسيلة من وسائل التربـية ، وهو رب وهب ويؤدب ، وقـد وهب ما تقـدم ، فليؤدب ﷻ ، فقـال : ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ

بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ * كَلاَّ ﴾ ..

وكلمة : ﴿ كَلاَّ ﴾ إذا وجدتها في كتاب الله فافهم أنها تعطي معنى الردع والزجر عن أمر ما كان ينبغي أن يكون ، والأمر الذي تقدم كلمة : ﴿ كَلاَّ ﴾ هنا هو الغرور ، أي : كلا .. ما كان يصح لك أن تغتر أبدًا ؛ لأنك إنسان تغتر بمن وهب لك ، ومن وهب لك كريم ، فحيثيات الردع والزجر في الصيغة : إنسان ورب وكريم .

وهل انزجر ذلك المغرور ؟! هل انزجر الإنسان ؟! ﴿ كَلاَّ إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَى * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى ﴾[1] ، فساعة أن خُلق ، وساعة أن رُزق ، وساعة أُمد بالقيومية .. فَهِمَ أن هذه أمور رتيبة له ؛ لأنه لم يشهد يد الله محسوسة في عملها ، فاغتر بأنها له ، وآمن ووقف عند الأسباب وترك المسبب ، فالحق ﷻ يريد أن يقول : أنا سأزجره ، ولكنه أيضًا لن يرتدع ، سيظل في هذا الغرور .

﴿ كَلاَّ بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ﴾ .. أي بيوم الجزاء .

والحق ﷻ بعد أن ربَّى بقوله : ﴿ كَلاَّ ﴾ .. أي : لا يصح لك أن تغتر ، بيَّن الحق ﷻ أن المنصرف عن الإيمان بالله ، وعن الاعتبار في ملكوته وفي نفسه سيظل سادرًا في غلوائه ، ولن يرتدع بهذا الزجر ، وإذا رأيت كلمة : ﴿ بَلْ ﴾ فاعلم أن هناك إضرابًا عن شيء وإثباتًا لشيء آخر ، ما قبلها مضرب عنه ، لن يزجر ، وما بعدها مثبت له .

﴿ كَلاَّ بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ﴾ .. وهنا نلاحظ أن الأسلوب انتقل من الفردية في : ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ ﴾ إلى الجمع في قوله : ﴿ كَلاَّ بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ﴾ ، فكلمة : ﴿ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ﴾ جمع ، وكلمة : ﴿ الإِنْسَانُ ﴾ مفردة في ظاهرها ، ولكن الحق ﷻ حينما خاطب الإنسان بلفظ الإفراد جاء بـ (ال) ، وهي تفيد الاستغراق في الأفراد ، فمعنى : ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ ﴾ أي : يا كل إنسان فيه هذه الصفة ، فما دام هناك استغراق فمن الممكن أن يأتي

---

1 - سورة : العلق ، الآية : 6 ، 7 .

بـــالجمع : ﴿ كَلاَّ بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ﴾ ، أي : أيها الناس ، والذي يدل على أن كلمة : ﴿ الإِنْسَانُ ﴾ تأتي للاستغراق في الأفراد أن الله ﷻ في آياته قد استثنى منها الجمع ، ونحن نعرف أن المستثنى دائمًا يكون أقل من المستثنى منه ، فأنت لا تستثني من شيء إلا إذا كان الشيء المستثنى منه أكثر ، فلما قال الحق ﷻ : ﴿ وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴾ ، ثم بعد ذلك استثنى من الإنسان جمعًا ، فلو أنه يدل على فرديته لما صح منه الاستثناء ، ولكنه قـــال ﷻ : ﴿ وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾[1] ، فاستثنى ﷻ ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ ، وهم جمع ، من الإنسان ، وما دام الجمع قد استثني من الإنسان المفرد فهذا دليل على أن الإنسان المفرد حينما دخلت عليه (ال) صار مستغرقًا لكل الأفراد ، ولذلك استثنيت منه جماعة .

﴿ كَلاَّ بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ﴾ .. زجرهم بـ "**كلا**" ، ثم أضرب بـ "**بل**" ، أي أنهم لا ينتهون بهذا الزجر ، بل إنهم يكذبون بيوم الدين .

وكل شيء يصيب الإنسان من إهمال منهج الله ، والغفلة عنه ، وعدم الاستعداد للقائه ، كل ذلك تكذيب بيوم الدين ، فكأن يوم الدين قضية كاذبة عندهم ، ولو أن يوم الدين قضية صادقة عندهم لما كان منهم إلا أن يستعدوا لذلك اليوم ، وأن لا يغفلوا عنه أبدًا .

فكل غفلة عن منهج الله منشؤها إما التكذيب بيوم الدين الذي يرد فيه الإنسان إلى ربه ليجازيه على أعماله ، وإما الارتياب فيه ، ومعنى الارتياب أنه يذكره تارة ، ويغفل عنه تارة ، فحين يذكره يعمل العمل الصالح ، وحين يغفل عنه يلتوي عن منهج الله ﷻ .

﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴾ .. وهنا نجد أن الحق ﷻ يستدل على الشيء بما يكون بسببه ، فيوم الدين يوم فصل بين الناس ؛ ليُجزى كل إنسان بعمله ، فلابد وأن يكون العمل المسئول عنه الإنسان والمحاسَب عليه مسطورًا ومكتوبًا ، فأراد الحق ﷻ أن يؤكد المسطور

---

1 - سورة : العصر .

والمكتوب هنا ؛ لأن الناس لا يألفون التوثيق إلا في المدوَّن ، فالمدون شـهادة لا يمكن أن تُزوَّر ، ولو أن الكلام غير مدون فقد يُنسى ، وقد يغفل الإنسان عنه ، ولكن المكتوب عليه شيء موثق ، والكتابة هي أوثق آلات التسجيل على الإنسان ، فأراد الحق ﷻ أن يقول : إن هذا الذي تعترفون به في التوثيقات فيما بينكم أمر موجود عندكم ، وإن كان غيبًا .

فالغيب الذي يتكلم عنه الحق ﷻ نوعان : غيب واقع ، ولكن زمانه لم يأتِ بعد ، كغيب الساعة ، وهي يوم القيامة ، فهو واقع لا محالة ، ولكن زمنه لم يأتِ بعد ، وغيب موجود الآن ، ولكننا لا ندركه ، فمسألة الكتابة والحفظ والإحصاء كل ذلك غيب ؛ لأني لا أدركه : لا أرى الملَك ، ولا أحسه ، ولا أعرف كيف يكتب ، ولا بماذا يكتب ، وكل ذلك أمر لا ضرورة للإنسان في معرفته ، ولكن زمن الكتابة موجود الآن .

وبحث العقل في هذه المسألة حيث يبحث : أين الملكان ؟ وكيف يكتبان ؟ وبأي شيء يكتبان ؟ فهذه مسألة فوق نطاق الإيمان ؛ لأن هناك فارقًا بين أن يوجد الشيء وبين أن يدرك الشيء ، فليس إدراك كل شيء دليلاً على وجوده ، وليس عدم إدراك أي شيء دليلاً على عدم وجوده ، فكم من الأشياء كانت غيبًا عنا وغير مدركة ، ثم شاء الله أن يأذن للسر أن ينكشف فانكشف ، وذلك في ماديات الوجود ، وساعة كان غيبًا غير مدرك لم يكن ذلك يعني عدم وجوده ، بل كان موجودًا قبل اكتشافه ، بدليل أنك اكتشفته ، وما دمت قد اكتشفته ، وقد كان غيبًا عنك ، إذًا فهناك غيب لا يمكن لك أن تدركه إلى أن يأذن الله لك أن تكتشفه .

فكأن الحق ﷻ ترك في الغيب المادي الموجود أمورًا ظلت غائبة مدة طويلة ، ثم أذن للعقل أن يكتشفها بنشاطه ؛ ليستدل من ذلك على أن هناك غيبًا آخر يجب أن نؤمن به من قبل اكتشافه .

إن اكتشاف الغيب ما هو إلا إيناس للغيب ليس إلا ، مثال ذلك كما نقول لك : عقلك بحيزه المحدود إذا ما أردت أن تستعيد منه الصور والأقوال والأفعال التي صدرت منك ومن

غيرك ممن وقع تحت حسك وجدتها مختزنة فيه ، فإذا وجد استدعاء معانٍ تذكرت أشياء حدثت منذ ثلاثين سنة ، ومعنى ذلك أنها محفوظة في ذهنك ، فكيف يفكر هذا الحيز الذي يسع تلك المعلومات الكثيرة ؟! وكيف تأتي الصورة فتستعيدها كما كانت ؟!

علاوة على ذلك أن المسألة الإيمانية لا تكون للأمر الذي يُحس فقط ، فالأمر الذي يمكن أن يحس ليس مناط إيمان ، فأنا حين أجلس بين الناس لا أقول : أنا أؤمن بأني أجلس بينهم ، وأتكلم معهم ؛ لأن هذا أمر محسوس ؛ فالمسألة ليست قضية إيمانية ، فالقضايا المحسة كلها ليست قضايا إيمان ، وإنما الإيمان دائمًا يكون في القضايا الغيبية .

ولكن هناك من يفرق بين الإيمان وبين اليقين ؛ لأنهم قالوا في قول الله ﷻ : ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾[1].. إن معنى ذلك هو إجراء الأحكام التكليفية للتقرب من الله ﷻ ، وهذه لا يأتي بها إلا مؤمن .. ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ﴾ .. يعني : أن العبادة تكون عن إيمان ، ﴿حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ .. وكأن في أول العبادة لم يوجد يقين ، وإنما كان هناك إيمان ، ثم بعد ذلك بالعبادة ، وبترددك على حضرة ربك ، وبتوددك إليه بما شرع .. يأتيك اليقين ، إذن فالإيمان مرتبة تدعو إلى العبادة، والعبادة حين تتم بإخلاص وصفاء يترتب عليها اليقين .

ولكي نعرف الفارق بين الإيمان وبين اليقين ، نجد أن سيدنا عليًا رضي الله عنه – وهو من هو – حين سُئل : كم بين الإيمان واليقين ؟ أي : ما الفارق بين الإيمان وبين اليقين ؟ فقال : الفارق بين الإيمان واليقين أربع أصابع ! ! فقيل له : وكيف ذاك ؟! قال : الإيمان هو ما تسمعه أذناك فتصدقه ، واليقين هو ما تراه عيناك فتصدقه ، والفرق بين العين والأذن أربع أصابع ؛ ولذلك فصل رضي الله عنه في تلك المسألة وقال : **لو انكشف عني الحجاب ما ازددت يقينًا** .

وكما جاء عن الحارث بن مالك الأنصاري أنه مر بالنبي ﷺ فقال له : " **كيف أصبحت يا حارثة ؟** " قال : أصبحت مؤمنًا حقًا . قال ﷺ : " **انظر ما تقول ، فإن لكل قول**

---

1 - سورة : الحجر، الآية : 99 .

حقيقة ، فما حقيقة إيمانك ؟! " قال : عزفت نفسي عن الدنيا ، فأسهرت ليلي وأظمأت نهاري ، وكأني أنظر عرش ربي بارزًا ، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها ، وكأني أنظر إلى أهل النار يتضاغون فيها . قال ﷺ : **" يا حارثة .. عرفت فالزم "**[1] .

ولذلك نجد أن الحق ﷻ حين أراد أن يقص على النبي ﷺ قصة أصحاب الفيل عبر بقوله ﷻ : ﴿ **أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ** ﴾[2] ، ولم يعبر بـ : **"ألم تعلم "** ، في حين أن الآية تتحدث عن عام الفيل ، ذلك العام الذي ولد فيه النبي ﷺ ، فليس من المعقول أن يكون ﷺ قد رأى هذه الحادثة ، ولكن الحق ﷻ خاطبه بـ : ﴿ **أَلَمْ تَرَ** ﴾ ، ومعناها : ألم تعلم ؟!

وكأن الحق ﷻ يريد أن يقول : إذا أخبرتك بشيء فكن أوثق به مما تراه .. فما دام أن الله ﷻ هو الذي أخبر بذلك فيجب أن يكون ما يخبر به كأنه رأي العين ، وتلك هي مرتبة اليقين .

إذن فالأشياء الغيبية التي يتحدث الحق ﷻ عنها يكفي فيها أن تُعقل ، ولا ضرورة في أن تُتصور ، وإنما كانت متاهات العقول في إرادة تصور المعقول .

فإن الفلاسفة لم يضلوا إلا حينما تجاوزوا مطلوب التعقل إلى مطلوب التصور ، وإلا فلماذا بحث الفلاسفة الأقدمون فيما وراء المادة ؟! وما الذي جعلهم يبحثون في شيء وراء المادة ؟! فكأن فطرتهم أخبرتهم بأن وراء هذه المادة شيئًا ، ومن غير المعقول أن تنتهي هذه المادة ، وهذا كافٍ في التعقل ، إلا إنهم تعبوا وأتعبوا حينما أرادوا أن يتصورا ما وراء تلك المادة ، ولو أنهم اكتفوا بفكرة التعقل لانتهت مشكلتهم .

ولذلك نقول للذين يطلبون الدليل على وجود الله ﷻ : ما الذي جعل أول من وضع دليلاً

---

1 - أخرجه الطبراني في الكبير .

2 - سورة : الفيل ، الآية : 1 .

على وجود الله ﷻ يجهد عقله ليبحث عن دليل لوجود الله ، ما لم تكن هناك فطرة تقول له : إن هناك شيئًا وراء الكون ؟!

إذن فالدليل الأول على وجود الله ﷻ هو طلب الدليل على وجود الله ، سواء استدللت أم لم تستدل ، فطلبك دليلاً على وجود الله هو عين الدليل على وجود الله ، وإلا فما الذي جعلك تجهد عقلك لتبحث عن دليل على وجود الله إلا لأنك مؤمن بأن هناك إلهًا ، فأجهدت عقلك لتستدل على ذلك ؟!

إذا كان هناك ألف محطة إرسال تليفزيونية ، وألف جهاز تليفزيون ، وهناك عدة موجات تبث على هذه المحطات ، وكل أولئك يلتقطون من الجو ، فما الذي يميز هذه الصورة عن الأخرى بحيث لا تختلط تلك الصور ببعضها ، وتعطي محطة الإرسال محطة إرسال أخرى ، مع أن كل ذلك يأتي من الأثير ، والأثير كله مختلط ، فما الذي ينقي هذه العملية ويعطي كل جهاز اختياره ؟! وما الذي يقوم بعملية التوزيع ؟!

إنها مسألة تحتاج إلى هندسة معقدة ، وقد استفاد العقل بها ، ولكنه لا يعرف كيف تتم .

﴿ كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ .. فلا ينبغي أن تكذبوا بالدين ؛ لأن عليكم حافظين .. كرامًا .. كاتبين .. يعلمون ما تفعلون ، ومعنى ذلك أن هؤلاء لم يوجدوا عبثًا ، وإنما وجدوا ليوثّقوا ، وما داموا وجدوا ليوثقوا فإن التوثيق له قضية وله مطلوب ، وسيُنشر هذا الكتاب ، وستحاسبون عليه .

﴿ حَافِظِينَ ﴾ أي : حافظين بذاتهم ، وحافظين بما يكتبون ، و ﴿ كِرَامًا ﴾ فلأن الكريم من شأنه أن يُسَرَّ من عمل الخير ، ويتأذى من عمل الشر ، فطبيعتهم تناسب المهمة ، وما دام الكريم يُسر من عمل الخير ، فساعة أن يعمل خيرًا يكتبه كتابة المسرور به ، أي أنه حريص على أن يسجله لك ، ويتألم من عمل الشر ، ويسجله عليك أيضًا .

فهناك مهمة وهناك استعداد ذاتي للمهمة ، وهناك فرق بين المهمة وبين الاستعداد الذاتي

للمهمة ، فمهمتهم هي أنهم كاتبون ، وأنهم كرام ، فلو أن إنسانًا وُكِّل بأمر من الأمور ولم يكن كريمًا فإن الحق قد يلتبس عنده ، أما الكريم فإنه يُسر من فعل الخير ، ويألم من فعل الشر ، وما دام يُسر من فعل الخير ، ويألم من فعل الشر بطبيعة ذاته ، فذاته وطبيعته مناسبتان لمهمته .

﴿ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴾ ، ومع أنهم حافظون ، أي : يحفظون الكتابة ، وبإمكان الملك الموكل بالحسنات والملك الموكل بالسيئات أن يسردا للإنسان ما عمله من عندهما ، إلا أن الله ﷻ لم يعتمد على حفظهما ، فأمر أولئك الحفظة بأن يكتبوا ، وكأنه ﷻ يقول لهم : إن حفظكم سيكون شهادة ، لكن كتابتكم سوف تبقى حجة ، وسنعطيهم الكتاب ، ونقول لهم : اقرءوا الكتاب .

فكأن الحق ﷻ قد نسَّق الأمر بين الحفظ وبين الكتابة ، الحفظ من المَلَك ، والكتابة منه أيضًا .

وكلمة : " **قرآن** " مصدر ، معناه : مقروء ، أي مضموم فيه لفظ إلى لفظ حتى يكون آيات وسورًا ، كما يطلق على القرآن لفظ : " **الكتاب** " ، وهذا يدل على أنه مكتوب ، فكأن للقرآن وسيلتين اثنتين : **أولا** : أنه محفوظ في الصدور ، **وثانيا** : أنه مسجل في السطور ، ومهمة الوسيلتين أن تكون كل واحدة منهما عونًا للأخرى على التذكر ، ولا يمكن أن نقول عن أي نص : إنه نص قرآني إلا إذا وافق المحفوظُ المكتوبَ ، بدليل أننا نجد ألفاظًا في القرآن الملفوظ فيها شيء والمكتوب شيء آخر ، مثال ذلك كلمة : "**الم**" قرأناها في أول سورة البقرة : " **ألف لام ميم** " ، ثم في أول سورة الشرح قرأناها : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ [1] ، فما الذي جعلك تقرؤها هنا بطريقة وهناك بطريقة أخرى لو أن الأمر لم يكن مرتبطًا بين القراءة والكتابة ؟!

فقول الحق ﷻ : (**حافظين**) ، و (**كاتبين**) يدل على أنهما أداتان من أدوات التسجيل .

---

1 - سورة : الشرح ، الآية : 1 .

ولكن من رحمة الله ﷻ أنه جعل كاتب الحسنات أميرًا على كاتب السيئات ؛ ليجعل للإنسان فرصة في التوبة وفرصة في الندم ؛ لأن الله ﷻ لا يريد أن يتصيد لنا الأخطاء ، ولكن الله يريد أن يكثر لنا الحسنات ، كما ورد في الحديث عن ابن عباس رضي الله عنهما ، عَنْ النَّبِيِّ ﷺ ، فِيمَا يَرْوِي عَنْ رَبِّهِ ﷻ قَالَ : " إِنَّ اللهَ كَتَبَ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ ، ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ ، فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً ، فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللهُ لَهُ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِ مِائَةِ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ ، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً ، فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللهُ لَهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً "[1] .

وذلك لأن الهمَّ من عمل القلب ، ويكفي أنك ضمنت قلب إنسان ليفكر في نية الخير برهة ، فما دام القلب فكر في نية الخير برهة فإنه يستحق أن نكتبها له حسنة ، وإن لم يحولها إلى واقع الوجود ، أما من يهم بسيئة ولا يفعلها فيكتبها حسنة ؛ لأنه همَّ بسيئة انشغل قلبه بها ، ثم وقفت أوامر الشرع دونه فلم يفعلها ، فمن هاجت نوازع الشر عنده ، ثم بعد ذلك تغلب عليها فهو خير من الغافل الذي لم تهج عنده نوازع الشر أصلاً .

فمن فكر في سيئة ولم يفعلها أكثر حظًّا من الذي لم يفكر في السيئة أصلاً ، ولذلك تكتب له حسنة ، لأن لوازم السيئة وجدت ، وشغل البال بما وُجِدَ ، ولكن وقوفه أمام المنهج منعه ، فما دام قد صمد أمام شواغل النفس فإنه يستحق أن يعطى حسنة .

﴿ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ .. وهذه الكلمة لا تفيد مجرد العلم المتحقق بالإحصاء ، ولكنه العلم مع الفهم ، وعلم ما يخفى ، مثل النوايا وأمراض القلوب كالحقد ، حيث لا يظهر ما لم يدل عليه بأي شيء .

إذن فالتوثيق عليك أيها الإنسان ثابت ، وما دمت تفهم أن التوثيق عليك ثابت فتنبه إلى

---

1 - أخرجه البخاري (6010) ، ومسلم (187) .

أنك لم تخلق عبثًا ، وأن كل أمر من أمورك مسطور ومسجل عليك ، كما قال ﷻ : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ * إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ * مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾[1] ، فإذا نظرنا إلى التعبير القرآني بكلمة : ﴿ قَعِيدٌ ﴾ نجد أنها لا تعني قاعدًا ؛ لأن القاعد هو الجالس الذي يستطيع أن يقوم ، أما القعيد فهي صفة لازمة للملَك ، فلا يأمل إنسان أن يتركه أبدًا ، ولكن الإنسان هو الذي يفارقه في الأوقات التي فيها فضح للعورة : عند الخلاء ، والجنابة ، وعند الغسل ، ولكنهم عند هذه المفارقة لا ينقطع علمهم أيضًا .

إذن فالحق ﷻ وثّق على الإنسان ، وما دام الله ﷻ قد وثّق على الإنسان هذا التوثيق فلابد أن يكون لهذا التوثيق غاية ؛ لأنه لو لم يكن هناك بعث ، ولو لم يكن هناك حساب لكانت العملية عبثًا من أولها إلى آخرها .

إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾

﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴾ .. ما دامت هناك كتابة ، والكتابة والحفظ من الكرام ، فسيكون هناك تعلقًا بعمل الخير ، أو بعمل الشر ؛ ولذلك فلابد وأن تكون النتيجة المترتبة على ذلك أن يوجد مصير إلى النعيم أو إلى الجحيم ، فأكد الحق ﷻ هذا

1 - سورة : ق ، الآية : 16 - 18 .

الأمر ، وقال بصيغة التأكيد : ﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴾ .

" **الأبـــرار** " .. جمع : بَر ، و " **البَر** " هو من يفعل البر دائمًا ، وكلمة : " **بـــر** " صيغة مبالغة ، تعني أنه ملازم لفعل البر ، وحينما تحدث القرآن الكريم عن البر تحدث عنه مرة بالإجمال ، ومرة بالتفصيل .

فقال إجمالاً : ﴿ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى ﴾[1]،وقال تفصيلاً : ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾[2] ، أي أن البر ليس أمرًا شكليًّا فقط ، وإنما يجمع بين الأمر الشكلي والأمر الموضوعي ، فلا فرق بين الموضوع والشكل ، ولا يصح أن نقول : ما دام الأمر قد تحقق موضوعه فإن شكله ليس ضروريًّا ؛ لأن الله ﷻ قد جمع بين الشكل وبين الموضوع في هذه الآية .

فعدد الحق ﷻ فيها ألوان البر ، فبدأها ﷻ بالعقائد الغيبية : ﴿ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ ﴾ ، ثم عقب عليها بالسلوك العملي .. ﴿ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ﴾ ، إذن فكل هذا يأتي في السلوك العملي ، وعند الحديث عن السلوك العملي يكون الكلام أولاً عن المال ، فكأن مسألة المال هي المحك في البر ؛ لأن المال في أعرافنا هو الوسيلة لتحقيق المتع والشهوات وتأمين الحياة في نظرنا نحن ، وكأنه يريد أن

---

1 - سورة : البقرة ، الآية : 189 .

2 - سورة : البقرة ، الآية : 177 .

يعقد شركة مع الله ﷻ ، فالمحك السلوكي لمن عنده مال يأتي بعد الناحية العقدية ، ولذلك يقول : ﴿ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ﴾ ، ثم يذكر ﷻ : ﴿ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ ﴾ في آية واحدة ، والزكاة هي المفروضة ، وتختلف عن إيتاء المال على حبه ؛ لأنه زائد عن المفروض ، فقد تجاوزوا مرتبة الإيمان إلى مرتبة الإحسان ، فهم يضعون أنفسهم في موضع التكليف في شيء لم يكلفهم الله به ؛ لأنهم عشقوا التكليف فزادوا على ما كلفهم الله به ، فلم يقبلوا على الزيادة إلا لأنهم قد عشقوا ذلك العمل ، وأحبته نفوسهم ، كما قال الله ﷻ : ﴿ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ ﴾[1].

كما في قول الله ﷻ : ﴿ كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴾[2] ، وهل فرض الله ﷻ عليَّ ألا أهجع من الليل إلا قليلاً ؟! كلا ، لم يقل أحد ذلك ، فإذا صليت العشاء ونمت ولم تقم إلا عند أذان الفجر ، فقد أديت ما عليك .

والشاهد هنا في هذه الآيات قوله ﷻ : ﴿ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾[3] ، حيث لم يقل : ﴿ حَقٌّ مَعْلُومٌ ﴾ كما جاء في **سورة المعارج** ، حيث قال الحق ﷻ هناك : ﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ * لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾[4] ؛ لأن المعلوم هو المفروض ، وهو ﷻ يتكلم هناك عن أولئك الذين يؤدون ما عليهم فحسب ، ولكن المقام هنا مقام إحسان ، ففي مقام تأدية الفريضة يجب عليك إخراج ربع العشر من المال ، ولكن في مقام الإحسان فحسب همتك الإيمانية ، فهي التي تحدد مقدار هذا الحق .

﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴾ .. إن : توكيدية للجملة الاسمية ، واللام أيضًا للتوكيد ، فإن هذه المسألة نتيجة للكتابة التي يقوم بها الحفظة .

---

1 - سورة : البقرة ، الآية : 184 .

2 - سورة : الذاريات ، الآية : 17 .

3 - سورة : الذاريات ، الآية : 18 .

4 - سورة : المعارج ، الآية : 24 ، 25 .

﴿ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴾ .. وهنا مقابلة لبيان مصير من هم خلاف أولئك الأبرار ، ومعنى كلمة جحيم : هي شدة تأجج النار ، فالجُحْمة : هي شدة تأجج النار وتلهبها ؛ ولذلك يقولون : فلان جحمه الغضب .. يعني جعل الغضب عنده حرارة شديدة ، وجعل وجهه يغلي حتى التهب ، وأصبح مثل شعلة النار .

ونجد هنا انسجامًا تناغميًّا بين كلمة : " **الفجار** " وبين كلمة : " **جحيم** " لفظًا ومعنى ، فكلمة : " **الفجار** " تعني أنهم خرقوا ستر أوامر الله ﷻ ونواهيه ، و " **فجر** " : يعني خرج عن مطلوب الطاعة منه ، وما دام قد خرج عن مطلوب الطاعة فيكون مصيره الجحيم ، فهناك انسجام في اللفظ والمعنى .

﴿ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ ﴾ .. وعندما نستعرض كلمة يصلى في القرآن نجدها تأتي دائمًا في الكلام عن النار .

﴿ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴾ .. يزيد الله ﷻ الأمر توكيدًا وتقريرًا ، فيقول : ﴿ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴾ ، لا فرارًا ابتداءً ، ولا خلاصًا بعد الوقوع فيها ، ولو إلى حين ، فيتم التقابل بين الأبرار وبين الفجار ، وبين النعيم وبين الجحيم ، مع زيادة الإيضاح والتقرير لحالة رواد الجحيم .

ولما كان يوم الدين هو موضع التكذيب ، فإنه يعود إليه بعد تقرير ما يقع فيه ؛ ليقرر حقيقته الذاتية في تضخيم وتهويل بالتجهيل ، وبما يصيب النفوس فيه من عجز كامل وتجرد من كل شبهة في عون أو تعاون ، وليقرر تفرد الله ﷻ بالأمر في ذلك اليوم العصيب ..

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴾ .. وكلمة : " **أدراك** " يُفهم منها أن هناك أملاً في أن يدريه الله ﷻ ؛ لأن الله ﷻ قد نفى أن يكون قد درى في الماضي ، وما دام قد نفى ذلك عنه في الماضي فإنه يمكن في المستقبل أن يدريه ، أما : " **ما يدريك** " فهي نفي الإدراء المستقبل أيضًا ، يعني : لن تدريه أبدًا ، فإذا رأيت ﴿ مَا أَدْرَاكَ ﴾ .. فاعلم أن هناك أملاً في أن

تدريه ؛ لأن النفي قـــــد جاء في الزمن الماضي ، ولكن " **ما يدريك** " فالنفي فيها في الزمن المستقبل .

﴿ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴾ .. وهنا تكرار للجملة ، وتقـرير لها بـــ : " **ثم** " ، فكأن هناك إدراءين : إدراءً إخباريًّا وإدراءً واقعيًّا ، **الإدراء الإخباري** : هو ما يخبرنا الله ﷻ عنه ، **والإدراء الواقعي** : فهو ما سوف يشاهده الإنسـان بنفسـه ؛ ولذلك قـال الحق ﷻ : ﴿ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴾ ، فالصور الكلامية لن تفي بـالمطلوب من الإدراء الواقـعي ؛ لأن الصور الكلامية تأتي على وفق أداء لغة الإنسان ، واللغات ألفاظ وضعت لمعانٍ ، والمعنىّ دائمًا متقـدم على وجود اللفظ ، حـيث يوجد المعنى فيوجد له اللفظ ، وحـيث كانت تلك الأشـياء غيبـية كلها ، فإن معناها ليس عندنا ؛ لذلك فلم توضع لها ألفاظ نســـتطيع أن نعرفها أو نفهمها ، وكل ما يأتي بـــه الحق ﷻ فمجرد تقـريب لذلك اليوم ، فالذي يجعلك تفهم ذلك اليوم على حقيقته هو أن تشاهده .

﴿ يَوْمَ لاَ تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴾ .. وتلك قـــضية فاصلة في حـــياة الإنســـان ، وهذا اليوم يمتاز بخاصيتين : **الخاصية الأول** : أنه لا توجد نفس تملك لنفس شـــيئًا ، **والخاصية الثانية** : أن الأمر كله لله ﷻ ، ومع أن الأمر كله لله ﷻ في الدنيا وفي الآخرة ، إلا أن الحق ﷻ حـين خلق الخلق في الدنيا ســخر الكون للإنســان ، وأعطاه من أسباب الفكر والقوة والطاقة ما يتفاعل به مع ذلك الكون ، فتعطيه الأسباب مسبباتها ، فيظن الإنسان أن علاقته بالأسباب ، فالسحاب مثلاً هو الذي يأتي بالمطر ، والتربـة الخصبـة هي التي تنبـت الزرع ، وكلها أسبـاب ، ولكن الله ﷻ من ورائها عند المؤمن ، ولا يقـول ذلك إلا المؤمن ، فالمؤمن المتيقن يرى يد الله ﷻ في كل شيء ، وتبقى الأسبـاب سـترًا ليد الله في العطاء فقط ، وقد يقف الغافل عند الأسباب الظاهرية ، لكن المؤمن ينظر إلى ما وراء ذلك ، وفي الآخرة تنفض الأسباب ولا يبقى إلا المسبب وحده ﷻ .

لا وزير ، ولا مشير ، ولا مجير ، ولا نصير ، ولا صداقة ، ولا خلة ، ولا شفاعة ، ولا أي شيء من ذلك ، فما كان يعرفه الناس في الوجود الدنيوي من الأسباب ومن النصراء ومن الأولياء سيُمنع ، فهناك حياة مع المسبب فقط ، وما دامت حياة مع المسبب فقط فيكون الأمر لله ﷻ ظاهرًا وباطنًا .

فإذا اغتر إنسان بجاهه عند إنسان فقل له : إن هذا لا ينفعك ﴿ **يَوْمَ لاَ تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا** ﴾ .

نسأل الله ﷻ أن يمدنا بما نعد به أنفسنا لهذا اليوم ؛ حتى نظفر بلقائه وحسن جزائه . .

إنه ولي ذلك والقادر عليه

والحمد لله رب العالمين . .

علم

تفسير جزء

سُورَةُ المُطَفِّفِينَ

سورة المطففين

بسم الله الرحمن الرحيم .. أحمدك ربي ، وأصلي وأسلم على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين ، ورحمة الله للعالمين ، وبعد ..

فمع سورة جديدة من سور الجزء الأخير من القرآن الكريم ، وهذه السورة تأخذ سياقها من التي قبلها ، ويلتقي سياقها مع ما بعدها في الغرض العام الشائع في هذا الجزء من أجزاء القرآن ، وهو تأكيد أمر البعث واليوم الآخر ، ذلك التأكيد الذي يتكرر في كل مناسبة في سور هذا الجزء ، وإذا كان أمر البعث قد أخذ هذا الحيز ؛ فلأنه يأتي في الناحية الثانية من القمة الإيمانية التي بدأت بالإيمان بالله ﷻ ، ثم ثنت بالإيمان بما يخبر الله ﷻ به من أمور الغيب كلها كالملائكة والكتب والرسل والقضاء والقدر واليوم الآخر ، فإن اليوم الآخر هو الحصيلة النهائية لذلك الإيمان كله ، فمن لم يؤمن بالله راغبًا فليؤمن بالله راهبًا ؛ لأنه سيلتقي به .

وسورة **المطففين** ترتبط بما قبلها وبما بعدها ، **فسورة التكوير وسورة الانفطار** تعلقتا بمقدمات اليوم في قول الله ﷻ : ﴿ **إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ** ... ﴾[1] إلى آخره ، وكذلك في قوله ﷻ في **سورة الانفطار** : ﴿ **إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ * وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ** .... ﴾[2] إلى آخره ، وهذه مقدمة لليوم .. أي : الأهوال التي تصيب الكون لتنبئ بمجيء ذلك اليوم .

---

1 - سورة : التكوير ، الآية : 1 ، 2 .

2 - سورة : الانفطار ، الآية : 1 ، 2 .

ثم بعد تلك المقدمة لليوم يأتي شيء آخر ، وهو القيام لله رب العالمين ، وقد تعرضت هذه السورة لهذا الجزء من ذلك اليوم .. ﴿ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾[1] .

ثم تأتي **سورة الانشقاق** بعد ذلك لتدلنا على النهاية النهائية لذلك اليوم بعد مقدماته ، وبعد الوقوف بين يدي الله ﷻ .. يوم أن يأتي أصحاب الإيمان فرحين بإيمانهم ، وينقلبون مسرورين .. ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا * وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴾[2] ، ويأتي أصحاب الشمال ينقلبون في غم وحسرة وحيرة .. ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ * فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا * وَيَصْلَى سَعِيرًا ﴾[3] .

فالسياق كله يتعلق بمقدمات اليوم الآخر ، ثم بالوقوف بين يدي الله ﷻ لانتظار الفصل ، ثم بالنهاية التي يتوزع فيها الناس حسب أعمالهم حين يأخذون كتبهم إما بأيمانهم وإما بشمائلهم ، أو من وراء ظهورهم .

وأيضًا هناك مناسبة بين هذه السورة وبين السورة التي سبقتها وهي **سورة الانفطار** ، والسورة التي تليها وهي **سورة الانشقاق** ؛ لأن **سورة الانفطار** إنما تعرضت للكتبة الذين يكتبون أعمال الناس .. ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾[4] ، فمهمة هؤلاء هي أن يكتبوا ، ثم بعد ذلك تأتي السورة التي نحن بصددها ، وهي **سورة المطففين** تتكلم عن المكتوب نفسه .. ﴿ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ ﴾ ، ﴿ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴾ ، فتعرضت السورة الأولى للكتبة ، وتعرضت السورة الثانية للمكتوب نفسه ، ثم نتيجة ذلك المكتوب فتتعرض له **سورة الانشقاق** .. ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا * وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا * وَأَمَّا مَنْ

1 - سورة : المطففين ، الآية : 6 .

2 - سورة : الانشقاق ، الآية : 7 - 9 .

3 - سورة : الانشقاق ، الآية : 10 - 12 .

4 - سورة : الانفطار ، الآية : 10 - 12 .

أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ * فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا * وَيَصْلَى سَعِيرًا ﴾[1] .. فهذه السور تتعرض للكتاب كتبةً ومكتوبًا وغاية واستلامًا .

فتناسب السياق موجود ، ولكن الملاحظ في هذه السورة هو أنها اتجهت إلى شيء آخر يتأتى بعد العقيدة ، وهو المنهج السلوكي للبشر .. واقع الحياة .. طبائع النفوس .. انتقلت فجأة من أمر عقدي كانت الدعوة مستهلة به في العهد المكي ، إلى أمر تقريري يقرر نظم الحياة والسلوك ، والعجيب أن بدء السورة كان بهذه المسألة .

وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾

﴿ وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴾ .. انتقل الحق ﷻ من الحديث عن العقيدة إلى الحديث عن أمر سلوكي ينظم تعامل الناس في الأرض ، مع أن هذا الانتقال إنما كان من شأن السور المدنية ، بعد أن صار للإسلام دولة تقنن النظم ، وتضع الأسس للمجتمع ، وتضع أسس الإيفاء وأداء الحقوق ، والمعايير الدقيقة بين الحق والواجب في الناس ، أما أن يكون في سورة مكية فهذا أمر عجيب يستلزم النظر .

والحق ﷻ حينما شحن النفوس هذه الشحنة الإيمانية بالحديث عن الإيمان واليقين باليوم الآخر ، أراد ﷻ أن يلفتنا لفتة إلى أن العقائد ليست مطلوبة لذاتها ، وليس الإقرار باللسان بهذه العقيدة مطلوبًا لذاته ، وإنما العقيدة وإعلانها ، أي : الدخول في الإسلام بشهادة أن

1 - سورة : الانشقاق ، الآية : 7 ، 12 .

لا إله إلا الله ، وأن محمدًا رسول الله ، كل ذلك وسيلة لغاية ، تلك الغاية هي أن ينظم الحق سياسة البشر وحركة حياتهم .

إذن فالعقيدة والنطق بالشهادتين ، بل والإسلام كله إنما جاء ليؤكد نظامًا يسوس هذه الحياة وينظم حركتها .

فإن الخالق ﷻ حينما خلق الكون خلقه على لونين : لون لا اختيار للمكوَّن فيه ، بل هو مسخر مُسَيَّر لا يملك أن يختار غير الطريق الذي قد رُسم له لتحقيق هدفه ، وهذا هو الكون كله باستثناء الإنسان ، وهو اللون الثاني : الإنسان ، فكل شيء ما عدا حركة الإنسان جاء بقانون التسخير .

ثم بعد كل ذلك التنسيق يفسد الكون حين يتدخل الإنسان بحركته وبجهله وبتنظيمه وبتشريعاته للأشياء ؛ ولذلك نقول : إن الحق ﷻ لفتنا هذه اللفتة حينما قال : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ ﴾ .. من في السماوات ومن في الأرض من الغيبيات كالجن والملائكة ، بدليل أنه سيتكلم عن الإنسان بعد ذلك ، ﴿ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ ﴾ .. هذه هي أجناس الوجود كلها ، ثم لما جاء الحديث عن الإنسان لم يقل : والإنسان ، وإنما قال : ﴿ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ﴾ [1] .. إذا فلم ينقسم الكون أبدًا إلا عند الإنسان ؛ لأن الإنسان له فكر وله غاية ، يختار بفكره ، أو يجمح بهواه إلى أشياء قد تخالف النظام المفروض على الناس ؛ لأنها تحقق للإنسان شهوة عاجلة ، ولا ينظر فيها إلى الجزاء الأخروي .

والمجال المقصود لهذا الكون كله هو أن يسير على قانون ثابت ، هذا القانون الثابت يعبر الحق ﷻ عنه بالميزان : ﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ * أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ * وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلاَ تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴾ [2] .. إذا رأيتم الأرض والسماء وجميع أجرام

---

1 - سورة : الحج ، الآية : 18 .

2 - سورة : الرحمن ، الآية : 7 ، 9 .

الكون منتظمة في سيرها بشيء من الدقة لا تتصادم ولا تتعارض ، ولا يتأتى لها عطب فاعلموا أنها موضوعة في نظامها بميزان ، فإن أردتم أن تستقر أمور حياتكم هذا الاستقرار الدقيق فخذوا ذلك الميزان ممن خلقكم ، وما يجعل عالمكم يفسد هو أن تتركوا الميزان الذي وضعه لكم الله ﷻ ، ثم تضعوا من عندكم موازين بشرية ، ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ .. هذه واحدة ، ﴿أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾ وهذه هي الثانية ، ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلاَ تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ .. إذا أردتم أن تستقيم أموركم – حتى الاختيارية منها – كما استقام الكون كله في نظمه العليا فخذوا نظام الله ﷻ وحكموه في حياتكم وأموركم .

ومن هنا جاءت هذه السورة لتؤكد أمر الميزان ، والميزان هو الآلة التي عرفها البشر أولاً في تقرير استيفاء الحقوق وأداء الواجبات ، فكل شيء بميزان دقيق .

إذًا فالحق ﷻ نقلنا نقلة من تأكيد الإيمان باليوم الآخر إلى شيء عملي في الحياة ، هذا الشيء العملي يقرر مبدأ عامًّا ، فقد أخذ الحق ﷻ مبدأ من المبادئ التي هي الأساس في قوام الحياة ؛ لأن علم الإنسان في هذه الحياة محدود ، وزمنه لتعليم الأشياء محدود ، وحاجاته لا تنتهي ، فمع علم محدود وزمن محدود يواجه حاجات لا تتناهى ، فليس من الممكن أن يوجد إنسان يكون أمة وحده ، يستطيع أن يقوم بكل زوايا حياته لنفسه ، ولكن لابد من أن يقوم بزاوية من زوايا حياته ، ويصنع فيها شيئًا ، ويترك للآخرين مجالاً ليصنعوا في زوايا حياته ما لا يعرفه هو .

وهذا هو مبدأ التكامل بين الناس ، وما دام الناس متكاملين .. هذا يعطي هذا ما عجز عنه ، ثم يأخذ من الآخر ما عجز هو عنه ، فكل واحد يأخذ زاوية من زوايا الحياة يتفوق فيها حسب موهبته وقدراته ، ويؤدي مهمة لنفسه وللوجود من حوله ، فإذا ما أدى الإنسان ذلك كان هناك وسيلة للتبادل ، هذا التبادل ينشأ من وجود منتج ينتج أكثر من شيء ، فيأخذ حاجته ، ويرد ما زاد على حاجته على من لم ينتج أصلاً .

إذن فعملية التكامل لا يمكن أن تتأتى إلا بالتبادل ، هذا التبادل هو أن يصبح كل إنسان منتجًا في زاوية من زوايا الحياة ، ينتج لنفسه ولغيره ، والآخر هكذا ، أنا آخذ من غيري ما لا أحسن عمله ، وهو يأخذ مني ما لا يحسن عمله ، وذلك يؤدي إلى التكامل في المجتمع ، فهناك شيء اسمه الحق ، أنا آخذه ، وهناك شيء اسمه الواجب ، ينبغي عليَّ أن أؤديه ، والفيصل بين الحق والواجب هو أن توزن الأمور بموازين العدل والإنصاف .

إن مكونات الحياة – كما خلقها الله ﷻ – أن يطعم الله الناس من جوع ، وأن يؤمنهم من خوف ، فكل حركة الحياة للإطعام من الجوع وللأمن من الخوف ، والأمن من الخوف قوام المعاني النفسية ، والإطعام من الجوع قوام الحياة المادية .

﴿ وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾ .. يستهل الحق ﷻ هذه السورة بأداة من أدوات الاستيفاء ، وعملية من عمليات أخذ الحقوق وأداء الواجبات ، فيقول : ﴿ وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾ ، فقد اختل عندهم ميزان الاستيفاء والأداء ، فيجب أن يكون الميزان واحدًا ، ما تستوفي به يجب أن تؤدي به ، أما أن تستوفي بالمعيار الواسع ، وتؤدي بالمعيار الضيق فذلك هو الظلم الذي ينشأ عنه الفساد في المجتمع .

ففساد المجتمع ينشأ من حرص الناس جميعًا على أن يأخذوا حقوقهم كاملة غير منقوصة إن لم تكن زائدة ، ثم حين يطلب منهم الواجب يؤدونه مطفوفًا ، فلو أن كل إنسان حرص على أن يؤدي واجبه كما يحرص على أن يأخذ حقه لاستقامت أمور الدنيا ، فالحق ﷻ يعرض هذه السورة فيقول : ﴿ وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ ﴾ .. ثم بعد ذلك يشرح معنى المطففين فيقول : ﴿ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾ .. واستهل الحق ﷻ السورة بكلمة : ﴿ وَيْلٌ ﴾ ، وهي نهاية العذاب المؤلم من الهلاك و الحزن

والغم والشر الذي يكتنف الإنسان من كل ناحية ، فالإنسان قد يصيبه عذاب يؤلمه في مادته ، ولكن الغاية من هذا العذاب قد تحبب للإنسان ذلك العذاب فينعم به نفسيًّا ، ولكن الويل مختلف ، فهو عذاب مؤلم للحس ، وهو أيضًا همٌّ بالقلب وشرٌّ محيط ، فليس هناك أي منفذ .

ومعنى : ﴿ وَيْلٌ ﴾ هو واد في جهنم ، وهو مكان تجتمع فيه هذه الأمور كلها : المتاعب المادية التي لا حد لها ، والمتاعب النفسية التي لا حد له ، وكل ذلك يعبر عنه الله ﷻ بكلمة ويل .

وهناك من يقول : إن الويل هو الهلاك ، ومن يقول : هو عذاب مؤلم ، ومن يقول : شر محيط ، ولا مانع أبدًا أن يكون الويل واديًا في جهنم ، وتتحقق فيه جميع هذه الأشياء ، فإن الإنسان إذا عُذب وآلمه العذاب يظل ينتظر غاية من الغايات تخفف عنه هذا العذاب ، أما إذا كان مصيره جهنم خالدًا فيها ، فلن يخرج منها ، ولن يكون عنده أمل في أن يخفف عنه .

إذن فاستهلال السورة بـ : ﴿ وَيْلٌ ﴾ وهو العنف في العذاب الشديد ، لم يأتِ بعد ذلك بما هو متوقع ، فلم يقل مثلاً : ويل للقتلة ، أو : ويل لأصحاب الفحشاء ، أو ما شابه ذلك ، ولكنه يذكر شيئًا مما يستصغره الناس : ﴿ وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ ﴾ .. والتطفيف هو الازدياد اليسير ، من طَفَّ الصاع أو الكيل ، وذلك حين تأخذه من جانب وتضعه في جانب آخر فقد تخونك يدك ، فيكون ذلك سببًا في الويل .

وهل يستحق هذا التطفيف القليل أن يكون جزاؤه هذا الجزاء الشديد ؟! نعم ؛ لأن هذا الشيء القليل يدل على حقارة النفس ، كأن تكون غنيًّا ، وتمتلك الجاه من الشيء التافه ، وإذا كنت تفتري في الشيء التافه فالافتراء على الشيء الأكثر منه وارد ؛ لأنه ما دامت النفس قد وصلت إلى هذا المستوى وتريد أن تأخذ من الشيء الحقير ، فمن باب أولى أن تأخذ من الشيء الأكبر .

﴿ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴾ .. وعندما ننظر إلى الأداء القرآني نجده

يصور لنا حالة اجتماعية كانت شائعة وموجودة ، فهناك من يملكون أقوات الناس بجاههم وبسلطانهم وبمركزهم وبما يملكون من أموال ، ولذلك تجد العبارة القرآنية : ﴿ اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ ﴾ .. فكان القياس أن يقول : اكتالوا من الناس ، يعني : أخذوا منهم كيلاً أو وزنًا ، ولكنه قال : ﴿ اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ ﴾ ، فكأن الاكتيال ليس منهم ؛ لأن : " منهم " تدل على المساواة ، أما : " عليهم " فتدل على أن الذي اكتال له من السلطان ومن السيطرة ومن القهر ومن الإرهاب ومن التمكن ما لا يجعل للمكتال منه سببًا في اختياره .

﴿ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾ .. فلم يقل : " كالوا " ، وإنما قال : ﴿ كَالُوهُمْ ﴾ ، فهم ليسوا ملحوظين في الصفقة ، كأن شخصًا يعقد صفقة مع غيره ، وذلك الذي يعقد معه الصفقة لا وجود له ، فلا هو آخذ ولا هو معطٍ ، فالآية تفيد أن هناك جماعة مسيطرين على اقتصاديات الناس ، ومسيطرين على مقومات الحياة ، فإذا أخذوا منهم أخذوا حقوقهم باستيفاء يصل إلى درجة الجور ، وإذا أدوا هم فإنهم يُخْسِرون .

﴿ وَإِذَا كَالُوهُمْ ﴾ .. تدل على أن الطرف الأخير معطٍ ، والطرف الأول آخذ ، وكالوهم : اكتالوا منهم ، وكالوهم يدل على العكس ، وهذا يدلنا على أن أصحاب المحاصيل أو المنتجين يذهبون بإنتاجهم أول العام ويعطونها للسادة ، ثم بعد ذلك يأتون تباعًا ، فيأخذون أقواتهم يومًا بيوم ، وذلك يدل على سيطرة غاشمة ، يريد الحق ﷻ أن يعالجها .

ومما يثير العجب أن هذه السورة مكية ، أي نزلت بمكة ، ونحن نعلم أن السور المكية لم يكن من خصائصها تقنين القوانين ، ولا سن التشريعات [1] .

ولكن الحق ﷻ يريد أن يعطينا لفتة هامة عند الحديث عن العقائد ، وهو أن العقائد والعبادات مطلوبة بذاتها ، وليست مطلوبة لذاتها ، إن العقيدة والعبادة عبارة عن وسيلة

---

1 - نعم .. هناك من قال : إنها مدنية ، كالحسن وعكرمة ، ومن قال : إنها نزلت بين مكة والمدينة ، ولكن الراجح كما قال ابن مسعود والضحاك ومقاتل أنها مكية والله أعلم .

لشحن النفس لكي تستقبل نظام الله ﷻ في حركة حياة الناس ، فجاء بذلك الشيء الذي كان له وجود في قريش صاحبة رحلتي الشتاء والصيف ، وهي التي تتحكم في المسائل كلها ، وأهلها هم السادة المطاعون ، ولا أحد يقدر على أن يرفع رأسه عليهم .

ويلاحظ أنه حين قال : ﴿ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ ﴾ لم يأت بالميزان ، ولكن حين قال : ﴿ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ ﴾ أتى بالكيل والميزان معًا ، مما يدل على أنهم من جبروتهم وقسوتهم كانوا يأخذون كل شيء بالكيل ، وعندما يعطون ويبيعون ، فإنهم يبيعون شيئًا بالكيل وشيئًا بالوزن ؛ لأن الكيل قد يمكنهم من التطفيف ، ولكن الميزان عملية واضحة والتطفيف فيها صعب نوعًا ما .

فأراد الحق ﷻ في خضم إهاجة الناس بذكر البعث واليوم الآخر والإيمان به أن يدخل في صميم المسألة التي تتعلق بأوليات الحياة ، وهي الكيل والوزن ، ليس المراد هو الكيل والوزن فقط ، وإنما المراد هو استيفاء الحقوق ، فالأجير مثلاً كما أنه يأخذ حقه فلابد وأن يؤدي واجبه ، والموظف يأخذ راتبه فلابد وأن يقوم بدوره ، فكل أداء وكل إيفاء لابد أن يخضع لمنطق الميزان والعدل والحق ، فإن أراد الناس أن تستقر أمورهم اقتصاديًّا ومعنويًّا وأدبيًّا واجتماعيًّا فليضعوا هذا المبدأ نصب أعينهم ، وهو أن يستوفوا بالمعيار الذي يؤدون به ، فمن أراد أن يستوفي حقًّا له فلابد وأن يؤديه حين يكون عليه يومًا ما ، ولا تجد فسادًا في أي مجتمع إلا حين يخالف الناس هذه القاعدة .

وقد يتساءل البعض : ما الذم في أنهم إذا اكتالوا على الناس يستوفون ؟! فنقول : إن الويل في الآية للمجموع ، أي أنهم عندما يأخذون يستوفون ، وعندما يعطون ينقصون ، فليس الويل للاستيفاء في الأخذ فقط ، وإنما لقرنهم الاثنين معًا ، فيكون ذلك نموذجًا سلوكيًّا في النفس ، فلماذا عندما تأخذ تستوفي ، وعندما تعطي تنقص ؟!

وعندما نتدبر في كلمة : ﴿ وَيْلٌ ﴾ ، هل هي خبر أم دعاء .

فمن المعلوم أن الذي يدعو على إنسان بالويل لا يملك أن ينزل به الويل ، فهو يدعو من يقدر على إنزال هذا الويل بالمدعو عليه ، فإن دعوته تدل على عجزه عن أن يلحق الويل بخصمه ؛ لذلك دعا من يملك ويقدر على أن إنزال هذا الويل .

لكن إذا كان الله ﷻ هو الذي يقول هذه الكلمة ، وهو القادر على أن ينزل ذلك الويل ، فقد التقى الدعاء والإخبار في قول الله ﷻ ، فالدعاء من العبد شيء والإخبار شيء آخر ، ولكن حين يصدر من الله ﷻ ، فالدعاء من الله على خلقه بالويل معناه أن الويل واقع لا محالة .

إذن فلا مجال لاختلاف المفسرين فيها : هل هي دعاء ، أم خبر ؛ لأن الدعاء والخبر بالنسبة لله ﷻ سيان ، فما داما صادرين منه فهما واقعان ، فإذا كان الله ﷻ هو الذي يدعو فقد التقى الدعاء مع الخبر ، وتكون : ﴿ وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ ﴾ دعاء عليهم ، وفيها إخبار كذلك بأن ذلك حاصل .

﴿ أَلاَ يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ﴾ .. يعود مرة أخرى لنفس الموضوع ، وقد استُهل الأسلوب بإهاجة النفس للإيمان باليوم الآخر ، ثم يذكر قضية اجتماعية تتعلق بمعاش الناس ، ثم بعد ذلك يعود إلى القضية الأصلية ، ﴿ أَلاَ يَظُنُّ أُولَئِكَ ﴾ .. والسبب في أنه ذكر الظن هو أن مجرد ظن الشر يكون كافيًا في أن يردع الإنسان عن العمل، فلو قال لي شخص : لا تسِر من هذا الطريق ؛ لأنني أظن أن فيه خطرًا ..فدفع الشر في هذه الحالة يجعلني أعتبر الظن كأنه يقين ، فإذا كان مجرد الظن يكفي هؤلاء في أن يرتدعوا عن التطفيف ، فما بالك إن كان يقينًا ؟!

﴿ أَلاَ يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ﴾ .. وهنا استفهام تعجب لحالتهم ؛ لأن مقاييس النفع والانتفاع يجب على العاقل ألا ينظر إليها نظرة آنية ، فالنفع ليس هو ما ينفعني الآن ، لكن النفع هو الذي لا منغصات بعده ، فليس كل شيء يحقق لي نفعًا ذاتيًّا الآن يكون حسنًا ، فهذا التطفيف سيؤدي إلى نفع عاجل بشيء بسيط ، ولكن لو نظروا إلى نتائج الأشياء

فسيجدون أنه يحقق ضررًا أكثر وأكبر وأخلد .

وفي هذه الآية فائدة عظيمة أيضًا ، وهي أن الذين يصنعون ذلك شر من الكفار ؛ لأن الله ﷻ قال عن الكفار : ﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لاَ رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلاَّ ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴾[1] ، ولكن هؤلاء لا يوجد عندهم حتى الظن في اليوم الآخر ولقاء الله ﷻ .

﴿ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ .. ووصف الحق ﷻ ذلك اليوم بالعظمة ؛ لأنك إذا قارنته بأي شيء وجدته أعلى منه وأعظم .

فإذا ما قارنت النفع العاجل في يومك الحاضر بالنفع الآجل يوم القيامة وجدت أن نتيجة المقارنة واضحة ، فمن مبادئ الاقتصاد أنني إذا أردت أن أقوم بصفقة تجارية فإن ذلك لكي تحقق لي نفعًا أكبر مما بذلته فيها ، فإن لم تحقق لي ذلك النفع فإنها تكون صفقة فاشلة .

فهؤلاء الذين يطففون المكيال يريدون أن يحققوا لدنياهم شيئًا من الرخاء والرفاهية ، وهذا في حد ذاته حسن ، ولكنهم ليسوا اقتصاديين ؛ لأن هذه الصفقة لم تحقق الربح المناسب ، وهو أنهم ضحوا بآخرتهم لأجل متاع قليل من متاع الدنيا ، وهذا من الخسران المبين .

فهذه الدنيا مثلاً لا نتعب أنفسنا في حساب عمرها ؛ لأن عمر الدنيا عندي هو مقدار حياتي فيها ، فإن بقيت الدنيا مليوني سنة فإنما تبقى لغيري ، ولكنها منتهية لا محالة ، إذن فأنا عندما أقيس النفعية أبحث في مقدار حياتي في الدنيا ، فإذا ما كانت حياتي فيها غير متيقنة ، فمن الممكن أن أعيش سبعين سنة أو مائة سنة ، ومن الممكن أن أموت الآن ، فمع كونها محدودة فهي ليست متيقنة أيضًا ، وأيضًا فالنعيم فيها يكون على قدر إمكانياتي في أسباب المعيشة ، ولكن النعيم في الآخرة إنما يكون على حسب قدرة الحق ﷻ .

إذن فحينما أقارن الدنيا بالآخرة تكون الآخرة هي الراجحة في أنها غير محدودة ، أما

---

1 - سورة : الجاثية ، الآية : 32 .

الدنيا فمحدودة ومرجوحة ، وأيضًا من ناحية أن عمري في الحياة الدنيا غير متيقن ، ولكن حياتي في الآخرة متيقنة ، والنعيم هنا على قدر إمكانياتي ، ولكن هناك فعلى حسب قدرة ربي ﷻ .

إذن فالمقارنة من ثلاثة أوجه تجعل اليوم الآخر هو الراجح ، وهو العظيم ، وما عداه فليس عظيمًا ولا راجحًا ، فعندما تقارن الأشياء لا تقارنها بما أنت فيه الآن ، ولكن قارنها بما تؤول إليه تلك الأشياء ، فإذا قارنتها بما تؤول إليه هان عليك أمر الدنيا ، وتبين لك أنها زخرف وغرور ، وأنها متاع زائف إذا ما قورنت باليوم الآخر ، فإذا كان ذلك اليوم هو الذي يحقق المتعة الدائمة والنعيم المقيم فإنه يكون هو اليوم العظيم .

﴿ **يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾ .. وهنا جانب آخر من جوانب العظمة ؛ لأن ضبط أمور الناس في الحياة ترجع إلى بعض الأسباب الكونية ، فهذا يقف أمام قاضٍ ، وذاك يقف أمام وزير ، والمرءوس يقف أمام رئيسه ، يعني أنت واقف موقف المسئول كسبب أمام سبب ، أما في هذا اليوم فلا أحد يقف أمام أحد أبدًا ، بل الكل سيقف أمام الله ﷻ ، فكل الأسباب والأشياء التي خلقها الله ﷻ من أجل صلاحية الكون ونظامه ، كل ذلك سينتهي ﴿ **يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾ .

فهذا موقف يجب أن نخاف منه ، فأنت ساعة ما تقرأ : ﴿ **يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾ .. تشعر بهيبة الوقوف ورهبته ، وكلمة : ﴿ **يَقُومُ** ﴾ تدل على فزعة الوقفة ، فساعة ما يكون الناس جالسين ثم يدخل عليهم رئيسهم أو المتولي شئونهم فإنهم في الغالب يهبون للوقوف له ، ولله المثل الأعلى ، فما بالك برب العالمين ﷻ ؟!

فكلمة : ﴿ **يَقُومُ** ﴾ هذه تنبه على أن الناس في غير ذلك اليوم كانوا قاعدين في تراخٍ وتكاسل ، ولكن عندما جاء هذا اليوم فإن الكل يقوم ينظر ؛ ولذلك فمن هول ذلك الموقف وشدته أن الناس يتمنون انصرافهم ولو إلى النار ، وكل ذلك يدل على هول الموقف وشدته .

﴿ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .. وكلمة : ﴿ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أيضًا فيها إيحاء وإشارة ، حيث يكون القيام أمام الرب ﷻ ، الرب المتولي التربية ، المتولي التأديب ، أي أنك لا تقف أمام من ليس لديه عنك فكرة ، أو من لا علم له بك ، كلا .. إنه ربك ، مربيك ومعدك الإعداد التربوي العقدي الذي يجعلك لا تقف له في هذا اليوم إلا موقف العزة ، إذن فأنت تقف أمام من يعلم كل شيء عنك ، لا تستطيع أن تقول : أنا لا أعرف .. لأنه أرسل إليك رسلاً ، ولا تستطيع أن تقول : ليس عندي استعداد .. لأن الله ﷻ قد خلق لك عقلاً تفكر به وتعقل .

إذن فكلمة : " رب " تفيد هول الموقف ، حيث إنك واقف عند خالق يعلم خلقه ، ويعلم الأطوار التي مرت بها عملية الخلق ، ويعلم أنه ما جعل لخلق من خلقه حجة ولا عذرًا ، وما دام لم يجعل لخلقه حجة ولا عذرًا فإن الموقف هنا موقف عسير إلا على من يسره الله ﷻ له .

كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾

﴿ كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ ﴾ .. بعد ذلك يتحدث الله عن الفجار ، ثم يرجع إلى الكتاب ، وكما قلنا : إن السورة السابقة تعرضت للكاتبين ، وهنا يتعرض للكتاب نفسه : ﴿ كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ ﴾ ، ثم يشرح معنى سجين ، ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ﴾ ، يعني : شيء يُستفهم عنه ، شيء لا يمكن للعقل العادي أنه يعرفه ما لم يُخبر به من يعرفه ، فعندما يقول لك : وما أدراك ما كذا ؟! يعني : لا توجد عندك أسباب تعرفك ما هو ، إلا إذا كنت أنا أعرفك ، فكأنه بلغ من دقته ، وبلغ من عظمته ، وبلغ من غيبيته عن مستويات

الناس ، أنه لا يمكن أن تعلمه إلا إذا أخبرك به خالقك .

وكلمة : ﴿ كَلاَّ ﴾ كما قلنا : تفيد الردع والزجر ، والردع والزجر منصب على ما قبلها ، وهو : ﴿ أَلاَ يَظُنُّ ﴾ ، أي : أنهم لا يظنون أنهم مبعوثون ، فزجر عن هذا ، ثم سماهم فجارًا ؛ لأن الفاجر هو الذي يخرق ستر التكليف ، فَجَر يعني : شق ستر الطاعة ، أو شق ستر التكليف ، ﴿ كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ ﴾ .

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ﴾ .. يشرح لنا الحق ﷻ معنى كلمة سجين ، فيقول : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ﴾ .. أدرانا هو ، فقال : ﴿ كِتَابٌ مَرْقُومٌ ﴾ .. فإذا وجدت : ﴿ مَا أَدْرَاكَ ﴾ في القرآن فانتظر أن يُعْلِمَك الله به ، أما إذا وجدت : ﴿ مَا يُدْرِيكَ ﴾ فلا تنتظر أن تعرفه ؛ لأن ﴿ مَا يُدْرِيكَ ﴾ نفي للإعلام في المستقبل ، أما ﴿ مَا أَدْرَاكَ ﴾ فهي نفي للإعلام في الماضي ، ونفي الإعلام في الماضي يمكن أن يتم الإخبار به في الحاضر أو المستقبل ، أما عندما ينفى الإعلام في المستقبل فذلك يعني أنه لن يتم الإخبار به ، فتكون المسألة قد انتهت .

﴿ كِتَابٌ مَرْقُومٌ ﴾ .. وكلمة : ﴿ مَرْقُومٌ ﴾ يفسرها العلماء بقولهم : الرقْم وسيلة من وسائل التوثيق ، وهذا دليل على أنه لا يضيع أبدًا ، هذا معنى ، وهناك معنى آخر ، وهو : مرقوم : أي له رقم بحيث يعلم به ويعرف ، وبحيث يكون سمة له ، فعندما يراه الناس يقولون : هذا كتاب الفجار .. وكأنه كتاب فيه من سمت البشاعة ما يوحي لمن يراه بأنه كتاب فجار ، وهذا معنى ثانٍ ، والمعنى الثالث هو أن : ﴿ مَرْقُومٌ ﴾ أي : مخطوط ، ومعنى الخط هنا : أنه لا يتخطى شيئًا مما كُتب فيه ، ولا يتصور أحد أنه يُزاد فيه أو يُنقص .

إذن فهو كتاب موثق أتم التوثيق ، والذي كتبه هم الذين قال عنهم من قبل : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾[1] ، وكلمة : ﴿ سِجِّينٍ ﴾ مأخوذة من السجن ، وهو الحبس ، فكأن الكتاب موضوع أيضًا في سجين مبالغة في السجن ، فيكون

---

1 - سورة : الانفطار ، الآية : 10 - 12 .

معنى ذلك أنه كتاب محافظ عليه ؛ لأنه مرقوم ، ومُعلَّم بعلامة ، بحيث أنك عندما تراه تقول : هذا كتاب الفجار .. لأن له بشاعة وشدة ، فينفر منه الناس ، ومختوم بختم بحيث لا يمكن لأحد أن يفتحه ، أو أن يغير فيه شيئًا .

﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ .. عاد ثانية للويل ، ولكنه في هذه المرة للذين يكذبون ، وهؤلاء المكذبون كثيرون ، والكذب هو أن لا يطابق كلام الإنسان الواقع ، والكذب أنواع ، وكذلك التكذيب أنواع ، وشره أن يكون تكذيبًا ليوم الدين ؛ لأنه يكون تكذيبًا بالقمة ، فمن المعقول أن نكذب في جزئية من جزيئات الحياة ، أما التكذيب بالقمة فهذه مسألة صعبة .

﴿ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلاَّ كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴾ .. والمعتدي هو الذي يجترئ على الحق ، ويوم الدين حق ، فالذي يكذب به يكون معتديًا ؛ لأن الله ذكر أصلاً عقديًّا أنت تريد أن تخالفه ، وأثيم لأن عدم إيمانه به ، وإعراضه عنه جعله يلج في الإثم ؛ لأن هناك فرقًا بين الآثم والأثيم ، فإن الآثم هو الذي قد يفعل الإثم ، أما الأثيم فهو الذي قد اعتاد الإثم ، فأصبح الإثم ملكة عنده ، وما دامت عنده ملكة الإثم فسيتكرر منه ذلك الإثم لا محالة .

إن الذي يكذب بيوم الدين رغم كل تلك الآيات التي تذكره بذلك اليوم ، وتذكره بهوله ، وتذكره بأنه حق ، عندما يقرؤها يكذب نفسه ، فهذا الإنسان ليس عنده قدرة على أن يحمل نفسه على مشقة التكاليف ، وعندما لا يجد من نفسه القدرة على حمل مشقة التكاليف تجده يكذب نفسه ، فيقول : إن اليوم الآخر ليس له وجود ، فنقول له : إن اليوم الآخر له وجود ، ولكن أنت الذي تكذب نفسك ؛ لأنك غير قادر على أن تحمل نفسك على مشقة التكاليف ؛ ولذلك تريد أن تجعل لنفسك شيئًا من الأمل في أن يكون اليوم الآخر غير موجود ، ولكن الرسل كلهم حذروا أقوامهم منه ، جميع الأنبياء تحدثوا عن اليوم الآخر .

﴿ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ﴾ .. فأساطير الأولين هذه في السورة كالأساطير التي تحدث عنها السابقون : ﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ

بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾[1] ، وقالوا : إن الأسطورة هي الشيء من الأباطيل ، وما ليس له وجه ، وآباؤنا أيضًا استقبلوه وأنكروه ، ونحن لسنا بدعًا في هذه المسألة ، فكما عملوا عملنا .. وهذا أيضًا لون من ألوان تكذيب النفس ، حين لم يقدروا على أن يحملوا أنفسهم على مشقة التكاليف .

كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾

﴿ كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ .. يذكر الحق ﷻ : ﴿ كَلاَّ ﴾ مرة أخرى ؛ ليعطي السبب الذي من أجله تمسكوا بهذا الموقف : الاعتداء والإثم ، وبعد ذلك قالوا : أساطير الأولين ، وهذا الذى حملهم على هذا الهروب من التصديق بهذا اليوم وهم مشركون ؛ لأنهم لو صدقوا باليوم وهم مشركون ، فإنهم يعتبرون عذابهم صحيحًا ؛ لذلك فالأفضل لهم من وجة نظرهم أن يكذبوا بهذا اليوم .

إن الذي جعلهم يقفون هذا الموقف ، أن الرين ، أو طبقة الحجاب ، أو طبقة الصدأ على اليقين ، قد دخلت قلوبهم ، فموقفهم هذا نتيجة ما كسبته أيديهم ، فالذي كسبته أيديهم جعل الران على قلوبهم ، وهذا الران هو الذي أشار إليه رسول الله ﷺ في حديث **حذيفة بن اليمان** ﷺ ، إذ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : " **تعرض الفتن على القلوب كالحصير عودًا عودًا ، فأي قلب أشربها نكت فيه نكتة سوداء ، وأي قلب أنكرها نكت فيه نكتة**

1 - سورة : الفرقان ، الآية : 5 .

بيضاء ، حتى تصير على قلبين : على أبيض مثل الصفا ، فلا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض ، والآخر أسود مربادًّا كالكوز مجخيًا ، لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا إلا ما أشرب من هواه "[1] ، ونحن نعرف أن الحصير حين تجف أعواده تُضم وتُربط ببعضها البعض ، إذن فهذه الحصيرة الكبيرة تتكون من عود مع عود ، فالرسول ﷺ يريد أن يشبه الفتنة التي تأتي على القلب بعود الحصير .

﴿ كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾ .. يعني : غطى على قلوبهم ، أو عمل طبقة صدأ على قلوبهم ، أو عمل حجابًا على قلوبهم ، وسبب ذلك هو ما كانوا يكسبون ، إذن فكثرة الغفلة هى التى أدت إلى هذا الران ، فلم يجدوا منفذًا ولا خلاصًا أمام نفوسهم إلا أن يكذبوا بيوم الدين ، فتكذيبهم بيوم الدين جاء من الران الذي على قلوبهم .

﴿ كَلاَّ إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ﴾ .. وتأتي كلمة : ﴿ لَمَحْجُوبُونَ ﴾ بعد : ﴿ بَلْ رَانَ ﴾ ؛ لأن الران هو الحجاب الذي يأتي على القلب ، فكأن الذي لا يريد أن يُحجب عن ربه لا يحجب قلبه ، ومن يحجب قلبه فسيُحجب عن ربه ؛ لأن القلب هو محل الاعتقاد واليقين ، فعندما تحجبه بالإثم والاعتداء والمعاصي فإنك تُحجب عن ربك .

﴿ كَلاَّ إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ﴾ قد يظن البعض أن هذا معنى نفسي ؛ لأن ذلك الحجب إنما يؤلم النفوس ولا يؤلم الأبدان ، فنقول له : إن أمر النفوس والمعنويات ليس لها عندهم اعتبار ، فلو أن عندهم إحساسًا أو شعورًا أو كرامة لكان كافيًا أن لا تجعلهم هذه الأعمال يلتقون بحضرة الحق ﷻ ، فإذا لم يهمهم ذلك ، فإن جزاءهم في قول الحق ﷻ : ﴿ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُو الْجَحِيمِ * ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ فهذا لا يعفيهم من أنهم صالو الجحيم ، فجاء بالمعنى الحسي المادي .

﴿ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُو الْجَحِيمِ * ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ .. في هذه الآيات

---

1 - أخرجه مسلم (207) .

لون من التقريع يلفتهم إلى الأسباب التي من أجلها وقفوا ذلك الموقف ، كالتلميذ الذي يرسب آخر العام ، فيقول له أبوه : هذا الرسوب نتيجة إهمالك لدروسك ، أو نتيجة عدم انتظامك في دراستك ، أو نتيجة عدم إنصاتك لأستاذك .. إذًا فهذا لون من التقريع ليستحضروا الأسباب التي من أجلها وقفوا ذلك الموقف ، فهي ثلاثة أشياء : ﴿ كَلاَّ إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ * ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُو الْجَحِيمِ * ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ .

كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾

﴿ كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴾ .. أراد الحق ﷻ أن يذكر المقابل ، فيذكر كتاب الأبرار ، حيث يقول : ﴿ كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴾ ، فكتاب الفجار في سجين ، وكتاب الأبرار في عليين ، وعليون : كلمة تشعر بمقام العلو تحت عرش الرحمن ، أو في مكان معين ، المهم أنهم في عليين .

ثم يقول : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ * كِتَابٌ مَرْقُومٌ * يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ .. وكأن للعلو في لغة الناس وفي استعمالهم له معانٍ حسب أداء لغتهم ، ولكن لا نأخذ تلك المعاني حسب مدلولات لغتنا ؛ لأن هذه معانٍ فوق مدلولات لغتنا ، إلا أن الحق ﷻ خاطبنا بالألفاظ التي نعرفها ؛ لأن اللغة ألفاظ توضع بعد وجود المعاني ، ولما كانت هذه الأشياء ليس عندنا لها معنى ، فليس عندنا ألفاظ تؤديها ، فيعطينا الله تمثيلات لها كأنه يقول : لا تظن أن عليين أو سجين كما تفهم من لغتك .

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ * كِتَابٌ مَرْقُومٌ ﴾ .. هنا تجد : ﴿ مَرْقُومٌ ﴾ ، وهناك في الكتاب المقابل تجد : ﴿ مَرْقُومٌ ﴾ أيضًا ، ولكن لا يتفلت شيء من الشر منه إلى الآخر ؛ لأن المكتوب فيه شر ، وهنا : ﴿ مَرْقُومٌ ﴾ لا يتفلت شيء من الخير منه إلى الآخر .

إذن فكلمة : ﴿ مَرْقُومٌ ﴾ لها معنى هنا ، ومعنى آخر هناك ، واللفظ واحد ، ومقصود به أنه كتابٌ سجينٌ ؛ لأن صاحب الشر كان يحب أن يتفلت شيء مما كتب في ذلك الكتاب ؛ لأنه كله شر ، أما صاحب الخير فلا يحب أن يتفلت شيء من الخير فيه .

إذًا ، مرقوم : أي ممنوع أن يتفلت منه شيء .

فكلمة ﴿ مَرْقُومٌ ﴾ : أعطت هناك معنى ، وأعطت هنا معنى آخر ، أعطت هناك معنى مسيئًا ؛ لأن الحق في الكافر أن يساء ، وأعطت هنا معنى يفرح ؛ لأن الحق في البارّ أن يفرح .

﴿ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ .. وكأنه كتاب مفرح ، فكل مقرب من الله و من عالمه الأعلى يحب أن يشهده ؛ لأنه ينعم بما فيه ، ويحب الثناء بما فيه ؛ لأن الملائكة ﴿ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ * لاَ يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴾[1] ، وهم كذلك : ﴿ لاَ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾[2] .

إذن .. فالذي يؤدي طبيعة التكليف ، والأداء التعبدي على حق ، مثل هذا يسر من كل عمل وينسجم معه في الخير ، ويفرح عندما يرى أحدًا منسجمًا معه ؛ ولذلك تنسجم الأمكنة بالعباد ، فالعابد عندما يعبد الله في مكان ويصلي فيه ، فالمكان ينسجم معه ، فيصبح المكان عابدًا لا تأتي منه معصية .

وذلك كما قال علي رضي الله عنه : " إذا مات ابن آدم ، بكى عليه موضعان : موضع في السماء ، وموضع في الأرض ، أما موضعه في الأرض فموضع مصلاه ، وأما موضعه في السماء ، فهو

---

1 - سورة : الأنبياء ، الآية : 26 ، 27 .

2 - سورة : التحريم ، الآية : 6 .

مصعد عمله الطيب " .

وكما قال ﷺ : " أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد "[1] .

ولذلك قال الحق ﷻ عن قوم فرعون : ﴿ كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ * فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ ﴾[2] ، فنفى أن تبكي عليهم السماء والأرض ، وهذا يعني أنها تبكي على مقابلهم ، وإلا لو كانت طبيعتها أنها لا تبكي ، لم يكن البكاء يذكر في حقها ، ولكن الله ﷻ قال : ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ ﴾ ، فيكون ذلك دليلاً على أنها تبكي على المقابل الذي هو من المسلمين القائمين بمنهج الله ﷻ .

وهذا البكاء هو أسمى ألوان العواطف التي تميز بها الإنسان ، فلم يجعل الله ﷻ للأرض تسبيحًا فقط ، وإنما جعل لها عواطف أيضًا ، بحيث إنها لا تبكي على الفاسق أبدًا ؛ لأنها استراحت منه ، ولكنها تبكي على العابد ؛ لأنها حُرمت من صنف من الوجود ينسجم معها في العبادة .

وقد يكون معنى .. ﴿ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ .. أي أنهم يشهدون لصاحبه على صلاح حاله وأعماله شهادة تقربه من الله ﷻ في ذلك اليوم العصيب ، أي يكون ذلك توثيق شهادة بعد أن كان توثيق تثبيت .

---

1 - أخرجه مسلم (744) ، وأحمد (9083) ، وأبو داود (741) ، والنسائي (1125) ، جميعهم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

2 - سورة : الدخان ، الآية : 25 - 28 .

إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ
ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَـٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ
ٱلْمُتَنَـٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾

﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴾ .. ما هو النعيم ؟! إن النعيم هو ما يتنعم به الإنسان ، أو هو ما يبلغ به الإنسان أوج الرضا وأعلى شيء منه ، وهذا النعيم يجعله أوجب بهذا الاسم من أي نعيم في الدنيا ؛ لأن أي نعيم في الدنيا يكتنفه أمران : إما أن أفارقه ، وإما أن يفارقني ، فإن النعيم لا يدوم ، إما أن أموت وأترك النعيم ، وإما أن يتركني ذلك النعيم ، بل عندما يكون عند إنسان في الدنيا حظ من النعيم ، فلابد وأن يأتيه شيء يعكر عليه هذا النعيم ، فإما أن أفارق النعيم ، وإما أن يفارقني النعيم ، لكن النعيم في الآخرة يبقى خالدًا ، وكذلك صاحبه .

﴿ عَلَى الأَرَائِكِ ﴾ .. وهذه هي عادة العرب ، وكما قلنا من قبل : إن الصور التي في الآخرة عن الجنة وعن النار وما فيهما إنما يعبَّر عنها بألفاظ لغتنا ، واللغة يوجد المعنى فيها أولاً ، ثم يوجد له اللفظ ، فنحن لا نضع في لغتنا ألفاظًا إلا لما نعرفه من معانٍ ، والشيء الذي يكون في الجنة لا يخطر على قلب بشر ، ولذلك لا يوجد أبدًا لفظ في اللغة يؤديه ، ولذلك يقول الحق ﷻ : ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ﴾ [1]، فذلك مثل فقط ، وليس وصفًا للجنة ؛ ولذلك يقول : ﴿ فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ [2]، وما دامت النفس لا تعلم ،

1 - سورة : الرعد ، الآية : 35 .

2 - سورة : السجدة ، الآية : 17 .

فإن أي لغة ليس فيها من الألفاظ ما يؤدي المعاني التي تكون في الجنة ؛ ولذلك فإن الله يذكر لها صورة تقريبية ، بما نعلم من لغتنا منزوعًا منها المكدرات ؛ لأن كل نعمة موجودة عندنا يكون فيها شيء يكدر ، أما حين يتحدث الله ﷻ عن الجنة فيقول : ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ ﴾ ، ويشبهه لنا أيضًا بالماء عندنا ، ولم يذكر فيه شيئًا غير ما في الدنيا ، ﴿ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ ﴾ [1] ، وذكر وصف ﴿ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ ﴾ لأن خمر الدنيا ليس فيها لذة ، فهم يشربونها لأجل السكْر فقط ، ولكنها في ذاتها ليس فيها لذة ، أما خمر الجنة فاللذة الكاملة ، وخمر الدنيا تغتال العقول وتحجبها ، أما خمر الجنة فلا تغتال العقل ، فمع أن الله ﷻ قد أعطانا صورة من الدنيا ، إلا أنه نفى المكدرات الموجودة في تلك الصورة .

إذن فقول الحق ﷻ : ﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * عَلَى الأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ﴾ .. يعطينا صورة للنعيم الذي كان موجودًا عند العربي ، و صور النعيم تختلف من مكان لآخر ، فكل إنسان له تصورات في النعيم حسب مرائيه وتصوراته ، فالعربي – مثلاً – أقصى ما يصل إليه من النعيم أن يجلس على الأريكة جلوسًا مريحاً ، وتلك هي فكرة التسامي في النعيم ، لدرجة أنه يعطي الإنسان الجلوس المريح ، وينفى عنه كل المكدرات .

﴿ عَلَى الأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ﴾ .. ومعنى ينظرون ، أي : أنهم ليس عندهم مشاغل نفسية تشغلهم ، لذلك فهم ينظرون في جمال الوجود ؛ لأن فيه مشاهد لا تتناهى ، وجمالاً ليس له حد .

فأعطانا صورة للنعيم ممثلة في حياة البيئة على أرقى ما يتصور من النعيم في تلك الحياة .

﴿ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴾ .. كأن اسمه النعيم الناضر ، الذي ينضح على الوجه ؛ لأن الوجه هو المرآة المعبرة عما في النفس البشرية ؛ ولذلك فنحن نستطيع أن نعرف

---

1 – سورة : محمد ، الآية : 15 .

حال الإنسان .. هل هو فَرِحٌ أم حزين ، أم عنده مشاغل ، وذلك من خلال وجهه .. فلا يوجد شيء ينغص عليهم حياتهم تنغيصًا تنم عنه هذه الوجوه .

﴿ يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ ﴾ .. وقال : ﴿ يُسْقَوْنَ ﴾ ، ولم يقل : يشربون ؛ لأنهم لا يتكلفون عناء سقيا أنفسهم ، وإنما إذا أرادوا أن يشربوا وجدوا فورًا من يسقيهم من الرحيق المختوم .

وكلمة : ﴿ رَحِيقٍ ﴾ ، تدل على أنه هو الشراب الخالص المصفى ، وهو أيضًا مختوم .

﴿ خِتَامُهُ مِسْكٌ ﴾ ، فالرحيق في ذاته مصفى من كل الشوائب ، أي معقم وليس فيه عنصر غير المراد منه ، وبعد ذلك مختوم ، والختم دليل على الصيانة المتناهية ، و ﴿ خِتَامُهُ مِسْكٌ ﴾ ، فإذا كان الغطاء الذي تغطى به الزجاجة مسكًا فما بالنا بالرحيق نفسه ؟!

﴿ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴾ .. وهذا هو الموضع الذي يصح أن يكون السباق فيه ، فيكون الحرص عليه ، لا على الطفيف من الأشياء ، أو المهين الحقير من حطام الدنيا وعرضها الزائل .

إذن : فالمنافسة هي أن أجتهد وأجد لأظفر بشيء ظفر به فضلاء ، بدون أن ألحق ضررًا بالآخرين ، وبذلك تختلف المنافسة على الخير عن التمني ؛ لأن مراتب التمني في الخير عديدة :

أولاً : إنسان يرى إنسانًا في خير ، فيحزنه ذلك ، وإن كان هو نفسه في خير .

ثانيًا : إنسان آخر يحزنه أن يكون غيره في خير ، وهو في ضد ذلك الخير . كإنسان فقير مثلاً يرى إنسانًا غنيًا ، فإما أن يتمنى أن يزول ما عنده وإن ظل هو على فقره ، وإما أن يتمنى أن يزول الذي عنده ويأتي إليه ، أو يتمنى أن يكون مثله ، لكن كل ذلك لم يتعدَّ التمني ، والتمني كما يقول الأدباء : بضاعة الحمقى ، فكونك تتمنى الأشياء دون أن تعمل للوصول إلى هذه الأشياء ، فهذه سمة الحمقى الذين ليست عندهم همة .

أما المنافسة فهي غير ذلك ؛ لأن المنافسة التي نحن بصدد عرضها ، فمنافسة في شيء من الممكن أن يأخذ المتنافسون جميعًا حظهم منه ولا ينقص ؛ لأنها في أمور الآخرة ، أما في أمور الدنيا فالخير فيها محدود ، فهذا يريد أن يأخذه ، وهذا يريد أن يأخذه ، بحيث إذا أخذه هذا لم يظفر به الآخر ، لكن المنافسة التي عند الله ﷻ فقد قال الله ﷻ عنها : ﴿ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ ﴾[1] ، فحظك لا يوقف حظي ، وحظي لا يوقف حظك ، إذن فتلك هي أشرف ألوان المنافسة .

﴿ وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ ﴾ .. إن الذين يشربون الخمر نوعان : نوع يشرب ليغيب عن الوجود ، ونوع آخر يريد أن يأخذ من الشراب المسرة فقط دون أن يغيب ، فهذا النوع الثاني كان يشرب الخمر ممزوجًا بشيء ، كالماء مثلاً ، فأراد الحق ﷻ أن يبين أنها حتى وإن كانت ممزوجة بشيء فإن مزاجها من تسنيم .

والتسنيم هو أعلى شراب الجنة ، تقول : سنمت التراب ، أي : جعلته سنامًا للبعير ، وهو أعلى شيء فيه . فمعنى : ﴿ وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ ﴾ .. أي : من أعلى شراب في الجنة .

﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴾ .. أراد الحق ﷻ أن يفسر لنا التسنيم فقال : ﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴾ ، وقال : ﴿ يَشْرَبُ بِهَا ﴾ ، ولم يقل : " يشرب منها " ؛ لأننا لن نشرب في الآخرة عن ظمأ ، ولكن عن تلذذ ، فلا نأكل عن جوع ، ولا نشرب عن ظمأ ، فكأنه قال : تنبه أن يشرب هنا معناها : يتلذذ ، فأعطانا يشرب ، وجاء بالباء لنوصل بها المعنى .

---

1 - سورة : النحل ، الآية : 96 .

إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٣٦﴾

﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴾ .. بعد أن نقل لنا الصور السابقة ، والصورة المقابلة ، واتضحت لنا المسألة ، انتقل إلى معنى هو في الواقع غير مادي ؛ لأنه ليس متعلقًا بالاختيار ، المطففون والمسألة السابقة كانت متعلقة بالاختلاف المادي ، بعد ذلك تعرض الحق ﷻ إلى صورة من الصور الإيذائية التي كان يتعرض لها المؤمنون ، فالتعرض كان نفسيًّا وليس ماديًّا ، يتحكمون في أقواتهم ويسيطرون عليهم بدليل قوله : ﴿ اكْتَالُوا ﴾ ، فهم يكتالون على الناس سيطرة وجبروتًا واحتكارًا ، لكنه سوف يعرض للصورة معنى نفسيًّا آخر ، وهنا يعرض السخرية ، فالكفار كانوا بقوتهم وجاههم وسيطرتهم ومنعتهم وعدتهم ، أمام المؤمنين في ضعفهم وقلتهم وفقرهم ورقة حالهم وعدم القدرة على الدفاع عن أنفسهم ، فكان الكفار في موقف المستعلي ، والمستعلي عادة يهزأ ممن دونه ، فالحق يريد أن يعطي لنا صورة فيقول : حتى غمزة العين استهزاء نحن نراها ونعلمها ، فمثلاً : عندما ترى إنسانًا يعذب بسببك ، ويعذب فيك ، ثم تقول له : أنا أعلم ما يفعلون بك ، إنهم يفعلون كذا وكذا ، فتعدد له ما يحدث معه ، فهذا دليل على أنك معتبر له ، وبصير به ، فذلك لون من إدخال الطمأنينة على النفس ، فعندما يضحك الكفار من المؤمنين ، ويعلم المؤمن أن الضحكة التي

يضحكها الكافر القوي من المؤمن الضعيف ، أو غمزة عينه ، أو لمزة ، أو أي حركة من حركات الاستهزاء والسخرية والتهكم ، عندما يعلم المؤمن أن ربه يرى هذا الاستهزاء بألوانه المتعددة ، فهذا وحده يعزيه عما يحدث ، لماذا ؟! لأن الذي يجازي عليها يراها ، وأخبره بها في الدنيا ، يقول : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ .. أولاً : قابل أجرموا بآمنوا ، لنعلم أن الجريمة العظمى ، أو الخيانة الكبرى ، هي خيانة الكفر ، ﴿ كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ وهنا في الأسلوب لفتتان : أولاً : كلمة ﴿ كَانُوا ﴾ تدل على أن إخبار الحق بهذه الصورة ، إخبار عن شيء كان وانتهى ، معنى ذلك أن هذا الأمر الذي يقع بكم أيها المؤمنون من استهزاء هؤلاء وضحكهم ، سيصير مدلولاً عليه بـ ﴿ كَانُوا ﴾ ، فلو قال : إن الذين أجرموا ضحكوا ، أو يضحكون من الذين آمنوا ، فمن الممكن أنهم ضحكوا قبل ، وسيظلون يضحكون أيضًا ، ولكنه جاء بكلمة : ﴿ كَانُوا ﴾ التي هي للماضي ، على أن الفعل لا يفيد الاستمرار ، فهذا تبشير بأن هذه الحالة ستنتهي ، وأن الكفار سيعودون إلى رشدهم الإيماني ، وسيرجعون مؤمنين ، وتنتهي هذه الحالة ، أو أنهم سيموتون وينتهون ، وهذا في الدنيا ، لكن عندما قال ذلك ، لم يقل : ضحكوا ، ولم يقل : يضحكون دون ﴿ كَانُوا ﴾ ، وإنما .. ﴿ كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴾ .. يريد استحضار الصورة ، ومعنى استحضار الصورة : أن الفعل المهين ، أو المقزز ، عندما تحكي عنه أنه مضى تنتهي صورة وقوعه الإيلامية ، ولكن عندما تريد تبشيع صورتها ، فإنك تستحضرها حالة وقوعها ، فلو قال : ضحكوا ، فإن الصورة تنتهي ، بخلاف كلمة ﴿ يَضْحَكُونَ ﴾ .

فكأنه بهذا الأسلوب أراد شيئين : أراد أن يدل على أن هذه حالة لا تدوم ، وعلى أنها حالة أصبحت في عداد الماضي ، وأراد كذلك الحق أن يستحضر لنا الصورة التبددية في الفعل ، لا لكي أستحضرها خبرًا ، بل لأستحضرها عيانًا .

﴿ كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴾ .. ونحن نعرف أن الضحك : انفعال من

المفارقات ، هذا الانفعال لا يصطنع ؛ لأنك إذا سألت عن ماهية الضحك ، لا يستطيع أحد أن يعبر ما هي الأعضاء التي تجعل الإنسان يضحك ، إذن : فنحن لا نعرف ماهية الضحك ، ولا نعرف ما هو تكوينه ، ولا ما هي الأعضاء التي تنفعل له ، ولا ما هي الحالة النفسية التي تتسبب في الضحك .

ولذلك فالحق ﷻ يقول : إن هذه من خصوصياتي : ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى ﴾[1] ، فلا يستطيع العلماء أن يبحثوا في الوظائف العضوية للإنسان ليعرفوا كيف يضحك الإنسان ، والإنسان هو الخاص بهذه الظاهرة ، الضحك والبكاء .. ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى ﴾ ، يأتي بها في المسائل التي هي مثل الموت والحياة ، ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴾[2] ، يأتي بها في الخصوصيات ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى ﴾[3] ، دليل على أن مسألة الضحك هذه ، لا يمكن للعقل البشري أن يتسامى ليعرف ماهيتها أبدًا ، ولا يستطيع أن يتحكم في ضحكه ، ولا في بكائه .

﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴾ .. أطلق الضحك دائمًا ، ثم عند المرور بهم أتى بالتغامز ، والتغامز : هو غمز العين لتشعر من معك أنك تهزأ ، ولا تحب أن يعرف ذلك من تهيبه ، وإلا كانت المسألة واضحة ، إذن : فكأن صورة الضحك : أنهم إذا جلسوا في مجالسهم الخاصة ولو لم يمر بهم المؤمنون ، يغتابونهم ويهزؤون بهم ، وساعة أن يغمزوا ، يقولون : هؤلاء الذين كنا نغتابهم ونهزأ بهم ، فأتى بصورة مشهدية وصورة غيبية ، الصورة الغيبية : أنهم كانوا منهم يضحكون في مواجهتهم وغير مواجهتهم ، كأنهم أصبحوا مادة للضحك ، وبعد ذلك الصورة المشهدية : أنهم إذا مروا بهم يتغامزون .

أين يعود الضمير في قوله : ﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ ﴾ ؟ أي الضمير في مروا ، والضمير في بهم ؟

1 - سورة : النجم ، الآية : 43 .

2 - سورة : النجم ، الآية : 44 .

3 - سورة : النجم ، الآية : 48 .

أولاً : الإسناد في الفعل الأول : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴾ ، ففاعل الضحك : هم الذين أجرموا ، والمضحوك منه : هم الذين آمنوا ، ﴿ وَإِذَا مَرُّوا ﴾ من الذي مر بالآخر ؟ إن سياق الجمل يقتضي أن يكون المجرمون هم الذين مروا بالمؤمنين ، ويصح أن يكون المؤمنون هم الذين مروا بالكافرين ، وقيل : إن سياق الأسلوب يدل على أن الذين ضحكوا هم الذين مروا ، هم الذين حين انقلبوا إلى أهلهم ، انقلبوا فكهين ، أو أن يكون الأسلوب قد بدأ بالضمير لمن أجرموا ، وبعد ذلك جاء بالضمير للمستهزأ بهم .

وقيل : إن الضمير إذا عاد على شيء ثم بعد ذلك يعود على شيء آخر ، فهذا الشيء مألوف يحدث كثيرًا ، مثال ذلك قوله ﷻ : ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَ تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا ﴾ [1]، فهنا نفسان ، أي : لا تجزي نفس : هي النفس الجازية ، عن نفس : هي النفس المجزي عنها ، أي : لا يجزي الوالد عن ابنه ، ولا يجزي الابن عن والده ، إذن .. فهنا نفسان : نفس جازية ، ونفس مجزي عنها ، مرة يأتي الضمير للنفس الأولى ، ومرة يأتي الضمير للنفس الثانية ، فيقول : ﴿ وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ ﴾ [2]، ولذلك يأتي بالأسلوب بما يناسب عودة الضمير ، فمرة يعود الضمير على النفس الأولى : ﴿ لاَ تَجْزِي نَفْسٌ ﴾ التي هي الفاعل ، ومرة أخرى يعود على النفس الثانية التي هي المجرورة بعلى ، وسواء كان هذا أو هذا فإن المجرمين ضاحكون مستهزئون وذاهبون إلى أهلهم فرحين .

﴿ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴾ .. وفي ذلك دليل أن ذلك أصبح غريزة فيهم ؛ لأن الإنسان ذا المروءة إذا حدث منه شيء مخالف للأدب والمروءة مع أي إنسان آخر ، فبعد أن يحدث ذلك منه وتذهب منه الحالة الأولى وهي إرادة السخرية ، يندم وتتأذى نفسه من فعلته ، فكأن الحق ﷻ يقول : حتى لوم النفس على ما اقترفوه لم يحدث ، فإذا ذهبوا إلى

---

1 - سورة : البقرة ، الآية : 48 .

2 - سورة : البقرة ، الآية : 123 .

أهلهم يقولون لهم : ضحكنا من المؤمنين ، واستهزأنا بهم ، ويفرحون بفعلتهم ، أما الذي عنده بقية من كرم النفس ، فبمجرد أن ينفس عن نفسه بالفعل ، يعود إليه بعض ما عنده من كرم النفس ، فتتأذى نفسه من فعلته ، ويحزن على فعلته ، أما هؤلاء فعندما يذهبون إلى أهلهم فإنهم يكونون فرحين بفعلتهم ، حتى لوم أنفسهم لم يحدث منهم ، ﴿ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴾ ، وفي قراءة أخرى : ﴿ فَاكِهِينَ ﴾ ، أي : ناعمين مسرورين فرحين ؛ لأنهم فعلوا ذلك بالمؤمنين .

إن المؤمن عندما يسمع هذه الآية ، يقول في نفسه : إن الله ﷻ يرى كل هذه الأشياء ، ويحصيها عليهم ، فيبدأ هو بالسخرية منهم حتى في الدنيا ، فكأن الحق يقول لهم : سنجازيهم في الآخرة بما عملوا من السخرية والضحك والاستهزاء ، فضحك اليهود والمشركين لا دوام له ، وسينقلب الأمر عليهم ، فتضحكون منهم بدلاً من أن يضحكوا هم منكم ، والفائدة ستعود عليكم ، فالضحك عليهم سيكون أبديًا .

﴿ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴾ .. فمن الضالُّ عندهم ؟! إنه هو الخارج عن نظامهم ، حيث إنهم لم يقصدوا الضلال الأخروي ؛ لأنهم لا يؤمنون بالآخرة ، ولكن ذلك بمفهوم الهداية عندهم ؛ لأنهم لا يعترفون بغير هذه الدنيا الفانية ، فالذي ينجح فيها ويفلح يكون هو صاحب الفلاح عندهم ، ومادام المؤمنون قد اشتروا شيئًا غيبيًّا ، إذن فهم الضالون من وجهة نظرهم ، إذن : ﴿ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴾ .. بحكمهم في الهداية وفي الضلال ، لا في حقيقة الهداية والضلال .

﴿ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ﴾ .. من هم الذين أرسلوا ؟ يصح أنهم هم المؤمنون ، أو أنهم هم المجرمون .. يصح هذا ويصح ذلك ، فمعنى : ﴿ وَمَا أُرْسِلُوا ﴾ .. أي : كأن الكفار أو المجرمين يقولون : ﴿ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴾ ، ﴿ وَمَا أُرْسِلُوا ﴾ ، أي : ما أرسلوا على الذين يتكلمون حُفاظًا عليهم ، أي : أنهم لم يأتوا إليهم ليعدلوا لهم الموازيين وليحفظوهم ؛

لأنهم منكرون ويعتقـــدون أن هذه دعوة كذب أو افتراء ، يقـــولون : إن هؤلاء لضالون ، وما أرسلوا ليحفظوا لنا قيمنا ، أو ليحفظوا لنا نفوسنا ، أو ليحفظوا لنا منهج الحياة .

أو : ﴿ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ﴾ أي : أن هؤلاء الذين يحكمون بـضلال المؤمنين ، ما أرسلوا عليهم حافظين ليقوموهم ، ليس هم المقـومين لهؤلاء ، إذن : فيحـتمل أن يكون المعنى هكذا ، وأن يكون هكذا .

﴿ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴾ .. اليوم ، أي : يوم القـــيامة الذي هو : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ، والذي قـــال عنه : ﴿ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ ، وفيه يقـــول : ﴿ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ﴾[1] ، بكل ما تؤديه كلمة : **اليوم** .

﴿ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴾ .. ضحك مثل الضحك ، ولكنه للأبد ، لا ينتهي ولا ينفد .

﴿ عَلَى الأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ﴾ .. ينظرون ماذا ؟! وكأن هناك مرور ذليل ، مـرور مضطهـد ، عندما يرون الموقف ، المؤمنون في النعيم ، والكفار في العذاب ، وقد قـيل : إن الكفار يفتح لهم يوم القيامة بابٌ إلى الجنة ، فيقـال لهم : " هلم هلم " .. فيأتي الكافر ، فيغلق البـاب دونه ، حـتى يقـال للرجل منهم بـعد ذلك : " هلم " .. فلا يأتي ؛ لأنه يعرف النتيجة ، سـيذهب فيغلق الباب دونه ، هذا موقف يجعل المؤمنين يتذكرون ما كان منهم ، ويعقدوا المقارنات .

﴿ هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ .. وكأن هذه أخبار يجب أن تكون مشهودة ؛ لأن قائلها هو الحق ﷻ الذي آمنتم به ، فتكون عملية الجزاء عملية يقينية .

إن كلمة ثواب هنا مثل كلمة : ﴿ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾[2] ؛ لأن القرآن يبدأ الأسلوب بقـول مفرح ، وبعد ذلك ينهيه بانتهاء مؤلم .

---

1 - سورة : غافر ، الآية : 16 .

2 - سورة : الانشقاق ، الآية : 24 .

كما قلنا من قبل مثال ذلك : إنسان ظمآن ، فأتيت له بكوب من الماء ، وعندما مد يده ليأخذه سكبته ، فهذا الابتداء المفرح ، يعقبه ذلك الانتهاء المؤلم ، فلو قال لك : " اسقني " .. ثم لم تعطه من أول الأمر ، لكان أفضل ، وكما قال الشاعر :

كما أبرقت قومًا عطاشًا غمامةٌ فلما رجوها أقشعت وتجلتِ

إذن ، فقوله : ﴿ فَبَشِّرْهُمْ ﴾ .. تهدي للنفس شيئًا من الانبساط ، وبعد ذلك يقول : ﴿ بِعَذَابٍ ﴾ ، فهذا الابتداء المفرح يعقبه ذلك الانتهاء المؤلم ، ومثل ذلك قوله ﷻ : ﴿ وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ ﴾[1] ، فالإغاثة تكون بماء شديد الحرارة ، فهي ليست إغاثة ، وكذلك كلمة : ﴿ ثُوِّبَ ﴾ هنا ، فهي بهذا المعنى ، فهي شبيهة بكلمة : ﴿ فَبَشِّرْهُمْ ﴾ ، وفي هذا الوقت يحدث الألم ؛ لأنه عذاب كان من الممكن أن يكون في مقامه ثواب .

يلاحظ أن الحق ﷻ حينما يتكلم عن الكفار يتكلم بالنار وغيرها من ألوان العذاب ، وحينما يتكلم عن المؤمنين يتكلم بالجنة وغيرها من ألوان النعيم ، لم يأتِ في السور المكية ذكر أنه سيأتي يوم وينصرهم على الكفار ، إلا كلامًا رمزيًّا ، كقوله : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾[2] ، وكقوله : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾[3] ، ونلاحظ أن القرآن يتحدث عن الآخرة ، ونعيم الآخرة ؛ لأن الله لا يريد من المؤمن أن يستقبل منهج الله ﷻ على أنه سينصره في الدنيا ، ولكنه يريد من المؤمن أن يطرح الدنيا وراء ظهره .

ولذلك فقد روى الإمام أحمد في مسنده قال : حدثنا يحيى بن زكريا بن أبي زائدة ،

---

1 - سورة : الكهف ، الآية : 29 .

2 - سورة : القمر ، الآية : 45 .

3 - سورة : النور ، الآية : 55 .

حدثني أبي ، عن **عامر**، قال : انطلق النبي ﷺ ومعه **العباس** عمه إلى السبعين من الأنصار عند العقبة تحت الشجرة ، فقال : " **ليتكلم متكلمكم ولا يطيل الخطبة ؛ فإن عليكم من المشركين عينًا ، وإن يعلموا بكم يفضحوكم** " . فقال قائلهم ، وهو أبو أمامة : " سل يا **محمد** لربك ما شئت ، ثم سل لنفسك ولأصحابك ما شئت ، ثم أخبرنا ما لنا من الثواب على الله ﷻ وعليكم إذا فعلنا ذلك " . قال : فقال : " **أسألكم لربي** ﷻ **أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا ، وأسألكم لنفسي ولأصحابي أن تؤوونا وتنصرونا وتمنعونا مما منعتم منه أنفسكم** " . قالوا : " فما لنا إذا فعلنا ذلك ؟ " . قال : " **لكم الجنة** " . قالوا : " فلك ذلك " [1]

فنلاحظ أن النبي ﷺ لم يقل لهم : سينصركم الله ، وسيكون لكم في الدنيا كذا وكذا ؛ لأنه كان في وقت تربية الجنود للمعركة ، وهو لا يريد أن يشغلهم بالدنيا ، أو يجعلها في حسابهم أبدًا ، وإن أدخلها في حسابهم بعد ذلك : ﴿ **وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا * وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا** ﴾ [2]، فألح بذلك ، ليس على أن هذا هو الجزاء ، ولكن حتى لا ينشغل المؤمن بالدنيا ويجعلها في منهجه وفي حسابه أبدًا ، ولكن لماذا جاء في الآيات المدنية بهذا المعنى ؟! لأن العقيدة تربت ودخلوا الدين على أن هذا الدين رافض للدنيا في منهجه وفي حسابه ، ولكن إذا انتصرتم عليهم ، فالغنائم هذه ليست جزاءً لكم على النصر ، ولكن المسألة أن هناك منهجًا للسماء أريد أن يطبق في الأرض ، وأنتم مخرجون لقيادة الناس ، فكأن ما يحدث لكم من الغلبة والفتح والنصر ليس جزاء ؛ لأننا ربيناكم على أن الدنيا مطروحة من حساب النصر ، ولكن نصرناكم لتحملوا منهج الله ﷻ إلى كل الأرض ، ولتكونوا خير أمة أخرجت للناس ، فحين يربى المؤمن على

---

1 - أخرجه أحمد في مسنده (34 / 447) .

2 - سورة : الفتح ، الآية : 20 ، 21 .

أن الدنيا ساقطة من حسابه ، فإنه عندما يدخل المعركة الإيمانية ، يدخل وليس في ذهنه إلا هذه الغاية .

ولكن إذا انتكست هذه التربية وضاعت من الأمة ، فهنا يتحقق فيها قول رسول الله ﷺ : " **يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها** " . قالوا : " أمن قلة نحن يومئذ يا رسول الله ؟ " .. قال : " **بل أنتم كثير ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، وليترعن الله المهابة من صدور أعدائكم ، وليقذفن في قلوبكم الوهن** " . قالوا : " وما الوهن يا رسول الله ؟ " .. قال : " **حب الدنيا وكراهية الموت** " [1] ، فعندما تحب الدنيا وتكره الموت ، تهون وتضعف أمام خصمك .

نسأل الله ﷻ أن يجعلنا دائمًا من المصدقين بالساعة ، وأن يكفينا شر أنفسنا ، وشر أعدائنا ، وأن يحقق لنا آمالنا أجمعين ..

والحمد لله رب العالمين ..

1 - أخرجه أحمد في المسند عن ثوبان (45 / 378) ، وأبو داود في السنن (3745) .

علم تفسير جزء

سورة الانشقاق

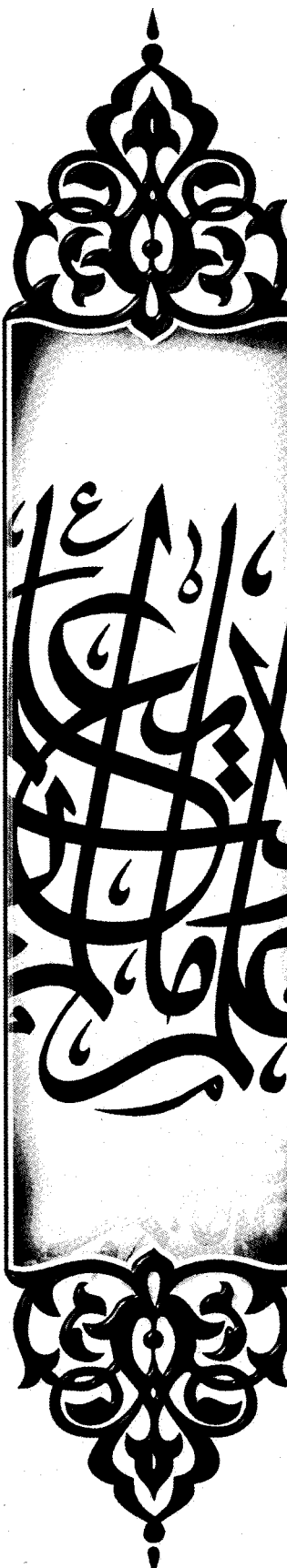

سُورَةُ الانشِقَاق

بسم الله الرحمن الرحيم . . أحمدك ربي ، وأصلي وأسلم على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين ، ورحمة الله للعالمين ، وبعد . .

تبدأ **سورة الانشقاق** ببعض مشاهد الانقلاب الكونية التي عرضت بتوسع في **سورة التكوير** ، ثم في **سورة الانفطار** ، ومن قبل في **سورة النبأ** ، ولكنها هنا ذات طابع خاص ، طابع الاستسلام لله ﷻ ، استسلام السماء واستسلام الأرض ، في طواعية وخشوع ويسر : **﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ * وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ * وَإِذَا الأَرْضُ مُدَّتْ * وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ * وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴾** . .

ذلك المطلع الخاشع الجليل تمهيد لخطاب الإنسان ، وإلقاء الخشوع في قلبه لربه ﷻ ، وتذكيره بأمره ، وبمصيره الذي هو صائر إليه عنده .

حين ينطبع في حسه ظل الطاعة والخشوع والاستسلام الذي تلقيه في حسه السماء والأرض في المشهد الهائل الجليل : **﴿ يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاَقِيهِ * فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا * وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا * وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ * فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا * وَيَصْلَى سَعِيرًا ﴾** . .

والمقطع الثالث عرض لمشاهد كونية حاضرة ، مما يقع تحت حس الإنسان لها إيحاؤها ، ولها دلالتها على التدبير والتقدير ، مع التلويح بالقسم بها على أن الناس متقلبون في أحوال مقدرة مدبرة ، لا مفر لهم من ركوبهم ومعاناتها : **﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ * وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ***

---

* مقدمة تفسير السورة والمقطع الثالث مقتبس بتصرف من : " في ظلال القرآن " .

وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ * لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ ﴾ ..

ثم يجيء المقطع الأخير في السورة تعجيبًا من حال الناس الذين لا يؤمنون ، وهذه هي حقيقة أمرهم ، كما عرضت في المقطعين السابقين ، وتلك هي نهايتهم ونهاية عالمهم ، كما جاء في مطلع السورة : ﴿ فَمَا لَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لاَ يَسْجُدُونَ ﴾ ..

ثم بيان لعلم الله ﷻ بما يضمون عليه جوانحهم ، وتهديد لهم بمصيرهم المحتوم : ﴿ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ * وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ * فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ .

إنها سورة هادئة الإيقاع ، جليلة الإيحاء ، يغلب عليها هذا الطابع حتى في مشاهد الانقلاب الكونية التي عرضتها **سورة التكوير** في جو عاصف .. سورة فيها لهجة التبصير المشفق الرحيم ، خطوة بخطوة ، في راحة ويسر ، وفي إيحاء هادئ عميق ، والخطاب فيها هو : ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ ﴾ .. فيه تذكير واستجاشة للضمير .

وهي بترتيب مقاطعها على هذا النحو تطوف بالقلب البشري في مجالات كونية وإنسانية شتى ، متعاقبة تعاقبًا مقصودًا .. فمن مشهد الاستسلام الكوني ، إلى لمسة لقلب الإنسان ، إلى مشهد الحساب والجزاء ، إلى مشهد الكون الحاضر وظواهره الموحية ، إلى لمسة للقلب البشري أخرى ، إلى التعجيب من حال الذين لا يؤمنون بعد ذلك كله ، إلى التهديد بالعذاب الأليم ، مع استثناء المؤمنين بأجر غير ممنون ..

كل هذه الجولات والمشاهد والإيحاءات واللمسات في سورة قصيرة لا تتجاوز عدة أسطر .

وهو ما لم يعهد إلا في هذا الكتاب العجيب ! فإن هذه الأغراض يتعذر الوفاء بها في الحيز الكبير ، ولا تؤدى بهذه القوة وبهذا التأثير .. ولكنه القرآن .. ميسر للذكر ، يخاطب القلوب مباشرة من منافذها القريبة .. صبغة العليم الخبير ﷻ .

إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ﴿١﴾ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلۡأَرۡضُ مُدَّتۡ ﴿٣﴾ وَأَلۡقَتۡ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتۡ ﴿٤﴾ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ ﴿٦﴾

يلاحظ هنا أننا نجد الشروط مصدرة بإذا الشرطية : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ * وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ * وَإِذَا الأَرْضُ مُدَّتْ * وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ * وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ * يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ ﴾ .. نلاحظ هنا أنه لا يوجد جواب شرط مثل الذي في سورة التكوير : ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ﴾ ... إلى آخر الاثني عشر شرطًا التي في السورة ، ثم قال ﷻ جوابًا لذلك الشرط : ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ ﴾ .. فهذا هو الجواب ، والذي في سورة الانفطار : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ * وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ * وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ * وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴾ ، ماذا يكون ؟ ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾ .

أما قوله : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ * وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ * وَإِذَا الأَرْضُ مُدَّتْ * وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ * وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ * يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاَقِيهِ ﴾ .. فلا يوجد جواب للشرط ، ومعنى ذلك : أنه لما تقدمت سور عُرف منها جواب الشرط ، حذف هنا جواب الشرط استغناء لما ذكر في نظيره ، وهذه ظاهرة في القرآن ، حتى يقبل الإنسان على قراءة النصوص بتدبر وتمعن ، فمثلاً في قوله ﷻ : ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ

النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾[1] ، فهنا قد يطرح إنسانٌ سؤالاً : طالما أنهم كانوا أمة واحدة ، فلا اختلاف بينهم ، فلم أرسل الله النبيين ؟! فنقول له : هذا دليل على أنك لم تستوعب قراءة القرآن الكريم كاملاً ، فلا تحكم على نص أبدًا إلا بعد أن تبحث عن نظائره في القرآن ؛ لأنه قد يحذف من نص ما يوجد نظيره في نص آخر ، أو في نفس النص .

فقول الحق ﷻ : ﴿ فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ ﴾ ، ليست معطوفة على الأولى ، وهى قوله ﷻ : ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً ﴾ ، ولكنها معطوفة على محذوف مقدر ، والمقدر له قرينة تدل عليه ، وهي : ﴿ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾ ، إذن فالتقدير هو : كان الناس أمة واحدة ، ثم اختلفوا ، فبعث الله النبيين ليحكموا بينهم في ذلك الذي اختلفوا فيه .

إذن فالحذف من النظير جائز ، فهذا الذى ذكرناه من هذا اللون ، وهناك معنى آخر ، وهو أن الحق ﷻ عندما أعطانا ألوانًا متقدمة من أدوات الشرط وأفعال الشرط ، وأبهم جواب الشرط ؛ فإن ذلك لأجل أن تذهب فيه نفسك مذاهب شتى ؛ لأن الإتيان بجواب الشرط يضع الحقيقة في صورة واحدة ، أما الإبهام فيجعل كل إنسان يأخذ الصورة الانفعالية التي تحدث ، كما عند سماعك قوله ﷻ : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ * وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴾ إلى آخر الآيات .. فيتبادر إلى أذهان بعض الناس أنه قد يحدث ما يهول أمره ، أو قد يحدث ما يغير نظام العالم الذي ألفته ، أو ماذا يحدث حين يعرض الناس على ربهم ، فيكون عندك عينات من جواب الشرط ؛ لينبهك حتى يكون ذهنك مستعدًا .

وقد يكون قوله ﷻ : ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ ﴾ هي نفسها جواب الشرط ، وقد يكون قوله ﷻ : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ ﴾ هي الجواب ، فعندما يقول : ﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴾ ، ما الذي يحدث ؟ يأخذ كلٌّ كتابه ، فأما من أوتي كتابه بيمينه فيحدث له هذا ، وأما من أوتي كتابه بشماله فيحدث له هذا ، فوزع الشرط في الطرفين ، إذن : فكأنه يقول :

---

1 - سورة : البقرة ، الآية : 213 .

﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴾ .. فإذا حدث هذا ، وحدث هذا ، يأخذ المؤمنون كتبهم بأيمانهم ويحاسبون حسابًا يسيرًا ، ويأخذ الآخرون كتبهم وراء ظهورهم ، ويحاسبون حسابًا عسيرًا .

فكأنه حينما شققت الشرط جاء منه مجموع الشرط ، وبعد ذلك يأتي بالتمجيد : ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ ﴾ .. مثل كلمة الإنسان التي في سورة الانفطار في قوله ﷻ : ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴾[1] ، أي : يا أيها الإنسان المخلوق في أسمى تكوين ، الذي أمدك الحق ﷻ بالفكر، وأمدك بالمعاني ، وأمدك بالروح التي لها تحليق ، وأمدك بكل ذلك ، ما كان يجب أن تقف هذا الموقف من ذلك اليوم العظيم ، وأنت – أيها الإنسان – كادح إلى ربك كدحًا فملاقيه .

﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ ﴾ .. وكيف تنشق السماء ؟! ليس من الضروري أن نعرف هذا ، ولكن المهم أن نعرف أنها ستخرج عما ألفناه منها ، وتنتهي إلى أمر لم نألفه ، وتخرج عن رتابتها ، ويخرج الكون كله عن الرتابة المعهودة له .

﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴾ .. إن الأذن هي آلة الاستماع ، والاستماع نوعان :

النوع الأول : أن تستمع ، وأنت حر بعد ذلك في أن تطيع وأن تعصى .

والنوع الثاني : أن تستمع وليس لك إلا أن تطيع .

وعلى هذا فالمستمع قسمان : مستمع له خيار، ومستمع لا خيار له ، فالمستمع الذي له خيار يمكن أن يقول : سمعنا وعصينا ، أما الذي لا خيار له فلا يقول إلا : سمعنا ، دون أن ينكر ، كقول الله ﷻ : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾[2] .

فأذنت هنا معناها : استمعت ، كما قال الشاعر :

صم إذا سمعوا خيرًا ذُكرتُ به ... وإن ذُكرتُ بشر عندهم أذنوا

---

1 – سورة : الانفطار ، الآية : 6 .

2 – سورة : فصلت ، الآية : 11 .

فمعنى أذِن ، أي : استمع ؛ لأن الأذن هي آلة الاستماع ، وهل كل من يسمع ممن له خيار في أن لا يستجيب ؟ كلا ، فهذه خاصية خاصة بالإنسان فقط ، بينما المسخرات التي ليس لها أن تخرج عما أمرت بـه ، بمجرد الاستماع يكون الانصياع ، إذن : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ * وَأَذِنَتْ ﴾ ، أي : واستمعت ، و معناها انصاعت ؛ لأنها بمجرد أن تسمع فليس لها خيار ، وحق لها ذلك ؛ لأنها استمعت ممن لا تملك معه خيارًا ، ومن القادر على إنفاذ ما يراد منها ، فعندما يقول : ﴿ أَذِنَتْ ﴾ ، أي : انقادت ، فهذا تفسير بـالأمر النهائي ، ومادام الاستماع من السماء ، والسماء لا خيار لها في أي أمر ، بل هي مسخرة ، مجبورة ، مقـهورة على تنفيذ ما يراد منها ، فيكون مجرد السماع كافٍ ، فأذنت بالنسبة للأرض ، وبالنسبـة للآمر وهو الله ﷻ ، فمعناها النهائي : انقادت لمراده ، وحق لها ذلك ، أي : هي حقيقـة وجديرة بـذلك ؛ لأنه ليس لها اختيار مع خالقـها ، فهي مخلوقـة على هيئة الانصياع والالتزام ، بمجرد أن يقول لها : انشقي .. تنشق .

﴿ وَإِذَا الأَرْضُ مُدَّتْ ﴾ .. قـديمًا كان العرب يقـولون : " **مددت الأديم** " ، عندما يسلخون الجلد عن الذبيحة لينتفعوا به ، فعند دبغه على الطريقة البدائية ، يحدث له تقلص فيقل حـجمه ، يحدث فيه نتوءات ، فإذا بسـطت هذه النتوءات عاد إلى حـجمه الطبـيعي ، فكأن الحق ﷻ يقول : إن الجبال ستكون كالعهن المنفوش ، والأرض والنتوءات والارتفاعات سـوف تمد ، كما جاء في آية أخرى : ﴿ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا * لاَ تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلاَ أَمْتًا ﴾[1] ، أي : مدت واتسـعت لأجل أن يقـف الخلق عليها جميعا ، ليس الوقـوف لضيق المكان ؛ لأن المقصود أن نقف ، لا نستريح إلى أن يأتي وقت حسابنا .

﴿ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴾ .. ألقت الأرض ما فيها ، إما القبور ، أي : الأموات بعثوا ، أو الكنوز والدفائن ، إلى آخر ذلك ، وكلمة : ﴿ وَتَخَلَّتْ ﴾ تفيد الاحـتياط في تنفيذ الأمر بشدة .

---

1 - سورة : طه ، الآية : 106 ، 107 .

﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴾ أي : انقادت لأمر الله ﷻ ، مثل السماء تمامًا .

﴿ يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاَقِيهِ ﴾ .. عرفنا الإنسان ومقوماته العليا وما ميزه الله ﷻ به في الخلق ، فما معنى كادح ؟ الكدح هو : مجاهدة النفس في أمر من الأمور مجاهدة يظهر أثرها المادي فيها ، كما قال الشاعر :

وما الدهر إلا تارتان فمنهما أمـــــوت وأخرى أبتغي العيش أكدحُ

يكدح أي : يتعب في الحياة تعبًا يبدو أثره على نفسه ، فأنت أيها الإنسان سواء كنت كافرًا أو مؤمنًا كادحٌ إلى ربك كدحًا ، أي : غايتك إلى ربك من بدايتك إلى نهايتك ، ولكن هناك فرق في من يكدح في أمر محمود ، ومن يكدح في أمر مذموم ، فهذا كادح في طلب الدنيا والإقبال عليها ومجهد نفسه في تحصيلها ، وهذا أيضًا كادح ، ولكن في طلب الآخرة ، ويحمل نفسه المشاق ، ويقف أمام شهوات نفسه ويتعرض لكذا وكذا ، فهذا كادح وذلك كادح ، ولكن شتان ما بينهما .

وهناك معنىً آخر : وهو أن الحق ﷻ يريد أن يعطينا صورة ، وهى : أن الإنسان هو الذي يكدح ويجاهد لأجل لقاء الله ﷻ ، فكأن اللقاء أمر حتمى لا مفر منه ، ومشوارك في الحياة هو هرولة تجاه ذلك الأمر .

ومادمت كادحًا إلى ربك كدحًا فملاقيه ، فتكون كلمة : ﴿ فَمُلاَقِيهِ ﴾ عندها تتحدد المواقف الجزائية ، فإن كنت على وفق ما أحب ، سيلقاك اللقاء الكريم ، ويلقاك بنعيمه ، وإن كنت على المنهج المضاد فسيلقاك بعذابه ، والعياذ بالله .

فيا أيها الإنسان ، إنك سائر إلى ربك لا محالة ، سواء بكدحك للدنيا ، أو بكدحك للآخرة ، فالاثنان في كدٍّ ونصب ، كما تبين ذلك في قول الحق ﷻ : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ﴾ [1]، فكبد متعلقه بالدنيا ، وكبد متعلقه بالآخرة .

---

1 - سورة : البلد ، الآية : 4 .

فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴿١٥﴾

﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴾ .. ومعنى ذلك أننا جميعا سنتعرض للحساب ، وهذا هو منطق العدل ، ولكن الحساب نوعان : حساب لعرض ذنوب الإنسان ، يقول الله له : فعلت كذا يوم كذا ، وفعلت كذا يوم كذا ، لكني غفرت لك ذنوبك ، وهذا هو معنى قول النبي ﷺ لأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها : " **من حوسب عذب** " .. قالت عائشة : " أو ليس يقول الله ﷻ : ﴿ **فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا** ﴾[1] ؟! قال : " **إنما ذلك العرض ، ولكن من نوقش الحساب يهلك** "[2].

فالله ﷻ يعرض علينا ذنوبنا لنعرف النعم التى منَّ بها علينا ، فأنت أذنبتَ ، وأنا غفرتُ ، ثم أذنبتَ ، وغفرتُ ، فهذا اسمه العرض ، واسمه الحساب اليسير .

﴿ **وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا** ﴾ .. هذا هو السرور الحقيقي ، وليس سرور الذين قال الله ﷻ فيهم : ﴿ **وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ** ﴾[3].

---

1 - سورة : الانشقاق ، الآية : 8 .

2 - أخرجه البخاري (4558 ، 5506 ، 6504) ، ومسلم (5122 ، 5123) .

3 - سورة : المطففين ، الآية : 31 .

﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴾ .. وفي سورة الحاقة : ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ ﴾[1]، وقد قلنا : إن التوفيقات دائمًا عند النصوص تأتي بالتوفيق الذي يكون جامعًا للصورتين ، فالمعنى أنه يأخذه بشماله من وراء ظهره ، وكأنه يأخذه على استحياء من الذي يعطيه الكتاب ، فإما أن يكون عدم المواجهة خجلاً منه وحياءً ، وإما أن يكون الذي يعطيه الكتاب لا يريده أن يرى وجهه .

﴿ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا ﴾ .. والثبور : هو الهلاك ، والعياذ بالله ، ومعنى : ﴿ يَدْعُو ثُبُورًا ﴾ يقول : يا هلاكي .. وا هلاكاه ، وهذا هو المعنى الذي أراده المتنبي وهو يقول :

كَفى بِكَ داءً أَن تَرى المَوتَ شافِيا وَحَسبُ المَنايا أَن يَكُنَّ أَمانِيا

ومعنى ذلك : أن الذي هو فيه شر من الموت ، فيقول : وا ثبوراه ، أي : وا هلاكاه ، كما يقول في موضع آخر على لسان الكافرين : ﴿ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا ﴾[2]، كل هذا من الهول الذي يراه .

﴿ وَيَصْلَى سَعِيرًا ﴾ .. وهذا هو الذي يدعو الهلاك لينقذه منه ، وهيهات هيهات ! !

وأمام هذا المشهد التعيس يكر السياق راجعًا إلى ماضي هذا الشقي الذي انتهى به إلى هذا الشقاء .

﴿ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴾ .. رجع أيضًا إلى الأسباب الحقيقية لهذه المواقف ، حيث إن ذلك الإنسان كان غافلاً عما وراء اللحظة الحاضرة ، لاهيًا عما ينتظره في الدار الآخرة ، لا يحسب لها حسابًا ، ولا يقدم لها زادًا .

﴿ إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ ﴾ .. إلى ربه ، ولن يرجع إلى بارئه ، أو ظن أنه لن يرجع عن حالته التي كان فيها ، فأهل النعيم في الدنيا يظنون أنهم سيظلون في هذا النعيم ، ولكن كلا ،

---

1 - سورة : الحاقة ، الآية : 25 .

2 - سورة : النبأ ، الآية : 40 .

فالأمر على خلاف ما يظنون ، ولو ظنوا الرجعة في نهاية المطاف لاحتقبوا بعض الزاد ، ولادخروا شيئًا للحساب .

﴿ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴾ .. لقد ظن أنه لن يحور ، ولكن الحقيقة أن ربه كان مطلعًا على أمره ، محيطًا بحقيقته ، عالمًا بحركاته وخطواته ، عارفًا أنه صائر إليه ، وأنه مجازيه بما كان منه .

وكذلك كان ، حين انتهى به المطاف إلى هذا المقدور في علم الله ﷻ ، والذي لم يكن بدٌّ أبدًا أن يكون .

وصورة هذا التعيس وهو مسرور بين أهله في حياة الأرض القصيرة المشوبة بالكدح في صورة من صور الكدح تقابلها صورة ذلك السعيد ، وهو ينقلب إلى أهله مسرورًا في حياة الآخرة المديدة ، الطليقة ، الجميلة ، السعيدة ، الهنيئة ، الخالية من كل شائبة من كدح أو عناء .

فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن
طَبَقٍ ﴿١٩﴾ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢١﴾ بَلِ
ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ
﴿٢٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍۭ ﴿٢٥﴾

يعود بهم القرآن من هذه الجولة الكبيرة العميقة الأثر بمشاهدها ولمساتها الكثيرة ، إلى لمحات من هذا الكون الذي يعيشون فيه حياتهم ، وهم غافلون عما تشي به هذه اللمحات من التدبير والتقدير ، الذي يشملهم ويقدّر بإحكام ما يتوارد عليهم من أحوال .

وهذه اللمحات الكونية التي يلوح بالقسم بها لتوجيه القلب البشري إليها ، وتلقي إيحاءاتها وإيقاعاتها .. لمحات ذات طابع خاص ، طابع يجمع بين الخشوع الساكن ، والجلال المرهوب ، وهي تتفق في ظلالها مع ظلال مطلع السورة ومشاهدها بصفة عامة .

﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ ﴾ .. والشفق هو الوقت الخاشع المرهوب بعد الغروب ، وبعد الغروب تأخذ النفس روعة ساكنة عميقة ، ويحس القلب بمعنى الوداع ، وما فيه من أسى صامت وشجى عميق ، كما يحس برهبة الليل القادم ، ووحشة الظلام الزاحف ، ويلفه في النهاية خشوع وخوف خفي وسكون .

﴿ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴾ .. هو الليل وما جمع وما حمل .. بهذا التعميم ، وبهذا التجهيل ، وبهذا التهويل ، والليل يجمع ويضم ويحمل الكثير ، ويذهب التأمل بعيدًا ، وهو يتقصى ما يجمعه الليل ويضمه ويحمله من أشياء وأحياء وأحداث ومشاعر وعوالم خافية ومضمرة ، سارية في الأرض وغائرة في الضمير ، ثم يؤوب من هذه الرحلة المديدة ، ولم يبلغ من الصور ما يحتويه النص القرآني القصير : ﴿ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴾ .. إنما يغمره من النص العميق العجيب رهبة ووجل ، وخشوع وسكون ، تتسق مع الشفق وما يضفيه من خشوع وخوف وسكون .

﴿ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ﴾ .. مشهد كذلك هادئ رائع ساحر ، وهو القمر في ليالي اكتماله ، وهو يفيض على الأرض بنوره الحالم الخاشع الموحي بالصمت الجليل ، والسياحة المديدة ، في العوالم الظاهرة والمكنونة في الشعور ، وهو جوٌّ له خفية بجو ذلك التعبير : ﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ * وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴾ .. يلتقي معهما في الجلال والخشوع والسكون ..

هذه اللمحات الكونية الجميلة الجليلة الرائعة المرهوبة الموحية يلتقطها القرآن لقطات سريعة ، ويخاطب بها القلب البشري ، الذي يغفل عن خطابها الكوني ، ويلوح بالقسم بها

ليبرزها للمشاعر والضمائر في حيويتها وجمالها وإيحائها وإيقاعها ، ودلالتها على اليد التي تمسك بأقدار هذا الكون ، وترسم خطواته ، وتبدل أحواله وأحوال الناس أيضًا وهم غافلون .

﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ ﴾ .. أي لتعانون حالاً بعد حال ، وفق ما هو مرسوم لكم من تقديرات وأحوال ، ويعبر عن معاناة الأحوال المتعاقبة بركوبها ، والتعبير بركوب الأمور والأخطار والأهوال والأحوال مألوف في التعبير العربي ، كقولهم : " إن المضطر يركب الصعب من الأمور ، وهو عالم بركوبه " ، وكأن هذه الأحوال مطايا يركبها الناس واحدة بعد واحدة ، وكل منها تمضي بهم وفق مشيئة القدر الذي يقودها ويقودهم في الطريق ، فتنتهي بهم عند غاية تؤدي إلى رأس مرحلة جديدة مقدرة ، كذلك مرسومة ، كتقدير هذه الأحوال المتعاقبة على الكون من الشفق ، والليل وما وسق ، والقمر إذا اتسق ، حتى تنتهي بهم إلى لقاء ربهم ، الذي تحدثت عنه الفقرة السالفة ، وهذا التتابع المتناسق في فقرات السورة ، والانتقال اللطيف من معنى إلى معنى ، ومن جولة إلى جولة ، هو سمة من سمات هذا القرآن البديع .

وفي ظل هذه اللمحات الأخيرة والمشاهد والجولات السابقة لها في السورة يجيء التعجيب من أمر الذين لا يؤمنون ، وأمامهم هذا الحشد من موحيات الإيمان ودلائله في أنفسهم وفي الوجود :

﴿ فَمَا لَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لاَ يَسْجُدُونَ ﴾ .. أجل ! فما لهم لا يؤمنون ؟! إن موحيات الإيمان في لمحات الوجود ، وفي أحوال النفوس ، تواجه القلب البشري حيثما توجه ، وتتكاثر عليه أينما كان ، وهي من الكثرة والعمق والقوة والثقل في ميزان الحقيقة ، بحيث تحاصر هذا القلب لو أراد التفلت منها ، بينما هي تناجيه وتناغيه وتناديه حيثما ألقى بسمعه وقلبه إليها .

إن القرآن يخاطبهم بلغة الفطرة ، ويفتح قلوبهم على موحيات الإيمان ودلائله في الأنفس

والآفاق ، ويستجيش في هذه القلوب مشاعر التقوى والخشوع والطاعة والخضوع لبارئ الوجود .. وهو " السجود " ..

إن هذا الكون جميل وموحٍ ، وفيه من اللمحات والومضات واللحظات والسبحات ما يستجيش في القلب البشري أسمى مشاعر الاستجابة والخشوع .

وإن هذا القرآن جميل وموحٍ ، وفيه من اللمسات والموحيات ما يصل القلب البشري بالوجود الجميل ، وببارئ الوجود الجليل ، ويسكب فيه حقيقة الكون الكبيرة الموحية بعظمة خالقه العظيم .

﴿ فَمَا لَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لاَ يَسْجُدُونَ ﴾ .. إنه لأمر عجيب حقًّا ، يضرب عنه السياق ليأخذ في بيان حقيقة حال الكفار ، وما ينتظرهم من مآل .

﴿ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ ﴾ .. بل الذين كفروا يكذبون .. يكذبون إطلاقًا ، فالتكذيب طابعهم وميسمهم وطبعهم الأصيل .

﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴾ .. والله أعلم بما يكنون في صدورهم ، ويضمون عليه جوانحهم ، من شر وسوء ودوافع لهذا التكذيب .

ثم يترك الحديث عنهم ، ويتجه بالخطاب إلى الرسول الكريم ﷺ ..

﴿ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ .. ويا لها من بشرى لا تسر ولا يودها متطلع إلى بشرى من بشير !

وفي الوقت ذاته يعرض ما ينتظر المؤمنين الذين لا يكذِّبون ، فيستعدون بالعمل الصالح لما يستقبلون ، ويجيء هذا العرض في السياق كأنه استثناء من مصير الكفار المكذبين ..

﴿ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ .. وهو الذي يقال عنه في اللغة استثناء منقطع ، فالذين آمنوا وعملوا الصالحات لم يكونوا داخلين ابتداء في تلك البشارة

السوداء ثم استنثوا منها ، ولكن التعبير على هذا النحو أشد إثارة للانتباه إلى الأمر المستثنى .

والأجر غير الممنون هو الأجر الدائم غير المقطوع في دار البقاء والخلود .

وبهذا الإيقاع الحاسم القصير ، تنتهي السورة القصيرة العبارة ، البعيدة الآماد في مجالات الكون والضمير .

نسأل الله ﷻ أن يجعلنا دائمًا من المصدقين بالساعة ، وأن يجعلنا يوم القيامة من الفائزين بالنعيم المقيم ، وأن يحقق لنا آمالنا أجمعين . .

والحمد لله رب العالمين . .

علم تفسير جزء

سورة البروج

سورة البروج

بسم الله الرحمن الرحيم .. أحمدك ربي ، وأصلي وأسلم على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين ، ورحمة الله للعالمين ، وبعد ..

فمع **سورة البروج** ، تلك السورة القصيرة التي تعرض حقائق العقيدة ، وقواعد التصور الإيماني .. أمورًا عظيمة .. وتشع حولها أضواء قوية بعيدة المدى ، وراء المعاني والحقائق المباشرة التي تعبر عنها نصوصها ، حتى لتكاد كل آية وأحيانًا كل كلمة في الآية أن تفتح كوة على عالم مترامي الأطراف من الحقيقة ..

والموضوع المباشر الذي تتحدث عنه السورة هو **حادث أصحاب الأخدود** .. وقصته هو أن فئة من المؤمنين السابقين على الإسلام ، والذين قيل إنهم من النصارى الموحدين ابتلوا بأعداء لهم طغاة قساة شريرين ، أرادوهم على ترك عقيدتهم والارتداد عن دينهم ، فأبوا وتمنعوا بعقيدتهم ، فشق الطغاة لهم شقًّا في الأرض ، وأوقدوا فيه النار ، وكبوا فيه جماعة المؤمنين فقتلوهم حرقًا ، على مرأى من الجموع التي حشدها المتسلطون لتشهد مصرع الفئة المؤمنة بهذه الطريقة البشعة ، ولكي يتلهى الطغاة بمشهد الحريق .. حريق الفئة المؤمنة .

---

* مقدمة تفسير السورة مقتبس بتصرف من : " في ظلال القرآن " .

وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ قُتِلَ أَصْحَٰبُ
ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ
بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾ ٱلَّذِى
لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾

﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴾ .. بدأت بقسم مشهدي ، وهي السماء وما فيها من البروج التي لها آثارها في نظام الكون وسنن الوجود .

﴿ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ﴾ .. وهو يوم القيامة ، وهو غيب ، فاستشهد الحق ﷻ بالعظمة في السماء ذات البروج ، وذلك أمر مشهود ، بشيء غيبي وهو : ﴿ الْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ﴾ .

﴿ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴾ .. عطف الحق ﷻ على القسم بعد ذلك ، وبيَّن لنا معنى المشهود .

﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الأخْدُودِ ﴾ .. ويجيء جواب القسم ليصور لنا حادثة من حوادث الإيمان مع الكفر .. ﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الأخْدُودِ ﴾ .

﴿ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ * إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ * وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴾ .. وهذا تبيين أكثر للحادث .

ثم بعد ذلك أراد الحق ﷻ أن يصور لنا مبادئ المعركة بين الإيمان والكفر ، بين الإيمان المفتون في ضعفه ، والكفر الفاتن في طغيانه ، فعرض الحق ﷻ صورة لهذا الصراع ليبين لنا أن الموقف من هؤلاء الطاغين ضد المستضعفين من المؤمنين ، موقف لا تقره الفطرة ولا العقل .

فالصراع دائمًا يكون بين قوتين ، وحين يكون الصراع بين قوتين ، إنما يكون بين حق

وباطل ، وإذا كان الصراع بين حق وباطل ، فلا يطول ذلك الصراع أبدًا ؛ لأن الباطل زهوق ، وإما أن يكون صراعًا بين حقين ، فذلك لا يوجد ؛ لأنه لا يوجد في قضية واحدة حقان يتصارعان ، وإما أن يكون بين باطلين ، وذلك هو الصراع المشهود الذي يطول ولا ينتهي أبدًا ؛ لأن أحد الباطلين ليس أولى بأن ينصره الله ﷻ على غيره ، فيظل الصراع طويلاً ، فإذا رأيت معركة بين فريقين ولم تنتهِ ، فاعلم أن الصراع فيها بين باطلين .

هذه المعركة التي يصورها لنا الحق ﷻ يقول فيها بمنتهى الوضوح : ﴿ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَ أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ .. نقموا منهم أي : كرهوا وأنكروا ، إذن فالفئة الفاتنة ، أصحاب الأخدود ، الذين أوقدوا النار ، وطرحوا فيها المستضعفين من المؤمنين ، الذين لا ذنب لهم إلا أنهم آمنوا بالله العزيز الحميد ، كرهوا منهم ذلك الإيمان .

﴿ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَ أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ .. يريد الحق ﷻ أن يصور أساس الفساد في الوجود كله ، فإذا رأيت فسادًا ، فاعلم أن ذلك الفساد ناشئ من هذه القضية الخطيرة ، كيف هذا ؟! حين ينقم فريق على قوم أنهم آمنوا بالله فكان المفروض أن تجد الحال بعد : ﴿ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ ﴾ .. أن تجد صفة مذمومة ، فأنت تقول : ما أنكرت على فلان شيئًا إلا كذا وكذا ، فمعنى ذلك أنه كان يجب أن يأتي بعد : " إلا " صفة من الصفات المكروهة التي تنكر ، لكنه حينما جاء بالصفة بعد : " إلا "وجدناها ليست من الصفات التي تكره ، بل هي من الصفات التي تزيدنا حبًا لهم ، تقول : ما نقمت على فلان ، أو ما أنكرت على فلان إلا أنه كافر ، ما أنكرت على فلان إلا أنه نمام ، فهي صفة الذم التي تنكرها عليه ، لكن هنا ما أنكروا عليهم إلا أنهم يؤمنون بالله ، فنجد أن ما بعد : " إلا " ليس من طبيعته أن ينكر ، وليس من فطرته أن يكره ، فما داموا كرهوا الأمر الذي ليس من طبيعته ولا من فطرته أن يكره ، فذلك فساد في عقلية من حكم بهذا الحكم ؛ لأنهم اعتبروا قمة الخير مما ينكر ويكره وينقم .

وهذا دليل على فساد طبعه ، وكأن القرآن يشير إلى أن هؤلاء لو عددوا صفات هؤلاء الذين فتنوهم في دينهم ، وحرقوهم بسبب هذا الدين ، لو استعرضوا صفاتهم أو استعرضوا خلقهم ، أو استعرضوا سلوكهم ، لم يجدوا فيهم شيئًا يكره .

فما هو الشيء الذي كرهوه منهم ؟! ﴿ أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ ، وهذا نوع من الأداء البياني ، يسميه العلماء : " **تأكيد المدح بما يشبه الذم** " ، فهو لما قال : ﴿ وَمَا نَقَمُوا ﴾ وكأنه لا يوجد شيء عندهم يكره ولا ينكر ، ولما جاء بـ : " **إلا** " قلنا : إنه سيأتي بشيء يكره ، فإذا به شيء يحَب ، فلم يجدوا مذمة فيهم إلا صفة مدح أخرى ، فأكد المدح بما يشبه الذم ، كأن تقول : **لا عيب في فلان إلا أنه كريم** ، معنى ذلك أنك مدحته بقولك : لا عيب فيه ، فنفيت عنه أصل العيب ، ثم استثنيت ، فظن السامع أنك ستأتي بخصلة ذميمة ، فإذا بك تأتي بعد الاستثناء بخصلة كريمة ، إذن فقد أكدت المدح بأسلوب يشبه الذم .

ونظيره قول النابغة :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم ... بهن فلول من قراع الكتائب

وقول الآخر :

لا عيب فيهم سوى أن النزيل بهم ... يسلو عن الأهل والأوطان والحشم

وهذا وارد في أسلوب العرب ، وفي القرآن منه أمثلة كثيرة ، ومن مادة نقم أيضًا : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ ﴾ [1] .. لماذا أنتم كارهون لنا ؟! وماذا صنعنا ؟! لم نصنع إلا أن آمنا بالله ، فإذا كنتم تكرهون منا أن نؤمن بالله ﷻ ، فهل الفساد من طبعنا أم من طبعكم أنتم ؟! بل في طبعكم وفي مقاييسكم .

كأن الحق ﷻ يريد أن يصور لنا المعركة ، وهي أن هؤلاء الفاتنين للضعفاء من المؤمنين لم

---

1 - سورة : المائدة ، الآية : 59 .

يجدوا فيهم عيبًا حين يستعرضون صفاتهم وخلقهم وسلوكهم ، إلا أنهم مؤمنون بالله ﷻ ، وما دمتم لم تجدوا فسادًا في سلوكهم ولا في خلقهم ، فهل الإيمان بالله ﷻ هو ما تكرهونه فيهم فقط ؟! نعم ، لماذا ؟! لأنهم طغاة ، والطغاة دائمًا يحافظون على مركزهم الطغياني ، فأي إنسان يصرف العبودية لغيرهم يكون مجنونًا .

وكأن نقل المؤمن العبودية لغير هؤلاء الطغاة يكون هو الذنب ، فلا يشفع لهم أنهم مصلحون ، ولا يشفع لهم أنهم متخلقون بخلق كريم ، إنما الذنب كله أنهم صرفوا عبوديتهم لرب واحد هو الله ﷻ ، صرفوها عن هؤلاء الطغاة ، أما أولئك الذين لا يصرفون عبوديتهم إلى الإله الواحد ، ويوجهونها إلى هؤلاء الطغاة ، فالطغاة يغضون أبصارهم عن كل مساوئهم ، ولذلك لا تجد فسادًا في الأرض من حاكم إلا من القوم الذين يؤلهون الحاكمين ، وإن فسقوا ، وإن ارتشوا ، وإن أفسدوا ، وإن سرقوا ، كل ذلك مغتفر ما داموا يؤلهونهم ، وما دامت عبوديتهم لحسابهم .

والقوم الذين هم ضدهم وإن كانوا مصلحين ، وإن كانوا على خلق ، وإن كانوا مستقيمين ، فهذا لا يعجبهم ؛ لأن هذا هو ميزانهم الذي يزنون به الناس .

﴿ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَ أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ .. جاء الحق بوصفين ، كان مقتضى القياس أن لا ينْكرا ، فالله له صفتان : **عزيز** ، **وحميد** ، أما صفة : " **العزيز** " فتدل على الغلبة ، وأنه ﷻ لا يُقهر ، وأما صفة : " **الحميد** " فتدل على أنه منعم ، إذن فهناك جانبان ، جانب الغلبة لمن يرهب ، وجانب الإنعام لمن يرغب .

﴿ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَ أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ .. أي : الغالب ، فلم يذهبوا إلى ناحية ضعيفة ، بل لناحية لها الغلبة المطلقة ، فالكون كله في قبضته ، وحميد لأنه منعم يستوجب الحمد ، والحمد صفة ملازمة له ، فإذا كان الذي آمنوا به عزيزًا غالبًا لا يُغلب ، وحميدًا منعمًا نعمًا بقيوميته لا تنفد ، ولا ينفد من أجلها الحمد .. إذن فقد توجهوا بعقيدتهم

وإيمانهم إلى موطن حقيقي للإيمان ، إذن يصور لنا فساد الذين فَتنوا ، ويصور لنا صلاح الذين قُتلوا .

وكلمة : ﴿ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ لا نقولها هكذا بلا دليل ، والدليل أن له ملك السماوات والأرض ، وما دام له ملك السماوات والأرض ، فتكون الغلبة له مشهودة .

﴿ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ .. صفتان أيضًا ، ما دام له ملك السماوات والأرض ، وهذه حتى الكافر يؤمن بها ، لماذا ؟! لأنه وإن كان للكافر لون اختيار في بعض أعماله ، فهو مقهور في جمهرة أعماله ، وما دام مقهورًا في جمهرة أعماله فمن الذي يقهره ؟ إنه هو من له ملك السماوات والأرض .

﴿ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ .. وانظر إلى الدقة الأدائية ، لم يقل : وهو على كل شيء شهيد ، وإنما جعلها جملة استسلامية ؛ حتى لا تحتاج صلة الضمير إلى مرجع ، وجملة : ﴿ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ تناسب ما كان مذكورًا في أول السورة ؛ لأنه يقول : ﴿ وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴾ ، فهم شهود ، أي مشاهدون لما يفعلونه بأولئك المؤمنين ، والله ﷻ شاهد أيضًا .

وكلمة : " **شهيد** " لها معنيان : شهيد أي : " **كل شيء يحضره ، لا يغيب عنه شيء أبدًا** " ، أو هو : " **شهيد لمن لا شاهد له ممن ظلمه** " ، فمن ظلم خفية ولا حجة عليه أنه ظلم ، فالحجة عند الله ﷻ أنه ظالم .

إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ
عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا
ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾
وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾

بعد ذلك يعرض الحق ﷻ لجزاء الفئة الأولى فيقول ..

﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴾ .. تجد أن الحق ﷻ يعامل الخلق معاملة رب ، أي بصفاته هو ، لا بصفات الخلق ، ومعنى ذلك أنه لا توجد عنده ندية ، فمهما يفعل الكافر ثم يتوب وينيب ويؤوب إلى الله ﷻ ، فكأن شيئًا لم يكن ، فليس عنده هذه الندية التي عند الخلق ؛ لأن الله ﷻ لا ينفعل للأشياء ؛ وذلك لأن كفر الكافرين لا ينقص من ملكه شيئًا ، وطاعتهم لا تزيد في ملكه شيئًا ، إنما هذا غيرة من الخالق على خلقه فقط ، فالحق ﷻ يريد أن يعطينا هذا المبدأ ، هذا المبدأ اسمه : " حسم الشر " ؛ لأن العاصي إذا كفر وطغى وصنع ما صنع ثم بعد ذلك لا يقبله الله ﷻ ، فما دام أنه خاسرًا خاسرًا ، فليأخذ حظه جبروتًا وطغيانًا ، لكن حتى هؤلاء يقول الحق ﷻ لهم : من يتُب يغفر له ما قد سلف ، فالحق ﷻ لا يقطع الرجاء والأمل أبدًا ، حتى لمن طغى وكفر وتكبر ، وقتل المؤمنين والمؤمنات ، ومعنى ذلك أن الله ﷻ يريد ألا يستطرد صاحب الشر بالشر ، ولا يعيث في الأرض فسادًا ، وهو يحث الإنسان على أن يتوب ، فالتوبة تجب ما قبلها ، وذلك يدل على أن صلة كل الخلق بربهم صلة مربوب بربه ، وليست

عداوة .

﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ .. والحريق لون من جهنم ، إنما أراد الحق ﷻ أن يذكرهم بلقطة : ﴿النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ﴾ ، أو أن عذاب جهنم ليس كل النار ، فهناك عذاب بالزمهرير ، وهو البرد الشديد ، فسيجمعون بين اللونين ، ولذلك عقب : ﴿لَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ ، أو أن المعنى : أن الذين كفروا بالله ولم يتعرضوا للمؤمنين ليفتنوهم عن دينهم ، جزاؤهم ليس كجزاء من كفروا بالله ثم تعرضوا للمؤمنين ليفتنوهم عن دينهم .

إذن : ﴿فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ .. على كفرهم ، وإن لم يتعدَّ ذلك إلى المؤمنين ليفتنهم في دينهم ، ثم ﴿وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ ؛ لأنهم تعدوا وفتنوا المؤمنين في دينهم ، وحرقوهم في النار ، فالجزاء يتضاعف .

﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ .. إذا كانت القصة عن أصحاب الأخدود ، فإنهم ماتوا ولم يتوبوا ، ولكن ذلك تلميح للمعاصرين لرسول الله ﷺ ؛ لذلك يطلقها الحق ﷻ قضية إيمانية : ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ ، يقول لهم : إن كان قد سبق منكم مثل هذا ، فاعلموا أنكم إن تبتم فقد انتهى كل شيء ، ويكون ذلك حسمًا لباب الفتنة والشر .

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾ .. وكما قيل : بالضد تتميز الأشياء .

إن المعركة حين تكون بين حق وباطل ، أو بين باطل وباطل ، فإما أن تتساوى الكفتان فلا يوجد منصور ومنصور عليه ، وإما أن يوجد منصور ومنصور عليه ، فأهون الأشياء في المعارك أن تتذبذب المعركة ، ويكون السجال هو النتيجة ، لا يوجد منصور ولا منصور عليه ، أو يوجد منصور ، ويوجد منصور عليه ، إذن فالمنصور عليه فاته خير النصر وأدركته ذلته

للمنصور ، كمثل رجلين مع كل منهما سيف ، فضرب أحدهما على يد الآخر فأخذ سيفه ، فأصبح السيفان معه ، وصار الآخر بلا سيف ، فلو أن هذا ظل بسيفه ، وظل ذلك بسيفه ، ولم يحصل بينهما طعان فلا لون للفوز ، فهذا تعادل ، لكن إذا انتصر أحدهما على الآخر ، فقد فعل شيئين : أنه تخطى منطقة التعادل ، وهذه لم يأت منها غرم ، ثم بعد ذلك أخذ مرتبة النصر ، وهذا هو الفوز الكبير .

فقول الحق ﷻ : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ﴾ .. فأما الفوز الأول : فإنهم زحزحوا عن النار ، ولو زحزحوا عن النار ولم يدخلوا الجنة لكان فوزًا ، فكيف بهم لو زحزحوا عن النار وأدخلوا جنة ، ثم لما يزحزح عن النار ويدخل الجنة ، يأخذ فيها كل واحد منازله ، على قدر الفتنة التي فتن فيها في الله ﷻ .

﴿ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ﴾ .. لماذا ؟! لأن الحق ﷻ نجاهم بموقفهم من النار وذلك فوز ، وبعد ذلك أدخلهم الجنة وذلك فوز ، وبعد ذلك يعطيهم منازل على قدر الفتنة وذلك فوز أكبر ، فهناك فوز ، وفوز كبير ، وفوز أكبر ، ولذلك قال الله ﷻ هناك : ﴿ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾[1] .

﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾ .. وهذه قضية ديمومة ، أي : لم يكن الله ذا بطش عند أصحاب الأخدود فقط ، بل القضية العامة أن ربنا ذو بطش شديد ، ومعنى **البطش** : هو الصرامة والعنف في الأرض ، فتجد الأداء البياني فيه ثلاثة أمور تلفت النظر: ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ ﴾ .. إذن هذا التهديد فيما يتعلق بأمره ، وأمر دعوته ، وأمر الخارجين عليه ؛ لأنه أضاف الرب ﷻ إلى الرسول ﷺ ، فهذا هو التهديد للمعاصرين للرسول ، الذين كانوا يفتنون المؤمنين استهزاءً أو تعذيبًا أو تحريقًا أو رميًا على الرمضاء .

---

1 - سورة : التوبة ، الآية : 72 .

﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾ .. ويصف كلمة : ﴿ بَطْشَ ﴾ بالشـــدة ؛ ليزيد من هول ذلك التهديد .

﴿ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴾ .. والبطش معناه الأخذ بصرامة وعنف ، والأخذ بـصرامة وعنف يريد قـوة قـوية ، ولماذا قـوة قـوية ؟! لأنه ليس أقـوى منه ، فهو صاحـب البـدء وصاحـب الإعادة ، يعني قوسا الوجود عنده : ﴿ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴾ ، وما دام قوسـا الوجود عنده من بـدْء وإعادة ، إذن فلا يوجد معه أحد ، فلا يوجد نصير لأحد من الله أبدًا ، فإذا أخذ الله أحدًا فلا يحميه أحد ، ﴿ وَهُوَ يُجِيرُ وَلاَ يُجَارُ عَلَيْهِ ﴾[1] .

يبـدئ ويعيد ، أي : يبـدئ الخلق والوجود ، ويعيده إليه ، أو يبـدئ الأفعال ، ويعيدها إليه ، أو كما حدث ذلك عند أمم سابقة ، فيعيد الكرة ويكون البطش الشـديد على من يكونون ضدك كما كان بطشـه شـديدًا على من كانوا ضد الرسـل الذين سبقـوك ، أو يعيد الكون كله في حلقـات متطورة وراجعة ، وأنت لو نظرت إلى أي شـيء في الوجود من عناصر الحياة ، تجد إبداء وإعادة ، فهذا الماء الموجود في الكون هل زاد أو نقص منذ أن خلق الله ﷻ الكون ؟ إنه ما زاد ولا نقـص ، والذي نشربـه في حـياتنا يعود بالتبـخر منه ، أو مع بـوله ، أو عرقـه ، أو مخاطه ، فإذا بقي في الجسم بعض الماء تبـخر أيضًا بـعد موت الإنسـان ، وذلك يدلنا على أن الوجود كله حركة دائرية .

﴿ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ﴾ .. كلمة : **الغفور** تشي بالمذنبـين ؛ لأن هناك ذنوبًا ، وهو غفور لهذه الذنوب ، وكلمة : **الودود** أي : ودود بالمحبـين ، فإذا كان غفورًا لمن يذنب ، وودودًا لمن يحب ، أفلا يجعلك هذا تحب هذا الإله ﷻ حق الحب ؟!

إذا ما وجدنا صفة من صفات الله ﷻ فيها مبالغة ، فيجب أن نفهم المبـالغة على حقيقـتها بالنسبة للحق ﷻ ؛ لأن المبالغة إنما تكون في صفات الحوادث ، الذين تقـوى صفاتهم تارة ،

---

1 - سورة : المؤمنون ، الآية : 88 .

وتضعف أخرى ، فنقول : هناك مبالغة ، لكن عندما نقول عن الحق ﷻ : إنه غفور ، أي : مبالغ في المغفرة ، فإن الصفات تكون : غافر مرة ، وغفور مرة ، وهي لا تقوى تارة وتضعف أخرى ، لكنها صفات كمال لله ﷻ ، صفات كاملة دائما ، فإذا وجدت مبالغة في الصفات ، كغفار ، وغفور مثلاً فاعلم أن المبالغة إنما هي في المتعلق .

وهنا قد يرد إشكال في قول الحق ﷻ : ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾[1] ، وهو أن صفة المبالغة إذا أثبتت ، ثبتت الصفة المحضة ، أي : للمبالغة ، فإذا قلت : فلان علام ، فتكون قد أثبت له أنه عالم ما دمت أثبت له الوصف الكبير ، فلابد أن يكون له الوصف ، فمن أثبت له أنه علامة ، فتكون أثبت له أنه علام بدون تاء ، وأثبت له أنه عالم ؛ لأن ما أثبته الأقوى يثبت به الأقل والأضعف ، لكن إذا نفيت صفة المبالغة ، أيستلزم ذلك نفي الصفة الأصلية ؟ لا ، تقول : فلان ليس علامة ، وقد يكون عالما فقط ، إذن فصفات المبالغة إذا أثبتت ثبت ما دونها من باب أولى ، وإذا نفيت لم ينف ما دونها ؛ لأن من الجائز أن فيه الأقل وليس فيه الأكثر .

فإذا أورد أحدهم إشكالاً في قوله : ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ ، فقال : إنه نفى أن يكون ظلامًا ، ولا يعني هذا أنه ليس ظالمًا !

نقول له : لا ، أنت أخذت الوصف على أن المبالغة صفة بالنسبة لله ، ولكن المبالغة بالصفة بالنسبة للمتعلق المقابل ، فقد قال : ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ ﴾ ، ولم يقل : للعبد ، فلو كان قال : بظلاَّم للعبد ، لكنت تستطيع أن تقول هذا ، ولكنه قال : ﴿ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ ، فهناك عبيد كثيرون ، والفعل مبالغ فيه إما للقوة في ذاته ، وإما لكثرة متعلقه ، فإذا قلت : فلان أكول ، أو أكال ، فلو وصفته هذا الوصف ؛ لأنه عندما يأكل يأكل كعشرة ، فيكون هذا في قوة الفعل ذاته وقوة الحدث ، أو أنه كل ساعتين يريد أن يأكل ، فتقول : أكول ، أو

---

1 - سورة : فصلت ، الآية : 46 .

أكال ، فأنت لم تعطه الوصف للمبالغة في الحدث ، ولكن لتكرار الحدث .

فلو أن الله ظلام للعبيد كلهم ، يظلم هذا ، ويظلم هذا ، فتكون المبالغة من ناحية تعدد المتعلق ، والظلم على قدر المقدرة ؛ لأن العاجز لا يظلم ، فالذي يظلم دائمًا في مرتبة القوي ، فلو أراد الله أن يظلم فسيكون ظلمه صعبًا جدًّا ؛ لأن الظلم على حسب القدرة .

فإذا ما رأينا صفات مبالغة ، يجب أن نتنبه إلى أن الصفات في الله تبارك وتعالى لا تتحمل تشكيكًا ، أي : قوة وضعفًا ، ولكن صفة الكمال في الله كمال مطلق ، لا تكون مرة ضعيفة ، ومرة قوية ، وإنما تكون بالنسبة لمتعلقها ، يقول مثلاً : تواب ؛ لأننا نكثر الذنوب ، ونتوب ، ونتوب ، ونتوب ، وهو يتوب علينا ويتوب ويتوب ، فيكون توابا ؛ لأنه مع ضخامة الذنب يكون أيضًا توابًا .

﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ﴾ .. ورد هذا اللفظ بعدة مشتقات له : **غافر** .. ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ﴾[1] ، و **غفار** .. ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ ﴾[2] ، و **الغفور** كالآية التي معنا ، فيكون من هذه المادة ثلاث كلمات : **غافر** الوصف الأصيل ، وبعد ذلك : **غفار** ، وبعد ذلك : **غفور** ، وهي ليست تكرارًا هنا كلها بالنسبة لمتعلقاتها ، لكن مرة تكون المبالغة الغفر ، ومعناه : الستر ، ومنه سمي المِغفر الذي يلبسه الشجعان ليقي رءوسهم في الحرب ، والغفر : هو ستر الذنب ، بحيث لا يفضح العبد بذنوبه عند الناس ، ويكره من يفضحه بتتبع العورة ، وبعد ذلك تكون هذه صفة الدنيا .

و **الغفور** : للجزاء على الذنوب ، أي : مرة غفر للذنب في ذاته ، ومرة غفور للجزاء على الذنوب ، أو غفار لمن تاب .

وبعد ذلك تأتي مبالغة ثالثة في المغفرة وهي : أن الذي لم يتُب ، طالما أنه آمن به ولقيه غير

---

1 - سورة : غافر ، الآية : 3 .

2 - سورة : طه ، الآية : 82 .

مشركٍ به ، فإنه يغفر له ، قال ﷻ : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾[1] ، لكن نستثني من ذلك الشرك ؛ ولذلك كان ابن عباس عندما يقرأ هذه الآية يقول : إلا الشرك ؛ وذلك جمعًا بين النصوص مع قوله ﷻ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾[2] ، حتى لا يتعارض نص مع نص .

وكذلك وإن لم يذكر هذا الاستثناء ، فهي مفهومة من كلمة الذنب ، ومن قوله : ﴿ يَا عِبَادِيَ ﴾ وكلمة : " عبادي " عندما تذكر ، نفهم أنها للمخلصين ، وبعد ذلك : ﴿ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ .. ولا يقال لذي الكفر أو لذي الشرك : إنه مذنب ؛ لأن المذنب هو الذي عنده مقاييس يؤمن بها ثم خالفها في شيء منها ، والمشرك ليس عنده مقاييس ، فالمشرك ليس داخلاً في : ﴿ يَا عِبَادِيَ ﴾ .

إذن **الغفار** : ستار الذنوب في الدنيا ، بحيث لا يفضح العبد بذنبه أمام الناس ، أو غفار لمن يتوب بالفعل ، وبعد ذلك : **غفور** ، إما في الآخِرَة لجزاء الذنوب ، أو غفور لمن لم يتب ؛ لأنه ﷻ يصح أنه يعامل بعض عباده بهذه المسألة .

﴿ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ﴾ .. **الودود** من صفات المبالغة ، **ودود** على وزن فعول ، وصيغة فعول ، هل هي بمعنى اسم الفاعل ، أم بمعنى اسم المفعول ؟! **ودود** فعول ، **ورسول** فعول أيضًا ، ولكن رسول معناها : مُرسَل من عند الله ، أما **ودود** فمعناها : واد لمن يحبه ، أو مودود لمن يحبه ، فيصح فيها المعنيان ، أنها بمعنى فاعل ، أوبمعنى مفعول ، واد لمن يحب ؛ ومودود لمن أحبه ، فالمسألة متبادلة ، أي أن : الود مرة يكون من الله ﷻ إلى العبد ، ومرة

---

1 - سورة : الزمر ، الآية : 53 .

2 - سورة : النساء ، الآية : 48 .

يكون من العبد إلى الله ﷻ ، فهناك عبد يقع له الود من الله ﷻ ، وهذا من باب الفضل ، أو من باب الجود ، والثاني : يتودد إلى الله ﷻ ، وبعد ذلك يوده الله ﷻ ، وهذا من باب بذل المجهود ، فذلك من فضل الجود ، وذلك من بذل المجهود .

فمن الناس من يصل بكرامة الله ﷻ إلى طاعته ﷻ ، ومنهم من يصل بطاعة الله إلى كرامة الله ، حتى لا نحجرعلى أي طريق إلى الحق ﷻ ، ففيه شيء من فيض الجود ، وشيء من بذل المجهود .

فـ ﴿ الْوَدُودُ ﴾ : تأخذها من وادّ ، وهي اسم الفاعل ، أو من مودود ، وهي اسم المفعول ، أو ودود يوَدِّد أهل محبته إلى خلقه ، وذلك كما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : " **إن الله إذا أحب عبدًا دعا جبريل فقال : إني أحب فلانًا فأحبه ، قال : فيحبه جبريل ، ثم ينادي في السماء فيقول : إن الله يحب فلانًا فأحبوه ، فيحبه أهل السماء ، قال : ثم يوضع له القبول في الأرض ، وإذا أبغض عبدًا دعا جبريل فيقول : إني أبغض فلانًا فأبغضه ، قال : فيبغضه جبريل ، ثم ينادي في أهل السماء : إن الله يبغض فلانًا فأبغضوه ، قال : فيبغضونه ثم توضع له البغضاء في الأرض** "[1] .

﴿ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴾ .. طبعًا إذا سمعنا كلمة : **العرش** ، وكلمة : **الكرسي** ، وكلمة : **الميزان** ، وكلمة : **اللوح المحفوظ** ، كل هذه الأمور التي نسميها السمعيات ، سمعية أي : حجتنا فيها السماع ، إنما ليس السماع المطلق ، السماع ممن تثق بصدق تبليغه عن الحق ﷻ ، فعند ذلك لا ينبغي لعقلك أن يقف على كيفية الأشياء ، لا تقل : ما هو العرش ؟ أو ما شكله ؟ حيث إن عدم قدرتك على وصف العرش لا تمنع من وجوده .

فإدراك كنه الأشياء ، أو إدراك صفات الأشياء ، لا يتعلق عليه الحكم بوجود الأشياء ، والأشياء إذا أخبرت بها ممن تثق بصدقه عن الحق ﷻ فإن كان له نظير في كونك فتأخذ من

---

1 - أخرجه البخاري (2970 ، 5580 ، 6931) ، ومسلم (4772) .

النظير نظيره ، نحن نسمع كلمة : **العرش** ، ونفهم أنه هو عرش الملك ، فعندما يقول الله ﷻ لك : إن لي عرشًا ، فليس في ذهنك وتصوراتك أن تعرف ما هو ذلك العرش ، ولو قال : إن لي كرسيًّا ، فنؤمن بوجود الكرسي ، وبعد ذلك فاترك كيفيته ، واترك وصفه على منهاج الله ﷻ فيه ؛ لأنك تأخذ كل شيء ينسب إلى الله ﷻ كما قال الله ﷻ به ، فأعطِ وصف الخلق بما يناسب الخلق ، وأعطِ وصف الخالق بما يناسب الخالق ، في إطار قاعدة : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾[1] .

وليس هذا هو الشيء الوحيد الذي يقف العقل عند تصوره ، فهناك في ماديات الحياة وكونياتها المحسة أشياء لها آثارها ، ومع ذلك لا نستطيع أن نصف كنهها ، مثل الكهرباء ، فإلى الآن لا نستطيع أن نعرف ماهيتها ، ولكنها موجودة بلا شك ، وآثارها موجودة ، ومع ذلك فنحن لا نعرف كنهها ، فإذا وقف عقلك في تصور هذا الشيء ، فاعلم أن توقف عقلك في التصور هو الجواب ، وأنه شيء مما لا يتصور ، وما دام شيء مما لا يتصور ، فيكون فوق مستوى الإدراك ، وإذا أتيت بشيء فوق مستوى إدراكك وقلت : أنا غير مدرك له ، تكون بهذا قد أدركت ، ولذلك قيل : " **العجز عن الإدراك إدراك** " ، فحين يذكر الحق ﷻ العرش ، أو اللوح المحفوظ ، أو غير ذلك من الغيبيات ، يجب علينا أن نؤمن بها بدون تفكير أو تكييف .

﴿ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴾ .. كلمة : **مجيد** في اللغة مأخوذة من الواسع ، ولذلك من أسمائه ﷻ : **الواسع** أيضًا ، **الواسع** ، أي : الذي يتسع عطاؤه لكل مطلوبات الوجود ، ولذلك ما دام قد اتسع عطاؤه لكل مطلوبات الوجود ، فيجب أن يُعَظَّم ، فينشأ من سعة عطائه ، وقيوميته في العطاء ، أنه يُمَجَّد ويُعَظَّم .

﴿ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴾ .. قد يقول قائل : كيف يُمَكِّن اللهُ ﷻ الكافرين من الذين آمنوا بالله

---

1 - سورة : الشورى ، الآية : 11 .

وبالرسل ؟! وهل تمكين الكافرين هذا على غير مراد الله ؟! فنقول : بالطبع لا ، بل هي من مراد الله ﷻ ، ولكنها سُنَّة الابتلاء التي يميز الله ﷻ بها بين الصادقين في إيمانهم وبين الكاذبين ، ولذلك تجد المواجهة الشديدة بين الرسل وبين خصومهم دائمًا ، فلم نعرف رسولاً انتصر ودانت له الدنيا بمجرد أن أرسل ، وحتى تعرف لؤم الإنسانية ، وخسة العقل البشري الذى لم يرتضِ بمنهج الله ﷻ ، استعرض مثلاً قصة **سليمان** عليه السلام ، هل رأيت معركة حدثت بين **سليمان** وبين أحد ، كلا ، أتدري لماذا ؟ لأن **سليمان** عليه السلام كان معه الملك والقوة ، وكأن الناس حين يؤخذون بالشدة ينتهي الأمر ، وانظر لحال **بلقيس ملكة سبأ** حين قالت : ﴿ وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾[1] ، فهي على قوتها وشدتها ، أذعنت **لسليمان** ، وذلك معناه : أن القوة هي التي تحكم الإنسان المتخطي عن المنهج ، فلو أرسل الحق ﷻ رسولاً ملكًا ، ما استطاع أحد أن يعارضه ؛ لأن الناس يعلمون أنه سيبطش بهم ، وهم لا يعرضون أنفسهم لهذا ، ولكن لو أرسل رسولاً غير ملك ، تمر عليه تجربة المبادئ ، فمرة يجعل الكافرين كفتهم عالية ، ومرة يجعل المؤمنين كفتهم عالية ، وهكذا .. سجال ، لحكمة يعلمها الحق ﷻ ، ثم تكون الغلبة للمؤمنين في النهاية ولا شك ؛ وذلك لأن المؤمن الذي يدخل الدين على أنه دين منصور ، لا يهزم أبدًا ، وأنه سيغنم ، فهذا يسقط مع أول اختبار ، وأول شدة ، ويكون عامل الثبات على الدين عنده معدومًا ، أما الذي يدخل هذا الدين وهو مستعد للابتلاء ، والضرب ، والسجن ، والإخراج من بلده ، والقتل ، والذل ، فهذا هو الذي يصمد ، ويتحمل تبعات هذا الدين ، ويكون قلبه قد تربى ، وأُعِدَّ إعدادًا جيدًا .

إذن فأول درس إعدادي في الدعوة والتربية هو أن يُعَدّ المدعو ويربى على التحمل والثبات ، ولذلك قلنا : إن المسلمين في الطور المكي لم يوعدوا بنصر أبدًا ؛ لأنه أراد أن يُسقِط الدنيا من

---

1 - سورة : النمل ، الآية : 44 .

حساب هؤلاء السابقين ، وبعد بيعة العقبة قالوا : وما لنا إن وفينا ، لم يقل : ستنتصرون على أعدائكم ، وستدخلون فاتحين ، بل قال : " **لكم الجنة** "[1] ، لم يأت بالدنيا لهم ؛ لأنهم كانوا في أول التربية ، فلا نربيهم إلا على أنهم داخلون في محنة ، فالذي يدخلها هو الذي يقارن بين الصفقتين ، صفقة الجنة في الآخرة ، وصفقة الدنيا ، لكن ليس معنى ذلك أن المسألة تستمر بهذه الشكل ، فالله لا ينصر المؤمنين لأنه يعطي لهم ثمن مجهودهم ، كلا ، بل ينصر المؤمنين ؛ لأن لهم رسالة في الإيمان يؤدونها ، وعندما ينتصر الكفر على الإيمان ، أو عندما ينتصر الفاتنون على المفتونين ، فإنما هناك نصر آخر للطرف الآخر ، نصر للمفتونين على الفتنة ذاتها ، هذا هو الأهم ، المفتون انتصر على الفتنة في الدنيا ؛ لأنه يعلم أن كلمة الكفر تجعله يعيش سعيدًا آمنًا ، ومع ذلك لم يقلها ، فهو نصرٌ على الفتنة في ذاتها .

إذن ، فحينما يكون هناك نصر للفاتن ، فهناك نصر للمفتون من نوع آخر ، وفي أوليات كل دعوة لابد أن يوجد النصر على الفتنة في ذاتها ، فأنا عندما أكون في المعركة وأنا ضعيف والآخر قوي ، فإن اخترت ما أنا عليه ، لا سبيل لي إلا أن أموت ، فإذا كانت الصفقة متضحة في ذهني ، أكون قد انتصرت على الفتنة في ذاتي ؛ لأن هناك شيئًا يجذب نفسي إلى الدنيا ، وصفقة عقدت بالإيمان عليها تجذبني للناحية الأخرى .

إذن ، فعندما تجد نصرًا لفاتن على مفتون ، فاعلم أن هناك نصرًا للمفتون على الفتنة ذاتها ، وحين يوجد النصر على الفتنة ذاتها ، يوجد الجنود الذين يحملون الدعوة ، وعندما تتأصل في نفوسهم هذه المعاني كلها ، يعطيهم الله بعد ذلك نصرًا ، لا على أنه جزاء ، ولكن لأن لهؤلاء مهمة لاعتدال ميزان الدنيا .

---

1 - تقدم تخريجه ، وانظر مسند أحمد : (34 / 447) .

هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾
وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ﴾ .. كلمة : ﴿ حَدِيثُ ﴾ تدل على أنه أمر تحدث الناس به ، وتناقلته السير والأخبار ، أي إنه ليس كلامًا جديدًا من عندنا .

ثم يأتي بكلمة : ﴿ الْجُنُودِ ﴾ ، والتجنيد ، أي : العسكرة ، ومنه كلمة : **جندية** ، أي فيها شبه إعداد للشراسة ، وإعداد للقتال ، وإعداد لكل شيء .

ومعنى ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ﴾ : إما أن يكون رسول الله ﷺ قد علم بهذا القصص أو لم يعلم بها ، فإن لم يكن قد علم ، فهذا هو أول إعلام من الله ﷻ إليه ، وحين يقول الله ﷻ : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ﴾ أي : هل أتاك مني أنا ، وإذا كان ربنا ﷻ هو الذي يخبر ، فالحقيقة تكون واقعة .

لكننا لم نلاحظ في المكذبين مع حرصهم على تكذيب رسول الله ﷺ أنهم قالوا : ما هي **قصة ثمود** ؟ أو ما هي **قصةفرعون** ؟ ومرت المسألة دون اعتراض من أحد منهم ، مع رغبتهم الشديدة في الاعتراض ، مما يدل على أن بعضهم قد تنقَّل في الرحلات ، وعرف مدائن صالح وغيرها ؛ لأنهم كانوا يمشون في هذه الأماكن فلابد من أنها أمور معلومة لهم .

﴿ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴾ .. ولاحظ هنا أنه أفرد **فرعون** ، وصحيح أن كلمة " **ثمود** " كلمة مفردة ، ولكن معناها : قبيلة **ثمود** ، أو قوم ، أو جماعة ، لكن **فرعون** كان وحده ، وذلك يدل على أن الذين كانوا في ثمود ، كانوا كلهم مجمعين على مناقضة الرسالة ومحاربتها .

فرعون فإن قومه لم يكونوا كلهم مقتنعين بذلك ، ولكن **فرعون** الذي جعل نفسه إلهاً ، هو الذي حملهم على هذا الأمر ، ولذلك قال : ﴿ فِرْعَوْنَ ﴾ ، ولم يقل : **قوم فرعون** .

ونلاحظ أنه أتى في القرآن **بفرعون وثمود** ، كما في **سورة الفجر** أيضًا : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ * وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ * وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ * الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ * فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ * إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾[1] ، أي : كلما يتكرر منهم الطغيان والفساد ، فربك لهم مترصد .

وهؤلاء المشركون الذين كذبوا رسول الله ﷺ لم يبلغوا من الملك والطغيان ذلك المبلغ الذي بلغه **فرعون** ، ولم يبلغوا المبلغ الحضاري الذي بلغته **ثمود** ، إذن فأخذهم يصبح مسألة هينة .

﴿ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ﴾ .. وصَلهم هذا الخبر ، ومع ذلك فكلهم يكذبون ، لماذا ؟! ليوجدوا لأنفسهم مبررات للسلوك المعاند ، فلا يمكن أن يكونوا مصدقين لهذه الأمور ، ثم بعد ذلك يعادونها ، فهذا التكذيب مطية تبريرية للإنسان ، يبرر بها سلوكه ؛ لأنه لو لم يكذب للزمته الحجة .

﴿ وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ ﴾ .. وقال : ﴿ مِنْ وَرَائِهِمْ ﴾ ؛ لأنهم جعلوا الله ﷻ وراء ظهورهم ، فنقول لهم : لقد جعلتم الله ﷻ وراء ظهوركم ، فالذي جعلتموه وراء ظهوركم محيط بكم ، وما دام محيطًا بكم ؛ لأنه من وراء ظهوركم ، فعندها يخيل إليكم أنكم سبقتموه ، فيقول : ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾[2].

﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ ﴾ .. ويدل ذلك على أن التكذيب كان للقرآن بكونه من الله ﷻ ،

---

1 - سورة : الفجر ، الآية : 6 - 14 .

2 - سورة : الواقعة ، الآية : 60 .

وفيما يُحدِّث به القرآن ، فقال : القرآن صادق البلاغ ، و**محمد** ﷺ صادق التبليغ فيه عن الله ﷻ ، وهذا القرآن يتميز عن غيره بأنه محفوظ..

﴿ **فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ** ﴾ .. ولذلك تجد الدقة في كلمة : **لوح** ، حيث لم يقل : **قرآن محفوظ** ، فقوله : **مَحْفُوظٍ** ليست صفة للقرآن ، بل هي صفة للوح ، فإذا كان اللوح الذي فيه القرآن محفوظًا ، فما بالك بالقرآن ذاته .

فيجب أن تصبر يا **محمد** ؛ لأن هؤلاء يكذبون ، ولكن القرآن الذي أنزل عليك لم ولن تمسَّه يد تحريف ، لا في السماء العُلا ولا عندك ، وسيظل كما أنزله الله ﷻ عليك .

نسأل الله ﷻ أن يجعلنا من المتمسكين بهذا الكتاب العظيم ، وأن يكفينا شر أنفسنا ، وشر أعدائنا ، وأن يحقق لنا آمالنا أجمعين . .

والحمد لله رب العالمين . .

علم

تفسیر جزء

سُورَةُ الطَّارِقِ

سُورَةُ الطَّارِقِ

أحمدك ربي ثناء بلا حد ، وأصلي وأسلم على خير رسلك من اشتقت اسمه من الحمد ، وبعد :

فمع **سورة الطارق** ، تلك السورة التي تمثل طرقات متوالية على الحس .. طرقات عنيفة قوية عالية ، وصيحات بنوِّم غارقين في النوم .. تتوالى على حسهم تلك الطرقات والصيحات بإيقاع واحد ، ونذير واحد ، وكأنه ينادي فيهم : **اصحوا .. تيقظوا .. انظروا .. تلفتوا .. تفكروا .. تدبروا .. فإن هناك إلهًا ، وإن هناك تدبيرًا ، وإن هناك تقديرًا ، وإن هناك ابتلاء ، وإن هناك تبعة ، وإن هناك حسابًا وجزاء ، وإن هناك عذابًا شديدًا .. ونعيمًا كبيرًا ..**

إن هذه السورة نموذج واضح لهذه الخصائص ، ففي إيقاعاتها حدة يشارك فيها نوع المشاهد ، ونوع الإيقاع الموسيقي ، وجرس الألفاظ ، وإيحاء المعاني .

ومن مشاهدها : الطارق ، والثاقب ، والدافق ، والرجع ، والصدع .

ومن معانيها : الرقابة على كل نفس : ﴿ إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴾ .. ونفي القوة والناصر : ﴿ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ * فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلاَ نَاصِرٍ ﴾ .. والجد الصارم : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ * وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ﴾ .

والوعيد فيها يحمل الطابع ذاته : ﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا * وَأَكِيدُ كَيْدًا * فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴾ .

---

* مقدمة تفسير السورة مقتبس بتصرف من : " في ظلال القرآن " .

وبين المشاهد الكونية والحقائق الموضوعية في السورة تناسق مطلق دقيق ملحوظ ، يتضح من استعراض السورة في سياقها القرآني الجميل ..

وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝٢ ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ ۝٣ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ۝٤

﴿ وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴾ .. تقدمت سور كثيرة فيها لفت الإنسان إلى مظاهر الكون الثابتة الرتيبة ، وإلى ما يعقب ذلك من تغيير لهذه الثوابت ، بما يحدث من انقلاب في الوجود ، كقول الحق ﷻ : ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾[1] ، وقوله ﷻ : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ ﴾[2] ، وسبق أيضًا أن سمعنا قول الحق ﷻ : ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴾[3] ، قسمًا ، وهنا يقول الحق ﷻ : ﴿ وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ * النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴾ ..

والسماء : هي كل ما علاك فأظلك ، ذلك هو معناها في اللغة .

ومعناها المراد في بنائية الكون هو : السماء ذات الجرم ، التي خلقها الله ﷻ سقفًا للأرض كلها ، والعلماء حينما تكلموا عن السماء ، نظروا فقط إلى جهة العلو ، وكلما اهتدى كشفهم وعقلهم إلى وجود شيء أعلى ظنوه سماء ، ففسروا مثلاً في القرن الماضي الكواكب السيارة حول الشمس ، بأنها هي السماوات السبع ؛ لأن العقل لم يكن قد اكتشف سيارات حول الشمس إلا هذه السبع ، ثم بعد ذلك اكتشفت سيارات أخرى ، فبطل تفسيرهم بأن السماوات هي

---

1 - سورة : التكوير ، الآية : 1 .

2 - سورة : الانفطار ، الآية : 1 .

3 - سورة : البروج ، الآية : 1 .

هذه الكواكب التي كانت تدور حول الشمس ؛ لأنها وصلت الآن إلى أكثر من عشرة كواكب .

والواقع أن كل ما نراه من كواكب ، ونجوم ، وأفلاك .. كل ذلك من السماء الدنيا ، فكأن السماء الدنيا بعد ذلك كله ، وكان يجب على الذين يستنبطون هذه الاستنباطات ، أن يلتفتوا إلى أن الحق ﷻ تكلم عن هذه الكواكب قائلاً : ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ﴾[1] فكان يجب أن يعلموا أن كل ما نراه من نجوم ، وكواكب ، وأفلاك .. كل ذلك ضمن السماء الدنيا ، ثم بعد ذلك بقيت السماء سقفًا محفوظًا كما أرادها الله ﷻ مبنية ، أما من أي شيء بنيت ، أو كيفية ذلك البناء ، فهذا أمر لم يطلب منا الحق ﷻ أن نعرفه كسائر المدركات التي لا تدخل تحت التجربة ، ولا يمكن أن ينالها أحد .

ويكفي حين يقول الحق ﷻ : ﴿ السَّمَاء ﴾ .. أن نستحضر في أذهاننا مدلول هذه الكلمة .

﴿ وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴾ .. يعطينا الحق ﷻ صورة من آثار ما لم نعرف كنهه ، وإنما نعرف أثره فينا ، ونعرف له مهمة ، إذن .. فغاية العبد المكلف أن ينظر إلى آثار الأشياء عليه ، ولا يعنيه أن يعرف كيفية هذه الأشياء ، فالانتفاع بالأشياء شيء ، ومعرفة تكوينها شيء آخر ، فإن انتفاع الإنسان بكل ما هو موجود في الكون لم يترتب على أنه عرفه ، فنحن تمتعنا بالشمس والهواء والماء ، وإن كنا لم نعرف الحقيقة التي توجد عليها هذه الأشياء .

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴾ .. إن الحق ﷻ يلفتنا في قوله : ﴿ وَالطَّارِقِ ﴾ إلى شيء ننتفع بآثاره ، ثم يدلنا على أن الطارق هذا أمر لا يمكن للعقل البشري وحده أن يعرفه ، ولذلك يقول فيه : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴾ ، أي : أي شيء أعلمك بذلك الطارق ، فكأنه لا يمكن لعقولنا أن تعرف ماهية ذلك الطارق أبدًا ، وإنما نتلقى آثار ذلك الطارق .

﴿ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴾ .. يعرفنا الحق ﷻ بذلك الطارق فيقول : ﴿ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴾ .. إذن ، وينبغي أن نقف وقفة عند تعريف الحق ﷻ للطارق بالنجم الثاقب ، أولا : كلمة :

---

1 - سورة : الصافات ، الآية : 6 .

" **طارق** " اسم فاعل من طرق ، وطرق معناها : ضرب بوقع وشدة حتى أحدث صوتًا ، ومنه مطرقة الحداد ؛ لأنها تحدث ذلك الصوت ، ومنه سمي الطريق ، وهو السبيل الذي نسلكه ؛ لأن السابلة تطرقه بأقدامها ، ثم بعد ذلك وُجد عرف دلالي ، أن الطارق هو السائر ، أو السالك السبيل ، وبعد ذلك خص بالسائر ليلاً ، ولماذا جعلت اللغة هذا اللفظ ينحاز أخيرًا إلى الطارق ليلاً ؟ ذلك لأن الليل سكون ، ومعنى السكون هو أن تهدأ الحركة ، ويذهب الضجيج ، فلما تهدأ الحركة في الكون ويذهب الضجيج ، فأي حركة تحدث حينها تُسمع ، فالذي يفسد على الناس سماع المشي هو حركة الكون التي تحدث ضجيجًا على الناس ، لكن إذا كان هناك سكون ، فمن الممكن أن يُسمع للطارق صوت ؛ أو لأن طارق الليل يأتي والأبواب مغلقة دائمًا ، فهو يدق عليها ليستأذن ، أما في النهار فهي مفتوحة ، إذن ، انحازت الكلمة إلى أن الطارق هو الذي يسير ليلاً .

وبعد ذلك ، تُوسع فيها نوع توسع آخر ، وهو أن يكون كل ما يطرق على الوجدان من هم أو فعل يسمونه طارقًا ، ولذلك يقولون : نعوذ بالله من طارق الهم ، فطارق الهم هو خاطر يأتي بالسوء ، فيفسد على الإنسان مزاجه ، ليس له أمر محدد ، وكما قيل : إن الطارق من الممكن أن لا يؤذن له ، أو من الممكن أن يُدفع إذا كان ماديًّا ، فإذا كان غير مادي ، لا تعرف كيف يتسلل إلى نفسك ، ذلك هو شر أنواع الطارق ، وهو الذي لا تستطيع أن تحجبه ، لا بأن تغلق الباب في وجهه ، ولا بأن تدفعه إن رأيته ، ولكنه يتسلل عليك بلطف ، ويدخل على قلبك ، فهذا هو طارق الهم .

﴿ **النَّجْمُ الثَّاقِبُ** ﴾ .. ومعنى كلمة : **ثاقب** .. أن النجم يثقب الظلام وينفذ فيه ، فثقب الظلام هذا آية من الآيات الكونية ؛ لأن الله ﷻ يريد أن يبيِّن لنا عنايته بخلقه ، فهو حين يرسل الشمس ضياء بالنهار ، فينشط الناس إلى حركاتهم ، ويعرفون ما يتناولون وما يحتاجون إليه ، فإذا ما جاء الليل بظلامه ولفَّ الكون ، قد يضطر الإنسان إلى أن يعمل ليلاً

، أو إلى أن يسير ليلاً ، فالحق ﷻ لم يمنع هذا اللون من الحركة ؛ ولذلك فقد خلق النجوم ، كما يقول في آية أخرى : ﴿ وَعَلاَمَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾[1] .

وثقب الظلام بضوء الطارق ، هو أمر منظور ، فكيف نجد القرآن قد تكلم عن الأمر المنظور بلفظ الطارق ؟! في حين أن الطارق يكون للأمر غير المحدد ! !

نقول : ذلك لأن المعنى الأخير الذي انتهت إليه كلمة : **طارق** هو الوافد عليك من أي لون كان ، ولو كان وهمًا ، أو خيالاً ، أو أمرًا لا صوت له .

وحين يقول الحق ﷻ : ﴿ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴾ ، يدل على أن الإشعاع الذي يأتي من النجم لو لم يوجد لكان الليل كتلة واحدة ، وإذا كان الليل كتلة واحدة ، فيكون الظلام شاملاً ، وإذا كان الظلام شاملاً فالحركة غير متأتية ، فيقول الحق ﷻ : إن هذا النجم يثقب الليل بذلك الضوء ، هذا مبلغ العناية بذلك الإنسان ، يعطيه في النهار الشمس ، ويعطيه أيضًا في الليل ، حتى لا يمتنع من يريد الحركة عن الحركة .

﴿ إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴾ .. من المعلوم أن كل قَسَم في القرآن لابد أن تكون له صلة بالمقسم عليه المراد تأكيده ، فما علاقة الطارق ، الذي هو : ﴿ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴾ بما يقسم عليه الحق ﷻ وهو : ﴿ إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴾ ؟!

كلمة : ﴿ حَافِظٌ ﴾ هذه إما أن تؤخذ من **الحفظ** ، بمعنى : الرعاية والعناية من الحافظ للمحفوظ ، وإما أن تأتي من **الحافظ** ، الذي هو الرقيب ، الذي لا يغيب عنه شيء أبدًا ، فإذا توجهنا بكلمة : **حافظ** إلى المعنى الذي يرعى به المحفوظ بحفظه ، نجد الحق ﷻ يقول في آية أخرى من آياته : ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾[2] ، أي أن ذلك الحفظ من أمر الله ﷻ ، فإن الإنسان تمر عليه أحداث كثيرة لا يمكن لقوته أن

---

1 - سورة : النحل ، الآية : 16 .

2 - سورة : الرعد ، الآية : 11 .

تفسرها ، ولا لحيلته وأناته ورويته أن تفكر فيها .

ومعنى ذلك أن الحق ﷻ وكّل بالإنسان من يحفظه من كل ما قد يفوق طاقته ، أو قدرته ، أو تُعَجِّل أناته ، ورويته .

فقول الحق ﷻ : ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾[1] ، يعنى : أنك لست متروكًا لرعاية نفسك ، ولا للعناية بها ، فهناك أحداث وأشياء فوق عنايتك ورعايتك ، ولولا أني سخرت لك من جنودي ما لا تعلم ممن يحوطك ويحفظك ، لكانت فتكت بك تلك الأشياء .

وهذا يدل على أن الحفظ هنا هو : **العناية والرعاية للمحفوظ** .

وقد يكون الحفظ معناه : الرقابة ، والعلم بكل ما يكون من هذا المحفوظ كما قال الحق ﷻ : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴾[2].

إذن فكلمة : **حَافِظٌ** هنا ، تعطي ما للإنسان ، وتعطي ما على الإنسان ؛ لأن كل شيء لك يقابله شيء عليك ، والذي لك كان على الله ﷻ ، والذي عليك كان لله ﷻ .

فعدَّى الحق ﷻ الفعل في الآية الأولى باللام : ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾[3]، وعدَّى الفعل في الثانية بعلى : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴾[4]، ثم جاءت هذه الآية : ﴿ إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴾ لتؤيد هاتين الآيتين .

﴿ إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴾ .. لما تأتي بمعان متعددة .. المعنى الأول : أنها تأتي للنفي ، أي : لنفي الفعل سابقًا نفيًا يتصل بالحال ، تقول : لما يجيء زيد ، مثل : زيد لم يجئ ، أي : حكمت بعدم مجيئه في الماضي ، إلا أن الفرق بين لم وبين لما : أنه قيل : لما

1 - سورة : الرعد ، الآية : 11 .

2 - سورة : الانفطار ، الآية : 10 ، 11 .

3 - سورة : الرعد ، الآية : 11 .

4 - سورة : الانفطار ، الآية : 10 .

متصل بالحال ، أي : لم يجئ ، وإلى الآن لم يأت ، لكن مفهوم لما ينفي مجيئه في الماضي ، إنما من الجائز أن يأتي الآن ، فعندما ترى لما ، اعرف أن الفعل بعدها منفي في الماضي ، واستمر نفيه إلى الحال الذي تتكلم فيه ، ولكنه يكون متوقع الحضور .

ولذلك إذا قرأنا قول الله ﷻ : ﴿ قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا ﴾[1] ، فهم نافقوا مع أنهم أظهروا مطلوبات الإسلام ، إنما الإيمان لم يدخل قلوبهم بعد : ﴿ وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ ﴾ ، جملة : ﴿ وَلَمَّا يَدْخُلِ ﴾ ، أي : عند أسلوب الخطاب هذا ، لم يكن الإيمان قد دخل قلوبهم ، ولكنه متوقع أن يدخل ، هذا هو الأمل .

فمنفي لما فيه خصوصية ، فالخصوصية : أنه ينفي الفعل ماضيًا ، ويستمر نفيه إلى الحال الذي تتكلم فيه ، بخلاف لم ، فإن لم تنفي في الماضي ، ويجوز أن ينقطع الحال ، مثال : (لم يحضر زيد ، ولكنه حضر الآن) ، أي : لم يحضر في الماضي ، و لما تمتاز أيضًا بأن منفيها يتوقع أن يحدث ، مثال : (لما يثمر بستاننا ، وقد أثمرت البساتين) ، فيه توقع أن يثمر .

فكلمة لما : تقلب الفعل المضارع بعدها إلى الماضي .

ولها استعمال آخر : لما التي تدل على الوجود للوجود ، أي وجود شيء ، لوجود شيء آخر : ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴾[2]، كأن الحق يقول : إن المجادلة وجدت لما ذهب الروع وجاءت البشرى ، فهذا الحرف يسمونه حرف وجود لوجود .

وهناك استعمال آخر نحن بصدده الآن : أنها تأتي بمعنى : إلا الاستثنائية ، أي أن المعنى : إن كل نفس إلا عليها حافظ ، فتكون كلمة إن هنا معناها : النفي ؛ لأن إن تكون شرطية ، (إن قام زيد ، قام عمرو) ، تكون مخففة وليست مثقلة ، وتكون بمعنى النفي :

---

1 - سورة : الحجرات ، الآية : 14 .

2 - سورة : هود ، الآية : 74 .

﴿ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلاَّ اللاَّئِي وَلَدْنَهُمْ ﴾ [1] ، أي : ما أمهاتهم إلا اللائي ولدنهم فـ**إن** هنا للنفي ، إن كل نفس إلا عليها حافظ ، ضع بدلا من إن ، ما ، فيكون : ما كل نفس إلا عليها حافظ ، أي : لم توجد نفس منفلتة من الخالق .

لو قيل مثلا في غير القرآن : **إن نفس إلا عليها حافظ** ، فيكون الكلام مستقيمًا ؛ لأن النكرة في سياق النفي تعم ، لكن جاءت النكرة في سياق النفي ، ثم جاء لها بكلمة **كل** ، لكي تفيد الإحاطة ، إفادة من طريقين :

الطريق الأول: النكرة في سياق النفي .

الطريق الثاني: الإحاطة الكلية ، أي : لا تظن نفس من النفوس أنها بمنأى عن الرقابة والمحاسبة ، فهذه الرقابة هي رقابة الحق ﷻ ، أو رقابة من وكّله الحق ممن يكتبون .

ثم تجد المناسبة هنا بين : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ * النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴾ ، فكأن الحافظ الرقيب يطلع على الأشياء ، كما أن النجم الثاقب يثقب الظلام ، وينفذ إلى دقائق الأشياء وتفاصيلها ، إذن .. فالقسم نفسه دليل على المقسم عليه .

فـ : ﴿ الطَّارِقُ * النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴾ الذي يثقب الظلام ، فيري الإنسان خبايا الأشياء ، يكون منسجمًا مع : ﴿ إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴾ ، وهذا الحافظ ثاقب يثقب عليها سرائرها ؛ ولذلك جاء بعد ذلك : ﴿ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴾ .

فالحق ﷻ نقلنا من آية كونية إلى آية نفسية ، فالآية الكونية : ﴿ وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ * النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴾ ، نقلنا من ذلك إلى آية في النفس الإنسانية .

وهنا تتجلى لنا دقة الأداء القرآني في قول الحق ﷻ : ﴿ إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴾ ؛ لأن العطاء الأول لصالح النفس ، النجم الثاقب حتى نعرف به حركاتنا ومصالحنا ، فكأن الحق ﷻ يقول لك : كل شيء يعطى لك لابد أن يكون له مقابل ، فلا

---

1 - سورة : المجادلة ، الآية : 2 .

نعتني بـــك تلك العناية ، ثم نتركك ، وعنايتنا بـــك دليل على أن لك مهمة معنا ، ولذلك سيبتدئ في شرح الإنسان كقضية كونية أخرى .

فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾

﴿ فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ * إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴾ .. نجد هنا أيضًا انسجام القسم في قوله ﷻ : ﴿ وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ * النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴾ ، مع قـــوله ﷻ : ﴿ إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴾ ،وينسجم انسجامًا آخر مع قوله ﷻ : ﴿ فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴾،وينسجم أيضًا انسجامًا مع الحفظ في قـــوله : ﴿ إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴾ ، متى ؟ ﴿ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ * فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلاَ نَاصِرٍ ﴾ .

﴿ فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴾ .. خَلْق الإنســان أمر لا شــك فيه ، ولكن المطلوب منه أن ينظر فيه ، فيقــول له : انظر أيها الإنســان في صورتك الكمالية في الكون ؛ لأن الإنســان هو السيد المتميز في الكون ، وكل أجناس الكون في خدمته ؛ لأنه يتميز بـالخصوصيات المتتالية ، فالنبـات يتميز عن الجماد بحركة النمو ، والحيوان يتميز عن النبـات بـــالحس ، والإنســان يتميز عن الحيوان بالفكر ، إذن ، فالقمة في جميع الأجناس هو ذلك الإنسان .

فكأن القرآن يقول له : يا أيها الإنسان ، يا من في هذا المستوى العالي من الكمال ، انظر ممَّ خلقت ، فلينظر الإنسان العالي الشامخ السيد في ذلك الكون ممَّ خلق ؟

وكلمة : ﴿ فَلْيَنْظُرِ ﴾ إذا سمعتها في القرآن لا تفيد النظر بمعنى الرؤية ، بل النظر بمعنى التفكر ، والفكر هو ثلث النظر ، فكأن هذا هو معنى الملاحظة ، وهذه الملاحظة تؤدي إلى حقيقة ، وقد عرفنا أن كل التجارب العلمية تبدأ بالملاحظة ، ثم إجراء التجربة المعملية على الملاحظة ، ثم نقوم بعمل النظرية ، وبعد ذلك حقيقة علمية ، إلى ما شاء الله .

إذن ، فأساس كل شيء هو النظر ، لا النظر الضيق ، ولكن النظر المدقق المحقق ، فكان يجب على الإنسان – ما دام أنه لم يخلق نفسه ، ولم يخلق هذه الماديات التى يستخدمها فى حياته ، ولم يأخذها بقوته – أن يفهم أصل الحكاية .

﴿ فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ ﴾ .. ما المراد بالإنسان ؟! يجب أن يكون الخطاب موجهًا إلى الإنسان الذي خلق من ماء دافق ، فما موقف **أبي البشر آدم** عليه السلام الذي خلقه الله عز وجل من طين ؟

والجواب : أن الحق تبارك وتعالى يريد أن يلفت الإنسان إلى اعتبار أصلية وجوده ، ولا يلفته إلا إذا كان هناك غفلة ، ولا تكون هناك غفلة إلا لأنه لم يشهد ذلك الأمر ، ولكن **آدم** عليه السلام شهد التكوين بيد الله عز وجل ، وشهد النفخ فيه بيد الله عز وجل ، فلا شك عند **آدم** عليه السلام في هذه المسألة ، إنما الشك في الناس الذين ينضجون بعد أن يكون الخلق قد انتهى ، فلا يستطيع أن يدرك كيف خُلق .

فيقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ **فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ** ﴾ ، وفكرة الخلق قائمة على الإيجاد من العدم ، هذا الإيجاد من عدم ، إما أن يكون العدم حقيقة ، وإما أن يكون قد وجد على شكل لا يليق بما ينتهي إليه كمال الإنسان .

فلو نظرت إلى مادة خلق الإنسان ، تجد أن ماء الرجل يلتقي ببويضة المرأة ، فتنشأ الخلية ، ثم تنقسم هذه الخلية ، وهذه الخلية لا عقل لها ولا إدراك ولا إرادة ، ولكن عندما تنقسم الخلية ، يحدث شيء عجيب ، فالذي خلقها عز وجل هداها إلى ما تصير إليه في مسارها ،

تجد بعد انقسام الخلايا ، أن بعض الخلايا تتكتل حتى تكون عظامًا ، وبعض الخلايا لأخرى تتكتل حتى تكون أعصابًا ، والتى تكون عظامًا تتكون على أشكال ، فالعظم نفسه أنواع ، فخلية تشكل العظم المجوف ، وأخرى تشكل العظم المنبسط ، وأخرى تشكل العظم الدقيق ، فهي عملية لا يمكن أبدًا أن تكون إلا إذا كان وراءها مدبر وضع في كل هذه الأشياء الغرائزية تكويناتها ، بحيث تسير في مسارها لتؤدي المهمة المنوطة بها ، كل هذا والمادة الأصلية واحدة .

فهذا يدل على أن وراء ذلك الإنسان العظيم قدرة عالية فائقة ، وهندسة وضعت في مادة وجوده ، المسار الذي يهيئ كل خلية إلى ما تكونه من ذلك الإنسان .

إن الحق ﷻ عندما يحدثنا عن مسألة الخلق ينزع من رءوس الناس أن الخلق لابد له من تلك السببية ، التي هي الماء الدافق الذي يخرج من بين الصلب والترائب ، بل إنه إذا أراد أن يخلق ، فإنه يخلق بدون ماء دافق ، ولا صلب ، ولا ترائب ، بدليل أنه خلق الأب الأصيل بغير تلك الطريقة ، ثم خلق منه على هذه الطريقة .

ولذلك تجد العجب في أن الحق ﷻ أدار عملية خلق الإنسان على القسمة العقلية النهائية ، فنحن نجد أن كل ما في الكون من ذكر وأنثى ، والشيء المردد بين شيئين ، لا ينتج عنه منطقيًا إلا صورًا أربعة : إما أن يوجد بوجود الزوجين ، الذكر والأنثى ، أو يوجد بدونهما ، أو يوجد بوجود الذكر فقط ، أو بوجود الأنثى فقط ، فيكون عندي أربع صور عقلية .

فالحق ﷻ يعلمنا أن السبب ليس هو الموجد ، ولكن المسبب ﷻ هو الموجد ، فحين ينعدم الماء الدافق من بين الصلب والترائب ، يقدر الخالق ﷻ أن يخلق ، وقد خلق أباكم آدم عليه السلام على هذه الصورة بغير ذكر ولا أنثى ، وقد خلق أمكم حواء من ذكر دون أنثى ، وخلق عيسى عليه السلام من أنثى دون ذكر ، وهو يخلق جميع البشر من الزوجين الذكر والأنثى .

إذن فالمسألة ليست دائرة على الأسباب ، لأن السببين منعا في آدم عليه السلام ، وأحدهما منع في

واحد ، والثاني منع في الآخر ، وقد يوجد السببان معًا وهو : الماء الدافق الذي يخرج من بين الصلب والترائب ، ولكن الحق ﷻ لا يوجِد منه شيئًا .

ولذلك تجد الحق ﷻ يقول : ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا ﴾[1] ، فمع اكتمال السببين ، تكلم عن العقم ، فالعملية الرتيبة هي أن الله ﷻ يخلق بسبب ، لكن ذلك لا يحدد مجال قدرته ، فإنه يخلق أيضًا بلا سبب ، وقد يوجد السببان في أقوى ما يكون ، ومع ذلك لا يتأتى النتاج منهما .

ومرة أخرى يصفه الحق بأنه خلق من ماء مهين ، ومعنى : " مهين " أنك عندما تنظر إلى ذاتية الماء ، تجد أنه ليس فيه قدرة ولا إرادة ، إنما إرادة الحق ﷻ أن يتكون منه ذلك الإنسان العالي ، وإذا نزلت إلى الجنس الذي هو أقل منه ، وهو الحيوان ، تجد أن الحيوان أيضًا يتكون من الماء الدافق ، ومن الصلب والترائب ، فلماذا يخلق منه حيوان لا فكر له ، ويبقى في المنزلة الدنيا ، ويخرج إنسان بكل هذه الخصائص المتميزة ؟! فالمسألة إذن مسألة إرادة المكون بأن يكون ذلك الكائن .

إذن ، فتكريم الحق للإنسان بما صوره هذه الصورة الجمالية ، وبعد ذلك بما آتاه من هذه الملكات الواعية الواسعة ، فكان يجب أن يقول : هل أصل تكوينك يفي بما ستكون أنت عليه ؟ لا ، بل أصل تكويني لا يفي بهذه الأشياء ، ولا يعطيني هذه الخصائص ، إذن فإرادة الحق ﷻ هي التي جعلت مني ذلك الإنسان ، وإلا فشيء آخر يشترك معي في الماء الدافق ، والصلب ، والترائب ، وغيرهم ، ومع ذلك لا يصير إنسانًا ، بل يكون حيوانًا ، ويظل في هذه الحياة الحيوانية .

وذلك هو السبب في أن العلماء عندما يتكلمون عن الإنسان وهو في بطن أمه يقولون : إنه لا

---

1 - سورة : الشورى ، الآية : 50 .

يكون إنسانًا إلا بعد مائة وعشرين يومًا ؛ ولذلك لما وصلوا إلى قول الصادق المصدوق ﷺ : " **إن أحدكم يُجمع خلقه في بطن أمه أربعين يومًا ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يبعث الله ملكًا فيؤمر بأربع كلمات ، ويقال له : اكتب عمله ورزقه وأجله وشقي أو سعيد ، ثم ينفخ فيه الروح ، فإن الرجل منكم ليعمل حتى ما يكون بينه وبين الجنة إلا ذراع فيسبق عليه كتابه فيعمل بعمل أهل النار ، ويعمل حتى ما يكون بينه وبين النار إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة** "[1] .. قالوا : وهل هذا النمو ليس روحًا ؟ فنقول : هذه ليست الروح الإنسانية ، أما الروح الإنسانية فتأتي بعد فترة المائة والعشرين يومًا ، إنما هناك نامية حيوانية ، ومعنى النامية الحيوانية : أي عندما تأتي بحبة بر ، فهذه الحبة فيها نامية نباتية بالقوة ، ثم عندما تنمو يكون فيها نامية نباتية بالفعل ، والحيوان المنوي فيه النامية الحيوانية بالقوة ، ثم بعد ذلك حين يوجد في البويضة يكون فيه نامية حيوانية بالفعل ، وبعد ذلك حين يريد الله ﷻ له الإنسانية ، يأتي له الملك ، فينفخ فيه الروح الإنسانية .

إذن ، فليست كلمة الروح هي التي ينشأ عنها النمو ، فالنبات ينمو ، ولا ندعي أن في النبات روحًا .

﴿ خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ ﴾ .. وهذه حقيقة تعرض لها القرآن من قبل أن يكتشفها العلم الحديث ، وهي ماء الصلب وماء الترائب ، و" **الصلب** " : هو عظام الظهر ، و" **الترائب** " : هي عظام صدر المرأة ، أو موضع القلادة منها ، والعلم التجريبي انتهى إلى هذه الحقيقة .

وكلمة : ﴿ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ ﴾ أسندت دفقًا للماء ، مما يدل على أنه غير مدفوق بإرادة الإنسان ؛ لأن هذه العملية لو لاحظها الإنسان ، يجد أنه يُغلب على هذه المسألة ، بحيث أنه لا خيار له في تدفق هذا الماء منه ، فكأن **الدفق** خاصية موجودة في الماء ذاته ، وينزل بالشدة

---

1 - أخرجه البخاري (2969) ، ومسلم (4781) كلاهما من حديث ابن مسعود رضي الله عنه .

والقوة ، بحيث لو أراد الإنسان أن يمنعه ما استطاع ، ولذلك لم يقل : " من ماء مدفوق " ، لكي لا يكون الفعل للغير ، بل **دافق** ، فحين ينضج الرجل ، ويصل إلى القمة الجنسية ، يغلبه ذلك الماء ، بحيث لا يستطيع مطلقًا أن يمنعه .

فنسبة التدفق إلى الماء ينبهك إلى أنه خرج رغم إرادة ذلك الإنسان ، هو فقط له أن يمنع الوسائل التي تؤدي إليه ، لكنه إذا ترك تلك الوسائل فلا قدرة له عليه أبدًا .

وقول الحق ﷻ : ﴿ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴾ .. أوهم كثيرًا من الباحثين أن ماء الرجل الذي نسميه نطفة من مني يمنى ، وماء المرأة يظنون أنه الماء الذي يأتي عقب العملية الجنسية ، نقول لهم : لا ، بل إن ماء المرأة في العملية الجنسية لا دخل له في تكوين الإنسان ، فإن المرأة تفرز البويضة سواء تعرضت لعملية جنسية أم لم تتعرض لها ، والبويضة لها وقت توجد فيه ، فإن صادفت وجود ماء الرجل تم التخصيب بإذن الله ﷻ وتنتهي المسألة .

إذن فالمراد بكلمة : ﴿ مَاءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴾ : هو ذلك الماء الذي ينزل في العملية الجنسية من الرجل ، ولكنه بالنسبة للمرأة ليس بالماء الذي يأتي في العملية الجنسية ، بل هو البويضة نفسها ، سواء تعرضت لعملية جنسية أو لم تتعرض .

وهنا حصل إشكال ، فبعض الناس ينقِّبون في القرآن وفي الحديث ليعرفوا آثار الكمال فيه ، والبعض الآخر ينقبون ليعرفوا آثار التضارب فيه ، فالمستشرقون درسوا وقاموا بعمل فهارس للقرآن الكريم وللحديث الشريف ، ثم تجدهم بعد ذلك يثيرون في الحديث أو في القرآن أشياء ، ومن العجيب لمكرهم أنهم قبل أن يتكلموا عن الحديث يقولون : هذا الحديث موثق ، ويقوم بالأبحاث التي تقوم أنت بها حينما تصحح الحديث لتستنبط منه حكمًا ، فيعطيك فكرة أن هذا إخلاص في البحث ، ولكنه يأتي من ناحية أخرى ليبرز إشكالاً ، هذ الإشكال سطحي يعارض بعض قضايا العلم ، فلو أنه لا يريد أن يبين هذا الإشكال ، لكان لا يتعب

نفسه في التوثيق ، هو يوثق الحديث ليس إخلاصًا للحديث ، بل ليوثق الضربة .

فلما وصلوا إلى قول رسول الله ﷺ عندما سئل : كيف ينزع الولد إلى جنس أبيه أو إلى جنس أمه ؟ فقال : " **إذا سبق ماء الذكر ماء الأنثى نزع الولد إلى أبيه ، وإذا سبق ماء الأنثى ماء الذكر نزع الولد إلى أمه** "[1] .

فقالوا : **أولا** : ماء المرأة لا دخل له في هذه العملية ، ففسروا الماء على أنه هو الذي يكون أثناء العملية الجنسية من صلب الرجل ، وترائب المرأة ، حتى لا يتفق الحديث مع الحقائق الكونية والعلمية .

ثانيا : في مسألة النزوع .. ثبت علميًّا أن ماء المرأة هو البويضة ، فقالوا : البويضة لا دخل لها في تحديد جنس الذكورة والأنوثة ، وإنما الذي يتحكم في ذلك هو ماء الرجل نفسه ، فهذه مسألة جعلتنا ننظر في الحديث : " إذا سبق ماء الذكر ماء الأنثى " ، فظن الناس أن ماء الذكر من الذكر ، وماء الأنثى من الأنثى ، ولكن كلمة : " **إذا سبق** " هي التي تعطينا الجواب ، فكلمة : " **سبق** " إذا سمعتها تفهم منها أن الاثنين يستبقان ، والمتسابقان لابد أن يكونا منطلقين من مكان واحد ، وفي اتجاه واحد ، إذن ، فلابد أن نقف عند كلمة : " **سبق** " .

ومعنى سبق هنا : أن ماء الذكر وماء الأنثى من جهة الرجل ، وإلا فإذا كانا متقابلين فكيف يقال عن أحدهما : " **سبق** " ؟! إذن ، فالمنطلَق من مكان واحد ، وما دام المنطلَق من مكان واحد ، فالمراد بماء الذكر وماء الأنثى : الماءان الصادران من الرجل ، وهذا هو الذي أثبته العلم : أن الرجل يخرج من مائه الذكور والإناث ، ويتسابق الماءان ، فإن غلب ماء الذكورة يصبح المولود ذكرًا ، وإن غلب ماء الأنوثة يصبح المولود من جنس أمه أنثى .

﴿ **إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ** ﴾ .. وما دام أنه قد أثبت العظمة في التكوين ، والعظمة في الإيجاد ، والعظمة في أنه خلق ذلك الإنسان العظيم بكل مواهبه وملكاته من ماء مهين ،

---

1 - أخرجه البخاري (3645 ، 4120) من حديث عبد الله بن سلام ، ومسلم بنحوه (469) من حديث أم سليم .

فمعنى ذلك أن النهاية له ، فماذا بقي عليه ؟ إن ربنا يطلب لنفسه أشياء ، ويكتب على نفسه أشياء : ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾[1] ، إذن فكل : " **لك** " يجب أن يقابلها : " **عليك** " ، فبعد هذه العناية التي رفعتك على كل الأجناس ، وجعلتك صاحب هذه المنزلة العظيمة ، أتظن بعد ذلك أنك متروك .

وبعد أن تجتاز مرحلة الحياة الطويلة اجتيازًا لا تشعر بهذه الحياة ، ينقلك من الإيجاد الأول إلي الإيجاد الثاني ؛ ليدلنا على أن خلقي كهذه المسألة ، فمرحلة الحياة كلها مرحلة مطمورة ، هذه المرحلة المطمورة مطمورة في حساب الزمن ، والحق ﷻ أوجدك لهذه الغاية .

كما في قول الحق ﷻ : ﴿ أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى * أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى * فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى ﴾[2].. هل هذا الإعجاز من الحق ﷻ حدث من أجل هذه الفترة القليلة فى الحياة الدنيا ؟! كلا ، بل إنما كان لمسألة أخرى ، ولكنه يلفتنا ويقول : وحتى تسعد في هذه العملية ، فلابد من الفترة الثانية ، التي نخبرك عنها ، وتخطيناها في الكلام هنا ، هي الفترة التي تعطيك خير الفترات كلها ، وما دام هناك حفيظ ورقيب عليك ، فما قيمة الحفيظ ؟ وما قيمة الرقيب إذا كانت المسألة متروكة سدى ؟ لأننا سنحاسب بالضرورة ، وما دامنا سنحاسب حساب من يرى منا خفايا الأمور ، فيجب أن تعلم أن الأمر ليس متروكًا سدى ..

﴿ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴾ .. ومعنى ﴿ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴾ : تختبر بإخراج المكنون فيها ، والسرائر : هي كل ما يسره الإنسان ، وإذا كانت الأمور التي أسرها الإنسان ستبلى وتختبر وتخرج ، فالأمور التي أعلنها الإنسان من باب أولى واضحة ، ولكن لما كان الإنسان يظن أنه بكتمانه وبإسراره لكثير من الأشياء قد أخفاها ، نقول له : كلا ؛ لأن الحق ﷻ قال : ﴿ يَعْلَمُ

---

1 - سورة : الأنعام ، الآية : 54 .

2 - سورة : القيامة ، الآية : 36 - 39 .

السِّرَّ وَأَخْفَى ﴾[1] ، وقد يقول قائل : السر هو الذي أسررته في نفسي ، فما هو الأخفى ؟ نقول له : السر يطلق إطلاقين : ما تسره إلى الغير في أذنه ، فإن كان السر معناه هذا ، فيكون أخفى منه وجوده في نفسك قبل أن تسره للغير ، أو إن كان السر هو ما أسررت به في نفسك ولم تقل به لأحد ، فالأخفى هو ما يعلمه قبل وجوده فيك ، فكلمة : ﴿ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ أي : قبل أن يكون سرًّا عندك ، فهو عالم أن سيوجد سرٌ هنا .

وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴿١٧﴾

﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴾ .. و " الرجع " : هو المطر الذي ينزل ، ثم يتبخر ، ثم يعود ، هذا هو الرجع ، أي : الماء الذي يرجع ويأخذ دورته ثم يعود .

ولماذا : ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴾ ؟! لأنه لا يفيد الإنسان الفائدة إلا إذا نزل من السماء ؛ لأنه لو أتى من البحر المالح فلا يفيد الإنسان ، فيجب أن يكون ماء عذبًا مبخرًا صالحًا للشرب وللري .

وكذلك قول الحق ﷻ : ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴾ يعطينا ملابسة للخلق الأول ؛ لأن الماء الدافق يشبه الرجع .

وكذلك فإن الإنسان سيرجع كما أن الماء يرجع .

---

1 - سورة : طه ، الآية : 7 .

﴿ وَالأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴾ .. الأرض التي تتشقق وتنبت النبات ، مثل الماء الدافق ينزل في الرحم ، وبعد ذلك يأخذ صورته وينمو ... إلخ .

إذن ، فالحياة كلها عبارة عن قوانين منسجمة ، هذه القوانين المنسجمة ، يحكمها قانون واحد ، هذا القانون الواحد ، سائر في كل ألوان الوجود ، في الكونيات العليا ، والكونيات السفلى .

والحق ﷻ يتكلم عن الماء الدافق الذي يخرج من بين الصلب والترائب ليوجد ذلك الإنسان العجيب ، هذا هو بدء الخلق ، ثم بعد ذلك يريد قيومية عليه لكي يعيش ، فمن وهبه الحياة يريد استبقاء هذه الحياة ، فتكلم الحق ﷻ أولاً عن وهبه الحياة : ﴿ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴾ ، ثم بعد ذلك تكلم عن استبقاء تلك الحياة : ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ * وَالأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴾ .

وبعد ذلك يعرض القرآن الكون والنفس هذا العرض ، ليعطينا هذا التمازج على أن خالق الكون هو خالق الإنسان ، هو قائل ذلك القرآن ، وما دام يلفتنا إلى أن خالق الكون ، هو خالق الإنسان ، هو قائل القرآن ، إذن فلابد أن نأخذ هذا المنهج منه ، ونعلم أن هذا هو المنهج الفصل ، فيقول ﷻ : ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ * وَالأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴾ .

﴿ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ * وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ﴾ .. وذلك يعني : أن كل ما جاء من أقضية القرآن هو الفصل في هذه الأقضية ، ومعنى القول الفصل : أنه ستوجد خصومات حول أشياء ، وكأن الطرفين المتخاصمين يريدان من يفصل بينهما ، ولابد وأن يكون كل واحد منهما في جانب ، فيفصل الحق ﷻ بينهما ، فإما أن ينصر جانبًا على جانب ، وإما أن يبين خطأ الجانبين .

كما قال الحق ﷻ : ﴿ لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾[1] ، فإن الله ﷻ أخرج هذه الأمة ، وأنزل فيها رسوله ﷺ ، وأنزل القرآن ليكون شهيدًا علينا ،

---

1 - سورة : الحج ، الآية : 78 .

المطلوب منا أن نكون شهداء على الناس ، فأنت لا تقول : أنا شهدت على فلان إلا إذا كان لحق في غير جانبه ، وإلا لو أن الحق في جانبه فتكون قد شهدت له ، فكأن الحق ﷻ يقول : أنا أتيت بكم في زمن فاسد كله ، ولا يوجد طرف مع الحق وطرف مع الباطل ، بل الطرفان مبطلان ، وما داما مبطلين ، لا آتي لهم بشهيد على بعضهم ضد الآخرين ، بل أتيت لهم بشهيد على الاثنين ، ومعنى شهيد على الاثنين أن الاثنين مبطلان .

وعندما نلاحظ الفترة التي جاء فيها القرآن والإسلام ، تجد الكفتين كبعضهما ؛ لذلك قال : ﴿ لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ .

فقول الحق ﷻ : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴾ .. يفصل في قضية ، هذه القضية إن كان الطرفان مبطلين ، أو إن كان طرف عنده شبهة حق ، فيميل إلى ناحية ذي الحق ، لكن هذه الفترة التي نزل فيها القرآن كان الناس كلهم مبطلين .. أهل الكتاب حرفوا وبدلوا ، والوثنيون كما نعلم حالهم من كفر وشرك وضلال ، إذن لم يكن هناك منهج واضح للحق ، بل كلهم على ضلال .

﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا * وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴾ .. وهنا مسألتان :

مسألة الكيد منهم ، ومسألة الكيد الذي نسبه الله ﷻ لنفسه ، فحين تجد لفظاً نسبه الله ﷻ لنفسه مما لا يستسيغ فكرك أن ينسبه إلى الله ﷻ مثل الكيد والمكر ، كما في قوله ﷻ : ﴿ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾[1] ، فهذا مما يسمى في الأداء البياني بالمشاكلة ، والمشاكلة : هي أن تأتي بلفظ يدل على معنى ، هذا المعنى ليس هو عطاء اللفظ لغة ، ولكنه جاء بهذا اللفظ لوقوعه في صحبة غيره .

كما يقول ﷻ : ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ﴾[2] ، وإنما سميت سيئة لوقوعها بصحبة

---

1 - سورة : النمل ، الآية : 50 .

2 - سورة : الشورى ، الآية : 40 .

السيئة الأولى ، فكأنه يقول : إن كنت قد أسأت إلينا بفعلك هذا وأنت تقصد أن تسوءنا ، فنحن نعاقبك على ذلك بما يسيء إليك ، فعندما نعاقبك نسوءك ، وكما قال الله ﷻ : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ﴾[1] ، فكل هذا يسمى بالمشاكلة .

و " المكر " : هو الاحتيال لإيذاء خصم لم تقدر على إيذائه بالمواجهة ، فتدبر له المكائد .

ومعنى ذلك هو عجز الماكر ؛ لأنه لو كانت عنده القوة التي تؤهله للمواجهة ما كان ليلجأ للمكيدة ، بل يواجه ؛ ولذلك فالضعيف غالبًا حين تأتيه الفرصة يكون جبارًا ظالمًا ؛ لأن هذه هي الفرصة الوحيدة التي تمكن منها ، لكن القوي عندما يملك الفرصة يقول : أنا في أي وقت سآخذ حقي ، ولذلك قال أبو الطيب المتنبي في ذلك المعنى :

وضعيفة فإذا أصابت فرصة قتلت كذلك قدرة الضعفاء

إذن ، فمن يمكر ويكيد ويبيِّت ويدبر في خفاء ، فذلك دليل على أنه ضعيف ، واعلم أنك عندما تمكر بمن يعلم مكرك فإنك لم تمكر ؛ لأنه يعرف طباعك في المكر ، فمكرك لن ينفع ، فإذا مكرت بمن يعلم مكرك يكون لا مكر ، مكر خائب ليس له ثمرة ؛ ولذلك جاء التعبير القرآني : ﴿ وَمَكَرُوا مَكْرًا ﴾ ، وهم يظنون أنهم يمكرون على من يساويهم في بشريتهم ، ﴿ وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾[2] ، أي : هم يمكرون ونحن نعلم بمكرهم ، أما نحن فنمكر بهم ولا يشعرون بمكرنا .

وكذلك قوله : ﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴾ ، أي : لهذه الدعوة ، فما داموا لم يستطيعوا الوقوف أمام الدعوة وقوف المواجهة ، فإنهم يمكرون ، لكن قل لهم : إن كيدكم مكشوف عند ربكم ﷻ ، وما دام مكشوفًا عنده ﷻ فهذا ليس كيدًا ، وكيدنا سيكون خيرًا من كيدهم .

وعندما يقول الله ﷻ : ﴿ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾[3] ، لا نقول : إن ربنا مكار ، حاشا لله ،

---

1 - سورة : النحل ، الآية : 126 .

2 - سورة : النمل ، الآية : 50 .

3 - سورة : آل عمران ، الآية : 54 .

وتعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرا ، فربنا ﷻ لا تجوز عليه الحيلة على أحد ، فإذا قال الله ﷻ عن نفسه ذلك ، فيجب أن نؤمن بذلك ، ونعلم أن كنهه مجهول لنا ، فنقف عند ما يقول ، ولا نشتق منه اسمًا ، فلا نقول : الله كائد ، ولا نقول : الله ماكر ، حاشا لله ، بل نقف بالحدث عند ما قال الله ﷻ به .

﴿ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴾ .. من الذي يمهل ؟ ظاهر الآية أن الرسول ﷺ هو الذي يمهل ، ولكن المراد أن الله ﷻ هو الذي يمهل ، وإنما ذلك إيناس لرسول الله ﷺ ، فكأنه يقول له : إنني أرسلتك رسولاً لكى أؤيدك ، وما فعلوه إنما أردنا منه تمحيص الذين يؤمنون بك ؛ لأننا نريد ألا يكون معك في هذه الدعوة إلا من يصبر معك على تلك الشدائد ، من مكر وخداع وكيد ، فإن صبروا يكونوا أهلاً لأن يحملوا معك هذه الدعوة إلى الدنيا كلها ، فكأن الموقف بيدك : ﴿ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ ﴾ .

﴿ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴾ .. رويدًا : أي قليلاً ، أي أن الإمهال لن يطول كثيرًا ، وإذا ما استقرأنا تاريخ هذه الدعوة نجد أن الإمهال إنما كان فقط لتربية جنود الدعوة تربية تصبر على الشدة ، شدة ولا أمل في خير الدنيا أبدًا ، فإذا نجحوا في هذه المسألة ، ففترة الإمهال قد انتهت ، وجاء نصر الله والفتح ، ودخل الناس في دين الله أفواجًا .

نسأل الله أن يعيننا على الصبر والثبات ، وأن يجعلنا من حملة هذه الدعوة ، إنه ولي ذلك والقادر عليه .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

عم

تفسير جزء

سورة الأعلى

سُورَةُ الأَعْلَى

أحمدك ربي على فضائل ذاتك، وعظائم نعمائك، وأصلي وأسلم على قمة اصطفائك، ومسك ختامك، سيدنا محمد ﷺ وبعد . .

فمع **سورة الأعلى** ، تلك السورة التي جاء موضعها من الكتاب بعد **سورة الطارق** ، والتي تعرضت – فيما تعرضت له إلى قضية الخلق – وهي الإيجاد من العدم – حيث قال الحق ﷻ : ﴿ فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴾[1] ، ثم تعرضت بعد ذلك إلى القيومية التي تمد ذلك الموجود من العدم بما يبقي عليه حياته من مادة حياته ، فقال الحق ﷻ : ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ * وَالأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴾[2].

ثم جاءت **سورة الأعلى** بعد أن تعرضت **سورة الطارق** لهاتين القضيتين ، فشرحت القضية الأولى شرحًا أوسع وأوفى ، وشرحت القضية الثانية أيضًا بصورة وافية .

وإذا ما استعرضنا هذه السورة جملة وجدنا – بداية – أن اسمها هو : " **الأعلى** " ؛ لأن كلمة الأعلى وردت فيها كحيثية من حيثيات الأمر بتسبيح الله ﷻ : ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ﴾ ، فسميت السورة بذلك الاسم .

وهذه السورة هي حبيبة رسول الله ﷺ ، وهي أحب المسبحات إليه ، كما روي عن علي رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ يحب هذه السورة : ﴿ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ﴾[3] .

---

1 – سورة : الطارق ، الآية : 5 ، 7 .

2 – سورة : الطارق ، الآية : 11 ، 12 .

3 – أخرجه أحمد في المسند (2 / 210) ، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (4542) .

والمسبحات هي السور التي ابتدأت بما يُشتق من التسبيح ، مثل : ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ ﴾ ، و ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ ﴾ ، و ﴿ سَبِّحْ ﴾ ... وهكذا ، فهي أفضل هذه المسبحات .

لذلك كان رسول الله ﷺ يحرص دائمًا على أن يقرأها في صلاة الجمعة ، وفي صلاة العيد ، حتى لو اجتمعت الجمعة مع العيد قرأها في العيد صباحًا ، ثم قرأها في الظهر زوالاً ، كما روى **حبيب بن سالم** مولى **النعمان بن بشير** عن **النعمان بن بشير** قال : " كان رسول الله ﷺ يقرأ في العيدين وفي الجمعة بـ : ﴿ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ﴾ ، و ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴾ .. قال وإذا اجتمع العيد والجمعة في يوم واحد يقرأ بهما أيضًا في الصلاتين "[1].

وهذا مما يدل على أن رسول الله ﷺ كان له فيها ملاحظ تؤنسه ، فما هذه الملاحظ التي تؤنس رسول الله ﷺ ؟!

أول ملحظ : أن رسول الله ﷺ – وهو أميٌّ في أمة أمية – ينزل عليه الوحي فيقول له : ﴿ اقْرَأْ ﴾[2]، وذلك أمر العالِم ، ورسول الله ببشريته الأمية يجيب جوابًا طبيعيًّا ، فيقول : " **ما أنا بقارئ** " ، فيُصِر الوحي قائلاً : " **اقرأ** " ، فيصر رسول الله ﷺ : " **ما أنا بقارئ** " . فيقول له الوحي – بعد ذلك : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾[3].

إذن فهناك حوار بين أمر ، وبين عجز عن أداء ذلك الأمر .

الأمر منطقي ؛ لأنه صادر من أعلى ، والنفي من رسول الله ﷺ منطقي ؛ لأنه صادر من بشر لا وسائل عنده للقراءة ، لم يرتَضْ عليها ، ولم يتعلمها ، ولم يجلس إلى المعلم ، فكيف يؤدي مدلول هذا الأمر ؟!!

---

1 - أخرجه مسلم (1452) .

2 - سورة : العلق ، الآية : 1 .

3 - أخرجه البخاري (3) ، ومسلم (231) من طريق أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها .

إذن فقول رسول الله : " **ما أنا بقارئ** " .. كلام منطقي مع قانون بشريته ، والكلام الأعلى في : ﴿ **اقْرَأْ** ﴾ كلام منطقي مع قدرة من يأمر .

وهنا تبدو ذاتيتان : ذاتية آمرة جازمة ، وذاتية ممتنعة نافية .

وهذا يدلنا على أن الرد على من يقول : إن القرآن إنما كان خواطر **محمد** ، أو صفائية إشراقية في نفسه وهو الآمر .

قلنا : لو كان هو الآمر لما كان هو الممتنع ؛ لأنه كيف يجتمع منه أمر وامتناع ؟! فلو كان الأمر منه لما كان هناك امتناع .

إذن فهنا تأكيد على أن هناك ذاتين : ذاتًا أعلى ، وذاتًا بشرية ، فالذات الأعلى تأمر بما عندها من الاقتدار ، والذات البشرية تنفي بما عندها من العجز .

إذن فالموقف موقف صدق من الآمر ومن الممتنع .

حين ذلك ما الذي ينهي هذا النزاع : أمر من أعلى بجزم ، ونفي من أدنى ؟ ما الذي يخرجنا من هذا الأمر ؟

لا يخرجنا موقف الضعيف ، وإنما يخرجنا منطق القوي ، لماذا ؟!

لأن القوي في قدرته أن يفيض على الضعيف بما يجعله يؤدي مدلول هذا الأمر ، فقال : ﴿ **اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ** ﴾[1] ، وانظروا إلى أفعل التفضيل في كلمة : ﴿ **الأَكْرَمُ** ﴾ ، ﴿ **الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ** ﴾[2] ، فإذا كان الإنسان لا يقرأ إلا بما تعلّم ، فمن علم أول قارئ ؟!

إذن فلابد وأن تنتهي المسألة إلى أن أول قارئ لم يكن مُعلَّمًا من مثله ، بل معلمٌ من أعلى منه ، وما دام معلمًا من أعلى منه فلماذا تنفي ؟!

---

1 - سورة : العلق ، الآية : 3 .

2 - سورة : العلق ، الآية : 4 ، 5 .

أنا لا آمرك أن تقرأ برياضتك للقراءة ، ولا آمرك أن تقرأ لأنك تعلمت ، وإنما آمرك أن تقرأ لأني أردت لك أن تقرأ ، وأنت لن تقرأ باسم ما تعلمت ، أو باسم ما ارتضت ، وإنما تقرأ ﴿ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾[1] .

ثم يعطي الحيثية القوية فيقول : ﴿ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ﴾ ، و ﴿ الأَكْرَمُ ﴾ أفعل تفضيل من كريم ، فإذا كان الكريم ﷻ قد أمد خلقه بالأسباب التي توصلهم إلى أن يتعلموا ويتواضعوا على رسم الأصوات بحروف تُقرأ ، تلك صفة الكريم وهبت لجميع الخلق .

فما هو مدلول الأكرم ؟

الأكرم : هو أن يجعلك تتعلم وإن لم تتلقَّ ذلك .

نحن نعرف في السيرة كيف أجهد الوحي رسول الله ﷺ ، وكيف كان يقول ﷺ بعد أول لقاء له بالوحي : " **زمّلوني .. زمّلوني ... دثروني .. دثروني** " ، وكيف قال في أول اتصال الوحي به : " فغطني حتى بلغ مني الجهد "[2] ، وكما تروي **أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها** كيف كان الوحي به : " ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقًا "[3] ، كل هذه ظواهر مادية ، هذه الظواهر المادية لابد أن يكون فيها إجهاد مادي ، وما دام فيها إجهاد مادي لابد أن يكون هناك – كما سبق أن قلنا – تحولات كيماوية في ذاتيته البشرية ﷺ ؛ لأن ملكًا أعلى سيلتقي ببشر ، فلا مفر من أحد أمرين :

الأمر الأول : إما أن ينتقل الملك من ملكيته إلى بشرية تساوي بشرية الرسول فيتكلم معه ، وحينئذ لا يكون عند البشر مجهود ؛ لأن العملية صارت من الملك ، وتمثل له بشرًا فكلمه ،

---

1 – سورة : العلق ، الآية : 1 .

2 – أخرجه البخاري (3 ، 2999) ومواضع عدة ، ومسلم (231 ، 232) عن عائشة وجابر بن عبد الله رضي الله عنهم أجمعين .

3 – أخرجه البخاري (2) عن عائشة رضي الله عنها .

فهو لا يزال على طبيعته البشرية .

وإما أن يكون **الأمر الثاني** : وهو أن يحصل التحـــول منه ﷺ ، فتصفو نفســـه ، وتهتز بشريته ؛ حتى يمكن أن تلتقي البشرية بالملكية ، وذلك هو أشق أنواع الوحي على رسول الله ﷺ ، وإن كان هذا هو أشق ألوان الوحـي على رسـول الله ﷺ إلا أنه هو آكد الوسـائل في صدق بلاغه عن الله ﷻ ؛ لأن الملك إذا تمثل بشـرًا ربما يكون ظن أن هناك بشـرًا أعلى من بشـريته يكلمه ويخاطبه وينقـل له ما ينقـل ، فليس في ذاتيته ﷺ دليل الاتصال الخارجي إذًا ، أما أن يحدث في تكوينه شيء فترتجف بوادره ، ويتفصد جبـينه عرقًا ، ويحصل له ما يحصل فهذا أمر ذاتي فيه .

فحينما يأتي له علم من هذا الطريق فيعرف أن ذلك العلم عن طريق غير عادي ، فيثبت فيه ما يملى على رسول الله ﷺ ، ومعه دليله أن ذلك ليس أمرًا عاديًا ، لا ببشر ولا بـكلام من وراء حجاب .

ولذلك فإذا قـرأنا قـول الحق ﷻ : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ﴾[1] .. وجدنا أن وسائل اتصال الحق بالخلق ثلاثة : **الوحي الإلهي ، أو الكلام مباشرة من وراء حجاب ، أو بإرســـال رســـول من الملائكة** .

والوحـــي : هو إلهام يقـذفه الله ﷻ في قـلب الموحـى إليه ، كما قـال النبي ﷺ : " **وإن الروح الأمين نفث في روعي أنه ليس من نفس تموت حتى تستوفي رزقـــها ، فاتقـــوا الله وأجملوا في الطلب ، ولا يحملكم استبطاء الرزق على أن تطلبوه بمعاصي الله ، فإنه لا يُنال ما عنده إلا بطاعته** "[2] .

---

1 - سورة : الشورى ، الآية : 51 .

2 - أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (8 / 129) ، والبيهقي في الشُعب (9989) ، عن عبد الله بن مسعود .

والفرق بين الوحي وبين أي خاطر بشري أن الذي يُنفَث في روعه يكون مع النفث في الروع دليل صدقه وأنه من الله ﷻ ، لا يُشك فيه ، كما قال الحق ﷻ عن أم موسى عليه السلام : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلاَ تَخَافِي وَلاَ تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾[1] .. فهل امتثلت أم موسى أم لم تمتثل ؟ لقد امتثلت .

فأروني امرأة خافت على وليدها وشعرت أنها يجب أن تلقي به في البحر لينجو وفعلت ذلك ! !

أي منطق هذا ! ! فلو لم يكن قد ألقي في نفسها أن هذا الخاطر ليس خاطرًا بشريًا ولا شيطانيًا ، وإنما هو خاطر من الله ﷻ ما انصاعت إلى تنفيذ الأمر المخالف للفطرة البشرية .

وإلا فكيف تنجيه من موت مظنون إلى موت محقق ، فمن الجائز أنها إذا لم تلقِه في البحر أن لا يقتله جنود فرعون ، أو أن فرعون يلغي أمره ، أو تستطيع أن تخفيه في أي مكان عند بحثهم عنه ، فكيف تنقذه من موت مظنون وتلقي به في البحر ، وهو موت محقق ، لو لم يكن مع ذلك الوحي ما يدل على أنه من عند الله ، ويطمئنها الطمأنة البشرية : ﴿ وَلاَ تَخَافِي ﴾ .. في أمر يأتي مستقبلاً ، ﴿ وَلاَ تَحْزَنِي ﴾ .. على أمر يفوتك ماضيًا ، وهو أنك ستلقينه ، ﴿ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ ، أي أن نجاته عليه السلام ليس لأمر يهمك أنت فحسب ، ولكن نجاته أمر يهمني أنا ؛ لأن له عندي مهمة ، وما دام له عندي مهمة وسأرسله رسولاً فأنا الذي سأحافظ عليه ، ولذلك سألقي أوامري إلى كائن من خلقي ، وهو البحر .. ﴿ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ ﴾[2] عندما قال لها : اقذفيه في التابوت ، أمر البحر كذلك أن ألقه بالساحل .. ﴿ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ ﴾ أمر باللام .

---

1 - سورة : القصص ، الآية : 7 .

2 - سورة : طه ، الآية : 39 .

إذًا .. ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا ﴾ .. هذه هي الطريقة الأولى .

﴿ أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ﴾ .. كما كلّم الحق ﷻ موسى عليه السلام من وراء حجاب .

﴿ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ﴾ .. ﴿ يُرْسِلَ رَسُولاً ﴾ وهو وصف للوحي .. ﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ ﴾[1] .. اصطفى من الملائكة رسولاً قمة ، واصطفى من البشر رسولاً قمة ، فالقمتان تلتقيان ، حين تلتقي القمتان – قمة الاصطفاء الملكية وقمة الاصطفاء البشرية – لابد أن يحدث تحويل في واحد منهما ؛ لأنه غير ممكن الالتقاء بينهما ما دام كل منهما لا يزال على طبيعته .

ثم لما أُجهد رسول الله ﷺ بذلك الأمر الجديد عليه أراد الحق ﷻ أن يطمئنه على شيئين : على أن المسألة لن تكون هكذا باستمرار ، ولكنا سنرفع ذلك الحِمل الذي تتكلفه ماديتك وتكون متعبًا بسببه ، فبعد أن قال : ﴿ وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ﴾[2] .. قال له : ﴿ وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولَى ﴾[3] .. سيكون في ذلك خفة لك ؛ ولذلك ما اشتكى رسول الله ﷺ من الوحي بعدها ؛ لأنه قد ربيت فيه طاقة الشوق إلى الوحي ، وتربية طاقة الشوق للأمر الشاق تُهَوِّن المشقة ، وتجعل الإنسان لا يشعر بها ، فإذا ما عرض إنسان على إنسان أمرًا شاقًّا ، ثم رأى ثمرة ذلك الأمر الشاق حلوة بعد ما يهدأ وبعد ما يرتاح ، ذهب التعب وبقيت حلاوة ما أوحي إليه ، هذه الحلاوة تجعله يشتاق إن غاب عنه الوحي ، ساعة ما يشتاق وجدت في نفسه الطاقة الإقبالية ، وعندما توجد في نفسه الطاقة الإقبالية والشوق يجعله لا يشعر بالمتاعب بعد ذلك .

وبعد ذلك فكما أن الرسول ﷺ كان أميًّا لا يعرف القراءة فهو في هذه السورة سمع : ﴿ سَنُقْرِئُكَ ﴾ ، وبعد ذلك قال له : ﴿ فَلاَ تَنْسَى ﴾ ، فالرسول ﷺ لم يشتهر عنه أنه راوية

---

1 – سورة : الحج ، الآية : 75 .

2 – سورة : الضحى ، الآية : 1 : 3 .

3 – سورة : الضحى ، الآية : 4 .

للأخبار ، ولا راوية للشعر ، ولا نسابة أو حافظ للأنساب ، أي : لم يعتد ذهنه على أن يتلقى معلومات ثم يسردها كالحافظة عن غيب ، فعندما يوحي إليه ويجعله يقرأ إنما يقرأ عليه النجم الواحد ، وهو الجزء أو القسم من القرآن ، وقد يطول ذلك النجم أو يقصر ، بحسب الواقعة التي نزل بشأنها .

فقال ﷻ طمأنة لنبيه ﷺ : ﴿ سَنُقْرِئُكَ ﴾ هذه واحدة ، ﴿ فَلا تَنْسَى ﴾ بشرى ثانية .

وهذه هي أول حيثية جعلت السورة حبيبة لرسول الله ﷺ .

ثم بعد ذلك قال له : أنت تتلقى فتقرأ ، وبعد ذلك تنقل : ﴿ فَلا تَنْسَى ﴾ .. فلا تريد أن تنسى ، وبعدها تريد أن تطبق ، فعندما تطبق ، أي : تُخرج الكلام المبدئي النظري والقضايا المطلوبة منك إلى حيز السلوك ، فسيكون هناك مشقة إخضاع حركة حياتك لمنطق المنهج ، فقال له : لا تخفْ من هذه : ﴿ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى ﴾ .. سنيسر لك الأمور .

فإذا ما استقر لك الإقراء وعدم النسيان ، لتبلغ الناس ، وتيسير تطبيق السلوك ، إذن فعليك أن تنقل ذلك الإشراق والنور إلى غيرك ، ولا تظن أبدًا أن الناس كلهم سيكون على قلوبهم ختم ، فإنه ما من ذكرى إلا وهي نافعة ، وإن لم تنفع الكل تنفع البعض فقال له : ﴿ فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى * سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى ﴾ .. وهذه طمأنة .. ﴿ وَيَتَجَنَّبُهَا الأَشْقَى * الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى * ثُمَّ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَى ﴾ .

وبعد ذلك يكر على من سمع الذكرى فيقول : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى * وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى * بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ .

ثم بعد ذلك يختمها بمبدأ عام ، وهو أن ما أتيت به من أصول ذلك الدين والتكليف أمر موجود مع الوجود منذ الأزل ، أي : أنت لم تخرج بذلك الأمر الجديد عليك عما جاء أولاً من رسالات : ﴿ إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَى * صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴾ ، إذن فتلك هي حيثيات حبه ﷺ لهذه السورة .

سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ﴿٥﴾

﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ﴾ .. ننتقل إلى فقه السورة ، فنجدها قد بدأت بأمر هو : ﴿ سَبِّحْ ﴾ ، ومعناها : طلب المتكلم ، وهو الحق ﷻ ، من المخاطَب أساسًا ، وهو رسول الله ﷺ ، ومن كل من يتبعه أن يقوم بالتسبيح .

والتسبيح : هو التنزيه ، والتنزيه : أن يكون شيء ثم يوجد له نظير في الشكل أو في الجملة ، فتتوهم أن هذا قد يساوي ذاك ، فنقول : كلا ، بل إن هذا ليس من هذه الطبيعة .

أي أن لله ﷻ وجودًا ، ولخلقه وجودًا ، ولكن نزِّه وجود الله ﷻ عن وجود الناس ؛ لأن وجود الناس عن عدم ، وإلى عدم ، ولكن وجود الحق ﷻ لا عن عدم ، ولا إلى عدم .

فصفة الوجود قدر مشترك ، إلا أنك لابد أن تنزه الحق ﷻ إن وجد وصف في مخلوقاته يساوي وصفه في شكلية اللفظ .

فالتسبيح معناه : التنزيه ، يعني : أمرني ربي أن أنزهه ﷻ .

لكن يلاحظ أن الحق ﷻ قال : ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ﴾ ، وحين نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ : " **اجعلوها في سجودكم** "[1] ؛ ولذلك نقول في سجودنا : " **سبحان ربي الأعلى** " .

ولو كان على منطق المطلوب لقال رسول الله ﷺ : قولوا : " **سبحان اسم ربي الأعلى** " ، إلا أن القرآن لما قال : ﴿ سَبِّحِ اسْمَ ﴾ قال الرسول ﷺ : " **سبحان ربي** " .

---

1 - أخرجه أبو داود (736) ، وابن ماجه (877) ، وأحمد (16773) من طريق عقبة بن عامر الجهني .

وأيضًا فالآية نفسها .. ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ﴾ جاء فيها بالحيثية ؛ فالحيثية الأولى أنه أعلى .

ومعنى التنزيه : أن تنزه الأعلى أن يكون مثل الأدنى ، فهو **أعلى** ، وليس **عاليًا** ؛ لأن " عالٍ " وصف من خلقه ، أي : يوصف به بعض خلقه ، يقول الحق ﷻ **لإبليس** حين امتنع عن السجود **لآدم** عليه السلام : ﴿ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴾[1] ، وكأن الملائكة كانوا مقسمين إلى قسمين : قسم له علاقة بذلك الخليفة في الكون من حفظة ، ومن رقيب ، ومن عتيد ، ومن الملائكة الموكلين بتدبير الكثير من الأمور ، هؤلاء لهم علاقة بهذا المخلوق وهو آدم عليه السلام ، فإذا كان الله ﷻ قد أمر الملائكة بالسجود **لآدم** فإنه إنما أمر الملائكة الذين لهم علاقة بهذا المخلوق يدبرون أمره : أمر النواميس .. أمر الكون .

وهناك ملائكة لا يدرون مَن آدم ولا يعرفون عنه شيئًا وهم : المهيّمون في الله ، الذين لا يعرفون إلا الله ﷻ ، فليس عندهم معلومات أخرى ، فقال له : أستكبرت عن الأمر ، أم أنك حسبت نفسك من العالين الذين لم يشملهم الأمر ؟!

إذن فكلمة : " عالٍ " أطلقها الله ﷻ على بعض خلقه ، ولكن عندما يقول : ﴿ **الأَعْلَى** ﴾ يكون قد أحدث التمايز المطلوب .

﴿ **الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى** ﴾ .. حيثية الأعلى ، لماذا كان أعلى ؟ لأنه خلق ، وما دام قد خلق فهو أعلى من المخلوق ؛ لأن المخلوق انفعال للقدرة الخالقة ، وما دام منفعلاً للقدرة الخالقة إيجادًا ينفعل لها إعدامًا ، إذن ﴿ **الَّذِي خَلَقَ** ﴾ حيثية للأعلى .

ولم يخلق فقط فأوجد من عدم على أية صورة ، بل ﴿ **خَلَقَ فَسَوَّى** ﴾ ، كما يفسره قول الحق ﷻ : ﴿ **مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ** ﴾[2] .

---

1 - سورة : ص ، الآية : 75 .

2 - سورة : الملك ، الآية : 3 .

﴿ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴾ .. يشرح الحق ﷻ بعد ذلك هذه التسوية فيقول : ﴿ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴾[1] ، أي : ﴿ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً ﴾[2] أي : جنسًا ونوعًا وتشخصًا وعمرًا ، وبعد ذلك هدى كل مقدور إلى ما قُدر إليه .

فإنك عندما تستقرئ الكون تجد العجب ؛ فالإنسان العاقل الذي سما بفكره في الكون ، والذي يجعل فكره يستنبط أشياء كثيرة ، وهو فاهم أنه تميز عن ذلك الكون ، نقول له : حتى تفهم أن المسألة ليست نتيجة عقلك ، فإن عقلك قد يدلك على كثير من الخطأ والبوار ؛ لأن عقلك سيصادمه شيء آخر وهو هواك ، **وآفة الرأي دائما الهوى** ، فالهوى يزين للإنسان أمرًا يجعله يلجأ إلى هذا الطريق ؛ لا لأن عقله قال هذا ، بل لأن الهوى أفسد عليه عقله .

فنقول له : انظر إلى المخلوقات التي ليس لها فكر ، لكي تعرف أنه عندما قدر هدى كل شيء ﷻ .

فمثلاً : جنس النبات يكون من بذرة ، والبذرة نبات بالقوة لا نبات بالفعل ، ومعنى نبات بالقوة : أنها صالحة لأن تكون نباتًا إن هيئت لها بيئتها ، فتبقى هكذا في مخزنها بذرة حتى تتهيأ لها البيئة من تربة خصبة وري وغير ذلك فتنبت ، فالحبة نبات بالقوة أي فيها قوة أن تكون نبتة ، وبعد ذلك تكون نبتة بالفعل إذا هيئت لها البيئة .

فانظر إلى التقدير ، فعندما تهتم بتلك الحبة بوضعها في التربة ، فتبدأ الفلقتان تتضخمان ثم يخرج بينهما الزباني التي تكوِّن الجذر ، وتأخذ الفلقتان تغذيان الجذر ، حتى يقوى الجذر ويكوِّن شعيرات تمتص من الأرض فتعطي له الغذاء ، وبعد ذلك يستمر الجذر في أخذ الغذاء من الفلقتين حتى ينتهيا فيتكون أول ورقتين .

إذن فالحبة نفسها فيها قوتها إلى أن يصبح لها قوت ذاتي ، وبعد ذلك عندما يكون لها شعيرات تبدأ بالامتصاص .

---

1 - سورة : الأعلى ، الآية : 3 .

2 - سورة : الطلاق ، الآية : 3 .

وعلماء النبات يتكلمون فيقولون : إن النبات يتغذى بخاصية الأنابيب الشعرية ، وهذا صحيح ؛ لأن هذه الأنابيب دقيقة جدًّا ، وقطرها ضيق جدًّا ، ولذلك تجد ضيق قطرها يجعل السائل يرتفع فيها عن منطقة الاستطراق مع أن السائل ضروري أن يستطرق ، وإن وسعت ينزل السائل ويستطرق ، وإن كانت شعرية يرتفع السائل إلى أعلى ؛ فالنبات يتغذى بقانون الاستطراق فعلاً .

مثال : سوف آتي بحوض وأضع فيه أنواعًا كثيرة من العناصر وأذيبها في الماء ، وبعد ذلك أحضر أنابيب شعرية وأضعها في الحوض ، وبعد ذلك أرى هذه الأنابيب ، فسأجد أنها تأخذ السائل بكل مكوناته الذائبة فيه ، ولكن هل هناك أنبوبة تأخذ عنصرًا وتترك عنصرًا ؟ كلا ، لا تجد ذلك أبدًا .

وعندما نرى الشعيرات نتذكر قول الله ﷻ : ﴿ وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ ﴾[1] ، وأتى بالماء لأنه المذيب للعناصر ، وبعد ذلك : ﴿ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ ﴾ ، ولكن كيف حدث هذا التميز ، وكيف تميِّزُ وتتعرف هذه الشعيرة على العنصر الذي هو غذاؤها وتدع العنصر الآخر ، فهل هناك أنبوبة شعرية تأخذ عنصرًا من السائل وتدع الآخر ؟! لا ، فهي تأخذه كله ؛ وذلك لأن الذي صنع الأنابيب لم يهدها بخلقته لكيلا تأخذ إلا ما تحتاجه ، لكن الحق ﷻ : ﴿ قَدَّرَ فَهَدَى ﴾ .

ثم يقولون : حدث هذا بخاصية الانتخاب الغذائي ! !

فنرد عليهم ونقول : وما هو معنى خاصية الانتخاب الغذائي ؟!

إنه لا يختلف عن خاصية الاختيار ، أي : ينتخب ما يريده ، وما دامت خاصية اختيار فلابد وأن يكون فيها ما ترجح به الاختيار ، لماذا اختارت هذا بالذات ، فتأخذ المختار وتدع

---

1 - سورة : الرعد ، الآية : 4 .

غير المختار ؟! فمن ألهمها هذه المسألة ؟!

ونحن نعلم أنها ليست عندها فكر من وجهة نظرنا نحن ، فالذي يعمل مثل هذا رغم حالته هذه فهو أحذق من الذي له فكر ؛ لأن الذي له فكر قد يكون هناك شيء ضار فيقول : أجربه ، أما هي فلا تفعله أبدًا ؛ فالإنسان مثلاً قد يشبع من الأكل ثم تصر عليه أن يأكل فيأكل ، ثم تصر فيأكل، وهكذا ، أما الحيوان فعندما يشبع فلا يأكل عود برسيم واحد زائد عن حاجته .

إذن فهو بغير فكره بما قدره الله ، وبما هداه إلى صالحه لا ينحاز إلى شيء غير ذلك .

إذن فتقدير الله ﷻ وهديه لمخلوقاته دون الإنسان ، وكأنه يقول له : الفكر الذي أنت تقول : إنك متميز به ، فأنا معطٍ لشيء ليس له فكر خواصًّا أنت لا تقدر عليها .

فالشجرة مثلاً إذا منعت عنها المياه فلم يعد هناك شيء يذيب العناصر ، فتقوم هي بطبيعتها فتستغني عن المهم قليلاً وتهتم بالأهم ، فتجعل الورق يذبل حتى تغذي الساق ، والفروع الصغيرة تذبل وتضحي بنفسها حتى يكبر الساق ، والساق يذبل حتى يغذي الجذر ، وما دام الجذر باقيًا سليمًا فمن الممكن عندما تأتيه المياه أن يبدأ في النمو ، فكل الشجرة بأوراقها وأزهارها وأغصانها الرفيعة كلها تخدم السيد ، والسيد هنا في النبات هو الجذر ، وليس القمة .

لكن في الإنسان السيد هو القمة .. هو العقل ، وما دام العقل صحيحًا وخلاياه لم يحدث لها شيء فكل شيء من الممكن أن يعوض .

لذلك ننظر لحكمة الحق ﷻ فيما لا يدخل تحت العقل ولا تحت عملية الفكر في الإنسان ، فنجد أن الحق ﷻ لا يحرم الإنسان أيضًا من معنى .. ﴿ قَدَّرَ فَهَدَى ﴾ بدون تدخله ؛ فالإنسان يرضع ثم تطرأ عليه فترة النمو ، فيكون الداخل له من الغذاء أكثر من الخارج منه من الفضلات ، فالداخل من الغذاء جاء حتى يعوض الحرارة التي خرجت جراء الحركة والطاقة .

زيادة على ذلك يقوم ببناء خلايا زائدة في الجسم ، لا تدخّل للإنسان فيها ، ولا يعرف عنها شيئًا ، كعمل الشحم وتضخم العضلات واللحم ، بحيث إذا امتنع عنه أسباب الحياة أو أسباب البقاء وهو الطعام فيجد أن : ﴿ **قَدَّرَ فَهَدَى** ﴾ تقوم بعملها ، والتي هي بعيدة عن فكرنا ، فيتغذى الجسم على الغذاء الذاتي الذي ليس لنا فيه دخل ، فيقوم الجسم ذاتيًّا بأخذ بعض الدهن الذي تركب عندنا والزائد عن حاجة الجسم ، ويبتدئ في تحليلها لنا حتى يصلح كغذاء ووقود .

ومن العجيب أن الدهون – وهي مادة واحدة – تتحول إلى كل عناصر الغذاء .

وهذا أيضًا من مشكلات العلم ، فمادة واحدة تتحول إلى كل العناصر المطلوبة للجسم ، وبعد ذلك ينتهي الدهن فيأخذ من اللحم ومن العضلات ، وبعد أن ينتهي ذلك فالمخ يريد أن يبقى ؛ لأنه هو السيد ، فيقوم العظم ويعطي له من الغذاء ، فيكون آخر مخزن للقوت الذاتي في الإنسان – الذي لا يعلم عنه شيئًا لا بفكره ولا باختياره ، بل بقانون ﴿ **قَدَّرَ فَهَدَى** ﴾ – هو العظام .

فنحن نلمح أن القرآن عندما يلمح إلى مثل هذا لا يقولها على أنها نظرية ، بل يقولها على أنها قضية كونية ، كقصة **سيدنا زكريا** الذي يقول : ﴿ **رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي** ﴾[1] ، أي أن آخر مخزن ذاتي عندي قد انتهى .

والعربي القديم تفطن إلى هذا فيقول : " **لقد مرت علينا سنة أذابت الشحم ، وسنة محت اللحم ، وسنة محّت العظم** " .

إذن فالعملية الذاتية هي التي تطرأ على الإنسان عندما يفوت ميعاد غذائه فيقول : لقد عفت نفسي عن الأكل ، فنقول له : لا ، بل أنت قد تغذيت عندما فات ميعاد أكلك الذي بفكرك وبإرادتك فابتدأ الجسم من قانون : ﴿ **قَدَّرَ فَهَدَى** ﴾ يعطي لك بعضًا من الشحم

---

1 – سورة : مريم ، الآية : 4 .

فيغذيك .

تدبـــر – مثلاً – في خلق الحيوان ، ولتطالع مثلاً كتاب : " **العلم يدعو إلى الإيمان** " وفيه صور كثيرة كهذه ، ورحم الله الشيخ **سيد قطب** ، فقد نقل في كتابـه : " **في ظلال القرآن** " فصولاً كاملة من كلام رئيس أكاديمية العلوم بنيويورك عن هذه الحالة في شرح قـول الحق ﷻ : ﴿ **قَدَّرَ فَهَدَى** ﴾ ، وطبعًا أنا لن أكرر ما قاله ، ومن أحب أن يرجع إليه فليرجع [1] .

فيقول مثلاً : إن ثعبان السمك من الأشياء المدهشة في العلم ، وثعابين السمك توجد في البرك والنهيرات والأنهار ، وبعد ذلك قـال : إنها لا تخصب إلا في بـرمودة في أمريكا ، فبـمجرد ما يصل الثعبان إلى سن المراهقة تجده يذهب إلى مكانه في برمودة في هذا المكان من العالم بـالذات دون سواه ، فيخصب ، وبعد أن يخصب يموت .

فالمهم هنا أنه كيف تمكن من أن يذهب إلى برمودة في الأمواج والمسافات الطويلة .

والأغرب أيضًا أنه عندما قاموا بـعمل نسبـة لسـمك الثعبـان الذي يعيش في نـهيرات وبـرك أوروبـا ، والذي يعيش في بـرك ونـهيرات نيويورك ، وجدوا أن الأولى التي تأخذ مسـافة أطول تعطى له طاقـــة أكثر من الثانية ، ولذلك فالعجيب أننا لم نجد ثعبـــانًا أمريكيًّا في المياه الأوروبية ، ولا ثعبانًا أوربيًّا في مياه أمريكية ، وكلاهما لا يُتم التخصيب إلا في برمودة .

ثم بعد ذلك هذا الصغير الذي يفقـس هناك كيف يرجع إلى موطنه الخاص بأبـيه الذي مات بعد التخصيب ولا يخطئ أبدًا ، فذلك أيضًا بقانون : ﴿ **قَدَّرَ فَهَدَى** ﴾ .

وقد ذكر أيضًا أمثلة عن السلمون ، وعن النحل ، وعن النمل .

فعندما تنظر – مثلاً – إلى خلية النحـل تجد أنها تخضع لأدق مقـاييس الهندســة ، فنجد كل أضلاع الغرفة الواحدة متساوية في الطول والعرض والارتفاع والشـكل مع الغرفة الأخرى ، وكل غرفة مخصوصة لها شـكل مختلف ، فالعَمَلة لهم حـجرة بشـكل كذا ، والذُّكْرَان الذين

---

1 – انظر " في ظلال القرآن " لسيد قطب (6 / 3884 - 3886) .

يلقحون الملكة لهم حجرة بشكل معين ، والملكة أيضًا لها غرفة بشكل معين ، وإذا نظرنا إلى تلك الإفرازات نجد أنها تفرز شيئًا يغذي الملكة فقط ، وغيره من المسائل العجيبة في خلايا النحل .

وفي النمل أيضًا لو أتيت بتمرة أو قطعة من اللحم ورميتها ، فلابد من وجود نمل بعد مدة ، فمن الذي أخبره ؟! وتجد أنه تأتي نملة أو اثنتان أو ثلاثة فقط ، لا يزيدون ، فيحومون حول تلك القطعة ، ثم يتركونها ويذهبون ، وبعد مدة تلتفت فتجد عددًا من النمل ، جاء هذا العدد الذي يستطيع حمل هذه القطعة لا أقل ولا أكثر ، فكيف قدروا وزنها ؟!

وحتى تتأكد من صدق هذه النظرية ضع جرامًا من اللحم – مثلاً – وانظر كم نملة ستأتي لتحملها ، وبعد ذلك قلل الوزن إلى النصف وانظر كم نملة ستأتي لتحملها ، فتجد أنهم في الحالة الثانية نصف ما في الحالة الأولى .

فهذا شيء عجيب ومن أعجب ما يكون ، وهذا من قانون ﴿ قَدَّرَ فَهَدَى ﴾ ، فربنا ﷻ يقول لذلك الإنسان المتعالي : إن عقلك هذا دون ما ليس له عقل ؛ لأنني أعطيت من لايملك العقل قوانين تحكمه وتسيره ، فإن ما يبعد الإنسان عن السماء هو غروره بعقله .

إن الهدهد هو الطائر الذي غذاؤه ليس من على سطح الأرض أبدًا ، فغذاؤه لابد أن يكون من تحت الأرض ، فكيف يتنبه إلى أن هنا غذاء فينقر الأرض ويأتي بالغذاء ؟!

ولذلك تجد العجب في عرض القرآن لهذه القضية ، فعندما قال نبي الله سليمان عليه السلام : ﴿ مَا لِيَ لاَ أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ * لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ ﴾[1] ، فهذا كلام ملك ، ثم كلام النبوة : ﴿ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ .. مُلك ولكن بعدالة النبوة .

فيأتيه الهدهد ويقول له : ﴿ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَأٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ * إِنِّي

1 - سورة : النمل ، الآية : 20 ، 21 .

وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾[1].. هذا الكلام كله في المُلك ؛ لأنه لا يخاطب ملكًا فقط ، بل ملكًا نبيًّا فيقول له : ﴿ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾[2] ، فلابد وأن يتحدث من الجهتين الخاصتين بـ سليمان عليه السلام : جهة المُلك ، وجهة النبوة ، فجهة الملك : ﴿ إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ ، وجهة النبوة : ﴿ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لاَ يَهْتَدُونَ ﴾ .

ثم انظر إلى دقة الأداء البياني : ﴿ أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾[3] ، فلماذا لم يلتفت الهدهد إلى شيء من القدرة إلا ﴿ يُخْرِجُ الْخَبْءَ ﴾ ؟!

لأن قوت حياته ومقوماتها من الخبء ، فأتى بالملحظ الذي مسه ، وأتى بالحيثية ﴿ أَلاَ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ .

يلفتنا من هذا إلى أن الإنسان حين يتجه إلى الحق سبحانه وتعالى يجب إن لم يتجه إليه لفضائل ذاته فليتوجه إليه لفواضل إنعامه ، أي : إذا لم تكن الذات تستحق يكفيك أن تتجه للنعم التي تفضل بها عليك .

إذن فذلك كله من قانون ﴿ قَدَّرَ فَهَدَى ﴾ .

والطيور التي تهاجر من الشمال إلى الجنوب ، وبعد ذلك لا تضل مسارها الطويل إلى أن تعود .

والفراشة التي تدخل عندك في الحجرة ، ثم بعدما تمكث مدة في الحجرة نجد أن الذكر يأتيها ، فإن وجد النافذة مفتوحة يدخل ، وإن لم يجدها مفتوحة يحوم حول الحجرة ، فهذا رادار جديد .

---

1 - سورة : النمل ، الآية : 22 ، 23 .

2 - سورة : النمل ، الآية : 24 .

3 - سورة : النمل ، الآية : 25 .

وفي أعشاش النمل نجد أشياء بيضاء صغيرة كثيرة كالسمسمة ، والناس كانوا يتعجبون ، وعندما قام العلماء بتحليلها وجدوا أن هذه الأشياء الصغيرة هي الزبانى الموجودة في الحب ، فلا يترك النمل أبدًا حبة بزبانها ، لماذا ؟!

لأنه عرضة للرطوبة ؛ مما يجعل الحبوب قد تنمو فتدمر له العش كله ، فيقوم النمل بنزعها وإخراجها خارج العش .

هذه المسألة كذلك من باب ﴿ قَدَّرَ فَهَدَى ﴾ .

فهنا قال الحق ﷻ : ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ﴾ .. أي : يا **محمد** عليك أن تسبِّح ، وأن تنقل الطلب إلى أمتك ليسبحوا الله الأعلى بحيثياته ﴿ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ﴾ .

والتسبيح ورد في كتاب الله بصور شتى :

فورد بلفظ : ﴿ سُبْحَانَ ﴾ كما في أول سورة الإسراء : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى ﴾[1] ، و﴿ سُبْحَانَ ﴾ هو تنزيه الله لنفسه ، إي أن الله منزه نفسه قديمًا قبل أن يخلق خلقًا يطلب منه أن ينزهه ، كما قال في الوحدانية : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَ هُوَ ﴾[2] .

إذن فالحق ﷻ بقوله : ﴿ سُبْحَانَ ﴾ لم يطلب من أحد التنزيه ، وكأن التنزيه ثابت لله قبل أن يخلق خلقًا يأمرهم بأن ينزهوه ، وما دام التنزيه ثابتًا لله فإن تنزيهنا لله لم يُوجِدْ التنزيه ، فهو موجود له ﷻ ، إذن فالفائدة ليست على المنزَّه ، بل الفائدة عائدة إلى المنزِّه .

ونجد كذلك لفظ : ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ ﴾ بصيغة الماضي : ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ﴾[3] ، و﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾[4] ؛ لتعلم أن التسبيح ثابت قبل أن يُخلق المسبِّح ، ولما خُلق المسبِّح سَبَّحَ .

---

1 - سورة : الإسراء ، الآية : 1 .

2 - سورة : آل عمران ، الآية : 18 .

3 - سورة : الحشر ، الآية : 1 .

4 - سورة : الحديد ، الآية : 1 .

وهل سبح مرة وانقطع عن التسبيح ؟

كلا ، بل .. ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ﴾ [1].

إذن فيا أيها الإنسان الذي تريد أن تعيش في منهج ربك ، لا تشذ عن نغم الوجود في التسبيح ؛ حتى لا تكون شاذًّا ؛ كي لا تكون الحيثية التي أعطيت لك – وهي الزيادة في الفكر – عائقًا لك عن أن تكون مع من هو أدنى منك ، فلا تكن نغمة شاذة في ذلك الوجود ، فالوجود كله مسبِّح .

ولذلك يقول الحق ﷻ : ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لاَ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ [2]، ونحن نفهم التسبيح في لغتنا على أنه صوت ، ولكن الأداء لا يشترط فيه الصوت ؛ لأنك قد تؤدي أداء بدون صوت وبدون حركة ، فمثلاً بالنظرة قد تؤدي أداء ؛ فحينما تنظر لابنك مثلاً أو للخادم فإنه يفهم ما تريد .

إذن فالأداء الدال لا يشترط فيه أن يكون أداء صوتيًّا ، وذلك عندما يكون هناك أداء صوتي من فصيلة اللغات ، ثم رأيت قومًا يتكلمون لغة غير لغتك ، أتفهم عنهم ؟!

إذن فالصوت في ذاته لا يفهم إلا بالاتفاق على وضع ذلك المعنى ، فما دمت لم تفهم المعنى المراد فيستوي عندك أن يوجد صوت أو لا يوجد ، فإذا كنت تفهم أن الدلالات لا تأتي إلا بالأصوات فأنت مخطئ ، بل لكل جنس لغته التي يتفاهم بها ، ولغته التي يسبح بها ، وإن كنت لا تعرف ذلك فليس بدعًا ؛ لأنك تسمع أصواتًا هي شريكة أصواتك اللغوية في مخارجها ، ولكن مؤداها الوضعي لا تفهم منه شيئًا .

إذن فالله يُعلِّم كل جنس اللغة التي يتفاهم بها في صالح ذاته ، واللغة التي يسبحه بها .

فإذا ما قرأنا قول الحق ﷻ : ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ ﴾ [3].. لا نقول : إن

---

1 – سورة : الجمعة ، الآية : 1 .

2 – سورة : الإسراء ، الآية : 44 .

3 – سورة : الأنبياء ، الآية : 79 .

هذا التسبيح تسبيح دلالة ؛ لأن بعضهم يقول : التسبيح تسبيح الدلالة على الخالق ، إذن فقد فهمته ؛ لأنك قلت : هو تسبيح دلالة ، وهذا دليل على فهمك ، فالذي خلقك وخلقها وعلمها وعلمك قال : ﴿ وَلَكِنْ لاَ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ ، فلابد أنه ليس تسبيح دلالة فقط ، بل تسبيح أدائي : ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ ﴾[1] ، ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ ﴾[2] ، ومعنى ﴿ أَوِّبِي مَعَهُ ﴾ .. أي : أوبي إلى الله معه ، فالجبال مع غير داود مئوبة أيضًا ولكن ميزة داود أن الحق ﷻ أفهمه لغة ذلك الجماد فجعل تسبيحه يوافق تسبيح الجماد ؛ وكأنه فريق تسبيح يتناغم مع بعضه البعض .. ﴿ يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ ﴾ .

ثم يأتينا الحق ﷻ بصورة ثانية : سيدنا سليمان عليه السلام مع النملة : ﴿ حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾[3] .. فهذه النملة متعلمة قانون صيانة جماعتها .. ﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ ﴾[4] .. فكان معنى شكر النعمة هنا أن علمه منطق هذه الأشياء .

وفي قصة الهدهد – وهي مسألة عقدية – نجد أن الذي حز في نفس الهدهد يدل عليه قوله : ﴿ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ ، وكأن الهدهد يعرف القضية العقدية الأصيلة ، وأنه ينبغي ألا يسجد أحد إلا لله ﷻ .

إذن فالمهم أن نفهم لغة ذلك التسبيح ، ولذلك عندما يقول أحد : إن الحصى قد سبَّح في يد رسول الله ﷺ ، نقول له : لا تقل ذلك ، بل قل : سُمع تسبيح الحصى في يد رسول الله ﷺ ،

1 – سورة : الأنبياء ، الآية : 79 .

2 – سورة : سبأ ، الآية : 10 .

3 – سورة : النمل ، الآية : 18 .

4 – سورة : النمل ، الآية : 19 .

وإلا فالحصى يسبح أيضًا في يد الكافر ، كما ورد عن أبي ذر رضي الله عنه قال : " كنا عند النبي فأخذ حصيات فسبحن في يده ، ثم وضعهن فخرسن ، ثم أخذهن فسبحن في يده " .. فتكون الميزة هي سماع تسبيح الحصى في يد رسول الله ﷺ [1] .

وعن سهل بن معاذ عن أبيه عن رسول الله ﷺ أنه مر على قوم وهم وقوف على دواب لهم ورواحل ، فقال : " اركبوها سالمة ، ودعوها سالمة ، ولا تتخذوها كراسي لأحاديثكم في الطرق والأسواق ، فرب مركوبة خير من راكبها وأكثر ذكرًا لله تعالى منه " [2] .

فالكون كله بأجناس وجوده مسبِّح للحق تعالى ، والذي يفيء الله عليه ببعض فضله يسمع ذلك التسبيح ، ويفهم لغة ذلك التسبيح .

إذن فقول الحق تعالى في استهلال السورة : ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ﴾ ، أي : يا محمد ، كن مع الوجود كله منسجمًا معه ، وأنا بعثتك لتعيد انسجام الإنسان مع ذلك الوجود ، فلا يصح أن تكون النعمة العليا التي خلقتها لك – وهي الفكر – سببًا صارفًا ، بل يجب أن تكون سببًا داعيًا ، ولا تجعل الإنسان يشذ عن ذلك الكون كله ، ويخرق ذلك النغم ، فإن الحق تعالى هو : ﴿ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ﴾ فتلك هي حيثيات الأعلى ، والأعلى حيثيات ﴿ سَبِّحْ ﴾ .

﴿ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى ﴾ .. يعني : أنبت الكلأ ، ويقال : هو العشب والحشيش وما أشبه .

﴿ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى ﴾ .. يعني : جعل المرعى يابسًا بعد خضرته ، وقيل : غثاء يعني يابسًا ، أحوى يعني أسود من قدمه واحتراقه .

---

1 - أخرجه الطبراني في الأوسط (4247) .

2 - أخرجه الإمام أحمد في "مسند المكيين" ، وصححه الألباني في "السلسلة الصحيحة" (1 / 29) إلا قوله : "فرب مركوبة خير من راكبها وأكثر ذكرًا لله منه" . فقال : "وهذه الزيادة ضعيفة" .

سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴿٧﴾ وَنُيَسِّرُكَ
لِلْيُسْرَىٰ ﴿٨﴾ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى
﴿١١﴾ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾

﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تَنسَى * إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾ .. يعني : سنعلمك القرآن ، وينزل عليك فلا تنسى إلا ما شاء الله ، يعني : قد شاء الله أن لا تنسى القرآن ، فلم ينسَ ﷺ القرآن بعد نزول هذه الآية عليه ، وكان النبي ﷺ يأخذ في قراءته قبل أن يفرغ **جبريل** عليه السلام مخافة أن ينساه .

ويقال : ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تَنسَى ﴾ .. يعني : سنحفظ عليك حتى لا تنسى شيئًا ، ويقال إن **جبريل** عليه السلام كان ينزل عليه في كل زمان ويقرأ عليه رسول الله ﷺ ويبين له ما نسخ ، فذلك قوله : ﴿ إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾ ، يعني : إلا ما شاء الله أن يرفعه وينسخه ويذهب من قلبك .

﴿ إِنَّهُ يَعْلَمُ الجَهْرَ وَمَا يَخْفَى ﴾ .. يعني : يعلم العلانية والسر ، ويقال : ما يجهر به الإمام في الفجر والمغرب والعشاء والجمعة ، وما يخفى يعني : في الظهر والعصر والسنن ، ويقال : ﴿ يَعْلَمُ ﴾ ما يظهر من أفعال العباد وأقوالهم ، ﴿ وَمَا يَخْفَى ﴾ من أقوالهم وأفعالهم ، ويقال : ﴿ يَعْلَمُ ﴾ ما عمل العباد ، ﴿ وَمَا يَخْفَى ﴾ يعني ما لم يعملوه وهم عاملوه .

﴿ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى ﴾ .. يعني : سنهوّن عليك حفظ القرآن وتبليغ الرسالة ، ويقال : يعني نعينك على الطاعة ، ويقال : ﴿ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى ﴾ .. أي : نهون عليك عمل أهل الجنة .

﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى ﴾ .. ﴿ فَذَكِّرْ ﴾ .. يعني : فعِظْ بالقرآن الناس ﴿ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى ﴾ .. يعني : إن نفعتهم العظة ، ومعناه : ما نفعت العظة بالقرآن إلا لمن يخشى ، ويقال : ﴿ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى ﴾ .. يعني إن قولك ودعوتك تنفع لكل قلب عاقل .

﴿ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَى ﴾ .. يعني : يتعظ بالقرآن من يخشى الله ﷻ ويسلم ، ويقال : معناه سيتعظ ويؤمن ويعمل صالحاً من يخشى قلبه من عذاب الله ﷻ .

﴿ وَيَتَجَنَّبُهَا الأَشْقَى ﴾ .. يعني : يتباعد عنها ، أي : عن عظتك ، و ﴿ الأَشْقَى ﴾ .. يعني : الشقي الذي وجب في علم الله ﷻ أنه سيدخل النار ، مثل **الوليد وأبي جهل** ومن كان مثل حالهما .

﴿ الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الكُبْرَى ﴾ .. يعني : يدخل يوم القيامة النار الكبرى ، أي : النار العظمى ؛ لأن نار الدنيا هي النار الصغرى ، ونار الآخرة هي النار الكبرى ، فعن **أنس بن مالك** رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : " **إن ناركم هذه جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم ، ولولا أنها أطفئت بالماء مرتين ما انتفعتم بها ، وإنها لتدعو الله ﷻ أن لا يعيدها فيها** "[1] .

وكما قال بعض الحكماء : علامة الشقاوة أشياء تسعة : " **كثرة الأكل ، وكثرة الشرب ، وكثرة النوم ، والإصرار على الذنب ، والغيبة ، وقساوة القلب ، وكثرة الذنوب ، ونسيان الموت ، ونسيان الوقوف بين يدي الملك** ﷻ " .. فهذا هو الشقي الذي يدخل النار الكبرى .

﴿ ثُمَّ لاَ يَمُوتُ فِيهَا وَلاَ يَحْيَى ﴾ .. يعني : لا يموت في النار فيستريح من عذابها ، ولا يحيا حياة تنفعه ، وقال القتبي : هو العذاب بحال من يموت ولا يموت .

---

1 - أخرجه ابن ماجه (4309) عن أنس رضي الله عنه ، وأخرجه أحمد (7025 ، 9811) ، والترمذي (2514) كلاهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾
وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى ﴾ .. يعني فاز ونجا من هذا العذاب وسعد بالجنة من تزكى ، أي : وحّد الله ﷻ وزكى نفسه بالتوحيد .

﴿ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴾ .. ﴿ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ ﴾ .. يعني : توحيد ربه ، ﴿ فَصَلَّى ﴾ الصلوات الخمس .

ويقال : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى ﴾ .. يعني : أدى زكاة الفطر ، ﴿ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴾ مع الإمام صلاة العيد .

ويقال : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى ﴾ .. يعني : أدى زكاة المال ، أي نجا من خصومة الفقراء يوم القيامة ، ﴿ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴾ .. يعني : كبّر وصلى لله ﷻ .

ويقال : ﴿ مَن تَزَكَّى ﴾ .. يعني : تاب من الذنوب ، ﴿ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ ﴾ .. يعني : إذا سمع الأذان خرج إلى الصلاة ؛ لذلك ذم تارك الجماعة لأجل الاشتغال بالدنيا فقال ..

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ﴾ وذلك هو أمر العقيدة ، ﴿ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ ﴾ وهذا هو أمر النطق باللسان والإقرار ، ﴿ فَصَلَّى ﴾ وهذا هو أمر السلوك الحركي في الحياة ، فالحق ﷻ حينما جاء بالسلوك الحركي في الحياة في قوله : ﴿ فَصَلَّى ﴾ قد جمع كل ألوان العبادة الشعائرية والعبادة المتعلقة بالمجتمع الإسلامي .

﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ الحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ .. يعني : تختارون عمل الدنيا على عمل الآخرة ، وفي قراءة أبي عمرو : ﴿ بَلْ يُؤْثِرُونَ ﴾ بالياء على معنى الخبر عنهم ، والباقون بالتاء على معنى

المخاطبة .

﴿ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ .. يعني : عمل الآخرة خير وأبقى من أشغال الدنيا وزينتها ، ويقال : إن معناه أنهم يختارون عيش الدنيا الفانية على عيش الآخرة الباقية ، وإن عيش الآخرة خير وأبقى ؛ لأن في عيش الدنيا عيوبًا كثيرة ، من خوف المرض والموت والفقر والذل والهوان والزوال والحبس والمنع وما أشبه ذلك ، وليس في عيش الآخرة شيء من هذه العيوب ؛ لأجل هذا فالآخرة خير من الدنيا وأبقى .

﴿ إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَى ﴾ .. إن الحق ﷻ لم يكلف هذه الأمة أمرًا لم يكلفه الأمم السابقة ، وإنما هذه العقيدة أساس استصحبته الحياة من لدن آدم عليه السلام ، فاستصحب الحق ﷻ تذكير الغافلين بإرسال الرسل ، فأشار إلى ذلك بقوله : ﴿ إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَى صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴾ .

وينبغي أن نذكر عن هذه ﴿ الصُّحُفِ الأُولَى ﴾ أنها لم تكن مقصورة على ﴿ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴾ ، وإنما الصحف التي أنزلها الله ﷻ على رسله .

فقد أنزل على شيث ، وأنزل على إدريس ، وأنزل على إبراهيم ، وأنزل على موسى عليهم جميعًا الصلاة والسلام .

والصحف غير الكتب التي ذكرها الحق أيضًا ، التي هي التوراة والزبور والإنجيل والقرآن .

والحق ﷻ حينما قال : ﴿ إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَى * صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴾ يؤكد حقيقة عقدية ، أن الحقيقة العقدية لا تتغير مع أي رسول أبدًا ، وإن تغيرت بعض التشريعات فإنما هو التغيير المناسب للبيئات ، ولما يجِدُّ فيها من أقضية تقتضيها الحياة في الطموحات الذهنية في الوجود ، فالتشريعات حين تختلفُ تختلف في هذا القدر فقط ، وهو حركة الإنسان في هذه الحياة ، أما الأسلوب العقدي .. والصلة الشعائرية التي بين الله وبين عباده فهذا قاسم مشترك بين كل الديانات .

وقد أخرج ابن حبان في صحيحه ، من طريق أبي ذر في حديث طويل أنه قال : يا رسول

الله ، كم كتابًا أنزله الله ﷻ ؟ قال : " مائة كتاب وأربعة كتب .. أنزل على شيث خمسون صحيفة ، وأنزل على أخنوخ ثلاثون صحيفة ، وأنزل على إبراهيم عشر صحائف ، وأنزل على موسى قبل التوراة عشر صحائف ، وأنزل التوراة والإنجيل والزبور والقرآن" . قال : قلت : يا رسول الله ، ما كانت صحيفة إبراهيم ؟ قال : " كانت أمثالاً كلها : أيها الملك المسلط المبتلى المغرور ، إني لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها على بعض ، ولكني بعثتك لترد عني دعوة المظلوم ، فإني لا أردها ولو كانت من كافر ، وعلى العاقل ما لم يكن مغلوبًا على عقله أن تكون له ساعات : ساعة يناجي فيها ربه ، وساعة يحاسب فيها نفسه ، وساعة يتفكر فيها في صنع الله ، وساعة يخلو فيها لحاجته من المطعم والمشرب ، وعلى العاقل أن لا يكون ظاعنًا إلا لثلاث : تزود لمعاد ، أو مرمة لمعاش ، أو لذة في غير مُحرم ، وعلى العاقل أن يكون بصيرًا بزمانه ، مقبلاً على شأنه ، حافظًا للسانه ، ومن حسب كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يعنيه " . قلت : يا رسول الله ، فما كانت صحف موسى ؟ قال : " كانت عبرًا كلها .. عجبت لمن أيقن بالموت ثم هو يفرح ، وعجبت لمن أيقن بالنار ثم هو يضحك ، وعجبت لمن أيقن بالقدر ثم هو ينصب ، عجبت لمن رأى الدنيا وتقلبها بأهلها ثم اطمأن إليها ، وعجبت لمن أيقن بالحساب غدًا ثم لا يعمل " [1] .

فهذا منهج يجب أن يكون للمؤمن بالله أن يكون له مرمة للمعاش ، وتزود للمعاد ؛ حتى نخرج من قوله : ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ ، وبعد ذلك أن يتلذذ بغير محرم ، فهذه الثلاثة أشياء هي المناهج .

ولذلك كان بعض الصالحين حينما سئل عن منهجه في الحياة قال : علمت أني لا أخلو من نظر الله ﷻ طرفة عين فاستحييت أن أعصيه .

ما دام موقنًا أن ربه ناظر إليه ساعتها يستحي أن يقع في المعصية وعين الله تراه ، وإلا

---

1 - أخرجه ابن حبان (362) ، وقال الألباني في ضعيف الترغيب والترهيب : " ضعيف جدًا " .

فهاتوا لي إنسانًا يعتدي على محارم إنسان مثله وعينه ناظرة إليه ، فهل تستطيع أن تعتدي على محارم زميلك وهو يراك ؟! فإن قلت : نعم . كذبت ، وإن قلت : لا . فقد جعلت الله أهون من خلقه !

فالرجل يقول : علمت أني لا أخلو من نظر الله ﷻ طرفة عين فاستحييت أن أعصيه ، وعلمت أن لي رزقًا لا يتجاوزني وقد ضمنه الله لي فقنعت به ، وعلمت أن عليَّ دينًا لا يؤديه عني غيري فاشتغلت به ، وعلمت أن لي أجلاً يبادرني فبادرته .

وقد قيل : اجعل طاعتك لمن لا تستغني عنه ، واجعل شكرك لمن لا تنقطع نعمه عنك ، واجعل خضوعك لمن لا تخرج عن ملكه وسلطانه .

إذن **فالصحف الأولى** معناها : شحنة دينية .. . شحنة عقدية تجعل الإنسان دائمًا على ذكر من ربه .

وكل هذه الشحنات العقدية حتى يتربى الإنسان على هذه العقائد التي تجعله يزاول مهمته في الحياة على المبدأ الذي يقوله الحق ﷻ : ﴿ **لِكَيْ لاَ تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ** ﴾[1] .

فيظل كما قال **الرافعي** رحمه الله :

وكن رجلاً كالضرس يرسو مكانه ليمضغ لا يعنيه حلو ولا مر

بقي بعد ذلك أن نقول : إن ذِكْر الله ﷻ مطلوب منا دائمًا ، ولكن في أماكن وأزمان ينزه اسم ربنا عن أن يذكر فيه ، كالخلاء والتغوط ؛ ولذلك فإن رسول الله ﷺ علمنا حين نخرج من الخلاء أن نقول : " **غُفْرَانَكَ** "[2] .

قيل في سبب ذلك : لأن اللحظات التي كان فيها في الخلاء كان لا يذكر اسم ربه ، فيقول : يا رب ، اغفر لي هذه الفترة التي لم أذكرك فيها ؛ ولذلك في موضع آخر يقول : " **الحمد لله**

---

1 - سورة : الحديد ، الآية : 23 .

2 - أخرجه أبو داود (28) ، والترمذي (7) ، وابن ماجه (296) ، جميعهم من حديث عائشة رضي الله عنها .

الذي أذهب عني الأذى وعافاني "[1] ..

فتصور مثلاً أن رجلاً يريد دخول الخلاء بشدة لقضاء حاجته ، ولا يجد المكان الذي يقضي فيها حاجته ، فعند قضائه حاجته ، ما أسعده بعد انتهائه ، فالفرق بين احتمال كيانه الداخلي لفضلاته ، واللحظة التي لابد لهذه الفضلات أن تخرج كبير ، فإذا لم يستطع الإنسان إخراجها فكيف يكون حاله ؟!

وهذه المسألة هي التي استغلها **ابن السماك** مع **هارون الرشيد** رحمهما الله ، فقد دخل **ابن السماك** على **الرشيد** الخليفة ، وأراد أن ينتهز فرصة يرقق بها قلبه ويذكره بالله ﷻ ، فطلب الرشيد كوبًا من ماء ، فقال له **ابن السماك** : أستحلفك بالله يا أمير المؤمنين ألا تشرب حتى أسألك .. فقال : سل .. فقال له : لو منع منك هذا الكوب من الماء ، فبكم كنت تشتريه من ملكك ؟ قال : بنصف ملكي . فقال : فإذا شربته واحتبس بداخلك ، فبكم تشتري خروجه ؟ قال : بملكي كله . فقال له **ابن السماك** : فأف لملك لا يساوي بولة ، إن ملكًا لا يساوي بولة لحقيق أن يزهد فيه .. فالإنسان عندما يشرب جرعة من الماء ، ثم يذهب ليقضي حاجته ، يقول : يا لها من نعمة ، دخلت لذة ، وخرجت سرحة ، أي : سهلة .

فقوله ﷺ : " **غفرانك** " .. إما لأنني غفلت فتركت ذكر اسمك هذه الفترة ، وإما لأنك أنعمت علي هذه النعمة ، بأن أدخلت الطعام في جوفي لذة ، ثم أخرجته بسرحة ، وبسهولة ، فأنا يا رب لم أعمل ما يوازي هذه النعمة من أعمال صالحة ، فغفرانك ربنا .

تلك هي **سورة الأعلى** ، وهذه هي حقيقة التسبيح ..

نسأل الله ﷻ أن يعلمنا من علمه ، ويكرمنا من كرمه ، ويمن علينا من جوده وفضله ، وأن ينعم علينا بتسبيحه كما يحب .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

---

1 - أخرجه ابن ماجه عن أنس رضي الله عنه (297) .

عم

تفسير جزء

سورة الغاشية

سورة الغاشية

أحمدك ربي على فضائل ذاتك، وعظائم نعمائك، وأصلي وأسلم على قمة اصطفائك، ومسك ختامك، سيدنا محمد ﷺ . . وبعد :

فمع **سورة الغاشية** ، تلك السورة التي جاء موضعها من الكتاب بعد **سورة الأعلى** ، وفى هذه السورة نجد أن المناسبة وثيقة بينها وبين **سورة الأعلى** ، **فسورة الأعلى** تحدثت حديثًا عن من تزكى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى * وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴾[1] ، وتحدثت عن الأشقى : ﴿ الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى * ثُمَّ لاَ يَمُوتُ فِيهَا وَلاَ يَحْيَا ﴾[2] ، فكأنها تكلمت عن الإيمان ، وما ينتظر المؤمن من جزاء الله ، وتكلمت عن الكفر ، وما ينتظر الكافر من عذاب الله ، فجاءت تلك السورة أيضًا لتوضح هذا المعنى وتزيده تأكيدًا في : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ﴾ ، و﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ ﴾ .

وأيضًا فقد تعرضت **سورة الأعلى** إلى مسألة التذكير : ﴿ فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى ﴾[3] ، وحين يقول الحق ﷻ لرسوله : ﴿ فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى ﴾ يأتي في السورة الأخرى ليحدد له مهمته تحديدًا أساسيًا : ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ ﴾ ، وبذلك يكون قد رفع العبء عن رسول الله ﷺ في أن يُعلِمه أنه مطلوب منه أن يذكِّر فقط ، وليس عليه أن يهدي ، أو أن ينتهي الناس إلى ما يقول ، بل عليه أن يذكر فقط ، فقال له :

---

1 - سورة : الأعلى ، الآية : 14 ، 15 .

2 - سورة : الأعلى ، الآية : 12 ، 13 .

3 - سورة : الأعلى ، الآية : 9 .

﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ ﴾ .. ذلك فيه تخفيف من عبء الرسالة عن رسول الله ﷺ ، وتخفيف من عبء من يحملون تلك الرسالة بعد رسول الله ﷺ ، فلا يعنيهم أن يذَّكر الناس أو أن لا يذَّكرون ؛ لأن مهمتهم فقط هي التذكير ، وليسوا مسيطرين على الخلق ؛ ولذلك يقول الحق ﷻ في آية أخرى : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾[1] ، وكذلك : ﴿ وَمَا عَلَيْكَ أَلاَّ يَزَّكَّى ﴾[2].

إذن فالحق ﷻ بعد أن أطلق التذكير في **سورة الأعلى** حدده بأن نتائج مهمتك تنتهي عند ذلك ، فلا تشغل بالك ، ولا تقلق ، ولا تبخع نفسك إن لم يؤمنوا . وأيضًا تكلمت **سورة الأعلى** عن منهج الفلاح ، ومنهج الفلاح مثلناه في قوله ﷻ : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ﴾[3] ، أي طهر عقيدته ، والتزكية : هي التطهير والنماء ، ﴿ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ ﴾[4] ، ذلك هو منهج القول في الإسلام .. ﴿ فَصَلَّى ﴾ .. وذلك منهج الحركة والعمل ، فكأن **سورة الأعلى** لخصت منهج الإسلام في أنه تصديق بالوجدان : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ﴾ ، وإقرار باللسان : ﴿ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ ﴾ ، وعمل بالأركان : ﴿ فَصَلَّى ﴾ . بعد ذلك ، يتكلم الحق ﷻ في **سورة الغاشية** عن المنهج الذي يضعه البشر لنفسه ، وهو منهج قد أتعبه في حركة الحياة ، ولا يأتي له بطائل ، وإذا ما نظرنا إلى الحركة في الحياة ، وجدنا أنه حتى الذين لا يؤمنون بإله ، فإن حركتهم في الحياة متمثلة أولاً في أنه يقدر الهدف من الحركة ، فلا يمكن لإنسان أن يفعل فعلاً قبل أن يحدد الهدف من هذا الفعل ، ويجب أن يكون الهدف معوضًا لمتاعب الإنسان من حركة العمل ، ومعنى معوض : أنه يعطيه من المتعة والراحة فوق ما يأخذ العمل منه من المشقة والتعب ، فلو أن العمل يعطيك من الراحة على قدر المشقة فقط لما كان هناك ضرورة للمشقة

---

1 - سورة : الكهف ، الآية : 6 .

2 - سورة : عبس ، الآية : 7 .

3 - سورة : الأعلى ، الآية : 14 .

4 - سورة : الأعلى ، الآية : 15 .

أصلاً ، ولكن كل عمل يعمله العاقل لابد أن يأخذ حصيلة من عمله فوق مشقة عمله ، وبذلك يكون نجاح العمل للذين يعيشون في هذه الحياة ، فإنما يعملون ويكدون ويجتهدون ، ونقول لهم : بمقياس العقل يجب أن تحددوا نفعكم من هذا العمل بما يفوق مشقتكم في هذه الحياة ، فإذا كنتم عاملين وناصبين وفي مشقة ، فما هي النتيجة النهائية لذلك العمل ؟!

إن الحق ﷻ يعرض هذه اللمحة في قوله ﷻ : ﴿ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ * تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً ﴾ .. فكأن المعنى : فما ظنك بمن يعمل عملاً ، وينصب نصبًا ، ثم لا يجد لذلك العمل نتيجة ، ولا فائدة ، بل يجد له مضرة في أنه سيصلى نارًا حامية ، إذن ، فأساس فكرته في العمل فكرة خاطئة ، وذلك دليل حمق الحركة في الحياة .

فكأن الدين حينما جاء ، قد جاء ليجعل لحركة الإنسان في الحياة هدفًا ، وغاية ، وراحة ، تعقب التعب من العمل .

فسورة الغاشية أتت لتخدم هذه الأغراض كلها ، وعلى طريقة القرآن في عرضه للقضايا ، يعرض قضايا غيبية ، ثم يؤكدها بقضايا مشهدية ، يعني قضايا مُحَسَّة ، فينقلنا إلى الغيب بواسطة المُحَس ، **فسورة الغاشية** إذن ، جاءت لخدمة الأغراض الأساسية في **سورة الأعلى** بوضوح .

هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ﴿١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ﴿٥﴾ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ ﴿٧﴾

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴾ .. وتبدأ السورة بهذا الاستفهام .

فننظر .. من المستفهِم ؟ ومن المستفهَم منه ؟ وما المستفهَم عنه ؟

إن المستفهِم في الخطاب هو الحق ﷻ ، والحق منزه أن يَستفهِم ليفهم ؛ لأن الأصل في الاستفهام : أن تريد فهم ما لم تعلم ، ولكن السؤال قد يرد لغير ذلك ، يرد لا ليعلم السائل ، ولكن ليقرر المسئول ؛ لأن السائل إن نطق بالحكم من عنده كان خبرًا ، ففي قول الحق ﷻ مثلاً : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾[1] ، أيستفهم الحق ﷻ من رسول الله ﷺ هل شرح له صدره أم لا ؟! وهل الحق ﷻ يحتاج لأن يستفهم أنه شرح صدر **محمد** ﷺ وهو الذي شرحه ؟!

إذن ، فحقيقة الاستفهام لا تتأتى هنا ، ولكن بدلاً من أن يقول الحق ﷻ : " **إنا شرحنا لك صدرك** " ، فيكون إخبارًا من الله ﷻ ، فإنه يدع الإخبار لمشروح الصدر ليجيب هو : " **نعم يا رب ، شرحت صدري** " ، فيكون إقرارًا منه لما فعل الحق ﷻ به ، هذا الإقرار بفعل الحق تثبيت للأمر ؛ لأن الله لو قال ذلك فربما وُجد مجادل ، ولكن مشروح الصدر نفسه هو الذي سئل وهو الذي أجاب .

إذن ، ففائدة نقل الكلام من الخبر إلى الإنشاء الاستفهامي هو : تقرير الخبر بأوضح حجة ؛ ولذلك تجد أيضًا مرتبة بلاغية ، فكان من الممكن أن يقول الحق لرسوله : أشرحت لك صدرك ؟ وتؤدي الغرض أيضًا ، ولكن الله جاء بها على طريقة النفي ؛ حتى لا يكون السؤال إيحاء بالجواب ، كما تكون قد صنعت جميلاً مع رجل ، ثم أنكر ذلك الجميل ، فتقول له : ألم أحسن إليك في كذا ؟ أو لم أحسن إليك في كذا ؟ أو لم أحسن إليك في كذا ؟ .. تأتي له بالنفي ؛ لأن الواقع يرد النفي إلى إثبات ، فهو يجد أنك لم توح إليه بالجواب ، ولم تعط له فكرة أن يجيب . إذن ، فقول الحق ﷻ : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴾ لون من التقرير ، أو من التفخيم عن المسئول عنه ، كقولنا : ألم يأتك خبر كذا ؟ فكأن الخبر مهم ،

---

1 - سورة : الشرح ، الآية : 1 .

يجب أن يبحث عنه الإنسان ، ويجب أن يفتح ذهنه للجواب ، فكأن : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴾ إشعار بأن ذلك أمر عظيم جدًّا يجب أن تتنبه له بكل جوارحك ، لتتلقى عنه الجواب .

ومرة يأتي السؤال من السائل لا تحقيقًا ولا تقريرًا ، وإنما يأتي إيناسًا للمسئول ، أي : أن يكون المسئول عنده رهبة ، فتريد أن تؤنسه إلى مقامك منه ، ومقامه منك ، فتأتي له بسؤال إيناسي ، كما سأل الله ﷻ نبيه **موسى** عليه السلام في قوله : ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى ﴾[1] ، فقال عليه السلام : ﴿ هِيَ عَصَايَ ﴾[2] ، هذا سؤال إيناسي ، كما تسأل أنت الطفل الصغير عن شيء في يده ، وأنت تعرف هذا الشيء ، تريد بذلك أن تؤنسه ؛ لتسقط قناع المهابة ، فيأنس الولد منك .

وحين يخاطب الحق ﷻ **موسى** عليه السلام ، ويفاجئه بالكلام ، تجده مع ذلك يقول له : ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى ﴾ .. تجد نفس طرح السؤال إيناسي ، فكان يكفي أن يقول : ما بيدك يا **موسى** ؟ إنما يقول : ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى ﴾ ، والمراد أن يطيل له عمل السؤال ؛ ليطيل له أنسه بربه ، فيفطن **موسى** عليه السلام إلى أن الله يريد أن يؤنسه ، فكان يكفي **موسى** أن يقول : هي عصا ، لكن أيطيل **رب موسى لموسى** مجال الأنس ، ويقتضب **موسى** مجال الأنس ؟! كلا والله ، فقال : ﴿ هِيَ ﴾ .. وليس لها فائدة .. ﴿ عَصَايَ ﴾ .. وهذه هي التي فيها الفائدة .. ﴿ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي ﴾[3] ، إذن ، فقد فطن **موسى** عليه السلام إلى أن الحق ﷻ عندما قال له : ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى ﴾ ، أراد أن يؤنسه ، فأطال **موسى** عليه السلام على نفسه أمد الأنس بربه ، فلم يقل : (**عصا**) ، بل قال : (**هي**) ،

---

1 - سورة : طه ، الآية : 17 .

2 - سورة : طه ، الآية : 18 .

3 - سورة : طه ، الآية : 18 .

و(هي) في عرف الأساليب لم يكن لها فائدة ، وبعد ذلك أتى له بحكاية العصا : ﴿ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي ﴾ ، وبعد ذلك ، أدب الخطاب جعل **موسى** يفطن إلى أنه أطال مع الله ، فقال له : ﴿ وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى ﴾ ، وكأن المقام لو طال ، لقص كل المآرب .

إذن ، فالاستفهام يرد لمعانٍ شتى ، فعندما يسمع رسول الله ﷺ من ربه خطابه : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴾ ، يفهم أن هذه الغاشية أمر عظيم ، يجب أن يتنبه له بكل جوارحه ، ليتلقى من الحق ﷻ الجواب .

و" **الغاشية** " : هي الداهية ، تغمر الناس بأهوالها فتغشاهم ، ولا تجعل لهم منفذًا ، دواهي تأتي من كل اتجاه ، من الأمام ، ومن الخلف ، ومن اليمين ، ومن الشمال ، ومن تحت ، ومن فوق ، كما قال : ﴿ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ﴾[1] ، ويقول في مسألة **موسى وفرعون** : ﴿ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴾[2] ، ويقول الحق ﷻ في **سورة لقمان** : ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾[3] ، أي : الموت جاء لهم من كل جانب ، ﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ﴾[4] ، أرأيت دقة التصوير ؟ إن الإنسان لابد وأنه يعرف أين موقع يده ، فإذا كانت يده التي يعرف موقعها من نفسه لا يراها ، تكون : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴾[5] ، إذن ، فمادة الغاشية كلها تدل على الداهية التي تغمر الإنسان من جميع النواحي ، فلا يجد منها خلاصًا ، ولا منفذًا .

وكلمة : " **غاشية** " وردت في القرآن مرة في هذه السورة ، ومرة في **سورة يوسف**

---

1 - سورة : الأعراف ، الآية : 41 .

2 - سورة : طه ، الآية : 78 .

3 - سورة : لقمان ، الآية : 32 .

4 - سورة : النور ، الآية : 40 .

5 - سورة : النور ، الآية : 40 .

عليه السلام : ﴿ أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾[1]، ثم جاء من المادة الفعلية مثل : ﴿ فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى ﴾[2]، ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴾[3]، وهكذا . وما دام قد قال : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴾ ، فتكون الغاشية أمرًا عظيمًا ، ويجب أن ينتبه رسول الله ﷺ ؛ لأن المخاطِب له هو ربه ؛ ولذلك فإن رسول الله ﷺ وجد امرأة تقرأ : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴾ ، فقال : " نعم جاءني "[4].

لقد جاءه في : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ * عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ * تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً * تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ * لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ ضَرِيعٍ * لاَ يُسْمِنُ وَلاَ يُغْنِي مِنْ جُوعٍ ﴾ .. إذن ، فكلمة الغاشية هي تلك الدواهي التي تغمر الناس ، شرحها ربنا فقال : الغاشية : هي القلوب التي تخشع ، لم تخشع اختيارًا في دنياها ، فخشعت قهرًا في أُخْرَاها ، فكان لها في دنياها اختيار أن تخشع أو لا تخشع ، أما اليوم فلم يعد لها اختيار في أن لا تخشع ؛ لأنها سلبت مكونات الاختيار ، فلم يعد لها الخيرة .

إذن .. فالمسألة ستكون قسرية على سلوك مراد للحق ، بخلاف ما كنا عليه في الدنيا ، فقد كان هناك سلوك قسري مقهورين فيه للحق ، وهو في الأعمال غير الإرادية ، و سلوك لنا فيه اختيار ، فاليوم لا يوجد ذلك .

ولذلك تجد القرآن حين تعرض للكلام عن عباد الله يقول : ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَمًا ﴾[5]، ثم يصف أوصاف عباد الرحمن بصفات كلها خير وتقوى ، وكذلك حين يتكلم عن الملائكة يقول : ﴿ بَلْ عِبَادٌ

---

1 - سورة : يوسف ، الآية : 107 .

2 - سورة : النجم ، الآية : 54 .

3 - سورة : الشمس ، الآية : 4 .

4 - انظر : "تفسير ابن كثير (8 / 384) ، وابن أبي حاتم (12 / 393) .

5 - سورة : الفرقان ، الآية : 63 .

مُكْرَمُونَ ﴾[1] . إذن .. فكلمة (عباد) ، هم الذين اختاروا أن يصوغوا حركة حياتهم بمنهج ربهم ، فكل الخلق عبيد ، ولكن ليس كل الخلق عبادًا ، فكل الخلق عبيد لله ﷻ ، إنما العباد هم الذين قاموا بالعبادة بفعلهم الاختياري ، وأخضعوا فعلهم الاختياري لمنهج الله الذي يتضمن : افعل ولا تفعل .

وقد يورد اعتراض على هذا المعنى في آية واحدة في القرآن الكريم ، وهي قول الله ﷻ : ﴿ أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلاَءِ ﴾[2] ، يسأل الذين أضلوا الخلق : ﴿ أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي ﴾ ، فكيف أطلقت كلمة (عبادي) هنا على أولئك الذين قد ضلوا في الدنيا ؟!

إن الحال في الآخرة لا يوجد فرصة لأحد أن يختار ، وإنما الكل مقهور على كل تصرف ، فلم يعد لأحد اختيار في أي شيء ؛ لذلك فهم الآن عباد ، وإن لم يكونوا في الدنيا عبادًا ؛ فقد كان لهم اختيار في أن يؤمنوا أو يكفروا ، في أن يطيعوا أو يعصوا ، أما يوم القيامة فلم يعد أحد قادرًا على أن يختار في شيء .

إذن .. فمعنى : ﴿ أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي ﴾ .. أنهم صاروا الآن عبادًا ؛ حيث لم يعد لأحد منهم حركة اختيارية أبدًا .

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ) .. أي : يوم تأتي الغاشية ، يأتي الحق ﷻ بعد ذلك بالجواب فيقول : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ﴾ .. تلك الوجوه التي أبت أن تخشع لله ﷻ خشوعًا اختياريًا ، هي الآن خاشعة اضطرارًا .

﴿ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴾ .. وهنا تظهر الخيبة ، فكما قلنا من قبل : إن كل فعل يفعله الفاعل ، أو أى حركة يقوم بها ، لابد وأن يقدر الهدف من تلك الحركة ، وأن يكون ما تدره الحركة من النفع ومن الراحة فوق ما يكون من المشقة التي بذلت فيها .. فيقول الحق ﷻ : ﴿ عَامِلَةٌ

---

1 - سورة : الأنبياء ، الآية : 26 .

2 - سورة : الفرقان ، الآية : 17 .

نَاصِبَةٌ ﴾ .. ولكنها لم تأخذ من عملها إلا المشقة والنصب فقط ، فهى لم تجد نفعًا ، بل وجدت ضررًا شديدًا ، وهو الجواب الآتي بعد ذلك .

﴿ تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً ﴾ .. وانظر إلى ذلك الذي عمل ونصب لأولاده ، أو لجاهه ، أو لمركزه ، وبعد ذلك يجد عمله في الآخرة هباءً لا نفع فيه ، ويا ليته لم يجد نفعًا فقط ، بل إنه يجد ضررًا عظيمًا ، وهو دخول النار ، وذلك من حمق حركته في الحياة ؛ لأنه لم يُقَدِّر كيف يتحرك الحركة التي تنجيه من النار ، وتدخله الجنة ، وفي ذلك يقول الحق ﷻ : ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴾[1] ، لماذا ؟ لأنهم حين عملوا تلك الأعمال في الدنيا ، لم يكن الله ﷻ في حسبانهم ، عملوا أعمالهم في الدنيا بمنطق المادة ، وللمادة فقط ، تعبوا ونصبوا ، ولكن لم يكن الله في حساباتهم ، فلم يحتسبوا تلك الأعمال عنده ﷻ ، فكيف يطلبون يوم القيامة الأجر من الله ﷻ ؟! فإنهم فعلوا ليقال : فعلوا ، وقد قيل وانتهى الأمر ، وفي ذلك يقول الحق ﷻ : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لاَ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ﴾[2] ، ويضرب لهم مثلاً فيقول : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ ﴾[3] ، فقمة المفاجأة تجدها في قوله : ﴿ وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ ﴾ .. فعندها يفاجأ بوجود الله عند عمله ، فوجئ ولم يكن في باله وحسابه عندما عمله ، فكيف يطلب أجرًا ، والله ﷻ يقول : ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا ﴾[4] .

﴿ تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ ﴾ .. غليان النار الحامية هو أول ما يوحي بحرارة الجو ، وهنا قد يظن الظان أن الماء يبرده ، فيقول له : بل سيشرب ماء من عين آنية ، أي : شديدة الحرارة ،

---

1 - سورة : الفرقان ، الآية : 23 .

2 - سورة : إبراهيم ، الآية : 18 .

3 - سورة : النور ، الآية : 39 .

4 - سورة : الأحقاف ، الآية : 20 .

كما قال ﷻ : ﴿ وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ ﴾[1].

﴿ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ ضَرِيعٍ ﴾ .. والضريع في عرف العرب الذين نزل القرآن بلغتهم هو : مادة يسمونها " الشِّبْرِق " ، وبعضهم قال : هو " الغرقد " ، وهو نبت فيه شوك ، فإذا تم نضجه وجفَّ يكون سامًّا ، وهو نبات ترعاه الإبل وهو أخضر ، فهذا النبات هو طعامهم فى النار ، وذلك كقوله : ﴿ وَلاَ طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ غِسْلِينٍ ﴾[2]، وكذلك : ﴿ إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ * طَعَامُ الأَثِيمِ ﴾[3] ، فكأن مقامات العذاب مختلفة ، والغسلين : هو الصديد الذي يخرج من أجساد الكافرين .

إذن .. فمراتب الإيلام والتعذيب تتناسب وكلمة الغاشية ، ولذلك تجد أن الحق ﷻ قد استهل الكلام عن العصاة الداخلين في قوله : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ﴾ بكلمة : (الغاشية) ، فما دامت الغاشية هي الدواهي التي تلف الناس لفًّا بحيث لا تجد إليهم منفذًا للنجاة ، فالمناسب أن يأتي بالصورة التي للكفار : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ * عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ﴾ .. عاملة ناصبة : يحكي حالتهم في الدنيا ، وأن حركتهم في الدنيا كانت إلى بوار وهلاك ومضرة ، أو أنها أيضًا ستكون خاشعة في الآخرة ، وعاملة ، وناصبة ، نعم ، سيسحبون في الأغلال ، والقيود ، ويسيرون في وهاج جهنم ، ووديانها ، فهذه مشقات ، وعذاب فوق العذاب .

إن الحق ﷻ حينما يصور ألمًا أو عذابًا ، إنما يصور التصوير الذي تأتي به اللغة للمخاطب به ، وليس معنى ذلك أن هذه هي الكيفية الحقيقية ؛ لأن ألفاظ اللغة تأخذ معانيها من واقع إدراكات المدرك ، والصورة التي توجد أمامه .

---

1 - سورة : الكهف ، الآية : 29 .

2 - سورة : الحاقة ، الآية : 36 .

3 - سورة : الدخان ، الآية : 43 ، 44 .

فالحق ﷻ حينما يعرض لنا عذابًا أو نعيمًا في الآخرة ، فلا يعرض لنا حقيقة العذاب ، ولا حقيقة النعيم ، ولكنه يعرض لنا حقيقة العذاب في تصورنا ، وفي إمكانيات الأداء في لغتنا .

﴿ لاَ يُسْمِنُ وَلاَ يُغْنِي مِنْ جُوعٍ ﴾ .. وذلك لئلا يتوهم البعض أن هذا الطعام من الضريع مع العذاب قد يغني من الجوع شيئًا ، فيقطع الله ﷻ الظن في ذلك بقوله : ﴿ لاَ يُسْمِنُ وَلاَ يُغْنِي مِنْ جُوعٍ ﴾ .

وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ ﴾ .. ينتقل الحق ﷻ إلى الوجه المقابل : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ ﴾ .. وانظر إلى الفرق الكبير والبون الشاسع بين قوله : ﴿ خَاشِعَةٌ ﴾ وما فيها من الذلة والهوان وانكسار الخاطر وتوجس الشر والمخافة من المعاصي ، كل هذه الصور المرسومة في : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ﴾ ، وبين قوله : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ ﴾ .. وما فيها من نعيم ولذة ، كما شرحها في : ﴿ تَعْرِفُ فِي وَجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴾ [1]، ونضرة النعيم شيء لا تستطيع أن تصفه إلا عندما ترى رجلاً مسرورًا في نعمة ، وترى تلك النضرة في وجهه ، وله شكل ، وجاذبية تشف عما في نفسه من الرضا والمتعة والأمان والسكون والهدوء .

﴿ لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴾ .. وكلمة : ﴿ لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴾ ، مقابل لكلمة : ﴿ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ *

1 - سورة : المطففين ، الآية : 24 .

تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً ﴾ ، فكأنها حينما رأت الغاية من حركة حياتها ، غاية مسعدة ، غاية مرضية ، تقول : نعم المسعى ما سعيته ، ووصلت به إلى ذلك النعيم ، ولكن الأخرى : ﴿ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ * تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً ﴾ .. في المقابل تقول : بئس المسعى الذي كنت أسعاه ، كنت أعتقد أني أحقق لنفسي متعة ، فقد أكون حققت لنفسي متعة ، ولكنها متعة الحمقى ، متعة الذين يأخذون المتعة العاجلة ، وينسون المتعة الآجلة .

﴿ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴾ .. والعلو قد يكون علو مكان ، وقد يكون علو منازل ، ففسر في العلو ما شئت .

﴿ لاَ تَسْمَعُ فِيهَا لاَغِيَةً ﴾ .. وانظر إلى تلك الدقة الأدائية في قول الحق ﷻ : ﴿ لاَ تَسْمَعُ فِيهَا لاَغِيَةً ﴾ ، حيث يعطيك صورة عن فساد الكون بغير منهج الإيمان ، فلو استعرضت الوجود الذي نعيش فيه ، لوجدت كل الفساد المورث للقلق ، وللاضطراب ، وللخوف ، وللبؤس ، وللشقاء ، وللتناحر ، والتزاحم ، وللصدام ، وللحروب ، كل ذلك ناشئ من أن اللغو فيه كثير .

ومعنى : " لاغية " : هي الشيء اللاغي ، إما لغو في عقيدة ، أو لغو في فكرة ، أو لغو في كلمة ، أو لغو في حركة حياة ، فعندما يوجد لاغية في حركة الحياة تفسد الحياة ، فيقول الحق ﷻ في الجنة التي وعد بها المتقون : ﴿ لاَ تَسْمَعُ فِيهَا لاَغِيَةً ﴾ ، وكلمة : ﴿ لاَ تَسْمَعُ فِيهَا لاَغِيَةً ﴾ توحي بالهدوء والاستقرار والسكون والاطمئنان .

ولذلك عندما يصف الحق ﷻ المؤمنين يقول : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاَتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴾[1] .. وكأن الذي يفسد الحياة على الناس هو اللغو ، فيقول لك : إن ميزة الجنة أنك : ﴿ لاَ تَسْمَعُ فِيهَا لاَغِيَةً ﴾ ؛ لأ الإنسان ليس حرًّا هناك ليلغو ، بل محكومًا بالمسبب الأعلى ، أما في الدنيا ، فهو محكوم

---

1 - سورة : المؤمنون ، الآية : 1 : 3 .

أودع الله فيه من الاختيار ، ليعرف الحق ﷻ من جاءه طواعية ، ولكن الآخرة ليس فيها لغو .

فأنت هناك تأكل وتشرب وتتمتع بالخاطر ، ومعنى ذلك أنك بمجرد ما يخطر شيء ببالك تجده ، ليس هناك عناء العمل ، فقوله : ﴿ لاَ تَسْمَعُ فِيهَا لاَغِيَةً ﴾ أي : الأمن المطلق ، وما دام وُجِدَ أَمْنٌ مطلق ، فهذا هو الهدوء ، والسكون ، أما حينما يسمرون ، أو يتفكهون ، يتفكهون بغير لهو ، ويسمرون بغير لهو .

إذن ، فميزة الحياة في الجنة أنك : ﴿ لاَ تَسْمَعُ فِيهَا لاَغِيَةً ﴾ .

﴿ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴾ .. وكلمة : ﴿ عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴾ عظيمة جدًّا عند العربي ، فالذي عنده بئر من العرب فهي تكفيه ، فما بالنا بمن له عين جارية ؟! وذلك لكي تعرف أن الإنعام في الجنة ليس مسألة رد الحاجة فقط ، إنما أيضًا الاستمتاع بجريان الماء وقوته وحركته وتدفقه ، واطمئنانك إلى أن الماء ليس كمية ثابتة محدودة ، ولكنك حين ترى الماء جاريًا وممتدًّا ، يطمئنك على أن أصل الحياة موجود ؛ ولذلك تجد أن أولئك الذين يريدون أن ينعموا أنفسهم في القصور ، فبالرغم من وجود الماء عندهم إلا أنك تجده يقوم بعمل نافورة أو بركة أو قناة ، أو حتى يبني قصره على نهر جارٍ ، مما يدل على أن مجرد النظر في الماء وهو يجري ويتدفق يعطي اطمئنانًا وتنعمًا ؛ لأنه هو أصل الحياة ، وهو اطمئنان إلى أن أصل الحياة ليس عندك بقدر الحاجة والكفاية ، بل هو جار ومتدفق .

﴿ فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ ﴾ .. وكذلك كلمة : ﴿ سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ ﴾ لا تنظر إليها نظرة سريعة خفيفة ، فإنك لا تستطيع أن تفهمها إلا إذا علمت أن الذي يخاطب بذلك عربي ، كان ينام في الكهوف ، أو على الحصى ، أو على الأقل على الرمال ، وقد تؤذيه الآفات والحشرات ، فعندما يؤتى بتلك السرر المرفوعة عن الأرض ، فهذا من أعظم ألوان النعيم .

﴿ وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ ﴾ .. أي : مهيأة للشرب بدون أن تطلب .

﴿ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴾ .. وهي : الحشايا ، أو ما يفترشه الإنسان تحته ، ملفوفة ، ومنتشرة حتى ترتاح عليها ، مما يعني أن الجلسة تأخذ كل ألوان المتعة .

و (الزرابي) : هي التي نسميها الآن السجاجيد ، كل هذا بالمنظور العربي ، يعطي صورة من النعيم ؛ لأن العربي عندما يمتلك بيتًا ، فيبنيه ويفرشه بالسجاد والفُرُش ، ويضع الحشايا ، فهذه المسألة هي عين المتعة عنده .

أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾

انتقلنا من عالم الغيب الذي يخبرنا الله ﷻ عنه في : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ﴾ ، و ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ ﴾ ، إلى مشهد من مشاهد الحياة ، مشهد أيضًا يصور بيئة العربي بكل إمكانياته ، فيقول ﷻ : ﴿ أَفَلاَ يَنْظُرُونَ إِلَى الأبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الأرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ ..

وكل ذلك في بيئة العربي ، فالعربي عندما يرتحل ، ليس له أنيس إلا جمله الذى يحمله ، ويحمل عنه أمتعته ، فأعطاه الله الأدلة من تلك الأشياء التي يضطر أن يتعامل معها ويصحبها معه .

﴿ أَفَلاَ يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ .. عندما تركب الإبل تنظر إلى كيفية خلقها

من حيث : قوتها ، ومن ناحية تركيب هيئتها ، فعندما تنظر إلى الجمل ، وتقارن بين أخفافه التي يمشي عليها ، وبين ما اخترع حديثًا من المطاط ، الذي يعطي لينًا عند المطبات تجد تلك الأخفاف تعمل نفس العمل ، فعندما يمشي الجمل مسافة ما ، فمهما كانت المسافة بعيدة فأنت لا تشعر بأي تعب أو مشقة بسبب الضغط الموجود في خفه ، وهو كذلك عالٍ ؛ لأنه قد يثير حصى وغبارًا كما تثير السيارات ، وعندما تنظر إلى تركيب أذنيه ، أو جحمة عينيه ، أو أسنانه ، أو إلى معدته ، فله معدتان ، وهو يمشي دائمًا في الصحراء ، وهو أكثر الحيوانات تحملاً للعطش ، فهو يصبر (عِشْرًا) – بكسر العين وسكون الشين – أي : ثمانية أيام لا يرد الماء ، أي أنها عملية تدل على القدرة والإرادة والحكمة ، وترى ذلك الحيوان الضخم يقوده طفل صغير ، كأن الله ﷻ يقول لنا : مع أن هذا الجمل ضخم ، و لكن إن تنخه يناخ ، تستنهضه يقوم ، ومن قوته أنه الحيوان الوحيد الذي لا يحتاج أن يكون قائمًا كي تحمل عليه ، بل إنك تحمل عليه ثم ينهض بحمله ؛ لأنك لو أردت أن تحمل عليه وهو واقف فإن في ذلك مشقة بالغة نظرًا لعلوه الشديد .

ومع أن كبد الجمل يضرب به المثل في الغلظ ، إلا أنه عندما يحدو الحادي بالنشيد الجميل ، يستخف الحداء ، ويسرع بالمشي .

وكذلك فإن الجمل قد يكون وحدة كاملة للحياة ، فيُشرب لبنه ، ويُؤكل لحمه ، ويُصنع وبره ثوبًا ، وتُصنع الخيمة من جلده ، وهي بيت العربي ، وكذلك يُشرب من لبنه وبوله للتداوي ، فعن **أنس بن مالك** رضي الله عنه قال : " قدم أناس من عُكْل أو عُرَينة فاجتووا المدينة ، فأمرهم النبي ﷺ بلقاح ، وأن يشربوا من أبوالها وألبانها ، فانطلقوا ، فلما صحوا قتلوا راعي النبي ﷺ ، واستاقوا النعم ، فجاء الخبر في أول النهار فبعث في آثارهم ، فلما ارتفع النهار جيء بهم ، فأمر فقطعت أيديهم وأرجلهم وسملت أعينهم وألقوا في الحرة يستسقون فلا يسقون "[1] .

---

1 – أخرجه البخاري (266) ومواضع أخرى ، ومسلم (3162 ، 3163) .

وبعد ذلك فلينظر الإنسان في بيدائه .. في صحرائه ، فيجد سماء وأرضًا وجبالاً ، فيلفته الله ﷻ لذلك الكون الذي يعيش فيه ، فينظر في بعيره كيف خلق ، ثم ينظر فوقه فيجد السماء ، ثم يمينًا وشمالاً فيجد الجبال ، ثم تحته فيجد الأرض ، فكأنه قد أعطى له مقومات الحياة ، أو العالم بأسره .

فكأن ﴿ أَفَلاَ يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ ، كل ذلك مقومات ذلك العربي ، عندما نقله ربه إلى مشهد ، كان يجب أن يتدبر ، ويتفكر ، أن الله ﷻ قد ذلل له هذا ، مع أنه لم يذلل له أشياء أخرى ، كالثعبان مثلاً ، فعندما يرى ثعبانًا يفزع ، مع أن الجمل أكبر من الثعبان بكثير ، ولكن الله ﷻ قد ذلل له هذا ولم يذلل له ذاك ، فترك الله بعض الحيوانات ، أو الحشرات متوحشة أو غير مستأنسة ؛ لكي نلتفت إلى أن هذه الحيوانات لو لم يذللها الله ﷻ لما استطعنا أن نذللها .

ثم يطلب المرعى ، أو المنبت ، أو الكلأ ، ويطلب نزول الماء من السماء ، فتكون علاقته أيضًا بالسماء ، فينتظر منها السحاب لينزل له بعض المطر ، ويلوذ بالجبال ، والأرض من أجل المرعى .

إذن .. فالقرآن حينما عرض هذا الأسلوب ، نقل الإنسان من معنى غيبي ، وما ينتظر الشقي من عذاب في الآخرة ، وما ينتظر التقي من نعيم هناك ، فهو يريد بذلك أن يقول له : إن العاقل هو من يتنبه إلى أن تكون حركة حياته مُجدية ، وفي الكون آثار تدل على أن هذا الكون لم يخلق عبثًا ، بل خلقه يتطلب حكمة وقدرة وإرادة ، فيجب أن تتنبهوا إلى هذه الأشياء .

﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴾ .. وفي موضع آخر قال له : ﴿ فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى ﴾[1] ،

---

1 - سورة : الأعلى ، الآية : 9 .

وفى موضع آخر يريد أن يحمل عنه عبء الدعوة ، فيقول له : ﴿ وَمَا عَلَيْكَ أَلاَّ يَزَّكَّى ﴾[1] ، أنت مبلغ فقط ، وهذا لون من التيسير .

﴿ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ ﴾ .. أي : أنت لست جبارًا ، كما قال له في آية أخرى : ﴿ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ ﴾[2] ، لماذا ؟

لأن الحق ﷻ لو أنزل دينًا مفروضًا من السماء لما استطاع أحد أن يبتعد عنه ، ولجعلنا كما جعل الملائكة ، أو جعلنا كسائر الخلق لا اختيار لنا ، ولجعلنا مسخرين لمنهج لا نستطيع أن نفر منه ، ولكنه يريد أن يرى مَن الذي يعمل بمنهجه وهو مختار .

ثم لعل الذين لم يؤمنوا بمنهج **محمد** ﷺ يقولون : إن هذا ليس مسيطرًا علينا ، فلا نؤمن به ، وليس له علينا سلطان في الدنيا ولا في الآخرة .. فيرد الله ﷻ عليهم بأن هناك مرجعًا إلى الله .

﴿ إِلاَّ مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ ﴾ .. أي بك يا **محمد** ، وبمنهج الله الذي بعثك به إليهم .

﴿ فَيُعَذِّبُهُ اللهُ الْعَذَابَ الأَكْبَرَ ﴾ .. فأنا لم أخلقهم كي يشردوا مني ، وإنما إليَّ مرجعهم يوم القيامة فأجازيهم بما عملوا .

﴿ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴾ .. وما دام إلينا إيابهم ، فمن يؤمن يؤمن ، ومن يكفر يكفر ، وأنت تذكر فقط ، وما عليك غير ذلك .

﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴾ .. أطلق قضية قصرية ، أي فيها أسلوب القصر قوي : ﴿ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴾ ، وحين يقول الحق ﷻ : ﴿ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴾ ولم يقل : إن إيابهم إلينا ، أو إن حسابهم علينا ؛ لأن هذا الأسلوب يمكن أن يعطف عليه ، فيصح أن يقول : إن إيابهم إلينا ، وإلى غيرنا ، أما أن يقدم الجار والمجرور في : ﴿ إِنَّ إِلَيْنَا

---

1 - سورة : عبس ، الآية : 7 .

2 - سورة : ق ، الآية : 45 .

إِيَابَهُمْ ﴾ ، أي : لا إياب لهم إلى غيرنا ، لا شركة ولا استقلالاً ، فإيابهم في الآخرة إلينا ؛ لأن مبدأهم كان منا بدون شريك ، فما دام المبدأ كان من الله بدون شريك ، فالمرجع يكون إليه بدون شريك ، فإذا ما وعد الله أهل النعيم بخير ، أو أوعد أهل الخسران بشَرٍّ ، فمعنى ذلك أن الوعد والوعيد مؤكدان ؛ لأن الذي وعد هو القادر ، الذي بدأ وإليه نعود جميعًا .

نسأل الله ﷻ أن يوفقنا دائمًا إلى أن نكون من أصحاب الوجوه الناعمة ، وألا يشغلنا لهو الحياة عن جدها ، وأن يوفقنا في كل ما نأتي وما نذر . .

إنه ولي ذلك والقادر عليه .

علم تفسير جزء

سورة الفجر

سورة الفجر

أحمدك ربي على فضائل ذاتك، وعظائم نعمائك، وأصلي وأسلم على قمة اصطفائك، ومسك ختامك، سيدنا محمد ﷺ .. وبعد :

فمع **سورة الفجر**، وهذه السورة في عمومها حلقة من حلقات هذا الجزء في الهتاف بالقلب البشري إلى الإيمان والتقوى واليقظة والتدبر، ولكنها تتضمن ألوانًا شتى من الجولات والإيقاعات والظلال .. ألوانًا متنوعة تؤلف من تفرقها وتناسقها لحنًا واحدًا .. متعدد النغمات .. موحد الإيقاع .

في بعض مشاهدها جمال هادئ رفيق .. ندي السمات والإيقاعات، كهذا المطلع الندي بمشاهده الكونية الرقيقة، وبظل العبادة والصلاة في ثنايا تلك المشاهد .. ﴿ وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ * وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ * وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴾ .

وفي بعض مشاهدها شد وقصف .. كهذا المشهد العنيف المخيف .. ﴿ كَلاَّ إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكًّا دَكًّا * وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا * وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى * يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي * فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ * وَلاَ يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ ﴾ ..

وفي بعض مشاهدها نداوة ورقة، ورضى يفيض، وطمأنينة تتناسق فيها المناظر والأنغام، كهذا الختام .. ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي

---

* مقدمة تفسير السورة والمقطع الرابع مقتبس بتصرف من : "في ظلال القرآن" .

عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴾ ..

وفيها إشارات سريعة لمصارع الغابرين المتجبرين ، وإيقاعها بينَ بينَ .. بين إيقاع القصر الرخي وإيقاع المصرع القوي .. ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ العِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي البِلادِ * وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ * وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ * الَّذِينَ طَغَوْا فِي البِلادِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا الفَسَادَ * فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ * إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾ .

وفيها بيان لتصورات الإنسان وقيمه غير الإيمانية ، وهي ذات لون خاص في السورة تعبيرًا وإيقاعًا .. ﴿ فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ * وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴾ .

ثم الرد على هذه التصورات ببيان حقيقة حالهم التي تنبع منها هذه التصورات ، وهي تشمل لونين من ألوان العبارة والتنغيم : ﴿ كَلاَّ بَل لاَّ تُكْرِمُونَ اليَتِيمَ * وَلاَ تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ المِسْكِينِ * وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَّمًا * وَتُحِبُّونَ المَالَ حُبًّا جَمًّا ﴾ .

ويلاحظ أن هذا اللون الأخير هو قنطرة بين تقرير حالهم وما ينتظرهم في مآلهم ، فقد جاء بعده : ﴿ كَلاَّ إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ... ﴾ إلخ .. فهو وسط في شدة التنغيم بين التقرير الأول والتهديد الأخير .

ومن هذا الاستعراض السريع تبدو الألوان المتعددة في مشاهد السورة وإيقاعاتها في تعبيرها وفي تنغيمها ، كما يبدو تعدد نظام الفواصل وتغير حروف القوافي بحسب تنوع المعاني والمشاهد ، فالسورة من هذا الجانب نموذج وافٍ لهذا الأفق من التناسق الجمالي في التعبير القرآني . فوق ما فيها عمومًا من جمال ملحوظ مأنوس .

وَٱلْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ﴿٣﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴿٤﴾ هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ ﴿٥﴾

سورة الفجر تأتي بعد **سورة الغاشية** ، ومعنى الغاشية كما سبق : هي الشيء الذي يغمر بالأهوال ، ولا يجد الإنسان فيه منفذًا ، ويغشى : أي يغطي الأشياء ، وهنا يقول : ﴿ وَالْفَجْرِ ﴾ ..الذي هو يغشى الظلام أيضًا ويغطيه .

إذن ، هنا تقابل بين استهلال السورتين ، فسورة تأتي بالغاشية ، وسورة تأتي بالفجر .

﴿ وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ * وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴾ .. هنا يستهل الحق السورة بالقسم ، ولا يكتفي بقسم واحد ، بل يقسم بالفجر ، ويقسم بالليالي العشر ، ويقسم بالشفع ، ويقسم بالوتر .

فعلى أي شيء يقسم الحق ﷻ ؟

وكما نعلم أن الحق ﷻ يقسم بما شاء على ما شاء ، ولكن خلقه لا يقسمون إلا به ﷻ ، والقسم يأتي دائمًا لتأكيد المقسم عليه ، ومعنى تأكيد المقسم عليه : أن الحق يوجب الدليل في القسم ، على وقوع المقسم عليه .

فما هو المقسم عليه هنا في قوله : ﴿ وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ * وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ * وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴾ ؟! في حين أن الذي جاء بعدها استفهام في قوله : ﴿ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ ﴾ أي : لذي عقل .

فلنشرح أولا مفردات القسم..

﴿ وَالْفَجْرِ ﴾ .. الفجر هو : الشق الواسع ، يقال : فجرت الشيء ، أي : جعلت به شقًّا واسعًا ، ولما كان ضوء النهار محتجبًا بسواد الليل ، كان الفجر شقًّا لذلك السواد ، ولذلك يسمونه العامود ، أي : العمود الذي يقطع الظلام ، فيشق شقًّا واسعًا ؛ فلذلك سمي الفجر فجرًا .

والمادة تدل على الشق الواسع في أي وضع كانت ؛ ولذلك يسمي الشرع من يخرج عن أمر ربه بالفاجر ، فجر أي : أحدث شقًّا واسعًا في التزامه بمنهج الله ﷻ .

إذن .. فالمسألة كلها مرجعها إلى إيجاد الشق والهوة الواسعة ، ونظرًا لأن الفجر يأتي ليشق ظلام الليل ، سمي فجرًا ، والفجر هو الانتقال من آية الليل إلى أولية آية النهار ، ونأخذ من هذا عدم ثبوت الحركة الحادثة .. ليل يأتي بظلامه ، ثم يأتي فجر بعده فيشق ذلك الظلام ، ثم تسطع الشمس بنورها ، مما يدل على أن ما في الكون أحداث ، والأحداث متغيرة ، والحدث المتغير لابد له من مهيمن عليه يغيره ، والتغيير إنما هو إلى الضد ، وإلى النقيض ، فلابد أن ننظر في آيات الكون كلها وما فيها من تغيرات من نقيض إلى نقيض .

ثم بعد ذلك نشعر أن كلمة : (الفجر) قد أخرجت العالم من الثبات والسكون إلى الحركة ، والضوء يهدينا إلى أن نتفاعل مع ما نحركه ، أو مع ما يحركنا .

فقول الحق ﷻ : ﴿ وَالْفَجْرِ ﴾ .. يقسم بآية من آيات كونه ، تُخرج الكون عن ظلامه الدامس ، لتمد الناس بالنور والإشراق ، الذي يهديهم إلى متفاعلاتهم من حركتهم في الحياة ، وكما قال الحق ﷻ : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى * وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى * وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى * إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى ﴾ [1] ، فكأن الحق ﷻ يعطي في كونه المتقابلات ؛ ليؤدي كل متقابل دوره ، فليس معنى التقابل هو التضاد أو التناقض ، وإنما هو تقابل التكامل في الحياة .

فالفجر جاء ليؤدي مهمة في الكون ، والليل جاء أيضًا ليؤدي مهمة في الكون ، وليس من

---

1 - سورة : الليل ، الآية : 1 : 4 .

صالح الكون ، ولا من صالح الإنسان ، أن يستمر الليل في ظلامه ، ولا أن يستمر النهار في ضوئه ، فكل شيء من هذه الأشياء في الكون له مهمة يؤديها ، لو أخذ رتابة في لون من الألوان ، لما وجد هذا اللون من الألوان الذي يؤيد كل زمن للحركة أو للسكون بها ؛ ولذلك يضرب لنا الحق ﷻ ذلك المثل في قوله ﷻ : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلاَ تَسْمَعُونَ ﴾ [1] ، ثم يأتي بالمقابل بعد ذلك فيقول : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ ﴾ [2].

إذن ، فيجب على الإنسان أن ينظر إلى متقابلات ذلك الكون ، لا على أنها تناقضات للكون ، ولكن على أنها مكملات ، ومعنى مكملات : أن هذا له دور ، وذلك له دور ، فلو تعدى شيء دوره ، ما استمر أو استقام أمر الحياة .

والفجر الذي يقسم الله ﷻ به هنا ، ليس مجرد ظهور الضوء الذي يمحو آية الليل ، ولكنه هو الفجر المقرون بأمر نسكي ، تعبدي ، يبتدئ الإنسان فيه يومه باستقباله لربه ، صلاةً له ، وحضورًا في حضرته ، واستمدادًا من إمداده ، بدليل أنه قال بعدها : ﴿ وَلَيَالٍ عَشْرٍ * وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴾ .

فإذا نظرنا في تلك الأقسام الأربعة ، والتي هي : (**الفجر ، والليالي العشر ، والشفع ، والوتر**) .. نجد أن رسول الله ﷺ قد فسر لنا بعض هذه الأشياء :

فالفجر : إما زمن ، وإما عبادة تشغل ذلك الزمن ، والعبادة التي تشغل ذلك الزمن تعتبر عبادة عامة ؛ لأنها استقبال أولية حركة الحياة بالإقبال على من خلق هذه الحياة ، وأنزل التكليف على الإنسان الذي له حركة في هذه الحياة ، وهو الوقت الذي يطرأ على الناس وهم

---

1 - سورة : القصص ، الآية : 71 .

2 - سورة : القصص ، الآية : 71 .

في ألذ ما يتنعمون به في حياتهم ، وهو راحة النوم .

فهذا الركن الخاص الذي يقلق الإنسان من راحته وسكونه وهدوئه ليستقبل يومه استقبالاً يبتدئه بالحضور في حضرة الله ﷻ ، ليأخذ دائمًا من إمدادات ربه ﷻ .

إذن ، فهذا أمر يقسم به ﷻ بعد أن ذكر الغاشية وما فيها من أهوال ، فكأن الذي يتنبه إلى هذه الأمور لا تأتيه الغاشية التي تحيطه بالأهوال ؛ لأن المنجى من غاشية الأهوال يوم القيامة هو أن يقبل الإنسان على منهج الله ﷻ ؛ ليبدل له هذه الغاشية ، فكأن ذلك هو التقابل .

﴿ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴾ .. وقد اختلف المفسرون فيها ، فبعضهم يرى أنها العشر الأوائل من المحرم ، وبعضهم يرى أنها العشر الأوائل من ذي الحجة ، وبعضهم يرى أنها العشر الأواخر من رمضان ، ولكن أصح ما قيل فيها – والله أعلم – أنها هي عشر ذى الحجة ، لماذا ؟! لأن عشر ذي الحجة هي الوقت الذي يستكمل الإنسان فيه منهج ربه ﷻ ، أي : التكليف ، فيستعد للحج الذي هو الركن الخامس من أركان الإسلام .

فعشر ذي الحجة هي الوقت الذي يحتشد فيه الناس لإتمام الركن الخامس من أركان الإسلام ، فكأن الإسلام بهذه الليالي ، أو بالاحتشاد فيها ، قد استوفى كل أركانه .

﴿ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴾ .. يقسم الحق ﷻ بالشفع والوتر ، و(**الشفع**) هو : الزوجية ، و(**الوتر**) هو : الفرد .

إذن .. فالحق ﷻ يقسم في هذه السورة بأقسام ، كل قسم منها يرمز إلى لون من ألوان حركة التكليف التي جاءت لحركة الحياة بالنسبة للعبد المؤمن بالله ﷻ .

﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴾ .. والليل هنا مخلوق حي ، يسري في الكون ، وكأنه ساهر يجول في الظلام ، أو مسافر يختار السرى لرحلته البعيدة .. يا لأناقة التعبير ! ويا لأنس المشهد ! ويا لجمال النغم ! ويا للتناسق مع الفجر ، والليالي العشر ، والشفع والوتر .

إنها ليست ألفاظًا وعبارات ، إنما هي أنسام من أنسام الفجر ، وأنداء مشعشعة بالعطر ،

أم إنه النجاء الأليف للقلب ؟! والهمس اللطيف للروح ؟! واللمس الموحي للضمير ؟!

إنه الجمال .. الجمال الحبيب الهامس اللطيف .. الجمال الذي لا يدانيه جمال التصورات الشاعرية الطليقة ؛ لأنه الجمال الإبداعي ، المعبر في الوقت ذاته عن حقيقة .

فهل من الممكن بعد هذا القسم أن نأخذ جوابه مما قد تقدم فى **سورة الغاشية** ؟ فيكون : ﴿ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ * وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ * وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ * وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴾ ، أى : لتُبعَثُنَّ ، نأخذها مما تقدم ، ويكون ما تقدم هو دليل الجواب في ذلك .

أو نأخذ الجواب مما يليها ، ولا يكون جوابًا ، بل يكون دليلاً للجواب ، كيف ؟ ﴿ وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ * وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ * وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ * هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ ﴾ .

﴿ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ ﴾ .. يقولون عنه : الاستفهام التقريري ، ومعناه : أن الإنسان قد يلقي قضية على مخاطبه ، فيلقيها بخبر من الأخبار ، إلا أنه خبر منه .

فالحق ﷻ لوثوقه بالخبر لا يطرحه خبرًا ، وإنما يطرحه استفهامًا ؛ لأنه ﷻ يعلم أن العقل الفطري لا يجيب إلا بجواب واحد ، فحين يقول : ﴿ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ ﴾ يكون الجواب هو : (**نعم**) .

أنت لا تلقي على مخاطب استفهامًا تقريريًا إلا في أمر تعتقد أنه لا مندوحة أن يقول إلا ما تريده أنت ، وبدلاً من أن تقوله أنت ، فيكون خبرًا من جهتك ، يكون استفهامًا منك ، فكأنك تقرره ، كما تقول لرجل ينكر أنك عاونته في شيء : ألم أعطك كذا ؟ فأنت لم تقل له ألم أعطك كذا ، إلا وأنت واثق من أنه لا يمكن أن يكون الجواب إلا بكلمة واحدة ، هي : (**نعم**) ، ولو أن عندك ذرة شك في أنه قد يقول : لا ، لما قلت له ذلك .

فالحق ﷻ يقول : هل في ذلك قسم لذي حجر ، أي : لذي عقل ؛ لأنه يعلم تمام العلم أن

العقل الفطري حين يستقبل هذا ، لا يكون جوابه إلا : نعم ، في ذلك قسم لذي عقل .

فالأشياء التي أقسم بها الحق ﷻ قسم لذي عقل .

﴿ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ ﴾ .. وإذا تأملنا في الأسلوب ، وفي قول الحق ﷻ حينما ختم القسم بقوله : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴾ ، فهل الليل يسري ، أم يُسرى فيه ؟ إن الليل هو محل الإسراء ، ولكن الحق ﷻ كما جعل الليل يُدْبر ويقبل ، والصبح يتنفس ، فهذه مظاهر حياة ، كذلك يقول : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴾ ، وكأن الليل له غاية ينتهي إليها ، ويسير إلى هذه الغاية ، فانتقل السُّرى من السير في الليل إلى نفس الليل ، فكأن الليل له غاية ، وهو يقطع فيها إلى أن ينتهي .

إذن .. فالحق ﷻ يصور لنا المعاني تصوير الحياة ، فيقول لنا : ﴿ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾[1] ، وهل الصبح يتنفس ، أم نحن الذين نتنفس ؟! ولكنه إنما يعطي بالأمور المعنوية أمورًا يصبغها بصبغة الحياة .

فعندنا مظهرية الحياة ، الحركة وغيرها ، وكل شيء فيه حياة بحسبه ، أنت تفسر الحياة بقانونك أنت ، والحياة في الحيوان بقانون الحيوان ، وحياة النبات بقانون النبات ، وكذلك الجماد ، والمعاني ، والأشياء ، كلٌّ له حياة بقانونه .

فعندما يقول الحق ﷻ : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴾ ، ثم بعد ذلك يقول : ﴿ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ ﴾ ، نقول : نعم يا رب ، إن في ذلك قسمًا لذي حجر ، فتكون النتيجة : ﴿ وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ * وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ * وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴾ ، إن في هذه الأقسام ، ﴿ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ ﴾ ، أي : هذه الأشياء يمكن أن يقسم بها لمن له عقل يتفكر ، والحجر هو العقل ؛ فإن تأملت مادة : حجر ، وعقل ، ونهى ، وجدت أن مشتقاتها كلها تدل على الحجز والمنع ، (**حجر**) ، أي : منع عن شيء ، وحجرك عن كذا : حجزك ، و (**عقل**) ..

---

1 - سورة : التكوير ، الآية : 18 .

أي : عقلك عن كذا ، أي : منعك ، و (نهى) أى : منع ، وكأن مهمة العقل ليست هي انطلاق الحركة ، فمهمة العقل هي أن تعقل حركتك ، بحيث تؤدي إلى الغاية المطلوبة منك أداءً يحقق لك نفعًا أكبر ، كذلك مهمة العقل أن يحجب الغرائز المتعدية عند الإنسان بمنهج ، ومعلوم أنه هناك غرائز لازمة ، وغرائز متعدية ، فالغريزة اللازمة : غريزة تؤدي المهمة التي من أجلها وُجِدت الغريزة ، بحيث لا تحمل الغريزة أمرًا زائدًا عن ما أُعِدت له ، فمثلاً الحيوان يحب أن يأكل ، لكن إذا ما أدى مهمة أكله وشبع ، فلا يمكن أن يأكل أي شيء زائد عن طاقته .

أما الغريزة المتعدية : فهى التى تعدت المطلوب منها ، كغريزة حب الطعام عند الإنسان واشتهائه له بالرغم من شبعه .

والحيوان مثلاً عنده غريزة حب النوع ، وهي الغريزة التناسلية ، وهي غريزة لازمة عنده ؛ لأنه بمجرد أن تحمل الأنثى ، لا يقترب الذكر منها ، لكن الإنسان يجامع المرأة حتى الوضع ، فتكون هذه الغريزة متعدية ، أي : ليست لحفظ النوع ، بل جعلها متعة ذاتية .

إذن .. فشهوة الإنسان غريزة متعدية ، فيأتي العقل فيحجب هذه الغرائز المتعدية بمنهج ، لماذا ؟ لأن الحيوان ليس له اختيار ، أما الإنسان فمخلوق على هيئة فيها الاختيار ، فالعقل الإنساني يختار بين البديلات ، أما الحيوان فليس له اختيار .

إذن .. فوظيفة العقل هي أن يعقل حركة الإنسان ، من عقلت البعير ، أي : منعته عن الحركة .

إذن ، فكل غريزة لها وظيفة مخلوقة لها ، ثم يأتي المنهج لكي يوقفه عند موجبات هذه الغريزة ، حتى لا تكون غريزة متعدية .

إذن ، فكل مادة العقل تعمل كاللجام ، أي : كابحة ، حتى لو أن العقل عقل متحرر وقوي ، فمعنى العقل : أنه يعقل حركتك لكي تكون حركة منضبطة مع منهج الخالق ، وهو

افعل ، ولا تفعل ، فالحق ﷻ يقول : لو أنكم استقرأتم هذه الأقسام ، وجدتم أن فيها مقنعًا للقسم : ﴿ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ ﴾ .

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴾ .. لما تكلم الحق ﷻ عن الغاشية وأهوالها ، وأنها تكتنف الناس ، ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ * عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ﴾[1] ، ربما ظن ظان أن الله ﷻ يجعل كل الجزاء في الآخرة ، وقد يستبطئ ناس الآخرة ، وقد لا يؤمن ناس بالآخرة ، فلابد من وضع حد للطغيان في الكون ، فيكون هناك أشياء لا تؤجل للآخرة ، بل يكون الاعتبار بها في الدنيا أيضًا ، فقال ﷻ لنا : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ * وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴾ .. أتى لنا بأعلام لهم تاريخ معروف ومعلوم ومتداول ، كان لهم من الامتداد العمراني ، والرقي الحضاري ، والتمكين في الأرض ، ثم بعد ذلك انهارت كل تلك الحضارات قاطبة وانتهت بأجمعها ، وعندما يقول القرآن : ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ .. فالخطاب أولاً لرسول الله ﷺ ، ثم يشمل كل من يتأتى بعد ذلك .

وكلمة : ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ معناها : أن ذلك أمر عرف للنبي ﷺ وعرف للمعاصرين لنزول هذه

1 - سورة : الغاشية ، الآية : 2 ، 3 .

الآية ، وإلا فلو لم يكن تاريخًا معلومًا ومتعارفًا لاعترضوا على هذه الحكاية لعدم علمهم بها .

فلا يقول الحق ﷻ : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ ﴾ إلا لأمر متعارف معلوم ، وقع في الكون ، والاستدلال بواقع الكون المخالف لمنهج الله ، يدل على أننا يجب أن نصدق ما لم يقع تحت حسنا في كون الله ؛ لأن الله ﷻ أخبر به ، فيكون إخبار الله لنا أوثق من حواسنا .

إذن .. فالمخالفة للمنهج السماوي يكون له لون من الجزاء الدنيوي ، ولون من الجزاء الأخروي .

فلكي لا يستبطئ الناس الآخرة ، يقول لهم : حتى في الدنيا ، لله أيضًا قَدَرٌ يجري على من انحرف وبغى ؛ لكي نعتبر، فالذي لا يؤمن بغيب الوعد ، ولا بغيب الوعيد ، يؤمن بمشهد الواقع .

وكلمة : (**ألم تر**) يعني : (**ألم تعلم**) ، فيكون المعنى : ألم تصلك النسبة التي أسندت في الأخبار الآتية ، وهي ثمود ، وعاد ، وفرعون .

وعلة العدول عن (**ألم تعلم**) إلى (**ألم تر**) هي أنه قد يعلمك إنسان بأمر هو غيب عنك ، ولكنه يستطيع أن يدلل عليه دليلاً عقليًا يقينيًا ، ومع ذلك يظل الأمر غيبًا عنك ، ولكنه إن نقلك إليه نقلاً مشهديًا فإنه بذلك يكون قد جعله واقعًا عندك ، كمن يخبرك مثلاً عن جبال الهمالايا ، وأن فيها أعلى قمة جبل في العالم ، وهو جبل إفرست ، فهذا الكلام في ذاته واقع ، ولكنه يظل غيبًا بالنسبة لك ، حتى تذهب أنت وترى بنفسك ، فتكون بذلك قد أخذت الأمر مشهديًا بعد أن كنت أخذته خبرًا .

فمعنى : (**ألم تر**) .. هو نقل الإنسان من علم يقيني بالخبر إلى عين الشيء ، أي أنك قد أصبحت معاينًا له .

فحين يستبدل الحق ﷻ كلمة : (**ألم تعلم**) بـ (**ألم تر**) ، فإنه بذلك يريد أن يقول : إنك إذا علمت علمًا أعلمكه الله ﷻ فإنك بذلك تكون وكأنك قد رأيته رؤيا عين ، فاعلم أن يقينك

به يجب أن يكون يقين المستقبل لما رأى ، لا يقين المستقبل لما سمع .

فيكون خبر الله إليك أوثق من معاينتك ورؤيتك للأشياء ؛ لأن عينك قد تخدع ، لكن ربك ﷻ لن يخدعك .

إذن .. فكل أمر من الأمور يؤكده الحق ﷻ فيأتي بـ : (ألم تر) ، فيقول : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ ﴾[1] ، وأنا يا رب لا أرى الذين يسجدون في السماء ، ولا كل الذين يسجدون في الأرض ، لكن ربنا قال ، وما مدام ربنا قد قال ، فيكون ذلك عِلمًا لا خبرًا ، أي : علم كأنك أنت رأيته .

ولذلك نقول : إن إخبار الله ﷻ عن أمر غيبي ، يجب أن يرتقي إلى مستوى ما تراه عينك ، (وليس مع العين أين) .

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴾ .. وعاد تذكر في الأحقاف : ﴿ وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالأَحْقَافِ ﴾[2] ، وهي في جنوب الجزيرة بين عدن وحضرموت ، وإلى الآن لم نهتدِ إلى شيء من آثارها ، ولكن ثمود ، ومدائن صالح ، عرفنا منها شيئًا ، ورأينا كيف حفروا الجبال وبنوا البيوت ، وما أشبه ذلك .

وفرعون شهدنا حضارته أو ما يدل عليها ، ولا ينطمس علينا إلى الآن إلا قصة عاد ، لا نعرف عنها شيئًا ، إلا من خبر القرآن عنها ، ويجوز أن يكون من مُضِيِّ الزمن ؛ لأنها بلاد رمال ، ويحدّثون أن عاصفة الرمل تهب فتطمر قافلة بأكملها ، فإذا كانت العاصفة الواحدة تدمر قافلة بأكملها ، فيكون مع توالي العصور قد حدث طمر لهذه المعالم ، سواء كانت ذات العماد ، أي : المباني التي لها عُمد ومرتفعة ، كما يقولون عنها في التاريخ ، ويجوز أن يكون القدر الذي وجد في أذهان المعاصرين للقرآن كان متوارثًا تاريخيًا من الآباء ، ولم يكونوا قد رأوا

---

1 - سورة : الحج ، الآية : 18 .

2 - سورة : الأحقاف ، الآية : 21 .

شيئًا من معالمهم .

لكن صِدْق الحق الذي يتجلى فيما بقي لنا من آثار ، يشهد أيضًا لنا بتصديقه فيما خفي عنا من آثار .

﴿ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴾ .. أعطانا الله ﷻ صورة حضارية متمكنة من المادة ، ومدام لم يخلق مثلها في البلاد ، فمعنى ذلك أنها كانت الدولة الأولى في العالم .

﴿ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴾ .. جابوا أي : قطعوا الصخر ، لكي يبنوا به البيوت ، والتماثيل ، وما شابه ذلك .

﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ ﴾ .. وهي على الأرجح الأهرامات ، التي تشبه الأوتاد الثابتة في الأرض المتينة البنيان ، وفرعون هو ذلك الطاغية الجبار ، الذي كان بطغيانه يذبح الأبناء ، ويعذب الآباء .

﴿ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴾ .. يقول : إن العيب فيهم ليس لأنهم وصلوا لذلك الرقي والحضارة : ﴿ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ * وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ * وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ ﴾ ، إنما انصباب اللعنة عليهم جاء بسبب الطغيان ، ذلك الطغيان الذي كان سببه التفوق في ماديات الحياة .

إذن .. فالعيب عليهم ليس لأنها ﴿ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾ بل تبقى إرم ذات العماد هي .. ﴿ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ * وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ * وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ ﴾ .

لكن ينبغي أن لا يتسبب عن ذلك الرقي المادي في حركة الحياة وفي حضارتها طغيان .

إذن .. فالمعيب هو طغيان الحركة ، لا الحركة في ذاتها ، ارتقِ في مادتك كما تحب ، واستنبط من أسرار الوجود ما يجعلك في رفاهية من الحياة مما أحل الله ، ولكن لا يجب أن

يكون تفوقنا في الحياة وسيلة من وسائل الطغيان ؛ لأن هذا الطغيان يؤدي إلى الفساد ، والله لا يدع هذا الفساد ، بل يأخذ أخذ عزيز مقتدر ، ويصب على الطغاة من العذاب ، لماذا ؟ لكي يعطي صورة في الوجود ، صورة : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾ .

إذن .. فالآيات حينما عرضت ، عرضت في مقدمتها حضارات ، هذه الحضارات كانت متفوقة ، ومتميزة ، ونحن شهدنا آثار تلك الحضارات ، وعرفنا عنها أشياء يعجز عصرنا بما أوتي من نشاطات ذهنية وابتكارية في الكون أن يصل إلى هذه المسألة ، فلا يزالون في حيرة في بناء الأهرام ، وكيف رفعت هذه الأحجار ؟! وكيف وضعت في هذا الموضع ؟! وكيف وصلوا إلى هذا المستوى العالي في الهندسة ؟! فإلى الآن هي محل عجب من العقول المعاصرة .

فتصور لو أن هذه الحضارات لم تؤخذ أخذ عزيز مقتدر من جذورها ، كيف كانت تصل بعد هذه الآلاف من السنين ؟! لابد أنها كانت تصل إلى مراحل كبيرة ، إنما انقطاع أخبارها عنا ، يدل على أن الحق ﷻ حينما أخذهم ، أخذهم أخذ عزيز مقتدر ، ولم يترك حتى ما يدل على كيفية وصول أصحاب هذه الحضارات إلى ما وصلوا إليه .

﴿ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴾ .. عندما يتناول الحق ﷻ المعنى فإنه ﷻ يعطي المعنى شمولية العطاء ، فيقول : ﴿ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴾ .. و(**الطغيان**) : هو تجاوز الحد ، و(**الفساد**) : هو إخراج الأمر الصالح عن صلاحه ؛ لأن الأمور قد تكون صالحة في نفسها ، ولا يُطلب منك إلا شيء واحد ، وهو ألا تعمد إلى الصالح في ذاته فتفسده .

كلمة الطغيان : تجاوز ، وتجاوز الحد معناه : أن هناك مقادير للأمور ، وهناك من يريد تجاوز تلك المقادير والاستعلاء عليها ، وبالطبع لا يمكن أن يوجد مستعلٍ إلا إذا وجد مستعلى عليه .

ومعنى الاستعلاء : أنك تريد استطراقًا عكسيًا ، والاستطراق العكسي عكس الاستطراق

الإيماني المطلوب منك كمنهج إيماني ، أن يوجد استطراق منك ، أي : من قوتك لضعفك ، من غناك لفقرك ، من علمك لجهلك ، هذا هو الاستطراق الإيماني ، والرزق الذي عندك تعطي منه المحروم من ذلك الرزق .

وأما الاستطراق الثاني فبالعكس ، فيكون الرجل قويًّا ، ولكنه يريد أن يأخذ حركة الضعيف لصالحه ، وقد يكون الرجل غنيًّا ، ولا يعطي الفقير حقه حتى يزداد غنىً ، وهو يزيد فقرًا .

فتكون بذلك ما حققت الاستطراق : ﴿ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ ﴾ [1] ، والطغيان ليس بأنك تركته على حاله فلم تعطه ولم تظلمه ، بل حاولت أن تستطرق من الضعف إلى القوة .

إذن .. فهذا لون من الفساد المركب ؛ لأنك لو تركته على ضعفه من غير أن تمده بقوتك ، فهذا ظلم ، فما بالك لو أردت أن تأخذ من طاقة ضعفه زيادة في قوتك أنت ، فهذا طغيان ، فيكون : ﴿ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴾ ، وحين أصبح الوضع بهذا الشكل ، فلابد أن يتدخل الذي في السماء ﷻ ، ولا يتدخل ﷻ طالما توجد في الإنسان نفس رادعة ، أي : نفس لوامة ، فمن ليس عنده نفس لوامة ، بل نفسه أمَّارة بالسوء ، فهناك مجتمع يُقَوِّمه ، فإذا لم توجد النفس اللوامة – الردع الذاتي – ولم يوجد المجتمع المقوِّم – الردع الخارجي – ، فيجب أن يتدخل رب الأرض والسماء ، وذلك حين لا يوجد الردع الذاتي ، ولا الردع الاجتماعي .

وهذا هو الفارق بين أمة الإسلام وبين غيرها من الأمم ، فقد كان كل رسول من الرسل السابقين غير مطلوب منه أنه يؤدب الخارجين عن المنهج ، بل حينما يطغى الكافرون أمام أي منهج رسالي ، تُرسل الصيحة ، أو الزلزلة ، أو الطوفان ، أو غير ذلك من ألوان العذاب ،

---

1 – سورة : النحل ، الآية : 71 .

ولكن ذلك الوضع لم يختلف إلا في الإسلام ؛ لأن الله ﷻ أرسل رسوله مهيمنًا على الأديان كلها ، حتى يكونوا هو وأمته مقومين لمنهج الانحراف في الأرض .

ولذلك تجد أن خاصية الردع الاجتماعي لم تنطمس أبدًا عند المسلمين ، فلابد أن يوجد أهل خير في أمة الإسلام .

لأن الأمم قبل الإسلام كان من الممكن أن تنطمس وتندرس ، أما في أمة الإسلام فقد قال ﷺ : **" لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك "** [1] ، وهذا لأن المسلمين ، أو أتباع **محمد** ﷺ الذين آمنوا برسالته ، امتداد لرسالته ﷺ .

فهذه هي ميزة الإسلام ، وعلى ذلك آمن رسول الله ﷺ ، وآمن المؤمنون برسول الله ﷺ على أن يحملوا حملة التأسيس للبشر ، حينما يخالفون منهج الله ، جهادًا في سبيل الله ، وضربًا على أيدي العابثين ، وتذكيرًا لهم دائمًا بمنهج الله ؛ ولذلك تجد أن الحق ﷻ حمَّل أمة الإسلام نفس التحميل لرسول الله ﷺ : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [2] .

إذن .. فكما أن رسول الله ﷺ يشهد أنه بلغنا ، وأنه أقامنا على المحجة ، مطلوب منكم يا من آمنتم به ، أن تشهدوا على الناس بأنكم بلغتموهم ، وأنكم أقمتموهم على المحجة .

﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾ .. وكلمة : المرصاد توحي بالترصد والترقب ، فلا تظنوا أنكم انفلتم من الله ﷻ ، وأنكم تصرفتم في كون الله هذا التصرف ، وسخر لكم ما في الأرض ليكون تحت طوعكم وإشارتكم ونشاطكم ، فلا تظنوا أنكم انفلتم عن الله ، فإن ربكم بالمرصاد ، يرصد تحركاتكم ، ولأن ربنا هو الذي يرصد تحركاتنا فأي حركة تخالف منهج الحق ﷻ هي حركة محسوبة ومقدرة ، إن شاء عجل الله بها في الدنيا ، وإن شاء ادخرها إلى الآخرة .

---

1 - أخرجه البخاري عن المغيرة بن شعبة (6767) ، ومسلم من حديث ثوبان (3544) .

2 - سورة : البقرة ، الآية : 143 .

فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾

ثم يتحدث الحق ﷻ عن خطأ معايير الناس في استقبال أوامر الحق في الخلق ، فيقول لهم : أنتم تأخذون المقاييس بالعقل ، وأنا أريد أن أعدل لكم المقاييس ، فإذا عدلت لكم المقاييس التي تزنون بها أموركم أمكن لحركتكم أن تسير على هدى ، إنما الذي يجعل حركتكم لا تسير على هدى هو أن المقاييس نفسها التي تردون إليها وزن حركاتكم مقاييس خاطئة .

﴿ فَأَمَّا الإنسان إِذَا مَا ابْتَلاَهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ * وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاَهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴾ .. فأتى بصورتين من صور الحياة ، صورة لإنسان موسع عليه في رزقه ، وصورة لإنسان مضيق عليه في رزقه ، فالإنسان الموسع عليه يظن أن هذه السعة إكرام من الله عليه ، والمضيق عليه يظن أن هذا التضييق إهانة من الله له ، فنقول له : أنت في هذه المقاييس خلطت بين شيئين ، خلطت بين الامتحان وبين النتيجة ، فإيتاء المال امتحان ، والتقتير في إيتاء المال امتحان أيضًا ، والنتيجة النهائية تتأتى على تصرفك تجاه هذا الامتحان .

إذن .. فإيتاء المال نفسه ليس نتيجة النجاح ، كلا ، فما زال هذا امتحانًا ؛ لذلك جمع الله

ﷻ بين الأمرين في الابتلاء فقال : ﴿ فَأَمَّا الإنسان إِذَا مَا ابْتَلاَهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ ﴾ ، ثم : ﴿ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاَهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ ﴾ .. فالصورتان الظاهرتان ليستا نتيجة نجاح ، بل كلاهما امتحان .

﴿ كَلاَّ بَلْ لاَ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴾ .. يرد الله ﷻ على الاثنين فيقول : ﴿ كَلاَّ ﴾ ، أي : أنت خاطئ في هذه ، وأنت أيضًا خاطئ في تلك ، فلا الذي أنعم الله عليه دليل إكرام ، ولا الذي ضيق الله عليه دليل إهانة ، وأنا سأبين لكم السبب : حين يؤتي الله إنسانًا مالاً ، فهذا المال تكون فيه حقوق .. كيف يكتسب ، وكيف يُستغل ويُنفق ، فالله تجاوز عن مرحلتين ، وتكلم عن المرحلة الأخيرة ، وهي مرحلة المصرف .

﴿ وَلاَ تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴾ .. هل من لديه مال يتصرف فيه تصرفًا صحيحًا ؟ هل تحض على طعام المسكين ؟ هل تكرم اليتيم ؟ أعطانا الله صورتين من صور البؤس والشقاء ، فيقول : ﴿ كَلاَّ بَلْ لاَ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ * وَلاَ تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴾ ، هذا في المصرف ، فإذا كنت في مصرفك للمال غير موفق ، فكيف يكون إيتاء المال الذي أنت غير موفق في مصرفه إكرامًا لك ؟! بل هو امتحان لكي يرى ماذا تعمل فيه .

﴿ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَمًّا * وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴾ ، أي : تركة الرجل ، يأخذها القوي ، ويترك الضعيف ، هذا في أخذ المال ، فكيف إذا كان أخذ المال أساسًا بهذا الشكل ، ومصرفه بهذا الشكل ، فلا توفيق لكم في شيء ، فكيف تظن يا من أوتيت مالاً أن هذا إكرام لك ، إنما هو ابتلاء .

ويا من مُنع عنه المال ، لا تظن أن منع المال عنك إهانة ، فلو نظرت لمن قال الله ﷻ فيه : ﴿ وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾[1] ، أو لمن قال فيه : ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ

---

1 - سورة : آل عمران ، الآية : 180 .

وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ ﴾[1] ، فعندما أمنعك من هذا المال ، أكون قد أهنتك أم حملتك على أن تكون ذا عذر في الوجود ؟ فقد تكون ممن يرسب في الامتحان ، فلعلي حرمتك منه رحمة بك .

وبعد ذلك يطلق الحق صور هذا الوجود ، لنعرف أن كثيرًا من الأغنياء لم يوفقوا ، لا في أخذ أموالهم ، ولا في استغلال أموالهم ، ولا في مصرف أموالهم . فحين تتأكد لنا هذه القضية ، نقول : إذن ، فإيتاء المال ليس دليل إكرام من الله ، ومنع المال ليس دليل إهانة من الله ، فكلا الأمرين ابتلاء واختبار ، فمن شكر نعمة الله ﷻ نجح في الاختبار ، ومن لا فلا .

أسأل الله ﷻ أن نكون ممن نجحوا في كلا الابتلاءين .. المال والتقتير ..

كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾

وعند هذا الحد من فضح حقيقة حالهم المنكرة ، بعد تصوير خطأ تصورهم في الابتلاء بالمنع والعطاء .. يجيء التهديد الرعيب بيوم الجزاء وحقيقته ، بعد الابتلاء ونتيجته ، في إيقاع

1 - سورة : التوبة ، الآية : 34 ، 35 .

شـــديد : ﴿ كَلاَّ إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكًّا دَكًّا * وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا * وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ وَأَنَّى لَهُ الـذِّكْرَى * يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي * فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ * وَلاَ يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ ﴾ .

﴿ كَلاَّ إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴾ .. ودَكُّ الأرض : تحطيم معالمها وتسـويتها ، وهو أحد الانقلابات الكونية التي تقع في يوم القيامة .

﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ .. وأما مجيء ربـك والملائكة صفًّا صفًّا ، فهو أمر غيبي لا ندرك طبيعته ونحن في هذه الأرض ، ولكنا نحس وراءه التعبير بالجلال والهول .

﴿ وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى ﴾ .. والمجيء بجهنم أيضًا يوحي بذلك الجلال والرهبة ، ونأخذ منه قربها منهم ، وقرب المعذبين منها وكفى ، وأما حقيقة ما يقع وكيفيته فذلك من غيب الله المكنون ليومه المعلوم .

إنما يرتسم من وراء هذه الآيات ، ومن خلال إيقاعها الحاد التقسيم .. الشديد الأسر ، مشهد ترجف له القلوب ، وتخشع له الأبصار .. إذ الأرض تدك دكًّا دكًّا ، والجبار المتكبر يتجلى ويتولى الحكم والفصل ، ويقف الملائكة صفًّا صفًّا ، ثم يجاء بجهنم فتقف متأهبة هي الأخرى .

﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ ﴾ .. ذلك الإنسان الذي غفل عن حكمة الابتلاء بالمنع والعطاء ، والذي أكل التراث أكلاً لمًّا ، وأحب المال حبًّا جمًّا ، والذي لم يكرم اليتيم ، ولم يحض على طعام المسكين ، والذي طغى وأفسد وتولى .. يومئذ يتذكر .. يتذكر الحق ويتعظ بما يرى ، ولكن لقد فات الأوان ﴿ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى ﴾ .. ولقد مضى عهد الذكرى ، فما عادت تجدي هنا في دار الجزاء أحدًا ، وإن هي إلا الحسرة الكبرى على فوات الفرصة في دار العمل في الحياة الدنيا .

﴿ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴾ .. حين تتجلى له هذه الحقيقة .. ﴿ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي

قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴾ .. يا ليتني قدمت شيئًا لحياتي هنا ، فهي الحياة الحقيقية التي تستحق اسم الحياة ، وهي التي تستأهل الاستعداد والتقدمة والادخار لها .. يا ليتني .. أمنية فيها الحسرة الظاهرة ، وهي أقسى ما يملكه الإنسان في الآخرة .

﴿ فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ * وَلاَ يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ ﴾ .. يصور مصيره بعد الحسرة الفاجعة ، والتمنيات الضائعة : ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ * وَلاَ يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ ﴾ .. إنه الله القهار الجبار ، الذي يعذب يومئذ عذابه الفذ الذي لا يملك مثله أحد ، والذي يوثق وثاقه الفذ الذي لا يوثق مثله أحد ، وعذاب الله ﷻ ووثاقه يفصلهما القرآن في مواضع أخرى في مشاهد القيامة الكثيرة المنوعة في ثنايا القرآن كله ، ويجملهما هنا حيث يصفهما بالتفرد بلا شبيه من عذاب البشر ووثاقهم ، أو عذاب الخلق جميعًا ووثاقهم ، وذلك مقابل ما أسلف في السورة من طغيان الطغاة ممثلين في عاد وثمود وفرعون ، وإكثارهم من الفساد في الأرض ، مما يتضمن تعذيب الناس وتقييدهم بالقيود والأغلال ، فها هو ذا ربك أيها النبي وأيها المؤمن يعذب ويوثق من كانوا يعذبون الناس ويوثقونهم ، ولكن شتان ما بين عذاب وعذاب ، ووثاق ووثاق .. وهان ما يملكه الخلق من هذا الأمر ، وجل ما يفعله صاحب الخلق والأمر ، فليكن عذاب الطغاة للناس ووثاقهم ما يكون ، فسيعذبون هم ويوثقون ، عذابًا ووثاقًا وراء التصورات والظنون .

وفي وسط هذا الهول المروع ، وهذا العذاب والوثاق ، الذي يتجاوز كل تصور تنادَى النفس المؤمنة من الملأ الأعلى : ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴾ ..

هكذا في عطف وقرب : ﴿ يَا أَيَّتُهَا ﴾ .. وفي روحانية وتكريم : ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ ﴾ .. وفي ثناء وتطمين : ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴾ .

ثم في وسط الشد والوثاق ، الانطلاق والرخاء : ﴿ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ ﴾ .. ارجعي إلى

مصدرك بعد غربة الأرض ، وفرقة المهد .. ارجعي إلى ربك بما بينك وبينه من صلة ومعرفة ونسبة : ﴿ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾ .. بهذه النداوة التي تفيض على الجو كله بالتعاطف وبالرضى .

﴿ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴾ .. المقربين المختارين لينالوا هذه القربى .

﴿ وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴾ .. في كنفي ورحمتي .

إنها عطفة تنسم فيها أرواح الجنة منذ النداء الأول : ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴾ .. المطمئنة إلى ربها .. المطمئنة إلى طريقها .. المطمئنة إلى قدر الله بها .. المطمئنة في السراء والضراء ، وفي البسط والقبض ، وفي المنع والعطاء .. المطمئنة فلا ترتاب .. والمطمئنة فلا تنحرف .. والمطمئنة فلا تتلجلج في الطريق .. والمطمئنة فلا ترتاع في يوم الهول الرعيب .

ألا إنها الجنة بأنفاسها الرضية الندية ، تطل من خلايا هذه الآيات ، وتتجلى عليها طلعة الرحمن الجليلة البهية .

نسأل الله ﷻ أن يمن علينا بهذا النداء يوم ينادى علينا ،
وأن يرزقنا الجنة وما قرب إليها من قول أو عمل ،
وأن يجنبنا النار وما قرب إليها من قول أو عمل .

علم

تفسير جزء

سورة البلد

سورة البلد

أحمدك ربي على فضائل ذاتك، وعظائم نعمائك، وأصلي وأسلم على قمة اصطفائك، ومسك ختامك، سيدنا محمد ﷺ .. وبعد :

فمع **سورة البلد** ، وهذه السورة في عمومها حلقة من حلقات هذا الجزء في الهتاف بالقلب البشري إلى الإيمان والتقوى واليقظة والتدبر ، ولكنها تتضمن ألوانًا شتى من الجولات والإيقاعات والظلال .. ألوانًا متنوعة تؤلف من تفرقها وتناسقها لحنًا واحدًا .. متعدد النغمات .. موحد الإيقاع .

تضم هذه السورة القصيرة جناحيها على حشد من الحقائق الأساسية في حياة الكائن الإنساني ذات الإيحاءات الدافعة واللمسات الموحية ، حشد يصعب أن يجتمع في هذا الحيز الصغير في غير القرآن الكريم ، وأسلوبه الفريد في التوقيع على أوتار القلب البشري بمثل هذه اللمسات السريعة العميقة .

* تفسير السورة مقتبس بتصرف من : " في ظلال القرآن " .

لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ﴿٢﴾ وَوَالِدٖ وَمَا وَلَدَ ﴿٣﴾ لَقَدۡ خَلَقۡنَا
ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ ﴿٤﴾ أَيَحۡسَبُ أَن لَّن يَقۡدِرَ عَلَيۡهِ أَحَدٞ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهۡلَكۡتُ مَالٗا لُّبَدًا ﴿٦﴾
أَيَحۡسَبُ أَن لَّمۡ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٧﴾ أَلَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ عَيۡنَيۡنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانٗا وَشَفَتَيۡنِ ﴿٩﴾
وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ ﴿١٠﴾ فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ
﴿١٣﴾ أَوۡ إِطۡعَٰمٞ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ ﴿١٤﴾ يَتِيمٗا ذَا مَقۡرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوۡ مِسۡكِينٗا ذَا مَتۡرَبَةٍ ﴿١٦﴾
ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ
ٱلۡمَيۡمَنَةِ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيۡهِمۡ نَارٞ مُّؤۡصَدَةُۢ ﴿٢٠﴾

تبدأ السورة بالتلويح بقسم عظيم ، على حقيقة في حياة الإنسان ثابتة :

﴿ لاَ أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ * وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ * وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ * لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ﴾ .. والبلد هو مكة .. بيت الله الحرام .. أول بيت وضع للناس في الأرض ؛ ليكون مثابة لهم وأمنًا ، يضعون عنده سلاحهم وخصوماتهم وعداواتهم ، ويلتقون فيه مسالمين حرامًا بعضهم على بعض ، كما أن البيت وشجره وطيره وكل حي فيه حرام ، ثم هو بيت **إبراهيم** والد **إسماعيل** أبي العرب والمسلمين أجمعين .

ويكرم الله نبيه **محمدا** ﷺ فيذكره ويذكر حله بهذا البلد وإقامته فيه ، بوصفها ملابسة تزيد هذا البلد حرمة ، وتزيده شرفًا ، وتزيده عظمة ، وهي إيماءة ذات دلالة عميقة في هذا

المقام ، والمشركون يستحلون حرمة البيت ، فيؤذون النبي ﷺ والمسلمين فيه ، والبيت كريم ، ويزيده كرمًا أن النبي ﷺ حل فيه مقيمًا ، وحين يقسم الله ﷻ بالبلد والمقيم به ، فإنه يخلع عليه عظمة وحرمة فوق حرمته ، فيبدو موقف المشركين الذين يدعون أنهم سدنة البيت وأبناء **إسماعيل** وعلى ملة **إبراهيم** ، موقفًا منكرًا قبيحًا من جميع الوجوه .

ولعل هذا المعنى يرشح لاعتبار : ﴿ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴾ .. إشارة خاصة إلى **إبراهيم** ، أو إلى **إسماعيل عليهما السلام** ، وإضافة هذا إلى القسم بالبلد والنبي المقيم به ، وبانيه الأول وما ولد .. وإن كان هذا الاعتبار لا ينفي أن يكون المقصود هو : والد وما ولد إطلاقًا .. وأن تكون هذه إشارة إلى طبيعة النشأة الإنسانية ، واعتمادها على التوالد ، تمهيدًا للحديث عن حقيقة الإنسان التي هي مادة السورة الأساسية .

وفي هذا الموضع يقول **الشيخ محمد عبده** :

" ثم أقسم بوالد وما ولد ، ليلفت نظرنا إلى رفعة قدر هذا الطَور من أطوار الوجود ، وهو طور التوالد ، وإلى ما فيه من بالغ الحكمة وإتقان الصنع ، وإلى ما يعانيه الوالد والمولود في إبداء النشء وتكميل الناشئ ، وإبلاغه حده من النمو المقدر له .. فإذا تصورت في النبات كم تعاني البذرة في أطوار النمو .. من مقاومة فواعل الجو ، ومحاولة امتصاص الغذاء مما حولها من العناصر ، إلى أن تستقيم شجرة ذات فروع وأغصان ، وتستعد إلى أن تلد بذرة أو بذورًا أخرى تعمل عملها ، وتزين الوجود بجمال منظرها ، إذا أحضرت ذلك في ذهنك ، والتفت إلى ما فوق النبات من الحيوان والإنسان ، حضر لك من أمر الوالد والمولود فيهما ما هو أعظم ، ووجدت من المكابدة والعناء الذي يلاقيه كل منهما في سبيل حفظ الأنواع ، واستبقاء جمال الكون بصورها ما هو أشد وأجسم " .

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَدٍ ﴾ .. يقسم الحق ﷻ هذا القسم على حقيقة ثابتة في حياة الكائن الإنساني : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَدٍ ﴾ .. في مكابدة ومشقة ، وجهد وكد ،

وكفاح وكدح .. كما قال في موضع آخر : ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ ﴾[1].

فالخلية الأولى لا تستقر في الرحم حتى تبدأ في الكبد والكدح والنصب ؛ لتوفر لنفسها الظروف الملائمة للحياة والغذاء بإذن ربها ﷻ ، وما تزال كذلك حتى تنتهي إلى المخرج ، فتذوق من المخاض – إلى جانب ما تذوقه الوالدة – ما تذوق ، ثم ما يكاد الجنين يرى النور حتى يكون قد ضغط ودفع حتى كاد يختنق في مخرجه من الرحم .

ومنذ هذه اللحظة يبدأ الجهد الأشق والكبد الأمر ، يبدأ الجنين ليتنفس هذا الهواء الذي لا عهد له به ، ويفتح فمه ورئتيه لأول مرة ليشهق ويزفر في صراخ يشي بمشقة البداية ، وتبدأ دورته الهضمية ودورته الدموية في العمل على غير عادة ، ويعاني في إخراج الفضلات حتى يروض أمعاءه على هذا العمل الجديد ، وكل خطوة بعد ذلك كبد ، وكل حركة بعد ذلك كبد ، والذي يلاحظ الوليد عندما يهم بالحبو وعندما يهم بالمشي يدرك كم يبذل من الجهد العنيف للقيام بهذه الحركة الساذجة .

وعند بروز الأسنان كبد .. وعند انتصاب القامة كبد .. وعند الخطو الثابت كبد .. وعند التعلم كبد .. وعند التفكر كبد .. وفي كل تجربة جديدة كبد كتجربة الحبو والمشي سواء .

ثم تفترق الطرق ، وتتنوع المشاق ، هذا يكدح بعضلاته ، وهذا يكدح بفكره ، وهذا يكدح بروحه ، وهذا يكدح للقمة العيش وخرقة الكساء ، وهذا يكدح ليجعل الألف ألفين وعشرة آلاف ، وهذا يكدح لملك أو جاه ، وهذا يكدح في سبيل الله ، وهذا يكدح لشهوة ونزوة ، وهذا يكدح لعقيدة ودعوة ، وهذا يكدح إلى النار ، وهذا يكدح إلى الجنة .. والكل يحمل حمله ويصعد الطريق كادحًا إلى ربه فيلقاه ، وهناك يكون الكبد الأكبر للأشقياء ، وتكون الراحة الكبرى للسعداء .

إنه الكبد .. طبيعة الحياة الدنيا ، تختلف أشكاله وأسبابه ، ولكنه هو الكبد في النهاية ،

---

1 – سورة : الانشقاق ، الآية : 6 .

فأخسر الخاسرين هو من يعاني كبد الحياة الدنيا لينتهي إلى الكبد الأشقِّ الأمرِّ في الأخرى ، وأفلح الفالحين من يكدح في الطريق إلى ربه ليلقاه بمؤهلات تنهي عنه كبد الحياة ، وتنتهي به إلى الراحة الكبرى في ظلال عرش الله ﷻ .

على أن في الأرض ذاتها بعض الجزاء على ألوان الكدح والعناء ، فالذي يكدح للأمر الجليل ليس كالذي يكدح للأمر الحقير .

والذي يكدح وهو طليق من أثقال الطين ، أو للانطلاق من هذه الأثقال ، ليس كالذي يكدح ليغوص في الوحل ويلتصق بالأرض كالحشرات والديدان ، والذي يموت في سبيل دعوة ليس كالذي يموت في سبيل نزوة ، ليس مثله في خاصة شعوره بالجهد والكبد الذي يلقاه .

وبعد تقرير هذه الحقيقة عن طبيعة الحياة الإنسانية يناقش بعض دعاوى الإنسان وتصوراته التي تشي بها تصرفاته ..

﴿ أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ * يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُبَدًا * أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ ﴾ .. إن هذا الإنسان المخلوق في كبد ، الذي لا يخلص من عناء الكدح والكد ، لينسى حقيقة حاله وينخدع بما يعطيه خالقه من أطراف القوة والقدرة والوجدان والمتاع ، فيتصرف تصرف الذي لا يحسب أنه مأخوذ بعمله ، ولا يتوقع أن يقدر عليه قادر ليحاسبه ، فيطغى ويبطش ، ويسلب وينهب ، ويجمع ويكثر ، ويفسق ويفجر ، دون أن يخشى أو أن يتحرج .. وهذه هي صفة الإنسان الذي يعرى قلبه من الإيمان .

﴿ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُبَدًا ﴾ .. ثم إنه إذا دعي للخير والبذل في مثل المواضع التي ورد ذكرها في السورة .. ﴿ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُبَدًا ﴾ .. وأنفقت شيئًا كثيرًا فحسبي ما أنفقت وما بذلت .

﴿ أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ ﴾ .. وينسى أن عين الله ﷻ عليه ، وأن علمه محيط به ، فهو يرى ما أنفق ، ولكن هذا الإنسان كأنما ينسى هذه الحقيقة ، ويحسب أنه في خفاء عن عين الله ﷻ .

وأمام هذا الغرور الذي يخيل للإنسان أنه ذو منعة وقوة ، وأمام ضنه بالمال وادعائه أنه بذل الكثير ، يجابهه القرآن بفيض الآلاء عليه في خاصة نفسه ، وفي صميم تكوينه ، وفي خصائص طبيعته واستعداداته ، تلك الآلاء التي لم يشكرها ولم يقم بحقها عنده ..

﴿ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ * وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ .. إن هذا الإنسان يغتر بقوته ، في حين أن الله ﷻ هو المنعم عليه بهذا القدر من القوة .. ثم هو يضن بالمال ، مع أن الله ﷻ هو المنعم عليه بهذا المال .. ولا يهتدي ولا يشكر ، وقد جعل له من الحواس ما يهديه في عالم المحسوسات .

جعل له عينين على هذا القدر من الدقة في تركيبهما وفي قدرتهما على الإبصار ، وميزه بالنطق ، وأعطاه أداته المحكمة .. ﴿ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴾ .. ثم أودع نفسه خصائص القدرة على إدراك الخير والشر ، والهدى والضلال ، والحق والباطل .. ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ .. ليختار أيهما شاء ، ففي طبيعته هذا الاستعداد المزدوج لسلوك أي النجدين ، والنجد هو الطريق المرتفع ، وقد اقتضت مشيئة الله ﷻ أن تمنحه القدرة على سلوك أيهما شاء ، وأن تخلقه بهذا الازدواج طبقًا لحكمة الله في الخلق ، وإعطاء كل شيء خلقه ، وتيسيره لوظيفته في هذا الوجود .

وهذه الآية تكشف عن حقيقة الطبيعة الإنسانية ، كما أنها تمثل قاعدة (النظرية النفسية الإسلامية) هي والآيات الأخرى في سورة الشمس : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾ [1] .

هذه الآلاء التي أفاضها الله على الجنس الإنساني في خاصة نفسه ، وفي صميم تكوينه ، والتي من شأنها أن تعينه على الهدى .. عيناه بما تريان في صفحات هذا الكون من دلائل القدرة وموحيات الإيمان ، وهي معروضة في صفحات الكون مبثوثة في حناياه ، ولسانه

---

1 - سورة : الشمس ، الآية : 7 ، 10 .

وشفتاه وهما أداة البيان والتعبير ، وعنهما يملك الإنسان أن يفعل الشيء الكثير .

والكلمة أحيانًا تقوم مقام السيف والقذيفة وأكثر ، وأحيانًا تهوي بصاحبها في النار كما ترفعه أو تخفضه في هذه النار .. كما ورد في الحديث عن معاذ بن جبل قال :

كنت مع النبي ﷺ في سفر فأصبحت يومًا قريبًا منه ونحن نسير ، فقلت : يا نبي الله .. أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار ، قال : **" لقد سألت عن عظيم وإنه ليسير على من يسره الله عليه : تعبد الله ولا تشرك به شيئًا ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت "** .. ثم قال : **" ألا أدلك على أبواب الخير ؟! الصوم جُنَّة ، والصدقة تطفئ الخطيئة ، وصلاة الرجل في جوف الليل "** .. ثم قرأ قوله ﷻ : ﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ﴾ .. حتى بلغ : ﴿ يَعْمَلُونَ ﴾[1] ، ثم قال : **" ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه ؟! "** فقلت : بلى يا رسول الله .. قال : **" رأس الأمر الإسلام ، وعموده الصلاة ، وذروة سنامه الجهاد "** .. ثم قال : **" ألا أخبرك بملاك ذلك كله ؟! "** .. فقلت له : بلى يا نبي الله ، فأخذ بلسانه ، فقال : **" كُفَّ عليك هذا "** .. فقلت : يا رسول الله ، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به ؟! فقال : **" ثكلتك أمك يا معاذ ، وهل يكب الناس على وجوههم في النار – أو قال على مناخرهم – إلا حصائد ألسنتهم "**[2] .

وهدايته إلى إدراك الخير والشر ، ومعرفة الطريق إلى الجنة والطريق إلى النار ، وإعانته على الخير بهذه الهداية .

هذه الآلاء كلها لم تدفع هذا الإنسان إلى اقتحام العقبة التي تحول بينه وبين الجنة ، هذه العقبة التي يبينها الله له في هذه الآيات ..

﴿ فَلاَ اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ * أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ *

---

1 – سورة : السجدة ، الآية : 16 ، 17 .

2 – أخرجه أحمد (21008 ، 21054) ، والترمذي (2541) ، وابن ماجه (3963) .

يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ * أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ * ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ * أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴾ ..

هذه هي العقبة التي يقتحمها الإنسان ، إلا من استعان بالإيمان ، هذه هي العقبة التي تقف بينه وبين الجنة .. لو تخطاها لوصل ، وتصويرها كذلك حافز قوي ، واستجاشة للقلب البشري ، وتحريك له ليقتحم العقبة ، وقد وضحت ووضح معها أنها الحائل بينه وبين هذا المكسب الضخم .. ﴿ فَلاَ اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴾ .. ففيه تحضيض ودفع وترغيب .

ثم تفخيم لهذا الشأن وتعظيم : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴾ .. إنه ليس تضخيم العقبة ، ولكنه تعظيم شأنها عند الله ﷻ ؛ ليحفز به الإنسان إلى اقتحامها وتخطيها ، مهما تتطلب من جهد ومن كبد ، فالكبد واقع واقع ، وحين يبذل لاقتحام العقبة يؤتي ثمره ويعوض المقتحم عما يكابده ، ولا يذهب ضياعًا وهو واقع واقع على كل حال .

ويبدأ كشف العقبة وبيان طبيعتها بالأمر الذي كانت البيئة الخاصة التي تواجهها الدعوة في أمسِّ الحاجة إليه .. فك الرقاب العانية ، وإطعام الطعام ، والحاجة إليه ماسة للضعاف الذين تقسو عليهم البيئة الجاحدة المتكالبة ، وينتهي بالأمر الذي لا يتعلق ببيئة خاصة ولا بزمان خاص ، والذي تواجهه النفوس جميعًا ، وهي تتخطى العقبة إلى النجاة ..

﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴾ ..

وقد ورد أن فك الرقبة هو المشاركة في عتقها ، وأن العتق هو الاستقلال بهذا ، وأيًّا ما كان المقصود فالنتيجة الحاصلة واحدة .

وقد نزل هذا النص والإسلام في مكة محاصر ، وليست له دولة تقوم على شريعته ، وكان الرق عامًّا في الجزيرة العربية ، وفي العالم من حولها ، وكان الرقيق يعامَلون معاملة قاسية على الإطلاق ، فلما أن أسلم بعضهم **كعمار بن ياسر** وأسرته ، **وبلال بن رباح** ، **وصهيب** .. وغيرهم ﷺ جميعًا .. اشتد عليهم البلاء من سادتهم العتاة ، وأسلموهم إلى تعذيب لا يطاق ،

يبدا أن طريق الخلاص لهم هو تحريرهم بشرائهم من سادتهم القساة ، فكان **أبو بكر** رضي الله عنه هو لسابق كعادته دائمًا إلى التلبية والاستجابة في ثبات وطمأنينة واستقامة .

قال **ابن إسحاق** : وكان **بلال** مولى **أبي بكر رضي الله عنهما** لبعض بني جمح مولدًا من مولديهم ، وكان صادق الإسلام ، طاهر القلب ، وكان **أمية بن خلف بن وهب بن حذافة بن جمح** يخرجه إذا حميت الظهيرة ، فيطرحه على ظهره في بطحاء مكة ، ثم يأمرهم بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ، ثم يقول له : لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر **بمحمد** وتعبد اللات والعزى .. فيقول وهو في ذلك البلاء : أحد أحد .

حتى مر به **أبو بكر الصديق** رضي الله عنه يومًا وهم يصنعون ذلك به ، وكانت دار **أبي بكر** في بني جمح ، فقال **لأمية بن خلف** : ألا تتقي الله في هذا المسكين ؟! قال : أنت الذي أفسدته ، فأنقذه مما ترى .. فقال **أبو بكر** : أفعل ، عندي غلام أسود أجلد منه وأقوى ، على دينك أعطيكه به .. قال : قد قبلت .. قال : هو لك .. فأعطاه **أبو بكر الصديق** رضي الله عنه غلامه ذلك وأخذه وأعتقه .

ثم أعتق معه على الإسلام قبل أن يهاجر إلى المدينة ست رقاب ، بلال سابعهم .. **عامر بن فهيرة** (شهد بدرًا ، وقتل يوم بئر معونة شهيدًا) ، و**أم عبيس** ، و**زنيرة** (وأصيب بصرها حين أعتقها ، فقالت قريش : ما أذهب بصرها إلا اللات والعزى .. فقالت : كذبوا والله ما تضر اللات والعزى وما تنفعان .. فرد الله بصرها) ، وأعتق **النهدية** وابنتها ، وكانتا لامرأة من بني عبد الدار ، فمر بهما وقد بعثتهما سيدتهما بطحين لها وهي تقول : والله لا أعتقكما أبدًا . فقال **أبو بكر** رضي الله عنه حلُّ يا أم فلان (أي تحللي من يمينك) .. فقالت : حل ، أنت أفسدتهما فأعتقهما .. قال : فبكم هما ؟ قالت : بكذا وكذا .. قال : قد أخذتهما ، وهما حرتان . أرجعا إليها طحينها . قالتا : أو نفرغ منه يا **أبا بكر** ثم نرده إليها ؟ قال : ذلك إن شئتما .

ومر بجارية بني مؤمل ، وهي من بني عدي ، وكانت مسلمة ، وكان عمر بن الخطاب يعذبها لتترك الإسلام وهو يومئذ مشرك وهو يضربها ، حتى إذا مل قال : إني أعتذر إليك ، إني لم أتركك إلا ملالة .. فتقول : كذلك فعل الله بك .. فابتاعها أبو بكر فأعتقها .

قال ابن إسحاق : قال أبو قحافة والد أبي بكر لأبي بكر : يا بني إني أراك تعتق رقابًا ضعافًا ، فلو أنك إذ فعلت ما فعلت أعتقت رجالاً جُلدا يمنعونك ويقومون دونك .. قال : فقال أبو بكر رضي الله عنه : يا أبت إني إنما أريد ما أريد لله .

لقد كان رضي الله عنه يقتحم العقبة وهو يعتق هذه الرقاب العانية لله عز وجل ، وكانت الملابسات الحاضرة في البيئة تجعل هذا العمل يذكر في مقدمة الخطوات والوثنيات لاقتحام العقبة في سبيل الله عز وجل .

﴿ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ * يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ * أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴾ ..

والمسغبة هي : المجاعة ، ويوم المجاعة الذي يعز فيه الطعام هو محك لحقيقة الإيمان ، وقد كان اليتيم يجد في البيئة الجاهلية المتكالبة الخسف والغبن ، ولو كان ذا قربى ، وقد حفل القرآن بالوصية باليتيم ، مما يدل على قسوة البيئة من حول اليتامى ، وظلت هذه الوصايا تتوالى حتى في السور المدنية بمناسبة تشريعات الميراث والوصاية والزواج ، كما في سورة النساء خاصة ، وكذلك في سورة البقرة ، وغيرهما .

وكذلك إطعام المسكين ذي المتربة أي اللاصق بالتراب من بؤسه وشدة حاله في يوم المسغبة يقدمه السياق القرآني خطوة في سبيل اقتحام العقبة ، لأنه محك للمشاعر الإيمانية من رحمة وعطف وتكافل وإيثار ، ومراقبة لله في عياله ، في يوم الشدة والمجاعة والحاجة ، وهاتان الخطوتان : فك الرقاب وإطعام الطعام كانتا من إيحاءات البيئة الملحة ، وإن كانت لهما صفة العموم ، ومن ثم قدمها في الذكر ، ثم عقب بالوثبة الكبرى الشاملة ..

﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴾ ..

و ﴿ ثُمَّ ﴾ هنا ليست للتراخي الزمني ، إنما هي للتراخي المعنوي باعتبار أن هذه الخطوة هي الأشمل والأوسع نطاقًا والأعلى أفقًا ، وإلا فما ينفع فك رقاب ولا إطعام طعام بلا إيمان ، فالإيمان مفروض وقوعه قبل فك الرقاب وإطعام الطعام ، وهو الذي يجعل للعمل الصالح وزنًا في ميزان الله ﷻ ؛ لأنه بمنهج ثابت مطرد ، فلا يكون الخير فلتة عارضة ترضية لمزاج متقلب ، أو ابتغاء محمدة من البيئة أو مصلحة .

وكأنما قال : ﴿ فَكُّ رَقَبَةٍ * أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ * يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ * أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴾ .. وفوق ذلك .. ﴿ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴾ .. فكلمة : ﴿ ثُمَّ ﴾ هنا لإفادة معنى الفضل والعلو .

والصبر هو العنصر الضروري للإيمان بصفة عامة ، ولاقتحام العقبة بصفة خاصة ، والتواصي به يقرر درجة وراء درجة الصبر ذاته .. درجة تماسك الجماعة المؤمنة ، وتواصيها على معنى الصبر ، وتعاونها على تكاليف الإيمان ، فهي أعضاء متجاوبة الحس ، تشعر جميعًا شعورًا واحدًا بمشقة الجهاد لتحقيق الإيمان في الأرض وحمل تكاليفه ، فيوصي بعضها بعضًا بالصبر على العبء المشترك ، ويثبت بعضها بعضًا فلا تتخاذل ، ويقوي بعضها بعضًا فلا تنهزم ، وهذا أمر غير الصبر الفردي ، وإن يكن قائمًا على الصبر الفردي ، وهو إيحاء بواجب المؤمن في الجماعة المؤمنة ، وهو ألا يكون عنصر تخذيل ، بل عنصر تثبيت ، ولا يكون داعية هزيمة ، بل داعية اقتحام ، ولا يكون مثار جزع ، بل مهبط طمأنينة .

وكذلك التواصي بالمرحمة ، فهو أمر زائد على المرحمة ، إنه إشاعة الشعور بواجب التراحم في صفوف الجماعة عن طريق التواصي به ، والتحاض عليه ، واتخاذه واجبًا جماعيًا فرديًا في الوقت ذاته ، يتعارف عليه الجميع ، ويتعاون عليه الجميع .

فمعنى الجماعة قائم في هذا التوجيه ، وهو المعنى الذي يبرزه القرآن كما تبرزه أحاديث رسول الله ﷺ لأهميته في تحقيق هذا الدين ، فهو دين جماعة ، ومنهج أمة ، مع وضوح التبعة الفردية والحساب الفردي فيه وضوحًا كاملاً .

﴿ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴾ .. أولئك الذين يقتحمون العقبة كما وصفها القرآن وحددها هم .. ﴿ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴾ .. وهم أصحاب اليمين ، كما جاء في مواضع أخرى ، أو أنهم أصحاب اليُمن والحظ والسعادة .. وكلا المعنيين متصل في المفهوم الإيماني .

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ * عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ ﴾ ..

ولم يحتج هنا إلى ذكر أوصاف أخرى لفريق المشأمة غير أن يقول : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا ﴾ .. لأن صفة الكفر تنهي الموقف ، فلا حسنة مع الكفر ، ولا سيئة إلا والكفر يتضمنها أو يغطي عليها ، فلا ضرورة للقول بأنهم الذين لا يفكون الرقاب ولا يطعمون الطعام ، ثم هم الذين كفروا بآياتنا ، فإذا كفروا فما هو بنافعهم شيء من ذلك حتى لو فعلوه .

وهم أصحاب المشأمة .. أي أصحاب الشمال ، أو هم أصحاب الشؤم والنحس .. وكلاهما كذلك قريب في المفهوم الإيماني ، وهؤلاء هم الذين بقوا وراء العقبة لم يقتحموها .

﴿ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ ﴾ .. أي مغلقة .. إما على المعنى القريب .. أي أبوابها مغلقة عليهم ، وهم في العذاب محبوسون ، وإما على لازم هذا المعنى القريب ، وهو أنهم لا يخرجون منها ، فبحكم إغلاقها عليهم لا يمكن أن يزايلوها ، وهذان المعنيان متلازمان .

هذه هي الحقائق الأساسية في حياة الكائن الإنساني ، وفي التصور الإيماني ، تعرض في هذا الحيز الصغير بهذه القوة وبهذا الوضوح .. وهذه هي خاصية التعبير القرآني الفريد .

نسأل الله عز وجل أن يلهمنا رشدنا ، وأن يقينا شرور أنفسنا ، وأن يقربنا من الجنة ، وأن يباعدنا عن النار .

إنه ولي ذلك والقادر عليه .

والحمد لله رب العالمين .

علم

تفسیر جزء

سُورَةُ الشَّمْسِ

سُورَةُ الشَّمْسِ

أحمدك ربي على فضائل ذاتك ، وعظائم نعمائك ، وأصلي وأسلم على قمة اصطفائك ، ومسك ختامك ، سيدنا محمد ﷺ . . وبعد :

فمع **سورة الشمس** ، هذه السورة القصيرة ذات القافية الواحدة ، والإيقاع الموسيقي الموحد ، تتضمن عدة لمسات وجدانية تنبثق من مشاهد الكون وظواهره التي تبدأ بها السورة ، والتي تظهر كأنها إطار للحقيقة الكبيرة التي تتضمنها السورة .. حقيقة النفس الإنسانية ، واستعداداتها الفطرية ، ودور الإنسان في شأن نفسه ، وتبعته في مصيرها .. هذه الحقيقة التي يربطها سياق بحقائق الكون ، ومشاهده الثابتة .

كذلك تتضمن قصة ثمود ، وتكذيبها بإنذار رسولها ، وعقرها للناقة ، ومصرعها بعد ذلك وزوالها ، وهي نموذج من الخيبة التي تصيب من لا يزكي نفسه ، فيدعها للفجور ، ولا يلزمها تقواها : كما جاء في الفقرة الأولى في السورة : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ .

---

* تفسير السورة مقتبس بتصرف من : " في ظلال القرآن " .

وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴿١﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ﴿٢﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ﴿٣﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ﴿٤﴾ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ﴿٥﴾ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ﴿٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾

يقسم الله ﷻ بهذه الخلائق والمشاهد الكونية ، كما يقسم بالنفس وتسويتها وإلهامها ، ومن شأن هذا القسم أن يخلع على هذه الخلائق قيمة كبرى ، وأن يوجه إليها القلوب تتملاها ، وتتدبر ماذا لها من قيمة ، وماذا بها من دلالة ، حتى استحقت أن يقسم بها الجليل العظيم ﷻ .

ومشاهد الكون وظواهره إطلاقًا بينها وبين القلب الإنساني لغة سرية متعارف عليها في صميم الفطرة وأغوار المشاعر ، وبينها وبين الروح الإنسانية تجاوب ومناجاة بغير نبرة ولا صوت ، وهي تنطق للقلب ، وتوحي للروح ، وتنبض بالحياة المأنوسة للكيان الإنساني الحي ، حيثما التقى بها وهو مقبل عليها ، متطلع عندها إلى الأنس والمناجاة والتجاوب والإيحاء .

ومن ثم يكثر القرآن من توجيه القلب إلى مشاهد الكون بشتى الأساليب ، في شتى المواضع .. تارة بالتوجيهات المباشرة ، وتارة باللمسات الجانبية كهذا القسم بتلك الخلائق والمشاهد ، ووضعها إطارًا لما يليها من الحقائق ، وفي هذا الجزء بالذات لاحظنا كثرة هذه التوجيهات واللمسات كثرة ظاهرة ، فلا تكاد سورة واحدة تخلو من إيقاظ القلب لينطلق إلى هذا الكون ، يطلب عنده التجاوب والإيحاء ، ويتلقى عنه بلغة السر المتبادل ما ينطق به من دلائل ، وما يبثه من مناجاة .

﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴾ .. وهنا نجد القسم الموحي بالشمس وضحاها ، بالشمس عامة ، وحين تضحى وترتفع عن الأفق بصفة خاصة ، وهي أروق ما تكون في هذه الفترة وأحلى ، في الشتاء يكون وقت الدفء المستحب الناعش ، وفي الصيف يكون وقت الإشراق الرائق قبل وقدة الظهيرة وقيظها ، فالشمس في الضحى في أروق أوقاتها وأصفاها ، وقد ورد أن المقصود بالضحى هو النهار كله ، ولكنا لا نرى ضرورة للعدول عن المعنى القريب للضحى . وهو ذو دلالة خاصة كما رأينا .

﴿ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا ﴾ .. وبالقمر إذا تلاها ، إذا تلا الشمس بنوره اللطيف الشفيف الرائق الصافي ، وبين القمر والقلب البشري ودٌّ قديم موغل في السرائر والأعماق ، غائر في شعاب الضمير ، يترقرق ويستيقظ كلما التقى به القلب في أية حال .

وللقمر همسات وإيحاءات للقلب ، وسبحات وتسبيحات للخالق ، يكاد يسمعها القلب الشاعر في نور القمر المنساب .. وإن القلب ليشعر أحيانًا أنه يسبح في فيض النور الغامر في الليلة القمراء ، ويغسل أدرانه ، ويرتوي ، ويعانق هذا النور الحبيب ، ويستروح فيه روح الله .

﴿ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلاَّهَا ﴾ .. ويقسم بالنهار إذا جلاها ، مما يوحي بأن المقصود بالضحى هو الفترة الخاصة لا كل النهار ، والظاهر أن الضمير في : ﴿ جَلاَّهَا ﴾ يعود إلى الشمس المذكورة في السياق ، ولكن الإيحاء القرآني يشي بأنه ضمير هذه البسيطة ، وللأسلوب القرآني إيحاءات جانبية كهذه مضمرة في السياق لأنها معهودة في الحس البشري ، يستدعيها التعبير استدعاء خفيًّا ، فالنهار يجلي البسيطة ويكشفها ، وللنهار في حياة الإنسان آثاره التي يعلمها ، وقد ينسى الإنسان بطول التكرار جمال النهار وأثره ، فهذه اللمسة السريعة في مثل هذا السياق توقظه وتبعثه للتأمل في هذه الظاهرة الكبرى .

﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴾ .. وهذا مثال آخر .. والتغشية هي مقابل التجلية ، والليل غشاء

يضم كل شيء ويخفيه ، وهو مشهد له في النفس وقع ، وله في حياة الإنسان أثر كالنهار سواء .

﴿ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ﴾ .. ثم يقسم الحق ﷻ بالسماء وبنائها .. و ﴿ مَا ﴾ هنا مصدرية ، ولفظ السماء حين يذكر يسبق إلى الذهن هذا الذي نراه فوقنا كالقبة حيثما اتجهنا ، تتناثر فيه النجوم والكواكب السابحة في أفلاكها ومداراتها ، فأما حقيقة السماء فلا ندريها ، وهذا الذي نراه فوقنا متماسكاً لا يختل ولا يضطرب تتحقق فيه صفة البناء بثباته وتماسكه ، أما كيف هو مبني ، وما الذي يمسك أجزاءه فلا تتناثر وهو سابح في الفضاء الذي لا نعرف له أولاً ولا آخرًا ، فذلك ما لا ندريه ، وكل ما قيل عنه مجرد نظريات قابلة للنقض والتعديل ، ولا قرار لها ولا ثبات ، إنما نوقن من وراء كل شيء أن يد الله ﷻ هي تمسك هذا البناء : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ ﴾[1] ، وهذا هو العلم المستيقن الوحيد .

﴿ وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ﴾ .. يقسم كذلك بالأرض وطحوها .. والطحو كالدحو : البسط والتمهيد للحياة ، وهي حقيقة قائمة تتوقف على وجودها حياة الجنس البشري وسائر الأجناس الحية ، وهذه الخصائص والموافقات التي جعلتها يد الله ﷻ في هذه الأرض هي التي سمحت بالحياة فيها وفق تقديره وتدبيره ، وحسب الظاهر لنا أنه لو اختلت إحداها ما أمكن أن تنشأ الحياة ولا أن تسير في هذا الطريق الذي سارت فيه .. وطحو الأرض أو دحوها كما قال في الآية الأخرى : ﴿ وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا * أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴾[2] ، وهو أكبر هذه الخصائص والموافقات ، ويد الله وحدها هي التي تولت هذا الأمر ، فحين يذكر هنا بطحو الأرض فإنما يذكر بهذه اليد التي وراءه ، ويلمس القلب البشري هذه اللمسة للتدبر والذكرى .

---

1 - سورة : فاطر ، الآية : 41 .

2 - سورة : النازعات ، الآية : 30 ، 31 .

ثم تجيء الحقيقة الكبرى عن النفس البشرية في سياق هذا القسم ، مرتبطة بالكون ومشاهده وظواهره ، وهي إحدى الآيات الكبرى في هذا الوجود المترابط المتناسق :

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ ..

وهذه الآيات الأربع ، بالإضافة إلى آية **سورة البلد** السابقة : ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ [1]، وآية **سورة الإنسان** : ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ [2].. تمثل قاعدة النظرية النفسية للإسلام .. وهي مرتبطة ومكملة للآيات التي تشير إلى ازدواج طبيعة الإنسان ، كقول الحق ﷻ في **سورة ص** : ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ [3].. كما أنها مرتبطة ومكملة للآيات التي تقرر التعبة الفردية .. كقوله ﷻ في **سورة المدثر** : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ [4]، والآيات التي تقرر أن الله يرتب تصرفه بالإنسان على واقع هذا الإنسان ، كقوله ﷻ في **سورة الرعد** : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ [5]، ومن خلال هذه الآيات وأمثالها تبرز لنا نظرة الإسلام إلى الإنسان بكل معالمها .

إن هذا الكائن مخلوق مزدوج الطبيعة ، مزدوج الاستعداد ، مزدوج الاتجاه ونعني بكلمة مزدوج على وجه التحديد أنه بطبيعة تكوينه من طين الأرض ، ومن نفخة الله فيه من روحه .. مزود باستعدادات متساوية للخير والشر ، والهدى والضلال ، فهو قادر على التمييز بين ما هو خير وما هو شر ، كما أنه قادر على توجيه نفسه إلى الخير وإلى الشر سواء ، وأن

---

1 - سورة : البلد ، الآية : 10 .

2 - سورة : الإنسان ، الآية : 3 .

3 - سورة : ص ، الآية : 71 ، 72 .

4 - سورة : المدثر ، الآية : 38 .

5 - سورة : الرعد ، الآية : 11 .

هذه القدرة كامنة في كيانه ، يعبرعنها القرآن بالإلهام تارة : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ .. ويعبر عنها بالهداية تارة : ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾[1] ، فهي كامنة في صميمه في صورة استعداد .. والرسالات والتوجيهات والعوامل الخارجية إنما توقظ هذه الاستعدادات وتشحذها وتوجهها هنا أو هناك ، ولكنها لا تخلقها خلقًا ؛ فهي مخلوقة فطرة وكائنة طبعًا ، وكامنة إلهامًا .

وهناك إلى جانب هذه الاستعدادات الفطرية الكامنة قوة واعية مدركة موجهة في ذات الإنسان ، هي التي تناط بها التبعة ، فمن استخدم هذه القوة في تزكية نفسه وتطهيرها وتنمية استعداد الخير فيها وتغليبه على استعداد الشر فقد أفلح ، ومن أظلم هذه القوة وخبأها وأضعفها فقد خاب : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾ .

وهنالك إذن تبعة مترتبة على منح الإنسان هذه القوة الواعية القادرة على الاختيار والتوجيه .. توجيه الاستعدادات الفطرية القابلة للنمو في حقل الخير وفي حقل الشر سواء ، فهي حرية تقابلها تبعة ، وقدرة يقابلها تكليف ، ومنحة يقابلها واجب .

ورحمة من الله ﷻ بالإنسان أن لم يدعه لاستعداد فطرته الإلهامي ، ولا للقوة الواعية المالكة للتصرف ، فأعانه بالرسالات التي تضع له الموازين الثابتة الدقيقة ، وتكشف له عن موحيات الإيمان ، ودلائل الهدى في نفسه وفي الآفاق من حوله ، وتجلو عنه غواشي الهوى فيبصر الحق في صورته الصحيحة ، وبذلك يتضح له الطريق وضوحًا كاشفًا لا غبش فيه ولا شبهة ، فتتصرف القوة الواعية حينئذ عن بصيرة وإدراك لحقيقة الاتجاه الذي تختاره وتسير فيه .

وهذه في جملتها هي مشيئة الله ﷻ بالإنسان ، وكل ما يتم في دائرتها فهو محقق لمشيئة الله وقدره العام .

---

1 - سورة : البلد ، الآية : 10 .

هذه النظرة المجملة إلى أقصى حد تنبثق منها جملة حقائق ذات قيمة في التوجيه التربوي : فهي أولاً ترتفع بقيمة هذا الكائن الإنساني ، حين تجعله أهلاً لاحتمال تبعة اتجاهه ، وتمنحه حرية الاختيار في إطار المشيئة الإلهية التي شاءت له هذه الحرية فيما يختار ، فالحرية والتبعة يضعان هذا الكائن في مكان كريم ، ويقرران له في هذا الوجود منزلة عالية تليق بالخليقة التي نفخ الله فيها من روحه وسواها بيده ، وفضلها على كثير من العالمين .

وهي ثانيًا تلقي على هذا الكائن تبعة مصيره ، وتجعل أمره بين يديه في إطار المشيئة الكبرى كما أسلفنا ، فتثير في حسه كل مشاعر اليقظة والتحرج والتقوى ، وهو يعلم أن قدر الله فيه يتحقق من خلال تصرفه هو بنفسه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾[1] ، وهي تبعة ثقيلة لا يغفل صاحبها ولا يغفو .

وهي ثالثًا تشعر هذا الإنسان بالحاجة الدائمة للرجوع إلى الموازين الإلهية الثابتة ؛ ليظل على يقين أن هواه لم يخدعه ، ولم يضلله ، كي لا يقوده الهوى إلى المهلكة ، ولا يحق عليه قدر الله فيمن يجعل إلهه هواه ، وبذلك يظل قريبًا من الله ، يهتدي بهديه ، ويستضيء بالنور الذي أمده به في متاهات الطريق .

ومن ثم فلا نهاية لما يملك هذا الإنسان أن يصل إليه من تزكية النفس وتطهيرها ، وهو يغتسل في نور الله الفائض ، ويتطهر في هذا العباب الذي يتدفق حوله من ينابيع الوجود .

1 - سورة : الرعد ، الآية : 11 .

كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾

بعد ذلك يعرض نموذجًا من نماذج الخيبة التي ينتهي إليها من يدسي نفسه ، فيحجبها عن الهدى ويدنسها .. ممثلاً هذا النموذج فيما أصاب ثمود من غضب ونكال وهلاك ..

وقد وردت قصة ثمود ونبيها صالح عليه السلام في مواضع شتى من القرآن ، فأما في هذا الموضع بالذات فهو يذكر أن ثمود بسبب طغيانها كذبت نبيها ، فكان الطغيان وحده هو سبب التكذيب ، وتمثل هذا الطغيان في انبعاث أشقاها ، وهو الذي عقر الناقة ، وهو أشدها شقاء وأكثرها تعاسة بما ارتكب من الإثم ، وقد حذرهم رسولهم عليه السلام قبل الإقدام على تلك الفعلة ، فقال لهم : احذروا أن تمسوا ناقة الله ، أو أن تمسوا الماء الذي جعل لها يومًا ولكم يومًا ، كما اشترط عليهم عندما طلبوا منه آية ، فجعل الله هذه الناقة آية ، ولابد أنه كان لها شأن خاص لا نخوض في تفصيلاته ؛ لأن الله سبحانه وتعالى لم يذكر لنا عنه شيئًا ، فكذبوا النذير وعقروا الناقة .

والذي عقرها هو هذا الأشقى ، ولكنهم جميعًا حملوا التبعة وعُدوا أنهم عقروها ؛ لأنهم لم يضربوا على يده ، بل استحسنوا فعلته ، وهذا مبدأ من مبادئ الإسلام الرئيسية في التكافل في التبعة الاجتماعية في الحياة الدنيا ، لا يتعارض مع التبعة الفردية في الجزاء الأخروي ، حيث لا تزر وازرة وزر أخرى ، على أنه من الوزر إهمال التناصح والتكافل والحض على البر ، والأخذ على يد البغي والشر .

عندئذ تتحـرك يد القـدرة لتبـطش البطشـة الكبرى .. ﴿ فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴾ .. والدمدمة هي الغضب وما يتبـعه من تنكيل ، واللفظ ذاته : ﴿ دَمْدَمَ ﴾ يوحـي بما وراءه ، ويصور معناه بجرسه ، ويكاد يرسم مشهدًا مروعًا مخيفًا ، وقـد سـوى الله أرضهم عاليها بسافلها ، وهو المشهد الذي يرتسم بعد الدمار العنيف الشديد .

﴿ وَلاَ يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴾ .. ﷻ ، ومن ذا يخاف ؟! وماذا يخاف ؟! وأنى يخاف ؟! إنمـا يراد من هذا التعبير لازمه المفهوم منه ، فالذي لا يخاف عاقبـة ما يفعل ، يبـلغ غاية البـطش حـين يبـطش ، وكذلك بـطش الله ﷻ .. ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾[1] .. فهو إيقـاع يراد إيحاؤه وظله في النفوس .

وهكذا ترتبط حقيقة النفس البشرية بحقائق هذا الوجود الكبـيرة ، ومشـاهده الثابـتة ، كما ترتبـط بـهذه وتلك سـنة الله ﷻ في أخذ المكذبـين والطغاة ، في حـدود التقـدير الحكيم الذي يجعل لكل شيء أجلاً ، ولكل حادث موعدًا ، ولكل أمر غاية ، ولكل قدر حـكمة ، وهو رب النفس والكون والقدر جميعًا .

نسأل الله أن يلهمنا رشدنا ، وأن يقينا شرور أنفسنا . .

إنه ولي ذلك والقادر عليه . .

والحمد لله رب العالمين .

---

1 - سورة : البروج ، الآية : 12 .

علم

تفسير جزء

سورة الليل

سُورَةُ اللَّيْلِ

أحمدك ربي على فضائل ذاتك، وعظائم نعمائك، وأصلي وأسلم على قمة اصطفائك، ومسك ختامك، سيدنا محمد ﷺ .. وبعد :

فمع **سورة الليل**، تلك السورة التي تقرر – في إطار من مشاهد الكون وطبيعة الإنسان – حقيقة العمل والجزاء .

ولما كانت هذه الحقيقة منوعة المظاهر .. ﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى * فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى ﴾ .. وكانت العاقبة كذلك في الآخرة مختلفة وفق العمل والوجهة .. ﴿ فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى * لاَ يَصْلاَهَا إِلاَّ الأَشْقَى * الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى * وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى * الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ﴾ .

ولما كانت مظاهر هذه الحقيقة ذات لونين، وذات اتجاهين كذلك .. كان الإطار المختار لها في مطلع السورة ذا لونين في الكون وفي النفس سواء .. ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى * وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى * وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى ﴾ .. وهذا من بدائع التناسق في التعبير القرآني .

---

* تفسير السورة مقتبس بتصرف من : " في ظلال القرآن " .

وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ﴿١﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾ فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴿١١﴾

﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى * وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى ﴾ .. يقسم الله ﷻ بهاتين الآيتين : الليل والنهار ، مع صفة كل منهما الصفة المصورة للمشهد .. ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى ﴾ .. ﴿ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى ﴾ .. الليل حين يغشى البسيطة ، ويغمرها ويخفيها .. والنهار حين يتجلى ويظهر ، فيظهر في تجلية كل شيء ويسفر ، وهما آنان متقابلان في دورة الفلك ، ومتقابلان في الصورة ، ومتقابلان في الخصائص ، ومتقابلان في الآثار .

﴿ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى ﴾ .. ثم يقسم بخلقه الأنواع جنسين متقابلين : ﴿ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى ﴾ .. تكملة لظواهر التقابل في جو السورة وحقائقها جميعًا .

والليل والنهار ظاهرتان شاملتان لهما دلالة توحيان بها إيحاء للقلب البشري ، ولهما دلالة كذلك أخرى عند التدبر والتفكر فيهما وفيما وراءهما ، والنفس تتأثر تأثرًا تلقائيًا بتقلب الليل والنهار .. الليل إذا يغشى ويعم ، والنهار إذا تجلى وأسفر ، ولهذا التقلب حديث وإيحاء .. حديث عن هذا الكون المجهول الأسرار ، وعن هذه الظواهر التي لا يملك البشر من أمرها شيئًا ، وإيحاء بما وراء هذا التقلب من قدرة تدير الآونة في الكون كما تدار العجلة اليسيرة ، وبما هنالك من تغير وتحول لا يثبت أبدًا على حال .

ودلالتهما عند التدبر والتفكر قاطعة في أن هنالك يدًا أخرى تدير هذا الفلك ، وتبدل الليل والنهار بهذا الانتظام وهذا الاطراد وهذه الدقة ، وأن الذي يدير الفلك هكذا يدير حياة البشر أيضًا ، ولا يتركهم سدى ، كما أنه لا يخلقهم عبثًا .

ومهما حاول المنكرون والمضلون أن يلغوا في هذه الحقيقة ، وأن يحولوا الأنظار عنها ، فإن القلب البشري سيظل موصولاً بهذا الكون ، يتلقى إيقاعاته ، وينظر تقلباته ، ويدرك تلقائيًا – كما يدرك بعد التدبر والتفكر – أن هنالك مدبرًا لا محيد من الشعور به ، والاعتراف بوجوده من وراء اللغو والهذر ، ومن وراء الجحود والنكران .

وكذلك خلقة الذكر والأنثى .. إنها في الإنسان والثدييات الحيوانية نطفة تستقر في رحم ، وخلية تتحد ببويضة ، ففيم هذا الاختلاف في نهاية المطاف ؟! ما الذي يقول لهذه : كوني ذكرًا ، ويقول لهذه : كوني أنثى ؟!

إن كشف العوامل التي تجعل هذه النطفة تصبح ذكرًا ، وهذه تصبح أنثى لا يغير من واقع الأمر شيئًا .. فإنه لماذا تتوفر هذه العوامل هنا وهذه العوامل هناك ؟! وكيف يتفق أن تكون صيرورة هذه ذكرًا ، وصيرورة هذه أنثى هو الحدث الذي يتناسق مع خط سير الحياة كلها ، ويكفل امتدادها بالتناسل مرة أخرى ؟!

هل هي مصادفة ؟! إن للمصادفة كذلك قانونًا يستحيل معه أن تتوافر هذه الموافقات كلها من قبيل المصادفة .. فلا يبقى إلا أن هنالك مدبرًا يخلق الذكر والأنثى لحكمة مرسومة وغاية معلومة ، فلا مجال للمصادفة ، ولا مكان للتلقائية في نظام هذا الوجود أصلاً .

والذكر والأنثى شاملان بعد ذلك للأنواع كلها غير الثدييات ، فهي مطردة في سائر الأحياء ومنها النبات .. قاعدة واحدة في الخلق لا تتخلف ، لا يتفرد ولا يتوحد إلا الخالق ﷻ الذي ليس كمثله شيء .

هذه بعض إيحاءات تلك المشاهد الكونية ، وهذه الحقيقة الإنسانية التي يقسم الله ﷻ

بـها ؛ لعظيم دلالتها وعميق إيقـاعها ، والتي يجعلها السياق القرآني إطارًا لحقيقـة العمل والجزاء في الحياة الدنيا وفي الحياة الأخرى .

يقسم الله ﷻ بهذه الظواهر والحقـائق المتقابـلة في الكون وفي الناس ، على أن سـعي الناس مختلف وطرقـهم مختلفة ، ومن ثم فجزاؤهم مختلف كذلك ، فليس الخير كالشـر ، وليس الهدى كالضلال ، وليس الصلاح كالفسـاد ، وليس من أعطى واتقـى كمن بخل واسـتغنى ، وليس من صدق وآمن كمن كذب وتولى ، وأن لكل طريقًا ، ولكل مصيرًا ، ولكل جزاء وفاقًا .

﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى ﴾ .. مختلف في حقيقته ، مختلف في بـواعثه ، مختلف في اتجاهه ، مختلف في نتائجه .. والناس في هذه الأرض تختلف طبـائعهم ، وتختلف مشاربـهم ، وتختلف تصوراتهم ، وتختلف اهتماماتهم ، حتى لكأن كل واحـد منهم عالم خاص يعيش في كوكب خاص .

﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى ﴾ .. كل ما سبق حقيقـة ، ولكن هناك حقيقة أخرى ، حقيقـة إجمالية ، تضم أشـتات البشـر جميعًا ، وتضم هذه العوامل المتبـاينة كلها ، تضمها في حـزمتين اثنتين ، وفي صفين متقابـلين ، تحت رايتين عامتين : ﴿ مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴾ .. و ﴿ مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ﴾ .

من أعطى نفسـه وماله ، واتقـى غضب الله ﷻ وعذابـه ، وصدق بـهذه العقـيدة التي إذا قـيل : إن (الحسنى) كانت اسمًا لها وعلمًا عليها ، ومن بخل بنفسـه وماله ، واسـتغنى عن الله وهداه ، وكذب بهذه الحسنى .

هذان هما الصفان اللذان يلتقي فيهما شتات النفوس ، وشتات السـعي ، وشـتات المناهج ، وشتات الغايات ، ولكل منهما في هذه الحياة طريق .. ولكل منهما في طريقه توفيق .

والذي يعطي ويتقـي ويصدق بالحسـنى يكون قـد بـذل أقـصى ما في وسـعه ليزكي نفسـه

ويهديها ، عندئذ يستحق عون الله وتوفيقه الذي أوجبه ﷻ على نفسه بإرادته ومشيئته .

والذي بدونه لا يكون شيء ، ولا يقدر الإنسان على شيء ،ومن يسره الله لليسرى فقد وصل .. وصل في سر وفي رفق وفي هوادة .. وصل وهو بعد في هذه الأرض ، وعاش في يسر ، يفيض اليسر من نفسه على كل ما حوله وعلى كل من حوله .. اليسر في خطوه ، واليسر في طريقه ، واليسر في تناوله للأمور كلها ، والتوفيق الهادئ المطمئن في كلياتها وجزئياتها ، وهي درجة تتضمن كل شيء في طياتها ، حيث تسلك صاحبها مع رسول الله ﷺ في وعد ربه له : ﴿ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى ﴾ .

وأما الذي يبخل بنفسه وماله ، ويستغني عن ربه وهداه ، ويكذب بدعوته ودينه .. يبلغ أقصى ما يبلغه إنسان بنفسه من تعريضها للفساد ، ويستحق أن يعسر الله عليه كل شيء ، فييسره للعسرى ، ويوفقه إلى كل وعورة ، ويحرمه كل تيسير ، ويجعل في كل خطوة من خطاه مشقة وحرجًا ، ينحرف به عن طريق الرشاد ، ويصعد به في طريق الشقاوة ، وإن حسب أنه سائر في طريق الفلاح ، وإنما هو يعثر فيتقي العثار بعثرة أخرى تبعده عن طريق الله ﷻ ، وتنأى به عن رضاه .. فإذا تردى وسقط في نهاية العثرات والانحرافات لم يغن عنه ماله الذي بخل به ، والذي استغنى به كذلك عن الله وهداه .

﴿ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى ﴾ .. والتيسير للشر والمعصية من التيسير للعسرى ، وإن أفلح صاحبها في هذه الأرض ونجا .. وهل أعسر من جهنم ؟! وإنها لهي العسرى .

هكذا ينتهي المقطع الأول في السورة ، وقد تبين طريقان ونهجان للجموع البشرية في كل زمان ومكان ، وقد تبين أنهما حزبان ورايتان مهما تنوعت وتعددت الأشكال والألوان ، وأن كل إنسان يفعل بنفسه ما يختار لها ، فييسر الله له طريقه .. إما إلى اليسرى ، وإما إلى العسرى .

إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا
يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي
مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ
﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾

وأما المقطع الثاني فيتحدث عن مصير كل فريق ، ويكشف عن نهاية المطاف لمن يسره لليسرى ، ومن يسره للعسرى ، وقبل كل شيء يقرر أن ما يلاقيه كل فريق من عاقبة ومن جزاء هو عدل وحق ، كما أنه واقع وحتم ، فقد بين الله للناس الهدى ، وأنذرهم نارًا تلظى .

﴿ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى ﴾ .. لقد كتب الله على نفسه – فضلاً منه بعباده ورحمة – أن يبين الهدى لفطرة الناس ووعيهم ، وأن يبينه لهم كذلك بالرسل والرسالات والآيات ، فلا تكون هناك حجة لأحد ، ولا يكون هناك ظلم لأحد : ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى ﴾ .

﴿ وَإِنَّ لَنَا لَلآخِرَةَ وَالأُولَى ﴾ .. واللمسة الثانية هي التقرير الجازم لحقيقة السيطرة التي تحيط بالناس ، فلا يجدون من دونها موئلاً : ﴿ وَإِنَّ لَنَا لَلآخِرَةَ وَالأُولَى ﴾ .. فأين يذهب من يريد أن يذهب عن الله بعيدًا ؟!

﴿ فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى ﴾ .. وتفريعًا على أن الله ﷻ كتب على نفسه بيان الهدى للعباد ، وأن له الآخرة والأولى داري الجزاء والعمل .. تفريعًا على هذا يذكرهم أنه أنذرهم وحذرهم وبين لهم : ﴿ فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى ﴾ .. وتتسعر .. هذه النار المتسعرة ...

﴿ لاَ يَصْلاَهَا إِلاَّ الأَشْقَى ﴾ .. أشقى العباد جميعًا ، وهل بعد الصلي في النار شقوة ؟! ثم

يبين من هو الأشقى ، إنه هو ...

﴿ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴾ .. كذب بالدعوة وتولى عنها ، تولى عن الهدى وعن دعوة ربه له ليهديه كما وعد كل من يأتي إليه راغبًا .

﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى ﴾ .. وهو الأسعد في مقابل الأشقى .. ثم يبين من هو الأتقى ، إنه هو ...

﴿ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ﴾ .. الذي ينفق ماله ليتطهر بإنفاقه ، لا ليرائي به ويستعلي ، ينفقه تطوعًا لا ردًّا لجميل أحد ، ولا طلبًا لشكران أحد ، وإنما ابتغاء وجه ربه خالصًا .. ربه الأعلى .

﴿ وَمَا لأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى * إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَى ﴾ .. ثم ماذا ؟ ماذا ينتظر هذا الأتقى ، الذي يؤتي ماله تطهرًا ، وابتغاء وجه ربه الأعلى ؟ إن الجزاء الذي يطالع القرآن به الأرواح المؤمنة هنا .. عجيب .. ومفاجئ .. وعلى غير المألوف ...

﴿ وَلَسَوْفَ يَرْضَى ﴾ .. إنه الرضى ينسكب في قلب هذا الأتقى .. إنه الرضى يغمر روحه .. إنه الرضى يفيض على جوارحه .. إنه الرضى يشيع في كيانه .. إنه الرضى يندي حياته . ويا له من جزاء ! ويا لها من نعمة كبرى !

﴿ وَلَسَوْفَ يَرْضَى ﴾ .. يرضى بدينه ، ويرضى بربه ، ويرضى بقدره ، ويرضى بنصيبه ، ويرضى بما يجد من سراء وضراء ، ومن غنى وفقر ، ومن يسر وعسر ، ومن رخاء وشدة ، يرضى فلا يقلق .. ولا يضيق .. ولا يستعجل .. ولا يستثقل العبء .. ولا يستبعد الغاية .

إن هذا الرضى جزاء أكبر من كل جزاء .. جزاء يستحقه من يبذل له نفسه وماله .. من يعطي ليتزكى ، ومن يبذل ابتغاء وجه ربه الأعلى .

إنه جزاء لا يمنحه إلا الله ﷻ ، وهو يسكبه في القلوب التي تخلص له ، فلا ترى سواه أحدًا .

﴿ وَلَسَوْفَ يَرْضَى ﴾ .. يرضى وقد بذل الثمن ، وقد أعطى ما أعطى ..

إنها مفاجأة في موضعها هذا ، ولكنها المفاجأة المرتقبة لمن يبلغ ما بلغه (**الأتقى الذي يؤتي ماله يتزكى ، وما لأحد عنده من نعمة تجزى ، إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى**) ..

﴿ وَلَسَوْفَ يَرْضَى ﴾ .. نسأل الله أن يرزقنا الرضا عنه ، وأن يرزقنا رضاه ..

اللهم إنا قد رضينا عنك .. فارض اللهم عنا ، وأرضنا بك .. يا أرحم الراحمين ..

والحمد لله رب العالمين ..

علم

تفسير جزء

سورة الضحى

سُورَةُ الضُّحَى

أحمدك ربي على فضائل ذاتك، وعظائم نعمائك، وأصلي وأسلم على قمة اصطفائك، ومسك ختامك، سيدنا محمد ﷺ . . وبعد :

فمع **سورة الضحى** ، هذه السورة بموضوعها ، وتعبيرها ، ومشاهدها ، وظلالها وإيقاعها ، لسمة من حنان ، ونسمة من رحمة ، وطائف من ود ، ويد حانية تمسح على الآلام والمواجع ، وتنسم بالرَّوح والرضى والأمل ، وتسكب البرد والطمأنينة واليقين .

إنها كلها خالصة للنبي ﷺ ، كلها نجاء له من ربه ، وتسرية وتسلية وترويح وتطمين ، كلها أنسام من الرحمة ، وأنداء من الود ، وألطاف من القربى ، وهدهدة للروح المتعب ، والخاطر المقلق ، والقلب الموجوع .

وقد رد في روايات كثيرة أن الوحي فتر عن رسول الله ﷺ وأبطأ عليه **جبريل** عليه السلام ، حتى قال المشركون : ودع **محمدا** ربُّه .. فأنزل الله ﷻ هذه السورة .

والوحي ولقاء **جبريل** والاتصال بالله ، كانت هي زاد الرسول ﷺ في مشقة الطريق ، وسقياه في هجير الجحود ، ورَوحه في لأواء التكذيب ، وكان ﷺ يحيا بها في هذه الهاجرة المحرقة التي يعانيها في النفوس النافرة الشاردة العصية العنيدة ، ويعانيها في المكر والكيد والأذى المصبوب على الدعوة ، وعلى الإيمان ، وعلى الهدى من طغاة المشركين .

فلما فتر الوحي انقطع عنه الزاد ، وانحبس عنه الينبوع ، واستوحش قلبه من الحبيب ، وبقي للهاجرة وحده .. بلا زاد ، وبلا رِي ، وبغير ما اعتاد من رائحة الحبيب الودود ، وهو

* تفسير السورة مقتبس بتصرف من : "في ظلال القرآن" .

أمر أشد من الاحتمال من جميع الوجوه .

وعندئذ نزلت هذه السورة ، نزل هذا الفيض من الود والحب والرحمة والإيناس والقربى والأمل والرضى والطمأنينة واليقين .

﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى * وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولَى * وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ﴾ ..

وما تركك ربك من قبل أبدًا ، وما قلاك من قبل قط ، وما أخلاك من رحمته ورعايته وإيوائه .. ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى * وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَى * وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى ﴾ .

ألا تجد مصداق هذا في حياتك ؟! ألا تحس مسّ هذا في قلبك ؟! ألا ترى أثر هذا في واقعك ؟!

﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ﴾ .. وما انقطع عنك بره وما ينقطع أبدًا .. ﴿ وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولَى ﴾ .. وهناك ما هو أكثر وأوفى : ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ﴾ ..

ومع هذه الأنسام اللطيفة من حقيقة الأمر وروحه .. الأنسام اللطيفة في العبارة والإيقاع .. وفي الإطار الكوني الذي وضعت فيه هذه الحقيقة .. ﴿ وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ﴾ .. فأطلق التعبير جوًّا من الحنان اللطيف والرحمة الوديعة والرضى الشامل والشجى الشفيف .

ذلك الحنان ، وتلك الرحمة ، وذاك الرضى ، وهذا الشجى .. تنسرب كلها من خلال النظم اللطيف العبارة ، الرقيق اللفظ ، ومن هذا الإيقاع الساري في التعبير .

فلما أراد إطارًا لهذا الحنان اللطيف ، ولهذه الرحمة الوديعة ، ولهذا الرضى الشامل ، ولهذا الشجى الشفيف ، جعل الإطار من الضحى الرائق ، ومن الليل الساجي .. أصفى آنين من آونة الليل والنهار ، وأشف آنين تسري فيهما التأملات ، وتتصل الروح بالوجود وخالق الوجود ، وتحس بعبادة الكون كله لمبدعه ، وتوجهه لبارئه بالتسبيح والفرح والصفاء ، وصوّرهما في اللفظ المناسب ، فالليل هو : (**الليل إذا سجى**) ، لا الليل على إطلاقه بوحشته وظلامه ، الليل الساجي الذي يرق ويسكن ويصفو ، وتغشاه سحابة رقيقة من الشجى

الشـفيف ، والتأمل الوديع ، كجو اليتم والعيلة ، ثم ينكشـف ويجلي مع الضحـى الرائق الصافي .. فتلتئم ألوان الصورة مع ألوان الإطار ، ويتم التناسق والاتساق .

إن هذا الإبـداع في كمال ليدل على الصنعة .. صنعة الله التي لا تماثلها صنعة ، ولا يتلبس بها تقليد .

وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ۝٥

﴿ وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ﴾ .. يقسم الله ﷻ بهذين الآنين الرائقين الموحيين ، فيربط بين ظواهر الكون ومشاعر النفس ، ويوحي إلى القلب البشري بالحياة الشاعرة المتجاوبة مع هذا الوجود الجميل الحي ، المتعاطف مع كل حي ، فيعيش ذلك القلب في أنس من هذا الوجود ، غير موحش ولا غريب فيه فريد .

وفي هذه السورة بالذات يكون لهذا الأنس وقعه ، فظل الأنس هو المراد مده ، وكأنما يوحي الله لرسوله ﷺ منذ مطلع السورة أن ربه ﷻ قد أفاض من حوله الأنس في هذا الوجود ، وأنه من ثم غير مجفوّ فيه ولا فريد .

﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ﴾ .. وبعد هذا الإيحاء الكوني يجيء التوكيد المباشر : ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ﴾ .. ما تركك ربك ولا جفاك كما زعم من يريدون إيذاء روحك ، وإيجاع قلبك ، وإقلاق خاطرك .. وهو ربك ، وأنت عبده المنسوب إليه ، المضاف إلى ربوبيته ، وهو راعيك وكافلك ..

وما غاض معين فضله وفيض عطائه ؛ فإن لك عنده في الآخرة من الحسنى خيرًا مما يعطيك منها في الدنيا .

﴿ وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولَى ﴾ .. فهو الخير أولاً وأخيرًا .. وإنه ليدخر لك ما يرضيك من التوفيق في دعوتك ، وإزاحة العقبات من طريقك ، وغلبة منهجك ، وظهور حقك .. وهي الأمور التي كانت تشغل باله ﷺ وهو يواجه العناد والتكذيب والأذى والكيد .. والشماتة ..

﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ﴾ .. ويمضي سياق السورة يذكِّر الرسول ﷺ ما كان من شأن ربه معه منذ أول الطريق ؛ ليستحضر في خاطره جميل صنع ربه به ، ومودته له ، وفيضه عليه ، ويستمتع باستعادة مواقع الرحمة والود والإيناس الإلهي ، وهو متاع فائق تحييه الذكرى على هذا النحو البديع ..

أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾
فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾

﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى * وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَى * وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى ﴾ .. انظر في واقع حالك ، وماضي حياتك .. هل ودعك ربك وهل قلاك حتى قبل أن يعهد إليك بهذا الأمر ؟ ألم تحط يتمك رعايته ؟ ألم تدرك حيرتك هدايته ؟ ألم يغمر فقرك عطاؤه ؟

لقد ولدت يتيمًا فآواك إليه ، وعطف عليك القلوب ، حتى قلب عمك **أبي طالب** وهو على غير دينك .

ولقد كنت فقيرًا فأغنى الله نفسك بالقناعة ، كما أغناك بكسبك ومال أهل بيتك (**خديجة**

رضي الله عنها) عن أن تحس الفقر ، أو تتطلع إلى ما حولك من ثراء .

ثم لقد نشأت في جاهلية مضطربة التصورات والعقائد ، منحرفة السلوك والأوضاع ، فلم تطمئن روحك إليها ، ولكنك لم تكن تجد لك طريقًا واضحًا مطمئنًا ، لا فيما عند الجاهلية ، ولا فيما عند أتباع موسى وعيسى الذين حرفوا وبدلوا وانحرفوا وتاهوا .. ثم هداك الله بالأمر الذي أوحى به إليك ، وبالمنهج الذي يصلك به .

والهداية من حيرة العقيدة وضلال الشعاب فيها هي المنة الكبرى ، التي لا تعدلها منة ، وهي الراحة والطمأنينة من القلق الذي لا يعدله قلق ، ومن التعب الذي لا يعدله تعب ، ولعلها كانت بسبب مما كان رسول الله ﷺ يعانيه في هذه الفترة ، من انقطاع الوحي ، وشماتة المشركين ، ووحشة الحبيب من الحبيب .

فجاءت هذه تذكره وتطمئنه على أن ربه لن يتركه بلا وحي في التيه ، وهو لم يتركه من قبل في الحيرة والتيه .

وبمناسبة ما ذكره ربه بإيوائه من اليتم ، وهدايته من الحيرة وإغنائه من العيلة .. يوجهه ويوجه المسلمين من ورائه إلى رعاية كل يتيم ، وإلى كفاية كل سائل ، وإلى التحدث بنعمة الله الكبرى عليه ، وفي أولها : الهداية إلى هذا الدين ..

﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلاَ تَقْهَرْ * وَأَمَّا السَّائِلَ فَلاَ تَنْهَرْ ﴾ .. وهذه التوجيهات إلى إكرام اليتيم والنهي عن قهره وكسر خاطره وإذلاله ، وإلى إغناء السائل مع الرفق به والكرامة ، كانت من أهم إيحاءات الواقع في البيئة الجاحدة المتكالبة ، التي لا ترعى حق ضعيف ، غير قادر على حماية حقه بسيفه ، حيث رفع الإسلام هذه البيئة بشرعة الله ﷻ إلى الحق والعدل ، والتحرج والتقوى ، والوقوف عند حدود الله الذي يحمي حدوده ، ويغار عليها ، ويغضب للاعتداء على حقوق عباده الضعاف الذين لا يملكون قوة ولا سيفًا يذودون به عن هذه الحقوق .

﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ .. وأما التحدث بنعمة الله ﷻ ، وبخاصة نعمة الهدى والإيمان ، فهو صورة من صور الشكر للمنعم ، يكملها البر بعباده ، وهو المظهر العملي للشكر ، والحديث الصامت النافع الكريم ..

نسأل الله أن يعيننا على شكره كما يحب ويرضى ، وأن يعيننا على التحدث بنعمته علينا ، إنه ولي ذلك والقادر عليه .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

علم

تفسیر جزء

سورة الشرح

سورة الشرح

أحمدك ربي على فضائل ذاتك، وعظائم نعمائك، وأصلي وأسلم على قمة اصطفائك، ومسك ختامك، سيدنا محمد ﷺ . . وبعد :

فمع **سورة الشرح** ، وقد نزلت هذه السورة بعد **سورة الضحى** ، وكأنها تكملة لها ، فيها ظل العطف الندي ، وفيها روح المناجاة الحبيب ، وفيها استحضار مظاهر العناية ، واستعراض مواقع الرعاية ، وفيها البشرى باليسر والفرج ، وفيها التوجيه إلى سر اليسر وحبل الاتصال الوثيق .

وهي توحي بأن هناك ضائقة كانت في روح الرسول ﷺ لأمر من أمور هذه الدعوة التي كُلفها ، ومن العقبات الوعرة في طريقها ، ومن الكيد والمكر المضروب حولها .. توحي بأن صدره ﷺ كان مثقلاً بهموم هذه الدعوة الثقيلة ، وأنه كان يحس العبء فادحًا على كاهله ، وأنه كان في حاجة إلى عون وزاد ورصيد .. ثم كانت هذه المناجاة الحلوة ، وهذا الحديث الودود .

* تفسير السورة مقتبس بتصرف من : " في ظلال القرآن " .

أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾
وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ
فَٱنصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴿٨﴾

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ .. ألم نشرح صدرك لهذه الدعوة ؟ ونيسر لك أمرها ؟ ونجعلها حبيبة لقلبك ؟ ونشرع لك طريقها ؟ ونُنِرْ لك الطريق حتى ترى نهايته السعيدة ؟

فتش في صدرك .. ألا تجد فيه الرَوح والانشراح والإشراق والنور ؟ واستعد في حسك مذاق هذا العطاء ، وقل : ألا تجد معه المتاع مع كل مشقة ؟! والراحة مع كل تعب ؟! واليسر مع كل عسر ؟! والرضى مع كل حرمان ؟!

﴿ وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ * الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ﴾ .. ووضعنا عنك عبئك الذي أثقل ظهرك حتى كاد يحطمه من ثقله .. وضعناه عنك بشرح صدرك له فخف وهان ، وبتوفيقك وتيسيرك للدعوة ومداخل القلوب ، وبالوحي الذي يكشف لك عن الحقيقة ويعينك على التسلل بها إلى النفوس في يسر وهوادة ولين .

ألا تجد ذلك العبء الذي أنقض ظهرك ؟! ألا تجد عبئك خفيفًا بعد أن شرحنا لك صدرك ؟!

﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ .. رفعناه في الملأ الأعلى ، ورفعناه في الأرض ، ورفعناه في هذا الوجود جميعًا .. رفعناه فجعلنا اسمك مقرونًا باسم الله ﷻ كلما تحركت به الشفاه : " **لا إله إلا الله .. محمد رسول الله** " .. وليس بعد هذا الرفع رفع ، وليس وراء هذه المنزلة منزلة ، وهو المقام الذي تفرد به ﷺ دون سائر العالمين .

ورفعنا لك ذكرك في اللوح المحفوظ ، حين قدر الله أن تمر القرون ، وتكر الأجيال ، وملايين الشفاه في كل مكان تهتف بهذا الاسم الكريم ، مع الصلاة والتسليم ، والحب العميق العظيم .

ورفعنا لك ذكرك ، وقد ارتبط بهذا المنهج الإلهي الرفيع ، وكان مجرد الاختيار لهذا الأمر رفعة ذكر لم ينلها أحد من قبل ولا من بعد في هذا الوجود ، فأين تقع المشقة والتعب والضنى من هذا العطاء الذي يمسح على كل مشقة وكل عناء ؟! ومع هذا فإن الله يتلطف مع حبيبه المختار ﷺ ، ويسري عنه ، ويؤنسه ، ويطمئنه ، ويطلعه على اليسر الذي لا يفارقه ..

﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ .. إن العسر لا يخلو من يسر يصاحبه ويلازمه ، وقد لازمه معك فعلاً ، فحينما ثقل العبء شرحنا لك صدرك ، فخف حملك ، الذي أنقض ظهرك ، وكان اليسر مصاحبًا للعسر ، يرفع إصره ، ويضع ثقله .

وإنه لأمر مؤكد يكرره بألفاظه : ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ .. وهذا التكرار يشي بأن الرسول ﷺ كان في عسرة وضيق ومشقة اقتضت هذه الملاحظة .. وهذا التذكير .. وهذا الاستحضار لمظاهر العناية .. وهذا الاستعراض لمواقع الرعاية .. وهذا التوكيد بكل ضروب التوكيد ، والأمر الذي يثقل على نفس **محمد** هكذا لا بد أنه كان أمرًا عظيمًا ..

ثم يجيء التوجيه الكريم لمواقع التيسير ، وأسباب الانشراح ، ومستودع الري والزاد في الطريق الشاق الطويل ..

﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ ﴾ .. إذا كان مع العسر يسر .. فخذ في أسباب اليسر والتيسير ، فإذا فرغت من شغلك مع الناس ومع الأرض ، ومع شواغل الحياة .. إذا فرغت من هذا كله .. فتوجه بقلبك كله إذن إلى ما يستحق أن تنصب فيه وتكد وتجهد .. العبادة والتجرد والتطلع والتوجه ..

﴿ وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴾ .. إلى ربك وحده خاليًا من كل شيء حتى من أمر الناس الذين

تشتغل بـدعوتهم .. إنه لا بـد من الزاد للطريق ، وهنا الزاد ، ولا بـد من العدة للجهاد ، وهنا العدة ، وهنا ستجد يسرًا مع كل عسر ، وفرجًا مع كل ضيق .. هذا هو الطريق .

وتنتهي هذه السورة كما انتهت **سورة الضحى** ، وقد تركت في النفس شعورين ممتزجين .. الشعور بعظمة الود الحبيب الجليل الذي ينسم على روح الرسول ﷺ من ربه الودود الرحيم ، والشعور بالعطف على شخصه ﷺ ونحن نكاد نلمس ما كان يساور قلبه الكريم في هذه الآونة التي اقتضت ذلك الود الجميل .. إنها الدعوة .. هذه الأمانة الثقيلة ، وهذا العبء الذي ينقض الظهر ، وهي مع هذا وهذا مشرق النور الإلهي ومهبطه ، ووصلة الفناء بالبقاء ، والعدم بالوجود .

نسأل الله العلي الكبير أن يشرح صدورنا ، وأن ييسر أمورنا ، وأن يعلي ذكرنا في الدنيا والآخرة ، وأن يرزقنا لذة العبادة في الدنيا ، ولذة النعيم في الآخرة .

إنه ولي ذلك والقادر عليه . .

علم

تفسير جزء

سورة التين

سورة التين

أحمدك ربي على فضائل ذاتك، وعظائم نعمائك، وأصلي وأسلم على قمة اصطفائك، ومسك ختامك، سيدنا محمد ﷺ . . وبعد :

فمع **سورة التين** .. والحقيقة الرئيسية التي تعرضها هذه السورة هي حقيقة الفطرة القويمة التي فطر الله الإنسان عليها ، واستقامة طبيعتها مع طبيعة الإيمان ، والوصول بها معه إلى كمالها المقدور لها ، وهبوط الإنسان وسفوله حين ينحرف عن سواء الفطرة واستقامة الإيمان .

يقسم الله ﷻ على هذه الحقيقة بالتين والزيتون ، وطور سينين ، وهذا البلد الأمين ، وهذا القسم على ما عهدنا في كثير من سور هذا الجزء هو الإطار الذي تعرض فيه تلك الحقيقة ، وقد رأينا في السور المماثلة أن الإطار يتناسق مع الحقيقة التي تعرض فيه تناسقًا دقيقًا .

* تفسير السورة مقتبس بتصرف من : " في ظلال القرآن " .

وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا
ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟
ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ﴿٧﴾ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ
ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨﴾

﴿ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ * وَطُورِ سِينِينَ * وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ ﴾ .. فأما (**طور سينين**) فهو جبل الطور الذي نودي **موسى** عليه السلام من جانبه ، وأما (**البلد الأمين**) فهو مكة التي هي بيت الله الحرام .. وعلاقتهما بأمر الدين والإيمان واضحة .

وأما (**التين والزيتون**) فلا يتضح فيهما هذا الظل فيما يبدو لنا ، وقد كثرت الأقوال المأثورة في التين والزيتون .. (**فقيل**) : إن التين إشارة إلى طورتينا بجوار دمشق .

(**وقيل**) : هو إشارة إلى شجرة التين التي راح **آدم وزوجه عليهما السلام** يخصفان من ورقها على سوءاتهما في الجنة التي كانا فيها قبل هبوطهما إلى هذه الحياة الدنيا .

(**وقيل**) : هو منبت التين في الجبل الذي استوت عليه سفينة **نوح** عليه السلام .

(**وقيل**) في الزيتون : إنه إشارة إلى طورزيتا في بيت المقدس .

(**وقيل**) : هو إشارة إلى بيت المقدس نفسه .

(**وقيل**) : هو إشارة إلى غصن الزيتون الذي عادت به الحمامة التي أطلقها **نوح** عليه السلام من السفينة لترتاد حالة الطوفان ، فلما عادت ومعها هذا الغصن عرف أن الأرض قد انكشفت وأنبتت .

(وقيل) : بـل التين والزيتون هما هذان الأكلان اللذان نعرفهما بحقيقـتهما ، وليس هناك رمز لشيء وراءهما .. أو أنهما هما رمز لمنبتهما من الأرض .

وشجرة الزيتون أشير إليها في القرآن في موضع آخر بجوار الطور .. فقال ﷻ : ﴿ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالـدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِلآكِلِينَ ﴾[1] ، كمـا ورد ذكـر الزيتـون : ﴿ وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً ﴾[2].

وأما التين فذكره يرد في هذا الموضع لأول مرة ، وللمرة الوحيدة في القرآن الكريم كله .

ومن ثم فإننا لا نملك أن نجزم بشـيء في هذا الأمر ، وكل ما نملك أن نقـوله اعتمادًا على نظائر هذا الإطار في السور القرآنية هو أن الأقرب أن يكون ذكر التين والزيتون إشـارة إلى أماكن أو ذكريات ذات علاقة بـالدين والإيمان ، أو ذات علاقـة بنشـأة الإنسـان في أحسـن تقـويم ، وربما كان ذلك في الجنة التي بدأ فيها حياته ؛ كي تلتئم هذه الإشـارة مع الحقيقـة الرئيسـية البارزة في السورة ، ويتناسق الإطار مع الحقيقة الموضوعة في داخله على طريقة القرآن .

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴾ .. فأما الحقيقـة الداخلية في السورة فهي هذه .

﴿ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ .. ومنها تبدو عناية الله بخلق هذا الإنسان ابتداء في أحسن تقويم ، والله ﷻ أحسن كل شيء خلقه .

فتخصيص الإنسـان هنا وفي مواضع قـرآنية أخرى بحسـن التركيب ، وحسـن التقـويم ، وحسن التعديل .. فيه فضل عناية بهذا المخلوق ، وإن عناية الله بأمر هذا المخلوق على ما بـه من ضعف وعلى ما يقع منه من انحراف عن الفطرة وفساد لتشير إلى أن له شأنًا عند الله ﷻ ، ووزنًا في نظام هذا الوجود .

---

1 - سورة : المؤمنون ، الآية : 20 .

2 - سورة : عبس ، الآية : 29 .

وتتجلى هذه العناية في خلقه وتركيبه على هذا النحو الفائق ، سواء في تكوينه الجثماني البالغ الدقة والتعقيد ، أم في تكوينه العقلي الفريد ، أم في تكوينه الروحي العجيب .

والتركيز في هذا المقام على خصائصه الروحية .. فهي التي تنتكس إلى أسفل سافلين حين ينحرف عن الفطرة ويحيد عن الإيمان المستقيم معها ، إذ إنه من الواضح أن خلقته البدنية لا تنتكس إلى أسفل سافلين .

وفي هذه الخصائص الروحية يتجلى تفوق التكوين الإنساني ، فهو مهيأ لأن يبلغ من الرفعة مدى يفوق مقام الملائكة المقربين ، كما تشهد بذلك قصة المعراج ، حيث وقف **جبريل** عليه السلام عند مقام ، وارتفع **محمد بن عبد الله** ﷺ الإنسان إلى المقام الأسنى .

بينما هذا الإنسان مهيأ حين ينتكس لأن يهوي إلى الدرك الذي لا يبلغ إليه مخلوق قط : ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴾ .. حيث تصبح البهائم أرفع منه وأقوم ؛ لاستقامتها على فطرتها ، وإلهامها تسبيح ربها ، وأداء وظيفتها في الأرض على هدى ، بينما هو المخلوق في أحسن تقويم يجحد ربه ، ويرتكس مع هواه إلى درك لا تملك البهيمة أن ترتكس إليه .

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ .. فطرة واستعدادًا .. ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴾ .. حين ينحرف بهذه الفطرة عن الخط الذي هداه الله إليه ، وبينه له ، وتركه ليختار أحد النجدين .

﴿ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ .. فهؤلاء هم الذين يبقون على سواء الفطرة ، ويكملونها بالإيمان والعمل الصالح ، ويرتقون بها إلى الكمال المقدر لها ، حتى ينتهوا بها إلى حياة الكمال في دار الكمال .

﴿ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ .. دائم غير مقطوع ، فأما الذين يرتكسون بفطرتهم إلى أسفل سافلين ، فيظلون ينحدرون بها في المنحدر ، حتى تستقر في الدرك الأسفل .. هناك في جهنم ، حيث تهدر آدميتهم ، ويتمحضون للسفول .

فهذه وتلك نهايتان طبيعيتان لنقطة البدء .. إما استقامة على الفطرة القويمة ، وتكميل لها بالإيمان ، ورفع لها بالعمل الصالح .. فهي واصلة في النهاية إلى كمالها المقدر في حياة النعيم .

وإما انحراف عن الفطرة القويمة ، واندفاع مع النكسة ، وانقطاع عن النفخة الإلهية .. فهي واصلة في النهاية إلى دركها المقرر في حياة الجحيم .

ومن ثم تتجلى قيمة الإيمان في حياة الإنسان .. إنه المرتقى الذي تصل فيه الفطرة القويمة إلى غاية كمالها .. إنه الحبل الممدود بين الفطرة وبارئها .. إنه النور الذي يكشف لها مواقع خطاها في المرتقى الصاعد إلى حياة الخالدين المكرمين .

وحين ينقطع هذا الحبل ، وحين ينطفئ هذا النور ، فالنتيجة الحتمية هي الارتكاس في المنحدر الهابط إلى أسفل سافلين ، والانتهاء إلى إهدار الآدمية كلية ، حين يتمحض الطين في الكائن البشري ، فإذا هو وقود النار مع الحجارة سواء بسواء .

وفي ظل هذه الحقيقة ينادى الإنسان ..

﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ﴾ .. فما يكذبك بالدين بعد هذه الحقيقة ؟! وبعد إدراك قيمة الإيمان في حياة البشرية ؟! وبعد تبين مصير الذين لا يؤمنون ، ولا يهتدون بهذا النور ، ولا يمسكون بحبل الله المتين ؟!

﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ﴾ .. أليس الله بأعدل العادلين حين يحكم في أمر الخلق على هذا النحو ؟! أو .. أليست حكمة الله بالغة في هذا الحكم على المؤمنين وغير المؤمنين ؟! والعدل واضح ، والحكمة بارزة ..

نسأل الله ﷻ أن يجعلنا من أولئك الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وأن يعطينا الأجر غير ممنون ، إنه ولي ذلك والقادر عليه .

والحمد لله رب العالمين ..

علم

تفسير جزء

سورة العلق

سُورَةُ العَلَقِ

أحمدك ربي ، وأصلي وأسلم على سيدنا محمد ﷺ ، رحمة الله للعالمين ، وخاتم الأنبياء والمرسلين ، وبعد . .

فمع **سورة العلق** ، تلك السورة التي هي أول ما نزل من القرآن باتفاق ، فعن **عائشة رضي الله عنها** قالت : أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حبب إليه الخلاء ، وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه – وهو التعبد الليالي ذوات العدد – قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك ، ثم يرجع إلى **خديجة** فيتزود لمثلها ، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء ، فجاءه الملك فقال : " **اقرأ** " .. قال : " **ما أنا بقارئ** " .. قال : " **فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني** ، فقال : " **اقرأ** " .. قلت : " **ما أنا بقارئ** " .. " **فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني** " ، فقال : " **اقرأ** " .. فقلت : " **ما أنا بقارئ** " .. فأخذني فغطني الثالثة ثم أرسلني ، فقال : ﴿ **اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ** ﴾ .. فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده ، فدخل على **خديجة بنت خويلد رضي الله عنها** ، فقال : " **زملوني زملوني** " .. فزملوه حتى ذهب عنه الروع ، فقال **لخديجة** ، وأخبرها الخبر : " **لقد خشيت على نفسي** " .. فقالت **خديجة** : كلا والله ، ما يخزيك الله أبدًا ؛ إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق .. فانطلقت به **خديجة** حتى أتت به **ورقة بن نوفل بن أسد بن**

* مقدمة تفسير السورة من وضعنا .. "لجنة التحقيق" .

عبد العزى ابن عم خديجة ، وكان امرأً قد تنصر في الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبراني ، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب ، وكان شيخًا كبيرًا قد عمي ، فقالت له خديجة : يا ابن عم ، اسمع من ابن أخيك . فقال له ورقة : يا ابن أخي ، ماذا ترى ؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى ، فقال له ورقة : هذا الناموس الذي نزَّل الله على موسى ، يا ليتني فيها جذعًا ، ليتني أكون حيًّا إذ يخرجك قومك . فقال رسول الله ﷺ : " أومخرجي هم ؟! " .. قال : نعم ، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي ، وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا ، ثم لم ينشب ورقة أن توفي وفتر الوحي [1].

ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾
ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ .. أمر الله رسوله ﷺ أن يقرأ ، ولكن لا برسوم الناس في القراءة ، وهي سابقية التعلم في أن يقع ؛ ولذلك علل قوله ﷻ : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ ، بأنه إذا كانت الأشياء لها أسباب من المقدمات ، والإنسان يوجد من أمه ، ومن أبيه ، وأبوه وأمه ، يوجدان من أبويهما ، وأميهما ، فمن خلق الخلق الأول الذي هو بلا أسباب ؟

إذن ، فالحق يقول له : إنك ستقرأ على غير طريقة الناس ؛ لأن طريقة الناس في القراءة تكون بالأسباب المتقدمة على القراءة ، وأنت ستقرأ لا بالأسباب ، ولكن بإرادة مسبب

1 - أخرجه البخاري (3 ، 4572 ، 6467) ، ومسلم (231) ، وغيرهما ، جميعًا عن عائشة رضي الله عنها .

لأسباب الذي لا يحتاج في إيجاد الأشياء إلى سبب .

﴿ خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ .. والعلق : هو المرحلة الأولى في التناسل الإنساني المعلوم لنا ، أما البدايات الأولى فكانت من تراب ، أو من طين ، أو من صلصال ، أو كل ذلك ، فلماذا عدل الحق ﷻ عن بداية الخلق الأول الذي هو التراب ، مع أنه أدل على كمال القدرة ؟!

ذلك لأن الحق ﷻ يخاطبنا في منطقة علمنا ، ومنطقة علم البشر أنهم لم يشهدوا الخلق من التراب ، وإنما خلقُنا من تراب جاء بإخبار الحق لنا ، فتلك جزئيات علمية لا وسيلة للعلم التجريبي فيها ، وأما كون الإنسان مخلوقًا من علق ، فهذا من الممكن أن يخضع لتجربة عملية ، بحيث نستطيع أن نبحث وراء النطفة حتى تصير علقة ، والعلقة حتى تصير مضغة ، ثم عظامًا ، ثم لحمًا من فوق العظام ، وهكذا .

فذلك واقع في نطاق علمنا التجريبي ، أما كونه خلقنا من تراب ، فهذا خاضع لإعلامنا بذلك ، ولم نشهد نحن ذلك ، وهذا يدلنا على أن العلم التجريبي منطقته الأمور المحسة التي يمكن أن تجري عليها تجربة ، أما الأمر الغيبي فلا يمكن أن تقوم عليه تجربة ، فلا مصدر لعلمنا به إلا من الحق ﷻ ، والحق يقول : ﴿ مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلاَ خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ ﴾[1] ، وكوننا مخلوقين من علق ، ثم تتطور العلقة إلى مضغة ، إلى آخره ... ، كل هذا أمر في حيز العلم التطبيقي ، ويسهل عليه أن يهتدي إلى منطق القرآن فيه ، والمنطق القرآني حينما تكلم عن علم الأجنة ، لم يكن قد سُبق إلى كلام من هذا النوع ، لا النطفة ، ولا العلقة ، ولا المضغة ، إلى آخره .

﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ﴾ .. ونجد أن الحق ﷻ قال : ﴿ الأَكْرَمُ ﴾ ، وهي صيغة تفضيل ، وهي تدل على وجود منطقتين : منطقة الكريم ، ومنطقة الأكرم ، فكأن الكريم هو الذي يلهمك الأسباب فتتعلم بها ، ولكن الأكرم هو الذي يعلمك بلا وجود لهذه الأسباب .

---

1 - سورة : الكهف ، الآية : 51 .

﴿ عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ .. فهل المقصود بالإنسان هنا مطلق الإنسان ، أم خصوص الإنسان الأول ؟ نعم ، هو مطلق الإنسان ، ويصير إلى خصوصية الإنسان الأول أيضًا .

فعِلم البشر كله يأتي من مقدمات تُستنتج منها الأشياء ، هذه المقدمات لو سلسلناها لوجدناها تنتهي كلها إلى الأمر البديهي الموجود في الكون ، الذي لا يختلف فيه أحد أبدًا ، حتى أعقد نظريات العلم .

ودللنا على ذلك بتسلسل النظريات الهندسية ، فعندما يأتي الإنسان ليبرهن على نظرية ما فإنه يحتاج في البرهنة إلى أن يقول : حسب نظريتي ، أو يقول : حسب نظرية ثمانين مثلاً ، أو سبعين ، إلى أن يقول : نظرية ثلاثة ، وهذا البرهان حسب نظرية واحد ، وهكذا ... ، فإذا جاء عند نظرية واحد في البرهنة عليها ، لا يقول : كذا يساوي كذا حسب نظرية فلان ؛ لأن النظريات انتهت إلى آخر حدها ، وإنما يقول : حسب بديهية فلان ، وهي البديهية التي يشترك كل الناس فيها .

إذن ، فأعقد النظريات العلمية ، ما جاءت إلا من الأمر البديهي .

فالحق عندما علم الإنسان ما لم يعلم ، ترك في أصول الكون بديهيات ، هذه البديهيات لا تتطلب من العقل البشرى إلا أن يلتفت إليها فقط .

وبما أنه لم يسمع ، فما الذي يحاكيه ؟ لا يمكن إلا إذا طرأ الصمم بعد سماعه للأشياء ، فإن كان سمع الأشياء ، فالذي سمعه أولاً يتكلم به ، وإن تعلم في هذه الأثناء فمن الممكن أن يقرأ ، ولذلك قال ﷻ : ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ ﴾[1] ، فأتى بالبكم بعد الصم ؛ لأنه هو العلة الأساسية في عدم السماع ؛ لأن اللغة بنت المحاكاة ، فما تسمعه الأذن يحكيه اللسان .

والحق ﷻ حين أراد أن يضرب لنا مثلاً في فتية أهل الكهف ، ماذا قال فيهم ؟ وهو يريد أن ينيمهم ثلاثمائة سنين وتسعة ، أنامهم في كهف ، والكهف في جبل ، والجبل في

---

1 - سورة : البقرة ، الآية : 18 .

صحراء ، والصحراء فيها عوامل طبيعية ، من أعاصير ، وعواصف ، وزوابع ، وغير ذلك من الأشياء الأخرى التي تقلق النوم ، وهو يريد أن ينيمهم نومًا طويلاً ، ماذا قال فيهم ؟ قال : ﴿ فَضَرَبْنَا على آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴾[1] ، وكأنهم خالفوا النوم الطبيعي ؛ لأن الحق ﷻ قد ضرب على آذانهم ، فضرب على الأداة التي لا تذهب مهمتها في النوم : ﴿ فَضَرَبْنَا على آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴾ .

فإذا ما جئنا للإنسان الأول ، نجد أن الإنسان الأول ، وهو أبونا آدم عليه السلام ، تلقى من الله العلم بالسماع أولاً : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾[2]؛ لأن المعرفة جاءت لبني آدم بالتسلسل ، فأنا تعلمت من أبي ، وأبي تعلم من أبيه ، وهكذا ، حتى نصل إلى أبي البشر جميعًا آدم عليه السلام ، فمن الذي علم آدم ؟ إنه ربه ﷻ ، الذي علم الإنسان مالم يعلم .

وإذا نظرت إلى الإنسان هنا نظرة عامة تفهم أن : ﴿ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ ، أي : أوجد في الوجود ما يعينه على العلم ، من طاقة فكرية ، وإدراكات ، ومادة ينفعل بها ، فإذا نظرت للإنسان الأول ، لم تجد شيئًا من هذا ؛ لأنه فاقد لغة نقل العلم ، وما دام فاقدًا للغة النقل ، فلابد من تعلمها أولاً .

انظر إلى عبارات القرآن الدقيقة ، حيث قسم الكلام إلى : اسم ، وفعل ، وحرف ، فالاسم له مدلول يدل على معنى مستقل بالفهم ، وليس الزمن جزءًا منه ، والفعل يدل على معنى مستقل بالفهم ، والزمن جزءٌ منه ، والحرف يدل على معنى ، لكنه غير مستقل بالفهم ، فلابد وأن يتصل بغيره حتى يفهم منه معنى ، فاللفظ قد يعطي معنى مرتبطًا بالزمن ، أو غير مرتبط بالزمن ، فالكلام يتكون من هذه الأشياء : الاسم ، والفعل ، والحرف ، ولكن الفعل الذي يدل على الحدث مربوطًا بالزمان ، الدلالة عليه اسم أيضًا ، بدليل أننا نسميه بـ

---

1 - سورة : الكهف ، الآية : 11 .

2 - سورة : البقرة ، الآية : 31 .

(الفعل) ، فدُلَّ على الفعل باسمه ، ودُلّ على الحرف أيضًا باسمه ، وكأن الاسم هو الأصل في الدلالات ، ولذلك لا نُعَلِّم الطفل الأفعال أبدًا ، وإنما نُعَلِّمه أسماء الأشياء أولاً ، هذه نخلة ، هذه سماء ، هذه كذا ، وهكذا ... ، ثم يتعلم الأفعال ، هذا أكَل ، وهذا شَرب ، فلا نعلمه الأحداث أولاً ، ولا الحروف ، وإنما الأسماء .

إذن .. فكل وظيفة تعليم اللغة على الاسم ، والاسم يشمل في مدلوله : الاسم الاصطلاحي ، والفعل ، والحرف .

إذن .. فقول الحق ﷻ : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ ، يدل على أنه ﷻ علمه ما يقيم به لسانه ليتفاهم ، أي : الاسم ، والفعل ، والحرف ، الذي به يربط أجزاء الكلام .

والحرف يأتي على معنيين : (**حرف المبني**) ، مثل : الكاف ، والتاء ، والباء من كلمة : " كتب " ، بحيث إذا انفصل لا يدل على معنى ، أما (**حرف المعنى**) : فهو إن انفصل دل على معنى ، كما تدل الكاف على التشبيه مثلاً ، واللام على الملكية ، فحرف اللام في : (**لفلان**) ، حرف معنى يدل على الملكية ، أما حرف اللام في : (**قلم**) ، فهي حرف مبنى لا يدل جزؤه على جزء معناه ، إذن ، فالحروف نوعان : معانٍ ومبانٍ ، وبهذا تكون داخلة في الأسماء أم لا ؟ نعم ، داخلة فيها .

إذن ، فقول الحق ﷻ : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ ، يدل على أنه علمه ما يقيم به لسانه وبيانه ؛ ولذلك جاء في **سورة الرحمن** : ﴿ الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾[1] .

كيف يَبين عن ما في نفسه إلاّ إذا تكلم ؟ ولا يَبين عن ما في نفسه إذا تكلم إلا إذا كان من يخاطبه على علم بمدلولات الألفاظ ، فلو تخاطب غير العربي مع العربي لما استطاع التفاهم معه ؛ لأنه يجب أن يكونا على علم بمدلولات الألفاظ معًا .

---

1 - سورة : الرحمن ، الآية : 1 : 4 .

فإذا أنا تقعرت في اللغة العربية مع من يتكلم العربية ، ولكن أتيت بألفاظ متقعرة ، وليست في مستوى المتكلم العادي ، وإن كانت عربية ، والمخاطَب عربي ، فلن يفهم شيئًا .

فيجب أن يؤتى آدم البيان ، بمعنى أن يعلمه إياه ، وبعد ذلك يفهم عن الله ، قال : ﴿ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ ﴾[1] ، فهم آدم الأمر ، وأنبأهم بعد ما كان تعلم الأسماء كلها ، وقد استخدم في أمره بتعليم الأسماء : الاسم (آدم) ، والفعل (أنبئ) ، والحرف (ب) ، إذن ، هذه كلها أسماء من تعليم الله له .

وهذا أخرجنا من إشكالات متعددة في علم اللغات حول نشأتها ، هذه الإشكالات أنهم قالوا : إن الله إذا كان قد علم آدم الأسماء كلها ، ثم نقلها آدم بالكلام ، فسمعها بنوه بالمحاكاة ، لكان من الواجب ألا يزيد لفظ عما تعلمه آدم ، ونحن نشاهد أن المجامع اللغوية في أي بلد من البلاد تخترع أسماء لبعض مكتشفاتها التي لم تكن موجودة ، فمعنى اختراعهم لبعض المكتشفات التي لم تكن موجودة ، دليل على أن الأسماء ليست توقيفية .

إذن .. فهذا الرأي يرد عليه من هذه الناحية ، فمن قال : إن الأسماء وضعية ، قصدوا بالتواضع : أن نتفق على أن معناها كذا ، فالأرض معناها كذا ، والسماء معناها كذا ، هذا الاتفاق إذا أردنا أن نتواطأ جميعًا ونتفق عليه ، ألا يريد منا تفاهمًا ؟! أم بماذا سنتفق ؟! فلابد من لغة ، فإذا كانت اللغة تحتاج إلى توافق حتى نتفق على معاني الألفاظ ، فما هي اللغة التي نتفق بواسطتها ؟! فلو أن التواضع من البشر ، لاحتاج التواضع إلى لغة يتفاهمون بها ، واللغة تحتاج إلى تواضع ، يكون دورًا ، أو تسلسلاً .

فلابد وأن ينتهي الأمر إلى أن هناك من علمنا ، فإن قيل : فإن كان هناك من علمه ، فلِمَ تزيد ألفاظًا جديدة للمكتشفات ؟! أجيب عليه : بأن الحق ﷻ أمد كل آلة من آلات الإنسان الإدراكية بمتعلقاتها ، فأمد العين بمرائيها ، وأمد الأذن بمسموعاتها ، وأمد الأنف

---

1 - سورة : البقرة ، الآية : 33 .

بمشموماتها ، وأمد اللمس بملموساته ، وأمد الذوق بمتذوقاته ، ثم بقي اللسان .. فما هي متعلقاته ؟ إنه يمده بالألفاظ ، وبعد ذلك هو يأخذ الألفاظ التي أمده الله بها ، فيُكوِّن اللغة التي يتفاهم بها ، ثم يتفاهم بواسطة هذه الألفاظ على ما تَجِدُّ به نُظُم الحياة ، إذن فاللغة كانت أولاً توقيفية من الله ، ثم انتهت وضعية .

إذن .. فقول الحق ﷻ : ﴿ عَلَّمَ الإنسان مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ ، إما أن يراد بها الإنسان العام ، وإما أن يراد بها الإنسان الخاص ، وحين نردها ، نردها إلى : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ .

كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾

﴿ كَلاَّ إِنَّ الإنسان لَيَطْغَى ﴾ .. وردت كلمة : (كلا) في القرآن الكريم ثلاثًا وثلاثين مرة ، ولم ترد في نصف القرآن الأول ، لكنها أول ما وردت وردت في **سورة مريم** .

وكلمة : (كل) إذا وجدت ، فاعلم أن قبلها كلام يُردع عنه ويُزجر .

فإذا كانت كلمة : (كلا) ، كلمة ردع وزجر ، فأين المردوع ، والمزجور عنه في قوله : ﴿ كَلاَّ إِنَّ الإنسان لَيَطْغَى * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى ﴾ ؟!

إن العلماء يقولون : إذا لم تجد ما يردع عنه ويزجر فانقل (كلا) إلى (حقا) ، يعني : حقًا إن الإنسان ليطغى ، فهو يشير إلى مبدأ حقيقي ، وهو أن الإنسان يطغى إذا رآه استغنى .

وحين لم نجد في هذه الآية التي معنا ما يردع ويزجر عنه في الظاهر ، ولكنا لما استرجعنا قوله ﷻ : ﴿ خَلَقَ الإنسان مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإنسان مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ ، فهذه كان المفروض أن تقابل بالشكر ، ولكنها لم تقابل بالشكر من الناس ، فكأنه ردع عن واقع لا ينسجم مع المقدمات التي ذكرها الله ﷻ ، وكأن الله ﷻ قد أعطانا النعم لنشكر نعمه ، ولكن واقعنا أننا لم نشكر .

وقوله ﷻ : ﴿ كَلاَّ إِنَّ الإنسان لَيَطْغَى * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى ﴾ ، يدل على أنه قد حصل لنا غرور بالعلم ، فانفصلنا عن الحق ، فكلما تقدمنا في العلم زدنا غرورًا بعقولنا وذاتيتنا ، فننفصل عن الحق ؛ ولذلك فإن كل الأمم والشعوب عندما تتقدم في وسائل النبوغ من اختراعات واكتشافات يزداد سلطانها بقوة العقل ، أما قبل ذلك فلم تكن لقوة العقل تدخل كبير في حياة الناس ، فقبل ذلك مثلاً عندما كان الناس يفقدون الماء لم يكن لهم إلا الله ﷻ ؛ لأن الله هو الذي ينزل الماء ، فيرجعون إليه ﷻ .

أما الآن ، فعندما يفتح المرء الصنبور ولا يجد ماءً ، فإنه لا يفزع إلى الله ، ولا يخطر ذلك بباله ، بل إنه يتصل بشركة المياه لتصلح آلة ضخ المياه ، وهذه كلها أسباب فقط ، ليست هي المسبب .

﴿ أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى ﴾ .. وتلك هي طبيعة الإنسان ، ما لم يعصمها عاقل العصمة ، فالحق ﷻ يربي أناسًا لا يفتنون في هذه الأسباب ، فإذا أوتوا نعمة فهم يذكرون دائمًا أن مصدرها هو الله ﷻ ، كما قال ﷻ : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالاَ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا على كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[1] ، ثم بعد ذلك : ﴿ قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ

---

1 - سورة : النمل ، الآية : 15 .

الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ ﴾[1].

إذن .. فهؤلاء لم يغرهم ما وصلوا إليه ، مع أن سليمان عليه السلام وصل إلى ما لم يصل إليه خيال بشر ، فالخيال أن يحوز المرء القوة والمال والملك والسلطان ، لكن أن يسخر له الجن ! ! فهذا لم يسبق إليه الخيال ، أن يسخر له الريح ! ! ويعرف لغة الطير ، بل ويكلمه ! ! فهذه مسألة عظيمة ، ونعمة جسيمة ، ومع ذلك فإنه عليه السلام لم يغتر بها ، وما زادته إلا تقربًا من ربه ، وشكرًا له على نعمه .

وضرب الله عز وجل لنا مثلاً في سورة الكهف برجلين : ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴾[2] ، ولكن الذي أنعم الله عز وجل عليه : ﴿ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا * وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا * قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً * لَّكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلاَ أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا * وَلَوْلاَ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاء اللَّهُ لاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ إِن تُرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالاً وَوَلَدًا ﴾[3] ، فكأنك حينما يأتيك الخير يجب ألا تغتر ، وأن تردها إلى مصدرها : ﴿ مَا شَاء اللَّهُ لاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ ﴾ ، لكن الإنسان الغافل بمجرد أن يصله خير يأتيه معه الغرور ، فيقول : هذا من عملي بكذا ، وعلمي بكذا ، وفطنتي لكذا ، كما قال قارون : ﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي ﴾[4].

إذن .. فالغرور والطغيان المشار إليه في قوله عز وجل : ﴿ كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى * أَن رَّآهُ

---

1 - سورة : النمل ، الآية : 19 .

2 - سورة : الكهف ، الآية : 32 .

3 - سورة : الكهف ، الآية : 35 : 39 .

4 - سورة : القصص ، الآية : 78 .

اسْتَغْنَى ﴾ ، تستلزم مقابلاً فوريًا ، فسرعان ما تزول منه أسباب الاستغناء ، فينقلب طغيانه في : ﴿ يَطْغَى ﴾ ضدًا ، فلو كان صادقًا مع نفسه لاستمر في شعيرته هذه ، ولكن الإنسان لا يغش نفسه ، وإن غش كل الناس ، مهما أكثرت الناس عنه ، فإنه لا يغش نفسه أبدًا ، فيرجع سريعًا إلى ربه .

ويضرب القرآن الأمثلة المتعددة في هذا ، مثلاً : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ ﴾[1] .. سبحان الله .

وفي آية أخرى يقول : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴾[2] ، جعل لله أندادًا من فكره وذكائه وعقله وفطنته .

ويقول في آية أخرى : ﴿ فَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ * قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾[3].

وتلك هى طبيعة الإنسان فيما بينه وبين نفسه ، لا يخجل أن يسأل الله ﷻ ؛ لأنه لا يراه أحد ، هذا عند انفراده ، وفي الاجتماع أيضًا ، فلا يخجل من أن يطلع أحد على ذلك ، قال ﷻ : ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ * ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾[4].

وفي آية أخرى : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الْضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى

---

1 - سورة : يونس ، الآية : 12 .

2 - سورة : الزمر ، الآية : 8 .

3 - سورة : الزمر ، الآية : 49 ، 50 .

4 - سورة : النحل ، الآية : 53 ، 54 .

الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُورًا ﴾[1] ، وقال أيضًا : ﴿ وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ * لِيَكْفُرُواْ بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾[2].

إذن ، فقول الحق ﷻ : ﴿ كَلاَّ إِنَّ الإنسان لَيَطْغَى * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى ﴾ ، تعطي المقابل ، فإذا انحلت عنه أسباب الاستغناء ، زال عنه الطغيان ؛ ولذلك تجد أن كفر كل الحضارات التي أعطاها القرآن لنا مثلاً سببه الطغيان : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلاَدِ * وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ * وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ * الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلاَدِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ * فَصَبَّ عليهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴾[3] ، وكذلك : ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ * وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ * وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴾[4] ، يقول لهم : انظروا إلى الذين سبقوكم من الحضارات التي كانت منتشرة .

وكذلك يقول ﷻ : ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾[5] ، ﴿ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ ﴾ ، فهذا ليس من سعيكم ، ولكن ظنوا أن عبقرية بناء السد ، وحساب المياه ، وتحسبهم للغيث وقت نزوله أغناهم ، رغم أنهم لم يكلفوا إلا بأمرين ، هما : أن ينفضوا عن أنفسهم داء الغرور فينسبوا الرزق لله ﷻ، كما ورد في الآية : ﴿ رِزْقِ رَبِّكُمْ .... ﴾ ، والأمر الثاني هو الشكر: ﴿ وَاشْكُرُوا لَهُ ﴾ .

---

1 - سورة : الإسراء ، الآية : 67 .

2 - سورة : الروم ، الآية : 33 ، 34 .

3 - سورة : الفجر ، الآية : 6 ، 13 .

4 - سورة : الشعراء ، الآية : 128 ، 130 .

5 - سورة : سبأ ، الآية : 15 .

ولكن كانت النتيجة : ﴿ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عليهمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَى أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴾[1] ، ومعنى : (أعرضوا) ، أي : امتنعوا عن الأمرين ، فأكلوا ظنًّا منهم أنه من سعيهم ونجاحهم ، ولم يشكروا ، ﴿ فَأَرْسَلْنَا عليهمْ سَيْلَ الْعَرِمِ ﴾ .. فما عاقبناهم بالجفاف في المقابل ، بل بعقاب من جنس النعمة ، اعتزوا بالماء ، فكان جزاؤهم من جنس نعمتهم : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عليهمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَى أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ * ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلاَ الْكَفُورَ ﴾[2].

وكل الحضارات التي قصها القرآن علينا ، سبب زوالها هو عدم وجود عنصر قيم موصول بالزمن ، بل عنصر غرور موصول بذاتية النفس ، وحيث أنه موصول بالنفس ، فإن الموصول بالمتغير يتغير ، فكان التغير ما حدث لكل حضارة منهم .

﴿ كَلاَ إِنَّ الإنسان لَيَطْغَى * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى ﴾ .. وبعد ذلك يقول له : إنك مهما استغنيت ، فإنك راجع إلى ربك ، فلا تعتقد أنك انفلت من الحق ﷻ باستغنائك ، بل سترجع إليه حينما تصيبك المضرات التي لا تقوى عليها ، وهذا أوسع ، أي : سترجع لنا في الدنيا قبل الآخرة .

﴿ إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى ﴾ .. فإن لم يكن في الدنيا ، فستكون النهاية الأخيرة إليه ، وأمر ستنتهي إليه وقد بدأت فيه ، فلا مجال للفرار ، لا يمكن أن تفلت منه أبدًا ، طالما أنك بدأت فيه ، وبعد ذلك ستعود إليه ، فلا خير في نعيم بعده النار ، ولا شر في مكروه بعده الجنة ، وعندما توقن بهذه النتيجة تسأل النفس : ماذا تفعل لو ظللت مدة العمر مثلاً في طغيان إذا كان : ﴿ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى ﴾ ، ويقدم الجار والمجرور ليفيد الاقتصار عليه ﷻ ، فالرجعى إليه لا إلى غيره .

---

1 - سورة : سبأ ، الآية : 16 .

2 - سورة : سبأ ، الآية : 16 ، 17 .

و (**الرجعى**) ، سواء كانت عندما تهزه الأحداث دعانا لجنبه أو قاعدًا أو قائمًا ، أو الرجعى النهائية ، حيث إنك مهما أوتيت من متع الدنيا فسترجع إليه .

﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى ﴾ .. كلمة : ﴿ أَرَأَيْتَ ﴾ عند سماعها تدل على أمر عجيب ، فهذه المسألة ليست مسألة عادية ، بل مسألة عجيبة ، ومجيئها بعد : ﴿ إِنَّ الإِنسان لَيَطْغَى * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى * إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى ﴾ ، فكأنها حيثية للحكم الذي سبق أن قاله : ﴿ إِنَّ الإِنسان لَيَطْغَى * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى ﴾ .

﴿ عَبْدًا إِذَا صَلَّى ﴾ .. فالمعقول أن تطيع المصلي فتفعل فعله ، فإن لم تطعه ، فهذا طغيان ، أما أن تنهاه ، فهذا طغيان آخر ، ومرحلة أخرى ، فإن كان هو المطلوب منه أن يأمر الناس بالفعل ، فهذه مرحلة ثالثة ، وطغيان ثالث .

ثلاث مراحل: المرحلة الأولى: أنك لم تطعه في فعله ، **المرحلة الثانية:** أنك تريد حمله على ضلالك في أنك لا تصلي ، **المرحلة الثالثة:** أنك لا تفطن إلى أن هذا هو الرسول المكلف بإيصال هذا الأمر للناس ، فهو ينهى المأمور من الله أن يأمر هو بهذه الأشياء ، فهذه أشياء تدل على الطغيان المركب ، طغيان في قمته وذروته .

﴿ أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ على الْهُدَى * أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى * أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴾ .. وكأن الحق ﷻ أراد أن يقضي بين الخصمين ، فالتفت لكل بما يناسبه ، والحادثة كانت بين **أبي جهل** وبين الرسول ﷺ ، فعندما أراد الاستدلال على طغيان الإنسان ، وأنه يتجاوز حدوده قال : ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى * عَبْدًا إِذَا صَلَّى ﴾ .

وبعد ذلك التفت ، فهو ينهى ، إذن فهناك ناهٍ ، ومنهي عنه ، المنهي قد يكون نوعين : نوع من الاتباع ، ونوع هو المتبع ، فكأن الحق حينما قال : ﴿ كَلاَّ إِنَّ الإِنسان لَيَطْغَى * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى * إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى ﴾ ، فكلمة : ﴿ إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى ﴾ فيها مقابلة ، فالحق ﷻ عرض لنا الصورة ، وفي عرضه للصورة رغم أن القرآن نزل بعد الحادثة التي

حصلت ، فلم يكن أبو جهل ساعة النزول ينهى رسول الله ﷺ عن الصلاة ، بل لقد نهى بالفعل ، ولكن القرآن جاء بالصورة الحالية ، فكأنه يصور الموقف حينها ، فلم يقل : أرأيت الذي نهى عبدًا إذا صلى ، ولكنه استحضر الصورة فقال : ﴿ يَنْهَى ﴾ كأنه يصور الموقف ، فهنا يوجد خصمان .

والقصة معروفة ، فعن **أبي هريرة** رضي الله عنه قال : قال **أبو جهل** : هل يعفر **محمد** وجهه بين أظهركم ؟ قال : فقيل : نعم .. فقال : واللات والعزى لئن رأيته يفعل ذلك لأطأن على رقبته ، أو لأعفرن وجهه في التراب .. قال : فأتى رسول الله ﷺ وهو يصلي ، زعم ليطأ على رقبته ، قال : فما فجأهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه ويتقي بيديه ، قال : فقيل له : ما لك ؟! فقال : إن بيني وبينه لخندقًا من نار ، وهولاً ، وأجنحة .. فقال رسول الله ﷺ : " **لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضوًا عضوًا** "[1].

إذن ، فالقرآن يصور لك الحادثة وقت حدوثها كأنك تشاهدها رأي العين ، لكن هذه الحادثة واقعة عندنا في أمور كثيرة ، فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

إذن .. كل ناهٍ عن الصلاة ، وكل معوقٍ عن الصلاة ، وكل من يشغل الإنسان عن الصلاة يدخل تحت عموم هذه الآية ، وكأن للآية صورًا كثيرة ، ولا يزال في كل قوم أبو جهل .

وللسلف في هذه الآية مواقف لطيفة ، فقد رأى **سيدنا علي** رضي الله عنه قومًا يصلون قبل صلاة العيد ، وهذا مخالف لسنة النبي ﷺ ، فقال له بعض الصحابة : ألا تنهاهم ؟ فقال : لا أنهاهم عن الصلاة ، وإنما أقول لهم : ذلك لم يفعله رسول الله ﷺ خشية أن أكون فيمن نهى عبدًا إذا صلى .

﴿ أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى * أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى * أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴾ .. يلتفت الحق ﷻ بعد ذلك إلى الناس ويقول : ﴿ أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى * أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى *

---

1 - أخرجه مسلم (5005) .

أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴾ .. فكأنه التفت أولاً للناهي ، ثم التفت إلى المنهي ، ويكرر : (أرأيت) ، دليلاً على أن هذه القضايا قضايا عجيبة ، فهل يكون الكلام كله بالنسبة لأبي جهل؟ بالطبع لا ، فيكون : ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى * عَبْدًا إِذَا صَلَّى ﴾ ، و: ﴿ أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴾ .. معقولاً أن تكون بالنسبة لأبي جهل ، ولكن قوله ﷻ : ﴿ أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى * أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى ﴾ فكيف تكون بالنسبة لأبي جهل؟ يجاب بأن لأبي جهل حالتين : حالة زعم ، وحالة حقيقة واقعة ، أما الزعم الذي زعمه فهو أنه على الهدى والحق ، والحقيقة الواقعة فهي أنه كذب وتولى ، والرد التعجبي من الحالتين : حالة الزعم ، وحالة الحقيقة .

﴿ أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى ﴾ .. فهناك إذن شاهد يحصي ، وما دام الحق ﷻ هو الشاهد فالمسألة إذًا لا تحتاج إلى بينة ، ولو جاءت البينة فستكون تطوعًا : ﴿ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[1] .

﴿ كَلاَّ لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴾ .. أتي هنا أيضًا بـ﴿ كَلاَّ ﴾ ، فالردع والزجر عن كل سبب .

يهدد الله ﷻ الكفار ، ومادام يهدد الكفار فالتهديد واقع ؛ لأنه لو هدد ولم يقع في جزئية واحدة ، لصارت مدعاة للشك في القرآن .

﴿ كَلاَّ لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴾ .. وهو بكفره لم ينته ، فلابد من عقابه بحادثة .

و (الناصية) : التي هي مقدم الشعر التي يُشَدُّ منها ، والجر من الناصية دليل على المهانة ؛ لأنه لا يُسحَب بهذه الطريقة إلا الحيوان ؛ لأن الناصية هي محل تكريم الإنسان .

ومعنى ﴿ لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ ﴾ ، أي : ينتهي عن مطاردة الحق ، أو لئن لم ينته عن الأسباب

---

1 - سورة : فصلت ، الآية : 21 .

المسببة لهذا النهي ، أي كفره .. ﴿ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴾ .

﴿ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴾ .. ومع أن الناصية هي محل تكريم الإنسان إلا أن هذه الناصية كانت السبب في هلاك صاحبها ؛ فهي ليست سوى ﴿ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴾ .

﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴾ .. وكان أبو جهل قد قال للرسول ﷺ : أتشتد عليَّ ، وأنا أكثر أهل الوادي ناديًا ؟! فرد الله ﷻ عليه : ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ * سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ * كَلاَّ لاَ تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ﴾[1] .

﴿ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ﴾ .. و (الزبانية) هم شرطة جهنم ، أعاذنا الله منها .

﴿ كَلاَّ لاَ تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ﴾ .. فيه مقابلة : ﴿ لاَ تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ﴾ .. وكأن هنا متقابلين : أبو جهل يدعوهم إلى عدم الصلاة ، والصلاة تقربه من الحق ، فاعقد مقارنة ، فمع من تحب أن تكون ؟!

فهل تستحق الصلاة مغالبة النفس ومغالبة الطغيان أم لا ؟!

قطعًا تستحق ذلك كله ؛ ولذلك قال النبي ﷺ : " أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد "[2] .. لأن هذه الصلاة حضور بين يدي الله ﷻ ، وأما السجود فهو أقرب ما يكون الحضور من الحاضر .

وقالوا : إن الحق ﷻ قد كلَّف أمة محمد ﷺ بالصلاة لما كان في المعراج ، فكان حظيرة القرب التي التقى فيها رسول الله ﷺ بحضرة ربه ، وكان أقرب ما يكون إلى الرب ، فكانت التحية لأمته ما يعطيهم ذلك القرب ، فنزل من القرب بالقرب .

---

1 - أخرجه الترمذي (11 / 187) ، والنسائي في الكبرى (6 / 518) ، والحاكم في المستدرك (8 / 500) ، جميعًا من طريق ابن عباس رضي الله عنهما .

2 - أخرجه مسلم (744) ، وأبو داود (3 / 41) ، والنسائي (4 / 336) ، وأحمد (19 / 126) ، جميعًا من حديث أبي هريرة .

وهذه هي فضيلة الصلاة ، وهذه هي فضيلة هذه الأمة المختارة المنتقـــاة ، التي فضلها الله ﷻ على جميع الأمم .

نسأل الله ﷻ أن يلهمنا التوفيق في كل ما نأتي وما ندع ، وأن يرزقنا القرب والزلفى إليه وإلى الجنة ، ومن كل عمل يقربنا إليه وإلى الجنة .

والحمد لله رب العالمين . .

عم

تفسير جزء

سورة القدر

سورة القدر

أحمدك ربي ، وأصلي وأسلم على سيدنا محمد ، رحمة الله للعالمين ، وخاتم الأنبياء والمرسلين ، وبعد . .

فمع **سورة القدر** ، والحديث في هذه السورة عن تلك الليلة الموعودة المشهودة التي سجلها الوجود كله في فرح وغبطة وابتهال .. ليلة الاتصال المطلق بين الأرض والملأ الأعلى .. ليلة بدء نزول هذا القرآن على قلب **محمد** ﷺ .. الليلة ذات الحدث العظيم الذي لم تشهد الأرض مثله في عظمته ، وفي دلالته ، وفي آثاره في حياة البشرية جميعًا .. العظمة التي لا يحيط بها الإدراك البشري .

والسياق الترتيبي في المصحف غير السياق الترتيبي في النزول ؛ لأن إنزال القرآن جاء تبعًا للأحداث التي تتطلب أحكامًا ، فالمناسبة بين النازل والحادثة أمر معقول ، فحين توجد الحادثة يوجد الحكم لها ، وذلك أدعى إلى إثبات الحكم ، لأن وجود الشيء عند تهيؤ النفس له ، وطلبها أمكن لتغلغل ذلك الشيء ، ولكن الشيء إذا جاء عن غير حاجة ، فربما إذا جاءت الحاجة ضل الإنسان عنها ، ولكن إذا وجدت الحاجة ، وجاء الشيء من النفس ، تمكن من الإلحاح في الطلب .

ولكن القرآن له نسق محفوظ ، أو كما كان في اللوح المحفوظ ، فهل المناسبة الترتيبية التي نجدها في المصحف ، تخالف المناسبة الإنزالية ؟ .. كلا ، أيضًا حين يوجه لسورة أو لآية ما في المصحف ، في غير المكان الذي كانت فيه بعد المناسبة ، توجد أيضًا المناسبة .

إذن ، فهناك مناسبة حدث ، وهناك مناسبة إنزال ، فإذا نظرنا إلى **سورة القدر** ،

وجدناها قد أخذت موقعها الطبيعي من سورة اقرأ ؛ لأن سورة اقرأ وإن كانت لم تحدد المقروء ، فإن المطلوب في ذلك الوقت هو إحداث القراءة من أمي لم يعرف القراءة ؛ ولذلك انطوى المقروء : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ﴾[1] ، ماذا يقرأ ؟ لا شك أن الذي يقرؤه هو القرآن ، إذن ، فكأن الحق ﷻ بعد أن تكلم عن أولية ما نزل من القرآن ، تكلم عن الظرف الذي نزل فيه القرآن ، ولذلك تجد الحق ﷻ لم يقل في كلامه : إنا أنزلنا القرآن في ليلة القدر في ابتداء الكلام ، ولكنه قال : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ ﴾ ، فجاء ضمير الغيبة ، فكأن المعروف : اقرأ القرآن ، أو اقرأ الكتاب ، فتأتي السورة بعدها : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ .

إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴿٥﴾

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ .. هنا نجد أن الحق ﷻ استهل السورة بـ : ﴿ إِنَّا ﴾ ، وإذا استعرضنا أساليب القرآن في التعظيم ، وجدنا الجمع والإفراد للمتكلم كما يقتضيه الوصف ، وجدنا أن الحق حين يتكلم عن شيء يتقلب اتجاهه تقلبًا من صفات جمال ، أو صفات كمال ، حين يخلق خلقًا ، لابد أن تتدخل صفة العلم ، وصفة الحكمة ، وصفة القدرة ، فالأشياء التي يتطلبها الفعل الذي يريد أن يتعرض له الحق تتقلب صفات متعددة ، هذه الصفات المتعددة تتكاتف بجلالها وكمالها في جمال هذا الشيء على علم وحكمة وقدرة وبعزة .

1 - سورة : العلق ، الآية : 1 .

إذن ، فالحق ﷻ له صفات كمال وصفات جمال ، كل صفة لها شأنها في الخلق .

حين يتكلم الحق عن شيء يتطلب تكتل الجمال أو الكمال فيه ، فيقول : إنا .. لكنه إذا تكلم عن ذاته ، ويريد من عبده أن يتوجه إليه ، لا يقول : إنا نحن الله ، إنما يقول : إنني أنا الله ، لا إله إلا أنا .

إذن ، فحين نتوجه إليه بالعبادة نلمح صفة التقرب ، وحين يعرض علينا أنعامه يتعرض لصفة الجمع ؛ لأن الإنعامات تتطلب صفات متعددة ، ولكن في مقام التودد والعبادة والتوحيد يأتي بضمير التفرد دائمًا : ﴿ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي ﴾[1] ، لم يقل : فاعبدنا ، فإذا استقرأت القرآن على هذا الضوء ، فالإفراد حين يتكلم إنما يراد به وحدة ألوهيته ووحدة عبوديته ، وعبادتك إلهًا واحدًا ، وحين يريد الامتنان بوجود شيء يقول : خلقنا ، وقدرنا ، وأنزلنا .

إذا نظرنا إلى قوله ﷻ : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا ﴾ .. فإن مادة النزول بالنسبة للقرآن وردت على صور متعددة من الارتقاء ، نجد أنها مرة وردت : (نَزَلَ) مجردة من الهمز والتضعيف ، كما قال ﷻ : ﴿ وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ ﴾[2] ، ووردت : (نزَّل) مضعَّفة ، كما في قول الحق ﷻ : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾[3] ، ووردت : (أنزل) متعدية بالهمزة ، كما في قول الحق ﷻ : ﴿ اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ ﴾[4] ، ووردت : (أُنزل) ، كما في قول الحق ﷻ : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ ﴾[5] .

---

1 - سورة : طه ، الآية : 14 .

2 - سورة : الإسراء ، الآية : 105 .

3 - سورة : الفرقان ، الآية : 1 .

4 - سورة : الشورى ، الآية : 17 .

5 - سورة : البقرة ، الآية : 4 .

فما هو الملحوظ في تعدد هذا الإنزال ؟! الفعل حينما يكون مجردًا ، فهو غير متعدٍّ بنفسه ، إلا أن القرآن استعرض آياته ، أن الحق ﷻ حينما ينزل المجرد ، أي : اللازم غير المتعدي ، مرة أسند فيه إلى القرآن ، ومرة أسند : (**نزل**) إلى **جبريل** عليه السلام ، فهو ﷻ مثلاً يقول مثلاً : ﴿ **وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ** ﴾[1] ، أي : القرآن ، فيكون معناها : وبالحق نزل ، فأسند نزل إلى القرآن .

وفي آية أخرى يقول : ﴿ **نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * على قَلْبِكَ** ﴾[2] ، فيصير النزول مرة للقرآن ، ومرة نزل به الروح الأمين ، والاثنان نزلا ، وهذا هو الملحظ في هذا ، يقول الحق ﷻ : نزل القرآن ، لم يتعرض لنزل فقط ، وحين يقول : ﴿ **نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ** ﴾ ، تعرض لمن نزل بالقرآن ، فمعناه أن القرآن أيضًا نزل معه لماذا ؟ لأن نزل القرآن ، لعله نزل بدون واسطة ، ويصح أن يكون بواسطة .

فالوضع البلاغي في الآية الثانية : ﴿ **نَزَلَ به الرُّوحُ الأَمِينُ** ﴾ .. أن الحق ﷻ يقول : إن نزوله وحده مثل النزول به ، لا يغير الموقف ، بمعنى : أن الذي نزل به روح أمين ، فلم يتناول بأي شيء ، كأنه نزل وحده .

إذن ، فنزل القرآن ، ونزل **جبريل** بالقرآن ، يؤديان معنى واحدًا ، ولكن المعنى الجديد : أن القرآن لو نزل هو ، أو نزل بغيره ، فالأمر واحد ؛ لأن الروح الذي نزل به أمين لم يتصرف في شيء أبدًا .

وما دام الفعل غير متعدٍّ ، يقتضي منزلة الفعل المضعَّف نزل : ﴿ **الم * اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ * نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ** ﴾[3] ، بعدما كان الفعل مسندًا للقرآن ، ضُعِّف

---

1 - سورة : الإسراء ، الآية : 105 .

2 - سورة : الشعراء ، الآية : 193 ، 194 .

3 - سورة : آل عمران ، الآية : 1 ، 3 .

الفعل ، وأسند الفعل إلى الحق ﷻ ، وأصبح القرآن منزلاً .. ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ﴾ .

ويقول ﷻ في آية أخرى : ﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ على النَّاسِ على مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً ﴾[1] ، وهذه أفادت النزول في تتابع ، ليدل على أنه لم يعرض للإنزال مرة واحدة ، ولكن كلما جدت حادثة نزل ، ولذلك قال ﷻ : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلاَ نُزِّلَ عليه الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ به فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ﴾ ، جملة واحدة كما عهدوا في الكتب السابقة ، ﴿ كَذَلِكَ ﴾ يعني : نزلناه منزلاً حسب الحوادث ؛ لنثبت به فؤادك ، ولو نزل مرة واحدة لكان تثبيتًا واحدًا ، والرسول ﷺ تعرض لأحداث كثيرة ، كل حدث منها يتطلب تثبيتًا ، ﴿ كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ﴾ .

ومعنى ﴿ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ﴾ : لأن القرآن متعبد بتلاوته ، فلا تنزل كلمة إلا اجتمعت الألسنة كلها على قراءتها .

ولابد أن يظل الأمر إلى أن يفرق : ﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ على النَّاسِ على مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً ﴾ .

هنا تأتي مسألة أيضًا ، وهي : أن يأتي **جبريل** ، ﴿ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ ﴾[3] ، إذن ، نزله مضافًا إلى الحق مرة : ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ﴾[4] ، ومرة تأتي إلى **جبريل** ، على أن (**نزل**) فيها المشارك من الآمر به ، ومن النازل به ، ومرة يسند الفعل إلى المباشر ، ومرة يسند إلى الآمر به ؛ لأن المباشر لم ينزله من

---

1 - سورة : الإسراء ، الآية : 106 .

2 - سورة : الفرقان ، الآية : 32 .

3 - سورة : البقرة ، الآية : 97 .

4 - سورة : آل عمران ، الآية : 3 .

قِبَل نفسه ، بل بأمر الله ﷻ وبتقديره ، فحين يفعل إنما يفعل بأمر الله ﷻ ، وهذه نجدها في القرآن ظاهرة موجودة في كثير من الأفعال .

وعندما أمر الحق ﷻ القلمَ أن يكتب القرآن في اللوح المحفوظ أبرزه من عالم الغيب المطلق إلى عالم الشهادة ، فأصبح ظاهرًا ، لمن ؟ للصفوة ، وإن كان غائبًا عن **جبريل** ، لا يزال بالنسبة **لجبريل** في عالم الغيب ، وبعد ذلك حين تنزل به على **جبريل** ، يصبح عند **جبريل** عالم شهادة ، ويصبح عند **محمد** ﷺ في عالم الغيب .

وحينما يتنزل به **جبريل** على رسول الله ﷺ قبل أن يبلغه ، كان بالنسبة لنا عالم غيب ، وبالنسبة له عالم شهادة ، وحين يبلغه تصبح الشهادة مطلقة .

إذن ، فالمراحل : أنزله الحق من عالم الغيب ما لا يعرفه أحد إلا الله ، وبعد ذلك أنزله إلى اللوح المحفوظ ، فإذا قال الله : أنزله ، أي : يريد الإنزال الأول ، أي : من عالم الغيب إلى أول مراتب عالم الشهادة .

فأنزل الله ﷻ الإنزال الأول ، ولكن هذه هي آخر مظهر من مظاهر عالم الشهادة ، فكأن الملحوظ هنا هو أن يتقبل العبد ما أنزل من الحق ، يتقبله على أنه نازل من الحق مباشرة ، وكأنه يستمع من الله ﷻ مباشرة ، ويلغي الوظائف كلها .

ولذلك ورد عن **سيدنا جعفر** رضي الله عنه أنه قال : عجبت لمن خاف .. كيف لا يفزع إلى قول الله ﷻ : ﴿ حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾[1] ، فإني سمعت الله ﷻ يعقبها فيقول : ﴿ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ ﴾[2] .

وهو يقصد بذلك الوصف الإيماني لأحوال النفس البشرية ، فالذي يقلق الإنسان في حياته هو أن يخاف شيئًا ، أو أن يهمه شيء .

---

1 - سورة : آل عمران ، الآية : 173 .

2 - سورة : آل عمران ، الآية : 174 .

والفرق بين الخوف والهم : أن الخوف يكون من شيء معلوم ، أما الهم فهو ما قد يدخل على القلب من شيء غير معلوم ، كأن يخاف أن يُمكَر به ، فهذه هي أحوال البشرية ، خوفًا ، وهمًّا ، ومكرًا ، وغير ذلك ، والسبب هو الدنيا .

فهو يريد من الإنسان بمجرد أن تأتيه تلك الحالة أن يفزع ويرجع إلى مأمنه .. ﴿ حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ ، لأنها قد أتى بعدها : ﴿ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ ﴾ ، فكأنه جاء بالأمن ، ثم جاء بالدليل ، ثم جاء بالحيثية .

ثم يقول ﷺ : وعجبت لمن اغتم .. كيف لا يفزع إلى قول الله ﷻ : ﴿ لاَ إِلَهَ إِلاَ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾[1] ، وعجبت لمن مُكر به .. كيف لا يفزع إلى قول الله ﷻ : ﴿ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾[2] ، فإني سمعت الله ﷻ عقبها يقول : ﴿ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا ﴾[3] ، وعجبت لمن طلب الدنيا وزينتها .. كيف لا يفزع إلى قول الله ﷻ : ﴿ مَا شَاءَ اللَّهُ لاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ ﴾[4] ، فإني سمعت الله يقول في عقبها : ﴿ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالاً وَوَلَدًا فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ ﴾[5] .

إذن فالشاهد في قوله ﷺ : فإني سمعت الله .. فمعنى سمعت الله أي أنه قد التحم بالإنزال الأول في هذه الآية من القرآن .

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ .. يبين لنا الحق ﷻ في مجموع ما أوصله رسول الله ﷺ إلينا أنه ﷻ قد خلق الزمان والمكان ، ثم فضل ﷻ الأزمنة والأمكنة ، ثم الإنسان الذي خلق له الزمان والمكان ، فإذا اصطفى الحق نوعًا من الخلق فهو أعلم حيث يجعل رسالته .

---

1 - سورة : الأنبياء ، الآية : 87 .

2 - سورة : غافر ، الآية : 44 .

3 - سورة : غافر ، الآية : 45 .

4 - سورة : الكهف ، الآية : 39 .

5 - سورة : الكهف ، الآية : 39 ، 40 .

فالزمان فيه مصطفيات ، والأمكنة فها مصطفيات ، وفي الإنسان مصطفيات ، وفي الملائكة مصطفيات .

﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ ﴾[1] ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾[2] ، ﴿ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي ﴾[3] ، ﴿ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾[4] ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴾[5].

فإذا قال الحق ﷻ : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ فقد أخذت القدر والشرف والعظمة بإنزال القرآن فيها ، لا أن الله اختار نزول القرآن فيها لأنها ذات القدر .

والذي يدل على ذلك هو أن ليلة القدر التي نزل فيها القرآن لم تبدأ هنا في نزول القرآن ؛ لأن الله ﷻ له قدَر في تقدير النزول ، وليلة القدر يفرق فيها كل أمر حكيم ، والأمور الحكيمة كانت قبل نزول القرآن ، وبعد نزول القرآن .

فكأن الليلة التي اختارها الله ﷻ ليفرق فيها كل أمر حكيم ، اختارها أيضًا لنزول القرآن ، فيبقى اختيار الليلة ، فقد كان لها قدر ، بعضهم يرى أنها جاء لها القدر بنزول القرآن .

ولم تأتِ لها ليلة أخرى تأخذ منها ؛ لأنه كان من الممكن أن يترك هذه الليلة التي يفرق فيها كل أمر حكيم ، ثم يسرد القرآن ، ولكنه قال : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ .. فليلة القدر هي الشرف والعظمة والرفعة و... و... إلى آخر الأشياء العظيمة ، وطالما أنه يفرق فيها كل أمر حكيم ، والأمور الحكيمة كانت قبل نزول القرآن ، وبعد نزول القرآن ؛ ولذلك فستظل

---

1 - سورة : الحج ، الآية : 75 .

2 - سورة : آل عمران ، الآية : 33 .

3 - سورة : الأعراف ، الآية : 144 .

4 - سورة : آل عمران ، الآية : 43 .

5 - سورة : آل عمران ، الآية : 42 .

أيضًا بعد نزول القرآن ؛ ولذلك فنحن نلتمس هذه الليلة .

وإن أخذت المعنى بالتقدير فله معنى ، وإن أخذته بالقدر فله معنى الشرف ، والعظمة ، فالليلة التي اختيرت ليفرق الله فيها كل أمر حكيم تكون لابد أنها هي هذه اليلة ؛ لأن جميع الزمن الذي هو غير الليلة سيكون خاضعًا في أموره لما نزل في تلك الليلة ، فإذا ما أراد الله ﷻ أن يبرز كلامه من عالم الغيب إلى عالم الشهادة ، فإنه يختار ﷻ الليلة التي فيها يفرق كل أمر حكيم ؛ لأن هذا هو رأس الفرقان .

والذي حدث في ليلة القدر هو أن القرآن نزل بداية من عالم الغيب إلى عالم الشهادة ، وتنزله أيضًا إلى السماء الدنيا كان في ليلة القدر ، وبعد ذلك كل الآيات التي تنزل في هذه السنة تكون في كل ليلة قدر ، فالإنزال الأول الذي هو إخراجه من عالم الغيب إلى عالم الشهادة كان في ليلة القدر ، وبعد ذلك إنزاله إلى السماء الدنيا حتى يباشر مهمته في الوجود أيضًا كان في ليلة القدر ، وبعد إكمال نزوله في كل عام يبقى في ليلة القدر ، ولا يعني ذلك أن بداية إنزاله لنا كانت في ليلة القدر ؛ لأن العلماء يقولون طالما هناك ليلة القدر فلابد أن أول آية منه نزلت في ليلة القدر ، ولا يكفي أن يكون نجمها النجم الذي نزلت في ليلة القدر ، إذن ، فليلة القدر مواكبة لإنزال القرآن ، ولنزول القرآن ، ولتنزيل القرآن ، الأول من (**أنزل**) ، والثاني من (**نزل**) ، والثالث من (**تنزل**) .

فهي إذن مواكبة الخط الأول ، إنزال من عالم الغيب إلى عالم الشهادة الأولى ، وبعد ذلك ما عداه ، هو إنزال من الله إلى العالم الثاني المشاهد .

فالقرآن نزل أولاً من الحق في أول مشهد ، ثم بعد ذلك نزل من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في السماء الدنيا ، ثم نزل على **جبريل** كل عام ، وبعد ذلك نزل به **جبريل** في كل وقت .

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ .. وإذا سألت لم خص الليل بالإنزال دون النهار ؟! كان الجواب : لأن الليل محل السكون والهدوء ، والنهار محل الحركة والضجيج ، وهذه الحركة

تجعل مواهب الإنسان موزعة ، أما في حالة السكون والهدوء فتكون النفس مهيأة لاستقبال الأمر .

ولذلك فإن القرآن يقول : ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلاً ﴾ ؛ لأن النفس مهيأة ليس عندها مشاغل ، بل سكون وهدوء ، ليس هناك حركة ، ولا حياة ، ولا ما يشتت انتباهك ، فالإنسان دائما في الليل يكون خاليًا بنفسه ، وما أهمية الخلوة في تدبر القرآن ؟ لأن الإنسان إذا كان مع الناس فإن أفكاره تأخذ من أفكارهم ، وتأخذ أفكارهم من أفكاره ، لكن الإنسان إذا كان وحده فإنه يستطيع أن يخلو بنفسه وبفكره ؛ ولذلك خص وقت الإنزال بالليل .

كذلك فإن الحق ﷻ لما خلق الأشياء خلق ليلاً ونهارًا ، وجعل الليل أمرًا سلبيًّا ، ومعنى سلبي : أنه لا يظهر شيء حين يأتي الليل ، بل تختفي أشياء حين يحل الليل ، فالنهار يأتي عندما تطلع الشمس ، أما الليل فهو عملية سلب ، سلب الشيء ، وإيجاب الشيء ، فرق بين الاثنين ، فسلب الشيء يعني : أن الشيء رجع على طبيعته ، كأن تقول : لولا ذلك المصباح لكانت ظلمة ، أي : إنها جاءت إيجابية في إيجاد الضوء ، الإيجابية في إيجاد الضوء هي تهيئة نهار مسطح ليناسب حركة الحياة ، والضرب في الأرض ، والمعايشة ؛ ولذلك فحينما امتدح الله ﷻ أقوامًا امتدحهم بقيام الليل ؛ لأن الليل أعون على الخلوة ، فقال ﷻ : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ * كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾[1] ، فالذي أخذ فضل ربه نهارًا ، لا يجد له إلا الليل الذي هو خالٍ فيه ؛ لأنه أبعد عن الرياء والسمعة ، فلا أحد يراك إلا الله .

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴾ .. وكلمة : ﴿ مَا أَدْرَاكَ ﴾ .. تعني أنها شيء فوق

1 - سورة : الذاريات ، الآية : 15 : 18 .

إدراكك ، لو لم تدرك لأعطيناك نحن الإدراك فيها ، وكأنه شيء بالذاتية لا يُدرك ولا يُفهم ، وحيث إنه بالذاتية لا يُفهم ، يكون معناها أنها تضمنت فوق المدلول الذي هو بالوضعية ، ولو أن معناها هو اللفظ العربي لكان فهمها **محمد** ﷺ ، وكل فاهم للعربية يدرك ليلة القدر .. ليلة الشرف والعظمة ، فنقول له : لا تفهم أنها كذلك فحسب ؛ لأن فيها من الأسرار والإشراقات والأنوار والأنوال ما لا يتسع اللفظ اللغوي لإعطائك إياه ، وأنتم في معاملاتكم بالألفاظ تتفاهمون على المعاني المتعارف عليها ، وهذا المعنى علمه عند الله ﷻ ، فلا تأخذ المعنى اللغوي في اللغة المعروفة المتداولة ، ولكن خذ المعنى من الله ﷻ ؛ لأنه يعلم لها أمرًا زائدًا عن مدلول معناها اللغوي الذي يفهم من الخطاب .

﴿ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ .. وهنا وُجد إشكال بين العلماء ، فقالوا : إنهم يفهمون التوقيت اليومي بالشمس ، والتوقيت الشهري بالقمر ، ثم بعد ذلك يحسبون العام وهو يتكون من اثنتي عشرة وحدة من الشهر القمري ، فأول ما جاء من اعتراضات قالوا : ﴿ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ ، وليلة القدر أنزل ربنا فيها القرآن ، وهو قال : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ ﴾[1] ، فقد تحدد مقام الليلة من الشهر ، وحيث إنه تحدد مقام الليلة من الشهر ، فإن ألف شهر يكون فيهم ثلاثة وثمانون رمضان ، فعندما نقول : ﴿ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ ، لابد أننا نستثني ليلة القدر من هذه الألف شهر ، وإلا يكون الشيء مفردًا مفضلاً على نفسه مجموعًا .

فيكون معنى : ﴿ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ .. أي : ليس فيها ليلة القدر ، هذه الآلاف كانت عند العرب أكثر عددًا ، ولذلك قال ﷻ : ﴿ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾[2] ، فكأن كلمة ألف أكثر العدد عندهم .

---

1 - سورة : البقرة ، الآية : 185 .

2 - سورة : البقرة ، الآية : 96 .

وروي أن النبيﷺ ذكر رجلاً من بني إسرائيل لَبس السلاح في سبيل الله ألف شهر ، قال : فَعجب المسلمون من ذلك ، قال : فأنزل اللهﷻ : ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ * لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ .. التي لبس ذلك الرجل السلاح في سبيل الله ألف شهر[1] .

وعن **مجاهد** قال : كان في بني إسرائيل رجل يقوم الليل حتى يصبح ، ثم يجاهد العدو بالنهار حتى يمسي ، ففعل ذلك ألف شهر ، فأنزل الله هذه الآية : ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ .. قيام تلك الليلة خير من عمل ذلك الرجل[2] .

وعن **علي بن عروة** قال : ذكر رسول اللهﷺ يومًا أربعة من بني إسرائيل عبدوا الله ثمانين عامًا ، لم يَعْصوه طرفة عين : فذكر **أيوب** ، **وزكريا** ، **وحزقيل بن العجوز** ، **ويوشع بن نون** .. قال : فتعجب أصحاب رسول اللهﷺ من ذلك ، فأتاه **جبريل** فقال : يا **محمد** ، عَجِبَتْ أمتك من عبادة هؤلاء النفر ثمانين سنة ، لم يَعْصُوه طرفة عين ؟! فقد أنزل الله خيرًا من ذلك .. فقرأ عليه : ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ * لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ .. هذا أفضل مما عجبت أنت وأمتك .. قال : فَسُرَّ بذلك رسول اللهﷺ والناس معه[3] .

وقال جماعة غيرهم : الحادثة أن رسول اللهﷺ كان فيما يحدث به : أن بعض بني إسرائيل ظلوا يعبدون الله ثمانين عامًا ، فبعد ذلك وجد تقصيرهم .

وقد كان السابقون لا يسمون الرجل عابدًا إلا إذا مر عليه ثمانون سنة يعبد اللهﷻ ولا يعصي الله أبدًا .

---

1 - أخرجه ابن أبي حاتم (12 / 434) عن مجاهد .

2 - تفسير الطبري (30 / 167) .

3 - الدر المنثور للسيوطي (8 / 569) .

فكأن الحق ﷻ إكرامًا لرسول الله ﷺ ، وإكرامًا لأمته أعطاه هذه الليلة ، بحيث إذا وفق الإنسان إلى العمل فيها .. قيامًا ، واحتسابًا لله ﷻ غفر له ما تقدم من ذنبه ، وكأنه يأخذ فضيلة الذين عبدوا الله ﷻ تلك السنين الطوال .

وعلى كل حال .. سواء كان الأمر الأول ، أو الأمر الثاني ، أو هي مجتمعة ، فقد دلتنا على أن الحق ﷻ قد بين أنها : ﴿ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ .

ثم أراد الحق ﷻ أن يعطينا شيئًا عن ليلة القدر ، فيكون المعنى الذي أخذناه : أن القرآن أنزل في ليلة القدر إنزالاً أوليًا ، وتنزيلاً .. ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ * لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ .. أعطانا ﷻ حكمًا عامًا في ليلة القدر ..

﴿ تَنَزَّلُ الْمَلاَئِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا ﴾ .. وهنا قد يتساءل العقل فيقول : إن العطف دائمًا يقتضي المغايرة ، ومعنى اقتضاء العطف المغايرة : أن يكون الثاني مغايرًا للأول ، فيجاب على هذا الاستفهام بأنه قد يكون خاصًا من الأول ، أو عامًا منه : ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ [1] ، فقد لا يكون الثاني مغايرًا للعمومات عن الأول ، بل مغايرة الخصوصية عن الأول ، بمعنى أن تكون له خصوصية دائمة ، فالملائكة معروفون ، والذين يتنزلون هم المدبرات ، ومعناها : أنهم هم الموكلون بمصالحنا ، فالملائكة أنواع : كنوع من الملائكة مثلاً اسمهم العالون ، والعالون ملائكة ليسوا مشغولين بشيء من الخلق ، ليس لهم عمل إلا الحق ﷻ فقط ؛ ولذلك عندما استكبر **إبليس** عن السجود **لآدم** قال الحق ﷻ له : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴾ [2] ، أي : أستكبرت عن السجود ؟ أم أنك من أولئك العالين الذين لم يشملهم أمر السجود ؟ فهؤلاء العالون ليس لهم عمل أبدًا فيما يتعلق بالخلق ، عملهم كله موصول بالحق ﷻ ، فأمر السجود لا يشمل هؤلاء .

---

1 - سورة : نوح ، الآية : 28 .

2 - سورة : ص ، الآية : 75 .

وقـــول الحق ﷻ : ﴿ تَنَزَّلُ الْمَلاَئِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ ﴾ يدل على أنهم نزلوا لأمر معين ، وحـــيث إنهم نزلوا لأمر ، فهؤلاء إذن من المدبـــرات أمرًا ، يعني : المتعلقين بالخلق .

والروح في : ﴿ تَنَزَّلُ الْمَلاَئِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا ﴾ .. قـــال العلماء : الروح نوع من الملائكة ، هم بالنسبـــة للملائكة كالحفظة ، بمعنى أنه نوع متميز عن الملائكة ، أو الروح المراد بـــه **جبريل** كقول الحق ﷻ : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ ﴾[1] ، فقد يحتمل هذا أو ذاك ، ويحتمل تنزل الملائكة والروح فيها تنزلاً بـــإذن ربـــهم من كل أمر ، وهنا جاء بالأســـلوب الكلي ، والأسلوب الكلي يدل على الاستغراق ، فإن قيل : لم قال : ﴿ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ ﴾ .. الأمور هي التي بها يدار نظام الكون ، نظام الكون يحتاج أمورًا تتعلق برزق .. من الأمطار التي ينشأ منها الخصب ، وأمورًا تتعلق بالحروب ، والويلات ، والنكبات بالموت ، وأمورًا تتعلق ببقية الأعمال .. فكل ملك له مهمة بالنسبة لأهل الأرض .

لكن الصواب أن قـــول الحق ﷻ : ﴿ تَنَزَّلُ الْمَلاَئِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ ﴾ يفهم على هذا الوضع ، إذن ، يقـدر فيها أمورًا ، كالموت الذي يحدث هذه السـنة ، والمصائب ، وعدد المواليد ، والوفيات ، والخصب ، والرخاء ، والشـــدة ..... وغير ذلك ، فمن هذه الأمور ما هو خير ، ومنها ما هو شر .

﴿ سَلاَمٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴾ .. نقول : قد تظن أنت مراد الحق مصيبة ، ثم تجد أن كله خير ، فقـد قـــال الحق ﷻ : ﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاء وَلَوْلاَ دَفْعُ اللّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾[2] ، فقـد كانت إذن حـــرب ، ولكنها كانت من ضمن سلام الأرض .

---

1 - سورة : الشعراء ، الآية : 193 .

2 - سورة : البقرة ، الآية : 251 .

وكما يقول **شوقي** :

الحرب في حق لديك شريعة ومن السموم الناقعات دواءُ

فإن لم يكن الله ﷻ يدفع الناس بعضهم ببعض لما تهيأ السلام في هذه الأرض ؛ ولذلك يدفع الله الناس بعضهم ببعض .

ولا يحصل السلام إلا بوجود قوتين معًا ، فلو صارت قوة واحدة منفردة تستبد ، وإنما تمتنع خوفًا من قوة ثانية ، وهذا هو التوازن ، يدفع هذا بهذه ، ويدفع هذه بتلك .

وأيضًا المصائب ، والأحداث التي يخشاها الناس ، لماذا يظنون أنها ابتعاد عن السلام ؟! فما هو السلام ؟ إن (**السلام**) هو الأمن ، والاطمئنان ، والاستقرار ، والهدوء ، فالسلام يكون مع الإنسان بالنسبة لربه في عقيدته ، سلام مع نفسه وملكاته ، ومع المجتمع الذي يعيش فيه .

ففي الجدب مثلاً ، كيف يكون في الجدب سلام ؟ نقول : لم يكن ذلك ؛ حتى لا يطغى الناس ، ويظنوا أن الأمر لهم وبأيديهم ، كما قال أحد زعماء بعض الدول : الآن ستروي السدود أرضكم ، أمطرت السماء أم لم تمطر .

ليس كل ما تستطيبه نفسك سلام ، ولكن الذي يعدل النفس البشرية عن طغيانها ، وتمردها ، وغرورها ، وعن كل ما تعلم ، هذا عين ميزان السلام .

ولذلك فلابد للإنسان إن أراد أن يفسر الأحداث أن يفسرها حين لا يكون له يد فيها ، فيفسرها بالنسبة لحكمة الحق ﷻ ، لا بما تستطيبه نفسه ، إن كنت مثلاً أسرفت على نفسي في شيء ، ثم ابتليت بمرض ، فقد كفر الله عني ، ألا يكون ذلك سلامًا ؟!

إذن .. فيجب أن تقاس الأمور بإسنادها إلى حكمة الحق ﷻ ، وأنه لا يريد مني إلا التوكل عليه ﷻ ؛ ولذلك قال الحق ﷻ في **سورة آل عمران** : ﴿ **قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاء وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاء وَتُعِزُّ مَن تَشَاء وَتُذِلُّ مَن تَشَاء بِيَدِكَ الْخَيْرُ**

إِنَّكَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[1] ، وإتيان الملك خير في أعرافنا ، ولكن نزعه ليس كذلك ، الإعزاز خير في أعرافنا ، ولكن الإذلال شر في أعرافنا نحن ، ولكن عند الحق ﷻ قال : ﴿ بِيَدِكَ الْخَيْرُ ﴾ ، نعم ، بيدك الخير ، الصور الأربع : إيتاء الملك .. نزع الملك .. خير الإعزاز .. خير الإذلال ، فيكون إذن كل ما يجري به القدر ، استطابته نفسك ، أو لم تستطبه ، فإنما هو من مقدرات خير الله ﷻ .

وعن **سعد بن أبي وقاص** قال : قلت : يا رسول الله .. أي الناس أشد بلاء ؟ قال : **" الأنبياء ، ثم الصالحون ، ثم الأمثل فالأمثل من الناس ، يبتلى الرجل على حسب دينه ، فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه ، وإن كان في دينه رقة خفف عنه ، وما يزال البلاء بالعبد حتى يمشي على ظهر الأرض ليس عليه خطيئة "**[2].

وقد تكون كلمة : ﴿ سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴾ .. أن الملائكة ينزلون للتسليم على المؤمنين ؛ لأن ذلك يعتبر بالنسبة لهم تشريفًا عظيمًا ، وارتباطًا قويًّا بالرسالة المحمدية ، وبنزول القرآن الكريم ، وبهذه الليلة المباركة التي أُعطوها ، وهي خير من ألف شهر ، والأحباء دائمًا في المناسبات السعيدة يسلمون على بعضهم البعض ، ويقال : إنهم ينزلون فيودعهم **جبريل** الأرضَ ، فلا يبقى بيت فيه مؤمن ولا مؤمنة إلا دخلوا فسلموا عليه .

نسأل الله ﷻ أن نكون من أهل السلام في ديننا ودنيانا ، وفي آخرتنا .. إنه ولي ذلك والقادر عليه .

---

1 - سورة : آل عمران ، الآية : 26 .

2 - مسند أحمد (3 / 410) .

عم

تفسير جزء

سورة البينة

سورة البينة

أحمدك ربي ، وأصلي وأسلم على سيدنا محمد ، رحمة الله للعالمين ، وخاتم الأنبياء والمرسلين ، وبعد . .

فمع **سورة البينة** .. هذه السورة التي تعرض عدة حقائق تاريخية وإيمانية في أسلوب تقريري مهيب ..

الحقيقة الأولى: هي أن بعثة الرسول ﷺ كانت ضرورية لتحويل الذين كفروا من أهل الكتاب ومن المشركين عما كانوا قد انتهوا إليه من الضلال والاختلاف ، وما كانوا ليتحولوا عنه بغير هذه البعثة : ﴿ **لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ * رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً * فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ** ﴾ ..

والحقيقة الثانية: هي أن أهل الكتاب لم يختلفوا في دينهم عن جهالة ولا عن غموض فيه ، إنما اختلفوا من بعد ما جاءهم العلم وجاءتهم البينة : ﴿ **وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ** ﴾ .

والحقيقة الثالثة: هي أن الدين في أصله واحد ، وقواعده بسيطة واضحة ، لا تدعو إلى التفرق والاختلاف في ذاتها وطبيعتها البسيطة اليسيرة : ﴿ **وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاَةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ** ﴾ .

والحقيقة الرابعة: هي أن الذين كفروا بعد ما جاءتهم البينة هم شر البرية ، وأن الذين آمنوا وعملوا الصالحات هم خير البرية ، ومن ثم يختلف جزاء هؤلاء عن أولئك اختلافًا بينًا :

* تفسير السورة مقتبس بتصرف من : "في ظلال القرآن" .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ * إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ * جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴾ ..

وهذه الحقائق الأربع ذات قيمة في إدراك دور العقيدة الإسلامية ، ودور الرسالة الأخيرة ، وفي التصور الإيماني كذلك ، كما سيأتي تفصيل ذلك .

لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾
رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُواْ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ
ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ
حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾

﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴾ ..

لقد كانت الأرض في حاجة ماسة إلى رسالة جديدة ، كان الفساد قد عم أرجاءها كلها بحيث لا يرتجى لها صلاح إلا برسالة جديدة ، ومنهج جديد ، وحركة جديدة .. وكان الكفر قد تطرق إلى عقائد أهلها جميعًا .. سواء أهل الكتاب الذين عرفوا الديانات السماوية من قبل ثم حرفوها ، أو المشركين في الجزيرة العربية وفي خارجها سواء .

وما كانوا لينفكوا ويتحولوا عن هذا الكفر الذي صاروا إليه إلا بهذه الرسالة الجديدة ، وإلا على يد رسول يكون هو ذاته بينة واضحة فارقة فاصلة .

﴿ رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً ﴾ .. مطهرة من الشرك والكفر .

﴿ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴾ .. والكتاب يطلق على الموضوع ، كما يقال : كتاب الطهارة ، وكتاب الصلاة ، وكتاب القدَر ، وكتاب القيامة ، وهذه الصحف المطهرة – وهي هذا القرآن – فيها كتب قيمة ، أي موضوعات وحقائق قيمة ..

ومن ثم جاءت هذه الرسالة في إبانها ، وجاء هذا الرسول في وقته ، وجاءت هذه الصحف وما فيها من كتب وحقائق وموضوعات لتحدث في الأرض كلها حدثًا لا تصلح الأرض إلا به .

فأما كيف كانت الأرض في حاجة إلى هذه الرسالة وإلى هذا الرسول فنكتفي في بيانه باقتطاف لمحات كاشفة من الكتاب القيم الذي كتبه الرجل المسلم **السيد أبو الحسن علي الحسني الندوي** ، بعنوان : " **ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين** " .. وهو أوضح وأخصر ما قرأناه في موضوعه .

جاء في الفصل الأول من الباب الأول :

كان القرن السادس والسابع لميلاد المسيح من أحط أدوار التاريخ بلا خلاف ، فكانت الإنسانية متدلية منحدرة منذ قرون ، وما على وجه الأرض قوة تمسك بيدها وتمنعها من التردي ، وقد زادتها الأيام سرعة في هبوطها ، وشدة في إسفافها ، وكان الإنسان في هذا القرن قد نسي خالقه ، فنسي نفسه ومصيره ، وفقد رشده ، وفقد قوة التمييز بين الخير والشر ، والحسن والقبيح ، وقد خفتت دعوة الأنبياء منذ زمن ، والمصابيح التي أوقدوها قد انطفأت من العواصف التي هبت بعدها ، أو بقيت ونورها ضعيف ضئيل لا ينير إلا بعض القلوب ، فضلاً عن البيوت ، فضلاً عن البلاد ، وقد انسحب رجال الدين من ميدان الحياة ، ولاذوا بالأديرة والكنائس والخلوات فرارًا بدينهم من الفتن ، وضنًّا بأنفسهم ، أو رغبة إلى الدعة والسكون ، فرارًا من تكاليف الحياة وجدها ، أو فشلاً في كفاح الدين والسياسة ، والروح والمادة ، ومن بقي منهم في تيار الحياة اصطلح مع الملوك وأهل الدنيا وعاونهم على إثمهم وعدوانهم ، وأكل أموال الناس بالباطل ..

" أصبحت الديانات العظيمة فريسة العابثين والمتلاعبين ، ولعبة المجرمين والمنافقين ، حتى فقدت روحها وشكلها ، فلو بُعث أصحابها الأولون لم يعرفوها ، وأصبحت مهود الحضارة والثقافة والحكم والسياسة مسرح الفوضى والانحلال والاختلال وسوء النظام وعسف الحكام ، وشغلت بنفسها لا تحمل للعالم رسالة ، ولا للأمم دعوة ، وأفلست في معنوياتها ، ونضب معين حياتها ، لا تملك مشرعًا صافيًا من الدين السماوي ، ولا نظامًا ثابتًا من الحكم البشري " .

هذه اللمحة السريعة تصور في إجمال حالة البشرية والديانات قبيل البعثة المحمدية ، وقد أشار القرآن إلى مظاهر الكفر الذي شمل أهل الكتاب والمشركين في مواضع شتى .

من ذلك قوله عن اليهود والنصارى : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ﴾[1] ، ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ ﴾[2] ، وقوله عن اليهود : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾[3] ، وقوله عن النصارى : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ﴾[4] ، ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ ﴾[5] ، وقوله عن المشركين : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾[6] .. وغيرها كثير .

---

1 - سورة : التوبة ، الآية : 30 .

2 - سورة : البقرة ، الآية : 113 .

3 - سورة : المائدة ، الآية : 64 .

4 - سورة : المائدة ، الآية : 17 ، والآية : 72 .

5 - سورة : المائدة ، الآية : 73 .

6 - سورة : الكافرون .

كان وراء هذا الكفر ما وراءه من الشر والانحطاط والشقاق والخراب الذي عم أرجاء الأرض .

" وبالجملة لم تكن على ظهر الأرض أمة صالحة المزاج ، ولا مجتمع قائم على أساس الأخلاق والفضيلة ، ولا حكومة مؤسسة على أساس العدل والرحمة ، ولا قيادة مبنية على العلم والحكمة ، ولا دين صحيح مأثور عن الأنبياء " .

ومن ثم اقتضت رحمة الله ﷻ بالبشرية إرسال رسول من عنده يتلو صحفًا مطهرة فيها كتب قيمة ، وما كان الذين كفروا من المشركين ومن الذين أوتوا الكتاب ليتحولوا عن ذلك الشر والفساد إلا ببعثة هذا الرسول المنقذ الهادي المبين .

ولما قرر الحق ﷻ هذه الحقيقة في مطلع السورة عاد يقرر أن أهل الكتاب خاصة لم يتفرقوا ويختلفوا في دينهم عن جهل أو عن غموض في الدين أو تعقيد ، إنما هم تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم العلم ومن بعد ما جاءتهم البينة من دينهم على أيدي رسلهم ..

﴿ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴾ .. وكان أول التفرق والاختلاف هو ما وقع بين طوائف اليهود قبل بعثة **عيسى** عليه السلام فقد انقسموا شعبًا وأحزابًا ، مع أن رسولهم هو **موسى** عليه السلام ، وكتابهم هو التوراة ، فكانوا طوائف خمسة رئيسية ، هي طوائف : الصدوقيين ، والفريسيين ، والآسيين ، والغلاة ، والسامريين .. ولكل طائفة منها سمة واتجاه ، ثم كان التفرق بين اليهود والنصارى ، مع أن **المسيح** عليه السلام هو أحد أنبياء بني إسرائيل وآخرهم ، وقد جاء مصدقًا لما بين يديه من التوراة ، ومع هذا فقد بلغ الخلاف والشقاق بين اليهود والمسيحيين حد العداء العنيف والحقد الذميم ، وحفظ التاريخ من المجازر بين الفريقين ما تقشعر له الأبدان .

وقد تجدد في أوائل القرن السابع من الحوادث ما بغَّضهم (أي اليهود) إلى النصارى وبغض النصارى إليهم ، وشوه سمعتهم .. ففي السنة الأخيرة من حكم فوكاس (610 م) أوقع اليهود بالنصارى في أنطاكية ، فأرسل الإمبراطور قائده " **أبنوسوس** " ليقضي على ثورتهم ،

فذهب وأنفذ عمله بقسوة نادرة ، فقتل الناس جميعًا .. قتلاً بالسيف ، وشنقًا ، وإغراقًا ، وإحراقًا ، وتعذيبًا ، ورميًا للوحوش الكاسرة .

وكان ذلك بين اليهود والنصارى مرة بعد مرة ، قال المقريزي في كتاب الخطط : " وفي أيام " فوقا " ملك الروم ، بعث " كسرى " ملك فارس جيوشه إلى بلاد الشام ومصر فخربوا كنائس القدس ، وفلسطين وعامة بلاد الشام ، وقتلوا النصارى بأجمعهم ، وأتوا إلى مصر في طلبهم ، وقتلوا منهم أمة كبيرة ، وسبوا منهم سبيًا لا يدخل تحت حصر ، وساعدهم اليهود في محاربة النصارى وتخريب كنائسهم ، وأقبلوا نحو الفُرس من طبرية ، وجبل الجليل ، وقرية الناصرة ومدينة صور ، وبلاد القدس ، فنالوا من النصارى كل منال وأعظموا النكاية فيهم ، وخربوا لهم كنيستين بالقدس ، وأحرقوا أماكنهم ، وأخذوا قطعة من عود الصليب ، وأسروا بطرك القدس وكثيرًا من أصحابه " .

إلى أن قال بعد أن ذكر فتح القدس : " فثارت اليهود في أثناء ذلك بمدينة صور ، وأرسلوا بقيتهم في بلادهم ، وتواعدوا على الإيقاع بالنصارى وقتلهم ، فكانت بينهم حرب ، اجتمع فيها من اليهود نحو عشرين ألفًا ، وهدموا كنائس النصارى خارج صور ، فقوّس النصارى عليهم وكاثروهم ، فانهزم اليهود هزيمة قبيحة ، وقتل منهم كثير ، وكان هرقل قد ملك الروم بقسطنطينية ، وغلب الفرس بحيلة دبرها على كسرى حتى رحل عنه ، ثم سار من قسطنطينية ليمهد ممالك الشام ومصر ، ويجدد ما خربه الفرس ، فخرج إليه اليهود من طبرية وغيرها ، وقدموا لها الهدايا الجليلة ، وطلبوا منه أن يؤمنهم منه ، ويحلف لهم على ذلك ، فأمنهم وحلف لهم ، ثم دخل القدس ، وقد تلقاهم النصارى بالأناجيل والصلبان والبخور والشموع المشعلة ، فوجد المدينة وكنائسها خرابًا ، فساءه ذلك ، وتوجع لهم ، وأعلمه النصارى بما كان من ثورة اليهود مع الفرس ، وإيقاعهم بالنصارى وتخريبهم الكنائس ، وأنهم كانوا أشد نكاية لهم من الفرس ، وقاموا قيامًا كبيرًا في قتلهم عن آخرهم ،

وحثوا هرقل على الوقيعة بهم ، وحسنوا له ذلك ، فاحتج عليهم بما كان من تأمينه لهم وحلفه ، فأفتاه رهبانهم وبطارقتهم وقسيسوهم بأنه لا حرج عليه في قتلهم ، فإنهم عملوا عليه حيلة حتى أمنهم من غير أن يعلم بما كان منهم ، وأنهم يقومون عنه بكفارة يمينه بأن يلتزموا ويلزموا النصارى بصوم جمعة في كل سنة عنه على مر الزمان والدهور ، فمال إلى قولهم وأوقع باليهود وقيعة شنعاء أبادهم جميعهم فيها ، حتى لم يبق في مماليك الروم والشام إلا من فر واختفى " .

وبهذه الروايات يعلم ما وصل إليه الفريقان : اليهود والنصارى ، من القسوة والضراوة بالدم الإنساني ، وتحين الفرص للنكاية في العدو ، وعدم مراعاة الحدود في ذلك .

ثم كان التفرق والاختلاف بين النصارى أنفسهم ، مع أن كتابهم واحد ونبيهم واحد ، تفرقوا واختلفوا أولاً في العقيدة ، ثم تفرقوا واختلفوا طوائف متعادية متنافرة متقابلة ، وقد دارت الخلافات حول طبيعة المسيح عليه السلام وعما إذا كانت لاهوتية أو ناسوتية ، وطبيعة أمه مريم ، وطبيعة الثالوث الذي يتألف منه الله في زعمهم ، وحكى القرآن قولين منها أو ثلاثة في قوله : ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ﴾[1] ، ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ ﴾[2] ، ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾[3] .

وكان أشد مظاهر هذا الخلاف الديني ما كان بين نصارى الشام والدولة الرومية ، وبين نصارى مصر ، أو بين " الملكانية " ، و" المنوفوسية " بلفظ أصح ، فكان شعار الملكانية هو عقيدة ازدواج طبيعة المسيح ، وكان المنوفوسيون يعتقدون أن للسيد المسيح طبيعة واحدة هي

---

1 - سورة : المائدة ، الآية : 17 ، والآية : 72 .

2 - سورة : المائدة ، الآية : 73 .

3 - سورة : المائدة ، الآية : 116 .

الإلهية التي تلاشت فيها طبيعة **المسيح** البشرية كقطرة من الخل تقع في بحر عميق لا قرار له ، وقد اشتد هذا الخلاف بين الحزبين في القرنين السادس والسابع ، حتى صار كأنه حرب عوان بين دينين متنافسين ، أو كأنه خلاف بين اليهود والنصارى ، كل طائفة تقول للأخرى : إنها ليست على شيء .

وحاول الإمبراطور **هرقل** (610 - 641 م) بعد انتصاره على الفرس سنة 638 م جمع مذاهب الدولة المتصارعة وتوحيدها ، وأراد التوفيق ، وتقررت صورة التوفيق أن يمتنع الناس عن الخوض في الكلام عن كنه طبيعة السيد المسيح ، وعما إذا كانت له صفة واحدة أم صفتان ، ولكن عليهم بأن يشهدوا بأن الله له إرادة واحدة ، أو قضاء واحد ، وفي صدر عام 631 م حصل وفاق على ذلك ، وصار المذهب المنوثيلي مذهبًا رسميًّا للدولة ، ومن تضمهم من أتباع الكنيسة المسيحية ، وصمم **هرقل** على إظهار المذهب الجديد على ما عداه من المذاهب المخالفة ، متوسلاً إلى ذلك بكل الوسائل ، ولكن القبط نابذوه العداء ، وتبرأوا من هذه البدعة والتحريف ، وصمدوا له واستماتوا في سبيل عقيدتهم القديمة ، وحاول الإمبراطور مرة أخرى توحيد المذاهب وحسم الخلاف ، فاقتنع بأن يقر الناس بأن الله له إرادة واحدة ، وأما المسألة الأخرى وهي نفاذ تلك الإرادة بالفعل فأرجأ القول فيها ، ومنع الناس أن يخوضوا في مناظراته ، وجعل ذلك رسالة رسمية ، ذهب بها إلى جميع جهات العالم الشرقي ، ولكن الرسالة لم تهدئ العاصفة في مصر ، ووقع اضطهاد فظيع على يد **قيصر** في مصر استمر عشر سنين ، ووقع في خلالها ما تقشعر منه الجلود ، فرجال كانوا يعذبون ثم يقتلون غرقًا ، وتوقد المشاعل وتسلط نارها على الأشقياء حتى يسيل الدهن من الجانبين إلى الأرض ، ويوضع السجين في كيس مملوء بالرمل ويرمى في البحر .. إلى غير ذلك من الفظائع .

وكان هذا الخلاف كله بين أهل الكتاب جميعًا ﴿ **مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ** ﴾ .. فلم يكن ينقصهم العلم والبيان ، إنما كان يجرفهم الهوى والانحراف ، على أن الدين في أصله واضح والعقيدة في ذاتها بسيطة ..

﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاَةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴾ .. وهذه هي قاعدة دين الله على الإطلاق : عبادة الله وحده ، وإخلاص الدين له ، والميل عن الشـــرك وأهله ، وإقـــامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة .. ﴿ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴾ .

عقيدة خالصة في الضمير ، وعبـادة لله تترجم عن هذه العقـيدة ، وإنفاق للمال في سبـيل الله وهو الزكاة .. فمن حقق هذه القواعد ، فقد حقـق الإيمان كما أُمر بـه أهل الكتاب ، وكما هو في دين الله على الإطلاق .. دين واحد .. وعقيدة واحدة ، تتوالى بها الرسـالات ، ويتوافى عليها الرسـل .. دين لا غموض فيه ولا تعقـيد ، وعقـيدة لا تدعو إلى تفرق ولا خلاف ، وهي بـــهذه النصاعة ، وبهذه البساطة ، وبهذا التيسير .

فأين هذا من تلك التصورات المعقـدة ، وذلك الجدل الكثير ؟! فأما وقـد جاءتهم البـينة من قبـل في دياناتهم على أيدي رسـلهم ، ثم جاءتهم البـينة ، حـية في صورة رســول من الله يتلو صحفًا مطهرة ، ويقدم لهم عقيدة واضحة بسـيطة ميسـرة ، فقـد تبـين الطريق ، ووضح مصير الذين يكفرون والذين يؤمنون .

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾

إن **محمدا** ﷺ هو الرسول الأخير ، وإن الإسـلام الذي جاء بـه هو الرسـالة الأخيرة ، وقـد

كانت الرسل تتوالى كلما فسدت الأرض ؛ لترد الناس إلى الصلاح ، وكانت هناك فرصة بعد فرصة ، ومهلة بعد مهلة لمن ينحرفون عن الطريق ، فأما وقد شاء الله أن يختم الرسالات إلى الأرض بهذه الرسالة الأخيرة الجامعة الشاملة الكاملة ، فقد تحددت الفرصة الأخيرة ، فإما إيمان فنجاة ، وإما كفر فهلاك ؛ ذلك لأن الكفر حينئذ دلالة على الشر الذي لا حد له ، والإيمان دلالة على الخير البالغ أمده .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴾ .. حكم قاطع لا جدال فيه ولا محال ، مهما يكن من صلاح بعض أعمالهم وآدابهم ونظمهم .. ما دامت تقوم على غير إيمان بهذه الرسالة الأخيرة ، وبهذا الرسول الأخير .. لا نستريب في هذا الحكم لأي مظهر من مظاهر الصلاح المقطوعة الاتصال بمنهج الله الثابت القويم .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴾ .. حكم كذلك قاطع لا جدال فيه ولا محال ، ولكن شرطه كذلك واضح لا غموض فيه ولا احتيال ، إنه الإيمان ، لا مجرد مظهر في أرض تدعي الإسلام ، أو في بيت يقول : إنه من المسلمين ، ولا بمجرد كلمات يتشدق بها الإنسان ، إنه الإيمان الذي ينشئ آثاره في واقع الحياة ، والدليل على ذلك أنهم : ﴿ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ .. وليس هو الكلام الذي لا يتعدى الشفاه فحسب ، والصالحات هي كل ما أمر الله بفعله من عبادة وخلق وعمل وتعامل ، وفي أولها إقامة شريعة الله الملك الحكم الحق في الأرض ، والحكم بين الناس بما شرع الله ﷻ ، فمن كانوا كذلك فهم خير البرية .

﴿ جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾ .. جنات للإقامة الدائمة في نعيمها الذي يمثله هنا الأمن من الفناء والفوات ، والطمأنينة من القلق الذي يعكر وينغص كل طيبات الأرض .. كما يمثله جريان الأنهار من تحتها ، وهو

يلقي ظلال النداوة والحياة والجمال .. ثم يرتقي السياق درجة ، أو درجات في تصوير هذا النعيم المقيم ..

﴿ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ .. هذا الرضا من الله ﷻ ، وهو أعلى وأندى من كل نعيم ، وهذا الرضا في نفوسهم عن ربهم .. الرضا عن قدره فيهم ، والرضا عن إنعامه عليهم ، والرضا بهذه الصلة بينه وبينهم ، الرضا الذي يغمر النفس بالهدوء والطمأنينة والفرح الخالص العميق .. إنه تعبير يلقي ظلاله بذاته .. ﴿ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ .. حيث يعجز أي تعبير آخر عن إلقاء مثل هذه الظلال .

﴿ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴾ .. وذلك هو التوكيد الأخير .. التوكيد على أن هذا كله متوقف على صلة القلب بالله ﷻ ، ونوع هذه الصلة ، والشعور بخشيته خشية تدفع إلى كل صلاح ، وتنهى عن كل انحراف .. الشعور الذي يزيح الحواجز ، ويرفع الأستار ، ويقف القلب عاريًا أمام الواحد القهار ، والذي يخلص العبادة ، ويخلص العمل من شوائب الرياء والشرك في كل صورة من صوره .

فالذي يخشى ربه حقًّا لا يملك أن يجعل في قلبه ظلاً لغيره من خلقه ، وهو يعلم أن الله يرد كل عمل ينظر فيه العبد إلى غيره معه ، فهو أغنى الشركاء عن الشرك ، فإما عمل خالص له ، وإلا لا يقبله .

تلك الحقائق الأربعة الكبيرة هي مقررات هذه السورة القصيرة ، يعرضها القرآن بأسلوبه الخاص ، الذي يتجلى بصفة خاصة في هذه السور القصار .

نسأل الله أن يرزقنا الرضا في أمورنا كلها ، وأن يرضينا ، وأن يرضى عنا ، إنه ولي ذلك والقادر عليه .

علم

تفسير جزء

سورة الزلزلة

سورة الزلزلة

أحمدك ربي ، وأصلي وأسلم على سيدنا محمد ، رحمة الله للعالمين ، وخاتم الأنبياء والمرسلين ، وبعد . .

فمع **سورة الزلزلة** .. تلك السورة القصيرة التي ما إن تطالعها حتى تجدها هزة عنيفة للقلوب الغافلة .. هزة يشترك فيها الموضوع والمشهد والإيقاع اللفظي .

وصيحة قوية مزلزلة للأرض ومن عليها ، فما يكادون يفيقون حتى يواجههم الحساب والوزن والجزاء في بضع فقرات قصار .

وهذا هو طابع هذا الجزء كله ، يتمثل في هذه السورة تمثلاً قويًّا ..

إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾

﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا * وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴾ .. إنه يوم القيامة ، حيث

* تفسير السورة مقتبس بتصرف من : "في ظلال القرآن" .

ترتجف الأرض الثابتة ارتجافًا ، وتزلزل زلزالاً ، وتنفض ما في جوفها نفضًا ، وتخرج ما يثقلها من أجساد ومعادن وغيرها مما حملته طويلاً ، وكأنها تتخفف من هذه الأثقال ، التي حملتها طويلاً .

وهو مشهد يهز تحت أقدام المستمعين لهذه السورة كل شيء ثابت ، ويخيل إليهم أنهم يترنحون ويتأرجحون ، والأرض من تحتهم تهتز وتمور ، مشهد يخلع القلوب من كل ما تتشبث به من هذه الأرض ، وتحسبه ثابتًا باقيًا ، وهو الإيحاء الأول لمثل هذه المشاهد التي يصورها القرآن ، ويودع فيها حركة تكاد تنتقل إلى أعصاب السامع بمجرد سماع العبارة القرآنية الفريدة .

ويزيد هذا الأثر وضوحًا بتصوير (**الإنسان**) حيال المشهد المعروض ، ورسم انفعالاته وهو يشهده ..

﴿ **وَقَالَ الإِنْسَانُ مَا لَهَا** ﴾ .. وهو سؤال المشدوه المبهوت المفجوء ، الذي يرى ما لم يعهد ، ويواجه ما لا يدرك ، ويشهد ما لا يملك الصبر أمامه والسكوت .. مالها ؟! ما الذي يزلزلها هكذا ويرجها رجًّا ؟! مالها ؟! وكأنه يتمايل على ظهرها ويترنح معها ، ويحاول أن يمسك بأي شيء يسنده ويثبته ، وكل ما حوله يمور مورًا شديدًا .

و(**الإنسان**) قد شهد الزلازل والبراكين من قبل ، وكان يصاب منها بالهلع والذعر ، ويصيبه بها الهلاك والدمار ، ولكنه حين يرى زلزال يوم القيامة لا يجد أن هناك شبهًا بينه وبين ما كان يقع من الزلازل والبراكين في الحياة الدنيا ، فهذا أمر جديد لا عهد للإنسان به ، أمر لا يعرف له سرًّا ، ولا يذكر له نظيرًا ، أمر هائل يقع للمرة الأولى .

﴿ **يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا * بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا** ﴾ .. يوم يقع هذا الزلزال ، ويُشدَه أمامه الإنسان .. يومئذ تحدث هذه الأرض أخبارها ، وتصف حالها وما جرى لها ، لقد كان ما كان لها بأمر ربها ، وأمرها أن تمور مورًا ، وأن تزلزل زلزالها ، وأن تخرج أثقالها ، فأطاعت أمر

ربها ، ﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴾[1] ، فهي تحدث أخبارها ، فهذا الحال حديث واضح عما وراءه من أمر الله ووحيه إليها .

﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ﴾ .. وهنا .. والإنسان مشدوه مأخوذ ، والإيقاع يلهث فزعًا ورعبًا ، ودهشة وعجبًا ، واضطرابًا وموراً .. وهنا .. والإنسان لا يكاد يلتقط أنفاسه وهو يتساءل : مالها .. مالها ؟! هنا يواجه بمشهد الحشر والحساب والوزن والجزاء .. وفي لمحة نرى مشهد القيام من القبور ..

﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا ﴾ .. نرى مشهدهم شتيتًا منبعثًا من أرجاء الأرض .. ﴿ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ ﴾ .. وهو مشهد لا عهد للإنسان به كذلك من قبل .. مشهد الخلائق في أجيالها جميعًا تنبعث من هنا ومن هناك .. ﴿ يَوْمَ تَشَقَّقُ الأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ﴾[2] .. وحيثما امتد البصر رأى شبحًا ينبعث ثم ينطلق مسرعًا .. لا يلوي على شيء ، ولا ينظر وراءه ولا حواليه : ﴿ مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ ﴾[3] .. ممدودة رقابهم .. شاخصة أبصارهم .. ﴿ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾[4] .. إنه مشهد لا تعبر عن صفته لغة البشر .. هائل مروع .. مفزع .. مرعب .. مذهل .. كل أولئك الكلمات وسائر ما في المعجم من أمثالها لا تبلغ من وصف هذا المشهد شيئًا مما يبلغه إرسال الخيال قليلاً يتملاه بقدر ما يملك ، وفي حدود ما يطيق .

﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ﴾ .. وهذه أشد وأدهى .. إنهم ذاهبون إلى حيث تعرض عليهم أعمالهم ؛ ليواجهوها ويواجهوا جزاءها ، ومواجهة الإنسان لعمله قد تكون أحيانًا أقسى من كل جزاء ، وإن من عمله ما يهرب من مواجهته بينه وبين نفسه ، ويشيح بوجهه عنه لبشاعته حين يتمثل له في نوبة من نوبات الندم ولذع الضمير ، فكيف به

---

1 - سورة : الانشقاق ، الآية : 2 .

2 - سورة : ق ، الآية : 44 .

3 - سورة : القمر ، الآية : 8 .

4 - سورة : عبس ، الآية : 37 .

وهو يواجه بعمله على رؤوس الأشهاد ، في حضرة الجليل العظيم الجبار المتكبر ؟!

إنها عقوبة هائلة رهيبة .. مجرد أن يُروا أعمالهم ، وأن يواجهوا بما كان منهم ، ووراء رؤيتها الحساب الدقيق الذي لا يدع ذرة من خير أو من شر لا يزنها ولا يجازي عليها .

﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ .. ذرة .. وكان المفسرون القدامى يقولون : إنها البعوضة . وكانوا يقولون : إنها الهباءة التي تُرى في ضوء الشمس .. فقد كان ذلك أصغر ما يتصورون من لفظ الذرة .

أما الآن فنحن نعلم أن الذرة شيء محدد يحمل هذا الاسم ، وأنه أصغر بكثير من تلك الهباءة التي تُرى في ضوء الشمس ، فالهباءة تُرى بالعين المجردة ، أما الذرة فلا تُرى أبداً حتى بأعظم المجاهر في المعامل ، إنما هي (رؤيا) في ضمير العلماء ، لم يسبق لواحد منهم أن رآها بعينه ولا بمجهره ، وكل ما رآه إنما هو آثارها .

فهذه أو ما يشبهها من ثقل ، من خير أو شر ، تُحضر ويراها صاحبها ، ويجد جزاءها .

عندئذ لا يحقر الإنسان شيئًا من عمله ، خيرًا كان أو شرًّا ، ولا يقول : هذه صغيرة لا حساب لها ولا وزن .. إنما يرتعش وجدانه أمام كل عمل من أعماله ارتعاشة ذلك الميزان الدقيق الذي ترجح به الذرة أو تشيل .

إن هذا الميزان لم يوجد له نظير أو شبيه بعد في الأرض .. إلا في القلب المؤمن .. ذلك القلب الذي يرتعش لمثقال ذرة من خير أو شر ، وفي الأرض قلوب لا تتحرك للجبل من الذنوب والمعاصي والجرائر ، ولا تتأثر وهي تسحق رواسي من الخير دونها رواسي الجبال .

إنها قلوب عتلة في الأرض ، مسحوقة تحت أثقالها تلك في يوم الحساب .

نسأل الله العلي القدير أن يرزقنا هذه القلوب الطاهرة النقية التي تهتز بمثقال الذرة من الذنوب .. إنه ولي ذلك والقادر عليه .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

علم

تفسير جزء

سورة العاديات

سُورَةُ العَادِيَاتِ

أحمدك ربي ، وأصلي وأسلم على سيدنا محمد ، رحمة الله للعالمين ، وخاتم الأنبياء والمرسلين ، وبعد . .

فمع **سورة العاديات** .. تلك السورة التي يجري سياقها في لمسات سريعة عنيفة مثيرة ، ينتقل من إحداها إلى الأخرى قفزًا وركضًا في خفة وسرعة وانطلاق ، حتى ينتهي إلى آخر فقرة فيها فيستقر عندها اللفظ والظل والموضوع والإيقاع ، كما يصل الراكض إلى نهاية المطاف .

وتبدأ بمشهد الخيل العادية الضابحة ، القادحة للشرر بحوافرها ، المغيرة مع الصباح ، المثيرة للنقع وهو الغبار ، الداخلة في وسط العدو فجأة تأخذه على غرة ، وتثير في صفوفه الذعر والفرار .

يليه مشهد في النفس من الكنود والجحود والأثرة والشح الشديد .. ثم يعقبه مشهد لبعثرة القبور وتحصيل ما في الصدور .

وفي الختام ينتهي النقع المثار ، وينتهي الكنود والشح ، وتنتهي البعثرة والجمع .. إلى نهايتها جميعًا .. إلى الله ﷻ .. فتستقر هناك : ﴿ إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ ﴾ .

والإيقاع الموسيقي فيه خشونة ودمدمة وفرقعة ، تناسب الجو الصاخب المعفر الذي تنشئه القبور المبعثرة ، والصدور المحصل ما فيها بشدة وقوة ، كما تناسب جو الجحود والكنود ، والأثرة والشح الشديد .. فلما أراد لهذا كله إطارًا مناسبًا ، اختاره من الجو الصاخب المعفر كذلك ، تثيره الخيل العادية في جريها ، الصاخبة بأصواتها ، القادحة بحوافرها ، المغيرة

* تفسير السورة مقتبس بتصرف من : " في ظلال القرآن " .

فجأة مع الصباح ، المثيرة للنقع والغبار ، الداخلة في وسط العدو على غير انتظار .. فكان الإطار من الصورة ، والصورة من الإطار .

وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ﴿٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ﴿٤﴾ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ ۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ ﴿١١﴾

﴿ وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا * فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا * فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ﴾ .. يقسم الله ﷻ بخيل المعركة ، ويصف حركاتها واحدة واحدة منذ أن تبدأ عدوها وجريها ضابحة بأصواتها المعروفة حين تجري ، قارعة للصخر بحوافرها حتى توري الشرر منها ، مغيرة في الصباح الباكر لمفاجأة العدو ، مثيرة للنقع والغبار .. غبار المعركة على غير انتظار ، وهي تتوسط صفوف الأعداء على غرة فتوقع بينهم الفوضى والاضطراب .

﴿ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا * فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ﴾ .. إنها خطوات المعركة على ما يألفه المخاطبون بالقرآن أول مرة ، والقسم بالخيل في هذا الإطار فيه إيحاء قوي بحب هذه الحركة والنشاط لها ، بعد الشعور بقيمتها في ميزان الله والتفاته ﷻ إليها .

وذلك فوق تناسق المشهد مع المشاهد المقسم عليها والمعقب بها كما أسلفنا ، أما الذي يقسم الله ﷻ عليه ، فهو حقيقة في نفس الإنسان ، حين يخوى قلبه من دوافع الإيمان ، حقيقة ينبهه القرآن إليها ؛ ليجند إرادته لكفاحها ، مذ كان الله يعلم عمق وشائجها في نفسه ،

وثقل وقعها في كيانه .

﴿ إِنَّ الإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ * وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ ﴾ .. إن الإنسان ليجحد نعمة ربه ، وينكر جزيل فضله ، ويتمثل كنوده وجحوده في مظاهر شتى تبدو منه أفعالاً وأقوالاً ، فتقوم عليه مقام الشاهد الذي يقرر هذه الحقيقة ، وكأنه يشهد على نفسه بها ، أو لعله يشهد على نفسه يوم القيامة بالكنود والجحود .. ﴿ وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ ﴾ .. يوم ينطق بالحق على نفسه حيث لا جدال ولا محال .

﴿ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ .. فهو شديد الحب لنفسه ، ومن ثم يحب الخير ، ولكن كما يتمثله مالاً وسلطة ومتاعًا بأعراض الحياة الدنيا .

هذه فطرته ، وهذا طبعه ، ما لم يخالط الإيمان قلبه فيغير من تصوراته وقيمه وموازينه واهتماماته ، ويحيل كنوده وجحوده اعترافًا بفضل الله وشكرانًا ، كما يبدل أثرته وشحه إيثارًا ورحمة ، ويريه القيم الحقيقية التي تستحق الحرص والتنافس والكد والكدح ، وهي قيم أعلى من المال والسلطة والمتاع الحيواني بأعراض الحياة الدنيا .

إن الإنسان بغير إيمان حقير صغير ، حقير المطامع ، صغير الاهتمامات ، ومهما كبرت أطماعه ، واشتد طموحه ، وتعالت أهدافه ، فإنه يظل مرتكسًا في حمأة الأرض ، مقيدًا بحدود العمر ، سجينًا في سجن الذات ، لا يطلقه ولا يرفعه إلا الاتصال بعالم أكبر من الأرض ، وأبعد من الحياة الدنيا ، وأعظم من الذات ، عالم يصدر عن الله الأزلي ، ويعود إلى الله الأبدي ، وتتصل فيه الدنيا بالآخرة إلى غير انتهاء .

ومن ثم تجيء اللفتة الأخيرة في السورة لعلاج الكنود والجحود والأثرة والشح ؛ لتحطيم قيد النفس وإطلاقها منه ، مع عرض مشهد البعث والحشر في صورة تنسي حب الخير ، وتوقظ من غفلة البطر ..

﴿ أَفَلاَ يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ * وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ﴾ .. وهو مشهد عنيف

مثير ، بعثرة لما في القبور ، بعثرة بهذا اللفظ العنيف المثير ، وتحصيل لأسرار الصدور التي ضنت بها وخبأتها بعيدًا عن العيون ، تحصيل بهذا اللفظ العنيف القاسي .. فالجو كله عنف وشدة وتعفير .

أفلا يعلم إذا كان هذا ؟! ولا يذكر ماذا يعلم ؟! لأن علمه بهذا وحده يكفي لهز المشاعر ، ثم ليدع النفس تبحث عن الجواب ، وترود كل مراد ، وتتصور كل ما يمكن أن يصاحب هذه الحركات العنيفة من آثار وعواقب .

ويختم هذه الحركات الثائرة باستقرار ينتهي إليه كل شيء ، وكل أمر ، وكل مصير ..

﴿ إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ ﴾ .. فالمرجع إلى ربهم ، وإنه لخبير بهم ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ ، وبأحوالهم وأسرارهم ، والله خبير بهم في كل وقت وفي كل حال ، ولكن لهذه الخبرة ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ آثار هي التي تثير انتباههم لها في هذا المقام .. إنها خبرة وراءها عاقبة ، خبرة وراءها حساب وجزاء ، وهذا المعنى الضمني هو الذي يلوح به في هذا المقام .

إن السورة مشوار واحد لاهث صاخب ثائر ، حتى ينتهي إلى هذا القرار ، معنى ولفظًا وإيقاعًا ، على طريقة القرآن .

نسأل الله العلي القدير أن يقينا هذا اليوم ، وأن يرزقنا قلوبًا طاهرة نقية من الذنوب .. إنه ولي ذلك والقادر عليه .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

علم

تفسير جزء

سورة القارعة

سُورَةُ القَارِعَةِ

بسم الله الرحمن الرحيم ، أحمدك ربي كما علمتنا أن نحمدك ، وأصلي وأسلم على خير خلقك سيدنا محمد ﷺ ، وبعد . .

فمع **سورة القارعة** .. تلك السورة القصيرة .. التي تتحدث عن يوم القيامة وكأنك تراه رأي العين .. حقيقتها .. معناها .. ما يقع فيها .

والقارعة من أسماء يوم القيامة ، كالطامة ، والصاخة ، والحاقة ، والغاشية ، وكلمة ﴿ الْقَارِعَةُ ﴾ .. توحي بالقرع واللطم ، فهي تقرع القلوب بهولها .

والسورة كلها تتحدث عن هذه القارعة .. حقيقتها .. وما يقع فيها .. وما تنتهي إليه ، فهي تعرض مشهدًا من مشاهد القيامة .

والمشهد المعروض هنا مشهد هول تتناول آثاره الناس والجبال ؛ فيبدو الناس في ظله صغارًا ضئالاً على كثرتهم ، فهم .. ﴿ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ﴾ .. مستطارون مستخفون في حيرة الفراش الذي يتهافت على الهلاك ، وهو لا يملك لنفسه وجهة ، ولا يعرف له هدفًا ، وتبدو الجبال التي كانت ثابتة راسخة كالصوف المنفوش تتقاذفه الرياح وتعبث به حتى الأنسام ، فمن تناسق التصوير أن تسمى القيامة بالقارعة ، فيتسق الظل الذي يلقيه اللفظ ، والجرس الذي تشترك فيه حروفه كلها ، مع آثار القارعة في الناس والجبال سواء ، وتلقي إيحاءها للقلب والمشاعر ، تمهيدًا لما ينتهي إليه المشهد من حساب وجزاء .

---

* مقدمة تفسير السورة والفقرة الأولى مقتبس بتصرف من : " في ظلال القرآن " .

ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ
كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾

﴿ الْقَارِعَةُ * مَا الْقَارِعَةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ﴾ .. لقد بدأ بإلقاء الكلمة مفردة كأنها قذيفة : ﴿ الْقَارِعَةُ ﴾ .. هكذا بلا خبر ، ولا صفة ؛ لتلقي بظلها وجرسها الإيحاء المدوي المرهوب .

ثم أعقبها سؤال التهويل : ﴿ مَا الْقَارِعَةُ ﴾ .. فهي الأمر المستهول الغامض الذي يثير الدهش والتساؤل .

ثم أجاب بسؤال التجهيل : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ﴾ .. فهي أكبر من أن يحيط بها الإدراك ، أو أن يلم بها التصور .

ثم تأتي الإجابة بما يكون فيها ، لا بماهيتها ، فماهيتها فوق الإدراك والتصور كما أسلفنا .

﴿ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ * وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ﴾ .. وهذا هو المشهد الأول للقارعة ، مشهد تطير له القلوب شعاعًا ، وترجف منه الأوصال ارتجافًا ، ويحس السامع كأن كل شيء يتشبث به في الأرض قد طار حوله هباء .

فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴿١١﴾

﴿ فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴾ .. إذا كان الميزان هو الميزان المادي ، فلهذه العلة ، أما إذا كان أمرًا معنويًّا ، فلماذا اختار له كلمة الميزان ؟! لأنه أضبط شيء في تقدير الأمور ضبطًا غير متهم ، ولذلك نجد أن القاضي حين يجلس في مجلس قضائه يرسم فوقه الميزان ، وهل في القضاء ما يوزن بالميزان المادي ؟! كلا ، ولكنها أشياء معنوية ؛ كي يتذكر دائمًا أنه يعطي الحق عن الحق ، وألا يجعل عاطفته مائلة ، أو مريضة ، فميزان الحديد لا يجامل أحدًا ، ولا يحابي أحدًا ، فكأني عندما أوصيك بالميزان ، أوصيك بأن تكون في عواطفك مثل الحديد تمامًا ، وإياك أن يكون لك هوى ، وهذه مسألة دقيقة بالنسبة للتكوين البشري .

ولذلك كان كثير من العلماء يمتنعون عن القضاء ؛ لأنه لا يستطيع أن يكون بهذا الشكل ؛ لأن العواطف لها تأثير بلا شك .

فنجد في تاريخ القضاء من يأتي من القضاة إلى الخليفة ويقول : يا أمير المؤمنين ، اعزلني عن القضاء ! فيقول له : ولم ؟! هل نجد أعدل منك ؟! فيقول : يا أمير المؤمنين ، شاع عند الناس أني أحب الرُّطَب ، فبينما أنا في بيتي إذ طرق طارق ، فخرج خادمي ، ثم عاد إلي بطبق فيه رطب ، وكان في بواكيره ، فسألته : من جاء به ؟ فقال : رجل صفته كذا وكذا ، قلت : رده إليه .. وذلك يا أمير المؤمنين لأني أنظر في قضية بينه وبين خصم له ، فخشيت أن يكون قد دخل عليَّ من هذا الباب ، وهو حبي للرطب ، فلما أصبحت ، وجلست مجلس

القضاء ، إذا بالرجل يدخل ومعه خصمه ، فوالله يا أمير المؤمنين ، ما استويا في نظري ، رغم أني رددت الطبق ، فما بالك لو كنت قد أخذته ؟!

هذه هي الدقة ، الدقة أيضًا : كما لو أن إنسانًا له عواطف ، فقد يقف أمامه رجل خفيف الظل ، فيستلطفه ، فيكون هذا مؤثرًا في حكمه ، إذن ، فالمسألة ليست محكومة ؛ ولذلك فهي مسألة دقيقة .

أما الميزان فلا يأخذ بالعواطف أبدًا ، ومعنى ذلك أن العدالة مضمونة ؛ لأن الميزان لا هوى له ، فهو ميزان بكفتين من حديد ، ولسان من حديد ، وذراع من حديد ، وليس له عواطف ، وأخوف ما يخاف في الحكم ، هو أن تسرق عواطف من يحكم من غير قصد ، فتجعله يميل ولو بلحن الحجة ، فالرسول ﷺ – وهو من هو – يقول : " **إنكم تختصمون إلي ، ولعل بعضكم ألحن بحجته من بعض ، فمن قضيت له بحق أخيه شيئًا بقوله فإنما أقطع له قطعة من النار ، فلا يأخذها** "[1] ..

ومعنى ألحن بحجته ، أي : عنده قوة عرض وإقناع ، وقد يلبس الباطل ثوب الحق ، ويلبس المسألة عليَّ فأحكم له .

وقد عاتب الله داود عليه السلام فقال : ﴿ **وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لاَ تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلاَ تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ * إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ** ﴾[2] ، فردَّ داود عليه السلام مباشرة : ﴿ **قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ** ﴾[3] ، فتسلل هذا الخصم على عاطفة داود فأخذها ، فأدخل في حيثية الحكم ما لا دخل له في حيثية الحكم ؛ فالظلم هو الظلم ، سواء كان له تسع

---

1 – أخرجه البخاري (2483) ، ومسلم (3231) ، كلاهما من حديث أم سلمة رضي الله عنها .

2 – سورة : ص ، الآية : 21 : 23 .

3 – سورة : ص ، الآية : 24 .

وتسعون ، أو ليس له ، فيقول : ﴿ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ ﴾ ، وكأن داود عليه السلام قد استكثر أن يكون عند هذا تسع وتسعون ، وعند هذا واحدة فقط ، فأحزنه ذلك ، واسترأف بحاله ، فلو لم يكن عنده النعاج التسع والتسعون ، هل كان يبيح له أن يأخذها ؟!

إذن ، فكلمة ﴿ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً ﴾ لا دخل لها في الحكم ، ولا في حيثية الحكم ، إنما أُخذ من عرض المسألة : ﴿ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ ﴾ ، فبدأ يُدخل في قلب القاضي أن هذا غني ، وهذا فقير ، فتسلل إلى قلب داود وعاطفته من هذه الناحية .

فعندما أراد داود أن يحكم ، لم يحكم في القضية بصرف النظر عن ذلك ، فقال : ﴿ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ ﴾ ، وكان ذلك كافيًا ، ولكنه قال : ﴿ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ ﴾ .. كأنه لو لم يكن له تسع وتسعون لا يكون قد ظلمه !

إذن ، فأدخل في حيثية الحكم ما لا ينبغي أن يدخل فيه ؛ لأن عاطفته انساقت : ﴿ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ ﴾ .. أي : اختبرناه بأن عرضنا عليه مسألة ، أي : جعلنا الرجل يحسن العرض ، ويملأ قلبه غيظًا على هذا الغني ، فأدخله في حيثية الحكم ، والمفترض أن القلب لا يتأثر ، فلا يدخل في حيثية الحكم ما ليس في حيثية الحكم .

إذن ، فكلمة : ﴿ فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴾ .. سواء فهمنا أنها الميزان العدل والحق ، أو سواء فهمنا أنها ميزان مادي ، فإن فهمنا أنه ميزان مادي فقد عرفنا المعنى ، وإن فهمنا أنه الحق والعدل ، فلماذا أتى بكلمة ميزان ؟ لأن ذلك يذكرنا بأن الميزان حكم محكوم بأنه لا هوى له مطلقًا ؛ لأن الهوى ينشأ من العواطف والميول ، والحديد من الجماد ، لا عواطف له ، ولا ميول فكأن كل واحد يأخذ حقه .

﴿ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴾ .. (العيشة) : هي الحال التي يعيش بها الإنسان ، أي : من

قصر يعيش فيه ، ومن نعم يتنعم بها ، ومن ملبس يرتديه ، فهذه اسمها العيشة ، فهي مجموعة الظروف المحيطة بالإنسان التي تُكَوِّن مقومات حياته ومعيشته ، هذه المقومات كلها لا تكون راضية ؛ لأن الرضا فرع وجود الراضي ، فلا أقول مثلاً : المسكن الذى أعيش فيه راضٍ عنى ! ! بل أقول : أنا راضٍ عن مسكنى ... وهكذا .

إذن .. فكلمة : ﴿ رَاضِيَةٍ ﴾ .. نقلت من معناها ، وهي ممن يملك الرضا والعقل والعواطف ، و .... إلى آخره ، إلى من لا يملكه ؛ ولذلك فالعلماء في هذه المسائل يقولون : استعمل اسم الفاعل مكان اسم المفعول ؛ لأن راضية اسم الفاعل الذي وقع منه الرضا ، والمفعول واقع عليه الرضا ، إذن ، فعندما أقول : عيشتي مرضية ، أي : أنا راضٍ عنها ، وهي مرضية ، إذن ، فالقياس أن تقول : عيشة مرضية ، لكن الحق ﷻ قال : ﴿ عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴾ .. فهنا اسم الفاعل استعمل وأريد به اسم المفعول ، مثل قول الحق ﷻ : ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا ﴾ .. فالحجاب يكون ساترًا ، وليس مستورًا ، لكن القرآن قال : ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا ﴾ ! ! بمعنى : ساتر ، فما السبب ؟ السبب هو أن الحجاب نفسه مستور ، أي أن الحجاب نفسه عليه حجاب ساتر ، بلغ من قوة حجبه ، أنه نفسه محجوب ، فما دام محجوبًا ، فكأن الحجاب مركب ، كذلك يقول الحق : ﴿ ظِلاً ظَلِيلاً ﴾ [2]، فنقول : ظل مركب ؛ لأن الظل إذا كان نفسه هو في ظل ، فيكون هناك حاجزان بالنسبة للشمس ، وما دام هناك حاجزان بالنسبة للشمس ، فهذا أوقع في أداء الظل .

إذن ، فقول الحق ﷻ : ﴿ عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴾ ، تفسر على أنها مرضية ، أو نفسرها على أن العيشة نفسها راضية ، وما هى ظاهرة الرضا ؟! فلان رضي بالشيء .. أي : أحبه ، وما دام أحبه ، فيكون دائمًا معه ، ولا ينقطع عنه ، فأراد براضية في : ﴿ عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴾ .. أي :

1 - سورة : الإسراء ، الآية : 45 .

2 - سورة : النساء ، الآية : 57 .

مستديمة معه ، لا تنفك عنه ؛ لأنها راضية ، ليسوا هم فقط الراضين عنها ، بل وهي أيضًا .

وذلك كما يقول المتنبي عن مثل هذا المعنى ، فيقول :

أنت الحبيب ولكني أعوذ به من أن أكون حبيبًا غير محبوب

أي أني أحبك حقًّا ، ولكني أخاف من أن أحبك وأنت لا تحبني ، فأراد أن يبالغ في العيشة ، وأنها عيشة راضية ، مستديمة له ، شأن الراضي عن شيء ، وما دامت راضية عنك ، فلا تنفك عنك ولا تبارحك ، أو أن العيشة التي نظن أنها جماد ولا تعقل ، هي في علم الله عاقلة ، كما قلنا في قول الحق ﷻ : ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾[1] ، ولكن من يستطيع أن يخاطب عقلها ؟ ومن يستطيع أن يخاطبها باللغة التي تفهمها ؟ إنه الذي خلقها ﷻ ، ولذلك قال : ﴿ قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾[2] ، وقال عن النملة أنها قالت : ﴿ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾[3] ، وقال عن الهدهد : ﴿ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾[4] ، إذن ، فهذه الكائنات لها قائد ، ولها أقوام ، ولها نظام ، ولكن المهم هو من يفهمها :

والحق ﷻ لم يثبت فقط للجماد والحيوان حياة ولغة وعقلاً واعتقادات ، بل أثبت لها أسمى ما يتميز به الإنسان ، أثبت لها وجود العاطفة عنده ، فالعواطف أسمى ، وأرقى شيء يتميز به الإنسان ، فالحق ﷻ عندما يعرض في القرآن مثل هذه الصور فيقول : ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لاَ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ .. ليس فقه دلالة ، بل فقه الكلام ، فالحق ﷻ يُبَيِّن أن هذه الجمادات والحيوانات ليس لها لغة فقط ، بل لها عواطف أيضًا ، التي هي أسمى شيء ، وذلك كما تكلم الحق ﷻ عن قوم فرعون فقال : ﴿ كَمْ تَرَكُوا مِنْ

1 - سورة : الإسراء ، الآية : 44 .

2 - سورة : فصلت ، الآية : 11 .

3 - سورة : النمل ، الآية : 18 .

4 - سورة : النمل ، الآية : 22 .

جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ * فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ ﴾[1] ، بكت السماء والأرض ، فالبكاء عملية نزوعية من وجود العواطف فيها ، فأنت تبكي بناء عن عواطف ، فهو فى الآية يثبت لها عواطف ، فالأشياء التي يُتنعم بها ، وهي : الجمادات ، والنباتات ، والحيوانات ، لا مانع من أن تكون عندها هذه العواطف ، وأن تكون نفسها راضية بجزاء من يجزي بها ؛ لأنه يستحق أن يجازى هذا الجزاء ؛ لأنها علمت أنه لم يستحق هذا الجزاء إلا لأنه طبق المنهج الإلهي كما طلبه الله ﷻ .. إذن ، فله بها آصرة وُدٍّ ؛ لأنها طبقت المنهج الإلهي الذي اختاره الله لها بلا اختيار لها ، إذن ، فهو أخوها في الدين ، فحين تنعمه ، فهي تشعر بأنها راضية بأن تكون منعمة له ، وبذلك تكون نسبة الرضا للعيشة نسبة حقيقية .

وقد ورد عن **علي بن أبي طالب** رضي الله عنه حين قُرِئ عليه قول الله ﷻ : ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ ﴾ ، قالوا له : أتبكي السماوات والأرض ؟! قال : نعم .. تبكي ، وتفرح ، وتضحك .

وما دام الحق سبحانه وتعالى قد ذكر أن السماوات والأرض لا تبكي على ذهاب آل فرعون ، فمعنى ذلك أنها تبكي على ذهاب غيرهم ، المقابلين لهم ، وذلك كما ورد عن **علي بن أبي طالب** رضي الله عنه : " إذا مات العبد الصالح بكى عليه مصلاه من الأرض ، ومصعد عمله فى السماء "[2] ؛ وذلك لأن المكان الذي يصلي فيه الإنسان ، يعشقه ، ويحبه ، ويألفه ، فإذا مات ذلك الإنسان فإن المكان الذي يصلي فيه لله يبكي عليه .

إذن ، فالحق سبحانه وتعالى حينما يقول : ﴿ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴾ يمكن لنا أسباب النعيم أتم تمكين ، فنعيم الآخرة على غير نظام النعيم في الدنيا ، فالعيشة راضية عنك ، أما العلماء الذين يقولون : إن التعبير القرآني عبَّر براضية ويريد مرضية ، فشرح لم يصل إلى دقيق معاني

---

1 - سورة : الدخان ، الآية : 25 ، 29 .

2 - كنز العمال (15 / 747) .

المواضع القرآنية ، ويرد بلاغة كلام الله إلى المألوف من كلام البشر ، والمهم أن نلتقي في المعاني التي نستنبطها في القرآن حسب الكلام البليغ الذي قصده .

﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ * فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴾ .. يأتي الحق ﷻ بعد ذلك بالمقابلة ، والمقابلة هنا في قوله ﷻ : ﴿ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴾ .. وذلك إعجاز تعبيري آخر ، ﴿ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴾ .. أمه نار ؛ لأنه فسر الهاوية بما جاء بعدها ..

﴿ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴾ .. ابتدأها ابتداءً مقنعًا ، ثم أنهاها إنهاءً موئسًا ، وأيضًا ليأخذ من التصوير الدقيق للمعنى أن النار تتهافت على المعذب بها ، كما تتهافت الأم على وليدها فتحتضنه وتضمه ، فكذلك يكون شأن النار ؛ لأن الإنسان المعذب لم يرعَ نعمة الله في هذه الأم ، وهى لا إرادة لها ولا قوة ولا عقل ، وبعد ذلك سخرها له بما أودع فيها من العطف والحنان والرقة والاستجابة إلى كل نوازعه ، وكما كان منه إعراض عن نعم الله يقول : فأمه ستحتضنه .. ﴿ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ﴾[1] .

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ ﴾ .. والأسلوب هنا في قوله : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ ﴾ ، رجوع إلى استهلال السورة في قوله : ﴿ الْقَارِعَةُ * مَا الْقَارِعَةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ﴾ ، فهذا تفسير وتأويل ، بحيث يأتي اللفظ ليخرجه عن معانيه المعتادة اللغوية ، فلا ينبغي أن تفهم الأسلوب القرآني على ما اعتدت من معان وضعية لغوية ؛ لأنك تفهم القارعة لغويًا ، وتفهم الهاوية لغويًا ، ولكنك لا تفسر المقصود من القارعة ، والمقصود من الهاوية على وفق ما تعرفه من اللغة ؛ لأن اللغة تحمل معان أخرى متعددة ؛ ولذلك قال الله ﷻ : ﴿ الْقَارِعَةُ * مَا الْقَارِعَةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ﴾ .. فإذا كان ذلك على معناها اللغوي فالنبي والصحابة والعرب جميعًا يدركون ما القارعة ، ولكن المعنى الذي أراده الله ﷻ غير مدرك ؛ ولذلك فقد أعاد للأذهان الأسلوب فقال : ﴿ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴾ ، وأيضًا تفهم : ﴿ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴾ على ضوء ما

1 - سورة : ق ، الآية : 30 .

فهمت من قوله : ﴿ الْقَارِعَةُ * مَا الْقَارِعَةُ ﴾ فهنا تمثيل وتعيين ، ولا يمكن أن تعلم حقيقة ذلك اللفظ ، إلا إن تركت المعنى اللغوي الذي تألفه وتعرفه ، والذي تعرفه البشر ، وتنظر إلى المعنى المراد من الحق فقال ﷻ : ﴿ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ ﴾ .

﴿ نَارٌ حَامِيَةٌ ﴾ .. وعظمة هذا الأسلوب تتجلى في أنه يصدر الأسلوب بالتصدير المؤنس ، ثم يختمه بالتيئيس المفجع ، وذلك نقلة عملية نفسية مرادة من الحق ﷻ ، وإذا قرأنا القرآن رأينا مثل هذه الأساليب كثيرة ، فيقول : ﴿ فَبَشِّرْهُمْ ﴾ ، فعندما تسمع : ﴿ فَبَشِّرْهُمْ ﴾ ، تقول : إن البشارة تكون بخير ، فتستشرق النفوس إلى أن هناك منقذًا ، ومغيثًا ، ومنجيًا يُفهم من : (فَبَشِّرْهُمْ ﴾ ، فإذا استشرفت النفوس إلى ذلك ، جاء الجواب مُبئسًا ، مفجعًا فيقول : ﴿ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾[1] ، ويقول الحق : ﴿ وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا ﴾[2] ، والإنسان حين يستغيث ، تفهم منه أنه يطمع في شيء يخلصه من العذاب ، فتستشرف نفسه ، فإذا قال : ﴿ وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ ﴾ ، ولكن .. ﴿ بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ ﴾ ، بأشد مما هم فيه ، فكأنه ابتدأ الأسلوب ابتداء مقنعًا ، ثم أنهاه إنهاء موئسًا ، فلو ترك اليأس من أوله ، ولم تفرح النفس بمعنى المنقذ والمغيث ، لكانت المسألة أخفَّ ، ولكن يفتح له باب الأمل واسعًا ، ثم بعد ذلك يأتي بالمبشر به فنجده عذابًا أليمًا ، فيفتح الباب بقوله : ﴿ وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا ﴾ .. وبعد ذلك : ﴿ يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ ﴾ ، بأشد مما كانوا فيه .

وبعد ذلك يقول : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ * نَارٌ حَامِيَةٌ ﴾ .. وهنا تقابل لـ : ﴿ مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴾ بـ : ﴿ مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴾ ، وبين : ﴿ عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴾ وبين : ﴿ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴾ ، هذا التقابل الإعلاني عن الإخبار بأمر غيبي المقصود منه أن ينعم المؤمنون نعمتين : (**النعمة الأولى**) : أن يعرف موقعه في الآخرة من رضا ربه ، ونعيم ربه عليه ، (**والنعمة الأخرى**) : أن يرى أن الذي كان يحاربه في دينه ، ويشاقه ، ويعانده : أمه

---

1 - سورة : آل عمران ، الآية : 21 .

2 - سورة : الكهف ، الآية : 29 .

هاوية ، إذن ، فنعيمه جاء من جهتين : النعيم في نفسه ، والعذاب لخصمه وعدوه الذي عاداه في الدنيا عقديًا .

وأيضًا فيه تعذيب للكافر من جهتين : من جهة أنه يعطيه صورته من العذاب ، وصورة خصمه الذي كان له في الدنيا من النعيم .

وهذا التقابل يأتي في مواضع كثيرة من القرآن ؛ حتى يعطينا الصورة ، فيقول مثلاً : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ * وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ * وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ * وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلاَءِ لَضَالُّونَ * وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ﴾[1] ، ذلك هو التصوير الذي يتصوره الكافر بالنسبة للمؤمن ، فماذا قال الحق ليعطي التقابل ؟ قال : ﴿ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ عَلَى الأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ * هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾[2].

وفي سورة الرحمن أيضًا ، حيث ذكر فيها نعمًا كثيرة متوالية ، يعبر الحق ﷻ عن هذا الامتنان بالنعيم بعد كل نعمة ، فيقول : ﴿ فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾[3].. فنقول : ولا بأي شيء من آلائك نُكذِّب ، كل النعم حقيقة ، ويأتي هذا التعقيب المكرر في قوله : ﴿ فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ . بعض الأمور معروف أنها نعم ، والبعض معروف أنها ليست نعمًا ، ولكنها تقوم بدور فعال في سائر أمور الإنسان ، فمثلاً عندما يقول : ﴿ خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ﴾[4] ، أي : خلقني من جماد ، وبعد ذلك أعطاني الحياة ، وأعطاني النعم ، ﴿ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ * فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾[5] ، ﴿ كُلُّ مَنْ

---

1 - سورة : المطففين ، الآية : 29 : 33 .

2 - سورة : المطففين ، الآية : 34 : 36 .

3 - سورة : الرحمن ، الآية : 13 ومواضع بعدها .

4 - سورة : الرحمن ، الآية : 14 .

5 - سورة : الرحمن ، الآية : 15 ، 16 .

عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ .. وهي نعمة ؛ لأن المؤمن الذي يُطلب منه أن يسلك في حياته منهجًا خاصًّا يقيد حريته ، يكون من النعم عليه ألا يدوم قيد التضييق عليه في حريته ، فيكون الموت نعمة ، وهو أيضًا نعمة بالنسبة لما تراه أنت للكافر ، فالمنعم به سينتهي ؛ لأنه ليس له في تصوره إلا هذه الدنيا ، وما دام ليس له في تصوره إلا هذه الدنيا ، فالموت سينهي هذا التصور أيضًا ، وذلك تلمحه أيضًا في قوله : ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالأِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ فَانْفُذُوا لاَ تَنْفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ * فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾[1] ، فعدم الخروج عن سلطان الله نعمة لنا ، وبعد ذلك يقول : ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلاَ تَنْتَصِرَانِ * فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾[2].. إذن ، فكل ذلك يؤكد أن كل ما في الوجود نعم بالنسبة للمؤمن ، أما بالنسبة لاستشعار ما يكون للكافر في هذه الحياة ، ذلك تنعيم أيضًا بالنسبة للمؤمن .

فإذا كانت القارعة ستأتي بأوصافها التي أرادها الحق ﷻ، وإذا كان الإنسان ستُعْرَضُ أعماله للجزاء على ما فيها بمنتهى الدقة والعدل ، فعلى ذلك يلقى كل إنسان جزاءه ، المؤمن يأخذ جزاءه العيشة الراضية ، والكافر يأخذ جزاءه الأم الهاوية .

لذلك ، فالعاقل الذي يحب أن يستقبل الأمور بما تستحقه من العناية ، يجب ألا يشغل نفسه بما لا يفيده عما يفيده ، ويجب ألا يتلهى بما يكون نقمة عليه عن ما يكون نعمة له ، ولكن الإنسان بطبيعته غافل ، يشتغل بما جُعِل له عما طُلِب منه .

فنسأل الله ﷻ أن يجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، وأن يلهمنا رشدنا ، وأن يقينا شرور أنفسنا .

إنه ولي ذلك والقادر عليه . . والحمد لله رب العالمين .

---

3 - سورة : الرحمن ، الآية : 33 ، 34 .

4 - سورة : الرحمن ، الآية : 35 ، 36 .

علم تفسیر جزء

سورۃ التکاثر

سُورَةُ التَّكَاثُرِ

بسم الله الرحمن الرحيم، أحمدك ربي كما علمتنا أن نحمدك، وأصلي وأسلم على خير خلقك سيدنا محمد ﷺ، وبعد . .

فمع **سورة التكاثر** .. تلك السورة القصيرة .. التي تُذكر أولئك اللاهين بآخرتهم ، وتنبههم إلى الإيمان بالله ﷻ والعلم به علم اليقين قبل أن يرونها عين اليقين ، وقبل أن يُسألوا يومًا عن النعيم .

أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴿٧﴾ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾

﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴾ .. ألهانا عن تلك المقاييس ، وعن تلك الموازين ، وعن تلك النهاية ، فانشغل الإنسان عن الأعمال التي تثقل موازينه ، وتلهى بالأشياء التي تخفف موازينه ، وهذه هي الغفلة ، ذلك هو الغباء ، وذلك هو الموت ، وذلك تحذير عن مطلوبات الله من الإنسان في الوجود ، وعن تحقيق الإنسان لتلك المطلوبات ، فيجب أن يصبر الإنسان على تحقيقها ، وأن ينتبه ، وأن يفيق ، فلا يشتغل بما يخفف موازينه عما يثقلها .

* تفسير السورة مقتبس بتصرف من : " في ظلال القرآن " .

و(**التكاثر**) .. تفاعل ، وهناك فرق بين الفعل والتفاعل ، فالفعل قد يقع من إنسان على إنسان آخر ، فهذا فاعل ، وهذا مفعول به ، ولكن التفاعل في ظاهره يتكون من الفاعل والمفعول ، ولكن في تحقيقه : نجد أن الفاعل – مع فاعليته – مفعولاً من ناحية أخرى ، والمفعول – مع مفعوليته – فاعلاً من ناحية أخرى ، كما تقول مثلاً : شارك زيد عمرًا ، فزيد في الصورة اللفظية فاعل ، وعمرو مفعول ، ولكن تحقيق الصورة هو المشاركة بين عمرو وزيد ، فلقد شارك عمرو زيدًا أيضًا ، فيكون كل واحد منهم فاعلاً من ناحية ، ومفعولاً من ناحية أخرى ، إلا أن تغليب السمع جعل الفاعلية غالبة هنا ، والمفعولية غالبة هناك ، فكلٌ فاعل ، وكلٌ تفاعل .

فإذا قلت : تشاجر زيد وعمرو ، أي : وقع التشاجر من زيد ، ومن عمرو معًا ، زيد متشاجر ومتشاجر معه ، وعمرو أيضًا متشاجر ومتشاجر معه ، ولكننا غلَّبنا المعية في واحد ، والفعل في الآخر ، وهذا هو معنى التفاعل ، بأن يستوي الفاعل والمفعول ، أو الفاعل الأصيل مع المتعلق به يكون في الفعل ، ويكون بوقوع الفعل عليهم .

فلا يقال : إن فلانًا قد تكاثر على فلان إلا إذا كان فلان قد تكاثر أيضًا عليه ، فأنا أكاثرك ، وأنت تكاثرني ، فكل واحد منهما فاعل ومفعول ؛ ولذلك عادة يأتي الفاعل بليغًا ، أو اسمًا واحدًا ، فتقول : تكاثر القوم ، أي : كاثر بعضهم بعضًا ، أي : منهم فاعل ، ومنهم مفعول .

فقول الحق ﷻ : ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴾ .. أي الصادر منكم جميعًا .. كل منكم يكاثر الآخر ، و " **المكاثرة** " .. لها معنيان ..

(**أحدهما**) : أن تكاثره بما وقع عندك من النعيم ، وأن يكاثرك بما وقع عنده من النعيم ، شيء واقع ، فيقول : مالي الموجود عندي الآن أكثر من مالك ، وولدي أكثر من ولدك ، ونعيمي أكثر من نعيمك ، أي التكاثر بأنك تدَّعي أنك أكثر ، وهو يقابلك فيدَّعي أنه أكثر في شيء واقع .

(الثاني) : أن يصرفوا جهودهم في أن يكونوا أكثر الناس أشياء ، فيستقبلوا بالفعل أعمالاً يريدون بها أن يكاثروا الغير .

فعلى المعنى الأول : المتكاثر به يكون موجودًا ، وعلى المعنى الثاني : أن يكون المتكاثر به مطلوبًا .

وما دام أن الحق ﷻ لم يذكر المتعلق ، فلم يقل : ألهاكم التكاثر فيما تملكون ، أو : ألهاكم حب التكاثر في ما تطلبون ، يكون عموم اللفظ يقتضي أن المعنى عام .

ونلاحظ أن الحق ﷻ قال : ﴿ أَلْهَاكُمُ ﴾ .. فما هو الإلهاء ؟ والإلهاء هو أن يوجد شيء يسيطر على فكر الإنسان ، فيجعل غير المطلوب عنده أهم من المطلوب ، وحين يذكر الحق ﷻ اللهو واللعب في كل آيات القرآن يقدم اللعب على اللهو ، إلا في آيتين اثنتين فقط ، قدم فيهما اللهو على اللعب .

وذلك لأن الإنسان تمر عليه فترات ، فترة قبل أن يبلغ ، وهذه فترة غير تكليفية ، فحين يلعب لم يترك شيئًا مطلوبًا منه ليفعل شيئًا غير مطلوب ، لكن اللاهي يترك شيئًا مطلوبًا منه ، ويشتغل بغير المطلوب ، وبما أن الإنسان حينما يستقبل الحياة لا يكون مطلقًا أول الأمر ، فأول ما يبدأ أمره باللعب ، ثم يكلف فينسى اللعب ، ومع ذلك ، فالقرآن لم يقل : ألعبكم ، بل قال : ﴿ أَلْهَاكُمُ ﴾ ، لماذا ؟ لأن اللعب عادة لا يكون له وقت مباح له فيه أن يلعب ، وهو يشترط أنه لم يبح لهم شيئًا من اللعب فقط لا يلهيهم . ولذلك كانت أُمُّنا عائشة رضى الله عنها تقف خلف الرسول ﷺ ، ويريها من اللعب ، فعن عروة بن الزبير ، أن عائشة رضى الله عنها قالت : لقد رأيت رسول الله ﷺ يومًا على باب حجرتي ، والحبشة يلعبون في المسجد ، ورسول الله ﷺ يسترني بردائه أنظر إلى لعبهم [1] ..

وعن عائشة رضي الله عنها أن أبا بكر رضي الله عنه دخل عليها وعندها جاريتان في أيام منى

1 - أخرجه البخاري (435) ، ومسلم (1481) .

تغنيان وتدففان وتضربان ، والنبي ﷺ متغشٍّ بثوبه ، فانتهرهما أبو بكر ، فكشف النبي ﷺ عن وجهه فقال : " **دعهما يا أبا بكر ؛ فإنها أيام عيد** "[1] .

إذن .. فهناك أشياء تكون مباحة للمكلف ، بشرط ألا تمنعه عن طاعة ، إنما نحن نلهو في كل وقت ، فالوقت الذي جعله الله ﷻ لذلك اللهو كان يوم عيد ؛ لأن هذه المباحات لك أن تفعلها أو لا تفعلها ، لك أن تأكل أو لا تأكل ، لك أن تفطر بدون أمر تكليفي به ، ولكنه أصبح مفروضًا عليك أن تفطر يوم العيد ، ففرض الله عليك الشيء المباح ، وأثابك عليه ، إذن ، ففطر يوم العيد لابد منه ، فقد كلفك الله به تكليفًا ، والفطر في يومه كالصوم في يوم من رمضان ، فيحرم الصوم يوم العيد ، ولك أن تلعب ، ولك فيه ثواب لذلك ، هذا هو العيد ، يعطيك ثوابًا على أشياء كانت مباحة أولاً ، افعلها أو لا تفعلها .

﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴾ .. قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا أبو أسامة قال : صالح بن حيان حدثني عن ابن بريدة في قوله : ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴾ قال : نزلت في قبيلتين من قبائل الأنصار ، في بني حارثة وبني الحارث ، تفاخروا وتكاثروا ، فقالت إحداهما : فيكم مثلُ فلان بن فلان ، وفلان ؟ وقال الآخرون مثل ذلك ، تفاخروا بالأحياء ، ثم قالوا : انطلقوا بنا إلى القبور . فجعلت إحدى الطائفتين تقول : فيكم مثل فلان ؟ يشيرون إلى القبر ، ومثل فلان ؟ وفعل الآخرون مثل ذلك ، فأنزل الله ﷻ : ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴾ .. لقد كان لكم فيما رأيتم عبرة وشغل .

وقال قتادة : ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴾ .. كانوا يقولون : نحن أكثر من بني فلان ، ونحن أعَدُّ من بني فلان ، وهم كل يوم يتساقطون إلى آخرهم ، والله ما زالوا كذلك حتى صاروا من أهل القبور كلهم .

وقال مقاتل والكلبي : نزلت في حيين من قريش ، بني عبد مناف بن قصي ، وبني سهم بن

---

1 - أخرجه البخاري (3266) ، ومسلم (1480) .

عمرو ، كان بينهم تفاخر ، فتعادَّ السادة والأشراف أيهم أكثر عددًا ؟ فقال بنو عبد مناف : نحن أكثر سيدًا ، وأعز عزيزًا ، وأعظم نفرًا ، وأكثر عددًا ، وقال بنو سهم مثل ذلك ، فكثرهم بنو عبد مناف ، ثم قالوا : نعدّ موتانا . حتى زاروا القبور فعدوهم ، فقالوا : هذا قبر فلان ، وهذا قبر فلان . فكثرهم بنو سهم بثلاثة أبيات ؛ لأنهم كانوا في الجاهلية أكثر عددًا ، فأنزل الله هذه الآية .. ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴾ بما لا يعنيكم عن ما يعنيكم .

﴿ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴾ .. وكانت هذه صورة واقعة ، فقد تفاخروا بالأحياء حتى انتهى التفاخر بالأحياء ، فذهبوا يتفاخرون أيضًا بمن في القبور ، فمنهم من قال : من في هذا القبر منا ، ومن في هذا القبر منا ، فكأن تكاثرهم أداهم إلى أن يزوروا القبور ؛ ليضموا إلى تكاثر موجود لهم في الدنيا تكاثرًا كان لهم ثم مات ، أو أن الإلهاء بلغ بكم مبلغًا ، أنكم شغلتم به كل الوقت حتى فوجئتم بالموت ، أي : ظللتم حياتكم كلها في تكاثر شغلكم حتى الموت ، والمعنيان يصحان ؛ لأن (**العبرة دائمًا بعموم اللفظ لا بخصوص السبب**) .

وهنا نجد أن العربي الذي يستقبل القرآن بإيحاءاته ، ويستقبل القرآن بخلفياته المعبرة ، حين سمع هذه الآية قال : نعى الناس إلى أنفسهم ورب الكعبة ، والله لقد قامت القيامة فقال : ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴾ .

وانتهى التعبير الدقيق هنا أيضًا فيما يفهم من زرتم المقابر ، أما عن المعنى الأول : أنهم ذهبوا إلى المقابر ليتكاثروا بالأموات ، فالأمر واحد ؛ لأنهم تكاثروا ورجعوا ، فالمدة التي استغرقها التكاثر عند الحضور مدة يسيرة ، هي مدة الزيارة ، أما إذا كان المقصود أن التكاثر ألهاكم ، وأغفلكم ، وأذهلكم ، حتى فاجأكم الموت فمتم ، فالتعبير فيه دقة ، أي أن الموت ليس نهاية الأحياء ، إنما هو مرحلة فقط ، بعدها يأتي أمر آخر ، وستعودون ثانية إلى الحياة ، وفترتكم في ذلك الحضور ، كالفترة في تلك الزيارة ؛ لأن الزائر غير مقيم .

إذن .. فالذي يلهي الإنسان عن شيء ، هو غفلته عن مصيره في الأمرين ؛ لأن الإنسان لو

استحضر الجزاء على أعماله ، أو نسبنا له الجزاء على أعماله ، أو عجلنا له الجزاء على أعماله ، وأحضرنا له الجزاء حسًّا أمامه ، وأوقدنا نارًا ، ثم جاء بأمتع متعة تمتع بها ، وقلنا له : إن تمتعت بهذه المتعة فإننا سندخلك هذه النار ، فلا شك أنه سيبتعد عن هذه المتعة ، لأنه لا يوجد إنسان أبدًا يجازف بأن يتمتع بمتعة ، ثم يقذف به في النار .

فالفرق بين ما في الصورتين هو أن الجزاء في هذه الصورة محس أمامه كإحساسه بالمتعة ، ولكن في الصورة الأخرى فالمتعة فيها محسة عاجلة ، والجزاء غيب آجل ، وما دام غيبًا آجلاً ، فهو ليس مستحضرًا .

فالذي يوجد اللهو عن مطلوب هو أن معنى الجزاء ، ومعنى موقف الجزاء ، ومعنى وصف الجزاء ، أمر باهت في النفس ، ولو كان الجزاء مُشاهدًا للنفس ، فلا يمكن أن يقبل أحد على معصية ، ما دام يستحضر الجزاء عليها والعذاب إن فعلها .

فالمسألة إذًا يقين في الجزاء ، فاليقين في الجزاء حين يبهت في النفس بأن لا يستحضر الجزاء فلا يكون له رادع ، فإنه يقع في المعصية ، لكن الجزاء حين يستضخم أمام الإنسان فلا يمكن أن يأتي المعصية ، وهذا هو معنى حديث رسول الله ﷺ حين لقي الحارث بن مالك الأنصاري فقال له : " **كيف أصبحت يا حارث ؟** " قال : أصبحت مؤمنًا حقًّا ، فقال : " **انظر ما تقول ؛ فإن لكل شيء حقيقة ، فما حقيقة إيمانك ؟** " فقال : قد عزفت نفسي عن الدنيا ، وأسهرت لذلك ليلي ، وأظمأت نهاري ، وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزًا ، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها ، وكأني أنظر إلى أهل النار يتضاغون فيها . فقال : " **يا حارث .. عرفت فالزم** "[1].

إذن ، فالذى يجعل الإنسان يلهو ويلعب هو غفلته عن القيمة الجزائية للأشياء .. الجنة والنار ، فهو يأخذ بصورة عينية ، وقد تبهت عنده .

---

1 - أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه عن الحارث بن مالك الأنصاري (7 / 226) ، وعبد بن حميد في مسنده (2 / 28) ، وأبو نعيم في معرفة الصحابة (6 / 153) .

﴿ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ .. إن الحق ﷻ يعطينا السورة حتى يُعلِمنا ، فيقول : ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ * كَلاَّ ﴾ .. وكلمة : ﴿ كَلاَّ ﴾ كلمة ردع وزجر ، أي : ليس هذا هو العاقل ، ليس هذا هو سلوك الإنسان الذي يرتب الأمور على نتائجها ، بل هذا سلوك معيب .

وكلمة : ﴿ كَلاَّ ﴾ .. عندما تسمعها ، تفهم أنها كلمة زجر ، ﴿ كَلاَّ ﴾ .. أي : ذلك مسلك لا يرضي الله ﷻ ، ﴿ كَلاَّ ﴾ .. الذي أنتم متشككون فيه في هذه المسألة ؛ لأن علم اليقين لا يكفيكم .

﴿ كَلاَ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ .. فالمرتبة بـ : ﴿ تَعْلَمُونَ ﴾ هي مرتبة علم القين ؛ لأننا في القبر تعرض علينا النار ، وتعرض علينا الجنة ، كما قال ﷺ : " **إن أحدكم إذا مات ، عُرض عليه مقعده بالغداة والعشي ، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة ، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار ، يقال : هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة** "[1] .. فالذي كان علم يقين أولاً ، سيصير عين يقين ، وبعد ذلك ، في يوم الجزاء ، يدخل أهل الجنة الجنة ، ويدخل أهل النار النار ، فيكون الأمر حق اليقين ، فكأنها مراتب ، مراتب الإعلام من الحق بوجود جنة ونار وجزاء ، لكن ذلك علم نظري منقول بصورة ذهنية ، أنت صدقت الصادق ، فالذي إيمانه زائد ، وحقيقة إيمانه موجودة ، يعلم ويتيقن أن ما قاله الله ﷻ له ليس علمًا نظريًا ، بل هو علم حقيقي ، أما من هو صادٌّ عن هذا ، يبقى هكذا حتى يرى المرحلتين الأخيرتين .

فيقول : ﴿ كَلاَّ ﴾ .. أي ليس ذلك أمرًا طبيعيًا .

﴿ ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ .. انتقلتم إلى مرحلة علم اليقين ، ثم تأتي مرحلة أخرى : ﴿ كَلاَّ سَوْفَ ﴾ .. أي : ليس هذه هي المرحلة فقط ، بل هناك عين اليقين ، وستراها بعينك .

---

1 - أخرجه البخاري (1290) ، ومسلم (5110) ، كلاهما من حديث ابن عمر .

وكلمة : ﴿ سَوْفَ ﴾ .. للزمن المستقبل ، ﴿ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ .. أي : بعد الموت ، فيكون الأمر عين اليقين ، وليست هذه هي النهاية ، بل تأتي فترة أخرى .. ﴿ ثُمَّ ﴾ ، أي : ستأتي ولكن على الترتيب والتراخي ، ثم يأتي عين اليقين : ﴿ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ .. فالاستقبال في الثانية لأن الثانية تكون حالاً .. ﴿ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ ، أي : مستقبلاً بالنسبة لحالكم الآن .

ولذلك فالرسول ﷺ يعطينا هذه الصورة ، ويبين أن الناس جميعًا موقنون أنهم يموتون ؛ لأنه عند استقراء الحياة تجد أنه لا ينجو أحد من الموت ، فالحياة هكذا ، فإذا كانوا متيقنين أنهم سيموتون ، فما الذي يجعلهم يغفلون عن ما بعد الموت من الجزاء والحساب ؟! حتى قيل : " **لا أرى يقينًا يشوبه الشك من يقين الناس بالموت** " ، فهو يقين يرى فيه شكًا ، فلو لم يكن فيه مثقال شك لكان الإنسان يستحضر ذلك الموت دائمًا .

﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴾ .. إن المعنيات دائمًا حين يعلمنا الحق ﷻ بها تأخذ ثلاث صور :

الصورة الأولى: أن يخبرك بها المخبر ، فتوجد عندك صورة ذهنية عن الخبر .. صورة نظرية .. صورة عينية ، ومعنى صورة ذهنية ، أو صورة عينية : أن الشيء في حقيقته بعيد عنك ، وأخذت حسب تصديقك للمخبر صورة يقينية ، ولكنه يقين أقل من يقينه هو بما يخبرك به .

الصورة الثانية: ينتقل بك إلى يقين ، ولكن ليس نظريًا ، بل إلى يقين عيني ، كما قلنا من قبل : إذا جاء إنسان من بلد من البلاد وقال : زرت البلد الفلانية ، فوجدت فاكهة في حجم البطيخ ، ولون البرتقال ، وطعم التفاح ، ورائحة الموز ، فإن كان صادقًا ، فقد أعطاك صورة ذهنية نظرية عن الشيء ، أي أصبح لديك صورة نظرية ، فلما تتعجب أنت من هذه الفاكهة يريك إياها ، ويعطيك منها ، فتكون قد انتقلت من الكلام النظري ، إلى الكلام العيني ، أي :

ن الشيء ، فيكون الأمر منتقل من علم اليقين ، إلى عين اليقين ؛ لأنها أصبحت أمامك .

الصورة الثالثة: ينتقل بك من عين اليقين إلى حقيقة اليقين ، فإذا جاء بالسكين ، وقطعها طعًا ، وأعطى كل إنسان قطعة وأكلها ، يكون قد وصل من عين اليقين إلى حقيقة اليقين ، ي : وصل إلى درجة من اليقين ، وليس يبقى بعد هذا شيء آخر .

وكذلك الحق ﷻ في الإخبار عن الغيبيات ، يخبرنا – وهو الصادق – فنأخذ صورة هذه الأشياء ، فهذا اسمه : علم اليقين ، بعد ذلك نرى بأعيننا ذلك الشيء الذي لم نكن قد رأيناه ، فهذا اسمه : عين اليقين ، ثم ندخل في حقيقة ذلك الشيء ، فيكون : حق اليقين .

فمثلاً يخبرنا الشرع والتواتر أن لله ﷻ في مكة بيتًا ، هو الكعبة ، وهذا البيت شكله كذا وكذا ، فالذى لم يره يأخذ صورة ذهنية عنه ، فيكون عنده علم يقين ؛ لأنه علم ذلك ، والتواتر أيده ، فعندما يذهب إلى البيت ، وينظر له ، فالذي كان علم يقين عنده ، أصبح عنده عين يقين ، فإذا ما طاف ، وَصَفَت روحه ، وتشبع فؤاده ، وغيرته الروحانية ، يكون قد دخل في حقيقة اليقين ، وهي مرحلة حق اليقين .

﴿ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ .. تأتي خاتمة السورة بما يوحي به التكاثر من تنافس على خير الحياة وما يسعد في الدنيا ، ظنًّا من الإنسان أن الدنيا هي كل شيء ، فأراد الحق ﷻ أن يردنا عن التكاثر ليجعله تنافسًا في الخير ومسابقة إلى النعيم الباقي ، فانتهت السورة عند قوله ﷻ : ﴿ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ .. ذلك النعيم الذي تلقيناه بالتكاثر والتنافس ، وما دام هذا النعيم نعيمًا فإن الإنسان يسأل عنه ، ويدخل بسببه في الحساب أولاً ، ثم الوزن ثانيًا ، ثم الجزاء على ذلك الوزن .

فوجب أن يحتاط الإنسان بألا يتكاثر إلا في شيء يكون له منه الخير في الدنيا ، وبعد الدنيا ، أي في الحياة الباقية ، فلا يجب أن يتكاثر على شيء إلا إذا وثق بأن ذلك الشيء يرجح كفة ميزانه يوم لقاء الله ﷻ ، وحينئذ يكون سؤاله عن النعيم لا سؤال تعنيف بل سؤال تشريف .

لأن الحق ﷻ وضع للناس طريقًا مستقيمًا لا تتفرق السبل فيه بالإنسان بل يتوجد فيه السبيل إلى الحق ، وهذا الطريق المستقيم كما نعرف بداهة هو أقصر المسافات بين نقطتين ، فإن أردت أن تصل إلى الله ﷻ ، وإلى النعيم الذي له حساب راجح عند الله ، فلتلتزم منهج الله ، وخط الله ، وهو الصراط المستقيم الذي يوصلك إليه .

نسأل الله ﷻ أن يوفقنا دائمًا إلى أن نتصرف تصرف الخير على المنهج الذي يريده الله ﷻ لنا .

إنه ولي ذلك والقادر عليه .

علم

تفسير جزء

سورة العصر

سورة العصر

بسم الله الرحمن الرحيم . . أحمدك ربي كما علمتنا أن نحمدك ، وأصلي وأسلم على خير خلقك سيدنا محمد ﷺ ، وبعد . .

انتهينا في خواطرنا حول **سورة التكاثر** ، وقلنا : إن السورة ختمت بما يوحي به التكاثر من تنافس على خير الحياة ، وما يسعد في الدنيا ، ظنًّا للإنسان أن الدنيا هي كل شيء ، فأراد الحق ﷻ أن يردنا عن التكاثر ليجعله تنافسًا في الخير ، ومسابقة إلى النعيم الباقي ، فانتهت السورة عند قوله ﷻ : ﴿ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾[1] ، النعيم الذي طلبتموه بالتكاثر ، وطلبتموه بالتنافس ، وما دام هذا النعيم نعيمًا يُسأل الإنسان عنه ، ويدخل بسببه في منطقة الحساب أولاً ، ثم منطقة الوزن ثانيًا ، ثم منطقة الجزاء على ذلك الوزن ، فوجب أن يحتاط الإنسان لنفسه بألا يتكاثر إلا في شيء يكون له منه الخير في الدنيا وبعد الدنيا ، أي في الحياة الباقية .

فلا يجب أن يتكاثر على شيء إلا إذا وثق بأن ذلك الشيء يرجح كفة ميزانه يوم لقاء الله ﷻ ، وحينئذٍ يكون سؤاله عن النعيم لا سؤال تعنيف ، بل سؤال تشريف .

لأن الحق ﷻ وضع للناس طريقًا مستقيمًا لا تتفرق السبل فيه بالإنسان ، بل يتوحد فيه السبيل إلى الحق ، والطريق المستقيم هو أقصر المسافات بين نقطتين ، فإن أردت أن تصل إلى الله ﷻ ، وإلى النعيم الذي له عند الله حساب راجح فلتلتزم منهج الله وخط الله ، وهو الصراط المستقيم الذي يوصلك إليه .

---

1 - سورة : التكاثر ، الآية : 8 .

بعد ذلك كان ولابد أن يحدد الحق أن الإنسان بالنسبة لواقعه في الحياة ، وبالنسبة لحركته في تلك الحياة لا يعدو نهايتين :

النهاية الأولى : أن يكون رابحًا .. أن يكون ناجحًا .. أن يكون مفلحًا .

النهاية الثانية : أن يكون خاسرًا .

فكان ولابد أن ينقسم الناس إلى قسمين : قسم خاسر ، وقسم رابح .. قسم ناجح ، وقسم راسب .. قسم مرتفع ، وقسم نازل .

وبعد ذلك حينما أراد الحق أن يعرض للناس المنهج الذي يؤديهم إلى القسم الرابح ، وإلى القسم الناجح ، وإلى القسم العالي ، أراد أن يقدم بين يدي ما يقول من المبادئ الشهادة على ذلك .

فالحق ﷻ حينما يقسم بشيء – وكما قلنا سابقًا : إن الله يقسم بما شاء على ما شاء – يقسم به لأنه يعلم ما خلق ، ومن خلق ، وسر ما خلق ، ومن خلق ، فهو وحده الذي يقسم بما شاء ، ولكننا لا نعرف عظمة الأشياء ، ولا نعرف خطورتها ؛ لجهلنا بما حولنا من الوجود ، ولكن الله الذي خلق هذه الأشياء وأودع فيها أسراره هو الذي يقسم بها .

وقلنا : إن القسم يأتي مرة بإثباتٍ حين يقول مثلاً : ﴿ وَالْعَصْرِ ﴾ ، ويأتي بنفي للقسم ، ويكون أوكد من القسم في مثل قوله : ﴿ لاَ أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ * وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴾[1] ، أو : ﴿ لاَ أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾[2] ، أو ﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾[3] ، ففي ظاهر الأمر في قوله : ﴿ لاَ أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ ، أو : ﴿ لاَ أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴾ ، أو : ﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴾ أنه لم يقسم ؛ لأن القسم سواء كان إثباتًا له

---

1 – سورة : البلد ، الآية : 1 ، 2 .

2 – سورة : القيامة ، الآية : 1 .

3 – سورة : الواقعة ، الآية : 75 ، 76 .

كما في قوله : ﴿ وَالْعَصْرِ ﴾ ، أو كان نفيًا له كما في قوله : ﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴾ إنما يؤدي إلى غرض واحد ، ذلك الغرض هو تأكيد المقسم عليه .

فالقَسَمُ إذن في كل سور القرآن جاء لتأكيد الأمر المقسم عليه ، وتأكيد الأمر المقسم عليه يكون له لونان :

اللون الأول : أن يقسم بالفعل .

اللون الثاني : أن يقول : إن ذلك الأمر الذي يجب أن يقسم عليه في نظر الناس أمر من الوضوح بحيث لا يُحتاج فيه إلى القسم ، فكأنه حين يقول : ﴿ لاَ أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴾ .. كأن الجواب الذي يأتي بعد ذلك أمر من الوضوح بحيث لا يقسم عليه ، وما دام من الوضوح بحيث لا يقسم عليه فلو كنت مقسمًا لأقسمت بالبلد .. لو كنت مقسمًا لأقسمت بمواقع النجوم .. لو كنت مقسمًا لأقسمت بيوم القيامة ، ولكن ذلك الأمر واضح لدرجة أنه لا يحتاج إلى القسم .

وهناك أشياء قد يلتبس فيها الأمر ؛ فيحتاج إلى قسم ؛ فيقسم الله بالفعل .

إذن فمؤدى القسم ومؤدى نفي القسم واحد في تأكيد المقسم عليه ، إلا أن المقسم عليه أمر قد توجد فيه شبهة فيقسم الله ليرفع تلك الشبهة ، والأمر الثاني أمر واضح لا يحتاج لقسم ، ولكن لو كنت مقسمًا عليه لأقسمت بكذا وكذا وكذا ، ففيه أيضًا الدليل .

مثال ذلك ، ولله المثل الأعلى ، الإنسان منا حينما يشعر بوعكة صحية يذهب إلى الطبيب ، والطبيب حين يشخص المرض يكتب للإنسان دواء ، وبذلك يكون أقر المريض على شبهته في وجود مرض ، ولكنه بالدواء يحاول أن يزيل ذلك المرض .

ولكن حين يذهب الإنسان إلى الطبيب فيقول له الطبيب : والله ليس لك عندي دواء ؛ فليس عندك مرض يستحق أن أعطيك له دواء .

وكذلك حين يقسم الله ﷻ ، يقول : أنت من الممكن أن يكون عندك شبهة وأنا أقسم عليك لأنفي عنك تلك الشبهة .

أما حين لا يقسم فالشبهة لا محل لها إذًا ، فالشبهة لو واجهتها بالعقل الفطري تجدها محلولة ، كذلك حين يقول الله : ﴿ لاَ أُقْسِمُ ﴾ ، فهذا عدم اعتراف بشبهتك في إنكار المقسم عليه ، و﴿ أُقْسِمُ ﴾ .. أعترفُ بشبهتك في المقسم عليه وأقسم لك ، ومؤدى الأمرين واحد .

وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾

﴿ وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴾ .. حين يقول الحق ﷻ : ﴿ وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴾ نرى أنه قد أقسم بالعصر ، وأقسم بالعصر على طريقة القسم في القرآن ليؤكد معنى المقسم عليه ، فما المناسبة بين العصر وبين المعنى المقسم عليه ؟

فما هو المعنى المقسم عليه ؟

هو : ﴿ إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ ، والدليل على صدق هذه القضية هو ﴿ الْعَصْرِ ﴾ .

إذن فالعصر حيثية مقدمة للحكم ، أو علة مقدمة على المعلَّل ﴿ وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴾ .. تلك هي القضية التي يقسم عليها الحق ﷻ .

وكلمة : ﴿ الْعَصْرِ ﴾ إذا أطلقت أول إطلاق تنصرف عن المعنى اللغوي إلى المعنى الاصطلاحي ، هذا المعنى الاصطلاحي هو العبادة المخصوصة في ذلك الوقت ، فهذا أول ما يحضر في ذهن الإنسان .

وقد يُنتقل من العبادة المفروضة في الوقت الخاص ، وهي بعد الظهر وقبل المغرب ، إلى الزمن الذي فرضت فيه الصلاة ؛ لأن اسمه العصر .

وقد ينتقل الذهن إلى معنى أوسع من أن يكون العصر ليس هو الزمن المخصوص بين الظهر وبين المغرب ، ولكنه مطلق طائفة محددة من الزمان لها مهمة مخصوصة ، فمثلاً يطلق العصر على النهار كله ، ويطلق العصر على الليل كله بجامع أن هذا طائفة من الزمان لها خصوصية الضياء ، وهذه طائفة من الزمان لها خصوصية الظلمة .

إذن فالعصر يطلق مرة على العبادة المفروضة ، ومرة يطلق على زمن هذه العبادة وحدها ، ومرة يطلق على طائفة من الزمن لها طابع خاص يحكمها كالنهار مثلاً بما يجمعه من ضوء ونور ، أو كالليل مثلاً بما يجمعه من ظلمة .

وقد يطلق العصر ويراد به فترة أوسع من ذلك ، بمعنى أنه زمان يشمل ليلاً ونهارًا ، وقد يشمل أسابيع ، وقد يشمل شهورًا ، إلا أن هذا الزمن يحكمه طابع خاص في مقوماته .. في مشخِصاته .. في أحواله .. في حضارته ، كما نقول : عصر الجاهلية .. عصر فجر الإسلام .. العصر الأموي .. العصر العباسي .. العصر الحاضر الذي يبدأ من النهضة الحديثة .

إذن فالعصر متدرج في مفهوم معانيه ..

المعنى الأول : العبادة .. **المعنى الثاني** : وقت هذه العبادة .. **المعنى الثالث** : الوقت الذي يجمعه طائفة طبيعة من الخصوصيات كالنهار أو كالليل .. أو يطلق العصر على طائفة من الزمان تعم ليلاً ونهارًا ، ولكن لها طابع خاص يحكمها ، هذا الطابع الخاص قد يكون طابعًا سياسيًّا ، أو تحضريًّا ، أو علميًّا .

فبأي هذه العصور يقسم الحق ﷻ ؟

لو نظرنا إلى العصر بالمعنى الأول لوجدنا أن العلماء حينما تعرضوا لقول الله ﷻ : ﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى ﴾[1].. كانوا مختلفين هل الصلاة

1 - سورة : البقرة ، الآية : 238 .

الوسطى هي الظهر أم العصر أم المغرب أم العشاء أم الفجر ؟

كلام شائع في كل الأوقات ، فما سببه ؟

قالوا : لأننا عندما نقول : ﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاَةِ الْوُسْطَى ﴾ .. فلا يتصور أن يكون شيء وسطًا إلا إذا كان هناك طرفان ، فما هو تحديد الطرفين الذي على ضوئه سنحدد الوسط ؟

إن أردت تحديد الطرفين بالنسبة للتشريع ؛ فأول صلاة فرضت علينا هي الظهر ، وثاني صلاة هي العصر ، وثالث صلاة هي المغرب ، ورابع صلاة هي العشاء ، وخامس صلاة هي الفجر ، فلو أردت التحديد في ورود التكليف لكان معنى الصلاة الوسطى في زمن التكليف أن تعد اثنتين وتأتي بالوسطى وتعد بعدها اثنتين ، فتكون هي المغرب .

أو نأتي بأفراد الصلاة بالنسبة لفرضيتها علينا ، فالذي قال : الظهر ، ما حجته في ذلك ؟

إنه نظر إلى يوم العمل .. إلى النهار ، فالنهار هو محل الكدح الذي يواجهه الإنسان يقظًا في أعماله ؛ ففي الليل نكون نائمين ؛ فالتحديد يكون بالنهار الذي يكون عندنا فيه اليقظة ، ويكون عندنا فيه الكفاح والجهاد في العمل ، فيكون الوسط بالنسبة له وسط بالنهار ، والظهر هو ذلك الوسط .

وقال آخر : لا ، لقد أخذت الوسط باعتبار الزمن الذي هو النهار ، ولكن الصواب أنه العصر ، لماذا يكون العصر ؟

قال : لورود بعض أحاديث تنص على أنها هي العصر كما في حديث علي رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال يوم الخندق : " حَبَسُونَا عَنْ صَلاةِ الْوُسْطَى حَتَّى غَابَتْ الشَّمْسُ ، مَلأَ اللهُ قُبُورَهُمْ وَبُيُوتَهُمْ – أَوْ أَجْوَافَهُمْ – نَارًا "[1] .. فيكون معنى هذا أن العصر حُدد بأنه ذلك الوقت .

وآخر قال : هناك علة أخرى هي أن العصر وسط ، لكن لا بالنسبة لفرضيات الصلاة ،

---

1 - أخرجه البخاري (4169) .

ولكن بالنسبة لوقتيات الصلاة ؛ لأنه سبقه فرضان نهاريان وهما : الفجر والظهر ، وبعده فرضان ليليان وهما : المغرب والعشاء .

وقال آخر : هو المغرب ، والوسطية فيه باعتبار أن الصلاة حسب ركعاتها فُرض منها اثنين كالصبح ، وفرض منها أربعة كالظهر والعصر والعشاء ، وفرض منها ثلاثة وهو المغرب فقط .

وقال آخر : هي العشاء ؛ لأن العشاء متوسطة أمرين لا يدخلهما القصر في السفر : المغرب والصبح .

وقال آخر : هو الفجر ؛ لأنه توسط بين أمرين : الأمر الأول : فرضان جهريان وهما : المغرب والعشاء ، وفرضان سريان وهما : الظهر والعصر .

وفيه تعليل أقوى في كونه وسطًا ؛ لأن معنى الوسط أنه الذي يجمع شيئًا من الطرفين ، فصلاة المغرب والعشاء ليليتان قطعًا ، وصلاة الظهر والعصر نهاريتان قطعًا ، وصلاة الفجر فيها من النهارية أن الفجر قد طلع ، وفيها من الليلية أن الشمس لم تشرق .

وعلى هذا فالحق ﷻ يُبهم بعض الأشياء ، وفي هذا الإبهام تربيب للفائدة [أي زيادة ونمو للفائدة] ؛ ليحرص الإنسان على كل وقت ظنًّا منه أنه هو تلك الصلاة المطلوبة من الله ﷻ ، فكأن كل فرض مما فرض الله ﷻ مطلوب مرتين ﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى ﴾ فما هي الصلاة الوسطى ؟

ما دامت قد اختلفت الآراء حولها ، وتكرر الأمر بها مرتين : مرة في عموم قوله : ﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ ﴾ ، ومرة في خصوص قوله : ﴿ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى ﴾ ، إذن فلتحافظوا على كل الصلوات .

وذلك كما أخفى ﷻ ليلة القدر في رمضان في وتر العشر الأواخر ؛ ليجتهد الإنسان في قيامها لها رغبة في إصابتها .

وكما أخفى الحق ﷻ ساعة الإجابة في يوم الجمعة ؛ ليجتهد الإنسان في كل وقت من

أوقاتها بالعبادة ، فكأنها تربب الفائدة ، فتربط العبد أكبر وقت ممكن بربه ﷻ .

حين ننتهي من هذا نقول : لماذا أقسم ﷻ بالعصر ؟

قيل : لأن العصر يأتي في آخر النهار ، وفيه يكون الناس مشغولين بأعمالهم ، وربما يكون عندهم بعض الأشياء من العمل فيريدون أن يتموه فيغلبهم الوقت ، فالحق ﷻ أكد به .

وأيضًا لأن العصر هو وقت الحصيلة النهائية في حساب الإنسان على عمله اليومي ، أهو أداه بما يؤدي له نفعًا ؟ أهو شغل الوقت بما يعود عليه بالخير ؟ أم هو قد بدد الوقت ؟

فوقت العصر هو وقت الحساب عن اليوم ، وما دام هو وقت الحساب عن اليوم فيناسب أن الحق ﷻ يقول : ﴿ وَالْعَصْرِ ﴾ ، أي : الذي تحاسبون فيه أنفسكم عما قدمتم من حصيلة عمل في ذلك الوقت ، فإن كنتم عملتم عملاً ينفعكم فستسرون ، وإن كنتم قد بددتم ذلك اليوم فسيكون في هذا الوقت ندم على أن الإنسان قد فوت جزءًا كبيرًا من الزمن لم يشغله بما ينفعه .

وإن أردنا بالعصر اليوم كله على حد قول الشاعر :

ولا يَلْبَثُ العَصْرانِ يَوْمٌ وليلةٌ إذا طَلَبا أَن يُدْرِكا ما تَيَمَّما

فأطلق على اليوم والليلة أنهم عصران ، فكل واحد منهم عصر .

أما العصر فهو محل الكفاح النهاري ، وأيضًا سنحاسب أنفسنا في آخر اليوم عن حصيلة ما قدمناه من عمل ، أو حصيلة ما لم نقدمه .

أو أن يكون ذلك شائعًا في الطائفة الكبيرة من الزمن التي تتسم بخصوصية ؛ فالعصور التي عاصرها الإنسان على هذه الحياة عصور مختلفة ، وكل عصر له بداية وله نهاية ، حضارات قامت .. أمم قامت .. دول حكمت وبعد ذلك انتهت ، فنقول : قيامها يدل على أن فيها مقومات الوجود ، وفناؤها وانهيارها يدل على أنها حملت بعد ذلك مقومات الفناء ، فلو أن مقومات الوجود في أي عصر ظلت فيه رتيبة لما انتهى ذلك العصر .

إذن ما الذي جعل ذلك العصر ينتهي إلى أفول ؟

ذلك لأن مقـــومات وجوده كانت نشـــطة في أول الأمر ، وبـــعد ذلك غفل الناس عنها أو تشاغلوا ، فحملت مقومات فنائها فتدمرت .

كأن الحق يريد قبل أن يعلن المبدأ أن يستلهمنا الواقع التاريخي .. الواقع الوجودي حتى نحكِّم ذلك المبدأ ، فحكِّم ذلك المبدأ في كل عصر من العصور .. في كل وقت من الأوقات ، فستجد أن المبدأ حق .. أنه لا يستقيم ولا يستقر أي عصر من العصور بمقوماته إلا إذا حافظ على ما يأتي ..

﴿ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ .. أن تكون فيه عقيدة يجمعها كلمة الإيمان ، وألا يكتفى بالعقيدة بل لابد من إبراز العقيدة والتعبير عنها بعملٍ وترجمتها بسلوك ؛ لأن وجود العقيدة بدون أن تترجم إلى سلوك تكون كلامًا لا قيمة له ، فإذا ترجمت العقيدة إلى سلوك وإلى عمل فستتعرض لعقبات كثيرة ، وما دامت تتعرض لعقبات كثيرة فستحتاج إلى مقومين أيضًا .

هذان المقومان هما :

أن يتواصى المملوكون بالعقـــيدة على الحق ، بمعنى أن يكون الحق دائمًا نصب أعينهم ، فكل إنســان يوصي أخاه بـالحق ، وهل إيصاؤهم بـالحق يمنع من وجود العقبـات من غير المؤمنين بالحق ؟

لا .. فلابد من وجود صراع ، هذا الصراع بين قوى الخير التي تخدم الحق ، وقوى الشر التي لا تريد الحق وتريد الباطل ، فلابد إذن من التواصي بالصبر .

فكأن منهج العمل الناجح الذي يجعله ناجحًا دائمًا هو : عقيدة يترجم عنها إيمان ، وبعد ذلك عمل على وفق تلك العقيدة ، ثم بعد ذلك تواصٍ بالحق لتظل هذه العقيدة ثابتة ، وتظل هذه الأعمال الخاضعة للعقيدة ثابتة ، وبعد ذلك عقبات تعترضها ، فلابد من التواصي بالصبر .

كل حـــركة في الحياة لا تحكمها هذه العناصر حـــركة مآلها إلى الخســـران .. مآلها إلى الزوال .. مآلها إلى أنها لا تُعمَّر في الوجود أبدًا .. مآلها أنها تفنى .

فلو أن إنسـانًا أرغم جماعة على عمل من الأعمال لا يتسم مع عقيدتهم ، فهناك سـيخور هو ، ولا يمكن أن يستمر ذلك الإكراه ، وبعد ذلك تخرج المسائل عن طوق المكره ، وبعد ذلك تنهار هذه المسائل .

إذن فكل عمل يراد بـه أن يكون ناجحًا ، وأن يكون باقـيًا لابـد أن تسـتكمل فيه هذه العناصر : عناصر الإيمان بالمبـــدأ .. عناصر العمل .. عناصر التواصي بـــالحق .. عناصر التواصي بالصبر .

حينئذ يكون الحق ﷻ قد قدم الدليل في القسم ، وقدم الاستشهاد بأن يقول لك : استعرض أي عصر من العصور .. أي طائفة من الزمن لتعرف بماذا كتب النجاح لأي مبدأ من المبادئ .

كتب له النجاح باستيفائه لهذه العناصر ، فإن لم يستوفِ هذه العناصر فهو مبدأ محكوم على صاحبه بأنه في خسر .. في ضلال ، وأما مبدأ يستوفي هذه العناصر فاحكم عليه بأنه مبدأ ناجح ونافع .

لذلك تجد الحق ﷻ حينما يعرض علينا ألوانًا من العصور القديمة التي سبقت وجمعها طابع واحد من الزمن ، كما يعرض علينا مثلاً قوم فرعون .. قوم نوح .. عاد .. ثمود ، فيقول الحق ﷻ في سبأ مثلاً .. تلك المملكة القوية التي أخذت عصر نهضة وسعادة طويل ، فيقول : ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَأٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ * فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ * ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلا الْكَفُورَ ﴾[1]. حـضارة قـامت والتفتت إليها الدنيا ، فما الذي جعلها تنهار ؟! ما الذي

---

1 - سورة : سبأ ، الآية : 15 : 17 .

جعلها تنحدر ؟!

إنها لم يكن فيها مبادئ الصمود ، ولا مبادئ الخلود ، التي هي العقيدة ، والعمل على وفق العقيدة ، والتواصي بالحق ، والتواصي بالصبر .

ويعرض علينا الحق أيضًا حضارات أخرى تمثلت في عصور كانت مزدهرة ، حسبك مثلاً من عصرٍ كالعصر الذي يسمونه (**العصر الفرعوني**) .. الذي لا يزال من آثاره أشياء تَشْدَه الناس ، حتى إنهم يأتون إليها من بلاد النور .. بلاد المعرفة .. بلاد الحضارة ؛ حتى يشاهدوا هذه الأشياء ! !

حسبك من عصر يلفت انتباه من عاش في هذه الحضارة إلى أن يذهب إلى هناك فيتعجب ، فيقول مثلاً : ﴿ **أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ** ﴾[1] ، دليل على أنها بلغت من الحضارة مبلغًا لافتًا .. ﴿ **وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ * وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ * الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ * فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ** ﴾[2] .

إذن فالحق ﷻ يقول : استقرئ التاريخ ، وانظر إلى العصور ، وانظر إلى الحضارات التي تقدمتك ، فبدراستك لهذه العصور ترى أنه لا يزدهر ولا يبقى إلا المبدأ ، هذا المبدأ يعيش على عقيدة ويترجم إلى عمل ، ويتواصى فيه بالحق ، ويتواصى فيه بالصبر .

وعندما نستعرض تاريخنا الإسلامي نجد أن هناك عقيدة ، فنحن كلنا مؤمنون بالله ، والملائكة ، والكتب ، والرسل ، ونؤمن بالقضاء ، ونؤمن بالقدر ، ونؤمن باليوم الآخر ، ومع ذلك نجد أن العصور الإسلامية نفسها أو الأمم الإسلامية تعرضت لأشياء من الهوان ، ومن الذلة ، ومن الضعف ، ومن الاستعباد ، ومن استعمار الغير لها .. لماذا ؟!

---

1 - سورة : الفجر ، الآية : 6 : 8 .

2 - سورة : الفجر ، الآية : 9 : 13 .

لأننا وإن كان عندنا العقيدة ، إلا أن العنصر الثاني غير موجود ، وهو عنصر العمل ، فعلى فرض أن عنصر العمل موجود فسيظل موجودًا إلى أن تتعرض الشهوات ، فتزين للإنسان أن يخرج عن منهج الحق ، فيخرج قليلاً عن منهج الحق .

وافترض أننا ثبتنا على منهج الحق ولكننا لم نتواصَ حين تأتي الأزمات ، وحين تأتي الشدائد ، فلم نتواصَ بالصبر والاحتمال عليها ، فستخور عزائمنا وسنرضى بالأمر الواقع ، الواقع الذي فرضه علينا عدونا ، أو الذي فرضه علينا استعمارنا .

ولو أن هذا المبدأ بكل عناصره ظل يقظًا في حياة الأمة الإسلامية لما أمكن أبدًا أن يكونوا في خسر ، فإذا رأيتهم في خسر فاعلم أن عقيدة ضعفت ، أو أن عقيدة لم تترجم إلى عمل ، أو أن العمل حينما تعرض لهوى النفس انصرف عن الحق ، أو أنه حينما لم ينصرف عن الحق وجاءت له المصائب من خارجه لم يتواصَ بالصبر فخارت عزائمهم أمام أعدائهم ، وحين تخور عزائمهم أمام أعدائهم ولا يوجد التواصي بالصبر والاحتمال والإنسان الذي يتحمل المشقات فلابد أن ينهار المبدأ ، وأن يتمكن عدوه منه .

إذن فالحق ﷻ يطلب منا أن نعرض لواقع التاريخ في الأرض ، ولواقع الحضارات ، ولواقع العصور بكل مميزاتها ؛ لنتأكد من أن المبدأ الذي أطلقه الحق ﷻ في قوله : ﴿ إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ صحيحًا .

وعندما ترى الشيء وفيه استثناء فاعرف أن هذا الاستثناء قسم المسألة إلى قسمين فقال : ﴿ إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴾ .. القضية مطلقة ، ثم قال : ﴿ إِلاَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ ؛ فالإنسان ينقسم بواسطة الاستثناء إلى نوعين : نوع في خسر ، ونوع في غير خسر .

فما حكاية هذا الإنسان ؟

قيل : هذا الإنسان مرة يطلق ويراد به الحقيقة ، ومرة يطلق ويراد به الجنس ، ومرة يطلق

ويراد به فرد من الأفراد ، ومرة يطلق ويراد به كل الأفراد ، فما الذي يتحكم في إرادة معنى من المعاني ؟

قيل : الاستثناء ؛ فعندما يقول مثلاً : ﴿ وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ .. فقد استثنى جماعة ، فالذين آمنوا جماعة استثناهم من الإنسان ، فالإنسان لا يراد به الفرد ، ولا يراد به الحقيقة في ذاتها ، وإنما يراد به الحقيقة في كل فرد من أفرادها ، فكأنه قال : كل أفراد الإنسان ، ويسمونها (" ال " **الاستغراقية**) ، أي : تشمل كل الأفراد .

والذي دلنا على أن " ال " استغراقية تشمل كل الأفراد ، أن الذي استثني منها ليس فردًا ، وإنما استثني منها جماعة ، ولا يمكن أن تستثنى الجماعة إلا من جماعة أكثر منها ، فكأن قول الحق ﷻ : ﴿ إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴾ ، أي : كل إنسان .. جميع الأفراد في خسر ﴿ إِلاَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ .

إذن فلفظة : " ال " في كلمة ﴿ الإِنْسَانَ ﴾ دلت على أن المراد هنا الاستغراق ، الاستغراق الحقيقي لكل الأفراد ، أي : القضية لم يشذ عنها فرد من الأفراد سواء كان فردًا في نفسه ، أو فردًا في أسرته ، أو فردًا في أمته ، أو في المجتمع ، والدليل على ذلك أن الاستثناء جاء من كلمة " **إنسان** " ؛ فإنسان مستثنى منه ، والمستثنى : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ وهم جماعة ، ولا يمكن أن تستثنى الجماعة من فرد ، فلابد أن تستثنى الجماعة من جماعة أوسع دائرة منها .

﴿ وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ .. العنصر الأول عنصر عقدي ، فنجد أن اختيار كلمة " **العقيدة** " للمبدأ الذي يختمر في النفس ، وبعد ذلك ينعقد عليه القلب ويربط عليه الفؤاد بحيث لا يخرج منه أبدًا ؛ لأن غير المعقود عرضة للتطاير والانحلال ، إنما أمر عقد ، أي : معناه أنه أصبح مربوطًا ، هذا معنى كلمة عقيدة .

فالعقيدة ليست هي الفكر في الرأس ؛ لأن الفكر في الرأس لا يزال محل مناقشة .

وليست العقيدة فيما تستقبل الحواس ، فكل شيء تستقبله حواسك لا يقال له : عقيدة ؛ لأنه أمر محس ، فلا يقول قائل : أنا أعتقد أنني معكم الآن ، وأتكلم وأنتم تسمعون .. لا يقال : أنا أعتقد أن الكهرباء موجودة .. ولا يقال : أنا أعتقد أن الجامعة بابها مفتوح والطلاب يدخلونها ؛ لأن هذا أمر حسي ، لا يمكن أن يقال فيه : عقيدة ؛ لأن العقيدة لابد أن تكون في أمر غيبي ، إنما الأمر الحسي لا تأتي فيه عقيدة أبدًا ؛ لأن الأمر الحسي يشترك فيه الناس كلهم ، فلا يقال فيه : عقيدة ، إنما كلمة " **عقيدة** " تأتي في الأمور الغيبية .

ولذلك العقيدة التي هي المقومة الأولى لمقومات الإيمان مفرداتها : أن تؤمن بالله .. والله غيب ، وملائكته .. والملائكة غيب ، وكتبه ورسله .. وهم أيضًا غيب ، رغم أن الكتاب نراه والرسول نراه ، ولكننا لم نشهد الوحي وهو نازل عليه ويقول له : أنت رسول ، ولم نشهد الكتاب وهو ينزل عليه ، فصحيح أننا رأينا الحصيلة فآمنا بأنه هو الرسول ، فنحن آمنا بعقولنا ؛ فهذه أمور غيبية أن هناك وحيًا نزل عليه ، وملكًا أقرأه الكتاب ، فهذا أمر لم نره .

إذن فالأساس الأول في العقيدة أن تكون أمرًا غيبيًّا : تؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، وأن تؤمن باليوم الآخر ، وبالقدر خيره وشره ، فالقدر غيب ، والآخرة ليست الآن أمرًا محسًّا ، فنحن صدقناها لأن الله قال بها ، إذن فالعقيدة دائمًا إنما تكون في الأمور الغيبية .

ومن هنا يختلف المؤمن عن الكافر ، فالكافر يريدها كلها أشياء محسة ، فنقول له : الشيء المحس لا يكون فيه إيمان ؛ لأنك تستوي مع الغير في إدراك الشيء المحس ، فلو أن العقيدة تتعلق بأمر محسٍّ فيستوي فيها المؤمن والكافر ، لكن ميزة المؤمن أنه آمن بأشياء غيبية ، هذه الأشياء الغيبية حكَّم فيها ميزانه ، فما هو هذا الميزان ؟

قالوا : ليس معنى أننا لا ندرك الشيء أنه غير موجود ، لماذا ؟

قالوا : انظر في نفسك .. ﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ ﴾[1].. أنا أومن بأن نفسي جسم

1 - سورة : الذاريات ، الآية : 21 .

ومادة لا تخرج عن طبيعة مكونات الأرض ، وإنما فيها شيء إذا حل فيه أعطاه الحياة والحس والحركة والفكر ، وإذا نزع منه صار رميمًا ، وتحلل إلى عناصره ، وصار مادة ، هذا الذي اسمه الروح ، فهل رأينا الروح ؟ كلا .. هل سمعناها ؟ كلا .. هل ذقناها ؟ كلا .. هل شممناها ؟ كلا .. هل لمسناها ؟ كلا .. إذن فليست مدركة بأي حاسة ، ومع ذلك آمنت بها ، إذن فأنت آمنت بغيب في نفسك ، فكأن الحق ﷻ طلب منا أن نؤمن بأمر غيبي عن إدراكنا الحسي وبه حياتنا ، شيء به حياتنا ولا ندركه .

إذن فإذا حُدِّثت بأن لك ربًّا ، هو خالق الكون ، وله إدارته وتدبيره ، وأنت لا تراه فلا تعجب ؛ لأن هذا أمر موجود في نفسك ، فإذا كنت لم تستطع أن تدرك خلقًا من خلق الله في نفسك ، وهي (**الروح**) ، وأنت مؤمن بآثاره فيك ، فكيف تدرك من خلق هذا الشيء ؟

مخلوق له لم تستطع إدراكه ، ومع ذلك آمنت بأنه موجود ، فكيف بالذي خلق ذلك غير المدرك ؟! فكيف تدركه ؟! ولو أدركته لم يصلح أن يكون إلهًا ؛ لأنك أحطت به ، وأحاط به حسك وعقلك ، إذن من عظمته أنه لا يدرك .

إذن فهناك فرق بين وجود الشيء وبين إدراك الشيء ، فلا يصح أن يربط المؤمن بين إدراك الشيء وبين وجوده وإحساسه به ، بل عدم حسك به وعدم إدراكك له لا يعني أنه غير موجود ، والدليل على ذلك موجود في نفسك ، وهو روحك .

ولماذا نحيله إلى شيء لا يراه أبدًا ؟

نقول له : أنت تستقرئ كتاب الكون كل يوم ، وتكتشف فيه غائبًا عنك .. تكتشف كنزًا وسرًّا من أسرار الكون ، قبل اكتشافه أكان موجودًا أم غير موجود ؟

كان موجودًا ، فالحاصل أنك اكتشفته ، فكيف اكتشفته ؟!

قيل : إن وسائل إدراكي لم تكن قادرة على إدراكه في أول الأمر ، وبعد ذلك يسر لي بوسائل الإدراك أن أدركه ، فالميكروب مثلاً الذي اكتشف في العصر الحديث كان موجودًا أم

غير موجود ؟ أعدم رؤيتك وعدم إحساسك به قديمًا يعني أنه غير موجود ؟

كلا .. لا يعني أنه غير موجود لأنه لم يكن قد دخل في دائرة إدراكنا ، بدليل أنه عندما بدأ يدخل في دائرة إدراكنا أدركناه .

فإذا جلست في حجرة ، ثم فتحت طاقة وأتت بحزمة ضوئية من الشمس ، ساعتها سترى في الحزمة الضوئية أشياء كثيرة تتحرك فيها .. هي ذرات .. هذه الذرات أين كانت قبل أن تدخل الحزمة الضوئية ؟

كانت موجودة أيضا ، ولكنك لم تكن تراها ؛ لأن الضوء الذي كان موجودًا لم يكن كافيًا ليظهر دقائقها ، فلما دخلت حزمة ضوئية قوية عليها بينتها لك .

إذن فعدم إدراك الشيء ليس له علاقة بوجود ذلك الشيء .

وما دام الإنسان في المادة التي هي من جنسه كالذرات ، أو الميكروب التي هي من جنسه المادي ، ومع ذلك لم يكن يدركه ثم أدركه ، ألا يجعل ذلك الإنسان يستأنس بأن هناك كثيرًا من الأشياء الغيبية لا يدركها وهي موجودة أيضًا ، إذا كان من مادته ما كان موجودًا ولم يدركه ، فإذا قال الله ﷻ : هناك أشياء أخرى ألطف من الإنسان وهي الجن ، وهناك أشياء ألطف من الجن وهي الملائكة وهو لا يدركها ، فيجب أن يصدق ؛ لأن هناك شيئًا من جنس مادته بلغ من الدقة مبلغًا وهو لا يدركه ومع ذلك أدركه ، أي أن إدراكه لما كان غيبًا قديمًا يؤنسه بأن يجعل فيه إيناسًا بأن الغيب لعله فيما بعد يدركه .

إذن فالعقيدة لا تتأتى إلا في الأمور الغيبية : إيمان بالله ، إيمان بملائكة الله ، إيمان بالكتب ، إيمان بالرسل ، إيمان بالقضاء والقدر خيره وشره ، إيمان بأن هناك آخرة .. تلك هي العقيدة .

هذه العقيدة لها أم هي التي يدخل عليها الإنسان بعقله : أن تؤمن بالله هذا هو الأصل ، فإذا دخلت على الإيمان بالله بعقلك ، فإذا ما دخلت على أن هناك قوة اسمها الله موجود له

قدرة .. له قيومية .. له حكمه .. إليه المرد .. آمنت به .

بعد ذلك تأتي العقيدة الثانية ويكون مصدرها ما آمنت بـه أولاً ، فأنت آمنت بـالملائكة لأن الله أخبرك ، وآمنت بالله لأنك انتهيت إليه بالدليل العقلي .

إذن فالعقائد تكون نوعين : نوع هو القمة .. الأساس ، ونوع تخبر بـه القمة ، فنحـن آمنا بـالملائكة ؛ لأن الله قـال لنا : هناك ملائكة .. آمنا بـالجن ؛ لأن الله قـال لنا : هناك جن .. آمنا بالرسل ؛ لأن الله قال ذلك .. آمنا بالقضاء والقـدر لأن الله قـال ذلك .. آمنا بـاليوم الآخر لأن الله قال ذلك .. وآمنا بالله لأن عقلونا دلتنا على وجود ذلك الإله .

إذن فالمسألة كلها مردودة إلى العقل ، إلا أن العقل احـترامًا لنفسـه ما دام آمن بـالله فيجب عليه تبعًا لذلك أن يؤمن بكل ما صدر عن الله ، كل ما يُطلب منه أن يوثق ذلك الأمر بأنه صدر من الله .

إذن فما دمنا آمنا بـالله ، وسـنأخذ منه عقـديات غيبـية ، فمن الأولى أن نأخذ أشـياء ظاهرية .. نأخذ منه تكاليف .. نأخذ منه منهج الحياة ؛ لأننا أخذنا منه أشـياء لا تدخل تحت حسي ، فنأخذ منه ويكون هو المصدر الوحيد .

وما دام ذلك هو المصدر الوحيد فماذا يعطي ذلك للإنسان ؟

إنه يعطي للإنسـان أن لا يضعف أمام الحياة ؛ لأنه لا يواجهها بقـوته ، ولكن يواجهها بقوة الإله الذي آمن به ، فإذا حدثت له أي أحـداث بـالغة مهما بـلغت ، وخرجت عن نطاق قـوته ، ونطاق سببـه فيجب ألا يخور ؛ لأنه لا يواجه الحياة بأسبابـه ، ولا يواجه الحياة بقوته ، وإنما يواجهها بالقوة المطلقة ، وبالقدرة التي لا تعجز عن شيء ، وبخالق الأسبـاب ؛ ولذلك يقـول ﷻ : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ ﴾[1] .. فالأسباب تضيع .

---

1 - سورة : الطلاق ، الآية : 2 ، 3 .

إذن فالإيمان بالله يثري النفس البشرية ، فيجعلها ثرية وغنية ، وعدم الإيمان يفقرها .

وبعد ذلك إذا آمنا بالله يخبرنا ويطمئننا أن هذا الوجود بما فيه من كل الأجناس مخلوق لخدمتنا ، ومسخر لنا جماده ونباته وحيوانه ، كل هذا مسخر لنا ، ما دخل في طوق قدرتنا وما لم يدخل .

إذن فنحن لا نتشكك في أن الكون سيعصى علينا ؛ لأنه مخلوق لنا ، ونحن نأخذ الملكية بالخلافة ، فنحن واثقون أن ذلك الكون لا يمكن أن يخرج عن نطاق خلافتنا ، ولا يخرج عن نطاق تسخيره لنا .

فقد أعطى للإنسان قوة زائدة ، إذا قال الله ﷻ : إن الخلق الذين تراهم كلهم عبادي ، وما داموا عبادي فأنت وهم مشتركون في العبودية ، لا يوجد أحد منكم ابن لله ، فربنا لم يتخذ من أحد صاحبة ، ولم يتخذ من ولد ، فكلنا بالنسبة لله سواء وعبيد ، وما دمنا عبيدًا يجب أن نلزم منهجين اثنين :

المنهج الأول : أننا وهم عبيد ، فنحن لا نستعلي عليهم ؛ لأن عبيد غيرنا أحرار مثلنا ، فما داموا ليسوا عبيدنا فهم أحرار مثلنا تمامًا .

المنهج الثاني : أن لا نستخزي لأحد فيمنعنا ذلك من أن نعلو ، ويمنعه من أن يكون إنسانًا سويًا ، فلا ننظر لهم على أنهم منافسون لنا في الحياة وسيأخذون أرزاقنا ، بل ننظر لهم على أنهم معاونون لنا في الحياة ، إخوة يحبون لنا الخير ؛ لأننا مؤمنون جميعًا بمنهج واحد ، هذا المنهج الواحد يقول : " **لا تحاسدوا ، ولا تناجشوا ، ولا تباغضوا ، ولا تدابروا ، ولا يبع بعضكم على بيع بعض ، وكونوا عباد الله إخوانا ، المسلم أخو المسلم لا يظلمه ، ولا يخذله ، ولا يحقره .. التقوى ههنا** – ويشير إلى صدره ثلاث مرات – **بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم ، كل المسلم على المسلم حرام : دمه وماله وعرضه** " ، أو كما قال ﷺ : " **المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا** " .. ثم شبك بين أصابعه

---

1 - أخرجه البخاري (2262) ، ومسلم (4650) .

إذن .. فكلما وجدنا الكثير من الناس فلا ينبغي أن نأخذه على أنه علينا ، بل نأخذه على أنه لنا ، فعندما تكون هناك نعمة عند أحد الناس ، وما دمت أنا مؤمنًا بأن الله هو الواحد الواهب لهذه النعم ، فلابد وأن أقول : لعل الله رأى في نعمته الخير ، ورأي الخير في منعي ؛ فلا أحقد عليه ، ولا أحسده ، فهو عندما يؤدي حق الله عليه في النعمة ويصيبني منها شيء فلا أحقد عليه ، ولا أحسده ، فتكون النعمة في يدي كالنعمة في يد غيري ؛ لأن خيرها واصل إلي سواء كان من معي أو من عند غيري .

إذن فالإيمان بالله ﷻ ، وأنه المرجع النهائي للقوة ، والمصدر النهائي لكل قوة تجعل الإنسان يعتز بالحياة ، ولا يخور أمام أي مظهر من مظاهر الحياة .

وأيضًا فما دمنا سنؤمن بأن هناك إلهًا موجودًا ، فممن نأخذ تصوراتنا ؟! هل نأخذها من تصورات الغير ؟! لماذا نأخذ منهجنا من عند غيرنا ؟! ولماذا هم يأخذون منهجهم من عملنا الفكري ؟! ولماذا لا يكون الأمر بالعكس ؟! لماذا تتحكم أمة لأنها قوية في أنها تضع نظمًا ومبادئ وتحمل عليها الأمم الضعيفة ؟!

إذن ستتفرق هنا السبل حسب الأهواء .

لكن عندما نعرف أن لنا ربًّا ، وهو الوحيد الذي نتلقى منه المنهج ، فقد قضى على هواي وعلى هواك ولا سلطان لأحد مطلقًا في أن ينظمنا ، أو أن يحكم ذلك الكون .

إذن فقد عصمنا ﷻ من التجارب ، ومن أن نأتي بالمبادئ من غيرنا فيتحكم فينا .

وليس لله خليل ولا صاحب ، وعليه فسنواجه الحياة بأننا كلنا في الأصل عبيد ، وما دمنا سنواجه الله وكلنا عبيد فكل واحد يستطيع أن يتصل بالله ، فكلنا جميعًا بالنسبة له سواء ، وبعد ذلك كرمنا وسخر لنا ذلك الكون .

---

1 - أخرجه البخاري (5567) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه .

إذن فلا نرضى أبدًا أن نكون في مرتبة الهوان ، أي : في منزلة أقل من المنزلة التي وضعنا فيها ربنا ، كتلك المذاهب التي تزعم أن أصل الإنسان قرد ، أهو يكرمنا ثم نتسفل به لنجعل أصله ممن هو دونه ؟! فكل مذهب يأتي من هذا فنحن نرفضه ؛ لأن ذلك ينافي تكريم الله للإنسان .

وأيضًا ما دمت أنا بالنسبة لله مثل الجميع بالنسبة له ، فيجب أن أضع في حسابي أنني بالنسبة للناس لست خاضعًا في الحساب والجزاء لهم ؛ لأنني أستطيع أن أخبئ عنهم أشياء ، وأن أستر عنهم أشياء ، وأن أقابلهم بوجه غير ما في قلبي .. لكن التصور الإيماني أن الحق ﷻ يطلع على خائنة الأعين ، ويعلم ما تخفيه الصدور .

إذن فسيكون المؤمن سويًّا ظاهره كباطنه ؛ لأنه لا يتعامل مع الناس ، وإنما يتعامل مع الإله الذي تصور أنه لا تخفى عليه أبدًا خافية ، وما دام كذلك فيجب أن يعامل الناس بشكل واحد وبنظام واحد ، هذا النظام مبني على أنه ليست له واجهة ، وليست له خبية ، فواجهته هي خبيته .

وأيضًا عندما نتصور الإيمان بالله وأنه هو الذي خلقنا ، وأننا سنرجع إليه فلابد أن نؤمن بأن الدار الدنيا ليست كل شيء ، فمن يحرص على الدنيا ويظلم فيها ويطغى ويتمتع بأقصى قسط من النعيم ويأبى أن تقيده مناهج لا من عند الله ولا من عند غيره ، ويريد أن ينطلق في الحياة على هواه ، فنقول : إن هذا هو الإنسان الذي يتصور أن حياته فقط هي هذه الدنيا .

ولكننا إذا ارتبطنا بالعقيدة الإيمانية نرى أن الحياة معبر فقط ، وليست محل جزاء ، فمهما يصيبنا فيها فلا نحزن ، لماذا ؟ لأنها ليست النهاية ؛ فالله ﷻ يقول : ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾[1] ، فليست هذه هي الحياة ، فنحن نعتبرها برزخًا .. نعتبرها معبرًا فقط إلى دار أخرى ، فمهما أصابنا فيها فلا يمكن أن ينال منا شيءٌ ؛

1 - سورة : العنكبوت ، الآية : 64 .

لأن الغاية لم يحن حينها بعد .

وبعد ذلك يقول : ما دامت المسألة بهذا الشكل ، وأنت ستتصور في إلهك ، وستأخذ العقيدة عن ذلك الإله ، أنه بهذه العظمة ، وبهذه القوة ، وبهذا العلم الخفي الذي يكشف أمورك الداخلية .. فإذا كنت أنت فيه بالنسبة للناس لا تداري عنه فلا يمكن أبدًا أن تكون بالنسبة إليه أقل من الناس .

وأيضًا فإننا لو نظرنا إلى الكون نجد أنه ما دام هناك إله ، ولا يزيد عملنا في ملك هذا الإله شيئًا ، ولا إيماننا يثبت عرشه ، وكفر الكافرين به لا يزلزل عرشه .. إذن فعملنا المكلفون به وسنعطى عليه ثوابًا يكون بمحض الفضل من الله ﷻ ؛ لأنه عملنا هذا منفعته عائدة علينا نحن ، إذن فعندما يعطينا مع ذلك ثوابًا عليه فبمحض فضله ﷻ .

فبواسطة هذا التصور العقدي سنمنع من أشياء كثيرة ، فسنمنع من أن نفكر بأننا في الحياة أفراد وحيدون ، كلا ، فنحن لنا إله ، وفي حياتنا نقول : إن الذي له أب لا يحمل همّ الحياة ، ولا هم المعاش ، ولا يهتم إذا كانت الحياة غالية أو رخيصة ، لماذا ؟ لأن له أبًا ، فإذا كان من له أب لا ينشغل بهمِّ الحياة ، فكيف الحال بمن له رب ؟!

إذن فهذا هو الرصيد الذي يجعلنا نمضي في الحياة ولا نسأل عن أي شيء .

وبالتالي فسأستقبل المحصات التي تأتي من كوارث الدنيا ونكباتها في مال أو نفس أو ولد ، أستقبل كل ذلك على أنها ممحصات ، والله لا يمحص إلا من يحبه ، فيريد أن يجعله طاهرًا من الذنوب ، كما جاء عن **أنس بن مالك** رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : " **إن عظم الجزاء مع عظم البلاء ، وإن الله إذا أحب قوما ابتلاهم ، فمن رضي فله الرضا ، و من سخط فله السخط** "[1] .

و هذا الحديث يدل على أن البلاء يكون خيرًا للعبد ، وأن صاحبه يكون محبوبًا عند الله

---

1 - أخرجه الترمذي (2 / 64) ، وابن ماجه (4031) .

ﷻ ، إذا صبر على بلاء الله ﷻ ، و رضي بقضاء الله ﷻ ، وذلك كما جاء في حديث **صهيب الرومي** رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : **" عجبًا لأمر المؤمن ! إن أمره كله خير ، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن ، إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له "** [1].

إذن فعندما ينظر الإنسان إلى الأشياء المؤلمة المتعبة في مصائب الدنيا وفي أحداثها أنها بمثابة الغسول والتطهير له ؛ من أجل أن تكون الحياة الباقية حياة نظيفة .. حياة عالية ؛ فلا يحزن الإنسان من هذه الابتلاءات ، بل يستقبلها استقبال الراضي بقدر الله ﷻ فيه .. الراضي بحكمه ، وأنه لم يُجرِ عليه شيئًا إلا لمصلحته .

فإنسان تكون عنده هذه العقيدة كيف يواجه الحياة ؟

لا شك أنه سيواجه الحياة بكل قوته ؛ لأن الذين ليست عندهم عقيدة حينما تفجؤهم الأحداث تضيع طاقة كبيرة من طاقتهم ؛ فيصيبهم شيء من الانهيار ، وبالتالي يواجهون الحياة وحركتها بطاقة غير كاملة ، وبفكر غير كامل .

فإذا كنت وأنت في أول الأمر لم تقدر عليها وأنت بطاقتك المجمعة وبفكرك الكامل ، فكيف إذا أضعفتها بإضعاف طاقتك وإضعاف فكرك ؟! يقينًا سوف تواجهها مواجهة أقل ، لكن المؤمن ينظر لقول الحق ﷻ : ﴿ وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [2]، فما دمت مؤمنًا ، وصلتك الإيمانية جيدة بربك ، فاعتقد أنك عالٍ .. انهزمت فأنت عالٍ .. أُصبت بأي شيء فأنت عالٍ .

ولذلك عندما يعرض القرآن علينا هذه المسألة في قصة **سيدنا موسى** عليه السلام عندما قال له قومه : ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ [3].. فبقانون البشر هذا كلام صحيح ؛ لأن قوم فرعون وراءهم ،

---

1 - أخرجه مسلم (5318) .

2 - سورة : آل عمران ، الآية : 139 .

3 - سورة : الشعراء ، الآية : 61 .

والبحر أمامهم ، ولكن ماذا قال موسى عليه السلام ؟ ﴿قَالَ كَلاَّ ﴾[1] .. بملء فيه ، فقد التفت إلى ذلك الرصيد القوي ، ثم إنه لم يقل : ﴿كَلاَّ ﴾ بلا حيثية ، بل قال : ﴿كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ ، أنتم صادقون ، ففي قانون الناس هم سيدركوننا لا محالة ، إنما عندما يكون معي ربي وسيهدين فلن يدركونا أبدًا ، فارتكن موسى عليه السلام إلى ركن ركين ؛ ولذلك فما كاد يتم كلمته حتى ناداه ربه عز وجل وقال له : ﴿اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ ﴾[2] ، فضرب موسى عليه السلام بعصاه البحر ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴾ .. شيء عجيب ، هذا هو الرصيد .. وكذلك يكون الإيمان .

إذن فالمؤمن الذي يواجه الحياة في أي عصر من العصور بالطاقة الإيمانية .. فبهذه القوة يكون قلبه قد عمر وانتهى الأمر .

ولا تكون طاقة إيمانية إلا إذا ثبتت واستقرت ورُبط القلب عليها وأصبحت عقيدة ، أي : لا تطفو مرة أخرى على الذهن لتناقش من جديد ، فإن طفت على الذهن لتناقش من جديد فلا يقال : إنها عقيدة ، بل ما زالت فكرة تبحث ، فإذا ما انتهي من بحثها نهائيًّا واستقرت أصبحت عقيدة ، فكذلك يريد منا الحق سبحانه وتعالى ، فليس بمجرد المعرفة تكون عقيدة ، فقد تعرف شيئًا ولكنه لا يستقر في نفسك استقرار العقيدة ، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى عن الكفار : ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾[3] ، ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾[4].. إذن فهم يعرفون ، ويناديهم متسائلاً .. ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾[5] .

---

1 - سورة : الشعراء ، الآية : 62 .

2 - سورة : الشعراء ، الآية : 63 .

3 - سورة : الزخرف ، الآية : 87 .

4 - سورة : لقمان ، الآية : 25 .

5 - سورة : الطور ، الآية : 35 .

فما معنى أنهم يعرفون ذلك ولم يؤمنوا ؟!

هناك فرق بين المعرفة والعلم ، وبين اليقين والعقيدة ، فلم تصل في نفوسهم إلى درجة أن تصير عقيدة .. تلك العقيدة التي تحكم سلوكهم في الحياة ، فإذا وصلت العقيدة إلى أنها مذكورة دائمًا ، وفي بال الإنسان دائمًا ، وتحكم حركة حياته ، فأي عمل يعمله يسأل نفسه أيرضي العقيدة أم لا ؟ أيتفق مع العقيدة أم لا ؟

إذن فعلمك بشيء لا يعني أنك اعتقدت به ، وأنك تحمست له ، وأنك سخرت كل تصرفاتك بناءً على تلك العقيدة ، فالذي كان معلومًا عندهم معرفة شيء أو علم شيء ، إنما إيمان ويقين بشيء هذا لم يكن عندهم ؛ لأنه لو كان عندهم إيمان ويقين بشيء لكان من الممكن أن يديروا حركة حياتهم على ذلك المركز .

إذن فالأساس الأول في المنهج المتميز .. المنهج الجامع لكل خير في حركة الحياة هو أن يوجد الإيمان أولاً ، ولذلك لا يُكره الله على الإيمان ؛ لأن الله ﷻ يريد أن تصدر الأعمال عن عقيدة عندك أنت ، وإلا لو كان الحق يريد حركة منك لأرغمك عليها كما يرغم المكره حركة المكرَه وقلبه غير مقتنع به ، ولذلك تقرأ قوله ﷻ : ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ * إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴾[1] ، فهل يريد الله أعناقًا وأجسامًا وحركة ؟

كلا .. فهذا يملكه العبيد ، فهم قد يرغمون أحدًا على أن يفعل فعلاً وقلبه يأباه .

فكأن الحق ﷻ يقول : أنا لا أريد أعناقًا خاضعة .. ولا أريد أشباحًا خاضعة .. أنا لا أريد قوالب .. أنا أريد قلوبًا خاضعة ؛ لأن القلب سيحكم عليك أن تعمل ، سواء رأيتك وكنت بمظهر من الناس ، أم كنت مختبئًا بينك وبين نفسك .

قصارى ما يصنعه المكره أن يكره قالبك على فعل شيء ما دام مسيطرًا عليك ، فإذا خلوت

---

1 - سورة : الشعراء ، الآية : 3 ، 4 .

لنفسك فأنت حر حينئذ ، لكن حين يكون المبدأ عن طواعية .. وعن اختيار .. وعن رضا .. يتحكم فيك المبدأ في كل حركاتك .

والمكرِه على شيء حين يكرهك على سلوك معين فأول ما يحمل من المعاني أنه غير مقتنع بذات المبدأ ، فهو نفسه غير مقتنع أن المبدأ صحيح ؛ لأنه لو كان مقتنعًا بأن المبدأ صحيح فلا يأتي في باله أن يعارضه الناس ، فسيقول : هذا مبدأ سليم فلن تعارضه الناس ؟

إنما هو عارف أن المبدأ غير سليم ويقول : إن أنا وضعت سوطي ولم أرغم الناس عليه فلن يتمسك به أحد .

فالحق ﷻ يؤكد على عدم إرغام الناس على الدين فيقول : ﴿ لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾[1] ، ما حيثية ذلك ، ولماذا لا يوجد إكراه ؟ ﴿ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ ، فالمسألة واضحة فلا تحتاج إكراهًا .

إذن الذي يريد إكراهًا من البشر على المبدأ المعوج يقول : أنا لو تركت الناس ولم أرغمهم بالقوة والسوط على اعتناق هذا المبدأ فلن يتبعني أحد ؛ لأنه هو نفسه ليس مقتنعًا أن هذا المبدأ يتبع ، فعلى مقدار الإكراه فيه يكون مقدار إيمانه هو شخصيًّا به .

إذن فأول شيء في المبدأ هو أن يستقبل برضا .. أن يستقبل باختيار ؛ لأنه سيحكم كل حياتك ظاهرها وباطنها .. ما لك وما عليك ، فإذا جاء الإيمان بعد ذلك والإيمان في ذاته ليس غاية ، الإيمان في ذاته وسيلة إلى أشياء ، فما دمت آمنت بالإله .. الذي يوصف بأنه قوي .. فأنت تلجأ إليه .. وأنت تؤمن أنه صنع لك كل ذلك الخير .. أن الناس كلهم بالنسبة له سواء .. أن لا يُشرِّع لخلق الله إلا الله ، هو الذي يُشرِّع ، رفعني الإله وكرمني أنه جعلني كذا وكذا .. ذلك الإله .

فيجب أن أستقبل عنه منهجه ، وذلك بجعله حركة حياة التي هي العمل الصالح ، فنكون

---

1 - سورة : البقرة ، الآية : 256 .

بذلك قد انتقلنا من العنصر الأول إلى العنصر الثاني ، وهو العمل الصالح .

والعمل الصالح نرى ترجمته في أشياء طلبها الحق ﷻ منا ، وفي ظاهر الأمر أنك لا ترى لبعضها فوائد عاجلة ، وهي التي نسميها العبادات .

وبعد ذلك وضع لك في نظام حركة الحياة معاملات .. المعاملات هي التي تنظم حركتك كفرد .. حركتك في الأسرة .. حركة المجتمع .. حركة الإنسانية .. علاقة الأفراد ببعضهم .. هذه اسمها النظم ، فلو لم يوجد فكرة عن إله فهل تظل ستستمر الحياة بلا نظم ؟

كلا .. ستضعها الناس لنفسها ، فما دام هناك مجتمعات فلابد من وجود نظم .

إذن فالفرق بين الأمر التعبدي والمعاملات هو أن الأمر التعبدي هو الذي شرعه الحق للتقرب منه ، وليظل فكرك فيه ، وبالك غير منقطع عنه .

لكن الأمور الأخرى التي تنظم المصالح فتسمى بالمعاملات ، والأصل في المعاملات أنها من نشاط الذهن البشري ، إلا أن مهمة الشرع فيها أن الصالح يبقيه ، والطالح ينفيه ، والذي فيه شبهة يقوِّمه ، فهذه مهمة تشريع السماء فيها .

ولذلك الإسلام أقر كثيرًا مما كان عليه القوم في الجاهلية ؛ لأنه عمل في ذاته لم يدخله فساد ، وبعد ذلك نهى عن بعض الأعمال ، وعدَّل أعمالاً أخرى .

لكن المنهج العبادي ليس من نشاط البشر ، ولا عمل لذهن الإنسان فيه ، وإنما الحق ﷻ هو الذي يقول : تقرب إليَّ بكذا وكذا ، ولا تفعل كذا فهو يبعدك عني .

إذن فكما يقول العلماء : الأصل في العبادات الحظر والمنع إلى أن يأتي من الشارع ما يفيد التشريع .

إذن فليس لي أن أعبد الله بطريقة لم يأمرني بها ، إلا أن أتطوع بأمر موجود مثله ، فهو فرض عليَّ خمس صلوات ، فلا مانع بعد أن أصلي ما فرض عليَّ من أن أتنفل بصلاة أخرى .. فرض عليَّ أن أخرج 2.5 % من المال كل عام ، فلا مانع من أن أخرج خمسة أو عشرة

حسب طاقة الإحسان فيَّ .. فرض عليَّ الحج مرة ، فلا مانع من أن أحج كل سنة مثلاً .. فرض عليَّ صوم شهر فلا مانع من أن أصوم الاثنين والخميس .. أصوم ثلاثة أيام من كل شهر عربي .. إلخ .

إذن فالأصل في العبادة المنع والحظر ؛ لأنها الطريق الذي رسمه الله للتقرب منه ، والمعاملات هي الطريق الذي أقره الله لنظام الحياة .

إذن فالأعمال تكون صالحة : إما لأن الله هو المشرع لها أو المقر لها ، فمن حيث العبادة هو المشرع لها ، ومن حيث الأمور الأخرى وهي النشاطات الذهنية في الحياة فهو مقر لها : ما ثبَّته نرضاه ، وما نفاه ننتهي عنه ، والذي عدّله نأخذ ذلك التعديل ، ذلك هو منهج الحياة .

ولك بعد ذلك أن تجول بعقلك في الأمور التعاملية التي هي نشاطات الذهن ، فتأتي بقانون الله في نظام الأسرة .. قانون الله في نظام المجتمع .. قانون الله في الحكم .. قانون الله في النظام الاقتصادي .. قانون الله في القانون السياسي وقارنه بأي قانون شئت في الدنيا ، فستنتهي بالتقنين بأن ذلك هو أسمى ما يمكن أن يصل إليه البشر .

فمثلاً : الغرب يرى أن الطلاق من مثالب الإسلام .. ماذا صاروا إليه الآن ؟ أباحوه رغمًا عنهم ؛ لأن ظروف الحياة أرغمتهم على ذلك ، تعدد الزوجات الآن يبحث عندهم ؛ لأنهم شاهدوا الفساد المترتب على منهجهم .

والأمر في التعبديات يجب أن يكون بحثه في علته متأخرًا عن عمله ، أي أنك لا تقتنع بعلة الأمر التعبدي أولاً وبعد ذلك تفعله ، بل تفعل أولاً سواء وصلت للعلة أم لم تصل إليها .

كذلك ثقتك في الله في كثير من الأمور التي عدّلها الله ؛ فكانوا يأكلون لحم الخنزير فقال لنا الله : لا تأكلوا لحم الخنزير ، إذن فكان عملاً غيره ربنا ، هل كنا نؤخر عدم أكل لحم الخنزير حتى يثبت عندنا بالتحليل العلمي والتحليل المعملي أن هناك فيروسات ضارة بالصحة الإنسانية .

معنى ذلك أننا كنا سنعطل الحكم أربعة عشر قرنًا حتى يأتي عصر التحليل ، كلا .. فنحن سمعنا كلام ربنا ، وقلنا : سمعنا وأطعنا ؛ لأننا واثقون من حكمته .

إذن فالأعمال الصالحة تنقسم لقسمين : قسم تعبدي ، وقسم تبدو له علل ، وهي المسائل التي تربط نظام المجتمع ، ومنها أشياء لم تكن علتها في تشريع الإسلام ظاهرة أولاً إلا أن علتها ظهرت فيما بعد .

عندما تظهر علة فيما بعد لأمر لم تكن له علة ، ماذا يعطيك ذلك ؟

يعطيك الثقة في أوامر الله ﷻ ، وأن الأشياء الغائبة علتها لها علة في الحقيقة ، ولم تواتنا الظروف حتى ندرك هذه العلة .

فكل شيء يستقبل من الله يجب أن يكون إيمان المؤمن به أنه فعلَ لأن الله أمر ، وترك لأن الله نهى ، ذلك هو الإيمان .

وأما الذي يقبل على الأمر لعلته فمثله كرجل غير مؤمن بالله ذهب للطبيب فيقول له الطبيب : أنت لن تشفى من هذا المرض إلا إذا منعت نفسك شهرًا من الطعام .

فهل سيمتنع أم لا ؟ سيمتنع قطعًا ، إذن هو امتنع للعلة وليس للآمر .

الإسلام ليس كذلك ، الإسلام أنك تمنع لأن الله أمر ، لأن الله قال ، وأنت واثق فيه أنه إله حكيم .

إذن فالمؤمن بالحق ﷻ حينما تكونت عنده العقيدة الإيمانية يقبل على منهج الله من حيث : أهو قال أم لا ؟ فهذا هو عمل عقله ؛ فإن كان قال فليقبل على المنهج من الله بيقين أن ذلك مفيد له ، دون أن يتساءل عن جهة الفائدة أو جهة النفع ، لعله لا يدركها الآن ويدركها فيما بعد .

فإذا فعلت ذلك تكون واثقًا من نتيجة ذلك العمل الصالح الذي تقوم به ، فلم تعمل العمل الصالح كما يفعل المقامر ينفع أو لا ينفع ، بل مادمت تعلم أن هذا ثابت عن الله فأنا أقبل عليه

لأني متيقن أن فيه فائدة .

هب أن فائدته أخطأتني الآن ففائدته لن تخطئني في المستقبل ؛ لأن الدنيا ليست هي كل شيء .

فإذا جاء الإيمان وجاء العمل الصالح بقيت غفلات النفوس ؛ لأن المنهج الذي يحدد حركة حياتك ، ويحدد حركة شهواتك قد تغفل نفسك عن بعضه ، وما دمت كذلك فأنت في حاجة إلى من ينبهك ، فسيُتواصى بالحق ، فيقول لك المتواصي : لِمَ تفعل هذا ؟! تذكّر كذا وكذا .

وانظر إلى كلمة : ﴿ تَوَاصَوْا ﴾ . فلم يجعل موصِين وموصَين ، بل كل واحد منا موصٍ وموصىً ؛ لأنه قد تصادفني غفلة فتكون عندك يقظة تنبهني ، وأنت تصادفك غفلة فتكون عندي يقظة أنبهك ، وهكذا .

إذن فمعنى : ﴿ تَوَاصَوْا ﴾ ، أي أن كل واحد منا موصٍ وموصىً .

﴿ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ ﴾ .. (**والتواصي**) معناه : بذل النصح والمعونة من الناصح للمنصوح ليتمسك بمبدأ مسلَّم به ، هذا المبدأ المسلَّم به هو المبدأ الإيماني ، أو المبدأ السلوكي .

والسبب في ذلك أن التواصي بالحق يعتبر هو العنصر الثالث من عناصر الدعوة الناجحة ، فالمبادئ عادة تقيِّد حركة الإنسان ، والإنسان يحب أن تكون حركته طليقة لتحقق له مشتهيات نفسه ، فتأتي المبادئ لتحكم هذه الحركة ، وما دامت المبادئ جاءت لتحكم هذه الحركة تصير تكليفًا ، والتكليف من عناصره المشقة .

وقلنا سابقًا : إن الذي يُهوِّن مهمة التكليف ومشقاته استحضار الجزاء على التكليف ، فلا نأخذ التكليف أولاً بمشقته ، ولكن نأخذ التكليف بغايته ونهايته وجزائه ، فإذا ما نصبنا الغاية والجزاء الضخم أمام أي تكليف وجدنا الغاية أرجى من مشقة التكليف .

والسبب في أن كثيرًا من الناس يحجمون عن مشقات التكليف أنهم ينصبون فقط أمام نفوسهم المشقة التي يعانونها من التكليف ، ولو أنهم استحضروا النهاية والغاية أمام

التكاليف لهانت عليهم هذه المشقات ؛ لأن المقارنة ترجح الجزاء على التكليف ومشقته .

وما دامت التكاليف في بدايتها شاقة إذن فغفلة النفس دائمًا موجودة مع التكاليف ، فليس كل يقين يقبل عليه الإنسان ، هناك ألوان كثيرة من الأشياء اليقين موجود فيها ، إنما حمل النفس على مطلوب اليقين غير موجود .

إذن فاليقين ليس هو كل شيء ، بل يجب أن يُستحضر اليقين دائمًا ليكون منهجًا منصوبًا أمام العين بحيث لا يغفل الإنسان عنه .

إن المناهج الربانية التي تقيد حركة الإنسان في تصرفه حينما تغفل النفس عنها تغفل عنها في جزئية بسيطة ، فإذا ما طاوع الإنسان نفسه وجاءت جزئية أخرى بجانبها ، ثم غفلة ثالثة تجيء جزئية ثالثة ، ثم غفلة رابعة إلى أن يحدث الران الذي يقول الحق فيه : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾[1] .

وضرب رسول الله ﷺ المثل في الحديث الذي رواه **حذيفة** رضي الله عنه قال : حدثنا رسول الله ﷺ حديثين قد رأيت أحدهما وأنا أنتظر الآخر ، حدثنا : **" أن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال**[2] **، ثم نزل القرآن فعلموا من القرآن وعلموا من السنة "** .. ثم حدثنا عن رفع الأمانة[3] ، قال : **" ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه ، فيظل أثرها مثل أثر الوكت**[4] **، ثم ينام النومة الثانية فتقبض الأمانة من قلبه ، فيظل أثرها مثل أثر المجل**[5] **كجمر دحرجته على رجلك فنفط فتراه منتبرًا وليس به شيء** ، فيصبح الناس يتبايعون

---

1 - سورة : المطففين ، الآية : 14 .

2 - أي : تمكنت من قلوبهم .

3 - أي : تلك المغروسة في القلوب هذه .

4 - الوكت : هو الأثر الذي يحدث من ملاقاة حرارة النار للجلد التي يحدث فيها لون مخالف .

5 - المجل : ليست الحرارة تصيب الجلد ، بل الجمرة نفسها تقع على الجلد فتعمل الانتبارة .

6 - أي : ارتفع .

، فلا يكاد يوجد أحد منهم يؤدي الأمانة ، حتى يقال : إن في بني فلان رجلاً أمينًا ، وحتى يقال للرجل : ما أظرفه ، ما أعقله ، ما أجلده ، وما في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان " .. قال : وقد مر عليَّ زمان وما كنت أبالي أيكم بايعت ، لئن كان مؤمنًا ليردنه علي إيمانه ، ولئن كان يهوديًّا أو نصرانيًّا ليردنه علي ساعيه ، أما اليوم فما كنت أبايع منكم إلا فلانًا وفلانًا . 1

ومنشأ هذا هو تسرب الأمانة من القلب بالغفلة عن الشيء الصغير ، ثم يغفل عن شيء آخر ، فتتراكم هذه الغفلات فتكون الطبقة التي ترين على القلب .

يشرحها في حديث آخر أيضًا **حذيفة** رضي الله عنه فيقول : حدثنا رسول الله ﷺ قال : **" تعرض الفتن على القلوب كالحصير عودًا عودا ، فأيما قلب أنكرها نكتت فيه نكتة بيضاء ، وأيما قلب أشربها نكتت فيه نكتة سوداء ، حتى تكون على قلبين : على أبيض مثل الصفا لا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض ، والآخر أسود مرباد كالكوز مجخيًا** 2، **لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا إلا ما أُشرب من هواه "** 3.

كل شاهدنا في هذا أن التحلل من المنهج لا يأتي دفعة واحدة ، ولا يأتي تحللاً من الأمور الكبيرة ، وإنما يأتي في توافه الأمور ، وبعد ذلك يأتي التافه مع التافه فيكوِّن الران الذي يحجب الإنسان عن منبع عقيدته ، وبذلك يكون سلوكه سلوكا ظلمانيًّا .

فيجب أن يوجد التواصي بالحق ، أي : كلما رأينا إنسانًا غفل عن جزئية من جزئيات دينه ننبهه .

وسماها تواصيًا ولم يسمها أمرًا ؛ لأن الوصية عادة تحمل معنى النصح من المحبوب للمحبوب ، فأنت لا توصي إنسانًا إلا إذا كنت تحبه ، وهو يوقن أنك تحبه ، لكن المحبوب

---

1 - أخرجه البخاري (6016) ، ومسلم (206) .

2 - أي : منكوسًا .

3 - أخرجه مسلم (207) .

يختلف باختلافات الناس ، فقد يكون دنيا ، وقد يكون دينًا .

إذن المحبوب الأولى بأن يكون موضع الوصية من المحبوب للمحبوب ، فيكون أمرًا محبوبًا الذي يوصي به محبوبًا والموصى به محبوبًا .

فلما تسمع الوصية تجد حق الحق هو منهج الله ﷻ ، الحق فيه ألوان كثيرة وحقه هو منهج الله ، والوصية من المحبوب للمحبوب تكون أوجهها كثيرة : توصيه بأن يكون صالحًا مثلاً في زراعته .. في تجارته .. في علاقاته بالناس .. في مذاكرته حتى يجتهد وينجح ، توصيه بأشياء كثيرة ، هي أشياء محبوبة ، ولكن قمة المحبوبية في أن يكون التواصي دائمًا بمنهج الله ﷻ وهو الحق ؛ ولذلك حينما عرض القرآن هذه الكلمة وهي الوصية قال : ﴿ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِي إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾[1] .

وللوصية وقت هذا الوقت متسع في كل زمان ، ولكن تجد الوصية تكون محكمة حين يضيق وقت المحتضر ويعلم أن الموت آتٍ ، وبعد ذلك يركز أهم شيء في الوجود ليوصي به أبناءه ؛ لأن الوقت ضيق فهو يحتضر وروحه تخرج ، فليس عنده وقت حتى يأتي بكل ما يوصي به ، فيختار قمة الوصايا التي هي المبادئ التي عرفها بتجربته في الحياة ، ويحب أن ينقلها إلى بنيه ، وهم أحبابه ، فيقولها في هذا الوقت ، كأن سكرات الموت والاحتضار لم تشغله عن أنه يلقي بهذه الوصية إلى من يحب : ﴿ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ ﴾ .. وهو في ساعة الموت ﴿ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي ﴾[2] ، كأن أهم شيء يتركه يعقوب لبنيه أن يطمئن على منهجهم العبادي .. لم يطمئن على مصائر دنياهم .. لم يطمئن على أحوالهم أو على أرزاقهم .. لم يطمئن على شيء مطلقًا ، بل أراد أن تكون هذه هي المسألة .. ﴿ قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ .. وصية

1 - سورة : البقرة ، الآية : 132 .

2 - سورة : البقرة ، الآية : 133 .

في وقـــتها ، ويعرض الحق ﷻ أيضًا الوصية من الآبـــاء ؛ لأن الأب إن غش الناس جميعًا لا يستطيع أن يغش الأبناء ، فهو يريد أن يعطيهم المنهج السليم الذي جربـه فوجده نافعًا في الحياة .

وهناك في قـــصة لقـــمان : ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لاَ تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾[1] .. ﴿ يَا بُنَيَّ ﴾ .. ﴿ يَا بُنَيَّ ﴾ .. وصية أب لابـنه ، والأب لا يرضى أن يغش ابنه ، بل يريد أن يعطيه خلاصة ما أخذه ، وخلاصة تجاربه .

إذن فالوصية من المحبوب إلى المحبوب أحسن أوقاتها هو الوقت الذي يفارق الإنسان فيه الحياة لماذا ؟

لأنه إن كان يكذب قديمًا فلن يكذب في هذا الوقت ، فالذي يكذب دائمًا يجب أن يصدق في هذا الوقت ، ويستحضر قمة الأشياء التي يعتبرها نافعة لأحب الناس إليه ، وهم أبناؤه حتى يزودهم بالمنهج النافع .

والوصية بالحق تأخذ طابعها القوي حيث مثلها الخلفاء الراشدون أبو بكر وعمر رضوان الله عليهما ، حينما توليا أمر المسلمين ، فتولية أمر المسلمين قد يعطي في بعض ضعاف النفوس مهابة الولاية ، فربما تصرفا تصرفًا قد يكون فيه شيء من الغفلة ، فهو يوجه الوصية والنصح إلى الرعية المحكومة به ؛ لأنها يجب أن تتقبل كل أعماله تقبل الناقد الصيرفي ، فلا تتقبله لأن هذا هو أبو بكر ، أو لأن هذا هو عمر ، بل تأخذ أعمالهما وتنقدها ، فإن كان مطابقًا لمنهج الإسلام أيدوه ، وإن لم يكن مطابقًا لمنهج الإسلام نصحوه وقوّموه .

لذلك قال سيدنا أبو بكر حين تولى الخلافة : قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينوني ، وإن أسأت فقوموني .. أطيعوني ما أطعت الله ورسوله ، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم .

---

1 - سورة : لقمان ، الآية : 13 .

فأعطاهم المنهج ، إذن فلن يتهيبه أحد .

وأيضا يأتي **عمر** رضي الله عنه ويعطي هذه النصيحة ؛ لأنه خاف أن يتهيبه الناس فيجدوه على عمل من الأعمال فلا يجترئوا أن يردوه عنه ، فقال **لمحمد بن مسلمة** : يا **محمد** ، كيف تراني ؟ قال : أراك كما أحب ، وكما يحب من يحب لك الخير ، قويًّا على جمع المال ، عفيفًا عنه ، عدلاً في قسمه ، ولو ملت عدلناك كما يعدل السهم في الثقاف . قال : الحمد لله الذي جعلني في قوم إذا ملت عدلوني .

بهذه المبادئ يقظ الخليفتان شعور الرعية المحكومة بهما أنهم لا تأخذهم مهابة هؤلاء الخلفاء ، بل ينقدون أعمالهم وينظرون كيف يتصرفون .

ولذلك كانت مهمة أي حاكم حينما يولي الولاة أن يزودهم بالنصيحة ، لماذا ؟ لأنها نصيحة من يملك ، وإذا خالف الوالي سيناله سوء ؛ ولأنه هو الذي ولاه فيعطيه المبدأ ، وقد كانت المسافة بين الولايات بعيدة ، ووسائل التراسل لم تكن سهلة ، وإقبال المظلومين إلى الحاكم العام لم يكن ميسرًا لهم ، فلابد أن يتوجه الوالي الخاص في البقعة الخاصة مزودًا بالنصائح الكافية ، وموصى بالتوصية اللازمة .

فمثلاً نجد **سيدنا عليًا رضوان الله عليه** عندما يولي مالك بن الأشتر ولاية مصر ، فلما جاءه بعد أن حزم أمتعته كان آخر كلامه له : اعلم يا مالك أني قد وجهتك إلى بلاد قامت فيها دول قبلك بالجور والعدل ، وإن الناس سينظرون من أمرك في مثل ما كنت تنظر إليه من أمور الولاة قبلك ، ويقولون فيك مثل ما كنت تقول فيهم ، وإنما يستدل على العباد بما يجريه الله على ألسنة عباده ، فليكن أحب الذخائر إليك ذخيرة العمل الصالح ، وأشعر قلبك الرحمة بالرعية ، والمحبة لهم ، واللطف بهم ، ولا تكن عليهم سبعًا ضاريًا تغتنم أكلهم ، فإنهم صنفان : إما أخوك في الإسلام ، وإما نظيرك في الخلق ، يفرط منهم الزلل ، وتغلب عليهم العلل ، ويؤتى على أيديهم من العمد والخطأ ، فأعطهم من عفوك وصفحك مثل ما

تحب أن يعطيك الله من عفوه وصفحه ، فإنك فوقهم ، ووالي الأمر عليك فوقك ، والله فوق من ولاك .

فكلامه مراتب : نصيحة وتوصية يوصى بها الوالي ؛ لأن الوالي إذا صلحَ صلح به شيء كثير .

فسيدنا **الحسن البصري** يقول : لو أن لي عند الله دعوة مستجابة لخصصت بها السلطان ، قيل له : وكيف ؟ قال : لأن الله يصلح على يده الشيء الكثير .

إذن فالنصيحة والتوصية هي التنبيه الدائم للتمسك بمنهج الحق ، لكن قد تعترض النصيحة والتوصية أشياء تحول بين الإنسان وبينها ، قالوا : ذلك خاضع لعظمة النفس الناصحة ، فما هي العقبات التي تحول عن هذا الأمر ؟

فيعرض لنا التاريخ الإسلامي قممًا من قمم العقبات ، من قمة الولاة الكبار ، ويأتي الإنسان فيجابهه بكلمة الحق ولا يبالي بها فينصح ويقول ، فمن الجائز أن يتقبلها ، ومن الجائز أن يدخرها في نفسه ليستغل أية فرصة وينكل بالناصح ، ولكن لم يؤثر ذلك في الناصحين أبدًا ، ولا يبالون .

فمثلاً يدخل **ابن السماك** على **الرشيد** ، فلما دخل على **الرشيد** ، وقليلاً ما كان يدخل ، فطلب الرشيد كوب ماء ، فقبل أن يشرب الماء قال له : بالله عليك يا أمير المؤمنين ، لو منع عنك هذا الكوب من الماء بكم كنت تشتريه من ملكك ؟ قال : أشتريه بنصف ملكي . قال : فإذا مُنع خروجه منك ، فبكم كنت تشتري إخراجه ؟ قال : بملكي كله . قال : إن ملكًا لا يساوي شربة ماء لحقيق أن يزهد فيه .

هكذا .. وبكل جرأة ، فيقولون النصيحة ويقولون التوصية ، ولا يبالون ماذا تكون النتيجة .

وتاريخ الإسلام مملوء بهذا .. هذا **سعيد بن المسيب** ناله ما ناله جراء نصحه .. وهذا **سعيد**

بن جبير ناله ما ناله .. وهذا الإمام مالك ناله ما ناله .. وهذا هو الإمام الشافعي ناله ما ناله .. وهذا هو الإمام العظيم أحمد بن حنبل ناله ما ناله .. وهذا أبو حنيفة ناله ما ناله .. ومع ذلك ظلوا على مواقفهم .

ومن العجيب أن يأتي الاضطراد في النسق الذي نحن آخذون عنهم منهجنا حتى يطمئن إلى أن هؤلاء لم يغيروا شيئًا في منهج الله ، بدليل أن الولاة مع جبروتهم ومع ظلمهم لم يستطيعوا أن يخرجوهم عن حكم يرون أن ذلك هو حكم الله .

إذن ينشأ من التواصي بالحق أمرٌ ثانٍ وهو أنهم لابد أن يتواصوا بالصبر .

فنستهين بالعقبات ونصبر ونصابر ونرابط ، فإذا ما كنا قد جمعنا العناصر لذلك المنهج الإلهي إيمانًا به وبما يستلزمه الإيمان به ، وعملاً صالحًا ؛ سواء كان عملاً تعبديًا أو عملاً ينظم حركة الحياة ، ثم لم نغفل عن مبدأ من مبادئ الحق وذلك بالتواصي عليه ، ثم لم نهن أمام حدث من أحداث الدنيا فنتواصى بالصبر نكون ممن استثناهم الله من الخسران ، فإن تهاونا في مبدأ فلنعتقد أن هذا التهاون سيجعلنا من أهل الخسران والعياذ بالله .

فتجد مثلاً في أثناء محنة سيدنا ابن حنبل في محنة خلق القرآن التي قامت أيام المأمون ، وظلت أيام المعتصم ، وبعد ذلك أيام الواثق ، ثم أنهاها المتوكل ، فكل الناس قد فتنوا فقالوا برأي الدولة ، وحين تطلب الدولة رأيًا على أنه رأي الدولة فيا خسارة الإسلام ويا ضيعته ، فالدولة ترى أن هذا كلام المعتزلة ، ويجب أن يؤيد فقالت : إن القرآن مخلوق .

فالعلماء بعضهم أجاب بتورية ، وبعضهم وافقهم ، وبعضهم وقف ، ممن وقف أمامهم وهو آخر من وقف محمد بن نوح وسيدنا الإمام أحمد بن حنبل ، ومحمد بن نوح قبل أن يأتيه التعذيب كان الله قد قضى فيه أمره وانتقل إليه ، وسيدنا أحمد بن حنبل هو الذي تلقاها ، وبعد ذلك أخذوه ليصنعوا فيه ما صنعوا ، فجاء له ابن الأنباري واحتال عليهم ودخل فقال له : يا إمام لم يبق سواك من علماء المسلمين من يقف إلى جانب الحق ، وإنك إن

أجبت تقية ، والجهال لا يعلمون التقية ، فكيف يعرفون الحقيقة ، يا إمام اصبر على ما ينالك ، هذه وصية **ابن الأنباري** .

بعد ذلك أدخل السجن ودخل عليه عمه **إسحاق بن حنبل** ، فقال : والله يا عم ما أخاف السجن فهو مثل بيتي ، وما أخاف الموت فهو إلى ربي ، ولكن أخوف ما أخافه السياط مخافة أن تخور نفسي وتضعف .. فبينما هو يقول ذلك لعمه **إسحاق** إذا برجل من المسجونين معه يقول له : يا **أبا عبدالله** لا تخف ؛ إنما هما سوطان ، ثم لا تدري ما يقع عليك بعدهما .. وذلك هو التواصي بالصبر .

إذن فالمنهج الحق يجب أن يحاط بتواص بالحق حتى لا تتسرب الغفلة ، وبتواص بالصبر حتى لا ينهار الإيمان أمام الاضطهاد ، فإذا وجد في مبدأ من المبادئ تلك العناصر فلابد أن يدوم ويستمر وينجح .

وأنت إذا استقرأت الإسلام وتاريخه وجدت الإسلام يقوى ويضعف باكتمال هذه العناصر ، فحينما كانت هذه العناصر كلها مجتمعة كان الإسلام والمسلمون في نضج وفي فلاح ، وحينما انحل المسلمون انحلالاً عمليًّا ، أو انحلال عدم تواصٍ بحق ، أو انحلال عدم تواص بصبر ماذا كان ؟ كان ما نراه الآن من أن الإسلام ابتدأ في عهد الغربة .

إذًا فالحق ﷻ كأنه قال لنا : التاريخ أعظم شاهد لنا ، والإنسان نوعان : نوع في خسر ، ونوع في نجاح ، أما الذين في غير خسر ، أي : في نجاح فهم الذين تكتمل فيهم هذه العناصر : إيمان وعمل صالح وتواص بالحق وتواص بالصبر ، فإذا رأيت قومًا في غير نجح ، أي : قومًا في خسر فابحث لتجد السبب تخلف واحد من هذه العناصر .

نسأل الله ﷻ أن يوجهنا إلى ما فيه خير من إيماننا وعملنا الصالح ، وتواصينا بالحق ، وتواصينا بالصبر .

علم تفسير جزء

سورة الهمزة

سورة الهمزة

بسم الله الرحمن الرحيم . . أحمدك ربي كما علمتنا أن نحمدك ، وأصلي وأسلم على خير خلقك سيدنا محمد ﷺ ، وبعد . .

فمع **سورة الهمزة** ، تلك السورة التي تعكس من الصور الواقعية في حياة الدعوة في عهدها الأول ، وهي في الوقت ذاته نموذج يتكرر في كل بيئة .. صورة اللئيم الصغير النفس ، الذي يؤتى المال فتسيطر نفسه به ، حتى ما يطيق نفسه ، ويروح يشعر أن المال هو القيمة العليا في الحياة ، القيمة التي تهون أمامها جميع القيم وجميع الأقدار .. أقدار الناس ، وأقدار المعاني ، وأقدار الحقائق ، وأنه وقد ملك المال فقد ملك كرامات الناس وأقدارهم بلا حساب .

كما يروح يحسب أن هذا المال إله قادر على كل شيء ، لا يعجز عن فعل شيء ، حتى دفع الموت وتخليد الحياة ، ودفع قضاء الله وحسابه وجزائه .. إن كان ثم نظرة لحساب وجزاء .

ومن ثم ينطلق في هوس بهذا المال يعده ويستلذ تعداده ، وتنطلق في كيانه نفخة فاجرة ، تدفعه إلى الاستهانة بأقدار الناس وكراماتهم ، ولمزهم وهمزهم ، يعيبهم بلسانه ، ويسخر منهم بحركاته ، سواء بحكاية حركاتهم وأصواتهم ، أو بتحقير صفاتهم وسماتهم ، بالقول والإشارة ، بالغمز واللمز ، باللفتة الساخرة ، والحركة الهازئة .

وهي صورة لئيمة حقيرة من صور النفوس البشرية حين تخلو من المروءة وتعرى من الإيمان ، والإسلام يكره هذه الصورة الهابطة من صور النفوس بحكم ترفعه الأخلاقي ، وقد نهى عن السخرية واللمز والعيب في مواضع شتى ، إلا أن ذكرها هنا بهذا التشنيع والتقبيح

---

* مقدمة تفسير السورة مقتبس بتصرف من : "في ظلال القرآن" .

مع الوعيد والتهديد ، يوحي بأنه كان يواجه حالة واقعية من بعض المشركين تجاه رسول الله ﷺ وتجاه المؤمنين ، فجاء الرد عليها في صورة الردع الشديد ، والتهديد الرعيب .

وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُۥ ﴿٢﴾ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ﴿٣﴾ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ﴿٧﴾ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ ﴿٩﴾

﴿ وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ ﴾ .. كلمة : (ويل) : في المدلول الاصطلاحي الذي يعنيه ربنا غير المدلول اللغوي الذي نفهمه ، كما قلنا مثلاً في القارعة ، فيكون هناك مدلول لغة ، ومفهوم آخر ؛ ولذلك فالحق ﷻ حتى يأخذني للمدلول اللغوي وللمتعارف للسان يأخذني من المدلول عنده ، فيقول : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ ﴾ .. لعلك تدري أن القارعة أو الحاقة أو الحطمة هي المعنى اللغوي الذي عندك ، كلا .. ليس المعنى المقصود ، بل المعني المقصود هو كذا ، ثم يوضح الله ﷻ ما يقصده .

ولذلك قال بعضهم : (الويل) واد في جهنم من أقصى الوديان .. وحين يتوعد الحق القادر على إنفاذ ما يتوعد به فيكون الأمر واقعًا ، فيجب أن تستحضر الصورة على أنها واقع ؛ لأن الذي قد يشكك في تنفيذ الأمر ، أو الذي يكون شفيعًا لنفسي بأن لا تعبأ بالتهديد أمور :

الأمر الأول : أن الذي هدد لا يضمن أنه سيبقى حتى يوقع ما هدد به .

الأمر الثاني : أنه لا يملك أن تظل له القوة المهدد بها .

الأمر الثالث : قد أصبح أحسن وأقوى منه عندما يريد أن يوقع التهديد ..... وهكذا .

لكن إذا كان الذي يقول : ﴿ وَيْلٌ ﴾ ويهدد به باق وقادر على إنفاذ ما يقول ، ولن تفلت أنت من يده ، فمعنى ذلك أن هذا وعيد من صنف آخر ، وعيد ممن يقدر على إنفاذ ما وعد ، وعيد ممن لا تتسرب للنفس آمال بأنه قد ينتهي عنك ، وعيد ممن لا يمكن أن تخرج عن ملكه وسلطانه ، فالمسألة ليست مطلق ويل ، أو مطلق عذاب ، بل عذاب خاص من الله ﷻ ، إذن فالتهديد يجب أن يصحب بمقوماته حتى يعطي الهيبة في النفس منه .

﴿ وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ ﴾ .. (اللمزة) : صيغة مبالغة ، وهو الذي يقع منه الحدث كثيرًا ، يقال مثلا : (فلان ضُحَكة) بالفتح ، وهو الذي يصدر الضحك منه على الغير .. و: (فلان ضُحْكة) بالسكون ، وهو الذي يأتي الضحك من الغير عليه .

و(الهمزة) : هو الذي يهمز الناس ، أي : يعيبهم ، و(اللمزة) : هو الذي يأتي بالشيء الذي فيه لمز ، فمرة يكون باللسان ، ومرة يكون بإشارة العين ، ومرة يكون بتقليد الحركة ، إذن فالهمزة واللمزة : هو العياب الفاحش الذي يسيء إلى الناس .. إما بعينه ، وإما بلسانه ، وإما بالتعرض لحركاتهم ، يريد ﷻ أن يعطينا الحيثية التي جعلته ينزل إلى هذا المستوى ؛ وهو أنه يظن أنه صنف آخر من الناس ، والذي جعله يفهم ذلك هو المال الذي عنده .

﴿ الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ ﴾ .. ومعنى : ﴿ عَدَّدَهُ ﴾ أي : أحصاه ، أي في كل وقت يُطمئن نفسه بأن يفعل كما يفعل البخلاء بعَدِّ المال ، أو : ﴿ عَدَّدَهُ ﴾ أي : جعله عُدة له في كل شيء ، أي من الإعداد .

وهنا لفتة هامة ، يجب الانتباه لها .. وهي أن تلك الحادثة هل تعرضت لأحدهم بخصوصه ؟ أم أنها عامة للناس كافة ؟ نقول : لا يهم أي شخص مخصوص ، إنما المهم في إطلاق المبدأ ليستوعب ما شاء له من الاستيعاب ؛ فلو أراد أن يتكلم عن شخص مخصوص كان من الممكن أن يأتي باسمه أو بوصفه ، فقد تكلم عن شخص مخصوص فقال : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾[1] ..

---

1 - سورة : المسد ، الآية : 1 .

إذن فهناك أمر مناط الحكم فيه هو الوصف ، وأمر مناط الحكم فيه هو الشخص ، فالذي مناط الحكم فيه هو الوصف يكون شائعًا في أفراد كثيرة لا يقيده التشخيص الوصفي ، إنما الذي مناط الحكم فيه الشخص فليس له إلا ذلك الفرد ، فمناط الذم ومناط الوعيد ليس على المشخص وإنما على الوصف الذي استحق به ذلك ، إذن فذلك الوعيد إنما يأتي لمن اتصف بذلك الوصف ولو كان غير ذلك الشخص .

ولذلك فالقرآن عندما يعرض قصة كقصة أهل الكهف مثلاً ، فمن العلماء من قاموا ببحث أسمائهم .. وعددهم .. وبلدهم .. وحالهم .... إلخ ، لدرجة أنهم أتوا لكلبهم باسم ، واحتالوا ببعض الإسرائيليات من هنا وهناك ، فخرجوا عن مطلوب النص ؛ لأن القصة لو أنها وردت في مشخصين بذواتهم ووردت مشخصة بزمانها ومكانها لقدح ذلك في سياق القصة ؛ لأن الحق يعرض علينا قصصًا نموذجيًا ، أي قصصًا مهيجًا للحق في نفوسنا ، وكأنه يريد أن يقول لنا : حتى لو كانت فئة صغيرة العدد فلا يمنعهم قلتهم من أن يقوموا أمام دعوة الباطل ، وأن يظلوا متمسكين بالحق ، بأي اسم .. وبأي عدد .. وفي أي زمان .. وفي أي مكان .

إذن فالذي يريد أن يحدد مفهوم القصة بأشخاص أو بزمان أو بمكان إنما يقدح في مطلوب القصة ؛ لأن الله ينصبها مثلاً للفتوة الإيمانية التي لا تبالي بأي أسماء .. في أي مكان .. في أي زمان ، فلو أنها حددت بأشخاص لقيل : إن هؤلاء الأشخاص كان لهم طبيعة خاصة ، فغيرهم لا يستطيع أن يعمل عملهم ، أو يخصصها بزمن فيقول : كانت ظروف هذا الزمن تسمح ، أو يخصصها بمكان فيقول : كانت مواصفات المكان في هذا الوقت كذا وكذا .

﴿ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ﴾ .. أي : يظن أن ماله يعطيه الخلد ، وذلك فهم يبعده واقع الحياة ، فلم يظن أحد أبدًا أنه يخلد ، بل كلنا نعتقد أننا سنموت ، فلعل المراد من : ﴿ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ﴾ .. أنه طلب من قوة التدبير في أنه يبقي لنفسه ذلك المال ، أي : يستطيع أن يفعل فيه فعلاً يجعل المال دائمًا لا عرضًا ، فالمال عرض يأتي ويذهب ، ولكنه

يريد أن ينقل المال والغنى لا إلى العرض ، وإنما يريد أن ينقله إلى صفة لازمة ، وهذه ليست موجودة أبدًا في الوجود ؛ لأنه عارض دائمًا يأتي مرة ويذهب مرة .

وما دام يحسب أن ماله أخلده أي : سيظل هكذا ، يعطيه طبيعة قساوة القلب ؛ لأنه هو الذي يجعل القلب يصفو ويخرج القلب من شحه ، فعندما يعتقد أن ماله لن يذهب عنه تظل معه قساوته ويظل معه شحه .

﴿ كَلاَّ لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ﴾ .. وعلى طريقة القرآن في علاج المسائل قال : ﴿ كَلاَّ ﴾ .. وهي كلمة زجر عما يحسبه ، وعما يظنه في أن ماله أخلده ، ؛ ولذلك قيل لأحد الحكماء : لقد جمع فلان مالاً كثيرًا .. فقال : وهل جمع العمر الذي ينفقه فيه ؟! إذن فالإنسان مهدد من ناحيتين : من ناحية أن المال قد يبقى ولا يبقى هو ، ومن ناحية أن يبقى هو ولا يبقى المال .

﴿ كَلاَّ لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ﴾ .. يعرض الحق النهاية التي تناسب البداية ، فقد قال هناك : ﴿ وَيْلٌ ﴾ ولقد أخذناها بتعبير الله ﷻ ، وأخذناها بقدرة الله ﷻ على إنفاذ وعيده ، وأن عبده لا يفلت منه ، فقال : ﴿ كَلاَّ لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ﴾ .. وكلمة : ﴿ لَيُنْبَذَنَّ ﴾ من : نبذت الشيء ، فأول ما توحي كلمة النبذ في تعبيرها : الاحتقار والمهانة ، وذلك رد طبيعي على استهلال السورة بالهمزة اللمزة ، فلقد كان يهمز ويلمز امتهانًا واحتقارًا واستخفافًا ، فجزاؤه يكون من جنس ما قدم : ﴿ لَيُنْبَذَنَّ ﴾ .. وليته ينبذ ويكون حظه فقط الطرد من الحضرة والنعيم ، كلا .. لكنه سينبذ في الحطمة ، والحطمة أول ما تسمعها تذكر الهمزة تمامًا ، فالهمزة هو الذي يأتي منه الهمز كثيرًا ، والحطمة هي التي تحطم ، وتحطيمها قوي ، فهذا هو ما يناسب ﴿ الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ ﴾ .

إذن فكلمة : ﴿ لَيُنْبَذَنَّ ﴾ ناسبت الهمزة واللمزة ، وناسبت ﴿ الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ ﴾ .

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ﴾ .. على المعنى في كل : ﴿ مَا أَدْرَاكَ ﴾ .. فإياك أن تظن أن الحطمة هي الشيء يحطم الشيء ، كلا .. فهذا هو مدلولها اللغوي ، بل لها عند الله ﷻ مدلول آخر .

﴿ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ﴾ .. إنها ليست مطلق نار ، فإنها أُسندت إلى الله ﷻ ، فهذا دليل على أنها يجب أن تأخذ وصفًا مناسبًا ، وذلك كما دعا رسول الله ﷺ على **عتبة بن أبي لهب** قال : " **اللهم سلط عليه كلبًا من كلابك** " .. فخرج إلى الشام فأكله سبع[1]، فلقد قال النبي ﷺ : " **كلبًا** " .. ولكن لما أضيف الكلب إلى الله ﷻ .. فلابد وأن يكون كلب الله سبعًا لا كلبًا .

فإذا قال الله ﷻ عن هذه النار : ﴿ نَارُ اللَّهِ ﴾ .. فليس لأحد من خلق الله ﷻ أن يحجبها ؛ لأنها ليست نار فلان أو علان من البشر ، فقد يأتي من هو أقوى منه فيطفئها ، إنها ﴿ نَارُ اللَّهِ ﴾ .. فليس في مقدور أحد أن يطفئها ، وليس في مقدور أحد أن يدفع عن المعذب بها شيئًا .

﴿ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ﴾ .. ومن طبيعتها أنها موقدة .. تأكيدًا لاشتعالها وتأججها .

﴿ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ ﴾ .. والتعبير في : ﴿ تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ ﴾ .. أي تظل تعمل فيه إلى أن تصل إلى قلبه ، فكأن النار مميزة ، فتطلع على القلب ، فما كان موجودًا في القلب تعطيه من الألم على قدر ما فيه .

﴿ إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ ﴾ .. فلا تفكير في الفرار .

﴿ فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ ﴾ .. وفي عمد ممدة أي : عُمُد طويلة مربوطة .

إذن .. ﴿ نَارُ اللهِ ﴾ .. و : ﴿ الْمُوقَدَةُ ﴾ .. وطبيعتها أنها : ﴿ تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ ﴾ .. و : ﴿ تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ * إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ ﴾ .. فلا منجى .. ﴿ فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ ﴾ ..

---

1 - انظر السنن الكبرى للبيهقي (5 / 211) .

لا فرار منها ولا انفلات أبـــدًا ، فذلك هو الجزاء الذي يناله ﴿ الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ ﴾ والهمزة واللمزة ، وتجد أن كل وصف في العذاب يناسب وصفًا في الذنب .

نسأل الله ﷻ أن يباعد بيننا وبين هذه الصفات ، حتى نكون أهلاً لرحمته وأهلاً لمحبته وأهلاً لرضاه .

إنه ولي ذلك والقادر عليه .

علم تفسير جزء

سورة الفيل

سُورَةُ الفِيلِ

بسم الله الرحمن الرحيم، أحمدك ربي كما علمتنا أن نحمد، وأصلي وأسلم على خير خلقك سيدنا محمد ﷺ، وبعد:

فمع **سورة الفيل**، وفي البداية هناك مناسبة بين **سورة الهمزة** و**سورة الفيل** يجب أن نبينها، وهي أن الحق ﷻ في **سورة الهمزة** أخبرنا عن غيب في قوله ﷻ: ﴿ كَلاَّ لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ * نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ * الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ * إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ * فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ ﴾[1]، وهذا وعيد لذلك الهمزة اللمزة يعلمه ما سيحدث له يوم القيامة، فكأن الحق ﷻ أراد أن يدلل على صدق نفاذ ذلك الوعيد، فأجرى في دنيانا على الكافرين بعض الأمور المحسوسة؛ لينتقل من الغيب إلى الحس، فيصدق أن الذي أجرى ذلك في المحسِّ، قادر على أن يجري ذلك فيما يغيب عنا.

وتصديقًا على أنه ﷻ قادر على إنفاذ العذاب الغيبي يوم القيامة، يأتي ﷻ بحادثة دنيوية محسوسة لنا؛ لتدل على صدق الوعيد، فيأتينا ببعض الأشياء التي أجراها ﷻ في عالم الدنيا وعالم الحس على بعض القوم الكافرين، ليدل على أن الذي توعد هذا الوعيد قادر على إنفاذه، كما أنفذ وعيدًا، وكما أنفذ عذابًا، في دنياكم المرئية.

إذن.. فتلك هي مناسبة **سورة الهمزة** لـ**سورة الفيل**؛ ولذلك جاء ترتيب **سورة الفيل** في المصحف بعد **سورة الهمزة** مباشرة.

---

1 - سورة: الهمزة، الآية: 4: 8.

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴾ .. حينما نستقبل هذه السورة نجد أنها بدأت برسم هو : ﴿ أَلَمْ ﴾ .. ألف ، ولام ، وميم ، فمرة نقرأها مقطعة كما في البقرة : ألف ، لام ، ميم ، وهنا نقرأها كلمة واحدة : ﴿ أَلَمْ ﴾ ، فما الذي جعل رسمًا يُقرأ هكذا هنا ، ويقرأ هكذا هناك ؟! هذا لأن قراءة القرآن توقيفية ؛ فليس كل (ألم) أقرأها : ألف ، لام ، ميم ، أو أقرأها : أَلَمْ .

وهذا يجرنا إلى ملاحظة أن القرآن له خصوصيات كثيرة :

الخصوصية الأولى : خصوصية التناول ، فأنت تتناول أي كتاب فلا يشترط فيك أن تكون طاهرًا ، وهذا الكتاب بخصوصه يشترط أن تكون طاهرًا ، لماذا ؟ لتربية المهابة لذلك الكتاب ، وكأنه ليس كتابًا عاديًّا تتناوله ، فقبل أن تتناوله يجب أن تتناوله بنية ، ويجب أن تقبل عليه وأنت طاهر .

الخصوصية الثانية : أنه يختلف في بعض رسمه عن قانون الكتابة ، والرسم الإملائي ، فليس كله يكفي أن يكون في بعضه ، فمثلاً لو قرأنا : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ .. لوجدناها في كل سور القرآن بغير ألف ، فالباء موصولة بالسين ، ولكن إذا قرأت أول آية نزلت تجدها في قوله : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ﴾[1] ، فتجد أن الباء يفصلها عن

1 - سورة : العلق ، الآية : 1 .

لسين ألف ، فما الفرق بين (بِسْمِ) هنا ، و (بِاسْمِ) هناك ؟! وما الحكمة من كتابتها بهذا الشكل في الموضعين ؟! إن هذا يرد على الذين قالوا : إن العرب لم يكن عندهم قواعد الإملاء ، ولا يعرفون قانون الكتابة ؛ فكانوا يكتبونها بأي شكل .. فهذا يرد عليهم ؛ فلو كان العرب مخطئين في حذف الألف في موضع لما أثبتوها في الآخر ، ولكنهم كتبوها بالألف في مواضع بعينها ، وحذفوها في مواضع أخرى ، مما يدل على أن ذلك توقيف من عند الله ﷻ .

إن رسول الله ﷺ تناول القرآن الكريم من جبريل عليه السلام ، ثم بلغه إلينا ، فقال : اكتبوا هذا هكذا ، واكتبوا ذلك كذلك .. فكأن هناك إشارات كانت حين الموقف فيها دلالة على الرسم ، ودليل ذلك أنك حين تنظر مثلاً إلى كلمة : (تَبَارَكَ) في القرآن ، تجد أن بعضها كتبت بالألف ، وبعضها بحذف الألف ، فهل هي كلمة واحدة ، ومرة كتبت بالألف ، ومرة بغير الألف ؟! أم هي كلمتان مختلفتان ؟! كل الذي نستطيع أن نقوله هو أن ذلك توقيف .

إذن ، فالقرآن فيه خاصية تناول ، وخاصية نطق ، بدليل أن كلمة : (ألم) تقرأ مرة : ألف .. لام .. ميم هكذا مقطعة ، وتقرأ مرة : ﴿ أَلَمْ ﴾ ، فما الفرق بينهما ؟! أنت تقرأ الأولى بنطق أسماء الحروف ، وفي الثانية تقرأ مسميات الحروف ، إذن ، فالحروف لها أسماء ، ولها مسميات ، فالاسم ألف ، ولكن مسماها عندما أنطقها في الكلام لا أنطقها في الكلام ألفًا ، إنما المدلول المسمى ، فمرة أنطق الحروف بأسمائها ، ومرة بمدلولاتها .

وليس كل ناطق يستطيع أن يفرق بين أسماء الحروف وبين مسمياتها ، وإلا فالأمي كالمتعلم ينطق مسميات الحروف ، فالأمي يقول مثلاً : قرأ ، وكتب ، وأكل ، وتكلم ، ولكنه لا يعرف أن : كتب مثلاً مكونة من : كاف مفتوحة ، وتاء مفتوحة ، وباء مفتوحة ، فلا يعرف ذلك إلا المتعلم ، ومحمد ﷺ كان أميًّا ، فما الذي نقله من قراءة مسميات الحروف إلى قراءة أسماء الحروف ، مع أن أسماء الحروف لا يرتاض عليها إلا متعلم ، وهم جميعًا يشهدون أنه أمي ، ولم يجلس إلى معلم ، وهذا دليل على أن الذي اتخذه رسولاً علمه .

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ ﴾ .. وهنا يجب أن نعرف أن لغتنا تتكون من الكلمة ، والكلمة مدلولها إما اسم ، وإما فعل ، وإما حرف ، والتي لا هي اسم صريح ، ولا هي فعل صريح نسميه اسم فعل ، مثل : هيهات ، بمعنى : بَعُد ، فلا نستطيع أن نقول إنها اسم ، ولا فعل ، إنما هي (**اسم فعل**) ، فلو نظرت إلى الاسم أو الفعل أو الحرف ، تجد أن كلها تدخل في مدلول الكلمة ، إلا أن كل واحد له مدلول .

إذن .. فحروف المبنى لا تدخل في هذه الأقسام ، كالباء من : " كتب " مثلاً ، أو التاء ، فتسمى بحروف المباني ، إنما باء الجر ، وتاء القسم ، وواو العطف ، وأشباهها فتسمى بحروف المعاني ، فمثلاً : (**لاَ**) حرف له معنى ، والباء من قولك : (**كتبته بالقلم**) .. فالباء حرف له معنى ، والفعل له معنى ، والاسم له معنى ، كل واحد من أقسام الكلمة له معنى ، إلا أن ذلك المعنى إما أن يكون مستقلاً بالفهم ، أو غير مستقل بالفهم ، فمستقل بالفهم : بحيث إذا قرأت الكلمة يكون لها معنى مستقل تفهمه ، أو لها معنى غير مستقل ، مثل : (**محمد**) ، كلمة عندما تقولها تحضرك صورة الشخص المسمى بمحمد ، فتكون قد أدت معنى ، و : (**كتب**) ، لها معنى كذلك ، ولكن لو قلت : (**الباء**) وحدها لا أفهم معنى إلا إذا انضمت الباء إلى شيء ، كقولك : قطعت بالسكين .

إذن .. فكيف نفرق بين مكونات الكلام من اسم أو فعل أو حرف ؟

قيل : إن كان الزمان جزءًا من مدلول المعنى فهو فعل ، وإن لم يكن الزمان جزءًا من مدلول المعنى فهو اسم ، أما إن لم يدل على معنى في نفسه أصلاً فهو الحرف .

والهمزة التي دخلت في : ﴿ أَلَمْ ﴾ همزة استفهام ، كما نقول : أقام زيد ؟ بمعنى : هل قام زيد ؟ و : أمحمد عندك ؟ بمعنى : هل محمد عندك ؟ فالهمزة للاستفهام ، و : (لم) حرف للنفي ، ذلك معناه ، أما عملها فشيء آخر ، فهناك فرق بين معناها وبين عملها ، فمعناها : هي للنفي ، أما عملها : فهي حرف نفي وجزم وقلب ، يدخل على المضارع الصالح للحال أو

الاستقبال فيجعله للماضي .

وعند الاستفهام إذا قلت : أكتب محمد ؟ فهو استفهام عن الكتابة ، أما عندما تقول : أمحمد كتب ؟ فأنت هنا تستفهم عن محمد ، إذن .. فعن أي شيء يستفهم في : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴾ ؟ .. إذا قمت بحذف همزة الاستفهام تقول : (لم تر) ، فهل كان ربنا ﷻ يستفهم عن النفي ؟! فعندما يقول الله ﷻ : (لم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل) ، فبذلك يكون الله ﷻ قد نفى عنه أنه يعلم ، ويكون الاستفهام عن ذلك النفي ، فنقول : فإذا كان ليس نفيًا ، بأن يقول : (أترى كيف فعل ربك بأصحاب الفيل) ، فيكون قد أثبت ، فهذا اسمه الحدث ولكن السؤال بالهمزة قد يكون للتقرير ، أي : لتقرير ما بعدها ؛ لأن الخطاب قد يكون من المتكلم خبرًا صالحًا لأن يكون صادقًا أو أن يكون كاذبًا ، وهذا الخبر عندما أحب أن أقرره أستخدم صيغة الاستفهام ؛ حتى يشارك المخاطَب في إثبات الفعل ، وفي إعداد الجواب ، فتقول : أحسنت إليك قديمًا .. فإذا أردت أن يقرَّ المخاطَب بلسانه ، فحوِّل الخبر إلى استفهام ، فتقول : ألم تر أني أحسنت إليك ؟ فبذلك تكون قد نقلت الكلام منك أنت كمتكلم ، إلى المحسن عليه كمخاطَب ، فكأنك تقرره بما بعد المدلول ، ولا تنقل الكلام منك إليه إلا إذا كنت على ثقة بأنه سيقول : نعم أحسنت إليَّ ، ولا يكون هذا كلامك ، بل هو إقرار منه ، وما دام إقرارًا منه فيكون حجة في إثبات الفعل ، فكأنك قررته بالفعل .

فكأن طرح السؤال إيحاء بالجواب ، فالحق ﷻ حينما يأتي ليقرر شيئًا ، لا يقرره بصيغة الإثبات فيقول : أنت لم تر ما فعل ربك بأصحاب الفيل ، لكان رسول الله ﷺ يقول : لا أنا رأيت ، فلم يقرره برأيت ، ربما يكون ذلك إيحاء بالجواب ، بل أتاه بالمقابل ، فكأنك عندما تقول لرجل : أنت بخيل ، وأنت لم تعطني حقي ، فيقول لك : صحيح ، أنا لم أعطك حقك يوم كذا ، ولم أحسن إليك يوم كذا ، مع أن هذا حدث بالفعل ، ولكنه أتى به منفيا ، فتأتي

له بالعكس ، فكأنها أمر من الوضوح بحيث لا يستطيع المستفهم منه أن ينكر ذلك ، بل جاء له بما يناقض القضية .

فكذلك قال الله لرسوله ﷺ : ﴿ أَلَمْ تَرَ ... ﴾ ، وكأن رسول الله ﷺ يقول : بلى رأيته ، فكأن همزة الاستفهام إذا دخلت على الشيء ، فكأنها تقرر بالفعل ، وإذا دخلت على ما دخل عليه الاستفهام ، لك أن تقول : إنها تقرر ما بعد النفي ، أو تنكر النفي وما بعده ، أي : الهمزة للإنكار ، فكأنما ينكر النفي : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴾ ، أي : أنا أنكر بأنك لم تر . أيضًا ، مرة تأتي الهمزة للاستفهام المحض ، ومرة تأتي لتقرير ما بعدها إذا كان الفعل مثبتًا ، ومرة تأتي للإنكار إنكار الفعل المنفي ، وما دمت قد أنكرت الفعل المنفي ، فقد أثبت الفعل المثبت ، أي : فأنت رأيت ما صنع ربك بأصحاب الفيل ، على أبلغ أسلوب .

هنا نلاحظ أن ﴿ أَلَمْ ﴾ ترددت في الكتاب الكريم ودائمًا يأتي معناها بـ : (**ألم تعلم**) ، مثل : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ ﴾[1] ، كل (**ألم تر**) ، أي : ألم تعلم ، فلماذا ترك كلمة (**ألم تعلم**) وأتى بـ (**ألم تر**) ؟ لأن وسائل العلم عند البشر : الحواس أولاً ، ثم المعقولات ، أي : الحواس تستقبل ، وبعد ذلك تختمر ، المحسوسات نكون منها المعلومات العقلية ، هذا ما يشير إليه الحق ﷻ في قوله : ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ ﴾[2] ، ﴿ السَّمْعَ ﴾ لتسمع ، ﴿ وَالأَبْصَارَ ﴾ لترى ، ﴿ وَالأَفْئِدَةَ ﴾ لتتفقه ، إذن ، وسائل الإدراك : ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ ﴾ .

إذن .. فوسائل العلم ثلاثة .. مركبة في أمهات الحواس ، وهي : السمع ، والأبصار ،

---

1 - سورة : الحج ، الآية : 18 .

2 - سورة : النحل ، الآية : 78 .

والأفئدة ، وكأن الله ﷻ قد أخرجنا من بطون أمهاتنا لا نعلم شيئًا ، ثم بعد ذلك جعل لنا السمع والأبصار والأفئدة .. ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[1] .. لعلنا نشكر ، إذن هناك نعمة حصلت بهذه الوسائل ، وهي نعمة العلم ، فكأن الحق يقول : ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا ﴾ ثم علمكم بأن خلق لكم وسائل العلم متطورة مع أعمالكم العقلية ، فمرة يكون علمكم عن طريق السماع ، ومرة عن طريق الرؤية ومرة عن طريق الاستنباط من المسموع والمرئي ، فتستنبطون منه المعلومات ، فلعل هذا يجعلكم حين تعلمون هذه الوسائل تشكرون الله ﷻ ؛ لأن الشكر لا يكون إلا عن وجود نعمة .

والحق ﷻ حينما يتكلم عن وسائل العلم يذكر : السمع ثم البصر ثم الفؤاد ، وهذا كلام منطقي مع وظائف الأعضاء ؛ فلقد ثبت أن حاسة السمع هي أول حاسة تؤدي مهمتها في الإنسان ، فلو مرَّرت أصبعك أمام عين الوليد الصغير لا تطرف ؛ لأنه لا يرى شيئًا من ثلاثة أيام إلى عشرة أيام ، لكنك لو صرخت بجانبه صرخة تجده ينفعل ، فمعنى ذلك أن الأذن أدت مهمتها قبل العين .

وأيضًا فإن السمع هو الوسيلة الأولى لتلقي العلم ، فأنت لا تقرأ إلا إذا تعلمت فن القراءة ، وفي فن القراءة لابد أن تتعلم أن هذا اسمه ألف ، وهذا اسمه باء ، وهذه اسمها فتحة ، وهذه اسمها ضمة ، فلابد قبل أن تقرأ بعينك ، من أن تسمع بأذنك ، وإذا لم تسمع ، فأنت لم تعرف .

لذلك يقول الحق ﷻ في مرتبة العلم : ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ ، فكأن العلم الذي يقوله الله ﷻ لك ، ويخبرك به – وإن كان غيبًا – يجب أن تستقبله من الله استقبالاً بأقوى وسائل الإدراك لك وهي : العين ، وكأنك تشاهده ، فلا تتشكك فيما يخبرك به الله سماعًا ، فهذا معنى :

---

1 – سورة : النحل ، الآية : 78 .

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴾ .. فكأنه ليس مجرد فعل ، بل فعل على كيفية مخصوصة ، لا تصدر إلا من الله ﷻ ، فكأن الحق ﷻ يريد أن يلفتنا إلى أن هناك أسبابًا خلقها ، تنتج مسببات ، كلها من فعل الله الذي هو خالق الأسباب ، والمسببات تنتج من وراء المسببات ، وهي أيضًا من فعل الله ﷻ ، ولكن فعل الله بواسطة نواميس مخلوقة ، تلك التي قد يتشكك الإنسان في أن الناموس فاعل بنفسه ؛ فيظن أن النار تحرق بنفسها ، أو أن المياه تروي بنفسها ، أو أن السيف يقطع بنفسه ، لكن إذا حدث فعل على غير طريق النواميس والأسباب ، فهذا فعل أدى المراد ، لكن بغير أسباب معروفة لديَّ ؛ ولذلك فالحق ﷻ يقول دائمًا : ﴿ هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ﴾[1] .

فإذا رأيت سببًا أدى النتيجة بدون مسبب ، فاعلم أن الذي خلق القوة في ذلك السبب هو الله ﷻ ، وإذا ما حدثت الأمور على غير قانون السبب ، فاعلم أن الله وراء ذلك الفعل ، فهو الظاهر فيما تعلم من أسباب ، وهو الباطن فيما لا ترى من أسباب .

إذن .. فكل شيء له ، وحين يقول ﷻ : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ ﴾ .. نعلم أن الله ﷻ قد فعل ما فعل بأصحاب الفيل لا بأيديكم ، ولا بأسبابكم ، ولكن بشيء آخر فوق النواميس والأسباب ، فليس العجب من الفعل ، ولكن العجب من الكيفية التي وقع عليها الفعل ، لذلك قال الحق ﷻ : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴾ .. وكذلك لم يقل : ألم تر كيف فعل الله ، إنما أتى بصفة الربوبية ، التي هي : التربية ، والتنمية ، وموالاة المربِّي للمربَّى حتى يبلغ كماله ويستوي ، فكأنه ﷻ يشير إلى أن الذي فعل هذا بأصحاب الفيل هو ربك ، أي : متوليك ، وكما صنع ذلك بأصحاب الفيل بلا أسباب عادية من أعراف البشر ، فكذلك سينصرك بلا أسباب عادية .

ونحن قد عرفنا أن حادثة الفيل حدثت في عام ميلاد رسول الله ﷺ ، فحين يقول الله ﷻ عن فعله : ﴿ فَعَلَ رَبُّكَ ﴾ .. فيجب أن نستقبل فعل الله ﷻ بقانون الله الله ﷻ لا

---

1 - سورة : الحديد ، الآية : 3 .

بقوانينا ؛ لأن كل فعل يأخذ قوته من قانون فاعله ، فمثلاً نقول : خطب طالب الإعدادي ، أو خطب طالب الثانوي ، أو خطب طالب الكلية الجامعية ، فتؤخذ الخُطبة بمدلول فاعلها ، فلم نأخذ فعل الفاعل من واقع آخر ، بل من فعله هو نفسه .

ففى قوله ﷻ : ﴿ فَعَلَ رَبُّكَ ... ﴾ : رد على طائفة العقلانين الذين أرادوا أن يستقبلوا أفعال الحق سبحانه وتعالى بقانون البشر ؛ ولذلك كانوا يردون كل شيء لا يدخل تحت قانون البشر ، ولا في معقول البشر ، ويحاولون أن يأولوه بما يخضع لقانون البشر ، وفكرهم ، وعقلهم ، وهذه المدرسة ظهرت طبعًا في أوائل النهضة الحديثة ، والتي من أشهر أئمتها **الشيخ جمال الدين الأفغاني** ، **والشيخ محمد عبده** ، حيث كانوا يكتبون في الإسلام بالغيبيات ، والغيبيات مفهوم يقف حوله الناس كثيرًا ، فالعقول المادية ، تريد أن تعزل الرسالات والنبوات عن مرسلها ، وتريد تفسير الأشياء بناموس البشر والكون .

فمثلاً : قال **الشيخ محمد عبده** في الطير الأبابيل : إنها كانت الميكروبات ، والجدري ، وما أشبه ذلك ؛ والذى حمله على هذا القول أنه استبعد أن تحمل الطيور حجارة ، ثم تنزل تلك الحجارة على هؤلاء الناس فتقتلهم ! ! !

فنقول له : لماذا تستبعد ذلك ؟! فما دمت تدرس النبوات على أن الأساس الأصيل أنها مرسلة من الله ﷻ ، فلا ينبغي أن تلغي هذه القوانين ، وإن كان عقلك لم يسعها ، فعقلك ليس حجة .

وكذلك يقول : ففي الإسلام أشياء كثيرة حول سيرة الرسول غيبيات ، ولا يصدقها العقل ! ! وبالتالي يردها ويقول : هذه أشياء لم تحدث بالفعل ، ويبدأ في تفسيرها تفسيرًا عقليًا ، وذلك حتى يبعدوا الأمور الغيبية عن الإسلام ، وعزلوا عن حياة الرسول المعجزات ، وعزلوا أسرار الكون ، ونفوا كل الغيبيات ، وكل ما يخالف العقل البشري ، أو يخالف قانون ، أو فسروها تفاسير مادية عقلية بعيده عن مدلولاتها .

ولذلك يقول (**هيكل**) في كتاب (**الصلاة**) : أنا سأنهي المعجزات التي حدثت لرسول الله ، وأبعد هذه الغيبيات ، وأبحث فيه كإنسان عبقري .. وظن أننا نُسَر عندما يكون **محمد** ﷺ هو القائد الأول في الإنسانية ، أو **محمد** العبقري ، كلا .. إننا لا نريده قائدًا أو عبقريًا ، أنما يكفينا أن تقول : إنه رسول الله فقط ؛ لأنك عندما تقول : قائد عبقري ، فقد جعلته بإمكانية الإنسان العادي ، فتلغي عنه الغيبيات ، وأولها الوحي ، ثم المعجزات ، لكن عندما تقول : هذا رسول الله ﷺ ، فقد علمنا أنه قد أخذ إمكانياته من الحق ، فتكون قد أعطيته ما هو أعلى من العبقرية والقيادة .

والشيخ **محمد عبده** في مثل هذه السورة ، عندما قال في هذه الغيبيات ما قال ، نقول له : هل هذه الحادثة موثقة تاريخيًا أم لا ؟ فسيقول : نعم .. موثقة تاريخيًّا .. ثم متى حدثت هذه الحادثة ؟ لقد حدثت في عام الفيل ، ذلك العام الذي ولد فيه رسول الله ﷺ ، ورسول الله ﷺ بعث بعد أربعين سنة من هذا العام ، وبعدما بعث رسول الله ﷺ بأربعين سنة ، وتوالى نزول القرآن على أهل مكة ، كان هناك أناس أعمارهم خمسون ، أو ستون ، أو سبعون ، أو ثمانون ، أو تسعون .. ثم نزلت السورة ، وقرأها رسول الله ﷺ على القوم ، وكان معظم القوم كافرين بها ، وحريصين على أن يكذبوه ، ولو علموا أن شيئًا مما أنزل عليه يمكن أن يُكذَّب ، لما ادخروا في ذلك وسعًا ، فلما نزل قول الله : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ * أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ * وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ * تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ * فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ ﴾ .. فلو لم تكن هذه الحادثة عند أصحاب سن العشرين ، والثلاثين ، والأربعين ، والخمسين ، والستين ، والسبعين ، كما نزل في القرآن ، لكان من الممكن أن يقولوا : إنها حادثة كاذبة ، ولكن لم يجترئ أحد أن يقول هذا ؛ لأنهم رأوا بأعينهم هذه الطيور الأبابيل[1] .

---

1 - أخرج القصة الحاكم في المستدرك عن ابن عباس (9 / 207) ، والبيهقي في دلائل النبوة (1 / 44) .

والذي يدل على أن هذه الحادثة وقعت ، أن العرب قبل الإسلام كانوا لا يعرفون الميكروب ، فالميكروب اكتشف في القرن السادس عشر ، أو السابع عشر الميلادي ، فإذا لم يكونوا قد عرفوا الميكروب ، ولم يعرفوا الطير الأبابيل بمدلول أبابيل ، وحجارة بمدلول حجارة ، وكعصف مأكول بمدلوله ، لكان من الممكن أن يُكذِّب رسول الله ﷺ من الأجيال العاقلة ، وأصحاب التجربة الذين رأوا الحادثة .

وما داموا يكذبون بالغيبيات ، ويريدون أن يخضعوها لأسباب نواميس كونية ، وليس قوة غيبية تدخلت ، فنقول : إن الميكروب – كما نعلم – له مدة حضانة في الجسم ، وليس بمجرد أن ينزل ويصيب الجسم ، يؤثر في الجسم مرة واحدة ، بل له مدة حضانه كبيرة ، قد تكون أسبوعين ، وبعد ذلك يبقى الجسم حتى يموت ، وبعد ذلك يتعفن ، وبعد ذلك يتفتت ، وبعد وقت طويل يكون عصفًا مأكولاً ، فالمسألة تريد وقتًا طويلاً ، فأي ميكروب هذا الذي يوجه كالصاروخ الموجه ؟! والله ﷻ لم يجعل العقل البشري يستنبط أسرار الكون المخفية عنه مرة واحدة ، بل يعطيها له تباعًا ، لماذا ؟! لكي أعلم أن عقلي بذاته ليس صالحًا لإدراك الأشياء على حقيقتها ، بل يمر عليه يوم وهو جاهل بالمسألة ، ثم يأتي بعد ذلك يوم يكون قادرًا عليه ، وما دام أثبت جهلي ، فلابد من الإيمان بدليل قدرته اليوم ، فأنا أثبت له قدرة الغد على عجز اليوم ، وهذا في قوله : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا ﴾[1] ، وما دام سيريهم آياته ، فمعنى ذلك أنها كانت مطمورة ، ولو كان العقل البشري صالحًا بذاته لإدراك أسرار الكون لأدركها مرة واحدة ، ثم أصبحت كل أحداث العالم بعد ذلك مكررة ، ولكن الحق ﷻ يجعل هناك أشياء تظل غيبًا ، ثم تصير بعد ذلك مشهدًا بمقدمات ، فيمشي من ألف ، ويذهب إلى جيم ، إذن ، فالمقدمات التي وضعها ربنا في الكون هي مادة في استنباط المجهول ، وما دامت مادتي في استنباط المجهول ، فيكون عندما أردها ، أردها إلى الآمر .

---

1 – سورة : فصلت ، الآية : 53 .

فكأن الحق ﷻ حين يأذن للعقل لكشف سر من أسرار كونه ، وهو سر غير مادي ، ليس منظورًا ، يهيئ الإنسان إلى أن يصل للمقدمات الموصلة ، فيأخذ بالمقدمة ، وبعد ذلك ينتهي لنتيجة ، فتتسلسل المعلومات ، وتتطور الفكرة ، وتتسامى ، و.... إلى آخره .

ومرة يأذن الله للسر أن ينكشف ، ولكن البشر لم يكونوا قد صنعوا المقدمات العلمية التي تدلهم عليه ، لكن الله أذن للسر أن ينكشف ، إما أن يمهد لذلك بأن يأخذ العقل البشري بمقدماتها ويصل ، أو أنه يجعله يبحث في شيء ، فيظهر له سر من أسرار الدنيا ، وإذا نظرت إلى كثير من المخترعات ، تجد أن أغلبها قد جاء بالمصادفة .

كما قال ﷻ : ﴿ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلاَ بِمَا شَاءَ ﴾[1] ، فالبشر لا يحيطون بشيء من علمه إلا إذا شاء ، فمرة يشاء أن يوفق في المقدمة ، ومرة يكونون موفقين فيعطيها لهم بالمصادفة ، فقط بمجرد أن يشاء .

ولكن هنا أعطى الله ﷻ الوصف لخلقه في قوله : ﴿ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلاَ بِمَا شَاءَ ﴾ .. في الأشياء التي كانت غيبًا ، ولكن يمكن أن يستوعبها الإنسان ، لكن في قوله : ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلاَ مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ ﴾[2] .. أي : لا يظهر هو ، وليس غيره ﷻ .

وهنا نصل إلى نتيجة : أن هناك فرقًا بين غيب مطلق ، وهو الغيب الذي لم يجعل الله له مقدمات تستطيع أن تستنبطها ، كاستنباطك لأسرار الكون الموجودة في الحياة ، وبين غيب مستور عنك ، ولكن من الممكن إذا دققت النظر ، وقمت بتجربة ، وملاحظات ، ونظريات ، أن تستطيع أن تتوصل إليها .

﴿ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴾ .. والكيد : هو مقابلة الخصم للخصم ، إما أن يكون

---

1 - سورة : البقرة ، الآية : 255 .

2 - سورة : الجن ، الآية : 26 ، 27 .

بوسائل مجابهة ، علنية ، واضحة ، وإما أن يكون بالأشياء التبييتية ، ولا تأتي الأشياء التبييتية إلا إذا كان الخصم غير قادر على أن يغلب بالمواجهة ، فيقوم بعمل كيد ، إذن ، فالكيد وسيلة من وسائل الانتصار على الخصم الذي أعجزه أن ينتصر عليه بالمواجهة ، هذا في الواقع ، فقد يظن بعض الناس أن الكيد قوة ، كلا ، بل هو ضعف ؛ لأنه لو كان عنده قدرة المواجهة لما بيَّت .

ورحمة الله على العقاد ؛ إذ كان معروفًا برأيه في موضوع المرأة ؛ فلقد كان يسمي أولئك الذين يدافعون عن المرأة بالنسائيين ، فكانوا يقولون : إن عقلية المرأة جبارة ؛ لأن الله ﷻ وصف كيد الشيطان بأنه ضعيف فقال : ﴿ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾[1] ، ووصف كيد المرأة بأنه عظيم فقال : ﴿ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾[2].. فوفق الله العقاد لجواب ، هذا الجواب يتلخص في أن الذي يلجأ إلى الكيد ، والاحتيال ، والمكر ، وغيره ، هو الضعيف عن المواجهة والمقابلة ، والضعيف عن المواجهة هو الذي لا يملك ظروفه ، فإذا ما أصاب فرصة ولو ضعيفة أراد أن ينتهي من خصمه فيها ، لكن القوي لا تشغله الفرص ، فهو قادر أن ينفذ ما يريده في أي وقت ، والمرأة الضعيفة إذا أصابت فرصة قتلت ، وكذلك قدرة الضعفاء ، عندما يصيبون فرصة ينتهزونها ، ويبيتون ، ويكيدون ، حتى تحين الفرصة .

إذن ، فالذي يبيت لخصمه هو الضعيف ، فالذي يريد مثلاً أن ينافس أحدًا ، وينافسه منافسة شديدة بالمواجهة ، وهو ليس قادرًا على مسألة المواجهة ، فيقوم بعمل مكائد له ، ويبيت له ، فلو كان قادرًا على المواجهة لما صنع هذا .

فالعقاد يقول : إن كيدها حين يكون أعظم من كيد الشيطان ، فمعنى ذلك أن ضعفها في المواجهة غير موجود ، ولذلك لا تنجح إلا في الكيد ، فالذي لا ينجح إلا بالكيد والتبييت ، يكون ذلك دليلاً على ضعفه .

---

1 - سورة : النساء ، الآية : 76 .

2 - سورة : يوسف ، الآية : 28 .

والكيد يكون في الخفاء دائمًا ، الكيد الذي يكون على غير وجه حـــق ، فأنت تعمي على البشر في كيدك ، وإنما كيد البشر ليس هو الكيد الوحـيد ، بـل وراءه قـوة أعلى ثانية ، إذن ، فكيدكم مكشـوف .. كيدكم في ضلال ، ولا يصل إلى نتيجة ، ولا إلى غاية ؛ لأن المكيد ليس هو الذي يواجهك ، بل وراءه قوة أكبر وأعظم من قـوته ، فكل أسبـاب المناورة والكيد ، تلك التي يفتتن بها صاحبها ؛ لأنه يعتقـد أنه أقـوى ممن يواجه ذلك الكيد ، ويعزل المكيد له الذي هو في جانب الحق ، أو جانب الإيمان ، عن المصدر الأصيل .

إذن ، فما دام كيده مفضوحًا فلن يصل إلى نتيجة ، بل كيده في تضليل .

﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ * تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ ﴾ .. وطيرًا أبابـيل ، أي : جماعات ، وهي كما بلغتنا : طير أبابيل ، وكانت ترمي بحجارة .

﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ ﴾ .. و(**العصف**) هو : القشـــرة ، أو الغلاف الذي يغلف الحب ، فإذا أُكِل الحَب أُلقـي هذا العصف ، فيصير مثل التبن ، فكأن المعنى : أن الأجسـام تفتتت كتفتت التبن ، أو الحب الذي أُكل وأُلقي عصفه .

نسأل الله ﷻ أن يعلمنا ما ينفعنا ، وأن ينفعنا بما علمنا ، وأن يزيدنا علمًا . .

إنه ولي ذلك والقادر عليه .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

علم

تفسیر جزء

سورۃ قریش

سورة قريش

بسم الله الرحمن الرحيم ، أحمدك ربي كما علمتنا أن نحمد ، وأصلي وأسلم على خير خلقك سيدنا محمد ﷺ ، وبعد :

فمع تفسير **سورة قريش** ، تلك السورة التي ترتبط **بسورة الفيل** ارتباطًا وثيقًا مع أنها لم تنزل بعدها مباشرة ، إذ ليس من الضروري أن تنزل السورة بعد السورة لتكون مترتبة عليها ، وقد تنزل السورة بعد السورة بمراحل ، ولكن وضعها في القرآن يأتي بها في هذا الجانب ؛ لأن القرآن كلام الله ، له هيئة نهائية عند الحق ﷻ ، وفرق بين نزول القرآن ، وبين الهيئة النهائية التي عليها القرآن .

فنزول القرآن كان يأتي حسب المقتضيات والأحداث التي تتطلبها الدعوة ، ولكن القرآن في اللوح المحفوظ مرتب الترتيب الطبيعي له ، فإذا ما نزلت حادثة ، واحتاجت لآية ، نزلت تلك الآية ، لكن وضعها في السياق القرآني له ترتيبه .

ولذلك نقول دائمًا : إنه يوجد ترتيب نزول حسب الأحداث والمتطلبات التي تتطلبها الدعوة ، وهناك ترتيب نهائي على ما هو عليه ، فمجيء الشيء على حسب سبب مجيئه ، غير ترتيبه في المصحف في التصميم النهائي ، فالقرآن بهذا الوضع علي التصميم النهائي الذي كان عليه في اللوح المحفوظ ، أما نزوله فقد نزل منجمًا حسب الحوادث .

لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ﴿١﴾ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ﴿٢﴾ فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ ﴿٤﴾

﴿ لإِيلاَفِ قُرَيْشٍ * إِيلاَفِهِمْ ﴾ .. ماذا تعني كلمة : ﴿ لإِيلاَفِ ﴾ ؟ لابد أن تجد فعلاً تعلقه بكلمة : ﴿ لإِيلاَفِ ﴾ .. وهذه هي العلاقة بين **سورتي الفيل وقريش** ؛ ففي **سورة الفيل** نجد أن الله ﷻ فعل ما فعل بأصحاب الفيل.. ﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ ﴾[1] ، لماذا ؟ ﴿ لإِيلاَفِ قُرَيْشٍ * إِيلاَفِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ﴾ ؛ لأن الحق ﷻ إذا ترك بيته لما يريده أبرهة من هدمه ، لسقطت مهابة قريش في شبه الجزيرة العربية ؛ لأن الذي جعل لقريش تلك المهابة هو ذلك البيت ، ولماذا جعل البيت المهابة لقريش ؟ لأن القبائل كلها كانت تأتى إلى قريش لتحج البيت ، فما تستطيع قبيلة من القبائل أن تقطع الطريق على قريش في تجارتها ، ولا تتعرض لها ، لا شمالاً وهي ذاهبة إلى الشام ، ولا جنوبًا وهي ذاهبة إلى اليمن ؛ وذلك لأنها تذهب إلى قريش في عقر دارها لتحج البيت .

إذن .. فوجودهم في جوار البيت هو الذي جعل لهم تلك المهابة في الجزيرة ، فلو أن البيت هُدم كما يريد أبرهة ، لسقطت هذه المهابة ، وحين تسقط المهابة ماذا يحدث ؟ فهم في وادٍ غير ذي زرع ، وكل اقتصادهم في العمليات التجارية : رحلة الشتاء ، ورحلة الصيف ، فإذا ما سقطت مهابة البيت ، سقطت مهابة قريش تبعًا لذلك ، وإذا سقطت مهابة قريش فستتجرأ عليها القبائل في الشمال ، وفي الجنوب ، كما تجرأت علي غيرها من القبائل ، وإذا

1 - سورة : الفيل ، الآية : 5 .

ما تجرأت عليها القبـــائل صادرت تجارتها ، وما دامت صادرت تجارتها وهم لا مصدر رزق لهم إلا من هذه التجارة فماذا سيكون الموقف ؟ لا شك أنهم سيجوعون ، ويرتعدون خوفًا من القبائل المتفرقة .

إذن .. فالحق ﷻ فعل ما فعل بأصحاب الفيل ، وجعلهم كعصف مأكول لماذا ؟ ﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ * إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ﴾ ، لكن هل الحق ﷻ رد أبرهة عن هدم البـيت لهذه المسألة فحسب ، أى : لإيلاف قريش فقط ؟

إن اللام في كلمة : ﴿ لِإِيلَافِ ﴾ .. يسمونها : (**لام العاقبـــة**) ، أي : نجاة البيت من الهدم ، ورد أبرهة وجيشه مدحورين مهزومين ، ولم ينالوا من البيت شيئًا ، كان لأجل أن تظل لقريش مهابتها ، فيطمئنوا علي رزقهم وأمنهم ، فلا يهددهم أحد بخوف ، لكن الحق لم يفعل ذلك لهم ، إنما فعل ذلك حماية لبيته ، فيكون تبعًا حماية البيت أن تألف قريش رحلتي الشتاء والصيف .

﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ﴾ .. لأنهم مدينون له بأنه حفظ البيت الذي يجعلهم يألفون رحلة الشتاء والصيف ، ويأمنون بسببهما على أنفسهم من جوع ومن خوف ، وما دام قد فعل معهم هذا الجميل ، وتلك النعمة ؛ فيجب عليهم أن يقابلوا ذلك بأن يعبدوا رب هذا البيت : ﴿ فَلْيَعْبُدُوا ... ﴾ .

إذن .. فـ : ﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ﴾ بين أمرين : بين أمر هو الدافع الأصيل ، وكانت تلك عاقبته .. ﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ ﴾ ، وبين مطلوب من الله ﷻ .. ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴾ ..

﴿ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴾ .. فإذا نظرنا إلى هاتين القضيتين : أطعمهم من جوعٍ ، وآمنهم من خوف ، نجد أن هذه الأشياء هى الأشياء الضرورية للإنسان ، فالضروري للإنسان هو قوت حياته ، ثم بعد ذلك أن يطمئن علي أن شيئًا لا يخيفه ،

والخوف له مصدران ، إما زوال النعمة ، أو حلول مصيبة ، فيكون هنا الخوف ، فالحق ﷻ حينما يضمن للإنسان أنه أطعمه من جوع ، وآمنه من خوف ، يحقق له ما قاله الرسول ﷺ : " ألا أخبركم بدنيا المؤمن ؟! " قالوا : بلى يا رسول الله . قال : " من أصبح معافىً في بدنه ، آمنًا في سربه ، عنده قوت يومه ، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها "[1].

إذن .. فحظ الإنسان وسعادته في شيئين اثنين : أن يطعم من جوع ، وأن يأمن من خوف ، وهذان الشيئان حققهما الله ﷻ لهم ، وإذا نظرت وتأملت وجدت أن هذين الأمرين هما دعوة إبراهيم عليه السلام : ﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا ﴾ .. وهذا هو الأمن من الخوف ، ﴿ وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ ﴾[2] .. وهذا هو الإطعام من الجوع ، فدعوة إبراهيم عليه السلام في هذين الأمرين : أن يؤمنهم من خوف ، وأن يرزقهم من الثمرات كي لا يجوعوا ؛ لأنهم في وادٍ غير ذي زرع ، فإذا رتب الحق ﷻ الأمر بالعبادة على ما فعله لهم ، من إيلافهم رحلتي الشتاء والصيف ، يكون الترتيب طبيعيًّا ؛ لأن المهمة الأساسية التي من أجلها أسكنكم هذا المكان إنما هي إقام الصلاة .. ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ ﴾[3].

إذن .. فحين يقول الحق ﷻ : ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴾ ، وقد استجاب دعاء إبراهيم عليه السلام ببلد آمن ، والرزق من الثمرات ، وحقق لهم هذين الأمرين ، فليؤدوا المطلوب منهم ، وهو : ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ﴾ ؛ لأن هذه العملية الأساسية التي من أجلها جاء إبراهيم بذريته إلى هذا المكان ؛ ليقيموا الصلاة

---

1 - أخرجه الترمذي في سننه (8 / 344) ، وابن ماجه (12 / 17) ، والطبراني في الكبير (11 / 193) ، والأوسط (4 / 357) ، والبيهقي في شعب الإيمان (21 / 298) .

2 - سورة : البقرة ، الآية : 126 .

3 - سورة : إبراهيم ، الآية : 37 .

عند بيت ربهم ، إذن : ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ﴾ .. تفسر لنا ﴿ لِيُقِيمُوا الصَّلاَةَ ﴾ .

فما هي العبادة ؟

(**العبادة**) : تطلق لمعان متعددة ، وكل سياق يتطلب معنى ، فالعبادة تطلق ويراد بها معرفة الحق ، وما دام قد عرف الحق فلابد – وفاء للحق – أن تطيعه وتخضع له ؛ لأن معرفة الحق أن تعرفه إلهًا ، أن تعرفه قادرًا ، أن تعرفه حكيمًا ، أن تعرفه باقيًا ، جميع هذه الصفات ستعرفها له ، وما دمت قد عرفت إلهًا له هذه الصفات فيجب عليك أن تنقاد له ، فالذي يفسر العبادة بالمعرفة ؛ لأن المعرفة هي الوسيلة لقبول تكاليف الله لخلقه .

وبعض العلماء يري أن العبادة هي الخضوع ، فإذا وجدت المعرفة ولم يوجد الخضوع ، فهذه ليست عبادة ، فهناك أناس يعرفون الله ﷻ ، ولكن ليس عندهم الخضوع ، ويوجد أناس يعرفون الله ﷻ ، ويخضعون له ، إلا أنهم متكاسلون عن منهجه القويم ، فإذا قال الحق ﷻ : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالأِنْسَ إِلاَ لِيَعْبُدُونِ ﴾ [1] ، فبعضهم يقول : إلا ليعرفون .. وهل خلق الله ﷻ الخلق للمعرفة فقط ؟ والبعض يفسر : (**إلا ليعبدون**) بالخضوع واتباع المنهج .

فنقول : إذا وجدت آية من الآيات ، فلابد أن تأتي بنظائرها من القرآن الكريم ، فهل جاءت آية : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالأِنْسَ إِلاَ لِيَعْبُدُونِ ﴾ وحدها ، أم جاءت العبادة مع أوامر أخرى ؟ كما قال ﷻ : ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلاَ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ ﴾ [2] ..

إذن ، فكلمة : ﴿ يَعْبُدُونِ ﴾ معناها : يخضعون لي ويطيعوني ، والخضوع والطاعة لا يتأتى إلا بوجود منهج ، وإلا لو كان بمجرد الخلق تأتي العبادة ، ما احتجنا إلى رسول ومُوَجِّه ، بل لا يحدث ذلك إلا إذا جاء رسول بمنهج مبلغ عن الله ﷻ ، إذن : ﴿ وَمَا

---

1 – سورة : الذاريات ، الآية : 56 .

2 – سورة : البينة ، الآية : 5 .

خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالأنْسَ إِلاَ لِيَعْبُدُونِ ﴾ ، أي : لأكلفهم بعبادتي ، أكلفهم بواسطة أوامر ، فمنهم من يطيع ، ومنهم من يعصي .

وإذا نظرنا إلى العبادة في السورة نجد : ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ﴾ أي : السبب الأصيل الذي لأجله جاء إبراهيم بذريته : ليقيموا الصلاة ، إذن ، فكأن الصلاة هي المحور الأساسي في العبادة ، عبادة لها معنى واسع ، ومعنى متوسط ، ومعنى قليل . وقد قسم العلماء الشعائر إلى : عبادات ، ومعاملات ، فقصدوا بالعبادات : الأمور التي شرعها الله لتقربك إليه ، وقصدوا بالمعاملات : ما ينظم أحوال هذا المجتمع ، لكن إذا نظرت إلى الحقيقة ، وجدت أن كل شيء سواء كان عبادات بهذا المعنى ، أو كان تنظيمًا لعلاقة المجتمع بعضه ببعض ، في نظام الأسرة ، في نظام الحكم ، في نظام الاقتصاد ، في الأخلاق ، وجدت كل هذا أيضًا من العبادة بمعناها العام الواسع ، فإذا كانت العبادة في قوله : ﴿ لِيُقِيمُوا الصَّلاَةَ ﴾ ، هي معناها في قوله : ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ﴾ ؛ لأن الصلاة لو نظرت إليها لوجدت فيها العبادات بالمعنى الفقهي ، والمعاملات أيضًا ، لو جدت فيها العبادات بالمعنى العام المراد منه ، وهو الخضوع لمنهج الله دون منهج البشر إلا أن منهج الله أقسام ، هذه الأقسام أمور يفرضها الله ﷻ ولا ابتكار لأحد فيها ، كالصلاة ، أي : لا تتقرب إلى الله بشيء أزيد من هذا ؛ لأنه هو الذي شرعه ، أما أمور المعاملات فالحق ﷻ يترك للذهن البشري نشاطه ، وبعد ذلك يقنن لكل أمر علي حدود مستوى البيئة ، ومستوى العصر ، ومستوى المجتمع ، في إطار الأصول العامة .

وفرق بين العبادات الفقهية ، والمعاملات الفقهية ، في أن العبادة : هي ما لا يضعه بشر لبشر ، الكفار أليس لهم قانون يتعاملون به في نفوسهم ، وأُسَرِهم ، ومجتمعهم ، وحكمهم ، واقتصادهم ؟! هذا نظام ضروري ، لكن لا يضع البشر للبشر ، فمثلاً : لا يقول بشر لبشر : تقرب إليَّ بصلاة ركعتين ، أو بصوم شهر ، أو بزيارة بيتي كل عام ، كل هذا لم يحدث ،

إذن ، فهناك فرق بين العبادة ، والمعاملة ، فالمعاملة هي نظم للتعامل ولو لم تكن مؤمنًا ، لكن العبادة لا توجد إلا في منهج الدين ، فإذا نظرنا إلى هذا ، وجدنا الصلاة أخذت محلها في العبادة .. المحل الأساسي ، سواء كانت عبادة ، أو معاملة ، كيف ذلك ؟! لأن معاملات الإسلام فرض له علاقة بمجتمع قريب .. هو : الأسرة ، ومجتمع بعيد .. وهو : الأمة ، والعلاقات هذه لابد أن يقوم عليها والٍ ، وإمامٌ ؛ لينفذ الأحكام من يكون محلاً لرفع الظلم عن المظلوم ، إذن .. فلابد من وجود إمام يقوم بذلك ، فإذا نظرت إلى الصلاة وجدتها تأخذ بنود العبادة الشعائرية كلها ، وتأخذ أرقى بند من البنود ، وهو بند الولاية في الحكم ، كيف ؟! الصلاة صحيح أنها عماد الدين ، فلو نظرت إلى طريقة تكليفها وجدتها تختلف عن طريقة التكليف بالعبادات الأخرى ، فكل التكليفات صدرت بواسطة وحي ، إلا الصلاة ، فقد تميزت بأنها صدرت بالتكليف من الله ﷻ مباشرة ، ومادام التكليف جاء بهذه المباشرة ، فلابد وأن له أهمية كبيرة ، وأيضًا : الصلاة فرضت في الوقت الذي ظفر **محمد** ﷺ فيه بأن يكون في حضرة ربه ﷻ ، وما دام قد حدث له هذا الظفر بالقرب من الحق ﷻ ، فنزل إلى أمته بتحية من الحق لهذه الأمة ، هذه التحية هي التي تقرب أمة **محمد** ﷺ إلى الله ﷻ ، كما قُرب **محمد** ﷺ إلى الله ، وهذا هو المراد من قول الحق ﷻ : ﴿ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ﴾[1] ، فكما اقترب رسول الله ﷺ ليلة المعراج من ربه ، كذلك أمته تقترب من الله بصلاتها ، فالصلاة تأخذ وضعًا متميزًا عن بقية الأحكام .

وإذا نظرنا إلى تكاليف الإسلام ، التي هي أركان الإسلام الخمسة لوجدناها متمثلة أكمل تمثل في الصلاة ؛ فشهادة أن لا إله إلا الله يجب على الإنسان لكي يكون مؤمنًا أن ينطقها وتلفظ بها ، والصلاة تحققها ، ليس مرة واحدة ، بل في كل صلاة عدة مرات ، وهذا هو الركن الأول من أركان الإسلام .

---

1 - سورة : العلق ، الآية : 19 .

إذن .. فالصلاة فيها الركن الأول من أركان الإسلام ، وهي الركن الثاني ، فهي تحقق ذاتها ، أما الزكاة : فهي فضل من مال بلغ النصاب ، تخرج جزءًا منه ، وتعطيه للفقراء ، والمال الذي جاء منه النصاب ، فرع العمل ؛ لأنه ليس هناك تملك في الإسلام إلا بعمل ، وما دام المال فرع العمل ، إذن ، يحتاج المال إلى وقت ، إذن ، فالزكاة إخراج قدر من المال ، ووجود المال فرع العمل ، والعمل فرعه وجود الوقت ، فإنك تضحي بوقتك لأجل الصلاة ، فالزكاة تضحي بثمرة العمل وهو المال ، والصلاة هنا تجعلك تضحي لا بثمرة العمل وهو المال ، ولا بالعمل ، ولكن بالوقت الأصيل ، الذي يحدث فيه العمل ، فتعتبر بذلك الصلاة زكاة من نوع أعلى .

وكذلك فيها الركن الرابع من أركان الإسلام ، وهو الصيام ؛ فالصيام امتناع عن شهوتي البطن والفرج ، وكذلك في الصلاة أمتنع عن شهوتي البطن والفرج ، بل وزيادة على ذلك أمتنع عن مباحات الصيام أيضًا ، فمن مباحات الصيام : أن تمشي ، وتتكلم ، وتضحك ، وهذا ممتنع في الصلاة ، إذن ، فهو إمساك عن ما تمسك عنه في الصيام ، وإمساك عن أشياء أكثر مما تمسك عنه في الصيام ، فهى صيام بصورة واسعة .

وأيضًا فيها الركن الخامس من أركان الإسلام ، وهو الحج ؛ لأنك إذا ما أردت أن تصلي لربك فإنك تستحضر بيت الله أمامك بقلبك ، وتتوجه إليه بقالبك ، فأنت تتجه للبيت قلبًا وقالبًا ، ففيها حج دائم .

إذن .. فالصلاة أخذت ذلك المدلول لأنها ينطوي فيها كل أركان الإسلام ، هذا من ناحية الشعائر .

وبعد ذلك انظر إلى الصلاة من ناحية النظام التعاملي في المجتمع ، فعندما يؤذن المؤذن يجتمع الناس ، كل من أرادوا أن يقوموا بأوامر ربهم ﷻ يهرعون إلى نداء ربهم ، ويتركون كل مشاغلهم ، فحين يهرعون إلى بيت ربهم ، تزول الفوارق ، فتجد الغني بجانب الفقير ،

والذي يأتي يجلس في المكان الذي يجده أمامه ، فالمكان لمن سبق ، قد يجلس الوزير في الصف الأخير ، ويجلس الفقير في الصف الأول .

إذن .. فقد تخلصوا من كبريائهم وغرورهم ، وتخلصوا من الطبقية التي فيهم ، واستووا جميعًا أمام ربهم في العبودية ، فحين يتكرر ذلك من الإنسان ، تخف قوة التعالي الموجودة بين الطبقات ، لماذا يكره الناس الفقر ؟ لأنهم يرون الغني يحترمه الناس ، فإذا ما احتُرِم الفقير أيضًا ، وأخذ حقه من الكرامة ، فلا تحدثه نفسه بهذه المسألة أبدًا ، ولكنه يرى الغني يأخذ حقوقًا أكثر منه ، لكنه عندما يجد هذا الوضع ، ويجد الذي كان يخشاه في عمله ، أو ذلك الذي كان يجلس معه وهو متهيب منه ، تجدهم كلهم في لحظة من اللحظات صاروا في خضوع لله ﷻ .

إذن .. فأول مبدأ هو المساواة ، وما دام يشيع مبدأ المساواة ، ولا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى ، يطمئن المجتمع ، ويصبح مجتمعًا سليمًا ، مجتمعًا ليس فيه تعالٍ ، وما دام ليس فيه تعالٍ ولا كبرياء ولا غرور ، فهو مجتمع منسجم ، وبعد ذلك نجد إنسانًا يتقدم بالناس ليصلي بهم ، ليس مطلق إنسان يتقدم ليصلي بالناس ، ولكن لابد من أن تتوافر فيه شروط ، منها : أن يكون من يصلي بهم راضين عن إمامته .

فالإمامة في الصلاة تعلمنا كيف تكون الإمامة في الحكم : " **لعن الله رجلاً أمَّ قومًا وهم له كارهون** "[1] ، وبعد ذلك وضع لها مقاييس : أحفظهم للقرآن ، فإن تساووا ، فيكون أفقههم لسنة رسول الله ﷺ ، فإن تساووا في ذلك ، فيكون من له سابقة إسلام ، أشياء مشروطة ، هي تمام ما يشترطه المشترطون في إمامة المسلمين ، بعد ذلك عندما ترتضى الإمام ، وتقف خلفه تصلي ، فللإمام الأمر ، يصدر أوامره ، يلتفت إلى المصلين ويقول : سووا صفوفكم فإن تسوية الصفوف من تمام الصلاة ، وبعد ذلك لا يكبر إنسان بتكبيرة الإحرام إلا إذا كبر الإمام أولاً ،

---

1 - أخرجه الترمذي عن أنس (2 / 97) ، وقد ورد بألفاظ متعددة عند أبي داود ، وابن ماجه ، وغيرهما .

فهم جميعًا وراء ذلك الإمام ، فعندما يقول : الله أكبر ، يقولون بعده : الله أكبر ، ولا يركع أحد إلا إذا ركع الإمام ، وكذلك لا يسجد أحد إلا إذا سجد هو ، وإذا جهر بالقرآن أنصتوا إليه ، فهنا مسألة الطاعة والاتباع ، ما دام هذا الإمام أتى برضانا ، فنحن ملزمون بطاعته ، وهنا لفتة ، يقول النبي ﷺ : " **ليلني منكم أولو الأحلام والنهى** "[1] ، أي : من يقف خلفي مباشرة هم أولو الأحلام والنهى ، وهذا هو منطق الرسول ﷺ ، وليس تكريمًا لأولي الأحلام والنهي ؛ فإن الإمام عرضة لأن يخطئ في القراءة ، فالذي عنده ذِكْر يذكره بالآية التي أخطأ فيها ، وإن نسي في الصلاة ينبهه ويقول له : سبحان الله ، وإذا حدث للإمام عذر من الأعذار يجعله يخرج من الصلاة ، فيجد خلفه من أولي الأحلام والنهى من هو أهل ليكمل الصلاة بالناس ، وهذه توحي إلينا في السياسة العامة أيضًا أنه لابد للإمام ألا يقرب منه أبدًا إلا أولي الأحلام والنهى ، بحيث إذا انحرف قيد أنملة عن منهج الله يقومونه ، فهذا خير خلق الله .. النبي ﷺ ، وكان يصلي بالناس ، ثم انصرف من اثنتين ، فقال له ذو اليدين أقصرت الصلاة أم نسيت يا رسول الله ؟! فقال رسول الله ﷺ : " **أصدق ذو اليدين ؟!** " . فقال الناس : نعم . فقام رسول الله ﷺ فصلى اثنتين أخريين ، ثم سلم ، ثم كبر فسجد مثل سجوده أو أطول ثم رفع رأسه فكبر ، ثم وضع رأسه فكبر ، فسجد مثل سجوده أو أطول ، ثم رفع رأسه وكبر[2].

إذن : وإن كانت المهابة تأخذ الإمام بأن جميع حركاته متبوعة ، ولا أحد يقدم بين يديه في أمر من الأمور ، إلا أن أولي الأحلام والنهى حينما يجدونه قد انحرف عن منهج من مناهج الله ، هنا تمتنع الطاعة ، وينبه إلى الخطأ ؛ ولذلك إذا نظرت إلى هذه الآيات في القرآن الكريم، تجد الحق ﷻ عندما يأمر بالطاعة مرة يقول : ﴿ **أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ** ﴾[3]،

---

1 - أخرجه مسلم (655) عن أبي مسعود .

2 - أخرجه البخاري (1153) ، ومسلم (896) كلاهما عن أبي هريرة .

3 - سورة : النساء ، الآية : 59 .

ومرة يقول : ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ﴾[1] ، ومرة يقول : ﴿ أَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾[2] فقط .

ثم حين أراد أن ينبه على طاعة أولي الأمر قال : ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾[3] ؛ وذلك لأن ولي الأمر لا طاعة له في ذاته ، وإنما طاعته من باطن طاعة الله ﷻ وطاعة رسوله ﷺ ، فإذا انحرف عن شيء من طاعة الله ورسوله ، فليس له طاعة .

إذن ، فالصلاة بمثل هذه المعاني فيها جماع كل التكاليف من أولها إلى آخرها ؛ ولذلك قال رسول الله ﷺ : " **لتنقضن عرى الدين عروة عروة ، أولها الحكم وآخرها الصلاة** "[4] ، معنى ذلك أنكم ستنسون قضايا الدين جزءًا جزءًا ، فينفصل الناس عن منهج ربهم ، يكون ذلك في الحكم ، فيحكمون بغير ما أنزل الله ﷻ ، وتكون هذه هي أول ما ينسى من الدين ، ثم بعد ذلك آخر ما يكون من سمات الإسلام التي تنسى الصلاة ، فيكون من الحكم إلى الصلاة ، فلو نظرنا إلى منهج الصلاة بهذا المعنى ، وجدنا أنها ضرورة من ضروريات وجودنا في ذلك المجتمع ؛ لأن أحداث المجتمع منوعة ، ونحن نرى أناسًا عندما تكثر عليهم الهموم يلجئون إلى شيءٍ يؤنسهم ، وينسيهم همومهم وأحزانهم ، ويعينهم علي زوال تلك الهموم ، فقد يمكن هذا ، وقد لا يمكن .

ولكن رسول الله ﷺ كان إذا حزبه أمر قام إلى الصلاة[5] ، ومعنى حزبه أمر ، أي : ضغطت عليه الظروف فوق أسبابه ، فأين يذهب ؟ إنه يذهب إلى ربه الذي لا يعجز عن أمر ؛ فالصلاة مفزع لذي الحاجة ، ومفزع لذي الهم ، فقد يعتقد أناس أن الخمر تزيل الهم ، ولكنها في الحقيقة تنسي الهم ولا تزيله ، فالهم مازال موجودًا ، فالله جعل لك العقل لتواجه به

---

1 - سورة : آل عمران ، الآية : 32 .

2 - سورة : النور ، الآية : 56 .

3 - سورة : النساء ، الآية : 59 .

4 - أخرجه أحمد في مسنده (45 / 134) ، والطبراني في الكبير (7 / 103) عن أبي أمامة الباهلي .

5 - أخرجه أبو داود (4 / 88) ، وأحمد (47 / 279) ، والبيهقي في الشعب (7 / 180) عن حذيفة .

الأحداث ، لا لتهرب به من الأحـداث ، فعندما يأتيك هَمٌّ لابـد أن يكون عندك طاقـة عقـلية موفرة ، لتتخلص من هذه المشـاكل ، لا لتذهب عقـلك الذي تملكه ، فالخمر لا تذهب الحزن والهم .

ولكني كرجل مؤمن سـأذيب هذا الحزن في أن أكون بـين يدي ربـي ، وما دمت بـين يدي ربي ، فأستطيع أن ألجأ وأستغيث ، وأيضًا : فإن الحق ﷻ هو الخالق ، والعبد مخلوق له ، إذن ، فهذا صانع ، وتلك صنعته ، أروني صنعة تعرض على صانعها كل يوم خمس مرات ثـم تجد بها خللاً ! !

فأنت صنعة ربـك ، فكونك تذهب إليه كل يوم خمس مرات ، وتكون في حـضرته ، أتدري ماذا يفعل بـك ؟! إلا أننا نلاحـظ أنك عندما يكون بـك هموم الدنيا ، ثم تذهب للقـاء ربـك ، فتخرج من هذا اللقـاء وأنت في ارتياح ، ما الذي حـدث لك ؟! الذي خلقـك هو الذى يعلم مفاتيحـك ، ويعلم ما هو المفتاح الذي يجعل عندك التوازن والرضا والاطمئنان ، ويجعلك إذا حدث لك من أحداث الحياة شيء ، برصيد من إيمانك بربك الذي لا تقـدر عليه الأحـداث ، فنحـن عندما نذهب بـألم عضوي إلى طبـيب ليزيل هذا الألم العضوي ، فإنه يزيل هذا الألم بشيء مادي ؛ لأنه مادة أيضًا ، لكن الحق غيب ، فهو يزيل الأشياء بـغيب أيضًا ، فكان ﷺ كلما حزبه أمر قام إلى الصلاة ؛ لأن الصلاة فيها ميزة لا توجد في أي شعيرة من الشعائر ، فهي ميزة تجعل مفتاح لقائك بربك في يدك ، وكما نعرف على عهدنا بـالعظماء والحكام والملوك أن أحـد الرعية من رعاياهم إذا أراد أن يلقـاهم لابـد أن يطلب مقابـلة ، وبـعد ذلك ينظر في ذلك الطلب أيوافق أو لا يوافق ، فإن وافق ، يقول له : عن أي شـيء تتحـدث ؟ فإن وافق حـدد له الزمان والمكان والموضوع الذي يتحـدث فيه ، هذا هو نظام لقـائنا ، لكنك مع ربـك الأعلى في غنى عن مثل هذه المقـدمات كلها ، بـإيمانك بـه ، وبإقبـالك عليه ، أنت الذي تحدد الزمان والمكان وموضوع المقابلة .

إذن .. فالعبودية التي قدمتها بين يدي الله ﷻ إيمانًا به ، وخضوعًا له ، نقلت إليك سيادة هذه السيادة ، في أنك أنت الذي تحدد : أين تلقى الله ﷻ ، ومتى ، وبأى شيء تناجيه ، فبمجرد أن تقول : الله أكبر ، تكون في حضرة الله ﷻ ، وأنت أيضًا الذي تنهي هذه المقابلة ، أهذه سيادة أم عبودية ؟! إنها عبودية أعطتني سيادة ، ولذلك قال الشاعر :

ومما زادني شرفًا وتيهًا وكدت بأخمصي أطأ الثريا
دخولي تحت قولك يا عبادي وأن أرسلت أحمد لي نبيًّا

ولذلك عندما تؤمن بالحق ﷻ وتدخل في مقام العبودية الخالصة له ، يقول لك : المفتاح أصبح في يدك ، تريد أن تقابلني في أي وقت ، وفي أي زمان ومكان ، وتخاطبني في أي شيء ، وتظل طول عمرك معي ، لا أملُّك ، ولا أنهي المقابلة معك أبدًا حتى تكون أنت الذى تنهيها ، وتظل في أنس مع ربك ، ويأنس عباده في الأرض جميعًا به ، ولكن لا يشغله أنسه لعبد عن أنسه لعبد آخر ، يفيض عطاؤه وإقباله وأنسه على الكل ، فنعم السيد هو ، ونعم الرب هو ﷻ .

وفي ذلك يقول الحق ﷻ ، " **وإن تقدم إليَّ ذراعًا ، تقدمت إليه باعًا ، وإن أتاني يمشي ، أتيته هرولة** "[1] .. فهل هذه عبودية أم سيادة ؟ إنها سيادة ، وليست عبودية .

وبعد ذلك نجد العجيب في الناس أنهم لا يعاملون الله ﷻ في جدية العبادة معه كما يتعاملون مع نفوسهم في هزل الحياة وفي لعبها !! فمثلاً : نحن نرى النشاط الرياضي ككرة القدم ، يسأل فيه الناس عن وقت المباراة ، وتجدهم ينتظرون وقت المباراة ويستعدون لحضورها ، ولا حول ولا قوة إلا بالله !! ولماذا لم تنظم وقتك ، وتستعد لكى تحضر الصلاة كما استعددت للمباراة ؟! لماذا أخذتك الظروف عن الصلاة ، ولم تأخذك عن حضور المباراة ؟! تَجِدّوُنَ مع اللعب ثم تلعبون مع الجِدِّ .

---

1 - أخرجه البخاري (6856) ، ومسلم (4832) كلاهما من حديث أبي هريرة .

وأيضًا تجد أعرافًا وتقاليد ونصوصًا محترمة من الجميع ، فلماذا لا تحكمون المنهج الإلهي والدين القويم ؟! ولماذا ليس عندكم غيرة واحترام له كما هو عندكم لتلك القوانين ؟! لماذا هو أهون عندكم من قوانينكم التى وضعتموها لأنفسكم ولعبكم ؟! مع أن الذى وضع هذا المنهج وهذا الدين هو الله رب العالمين ﷻ ؟!!

وإذا نظرنا إلى الرياضة ، نجد أن الناس قد جعلوها غاية ، ولم يجعلوها وسيلة ، إن الرياضة ليست غاية في ذاتها ، بل هي وسيلة إلى أشياء ، وسيلة إلى التربية والتهذيب وتفريغ الطاقات ، كل هذه الألوان من الخُلُق ، فلا آخذ الوسيلة وأجعلها غاية ، فلو لم تكن هذه الوسيلة تخدم الغاية الأصيلة التي أنا مخلوق لها ، لا يصح أن توجد هذه أبدًا ، وإلا فبهذا تكون قد أضعت الفرض لأجل النفل ، ولا يمكن أن تتقرب إلى الله بنفل إلا بعد أن تؤدي له الفريضة ، فريضتك الأساسية أنك عبد لله ﷻ ، موجه من الله ﷻ ، في منهج من مناهج الحياة ، لتعمر الأرض ، وليسيطر فيها منهج الله ﷻ ، هذا هو الأساس ، كل ما يعينك على ذلك يكون وسيلة لتلك الغاية ، فلا صح من المرء أن يأخذ الوسيلة ليجعلها غاية ، وإلا انبتت الوسيلة عن الغاية ، وأصبح اللعب هو الأصل ، والجد هو المُهْمَل .

نسأل الله ﷻ أن يوفقنا في كل ما نأتي ، وفي كل ما ندع ، وأن جعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه .

علم تفسير جزء

سورة الماعون

سورة الماعون

بسم الله الرحمن الرحيم ، أحمدك ربي كما علمتنا أن نحمد ، وأصلي وأسلم على خير خلقك سيدنا محمد ﷺ ، وبعد :

فمع **سورة الماعون** ، وتلك السورة كلها وحدة متماسكة ، ذات اتجاه واحد ، لتقرير حقيقة كلية من حقائق هذه العقيدة ، إن هذه السورة القصيرة ذات الآيات السبع تعالج حقيقة ضخمة تكاد تبدل المفهوم السائد للإيمان والكفر تبديلاً كاملاً ، فوق ما تطلع به على النفس من حقيقة باهرة لطبيعة هذه العقيدة ، وللخير الهائل العظيم المكنون فيها لهذه البشرية ، وللرحمة السابغة التي أرادها الله ﷻ للبشر وهو يبعث إليهم بهذه الرسالة الأخيرة .

إن هذا الدين ليس دين مظاهر وطقوس ، ولا تغني فيه مظاهر العبادات والشعائر ، ما لم تكن صادرة عن إخلاص لله ﷻ ، مؤدية بسبب هذا الإخلاص إلى آثار في القلب تدفع إلى العمل الصالح ، وتتمثل في سلوك تصلح به حياة الناس في هذه الأرض وترقى .

كذلك ليس هذا الدين أجزاء وتفاريق موزعة منفصلة ، يؤدي منها الإنسان ما يشاء ، ويدع منها ما يشاء ، إنما هو منهج متكامل ، تتعاون عباداته وشعائره ، وتكاليفه الفردية والاجتماعية ، حيث تنتهي كلها إلى غاية تعود كلها على البشر ، غاية تتطهر معها القلوب ، وتصلح الحياة ، ويتعاون الناس ويتكافلون في الخير والصلاح والنماء ، وتتمثل فيها رحمة الله السابغة بالعباد .

وقد يقول الإنسان بلسانه : إنه مسلم ومصدق بهذا الدين وقضاياه ، وقد يصلي ، وقد يؤدي

* مقدمة تفسير السورة مقتبس بتصرف من : "في ظلال القرآن" .

شعائر أخرى غير الصلاة ، ولكن حقيقة الإيمان وحقيقة التصديق بالدين تظل بعيدة عنه ، ويظل بعيدًا عنها ؛ لأن لهذه الحقيقة علامات تدل على وجودها وتحققها ، وما لم توجد هذه العلامات فلا إيمان ولا تصديق مهما قال اللسان ، ومهما تعبد الإنسان .

إن حقيقة الإيمان حين تستقر في القلب تتحرك من فورها لكي تحقق ذاتها في عمل صالح ، فإذا لم تتخذ هذه الحركة فهذا دليل على عدم وجودها أصلاً ، وهذا ما تقرره هذه السورة نصًّا .

أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾

﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ﴾ .. وكلمة : ﴿ أَرَأَيْتَ ﴾ من الممكن أن تؤخذ على حقيقتها ، أي : أأبصرت من يكذب بالدين ، وأبصرت من يدع اليتيم ؟ سواء كانت حادثة فردية بالنسبة **لأبي جهل** ، عندما ضرب اليتيم ، وكسر له يده ، أو حادثة فردية **لأبي سفيان** ، عندما نَهَرَ اليتيم ، وكان آنذاك مشركًا ، أو **العاص بن وائل** ، أو **عمر بن عائذ** ، هذه فردية يصح أن تكون ، ويكون الرسول ﷺ قد شاهد هذه المسألة .

﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ﴾ .. أرأيت هنا استفهام ، والحق ﷻ حينما يتعرض لبعض الروايات ، كان من الممكن أن يلقيها خبرًا ، حدث كذا وكذا ، ولكن الحق حينما يخاطب الخلق ، يحاول أن يشارك المخاطب في العملية نفسها ، وذلك أسلوب شائع عندنا ، فحينما تلقي درسًا ، فمن الممكن أن تلقي الدرس إخباريًّا ، وتقول : حدث كذا وكذا ، ومن

الممكن أن تستثير انتباه الدارسين ، وتجعلهم يشاركوك في استنباط الحكم ، فتسألهم أسئلة ، هذه الأسئلة تمهد لأشياء ، بحيث يجيبون بأنفسهم عن هذا الحدث .

فكأن الحق ﷻ حينما يطرح قضية استفهامية وهو يريد بها الإخبار ، إنما يريد أن يأخذ المخاطَب بأسلوب القرآن في السورة ، أي : أنه ينبه مشاعره وأحاسيسه حتى يكون مشاركًا ، بحيث يستطيع أن يصل إلى الجواب ، قبل أن يقال الجواب ، فقال له : ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ﴾ ، فكلمة ﴿ أَرَأَيْتَ ﴾ : إن كان يريد بها البصرية يصح ذلك ، وإن كان المراد بها أعَلِمت يصح أيضًا .

وقد تأتي بمعنى : أخبرني ، تقول : أرأيت ما حدث لفلان ؟ ما دمت شاهدت فأخبرني .

﴿ فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ﴾ .. أردف الحق ﷻ قوله : ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ﴾ .. بقوله : ﴿ فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ﴾ ، فكأن جواب السؤال ليس عند البشر ؛ فعندما نسمع : ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ﴾ قد نفهم من الأسلوب أن الذي يكذب بالدين هو الذي لم يؤمن بما جئت به ، لكن الحق يريد أن يلفتنا بقوله : ﴿ فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ﴾ ، إلى أن هذا أمر قد يغيب عن البال ، أن الذي يكذب بالدين ، ليس من الضروري أن يكذب بأصل الدعوة ، بل قد يكون قد آمن بأصل الدعوة ، ولكنه لم يسِر في منهج حياته على مقتضى ما تتطلبه الدعوة ، فكأنه صدق بلسانه ، ولكن قلبه لم يصدق .

قد يصدق الإنسان بقلبه ، فيكون من السهل أن أعتقد ، ولكن ليس من السهل أن أحمل سلوكي على وفق ما أعتقد ، إذن ، فهنا عدة مشاكل ، فقد تؤمن بشيء ، وعندما تناقش فيه لا تستطيع أن تنقلهُ ، ولكن إذا أردت أن تحمل نفسك على مقتضى ما يتطلبه ذلك الدين ، شق ذلك عليك ، فلا تستطيع أن تنصاع للسلوك وإن كنت مؤمنًا بالعقيدة ، ولذلك توجد قضايا كثيرة جدًا الناس يؤمنون بأنها حاصلة ، ولكن ملابسات عملهم تدل على أنهم ليسوا متيقنين لها ، وليسوا قادرين أن يحملوا أنفسهم على سلوك المعتقد .

فالحق ﷻ يقول : ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ﴾ .. ويتولى الحق ﷻ الجواب ؛ لأن الجواب ليس عند البشر ؛ فالبشر يعتقدون أن الذي يكذب بالدين لا يؤمن به ، كلا ، بل قد يؤمن به ويعتقده ، ولكنه حين يحمل نفسه على السلوك الذي يشغله تبدو قوة إيمانه وضعفه وتشككه ، إن الذي يجعل الإنسان يذهل عن التكاليف كطاعة أو كمعصية ، سببها أنه لم ينقدح في ذهنه الجزاء ، ولو أن الثواب على الطاعة أمام عينيه ، وتيقن منه كأنه يراه ، أو جعل الجزاء على المعصية متيقنًا منه كأنه يراه ، ما صنع معصية قط ، ولا تحول عن طاعة قط ، إذن ، فالإنسان يذهل عن الطاعة أو عن المعصية ؛ لأنه يذهل عن الجزاء ، فلو استحضر الجزاء على الطاعة ، والجزاء على المعصية ، ما ترك طاعة أبدًا ، وما أقدم على معصية أبدًا ، وهذا هو معنى حديث رسول الله ﷺ حين لقي الحارث بن مالك الأنصاري فقال له : " **كيف أصبحت يا حارث ؟** " قال : أصبحت مؤمنًا حقًّا ، فقال : " **انظر ما تقول ؟ فإن لكل شيء حقيقة ، فما حقيقة إيمانك ؟** " فقال : قد عزفت نفسي عن الدنيا ، وأسهرت لذلك ليلي ، وأظمأت نهاري ، وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزًا ، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها ، وكأني أنظر إلى أهل النار يتضاغون فيها . فقال : " **يا حارث .. عرفت فالزم** "[1] .. هذه هي حقيقة الإيمان ، وليست قضايا إخبارية ، فإذا ما امتحنت أمام التطبيق تنحل من الإنسان .

يريد الله بقوله : ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ﴾ .. أن نفهم أن الذي يكذب بالدين ، لا يصدق الرسول ﷺ ، ولا يستطيع أن يحمل نفسه علي منهج الدين ، فيؤمن بالقضايا العقدية ، وعندما يقال له : طبق هذا المنهج لا يستطيع ، ﴿ فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ﴾ .. أي : إذا أردت أن تعرف حقيقة الذي يكذب بالدين ، فهو الذي صدقك ، وآمن بك ، وبعد

---

1 - أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه عن الحارث بن مالك الأنصاري (7 / 226) ، وعبد بن حميد في مسنده (2 / 28) ، وأبو نعيم في معرفة الصحابة (6 / 153) .

ذلك لا يستطيع أن يحمل نفسه على سلوك الدين الذي تتطلبه تلك العقيدة .. ﴿ فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ﴾ ، فهذا يكذب بالدين ، كأنه صدق العقيدة أولاً ، فلما جاء للتطبيق في هذا المظهر الضعيف في الكون دعَّ اليتيم ، فكلمة : ﴿ يَدُعُّ الْيَتِيمَ ﴾ .. أعطت صورة بشعة ، يدعُّه أي : يدفعه بعنف ، وليس فقط لم يعطه ، فالرد ليس بالكلمة ، ولكن الرد بالفعل المؤلم ، يدعُّه ، أي : يجذبه من رقبته بعنف ، ﴿ فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ﴾ ، واختار الحق ﷻ صورة من صور الضعف في الجهاد الكوني ؛ لأن الضعف قد يكون عن عدم طاقة على الفعل ، أوعن عدم قدرة الفعل على التخطيط للطاقة ، أي : ليس له عقل يخطط به للطاقة ، فالرجل المسن الذي لا يقدر على فعل شيء ، فهذا لا يمتلك الطاقة التي بها يفعل هذا الشيء ، ولكنه يمتلك العقل ، بينما اليتيم ليس عنده الطاقة التي يفعل بها ، ولا عنده العقل الذي يفكر ، ولذلك (اليتيم) : هو من مات أبوه ، ولم يبلغ مبلغ الرجال ؛ لأن الذي يبلغ مبلغ الرجال ، انحلت عنه صفة اليتم ، إذن ، فاليتيم ضعيف ، لا طاقة عنده ، ولا عقل له يستطيع باحتياله أن يعوض هذه الطاقة ، ﴿ فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ﴾ ؛ لأنه فاقد القدرة والعقل الذي يخطط ؛ لأن التخطيط من الممكن أن يقوم مقام القدرة ، فاليتيم لا يمتلك القوة ، ولا يمتلك العقل ، وهو أيضًا مخلوق لله ﷻ ، هو الذي خلقه ، وبخلق الله للعبد ، وبمخلوقية العبد لله ، فلابد أن يعيش ، سواء كان مؤمنًا أو كافرًا ؛ ولذلك فالأسباب المادية تستجلب للمؤمن وللكافر ، والصغير والكبير ، فما دام بخالقية الله له ، وبمخلوقيته لله ، فلابد أن يضمن له العيش ؛ ولذلك الحق ﷻ يعتبر أنك عندما تعطي إنسانًا فقيرًا كأنك تقرضه هو ﷻ ، لماذا ؟ لأني بخالقيتي له ، وبمخلوقيته لي ، فأنا أوجب على نفسي أن يعيش ، ولكني أريد أن أرى أثر تعاطف صنعتي على صنعتي ، أريد أن أرى تعاطف الصنعة القوية تعين العاجز ، ولذلك يقول الحق ﷻ : ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾[1] ، فعندما تعطي الفقير فكأنك تقرض الخالق ﷻ .

1 - سورة : البقرة ، الآية : 245 .

فإذا قسا المجتمع ، وأصبح شديد القسوة ، فإن الحق لا يتدخل بالأسباب من البشر ، ولكن يتدخل بالأسباب الغائبة ، التي هي غيب ، فيعرض لنا الحق ﷻ ويقول : إن الإنسان تمر عليه فترة من الفترات ينشغل بنفسه ، ونفسه عنده أعز شيء ، وبعد ذلك عندما ينجب أولادًا ، ينتقل هذا الانشغال إلى الأولاد ، فيتعب من أجل راحتهم ، وأحيانًا ينشغل الإنسان برزق أولاده ، ويخاف أن يؤخذ منهم قبل أن ينضجوا ، فيقول الحق له : المسألة معادلة ، إن كنت صنعت في الضعاف من الصغار الذين لغيرك ، فاطمئن على أن الله سيخلق بسبب وبغير سبب الذين يعولون ضعافك ، فإن كنت تريد تأمينًا لحياتهم فأمن في يد الله ، وانظر إلى الضعاف الذين أمامك ، والذين ليس لهم عائل ، وتكفل بهم ، فإذا فعلت ذلك ، فثق تمام الثقة أن الحق ﷻ سيرزق أولادك ، ويسخر لهم من يعولهم ؛ لأنك أمنت في يد الله ، وما دمت أمنت في يد الله ، فالله خير أمين ، سيهيئ لك الفرصة ، وإن لم تكن في الحسبان .

وقد عرض القرآن الكريم قضية اليتيم في **سورة الكهف** عرضًا جميلاً ، في قصة **الخضر وموسى عليهما السلام** ، عندما أتيا أهل قرية استطعما أهلها ، فأبوا أن يطعموهما ، وهذا في منتهى الخسة واللؤم ، فوجد العبد الصالح جدارًا يريد أن ينقض فأقامه وأصلح من شأنه ، فاعترض موسى عليه السلام على ذلك وقال له : ﴿ لَوْ شِئْتَ لاَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾[1] ؛ لأنهم لم يتكرموا معنا حين طلبنا منهم طعامًا فرفضوا ، فكيف تقيم لهم الجدار ولا تأخذ عليه أجرًا ، فكان أقل شيء تفعله مع هؤلاء أن تأخذ أجرًا على عملك ؛ لأنهم أهل لؤم ، وليسوا أهل مجاملة .. كان هذا منطق موسى عليه السلام ، وهذا كلام صحيح ، ولكن منطق العبد الصالح كان غير ذلك ، فقد أخبره بأن تحت هذا الجدار كنزًا ، وهو ليتيمين في المدينة ، فإذا هدم الجدار نُهب الكنز ؛ لأن أهل هذه القرية لئام ، فأردت أن أكافئهم على لؤمهم ، فأمنع عنهم فرصة أخذ الكنز ، فعدم أخذي أجرًا على هذا العمل ، هو الرد الطبيعي على لؤمهم ، فأنا أقمت الجدار حتى يبلغ اليتامى سن الرشد ، فعندما أراد أن يعلل له سبب عدم أخذه أجرًا مقابل

---

1 - سورة : الكهف ، الآية : 77 .

أقامته للجدار قال : ﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلاَمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا ﴾ .. هذه علة ، والعلة الثانية : ﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا ﴾[1] .. فكأن الله ﷻ قد قيض مجيئي ومجيئك ، واستطعامنا لأهل القرية وألا يطعمونا ، إذن ، فللبخل وللؤم رسالة يؤديها في الكون ؛ لأنهم لو أطعمونا ما أقمنا الجدار ، وما فعلنا بهم ذلك : ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ﴾ ، إذن ، فتعليل الحق بقوله : ﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا ﴾ ، يدل على أن من صلاحه ، أنه رعى مثل هؤلاء ، وما دام قد رعى لله عياله في حالة الضعف ، فلزامًا على الله أن يرعى له أولاده إذا كانوا في حاجة ، ويهيئ لهم أسبابًا بعيدة عن بيئتهم ، فيأتي إليهم من يحرس لهم كنزهم من حيث لا يدرون .

إذن ، فالقضية التي يلفت لها الحق ﷻ بقوله : ﴿ فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ﴾ ، قد نستقبلها استقبالاً هينًا ، ولكنها في الحقيقة قضية خطيرة ؛ لأن أهم شيء في الحياة أن يحفظ الإنسان قوام حياته بالطعام ، هذا أول شيء مهم في الحياة ، أما ترف الحياة فشيء آخر ، فاليتيم فيه مظاهر الضعف كلها ، فلا طاقة تعمل ، ولا عقل يخطط تخطيطًا يقوم مقام الضعف ، إذن ، فاليتيم لابد أن يكون له وضع ، فإذا رأيت إنسانًا يفعل باليتيم هكذا ، فاعلم أنه لا خير فيه ، وكأنه فهم الدين على أنه مجرد قضايا كلامية ، أو قضايا عقدية ، فعندما أردنا أن نخرج الدين عن هذا القدر ، لم تستطع نفسه فعل ذلك ، وفي غير اليتيم يطلب أن يكون كذلك ، ولكن غير اليتيم قد يعطيه اللئيم ؛ لأنه قد يكون له كلام يلسن به ، وقد يكون له من يرد حقه ، لكن اليتيم الذي لا حول له ولا قوة ، ليس له قول مسموع ، وليس له أحد يرد اللئيم عنه .

﴿ وَلاَ يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴾ .. وبعد ذلك نقلنا نقلة ثانية ، فقال : ليس معنى ذلك أن الخطاب في الذي يكذب بالدين ، هو الذي يدع اليتيم فقط ؛ لأنه حينما تدع اليتيم ، كنت تمتلك الذي تعطيه له ولم تعطه ، وإذا لم يكن عندك ، فلليتيم أيضًا عليك حق : أن

1 - سورة : الكهف ، الآية : 82 .

تحث ، وتحض من يعطيه .

إذن .. فعدم وجود شيء عندك لا يعفيك من المسئولية ، كيف ذلك ؟! استعمل لسانك ، واذهب إلى الغني وحثه وأقنعه على أن يفعل ، إذن ، فهذه أيضًا قضية أخرى ، أن يقول الفرد : ليس عندي شيء ، ولذلك لا يلزمني أن أعطي ، فنقول له : كلا ، أنت حقًّا لا تملك المال لتعطيه ، ولكنك تستطيع بقوة حَثِّك ، وبلين حَضِّك أن تنصح الواجد بأن يعطي الفاقد ، فعدم وجود المال لا يعفيني من المسؤلية .

وكثير من الأشياء لا يعذر الإنسان فيها بكونه لا يملك ، بل لابد من محاولات أخرى ، هذه المحاولات قد تكون موضوعية ، وقد تكون عاطفية ، فمثلاً يقول الحق ﷻ في الجهاد : ﴿ لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلاَ عَلَى الْمَرْضَى وَلاَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ ﴾ ، ولكن متى لا يكون عليهم حرج في ترك الجهاد ؟ .. ﴿ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ ﴾[1] ، وهذه خطوة ثانية ، فليس موقفهم فقط أنهم لا يقدرون ، بل يقدرون أن يتسلطوا على قادة ، ويوسوسوا في آذانهم ، وإن قال الفرد : لا أستطيع ، تأتي العملية العاطفية التي يستطيع كل إنسان أن يفعلها : ﴿ وَلاَ عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ ، كان يكفي هذا لعذرهم ، ذهبوا للرسول ﷺ وقالوا له : نريد أن نجاهد ، أحضر لنا ما نركبه .. فقال لهم : ليس عندي ، فماذا صنعوا ؟ ﴿ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ ﴾[2] ، عملية عاطفية ، إن لم تقدر على العمليات الموضوعية كلها ، لا أقل من أن تقدر على وجدانك ، فتتألم وتبكي ؛ لأنك لست قادرًا ، إذن ، فوجه الإعذار في قضايا الدين ليس للموجد فقط ، ولكن المرتبة الثانية أن تحث الواجد ، والمرتبة الثالثة أن تتحسر ، وتتألم ، وتبكي ؛ لأنك غير قادر .

إذن .. فالمسألة اقتصادية ، واجتماعية ، ونفسية .

---

1 - سورة : التوبة ، الآية : 91 .

2 - سورة : التوبة ، الآية : 92 .

﴿ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاَتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ .. وبعد ذلك ينقلنا نقلة ثانية ، فقال : ﴿ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاَتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ .. أولئك المصلون الذين هم عن صلاتهم ساهون ، إذن ، فالمصلون : هم الذين دخلوا في زمرة المتصلين بالصلاة ، وهم أهل القبلة ، آمنوا بالله ، وبرسوله ، وبالعبادات ، وبالشعائر ، إلا أنهم أصبحوا مصلين بهذا ؛ لأن هناك فرقًا بين مصلٍّ بالقوة ، ومصلٍّ بالفعل ، المصلي بالقوة : هو الذي دان بدين من يأمر بالصلاة ، والمصلي بالفعل هو الذي يبرز هذه المسألة إبرازًا تطبيقيًا .. ﴿ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ﴾ .. لماذا ؟ ﴿ هُمْ عَنْ صَلاَتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ ، فإذا كانوا مصلين ، فكيف يسهون عن الصلاة ؟! هنا يوجد أسلوبان : أحدهما إثبات ، والآخر نفي ، لذلك يقف العقل هنا قليلاً ، كيف وصفوا بأنهم مصلون ، وكيف نقول : ﴿ عَنْ صَلاَتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ ؟! إذن ، فهنا يتدخل العقل في فصل شيئين ، وهما : الشكل ، والموضوع ، فالعبادة لها شكل تقوم عليه ، ولها موضوع تحققه ، فقد يؤدي الإنسان الشكل ، ولا يؤدِّي الموضوع ؛ ولذلك يشرح لنا الرسول ﷺ هذا عندما يرى أحدهم يصلي ، فيقول له : " **قم فصلِّ فإنك لم تصلِّ** "[1] .. إذن فقد أدى الشكل ، والشكل يسقط الحد عنه عندنا ، فنحن لا نستطيع أن نقول له : لماذا لا تصلي .. إنما لم يؤدِّ الموضوع ، الذي هو القرب من الله ﷻ ، ومادام في حضرة الله ﷻ ، فيجب إذًا أن لا يشغل باله بغيره في هذا الوقت الذي خصصه لذلك ؛ لأننا لا نأخذ منك إلا ساعة في الخمس أوقات ، وتاركين لك ثلاثًا وعشرين ساعة مع الكون كله ، فإذا كان لك ثلاث وعشرون ساعة مع الكون ، وساعة مع المكوِّن ، فهل تريد أن تُدْخل الكون أيضًا مع المكوِّن في ساعته ؟! إن هذا لا يصح .

إذن ﴿ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاَتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ .. يعني : الذين يذهبون إلى الصلاة ، ويؤدون شكل الصلاة ، ولكن لايؤدون مضمون الصلاة ، ويفتقدون شحنتهم النورانية

---

1 - أخرجه أحمد في مسنده (38 / 480) ، والنسائي (4 / 191) عن رفاعة بن رافع .

التي تجعلهم يستعينون بها على وسائل حياتهم ..

ونلاحظ أنه لم يقل : في صلاتهم ، وإنما قال : ﴿ عَنْ صَلاَتِهِمْ ﴾ .. لأن السهو في الصلاة يتأتى ، ولذلك قال بعضهم عندما سمع ذلك : الحمد لله الذي قال : (عن) ، ولم يقل : (في) ؛ لأنه لو قال : (في) لهلكنا جميعًا ؛ لأنه من غير الممكن أبدًا أن يصلي أحدهم ، وخصوصًا المرتاضين حديثًا على الصلاة ، ولا يسهو ، ولكن من الممكن عدم حدوث ذلك مع الذين أخذت الصلاة من نفوسهم ، وعقدت عليها محبتهم ، وعرفوا قرة العين فيها ، وعرفوا المشاهدة ، عندما يقف الفرد هكذا ، تتراءى له الكعبة ، وفيض من فيوضات الله تتجلى عليه ، يضن بذلك أن يضيع في غير صلته بالله ﷻ ، وهؤلاء هم المرتاضون على الصلاة ، الذين أحبوها ، ولكن الذين يرتاضون الصلاة حديثًا ، يكون للشيطان في صلاتهم مداخل .

ومن مداخل الشيطان أن الشيطان صادق مع نفسه ، كيف ذلك ؟! فعندما كان يجادل مع الحق ﷻ بعد رفضه السجود لآدم ، طرده الله حينذاك من الجنة ، وقال له : ﴿ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴾[1] ، فقال له إبليس : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾[2] ، انظر القسم الذى أقسم به ، قسم عالم ، قال : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ ، يعني : سأدخل عليهم بوصف عزتك عنهم ؛ لأن عزتك عنهم هي التي جعلتهم إما مطيع لك ، وإما عازف عن الطاعة ، ولو أردتهم مهديين ، ما استطعت أن آخذهم منك ، إنما عزتك عن خلقك هي السبيل لي إليهم ، وإلا لو أنك أحببتهم ما كنت لأقدر على ذلك ، إذن ، عزتك عن خلقك هي التي ستجعلني أنفذ إليهم ، إذن ، قسم عالِم ، عالمٌ بصفات الله ، عالم بمتعلق الصفات : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ ، لم يقل : بقدرتك ، ولم يقل : برحمتك ، إنما أتى بالصفة التي تتيح الحرية للعباد ، مَن أراد الإيمان آمن ، ومن لم يرد فهو وما يريد .

---

1 - سورة : ص ، الآية : 77 ، 78 .

2 - سورة : ص ، الآية : 82 .

كما في قول الحق ﷻ في الحديث القدسي : " يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا ، يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته ؛ فاستهدوني أهدكم ، يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته ؛ فاستطعموني أطعمكم ، يا عبادي كلكم عارٍ إلا من كسوته ؛ فاستكسوني أكسكم ، يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعًا ؛ فاستغفروني أغفر لكم ، يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئًا ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكي شيئًا ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر ، يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ، ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خيرًا فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه "[1].

إذن فعزة الله ﷻ عن خلقه هي التي ينفذ منها الشيطان ، بدليل قوله : ﴿ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾[2].. أي الذين تريدهم أنت ، فلا أستطيع الاقتراب منهم ، إذن ، فالمسألة ليست معاندة إبليس لقانون الله ﷻ ، ولكن المسألة معاندة إبليس لعزائم البشر ، أما الله فلا يستطيع أحد أن يتحداه أبدًا ؛ لأنه لو أراد شيئًا سيحدث سواء رضيت أم لم ترضَ .

وانظر أيضًا إلى التخطيط في المعصية : ﴿ لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾[3]، يعني : آتي على الصراط المستقيم ، وأقعد عليه للإغواء ، ولا آتي على الطريق المعوج ؛ لأن الذي في الطريق المعوج ليس في حاجة لي ، فهو كافر عاصٍ ، إذن فمهمتي مع الطائعين ، أقعد عند باب المسجد كثيرًا ، ولا أكثر على باب الخمارة ؛ لأن الذي يذهب إلى الخمارة ليس في حاجة

1 - أخرجه مسلم (6737) عن أبي ذر .

2 - سورة : ص ، الآية : 83 .

3 - سورة : الأعراف ، الآية : 16 .

لي ، وأنا شبه مطمئن عليه ، ولكن عملي كله مع الطائعين : ﴿ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ ، فيأتيك إبليس في وقت الصلاة ، ويقوم بحل مشاكلك كلها ، المعادلة التي لا أعرف حلها يأتي بحلها ، والتائهة يأتي بها لك ، ولولا أنه علم أن ذلك موقفٌ هو لب الصراط المستقيم ، ما جاء للإنسان ليفسد عليه ذلك الوقت ، يريد أن يفسد عليه تلك الخلوة .

ولذلك جاء إنسان لأبي حنيفة رحمه الله ، فقال له : يا إمام ، كان عندي مال ، وهذا المال دفنته في أرض ، و ضللت المكان إليه ، فضحك الإمام أبو حنيفة ، وقال : يا بني ، ليس في ذلك علم ، فمن أين لي بعلم يعرفني مكان المال ؟ ولكني سأحتال لك : اذهب الليلة وبعد أن تصلي العشاء ، توضأ وضوءًا جديدًا ، وانذر أنك تقف هذه الليلة بين يدي ربك مصليًا ، لعل الله ﷻ أن يهديك لمكان المال .. فذهب الرجل ، وعند الفجر جاء لأبي حنيفة ، وقال : يا إمام ، لقد وجدت المال ، قال له : كيف ؟! قال : لقد وقفت بين يدي ربي كما قلت لي ، وأنا أصلي إذا بي أتذكر مكان المال .. فضحك أبو حنيفة ، وقال : والله لقد علمت أن الشيطان لا يدعك تتم ليلتك مع ربك ، فهلا أتممتها شكرًا لله ﷻ ؟ قال : أفعل إن شاء الله .

هنا وقفة .. فإن إبليس قال في منهجه في التخطيط : ﴿ ثُمَّ لآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ ﴾ .. يعني : من الأمام ، ﴿ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ ﴾[1] .. فتجد أنه قد أغفل جهتين ، فلم يقترب ناحية مقام العلو ، ومقام السفل ، وكأن هاتين الجهتين لا يأتي منهما الشيطان إلى الذي يستشعر دائمًا عز الربوبية الأعلى ، وذل العبودية الأدنى ؛ لذلك ابتعد عن هذين الطريقين ، والذي يظل بين الاثنين ، موصول بين ذل عبودية ، وعز ربوبية ، لا يمكن أن يأتيه الشيطان .

إذن ، فقول الحق ﷻ : ﴿ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ .. تنبه

---

1 - سورة : الأعراف ، الآية : 17 .

الإنســـان إلى أن لحظات الصلاة هي لحظات القـــرب ، لحظات تجلي الحق على الخلق ؛ فيستغلها الإنسان ، وينتفع بها ، ولا يشرك شيئًا آخر معها ؛ لأن هذا يعتبر من قبيل اللغو ، ولذلك قـال هناك : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاَتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴾[1] ، ثم قال : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾[2] .. فكل فكر في غير الله وقت الصلاة يعتبر لغوًا في أمور دنياك .

﴿ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴾ .. فكأن لهم شـــكل الصلاة ، إنما موضوع الصلاة فليس موجودًا عندهم ، فكأنها مراءاة من أجل أن يدخلوا في الجماعة المســـــلمة ، ومن أجل أن يتمتعوا بالحقـوق الإســلامية في المجتمع المســلم ، إنما في حقيقــة الأمر هو مراءٍ ؛ لأنه مادام لم يؤدِّ موضوع الصلاة فهو يؤدي شكلها فقط ، وبالتالي فهو يرائي المجتمع .

﴿ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴾ .. أي : الذين يفعلون فعل المرائي الذي يحـب أن يـراه النـاس في وضع من الأوضاع .

﴿ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾ .. وهنا قام بـردِّها حـيث قـال هناك : ﴿ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ﴾ ، وهنا قال : ﴿ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾ ، فكأن التجربـة الحقيقية للمنهج الديني هو في المسألة المادية ، وهذه المسألة المادية إن هانت في نظرك أمام مطلوب الله منك ، فاعلم حـقًّا أنك على المنهج السـليم ، وإن تعبـت نفسـك عند تعرضك لهذه المسألة المادية ، فاعلم أنك لسـت على المنهج السليم ، المسألة المادية هي المقياس الحقيقي الذي تظهر به أخلاق الناس ، ويظهر بـه دينهم ، فيقول هناك : ﴿ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ﴾ ، ويقـول هنا : ﴿ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾ ، في الأولى يعطي اليتيم ضروريات حياة ، أي : يخرج شيئًا من ماله ، ويعطيه لليتيم لكي يعيش ، إذن فأنت تتبرع ، أو تتطوع بـــأصل الشـــيء ليملكه اليتيم ، إنما في الثانية : ﴿ يَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾ ، فأنت تتطوع بـأثر نفع الشـيء ، والشـيء سـيرجع لك مرة أخرى ، كأن تعير

1 - سورة : المؤمنون ، الآية : 1 : 3 .

2 - سورة : المؤمنون ، الآية : 9 .

الماعون ، أو طست ، أو أي شيء من الأشياء التي تستعار في البيوت .

﴿ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾ .. حتى الشيء الذي سيتجاوز أثر نفعه إلى الغير ، وحقيقة ملكيته مازالت له ؛ لأن الماعون سيعار ، ثم يرجع لصاحبه مرة أخرى .

إذا نظرت إلى هذه السورة ، وجدتها تتضمن أصولاً اقتصادية ، وبها يقوم نظام الكون الدقيق ، وتتضمن أصلاً وجدانيًا ، وهو استشفافك من حضرتك في الصلاة ، وقربك من الله ﷻ ، وإذا اعتدل هذان الأمران اعتدل المجتمع بأكمله ، ويصير المنهج سليمًا ، والرعية الإسلامية تصبح رعية متكاملة متكافلة ، رعية مستشعرة عبوديتها جميعًا لإله واحد ، إذا نظرت للمقارنة نجد أنه قال هناك : ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴾[1] .

فيجب أن نفهم أن إطعامنا من جوع هو لله ، وأمننا من خوف هو لله ، فما دمت أخذت ما في يد الله ، فلا تضن على من دونك بذلك ، ولذلك جاء : ﴿ أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ ﴾[2] ، فإذا جاءك يتيم فلابد أن تعطيه ، وإذا طُلِب منك ماعون فلابد أن تُعيره ، فيعطينا الحق صفات شح وبخل في الذي يدعُّ اليتيم ، وهو شحٌّ وبخل على أقصى صورة ، وليس على صورة مهذبة أو مقبولة ، ثم يعطينا نفس الصفات في الذين يمنعون الماعون : ﴿ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاَتِهِمْ سَاهُونَ * الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ * وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾ .

نسأل الله ﷻ أن يتولانا ويرعانا ، وأن يباعد بيننا وبين هذه الصفات ، حتى نكون أهلاً لرحمته وأهلاً لمحبته وأهلاً لرضاه .

إنه ولي ذلك والقادر عليه .

---

1 - سورة : قريش ، الآية : 3 ، 4 .

2 - سورة : قريش ، الآية : 3 .

علم

تفسیر جزء

سورة الكوثر

سُورَةُ الْكَوْثَرِ

بسم الله الرحمن الرحيم ، أحمدك ربي كما علمتنا أن نحمد ، وأصلي وأسلم على خير خلقك سيدنا محمد ﷺ ، وبعد :

في هذه السورة يعرض الحق ﷻ المتقابلات ، فالبخل الذى ورد من الأصناف السالفة الذكر في **سورة الماعون** سيقابله الإعطاء ، فيستهل السورة بـ ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾ .. أعطيناك الكوثر والكثير ، وبعد ذلك يذكر مقابل صفة المراءاة فيقول : ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ ﴾ ، أي : لا تصلِّ للناس ؛ لأنك لو صليت للناس فإنك ترائيهم ، وصلِّ لأنك تعلم : ﴿ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ * الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴾ [1] .. وحين يأمر رسوله ﷺ بالصلاة فإنه يقصد بذلك الصلاة الحقيقية المتقنة ، وقوله : ﴿ فَصَلِّ ﴾ .. يقابل قوله : ﴿ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ﴾ ، و : ﴿ لِرَبِّكَ ﴾ ، يقابل : ﴿ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴾ ، ثم : ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴾ .. والنحر بذلٌ ، وهو بذل بأصل الشيء ، وليس بنفع الشيء ، والبذل بالأصل بذل بأقصى أنواع البذل ، وهو يقابل : ﴿ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾ [2].

إذن .. فارتباط **سورة الكوثر** بالسورة التي سبقتها يسمى ارتباط التقابل ، ومعنى ارتباط التقابل : أن **سورة الماعون** تعرضت للتكذيب بالدين في قوله ﷻ : ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ * فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ﴾ ، وتعرضت للسهو عن الصلاة في قوله ﷻ : ﴿ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ .. فلا يؤدونها مع اتسامهم بوسم الإسلام ، ومع ذلك لا يؤدون

---

1 - سورة : الماعون ، الآية : 4 : 6 .

2 - سورة : الماعون ، الآية : 7 .

عماد الإسلام ، أو أنهم يقومون بشكل الصلاة ، ولا يلتفتون إلى خشوع موضوعها .. ﴿ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴾ ، يفعلون الأشياء مراءاة للناس ، والمراءاة : مفاعلة ، فأنت تحب أن تفعل الفعل ليراك الناس ، وحين يراك الناس وأنت تفعل الفعل ، فإنك تراه لابد محمودًا ، فلو كان غير محمود لاستترت به ، فهو يرائيك بالفعل ، وأنت أيضًا ترائيه بالثناء ، وتعرضت أيضًا للبخل في قوله ﷻ : ﴿ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾ .. وهي الأدوات التي يستعان بها على الحياة مما لا يملكه الناس البسطاء ، فالتقابل في **سورة الكوثر** ، جاء ليقابل البخل بالعطاء بقوله : ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾ ، وليقابل المراءاة بالإخلاص بقوله : ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ ﴾ ، أي : صلِّ لربك ، لا تصلِّ للناس ، فكأن الملحوظ في إقبالك على العبادة ، أن يكون التوجه بها إلى الله مباشرة ، وبعد ذلك قال الحق ﷻ : ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴾ .. والنحر سمة من سمات البذل والسماح في الشيء الذي تتسامى ملكيته عند النفس ، ومعنى تسامي الملكية عند النفس : أن الإنسان قد يملك ألوانًا من الجمادات يحب أن يغذي بها النبات لينمو ، والنبات يملكه يحب أن يغذي به الحيوان لينمو ويتكاثر ، فالحيوان مظهريته أقصى ما يمكن من الانتفاع بالملكية ، فلم يرد الحق ﷻ منه أن يبذل مالاً أو نباتًا ، وإنما قال : ﴿ وَانْحَرْ ﴾ .. والنحر بأسمى الأشياء التي أنعم الله بها على الإنسان مما يلي الإنسان في الرتبة ؛ حيث إن الرتب الوجودية تتمثل في الجماد ، ثم يتميز بالنمو ، فيوجد النبات ، ثم يتميز بالحس والحركة ، فيوجد الحيوان ، ثم يتميز بالفكر ، فيوجد الإنسان .

هذا التقابل من الحق ﷻ يعطينا أيضًا أن الحق يريد أن يرد مقاييس الأرض إلى مقاييس السماء ، ومعايير الخلق إلى معيار الحق ؛ لأن الخلق لهم في أحكامهم معايير ومقاييس ، والحق بمنهجه لنا يريدنا أن نرتفع بمنهجنا إلى منهجه ؛ لأن منهجنا في الحياة إنما يستنبط على وفق قدرتنا في ذكاء الاستنباط ، وعلى قدرتنا في الإحاطة بعلم الأشياء ، ويختلف باختلاف أهوائنا فيما نقنن من قيم ومقاييس ومعايير ، فيريد الحق ﷻ أن يخلصنا من مقاييسنا ومعاييرنا ، إلى مقاييسه هو ومعاييره ﷻ .

فمثلاً الذين يعرفون تاريخ الجزيرة العربية يعرفون أن أهلها كانوا يعتزون دائمًا بالبنين وبالتكاثر في الذرية ، ويرون أن وجود الذرية وصل لحياة الإنسان ، وأن ذكر الإنسان لا يمكن أن يتحقق وجوده بعد موته ؛ لأن الموت أمر مقطوع به ، فهم يريدون أن يصلوا حياتهم بذرياتهم ؛ ولذلك شاع على ألسنتهم : من لا ولد له لا ذِكْرَ له ، تلك هي معايير الأرض في أن الولد هو الذي يحفظ ذِكْرَ أبيه ، ويحمل اسمه ، وهذا هو سر العرب في الاحتفاظ بالأنساب ، فالحي منهم يريد أن يفتخر بمجد أسلافه الماضيين ، والميت منهم يريد أن يبقى ذكره بواسطة أبنائه ، ولكن الحق ﷻ يريد أن يردنا عن هذه المعايير ، فمعايير الذكر الحقيقي ليست فيما نعرفه نحن من وجود البنين ؛ ولذلك لما مات ذكور رسول الله ﷺ فرح أولئك الذين كفروا به ؛ لأنهم كانوا يعتقدون أن **محمدا** ﷺ يريد ملكًا موروثًا ، وأن العقب الذي يجيء بعده من الذكور سيحمل ذلك الملك والجاه والنعيم ، فلما مات أبناؤه الذكور فرحوا ، وقالوا : نتحمل الأمر في عمره ، فإذا ما مات فلا يوجد له ذكر بعد ذلك ، فيصبح أبتر ، أي : مقطوع الذكر ، لا يُذكر على لسان أحد ، ولا تلتفت إليه الدنيا التي تجيء بعده .. هذه هي معايير الأرض ومقاييسها ، ثم لما ذهب إلى المدينة ، رُزِق من مارية **بأبراهيم** ، ثم مات **إبراهيم** ، فتعالم خصومه في مكة **بموت إبراهيم** ، فقالوا مقولتهم تلك مرة أخرى : أصبح **محمد** أبتر .. فيريد الحق ﷻ أن يرد هذه المعايير الجاهلية ويقول لهم : إن نسب الرُسُل لا يكون في أبناء أصلابهم ، ولا يكون في أبناء دمائهم ، إنما نسبهم في أمتهم ، وفي الذين يتبعونهم ، ذلك هو النسب المعترف به عند الله ﷻ ، فإذا كان المقياس هو ذلك فسيبقى **محمد** ﷺ ، الذي تقولون أنه قد صار أبتر لا ذرية له ، سيبقى موصول الذرية ، فيما لا يمكن لبشر أن يوجد من عدد الذرية مثله ؛ لأنه سيكون موصولاً في كل أتباعه ، وما دام موصولاً في كل أتباعه ، وكل واحد تابع له ، سينسب لاسمه ، ويدعو بدعوته ، ويرد الأحكام إلى ما قال وهو في قبره ﷺ .

ولذلك أعجبتني مقولة أحد المستشرقين غلبه الحق فقال : إني لأعجب لرجل مثل **محمد** ، لا يزال يحكم ملايين الناس وهو ميت في قبره .

إذن .. فهذا هو الذكر ، تلك هي رفعة الشأن ، هذا هو الوصل الذي لا ينقطع ، ولكن انظروا إليكم أنتم أيها المكذبون لرسول الله ﷺ ، كنتم تعتزون بأبنائكم ، وبعد ذلك أسلم أبناؤكم فنسوكم ، ولم يُذكر واحد منكم أبدًا مع ابنه ، إذن فأبناؤكم الذين هم من أصلابكم ، أخذهم رسول الله ﷺ لنفسه ، فها هو **الوليد** ، أسلم ابنه ، وكان إلى جانب رسول الله ﷺ في **غزوة بدر** ، **والوليد** في الجانب الآخر من خصوم رسول الله ﷺ ، ولم ينتظر حتى يموت **الوليد** ، وإنما كان ذلك في حياته ، وها هو ذا **العاص بن وائل** ، يسلم ابنه **عمرو** ، وها هو ذا **أبو جهل** ، يسلم ابنه **عكرمة** ، وغيرهم الكثير .

إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ ﴿٣﴾

﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾ .. والمعطي هنا هو الله ﷻ ، والمعطى له هو الرسول ﷺ ، والشيء الذي أعطيَه هو الكوثر ، عندنا معطٍ هو الله ﷻ ، ومعطى له هو الرسول ﷺ ، والشيء الذي أعطيه هو الكوثر ، وكلمة : (**الكوثر**) تستعمل في اللغة في وصف نسب الأشياء قلة وكثرة ، يقال : هذا أقل ، وهذا قليل ، وهذا كثير ، وهذا أكثر ، وهذا كوثر ، إذن ، فكلمة : (**كوثر**) هي أوسع الكلمات دلالة على معنى الكثرة ، فكلمة أكثر نلاحظ فيها أنه كثير بالنسبة لنوعه ، كمن يعطي شيئًا من المال ، فالذي يعطى كثيرًا تقول : هذا أعطى مالاً كثيرًا ، فعندما يزيد نقول : أعطى أكثر .

ولكن عندما يعطى مالاً كثيرًا ، وبعد ذلك يعطى صحة ، وسعادة كثيرة ، وطعامًا ، ونباتًا ، وحيوانًا كثيرًا ، وكذا ... وكذا ... فتعدد الأنواع في الكثرة يعني : أكثر ، ولكن كوثر تتأتى

بـكثرة في أنواع متعددة ، فإذا قـال الله ﷻ : ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾ .. فمعناه أنه أعطاه الكثير الأكثر من كل شيء .

قال أنس : أغفى رسول الله ﷺ إغفاءة ثم رفع رأسه مبتسمًا ، فقال : " أنزلت عليَّ آنفًا سورة ، فقرأ : بسم الله الرحمن الرحيم .. ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ * إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ ﴾ .. ثم قال : " أتدرون ما الكوثر ؟ " فقلنا : الله ورسوله أعلم . قال : " فإنه نهر وعدنيه ربي ﷻ ، عليه خير كثير ، هو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة ، آنيته عدد النجوم ، فيختلج العبد منهم ، فأقول : ربِّ إنه من أمتي .. فيقـول : ما تدري ما أحدثتْ بعدك " [1] .

وبعض المفسرين اختلفوا في المراد بـ (الكوثر) ، وهل بعد قول رسول الله ﷺ قول ؟ ! !

قـال ابـن عبـاس : هذا النهر هو بـعض الكوثر .. فكأن الكوثر شـيء كثير ، ويمثل النهر بعضه ، ولكن لماذا قال رسول الله ﷺ هذا الحديث بعد نزول هذه السورة ؟ ! إن كنتم تفسـرون الكوثر بالنبوة ، فالنبي ﷺ يعلم أنه نبي ، وإن كنتم تفسـرونها بالقـرآن ، فالقـرآن نازل على رسول الله ﷺ ، وهو أول منفعل به ، وإن كنتم تقـولون : إن الكوثر هو أن رفع الله ذكره ، فلا يشهد أحد لله ﷻ بالوحدانية إلا ويشهد لرسول الله ﷺ بالرسـالة ، كل هذه الأشـياء يعلمها رسول الله ﷺ ، فكأن رسول الله ﷺ إنما فسر الكوثر بالنهر ، هذا الأمر الجديد الذي لم يكونوا يعلمونه ، مع أن الأشياء التي قال العلماء بأنها هي الكوثر : القرآن ، والنبـوة ، ورفع ذكره ، كانت معلومة لرسـول الله ﷺ ، ولكن الجديد أن ربـك أعطاك شـيئًا مشـهديًا أنت رأيته وتعلمه ، وهناك شـيء آخر غيبي أنت لم تره ، فرسـول الله ﷺ فسـر الكوثر في ذلك الوقـت بـالجديد الذي طرأ ، والجديد الذي طرأ هو ما كان غيبًا في الجنة ، وهو ذلك النهر ، وهذا لا يمنع أن يكون هناك غير ذلك ؛ لأن كلمة : (الكوثر) لا تعني الزائد من الكثرة ، إنما تعـني

---

1 - أخرجه مسلم (607) .

الجميع من الكثرة ، يعني الأكثر من كل شيء ، فتحمل النبوة ، وتحمل القرآن ، وتحمل رفع ذكره ، وتحمل أتباعه الكثيرين الذين يهتفون باسمه الشريف ﷺ ، ويتقربون إلى الله بالصلاة عليه ، تحمل كل هذا ، وذلك معلوم لرسول الله ﷺ ، فالذي زاد في هذا هو ما أخبره الله به من أمر ذلك النهر في الجنة .

إن الحق ﷻ يريد أن يؤكد في هذه السورة على مسألة العطاء ، تأكيد العطاء بأنه لم يقل : أعطيناك الكوثر ، بل قال : ﴿ إِنَّا ﴾ ، وحين يتقدم المسند إليه ، أو يتقدم الفاعل على الفعل ، فإن ذلك يدل على توثيق الفعل توثيقًا آخر ، مثال ذلك .. عندما حطم سيدنا إبراهيم عليه السلام الأصنام لم يقولوا له : أفعلت هذا بأصنامنا ؟ وإنما : ﴿ قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴾[1] .. إذن ، فعندما يريد الحق ﷻ أن يؤكد شيئًا ، فإنه يأتي بالمسند إليه ، أو بالفاعل أولاً ويجعله مبتدأً ، ثم يأتي بالجملة ويجعلها خبرًا لذلك المبتدأ .

وعندما تسمع : ﴿ إِنَّا ﴾ لابد وأن تتوقع مجيء خير كثير ؛ لأنه استهل بضمير الحق العظيم : ﴿ إِنَّا ﴾ ، وبعد ذلك عندما يقول : ﴿ أَعْطَيْنَاكَ ﴾ .. فلابد وأن تأخذ العطاء على قدر إمكانيات المعطي ..

إذن .. ﴿ إِنَّا ﴾ .. هذه نبهت ذهنك ، وجعلتك تلتفت لتوقع مجيء شيء خطير ، والشيء الخطير الذي سيأتي أنه قال : ﴿ أَعْطَيْنَاكَ ﴾ .. إذن .. فضخامة العطاء لابد أن تناسب إمكانيات المعطي ، فإن الحق ﷻ حينما يأتي بأمر فيه فعل يبرز به معدومًا ، يتكلم بضمير التعظيم : خلقنا .. فعلنا .. ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾[2] ، يأتي بضمير التعظيم ؛ لأن أي فعل لأي حدث من الأحداث يتطلب صفات كثيرة جدا ، ففعل يتطلب قدرة ، وفعل يتطلب حكمة ، وفعل يتطلب بطشًا وقهرًا ، فعندما ينسب الحق ﷻ فعلاً من

---

1 - سورة : الأنبياء ، الآية : 62 .

2 - سورة : الحجر ، الآية : 9 .

الأفعال لنفسه فكأنه يقول لك : كأن الحدث الذي أحدثه الله فيه كل فيوضات صفاته ، وما دام فيه كل فيوضات صفاته .. إذن ، فالقدرة أبرزت ، والحكمة رتبت ، والرأفة هي التي حفزت إلى العمل ، فصفات كثيرة تتعاون في إبراز الحدث ، ولا يمكن أن تبرز صفة وتتخلف صفة أخرى ، فيتجلى الحق ﷻ في كل صفة فعل بعظمة الفاعل ويقول : نحن .. إنَّا .. لكن حين يتكلم الحق عن التوحيد والعبادة فدائما يفرد الضمير ، فيقول : ﴿ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ ﴾[1] ، ولم يقل : إننا نحن الله ؛ لأنه يتكلم عن الذات ، والذات واحدة وإن تعددت صفات الكمال فيها ، فما كان مظهرًا من صفات الكمال جاء فيه بنون التعظيم ، وما كان مظهرًا للذات في وحدانيتها وإفرادها ، جاء بالضمير الواحد : ﴿ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ ﴾ ، لم يقل : إنا أو نحن .

﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾ .. وما دام العطاء من الله ﷻ ، فهو عطاء له إمداد دائم ؛ لأن ربنا ﷻ ليس عنده كمية من الأشياء إذا أعطاها تنتهي ، ﴿ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ ﴾[2] .. فهو عطاء ممن لا حدود لإمكانياته ، والذي عنده لا ينفد ، فهو موصول دائمًا .

﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴾ .. بعد ذلك يرتب بالفاء فيقول : ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴾ .. قال : هذا أمر طبيعي جدًّا ؛ لأن العطاء بالنعم لابد له من حالات ثلاث : المنعِم ، والمنعَم به ، والمنعَم عليه ، أما المنعِم : فهو الحق ﷻ ، الذي ليس لإمكانياته حد ، فعطاؤه موصول دائمًا ، وأما النعمة : فأخذت عظمتها وشمولها وفيضها وامتدادها من المعطي ﷻ ، نعمة عظيمة تناسبه ، والمعطَى هو رسول الله ﷺ ، فيرتب الحق ﷻ على آية الامتنان في : ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾ أمرًا يتعلق بالنعمة ، وأمرًا يتعلق بالمنعِم ، وكل ذلك مطلوب من المنعَم عليه ، فما دام هناك منعِم ، فلابد أن تذكر نعمة المنعم ، وتصلي له ، ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ ﴾ ؛ لأنه هو المنعم الذي أعطى ، فلا أقل من أن تكون موصولاً بمن أعطاك وَصْل شكر وتقدير .

---

1 - سورة : طه ، الآية : 14 .

2 - سورة : النحل ، الآية : 96 .

إذن ، ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ ﴾ .. لاحظَت جانب صلة المنعَم عليه بالمنعِم ، أما صلة المنعم عليه بالنعمة ، فهو أنعم عليك بهذه النعمة ؛ فلتنعم أنت على غيرك ، كما قال ﷻ : ﴿ وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ﴾[1] ، وكما قال ﷻ : ﴿ وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾[2].

فحين يتفضل الحق ﷻ على رسوله ﷺ بأن يبين له أنه قد أعطاه شيئًا كثيرًا ، فإن الحق ﷻ يريد منه أن يتعدى عطاؤه إلى الغير ، وعادة ما يجيء العطاء الذي يتعدى به للغير فيما تشح به النفس ؛ لأن النفس قد يسهل عليها بذل العلم دون بذل المال ؛ لأنه يأخذ من شيء عنده قابل للزيادة ، فالعلم لن يفنى من عنده ، أما المال فقد يفنى بإنفاقه ، فإن آفة النفس في الشيء الذي ينتقل منك إلى غيرك ؛ فتخلو أنت منه ، وهنا تأتي سماحة النفس الحقيقية ؛ ولذلك كان بذل المال بالنسبة لنفوس الناس ، أشق عليهم من بذل ما عندهم من العلم والمعرفة ؛ لأن بذل المعرفة يجعل ما عندي باقيًا ، ولكن في بذل المال والأشياء المادية ، إذا بذلتها خلوت منها ، فتصبح عند غيرك لا عندك ، فلو كانت عند غيرك وعندك لهانت المسألة ، وإنما ستبقى عند غيرك لا عندك .

وهنا يظهر الإنسان وشحه ، فلا يقوى على هذا إلا الذين يعتقدون أنهم موصولون بالمعطي الأصيل ، فلو كان يعتقد أنه مقطوع عن المدِّ ، فكان ولابد سيحزن ، ولكنه ليس مقطوعًا عن المدِّ ، بل موصولاً بممدٍّ ، بحيث إذا بذلت سيصلك منه المدد ، فأنت أعطيت على قدر إمكانياتك ، فانتظر من المدِّ أن يعطي على قدر إمكانياته ؛ ولذلك يقال : (**لا توكِ فيوكَ عليك**) .. توكي أي : تربط الكيس ؛ فلا تربط كيسك عن الناس ، فإن فعلت ذلك فيما تملك فسيفعل بك ذلك أيضًا ، ولكن عندما تفتح الكيس وتعطي ، فربنا أيضًا سيعطيك .

ولذلك بعض الناس يقول : لقد عودت الناس عادة ؛ لأن الله عودني عادة ، فأنا لا أحب

---

1 - سورة : النور ، الآية : 33 .

2 - سورة : القصص ، الآية : 77 .

أن أقطع عادتي عن الناس ؛ حتى لا يقطع الله عادته معي .

إذا نظرنا إلى قول الله ﷻ : ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴾ .. نأخذ الكلام على عمومه : مطلق الصلاة ، ومطلق النحر ، الذي هو أداء الحق للفقير .

بعض العلماء يقول : إنها نزلت في خصوصية ، هذه الخصوصية هل هي صلاة العيد ونحر الأضحية ؟ أم هي صلاة المزدلفة والنحر في عمليات الحج ؟ ولكني أرى أن هؤلاء يضيقون واسعًا ؛ فليست صلة رسول الله ﷺ بربه صلة تكميلية ، فهو لا يقوم بما يؤمر به من الله فقط ولا يزيد ، بل هو داخل في مقام القربى أكثر منا ، أي أن رسول الله ﷺ له منازل ، منزلة كرسول يبلغ الناس ، ومنزلة كنبي عنده أشياء لخصوصياته ، وبعد ذلك إذا كان العبد العادي من أتباع رسول الله ﷺ يعبد الله بالفرائض ، ثم بعد ذلك يتطوع العبد بأشياء من العبادة فوق ما افترضه الله ﷻ عليه ، ذلك هو المؤمن العادي التابع لرسول الله ﷺ .

فرسول الله ﷺ فُرض عليه نوعان من العبادة : نوع اشترك مع أمته فيه ، وهو ما جاء في الرسالة ، ونوع خصه الله ﷻ به ، وهو النبوة ، فالرسول ﷺ كواسطة بيننا وبين الله ﷻ ، أُمر بشرع يعمل به وتعمل به أمته ، ثم أُمر بشرع يعمل به هو ، ولم يطلب منه أن ينقله إلى أمته .

إذن .. فالرسول ﷺ في أعمال القربى بالنسبة إلى الحق ﷻ يعمل الأعمال التي من الرسالة ، ويعمل الأعمال التي من النبوة إلزامًا ، وبعد ذلك يتطوع ، وهذا هو ما قال فيه ﷺ : " أفلا أكون عبدًا شكورًا "[1] ..

إذن .. ﴿ فَصَلِّ ﴾ .. ما خفَّت نفسك إلى الصلاة ، ﴿ وَانْحَرْ ﴾ .. ما خفت نفسك إلى النحر ، سواء دخل ذلك في مطلوبات الفرد أو في غير مطلوباته .

إذا كان الله ﷻ قد أعطى الكوثر لرسول الله ﷺ ، وهذا الكوثر الذي أعطاه لرسوله ﷺ لم

---

1 - أخرجه البخاري (1062) ، ومسلم (5044) كلاهما من حديث المغيرة بن شعبة .

يدخره الرسول ﷺ لنفسه ، بل فضله العائد عليه سيعود إلى أمته ، إن كانت النبوة ، أو الرسالة ، أو القران ، أو الإسلام ، فكل ذلك عائد إلى أمته ، فأي خير يخص به الله ﷻ رسول الله ﷺ فهو خصوصية تلقٍ ، ثم بعد ذلك يكون لأمته منه نصيب ، فأنا لا أحجر كلمة الصلاة على صلاة العيد ، أو صلاة المزدلفة ، والنحر على نحر الأضحية ، بل أنا أريد أن تنطلق سيالاً عامًّا يناسب الكوثرية في قول الحق ﷻ : ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾ ، فنسب ما يترتب عليه أن يكون كثيرًا أيضًا ، فصلِّ لربك ﷻ صلاة كثيرة ، ما خفت نفسك للصلاة ، وانحر لربك نحرًا كثيرًا ، ما سمحت نفسك بالنحر ، سواء كان ذلك في أوقاتها ، أو في غير أوقاتها ، حتى يناسب المطلوب بالفاء المترتب على ما قبله ، يناسب المطلوب ويناسب الموهوب .

والله ﷻ أسال أن يوفقنا إلى ما يحبه ويرضاه ، وأن يخفف علينا العبادة ، وأن يهون علينا البذل ، إنه سميع مجيب .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

علم

تفسیر جزء

سورة الكافرون

سُورَةُ الكَافِرُونَ

بسم الله الرحمن الرحيم أحمدك ربي حق حمدك ، وأصلي وأسلم على خاتم أنبيائك ، وصفوة رسلك سيدنا محمد ﷺ . .

أما بعد فمع **سورة الكافرون** .. تلك السورة التي تعالج أعمق قضايا التوحيد .. فلم يكن العرب يجحدون الله ولكن كانوا لا يعرفونه بحقيقته التي وصف بها نفسه .. أحد صمد ؛ فكانوا يشركون به ولا يقدرونه حق قدره ، ولا يعبدونه حق عبادته ، كانوا يشركون به هذه الأصنام التي يرمزون بها إلى أسلافهم من الصالحين أو العظماء ، أو يرمزون بها إلى الملائكة ، وكانوا يزعمون أن الملائكة بنات الله ﷻ ، وأن بينه ﷻ وبين الجِنَّة نَسبًا ، أو ينسون هذا الرمز ويعبدون هذه الآلهة ، وفي هذه الحالة أو تلك كانوا يتخذونها لتقربهم من الله ﷻ ، كما حكى عنهم القرآن الكريم قولهم : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى ﴾[1] ، ولقد حكى القرآن عنهم أنهم كانوا يعترفون بخلق الله للسماوات والأرض ، وتسخيره للشمس والقمر ، وإنزاله الماء من السماء ، كقوله ﷻ : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾[2] ، وكقوله ﷻ : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾[3] ، بل وفي أيمانهم كانوا يقسمون ويقولون : والله وبالله وتالله .. وفي دعائهم كانوا يقولون : اللهم .. الخ .

---

* تفسير السورة مقتبس بتصرف من : " في ظلال القرآن " .

1 - سورة : الزمر ، الآية : 3 .

2 - سورة : العنكبوت ، الآية : 61 .

3 - سورة : العنكبوت ، الآية : 63 .

ولكنهم مع إيمانهم بالله ﷻ كان هذا الشرك يفسد عليهم تصورهم ، كما كان يفسد عليهم تقاليدهم وشعائرهم ، فيجعلون لتلك الآلهة المدعاة نصيبًا في زرعهم وأنعامهم ، بل وحتى نصيبًا في أولادهم ، حتى ليقتضي هذا النصيب أحيانًا التضحية بأبنائهم .

وفي هذا يقول القرآن الكريم عنهم : ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلاَ يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ * وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلاَدِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ * وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لاَ يَطْعَمُهَا إِلاَّ مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لاَ يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ * وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ * قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلاَدَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾[1] .. وكانوا يعتقدون أنهم على دين إبراهيم ، وأنهم أهدى من أهل الكتاب الذين كانوا يعيشون معهم في الجزيرة العربية ؛ لأن اليهود كانوا يقولون : عزير ابن الله ، والنصارى كانوا يقولون : عيسى ابن الله ، بينما هم كانوا يعبدون الملائكة والجن على اعتبار قرابتهم من الله بزعمهم ؛ فكانوا يعدون أنفسهم أهدى ؛ لأن نسبة الملائكة والجن إلى الله أقرب من نسبة عزير وعيسى .. وكله شرك ، وليس في الشرك خيار .

ولكنهم كانوا يحسبون أنفسهم أهدى وأقوم طريقًا !

فلما جاءهم النبي ﷺ يقول : إن دينه هو دين إبراهيم عليه السلام قالوا : نحن على دين إبراهيم ، فما حاجتنا إذن إلى ترك ما نحن عليه واتباع محمد ؟!

---

1 - سورة : الأنعام ، الآية : 136 : 140 .

وفي الوقت ذاته راحوا يحاولون مع الرسول ﷺ خطة وسطًا بينهم وبينه ؛ فعرضوا عليه أن يسجد لآلهتهم مقابل أن يسجدوا هم لإلهه ! وأن يسكت عن عيب آلهتهم وعبادتهم ، وله عليهم ما يشترط !

ولعل اختلاط تصوراتهم ، واعترافهم بالله مع عبادة آلهة أخرى معه .. لعل هذا كان يشعرهم أن المسافة بينهم وبين **محمد** قريبة ؛ فيمكن التفاهم عليها ، بقسمة البلد بلدين ، والالتقاء في منتصف الطريق ، مع بعض الترضيات الشخصية !

ولحسم هذه الشبهة ، وقطع الطريق على المحاولة ، والمفاصلة الحاسمة بين عبادة وعبادة ، ومنهج ومنهج ، وتصور وتصور ، وطريق وطريق .. نزلت هذه السورة .

بهذا الجزم ، وبهذا الحزم ، وبهذا التوكيد ، وبهذا التكرار ؛ لتنهي كل قول ، وتقطع كل مساومة وتفرق نهائيًا بين التوحيد وبين الشرك ، وتقيم المعالم واضحة ، لا تقبل المساومة والجدل في قليل ولا كثير .

قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾
وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴿٦﴾

نفي بعد نفي ، وجزم بعد جزم ، وتوكيد بعد توكيد ، بكل أساليب النفي والجزم والتوكيد .

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ .. فهو الأمر الإلهي الحاسم الموحي بأن أمر هذه العقيدة أمر الله وحده ، ليس **لمحمد** فيه شيء ، إنما الله ﷻ هو الآمر الذي لا مرد لأمره ، الحاكم لا راد لحكمه .

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ .. ناداهم بحقيقتهم ، ووصفهم بصفتهم ، إنهم ليسوا على دين ، وليسوا بمؤمنين ، وإنما هم كافرون ، فلا التقاء إذن بينك وبينهم في طريق .

وهكذا يوحي مطلع السورة وافتتاح الخطاب بحقيقة الانفصال الذي لا يرجى معه اتصال .

﴿ لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ .. فعبادتي غير عبادتكم ، ومعبودي غير معبودكم .

﴿ وَلاَ أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ .. فعبادتكم غير عبادتي ، ومعبودكم غير معبودي .

﴿ وَلاَ أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ﴾ .. توكيد للفقرة الأولى في صيغة الجملة الاسمية ، وهي أدل على ثبات الصفة واستمرارها .

﴿ وَلاَ أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ .. تكرار لتوكيد الفقرة الثانية ؛ كي لا تبقي مظنة ولا شبهة ، ولا مجال لمظنة أو شبهة بعد هذا التوكيد المكرر بكل وسائل التكرار والتوكيد .

﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ .. إجمال لحقيقة الافتراق الذي لا التقاء فيه ، والاختلاف الذي لا تشابه فيه ، والانفصال الذي لا اتصال فيه ، والتمييز الذي لا اختلاط فيه .. ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ .. أنا هنا وأنتم هناك ، ولا معبر ولا جسر ولا طريق .

مفاصلة كاملة شاملة ، وتميز واضح دقيق .

ولقد كانت هذه المفاصلة ضرورية لإيضاح معالم الاختلاف الجوهري الكامل ، الذي يستحيل معه اللقاء على شيء في منتصف الطريق .. الاختلاف في جوهر الاعتقاد ، وأصل التصور ، وحقيقة المنهج ، وطبيعة الطريق .

إن التوحيد منهج ، والشرك منهج آخر ، ولا يلتقيان .. التوحيد منهج يتجه بالإنسان مع الوجود كله إلى الله وحده لا شريك له ، ويحدد الجهة التي يتلقى منها الإنسان ، عقيدته وشريعته ، وقيمه وموازينه ، وآدابه وأخلاقه ، وتصوراته كلها عن الحياة وعن الوجود ، هذه الجهة التي يتلقى المؤمن عنها هي الله ﷻ ، الله وحده بلا شريك ، ومن ثم تقوم الحياة كلها على هذا الأساس ، غير متلبسة بالشرك في أية صورة من صوره الظاهرة والخفية .. وهي

تسير ، وهذه المفاصلة بهذا الوضوح ضرورية للداعية ، وضرورية للمدعوين .

إن تصورات الجاهلية تتلبس بتصورات الإيمان ، وبخاصة في الجماعات التي عرفت العقيدة من قبل ثم انحرفت عنها ، وهذه الجماعات هي أعصى الجماعات على الإيمان في صورته المجردة من الغبش والالتواء والانحراف ، أعصى من الجماعات التي لا تعرف العقيدة أصلاً ؛ ذلك أنها تظن بنفسها الهدى في الوقت الذي تتعقد انحرافاتها وتتلوى ! واختلاط عقائدها وأعمالها وخلط الصالح بالفاسد فيها قد يغري الداعية نفسه بالأمل في اجتذابها إذا أقر الجانب الصالح وحاول تعديل الجانب الفاسد .

وهذا الإغراء في منتهى الخطورة .

إن الجاهلية جاهلية ، والإسلام إسلام ، والفارق بينهما بعيد ، والسبيل هو الخروج عن الجاهلية بجملتها إلى الإسلام بجملته ، هو الانسلاخ من الجاهلية بكل ما فيها ، والعودة إلى الإسلام بكل ما فيه .

وأول خطوة في الطريق هي تميز الداعية وشعوره بالانعزال التام عن الجاهلية .. تصورًا ومنهجًا وعملاً ، الانعزال الذي لا يسمح بالالتقاء في منتصف الطريق ، والانفصال الذي يستحيل معه التعاون إلا إذا انتقل أهل الجاهلية من جاهليتهم بكليتهم إلى الإسلام .

لا ترقيع ، ولا أنصاف حلول ، ولا التقاء في منتصف الطريق .. مهما تزيت الجاهلية بزي الإسلام ، أو ادعت هذا العنوان .

وتميز هذه الصورة في شعور الداعية هو حجر الأساس ، شعوره بأنه شيء آخر غير هؤلاء ، لهم دينهم وله دينه ، لهم طريقهم وله طريقه ، لا يملك أن يسايرهم خطوة واحدة في طريقهم ، ووظيفته هي أن يسيرهم في طريقه هو ، بلا مداهنة ولا نزول عن قليل من دينه أو كثير .

وإلا فهي البراءة الكاملة ، والمفاصلة التامة ، والحسم الصريح .. ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ .

وما أحـــوج الداعين إلى الإســـلام اليوم إلى هذه البراءة وهذه المفاصلة وهذا الحســـم .. ما أحوجهم إلى الشعور بأنهم ينشئون الإسلام من جديد في بيئة منحرفة ، وفي أناس سبق لهم أن عرفوا العقيدة ، ثم طال عليهم الأمد ﴿ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾[1].. وأنه ليس هناك أنصاف حلول ، ولا التقاء في منتصف الطريق ، ولا إصلاح عيوب ، ولا ترقيع مناهج .. إنما هي الدعوة إلى الإسلام كالدعوة إليه أول ما كان .

وهذا هو ديني .. التوحيد الخالص الذي يتلقى تصوراته وقيمه ، وعقيدته وشريعته .. كلها من الله ﷻ دون شريك .. كلها .. في كل نواحي الحياة والسلوك .

وبغير هذه المفاصلة يبقى الغبش ، وتبقى المداهنة ، ويبقى اللبس ، ويبقى الترقيع .

والدعوة إلى الإسلام لا تقوم على هذه الأسس المدخولة الواهنة الضعيفة ، إنها لا تقوم إلا على الحسم والصراحة والشجاعة والوضوح ، وهذا هو طريق الدعوة الأول : ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ .

نسأل الله ﷻ أن يعلمنا من علمه ، ويكرمنا من كرمه ، ويمن علينا من جوده وفضله ، وأن ينعم علينا بتسبيحه كما يحب .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

1 - سورة : الحديد ، الآية : 16.

علم

تفسير جزء

سورة النصر

سُورَةُ النَّصْرِ

بسم الله الرحمن الرحيم ، أحمدك ربي كما علمتنا أن نحمد ، وأصلي وأسلم على خير خلقك سيدنا محمد ﷺ ، وبعد :

فمع **سورة النصر** .. تلك السورة القصيرة ، التي تحمل البشرى لرسول الله ﷺ بنصر الله وبالفتح ودخول الناس في دين الله أفواجًا ، وتوجهه ﷺ حين يتحقق نصر الله وفتحه واجتماع الناس على دينه إلى التوجه إلى ربه بالتسبيح والحمد والاستغفار .

وكما تحمل إلى الرسول ﷺ البشرى والتوجيه .. تكشف في الوقت ذاته عن طبيعة هذه العقيدة وحقيقة هذا المنهج ، ومدى ما يريد أن يبلغ بالبشرية من الرفعة والكرامة والتجرد والخلوص ، والانطلاق والتحرر .. هذه القمة السامقة الوضيئة ، التي لم تبلغها البشرية قط إلا في ظل الإسلام ، ولا يمكن أن تبلغها إلا وهي تلبي الهدف العلوي الكريم .

وعن مناسبة نزول هذه السورة الكريمة تقول أم المؤمنين **عائشة رضي الله عنها** : كان رسول الله ﷺ يكثر من قول : " **سبحان الله وبحمده ، أستغفر الله وأتوب إليه** " .. قالت : فقلت : يا رسول الله ، أراك تكثر من قول : " **سبحان الله وبحمده ، أستغفر الله وأتوب إليه** " .. فقال : " **خبرني ربي أني سأرى علامة في أمتي ، فإذا رأيتها أكثرت من قول : سبحان الله وبحمده ، أستغفر الله وأتوب إليه .. فقد رأيتها : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ .. فتح مكة ، ﴿ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾** "[1] .

---

1 - أخرجه مسلم (749) .

إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ﴿١﴾ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ﴿٢﴾
فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ﴿٣﴾

﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ .. ملحوظ فيه التحام فريقين في معركة ، وينتصر أحدهما ، ولكن الفتح يدل على الدخول في الدين من غير معركة ، إذن فستحصل على الاثنين : النصر ، والفتح بالدخول في الدين من غير معركة ؛ فربما يقول قائل : هم قد سكتوا عنه ، ورضوا بالأمر الواقع ؛ لأنهم لو تعرضوا له فقد كانوا يستطيعون إيقافه عند حده ، ولكن الحصول على الأمرين دليل على القوة والبأس ، والسند القوي من الحق ﷻ ، وإذا نظرت إلى الدعوة الإسلامية ، وجدت الدعوة الإسلامية انتشرت انتشارًا في العالم بما ليس له نظير في كل الدعوات ، ولا تجد مثل ذلك في تاريخ الدعوات كلها في نصف قرن ، فقد أتت من الشرق إلى الغرب بهذا الشكل ، وبهذا الاتساع ، ستجد البعض يقولون : هذا الانتشار بسبب أن الإسلام كان يمتد باندفاع الفاتحين فقط ، نقول له : كلا ؛ فالإسلام انتشر باندفاع الفاتحين ، وبجذب المفتوحين ، فالمفتوحون في الفساد ، ويريدون منقذًا يخلصهم من الذين هم فيه ، فكان هناك عاملان : عامل اندفاع من ناحية المؤمن ، وعامل الجذب والأخذ ، ففيه قوة تدفعه وتشده ؛ لذلك لابد أن يأتي الفتح بمثل ما في هذه السورة ، فتصبح : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ .

﴿ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴾ .. كثير من قبائل العرب كانت تنتظر المعركة بين قريش وبين رسول الله ﷺ وتقول : دعوه وقومه ، فإن انتصر عليهم فبها ، وإن لـ

ينتصر عليهم فقد كفينا أمره ، ووقفوا موقف الحياد ، فلما علموا أن محمدا ﷺ في عراك مع قريش ، ومن المعلوم أن قريشًا وقعت في عراك قبل ذلك ، ونصرهم الله ﷻ على أبرهة ، وفعل بأصحاب الفيل ما فعل ، فقالوا : ننظر ، إن نصرهم الله ﷻ عليه ، فهذه عادة الله ﷻ معهم ، أن لا ينصر عليهم أحدًا ، وإن انتصر عليهم ، نعرف أن دعوته هذه دعوة حق ، والأخرى دعوة باطل .

فلما جاء نصر الله ﷻ ، وجاء فتح مكة ، أصبح هذا دليلاً على أنها دعوة حق ، فبدأ الناس يدخلون أفواجًا في دين الله ﷻ ، وكانوا من قبل يدخلون فرادى .

و(**أفواجًا**) يعني : جماعات جماعات ، وهذا هو النصر ، وتلك هي الآية ، وهو الفتح .

﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ ﴾ .. وهنا تجد المطلوب : ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ .. و(**التسبيح**) : تنزيه ، ومعنى التنزيه ، أى : تنزيه الحق ﷻ عن صفات النقص ، ومماثلة الأغيار أو الحوادث ، ولكن هذا الحمد بالكمال بالفضل وبالفواضل ، فكأن أنا عندي شيء من السلب : سلب النقائص ، وإيجاد المحامد ، سلب النقائص : تأتي في (**سبحانك**) ، يعني : أنزهه عن كل نقيصة ، والحمد يأتي بصفات الفضل ، والفواضل .

﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ .. المصدر هذا مضاف للفاعل ، وليس مضافًا للمفعول ، يعني : حمد الله فاعله ، يعني : يقع عليه الحمد بحمد ربك ، يعني : كن حامدًا أنت ، والله هو المحمود ، وبحمد ربك : يعني بحمد ليس صادرًا منك صيغته ، لماذا ؟! لأن حمد المحمود يتضمن الإلمام بصفات الكمال له ، حتى تستطيع أن تثني عليه بما هو أهله ، ثم يقتضي القدرة على إيراد الأساليب التي تناسب ذلك المقام ، ومَنْ منَ البشر يستطيع أن يحيط بكمالات الله ﷻ ؟! ولو سلمنا أن هناك من يستطيع أن يحيط ببعض الكمالات ، فمن يستطيع أن يأتي بالأسلوب الذي يليق بمدح الله ﷻ وحمده ؟! لا أحد .

فمن رحمة الله ﷻ بالخلق أن علمهم صيغة حمده ، فقال لهم : قولوا : (**الحمد لله**) ..

وما دام هو الذي علمنا صيغة الحمد ، فسيبقى هو الذي تكفل بحمد نفسه ، ولم يترك لأساليبنا ، ولا لاختلاف مواهبنا وألسنتنا في الفصاحة أن ننشئ صيغًا للحمد ، وإلا فما ذنب العيي الذي لا يقدر أن ينشئ صيغة ؟! وما ميزة الإنسان الذي عنده أسلوب ، ويستطيع أن ينمق بعض العبارات ؟! وهذا ربٌّ حمده مطلوب من الجميع ، فيتحمل الحق ﷻ عن البشر صيغة الحمد التي يحمدونه بها ؛ فيرحمنا جميعًا .

ولذلك كان من دعاء رسول الله ﷺ : " **لا أحصي ثناءً عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك** "[1] .

أو أن سبح بحمد ربك : سبح تسبيحًا مصاحبًا للحمد ، سبح تسبيحًا ملابسًا للحمد ، يعني : اجمع بين سلب النقائص ، وإيجاد المحامد .

﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ .. هل من المعقول أن يقول : ﴿ وَاسْتَغْفِرْهُ ﴾ .. ثم يأتي بالتعليل : ﴿ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ ؟! فالأمر لا يناسب التعليل في الظاهر ؛ لأنه لو قال : وتب إليه إنه كان توابًا .. لكان معقولاً ، أو لو قال : استغفره إنه كان غفارًا .. لكان معقولاً أيضًا ، إنما قال : ﴿ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ .. نعم ، وهذا أسلوب من الأساليب التي يسمونها : تربيب الفائدة ، أي أن يأتي بأمرين ، كل أمر فيه عنصران ، فينتج عندنا أربعة عناصر ، اثنان للأمر الأول ، واثنان للأمر الثاني ، فيأتي من الأمر الأول بعنصر ويحذف مقابله من الأمر الثاني ، ويأتي من الأمر الثاني بعنصر ويحذف مقابله في الأمر الأول ، كقوله ﷻ : ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا ﴾[2] ، فئة ماذا ؟ ﴿ فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ ﴾ ، فكان من الممكن أن يقال : قد كان لكم آية في فئتين التقتا ، فئة تقاتل في سبيل الله ، وأخرى تقاتل في سبيل الشيطان ، أو يقول : قد كان لكم آية

---

1 - أخرجه مسلم (751) من حديث عائشة رضي الله عنها .

2 - سورة : آل عمران ، الآية : 13 .

في فئتين التقتا ، فئة مؤمنة ، وفئة كافرة ، لكن الحق ﷻ أراد أن يقول : قد كان لكم آية في فئتين التقتا ، فئة مؤمنة تقاتل في سبيل الله ، وأخرى كافرة تقاتل في سبيل الشيطان ، فحذف من الأمر الأول كلمة : (**مؤمنة**) ، واستدل عليها بمقابلها : ﴿ **كَافِرَةٌ** ﴾ ، ثم حذف من الأمر الثانى كلمة : (**تقاتل في سبيل الشيطان**) ؛ لأنه قد استدل عليها بما يقابلها : ﴿ **تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ** ﴾ .

فيكون المعنى هنا : فسبح بحمد ربك واستغفره ؛ إنه كان غفارًا ، وتب إليه ؛ إنه كان توابًا ، فتكون كلمة : ﴿ **وَاسْتَغْفِرْهُ** ﴾ .. تعليلها : (**إنه كان غفارًا**) ، وكلمة : ﴿ **إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا** ﴾ .. تعليل لكلمة : (**تب إليه**) ، فحذف من الأول ما دل عليه من الثاني ، وحذف من الثاني ما دل عليه من الأول ، وهذا ما يسميه العلماء : الاحتباك .

فإذا قال : " **أستغفر الله وأتوب إليه** " .. يكون قد قام بالاستغفار والتوبة معًا ؛ لأن الاستغفار يوجب أنك تعرف غير التوبة ، فالتوبة هي الرجوع إلى منهج الله ﷻ ، والاستغفار : أن يطلب الإنسان من الله أن يغفر له ذنبه .

وهنا نقول : ما العلاقة إذن بين المطلوب بعد الفاء ، وبين ما قبلها في : ﴿ **إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ** ﴾ ؟!

نضرب مثالاً لذلك .. فالزارع يأتي ببذرة مخلوقة لله ﷻ ، وتربة مخلوقة لله ﷻ ، ويرويها بالماء الذي هو مخلوق لله ﷻ ، والفكر الذي خطط ، والطاقة التي فعلت .. كل هذه مخلوقات لله ﷻ ، إذن .. فهو في التحقيق ليس له فعل ؛ فلا ينبغي له أن ينسى من سخر له هذه الأشياء لتنفعل له ؛ لأن كل فعل يحتاج شيئين : فاعلاً ، ومنفعلاً ، فقد يأتي الفاعل ، ولكن لا يوجد المنفعل ، فساعة ما تقبل على أي عمل تقول : بسم الله ، يعني : أنا لا أقبل بقدرتي ، ولا بعلمي ، ولا بشيء من عندي ، وإنما أقبل على العمل باسم الله الذي سخره لي ، وجعل انفعاله لي من فضل تسخيره ، فتصبح أنت لا تقبل على شيء بأسبابك ، لا تقبل

على شيء بعناصر الفعل منك ، بل تقبل على الشيء بعناصر الخالق الذي سخر لك العناصر ، وجعلها تستجيب وتنفعل لك ، فإذا ما نجحت في الفعل فإياك أن تعزو ذلك إلى نفسك ، أو مهاراتك ، أو إلى حسن تأتِّيك للأشياء ، بل قل : الحمد لله .. فإذا ما أثمر العمل فقل : ما شاء الله ، لا قوة إلا بالله .. حينئذ يلتصق المؤمن بربه بادئًا ومنتهيًا .

إن كل فساد يأتي للإنسان من أنه إن أقبل على شيء ولم يقل : بسم الله ، يصبح أبتر ، وإن نجح في شيء وأدرك الثمرة يقول : أوتيته على علم عندي .. فاستغفر ربك من هذه الخواطر ، واعتبر بما حدث للمسلمين في غزوة حنين ، حينما قال بعضهم : " **لن نُغلب اليوم من قلة** "[1] .. فانهزموا في أول الأمر ؛ لأن الله ﷻ أراد أن يُعلمهم أن النصر والهزيمة من عند الله ﷻ ، وليس من كثرة أو قلة .

إذن .. فهي ثلاثة أشياء : الإقبال على الأشياء باسم الله ﷻ ، والانتهاء منها بالحمد لله ، والاستصحاب لثمراتها بلا حول ولا قوة إلا بالله ، هذه هي مناهج المؤمن .

﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ ﴾ .. سبح بحمد ربك ، يعني : إياك أن تجعل له شبيهًا ، أو شريكًا في أفعاله ، بل هو الفاعل لكل شيء ، غاية ما في الأمر أنه أكرمك ، وأجرى الخير على يديك ، فحظك من التكريم أنه جعلك أهلاً لأن يوجد الخير على يديك ، والله ﷻ يقول : ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾[2] ، فأنتم آلات فقط في يد الله ﷻ ، كما قال : ﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ ﴾[3] ، إذن ففي فورة النصر ، وزهو الانتصار ، يجب ألا تذكر نفسك ، بل تذكر قدرة الله ﷻ .

﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ ﴾ .. والاستغفار إما أن يكون من اغترار النفس البشرية

---

1 - أخرج القصة البيهقي في دلائل النبوة (5 / 187) .

2 - سورة : الأنفال ، الآية : 17 .

3 - سورة : التوبة ، الآية : 14 .

بـزهو الانتصار والإعداد ، وما شابـه ذلك ، وإما أن يكون عما بـدر منهم من استبـطائهم لنصر الله ﷻ ، كما قـال ﷻ : ﴿ حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا ﴾[1]. فلما ظنوا هذا الظن : ﴿ جَاءَهُمْ نَصْرُنَا ﴾ .

وقد يكون الاستغفار استغفار مقامات ، وهناك ما يدل من القرآن على هذه المقـامات ، وذلك كما في قـوله ﷻ : ﴿ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا ﴾[2]. فكـأن المؤمـن دائمًا في معارج ومراقٍ ، فإذا ما كان في مرتبـة عالية ، فإنه يسـتغفر على ما كان منه في المرتبـة السفلى ، وكأنه أذنب .

وهنا لفتة هامة ينبغي الانتباه لها قبل أن ننهي خواطرنا حول هذه السـورة الكريمة ، وهي أن هذه السورة لها واجهـة ، ولها باطن خفي لا يعلمه كثير من الناس .

لذلك نقول دائمًا : إننا نحتاج دائمًا إلى تدبر القرآن : ﴿ أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ﴾[3] ، وقـلنا : معنى يتدبرون ، أي : لا ينبغي أن ينظروا إلى واجهـة الأسلوب ، بل ينبغي أن ينظروا إلى ما هو من معطيات خلق الأسلوب ؛ ولذلك قال **ابـن مسعود** رضي الله عنه : سوروا القرآن سـوره .. يعني : هيجوا أساليبه ، حتى تظهر لكم الأشياء التي فيها ، كما تسور الأرض التي تخرج كنوزها .

فواجهـة السـورة يفهمها الكل : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ ، ونستقبـل ذلك بـأننا نسبح بحمد الله ﷻ ونستغفره .

أما باطن السورة فيتجلى فيما رواه **البخاري** رضي الله عنه بسنده عن **سعيد بـن جبـير** رضي الله عنه عن **ابـن عباس رضي الله عنهما** قال : كان **عمر** رضي الله عنه يدخلني مع أشياخ بدر ، فكأن بعضهم وجد في

---

1 - سورة : يوسف ، الآية : 110 .

2 - سورة : المائدة ، الآية : 93 .

3 - سورة : محمد ، الآية : 24 .

نفسه ، فقال : لم تُدخل هذا معنا ، ولنا أبناء مثله ؟! فقال **عمر** : إنه مَن قد علمتم .. فدعاهم ذات يوم ودعاني معهم ، فعلمت أنه ما دعاني إلا ليريهم ، قال **عمر** : ما تقولون في قول الله ﷻ : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ حتى ختم السورة ؟ فقال بعض الصحابة : أمرنا أن نسبحه ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا .. وسكت بعضهم فلم يقل شيئًا ، قال **عمر** : أكذلك تقول يا **ابن عباس** ؟ قال : لا .. قال : فما تقول ؟ قال : أقول : ذلك أجل رسول الله ﷺ أعلمه له فقال : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ فتح مكة ، فذاك علامة أجلك ، ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ ، فقال : ما أعلم منها إلا ما تعلم[1] ..

نسأل الله العلي القدير أن يرزقنا نصره ، وأن يرزقنا حمده وتسبيحه والتوبة والاستغفار ..

إنه ولي ذلك والقادر عليه .

1 - أخرجه البخاري (4588) .

علم

تفسير جزء

سورة المسد

سورة المسد

بسم الله الرحمن الرحيم . . أحمدك ربي كما علمتنا أن نحمد ، وأصلي وأسلم على خير أنبيائك ورسلك سيدنا محمد ﷺ ، وعلى آله وصحبه أجمعين . . أما بعد . .

فمع خواطرنا حول **سورة المسد** ، تلك السورة التي نزلت لوضع حد لتلك الحرب الشعواء التي شنها **أبو لهب** وامرأته على ابن أخيه **محمد** ﷺ . .

لقد وضع لنا النبى ﷺ منهجًا لحياتنا ، وهو أنه لا فضل لأحد على أحد إلا بدينه وتقواه ، فقال ﷺ في وسط أيام التشريق : **" يا أيها الناس ألا إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، ألا لا فضل لعربي على أعجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأحمر على أسود ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى "** [1] ، وعندما حدث خلاف بين **سيدنا بلال وسيدنا أبي ذر رضى الله تعالى عنهما** ، وقال له **أبو ذر** رضي الله عنه : يا ابن السوداء . . فغضب **بلال** رضي الله عنه ، وذهب إلى رسول الله ﷺ ليشكو له **أبا ذر** رضي الله عنه ، فقال رسول الله ﷺ لأبي ذر رضي الله عنه : **" يا أبا ذر ، أعيرته بأمه ؟! إنك امرؤ فيك جاهلية "** [2] . . وكما يقول الشاعر :

عليك بتقوى الله في كل حالةٍ ... ولا تترك التقوى اتكلاً على النسبِ
فقد رفع الإسلامُ سلمانَ فارسٍ ... وقد وضع الشركُ النسيبَ أبا لهبِ

---

1 - أخرجه أحمد في المسند (47 / 478) .

2 - أخرجه البخاري (29 ، 5590) ، ومسلم (3139 ، 3140) عن المعرور بن سويد عن أبي ذر .

فالأفضلية ليست بالقرابة أو العصبية ، وإنما بهذا الدين ؛ ولذلك أنزل الله ﷻ في أبي لهب ، وهو عم النبي ﷺ ، قرآنًا يتلى إلى يوم القيامة ، ويُتعبد بتلاوته إلى أن تقوم الساعة ، يبشره بالتباب والهلاك والدمار .

تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ﴿٥﴾

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ .. اختار الله ﷻ من أعداء رسول الله ﷺ أقرب العصبة ؛ حتى يدلنا على أن هذا الدين إتيانه لا لعصبة ولا لقرابة ، فشاء الحق ﷻ أن يعطينا نموذجًا ، هذا النموذج خرق حجاب الزمن المستقبل ، وأخبر بأشياء ، والإخبار بالأشياء في الزمن المستقبل قد تكون من متعلقات القدرة ، وقد تكون من متعلقات العلم . والفرق بين متعلقات القدرة ، ومتعلقات العلم هو أن متعلقات القدرة شيء ألزمت إنسانًا بفعله ؛ لأنك لم تترك له خيارات ، فتخبر بأنه سيفعله ، أما متعلقات العلم فهي أشياء تركت لإنسان الاختيار بينها ، وأنت تعلم مسبقًا على ماذا سيقع اختياره .

فالحق ﷻ يضرب لنا ذلك المثل في خرق حجاب الزمن المستقبل ، نحن نعلم أن كثيرًا من خصوم رسول الله ﷺ ظلوا مدة على خصومتهم ، ثم لانت قلوبهم للإسلام ، وجاءوا إلى رسول الله ﷺ ، وأعلنوا إسلامهم ، هذا **عمر بن الخطاب** رضي الله عنه ذهب ليقتل رسول الله ﷺ فإذا به يرجع مسلمًا ، وهذا **خالد بن الوليد** رضي الله عنه ، وهذا **عمرو بن العاص** رضي الله عنه ، فالسوابق الموجودة تدل على أن كثيرًا من الذين آذوا رسول الله ﷺ ، والذين كانت لهم عداوة معه ، جاءوا بعد

فترة مسلمين ، فكيف يختار الحق واحدًا من هؤلاء ليحكم بأنه لن يصيبه ما أصاب أولئك ؟! ولن يأتي مسلمًا .

﴿ سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴾ .. يحكم الله ﷻ في أمر له فيه خيار فيقول : ﴿ سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴾ .. فكأن الله ﷻ اختاره من دون القوم الذين علم الله أزلاً أنهم سيسلمون ، وقال : أنا أقول لكم : إن هذا لن يسلم ، وبعد ذلك سيصلى نارًا ذات لهب ، وليس هو فقط ، بل وامرأته أيضًا .

فكيف يقول ذلك إلا إذا كان محكومًا عليه بأنه لن يسلم ، فهل كان **محمد** ﷺ يجازف في مثل **أبي لهب** بهذه المقولة ، مع أنه يعلم أن كثيرًا ممن كان على مثل ما كان عليه **أبو لهب** جاءوا فأسلموا ؟! فلو فُرِضَ أن **أبا لهب** جاء في وسط قومه من العرب وقال : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدًا رسول الله ، ماذا يكون موقف القرآن ؟! وموقف **محمد** ﷺ ؟!

إذن .. فرسول الله ﷺ لم يقل هذا الكلام من قِبَل نفسه ، وإنما بلغه عن الله ، الذي يعلم أزلاً ما ينتهي إليه أمر **أبي لهب** دون بقية القوم ، فإن **أبا لهب** ليس له خيار في هذا الأمر .

وموقف **أبي لهب** من الدعوة معروف من أول يوم ، فحينما أمر الحق ﷻ رسوله ﷺ : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴾[1] ، صعد النبي ﷺ على الصفا فجعل ينادي : " **يا بني فهر ، يا بني عدي** " .. لبطون قريش حتى اجتمعوا ، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو ، فجاء **أبو لهب** وقريش ، فقال ﷺ : " **أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي** " ؟! قالوا : نعم ؛ ما جربنا عليك إلا صدقًا .. قال : " **فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد** " . فقال **أبو لهب** : تبًّا لك سائر اليوم ؛ ألهذا جمعتنا ؟! فنزلت : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴾[2] .

---

1 - سورة : الشعراء ، الآية : 214 .

2 - أخرجه البخاري (4397) ، ومسلم (307) ، كلاهما عن ابن عباس رضي الله عنهما .

وأيضًا في تتبع رسول الله ﷺ في القبائل ، كما قال ربيعة بن عباد الديلي ، قال : كنت مع أبي رجل شاب ، وأنا أنظر إلى رسول الله ﷺ يتتبع القبائل ، ووراءه رجل طويل له وجاهة وله جمة ، فإذا ما وقف رسول الله ﷺ على قبيلة ، قال : " **يا بني فلان ، إني رسول الله إليكم جميعًا ، آمركم أن تعبدوا الله ، ولا تشركوا به شيئًا ، وأن تنصروني ، وأن تمنعوني .. حتى أنفذ عن الله ما بعثني به** " .. فإذا انتهى من قوله ، قال الذي وراءه : يا بني فلان ، إن هذا جاء ليسلخكم عن اللات والعزى ، وعن حلفائكم من الجن من بني مالك بن أخمس ، فلا تسمعوا له ، ولا تتبعوه .. فقلت لأبي : من هذا ؟ قال : عمه عبد العزى [1] ..

وهكذا .. من أول يوم من أيام الدعوة ينفر منه الناس ، وعندما حدث حصار الشعب فإن أبا لهب وحده من بني هاشم انسلخ عن قومه ، وعاهد قريشًا في مقاطعة بني هاشم ، بل وقد تعدت هذه العداوة إلى امرأته أيضًا ، فما كان من الحق ﷻ إلا أن سجل هذه الأحداث كلها ، وخرق حجاب الزمن المستقبل ، فقال ﷻ : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ .. و (تبت) تعني : القطع والهلاك والبوار ، وطبعًا هو يذكر اليدين ويعني الجسم كله ؛ لأن أغلب الأعمال تزاول بالأيدي ، كما في قوله ﷻ : ﴿ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾[2] ، في حين أن الأداء قد يكون بأيدينا ، أو بأرجلنا ، أو بألسنتنا ، أو بعيوننا ، ولكن لأن أغلب الأشياء تزاول دائمًا باليد .

إن أبا لهب بجهله دعا على النبي ﷺ ، ولا شك أنه دعا وهو يعرف من يجيب ذلك الدعاء ، إذن ، فلمن دعا ؟! لو كان في مكنته أن يتبَّها كان يتبها ، لكن هو بقوله : تبت يداك .. يدعو أن تتب يدا رسول الله ﷺ ، إذن ، ليس في مكنته هو أن يتب ، فيكون لازمًا بوجدانه وبعواطفه وفطرته أنه يعلم أنه غير قادر على ذلك ، فلسانه يدعو بالدعاء لمن يملك

---

1 - أخرجه أحمد في مسنده (32 / 232) ، والحاكم في المستدرك (1 / 42) ، والطبراني في الكبير (4 / 452) .

2 - سورة : آل عمران ، الآية : 182 .

ولابد ، إذن فهذه شهادة منه حينما يدعو على رسول الله ﷺ بأنه لا يملك أن يفعل المدعو به على رسول الله ﷺ .

ولكن كيف تدعو عليه والذي تتوجه بالدعاء له ، هو نفسه من تكذب **محمدا** في البلاغ عنه ؟! إن هذا يدل على أن الفطرة التي في النفس تصادر الفكر ، تصادر التعقل الكامل ، هو يدعو على القوة ؛ لأنها مبلغة عمن يدعوه ! ! ، وهذا دعاء هراء ، فيكون **أبو لهب** دعا لغوًا في قوله : تبت يدك ، ألهذا جمعتنا ؟

ولكن الحق الذي يملك هو الذي قال : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ﴾ ، وحين يكون القائل : ﴿ تَبَّتْ يَدَا ﴾ هو ذلك المدعو ﷻ ، فمعنى ذلك أن التباب حاصل لا محالة ، ولكنها ستكون قرآنًا يتلى ؛ لتكون منا دعاء ، ولكنها من الحق قَطْع ، فحين يقول الحق ﷻ : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ﴾ .. فلا تفهموه على منطق الدعاء ، أنه قد يجاب وقد لا يجاب ، ولكنه حاصل لا محالة .

فإنه قال : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ .. وتب .. يعني : وقد حصل ، هذا أمره في دنياه ، ولذلك تجد أن أبا لهب رغم ما كان له في قومه ، تحدث له أحداث حين يموت لم تحدث لأقل واحد في مكة ، مثلاً يصيبه الله بمرض اسمه : العدسة ، ذلك المرض كان العرب يعتقدون فيه أنه كالطاعون أو أشد ، وأن الإنسان السليم إذا قرب ممن أصيب بالعدسة لابد سيصاب ، فكانوا يفرون منه ، فلما مات **أبو لهب** بالعدسة ، وظل ثلاثة أيام لا يقربه أحد ، حتى كاد أن ينتن ، فرق قلبهم على أن يستروا جسمه ، فماذا صنعوا ؟ لقد أحضروا عودًا من خشب ، وحفروا حفرة كبيرة ، وظلوا يدفعون جثته من بعيد حتى سقط في الحفرة ، بلا حمل ، ولا تشييع ، ثم أرادوا أن يردموا عليه فرجموه بالحجارة من بعيد أيضًا ! ![1] .

---

1 - أخرج القصة الحاكم في المستدرك عن أبي رافع (12 / 335) ، والطبراني في الكبير (1 / 393) ، والبيهقي في الدلائل (3 / 154) .

ومن عداوته أيضًا لرسول الله ﷺ أنه قبل أن يعلن رسول الله ﷺ دعوته ، كان لرسول الله ﷺ بنتان : **رقية** ، وأم **كلثوم** ، وكان **لأبي لهب** ولدان : **عتبة** ، **وعتيبة** ، فخطب بنتي رسول الله ﷺ لابنيه ، فلما جهر رسول الله ﷺ بدعوته ، قال **أبو لهب** لابنيه : لستما مني إلا أن تطلقا بنتي **محمد** ، فطلق أكبرهما الأولى ، لكن الأصغر قال : والله لا أطلقها حتى أؤذيها .. فمر على رسول الله ﷺ وقال : إنني رددت عليك بنتك وطلقتها ، ثم تفل في جانب رسول الله ﷺ ، وكان عمه **أبو طالب** موجودًا ، فقال رسول الله ﷺ : " **اللهم سلط عليه كلبًا من كلابك** " .. فخرج إلى الشام مع أبيه ، فلما وصلوا إلى مكان وأرادوا أن يقيلوا فيه ، قال أصحاب المكان : إن هذا المكان مكان مسبعة .. يعني : مكان ظهور السباع ، فتنبه **أبو لهب** وقال : يا معشر قريش ، أغيثوني من دعوة **محمد** ، أغيثوني من دعوة **محمد** .. فما كان منهم إلا أن جاءوا بإبلهم ، وأناخوها في دائرة ، وجعلوا المبيت في وسط الدائرة ، فجاء سبع ، وظل يتشمم إلى أن وصل إلى ذلك السفيه ، فأكله السبع [1]. وإذا أضيف الكلب إلى الله ﷻ فلابد وأن يكون سبعًا ، وفعلاً حصل الواقع كما قال رسول الله ﷺ .

﴿ **مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ** ﴾ .. وذلك تعزية أخرى للنبي ﷺ ؛ لأن **أبا لهب** كان يقول : إن كان ما يقول ابن أخي حقًّا ، فسأفتدي نفسي منه بمالي وبولدي ، فَرَدَّ الحق ﷻ على قوله ، بأنه لن يغني عنه ماله وما كسب ، وهنا طبعًا يهمنا أن نفرق بين ماله ، وبين ما كسب ، فالمال : هذا الأصل ، والمكاسب : ما ينشأ ، يعني : الأرباح التي تنشأ ، والله إنما يعني بما كسب : ولده ؛ لأن رسول الله ﷺ قال : " **إن من أطيب كسب الرجل ، أن يأكل من عمل يده وكسبه ، وولده من كسبه** " [2]. فقال : ﴿ **مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ** ﴾ ..

---

1 - أخرج القصة الطبراني في الكبير (16 / 294) ، والبيهقي في السنن الكبرى (5 / 211) ، وفي الدلائل (2 / 213) .

2 - أخرجه أحمد (49 / 175) ، وأبو داود (9 / 406) ، والنسائي (13 / 464) عن عائشة رضي الله عنها .

يعني : المال ، والولد .. وبعضهم قال : إنه كان قد اتخذ عند رسول الله ﷺ يدًا ، أي : قبل أن يبعث ، واتخذ عند قريش يدًا ، فقال : أما اليد التي لي عند **محمد** ، فستكون عونًا لي إن كان على حق وانتصر ، وأما اليد التي لي عند قريش ، فكانت ستنفعني إذا انتصرت قريش ، فنزلت : ﴿ مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴾ .

﴿ سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴾ .. فالذي سبق : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴾ .. فهذا من أمر الدنيا ، يجعل الله ﷻ ما يقف عليه البشر في أمر الدنيا من أشياء يحسونها بعد أن كانت مستقبلاً فتصير حالاً ، وبعد أن تصير حالاً ، ستصير ماضيًا ينقله الثقات ، فكل حدث من الأحداث التي تحدث كان في وقت ما مستقبلاً ، ثم بعد ذلك كان في وقت ما حالاً ، ثم سيكون بعد ذلك ماضيًا ، وهذا الذي حُدِّثْنا عنه كان مستقبلاً ، ثم صار حالاً ، ثم الآن صار ماضيًا ، ووقع على وقت ما قال الله : بأن الله تبَّ يده ، وأن ماله وما كسب لن يغني عنه أي شيء ، ثم بعد ذلك أعطانا الحق ﷻ غيبًا لن يحدث إلا في الدار الآخرة ، وجعل صدق ما نراه في محس دنيانا دليلاً على الصدق فيما لم نره بعد من غيب أخراه ، يعني : ما دام الحق حين يعرض قضية من القضايا ، يستدل عليها بالأمر المحس ، فلما يصدق في الأمر المحس ، تكون النتيجة الحتمية : ما دام قد صدق فيما رأينا ، فهو صادق أيضًا في الذي لم نره بعد ، وكفى بخبره تصديقًا : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾[1] .

﴿ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴾ .. وامرأته هي أروى أخت **أبي سفيان بن حرب** ، فتكون هي : **أروى بنت حرب بن أمية** ، فكانت سيدة لها مكانة .

ولا يخفى علينا أنه كان لها دور في إيذائه ﷺ مما يدل على أن المسألة كانت قد وصلت إلى أن تشترك النساء في إيذاء رسول الله ﷺ ، فهؤلاء النساء كن يأخذن وضعهن بسيادات

---

1 - سورة : فصلت ، الآية : 53 .

آبائهن ، أو بسيادات أزواجهن ، فإذا جاء إنسان لكي يهدم هذه السيادات كلها ، فمعنى ذلك أن فرصتها في أن تأخذ مكانتها في مجتمع مكة قد ضاعت ؛ فلذلك هي تنظر لرسول الله ﷺ نظرة الحقد .

صحيح أنها كانت تحمل الحطب وترميه ، وطبعًا مجرد الحطب ليس فيه إيذاء ، بل لابد وأن يكون حطبًا من نوع مخصوص ، كالشوك ، أو حسك السعدان ، فكانت ترميه لتؤذي به النبي ﷺ ، وهذه عملية حسية ، ولكن بعض المفسرين يقول : إنها كانت مشهورة بشيء آخر ، وهو أنها كانت تمشي بين الناس بالنميمة ، وعادة الحطب أنه يأوي دائمًا إلى النار ، فالنميمة هي سبب إيقاد العداوة بين الناس ، كما الحطب هو سبب إيقاد النار ، فتصبح النميمة التي تمشي بين الناس بها ، كأنها الحطب ، ونحن نقول : لا مانع أن تكون قد فعلت الحقيقة ، وفعلت أيضًا ما يكنى به عن الحقيقة ، فكلمة : ﴿ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴾ لها حقيقة ، ولها كناية عن كونها نمامة .

﴿ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ ﴾ .. وكلمة : (الجيد) ، إذا ذكرت في اللغة يكون لابد وأن تأتي فيها الأوصاف الحسنة ، ولكن هنا هذا الجيد الذي يطلب فيه الجمال ، سيكون فيه حبل من مسد ، تصور أن يكون جيد امرأة هي سيدة في قومها ، ولها مكانة عند عشيرتها ، ثم يصورها الله ﷻ بأن جيدها هذا سيكون فيه حبل من مسد ، و(المسد) هو : الليف الخشن حين يجدل جدلاً محكمًا ، وهو من غير الجدل المحكم مؤذٍ ، فما بالك بعد أن يجدل الليف جدلاً محكمًا ؟! ثم الأشد والأنكى أن يصير حبلاً في العنق ، لا شك أن هذا سيكون تشويهًا للصورة ، وإنزالاً لها من عليائها وجاهها .

حبل من مسد ؛ ليكون الجزاء من جنس العمل ؛ فما دامت تحمل حطبًا ، فهي تحمل الحطب وتشده بحبل ، فكل شدة على حطب سيكون جزاؤها أيضًا شدة بحبل في جيدها ، وهذا تبشيع للصورة ، وأيضًا لينسجم الإيقاع التصويري .

هذا الإيقاع من قوة **أبي لهب** ، واسمه **عبد العزى** ، ولكن كنيته **أبو لهب** ؛ لأن وجهه كان مثل النار ، ملتهبًا إلى حد الحمرة ، فكنيته عند العرب : **أبو لهب** ، يعني : وجهه مثل لهب النار ، والكنية تصادف العذاب .

وتجد أيضًا في معنى كلمة : (**تَبَّ**) التشديد ، فمعناها : القطع بشدة وبإحكام ، والحبل من مسد : الذي يُشد ، فيه شدة وإحكام .

إذن .. فكل العبارات لكل ألفاظ السورة ، وكل جمل السورة جمل منسجمة التوقيع مع أدائها للمعاني .

نسأل الله أن يعلمنا ما ينفعنا ، وأن ينفعنا بما علمنا ، وأن يزيدنا علمًا .

إنه ولي ذلك والقادر عليه . .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

عم

تفسير جزء

سورة الإخلاص

سورة الإخلاص

بسم الله الرحمن الرحيم . . أحمدك ربي حق حمدك ، وأصلي وأسلم على خاتم أنبيائك وصفوة رسلك سيدنا محمد ﷺ . .

أما بعد .. فمع **سورة الإخلاص** ، تلك السورة القصيرة التي تعدل **ثلث القرآن** ، كما جاء عن **أبي سعيد الخدري** رضي الله عنه : أن رجلاً سمع رجلاً يقرأ : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ يرددها ، فلما أصبح جاء إلى النبي ﷺ فذكر ذلك له ، وكأن الرجل يتقالها ، فقال النبي ﷺ : " **والذي نفسي بيده ، إنها لتعدل ثلث القرآن** " .[1] وليس في هذا غرابة ؛ فإن الأحدية التي أُمر رسول الله ﷺ أن يعلنها : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ .. هذه الأحدية عقيدة للضمير ، وتفسير للوجود ، ومنهج للحياة .. وقد تضمنت السورة أعرض الخطوط الرئيسية في حقيقة الإسلام الكبيرة .

قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ .. وهو لفظ أدق من لفظ : (واحـــد) ؛ لأنه يضيف إلى معنى (واحد) أن لا شيء غيره معه ، وأن ليس كمثله شيء ..

---

* تفسير السورة مقتبس بتصرف من : " في ظلال القرآن " .

1 - أخرجه البخاري (4627 ، 4628 ، 6152 ، 6826) ، ومسلم بنحوه (1344 ، 1345 ، 1346) .

إنها أحـدية الوجود ، فليس هناك حقيقــة إلا حقيقــته ، وليس هناك وجود حقيقــي إلا وجوده ، وكل موجود آخر فإنما يستمد وجوده من ذلك الوجود الحقيقي ، ويستمد حقيقته من تلك الحقيقة الذاتية .

وهي من ثَمَّ أحدية الفاعلية ؛ فليس سواه فاعلاً لشيء ، أو فاعلاً في شيء ، وهذه عقيدة في الضمير وتفسير للوجود أيضًا .

فإذا استقـر هذا التفسـير ، ووضح هذا التصور ، خلص القـلب من كل غاشـية ومن كل شائبة ، ومن كل تعلق بـغير هذه الذات الواحـدة المتفردة بحقيقـة الوجود وحقيقـة الفاعلية ، خلص من التعلق بشيء من أشياء هذا الوجود إن لم يخلص من الشعور بوجود شيء من الأشياء أصلاً ، فلا حقيقــة لوجودٍ إلا ذلك الوجود الإلهي ، ولا حقيقــة إلا لفاعلية الإرادة الإلهية ، فعلامَ يتعلق القلب بما لا حقيقة لوجوده ولا لفاعليته ؟!

وحين يخلص القلب من الشعور بغير الحقيقة الواحدة ، ومن التعلق بـغير هذه الحقيقـة .. فعندئذ يتحـرر من جميع القـيود ، وينطلق من كل الأوهام .. يتحـرر من الرغبـة ، وهي أصل قيود كثيرة ، ويتحرر من الرهبة ، وهي أصل قيود كثيرة ، وفيمَ يرغب وهو لا يفقد شـيئًا متى وجد الله ﷻ ؟! ومن ذا يرهب ولا وجود لفاعلية إلا لله ﷻ ؟!

ومتى استقـر هذا التصور الذي لا يرى في الوجود إلا حقيقــة الله ، فستصحبــه رؤية هذه الحقيقـة في كل وجود آخر انبـثق عنها ، وهذه درجة يرى فيها القـلب يدَ الله في كل شــيء يراه ، ووراءها الدرجة التي لا يرى فيها شـيئًا في الكون إلا الله ﷻ ؛ لأنه لا حقيقــة هناك يراها إلا حقيقة الله ﷻ .

كذلك سيصحبه نفي فاعلية الأسباب ، ورد كل شيء وكل حـدث وكل حـركة إلى السبـب الأول الذي منه صدرت ، وبـه تأثرت .. وهذه هي الحقيقــة التي عني القــرآن عناية كبـيرة بتقريرها في التصور الإيماني ، ومن ثَمَّ كان ينحي الأسباب الظاهرة دائمًا ويصل الأمور مباشرة

بمشيئة الله ﷻ : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾ [1]، ﴿ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ [2]، ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ [3].. وغيرها كثير .

وبتنحية الأسباب الظاهرة كلها ، ورد الأمر إلى مشيئة الله وحدها ، تنسكب في القلب الطمأنينة ، ويعرف المتجه الوحيد الذي يطلب عنده ما يرغب ، ويتقي عنده ما يرهب ، ويسكن تجاه الفواعل والمؤثرات والأسباب الظاهرة التي لا حقيقة لها ولا وجود ، وهذه هي مدارج الطريق التي حاولها المتصوفة ، فجذبتهم إلى بعيد ، ذلك أن الإسلام يريد من الناس أن يسلكوا الطريق إلى هذه الحقيقة وهم يكابدون الحياة الواقعية بكل خصائصها ، ويزاولون الحياة البشرية والخلافة الأرضية بكل مقوِّماتها ، شاعرين مع هذا أن لا حقيقة إلا الله ، وأن لا وجود إلا وجوده ، وأن لا فاعلية إلا فاعليته .. ولا يريد طريقًا غير هذا الطريق .

من هنا ينبثق منهج كامل للحياة ، قائم على ذلك التفسير وما يشيعه في النفس من تصورات ومشاعر واتجاهات .. منهج لعبادة الله وحده ، الذي لا حقيقة لوجود إلا وجوده ، ولا حقيقة لفاعلية إلا فاعليته ، ولا أثر لإرادة إلا إرادته .

ومنهج للاتجاه إلى الله وحده في الرغبة والرهبة ، في السراء والضراء ، في النعماء والبأساء ، وإلا فما جدوى التوجه إلى غير موجود وجودًا حقيقيًّا ، وإلى غير فاعل في الوجود أصلاً ؟!

ومنهج للتلقي عن الله وحده .. تلقي العقيدة والتصور والقيم والموازين ، والشرائع والقوانين والأوضاع والنظم ، والآداب والتقاليد ، فالتلقي لا يكون إلا عن الوجود الواحد والحقيقة المفردة في الواقع وفي الضمير .

ومنهج للتحرك والعمل لله وحده .. ابتغاء القرب من الحقيقة ، وتطلعًا إلى الخلاص من الحواجز المعوقة والشوائب المضللة ، سواء في قرارة النفس أو فيما حولها من الأشياء

1 - سورة :الأنفال ، الآية : 17 .

2 - سورة : آل عمران ، الآية : 126 .

3 - سورة : الإنسان ، الآية : 30 .

والنفوس ، ومن بينها حاجز الذات ، وقيد الرغبة والرهبة لشيء من أشياء هذا الوجود .

ومنهج يربط مع هذا بين القلب البشري وبين كل موجود برباط الحب والأنس والتعاطف والتجاوب ، فليس معنى الخلاص من قيودها هو كراهيتها والنفور منها والهروب من مزاولتها .. فكلها خارجة من يد الله ﷻ ، وكلها تستمد وجودها من وجوده ﷻ ، وكلها تفيض عليها أنوار هذه الحقيقة ، فكلها إذن حبيب ؛ إذ كلها هدية من الحبيب .

وهو منهج رفيع طليق .. الأرض فيه صغيرة ، والحياة الدنيا قصيرة ، ومتاع الحياة الدنيا زهيد ، والانطلاق من هذه الحواجز والشوائب غاية وأمنية .. ولكن الانطلاق عند الإسلام ليس معناه الاعتزال ولا الإهمال ، ولا الكراهية ولا الهروب .. إنما معناه المحاولة المستمرة ، والكفاح الدائم لترقية البشرية كلها ، وإطلاق الحياة البشرية جميعها .. ومن ثَمَّ فهي الخلافة والقيادة بكل أعبائهما ، مع التحرر والانطلاق بكل مقوماتهما .

إن الخلاص عن طريق الصومعة سهل يسير ، ولكن الإسلام لا يريده ؛ لأن الخلافة في الأرض والقيادة للبشر طرف من المنهج الإلهي للخلاص ، إنه طريق أشق ، ولكنه هو الذي يحقق إنسانية الإنسان ، أي يحقق انتصار النفخة العلوية في كيانه ، وهذا هو الانطلاق .. انطلاق الروح إلى مصدرها الإلهي ، وتحقيق حقيقتها العلوية ، وهي تعمل في الميدان الذي اختاره لها خالقها الحكيم ﷻ .

من أجل هذا كله كانت الدعوة الأولى قاصرة على تقرير حقيقة التوحيد بصورتها هذه في القلوب ؛ لأن التوحيد في هذه الصورة عقيدة للضمير ، وتفسير للوجود ، ومنهج للحياة ، وليس كلمة تقال باللسان أو حتى صورة تستقر في الضمير ، إنما هو الأمر كله ، والدين كله ، وما بعده من تفصيلات وتفريعات لا يعدو أن يكون الثمرة الطبيعية لاستقرار هذه الحقيقة بهذه الصورة في القلوب .

والانحرافات التي أصابت أهل الكتاب من قبل ، والتي أفسدت عقائدهم وتصوراتهم

وحياتهم ، نشأت أول ما نشأت عن انطماس صورة التوحيد الخالص ، ثم تبع هذا الانطماس ما تبعه من سائر الانحرافات .

على أن الذي تمتاز به صورة التوحيد في العقيدة الإسلامية هو تعمقها للحياة كلها ، وقيام الحياة على أساسها ، واتخاذها قاعدة للمنهج العملي الواقعي في الحياة ، تبدو آثاره في التشريع كما تبدو في الاعتقاد سواء بسواء .

وأول هذه الآثار أن تكون شريعة الله وحدها هي التي تحكم الحياة ، فإذا تخلفت هذه الآثار فإن عقيدة التوحيد لا تكون قائمة ، فإنها لا تقوم إلا ومعها آثارها محققة في كل ركن من أركان الحياة .

﴿ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴾ .. ومعنى أن الله أحد : أنه الصمد ، وأنه لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوًا أحد .. ولكن القرآن يذكر هذه التفريعات لزيادة التقرير والإيضاح ..

﴿ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴾ .. ومعنى الصمد اللغوي هو : السيد المقصود الذي لا يُقضى أمرٌ إلا بإذنه ، والله ﷻ هو السيد الذي لا سيد غيره ، فهو أحدٌ في ألوهيته ، والكل له عبيد ، وهو المقصود وحده بالحاجات ، المجيب وحده لأصحاب الحاجات ، وهو الذي يقضى في كل أمر بإذنه ، ولا يقضي أحد معه .. وهذه الصفة متحققة ابتداء من كونه الفرد الأحد .

﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ .. فحقيقة الله ثابتة أبدية أزلية ، لا تعتورها حال بعد حال ، صفتها الكمال المطلق في جميع الأحوال ، والولادة انبثاق وامتداد ، ووجود زائد بعد نقص أو عدم ، وهو على الله محال ، ثم هي تقتضي زوجية تقوم على التماثل ، وهذه كذلك محال ، ومن ثم فإن صفة : ﴿ أَحَدٌ ﴾ تتضمن نفي الوالد والولد .

﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ .. أي لم يوجد له مماثل أو مكافئ ، لا في حقيقة الوجود ، ولا في حقيقة الفاعلية ، ولا في أية صفة من الصفات الذاتية ، وهذا كذلك يتحقق بأنه ﴿ أَحَدٌ ﴾ ، ولكن هذا توكيد وتفصيل .. وهو نفي للعقيدة الثنائية التي تزعم أن الله هو إله

الخير وأن للشر إلهاً يعاكس الله بزعمهم ، ويعكس عليه أعماله الخيرة ، وينشر الفساد في الأرض .

وأشهر العقائد الثنائية كانت عقيدة الفرس في إله النور وإله الظلام ، وكانت معروفة في جنوبي الجزيرة العربية حيث للفرس دولة وسلطان .

إن هذه السورة إثبات وتقرير لعقيدة التوحيد الإسلامية ، كما أن سورة **الكافرون** نفي لأي تشابه أو التقاء بين عقيدة التوحيد وعقيدة الشرك .. وكل منهما تعالج حقيقة التوحيد من وجه ، وقد كان الرسول ﷺ يستفتح يومه في صلاة سنة الفجر بالقراءة بهاتين السورتين .. وكان لهذا الافتتاح معناه ومغزاه .

نسأل الله أن يرزقنا التوحيد الخالص من كل شائبة تشوبه . .

إنه ولي ذلك والقادر عليه .

علم

تفسير جزء

سورة الفلق

سُورَةُ الفَلَقِ

بسم الله الرحمن الرحيم . . أحمدك ربي حق حمدك ، وأصلي وأسلم على خاتم أنبيائك وصفوة رسلك سيدنا محمد ﷺ . .

أما بعد .. فمع **سورة الفلق** ، وهذه السورة والتي بعدها توجيه من الله ﷻ لنبيه ﷺ ابتداء ، وللمؤمنين من بعده جميعًا ، للعياذ بكنفه ، واللياذ بحماه ، من كل مخوف .. خاف وظاهر ، مجهول ومعلوم ، على وجه الإجمال وعلى وجه التفصيل .. وكأنما يفتح الله ﷻ لهم حماه ، ويبسط لهم كنفه ، ويقول لهم في مودة وعطف : تعالوا إلى هنا .. تعالوا إلى الحمى .. تعالوا إلى مأمنكم الذي تطمئنون فيه .. تعالوا .. فأنا أعلم أنكم ضعاف ، وأن لكم أعداء ، وأن حولكم مخاوف ، وهنا .. هنا الأمن والطمأنينة والسلام .

ومن ثم تبدأ كلاهما بالتوجيه .. ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ ، ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾ .

وفي قصة نزولها وقصة تداولها وردت عدة آثار، تتفق كلها مع هذا الظل الذي استروحناه ، والذي يتضح من الآثار المروية أن رسول الله ﷺ استروحه في عمق وفرح وانطلاق ..

عن **عقبة بن عامر** رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : **" ألم ترَ آيات أنزلت هذه الليلة لم يُرَ مثلهن قط ؟! ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ ، و ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾ "**[1] .

وعن **جابر** رضي الله عنه قال : قال لي رسول الله ﷺ : **" اقرأ يا جابر " . قلت : ماذا بأبي أنت وأمي ؟ قال : " اقرأ : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ ، و ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾ "** .

---

* تفسير السورة مقتبس بتصرف من : " في ظلال القرآن " .

1 - أخرجه مسلم (1348 ، 1349) .

فقرأتهما ، فقال : " اقرأ بهما ؛ فلن تقرأ بمثلهما "[1].

في هذه السورة يذكر الله ﷻ نفسه بصفته التي بها يكون العياذ من شر ما ذكر في السورة ..

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ .. (**الفلق**) من معانيه : الصبح ، ومن معانيه : الخلق كله ، بالإشارة إلى كل ما يفلق عنه الوجود والحياة ، كما قال في **سورة الأنعام** : ﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ﴾[2]، وكما قال : ﴿ فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ﴾[3]. وسواء كان هو الصبح فالاستعاذة برب الصبح الذي يؤمِّن بالنور من شر كل غامض مستور ، أو كان هو الخلق فالاستعاذة برب الخلق الذي يؤمِّن من شر خلقه ، فالمعنى يتناسق مع ما بعده .

﴿ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ .. أي من شر خلقه إطلاقًا وإجمالاً ، وللخلائق شرور في حالات اتصال بعضها ببعض ، كما أن لها خيرًا ونفعًا في حالات أخرى ، والاستعاذة بالله هنا من شرها ليبقى خيرها ، والله الذي خلقها قادر على توجيهها وتدبير الحالات التي يتضح فيها خيرها لا شرها .

﴿ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾ .. و(**الغاسق**) في اللغة : الدافق ، و(**الوقب**) : النقرة في

1 - أخرجه النسائي (16 / 308) .

2 - سورة : الأنعام ، الآية : 95 .

3 - سورة : الأنعام ، الآية : 96 .

الجبل يسيل منها الماء ، والمقصود هنا غالبًا هو الليل وما فيه ، الليل حين يتدفق فيغمر البسيطة ، والليل حينئذ مخوف بذاته ، فضلاً عن ما يثيره من توقع للمجهول الخافي من كل شيء .. من وحش مفترس يهجم ، ومتلصص فاتك يقتحم ، وعدو مخادع يتمكن ، وحشرة سامة تزحف ، ومن وساوس وهواجس وهموم وأشجان تتسرب في الليل ، وتخنق المشاعر والوجدان ، ومن شيطان تساعده الظلمة على الانطلاق والإيحاء ، ومن شهوة تستيقظ في الوحدة والظلام ، ومن ظاهرٍ وخافٍ يدب ويثب ، في الغاسق إذا وقب .

﴿ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴾ .. والنفاثات في العقد هي : السواحر الساعيات بالأذى عن طريق خداع الحواس ، خداع الأعصاب ، والإيحاء إلى النفوس ، والتأثير والمشاعر ، وهن يعقدن العقد في نحو خيط أو منديل ، وينفثن فيها كتقليد من تقاليد السحر والإيحاء .

والسحر لا يغير من طبيعة الأشياء ، ولا ينشئ حقيقة جديدة لها ، ولكنه يخيل للحواس والمشاعر بما يريده الساحر ، وهذا هو السحر كما صوره القرآن الكريم في قصة موسى عليه السلام ، إذ قال : سبحانه وتعالى : ﴿ قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى * قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى * فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى * قُلْنَا لاَ تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الأَعْلَى * وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلاَ يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى ﴾[1] .. وهكذا لم تنقلب حبالهم وعصيهم إلى حيَّاتٍ فعلاً ، ولكن خيل إلى الناس وموسى معهم أنها تسعى ، إلى حد أن أوجس في نفسه خيفة ، حتى جاءه التثبيت ، ثم انكشفت الحقيقة حين انقلبت عصا موسى بالفعل لحيَّة فتلقفت الحبال والعصي المزروة المسحورة .

وهذه هي طبيعة السحر كما ينبغي لنا أن نسلم بها ، وهو بهذه الطبيعة يؤثر في الناس ، وينشئ لهم مشاعر وفق إيحائه .. مشاعر تخيفهم وتؤذيهم وتوجههم الوجهة التي يريدها

---

1 - سورة : طه ، الآية : 65 ، 69 .

الساحر ، وعند هذا الحد نقف في فهم طبيعة السحر والنفث في العقد .. وهي شر يستعاذ منه بالله ﷻ ، ويلجأ منه إلى حماه .

﴿ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ .. و(الحسد) : انفعال نفسي إزاء نعمة الله ﷻ على بعض عباده ، مع تمني زوالها .. وسواء أتبع الحاسد هذا الانفعال بسعي منه لإزالة النعمة تحت تأثير الحقد والغيظ ، أو وقف عند حد الانفعال النفسي ، فإن شرًّا يمكن أن يعقب هذا الانفعال .

ونحن مضطرون أن نطامن من حدة النفي لما لا نعرف من أسرار هذا الوجود ، وأسرار النفس البشرية ، وأسرار هذا الجهاز الإنساني ، فهنالك وقائع كثيرة تصدر عن هذه الأسرار ، ولا نملك لها حتى اليوم تعليلاً .. هنالك مثلاً ذلك التخاطر على البعد ، وفيه تتم اتصالات بين أشخاص متباعدين ، اتصالات لا سبيل إلى الشك في وقوعها بعد تواتر الأخبار بها وقيام التجارب الكثيرة المثبتة لها ، ولا سبيل كذلك لتعليلها بما بين أيدينا من معلومات .. وكذلك التنويم المغناطيسي ، وقد أصبح الآن موضعًا للتجربة المتكررة المثبتة ، وهو مجهول السر والكيفية .. وغير التخاطر والتنويم كثير من أسرار الوجود وأسرار النفس وأسرار هذا الجهاز الإنساني .

فإذا حسد الحاسد ، ووجه انفعالاً نفسيًّا معينًا إلى المحسود ، فلا سبيل لنفي أثر هذا التوجيه لمجرد أن ما لدينا من العلم وأدوات الاختبار لا تصل إلى سر هذا الأثر وكيفيته ، فنحن لا نعلم إلا القليل في هذا الميدان ، وهذا القليل يُكشف لنا عنه مصادفة في الغالب ، ثم يستقر كحقيقة واقعة بعد ذلك .

فهنا شر يستعاذ منه بالله ، ويستجار منه بحماه ، والله ﷻ برحمته وفضله هو الذي يوجه رسوله ﷺ وأمته من ورائه إلى الاستعاذة به من هذه الشرور ، ومن المقطوع به أنهم متى استعاذوا به وفق توجيهه أعاذهم وحماهم من هذه الشرور إجمالاً وتفصيلاً .

وقد روى البخاري بإسناده عن عائشة رضي الله عنها : أن النبي ﷺ كان إذا آوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه ، ثم نفث فيهما ، وقرأ فيهما : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ ، و ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ ، و ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾ .. ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده ، يبدأ بهما على رأسه ووجهه وما أقبل من جسده .. يفعل ذلك ثلاث مرات ..[1]

نسأل الله أن يقينا شرور أنفسنا ، وشرور خلقه ، وأن يعافينا من كل مكروه وسوء . .

إنه ولي ذلك والقادر عليه .

1 - أخرجه البخاري (4630) .

عم

تفسير جزء

سورة الناس

سُورَةُ النَّاسِ

بسم الله الرحمن الرحيم . .أحمدك ربي حق حمدك ، وأصلي وأسلم على خاتم أنبيائك وصفوة رسلك سيدنا محمد ﷺ . .

أما بعد .. فمع **سورة الناس** ، والاستعاذة في هذه السورة برب الناس ، ملك الناس ، إله الناس .. والمستعاذ منه هو : شر الوسواس الخناس ، الذي يوسوس في صدور الناس ، من الجنة والناس .

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ ﴾ .. والاستعاذة بالرب .. الملك .. الإله تستحضر من صفات الله ﷻ ما به يدفع الشر عامة ، وشر الوسواس الخناس خاصة .

فإن (**الرب**) هو المربي والموجه والراعي والحامي ، و(**الملك**) هو المالك الحاكم المتصرف ، و(**الإله**) هو المستعلي المستولي المتسلط .. وهذه الصفات فيها حماية من الشر الذي يتدسس إلى الصدور .. وهي لا تعرف كيف تدفعه لأنه مستور .

* تفسير السورة مقتبس بتصرف من : " في ظلال القرآن " .

والله رب كل شـــيء ، وملك كل شـــيء ، وإله كل شـــيء ، ولكن تخصيص ذكر الناس هنا يجعلهم يحسون بالقربى في موقف العياذ والاحتماء .

والله برحمة منه يوجه رسوله ﷺ وأمته إلى العياذ به والالتجاء إليه ، مع استحضار معاني صفاته هذه ، من شر خفي الدبيب ، لا قبل لهم بدفعه إلا بعون من الرب الملك الإله ، فهو يأخذهم من حيث لا يشعرون ، ويأتيهم من حيث لا يحتسبون .

﴿ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴾ .. و (**الوسوسة**) هي : الصوت الخفي .. و(**الخنوس**) هو : الاختباء والرجوع .. و(**الخناس**) هو : الذي من طبعه كثرة الخنوس .

﴿ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ * مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴾ .. وقـــد أطلق النصُّ الصفةَ أولاً : ﴿ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴾ .. ثم حدد عمله : ﴿ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴾ .. ثم حـــدد ماهيته : ﴿ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴾ .. وهذا الترتيب يثير في الحس اليقـــظة والتلفت والانتباه ؛ لتبين حقيقة الوسواس الخناس ، بعد إطلاق صفته في أول الكلام ؛ ولإدراك طريقة فعله التي يتحقق بها شره ، تأهبًا لدفعه أو مراقبته .

والنفس حـين تعرف بـعد هذا التشـويق والإيقـاظ أن الوسـواس الخناس يوسـوس في صدور الناس خفية وسـرًّا ، وأنه هو الجِنَّة الخافية ، وهو كذلك الناس الذين يتدسســون إلى الصدور تدسس الجنة ، ويوسوسون وسوسة الشياطين .. النفس حين تعرف هذا تتأهب للدفاع ، وقـد عرفت المكمن والمدخل والطريق .

ووسوسة الجِنَّة نحن لا ندري كيف تتم ، ولكنا نجد آثارها في واقع النفوس وواقع الحياة ، ونعرف أن المعركة بين آدم وإبـليس قديمة قديمة ، وأن الشـيطان قـد أعلنها حـربًا تنبـثق من خليقة الشر فيه ، ومن كبريائه وحسده وحقده على الإنسـان ، وأنه قـد اسـتصدر بـها من الله إذنًا ، فأذن فيها ﷻ لحكمة يراها ، ولم يترك الإنسـان فيها مجردًا من العدة ؛ فقـد جعل له من الإيمان جُنَّة ، وجعل له من الذكر عُدة ، وجعل له من الاســتعاذة ســلاحًا .. فإذا أغفل

الإنسان جُنَّته وعُدَّته وسلاحه فهو إذن وحده الملوم ، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : " **الشيطان جاثم على قلب ابن آدم ، فإذا ذكر الله تعالى خنس ، وإذا غفل وسوس** "[1] .

وأما الناس فنحن نعرف عن وسوستهم الشيء الكثير ، ونعرف منها ما هو أشد من وسوسة الشياطين .

رفيق السوء الذي يتدسس بالشر إلى قلب رفيقه وعقله من حيث لا يحتسب ، ومن حيث لا يحترس ؛ فهو الرفيق المأمون .

وحاشية الشر التي توسوس لكل ذي سلطان حتى تتركه طاغية جبارًا مفسدًا في الأرض ، مهلكًا للحرث والنسل .

والنمام الواشي الذي يزين الكلام ويزحلقه ، حتى يبدو كأنه الحق الصراح الذي لا مرية فيه .

وبائع الشهوات الذي يتدسس من منافذ الغريزة في إغراء لا تدفعه إلا يقظة القلب بعد عون الله ﷻ .

وعشرات من الموسوسين الخناسين الذين ينصبون الأحابيل ويخفونها ، ويدخلون بها من منافذ القلوب الخفية التي يعرفونها أو يتحسسونها .. وهم شر من الجنة وأخفى منهم دبيبًا .

والإنسان عاجز عن دفع الوسوسة الخفية ، ومن ثم يدله الله ﷻ على عدته وجنته وسلاحه في المعركة الرهيبة .

وهناك لفتة ذات مغزى في وصف الوسواس بأنه : ﴿ الْخَنَّاسِ ﴾ .. فهذه الصفة تدل من جهة على تخفيه واختبائه حتى يجد الفرصة سانحة فيدب ويوسوس ، ولكنها من جهة أخرى توحي بضعفه أمام من يستيقظ لكره ، ويحمي مداخل صدره ، فهو سواء كان من الجنة

---

1 - مصنف ابن أبي شيبة (8 / 196) .

أم كان من الناس إذا ووجِه خنس ، وعاد من حيث أتى ، وقبع واختفى ، أو كما قال الرسول الكريم في تمثيله المصور الدقيق : " **فإذا ذكر الله تعالى خنس ، وإذا غفل وسوس** " .

وهذه اللفتة تقوي القلب على مواجهة الوسواس ؛ فهو خناس ، ضعيف أمام عدة المؤمن في المعركة .

ولكنها من ناحية أخرى معركة طويلة لا تنتهي أبدًا ، فهو أبدًا قابع خانس ، مترقب للغفلة ، واليقظة مرة لا تغني عن اليقظات .. والحرب سجال إلى يوم القيامة ، كما صورها القرآن الكريم في مواضع شتى ، ومنها هذه الصورة العجيبة في **سورة الإسراء** : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ طُغْيَانًا كَبِيرًا * وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا * قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً * قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا * وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلاَدِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا * إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً ﴾[1] .

وهذا التصوُّر لطبيعة المعركة ودوافع الشر فيها سواء عن طريق الشيطان مباشرة ، أو عن طريق عملائه من البشر .. من شأنه أن يشعر الإنسان أنه ليس مغلوبًا على أمره فيها ؛ فإن ربه وملكه وإلهه مسيطر على الخلق كله ، وإذا كان قد أذن لإبليس بالحرب ، فهو آخذ بناصيته ، وهو لم يسلطه إلا على الذين يغفلون عن ربهم وملكهم وإلههم ، فأما من يذكرونه فهم في نجاة من الشر ودواعيه الخفية ، فالخير إذن يستند إلى القوة التي لا قوة سواها ، وإلى الحقيقة التي لا حقيقة غيرها .. يستند إلى الرب الملك الإله ، والشر يستند إلى وسواس

---

1 - سورة : الإسراء ، الآية : 60 : 65 .

خناس ، يضعف عن المواجهة ، ويخنس عند اللقاء ، وينهزم أمام العياذ بالله ﷻ .

وهذا أكمل تصور للحقيقة القائمة عن الخير والشر ، كما أنه أفضل تصور يحمي القلب من الهزيمة ، ويفعمه بالقوة والثقة والطمأنينة ..

والحمد لله أولاً وأخيرًا .. وبه الثقة والتوفيق .. وهو المستعان المعين ..

الفهرس

- مقدمة الشيخ الشعراوي . ---------- 5
- مقدمة دار الراية . ---------- 7
- مقدمة جزء عم . ---------- 9
- تفسير سورة النبأ . ---------- 21
- تفسير سورة النازعات . ---------- 65
- تفسير سورة عبس . ---------- 101
- تفسير سورة التكوير . ---------- 139
- تفسير سورة الانفطار . ---------- 173
- تفسير سورة المطففين . ---------- 195
- تفسير سورة الانشقاق . ---------- 231
- تفسير سورة البروج . ---------- 247
- تفسير سورة الطارق . ---------- 269
- تفسير سورة الأعلى . ---------- 293
- تفسير سورة الغاشية . ---------- 323
- تفسير سورة الفجر . ---------- 343
- تفسير سورة البلد . ---------- 367
- تفسير سورة الشمس . ---------- 381
- تفسير سورة الليل . ---------- 393
- تفسير سورة الضحى . ---------- 403
- تفسير سورة الشرح . ---------- 411

✦ تفسير سورة التين ---------- 417
✦ تفسير سورة العلق ---------- 425
✦ تفسير سورة القدر ---------- 445
✦ تفسير سورة البينة ---------- 463
✦ تفسير سورة الزلزلة ---------- 477
✦ تفسير سورة العاديات ---------- 483
✦ تفسير سورة القارعة ---------- 489
✦ تفسير سورة التكاثر ---------- 503
✦ تفسير سورة العصر ---------- 515
✦ تفسير سورة الهمزة ---------- 555
✦ تفسير سورة الفيل ---------- 565
✦ تفسير سورة قريش ---------- 581
✦ تفسير سورة الماعون ---------- 597
✦ تفسير سورة الكوثر ---------- 613
✦ تفسير سورة الكافرون ---------- 625
✦ تفسير سورة النصر ---------- 633
✦ تفسير سورة المسد ---------- 643
✦ تفسير سورة الإخلاص ---------- 655
✦ تفسير سورة الفلق ---------- 663
✦ تفسير سورة الناس ---------- 671
✍ **الفهرس** ---------- 679